الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الخامس عشر

الاجزاء من ٢٧٤ الى ٢٩٦

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
274	سورة الاعراف	الآية 59 الى الآية 64	2
275	=	الآية 65 الى الآية 72	290
276	=	الآية 73 الى الآية 79	594
277	=	الآية 80 الى الآية 84	928
278	=	الآية 85 الى الآية 87	1171
279	=	الآية 88 الى الآية 93	1608
280	=	الآية 94 الى الآية 102	1904
281	=	الآية 103 الى الآية 116	2245
282	=	الآية 117 الى الآية 126	2536
283	=	الآية 127 الى الآية 133	2806
284	=	الآية 134 الى الآية 137	3098
285	=	الآية 138 الى الآية 142	3312
286	=	الآية 143	3548
287	=	الآية 144 الى الآية 145	3833
288	=	الآية 146 الى الآية 149	4140
289	=	الآية 150 الى الآية 154	4413
290	=	الآية 155 الى الآية 156	4657
291	=	الآية 157	4834
292	=	الآية 158	5500
293	=	الآية 159 الى الآية 163	5690
294	=	الآية 164 الى الآية 166	5924
295	=	الآية 167 الى الآية 170	6270
296	=	الآية 171 الى الآية 174	6661

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والسبعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/274)

الجزء الرابع والسبعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 59 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 64 ﴾ من نفس السورة

(4/274)

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما طال تهديده سبحانه لمن أصر على إفساده ، ولم يرجع عن غيّه وعناده بمثل مصارع الأولين ومهالك الماضين ، ونوّع في هذه الآيات محاسن الدلالات على التوحيد والمعاد بوجوه ظاهرة وبينات قاهرة وبراهين قاطعة وحجج ساطعة ، ساق سبحانه تلك القصص دليلاً حسياً على أن في الناس الخبيث والطيب مع الكفالة في الدلالة على تمام القدرة والغيرة من الشرك على تلك الحضرة – بتفصيل أحوال من سلفت الإشارة إلى إهلاكهم وبيأن مصارعهم وأنه لم تغن عنهم قوتهم شيئاً ولا كثرتهم بقوله تعالى ﴿ وكم من قرية

أهلكناها ﴾ [الأعراف : 4] وقوله ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ﴾ [الأعراف : 34] الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتقوية لصالحي أتباعه بالتنبيه على أن الإعراض عن الآيات ليس من خواص هذه الأمة بلف هي عادة الأمم السالفة ، وعلى أن النعم خاصة بالشاكرين ، ولذا كانت النقم مقصورة على الكافرين ، فقال تعالى ﴿ لقد أرسلنا ﴾ أي بعظمتنا ، وافتتحه بحرف التوقع لما للسامع الفطن من التشوف إلى ذكر ما تكرر من الإشارة إليه ، ولأن اللام المجاب بها القسم المحذوف لا ينطقون بها غالباً إلا مقترنة بقد ، لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها فكانت مظنة بمعنى التوقع الذي هو معنى " قد " عند استماع المخاطب كلمة القسم ﴿ نوحاً ﴾ يعني ابن لمك بم متوشلخ بن خنوخ ، وهو إدريس عليه السلام ، وكان عند الإرسال ابن خمسين سنة .

(5/274)

ولما كان إرساله صلى الله عليه وسلم قبل القبائل باختلاف اللغات قال : ﴿ إلى قومه ﴾ أي الذين كانوا ملء الأرض كما في حديث الشفاعة في الصحيحين وغيرهما عن أنس رضي الله عنه ، ائتوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض .

وفيهم من القوة على القيام بما يريدون ما لا يخفي على من تأمل آثارهم وعرف أخبارهم ، فإن كانت آثارهم فقد حصل المراد ، وإن كانت لمن بعدهم علم - بحكم قياس الاستقرار - أنهم أقوى على مثلها وأعلى منها ، ولسوق ذلك دليلاً على ما ذكر جاء مجرداً عن أدوات العطف ، وهو مع ذلك كله منبه على أن جميع الرسل متطابقون على الدعوة إلى ما دل عليه برهان ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ [الأعراف : 54] من التوحيد والصلاح إلى غير ذلك من بحور الدلائل والحجاج المتلاطمة الأمواج - والله الهادي إلى سبيل الرشاد ، وكون نوح عليه السلام رسولاً إلى جميع أهل الأرض - لأنهم قومه لوحده لسانهم - لا يقدح في تخصيص نبينا صلى الله عليه وسلم بعموم الرسالة ، لأن معنى العموم إرساله إلى جميع الأقوام المختلفة باختلاف الألسن وإلى جميع من ينوس من الإنس والجن والملائكة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة الصافات لهذا مزيد بيان .

ولما كان من المقاصد العظيمة الإعلام بأن الذي دعا إليه هذا الرسول لم تزل الرسل - على جميعهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام - تدعو إليه ، وكان نوح أول رسول ذكرت رسالته عقب ذكر إرساله بذكر ما أرسل به بالفاء بقوله ﴿ فقال يا قوم ﴾ أي فتحبب إليهم بهذه الإضافة ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة من الخلق والأمر ، فإنه مستحق لذلك وقد كلف عباده به .

ولما كان المقصود إفراده بذلك ، علله بقوله مؤكداً له بإثبات الجار ﴿ ما لكم ﴾ وأغرق في النفي فقال : ﴿ من إله غيره ﴾ ثم قال معللاً أو مستأنفاً مخوفاً مؤكداً لأجل تكذيبهم : ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ في الدنيا والآخرة ، ولعلة قال هنا : ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ وفي هود ﴿ أليم ﴾ [هود : 26] وقال في المؤمنون ﴿ أفلا تتقون ﴾ [المؤمنون : 23] لأن ترتيب السور الثلاث – وإن كان الصحيح أنه باجتهاد الصحابة رضي الله عنهم – فلعله جاء على ترتيبها في النزول ، لأنها مكيات ، وعلى ترتيب مقال نوح عليه السلام لهم فألان لهم أولاً المقال من حيث إنه أوهم أن العظم الموصوف به ﴿ اليوم ﴾ لا بسبب العذاب بل الأمر آخر ، فيصير العذاب مطلقاً يتناول أي عذاب كان ولو قل ، فلما تمادى تكذيبهم بين لهم أن عظمه إنما هو من جهة إيلام العذاب الواقع فيه ، فلما لجوا في عتوهم قال لهم قول القادر إذا هدد عند مخالفة غيره له : ألا تفعل ما أقول لك ؟ أي متى خالفت بعد هذا عاجلتك بالعقاب وأنت تعرف قدرتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 46 . 48 ﴾

(7/274)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إله غيره ﴾ بالجر على الوصف حيث كان : يزيد وعلي الباقون بالرفع حملاً على محل ﴿ من إله ﴾ ﴿ إني أخاف ﴾ بفتح الياء : أبو عمرو وأبو جعفر ونافع وابن كثير ﴿ أبلغكم ﴾ بالتخفيف حيث كان : أبو عمرو . والباقون : بالتشديد . عباس : بالاختلاس ﴿ بصطة ﴾ بالصاد : أبو جعفر ونافع وابن كثير غير ابن مجاهد وأبي عون عن قنبل وعاصم وعلي وسهل وشجاع وابن الأخزم عن ابن ذكوان الحلواني عن قالون مخيراً .

الوقوف : ﴿ غيره ﴾ ط ﴿ عظيم ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ ترحمون ﴾ ه ﴿ بآياتنا ﴾ ط ﴿ عمين ﴾ ه ﴿ هوداً ﴾ ط ﴿ غيره ﴾ ط ﴿ تتقون ﴾ ه ﴿ الكاذبين ﴾ ه ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ أمين ﴾ ه ﴿ لينذركم ﴾ ط لتناهي الاستفهام ﴿ بسطة ﴾ ج تنبيهاً على الإنعام العام بعد ذكر إنعام خاص مع اتفاق الجملتين ﴿ تفلحون ﴾ ه ﴿ آباؤنا ﴾ ج للعدول مع فاء التعقيب ﴿ الصادقين ﴾ ه ﴿ وغضب ﴾ ط ﴿ من سلطان ﴾ ج لانتهاء الاستفهام إلى أمر التهديد ﴿ المنتظرين ﴾ ه ﴿ مؤمنين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 265 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة ، وبينات قاهرة ، وبراهين باهرة أتبعها بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ، وفيه فوائد : أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قَبول هذه الدلائل والبينات ليس من خواص قوم محمد عليه الصلاة والسلام بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت . فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم على الجهل والعناد يفيد تسلية الرسول عليه السلام وتخفيف ذلك على قلبه .

وثانيها : أنه تعالى يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى الكفر واللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، وذلك يقوي قلوب المحقين ويكسر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه تعالى وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ولكنه لا يهملهم بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنه عليه السلام كان أمياً وما طالع كتاباً ولا تلمذ أستاذاً ، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير

تحريف ولا خطأ ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله ، وذلك يدل على صحة نبوته .

ولقائل أن يقول : الأخبار عن الغيوب الماضية لا يدل على المعجز ، لاحتمال أن يقال إن إبليس شاهد هذه الوقائع فألقاها إليه ، أما الأخبار عن الغيوب المستقبلة فإنه معجز لأن علم الغيب ليس إلا لله سبحانه وتعالى .

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه السورة قصة آدم عليه السلام ، وقد سبق ذكرها .

والقصة الثانية : قصة نوح عليه السلام وهي المذكورة في هذه الآية وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ جواب قسم محذوف .

فإن قالوا : ما السبب في أنهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام إلا مع قد ، وذكر هذه اللام بدون قد نادر كقوله :

حلفت لها بالله حلفة فاجر * لناموا . . قلنا : إنما كان كذلك لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى "قد" عند استماع المخاطب كلمة القسم .

المسألة الثانية :

قرأ الكسائي ﴿ غَيْرُهُ ﴾ بكسر الراء على أنه نعت للإله على اللفظ والباقون بالرفع على أنه صفة للإله على الموضع لأن تقدير الكلام ما لكم إله غيره ، وقال أبو علي : وجه من قرأ بالرفع قوله : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : 62] فكما أن قوله : ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ بدل من قوله : ﴿ مَّا مِنْ إِلَهٍ ﴾ كذلك قوله : ﴿ غَيْرُهُ ﴾ يكون بدلاً من قوله : ﴿ مِنْ إِلَهٍ ﴾ فيكون (غَيْرِ) رفعاً بالاستثناء ، وقال صاحب الكشاف : قرىء (غَيْرِ) الحركات الثلاث ، وذكر وجه الرفع والجر كما تقدم ، قال وأما النصب فعلى الاستثناء بمعنى ما لكم من إله إلا إياه كقولك ما في الدار من أحد إلا زيداً وغير زيد .

المسألة الثالثة :

قال الواحديُّ : في الكلام حذف ، وهو خبر ﴿ مَا ﴾ لأنك إذا جعلت ﴿ غَيْرُهُ ﴾ صفة لقوله : ﴿ إِلَهٍ ﴾ لم يبق لهذا المنفي خبر ، والكلام لا يستقل بالصفة والموصوف ، لأنك إذا قلت زيد العاقل وسكت ، لم يفد ما لم تذكر خبره .

ويكون التقدير ما لكم من إله غيره في الوجود ، أقول : اتفق النحويون على أن قولنا لا إله إلا الله لا بد فيه من إضمار ، والتقدير : لا إله في الوجود أو لا إله لنا إلا الله ولم يذكروا على هذا

الكلام حجة ، فإنا نقول لم لا يجوز أن يقال دخل حرف النفي على هذه الحقيقة ؟ وعلى هذه الماهية ، فيكون المعنى أنه لا تحقق لحقيقة الإلهية إلا في حق الله ، وإذا حملنا الكلام على هذا المعنى استغنينا عن الإضمار الذي ذكروه .

فإن قالوا : صرف النفي إلى الماهية لا يمكن لأن الحقائق لا يمكن نفيها ، فلا يمكن أن يقال لا سواد بمعنى ارتفاع هذه الماهية ، وإنما الممكن أن يقال إن تلك الحقائق غير موجودة ولا حاصلة ، وحينئذ يجب إضمار الخبر .

فنقول : هذا الكلام بناء على أن الماهية لا يمكن انتفاؤها وارتفاعها ، وذلك باطل قطعاً .

(10/274)

إذ لو كان الأمر كذلك لوجب امتناع ارتفاع الوجود لأن الوجود أيضاً حقيقة من الحقائق وماهية فلم لا يمكن ارتفاع سائر الماهيات ؟

فإن قالوا : إذا قلنا لا رجل ، وعنينا به نفي كونه موجوداً ، فهذا النفي لم ينصرف إلى ماهية الوجود ، وإنما انصرف إلى كون ماهية الرجل موصوفة بالوجود .

فنقول : تلك الموصوفية يستحيل أن تكون أمراً زائداً على الماهية وعلى الوجود ، إذ لو كانت الموصوفية ماهية ، والوجود ماهية أخرى ، لكانت تلك الماهية موصوفة أيضاً

بالوجود ، والكلام فيه كما فيما قبله ، فيلزم التسلسل ، ويلزم أن لا يكون الموجود الواحد موجوداً واحداً ، بل موجودات غير متناهية وهو محال .

ثم نقول موصوفية الماهية بالوجود إما أن يكون أمراً مغايراً للماهية والوجود ، وإما أن لا يكون كذلك .

فإن لم يكن أمراً مغايراً لها فحينئذ يكون لذلك المغاير ماهية ووجود ، وماهيته لا تقبل الارتفاع ، وحينئذ يعود السؤال المذكور .

فثبت بما ذكرنا أن الماهية أن لم تقبل النفي والرفع ، امتنع صرف حرف النفي إلى شيء من المفهومات ، فإن كانت الماهية قابلة للنفي والرفع ، فحينئذ يمكن صرف كلمة "لا" في قولنا لا إله إلا الله إلى هذه الحقيقة ، وحينئذ لا يحتاج إلى التزام الحذف والإضمار الذي يذكره النحويون ، فهذا كلام عقلي صرف ، وقع في هذا البحث الذي ذكره النحويون .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾

فيه قولان : قال ابن عباس : بعثنا .

وقال آخرون : معنى الإرسال أنه تعالى حمله رسالة يؤديها ، فالرسالة على هذا التقدير تكون متضمنة للبعث ، فيكون البعث كالتابع لا أنه الأصل ، وهذا البحث بناء على مسألة أصولية ، وهي أنه هل من شرط إرسال الرسول إلى قوم ، أن يعرفهم على لسانه أحكاماً لا سبيل لهم إلى معرفتها بعقولهم ، أوليس ذلك بشرط ؟ بل يكون الغرض من بعثة الرسل مجرد تأكيد ما في العقول ، وهذا الخلاف إنما يليق بتفاريع المعتزلة ، ولا يليق بتفاريع مذاهبنا وأصولنا .

المسألة الخامسة :

في الآية فوائد :

الفائدة الأولى : أنه تعالى حكى عن نوح في هذه الآية ثلاثة أشياء : أحدها : أنه عليه السلام أمرهم بعبادة الله تعالى .

والثاني : أنه حكم أن لا إله غيرُ الله ، والمقصود من الكلام الأول إثبات التكليف ، والمقصود من الكلام الثاني الإقرار بالتوحيد .

ثم قال عقيبه : ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ولا شكَّ أن المراد منه إما عذاب يوم القيامة ، وعلى هذا التقدير : فهو قد خوفهم بيوم القيامة ، وهذا هو الدعوى الثالثة ، أو عذاب يوم الطوفان ، وعلى هذا التقدير : فقد ادعى الوحي والنبوة من عند الله ، والحاصل أنه تعالى حكى عنه أنه ذكر هذه الدعاوى الثلاثة ، ولم يذكر على صحة واحد

منها دليلاً ولا حجة ، فإن كان قد أمرهم بالإنذار بها على سبيل التقليد ، فهذا باطل ، لما أن القول بالتقليد باطل .

وأيضاً فالله تعالى قد ملأ القرآن من ذم التقليد ، فكيف يليق بالرسول المعصوم الدعوة إلى التقليد ؟ وإن كان قد أمرهم بالإقرار بها مع ذكر الدليل ، فهذا الدليل غير مذكور .

واعلم أنه تعالى ذكر في أول سورة البقرة دلائل التوحيد والنبوة ، وصحة المعاد ، وذلك تنبيه منه تعالى على أن أحداً من الأنبياء لا يدعو أحداً إلى هذه الأصول إلا بذكر الحجة والدليل .

(12/274)

أقصى ما في الباب أنه تعالى ما حكى عن نوح تلك الدلائل في هذا المقام إلا أن تلك الدلائل لما كانت معلومة لم يكن إلى ذكرها حاجة في هذا المقام ، فترك الله تعالى ذكر الدلائل لهذا السبب .

الفائدة الثانية : أنه عليه السلام ذكر أولاً قوله : ﴿ اعبدوا الله ﴾ وثانياً قوله : ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ والثاني كالعلة للأول ، لأنه إذا لم يكن لهم إله غيره كان كل ما حصل عندهم من وجوه النفع والإحسان والبر واللطف حاصلاً من الله ، ونهاية الإنعام توجب نهاية

التعظيم ، فإنما وجبت عبادة الله لأجل العلم بأنه لا إله إلا الله ، ويتفرع على هذا البحث مسألة وهي : أنا قبل العلم بأن لا إله واحد أو أكثر من واحد لا نعلم أن المنعم علينا بوجوه النعم الحاصلة عندنا هو هذا أم ذاك ؟ وإذا جهلنا ذلك فقد جهلنا من كان هو المنعم في حقنا .

وحينئذ لا يحسن عبادته ، فعلى هذا القول كان العلم بالتوحيد شرطاً للعلم بحسن العبادة .

الفائدة الثالثة : في هذه الآية أن ظاهر هذه الآية يدل على أنه الإله هو الذي يستحق العبادة لأن قوله : ﴿ اعبدوا الله مَا لَكُم مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ إثبات ونفي ، فيجب أن يتواردا على مفهوم واحد حتى يستقيم الكلام ، فكان المعنى أعبدوا الله ما لكم من معبود غيره ، حتى يتطابق النفي والإثبات ، ثم ثبت بالدليل أن الإله ليس هو المعبود وإلا لوجب كون الأصنام آلهة ، وأن لا يكون الإله إلهاً في الأزل لأجل أنه في الأزل غير معبود ، فوجب حمل لفظ الإله على أنه المستحق للعبادة .

واعلم أنهم اختلفوا في معنى قوله : ﴿ إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ هل هو اليقين ، أو الخوف بمعنى الظن والشك .

قال قوم : المراد منه الجزم واليقين ، لأنه كان جازماً بأن العذاب ينزل بهم إما في الدنيا وإما في الآخرة إن لم يقبلوا ذلك الدين .

(13/274)

وقال آخرون : بل المراد منه الشك وتقريره من وجوه : الأول : إنه إنما قال : ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ لأنه جوز أن يؤمنوا كما جوز أن يستمروا على كفرهم ، ومع هذا التجويز لا يكون قاطعاً بنزول العذاب ، فوجب أن يذكره بلفظ الخوف .

والثاني : أن حصول العقاب على الكفر والمعصية أمر لا يعرف إلا بالسمع ولعل الله تعالى ما بين له كيفية هذه المسألة فلا جرم بقي متوقفاً مجوزاً أنه تعالى هل يعاقبهم على ذلك الكفر أم لا ؟ والثالث : يحتمل أن يكون المراد من الخوف الحذر كما قال في الملائكة : ﴿ يخافون رَّبَّهُمْ ﴾ [النحل : 50] أي يحذرون المعاصي خوفاً من العقاب .

الرابع : إنه بتقدير أن يكون قاطعاً بنزول أصل العذاب لكنه ما كان عارفاً بمقدار ذلك العذاب ، وهو أنه عظيم جداً أو متوسط ، فكان هذا الشك راجعاً إلى وصف العقاب ، وهو كونه عظيماً أم لا ، لا في أصل حصوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 122.119 ﴾

(14/274)

وقال السمرقندى :

قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾

يعني : بعثنا نوحاً إلى قومه بالرسالة فأتاهم ، ويقال : معناه جعلنا نوحاً رسولاً إلى قومه .

﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي وحّدوا الله ، ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ أي ليس لكم رب سواه .

قرأ الكسائي ﴿ إله غَيْرِه ﴾ بكسر الراء .

وقرأ الباقون ﴿ غَيرُهُ ﴾ بالضم .

فمن قرأ بكسر الراء فلأجل مِنْ وجعله كله كلمة واحدة والغير تابعاً له .

ومن قرأ بالضم فمعناه ما لكم إله غيره ودخلت من مؤكدة .

ثم قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو الغرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(15/274)

وقال الثعلبى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾

وهو نوح بن ملك بن متوشلح بن اخنوخ ، وهو إدريس بن مهلائيل بن يزد بن قيثان ابن انوش بن شيث بن آدم عليهم السلام ، وهو أول نبي بعد إدريس وكان نجاراً بعثه الله عزّ وجلّ إلى قومه وهو ابن خمسين سنة فقال لهم : ﴿ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ قرأ محمد بن السميفع (غيره) بالنصب .

قال الفراء : بعض بني [أسد وقضاعة أجاز نصب [غير] في كل موضع يحسن فيه " إلا "] تمّ الكلام قبلها أو لم يتم فيقولون : ما جاءني مشرك وما أتاني أحد غيرك . فأنشد الفضل :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت . . . حمامة في ذات أو قال

وقال الزجاج : قد يكون النصب من وجهين : أحدهما الاستثناء من غير [جنسه] .

والثاني الحال من قوله ﴿ اعبدوا الله ﴾ لأن " غيره " نكرة ، وإن أضيف إلى المعارف .

وقرأ أبو جعفر ويحيى بن وثّاب والأعمش والكسائي : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ بكسر الراء على نعت الإله ، واختاره أبو عبيد ليكون كلاماً واحداً .

وقرأ الباقون (غيره) بالرفع على وجهين : أحدهما : التقديم وإن كان مؤخّراً في اللفظ تقديره : مالكم غيره من إله غيره .

والثاني أن يجعله نعت التأويل الاله لأن المعنى مالكم إله غيره ﴿ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

اللام لام القسم ، قال الطبري أقسم الله تعالى أنه أرسل نوحاً ، وقالت فرقة من المفسرين : سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، قال سيبويه : نوح ولوط وهود أسماء أعجمية إلا أنها حقيقة فلذلك صرفت ، وهذه نذارة من نوح لقومه دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة وداً وسواعاً ويغوث ويعوق وغيرها مما لم يشتهر ، وقرأ الكسائي وحده " غيرِه " بالرفع ، وقرأ حمزة والكسائي " هل من خالق غير الله " خفضاً ، وقرأ الباقون : " غيرُ الله " رفعاً والرفع في قراءة الجماعة هنا على البدل من قوله ﴿ من إله ﴾ لأن موضع قوله ﴿ من إله ﴾ رفع ، وهو الذي رجح الفارسي ، ويجوز أن يكون نعتاً على الموضع لأن التقرير ما لكم إله غيره ، أو يقدر " غير " ب " إلا " فيعرب بإعراب ما يقع بعد " إلا " ، وقرأ عيسى بن عمر " غيرَه " بنصب الراء على الاستثناء ، قال أبو حاتم : وذلك ضعيف من أجل النفي المتقدم ، وقوله ﴿ عذاب ﴾ يحتمل أن يريد عذاب الدنيا ويحتمل أن يريد به عذاب الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(17/274)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ اعبدوا الله ﴾

قال مقاتل : وحِّدوه ؛ وكذلك في سائر القصص بعدها .

قوله تعالى : ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ قرأ الكسائي : "غيرِه" بالخفض .

قال أبو علي : جعل غيراً صفة ل ﴿ إله ﴾ على اللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(18/274)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله ﴾

لما بيّن أنه الخالق القادر على الكمال ذكر أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار .

واللام في "لقد" للتأكيد المنبِّه على القسم .

والفاء دالة على أن الثاني بعد الأوّل .

﴿ يَاقَوْمِ ﴾ نداء مضاف .

ويجوز "يا قومي" على الأصل .

ونوح أوّل الرسل إلى الأرض بعد آدم عليهما السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات .

قال النحاس : وانصرف لأنه على ثلاثة أحرف .

وقد يجوز أن يشتق من ناح ينوح ؛ وقد تقدّم في "آل عمران" هذا المعنى وغيره فأغنى عن إعادته .

قال ابن العربيّ : ومن قال إن إدْرِيسَ كان قبله من المؤرّخينَ فقد وَهِم .

والدليل على صحة وهمِه الحديث الصحيح في الإسراء حين لقي النبيّ صلى الله عليه وسلم آدم وإدريس فقال له آدم : "مرحباً بالنبيّ الصالح والابن الصالح" .

وقال له إدْريسُ : "مَرْحَباً بالنبيّ الصالح والأخ الصالح" .

فلو كان إدريس أبا لنوح لقال مرحباً بالنبيّ الصالح والابن الصالح .

فلما قال له والأخ الصالح دَلّ ذلك على أنه يجتمع معه في نوح ، صلوات الله عليهم أجمعين .

ولا كلام لمنصف بعد هذا .

قال القاضي عِياض : وجاء جواب الآباء ها هنا كنوح وإبراهيم وآدم "مرحباً بالابن

الصالح" .

وقال عن إدريس "بالأخ الصالح" كما ذكر عن موسى وعيسى ويوسف وهارون ويحيى ممن ليس بِأب باتفاق للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال المازِريّ : قد ذكر المؤرخون أن إدريس جدّ نوح عليهما السلام .

فإن قام الدليل على أنّ إدريس بُعِثَ أيضاً لم يصح قول النسابين أنه قبل نوح ؛ لما أخبر عليه السلام من قول آدم أن نوحاً أوّل رسول بعث ، وإن لم يقم دليل جاز ما قالوا : وصح أن يحمل أن إدريس كان نبياً غير مرسل .

قال القاضي عِياض : قد يجمع بين هذا بأن يقال : اختص بعث نوح لأهل الأرض كما قال في الحديث كافَّة كنبينا عليه السلام .

(19/274)

ويكون إدريس لقومه كموسى وهود وصالح ولوط وغيرهم .

وقد استدل بعضهم على هذا بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الصافات : 123 و124] .

وقد قيل : إن إلياس هو إدريس .

وقد قرىء "سلام على إِدْرَاسِين" .

قال القاضي عياض : وقد رأيت أبا الحسن بن بَطّال ذهب إلى أن آدم ليس برسول ؛ ليسلم من هذا الاعتراض .

وحديث أبي ذَرٍّ الطويل : يدل على أن آدم وإدريس رسولان .

قال ابن عطية : ويجمع ذلك بأن تكون بعثة نوح مشهورة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان ؛ فالمراد أنه أوّل نبيّ بُعث على هذه الصفة .

والله أعلم .

وروي عن ابن عباس أن نوحاً عليه السلام بعث وهو ابن أربعين سنة .

قال الكلبيّ : بعد آدم بثمانمائة سنة .

وقال ابن عباس : وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ؛ كما أخبر التنزيل .

ثم عاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثُر الناس وفَشَوْا .

وقال وهب : بعث نوح وهو ابن خمسين سنة .

وقال عَوْن بن شدّاد : بعث نوح وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة .

وفي كثير من كتب الحديث : الترمذيّ وغيره أن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام .

وذكر النقّاشُ عن سليمان بن أَرْقَم عن الزهريّ : أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سَامِ بن نوح .

والسند والهند والزّنج والحبشة والزُّطّ والنُّوبة ، وكلُّ جلد أسود من ولد حَامِ بن نوح .

والترك وبَربُر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصقالبة كلهم من ولد يَافِثَ بن نوح .

والخلق كلهم ذرية نوح .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ برفع "غَيْرُهُ" قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم وحمزة .

أي ما لكم إله غيره .

نعت على الموضع .

وقيل : "غير" بمعنى إلا ؛ أي ما لكم من إله إلا الله .

قال أبو عمرو : ما أعرف الجر ولا النصب .

وقرأ الكسائي بالخفض على الموضع .

(20/274)

ويجوز النصب على الاستثناء ، وليس بكثير ؛ غير أن الكسائي والفراء أجازا نصب "غير" في كل موضع يحسن فيه "إلاّ" تَمَّ الكلام أو لم يتم .

فأجازا : ما جاءني غيرك .

قال الفراء : هي لغة بعض بني أُسْد وقُضَاعَة .

وأنشد :

لمَ يَمْنَع الشُّرْبَ منها غيَر أن هتفَتْ . . .

حمامةٌ في سَحُوق ذاتِ أوْقَال

قال الكسائيّ : ولا يجوز جاءني غيرك ، في الإيجاب ؛ لأن إلا لا تقع ها هنا .

قال النحاس : لا يجوز عند البصريين نصب "غير" إذا لم يتم الكلام .

وذلك عندهم من أقبح اللحن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(21/274)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾

اعلم أن الله تبارك وتعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته وغرائب خلقه وصنعته الدالة على توحيده وربوبيته وأقام الدلالة القاطعة على صحة البعث بعد الموت أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما جرى لهم مع أممهم وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه لم يكن إعراض قومه فقط في قبول الحق بل قد أعرض عنه سائر

الأمم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على أن عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت إلى الخسار والهلاك في الدنيا وفي الآخرة إلى العذاب العظيم فمن كذب بمحمد صلى الله عليه وسلم من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبله من الأمم المكذبة وفي ذكر هذه القصص دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق أحداً من علماء زمانه فلما أتى بمثل هذه القصص والأخبار عن القرون الماضية والأمم الخالية مما لم ينكره عليه أحد علم بذلك أنه إنما أتى به من عند الله عز وجل وإنه أوحى إليه ذلك فكان دليلاً واضحاً وبرهاناً قاطعاً على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ لقد أرسلنا نوحاً جواب قسم محذوف تقديره والله لقد أرسلنا نوحاً وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عليه الصلاة والسلام ويعني أرسلنا بعثنا وهو أول نبي بعثه الله تعالى بعد إدريس وكان نوح عليه الصلاة والسلام نجاراً .

(22/274)

وقيل : معنى الإرسال أن الله تعالى حمله رسالة ليؤديها إلى قومه فعلى هذا التقدير فالرسالة تكون متضمنة للبعث أيضاً ويكون البعث كالتابع لا أنه أصل ، قال ابن عباس رضي الله

عنهما : بعثه الله وهو ابن أربعين سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة وقيل هو ابن مائة سنة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سمي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه واختلفوا في سبب نوحه فقيل : لدعوته على قومه بالهلاك وقيل : لمراجعته ربه في شأن ابنه كنان وقيل : لأنه مر بكلب مجذوم فقال له : اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى إليه أعبتني أم عبت الكلب ؟ ﴿ فقال ﴾ يعني نوحاً لقومه ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ يعني اعبدوا الله تعالى فإنه هو الذي يستحق العبادة لا غيره فإنه ليس لكم إله معبود سواه فإنه هو الذي يستوجب أن يعبد ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ يعني إن لم تقبلوا ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته واليوم الذي خافه عليهم وهو إما يوم الطوفان وإهلاكهم فيه أو يوم القيامة وإنما قال أخاف على الشك وإن كان على يقين من حلول العذاب بهم إن لم يؤمنوا به لأنه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(23/274)

وقال أبو حيان :

﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾

لما ذكر في هذه السورة مبدأ الخلق الإنساني وهو آدم عليه السلام وقصّ من أخباره ما قصّ واستطرد من ذلك إلى المعاد ومصير أهل السعادة إلى الجنة وأهل الشقاوة إلى النار وأمره تعالى بترك الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وكان من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً غير مستجيبين له ولا مصدّقين لما جاء به عن الله قصّ تعالى عليه أحوال الرّسل الذين كانوا قبله وأحوال من بعثوا إليه على سبيل التّسلية له صلى الله عليه وسلم والتأسي بهم ، فبدأ بنوح إذ هو آدم الأصغر وأول رسول بعث إلى من في الأرض وأمته أدوم تكذيباً له وأقلّ استجابة وتقدم رفع نسبه إلى آدم وكان نجّاراً بعثه الله إلى قومه وهو ابن أربعين سنة قاله ابن عباس ، وقيل : ابن خمسين ، وقال مقاتل ابن مائة ، وقيل : ابن مائتين وخمسين ، وقيل : ابن ثلاثمائة .

(24/274)

وقال عون بن شداد : ابن ثلاثمائة وخمسين ، وقال وهب : ابن أربعمائة وهذا اضطراب كثير من أربعين إلى أربعمائة فما بينهما وروي أنّ الطوفان كان سنة ألف وستمائة من عمره

وهو أوّل الرّسل بعد آدم بتحريم البنات والأخوات والعمّات والخالات وجميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام وعن الزهري أنّ العرب وفارساً والروم وأهل الشام واليمن من ذرية سام بن نوح والهند والسّند والزنج والحبشة والزّط والنوبة وكلّ جلد أسود من ولد حام بن نوح والتّرك والبربر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصقالبة من ولد يافث بن نوح ، لقد أرسلنا استئناف كلام دون واو وفي هود والمؤمنون ولقد بواو العطف ، قال الكرماني لما تقدّم ذكر الرسول مرات في هود وتقدّم ذكر نوح ضمنا في قوله وعلى الفلك لأنه أول من صنعها عطف في السورتين انتهى واللام جواب قسم محذوف أكّد تعالى هذا الإخبار بالقسم ، قال الزمخشري : (فإن قلت) : ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام إلاّ مع قد وقل عنهم قوله :

حلفت لها بالله حلفة فاجر . . .

لناموا (قلت) : إنما كان ذلك لأنّ الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها فكانت مظنّة لمعنى التوقّع الذي هو معنى قد عند استماع المخاطب كلمة القسم انتهى ، وبعض أصحابنا يقول إذا أقسم على جملة مصدرة بماضٍ مثبت متصرف وكان قريباً من زمان الحال أثبت مع اللام بقد الدالّة على التقريب من زمن الحال ولم تأتِ بقد بل باللام وحدها إن لم يرد التقريب ، قال ابن عباس : ﴿ أرسلنا ﴾ بعثنا وقال غيره حملناه رسالة يؤدّيها فعلى هذا تكون الرسالة متضمنة للبعث وهنا فقال بفاء العطف وكذا في

المؤمنون في قصّة عاد وصالح وشعيب هنا قال بغير فاء والأصل الفاء وحذفت في القصتين توسّعاً .

(25/274)

واكتفاءً بالرّبط المعنوي وفي قصة نوح في هو ﴿ إني لكم ﴾ على إضمار القول أي فقال إني وفي ندائه قومه تنبيه لهم لما يلقيه إليهم واستعطاف وتذكير بأنهم قومه فالمناسب أن لا يخالفوه ومعمول القول جملة الأمر بعبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسمّاة ودّاً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً وغيرها والجملة المنبهة على الوصف الدّاعي إلى عبادة الله وهو انفراده بالألوهية المرجو إحسانه المحذور انتقامه دون آلهتهم ولم تأتِ بحرف عطف لأنها بيان وتفسير لعلّة اختصاصه تعالى بأن يعبد ، وقرأ ابن وثاب الأعمش وأبو جعفر والكسائي غيره بالجرّ على لفظ ﴿ إله ﴾ بدلاً أو نعتاً ، وقرأ باقي السّبعة غيره بالرفع عطفاً على موضع ﴿ من إله ﴾ لأنّ من زائدة بدلاً أو نعتاً ، وقرأ عيسى بن عمر غيره بالنصب على الاستثناء والجرّ والرفع أفصح ﴿ ومن إله ﴾ مبتدأ و ﴿ لكم ﴾ في موضع الخبر ، وقيل : الخبر محذوف أي في الوجود و ﴿ لكم ﴾ تبيين وتخصيص ، و ﴿ أخاف ﴾ قيل : بمعنى أتيقن وأجزم لأنه عالم أن العذاب بنزل بهم إن لم يؤمنوا ، وقيل : الخوف على

بابه بمعنى الحذر لأنه جوّز أن يؤمنوا وأن يستمروا على كفرهم و ﴿ يوم عظيم ﴾ هو يوم القيامة أو يوم حلول العذاب بهم في الدنيا وهو الطوفان وفي هذه الجملة إظهار الشّفقة والحنوّ عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(26/274)

وقال أبو السعود :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾

هو جوابُ قسمٍ محذوفٍ أي والله لقد أرسلنا الخ ، واطّرادُ استعمالِ هذه اللامِ مع قد لكون مدخولِها مَظِنّةً للتوقع الذي هو معنى قد ، فإن الجملة القسَمية إنما تُساق لتأكيد الجملةِ المُقسَم عليها ، ونوحٌ هو ابنُ لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو إدريسُ النبيُّ عليهما السلام . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : بُعث عليه السلام على رأس أربعين سنةً من عمره ولبِث يدعو قومه تسعَمِائةٍ وخمسين سنةً وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنةً فكان عمرُه ألفاً ومائتين وأربعين سنة . وقال مقاتل : بعث وهو ابنُ مائةِ سنةٍ وقيل : وهو ابنُ مائتين وخمسين سنةً ومكث يدعو قومَه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمُرُه ألفاً وأربَعَمِائةٍ وخمسين سنة ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي

اعبدوه وحدَه ، وتركُ التقييدِ به للإيذان بأنها العبادةُ حقيقةً ، وأما العبادةُ بالإشراك فليست من العبادة في شيء وقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ أي من مستحِقَ للعبادة ، استئنافٌ مَسوقٌ لتعليل العبادةِ المذكورةِ أو الأمرِ بها ، وغيرُه بالرفع صفةٌ لإله باعتبار محلِّه الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية ، وقرئ بالجر باعتبار لفظه ، وقرئ بالنصب على الاستثناء وحكمُ غيرٍ حكمُ الاسمِ الواقعِ بعد إلا أي ما لكم من إله إلا إياه كقولك : ما في الدار من أحد إلا زيداً أو غيرَ زيدٍ ، فمن إله إن جعل مبتدأً فلكم خبرُه ، أو خبرُه محذوفٌ ولكم للتخصيص والتبيين أي ما لكم في الوجود أو في العالم إله غيرُ الله ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إن لم تعبُدوه حسْبما أُمرت به ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يومُ القيامة أو يومُ الطوفان ، والجملةُ تعليلٌ للعبادة ببيان الصارفِ عن تركها إثرَ تعليلِها ببيان الداعي إليها ، ووصفُ اليومِ بالعِظَم لبيان عظيمِ ما يقع فيه وتكميلِ الإنذار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(27/274)

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

ثم إنه سبحانه وتعالى عقب ذلك بما يحققه ويقرره من قصص الأمم الخالية والقرون الماضية وفي ذلك أيضاً تسلية لرسوله عليه الصلاة والسلام فقال جل شأنه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ وهو جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا الخ ، واطرد استعمال هذه اللام مع قد في الماضي على ما قال الزمخشري وقل الاكتفاء بها وحدها نحو قوله

: حلفت لها بالله حلفة فاجر . . .

لناموا فما ان من حديث ولا صالي

والسر في ذلك أن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها فكانت مظنة (لتوقع المخاطب حصول المقسم عليه) لأن القسم دل على الاهتمام فناسب ذلك إدخال قد ، ونقل عن النحاة أنهم قالوا : إذا كان جواب القسم ماضياً مثبتاً متصرفاً فإما أن يكون قريباً من الحال فيؤتى بقد وإلا أثبت باللام وحدها فجوزوا الوجهين باعتبارين ، ولم يؤت هنا بعاطف وأتى به في هود (52) .

والمؤمنين (32) .

على ما قال الكرماني : لتقدم ذكر نوح صريحاً في هود وضمناً في المؤمنين حيث ذكر فيها قبل ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون : 22] وهو عليه السلام أول من صنعها بخلاف ما هنا .

ونوح بن لمك بفتحتين وقيل : بفتح فسكون ، وقيل : ملكان بميم مفتوحة ولام ساكنة ونون آخره .

وقيل : لامك كهاجر بن متوشلخ بضم الميم وفتح التاء الفوقية والواو وسكون الشين المعجمة على وزن المفعول كما ضبطه غير واحد .

وقيل : بفتح الميم وضم المثناة الفوقية المشددة وسكون الواو ولام مفتوحة وخاء معجمة ابن أخنوخ بهمزة مفتوحة أوله وخاء معجمة ساكنة ونون مضمومة وواو ساكنة وخاء أيضاً ، ومعناه في تلك اللغة على ما قيل القراء .

(28/274)

وقيل : خنوخ بإسقاط الهمزة وهو إدريس عليه السلام .

أخرج ابن إسحاق .

وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : بعث نوح عليه السلام في الألف الثاني وإن آدم عليه السلام لم يمت حتى ولد له نوح في آخر الألف الأول .

وأخرجا عن مقاتل .

وجويبر أن آدم عليه السلام حين كبر ودق عظمه قال : يا رب إلى متى أكد وأسعى ؟ قال يا

آدم حتى يولد لك ولد مختون فولد له نوح بعد عشرة أبطن وهو يومئذٍ ابن ألف سنة إلا ستين عاماً .

وبعث على ما روي عن ابن عباس على رأس (أربعمائة) سنة ، وقال مقاتل : وهو ابن مائة سنة .

وقيل : وهو ابن خمسين سنة .

وقيل : وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة .

وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين فكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة .

وبعث كما روى ابن أبي حاتم وابن عساكر عن قتادة من الجزيرة .

وهو أول نبي عذب الله تعالى قومه وقد لقي منهم ما لم يلقه نبي من الأنبياء عليهم السلام .

واختلف في عموم بعثته عليه السلام ابتداء مع الاتفاق على عمومها انتهاء حيث لم يبق بعد الطوفان سوى من كان معه في السفينة ، ولا يقدح القول بالعموم في كون ذلك من خواص نبينا صلى الله عليه وسلم لأن ما هو من خواصه عليه الصلاة والسلام عموم البعثة لكافة الثقلين الجن والإنس وذلك مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة فيكفر منكره بل وكذا الملائكة كما رجحه جمع محققون كالسبكي ومن تبعه وردوا على من خالف ذلك وصريح آية ﴿ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] إذ العالم ما سوى الله تعالى ، وخبر مسلم " وأرسلت إلى الخلق كافة " يؤيد ذلك بل قال البارزي : إنه صلى الله عليه وسلم أرسل حتى

للجمادات بعد جعلها مدركة .

وفائدة الإرسال للمعصوم وغير المكلف طلب إذعانهما لشرفه ودخولهما تحت دعوته واتباعه تشريفاً على سائر المرسلين ولا كذلك بعثة نوح عليه السلام .

والفرق مثل الصبح ظاهر .

(29/274)

وهو كما في "القاموس" "اسم أعجمي صرف لخفته" ، وجاء عن ابن عباس وعكرمة وجويبر ومقاتل أنه عليه السلام إنما سمي نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه .

واختلف في سبب ذلك فقيل : هو دعوته على قومه بالهلاك .

وقيل : مراجعته ربه في شأن ابنه كنعان .

وقيل : إنه مر بكلب مجذوم فقال له : اخسأ يا قبيح فأوحى الله إليه أعبتني أم عبت الكلب .

وقيل : هو إصرار قومه على الكفر فكان كلما دعاهم وأعرضوا بكى وناح عليهم .

قيل : وكان اسمه قبل السكن لسكون الناس إليه بعد آدم عليه السلام .

وقيل : عبد الجبار .

وأنا لا أعول على شيء من هذه الأخبار والمعول عليه عندي ما هو الظاهر من أنه اسم وضع له حين ولد ، وليس مشتقاً من النايحة .

وأنه كما قال صاحب "القاموس .

﴿ فَقَالَ يا قوم قَوْمِ اعبدوا الله ﴾ أي وحده ، وترك التقييد به للإيذان بأنها العبادة حقيقة وأما العبادة مع الإشراك فكلا عبادة ولدلالة قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إله ﴾ أي مستحق للعبادة ﴿ غَيْرُهُ ﴾ عليه ، وهو استئناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة أو الأمر بها و﴿ مِنْ ﴾ صلة و﴿ غَيْرُهُ ﴾ بالرفع وهي قراءة الجمهور صفة ﴿ إِلَهٍ ﴾ أو بدل منه باعتبار محله الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية .

وقرأ الكسائي بالجر باعتبار لفظه ، وقرىء شاذاً بالنصب على الاستثناء ، وحكم غير كما في "المفصل" حكم الاسم الواقع بعد إلا وهو المشهور أي ما لكم إله إلا إياه كقولك : ما في الدار (من) أحد إلا زيداً أو غير زيد ، و﴿ إِلَهٍ ﴾ إن جعل مبتدأ فلكم خبره أو خبره محذوف و﴿ لَكُمْ ﴾ للتخصيص والتبيين أي ما لكم في الوجود أو في العالم إله غير الله تعالى .

﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن لم تعبدوا حسبما أمرت به .

وتقدير إن لم تؤمنوا لما أن عبادته سبحانه وتعالى تستلزم الإيمان به وهو أهم أنواعها وإنما قال عليه السلام : ﴿ أَخَافُ ﴾ ولم يقطع حنوا عليهم واستجلاباً لهم بلطف .

(30/274)

﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة أو يوم الطوفان لأنه أعلم بوقوعه إن لم يمتثلوا ، والجملة كما قال شيخ الإسلام تعليل للعبادة ببيان الصارف عن تركها إثر تعليلها ببيان الداعي إليها ، ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه وتكميل الإنذار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(31/274)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

استئناف انتقل به الغرض من إقامة الحجّة والمنّةِ (المبتدئة بقوله تعالى : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض ﴾ [الأعراف : 10] ، وتنبيه أهل الضّلالة أنّهم غارقون في كيد الشّيطان ، الذي هو عدوّ نوعهم ، من قوله : ﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صِراطك المستقيم إلى قوله : وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ [الأعراف : 16 33] ، ثمّ بالتّهديد بوصف

عذاب الآخرة وأحوال النّاس فيه ، وما تخلّل ذلك من الأمثال والتّعريض) ؛ إلى غرض الاعتبار والموعظة بما حلّ بالأمم الماضية .

فهذا الاستئناف له مزيد اتّصال بقوله في أوائل السّورة [4] : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ الآية ، وقد أفيض القول فيه في معظم السّورة وتَتَبُّعُ هذا الاعتبار أغراضٌ أخرى : وهي تسلية الرّسول ، وتعليم أمّته بتاريخ الأمم التي قبلها من الأمم المرسل إليهم ، ليعلم المكذّبون من العرب أنّ لا غضاضة على محمّد ولا على رسالته من تكذيبهم ، ولا يجعله ذلك دون غيره من الرّسل ، بله أن يؤيّد زعمهم أنّه لو كان صادقاً في رسالته لأيّده الله بعقاب مكذّبيه (لما قالوا على سبيل التّهكّم أو الحجاج : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء أو ائتنا بعذاب أليم) .

وليعلَمَ أهل الكتاب وغيرهم أنّ ما لقيه محمّد من قومه هو شنشنة أهل الشّقاوة تلقاء دعوة رسل الله .

وأكّد هذا الخبر بلام القسم وحرف التّحقيق لأنّ الغرض من هذه الأخبار تنظير أحوال الأمم المكذّبة رسلَها بحال مشركي العرب في تكذيبهم رسالة محمّد .

(32/274)

وكثُر في الكلام اقترانُ جملة جواب القسم : بقَدْ ﴾ لأنّ القسم يُهيىء نفس السّامع لتوقع خبر مهم فيؤتى بقَد لأنّها تدلّ على تحقيق أمر متوقّع ، كما أثبته الخليل والزّمخشري ، والتّوقّع قد يكون توقعاً للمخبَر به ، وقد يكون توقعاً للخبر كما هنا .

وتقدّم التّعريف بنوح عند قوله تعالى ﴿ إنّ الله اصطفى آدم ونوحا ﴾ في سورة [آل عمران : 33] .

وكان قوم نوح يسكنون الجزيرة والعراق ، حسب ظن المؤرّخين .

وعبر عنهم القرآن بطريق القومية المضافة إلى نوح إذ لم يكن لهم اسْم خاص من أسماء الأمم يعرفون به ، فالتّعريف بالإضافة هنا لأنّها أخصر طريق .

وعطف جملة فقال يا قوم ﴾ على جملة ﴿ أرسلنا ﴾ بالفاء إشعاراً بأنّ ذلك القول صدر منه بفور إرساله ، فهي مضمون ما أرسل به .

وخاطب نوح قومه كلّهم لأنّ الدّعوة لا تكون إلاّ عامة لهم ، وعبّر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة ، ليتحقّقوا أنّه ناصح ومريد خيرهم ومشفق عليهم ، وأضاف (القوم) إلى ضميره للتحبيب والتّرقيق لاستجلاب اهتدائهم .

وقوله لهم : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ إبطال للحالة التي كانوا عليها ، وهي تحتمل أن تكون حالة شرك كحالة العرب ، وتحتمل أن تكون حالة وثنيّة باقتصارهم على عبادة لأصنام دون الله تعالى ، كحالة الصّابئه وقدماء اليونان ، وآيات القرآن صالحة

للحالين ، والمنقول في القصص : أنّ قوم نوح كانوا مشركين ، وهو الذي يقتضيه ما في "صحيح البخاري" عن ابن عبّاس أنّ آلهة قوم نوح أسماء جماعة من صالحيهم فلمّا ماتُوا قال قومهم : لو اتَّخذنا في مجالسهم أنصاباً فاتّخَذوها وسمَّوْها بأسمائهم حتّى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت .

(33/274)

وظاهر ما في سورة نوح أنّهم كانوا لا يعبدون الله لقوله : ﴿ أن اعبدوا الله واتَّقُوه ﴾ [نوح : 3] وظاهر ما في سورة فُصّلت أنّهم يعترفون بالله لقولهم : ﴿ لو شاء ربّنا لأنزل ملائكة ﴾ [فصلت : 14] مع احتمال أنّه خرج مخرج التّسليم الجدلي فإن كانوا مشركين كان أمرُه إياهم بعبادة الله مقيَّداً بمدلول قوله : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تشركوا معه الأصنام ، وإن كانوا مقتصرين على عبادة الأوثان كان قوله : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ تعليلاً للاقبال على عبادة الله ، أي هو الإله لا أوثانُكم .

وجملة : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ على الوجه الأوّل بيان للعبادة التي أمَرَهم بها ، أي أفردوه بالعبادة دون غيره ، إذ ليس غيره لكم بالإله .

وعلى الوجه الثّاني يكون استئنافاً بيانياً للأمر بالإقلاع عن عبادة غيره .

وقرأ الجمهور ﴿ غيرهُ ﴾ بالرّفع على الصّفة (لإله) باعتبار محلّه لأنّه في محل رفع إذ هو مبتدأ وإنّما جرّ لدخول حرف الجرّ الزائد ولا يُعتد بجرّه ، وقرأه الكسائي ، وأبو جعفر : بجرّ ﴿ غير ﴾ على النّعت للّفظ (إلاه) نظراً لحرف الجر الزّائد .

وجملة : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم ﴾ يجوز أن تكون في موقع التّعليل ، كما في "الكشاف" : أي لمضمون قوله : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ كأنّه قيل : اتركوا عبادة غير الله خوفاً من عذاب يوم عظيم ، وبُني نظم الكلام على خوفِ المتكلّم عليهم ، دلالة على إمحاضه النّصح لهم وحرصه على سلامتهم ، حتّى جعل ما يُضر بهم كأنّه يُضِرّ به ، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم ، وذلك لأنّ قوله هذا كان في مبدأ خطابهم بما أرسل به ، ويحتمل أنّه قاله بعد أن ظَهر منهم التّكذيب : أي إن كنتم لا تخافون عذاباً فإنّي أخافه عليكم ، وهذا من رحمة الرّسل بقومهم .

(34/274)

وفعل الخوف يتعدّى بنفسه إلى الشّيء المخوف منه ، ويتعدّى إلى مفعول ثان بحرف (على) إذا كان الخوف من ضر يلحقُ غيرَ الخائف ، كما قال الأحوص:

فإذا تزول تزول على مُتَخَمّطٍ . . .

تُخْشَى بوادِرُهُ على الأقران

ويجوز أن تكون مستأنفة ثانية بعد جملة ﴿ اعبدوا الله ﴾ لقصد الإرهاب والإنذار ، ونكتة بناءِ نظم الكلام على خوف المتكلّم عليهم هي هي .

والعذاب المخوف ويومه يحتمل أنّهما في الآخرة أو في الدّنيا ، والأظهر الأوّل لأنّ جوابهم بأنّه في ضلال مبين يشعر بأنّهم أحالوا الوحدانية وأحالوا البعث كما يدلّ عليه قوله في سورة [نوح : 17 ، 18] : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ثمّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ فحالهم كحال مشركي العرب لأنّ عبادة الأصنام تمحّض أهلها للاقتصار على أغراض الدّنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(35/274)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطائعين وعن العاصين في الدنيا ، وتكلم عن مواقف الآخرة الجزائية في أصحاب الجنة ، وأصحاب النار والأعراف أراد أن يبين بعد ذلك أن كل دعوة من دعوات الله سبحانه أهل الأرض لابد أن تلقي عنتا وتضييقا ، وتلقى إعراضاً ،

وتلقى إيذاء ، إنه – سبحانه – يريد أن يعطي المناعة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فيوضح له : لست أنت بادعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول جاء إلى قومه قوبل بالاضطهاد ، وقوبل بالتكذيب ، وقوبل بالنكرات ، وقوبل بالإيذاء ، وإذا كان كان كل رسول قد أخذ من هذا على قدر مهمته الرسالية زماناً محدوأ ، ومكاناً محصوراً فأنت يا رسول الله أخذت الدنيا كلها زماناً ومكاناً ، فلا بد أن تكون مواجهاً لمصاعب تناسب مهمتك ورسالتك ؛ فأنت في قمة الرسل ، وستكون الإيذاءات التي تنالك وتصيبك قمة في الإيذاء ، فلست بدعاً من الرسل ، فوطّن نفسك على ذلك . وحين توطن نفسك على ذلك ستلقى كل إيذاء وكل اضطهاد بصبر واحتمال في الله ، وقص الحق قصص الرسل على رسول الله ، وعبر الله بالهدف من قص القصص بقول : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . . . ﴾ [هود : 120]

(36/274)

فكأنا القصص تثبيت لفؤاده صلى الله عليه وسلم ، فكلما أهاجه نكران ، أو كلما أهاجه جحود ، قص عليه الحق – سبحانه – قصة رسول قوبل بالنكران وقوبل بالجحود ليثبت به فؤاده صلى الله عليه وسلم وفؤاد أتباعه لعلهم يعرفون كل شيء ويوطنون أنفسهم على هذا

العنت ؛ فلم يقل الحق لأتباع محمد : إنكم مقبلون على أمر والأرض مفروشة لكم بالورود ، لا . إنما هي متاعب لتجابهوا شر الشيطان في الأرض . والقصص له أكثر من هدى يثبت به فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ويبين له أنه ليس بدعاً من الرسل ، ويقوي نفوس أتباعه ، لأنهم حينما يرون أن أهل الحق مع الأنبياء انتصروا ، وهزم الجميع وولّي الدبر ، وأنهم منصورون دائما فهذا يقوي يقين المؤمنين ، ويكسر من جهة أخرى نفوس الكافرين مثلما قال الحق عن واحد من أكابر قريش . ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ .

قال الحق لهم ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يقدرون حينئذ أن يدافعوا أو يذودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمن يحميه ، وينزل قوله الحق بعد ذلك في الوليد بن المغيرة ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ ، والوليد بن المغيرة سيد قومه ، ويأتي يوم بدر فيوجد أنفه وقد ضرب وخطم ويتحقق قول الله : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ [القلم : 16]

فمن – إذن – يحدد ضربة قتال بسيف في يد مقاتل قبل أن يبدأ القتال ؟ لقد حددها الأعلم بما يكون عليه الأمر .

وأيضا فقصص الرسل إنما جيء بها ليثبت للمعاصرين له أنه تلقى القرآن من الله ؛ لأنه رسول أميّ ؛ الأمة أمية ، ولم يدّع أحد من خصومه أنه جلس إلى معلم ، أو قرأ كتاباً ، فمن أين جاءته هذه الأخبار إذن ؟

واسمع قول الحق سبحانه وتعالى في الآيات التي يأتي فيها : " ما كنت " مثل قوله الحق : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر . . . ﴾ [القصص : 44]

(37/274)

ومثل قوله الحق : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48]

ومثل قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ . . . ﴾ [آل عمران : 44]

فمن أين جاءت هذه الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ولم يقرأ كتاباً ؟ لقد جاءت كلها من الحق سبحانه وتعالى ، وهذا دليل آخر على صدق رسالته .

وقصة سيدنا نوح من القصص التي وردت كثيراً في القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أن لقطات القصة تنتشر في بعض السور ، لكن السورة التي سميت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التي تعتبر من عيون القصة ، إنها تعالج لقطات أخرى ؛ تعالج إلحاحه في دعوة قومه ، وأنه ما قصّر في دعوتهم ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وعلانية ، كلما

دعاهم ابتعدوا ، ولم تأت قصة المركب في سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأت فيها قصته مع ابنه ، بل جاء بها في سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح في سورة " نوح " وقد خلت من عناصر مهمة في القصة ، وجاءت هذه العناصر في سورة " هود " أو في سورة " الأعراف " التي نتناولها الآن بالخواطر الإيمانية .

(38/274)

إذن ، كل قصة من القصص القرآني تجدها قد جاءت تخدم فكرة ، ومجموعها يعطي كل القصة ؛ لأن الحق حين يورد القصص فهو يأتي بلقطة في سورة لتخدم موقفاً ، ولقطة أخرى تخدم موقفاً آخر وهكذا . وحين شاء أن يرسل لنا قصة محبوكة تماماً ، جاء بقصة " يوسف " في سورة يوسف ولم يكررها في القرآن ، لأنها مستوفية في سورة يوسف ، اللهم إلا في آية واحدة : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُمْ بِهِ حتى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً . . . ﴾ [غافر : 34]

لقد وردت في سورة يوسف حياة يوسف منذ أن كان طفلا حتى أصبح عزيز مصر ، وهكذا نرى أن الحق حين يشاء أن يأتي بالقصة كتاريخ يأتي بها محبوكة ، وحين يريد أن

يلفتنا إلى أمور فيها مواقف وعظات ، يوزع لقطات القصة على مواقع متعددة تتناسب وتتوافق مع تلك المواقع لتأكيد وخدمة هدف . ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ . . . ﴾ [الأعراف : 59]

وساعة ترى " اللام " و " قد " فاعرف أن هذا قسم ، وكأن الحق يقول : وعزتي وجلالي لقد أرسلت نوحاً . وهو بهذا يؤكد المقسم عليه .

والقوم هم الرجال خاصة من المعشر ؛ لأن القوم عادة هم المواجهون للرسالة ، والمرأة محتجبة ؛ تسمع من أبيها أو من أخيها أو من زوجها ، ولذلك قالت النساء للنبي : غلبنا عليك الرجال .

أي أننا لا نجد وسيلة لنقعد معك ونسألك ، فاجعل لنا يوماً من أيامك تعظنا فيه ، فجعل لهن يوماً ؛ لأن المفروض أن تكون المرأة في ستر ، وبعد ذلك ينقل لها الزوج المنهج . إن سمع من الرسول شيئاً ، وكذلك الأب يقول لابنته ، والأخ يقول لأخته .

فإذا تكلم الرسول يقال : إن الرسول واجه القوم ، من قولهم هو قائم على كذا . وقيم على كذا . ولذلك الشاعر العربي يقول :

وما أدري ولست أخال أدري . . . أقوم آل حصن أم نساء

وجاء هنا بالقوم ، والمراد بهم الرجال ، والقرآن يقول : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . . ﴾ [الحجرات : 11]

إذن النساء لا تدخل في القوم ؛ فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم تأتي المتاعب والتصلب في الرأي ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم .

وسيدنا نوح عليه السلام دعا قومه ونبههم إلى ثلاثة أشياء : عبادة الله ، فقال : ﴿ يَاقَوْمِ اعبدوا الله ﴾ ، وبين لهم أنه ليس هناك إله سواه فقال : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ ، وأظهر لهم حرصه وإشفاقه عليهم إذا خالفوا وعصوا فقال : ﴿ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وهكذا تكلم عن العقيدة في الإله الواحد المستحق للعبادة ، وليس آلهة متعددة ، ونعبده أي نطيع أمره ونهيه ، ولأنهم إن لم يفعلوا ذلك فهو يخاف عليهم من عذاب يوم عظيم ، وهو عذاب يوم القيامة . أو أنّ الله كان قد أوحى له بأنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وعذاب يوم عظيم أي يوم الإغراق ، و" الخوف " مسألة تتعب تفكير من يستقبلها ويخاف أن يلقاها . فمن الذي يفزع بهذا ؟

إن الذي يفزع هم الطغاة والجبابرة والسادة والأعيان ووجوه القوم ، وكانوا قد جعلوا من

أنفسهم سادة ، أما سائر الناس وعامتهم فهم العبيد والمستضعفون . والذي يهاج بهذه الدعوة هم السادة لأنه ليس هناك إلا إله واحد ، والأمر لواحد والنهي لواحد والعبادة والخضوع لواحد ، ومن هنا فسوف تذهب عنهم سلطتهم الزمنية ، لذلك يوضح الحق لنا موقف هؤلاء من الدعوة حين يقول : ﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(40/274)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله جل وتعالى : " لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) " ، وفى سورة هود : " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) " ، وفى سورة المؤمنون : " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23) " .

فى هذه الآى ست سؤالات : السؤال الأول فوله فى سورة الأعراف : "لقد أرسلنا " غير

منسوق بواو العطف وفى السورتين الأخيرتين : "ولقد أرسلنا " بواو العطف والثانى اختلاف مقاله عليه السلام لهم والثالث وجه اختصاص الواقع فى كل سورة من الثلاث من مقاله بتلك السور والرابع وجه اختلاف ما خوفهم به وأنذرهم إثر أمرهم بالعبادة فى كل واحدة والخامس وجه ندائهم لهم فى السورتين وسقوط ذلك فى سورة هود والسادس وجه افتتاح أمرهم بالعبادة فى السورتين وقوله فى سورة هود قبل أمره إياهم : "إنى لكم نذير مبين " فهذه ست سؤالات .

الجواب عن الأول : أن آية الأعراف لم يتقدمها ذكر إرسال ولا أمر بدعاء الخلق ولا جملة يناسبها عطف إرسال الرسل إلى الأمم ودعاء الخلق إلى الإيمان إنما تقدم قبلها ذكر أصحاب الأعراف ثم قوله تعالى : "إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض " إلى قوله : "لقوم يشكرون " ثم ابتدأت قصص الرسل مع أممهم فقال تعالى : "لقد أرسلنا نوحا إلى قومه " وتتابع قصصهم .

(41/274)

أما آية هود فقد تقدم قبلها ذكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبذلك افتتحت السورة قال تعالى : "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله " ثم

استمر ذكر دعائهم وتحذيرهم من التولى وما يعقبه إن وقع منهم ثم ذكر تحديه عليه السلام إياهم بالقرآن وطلبهم بمعارضته والإتيان بعشر سور مثله فى البلاغة وعلى النظم وان كان ما يأتون به مفترى ليكون أسهل عليهم ولم يعدل بالآى عن هذا الغرض وما يرجع إليه إلى ذكر إرسال نوح عليه السلام فوردت الآى بذلك منسوقة فقد ورد قبلها ما يناسب عطفها عليه قال تعالى : "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة . . . "الآيات وبعدها : "ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق . . . "الآيات ، فذكرهم بإيجادهم وانتقالهم متقلبين فى أطوار مكتنفين بتوالى إنعامه منسوقا بعض ذلك على بعض مفتتحة المطالع بما يتأتى به القسم من قوله تعالى تحكيما وإظهارا للظاهر من اكتناف إنعامه وإحسانه ثم عطف على ذلك ما أنعم به من إرسال الرسل فذكر أولهم إرسالا إلى الخلق ليناسب ما بدأوا به من النعم الأولية فقال : "ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه " وكل ما ذكر فى هذه الآى نعم متناسبة والآء متوالية ولهذا لم يذكر فى هذه الآية ذكر عذاب الا بالإيماء الوجيز وخصت بقوله عقب الأمر بالعبادة : "أفلا تتقون " فذكرهم بالتقوى المجردة لنجاتهم وتخلصهم من العذاب ولم يكن ليلائم ذكر العذاب والإفصاح به ما تقدم من التذكير بإحسانه سبحانه وإنعامه من أول السورة إلى هنا .

والجواب عن السؤال الثانى : ان دعاء الرسل أممهم مما يتكرر ويتوالى فى أوقات مختلفة محال متباينة فمرة يرغبون ومرة يخوفون وينذرون وذلك بسبب حال حال ولكل مقام مقال .

فاختلاف المحكى من مقالهم إنما هو بحسب اختلاف الأوقات وما يناسب كل وقت وقت وما يجرى فيه ويشاهد من أقوال المدعوين وأحوالهم وكل المحكى من معنى مقالاتهم لا إشكال فيه ، ألا ترى أن نبيا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين كان يدعوا قبائل العرب إذا وفدوا على مكة ويقف على كل قبيلة قبيلة فيكلمهم ويسمعهم القرآن ويدعوهم إلى الله بما يناسب أحوالهم ومقالهم ألا ترى قوله عليه السلام لقبيلة كانت تعلاف ببنى عبد الله "يا بنى عبد الله ان الله قد حسن اسم ابيكم " فكان يفتتح دعاء كل طائفة بمثل هذا فلكل مقام مقال ، فلا سؤال فى المحكى من قول نوح عليه السلام ، لقومه واختلاف ذلك وإنما السؤال فى اختصاص كل سورة بالوارد فيها من حكاية كلامه عليه السلام إذ لا يذكر فى كل سورة الا ما يناسب وهو السؤال الثالث .

والجواب عنه : أنه لما تقدم ذكر اليوم الآخر فى غير ما آية من أول هذه السورة إلى ابتداء قصة نوح وقد تضمن ما ذكر من ذلك من أهوال ذلك اليوم ما يعظم أمره كقوله : "والوزن يومئذ الحق . . . "الآية ، وقوله : "قال ادخلوا فى أمم من قبلكم من الجن والإنس فى النار "الى قوله : "فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون " وقوله : "إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا

عنها لا تفتح لهم أبواب السماء . . . "الآية قوله : "ونادى أصحاب الجنة . . . "الآية وقوله : "إذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار "الى قوله : "ولا أنتم تحزنون " وقوله : "ونادى أصحاب النار . . . "الآية

(43/274)

وقوله : "هل ينظرون إلا تأويله " فلما تقدم من أهوال هذا اليوم ما لم يتقدم فى السورتين الأخريين ناسبه من مقالات نوح لقومه : "إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " وناسب قوله : "ما لكم من إله غيره " قول الممتحنين : "فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا " وأما افتتاح الآية بأمرهم بالعبادة فبين وأما آية هود فافتتاح دعاء نوح قومه فيها بقوله : "إنى لكم نذير مبين " يناسب قول نبينا صلى الله عليه وسلم للعرب فى إخبار الله تعالى عنه : "إننى لكم منه نذير بشير " قوله سبحانه : "إنما أنت نذير " وأما قوله : "إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم " فمناسب لقوله تعالى على لسان نبينا عليه السلام لقومه ممن خاطبه وشافهه : "وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير "وقوله : "ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم "وقوله : "ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده "فتكرر ذكر العذاب يناسبه ما ختمت به آية دعاء نوح عليه السلام من قوله :

"إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم "وأما آية المؤمنين فالجواب عنها ما تقدم منجرا فى الجواب عن السؤال الأول وتحصل من أنه حكى من مقالاته عليه السلام فى كل سورة من هذه الثلاث ما يجرى مع ما اتصل به ويناسبه حسبما تبين ولم يكن ليناسب ورود ما فى سورة منها ما ورد من ذلك فى الأخرى والله أعلم بما أراد .

(44/274)

والجواب عن السؤال الرابع : قد انجر فيما تقدم وعن الخامس أن ندائهم فى السورتين لا كلام فيه لجريانه على ما ينبغى فإنما يسأل عن سقوط ذلك فى سورة هود ؟ ووجهه أن ذلك جار مع ما افتتحت به السورة من قوله على لسان نبينا عليه السلام : "ألا تعبدوا إلا الله " فدعاهم عبادة الله وأن يفردوه بها ولم ينادهم لأن ذلك لم يكن ليلائم مطلع السورة إذ لم يجر ذكره عليه السلام منطوقا به فينزل عليه نداؤهم بل قيل له : "الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير "ثم اتبع هذا بأمرهم مبتدئا بحرف العبارة والتفسير وهو أن الحرف الواقع بعد ما ينبئ ويحصل منه معنى القول وليس بصريح قول ولا مرادف الا أنه يفهمه كقوله تعالى : "وانطلق الملأ منهم أن امشوا " فأن الواقعة حرف عبارة وتفسير المقدرة بأى إنما تأتى بعد ما يفهم القول فكما يقع بعدها ما يدل على تقدير القول وليس بقول كذلك

يقع بعد مالا يلتئم معه ذكر القول ويكون مع ذلك مغنيا عنه ومنه مطلع هذه السورة بعد التنبيه بالحروف المقطعة فقيل : "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله "كما قيل فى آية ص : "ان امشوا واصبروا "فليس موضع صريح القول الذى يقصد به الحكاية ورد دون صريح قول ثم وردت قصة نوح عليه السلام على هذا المنهج للمناسبة ثم جئ بقصة هود وصالح بعد هذا مفتتحين بالقول على ما يجب والله أعلم .

والجواب عن السؤال السادس : ان افتتاح أمرهم بعبادة الله فى سورتى الأعراف والمؤمنين لا سؤال فيه أول ما يطلب به الخلق وإنما يسأل عن افتتاح مكالمتهم فى سورة هود بقوله : "إنى لكم نذير مبين " ؟ وجه ذلك مطابقته لما افتتحت به السورة من قول محمد صلى الله عليه وسلم بأمر ربه مخاطبا بكلامه تعالى : "إننى لكم منه نذير وبشير " . انتهى انتهى . اهـ

﴿ ملاك التأويل صـ 189.192 ﴾

(45/274)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن أنس " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أول نبي أرسل نوح " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو نعيم وابن عساكر عن يزيد الرقاشي قال : إنما سمي نوح عليه السلام نوحاً لطول ما ناح على نفسه .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : إنما سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن مقاتل وجويبر . أن آدم حين كبر ورقَّ عظمه قال : يا رب إلى متى أكد وأسعى ؟ قال : يا آدم حتى يولد لك ولد مختون . فولد له نوح بعد عشرة أبطن ، وهو يومئذ ابن ألف سنة إلا ستين عاماً ، فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس ، وهو اخنوخ بن يرد بن مهلايبل ابن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ، وكان اسم نوح السكن ، وإنما سمي نوح السكن لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه فهو أبوهم ، وإنما سمي نوحاً لأنه ناح على قومه ألف سنة إلا خمسن عاماً يدعوهم إلى الله ، فإذا كفروا بكى وناح عليهم .

وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : كان بين نوح وآدم عشرة آباء ، وكان بين إبراهيم ونوح عشرة آباء .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون

، كلهم على شريعة من الحق .

وأخرج ابن عساكر عن نوف الشامي قال : خمسة من الأنبياء من العرب : محمد ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، عليهم الصلاة والسلام .

(46/274)

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس . أن نوحاً بعث في الألف الثاني ، وأن آدم لم يمت حتى ولد له نوح في آخر الألف الأول ، وكان قد فشت فيهم المعاصي ، وكثرت الجبابرة ، وعتوا عتوّاً كبيراً ، وكان نوح يدعوهم ليلاً ونهاراً ، سراً وعلانية ، صبوراً حليماً ولم يلق أحد من الأنبياء أشد مما لقي نوح ، فكانوا يدخولن عليه فيخنقونه ويضرب في المجالس ويطرد ، وكان لا يدع على ما يصنع به أن يدعوهم ، ويقول : يا رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون ، فكان لا يزيدهم ذلك إلا فراراً منه ، حتى إنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه ويجعل أصابعه في أذنيه لكيلا يسمع شيئاً من كلامه ، فذلك قوله الله ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ﴾ [نوح : 7] ثم قاموا من المجلس فاسرعوا المشي ، وقالوا : امضوا فإنه كذاب . واشتد عليه البلاء ، وكان ينتظر القرن بعد القرن ، والجيل بعد الجيل ، فلا يأتي قرن إلا وهو أخبث من الأول وأعتى من الأول ، ويقول الرجل منهم : قد

كان هذا مع آبائنا وأجدادنا ، فلم يزل هكذا مجنوناً ، وكان الرجل منهم إذا أوصى عند الوفاة يقول لأولاده : احذروا هذا المجنون فإنه قد حدثني آبائي : إن هلاك الناس على يدي هذا .

فكانوا كذلك يتوارثون الوصية بينهم ، حتى إن كان الرجل ليحمل ولده على عاتقه ، ثم يقف به وعليه فيقول : يا بني ان عشت ومت أنا فاحذروا هذا الشيخ ، فلما طال ذلك به وبهم ﴿ قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ [هود : 32] .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن قتادة . أن نوحاً بعث من الجزيرة ، وهوداً من أرض الشحر أرض مهرة ، وصالحاً من الحجر ، ولوطاً من سدوم ، وشعيباً من مدين ، ومات إبراهيم وآدم وإسحق ويوسف بأرض فلسطين ، وقتل يحيى بن زكريا بدمشق .

وأخرج ابن عساكر عن مجاهد قال : كانوا يضربون نوحاً حتى يغشى عليه ، فإذا أفاق قال : رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير قال : إن كان نوح ليضربه قومه حتى يغمى عليه ، ثم يفيق فيقول : اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، وقال شقيق : قال عبد الله : لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم " وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكي نبياً من الأنبياء وهو يقول : اللهمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون " .

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم من وجه آخر عن عبيد بن عمير الليثي . نحوه .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان قوم نوح يخنقونه حتى تترقى عيناه ، فإذا تركوه قال : اللهمَّ اغفر لقومي فإنهم جهلة .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن ماجة عن ابن مسعود قال " كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء قد ضربه قومه وهو يمسح الدم عن جبينه ويقول : اللهمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي مهاجر الرقي قال : لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً في بيت من شعر ، فيقال له : يا نبي الله ابن بيتا . فيقول : أموت اليوم أموت غداً .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن وهيب بن الورد قال : بنى نوح بيتاً من قصب فقيل له : لو بنيت غير هذا ؟ فقال : هذا كثير لمن يموت .

وأخرج ابن أبي الدنيا والعقيلي وابن عساكر والديلمي عن عائشة مرفوعاً " نوح كبير

الأنبياء ، لم يخرج من خلاء فقط إلا قال : الحمد لله الذي أذاقني طعمه وأبقى في منفعته ، وأخرج مني أذاه .

وأخرج البخاري في تاريخه عن ابن مسعود قال : بعث الله نوحاً فما أهلك أمته إلا الزنادقة ، ثم نبي فنبي والله لا يهلك هذه الأمة إلا الزنادقة " .

وأخرج أبو الشيخ عن سعد بن حسن قال : كان قوم نوح عليه السلام يزرعون في الشهر مرتين ، وكانت المرأة تلد أول النهار فيتبعها ولدها في آخره .

(48/274)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : ما عذب قوم نوح ، حتى ما كان في الأرض سهل ولا جبل إلا له عامر يعمره وحائز يحوزه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم . أن أهل السهل كان قد ضاق بهم وأهل الجبل ، حتى ما يقدر أهل السهل أن يرتقوا إلى الجبل ولا أهل الجبل أن ينزلوا إلى أهل السهل في زمان نوح . قال : حسوا .

وأخرج أبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن وهب بن منبه قال : كان نوح أجمل أهل زمانه ، وكان يلبس البرقع ، فاصابتهم مجاعة في السفينة ، فكان نوح إذا تجلى بوجهه لهم شبعوا .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان وابن عساكر عن ابن عباس قال " لما حجَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بوادي عسفان فقال : لقد مر بهذا الوادي هود وصالح ونوح على بكرات حمر خطمها الليف ، أُزُرُهُمْ العباء وأرديتهم النمار ، يلبون يحجون البيت العتيق " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عمرو " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى ، وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر صام الدهر وأفطر الدهر " .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد والبزار والحاكم وابن مردويه والبيهقي والصفات عن عبد الله بن عمرو " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن نوحاً لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاصر عليك الوصية ، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين ، آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعن في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق كل شيء وأنهاك عن الشرك الأكبر " .

(49/274)

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أعلمكم ما علم نوح ابنه ؟ قالو : بلى ، قال : آمرك أن تقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، فإن السموات لو كانت في كفة لرجحت بها ، ولو كانت حلقة قصمتها ، وآمرك بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق ، وبها يرزق الخلق " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(50/274)

فائدة

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : نُوحٌ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ آدَمَ بِتَحْرِيمِ الْبَنَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَالْعَمَّاتِ وَالْخَالَاتِ وَسَائِرِ الْفَرَائِضِ ؛ كَذَلِكَ فِي صَحِيحِ الْأَثَرِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَمَنْ قَالَ مِنْ الْمُؤَرِّخِينَ : إنَّ إدْرِيسَ كَانَ قَبْلَهُ فَقَدْ وَهِمَ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ وَهْمِهِ فِي اتِّبَاعِهِ صُحُفَ الْيَهُودِ ، وَكُتُبَ الإِسرائيليات الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ ﴿ فِي الْإِسْرَاءِ ، حِينَ لَقِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آدَمَ وَإِدْرِيسَ ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، وَالِابْنِ الصَّالِحِ .

وَقَالَ لَهُ إِدْرِيسُ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ ﴾ .

وَلَوْ كَانَ إِدْرِيسُ أَبًا لِنُوحٍ عَلَى صُلْبِ مُحَمَّدٍ لَقَالَ لَهُ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ . فَلَمَّا قَالَ لَهُ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَجْتَمِعُ مَعَهُ فِي أَبِيهِمْ نُوحٍ ، وَلَا كَلَامَ لِمُنْصِفٍ بَعْدَ هَذَا .

(51/274)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رُوِيَ أَنَّ نُوحًا سُمِّيَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ نَاحَ عَلَى قَوْمِهِ ، وَأَكْثَرُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ مَعَهُمْ ، وَالنَّوْحُ هُوَ الْبُكَاءُ عَلَى الْمَيِّتِ ، وَكَانُوا مَوْتَى فِي أَدْيَانِهِمْ لِعَدَمِ إِجَابَتِهِمْ دُعَاءَهُ لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَإِبَايَتِهِمْ عَنْ قَبُولِهِمْ لِلتَّوْحِيدِ ؛ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ الِاشْتِقَاقُ يُعَضِّدُهُ مِنْ وَجْهٍ فَإِنَّهُ يَرُدُّهُ أَنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ الْأَسْمَاءِ قَبْلَ إِسْمَاعِيلَ لَمْ تَكُنْ عَرَبِيَّةً .

أَمَّا إِنَّ ذِكْرَ الْعُلَمَاءِ لِذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى مَسْأَلَةٍ ؛ وَهِيَ جَوَازُ اشْتِقَاقِ الْأَسْمَاءِ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَتَكَسَّبُونَهَا ، إِذَا لَمْ تَكُنْ عَلَى طَرِيقِ الذَّمِّ ، ﴿ وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَنَّى الدَّوْسِيَّ مِنْ أَصْحَابِهِ بِهِرَّةٍ كَانَ يَكْتَسِبُ لُزُومَهَا مَعَهُ ، وَدَعَاهُ لِذَلِكَ بِأَبِي هُرَيْرَةَ ﴾ ، فِي أَمْثَالٍ لِهَذَا كَثِيرَةٍ مِنْ آثَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةِ وَالْعُلَمَاءِ نَبَّهْنَا عَلَيْهِ .

فَإِنْ قِيلَ : وَأَيُّ مَدْحٍ فِي لُزُومِ الْهِرَّةِ ؟ قُلْنَا : لِأَنَّهَا مِنْ الطَّوَّافِينَ وَالطَّوَّافَاتِ يَصْغَى لَهَا الْإِنَاءُ ، وَلَا تُفْسِدُ الْمَاءَ إذَا وَلَغَتْ فِيهِ ، وَفِيهَا مَنْفَعَةٌ عَظِيمَةٌ تَكُفُّ إذَايَةَ الْفَأْرِ ، وَمَا يُؤْذِي الْإِنْسَانَ مِنْ الْحَشَرَاتِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : سَمِعْت مَالِكًا يَقُولُ : الطُّوفَانُ الْمَاءُ ، وَالْجَرَادُ كَانَ يَأْكُلُ الْمَسَامِيرَ ، وَإِنَّ سَفِينَةَ نُوحٍ أَتَتْ الْبَيْتَ فِي جَرَيَانِهَا فَطَافَتْ بِهِ سَبْعًا .

(52/274)

وَإِنَّمَا قَالَ مَالِكٌ هَذَا لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ الْمُفَسِّرِينَ رَوَتْ عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّ الطُّوفَانَ هُوَ الْمَوْتُ ﴾ .

وَحَقِيقَةُ الطُّوفَانِ وَهُوَ الثَّانِي أَنَّهُ مَصْدَرٌ مِنْ طَافَ ، أَوْ جَمْعٌ ، وَاحِدَتُهُ طُوفَانَةٌ ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا ﴾ الْآيَةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " لقد أرْسَلْنَا "

جواب قسم محذوف تقديره : " واللَّه لقد أرْسَلْنَا " .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : فإن قلت : ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللاَّم إلاَّ مع " قَدْ " ، وقلَّ عنهم

قوله : [الطويل]

2497 - حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ . . .

لَنَامُوا . . . . . .

قلتُ : إنَّمَا كان ذلك ؛ لأنَّ الجملة القسميَّة لا تساقُ إلا تأكيداً للجملةِ المُقْسَم عليها ، التي هي جوابها ، فكانت مَظِنَّةً لمعنى التَّوَقُّعِ الذي هو معنى " قَدْ " استماع المخاطب كلمة القسم .

وأما غير الزَّمَخْشَرِيِّ من النُّحَاةِ فإنَّهُ قال : إذا كان جواب القسم ماضياً مثبتاً متصرفاً : فإمَّا أن يكُونَ قريباً من زمن الحال فتأتي بـ " قَدْ " وإلاَّ أتيت باللاَّم وَحْدَهَا فظاهر هذه

العبارة جواز الوَجْهَيْنِ باعتبارَيْنِ .

وقال هنا هنا : " لقد " من غير عاطف ، وفي " هود " [25] و" المؤمنين " [23] : ولقد بعاطف ، وأجاب الكَرْمَانيُّ بأن في " هود " قد تقدَّم ذكر الرَّسولِ مرَّات ، وفي " المؤمنين " ذكر نُوحٍ ضِمْناً في قوله ﴿ وَعَلَى الفلك ﴾ [غافر : 80] ؛ لأَنَّهُ أوَّلُ من صنعها ، فحسن أن يُؤتى بالعاطف على ما تقدَّمن بخلافِهِ في هذ السُّورةِ .

قوله : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

قرأ الكِسَائِيُّ " غيره " بخفض الرَّاءِ في جميع القُرآنِ ، والباقون برفعها ، وقرأ عيسى بْنُ عمرَ بنصبها ، فالجرُّ على النَّعْتِ والبَدَلِ من موضع " إله " ؛ لأن " مِنْ " مزيدة فيه ، وموضعه رفع : إما بالابتداء ، وإمَّا بالفاعليةَّ ، ومنع مكيٌّ في وجه الجرِّ أن تكون بدلاً من إله على اللَّفْظِ ، قال : كما لا يَجُوزُ دخول " مِنْ " لو حذفت المبدل منه ؛ لأنَّها لا تدخل في الإيجابِ ، وهذا كلام متهافت .

والنَّصْبُ على الاستِثْنَاءِ ، والقراءتانِ الأوليانِ أرجح ؛ لأنَّ الكلام متى كان غير إيجاب ، رجَّح الاتباع على النَّصْبِ على الاستثناء وحكم غير حكم الاسم الواقع بعد " إلاَّ " ، و" مِنْ إِلهٍ " إذا جَعَلْته مبتدأ فلك في الخبر وجهان :

أظهرهما : أَنَّهُ " لَكُمْ " .

والثاني : أَنَّهُ محذوف ، أي : ما لكم من إله في الوجود ، أو في العالم غير الله ، و" لَكُمْ " على

هذا تخصيص وتبيين .

فصل فيما تضمنته الآية من حذف

قال الواحِدِيُّ : " في الكلام حذفٌ ، وهو خبر ما ؛ لأَنَّكَ إذا جعلت غيره صفة لقوله : " إله " لم يبق لهذا المنفي خبر ، والكلامُ لا يستقِلُّ بالصّفةِ والموصوف ، فإنَّكَ إذا قلتَ : زيدٌ العاقلُ وسكتَّ لم يُفِدْ ما لم تذكر خبره ويكون التَّقْدِيرُ : ما لكم من إله غيره في الوجود " .

(54/274)

قال ابن الخطيب : اتَّفَقَ النَّحويُّونَ على أنَّ قولنا : " لا إله إلا الله " لا بد فيه من إضمار ، والتَّقْديرُ : لا إله في الوجود إلا الله ولا إله لنا إلا الله ، ولم يذكروا على هذا الكلام حجَّةً ، فنقولُ : لِمَ لا يجوز أن يقال : دخل حرف النَّفي على هذه الحقيقةِ وعلى هذه الماهِيَّةِ ، فيكون المعنى أنَّهُ لا تحقق لحقيقة الإلهية إلا في حقِّ الله تعالى ، وإذا حملنا الكلامَ على هذا المعنى استغنينا عن الإضْمَارِ الذي ذكروه .

فإنْ قالوا : صرف النفي إلى الماهِيَّةِ لا يمكنُ ؛ لأنَّ الحقائِقَ لا يُمْكِنُ نَفْيُهَا ، فلا يمكن أن يُقَال : لا سواد بمعنى ارتفاع هذه الماهِيَّةِ ، وإنَّمَا الممكن أن يقال : إنَّ تلك الحَقَائِقَ غيرُ موجودة ، ولا حاصلة ، وحينئذٍ يجب إضمار الخبر فنقول : هذا الكلامُ بِنَاءٌ على أنَّ الماهيَّة لا يمكن

انِتفَاؤُهَا وارتفاعها ، وذلك بَاطِلٌ قطعاً ، إذ لو كان الأمر كذلك ؛ لوَجَبَ امتناعُ ارتفاع الوُجُودِ ؛ لأنَّ الوُجُود أيضاً حقيقة من الحقائق ، وماهيّة من المَاهِيَّات ؛ فوجب ألاَ يرتفعَ الوُجودُ أيضاً ، فإن أمكن ارتفاع الوُجُودِ مع أنَّهُ ماهيّة وحقيقة فلم لا يمكنُ ارتفعُ سائر الماهيَّاتِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 174.178 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) ﴾

بَلَّغَ الرسالةَ فلم ينجعْ فيهم ما أظهر من الآلاء ، لأنَّ محرومَ القسمة لا ينفعه مجهودُ الحيلة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 543 ﴾

(55/274)

قوله تعالى ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم ذلك ، وكان الحال مقتضياً – مع ما نصب من الأدلة الواضحة على الوحدانية – لأن يجيبوا بالتصديق ، كان كأنه قيل : فبماذا كان جوابهم ؟ فقال ﴿ قال الملأ ﴾ أي الأشراف الذين يملأ العيون مرآهم عظمة ، وتتوجه العيون في المحافل إليهم ، ولم يصفهم في هذه السورة بالكفر لأن ذلك أدخل في التسلية ، لأنها أول سورة قص فيها مثل هذا في ترييب الكتاب ، ولأن من آمن به مطلقاً كانوا في جنب من لم يؤمن في غاية القلة ، فكيف عند تقييدهم بالشرف ! وأكد ذمهم تسلية لهذا النبي الكريم بالتعريف بقربهم منه في النسب بقوله : ﴿ من قومه ﴾ وقابلوا رقته وأدبه بغلظة مؤكداً ما تضمنته من البهتان لأن حالهم مكذب لهم فقالوا : ﴿ إنا لنراك ﴾ أي كل واحد منا يعتقد اعتقاداً هو في الثقة به كالرؤية أنك ﴿ في ضلال ﴾ أي خطأ وذهاب عن الصواب ، هو ظرف لك محيط بك ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر في نفسه حتى كأنه يظهر ذلك لغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 48 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى حكى ما ذكره في قومه ، فقال : ﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ وقال المفسرون : ﴿ الملأ ﴾ الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء ، والدليل عليه أن قوله ﴿ مِن قَوْمِهِ ﴾ يقتضي أن ذلك الملأ بعض قومه ، وذلك

البعض لا بد وأن يكونوا موصوفين بصفة لأجلها استحقوا هذا الوصف ، وذلك بأن يكونوا هم الذين يملؤن صدور المجالس ، وتمتلىء القلوب من هيبتهم ، وتمتلىء الأبصار من رؤيتهم ، وتتوجه العيون في المحافل إليهم ، وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء ، وذلك يدل على أن المراد من الملأ الرؤساء والأكابر .

وقوله : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ ﴾ هذه الرؤية لا بد وأن تكون بمعنى الاعتقاد والظن دون المشاهدة والرؤية .

وقوله : ﴿ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في خطأ ظاهر وضلال بين ، ولا بد وأن يكون مرادهم نسبة نوح إلى الضلال في المسائل الأربع التي بينا أن نوحاً عليه السلام ذكرها ، وهي التكليف والتوحيد والنبوة والمعاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 122 ﴾

(56/274)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ وهم الرؤساء والأجلة والأشراف ، سموا بذلك لأنهم مِلئوا بما يحتاج إليه منهم ، ويقال : لأنهم ملؤوا الناظر هيبة إذا اجتمعوا في موضع .

قالوا : ﴿ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ يعني : في خطأ بَيّنٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ ﴾

يعني الأشراف والسادة ، وقال الفراء : هم الرجال ليست فيهم امرأة ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ ﴾ خطال وزوال عن الحق ﴿ مُّبِينٍ ﴾ يعني ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(57/274)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ ﴾

﴿ الملأ ﴾ الجماعة الشريفة ، قال الطبري : لا امرأة فيهم ، وحكاه النقاش عن ثعلب في الملأ والرهط والنفر والقوم ، وقيل هم مأخوذون من أنهم يملؤون النفس والعين ، ويحتمل أن يكون من أنهم إذا تمالؤوا على أمر تم ، وقال سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري عند قفول رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر إنما قتلنا عجائز صلعاً ، فقال له النبي صلى

الله عليه وسلم : " أولئك الملأ من قريش لو حضرت أفعالهم لاحتقرت فعلك " والملأ صفة غالبة وجمعه أملاء وليس من باب رهط وإن كانا اسمين للجمع لأن رهط لا واحد له من لفظه ، و" ملأ " يوجد من لفظه مالىء قال أحمد بن يحيى : المالىء الرجل الجليل الذي يملأ العين بجهرته فيجيء كعازب وخادم ورائح فإن أسماء جموعها عرب وخدم وروح ، وإن كان اللفظة من تمالأ القوم على كذا فهي مفارقة باب رهط ومنه قول علي رضي الله عنه : ما قتلت عثمان ولا مالأت في دمه ، وقال ابن عباس " الملؤ " بواو وكذلك هي في مصاحف الشام ، وقولهم لنراك يحتمل أن يجعل من رؤية البصر ، ويحتمل من رؤية القلب وهو الأظهر و﴿ في ضلال ﴾ أي في إتلاف وجهالة بما نسلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(58/274)

وقال أبو حيان :

﴿ قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ﴾

قال ابن عطية قرأ ابن عامر الملو بالواو وكذلك هي في مصاحف أهل الشام انتهى وليس مشهوراً عن ابن عامر بل قراءته كقراءة باقي السبعة بهمزة ولم يجبه من قومه إلا أشرافهم

وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرّسل لانغمار عقولهم بالدنيا وطلب الرئاسة والعلوّ فيهما .

ونراك الأظهر أنها من رؤية القلب ، وقيل : من رؤية العين ومعنى ﴿ في ظلال مبين ﴾ أي في ذهاب عن طريق الصواب وجهالة بما تسلك بينة واضحة وجاءت جملة الجواب مؤكدة بأن وباللام وفي للوعاء فكان الضلال جاء ظرفاً له وهو فيه ولم يأتِ ضالاً ولا ذا ضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ الملا مِن قَوْمِهِ ﴾

استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية قولِه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل : فماذا قالوا له عليه الصلاة والسلام في مقابلة نصحِه ؟ فقيل : قال الرؤساءُ من قومه والأشرافُ الذين يملأون صدورَ المحافل بإجرامهم والقلوبَ بجلالهم وهيبتِهم والأبصارَ بجمالهم وأُبهتهم ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضلال ﴾ أي ذهاب عن طريق الحقّ والصواب ، والرؤيةُ قلبيةٌ ومفعولاها الضميرُ والظرفُ ﴿ مُّبِينٌ ﴾ بيّنٌ كونُه ضلالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ ﴾

استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية قوله عليه السلام ونصحه لقومه كأنه قيل : فماذا قالوا بعد ما قيل لهم ذلك ؟ فقيل : قال الخ .

والملأ على ما قال الفراء الجماعة من الرجال خاصة .

وفسره غير واحد بالأشراف الذين يملأون القلوب بجلالهم والأبصار بجمالهم والمجالس بأتباعهم ، وقيل : سموا ملأ لأنهم مليون قادرون على ما يراد منهم من كفاية الأمور ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضلال ﴾ أي ذهاب عن طريق الحق ، والرؤية قلبية ومفعولاها الضمير والظرف ؛ وقيل : بصرية فيكون الظرف في موضع الحال ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي بين كونه ضلالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(60/274)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

فُصلت جملة ﴿ قال ﴾ على طريقة الفصل في المحاورات ، واقترن جوابهم بحرف التّأكيد للدّلالة على أنّهم حقّقوا وأكّدوا اعتقادهم أنّ نوحاً منغمس في الضّلالة .

﴿ الملأ ﴾ مهموز بغير مدّ : الجماعةُ الذين أمْرُهم واحد ورأيهم واحد لأنّهم يُمالىء بعضهم بعضاً ، أي يعاونه ويوافقه ، ويطلق الملأ على أشراف القوم وقَادتهم لأنّ شأنهم أن يكون رأيهم واحداً عن تشاور ، وهذا المعنى هو المناسب في هذه الآية بقرينة (مِن) الدّالة على التّبعيض أي أنّ قادة القوم هم الذين تَصدّوا لمجادلة نوح والمناضلةِ عن دينهم بمسمع من القوم الذين خاطبَ جميعَهم ، والرّؤية قلبيّة بمعنى العلم ، أي أنّا لنوقن أنّك في ضلال مبين ولم يوصف الملأ هنا بالذين كفروا ، أو بالذين استكبروا كما وصف الملأ في قصّة هود بالذين كفروا استغناء بدلالة المقام على أنّهم كذّبوا وكفروا .

وظرفية ﴿ في ضلال ﴾ مجازية تعبيراً عن تمكّن وصف الضّلال منه حتّى كأنّه محيط به من جوانبه إحاطة الظرف بالمظروف .

(61/274)

"والضّلال" اسم مصدر ضَلّ إذا أخطأ الطّريق الموصّل ، "والمبين" اسم فاعل من أبان المرادفِ بَان ، وذلك هو الضّلال البالغ الغاية في البعد عن طريق الحقّ ، وهذه شبهة منهم

فإنّهم توهّموا أنّ الحقّ هو ما هم عليه ، فلا عجب إذا جعلوا ما بَعُد عنه بعدا عظيماً ضلالاً بيّناً لأنّه خالفهم ، وجاء بما يعُدّونه من المحال ، إذْ نفَى الإلهيةَ عن آلهتهم ، فهذه مخالفة ، وأثبتها لله وحده ، فإن كانوا وثنيين فهذه مخالفة أخرى ، وتوعدهم بعذاب على ذلك وهذه مخالفة أيضاً ، وإن كان العذاب الذي توعدهم به عذاب الآخرة فقد أخبرهم بأمر محال عندهم وهو البعث ، فهي مخالفة أخرى ، فضلاله عندهم مبينٌ ، وقد يتفاوت ظهوره ، وادّعى أنّ الله أرسله وهذا في زعمهم تعمد كذب وسفاهةُ عقل وادعاءُ محال كما حكي عنهم في قوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنّا لنراك في سفاهة وإنّا لنظنّك من الكاذبين ﴾ [الأعراف : 66] وقوله هنا ﴿ أَوَعجبتم أن جاءكم ذكر من ربّكم ﴾ [الأعراف : 63] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(62/274)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

والملأ هم سادة القوم وأعيانهم وأشرافهم ، أو الذين " يملأون " العين هيئة ويملأون القلوب هيبة ، ويملأون صدور المجالس بنية .

إنهم خائفون أن تكون دعوة نوح هي الدعوة إلى الطريق المستقيم وكلامه هو الهداية ؛ فيمنّوا أنفسهم بأن هذا ضلال وخروج عن المنهج الحق : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أي غيبة عن الحق ، أو في تيه عن الحق ، و" مبين " أي محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ويرد نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(63/274)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " قَالَ المَلأ " .

قال ابن عطية : وقرأ ابن عامر : " المَلَؤُ " بواوٍ ، وهي كذلك في مصاحفِ الشَّامِ ، وهذه القراءةِ ليست مَشْهُورةٌ عنه قال المفسّرُونَ : الملأ : الكبراء والسَّاداتُ الذين جعلَوا أنفسهم أضداد الأنبياء ، ويدلُّ على ذلك قوله : " مِنْ قَوْمِهِ " ؛ لأَنَّهُ يقتضي التَّبْعِيضَ ، وذلك البَعْضُ لا بدَّ وأن يكونوا موصوفين بِصِفَةٍ لأجلها استحقُّوا هذا الوَصْفَ بأن يكونوا هم الذين يملئون صدور المَجَالس ، وتمتلىء القلوب من هَيْبَتِهم ، وتمتلىءُ الأبصارُ من رُؤيتهم ، وهذه

الصِّفاتُ لا تحصل إلا في الرُّؤسَاءِ .

قوله : " إنَّا لَنَرَاكَ " يجوز أن تكون الرُّؤيَةُ قلبية فتتعدى لاثنين ثانيهما " في ضلالٍ " ، وأن تكون البَصريَّة وليس بظاهر فالجارُّ حال ، وجعل الضَّلالِ ظَرْفاً مبالغة في وصفهم له بذلكَ ، وزادوا في المبالغة أكَّدوا ذلك بأن صَدَّرُوا الجملة بـ " إنَّ " وفي خبرها اللاَّم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 179 . 180 ﴾

(64/274)

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قذفوه بضلال مقيد بالوضوح ، نفى الضلال المطلق الذي هو الأعم ، وبنفيه ينتفي كل أخصيّاته بل نفي أقل شيء من الضلال ، فقال تعالى مخبراً عنه ﴿ قال يا قوم ﴾ مجدداً لاستعطافهم ﴿ ليس بي ضلالة ﴾ فنفى وحدة غير معينة ، ولا يصدق ذلك إلا بنفي لكل فرد ، فهو أنص من نفي المصدر ، ولم يصف الملأ من قومه هنا بالذين كفروا ووصفهم بذلك في سورة هود ، إما لأنها صفة ذم لم يقصد بها التقييد فلا يختل المعنى بإثباتها ولا نفيها ، أو

لأنهم أجابوه بذلك مرتين : إحداهما قبل أن يسلم أحد من أشرافهم ، والثانية بعد أن أسلم بعضهم .

ولما نفى ما رموه به على هذا الوجه البليغ ، أثبت له ضده بأشرف ما يكون من صفات الخلق ، فقال مستدركاً – بعد نفي الضلال – إثبات ملزوم ضده : ﴿ ولكني رسول ﴾ أي إليكم بما أمرتكم به فأنا على أقوم طريق ﴿ من رب العالمين ﴾ أي المحسن إليهم بإرسال الرسل لهدايتهم بإنقاذهم من الضلال ، فرد الأمر عليهم بألطف إشارة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 48 . 49 ﴾

فصل

قال الفخر :

ولما ذكروا هذا الكلام . أجاب نوح عليه السلام بقوله : ﴿ يا قوم لَيْسَ بِى ضلالة ﴾ .

فإن قالوا : إن القوم قالوا : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ .

فجوابه أن يقال : ليس بي ضلال ، فلم ترك هذا الكلام ، وقال : ليس بي ضلالة ؟

قلت : لأن قوله : ﴿ لَيْسَ بِى ضلالة ﴾ أي ليس بي نوع من أنواع الضلالة ألبتة ، فكان هذا أبلغ في عموم السلب ، ثم إنه عليه السلام لما نفى عن نفسه العيب الذي وصفوه به ، ووصف نفسه بأشرف الصفات وأجلها ، وهو كونه رسولاً إلى الخلق من رب العالمين .

ذكر ما هو المقصود من الرسالة ، وهو أمران : الأول : تبليغ الرسالة .

والثاني : تقرير النصيحة .

فقال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رسالات ربّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 122.123 ﴾

(65/274)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وفي الآية بيان أدب الخلق في حسن الجواب والمخاطبة .

لأنه ردّ جهلهم بأحسن الجواب ، وهذا كما قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] يعني : السداد من القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ ﴾

ولم يقل : ليست لأن معنى الضلالة الضال ، وقد يكون على معنى تقديم الفعل ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله لهم جواباً عن هذا ﴿ ليس بي ضلالة ﴾

مبالغة في حسن الأدب والإعراض عن الجفاء منهم وتناول رفيق وسعة صدر حسبما يقتضيه خلق النبوة ، وقوله : ﴿ ولكني رسول ﴾ تعرض لمن يريد النظر والبحث والتأمل في المعجزة .

قال القاضي أبو محمد : ونقدر ولا بد أن نوحاً عليه السلام وكل نبي مبعوث إلى الخلق كانت له معجزة تخرق العادة فمنهم من عرفنا بمعجزته ومنهم من لم نعرف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(66/274)

وقال أبو حيان :

﴿ قال يا قوم ليس بي ظلالة ولكني رسول من رب العالمين ﴾

لم يرد النفي منه على لفظ ما قالوه فلم يأتِ التركيب لست في ضلال مبين بل جاء في غاية الحسن من نفي أن يلتبس به ويختلط ضلالة ما واحدة فأنى يكون في ضلال فهذا أبلغ من الانتفاء من الضلال إذ لم يعتلق به ولا ضلالة واحدة وفي ندائه لهم ثانياً والإعراض عن

جفائهم ما يدلّ على سعة صدره والتلطّف بهم .

ولما نفى عنهم التباس ضلالة ما به دلّ على أنه على الصراط المستقيم فصحّ أن يستدرك كما تقول ما زيد بضالّ ولكنه مهتد فلكن واقعة بين نقيضين لأنّ الإنسان لا يخلو من أحد الشيئين : الضّلال والهدى ولا تجامع ضلالة الرسالة وفي قوله : ﴿ من رب العالمين ﴾ تنبيه على أنه ربهم لأنهم من جملة العالم أي من ربّكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة حيث وجه إليكم رسولاً يدعوكم إلى إفراده بالعبادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما سبق ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ ناداهم بإضافتهم إليه استمالةً لقلوبهم نحو الحق ﴿ لَيْسَ بِى ضلالة ﴾ أيُّ شيءٍ ما من الضلال ، قصد عليه الصلاة والسلام تحقيقَ الحق في نفي الضلالِ عن نفسه رداً على الكفرة حيث بالغوا في إثباته له عليه الصلاة والسلام حيث جعلوه مستقراً في الضلال الواضحِ كونُه ضلالاً ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنّي رَسُولٌ مِن رَّبّ العالمين ﴾ استدراكٌ مما قبله باعتبار ما يستلزِمه من كونه في أقصى مراتبِ الهداية ، فإن رسالةَ ربِّ العالمين مستلزِمةٌ لا محالة ، كأنه قيل : ليس بي شيءٌ من الضلال ولكني في الغاية القاصيةِ من الهداية . ومن لابتداء الغايةِ مجازاً متعلقةٌ بمحذوف هو صفةٌ لرسولٌ

مؤكدةٌ لما يفيده التنوينُ من الفخامة الذاتي بالفخامة الإضافيةِ أي رسولٌ وأيُّ رسولٍ كائنٌ من رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(67/274)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف على طرز سابقه ﴿ عَلَيْهِ قَوْمٌ ﴾ ناداهم بإضافتهم إليه استمالة لهم نحو الحق ﴿ لَيْسَ بِى ضلالة ﴾ نفي للضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه فإن التاء للمرة لأن مقام المبالغة في الجواب لقولهم الأحمق يقتضي ذلك والوحدة المستفادة منه باعتبار أقل ما ينطلق فيرجع حاصل المعنى ليس بي أقل قليل من الضلال فضلاً عن الضلال المبين ، وما يتخايل من أن نفي الماهية أبلغ فإن نفي الشيء مع قيد الوحدة قد يكون بانتفاء الوحدة إلى الكثرة مضمحل بما حقق أن الوحدة ليست صفة مقيدة بل اللفظ موضوع للجزء الأقل وهو الواحد المتحقق مع الكثرة ودونها على أن ملاحظة قيد الوحدة في العام في سياق النفي مدفوع ، وكفاك لا رجل شاهداً فإنه موضوع للواحد من الجنس وبذلك فرق بينه وبين أسامة فإذا وقع عاماً لا يلحظ ذلك .

ولو سلم جواز أن يقال ليس به ضلالة أي ضلالة واحدة بل ضلالات متنوعة ابتداء لكن لا يجوز في مقام المقابلة كما نحن فيه قاله في "الكشف" وبه يندفع ما أورد على "الكشاف" في هذا المقام.

وفي "المثل السائر" الأسماء المفردة الواقعة على الجنس التي تكون بينها وبين واحدها تاء التأنيث متى أريد النفي كان استعمال واحدها أبلغ ومتى أريد الإثبات كان استعمالها أبلغ كما في هذه الآية، ولا يظن أنه لما كان الضلال والضلالة مصدرين من قولك: ضل يضل ضلالاً وضلالة كان القولان سواء لأن الضلالة هنا ليست عبارة عن المصدر بل عن المرة والنفي كما علمت، وإنما بالغ عليه السلام في النفي لمبالغتهم في الإثبات حيث جعلوه وحاشاه مستقراً في الضلال الواضح كونه ضلالاً.

(68/274)

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ استدراك على ما قبله رافع لما يتوهم منه، وذلك على ما قيل أن القوم لما أثبتوا له الضلال أرادوا به ترك دين الآباء ودعوى الرسالة فحين نفى الضلالة توهم منه أنه على دين آبائه وترك دعوى الرسالة فوقع الإخبار بأنه رسول وثابت على الصراط المستقيم استدراكاً لذلك، وقيل: هو استدراك

مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في أقصى مراتب الهداية فإن رسالته من رب العالمين مستلزمة له لا محالة كأنه قيل وليس بي شيء من الضلالة لكني في الغاية القاصية من الهداية ، وحاصل ذلك على ما قرره الطيبي أن لكن حقها أن تتوسط بين كلامين متغايرين نفياً وإثباتاً والتغاير هنا حاصل من حيث المعنى كما في قولك : جاءني زيد لكن عمراً غاب ، وفائدة العدول عن الظاهر إرادة المبالغة في إثبات الهداية على أقصى ما يمكن كما نفى الضلالة كذلك ، وسلك طريق الإطناب لأن هذا الاستدراك زيادة على الجواب إذ قوله : ﴿ لَيْسَ بِي ضلالة ﴾ كان كافياً فيه فيكون من الأسلوب الحكيم الوارد على التخلص إلى الدعوة على وجه الترجيع المعنوي لأنه بدأ بالدعوة إلى إثبات التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى فلما أراد إثبات الرسالة لم يتمكن لما اعترضوا عليه من قولهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ فانتهز الفرصة وأدمج مقصوده في الجواب على أحسن وجه حيث أخرجه مخرج الملاطفة والكلام المنصف يعني دعوا نسبة الضلال إلي وانظروا ما هو أهم لكم من متابعة ناصحكم وأمينكم ورسول رب العالمين ألا ترى أن صالحاً عليه السلام لما لم يعترضوا عليه عقب بإثبات الرسالة إثبات التوحيد ؛ ففي هذه الآية خمسة من أنواع البديع فإذا اقتضى المقام هذا الإطناب كان الاقتصار على العبارة الموجزة تقصيراً انتهى .

ولا يخفى أن هذا الاستدراك غير الاستدراك بالمعنى المشهور .

وقد ذكر غير واحد من علماء العربية أن الاستدراك في لكن أن تنسب لما بعدها حكماً مخالفاً لما قبلها سواء تغايرا إثباتاً ونفياً أو لا ، وفسره صاحب "البسيط" وجماعة برفع ما توهم ثبوته ، وتمام الكلام فيه في "المغني" ، واعتبار اللازم لتحصيل الاستدراك بالمعنى الثاني مما لا يكاد يقبل لأنه لا يذهب وهم واهم من نفي الضلالة إلى نفي الهداية حتى يحتاج إلى تداركه ، ووجهه بعضهم من دون اعتبار اللازم بأنه عليه السلام لما نفى الضلالة عن نفسه فربما يتوهم المخاطب انتفاء الرسالة أيضاً كما انتفى الضلالة فاستدركه بلكن كما في قولك زيد ليس بفقيه لكنه طبيب ، وأنت تعلم أن هذا إن لم يرجع إلى ما قرر أولاً فليس بشيء ، وقيل : إنه إذا انتفى أحد المتقابلين يسبق الوهم إلى انتفاء المقابل الآخر لا إلى انتفاء الأمور التي لا تعلق لها به ، ولهذا يؤول ما وقع في معرض الاستدراك بما يقابل الضلال مثلاً يقال : زيد ليس بقائم لكنه قاعد ولا يقال : لكنه شارب إلا بعد التأويل بأن الشارب يكون قاعداً ، وقال بعض فضلاء الروم : النظر الصائب في هذا الاستدراك أن يكون مثل قوله

: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

وقوله

: هو البدر إلا أنه البحر زاخرا . . .

سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

كأنه قيل : ليس بي ضلالة وعيب سوى أني رسول من رب العالمين ، وأنت تعلم أن هذا النوع يقال له عندهم تأكيد المدح بما يشبه الذم وهو قسمان ما يستثنى فيه من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح لذلك الشيء بتقدير دخولها في صفة الذم المنفية .

وما يثبت فيه لشيء صفة مدح ويتعقب ذلك بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى لذلك ، والظاهر أن ما في الآية من القسم الأول إلا أنه غير غني عن التأويل فتأمل .

(70/274)

و﴿ مِنْ ﴾ فيها لابتداء الغاية مجازاً متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسول مؤكدة ما يفيده التنوين من الفخامة الذاتية كأنه قيل : إني رسول وأي رسول كائن من رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(71/274)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) ﴾

فصلت جملة : ﴿ قال ﴾ على طريقة فَصْل المحاورات .

والنّداء في جوابه إياهم للاهتمام بالخبر ، ولم يخصّ خطابَه بالذين جاوبوه ، بل أعاد الخطاب إلى القوم كلّهم ، لأنّ جوابه مع كونه مجادلة للملأ من قومه هو أيضاً يتضمّن دعوة عامة ، كما هو بيِّن ، وتقدّم آنفاً نكتة التّعبير في ندائهم بوصف القوم المضاف إلى ضميره ، فأعاد ذلك مرّة ثانية استنزالاً لطائر نفوسهم ممّا سيَعقُب النّداء من الرد عليهم وإبطال قولهم ﴿ إنّا لنراك في ضلال مبين ﴾ [الأعراف : 60] .

والضّلالة مصدر مثل الضّلال ، فتأنيثه لَفْظي محض ، والعرب يستشعرون التّأنيث غالباً في أسماء أجناس المعاني ، مثل الغواية والسّفاهة ، فالتّاء لمجرّد تأنيث اللّفظ وليس في هذه التّاء معنى الوحدة لأنّ أسماء أجناس المعاني لا تراعَى فيها المُشخّصات ، فليس الضّلال بمنزلة اسم الجمع للضّلالة ، خلافاً لما في "الكشاف" ، وكأنّه حاول إثبات الفرق بين قول قومه له ﴿ إنّا لنراك في ضلال ﴾ [الأعراف : 60] ، وقوله هُو : ﴿ ليس بي ضلالة ﴾ وتبعه فيه الفخر ، وابن الأثير في "المثل السّائر" ، وقد تكلّف لتصحيحه التفتازاني ، ولا حاجة إلى ذلك ، لأنّ التّخالف بين كلمتي ضلال وضلالة اقتضاه التّفنّن حيث سبق لفظ ضلال ، وموجب سبقه إرادة وصفه بـ ﴿ مبين ﴾ [الأعراف : 60] ، فلو عبّر هنالك

بلفظ ضلالة لكان وصفها بمبيّنة غير مألوف الاستعمال ، ولما تقدّم لفظ ﴿ ضلال ﴾ [الأعراف : 60] استحسن أن يعاد بلفظ يغايره في السّورة دفعاً لثقل الإعادة ؛ فقوله : ﴿ ليس بي ضلالة ﴾ ردّ لقولهم : ﴿ إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ [الأعراف : 60] بمساويه لا بأبلغ منه .

(72/274)

والباء في قوله : ﴿ بي ﴾ للمصاحبة أو الملابسة ، وهي تناقض معنى الظرفية المجازية من قولهم ﴿ في ضلال ﴾ [الأعراف : 60] فإنّهم جعلوا الضّلال متمكّنا منه ، فنفى هو أن يكون للضّلال متلبّس به .

وتجريد ﴿ ليس ﴾ من تاء التّأنيث مع كون اسمها مؤنّث اللّفظ جرى على الجواز في تجريد الفعل من علامة التّأنيث ، إذا كان مرفوعه غير حقيقي التّأنيث ، ولمكان الفصل بالمجرور .

والاستدراك الذي في قوله ﴿ ولكني رسول ﴾ لرفع ما توهّموه من أنّه في ضلال حيث خالف دينهم ، أي هو في حال رسالة عن الله ، مع ما تقتضي الرّسالة من التّبليغ والنّصح والإخبارِ بما لا يعلمونه ، وذلك ما حسبوه ضلالاً ، وشأن (لكن) أن تكون جملتها مفيدة معنى يغاير معنى الجملة الواقعة قبلها ، ولا تدلّ عليه الجملة السّابقة وذلك هو حقيقة

الاستدراك الموضوعة له (لكِنّ) فلا بد من مناسبة بين مضموني الجملتين : إما في المسند نحو ﴿ ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكنّ الله سَلَّم ﴾ [الأنفال : 43] أو في المسند إليه نحو ﴿ وما رميتَ إذ رميت ولكنّ الله رمى ﴾ [الأنفال : 17] فلا يحسن أن تقول : ما سافرت ولكنّي مقيم ، وأكثر وقوعها بعد جملة منفية ، لأنّ النّفي معنى واسع ، فيكثر أن يحتاج المتكلّم بعده إلى زيادة بيان ، فيأتي بالاستدراك ، ومن قال : إنّ حقيقة الاستدراك هو رفْعُ ما يتوَهَّم السّامع ثبوتَه أو نفيه فإنّما نظر إلى بعض أحوال الاستدراك أو إلى بعض أغراض وقوعه في الكلام البليغ ، وليس مرادُهم أنّ حقيقة الاستدراك لا تتقوم إلاّ بذلك .

واختيار طريق الإضافة في تعريف المرسِل : لما تؤذن به من تفخيم المُضاف ومن وجوب طاعته على جميع النّاس ، تعريضاً بقومه إذ عصوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(73/274)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

هم قالوا له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ، المتبادر أن يكون الرد : ليس في أمري ضلال ، لكنه قال هنا : ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ ، أقول ذلك لنعرف أن كل حرف في القرآن موزون لموضعه . هم قالوا له : إنا لنراك في " ضلال ، فيرد عليهم ليس بي ضلالة ؛ لأن الضلال جنس يشمل الضلالات الكثيرة ، وقوله يؤكد أنه ليس عنده ضلالة واحدة . وعادة نفي الأقل يلزم منه نفي الأكثر ، مثلاً عندما يقول صديق : عندك تمر من المدينة المنورة ؟ تقول له : ليس عندي ولا تمرة واحدة . أنت بذلك نفيت الأقل ، وهذا أيضاً نفي للأكثر . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ .

وحين ينفي نوح عن نفسه وجود أدنى ضلالة فذلك لأنه يعرف أنه لم يأت من عنده بذلك ، ولو كان الأمر كذلك لاتّهم نفسه بأن هواه قد غلبه ، لكنه مرسل من عند إله حق . ﴿ . . وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : 61]

وقوله : " ولكني " استدراك فلا تقولوا : أنا في ضلال ؛ فليس فيّ ضلالة واحدة ، لكن أنا رسول يبلغ عن الله ، الله لا يعطي غير الهدى .

﴿ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي من سيد العالمين ومن متولى تربية العالمين ، ومن يتولى التربية لا يُنزل منهجاً يضل به من يربيهم ، بل ينزل منهجاً ليصلح من يربيهم ، وسبحانه قبل أن يأتي بهم إلى الوجود سخر لهم كل هذا الكون ، وأمدهم بالأرزاق حتى الكافرين منهم ، ومن يعمل كل ذلك لن يرسل لهم من يضلهم .

ويستمر البلاغ من نوح عليه السلام لقومه فيقول : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ . . . ﴾ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(74/274)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) " ، وقال فى سورة هود : " فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا " وقال فى سورة المؤمنين : " فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ " .

قلت هذه أجوبة فى مقامات شتى وأحوال مختلفة فلا سؤال فى اختلافها وإنما السؤال عن وجه الواقع فى كل سورة إذ لا يكون الا لمناسبة وقد تقدم بيان هذا فى الآية قبلها فيسأل عن ذلك ؟ وعن ثبوت الفاء فى قوله : "فقال " فى سورة هود وسورة المؤمنين وسقوطها فى سورة الأعراف ؟ وعن وصف الملإ بالكفر فى السورتين وسقوط هذا الوصف من آية الأعراف ؟ فهذه ثلاثة أسؤلة .

والجواب عن الأول والله أعلم : إن تقول : أن تخصيص الواقع من الملأ من قوم نوح عليه السلام جوابا له عند دعائهم فى سورة الأعراف إلى عبادة الله مناسب لما تقدم فيها من قول مكذبى الرسل حين تتوفاهم الملائكة قال تعالى : "حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا "وقول أخراهم لأولاهم عند دخولهم النار وتداركهم فيها جميعا : "ربنا هؤلاء أضلونا " فصار هذا مألوفا من كلامهم وجوابا متكررا منهم ثم قد جرى على هذا إخبار الله سبحانه عنهم عند تمنيهم الشفعاء أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم قال الله تعالى : "قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " ولم يتقدم فى السورتين بعد مثل هذا فناسب هذا ما تقدم .

(75/274)

وأما فى سورة هود من قول الملأ المذكورين من قوم نوح فقد تقدم فى صدر السورة قوله تعالى مخبرا عن كفار قريش وغيرهم من معاندى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم " فأعلم سبحانه بطغيانهم وتمردهم فى كفرهم فناسب هذا قول المتمردين من قوم نوح : "ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين

".

وأما الوارد فى سورة المؤمنين فإنه تقدم فيها قوله تعالى : "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين " ، فذكر سبحانه تطور الإنسان فى تقلبات وأحوال تشهد بحاله الحضيضه ومهانته الأوليه إلى أن تلحقه العناية الربانية والاختصاص الاصطفائى فيعز بإعزاز موجده ويختص باختصاص التقريب والتشريف فتتفاوت أقدار الخلق عند ذلك فمنهم اللاحق بأشراف المقامات وأسنى الحالات ومنهم الباقى فى حضيضيته من غير ترق لما فوقها من الانتقالات ولما لم يتلمح الملأ من قوم نوح جليل مزية التشريف وما منحه هذ النبى الكريم من على قدره المنيف ، وظنوا التساوى على مقتضى الحاله الأوليه قالوا يخاطبون أتباعهم وجوابا لنبيهم عليه السلام : "ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم . . . " الآية .

وتأمل مقال الملأ هنا ومناسبته لما قدم من خلق الإنسان تجده أنسب شئ ولم يكن مقالهم فى كل موضع من هذه ليناسب غير ما وقع فيه والله أعلم .

(76/274)

والجواب عن السؤال الثانى : أن الواقع فى سورة هود من قوله تعالى مخبرا عن جواب قوم نوح : "ما نراك إلا بشرا مثلنا "إلى آخر كلامهم كلام لا يستقل مبتدأ به بل يستدعى ما يبنى عليه إذ لا يفتتح أحد أحدا مبتدئا بمثل هذا وإنما يتكلم بهذا جوابا ولما قال لهم نوح عليه السلام : "يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره " إلى ما عرفهم به مما حصل منه الإعلام بمقامه النبوى جاوبوه بعدا عن تعرف صدقة ومعرفة حقه بقولهم : "ما نراك إلا بشرا مثلنا " ، أى لو كنت كما تزعم لكنت من جنس الملائكة ولم تكن من جنس البشر وقد أفصحوا بهذا فى سورة المؤمنين وتكرر هذا المرتكب من غيرهم فى غير ما آية فلبناء هذا الكلام على ما قبله وتمحض الجوابية فيه ورد بالفاء المقتضية السببية والمبنية للجوابية ومثل هذا من غير فرق هو والوارد من جوابهم فى سورة المؤمنين من قولهم : "ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم " ، ثم قالوا : "ولو شاء الله لأنزل ملائكة " وهذا هو الذى أشرنا إليه من مقالهم فى هاتين السورتين بالفاء لربط الجوابية وضوح السببية وأما قوله فى سورة الأعراف : "قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين " فإن هذا وإن تضمن الجوابية فإنه كلام يستأنف ويبتدأ بمثله ولا يفتقر إلى ما يبنى عليه فناسب ذلك وروده بغير الفاء وحصلت الجوابية من حيث المعنى مع رعى ما يناسب فى النظم ونظير هذا فى وروده بغير الفاء لما ذكر قوله تعالى فى قصة هود عليه السلام : "قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين " فتأمل جوابهم هنا لما كان الوارد فى قصة نوح

عليه السلام فى أنه يبتدأ بمثله ولا يفتقر إلى ما يبنى عليه كيف ورد بغير الفاء فهذا يزيدك وضوحا فيما قدمناه والله سبحانه أعلم .

(77/274)

والجواب عن السؤال الثالث : ويتنزل على تمهيد هو أن الله تعالى أمر رسله عليهم السلام بالرفق فى دعاء الخلق وحضهم على التلطف بهم والصبر على آذاهم فقال : "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن " وقال تعالى : "واصبر على ما يقولون " وقال : "لست عليهم بمصيطر " وقال تعالى : "ودع أذاهم " وقال تعالى : "إن عليك إلا البلاغ "وقال : "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك " وهذا كثير وقال تعالى لموسى وهارون : "اذهبا إلى فرعون أنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى " وعلى هذا جرى دعاء الرسل أممهم فى إخبار الله تعالى عنهم وتأمل ما تحمل من التلطف والرفق بالعباد قول الله سبحانه : "يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم " إلى قوله : "ولا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون " وعلى هذا المنهج جرى ما ورد فى الكتاب العزيز من دعاء الرسل أممهم : "يا قوم استغفروا ربكم إنه كان غفارا . . . "الآيات إلى قوله : "لتسلكوا منها سبلا فجاجا " ثم اختلف جواب الأمم فمن

مسرع فى الإجابة بهداية الله تعالى ومن مبطئ ومن مصمم على ضلاله : "ولو شاء الله لجمعهم على الهدى " ثم لكل نبى مقامات ومقالات بحسب اختلاف الموطن والمجتمعات ولكل مقام مقال يناسبه فجرى اختلاف ما ورد جوابا بنسبة ما وقع الجواب عليه مع إحراز الأنبياء عليهم السلام ما أمروا به من الصبر والتلطف فى أكثر أحوالهم متوقفين فيما وراء هذا على ما يرد منه تعالى كما قيل لنوح عليه السلام : "إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن "فقطع عليه السلام رجاءه منهم وفهم من ربه تعالى جواز دعائه عليهم واستشعر انتقامه منهم فقال : "رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا " وذلك بعد مبالغتهم فى البعد عن الاستجابة وقولهم : "قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين " قال تعالى فيمن سلك مسلكهم فى التكذيب : "فلما آسفونا انتقمنا

(78/274)

منهم " وقال تعالى : "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم

قد كذبوا جاءهم نصرنا . . . "الآية .

فأقول بناء على ما تمهد أن قوم نوح لما ذكر تعالى عنهم فى سورتى هود والمؤمنين إساءة فى جوابهم لنبيهم وإطالة فى المرتكب حين قالوا فى سورة هود : "ما نراك إلا بشرا مثلنا وما

نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين "
فجمعوا فى هذه الإطالة توهمهم مساواته عليه السلام ، فيما رآه البادى من البشؤية
والصورة الإنسانية إلى استرذال أتباعه كما قالوا فى الموضع الآخر : "أنؤمن لك واتبعك
الأرذلون "وإلى التعامى عن فضله عليه السلام عليهم وظنهم كذبه وقد نزهه الله من ذلك
كله فإذا تأملت مجموع هذا استطلعت منه مكنون كفرهم ومثل هذا من غير فرق قولهم فى
آية المؤمنين : "ما هذا إلا بشر مثلكم "إلى قولهم : "إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى
حين " فلإساءتهم فيما ذكر من الوارد عنهم فى الموضعين وصفوا بالكفر فقال تعالى :
"فقال الملأ الذين كفروا من قومه " فوصفهم بالكفر فى السورتين وأما آية الأعراف فقولهم
فيها : "إنا لنراك فى ضلال مبين " ليس كجوابهم فى السورتين الأخريين لا من جهة الطول
ولا من جهة المعنى لأن لفظ الضلال ليس بنص فى الضلال عن الدين لأنه يقال ضل بمعنى
تحيز وجار عن دين أو طريق ويتسع فى إطلاق لفظ الضلال على غير ما ذكرنا وقد قال
بعض المفسرون هنا فى تفسير الضلال : "إنه الذهاب عن طريق الصواب والحق " وبالجملة
فإنهم لم يريدوا هنا الضلال الذى هو الكفر وإن كان قد يقع إذا تقدمته قرينة على أعظم من
الكفر وأما هنا فليس كذلك فلما لم يكن فى الوارد فى سورة الأعراف من الإطالة فى
العبارة والإبلاغ فيما قصدوه من المعنى مثل ما فى السورتين ناسبه الإيجاز وإن لم يوصفوا
هنا بالكفر فقال تعالى : "قال الملأ من قومه "ومما يشهد أن قوم هود عليه السلام لما بلغوا فى

إساءة جوابهم لنبيهم فى قولهم : "إنا لنراك فى سفاهة " وأرادوا فى قلة علم وخفة حلم قاله الغرنوى : وقال غيره : فى خفة حلم

(79/274)

وسخافة عقل ، فلما أساؤوا فى مقالهم هذا عبر عنهم بقوله تعالى : "قال الملأ الذين كفروا من قومه " فوصفوا بالكفر مناسبة لقولهم ولما لم يقع فى جواب قوم صالح مواجهة نبيهم بمثل هذا بل عدلوا إلى مخاطبة ضعفائهم بقولهم لمن آمن منهم : "أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه "فلما لم يواجهوا نبيهم بما واجه قوم هود عبر عن هؤلاء بقوله تعالى : "قال الملأ الذين استكبروا من قومه " .

فإن قيل قد وصفوا بما يفهم كفرهم وهو الاستكبار قلت قوبل بهذا وصف مخاطبيهم بالاستضعاف وليس كالإفصاح بالكفر فوضح ما بسطناه أولا وجرى كل من ذلك على ما يناسب والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 192.196 ﴾

(80/274)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وقوله : ﴿ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ ﴾ الضَّلال ، والضَّلالةُ ، العدول عن الحق .

و" مِنْ رَبِّ " صفة لـ" رَسُول " ، و" مِنْ " لابتداء الغاية المجازية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 180 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله : ﴿ لَيْسَ بِى ضَلاَلَةٌ ﴾ : نسبوا نوحاً – عليه السلام – إلى الضلالة ، فتولَّى إجابتهم بنفسه فقال : ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلاَلَةٌ ﴾ ، ونبيُّنا – صلى الله عليه وسلم – نُسِبَ إليه فتولَّى الحق – سبحانه – الردَّ عنه فقال : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم : 2] فشتان بين مَنْ دافع عن نفسه ، وبين مَنْ دَافَع عنه ونفى عنه ربُّه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 543 ﴾

قوله تعالى ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم استأنف الإخبار عن وظيفته بياناً لرسالته فقال : ﴿ أبلغكم ﴾ وكأن أبواب كفرهم كانت كثيرة فجمع باعتبارها أو باعتبار تعدد معجزاته أو تعدد نوبات الوحي في الأزمان المتطاولة والمعاني المختلفة ، أو أنه جمع له ما أرسل به من قبله كإدريس جده وهو ثلاثون صحيفة وشيث وهو خمسون صحيفة عليهما السلام فقال : ﴿ رسالات ربي ﴾ أي المحسن إليّ من الأوامر والنواهي وجميع أنواع التكاليف من أحوال الآخرة وغيرها ، لا أزيد فيها أنقص منها كما هو شأن كل رسول مطيع .

ولما كان الضلال من صفات الفعل ، واكتفى بالجملة الفعلية الدالة على حدوث في قوله : ﴿ وأنصح ﴾ وقصر الفعل ودل على تخصيص النصح بهم ومحضه لهم فقال : ﴿ لكم ﴾ والنصيحة : الإرشاد إلى المصلحة مح خلوص النية من شوائب المكروه ، ولما كان الضلال من الجهل قال : ﴿ وأعلم من الله ﴾ أي من صفات الذي له صفات الكمال وسائر شؤونه ﴿ ما لا تعلمون ﴾ أي من عظيم أخذه لمن يعصيه وغير ذلك مما ليس لكم قابلية لعلمه بغير سفارتي فخذوه عني تصيروا علماء ، ولا تتركوه بنسبتي إلى الضلال تزدادوا ضلالاً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 49 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى ﴿ أُبَلِغُكُمْ رسالات ربّى وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ بالتخفيف ، من أبلغ ، والباقون بالتشديد .

قال الواحدي : وكلا الوجهين جاء في التنزيل ، فالتخفيف قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ﴾ [هود : 57] والتشديد ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : 67] .

المسألة الثانية :

الفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة معناه : أن يعرفهم أنواع تكاليف الله وأقسام أوامره ونواهيه ، وأما النصيحة : فهو أنه يرغبه في الطاعة ، ويحذره عن المعصية ، ويسعى في تقرير ذلك الترغيب والترهيب لأبلغ وجوه ، وقوله : ﴿ رسالات ربّى ﴾ يدل على أنه تعالى حمله أنواعاً كثيرة من الرسالة .

وهي أقسام التكاليف من الأوامر والنواهي ، وشرح مقادير الثواب والعقاب في الآخرة ، ومقادير الحدود والزواجر في الدنيا ، وقوله : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ قال الفراء : لا تكاد العرب تقول : نصحتك ، إنما تقول : نصحت لك ، ويجوز أيضاً نصحتك .

قال النابغة :

نصحت بني عوف فلم يتقبلوا . . رسولي ولم تنجح لديهم رسائلي

(82/274)

وحقيقة النصح الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه ، والمعنى : أني أبلغ إليكم تكاليف الله ، ثم أرشدكم إلى الأصوب الأصلح ، وأدعوكم إلى ما دعاني ، وأحب إليكم ما أحبه لنفسي .

ثم قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفيه وجوه :

الأول : واعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان .

الثاني : واعلم أنه يعاقبكم في الآخرة عقاباً شديداً خارجاً عما تتصوره عقولكم .

الثالث : يجوز أن يكون المراد : واعلم من توحيد الله وصفات جلاله ما لا تعلمون ويكون المقصود من ذكر هذا الكلام : حمل القوم على أن يرجعوا إليه في طلب تلك العلوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 123 ﴾

(83/274)

وقال السمرقندى :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾

أي أمنعكم من الفساد وأدعوكم إلى التوحيد وأحذركم من العذاب .

وقال أهل اللغة : أنصح لكم وأنصحكم لغتان بمعنى واحد ، كما يقال : شكرت لك وشكرتك ثم قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : أعلم أنكم إن لم تتوبوا يأتيكم العذاب وأنتم لا تعلمون ذلك ، وذلك أن سائر الأنبياء عليهم السلام خوّفوا أمتهم بعذاب الأمم السابقة ، كما قال شعيب لقومه : ﴿ ويا قوم لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالح وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : 89] وأما قوم نوح فلم يكن بلغهم هلاك أمة قبلهم .

فقال لهم نوح : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ من العذاب الذي ينزل بكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ قرأ أبو عمرو : وأُبلّغكم خفيفة في جميع القرآن لقوله : (لقد أبلغتكم رسالات ربّي) ، وليعلموا أن قد أبلغوا رسالات ربهم . ولأن جميع كتب الأنبياء نزلت دفعة واحدة [منها] القرآن ، وقرأ الباقون : أُبلّغكم بالتشديد واختاره أبو عبيد وأبو حاتم

لأنّها أجزل اللغتين ، قال الله : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : 67] .

﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ يقال [بتخفيفه] ونصحت له وشكرته وشكرت له ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من عقابه لا يرد عن القوم المجرمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(84/274)

وقال ابن عطية :

وقرأ السبعة سوى أبي عمرو " أُبَلِّغكم " بشد اللام وفتح الباء ، بسكون الباء وتخفيف اللام ، وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ وإن كان لفظاً عاماً في كل ما علمه فالمقصود منه هنا المعلومات المخوفات عليهم لا سيما وهم لم يسمعوا قط بأمة عذبت فاللفظ مضمن الوعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أُبلِّغكم ﴾ قرأ أبو عمرو : "أُبْلِغكم" ساكنة الباء خفيفة اللام .

وقرأ الباقون : "أُبَلِّغكم" مفتوحة الباء ، مشددة اللام .

قوله تعالى : ﴿ وأنصح لكم ﴾ يقال : نصحته ، ونصحت له ، وشكرته وشكرت له .

قوله تعالى : ﴿ وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾ أي : من مغفرته لمن تاب ، وعقوبته لمن أصرَّ .

وقال مقاتل : أعلمُ من نزول العذاب مالا تعلمونه ؛ وذلك أن قوم نوح لم يسمعوا بقوم عُذِّبوا قبلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(85/274)

وقال القرطبى :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ بالتشديد من التبليغ ، وبالتخفيف من الإبلاغ .

وقيل : هما بمعنًى واحد لغتان ؛ مثل كُرَّمه وأكرمه .

﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ النُّصح : إخلاص النية من شَوَائب الفساد في المعاملة ، بخلاف الغَشِّ .

يقال : نصحته ونصحت له نَصيحةً ونَصاحة ونُصحا .

وهو باللام أفصح .

قال الله تعالى : "وَأَنْصَحُ لَكُمْ" والاسم النصيحة .

والنّصِيح الناصِحُ ، وقوم نُصحاء .

ورجل ناصح الجَيْب أي نقيّ القلب .

قال الأصمعيّ : الناصح الخالص من العسل وغيره .

مثلُ الناصع .

وكل شيء خَلَص فقد نَصَح .

وانتَصَح فلان أقبل على النصيحة .

يقال : انْتَصِحْني إنني لك ناصح .

والناصح الخياط .

والنِّصاح السلك يُخاط به .

والنِّصاحات أيضاً الجلود .

قال الأعشى :

فَتَرى الشُّرْبَ نَشَاوَى كلَّهم . . .

مثل ما مُدّتْ نِصاحاتُ الرُّبَحْ

الرُّبَحُ لغة في الرُّبَع ، وهو الفَصِيل .

والرُّبَح أيضاً طائر .

وسيأتي لهذا زيادة معنًى في "براءة" إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ أبلغكم رسالات ربي ﴾

يعني بتحذيري إياكم عقوبة على كفركم إن لم تؤمنوا به ﴿ وأنصح لكم ﴾ يقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له والنصح إرادة الخير لغيره كما يريده لنفسه وقيل النصح تحري قول أو فعل فيه صلاح للغير وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه والمعنى أنه قال أبلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه وأرشدكم إلى الوجه الأصلح والأصوب لكم وأدعوكم إلى ما دعاني إليه وأحب لكم ما أحب لنفسي قال بعضهم والفرق بين إبلاغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التي أوجبها الله تعالى عليهم . وأما النصيحة فهو أن يرغّبهم في قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات ويحذرهم عقابه إن عصوه ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ يعني أعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان والغرق في الدنيا ويعذبكم في الآخرة عذاباً عظيماً وقيل أعلم أن مغفرة الله تعالى لمن تاب وعقوبته لمن أصر على الكفر وقيل : لعل الله أطلعه على سر من أسراره فقال وأعلم من الله ما لا تعلمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

و﴿ أبلغكم ﴾ استئناف على سبيل البيان بكونه رسولاً أو جملة في موضع الصفة لرسول ملحوظاً فيه كونه خبراً لضمير متكلم كما تقول أنه رجل آمر معروف فتراعي لفظ أنا ويجوز يأمر بالمعروف فيراعى لفظ رجل والأكثر مراعاة ضمير المتكلم والمخاطب فيعود الضمير ضمير متكلم أو مخاطب قال تعالى : ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ بالتاء ولو قرىء بالياء لكان عربيّاً مراعاة للفظ ﴿ قوم ﴾ لأنه غائب ، وقرأ أبو عمرو ﴿ أبلغكم ﴾ هنا في الموضعين وفي الأحقاف بالتخفيف وباقي السبعة بالتشديد والهمزة والتضعيف للتعدية فيه وجمع ﴿ رسالات ﴾ باعتبار ما أوحي إليه في الأزمان المتطاولة أو باعتبار المعاني المختلفة من الأمر والنهي والزّجر والوعظ والتبشير والإنذار أو باعتبار ما أوحي إليه وإلى من قبله ، قيل : في صحف إدريس وهي ثلاثون صحيفة وفي صحف شيث وهي خمسون صحيفة وتقدم الكلام في نصح وتعديتها ، وقال الزمخشري : وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت للمنصوح له مقصوداً به جانبه لا غير فربّ نصيحة ينتفع بها الناصح بقصد النفعين جميعاً ولا نصيحة أنفع من نصيحة الله تعالى ورسله ، وقال الفراء :

لا تكاد العرب تقول نصحتك إنما نصحت لك ، وقال النابغة :

نصحت بني عوف فلم يتقبلوا . . .

(88/274)

وفي قوله ﴿ ما لا تعلمون ﴾ إبهام عليهم وهو عامّ ولكن ساق ذلك مساق المعلومات التي يخاف عليهم ولم يسمعوا قطّ بأمه عُذِّبت فتضمّن التهديد والوعيد فيحتمل أن ﴿ يرِيد ما لا تعلمون ﴾ من صفات الله وقدرته وشدة بطشه على من اتخذ إلهاً معه أو ﴿ يريد ما لا تعلمون ﴾ مما أوحي إلي ، قال ابن عطية : ولا بدّ أنّ نوحاً عليه السلام وكل نبيّ مبعوث إلى الخلق كانت له معجزة بخرق العادة فمنهم من عرفنا بمعجزته ومنهم من لم يعرف وما أحسن سياق هذه الأفعال قال أولاً ﴿ أبلغكم رسالات ربي ﴾ وهذا مبدأ أمره معهم وهو التبليغ ، كما قال : إنْ عليك إلا البلاغ ثم قال ﴿ وأنصح لكم ﴾ أي أخلص لكم في تبيين الرّشد والسلامة في العاقبة إذا عبدتم الله وحده ثم قال وأعلم من الله ﴿ ما لا تعلمون ﴾ من بطشه بكم وهو مآل أمركم إذا لم تفردوه بالعبادة فنبّه على مبدأ أمره ومنتهاه معهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(89/274)

وقال أبو السعود :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رسالات ربّى ﴾

استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير رسالتِه وتفصيلِ أحكامِها وأحوالِها وقيل : صفة أخرى لرسولٌ على طريقة :

أنا الذي سمّتني أمي حيدَره . . . وقرىء أُبْلِغُكم من الإبلاغ ، وجمعُ الرسالاتِ لاختلاف أوقاتِها أو لتنوّع معانيها ، أو لأن المرادَ بها ما أوحيَ إليه وإلى النبيين من قبله ، وتخصيصُ ربوبيتِه تعالى به عليه الصلاة والسلام بعد بيانِ عمومِها للعالمين للإشعار بعلة الحُكمِ الذي هو تبليغُ رسالتِه تعالى إليهم فإن ربوبيتَه تعالى به عليه الصلاة والسلام من موجبات امتثالِه بأمره تعالى بتبليغ رسالتِه تعالى إليهم ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ عطفٌ على أبلّغكم مبينٌ لكيفية أداءِ الرسالةِ ، وزيادةُ اللامِ مع تعدّي النُصحِ بنفسه للدلالة على إمحاض النصيحةِ لهم وأنها لمنفعتهم ومصلحتِهم خاصةً ، وصيغةُ المضارعِ للدِلالة على تجدد نصيحتِه لهم كما يعرف عنه قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً ونَهَارًا ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ عطفٌ على ما قبله وتقريرٌ لرسالته عليه الصلاة والسلام ، أي أعلم من جهة الله تعالى بالوحي ما لا تعلمونه من الأمور الآتيةِ ، أو أعلم من شؤونه عز وجل وقدرتِه القاهرةِ وبطشِه الشديدِ على أعدائه وأن بأسَه يُردّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمون . قيل :

كانوا لا يسمعون بقوم حل بهم العذابُ قبلَهم فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون ما عِلمه نوحٌ عليه السلام بالوحي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(90/274)

وقال الآلوسى :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رسالات ربّى ﴾

استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها وأحوالها .

وجوز أبو البقاء وغيره أن يكون صفة أخرى لرسول على المعنى لأنه عبارة عن الضمير في (إني) وهذا كقول علي كرم الله تعالى وجهه حين بارز مرحباً اليهودي يوم خيبر :

أنا الذي سمتني أمي حيدره . . .

كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره . . .

حيث لم يقل سمته حملاً له على المعنى لأمن اللبس ، وأوجب بعضهم الحمل على الاستئناف زعماً منه أن ما ذكر قبيح حتى قال المازني : لولا شهرته لرددته ، وتعقب ذلك الشهاب بأن ما ذكره المازني في صلة الموصول لا في وصف النكرة فإنه وارد في القرآن مثل

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : 55] وقد صرح بحسنه في "كتب النحو والمعاني" ، على أن ما ذكره في الصلة أيضاً مردود عند المحققين وإن تبعه فيه ابن جني حتى استرذل قول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي . . .

وفي "الانتصاف" أنه حسن في الاستعمال وكلام أبي الحسن أصدق شاهد على ما قال وعلى حسن كلام ابن الحسين ، وهذا كما قال الشهاب إذا لم يكن الضمير مؤخراً نحو الذي قرى الضيوف أنا أو كان للتشبيه نحو أنا في الشجاعة الذي قتل مرحباً .

وقرأ أبو عمرو ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ بتسكين الباء وتخفيف اللام من الإبلاغ ، وجمع الرسالات مع أن رسالة كل نبي واحدة وهو مصدر والأصل فيه أن لا يجمع رعاية لاختلاف أوقاتها أو تنوع معاني ما أرسل عليه السلام به أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس عليه السلام وقد أنزل عليه ثلاثون صحيفة ، وشيث عليه السلام وقد أنزل عليه خمسون صحيفة ، ووضع الظاهر موضع الضمير وتخصيص ربوبيته تعالى له عليه السلام بعد بيان عمومها للعالمين للإشعار بعلة الحكم الذي هو تبليغ رسالته تعالى إليهم فإن ربوبيته تعالى له من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته .

﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ أي أتحرى ما فيه صلاحكم بناءً على أن النصح تحري ذلك قولاً أو فعلاً ، وقيل : هو تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه ، والمعنى هنا أبلغكم أوامر الله تعالى ونواهيه وأرغبكم في قبولها وأحذركم عقابه إن عصيتموه ، وأصل النصح في اللغة الخلوص يقال : نصحت العسل إذا خلصته من الشمع ، ويقال : هو مأخوذ من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه شبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بفعل الخياط فيما يسد من خلل الثوب ، وقد يستعمل لخلوص المحبة للمنصوح له والتحري فيما يستدعيه حقه ، وعلى ذلك حمل ما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" إن الدين النصيحة قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " ويقال : نصحته ونصحت له كما يقال : شكرته وشكرت له ، قيل : وجيء باللام هنا ليدل الكلام على أن الغرض ليس غير النصح وليس النصح لغيرهم بمعنى أن نفعه يعود عليهم لا عليه عليه السلام كقوله : ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان : 57] وهذا مبني على أن اللام للاختصاص لا زائدة ، وظاهر كلام البعض يشعر بأنها مع ذلك زائدة وفيه خفاء .

وصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصحه عليه السلام لهم كما يفصح عنه قوله : ﴿ رَبِّ

إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ [نوح : 5] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ عطف على ما قبله وتقرير لرسالته عليه السلام أي أعلم من قبله تعالى بالوحي أشياء لا علم لكم بها من الأمور الآتية .

فمن لابتداء الغاية مجازاً أو أعلم من شؤونه عز وجل وقدرته القاهرة وبطشه الشديد على من لم يؤمن به ويصدق برسله ما لا تعلمونه .

(92/274)

فمن إما للتبعيض أو بيانية لما ، ولا بد في الوجهين من تقدير المضاف ، قيل : كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا آمنين غافلين لا يعلمون ما علمه نوح عليه السلام فهم أول قوم عذبوا على كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(93/274)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ أبلغكم رسالات ربي ﴾

صفة لرسول ، أو مستأنفة ، والمقصود منها إفادة التّجدّد ، وأنّه غير تارك التّبليغَ من أجل تكذيبهم تأييساً لهم من متابعته إياهم ، ولولا هذا المقصد لكان معنى هذه الجملة حاصلاً من معنى قوله : ﴿ ولكني رسول ﴾ ، ولذلك جمع الرّسالات لأنّ كلّ تبليغ يتضمّن رسالة بما بلّغَه ، ثمّ إن اعتُبرت جملة : ﴿ أبلغكم ﴾ صفة ، يكُن العدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير التّكلّم في قوله : ﴿ أبلغكم ﴾ وقولِه : ﴿ ربي ﴾ التفاتاً ، باعتبار كون الموصوف خبراً عن ضمير المتكلّم ، وإن اعتُبرت استينافاً ، فلا التفات .

والتّبليغ والإبلاغ : جعل الشّيء بالغاً ، أي واصلاً إلى المكان المقصود ، وهو هنا استعارة للإعلام بالأمر المقصود علمُه ، فكأنّه ينقله من مكان إلى مكان .

وقرأ الجمهور : ﴿ أُبَلِّغكم ﴾ بفتح الموحّدة وتشديد اللاّم وقرأه أبو عَمرو ، ويعقوب : بسكون الموحدة وتخفيف اللاّم من الإبلاغ والمعنى واحد .

ووجه العدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله : ﴿ رسالات ربي ﴾ هو ما تؤذن به إضافة الرّب إلى ضمير المتكلّم من لزوم طاعته ، وأنّه لا يسعه إلاّ تبليغُ ما أمره بتبليغه ، وإن كَرِه قومه .

والنّصح والنّصيحة كلمة جامعة ، يعبّر بها عن حسن النّيّة وإرادة الخير من قولٍ أو عملٍ ، وفي الحديث : " الدّين النّصحية " وأن تُناصحوا من ولاّه الله أمركم .

ويكثر إطلاق النّصح على القول الذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفع عنه الضّر .

وضدّه الغشّ .

(94/274)

وأصل معناه أن يتعدّى إلى المفعول بنفسه ، ويكثر أن يُعدّى إلى المفعول بلام زائدة دالة على معنى الاختصاص للدّلالة على أنّ النّاصح أراد من نصحه ذات المنصوح ، لا جلب خير لنفس النّاصح ، ففي ذلك مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة ، وأنّها وقعت خالصة للمنصوح ، مقصوداً بها جانبه لا غير ، فربّ نصيحة ينتَفع بها النّاصح فيقصد النّفعين جميعاً ، وربّما يقع تفاوت بين النّفعين فيكون ترجيح نفع النّاصح تقصيراً أو إجحافاً بنفع المنصوح .

وفي الإتيان بالمضارع دلالة على تجديد النّصح لهم ، وإنّه غير تاركه من أجل كراهيتهم أو بذاءتهم .

وعقب ذلك بقوله : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ جمعاً لمعان كثيرة ممّا تتضمّنه الرّسالة وتأييداً لثباته على دوام التّبليغ والنّصح لهم ، والاستخفاف بكراهيتهم وأذاهم ، لأنّه يعلم ما لا يعلمونه ممّا يحمله على الاسترسال في عمله ذلك ، فجاء بهذا الكلام الجامع ، ويتضمّن

هذا الإجمالُ البديعُ تهديداً لهم بحلول عذاب بهم في العاجل والآجل ، وتنبيهاً للتّأمّل فيما أتاهم به ، وفتحاً لبصائرهم أن تتطلب العلم بما لم يكونوا يعلمونه ، وكل ذلك شأنه أن يبعثهم على تصديقه وقبولِ ما جاءهم به .

و﴿ من ﴾ ابتدائية أي : صار لي علم وارد من الله تعالى ، وهذه المعاني التي تضمّنها هذا الاستدراك هي ما يُسلِّم كلّ عاقل أنّها من الهدى والصّلاح ، وتلك هي أحواله ، وهم وصفوا حاله بأنّه في ضلال مبين ، ففي هذا الاستدراك نعي على كمال سفاهة عقولهم . وانتقَل إلى كشف الخطأ في شبهتهم فعطف على كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(95/274)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه ؛ فيقال : بلغت المكان الفلاني . . أي انتهيت إليه . و" البلاغة " هي النهاية في أداء العبارة الجميلة ، و" أبلغكم " أي أنهي إليكم ما حملنيه الحق من منهج هداية لحركة حياتكم . ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ .

وكان يكفي أن يقول : " رسالة ربي " إلا أنّه قال : ﴿ رِسَالاَتِ رَبِّي ﴾ لأن أي رسول يأتي بالمنهج الثابت كما جاءت به الرسالات السابقة حتى لا يقول أحد : إنه جاء ليناقض ما جاء به الرسل السابقون ، فما قاله به أي رسول سابق يقوله ، ونعلم أنه كانت هناك صحف لشيت ولإِدريس . فقال : إنه يبلغ رسالته المتضمنة للرسالات السابقة سواء رسالة إدريس وهو اخنوخ ، وكذلك شيت وغيره من الرسل .

أي أبلغكم كل ما جعله الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقيمة الثابتة ، مثلما قال سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ . . . ﴾ [الشورى : 13]

وهو الأمور المستقرة الثابتة ، العقدية ، والأحكام التي لا تتغير . أو ﴿ رِسَالاَتِ رَبِّي ﴾ ، لأنه كرسول يتلقى كل يوم قسطاً من الرسالة ؛ فاليوم جاءت له رسالة يبلغها ، وغداً تأتي له رسالة يبلغها ، ولو قال : " الرسالة " لكان عليه أن ينتظر حتى تكتمل البلاغات من الله له ثم يقولها ، لكنْ نوح كان يبلغ كل رسالة تأتيه في وقت إبلاغه بها ؛ لذلك فهي " رسالات " .

أو لأن موضوع الرسالات أمر متشعب تشعباً يماثل ما تحتاج إليه الحياة من مصالح ؛ فهناك رسالة للأوامر ، ورسالة للنواهي ، ورسالة للوعظ ، ورسالة للزجر ، ورسالة للتبشير ، ورسالة للإِنذار ، ورسالة للقصص ، وهكذا تكون رسالات .

أو أن كل نجم – أي جزء من القرآن وقسط منه – يعتبر رسالة ، فما يرسله الله في يوم هو رسالة للنبي ، وغداً له رسالة أخرى وهكذا .

وقوله : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ لأن البلاغ يقتضي أن يقول لهم منهج الله ، ثم يدعو القوم لاتباع هذا المنهج بان يرقق قلوبهم ويخاطبهم بالأسلوب الهادئ وينصحهم ، والنصح أمر خارج عن بلاغ الرسالة .

ولنلتفت إلى فهم العبارة القرآنية . ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ .

والنصح أن توضح للإِنسان المصلحة في العمل ، وتجرد نيتك مما يشوهه . وهل أنت تنصح آخر بأن يعود نفعه عليك ؟ إنك إن فعلت ذلك تكون النصيحة متهمة ، وإن نصحته بأمر يعود عليه وعليك فهذه نصيحة لك وله ، ولكن حينما تقول : " نصحت لك " أي أن النصيحة ليس فيها مسألة خاصة بك ، بل كل ما فيها لصالح من تبلغه فقط ، وبذلك يتضح الفارق بين " نصحته " و " نصحت لك " . ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 62]

وكأن سيدنا نوحاً يخاطب قومه : إياكم أن تظنوا أن ما أقوله لكم الآن هو كل العلم من الله ، ولا كل علم الله ، ولا كل ما علمني الله ، بل أنا عندي مسائل أخرى سوف أقولها لكم إن اتقيتم الله وامتلكتم الاستعداد الإِيماني ، وهنا سأعطيكم منها جرعات .

أو قوله : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أنه سيحدث لكم أمر في الدنيا لم يحصل للأمم السابقة عليكم وهو أن من يُكذب الرسول يأخذه الله بذنبه . وتلك التجربة لم تحدث مع قوم شيت أو إدريس . ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا . . . ﴾ [العنكبوت : 40]

ولم يحدث مثل هذا العقاب من قبل نوح ، وقد بين لهم نوح : أنا أعلم أن ربنا قد دبر لكم أن من يُكَذِّبَ سيأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(97/274)

أو ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، أي أن الله أعلمني لا على قدر ما قلت لكم من الخير ، لكنه سبحانه قد علمني أن لكل إخبار بالخير ميلاداً وميعاداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(98/274)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) " وفى قصة هود : " أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) " فيهما سؤالان قوله "وأنصح لكم " وفى الأخرى : "وأنا لكم ناصح أمين " والثانى أن كل واحد من هذين النبيين الكريمين يعلم من الله سبحانه ما لا يعلمه قومه فهل فى قصة نوح ما يحمله على قوله لقومه : "وأعلم من الله مالا تعلمون " ما ليس فى قصة هود ؟

(99/274)

والجواب عنهما معا : أن قوم نوح عليه السلام لما رموه بالضلال وأكدوا ذلك وزعموا استحكامه بالوصف فى قولهم له عليه السلام : "إنا لنراك فى ضلال مبين " فزعموا أن ضلاله غير خاف وهو الذهاب عن طريق الصواب ولا يكون إلا عن عدم العلم بما فيه رشاد الضال واستقامة حاله نفى عليه السلام كل ذلك عن نفسه بقوله : "ليس بى ضلالة " ثم أتبع بأوصاف عليع تناقض قولهم وتدفعه وتشهد للمتصف بها ببراءته من ذلك وترد ذلك الوصف عليهم وأنهم الأهلون لما رموه به فقال : "ولكنى رسول من ب العالمين " ولا

يرسل رب العالمين المالك للكل العليم بهم إلا من جعله درجات المهتدين العالمين بنصاب الرسالة وما يلزم متحملها ثم بين لهم نصحه واستمراره فى إبلاغهم ونصحهم فقال : "أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم " ثم أتبع تعريفهم بجهلهم بما عنده من ربه ويعلمه هو بذلك فقال : "وأعلم من الله ما لا تعلمون " وإنما قال "وأنصح " ، "وأعلم " ليعلم بتماديه على النصح لهم وهم لا يشعرون ولا يهتدون وبإمداده بزيادة علومه بالوحى وهم عن ذلك فى أشنع ضلال وأبعده فجمه عليه السلام فيما خاطبهم به رد مقالهم ورميهم بأكثر مما رموه به ورد ذلك عليهم بألطف رد وأبينه لمن وفق ونزه عليه السلام عبارته المخلصة لذلك على أتم الوجوه عن شنيع عبارتهم وقبح مواجتهم واما جواب هود عليه السلام فإن قومه لما قالوا : "إنا لنراك فى سفاهة " فرموه بخفة الحلم وقلة الثبات وكثرة الطيش نفى عليه السلام ذلك عن نفسه فقال : "ليس بى سفاهة " فرد قولهم ثم عرفهم برسالته وقدم ما ينبغى للرسول أن يكون عليه ثم أتبع بجليل أداء أمانة الرسالة من التبليغ والتمادى عليه فقال "أبلغكم " فجاء بالفعل المشعر بالتكرر والاستمرار قياما بإبلاغ رسالته وحفظا لأمانتها ثم قال : "وأنا لكم ناصح أمين " فعرفهم بصفتين جليلتين قد اكتنفته العصمة فيهما ومن كانت صفتاه اللازمتان له النصح والأمانة فقد تنزه قدره عن الطيش وعدم الحلم :

"إلا إنهم هو السفهاء ولكن لا

يعلمون " وإنما أتى فى إخبارهم بنصحه وأمانته بالاسم فقال : "ناصح أمين " وكم يقل : أنصح – فيأتى بالفعل – ليحصل منه أن ذلك الوصف الجليل لازم له غير مفارق ولم يكن الفعل ليعطى ذلك فجاء بالاسم وجعله الخبر عن ضميره الذى هو "أنا " فهذا مقصود ثابت الوصف ولزومه مثل الوارد فى قوله تعالى مخبرا عن المنافقين : "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم " فأخبر عن قولهم للمؤمنين "آمنا " بالفعل الماضى وليس من وضعه إعطاء الدوام فى الأكثر إذ قد يقول فعلت من أوقع الفعل مرة واحدة وأخبر تعالى عن قولهم لإخوانهم وشياطينهم بقولهم : "إنا معكم إنما نحن مستهزئون " فجاؤوا بالاسم إعلاما بصفتهم التى هم عليها مستمرون فكذا هذا الاخبار الواقع هنا فى هذا النقصود من التمادى والاستمرار حين قال هود عليه السلام : "وأنا لكم ناصح أمين " فجاء الاسم فانتفى ما رموه به من السفاه جملة وقابل عليه السلام مقالهم الشنيه بخبره الصادق عن نفسه فرد مقالهم ولم يكن الفعل يحرز هذا القصد كما أحرز قول نوح عليه السلام : "وأعلم من الله مالا تعلمون " الإخبار عن نفى ما رموه به جملة فجاء كل على ما يجب والله أعلم .

ومما يسأل عنه فى هاتين الآيتين أن نوحا وهودا عليهما السلام إنما دعوا إلى العبادة قوما كفارا فى قصة نوح عليه السلام : "قال الملأ من قومه " وفى قصة هود عليه السلام : "فقال الملأ الذين كفروا من قومه " فوسموا بالكفر بخلاف قوم نوح ؟ عليه السلام من قوله : "إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " وخوفه من تعذيبهم إنما كان لكفرهم ولم يقع ذلك فى دعاء هود لأن قوله : "أفلا تتقون " ليس فيما يعطيه من التخويف فى قوة : "إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " إذ قد يؤمر بالتقوى المؤمن ويقال للعاصى بصغيرة أفلا تتقى فلما كان فى دعاء نوح ما يشير إلى الكفر ويدل عليه اقتضى الإيجاز الاكتفاء بذلك ويشهد لهذا أن قصة صالح وقصة شعيب الوارد فيهما الدعاء إلى الإيمان على هذا المنهج لما لم يقع فى دعاء هذين النبين عليهما السلام ما وقع فى دعاء نوح عليه السلام مما ينبئ بالكفر ورد فى حكاية مقالة قومهما ما يحصل منه ذلك المقصود وذلك قوله تعالى : "قال الملأ الذين استكبروا من قومه " وذلك جار من الواقع فى قصة هود من غير فرق لأن استكبارهم عن إجابته والإيمان به كفر والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 196 .

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أُبَلِّغُكُمْ "

يجوز أن تكون جملة مستأنفة أتى بها لبيان كونه رسولاً ، ويجوز أن تكون صفةً لـ " رَسُولٌ " ، ولكنَّهُ راعى الضَّمِيرَ السَّابِقَ الذي للمتكلِّم فقال : أُبَلِّغُكُمْ ، ولو راعى الاسم الظَّاهِرَ لقال : يُبَلِّغكم ، والاستعمالان جائزان في كلِّ اسم ظاهرٍ سبقه ضمير حاضر من متكلم ، أو مخاطب فتحرَّر لك فيه وجهان :

مراعاةُ الضَّمِيرِ السَّابِقِ ، وهو الأكثر ، ومراعاة الاسم الظَّاهر فيقول : أَنَا رجلٌ أفعل كذا مراعاة لـ " أنا " ، وإن شئت أنا رجل يفعل كذا مراعاة لرجُلٍ ، ومثله : أَنْتَ رجلٌ يفعل وتفعلُ بالخطاب والغيبة .

وقرأ أبو عَمْرو : " أُبْلِغُكُمْ " بالتَّخفيف ، والباقون بالتَّشديدِ ، وهذا الخلافُ جارٍ هنا في الموضعين ، وفي الأحقاف والتَّضعيف والهمزة للتَّعْدِيَةِ كأَنْزَلَ ، ونَزَّلَ ، وجمع " رسالة " باعتبار أنواعها من أمر ونهي ، ووعظ ، وزجر ، وإنذار ، وإعذار ، وقد جاء الماضي

على أفْعَل في قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ﴾ [هود : 57] فهذا شاهدٌ لقراءة أبي عَمْرٍو ، وجاء على فعَّل في قوله : ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : 67] فهذا شاهدٌ لقراءة الجماعة .

واعلم أنَّهُ ذكر ما هو المقصود من الرِّسالة ، وهو أمران : أن يبلغ الرِّسالة ، وتقدير النَّصِيحَةِ ، والفرقُ بينهما أنَّ تبليغ الرِّسالة معناه : أن يعرفهم أنْوَاعَ تَكَاليفِ اللَّه ، وأوامره ، ونواهيه ، وأمَّا النَّصيحةُ فهو ترغيبهم في الطَّاعَةِ ، وتحذيرهم عن المعاصي .

قوله : " وأنْصَحُ لَكُمْ " .

قال الفرَّاءُ : العربُ لا تَكَادُ تقُولُ : نصحتك ، إنَّمَا يقولون : نصحتُ لك ، ويجوز أيضاً : نَصَحْتُكَ .

قال النابغة : [الطويل]

2498 - نَصَحْتُ بَنِي عَوْفٍ فَلَمْ يَقْبَلُوا نُصْحِي . . .

وسُؤلِي ، وَلَمْ تَنْجَحْ لَدَيْهِمْ رَسَائِلِي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 181.180 ﴾

(103/274)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نصح)

النصيحة : كلمة جامعة مشتقة من مادة "ن ص ح" الموضوعة لمعنيين : أَحدهما الخلوصُ والبَقاءُ ، والثانى : الالتئام والرفاءُ .

يقال :

نصح الشىءُ : إذا خَلَص ، ويمكن أَن يكونَ النُّصْح والنَّصِيحة من هذا المعنى ، لأَنَّ الناصح يَخْلُص للمَنْصوح له عن الغش ؛ والمعنى الثانى : نَصَحَ الثوبَ نَصْحاً : خاطَهُ وكذلك تَنْصَّحه ، والنَّصَّاح والناصِح والناصِحىّ : الخَيّاط .

والنِّصاح ككتاب : الخَيْطُ .

والمِنْصَحَةُ : المِخْيَطَةُ .

والمِنْصَحُ : المِخْيَطَ .

وفيه مَتَنَصَّح لم يُصْلِحْه ، أَى موضع خِياطَة ومُتَرَقَّعَ ؛ ويمكن أَن تكون النصيحة من هذا المعنى : لأَن الناصح يرفأُ ويُصْلح حالَ المَنْصوح له ، كما يفعل الخَياط بالثوب المحروق ، تقول منه : نَصَحَه ونَصَحَ له نُصْحاً ونَصِيحَةً ونَصاحَةً ونَصاحِيَةً ، وفى التنزيل ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِذَا نَصَحُواْ للَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال :

*نصَحْتُ بنى عَوْف فلم يَتَقَبَّلُوا * رَسُولى ولم تَنْجَح لَدَيْهم وَسائِلى . *

وقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم : "الدِّينُ النَّصِيحةُ لله ولرسوله ولأَئمَّة المُسْلمين وعامّتهم" .

قال أَبو سليمان الخطَّابى : النَّصيحةُ كلمةٌ جامعة معناها حِيازَةُ الحظِّ للمَنْصوحِ له ، ويقالُ : هو من وَجيزِ الأَسماءِ ومختصَر الكلام ، فإِنَّه ليس فى كلام العرب كلمةٌ مفردة تُسْتوفَى بها العِبارات عن معنى هذه الكلمة حتى يضمَّ إِليها شى آخر ، كما قالوا فى الفلاح إِنَّه ليس فى كلام العرب كلمة أَجمعُ لخير الدنيا والآخرة منه ، حتَّى صار لا يَعْدِلُهُ شىءٌ من الكلام فى معناه .

(104/274)

قيل : الكلمة مأخوذةٌ من نَصَح : خاطَ ، وقيل : من نَصَح العَسَل : صَفَّاه ، شَبَّهوا تخليصَ القولِ والعَمل من شَوْب الغِشّ والخِيانة بتخليص العَسَل من الخَلْط انتهى ملخَّص كلامه وأَقولُ : النُّصْحُ : الخُلوصُ مطلقا ولا تَقْيِيد له بالعسَل ولا بغيره كما قدّمته آنفاً .

وإِعادة معنى الكلمة على

معنى الخُلوص أَوْضَح .

وأَمّا بيانُ أَنواع النَّصيحة [فقد] قال الشيخ أَبو زكريا : قالوا : مَدارُ الدّين على أَربعةِ

أَحاديث ، وأَنا أَقول بل مدارُه على هذا الحديث وَحْدَه .

ثمَّ اعلم أَنَّ النَّصيحة أَقسامٌ كما بيّنه صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ فأَمّا النصيحةِ لله عزَّ وجلّ فمعناها منصرفٌ إلى اعتقاد وَحْدانيّته ، ووَصْفِه بما هو أَهلُه ، وتَنْزِيهِه عَمّا لا يجوز عليه ، والرّغبةِ في مَحابّهِ والبعد عن مَساخِطه ، والإِخلاص فى عبادته ، والحبّ فيه والبغض ، ومُوالاة مَنْ أَطاعَه ، ومُعاداة من عَصاه ، وجهاد من كَفَر به ، والاعتراف بنعمه والشكر عليها بالقول والفِعْل ، والدّعاءِ إلى جميع هذه الأَوصاف المذكورة ، والحثّ عليها / ، والتلطُّف فى جَمْع جميع الناس أَوْ مَنْ أَمكن منهم عليها .

وحقيقة هذه الإِضافة راجعةٌ إلى العَبْد فى نُصْحِه نفسه لله ، ودَعْوة غيره من الخلق إلى هذه الخصال .

والله سبحانه غنىٌّ عن نُصْح كلّ ناصح .

وأَمّا نصيحة كِتابه فالإِيمان بأَنَّه كلامُ الله تعالى وتَنْزيله ، لا يُشْبِهُه شىءٌ من كلامِ الخَلْق ، ولا يَقْدِرُ على مِثْله أَحدٌ من المخلوقين .

ثم من نُصْحِه تِلاوتُه ، وحَقُّ تِلاوَته إقامةُ حُروفه وتحسينُها ، والخُشوع عند الاستماع لها [و] عند قراءَتها ، والذَبُّ عنه من تأْويل الغالِين وتحريفِ المُبْطِلين وطَعْن المُلْحِدين ، والتصديقُ بجميع ما فيه ، والوُقوفُ عند أَحكامه ، والتَفقُّه فيه ، والاعتبار بمواعظه ،

والتفكُّر فى عجائبه ، والعلم بفرائضه وسُنَبِه ، ونشر عُلومه ، والدّعاءِ إليه ، وتعظيم أَهله .

(105/274)

وأَمّا النَّصيحةُ لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم فإِنَّما هى فى تصديقِهِ على الرّسالة ، والإِيمان بجميع ما جاءَ به ، وبذلِ الطَّاعة له فيما أَمر به ونَهَى عنه ، ومؤَازرَتِه ونُصْرَتِهِ وحِمايته حَيّاً وميتا ، وإِحياءِ سنَّته بالطَلَب لها والذبّ عنها ، ونَشْرها وإِثارة علومها والتَّفَقُّه فى معانيها ، والدّعاءِ إليها والتلطُّف فى تعَلُّمها وتعليمها .

وإِجلال أَهلها ، والإِمساك عن الكلام فيها بغير فَهْم ، والتأَدُّب عند قراءَتها .

وأَمّا النَّصيحة لأَئمة المسلمين .

فإِنَّ الأَئمة هُمُ الوُلاة من الخُلَفاء الرّاشدِين ومَنْ بعدهم ممّن يلى أَمَر الأُمّة ويقوم به .

ومن نصيحتهم مُعاوَنَتُهم على الحقّ وطاعتُهم فيه ، وأَمرُهُم به ، وتنبيهُهم وتذكيرهم برِفْق ، وإِعلامُهم بما غَفَلُوا عنه ، وترك الخروج عليهم ، وتألُّف النّاس لطاعتهم ، والصّلاةُ خَلْفَهم ، والجهادُ معهم ، وأَداء الصّدقات إِليهم وأَلاَّ يغرُّوهم بالثَّناءِ الكاذب عليهم ، وأَن يُدْعَى لهم بالصّلاح .

وهذا على أَنَّ المراد بأَئمة المسلمين الوُلاة عليهم ، وهو الَّذى فهمه جُمهور العلماءِ من الحديث .

ويحتمل أَن يكون المرادُ به الأَئمة الذين هم عُلماءُ الدين كما قال جماعةٌ من المفسّرين فى قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ إِنَّ المراد بأُولى الأَمر منكم العُلماء ، فتكون نصيحتهم فى قبول ما رَوَوْهُ ، وتقليدِهم فى الأَحكام لمن ليست له أَهليّة ، وإِحسان الظنّ بِهِمْ .

ويُمكن حمل أَئمة المسلمين على المجموع من الأُمراءِ والعلماءِ ، بناءً على القول بحمل المشترك على معنيَيْه .

والله أَعلم .

(106/274)

وأَما النَّصيحة لعامَّة المسلمين ، وهم من عَدَا وُلاة الأَمْر الأُمراء والعُلماء على هذا الاحتمال ، فإِرْشادُهم لمَصالحهم فى آخرتهم ودنياهم ، وكفُّ الأَذَى عنهم ، وسَتْرُ عَوْراتهم وسدُّ خَلاَّتهم ، ودفعُ المضارّ عنهم ، ورفع المسارّ إِليهم ، وأَمْرُهم بالمعروف ونَهْيُهم عن المنكر برفق وإِخلاص ، والشفقةُ عليهم ، وتنبيهُ غافِلهم وتبصيرُ جاهلهم ،

ورَفْدُ مُحتاجهم ، وتوقيرُ كبيرهم ، ورحمةُ صغيرهم ، وتَحَوُّلهم بالمَوْعظة الحسنة ، وتركُ غشّهم وحَسَدِهم ، وأَنْ يُحِبَّ لهم ما يحبّ لنفسه ، ويكرَه لهم ما يكرهُ لها ، فبهذا التفصيل ظهر أَنْ حَصْر الدّين فى النَّصيحة على ظاهره ، وإِنْ كان بعضُ ذلك فرض عين ، وبعضُه فَرْضَ كفاية ، وبعضه سُنَّةً ، كما هو الدّين أَيضاً / يشتمل على جميع ذلك .

وفى هذا الحديث أَنَّ النصيحة تُسَمَّى دينا وإِسلاماً ، وأَنَّ الدّين يقع على العمل كما يقع على القول .

والنَّصيحة فرضٌ يُجْزى فيها مَنْ قام به ويسقُط عن الباقين .

والنصيحة لازمةٌ على قَدْر الطَّاقة إِذا عَلِم النَّاصحُ أَنَّه يُقبَل نُصْحُه ويُطاعُ أَمرُه ، وأَمِنَ على نفسه المكروهَ ، فإِن خشى أَذَى فهو فى سَعَة .

وأمّا نصيحة المُلوك فهو على قَدْرِ الجاه والمنزلة عندهم ، فإِذا أَمِنَ من ضَرّهِم فعليه نُصحهم ، فإِن خشى على نفسه غَيَّر بقَلْبه ، وإِنْ علم أَنَّه لا يَقْدِر على نُصحِهم فلا يدخلُ عليهم لأَنَّه يَفْتِنهم ويزيدهم فِتْنةً ويَذْهَبُ دينهُ معهم .

قال الفُضَيْل : رُبّما يدخلُ العالِمُ على المَلِكِ ومعه شىءٌ من دِينه فيخرجُ وليس معه شىءٌ .

قيل له : وكَيْفَ ذلك ؟ قال : يصدّقه فى كَذِبه ، ويمدَحُه فى وَجْهه .

والنَّصيحة واجبة لجميع الخَلْق مسلمين وغيرهم ، وهو معنى قولِه وعامَّتهم ، فيقال للكافر

اتَّقِ الله تعالَى ويُدْعَى إلى الإِسلام ، ويُنْهَى عن ظُلْمه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

(107/274)

قال الآجُرّى : ولا يكون ناصحاً لله تعالى ولِرَسُوله ، ولأَئمة المسلمين وعامَّتِهم إلاَّ من بدأَ بالنَّصِيحة لنَفْسه ، واجتهد فى طلب العِلْم والفِقْهِ لِيَعْرِف به ما يجب عليه ، ويعلم عداوَةَ الشيطان له وكيف الحذر منه ، ويعلم قبيح ما تميل إليه النفس حتى يخالِفَها بعِلْم .

وقال الحَسنُ : ما زال لِلهِ تعالى نُصحاء ينصحون لله فى عِباده ، وينصحون لعبادِ الله فى حقِّ الله ، ويعلمون لله تعالى فى الأَرض بالنَّصيحة ، أُولئك خلفاءُ الله فى الأَرْض .

وحاصل الأَمر أَنَّ السّلامة من جِهَة النُّطِق بالنصّيحة فى أَحد أَمْرَيْن :

الأَوّل : أَنْ تتكلم

إذا اشتهيت أَن تَسْكُت ، وتَسْكُتَ إذا اشتهيتَ أَن تتكلَّم .

والأَمر الثانى : أَلاَّ تتكلَّم إلاَّ فيما إنْ سكتَّ عنه كنتَ عاصِياً ، وإنْ لم فلا .

وإياك الكلام عند ما يُستحسَنُ كلامُك ، فإنّ الكلام فى ذلك الوقت من أَكبر الأَمراضِ ،

وماله دواءٌ إلاَّ الصّمت . والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 68.63 ﴾

(108/274)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) ﴾

إني أعلم أنِّي وإنْ بالغت في تبليغ الرسالة فمَنْ سبقت له القسمة بالشقاوة لا ينفعه نصحي ، ولا يُؤَثِّرُ فيه قولي ، فمَنْ أسقطته القسمةُ لم تنعشه النصيحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 543 ﴾

(109/274)

قوله تعالى ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الحامل لهم على هذا مجرد استبعاد أن يختص عنهم بفضيلة وهو منهم كما سيأتي في غير هذه السورة ، أنكر ذلك عليهم بقوله : ﴿ أو عجبتم ﴾ أي أكذبتم وعجبتم ﴿ أن جاءكم ﴾ وضمن جاء معنى أنزل ، فلذلك جعلت صلته " على " فقال : ﴿ ذكر ﴾ رسالة ﴿ من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بالإيجاد والتربية منزلاً ﴿ على الرجل ﴾ أي كامل في الرجولية وهو مع ذلك بحيث لا تتهمونه فإنه ﴿ منكم ﴾ لقولكم : ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي إرسال البشر ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ [المؤمنون : 24] ﴿ لينذركم ﴾ لتحذروا ما ينذركموه ﴿ ولتتقوا ﴾ أي تجعلوا بينكم وبين ما تحذرونه وقاية لعلكم تنجون ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ أي وليكون حالكم إذا لقيتم الله حال من ترجى رحمته بأن يرفعه الله في الدارين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 49 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ ﴾ يدل على أن مراد القوم من قولهم لنوح عليه السلام : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : 60] هو أنهم نسبوه في ادعاء النبوة إلى الضلال ، وذلك من وجوه : أحدها :

أنهم استبعدوا أن يكون لله رسول إلى خلقه ، لأجل أنهم اعتقدوا أن المقصود من الإرسال هو التكليف .

والتكليف لا منفعة فيه للمعبود لكونه متعالياً عن النفع والضرر ، ولا منفعة فيه للعابد ، لأنه في الحال يوجب المضرة العظيمة ، وكل ما يرجى فيه من الثواب ودفع العقاب ، فالله قادر على تحصيله بدون واسطة التكليف ، فيكون التكليف عبثاً ، والله متعال عن العبث ، وإذا بطل التكليف بطل القول بالنبوة .

(110/274)

وثانيها : أنهم وإن جوزوا التكليف إلا أنهم قالوا : ما علم حسنه بالعقل فعلناه ، وما علم قبحه تركناه ، وما لا نعلم فيه لا حسنه ولا قبحه ، فإن كنا مضطرين إليه فعلناه ، لعلمنا أنه متعال عن أن يكلف عبده ما لا طاقة له به ، وإن لم نكن مضطرين إليه تركناه للحذر عن خطر العقاب ، ولما كان رسول العقل كافياً فلا حاجة إلى بعثة رسول آخر .

وثالثها : أن بتقدير : أنه لا بد من الرسول ؛ فإن إرسال الملائكة أولى ، لأن مهابتهم أشد ، وطهاراتهم أكمل ، واستغناءهم عن المأكول والمشروب أظهر ، وبعدهم عن الكذب والباطل أعظم .

ورابعها : أن بتقدير : أن يبعث رسولاً من البشر ، فلعل القوم اعتقدوا أن من كان فقيراً ، ولم يكن له تبع ورياسة فإنه لا يليق به منصب الرسالة ، ولعلهم اعتقدوا أن الذي ظن نوح عليه السلام أنه من باب الوحي ، فهو من جنس الجنون والعته وتخييلات الشيطان ، فهذا هو الإشارة إلى مجامع الوجوه التي لأجلها أنكر الكفار رسالة رجل معين ، فلهذه الأسباب حكموا على نوح بالضلالة ، ثم أن نوحاً عليه السلام أزال تعجبهم وقال : إنه تعالى خالق الخلق فله بحكم الإلهية أن يأمر عبيده ببعض الأشياء وينهاهم عن بعضها ، ولا يجوز أن يخاطبهم بتلك التكاليف من غير واسطة ، لأن ذلك ينتهي إلى حد الإلجاء ، وهو ينافي التكليف ، ولا يجوز أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة لما ذكرناه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ [الأنعام : 9] فبقي أن يكون إيصال تلك التكاليف إلى الخلق بواسطة إنسان ، وذلك الإنسان إنما يبلغهم تلك التكاليف لأجل أن ينذرهم ويحذرهم ، ومتى أنذرهم اتقوا مخالفة تكليف الله ، ومتى اتقوا مخالفة تكليف الله استوجبوا رحمة الله ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية .

أما قوله : ﴿ أوعجبتم ﴾ فالهمزة للإنكار ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، كأنه قيل : أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ؟ أي عجبتم أن جاءكم ذكر .

وذكروا في تفسير هذا الذكر وجوهاً .

قال الحسن : إنه الوحي الذي جاءهم به .

وقال آخرون : المراد بهذا الذكر المعجز ، ثم ذلك المعجز يحتمل وجهين : أحدهما : أنه تعالى كان قد أنزل عليه كتاباً ، وكان ذلك الكتاب معجزاً ، فسماه الله تعالى ذكراً ، كما سمي القرآن بهذا الاسم ، وجعله معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أن ذلك المعجز كان شيئاً آخر سوى الكتاب .

وقوله : ﴿ على رَجُلٍ ﴾ قال الفراء : ﴿ عَلَى ﴾ ههنا بمعنى مع كما تقول : جاء بالخبر على وجهه ومع وجهه ، كلاهما جائز .

وقال ابن قتيبة : أي على لسان رجل منكم ، كما قال ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران : 194] أي على لسان رسلك .

وقال آخرون : ﴿ ذِكْرٌ مّن رَّبِّكُمْ ﴾ منزل على رجل ، وقوله : ﴿ مِّنكُمْ ﴾ أي تعرفون نسبه فهو منكم نسباً ، وذلك لأن كونه منهم يزيل التعجب ، لأن المرء بمن هو من جنسه أعرف ، وبطهارة أحواله أعلم ، وبما يقتضي السكون إليه أبصر ، ثم بين تعالى ما لأجله

يبعث الرسول ، فقال : ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ وما لأجله ينذر ، فقال : ﴿ وَلِتَتَّقُواْ ﴾ وما لأجله يتقون ، فقال : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وهذا الترتيب في غاية الحسن ، فإن المقصود من البعثة الإنذار ، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي ، والمقصود من التقوى ، الفوز بالرحمة في دار الآخرة .

قال الجبائي والكعبي والقاضي : هذه الآية دالة على أنه تعالى أراد من الذين بعث الرسل إليهم ، التقوى والفوز بالرحمة ، وذلك يبطل قول من يقول : إنه تعالى أراد من بعضهم الكفر والعناد ، وخلقهم لأجل العذاب والنار .

وجواب أصحابنا أن نقول : إن لم يتوقف الفعل على الداعي لزم رجحان الممكن لا لمرجح ، وإن توقف لزم الجبر ، ومتى لزم ذلك وجب القطع ، فإنه تعالى أراد الكفر من الكافر ، وذلك يبطل مذهبكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 123 . 125 ﴾

(112/274)

وقال السمرقندى :

قالت الكبراء للضعفاء لا تتبعوه فإن هذا بشر مثلكم فأجابهم نوح فقال : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾ يعني : ينزل الكتاب والرسالة على

رجل منكم تعرفون حسبه ونسبه ﴿ لينذركم ﴾ بالنار ولتتقوا الشرك .

قال بعضهم : "هذه الواو صلة وهو زيادة في الكلام .

ومعناه ﴿ لينذركم ﴾ لكي تتقوا .

وقال بعضهم هذه واو العطف أي : جاءكم رسول لكي ينذركم .

﴿ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ يعني : لكي تنجوا من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ الألف للاستفهام دخلت على واو العطف كأنه قال : إن أضعتم كذا وكذا ﴿ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني نبوّة الرسالة ، وقيل : [معجزة وبيان] .

﴿ على رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ عذاب الله إن لم يؤمنوا ﴿ وَلِتَتَّقُواْ ﴾ [ولكي يتّقوا] الله ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لكي تُرحموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

هذه ألف استفهام دخلت على الواو العاطفة ، والاستفهام هنا بمعنى التقرير والتوبيخ ، وعجبهم الذي وقع إنما كان على جهة الاستبعاد والاستمحال ، هذا هو الظاهر من قصتهم ، وقوله : ﴿ على ﴾ قيل هي بمعنى مع ، وقيل على حذف مضاف تقدره على لسان رجل منكم .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يكون المجيء بنفسه في هذا الموضع يصل ب ﴿ على ﴾ إذ كل ما يأتي من الله تعالى فله حكم النزول فكأنه ﴿ جاءكم ﴾ معناه نزل فحسن معه أن يقال ﴿ على رجل ﴾ واللام في ﴿ لينذركم ﴾ لام كي . وقوله ﴿ ولعلكم ﴾ ترجّ بحسب حال نوح ومعتقده لأن هذا الخبر إنما هو من تلقاء نوح عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أو عجبتم ﴾

قال الزجاج : هذه واو العطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام ، فبقيت مفتوحة .

وفي الذِّكر قولان .

أحدهما : الموعظة .

والثاني : البيان .

وفي قوله : ﴿ على رجل منكم ﴾ قولان .

أحدهما : أن "على" بمعنى "مع" قاله الفراء .

والثاني : أن المعنى : على لسان رجل منكم ، قاله ابن قتيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(114/274)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ فتحت الواو لأنها واو عطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير .

وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام إلا الألف لقوتها .

﴿ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ ﴾ أي وعظ من ربكم .

﴿ على رَجُلٍ مِّنْكُمْ ﴾ أي على لسان رجل .

وقيل : "على" بمعنى "مَعَ" ، أي مع رجل .

وقيل : المعنى أن جاءكم ذكر من ربكم مُنَزَّل على رجل منكم ، أي تعرفون نسبه .

أي على رجل من جنسكم .

ولو كان مَلَكاً فربما كان في اختلاف الجنس تنافر الطبع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ أوعجبتم ﴾ الألف ألف استفهام والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف وهذا الاستفهام استفهام إنكار معناه أكذبتم وعجبتم ﴿ أن جاءكم ذكر من ربكم ﴾ يعني وحياً من ربكم ﴿ على رجل منكم ﴾ تعرفونه وتعرفون نسبه وذلك لأن كونه منهم يزيل التعجب ، وقيل : المراد بالذكر الكتاب الذي أنزل الله تعالى على نوح عليه الصلاة والسلام سماه ذكراً كما سمي القرآن ذكراً .

وقيل : المراد بالذكر المعجزة التي جاء بها نوح عليه السلام فعلى هذا تكون على بمعنى مع أي مع رجل منكم .

قال الفراء على هنا بمعنى مع ﴿ لينذركم ﴾ يعني جاءكم لأجل أن ينذركم ﴿ ولتتقوا ﴾ أي ولأجل أن تتقوا ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ لأن المقصود من إرسال الرسل الإنذار والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة في الدار الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربّكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلّكم ترحمون ﴾

يتضمّن قولهم ﴿ إنّا لنراك في ضلال مبين ﴾ استبعادهم واستمحالهم ما أخبرهم به من خوف العذاب عليهم وأنه بعثه الله إليهم بعبادته وحده ورفض آلهتهم وتعجبوا من ذلك ، وقال أبو عبد الله الرازي سبب استبعادهم إرسال نوح والهمزة للإنكار والتوبيخ أي هذا مما لا يعجب منه إذ له تعالى ، التصرّف التام بإرسال من يشاء لمن يشاء ، قال الزمخشري : الواو للعطف والمعطوف محذوف كأنه قيل أو كذبتم وعجبتم أن جاءكم انتهى ، وهو كلام مخالف لكلام سيبويه والنّحاة لأنّهم يقولون : إنّ الواو لعطف ما بعدها على ما قبلها من الكلام ولا حذف هناك وكأنّ الأصل وأعجبتم لكنه اعتنى بهمزة الاستفهام فقدّمت على حروف العطف لأنّ الاستفهام له صدر الكلام وقد تقدّم الكلام معه في نظير هذه المسألة وقد رجع هو عن هذا إلى قول الجماعة والذكر الوعظ أو الوحي أو المعجز أو كتاب معجز أو البيان أقوال والأولى أن يكون قوله ﴿ على رجل ﴾ فيه إضمار أي على لسان رجل

كما قال ﴿ ما وعدتنا على رسلك ﴾ ، وقيل : ﴿ على ﴾ بمعنى مع ، وقيل : لا حذف ولا تضمين في الحرف بل قوله ﴿ على رجل ﴾ هو على ظاهره لأن ﴿ جاءكم ﴾ بمعنى نزل إليكم كانوا يتعجبون من نبوّة نوح ويقولون ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين يعنون إرسال البشر ﴿ ولو شاء ربّنا لأنزل ملائكة ﴾ وذكر عليه المجيء وهو الإعلام بالمخوف والتحذير من سوء عاقبة الكفر ووجود التقوى منهم ورجاء الرّحمة وكأنها علة مترتبة فجاءكم الذكر للإنذار بالمخوف والإنذار بالمخوف لأجل وجود التقوى منهم ووجود التقوى لرجاء الرحمة وحصولها فعلل المجيء بجميع هذه العلل المترتبة لأنّ المترتب على السبب سبب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(116/274)

وقال أبو السعود :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

جوابٌ ورد لمّا اكتُفيَ عن ذكره بقولهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ من قولهم : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ وقولِهم : ﴿ لَوْ شَاء اللهُ لأَنزَلَ مَلائكَةً ﴾ والهمزةُ للإنكار والواوُ للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلامُ كأنه قيل : استبعدتم وعجِبتم من أن جاءكم ذكرٌ

أي وحيٌ أو موعظةٌ من مالك أموركم ومربّيكم ﴿ على رَجُلٍ مّنكُمْ ﴾ أي على لسان رجلٍ من جنسكم كقوله تعالى : ﴿ مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ وقلتم لأجل ذلك ما قلتم من أن الله تعالى لو شاء لأنزل ملائكة ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ علةٌ للمجيء أي ليحذركم عاقبةَ الكفر والمعاصي ﴿ وَلِتَتَّقُواْ ﴾ عطفٌ على العلة الأولى مترتبةٌ عليها ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ عطف على العلة الثانية مترتبةٌ عليها ، أي ولتتعلق بكم الرحمةُ بسبب تقواكم . وفائدةُ حرفِ الترجّي التنبيه على عزة المطلبِ وأن التقوى غيرُ موجبةٍ للرحمة بل هي منوطةٌ بفضل الله تعالى وأن المتقيَ ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمنَ عذابَ الله عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(117/274)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

رد لما هو منشأ لقولهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : 60] والاستفهام للإنكار أي لم كان ذلك ولا داعي له .

والواو للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، ويقدر عند الزمخشري وأتباعه بين

الهمزة وواو العطف كأنه قيل : استبعدتم وعجبتم .

ومذهب سيبويه والجمهور أن الهمزة من جملة أجزاء المعطوف إلا أنها قدمت على العاطف تنبيهاً على أصالتها في التصدير .

وضعف قول الأولين بما فيه من التكلف لدعوى حذف الجملة فإن قوبل بتقديم بعض المعطوف فقد يقال : إنه أسهل منه لأن المتجوز فيه أقل لفظاً .

وفيه تنبيه على أصالة شيء في شيء وبأنه غير مطرد في نحو ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] .

وتحقيقه في محله و﴿ أَن جَاءَكُمْ ﴾ بتقدير بأن لأن الفعل السابق يتعدى بها ؛ والمراد بالذكر ما أرسل به كما قيل للقرآن ذكر ويفسر بالموعظة .

ومن للابتداء والجار والمجرور متعلق بجاء أو بمحذوف وقع صفة لذكر أي ذكر كائن من مالك أموركم ومربيكم .

﴿ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي من جملتكم تعرفون مولده ومنشأه أو من جنسكم فمن تبعيضية أو بيانية كما قيل و﴿ عَلَى ﴾ متعلقة بجاء بتقدير مضاف أي على يد أو لسان رجل منكم أي بواسطته ، وقيل : على بمعنى مع فلا حاجة إلى التقدير ، وقيل : تعلقه به لأن معناه أنزل كما يشير إليه كلام أبي البقاء أو لأنه ضمن معناه ، وجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من ﴿ ذِكْرٌ ﴾ أي نازلاً على رجل منكم .

﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ علة للمجيء أي ليحذركم العذاب والعقاب على الكفر والمعاصي ﴿ وَلِتَتَّقُواْ ﴾ عطف على ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ وكذا قوله تعالى : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ على ما هو الظاهر فالمجيء معلل بثلاثة أشياء وليس من توارد العلل على معلول واحد الممنوع وبينها ترتب في نفس الأمر فإن الإنذار سبب للتقوى والتقوى سبب لتعلق الرحمة بهم ، وليس في الكلام دلالة على سببية كل من الثلاثة لما بعده ولو أريدت السببية لجيء بالفاء . وبعضهم اعتبر عطف ﴿ لتتقوا ﴾ على ﴿ مّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ و ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ على ﴿ لتتقوا ﴾ مع ملاحظة الترتب أي لتتقوا بسبب الإنذار ولعلكم ترحمون بسبب التقوى فليتأمل .

وجيء بحرف الترجي على عادة العظماء في وعدهم أو للتنبيه على عزة المطلب وأن الرحمة منوطة بفضل الله تعالى فلا اعتماد إلا عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قولَه : ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم ﴾

مفتتحاً الجملةَ بالاستفهام الإنكاري بعد واو العطف ، وهذا مشعر بأنّهم أحالوا أن يكون رسولاً ، مستدلّين بأنّه بشر مثلهم ، كما وقعت حكايته في آية أخرى ﴿ ما هذا إلاّ بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم ﴾ [المؤمنون : 24] .

واختير الاستفهام دون أن يقول : لا عَجب ، إشارة إلى أنّ احتمال وقوع ذلك منهم ممّا يتردّد فيه ظن العاقل بالعقلاء .

فقولهّ : ﴿ أو عجبتم ﴾ بمنزلة المنع لقضية قولهم : ﴿ إنا لَنراك في ضلالٍ مبين ﴾ [الأعراف : 60] لأنّ قولهم ذلك بمنزلة مقدمةِ دليل على بطلان ما يدعوهم إليه .

وحقيقة العَجَب أنّه انفعال نفساني يحصل عند إدراك شيء غير مألوفٍ ، وقد يكون العجب مشوباً بإنكار الشّيء المتعجب منه واستبعاده واحالته ، كما في قوله تعالى : ﴿ بل عَجِبُوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أإذا مِتْنَا وكُنَّا تراباً ذلك رَجْع بعيد ﴾ [ق : 2 ، 3] وقد اجتمع المعنيان في قوله تعالى : ﴿ وإنْ تَعْجَب فَعَجَبٌ قولهم أإذا كنا تراباً إنَّا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربّهم ﴾ [الرعد : 5] والذي في هذه الآية كناية عن الإنكار كما في قوله تعالى : ﴿ قالوا أتَعْجَبين من أمر الله ﴾ [هود : 73] أنكروا عليها أنّها عدت ولادتها ولَدا ، وهي عَجوز ، مُحالاً .

وتنكير ﴿ ذِكْرٌ ﴾ و ﴿ رَجُلٍ ﴾ للنّوعية إذ لا خصوصية لذِكْر دون ذِكْر ولا لِرَجُل دون رَجل ، فإنّ النّاس سواء ، والذّكْر سواء في قبوله لمن وفقه الله ورده لمن حُرم التّوفيقَ ، أي هذا الحدث الذي عظمتموه وضججتم له ما هو إلاّ ذِكْر من ربّكم على رَجُل منكم .

(120/274)

ووصْفُ ﴿ رجل ﴾ بأنّه منهم ، أي من جنسهم البشري فضحٌ لشبهتهم ، ومع ما في هذا الكلام من فضح شبهتهم فيه أيضاً ردّ لها بأنّهم أحقاء بأن يكون ما جعلوه موجب استِبْعاد واستحالة هو موجب القبول والإيمان ، إذ الشأن أن ينظروا في الذّكر الذي جاءهم من ربّهم وأن لا يسرعوا إلى تكذيب الجائي به ، وأن يعلموا أن كونَ المُذَكِّر رجلاً منهم أقربُ إلى التّعقّل من كون مُذكِّرِهم من جنس آخر من مَلَك أو جِنّي ، فكان هذا الكلام من جوامع الكلم في إبطال دعوى الخصم والاستدلال لصدق دعوى المجادل ، وهو يتنزّل منزلة سَنَد المنع في علم الجدل .

ومعنى (على) من قوله ﴿ على رجل منكم ﴾ يشعر بأنّ ﴿ جاءكم ﴾ ضُمّن معنى نَزل : أي نزل ذكر من ربّكم على رجل منكم ، وهذا مختار ابن عطيّة ، وعن الفرّاء أنّ (على) بمعنى مع .

والمجرور في قوله : ﴿ لينذركم ﴾ ظرف مستقر في موضع الحال من رجل ، أو هو ظرف لَغو متعلّق بقوله : ﴿ جاءكم ﴾ وهو زيادة في تشويه خَطَئهم إذ جعلوا ذلك ضلالاً مبيناً ، وإنّما هو هدى واضح لفائدتكم بتحذيركم من العقوبة ، وإرشادكم إلى تقوى الله ، وتقريبكم من رحمته .

وقد رُتّبت الجمل على ترتيب حصول مضمونها في الوجود ، فإنّ الإنذار مقدّم لأنّه حَمْلٌ على الإقلاع عمّا هم عليه من الشّرك أو الوثنية ، ثمّ يحصل بعده العمل الصّالح فتُرجى منه الرّحمة .

والإنذار تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إنَّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونَذيراً ﴾ في سورة البقرة (119) .

والتّقوى تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ هدى للمتّقين ﴾ في أوّل سورة البقرة (2) .

ومعنى (لعلّ) تقدّم في قوله تعالى : ﴿ لعلّكم تتّقون ﴾ في سورة البقرة (21) .

والرّحمة تقدّمت عند قوله تعالى : ﴿ الرحمن الرّحيم ﴾ في سورة الفاتحة (3) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(121/274)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ وكان من الممكن أن يقول : " أعجبتم " ، لكن ساعة أن يجيء بهمزة الاستفهام ويأتي بعدها بحرف عطف . فاعرف أن هناك عطفاً على جملة ؛ أي أنه يقول : أكذَّبْتُم بي ، وعجبتم من أن الله أرسل على لساني ﴿ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . والذكر ضد النسيان ، وأن الشيء يكون على البال ، ومرة يتجاوز البال ويجري على اللسان .

وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر في القرآن ، وأول هذه المعاني وقمتها أن الذكر حين يطلق يراد به القرآن : ﴿ ذلك نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ والذكر الحكيم ﴾ [آل عمران : 58]

وكذلك في قوله الحق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9]

إذن يطلق الذِّكر ويراد به القرآن ، ومرة يطلق الذكر ويراد به الصيت أي الشهرة الإعلامية الواسعة . وقد قال الحق لرسوله عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ . . . ﴾ [الزخرف : 44]

أي أن القرآن شرف كبير لك ولأمتك وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ؛ لأن الناس سترى في القرآن على تعاقب العصور كل عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يصدق القرآن ، إذن بفضل القرآن " العربي " ، سيظل اسم العرب ملتصقا ومرتبطا بالقرآن

، وكل شرف للقرآن ينال معه العرب شرفا جديدا .

أي أن القرآن شرف لكم . ويقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 10] .

أي فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تاريخكم ، ويأتي الإسلام الذي ينسخ القوميات والأجناس ، ويجعل الناس كلها سواسية كأسنان المشط . ﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لتعارفوا . . . ﴾ [الحجرات : 13]

(122/274)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى " .

وسيظل القرآن عربياً ، وهو معجزة في لغة العرب ، وبه ستظل كلمة العرب موجودة في هذه الدنيا . إذن فشرف القوم يجيء من شرف القرآن ، ومن صيت القرآن . والحق يقول : ﴿ ص والقرآن ذِي الذكر ﴾ [ص : 1]

أي أن شرفه دائم أبداً . حين يأتي إلى الدنيا سبق علمي ، نجد من يذهب إلى البحث عن أصول السبق في القرآن ، ونجد غير المسلمين يعتنون بالقرآن ويطبعونه في صفحة واحدة ، وعلى ورق فاخر قد لا يستعملونه في كتبهم . هذا هو القرآن ذو الذكر على الرغم من أن

بعض المسلمين ينحرفون قليلاً عن المنهج ، وقد يتناساه بعضهم ، لكن في مسألة القرآن نجد الكل يتنبه . وكما قلت من قبل : قد تجد امرأة كاشفة للوجه وتضع مصحفاً كبيراً على صدرها ، وقد تجد من لا يصلي ويركب سيارة يضع فيها المصحف ، وكل هذا ذكر .

وتجد القرآن يُقرأ مرتلاً ، ويُقرأ مجوداً ، ومجوداً بالعشرة ثم يسجل بمسجلات يصنعها من لا يؤمنون بالقرآن . وكل هذا ذكر وشرف كبير .

عرفنا أن " الذكر " قد ورد أولا بمعنى القرآن ، وورد باسم الصيت والشرف : ويطلق الذكر ويراد به ما نزل على جميع الرسل ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء : 1-2]

أي أن كل ما نزل على الرسل ذكر .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء : 48]

إذن فالمراد بالذكر – أيضاً – كل ما نزل على الرسل من منهج الله .

ومرة يُطلق الذكر ويراد به معنى الاعتبار . والتذكير ، والتذكر فيقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله . . . ﴾ [المائدة : 90-91]

والمراد هنا بالذكر : الاعتبار والتذكر وأن تعيش كمسلم في منهج الله . ومرة يراد بالذكر : التسبيح ، والتحميد . انظر إلى قوله الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصلاة وَإِيتَآءِ الزكاة . . . ﴾ [النور : 36-37 ﴾

وهو ذكر لأن هناك من يسبح له فيها بالغدو والآصال وهم رجال موصوفون بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يُطلق الذكر ويراد منه خير الله على عبادة ويراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ؛ فسبحانه يذكرهم بالخير وهم يذكرونه بالطاعة . اقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ . . . وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 90]

وفي آية أخرى : ﴿ . . . إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ والله يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : 45]

وما دام قد قال جل وعلا : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ أي ذكر الله لهم بالنعم والخيرات ، فذكره فضل وإحسان وهو الكبير المتعال . فهناك إذن ذكر ثان ، ذكر أقل منه ، وهو العبادة لربهم بالطاعة ، هنا يقول الحق : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الاعراف : 63]

(124/274)

ما وجه العجب هنا ؟ نعلم أن العجب هو إظهار الدهشة وانفعال النفس من حصول شيء علي غير ما تقتضيه مواقع الأمور ومقدماتها ، إذن تظهر الدهشة ونتساءل كيف حدث هذا ؟ ولو كان الأمر طبيعياً ورتيباً لما حدثت تلك الدهشة وذلك العجب .

وعجبتم لماذا ؟ اقرأ – إذن – قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ق والقرآن المجيد * بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ . . . ﴾ [ق : 1-2]

موضع العجب هنا أن جاء لهم منذر ورسول من جنسهم ؛ فمن أي جنس كانوا يريدون الرسول ؟ كان من غبائهم أنهم أرادوا الرسول مَلَكاً . ﴿ بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكافرون هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق : 2]

وجاء العجب أيضاً في البعث . فتساءل الكافرون هل بعد أن ذهبنا وغبنا في الأرض

وصرنا تراباً بعد الموت يجمعنا البعث مرة ثانية ؟ !

إذن فالعجب معناه إظهار الدهشة من أمر لا تدعو إليه المقدمات أو من أمر يخالف المقدمات .

العجب عندهم في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها لأن نوحاً عليه السلام يريد منهم أن يبحثوا في الإِيمان بوجود إِله . وكان المنطق يقتضي أنه إذا رأوا شيئاً هندسته بديعة ، وحكيمة ، وطرأ عليها هذا المخلوق وهو الإِنسان ليجد الكون منسقاً موجوداً من قبله ، كان المنطق أن يبحث هذا الإِنسان عمن خلق هذا الكون وأن يلحّ في أن يعرف مَن صنع الكون ، وحين يأتي الرسول ليقول لكم من صنع هذا الكون ، تتعجبون ؟ !

كان القياس أن تتلهفوا على من يخبركم بهذه الحقيقة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان في خدمتك أيها الإنسان . لا بقوتك خلقت هذا الكون ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارئ على الكون والأجناس ، ألم يدر بخلدك أن تتساءل من صنع لك ذلك ؟

إذن فالكلام عن الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل ، وقلت قديماً : هب أن إنساناً وقعت به طائرة في مكان ، وهذا المكان ليس به من وسائل الحياة شيء أبداً ، ثم جاع ، ولم يجد طعاماً ، وقهره التعب ، فنام ، ثم أفاق من هذه الإغفاءة ؛ وفوجئ بمائدة أمامه عليها أطايب الطعام والشراب وهو لا يعرف أحداً في المكان ، بالله قبل أن يأكل ألا يتساءل عمن أحضرها ؟ ! ! كان الواجب يقتضي ذلك .

إذن أنتم تتعجبون من شيء تقتضي الفطرة أن نبحث عنه ، وأن نؤمن به وهو الإله الذي لا ينتفع بطاعاتنا أو بعبادتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشيء ، بل تعود علينا ، والعبادة فيها مشقات لأنها تلجم الشهوات وتعقل وتمنع من المعاصي والمحرمات ، ولكن يُقابِل ذلك الثوابُ في الآخرة .

وهناك من قال : ولماذا لا يعطينا الثواب بدون متاعب التكليف ؟ مادام لا يستفيد . إنّ العقل كاف ليدلنا – دون منهج – إلى ما هو حسن فنفعله ، وما نراه سيئاً فلا نفعله ، والذي لا نعرفه أهو حسن أم سيىء . ونضطر له نفعله ، وإن لم نكن في حاجة له لا نفعله .

ونقول لها القائل : لكن من الذي أخبرك أن العقل كاف ليدلنا إلى الأمر الحسن ، هل حسّن لك وحدك أم لك وللآخرين ؟ فقد يكون الحسن بالنسبة لك هو السوء بالنسبة لغيرك لأنك لست وحدك في الكون . ولنفترض أن هناك قطعة قماش واحدة ، الحسن عندك أن تأخذها ، والحسن عند غيرك أن يأخذها . لكن الحُسْن الحقيقي أن يفصل في مسألة

ملكية هذه القطعة من القماش مَن يعدل بينك وبين غيرك دون هوى . وألاّ يكون واحد أولى عنده من الآخر . إذن لابد أن يوجد إله يعصمنا من أهوائنا بمنهج ينزله يبين لنا الحسن من السيء ؛ لأن الحسن بالمنطق البشري ستصدم فيها أهواؤنا .

(126/274)

ومثال آخر : افرض أننا دخلنا مدينة ما ، ورأينا مسكنا جميلا فاخرا وكل منا يريد أن يسكن فيه وكل واحد يريد أن يأخذه ؛ لأن ذلك هو الحسن بالنسبة له ، لكن ليس كذلك بالنسبة لغيره ، إذن فالحسن عندك قد يكون قبيحاً عند الغير .

فالحسن عند بعض الرجال إذا رأى امرأة أن ينظر إليها ويتكلم معها ، لكن هل هذا حسن عند أهلها أو أبيها أو زوجها ؟ لا .

إنّ الذي تعجبتم منه كان يجب أن تأخذوه على أنه هو الأمر الطبيعي الفطري الذي تستلزمه المقدمات . فقد جاءكم البلاغ على لسان رجل منكم . ولماذا لم يقل الحق : لسان رجل ؟ إننا نعلم أن هناك آية ثانية يقول فيها الحق : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ . . ﴾ [آل عمران : 194]

كأنه يقول لهم : إن الوعد الذي وعده الحق لكم قد جاء لكم بالمنهج الذي نزل على الرسل

. ومهمة الرسل صعبة ؛ فليست مقصورة على التبليغ باللسان لأن مشقاتها كلها على كاهل كل رسول ، ولا تظنوا أن ربنا حين اختار رسولاً قد اختاره ليد لله على رقاب الناس ، لا . لقد اختاره وهو يعلم أن المهمة صعبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم – كما تعلمون – لم يشبع من خبز شعير قط ، وأولاده وأهله – على سبيل المثال – لا يأخذون من الزكاة ، والرسل لا تورث فجميع ما تركوه صدقة ، وكل تبعات الدعوة على الرسول ، وهذه هي الفائدة في أنه لم يقل على لسان رسول ، لأن الأمر لو كان على لسان الرسول فقط لأعطى البلاغ فقط ، إنما " على رجل منكم " تعطي البلاغ ومسئولية البلاغ على هذا الرجل . ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنْكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 63] ما هو العجب ؟ لقد كان العجب أن تردوا الألوهية والنبوة .

(127/274)

وبعضهم لم يرد الألوهية ورد فكرة النبوة على الإنسان . وطالب أن يكون الرسول من الملائكة ؛ لأن الملائكة لم تعص ولها هيبة ولا يُعرف عنها الكذب لكن كيف يصبح الرسول ملكاً ؟ وهل أنت ترى الملك ؟ إن البلاغ عن الله يقتضي المواجهة ، ولابد أن يراه القوم ويكلموه ، والملك أنت لن تراه . إذن فلسوف يتشكل على هيئة رجل كما تشكل جبريل

بهيئة رجل . إذن أنتم تستعجبون من شيء كان المنطق يقتضي ألاّ يكون . ﴿ وَمَا مَنَعَ النَاسَ أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] وقولهم هذا في قمة الغباء . فقد كان عليهم أن يتهافتوا ويقبلوا على الإيمان ؛ لأن الرسول منهم . وقد عرفوا ماضيه من قبل ، وكذلك أنسوا به ، ولو كانت له انحرافات قبل أن يكون رسولاً لخزي واستحيا أن يقول لهم : استقيموا . وما دام هو منكم وتعرفون تاريخه وسلوكه حين دعاكم للاستقامة كان من الواجب أن تقولوا لأنفسكم : إنه لم يكذب في أمور الدنيا فكيف في أمور الآخرة ، ولم يسبق له أن كذب على خلق الله فكيف يكذب على الله ؟ ولأنه منكم فلابد أن يكون إنساناً ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 9]

وهنا في الآية التي نحن بصددها يقول الحق : ﴿ على رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

إذن فمهمته أن ينذر ، والأنذار لقصد التقوى ، والتقوى غايتها الرحمة ، وبذلك نجد هنا مراحل : الإنذار وهو إخبار بما يسؤوك ولم يأت زمنه بعد وذلك لتستعد له ، وتكف لأنه سيتبعك ويضايقك . والبشارة ضد الإنذار ، لأنها تخبر بشيء سار زمنه لم يأت ، وفائدة ذلك أن يجند الإنسان كل قوته ليستقبل الخير القادم . وأن يبتعد عن الشيء المخيف .

وهكذا يكون التبشير والإنذار لتتقي الشرور وتأخذ الخير ، وبذلك يحيا الإنسان في التقوى التي تؤدي إلى الرحمة .

إذن فمواطن تعجبهم من أن يجيئهم رسول مردودة ؛ لأن مواطن التعجب هذه كان يجب أن يلح عليها فطرياً ، وأن تنعطف النفس إليها لا أن يتعجب أحد لأنها جاءت ، فقد جاءت الرسالة موافقة للمقدمات ، وقد جاء الرسول ولم يأت ملكاً ليكون قدوة .

وكذلك لم يرسله الله من أهل الجاه من الأعيان ومن صاحب الأتباع ؛ حتى لا يقال إن الرسالة قد انتشرت بقهر العزوة ، إن الأتباع كانوا موافقين على الباطل بتسلط الكبراء والسادة ، فمخافة أن يقال : إن كل تشريع من الله آزره المبطلون بأتباعهم جاءت الدعوة على أيدي الذين ليس لهم أتباع ولا هم من أصحاب الجاه والسلطان . ولقد تمنى أهل الشرك ذلك ويقول القرآن على لسانهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

ولقد كان تمنيهم أن ينزل القرآن على رجل عظيم بمعاييرهم ، وهذه شهادة منهم بان القرآن في ذاته منهج ومعجزة . ولم يتساءلوا : وهل القرآن يشرف بمحمد أو محمد هو الذي يشرف بالقرآن ؟ إن محمداً يشرف بالقرآن ؛ لذلك يقول الحق : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي . . . ﴾ [هود : 27]

وهذه هي العظمة ؛ لأن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم لم يكونوا من الذين يفرض عليهم الواقع أن يحافظوا على جاههم ويعملوا بسطوتهم وبطشهم وبقوتهم ، ويفرضوا الدين بقوة سلطانهم ، لا ، بل يمر على أتباع رسول الله فترة ضعاف مضطهدون ، ويؤذوْن ويهاجرون ، فالمهمة في البلاغ عن الله تأتي لينذر الرسول ، ويتقى الأتباع لتنالهم الرحمة نتيجة التقوى ، والتقوى جاءت نتيجة الإنذار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(129/274)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ الآية .

أنكر تعالى في هذه السورة الكريمة على قوم نوح ، وقوم هود عجبهم من إرسال رجل . وبين في مواضع أخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك . قال في عجب قوم نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ الناس ﴾ [يونس : 2] ، وقال : ﴿ بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ق : 2] الآية ، وقال عن الأمم السابقة : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ

واستغنى الله والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : 6] ، وقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر فقالوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ ﴾ [القمر : 23-24] الآية ، وقال : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 34] ، وصرح بأن هذا العجب من إرسال بشر مانع للناس من الإيمان بقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] .

ورد الله عليهم ذلك في آيات كثيرة كقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ [الأنبياء : 7] الآية ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام ﴾ [الفرقان : 20] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ [الأنعام : 9] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(130/274)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أَوَعَجِبْتُمْ "

ألفُ استفهامٍ دخلت على واو العَطْفِ ، وقد تقدَّم الخلافُ في هذه الهَمْزَةِ السَّابقة على

الواو ، وقدَّر الزمخشري على قاعدته معطوفاً عليه محذوفاً تقديره : أكذَّبْتُمْ وعجبتم " أنْ جَاءَكُمْ " أي : مِنْ جاءكم ، فلما حذف الحَرْفَ جرى الخلاف المشهورُ .

" مِنْ رَبِّكُمْ " صفةٌ لـ " ذِكْر " .

" عَلَى رَجُلٍ " : قال ابْنُ قُتَيْبَةَ : [قال الفرَّاءُ] : يجوز أن تكون على حذف مضافٍ ، أي : على لِسَانِ رَجُل " .

وقيل : على بمعنى " مع " ، أي : مع رجل فلا حذف .

وقيل : لا حاجة إلى حَذْف ، ولا إلى تضمين حرف ؛ لأنَّ المعنى أُنزل إليكم ذِكْر على رَجُلٍ ، وهذا أوْلى ؛ لأنَّ التَّضْمِينَ في الأفعال أحسن منه في الحُرُوفِ لقوَّتِهَا وضعف الحُرُوفِ .

فصل في معنى " الذكر "

قال ابنُ عَبَّاسٍ : الذِّكْرُ الموعظة .

وقال الحَسَنُ : إنه الوَحْيُ الَّذي جَاءَهُمْ بِهِ .

وقيل : المراد بالذِّكْرِ المُعْجِز .

وقيل : بيان " عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ " أي تعرفون نسبه ، فهو منكم نسباً .

" لِيُنْذِرَكُمْ " أي : لأجْلِ أن ينذركم عذابَ اللَّه .

" وَلِتَتَّقُوا " أي : لكي تَتَّقُوا .

" وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون " أي : لكي ترحموا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ

﴿ 182

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) ﴾

عجبوا مِنْ كَوْنِ شخصِ رسولَ اللهِ ، ولم يتعجبوا من كون الصنمِ شريكاً لله ، هذا فَرْطُ الجهالة وغاية الغباء ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 544 ﴾

(131/274)

قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نسبوه أولاً إلى الضلال وهو قد يكون خطأ عن ذهول ونحوه ، فأقام لهم الدليل على أنه على الصواب ، أخبر أنه لم يتسبب عن ذلك إلا تصريحهم بما لوحوا إليه أولاً بالضلال من

التكذيب فقال : ﴿ فكذبوه ﴾ أي الملأ وتبعهم من دونهم ؛ ولما تسبب عن تكذيبهم له تصديق الله لهم بإهلاكهم وإنجائه ومن آمن به ، قال مقدماً لإنجائه اهتماماً به :

﴿ فأنجيناه ﴾ بما لنا من العظمة من أهل الأرض كلهم ومن عذابنا الذي أخذناهم به :

﴿ والذين معه ﴾ أي بصحبة الأعمال الدينية ﴿ في الفلك ﴾ وهو السفينة التي منّ الله على الناس بتعليمه عملها لتقيه من الطوفان فكانت آية ومنفعة عظيمة لمن أتى بعدهم

﴿ وأغرقنا ﴾ أي بالطوفان ، وهو الماء الذي طبق ظهر الأرض فلم يبق منها موضعاً حتى أحاط به ، وأظهر موضع الإضمار تعليقاً للفعل بالوصف إشارة إلى أن من فعل مع الرسول شيئاً فإنما فعله مع مرسله فهو يجازيه بما يستحقه فقال : ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي وهي من الظهور في حد لا خفاء به لما لها من العظمة بالنسبة إلينا ، وعدي هنا فعل النجاة بالهمزة وهي الأصل في التعدية ، وقرنت ب ﴿ الذين ﴾ لأنه أخلص الموصولات واصرحها .

(132/274)

ولما أعيدت القصة في سورة يونس عليه السلام ، كان الأليق بكلام البلغاء والأشبه بطرائق الفصحاء التفنن في العبارة ، فعدي التضعيف مع ما فيه من الأبلغية بإفهام مزيد الاعتناء

مناسبة لما تقدم من مزيد التفويض في قوله ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ [يونس : 71] ، وتلاب ﴿ من ﴾ ضماً للفرع إلى الفرع فإن ﴿ من ﴾ مشترك بين الوصل والشرط ، وهي أيضاً قد تطلق على ما لا يعقل ، فناسب ذلك الحال ، وزيد هناك في وصف الناجين ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ [يونس : 73] نظراً إلى قوله تعالى في في أول السورة ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ [يونس : 13] ، ثم قال : ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ [يونس : 14] فلوح لهم بالإهلاك إن ظلموا ، ثم أشار لهم – في قصة نوح عليه السلام بكونه أعلمهم أن الخلائف هم الناجون الباقي ذكرهم وذريتهم – إلى أنه تفضل عليهم بالتوفيق إلى الإجابة ورحمهم بهذا النبي الكريم – عليه أفضل الصلاة والتسليم – فقضى أنهم غير مهلكين .

ولما افتتحت القصة بنسبتهم له إلى الضلال باطلاً ، وهو ناشىء عن عمى البصيرة أو البصر ، ناسب أن يقلب الأمر عليهم على وجه الحق فقال مؤكداً لإنكارهم ذلك ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي لما جبلتهم من العوج ﴿ قوماً عمين ﴾ أي مطبوعين في عمى القلب مع قوتهم يحاولون ، ثابت لهم ذلك ، بما أشار إليه فعل دون أن يقال فاعل ، وختمت القصة في يونس بقوله ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ [يونس : 73] لقوله أولها ﴿ إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري ﴾ [يونس : 71] أي إنذاري لأنه أعلم أنه كبر عليهم ولو كان تبشيراً لما عز عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 50 . 51 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى أنهم مع ذلك كذبوه في ادعاء النبوة وتبليغ التكاليف من الله وأصروا على ذلك التكذيب ، ثم إنه تعالى أنجاه في الفلك وأنجى من كان معه من المؤمنين وأغرق الكفار والمكذبين .

(133/274)

وبين العلة في ذلك فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ قال ابن عباس : عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد ، قال أهل اللغة : يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنباء يَوْمَئِذٍ ﴾ [القصص : 66] وقال : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام : 104] قال زهير :

واعلم ما في اليوم والأمس قبله . . ولكنني عن علم ما في غد عمي

قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ عَامِيْنِ ﴾ والفرق بين العمي والعامي أن العمي يدل على عمي ثابت .

والعامي على عمي حادث ، ولا شك أن عماهم كان ثابتاً راسخاً ، والدليل عليه قوله

تعالى في آية أخرى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءامَنَ ﴾ [هود : 36] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 125 ﴾

(134/274)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي نوحاً ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ يعني : الذين اتبعوه من المؤمنين في السفينة ، والفلك اسم لواحد والجماعة يعني : أنجينا المؤمنين من الغرق ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ ﴾ عن نزول العذاب .

ويقال ﴿ عمين ﴾ عن الحق يعني : جعلوا أمره باطلاً .

وقد بيّن الله قصته في سورة هود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعني نوحاً ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ من الطوفان ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ قال ابن إسحاق : يعني بنيه الثلاثة ، سام وحام ويافث وأزواجهم وستة أناس ممن كان آمن به وحملهم في الفلك وهو السفينة .

وقال الكلبي : كانوا ثمانين إنساناً أربعون ذكوراً وأربعون امرأة ﴿ وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ

إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ عن الحق جاهلين بأمر الله ، وقال الضحاك : (عمينَ) كفّاراً .

وقال الحسين بن الفضل : (عمين) في البصائر يقال : رجل عَمٍ عن الحق وأعمى في البصر .

وقيل : العمي والأعمى واحد كالخضر والأخضر . وقال مقاتل : عموا عن نزول العذاب بهم وهو الحرث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(135/274)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ فكذبوه ﴾ الآية ،

أخبر الله عنهم أنهم بعد تلطفه بهم كذبوه فأنجاه الله والمؤمنين به في السفينة وهي الفلك ، و ﴿ الفلك ﴾ لفظ واحد للجمع والمفرد ، وليس على حد جنب ونحونه ، لكن فلك للواحد كسر على فُلك للجميع فضمة الفاء في الواحد ليست هي في الجمع وفعل بناء تكسير مثل أسد وأسد ، ويدل على ذلك قولهم في التثنية فلكان ، وفي التفسير : أن الذين كانوا مع نوح في السفينة أربعون رجلاً ، وقيل ثمانون ، وقيل عشرة ، فهم أولاده يافث وسام وحام ، وفي كثر من كتب الحديث للترمذي وغيره : أن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام ، وقال الزهري في كتاب النقاش : وفي القرآن ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ [

الإسراء : 3] .

قال القاضي أبو محمد : فيحتمل أن يكون سائر العشرة أو الأربعين حسب الخلاف حفدة لنوح ومن ذريته فتجتمع الآية والحديث ، ويحتمل أن من كان في السفينة غير بنيه لم ينسل ، وقد روي ذلك ، وإلا لكان بين الحديث والآية تعارض ، وقوله : ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ يقتضي أن نوحاً عليه السلام كانت له آيات ومعجزات ، وقوله : ﴿ عمين ﴾ وزنه فعلين وهو جمع عم وزنه فعل ، ويريد عمى البصائر ، وروي عن ابن عباس أن نوحاً بعث ابن أربعين سنة ، قال ابن الكلبي : بعد آدم بثمانمائة سنة ، وجاء بتحريم البنات والأخوات والأمهات والخالات والعمات ، وقال وهب بن منبه بعث نوح وهو ابن أربعمائة سنة ، وقيل بعث ابن ثلاثمائة سنة ، وقيل ابن خمسين سنة ، وروي أنه عمر بعد الغرق ستين سنة ، وروي أن الطوفان كان سنة ألف وستمائة من عمره صلى الله عليه وسلم ، وأتى في حديث الشفاعة وغيره : أن نوحاً أول نبي بعث إلى الناس ، وأتى أيضاً أن إدريس قبل نوح ومن آبائه وذلك يجتمع بأن تكون بعثة نوح مشتهرة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان ، فالمراد أنه أول نبي بعث على هذه الصفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ فكذبوه ﴾ يعني فكذبوا نوحاً ﴿ فأنجيناه ﴾ يعني من الطوفان والغرق ﴿ والذين معه ﴾ يعني من آمن من قومه معه ﴿ في الفلك ﴾ يعني في السفينة ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما عميت قلوبهم عن معرفة الله تعالى ، قال الزجاج : عموا عن الحق والإيمان .

يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر وأنشدوا قول زهير :

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله . . .

ولكنني عن علم ما في غدٍ عم

قال مقاتل : عموا عن نزول العذاب بهم وهو الفرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(137/274)

وقال أبو حيان :

﴿ فكذّبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين

﴾ .

أخبر تعالى أنهم كذبوه هذا مع حسن ملاطفته لهم ومراجعته لهم وشفقته عليهم فلم يكن نتيجة هذا إلاّ التكذيب له فيما جاء به عن الله ﴿ والذين معه في الفلك ﴾ هم من آمن به وصدّقه وكانوا أربعين رجلاً ، وقيل ثمانين رجلاً وأربعين امرأة قاله الكلبي وإليهم تنسب القرية التي ينسب إليها الثمانون وهي بالموصل ، وقيل : عشرة فيهم أولاده الثلاثة ، وقيل : تسعة منهم بنوه الثلاثة وفي قوله ﴿ وأغرقنا الذين كذّبوا ﴾ إعلام بعلّة الغرق وهو التكذيب و ﴿ بآياتنا ﴾ يقتضي أنّ نوحاً كانت له آيات ومعجزات تدل على إرساله ويتعلق ﴿ في الفلك ﴾ بما يتعلّق به الظّرف الواقع صلة أي والذين استقروا معه في الفلك ويحتمل أن يتعلق بأنجيناه أي أنجيناهم في السّفينة من الطّوفان وعلى هذا يحتمل أن تكون في ﴿ سببية ﴾ أي بالفلك كقوله "دخلت النار في هرة" أي بسبب هرة و ﴿ عمين ﴾ من عمي القلب أي غير مستبصرين ويدل على ثبوت هذا الوصف كونه جاء على وزن فعل ولو قصد الحذف لجاء على فاعل كما جاء ضائق في ضيق وثاقل في ثقيل إذا قصد به حدوث الضّيق والثقل ، قال ابن عباس عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد ، وقال معاذ النحوي : رجل عم في أمره لا يبصره وأعمى في البصر .

قال :

ما في غد عم ولكنني عن علم . . .

وقد يكون العمى والأعمى كالخضر والأخضر ، وقال الليث : رجل عم إذا كان أعمى القلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(138/274)

وقال أبو السعود :

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أجمعوا على تكذيبه في دعوى النبوةِ وما نزل عليه من الوحي الذي بلّغه إليهم وأنذرهم بما في تضاعيفه ، واستمرّوا على ذلك هذه المدةَ المتطاولةَ بعد ما كرر عليه الصلاة والسلام عليهم الدعوةَ مراراً ، فلم يزدهم دعاؤُه إلا فراراً حسبما نطق به قولُه تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ الآيات ، إذ هو الذي يعقُبه الإنجاءُ والإغراقُ لا مجلادُ التكذيب ﴿ فأنجيناه والذين مَعَهُ ﴾ من المؤمنين ، قيل : كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأةً وقيل : تسعةً : أبناؤُه الثلاثة وستةٌ ممّن آمن به ، وقوله تعالى : ﴿ فِى الفلك ﴾ متعلقٌ بالاستقرار في الظرف أي استقروا في الظرف ، أي استقروا معه في الفلك أو صحِبوه فيه ، أو بفعل الإنجاء أي أنجيناهم في السفينة ، ويجوز أن يتعلق بمُضْمر وقع حالاً من الموصول أو من ضميره في الظرف ﴿ وأغرقنا الذين كذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي استمروا على تكذيبها ، وليس المرادُ بهم الملأَ المتصدّين للجواب فقط بل كلَّ من أصرّ على التكذيب منهم ومن

أعقابهم ، وتقديمُ ذكرِ الإنجاءِ على الإغراق للمسارعة إلى الإخبار به ، والإيذانِ بسبق الرحمةِ التي هي مقتضى الذاتِ ، وتقدُّمِها على الغضب الذي يظهر أثرُه بمقتضى جرائمِهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ عُمْيَ القلوبِ غيرَ مستبصرين .

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : عمِيَتْ قلوبُهم عن معرفة التوحيد والنبوةِ والمعاد ، وقرىء عامِينَ والأول أُدلُّ على الثبات والقرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(139/274)

وقال الآلوسى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي استمروا على تكذيبه وأصروا بعد أن قال لهم ما قال ودعاهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ﴿ فأنجيناه ﴾ من الغرق ، والإنجاء في الشعراء من قصد أعداء الله تعالى وشؤم ما أضمروه له عليه السلام ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ من المؤمنين .

وكانوا على ما قيل : أربعين رجلاً وأربعين امرأة .

وقيل : كانوا (عشرة) أبناؤه الثلاثة وستة ممن آمن به عليه السلام ، والفاء للسببية باعتبار الإغراق لا فصيحة .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فِى الفلك ﴾ أي السفينة متعلق بما تعلق به الظرف الواقع صلة أي استقروا معه في الفلك .

وجوز أن يكون هو الصلة و ﴿ مَعَهُ ﴾ متعلق بما تعلق به وأن يكون متعلقاً بأنجينا و ﴿ فِى ﴾ ظرفية أو سببية وأن يكون متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من ﴿ الذين ﴾ نفسه أو من ضميره .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فأنجيناه والذين مَعَهُ ﴾ أي استمروا على تكذيبها ، والمراد به ما يعم أولئك الملأ وغيرهم من المكذبين المصرين .

وتقديم الإنجاء على الإغراق للمسارعة إلى الإخبار به والإيذان بسبق الرحمة على الغضب ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ أي عمى القلوب عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد كما روي عن ابن عباس أو عن نزول العذاب بهم كما نقل عن مقاتل .

وقرىء ﴿ عَامَيْنِ ﴾ والأول أبلغ لأنه صفة مشبهة فتدل على الثبوت وأصله عميين فخفف ، وفرق بعضهم بين عم وعام بأن الأول لعمى البصيرة والثاني لعمى البصر .

وأنشدوا قول زهير

: وأعلم علم اليوم والأمس قبله . . .

ولكنني عن علم ما في غد عمي

وقيل : هما سواء فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ ﴾ [64] .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي : أصروا على تكذيبه ، مع طول مدة إقامته فيهم ولم يؤمن معه منهم إلا قليل ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ ﴾ أي : عن الحق ، فلم يستبصروا الحق ولم يستنيروا بنور الوحي الذي هو كالشمس ، ولا بظهور الآيات ، ولا بآية الطوفان المغرق لهم ، بعد إنذاره به على تكذيبهم ، والعمى ذهاب بصر العينين وبصر القلب . يقال : عَمي فهو أعمى وعمٍ ، كما في القاموس .

وكان من أمر نوح عليه السلام ، أن قومه لما أعرضوا عن الإيمان ، وتمادوا على العصيان ، وعبدة الأوثان ، وطال عليه أمرهم ، شكاهم إلى الله تعالى ، فأوحى الله إليه أنه : ﴿ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ ، وهم ناس قليل ، فحينئذ دعا عليهم فقال : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ .

فأوحى الله إليه أن يصنع السفينة ، وصار قومه يسخرون منه ، ويقولون : يا نوح ! قد

صرت نجاراً بعد النبوة ! فقال : ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

فلما فرغ من صنع السفينة ، أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات ، حتى لا ينقطع نسلها . وحشرها إليه من كل جهة .

ولما رأى فوران

(141/274)

التنور ، وكان هو العلامة بينه وبين الله تعالى في ابتداء الطوفان ، ركب الفلك هو ومن آمن معه ، وحمل من كل زوجين اثنين ، وأمر الله تعالى السماء أن تمطر ، والأرض أن تتفجر عيوناً ، وارتفع الماء في هذا الطوفان رؤوس الجبال ، فهلك جميع ما على الأرض من جنس الحيوان ، ولم يبق حياً غير أهل السفينة .

وفي التوراة : أن الأمطار هطلت أربعين يوماً وليلة دون انقطاع ، حتى غمرت المياه وجه الأرض ، وعلت خمسة عشر ذراعاً فوق الجبال الشامخة وهلك بالطوفان كل جسم حي . ثم أرسل الله ريحاً عاصفة ، فانقطعت الأمطار ونقصت المياه شيئاً فشيئاً ، وقضى نوح سنة كاملة داخل الفلك ، وحين خروجه منه بنى مذبحاً للقرابين ، شكراً لله تعالى ،

وتناسلت الناس من أولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافث وتوطن سام بلاد آسية ، وأقام حام بنواحي أفريقية ، وسكن يافث الديار الأوروبية . والله أعلم .

تنبيه :

قال الجشمي : في الآيات فوائد منها : أن نوحاً دعاهم أولاً إلى التوحيد ، والرسول وإن حمل الشرائع ، فلا طريق له إلى بيان الشرائع إلا بعد العلم بالتوحيد ، ولأنهم لا ينتفعون بذلك إلا بعد اعتقاد التوحيد ، فلذلك بدأ به .

وجميع الرسل بدؤوا بالتوحيد ثم بالشرائع ولذلك كان أكثر حجاج نبينا عليه السلام بمكة ، في التوحيد . انتهى .

وقال ابن كثير : بين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم الكافرين ، كقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ الآية ، وهذه سنة الله في عباده ، في الدنيا والآخرة ، أن العاقبة للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين .

قال مالك عن زيد بن أسلم : كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم ، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 112 . 113 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) .

قَصَصُ الرُّسُلِ الْمَشْهُورِينَ مَعَ أَقْوَامِهِمْ

هَذَا سِيَاقٌ جَدِيدٌ فِي قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ الْمَشْهُورِ ذِكْرُهُمْ فِي الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالشُّعُوبِ الْمُجَاوِرَةِ لَهَا ، قَدْ سَبَقَ التَّمْهِيدُ لَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ نِدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِبَنِي آدَمَ بِقَوْلِهِ : (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) - إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ 35 و36 - وَمِنْهُ يُعْلَمُ وَجْهُ التَّنَاسُبِ وَاتِّصَالِ الْكَلَامِ .

قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(143/274)

قَالَ تَعَالَى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) بَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْقِصَّةَ بِالْقَسَمِ لِتَأْكِيدِ خَبَرِهَا لِأَوَّلِ مَنْ وَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْخِطَابَ بِهَا ، وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ إِذْ كَانُوا يُنْكِرُونَ الرِّسَالَةَ وَالْوَحْيَ ، عَلَى كَوْنِهِمْ أُمِّيِّينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ عُلُومِ الْأُمَمِ وَقَصَصِ الرُّسُلِ شَيْءٌ . إِلَّا

أَنْ يَكُونَ كَلِمَةً فِي بَيْتِ شِعْرٍ مَأْثُورٍ أَوْ عِبَارَةً نَاقِصَةً مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، حَيْثُ كَانُوا يَلْقَوْنَهُمْ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ أَوِ الشَّامِ أَوْ مِمَّنْ تَهَوَّدُ أَوْ تَنَصَّرَ مِنْهُمْ ، وَكُلُّهُمْ أَوْ جُلُّهُمْ ظَلُّوا عَلَى أُمِّيَّتِهِمْ . وَالْقَسَمُ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ لَامُهُ فِي بَدْءِ الْجُمْلَةِ ، وَهِيَ لَا تَكَادُ تَجِيءُ إِلَّا مَعَ " قَدْ " لِأَنَّهَا مَظِنَّةُ التَّوَقُّعِ ، وَنُوحٌ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى قَوْمٍ مُشْرِكِينَ هُمْ قَوْمُهُ كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ وَغَيْرِهِ ، وَتَقَدَّمَ التَّحْقِيقُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ الْبَحْثِ فِي عَدَدِ الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْقُرْآنِ وَهَلْ يُعَدُّ آدَمُ مِنْهُمْ أَمْ لَا ؟ (ص 501 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 طَبْعَةُ الْهَيْئَةِ) وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ هُمُ الَّذِينَ صَوَّرُوا بَعْضَ الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ ثُمَّ وَضَعُوا لَهُمُ الصُّوَرَ وَالتَّمَاثِيلَ لِإِحْيَاءِ ذِكْرِهِمْ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ ، ثُمَّ عَبَدُوا صُوَرَهُمْ وَتَمَاثِيلَهُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا فِي تَفْسِيرِ الْأَنْعَامِ (ص 454 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 طَبْعَةُ الْهَيْئَةِ)

(144/274)

وَغَيْرِهِ .

(فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أَيْ فَنَادَاهُمْ بِصِفَةِ الْقَوْمِيَّةِ مُضَافَةً إِلَيْهِ اسْتِمَالَةً لَهُمْ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُهُ يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ فِي

عِبَادَتِهِمْ ، بِدُعَاءٍ يَطْلُبُونَ بِهِ مَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ بِكَسْبِهِمْ ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ فِي اسْتِطَاعَتِهِمْ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا الْمَطَالِبُ ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَتَوَجَّهُ فِي طَلَبِهِ إِلَى الرَّبِّ الْخَالِقِ لِكُلِّ شَيْءٍ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهَذَا التَّوَجُّهُ وَالدُّعَاءُ هُوَ مُخُّ الْعِبَادَةِ وَلُبَابُهَا فَلَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ بِاللهِ تَعَالَى أَنْ يَتَوَجَّهَ فِيهِ إِلَى غَيْرِهِ أَلْبَتَّةَ – لَا اسْتِقْلَالًا وَلَا بِالتَّبَعِ لِلتَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَإِرَادَةِ التَّوَسُّطِ بِهِ عِنْدَهُ فَإِنَّ هَذَا عَيْنُ الشِّرْكِ ، الَّذِي ضَلَّ بِهِ أَكْثَرُ مَنْ ضَلَّ مِنَ الْخَلْقِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (مِنْ إِلَهٍ) يُفِيدُ تَأْكِيدَ النَّفْيِ وَعُمُومَهُ ، فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ " مَا عِنْدَنَا مِنْ طَعَامٍ

(145/274)

أَوْ أُكُلٍ " (بِضَمَّتَيْنِ) أَفَادَ أَنَّهُ مَا ثَمَّ مِمَّا يُطْعَمُ وَيُؤْكَلُ . وَلَوْ قَالَ : مَا عِنْدَنَا طَعَامٌ أَوْ أُكُلٌ – لَصَدَقَ بِانْتِفَاءِ مَا يُسَمَّى بِذَلِكَ مِمَّا يُقَدَّمُ عَادَةً لِمَنْ يُرِيدُ الْغَدَاءَ أَوِ الْعَشَاءَ مِنْ خُبْزٍ وَإِدَامٍ ، فَإِنْ كَانَ لَدَى الْقَائِلِ بَقِيَّةٌ مِنْ فَضَلَاتِ الْمَائِدَةِ أَوْ قَلِيلٌ مِنَ الْفَاكِهَةِ لَا يَكُونُ كَاذِبًا وَالْمُرَادُ مِنَ النَّفْيِ الْعَامِّ الْمُسْتَغْرَقِ هُنَا – أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ إِلَهٌ مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَيْهِ نَوْعٌ مَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لَا لِرَجَاءِ النَّفْعِ أَوْ دَفْعِ الضَّرَرِ مِنْهُ لِذَاتِهِ ، وَلَا لِأَجْلِ تَوَسُّطِهِ وَشَفَاعَتِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى – بَلِ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ تَتَوَجَّهَ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ وَغَيْرِهِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ .

قَرَأَ الْكِسَائِيُّ " غَيْرِهِ " بِالْكَسْرِ عَلَى الصِّفَةِ لِلَفْظِ " إِلَهٍ " وَالْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ بِاعْتِبَارِ مَحَلِّهِ مِنَ الْإِعْرَابِ لِأَنَّ أَصْلَهُ مَا لَكُمْ إِلَهٌ غَيْرُهُ .

(146/274)

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) هَذَا إِنْذَارٌ مُسْتَأْنَفٌ عُلِّلَ بِهِ الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ الْمُسْتَلْزِمِ لِتَرْكِ أَدْنَى شَوَائِبِ الشِّرْكِ بِهَا ، وَبَيَانٌ لِعَقِيدَةِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَهِيَ الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ بَعْدَ التَّسْلِيمِ بِالرِّسَالَةِ . أَيْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِذَا لَمْ تَمْتَثِلُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ الْعِبَادَ وَيُجَازِيهِمْ بِإِيمَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا مِنْ أَعْمَالِهِمْ . وَقِيلَ : هُوَ يَوْمُ الطُّوفَانِ ، وَيَضْعُفُ بِأَنَّ الْإِنْذَارَ بِهِ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ بَلْ بَعْدَ طُولِ الْإِبَاءِ وَالرَّدِّ وَالْوُصُولِ مَعَهُمْ إِلَى دَرَجَةِ الْيَأْسِ الْمُبَيَّنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَتِهِ حِكَايَةً عَنْهُ : (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي

إِلَّا فِرَارًا) (71 : 5 ، 6) الْآيَاتِ وَبِقَوْلِهِ مِنْ سُورَةِ هُودٍ : (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) (11 : 36) الْآيَاتِ - إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِالْيَوْمِ الْعَظِيمِ عَذَابُ الدُّنْيَا مُطْلَقًا

.

(قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) الْمَلَأُ أَشْرَافُ الْقَوْمِ ، فَإِنَّهُمْ يَمْلَئُونَ الْعُيُونَ رُوَاءً بِمَا يَكُونُ عَادَةً مِنْ تَأَنُّقِهِمْ بِالزِّيِّ الْمُمْتَازِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشَّمَائِلِ ، قَالَ هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ لِنُوحٍ : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ بَيِّنٍ ظَاهِرٍ ، بِنَهْيِكَ إِيَّانَا عَنْ عِبَادَةِ وَدٍّ وَسُوَاعٍ وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرٍ ، الَّذِينَ هُمْ وَسِيلَتُنَا وَشُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى يَقْبَلُنَا بِبَرَكَتِهِمْ . وَيُعْطِينَا سُؤَالَنَا بِوَسَاطَتِهِمْ ، لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى ، وَنَحْنُ لَا نَرَى أَنْفُسَنَا أَهْلًا لِدُعَائِهِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ بِأَنْفُسِنَا ، لِمَا نَقْتَرِفُهُ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي تُبْعِدُنَا عَنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ الْأَقْدَسِ بِغَيْرِ شَفِيعٍ وَلَا وَسِيطٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَحِبَّائِهِ . حَكَمُوا بِضَلَالِهِ وَأَكَّدُوهُ بِالتَّعْبِيرِ بِالرُّؤْيَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَبِإِنَّ وَاللَّامِ وَبِالظَّرْفِيَّةِ الْمُفِيدَةِ لِلْإِحَاطَةِ ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّا لَنَرَاكَ فِي غَمْرَةٍ مِنَ الضَّلَالِ مُحِيطَةٍ بِكَ لَا تَهْتَدِي مَعَهَا إِلَى الصَّوَابِ سَبِيلًا . وَذَلِكَ لِمَا رَأَوْهُ عَلَيْهِ مِنَ الثِّقَةِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ .

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ) نَادَاهُمْ بِاسْمِ الْقَوْمِيَّةِ مُضَافَةً إِلَيْهِ ثَانِيَةً تَذْكِيرًا لَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ بِهِمْ وَلَا لَهُمْ إِلَّا الْخَيْرَ ، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِقَ بِهِ أَدْنَى شَيْءٍ مِمَّا يُسَمَّى ضَلَالَةً ، كَمَا

أَفَادَ التَّنْكِيرُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ ، وَالتَّعْبِيرُ بِالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ أَوِ الْفِعْلَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الضَّلَالِ ، فَبَالَغَ فِي النَّفْيِ كَمَا بَالَغُوا فِي الْإِثْبَاتِ ، وَفِي تَقْدِيمِ الظَّرْفِ (بِي) تَعْرِيضٌ بِضَلَالِهِمْ ، ثُمَّ قَفَّى عَلَى نَفْيِ الضَّلَالَةِ عَنْهُ بِإِثْبَاتِ مُقَابِلِهَا لَهُ فِي ضِمْنِ تَبْلِيغِ دَعْوَى الرِّسَالَةِ الَّتِي تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى فَقَالَ :

(وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أَيْ لَسْتُ بِمَنْجَاةٍ مِنَ الضَّلَالِ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ فَقَطْ بَلْ أَنَا رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَيْكُمْ لِيَهْدِيَكُمْ بِاتِّبَاعِي سَبِيلَ الرَّشَادِ ، وَيُنْقِذَكُمْ عَلَى يَدَيَّ مِنَ الْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ بِالشِّرْكِ وَمَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْخُرَافَاتِ وَالْمَعَاصِي الْمُدَنِّسَةِ لِلْأَنْفُسِ الْمُفْسِدَةِ لِلْأَرْوَاحِ . وَالْقُدْوَةُ فِي الْهُدَى ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ضَالًّا فِيمَا بِهِ أَتَى ، وَمِنْ آثَارِ رَحْمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ أَلَّا يَدَعَكُمْ عَلَى شِرْكِكُمُ الَّذِي ابْتَدَعْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ ، حَتَّى يُبَيِّنَ لَكُمُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ثُمَّ يُبَيِّنُ مَوْضُوعَ الرِّسَالَةِ بِأُسْلُوبِ الِاسْتِئْنَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ ، وَهُوَ مَا تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْأَنْفُسُ مِنَ السُّؤَالِ عَمَّا

جَاءَ بِهِ بِدَعْوَاهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ . فَقَالَ :

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي) قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو " أُبْلِغُكُمْ " بِالتَّخْفِيفِ مِنَ الْإِبْلَاغِ وَالْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ الْمُفِيدِ مِنَ التَّبْلِيغِ ، لِلتَّدْرِيجِ وَالتَّكْرَارِ الْمُنَاسِبِ لِجَمْعِ الرِّسَالَةِ بِاعْتِبَارِ مُتَعَلِّقِهَا وَمَوْضُوعِهَا وَهُوَ مُتَعَدِّدٌ : مِنْهُ الْعَقَائِدُ وَأَهَمُّهَا التَّوْحِيدُ الْمُطْلَقُ الَّذِي بَدَأَ بِهِ ، وَيَتْلُوهُ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَبِالْمَلَائِكَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ (وَمِنْهُ) الْآدَابُ وَالْحِكَمُ وَالْمَوَاعِظُ وَالْأَحْكَامُ الْعَمَلِيَّةُ مِنْ عِبَادَاتٍ وَمُعَامَلَاتٍ ، وَلَوْ آمَنُوا بِهِ وَأَطَاعُوهُ لَمَا كَانَ لَهُمْ بُدٌّ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ

.

(150/274)

(وَأَنْصَحُ لَكُمْ) قَالَ الرَّاغِبُ : النُّصْحُ تَحَرِّي فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ فِيهِ صَلَاحُ صَاحِبِهِ . وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ : نَصَحْتُ لَكُمُ الْوُدَّ أَيْ أَخْلَصْتُهُ ، وَنَاصِحُ الْعَسَلِ خَالِصُهُ ، أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ : نَصَحْتُ الْجِلْدَ خِطْتُهُ ، وَالنَّاصِحُ الْخَيَّاطُ ، وَالنِّصَاحُ (كَكِتَابٍ) الْخَيْطُ اهـ . وَفِي الْكَشَّافِ يُقَالُ نَصَحْتُهُ وَنَصَحْتُ لَهُ ، وَفِي زِيَادَةِ اللَّامِ مُبَالَغَةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى إِمْحَاضِ النَّصِيحَةِ ، وَأَنَّهَا وَقَعَتْ خَالِصَةً لِلْمَنْصُوحِ مَقْصُودًا بِهَا جَانِبُهُ لَا غَيْرَ فَرُبَّ نَصِيحَةٍ يَنْتَفِعُ بِهَا النَّاصِحُ فَيَقْصِدُ النَّفْعَيْنِ جَمِيعًا ، وَلَا نَصِيحَةَ أَمْحَضُ مِنْ نَصِيحَةِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ اهـ . فَعُلِمَ مِنْهُ أَنَّ الْأَصْلَ فِي النَّصِيحَةِ أَنْ يُقْصَدَ بِهَا صَلَاحُ الْمَنْصُوحِ لَهُ لَا النَّاصِحِ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ فَائِدَةٌ مِنْهَا وَجَاءَتْ

تَبَعًا فَلَا بَأْسَ ، وَإِلَّا لَمْ تَكُنِ النَّصِيحَةُ خَالِصَةً ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " الدِّينُ النَّصِيحَةُ – قُلْنَا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ – لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيُّ .

(وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) قِيلَ : إنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا ، وَالظَّاهِرُ عِنْدِي أَنَّهَا حَالِيَّةٌ . أَيْ أُبَلِّغُكُمْ مَا أَرْسَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إلَيْكُمْ مِنْ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ وَأَنْصَحُ لَكُمْ بِمَا

(151/274)

أَعِظُكُمْ بِهِ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَأَنَا فِي هَذَا وَذَاكَ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَوْحَاهُ إلَيَّ لَا تَعْلَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا . أَوْ : وَأَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَشُئُونِهِ مَا لَا تَعْلَمُونَهُ وَهُوَ الْعِلْمُ بِصِفَاتِهِ وَتَعَلُّقِهَا وَآثَارِهَا فِي خَلْقِهِ وَسُنَنِهِ فِي نِظَامِ هَذَا الْعَالَمِ وَمَا يَنْتَهِي إلَيْهِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ – فَإِذَا نَصَحْتُ لَكُمْ وَأَنْذَرْتُكُمْ عَاقِبَةَ شِرْكِكُمْ وَمَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ تَعَالَى مِنْ إنْزَالِ الْعَذَابِ بِكُمْ فِي الدُّنْيَا إذَا جَحَدْتُمْ وَعَانَدْتُمْ فَإِنَّمَا أَنْصَحُ لَكُمْ عَنْ عِلْمٍ

يَقِينٍ لَا تَعْلَمُونَهُ .

(152/274)

(أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ) الْهَمْزَةُ فِي أَوَّلِ الْجُمْلَةِ لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ ، وَالْوَاوُ بَعْدَهَا لِلْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفٍ مُقَدَّرٍ بَعْدَ الْهَمْزَةِ ، وَالْمَعْنَى : أَكَذَّبْتُمْ وَعَجِبْتُمْ مِنْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ وَمَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ مِنْكُمْ ؟ (لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أَيْ لِأَجْلِ أَنْ يُحَذِّرَكُمْ عَاقِبَةَ كُفْرِكُمْ ، وَيُعَلِّمَكُمْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْعِقَابِ بِمَا تَفْهَمُونَهُ مِنْهُ لِأَنَّهُ مِنْكُمْ - وَلِأَجْلِ أَنْ تَتَّقُوا بِهَذَا الْإِنْذَارِ مَا يُسْخِطُ رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ مِنَ الشِّرْكِ فِي عِبَادَتِهِ ، وَالْإِفْسَادِ فِي أَرْضِهِ - وَلِيُعِدَّكُمْ بِالتَّقْوَى لِرَحْمَةِ رَبِّكُمُ الْمَرْجُوَّةِ لِكُلِّ مَنْ أَجَابَ الدَّعْوَةَ وَاتَّقَى ، عَلَّلَ مَجِيئَهُ بِالرِّسَالَةِ بِعِلَلٍ ثَلَاثٍ مُتَعَاقِبَةٍ مُرَتَّبَةٍ كَمَا تَرَى .

(153/274)

وَقَدْ عُلِمَ مِنْ قَوْلِهِ : (عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ) أَنَّ شُبْهَتَهُمْ عَلَى الرِّسَالَةِ هِيَ كَوْنُ الرَّسُولِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ ، كَأَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِي الْبَشَرِيَّةِ وَصِفَاتِهَا الْعَامَّةِ يَقْتَضِي التَّسَاوِيَ فِي الْخَصَائِصِ وَالْمَزَايَا وَيَمْنَعُ الِانْفِرَادَ بِشَيْءٍ مِنْهَا ! وَهَذَا بَاطِلٌ بِالِاخْتِبَارِ وَالْمُشَاهَدَةِ فِي الْغَرَائِزِ وَالْقُوَى الْعَقْلِيَّةِ وَالْعَضَلِيَّةِ ، وَفِي الْمَعَارِفِ وَالْأَعْمَالِ الْكَسْبِيَّةِ ، فَالتَّفَاوُتُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْبَشَرِ عَظِيمٌ جِدًّا لَا يُشْبِهُهُمْ فِيهِ نَوْعٌ آخَرُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، وَلَوْ فَرَضْنَا التَّسَاوِيَ بَيْنَهُمْ فِي

ذَلِكَ فَهَلْ يَمْنَعُ أَنْ يَخْتَصَّ الْخَالِقُ الْحَكِيمُ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ بِمَا هُوَ فَوْقَ الْمَعْهُودِ فِي الْغَرَائِزِ وَالْمُكْتَسَبِ بِالتَّعَلُّمِ ؟ كَلَّا ، إِنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ وَقَدِ اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ وَمَشِيئَتُهُ وَنَفَذَتْ بِهِ قُدْرَتُهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ رَدُّ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

(154/274)

(فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ) فَكَذَّبُوهُ وَأَصَرَّ عَلَى ذَلِكَ جُمْهُورُهُمْ فَأَنْجَيْنَاهُ مِنَ الْغَرَقِ وَالَّذِينَ سَلَكَهُمْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) (11 : 40) كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّتِهِ الْمُفَصَّلَةِ فِي سُورَةِ هُودٍ - أَوِ الْمَعْنَى : أَنْجَيْنَاهُ وَأَنْجَيْنَا هُمْ حَالَ كَوْنِهِمْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ أَيِ السَّفِينَةِ (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ) أَيْ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بِالطُّوفَانِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ ، وَلِمَاذَا كَذَّبُوا ؟ إِنَّهُمْ مَا كَذَّبُوا إِلَّا لِعَمًى فِي بَصَائِرِهِمْ حَالَ دُونَ اعْتِبَارِهِمْ وَفَهْمِهِمْ لِدَلَالَةِ الْآيَاتِ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَحِكْمَةِ

رُبُوبِيَّتِهِ فِي ذَلِكَ ، وَعَمُونَ جَمْعُ عَمٍ وَهُوَ ذُو الْعَمَى ، وَأَصْلُهُ عَمِيَ بِوَزْنِ كَتِفَ وَقِيلَ : إِنَّهُ خَاصٌّ بِعَمَى الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةِ ، وَالْأَعْمَى يُطْلَقُ عَلَى الْفَاقِدِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا . قَالَ زُهَيْرٌ :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ . . . وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 435. 440 ﴾

(155/274)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

وقع التّكذيب من جميع قومه : من قادتهم ، ودهمائهم ، عدا بعضَ أهل بيته ومن آمَن به عقب سماع قول نوح ، فعُطف على كلامه بالفاء أي صدر منهم قول يقتضي تكذيب دعوى أنّه رسول من ربّ العالمين يبلّغ وينصَح ويعلَم ما لا يعلمون ، فصار تكذيباً أعم من التّكذيب الأوّل ، فهو بالنّسبة للملأ يَؤول إلى معنى الاستمرار على التّكذيب ، وبالنّسبة للعامة تكذيب أُنُف ، بعد سماع قول قَادتهم وانتهاء المجادلة بينهم وبين نوح ، فليس الفعل مستعملاً في الاستِمرار كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ﴾ [النساء : 136] إذ لا داعي إليه هنا ، وضمير الجمع عائد إلى القوم ، والفاء في قوله : ﴿ فأنجيناه ﴾ للتّعقيب ، وهو تعقيب عُرفي : لأنّ التّكذيب حصل بعده الوَحْيُ إلى نوح بأنّه لن يؤمن من قومه إلاّ مَن

قد آمن ، ولا يُرجى زيادة مؤمن آخر ، وأمرُه بأن يدخل الفلك ويحملَ معه مَن آمن إلى آخر ما قصّه الله في سورة هود .

وقدم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق ، مع أنّ مقتضى مقام العبرة تقديم الإخبار بإغراق المنكرين ، فقدم الإنجاء للاهتمام بإنجاء المؤمنين وتعجيلاً لمسرة السّامعين من المؤمنين بأنّ عادة الله إذا أهلك المشركين أن ينجي الرّسول والمؤمنين ، فذلك التّقديم يفيد التّعريض بالنّذارة ، وإلاّ فإنّ الإغراق وقع قبل الإنجاء ، إذ لا يظهر تحقّق إنجاء نوح ومن معه إلاّ بعد حصول العذاب لمن لم يؤمنوا به ، فالمعقّب به التّكذيب ابتداءً هو الإغراق ، والإنجاء واقع بعده ، وليتأتى هذا التّقديم عطف فعل الإنجاء بالواو المفيدة لمطلق الجمع ، دون الفاء .

(156/274)

وقوله : ﴿ في الفلك ﴾ متعلّق بمعنى قوله : ﴿ معه ﴾ لأنّ تقديره : استقرّوا معه في الفلك ، وبهذا التّعليق عُلم أنّ الله أمره أن يحمل في الفلك معشراً ، وأنّهم كانوا مصدّقين له ، فكان هذا التّعليق إيجازاً بديعاً .

والفُلك تقدّم في قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض ﴾ في سورة البقرة (164

) .

﴿ والذين معه ﴾ هم الذين آمنوا به ، وسنذكر تعيينهم عند الكلام على قصّته في سورة هود .

والإتيان بالموصول في قوله : ﴿ وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا ﴾ دون أن يقال : وأغرقنا سائرهم ، أو بقيتهم ، لما تؤذن به الصّلة من وجه تعليل الخبر في قوله : ﴿ وأغرقنا ﴾ أي أغرقناهم لأجل تكذيبهم .

وجملة : ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ تتنزل منزلة العلّة لجملة ﴿ أغرقنا ﴾ كما دلّ عليه حرف (إن) لأنّ حرف (إن) هنا لا يقصد به ردّ الشكّ والتَّرَدّد ، إذ لا شكّ فيه ، وإنّما المقصود من الحرف الدّلالة على الاهتمام بالخبر ، ومن شأن (إن) إذا جاءت للاهتمام أن تقوم مقام فَاء التّفريع ، وتفيدَ التّعليل وربط الجملة بالتي قبلها .

ففصل هذه الجملة كَلاَ فَصْل .

و ﴿ عَمِين ﴾ جمع عَمِمٍ جمع سلامة بواو ونون .

وهو صفة على وزن فَعِل مثل أشِر ، مشتق من العمَى ، وأصله فقدان البصر ، ويطلق مجازاً على فقدان الرأي النّافع ، ويقال : عَمَى القَلْبِ ، وقد غلب في الكلام تخصيص الموصوف بالمعنى المجازي بالصّفة المشبَّهة لدلالتها على ثبوت الصّفة ، وتمكّنها بأن تكون سجية وإنّما يصدّق ذلك في فقد الرّأي ، لأنّ المرء يخلق عليه غالباً ، بخلاف فقد البصر ،

ولذلك قال تعالى هنا ﴿ عَمِين ﴾ ولم يقل عُمْياً كما قال في الآية الأخرى

﴿ عُمْياً وبكماً وصُمّاً ﴾ [الإسراء : 97] ومثله قول زهير:

ولكنّني عن عِلْمِ مَا فِي غدٍ عَمِ . . .

والذين كذّبوا كانوا عمين لأنّ قادتهم دَاعون إلى الضّلالة مؤيّدونها ، ودهماؤهم متقبّلون تلك الدّعوة سمّاعون لها .

(157/274)

وقد دلّت هذه القصّة على معنى عظيم في إرادة الله تعالى تطوّرَ الخلق الإنساني : فإنّ الله خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وخلق له الحسّ الظاهر والحِسّ الباطن ، فانتفع باستعمال بعض قواه الحسيَّة في إدراك أوائل العلوم ، ولكنّه استعمل بعض ذلك فيما جلَب إليه الضرّ والضّلال ، وذلك باستعمال القواعد الحِسّية فيما غاب عن حسّه وإعانتها بالقوى الوهميّة والمخيَّلة ، ففكّر في خالقه وصفاته فتوهّم له أنداداً وأعواناً وعشيرة وأبناء وشركاءَ في مُلكه ، وتفاقم ذلك في الإنسان مع مرور الأزمان حتّى عاد عليه بنسيان خالقه ، إذ لم يَدخل العلمُ به تحت حواسه الظّاهرة ، وأقبل على عبادة الآلهة الموهومة حيث اتّخذ لها صُوراً محسوسة ، فأراد الله إصلاح البشر وتهذيبَ إدراكهم ، فأرسل إليهم نوحاً فآمن به

قليل من قومه وكفر به جمهورهم ، فأراد الله انتخاب الصّالحين من البشر الذين قبلت عقولهم الهدى ، وهم نوح ومن آمن به ، واستيصال الذين تمكّنت الضّلالة من عقولهم ليُنشىء من الصّالحين ذرّية صالحة ويَكْفِيَ الإنسانيّة فساد الضّالين ، كما قال نوح : ﴿ إِنَّك إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلوا عبادَك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّارا ﴾ [نوح : 27] ، فكانت بعثة نوح وما طرأ عليها تجديداً لصلاح البشر وانتخاباً للأصْلَح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(158/274)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

وهنا يتكلم الحق عن حكاية الإنجاء ، ونعلم المقدمة الطويلة التي سبقت إعداد سيدنا نوح عليه السلام للرسالة ، فقد أراد الله أن يتعلم النجارة ، وأن يصنع السفينة . ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ . . . ﴾ [هود : 38]

ولم يجيء الحق هنا بسيرة الطوفان التي قال فيها في موضع آخر من القرآن : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ

السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ [القمر : 11]

وجاء الحق هنا بالنتيجة وهي أنهم كذبوه . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ فِي الفلك وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ . . . ﴾ [الأعراف : 64]

وكانت هذه أول حدث عقابي في تاريخ الديانات ؛ لأن رسالة نوح عليه السلام هي أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد وكان الرسل السابقون لنوح عليهم البلاغ فقط ، ولم يكن عليهم أن يدخلوا في حرب أو صراع ، والسماء هي التي تؤدب ، فحينما علم الحق سبحانه وتعالى أنه بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ستبلغ الإنسانية رشدها صار أتباع محمد مأمونين على أن يؤدبوا الكافرين .

وفي تكذيب نوح عليه السلام يأتينا الحق هنا بالنتيجة .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ ﴾ ولم يقل الحق : كيف أنجاه ولم يأت بسيرة الفلك ، بل أخبر بمصير من كذبوه ، ويأتي بالعقاب من جنس الطوفان . ﴿ . . . وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ [الأعراف : 64]

هناك " أعمى " لمن ذهب بصره كله من عينيه كلتيهما ، وهناك أيضا عَمِه وأَعْمَهُ ، والعَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصر . . أي ذهبت بصيرته ولم يهتد إلى خير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) " وفى سورة يونس : " فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) "ففيهما أربع سؤالات يذكر كل سؤال منها متصلا به فى جوابه .

الأول قوله "فأنجيناه "وفى الثانية "فنجيناه "فاختلف نقل الفعل بالهمزة فى الأولى وفى الثانية بالتضعيف وفى الأولى "والذين معه " وفى الثانية "ومن معه " فاختلف الموصول أيضا .

والجواب عن هذين السؤالين والله أعلم : أنا قد وضحنا فى كتاب البرهان أن ترتيب السور مراعى وترتيب الآى فى هذا الحكم أولى وأبين ، وإذا تقرر هذا فاعلم أيضا أن لفظ الذى وما تصرف منه للمثنى والمجموع أصل فى الموصولات إذ لا يخرج لفظ الذى عن الموصولية أما من فإنها تخرج إلى الاستفهام والشرط وغيرهما والأصل فى النقل أيضا يكون بالهمزة وأما النقل بالتضعيف والباء وغيرهما فثان عن الأصل ومن يقول بالقياس فى النقل على اختلاف مذاهبهم من أن المقيس فيه النقل من الفعل إنما هو غير المتعدى أو المتعدى إلى

واحد مع غير المتعدى إلى اثنين مع الضربين قبله وهو قول الأخفش فكل هؤلاء إنما المقيس عندهم مما ينقل بالهمزة ويجعلون النقل بالتضعيف وغيره موقوفا على السمع .

فإذا قرر ما ذكرناه فنقول إن سورة الأعراف ورد فيها قوله : "فأنجيناه والذين معه "كل منهما على الأصل فى نقل الفعل وفى الموصول فقيل : "فأنجيناه " وقيل : "والذين معه " وورد ذلك فى سورة يونس على ما هو ثان عن الأصل فى النقل وفى الموصول رعيا للترتيب ولا يمكن العكس على هذا .

(160/274)

ثم انجر مع ذلك رعى تناسب التقارن لما ورد فى الأولى فأنجيناه بزيادة همزة النقل المثبت لها صورة الألف فى الخط ونطق يخصها بحركة الهمزة فطالت الكلمة بالألف خطاً وبالنطق بحركة الهمزة لفظا ناسبها الموصول الذى هو : الذين بزيادة حروفه على حروف "من " .

ولما قيل فى الثانية : فنجيناه فجئ بما هو أخصر فى الخط ناسبه من الموصولات من المفرد فى معنى الذى وهو أخصر .

السؤال الثالث : زيادة "وجعلناهم خلائف " فى سورة يونس وذلك مثال تفصيلى فى

طائفة معينة من المجمل الوارد فى أول السورة من قوله تعالى : "ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات " إلى قوله : "ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون " وقوم نوح عليه السلام أول أمة أهلكت بتكذيبها ثم خلفها غيرها فذكر من المتقدم مجملا أول واقع منه وأنهم جعلوا خلائف كما جرى فيمن بعدهم .

والسؤال الرابع قوله تعالى : "إنهم كانوا قوما عمين " وذلك مقابل به قولهم لنوح عليه السلام : "إنا لنراك فى ضلال مبين " فقيل لهم بل أنتم قوم عمون فأنى لكم بالتفريق بين الهدى والضلالة .

وأما قوله فى الأعراف : "فانظر كيف كان عاقبة المنذرين " فليجرى مع آية الأعراف فيما ورد فيها من التعريف بإنذارهم فى قوله : "أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم " فوقع هنا التعريف بإنذارهم ثم ورد فى يونس بقوله : "فانظر كيف كان عاقبة المنذرين " فحصل التعريف فى الآيتين بإنذارهم وعاقبة من أنذر فلم يرجع عن غيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 198 . 200 ﴾

(161/274)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﴿ قال الملأ ﴾ يعني الاشراف من قومه .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي ﴿ أَوَعجبتم أَن جاءكم ذكر ربكم ﴾ قال : بيان من ربكم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الضحَّاك عن ابن عباس ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ قال : كفاراً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ قال : عن الحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فِي الفُلْكِ "

يجوزُ أن يتعلق بـ " أَنْجَيْنَاهُ " ، أي : أنجيناه في الفلك ، [ويجوز أن تكون " فِي " حينئذٍ سببيَّةً أي : بسبب الفُلْكِ] كقوله : " إنَّ امْرَأَةً دخلت النَّارَ في هِرَّةٍ " ، ويجوزُ أن يتعلق في الفلك بما تعلَّق به الظَّرْفُ الواقع صلةً ، أي : الذين استقرُّوا في الفلك معه .

" وعَمِيْنَ " جمع عَمٍ ، وقد تقدَّم الكلامُ على هذه المادة .

وقيل : عمٍ هنا إذا كان أعْمَى البصيرة ، [قال ابن عباس : عَمِيَتْ قلوبُهُم عن معرفة التَّوْحِيد ، والنَّبوة والمعَادِ قال أهل اللُّغَة] : غير عارفٍ بأموره ، وأعْمَى أي في البَصَرِ .

قال زُهَيْرٌ : [الطويل]

2499 - وأعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ والأمْسِ قَبْلَهُ . . .

ولَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

قاله اللَّيْثُ وقيل : عم وأعْمَى بمعنىً ، كخَضِرٍ وأخْضَر .

وقال بعضهم : " عَم " فيه دلالةٌ على ثبوت الصِّفةِ واستقرارها [كفَرِح] وضيّق ، ولو أريد الحدوث لَقِيلَ : عامٍ كما يقال : فارحٌ وضَائِقٌ .

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ : قريء " قَوْماً عَامِينَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 184.183 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) ﴾

تسربلوا غِبَّ التكذيب لمَّا ذاقوا طعم العقوبة ، فلم يسعدوا بما حملوه ولم يصلوا إلى ما أملَّوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 544 ﴾

(163/274)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) ﴾

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً جواب قسم محذوف . فإن قلت : ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام ،

إلا مع «قد» وقلّ عنهم ، نحو قوله :

حلفت لها باللّه حلفة فاجر لناموا . . . . . «1» . . . .

---

(1) فقالت سباك اللّه إنك فاضحى ألست ترى السمار والنار أحوالى

حلفت لها باللّه حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا صالى

فأصبحت معشوقا وأصبح يعلها عليه قتام كاسف الظن والبال

يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلني والمره ليس بقتال

أيقتلنى والمشرفي مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

لامرئ القيس . يقول : ضجرت محبوبتى سلمي حين ترقبتها ليلا مع أن الرقباء حولها . والسمار : جمع سامر ، بمعنى المتحدث ليلا . وأحوال : جمع حول ، بمعنى جانب ، فيفيد كثرة الناس وانتشارهم في جوانبها . والمنقول أنه على صورة الجمع وليس جمعا ، وكذا تثنيته ، لأنه حول الشيء وحوليه وأحواله وأحواليه وحواله وحواليه ، كلها بمعنى جانبه المحيط به ، ويمكن أن يراد بالمفرد : مطلق الجانب مجازاً ، فيثنى ويجمع حقيقة ، والكثير في الماضي المجاب به القسم قرنه بقد ، بل قيل : إن لم توجد فيه قدرت قيل ، لأن الجواب مظنة للتوقع الذي هو معنى «قد» لسماع القسم أولا . و«إن» و«من» زائدتان للتوكيد ، والحديث : بمعنى المتحدث ليطابق ما بعده . والصالي : المصطلى بالنار . وها هنا حذف دل عليه المقام . أى فسمحت فنلت منها مرادى ، فأعجبتها فأصبحت معشوقا وقد

كنت عاشقاً ، وأصبح زوجها عليه قتام : وهو الغبار وسواد الوجه ، كاسف الظن : منعكسه ، فهو مجاز . وكاسف البال :

حزين القلب ، أو سيئ الحال . والغطيط : ارتفاع صوت النفس عند الخنق والنعاس ونحو ذلك . والبكر : الفتى من الإبل . والخناق : حبل يخنق به كالحزام لما يتحزم به ، والاسار لما يربط به الأسير . وقوله : ليس بقتال ، أى كما يزعم أنه شجاع . والمشرفي : السيف ، نسبة إلى مشارف جمع مشرف كجعفر ، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، شبهه بالمضاجع لامتداده بجانبه وملازمته له ، والمسنونة النبال : المحددة الأطراف . والزرق : جمع زرقاء ، الصافيات اللون . وشبهها بأنياب الأغوال في حدة الأطراف ، واستبشاع كل عند النفوس . وهذا لا يستلزم وجود الغول ورؤية نابها ، وإن زعمته العرب .

(164/274)

قلت : إنما كان ذلك لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها ، التي هي جوابها ، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى «قد» عند استماع المخاطب كلمة القسم . قيل :

أرسل نوح عليه السلام وهو ابن خمسين سنة ، وكان نجاراً وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن

أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام. وقرئ: غيره، بالحركات الثلاث، فالرفع على المحل، كأنه قيل: ما لكم إله غيره. والجر على اللفظ والنصب على الاستثناء، بمعنى: ما لكم من إله إلا إياه، كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيد أو غير زيد. فإن قلت: فما موقع الجملتين بعد قوله اعْبُدُوا اللَّهَ؟ قلت: الأولى بيان لوجه اختصاصه بالعبادة. والثانية: بيان للداعي إلى عبادته لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون اللّه. واليوم العظيم: يوم القيامة، أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان.

[سورة الأعراف (7): الآيات 60 إلى 62]

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (60) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (62)

الْمَلَأُ الأشراف والسادة. وقيل: الرجال ليس معهم نساء فِي ضَلالٍ في ذهاب عن طريق الصواب والحق. ومعنى الرؤية: رؤية القلب. فإن قلت: لم قال لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ ولم يقل ضلال «1» كما قالوا؟ قلت: الضلالة أخصّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفى الضلال

---

(1). قال محمود: «إن قلت لم قال ليس بى ضلالة ولم يقل ضلال . . . الخ»؟ قال أحمد: تعليله كون نفيها أبلغ من نفى الضلال بأنها أخص منه، غير مستقيم واللّه أعلم، فان نفى الأخص أعم من نفى الأعم، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخص، بخلاف

العكس . ألا تراك إذا قلت : هذا ليس بإنسان ، لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيوانا . ولو قلت : هذا ليس بحيوان ، لاستلزم أن لا يكون إنسانا ، فنفى الأعم كما ترى أبلغ من نفى الأخص .

والتحقيق في الجواب أن يقال : الضلالة أدنى من الضلال وأقل ، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه . وأما الضلال فينطلق على القليل والكثير من جنسه ، ونفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى ، لا من حيث كونه أخص ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، والله أعلم .

(165/274)

عن نفسه ، كأنه قال : ليس بى شيء من الضلال ، كما لو قيل لك : ألك تمر ، فقلت : مالى تمرة فإن قلت : كيف وقع قوله وَلَكِنِّي رَسُولٌ استدراكا للانتفاء عن الضلالة ؟ قلت : كونه رسولا من الله مبلغا رسالاته ناصحاً ، في معنى كونه على الصراط المستقيم ، فصحّ لذلك أن يكون استدراكا للانتفاء عن الضلالة . وقرئ : أبلغكم ، بالتخفيف . فإن قلت : كيف موقع قوله أُبَلِّغُكُمْ «1» ؟ قلت : فيه وجهان . أحدهما : أن يكون كلاما مستأنفاً بيانا لكونه رسول رب العالمين . والثاني : أن يكون صفة لرسول . فإن قلت : كيف جاز أن

يكون صفة والرسول لفظه لفظ الغائب ؟ قلت : جاز ذلك لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب وكان معناه ، كما قال :

أَنَا الَّذِى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ «2»

---

(1) . قال محمود : «إن قلت كيف موقع قوله أُبَلِّغُكُمْ ؟ قلت فيه وجهان . . . الخ» قال أحمد : وقد أستدرك

ابن جنى قول أبى الطيب : أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبى

عدولا عن لفظ الغيبة لو كان إلى أدبه ، وهذه الآية والرجز العلوي كفيلان بتحسين ما ارتكبه أبو الطيب .

(2) أنا الذي سمتن أمى حيدره كليث غابات كريه المنظرة

أو فيهم بالصاع كيل السندره أضربكم ضربا يبين الفقرة

للإمام على رضى اللّه عنه حين بارز مرحبا اليهودي يوم خيبر ، فقال مرحب :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلتهب

فأجابه على بذلك «وكانت أمه فاطمة بنت أسد سمته كاسم أبيها ، لأن «حيدرة» من أسماء الأسد ، فلما حضر أبو طالب سماه علياً . وسمى الأسد «حيدرة» لشدة انحداره على من يصول عليه . والليث : اسم جامد له ، واشتقوا منه ، لا ينه إذا عامله معاملة

الليث . والغابة : بيته الذي يغيب فيه . والسندرة : اسم امرأة كانت تبيع البر وتوفى الكيل ، أو مكيال كبير . وكان الظاهر أن يقول : الذي سمته أمه ليطابق الضمير مرجعه وهو الموصول في الغيبة . ولكن أتى بضمير التكلم ذهابا إلى المعنى . وحسنه تقدم ضمير المتكلم ، أى أنا الشجاع الذي ظهرت على أمارة الشجاعة من صغرى ، فسمتني أمى باسم الأسد ، ولا أكذبها في ظنها ، وأنا كليث غابات منظرته كريهة لعبوسى في وجه عدوى ، ثم قال :

أوفى الأعداء ، أى أعطيهم عطاء وافياً . وكيل السندرة : نصب به على المفعول المطلق ، أو بمقدر : أى أكيل لهم مثل كيل تلك المرأة في الوفاء ، أو أعطيهم بالصاع الصغير كيل المكيال الكبير . ويروى : أو فيهم بالسيف . وهذا من باب الاستعارة التمثيلية التهكمية ، شبه هيئة إيصاله الطعان إلى الأعداء بكثرة في مقابلة مكروه يفرط منهم . بهيئة إيصال البر بالكيل في مقابلة ثمنه ، وإن كان البر محبوبا والطعن مكروها ، والتفت مفسراً ذلك بقوله أضربكم ضرباً يبين ، أى يفصل الفقرة : جمعها فقار ، وفقرات . وهي عظام الظهر ، وقد علمت خيبر ، أى أهلها . وشاكي السلاح .

حاده وتلمه . يجوز أنه نعت مرحب . ويجوز أنه خبر بعد خبر . وبطل مجرب : خبر بعد خبر لا غير . واستعار الالتهاب لاشتداد الحروب على طريق التصريح .

رِسالاتِ رَبِّي ما أوحى إلىّ في الأوقات المتطاولة ، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر . ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه إدريس ، وهي ثلاثون صحيفة ، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة وَأَنْصَحُ لَكُمْ يقال نصحته ونصحت له . وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه لا غير ، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً ولا نصيحة أمحض من نصيحة اللّه تعالى ورسله عليهم السلام وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ أى من صفات اللّه وأحواله ، يعنى قدرته الباهرة وشدّة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين . وقيل : لم يسمعوا بقوم حلّ بهم العذاب قبلهم فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحي اللّه إليه ، أو أراد : وأعلم من جهة اللّه أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إلىّ بها .

[سورة الأعراف (7) : آية 63]

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63)

أَوَعَجِبْتُمْ الهمزة للإنكار ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، كأنه قيل : أكذبتم وعجبتم أَنْ جاءَكُمْ من أن جاءكم ذِكْرٌ موعظة مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ على

لسان رجل منكم ، كقوله ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وذلك أنهم يتعجبون من نبوّة نوح عليه السلام ويقولون : ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين ، يعنون إرسال البشر ، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا ليحذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم .

[سورة الأعراف (7) : آية 64]

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (64)

وَالَّذِينَ مَعَهُ قيل كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة . وقيل : تسعة ، بنوه سام وحام ويافث ، وستة ممن آمن به . فإن قلت : فِي الْفُلْكِ بم يتعلق ؟ قلت : هو متعلق بمعه ، كأنه قيل : والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك . ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء ، أى أنجيناهم في السفينة من الطوفان عَمِينَ عمى القلوب غير مستبصرين . وقرئ : عامين . والفرق بين العمّى والعامىّ ، أن العمى يدل على عمى ثابت . والعامي على عمى حادث . ونحوه قوله وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 112 .

115﴾

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) ﴾

التفسير : لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل قاهرة وبينات باهرة شرع في قصص الأنبياء وفي ذلك فوائد منها ، التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول الدلائل عادة معتادة فيكون فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنها بيان سوء عاقبة المستكبرين وحسن عقبى المطيعين وفي ذلك تقوية قلوب المحقين وكسر قلوب المبطلين . ومنها التنبيه على أن الله سبحانه لا يهمل المبطلين وإن كان يمهلهم . ومنها العظة والاعتبار ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ [يوسف : 111] ومنها الدلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم من حيث إنه إخبار بالغيب لأنه أمي لم يقرأ الكتب فيكون قد عرف ذلك بالوحي لا محالة . فمن القصص أولاها قصة آدم وقد مرت في أوّل السورة . الثانية قصة نوح وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وأخنوخ اسم إدريس . قيل : كان اسمه يشكر فسمي نوحاً

لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه فأهلكوا فندم ، أو حين راجع ربه في شأن ابنه ، أو حين مر بكلب مجذوم فقال له : اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك . قال الله له : أعبتني إذ خلقته أم عبت الكلب ؟ وهذه الوجوه متكلفة فإن الإعلام لا تفيد صفة في المسمى . والصحيح أنه اسم أعجمي . قال ابن عباس : معنى أرسلنا بعثنا . وقال آخرون : معناه أنه تعالى حمله رسالة يؤدّيها ، فالرسالة على هذا التقدير تكون متضمنة للبعث كالتابع لا أنه أصل . قال في التفسير الكبير : وهذا البحث مبني على مسألة أصولية هي أن الرسول أرسل إلى قوم ليعرّفهم أحكاماً لا سبيل لهم إلى معرفتها بعقولهم ، أو الغرض من بعثته مجرد تأكيد ما في العقول . وهذا الاختلاف بتفاريع المعتزلة أليق ، أمرهم نوح بعبادة الله ثم حكم بأنه لا إله إلا الله ثم حذرهم عذاب يوم عظيم هو القيامة أو الطوفان ، ولم يذكر دليلاً على هذه الدعاوى الثلاث لأن قول النبي صلى الله عليه وسلم بعد ظهور المعجزة حجة ، أو لعله قد ذكر الحجج وما حكاها الله تعالى لأنه قد

(168/274)

علم من القرآن ذم التقليد في مواضع كثيرة فيعلم أن نبي الله لا يأمر قومه بالتقليد المحض ، وأيضاً قد مر دلائل التوحيد والنبوّة وصحة القرآن من أول سورة البقرة إلى ههنا غير مرة ،

فوقع التعويل على ذلك هذا مع أن الحكم الثاني كالعلة للأوّل لأنه إذا لم يكن لهم إله غيره كان كل ما حصل عندهم من وجوه النفع والإحسان والبر واللطف حاصلاً منه ، ونهاية الإنعام توجب غاية التعظيم ومن هنا قال بعض العلماء : لا يحسن منا عبادة الله تعالى قبل العلم بأنه واحد لأنا إذا جوّزنا التعدد لم يتعين المنعم فتقع العبادة ضائعة ، والإله معناه المستحق للعبادة وإلا فهو في الأزل غير معبود .

(169/274)

ومعنى الخوف في الآية قال بعضهم : الجزم واليقين فإنه كان جازماً بنزول العذاب بهم عاجلاً وآجلاً . وقال آخرون : الشك لأنه كان يجوّز إيمانهم ومع هذا التجويز كيف يجزم بالعذاب ، أو لعل السمع لم يرد بعد فلهذا كان متوقفاً ، أو لعله وصف العذاب بالعظم ولكنه جر على الجوار . ثم إنه تردد في وصف العذاب بالعظم لا في نفس العذاب . وقيل : المراد من الخوف التحذير . وجملة قوله : ﴿ إني أخاف ﴾ بيان للداعي إلى عبادته لأنه هو المحذور عقابه دون الأصنام ﴿ فقال الملأ من قومه ﴾ أي الأشراف وصدور المجالس الذين هم بعض قومه في جواب نوح ﴿ إنا لنراك في ضلال ﴾ في ذهاب عن طريق الحق . والصواب مبين بين والرؤية رؤية القلب بمعنى الاعتقاد والظن دون المشاهدة والبديهة . نسبوه إلى الضلال فيما

ادعاه من التكليف والتوحيد والنبوّة والمعاد ﴿ قال يا قوم ليس بي ضلالة ﴾ لم يقل ضلال ليكون أبلغ في عموم السلب كأنه قال : ليس بي نوع من أنواع الضلال ، ثم لما نفى عن نفسه العيب الذي نسب إليه وصف نفسه بأشرف الصفات وأجلها فاستدرك قائلا : ﴿ ولكني رسول من رب العالمين ﴾ وهذا الاستدراك يسمى في علم البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم . وفي ذلك بيان فرط جهالتهم وعتوّهم حيث وصفوا من هو بهذه المنزلة من الهدى بالضلال الظاهر الذي لا ضلال بعده ، وفيه أن مدح الإنسان نفسه إذا كان في موضع الضرورة جائز . ثم ذكر ما هو المقصود من البعثة وهو أمران : الأول تبليغ الرسالة ، والثاني تقرير النصيحة فقال ﴿ أبلغكم ﴾ الآية . والجملة استئناف بيان لكونه رسولاً من رب العالمين ، أو صفة لرسول . وإنما جاز أن تكون صفة ولفظ الرسول غائب نظراً إلى المعنى كقوله : أنا الذي سمتن أمي حيدره ﴿ رسالات ربي ﴾ ما أوحي إليّ في الأوقات المتطاولة ، أو ما أوحي إليّ في المعاني المختلفة في الأوامر والنواهي .

(170/274)

وشرح مقادير الثواب والعقاب في الآخرة ومقادير الحدود والزواجر في الدنيا . ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جده إدريس وهي ثلاثون صحيفة ، ومن

صحف شيث وهي خمسون صحيفة ﴿ وأنصح لكم ﴾ قال الفراء : العرب لا تكاد تقول نصحتك وإن كان جائزاً ولكن تقول نصحت لك . قال في الكشاف : وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة . وحقيقة النصح الإرشاد إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكر . ومعنى الآية : وأبلغكم تكاليف الله ثم أرشدكم إلى الأصلح الأصوب وأدعوكم إلى ما دعاني الله تعالى وأحب لكم ما أحب لنفسي ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان ، وذلك أنهم لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم أو أعلم أن الله يعاقبكم في الآخرة عقاباً ، أو أعلم من توحيد الله من صفات جلاله ما لا تعلمون ، ويكون المقصود حمل القوم على أن يرجعوا إليه في طلب تلك العلوم . ﴿ أو عجبتم ﴾ الهمزة للإنكار ، والمعطوف محذوف والتقدير : أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر من ربكم . قال الحسن : يعني الوحي الذي جاءهم به . وقال آخرون : الذكر المعجز كتاباً أو غير كتاب . وقيل : هو الموعظة ﴿ على رجل ﴾ أي على لسانه قاله ابن قتيبة ونظيره ﴿ آتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ [آل عمران : 194] وقال الفراء " على " معنى " مع " تقول : جاءنا الخبر على وجهك ومع وجهك كلاهما جائز . وقيل : أي منزل على رجل . ومعنى ﴿ منكم ﴾ من بني نوعكم كأنهم استبعدوا أن يكون لله رسول إلى خلقه لاعتقادهم أن المقصود من الإرسال التكليف ، وأن التكليف لا منفعة فيه للمعبود لتعاليه ولا للعابد لتضرره في الحال ، وأما في المآل فالله تعالى قادر على

تحصيلة بدون واسطة التكليف . وأيضاً إن العقل كافٍ في معرفة الحسن والقبيح ، وما لا يعلم حسنه ولا قبحه فإن كان المكلف مضطراً إليه فعل لأنه تعالى لا يكلف ما لا يطاق ، وإن لم يكن مضطراً إليه ترك حذراً عن

(171/274)

الخطر وبتقدير أنه لا بد من الرسول فإن إرسال الملائكة أولى لشدة بطشهم ووفور عصمتهم وطهارتهم واستغنائهم عن الأكل والشرب والنكاح ، وبتقدير جواز كون النبي من البشر فلعلهم اعتقدوا أن من كان فقيراً خاملاً لا يصلح للنبوّة فأنكر نوح عليه السلام كل هذه الأشياء لأنه تعالى خالق الخلق فله بحكم الإلهية أن يأمر عباده ببعض الأشياء وينهاهم عن بعضها ، ولا يجوز أن يخاطبهم بتلك التكاليف من غير واسطة لأن ذلك ينتهي إلى حد الإلجاء المنافي للتكليف ، ولا يجوز أن يكون ذلك الرسول ملكاً لأن الجنس إلى الجنس أسكن وقد مر في أوّل " الأنعام " .

(172/274)

ثم بين ما لأجله يبعث الرسول فقال ﴿ لينذركم ﴾ الآية . وإنه ترتيب أنيق لأن المقصود من البعثة الإنذار ، ومن الإنذار التقوى ، ومن التقوى الفوز برحمة الله . قال الجبائي والكعبي : في الآية دلالة على أنه تعالى لم يرد من المبعوث إليهم إلا التقوى والفوز بالجنة دون الكفر والعذاب ، وعورض بالعلم والداعي كما مر مراراً ﴿ فكذبوه ﴾ في ادعاء النبوّة وتبليغ التكاليف وأصروا قال بعض العلماء : ما في حق العقلاء من التكذيب فبغير الباء نحو كذبوا رسلي وكذبوه ، وما في حق غيرهم فبالباء نحو كذبوا بآياتنا . والتحقيق أن المراد كذبوا رسلنا برد آياتنا ﴿ فأنجيناه والذين ﴾ استقروا ﴿ معه في الفلك ﴾ وأنجيناهم في السفينة من الطوفان . قيل : كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة . وقيل : كانوا تسعة وهم بنوه سام وحام ويافث وستة ممن آمن به . وإنما قال في سورة يونس ﴿ فنجيناه ومن معه في الفلك ﴾ [الآية : 73] لأن التشديد للتكثير ولفظة من أدل على العموم ولهذا يقع على الواحد والتثنية والجمع والذكر والمؤنث بخلاف الذين ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ قال ابن عباس : عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوّة والمعاد . وقال أهل اللغة : يقال رجل عمٍ في البصيرة وأعمى في البصر . فالعمى يدل على عمّى ثابت والعامي على عمّى حادث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 265 . 268 ﴾

وقال الشوكاني :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) ﴾

لما بيّن سبحانه كمال قدرته ، وبديع صنعته في الآيات السابقة ، ذكر هنا أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم ، لتنبيه هذه الأمة على الصواب ، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة .

واللام جواب قسم محذوف .

وهو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم .

وقد تقدّم ذكر نوح في آل عمران ، فأغني عن الإعادة هنا .

وما قيل من أن إدريس قبل نوح ، فقال ابن العربي : إنه وهم .

قال المازري : فإن صح ما ذكره المؤرخون كان محمولاً على أن إدريس كان نبياً غير مرسل .

وجملة : ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ استئنافية جواب سؤال مقدر .

قوله : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ هذه الجملة في حكم العلة ، لقوله : ﴿ اعبدوا ﴾ أي اعبدوه ، لأنه لم يكن لكم إله غيره ، حتى يستحق منكم أن يكون معبوداً .

قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، وابن كثير ، وابن عامر برفع ﴿ غيره ﴾ على أنه نعت لإله على الموضع .

وقرأ الكسائي بالخفض في جميع القرآن ، على أنه نعت على اللفظ .

وأجاز الفراء والكسائي النصب على الاستثناء .

يعني ما لكم من إله إلا إياه .

وقال أبو عمرو : ما أعرف الجرّ ولا النصب .

ويردّه أن بعض بني أسد ينصبون "غير" في جميع الأحوال ، ومنه قول الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت . . . حمامة في غصون ذات أوقال

وجملة : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ جملة متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة ، أي إن لم تعبدوه ، فإني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، أو عذاب يوم الطوفان .

قوله : ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ جملة استئنافية جواب سؤال مقدّر .

والملأ أشراف القوم ورؤساؤهم .

وقيل : هم الرجال ، وقد تقدّم بيانه في البقرة .

والضلال : العدول عن طريق الحق والذهاب عنه ، أي إنا لنراك في دعائك إلى عبادة الله وحده في ضلال عن طريق الحق .

وجملة ﴿ قال يا قوم ﴾ استئنافية أيضاً ، جواب سؤال مقدّر .

﴿ ليس بي ضلالة ﴾ كما تزعمون ﴿ ولكني رسول من رب العالمين ﴾ أرسلني إليكم لسوق الخير إليكم ، ودفع الشرّ عنكم ، نفي عن نفسه الضلالة ، وأثبت لها ما هو أعلى منصباً وأشرف رفعة ، وهو أنه رسول الله إليهم .

وجملة ﴿ أبلغكم رسالات ربي ﴾ في محل رفع ، على أنها صفة لرسول ، أو هي مستأنفة مبينة لحال الرسول .

والرسالات : ما أرسله الله به إليهم مما أوحاه إليه ﴿ وأنصح لكم ﴾ عطف على ﴿ أبلغكم ﴾ يقال : نصحته ونصحت له ، وفي زيادة اللام دلالة على المبالغة في إمحاض النصح .

قال الأصمعي : الناصح : الخالص من الغلّ ، وكل شيء خلص فقد نصح ، فمعنى أنصح هنا : أخلص النية لكم عن شوائب الفساد ، والاسم النصيحة .

وجملة : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها ، مقررة لرسالته ، ومبينة لمزيد علمه ، وأنه يختص بعلم الأشياء التي لا يعلمونها بإخبار الله له بذلك .

قوله : ﴿ أو عجبتم ﴾ فتحت الواو لكونها العاطفة ، ودخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار عليهم .

والمعطوف عليه مقدّر ، كأنه قيل : استبعدتم وعجبتم ، أو أكذبتم وعجبتم ، أو أنكرتم وعجبتم ﴿ أن جاءكم ذكر من ربكم ﴾ أي وحي وموعظة ﴿ على رجل منكم ﴾ أي على لسان رجل منكم تعرفونه .

ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه ، أو لا تعرفون لغته .

وقيل " على " بمعنى " مع " : أي مع رجل منكم لأجل ينذركم به .

﴿ ولتتقوا ﴾ ما يخالفه ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ بسبب ما يفيده الإنذار لكم ، والتقوى منكم من التعرّض لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم .

(175/274)

﴿ فكذبوه ﴾ أي فبعد ذلك كذبوه ، ولم يعملوا بما جاء به من الإنذار ﴿ فأنجيناه والذين معه ﴾ من المؤمنين به المستقرّين معه ﴿ في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾

واستمرّوا على ذلك ، ولم يرجعوا إلى التوبة .

وجملة ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ علة لقوله : ﴿ وأغرقنا ﴾ أي أغرقنا المكذبين ، لكونهم عمي القلوب ، لا تنجع فيهم الموعظة ، ولا يفيدهم التذكير .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أول نبيّ أرسل نوح " وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم ، وابن عساكر ، عن يزيد الرقاشي قال : إنما سمي نوح عليه السلام نوحاً لطول ما ناح على نفسه .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي مالك قال : الملأ يعني الأشراف من قومه .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ﴿ أن جاءكم ذكر من ربكم ﴾ يقول : بيان من ربكم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ قال : كفاراً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ قال : عن الحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) ﴾

نحن مع موكب الإيمان . . هذه أعلامه . . وهذه علائمه . . وهذه هي معالم طريقه . . وهو يواجه البشرية في رحلتها الطويلة على هذا الكوكب الأرضي . . يواجهها كلما التوت بها الطريق ؛ وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم ؛ وكلما تفرقت بها السبل . تحت ضغط الشهوات ، التي يقودها الشيطان من خطامها ، محاولاً أن يرضي حقده ؛ وأن ينفذ وعيده ، وأن يمضي ببني آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم ؛ فإذا الموكب الكريم يواجه البشرية بالهدى ، ويلوّح لها بالنور ، ويستروح بها ريح الجنة ، ويحذرها لفحات السموم ،

ونزغات الشيطان الرجيم، عدوها القديم . .

. . إنه مشهد رائع . . مشهد الصراع العميق، في خضم الحياة، على طول الطريق . .

(177/274)

إن التاريخ البشري يمضي في تشابك معقد كل التعقيد . . إن هذا الكائن المزدوج الطبيعة، المعقد التركيب . . الذي يتألف كيانه من أبعد عنصرين تؤلف بينهما قدرة الله وقدره . . عنصر الطين الذي نشأ منه، وعنصر النفخة من روح الله، التي جعلت من هذا الطين إنساناً . . إن هذا الكائن ليمضي في تاريخه مع عوامل متشابكة كل التشابك، معقدة كل التعقيد . . يمضي بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الآفاق والعوالم التي أسلفنا في قصة آدم الحديث عنها . . يتعامل مع الحقيقة الإلهية: مشيئتها وقدرها، وقدرتها وجبروتها، ورحمتها وفضلها . . الخ . . . ويتعامل مع الملأ الأعلى وملائكته . . ويتعامل مع إبليس وقبيله . . ويتعامل مع هذا الكون المشهود ونواميسه وسنن الله فيه . . ويتعامل مع الأحياء في هذه الأرض . . ويتعامل مع بعضه البعض . . يتعامل مع هذه الآفاق وهذه العوالم بطبيعته تلك، وباستعداداته المتوافقة والمتعارضة مع هذه الآفاق والعوالم . .

وفي هذا الخضم المتشابك من العلاقات والروابط، يجري تاريخه . . ومن القوة في كيانه

والضعف . ومن التقوى والهدى . ومن الالتقاء بعالم الغيب وعالم الشهود . ومن التعامل مع العناصر المادية في الكون والقوى الروحية ، ومن التعامل مع قدر الله في النهاية . . من هذا كله يتكون تاريخه . . وفي ضوء هذا التعقيد الشديد يفسر تاريخه .

والذين يفسرون التاريخ الإنساني تفسيراً " اقتصادياً " أو " سياسياً " . والذين يفسرونه تفسيراً " بيولوجياً " . والذين يفسرونه تفسيراً " روحياً " أو " نفسياً " . والذين يفسرونه تفسيراً " عقلياً " . . . كل أولئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب واحد من جوانب العوامل المتشابكة ، والعوالم المتباعدة ، التي يتعامل معها الإنسان ؛ ويتألف من تعامله معها تاريخه . . والتفسير الإسلامي للتاريخ هو وحده الذي يلم بهذا الخضم الواسع ، ويحيط به ؛ وينظر إلى التاريخ الإنساني من خلاله .

(178/274)

ونحن هنا أمام مشاهد صادقة من هذا الخضم . . لقد شهدنا مشهد النشأة البشرية ؛ وقد تجمعت في المشهد كل العوالم والآفاق والعناصر – الظاهرة والخفية – التي يتعامل معها هذا الكائن منذ اللحظة الأولى .

. ولقد شهدنا هذا الكائن باستعداداته الأساسية . . شهدنا تكريمه في الملأ الأعلى

وإسجاد الملائكة له ؛ والبارئ العظيم يعلن ميلاده . . وشهدنا ضعفه بعد ذلك وكيف قاده منه عدوه . . وشهدنا مهبطه إلى الأرض . . وانطلاقه في التعامل مع عناصرها ونواميسها الكونية . .

ولقد شهدناه يهبط إلى هذه الأرض مؤمناً بربه ؛ مستغفراً لذنبه ؛ مأخوذاً عليه عهد الخلافة : أن يتبع ما يأتيه من ربه ولا يتبع الشيطان ولا الهوى ، مزوداً بتلك التجربة الأولى في حياته . .

ثم مضى به الزمن ؛ وتقاذفته الأمواج في الخضم ؛ وتفاعلت تلك العوامل المعقدة المتشابكة في كيانه ذاته وفي الوجود من حوله . تفاعلت في واقعه وفي ضميره . ثم ها نحن أولاء في هذا الدرس نشهد كيف صارت به هذه العوامل المعقدة المتشابكة إلى الجاهلية ! ! !

إنه ينسى . . وقد نسي . . إنه يضعف . . وقد ضعف . . إن الشيطان يغلبه . . وقد غلبه . . ولا بد من الإنقاذ مرة أخرى ! ! !

لقد هبط إلى هذه الأرض مهتدياً تائباً موحداً . ولكن ها نحن أولاء نلتقي به ضالاً مفترياً مشركاً ! ! !

لقد تقاذفته الأمواج في الخضم . . ولكن هنالك معلماً في طريقه . . هنالك الرسالة ترده إلى ربه . فمن رحمة ربه به أن لا يتركه وحده !

وها نحن أولاء في هذه السورة نلتقي بموكب الإيمان ، يرفع أعلامه رسل الله الكرام : نوح . وهود . وصالح . ولوط . وشعيب . وموسى . ومحمد – صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً . . ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم – بتوجيه الله وتعليمه – إنقاذ الركب البشري من الهاوية التي يقوده إليها الشيطان ، وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كل زمان . كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال . وبين الحق والباطل ، وبين الرسل الكرام وشياطين الجن والإنس . . ثم نشهد مصارع المكذبين في نهاية كل مرحلة ، ونجاة المؤمنين ، بعد الإنذار والتذكير . .

والقصص في القرآن لا يتبع دائماً ذلك الخط التاريخي . ولكنه في هذه السورة يتبع هذا الخط . ذلك أنه يعرض سير الركب البشري منذ النشأة الأولى ، ويعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماماً عن معالم الطريق ، وقاده الشيطان كلية إلى المهلكة ليسلمه في نهايتها إلى الجحيم !

وفي وقفتنا أمام المشهد الكلي الرائع نلمح جملة معالم نلخصها هنا قبل مواجهة النصوص :

* إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة . . ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة – بفعل العوامل المتشابكة المعقدة في تركيب الإنسان ذاته ، وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها . . وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرك . فيهلك من

يهلك ، ويحيا من يحيا . والذين يحيون هم الذين آبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة . هم الذين علموا أن لهم إلهاً واحداً . واستسلموا بكليتهم إلى هذا الإله الواحد . هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

(180/274)

فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله ، ويتعاقب بها الرسل جميعاً على مدار التاريخ . . فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها ، فنسوها وضلوا عنها ، وأشركوا مع الله آلهة أخرى – على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة – وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل . . وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجي المؤمنين . . والسياق القرآني يوحد الألفاظ التي عبر بها جميع الرسل – صلوات الله عليهم – مع اختلاف لغاتهم . . يوحد حكاية ما قالوه ، ويوحد ترجمته في نص واحد : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . . وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية – على مدار التاريخ – حتى في صورتها اللفظية ! لأن هذه العبارة دقيقة في التعبير عن حقيقة العقيدة ، ولأن عرضها في السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويراً حسياً . . ولهذا كله دلالته في تقرير المنهج القرآني عن تاريخ العقيدة . .

وفي ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج " الأديان المقارنة " مع المنهج القرآني . . يتبين أنه لم يكن هناك تدرج ولا " تطور " في مفهوم العقيدة الأساسي ، الذي جاءت به الرسل كلها من عند الله ، وأن الذين يتحدثون عن " تطور " المعتقدات وتدرجها ؛ ويدمجون العقيدة الربانية في هذا التدرج " والتطور " يقولون غير ما يقوله الله سبحانه ! فهذه العقيدة – كما نرى في القرآن الكريم – جاءت دائماً بحقيقة واحدة . وحكيت العبارة عنها في ألفاظ بعينها : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وهذا الإله الذي دعا الرسل كلهم إليه هو " رب العالمين " . . الذي يحاسب الناس في يوم عظيم . . فلم يكن هنالك رسول من عند الله دعا إلى رب قبيلة ، أو رب أمة ، أو رب جنس . . كما أنه لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة . . وكذلك لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى عبادة طوطمية ، أو نجمية ، أو " أرواحية ! " أو صنمية ! ولم يكن هناك دين من عند الله ليس فيه عالم آخر . . كما يزعم من يسمونهم " علماء الأديان " وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة ، ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هي الديانات التي عرفتها البشرية في هذه الأزمان ، دون غيرها !

لقد جاءت الرسل – رسولاً بعد رسول – بالتوحيد الخالص ، وبربوبية رب العالمين ! وبالحساب في يوم الدين . . ولكن الانحرافات في خط الاعتقاد ، مع الجاهليات الطارئة بعد كل رسالة ، بفعل العوامل المعقدة المتشابكة في تكوين الإنسان ذاته وفي العوالم التي يتعامل معها . . هذه الانحرافات تمثلت في صور شتى من المعتقدات الجاهلية . . هي هذه التي يدرسها " علماء الأديان ! " ثم يزعمون أنها الخط الصاعد في تدرج الديانات وتطورها ! وعلى أية حال فهذا هو قول الله – سبحانه – وهو أحق أن يتبع ، وبخاصة ممن يكتبون عن هذا الموضوع في صدد عرض العقيدة الإسلامية ، أو صدد الدفاع عنها ! أما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، فهم وما هم فيه .

(182/274)

والله يقص الحق وهو خير الفاصلين . .

إن كل رسول من الرسل – صلوات الله عليهم جميعاً – قد جاء إلى قومه ، بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم الذي سبقه . . فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لرب العالمين – كما كانت عقيدة آدم وزوجه – ثم انحرفوا بفعل العوامل التي أسلفنا – حتى إذا جاء نوح – عليه السلام – دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى . ثم جاء الطوفان

فهلك المكذبون ونجا المؤمنون . وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين – كما علمهم نوح – وبذراريهم . حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم . . حتى إذا جاء هود أهلك المكذبون بالريح العقيم . . ثم تكررت القصة . . وهكذا . .

(183/274)

ولقد أرسل كل رسول من هؤلاء إلى قومه . فقال : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . . وقال كل رسول لقومه : ﴿ إني لكم ناصح أمين ﴾ ، معبراً عن ثقل التبعة ؛ وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة ؛ ورغبته في هداية قومه ، وهو منهم وهم منه . . وفي كل مرة وقف " الملأ " من علية القوم وكبرائهم في وجه كلمة الحق هذه ؛ ورفضوا الاستسلام لله رب العالمين . وأبوا أن تكون العبودية والدينونة لله وحده – وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها وقام عليها دين الله كله – وهنا يصدع كل رسول بالحق في وجه الطاغوت . . ثم ينقسم قومه إلى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة . وتنبتُّ وشيجة القومية ووشيجة القرابة العائلية ؛ لتقوم وشيجة العقيدة وحدها . وإذا " القوم " الواحد ، أمتان متفاصلتان لا قربى بينهما ولا علاقة ! . .

وعندئذ يجيء الفتح . . ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة ، ويأخذ المكذبين المستكبرين ، وينجي الطائعين المستسلمين . . وما جرت سنة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة ، وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم لله وحده . وقبل أن يثبتوا في وجه الطاغوت بإيمانهم . وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم . . وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ .

* إن التركيز في كل رسالة كان على أمر واحد : هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده – رب العالمين – ذلك أن هذه العبودية لله الواحد ، ونزع السلطان كله من الطواغيت التي تدعيه ، هو القاعدة التي لا يقوم شيء صالح بدونها في حياة البشر . ولم يذكر القرآن إلا قليلاً من التفصيلات بعد هذه القاعدة الأساسية المشتركة في الرسالات جميعاً .

(184/274)

ذلك أن كل تفصيل – بعد قاعدة العقيدة – في الدين ، إنما يرجع إلى هذه القاعدة ولا يخرج عنها . وأهمية هذه القاعدة في ميزان الله هي التي جعلت المنهج القرآني يبرزها هكذا ، ويفردها بالذكر في استعراض موكب الإيمان ؛ بل في القرآن كله . . ولنذكر – كما قلنا في التعريف بسورة الأنعام أن هذا كان هو موضوع القرآن المكي كله ؛ كما كان هو موضوع

القرآن المدني كلما عرضت مناسبة لتشريع أو توجيه .

إن لهذا الدين " حقيقة " ؛ و " منهجاً " لعرض هذه الحقيقة . " والمنهج " في هذا الدين لا يقل أصالة ولا ضرورة عن " الحقيقة " فيه . . وعلينا أن نعرف الحقيقة الأساسية التي جاء بها هذا الدين . كما أن علينا أن نلتزم المنهج الذي عرض به هذه الحقيقة . . وفي هذا المنهج إبراز وإفراد وتكرار وتوكيد لحقيقة التوحيد للألوهية . . ومن هنا ذلك التوكيد والتكرار والإبراز والإفراد لهذه القاعدة في قصص هذه السورة . .

(185/274)

إن هذا القصص يصور طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس البشر ؛ ويعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان ، ونموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للكفر أيضاً . . إن الذين آمنوا بكل رسول لم يكن في قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله ؛ ولم يعجبوا أن يختار الله واحداً منهم ليبلغهم وينذرهم . فأما الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم ، فاستبكروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر ، وأن يسمعوا لواحد منهم . . كانوا هم " الملأ " من الحكام والكبار والوجهاء وذوي السلطان في قومهم . . ومن هنا نعرف عقدة هذا الدين . . إنها عقدة

الحاكمية والسلطان . . فالملأ كانوا يحسون دائماً ما في قول رسولهم لهم : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . . ﴿ ولكني رسول من رب العالمين ﴾ . . كانوا يحسون أن الألوهية الواحدة والربوبية الشاملة تعني – أول ما تعني – نزع السلطان المغتصب من أيديهم ؛ ورده إلى صاحبه الشرعي . . إلى الله رب العالمين . . وهذا ما كانوا يقاومون في سبيله حتى يكونوا من الهالكين ! وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر ، وأن يسلك طريقه إلى الهلاك ، كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك ! . . إن مصارع المكذبين – كما يعرضها هذا القصص – تجري على سنة لا تتبدل : نسيان لآيات الله وانحراف عن طريقه . إنذار من الله للغافلين على يد رسول . استكبار عن العبودية لله وحده والخضوع لرب العالمين . اغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار واستعجال للعذاب . طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين . ثبات من المؤمنين ومفاصلة على العقيدة . . ثم المصرع الذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ !

* وأخيراً فإن طاغوت الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق .

وحتى حين يريد الحق أن يعيش في عزلة عن الباطل – تاركاً مصيرهما لفتح الله وقضائه – فإن الباطل لا يقبل منه هذا الموقف . بل يتابع الحق وينازله ويطارده . . ولقد قال شعيب لقومه : ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين ﴾ . . ولكنهم لم يقبلوا منه هذه الخطة ، ولم يطيقوا رؤية الحق يعيش ؛ ولا رؤية جماعة تدين لله وحده وتخرج من سلطان الطواغيت : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ . . وهنا صدع شعيب بالحق رافضاً هذا الذي يعرضه عليهم الطواغيت : ﴿ قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . . ﴾

ذلك ليعلم أصحاب الدعوة إلى الله أن المعركة مع الطواغيت مفروضة عليهم فرضاً ، وأنه لا يجديهم فتيلاً أن يتقوها ويتجنبوها . فالطواغيت لن تتركهم إلا أن يتركوا دينهم كلية ، ويعودوا إلى ملة الطواغيت بعد إذ نجاهم الله منها . وقد نجاهم الله منها بمجرد أن خلعت قلوبهم عنها العبودية للطواغيت ودانت بالعبودية لله وحده . . فلا مفر من خوض المعركة ، والصبر عليها ، وانتظار فتح الله بعد المفاصلة فيها ؛ وأن يقولوا مع شعيب : ﴿ على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ . . ثم تجري سنة الله بما

جرت به كل مرة على مدار التاريخ . .

ونكتفي بهذه المعالم في طريق القصص القرآني ، حتى نستعرض النصوص بالتفصيل :

(187/274)

إن موكب الإيمان الذي يسير في مقدمته رسل الله الكرام ، مسبوق في السياق بموكب الإيمان في الكون كله . في الفقرة السابقة مباشرة : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ﴾ وإن الدينونة لهذا الإله ، الذي خلق السماوات والأرض ، والذي استوى على العرش ، والذي يحرك الليل ليطلب النهار ، والذي تجري الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، والذي له الخلق والأمر . إن الدينونة لهذا الإله وحده هي التي يدعو إليها الرسل كافة . هي التي يدعون إليها البشرية كلها ، كلما قعد لها الشيطان على صراط فأضلها عنه ؛ وردها إلى الجاهلية التي تتبدى في صور شتى ؛ ولكنها كلها تتسم بإشراك غير الله معه في الربوبية .

والمنهج القرآني يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله ، ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه ؛ والإسلام لله الذي أسلم له الكون كله ؛ والذي يتحرك مسخراً

بأمره . ذلك أن هذا الإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشري هزاً ؛ وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة المستسلمة ؛ فلا يكون هو وحده نشازاً في نظام الوجود كله !

إن الرسل الكرام لا يدعون البشرية لأمر شاذ ؛ إنما يدعونها إلى الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله ؛ وإلى الحقيقة المركوزة في ضمير هذا الوجود .

. وهي ذاتها الحقيقة المركوزة في فطرة البشر ؛ والتي تهتف بها فطرتهم حين لا تلوي بها الشهوات ، ولا يقودها الشيطان بعيداً عن حقيقتها الأصيلة . .

وهذه هي اللسمة المستفادة من تتابع السياق القرآني في السورة على النحو الذي تتابع به .

(188/274)

﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه : إنا لنراك في ضلال مبين . قال : يا قوم ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات رب ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم

كانوا قوماً عمين ﴾ . .

تعرض القصة هنا باختصار ، ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى من القرآن في سياق يتطلب تلك التفصيلات ، كالذي جاء في سورة هود ، وفي سورة نوح . . إن الهدف هنا هو تصوير : تلك المعالم التي تحدثنا عنها آنفاً . . طبيعة العقيدة . طريقة التبليغ . طبيعة استقبال القوم لها . حقيقة مشاعر الرسول . تحقق النذير . . لذلك تذكر من القصة فحسب تلك الحلقات المحققة لتلك المعالم ، على منهج القصص القرآني .

﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ . .

على سنة الله في إرسال كل رسول من قومه ، وبلسانهم ، تأليفاً لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم ، وتيسيراً على البشر في التفاهم والتعارف . وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة ، ولا يستجيبون ، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم ، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة ! وإن هي إلا تعلة . وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى ، مهما جاءهم من أي طريق !

لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فخاطبهم بتلك الكلمة الواحدة التي جاء بها كل رسول :

﴿ فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

فهي الكلمة التي لا تتبدل ، وهي قاعدة هذه العقيدة التي لا توجد إلا بها ، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره ، وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ،

ووحدة الرباط . وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى ، والعبودية لأمثالهم من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد .

(189/274)

إن دين الله منهج للحياة ، قاعدته أن يكون السلطان كله في حياة الناس كلها لله . وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى ألا يكون للناس إله غيره . . والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وإنشائه وتدبيره بقدرة الله وقدره . كما يتمثل في الاعتقاد بربوبيته للإنسان وإنشائه وتدبير أمره بقدرة الله وقدره .

وعلى نفس المستوى يتمثل في الاعتقاد بربوبية الله لهذا الإنسان في حياته العملية الواقعية ، وقيامها على شريعته وأمره ، تمثله في التقدم بشعائر العبادة له وحده . . كلها حزمة واحدة . . غير قابلة للتجزئة . وإلا فهو الشرك ، وهو عبادة غير الله معه ، أو من دونه !

ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه ، وفي صدق الرائد الناصح لأهله :

﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ . .

وهنا نرى أن ديانة نوح . . أقدم الديانات . . كانت فيها عقيدة الآخرة . عقيدة الحساب

والجزاء في يوم عظيم ، يخاف نوح على قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب . . وهكذا تتبين مفارقة منهج الله وتقريره في شأن العقيدة ، ومناهج الخابطين في الظلام من " علماء الأديان " وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن .

فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين من قوم نوح لهذه الدعوة الخالصة الواضحة المستقيمة ؟

﴿ قال الملأ من قومه : إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ !

كما قال مشركو العرب لمحمد – صلى الله عليه وسلم – إنه صبأ ، ورجع عن دين إبراهيم ! وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال ! بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعد ما يبلغ المسخ في الفطر ! . . هكذا تنقلب الموازين ، وتبطل الضوابط ، ويحكم الهوى ؛ ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل .

(190/274)

وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدى الله ؟ إنها تسميهم الضالين ، وتعد من يهتدي منهم ويرجع بالرضى والقبول ! . . أجل من يهتدي إلى المستنقع الكريه ، وإلى الوحل الذي تتمرغ الجاهلية فيه !

وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف عن لحمها ؟ وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص ؟ إنها تسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما " رجعية " وتخلفاً وجموداً وريفية ! وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما في الوحل الذي تتمرغ فيه في المستنقع الكريه !

وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة ؛ وجنون الأفلام والسينما والتليفزيون وما إليه ؛ وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهي ؟ إنها تقول عنه : إنه " جامد " . ومغلق على نفسه ، وتنقصه المرونة والثقافة ! وتحاول أن تجره إلى تفاهة من هذه ينفق فيها حياته . .

إن الجاهلية هي الجاهلية . . فلا تتغير إلا الأشكال والظروف !

وينفي نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه . إنما هو رسول من رب العالمين . يحمل لهم الرسالة . ومعها النصح والأمانة . ويعلم من الله ما لا يعلمون . فهو يجده في نفسه ، وهو موصول به ، وهم عنه محجوبون :

﴿ قال : يا قوم ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

ونلمح هنا فجوة في السياق . . فكأنما عجبوا أن يختار الله رسولاً من البشر من بينهم ،

يحمله رسالة إلى قومه ، وأن يجد هذا الرسول في نفسه علماً عن ربه لا يجده الآخرون ، الذين لم يختاروا هذا الاختيار . . هذه الفجوة في السياق يدل عليها ما بعدها :

﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟ ﴾ . .

(191/274)

وما من عجب في هذا الاختيار . فهذا الكائن الإنساني شأنه كله عجيب . . إنه يتعامل مع العوالم كلها ، ويتصل بربه بما ركب في طبيعته من نفخة الله فيه من روحه . . فإذا اختار الله من بينه رسوله – والله أعلم حيث يجعل رسالته – فإنما يتلقى هذا المختار عنه ، بما أودع في كيانه من إمكانية الاتصال به والتلقي عنه ، بذلك السر اللطيف الذي به معنى الإنسان ، والذي هو مناط التكريم العلوي لهذا الكائن العجيب التكوين .

ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة :

﴿ لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ﴾ . .

فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ، ليظفروا في النهاية برحمة الله . . ولا شيء وراء ذلك لنوح ، ولا مصلحة ، ولا هدف ، إلا هذا الهدف السامي النبيل .

ولكن الفطرة حين تبلغ حداً معيناً من الفساد ، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر ، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير :

﴿ فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه في الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ . .

ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير . . فبعماهم هذا كذبوا . . وبعماهم لاقوا هذا المصير ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1301 .

1310 ﴾

(192/274)

فصل

قال ابن كثير :

قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ وهو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما

ذكره ابن جرير وغيره وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلا قال يا رسول الله أنبي كان آدم قال نعم مكلم قال فكم كان بينه وبين نوح قال عشرة قرون قلت وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام اذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار والله أعلم

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وقوله ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين وقال تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا وقال وكم أهلكنا قبلهم من قرن وكقوله عليه السلام خير القرون قرني الحديث فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهر الطويلة فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم

وبالجملة فنوح عليه السلام انما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة وكان قومه يقال لهم بنو راسب فيما ذكره ابن جبير وغيره

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث فقيل كان ابن خمسين سنة وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة حكاها ابن جرير وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة فقال في سورة الأعراف لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون

فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين وقال في سورة يونس واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر

(194/274)

عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر ان أجري الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين وقال تعالى في سورة هود ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه انى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا الا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادى الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت علكيم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك ولا أقول للذين تزدري

أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلى إجرامي وأنا برىء مما تجرمون وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين

(195/274)

وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكانا من المغرقين وقيل يا أرض

ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت

تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين وقال تعالى في سورة الأنبياء ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا

وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين وقال تعالى في سورة الشعراء كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وقال تعالى في سورة العنكبوت ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين وقال تعالى في سورة

والصافات ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ثم أغرقنا الآخرين وقال تعالى في سورة اقتربت كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعا ربه إني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر وقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وقال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم

(198/274)

لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم أسرارا فقلت استغفروا ربكم إنه كان

غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم
أنهارا ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات
طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم
يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا
قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ومكروا مكرا كبارا
وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا
ولا تزد الظالمين الا ضلالا مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله
أنصارا وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك
ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات
ولا تزد الظالمين إلا تبارا وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير وسنذكر مضمون
القصة مجموعا من هذه الأماكن المتفرقة ومما دلت عليه الأحاديث والآثار وقد جرى ذكره
أيضا في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه فقال تعالى في سورة النساء إنا
أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل
وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا
ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما
رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا

حكيما وقال في سورة الأنعام وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان

(199/274)

وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم الآيات وتقدمت قصته في الأعراف وقال في سورة براءة ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وتقدمت قصته في يونس وهود وقال في سورة إبراهيم ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب وقال في سورة سبحان ذرية من حملنا مع نوح أنه كان عبدا شكورا وقال فيها أيضا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب

عباده خبيرا بصيرا وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت وقال في سورة الأحزاب وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا وقال في سورة ص كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كل الا كذب الرسل فحق عقاب وقال في سورة غافر كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار وقال في سورة الشورى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب وقال تعالى في سورة ق كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد وقال في الذاريات وقوم نوح من قبل أنهم كانوا قوما فاسقين وقال في النجم وقوم نوح من قبل أنهم كانوا هم أظلم وأطغى وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة وقال تعالى في سورة

الحديد ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون وقال تعالى في سورة التحريم ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذا من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام رواه البخاري وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت ان آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن

(201/274)

جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا قال هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت

قال ابن عباس وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد وهكذا قال

عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق

وقال ابن جرير في تفسيره حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس قال كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون

دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان ود أكبرهم وأبرهم به

(202/274)

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور حدثنا الحسن بن موسى حدثنا يعقوب عن أبي المطهر قال ذكروا عند أبي جعفر هو الباقر وهو قائم يصلي بزيد بن المهلب قال فلما انفتل من صلاته قال ذكرتم يزيد بن المهلب أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله قال ذكر ودا رجلا صالحا وكان محبا في قومه فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال إني أرى جزعكم على هذا

الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه قالوا نعم فصور لهم مثله قال ووضعوه في ناديهم وجعلو يذكرونه فلما رأى ما بهم من ذكره قال هل لكم أن اجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له في بيته فتذكرونه قالوا نعم قال فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به قال وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به قال وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم اياه حتى اتخذوه الها يعبدونه من دون الله اولاد أولادهم فكان أول ما عبد غير الله ودا الصنم الذي سموه ودا

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز و جل ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جدا قد ذكرنها في مواضعها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله عز و جل

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاد بعباد الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة قال فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا فيقول ربي قد غضب غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن الشجرة فعصيت نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما بلغنا ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل فيقول ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده

مثله نفسي نفسي وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح

فلما بعث الله نوحا عليه السلام دعاهم إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له أن لا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كما قال تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين وقال فيه وفي إبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته وكذلك إبراهيم قال الله تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وقال تعالى واسئل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون وقال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ولهذا قال نوح لقومه اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقال ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم وقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون وقال يا قوم إني لكم نذير مبين أن ابعدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا الآيات الكريمات فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع

الدعوة في الليل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا فلم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والاخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم قال

(205/274)

الملأ من قومه أي السادة الكبراء منهم إنا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أي لست كما تزعمون من أني ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين أي الذي يقول للشيء كن فيكون أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون وهذا شأن الرسول أن يكون بليغا أي فصيحا ناصحا أعلم الناس بالله عز وجل وقالوا له فيما قالوا ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين تعجبوا أن يكون بشرا رسولا وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم وقد قيل أنهم كانوا من أقياد الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل وهم أتباع الرسل وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق وقولهم بادى الرأي أي بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية وهذا

الذي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما دحا للصديق ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضا سريعة من غير نظر ولا روية لان أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه وقال يأبى الله والمؤمنون الا أبا بكر رضي الله عنه وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به وما نرى لكم علينا من فضل أي لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا بل نظنكم كاذبين قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون

(206/274)

وهذا تلطف في الخطاب معهم وترفق بهم في الدعوة إلى الحق كما قال تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وقال تعالى ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وهذا منه يقول لهم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده

أي النبوة والرسالة فعميت عليكم أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها أنلزمكموها أي انغضبكم بها ونجبركم عليها وأنتم لها كارهون أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله أي لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي وابقى مما تعطونني أنتم وقوله وما أنا بطارد الذين آمنوا أنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال إنهم ملاقوا ربهم أي فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عز وجل ولهذا قال ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك أي بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولا أقول للذين تزدري أعينكم يعني من اتباعه لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين أي لا أشهد عليهم بانهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر كما قالوا في المواضع الأخر أنؤمن لك واتبعك

الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا

(207/274)

نذير مبين

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما

(208/274)

فأخذهم الطوفان وهم ظالمون أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم وكان كل ما نقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح أبدا ما عاش ودائما ما بقي وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ولهذا قال ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ولهذا قالوا قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين أي إنما يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا

يكترثه أمر بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون أي من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن تسلية له عما كان منهم إليه فلا تبتئس بما كانوا يفعلون وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن أي لا يسوأنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون وذلك أن نوحا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وقومه من الكرب العظيم وقال تعالى ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم وقال تعالى قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين وقال تعالى فدعا ربه أني مغلوب فانتصر وقال تعالى قال رب انصرني بما كذبون

وقال تعالى مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه أي يستهزئون به استعباد الوقوع ما توعدهم به قال إن تسخورا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون أي نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم فسوف تعلمون من يأتيه

(210/274)

عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضا أن يكون جاءهم رسول كما قال البخاري حدثنا موسى بن إسمعيل حدثنا عبدالواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيء نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عز وجل هل بلغت فيقول نعم أي رب فيقول لأمته هل بلغكم فيقولون لا ما جاءنا من نبي فيقول لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فتشهد أنه قد بلغ وهو قوله وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا والوسط العدل فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحا بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ولم يدع شيئا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به ولا شيئا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم حذرا عليهم وشفقة ورحمة بهم كما قال البخاري حدثنا عبدان حدثنا عبدالله عن يونس عن الزهري قال سالم قال ابن عمر قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور وهذا الحديث في الصحيحين أيضا من حديث شيبان بن عبدالرحمن عن يحيى بن أبي كثير عن

أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال ألا أحدثكم عن الدجال حديثا ما حدث به نبي قومه أنه أعور وأنه يجيء معه بمثال الجنة والنار والتي يقول عليها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه لفظ البخاري

(211/274)

وقد قال بعض علماء السلف لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره في مائة أخرى وقيل في أربعين سنة فالله أعلم قال محمد بن إسحاق عن الثوري وكان من خشب الساج وقيل من الصنوبر وهو نص التوراة قال الثوري وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وأن يطلى ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين ذراعا وهذا الذي في التوراة على ما رأيته

وقال الحسن البصري ستمائة في عرض ثلثمائة وعن ابن عباس ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ذراع وقيل كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع قالوا كلهم وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشر أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس والعليا للطيور وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها

قال الله تعالى قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا أي بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك

لنرشدك إلى الصواب في صنعتها فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين واهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وأن يحمل معه أهله أي أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم أي إلا من كان كافرا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد كما قدمنا بيانه قبل

(212/274)

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض أي نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار وعن ابن عباس التنور عين في الهند وعن الشعبي بالكوفة وعن قتادة بالجزيرة وقال علي بن أبي طالب المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر أي إشراقه وضياؤه أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وهذا قول غريب وقوله تعالى حتى

إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل هذا أمر بأن عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وفي كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين ذكرا وأنثى وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق إثنين إن جعلنا ذلك مفعولا به وأما إن جعلناه توكيدا لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافي والله أعلم

وذكر بعضهم ويروى عن ابن عباس أن أول ما دخل من الطيور الدرة وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف نطمئن أو كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض ثم شكوا الفارة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها هذا مرسل وقوله واهلك إلا من سبق عليه القول أي من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه يام الذي غرق كما سيأتي بيانه ومن آمن أي واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى وما آمن معه إلا قليل هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهارا بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى

(213/274)

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم

(214/274)

وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسا وقيل كانوا عشرة وقيل إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذي انخزل وانعزل وسلل عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هي نص في أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به كما قال ونجني ومن معي من المؤمنين وقيل كانوا سبعة وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم وهم حام وسام ويافث ويام وتسميه أهل الكتاب كعنان وهو الذي قد غرق وعابر وقد ماتت قبل الطوفان قيل إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك أو أنها أنظرت ليوم القيامة والظاهر الأول لقوله لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا قال الله تعالى فإذا

استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه واقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى الذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه و سلم حين هاجر وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم أي على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه إن ربي لغفور رحيم أي وذو عقاب اليم مع كونه غفروا رحيما لا يرد بأسه عن القوم المجرمين كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره قال الله تعالى وهي تجري بهم في موج كالجبال وذلك أن الله

تعالى أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر والدسر السائر تجري بأعيننا أي بحفظنا وكلاأتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها جزاء لمن كان كفر

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن الطوفان كان في ثالث عشر شهر آب في حساب القبط وقال تعالى إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية أي السفينة لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية قال جماعة من المفسرين ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعا وهو الذي عند أهل الكتاب وقيل ثمانين ذراعا وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها ولم يبق

(216/274)

على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لم تكن بقعة في الأرض الا ولها مالك وحائز رواهما ابن أبي حاتم ونادى نوح ابنه وكان

في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بنيهما الموج فكان من المغرقين وهذا الابن هو يام أخو سام وحام ويافث وقيل اسمه كنعان وكان كافرا عمل عملا غير صالح فخالف أباه في دينه ومذهبه فهلك مع من هلك هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين أي لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر وغيض الماء أي نقص عما كان وقضى الأمر أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم وقيل بعدا للقوم الظالمين أي نودي عليهم بلسان القدرة بعدا لهم من الرحمة والمغفرة كما قال تعالى فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا أنهم كانوا قوما عمين وقال تعالى فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين وقال تعالى ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين وقال تعالى فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وقال تعالى فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية

للعالمين وقال تعالى ثم أغرقنا الآخرين وقال ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن

(217/274)

للذكر فهل من مدكر وقال تعالى مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا انك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدو إلا فاجرا كفارا وقد استجاب الله تعالى وله الحمد والمنة دعوته فلم يبق منهم عين تطرف

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن قائد مولى عبد الله بن أبي رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال فلو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم ام الصبي قال رسول الله صلى الله عليه و سلم مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة يعني الا خمسين عاما وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر كيف تجري قال سوف تعلمون فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي

عليه وكانت تحبه حبا شديدا خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي وهذا حديث غريب وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة وأحرى بهذا الحديث أن يكونا موقوفا متلقى عن مثل كعب الأحبار والله أعلم

(218/274)

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين ديارا فكيف يزعم بعض المفسرين ان عوج بن عنق ويقال ابن عناق كان موجودا من قبل نوح إلى زمان موسى ويقولون كان كافرا متمردا جبارا عنيدا ويقولون كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا وإنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس وإنه كان يقول لنوح وهو في السفينة ما هذه القصيعة التي لك ويستهزىء به ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول

أما المعقول فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا وكيف لا يرحم الله منهم أحدا ولا أم الصبي ولا الصبي ويترك هذا الدعى الجبار العنيد الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا

وأما المنقول فقد قال الله تعالى ثم أغرقنا الآخرين وقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم أخره بذلك وهلم جرا إلى يوم القيامة

(219/274)

وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه فكيف يترك هذا ياهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وما أظن أن

هذا الخبر عن عوج بن عناق الا اختلافا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء والله أعلم

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ووجه السؤال أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق فأجيب بأنه ليس من أهلك أي الذين

وعدت بنجاتهم أي أما قلنا لك وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان ثم قال تعالى قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال بسلام منا وبركات أي اهبط سالما مباركا عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد أي من أولادك فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا سوى نوح عليه السلام قال تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافث

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعا نحوه وقال الشيخ أبو عمرو بن عبد البر وقد روى عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه و سلم مثله قال والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام ثم روى من حديث اسمعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال ولد نوح ثلاثة سام ويافث وحام وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة فولد سام العرب وفارس والروم وولد يافث الترك والسقالبة ويأجوج ومأجوج وولد حام القبط والسودان والبربر قلت وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا إبراهيم بن هانىء وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي حدثني أبي عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ولد لنوح سام وحام ويافث فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والسقالبة ولا خير فيهم وولد لحام القبط والبربر والسودان ثم قال لا نعلم يروى مرفوعا الا من هذا الوجه تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه وقد حدث عنه جماعة

من أهل العلم واحتملوا حديثه ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلا ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيد قلت وهذا الذي ذكره أبو عمرو هو المحفوظ عن سعيد قوله وهكذا روى عن وهب بن منبه مثله والله أعلم ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لا يعتمد عليه وقد قيل إن نوحا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد الا بعد الطوفان وإنما ولد له قبل السفينة كنعان الذي غرق وعابر مات قبل

(221/274)

الطوفان والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة وقد ذكر أن حاما واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان وقيل بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيدا لإخوته

(222/274)

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير من طريق علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه قال أتدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب حام بن نوح قال وضرب الكثيب بعصاه وقال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت قال لا ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث ولما وقع الفار يخرز السفينة بقرضه أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفار فقال له عيسى كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فقالوا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا قال

كيف يتبعكم من لا رزق له قال فقال له عد بإذن الله فعاد ترابا وهذا أثر غريب جدا وروى غلباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوما وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها إلى الجودى فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب

(223/274)

فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت السنتهم على ثمانين لغة إحداها العربي وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنه

وقال قتادة وغيره ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم على الجودى شهرا وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشر واء من المحرم وقد روى

ابن جرير خبرا مرفوعا يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك وقال الإمام أحمد حدثنا أبو

جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل عن أبي هريرة قال مر النبي صلى الله عليه و سلم بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال ما هذا الصوم فقالوا هذا اليوم الذي نجا الله موسى وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى فصام نوح وموسى عليهما السلام شكرا لله عز و جل فقال النبي صلى الله عليه و سلم أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم وقال لأصحابه من كان منكم أصبح صائما فليتم صومه ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله فليتم بقية يومه وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر والمستغرب ذكر نوح أيضا والله أعلم

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها واطحنوا الحبوب يومئذ واكتحلوا بالاثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعد ما كانوا في ظلمة السفينة فكل هذا لا يصح فيه شيء وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدي بها والله أعلم

وقال محمد بن إسحاق لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن لماء وانسدت ينابيع الأرض فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر وكان استواء الفلك فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشر ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤس الجبال فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضت سبعة ايام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب قال ابن إسحاق وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحا قائلا له اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التي معك ولينموا وليكبروا في الأرض فخرجوا وابتنى نوح مذبحا لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قربانا إلى الله

عز وجل وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض وجعل تذكارا لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام وهو قوس قزح الذي قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق قال بعضهم فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة

(225/274)

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم وقالوا إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا قالوا ولم نزل نتوارث الملك كابرا عن كابر من لدن كيو مرث يعنون آدم إلى زماننا هذا وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان

وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجعل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله احدا من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذ لما سبق في القدر المحتوم

ذكر شيء من أخبار نوح عليه السلام

قال الله تعالى إنه كان عبدا شكورا قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أسامة حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن سعيد بن أبي بردة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث أبي أسامة والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر . . . أفادتكم النعماء مني ثلاثة . . . يدي ولساني والضمير المحجبا . . .

صومه عليه السلام

(226/274)

وقال ابن ماجه باب صيام نوح عليه السلام حدثنا سهل بن أبي سهل حدثنا سعيد بن أبي مريم عن ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه وقد قال الطبراني حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج حدثنا عمرو بن خالد الحراني حدثنا ابن لهيعة عن أبي قتادة عن

يزيد بن رباح أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى وصام داود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر صام الدهر وأفطر الدهر

حجه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبي عن زمعة هو ابن أبي صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال حج رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما أتى وادي عسفان قال يا أبا بكر أي واد هذا قال هذا وادي عسفان قال لقد مر بهذا الوادي نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء وارديتهم النمار يحجون البيت العتيق فيه غرابة

وصيته لولده

(227/274)

قال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن الصقعب بن زهير عن زيد بن أسلم قال حماد أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان مزرورة بالديباج

فقال ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بن فارس أو قال يريد أن يضع كل فارس بن فارس ورفع كل راع بن راع قال فأخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم بمجامع جبته وقال لا أرى عليك لباس من لا يعقل ثم قال إن نبي الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه إني قاص عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا إله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ولو أن السموات السبع والارضين السبع كن حلقة مبهمة فضمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شيء وبها يرزق الخلق وأنهاك عن الشرك والكبر قال قلت أو قيل يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر أن يكون لاحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان قال لا قال هو أن يكون لاحدنا حلة يلبسها قال لا قال هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها قال لا قال هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه قال لا قلت أو قيل يا رسول الله فما الكبر قال سفه الحق وغمض الناس وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال كان في وصية نوح لابنه أوصيتك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين فذكر نحوه وقد رواه أبو بكر البزار عن إبراهيم بن سعيد عن أبي معاوية الضرير عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن

دينار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه و سلم بنحوه والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أحمد والطبراني والله أعلم

(228/274)

ويزعم أهل الكتاب أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنة وقدمنا عن ابن عباس مثله وزاد وعاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة وفي هذا القول نظر ثم إن لم يمكن الجمع

بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض فإن القرآن يقتضى أن نوحا مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك فإن كان ما ذكر محفوظا عن ابن عباس من أنه بعث وله أربع مائة وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلا أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام وهذا أقوى وأثبت من الذكر الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بنى

بسبب ذلك فيما ذكره والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 100 .

120 ﴾

(229/274)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والسبعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/275)

الجزء الخامس والسبعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 65 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 72 ﴾ من نفس السورة

(4/275)

قوله تعالى ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان عاد بعدهم ، ولم يكن هنا ما يقتضي تشويش الترتيب ، اتبعهم بهم مقدماً المرسل إليه ليفيد تخصيص رسالته بهم وهم بعض أهل الأرض فقال : ﴿ وإلى عاد ﴾ خاصة أرسلنا ﴿ أخاهم ﴾ أي في النسب لأنهم عنه أفهم وبحاله في الثقة والأمانة أعرف ؛ ولما

عطفه على نوح عليهما السلام بعد تقديم المرسل إليهم ، بينه بقوله : ﴿ هوداً ﴾ بخلاف قوم نوح فإنهم كانوا جميع أهل الأرض ، لأن القبائل لم تكن فرقت الناس ولا الألسنة إذ كان لسان الكل واحداً ، ولم تفرق الألسنة إلا بعد الصرح ، ولهذا عم الغرق جميع أهل الأرض ، فكان المعنى حينئذ لا يختلف في قصته بتقديم ولا تأخير ، فناسب تقديم الرسالة أو المرسل لأنه أهم .

ولما كانت قصة نوح عليه السلام أول قصص الأنبياء مع قومهم ، ولم يكن للعرب عهد بمجاورات الأنبياء ومن يرسلون إليه ، فأتى فيها بالأصل " أرسلناه " فقال سياقاً واحداً إخباراً لمن هو فارغ الذهن من كل جزء من أجزائها ؛ أتت قصة هود عليه السلام بعد علم السامعين بقصة نوح عليه السلام مما وقع من تبليغه لهم وردهم عليه ، فلما ذكر إرساله تشوف السامع إلى انه هل قال لهم كما قال نوح وهل ردوا عليه كرد قومه أو كان الأمر بخلاف ذلك ؟ فأجيب سؤال المتشوف بقوله : ﴿ قال ﴾ كقوله نوح عليه السلام سواء ﴿ يا قوم ﴾ مذكراً لهم بأنه أحدهم يهمه ما يهمهم ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي لاستحقاقه ذلك لذاته ؛ ثم علل أو استأنف بقوله : ﴿ ما لكم ﴾ وأغرق في النفي فقال : ﴿ من إله غيره ﴾ ولما كانوا عارفين بما أصاب قوم نوح قال : ﴿ أفلا تتقون ﴾ أي أفلا تجعلون بينكم وبين عذاب هذا الواحد الجبار وقاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 51 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو القصة الثانية ، وهي قصة هود مع قومه .

(5/275)

أما قوله : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ففيه أبحاث :

البحث الأول : انتصب قوله : ﴿ أخاهم ﴾ بقوله : ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ [الأعراف : 59] في أول الكلام والتقدير ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلى قَوْمِهِ ﴾ وأرسلنا إِلَى عاد أخاهم هوداً .

البحث الثاني : اتفقوا على أن هوداً ما كان أخاً لهم في الدين .

واختلفوا في أنه هل كان أخا قرابة قريبة أم لا ؟ قال الكلبي : إنه كان واحداً من تلك القبيلة ، وقال آخرون : إنه كان من بني آدم ومن جنسهم لا من جنس الملائكة فكفي هذا القدر في تسمية هذه الأخوة ، والمعنى أنا بعثنا إلى عاد واحداً من جنسهم وهو البشر ليكون إِلْفُهُم والأنس بكلامه وأفعاله أكمل .

وما بعثنا إليهم شخصاً من غير جنسهم مثل ملك أو جني .

البحث الثالث : أخاهم : أي صاحبهم ورسولهم ، والعرب تسمي صاحب القوم أخا القوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : 38] أي

صاحبتها وشبيهتها .

وقال عليه السلام : " إن أخا صداء قد أذن وإنما يقيم من أذن " يريد صاحبهم .

البحث الرابع : قالوا نسب هود هذا : هود بن شالخ ، بن أرفخشذ ، بن سام .

بن نوح .

وأما عاد فهم قوم كانوا باليمن بالأحقاف ، قال ابن إسحق : والأحقاف ، الرمل الذي بين عمان إلى حضرموت .

البحث الخامس : اعلم أن ألفاظ هذه القصة موافقة للألفاظ المذكورة في قصة نوح عليه السلام إلا في أشياء : الأول : في قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَقَالَ يا قوم اعبدوا الله ﴾ [الأعراف : 59] وفي قصة هود : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله ﴾ والفرق أن نوحاً عليه السلام كان مواظباً على دعواهم وما كان يؤخر الجواب عن شبهاتهم لحظة واحدة .

وأما هود فما كانت مبالغته إلى هذا الحد فلا جرم جاء "فاء التعقيب" في كلام نوح دون كلام هود .

والثاني : أن في قصة نوح ﴿ اعبدوا الله مَا لَكُم مّنْ إله غَيْرُهُ إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 59] وقال في هذه القصة : ﴿ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مّنْ إله غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون : 32] والفرق بين الصورتين أن قبل نوح عليه السلام لم يظهر في العالم مثل تلك الواقعة العظيمة وهي الطوفان العظيم ، فلا جرم أخبر نوح عن تلك الواقعة فقال : ﴿ إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وأما واقعة هود عليه السلام فقد كانت مسبوقة بواقعة نوح وكان عند الناس علم بتلك الواقعة قريباً ، فلا جرم اكتفى هود بقوله : ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله ولم يطيعوه نزل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا فكان قوله : ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المتقدمة المشهورة في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 125 . 126 ﴾

(7/275)

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾

يعني : أرسلنا إلى عاد نبيهم هوداً عطفاً على قوله : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ أي

وأرسلنا إلى عاد أخاهم .

لم يكن هود أخاهم في الدين ولكن كان من نسبهم .

قال السدي : كانت عاد قوماً من أهل اليمن فأتاهم هود ، فدعاهم إلى الإيمان ، وذكّرهم ، ووعظهم فكذبوه .

ويقال : عاد اسم ملك ينسب القوم كلهم إليه .

ويقال : اسم القرية ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي وحّدوه ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ وقد ذكرناه ﴿ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ عن الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وإلى عَادٍ ﴾

يعني وأرسلنا إلى عاد فلذلك نصب ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ وهو علاء بن عوص بن آدم ابن سام بن نوح وهو عاد الأولى ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ في النسب لا في الدين ﴿ هُوداً ﴾ وهو هود بن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن آدم بن سام بن نوح وقال ابن إسحاق : هود بن [شالخ] بن أرفخشد بن سام بن نوح ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ يَا قَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ الله فتوحدونه وتعبدونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) ﴾

﴿ عاد ﴾ اسم الحي ، و﴿ أخاهم ﴾ نصب ب ﴿ أرسلنا ﴾ [الأعراف : 59]

فهو معطوف على نوح ، وهذه أيضاً نذارة من هود عليه السلام لقومه ، وتقدم الخلاف في

قراءة ﴿ غيره ﴾ وقوله ﴿ أفلا تتقون ﴾ استعطاف إلى التقى والإيمان . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد ﴾

المعنى : وأرسلنا إلى عاد ﴿ أخاهم هوداً ﴾

قال الزجاج : وإنما قيل : أخوهم ، لأنه بشر مثلها من ولد أبيهم آدم .

ويجوز أن يكون أخاهم لأنه من قومهم .

وقال أبو سليمان الدمشقي : وعاد قبيلة من ولد سام بن نوح ؛ وإنما سماه أخاهم ، لأنه كان

نسيباً لهم ، وهو وهُم من ولد عاد بن عوص بن إرم بن سام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد

المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾

أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً .

قال ابن عباس : أي ابن أبيهم .

وقيل : أخاهم في القبيلة .

وقيل : أي بشراً من بني أبيهم آدم .

وفي مصنف أبي داود أن أخاهم هودا أي صاحبهم .

وعاد من ولد سام بن نوح .

قال ابن إسحاق : وعاد هو ابن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام .

وهود هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح .

بعثه الله إلى عاد نبياً .

وكان من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً .

و"عاد" من لم يصرفه جعله اسماً للقبيلة ، ومن صرفه جعله اسماً للحيّ .

قال أبو حاتم : وفي حرف أبيّ وابن مسعود "عاد الأولى" بغير ألف .

و"هود" أعجمي ، وانصرف لخفته ؛ لأنه على ثلاثة أحرف .

وقد يجوز أن يكون عربياً مشتقاً من هاد يهود .

والنصب على البدل .

وكان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء .

وكانت عاد فيما رُوي ثلاث عشرة قبيلة ، ينزلون الرمال ، رمل عالج .

وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة ، وكانت بلادهم أخصب البلاد ، فسخط الله عليهم فجعلها مفاوز ، وكانت فيما روي بنواحي حضرموت إلى اليمن ، وكانوا يعبدون الأصنام .

ولحق هود حين أهلك قومه بمن آمن معه بمكة ، فلم يزالوا بها حتى ماتوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(10/275)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾

أي وأرسلنا إلى عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وهي عاد الأولى أخاهم هوداً يعني أخاهم في النسب لا في الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

وقال ابن إسحاق: هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح واتفقوا على أن هوداً عليه الصلاة والسلام لم يكن أخاهم في الدين ثم اختلفوا في سبب الأخوّة من أين حصلت فقيل إنه كان واحداً من القبيلة فيتوجه قوله أخاهم لأنه واحد منهم وقيل إنه لم يكن من القبيلة ثم ذكروا في تفسير هذه الإخوة وجهين:

الأول: قال الزجاج: إنه كان من بني آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفي هذا القدر في تسمية الأخوة.

والمعنى إنّا أرسلنا إلى عاد واحداً من جنسهم من البشر ليكون الفهم والأنس بكلامه أتم وأكمل ولم نبعث إليهم من غير جنسهم مثل الملك أو الجن.

والثاني: إنه أخاهم يعني صاحبهم والعرب تسمي صاحب القوم أخاهم وكانت منازل عاد بالأحقاف باليمن والأحقاف الرمل الذي عند عمان وحضرموت ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي اعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه إلهاً آخر فإنه ليس لكم إله غيره والفرق بين قوله في قصة نوح وهنا قال إن نوحاً كان مواظباً على دعوة قومه غير متوان فيه لأن الفاء تدل على التعقيب.

وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء فأخبر الله تعالى عند بقوله ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ﴿ أفلا تتقون ﴾ يعني أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره ولما كانت هذه القصة منسوقة على قصة قوم نوح وقد علموا ما حل بهم من الفرق حسن قوله هنا .

أفلا تتقون يعني أفلا تخافون ما نزل بهم العذاب ولم يكن قبل واقعة قوم نوح شيء حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(11/275)

وقال أبو حيان :

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾

عاد اسم الحي ولذلك صرفه وبعضهم جعله اسماً للقبيلة فمنعه الصرف قال الشاعر :

لو شهدت عاد في زمان عاد . . .

لاتنزها مبارك الجلاد

(12/275)

سميت القبيلة باسم أبيهم وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وهود قال شيخنا أبو الحسن الآبدي النحوي : المعروف أنّ هوداً عربي والذي يظهر من كلام سيبويه لما عده مع نوح ولوط وهما عجميان أنه عجمي عنده انتهى ، وذكر الشريف النسّابة أبو البركات الجواني أنّ يَعرُب بن قحطان بن هود هو الذي زعمت يمن أنه أول من تكلم بالعربية ونزل أرض اليمن فهو أبو اليمن كلها وأنّ العرب إنما سميت عرباً به انتهى فعلى هذا لا يكون هود عربيّاً وهود هو ابن عابر بن شالح بن ارفخشد بن سام بن نوح و ﴿ أخاهم ﴾ معطوف على نوحاً ومعناه واحداً منهم وليس هود من بني عاد كما ذكرنا وهذا كما تقول أيا أخا العرب للواحد منهم ، وقيل : هو من عاد وهو هود بن عبد الله بن رياح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح فعلى هذا يكون من عاد واسم أمه مرجانة وكان رجلاً تاجراً أشبه خلق الله بآدم عليهما السلام ، روي أنّ عاداً كانت له ثلاث عشرة قبيلة ينزلون رمال عالج وهي عاد الأولى وكانوا أصحاب بساتين وزروع وعمارة وبلادهم أخصب بلاد فسخط الله عليهم فجعلها مفاوز وكانت بنواحي عمان إلى حضرموت إلى اليمن وكانوا يعبدون الأصنام ولما هلكوا لحق هود ومن آمن معه بمكة فلم يزالوا بها حتى ماتوا ولم يأتِ فقال بالفاء لأنه جواب سؤال مقدّر أي فما قال لهم ﴿ يا قوم ﴾ وكذا ﴿ قال الملأ ﴾ وفي قوله ﴿ أفلا تتقون ﴾ استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى ولما كان ما حلّ بقوم نوح

من أمر الطوفان واقعة لم يظهر في العالم مثلها قال ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ وواقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح وعهد الناس قريب بها اكتفى هود بقوله ﴿ أفلا تتقون ﴾ والمعنى تعرفون أنّ قوم نوح لما لم يتقوا الله وعبدوا غيره حلّ بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا فقوله ﴿ أفلا تتقون ﴾ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(13/275)

وقال أبو السعود :

﴿ وإلى عَادٍ ﴾ متعلقٌ بمضمر معطوفٍ على قوله تعالى : ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ في قصة نوح عليه السلام وهو الناصبُ لقوله تعالى : ﴿ أخاهم ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم أي واحداً منهم في النسَب لا في الدين كقولهم : يا أخا العرب ، وقيل : العاملُ فيهما الفعلُ المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحاً والأولُ أدنى وأياً ما كان فلعل تقديمَ المجرورِ ها هنا على المفعول الصريح للحِذار عن الإضمار قبل الذكر يرشدك إلى ذلك ما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ وَلُوطاً ﴾ الخ ، فإن قومَه لمّا لم يُعهدوا باسمٍ معروف يقتضي الحالُ ذكرَه عليه السلام مضافاً إليهم كما في قصة عادٍ وثمودَ ومدينَ خولف في النظم الكريم بين قصتِه عليه السلام

وبين القصصِ الثلاثِ ، وقولُه تعالى : ﴿ هُودًا ﴾ عطفُ بيانٍ لأخاهم وهو هودُ بنُ عبدِ اللَّه بنِ رباحِ بن الخلودِ بنِ عاذِ بنِ غوصٍ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ عليه السلام ، وقيل : هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن عم أبي عاد وإنما جعل منهم لأنهم أفهمُ لكلامه وأعرفُ بحاله في صدقه وأمانتِه وأقربُ إلى اتباعه ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية إرسالِه عليه السلام إليهم كأنه قيل : فماذا قال لهم ؟ فقيل : قال : ﴿ قَالَ يَا قَومِ اعبدوا اللهَ ﴾ أي وحده كما يُعرِب عنه قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ فإنه استئنافٌ جارٍ مَجرى البيانِ للعبادة المأمورِ بها . والتعليلُ لها أو للأمر بها كأنه قيل : خُصّوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئاً إذ ليس لكم إله سواه . وغيرُه بالرفع صفةٌ لإله باعتبار محلّه ، وقرىء بالجر حملاً له على لفظه ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ إنكارٌ واستبعادٌ لعدم اتقائِهم عذابَ الله تعالى بعد ما علموا ما حل بقوم نوحٍ ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقامُ أي ألا تتفكرون أو أتغفلُون فلا تتقون ، فالتوبيخُ على المعطوفين معاً أو أتعلمون ذلك فلا تتقون فالتوبيخُ على المعطوف فقط

(14/275)

وفي سورة هودٍ : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ولعله عليه السلام خاطبهم بكل منهما وقد اكتُفي بحكاية كلَ منهما في موطن عن حكايته في موطن آخرَ كما لم يذكر هاهنا ما ذكر هناك من قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ وقِسْ على ذلك حالَ بقيةِ ما ذُكر وما لم يُذكر من أجزاء القصةِ بل حالَ نظائرِه في سائر القصصِ لا سيما في المحاورات الجاريةِ في الأوقات المتعددة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(15/275)

وقال الآلوسى :

﴿ وإلى عَادٍ ﴾ متعلق بمضمر معطوف على ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ [الأعراف : 59] بما سبق وهو الناصب لقوله تعالى : ﴿ أخاهم ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم ، وقيل : لا إضمار والمجموع معطوف على المجموع السابق والعامل الفعل المتقدم .

وغير الأسلوب لأجل ضمير ﴿ أخاهم ﴾ إذ لو أتى به على سنن الأول عاد الضمير على متأخر لفظاً ورتبة .

وعاد في الأصل اسم لأبي القبيلة ثم سميت به القبيلة أو الحي فيجوز فيه الصرف وعدمه كما ذكره سيبويه ، وقوله تعالى : ﴿ هُودًا ﴾ بدل من ﴿ أخاهم ﴾ أو عطف بيان له

واشتهر أنه اسم عربي ، وظاهر كلام سيبويه أنه أعجمي وأيد بما قيل : إن أول العرب يعرب وهو هود بن الخ بن ارفخشد بن سام بن نوح وعليه محمد بن إسحاق .

وبعض القائلين بهذا قالوا : إن نوحاً ابن عم أبي عاد ، وقيل : ابن عوص بن أرم بن سام بن نوح ، وقيل : ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام .

ومعنى كونه عليه السلام أخاهم أنه منهم نسباً وهو قول الكثير من النسابين .

ومن لا يقول به يقول : إن المراد صاحبهم وواحد في جملتهم وهو كما يقال يا أخا العرب .

وحكمة كون النبي يبعث إلى القوم منهم أنهم أفهم لقوله من قول غيره وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قال لهم حين أرسل إليهم ؟ فقيل : قال الخ .

ولم يؤت بالفاء كما أتى بها في قصة نوح لأن نوحاً كان مواظباً على دعوة قومه غير مؤخر لجواب شبهتهم لحظة واحدة وهود عليه السلام لم يكن مبالغاً إلى هذا الحد فلذا جاء التعقيب في كلام نوح ولم يجيء هنا .

وذكر صاحب "الفرائد" في التفرقة بين القصتين أن قصة نوح عليه السلام ابتداء كلام فالسؤال غير مقتضي الحال وأما قصة هود فكانت معطوفة على قصة نوح فيمكن أن يقع في

خاطر السامع أقال هود ما قال نوح أم قال غيره ؟ فكان مظنة أن يسئل ماذا قال لقومه ؟ فقيل : قال الخ .

(16/275)

وقيل : اختير الفصل هنا لإرادة استقلال كل من الجمل في معناه حيث أن كفر هؤلاء أعظم من كفر قوم نوح من حيث إنهم علموا ما فعل الله تعالى بالكافرين وأصروا وقوم نوح لم يعلموا . ويدل على علمهم بذلك ما سيأتي في ضمن الآيات وفيه نظر .

﴿ يَابَنِى إسرائيل اعبدوا الله ﴾ وحده كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ مَالَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ فإنه استئناف جار مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل لها أو للأمر كأنه قيل : خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئاً إذ ليس لكم إله سواه .

وقرىء ﴿ غَيْرِ ﴾ بالحركات الثلاث كالذي قبل .

﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ إنكار واستبعاد لعدم اتقائهم عذاب الله تعالى بعد ما علموا ما حل بقوم نوح عليه السلام ، وقيل : الاستفهام للتقرير والفاء للعطف ، وقد تقدم الكلام فيه آنفاً وفي سورة هود (15) ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (ولعله عليه السلام كما قال شيخ الإسلام خاطبهم بكل منهما و(قد) اكتفى بحكاية كل منهما في موطن عن حكايته في موطن آخر كما لم يذكر

ههنا ما ذكر هناك من قوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ [هود : 50] وقس على ذلك حال بقية ما ذكر وما لم يذكر من أجزاء القصة بل حال نظائره في سائر القصص لا سيما في المحاورات الجارية في الأوقات المتعددة) .

وقال غير واحد : إنما قيل ههنا : ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ وفيما تقدم من مخاطبة نوح عليه السلام قومه ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 59] لأن هؤلاء قد علموا بما حل بغيرهم من نظرائهم ولم يكن قبل واقعة قوم نوح عليه السلام واقعة ، وقيل : لأن هؤلاء كانوا أقرب إلى الحق وإجابة الدعوة من قوم نوح عليه السلام وهذا دون ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ الخ في التخويف ، ويرشد إلى ذلك ما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

(17/275)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

يجوز أن يكون العطف من عطف الجمل بأن يقدّر بعد واو العطف "أرسلنا" لدلالة حرف (إلى) عليه ، مع دلالة سبق نظيره في الجملة المعطوف عليها ، والتّقدير وأرسلنا إلى عادٍ ،

فتكون الواو لمجرّد الجمع اللّفظي من عطف القصّة على القصّة وليس من عطف المفردات ، ويجوز أن يكون من عطف المفردات : عَطَفت الواو ﴿ هوداً ﴾ على ﴿ نوحاً ﴾ [الأعراف : 59] ، فتكون الواو نائية عن العامل وهو ﴿ أرسلنا ﴾ [الأعراف : 59] ، والتّقدير : "لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه وهوداً أخا عاد إليهم وقدمت (إلى) فهو من العطف على معمولي عامل واحدٍ ، وتقديم (إلى) اقتضاه حسن نظم الكلام في عود الضّمائر ، والوجه الأوّل أحسن .

وقدّم المجرور على المفعول الأصلي ليتأتى الإيجاز بالإضمار حيث أريد وصف هود بأنّه من إخوة عاد ومن صميمهم ، من غير احتياج إلى إعادة لفظ عاد ، ومع تجنّب عود الضّمير على متأخر لفظاً ورتبةً ، فقيل وإلى عاد أخاهم هوداً و ﴿ هوداً ﴾ بدل أو بيان من ﴿ أخاهم ﴾ .

وعادٌ أمّة عظيمة من العرب العاربة البائدة ، وكانوا عشر قبائل ، وقيل ثلاث عشرة قبيلة وهم أبناء عاد بن عُوص ، وعوص هو ابن إرَمَ بن سَام بننِ نوح ، كذا اصطلح المؤرّخون . وهود اختلف في نسبه ، فقيل : هو من ذرّية عاد ، فقال القائلون بهذا : هو ابن عبد الله بن رَبَاح بن الخلود بن عَاد ، وقيل : هو من ذرّية سام جدّ عادٍ ، وليس من ذرّية عاد ، والقائلون بهذا قالوا هو هُود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، وذكر البغوي عن عَلي : أنّ قبر

هُود بحضرَمَوتَ في كثيب أحمر ، وعن عبد الرحمن بن سابط : أنّ قبْرَ هود بين الرّكن والمَقام وزمزم .

(18/275)

وعَادٌ أريد به القبيلة وساغ صرفه لأنه ثلاثي ساكن الوسط ، وكانت منازل عاد ببلاد العرب بالشّحْر بكسر الشّين المعجمة وسكون الحاء المهملة من أرض اليمن وحَضر موت وعُمَان والأحقافِ ، وهي الرّمال التي بين حضر موت وعُمَان .

والأخُ هنا مستعمل في مطلق القريب ، على وجه المجاز المرسل ومنه قولهم يا أخَا العرب ، وقد كان هود من بني عادٍ ، وقيل : كان ابنَ عم إرَم ، ويطلق الأخ مجازاً أيضاً على المصاحب الملازم ، كقولهم : هو أخو الحَرْب ، ومنه ﴿ إنّ المبَذّرين كانُوا إخوانَ الشّياطين ﴾ [الإسراء : 27] وقوله ﴿ وإخوانهمُ يمدّونهم في الغي ﴾ [الأعراف : 202] .

فالمراد أنّ هوداً كان من ذوي نسب قومه عاد ، وإنَّما وصف هود وغيره بذلك ، ولم يُوصف نوح بأنّه أخ لقومه : لأنّ النّاس في زمن نوح لم يكونوا قد انقسموا شعوباً وقبائل ، والعرب يقولون : للواحد من القبيلة : أخو بني فلان ، قصداً لعزوه ونسبته تمييزاً للنّاس إذ قد يشتركون في الأعلام ، ويؤخذ من هذه الآية ونظائرها أنّ نظام القبائل مَا حدث إلاّ بعد

الطُّوفان .

وفُصِلت جملة : ﴿ قال يا قوم ﴾ ولم تعطف بالفاء كما عطف نظيرها المتقدّم في قصّة نوح ؛ لأنّ الحال اقتضى هنا أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنّ قصّة هود لما وردت عقب قصّة نوح المذكور فيها دعوتُه قومه صار السّامع مترقباً معرفة ما خاطب به هود قومه حيث بعثه الله إليهم ، فكان ذلك مثار سؤال في نفس السّامع أن يقول : فماذا دَعا هُودٌ قومه وبماذا أجابوا ؟ فيقع الجواب بأنّه قال : يا قوم اعبدوا الله إلخ مع ما في هذا الاختلاف من التّفنّن في أساليب الكلام ، ولأنّ الفعل المفرع عنه القولُ بالعطف لما كان محذوفاً لم يكن التّفريع حسناً في صورة النّظم .

والرّبطُ بين الجمل حاصل في الحالتين لأنّ فاء العطف رابط لفظيٌّ للمعطوف بالمعطوف عليه ، وجواب السؤال رابط جملة الجواب بجملة مثار السؤال ربطاً معنوياً .

(19/275)

وجملة : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ مستأنفة ابتدائيّة .

وقد شابهت دعوةُ هود قومَه دعوةَ نوح قومَه في المهم من كلامها : لأنّ الرّسل مرسَلون من الله والحكمة من الإرسال واحدة ، فلا جرم أن تتشابه دعواتهم ، وفي الحديث : " الأنبياء

أبناء عَلاّتٍ " وقال تعالى : ﴿ شَرَع لكم من الدّين مَا وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ [الشورى : 13] .

وجملة : ﴿ أفلا تتقون ﴾ استفهامية إنكارية معطوفة بفاء التّفريع على جملة : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ .

والمراد بالتّقوى الحذر من عقاب الله تعالى على إشراكهم غيرَه في العبادة واعتقادِ الإلهيّة .

وفيه تعريض بوعيدهم إن استمروا على ذلك .

وإنَّما ابتدأ بالإنكار عليهم إغلاظاً في الدّعوة وتهويلاً لفظاعة الشّرك ، إن كان قال ذلك في ابتداء دعوته ، ويحتمل أنّ ذلك حكاية قولٍ من أقواله في تكرير الدّعوة بعد أن دعاهم المرّة بعد المرة ووعظهم ، كما قال نوح ﴿ إني دعوتُ قومي ليلا ونهاراً ﴾ [نوح : 5] كما اقتضاه بعض توجيهات تجريد حكاية كلامه عن فاء التّفريع المذكور آنفاً .

ووصْفُ الملإ بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ هنا ، دون ما في قصّة نوح ، وصْفٌ كاشِف وليس للتّقييد تَفَنُّناً في أساليب الحكاية ألا ترى أنّه قد وُصف ملأُ قوم نوح بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ في آية سورة هود ، والتّوجيه الذي في "الكشاف" هنا غفلة عمّا في سورة هُود . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(20/275)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) ﴾

وساعة ما تسمع : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ أي أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، و " أخاهم " موقعها الإعرابي " مفعول به " ويدلنا على ذلك قوله في الآية السابقة : ﴿ أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾ ، وكذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا . وكلمة " أخاهم " تُشْعِرُ بأشياء كثيرة ؛ إنه من جنسهم ، ولغته لغتهم ، وأنسهم به ، ويعرفون كل شيء وكل تاريخ عنه ، وكل ذلك إشارات تعطى الأنس بالرسول ؛ فلم يأت لهم برسول أجنبي عاش بعيداً عنهم حتى لا يقولوا : لقد جاء ليصنع لنفسه سيادة علينا بل جاء لهم بواحد منهم وأرسل إليهم " أخاهم " وهذا الكلام عن " هود " .

إذن كان هود من قوم عاد ، ولكن هناك رأي يقول : إن هودا لم يكن من قوم عاد ، ولأنَّ الأخوة نوعان : أخوَّة في الأب القريب ، أو أخوّة في الأب البعيد ، أي من جنسكم ، من آدم ؛ فهو إما أخ من الأب القريب ، وإمّا أخ من الأب البعيد . وقد قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية كان يجلس ثم دخل عليه الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل بالباب يقول إنه أخوك ، فتساءلت ملامح معاوية وتعجب وكأنه يقول لحاجبه : ألا تعرف إخوة أمير المؤمنين ؟ وقال له : أدخله ، فأدخله . قال معاوية للرجل : أي إخوتي أنت ؟ !

قال له : أخوك من آدم .

فقال معاوية : رحم مقطوعة – أي أن الناس لا تتنبه إلى هذه الأخوة – والله لأكونن أول من وصلها . ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 65]

ونلحظ أن الحق قال على لسان سيدنا نوح لقومه : ﴿ . . . فَقَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ إِنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 59]

(21/275)

وأرسل الحق هوداً إلى عاد ، لكن قول هود لقوم عاد يأتي : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ .

وهنا " قال " فقط من غير الفاء ؛ وجاء في قول نوح : " فقال " . وهذه دقة في الأداء لننتبه ؛ لأن الذي يتكلم إله ورب ، فتأتي مرة ب " فاء " وتأتي مرة بغير " فاء " رغم أن السياق واحد ، والمعنى واحد والرسول رسول ، والجماعة هم قوم الرسول . ونعلم أن " الفاء " تقتضي التعقيب ، وتفيد الإلحاح عليهم ، وهذا توضحه سورة نوح ؛ لأن الحق يقول فيها : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دعآئِي إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا

دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا واستكبروا استكبارا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾

[نوح : 5-10]

إذن فالفاء مناسبة هنا ، لكن في مسألة قوم هود نجد أن سيدنا هوداً قال لهم مرة أو اثنتين أو ثلاث مرات ، لكن بلا استمرار وإلحاح ، وهذا يوضح لنا أن إلحاح نوح على قومه يقتضي أن يأتي في سياق الحديث عنه ب : " فقال " وألا تأتي في الحديث عن دعوة سيدنا هود . وقد يتعجب الإنسان لأن مدة هود مع عاد لا تساوي مدة نوح مع قومه ، وقد جاء الإيضاح بزمن رسالة سيدنا نوح في قوله الحق : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً . . . ﴾ [العنكبوت : 14]

(22/275)

ظل سيدنا نوح قُرابة ألف سنة يدعو قومه ليلاً ونهاراً سرًّا وعلانية ، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان ، لذلك يأتي الحق في أمر دعوة نوح بالفاء التي تدل على المتابعة . أما قوم عاد فلم يأت لهم " بالفاء " . بل جاء ب " قال " : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله

مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ . . . ﴾ [الأعراف : 65]

وقال نوح من قبل : ﴿ . . . يَا قَوْمِ اعبدوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 59]

وفي مسألة قوم عاد قال : ﴿ يَا قَوْمِ اعبدوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ .

ومع أن الأسلوب واحد والمعاني واحدة ، وكان ذلك يقتضي الإِنذار ، لكن لم يقل الحق ذلك ؛ لأن نوحاً عنده علم بالعذاب الذي سوف ينزل ؛ لأنها كانت أول تجربة ، لكن سيدنا هود لم يكن عنده علم بالعذاب .

العملية التي حدثت لنوح مع قومه وإهلاكهم بالغرق كانت أولية بالنسبة له ؛ فالله سبق أن أعلمه بها ، وحين ذهب هود إلى قوم عاد كانت هناك سابقة أمامه ، وأخذ ربنا المكذبين لنوح بالعذاب ، لذلك ألمح سيدنا هود فقط إلى احتمال العذاب حين قال : ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ .

أي أن العذاب قد ينتظركم وينالكم مثل قوم نوح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(23/275)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله " أخَاهُمْ " نصب بـ " أرْسَلْنَا " الأولى ، كأنه قيل : لقد أرسلنا نُوحاً ، وأرسلنا إلى عادٍ أخاهُم ، وكذلك ما يأتي من قوله : ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ ﴾ [الأعراف : 73] ، ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ [الأعراف : 85] ﴿ وَلُوطاً ﴾ [الأعراف : 85] ، ويكونُ ما بعد " أخَاهُم " بدلاً أو عطف [بيان] .

وأجاز مكيٌّ أن يكون النَّصْبُ بإضمار " اذْكُرْ " وليس بشيء لأنَّ المعنى على ما ذكرنا مع عدمِ الاحْتِيَاجِ إليه .

و " عاد " اسم للحيِّ ، ولذلك صَرَفَه ، ومنهم من جعله اسْماً للقبيلة ولذلك [منعه] قال : [الرجز]

2500 - شَهْدَ عَادَ فِي زَمَانِ عَادِ . . .

ابْتَزَّهَا مَبَارِكَ الجِلادِ

الأصل اسم الأب الكبيرِ ، وهو عادُ بْنُ عوصِ بْنِ إرمِ بْنِ سَامِ بن نُوحٍ فسُمِّيت به القبيلةُ ، أو الحيّ .

وقيل : عادُ بْنُ أرمٍ بْنِ شَالِخِ بنْ أرفخشد بْنِ سَامِ بْنِ نوح وهودُ بْنُ عبد الله بْنِ رَبَاحِ بْنِ الجَارُودِ ابْنِ عَادِ بنْ عوص بن إرمٍ بْنِ سَامِ بْنِ نُوح ، وهي عادٌ الأولى ، وكذلك ما أشبهه من نحو " ثَمُود " إن جَعَلْته اسماً لمذكَّر صَرَفْتَه ، وإن جعلته اسماً لمؤنث مَنَعتهُ ، وقد بَوَّبَ له سيبويه باباً .

وأمّضا هو فاشتهر في أَلْسِنَةِ النُّحَاةِ إنه عَرَبِيٌّ ، وفيه نظر ؛ لأن الظَّاهِرَ من كلام سيبويه لَمَّا عَدَّه مع نُوح ، ولوط أَنَّهُ أعجمي ، ولأن : أَبَا البركاتِ النَّسَّابَةَ الشَّرِيفَ حكى : أن أهلَ وعلى هذا يكون " هُودُ " أعجمياً ، وإنَّمَا صُرِفَ لما ذكر في أخوته نوحٍ ولُوطٍ .

وهود اسمه عابرُ بْنُ شَالِح بْنِ أرفخشد بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 184.185 ﴾

(25/275)

قوله تعالى ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تشوف السامع إلى جوابهم بعد هذا الترغيب الممزوج بالترهيب ، أجيب بقوله ﴿ قال الملأ ﴾ أي الأشراف الذين يملؤون العيون بهجة والصدور هيبة ، ولما كانت عاد قليلاً بالنسبة إلى قوم نوح عليه السلام ، وكان قد أسلم من أشرافهم من له غنى في الجملة ، قيد بقوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما من حقه الظهور من أدلة الوحدانية ، ووصفوا تسلية لهذا النبي الكريم فيما يرى من جفاء قومه بأن مثل ذلك كان لإخوانه من الأنبياء بقوله ﴿ من قومه ﴾ وأكدوا ما واجهوه به من الجفاء لأنهم عالمون بأن حاله في علمه وحكمه يكذبهم بقولهم : ﴿ إنا لنراك ﴾ أي لنعلمك علماً متيقناً حتى كأنه محسوس ﴿ في سفاهة ﴾ أي مظروفاً لخفة العقل ، فهي محيطة بك من جميع الجوانب ، لا خلاص لك منها ، فلذا أدتك إلى قول لا حقيقة له ، فالتنوين للتعظيم ، فإن قيل : بل للتحقير ، كأنهم توقفوا في وصفه بذلك كما توقفوا في الجزم بالكذب فقالوا : ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ أي المتعمدين للكذب ، وذلك لأنه كان عندهم علم من الرسل وما يأتي مخالفهم من العذاب من قصة نوح عليه السلام ولم يكن العهد بعيداً ، وأما قوم نوح فجزموا بالضلال وأكدوه بكونه مبيناً ، لأنه لم يكن عندهم شعور بأحوال الرسل وعذاب الأمم قبل ذلك ، ولهذا قالوا ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ [المؤمنون : 24] ، قيل : ليس كذلك ، فقد ورد في جواب قوم نوح في سورة هود مثل هذا ، وهو قوله ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ [هود : 27] ؛ فإن قيل

: إنما كان هذا في ثاني الحال بعد أن نصب لهم الأدلة وأقام البراهين على صحة مدعاه وثارت حظوظ الأنفس بالجدال ، فإنه يبعد أن يكون قومه أجابوه بذلك أول ما دعاهم ، قيل : والأمر كذلك في قصة هود عليه السلام سواء فإنه لم يقل له ذلك إلا الكفار من قومه ، فتقييدهم بالوصف يدل على أنه كان فيهم من اتبعه ، بل وإن متبعه كان من أشرافهم هم بالظن ، وتعبير في الكذب لإرادتهم أنه يكفي في وصفه بالسفاهة التي

(26/275)

زعموها إقدامه على ما يحتمل معه ظنهم لكذبه ، أو يكون قوله غير الحق في زعمهم مردداً بين أن يكون قاله عن تعمد أو حمله عليه ما رموه به من السفه من غير تأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 51.52 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال تعالى في قصة نوح : ﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف : 60] وقال في قصة هود : ﴿ قَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾ والفرق أنه كان في أشراف قوم هود من آمن به ، منهم مرثد بن سعد ، أسلم وكان يكتم إيمانه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم

نوح مؤمن .

والفرق الرابع : أنه تعالى حكى عن قوم نوح أنهم قالوا : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ وحكى عن قوم هود أنهم قالوا : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ والفرق بين الصورتين أن نوحاً عليه السلام كان يخوف الكفار بالطوفان العام وكان أيضاً مشتغلاً بإعداد السفينة وكان يحتاج إلى أن يتعب نفسه في إعداد السفينة ، فعند هذا ، القوم قالوا : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : 60] ولم يظهر شيء من العلامات التي تدل على ظهور الماء في تلك المفازة أما هود عليه السلام فما ذكر شيئاً إلا أنه زيف عبادة الأوثان ونسب من اشتغل بعبادتها إلى السفاهة وقلة العقل فلما ذكر هود هذا الكلام في أسلافهم قابلوه بمثله ونسبوه إلى السفاهة ثم قالوا : ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ في ادعاء الرسالة واختلفوا في تفسير هذا الظن فقال بعضهم : المراد منه القطع والجزم ، وورود الظن بهذا المعنى في القرآن كثير قال تعالى : ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : 46] وقال الحسن والزجاج : كان تكذيبهم إياه على الظن لا على اليقين فكفروا به ظانين لا متيقنين ، وهذا يدل على أن حصول الشك والتجويز في أصول الدين يوجب الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 126 . 127 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ جهالة وضلالة [بتركك ديننا]

﴿ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ إنّك رسول الله إلينا وأن العذاب نازل بنا . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قال الملأ ﴾ الآية ،

تقدم القول في مثل هذه المقالة آنفاً ، و" السفاهة " مصدر عبر به عن الحال المهلهلة الرقيقة

التي لا ثبات لها ولا جودة ، والسفه ، في الثوب خفة نسجه ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

[ذي الرمة]

مشين كما اهتزت رماح تسفهت . . . أعاليها مرُّ الرياح النواسم

وقولهم : ﴿ لنظنك ﴾ هو ظن على بابه لأنهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرص . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إنا لنراك في سفاهة ﴾

قال ابن قتيبة : السفاهة : الجهل .

وقال الزجاج : السفاهة : خِفَّة الحُلم والرأي ؛ يقال : ثوب سفيه : إذا كان خفيفاً .

﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ فكفروا به ، ظانّين ، لا مستيقنين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(28/275)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾

أي في حمق وخفة عقل .

قال :

مَشَيْنَ كما اهتزّتْ رِماحٌ تسفّهتْ . . .

أعالِيهَا مَرُّ الرياح النَّواسِم

وقد تقدّم هذا المعنى في "البقرة" .

والرؤية هنا وفي قصة نوح قيل : هي من رؤية البصر .

وقيل : يجوز أن يراد بها الرأي الذي هو أغلب الظن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة ﴾

يعني إنا لنراك يا هود في حمق وجهالة وضلالة عن الحق .

والصواب : أخبر الله تعالى عن قومه نوح أنهم قالوا له إنا لنراك في ضلال مبين وأخبر عن قوم هود أنهم قالوا إنا لنراك في سفاهة والفرق بينهما أن نوحاً لما خوف قومه بالطوفان وطفق في عمل السفينة قال له قومه عند ذلك إنا لنراك في ضلال مبين حيث تتعب في إصلاح سفينة في أرض ليس فيها من الماء شيء وأما هود عليه السلام فإنه لما زيف عبادة الأصنام ونسب من عبدها إلى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا إنا لنراك في سفاهة ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ يعني في ادعائك أنك رسول من عند الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(29/275)

وقال أبو حيان :

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظّنك من الكاذبين ﴾

أتى بوصف ﴿ الملأ ﴾ بالذين كفروا ولم يأتِ بهذا الوصف في قوم نوح لأنّ قوم هود كان في

أشرافهم من آمن به منهم مرثد بن سعد بن عفير ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن ألا ترى إلى قولهم ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ وقولهم ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ ويحتمل أن يكون وصفاً جاء للذم لم يقصد به الفرق ولنراك يحتمل أن يكون من رؤية العين ومن رؤية القلب كما تقدم القول في قصة نوح و ﴿ في سفاهة ﴾ أي في خفة حلم وسخافة عقل حيث تترك دين قومك إلى دين غيره وفي سفاهة يقتضي أنه فيها قد احتوت عليه كالظرف المحتوي على الشيء ولما كان كلام نوح لقومه أشد من كلام هود تقوية لقوله ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ كان جوابهم أغلظ وهو ﴿ إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ وكان كلام هود ألطف لقوله ﴿ أفلا تتقون ﴾ فكان جوابهم له ألطف من جواب قوم نوح لنوح بقولهم ﴿ إنا لنراك في سفاهة ﴾ ثم أتبعوا ذلك بقولهم ﴿ وإنا لنظّنك من الكاذبين ﴾ فدل ذلك على أنه أخبرهم بما يحل بهم من العذاب إن لم يتقوا الله أو علّقوا الظن بقوله ﴿ ما لكم من إلهٍ غيره ﴾ أي إنّ لنا آلهة فحصرها في واحد كذب .

وقيل : الظن هنا بمعنى اليقين أو بمعنى ترجيح أحد الجائزين قولان للمفسرين والثاني للحسن والزّجاج ، وقال الكرماني : خوّف نوح الكفار بالطوفان العام واشتغل بعمل السفينة فقالوا ﴿ إنا لنراك في ضلالٍ مبينٍ ﴾ حيث تتعب نفسك في إصلاح سفينة كبيرة في مفازة ليس فيها ماء ولم يظهر ما يدل على ذلك وهو رديف عبادة الأوثان ونسب قومه في السفاهة فقابلوه بمثل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(30/275)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾

استئنافٌ كما مر وإنما وُصف الملأُ بالكفر إذْ لم يكن كلُّهم على الكفر كملأ قومِ نوحٍ بل كان منهم من آمن به عليه السلام ولكن كان يكتُم إيمانَه كمرثد بن سعد ، وقيل : وُصفوا به لمجرد الذم ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ أي متمكناً في خِفّة عقلٍ راسخاً فيها حيث فارقتَ دينَ آبائك ، ألا إنهم هم السفهاءُ ولكن لا يعلمون ﴿ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ أي فيما ادعيْتَ من الرسالة ، قالوه لعراقتهم في التقليد وحِرمانِهم من النظر الصحيح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(31/275)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾

حيث قيد هنا الملأ المعاند بمن كفر وأطلق هناك ، وقد صرحوا بأن هذا الوصف لأنه لم يكن كلهم على الكفر بل من أشرافهم من آمن به عليه السلام كمرثد بن سعد الذي كان يكتم إيمانه ولا كذلك قوم نوح ومن آمن به عليه السلام منهم لم يكن من الأشراف كما هو الغالب في أتباع الرسل عليهم السلام ، وقيل إنه وقت مخاطبة نوح عليه السلام لقومه لم يكونوا آمنوا بخلاف قوم هود ومثله كما قال الشهاب يحتاج إلى نقل .

واعترض المولى بهاء الدين على تلك التفرقة بين القومين بأنه قد جاء في سورة المؤمنين (32) وصف قوم نوح بما وصف به قوم هود هنا فكيف تتأتى هذه التفرقة ؟ وأجيب بأن الوصف هناك محمول على أنه للذم لا للتمييز وإنما لم يذم ههنا للإشارة إلى التفرقة .

وقال الطيبي : يمكن أن يقال : إن الوصف هنا للذم أيضاً ومقتضى المقام يقتضي ذمهم لشدة عنادهم كما يدل عليه جوابهم بما حكاه الله تعالى من قولهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ أي متمكناً في خفة عقل راسخاً فيها حيث فارقت دين آبائك .

﴿ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ حيث ادعيت الرسالة وهو أبلغ من كاذباً كما مرت الإشارة إليه .

(32/275)

والظن إما على ظاهره كما قال الحسن والزجاج وإما بمعنى العلم كما قيل ، وذلك لأنهم قالوا ما قالوا مع كونه عليه السلام معروفاً بينهم بضد ذلك ولا يقتضي ذم قوم نوح عليه السلام وحيث اقتضى في سورة المؤمنين ذمهم ذمهم لأنهم قالوا كما قصه سبحانه وتعالى هناك : ﴿ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللهُ لأَنزَلَ مَلائكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهذا فِي ءابَائِنَا ﴾ [المؤمنون : 24 ، 25] وقال بعضهم : إن الظاهر أن ما نقل هنا عن قوم نوح عليه السلام مقالتهم في مجلس أو مقالة بعضهم وما نقل في سورة المؤمنين مقالتهم في مجلس آخر أو مقالة آخرين فروعي في المقامين مقتضى كل من المقالتين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(33/275)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

والرّؤية قلبيّة ، أي أنّا لنعلم أنّك في سفاهة .

والسّفاهة سخافة العقل ، وقد تقدّم القول في هذه المادة عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السّفهاء ﴾ [البقرة : 13] وقوله ﴿ ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ من سفه

نفسه ﴾ في سورة البقرة (130) .

جعلوا قوله : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ كلاماً لا يصدر إلاّ عن مختل العقل لأنّه من قول المحال عندهم .

وأطلقوا الظنّ على اليَقين في قولهم : ﴿ وإنَّا لنظنّك من الكاذبين ﴾ وهو استعمال كثير كما في قوله تعالى : ﴿ الذين يظنّون أنّهم ملاقوا ربّهم ﴾ وقد تقدّم في سورة البقرة (46) ، وأرادوا تكذيبه في قوله ما لكم من إله غيره ﴾ ، وفيما يتضمّنه قولُه ذلك من كونه رسولاً إليهم من الله .

وقد تشابهت أقوال قوم هود وأقوالُ قوم نوح في تكذيب الرّسول لأنّ ضلالة المكذّبين متّحدة ، وشبهاتهم متّحدة ، كما قال تعالى : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ [البقرة : 118] فكأنّهم لَقَّن بعضُهم بعضاً كما قال تعالى : ﴿ أتواصَوْا به بل هم قوم طاغون ﴾ [الذاريات : 53] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(34/275)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) ﴾

في هذه الآية جاء قوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ ، وفي قصة نوح قال سبحانه : ﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ ﴾ ولم يأت فيها بالذين كفروا ، لأن قوم نوح لم يكن فيهم من آمن وكتم إيمانه وأخفاه ، بخلاف عاد قوم هود فإنه كان فيهم رجل اسمه مرثد بن سعد آمن وكتم وستر إيمانه ، فيكون قوله تعالى في شأنهم : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ قد جاء مناسبا للمقام ، لأن فيهم مؤمنا لم يقل ما قولوا من رميهم لسيدنا هود بالسفاهة حيث قالوا ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ . . إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ [الأعراف : 66]

أما قوم نوح فقد قالوا : ﴿ . . . إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : 60]

فقال لهم نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ . . . ﴾ [الأعراف : 61]

ما الفرق بين الضلال والسفاهة ؟

الضلال هو مجانبة حق ، والسفاهة طيش وخفة وسخافة عقل ، وأضافت عاد اتهاماً آخر لسيدنا هود : ﴿ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ .

والظن رجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ، ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو التيقن . على حد قوله سبحانه : ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ . . . ﴾ [البقرة : 46]

أي يتيقنون ، وجاء بالرد من سيدنا هود : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ . . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قابلوا لينته لهم وشفقته عليهم بهذه الغلطة ، أعرض عن ذلك وعاملهم من الحلم بضد ما سموه به بأن ﴿ قال ﴾ معلماً الأدب في مخاطبة السفهاء ﴿ يا قوم ﴾ مذكراً بما بينهم من النسب الداعي إلى الود والمناصحة والعطف والملاطفة ﴿ ليس بي سفاهة ﴾ فنفى أن يكون به شيء من خفة حلم ، فانتفى أن يكون كاذباً لأن الداعي إلى الكذب الخفة والطيش فلم يحتج إلى تخصيصه بنفي .

ولما نفى السفاهة ، أثبت ما يلزم منه ضدها بقوله : ﴿ ولكني رسول ﴾ وبين المرسل تعظيماً للأمر بقوله ﴿ من رب العالمين ﴾ أي المحسن إليهم بعد نعمة الإيجاد والأرزاق بإرسال الرسل إليهم ليكسبوهم معالي الأخلاق التي بها انتظام نعمة الإبقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 52 ﴾

فصل

قال الفخر :

واعلم أن القوم لما قالوا له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ فهو لم يقابل سفاهتهم بالسفاهة بل

قابلها بالحلم والإغضاء ولم يزد على قوله : ﴿ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾ وذلك يدل على أن ترك الانتقام أولى كما قال : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] .

أما قوله : ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ فهو مدح للنفس بأعظم صفات المدح .

وإنما فعل ذلك لأنه كان يجب عليه إعلام القوم بذلك ، وذلك يدل على أن مدح الإنسان نفسه إذا كان في موضع الضرورة جائز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 127 ﴾

(36/275)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قال يا قوم ليس بي سَفاهة ﴾

هذا موضع أدب للخلق في حسن المخاطبة ، فانه دفع ما سبُّوه به من السفاهة بنفيه فقط .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قال ﴾ يعني قال هود لهؤلاء الملأ الذين نسبوه إلى السفه ﴿ يا قوم ليس بي سفاهة ﴾ يعني ليس الأمر كما تدعون أن بي سفاهة ﴿ ولكني رسول من رب العالمين ﴾ يعني

إليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ مستعطفاً لهم ومستميلاً لقلوبهم مع ما سمع منهم ما سمع من الكلمة الشنعاءِ الموجبةِ لتغليظ القولِ والمشافهةِ بالسوء ﴿ يا قوم لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ﴾ أي شيءٌ منها ولا شائبةٌ من شوائبها ﴿ وَلَكِنّي رَسُولٌ مِن رَّبّ العالمين ﴾ استدراكٌ مما قبله باعتبار ما يستلزمه ويقتضيه من كونه في الغاية القصوى من الرُّشد والأناةِ والصدقِ والأمانة ، فإن الرسالةَ من جهة ربِّ العالمين موجبةٌ لذلك حتماً ، كأنه قيل : ليس بي شيءٌ مما نسبتموني إليه ولكني في غاية ما يكون الرشدُ والصِّدقُ . ولم يصرِّحْ بنفي الكذِب اكتفاءً بما في حيز الاستدراك . و (من) لابتداء الغايةِ مجازاً متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً لرسولٌ مؤكدةً لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(37/275)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مستعطفاً لهم أو مستميلاً لقلوبهم : ﴿ قَالَ يا قوم لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ﴾ أي شيء منها فضلاً عن تمكني فيها كما زعمتم ﴿ وَلَكِنّي رَسُولٌ مِن رَّبّ العالمين ﴾ والرسالة من قبله تعالى تقتضي الاتصاف بغاية الرشد والصدق ، ولم يصرح عليه السلام بنفي الكذب اكتفاءً بما في حيز الاستدراك .

وقيل : الكذب نوع من السفاهة فيلزم من نفيها نفيه ، و ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية مجازاً وهي متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسول مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

فُصلت جملة : ﴿ قال ﴾ لأنّها على طريقة المحاورة ، وقد تقدّم القول فيها آنفاً وفيما مضى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(38/275)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنّي رَسُولٌ مِنْ رَبّ الْعَالَمِينَ (67) ﴾

وفي هذا القول نفي للاتهام بالسفاهة ، وإبلاغ لهم بأنه مبلّغ عن الله بمنهج تؤديه الآية التالية

وهي قوله الحق : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ . . . ﴾ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(39/275)

قوله تعالى ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ أبلغكم ﴾ وجمع الرسالة لما تقدم في قصة نوح عليه السلام فقال : ﴿ رسالات ربي ﴾ أي المحسن إليّ بتعليمي ما لم أكن أعلم وتأهيلي لما لم يكن في حسابي .

ولما كانوا قد رموه بالسفه الذي هو من غرائز النفس لأنه ضد الحلم والرزانة ، عبر عن مضمون الجملة النافية له بما يقتضي الثبات فقال : ﴿ وأنا لكم ناصح ﴾ أي لم يزل النصح من صفتي ، وليس هو تكسبته بل غريزة فيّ ، وقد بلوتموني فيه قبل الرسالة وإظهار هذه المقالة دهراً دهيراً وزماناً طويلاً ؛ ولما قالوا إنهم يظنون كذبه ، زادهم صفة الأمانة فقال : ﴿ أمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 52 ﴾

فصل

قال الفخر :

والفرق الخامس : بين القصتين أن نوحاً عليه السلام قال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رسالات ربّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 62] وأما هود عليه السلام فقال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رسالات ربّى وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ فنوح عليه السلام قال : ﴿ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ وهو صيغة الفعل وهود عليه السلام قال : ﴿ وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ وهو صيغة اسم الفاعل ونوح عليه السلام .

قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وهود عليه السلام لم يقل ذلك ، ولكنه زاد فيه كونه أميناً ، والفرق بين الصورتين أن الشيخ عبد القاهر النحوي ذكر في كتاب دلائل الإعجاز أن صيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة ، وأما صيغة اسم الفاعل فإنها دالة على الثبات والاستمرار على ذلك الفعل .

وإذا ثبت هذا فنقول : إن القوم كانوا يبالغون في السفاهة على نوح عليه السلام ، ثم إنه في اليوم الثاني كان يعود إليهم ويدعوهم إلى الله ، وقد ذكر الله تعالى عنه ذلك فقال : ﴿ رَبّ إِنّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ [نوح : 5] فلما كان من عادة نوح عليه السلام العود إلى تجديد تلك الدعوة في كل يوم وفي كل ساعة لا جرم ذكره بصيغة الفعل ، فقال : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ وأما هود عليه السلام فقوله : ﴿ وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ يدل على كونه مثبتاً في تلك النصيحة مستقراً فيها .

أما ليس فيها إعلام بأنه سيعود إلى ذكرها حالاً فحالاً ويوماً فيوماً ، وأما الفرق الآخر في هذه الآية وهو أن نوحاً عليه السلام قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وهوداً وصف نفسه بكونه أميناً .

فالفرق أن نوحاً عليه السلام كان أعلى شأناً وأعظم منصباً في النبوة من هود ، فلم يبعد أن يقال : إن نوحاً كان يعلم من أسرار حكم الله وحكمته ما لم يصل إليه هود ، فلهذا السبب أمسك هود لسانه عن ذكر تلك الكلمة ، واقتصر على أن وصف نفسه بكونه أميناً :

ومقصود منه أمور : أحدها : الرد عليهم في قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ وثانيها : أن مدار أمر الرسالة والتبليغ عن الله على الأمانة فوصف نفسه بكونه أميناً تقريراً للرسالة والنبوة .

وثالثها : كأنه قال لهم : كنت قبل هذه الدعوى أميناً فيكم ، ما وجدتم مني غدراً ولا مكراً ولا كذباً ، واعترفتم لي بكوني أميناً فكيف نسبتموني الآن إلى الكذب ؟

واعلم أن الأمين هو الثقة ، وهو فعيل من أمن يأمن أمنا فهو آمن وأمين بمعنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 127 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ يعني : كنت فيكم قبل اليوم أميناً فكيف تتّهموني اليوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(41/275)

وقال ابن عطية :

تقدم الخلاف في قراءة ﴿ أبلغكم ﴾ وقوله ﴿ آمين ﴾ يحتمل أن يريد : على الوحي والذكر النازل من قبل الله عز وجل ، ويحتمل أن يريد : أنه أمين عليهم وعلى غيبهم وعلى إرادة الخير بهم ، والعرب تقول : فلان لفلان ناصح الجيب أمين الغيب ، ويحتمل أن يريد به أمين من الأمن أي جهتي ذات أمن من الكذب والغش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ أبلغكم رسالات ربي ﴾

يعني أودي إليكم ما أرسلني به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه ﴿ وأنا لكم ناصح ﴾ يعني فيما آمركم به من عبادة الله عز وجل وترك عبادة ما سواه ﴿ أمين ﴾ يعني على

تبليغ الرسالة وأداء النصح والأمين الثقة على ما ائتمن عليه .

حكى الله عن نوح عليه الصلاة والسلام ، أنه قال وأنصح لكم وحكى عن هود عليه الصلاة والسلام أنه قال : وأنا لكم ناصح فالأول بصيغة الفعل والثاني بصيغة اسم الفاعل والفرق بينهما أن صيغة الفعل تدل على تجدد النصح ساعة بعد ساعة فكان نوح يدعو قومه ليلاً ونهاراً كما أخبر الله عنه بقوله قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال : وأنصح لكم وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتاً دون وقت فلهذا قال : وأنا لكم ناصح أمين والمدح للنفس بأعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء وإنما فعل هود ذلك وقال هذا القول لأنه كان يجب عليه إعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم في قولهم وأنا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالأمانة وأنه أمين في تبليغ ما أرسل به من عند الله ففيه تقرير للرسالة والنبوة وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه في موضع الضرورة إلى مدحها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(42/275)

وقال أبو حيان :

﴿ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ تقدّمت كيفية هذا النفي في قوله ﴿

ليس بي ضلالة ﴾ وهناك جاء ﴿ وأنصح لكم ﴾ وهنا جاء ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ لما كان آخر جوابهم جملة اسمية جاء قوله كذلك فقالوا هم ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ قال هو ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ وجاء بوصف الأمانة وهي الوصف العظيم الذي حمله الإنسان ولا أمانة أعظم من أمانة الرسالة وإيصال أعبائها إلى المكلفين والمعنى أني عُرفت فيكم بالنصح فلا يحق لكم أن تتهموني وبالأمانة فيما أقول فلا ينبغي أن أكذب ، قال ابن عطية : وقوله ﴿ أمين ﴾ يحتمل أن يريد على الوحي والذكر النازل من قبل الله ويحتمل أنه أمين عليهم وعلى غيبهم وعلى إرادة الخير بهم والعرب تقول فلان لفلان ناصح الجيب أمين الغيب ويحتمل أن يريد به من الأمن أي جهتي ذات أمن لكم من الكذب والغش ، قال القشيري : شتّان ما بين من دفع عنه ربه بقوله ﴿ ما ضلّ صاحبكم وما غوى ﴾ و ﴿ ما صاحبكم بمجنون ﴾ ومن دفع عن نفسه بقوله : ﴿ ليس بي ضلالة ﴾ ﴿ ليس بي سفاهة ﴾ ، قال الزمخشري : وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أصل السفاهين وأسفلهم أدب حسن وخلق عظيم وحكاية الله عز وجل عنهم ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

قولُه تعالى : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رسالات ربّى ﴾

استئنافٌ سيق لتقرير رسالتِه وتفصيلِ أحوالِها ، وقيل : صفةٌ أُخرى لرسولٌ والكلامُ في إضافة الربِّ إلى نفسه عليه السلام بعد إضافته إلى العالمين وكذا في جمع الرسالاتِ كالذي مر في قصة نوحٍ عليه السلام ، وقرىء أُبْلِغكم من الإبلاغ ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ معروفٌ بالنصح والأمانةِ مشهورٌ بين الناس بذلك ، وإنما جيء بالجملة الاسميةِ دِلالةً على الثبات والاستمرار وإيذاناً بأن من هذا حالُه لا يحوم حولَه شائبةُ السفاهةِ والكذب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(43/275)

وقال الآلوسى :

قوله تعالى : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رسالات ربّى ﴾

على طرز ما في قصة نوح عليه السلام .

وقرأ أبو عمرو ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ بالتخفيف من الإفعال ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ معروف بالنصح والأمانة مشهور بين الناس بذلك فما حقي أن أتهم بشيء مما ذكرتموه ؛ وعلى هذا لا يقدر للوصفين متعلق ، ويحتمل تقديرهما أي ناصح لكم فيما أدعوكم إليه أمين على ما

أقول لكم لا أكذب فيه ، وعلى الأول كما قال الطيبي فالجملة مستأنفة وقعت معترضة ، وعلى الثاني حالية ، وفي العدول عن الفعلية إلى الاسمية ما لا يخفى .

ولعل التعبير بها هنا وبالفعلية فيما تقدم لتجدد النصح من نوح دون هود عليهما السلام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(44/275)

وقال ابن عاشور :

وتفسير الآية تقدّم في نظيرها آنفاً في قصّة نوح ، إلاّ أنّه قال في قصّة نوح ﴿ وأنْصح لكم ﴾ [الأعراف : 62] وقال في هذه ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ فنوحٌ قال ما يدلّ على أنّه غير مُقلع عن النّصح للوجه الذي تقدّم ، وهود قال ما يدلّ على أنّ نصحه لهم وصف ثابت فيه متمكّن منه ، وأن ما زعموه سفاهةً هو نصح .

وأُتبع ﴿ ناصح ﴾ بـ ﴿ آمين ﴾ وهو الموصوف بالأمانة لردّ قولهم له : ﴿ لنظنّك من الكاذبين ﴾ [الأعراف : 66] لأنّ الأمين هو الموصوف بالأمانة ، والأمانة حالة في الإنسان تبعثه على حفظ ما يجب عليه من حقّ لغيره ، وتمنعه من إضاعته ، أو جعله لنفع نفسه ، وضدّها الخيانة .

والأمانةُ من أعزّ أوصاف البشر ، وهي من أخلاق المسلمين ، وفي الحديث : " لاَ إيمَانَ لِمَنْ لاَ أمان له " وفي الحديث : " إنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرّجال ثم عَلِمُوا من القرآن ثمّ عَلِمُوا من السُّنَّة ثمّ قال يَنام الرجل النّومة فتقبض الأمانة من قلبه إلى أن قال فيقال : إنّ في بني فلان رَجُلاً أميناً ويقال للرّجل ما أعْقَله وما أظرفه وما أجْلَده وما في قلبه مثقالُ حبّة من خَرْدَلٍ من إيمان " فذَكَر الإيمان في موضع الأمانة .

والكذبُ من الخيانة ، والصّدق من الأمانة ، لأنّ الكذب الخبر بأمر غير واقع في صورة توهم السّامع واقع ، فذلك خيانة للسّامع ، والصّدق إبلاغ الأمر الواقع كما هو فهو أداء لأمانةِ ما عِلمَه المخبرُ ، فقوله في الآية ﴿ أمين ﴾ وصف يجمع الصّفات التي تجعله بمحلّ الثّقة من قومه ، ومن ذلك إبطال كونه من الكاذبين .

وتقديم ﴿ لكم ﴾ على عامله للإيذان باهتمامه بما ينفعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(45/275)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) ﴾

وسبق أن قال سبحانه على لسان نوح : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 62]

فلماذا قال في قوم نوح : ﴿ أَنصَحُ لَكُمْ ﴾ ، وقال هنا في عاد : ﴿ وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ؟

لقد قال الحق : ﴿ أَنصَحُ لَكُمْ ﴾ في قوم نوح لأن الفعل دائماً يدل على التجدد ، بينما يدل الاسم على الثبوت . ونظراً إلى أن نوحاً عليه السلام كان يلحّ على قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسرًّا ، لذلك جاء الحق بالفعل : ﴿ أَنصَحُ لَكُمْ ﴾ ليفيد التجدد ، ولكن في حالة قوم هود جاء سبحانه بما يفيد الثبوت وهو قوله : ﴿ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ؛ لأن هوداً عليه السلام لم يلح ويكرر على قومه في دعوتهم إلى الإيمان كما كان يفعل نوح عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(46/275)

فائدة

قال التسترى :

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [68] ومن لم ينصح الله في نفسه ولم ينصحه في

خلقه هلك ، ونصيحة الخلق أشد من النفس ، وأدنى نصيحة النفس الشكر ، وهو أن لايعصى الله تعالى بنعمه .

وسمعته مرة أخرى يقول : النصيحة أن لا تدخل في شيء لا تملك صلاحه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 66 ﴾

(47/275)

قوله تعالى ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان يعرف ما يعتقدونه من أمانته وعقله ، وظن أنه ما حملهم على هذا إلا العجب من أن يطلع على ما لم يطلعوا عليه ، أنكر عليهم ذلك ذاكراً لما ظنه حاملاً لهم ملوحاً بالعطف إلى التكذيب فقال : ﴿ أو عجبتم ﴾ أي أكذبتم وعجبتم ﴿ أن جاءكم ذكر ﴾ أي شرف وتذكير ﴿ من ربكم ﴾ أي الذي لم يقطع إحسانه عنكم قط ، منزلاً ﴿ على رجل

منكم ﴾ أي عزه عزكم وشرفه شرفكم فما فاتكم شيء ﴿ لينذركم ﴾ أي يحذركم ما لمن كان على ما أنتم عليه من وخامة العاقبة .

(48/275)

ولما كان التقدير : فاحذروا ، عطف عليه تذكيرهم بالنعمة مشيراً به إلى التحذير من عظيم النقمة في قوله : ﴿ واذكروا إذ ﴾ أي حين ﴿ جعلكم خلفاء ﴾ أي فيما أنتم فيه من الأرض ، ولما كان زمنهم متراخياً بعدهم ، أتى بالجار فقال : ﴿ من بعد قوم نوح ﴾ أو يكون المحذوف ما اقتضاه الاستفهام في قوله ﴿ أو عجبتم ﴾ من طلب الجواب ، أي أجيبوا واذكروا ، أي ولا تبادروا بالجواب حتى تذكروا ما أنعم به عليكم ، وفيه الإشارة إلى التحذير مما وقع لقوم نوح ، أو يكون العطف على معنى الاستفهام الإنكاري في ﴿ أفلا تتقون ﴾ ، ﴿ أو عجبتم ﴾ أي اتقوا ولا تعجبوا واذكروا ، أو يكون العطف – وهو أحسن على ﴿ اعبدوا الله ﴾ وقوله ﴿ خلفاء ﴾ قيل : إنه يقتضي أن يكونوا قاموا مقامهم ، ومن المعلوم أن قوم نوح كانوا ملء الأرض ، وأن عاداً إنما كانوا في قطعة منها يسيرة وهي الشجرة من ناحية اليمن ، فقيل : إن ذلك لكون شداد بن عاد ملك جميع الأرض ، فكأنه قيل : جعل جدكم خليفة في جميع الأرض ، فلو حصل الشكر لتمت النعمة ،

فأطيعوا يزدكم من فضله ، وقيل : إن قصة ثمود مثل ذلك ، ولم يكن فيهم من ملك الأرض ولا أرض عاد ، فأجيب بما طرد ، وهو أن عاداً لما كانوا أقوى أهل الأرض أبداناً وأعظمهم أجساداً وأشدهم خلقاً أشهرهم قبيلة وذكراً ، كان سائر الناس لهم تبعاً ، وكذا ثمود فيما فيما أعطوه من القدرة على نحت الجبال ونحوها بيوتاً ، وعندي أن السؤال من أصله لا يريد فإن بين قولنا : فلان خليفة فلان ، وفلان خليفة من بعد فلان – من الفرق ما لا يخفي ، فالمخلوف في الثاني لم يذكر ، فكأنه قيل : جعلكم خلفاء لمن كان قبلكم في هذه الأرض التي أنتم بها ، وخص قوم نوح وعاد بالذكر تذكيراً بما حل بهم من العذاب ، ولهذا بعينه خص الله هذه الأمم التي وردت في القرآن بالذكر ، وإلا فقد كانت الأمم كثيرة العد زائدة على الحد عظيمة الانتشار في جميع الأقطار ، ومعلوم أن الله تعالى لم يترك واحدة منها بغير رسول

(49/275)

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء : 15] وفي قصة هود في سورة الأحقاف ﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ [الأحقاف : 21] ؛ وله سر آخر وهو أن هذه الأمم كان عند العرب كثير من أخبارهم ففصلت لهم أحوالهم ، وطوي عنهم من لم يكن عندهم شعور بهم فلم يذكروا إلا إجمالاً لئلا يسارعوا إلى التكذيب بما ينزل

فيهم من غير دليل شهودي يقام عليهم .

ولما ذكرهم بمطلق الإبقاء بعد ذلك الإغراق العام ، أتبعه التذكير بالزيادة فقال :

﴿ وزادكم ﴾ أي على من قبلكم أو على من هو موجود في الأرض في زمانكم ﴿ في الخلق ﴾ أي الخاص بكم ﴿ بسطة ﴾ أي في الحس بطول الأبدان والمعنى بقوة الأركان ، قيل : كان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً ، وقيل : أكثر .

ولما عظمت النعمة ، كرر عليهم التذكير فقال مسبباً عن ذلك ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ أي نعم الذي استجمع صفات العظمة التي أنعم عليكم بها من الاستخلاف والقوة وغيرهما ، واذكروا أنه لا نعمة عندكم لغيره أصلاً ، فصار مستحقاً لأن تخصوه بالعبادة ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي ليكون حالكم حال من يرجي فلاحه وهو ظفره بجميع مراده ، لأن الذكر موجب للشكر الموجب للزيادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 53 ـ 54 ﴾

فصل

قال الفخر :

والفرق السادس : بين القصتين أن نوحاً عليه السلام قال : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : 63] وفي قصة هود أعاد هذا الكلام بعينه إلا أنه حذف منه قوله : ﴿ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

والسبب فيه أنه لما ظهر في القصة الأولى أن فائدة الإنذار هي حصول التقوى الموجبة

للرحمة لم يكن إلى إعادته في هذه القصة حاجة ، وأما بعد هذه الكلمة فكله من خواص قصة هود عليه السلام وهو قوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام : ﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف : 69] .

(50/275)

واعلم أن الكلام في الخلفاء والخلائف والخليفة قد مضى في مواضع ، والمقصود منه أن تذكر النعم العظيمة يوجب الرغبة والمحبة وزوال النفرة والعداوة ، وقد ذكر هود عليه السلام ههنا نوعين من الأنعام : الأول : أنه تعالى جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، وذلك بأن أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وما يتصل بها من المنافع والمصالح .

والثاني : قوله : ﴿ وَزَادَكُمْ فِى الخلق بَسْطَةً ﴾

وفيه مباحث :

البحث الأول : ﴿ الخلق ﴾ في اللغة عبارة عن التقدير ، فهذا اللفظ إنما ينطلق على الشيء الذي له مقدار وجثة وحجمية ، فكان المراد حصول الزيادة في أجسامهم ، ومنهم من حمل هذا اللفظ على الزيادة في القوة ، وذلك لأن القوى والقدر متفاوتة ، فبعضها أعظم وبعضها أضعف .

إذا عرفت هذا فنقول : لفظ الآية يدل على حصول الزيادة واعتداد تلك الزيادة ، فليس في اللفظ ألبتة ما يدل عليه إلا أن العقل يدل على أن تلك الزيادة يجب أن تكون زيادة عظيمة واقعة على خلاف المعتاد ، وإلا لم يكن لتخصيصها بالذكر في معرض الإنعام فائدة .

قال الكلبي : كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً ، وقال آخرون : تلك الزيادة هي مقدار ما تبلغه يدا إنسان إذا رفعهما ، ففضلوا على أهل زمانهم بهذا القدر ، وقال قوم يحتمل أن يكون المراد من قوله : ﴿ وَزَادَكُمْ فِى الخلق بَسْطَةً ﴾ كونهم من قبيلة واحدة متشاركين في القوة والشدة والجلادة ، وكون بعضهم محباً للباقين ناصراً لهم وزوال العداوة والخصومة من بينهم ، فإنه تعالى لما خصهم بهذه الأنواع من الفضائل والمناقب فقد قرر لهم حصولها ، فصح أن يقال : ﴿ وَزَادَكُمْ فِى الخلق بَسْطَةً ﴾ ولما ذكر هود هذين النوعين من النعمة قال : ﴿ فاذكروا ءالآءَ الله ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : لا بد في الآية من إضمار ، والتقدير : واذكروا آلاء الله واعملوا عملاً يليق بتلك الإنعامات لعلكم تفلحون .

وإنما أضمرنا العمل لأن الصلاح الذي هو الظفر بالثواب لا يحصل بمجرد التذكر بل لا بد له من العمل ، واستدل الطاعنون في وجوب الأعمال الظاهرة بهذه الآية وقالوا : إنه تعالى رتب حصول الصلاح على مجرد التذكر ، فوجب أن يكون مجرد التذكر كافياً في حصول الصلاح .

وجوابه ما تقدم من أن سائر الآيات ناطقة بأنه لا بد من العمل .

والله أعلم .

البحث الثاني : قال ابن عباس : ﴿ آلآءَ الله ﴾ أي نعم الله عليكم .

قال الواحدي : واحد الآلاء إلى وألو وإلى .

قال الأعشى :

أبيض لا يرهب الهزال ولا . . يقطع رحماً ولا يخون إلي

قال نظير الآلاء الآناء ، واحدها : أنا وإني وإني ، وزاد صاحب "الكشاف" في الأمثلة فقال : ضلع وأضلاع ، وعنب وأعناب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 128 ﴾

(51/275)

وقال السمرقندى :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

يعني : الرسالة والبيان ﴿ على رجل منكم ﴾ تعرفون نسبه ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي جعلكم خلفاء في الأرض بعد هلاك قوم

نوح ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ أي : فضيلة في الطول على غيركم .

والخلفاء والخلائف جمع الخليفة .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بسْطة بالسين .

وقرأ حمزة بإشمام الزاي .

وقرأ الباقون بالصاد .

قال ابن عباس رضي الله عنهما كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً .

وروى إبراهيم بن يوسف عن المسيب عن الكلبي قال : كان طول قوم عاد أطولهم مائة وعشرين ذراعاً وأقصرهم ثمانون ذراعاً . (1)

وقال مقاتل عن قتادة : كان طول كل رجل منهم اثني عشر ذراعاً فذلك قوله ﴿ التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البلاد ﴾ [الفجر : 8] ويقال : كان بين نوح وبين آدم عشرة آباء كلهم على الإسلام .

وكان إدريس جد أبي نوح ولم يكن بين آدم ونوح نبي مرسل ، وكان إدريس نبياً ولم يؤمر بدعوة الخلق ، ويقال : أنزل عليه عشرون صحيفة ، وقد آمن به كثير من الناس ، وكان بين نوح وإبراهيم ألف سنة ويقال : ألفان وأربعون سنة وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة .

وكان بين موسى وعيسى ألف سنة .

وبين عيسى ومحمد عليه السلام خمسمائة سنة .

وكان هود بين نوح وإبراهيم فلما دعا قومه فكذبوه ، أنذرهم بالعذاب ، وقال : إن الله تعالى يرسل عليكم الريح فيهلككم بها ، فاستهزؤوا به وقالوا : أي ريح يقدر علينا ، فأمر الله تعالى خازن الريح أن يخرج من الريح العقيم التي هي تحت الأرض مقدار ما يخرج من حلقة الخاتم ، كما قال في آية أخرى ﴿ واستمع يَوْمَ يُنَادِ المناد مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [الذاريات : 41] فجاءتهم وحملت الرجال والدواب كالأوراق في الهواء فأهلكتهم كلهم فلم يبق منهم أحد .

---

(1) هذا الكلام مخالف لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن" .

(52/275)

كما قال ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَى إِلاَّ مساكنهم كَذَلِكَ نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ [الأحقاف : 25] وذلك بعد ما أنذرهم وأخذ عليهم الحجة وذكرهم نعم الله تعالى ، قال لهم : ﴿ فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ ﴾ أي : اشكروا نعمة الله قال بعضهم : الآلاء إيصال النعم ، والنعماء دفع البلية .

وقال بعضهم على ضد هذا ، وقال أكثر المفسرين : الآلاء والنعماء بمعنى واحد ﴿ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴾ يعني : لكي تنجوا من البلايا ومن عذابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(53/275)

وقال الثعلبى :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ يعني نفسه ﴿ لِيُنذِرَكُمْ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ يعني أهلكهم [بشركاء منهم] ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الخلق بَصْطَةً ﴾ أي طولا وشدّة وقوّة .

قال مقاتل : طول كل رجل أثنا عشر ذراعاً ، ابن عباس : تمثّل ذراعاً وقال الكلبي : كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستّين ذراعاً . أبو حمزة الثمالي سبعون ذراعاً . ابن عباس : ثمانون ، وهب : كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة وكان عين الرجل يفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم ﴿ فاذكروا آلآءَ الله ﴾ نعم الله واحدها [إلْ وإلي وإلو وإلى كالآناء واحدها إنى وإني وإنو وأني] ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(54/275)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾

فيها قولان :

أحدهما : القوة ، قاله ابن زيد .

والثاني : بسط البدن وطول الجسد ، قيل : إنه كان أقصرهم طولاً اثني عشر ذراعاً .

﴿ فَاذْكُرُوا ءَالآءَ اللَّهِ ﴾ معناه نعم الله ، وقال الشاعر :

أَبْيَضُ لاَ يَرْهَبُ الهزَالَ وَلاَ . . . يَقْطَعُ رَحِماً وَلاَ يَخُونُ إِلَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(55/275)

وقال ابن عطية :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾

قد تقدم القول في مثل ﴿ أو عجبتم ﴾ و" الذكر " لفظ عام للمواعظ والأوامر والنواهي ،

وقوله تعالى : ﴿ اذكروا ﴾ الآية ، تعديد للنعم عليهم ، و ﴿ خلفاء ﴾ جمع خليف كظريف وظرفاء ، وخليفة جمع خلائف ، والعرب تقول خليفة وخليف ، وأنشد أبو علي :

فإن يزل زائل يوجد خليفته . . . وما خليف أبي وهب بموجود

قال السدي وابن إسحاق : والمعنى جعلكم سكان الأرض بعد قوم نوح ، وقوله : ﴿ وزادكم في الخلق بصطة ﴾ أي في الخلقة ، والبصطة الكمال في الطول والعرض ، وقيل زادكم على أهل عصركم ، قال الطبري : المعنى زادكم على قوم نوح وقاله قتادة .

قال القاضي أبو محمد : واللفظ يقتضي أن الزيادة هي على جميع العالم ، وهو الذي يقتضي ما يذكر عنهم ، وروي أن طول الرجل منهم كان مائة ذراع وطول أقصرهم ستون ونحو هذا . و" الآلاء " : جمع " إلا " على مثال معي ، وأنشد الزجّاج : [للأعشى]

أبيض لا يرهب الهزال ولا . . . يقطع رحماً ولا يخون إلا

(56/275)

وقيل واحد الآلاء " ألا " على مثال قفى وقيل واحدها " إلى " على مثال حسى وهي النعمة والمنة ، و ﴿ تفلحون ﴾ : معناه تدركون البغية والآمال ، قاله الطبري وعاد هؤلاء

فيما حدث ابن إسحاق من ولد عاد بن إرم ابن عوص بن سام بن نوح ، وكانت مساكنهم الشحر من أرض اليمن وما والى حضرموت إلى عمان ، وقال السدي وكانوا بالأحقاف وهي الرمال ، وكانت بلادهم أخصب بلاد فردها الله صحارى ، وقال علي بن أبي طالب : إن قبر هود عليه السلام هنالك في كثيب أحمر يخالطه مدرة ذات أراك وسدر ، وكانوا قد فشوا في جميع الأرض وملكوا كثيراً بقوتهم وعددهم وظلموا الناس ، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة ، وكانوا أصحاب أوثان منها ما يسمى صداء ومنها صمودا ومنها الهنا فبعث الله إليهم هوداً من أفضلهم وأوسطهم نسباً فدعاهم إلى توحيد الله وإلى ترك الظلم .

قال ابن إسحاق : لم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك فكذبوه وعتوا واستمر ذلك منهم إلى أن أراد الله إنفاذ أمره أمسك عنهم المطر ثلاث سنين ، فشقوا بذلك وكان الناس في ذلك الزمان إذا أهمهم أمر فزعوا إلى المسجد الحرام بمكة فدعوا الله فيه تعظيماً له مؤمنهم وكافرهم ، وأهل مكة يومئذ العماليق وسيدهم رجل يسمى معاوية بن بكر ، فاجتمعت عاد على أن تجهز منهم وفداً إلى مكة يستسقون الله لهم ، فبعثوا قيل بن عنز ولقيم بن هزال وعثيل بن ضد بن عاد الأكبر ، ومرثد بن سعد بن عفير ، وكان هذا مؤمناً يكتم إيمانه وجلهمة بن الخبيري في سبعين رجلاً من قومهم ، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم فأنزلهم وأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتا معاوية ، ولما رأى معاوية إقامتهم وقد بعثهم عاد للغوث أشفق على عاد

وكان ابن أختهم كلهدة بن الخبير أخت جلهمة ، وقال هلك أخوالي وشق عليه أن يأمر أضيافه بالانصراف عند فشكا ذلك إلى قينة فقالت له اصنع شعراً نغني به عسى أن ننبههم فقال : [الوافر]

(57/275)

ألا يا قيل ويحك قم فهينمْ . . . لعل الله يصحبنا غماما

فيسقي أرض عاد إن عاداً . . . قد امسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو . . . به الشيخ الكبير ولا الغلاما

وقد كانت نساؤهم بخير . . . فقد أمست نساؤهم عياما

وإن الوحش تأتيهم جهاراً . . . ولا تخشى لعاديَّ سهاما

وأنتمْ ها هنا فيما اشتهيتم . . . نهاركُمُ وليلكمُ التماما

فَقُبِّحَ وفدُكمْ من وفدِ قَوْمٍ . . . ولا لُقُّوا التحيَّةَ والسَّلاما

فغنت به الجرادتان فلما سمعه القوم قال بعضهم يا قوم إنما بعثكم قومكم لما حل بهم فادخلوا هذا الحرم وادعوا لعل الله يغيثهم فخرجوا لذلك فقال لهم مرثد بن سعد إنكم والله ما تسقون بدعائكم ، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وآمنتم به سقيتم ، وأظهر إيمانه يومئذ فخالفه

الوفد ، وقالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر احبسا عنا مرثداً ولا يدخل معنا الحرم ، فإنه قد اتبع هوداً ومضوا إلى مكة فاستسقى قيل بن عنز ، وقال يا إلهنا إن كان هود صالحاً فاسقنا فإنّا قد هلكنا ، فأنشأ الله سحائب ثلاثاً بيضاء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السحاب يا رماداً رمدداً لا تبقي من عاد أحداً ، لا والداً ولا ولداً ، إلا جعلتهم همداً ، وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث ، فلما رأوها قالوا هذا عارض ممطرنا ، حتى عرفت أنها ريح امرأة من عاد يقال لها مهد ، فصاحت وصعقت فلما أفاقت قيل لها ما رأيت ؟ قالت رأيت ريحاً كشهب النار أمامها رجال يقودونها ، فسخرها الله عليهم ثمانية أيام حسوماً وسبع ليال ، والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك ، فاعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه من الريح إلا ما يلتذ به .

(58/275)

قال القاضي أبو محمد : وهذا قصص وقع في تفسير مطولاً ، وفيه اختلاف فاقتضبت عيون ذلك بحسب الإيجاز وفي خبرهم أن الريح كانت تدمغهم بالحجارة وترفع الظعينة عليها المرأة ، حتى تلقيها في البحر ، وفي خبرهم أن اقوياءهم كان أحدهم يسد بنفسه

مهب الريح حتى تغلبه فتلقيه في البحر ، فيقوم آخر مكانه حتى هلك الجميع ، وقال زيد بن أسلم : بلغني أن ضبعاً ربت أولادها في حجاج عين رجل منهم وفي خبرهم ، أن الله بعث لما هلكت عاد طيراً وقيل أسداً فنقلت جيفهم حتى طرحتها في البحر ، فذلك قوله ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ [الأحقاف : 25] في بعض ما روي من شأنهم : أن الريح لم تبعث قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها تمت على الخزنة فغلبتهم فذلك قوله : ﴿ أهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ [الحاقة : 6] وروي أن هوداً لما هلكت عاد نزل بمن آمن معه إلى مكة فكانوا بها حتى ماتوا ، فالله علم أي ذلك كان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(59/275)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء ﴾

ذكَّرهم النعمة حيث أهلكَ من كان قبلهم ، وأسكنهم مساكنهم .

﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ أي : طولاً وقوَّة .

وقال ابن عباس : كان أطولُهم مائةَ ذراع ، وأقصرُهم ستينَ ذراعاً ، قال الزجاج وآلاء الله :

نعمه واحدها : إلى قال الشاعر :

أَبْيَضُ لا يَرْهَبُ الهُزَالَ وَلاَ . . .

يَقْطَعُ رِحْماً وَلاَ يَخُوْنُ إلى

ويجوز أن يكون واحدها "إلْياً" و"أَلى" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(60/275)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾

"خلفاء" جمع خليفة على التذكير والمعنى ، وخلائف على اللفظ .

منّ عليهم بأن جعلهم سُكَّان الأرض بعد قوم نوح .

﴿ وَزَادَكُمْ فِي الخلق بَسْطَةً ﴾ ويجوز "بصطة" بالصاد لأن بعدها طاء ؛ أي طولاً في الخلق وعظم الجسم .

قال ابن عباس : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ذراعاً .

وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم .

وقيل : على خلق قوم نوح .

قال وهب : كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة ، وكان عين الرجل يفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم .

وروى شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : أن كان الرجل من قوم عاد يتخذ المِصراعين من حجارة لو اجتمع عليها خمسمائة رجل من هذه الأمّة لم يطيقوه ، وأن كان أحدهم ليغمِز برجله الأرض فتدخل فيها .

﴿ فاذكروا آلآءَ الله ﴾ أي نِعم الله ، واحدها إِلًى وإِلْيٌ وإِلْوٌ وأَلًى .

كالآناء واحدها إِنًى وإِنْيٌ وإِنْوٌ وأَنًى .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(61/275)

وقال الخازن :

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾

يعني أعجبتم أن أنزل الله وحيه على رجل تعرفونه لينذركم بأس ربكم ويخوفكم عقابه ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء بعد قوم نوح ﴾ يعني واذكروا نعمة الله عليكم إذا أهلك قوم نوح وجعلكم تخلفونهم في الأرض ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ يعني طولاً وقوة .

قال الكلبي والسدي : كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعاً وقيل سبعين ذراعاً .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ثمانين ذراعاً وقال مقاتل : اثني عشر ذراعاً وقال وهب : كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ يعني نِعَم الله وفيه إضمار تقديره فاذكروا نعمة الله عليكم واعملوا عملاً يليق بذلك الإنعام وهو أن تؤمنوا به وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ يعني لكي تفوزوا بالفلاح وهو البقاء في الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(62/275)

وقال أبو حيان :

﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذلك من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾

أتى هنا بعلة واحدة وهي الإنذار وهو التخويف بالعذاب واختصر ما يترتب على الإنذار من التقوى ورجاء الرحمة .

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ أي سكان الأرض بعدهم قاله السدّي وابن إسحاق ، أو جعلكم ملوكاً في الأرض استخلفكم فيها قاله الزمخشري ، وتذكير هود

بذلك يدلّ على قرب زمانهم من زمان نوح لقوله ﴿ من بعد قوم نوح ﴾ و ﴿ إذ ﴾ ظرف في قول الحوفي فيكون مفعول ﴿ اذكروا ﴾ محذوفاً أي واذكروا آلاء الله عليكم وقت كذا والعامل في ﴿ إذ ﴾ ما تضمنه النعم من الفعل وفي قول الزمخشري ﴿ إذ ﴾ مفعول به وهو منصوب باذكروا أي اذكروا وقت جعلكم .

﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ ظاهر التواريخ أنّ البسطة الامتداد والطول والجمال في الصور والأشكال فيحتمل إذ ذاك أن يكون الخلق بمعنى المخلوقين ويحتمل أن يكون مصدراً أي وزادكم في خلقكم بسطة أي مد وطول حسن خلقكم قيل : كان أقصرهم ستين ذراعاً وأطولهم مائة ذراع قاله الكلبي والسدّي ، وقال أبو حمزة اليماني : سبعون ذراعاً .

وقال ابن عباس ثمانون ذراعاً .

وقال مقاتل : اثنا عشر ذراعاً .

وقال وهب : كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة وعينه تفرخ فيها الضباع وكذلك منخره وإذا كان الخلق بمعنى المخلوقين فالخلق قوم نوح أو أهل زمانهم أو الناس كلهم أقوال ، وقيل : الزيادة في الإجرام وهي ما تصل إليه يد الإنسان إذا رفعها ، وقيل الزيادة هي في القوة والجلادة لا في الإجرام .

وقيل : زيادة البسطة كونهم من قبيلة واحدة مشاركين في القوة متناصرين يحبّ بعضهم بعضاً ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ وزادكم بسطة ﴾ أي اقتداراً في المخلوقين واستيلاء .

(63/275)

﴿ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ ذكرهم أولاً بإنعامه عليهم حيث جعلهم خلفاء وزادهم بسطة وذكرهم ثانياً بنعمه عليهم مطلقاً لا بتقييد زمان الجعل واذكروا الظاهر أنه من الذكر وهو أن لا يتناسوا نعمه بل تكون نعمه على ذكر منكم رجاء أن تفلحوا وتعليق رجاء الفلاح على مجرّد الذّكر لا يظهر فيحتاج إلى تقدير محذوف بترتب عليه رجاء الفلاح وتقديره والله أعلم ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ وإفراده بالعبادة ألا ترى إلى قوله ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾ وفي ذكرهم ﴿ آلاء الله ﴾ ذكر المنعم عليهم المستحقّ لإفراده بالعبادة ونبذه ما سواه ، وقيل : اذكروا هنا بمعنى اشكروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(64/275)

وقال أبو السعود :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

الكلامُ فيه كالذي مر في قصة نوح عليه السلام ﴿ على رَجُلٍ مّنكُمْ ﴾ أي من جنسكم ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ويحذركم عاقبةَ ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي حتى نسبتموني إلى السفاهة والكذبِ ، وفي إجابة الأنبياءِ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين من يشافِهُهم بما لا خير فيه من أمثال تلك الأباطيلِ بما حُكيَ عنهم من المقالات الحقة المعربة عن نهاية الحلم والرزانة وكمالِ الشفقةِ والرأفة ، من الدلالة على حيازتهم القدحَ المُعلَّى من مكارم الأخلاق ما لا يخفى مكانُه .

﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء ﴾ شروعٌ في بيان ترتيبِ أحكامِ النصح والأمانةِ والإنذارِ وتفصيلِها ، وإذ منصوبٌ باذكروا على المفعولية دون الظرفية ، وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودةُ بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرِها لما أن إيجابَ ذكرِ الوقت إيجابٌ لذكر ما فيه بالطريق البرهاني ، ولأن الوقتَ مشتملٌ عليها ، فإذا استُحضر كانت هي حاشرةً بتفاصيلها كأنها مشاهَدةٌ عياناً ، ولعله معطوفٌ على مقدر كأنه قيل : لا تعجبوا من ذلك أو تدبروا في أمركم واذكروا وقتَ جعْلِه تعالى إياكم خلفاءَ ﴿ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي في مساكنهم أو الأرض بأن جعلكم ملوكاً ، فإن شدادَ بنَ عاد ممن ملك معمورةَ الأرضِ من رمل عالجٍ إلى شجر عمان ﴿ وَزَادَكُمْ فِى الخلق ﴾ أي في الإبداع والتصوير أو في الناس ﴿ بَسْطَةً ﴾ قامةً وقوةً فإنه لم يكن في زمانهم مثلُهم في عِظَم الأجرام

، قال الكلبي والسدي كانت قامةُ الطويلِ منهم مائةَ ذراعٍ وقامةُ القصير ستين ذراعاً ﴿ فاذكروا ءالآء الله ﴾ التي أنعم بها الله عليكم من فنون النَّعماءِ التي هذه من جملتها .

(65/275)

وهذا تكريرٌ للتذكير لزيادة التقرير ، وتعميمٌ إثرَ تخصيص ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ كي يؤديَكم ذلك إلى الشكر المؤدّي إلى النجاة من الكروب والفوزِ بالمطلوب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(66/275)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾

الكلام فيه كالكلام في سابقه .

وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من يشافههم من الكفرة بالكلمات الحمقاء بما حكى عنهم والإعراض عن مقابلتهم بمثل كلامهم كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة ،

وفي حكاية ذلك تعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم ، وفي الآية دلالة على جواز مدح الإنسان نفسه للحاجة إليه .

﴿ واذكروا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ شروع في بيان ترتيب أحكام النصح والأمانة والإنذار وتفصيلها ، و﴿ إذ ﴾ على ما يفهم من كلام البعض وصرح به آخرون ظرف منصوب بآلاء المحذوف هنا بقرينة ما بعده لتضمنه معنى الفعل ، واختار غير واحد تبعاً للزمخشري أنه مفعول لأذكروا أي اذكروا هذا الوقت المشتمل على هذه النعم الجسام ، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للمبالغة في إيجاب ذكره ولأنه إذا استحضر الوقت كان هو حاضراً بتفاصيله ، وهذا مبني على الاتساع في الظرف أو أنه غير لازم للظرفية على خلاف المشهور عند النحويين ، والواو للعطف وما بعده قيل : معطوف على قوله تعالى : ﴿ أعبدوا ﴾ [الأعراف : 65] ولا يخفى بعده .

وقال شيخ الإسلام : لعله معطوف على مقدر كأنه قيل : لا تعجبوا من ذلك أو تدبروا في أمركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء ﴿ منْ بَعْد قَوْم نُوح ﴾ أي في مساكنهم أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض فالإسناد على هذا مجاز ، وفي ذكر نوح على ما قيل إشارة إلى رفع التعجب يعني هذا الذي جئت به ليس ببدع فاذكروا نوحاً وإرساله إلى قومه وإلى الوعيد والتهديد أي أذكروا إهلاك قومه لتكذيبهم رسول ربهم .

﴿ وَزَادَكُمْ فِي الخلق ﴾ أي الإبداع والتصوير أو في المخلوقين أي زادكم في الناس على أمثالكم ﴿ بَسْطَةً ﴾ قوة وزيادة جسم ، قال الكلبي : كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعاً .

وأخرج ابن عساكر عن وهب أنه قال : كانت هامة الرجل منهم مثل القبة العظيمة وعينه يفرخ فيها السباع ، وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر ذراعاً ، وعن الباقر رضي الله تعالى عنه كانوا كأنهم النخل الطوال وكان الرجل منهم يأتي الجبل فيهدم منه بيده القطعة العظيمة .

وأخرج عبد الله بن أحمد وابن أبي حاتم عن أبي هريرة إن كان الرجل منهم ليتخذ المصراع من الحجارة لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه وإن كان أحدهم ليدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها .

وعن بعضهم أن أحدهم كان أطول من سائر الخلق بمقدار ما يمد الإنسان يده فوق رأسه باسطاً لها فطول كل منهم قامة وبسطة وهذا أقرب عند ذوي العقول القصيرة عن إدراك طول يد القدرة .

وأخرج إسحاق بن بشر وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هوداً عليه السلام كان أصبحهم وجهاً وكان في مثل أجسامهم أبيض جعداً بادي العنفقة طويل اللحية صلى الله عليه وسلم ، ونصب ﴿ بسطة ﴾ على أنه مفعول به للفعل قبله ، وقيل : تمييز و ﴿ في الخلق ﴾ متعلق بالفعل ، وجوز أبو البقاء تعلقه بمحذوف وقع حالاً من ﴿ بسطة ﴾ .

﴿ فاذكروا ءَالاَءَ الله ﴾ أي نعمه سبحانه وتعالى وهي جمع إلْي بكسر فسكون كحمل وأحمال أو أُلْي بضم فسكون كقفل وأقفال أو إلى بكسر ففتح مقصوراً كمعى وأمعاء أو بفتحتين مقصوراً كقفا وأقفاء وبهما ينشد قول الأعشى

: أبيض لا يرهب الهزال ولا . . .

يقطع رحماً ولا يخون إلا

(68/275)

وقيل : إن ما في البيت إلا المشددة لكنها خففت ومعناها العهد وفيه بعد ، وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير وتعميم إثر تخصيص أي أذكروا الآلاء التي من جملتها ما تقدم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها الذي من جملته العمل بالأركان والطاعة المؤدي إلى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب وهذا لأن الفلاح لا يترتب

على مجرد الذكر .

ومن الناس من فسر ذكر الآلاء بشكرها وأمر الترتب عليه ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(69/275)

وقال القاسمى :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أي : أيام الله ولقاءه ، أي : لا تعجبوا واحمدوا الله على ذلكم ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي : خلفتموهم في مساكنهم ، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً بعدهم ، فإن شَدَّاد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض ، من رمل عالج إلى شحْر عُمان - كذا قالوا - : ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ أي : قامة وقوة .

﴿ فَاذْكُرُوا آلاء اللّهِ ﴾ أي : في استخلافكم ، وبسطة أجرامكم ، وما سواهما من عطاياه ، لتخصصوه بالعبادة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : تفوزون بالفلاح .

تنبيهان :

الأول : قال الزمخشري : في إجابة الأنبياء عليهم السلام ، من نسبهم إلى الضلال والسفاهة ،

بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء ، وتارك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم أدب حسن ، وخلق عظيم . وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسلبون أذيالهم ، على ما يكون منهم . انتهى .

وزاد القاضي : إن في ذلك كمال النصح والشفقة ، وهضم النفس وحسن المجادلة قال : وهكذا ينبغي لكل ناصح . انتهى .

الثاني : لا يعتمد على ما يذكره بعض المؤرخين المولعين بنقل الغرائب ، بدون وضعها على محك النظر والنقد ، من المبالغة في طول قوم عاد ، وضخامة أجسامهم ، وأن أطولهم كان مائة ذراع ، وأقصرهم كان ستين ذراعاً ، فإن ذلك لم يقم عليه دليل عقلي ولا نقلي ، وهو وهم .

(70/275)

وأما قوله جل شأنه مخاطباً لقوم عاد : ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ فإنه لا يدل على ما أرادوا ، وإنما يدل على عظم أجسامهم وقوتهم وشدتها ، وهذا من الأمور المعتادة ، فإن الأمم ليست متساوية في ضخامة الجسم وطوله وقوته ، بل تتفاوت لكن تفاوتاً قريباً .

ومما يدل على أن أجسام من سلف

كأجسامنا ، لا تتفاوت عنها تفاوتاً كبيراً ، مساكن ثمود قوم صالح الباقية ، وآثارهم البادية ، ومثله ، بل أعرق منه في الوهم ، ما ينقلونه وصف عوج بن عنق الجبار ملك بيسان ، من أنه كان يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله ، ويتناول الحوت من قرار البحر ، فيشويه بعين الشمس ، يرفعه إليها . والحال أن الشمس كوكب لا مزاج له من حر أو برد وإنما حرارتها من انعكاس شعاعها ، بمقابلة سطح الأرض والهواء ، فشدة حرارتها في الأرض ، وتتناقص الحرارة فيما علا عنها بمقدار الإرتفاع .

وقد أنكر العلامة ابن خلدون جميع ذلك في " مقدمة تاريخه " ، وأبان أن الذي أدخل الوهم على الناس في طول الأقدمين هو ما يشاهدونه من بعض آثارهم الجسمية ، ومصانعهم العظيمة ، كأهرام مصر وإيوان كسرى ، فيتخيلون لأصحابها أجساماً تناسب ذلك .

والحال أن عظم هذه المصانع والآثار في أمة من الأمم ناشئ عن عظم ذواتها ، وإتساع [في المطبوع : وإساع] ممالكها ، وقوة شوكتها ، ونماء ثروتها ، واستعانتها بالماهرين في فن جر الأثقال ، فإنه يقوم بحمل ما تعجز القوى البشرية عن معشاره .

وأنكر أيضاً ما ينقلون من قصة جنة عاد ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ، وأنها بنيت في مدة ثلاثمائة سنة في صحارى عدن ، بناها شَدَّاد بن عاد حيث سمع وصف الجنة ، وأنها لما تم بناؤها ، أرسل الله على أهلها صيحة ، فهلكوا كلهم ، وأن اسمها إرم ذات العماد ، وأنها المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ ، ويزعمون أنه لم تزل باقية في بلاد اليمن وإنما حجبت عن الأبصار .

وحيث إن ذلك لم يُرو عن الصادق الأمين فلا نعول عليه ، ولا نلتفت إليه ، وأغلب المولعين بنقل مثل هذه الغرائب المصنعة ، هم المؤرخون الذي يعتمدون على أخبار بني إسرائيل ، ويقلدونهم من غير برهان ودليل ، والله الهادي إلى سواء السبيل – كذا أفاده بعض المحققين – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 116.118 ﴾

(72/275)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ .

هذا مماثل قولَ نوح لقومه وقد تقدّم آنفاً سبب المماثلة .

وتقدّم من قبل تفسير نظيره .

﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الخلق بَسْطَةً فاذكروا ءَالآءَ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

يجوز أن يكون قوله : ﴿ لينذركم ﴾ عطفاً على قوله : ﴿ اعبدوا ﴾ [الأعراف : 65] ويكونَ ما بينهما اعتراضاً حكي به ما جرى بينه وبين قومه من المحاورة التي قاطعوه بها عقب قوله لهم ﴿ اعبدوا الله ﴾ [الأعراف : 65] ، فلمّا أتمّ جوابهم عمّا قاطعوا به كلامه عاد إلى دعوته ، فيكون رجوعاً إلى الدّعوى ، ويجوز أن يكون عطفاً على قوله : ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم ﴾ أي : لا تنكروا أن جاءكم ذكر من ربّكم واذكروا نعمته عليكم ، فيكون تكملة للاستدلال ، وإيّاً مّا كان فالمآل واحد ، وانتقل من أمرهم بالتّوحيد إلى تذكيرهم بنعمة الله عليهم التي لا ينكرون أنّها من نعم الله دون غيره ، لأنّ الخلق والأمر لله لا لغيره .

تذكيراً من شأنه إيصالهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة .

وإنّما أمرهم بالذّكر (بضمّ الذّال) لأنّ النّفس تنسى النّعم فتكفر المنعم ، فإذا تذكّرت النّعمة رأتْ حقاً عليها أن تشكر المُنعم ، ولذلك كانت مسألة شكر المنعم من أهمّ مسائل

التّكليف ، والاكتفاء بحسنه عقلاً عند المتّكلمين سواء منهم من اكتفى بالحس العقلي ومن لم يكتف به واعتَبر التوقّفَ على الخطاب الشّرعي .

(73/275)

و ﴿ إذْ ﴾ اسم زمان منصوب على المفعول به ، وليس ظرفاً لعدم استقامة المعنى على الظرفية ، والتّحقيق أن (إذْ) لا تلازم الظرفية بل هي ظرف متصرّف ، وهو مختار صاحب "الكشاف" ، والمعنى : اذكروا الوقت الذي ظهرت فيه خلافتكم عن قوم نوح في تعمير الأرض والهيمنة على الأمم ، فإنّ عادا كانوا ذوي قوّة ونعمة عظيمة ﴿ وقالوا من أشَدّ منّا قوّة ﴾ [فصلت : 15] .

فالخلفاء جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شيء ، أي يتولى عمل ما كان يعمله الآخَر ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إنّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ في سورة البقرة (30) ، فالمراد : جعلكم خلفاء في تعمير الأرض ، ولما قال : من بعد قوم نوح ﴾ عُلم أنّ المقصود أنّهم خلفاء قوم نوح ، فعادٌ أوّل أمّة اضطلعت بالحضارة بعد الطّوفان ، وكان بنو نوح قد تكاثروا وانتشروا في الأرض ، في أرمينية والموصل والعراق وبلاد العرب ، وكانوا أمماً كثيرة ، أو كانت عاد عظم تلك الأمم وأصحاب السّيادة على سائر الأمم ، وليس المراد أنّهم

خلفوا قوم نوح في ديارهم لأنّ منازل عاد غيرُ منازل قوم نوح عند المُؤرّخين ، وهذا التّذكير تصريح بالنّعمة ، وتعريض بالنّذارة والوعيدِ بأنّ قوم نوح إنّما استأصلهم وأبادَهم عذابٌ من الله على شركهم ، فمن اتبعهم في صنعهم يوشك أن يحلّ به عذاب أيضاً .

و﴿ الخلق ﴾ يحتمل أن يكون مصدراً خالصاً ، ويحتمل أن يكون بمعنى اسم المفعول ، وهو يستعمل في المعنيين .

وقوله : ﴿ بصطة ﴾ ثبت في المصاحف بصاد قبل الطاء وهو مرادف بسطة الذي هو بسين قبل الطاء .

ووقع في آيات أخرى .

وأهمل الراغب (بصطة) الذي بالصاد .

وظاهر عبارة القرطبي أنه في هذه الآية بسين وليس كذلك .

والبصطة : الوفرة والسعة في أمر من الآمور .

(74/275)

فإن كان (الخلق) بمعنى المصدر فالبصطة الزّيادة في القُوى الجِبلية أي زادهم قوّة في عقولهم وأجسامهم فخلقهم عقلاء أصحاء ، وقد اشتهر عند العرب نسبة العقول الرّاجحة إلى

عاد ، ونسبة كمال قوى الأجسام إليهم قال النّابغة:

أحلامُ عاد وأجسام مطهّرة . . .

من المعقة والآفات والإثم

وقال وَدّاك بنُ ثُمَيْل المازني في "الحماسة":

وأحلام عادٍ لا يخاف جليسهم . . .

ولو نَطَقَ العُوّار غَرْبَ لِسان

وقال قيس بن عُبادة:

وأنْ لا يَقولوا غاب قيس وهذه . . .

سراويل عادّي نمته ثَمُود

وعلى هذه الوجه يكون قوله : ﴿ في الخلق ﴾ متعلّقاً بـ ﴿ بصطة ﴾ ، وإن كان الخلق بمعنى النّاس فالمعنى : وزادكم بصطة في النّاس بأن جعلكم أفضل منهم فيما تتفاضل به الأمم من الأمور كلّها ، فيشمل رجحان العقول وقوّة الأجسام وسلامتها من العاهات والآفات وقوّة البأس ، وقَد نُسبت الدّروع إلى عاد فيقال لها : العاديّة ، وكذلك السّيوف العاديّة ، وقد قال الله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وقالوا مَن أشد منّا قوّة ﴾ [فصلت : 15] وحكَى عن هود أنّه قال لهم : ﴿ وتتّخذون مصانع لعلّكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبّارين فاتّقوا الله وأطيعون واتّقوا الذي أمدّكم بما تعلمون أمَدّكم بأنعام وبنين وجنّاتٍ

وعيون ﴾ [الشعراء : 129 134] وعلى هذا الوجه يكون قوله : ﴿ في الخلق ﴾ ظرفاً مستقراً في موضع الحال من ضمير المخاطبين .

والفاء في قوله : ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ فصيحة ، أي : إن ذكرتم وقت جَعَلَكم اللَّهُ خلفاء في الأرض ووقتَ زادكم بصطة فاذكروا نعمه الكثيرة تفصيلاً ، فالكلام جاء على طريقه القيَاس من الاستدلال بالجزئي على إثبات حكم كلي ، فإنّه ذكرهم بنعمة واضحة وهي كونهم خلفاءَ ونِعَمٍ مُجملة وهي زيادة بصطتهم ، ثمّ ذكَّرهم بقية النّعم بلفظ العموم وهو الجمع المضاف .

(75/275)

والآلاء جمع (إلى) ، والإلَى : النّعمة ، وهذا مثل جمع عِنَب على أعْنَاب ، ونظيره جمع إنى بالنّون ، وهو الوقت ، على آناء قال تعالى : ﴿ غير ناظرين إناهُ ﴾ [الأحزاب : 53] أي وقته ، وقال ﴿ ومن آناء اللّيل فسبّح ﴾ [طه : 130] .

ورتب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا لأنّ ذكر النّعم يؤدّي إلى تكرير شكر المنعم ، فيحمِل المنعم عليه على مقابلة النّعم بالطّاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾

جاء الحق هنا بالذكر للإنذار فقال : ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ فقط ، وليس كما قال في قوم نوح : ﴿ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لأن الإنذار لم يأت لمجرد الإنذار ، بل لنرتدع ونتقي ، لكي نُرحم ، إذن فحين يأتي بأول الحلقة وأول الخيط وهو الإنذار فنحن نستنتج الباقي وهو التقوى لنصل إلى الرحمة : ﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ .

وهذا كلام جديد ؛ لأن قوم نوح هم أول قوم عُذّبوا حين لم يؤمنوا ، وجاء سيدنا هود إلى عاد بعد ذلك ، يبلّغهم وينذرهم ليأخذوا العبرة من نوح وقومه : ﴿ . . . واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الخلق بَصْطَةً فاذكروا آلآءَ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : 69]

ويذكرهم سيدنا هود أن الحق قد أعطى لهم أجساماً فارعة فيها بسطة وطول ، ويقال : إن الطويل منهم كان يبلغ طوله مائة ذراع ، والقصير منهم كان يبلغ طوله ستين ذراعاً ،

ويأمرهم سيدنا هود أن يذكروا آلاء الله ، أي نعمه عليهم ، وأول النعم أن أرسل إليهم رسولاً يأخذ بأيديهم إلى مناطق الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(77/275)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " إذْ جَعَلَكُمْ " في " إذْ " وجهان :

أحدهما : أنَّه ظرفٌ منصوبٌ بما تضمنتهُ الآلاء من معنى الفعلِ ، كأنه قيل : " واذكُرُوا نِعَمَ اللَّهِ عليكم في هذا الوَقْتِ " ، ومفعول " اذْكُرَوا " محذوفٌ لدلالة قوله بعد ذلك : ﴿ فاذكروا آلآءَ الله ﴾ ، ولأن قوله : ﴿ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ ﴾ ، وزادكم كذا هو نفس الآلاء وهذا ظاهر قول الحُوفِي .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : " إذْ " مفعول " اذْكُرُوا " أي : اذكروا هذا الوقت المشتمل على هذه النعم الجسيمة ، وتقدَّم الكلامُ في الخلفاء والخلائف والخليف .

قوله : " فِي الخَلْقِ " يحتمل أن يراد به المصدر بمعنى في امتداد قامتكم وحسن صوركم ، وعظم أجْسَامِكُمْ ، ويحتمل أنْ يراد به معنى المفعول به ، أي : في المَخْلُوقين بمعنى زادكم في

النَّاسِ مثلكم بسطة عليهم ، فإنَّهُ لم يكن في زمانهم مثلهم في عظم الأجرام .

قال الكَلْبِيُّ والسُّدِّيُّ : "كانت قامة الطّويل منهم مائة ذراع ، وقامة القصير ستُّون ذراعاً

" .

وتقدم الكلامُ على " بسطة " في البقرة .

(78/275)

قوله : ﴿ فاذكروا آلآءَ الله ﴾ ، أي : نعمه ، وهو جمع مفرده " إلْي " بكسر الهمزة وسُكُونِ اللاَّمِ ؛ كحِملْ وأحْمَالِ ، أو " أُلْيٌ " بضمِّ الهمزة وسُكُونِ اللاَّمِ : كقُفْل ، وأقْفَالٍ ، أو " إلى " بكسر الهمزة ، وفتح اللام ؛ كضِلَع وأضلاع ، وعِنَب وأعْنَاب ، أو " أَلَى " بفتحهما كقَفَا وأقْفَاء ؛ قال العْشضى : [المنسرح]

2501 - أبْيَضُ لا يَرْهَبُ الهُزَالَ ولاَ . . .

يَقْطَعُ رِحْماً ولا يَخُونُ أَلَى

يُنشد بكسر الهمزة ، وهو المشهورُ ، وبفتحها ؛ ومثلها " الآنَاء " جمع " إِنْي " أو " أُنْي " أو " إِنّى " أو " أَنّى " .

وقال الأخفش : " إنْوٌ " .

والآناء الأوقات كقوله : ﴿ وَمِنْ آنَآءِ الليل ﴾ [طه : 130] ، وسيأتي .

ثم قال : " لعلَّكُم تُفْلِحُونَ " فلا بُدَّ ها هنا من إضمار ؛ لأنَّ الصَّلاَح الذي هو الظَّفر بالثَّواب لا يحصل بمجرد التذكر ، بل لا بدّ من العمل ، والتقدير : فاذكروا آلاء اللَّهِ واعملوا عملاً يليق بذلك الإنعام لعلّكم تفلحون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 188 .

189 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ قَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾

أخبر أنهم سلكوا طريق أسلافهم وإخوانهم ، فوقعوا في وهدتهم ، ومُنُوا بمثل حالتهم فلا خيرَ فيمن آثر هواه على رضاءِ الله ، ولا رَبحَ مَنْ قَدَّم هواه على حقّ الله .

(79/275)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ .

جعل الله الخلقَ بعضهم خَلَفاً عن بعض ، فلا يُفْنِي فوجاً منهم من جنسٍ إلا أقام فوجاً منهم مِنْ ذلك الجنس . فأهل الغفلة إذا انقرضوا خَلَفَ عنهم قوم ، وأهل الوصلة إذا درجوا خلف عنهم قوم ، ولا ينبغي للعبد أن يسمو طَرْفُ تأميله إلى الأكابر فإن ذلك المقام مشغول بأهله ، فما لم تنتهِ نوبةُ أولئك لا تنتهي النوبة إلى هؤلاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ .

كما زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخَلْقِ زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخُلُق ، وكما أوقع التفاوتَ بين شخصٍ وشخص فيما يعود إلى المباني أوقع التباين بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعاني .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

النَّعماء عام ، والآلاء خاص ، فتلك تتضمن ترويح الظواهر ، وهذه تتضمن التلويح في السرائر ، تلك بالترويح بوجود المبار ، وهذه بالتلويح بشهود الأسرار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 544.545 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا منه موجباً ولا بد لكل سامع منصف من المبادرة إلى الإذعان لهذه الحجة القطعية ، وهي استحقاقه للإفراد بالعبادة للتفرد بالإنعام ، ازداد تشوف المخاطب إلى جوابهم ، فأجيب بقوله : ﴿ قالوا ﴾ منكرين عليه معتمدين على محض التقليد ﴿ أجئتنا ﴾ أي من عند من ادعيت أنك رسوله ﴿ لنعبد الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ وحده ﴾ ولما كان هذا منهم في غاية العجب المستحق للإنكار ، أتبعوه ما هو كالعلة لإنكارهم عليه ما دعاهم إليه فقالوا : ﴿ ونذر ﴾ أي نترك على غير صفة حسنة ﴿ ما كان يعبد آباؤنا ﴾ أي مواظبين على عبادته بما دلوا عليه ب "كان" وصيغة المضارع – مع الإشارة بها إلى تصوير آبائهم في حالهم ذلك – ليحسن في زعمهم إنكار مخالفتهم لهم .

ولما كان معنى هذا الإنكار أنا لا نعطيك ، وكان قد لوح لهم بالتذكر بقوم نوح وقوله ﴿ أفلا تتقون ﴾ إلى الأخذ إن أصروا ، سببوا عن ذلك قولهم : ﴿ فأتنا ﴾ أي عاجلاً ﴿ بما تعدنا ﴾ أي من العذاب بما لوح إليه إيماؤهم إلى التكذيب بقولهم : ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ وتسميتهم للانذار بالعذاب وعداً من باب الاستهزاء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 54 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هوداً عليه السلام دعا قومه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالدليل القاطع ، وذلك لأنه بين أن نعم الله عليهم كثيرة عظيمة ، وصريح العقل يدل على أنه ليس للأصنام شيء من النعم على الخلق لأنها جمادات ، والجماد لا قدرة له على شيء أصلاً ، وظاهر أن العبادة نهاية التعظيم .

ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله ، وأن لا يعبدوا شيئاً من الأصنام ، ومقصود الله تعالى من ذكر أقسام إنعامه على العبيد ، هذه الحجة التي ذكرها ثم إن هوداً عليه السلام لما ذكر هذه الحجة اليقينية لم يكن من القوم جواب عن هذه الحجة التي ذكرها إلا التمسك بطريقة التقليد .

(81/275)

فقالوا : ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ثم قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ وذلك لأنه عليه السلام قال : ﴿ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [

الأعراف : 65] فقوله : ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ مشعر بالتهديد والتخويف بالوعيد فلهذا المعنى قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون كونه كاذباً بدليل أنهم قالوا له : ﴿ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ [الأعراف : 66] فلما اعتقدوا كونه كاذباً قالوا له : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ والغرض أنه إذا لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذباً ، وإنما قالوا ذلك لأنهم ظنوا أن الوعد لا يجوز أن يتأخر ، فلا جرم استعجلوه على هذا الحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 129 ﴾

(82/275)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ﴾

قالوا : يا هود أتأمرنا أن نعبد رباً واحداً ﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤنَا ﴾ أي نترك عبادة آلهتنا التي كان يعبدها آباؤنا .

قال لهم هود عليه السلام : إن لم تفعلوا ما آمركم يأتيكم العذاب .

قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب أي : بما تخوفنا ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أنك لرسول الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قالوا أجئتنا ﴾ الآية ،

ظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع ، ويحتمل أن يكونوا منكرين لله ويكون قولهم لنعبد الله وحده أي على قولك يا هود ، والتأويل الأول أظهر فيهم وفي عباد الأوثان كلهم ، ولا يجحد ربوبية الله تعالى من الكفرة إلا من أفرطت غباوته كإربد بن ربيعة ، وإلا من ادعاها لنفسه كفرعون ونمرود ، وقوله : ﴿ فاتنا ﴾ تصميم على التكذيب واحتقار لأمر النبوءة واستعجال للعقوبة ، وتمكن قولهم : ﴿ تعدنا ﴾ لما كان هذا الوعد مصرحاً به في الشر ولو كان ذكر الوعد مطلقاً لم يجيء إلا في خبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قالوا ﴾ يعني قال قوم هود مجيبين له ﴿ أجئتنا ﴾ يا هود ﴿ لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾ يعني من الأصنام ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ يعني من العذاب ﴿ إن كنت من

الصادقين ﴾ يعني في قولك إنك رسول الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(84/275)

وقال أبو حيان :

﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين ﴾

الظاهر أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا الله بالعبادة مع اعترافهم بالله حبّاً لما نشؤوا عليه وتآلفاً لما وجدوا آباءهم عليه ويحتمل أن يكونوا منكرين لله ويكون قولهم ﴿ لنعبد الله وحده ﴾ أي على قولك يا هود ودعواك قاله ابن عطية ، وقال التأويل الأوّل أظهر فيهم وفي عباد الأوثان ولا يجحد ربوبية الله من الكفرة إلا من ادّعاها لنفسه كفرعون ونمرود انتهى ، وكان في قول هود لقومه ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ دليل قاطع على أنه لا يعبد إلا المنعم وأصنامهم جمادات لا قدرة على شيء البتة والعبادة هي نهاية التعظيم فلا يليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام ولما نبّه على هذه الحجة ولم يكن لهم أن يجيبوا عنها عدلوا إلى التقليد البحت فقالوا ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾ والمجيء هنا يحتمل أن يكون حقيقة

بكونه متغيباً عن قومه منفرداً بعبادة ربه ثم أرسله الله إليهم فجاءهم من مكان متغيبه ويحتمل أن يكون قولهم ذلك على سبيل الاستهزاء لأنهم كانوا يعتقدون أنّ الله لا يرسل إلا الملائكة فكأنهم قالوا : أجئتنا من السماء كما يجيء الملك ولا يريدون حقيقة المجيء ولكن التعرّض والقصد كما يقال ذهب يشتمني لا يريدون حقيقة الذهاب كأنهم قالوا أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكاليف ذلك وفي قولهم ﴿ فائتنا بما تعدنا ﴾ دليل على أنه كان يعدهم بعذاب الله إن داموا على الكفر وقولهم ذلك يدلّ على تصميمهم على تكذيبه واحتقارهم لأمر النبوّة واستعجال العقوبة إذ هي عندهم لا تقع أصلاً وقد تقدّم قوله ﴿ إنا لنراك في سفاهة ﴾ و ﴿ إنا لنظنّك من الكاذبين ﴾ فلما كانوا يعتقدون كونه كاذباً قالوا ﴿ فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ أي في نبوّتك وإرسالك أو في العذاب نازل بنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(85/275)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ مجيبين عن تلك النصائحِ العظيمة ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ﴾ أي لنخُصّه بالعبادة ﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا ﴾ أنكروا عليه عليه السلام مجيئَه لتخصيصه تعالى بالعبادة والإعراضِ عن عبادة الأوثان انهماكاً في التقليد وحباً لما أَلِفوه وأَلِفوا أسلافَهم عليه . ومعنى المجيء إما مجيئُه عليه السلام مِنْ مُتَعَبَّده ومنزله وإما من السماء على التهكم وإما القصدُ والتصدّي مجازاً كما يقال في مقابِله : ذهب يشتمني من غير إرادةِ معنى الذهاب ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب المدلولِ عليه بقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أي في الإخبار بنزول العذابِ ، وجوابُ (إن) محذوفٌ لدلالة المذكورِ عليه أي فائتِ به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(86/275)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

﴿ قَالُوا ﴾ مجيبين عن تلك النصائح العظيمة المتضمنة للإنذار على ما أشير إليه .

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ﴾ أي لنخصه بالعبادة ﴿ وَنَذَرَ ﴾ أي نترك ﴿ مَا كَانَ يَعْبُدُ

ءَابَاؤُنَا ﴾ من الأوثان ، وهذا إنكار واستبعاد لمجيئه عليه السلام بذلك ومنشؤه انهماكهم في التقليد والحب لما ألفوه وألفوا عليه أسلافهم ، ومعنى المجيء إما مجيئه عليه السلام من مكان كان يتحنث فيه كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل بحراء قبل المبعث أو مجيئه من السماء أي أنزلت علينا من السماء ومرادهم التهكم والاستهزاء ، وجاء ذلك من زعمهم أن المرسل من الله تعالى لا يكون إلا ملكاً من السماء أو هو مجاز عن القصد إلى الشيء والروع فيه فإن جاء وقام وقعد وذهب كما قال جماعة تستعملها العرب لذلك تصويراً للحال فتقول قعد يفعل كذا وقام يشتمني وقعد يقرأ وذهب يسبني ، ونصب ﴿ وحده ﴾ على الحالية ، وهو عند جمهور النحويين ومنهم الخليل وسيبويه اسم موضوع موضع المصدر أعني إيجاد الموضوع موضع الحال أعني موحداً .

واختلف هؤلاء فيما إذا قلت : رأيت زيداً وحده مثلاً فالأكثرون يقدرون في حال إيجاد له بالرؤية فيجعلونه حالاً من الفاعل ، والمبرد يقدره في حال أنه مفرد بالرؤية فيجعله حالاً من المفعول .

ومنع أبو بكر بن طلحة جعله حالاً من الفاعل وأوجب كونه حالاً من المفعول لا غير لأنهم إذا أرادوا الحال من الفاعل قالوا رأيته وحدي ومررت به وحدي كما قال الشاعر

: والذئب أخشاه أن مررت به . . .

وحدي وأخشى الرياح والمطرا

وهذا الذي قاله في البيت صحيح ولا يمتنع من أجله أن يأتي الوجهان المتقدمان في رأيت زيداً وحده فإن المعنى يصح معهما ، ومنهم من يقول : إنه مصدر موضوع موضع الحال ولم يوضع له فعل عند بعضهم .

وحكى الأصمعي وحديحد ، وذهب يونس وهشام في أحد قوليه إلى أنه منتصب انتصاب الظروف فجاء زيد وحده في تقدير جاء على وحده ثم حذف الجار وانتصب على الظرف ، وقد صرح بعلى في كلام بعض العرب ، وإذا قيل زيد وحده فالتقدير زيد موضع التفرد ، ولعل القائل بما ذكر يقول : إنه مصدر وضع موضع الظرف .

وعن البعض أنه في هذا منصوب بفعل مضمر كما يقال : زيد إقبالاً وإدباراً هذا خلاصة كلامهم في هذا المقام ، وإذا أحطت به خبراً فاعلم أن (نعبد الله وحده) في تقدير موحدين إياه بالعبادة عند سيبويه على أنه حال من الفاعل ، والحاء في موحدين مكسورة وعلى رأي ابن طلحة موحداً هو والحاء مفتوحة وهو من أوحد الرباعي والتقدير على رأي هشام نعبد الله تعالى على انفراد وهو من وحد الثلاثي ، والمعنى في التقادير الثلاثة لا يختلف إلا يسيراً ، والكلام الذي هو فيه متضمن للإيجاب والسلب وله احتمالات نفياً وإثباتاً وتفصيل

ذلك في رسالة في مولانا تقي الدين السبكي المسماة "بالرفدة في معنى وحده" وفيها يقول الصفدي

: خل عنك الرقدة . . .

وانتبه للرفدة تجن منها علما

فاق طعم الشهدة . . .

وأراد بما في قوله تعالى : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ العذاب المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ أفلا تتقون ﴾ [الأعراف : 65] ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصادقين ﴾ بالإخبار بنزوله ، وقيل : بالإخبار بأنك رسول الله تعالى إلينا ، وجواب ﴿ إن ﴾ محذوف لدلالة المذكور عليه أي فأت به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(88/275)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

جاوبوا هوداً بما أنبأ عن ضياع حجّته في جنب ضلالة عقولهم ومكابرة نفوسهم ، ولذلك

أعادوا تكذيبه بطريق الاستفهام الإنكاري على دعوته للتّوحيد ، وهذا الجواب أقلّ جفوة وغِلظة من جوابهم الأوّل ، إذ قالوا : ﴿ إنّا لنراك في سفاهة وإنّا لنظنّك من الكاذبين ﴾ [الأعراف : 66] كأنّهم راموا استنزل نفس هود ومحاولة إرجاعه عمّا دعاهم إليه ، فلذلك اقتصروا على الإنكار وذكروه بأنّ الأمر الذي أنكرهُ هوَ دينُ آباء الجميع تعريضاً بأنّه سفّه آباءه ، وهذا المقصد هو الذي اقتضى التّعبير عن دينهم بطريق الموصولية في قولهم : ﴿ ما كان يعبد آباؤنا ﴾ إيماء إلى وجه الإنكار عليه وإلى أنه حقيق بمتابعة دين آبائه ، كما قال الملأُ من قريش لأبي طالب حين دعاه النّبيء صلى الله عليه وسلم أنْ يقول : " لا إله إلا الله " عند احتضاره فقالوا لأبي طالب : "أترغَبُ عن ملّة عبد المطّلب" .

واجتلاب (كانَ) لتدلّ على أن عبادتهم أمر قديم مَضت عليه العصور .

والتّعبير بالفعل وكونه مضارعاً في قوله : ﴿ يَعبد ﴾ ليدلّ على أنّ ذلك متكرّر من آبائهم ومتجدّد وأنّهم لا يَفتُرون عنه .

ومعنى ﴿ أجئتنا ﴾ أقصدتَ واهتممت بنا لنعبد الله وحده فاستعير فعل المجيء لمعنى الاهتمام والتّحفّز والتّصلّب ، كقول العرب : ذَهب يفعل ، وفي القرآن : ﴿ يا أيها المدّثر قُمْ فأنْذِر ﴾ [المدثر : 1 ، 2] وقال حكاية عن فرعون : ﴿ ثمّ أدْبَر يَسْعَى فحشر فنادى ﴾ [النازعات : 22 ، 23] وفرعون لم يفارق مجلس ملكه وإنّما أريد أنّه أعرض واهتمّ ومثله قولهم ذهب يفعل كذا قال النّبهاني:

فإن كنتَ سيّدَنّا سُدْتَنا . . .

وإن كُنْتَ لِلْخَال فاذْهب فَخلْ

(89/275)

فقصدوا ممّا دلّ عليه فعل المجيء زيادة الإنكار عليه وتسفيهَه على اهتمامه بأمر مثل ما دعاهم إليه .

و﴿ وحده ﴾ حال من اسم الجلالة وهو اسم مصدر أوْحَده : إذا اعتقده واحداً ، فقياس المصدر الإيجاد ، وانتصب هذا المصدر على الحال : إمّا من اسم الجلالة بتأويل المصدر باسم المفعول عند الجمهور أي مُوحَّداً أي محكوماً له بالوحدانيه ، وقال يونس : هو بمعنى اسم الفاعل أي موحِّدين له فهو حال من الضّمير في ﴿ لنعبد ﴾ .

وتقدّم معنى : ﴿ ونذر ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ وذر الذين اتّخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ في سورة الأنعام (70) .

والفاء في قوله : فأننا بما تعدنا ﴾ لتفريع طلب تحقيق ما توعدهم به ، وتحدّياً لهود ، وإشعاراً له بأنّهم موقنون بأنْ لا صِدْق للوعيد الذي يتوعّدهم فلا يخشون ما وعدهم به من العذاب .

فالأمر في قولهم : ﴿ فأتنا ﴾ للتّعجيز .

والإتيان بالشّيء حقيقته أن يجيء مصاحباً إيّاه ، ويستعمل مجازاً في الإحضار والإثبات كما هنا .

والمعنى فعجل لنا ما تعدنا به من العذاب ، أو فحقّق لنا ما زعمتَ من وعيدنا .

ونظيرُه الفعلُ المشتقّ من المجيء مثل ﴿ ما جئتَنا ببيّنة ﴾ [هود : 53] ﴿ الآن جئتَ بالحقّ ﴾ [البقرة : 71] .

وأسندوا الفعل إلى ضميره تعريضاً بأن ما توعدهم به هو شيء من مختلقاته وليس من قِبَل الله تعالى ، لأنّهم يزعمون أنّ الله لا يحبّ منهم الإقلاع عن عبادة آلهتهم ، لأنّه لا تتعلّق إرادته بطلب الضّلال في زعمهم .

(90/275)

والوعد الذي أرادوه وعْد بالشرّ ، وهو الوعيد ، ولم يتقدّم ما يفيد أنّه توعّدهم بسوء ، فيحتمل أن يكون وعيداً ضمنياً تضمّنه قوله : ﴿ أفلا تتّقون ﴾ [الأعراف : 65] لأنّ إنكاره عليهم انتفاء الاتّقاء دليل على أنّ ثمّة ما يُحذر منه ، ولأجل ذلك لم يُعَيّنوا وعيداً في كلامهم بل أبهموه بقولهم ﴿ بما تعدنا ﴾ ، ويحتمل أن يكون الوعيد تعريضاً من قوله : ﴿

إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [الأعراف : 69] المؤذن بأنّ الله استأصل قوم نوح وأخلفهم بعاد ، فيوشك أن يستأصل عادا ويخلفهم بغيرهم .

وعقّبوا كلامهم بالشّرط فقالوا : ﴿ إن كنتَ من الصّادقين ﴾ استقصاء لمقدرته قصداً منهم لإظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب فلا يسعه إلاّ الاعتراف بأنّه كاذب ، وجواب الشّرط محذوف دلّ عليه ما قبله تقديره : أتيتَ به وإلاّ فلست بصادق .

فأجابهم بأن أخبرهم بأنّ الله قد غضب عليهم ، وأنّهم وقع عليهم رجس من الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(91/275)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) ﴾

كان المنطق أن يعبدوا الله وحده لا أن يعبدوا الشركاء الذين لا ينفعوهم ولا يضرونهم ، ولا يسمعونهم . بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهب على الصنم ، فيميل الصنم ويقع على الأرض وتنكسر رقبته ، فيذهب إلى الحداد ليعيد تركيب رأس جديد للصنم ، فكيف

يعبد مثل هذا الصنم ؟ لكنهم قالوا لهود : نحن نقلد آباءنا ولا يمكن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا لأننا على آثارهم نسير . وإن كان إلهك ينذرنا بعذاب فأتنا به إن كنت من الصادقين . وهكذا وضح أنه لا أمل في اقتناعهم بالدعوة إلى الإيمان .

فماذا يقول الحق بعد ذلك ؟

يجيء القول الفصل على لسان سيدنا هود : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(92/275)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " لِنَعْبُدَ " متعلق بالمجيء الذي أنكروه عليه .

واعلم أنَّ هوداً – عليه السلام – لما دعاهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالدَّلِيل القاطع ، وهو أنَّهُ بيَّن أنَّ نعم الله عليهم كثيرة والأصنام لا نعمة لها ؛ لأنَّها جمادات ، والجمادُ لا قُدْرَةَ له على شَيْءٍ أصلاً – لم يكن للقوم جوابٌ عن هذه الحُجَّةِ إلا التمسك بالتَّقْليد فقالُوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فأنكروا عليه أمره لهم

بالتَّوحيد ، وترك التقليد للآباء ، وطلبوا منه وقوع العذاب المشار إليه بقوله : " أَفَلاَ تَتَّقُونَ " وذلك أنَّهم نسبوه إلى الكذب ، وظنُّوا أنَّ الوعيد لا يتأخر ، ثم قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ جوابه محذوف أو متقدّم بـ " ما " ، وذلك لأنَّ قوله : ﴿ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ مشعر بالتَّهْديد والتّخويف بالوعيد ، فلهذا قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ .

قوله : ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ جوابه محذوف أو مُتَقَدّم ، وهو فأت به . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 189 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) ﴾

طاحوا في أودية التفرقة فلم يجدوا قراراً في ساحات التوحيد ، فَشَقَّ عليهم الإعراضُ عن الأغيار ، وفي معناه قال قائلهم :

أراكَ بقيةً من قوم موسى . . . فهم لا يصبرون على طعام

ويقال شخص لا يُخْرِجُه من غش التفرقة ، وشخص لا يحيد لحظةً عن سَنَنِ التوحيد فهو لا يعبد إلا واحداً ، وكما لا يعبد إلا واحد لا يشهد إلا واحداً ، قال قائلهم :

لا يهتدي قلبي إلى غيركم . . . لأنه سُدَّ عليه الطريق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 545 ﴾

(93/275)

قوله تعالى ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا قد بالغوا في السفه في هذا القول ، وكان قد علم من محاورته صلى الله عليه وسلم لهم الحلم عنهم ، اشتد التطلع إلى ما يكون من جوابه لهذا والتوقع له ، فشفى غليل هذا التشوف بقوله : ﴿ قال قد وقع ﴾ أي حق ووجب وقرب أن يقع ﴿ عليكم من ربكم ﴾ أي الذي غربكم به تواتر إحسانه عليكم وطول إملائه لكم ﴿ رجس ﴾ أي عذاب شديد الاضطراب في تتبع أقصاكم وأدناكم موجب لشدة اضطرابكم ﴿ وغضب ﴾ أي شدة في ذلك العذاب لا تفلتون منها .

ولما أخبرهم بذلك ، بين لهم أن سببه كلامهم هذا في سياق الإنكار فقال :

﴿ أتجادلونني ﴾ ولما كانت آلهتهم تلك التي يجادلون فيها لا تزيد على السماء لكونها خالية من كل معنى ، قال : ﴿ في أسماء ﴾ ثم بين أنه لم يسمها آلهة من يعبد به فقال : ﴿ سميتموها انتم وآباؤكم ﴾ ولما كان لله تعالى أن يفعل ما يشاء وأن يأمر بالخضوع لمن يشاء ، قال نافياً التنزيل فإنه يلزم من نفي الإنزال : ﴿ ما نزل الله ﴾ أي الذي ليس الأمر إلا له ﴿ بها ﴾ أي بتعبدكم لها أو بتسميتكم إياها ، وأغرق في النفي فقال : ﴿ من سلطان ﴾ ولعله أتى بصيغة التنزيل لأن التفعيل يأتي بمعنى الفعل المجدد وبمعنى الفعل بالتدريج فقصد – لأنه في سياق المجادلة وفي سورة مقصودها إنذار من أعرض عما دعا إليه هذا الكتاب النازل بالتدريج – النفي بكل اعتبار ، سواء كان تجديداً أو تدريجاً وإشارة إلى أنه لو نزل عليهم في الأمر بعبادتها شيء واحد لتوقفوا فيه لعدم فهمهم لمعناه حتى يكرر عليهم الأمر فيه مرة بعد أخرى ، فيعلموا أن ذلك أمر حتم لا بد منه كما فعله بنو إسرائيل في الأمر بذبح البقرة لأجل القتيل لأجل أنهم لم يعقلوا معناه ، دل ذلك قطعاً على أن الأمر لهم بعبادتها إنما هو ظلام الهوى لأنه عمى محض من شأن الإنسان ركوبه بلا دليل أصلاً .

ولما أخبرهم بوقوع العذاب وسببه ، بين لهم أن الوقوع ليس على ظاهرة في الإنجاز ، وإنما معناه الوجوب الذي لا بد من فقال : ﴿ فانتظروا ﴾ ثم استأنف الإخبار عن حاله بقوله : ﴿ إني ﴾ وأشار بقوله : ﴿ معكم ﴾ إلى أنه لا يفارقهم لخشيته منهم ولا غيرها ﴿ من المنتظرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 55 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم حكى الله تعالى عن هود عليه السلام أنه قال عند هذا الكلام : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذا الذي أخبر الله عنه بأنه وقع لا يجوز أن يكون هو العذاب ، لأن العذاب ما كان حاصلاً في ذلك الوقت وقد اختلفوا فيه قال القاضي : تفسير هذه الآية على قولنا ظاهر ، إلا أنا نقول : معناه أنه تعالى أحدث إرادة في ذلك الوقت ، لأن بعد كفرهم وتكذيبهم حدثت هذه الإرادة .

واعلم أن هذا القول عندنا باطل ، بل عندنا في الآية وجوه من التأويلات :

أحدها : أنه تعالى أخبره في ذلك الوقت بنزول العذاب عليهم ، فلما حدث الإعلام في ذلك الوقت ، لا جرم قال هود في ذلك الوقت : ﴿ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾

وثانيها : أنه جعل التوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع .

ونظيره قولك لمن طلب منك شيئاً ، قد كان ذلك بمعنى أنه سيكون ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] بمعنى : سيأتي أمر الله .

وثالثها : أنا نحمل قوله : ﴿ وَقَعَ ﴾ على معنى وجد وحصل ، والمعنى : إرادة إيقاع العذاب عليكم حصلت من الأزل إلى الأبد ، لأن قولنا : حصل لا إشعار له بالحدوث بعد ما لم يكن .

المسألة الثانية :

الرجس لا يمكن أن يكون المراد منه العذاب لأن المراد من الغضب العذاب ، فلو حملنا الرجس عليه لزم التكرير ، وأيضاً الرجس ضد التزكية والتطهير .

قال تعالى : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : 103] وقال في صفة أهل البيت : ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : 33] والمراد التطهر من العقائد الباطلة والأفعال المذمومة ، وإذا كان كذلك ، وجب أن يكون الرجس عبارة عن العقائد الباطلة والأفعال المذمومة .

إذا ثبت هذا فقوله : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس ﴾ يدل على أنه تعالى خصهم بالعقائد المذمومة والصفات القبيحة ، وذلك يدل على أن الخير والشر من الله تعالى ، قال القفال : يجوز أن يكون الرجس هو الازدياد في الكفر بالرين على القلوب كقوله تعالى : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : 125] أي قد وقع عليكم من الله رين على قلوبكم عقوبة منه لكم بالخذلان لألفكم الكفر وتماديكم في الغي .

واعلم أنا قد دللنا على أن هذه الآية تدل على أن كفرهم من الله ، فهذا الذي قاله القفال أن كان المراد منه ذلك .

فقد جاء بالوفاق .

إلا أنه شديد النفرة عن هذا المذهب وأكثر تأويل الآيات الدالة على هذا المذهب تدل على أنه لا يقول بهذا القول وإن كان المراد منه الجواب عما شرحناه ، فهو ضعيف لأنه ليس فيه ما يوجب رفع الدليل الذي ذكرناه ، والله أعلم .

وحاصل الكلام في الآية : أن القوم لما أصروا على التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفراً ، وهو المراد من قوله : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس ﴾ ثم خصهم بمزيد

الغضب ، وهو قوله : ﴿ وغضب ﴾ .

ثم قال : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ﴾

والمراد منه : الاستفهام على سبيل الإنكار ، وذلك لأنهم كانوا يسمون الأصنام بالآلهة ، مع أن معنى الإلهية فيها معدوم ، وسموا واحداً منها بالعزى مشتقاً من العز ، والله ما أعطاه عزاً أصلاً ، وسموا آخر منها باللات ، وليس له من الإلهية شيء .

وقوله : ﴿ ما نزل الله بها من سلطان ﴾ عبارة عن خلو مذاهبهم عن الحجة والبينة ، ثم إنه عليه السلام ذكر لهم وعيداً مجددا فقال : ﴿ فانتظروا ﴾ ما يحصل لكم من عبادة هذه الأصنام ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 130.129 ﴾

(97/275)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾

أي : وجب عليكم عذاب وغضب من ربكم ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ أي : تجعلون قول أنفسكم وقول آبائكم حجة من غير أن يثبت لكم من الله

حجة ، وقد اتخذتم الأصنام بأيديكم ، وسميتموها آلهة ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ يقول : ليس لكم علة وعذر وحجة بعبادة الأصنام .

﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ الهلاك ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ يعني : لنزول العذاب بكم ، لأنهم أرادوا إهلاكه قبل أن يهلكوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قال قد وقع ﴾ وجب ونزل ﴿ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ ﴾ أي عذاب [والسين مبدأ من الزاي] وغضب ﴿ أَتجادلونني فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ وضعتموها على الأصنام [. . . .] يعبد ناراً ﴿ أَنْتُمْ وَآبَآؤُكُمْ ﴾ قبلكم ﴿ مَّا نَزَّلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ حجّة وبيان وبرهان فانتظروا نزول العذاب .

﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(98/275)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ في الرجس ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه العذاب ، قاله زيد بن أسلم .

والثاني : السخط ، قاله ابن عباس .

والثالث : أن الرجس والرجز بمعنى واحد إلا أن الزاي قلبت سيناً كما قلبت السين تاء في قول الشاعر :

أَلاَ لَحَى اللَّهُ بَنِي السَّعْلاَةِ . . . عَمْرِو بنِ يَرْبُوعَ لِئَامَ النَّاتِ

لَيْسَوا بِأَعْفَافٍ وَلاَ أَكْيَاتِ . . . يريد الناس ، وأكياس .

قوله عز وجل : ﴿ . . . فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ يعني الأصنام ، وفي مراده بتسميتهم وجهان :

أحدهما : في تسميتها آلهة يعبدونها .

والثاني : أنه تسميتهم لبعضها أنه يسقيهم المطر ، والآخرة أنه يأتيهم بالرزق ، والآخر أنه يشفي المريض ، والآخر يصحبهم في السفر .

وقيل : إنه ما أمرهم هود إلا بتوحيد الله والكف عن ظلم الناس فأبوا وقالوا : من أشد منا قوة ، فأهلكوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(99/275)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾

أعلمهم بأن القضاء قد نفذ وحل عليهم الرجس وهو السخط والعذاب يقال " رجس ورجز " بمعنى واحد ، قاله أبو عمرو بن العلاء ، وقال الشاعر : [الطويل]

إذا سنة كانت بنجد محيطة . . . فكان عليهم رجسها وعذابها

وقد يأتي الرجس أيضاً بمعنى النتن والقذر ، ويقال في الرجيع رجس وركس ، وهذا الرجس هو المستعار للمحرمات ، أي ينبغي أن يجتنب كما يجتنب النتن ، ونحوه في المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في خبر جهجاه الغفاري وسنان بن وبرة الأنصاري حين دعوا بدعوى الجاهلية : " دعوها فإنها منتنة " وقوله : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ إنما يريد أنهم تخاصمونه في أن تسمى آلهة ، فالجدل إنما وقع في التسميات لا في المسميات ، لكنه ورد في القرآن ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم ﴾ [يوسف : 40] فهنا لا يريد إلا ذوات الأصنام ، فالاسم إنما يراد به المسمى نفسه .

قال القاضي أبو محمد : ومن رأى أن الجدل في هذه الآية إنما وقع في أنفس الأصنام وعبادتها تأول هذا التأويل ، والاسم يرد في كلام العرب بمعنى التسمية وهذا بابه الذي استعمله به النحويون ، وقد يراد به المسمى ويدل عليه ما قاربه من القول ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] وقوله ﴿ تبارك اسم ربك ﴾ [الرحمن : 78

] على أن هذا يتأول ، ومنه قول لبيد : [الطويل]

إلى الحولِ ثمَّ اسمُ السلام عليكما . . . على تأويلات في البيت ، وقد مضت المسألة في صدر الكتاب والسلطان : البرهان وقوله ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ الآية وعيد وتهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(100/275)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال قد وقع ﴾

أي : وجب ﴿ عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ قال ابن عباس : عذاب وسخط .

وقال أبو عمرو بن العلاء : الرجز ؛ بالزاي ، والرجس ؛ بالسين : بمعنى واحد ، قلبت السين زاياً .

قوله تعالى : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ يعني : الأصنام .

وفي تسميتهم لها قولان .

أحدهما : أنهم سمَّوها آلهة .

والثاني : أنهم سمَّوها بأسماء مختلفة .

والسلطان : الحجة .

﴿ فانتظروا ﴾ نزول العذاب ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ الذي يأتيكم من العذاب في تكذيبكم إياي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾

طلبوا العذاب الذي خوّفهم به وحذرهم منه فقال لهم : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

ومعنى وقع أي وجب .

يقال : وقع القول والحُكْم أي وجب ، ومثله : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز ﴾ .

أي نزل بهم .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأرض ﴾ .

والرِّجْسُ العذابُ وقيل : عُني بالرجس الرَّيْن على القلب بزيادة الكفر .

﴿ أَتُجَادِلُونِي فِي أَسْمَآءٍ ﴾ يعني الأصنام التي عبدوها ، وكان لها أسماء مختلفة .

﴿ مَّا نَزَّلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي من حُجّة لكم في عبادتها .

فالاسم هنا بمعنى المسمّى .

نظيره ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ [يوسف : 40] .

وهذه الأسماء مثل العُزّى من العِزّ والأعز واللّات ، وليس لها من العزّ والإلهية شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(101/275)

وقال الخازن :

﴿ قال ﴾ يعني قال هود مجيباً لهم ﴿ قد وقع ﴾ يعني نزل ووجب ﴿ عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ أي عذاب وسخط ﴿ أتجادلونني ﴾ يعني أتخاصمونني ﴿ في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ يعني وضعتم لها أسماء من عند أنفسكم والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار عليهم لأنهم سموا الأصنام بالآلهة وذلك معدوم فيها ﴿ ما نزل الله بها من سلطان ﴾ يعني من حجة وبرهان على هذه التسمية وإنما سميتموها أنتم من عند أنفسكم بغير دليل ﴿ فانتظروا ﴾ يعني العذاب ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ يعني نزول العذاب بكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(102/275)

وقال أبو حيان :

﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾

أي حلّ بكم وتحتّم عليكم قال زيد بن أسلم والأكثرون : الرّجس هنا العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب .

وقال ابن عباس : السخط .

وقال أبو عبد الله الرازي : لا يكون العذاب لأنه لم يكن حاصلاً في ذلك الوقت ، وقال القفال : يجوز أن يكون الازدياد في الكفر بالرين على القلوب أي لتماديهم على الكفر ﴿ وقع عليكم ﴾ من الله رين على قلوبكم كقوله ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ فإنّ الرجس السخط أو الرين فقوله ﴿ قد وقع ﴾ على حقيقته من المضي وإن كان العذاب فيكون من جعل الماضي موضع المستقبل لتحقّق وقوعه .

﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ هذا إنكار منه لمخاصمتهم له فيما لا ينبغي فيه الخصام وهو ذكر ألفاظ ليس تحتها مدلول يستحقّ العبادة فصارت المنازعة باطلة بذلك ومعنى ﴿ سميتموها ﴾ سميتم بها أنتم وآباؤكم أي أحدثتموها قريباً أنتم وآباؤكم وهي صمود وصداء والهباء وقد ذكرها مرثد بن سعد في شعره فقال :

عصت عاد رسولهم فأضحوا . . .

عطاشاً ما تبلّهم السماء

لهم صنم يقال له صمود . . .

يقابله صداء والهباء

فبصرنا الرسول سبيل رشد . . .

فأبصرنا الهدى وجلى العماء

وإنّ إله هود هو إلهي . . .

على الله التوكّل والرجاء

فالجدال إذ ذاك يكون في الألفاظ لا مدلولاتها ويحتمل أن يكون الجدال وقع في المسمّيات وهي الأصنام فيكون أطلق الأسماء وأراد بها المسميات وكان ذلك على حذف مضاف أي ﴿ أتجادلونني ﴾ في ذوات أسماء ويكون المعنى ﴿ سميتموها ﴾ آلهة وعبدتموها من دون الله ، قيل : سموا كل صنم باسم على ما اشتهوا وزعموا أنّ بعضهم يسقيهم المطر وبعضهم يشفيهم من المرض وبعضهم يصحبهم في السّفر وبعضهم يأتيهم بالرزق .

(103/275)

﴿ ما نزل الله بها من سلطان ﴾ والجملة من قوله ﴿ ما نزل ﴾ في موضع الصفة والمعنى أنه ليس لكم بذلك حجة ولا برهان وجاء هنا ﴿ نزل ﴾ وفي المكان غيره أنزل وكلاهما

فصيح والتعدية بالتضعيف والهمزة سواء .

﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ وهذا غاية في التهديد والوعيد أي ﴿ فانتظروا ﴾ عاقبة أمركم في عبادة غير الله وفي تكذيب رسوله وهذا غاية في الوثوق بما يحل بهم وإنه كائن لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(104/275)

وقال أبو السعود :

﴿ قال قد وقع عليكم ﴾

أي وجب وحق أو نزل بإصراركم هذا بناءً على تنزيل المتوقَّع منزلةَ الواقعِ كما في قوله تعالى : ﴿ أتى أمرُ الله ﴾ ﴿ من ربكم ﴾ أي من جهته تعالى . وتقديمُ الظرف الأولِ على الثاني مع أن مبدأ الشيءِ متقدمٌ على منتهاه للمسارعة إلى بيان إصابةِ المكروهِ لهم ، وكذا تقديمُه على الفاعل الذي هو قوله تعالى : ﴿ رجس ﴾ مع ما فيه من التشويق إلى المؤخّر ، ولأن فيه نوعَ طولٍ بما عُطف عليه من قوله تعالى : ﴿ وغضبٌ ﴾ فربما يُخِل تقديمُها بتجاوب النظمِ الكريم ، والرجسُ العذابُ من الارتجاس الذي هو الاضطرابُ ، والغضب إرادةُ الانتقامِ ، وتنوينُهما للتفخيم والتهويل ﴿ أتجادلونني في أسماء ﴾ عاريةٍ عن المسمى

﴿ سميتموها ﴾ أي سميتم بها ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ إنكارٌ (واستقباح) لإنكارهم مجيئَه عليه السلام داعياً لهم إلى عبادة الله تعالى وحده وتركِ عبادةِ الأصنام أي أتجادلونني في أشياءَ سمَّيتموها آلهةً ليست هي إلا محضُ الأسماءِ من غير أن يكون فيها من مصداق الإلهية شيءٌ ما لأن المستحِقَّ بمعبودية بالذات ليس إلا من أوجد الكلَّ وأنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى إما بإنزال آيةٍ أو نصبِ حُجةٍ وكلاهما مستحيلٌ، وذلك قوله تعالى: ﴿ ما نزل الله بها من سلطان ﴾ وإذ ليس ذلك في حيز الإمكانِ تحققَ بُطلانُ ما هم عليه ﴿ فانتظروا ﴾ مترتبٌ على قوله تعالى: ﴿ قد وقع عليكم ﴾ أي فانتظروا ما تطلُبونه بقولكم: فائتنا بما تعدنا، الخ ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ لما يَحِلُّ بكم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(105/275)

وقال الآلوسي:

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي وجب وثبت.

وأصل استعمال الوقوع في نزول الأجسام، واستعماله هنا فيما ذكر مجاز من إطلاق السبب على المسبب.

ويجوز أن يكون في الكلام استعارة تبعية والمعنى قد نزل عليكم ، واختار بعضهم أن ﴿ وقع ﴾ بمعنى قضى وقدر لأن المقدرات تضاف إلى السماء وحرف الاستعلاء على ذلك ظاهر ، وفي "الكشف" أن الوقوع بمعنى الثبوت وحرف الاستعلاء إما لأنه ثبوت قوي أكد ما يكون وآجبه أو لأنه ثبوت حسي لأمر نازل من علو وعذاب الله تعالى موصوف بالنزول من السماء فتدبر .

والتعبير بالماضي لتنزيل المتوقع منزلة الواقع كما في قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] .

مِّنْ رَّبِّكُمْ ﴾ أي من قبل مالك أمركم سبحانه وتعالى .

والجار والمجرور قيل : متعلق بمحذوف وقع حالاً مما بعد ، والظاهر أنه متعلق بالفعل قبله ، وتقديم الظرف الأول عليه مع أن المبدأ متقدم على المنتهي كما قال شيخ الإسلام للمسارعة إلى بيان إصابة المكروه لهم ، وكذا تقديمهما على الفاعل وهو قوله تعالى : ﴿ رِجْسٌ ﴾ مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر ولأن فيه نوع طول بما عطف عليه من قوله تعالى : ﴿ وَغَضَبٌ ﴾ فربما يخل تقديمهما بتجاوب النظم الكريم .

والرجس العذاب وهو بهذا المعنى في كل القرآن عند ابن زيد من الارتجاس وهو والارتجاز بمعنى حتى قيل : إن أصله ذلك فأبدلت الزاي سيناً كما أبدلت السين تاء في قوله : ألا لحى الله بني السعلات . . .

عمرو بن يربوع شرار الناتليسوا بأعفاف ولا أكيات

فإنه أراد الناس وأكياس .

وأصل معناه الاضطراب ثم شاع فيما ذكر لاضطراب من حل به ، وعليه فالعطف في قوله

: إذا سنة كانت بنجد محيطة . . .

وكان عليهم رجسها وعذابها

للتفسير .

والغضب عند كثير بمعنى إرادة الانتقام .

وعن ابن عباس أنه فسر الرجس باللعنة والغضب بالعذاب وأنشد له البيت السابق وفيه

خفاء .

(106/275)

والذاهبون إلى ما تقدم إنما لم يفسروه بالعذاب لئلا يتكرر مع ما قبله ، ولا يبعد أن يفسر

الرجس بالعذاب والغضب باللعن والطرد على عكس ما نسب إلى ابن عباس رضي الله

تعالى عنهما ويكون في الكلام حينئذٍ إشارة إلى حالهم في الأولى والأخرى .

ويمكن إرجاع ما ذكره الكثير من المفسرين إلى هذا وإلا فالظاهر أنه لا لطافة في قولك : وقع

عليهم عذاب وإرادة انتقام على ظاهر كلامهم .

وأياً ما كان فالتنوين للتفخيم والتهويل .

﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴾ إنكار واستقباح لإنكارهم مجيئه عليه السلام داعياً لهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك ما كان يعبد آباؤهم من الأصنام والأسماء عبارة عن تلك الأصنام الباطلة ، وهذا كما يقال لما لا يليق ما هو إلا مجرد اسم ، والمعنى أتخاصمونني في مسميات وضعتم لها أسماء لا تليق بها فسميتموها آلهة من غير أن يكون فيها من مصداق الإلهية شيء ما لأن المستحق للمعبودية ليس إلا من أوجد الكل وهي بمعزل عن إيجاد ذرة وأنها لو استحق لكان ذلك بجعله تعالى إما بإنزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل وذلك قوله تعالى : ﴿ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي حجة ودليل وحيث لم يكن ذلك في حيز الإمكان تحقق بطلان ما هم عليه .

والذم الذي يفهمه الكلام متوجه إلى التسمية الخالية عن المعنى المشحونة بمزيد الضلالة والغواية والافتراء العظيم ، وقيل : إنهم سموها خالقة ورازقة ومنزلة المطر ونحو ذلك .

والضمير المنصوب في ﴿ سميتموها ﴾ راجع لأسماء وهو على ما قيل المفعول الأول والمفعول الثاني محذوف حسبما أشير إليه .

وقيل : المفعول الأول محذوف والضمير هو المفعول الثاني والمراد سميتم أصنامكم بها .

وقيل : المراد من سميتموها وصفتموها فلا حاجة له إلى مفعولين ، وحمل الآية على ما ذكر

أولاً في تفسيرها هو الذي اختاره جمع وجوز بعضهم أن يكون الكلام على حذف مضاف أي أتجادلونني في ذوي أسماء .

(107/275)

وادعى آخرون جواز أن يكون فيه صنعة الاستخدام .

واستدل بالآية من قال : إن الاسم عين المسمى ومن قال : إن اللغات توقيفية إذ لو لم تكن كذلك لم يتوجه الإنكار والإبطال بأنها أسماء مخترعة لم ينزل الله تعالى بها سلطاناً ، ولا يخفى عليك ما في ذلك من الضعف .

﴿ فانتظروا ﴾ نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم : ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ [الأعراف : 70] لما وضح الحق وأنتم مصرون على العناد والجهالة ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ﴾ لنزوله بكم .

والفاء في ﴿ فانتظروا ﴾ للترتيب على ما تقدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(108/275)

وقال القاسمي :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ ﴾ أي : عذاب ، والرجس والرجز بمعنى ، حتى قيل إن أحدهما مبدل من الآخر ، كالأسد والأزد . وأصل معناه الإضطراب ، يقال : رجست السماء : رعدت شديداً وتمخضت ، وهم في مرجوسة من أمرهم ، أي : في اختلاط والتباس ، ثم شاع في العذاب لاضطراب من حل به .

وادعى بعضهم أن الرجس بمعنى العذاب مجاز ، قال : لأنه حقيقة في الشيء القذر ، فاستعير لجزائهم .

وظاهر اللغة أنه حقيقة ، ووجه التعبير بالماضي عما سيقع ، تنزيل المتوقع كالواقع كما في : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا ﴾ .

﴿ وَغَضَبٌ ﴾ أي : سخط لإشراكهم معه من هو في غاية النقص ، في أعلى كمالاته التي هي الإلهية .

﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ أي : في أشياء ما هي إلا أسماء وليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة ، ومعنى الإلهية فيها معدوم ومُحال وجوده .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ - كذا في الكشاف - .

قال الشهاب : جعل الأسماء عبارة عن الأصنام الباطلة ، كما يقال لما لا يليق : ما هو إلا

مجرد إسم ، فالمعنى : والضمير حينئذ راجع لأسماء وهي المفعول الأول للتسمية ، والثاني آلة ، ولو عكس لزم الإستخدام . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي : حجة ودليل على هذه التسمية ، لأن المستحق للمعبودية بالذات ليس إلا من أوجد الكل ، وإنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى ، إما بإنزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل ، فتحقق بطلان ما هم عليه .

(109/275)

قال الجشمي : دلت الآية على فساد التقليد ، حين ذمهم بسلوك طريقة آبائهم . وتدل على أن المعارف مكتسبة ، وتدل على بطلان كل مذهب لا دليل عليه .

ويدل

قوله : ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي ﴾ على أن المبطل مذموم في جداله ، والواجب عليه النظر ليعرف الحق . انتهى .

وقال القاضي : بين تعالى أن منتهى حجتهم وسندهم ، أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقيق المسمى ، وإسناد الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله ، إظهاراً لغاية جهالتهم ، وفرط غباوتهم .

﴿ فَانتَظِرُواْ ﴾ أي : نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم : ﴿ فَأْتِنا بِما تَعِدُنَا ﴾ ، لأنه وضح الحق ، وأنتم مصرون على العناد .

﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ أي : لما يحل بكم .

قال المهايمي : جاء منتظرهم بحيث لا ينجو منه بمجرى العادة أحد ، وجعل من قبيل الريح التي تتقدم الأمطار ، لكفرهم برياح الإرسال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 118.119 ﴾

(110/275)

وقال ابن عاشور :

والأظهر أنّ : ﴿ وقع ﴾ معناه حَق وثبت ، من قولهم للأمر المحقّق : هذا وَاقع ، وقولهم للأمر المكذوب : هذا غير واقع ، فالمعنى حَقّ وقُدر عليكم رجس وغضب .

فالرّجس هو الشّيء الخبيث ، أطلق هنا مجازاً على خبث الباطن ، أي فساد النّفس كما في قوله تعالى : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : 125] وقوله ﴿ كذلك يجعل الله الرّجس على الذين لا يؤمنون ﴾ [الأنعام : 125] .

والمعنى أصاب الله نفوسهم بالفساد لكفرهم فلا يقبلون الخير ولا يصيرون إليه ، وعن ابن

عبّاس أنّه فَسَّر الرّجس هنا باللّعنة ، والجمهور فسّروا الرّجس هنا بالعذاب ، فيكون فعل : ﴿ وقَعَ ﴾ من استعمال صيغة المضي في معنى الاستقبال ، إشعاراً بتحقيق وقوعه ؟

ومنهم من فسّر الرّجس بالسّخط ، وفسّر الغضب بالعذاب ، على أنّه مجاز مرسَل لأنّ العذاب أثر الغضب ، وقد أخبَر هود بذلك عن علم بوحي في ذلك الوقت أو من حين أرسله الله ، إذْ أعلمه بأنّهم إن لم يرجعوا عن الشّرك بعد أن يُبَلِّغهم الحجّة فإنّ عدم رجوعهم علامة على أنّ خبث قلوبهم متمكّن لا يزول ، ولا يرجى منهم إيمان ، كما قال الله لنوح : ﴿ لن يُؤمن من قومك إلاّ مَن قد آمن ﴾ [هود : 136] .

وغضب الله تقديره : الإبعاد والعقوبة والتّحقير ، وهي آثار الغضب في الحوادث ، لأنّ حقيقة الغضب : انفعال تنشأ عنه كراهيّة المغضوب عليه وإبعادُه وإضراره .

وتأخير الغضب عن الرّجس لأنّ الرّجس ، وهو خبث نفوسهم ، قد دلّ على أنّ الله فطرهم على خبث بحيث كان استمرارهم على الضّلال أمراً جِبلّياً ، فدلّ ذلك على أنّ الله غضب عليهم .

فوقوع الرجس والغضب عليهم حاصل في الزّمن الماضي بالنّسبة لوقت قول هود .

واقترانُه بـ ﴿ قد ﴾ للدّلالة على تقريب زمن الماضي من الحال : مثل قَد قامت الصّلاة .

وتقديم : ﴿ عليكم من ربّكم ﴾ على فاعل الفعل للاهتمام بتعجيل ذكر المغضوب والغاضب ، إيقاظاً لبصائرهم لعلّهم يبادرون بالتّوبة ، ولأنّ المجرورين متعلّقان بالفعل فناسب إيلاؤهما إياه ، ولو ذُكرا بعد الفاعل لتُوهِّم أنّهما صفتان له ، وقدم المجرور الذي هو ضميرهم ، على الذي هو وصف ربّهم لأنّهم المقصود الأوّل بالفعل .

ولمّا قَدّم إنذارهم بغضب الله عاد إلى الاحتجاج عليهم بفساد معتقدهم فأنكر عليهم أن يجادلوا في شأن أصنامهم .

والمجادلة : المحاجة .

وعبّر عن الأصنام بأنّها أسماء ، أي هي مجرّد أسماء ليست لها الحقائق التي اعتقدوها ووضعوا لها الأسماء لأجل استحضارها ، فبذلك كانت تلك الأسماء الموضوعة مجرّد ألفاظ ، لانتفاء الحقائق التي وضعوا الأسماء لأجلها .

فإنّ الأسماء توضع للمسمّيات المقصودة من التّسمية ، وهم إنّما وضعوا لها الأسماء واهتمّوا بها باعتبار كون الإلهيّة جزءاً من المسمَّى الموضوع له الاسم ، وهو الدّاعي إلى التّسميّة ، فمعاني الإلهية وما يتبعها ملاحظةٌ لمن وَضَع تلك الأسماء ، فلمّا كانت المعاني المقصودة من تلك الأسماء منتفية كانت الأسماء لا مسمّياتٍ لها بذلك الاعتبار ، سواء في ذلك ما كان منها له ذوات وأجسام كالتّماثيل والأنصاب ، وما لم تكن له ذات ، فلعلّ بعض

آلهة عاد كان مجرّد اسم يذكرونه بالإلهيّة ولا يجعلون له تمثالاً ولا نُصباً ، مثل ما كانت العزى عند العرب ، فقد قيل : إنهم جعلوا لها بيتاً ولم يجعلوا لها نصباً وقد قال الله تعالى في ذلك : ﴿ إن هي إلاّ أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ [النجم : 23] .

وذكر أهل الأخبار أنّ عادا اتّخذوا أصناماً ثلاثة وهي (صَمُود) بفتح الصّاد المهملة بوزن زَبُور .

(112/275)

و ﴿ صُداء ﴾ بضمّ الصّاد المهملة مضبوطاً بخط الهَمَذاني محشي "الكشاف" في نسخة من حاشيته المسمّاة "توضيح المشكلات" ومنسوخة بخطّه ، وبدال مهملة بعدها ألف ولم أقف على ضبط الدّال بالتّشديد أو بالتّخفيف : وقد رأيت في نسخة من "الكشاف" مخطوطة موضوعاً على الدّال علامة شدّ ، ولستُ على تمام الثّقة بصحّة النّسخة ، وبعد الألف همزة كما هو في نسخ "الكشاف" و "تفسير البغوي" ، وكذلك هو في أبيات موضوعة في قصّة قوم عاد في كتب القَصص .

ووقع في نسخة "تفسير ابن عطيّة" وفي "مروج الذّهب" للمسعودي ، وفي نسخه من شرح

ابن بدرون على قصيدة ابن عبدون الأندلسِي بدون همزة بعد الألف) .

و(الهباء) بالمدّ في آخره مضبوطاً بخطّ الهمذاني في نسخة حاشيته على "الكشاف" ، وفي نسخة "الكشاف" المطبوعة ، وفي "تفسيري" البغوي والخازن ، وفي الأبيات المذكورة آنفاً .

ووقع في نسخة قلمية من "الكشاف" بألف دون مدّ .

ولم أقف على ضبط الهاء ، ولم أر ذكر صداء والهباء فيما رأيت من كتب اللّغة .

وعطف على ضمير المخاطبين : ﴿ وآبَاؤكم ﴾ لأنّ من آبائهم من وضع لهم تلك الأسماء ، فالواضعون وضعوا وسَمَّوْا ، والمقلّدون سمَّوْا ولم يضَعوا ، واشترك الفريقان في أنّهم يذكرون أسماء لا مسمّيات لها .

و﴿ سمّيتموها ﴾ معناه : ذكرتموها بألسنتكم ، كما يقال : سمّ الله ، أي ذاكر اسمه ، فيكون سمّى بمعنى ذكر لفظ الاسم ، والألفاظ كلّها أسماء لمدلولاتها ، وأصل اللّغة أسماء قال تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلّها ﴾ [البقرة : 31] ، وقال لبيد :

إلى الحول ثمّ اسمُ السّلامُ عليكُما . . .

أي لفظه .

وليس المراد من التّسمية في الآية وضع الاسم للمسمّى ، كما يقال : سمّيت ولدي كذا ، لأنّ المخاطبين وكثيراً من آبائهم لاحظّ لهم في تسميّة الأصنام ، وإنّما ذلك من فعل بعض الآباء وهم الذين انتحلوا الشّرك واتّخذوه ديناً وعلّموه أبناءهم وقومهم ، ولأجل هذا المعنى المقصود من التّسمية لم يُذكر لفعل "سمّيتم" مفعول ثان ولا متعلّق ، بل اقتصر على مفعول واحد .

والسلطانُ : الحجّة التي يصدّق بها المخالفُ ، سمّيت سلطاناً لأنّها تتسلّط على نفس المعارض وتقنعه ، ونَفَى أن تكون الحجّة منزلة من الله لأنّ شأن الحجّة في مثل هذا أن يكون مخبَراً بها من جانب الله تعالى ، لأنّ أمور الغيب ممّا استأثر الله بعلمه .

وأعظم المغيّبات ثبوت الإلهيّة لأنّها قد يَقصر العمل عن إدراكها فمن شأنها أن تُتلقى من قبل الوحي الإلهي .

والفاء في قوله : ﴿ فانتظروا ﴾ لتفريع هذا الإنذار والتّهديد السّابق ، لأنّ وقوع الغضب والرّجس عليهم ، ومكابرتهم واحتجاجهم لما لا حجّة له ، ينشأ عن ذلك التّهديد بانتظار العذاب .

وصيغة الأمر للتّهديد مثل : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : 40] .

والانتظار افتعال من النّظر بمعنى التّرقّب ، كأنّ المخاطب أُمِر بالتّرقّب فارْتقبَ .

ومفعول : ﴿ انتظروا ﴾ محذوف دلّ عليه قوله : ﴿ رجس وغضب ﴾ أي فانتظروا عقاباً .

وقوله : ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ استيناف بياني لأنّ تهديده إياهم يثير سؤالاً في نفوسهم أن يقولوا : إذا كنّا ننتظر العذاب فماذا يكون حالُك ، فبيّن أنّه ينتظر معهم ، وهذا مقام أدب مع الله تعالى كقوله تعالى تَلْقِيناً لرسوله محمّد صلى الله عليه وسلم "وما أدري ما يفعل بي ولا بكم" فهودٌ يخاف أن يشمله العذاب النّازل بقومه وذلك جائز كما في الحديث : أنّ أمّ سلمة قالت : "أنهلك وفينا الصّالحون" قال : " نعم إذا كثر الخبث " .

(114/275)

وفي الحديث الآخر : " ثمّ يحشرون على نيّاتهم " ويجوز أن ينزّل بهم العذاب ويراه هود ولكنّه لا يصيبه ، وقد روي ذلك في قصّته ويجوز أن يبعده الله وقد روي أيضاً في قصته بأن يأمره بمبارحة ديار قومه قبل نزول العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(115/275)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾

لقد كان يكلمهم ويكلمونه ، قالوا له : ائتنا بالعذاب ، فقال لهم : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ ، فكيف يقول وقع ؟ لقد قال ذلك لأنه يخبر عن الله . و " وقع " فعل ماض ، لكنا نعلم أن كلام الله مجرد عن الزمان ماضياً كان أو حاضرا ، أو مستقبلا ، لقد قال سيدنا هود : " وقع " والعذاب لم يقع بعد ، لكن لما كان قوله بلاغاً عن الله فإنّه يؤكد وقوع العذاب حتماً ؛ لأن الذي أخبر به قادر لما كان قوله بلاغاً عن الله فإنّه يؤكد وقوع العذاب حتماً ؛ لأن الذي أخبر به قادر على إنقاذه في أي وقت ، ولا إله آخر ولا قوة أخرى قادرة على أن تمنع ذلك . والذي وقع عليهم هو الرجس ، والرجس أي التقذير ، ضد التزكية والتطهير . وغضب الله الواقع لم تحدده هذه الآية . لكن لا بد أن له شكلاً سيقع به .

ويسائلهم هو ساخراً : ﴿ أتجادلونني في أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنْتُمْ وَآبَآؤُكُمْ ﴾ ، وكل اسم يكون له مسمى ، وهذه الأسماء أنتم أطلقتموها على هذه الآلهة ، هل لها مسميات حقيقة لِتُعبد ؟ . لا ، بل أنتم خلعتم على ما ليس بإله أنه إله ، وهذه أسماء بلا مسميات ، وأنتم في

حقيقة الأمر مقلدون لآبائكم . وما تعبدونه أسماء بلا سلطان من الإله الحق . ﴿ مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [الأعراف : 71]

(116/275)

أي ليس لهذه الأسماء من حجة على ما تقولون ، بدليل أنهم كانوا يسمون في الجاهلية إلهاً باسم " العزّى " وعندما يكسرونه لا يجدون عزاً ولا شيئاً ؛ لأن هذا الإله المزعوم لم يدفع عن نفسه ، فكيف يكون إلهاً وقيّوما على غيره ؟ وكذلك سموا " اللات " أي الله ومضاف له التاء ، وعندما يكسرونه لا يجدون له قوة أو جبروتاً أو طغياناً .

ويقول هود لقومه ما يؤكد وقوع العذاب : ﴿ . . . فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ﴾ [الأعراف : 71]

وقوله : ﴿ فانتظروا ﴾ ، جعلنا نفهم قوله السابق : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ بأن الرجس والغضب قادمان لا محالة . صحيح أنه عبر عن ذلك بالفعل الماضي ، ولكن لنقرأ قوله الحق : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . ﴾ [النحل : 1] و " أتي " فعل ماضٍ ، وفي الظاهر أنه يناقض قوله : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ لأن الاستعجال يدل على أنّ الحدث لم يأت زمنه بعد . ولكن لنا أن نعلم أن الذي أخبر هو الله ، ولا توجد

قوة ثانية تغير مرادات الله أن تكون أو لا تكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ

﴾

(117/275)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أَتُجَادِلُونَنِي " استفهام على سبيل الإنْكَارِ في أسماء الأصنام وذلك أنهم كانوا يسمون الأَصْنَامَ بالآلهة ، مع أن معنى الإلهية فيها معدومٌ ، سموا واحداً منها بالعُزَّي مشتقاً من العزِّ ، والله - تعالى - ما أعطاه عِزّاً أصلاً ، وسمُّوا آخر منها باللاَّتِ ، وليس له من الإلهية شيء .

قوله : " سَمَّيْتُمُوهَا " صفة لـ " أَسْمَاء " ، وكذلك الجملة من قوله : ﴿ مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ يُدلُّ على خلوِّ مذاهبهم عن الحُجَّةِ .

و " مِنْ سُلْطَانٍ " مفعول " نزَّلَ " ، و " مِنْ " مزيدةٌ ، ثمَّ إنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذكر لهم وعيداً مجرَّداً فقال : فانتظروا ما يحصل لكم من عبادة الأَصْنَامِ إنِّي معكم من المنتظرين .

فقوله : " مِنَ المُنْتَظِرِيْنَ " خبر " إني " ، و " مَعَكُمْ " فيه ما تقدَّم في قوله : إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ

الناصحين ﴾ ، ويجوزُ – وهو ضعيف – أن يكون " مَعَكُمْ " هو الخبر و" مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ " حال ، والتقديرُ : إني مصاحبكم حال كوني من المنتظرين النّصر والفرج من الله ، وليس بذلك ؛ لأنَّ المقصُودَ بالكلامِ هو الانتظار ، لمقابلة قوله : " فانْتَظِرُوا " فلا يُجعل فضلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 190 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) ﴾

إذا أراد اللهُ هوانَ عبدٍ طَرَحَه في مفازات التفرقة ؛ وإنَّ من علامات غضبه وإعراضه ردَّ العبد إلى شهود الأغيار ، وتغريقَه إياه في بحار الظنون ، إذ لا تحصيل للأغيار في معنى الإثبات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 546 ﴾

(118/275)

قوله تعالى ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا ينبغي أن يكون سبباً للتصديق الذي هو سبب الرحمة ، بين أنه إنما سبب لهم العذاب ، وله ولمن تبعه النجاة ، فبدأ بالمؤمنين اهتماماً بشأنهم بقوله : ﴿ فأنجيناه ﴾ أي بما لنا من العظمة إنجاء وحيّاً سريعاً سللناهم به من ذلك العذاب كسل الشعرة من العجين ﴿ والذين معه ﴾ أي في الطاعة ، وأشار إلى أنه لا يجب على الله شيء بقوله : ﴿ برحمة ﴾ أي بإكرام وحياطة ﴿ منا ﴾ أي لا بعمل ولا غيره .

(119/275)

ولما قدم الإنجاء اهتماماً به ، أتبعه حالهم فقال معلماً بأن أخذه على غير أخذ الملوك الذين يعجزون عن الاستقصاء في الطلب ، فتفوتهم أواخر العساكر وشذاب الجنود والأتباع ﴿ وقطعنا ﴾ دابرهم أي آخرهم ، هكذا كان الأصل ، ولكنه أظهر تصريحاً بالمقصود وبياناً لعلة أخذهم فقال : ﴿ دابر ﴾ أي آخر ، أي استأصلنا وجعلنا ذلك الاستئصال معجزة لهود عليه السلام ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي ولم يراقبوا عظمتها بالنسبة إلينا وقوله : ﴿ وما كانوا ﴾ أي خلقاً وجبلة ﴿ مؤمنين ﴾ عطف على صلة ﴿ الذين ﴾

وهي ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ وهي جارية مجرى التعليل لأخذهم مؤذنة بأنه لا يحصل منهم صلاح كما ختم قصة نوح بقول ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ [الأعراف : 64] تعليلاً لإغراقهم ، أي أنا قطعنا دابرهم وهم مستحقون لذلك ، لأنهم غير قابلين للايمان لما فيهم من شدة العناد ولزوم الإلحاد ، فالمعنى : وما كان الإيمان من صفتهم ، أي ما آمنوا في الماضي ولا يؤمنون في الآتي ، فيخرج منه من آمن وكان قد كذب قبل إيمانه ومن لم يؤمن في حال دعائه لهم وفي علم الله أنه سيؤمن ، ويزيده حسناً أنهم لما افتتحوا كلامهم بأن نسبوه إلى السفاهة كاذبين ؛ ناسب ختم القصة بأن يقلب الأمر عليهم فيوصفوا بمثل ذلك صدقاً بكلام يبين أن اتصافهم به هو الموجب لما فعل بهم ، لأن الإيمان لا يصدر إلا عن كمال الثبات والرزانة وترك الهوى وقمع رعونات النفس والانقياد لواضح الأدلة وظاهر البراهين ، فمن تركه مع ذلك فهو في غاية الطيش والخفة وعدم العقل ، وأيضاً فوصفهم بالتكذيب بالفعل الماضي لا يفهم دوامهم على تكذيبهم ، فقال سبحانه ذلك لنفي احتمال أنهم آمنوا بعد التكذيب وأن أخذهم إنما كان لمطلق صدور التكذيب منهم ، وأنهم لم يبادروا إلى الإيمان قبل التكذيب ، ويحتمل أن تكون الجملة حالاً ، والمعنى على كل تقدير : قطعنا دابرهم في حال تكذيبهم وعدم إيمانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 56 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى أخبر عن عاقبة هذه الواقعة فقال : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ﴾ إذ كانوا مستحقين للرحمة بسبب إيمانهم ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بالآيات التي جعلناها معجزة لهود ، والمراد أنه تعالى أنزل عليهم عذاب الاستئصال الذي هو الريح ، وقد بين الله كيفيته في غير هذا الموضع ، وقطع الدابر : هو الاستئصال ، فدل بهذا اللفظ أنه تعالى ما أبقى منهم أحداً ، ودابر الشيء آخره .

فإن قيل : لما أخبر عنهم بأنهم كانوا مكذبين بآيات الله لزم القطع بأنهم ما كانوا مؤمنين ، فما الفائدة في قوله بعد ذلك : ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ .

قلنا : معناه أنهم مكذبون ، وعلم الله منهم أنهم لو بقوا لم يؤمنوا أيضاً ، ولو علم تعالى أنهم سيؤمنون لأبقاهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 130 . 131 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾

يعني : بنعمة منا عليهم ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : قطع أصلهم

واستأصلهم ﴿ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : أن الذين أهلكهم الله تعالى كلهم كانوا كافرين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(121/275)

وقال الثعلبي :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾ يعني هوداً عند نزول العذاب .

﴿ والذين مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ أي استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم ﴿ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وكانت قصّة عاد وهلاكهم على ما ذكره محمد بن إسحاق والسدي وغيرهما من الرواة والمفسّرين : إن عاداً كانوا ينزلون اليمن وكان مساكنهم منها بالشجرة والأحقاف ، وهي رمال يقال لها رمل عالج (ودمما ويبرين) ما بين عمان إلى حضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض فكلّها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله عزّ وجلّ وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله صنم يقال له : صنا ، وصنم يقال له : صمود ، وصنم يقال لها : الهبار .

فبعث الله عزّ وجلّ إليهم هوداً نبيّاً وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً وأمرهم أن يوحدوا الله ولا يشركوا معه إلهاً غيره ، وأن يكفّوا عن ظلم الناس [ولم] يأمرهم فيما تذكر

بغير ذلك .

فأبوا عليه وكذّبوه وقالوا : مَنْ أشد منّا قوّة ، وبنوا المصانع وبطشوا بطشة الجبارين كما ذكر الله تعالى فلما فعلوا ذلك أمسك الله المطر عنهم ثلاث سنين حتّى جهدهم ذلك .

وكانت الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو حرب دعوا إلى الله الفرج وطلبتهم إلى الله عند البيت الحرام بمكّة مسلمهم ومشركهم فتجتمع بمكّة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم وكلّهم معظّم لمكّة عارف بحرمتها ومكانها من الله عزّ وجلّ . وأهل مكّة يومئذ العماليق وإنّما سُمّوا العماليق لأن أباهم عمليق بن لاود بن سام بن نوح وكان سيّد العماليق إذ ذاك بمكة رجل يقال له : معاوية بن بكر وكانت أم معاوية كلهدة بنت [الخيبري] رجل من عاد الأكبر فلمّا قحط المطر عن عاد [وجمدوا] قال : جهزوا وفداً إلى [أن يستسقوا] لكم فبعثوا قيل بن عنز ولقيم بن هزال وعتيل بن ضد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عقير .

(122/275)

وكان مسلماً يكتم إسلامه وجهلمة بن الخيبري ، قال معاوية بن بكرة : ثمّ بعثوا لقمان ابن عاد بن صد بن عاد الأكبر ، فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه رهط من قومه حتّى بلغ [عدّة فعدّهم] سبعين رجلاً فلمّا قدموا مكّة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكّة

خارجاً من الحرم . فأنزلهم وأكرمهم وكانوا إخوانه وأصهاره فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية بن بكر ، وكان مسيرهم شهراً ومقامهم شهراً ، فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوّثون من البلاء الذي أصابهم أشفق ذلك عليه وقال : هلك إخواني وأصهاري وهؤلاء يقيمون عندي وهم ضيفي والله ما أدري كيف أصنع بهم إنّي لأستحي أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا له فيظنون أنّه ضِيق منّي ببقائهم عندي ، وقد هلك من ورائهم من قومهم [جدباً] وعطشاً ، فشكى ذلك من أمرهم إلى قينيتيه الجرادتين فقالتا : اصنع شعراً نغني به لا يدرون من قاله لعلّ ذلك [يحرّكهم] .

فقال معاوية بن بكر :

لعل الله يسقينا غماماً . . . ألا يا قيل ويحك قم فهينم

قد أمسوا لا يبينون كلاما . . . فيسقي أرض عاد ان عاداً

به الشيخ الكبير ولا الغلاما . . . من العطش الشديد فليس نرجو

فقد أمست نساؤهم عيامىً . . . وقد كانت نسائهم بخير

ولا يخشى لعادي سهاماً . . . وإن الوحش يأتيهم جهاراً

نهاركم وليلكم إلتماما . . . وأنتم ههنا فيما أشتهيتم

قوم ولا لقوا التحيّة والسلاما . . . فقبح وفدكم من وفد

فلما قال الشعر غنتهم به الجرادتان فلما سمع القوم قال بعضهم لبعض : إنّما بعثكم قومكم يتغوّثون بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم وقد أطلتم عليهم فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم ، وقال مرثد بن سعد بن عفير : إنكم والله ما تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيّكم وأنبتم إليه سقيتم ، فأظهر إسلامة عند ذلك فقال جلهمة بن [الخيبري] خال معاوية حين سمع قوله وعرف أنّه اتبع دين هود (عليه السلام) :

(123/275)

ذوي كرم وأُمك من ثمود . . . أبا سعد فإنّك من قبيل

ولسنا فاعلين لما تريد . . . . فإنا لا نطيعك ما بقينا

ورمل والصداء مع الصمود . . . . أتأمرنا لنترك دين رفد

ذوي رأي ونتبع دين هود . . . ونترك دين آباء كرام

ثم قال لمعاوية بن بكر وأبيه بكر وكان شيخاً كبيراً : [احبسا] عنّا مرثداً بن سعد فلا يدخل معنا مكّة فإنّه اتبع دين هود وترك ديننا .

ثمّ خرجوا إلى مكّة يستسقون بها لعاد فلمّا ولّوا إلى مكّة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتّى أدركهم بها فقال : لا أدعو الله عزّ وجلّ بشيء مما خرجوا له ، فلما أنتهى إليهم

قام يدعو الله وهم قد اجتمعوا يدعون الله ويقول : اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني في شيء مما يدعونك ، وكان قيل بن عنز على رأس وفد عاد ، وقال وفد عاد : اللّهمّ أعطه ما سألك واجعل سؤالنا مع سؤاله ، وكان [قد تخلف] عن وفد عاد حين دعا لقمان بن عاد وكان سيّد عاد حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال : اللّهمّ إنّي جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي وسأل الله عزّ وجلّ طول العمر . فعمّر عمر سبعة أنسر . وقال : قيل بن عنز : [يا إلهنا] إن كان هود صادقاً فاسقنا فإنّا قد هلكنا .

وقال : اللّهمّ إنّي لم [أجيء] لمريض فأُداويه ولا لأسير فأُناديه ، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه فأنشأ الله عزّ وجلّ له [سحائب] ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثمّ نادى مناد من السماء : يا قيل اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب ما شئت ، فقال قيل : اخترتُ السحابة السوداء فإنّها أكبر السحب ، فناداه مناد قد اخترت رماداً رمدداً ، لا تبقى من عاد أحداً ، لا والداً ولا ولدا ، إلا جعلتهم همداً ، إلا بني اللوذية المهدا .

وبنو اللوذية هم بنو لقيم بن هزال بن هزيلة بن بكر فكانوا سكان بمكّة مع أخوالهم ولم يكونوا مع عاد بأرضهم وعاد الآخر كان من نسل الذي بقوا من عاد .

ونادى الله عزّ وجلّ السحابة السوداء التي اختارها قيل : [فيها من النقمة] من عاد حتّى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : 24] يقول الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : 24-25] .

وكان أول من أبصر ما فيها وعرف إنّها ريح امرأة من عاد يقال لها : مهدر ، فلمّا أتت عليهم صاحت وصعقت .

فلما أفاقت قالوا : ماذا رأيت ؟ قالت : رأيت ريحها فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ [الحاقة : 7] أي دائمة فلم يدع من عاد أحداً إلاّ هلك .

فاعتزل هود (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبها ومن ريح إلاّ ما تلين عليه الجلود وتلتذ الأنفس . وإنها لترتفع بعاد والظعن إلى ما بين السماء والأرض وتدفعهم بالحجارة .

وخرج وفد عاد من مكّة حتّى مرّوا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة له في ليلة مقمرة مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر . فقالوا له : فأين فارقت هود وأصحابه ؟ قال : فارقتهم بساحل البحر وكأنّهم شكوا فيما حدّثهم به فقالت هذيلة بنت بكر : صدق ورب مكّة .

وذكروا أنّ مراد بن سعد ولقمان بن عاد ، وقيل : بن عنز حين دعوا بمكّة قيل لهم قد أعطيتهم مناكم فاختاروا لأنفسكم إلاّ أنّه لا سبيل إلى الخلود ولابد من الموت فقال مهد : اللهم أعطني [برّاً وصدقاً] فأعطي ذلك . وقال لقمان : أعطني يارب عمراً ، فقيل له : اختر لنفسك بقاء سبع بعرا تسمر من أظب عفر في جبل وَعَر لا يمسها القطر ، أو بقاء سبعة أنسر إذا مضى نسر خلف بعده نسر واختار سبعة أنسر فعمر لقمان عمر سبعة أنسر يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضة ويأخذ الذكر منها لقوته حتّى إذا مات أخذ غيره ، ولم يزل يفعل ذلك حتّى على السابع ، وكان كل نسر يعيش مئتي سنة وكان آخرها لبد ، فلما مات لبد مات لقمان معه .

وأما قيل : فإنّه اختار أن يصيبه ما أصاب قومه فقيل له : أنّه الهلاك فقال : لا أُبالي لا حاجة لي في البقاء بعدهم فأصابه الذي أصاب عاداً من العذاب فهلك .

عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أوحى الله إلى الريح العقيم أن تخرج على قوم عاد فتنتقم له منهم ، فخرجت بغير كيل على قدر منخر ثور حتّى رجفت الأرض ما بين المشرق والمغرب فقال [الخزان] يارب لن نطيقها ، ولو خرجت على حالها لأهلكت ما

بين مشارق الأرض ومغاربها فأوحى الله إليها أن ارجعي فاخرجي على قدر خرق الخاتم [فرجعت] فخرجت على قدر خرق الخاتم وهي الخلقة .

عن عاصم بن عمرو والبجلي عن أبي أُمامة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يبيت قوم من هذه الأُمّة على طعام وشراب ولهو فيصبحون قردةً وخنازير وليصيبنّهم خسف وقذف فيقولون : لقد خسف الليلة [ببنيّ] فلان وخسف الليلة بدار فلان وليرسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عاداً بشربهم الخمور وأكلهم الربا وإتخاذهم القينات ولبسهم الحرير وقطعهم الأرحام " .

(126/275)

وفي الخبر : أنّه أُرسل عليهم من الريح قدر ما تجري في خاتم ، قال السدي : بعث الله إلى عاد الريح العقيم فلمّا دنت منهم نظروا إلى [الإبل] والرجال تطير بهم الريح من السماء والأرض فلمّا رأوها [بادروا] إلى البيوت فلمّا دخلوا البيوت دخلت عليهم وأهلكتهم فيها ثمّ أخرجتهم من البيوت ، فلمّا أهلكهم الله أرسل عليهم طيراً سوداً فلقطتهم إلى البحر وألقتهم فيه ولم تخرج ريح قط إلاّ مكيال إلاّ يومئذ فإنّها عتت على الخزنة فقلبتهم فلم يعلموا كم مكيالها .

وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة : سمعت عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثباً أحمر يخالطه مدرة حمراء وسدر كثير بناحية كذا وكذا من حضرموت ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، والله إنّك لتنعته نعت رجل قد رآه ، وقال : ولكنّي قد حُدّثت عنه ، فقال الحضرمي : [وما شأنه] يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود صلوات الله عليه .

عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أنّه قال : بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيّاً وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل في تلك البقعة .

وفي رواية أُخرى : وكان النبيّ من الأنبياء إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه إلى مكّة بمن معه فيعبدون الله فيها حتّى يموتوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(127/275)

وقال ابن عطية :

الضمير في قوله " أنجيناه " عائد على " هود " أي أخرجه الله سالماً ناجياً مع من اتبعه من المؤمنين برحمة الله وفضله ، وخرج هود ومن آمن معه حتى نزلوا مكة فأقاموا بها حتى ماتوا

﴿ وقطعنا دابر ﴾ استعارة تستعمل فيمن يستأصل بالهلاك ، و" الدابر " الذي يدبر القوم ويأتي خلفهم : فإذا انتهى القطع والاستئصال إلى ذلك فلم يبق أحد وقوله ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ دال على المعجزة وإن لم تتعين لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(128/275)

وقال الخازن :

﴿ فأنجيناه ﴾ يعني فأنجينا هوداً عند نزول العذاب بقومه ﴿ والذين معه برحمة منا ﴾ يعني وأنجينا أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه لأنهم كانوا مستحقين للرحمة ﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ﴾ يعني وأهلكنا الذين كذبوا هوداً من قومه وأراد بالآيات معجزات هود عليه الصلاة والسلام الدالة على صدقه وهذا هلاك استئصال فهلكوا جميعاً ولم يبق منهم واحد ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ يعني لأنهم لم يكونوا مصدقين بالله ولا برسوله هود عليه الصلاة والسلام :

(ذكر قصة عاد على ما ذكره محمد بن إسحاق وأصحاب السير والأخبار)

(129/275)

قالوا جميعاً : كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله تعالى فيهم هوداً عليه الصلاة والسلام الأحقاف والأحقاف الرمل فيما بين عمان وحضرموت من أرض اليمن وكانوا قد فسقوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي جعلها الله فيهم وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عز وجل صنم يقال له صداء ، وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء فبعث الله عز وجل فيهم هودا عليه الصلاة والسلام وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم بغير ذلك فيما ذكر فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس فأمنوا به وهم يسير يكتمون إيمانهم وكان ممن صدقه وآمن به رجل يقال له مرثد بن سعد بن عفير وكان يكتم إيمانه فلما عتوا على الله وكذَّبوا نبيهم وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية واتخذوا المصانع لعلهم يخلدون فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد يطلبون الفرج من الله عز وجل وذلك عند بيته الحرام بمكة مؤمنهم ومشركهم وكان يجتمع بمكة ناس كثير مختلفة أديانهم وكل معظم مكة معترف بحرمتها ومكانها من الله عز وجل وكان البيت معروفاً مكانه من الحرم وكان سكان مكة يومئذ العماليق وإنما سموا العماليق لأن أباهم كان عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيد العماليق يومئذ رجلاً يقال له معاوية بن بكر

وكانت أم معاوية كلهدة بنت الخيبري وهو رجل من عاد وكانت عاد أخوال معاوية سيد العماليق فلما قحطت عاد وقلَّ عنهم المطر قالوا : جهزوا منكم وفداً إلى مكة ليستسقوا لكم فإنكم هلكتم فبعثوا قيل بن عنز ونعيم بن هزال من هزيل وعقيل بن صنديد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلماً يكتم إسلامه وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر سيد العماليق ولقمان بن عاد فانطلق كل رجل من هؤلاء

(130/275)

القوم ومعه جماعة من قومه فبلغ عدد وفد عاد سبعين رجلاً فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم عنده وقد بعثهم قومهم يتغوثون لهم من البلاء الذي أصابهم شق ذلك عليه وقال هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي نازلون عليّ والله ما أدري كيف أصنع فإني أستحي أن آمرهم بالخروج لما بعثوا إليه فيظنوا أنه ضيق مني بمكانهم عندي وقد هلك مَن وراءهم من قومهم جهداً وعطشا قال وشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعراً نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك لأن

يحركهم فقال معاوية .

ألا يا قيل ويحك قم فهينم . . .

لعل الله يسقينا غماما

فيسقي أرض عاد إن عاداً . . .

قد أمسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس . . .

نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما

وقد كانت نساؤهمو بخير . . .

فقد أمست نساؤهم أيامى

وإن الوحش تأتيهم جهارا . . .

ولا تخشى لعادي سهاما

وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم . . .

نهاركمو وليلكمو تماما

فقبح وفدكم من وفد قوم . . .

ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية هذا الشعر وغنتهم به الجرادتان وعرف القوم ما غنتا به قال بعضهم لبعض

: يا قوم إنما بعثكم قومك ليتغوثوا بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليه فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال مرثد بن سعد بن عفير : إنكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى ربكم سقيتم وأظهر إسلامه عند ذلك وقال في ذلك :

عصت عاد رسولهم فأمسوا . . .

عطاشاً ما تبلهم السماء

لهم صنم يقال له صمود . . .

يقابله صداء والهباء

فبصرنا الرسول سبيل رشد . . .

فأبصرنا الهدى وجلا العماء

وأن إله هود هو إلهي . . .

على الله التوكل والرجاء

زاد في الرواية :

(131/275)

لقد حكم الإله وليس جوراً . . .

وحكم الله إن غلب الهواء

على عاد وعاد شر قوم . . .

فقد هلكوا وليس لهم بقاء

وإني لن أفارق دين هود . . .

طول الدهر أو يأتي الفناء

فقال جلهمة بن الخيبري مجيباً لمرثد بن سعد حين فرغ من مقالته وعرف أنه اتبع دين هود وآمن به :

ألا يا سعد إنك من قبيل . . .

ذوي كرم وأمك من ثمود

فإنا لا نطيعك ما بقينا . . .

ولسنا فاعلين لما تريد

أتأمرنا لنترك دين وفد . . .

ورمل والصداء مع الصمود

ونترك دين آباء كرام . . .

ذوي رأي ونتبع دين هود

ثم قال جلهمة لمعاوية بن بكر وأبيه بكر احبسا عنا مرثداً فلا يقدمن معنا مكة فإنه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد فلما ولوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا إليه فلما انتهى إليهم قام يدعو الله وبها وفد عاد يدعونه فقال مرثد : اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني فيما يدعوك به وفد عاد ، وقام قيل بن عنز رأس وفد عاد يدعو فقال : اللهم أعط قيلاً ما سألك .

وقال الوفد معه : واجعل سؤلنا مع سؤله .

(132/275)

وكان قد تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى إذا فرغوا من دعواتهم قال لقمان فقال : اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي وسأل طول العمر فعمر عمر سبعة أنسر وقال قيل بن عنز حين دعا يا إلهنا إن كان هود صادقاً فاسقنا فإنا قد هلكنا فأنشأ الله تعالى سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لقومك ولنفسك من هذه السحاب فقال قيل : قد اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رماداً رمدداً لا يبقى من آل عاد أحداً

وساق الله تعالى السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث لما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله عز وجل : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء ﴾ أي كل شيء مرت به بأمر ربها وكان أول من أبصر ما فيه وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد فلما عرفت ما فيه من العذاب صاحت ثم صعقت لما أن أفاقت قالوا لها ماذا رأيت قال رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فلم تدع من آل عاد أحداً إلا أهلكه واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ به الأنفس وإنها في وقتها لتمر بالظعن من عاد فتحملها بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل إليه رجل على ناقة في ليلة مقمرة وذلك مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر فقالوا له : أين فارقت هوداً وأصحابه ؟ : فقال : فارقتهم بساحل البحر وكأنهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هذيلة بنت بكر : صدق رب الكعبة .

(133/275)

وقال السدي بعث الله عز وجل على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فلما رأوها تبادروا إلى البيوت فدخلوها وأغلقوا الأبواب ، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم ودخلت عليهم فأهلكتهم فيها ثم أخرجتهم من البيوت فلما أهلكتهم أرسل الله تعالى عليهم طيراً أسود فنقلهم إلى البحر فألقاهم فيه ، وقيل : إن الله تعالى أمر الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام يسمع لهم أنين تحت الرمل ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل ثم احتملتهم فرمت بهم في البحر ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها وفي الحديث " إنما خرجت على مثل خرق الخاتم " وقيل : إن مرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل ابن عنز حين دعوا بمكة قيل لهم أعطيتم مُناكم فاختاروا لأنفسكم غير أنه لا سبيل إلى الخلود ولا بد من الموت فقال مرثد : اللهم أعطني براً وصدقاً فأعطي ذلك ، وقال لقمان : اللهم أعطني عمراً فقيل له اختر فاختار عمر سبعة أنر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة وكان يأخذ الذكر لقوته فيربيه حتى يموت فإذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة وكان السابع من النسور اسمه لبد فلما مات لبد مات لقمان معه .

وأما قيل فإنه اختار لنفسه ما يصيب قومه فقيل له إنه الهلاك فقال لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعد قومي فأصابه الذي أصاب عاداً فهلك ومَن معه من الوفد الذين خرجوا

يستسقون لعاد فأتت الريح لما خرجوا من الحرم فأهلكتهم جميعاً فلما أهلك الله عاداً ارتحل هود ومن معه من المؤمنين من أرضهم بعد هلاك قومه إلى موضع يقال له الشجر من أرض اليمن فنزل هناك ثم أدركه الموت فدفن بأرض حضرموت .

(134/275)

يروى عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أن قبر هود عليه الصلاة والسلام بحضرموت في كثيب أحمر وقال عبد الرحمن بن شبابة : بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعين نبياً وأن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام في تلك البقعة ويروى أن كل نبي من الأنبياء كان إذا هلك قومه جاء هو والصالحون من قومه معه إلى مكة يعبدون الله تعالى حتى يموتوا بها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(135/275)

وقال أبو حيان :

﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ﴾

يعني من آمن معه ﴿ برحمة ﴾ سابقة لهم من الله وفضل عليهم حيث جعلهم آمنوا فكان ذلك سبباً لنجاتهم مما أصاب قومهم من العذاب .

﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك بالعذاب وتقدّم الكلام في ﴿ دابر ﴾ في قوله ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ وفي قوله ﴿ الذين كذبوا ﴾ تنبيه على علة قطع دابرهم وفي قوله ﴿ بآياتنا ﴾ دليل على أنه كانت لهود معجزات ولكن لم تذكر لنا بتعيينها .

﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ جملة مؤكدة لقوله ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ ويحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى أنهم ممن علم الله تعالى أنهم لو بقوا لم يؤمنوا أي ما كانوا ممن يقبل إيماناً البتة ولو علم الله تعالى أنهم يؤمنون لأبقاهم وذلك أنّ المكذّب بالآيات قد يؤمن بها بعد ذلك ويحسن حاله فأما من حتم الله عليه بالكفر فلا يؤمن أبداً وفي ذلك تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد ومن نجا مع هود عليه السلام كأنه قال ﴿ وقطعنا دابر القوم الذين كذّبوا ﴾ منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم ليؤذن أنّ الهلاك خصّ المكذبين ونجّى الله المؤمنين قاله الزمخشري : وذكر المفسرون هنا قصة هلاك عاد وذكروا فيها أشياء لا تعلق لها بلفظ القرآن ولا صحّت عن الرسول فضربت عن ذكرها صفحاً وأما ما له تعلق بلفظ القرآن فيأتي في مواضعه إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

الفاء في قوله تعالى : ﴿ فأنجيناه ﴾ فصيحةٌ كما في قوله تعالى : ﴿ فانفجرت ﴾ أي فوقع ما وقع فأنجيناه ﴿ والذين معه ﴾ أي في الدين ﴿ برحمة ﴾ أي عظيمةٍ لا يقادَر قدرُها ، وقوله تعالى : ﴿ منا ﴾ أي من جهتنا متعلقٌ بمحذوف هو نعتٌ لرحمةٍ مؤكِّدٌ لفخامتها الذاتية المنفهمةِ من تنكيرها بالفخامة الإضافية ﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي استأصلْنا بالكلية ودمرناهم عن آخرهم ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ عطفٌ على كذبوا داخلٌ معه في حكم الصلةِ ، أي أصرّوا على الكفر والتكذيبِ ولم يرعووا عن ذلك أبداً ، وتقديمُ حكايةِ الإنجاءِ على حكاية الإهلاكِ قد مر سرُّه ، وفيه تنبيهٌ على أن مناطَ النجاةِ هو الإيمانُ بالله تعالى وتصديقُ آياتِه كما أن مدارَ البوارِ هو الكفرُ والتكذيب . وقصتُهم أن عاداً قومٌ كانوا باليمن بالأحقاف ، وكانوا قد تبسّطوا في البلاد ما بين عُمان إلى حضْرَمَوتَ ، وكانت لهم أصنامٌ يعبُدونها صداً وصمود والهبا فبعث الله تعالى إليهم هوداً نبياً وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً فكذبوه وازدادوا عُتوّاً وتجبّراً فأمسك الله عنهم القطرَ ثلاثَ سنينَ حتى جهَدوا وكان الناس إذا نزل بهم بلاءٌ طلبوا إلى الله الفرجَ منه عند بيتِه الحرامِ مسلِمُهم ومشركُهم ، وأهلُ مكةَ (كانوا) إذ ذاك العماليقَ أولادَ عمليقَ بنِ لاوذَ بنِ سامِ بنِ نوح وسيدُهم معاويةُ بنُ بكرٍ فجهزّت عادٌ إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلاً منهم قيلُ بنُ

عنز ومَرثدُ بن سعد الذي كان يكتُم إسلامَه فلما قدِموا نزلوا على معاويةَ بنِ بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخوالَه وأصهارَه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمرَ وتغنّيهم قينتا معاوية فلما رأى طولَ مقامِهم وذهولَهم باللهو عما قدموا له أهمّه ذلك وقال : قد هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء على ما هم عليه وكان يستحيي أن يكلمهم خشيةَ أن يظنوا به ثِقَلَ مُقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين

(137/275)

فقالتا : قل شعراً نغنيهم به لا يدرون مَنْ قاله ، فقال معاوية :

ألا يا قِيلُ ويحكَ قم فهينِم . . . لعل الله يسقينا غماما

فيسقي أرضَ عادٍ إن عادا . . . قَدَ أمسَوْا لا يُبينون الكلاما

فلما غنتا به قال : إن قومَكم يتغوّثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخُلوا الحرَم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثدُ بن سعد : والله لا تُسقَون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم إلى الله تعالى سُقِيتم وأظهر إسلامَه فقالوا لمعاوية : احبِس عنا مرثداً لا يقدَمَن معنا فإنه قد اتبع دينَ هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيلُ : اللهم اسقِ عاداً ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحاباتٍ ثلاثاً : بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ ثم ناداه منادٍ من السماء : يا قيلُ

اختر لنفسك ولقومك فقال : اخترت السوداءَ فإنها أكثرُهن ماءً فخرجت على عاد من واد يقال له : المغيث فاستبشَروا بها وقالوا : هذا عارضٌ مُمطرُنا فجاءتهم منها ريحٌ عقيمٌ فأهلكتهم ونجا هودٌ والمؤمنون معه فأتَوا مكةَ فعبدوا الله تعالى فيها إلى أن ماتوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(138/275)

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ فصيحة أي فوقع ما وقع فأنجيناه ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ أي متابعيه في الدين ﴿ برَحْمَة ﴾ عظيمة لا يقادر قدرها ﴿ منَّا ﴾ أي من جهتنا .

والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع نعتاً لرحمة مؤكداً لفخامتها على ما تقدم غير مرة ﴿ وَقَطَعْنَا دَابرَ الذين كَذَّبُوا بآيَاتنَا ﴾ كناية عن الاستئصال .

والدابر الآخر أي أهلكناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم .

واستدل به بعضهم على أنه لا عقب لهم .

﴿ وَمَا كَانُوا مُؤْمنينَ ﴾ عطف على ﴿ كذبوا ﴾ داخل معه في حكم الصلة أي أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أصلاً .

وفائدة هذا النفي عند الزمخشري التعريض بمن آمن منهم .

وبيانه على ما قال الطيبي أنه إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان تزيد رغبته فيه ويعظم قدره عنده ، ونظيره في اعتبار شرف الإيمان ﴿ الذين يحملون العرش ﴾ [غافر : 7] الآية ، وقال بعضهم : فائدة ذلك بيان أنه كان المعلوم من حالهم أنه سبحانه لو لم يهلكهم ما كانوا ليؤمنوا كما قال جل شأنه في آية أخرى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ﴾ [يونس : 13] فهو كالعذر عن عدم إمهالهم والصبر عليهم .

وسر تقديم حكاية الإنجاء على حكاية الإهلاك يعلم مما تقدم .

(139/275)

وقصتهم على ما ذكره السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما أن عاداً قوم كانوا بالأحقاف وهي رمال بين عمان وحضرموت وكانوا قد فشوا في الأرض كلها وقهروا أهلها وكانت لهم أصنام يعبدونها وهي صداء وصمود وإلهاء فبعث الله تعالى إليهم هوداً عليه السلام نبياً وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً فأمرهم بالتوحيد والكف عن الظلم فكذبوه وازدادوا عتواً وتجبراً ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ﴾ [فصلت : 15] فأمسك الله عنهم

المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس إذ ذاك إذا نزل بهم بلاء طلبوا رفعه من الله تعالى عند بيته الحرام مسلمهم ومشركهم ، وأهل مكة يومئذٍ العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر وكانت أمه كهلدة من عاد فجهزت عاد إلى الحرم من أماثلهم سبعين رجلاً منهم قيل بن عنز ولقيم بن هزال ولقمان بن عاد الأصغر ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه وجلهمة خال معاوية بن بكر فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية وكان خارجاً من الحرم فأنزلهم وأكرمهم إذ كانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم قينتان لمعاوية اسم إحداهما وردة والأخرى جرادة ويقال لهما الجرادتان على التغليب فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له شق ذلك عليه وقال : هلك أصهاري وأخوالي وهؤلاء على ما هم عليه وكان يستحي أن يكلمهم خشية أن يظنوا به ثقل مقامهم عنده فشكا ذلك لقينتيه فقالتا : قل شعراً نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك أن يحركهم فقال :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم . . .

لعل الله يسقينا غماما

فتسقى أرض عاد إن عادا . . .

قد أمسوا ما يبينون الكلاما من

العطش الشديد فليس نرجو . . .

به الشيخ الكبير ولا الغلاما

وقد كانت نساؤهم بخير . . .

فقد أمست نساؤهم عياما

وإن الوحش تأتيهم جهارا . . .

ولا تخشى لعادي سهاما

وأنتم ههنا فيما اشتهيتم . . .

نهاركم وليلكم التماما

فقبح وفدكم من وفد قوم . . .

ولا لقوا التحية والسلاما

(140/275)

فلما غنتا بذلك قال بعضهم لبعض : يا قوم إنما بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم فقال : مرثد بن سعد والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إلى ربكم سقيتم فأظهر إسلامه عند ذلك وقال :

عصت عاد رسولهم فأمسوا . . .

عطاشاً ما تبلهم السماء

لهم صنم يقال له صمود . . .

يقابله صداء والهباء فبصرنا

الرسول سبيل رشد . . .

فأبصرنا الهدى وخلا العماء

وإن إله هود هو إلهي . . .

على الله التوكل والرجاء

(141/275)

فقالوا لمعاوية : أحبس عنا مرثداً فلا يقدمن معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة يستسقون فخرج مرثد من منزل معاوية حتى أدركهم قبل أن يدعوا بشيء مما خرجوا له فلما انتهى إليهم قام يدعو الله تعالى ويقول : اللهم سؤلي وحدي فلا تدخلني في شيء مما يدعوك به وفد عاد وكان قيل رأس الوفد فدعا وقال : اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم وقال القوم : اللهم أعط قيلاً ما سألك واجعل سؤلنا مع سؤله فأنشأ الله تعالى

سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم نادى مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب ما شئت قيل وكذلك يفعل الله تعالى بمن دعاه إذ ذاك فقال قيل : اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء فناداه مناد اخترت رماداً رمداً لا تبقى من آل عاد أحداً وساق الله تعالى تلك السحابة بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا : هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم ، وأول من رأى ذلك امرأة منهم يقال لها مهدر ولما رأته صفقت فلما أفاقت قالوا : ما رأيت قالت : رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله تعالى عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فلم تدع منهم أحداً إلا أهلكته واعتزل هود عليه السلام ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين به الجلود وتلتذ الأنفس ، ثم إنه عليه السلام أتى هو ومن معه مكة فعبدوا الله تعالى فيها إلى أن ماتوا وقبره عليه السلام قيل هناك في البقعة التي بين الركن والمقام وزمزم ، وفيها كما أخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن سابط قبور تسعة وسبعين نبياً منهم أيضاً نوح وشعيب وصالح وإسماعيل عليهم السلام ، وأخرج البخاري في "تاريخه" .

(142/275)

وابن جرير وغيرهما عن علي كرم الله تعالى وجهه أن قبره عليه السلام بحضرموت في كثيب أحمر عند رأسه سدرة ، وأخرج ابن عساكر عن ابن أبي العاتكة قال : قبلة مسجد دمشق قبر هود عليه السلام ، وعمر كما أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أربعمائة واثنتين وسبعين سنة والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(143/275)

وقال القاسمى :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [72] .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أي : من آمن به ، على خرق العادة ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ ليدل على رحمتنا عليهم في الآخرة ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ أي : استأصلناهم . قال الشهاب : قطع الدابر ، كناية عن الإستئصال إلى إهلاك الجميع ، لأن المعتاد في الآفة إذا أصابت الآخر أن تمرّ على غيره ، والشيء إذا امتد أصله أخذ برمته ، والدابر بمعنى الآخر .

﴿ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على : ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ داخل معه في حكم الصلة .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم ، كمرثد بن سعد ، ومن نجا مع هود على السلام ، كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين ، ونجى الله المؤمنين . انتهى .

قال الطيبي : يعني إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين ، علم أن سبب النجاة هو الإيمان لا غير ، تزيد رغبته فيه ، ويعظم قدره عنده . انتهى .

قال ابن كثير : قد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن

(144/275)

بأنه أرسل عليهم الريح العقيم : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ لما تمردوا وعتوا ، أهلكم الله بريح عاتية ، فكانت تحمل الرجل منهم ، فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلع رأسه حتى تُبينَهُ من جثته .

وقال محمد بن إسحاق : كانت منازل عاد وجماعتهم ، حين بعث الله فيهم هوداً ، الأحقاف قال : و الأحقاف الرمل ، فيما بين عُمان إلى حضرموت ، فاليمن كله .

وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلها ، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله : صنم يقال له صُداء ، وصنم يقال له ، صمود وصنم يقال له الهباء : فبعث الله إليهم هوداً ، وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً ، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس .

لم يأمرهم فيما يذكر ، والله أعلم ، بغير ذلك ، فأبوا عليه وكذبوه ، وقالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ .

واتبعه منهم ناس ، وهم يسير مكتتمون بإيمانهم ، وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد يقال له مرثد بن سعد بن عُفَيْر ، وكان يكتم إيمانه . فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا نبيهم ، وأكثروا في الأرض الفساد ، وتجبروا وبنوا بكل ريع ريع آية عبثاً بغير نفع ، كلمهم هود فقال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ أي : ما هذا الذي جئتنا به إلا جنون أصابك به بعض آلهتنا هذه التي تعيب ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ ﴾ إلى قوله : ﴿ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

فلما فعلوا ذلك ، أمسك الله عنهم المطر من السماء ثلاث سنين ، فيما يزعمون ، حتى جهدهم ذلك .

وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد ، فطلبوا إلى الله الفرج منه ، كانت طلبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمكة ، مسلمهم ومشركهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم ، وكلهم معظِّم لمكة ، يعرف حرمتها ومكانها من الله .

قال ابن إسحاق : وكان البيت في ذلك الزمان معروفاً مكانه ، والحرم قائم فيما يذكرون ، وأهل مكة يومئذ العماليق ، وإنما سموا العماليق ، لأن أباهم عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة ، فيما يزعمون ، رجلاً يقال لهم معاوية بن بكر ، وكان أبوه حياً في ذلك الزمان ، ولكنه كان قد كبر ، وكان ابنه يرأس قومه ، وكان السؤدد والشرف من العماليق فيما يزعمون ، في أهل ذلك البيت .

وكانت أم معاوية بن بكر ، كلهدة ابنة الخيبري ، رجل من عاد ، فلما قحط المطر عن عاد وجُهدوا قالوا : جهزوا منكم وفداً إلى مكة فليستسقوا لكم ، فإنكم قد هلكتم ! فبعثوا

عقيل بن عنز ولقيم بن هزّال بن هزيل ، وعتيل بن صُد بن عاد الأكبر ، ومرثد بن سعد بن عُفَيْر ، وكان مسلماً يكتم إسلامه ، وجُلهُمة بن الخبيري ، خال معاوية بن بكر أخو أمه .

(146/275)

ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صُد بن عاد الأكبر . فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم معه رهط من قومه حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلاً ، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر ، وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم ، وكانوا أخواله وصهره .

فلم نزل وفد عاد على معاوية بن بكر ، أقاموا عنده شهراً يشربون الخمر ، تغنيهم الجرادتان – قينتان لمعاوية بن بكر – وكان مسيرهم شهراً ومقامهم شهراً .

فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم ، وقد بعثهم قومهم يتعوذون بهم من البلاء الذي أصابهم ، شق ذلك عليه ، فقال : هلك أخوالي وأصهاري ! وهؤلاء مقيمون عندي ، وهم ضيفي نازلون علي ! والله ما أدري كيف أصنع بهم ؟ أستحي أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا له فيظنوا أنه ضيق مني بمقامهم عندي ، وقد هلك من وراءهم من قومهم جهداً وعطشاً ! أو كما قال :

فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين ، فقالتا : قل شعراً نغنيهم به ، لا يدرون من قاله ، لعل ذلك أن يحركهم ! .

فقال معاوية بن بكر ، حين أشارتا عليه بذلك :

~ألا يا قيل ، ويحك ! قم فهينم لعل الله يصبحنا غماما

~فيسقي أرض عاد ، إن عاداً قد أمسوا لا يبينون الكلاما

~من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلام

~وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عيامى

~وإن الوحش تأتيهم جهارا ولا تخشى لعادي سهاما

~وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما

~فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية ذلك الشعر ، غنتهم به الجرادتان ، فلما سمع القوم ما غنتا به ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، إنما بعثكم قومكم يتعوذون بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم ، وقد أبطأتم عليهم ! فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم ! .

فقال لهم مرثد بن سعد بن عُفَيْر : إنكم والله لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إليه سقيتم ! فأظهر إسلامه عند ذلك .

فقال لهم جلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر ، حين سمع قوله ، وعرف أنه قد ابتع دين هود وآمن به :

~أبا سعدٍ فإنك من قبيل ذوي كرم وأمّك من ثمود

~فإنا لن نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريد

~أتأمرنا لنترك دين رفدٍ ورمل وآل صد والعُبُودِ

~ونتركَ دين آباء كرام ذوي رأي ، ونتْبَعَ دينَ هودِ

ثم قال لمعاوية بن بكر وأبيه بكر : أحبسا عنا مرثد بن سعد ، فلا يقدمنّ معنا مكة ، فإنه قد اتبع دين هود ، ترك ديننا !

ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد ، فلما ولوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بها قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا له . فلما انتهى إليهم ، قام يدعوا الله بمكة ، وبها وفد عاد قد اجتمعوا يدعون ، يقول : اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني في شيء مما يدعوك به وفد عاد .

وكان قَيْلُ بن عنز رأس وفد عاد .

وقال وفد عاد : اللهم أعط قيلا ما سألك ، واجعل سؤلنا مع سؤله .

وكان قد تخلف عن وفد عاد حين دعا ، لقمان بن عاد ، وكان سيد عاد .

حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال : اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي ، فأعطني سؤلي .

وقال قيل بن عنز حين دعا : يا إلهنا ، إن كان هود صادقاً فاسقنا ، فإنا قد هلكنا .

(148/275)

فأنشأ الله لهم سحائب ثلاثاً : بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السحاب : يا قيل ! اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب . فقال : اخترت السحابة السوداء ، فإنها أكثر السحاب ماء . فناده مناد : اخترتَ رماداً رمْدداً ، لا تُبقي من آل عاد أحداً ، لا والداً تترك ولا ولداً ، إلا جعلته همداً إلا بني اللُّوذيَّة المُهَدَّى ، وبنو اللوذية ، بنو لقيم بن هزّال بن هزيلة بن بكر ، وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم ، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم ، فهم عادٌ الآخرة ، ومن كان نسلهم الذين بقوا من عاد وساق الله السحابة السوداء ، فيما يذكرون ، التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد ، حتى خرجت عليهم من واد يقال له المغيث .

فلما رأوها استبشروا بها وقالوا : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ يقول الله : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي : كل شيء أُمِرَتْ به .

وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح ، فيما يذكرون ، امرأة من عاد يقال لها مَهْدَد ، فلما [في المطبوع : فما] تيقنت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قالوا : ماذا رأيت يا مهدد ؟ قالت : رأيت ريحاً فيها ، كشهب النار ، أمامها رجال يقودونها !

ف : ﴿ سَخَّرَهَا ﴾ الله : ﴿ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوما ﴾ ، كما قال الله. والحسوم الدائمة – فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك . فاعتزل هود فيما ذكر لي ، ومن معه من المؤمنين في حظيرة ، ما يصيبه ومن معه من الريح ، إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس . وإنها لتمر على عاد بالظَّعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة .

وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر وأبيه ، فنزلوا عليه .

(149/275)

فبينما هم عنده ، إذ أقبل رجل على ناقة له في ليلة مقمرة ، مُمْسَى ثالثة في مُصاب عاد ، فأخبرهم الخبر ، فقالوا له : أين فارقت هوداً وأصحابه ؟ قال : فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكوا فيما حدثهم به ، فقالت هزيلة بنت بكر : صدق ، ورب الكعبة .

قال ابن كثير : وهو سياق غريب ، فيه فوائد كثيرة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ

أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن أبي وائل ، عن الحارث البكري قال :

(150/275)

خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمررت بالربذة ، فإذا بعجوز من بين تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله ! إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة ، فهل أنت مبلغي إليه ؟ قال : فحملتها ، فأتيت المدينة ، فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عَمْرو بن العاص وجهاً ، فجلست ، فدخل منزله – أو قال رحله – فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت فسلمت ، فقال : هل كان بينكم وبين تميم شيء ؟ قلت : نعم . قال وكانت لنا الدبرة عليهم ، ومررت بعجوز من بين تميم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها إليك ، وها هي بالباب ، فأذن لها ، فدخلت . فقلت : يا رسول الله ! إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً ، فاجعل الدهنا . فحميت العجوز واستوفزت ، وقالت : يا رسول الله ! فإلى أين تضطر مضرك ؟ قال قلت : إن مثلي مثل ما قال الأول : معزاء حملت حتفها ، حملتُ هذه ولا أشعر أنها

كانت لي خصماً ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ! قال : هيه ، وما وافد عاد ؟ وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه ، قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر ، خرج جبل تهامة فنادى : اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه ! فمرت به سحابات سود ، فنودي منها : اختر ، فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها : خذها رماداً رمدداً ، لا تبقي من عاد أحداً . قال : فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا ، حتى هلكوا . قال أبو وائل : وصدق . قال : فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد – هكذا رواه الإمام أحمد في المسند ، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير – . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 119.124 ﴾

(151/275)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) .

قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَخْرَجَ إِسْحَاقُ بْنُ بِشْرٍ وَابْنُ عَسَاكِرَ مِنْ طَرِيقِ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ هُودٌ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَوُلِدَ لِهُودٍ أَرْبَعَةٌ : قَحْطَانُ وَمُقْحِطٌ وَقَاحِطٌ

(152/275)

وَفَالِغٌ فَهُوَ أَبُو مُضَرَ ، وَقَحْطَانُ أَبُو الْيَمَنِ ، وَالْبَاقُونَ لَيْسَ لَهُمْ نَسْلٌ . وَأَخْرَجَا مِنْ طَرِيقِ مُقَاتِلٍ عَنِ الضَّحَّاكِ عَنْهُ وَمِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ رِجَالٍ سَمَّاهُمْ وَمِنْ طَرِيقِ الْكَلْبِيِّ قَالُوا جَمِيعًا : إِنَّ عَادًا كَانُوا أَصْحَابَ أَوْثَانٍ يَعْبُدُونَهَا - وَاتَّخَذُوا أَصْنَامًا عَلَى مِثَالِ وَدٍّ وَسُوَاعَ وَيَغُوثَ وَنَسْرٍ ، فَاتَّخَذُوا صَنَمًا يُقَالُ لَهُ صَمُودُ وَصَنَمًا يُقَالُ لَهُ الْهَتَّارُ فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ هُودًا ، وَكَانَ هُودٌ مِنْ قَبِيلَةٍ يُقَالُ لَهَا الْخُلُودُ ، وَكَانَ مِنْ أَوْسَطِهِمْ نَسَبًا وَأَصْبَحِهِمْ وَجْهًا وَكَانَ فِي مِثْلِ أَجْسَادِهِمْ أَبْيَضَ بَادِيَ الْعَنْفَقَةِ طَوِيلَ اللِّحْيَةِ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُوَحِّدُوهُ وَأَنْ يَكُفُّوا عَنْ ظُلْمِ النَّاسِ ، فَأَبَوْا ذَلِكَ وَكَذَّبُوهُ (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) (41 : 15) . . . وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ بِالْأَحْقَافِ ، وَالْأَحْقَافُ الرَّمْلُ فِيمَا بَيْنَ عُمَانَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ بِالْيَمَنِ . وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ قَدْ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا وَقَهَرُوا أَهْلَهَا بِفَضْلِ قُوَّتِهِمْ

الَّتِي آتَاهُمُ اللهُ انْتَهَى مُلَخَّصًا . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خَيْثَمٍ قَالَ : كَانَتْ عَادٌ مَا بَيْنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ مِثْلَ الذَّرِّ .

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ : قَبْرُ هُودٍ بِحَضْرَمَوْتَ فِي كَثِيبٍ أَحْمَرَ عِنْدَ رَأْسِهِ سُمْرَةٌ اهـ . وَسَيَأْتِي فِي السُّورَةِ الْمُسَمَّاةِ بِاسْمِهِ مَزِيدُ بَيَانٍ لِحَالِهِ وَحَالِ قَوْمِهِ .

(153/275)

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) أَيْ وَأَرْسَلْنَا إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ هُودًا ، كَمَا يُقَالُ فِي أُخُوَّةِ الْجِنْسِ كُلِّهِ يَا أَخَا الْعَرَبِ . وَلِلدِّينِ أُخُوَّةٌ رُوحِيَّةٌ كَأُخُوَّةِ الْجِنْسِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ . وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَسْمِيَةِ الْقَرِيبِ أَوِ الْوَطَنِيِّ الْكَافِرِ أَخًا . وَحِكْمَتُهُ كَوْنُ رَسُولِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ أَنْ يُفْهِمَهُمْ وَيَفْهَمَ مِنْهُمْ ، حَتَّى إِذَا مَا اسْتَعَدَّ الْبَشَرُ لِلْجَامِعَةِ الْعَامَّةِ ، أَرْسَلَ اللهُ خَاتَمَ رُسُلِهِ إِلَيْهِمْ كَافَّةً وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ تَوْحِيدَ اللُّغَةِ لِتَوْحِيدِ الدِّينِ ، الْمُرَادِ بِهِ تَوْحِيدُ الْبَشَرِ وَإِدْخَالُهُمْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً .

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ فِي قِصَّةِ نُوحٍ آنِفًا وَلَكِنَّ الْجُمْلَةَ هُنَاكَ عُطِفَتْ بِالْفَاءِ وَفُصِّلَتْ هُنَا وَفِيمَا يَأْتِي مِنْ سَائِرِ الْقِصَصِ . وَالْفَرْقُ الْمُقْتَضِي لِذَلِكَ أَنَّ

الْعَطْفَ هُنَالِكَ جَاءَ عَلَى أَصْلِهِ وَهُوَ كَوْنُ التَّبْلِيغِ جَاءَ عَقِبَ الْإِرْسَالِ لِأَنَّ التَّأْخِيرَ غَيْرُ جَائِزٍ

.

وَلَمَّا صَارَ هَذَا مَعْلُومًا

كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ فِيمَا بَعْدَهُ مِنَ الْقَصَصِ أَنْ يَجِيءَ بِأُسْلُوبِ الِاسْتِئْنَافِ

(154/275)

الْبَيَانِيِّ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ فِي الْمُرَاجَعَاتِ الْقَوْلِيَّةِ وَإِنْ تَكَرَّرَتْ كَمَا تَرَاهُ فِي السُّوَرِ الْكَثِيرَةِ ، فَكَأَنَّ الْمُسْتَمِعَ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ مَثَلًا يَسْأَلُ وَقَدْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ قِصَّةِ نُوحٍ مَا عَلِمَ : فَمَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ هُودٍ مَعَ قَوْمِهِ ، وَمَاذَا قَالَ لَهُمْ فِي دَعْوَتِهِ ؟ أَكَانَ أَمْرُهُ مَعَهُمْ كَأَمْرِ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ أَمِ اخْتَلَفَ الْحَالُ ؟

(أَفَلَا تَتَّقُونَ) أَيْ أَفَلَا تَتَّقُونَ مَا يُسْخِطُهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي لِتَنْجُوا مِنْ عِقَابِهِ ؟ الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ . وَاسْتِبْعَادِ عَدَمِ الْإِيمَانِ وَالْإِذْعَانِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْ عِقَابِهِ تَعَالَى لِقَوْمِ نُوحٍ مَا كَانَ وَفِي سُورَةِ هُودٍ : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (11 : 51) وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَالَ هَذَا وَذَاكَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ أَوْ فِي وَقْتٍ بَعْدَ وَقْتٍ ، وَمِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ فِي الْقِصَصِ الْمُكَرَّرَةِ أَنْ يَذْكُرَ فِي كُلٍّ مِنْهَا

مَا لَمْ يَذْكُرْ فِي الْأُخْرَى لِتَنْوِيعِ الْفَوَائِدِ وَدَفْعِ الْمَلَلِ عَنِ الْقَارِئِ ، وَقَدِ اقْتَبَسَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي أَحَادِيثِ جَامِعِهِ الصَّحِيحِ الْمُكَرَّرَةِ فَتَحَرَّى فِي كُلِّ بَابٍ أَنْ يَنْفَرِدَ بِفَائِدَةٍ .

(155/275)

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ) وَصَفَ الْمَلَأَ مِنْ هَؤُلَاءِ بِالْكُفْرِ دُونَ مَلَإِ قَوْمِ نُوحٍ ، قِيلَ : لِأَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ آمَنَ (كَمَرْثَدِ بْنِ سَعْدٍ) وَكَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ، وَالسَّفَاهَةُ خِفَّةُ الْحِلْمِ وَسَخَافَةُ الْعَقْلِ وَتَنْكِيرُهَا لِبَيَانِ نَوْعِهَا أَوِ الْمُبَالَغَةِ بِعِظَمِهَا ، أَيْ قَالُوا : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ غَرِيبَةٍ أَوْ تَامَّةٍ رَاسِخَةٍ تُحِيطُ بِكَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِأَنَّكَ لَمْ تَثْبُتْ عَلَى دِينِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ ، بَلْ قُمْتَ تَدْعُو إِلَى دِينٍ جَدِيدٍ تَحْتَقِرُ فِيهِ الْأَوْلِيَاءَ الصَّالِحِينَ مِنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ اتَّخَذَتِ الْأُمَّةُ لَهُمُ الصُّوَرَ وَالتَّمَاثِيلَ لِتَخْلِيدِ ذِكْرِهِمْ ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِشَفَاعَتِهِمْ ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ أَنَّ عَادًا كَانُوا أَصْحَابَ أَوْثَانٍ يَعْبُدُونَهَا ، اتَّخَذُوا أَصْنَامًا عَلَى مِثَالِ أَصْنَامِ قَوْمِ نُوحٍ وَسَيَأْتِي نَصُّ الرِّوَايَةِ فِي ذَلِكَ ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ هُودًا وَكَانَ مِنْ قَبِيلَةٍ يُقَالُ لَهَا الْخُلُودُ إِلَخْ . وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ هَذَا قَالَ وَيَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ لِدُعَاةِ الْإِصْلَاحِ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ : إِنَّكُمْ سُفَهَاءُ لَا ثَبَاتَ لَكُمْ ، وَإِنَّكُمْ حَقَّرْتُمْ أَوْلِيَاءَكُمْ وَآبَاءَكُمْ .

(156/275)

(وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) أَيْ فِي دَعْوَةِ الرِّسَالَةِ عَنِ اللهِ تَعَالَى أَكَّدُوا ظَنَّهُمُ الْآثِمَ ، كَمَا أَكَّدُوا مَا قَبْلَهُ مِنْ تَسْفِيهِهِمُ الْبَاطِلَ ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ تَكْذِيبَ كُلِّ رَسُولٍ ؛ إِذْ عَبَّرُوا عَنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الدَّعْوَى بِالْكَاذِبِينَ وَجَعَلُوهُ وَاحِدًا مِنْهُمْ وَالظَّنُّ هُنَا عَلَى مَعْنَاهُ ، فَلَوْ قَالُوا إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ لَكَانُوا كَاذِبِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِيمَا يَحْكُمُونَ مِنِ اعْتِقَادِهِمْ . وَأَمَّا حُكْمُهُمْ عَلَيْهِ بِالسَّفَاهَةِ فَكَانَ عَلَى اعْتِقَادٍ بَاطِلٍ

مِنْهُمْ ؛ وَلِذَلِكَ عَبَّرُوا عَنْهُ بِالرُّؤْيَةِ الَّتِي بِمَعْنَى الِاعْتِقَادِ .

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أَيْ لَيْسَ بِي أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ ضُرُوبِ السَّفَاهَةِ وَشَوَائِبِهَا ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ وَهِيَ أَمَانَةٌ عَنْهُ ، فَلَا يَخْتَارُ لَهَا إِلَّا أَهْلَ الْحَصَافَةِ بِرُجْحَانِ الْعَقْلِ وَسِعَةِ الْحِلْمِ وَكَمَالِ الصِّدْقِ وَإِلَّا لَفَاتَ مَا يَقْصِدُ بِهَا مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَمْ تَقُمْ بِهَا لِلَّهِ الْحُجَّةُ .

(157/275)

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) بَيَانٌ لِوَظِيفَةِ الرَّسُولِ وَحَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا ، أَيْ أُبَلِّغُكُمُ التَّكَالِيفَ الَّتِي أُرْسِلْتُ بِهَا ، وَالْحَالُ أَنِّي أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ فِيمَا أُبَلِّغُكُمْ إِيَّاهُ

وَأَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ لأَنَّ فِيهِ سَعَادَتَكُمْ ، أَمِينٌ عَلَى مَا أَقُولُ فِيهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى فَإِنَّنِي لا أَكْذِبُ عَلَيْكُمْ فَكَيْفَ أَكْذِبُ عَلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ؟ وَهَذَا أَقْوَى مِنْ قَوْلِ نُوحٍ : وَأَنْصَحُ لَكُمْ ؛ فَإِنَّهُ يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ النُّصْحَ وَصْفٌ قَائِمٌ بِهِ ثَابِتٌ لَهُ عِنْدَهُمْ ، لِمَا يَعْهَدُونَ مِنْ سِيرَتِهِ مَعَهُمْ ، وَكَذَلِكَ الصِّدْقُ وَالأَمَانَةُ ؛ لأَنَّهُمْ رَمَوْهُمْ بِالْكَذِبِ وَالسَّفَاهَةِ ، وَقَوْمُ نُوحٍ إِنَّمَا رَمَوْهُ بِالضَّلالَةِ .

(158/275)

(أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ) تَقَدَّمَ مِثْلُهُ مِنْ قَوْلِ نُوحٍ (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً) أَيْ وَاذْكُرُوا فَضْلَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَنِعَمَهُ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ، وَزَادَكُمْ فِي الْمَخْلُوقَاتِ بَسْطَةً وَسِعَةً فِي الْمُلْكِ وَالْحَضَارَةِ . أَوْ زَادَكُمْ بَسْطَةً فِي خَلْقِ أَبْدَانِكُمْ ؛ إِذْ كَانُوا طِوَالَ الأَجْسَامِ أَقْوِيَاءَ الأَبْدَانِ . وَفِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ رِوَايَاتٌ إِسْرَائِيلِيَّةُ الأَصْلِ فِي الْمُبَالَغَةِ فِي طُولِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ لا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا وَلا يُحْتَجُّ بِشَيْءٍ مِنْهَا . وَلَكِنْ نَصَّ عَلَى قُوَّتِهِمْ وَجَبَرُوتِهِمْ فِي سُورَةِ هُودٍ وَالشُّعَرَاءِ وَفُصِّلَتْ (فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أَيْ فَاذْكُرُوا نِعَمَ اللهِ وَاشْكُرُوهَا لَهُ لَعَلَّكُمْ تَفُوزُونَ بِمَا أَعَدَّهُ لِلشَّاكِرِينَ مِنْ إِدَامَتِهَا عَلَيْهِمْ وَزِيَادَتِهَا لَهُمْ ، وَلَنْ تَكُونُوا كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا عَبَدْتُمُوهُ وَحْدَهُ وَلَمْ تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أَحَدًا ، لا عَلَى سَبِيلِ الاسْتِقْلالِ وَلا عَلَى سَبِيلِ

جَعْلِهِ وَاسِطَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ فَإِنَّ هَذَا حِجَابٌ دُونَهُ ، وَمَنْ حَجَبَ نَفْسَهُ عَمَّا كَرَّمَهُ رَبُّهُ بِهِ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ فِي الدُّنْيَا حُجِبَ عَنْ لِقَائِهِ فِي الْآخِرَةِ وَإِنَّمَا يُحْجَبُ عَنْ رَبِّهِمُ الْكَافِرُونَ . لَا الْمُؤْمِنُونَ الشَّاكِرُونَ .

(159/275)

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) الْمُرَادُ مِنَ الْمَجِيءِ الْإِتْيَانُ بِالرِّسَالَةِ حَسْبَ دَعْوَاهُ الصَّادِقَةِ فِي نَفْسِهَا الْكَاذِبَةِ فِي ظَنِّهِمُ الْآثِمِ . عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ تَسْتَعْمِلُ الْمَجِيءَ وَالذِّهَابَ وَالْقُعُودَ وَالْقِيَامَ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الشُّرُوعِ فِي الشَّيْءِ وَبَيَانِ حَالِهِ - يُقَالُ : جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ كَيْفَ يُحَارِبُونَ ، وَذَهَبَ يُقِيمُ قَوَاعِدَ الْعُمْرَانِ ، (وَنَذَرَ) بِمَعْنَى نَتْرُكَ ، لَمْ يُسْتَعْمَلْ مِنْ مَادَّتِهِ إِلَّا الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ .

وَالْمَعْنَى : أَجِئْتَنَا لِأَجْلِ أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الْآثَامِ ، وَنَتْرُكَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا مَعَهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ فَنُحَقِّرَهُمْ وَنَمْتَهِنَهُمْ بِرَمْيِهِمْ بِالْكُفْرِ ، وَنُحَقِّرَ أَوْلِيَاءَنَا وَشُفَعَاءَنَا عِنْدَ اللَّهِ بِتَرْكِ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ وَهُمُ الْوَسِيلَةُ ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ وَالتَّعْظِيمِ

لِصُوَرِهِمْ وَتَمَاثِيلِهِمْ وَقُبُورِهِمْ وَالنَّذْرِ لَهُمْ وَذَبْحِ الْقَرَابِينِ عِنْدَهُمْ ؟ وَهَلْ يَقْبَلُ اللَّهُ عِبَادَتَنَا مَعَ

ذُنُوبِنَا إِلَّا بِهِمْ وَلِأَجْلِهِمْ ؟ اسْتَنْكَرُوا التَّوْحِيدَ ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِمَا أَبْطَلَهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ مِنَ التَّقْلِيدِ وَاسْتَعْجَلُوا الْوَعِيدَ قَالُوا :

(160/275)

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أَيْ فَجِئْنَا بِمَا تَعِدُنَا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ بِكَ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَى تَوْحِيدِكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي إِنْذَارِكَ أَوْ فِي أَنَّكَ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(161/275)

وَقَدِ اسْتَعْمَلَ الْوَعْدَ بِمَعْنَى الْوَعِيدِ لِأَنَّهُ أَعَمُّ وَالْمُرَادُ بِهِ هُوَ مَا أُشِيرَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ هُنَا : (أَفَلَا تَتَّقُونَ) وَصَرَّحَ بِهِ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (26 : 135) (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ) يُطْلَقُ الرِّجْسُ عَلَى الْقَبِيحِ الْمُسْتَقْذَرِ حِسًّا أَوْ مَعْنًى وَبِمَعْنَى الرِّجْزِ وَهُوَ الْعَذَابُ أَوْ سَيِّئُهُ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْآيَةَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي مَجَازِ الْأَسَاسِ وَفَسَّرَ الرِّجْسَ بِالْعَذَابِ قَالَ لِأَنَّهُ جَزَاءُ مَا اسْتُعِيرَ لَهُ اسْمُ الرِّجْسِ ،

وَذُكِرَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي قِسْمِ الْحَقِيقَةِ مِنَ الْمَادَّةِ أَنَّ الرَّجْسَ بِالْفَتْحِ صَوْتُ الرَّعْدِ وَأَنَّهُ يُقَالُ : رَجَسَتِ السَّمَاءُ وَارْتَجَسَتْ : قَصَفَتْ بِالرَّعْدِ (قَالَ) وَالنَّاسُ فِي مَرْجُوسَةٍ ، أَيْ فِي اخْتِلَاطٍ قَدِ ارْتَجَسَ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمُ اهـ . وَمِثْلُهَا فِي هَذَا مَادَّةُ الرِّجْزِ وَمِنْهُ فِي " 34 : 5 ، 45 : 11 " (لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ) وَقَدْ كَانَ الْعَذَابُ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ وَوَقَعَ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ، أَيْ ذَاتَ صَوْتٍ شَدِيدٍ عَاتِيَةً كَانَتْ (تَنْزِعُ النَّاسَ) مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ تَرْمِيهِمْ بِهَا صَرْعَى (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) (54 : 20) قَدْ قُلِعَ مِنْ مَنَابِتِهِ وَزَالَ عَنْ أَمَاكِنِهِ ، وَذَلِكَ مِنْ مَعْنَى الرِّجْسِ وَالِارْتِجَاسِ وَالرِّجْزِ وَالِارْتِجَازِ وَقَوْلُهُ : (وَقَعَ) مَجَازٌ عَبَّرَ بِهِ عَنِ الْمُتَوَقَّعِ لِتَحَقُّقِهِ وَقُرْبِهِ ، وَعَطَفَ الْغَضَبَ عَلَى الرِّجْسِ لِبَيَانِ أَنَّ الرِّجْسَ قَدْ أُرِيدَ بِهِ الِانْتِقَامُ الْحَتْمُ فَلَا يُمْكِنُ

(162/275)

رَفْعُهُ ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِهِ ، مَا كَانَ مِنْهُ حَتْمًا عِقَابُهُ كَهَذَا ، وَمَا كَانَ مُمْكِنًا دَفْعُهُ بِالتَّوْبَةِ كَعِقَابِ هَذِهِ الْأُمَّةِ . اللَّهُمَّ تُبْ عَلَى أُمَّتِنَا وَارْفَعْ عَنْهَا رِجْسَ الْأَجَانِبِ الطَّامِعِينَ ، وَأَعْوَانِهِمُ الْمُنَافِقِينَ .

(أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) أَيْ

أَتُخَاصِمُونَنِي وَتُمَارُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ وَضَعْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الَّذِينَ قَلَّدْتُمُوهُمْ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ، لِمُسَمَّيَاتٍ اتَّخَذُوهَا فَاتَّخَذْتُمُوهَا آلِهَةً زَاعِمِينَ أَنَّهَا تُقَرِّبُكُمْ

(163/275)

إِلَى اللهِ زُلْفَى وَتَشْفَعُ عِنْدَهُ لَكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ يُصَدِّقُ زَعْمَكُمْ بِأَنَّهُ رَضِيَ أَنْ تَكُونَ وَاسِطَةً بَيْنَهُ تَعَالَى وَبَيْنَكُمْ ، وَكَيْفَ وَهُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي يَصْمُدُ إِلَيْهِ عِبَادُهُ فِي الْعِبَادَةِ وَطَلَبِ مَا لَمْ يُمَكِّنْهُمْ مِنْهُ بِالْأَسْبَابِ ، أَيْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ فِي تَوْجِيهِ قُلُوبِهِمْ إِلَيْهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (6 : 79) وَكُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِعِبَادَتِهِ ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤْخَذَ إِلَّا مِمَّا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ ؛ إِذْ لَا يَعْلَمُ مَا يُرْضِيهِ وَيَصِحُّ عِنْدَهُ مِنْ عِبَادَتِهِ غَيْرُهُ إِلَّا الْمُبَلِّغِينَ عَنْهُ . وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى بُطْلَانِ التَّقْلِيدِ (فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) أَيْ فَانْتَظِرُوا نُزُولَ الْعَذَابِ الَّذِي طَلَبْتُمُوهُ بِقَوْلِكُمْ : (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ وَلَكِنَّنِي مُوقِنٌ وَأَنْتُمْ مُرْتَابُونَ ، وَجَادٌّ وَأَنْتُمْ هَازِلُونَ .

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) أَيْ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا أَنْجَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ لَدُنَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُنَا (وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا

مُؤْمِنِينَ) أَيِ اسْتَأْصَلْنَاهُمْ بِرِيحٍ عَاتِيَةٍ (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) (46 : 25) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 440 . 445 ﴾

(164/275)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

الفاء للتّعقيب : أي فعجّل الله استيصال عاد ونجّى هوداً والذين معه أي المؤمنين من قومه ، فالمعقّب به هو قطع دابر عاد ، وكان مقتضى الظّاهر أن يكون النّظم هكذا : فقطعْنا دابر الذين كذّبوا إلخ ونجينا هوداً إلخ ، ولكن جرى النّظم على خلاف مقتضى الظّاهر للاهتمام بتعجيل الإخبار بنجاة هود ومن آمَن معه ، على نحو ما قرّرتُه في قوله تعالى : ﴿ فكذّبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا ﴾ [الأعراف : 64] في قصّة نوح المتقدّمة ، وكذلك القول في تعريف الموصوليّة في قوله : ﴿ والذين معه ﴾ .

والّذين معه هم من آمن به من قومه ، فالمعيّة هي المصاحبة في الدّين ، وهي معيّة مجازيّة ، قيل إنّ الله تعالى أمر هوداً ومن معه بالهجرة إلى مكّة قبل أن يحلّ العذاب بعادٍ ، وإنّه توفي هنالك ودفن في الحِجْر ولا أحسب هذا ثابتاً لأنّ مكّة إنّما بناها إبراهيم وظاهر القرآن في

سورة هود أنّ بين عاد وإبراهيم زمناً طويلاً لأنّه حكى عن شعيب قولَه لقومه : ﴿ أنْ يصيبكم مثلُ ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قومُ لوط منكم ببعيد ﴾ [هود : 89] فهو ظاهر في أنّ عاداً وثموداً كانوا بعيدين من زمن شعيب وأنّ قوم لوط غير بعيدين ، والبعد مراد به بعد الزّمان ، لأنّ أمكنة الجميع متقاربة ، وكان لوط في زمن إبراهيم فالأولى أن لا نعين كيفية إنجاء هود ومن معه .

والأظهر أنّها بالأمر بالهجرة إلى مكان بعيد عن العذاب ، وروي عن عليّ أنّ قَبْر هود بحضر موت وهذا أقرب .

(165/275)

وقوله : ﴿ برحمة منا ﴾ الباء فيه للسّببيّة ، وتنكير ﴿ رحمة ﴾ للتّعظيم ، وكذلك وصفها بأنّها من الله للدّلالة على كمالها ، و (من) للابتداء ، ويجوز أن تكون الباءُ للمصاحبة ، أي : فأنجيناه ورحمناه ، فكانت الرّحمَة مصاحبة لهم إذ كانوا بمحلّ اللّطف والرّفق حيثما حَلّوا إلى انقضاء آجالهم ، وموقع (مِنَّا) على هذا الوجه موقع رشيق جدّا يؤذن بأن الرّحمة غير منقطعة عنهم كقوله ﴿ فإنّك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] .

وتفسير قوله : ﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا ﴾ نظير قوله تعالى : ﴿ فقُطع دابر القوم الذين

ظلموا ﴾ في سورة الأنعام (45) ، وقد أرسل عليهم الرّيح الدّبُور فأفناهم جميعاً ولم يبق منهم أحد .

والظّاهر أنّ الذين أنجاهم الله منهم لم يكن لهم نسل .

وأمّا الآية فلا تقتضي إلاّ انقراض نسل الذين كذّبوا ونزل بهم العذاب والتّعريف بطريق الموصوليه تقدّم في قوله : ﴿ وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا ﴾ [الأعراف : 64] في قصّة نوح آنفاً ، فهو للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو قطع دابرهم .

﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ عطف على ﴿ كذّبوا ﴾ فهو من الصّلة ، وفائدة عطفه الإشارة إلى أن كلتا الصّلتين موجب لقطع دابرهم : وهما التّكذيب والإشراك ، تعريضاً بمشركي قريش ، ولِموعظتهم ذكرت هذه القصص .

وقد كان ما حَلّ بعاد من الاستيصال تطهيراً أوّل لبلاد العرب من الشّرك ، وقطعاً لدابر الضّلال منها في أوّل عصور عمرانها ، أعداداً لما أراد الله تعالى من انبثاق نور الدّعوة المحمّديّة فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(166/275)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) ﴾

ونلحظ أن الحق قد بين وسيلة نجاة سيدنا نوح : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ فِي الفلك وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ ﴾ .

أما هنا في مسألة عاد فلم يوضح لنا وسيلة النجاة ، بل قال سبحانه : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 72]

(167/275)

وقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾ تدل على أن عذاباً عاماً وقع ، إلا أن ربنا أوحى لسيدنا هود أن يذهب بعيداً عن المكان هو والذين معه قبل أن يقع هذا العذاب . وكان العرب قديماً إذا حزبهم أمر ، أو دعتهم ضرورة إلى شيء خرج عن أسبابهم يذهبون إلى بيت الله ؛ ليضرعوا إلى الله أن يخلصهم منه ، حتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . كما حدث من عاد حين أرسل الله إليهم سيدنا هودا نبيًّا فكذبوه وازدادوا عتوًّا وتجبراً فأصابهم جدب وظل ثلاث سنوات فما كان منهم ألا أن فزعوا إلى الكعبة لكي يدعوا ربهم أن يخفف عنهم

العذاب ، وذهب واحد منهم اسمه " قيل بن عنز " ، وآخر اسمه " مرثد بن سعد " الذي كان يكتم إسلامه على رأس جماعة منهم إلى مكة ، وكان لهم بها أخوال من المعاليق ؛ من أولاد عمليق بن لاوث بن سام بن نوح ، وكانوا هم الذين يحكمون مكة في هذا الوقت ، وعلى رأسهم واحد اسمه " معاوية بن بكر " ، فنزلوا عنده ، وأكرم وفادتهم على طريقة العرب ، واستضافهم ضيافة ملوك وأمراء ، وجاء لهم بالقيان والأكل والشراب ، فاستمرأوا الأمر ، وظلوا شهراً ، فقال معاوية بن بكر : لقد جاءوا لينقذوا قومهم من الجدب وما فكروا أن يذهبوا إلى الكعبة ، ولا فكروا في أن يدعوا ربنا وأخاف أن أقول لهم ذلك فيقولوا إنه ضاق بنا . وتكون سبّة فيّ . وأخذ يفكر في الأمر . وكان عنده مغنيتان اسمهما " الجرادتان " . فقالت المغنيتان : قل في ذلك شعراً ، ونحن نغنيه لهم ، فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم . . . لعل الله يمطرنا غماماً

فيسقى أرض عاد إن عادا . . . قد أمسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنتا ، والغناء فيه ترديد وخصوصاً إذا كان غناءً موجهاً " ألا يا قيل ويحك قم فهينم " وهينم : أي ادعوا الله ، ألم تحضر من أجل الدعاء لعل الله يمطرنا الغمام على أرض عاد ، وينتهي الجدب ، وقد بلغ منهم الجهد أنهم لا يبينون الكلام ، فتنبه القيل ، وتنبه مرثد بن سعد ، وكان قد نمى إلى علم " القيل " أن مرثد بن سعد مؤمن بهود عليه السلام ، فرفض أن يصحبه معه ، وبالفعل ذهب قيل وأخذ يدعو الله ، فسمع هاتفاً يقول له : " اختر قومك " وقد رأى سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء ، ونبهه الهاتف أن يختار سحابة تذهب لقومه من بين الثلاثة ، فاختار السحابة السوداء ، لأنها أكثر السحاب ماء ، وهو على قدر اجتهاده اختار السحابة السوداء ، وعادوا لبلادهم ليجدوا السحابة السوداء فقال لهم : أنا اخترت السحابة لأنها توحى بماء كثير منهمر ، وقال الحق في هذا الأمر :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا . . . ﴾ [الأحقاف : 24]

أي أن هذه هي السحابة التي قال عليها : " قيل " سوف تعطينا المطر .

فيرد الحق عليهم ويقول لهم : ﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأُصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ . . . ﴾ [الأحقاف : 24-25]

إذن فقولهم السابق لسيدنا هود الذي أورده الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ . . . فَأْتِنَا

بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : 70]

أي أن عذابهم يتأكد بالمطر والريح الذي جاء به قول سيدنا هود هنا في سورة الأعراف :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ .

(169/275)

ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 72]

لقد يسّر الحق الانقاذ لسيدنا هود ومن آمن معه ليهجروا المكان لحظة ظهور السحاب ، فقد سمع هود هاتفاً يؤكد له أن في هذا السحاب العذاب الشديد ، فأخذ الجماعة الذين آمنوا معه وهرب إلى مكة ، وتم إهلاك الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم ورفضهم الإيمان بربهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(170/275)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) ﴾

أخرج ابن المنذر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ قال : ليس بأخيهم في الدين ولكنه أخوهم في النسب ، فلذلك جعله أخاه لأنه منهم .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن الشرقي بن قطامى قال : هود اسمه عابر بن شالخ بن ارفشخد بن سام بن نوح .

وأخرج ابن منذر عن ابن جريج قال : يزعمون أن هوداً من بني عبد الضخم من حضرموت .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طريق عطاء عن ابن عباس قال : كان هوداً أول من تكلم بالعربيه ، وولد لهود أربعة : قحطان ، ومقحط ، وقاحط ، وفالغ ، فهو أبو مظر ، وقحطان أبو اليمن ، والباقون ليس لهم نسل .

(171/275)

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس ومن طريق إبن إسحاق عن رجال سماهم ومن طريق الكلبي قالوا جميعاً : إن عاداً كانوا أصحاب أوثان يعبدونها ، اتخذوا أصناماً على مثال ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ونسر ، فاتخذوا صنماً يقال له : صمود ، وصنماً له : الهتار ، فبعث الله إليهم هوداً ، وكان هود من قبيلة يقال لها الخلود ، وكان أوسطهم نسباً وأصبحهم وجهاً ، وكان في مثل أجسادهم أبيض بعد أبادي ، العنفقة ، طويل اللحية ، فدعاهم إلى الله ، وأمرهم أن يوحدوه وأن يكفوا عن ظلم الناس ، ولم يأمرهم بغير ذلك ، ولم يدعهم إلى شريعة ولا إلى صلاة ، فأبوا ذلك وكذبوه ، وقالوا : من أشد قوّة ؟ فذلك قوله تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ كان

من قومهم ولم يكن أخاهم في الدين ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ يعني وحدوا الله ﴿ ولا تشركوا به شيئاً ما لكم ﴾ يقول : لكم ﴿ من إله غيره أفلا تتقون ﴾ يعني فكيف لا تتقون ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء ﴾ يعني سكاناً ﴿ في الأرض من بعد قوم نوح ﴾ فكيف لا تعتبرون فتؤمنوا وقد علمتم ما نزل بقوم نوح من النقمة حين صعوه ؟ ! ﴿ واذكروا آلاء الله ﴾ يعني هذه النعم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي كي تفلحوا ، وكانت منازلهم بالأحقاف ، والأحقاف : الرمل . فيما بين عمان حضرموت باليمن ، وكانوا مع ذلك قد أفسدوا في الأرض كلها ، وقهروا أهلها بفضل قوّتهم التي آتاهم الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن خثيم قال : كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل الذر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي . إن عاداً كانوا باليمن بالأحقاف ، والأحقاف : هي الرمال . وفي قوله ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ قال : ذهب بقوم نوح ﴿ واستخلفكم بعدهم وزادكم في الخلق بسطة ﴾ قال : الطول .

(172/275)

وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : كان الرجل من عاد ستين ذراعاً بذراعهم ، وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة ، وكان عين الرجل ليفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ قال : ذكر لنا أنهم كانوا أثني عشر ذراعاً طوالاً .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو قال : كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عباس قال : كان الرجل في خلقه ثمانون باعاً ، وكانت البرة فيهم ككلية البقر ، والرمانة الواحدة يقعد في قشرها عشرة نفر .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ قال : شدة .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من الحجارة لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن ينقلوه ، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها .

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن ثور بن زيد الديلمي قال : قرأت كتاباً : انا شداد بن عاد ، انا الذي رفعت العماد ، وانا الذي سددت بدراً عن بطن واد ، وانا الذي كنزت كنزاً في البحر على تسع أذرع لا يخرجه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن بكار عن ثور بن زيد قال : جئت اليمن فإذا أنا برجل لم أر أطول منه قط فعجبت . قالوا : تعجب من هذا ؟ قلت : والله ما رأيت أطول من ذا قط . . . ! قالوا فوالله لقد وجدنا ساقاً أو ذراعاً فذرعناها بذراع هذا ، فوجدناها ست عشرة ذراعاً .

وأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم قال : كان في الزمن الأول تمضي أربعمائة سنة ولم يسمع فيها بجنازة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ آلاء الله ﴾ قال : نعم الله . وفي قوله ﴿ رجس ﴾ قال : سخط .

(173/275)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس ﴾ قال : جاءهم منه عذاب ، والرجس : كله عذاب في القرآن .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله رجس وغضب ؟ قال : الرجس : اللعنه ، والغضب : العذاب . قال : وهل تعرف ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر وهو يقول :

إذا سنة كانت بنجد محيطة . . . وكان عليهم رجسها وعذابها .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) ﴾

أخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لما

أوحى الله إلى العقيم أن تخرج على قوم عاد فتنتقم له منهم ، فخرجت بغير كيل على قدر منخر ثور حتى رجفت الأرض ما بين المشرق والمغرب ، فقال الخزان : رب لن نطيقها ولو خرجت على حالها لأهلكت ما بين مشارق الأرض ومغاربها ، فأوحى الله إليها : أن ارجعي . فرجعت فخرجت على قدر خرق الخاتم وهي الحقلة ، فأوحى الله إلى هود : أن يعتزل بمن معه من المؤمنين في حظيرة ، فاعتزلوا وخطَّ عليهم خطاً ، وأقبلت الريح فكانت لا تدخل حظيرة هود ولا تجاوز الخط ، وإنما يدخل عليهم منها بقدر ما تلذ به أنفسهم وتلين عليه الجلود ، وإنها لَتَمَرُّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة ، وأوحى الله إلى الحيات والعقارب : أن تأخذ عليهم الطرق فلم تدع عادياً يجاوزهم .

وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : لما أرسل الله الريح على عاد اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذه الأنفس ، وإنها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض وتدمغه بالحجارة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا ﴾ قال : استأصلناهم .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن هزين بن حمزة قال : سأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه أن يريه رجلاً من قوم عاد ، فكشف الله له عن الغطاء ، فإذا رأسه بالمدينة ورجلاه بذي الحليفة ، أربعة أميال طوله .

وأخرج ابن عساكر من طريق سالم بن أبي الجعد عن عبد الله قال : ذكر الأنبياء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ذكر هود قال " ذاك خليل الله " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن عساكر عن ابن عباس قال : لما حجَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بوادي عسفان فقال " لقد مر به هوداً وصالح على بكرات حمر خطمهن الليف ، ازرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون ويحجون البيت العتيق " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن سابط قال : بين المقام والركن وزمزم قُبِرَ تسعة وسبعون نبياً ، وان قبر نوح وهود وشعيب وصالح وإسمعيل في تلك البقعة .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة قال : ما يعلم قبر نبي من الأنبياء إلا ثلاثة : قبر اسمعيل فإنه تحت الميزاب بين الركن والبيت ، وقبر هود فإنه في حقف تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة وموضعه أشد الأرض حراً ، وقبر رسول الله صلى عليه وسلم فإن هذه قبورهم حق .

وأخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن عساكر عن علي بن أبي طالب قال : قبر هود

بحضرموت في كثيب أحمر ، عند رأسه سدرة .

وأخرج ابن عساكر عن عثمان بن أبي العاتكة قال : قبلة مسجد دمشق قبر هود عليه السلام .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال : كان عمر هود أربعمائة واثنتين وسبعين سنة .

(175/275)

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : عجائب الدنيا أربعة : مرآة كانت معلقة بمنارة الاسكندرية ، فكان يجلس الجالس تحتها فيبصر من بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر ، وفرس كان من نحاس بأرض الأندلس قائلاً بكفه كذا باسطاً يده أي ليس خلفي مسلك فلا يطأ تلك البلاد أحد إلا أكلته النمل ، ومنارة من نحاس عليها راكب من نحاس بأرض عاد ، فإذا كانت الأشهر الحرم هطل منه الماء فشرب الناس وسقوا وصبوا في الحياض ، فإذا انقطعت الأشهر الحرم انقطع ذلك الماء ، وشجرة من نحاس عليها سودانية من نحاس بأرض رومية ، إذا كان أوان الزيتون صفرت السودانية التي من نحاس فتجيء كل سودانية من الطيارات بثلاث زيتونات ، زيتونتين برجليها ،

وزيتونة بمنقارها ، حتى تلقيه على تلك السودانية النحاس ، فيعصر أهل رومية ما يكفيهم لأدامهم وسرجهم شتويتهم إلى قابل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(176/275)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) ﴾

لا رتبةَ فوق رتبة النبوة ، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة .

وأخبر – سبحانه – أنه نجَّى هوداً برحمته ، وكذلك نجَّى الذين آمنوا معه برحمته ، ليُعْلَمَ أنَّ النجاةَ لا تكون باستحقاق العمل ، وإنما تكون بابتداء فضلٍ من الله ورحمته ؛ فما نَجَا مَنْ نجا إلا بفضل الحق سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 546 ﴾

(177/275)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (65) ﴾

أَخاهُمْ واحداً منهم من قولك : يا أخا العرب ، للواحد منهم . وإنما جعل واحداً منهم ، لأنهم أفهم عن رجل منهم وأعرف بحاله في صدقه وأمانته ، وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وأخاهم : عطف على نوحا . وهُوداً عطف بيان له . فإن قلت : لم حذف العاطف من قوله قالَ يا قَوْمِ ولم يقل «فقال» كما في قصة نوح « 1 » ؟ قلت : هو على تقدير سؤال سائل قال : فما قال لهم هود ؟ فقيل : قال يا قوم اعبدوا اللّه ، وكذلك قالَ الْمَلَأُ . فإن قلت : لم وصف الملأ الَّذِينَ كَفَرُوا دون الملأ من قوم نوح ؟ قلت : كان في أشراف قوم هود من آمن به ، منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن . ونحوه قوله تعالى : وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذمّ لا غير فِي سَفاهَةٍ في خفة حلم وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر ، وجعلت السفاهة ظرفا على طريق المجاز : أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها . وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام - من نسبهم إلى الضلال والسفاهة ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة ، بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم - أدب حسن

وخلق عظيم ، وحكاية اللّه عزّ وجلّ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على

---

(1) . قال محمود : «فان قلت لم حذف العاطف من قوله تعالى في قصة هود هذه قال يا قَوْمِ ولم يقل «فقال» ؟ قلت لأنه أخرج الكلام جوابا عن سؤال سائل ، كأنه قيل : فما قال هود حينئذ ؟ قيل : يا قوم ، وكذلك قال الملأ» قال أحمد : وحذف العاطف من المقاولة . ألا ترى قوله في سورة الشراء حكاية عن تقاول موسى عليه السلام وفرعون ، كيف أسقط ذكر العاطف منه على كثرة الأقوال المعددة فيها . والسر في ذلك – واللّه أعلم – أن العاطف ينتظم الجمل حتى يصيرها كالجملة الواحدة «فاجتنب لارادة استقلال كل واحدة منها في معناها ، واللّه أعلم .

(178/275)

ما يكون منهم ناصِحٌ أَمِينٌ أى عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة ، فما حقي أن أُتهم . أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ أى خلفتموه في الأرض ، أو جعلكم ملوكا في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فيما خلق من أجرامكم ذهابا في الطول والبدانة . قيل : كان أقصرهم ستين ذراعا

، وأطولهم مائة ذراع فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ في استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه. وواحد الآلاء «إلى» نحو إنى وإناه، وضلع وأضلاع، وعنب وأعناب. فإن قلت:

«إذ» في قوله إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ ما وجه انتصابه؟ قلت: هو مفعول به وليس بظرف، أى اذكروا وقت استخلافكم.

[سورة الأعراف (7): الآيات 70 إلى 72]

قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ (72)

أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ أنكروا واستبعدوا اختصاص اللّه وحده بالعبادة، وترك دين الآباء . . في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حباً لما نشأوا عليه، وألفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به. فإن قلت: ما معنى المجيء في قوله أَجِئْتَنا قلت: فيه أوجه: أن يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه، كما كان يفعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بحراء قبل المبعث «1» فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوهم. وأن يريدوا به الاستهزاء، لأنهم كانوا يعتقدون أنّ اللّه تعالى لا يرسل إلا الملائكة، فكأنهم قالوا: أجئتنا

من السماء كما يجيء الملك ، وأن لا يريدوا حقيقة المجيء ، ولكن التعرّض بذلك والقصد ، كما يقال : ذهب يشتمني ، ولا يراد حقيقة الذهاب ، كأنهم قالوا : أقصدتنا لنعبد اللّه وحده وتعرّضت لنا بتكليف ذلك ؟

فَأْتِنا بِما تَعِدُنا استعجال منهم للعذاب قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ أى حق عليكم ووجب ، أو قد نزل عليكم . جعل المتوقع الذي لا بدّ من نزوله بمنزلة الواقع . ونحوه قولك لمن طلب إليك

---

(1) . متفق عليه من حديث عائشة رضى اللّه عنها في بدء الوحي «وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه حتى فجأه الوحى وهو بغار حراء .

بعض المطالب . قد كان ذلك . وعن حسان أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل ، فجاء يبكى . فقال له يا بنىّ مالك ؟ قال : لسعنى طوير كأنه ملتف في بردي حبرة «1» ، فضمه إلى صدره وقال له : يا بنى ، قد قلت الشعر . والرجس : العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة . ومعنى الإلهية فيها معدوم محال وجوده . وهذا كقوله تعالى : ما تدعون من دونه من شيء . ومعنى سَمَّيْتُمُوها سميتم بها من : سميته زيداً . وقطعُ دابرهم

: استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم .

وقصتهم أن «عاداً» قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت . وكانت لهم أصنام يعبدونها .

صداء . وصمود ، والهباء ، فبعث اللّه إليهم هوداً نبياً ، وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً ، فكذبوه وازدادوا عتوّاً وتجبراً ، فأمسك اللّه عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا ، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى اللّه تعالى الفرج منه عند بيته المحرّم مسلمهم ومشركهم ، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وسيدهم معاوية بن بكر ، فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلا ، منهم قيل بن عنز ، ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه . فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره ، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان .

– قينتان كانتا لمعاوية – فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال : قد هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء على ما هم عليه ، وكان يستحى أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه ، فذكر ذلك للقينتين . فقالتا : قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله . فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعلّ اللّه يسقينا غماما

فيسقى أرض عاد إن عادا قد امسوا ما يبينون الكلاما «2»

---

(1) . قوله «في بردي حبرة» حبرة - كعنبة - : برد يمانى . اه صحاح . (ع) [. . . . .]

(2) ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل اللّه يسقينا غماما

فيسقى أرض عاد إن عادا قد أمسوا ما يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو لها الشيخ الكبير ولا الغلاما

وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عيامى

وإن الوحش يأتيهم جهارا فلا يخشى لعادى سهاما

وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما

فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

لمعاوية بن بكر . وروى أن عادا بعثوا من قومهم : قيل بن عنز ونعيم بن هزالة ، ومرثد بن سعد بن عفير ، وجلهمة بن الحلس خال معاوية بن بكر ، ولقمان بن عاد ، كل منهم مع نفر من رهطه ليدعوا اللّه بالسقيا عند الكعبة ، فنزلوا عند معاوية بن بكر فأكرمهم وبعث إليهم الجرادتين لتغنيا لهم - وهما قينتان مغنيتان أول من غنى في نساء العرب - فنسوا قومهم من كثرة اللهو والطرب . فقال معاوية : هلك أخوالى ، ولو قلت لهم شيئا ظنوا بى بخلا . فأنشأ هذا ، وأمر الجرادتين بغنائه لهم . والهينمة : صوت خفى لا يفهم . والمراد بها دعاء اللّه بالسقيا . ويسقينا غماما : أى ماء غمام . ما يبينون الكلام ، لضعفهم من العطش . فليس

نرجو» أى ليس نحن نرجو لها أى لعاد . ويروى «به» أى بسبب العطش . وحق الرواية «بها» أى في أرض عاد . الشيخ ولا الغلام . والعيمة ، شدة الشهوة إلى اللبن .

والمراد بها مطلق الفاقة . والعيامى : جمع عيم بالتشديد ، أى رثيئة الحال ، وأصله عيائم ، فقلب إلى عيامى ، كما روى أيامى ، وهو جمع أيم ، وأصله أيائم ، أى فاقدات الأزواج . فالمعنى على التشبيه . ويجوز أن المراد : نساءكم التي تركتموهن كأنهن بلا أزواج هناك . وتكرير النساء للاستعطاف عليهن . والعادي : نسبة لعاد ، وكانوا الغلاظ الشداد .

والوحش : اسم جنس جمعى ، واحده وحشى ، كانس وإنسى ، وترك وتركى . فيذكر باعتبار لفظه ، ويؤنث باعتبار جمعيته . وروى «بهما» ونهاركم : نصب على الظرف ، و«من وقد قوم» تمييز مقترن بمن ، والسلام عطف على التحية ، وفيه تورية لأنه يشير إلى انقطاع الكلام ، كما أن المجتمعين يأتيان به عند المفارقة . فلما سمع القوم ذلك انطلقوا إلى للكعبة ، فلحقهم مرثد بن سعد وكان مؤمنا فأخروه ، فدعا اللّه تعالى لنفسه لا للقوم .

وقال قيل :

اللهم إن كان هود صادقا فاسقنا ، فأنشأ سحابة بيضاء وسحابة حمراء وسحابة سوداء . ثم نودي : يا قيل ، اختر أيها شئت . فقال : أما البيضاء فجفل ، وأما الحمراء فعارض . وأما السوداء فهيطل ، فاختارها فنودي . قد اخترت رمادا أرمدا ، لا يبقى من عاد أحدا ، لا والدا ولا ولدا . فسارت السوداء إلى عاد فأهلكتهم ، وجاء لقمان بن عاد

بعد أن فرغوا من دعواتهم فقال : اللهم إنى جئتك وحدي ، فأعطنى سؤلي . وسأل عمر سبعة أنسر ، وكان عمر النسر ثمانين سنة ، فكان يأخذ النسر من وكره فلا يزال عنده حتى يموت ، وكان آخر نسوره اسمه لبد ، فلما مات مات .

ثم إن ذلك كان قبل وجود مكة وزمزم ، لأنهما إنما وجدان في زمن إبراهيم وإسماعيل ، فلعل معاوية بن بكر كان سكنه قريبا من موضع مكة ، لا في نفس موضعها ، لأنه إذ ذاك لم تكن فيه كلأ ولا ماء .

(180/275)

فلما غنتا به قالوا : إن قومكم يتغوثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم ، فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم ، فقال لهم مرثد بن سعد : واللّه لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى اللّه سقيتم وأظهر إسلامه ، فقالوا لمعاوية : احبس عنا مرثدا لا يقدمنّ معنا مكة ، فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة فقال قيل : اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم ، فأنشأ اللّه تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء .

يا قيل ، اختر لنفسك ولقومك ، فقال : اخترت السوداء فإنها أكثرهنّ ماء فخرجت على

عاد من واد لهم يقال له المغيث ، فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا ، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ، ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة فعبدوا اللّه فيها حتى ماتوا .

فإن قلت :

ما فائدة نفى الإيمان عنهم في قوله وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ مع إثبات التكذيب بآيات اللّه ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد ، ومن نجا مع هود عليه السلام ، كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، ليؤذن أنّ الهلاك خص المكذبين ، ونجى اللّه المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 116.119 ﴾

(181/275)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) ﴾

القصة الثالثة قصة هود وذلك قوله سبحانه ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾

والتقدير لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً . واتفقوا على أن هوداً ما كان أخاهم في الدين . ثم قال الزجاج : معناه أنه كان من آدم ومن جنسهم لا من جنس الملائكة والجن . وقيل : أراد واحداً منهم قاله الكلبي ، وهو من قولك يا أخا العرب لواحد منهم ، وقيل : خص واحداً منهم بالإرسال إليهم ليكونوا أعرف بحاله في صدقه وأمانته . وقيل : معناه صاحبهم . والعرب تسمي صاحب القوم أخاهم قال صلى الله عليه وسلم " إن أخاكم أذن وإنما يقيم من أذن " يريد صاحبهم . ونسبه هود بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح ﴿ وهوداً ﴾ عطف بيان لأخاهم . وأما عاد فهم كانوا باليمين بالأحقاف . قال ابن إسحق : والأحقاف الرمل الذي بين عمان إلى حضرموت . واعلم أن ألفاظ هذه القصة بعضها يوافق الألفاظ المذكورة في قصة نوح وبعضها يخالفها فلنبين أسرارها فمنها قوله هناك ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وههنا ﴿ قال يا قوم ﴾ والفرق أن نوحاً عليه السلام كان مواظباً على دعوتهم وما كان يؤخر الجواب عن شبهاتهم لحظة واحدة ، وأما هود فما كان جدّه إلى هذا الحد فلا جرم جاء بالتعقيب في قصة نوح دون قصة هود .

ويمكن أن يقال : لما أضمر ﴿ أرسلنا ﴾ أضمر الفاء لأن الداعي إلى الفاء ﴿ أرسلنا ﴾ وفي الكشاف أن هذا وارد على سبيل الاستئناف .

ومنها قوله : ﴿ ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ وفي قصة هود ﴿ ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ لأن واقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح فوقع الاقتصار على ذلك أي لعلكم تحذرون مثل ذلك العذاب العظيم الذي اشتهر خبره في الدنيا . ومنها ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ وفي قصة هود ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ إما أن هذا وصف وارد للذم لا غير ، وإما أنه لم يكن في أشراف قوم نوح من يؤمن وكان في أشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه فأريد التفرقة بالوصف . ومنها أن قوم نوح ﴿ قالوا إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ وقوم هود ﴿ قالوا إنا لنراك في سفاهة ﴾ أي متمكناً منها تمكن المظروف من الظرف . وذلك أن نوحاً كان يخوّفهم بالطوفان العام وكان يشتغل بإعداد السفينة مدّة طويلة فوصفوه بضعف الرأي والبعد عن السداد . وأما هو فما ذكر شيئاً إلا أنه زيف معتقدهم في عبادة الأصنام وطعن فيها فقابلوه بمثله ونسبوه إلى السفاهة وخفة العقل حيث فارق دين قومه . ثم قالوا ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ في ادعاء الرسالة . قيل : الظن بمعنى الجزم واليقين كقوله ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ [البقرة : 46] قال الحسن والزجاج : كانوا شاكين فيعلم أن الشك والتجويز في أصول الدين يوجب الكفر . ومنها قول نوح ﴿ وأنصح لكم ﴾ وقال هود ﴿ وأنا لكم ناصح ﴾ وذلك لأنه كان من عادة نوح عليه السلام العود إلى تجديد تلك

الدعوة في كل يوم وفي كل ساعة ، وصيغة الفعل دلت على التجدد المستمر ولهذا ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ [نوح : 5] إلى آخر الآيات . وأما هود فكان ثابتاً على النصح غير مجدد إياه لحظة فلحظة كما كان يفعل نوح . ثم إن نوحاً عليه السلام قال ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ لأنه كان يعلم من أسرار الله تعالى ما لم يصل إليه هود فلا جرم أمسك هود لسانه واقتصر على وصف نفسه بكونه أميناً ثقة أي عرفت فيما بينكم بالنصح

(183/275)

والأمانة فليس من حقي أن آتي بالكذب والغش . أو المراد تقرير الرسالة فإنها تدور على الأمانة أي أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه . وفي هذين الجوابين عن مثل ذينك الشخصين مع جلالة قدرهما دليل على أن الحكيم يجب أن لا يقابل السفهاء إلا بالكلام المبني على الحلم والإغضاء . ومنها أن هوداً اقتصر على قوله ﴿ لينذركم ﴾ لما مر في قصة نوح أن فائدة الإنذار هي حصول التقوى الموجبة للرحمة فلم يكن حاجة إلى الإعادة ولكنه ضم إلى ذلك شيئاً آخر يختص بهم فقال ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ أي خلفتموهم في الأرض أو جعلكم ملوكاً قد استخلفكم فيها

بعدهم وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأملاكهم وما يتصل بها من المنافع ، " وإذا " مفعول به لا ظرف أي اذكروا وقت جعلكم خلفاء ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ فالخلق التقدير وقلما يطلق إلا على الشيء الذي له مقدار وحجمية .

(184/275)

والمراد حصول الزيادة في أجسامهم زيادة خارقة للعادة وإلا لم تذكر في معرض الامتنان . قال الكلبي : كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً . وقال آخرون : تلك الزيادة هي مقدار ما تبلغه يد الإنسان إذا رفعها كانوا يفضلون على أهل زمانهم بهذا القدر . ومنهم من حمل اللفظ على الزيادة في القوة ، ومنهم من قال : الخلق الخليقة وبسطتهم فيهم كونهم من قبيلة واحدة متشاركين في القوة والشدّة والجلادة متناصرين متوادّين ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ في استخلافكم وبسطة أجرامكم وفيما سواهما من عطاياه وآلاء الله نعمه واحدها إلى ونحوه أني وآناء كعنب وأعناب . قال الجوهري : واحدها إني بالفتح وقد يكسر ويكتب بالياء . استدل الطاعنون في وجوب الأعمال الظاهرية بالآية قالوا : إنه تعالى رتب حصول الفلاح على مجرد التذكر . وأجيب بأن الآيات بالدالة على وجوب العمل مخصصة أو مقيدة والتقدير : فاذكروا آلاء الله واعملوا عملاً يليق بذلك الإنعام لعلكم

تفلحون . ذكرهم نبيهم نعم الله عليهم ليرجعوا إلى عقولهم فيعلموا أن العبادة نهاية التعظيم ولا تلق إلا بمن صدر عنه نهاية الإنعام وليس للأصنام على الخلق شيء من النعم لأنها جماد والجماد لا قدرة له أصلا فلم يكن للقوم جواب عن هذه الحجة إلا التمسك بطريقة التقليد وذلك قولهم ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾ الهمزة لإنكار اختصاص الله وحده بالعبادة . وفي المجيء أوجه منها : أن يكون لهود معتزل يتحنث فيه أي يتعبد كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قبل المبعث ، فلما أوحي إليه جاء قومه يدعوهم . ومنها الاستهزاء اعتقاداً منهم أن الله لا يرسل إلا ملكاً فكأنهم قالوا : أجئتنا من السماء كما يجيء الملك ؟ ومنها أن يراد به القصد كما يقال : ذهب يشتمني ، ولا يراد حقيقة الذهاب كأنهم قالوا : أتعرضت لنا بتكليف عبادة الله وحده أي منفرداً عن الأصنام وهو من المعارف التي وقعت حالاً بتأويل . ولا يمكن أن يكون وحده ههنا

اعترافاً كما يقول الموحد لا إله إلا الله وقال الله وحده لأن الفرض أنهم مشركون . ثم إن قول هود فيما قبل ﴿ أفلا تتقون ﴾ كان مشعراً بالتهديد والوعيد فلهذا استعجلوا العذاب زعماً منهم أنه كاذب وذلك قولهم ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ فأجابهم هود بقوله ﴿ قد وقع

عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ ولا بد أن يحملا على معنيين متغايرين لمكان العطف . أما الغضب في حقه تعالى فإرادة إيقاع السوء كما سبق مراراً ، وأما الرجس فقيل : العذاب .

اعترض عليه بلزوم التكرار . وقيل : العقائد المذمومة والصفات القبيحة . وذلك أن الرجس ضد التطهير كما قال سبحانه في صفة أهل البيت ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ [الأحزاب : 33] وقال القفال : الرجس هو الازدياد في الكفر بالرين على القلوب كما قال ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : 125] وهذا التفسير أخص . أما قوله ﴿ قد وقع ﴾ ولم يقع العذاب بعد ففيه وجوه : قال بعض من يقول بأن إرادة الله تعالى حادثة : معناه أنه تعالى أحدث إرادة في ذلك الوقت . وقيل : أراد هود أنه أخبر بنزول العذاب . وقيل : جعل المتوقع الذي لا شك فيه بمنزلة الواقع كقولك لمن طلب منك حاجة قد كان ذلك . تريد أنها ستكون ألبتة . وعن حسان أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل فجاء أباه يبكي فقال له : يا بني ما لك ؟ فقال : لسعني طوير كأنه ملتف في بردي حبرة فضمه إلى صدره وقال : يا بني قد قلت الشعر .

ثم أنكر عليهم قبيح فعالهم فقال ﴿ أتجادلونني في أسماء ﴾ تناظرونني في شأن آلهة أشياء ما هي إلا أسماء ﴿ سميتموها ﴾ أحدثتموها ﴿ أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ﴾ أي لا حجة على حقيقتها فتنزل . والحاصل أنها أسماء بلا مسميات لأنكم تسمونها آلهة ومعنى الإلهية فيها معدوم محال . سموا واحداً بالعزي مشتقاً من العز وما أعطاه الله تعالى عزاً أصلاً . وسموا آخر منها باللات من الإلهية وماله من الإلهية أثر . وإنما قال في هذه السورة نزل وفي غيرها مما سيجيء ﴿ أنزل ﴾ لأن " نزل " للتكثير فيكون للمبالغة ويجري ما بعده مجرى التفصيل للجملة ، أو أنواع للجنس والله أعلم . ثم إنه ذكرهم وعيداً محدوداً فقال ﴿ فانتظروا ﴾ سوء عاقبة هذه الأصنام ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ عاقبة السوء أو عاقبة الحسنى وذلك قوله ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة ﴾ بسبب رحمة كانوا يستحقونها ﴿ منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي استأصلناهم ودمرناهم عن آخرهم وقد مر مثله في الأنعام . وفائدة نفي الإيمان عنهم في قوله ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ مع إثبات التكذيب بآيات ربهم أن يكون تعريضاً بمن آمن منهم ، كمرثد بن سعد وغيره كأنه قيل : ولقد قطعنا دابر الذين كذبوا ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، أو معنى ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ في علم الله تعالى أي لم يكونوا من المكذبين الذي لو بقوا لآمنوا . قال في الكشاف : وإن عاداً قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت وكانت لهم أصنام يعبدونها . صداء وصمود والهباء فبعث الله هوداً نبياً وكان من أوسطهم وأشرفهم وأفضلهم حسباً فكذبوه

وازدادوا عتواً وتجبراً ، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا . وإن الناس كانوا إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج من ذلك عند بيته الحرام مسلمهم ومشركهم وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر ، فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلاً منهم قيل بن

عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه فلما نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم أنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان كانتا لمعاوية إحداهما وردة والأخرى جرادة ولما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا لأجله أهمه ذلك وقال : قد هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء على ما هم عليه وما يستحي أن يكلمهم خيفة أن يظنوا أنه ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا : قل قولاً نغنيهم به لا يدرون من قاله فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم . . . لعل الله يسقينا غماماً

ويسقي أوض عاد إن عاداً . . . قد آمسوا ما يبينون الكلاما

الهينمة إخفاء الكلام في الدعاء وغيره ، ومعنى يسقينا يجعله ساقياً لنا . وقوله ما يبينون

الكلام أي لا يكادون يفقهون قولاً من ضعفهم وسوء حالهم . فلما غنتا به قالوا : إن قومكم يتغوّثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم . فقال لهم مرثد بن سعد : والله لا يسقون بدعائكم ولكم إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى ربكم سقيتم وأظهر إسلامه . فقالوا لمعاوية : أحبس عنا مرثداً لا يقدمن معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة فقال قيل : اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم فأنشأ الله سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء ياقيل اختر لنفسك ولقومك . فقال : اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث فاستبشروا بها وقالوا : هذا عارض ممطرنا . فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فأتوا مكة فتعبدوا الله فيها حتى ماتوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 268.272 ﴾

(188/275)

وقال البيضاوى :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ ﴾

عطف على نوحاً إلى قومه . ﴿ هُوداً ﴾ عطف بيان لأخاهم والمراد به الواحد منهم ،

كقولهم يا أخا العرب للواحد منهم ، فإنه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . وقيل : هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقيل هود بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح ، ابن عم أبي عاد ، وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لقوله وأعرف بحاله وأرغب في اقتفائه . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ استأنف به ولم يعطف كأنه جواب سائل قال : فما قال لهم حين أرسل ؟ وكذلك جوابهم . ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ عذاب الله ، وكأن قومه كانوا أقرب من قوم نوح عليه الصلاة والسلام ولذلك قال أفلا تتقون ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ إذ كان من أشرافهم من آمن به كمرثد بن سعد .

﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ متمكناً في خفة عقل راسخاً فيها حيث فارقت دين قومك .

﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾ سبق تفسيره . وفي إجابة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والإعراض عن مقابلتهم كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة ، وهكذا ينبغي لكل ناصح ، وفي قوله : ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين . وقرأ أبو عمرو ﴿ أبلغكم ﴾ في الموضعين في هذه السورة وفي "الأحقاف" مخففاً . ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي في مساكنهم ، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شجر عمان . خوفهم من عقاب الله ثم ذكرهم بإنعامه . ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ قامة وقوة . ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ﴾ تعميم بعد تخصيص . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والأعراض عما أشرك به آباؤهم انهماكاً في التقليد وحباً لما ألفوه ، ومعنى المجيء في ﴿ أجئتنا ﴾ إما المجيء من مكان اعتزل به عن قومه أو من السماء على التهكم ، أو القصد على المجاز كقولهم ذهب يسبني . ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله ﴿ أفلا تتقون ﴾ . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فيه .

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴾ قد وجب وحق عليكم ، أو نزل عليكم على أن المتوقع كالواقع . ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب . ﴿ وَغَضَبٌ ﴾ إرادة انتقام . ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي في أشياء سميتموها آلهة وليس فيها معنى الإلهية ، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل ، وأنها لو استحقت كان استحقاقها بجعله تعالى إما بإنزال آية أو بنصب حجة ، بين أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمى ، وإسناد الاطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهاراً لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم ، واستدل به على أن الاسم هو المسمى وأن اللغات توقيفية إذ لو لم يكن كذلك لم يتوجه الذم والإبطال بأنها أسماء مخترعة لم ينزل الله بها سلطاناً وضعفهما ظاهر . ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ لما وضح الحق وأنتم مصرون على العناد نزول العذاب بكم . ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ في الدين . ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ عليهم . ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي استأصلناهم . ﴿ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ تعريض بمن آمن منهم ، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإيمان .

روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه ، وازدادوا عتواً فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدهم ، وكان الناس حينئذ مسلمهم ومشركهم إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج ، فجهزوا إليه قيل بن عثر ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم ، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وسيدهم معاوية بن بكر ، فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم ، وكانوا أخواله وأصهاره ، فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان له ، فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا له أهمه ذلك واستحيا أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم فعلم القينتين :

أَلَا يَا قِيلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِم . . . لَعَلَّ اللهُ يُسْقِينَا الغَمَامَا

فَيُسْقِي أَرْضَ عَادٍ إن عَادا . . . قَد امْسوا مَا يُبِينُونَ الكَلَامَا

حتى غنتا به ، فأزعجهم ذلك فقال مرثد : والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سبحانه وتعالى سقيتم ، فقالوا لمعاوية : احبسه عنا لا يقدم معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة فقال قيل : اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم ،

فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء يا قيل : اختر لنفسك ولقومك . فقال اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء ، فخرجت على عاد من وادي المغيث فاستبشروا بها وقالوا : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة وعبدوا الله سبحانه وتعالى فيها حتى ماتوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 31.35 ﴾

(192/275)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾

أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم أي واحداً من قبيلتهم أو صاحبهم ، أو سماه أخاً لكونه ابن آدم مثلهم .

وعاد من هو ولد سام بن نوح .

قيل هو عاد بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وهود هو ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عوص بن إرم بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح .

و ﴿ هوداً ﴾ عطف بيان ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

قد تقدّم تفسير هذا قريبا .

والاستفهام في ﴿ أفلا تتقون ﴾ للإنكار .

وقد تقدّم أيضاً تفسير الملأ ، والسفاهة الخفة والحمق ، وقد تقدّم بيان ذلك في البقرة .

نسبوه إلى الخفة والطيش ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا : ﴿ إنا لنظنك من الكاذبين ﴾

مؤكدين لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة ، ثم أجاب عليهم بنفي السفاهة عنه .

واستدرك من ذلك بأنه رسول ربّ العالمين ، وقد تقدّم بيان معنى هذا قريباً ، وكذلك سبق

تفسير ﴿ أبلغكم رسالات ربي ﴾ وتقدّم معنى الناصح .

والأمين المعروف بالأمانة .

وسبق أيضاً تفسير ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾

في قصة نوح التي قبل هذه القصة .

قوله : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ أذكرهم نعمة من نعم الله عليهم ،

وهي أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح أي ، جعلهم سكان الأرض التي كانوا فيها ، أو

جعلهم ملوكاً .

و" إذ " منصوب ب ﴿ اذكر ﴾ ، وجعل الذكر للوقت .

والمراد ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة ، لأن الشيء إذا كان وقته

مستحقاً للذكر ، فهو مستحق له بالأولى ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ أي طولاً في الخلق

وعظم جسم ، زيادة على ما كان عليه آباؤهم في الأبدان .

وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد .

(193/275)

قوله : ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ الآلاء : جمع إِلَى ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الأرض ، والبسطة في الخلق وغير ذلك مما أنعم به عليهم ، وكرر التذكير لزيادة التقرير ، والآلاء النعم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ إن تذكرتم ذلك ، لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها ، ومن شكر فقد أفلح .

قوله : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾ هذا استنكار منهم لدعائه إلى عبادة الله وحده ، دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله ، وإنما كان هذا مستنكراً عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه .

﴿ ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾ أي نترك الذي كانوا يعبدونه ، وهذا داخل في جملة ما استنكروه .

قوله : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ هذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يعدهم به ، لشدّة تمرّدهم على الله ، ونكوصهم عن طريق الحق ، وبعدهم عن اتباع

الصواب ، فأجابهم بقوله : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ جعل ما هو متوقع كالواقع ، تنبيهاً على تحقق وقوعه ، كما ذكره أئمة المعاني والبيان .

وقيل معنى وقع : وجب .

والرجس : العذاب .

وقيل : هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر .

ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة ، فقال : ﴿ أتجادلونني في أسماء ﴾ يعني أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها ، جعلها أسماء ، لأن مسمياتها لا حقيقة لها ، بل تسميتها بالآلهة باطلة ، فكأنها معدومة لم توجد ، بل الموجود أسماؤها فقط ﴿ سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي سميتم بها معبوداتكم من جهة أنفسكم أنتم وآباؤكم ، ولا حقيقة لذلك .

﴿ وما نزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجة تحتجون بها على ما تدّعونه لها من الدعاوي الباطلة ، ثم توعدهم بأشد وعيد فقال : ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ أي فانتظروا ما طلبتموه من العذاب ، فإني معكم من المنتظرين له ، وهو واقع بكم لا محالة ، ونازل عليكم بلا شك .

ثم أخبر الله سبحانه أنه نجى هوداً ومن معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به ، ولم تقبل رسالته ، وأنه قطع دابر القوم المكذبين ، أي استأصلهم جميعاً .

وقد تقدّم تحقيق معناه ، وجملة : ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ معطوفة على ﴿ كذبوا ﴾ أي استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيبين بآياتنا وعدم الإيمان .

وقد أخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ قال : ليس بأخيهم في الدين ، ولكنه أخوهم في النسب ؛ لأنه منهم ، فلذلك جعل أخاهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الربيع بن خيثم قال : كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل الذرّ .

وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : كان الرجل من عاد ستين ذراعاً بذراعهم ، وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة ، وكان عين الرجل لتفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر ذراعاً طولاً .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن ابن عباس قال : كان الرجل منهم ثمانين باعاً ، وكانت البرّة فيهم ككلية البقرة ، والرمانة الواحدة يقعد في قشرها عشرة نفر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ قال شدة .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة ، قال : إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من الحجارة ، لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم

يستطيعوا أن يقلوه ، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ آلاء الله ﴾ قال : نعم الله ، وفي قوله : ﴿ رجس ﴾ قال : سخط .

وأخرج ابن عساكر قال : لما أرسل الله الريح على عاد ، اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذ به الأنفس ، وإنها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض ، وتدمغه بالحجارة .

(195/275)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، في قوله : ﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا ﴾ قال : استأصلناهم .

وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن جرير ، وابن عساكر ، عن عليّ بن أبي طالب ، قال : قبر هود بحضرموت في كثيب أحمر عند رأسه سدرة .

وأخرج ابن عساكر ، عن عثمان بن أبي العاتكة ، قال : قبلة مسجد دمشق قبر هود .

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي هريرة ، قال : كان عمر هود أربعمائة سنة واثنتين وسبعين سنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

وقال السعدى :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ .إلى آخر القصة .

أي: ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى عَادٍ ﴾ الأولى ، الذين كانوا في أرض اليمن ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ في النسب ﴿ هُودًا ﴾ عليه السلام ، يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض .

فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ سخطه وعذابه ، إن أقمتم على ما أنتم عليه ، فلم يستجيبوا ولا انقادوا .

فـ ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ رادين لدعوته ، قادحين في رأيه: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي: ما نراك إلا سفيها غير رشيد ، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين ، وقد انقلبت عليهم الحقيقة ، واستحكم عماهم حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به ، وهو أبعد الناس عنه ، فإنهم السفهاء حقا الكاذبون .

وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار ، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء ، وانقاد قلبه وقالبه لكل شيطان مريد ، ووضع العبادة في غير موضعها ، فعبد

من لا يغني عنه شيئا من الأشجار والأحجار ؟"

وأي كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى اللّه تعالى ؟"

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾ بوجه من الوجوه ، بل هو الرسول المرشد الرشيد ، ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾ أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه ، وهو أن اللّه أرسل إليكم رجلا منكم تعرفون أمره ، يذكركم بما فيه مصالحكم ، ويحثكم على ما فيه النفع لكم ، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين .

(197/275)

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي: واحمدوا ربكم واشكروه ، إذ مكن لكم في الأرض ، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل ، فأهلكهم اللّه وأبقاكم ، لينظر كيف تعملون ، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا ، فيصيبكم ما أصابهم ، ﴿ و ﴾ اذكروا نعمة اللّه عليكم التي خصكم بها ، وهي أن ﴿ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ في القوة وكبر الأجسام ، وشدة البطش ، ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ﴾ أي:

نعمه الواسعة ، وأياديه المتكررة ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها ﴿ تُفْلِحُونَ ﴾ أي: تفوزون بالمطلوب ، وتنجون من المرهوب ، فوعظهم وذكرهم ، وأمرهم بالتوحيد ، وذكر لهم وصف نفسه ، وأنه ناصح أمين ، وحذرهم أن يأخذهم اللّه كما أخذ من قبلهم ، وذكرهم نعم اللّه عليهم وإدرار الأرزاق إليهم ، فلم ينقادوا ولا استجابوا .

ف ﴿ قَالُوا ﴾ متعجبين من دعوته ، ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ قبحهم اللّه ، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وأكمل الأمور ، من الأمور التي لا يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم ، فقدموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام ، على ما دعت إليه الرسل من توحيد اللّه وحده لا شريك له ، وكذبوا نبيهم ، وقالوا: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا استفتاح منهم على أنفسهم .

فقَالَ لهم هود عليه السلام: ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ أي: لا بد من وقوعه ، فإنه قد انعقدت أسبابه ، وحان وقت الهلاك .

﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ أي: كيف تجادلون على أمور ، لا حقائق لها ، وعلى أصنام سميتموها آلهة ، وهي لا شيء من الآلهة فيها ، ولا مثقال ذرة و ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطانا ، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها ، فإنه ما من مطلوب ومقصود – وخصوصا الأمور الكبار – إلا وقد بين الله فيها من الحجج ، ما يدل عليها ، ومن السلطان ، ما لا تخفى معه .

﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ ما يقع بكم من العقاب ، الذي وعدتكم به ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ وفرق بين الانتظارين ، انتظار من يخشى وقوع العقاب ، ومن يرجو من الله النصر والثواب ، ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال:

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ أي: هودا ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ آمنوا ﴿ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ فإنه الذي هداهم للإيمان ، وجعل إيمانهم سببا ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته ، ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحدا ، وسلط الله عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت عليهم الحجج ، فلم ينقادوا لها ، وأمروا بالإيمان فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك ، والخزي والفضيحة .

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

.

وقال هنا ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ بوجه من الوجوه ، بل وصفهم التكذيب والعناد ، ونعتهم الكبر والفساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 293.294 ﴾

(199/275)

وقال الشيخ سيد قطب :

وتمضي عجلة التاريخ ، ويمضي معها السياق ، فإذا نحن أمام عاد قوم هود :

" وإلى عاد أخاهم هودا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين . قال : يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي ، وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إنا كنت من الصادقين . قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا ، إني معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا ،

وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين ﴾ .

إنها نفس الرسالة ، ونفس الحوار ، ونفس العاقبة . . إنها السنة الماضية ، والناموس الجاري ، والقانون الواحد . .

إن قوم عاد هؤلاء من ذراري نوح والذين نجوا معه في السفينة ، وقيل : كان عددهم ثلاثة عشر . . وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين في السفينة كانوا على دين نوح عليه السلام – وهو الإسلام – كانوا يعبدون الله وحده ، ما لهم من إله غيره ، وكانوا يعتقدون أنه رب العالمين ، فهكذا قال لهم نوح : ﴿ ولكني رسول من رب العالمين ﴾ .

. فلما طال عليهم الأمد ، وتفرقوا في الأرض ، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية ، وقادهم من شهواتهم – وفي أولها شهوة الملك وشهوات المتاع ، وفق الهوى لا وفق شريعة الله ، عاد قوم هود يستنكرون أن يدعوهم نبيهم إلى عبادة الله وحده من جديد :

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟ ﴾ . .

القولة التي قالها نوح من قبله ، والتي كذب بها قومه ، فأصابهم ما أصابهم ، واستخلف الله عادا من بعدهم – ولا يذكر هنا أين كان موطنهم ، وفي سورة أخرى نعلم أنهم كانوا بالأحقاف ، وهي الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت – وقد ساروا في الطريق الذي سار فيه من قبل قوم نوح ، فلم يتذكروا ولم يتدبروا ما حل بمن ساروا في هذا الطريق ، لذلك يضيف هود في خطابه لهم قوله : ﴿ أفلا تتقون ؟ ﴾ استنكاراً لقلة خوفهم من الله ومن ذلك المصير المرهوب .

وكأنما كبر على الملأ الكبراء من قومه أن يدعوهم واحد من قومهم إلى الهدى ، وأن يستنكر منهم قلة التقوى ؛ ورأوا فيه سفاهة وحماقة ، وتجاوزا للحد ، وسوء تقدير للمقام !

فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعاً في غير تحرج ولا حياء :

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ . .

هكذا جزافاً بلا تروّ ولا تدبر ولا دليل !

﴿ قال : يا قوم ليس بي سفاهة ، ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ . .

لقد نفى عن نفسه السفاهة في بساطة وصدق – كما نفى عن نفسه الضلالة – وقد كشف لهم – كما كشف نوح من قبل – عن مصدر رسالته وهدفها ؛ وعن نصحه لهم فيها وأمانته في تبليغها . وقال لهم ذلك كله في مودة الناصح وفي صدق الأمين .

ولا بد أن يكون القوم قد عجبوا – كما عجب قوم نوح من قبل – من هذا الاختيار ، ومن تلك الرسالة ، فإذا هود يكرر لهم ما قاله نوح من قبل ، كأنما كلاهما روح واحدة في شخصين :

﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ ﴾ . .

ثم يزيد عليه ما يمليه واقعهم . . واقع استخلافهم في الأرض من بعد قوم نوح ، وإعطائهم قوة في الأجسام وضخامة بحكم نشأتهم الجبلية ، وإعطائهم كذلك السلطان والسيطرة :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة . فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ . .

(201/275)

فلقد كان من حق هذا الاستخلاف ، وهذه القوة والبسطة ، أن تستوجب شكر النعمة ، والحذر من البطر ، واتقاء مصير الغابرين .

وهم لم يأخذوا على الله عهداً : أن تتوقف سنته التي لا تتبدل ، والتي تجري وفق الناموس المرسوم ، بقدر معلوم . وذكر النعم يوحي بشكرها ؛ وشكر النعمة تتبعه المحافظة على أسبابها ؛ ومن ثم يكون الفلاح في الدنيا والآخرة .

ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر . . وهكذا أخذت الملأ العزة بالإثم ، واختصروا الجدل ، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح ، ويهزأ بالإنذار :

﴿ قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ . .

لكأنما كان يدعوهم إلى أمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه ، ولا يصبرون على النظر فيه :

﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ ﴾ ؛

إنه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول . هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصيلة : حرية التدبر والنظر ، وحرية التفكير والاعتقاد . ويدعه عبداً للعادة والتقليد ، وعبداً للعرف والمألوف ، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله ، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور . .

وهكذا استعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحق ، بل فراراً من تدبر تفاهة الباطل الذي هم له عبيد ؛ وقالوا لنبيهم الناصح الأمين :

﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ !

ومن ثم كان الجواب حاسماً وسريعاً في رد الرسول :

﴿ قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب . أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا ، إني معكم من المنتظرين ﴾ .

(202/275)

لقد أبلغهم العاقبة التي أنبأه بها ربه ، والتي قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص . . إنه العذاب الذي لا دافع له ، وغضب الله المصاحب له . . ثم جعل بعد هذا التعجيل لهم بالعذاب الذي استعجلوه ؛ يكشف لهم عن سخافة معتقداتهم وتصوراتهم :

﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ ﴾ . .

إن ما تعبدون مع الله ليس شيئاً ذا حقيقة ! إنها مجرد أسماء أطلقتموها أنتم وآباؤكم ؛ من عند أنفسكم ، لم يشرعها الله ولم يأذن بها ، فما لها إذن من سلطان ولا لكم عليها من برهان .

والتعبير المتكرر في القرآن : ﴿ ما نزل الله بها من سلطان ﴾ . . هو تعبير موح عن حقيقة أصيلة . . إن كل كلمة أو شرع أو عرف أو تصور لم ينزله الله ، خفيف الوزن ، قليل الأثر ، سريع الزوال . . إن الفطرة تتلقى هذا كله في استخفاف ، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق ، بما فيها من سلطان الله الذي يودعها إياه .

وكم من كلمات براقة ، وكم من مذاهب ونظريات ، وكم من تصورات مزوقة ، وكم من أوضاع حشدت لها كل قوى التزيين والتمكين . . ولكنها تتذاوب أمام كلمة من الله ، فيها من سلطانه – سبحانه – سلطان ! وفي ثقة المطمئن ، وقوة المتمكن ، يواجه هود قومه بالتحدي :

﴿ فانتظروا ، إني معكم من المنتظرين ﴾ .

إن هذه الثقة هي مناط القوة التي يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله . . إنه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال . كما أنه على يقين من سلطان الحق الذي معه وقوته بما فيه من سلطان الله .

ولا يطول الانتظار في السياق :

﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين ﴾ . .

فهو الحق الكامل الذي لا يتخلف منه أحد . وهو ما عبر عنه بقطع الدابر . والدابر هو آخر واحد في الركب يتبع أدبار القوم !

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين . وتحقق النذير مرة أخرى بعد إذ لم ينفع التذكير . . ولا يفصل السياق هنا ما يفصله من أمر هذا الهلاك في السور الأخرى . فنقف نحن في ظلال النص الذي يهدف إلى الاستعراض السريع ؛ ولا نخوض في تفصيل له مواضعه في النصوص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1310.1312 ﴾

(204/275)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : لقد أرسلنا نوح الروح إلى قومه ببلاد القوالب وهم القلب وصفاته والنفس وصفاتها ، ومن صفة الروح العبودية والطاعة دعوة القلب والنفس وصفاتها إلى الله وعبوديته ، ومن صفات النفس تكذيب الروح ومخالفته والإباء عن نصحه والتعجب ﴿ فكذبوا ﴾ يعني النفس وصفاتها نوح والروح ﴿ فأنجيناه والذين معه ﴾ في الفلك الشريعة ﴿ وأغرقنا ﴾ النفس وصفاتها في البحر الدنيا وشهواتها ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ عن رؤية الله والوصول إليه ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ كما أوقع التفاوت بين شخص وشخص فيما يعود إلى المباني أوقع التباين بين قوم وقوم وفيما يرجع إلى المعاني ﴿ قد رفع

عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ أي مقالتكم تدل على حالتكم أنه أصابكم سطوات العذاب . فمن أمارات الإعراض رد العبد إلى شهود الأغيار وتغريقه إياه في بحار الظنون والأوهام والجدال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 272 ﴾

(205/275)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : على ما قاله القوم رضي الله تعالى عنهم ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات ﴾ أي سموات الأرواح ﴿ والأرض ﴾ أي أرض الأبدان ﴿ في ستة أيام ﴾ وهي ستة آلاف سنة وإن يوماً عند ربكم كألف سنة مما تعدون وهي من لدن خلق آدم عليه السلام إلى زمان النبي صلى الله عليه وسلم وهي في الحقيقة من ابتداء دور الخفاء إلى ابتداء الظهور الذي هو زمان ختم النبوة وظهور الولاية ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ وهو القلب المحمدي بالتجلي التام وهو التجلي باسمه تعالى الجامع لجميع الصفات .

وللصوفية عدة عروش نبهنا عليها في كتابنا "الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب" .

(206/275)

وتمام الكلام عليها في "شمس المعارف" للإمام البوني قدس سره ﴿ يغشي الليل ﴾ أي ليل البدن ﴿ النهار ﴾ أي نهار الروح ﴿ يطلبه ﴾ بالتهيء والاستعداد لقبوله باعتدال مزاجه ﴿ حثيثاً ﴾ أي سريعاً ﴿ والشمس ﴾ أي شمس الروح ﴿ والقمر ﴾ أي قمر القلب ﴿ والنجوم ﴾ أي نجوم الحواس ﴿ مسخرات بأمره ﴾ [الأعراف : 54] الذي هو الشأن المذكور في قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ [الرحمن : 29] ﴿ ادعوا ربكم ﴾ أي اعبدوه ﴿ تضرعاً وخفية ﴾ إشارة إلى طريق الجلوة والخلوة أو ادعوه بالجوارح والقلب أو بأداء حق العبودية ومطالب حق الربوبية ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ [الأعراف : 55] المتجاوزين عما أمروا به بترك الامتثال أو الذين يطلبون منه سواه ﴿ ولا تفسدوا في الأرض ﴾ أي أرض البدن ﴿ بعد إصلاحها ﴾ بالاستعداد ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ [الأعراف : 56] لئلا يلزم إهمال إحدى صفتي الجلال والجمال ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ﴾ أي رياح العناية ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أي تجلياته ﴿ حتى إذا أقلت حملت سحابا ثقالا ﴾ بأمطار المحبة ﴿ سقناه لبلد ﴾ قلب ﴿ ميت فأنزلنا به الماء ﴾ ماء المحبة ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ من المشاهدات والمكاشفات ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ القلوب الميتة من قبور الصدور ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ [الأعراف : 57] أيام حياتكم في عالم الأرواح حيث كنتم في رياض القدس وحياض الأنس ﴿ والبلد الطيب

﴿ وهو ما طاب استعداده ﴿ يخرج نباته بإذن ربه ﴾ حسناً غزيراً نفعه ﴾ والذي خبث ﴾ وهو ما ساء استعداده ﴿ لا يخرج إلا نكداً ﴾ [الأعراف : 58] لا خير فيه ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ أي نوح الروح ﴿ إلى قومه ﴾ [الأعراف : 59] من القلب وأعوانه والنفس وأعوانها ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه ﴾ كالقلب وأعوانه ﴿ في الفلك ﴾ وهو سفينة الأتباع ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ في بحار الدنيا ومياه الشهوات ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ [الأعراف : 64] عن طريق الوصول ورؤية الله تعالى

(207/275)

، وعلى هذا المنوال ينسج الكلام في باقي الآيات .

ولمولانا الشيخ الأكبر قدس سره في هؤلاء القوم ونحوهم كلام تقف الأفكار دونه حسرى فمن أراده فليرجع إلى "الفصوص" يرى العجب العجاب والله تعالى الهادي إلى سبيل الرشاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(208/275)

فائدة

قال ابن الجوزى :

المجلس الخامس في قصة عاد

الحمد لله المنزه عن الأشباه في الأسماء والأوصاف المقدس عن الجوارح والآلات والأطراف خضعت لعزته الأكوان وأقرت عن اعتراف وانقادت له القلوب وهي في انقيادها تخاف أنزل القطر فمنه الدر تحويه الأصداف ومنه قوت البذور يربي الضعاف كشف للمتقين اليقين فشهدوا وأقامهم في الليل فسهروا وشهدوا وأراهم عيب الدنيا فرفضوا وزهدوا وقالوا نحن أضياف وقضى على المخالفين بالبعاد فأفاتهم التوفيق والإسعاد فكلهم هام في الضلال وما عاد (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) أحمده على ستر الخطايا والإقتراف وأصلي على رسوله محمد الذي أنزل عليه قاف وعلى صاحبه أبي بكر الذي أمن ببيعته الخلاف وعلى عمر صاحب العدل والإنصاف وعلى عثمان الصابر على الشهادة صبر النظاف وعلى علي بن أبي طالب محبوب أهل السنة الظراف وعلى عمه العباس مقدم أهل البيت والأشراف جد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بلغه الله ما يرجو وأمنه ما يخاف قال الله (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) الأخ في

القرآن على أربعة أوجه أحدها الأخ من الأب والأم أو من أحدهما ومنه (فطوعت له نفسه قتل أخيه) والثاني الأخ من القبيلة ومنه (واذكر أخا عاد)

(209/275)

والثالث الإخاء في المتابعة ومنه (كانوا إخوان الشياطين) والرابع الصاحب ومنه قوله تعالى (إن هذا أخي) والإنذار الإعلام مع التخويف والأحقاف الرمال العظام واحدها حقف وفي مكان هذه الأحقاف ثلاثة أقوال أحدها بالشام قاله ابن عباس والثاني بين عمان ومهيرة قاله عطية والثالث أرض يقال لها الشحر نحو البحر قاله قتادة وقال ابن إسحاق كانت منازلهم فيما بين عمان إلى حضرموت باليمن كله وكانوا قد فسدوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم وكانوا أصحاب أوثان فاتبعه ناس يسير وكتموا إيمانهم قال مقاتل كان طول كل رجل منهم اثني عشر ذراعاً وقال مجاهد وكان الرجل منهم لا يحتلم حتى يبلغ مائتي سنة (وقد خلت النذر) أي مضت من قبل هود ومن بعده وقوله (لتأفكنا عن آلهتنا) أي لتصرفنا عن آلهتنا بالإفك (قال إنما العلم عند الله) أي هو يعلم متى يأتيكم العذاب (فلما رأوه) يعني ما يوعدون (عارضا) أي سحابا يعرض في ناحية السماء وقوم عاد هؤلاء أولاد عوص بن إرم ابن سام بن نوح وهي عاد الأولى بعث الله تعالى إليهم هود بن

عبد الله بن رباح ابن الخلود بن عاد بن شالخ بن أرفخشذ بن سام كانوا يعبدون الأوثان فدعاهم إلى التوحيد فكلما أنذرهم زاد طغيانهم فحبس الله تعالى عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا فبعثوا إلى مكة وفداً يستسقي لهم لهم وكانوا سبعين رجلاً منهم قيل ونعيم وجلهمة ولقمان بن عاد ومرثد بن سعد وكان مرثد مؤمناً يكتم إيمانه وكان الناس مؤمنهم وكافرهم إذا جهدوا سألوا الله تعالى عند الكعبة فنزلوا على بكر بن معاوية وكان خارجاً من الحرم فأكرمهم وكانوا أصهاره وأخواله وكان سكان مكة العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح

(210/275)

فجعل بكر يسقيهم الخمر وتغنيهم الجرادتان شهراً فلما رأى بكر طول مقامهم عنده قال هلك أخوالي وأصهاري هؤلاء ضيفي فما أدري ما أصنع وأستحي أن آمرهم بالخروج فشكا ذلك إلى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعراً تغنيهم به لا يدرون من قاله فقال

ألا يا قيل ويحك قم فهينم

لعل الله يمنحنا غماما

(فتسقي أرض عاد إن عاداً

قد أمسوا لا يبينون الكلاما

(من العطش الشديد فليس نرجو

به الشيخ الكبير ولا الغلاما

(وقد كانت نساؤهم بخير

وقد أمست نساؤهم عيامى

(وإن الوحش تأتيهم نهارا

ولا تخشى لعادي سهاما

(وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم

نهاركم وليلكم التماما

(فقبح وفدكم من وفد قوم

ولا لقوا التحية والسلاما

فلما سمعوا هذا قالوا ويحكم ادخلوا الحرم فاستسقوا لقومكم فقال مرثد إنكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم سقيتم فقال جلهمة احبسوا عنا هذا ولا يقدمن معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود ثم خرجوا يستسقون فنشأت ثلاث سحائب بيضاء وحمراء وسوداء ثم نودي منها يا قيل اختر فقال أختار السوداء لأنها أكثر ماء وقيل للوفد اختاروا فقال مرثد يا رب أعطني صدقا وبرا فأعطي وقال لقمان بن عاد أعطني عمراً

فاختار عمر سبعة أنسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة ويأخذ الذكر لقوته حتى إذا مات أخذ غيره إلى أن ماتت السبعة فمات وأما السحابة فساقها الله تعالى إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له مغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا (هذا عارض ممطرنا

فكان أول من

(211/275)

رأى ما فيها امرأة منها فصاحت وصعقت فقيل لها ما رأيت فقالت ريحا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم (سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) أي متتابعة ابتدأت غدوة الأربعاء آخر أربعاء في الشهر وسكنت في اليوم الثامن واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم منها إلا ما يلين الجلود وتلتذ عليه النفوس فكانت الريح تقلع الشجر وتهدم البيوت وترفع الرجال والنساء بين السماء والأرض فتدق رقابهم فيبين الرأس عن الجسد فذلك معنى قوله (كأنهم أعجاز نخل خاوية) ثم تدمغهم بالحجارة قال عمر بن ميمون كانت الريح تحمل الظعينة فترفعها حتى ترى كأنها جرادة حدثنا عبد الوهاب بن المبارك أنبأنا عاصم بن الحسن أنبأنا علي بن محمد بن بشران حدثنا الحسن بن صفوان

حدثنا أبو بكر القرشي حدثنا ابن عبد الوهاب حدثنا محمد بن يزيد عن جويبر حدثني أبو داود أنه سمع ابن عباس يقول أول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من رجالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثل الريش فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح ففتحت أبوابهم وهالت عليهم بالرمل فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم قبضت أرواحهم وطرحتهم الريح وأُلقوا في البحر (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) وقال مقاتل بعث الله طيراً أسود فالتقطهم حتى ألقاهم في البحر

فانظروا رحمكم الله كيف أهلك الخلق العظيم بالريح التي هي ألطف الأشياء ليبين أثر القدرة جل جلاله وكذلك يميت الخلق عند نفخة ويحييهم عند نفخة فسبحان من بانت سطوته للمعاندين فقهرت وظهرت آثار قدرته للمتقين فبهرت كم عذب مريض بريح في حشاه يختلف إلى أن تلف

الكلام على البسملة

(سلطانه في خلقه قاهر

وأمره في ملكه باهر

(سطوته باطشة بالورى

في ذرة معجزها ظاهر

(إذا تجلى في جلال العلا

ذل له الأول والآخر

(كن حاذراً من بطشه إنه

في أمره وقهره قادر

(ولطفه في عطفه راحم

وسيفه في خلقه باتر

(212/275)

أيها النائم وهو منتبه المتحير في أمر لا يشتبه يا من قد صاح به الموت في سلب صاحبه يا إخوان الغفلة تيقظوا يا أقران البطالة تحفظوا يا أهل المخالفة اقبلوا يا معرضين عنا أقبلوا يا مبارزين بالذنوب لا تفعلوا (أين من كان قبلنا أين أينا

من أناس كانوا حجالاً وزينا

(إن دهرا أتى عليهم فأفنى

عددا منهم سيأتي علينا

(خدعتنا الآمال حتى جمعنا

وطلبنا لغيرنا وسعينا

(وابتغينا من المعاش فضولا

لو قنعنا بدونها لاكتفينا

(ولعمري لنمضين ولا نمضي

بشيء منها إذا ما مضينا

(كم رأينا من ميت كان حيا

ووشيكاً يرى بنا ما رأينا

(ما لنا نأمن المنايا كأنا

لا نراهن يهتدين إلينا

(عجباً لأمرئ تيقن أن الموت

حق فقر بالعيش عينا

(213/275)

أسفا لمن ضيع الأوقات وقد عرفها وسلك بنفسه طريق الهوى فأتلفها أنس بالدنيا فكأنه خلق لها وأمله لا ينتهي وأجله قد انتهى سلمت إليه بضائع العمر فلعب بها لقد ركن إلى ركن ما لبث أن وهى عجبا لعين أمست بالليل هاجعة ونسيت أهوال يوم الواقعة ولأذن تقر

عنها المواعظ فتضحي لها سامعة ثم تعود الزواجر عندها ضائعة ولنفوس أضحت في كرم الكريم طامعة وليست له في حال من الأحوال طائعة ولأقدام سعت بالهوى في طرق شاسعة بعد أن وضحت لها سبل فسيحة واسعة ولهمم أسرعت في شوارع اللهو شارعة لم تكن مواعظ العقول لها نافعة ولقلوب تضمر التوبة عند الزواجر الرائعة ثم يختل العزم بفعل ما لا يحل مراراً متتابعة ثالثة بعد ثانية وخامسة بعد رابعة كم يوم غابت شمسه وقلبك غائب وكم ظلام أسبل ستره وأنت في عجائب وكم أسبغت عليك نعمه وأنت للمعاصي توائب وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتب وكم ينذرك سلب رفيقك وأنت لاعب يا من يأمن الإقامة قد زمت الركائب أفق من سكرتك قبل حسرتك على المعايب وتذكر نزول حفرتك وهجران الأقارب وانهض على بساط الرقاد وقل أنا تائب وبادر تحصيل الفضائل قبل فوت المطالب فالسائق حثيث والحادي مجد والموت طالب (لأبكين على نفسي وحق ليه

يا عين لا تبخلي عني بعبرتيه

(لأبكين فقد بان الشباب وقد

جد الرحيل عن الدنيا برحلتيه

(يا نأي منتجعي يا هول مطلعي

يا ضيق مضطجعي يا بعد شقتيه

(المال ما كان قدامي لآخرتي

ما لا أقدم من مالي فليس ليه

(214/275)

أسفا لغافل لا يفيق بالتعريض حتى يرى التصريح ولا تبين له جلية الحال إلا في الضريح كأنه وقد ذكره الموت فأفاق فانتبه لنفسه وهو في السباق واشتد به الكرب والتفت الساق بالساق وتحير في أمره وضاق الخناق وصار أكبر شهواته توبة من شقاق هيهات مضى بأوزاره الثقيلة وخلا بأعماله واستودع مقيله وغيب في الثرى وقيل لا حيلة وبات الندم يلزمه ويئس اللاحي له فتفكروا إخواني في ذلك الغريب وتصوروا أسف النادم وقلق المريب فلمثل حاله فليحذر اللبيب وهذا أمر تبعده الآمال وهو والله قريب (أبصرته ملقى يجود بنفسه

قد كلل الرشح الغزير جبينه

(لا يستطيع إجابتي من ضعفه

طوراً يكف شماله ويمينه

(وطبيبه قد حار فيه وقد رأى

أنفاسه تعلو معاً وأنينه

(قد عاف مشروباته وطعامه

وقلى لذاك صديقه وخدينه

إخواني سلوا القبور عن سكانها واستخبروا اللحود عن قطانها تخبركم بخشونة المضاجع

وتعلمكم أن الحسرة قد ملأت واضع فإن المسافر يود لو أنه راجع فليتعظ الغافل وليراجع (

يا واقفاً يسأل القبور أفق

فأهلها اليوم عنك قد شغلوا

(قد هالهم منكر وصاحبه

وخوف ما قدموا وما عملوا

(رهائن للثرى على مدر

يسمع للدود بينهم زجل

سرى البلى في جسومهم فجرت

دماً وقيحاً وسالت المقل

(سكرى ولم يشربوا الفقار ومن

كؤوس المنون ما نهلوا

(ينتظرون النشور إذ يقف

الأملاك والأنبياء والرسل

(يوماً ترى الصحف فيه طائرة

وكل قلب من أجله وجل

(قد دنت الشمس من رءوسهم

والنار قد أبرزت لها شعل

(وأزلفت جنة النعيم فيا

طوبى لقوم بربعها نزلوا

(أكوابهم عسجد يطاف بها

والخمر والسلسبيل والعسل

(والحور تلقاهم وقد هتكت

عن وجهها الأستار والكلل

الكلام على قوله تعالى

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون

قال ابن عباس 5 رضي الله عنهما هذا وعيد للظالم وتعزية للمظلوم أخبرنا هبة الله بن محمد أنبأنا الحسن بن علي أنبأنا أحمد بن جعفر حدثنا عبد الرحمن بن أحمد حدثني أبي حدثنا موسى بن داود حدثنا عبد العزيز بن سلمة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال الظلم ظلماتٌ يومَ القيامة أخبرنا يحيى ابن علي المدير أنبأنا عبد الصمد بن المأمون حدثنا الدارقطني أخبرنا يحيى بن صاعد حدثنا محمد بن هشام المروزي حدثنا أبو معاوية عن يزيد عن أبي بردة عن أبي موسى قال قال النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) الحديثان في الصحيحين

أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد أخبرنا ابن النقور أنبأنا المخلص أنبأنا البغوي حدثنا أبو روح البلدي حدثنا ابن شهاب الخياط عن ابن عون عن إبراهيم عن ابن شريح قال سيعلم الظالمون حظ من نقصوا إن الظالم ينتظر العقاب والمظلوم ينتظر النصر أخبرنا محمد بن ناصر أنبأنا علي بن أيوب أنبأنا أبو علي بن شاذان أخبرنا الطوماري حدثنا ابن البراء حدثنا عبد المنعم عن أبيه عن وهب قال بنى جبار قصرا وشيده فجاءت عجوز مسلمة فبنت إلى ظهر قصره كوخا تعبد الله فيه فركب الجبار يوما فطاف بفناء القصر فرأى الكوخ فقال ما هذا فقيل له امرأة ها هنا ثاوية فأمر به فهدم ولم تكن المرأة حاضرة فجاءت فرأته قد هدم

فقالت من فعل هذا فقيل لها إن الملك ركب فرآه فأمر بهدمه فرفعت طرفها إلى السماء وقالت يا رب أنا لم أكن فأنت أين كنت قال فأمر الله عز وجل جبريل أن يقلب القصر على من فيه

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً

فالظلم آخره يأتيك بالندم

(تنام عيناك والمظلوم منتصب

يدعو عليك وعين الله لم تنم

السجع على قوله تعالى (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار

(216/275)

المعنى تشخص أبصار الخلائق لظهور الأهوال فلا تغمض الويل لأهل الظلم من ثقل الأوزار ذكرهم بالقبائح قد ملأ الأقطار يكفيهم أنهم قد وسموا بالأشرار ذهبت لذاتهم بما ظلموا وبقي العار وداروا إلى دار العقاب وملك الغير الدار وخلوا بالعذاب في بطون تلك الأحجار فلا مغيث ولا أنيس ولا رفيق ولا جار ولا راحة لهم ولا سكون ولا مزار سالت دموع أسفهم على

مسلفهم كالأنهار شيدوا بنيان الأمل فإذا به قد انهار أما علموا أن الله جار المظلوم ممن جار فإذا قاموا في القيامة زاد البلاء على المقدار (سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) لا يغرنك صفاء عيشهم كل الأخير أكدار (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) قوله تعالى (مهطعين) فيه ثلاثة أقوال أحدها أن الإهطاع النظر من غير أن يطرف الناظر قاله ابن عباس والثاني أنه الإسراع قاله الحسن وابن جبير قال ابن قتيبة أهطع البعير في سيره إذا أسرع وفيما أسرعوا إليه قولان أحدهما الداعي قاله قتادة والثاني النار قاله مقاتل والثالث أن المهطع الذي لا يرفع رأسه قاله ابن زيد قوله تعالى (مقنعي رءوسهم) فيه قولان أحدهما رافعي رءوسهم قاله ابن عباس وابن جبير وقال ابن قتيبة المقنع الذي رفع رأسه وأقبل بطرفه إلى ما بين يديه وقال الزجاج رافعي رءوسهم ملتصقة بأعناقهم والثاني ناكسي رءوسهم قاله المؤرج قوله تعالى (لا يرتد إليهم طرفهم) والمعنى أن نظرهم إلى شيء واحد قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد قوله تعالى (وأفئدتهم هواء) في معنى الكلام قولان أحدهما أن القلوب خرجت من مواضعها فصارت في الحناجر رواه عطاء عن ابن عباس وقال قتادة

خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم (وأفئدتهم هواء) أي ليس فيها شيء والثاني أن أفئدتهم متجوفة لا تغني شيئاً من الخوف قاله الزجاج وقال أبو عبيدة أفئدتهم جوف لا عقول لها وقال ابن قتيبة متجوفة من الخوف قوله تعالى (وأنذر الناس) أي خوفهم (يوم يأتيهم العذاب) يعني يوم القيامة (فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب) أي أمهلنا مدة يسيرة قال مقاتل سألوا الرجوع إلى الدنيا (نجب دعوتك) يعنون التوحيد فقال لهم (أولم تكونوا أقسمتم من قبل) أي حلفتم بالدنيا أنكم لا تبعثون (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) أي نزلتم في أماكنهم وقراهم كالحجر ومدين وغيرهما من القرى التي عرفت ومعنى ظلموا أنفسهم ضروها بالكفر والمعصية (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) أي حربناهم وكان ينبغي لكم أن تنزجروا عن الخلاف (وضربنا لكم الأمثال) أي بينا لكم الأشباه (وقد مكروا مكرهم) في المشار إليه أربعة أقوال أحدها أنه نمرود قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال نمرود لا أنتهي حتى أنظر إلى السماء فأمر بأربعة من النسور فربيت واستعجلت ثم أمر بتابوت فنحت ثم جعل في وسطه خشبة وجعل على رأس الخشبة لحماً شديد الحمرة ثم جوعها وربط أرجلها بأوتار إلى قوائم التابوت ودخل هو وصاحب له في التابوت وأغلق بابه ثم أرسلها فجعلت تريد اللحم فصعدت في السماء ما شاء الله تعالى ثم قال لصاحبه افتح فانظر ماذا ترى ففتح فقال أرى الأرض كأنها الدخان فقال أغلق فصعد ما شاء الله

تعالى ثم قال افتح فقال ما أرى إلا السماء وما تزداد منها إلا بعداً فقال صوب خشبتك فصوبها فانقضت النسور تريد اللحم فسمعت الجبال هدتها فكادت تزول عن مواضعها والثاني أنه بختنصر وأن هذه القصة له جرت وأن النسور لما ارتفعت نودي يا أيها الطاغي أين تريد ففرق فنزل فلما رأت الجبال ذلك ظنت أنه قيام الساعة فكادت تزول وهذا قول مجاهد والثالث أن الإشارة إلى الأمم المتقدمة ومكرهم شركهم قاله ابن عباس والرابع أنهم الذين مكروا برسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ حين هموا بقتله وأخرجوه ذكره بعض المفسرين قوله تعالى (وعند الله مكرهم) أي جزاؤه (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) من كسر اللام الأولى فإن المعنى وما كان مكرهم لتزول منه الجبال أي هو أضعف وأهون ومن فتح تلك اللام أراد قد كادت الجبال تزول من مكرهم وفي المراد بالجبال قولان أحدهما الجبال المعروفة قاله الجمهور والثاني أنها ضربت مثلاً لأمر النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ وثبوت دينه كثبوت الجبال الراسية والمعنى لو بلغ كيدهم إلى إزالة الجبال لما زال أمر الإسلام قاله الزجاج ويدل على هذا قول الله عز وجل (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) والمعنى أنه قد وعدك بالنصر عليهم (إن الله عزيز ذو انتقام) من الكافرين (يوم

تبدل الأرض غير الأرض) وفي معنى تبديلها قولان أحدهما أنه تبدل بأرض بيضاء كأنها فضة

(219/275)

أخبرنا أبو القاسم الحريري أنبأنا أبو طالب العشاري أخبرنا أبو بكر محمد بن شاذان أخبرنا محمد بن يعقوب الأصم حدثنا العباس الدوري حدثنا أبو العتاب الدلال حدثنا جرير ابن أيوب البجلي حدثنا أبو إسحاق عن عمرو بن ميمون قال سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ في قول الله عز وجل (يوم تبدل الأرض) قال (أرض بيضاء كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل عليها خطيئة) وهذا قول ابن عباس والثاني أنها تبدل بأرض من فضة قال أنس بن مالك والثالث أنها تبدل بخبزة بيضاء فيأكل المؤمن من تحت قدمه – قاله أبو هريرة وابن جبير والقرطبي والرابع أنها تبدل ناراً قاله أبي بن كعب والقول الثاني أن تبديلها تغيير أحوالها وروى أبو هريرة عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال يبسطها ويمدها مد الأديم وقال ابن عباس يزاد فيها وينقص منها وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمد وفي تبديل السماوات سبعة أقوال أحدها أنها تجعل من ذهب قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه والثاني تصير جنانا قاله أبي بن

كعب والثالث أن تبديلها تكوير شمسها وتناثر نجومها قاله ابن عباس والرابع أنها تبدل بسماوات كأنها الفضة قاله مجاهد والخامس أن تبديلها تغيير أحوالها فمرة تكون كالمهل ومرة كالدهان قاله ابن الأنباري والسادس أن تبديلها أن تطوى كطي السجل للكتاب والسابع أن تنشق فلا تظل ذكرهما الماوردي قالت عائشة قلت يا رسول الله يوم تبدل الأرض غير الأرض فأين الناس يومئذ قال على الجسر فمنهم من يمشي مكبا على وجهه ومنهم من يمشي سويا

(220/275)

قوله تعالى (وترى المجرمين) يعني الكفار (يومئذ مقرنين) فيه ثلاثة أقوال أحدها يقرنون مع الشياطين قاله ابن عباس والثاني تقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم قاله ابن زيد والثالث يقرن بعضهم إلى بعض قاله ابن قتيبة والأصفاد الأغلال قوله تعالى (سرابيلهم من قطران) وهي القمص واحدها سربال والقطران معروف وهو شيء يتحلب من شجر تهنا به الإبل قال الزجاج إنما جعل القطران لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود فحذرهم ما يعرفون وقرأ ابن عباس والحسن (من قطر) بكسر القاف وسكون الطاء والتنوين (وآن) بقطع الهمزة وفتحها ومدها والقطر الصفر والنحاس وآن قد انتهى حره (وتغشى وجوههم النار) أي

تعلوها (ليجزي الله) اللام متعلقة بقوله تعالى (وبرزوا) وفي سرعة حسابه قولان أحدهما عجلة حضوره ومجيئه والثاني سرعة فراغه قال ابن عباس يفرغ الله عز وجل من حساب الخلق في قدر نصف يوم من أيام الدنيا أين من لعب ولها أين من غفل وسها دهاه أفظع ما دهى وحط ركنه فوهى ذهبت لذة ذنوبه وحبس بها نظر في عاجله ونسي المنتهى (نادى

القصور التي أقوت معالمها

أين الجسوم التي طابت مطاعمها

(أين الملوك وأبناء الملوك ومن

ألهاه ناضر دنياه وناعمها

أين الأسود التي كانت تحاذرها

أسد العرين ومن خوف تسالمها

(أين الجيوش التي كانت لو اعترضت

لها العقاب لخانتها قوادمها

(أين الحجاب ومن كان الحجاب له

وأين رتبته الكبرى وخادمها

(أين اللذين لهوا عما له خلقوا

كما لهت في مراعيها سوائمها

(أين البيوت التي من عسجد نسجت

هل الدنانير أغنت أم دراهمها

(أين الأسرة تعلوها ضراغمها

هل الأسرة أغنت أم ضراغمها

(هذي المعاقل كانت قبل عاصمة

ولا يرى عصم المغرور عاصمها

(أين العيون التي نامت فما انتبهت

واهاً لها نومةً ما هب نائمها

سجع على قوله تعالى

(هذا بلاغ للناس ولينذروا به

(221/275)

يعني القرآن يا مشغولاً بذنوبه مغموراً بعيوبه غافلا عن مطلوبه أما نهاه القرآن عن حوبه هذا بلاغ للناس ولينذروا به أنسي العاصي قبيح مكتوبه لا بد عن سؤاله عن مطعومه ومشروبه وحركاته وخطواته في مرغوبه ألا يذكر في زمان راحته أحيان كروبه ألا يحذر من الأسد

قبل وقت وثوبه ألا يتخذ تقاه تقية من شر هبوبه ألا يدخر من خصبه لأيام جدوبه ألا يتفكر في فراقه لمحبوبه ألا يتذكر النعش قبل

ركوبه كيف يغفل من هو في صف حروبه رب إشراق لم يدرك زمن غروبه إلى متى في

حرصه على الفاني ودؤوبه متى يرد يوسف قلبه على يعقوبه لقد وعظه الزمان بفنون

ضروبه وحذره استلابه بأنواع خطوبه ولقد زجره القرآن بتخويفه مع لذة أسلوبه هذا بلاغ

للناس ولينذروا به أيقظنا الله وإياكم من رقدة الغفلة ووفقنا الله وإياكم للتزود قبل النقلة

وألهمنا اغتنام الزمان ووقت المهلة إنه سميع قريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التبصرة حـ 1 صـ

92.77﴾

(222/275)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ذكر هود عليه السلام)

وهو هُودُ بن عابَر بن شالَخ بن فالغ بن ارْفَخْشَذْ بن سام بن نُوح .

قيل اسمٌ أَعجمىٌّ كنوح ولُوط ممنوع من الصّرف ، وأَكثرون على أَنَّه عربىّ من هَادَ إِذا رَجَع

، فهو هائدٌ والجمع هُودٌ .

وهود أَيضا اسم جِنْسٍ للِيَهُود .

وأُضيفت سورة هود إِليه لاشتمالها على خطاب الله تعالى إِيّاه بقوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ .

وقد دعاه الله تعالى فى نصّ التنزيل باثنى عَشر اسْماً منها : مُرْسَلٌ ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، رَسُولٌ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ، ناصِحٌ وأَمِينٌ ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ، مُبَلِّغ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ﴾ ، رَجُلٌ ﴿ جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ ، مُنْذِرٌ ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ، أَخٌ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ ، واعِظُ ﴿ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ ، نَاجِى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً ﴾ ، مُتَوَكِّل ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ ، بَرِئٌ ﴿ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

وذكره تعالى باسمه هود فى مواضع من القرآن أَيضاً فقال : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ ، وأَكَّدَ أُخوّته بقوله : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ ، ﴿ يا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ ﴿ نَجَّيْنَا هُوداً ﴾ ، ﴿ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ ، ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ وكان عليه السّلام من أَشْبَه الناس بآدَمَ بعد نبيّنا – صلَّى الله عليه وسلَّم .

وأَهلك اللهُ بدعائه قومَه بالرِّيح ، ووسم سُورةً من القرآن باسمه .

قال بعضهم :

*أَهُزْءاً بالمواعِظِ والوَصايا * أَرَدّاً للشّواهِدِ والشُّهود*

*إلى كَم ذا المُرُون على المُرودِ * وكَمْ مِنْكَ الخيانة فى العُهُودِ*

(223/275)

---

*قديماً قِيل فى مَثَلٍ أَجيدُوا * بَضَرْبِ الكلب تأْديبَ اليَهُود*

*فما أَجْداك قَوْلُ الله رَدْعاً * "أَلاّ بُعْداً لِعاد قَوْم هُودِ"*

(بصيرة فى ذكر عاد)

وهو اسمٌ عربىٌّ لأَن العادِين كانوا يتكلَّمون بلغة العرب ، مشتقٌّ من العُدوان والاعتداء .

وأَصله عادِى مثل قاضى .

وعادٌ كان أَبا هذا القَوْم ، وكان من أَحفاد نُوح عليه السّلام ، وهو عادُ بن عَوْص بن إِرَم بنِ سامِ بن نُوحٍ ، وسَمَّوْه عادِيا وقومَه عادين ؛ لاعتدائهم وتجاوزهم مُدَّة الحياة ، الثانى فى زيادة القهر والقوة ؛ الثالث فى زِيادة المال والنّعمة ؛ الرابع فى زيادة المُلْكِ والمَكِنَةِ ، الخامس فى زِيادَة القَدّ والقامَة ، السّادس فى زيادة الفَساد والمَعْصِيَة .

قال ابن عبّاس كان طول أَطولهم مائة ذِراعٍ ، وطول أَقصرهم متّين ذراعاً .

وقد ذكرهم الله تعالى فى القرآن فى مواضع : قال تعالى ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقال

تعالى ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ ، ﴿ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ﴿ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ ، ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ، ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ، ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ ﴾ ، ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ / أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى ﴾ ، ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ .

قال بعض المحدثين :

*دَعا لَوْمِى فَلَوْمُكما مُعادُ * ومَوْتُ العاشِقِين له مَعادُ*

*فلو قَتَلَ الهَوَى أَهلَ التَّصابى * لَمَا ماتُوا ولَوْ رُدُّوا لَعادُوا*

*فَمَوْلانا أَرانَا فى عِداه * نَكالاً حِين سِيمَ الخَسْفَ عاد* انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 6 صـ 96ـ98 ﴾

(224/275)

فصل

قال ابن كثير :

قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفحشذ بن سام بن نوح عليه السلام ويقال إن هودا هو عابر بن شالخ ابن أرفحشذ بن سام بن نوح ويقال هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ذكره ابن جرير وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانوا عربا يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر واسم واديهم مغيث وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذوات الاعمدة الضخام كما قال تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد أي عاد إرم وهم عاد الأولى وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه وأما عاد الأولى فهم عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد أي مثل القبيلة وقيل مثل العمد والصحيح الأول كما بيناه في التفسير

ومن زعم أن ارم مدينة تدور في الأرض فتارة في الشام وتارة في اليمن وتارة في الحجاز وتارة في غيرها فقد أبعد النجعة وقال ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر ويقال إن هودا عليه السلام أول من تكلم بالعربية وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها وقال غيره أول من تكلم بها نوح وقيل آدم وهو الأشبه قبل غير ذلك والله أعلم

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام العرب العاربة وهم قبائل كثيرة منهم عاد وثمود وجرهم وطسم وجديس وأميم ومدين وعملاق وعبيل وجاسم وقحطان وبنو يقطن وغيرهم

(225/275)

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى ولكن انطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(226/275)

والمقصود أن عادا وهم عاد الأولى كانوا من عبد الأصنام بعد الطوفان وكان أصنامهم ثلاثة صدا وصمودا وهرا فبعث الله فيهم أخاهم هودا عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم في سورة الأعراف وإلى عاد أخاهم هودا قال

يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في
سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين
أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل
منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا
آلاء الله لعلكم تفلحون قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا
إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء
سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين فأنجيناه
والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين وقال تعالى بعد ذكر
قصة نوح في سورة هود وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن
أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ويا
قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا
تتولوا مجرمين قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك
بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد واشهدوا أني بريء مما تشركون
من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو
آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم

ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة

(227/275)

منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون بعد قصة قوم نوح ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا

(228/275)

مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله

كذبا وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضا كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وقال تعالى في سورة حم السجدة وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون وقال تعالى في سورة الأحقاف واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بيد يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكني أراكم قوما تجهلون فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها

عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين وقال تعالى في الذاريات وفي عاد إذ أرسلنا عليكم

(229/275)

الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وقال تعالى في النجم وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى فبأي آلاء ربك تتمارى وقال تعالى في سورة اقتربت كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وقال في الحاقة وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل يرى لهم من باقية وقال في سورة الفجر ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفي سورة ص وفي سورة ق ولنذكر مضمون القصة مجموعا من هذه السياقات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان وذلك بين في قوله لهم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش وقال في المؤمنون ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين وهم قوم هود على الصحيح وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء قالوا وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات ثم لا خلاف أن عادا قبل ثمود

والمقصود أن عادا كانوا عربا جفاة كافرين عتاة متمردين في عبادة الأصنام فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والاخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة

قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة أي هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أي ليس الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ويستلزم إبلاغه بعباة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا يبتغي منهم أجرا ولا يطلب منهم جعلا بل هو مخلص لله عز و جل في الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه ولهذا قال يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون أي ما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحا وأهلك من خالفه من الخلق وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجرا عليه بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع ولهذا قال مؤمن يس اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون وقال قوم هود له فيما قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء يقولون ما جئتنا

(231/275)

بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين

(232/275)

نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه وعندنا إنما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني برىء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون وهذا تحد منه لهم وتبر من آلهتهم وتنقص منه لها وبيان أنها لا تنفع شيئا ولا تضر وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا برىء منها لاعن لها فكيدوني ثم لا تنظرون أنتم جميعا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين فإني لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط

مستقيم أي أنا متوكل على الله ومتأيد به وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالي مخلوقا سواه ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه وهذا وحده برهان قاطع على أن هودا عبد الله ورسوله وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروها فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون وهكذا قال الخليل عليه السلام ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من

نشاء إن ربك حكيم عليم وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم

بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشريا وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديما وحديثا كما قال تعالى أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وقال تعالى وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدي إلا أن قالوا أبعث الله شبرا رسولا قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ولهذا قال لهم هود عليه السلام أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم أي ليس هذا بعجيب فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته وقوله أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحى وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين قال

ربي انصرني استبعدوا المعاد وانكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابا وعظاما وقالوا هيهات هيهات أي بعيد بعيد هذا الوعد إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحى وما نحن بمبعوثين أي يموت قوم ويحيى آخرون وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة أرحام تدفع وأرض تبلع

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون وقال لهم فيما وعظهم به أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون يقول لهم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيما هائلا كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهي تتنقل في البلاد فقد غلط وأخطأ وقال ما لا دليل عليه وقوله وتتخذون مصانع قيل هي القصور وقيل بروج الحمام وقيل مآخذ الماء لعلكم تخلدون أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعمارا طويلة وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقالوا له مما قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر

ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين أي أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه فإن كنت صادقا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك كما قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين أما على قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين أي أن هذا الذي جئت به الا اختلاق منك وأخذته من كتب الأولين هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين وأما على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين أي أن هذا الدين الذي نحن عليه الا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ولن نتحول عنه ولا نتغير ولا نزال متمسكين به ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم وما نحن بمعذبين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين أي قد استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان أي لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلا ولا

برهانا وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد وقال تعالى قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين وقال تعالى قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين وقد ذكر الله تعالى خبر اهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملا ومفصلا كقوله فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين وكقوله ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود وكقوله فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبدا للقوم الظالمين وقال تعالى فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما أستعجلتم به ريح فيها عذاب أليم كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مسنتين فطلبوا السقيا فرأوا عارضا في السماء وظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب ولهذا قال تعالى بل هو ما استعجلتم به أي من وقوع العذاب وهو قولهم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ومثلها في الأعراف وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحق بن بشار قال فلما أبو إلا الكفر بالله عز وجل أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبري قال فبعث عاد وفدا قريبا من سبعين رجلا ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر يغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيى منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرا فيعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنيهم به فقال

. . . ألا يا قيل ويحك فم فهيم . . . لعل الله يمنحنا عماما . . . فيسقي أرض عاد ان

عادا . . . قد أمسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو . . . به الشيخ الكبير ولا الغلاما . . . وقد كانت نساؤهم بخير . . . فقد أمست نساؤهم أياما . . . وإن الوحش يأتيهم جهارا . . . ولا يخشى لعادي سهاما . . . وأنتم ههنا فيما اشتهيتم . . . نهاركم وليلكم تماما . . . فقبح وفدكم من وفد قوم . . . ولا لقوا التحية والسلاما . . .

(238/275)

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل ابن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب فقال اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه اخترت رمادا رمددا لا تبقى من عاد أحدا لا والدا يترك ولا ولدا إلا جعلته همدا إلا بني اللودية الهمدا قال وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة قال وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل ابن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فيقول تعالى بل هو ما استعجلتم

به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها أي كل شيء أمرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها فهد فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا فهد قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسحرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك قال واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود ويلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة

(239/275)

وقد روى الإمام أحمد حديثا في مسنده يشبه هذه القصة فقال حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث وهو ابن حسان ويقال ابن يزيد البكري قال خرجت أشكو العلا بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فمررت بالربذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي يا عبد الله إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم حاجة فهل أنت مبلغي إليه قال فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد

السيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه و سلم فقلت ما شأن الناس قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال فجلست قال فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت فسلمت فقال هل كان بينكم وبين بني تميم شيء فقلت نعم وكانت لنا الدبرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب فأذن لها فدخلت فقلت يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزا فاجعل الدهنا

(240/275)

فإنها كانت لنا قال فحميت العجوز واستوفزت وقالت يا رسول الله فإلى أين تضطر مضرك قال فقلت إن مثلي ما قال الأول معزى حملت حتفها حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصما أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد قال هيه وما وافد عاد وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه قلت أن عادا قحطوا فبعثوا وفدا لهم يقال له قيل فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر ويغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة فقال اللهم إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه فمرت به سحابات سود فنودي منها اختر فأومى إلى سحابة منها سوداء فنودي منها خذها رمادا رمددا لا تبقى من عاد أحدا قال فما

بلغني أنه بعث عليهم من الريح الا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا قال أبو وائل وصدق وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفدا لهم قالوا لا تكن كوافد عاد وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة ولم تبن الا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه اسماعيل فنزلت جرهم عندهم كما سيأتي وعاد الأولى قبل الخليل وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى لا يشبه كلام المتقدمين وفيه أن في تلك السحابة شرر نار وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين هي الباردة والعاتية الشديدة الهبوب سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما أي كوامل متتابعات قيل كان أولها الجمعة وقيل الأربعاء فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية شبههم

بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر أي في يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ومن قال إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فإنه قال في الآية الأخرى فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤمة وهذا لا يقوله أحد وإنما المراد في أيام نحسات أي عليهم وقال تعالى وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم أي التي لا تنتج خيرا فإن الريح المفردة لا تنشر سحابا ولا تلقح شجرا بل هي عقيم لا نتيجة خير لها ولهذا قال ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه

قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وأما قوله تعالى واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم فالظاهر أن عادا هذه هي عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها وأما قوله فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا فإن عادا لما رأوا هذا العارض وهو الناشيء في الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر فإذا هو سحاب عذاب اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر قال الله تعالى بل هو ما استعجلتم به أي من العذاب ثم فسره بقوله ريح فيها عذاب أليم يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحدا بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا من أشد منا قوة سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو الريح العقيم ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم فأرسلها الله عليهم شررا ونارا كما ذكره غير واحد ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون

من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون والله أعلم

(243/275)

وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس حدثنا ابن فضل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها قالوا هذا عارض ممطرنا فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة وقد رواه الطبراني عن عبدان بن احمد عن إسماعيل بن زكريا الكوفي عن أبي مالك عن مسلم الملائي عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما فتح الله على عاد من الريح الأمثل موضع الخاتم ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا وكان أهل البوادي فيها فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا قال عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب قلت وقال غيره خرجت بغير حساب

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر ثم اختلف فيه على مسلم الملائي وفيه نوع اضطراب والله أعلم وظاهر الآية أنهم رأوا عارضا والمفهوم منه لمعة السحاب كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري أن جعلناه مفسرا لهذه القصة وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه حيث قال

حدثنا أبو الطاهر حدثنا ابن وهب سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا عصفت الريح قال اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به قالت وإذا عببت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا امطرت سرى عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال لعله يا عائشة كما قال قوم عاد فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج

(244/275)

طريق أخرى قال الإمام أحمد حدثنا هرون بن معروف أنبأنا عبد الله بن وهب أنبأنا عمرو وهو ابن الحارث أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة أنها قالت ما رأيت

رسول الله صلى الله عليه و سلم مستجمعا ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم وقالت كان إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في وجهه قالت يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية فقال يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم نوح بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولا فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبرا عن قوم عاد الثانية وتكون بقية السياقات في القرآن خبرا عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف وأخرجه البخاري وأبو داود من حديث ابن وهب وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام وروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن وذكر آخرون أنه بدمشق وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 120. 130﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والسبعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/276)

الجزء السادس والسبعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 73 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 79 ﴾ من نفس السورة

(4/276)

قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه ما أراد من قصة عاد ، أتبعهم ثمود فقال ﴿ وإلى ثمود ﴾ أي خاصة ، منع من الصرف لأن المراد به القبيلة ، وهو مشتق من الثمد وهو الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، أرسلنا ﴿ أخاهم صالحاً ﴾ ثم استأنف الإخبار عن قوله - كما مضى في هود عليه السلام فقال : ﴿ قال يا قوم ﴾ مستعطفاً لهم بالتذكير بالقرابة وعاطف النسابة ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي الذي لا كمال إلا له ﴿ ما لكم ﴾

وأكد النفي بقوله : ﴿ من إله غيره ﴾ .

ولما دل على صدقه في ذلك أنهم دعوا أوثانهم فلم تجبهم ، ودعا هو صلى الله عليه وسلم ربه سبحانه فأخرج لهم الناقة ، علل صحة ما دعا إليه بقوله : ﴿ قد جاءتكم بينة ﴾ أي آية ظاهرة جداً على صدقي في ادعاء رسالتي وصحة ما أمرتكم به ، وزادهم رغبة بقوله : ﴿ من ربكم ﴾ أي الذي لم يزل محسناً إليكم ؛ ثم استأنف بيانها بقوله : ﴿ هذه ﴾ مشيراً إليها بعد تكوينها تحقيقاً لها وتعظيماً لشأنها وشأنه في عظيم خلقها وسرعة تكوينها لأجله .

ولما أشار إليها ، سماها فقال : ﴿ ناقة الله ﴾ شرفها بالإضافة إلى الاسم الأعظم ، ودل على تخصيصها بهم بقوله : ﴿ لكم ﴾ حال كونها ﴿ آية ﴾ أي لمن شاهدها ولمن سمع بها وصح عنده أمرها ؛ ثم سبب عن ذلك قوله : ﴿ فذروها ﴾ أي اتركوها ولو على أدنى وجوه الترك ﴿ تأكل ﴾ أي من النبات و ﴿ في أرض الله ﴾ أي مما أنبت الله الذي له كل شيء وهي ناقته كما أن الأرض كلها مطلقاً أرضه والنبات رزقه ، ولذلك أظهر لئلا يختص أكلها بأرض دون أخرى .

ولما أمرهم بتركها لذلك ، أكد المر بنهيهم عن أذاها فقال : ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ فضلاً عما بعد المس ﴿ فيأخذكم ﴾ أي أخذ قهر بسبب ذلك المس وعقبه ﴿ عذاب أليم ﴾ أي مؤلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 56 . 57 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القرآآت : ﴿ وقال الملأ ﴾ بالواو : ابن عامر ﴿ إنكم ﴾ بحذف همزة الاسفهام : أبو جعفر ونافع وحفص وسهل . ﴿ أئنكم ﴾ بهمزتين : ابن عامر وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير جفص ، وهشام يدخل بينهما مدة ، ﴿ آينكم ﴾ بالمد وبالياء : أبو عمرو وزيد . ﴿ أينكم ﴾ بالهمزة والياء : ابن كثير ويعقوب غير زيد . الوقوف : ﴿ صالحاً ﴾ ج لئلا يظن أن ﴿ صالحاً ﴾ صفة لا علم فالجملة بعده نعت له وهذا بخلاف اسم شعيب وغيره من الأعلام العربية ﴿ غيره ﴾ ط ﴿ من ربكم ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ بيوتاً ﴾ ط لما مر في قصة هود ﴿ مفسدين ﴾ ه ﴿ من ربه ﴾ ج ﴿ مؤمنون ﴾ ه ﴿ كافرون ﴾ ه ﴿ المرسلين ﴾ ه ﴿ جاثمين ﴾ ه ﴿ ناصحين ﴾ ه ﴿ من العالمين ﴾ ه ﴿ من دون النساء ﴾ ط لمكان الإضراب . ﴿ مسرفون ﴾ ه ﴿ من قريتكم ﴾ ج لاحتمال التعليل استهزاء ﴿ إلا امرأته ﴾ ز لاحتمال الاستئناف والأشبه أنها حال المرأة ﴿ من

الغابرين ﴾ ه ﴿ مطراً ﴾ ط ﴿ المجرمين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 273 ﴾

(6/276)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة ، وهو قصة صالح .

أما قوله : ﴿ وإلى ثمود ﴾ فالمعنى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً ﴾ [الأعراف : 59] ﴿ إلى عاد أخاهم هوداً ﴾ [الأعراف : 65] ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ [هود : 61]

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثموداً لقلة مائها من الثمد ، وهو الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى ، وقيل سميت ثمود لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ وإلى ثمود ﴾ يمنع التصرف بتأويل القبيلة ﴿ وإلى ثمود ﴾ بالصرف بتأويل الحي أو باعتبار الأصل لأنه اسم أبيهم الأكبر ، وقد ورد القرآن بهما صريحاً .

قال تعالى : ﴿ ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾ [هود : 68] .

واعلم أنه تعالى حكى عنه أنه أمرهم بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غير الله كما ذكره من قبله من الأنبياء .

ثم قال : ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ وهذه الزيادة مذكورة في هذه القصة ، وهي تدل على أن كل من كان قبله من الأنبياء كانوا يذكرون الدلائل على صحة التوحيد والنبوة ، لأن التقليد وحده لو كان كافياً لكانت تلك البينة ههنا لغواً ، ثم بين أن تلك البينة هي الناقة فقال : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا أنه تعالى لما أهلك عاداً قام ثمود مقامهم ، وطال عمرهم وكثر تنعمهم ، ثم عصوا الله ، وعبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم صالحاً وكان منهم ، فطالبوه بالمعجزة .

فقال : ما تريدون .

فقالوا : تخرج معنا في عيدنا ، ونخرج أصنامنا وتسأل إلهك ونسأل أصنامنا ، فإذا ظهر أثر دعائك اتبعناك ، وإن ظهر أثر دعائنا اتبعتنا ، فخرج معهم فسألوه أن يخرج لهم ناقة كبيرة من صخرة معينة ، فأخذ مواثيقهم أنه إن فعل ذلك آمنوا فقبلوا ، فصلى ركعتين ودعا الله فتمخضت تلك الصخرة كما تتمخض الحامل ، ثم انفرجت وخرجت الناقة من وسطها ، وكانت في غاية الكبر وكان الماء عندهم قليلاً فجعلوا ذلك الماء بالكلية شرباً لها في يوم ، وفي اليوم الثاني شرباً لكل القوم قال السدي : وكانت الناقة في اليوم التي تشرب فيه الماء تمر بين الجبلين فتعلوهما ثم تأتي فتشرب فتحلب ما يكفي الكل ، وكأنها كانت تصب اللبن صباً ، وفي اليوم الذي يشربون الماء فيه لا تأتيهم وكان معها فصيل لها .

فقال لهم صالح : يولد في شهركم هذا غلام يكون هلاككم على يديه ، فذبح تسعة نفر منهم أبناءهم ، ثم ولد العاشر فأبى أن يذبحه أبوه ، فنبت نباتاً سريعاً ، ولما كبر الغلام جلس مع قوم يصيبون من الشراب ، فأرادوا ماء يمزجونه به ، وكان يوم شرب الناقة فما وجدوا الماء ، واشتد ذلك عليهم ، فقال الغلام : هل لكم في أن أعقر هذه الناقة ؟ فشد عليها ، فلما بصرت به شدت عليه ، فهرب منها إلى خلف صخرة فأحاشوها عليه ، فلما مرت به تناولها فعقرها فسقطت .

فذلك قوله : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ وأظهروا حينئذ كفرهم وعتوا من أمر ربهم ، فقال لهم صالح : إن آية العذاب أن تصبحوا غداً حمراً ، واليوم الثاني صفراً ، واليوم

الثالث سوداً ، فلما صبحهم العذاب تحنطوا واستعدوا .

إذا عرفت هذا فنقول : اختلف العلماء في وجه كون الناقة آية فقال بعضهم : إنها كانت آية بسبب خروجها بكمالها من الصخرة .

قال القاضي : هذا إن صح فهو معجز من جهات : أحدها : خروجها من الجبل ، والثانية : كونها لا من ذكر وأنثى ، والثالثة : كمال خلقها من غير تدريج .

(8/276)

والقول الثاني : أنها إنما كانت آية لأجل أن لها شرب يوم ، ولجميع ثمود شرب يوم ، واستيفاء ناقة شرب أمة من الأمم عجيب ، وكانت مع ذلك تأتي بما يليق بذلك الماء من الكلأ والحشيش .

والقول الثاني : أن وجه الإعجاز فيها أنهم كانوا في يوم شربها يحلبون منها القدر الذي يقوم لهم مقام الماء في يوم شربهم .

وقال الحسن : بالعكس من ذلك ، فقال إنها لم تحلب قطرة لبن قط ، وهذا الكلام مناف لما تقدم .

والقول الرابع : أن وجه الإعجاز فيها أن يوم مجيئها إلى الماء كان جميع الحيوانات تمتنع من

الورود على الماء ، وفي يوم امتناعها كانت الحيوانات تأتي .

واعلم أن القرآن قد دل على أن فيها آية ، فأما ذكر أنها كانت آية من أي الوجوه فهو غير مذكور والعلم حاصل بأنها كانت معجزة من وجه ما لا محالة والله أعلم .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ فقوله : ﴿ آية ﴾ نصب على الحال أي أشير إليها في حال كونها آية ، ولفظة (هذه) تتضمن معنى الإشارة ، و ﴿ آية ﴾ في معنى دالة .

فلهذا جاز أن تكون حالاً .

فإن قيل : تلك الناقة كانت آية لكل أحد ، فلماذا خص أولئك الأقواك بها ؟ فقال :

﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ .

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أنهم عاينوها وغيرهم أخبروا عنها ، وليس الخبر كالمعاينة .

وثانيها : لعله يثبت سائر المعجزات ، إلا أن القوم التمسوا منه هذه المعجزة نفسها على سبيل الاقتراح ، فأظهرها الله تعالى لهم ، فلهذا المعنى حسن هذا التخصيص .

فإن قيل : ما الفائدة في تخصيص تلك الناقة بأنها ناقة الله ؟

قلنا : فيه وجوه : قيل أضافها إلى الله تشريفاً وتخصيصاً كقوله : بيت الله ، وقيل : لأنه خلقها بلا واسطة ، وقيل : لأنها لا مالك لها غير الله .

وقيل : لأنها حجة الله على القوم .

ثم قال : ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ﴾ أي الأرض أرض الله ، والناقة ناقة الله ، فذروها تأكل في أرض ربها ، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من إنباتكم ، ولا تمسوها بسوء ولا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوا منها شيئاً من أنواع الأذى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يا علي أشقى الأولين عاقر ناقة صالح وأشقى الآخرين قاتلك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 131.133 ﴾

(9/276)

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾

يعني : أرسلنا إلى ثمود نبيهم صالحاً قال بعضهم : ثمود اسم القرية .

وقال بعضهم : ثمود اسم القبيلة وأصله في اللغة الماء القليل .

ويقال : كانت بئراً بين الشام والحجاز .

ويقال : هي عين يخرج منها ماء قليل في تلك الأرض ويقال لها أرض الحِجر كما قال في آية أُخرى ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أصحاب الحجر المرسلين ﴾ [الحجر : 80] وقال بعضهم : كان في تلك القرية أهل تسعمائة بيت .

وقال بعضهم : ألف وخمسمائة ، فأتاهم صالح ودعاهم إلى الله سنين كثيرة فكذبوه وأرادوا قتله فخرجوا إلى عبد لهم ، فأتاهم صالح ودعاهم إلى الله تعالى .

فقالوا له : إن كنت نبياً فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عَشَرَاء حتى نؤمن بك ونصدقك فقام صالح وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فتحركت الصخرة وانصدعت عن ناقة عشراء ذات زغب فلم يؤمنوا به فولدت الناقة ولداً وقال بعضهم خرج ولدها خلفها من الصخرة . فصارت الناقة بلية ومحنة عليهم ، وكانت من أعظم الأشياء فتأتي مراعيهم فتنفر منها دوابهم .

وتأتي العين وتشرب جميع ما فيها من الماء .

فجعل صالح الماء قسمة بينهم يوماً للناقة ، ويوماً لأهل القرية ، فإذا كان اليوم الذي تشرب الناقة لا يحضر أحد العين وكانوا يحلبونها في ذلك اليوم مقدار ما يكفيهم ، وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون .

فاجتمعوا لقتل الناقة فقال لهم صالح : لا تفعلوا فإنكم إذا قتلتموها يأتيكم العذاب فجاؤوا ووقفوا على طريق الناقة فلما مرت بهم الناقة متوجهة إلى العين رماها واحد منهم يقال له مصدع بن وهر فأصابت السهم رجل الناقة فلما رجعت الناقة من العين خرج قدار بن سالف وهو أشقى القوم كما قال الله تعالى ﴿ إِذِ انبعث أشقاها ﴾ [الشمس : 12] فضربها بالسيف ضربة فقتلها وقسموا لحمها على أهل القرية .

وروي عن الحسن البصري رحمة الله عليه أنه قال : لما عقرت ثمود الناقة ذهب فصيلها حتى صعد جبلاً وقال ثلاث مرات أين أمي أين أمي أين أمي ؟ فأخبر بذلك صالح فقال يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام .

فقالوا : وما العلامة في ذلك ؟ فقال : أن تصبحوا في اليوم الأول وجوهكم مصفرة ، وفي اليوم الثاني وجوهكم محمرة ، وفي اليوم الثالث وجوهكم مسودة .

ثم خرج صالح من بين أظهرهم مع من آمن منهم فأصبحوا في اليوم الأول وجعل يقول بعضهم لبعض : قد اصفر وجهك ، وفي اليوم الثاني يقول بعضهم لبعض : قد احمر وجهك ، وفي اليوم الثالث يقول بعضهم لبعض : قد اسود وجهك .

فأيقنوا جميعاً الهلاك .

فجاء جبريل عليه السلام وصاح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم ، ويقال : قد أتتهم النار فأحرقتهم فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي : وحدوا الله ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ قد ذكرناه ﴿ قَدْ جَاءَتكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يقول : قد أتيتكم بعلامة نبوتي وهي الناقة كما قال الله تعالى : ﴿ هذه نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ أي علامة لنبوتي لكي تعتبروا

وتوحّدوا الله ربكم ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله ﴾ يقول : دعوها ترتع في أرض الحجر ﴿ وَلا تَمَسُّوها بِسوءٍ ﴾ يقول : لا تعقروها ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهو ما عذبوا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(11/276)

وقال الثعلبي :

﴿ وإلى ثَمُودَ ﴾

قرأ يحيى بن وثاب : إلى هود بالصرف والتنوين . والباقون بغير الصرف وإنّما يعني : وإلى بني ثمود ، وهو ثمود بن [عاد] بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو [جديس] وأراد ههنا القبيلة .

قال أبو عمرو بن العلا : سُمّيت ثمود لقلّة مائها والثمد الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ﴿ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ وهو صالح بن [عبيد] بن أسف ابن ماسخ بن عبيد بن خادر بن ثمود ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ حجّة ودلالة من ربّكم على صدقي ﴿ هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ ﴾ أضافها إليه على التفضيل والتخصيص كما يقال : بيت الله .

وقيل : أُضيفت إلى الله لأنّها كانت بالتكوين من غير اجتماع ذكر وأُنثى ولم يكن في صلب ولا رحم ولم يكن للخلق فيها سعي ﴿ آيَةً ﴾ نصب على الحال أي انظروا إلى هذه الناقة ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ العشب ﴿ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء ﴾ ولا تصيبوها [بعقر] ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(12/276)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾

في الآية هنا وجهان :

أحدهما : أن الآية الفرض كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ ﴾ [النور : 1] أي فرضاً ، ويكون معنى الكلام هذه ناقة الله عليكم فيها فرض أن تذروها ﴿ تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ أي لا تعقروها .

والثاني : أنها العلامة الدالة على قدرته .

والآية فيها آيتان :

إحداهما : أنها خرجت من صخرة ملساء تمخضت بها كما تتمخض المرأة ثم انفلقت

عنها على الصفة التي طلبوها .

والثانية : أنه كان لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم يخصهم لا تقرب فيه ماءهم ، حكي ذلك عن أبي الطفيل والسدي وابن إسحاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(13/276)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود ﴾ الآية ،

هو " ثمود " بن غاثن بن أرم بن سام بن نوح أخو جديس بن غاثن ، وقرأ يحيى بن وثاب " وإلى ثمودٍ " بكسر الدال وتنوينه في جميع القرآن ، وصرفه على اسم الحي وترك صرفه على اسم القبيلة ، قاله الزجاج ، وقال الله تعالى : ﴿ ألا إن ثموداً كفروا ربهم ﴾ فالمعنى : وأرسلنا " إلى ثمود أخاهم " فهو عطف على نوح والأخوة هنا أخوة القرابة ، وقال الزجاج يحتمل أن تكون أخوة الآدمية ، وسمى ﴿ أخاهم ﴾ لما بعث إليهم وهم قوم عرب و " هود وصالح " عربيان ، وكذلك إسماعيل وشعيب ، كذا قال النقاش ، وفي أمر إسماعيل عليه السلام نظر ، وصالح عليه السلام هو صالح بن عبيد بن عارم بن أرم بن سام بن وح كذا ذكر مكي ،

وقال وهب بعثه الله حين راهق الحلم ، ولما هلك قومه ارتحل بمن معه إلى مكة ، فأقاموا بها ، حتى ماتوا فقبورهم بين دار الندوة والحجر ، وقوله ﴿ بينة ﴾ صفة حذف الموصوف وأقيمت مقامه ، قال سيبويه وذلك قبيح في النكرة أن تحذف وتقام صفتها مقامها ، لكن إذا كانت الصفة كثيرة الاستعمال مشتهرة وهي المقصود في الأخبار والأمم زال القبح ، كما تقول جاءني عبد لبني فلان وأنت تريد جاءني رجل عبد لأن عبداً صفة فكذلك قوله هنا ﴿ بينة ﴾ ، المعنى آية أو حجة أو موعظة " بينة " ، وقال بعض الناس إن " صالحاً " جاء بالناقة من تلقاء نفسه ، وقالت فرقة وهي الجمهور : بل كانت مقترحة .

(14/276)

قال القاضي أبو محمد : وهذا أليق بما ورد في الآثار من أمرهم ، وروي أن بعضهم قال " يا صالح " إن كنت صادقاً فادع ربك يخرج لنا من هذه الهضبة وفي بعض الروايات من هذه الصخرة لصخرة بالحجر يقال لها الكاثبة ناقة عشراء قال فدعا الله فتمخضت تلك الهضبة وتنفضت وانشقت عن ناقة عظيمة ، وروي : أنها كانت حاملاً فولدت سقبها المشهور ، وروي أنه خرج معها فصيلها من الصخرة ، وروي : أن جملاً من جمال ﴿ ثمود ﴾ ضربها فولدت فصيلها المشهور ، وقيل ﴿ ناقة الله ﴾ تشريفاً لها وتخصيصاً ، وهي

إضافة خلق إلى خالق ، وقال الزجاج : وقيل إنها ناقة من سائر النوق وجعل الله لها شرباً يوماً ولهم شرب يوم ، وكانت الآية في شربها وحلبها .

قال القاضي أبو محمد : وحكى النقاش عن الحسن أنه قال : هي ناقة اعترضها من إبلهم ولم تكن تحلب والذي عليه الناس أقوى وأصح من هذا ، قال المفسرون : وكانت حلفاً عظيماً تأتي إلى الماء بين جبلين فيزحمانها من العظم وقاسمت ﴿ ثمود ﴾ في الماء يوماً بيوم فكانت ترد يومها فتستوفي ماء بئر همشريا ويحلبونها وما شاؤوا من لبن ثم تمكث يوماً وترد بعد ذلك غياً ، فاستمر ذلك ما شاء الله حتى أماتها ﴿ ثمود ﴾ وقالوا ما نصنع باللبن ، الماء أحب إلينا منه ، وكان سبب الملل فيما روي أنها كانت تصيف في بطن الوادي وادي الحجر وتستوفي ظاهره فكانت مواشيهم تفر منها فتصيف في ظهر الوادي للقيظ ، وتستوفي باطنه للزمهرير وفسدت لذلك ، فتمالؤوا على قتل الناقة فقال لهم " صالح " مرة إن هذا الشهر يولد فيه مولود يكون هلاككم على يديه ، فولد لعشرة نفر أولاد فذبح التسعة أولادهم ، وبقي العاشر وهو سالف أبو قدار ، فنشأ قدار أحمر أزرق فكان التسعة إذا رأوه قالوا لو عاش بنونا كانوا مثل هذا ، فاحفظهم إن قتلوا أولادهم بكلام صالح .

(15/276)

فأجمعوا على قتله ، فخرجوا وكمنوا في غار ليبيتوه منه وتقاسموا لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله ، فسقط الغار عليهم فماتوا فهم الرهط التسعة الذين ذكر الله تعالى في كتابه هم قدار بن سالف ، ومصرع بن مهرج ضما إلى أنفسهما سبعة نفر وعزموا على عقر الناقة ، وروي أن السبب في ذلك أن امرأتين من ﴿ ثمود ﴾ من أعداء " صالح " جعلتا لقدار ومصرع أنفسهما وأموالهما على أن يعقرا الناقة وكانتا من أهل الجمال ، وقيل إن قداراً شرب الخمر مع قوم فطلبوا ماء يمزجون به الخمر فلم يجدوه لشرب الناقة ، فعزموا على عقرها حينئذ فخرجوا وجلسوا على طريقها وكمن لها قدار خلف صخرة ، فلما دنت منه رماها بالحربة ثم سقطت فنحرها ، ثم اتبعوا الفصيل فهرب منهم حتى علا ربوة ورغا ثلاث مرات واستغاث فلحقوه وعقروه ، وفي بعض الروايات أنهم وجدوا الفصيل على رابية من الأرض فأرادوه فارتفعت به حتى لحقت به في السماء فلم يقدروا عليه فرغا الفصيل مستغيثاً بالله تعالى فأوحى الله إلى " صالح " أن مرهم فليتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام ، وحكى النقاش عن الحسن أنه قال إن الله تعالى أنطق الفصيل فنادى أين أمي ؟ فقال لهم " صالح " إن العذاب واقع بكم في الرابع من عقر الناقة ، وروي : أنه عقرت يوم الأربعاء وقال لهم " صالح " تحمر وجوهم غداً وتصفر في الثاني وتسود في الثالث وينزل العذاب في الرابع يوم الأحد ، فلما ظهرت العلامة التي قال لهم أيقنوا واستعدوا ولطخوا أبدانهم بالمن ، وحفروا القبور وتحنطوا فأخذتهم الصيحة وخرج صالح ومن معه حتى نزل رملة

فلسطين .

قال القاضي أبو محمد : وهذا القصص اقتضبته من كثير أورده الطبري رحمه الله رغبة الإيجاز ، وقال أبو موسى الأشعري : أتيت بلاد ﴿ ثمود ﴾ فذرعت صدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً .

(16/276)

قال القاضي أبو محمد : وبلاد ﴿ ثمود ﴾ هي بين الشام والمدينة ، وهي التي مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين في غزوة تبوك فقال لا تدخلوا مساكين الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، ثم اعتجر بعمامته وأسرع السير صلى الله عليه وسلم وروي أن المسافة التي أهلكت الصيحة أهلها هي ثمانية عشر ميلاً ، وهي بلاد الحجر ومراتعها الجناب وحسمي إلى وادي القرى وما حوله ، وقيل في قدار إنه ولد زنا من رجل يقال له ظيبان وولد على فراش سالف فنسب إليه ذكره قتادة وغيره ، وذكر الطبري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبر فقال أتعرفون ما هذا قالوا : لا ، قال هذا قبر أبي رغال الذي هو أبو ثقيف كان من ﴿ ثمود ﴾ فأصاب قومه البلاء وهو بالحرم فسلم فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابهم فدفن هنا وجعل معه غصن من ذهب

قال فابتدر القوم بأسيافهم فحفروا حتى أخرجوا الغصن .

قال القاضي أبو محمد : وهذا الخبر يريد ما في السير من أن أبا رغال هو دليل الفيل وحبيسه إلى مكة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(17/276)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود ﴾

قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثمود : لقلَّة مائها .

قال ابن فارس : الثَّمد : الماء القليل الذي لا مادة له .

قوله تعالى : ﴿ هذه ناقة الله ﴾ في إضافتها إليه قولان .

أحدهما : أن ذلك للتخصيص والتفضيل ، كما يقال : بيت الله .

والثاني : لأنها كانت بتكوينه من غير سبب .

قوله تعالى : ﴿ لكم آية ﴾ أي : علامة تدل على قدرة الله ؛ وإنما قال : "لكم" لأنهم هم الذين اقترحوها ، وإن كانت آية لهم ولغيرهم .

وفي وجه كونها آية قولان .

أحدهما : أنها خرجت من صخرة ملساء ، فتمخَّضت بها تمخُّضَ الحامل ، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها .

والثاني : أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم ، وتسقيهم اللبن مكانه .

قوله تعالى : ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ﴾ قال ابن الأنباري : ليس عليكم مؤنتها وعلفها .

"وتأكل" مجزوم على جواب الشرط المقدر ، أي : إن تذروها تأكل .

قوله تعالى : ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ أي : لا تصيبوها بعقر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(18/276)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح .

وهو أخو جدِيس ، وكانوا في سعة من معايشهم ؛ فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره ، وأفسدوا في الأرض .

فبعث الله إليهم صالحاً نبيًّا ، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود .

وكانوا قوماً عُرْباً .

وكان صالح من أوسطهم نَسَباً وأفضلهم حَسَباً فدعاهم إلى الله تعالى حتى شَمِطَ ولا يتبعه منهم إلا قليل مستضعَفون .

ولم ينصرف "ثمود" لأنه جُعل اسما للقبيلة .

وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه اسم أعجميّ .

قال النحاس : وهذا غلط ؛ لأنه مشتق من الثَّمد وهو الماء القليل .

وقد قرأ الفراء ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ [هود : 68] على أنه اسم للحيّ .

وكانت مساكن ثمود الحِجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى .

وهم من ولد سام بن نوح .

وسميت ثمود لقلة مائها .

وسيأتي بيانه في "الحجر" إن شاء الله تعالى .

﴿ هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صَلْد ؛ فكان لها يوم تشرب فيه ماء الوادي كله ، وتسقيهم مثله لبنا لم يشرب قط ألذ وأحلى منه .

وكان بقدر حاجتهم على كثرتهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

[الشعراء : 155] .

وأضيفت الناقة إلى الله عز وجل على جهة إضافة الخلق إلى الخالق .

وفيه معنى التشريف والتخصيص .

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ أي ليس عليكم رزقها ومؤونتها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(19/276)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾

يعني أرسلنا إلى ثمود وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عابر

وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله ومعنى الكلام وإلى

بني ثمود أخاهم صالحاً لأن ثمود قبيلة .

(20/276)

قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وقيل سموا ثمود باسم أبيهم الذي ينسبون إليه أخاهم صالحاً يعني في النسب لا في الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ يعني قال لهم صالح حين أرسله الله تعالى إليهم يا قوم وحدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً فما لكم من إله يستحق أن يُعبد سواه ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ يعني جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ما أقول وأدعو إليه من عبادة الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً وعلى تصديق بأني رسول الله إليكم ثم فسر تلك البينة فقال ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ يعني علامة على صدقي قال العلماء رحمهم الله تعالى : ووجه كون هذه الناقة آية على صدق صالح ومعجزة له خارقة للعادة أنها خرجت من صخرة في الجبل وكونها لا من ذكر ولا من أنثى وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج لأنها خلقت في ساعة وخرجت من الصخرة وقيل لأنه كان لها شرب يوم ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم وهذا من المعجزة أيضاً لأن ناقة تشرب ما تشربه قبيلة معجزة وكانوا يلحبونها في يوم شربها قدر ما يكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء وهذا أيضاً معجزة وقيل إن سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء في يوم شرب الناقة وتشرب الحيوانات الماء في غير يوم الناقة وهذا أيضاً معجزة وإنما أضافها إلى الله تعالى في قوله هذه ناقة الله على سبيل التفضيل والتشريف كما يقال بيت الله وقيل لأن الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى وقل لأنه لم

يملكها أحد إلا الله تعالى وقيل لأنها كانت حجة الله على قوم صالح ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ﴾ يعني فذروا الناقة تأكل العشب من أرض الله فإن الأرض لله والناقة أيضاً لله وليس لكم في أرض الله شيء لأنه هو الذي أنبت العشب فيها ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ يعني ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من أنواع الأذى ولا تعقروها ﴿ فيأخذكم عذاب أليم ﴾ يعني بسبب عقرها وأذاها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(21/276)

وقال أبو حيان :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾

ثمود اسم القبيلة سميت باسم أبيهم الأكبر وهو ثمود أخو جديس وهما ابنا جاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى .

وقيل سميت ثمود لقلة ما بها من الثمد وهو الماء القليل .

قال الشاعر :

أحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت . . .

إلى حمام شراع وارد الثمد

وكانت ثمود عرباً في سعة من العيش فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره وأفسدوا فبعث الله لهم صالحاً نبياً من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً فدعاهم إلى الله حتى شمط ولا يتبعه منهم إلا القليل ، قاله وهب : بعثه الله حين راهق الحلم فلما هلك قومه ارتحل بمن معه إلى مكة فأقاموا معه حتى ماتوا فقبورهم بين دار الندوة والحجر ، وصالح هو صالح بن آسف بن كاشح بن أروم بن ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح هكذا نسبه الشريف النسّابة الجواني وهو المنتهى إليه في علم النسب .

ووقع في بعض التفاسير بين صالح وآسف زيادة أب وهو عبيد فقالوا صالح بن عبيد بن آسف ونقص في الأجداد وتصحيف جاثر بقولهم عابر ، قال الشريف الجواني في المقدمة الفاضلية والعقب من جاثر بن إرم بن سام بن نوح وجديس والعقب من ثمود بن جاثر فالخ وهيلع وتنوق وأروم من ولده صالح النبي صلى الله عليه وسلم بن آسف بن كاشح بن أروم بن ثمود .

(22/276)

وقرأ ابن وثاب والأعمش : ﴿ وإلى ثمود ﴾ بكسر الدال والتنوين مصروفاً في جميع القرآن جعله اسم الحي والجمهور منعوه الصرف جعلوه اسم القبيلة والأخوة هنا في القرابة ، لأنّ نسبه ونسبهم راجع إلى ثمود بن جاثر وكل واحد من هؤلاء الأنبياء نوح وهود وصالح تواردوا على الأمر بعبادة الله والتنبيه على أنه لا إله غيره إذ كان قومهم عابدي أصنام ومتخذي آلهة مع الله كما كانت قريش والعرب ففي هذه القصص توبيخهوم وتهديدهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك من الهلاك المستأصل من العذاب وكانت قصة نوح مشهورة طبقت الآفاق وقصة هود وصالح مشهورة عند العرب وغيرهم بحيث ذكرها قدماء الشعراء في الجاهلية وشبهوا مفسدي قومهم بمفسدي قوم هود وصالح قال بعض قدمائهم في الجاهلية :

فينا معاشر لن يبغوا لقومهم . . .

وإن بنى قومهم ما أفسدوا عادوا

أضحوا كقيل بن عنز في عشيرته . . .

إذا أهلكت بالذي سدّى لها عاد

أو بعده كقدار حين تابعه . . .

على الغواية أقوام فقد بادوا

وقيل ابن عنز هو من قوم هود وسيأتي ذكر خبره عند ذكر إرسال الريح على قوم هود إن

شاء الله وقدار هو ابن سالف عاقر ناقة صالح ويأتي خبره إن شاء الله .

﴿ قد جاءتكم بيّنة من ربكم ﴾ أي آية ظاهرة جلية وشاهد على صحة نبوتي وكثر استعمال هذه الصفة استعمال الأسماء في القرآن فولّيت العوامل كقوله حتى جاءتهم البيّنة وقوله ﴿ بالبينات والزبر ﴾ والمعنى الآية البينة وبالآيات البينات فقارب أن تكون كالأبطح والأبرق إذ لا يكاد يصرح بالموصول معها وقوله ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ كأنه جواب لقولهم ﴿ ائتنا ببينة ﴾ تدلّ على صدقك وأنك مرسل إلينا و ﴿ من ربكم ﴾ متعلق بجاءتكم أو في موضع الصفة لآية على تقدير محذوف أي من آيات ربكم .

(23/276)

﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ لما أبهم في قوله ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ بيّن ما الآية فكأنه قيل له ما البينة قال ﴿ هذه ناقة الله ﴾ وأضافها إلى الله تشريفاً وتخصيصاً نحو بيت الله وروح الله ولكونه خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى ولأنه لا مالك لها غيره ولأنها حجة على القوم ولما أودع فيها من الآيات ذكرها في قصة قوم صالح و ﴿ لكم ﴾ بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان وهم ثمود لأنهم عاينوها وسائر الناس أخبروا عنها كأنه قال ﴿ لكم ﴾ خصوصاً وانتصب ﴿ آية ﴾ على الحال والعامل فيها ها بما فيها من معنى

التنبيه أو اسم الإشارة بما فيه من معنى الإشارة أو فعل مضمر تدلّ عليه الجملة كأنه قيل انظر إليها في حال كونها آية أقوال ثلاثة ذكرت في علم النحو ، وقال الحسن هي ناقة اعترضها من إبلهم ولم تكن تحلب ، وقال الزّجاج : قيل إنه أخذ ناقة من سائر النوق وجعل الله لها شرباً يوماً ولهم شرب يوم وكانت الآية في شربها وحلبها ، قيل : وجاء بها من تلقاء نفسه ، وقال الجمهور : هي آية مقترحة لما حذرهم وأنذرهم سألوه آية فقال أية آية تريدون قالوا تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السّنة فتدعو إلهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا قل صالح نعم فخرج معهم فدعوا أوثانهم وسألوها الإجابة فلم تجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو بن جواس وأشار إلى صخرة منفردة من ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء وعشراء ، والمخترجة ما شاكلت البحت من الإبل فأخذ صالح عليه السلام مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن قالوا : نعم فصلى ركعتين ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ثم تحرّكت فانصدعت عن ناقة كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله عظماً وهم ينظرون ثم نتجت سقباً مثلها في العظم فآمن به جندع ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب

صاحبا أوثانهم وريّان ابن كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود وهذه الناقة وسقبها مشهور قصتهما عند جاهلية العرب وقد ذكروا السّقب في أشعارهم .

قال بعضهم يصف ناساً قتلوا بمعركة حرب بأجمعهم :

كأنهم صابت عليهم سحابة . . .

صواعقها كالطير هن دبيب

رغى فوقهم سقب السماء فداحض . . .

بشكته لم يستلب وسليب

قال أبو موسى الأشعري : أتيت أرض ثمود فذرعت صدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً .

﴿ فذروها تأكل في أرض الله ﴾ لما أضاف الناقة إلى الله أضاف محل رعيها إلى الله إذ الأرض وما أنبت فيها ملكه تعالى لا ملككم ولا إنباتكم وفي هذا الكلام إشارة إلى أن هذه الناقة نعمة من الله ينال خيرها من غير مشقّة تكلف علف ولا طعمة وهو شأن الإبل كما جاء في الحديث قال فضالة الإبل ، قال مالك : ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربّها و﴿ تأكل ﴾ جزم على جواب الأمر ، وقرأ أبو جعفر في رواية ﴿ تأكل ﴾ بالرفع وموضعه حال كانت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ترد غباً فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها ثم تفجج

فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدّخرون .

﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ نهاهم عن مسّها بشيء من الأذى وهذا تنبيه بالأدنى على الأعلى إذا كان قد نهاهم عن مسّها بسوء إكراماً لآية الله فنهيه عن نحرها وعقرها ومنعها عن الماء والكلأ أولى وأحرى والمسّ والأخذ هنا استعارة وهذا وعيد شديد لمن مسّها بسوء والعذاب الأليم هو ما حلّ بهم إذ عقروها وما أعد لهم في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(25/276)

وقال أبو السعود :

﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً ﴾

عطف على ما سبق من قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ موافقٌ له في تقديم المجرورِ على المنصوب ، وثمودُ قبيلةٌ من العرب سُمُّوا باسم أبيهم الأكبرِ ثمودَ بنِ عابرِ بن إرَمَ بنِ سام بنِ نوحٍ عليه السلام وقيل : إنما سُمُّوا بذلك لقلة مائِهم من الثَّمْدُ وهو الماء القليل ، وقرىء بالصرف بتأويل الحيّ وكانت مساكنُهم الحِجْرَ بين الحجاز والشام إلى وادي القُرى وإخوةُ صالح عليه السلام لهم من حيث النسبُ كهودٍ عليه السلام فإنه صالحُ بنُ عبيد بنِ

أسف بنِ ماسحِ بن عبيد بن حاذر بن ثمود ، ولما كان الإخبارُ بإرساله عليه السلام إليهم مَظِنةً لأن يُسأل ويقال : فماذا قال لهم ؟ قيل جواباً عنه بطريق الاستئناف ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وقد مر الكلامُ في نظائره ﴿ قد جاءتكم بينة ﴾ أي آيةٌ ومعجزةٌ ظاهرة شاهدةٌ بنبوّتي ، وهي من الألفاظِ الجاريةِ مجرى الأبطحِ والأبرق في الاستغناء عن ذكر موصوفاتِها حالةَ الإفراد ، والجمع كالصالح إفراداً وجمعاً وكذلك الحسنةُ والسيئة سواءٌ كانتا صفتين للأعمال أو المثوبة أو الحالة من الرخاء والشدة ، ولذلك أُوِلَيت العوامل وقوله تعالى : ﴿ من ربكم ﴾ متعلّقٌ بجاءتكم أو بمحذوف هو صفةٌ لبينةٌ كما مر مراراً ، والمرادُ بها الناقةُ وليس هذا الكلام منه عليه السلام أولَ ما خاطبهم إثرَ دعوتِهم إلى التوحيد ، بل إنما قاله بعد ما نصحهم وذكّرهم بنعم الله تعالى فلم يقبلوا كلامَه وكذبوه ، ألا يُرى إلى ما في سورة هود من قوله تعالى : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعْمَركم فيها ﴾ إلى آخر الآيات . روي أنه لما أُهلكت عادٌ عَمَرت ثمودُ بلادَها وخلفوهم في الأرض وكثُروا وعُمّروا أعماراً طِوالاً حتى إن الرجل كان يبني المسكن المُحْكَم فينهدمُ في حياته فنحتوا البيوتَ من الجبال وكانوا في سعة ورخاءٍ من العيش فعتَوْا على الله تعالى وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثانَ فبعث الله تعالى إليهم

صالحاً وكانوا قوماً عرباً وصالحٌ من أوسطهم نسباً ، فدعاهم إلى الله عز وجل فلم يتبعْه إلا قليلٌ منهم مستضعَفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال : أية آيةٍ تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلومٍ لهم من السنة فتدعو إلهك وندعو آلهتنا فإن استُجيب لنا اتبعتَنا فقال صالح عليه السلام : نعم ، فخرج معهم ودعَوْا أوثانَهم وسألوا الإجابة فلم تُجبْهم ثم قال سيدهم جندعُ بن عمرو وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة : أخرِجْ لنا من هذه الصخرةِ ناقةً مخترِجةً جوفاءَ وبراءً ، والمخترِجةُ التي شاكلت البُخْت ، فإن فعلت صدقناك وأجبناك فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق : لئن فعلتُ ذلك لتؤمِنُن ولتُصدِّقُنّ قالوا : نعم ، فصلى ودعا ربه فتمخّضت الصخرةُ تمخّض النَتوجِ بولدها فانصدعت عن ناقة عُشَراءَ جوفاء وبراءٍ كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى ، وعظماؤهم ينظرون ثم نُتِجت ولداً مثلَها في العِظَم ، فآمن به جُندع ورهطٌ من قومه ومنع أعقابَهم ناسٌ من رؤوسهم أن يؤمنوا فمَكثت الناقةُ مع ولدها ترعى الشجرَ وتشرب الماءَ وكانت تردُ غِباً ، فإذا كان يومُها وضَعتْ رأسَها في البئر فما ترفعها حتى تشربَ كلَّ ما فيها ثم تتفحج فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدّخرون وكانت إذا وقع الحرُّ تصيّفت بظهر الوادي فيهرب منها أنعامُها فتهبِط إلى بطنه ، وإذا وقع البردُ تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشق ذلك عليهم وزيّنَت عَقرَها لهم

امرأتانِ عنيزةُ أمُّ غنم وصدفةُ بنتُ المختارِ لما أضرَّت به من مواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه فانطلق سَقْبُها حتى رقيَ جبلاً اسمُه قارةُ فرَغا ثلاثاً وكان صالح عليه السلام قال لهم : أدركوا الفصيلَ عسى أن يرفع عنكم العذابَ فلم يقدروا عليه فانفجت الصخرةُ بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح : تُصبحون غداً

(27/276)

ووجوهُكم مصفّرة ، وبعد غد ووجوهُكم محمرةٌ واليوم الثالث ووجوهكم مُسودة ثم يصبّحكم العذاب فلما رأوا العلاماتِ طلبوا أن يقتُلوه فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلَسطينَ ، ولما كان اليومُ الرابع وارتفع الضحى تحنّطوا بالصبر وتكفنوا بالأنْطاع فأتتهم صيحةٌ من السماء ورجفةٌ من الأرض فتقطّعت قلوبُهم فهلكوا وقوله تعالى : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان البينة وإضافةُ الناقةِ إلى الاسم الجليلِ لتعظيمها ولمجيئها من جهته تعالى بلا أسباب معهودةٍ ووسائطَ معتادة ولذلك كانت آيةً وأيَّ آية ، ولكم بيانٌ لمن هي آيةٌ له ، وانتصابُ آيةً على الحالية والعاملُ فيها معنى الإشارة ، ويجوز أن يكون (ناقةُ الله) بدلاً من هذه أو عطفَ بيانٍ له أو مبتدأ ثانياً ، ولكم خبراً عاملاً في آية ﴿ فذروها ﴾ تفريعٌ على كونها آيةً من آيات الله تعالى فإن ذلك مما يوجب عدم التعرّضِ لها ﴿ تأكل في

أرض الله ﴾ جوابُ الأمر أي الناقةُ ناقةُ الله والأرضُ أرضُ الله تعالى فاتركوها تأكلْ ما تأكلُ في أرض ربِّها فليس لكم أن تحولوا بينها وبينها .

وقرىء تأكلُ بالرفع على أنه في موضع الحالِ أي آكلةً فيها ، وعدمُ التعرض للشرب إما للاكتفاء عنه بذكر الأكلِ أو لتعميمه له أيضاً كما في قوله :

(28/276)

علفتُها تِبْناً وماءً بارداً . . . وقد ذكرتُ ذلك في قوله تعالى : ﴿ لها شِرْبٌ ولكم شربُ يومٍ معلوم ﴾ ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ نُهي عن المس الذي هو مقدمةُ الإصابةِ بالشرّ الشامل لأنواع الأذيةِ ونُكّر السوءُ مبالغةً في النهي ، أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً ولا تطرُدوها ولا تُريبوها إكراماً لآية الله ﴿ فيأخذكم عذاب أليم ﴾ جوابٌ للنهي . ويُروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحِجر في غزوة تبوك قال لأصحابه : " لا يدخُلنّ أحدٌ منكم القريةَ ولا تشربوا من مائها ولا تدخُلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبَكم مثلُ الذي أصابهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(29/276)

وقال الآلوسى :

﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾

عطف على ما سبق من قوله تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ ﴾ [الأعراف : 65] موافق له في تقديم المجرور على المنصوب ، وثمود قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وسميت باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح ، وقيل : ابن عاد بن عوص بن إرم الخ وهو المنقول عن الثعلبي .

وقال عمرو بن العلاء : إنما سموا بذلك لقلة مائهم فهو من ثمد الماء إذا قل ، والثمد الماء القليل وورد فيه الصرف وعدمه ، أما الأول : فباعتبار الحي أو لأنه لما كان في الأصل اسماً للجد أو للقليل من الماء كان مصروفاً لأنه علم مذكر أو اسم جنس فبعد النقل حكى أصله ، وأما الثاني : فباعتبار أنه اسم القبيلة ففيه العلمية والتأنيث .

وصالح عليه السلام من ثمود فالأخوة نسبية ، وهو على ما قال محيي السنة البغوي ابن عبيد بن آسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود وهو أخو طسم وجديس فيما قيل ، وقال وهب : هو ابن عبيد بن جابر بن ثمود بن جابر بن سام بن نوح بعث إلى قومه حين راهق الحلم وكان رجلاً أحمر إلى البياض سبط الشعر فلبث فيهم أربعين عاماً .

وقال الشامي : إنه بعث شاباً فدعا قومه حتى شمط وكبر ، ونقل النووي أنه أقام فيهم عشرين سنة ومات بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة .

(30/276)

﴿ قَالَ يَاءادَمُ قَوْمٌ اعبدوا الله مَا لَكُم مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ قد مر الكلام في نظائره ﴿ قَدْ جَاءتْكُم بَيّنَةٌ ﴾ أي آية ومعجزة ظاهرة الدلالة شاهدة بنبوتي وهي من الألفاظ الجارية مجرى الأبطح والأبرق في الاستغناء عن ذكر موصوفاتها حالة الإفراد والجمع ، والتنوين للتفخيم أي بينة عظيمة ﴿ مّن رَّبّكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لبينة على ما مر غير مرة أو بجاءتكم ، و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية مجازاً أو للتبعيض إن قدر من بينات ربكم ، والمراد بهذه البينة الناقة وليس هذا الكلام منه عليه السلام أول ما خاطبهم به إثر الدعوة إلى التوحيد بل إنما قاله بعد ما نصحهم وذكرهم بنعم الله تعالى فلم يقبلوا كلامه وكذبوه كما ينبىء عن ذلك ما في سورة هود (16) .

وقوله تعالى : ﴿ هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ ءايَةً ﴾ استئناف نحوي مسوق لبيان البينة والمعجزة . وجوز أن يكون استئنافاً بيانياً جواباً لسؤال مقدر تقديره أين هي ؟ وعلى التقديرين لا محل للجملة من الإعراب .

وجوز أن يكون بدلاً من ﴿ بَيّنَةً ﴾ بدل جملة من مفرد للتفسير ولا يخفى بعده ، وإضافة الناقة إلى الاسم الجليل لتعظيمها كما يقال : بيت الله للمسجد بيد أن الإضافة فيه لأدنى ملابسة ولا كذلك ما نحن فيه أو لأنها ليست بواسطة نتاج معتاد وأسباب معهودة كما سيتضح إن شاء الله تعالى لك ولذلك كانت آية وأي آية .

وقيل : لأنها لم يملكها أحد سواه سبحانه .

وقيل : لأنها كانت حجة الله على قوم صالح .

وانتصاب ﴿ ءايَةً ﴾ على الحالية من ﴿ نَاقَةُ ﴾ والعامل فيها معنى الإارة وسماه النحاة العامل المعنوي و﴿ لَكُمْ ﴾ بيان لمن هي آية له كما في سقيا لك فيتعلق بمقدر .

وجوز أن يكون ﴿ نَاقَةُ ﴾ بدل من ﴿ هذه ﴾ أو عطف بيان له أو مبتدأ ثانياً و﴿ لَكُمْ ﴾ خبراً فآية حينئذٍ حال من الضمير المستتر فيه والعامل هو أو متعلقه .

﴿ فَذَرُوهَا ﴾ تفريع على كونها آية من آيات الله تعالى .

(31/276)

وقيل : على كونها ناقة له سبحانه فإن ذلك مما يوجب عدم التعرض لها أي فاتركوها ﴿ تَأْكُلْ فِى أَرْضِ الله ﴾ العشب وحذف للعلم به .

والفعل مجزوم لأنه جواب الأمر .

وقرأ أبو جعفر في رواية عنه ﴿ تَأْكُلُ ﴾ بالرفع فالجملة حالية أي آكلة .

والجار والمجرور متعلق بما عنده أو بالأمر السابق فهما متنازعان .

وأضيفت الأرض إلى الله سبحانه قطعاً لعذرهم في التعرض كأنه قيل : الأرض أرض الله تعالى والناقة ناقة الله تعالى فذروا ناقة الله تأكل في أرضه فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من إنباتكم فأي عذر لكم في منعها .

وعدم التعرض للشرب للاكتفاء عنه بذكر الأكل .

وقيل : لتعميمه له أيضاً كما في قوله

: علفتها تبناً وماءً بارداً . . .

وقد ذكر ذلك بقوله سبحانه : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : 155] .

﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر فهو كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ [الأنعام : 152 ، والإسراء : 34] .

والجار والمجرور متعلق بالفعل .

والتنكير للتعميم أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً كالطرد والعقر وغير ذلك .

وقيل : الجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل الفعل .

والمعنى لا تمسوها مع قصد السوء بها فضلاً عن الإصابة فهو كقوله تعالى : ﴿ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنتُمْ سكارى ﴾ [النساء : 43] .

﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ منصوب في جواب النهي .

والمعنى لا تجمعوا بين المس وأخذ العذاب إياكم .

والأخير وإن لم يكن من صنيعهم حقيقة لكن لتعاطيهم أسبابه كأنه من صنيعهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(32/276)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

الواو في قوله : ﴿ وإلى ثمود ﴾ مثلها في قوله : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ [الأعراف : 65] ، وكذلك القول في تفسيرها إلى قوله تعالى : ﴿ من إله غيره ﴾ .

وثمود أمّة عظيمة من العرب البائدة وهم أبناء ثمود بن جَاثَر بجيم ومثلّثة كما في "القاموس" ابن إرَم بن سام بن نوح فيلتقون مع عاد في (إرَم) وكانت مساكنهم بالحِجْر بكسر الحاء

وسكون الجيم بَين الحجاز والشّام ، وهو المكان المسمّى الآن مَدائِن صالح وسُمّي في حديث غزوة تبوك : حِجْرَ ثَمُودَ .

وصالحٌ هو ابن عَبِيل بلام في آخره وبفتح العينْ ابن آسف بن ماشج أو شالخ بن عَبيل بن جاثر ويقال كاثرَ ابن ثمود .

وفي بعض هذه الأسماء اختلاف في حروفها في كتب التاريخ وغيرها أحسبه من التّحريف وهي غير مضبوطة سوى عبيل فإنّه مضبوط في سَميه الذي هو جَد قبيلةٍ ، كما في "القاموس" .

وثمودَ هنا ممنوع من الصّرف لأنّ المراد به القبيلة لا جدّها .

وأسماء القبائل ممنوعة من الصّرف على اعتبار التّأنيث مع العلميّة وهو الغالب في القرآن ، وقد ورد في بعض آيات القرآن مصروفاً كما في قوله تعالى : ﴿ ألاَ إنّ ثموداً كفروا ربّهم ﴾ [هود : 68] على اعتبار الحيّ فينتفي موجب منع الصّرف لأنّ الاسم عربي .

وقوله : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ يدلّ على أنّ ثمود كانوا مشركين ، وقد صُرح بذلك في آيات سورة هود وغيرها .

والظّاهر أنّهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد لأنّ ثمود وعادا أبناء نسب واحد ، فيشبه أن تكون عقائدهم متماثلة .

وقد قال المفسّرون : أنّ ثمود قامت بعد عاد فنمَتْ وعظمت واتسعت حضارتها ، وكانوا مُوحدين ، ولعلّهم اتّعظوا بما حلّ بعاد ، ثمّ طالت مدّتهم ونعم عيشهم فَعَتوا ونسُوا نعمة الله وعَبَدوا الأصنام فأرسل الله إليهم صالحاً رسولاً يدعوهم إلى التّوحيد فلم يتّبعه إلاّ قليل منهم مُستضعفون ، وعصاه سادتهم وكبراؤهم ، وذكر في آية سورة هود أنّ قومه لم يغلظوا له القول كما أغلظت قوم نوح وقوم هود لرسولهم ، فقد : ﴿ قالوا يا صالح قد كنتَ فينا مرجُوّا قبل هذا أَتَنْهَانا أن نعبد ما يَعْبُد آباؤُنا لفي شكّ ممَّا تدعُونا إليه مُريب ﴾ [هود : 62] .

وتدلّ آيات القرآن وما فُسّرت به من القصص على أنّ صالحاً أجّلهم مدّة للتّأمّل وجعل النّاقة لهم آية ، وأنّهم تَارَكُوها ولم يُهيجوها زمناً طويلاً .

فقد أشعرت مجادلتهم صالحاً في أمر الدّين على أنّ التّعقّل في المجادلة أخذ يدبّ في نفوس البشر ، وأنّ غُلواءهم في المكابرة أخذت تقصر ، وأنّ قناة بأسهم ابتدأت تلين ، للفرق الواضح بين جواب قوم نوح وقومِ هود ، وبين جواب قوم صالح .

ومن أجل ذلك أمهلهم الله ومادّهم لينظروا ويفكّروا فيما يدعوهم إليه نبيّهم وليَزِنوا أمرهم ، وجعل لهم الانكفاف عن مسّ النّاقة بسوء علامة على امتداد الإمهال ؛ لأنّ انكفافهم ذلك علامة على أنّ نفوسهم لم تحْنق على رسولهم ، فرجاؤه إيمانهم مستمرّ ، والإمهال لهم أقطعُ

لعذرهم ، وأنهض بالحجّه عليهم ، فلذلك أخّر الله العذاب عنهم إكراماً لنبيّهم الحريص على إيمانهم بقدر الطّاقة ، كما قال تعالى لنوح:

﴿ أنّه لم يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ [هود : 36] .

(34/276)

وجملة : ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ إلخ ، هي من مقولِ صالحٍ في وقت غير الوقت الذي ابتدأ فيه بالدّعوة ، لأنّه قد طوي هنا جواب قومه وسُؤَالُهم إياه آية كما دلّت عليه آيات سورة هود وسورة الشّعراء ، ففي سورة هود (61 ، 62) : ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثمّ توبوا إليه إنّ ربّي قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنتَ فِينا مرجُوّا قبل هذا ﴾ الآية .

وفي سورة الشّعراء (153 155) : ﴿ قالوا إنّما أنت من المسحرين ما أنت إلاّ بشر مثلنا فأتِ بآية إن كنت من الصّادقين قال هذه ناقة لها شرب ﴾ الآية .

فجملة : قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ تعليل لجملة : ﴿ اعبدوا الله ﴾ ، أي اعبدوهُ وحده لأنّه جعل لكم آية على تصديقي فيما بلغتُ لكم ، وعلى انفراده بالتّصرف في المخلوقات .

وقوله : ﴿ هذه ناقة الله ﴾ يقتضي أن النّاقة كانت حاضرة عند قوله : ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ لأنّها نفس الآية .

والبيّنة : الحجّة على صدق الدّعوى ، فهي ترادف الآية ، وقد عُبّر بها عن الآية في قوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين مُنفكّينَ حتى تأتيهم البيّنة ﴾ [البينة : 1] .

و﴿ هذه ﴾ إشارة إلى النّاقة التي جعلها الله آية لصدق صالح ولما كانت النّاقة هي البيّنة كانت جملة : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ منزّلة من التي قبلها منزلة عطف البيان .

وقوله : ﴿ آية ﴾ حال من اسم الإشارة في قوله : ﴿ هذه ناقة الله ﴾ لأنّ اسم الإشارة فيه معنى الفعل ، واقترانَه بحرف التّنبيه يقوي شبهه بالفعل ، فلذلك يكون عاملاً في الحال بالاتّفاق ، وتقدّم عند قوله : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات ﴾ في سورة آل عمران (58) ، وسنذكر قصّة في هذا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ في سورة هود (72) .

(35/276)

وأكّدت جملة : قد جاءتكم بينة ﴾ ، وزادت على التّأكيد إفادةُ ما اقتضاه قوله ﴿ لكم ﴾ من التّخصيص وتثبيت أنّها آية ، وذلك معنى اللاّم ، أي هي آية مقنِعة لكم ومجعولة لأجلكم .

فقوله : ﴿ لكم ﴾ ظرف مستقرّ في موضع الحال من ﴿ آية ﴾ ، وأصله صفة فلمّا قُدم على موصوفه صار حالاً ، وتقديمه للاهتمام بأنّها كافية لهم على ما فيهم من عناد .

وإضافة ناقة إلى اسم الله تعالى تشريف لها لأنّ الله أمر بالإحسان إليها وعدم التّعرّض لها بسوء ، وعظَّم حرمتها ، كما يقال : الكعبة بيت الله ، أو لأنّها وُجدت بكيفية خارقة للعادة ، فلانتفاء ما الشانُ أن تضاف إليه من أسباب وجود أمثالها أضيفت إلى اسم الجلالة كما قيل : عيسى عليه السّلام كلمةُ الله .

وأمّا إضافة ﴿ أرض ﴾ إلى اسم الجلالة فالمقصود منه أنّ للنّاقة حقّاً في الأكل من نبات الأرض لأنّ الأرض لله وتلك النّاقة من مخلوقاته فلها الحقّ في الانتفاع بما يصلح لانتفاعها .

وقوله : ﴿ هذاَ ﴾ مقدمةٌ لقوله : ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ أي بسوء يعوّقها عن الرّعي إمّا بموت أو بجرح ، وإمّا لأنّهم لما كذّبوه وكذّبوا معجزته راموا منع النّاقة من الرّعي لتموت جوعا على معنى الإلجاء النّاشىء عن الجهالة .

والأرض هنا مراد بها جنس الأرض كما تقتضيه الإضافة .

وقد جعل الله سلامة تلك النّاقة علامة على سلامتهم من عذاب الاستيصال للحكمة التي

قدّمتُها آنفاً ، وأن ما أوصى الله به في شأنها شبيه بالحَرَم ، وشبيه بحمى الملوك لما فيه من الدّلالة على تعظيم نفوس القوم لمن تُنسب إليه تلك الحُرمة ، ولذلك قال لهم صالح : ﴿ فَذروها تأكلْ في أرض الله ولا تمسّوها بسوء ﴾ لأنّهم إذا مسّها أحد بسوء ، عن رضى من البَقيّة ، فقد دلُّوا على أنّهم خلعوا حرمة الله تعالى وحنقوا على رسوله عليه السّلام .

(36/276)

وجُزم ﴿ تأكل ﴾ على أنّ أصله جواب الأمر بتقدير : إنْ تذروها تأكُل ، فالمعنى على الرّفع والاستعمالُ على الجزم ، كما في قوله تعالى : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصّلاة ﴾ [إبراهيم : 31] أي يقيمون وهو كثير في الكلام ، ويُشبه أن أصل جزم أمثاله في الكلام العربي على التّوهم لوجود فِعل الطّلب قبل فعلٍ صالح للجزم ، ولعلّ منه قوله تعالى : ﴿ وأذّنْ في النّاس بالحجّ يأتوك رجالا ﴾ [الحج : 27] وانتصب قوله : ﴿ فيأخُذكم ﴾ في جواب النّهي لِيُعتبر الجواب للمنهي عنه لأنّ حرف النّهي لا أثر له : أي إن تمسُّوها بسوءٍ يأخذْكم عذاب .

وأنيط النّهي بالمس بالسّوء لأنّ المس يصدق على أقل اتّصال شيء بالجسم ، فكلّ ما ينالُها ممّا يراد منه السّوء فهو منهي عنه ، وذلك لأنّ الحيوان لا يسوؤه إلاّ ما فيه ألم لذاته ، لأنّه لا

يفقه المعاني النّفسانيّه .

والباء في قوله : ﴿ بسوء ﴾ للملابسة ، وهي في موضع الحال من فاعل تَمسوها أي بقصد سوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(37/276)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

لقد قال سيدنا صالح لثمود مثلما قال سيدنا هود لعاد ، وحمل لهم الإنذار ليتقوا فيرحموا ، قال سيدنا صالح : ﴿ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ .

إذن فالإنذار للتقوى وللوصول إلى الرحمة والفلاح ، ولذلك أقول دائماً : إن القرآن حينما يتعرض لأمر قد لا يأتي به مفصلا ولكن سياقه يوحي بالمراد منه ، ولا يكرر وذلك ليربي فينا ملكة الاستيقاظ إلى استقبال المعاني . والمثال على ذلك في قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول القرآن على لسان سيدنا سليمان : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطير فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين ﴾ [النمل : 20]

ويهدد سيدنا سليمان الهدهد قائلاً : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ . . . ﴾ [النمل : 21]

ثم جاء الهدهد ليقول : ﴿ . . . وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : 22]

ثم أرسل سيدنا سليمان الهدهد إلى قوم سبأ قائلاً : ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : 28]

وبعد هذه الآية مباشرة قال القرآن : ﴿ قَالَتْ يا أَيُّهَا الملأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : 29]

وكأن الهدهد قد ذهب بالكتاب ، ورماه إلى ملكة سبأ ، وقالت هي الرد مباشرة . إذن لم يكرر القرآن ما حدث ، بل جعل بعضاً من الأحداث متروكاً للفهم من السياق .

وكذلك هنا في قوله الحق : ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 73]

(38/276)

وكلمة " أخاهم " هنا تؤكد أن سيدنا صالحاً كان مأنوساً به عند ثمود ، ومعروف التاريخ لديهم ، سوابقه في القيم والأخلاق معروفة لهم تماماً وأضيفت ثمود له لأنه أخوهم . وقد جاءت دعوته مطابقة لدعوة نوح وهود . ﴿ . . . قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله

غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 73]

والبنية هي الدليل على الصدق في البلاغ عن الله ، وهي الناقة . فما قصة الناقة ؟ هل خرج لهم بناقة ونسب ملكيتها لله ؟ بطبيعة الحال ، لا ، بل لا بد أن تكون لها قصة بحيث يعلمون أن هذه الناقة ليست لأحد من البشر . وحين قام سيدنا صالح بدعوته ، تحداه السادة من قومه ، وقالوا : نقف نحن وأنت ، نستنجد نحن بآلهتنا ، وأنت تستنجد بإلهك ، وإن غلبت آلهتنا تتبعنا ، وإن غلب إلهك نتبعك ، وجلسوا يدعون آلهتهم ، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة ، وهنا قالوا لسيدنا صالح : إن كنت صادقاً في دعوتك ، هذه الصخرة منفردة أمامك في الجبل اسمها " الكاثبة " فليخرج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة هي عشراء كالبخت – أحسن أنواع الإبل – فدعا الله سبحانه وتعالى ، وانشقت الصخرة عن الناقة ، وخروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالاً للشك في أنها آية من الله ظهرت أمامهم . إنها البينة الواضحة . لقد انشقت الصخرة عن الناقة ووجدوها ناقة عشراء ، وَبْرَاء – أي كثيرة الوَبَر – يتحرك جنينها بين جنبيها ثم أخذها المخاض فولدت فصيلاً ، وهكذا تتأكد الإلهية دون أن يجرؤ أحد على التشكيك فيها ، وهي ناقة من الله وهو القائل :

﴿ . . . نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس : 13]

وأوضح لهم سيدنا صالح أنها ناقة الله ، وترونها رؤية مشهدية وهذه الناقة لها يوم في الماء لتشرب منه ، ويوم تشربون أنتم فيه . وكان الماء قليلاً عندهم في الآبار . ﴿ . . . لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : 155]

أي لابد من تخصيص يوم لتشرب فيه هذه الناقة ، ولكم أنتم وإبلكم وحيوانا تكم يوم آخر ، وكان من عجائب هذه الناقة أن تقف على العين وتشرب فلا تدع فيها ماءً ، وهي كمية من المياه كانت تكفي كل الإبل . وبعد ذلك تتحول كل المياه التي شربتها في ضرعها لبناً ، فيأخذون هذا اللبن .

صحيح أن الناقة منعتهم المياه لكنهم أخذوا منها اللبن الذي يطعمونه ، ولأنها ناقة الله كان لابد أن تأخذ هيكلاً وحجماً يناسبها وكمية من الطعام والشراب مناسبة لتقيم بها حياتها ، وكمية إدرار اللبن مناسبة لشربها وطعامها وحجمها ، فما دامت منسوبة لله فلابد أن فيها مواصفات إعجازية ، وكان الفصيل الذي ولدته معها ، وكان إذا ما جاء الحر في الصيف تسكن الناقة في المشارف العالية ، وبقية النوق تنزل في الأرض الوطيئة ، وحين يأتي الشتاء تنزل إلى المناطق المنخفضة .

والمعروف أن مدائن صالح كانت منطقة شديدة الحرارة ، ويمكن لمن يزور المدينة أو " تبوك " أن يمر عليها .

(40/276)

كانت الناقة حرة في اختيار المكان الذي تعيش فيه صيفاً أو شتاءً فلا أحد بقادر أن يمسها بسوء . وكانت هناك امرأتان لهما نياق . وناقة الله تغلب نياق المرأتين في المراعي والماء . فأحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه : " أُحَيْمر ثمود : واسمه قُدار بن سالف " ليقتلها ، فقتل الناقة ، فلما قتلت الناقة ، طلع ابنها الفصيل على جبل يسمى " قارة " وخار ثلاثة أصوات ، فنادى سيدنا صالح : يا قوم أدركوا هذا الفصيل ، لعل الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، فراحوا يتلمسونه فلم يجدوه وأعلم الله صالحاً النبي أن العذاب قادم ، ففي اليوم الأول تكون وجوههم مصفرة ، وفي اليوم الثاني تكون محمرة ، وفي اليوم الثالث تكون مسودّة ، فقد كانت الناقة هي ناقة الله المنسوبة له سبحانه ، وقد تأكدوا بالأمر المشهدي من ذلك ، وكان من الواجب عليهم ساعة أن وجدوا الآية الكونية المشهودة أن يأخذوا منها العبرة ، وأنها مقدمة للشيء الموعود به . لكنَّ الغباء أنساهم أنها ناقة الله .

﴿ . . . هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 73]

وبالفعل حدث العذاب بعد أن قتل أحمير ثمود الناقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(41/276)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى فى قصة صالح : " قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " وفى سورة هود : " وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ " وفى سورة الشعراء : " قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ "

فاختلف الوصف لمختوم به فى الآى الثلاث فقد يسأل عن ذلك ؟

والجواب : مثل هذا ليس بخلاف ولا مشكل لأن وصف العذاب بالإيلام لا ينافى وصفه بالقرب وإنما وصف فى سورة هود بالقرب ليجرى مع قوله بعد : "تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام

" فجرى فى الوصف رعى هذا ولا ينافى ذلك الإيلام وأما الوصف فى سورة الشعراء بعظيم فمن صفة اليوم لما فيه من الأهوال لا من صفة العذاب فلا إشكال فى شئ من هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 200 ﴾

(42/276)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

ثمود : اسم رجل : وهو ثَمُودُ بْنُ عاد بْن إرم بْنِ سَام بْنِ نُوحٍ ، وهو أخو جديس ، فثمود وجديس أخوان ، ثم سُمِّيت به هذه القبيلة .

قال أبو عَمرو بْن العلاء : سميت ثمود لقلَّة مائها ، والثَّمَدُ : الماء القليلُ : [قال النابغة : [البسيط]

2502 - أحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الحَيِّ إذْ نَظَرَتْ . . .

إلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وارِدِ الثَّمَدِ]

وكانت مساكنهم " الحجر " بين " الحِجاز " و " الشَّام " إلى " واد القرى " ، والأكثر منعه الصرف اعتباراً بما ذكرناه أوّلاً ، ومن جعله اسماً للحيّ صرفه ، وهي قراءة الأعمش ،

ويحيى بن وثَّاب في جميع القرآن ، وقد ورد القرآن بهم صَرِيحاً .

قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾ [هود : 68] .

وسيأتي الخلاف من القُرَّاء السَّبْعةِ في سورة " هُودٍ " وغيرها .

وصالح : اسم عربيٌّ ، وهو صالح بن آسف .

وقيل : ابْنُ عُبَيْدِ بْنِ آسف بن كَاشِح بْنِ أروم بْنِ ثَمُودَ [ابن جاثر] .

" قال : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِن إله غيرُهُ " أمرهم بعبادة الله ، ونهاهم عن عبادة غير الله ، كما ذكره عمن قبله من الأنبياء .

قوله : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ .

قد كثر إيلاءُ هذه اللَّفظة العوامل ، فهي جارية مَجْرَى " الأبطح " و " الأبرَقِ " في عدم ذكر موصوفها .

(43/276)

وقوله : " مِن رَبِّكُمْ " يحتمل أن يتعلق بـ " جَاءَتْكُمْ " و " مِنْ " لابتداء الغايةِ مجازاً ، وأنْ تتعلق بمحذوف ؛ لأنَّها صفةٌ بيِّنة ، ولا بدَّ من حذف مُضاف ، أي : من بينات ربكم ليتصادق الموصوف وصفته .

وهذا يدلُّ على أنَّ كُلَّ شيءٍ كان يذكر الدلائل على صحَّةِ التَّوْحيدِ ، ولم يكتف بالتَّقْليدِ ، وإلاَّ كان ذكر البينة – وهي الحجة – ها هنا لغواً .

قوله : ﴿ هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ أضاف النَّاقة إليه على سبيل التفضيلِ ، كقولك : بيت الله ، وروح الله ؛ لأنَّهَا لم تتوالد بين جمل وناقة ، بل خَرَجَتْ من حَجَرٍ .

و " آيَةً " نصبَ على الحال ؛ لأنَّها بمعنى العلامة ، والعامل فيها إمَّا معنى التنبيه ، وإما معنى الإشارةِ ، كأنَّهُ قال : أنبهكم عليها ، وأشير إليها في هذه الحال .

ويجوز أن يكون العامل مُضْمَراً تقديرُهُ : انظروا إليها في هذه الحال ، والجملة لا محلَّ لها ؛ لأنَّها كالجواب لسُؤالٍ مقدَّر ، كأنهم قالوا : أين آيتك ؟ فقالك هذه ناقةُ الله .

وقوله : " لَكُم " أي : أعني لكم به ، وخصّوا بذلك ، لأنَّهُم هم السَّائِلُوهَا ، أو المنتفعون بها من بين سَائِرِ النَّاسِ لو أطاعوا .

ويحتمل أن تكون " هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ " مفسرة لقوله : " بَيِّنَةٌ " ؛ لأنَّ البَيِّنَةَ تستدعي شيئاً يتبين به المدعى ، فتكون الجملة في محل رفع على البدل ، وجاز إبدالُ جملة من مفرد ؛ لأنَّهَا في قوته .

قوله : " فَذَرُوهَا تَأْكُلْ " أي : العشب في أرض اللَّهِ ، أي : ناقة الله ، [فذروها تأكل في أرض ربِّها ، فليست الأرض لكم ولا ما فيها منن النبات من إنباتكم .

وقيل : يجوز تعلقه بقوله : " فَذَرُوهَا " ، وعلى هذا فتكون المسألة من التَّنازع وإعمال الثَّاني ، ولو أعمل الأوّل لأضمر في الثَّاني فقال : ﴿ تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ ﴾ وانجزم " تأكلْ " جواباً للأمر وقد تقدَّم الخلافة في جازمه : هل هو نفس الجملة الطَّلَبيَّةِ أو أداء مقدّرة ؟ .

وقرأ أبو جعفر : " تَأْكُلُ " برفع الفِعْلِ على أنَّهُ حال ، وهو نظير : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي ﴾ [مريم : 5 ، 6] رفعاً وجزماً .

قوله : ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء ﴾ أي لا يمسوها بسوء الظاهر أن " الباء " للتعدية ، أي : لا توقعوا عليها سوءاً ولا تلصقوه بها .

ويجوز أن تكون للمصاحبة ، أي : لا تمسُّوها حال مصاحبتكم للسُّوء .

قوله : " فَيَأْخُذَكُمْ " نصب على جواب النَّهْي ، أي : لا تجمعوا بين السمّ بالسّوء وبين أخذ العذاب إيّاكم ، وهم وإنْ لم يكن أخذ العذاب لهم من صنعهم إلا أنَّهم تعاطوا أسبابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 191.194 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) ﴾

غاير الحقُّ – سبحانه – بين الرسل من حيث الشرائع ، وجمع بينهم في التوحيد ؛ فالشرائع التي هي العبادات مختلفة ، ولكن الكل مأمورون بالتوحيد على وجه واحد .

ثم أخبر عن إمضاءِ سُنَّتِه تعالى بإرسال الرسل عليهم السلام ، وإمهال أُمَمِهم ريثما ينظرون في معجزات الرسل .

ثم أخبر عما دَرَجُوا عليه في مقابلتهم الرسل بالتكذيب تسليةً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله – فيما كان يقاسي من بلاء قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 546. 547 ﴾

(45/276)

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمرهم ونهاهم ، ذكر لهم ترغيباً مشيراً إلى ترهيب فقال : ﴿ واذكروا ﴾ أي نعمة الله عليكم ﴿ إذ جعلكم خلفاء ﴾ أي فيما أنتم فيه ﴿ من بعد عاد ﴾ أي إهلاكهم ﴿ وبوأكم في الأرض ﴾ أي جعل لكم في جنسها مساكن تبوءون أي ترجعون إليها وقت راحتكم ، سهل عليكم من عملها في أي أرض أردتم ما لم يسهله على غيركم ، ولهذا فسر المراد بقوله : ﴿ تتخذون ﴾ أي بما لكم من الصنائع ﴿ من سهولها قصوراً ﴾ أي أبنية بالطين واللبن والآجر واسعة عالية حسنة يقصر أمل الآمل ونظر الناظر عليها مما فيها من المرافق والمحاسن ﴿ وتنحتون الجبال ﴾ أي أيّ جبل أرتم تقدرونها ﴿ بيوتاً ﴾ .

ولما ذكرهم بهذه النعم مرغباً مرهباً ، كرر ذلك إشارة وعبارة فقال مسبباً عما ذكرهم به : ﴿ فاذكروا ﴾ أي ذكر إذعان ورغبة ورهبة ﴿ آلاء ﴾ أي نعم ﴿ الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال فلا حاجة به إلى أحد ، فإحسانه هو الإحسان في الحقيقة ﴿ ولا تعثوا في الأرض ﴾ من العثي وهو الفساد ، وهو مقلوب عن العيث – قاله ابن القطاع ، وحينئذ يكون قوله : ﴿ مفسدين ﴾ بمعنى معتمدين للفساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 57.58 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾

قيل إنه تعالى لما أهلك عاداً عمر ثمود بلادها ، وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمروا أعماراً طوالاً .

ثم قال : ﴿ وبوأكم في الأرض ﴾ أنزلكم ، والمبوأ : المنزل من الأرض ، أي في أرض الحجر بين الحجاز والشام .

(46/276)

ثم قال : ﴿ تتخذون من سهولها قصوراً ﴾ أي تبوؤن القصور من سهولة الأرض ، فإن القصور إنما تبنى من الطين واللبن والآجر ، وهذه الأشياء إنما تتخذ من سهولة الأرض ﴿ وتنحِتون من الجبال بيوتاً ﴾ يريد تنحِتون بيوتاً من الجبال تسقفونها .

فإن قالوا : علام انتصب بيوتاً ؟

قلنا : على الحال كما يقال : خط هذا الثوب قميصاً وأبر هذه القصبة قلما ، وهي من الحال المقدرة ، لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت ، ولا الثوب والقصبة قميصاً ، وقلما في حال الخياطة والبري .

وقيل : كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء ، وهذا يدل على أنهم كانوا متنعمين مترفهين .

ثم قال : ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ يعني قد ذكرت لكم بعض أقسام ما آتاكم الله من النعم ، وذكر الكل طويل فاذكروا أنتم بعقولكم ما فيها ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ قيل المراد منه : النهي عن عقر الناقة ، والأولى أن يحمل على ظاهره وهو المنع عن كل أنواع الفساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 133 ﴾

(47/276)

وقال السمرقندى :

قوله عز وجل : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾ أي : بعد هلاك عاد ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ يعني : أنزلكم في أرض الحجر ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ﴾ وذلك أنه كانت لهم قصور يسكنون فيها أيام الصيف ، وقد اتخذوا بيوتاً في الجبل لأيام الشتاء ، فذكرهم نعمة الله تعالى .

فقال : اذكروا هذه النعم حيث وفقكم الله حتى اتخذتم القصور في سهل الأرض واتخذتم البيوت في الجبال .

﴿ فَاذْكُرُوا آلاَءَ الله ﴾ أي نعم الله عليكم ﴿ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي : لا تعملوا في الأرض بالمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ ﴾ أسكنكم وأنزلكم ﴿ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ ﴾ قرأ الحسن (وتنحتون) بفتح الحاء وهي لغة من ﴿ الجبال بُيُوتاً ﴾ وكانوا ينقبون في الجبال البيوت ﴿ فاذكروا آلآءَ الله وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(48/276)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يعني أنزلكم في الأرض وهي أرض الحجر بين الشام والمدينة .

والثاني : فيها من منازل تأوون إليها ، ومنه قولهم : بوأته منزلاً ، إذا أمكنته منه ليأوي إليه ،

قال الشاعر :

وَبُوِّئَتْ فِي صَمِيمِ مَعْشَرِهَا . . . فَتَمَّ فِي قَوْمِهَا مَبْوَؤُهَا

أي مكنت من الكرم في صميم النسب .

﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً ﴾ والقصور ما شيد وعلا من المنازل اتخذوها في سهول الأرض ليصيّفوا فيها .

﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ﴾ لتكون مساكنهم في الشتاء لأنها أحصن وأبقى وأدفأ فكانوا طوال الآمال طوال الأعمار .

﴿ فَاذْكُرُوا ءَالآءَ اللَّهِ ﴾ فيه ما قدمنا ، أي نعمه أو عهوده .

﴿ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفسِدِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا تعملوا فيها بالمعاصي .

والثاني : لا تدعوا إلى عبادة غير الله .

وفي العبث وجهان :

أحدهما : أنه السعي في الباطل .

والثاني : أنه الفعل المؤدي لضير فاعله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(49/276)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا

﴿

﴿ بوأكم ﴾ معناه مكنكم ، وهي مستعملة في المكان وظروفه ، تقول تبوأ فلان منزلاً حسناً ، ومنه قوله تعالى ﴿ تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ [آل عمران : 121] وقال الأعشى : [الطويل]

فما بَوَّأ الرحمان بيتك منزلاً . . . بشرقيّ أجيادِ الصَّفا والمحرمِ

و" القصور " : جمع قصر وهي الدور التي قصرت على بقاع من الأرض مخصوصة بخلاف بيوت العمود وقصرت عن الناس قصراً تاماً ، و" النحت " النجر والقشر في الشيء الصلب كالحجر والعود ونحوه ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " تنحَتون " بفتح الحاء ، وقرأ جمهور الناس : بكسرها وبالتاء من فوق ، وقرأ ابن مصرف : بالياء من أسفل وكسر الحاء ، وقرأ أبو مالك بالياء من أسفل وفتح الحاء ، وكانوا " ينحِتون " الجبال لطول أعمارهم ، و﴿ تعثوا ﴾ معناه تفسدوا يقال : عثا يعثي وعثا يعثو وعثى يعثى كنسى ينسى وعليها لفظ الآية ، وقرأ الأعمش " تِعثوا " بكسر التاء و﴿ مفسدين ﴾ : حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(50/276)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وبوّأكم في الأرض ﴾

أي : أنزلكم .

يقال : تبوأ فلان منزلاً : إذا نزله .

وبوّأتُهُ : أنزلته .

قال الشاعر :

وبُوِّئتْ في صَمْيمِ مَعْشَرِهَا . . .

فَتَمَّ في قَوْمِها مُبَوَّؤوهَا

أي : أنزلت من الكريم في صميم النسب ؛ قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ تتخذون من سهولها قصوراً ﴾ السهل : ضد الحزن .

والقصر : ما شُيِّد وعلا من المنازل .

قال ابن عباس : اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف ، ونقبوا في الجبال للشتاء ، قال وهب بن منبه : كان الرجل منهم يبني البنيان ، فتمر عليه مائة سنة ، فيخرب ، ثم يجدده ، فتمر عليه مائة سنة ، فيخرب ، ثم يجدده ، فتمر عليه مائة سنة ، فيخرب ، فأضجرهم ذلك ، فأخذوا من الجبال بيوتاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض ﴾ فيه محذوف ، أي وبوأكم في الأرض منازل .

﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً ﴾ أي تبنون القصور بكل موضع .

﴿ وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتاً ﴾ اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم ؛ فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم .

وقرأ الحسن بفتح الحاء ، وهي لغة .

وفيه حرف من حروف الحلق ؛ فلذلك جاء على فعل يفعل .

الثانية : استدل بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها ، وبقوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق ﴾ [الأعراف : 32] .

ذُكر أن ابنا لمحمد بن سِيرين بَنَى داراً وأنفق فيها مالاً كثيراً ؛ فذُكر ذلك لمحمد بن سيرين فقال : ما أرى بأساً أن يبني الرجل بناء ينفعه .

وروي أنه عليه السلام قال : " إذا أنعم الله على عبد أحبّ أن يُرى أثر النعمة عليه " ومن

آثار النعمة البناء الحسن ، والثياب الحسنة .

ألا ترى أنه لو اشترى جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك ؛ فكذلك البناء .

وكره ذلك آخرون ، منهم الحسن البصري وغيره .

واحتجوا بقوله عليه السلام : " إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الطين واللَّبِن " وفي خبر آخر عنه أنه عليه السلام قال : " من بَنَى فوق ما يكفيه جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه " .

قلت : بهذا أقول ؛ لقوله عليه السلام : " وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان في بنيان أو معصية " رواه جابر بن عبد الله وخرّجه الدَّارَقُطْنِيّ .

وقوله عليه السلام : " ليس لابن آدم حقّ في سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارِي عورته وجِلْف الخبز والماء " أخرجه الترمِذيّ .

(52/276)

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فاذكروا آلآءَ الله ﴾ أي نِعمه .

وهذا يدلّ على أن الكفار منعم عليهم .

وقد مضى في "آل عمران" القول فيه .

﴿ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرض مُفْسِدِينَ ﴾ تقدّم في "البقرة" .

والعِثيّ والعُثُوّ لغتان .

وقرأ الأعمش "تعثوا" بكسر التاء أخذه من عَثِي يَعْثَى لا من عثا يعثو . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾

يعني أن الله أهلك عاداً وجعلكم تخلفونهم في الأرض وتعمرونها ﴿ وبوأكم ﴾ يعني وأسكنكم وأنزلكم ﴿ في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً ﴾ يعني تبنون القصور من سهولة الأرض لأن القصود إنما تبنى من اللّبن والآخر المتخذ من الطين السهل اللين ﴿ وتنحتون الجبال بيوتاً ﴾ يعني وتشقون بيوتاً من الجبال وقيل كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء وهذا يدل على أنهم كانوا متمتعين مترهفين ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ أي فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ قال قتادة : معناه ولا تسيروا في الأرض مفسدين فيها والعثو أشد الفساد وقيل أراد به عقر الناقة وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهي عن جميع أنواع الفساد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ ذكر صالح قومه بما ذكر به هود قومه فذكر أولاً نعماً خاصة وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم وذكر هود لقومه ما اختصوا به من زيادة البسطة في الخلق وذكر صالح لقومه ما اختصوا به من اتخاذ القصور من السهول ونحت الجبال بيوتاً ثم ذكرا نعماً عامة بقولهما ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ ومعنى ﴿ وبوّأكم في الأرض ﴾ أنزلكم بها وأسكنكم إياها والمباءة المنزل في الأرض وهو من باء أي رجع وتقدم ذكره و﴿ الأرض ﴾ فلا موضع ما بين الحجاز والشام و﴿ تتخذون ﴾ حال أو تفسير لقوله ﴿ وبوّأكم في الأرض ﴾ فلا موضع له من الإعراب والظاهر أن بعض السهول اتخذوه قصوراً أي بنوا فيه قصوراً وأنشؤوها فيه ولم يستوعبوا جميع سهولها بالقصور وقال الزمخشري : ﴿ من سهولها قصوراً ﴾ أي يبنونها من سهولة الأرض بما يعملون منها الرهض واللبن والآجر يعني أن القصور التي بنوها أجزاؤها متخذة من لين الأرض كالجيار والآجر والجصّ كقوله ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم

عجلاً ﴾ يعني أنّ الصورة كانت مادّتها من الحلي كما أن القصور مادتها من سهول الأرض والأجزاء التي صنعت منها وظاهر الاتخاذ هنا العمل فيتعدّى ﴿ تتخذون ﴾ إلى مفعول واحد ، وقيل : يتعدى إلى اثنين والمجرور هو الثاني ، وقرأ الحسن ﴿ وتنحَتون ﴾ بفتح الحاء ، وزاد الزمخشري : أنه قرأ وتنحاتون بإشباع الفتحة قال كقوله :

ينباع من دفري أسيل حرّه . . .

انتهى .

(54/276)

وقرأ ابن مصرف بالياء من أسفل وكسر الحاء وقرأ أبو مالك بالباء من أسفل وفتح الحاء ومن نقرأ بالياء فهو التفات وانتصب ﴿ بيوتاً ﴾ على أنها حال مقدّرة إذ لم تكن الجبال وقت النحت بيوتاً كقولك إبرِ لي هذه اليراعة قلماً وخَّط لي هذا قباء ، وقيل : مفعول ثانٍ على تضمين ﴿ وتنحتون ﴾ معنى و ﴿ تتخذون ﴾ ، وقيل : مفعول بتنحتون و ﴿ الجبال ﴾ نصب على إسقاط من أي من الجبال ، وقرأ الأعمش ﴿ تعثوا ﴾ بكسر التاء لقولهم أنت تعلم وهي لغة و ﴿ مفسدين ﴾ حال مؤكدة ، قال ابن عباس : القصور لمصيفهم والبيوت في الجبال لمشتاهم ، وقيل : نحتوا الجبال لطول أعمارهم كانت القصور

تخرب قبل موتهم ، قال وهب : كان الرجل يبني البنيان فتمرّ عليه مائة سنة فيخرب ثم يجدده فتمر عليه مائة سنة فيخرب ثم يجدده فتمر عليه مائة سنة فيخرب فأضجرهم ذلك فاتخذوا الجبال بيوتاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(55/276)

وقال أبو السعود :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾

أي خلفاءَ في الأرض أو خلَفاً لهم كما مر ﴿ وبوأكم في الأرض ﴾ أي جعل لكم مَباءةً ومنزلاً في أرض الحِجْر بين الحجازِ والشام ﴿ تتخذون من سهولها قصوراً ﴾ استئنافٌ مبينٌ لكيفية التبوئةِ أي تبنون في سهولها قصوراً رفيعةً أو تبنون من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرِهْص واللِبن والآجُرّ ﴿ وتنحِتون الجبال ﴾ أي الصخورَ وقرىء تنحَتون بفتح الحاء وتنحاتون بإشباع الفتحة كما في قوله :

ينباعُ من ذِفْرَى أسيلٍ حرّةٍ . . . والنحتُ نَحْرُ الشيءِ الصُّلب ، فانتصابُ الجبالِ على المفعولية وانتصابُ قوله تعالى : ﴿ بيوتاً ﴾ على أنها حالٌ مقدرةٌ منها كما تقول : خِطْتُ هذا الثوبَ قميصاً ، وقيل : انتصابُ الجبالِ على إسقاط الجار أي من الجبال وانتصابُ

بيوتاً على المفعولية ، وقد جوّز أن يُضمَّن النحتُ معنى الاتخاذِ فانتصابُهما على المفعولية ، وقيل : كانوا يسكُنون السهولَ في الصيف والجبالَ في الشتاء ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ التي أنعم بها عليكم مما ذكر أو جميعَ آلائِه التي هذه من جملتها ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ فإن حقَّ آلائِه تعالى أن تُشكَرَ ولا تُهملَ ولا يُغْفلَ عنها فكيف بالكفر والعِثيِّ في الأرض بالفساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(56/276)

وقال الآلوسى :

﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾

أي خلفاء في الأرض أو خلفاء لهم قيل : ولم يقل : خلفاء عاد مع أنه أخصر إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿ وَبَوَّأَكُمْ ﴾ أي أنزلكم وجعل لكم مباءة ﴿ فِى الأرض ﴾ أي أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ أي تبنون في سهولها مساكن رفيعة .

فمن بمعنى في كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا نُودِىَ للصلاة ﴾ [الجمعة : 9] ويجوز أن تكون ابتدائية أو تبعيضية أي تعملون القصور من مادة مأخوذة من السهل كاللبن

والآجر المتخذين من الطين .

والجار والمجرور على ما قال أبو البقاء يجوز أن يتعلق بمحذوف وقع حالاً مما بعده .

وأن يكون مفعولاً ثانياً لتتخذون .

وأن يكون متعلقاً به وهو متعد لواحد .

والسهل خلاف الحزن وهو موضع الحجارة والجبال .

والجملة استئناف مبين لكيفية التبوئة فإن هذا الاتخاذ بأقداره سبحانه .

﴿ وَتَنْحِتُونَ الجبال ﴾ أي تنجرونها ، والنحت معروف في كل صلب ومضارعه مكسور الحاء .

وقرأ الحسن بالفتح لحرف الحلق ، وفي "القاموس" عنه أنه "قرأ ﴿ تنحاتون ﴾ " بالإشباع كينباع ، وانتصاب ﴿ مِنْهُ الجبال ﴾ على المفعولية ، وقوله سبحانه : ﴿ بُيُوتًا ﴾ نصب على أنه حال مقدرة منها لأنها لم تكن حال النحت بيوتاً كخطت الثوب جبة ، والحالية كما قال الشهاب باعتبار أنها بمعنى مسكونة إن قيل بالاشتقاق فيها ، وقيل : انتصاب ﴿ الجبال ﴾ بنزع الخافض أي من الجبال ، ويرجحه أنه وقع في آية أخرى كذلك ، ونصب ﴿ بُيُوتًا ﴾ على المفعولية ، وجوز أن يضمن النحت معنى الاتخاذ فانتصابهما على المفعولية .

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم اتخذوا القصور في السهول ليصيفوا فيها

ونحتوا من الجبال بيوتاً ليشتوا فيها ، وقيل : إنهم نحتوا الجبال بيوتاً لطول أعمارهم وكانت الأبنية تبلى قبل أن تبلى أعمارهم .

(57/276)

﴿ فاذكروا ءالآء الله ﴾ أي نعمه التي أنعم بها عليكم مما ذكر أو جميع نعمه ويدخل فيها ما ذكر دخولاً أولياً ، وليس المراد مجرد الذكر باللسان كما علمت .

﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ فإن حق آلائه تعالى أن تشكر ولا يغفل عنها فكيف بالكفر ، والعثي الإفساد فمفسدين حال مؤكدة كما في ﴿ وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ [الروم : 25] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(58/276)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

يجوز أن يكون عطفاً على قوله : ﴿ اعبدوا الله ﴾ [الأعراف : 73] وأن يكون عطفاً

على قوله : ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ﴾ [الأعراف : 73] إلخ .

والقول فيه كالقول في قوله : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [الأعراف : 69] .

﴿ وبوأكم ﴾ معناه أنزلكم ، مشتق من البَوْء وهو الرّجوع ، لأنّ المرء يرجع إلى منزله ومسكنه ، وتقدّم في سورة آل عمران (121) ، ﴿ تُبَوّىءُ المؤمنين مَقاعد للقتال ﴾

وقوله : ﴿ في الأرض ﴾ يجوز أن يكون تعريفُ الأرض للعهد ، أي في أرضكم هذه ، وهي أرض الحِجر ، ويجوز أن يكون للجنس لأنّه لما بوأهم في أرض معيّنة فقد بَوّأهم في جانب من جوانب الأرض .

و"السّهول" جمع سهل ، وهو المستوي من الأرض ، وضدّه الجبل .

والقصور : جمع قصر وهو المسكن ، وهذا يدلّ على أنّهم كانوا يشيّدون القصور ، وآثارُهم تنطق بذلك .

و(مِنْ) في قوله : ﴿ من سهولها ﴾ للظرفيّة ، أي : تتّخذون في سهولها قصوراً .

والنّحت : بَرْي الحَجَر والخَشَب بآلة على تقدير مخصوص .

والجبال : جمع جبل وهو الأرض النّاتئة على غيرها مرتفعة ، والجبال : ضدّ السّهول .

والبيوت : جمع بيت وهو المكان المحدّد المتّخذ للسكنى ، سواء كان مبنياً من حجر أم كان من أثواب شعرٍ أو صوفٍ .

وفعل النّحت يتعلّق بالجبال لأنّ النّحت يتعلّق بحجارة الجبال ، وانتصب ﴿ بيوتاً ﴾ على الحال من الجبال ، أي صائرة بعد النّحت بيوتاً ، كما يقال : خِطْ هذا الثّوب قميصاً ، وابْرِ هذه القصبة قَلماً ، لأنّ الجبل لا يكون حاله حال البيوت وقت النّحت ، ولكن يصير بيوتاً بعد النّحت .

(59/276)

ومحلّ الامتنان هو أن جعل منازلهم قسمين : قسم صالح للبناء فيه ، وقسم صالح لنحت البيوت ، قيل : كانوا يسكنون في الصّيف القصور ، وفي الشّتاء البيوتَ المنحوتة في الجبال .

وتفريع الأمر بذِكْر آلاءِ الله على قوله : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ تفريع الأعم على الأخصّ ، لأنّه أمَرهم بذكر نعمتين ، ثمّ أمرهم بذكر جميع النّعم التي لا يحصونها ، فكان هذا بمنزلة التّذييل .

وفعل : ﴿ اذكروا ﴾ مشتقّ من المصدر ، الذي هو بضمّ الذّال ، وهو التذَكَّر بالعقل والنّظر النّفساني ، وتذكّر الآلاء يبعث على الشّكر والطّاعة وترك الفساد ، فلذلك عطف نهيهم عن الفساد في الأرض على الأمر بذكر آلاء الله .

﴿ ولا تعثوا ﴾ معناه ولا تفسدوا ، يقال : عَثِيَ كَرَضِي ، وهذا الأفصح ، ولذلك جاء

في الآية بفتح الثّاء حين أسند إلى واو الجماعة ، ويقال عَثا يعثو من باب سَما عثواً وهي لغة دون الأولى ، وقال كراع ، كأنّه مقلوب عاث .

والعَثْيُ والعَثْو كلّه بمعنى أفسد أشدّ الإفساد .

ومفسدين حال مؤكّدة لمعنى ﴿ تعثوا ﴾ وهو وإن كان أعمّ من المؤكَّد فإنّ التّأكيد يحصل ببعض معنى المؤكَّد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(60/276)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾

ومن قبل قال الحق لقبيلة عاد : ﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ . . . ﴾ [الأعراف : 69]

وهنا قال الحق : ﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾ .

لأن عاداً هم الخلفاء الأقرباء منهم ، وقصتهم مازالت معروفة ومعالمها واضحة ، أما قصة نوح فهي بالتأكيد أقدم قليلاً من قصة عاد .

ويذكرهم الحق أيضاً أنه جعل في الأرض منازل يسكنونها ، فاتخذوا من سهولها قصوراً ، والسهل هو المكان المنبسط الذي لا توجد به تلال أو صخور أو جبال ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، وكان عمر الإنسان منهم يطول لدرجة أن البيت ينهدم مرتين في العمر الواحد للإنسان . ولذلك قرروا أن يتخذوا من الجبال بيوتاً لتظل آمنة ، وحين يرى الإنسان مدائن صالح منحوتة في الجبل فهي فرصة لأن يتأمل عظمة الحق في تنبيه الخلق إلى ما يفيدهم وهي بالفعل من نعم الله ، ويقول سبحانه : ﴿ . . . فاذكروا آلآءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : 74]

وآلاء الله – كما عرفنا – هي نعمه التي لا تحصى ، وينبههم إلى عدم نشر الفساد في الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(61/276)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض ﴾ بوَّأه : أنزله منزلاً ، والمباءَةُ المنزل ، وتقدَّمت هذه المادة في " آل عمران " ، وهو يتعدى لاثنين ، فالثَّاني محذوف أي : بوَّأكم منازل .

و" فِي الأَرْضِ " متعلّق بالفِعْلِ ، وذكرت ليبنى عليها ما يأتي بعدها من قوله : " تَتَّخِذُونَ " .

قوله : " تَتَّخِذُونَ " يجوز أن تكون المُتَعدية لواحد فيكون من سهولها متعلقاً بالاتخاذ ، أو بمحذوف على أَنَّهُ حال من قصوراً إذ هو في الأصل صِفَةٌ لها لو تَأَخَّر ، بمعنى أنَّ مادة القُصُور من سهل الأرض كالطّين واللّبن والآجر كقوله : ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ [الأعراف : 148] [أي مادته من الحلي] .

وقيل : " مِنْ " بمعنى " في " .

وفي التَّفسير أَنَّهُم كانوا يسكنون في القُصُورِ صَيْفاً ، وفي الجبال شِتَاء ، وأن تكون المتعدية لاثنين ثانيهما " مِنْ سُهُولِهَا " والسهلُ من الأرض ما لان وسهل الانتفاع به ضد الحزن ، والسهولة : التّيسير .

قوله : " قُصُوراً " [والقصور هو جمع قصر] وهو البيت المُنِيفُ ، سُمِّي بذلك لقصور النَّاس عن الارتقاء إليه ، أو لأن عامة النَّاس يقصرون عن بناء مثله بخلاف خواصهم ، أو لأَنَّهُ يقتصر به على بقعة من الأرض ، بخلاف بيوت الشّعر والعُمُد ، فإنَّهَا لا يقتصر بها على بقعة مخصوصة لارتحال أهلها ؛ أو لأَنَّه يقصر من فيه أي : يحبسه ، ومنه : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾ [الرحمن : 72] .

قوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتاً ﴾ يجُوزُ أن يكون نصب " الجِبَالَ " على إسْقَاطِ الخافض أي : من الجبال ، كقوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] ، فتكون "

بُيُوتاً " مفعوله .

ويجوز أن يُضَمَّن " تَنْحِتُونَ " معنى ما يتعدَّى لاثنين أي وتتخذون الجبال بُيُوتاً بالنحت أو تصيرونَها .

[بيوتاً بالنَّحت .

ويجوز أن تكون " الجبَالَ " هو المفعول به و" بُيُوتاً " حال مقدرة كقولك : خِطْ هذا الثَّوب جبة [وابْرِ هذه القصبة قلماً ؛ وذلك لأن الجبال لا تكون بيتاً في حال النحت ، ولا الثوب ولا القصبة قميصاً وقلما في حالة الخياطة والبري] ، أي : مُقَدّراً له كذلك] و" بُيُوتاً " وإن لم تكن مشتقة فإنَّهَا في معناه أي : مسكونة .

وقرأ الحسنُ : " تَنْحَتُون " بفتح الحاء .

وزاد الزَّمَخْشَرِيُّ أنه قرأ " تنحاتُونَ " بإشباع الفتحة [ألفاً] ، وأنشد : [الكامل]

2503 - يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ . . . . . .

وقرأ يحيى بن مصرف وأبو مالكٍ بالياء من أسفل على الالتفات إلا أن أبا مالك فتح الحاء كقراءة الحسنِ .

والنَّحتُ : النَّجر في شيء صُلب كالحجر والخشبِ .

قال : [البسيط]

2504 - أمَّا النَّهَارُ فَفِي قَيْدٍ وسِلْسلَةٍ . . .

واللَّيْلُ فِي بَطْنِ مَنْحُوتٍ مِن السَّاجِ

قوله : ﴿ فاذكروا آلآءَ الله ﴾ أي نعم الله عليكم .

﴿ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ قرأ الأعمش بكسر حرف المضارعة وقد تقدم أن ذلك لغة .

و " مُفْسِدِيْنَ " حال مؤكدة إذ معناها مفهوم من عَامِلِهَا .

و " فِي الأَرْضِ " متعلق بالفعل قبله أو بـ " مفسدين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 194.196 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) ﴾

أزاح علتهم في بسط الدلالة ، ووسع عليهم حالتهم بتمكينهم من العطايا على ما دعت إليه حالتُهم . . فلا الدليلَ تأمَّلُوه ، والسبيل لازموه ، ولا النعمة عرفوا قدرها ، ولا المِنَّة قدَّموا

شكرها ، فصادفهم من البلاء ما أدرك أشكالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 547 ﴾

(63/276)

قوله تعالى ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حصل الالتفات إلى جوابهم ، قيل : ﴿ قال الملأ ﴾ أي الأشراف ، وبينه بقول : ﴿ الذين استكبروا ﴾ أي أوقعوا الكبر واتصفوا به فصار لهم خلقاً فلم يؤمنوا ؛ ونبه على التأسية بقوله : ﴿ من قومه ﴾ ولما قال : ﴿ للذين استضعفوا ﴾ كان ربما فهم أنهم آمنوا كلهم ، فنفى ذلك بقوله مبدلاً منه : ﴿ لمن آمن منهم ﴾ أي المستضعفين ، فهو أوقع في النفس وأروع للجنان من البيان في أول وهلة مع الإشارة إلى أن أتباع الحق هم الضعفاء ، وأنه لم يؤمن إلا بعضهم ، ففيه إيماء إلى أن الضعف أجلّ النعم لملازمته لطرح النفس المؤدي إلى الإذعان للحق ، وبناؤه للمفعول دليل على أنهم في غاية الضعف بحيث يستضعفهم كل

أحد ﴿ أتعلمون ﴾ أي بدؤوهم بالإنكار صداً لهم عن الإيمان ﴿ أن صالحاً ﴾ سموه باسمه جفاء وغلظة وإرهاباً للمسؤولين ليجيبوهم بما يرضيهم ﴿ مرسل من ربه ﴾ وكأنهم قالوه ليعلموا حالهم فيبنوا عليه ما يفعلونه ، لأن المستكبيرين لا يتم لهم كبرهم إلا بطاعة المستضعفين .

ولما عملوا ذلك منهم ، أعملوهم بالمنابذة اعتماداً على الكبير المتعال الذي يضمحل كل كبر عنده ولا يعد لأحد أمر مع أمره بأن ﴿ قالوا ﴾ منبهين لهم على غلظتهم وغلطهم في توسمهم في حالهم معبرين بما دل على العلم بذلك والإذعان له ﴿ إنا بما أرسل به ﴾ وبني للمفعول إشارة إلى تعميم التصديق وإلى أن كونه من عند الله أمر مقطوع به لا يحتاج إلى تعيين ﴿ مؤمنون ﴾ أي غريقون في الإيمان به ، ولذلك ﴿ قال الذين استكبروا ﴾ أي في جوابهم معبرين بما يدل على المخالفة لهم والمعاندة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 58 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنا ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين تمتلىء القلوب من هيبتهم ، ومعنى الآية قال الملأ وهم الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، يريد المساكين الذين آمنوا به ، وقوله : ﴿ لمن آمن منهم ﴾ بدل من قوله : ﴿ للذين استضعفوا ﴾ لأنهم المؤمنون .

واعلم أنه وصف أولئك الكفار بكونهم مستكبرين ، ووصف أولئك المؤمنين بكونهم مستضعفين ، وكونهم مستكبرين فعل استوجبوا به الذم ، وكون المؤمنين مستضعفين معناه : أن غيرهم يستضعفهم ويستحقرهم ، وهذا ليس فعلاً صادراً عنهم بل عن غيرهم ، فهو لا يكون صفة ذم في حقهم ، بل الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم ويستضعفونهم .

ثم حكى تعالى أن هؤلاء المستكبرين سألوا المستضعفين عن حال صالح فقال المتضعفون نحن موقنون مصدقون بما جاء به صالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 134 ﴾

(64/276)

وقال السمرقندى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾

قرأ ابن عامر وقَالَ الْمَلأُ بالواو .

وقرأ الباقون بغير واو أي قال الملأ الذين تكبروا عن الإيمان من قومه وهم القادة للذين استضعفوا ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ بصالح ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يعني : أتصدقون صالحاً بأنه مرسل من ربه إليكم ﴿ قَالُوا ﴾ يعني : المؤمنين ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ

مُؤْمِنُونَ ﴾ أي : مصدقون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ ﴾

يعني الأشراف والقادة الذين تعظّموا عن الإيمان بصالح عليه السلام ﴿ لِلَّذِينَ استضعفوا ﴾ يعني الأتباع ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قالوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(65/276)

وقال ابن عطية :

تقدم القول في ﴿ الملأ ﴾ ، وقرأ ابن عامر وحده في هذا الموضع " وقال الملأ " بواو عطف وهي محذوفة عند الجميع ، و ﴿ الذين استكبروا ﴾ هم الأشراف والعظماء الكفرة ، و ﴿ استكبروا ﴾ يحتمل أن يكون معناه طلبوا هيئة لنفوسهم من الكبر ، أو يكون بمعنى كبروا كبرهم المال والجاه وأعظمهم فيكون على هذا كبر و " استكبر " بمعنى كعجب واستعجب ، والأول هو باب استفعل كاستوقد واسترفد ، والذين استضعفوا هم العامة والأغفال في الدنيا وهم أتباع الرسل ، وقولهم ﴿ أتعلمون ﴾ استفهام على معنى

الاستهزاء والاستخفاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ﴾

قرأ ابن عامر : ﴿ وقال الملأ ﴾ بزيادة واو ؛ وكذلك هي في مصاحفهم ، ومعنى الآية : تكبَّروا عن عبادة الله ، ﴿ للذين استضعفوا ﴾ يريد : المساكين .

﴿ لمن آمن منهم ﴾ بدل من قوله "للذين استضعفوا" لأنهم المؤمنون .

﴿ أتعلمون أن صالحاً مرسل ﴾ هذا استفهام إنكار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(66/276)

وقال أبو حيان :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنّ صالحاً مرسل من ربّه ﴾

قرأ ابن عامر ﴿ وقال الملأ ﴾ بواو عطف والجمهور قال بغير واو و ﴿ الذين استكبروا ﴾ وصف للملأ إما للتخصيص الأنّ من أشرافهم من آمن مثل جندع بن عمرو وإما للذم

و﴿ استكبروا ﴾ وطلبوا الهيبة لأنفسهم وهو من الكبر فيكون استفعل للطلب وهو بابها أو تكون استفعل بمعنى فعل أي كبروا لكثرة المال والجاه فيكون مثل عجب واستعجب والذين ﴿ استضعفوا ﴾ أي استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم وهم العامة وهم أتباع الرّسل و﴿ لمن ﴾ بدل من الذين استضعفوا والضمير في ﴿ منهم ﴾ إن عاد على المستضعفين كان بدل بعض من كلّ ويكون الذين استضعفوا قسمين مؤمنين وكافرين وإن عاد على ﴿ قومه ﴾ كان بدل كل من كلّ وكان الاستضعاف مقصوراً على المؤمنين وكان الذين استضعفوا قسماً واحداً ومن آمن مفسراً للمستضعفين من قومه واللام في ﴿ للذين ﴾ للتبليغ والجملة المقولة استفهام على جهة الاستهزاء والاستخفاف وفي قولهم ﴿ من ربه ﴾ اختصاص بصالح ولم يقولوا من ربنا ولا من ربكم .

﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ جواب للمستضعفين وعدولهم عن قولهم هو مرسل إلى قولهم ﴿ إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ في غاية الحسن إذ أمر رسالته معلوم واضح مسلم لا يدخله ريب لما أتى به من هذا المعجز الخارق العظيم فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته ولا أن يستفهم عن العلم بإرساله فأخبروا بأنهم مؤمنون بما أرسل به لأنه لا يلزم بعد وضوح رسالته إلاّ التصديق بما جاء به وتضمن كلامهم العلم بأنه مرسل من الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ﴾

أي عتَوْا وتكبروا ، استئنافٌ كما سلف وقرىء بالواو عطفاً على ما قبله من قوله تعالى : ﴿ يا قوم ﴾ الخ ، واللامُ في قوله تعالى : ﴿ للذين استضعفوا ﴾ للتبليغ وقوله تعالى : ﴿ لمن آمن منهم ﴾ بدلٌ من الموصول بإعادة العاملِ بدلَ الكلِّ إن كان ضميرُ منهم لقومه ، وبدلَ البعضِ إن كان للذين استُضعفوا على أن مِن المستضعفين مَنْ لم يؤمن ، والأولُ هو الوجهُ ، إذ لا داعيَ إلى توجيه الخطابِ أولاً إلى جميع المستضعفين مع أن المجاوبةَ مع المؤمنين منهم على أن الاستضعافَ مختصٌّ بالمؤمنين ، أي قالوا للمؤمنين الذين استَضْعفوهم واسترذلوهم : ﴿ أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ﴾ وإنما قالوه بطريق الاستهزاءِ بهم ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ عدَلوا عن الجواب الموافِقِ لسؤالهم بأن يقولوا : نعم أو نعلم أنه مرسلٌ منه تعالى مسارعةً إلى تحقيق الحقِّ وإظهارِ ما لهم من الإيمان الثابتِ المستمرِّ الذي تنبىء عنه الجملةُ الاسميةُ وتنبيهاً على أن أمرَ إرسالِه من الظهور بحيث لا ينبغي أن يُسألَ عنه ، وإنما الحقيقُ بالسؤال عنه هو الإيمانُ به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ ﴾

أي الأشراف الذين عتوا وتكبروا ، والجملة استئناف كما مر غير مرة .

وقرأ ابن عامر ﴿ وَقَالَ ﴾ بالواو عطفاً على ما قبله من قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْم ﴾ [الأعراف : 73] الخ ، واللام في قوله سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ استضعفوا ﴾ أي عدوا ضعفاء أذلاء للتبليغ كما في ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ ﴾ [القلم : 28] ، وقوله تعالى : ﴿ لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ ﴾ بدل من الموصول بإعادة العامل بدل الكل من الكل كقولك مررت بزيد بأخيك ، والضمير المجرور راجع إلى قومه .

وجوز أن يكون بدل بعض من كل على أن الضمير للذين استضعفوا فيكون المستضعفون قسمين مؤمنين وكافرين ، ولا يخفى بعده ، والاستفهام في قوله جل شأنه ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحا مُّرْسَلٌ مّن رَّبِّهِ ﴾ للاستهزاء لأنهم يعلمون أنهم عالمون بذلك ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر كما حكى سبحانه عنهم بقوله : ﴿ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فإن الجواب الموافق لسؤالهم نعم أو نعلم أنه مرسل منه تعالى .

ومن هنا قال غير واحد : إنه من الأسلوب الحكيم فكأنهم قالوا : العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون .

واختار في "الانتصاف" أن ذلك "ليس إخباراً عن وجوب الإيمان به بل عن امتثال الواجب فإنه أبلغ من ذلك فكأنهم قالوا : العلم بإرساله وبوجوب الإيمان به لا نسأل عنه وإنما الشأن في امتثال الواجب والعمل به ونحن قد امتثلنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(69/276)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾

عَدَل الملأُ الّذين استكبروا عن مجادلة صالح عليه السّلام إلى اختبار تصلّب الذين آمنوا به في إيمانهم ، ومحاولة إلقاء الشكّ في نفوسهم ، ولما كان خطابهم للمؤمنين مقصوداً به إفساد دعوة صالح عليه السلام كان خطابهم بمنزلة المحاورة مع صالح عليه السّلام ، فلذلك فصلت جملة حكاية قولهم على طريقة فصْل جُمل حكاية المحاورات ، كما قدّمناه غير مرّة آنفاً

وفيما مضى .

وتقدّم تفسير الملأ قريباً .

ووَصْفُهم بالذين استكبروا هنا لتفظيع كبرهم وتعاظمهم على عامة قومهم واستذلالهم إياهم .

وللتّنبيه على أنّ الذين آمنوا بما جاءهم به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه .

واختيار طريق الموصولية في وصفهم ووصفِ الآخرين بالذين استضعفوا لما تُومىء إليه الصّلة من وجه صدور هذا الكلام منهم ، أي أن اسكبارهم هو صارفهم عن طاعة نبيئهم ، وأنّ احتقارهم المؤمنين هو الذي لم يُسغ عندهم سبقَهم إياهم إلى الخير والهدى ، كما حكى عن قوم نوح قولهم : ﴿ وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا باديَ الرأي وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ [هود : 27] وكما حكى عن كفّار قريش بقوله : ﴿ وقال الذين كفروا للّذين آمنوا لو كان خيراً مَا سبقونا إليه وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ [الأحقاف : 11] ، ولهذا لم يوصفوا بالكفر كما وصف به قوم هود .

والذين استُضعفوا هم عامّة النّاس الذين أذلّهم عظماؤهم واستعبدوهم لأنّ زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السّيادة الدّنيوية الخلية عن خلال الفضيلة ، من العَدل والرأفة وحبّ الإصلاح ، فلذلك وصف الملأُ بالّذين استكبروا ، وأطلق على العامة وصف الذين استُضعفوا .

واللاّم في قوله : ﴿ للذين استضعفوا ﴾ لتعدية فعل القول .

وقوله : ﴿ لمن آمن منهم ﴾ بدل من ﴿ للذين استضعفوا ﴾ بإعادة حرف الجرّ الذي جرّ بمثله المبدل منه .

والاستفهام في ﴿ أتعلمون ﴾ للتشكيك والإنكار ، أي : ما نظنّكم آمنتم بصالحٍ عليه السّلام عن علم بصدقه ، ولكنّكم اتَّبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين ، كما قال قوم نوح عليه السّلام : ﴿ وما نَراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ [هود : 27] وفي ذلك شَوب من الاستهزاء .

وقد جيء في جواب ﴿ الذين استضعفوا ﴾ بالجملة الاسميّة للدّلالة على أنّ الإيمان متمكّن منهم بمَزيد الثّبات ، فلم يتركوا للذين استكبروا مطمعاً في تشكيكهم ، بلْه صرفهم عن الإيمان برسولهم .

وأكّد الخبر بحرف (إنّ) لإزالة ما توهّموه من شكّ الذين استكبروا في صحّة إيمانهم ، والعدول في حكاية جواب الذين استضعفوا عن أن يكون بنعم إلى أن يكون بالموصول صلته لأن الصلة تتضمن إدماجاً بتصديقهم بما جاء به صالح من نحو التوحيد وإثبات البعث ،

والدلالة على تمكنهم من الإيمان بذلك كله بما تفيده الجملة الاسمية من الثبات والدوام وهذا من بليغ الإيجاز المناسب لكون نسج هذه الجملة من حكاية القرآن لا من المحكي من كلامهم إذ لا يظن أن كلامهم بلغ من البلاغة هذا المبلغ ، وليس هو من الأسلوب الحكيم كما فهمه بعض المتأخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(71/276)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) ﴾

ونعرف أن هناك سادة ، وهناك أتباعاً . ومن قبل قال الحق : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا . . . ﴾ [البقرة : 166]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها حوار بين السادة وبين المستضعفين الذين لا جاه لهم لا جبروت يُحافظ عليه ، ورأوا دعوة الإيمان ووجدوا فيها النفع لهم فأقبلوا عليها ، أما الملأ وهم السادة الأشراف الأعيان الذين يملأون العين هيبة ، والقلوب مهابة فقد قالوا لمن آمن من المستضعفين – لأن هناك مستضعفين ظلوا على ولائهم للكفر – قال هؤلاء الملأ من

المستكبرين لمن آمن من المستضعفين : ﴿ . . . أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قالوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 75]

وعندما سمع المستكبرون قول المؤمنين من المستضعفين . فماذا قال الملأ المستكبرون ؟

يقول الحق : ﴿ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(72/276)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " قَالَ المَلأُ "

قرأ ابنُ عامرٍ وحدَهُ " وَقَال " بواو عطف نسقاً لهذه الجملة على ما قبلها ، وموافقة لمصاحفِ الشَّام ، فإنها مرسومة فيها ، والباقون بحذفها : إما اكتفاء بالربط المعنوي ، وإمّا لأَنَّهُ جواب لسؤال مقدَّر كما تقدَّم ، وهذا موافقة لمصاحفهم ، وهذا كما تقدَّم في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ ﴾ [الأعراف : 43] إلا أَنَّهُ هو الذي حذف الواو هناك .

قوله : ﴿ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ استضعفوا ﴾ .

السين في " اسْتَكْبَرُوا " و" اسْتُضْعَفُوا " يجوز أن تكون على بابها من الطلب ، أي : طلبوا – أولئك – الكِبْرَ من أنفسهم ومن المؤمنين الضعف .

ويجوز أن يكون " اسْتَفْعَلَ " بمعنى : فعل [كَعَجِبَ] واسْتَعْجَبَ .

واللاَّم في " الذِينَ اسْتَضْعَفُوا " للتبليغ ، ويضعف أن تكون للعلّة ، والمراد بالذين استكبروا الرّؤساء ، وبالذين استضعفوا المساكين .

قوله : ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ بدلٌ من " الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا " بإعادة العامل ، وفيه وجهان : أحدهما : أنَّهُ بدل كلٍّ من كُلٍّ ، إن عاد الضَّمير في " مِنْهُم " على قومه ، ويكون المستضعفون مؤمنين فقط ، كأنَّهُ قيل : قال المستكبرون للمؤمنين من قوم صالح .

(73/276)

والثاني : بدلُ بعض من كلٍّ ، إنْ عاد الضَّميرُ على المستضعفين ، ويكون المستضعفون ضربين : مؤمنين وكافرين ، كأنَّهُ قيل : قال المستكبرون للمؤمنين من الضُّعَفَاءِ دون الكَافِرِينَ من الضُّعفاء .

وقوله : " أَتَعْلَمُونَ " في محل نصب بالقول .

و" مِن رَبِّهِ " متعلق بـ " مُرْسَلٌ " ، و" من " لابتداء الغاية مجازاً ، ويجوز أن تكون صفةً

فتتعلق بمحذوف .

واعلم أنَّ المستكبرين لمَّا سألوا المُسْتَضْعفين عن حال صالح وما جاء بهن فأجاب المُسْتَضْعَفُون بقولهم : إنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ صالح مؤمنون ، أي : مُصَدّقون ، فقال المستكبرون : بل نحن كافرون بما آمنتم به ، أي : بالذي جاء به صالح .

قوله : ﴿ إِنَّا بِمَا آُرْسِلَ بِهِ ﴾ متعلق بـ " مُؤمِنُونَ " قُدِّم للاختصاص والاهتمام وللفاصلة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 197 ﴾

(74/276)

قوله تعالى ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آَمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ قال الذين استكبروا ﴾ أي في جوابهم معبرين بما يدل على المخالفة لهم والمعاندة ﴿ إنا بالذي ﴾ ووضعوا موضع " أرسل به " - رداً لما جعلوه معلوماً وأخذوه مسلماً ﴿ آمنتم به ﴾ أي كائناً ما كان ﴿ كافرون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 58 ﴾

فصل

قال الفخر :

وقال المستكبرون : بل نحن كافرون بما جاء به صالح ، وهذه الآية من أعظم ما يحتج به في بيان أن الفقر خير من الغنى ، وذلك لأن الاستكبار إنما يتولد من كثرة المال والجاه ، والاستضعاف إنما يحصل من قلتهما ، فبين تعالى أن كثرة المال والجاه حملهم على التمرد ، والإباء ، والإنكار ، والكفر وقلة المال والجاه حملهم على الإيمان ، والتصديق والانقياد ، وذلك يدل على أن الفقر خير من الغنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 134 ﴾

(75/276)

وقال أبو حيان :

﴿ قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ فالذي آمنتم به هو من حيث المعنى بما أرسل به لكنه من حيث اللفظ أعمّ قصدوا الردّ لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قال الذين استكبروا ﴾

أعيد الموصولُ مع صلته مع كفاية الضميرِ إيذاناً بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتُوِّ والاستكبار ﴿ إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ وإنما لم يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقالتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(76/276)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ الذين استكبروا ﴾

استئناف كما تقدم ، وأعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير إيذاناً بأنهم قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار ﴿ إِنَّا بالذى ءامَنتُمْ بِهِ كافرون ﴾ عدول عن مقتضى الظاهر أيضاً وهو أنا بما أرسل به كافرون ، وفائدته كما قالوا الرد لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً كأنهم قالوا : ليس ما جعلتموه معلوماً مسلماً من ذلك القبيل ، وقال في "الانتصاف" عدلوا عن ذلك "حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها ، وليس هذا موضع التهكم ليكون كقول فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] فإن الغرض إخبار كل واحد من المؤمنين والمكذبين عن حاله فلذا خلص

الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر وغلواً في الإصرار . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

(77/276)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾

ومراجعة الذين استكبروا بقولهم : ﴿ إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ تدلّ على تصلّبهم في كفرهم وثباتهم فيه ، إذ صيغ كلامهم بالجملة الاسميّة المؤكَّدة .

والموصول في قولهم : ﴿ بالذي آمنتم به ﴾ هو ما أرسل به صالح عليه السّلام .

وهذا كلام جامع لرد ما جَمعه كلام المستضعفين حين ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ فهو من بلاغة القرآن في حكاية كلامهم وليس من بلاغة كلامهم .

ثمّ إنّ تقديم المجرورين في قوله : ﴿ بما أرسل به ﴾ و ﴿ بالذي آمنتم به ﴾ على عامليهما يجوز أن يكون من نظم حكاية كلامهم وليس له معادل في كلامهم المحكي ، وإنّما هو لتتقوّم الفاصلتان ، ويجوز أن يكون من المحكي : بأن يكون في كلامهم ما دلّ على الاهتمام بمدلول الموصولين ، فجاء في نظم الآية مدلولاً عليه بتقديم المعمولين .

وقرأ الجمهور : ﴿ قال الملأ ﴾ بدون عطف جرياً على طريقة أمثاله في حكاية المحاورات .

وقرأه ابن عامر : ﴿ وقال ﴾ بحرف العطف وثبتت الواو في المصحف المبعوث إلى الشام خلافاً لطريقة نظائرها ، وهو عطف على كلام مقدّر دلّ عليه قوله : ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ والتّقدير : فآمن به بعض قومه ، وقال الملأ من قومه إلخ ، أو هو عطف على : ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ [الأعراف : 73] الآية ، ومخالفةُ نظائره تفنّن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آَمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) ﴾

إذن فقد أعلنوا الكفر بالقول وضموا إليه العمل وهو قتل الناقة ، ويقول الحق : ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة وَعَتَوْاْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(78/276)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " قَالَ الذين " " ما " موصولة ، ولا يجوزُ هنا حذف العائد وإن اتحد الجار للموصول وعائده ؛ لاختلاف العامل في الجارين وكذلك قوله : ﴿ بالذي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 197.198 ﴾

(79/276)

قوله تعالى ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم سبب عن قولهم قوله ﴿ فعقروا الناقة ﴾ أي التي جعلها الله لهم آية ، وعبر بالعقر دون النحر لشموله كل سبب لقتلها لأن ابن إسحاق ذكر أنه اجتمع لها ناس منهم فرماها أحدهم بسهم وضرب آخر قوائمها بالسيف ونحرها آخر فأطلق اسم السبب على المسبب ، ولكن قوله تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ [القمر : 29] وقوله ﴿ إذا انبعث أشقاها ﴾ [الشمس : 91] وقوله صلى الله عليه وسلم " انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في قومه " قالوا : هو قدار بن سالف ، جعلت له امرأة من قومه ابنتها إن عقرها ،

ففعل فكان أشقى الأولين ، وأشقى الآخرين عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، جعلت له قطام امرأة من بني عجل جميلة نفسها إن قتله ، فالمناسبة بينهما أن كلاًّ منهما ألقى نفسه في المعصية العظمى لأجل شهوة فرجه في زواج امرأة ، وقوله صلى الله عليه وسلم " أشقى الأولين عاقر الناقة " يدل على أن عاقرها رجل واحد ، وحينئذ يكون المراد به قطع القوائم ، فحيث جمع أراد الحقيقة والمجاز معاً ، وحيث أفراد أراد الحقيقة فقط ، فالتعبير به لأنه الأصل والسبب الأعظم في ذبح الإبل ؛ قال البغوي : قال الأزهري : العقر هو قطع عرقوب البعير ، ثم جعل النحر عقراً لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره – انتهى .

وكأن هذا إشارة إلى أن المراد بالعقر في كلامه النحر ، ولا ريب في أن أصل العقر في اللغة القطع ، ومادته تدور على ذلك ، عقر النخلة .

(80/276)

إذا قطع رأسها فيبست ، والفرس : ضرب قوائمها بالسيف وأكثر ما يستعمل العقر في الفساد ، وأما النحر فيستعمل غالباً في الانتفاع بالمنحور لحماً وجلداً وغيرهما ، فلعل التعبير به دون النحر إشارة إلى أنهم لم يقصدوا بنحرها إلا إهلاكها عتواً على الله وعناداً

وفعلاً للسوء مخالفة لنهي صالح عليه السلام ، ولا يشكل ذلك بما ورد من أنهم اقتسموا لحمها ، لأنه لم يدع أن العقر يلزمه عدم الانتفاع بالمنحور ، وعلى التنزل فهم لم يريدوا بذلك الانتفاع باللحم ، وإنما قصدوا – حيث لم يمكنهم المشاركة جميعاً في العقر – ان يشتركوا فيما نشأ عنه تعريضاً برضاهم به ومشاركتهم فيه بما يمكنهم ﴿ وعتوا ﴾ أي تجاوزوا الحد في الغلطة والتكبر ﴿ عن أمر ﴾ أي امتثال أمر ﴿ ربهم ﴾ أي المحسن إليهم الذي أتاهم على لسان رسوله من تركها ﴿ وقالوا ﴾ زيادة في العتو ﴿ يا صالح ائتنا ﴾ .

ولما نزلوا وعيدهم له – حيث لم يؤمنوا به – منزلة الوعد والبشارة ، قالوا : ﴿ بما تعدنا ﴾ استخفافاً منهم ومبالغة في التكذيب ، كأنهم يقولون : نحن على القطع بأنك لا تقدر أن تأتينا بشيء من ذلك ، وإن كنت صادقاً فافعل ولا تؤخره رفقاً بنا وشفقة علينا ، فإنا لا نتأذى بذلك ، بل نتلذذ من يلقى الوعد الحسن ، وحاصله التهكم منهم به والإشارة إلى عدم قدرته ؛ وأكدوا ذلك بقولهم بأداة الشك : ﴿ إن كنت من المرسلين ﴾ أي الذين سمعنا أخبارهم فيما مضى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 58 . 60 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ فعقروا الناقة ﴾ قال الأزهري : العقر عند العرب ، كشف عرقوب البعير ، ولما كان العقر سبباً للنحر أطلق العقر على النحر إطلاقاً لاسم السبب على المسبب .

واعلم أنه أسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم ، وقد يقال للقبيلة العظيمة : أنتم فعلتم كذا مع أنه ما فعله إلا واحد منهم .

ثم قال : ﴿ وعتوا عن أمر ربهم ﴾ يقال : عتا يعتو عتواً ، إذا استكبر .

ومنه يقال : جبار عات قال مجاهد : العتو الغلو في الباطل وفي قوله : ﴿ عن أمر ربهم ﴾ وجهان :

الأول : معناه استكبروا عن امتثال أمر ربهم وذلك الأمر هو الذي أوصله الله إليهم على لسان صالح عليه السلام وهو قوله : ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ﴾ [الأعراف : 73]

الثاني : أن يكون المعنى وصدر عتوهم عن أمر ربهم ، فكان أمر ربهم بتركها صار سبباً في إقدامهم على ذلك العتو ، كما يقال : الممنوع متبوع ﴿ وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ وإنما قالوا ذلك ، لأنهم كانوا مكذبين له في كل ما أخبر عنه من الوعد والوعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 134 . 135 ﴾

(81/276)

وقال السمرقندى :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾

أي : عصوا وتركوا أمر ربهم وأبوا عن طاعته .

ثم التوحيد ويقال : فيه تقديم .

ومعناه عتَوا عن أمر ربهم وعقروا الناقة .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال إنهم عقروا الناقة ليلة الأربعاء في عشية الثلاثاء فأهلكهم الله في يوم السبت .

﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أي : بما تخوفنا به من العذاب ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يعني : إن كنت رسول رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَعَقَرُواْ الناقة ﴾ نحروها ﴿ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ يعني العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ أي من الصادقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فعقروا ﴾ يقتضي بتشريكهم أجمعين في الضمير أن عقر الناقة كان على تمالؤ منهم وإصفاق وكذلك : روي أن قدارا لم يعقرها حتى كان يستشير الرجال والنساء والصبيان ، فلما أجمعوا تعاطى فعقر ، ﴿ وعتوا ﴾ معناه خشوا وصلبوا ولم يذعنوا للأمر

والشرع وصمموا على تكذيبه واستعجلوا النقمة بقولهم ﴿ ائتنا بما تعدنا ﴾ وحسن الوعد في هذا الموضع لما تقيد بأنه عذاب ، قال أبو حاتم قرأ عيسى وعاصم أُيتنا بهمز وإشباع ضم ، وقرأ تخفيف الهمزة كأنها ياء في اللفظ أبو عمر والأعمش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(82/276)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فعقروا الناقة ﴾

أي : قتلوها .

قال ابن قتيبة : والعقر يكون بمعنى : القتل ، ومنه " قوله عليه السلام عند ذكر الشهداء : "من عقر جواده" " وقال ابن إسحاق : كَمَن لها قاتلها في أصل شجرة فرماها بسهم ، فانتظم به عَضَلَة ساقها ، ثم شد عليها بالسيف فكسر عُرقوبها ، ثم نحرها .

قال الازهري : العقر عند العرب : قطع عرقوب البعير ، ثم جعل العقر نحراً ، لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره .

قوله تعالى : ﴿ وعَتَوا ﴾ قال الزجاج : جاوزوا المقدار في الكفر .

قال أبو سليمان : عتوا عن اتِّباع أمر ربهم .

قوله تعالى : ﴿ بما تعدنا ﴾ أي : من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ

﴾

(83/276)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة ﴾ العَقْر الجرح .

وقيل : قطع عضو يؤثّر في النفس .

وعقرت الفرس : إذا ضربت قوائمه بالسيف .

وخيل عَقْرَى .

وعقرت ظهر الدابة : إذا أدْبَرْته .

قال امرؤ القيس :

تقولُ وقدْ مالَ الغَبيطُ بنا معاً . . .

عَقَرْتَ بِعِيري يا امرأ القيس فانزل

أي جَرَحتَه وأدْبَرتَه .

قال القشيريّ : العقر كشف عُرقوب البعير ؛ ثم قيل للنحر عَقر ؛ لأن العقر سبب النحر في الغالب .

وقد اختلف في عاقر الناقة على أقوال .

أصحّها ما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن زَمْعَة قال : " خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : "إذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عَارِم مَنِيع في رَهْطِه مثل أبي زَمْعَة" " وذكر الحديث .

وقيل في اسمه : قُدار بن سالف .

وقيل : إن ملكهم كان إلى امرأة يقال لها ملكى ، فحسدت صالحاً لمّا مال إليه الناس ، وقالت لامرأتين كان لهما خليلان يعشقانِهما : لا تطيعاهما واسألاهما عقر الناقة ؛ ففعلتا .

وخرج الرجلان وألجآ الناقة إلى مَضِيق ورماها أحدهما بسهم وقتلاها .

وجاء السَّقْبُ وهو ولدها إلى الصخرة التي خرجت الناقة منها فَرَغَا ثلاثاً وانفجرت الصخرة فدخل فيها .

ويقال : إنه الدّابة التي تخرج في آخر الزمان على الناس ؛ على ما يأتي بيانه في "النمل" .

وقال ابن إسحاق : أتْبع السّقْبَ أربعةُ نفر ممن كان عقر الناقة ، مِصْدَع وأخوه ذُؤَاب .

فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه ، ثم جرّه برجله فألحقه بأمّه ، وأكلوه معها .

والأوّل أصح ؛ فإن صالحاً قال لهم : إنه بَقِي من عمركم ثلاثة أيام ، ولهذا رَغَا ثلاثاً .

وقيل : عقرها عاقرها ومعه ثمانية رجال ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ وَكَانَ فِي المدينة تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ [النمل : 48] على ما يأتي بيانه في "النمل" .

وهو معنى قوله ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : 29] .

(84/276)

وكانوا يشربون فأعوزهم الماء ليمزجوا شرابهم ، وكان يوم لبن الناقة ، فقام أحدهم وترصد الناس وقال : لأريحَنّ الناس منها ؛ فعقرها .

قوله تعالى : ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي استكبروا .

عَتَا يَعْتُو عُتُوًّا أي استكبر .

وتَعَتَّى فلان إذا لم يُطِع .

والليل العاتِي : الشديد الظلمة ؛ عن الخليل .

﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ أي من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ فعقروا الناقة ﴾

يعني فعقرت ثمود الناقة والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقراً لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره ﴿ وعتوا عن أمر ربهم ﴾ أي تكبروا عن أمر ربهم وعصوه والعتو والغلوّ في الباطل والتكبر عن الحق والمعنى أنهم عصوا الله وتركوا أمره في الناقة وكذبوا نبيهم صالحاً عليه الصلاة والسلام ﴿ وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ﴾ يعني من العذاب ﴿ إن كنت من المرسلين ﴾ يعني : إن كنت كما تزعم أنك رسول الله فإن الله تعالى ينصر رسله على أعدائه وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا مكذبين في كل ما أخبرهم به من العذاب فعجل الله لهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(85/276)

وقال أبو حيان :

﴿ فعقروا النّاقة ﴾

نسب العقر إلى الجميع وإن كان صادراً عن بعضهم لما كان عقرها عن تمالىء واتفاق حتى روي أنّ قداراً لم يعقرها إلا عن مشاورة الرّجال والنساء والصبيان فأجمعوا على ذلك وسبب عقرها أنها كانت إذا وقع الحر نصبت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه وإذا وقع البرد تلبث ببطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشقّ ذلك عليهم وكانت

تستوفي ماءهم شرباً ويحلبونها ما شاء الله حتى ملوها وقالوا ما نصنع باللبن الماء أحبّ إلينا منه وقال لهم صالح يوماً إنّ هذا الشهر يولد فيه مولود يكون هلاككم على يديه فولد لعشرة نفر فذبح التّسعة أولادهم وبقي العاشر وهو سالف بن قدار وكان قدار أحمر أزرق قصيراً ولذلك قال بعض شعراء الجاهلية :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم . . .

كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

(86/276)

قال الشّراح غلط وإنما هو أحمر ثمود وهو قدار وكان يشبّ في اليوم شباب غيره في السّنة وكان التسعة إذا رأوه قالوا : لو عاش بنونا كانوا مثل هذا فأحفظهم أن قتلوا أولادهم بكلام صالح فأجمعوا على قتله فكمنوا له في غار ليبيتوه ، ويأتي خبر التبييت وما جرى لهم في سورة النمل إن شاء الله ، وروي أنّ السبب في عقرها أن امرأتين من ثمود من أعداء صالح وهما عنيزة بنت غنم أم مجلز زوجة ذؤاب بن عمرو وتكنّى أم غنم عجوز ذات بنات حسان ومال من إبل وبقر وغنم وصدوف بنت المحيّا جميلة غنية ذات مواش كثيرة فدعت عنيزة على عقرها قداراً على أن تعطيه أيّ بناتها شاء وكان عزيزاً منيعاً في قومه ودعت

صدوف رجلاً من ثمود يقال له الحباب إلى ذلك وعرضت نفسها عليه إن فعل فأبى فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحيا لذلك وجعلت له نفسها فأجاب قدار ومصدع واستغويا سبعة نفر فكانوا تسعة رهط فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وكمن قدار في أصل صخرة ومصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم عنيزة بابنتها وكانت من أحسن النساء فسفرت لقدار ثم مرت الناقة به فشدّ عليها بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة فطعن في لبّتها ونحرها وخرج أهل البلدة فاقتسموا لحمها وطبخوه وذكروا لسبقها حكاية الله أعلم بصحتها ، وقيل سبب عقرها أنّ قداراً شرب الخمر وطلبوا ماء لمزجها فلم يجدوه لشرب الناقة فعزموا على عقرها وكمن لها فرماها بالحربة ثم سقطت فعقرها ، وقال بعض شعراء العرب وقد ذكر قصة الناقة :

فأتاها أحيمر كأخي السه . . .

م بعضب فقال كوني عقيرا

(87/276)

﴿ وعتوا عن أمر ربهم ﴾ أي استكبروا عن امتثال أمر ربهم وهو ما أمر به تعالى على لسان صالح من قوله ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ﴾ ولا تمسّوها بسوء ومن اتباع أمر الله وهو دينه وشرعه ويجوز أن يكون المعنى صدر عتوهم عن أمر ربهم كأنّ أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوّهم ونحو عن هذه ما في قوله ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾

﴿ وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ أي من العذاب لأنه كان سبق منه ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم فاستعجلوا ما وعدهم به من ذلك إذ كانوا مكذبين له في الإخبار بذلك الوعيد وبغيره ولذلك علقوه بما هم به كافرون وهو كونه من المرسلين ، وقرأ ورش والأعمش ﴿ يا صالح ائتنا ﴾ وأبو عمرو إذا أدرج بإبدال همزة فاء ﴿ ائتنا ﴾ واو الضمة جاء صالح ، وقرأ باقي السبعة بإسكانها وفي كتاب ابن عطية قال أبو حاتم : قرأ عيسى وعاصم أوتنا بهمز وإشباع ضمّ انتهى ، فلعله عاصم الجحدري لا عاصم بن أبي النجود أحد قراء السبعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فعقروا الناقة ﴾

أي نحروها ، أُسند العقرُ إلى الكل مع أن المباشِرَ بعضُهم للملابسة أن لأن ذلك لما كان برضاهم فكأنه فَعَلَه كلُّهم ، وفيه من تهويل الأمرِ وتفظيعِه بحيث أصابت غائلتُه الكلَّ ما لا يخفى ﴿ وعتوا عن أمر ربهم ﴾ أي استكبروا عن امتثاله وهو ما بلّغهم صالح عليه السلام

من الأمر والنهي .

﴿ وقالوا ﴾ مخاطِبين له عليه السلام بطريق التعجيزِ والإفحامِ على زعمهم ﴿ يا صالح ائتنا بما تعدنا ﴾ أي من العذاب ، والإطلاقُ للعلم به قطعاً ﴿ إن كنت من المرسلين ﴾ فإن كونَك من جملتهم يستدعي صدقَ ما تقول من الوعد والوعيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(88/276)

وقال الآلوسى :

﴿ فَعَقَرُواْ الناقة ﴾ أي نحروها .

قال الأزهري : "أصل العقر عند العرب قطع عرقوب البعير ثم استعمل في النحر لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره" ؛ وإسناده إلى الكل مع أن المباشر البعض مجاز لملابسة الكل لذلك الفعل لكونه بين أظهرهم وهم متفقون على الضلال والكفر أو لرضا الكل به أو لأمرهم كلهم به كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْاْ صاحبهم فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : 29] ، وقيل : إن العقر مجاز لغوي عن الرضا بالنسبة إلى غير فاعله وليس بشيء .

﴿ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي استكبروا عن امتثاله وهو ما بلغهم صالح عليه السلام من

الأمر السابق فالأمر واحد الأوامر ، وجوز أن يكون واحد الأمور أي استكبروا عن شأن الله تعالى ودينه وهو بعيد .

وأوجب بعضهم على الأول أن يضمن ﴿ عَتَوْاْ ﴾ معنى التولي أي تولوا عن امتثال أمره عاتين أو معنى الإصدار أي صدر عتوهم عن أمر ربهم وبسببه لأنه تعالى لما أمرهم بقوله : ﴿ فَذَرُوهَا ﴾ [الأعراف : 73] الخ ابتلاهم فما امتثلوا فصاروا عاتين بسببه ولولا الأمر ما ترتب العقر والداعي للتأويل بتولوا أو صدر أن عتا لا يتعدى بعن فتعديته به لذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ [الكهف : 82] وبعضهم لا يقول بالتضمين بناءً على أن عتا بمعنى استكبر كما في "القاموس" وهو يتعدى بعن فافهم .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والإفحام على زعمهم الفاسد ﴿ وَقَالُواْ يا صاح ائتنا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب وأطلق للعلم به ﴿ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ فإن كونك منهم يقتضي صدق ما تقول من الوعد والوعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ ﴾ أي : نحروها ، والعقر : الجرح ، وأثر كالخز في قوائم الفرس والإبل يقال : عقره بالسيف يعقره بالكسر ، وعقره تعقيراً ، قطع قوائمه بالسيف وهو قائم .

قال الأزهري : العقر عند العرب كشف عرقوب البعير ، ثم يجعل النحر عقراً ، لأن ناحر الإبل يعقرها : ثم ينحرها .

وفي اللسان : عقر الناقة وعقرها ، وإذا فعل بها ذلك حتى تسقط ، فينحرها مستمكناً منها ، أي : لئلا تشرد عند النحر .

وفي الحديث : < لا عقر في الإسلام > .

قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى ، أي :

ينحرونها ويقولون إن

صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته ، فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته . كذا في " تاج العروس " .

وأسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشره إلا بعضهم . ويقال للقبيلة الضخمة : أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم . كذا في " الكشاف " .

قال أبو السعود : وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه ، بحيث أصابت غائلته الكل ما لا يخفى .

﴿ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : استكبروا عن امتثاله ، وهو عبادته وحده ، أو الحذر من

مس الناقة بسوء . وزادوا في الإستهزاء : ﴿ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أي : من العذاب على عقر الناقة . والأمر للإستعجال لأنهم يعتقدون أنه لا يتأتى ذلك ، ولذا قالوا : ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : فإن الله ينصر رسله على أعدائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 128.129 ﴾

(90/276)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

الفاء للتّعقيبِ لِحكاية قول الذين استكبروا : ﴿ إنّا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ [الأعراف : 76] ، أي قالوا ذلك فعقروا ، والتّعقيب في كلّ شيء بحسبه ، وذلك أنّهم حينَ قالوا ذلك كانوا قد صدعوا بالتّكذيب ، وصمّموا عليه ، وعجزوا عن المحاجة والاستدلال ، فعزموا على المصير إلى النّكاية والإغاظة لصالح عليه السّلام ومن آمنَ به ، ورسموا لابتداء عملهم أن يعتدوا على النّاقة التي جعلها صالح عليه السّلام لهم ، وأقامها بينَه وبينهم علامة موادعة ما داموا غير متعرّضين لها بسوء ، ومقصدهم من نيّتهم إهلاك النّاقة أن يزيلوا آية صالح

عليه السّلام لئلا يزيد عدد المؤمِنين به ، لأنّ مشاهدة آية نبوءته سالمة بينهم تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه والاستئناس لذلك بسكوت كبرائهم وتقريرهم لها على مرعاها وشِربها ، ولأنّ في اعتدائهم عليها إيذاناً منهم بتحفزهم للإضرار بصالح عليه السّلام وبمن آمن به بعدَ ذلك وليُرُوا صالحاً عليه السّلام أنّهم مستخفّون بوعيده إذ قال لهم : ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ [الأعراف : 73] .

والضّمير في قوله : ﴿ فعقروا ﴾ عائد إلى ﴿ الذين استكبروا ﴾ [الأعراف : 75] ، وقد أسند العقر إليهم وإن كان فاعله واحداً منهم لأنّه كان عن تمالىء ورضى من جميع الكبراء ، كما دلّ عليه قوله تعالى في سورة القمر (29) : ﴿ فَنادَوْا صاحبَهم فتعاطى فعَقر ﴾ وهذا كقول النّابغة في شأن بني حُنّ:

وهم قتلوا الطاءيّ بالجوّ عنوة . . .

وإنَّما قتله واحد منهم

وذُكر في الأثر : أنّ الذي تولّى عقر النّاقة رجل من سادتهم اسمه (قُدار) بضم القاف ودال مهملة مخففة وراء في آخره ابن سالف .

(91/276)

وفي حديث البخاري أنّ النبي ذكر في خطبته الذي عقر الناقة فقال : انبعثَ لها رجل عزيز عَارِم منيعٌ في رهطه مثل أبي زمْعة .

والعَقْر : حقيقته الجرح البليغ ، قال امرؤ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بِنَا معا . . .

عَقَرْتَ بعيري يا امرأ القيس فانزل

أي جرحتَه باحتكاك الغبيط في ظهره من مَيله إلى جهةٍ ، ويطلق العقر على قطع عضو الحيوان ، ومنه قولهم ، عَقَرَ حمارَ وحش ، أي ضربه بالرّمح فقطع منه عضواً ، وكانوا يعقرون البعير المرادَ نحرُه بقطع عضوٍ منه حتّى لا يستطيع الهروب عند النّحر ، فلذلك أطلق العقر عن النّحر على وجه الكناية قال امرؤ القيس:

ويَومَ عَقَرْتُ للعذارَى مطيَّتي . . .

وما في هذه الآية كذلك .

والعُتوّ تجاوز الحد في الكِبْر ، وتعديته بـ (مَن) لتضمينه معنى الإعراض .

وأمرُ ربّهم هو ما أمرهم به على لسان صالح عليه السّلام من قوله : ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ [الأعراف : 73] فعُبّر عن النّهي بالأمر لأنّ النّهي عن الشّيء مقصود منه الأمر بفعل ضدّه ، ولذلك يقول علماء الأصول إنّ النّهي عن الشّيء يستلزم الأمرَ بضدّه الذي يحصل به تحقّق الكفّ عن المنهي عنه .

وأرادوا : ﴿ بما تعدنا ﴾ العذاب الذي توعّدهم به مجملاً .

وجيء بالموصول للدّلالة على أنّهم لا يخشون شيئاً ممّا يريده من الوعيد المجمل .

فالمراد بما تتوعدنا به وصيغت صلة الموصول من مادة الوعد لأنه أخف من مادة الوعد .

وقد فرضوا كونَه من المرسلين بحرف (إنْ) الدّال على الشكّ في حصول الشّرط ، أي إن كنتَ من الرّسل عن الله فالمراد بالمرسلين من صَدق عليهم هذا اللّقب .

وهؤلاء لجهلهم بحقيقة تصرّف الله تعالى وحكمته ، يحسبون أنّ تصرّفات الله كتصرّفات الخلق ، فإذا أرسل رسولاً ولم يصدّقْه المرسَل إليهم غَضِب الله واندَفع إلى إنزال العقاب إليهم ، ولا يعلمون أنّ الله يُمهل الظّالمين ثمّ يأخذهم متى شاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(92/276)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) ﴾

والعقر : هو الذبح بالنسبة للنوق .

وهم هنا يقولون أيضاً مثلما قال السابقون لهم : ﴿ . . . ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ [الأعراف : 77]

و" الصادقين " تؤول أيضاً إلى المرسلين . لقد اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب كنبي مرسل لهم برغم حدوث الآية الواضحة وهي خروج الناقة من الجبل ، لذلك يحل عليهم غضب الله في قوله الحق : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ . . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(93/276)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَعَقَرُوا النَّاقَةَ " أصل العَقْرِ : كَشْفُ العَرَاقِيبِ في الإبل ، وهو أن يضرب قَوَائمَ البَعِيرِ أو النَّاقَةِ فتقع ، وكانت هذه سنتهم في الذَّبْحِ .

قال امرؤ القيس : [الطويل]

2505 - وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي . . .

فَيَا عَجَباً مِنْ رَحْلِهَا المُتَحَمَّلِ

ثم أطلق على كل نَحْرٍ " عَقْرٌ " ، وإن لم يكن فيه كشف عراقيب تسمية للشَّيء بما يلازمه غالباً ، إطلاقاً للمسبّب على مسبّبه هذا قول الازهري .

وقال ابن قتيبة : " العَقْرُ : القتل كيف كان ، عَقَرْتُها فهي معقورة " .

وقيل : العقر : الجرح .

وعليه قول امرئ القيس : [الطويل]

2506 - تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الغَبِيطُ بِنَا معاً . . .

عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا امْرَأَ القَيْسِ فانْزِلِ

يريد : جَرَحْتَهُ بثقلك وتمايلك ، والعَقْر والعُقر بالتفح ، والضمّ [الأصل] ، ومنه عَقَرْتُه أي : أصبتُ عقره يعني أصله كقولهم : كَبَدْتُه ورَأَسْتُه أي : أصبت كَبِدَهُ ورأسه ، وعَقَرْتُ النخل : قطعته من أصله ، والكَلْبُ العقور منه ، والمرأة عَاقِرٌ ، وقد عُقِرَت .

والعقر بالضَّمِّ آخر الولد وآخر بيضة يقال : عُقر البيض .

(94/276)

والعَقار بالفتح : الملك من الأبنية ، ومنهُ " ما غُزِيَ قومٌ في عُقْرِ دارِهِم إلاَّ ذُلُّوا " ، وبعضهم يخصه بالنَّخل .

والعُقارُ بالضمّ : الخمر ؛ لأنَّها كالعَاقِرَة للعقل ، ورفع عَقِيْرَتَهُ أي : صَوْتَهُ ، وأصله أن رجلاً عَقَر رجْلَه فرفع صوته فاستعير لكلِّ صائحٍ ، والعُقر بالضمّ : المَهْرُ .

وأضاف العقر إليهم مع أنَّه ما كان باشره إلا بعضهم ؛ لأنَّهُ كان برضاهم .

قوله : " وَعَتَوْا " العُتُوُّ ، والعُتِيُّ : النُّبُوُّ أي : الارتفاع عن الطَّاعة يقال منه : عَتَا يَعْتُوا عُتْوّاً وعُتِيّاً بقلب الواوين ياءين ، والأحسن فيه إذا كان مصدراً تصحيح الواوين كقوله : ﴿ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 21] وإذا كان جمعاً الإعلالُ نحو : قوم عُتِيٌّ ، لأنَّ الجمع أثقلُ ، قياسُه الإعلال تخفيفاً .

وقوله : ﴿ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ [مريم : 66] محتمل للوجهين قوله : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ [مريم : 8] أي : حالة تتعذر مداواتي فيها كقوله : [الكامل]

2507 - . . . . . .

وَمِنَ العَنَاءِ رِيَاضَةُ الهَرِمِ

وقيل : العاتي : الجاسي أي اليَابِسُ .

ويقال : عَثَا يَعْثُوا عُثُوّاً بالثاء المثلثة من مادة أخرى ؛ لأنَّهُ يقال : عَثِي يَعْثَى عِثِيّاً وعثا يَعْثُوا عُثُواً ، [فهو في إحْدَى لغتيه يشاركه " عَتَا " بالمثناة وزناً ومعنى ، ويقاربه في حروفه .

والعيث أيضاً - بتقديم الياء من أسْفَل] على الثاي المثلثة - هو الفساد ، فيحتمل أن يكون أصلاً ، وأن يكون مقلوباً فيه .

وبعضهم يجعل العَيْث الفساد المدرك حِسّاً ، والعِثيّ في المدرك حكماً ، وقد تقدّم طرفٌ من هذا .

ومعنى الآية : استكبورا عن امتثال امر ربّهم وكذّبوا بنبيهم .

(95/276)

قوله : ﴿ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائتنا ﴾ يجوزُ لك على رواية من يسهّل الهمزة وهو وَرْشٌ والسوسي أن تقلب الهمزة واواً ، فتلفظ بصورة "يَا صالح وُتنا " في الوصل خاصة تُبْدل الهمزة بحركة ما قبلها ، وإن كانت منفصلة من كلمة أخْرَى .

وقرأ عاصمْ وعيسى بْنُ عُمَرَ " أُوْتِنَا " بهمزة وإشباع ضم ولعله عاصم الجحدريّ لا عاصم بن أبي النجود ، وهذه القراءة لا تبعد عن الغلطِ ؛ لأن همزة الوصل في هذا النحو مكسورة فمن أين جاءت ضمة الهمزة إلاَّ على التوهُّم ؟

قوله : " بِمَا تَعِدُنَا " العائِدُ محذوف أي : " تَعِدُناه " ولا يجوز أن تقدر " تَعِدُنا " متعدياً إليه بالباء ، وإنْ كان الأصْلُ تعديته إليه بها ، لئلا يلزم حذف العائد المجرور بحرف من غير اتّحاد متعلقهما لأن " بِمَا " متعلِّقٌ بـ " الإتيان " ، و " به " متعلق بـ " الوعد " ثم قالوا ﴿ إِن

كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ وإنما قالوا ذلك ؛ لأَنَّهم كانوا مكذبين في كل ما أخبر عنه من الوَعْدِ والوَعِيدِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 199 ﴾

(96/276)

قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم سبب عن عتوهم قوله : ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ أي التي كانت عنها أو منها الصيحة ، أخذ من هو في القبضة على غاية من الصغار والحقارة ، ولعل توحيد الدار هنا مع الرجفة في قصة صالح وشعيب عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾ أي مساكنهم ، وجمعها في القصتين مع الصيحة ، في سورة هود عليه السلام للإشارة إلى عظم الزلزلة والصيحة في الموضعين ، وذلك لأن الزلزلة إذا كانت في شيء واحد كانت أمكن ، فتكون في المقصود من النكال أعظم ، والصيحة من شأنها الانتشار ، فإذا عمت الأماكن المتنائية والديار المتباعدة فأهلكت أهلها ومزقت جماعتها وفرقت شملها ، كانت من القوة المفرطة والشدة البالغة بحيث تنزعج من تأمل وصفها النفوس وتجب له القلوب ، وحاصله

أنه حيث عبر بالرجفة وحد الدار إشارة إلى شدة العذاب بعظم الاضطراب ، وحيث عبر بالصيحة جمع إيماء إلى عموم الموت بشدة الصوت ، ولا مخالفة لأن عذابهم كان بكل منها ، ولعل إحداهما كانت سبباً للأخرى ، ولعل المراد بالرجفة اضطراب القلوب اضطراباً قطعياً ، أو أن الدار رجفت فرجفت القلوب وهو أقرب ، وخصت الأعراف بما ذكر فيها ، لأن مقصودها إنذار المعرضين ، والرجفة أعظم قرعاً لعدم الإلف لها – والله اعلم

(97/276)

﴿ جاثمين ﴾ أي باركين على ركبهم لازمين أماكنهم لا حراك بأحد منهم ، ولم يبق منهم في تلك الساعة أحد إلا رجل واحد كان في الحرم ، فلما خرج منه أصابه ما أصاب قومه وهو أبو رغال ، ومسافة الحرم عن أرضهم تزيد على مسيرة عشرة أيام ، ومن الآيات العظيمة أن ذلك الذي خلع قلوبهم وأزال أرواحهم لم يؤثر في صالح عليه السلام والمستضعفين معه شيئاً ، وذلك مثل الريح التي زلزلت الأحزاب ، وأنالتهم أشد العذاب ، ورمتهم بالحجارة والتراب حتى هزمتهم وما نال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها كبير أذى ، وكفها الله عن حذيفة ، وكذا البرد الذي كان ذلك زمانه لما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم ليتعرف له

أخبارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 60 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ قال الفراء والزجاج : هي الزلزلة الشديدة .

قال تعالى : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ [المزمل : 14]

قال الليث : يقال رجف الشيء يرجف رجفاً ورجفانا ، كرجفان البعير تحت الرحل ، وكما يرجف الشجر إذا أرجفته الريح .

ثم قال : ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ يعني في بلدهم ولذلك وحد الدار ، كما يقال : دار الحرب ومررت بدار البزازين ، وجمع في آية أخرى فقال : ﴿ في ديارهم ﴾ [هود : 94] لأنه أراد بالدار ما لكل واحد منهم من منزله الخاص به .

(98/276)

وقوله : ﴿ جاثمين ﴾ قال أبو عبيدة : الجثوم للناس والطير ، بمنزلة البروك للإبل ، فجثوم الطير هو وقوعه لاطئاً بالأرض في حال سكونه بالليل ، والمعنى : أنهم أصبحوا جاثمين خامدين لا يتحركون موتى ، يقال : الناس جثم أي قعود لا حراك بهم ولا يحسون بشيء ،

ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها ، وهي البهيمة التي تربط لترمى ، فثبت أن الجثوم عبارة عن السكون والخمود ، ثم اختلفوا ، فمنهم من قال : لما سمعوا الصيحة العظيمة تقطعت قلوبهم وماتوا جاثمين على الركب ، وقيل بل سقطوا على وجوههم ، وقيل وصلت الصاعقة إليهم فاحترقوا وصاروا كالرماد .

وقيل : بل عند نزول العذاب عليهم سقط بعضهم على بعض ، والكل متقارب .

وههنا سؤالات :

السؤال الأول : أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ قال تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ والفاء للتعقيب وهذا يدل على أن الرجفة أخذتهم عقيب ما ذكروا ذلك الكلام وليس الأمر كذلك ، لأنه تعالى قال في آية أخرى : ﴿ فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ [هود : 65] .

والجواب : أن الذي يحصل عقيب الشيء بمدة قليلة قد يقال فيه إنه حصل عقيبه فزال السؤال .

السؤال الثاني : طعن قوم من الملحدين في هذه الآيات بأن ألفاظ القرآن قد اختلفت في حكاية هذه الواقعة ، وهي الرجفة والطاغية والصيحة ، وزعموا أن ذلك يوجب التناقض .

والجواب : قال أبو مسلم : الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده سواء كان حيواناً أو غير

حيوان وألحق الهاء به للمبالغة ، فالمسلمون يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت .

وقال تعالى : ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] ويقال : طغى طغياناً وهو طاغ وطاغية .

(99/276)

وقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ [الشمس : 11] وقال في غير الحيوان : ﴿ إنا لما طغا الماء ﴾ [الحاقة : 11] أي غلب وتجاوز عن الحد ، وأما الرجفة ، فهي الزلزلة في الأرض ، وهي حركة خارجة عن المعتاد ، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها ، وأما الصيحة ، فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة وأما الصاعقة ، فالغالب أنها الزلزلة وكذلك الزجرة قال تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : 13 ، 14] فبطل ما قاله الطاعن .

السؤال الثالث : أن القوم قد شاهدوا خروج الناقة عن الصخرة وذلك معجزة قاهرة تقرب حال المكلفين عند مشاهدة هذه المعجزة من الإلجاء ، وأيضاً شاهدوا أن الماء الذي كان شرباً لكل أولئك الأقوام في أحد اليومين ، كان شرباً لتلك الناقة الواحدة في اليوم الثاني ، وذلك أيضاً معجزة قاهرة ، ثم إن القوم لما نحروها ، وكان صالح عليه السلام قد توعدهم

بالعذاب الشديد إن نحروها ، فلما شاهدوا بعد إقدامهم على نحرها آثار العذاب ، وهو ما يروى أنهم احمروا في اليوم الأول ، ثم اصفروا في اليوم الثاني ، ثم اسودوا في اليوم الثالث ، فمع مشاهدة تلك المعجزات القاهرة في أول الأمر ، ثم شاهدوا نزول العذاب الشديد في آخر الأمر ، هل يحتمل أن يبقى العاقل مع هذه الأحوال مصراً على كفره غير تائب منه ؟ والجواب الأول أن يقال : إنهم قبل أن شاهدوا تلك العلامات كانوا يكذبون صالحاً في نزول العذاب ، فلما شاهدوا العلامات خرجوا عند ذلك عن حد التكليف ، وخرجوا عن أن تكون توبتهم مقبولة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 135.136 ﴾

(100/276)

وقال السمرقندى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾

أي : الزلزلة ويقال : صيحة جبريل كما قال في آية أُخرى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 83] ويقال : أخذتهم الزلزلة ثم أخذتهم الصيحة .

ويقال : النار ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي : صاروا في مدينتهم ومنازلهم ميتين

، لا يتحركون وأصله من الجثوم .

ويقال : أصابهم العذاب بكرةً يوم الأحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(101/276)

وقال الثعلبى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾

يعني الصيحة والزلزلة وأصلها الحركة مع الصوت . قال الله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ [النازعات : 6] .

قال الشاعر :

وظلّت جمال القوم بالقوم ترجفُ . . . ولمّا رأيت الحج قد آن وقته

وقال الأخطل :

كبر كالنسر أرجف الإنسان مهدود فيه . . . أما تريني [حناتي] الشيب من

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ أي في أرضهم وبلدتهم ولذلك وحد الدار . وقيل : أراد به الديار فوحد كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر : 2] ومعنى ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ جامدين [مبتلين] صرعى هلكوا ، وأصل الجاثمّ البارك على الركبة .

قال جرير :

مطايا القدر كالحدأ الجثوم . . . عرفت المنتأى وعرفت منها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(102/276)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾

فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها حركة الأرض تضطرب من تحتهم .

والثاني : أنها الصيحة ، قاله مجاهد ، والسدي .

والثالث : أنها زلزلة أهلكوا بها ، قاله ابن عباس .

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِم جَاثِمِينَ ﴾ قال محمد بن مروان السدي : كل ما في القرآن من ﴿ دَارِهِمْ ﴾ فالمراد به مدينتهم ، وكل ما فيه من ﴿ دِيَارِهِم ﴾ فالمراد به مساكنهم ، وفي الجاثم قولان :

أحدهما : أنه البارك على ركبتيه لأنهم أصبحوا موتى على هذه الحال .

والثاني : معناه أنهم أصبحوا كالرماد الجاثم لأن الصاعقة أحرقتهم .

وقيل : إنه كان بعد العصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(103/276)

وقال ابن عطية :

﴿ الرجفة ﴾ ما تؤثره الصيحة أو الطامة التي يرجف بها الإنسان وهو أن يتزعزع ويتحرك ويضطرب ويرتعد . ومنه قول خديجة فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، ومنه قول الأخطل : [البسيط] :

أما تريني حناني الشيب من كبر . . . كالنسر أرجف والإنسان ممدود

ومنه " إرجاف " النفوس لكريه الأخبار أي تحريكها ، وروي أن صيحة ثمود كان فيها من صوت كل شيء هائل الصوت ، وكانت مفرطة شقت قلوبهم فجثوا على صدورهم والجاثم اللاطىء بالأرض على صدره مع قبض ساقيه كما يرقد الأرنب والطير ، فإن جثومها على وجهها ، ومنه قول جرير : [الوافرُ] .

عرفت المنتأى وعرفت منها . . . مطايا القدر كالحدأ الجثوم

وقال بعض المفسرين معناه حمماً محترقين كالرماد الجاثم .

قال القاضي أبو محمد : وحيث وجد الرماد الجاثم في شعر فإنما هو مستعار لهيئة الرماد قبل همود ه وتفرقه ، وذهب صاحب هذا القول إلى أن الصيحة اقترن بها صواعق محرقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(104/276)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾

قال الزجاج : الرجفة : الزلزلة الشديدة .

قوله تعالى : ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾ أي : في مدينتهم .

فإن قيل : كيف وحَّد الدار هاهنا ، وجمعها في موضع آخر ، فقال : ﴿ في ديارهم ﴾ [هود : 67] ؟ فعنه جوابان ، ذكرهما ابن الأَنباري .

أحدهما : أنه أراد بالدار : المعسكر ، أي : فأصبحوا في معسكرهم .

وأراد بقوله : في ديارهم : المنازل التي ينفرد كل واحد منها بمنزل .

والثاني : أنه أراد بالدار : الديار ، فاكتفى بالواحد من الجميع ، كقول الشاعر :

كُلُوا فِي نِصْفِ بِطْنِكُم تَعِيشُوا . . .

وشواهد هذا كثيرة في هذا الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ جاثمين ﴾ قال الفراء : أصبحوا رماداً جاثما .

وقال أبو عبيدة : أي : بعضهم على بعض جثُوم .

والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للإبل .

وقال ابن قتيبة : الجثوم : البروك على الرُّكَب .

وقال غيره : كأنهم أصبحوا موتى على هذه الحال .

وقال الزجاج : أصبحوا أجساماً ملقاة في الأرض كالرماد الجاثم .

قال المفسرون : معنى "جاثمين" : بعضهم على بعض ، أي : إنهم سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(105/276)

وقال القرطبى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ أي الزلزلة الشديدة .

وقيل : كانت صيحة شديدة خَلعت قلوبَهم ؛ كما في قصة ثمود في سورة "هود" في قصة ثمود فأخذتهم الصيحة .

يقال : رَجَف الشيء يرْجُف رَجْفاً ورَجَفَاناً .

وأرجفت الريحُ الشجرَ حرّكته .

وأصله حركة مع صوت ؛ ومنه قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ [النازعات : 6]

قال الشاعر :

ولما رأيت الحج قد آنَ وَقتُه . . .

وظلت مطايا القوم بالقوم تَرْجُفُ

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ أي بلدهم .

وقيل : وُحِّد على طريق الجنس ، والمعنى : في دورهم .

وقال في موضع آخر : ﴿ فِي دِيَارِهِمْ ﴾ [هود : 67 و94] أي في منازلهم .

﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أي لاصقين بالأرض على رُكَبهم ووجوههم ؛ كما يجْثُم الطائر .

أي صاروا خامدين من شدّة العذاب .

وأصل الجُثُوم للأرنب وشبهها ، والموضع مَجْثَم .

قال زهير :

بها العِينُ والآرَامُ يَمْشِين خِلْفَة . . .

وأطلاؤها يَنْهَضْن مِن كل مَجْثِمَ

وقيل : احترقوا بالصاعقة فأصبحوا مَيِّتين ، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله ؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(106/276)

وقال الخازن :

﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾

قال الفراء والزجاج : الرجفة الزلزلة الشديدة العظيمة ، وقال مجاهد والسدي : هي الصيحة فيحتمل أنهم أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم حتى هلكوا وهو قوله تعالى ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ يعني فأصبحوا في أرضهم وبلدهم جاثمين ولذلك وحد الدار كما يقال دار الحرب أي بلد الحرب ودار بني فلان بمعنى موضعهم ومجمعهم وجمع في آية أخرى ، فقال في ديارهم لأنه أراد ما لكل واحد منهم من الديار والمساكن وقوله جاثمين يعني باركين على الركب والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير وجثوم الطير هو وقوعه لاطئاً بالأرض في حال نومه وسكونه بالليل والمعنى أنهم أصبحوا جاثمين على وجوههم موتى لا يتحركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(107/276)

وقال أبو حيان :

﴿ فأخذتهم الرّجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾

روي أن السّقب لما عقروا الناقة رغا ثلاثاً فقال صالح لكلّ رغوة أجل يوم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام فقالوا هازئين به متى ذلك وما آية ذلك فقال تصبحون غداة مؤنس مصفرة وجوهكم وغداة العروبة محمريها ويوم شيار مسوديها ثم يصبحكم العذاب يوم أول يوم وهو يوم الأحد فرام التسعة عاقرو الناقة قتله وبيتوه فدمغتهم الملائكة بالحجارة فقالوا له أنت قتلتهم وهمّوا بقتله فحمته عشيرته وقالوا : وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاث فإن صدق لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً وإن كذّب فأنتم من وراء ما تريدون فأصبحوا يوم الخميس مصفرّي الوجوه كأنها طليت بالخلوق فطلبوه ليقتلوه فهرب إلى بطن من ثمود يقال له بنو غنم فنزل على سيدهم أبي هدب لقيل وهو مشرك فغيبه ولم يقدروا عليه فعذّبوا أصحاب صالح فقال : منهم مبدع بن هدم يا نبي الله عذّبونا لندلّهم عليك أفندلّهم قال : نعم فدلّهم عليه فأتوا أبا هدب فقال لهم : عندي صالح ولا سبيل لكم عليه فأعرضوا عنه وشغلهم ما نزل بهم فأصبحوا في الثاني محمّري الوجوه كأنها خضبت بالدّم وفي الثالث مسوديها كأنها طليت بالقار وليلة الأحد خرج صالح ومن أسلم معه إلى أن نزل رملة فلسطين من الشام فأصبحوا متكفنين متحنطين ملقين أنفسهم بالأرض يقلبون أبصارهم لا

يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى أخذتهم صيحة من السماء فيها صوت كلّ صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فقطعت قلوبهم وهلكوا كلهم إلا امرأة مقعدة كافرة اسمها دريعة بنت سلف عندما عاينت العذاب خرجت أسرع ما يرى حتى أتت وادي القرى فأخبرت بما أصاب ثمود واستسقت فشربت وماتت ، وقيل : خرج صالح ومن معه من قومه وهم أربعة آلاف إلى حضرموت فلما دخلوها مات صالح فسمي المكان حضرموت ، وقيل مات بمكة ابن ثمان وخمسين سنة وأقام في قومه عشرين سنة .

(108/276)

قال مجاهد والسدّي : ﴿ الرّجفة ﴾ الصيحة ، وقال أبو مسلم : الزلزلة الشديدة ، قال الزمخشري : ﴿ جاثمين ﴾ هامدين لا يتحركون موتى يقال : الناس جثوم أي قعود لا حراك بهم ولا ينسبون بنسبة ومنه الجثمة التي جاء النهي عنها وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمى انتهى ، وقيل : معناه حمماً محترقين كالرّماد الجاثم ذهب هذا القائل إلى أنّ الصيحة اقترن بها صواعق محرقة ، قال الكرماني : حيث ذكر الرّجفة وهي الزلزلة وحدّ الدار وحيث ذكر الصيحة جمع لأن الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فاتصل كل واحد منهما بما هو لائق به ، وقيل في دارهم أي في بلدهم كنى بالدار عن البلد ،

وقيل : وحدّ والمراد به الجنس والفاء في ﴿ فأخذتهم ﴾ للتعقيب فيمكن العطف بها على قولهم ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ على تقدير قرب زمان الهلاك من زمان طلب الإتيان بالوعد ولقرب ذلك كان العطف بالفاء ويمكن أن يقدر ما يصحّ العطف بالفاء عليه أي فواعدهم العذاب بعد ثلاث فانقضت ﴿ فأخذتهم الرّجفة ﴾ ولا منافاة بين ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ وبين ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ وبين ﴿ فأهلكوا بالطّاغية ﴾ كما ظنّ قوم من الملاحدة لأنّ الرجفة ناشئة عن الصّيحة صيح بهم فرجفوا فناسب أن يسند الأخذ لكل واحد منهما وأما فأهلكوا بالطاغية فالباء فيه للسببية أي أهلكوا بالفعلة الطاغية وهي الكفر أو عقر الناقة والطاغية من طغى إذا تجاوز الحدّ وغلب ومنه تسمية الملك والعاتي بالطاغية وقوله

﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ وقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ أي بسبب طغيانها حصل تكذيبهم ويمكن أن يراد بالطاغية الرّجفة أو الصّيحة لتجاوز كل منهما الحدّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(109/276)

وقال أبو السعود :

﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾

أي الزلزلةُ لكن لا إثرَ ما قالوا بعد ما جرى عليهم من مبادىء العذابِ في الأيام الثلاثةِ حسبما مر تفصيلُه ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾ أي صاروا في أرضهم وبلدِهم أو في مساكنهم ﴿ جاثمين ﴾ خامدين موتى لا حَراكَ بهم ، وأصلُ الجثومِ البروكُ ، يقال : الناسُ جثومٌ أي قعود لا حَراك بهم ولا ينبِسون نبْسةً ، قال أبو عبيدة : الجثومُ للناس والطير ، والبروكُ للإبل ، والمرادُ كونُهم كذلك عند ابتداءِ نزولِ العذابِ بهم من غير اضطرابٍ ولا حركةٍ كما يكون عند الموت المعتاد ، ولا يخفى ما فيه من شدة الأخذِ وسرعةِ البطش . اللهم إنا بك نعوذ من نزول سخطِك وحُلولِ غضبك . وجاثمين خبرٌ لأصبحوا والظرفُ متعلقٌ به ، ولا مساغ لكونه خبراً وجاثمين حالاً لإفضائه إلى كون الإخبارِ بكونهم في دارهم مقصوداً بالذات وكونِهم جاثمين قيداً تابعاً له غيرَ مقصودٍ بالذات . قيل : حيث ذُكرت الرجفةُ وُحّدت الدارُ ، وحيث ذُكرت الصيحةُ جُمعت لأن الصيحةَ كانت من السماء فبلوغُها أكثرُ وأبلغُ من الزلزلة فقُرن كلٌّ منهما بما هو أليقُ به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(110/276)

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾

قال الفراء والزجاج : أي الزلزلة الشديدة .

وقال مجاهد والسدي : هي الصيحة ، وجمع بين القولين بأنه يحتمل أنه أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم ، وقال بعضهم : الرجفة خفقان القلب واضطرابه حتى ينقطع ، وجاء في موضع آخر ﴿ الصيحة ﴾ [هود : 76] وفي آخر ﴿ بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5] ولا منافاة بين ذلك كما زعم بعض الملاحدة فإن الصيحة العظيمة الخارقة للعادة حصل منها الرجفة لقلوبهم ولعظمها وخروجها عن الحد المعتاد تسمى الطاغية لأن الطغيان مجاوزة الحد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الماء حملناكم ﴾ [الحاقة : 11] أو يقال : إن الإهلاك بذلك بسبب طغيانهم وهو معنى ﴿ بالطاغية ﴾ وهذا الأخذ ليس أثر ما قالوا ما قالوا بل بعد ما جرى عليهم ما جرى من مبادىء العذاب في الأيام الثلاث كما ستعلمه إن شاء الله تعالى والفاء لا تأبى ذلك .

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين ﴾ هامدين موتى لا حراك بهم ، وأصل الجثوم البروك على الركب .

وقال أبو عبيدة : الجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للإبل فجثوم الطير هو وقوعه لاطئاً

بالأرض في حال سكونه بالليل ، وأصبح يحتمل أن تكون تامة فجاثمين حال وأن تكون ناقصة فجاثمين خبر ، والظرف على التقديرين متعلق به .

وقيل : هو خبر و ﴿ جاثمين ﴾ حال وليس بشيء لإفضائه إلى كونه الإخبار بكونهم في دارهم مقصوداً بالذات ، والمراد من الدار البلد كما في قولك دار الحرب ودار الإسلام وقد جمع (في آية) أخرى [فقال : في ديارهم [هود : 76]] بإرادة منزل كل واحد الخاص به ، وذكر النيسابوري أنه حيث ذكرت الرجفة وحدت الدار وحيث ذكرت الصيحة جمعت لأن الصيحة كانت من السماء كما في غالب الروايات لا من الأرض كما قيل فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فقرن كل منهما بما هو أليق به فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(111/276)

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾

معترضة بين جملة ﴿ فعقروا الناقة ﴾ وبين جملة ﴿ فتولى عنهم ﴾ [الأعراف : 79]

أريد باعتراضها التّعجيلُ بالخبر عن نفاذ الوعيد فيهم بعَقب عتوّهم ، فالتّعقيب عرفي ، أي

لم يكن بين العقر وبين الرجفة زمن طويل ، كان بينهما ثلاثة أيام ، كما ورد في آية سورة هود (65) : ﴿ فعقروها فقال تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ وأصل الأخذ تناول شيءٍ باليد ، ويستعمل مجازاً في مِلك الشيء ، بعلاقة اللّزوم ، ويستعمل أيضاً في القهر كقوله : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ [الأنفال : 52] ، ﴿ فأخذهم أخذة رابية ﴾ [الحاقة : 10] وأخذ الرّجفة : إهلاكُها إياهم وإحاطتها بهم إحاطة الآخِذ .

ولا شكّ أنّ الله نجّى صالحاً عليه السّلام والذين آمنوا معه ، كما في آية سورة هود .

وقد روي أنّه خرج في مائة وعشرة من المؤمنين ، فقيل : نزلوا رملة فلسطين ، وقيل : تباعدوا عن ديار قومهم بحيث يرونها ، فلمّا أخذتهم الرّجفة وهلكوا عاد صالح عليه السّلام ومن آمنَ معه فسكنوا ديارهم ، وقيل : سكنوا مكّة وأنّ صالحاً عليه السّلام دفن بها ، وهذا بعيد كما قلناه في عاد ، ومن أهل الأنساب من يقول : إنّ ثقيفاً من بقايا ثمود ، أي من ذرّية مَن نجا منهم من العذاب ، ولم يذكر القرآن أنّ ثموداً انقطع دابرهم فيجوز أن تكون منهم بقية .

والرّجفة : اضطراب الأرض وارتجاجها ، فتكون من حوادث سماوية كالرّياح العاصفة والصّواعق ، وتكون من أسباب أرضيّة كالزلازل ، فالرّجفة اسم للحالة الحاصلة ، وقد سمّاها في سورة هود بالصّيْحة فعلمنا أنّ الذي أصاب ثمود هو صاعقة أو صواعق متوالية رجفت أرضَهم وأهلكتهم صَعِقين ، ويحتمل أن تقارنها زلازل أرضية .

والدّار : المكان الذي يحتلّه القوم ، وهو يفرد ويجمع باعتبارين ، فلذلك قال في آية سورة هود : ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ .

﴿ فأصبحوا ﴾ هنا بمعنى صاروا .

(112/276)

والجاثم : المُكِب على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثو الأرْنب ، ولمّا كان ذلك أشدّ سكوناً وانقطاعاً عن اضطراب الأعضاء استعمل في الآية كناية عن همود الجثّة بالموت ، ويجوز أن يكون المراد تشبيه حالة وقوعهم على وجوههم حين صعِقوا بحالة الجاثم تفظيعاً لهيئة مِيتتهم ، والمعنى أنّهم أصبحوا جثثا هامدة ميّتة على أبشع منظر لمَيّت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(113/276)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) ﴾

والرجفة هي الهزة التي تحدث رجة في المهزوز . ويسميها القرآن مرة بالطاغية في قوله الحق : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5]

والتي أصبحوا من بعدها " جاثمين " ، وهو التعبير الدقيق الذي يدل على أن الواحد منهم إن كان واقفاً ظل على وقوفه ، وإن كان قاعداً ظل على قعوده ، وإن كان نائماً ظل على نومه . أو كما نقول : " إنسخطوا على هيئاتهم " .

" فالجاثم " هو من لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(114/276)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى فى قصة صالح : "فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين " وكذا فى قصة شعيب فى السورة فيما بعد وفى سورة هود فى القصة المذكورة قبل : "فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام " وقال فى قصة شعيب فى سورة هود أيضا : "وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين " فورد فى هذه الآية الأخيرة تسمية عذابهم

بالصحية وجمعه اسم الدار وفى الآيات قبل "بالرجفة" وإفراد الدار .

فأقول إن وجه اختصاص كل سورة بما خصت به أن اسم الدار لفظ يقع على المنزل الواحد والمسكن المفرد ويقع على مساكن القبيلة والطائفة الكبيرة وإن اتسعت وافترقت وتعددت مساكنها وديارها إذا ضمها إقليم واحد واجتمعت فى حكم أو مذهب ، وإذا تقرر هذا فوجه اختيار لفظ الجمع فى الآية من سورة هود مناسبة ما اقترن به من لفظ الصيحة وهى عبارة هنا عن العذاب مطلقا دون تقييد بصفة وهو من الألفاظ الكلية فإن لم يكن عاما فانتشار مواقعه من حيث الكلية حاصلة .

وأما الرجفة الزلزلة فلهذا اللفظ خصوص وهو جزئى ومن المعلوم بالضرورة انحصار الألفاظ فى الضربين فإن اللغة لا تختلف فى ذلك فالصيحة من حيث الكلية تطلق على ما كان من العذاب بالرجفة وغيرها وإذا عبرنا بالرجفة لم يتناول لفظها إلا ما كان عذابا بها فناسب عموم الصيحة جمع الديار مناسبة تركيب النظم وناسب خصوص الرجفة إفراد الدر .

(115/276)

ثم إن وجه تخصيص سورة هود بما وقع فيها أنه ذكر قبلها من مرتكبات قوم شعيب وسوء ردهم على نبيهم عليه السلام ما لم يرد مثله فى آية سورة الأعراف وتأمل قولهم له : "ما نفقع كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز " ، فتأمل ما فى ردهم هذا من الاستهزاء والإساءة وشنيع المقابلة لجليل وعظه عليه السلام ، لهم ورأفته فى دعائهم إياهم بقوله : "إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط " وقوله : "بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ " وقوله : "أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت " وقوله : "ولا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح " وقوله : "واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود " .

فما أجل تلطف هذا النبى الكريم فى دعائه إياهم وما أشنع ردهم عليه فلهذا ما عبر عن عذابهم وأخذهم هنا بأعم مما ورد فى غير هذه الآية ولما لم يرد فى غيرها مثل هذا فى الدعاء والجواب ناسبه اللفظ الأخص رعيا لإحراز النظم الجليل وعلى تناسبه مع أن لا كبير اختلاف فى المعنى الحاصل عن العبارتين والله أعلم .

وجواب ثان فى اختلاف الوارد فيما أخذ به قوم شعيب وهو أن يكون المراد أخذهم بضروب من العذاب لقبيح مرتكبهم وسوء ردهم على نبيهم فبين ذلك قوله تعالى فى سورة

الشعراء : "فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة" والظلة غيم تحته سموم فهذا ولا غير الرجفة لأنها زلزلة فعلى هذا يكونون قد أخذوا بعذاب الزلزلة وعذاب الصيحة وهو عذاب يصحبه صوت وعذاب الظلة فورد ذلك على التدريج والتناسب بحسب ما ذكر قبل كل من هذا من مرتكباتهم وقد ذكر المفسرون تنوع عذابهم بالرجفة والصيحة والظلة كما امتحن آل فرعون بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 200.202 ﴾

(116/276)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ قال الفراء والزجاج هي الزلزلة الشديدة يُقال رَجَفَتِ الأَرْضُ تَرْجُفُ رَجْفاً وَرَجيفاً ورجفاناً قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ [المزمل : 14] .

وقال اللَّيثُ : الرَّجْفَةُ : الطَّامة التي يتزعزع لها الإنسان ويضطرب .

ومنه قيل للبحر رجَّافٌ لاضطرابه .

وقيل : أصله مِنْ رَجفَ به البعيرُ إذا حركه في سيره ، كما يرجف الشجر إذا رجفه الريح .

قال ابن أبي ربيعة : [الطويل]

2508 - ولَمَّا رَأَيتُ الحَجَّ قَدْ حَانَ وَقْتُهُ . . .

وَظَلَّتْ جِمَالُ الحَيِّ بالقَوْمِ تَرْجُفُ

والإِرْجَافُ إيقاعُ الرَّجْفَةِ ، وجمعه الأَرَاجِيفُ ، ومنه " الأَراجِيفُ ملاقيحُ الفتنِ " .

وقوله : ﴿ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ [النازعات : 6] .

كقوله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 1] .

ومنه [الطويل]

2509 - تُحْيِي العِظَامَ الرَّاجِفَاتِ مِنَ البِلَى . . .

فَلَيْسَ لِدَاءِ الرُّكْبَتَيْنِ طبيبُ

قوله : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [يعني في بلدهم ، كما يقال : دار الحرب ، ودار البزّازين] .

الجثوم : اللُّصوق بالأَرْضِ من جثوم الطَّائر والأَرْنَبِ ، فإِنَّهُ يلصق بطنه بالأَرْضِ ، ومنه رجل جُثَمَةٌ وجثَّامَةٌ كناية عن النَّؤوم والكَسْلان ، وجثمانُ الإنسان شَخْصُه قاعداً وقال أبو عبيد : " الجُثُوم للنَّاس والطير كالبروك للإبل " وأنشد لجرير : [الوافر]

2510 - عَرَفْتُ المُنْتَأى وعَرَفْتُ مِنْهَا . . .

مَطَايَا القِدْرِ كالْحِدَأ الجُثُومِ

قال الكَرْمَانِيّ : حيث ذُكِرَت الرجفة وُحدت الدَّار ، وحيث ذكرت الصيحة جُمِعَت الدار ، لأنَّ الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكبر وأبلغ من الزلزلة ، فذكر كل واحد بالأليق [به] وقيل : في دارهم أي في بلدهم كما تقدَّم ، وقيل : المراد بها الجنس .

فصل في بيان فائدة موضع الفاء في الآية

الفاء في " فأخذتهم " للتَّعقيب ، وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ يقتضي أنَّ الرَّجفة أخذتهم عقيب قولهم : ﴿ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ وليس الأمر كذلك لقوله تعالى في آية أخرى : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : 65]

فالجوابُ : أنَّ أسباب الهلاك وجدت عقيب قولهم : ﴿ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ ، وهو أنَّهم اصفرت وجوههم في اليوم الأوَّل ، واحمرّت في اليوم الثاني : واسودَّت في اليوم الثالث ، فكان ابتداء العذاب متعقباً قولهم .

ويمكن أن تكون عاطفة على الجملة من قوله : " فَأْتِنَا " أيضاً وذلك على تَقْديرِ قرب زمان الهلاك من زمان طلبِ الإتيان .

ويجوز أن يقدر ما يصحُّ العطف عليه بالفاءِ ، والتقديرُ : فوعدهم العذاب بعد ثلاث فانقضت فأخذتهم .

قوله : " فَأَصْبَحُوا " يجوز أن تكون النَّاقصة و " جَاثِمينَ " خبرها و " في دَارِهِم " متعلّق به ،

ولا يجوز أن يكونَ الجارُّ خبراً و" جَاثِمِين " حال ، لعدم الفائدة بقولك : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ، وإن جاز الوجهان في قولك : أصبح زيد في الدّار جالساً .

ويجوز أن تكون التامة ، أي : دخلوا في الصباح ، و" جَاثِمِينَ " حال ، والأول أظهر .

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 199 . 201 ﴾ . باختصار يسير .

(117/276)

قوله تعالى ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أصابهم ذلك ، سبب لهم الهجرة عن ديارهم ديار السوء والغضب واللعنة فقال تعالى إعلاماً لنا بذلك : ﴿ فتولى ﴾ أي كلف نفسه الإعراض ﴿ عنهم وقال ﴾ أي لما أدركه من أحوال البشر من الرقة على فوات إيمانهم وهم أصله وعشيرته ﴿ يا قوم ﴾ أي الذين يعز عليّ ما يؤذيهم ﴿ لقد أبلغتكم ﴾ ولعله وحد قوله : ﴿ رسالة ربي ﴾ لكون آيته واحدة ﴿ ونصحت ﴾ وقصر الفعل وعداه باللام فقال : ﴿ لكم ﴾ دلالة على أنه خاص بهم ،

روي أنه خرج عنهم في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي ، وكان قومه ألفاً وخمسمائه دار ، وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم .

ولما كان التقدير : ففعلت معكم ما هو مقتض لأن تحبوني لأجله ، عطف عليه قوله : ﴿ ولكن ﴾ لم تحبوني ، هكذا كان الأصل ولكنه عبر بما يفهم أن هذا كان دأبهم وخلقاً لهم مع كل ناصح فقال : ﴿ لا تحبون ﴾ أي حاكياً لحالهم الماضية ﴿ الناصحين ﴾ أي كل من فعل فعلي من النصح التام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 60 . 61 ﴾

(118/276)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ فتولى عنهم ﴾ وفيه قولان :

الأول : أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا ، والدليل عليه أنه تعالى قال : ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم ﴾ والفاء تدل على التعقيب ، فدل على أنه حصل هذا التولي بعد جثومهم والثاني : أنه عليه السلام تولى عنهم قبل موتهم ، بدليل : أنه خاطب القوم .

وقال : ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾

وذلك يدل على كونهم أحياء من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه قال لهم : ﴿ يا قوم ﴾ والأموات لا يوصفون بالقوم ، لأن اشتقاق لفظ القوم من الاستقلال بالقيام ، وذلك في حق الميت مفقود .

والثاني : أن هذه الكلمات خطاب مع أولئك وخطاب الميت لا يجوز .

والثالث : أنه قال : ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ فيجب أن يكونوا بحيث يصح حصول المحبة فيهم ، ويمكن أن يجاب عنه فنقول : قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه ، فلم يقبل تلك النصيحة حتى ألقى نفسه في الهلاك ، يا أخي منذ كم نصحتك ، فلم تقبل وكم منعتك فلم تمتنع ، فكذا ههنا ، والفائدة في ذكر هذا الكلام إما لأن يسمعه بعض الأحياء فيعتبر به وينزجر عن مثل تلك الطريقة .

وإما لأجل أنه احترق قلبه بسبب تلك الواقعة .

فإذا ذكر ذلك الكلام فرجت تلك القضية عن قلبه .

وقيل : يخف عليه أثر تلك المصيبة ، وذكروا جواباً آخر ، وهو : أن صالحاً عليه السلام خاطبهم بعد كونهم جاثمين ، كما أن نبينا عليه الصلاة والسلام خاطب قتلى بدر .

فقيل : تتكلم مع هؤلاء الجيف فقال : " ما أنتم بأسمعَ منهم لكنهم لا يقدرون على الجواب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 136 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾

فيه تقديم وتأخير أي : حين كذبوه خرج من بين أظهرهم ﴿ وَقَالَ يَا قَومِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي دعوتكم إلى التوبة وحذرتكم العذاب ﴿ وَلَكِن لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ أي : لا تطيعون الداعين .

ويقال : إنما قال ذلك بعد إهلاكهم .

قال على وجه الحزن .

إني قد أبلغتكم الرسالة .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن الله تعالى لم يهلك قوماً ما دام الرسول فيهم فإذا خرج من بين ظهرانيهم أتاهم ما أوعد لهم .

وقال في رواية الكلبي : لما هلك قوم صالح رجع صالح ومن معه من المؤمنين ، فسكنوا ديارهم .

وقال في رواية الضحاك خرج صالح إلى مكة فكان هناك حتى قبضه الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ فتولى ﴾ أعرض صالح عنهم وقال : ﴿ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ وكانت قصّة صالح وثمود وعقرهم الناقة سبب هلاكهم على ما ذكره ابن إسحاق والسدي ووهب وكعب وغيرهم من أهل الكتب قالوا : إن عاداً لمّا هلكت وانتهى أمرها عمّرت أعمارهم واستخلفوا في الأرض فربوا فيها وعمّروا ، حتّى جعل أحدهم يبني المسكن من [المدر] فينهدم والرجل منهم حي .

فلما رأوا ذلك اتخذوا الجبال بيوتاً فنحتوها وجابوها وخرقوها وكانوا في سعة من معائشهم فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله ، فبعث الله إليهم صالحاً وكانوا فيها عرباً كان صالح من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً .

فبعثه الله تعالى إليهم شابّاً فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ حتّى شمط وكبر لا يتبعه منهم إلاّ قليل مستضعفون فلمّا ألحّ عليهم صالحٌ بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقاً لقوله ، قال : أي آية تريدون ؟ قالوا : نُريد أن تخرج معنا إلى عيدنا هذا وكان اسم عيد يخرجون إليه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة فتدعو إلهك وندعو وإن

أستجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا .

فقال لهم صالح : نعم ، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ذلك وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء ممّا يدعو به . ثمّ قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيّد ثمود : يا صالح اخرج لنا من هذه الصخرة لصخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها : الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء فالمخترجة ما شاكلت البخت من الإبل ، فإن فعلت صدّقناك وآمنّا بك ، فأخذ صالح عليهم مواثيقهم إن فعلت لتصدقنني ولتومنن به ، قالوا : نعم .

(121/276)

فصلّى صالح ركعتين ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ثمّ تحرّكت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشرا وجوفاء وبراء كما سألوا لا يعلم ما بين جنبيها إلاّ الله عزّ وجلّ عظماً وهم ينظرون ثمّ [نتجت] ثقباً مثلها في العظم . فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه ، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويُصدّقوه فنهاهم ذوءاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صمعر وكانوا من أشراف ثمود . وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له شهاب بن خليفة بن مخلاة بن لبيد فأراد أن يسلم فنهاه أُولئك الرهط

فأطاعهم فقال رجل من آل ثمود :

إلى دين النبيّ دعوا شهاباً . . . وكانت عصبة من آل عمرو

فهمَّ بأن يجيب ولو [أجابا] . . . عزيز ثمود كلّهم جميعاً

وما عدلوا بصاحبهم ذوءاباً . . . لأصبح صالح فينا عزيزاً

تولّوا بعد رشدهم ذئاباً . . . ولكن الغواة من آل حجر

فلما خرجت الناقة قال صالح (عليه السلام) : ﴿ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : 155] ، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء سبتاً فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر من الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفعها حتّى تشرب كلّ ما فيها لا تدع قطرةً ماء فيها ثم ترفع رأسها [فتفسح] يعني تفجج لهم فيحتلبون ما شاؤوا من لبن فيشربون ويدخرون حتّى يملأوا أوانيهم كلهم ثمّ تصدر من [غير] الفج الذي وردت لا تقدر على أن تصدر من حيث وردت لضيقه عنها فلا يرجع منه ثمّ ترفع رأسها .

قال أبو موسى الأشعري : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً ، حتّى إذا كان الغد كان يومهم فيشربون ما شاؤوا من الماء ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة ، فهم من ذلك في سعة ودعة [وكانت] الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي فتهرب منها أغنامهم وأبقارهم وإبلهم فتهبط إلى بطن الوادي في حرّه وجد به .

والمواشي تنفر منها إذا رأتها [تشتو] في بطن الوادي إذا كان الشتاء ، فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد والجدب . فأضرّ ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار وكانت مراتعها في ما يزعمون [الجناب] وحسمى ، كل ذلك ترعى مع واد الحجر .

فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربّهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها .

وكانت امرأة من ثمود يقال لها عنيزة بنت غنم بن مجلز تكنّى أُم غنم وهي من بني عبيد ابن المهل ، وكانت امرأة ذوءاب بن عمر ، وكانت عجوزاً مسنّة وكانت ذات بنات حسان ، وكانت ذات مال من إبل وبقر وغنم ، وامرأة أُخرى يقال لها : صدوف بنت المحيا بن زهير ابن المحيا سيد بني عبيد وصاحب أوثانهم في الزمن الأول ، وكان الوادي يقال له : وادي المحيا الأكبر جد المحيا الأصغر أبي صدوف ، وكانت صدوف من أحسن الناس وكانت غنية ذات مال من إبل وغنم وبقر وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح (عليه السلام) وأعظمهم به كفراً ، وكانتا تحبان أن يعقرا الناقة مع كفرهما به لما أضرت به من مواشيهما وكانت صدوف عند ابن خال لها يقال له : صنتم بن هراوة بن سعد بن الغطريف من بني هليل فأسلم وحسن إسلامه ، وكانت صدوف قد فوّضت إليه مالها فأنفقه على مَنْ أسلم

له من أصحاب صالح حتّى رق المال فاطلعت على ذلك [من] إسلام صدوف وحاسبته على ذلك . فأظهر لها دينه فدعاها إلى الله وإلى الإسلام فأبت عليه وأخذت بنيها وبناتها منه فغيبتهم في عبيد بطنها الذي [هي] منه وكان صنتم زوجها من بني هليل ، وكان ابن خالها فقال لها : ردي عليَّ ولدي ، فقالت : حتّى أُنافرك إلى بني صنعان بن عبيد أو إلى بني [جندع] بن عبيد ، فقال لها صنيم : بل أنافرك إلى بني مرداس بن عبيد . وذلك أن بني مرداس كانوا مسلمين .

فقالت : لا أُنافرك إلاّ إلى مَنْ دعوتك إليه . فقالت بنو مرداس : والله لتعطينه ولده كارهة أو طائعة فلما رأت ذلك أعطته إياهم .

(123/276)

ثم إنّ صدوف وعنيزة تحيّلا في عقر الناقة للشقاء الذي نزل بهم فدعت صدوف رجلا من ثمود يقال له [الحبّاب] لعقر الناقة وعرضت نفسها إن هو فعل ذلك [فأبى] عليها فدعت ابن عم لها يقال له : مصدح بن مهرج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة ، وكانت من أحسن الناس وجهاً وأكثرهم مالاً فأجابها إلى ذلك ، ودعت عنيزة بنت غنم قدار ابن سالف بن جندع رجلا من أهل قرح وذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

" انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعه " واسم أُمّه قدير . وكان رجلا أحمراً أزرقاً قصيراً يزعمون أنّه كان لزنية من رجل يقال له : صبيان ولم يكن لسالف الذي يدعى السر ، ولكنه قد ولد على فراش سالف فقالت : أعطيك أيَّ بناتي شئت على أن تعقر الناقة ، وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه فانطلق قدار بن سالف هو ومصدع بن مهرج فاستنفرا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر ، وكانوا تسعة رهط أحدهم هويل بن مسطح خال عزير من أهل حجر [ودعيت] بن غنم بن ذاغر ذؤاب بن مهرج بن مصدع وخمسة لم يذكر لنا أسماءهم فاجمعوا على عقر الناقة .

وقال السدي وغيره : أوحى الله تعالى إلى صالح (عليه السلام) أن قومك سيعقرون ناقتك ، فقال لهم ذلك .

فقالوا : ما كنّا لنفعل ذلك . فقال صالح : إنّه يولد في قومكم غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه ، فقالوا : لا يولد لنا ابن في هذا الشهر إلاّ قتلناه .

(124/276)

قال : فولد لهم تسعة في ذلك الشهر . فدعوا أبناءهم ثمّ ولد العاشر فأبى أن يذبح أبنه وكان لم يولد له قبل ذلك ابن وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتاً سريعاً ، وكان إذا مرّ

بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا ، فغضب التسعة على صالح ، لأنّه كان سبب قتلهم أبنائهم فتقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله قالوا : نخرج فنري الناس أنا قد خرجنا إلى [سفرنا] فنأتي الغار فنكون فيه حتّى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثمّ رجعنا إلى الغار فكنّا فيه ثمّ رجعنا فقلنا مهلك أهله وإنّا لصادقون يصدّقوننا يعلمون إنّا قد خرجنا إلى سفرنا ، وكان صالح صلى الله عليه وسلم لا ينام معهم في القرية . وكان في مسجد يقال له مسجد صالح فيه يبيت الليل . فإذا أصبح أتاهم فوعظهم ويذكرهم ، وإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه فانطلقوا فلمّا دخلوا الغار وأرادوا أن يخرجوا من [الجبل] سقط عليهم الغار فقتلهم فانطلق رجل ممّن قد اطلع على ذلك منهم فإذا هم رطخ فرجعوا وجعلوا يصيحون في القرية أي عباد الله أما رضي صالح [بأن] أمرهم بقتل أولادهم حتّى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة .

وقال ابن إسحاق : إنّما كان تقاسم التسعة على قتل صالح صلى الله عليه وسلم بعد عقرهم الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب . ذلك أن التسعة الذين عقروا الناقة قالوا : هلّم فلنقتل صالحاً وإن كان صادقاً عجّلنا قتله ، وإن كان كاذباً قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه في أهله فدفعتهم الملائكة بالحجارة فلمّا أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم مشتدخين قد رُضخوا بالحجارة فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، ثمّ همّوا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح .

وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً وقد وعدكم أنّ العذاب نازل بكم في ثلاث فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربّكم إلاّ غضباً وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

قال السدي وغيره : فكان شر مولود يعني قدار وكان يشبّ في اليوم شباب غيره في الجمعة . ويشبّ في الشهر شباب غيره في السنة فلمّا كبر جلس مع أُناس يصيبون من الشراب فأرادوا ما يمزجون به شرابهم وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة . فاشتد ذلك عليهم وقالوا في شأن الناقة وشدّتها عليهم ونحن ما نصنع باللبن لو كنّا نأخذ من هذا الماء الذي تشربه هذه الناقة نسقيه أنعامنا وحروثنا كان خيراً لنا ، فقال ابن العاشر هل لكم في أن أعقرها لكم ؟

قالوا : نعم .

وقال كعب : كان سبب عقرهم الناقة أنّ امرأة يقال لها ملكا كانت قد ملكت ثمود فلمّا أقبل الناس على صالح وصارت الرئاسة إليه حسدته فقالت لامرأة يقال لها قطام وكانت معشوقة قدّار بن سالف ولامرأة أُخرى يقال لها قبال كانت معشوقة مصدح بن وعد ويقال

ابن مهرج ، وكان قدار ومصدع يجتمعان كل ليلة معهما ويشربون الخمر فقالت لهما ملكا : إن أتاكم الليلة قدار ومصدع فلا تطيعاهما وقولا لهما : إن الملكة حزينة لأجل الناقة و لأجل صالح فنحن لا نطيعكما حتّى تعقرا الناقة فإن عقرتماها أطعناكما ، فلمّا أتياهما قالتا لهما هذه المقالة فقالا : يكون من وراء عقرهما .

وقال ابن إسحاق وغيره : فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل حفرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في طريق آخر فمرّت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم وعنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فاستقرّت لقدار ثمّ دمرته فشد على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة فحدر سقبها ثمّ طعن في لبّتها فنحرها .

(126/276)

وخرج أهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه فلمّا رأى سقبها ذلك انطلق حتّى أتى جبلا منيعاً يقال له صور ، وقيل : اسمه قارة ، وأتى صالح فقال له : أدرك الناقة قد عُقرت فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه يا نبي الله إنّما عقرها فلان وفلان ولا ذنب لنا . فقال صالح

(عليه السلام) : أنظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يُرفع عنكم العذاب . فخرجوا يطلبونه فلمّا رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه فأوحى الله عزّ وجلّ إلى الجبل فتطاول في السماء حتّى لا تناله الطير .

وجاءَ صالح (عليه السلام) فلمّا رآه الفصيل بكى حتّى سالت دموعه ثمّ استقبل صالحاً فرغا رغوة ثم رغا أُخرى ثم رغا أُخرى .

فقال صالح (عليه السلام) : لكل رغاة أجل يومكم تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب .

(127/276)

وقال ابن إسحاق : أتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع ابن مهرج وأخوه داب بن مهرج فرمى مصدع بسهم فانتظم قلبه ثمّ جر برجله وأنزله وألقوا لحمه مع لحم أُمّه . فقال لهم صالح : انتهكتم حرمة الله تعالى فأبشروا بعذاب الله ونقمته ، فقالوا له وهم يهزأون به : ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك ؟ وكان يسمّون الأيام فيهم الأحد الأوّل والأثنين أُميون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة غروبة والسبت شيار . وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح (عليه السلام) حين قالوا ذلك :

تصبحون غداء يوم مؤنس ووجوهكم مصفرّة ، ثمّ تصبحون يوم غروبة ووجوهكم محمرّة ثمّ تصبحون يوم شيّار ووجوهكم مسودّة ، ثمّ يصبحكم العذاب يوم الأوّل ، فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرّة كأنّما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وإناثهم ، فأيقنوا العذاب وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه ، وخرج صالح هارباً حتّى لجأ إلى بطن من ثمود ، يقال له : بنو غنم ، فنزل على سيّدهم رجل منهم يقال له : نفيل ويكنّى أبا هدب وهو مشرك فغيّبه فلم يقدروا عليه ، وقعدوا على أصحاب صالح يعذّبونهم ليدلّوهم عليه .

(128/276)

فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم : يا نبي الله إنّهم ليعذبونا لندلهم عليك أفندلهم ؟ قال : نعم ، فدلّهم عليه ميدع فأتوا أبا هدب وكلّموه في ذلك ، فقال : نعم عندي صالح وليس لكم إليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله عزّ وجلّ فيهم من عذابه فجعل بعضهم يخبّر بعضاً بما يرون في وجوههم فلما أصبحوا صاحوا بأجمعهم : ألا قد مضى يوم من الأجل ، فلمّا أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرّة كأنّما خُضّبت بالدماء فصاحوا وضجّوا وبكوا وعرفوا آية العذاب ، فلمّا أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد

مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب . فلما كان اليوم الثالث إذا وجوههم مسودّة كأنّما طُليت بالنار فصاحوا جميعاً ألا قد حضركم العذاب .

فلمّا كان ليلة الأحد خرج صالح (عليه السلام) من بين أظهرهم ومَنْ أسلم معه إلى الشام فنزلوا رملة فلسطين فلمّا أصبح القوم تكفّنوا وتحنّطوا وكان حنوطهم الصبر والمقر وكانت أكفانهم [الإنطاع] ثمّ ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلّبون به أبصارهم فينظرون إلى السماء مرّة وإلى الأرض مّرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب .

فلمّا اشتد الضحى يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كلّ صاعقة وصوت كل [شيء] له صوت في الأرض فتقطّعت قلوبهم في صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلاّ هلك كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ إلاّ جارية منهم مقعدة يقال لها : ذريعة بنت سلق وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح (عليه السلام) فأطلق الله عزّ وجلّ لها رجلها بعدما عاينت العذاب أجمع ، فخرجت كأسرع ما يُرى شيء قط حتّى أتت قزح وهي وادي القرى فأخبرتهم بما [عاينت] من العذاب وما أصاب ثمود ثمّ أستسقت من الماء فسُقيت فلمّا شربت ماتت .

وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال : " لمّا أُمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه : " لا يدخلن أحدٌكم القرية ولا تشربوا من مائهم ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلاّ أن تكونوا باكين خائفين فإن لم تكونوا فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم " .

ثمّ قال : " أمّا بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية فبعث الله عزّ وجلّ لهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فتشرب ماءهم يوماً فيردها وراءهم مرتقى الفصيل حين ارتقى في الغار فعتوا عن أمر ربّهم وعقروها فأهلك الله مَنْ [تحت] أديم السماء منهم إلاّ رجلاً واحداً كان في حرم الله " .

قيل : من هو ؟ قال : " أبو رغال " .

فلمّا خرج أصابه ما أصاب قومه [فدفن ههنا] ودُفن معه غصن من ذهب وأراهم قبر أبي رغال فول القوم فابتدروه بأسيافهم وبحثوا عليه فاستخرجوا ذلك الغصن ، ثمّ قبع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وأسرع السير حتّى جاز الوادي " .

قال أهل العلم : توفي صالح (عليه السلام) بمكّة وهو ابن ثمان وخمسين [سنة فلبث] في قومه عشرين سنة .

عن الضحاك بن مزاحم قال : " قال رسول الله (عليه السلام) : " يا عليّ أتدري مَنْ أشقى الأوّلين ؟ "

قال : قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : " عاقر الناقة " .

قال : " أتدري مَنْ أشقى الآخرين ؟ "

قال : الله ورسوله أعلم .

قال : " قاتلك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(130/276)

وقال الماوردى :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾

أي خرج من بين أظهرهم ، وقيل إن صالحاً خرج عنهم إلى رملة فلسطين بمن آمن معه من قومه وهم مائة وعشرة ، وقيل إنه لم تهلك أمة ونبيها بين أظهرها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾

وأخبر الله عز وجل بفعل " صالح " في توليه عنهم وقت " عقرهم " الناقة وقولهم ﴿ ائتنا بما

تعدنا ﴾ وذلك قبل نزول العذاب وكذلك روي أنه عليه السلام خرج من بين أظهرهم قبل نزول العذاب وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم ، وأما لفظ الآية فيحتمل أن خاطبهم وهم موتى على جهة التفجع عليهم وذكر حالهم أو غير ذلك كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل قليب بدر ، قال الطبري : وقيل لم تهلك أمة ونبيها معها ، وروي أنه ارتحل بمن معه حتى جاء مكة فأقام بها حتى مات ، ولفظة التولي تقتضي اليأس من خيرهم واليقين في إهلاكهم . وقوله : ﴿ لا تحبون الناصحين ﴾ عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي ، إذ كلام الناصح صعب مضاد لشهوة نفس الذي ينصح ، ولذلك تقول العرب أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فتولى عنهم ﴾

يقول : انصرف صالح عنهم بعد عقر الناقة ، لأن الله تعالى أوحى إليه أن اخرُجْ من بين أظهرهم ، فإني مهلكهم .

وقال قتادة : ذكر لنا أن صالحاً أسمع قومَه كما أسمع نبيكم قومَه ، يعني : بعد موتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ فتولى عَنْهُمْ ﴾ أي عند اليأس منهم .

﴿ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم . ويحتمل أنه قاله بعد موتهم ؛ كـ " قوله عليه السلام لِقَتْلَى بَدْر : "هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً" فقيل : أتكلم هؤلاء الجِيَف ؟ فقال : "ما أنتم بأسمَع منهم ولكنهم لا يقدرون على الجواب" " والأوّل أظهر .

يدل عليه ﴿ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النا صحين ﴾ أي لم تقبلوا نُصْحِي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(132/276)

وقال الخازن :

﴿ فتولى عنهم ﴾

يعني فأعرض عنهم صالح وفي وقت هذا التولي قولان :

أحدهما : أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله ﴿ فأصبحوا في دارهم

جاثمين فتولى عنهم ﴾ والفاء للتعقيب فدل على أنه جعل هذا التولي بعد جثومهم وهو موتهم .

والقول الثاني : أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل موتهم وهلاكهم ويدل عليه أنه خاطبهم ﴿ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ وهذا الخطاب لا يليق إلا بالأحياء فعلى هذا القول يحتمل أن يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تبحون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وأجاب أصحاب القول الأول عن هذا أنه خاطبهم بعد هلاكهم وموتهم توبيخاً وتقريعاً كما خاطب النبي صلى الله عليه وسلم الكفار في قتلى بدر حين ألقوا في القليب فجعل يناديهم بأسمائهم الحديث في الصحيح وفيه فقال عمر : يا رسول الله كيف تكلم أقواماً قد جيفوا فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون .

وقيل إنما خاطبهم صالح بذلك ليكون عبرة لمن يأتي من بعدهم فينزجر عن مثل تلك الطريقة التي كانوا عليها .

(ذكر قصة ثمود على ما ذكره محمد بن إسحاق ووهب بن منبه وغيرهما من أصحاب السير والأخبار)

قالوا جميعاً إن عاد لما هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى إن أحدهم ليبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً وكانوا في سعة من العيش والرخاء فعثوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله فبعث الله تعالى إليهم صالحاً نبياً وكانوا قوماً عرباً وكان صالح من أوسطهم نسباً وأفضلهم بيتاً وحسباً فبعثه الله تعالى إليهم وهو غلام فلم يزل يدعوهم إلى الله تعالى وإلى عبادته حتى شمط وكبر فلم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقاً على ما يقول فقال صالح أي آية تريدون ؟ فقالوا : تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه أصنامهم ، وذلك في يوم معلوم من السنة وقالوا تدعو إلهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم فخرجوا بأصنامهم إلى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود : يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة ، لصخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ، ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكلت بالبخت من الإبل فإن فعلت آمنا بك وصدقناك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي قالوا نعم قال فصلى صالح عليه الصلاة

والسلام ركعتين ودعا ربه عز وجل فتمخضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوا ووصفوا غير أنه لا يعلم ما بين جنبها إلا الله عز وجل عظماً وهم ينظرون إليها ثم نتجت سقباً مثلها في العظم فأمن به جندع بن عمرو ورهط معه من قومه وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب وكانا صاحبا أوثانهم ورباب بن ضمير وكان كاهنهم

(134/276)

وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة من الصخرة قال لهم صالح : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء غباً فإذا كان يوم ورودها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتتفحج لهم فيحلبون ما شاؤوا منها من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملؤوا أوانيهم كلها ثم تصدر الناقة من غير الفج الذي ورجت منه ولا تقدر أن تصدر من حيث وردت حتى إذا كان من الغد كان يوم ثمود فيشربوا ما شاء الله من الماء ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة فيهم على ذلك في سعة ودعة وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم الإبل والبقر

والغنم فتهبط إلى بطن الوادي فتكون في حره وجدبه وإذا كان الشتاء فتشتو الناقة في بطن الوادي فتهرب المواشي إلى ظهره فتكون في البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله بهم والبلاء والاختبار ، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود يقال لأحداهما عنيزة بنت غنم بن مخلد وتكنى بأم غنم وكانت عجوزاً مسنة وهي امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم .

(135/276)

والمرأة الأخرى يقال لها صدقة بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه الصلاة والسلام وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت بمواشيهما فتحيلتا في عقر الناقة فدعت صدقة رجلاً من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال لها مصدع بن مهزج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وجهاً وأكثرهم مالاً فأجابها إلى إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً ويزعمون أنه كان ابن زانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراشه فقالت عنيزة

لقدار أي بناتي شئت أعطيتك على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه (ق) .

عن عبد الله بن زمعة رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة " قوله انبعث أي قام بسرعة والعارم الخبيث الشرير والعرامة الشدة والقوة والشراسة والمنيع الممتنع ممن أراده .

(136/276)

قال أصحاب الأخبار : فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهزج ، فاستنفروا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل صخرة أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم في عضلة ساقها فخرجت أم غنيم عنيزة وأمرت ابنتها فسفرت عن وجهها وكانت من أحسن الناس وجهاً ليراها قدار ثم حثته على عقرها وأغرته فشد قدار على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرجت ورغت رغاة واحدة فتحذر سقبها من الجبل ثم طعن قدار في لبتها فنحرها فخرج أهل البلد فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هارباً حتى أتى جبلاً منيعاً

يقال له صور وقيل قارة وأتى صالح عليه الصلاة والسلام فقيل له أدرك الناقة فقد عقرت فأقبل نحوها وخرج أهل البلد يتلقونه ويعتذرون إليه ويقولون يا نبي الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال صالح انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل فذهبوا ليأخذوه فأوحى الله تعالى إلى الجبل أنْ تطاولْ فتطاول حتى ما تناله الطير وجاء صالح عليه السلام فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثاً ثم انفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح لكل رغوة أجل يوم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وقال ابن إسحاق تبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهزج وأخوه ذؤاب فرماه مصدع بسهم فأصاب قلبه ثم جذبه فأنزله وألقوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح عليه السلام : انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزؤون به : ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك ؟ وكانوا يسمون الأيام في ذلك الوقت الأحد أول والأثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام

حين قالوا ذلك : تصبحون غداً يوم مؤنس ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمّرة ، ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلموا فلنقتل صالحاً فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلاً ليقتلوه أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح عليه الصلاة والسلام فوجدوهم وقد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه وقالوا لا تقتلوه أبداً فإنه قد وعدكم العذاب أنه نازل بكم بعد ثلاث فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم إلا غضباً عليكم وإن كان كاذباً فأنتم وراء ما تريدون فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم فيما قال فطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ولحق بحي من بطون ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب وهو مشرك فمنع صالحاً فلم يقدروا عليه وكانوا عمدوا إلى أصحاب صالح ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم : يا نبي الله إنهم يعذبونا لندلهم عليك أفندلهم عليك ؟ قال : نعم .

فدلوهم عليه فأتوا أبو هدب فكلموه في أمر صالح فقال هو عندي وليس لكم إليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم ما نزل بهم من العذاب فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل فلما أصبحوا في اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وأيقنوا أنه العذاب فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا في اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعاً ألا قد حضركم العذاب فلما كانت ليلة الأحد خرج صالح عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه من أظهرهم إلى الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبحوا في اليوم الرابع تكفنوا وتحنطوا وألقوا بأنفسهم إلى الأرض يقلِّبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة عظيمة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وهلكوا جميعاً إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه الصلاة والسلام فأطلق الله تعالى رجليها بعد ما عاينت العذاب وما أصاب ثمود فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى فأخبرتهم بما عاينت من العذاب الذي بثمود ثم استقت ماء فسقيت فلما شربت ماتت في الحال .

وذكر السدي في عقر الناقة فقال : أوحى الله عز وجل إلى صالح عليه والسلام إن قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك صالح فقالوا ما كنا لنفعل فقال صالح إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا لا يولد لنا في هذا الشهر ولد إلا قتلناه قال فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر أولاد فذبحوهم ثم ولد للعاشر ولد فأبى أن يذبحه لأنه كان لم يولد له قبل ذلك ولد وكان الولد الذي ولد له أحمر أزرق فنبت نباتاً سريعاً فكان إذا مر بالتسعة فرأوه ، قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا الغلام فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أبنائهم فتقاسموا بالله يعني فتحالفوا بالله لنبيتنه وأهله وقالوا نخرج فنرى الناس أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثم نرجع إلى الغار فنكون فيه حتى ننصرف إلى رحلنا فنقول ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا فيظنون أنا قد خرجنا إلى سفر وكان صالح لا ينام معهم في القرية بل كان يبيت في مسجد له خارج القرية فإذا أصبح أتاهم فيعظهم ويذكرهم فإذا أمسى خرج إلى مسجده فيتعبد فيه قال فانطلق التسعة إلى الغار فدخلوا فسقط عليهم فقتلوا فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على أمرهم لينظروا ما فعل أولئك

النفر فرأوهم وهم رضخ فرجعوا إلى القرية يصيحون ما رضي صالح بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة .

(140/276)

وقال ابن إسحاق : كان التسعة قد تقاسموا على تبييت صالح بعد عقر الناقة ، وقال السدي وغيره : لما ولد للعاشر ولد سماه بقدار فكان يشب سريعاً فلما كبر جلس مع أناس يشربون الخمر فأرادوا ماء ليمزجوا به شرابهم وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا ما نصنع نحن بلبن هذه الناقة ولو كنا نأخذ هذا الماء الذي تشربه الناقة فنسقيه لأنعامنا وزروعنا كان خيراً لنا ، وقال ابن العاشر : هل لكم أن أعقرها لكم قالوا نعم فعقرها (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال :

" لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي " وفي رواية لمسلم : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين " ثم ذكر مثله ولهما عنه أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم أن يهرقوا ما استقوه ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة " وللبخاري " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارهم ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء .

(141/276)

وفي بعض الأحاديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآيات فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم مرتقى الفصيل من القارة فعتوا عن امر ربهم وعقروها فأهلك الله من تحت أديم السماء منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً واحداً يقال له أبو وغال وهو أبو ثقيف ، كان في حرم الله فمنعه حرم الله تعالى من عذاب الله لما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب وأراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أبي رغال فنزل القوم وابتدروه بأسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن " وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت فلما دخلوها مات صالح فسمي حضرموت ثم بنوا أربعة آلاف مدينة

وسموها حضوراء وقال قوم من أهل العلم : توفي صالح عيله الصلاة والسلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام في قومه عشرين سنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(142/276)

وقال أبو حيان :

﴿ فتولى عنهم وقال يا قَوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾

ظاهر العطف بالفاء أنّ هذا التولي كان بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم فيكون الخطاب على سبيل التفجّع عليهم والتحسّر لكونهم لم يؤمنوا فهلكوا والاغتمام لهم وليسمع ذلك من كان معه من المسلمين فيزدادوا إيماناً وانتفاء عن معصية الله واقتضاء لما جاء به نبيه عن الله ويكون معنى قوله ولكن ﴿ لا تحبّون الناصحين ﴾ ولكن كنتم لا تحبون الناصحين فتكون حكاية حال ماضية وقد خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل قليب بدر وروي أنه خرج في مائة وعشرين من المسلمين وهو يبكي فالتفت فرأى الدخان فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفاً وخمسمائة دار ، وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم ،

وقيل : كان توليه عنهم وقت عقر الناقة وقولهم ﴿ ائتنا بما تعدنا ﴾ وذلك قبل نزول العذاب وهو الذي يقتضيه ظاهر مخاطبته لهم وقوله ﴿ ولكن لا تحبّون النّاصحين ﴾ وهو الذي في قصصهم من أنه رحل عنهم ليلة أن أخذتهم الرّجفة صبحتها ، وبعد ظهور أمارات الهلاك التي وعد بها قال الطبري : وقيل لهم تهلك أمة ونبيها فيها ، وروي أنه ارتحل بمن معه حتى جاء مكة فأقام بها حتى مات ولفظة التولي تقتضي اليأس من خيرهم واليقين في هلاكهم وخطابه هذا كخطابهم نوح وهود عليهما السلام في قولهما ﴿ أبلغكم رسالات ربي ﴾ وذكر النصح بعد ذلك لكنه لما كان قوله ﴿ أبلغتكم ﴾ ماضياً عطف عليه ماضياً فقال : ﴿ ونصحت ﴾ ، وقوله : ﴿ لا تحبون الناصحين ﴾ أي من نصح لك من رسول أو غيره أي ديدنكم ذلك لغلبة شهواتكم على عقولكم .

وجاء لفظ ﴿ الناصحين ﴾ عامّاً أي أيّ شخص نصح لكم لم تقبلوا في أي شيء نصح لكم وذلك مبالغة في ذمّهم .

(143/276)

وروي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من مائها ولا يستقوا منها فقالوا : يا رسول الله قد طبخنا وعجنّا ، فأمرهم أن

يطرحوا ذلك الطبيخ والعجين ويهرقوا ذلك الماء وأمرهم أن يستقوا من الماء الذي كانت ترده ناقة صالح وإلى الأخذ بهذا الحديث ، أخذ أبو محمد بن حزم في ذهابه إلى أنه لا يجوز الوضوء بماء أرض ثمود إلا إن كان من العين التي كانت تردها الناقة ، وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مرّ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه :

" لا يدخل أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم " وفي الحديث أنه مر بقبر فقال " أتعرفون ما هذا " ؟ قالوا لا قال " هذا قبر أبي رغال الذي هو أبو ثقيف كان من ثمود فأصاب قومه البلاء وهو بالحرم فسلّم فلما خرج من الحرم أصابه فدفن هنا وجعل معه غصن من ذهب " قال فابتدر القوم بأسيافهم فحفروا حتى أخرجوا الغصن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(144/276)

وقال أبو السعود :

﴿ فتولى عنهم ﴾

إثرَ ما شاهد ما جرى عليهم تولى مغتماً متحسّراً على ما فاتهم من الإيمان متحزناً عليهم

﴿ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ﴾ بالترغيب والترهيبِ وبذلتُ فيكم وُسْعي ولكن لم تقبلوا مني ذلك وصيغةُ المضارع في قوله تعالى : ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ أي شأنُكم الاستمرارُ على بغض الناصحين وعدامِتهم ، خاطبهم عليه الصلاة والسلام بذلك خطابَ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام أهلَ قَليبِ بدرٍ حيث قال : " إنا وجدْنا ما وعدنا ربُّنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ " وقيل : إنما تولى عنهم قبل نزولِ العذاب بهم عند مشاهدِته عليه الصلاة والسلام لعلاماته تولى ذاهباً عنهم منكراً لإصرارهم على ما هم عليه . وروي أن عَقرَهم الناقةَ كان يوم الأربِعَاءِ ونزل بهم العذابُ يوم السبت ، وروي أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي فالتفت فرأى الدخانَ ساطعاً فعلم أنهم قد هلَكوا وكانوا ألفاً وخمسَمائةِ دارٍ ، وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارَهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(145/276)

وقال الآلوسى :

﴿ فتولى عَنْهُمْ ﴾

بعد أن جرى عليهم ما جرى على ما هو الظاهر مغتماً متحسراً على ما فاتهم من الإيمان

متحزناً عليهم ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ بالترغيب والترهيب ولم آل جهداً فلم يجد نفعاً ولم تقبلوا مني .

وصيغة المضارع في قوله سبحانه : ﴿ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ حكاية حال ماضية أي شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم ، وخطابه عليه السلام لهم كخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلى المشركين حين ألقوا في قليب بدر حين نادى يا فلان يا فلان بأسمائهم إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً وذلك مبني على أن الله تعالى يرد أرواحهم إليهم فيسمعون وذلك مما خص به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ويحتمل أنه عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التحزن والتحسر كما تخاطب الديار والأطلال ، وجوز عطف ﴿ فتولى ﴾ على ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ [الأعراف : 78] فيكون الخطاب لهم حين أشرفوا على الهلاك لكنه خلاف الظاهر ، وأبعد من ذلك ما قيل إن الآية على التقديم والتأخير فتقديرها فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين .

(146/276)

وقصة ثمود على ما ذكر ابن إسحاق وغيره أن عاداً لما هلكوا عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً وكانوا في سعة من معاشهم فعتوا في الأرض وعبدوا غير الله تعالى فبعث الله تعالى إليهم صالحاً وكانوا قوماً عرباً وكان صالح عليه السلام من أوسطهم نسباً وبعث إليهم وهو شاب فدعاهم إلى الله تعالى حتى شمط وكبر ولم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم بالدعاء والتخويف سألوه أن يريهم آية تصدق ما يقول فقال لهم : أية آية تريدون ؟ فقالوا : تخرج غداً معنا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم فتدعو إلهك وندعوا آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح : نعم فخرجوا وخرج معهم فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذٍ سيد ثمود : يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة لصخرة منفردة ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة أي تشاكل البخت أو مخرجة على خلقة الجمل جوفاء وبراء فإن فعلت صدقناك وآمنا بك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي قالوا : نعم فصلى ركعتين ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى عظماً وهم ينظرون ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع ورهط من قومه وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به فمنعهم

ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر كاهنهم فلما خرجت الناقة ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ هذه نَاقَةُ ﴾ الله

(147/276)

﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : 155] فمكثت الناقة ومعها سقبها في أرضهم ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترده غبا فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال له الآن بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها ثم ترفع رأسها وتتفحج لهم فيحلبون ما شاؤوا من اللبن فيشربون ويدخرون ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر تصدر من حيث ترد لضيقه عنها حتى إذا كان الغد يومهم فيشربون ما شاؤوا ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة ولم يزالوا في سعة ورغد وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم وتهبط إلى بطن الوادي في حره وجدبه وتشتو في بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برد وجدب فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله تعالى بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود يقال لإحداهما عنيزة بنت غنم بن مجلز وتكنى بأم غنم وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوزاً مسنة ذات بنات حسان وذات مال من إبل

وبقر وغنم ويقال للأخرى : صدوق بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام وكانتا يحبان عقر الناقة لما أضرت من مواشيهما فدعت صدوق رجلاً يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج وجعلت له نفسها إن هو فعل فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة أم غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه لزنية ولم يكن لسالف لكنه ولد على فراشه فقالت : أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة وكان عزيزاً منيعاً في قومه فرضي وانطلق هو ومصدع فاستغويا غواة ثمود فاتبعهم سبعة فكانوا تسعة رهط فانطلقوا ورصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة

(148/276)

ساقها وخرجت أم غنم فأمرت إحدى بناتها وكانت من أحسن الناس وجهاً فسفرت عن وجهها ليراها قدار ثم حثته على عقرها فشد على الناقة بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة فتحدر سقبها من الجبل ثم طعن قدار في لبتها فنحرها فخرج

أهل البلدة فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هارباً حتى أتى جبلاً منيعاً يقال له قارة فرغا ثلاثاً وكان صالح عليه السلام قال لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يدفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل وراموه فلم ينالوه وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم صالح : لكل رغوة أجل يوم

﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثلاثة أَيَّامٍ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : 65] .

(149/276)

وعن ابن إسحاق أنه تبع السقب من التسعة أربعة وفيهم مصدع فرماه بسهم فاصاب قلبه ثم جر برجله فأنزله القوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح : انتهكتم حرمة الله تعالى فابشروا بعذابه ونقمته فكانوا يهزأون به ويقولون متى هو وما آيته ؟ فقال : تصبحون غدا وكان يوم الخميس ووجوهكم مصفرة وبعد غد ووجوهكم محمرة واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فهم أولئك الرهط بقتله فأتوه ليلاً فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطاؤا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ثم هموا به فمنع عنه عشيرته ثم لما رأوا العلامات طلبوه ليقتلوه فهرب ولحق بحي من ثمود يقال لهم : بنو غنم فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب فطلبوه منه

فقال : ليس لكم إليه سبيل فتركوه وشغلهم ما نزل بهم ثم خرج عليه السلام ومن معه إلى الشام فنزل رملة فلسطين ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وهلكوا جميعاً إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سلف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام فأطلق الله تعالى رجليها بعد أن عاينت العذاب فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى فأخبرتهم الخبر ثم استقست ماء فسقيت فلما شربت ماتت وكان رجل منهم يقال له : أبو رغال وهو أبو ثقيف في حرم الله تعالى فمنعه الحرم من عذاب الله تعالى فلما خرج أصابه ما أصابهم فدفن ومعه غصن من ذهب .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبره فأخبر بخبره فابتدره الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأسيافهم فحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن .

وروي أنه عليه السلام خرج في مائة وعشرين من المسلمين وهو يبكي فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفاً وخمسمائة دار .

وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم .

(150/276)

وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال : إن صالحاً لما نجا هو والذين معه قال : يا قوم إن هذه دار قد سخط الله تعالى عليها وعلى أهلها فاظعنوا والحقوا بحرم الله تعالى وأمنه فأهلوا من ساعتهم بالحج وانطلقوا حتى وردوا مكة فلم يزالوا بها حتى ماتوا فتلك قبورهم في غربي الكعبة .

وروى ابن الزبير عن جابر أن نبينا صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه : " لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم " وذكر محيي السنة البغوي أن المؤمنين الذين مع صالح كانوا أربعة آلاف وأنه خرج بهم إلى حضرموت فلما دخلها مات عليه السلام فسميت لذلك حضرموت ثم بنى الأربعة آلاف مدينة يقال لها حاضوراء ، ثم نقل عن قوم من أهل العلم أنه توفي بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة ولعله المعول عليه ، وجاء أن أشقى الأولين عاقر الناقة وأشقى الآخرين قاتل علي كرم الله تعالى وجهه وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك علياً رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه .

وعندي أن أشقى الآخرين أشقى من أشقى الأولين .

والفرق بينهما كالفرق بين علي كرم الله تعالى وجهه والناقة .

وقد أشارت الأخبار بل نطقت بأن قاتل الأمير كان مستحلاً قتله بل معتقداً الثواب عليه وقد مدحه أصحابه على ذلك فقال عمران بن حطان غضب الله تعالى عليه :

يا ضربة من تقي ما أراد بها . . .

ألا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوماً فأحسبه . . .

أوفى البرية عند الله ميزاناً

ولله در من قال :

يا ضربة من شقي أوردته لظى . . .

فسوف يلقى بها الرحمن غضبانا

كأنه لم يرد شيئاً بضربته . . .

إلا ليصلى غدا في الحشر

نيراناً إني لأذكره يوماً فألعنه . . .

كذاك ألعن عمران بن حطانا

وكون فعله كان عن شبهة تنجيه مما لا شبهة في كونه ضرباً من الهذيان ولو كان مثل تلك الشبهة منجياً من عذاب مثل هذا الذنب فليفعل الشخص ما شاء سبحانك هذا بهتان عظيم .

(151/276)

وقد ضربت بقدار عاقر الناقة الأمثال ، وما ألطف قول عمارة اليمني :

لا تعجبا لقدار ناقة صالح . . .

فلكل عصر ناقة وقدار

وفي هذه القصة روايات أخر تركناها اقتصاراً على ما تقدم لأنه أشهر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

(152/276)

وقال القاسمي :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [79] .

﴿ فَتَوَلَّى ﴾ أي : فأعرض صالح : ﴿ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ﴾ المتضمنة لتخويف العذاب عنه ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ فأمرتكم بكل خير ، ونهيتكم عن كل شر ﴿ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ أي : من الرسل والأنبياء والعلماء لمخالفتهم أهوايتكم .

والظاهر أن صالحاً عليه السلام كان مشاهداً لما جرى عليهم ، وأنه تولى عنهم ، بعد ما أبصرهم جاثمين ، تولِّيَ مُغتمٍّ متحسرٍّ على ما فاته من إيمانهم ، يتحزن لهم بقوله

﴿ يا قَوْمِ ﴾ الخ ، كذا في " الكشاف " ، أو خاطبهم خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

أهل قليب بدر حيث قال : < إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً > - كما رواه البخاري - لا تحزناً ، ولكن إعلاماً بنصر الله له ، وتحقيق رسالته ، زيادةً في حزنهم وتوبيخهم ، فإن الأحياء ليسوا بأسمع منهم ، ولكن لا يتكلمون . كما في " الصحيح " . ويجوز عطف قوله

﴿ فَتَوَلَّى ﴾ على قوله : ﴿ فأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ ، فيكون الخطاب لهم حين أشرفوا على الهلاك ، لا بعده . فيكون عليه السلام تولى عنهم تولي ذاهب عنهم ، منكر لإصرارهم حين رأى علامات نزول العذاب . والمتبادر الأول لظهور الفاء في التعقيب - والله أعلم - .

تنبيهات

الأول : نأثر هنا ما رواه علماء التاريخ والنسب في بسط قصة ثمود ، لمكان العظة والإعتبار مفصلاً ، وإلا فجلي أن ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك ، وما سكت عن بيانه من تلك القصص ، فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد

القطع به ، اللهم إلا لزيادة الإتعاظ ، و تقوية العبرة ، ولذا صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : < حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج > .

(153/276)

وخلاصة ما رووه عن ثمود أن عاداً لما هلكت ، عمرت ثمود بلادها ، وخلفوهم في الأرض ، وكانوا في سعة ورخاء من العيش ، فعتوا على الله ، وأفسدوا في الأرض ، وعبدوا الأوثان ، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام ، وكانوا قوماً عرباً ، وصالح من أوسطهم نسباً ، فدعاهم إلى عبادته تعالى وحده ، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، واقترحوا عليه بأن يخرج لهم ناقة عُشَرَاءَ ، تمخض من صخرة صماء ، عينوها بأنفسهم ، وكانت صخرة منفردة في ناحية الجبل ، يقال لها الكاثبة ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق : لئن أجابهم الله إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه . فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ، ودعا الله عز وجل ، فتحركت تلك الصخرة ، ثم انصدعت

عن ناقة جوفاء وبراء ، يتحرك جنينها بين جنبيها ، كما سألوا . فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عَمْرو بن لَبِيد ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعمر بن جلمس .

وكان لجندع بن عَمْرو ابن عم له ، شهاب بن خليفة بن محلاة بن لَبيد بن جواس ، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها ، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط ، فأطاعهم فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال له مهوش بن عنمة بن الزميل رحمه الله :

~وكانت عصبةٌ من آل عمرو إلى دين النبيّ دعوا شهابا

~عزيزَ ثمودَ كلّهم جميعاً فهم بأن يجيب ولو أجابا

~لأصبح صالحٌ فينا عزيزاً وما عدلوا بصاحبهم ذُؤابا

~ولكن الغواة مِنَ آل حجر تولوا بعد رشدهُم ذُبابا

(154/276)

وأقامت الناقة وفصيلها ، بعد ما وضعته ، بين أظهرهم مدة ، تشرب من بئرها يوماً ، وتدعه لهم يوماً ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ .

وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ، ترد من فج وتصدر من غيره ، ليسعها . لأنها كانت تتضلع من الماء ، وكانت – على ما ذكر – خلقاً هائلاً ، ومنظراً رائعاً ، إذا مرت بأنعامهم

نفرت منها ، فما طال عليهم ذلك ، واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام ، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم .

فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها . قال قتادة : بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون لقتلها ، حتى على النساء في خدورهن . قال ابن كثير : قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ وقال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ ، وقال ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة ، فدل على رضى جميعهم بذلك – والله أعلم – .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ، وغيره من علماء التفسير ، أن سبب قتلها ، أن امرأة من ثمود يقال لها عنيزة بن غنم بن مجلز ، تكنى بأم غنم ، وهي من بين عبيد بن المهل ، أخي رُميل بن المهل ، وكانت امرأة ذؤاب بن عَمْرو ، وكانت عجوزاً مسنة ، وكانت ذات بنات حسان ، وكانت ذات مال من إبل وبقر وغنم

وامرأة أخرى يقال لها صدوف بن المحيا بن دهر بن المحيا ، سيد بني عبيد وصاحب أوثانهم في الزمن الأول ، وكان الوادي يقال له وادي المحيا ، وهو المحيا الأكبر ، جد المحيا الأصغر أبي صدوف .

وكانت صدوف من أحسن الناس ، وكانت غنية ذات مال من إبل وغنم وبقر ، وكانتا من أشد امرأتين في ثمود عداوة لصالح ، وأعظمه به كفراً .

وكانتا تحتالان أن تُعقر الناقة مع كفرهما به ، لما أضرت به من مواشيهما .

وكانت صدوف عند ابن خال لها يقال له صنتم بن هراوة بن سعد بن الغطريف ، من بني هلس ، فأسلم وحسن إسلامه .

وكانت صدوف قد فوضت إليه مالها ، فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح ، حتى رق المال .

فاطلعت على ذلك من إسلامه صدوف ، فعاتبته على ذلك ، فأظهر لها دينه ، ودعاها إلى الله وإلى الإسلام فأبت عليه وبيّتت له ، فأخذت بنيه وبناته منه فغيبتهم في بني عبيد ، بطنها الذي هي منه .

وكان صنتم زوجها من بني هليل ، وكان ابن خالها ، فقال لها : ردي عليّ ولدي فقالت : حتى أنا فرك إلى بني صنعان بن عبيد أو إلى بني جندع بن عبيد ، فقال لهم صنتم : بل أنا فرك إلى بني مرداس بن عبيد ، وذلك أن بني مرداس بن عبيد كانوا قد سارعوا في الإسلام وأبطأ عنه الآخرون .

فقالت : لا أنا فرك إلا إلى من دعوتك إليه .

فقال بنو مرداس : والله لتعطِنّه ولده طائعة أو كارهة .

فلما رأت ذلك أعتطته إياهم .

ثم إن صدوف وعنيزة محلتا في عقر الناقة للشقاء الذي نزل ، فدعت صدوف رجلاً من ثمود يقال له الحُبَاب لعقر الناقة ، وعرضت عليه نفسها بذلك إن هو فعل فأبى عليها ، فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحيا ، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة . وكانت من أحسن الناس ، وكانت غنية كثيرة المال ، فأجابها إلى ذلك .

ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جندع ، رجلاً من أهل قُرْح ،

وكان قدار رجلاً أحمر أزرق قصيراً ، يزعمون أنه كان لزنية ، من رجل يقال له صهياد ، ولم يكن لأبيه سالف الذي يدعى إليه ، ولكنه قد ولد على فراش سالف ، وكان يدعى له وينسب إليه .

فقالت : أعطيتك أي : بناتي شئت ، على أن تعقر الناقة .

(156/276)

وكانت عنيزة شريفة من نساء ثمود ، وكان زوجها ذؤاب بن عَمْرو ، من أشراف رجال ثمود ، وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه .

فانطلق قدار بن سالف ، وصدع بن مهرج ، فاستنفرا غُواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نفر ، فكانوا تسعة نفر .

أحد النفر الذي اتبعوهما رجل يقال له ، هويل بن مبلغ خال قدار بن سالف ، أخو أمه لأبيها وأمها ، كان عزيزاً فيأهل حجر ، و دعير بن غنم بن داعر ، وهو من بني خلاوة بن المهل .

ودأب بن مهرج ، أخو مصدع بن مهرج ، وخمسة لم تحفظ لنا أسماؤهم .

فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قُدار في أصل شجرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل أخرى ، فمرت على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها ، وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها ، وكانت من أحسن الناس وجهاً ، فأسفرت لقدار وأرته إياه ، ثم ذمرت فشد على الناقة بالسيف فخشف عرقوبها ، فخرت ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها ، ثم طعن في لبتها فنحرها .

انطلق سقبها حتى أتى جبلاً منُيفاً ، ثم أتى صخرة في رأس الجبل فزعاً ولاذ بها ، وإسم الجبل فيما يزعمون صنو ، فأتاهم صالح ، فلما رأى الناقة قد عقرت ، قال انتهكتم حرمة الله ، فأبشروا بعذاب الله تبارك وتعالى ونقمته ، فاتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة ، وفيهم مصدع بن مهرج ، فرماه مصدع بسهم ، فانتظم قلبه ، ثم جر برجله فأنزله ، ثم ألقوا لحمه مع لحم أمه .

فلما قال لهم صالح : أبشروا بعذاب الله ونقمته ، قالوا له وهم يهزءون به : ومتى ذلك يا

صالح ؟ وما آية ذلك ؟ – وكانوا يسمون الأيام فيهم : الأحد أول ، والاثنين أهون ، والثلاثاء وبار ، والأربعاء جبار ، والخميس مؤمن ، والجمعة العروبة ، والسبت شيار ، وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء – فقال لهم صالح حين قالوا له

(157/276)

ذلك : تصبحون غداة يوم مؤمن ، يعني يوم الخميس ، ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم العروبة ، يعني يوم الجمعة ووجوهكم محمرة ، ثم تصبحون يوم شيار ، يعني يوم السبت ، وجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب يوم الأول ، يعني يوم الأحد .

فلما قال لهم صالح ذلك ، قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحاً ، إن كان صادقاً عجلناه ، قبلنا ، وإن كان كاذباً يكون قد ألحقناه بناقته .

فأتوه ليلاً ليبيّتوه في أهله ، فدمغتم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم ، أتوا منزل صالح فوجدهم مشدخين قد رُضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ! ثم هموا به . فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً ، فقد وعدكم أن العذاب نازل لكم في ثلاث ، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبا ، إن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون !

فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك ، والنفر الذين رضخهم الملائكة بالحجارة ، التسعة الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فأصبحوا من تلك الليلة التي انصرفوا فيها عن صالح ، وجوههم مصفرة ، فأيقنوا بالعذاب ، وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه ، وخرج صالح هارباً منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم بنو غنم ، فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له نفيل يكنى بأبي هدب ، وهو مشرك ، فغيبه ، فلم يقدروا عليه .

فغدوا على أصحاب صالح فعذبوهم ليدلوهم عليه ، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له ميدع بن هرم : يا نبي الله ، إنهم يعذبوننا لندلهم عليك ، أفندلهم عليك ؟ قال : نعم ، فدلهم عليه ميدع بن هرم .

فلما علموا بمكان صالح ، أتوا أبا هدب فكلموه فقال لهم : عندي صالح وليس لكم إليه سبيل ، فأعرضوا عنه وتركوه ، وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه .

(158/276)

فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم حين أصبحوا من يوم الخميس ، وذلك أن وجوههم أصبحت مصفرة ، ثم أصبحوا يوم الجمعة ووجوههم

محمرة ، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودة ، حتى إذا كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام ، فنزل رملة فلسطين ، وتخلف رجل من أصحابه يقال له ميدع بن هرم فنزل قُرح – وهي وادي القرى ، وبين القُرح وبين الحجر ثمانية عشر ميلاً – فنزل على سيدهم رجل يقال له عَمْرو بن غنم ، وقد كان أكل من لحم الناقة ولم يشرك في قتلها .

فقال له ميدع بن هرم : يا عَمْرو بن غنم ، أخرج من هذا البلد ، فإن صالحاً قال : من أقام فيه هلك ، ومن خرج منه نجا .

فقال عَمْرو : ما شركت في عقرها ، وما رضيت ما صُنع بها .

فلما كانت صبيحة الأحد ، أخذتهم الصيحة ، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك ، إلا جارية مُقعدة يقال لها الزُّريعة وهي الكلبة ابنة السلق ، كانت كافرة شديدة العداوة لصالح ، فأطلق الله لها رجليها بعدما عاينت العذاب أجمع ، فخرجت كأسرع ما يُرى شيء قط ، حتى أتت أهل قُرح فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود منه ، ثم استسقت من الماء فسُقيت ، فلما شربت ماتت .

الثاني : قال الرازي : زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل في حكاية هذه الواقعة اختلفت

، وهي الرجفة والطاغية والصيحة .

والجواب ما قاله أبو مسلم : إن الطاغية إسم لكل ما تجاوز حده ، سواء كان حيواناً أو غير حيوان ، وألحق الهاء به للمبالغة ، فالمسلمون يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت .

وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ . ويقال طغى طغياناً ، وهو طاغ وطاغية ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ ، أي : غلب وتجاوز عن الحد .

(159/276)

وأما الرجفة فهي الزلزلة في الأرض ، وهي حركة خارجة عن المعتاد ، فلم يبعد إطلاق إسم الطاغية عليها ، وأما الصيحة ، فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة .

وأما الصاعقة ، فالغالب أنها الزلزلة ، وكذلك الزجرة ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ . فبطل ما زعمه ذلك البعض .

الثالث : قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ، ومن تبعه رضي الله عنهم ، إلا أن رجلاً يقال له أبو رغال ، كان لما وقعت النقمة بقومه ، مقيماً إذ ذاك في الحرم ، فلم يصبه شيء ، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل ، جاءه حجر من السماء

فقتله .

روى الإمام أحمد عن جابر قال : لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال : < لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت – يعني الناقة – ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها ، فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه > .

قال ابن كثير : وهذا الحديث ليس في شي من الكتب الستة ، وهو على شرط مسلم .

وروى عبد الرزاق عن معمر : أخبرني إسماعيل بن أمية ، أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبر أبي رغال فقال : < أتدرون من هذا ؟ > قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : < هذا قبر أبي رغال ، رجل من ثمود ، كان في حرم الله ، فمنعه حرم الله عذاب الله ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ، فدفن ههنا ، ودفن معه غصن من ذهب > ، فنزل القوم ، فابتدروه بأسيافهم ، فبحثوا عنه ، فاستخرجوا الغصن .

وأبو رغال هو أبو ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، كما روي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم – أخرجه أبو داود وغيره . .

الرابع : ذكرنا قبل ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، سنة تسع ، وأمر أصحابه أن يدخلوا خاشعين وجلين أن يصيبهم ما أصاب أهلها ، ونهاهم أن يشربوا من مائها .

فروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس عام تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ، ونصبوا القدور باللحم . فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأهراقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذبوا ، وقال : < إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم > .

وروى أحمد والبخاري ومسلم عن ابن عمر قال : لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال : < ا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم > . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي .

وللبخاري ، أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها . فقالوا قد عجنا منها ، واستقينا ، فأمرهم النبي صلى

الله عليه وسلم أن يطرحوا ذلك العجين ، ويهريقوا ذلك الماء .

الخامس : قال ابن كثير : ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته ، كان يذهب فيقيم في الحرم ، حرم مكة ، والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا زَمْعَة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عِكْرِمَة عن ابن عباس قال : لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي عُسفان حين حج قال :

(161/276)

< يا أبا بكر ! أي : واد هذا ؟ > ، قال : هذا وادي عُسفان . قال : < لقد مر به هود وصالح على بكرات حُمر خُطُمها الليف ، أُزُرهم العباء ، وأرديتهم النِّمَار ، يُلبُّونَ ، يحجون البيت العتيق > .

قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، لم يخرجه أحد منهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 130 . 137 ﴾

(162/276)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(163/276)

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أَيْ وَأَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ وَالْوَطَنِ صَالِحًا . سُئِلَ الْإِمَامُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي لَيْلَى عَنِ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ يُقَالُ لَهُ أَخٌ ؟ قَالَ : الْأَخُ فِي الدَّارِ . وَاسْتَدَلَّ بِالْآيَةِ . رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ وَ (صَالِحًا) بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ لِـ (أَخَاهُمْ) وَتَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا التَّرْكِيبِ آنِفًا فِي قِصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَثَمُودُ قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ قِيلَ : سُمِّيَتْ بِاسْمِ جَدِّهِمْ ثَمُودَ بْنِ عَامِرِ بْنِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ . وَقِيلَ ابْنُ عَادِ بْنِ عَوْصِ بْنِ إِرَمَ . . وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ أَنَّهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ لِقِلَّةِ مَائِهِمْ ؛ فَالثَّمْدُ الْمَاءُ الْقَلِيلُ . وَثَمُودُ يُمْنَعُ مِنَ الصَّرْفِ بِإِرَادَةِ الْقَبِيلَةِ إِذْ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْعَلَمِيَّةُ وَالتَّأْنِيثُ وَيُصْرَفُ بِتَأْوِيلِ الْحَيِّ أَوْ بِاعْتِبَارِ الْأَصْلِ فَإِنَّهُ عَلَمٌ لِمُذَكَّرٍ وَكَانَتْ مَسَاكِنُهُمُ الْحِجْرَ (بِكَسْرِ

الْمُهْمَلَةِ -) بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ إلَى وَادِي الْقُرَى وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ إلَى الْآنَ . وَعَنْ الْحَافِظِ الْبَغَوِيِّ فِي نَسَبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ صَالِحُ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ أُسَيْفِ بْنِ مَاشِخَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ حَاذِرَ بْنِ ثَمُودَ . وَمِثْلُهُ فِي فَتْحِ الْبَارِي إلَّا أَنَّهُ ضَبَطَ حَاذِرَ بِالْجِيمِ حَاجِرَ ، وَزَادَ بَعْدَ ثَمُودَ بْنِ عَابِرِ بْنِ آدَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ .

(164/276)

(قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) قَدْ عَلِمْنَا مِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ وَأَسَالِيبِهِ فِي قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْعِبْرَةُ وَالْمَوْعِظَةُ بِبَيَانِ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْبَشَرِ وَهِدَايَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ لِأَنَّ حَوَادِثَ الْأُمَمِ وَضَوَابِطَ التَّارِيخِ مُرَتَّبَةٌ بِحَسَبِ الزَّمَانِ أَوْ أَنْوَاعِ الْأَعْمَالِ ، وَقَدْ حُكِيَ هُنَا عَنْ صَالِحٍ عَلَيْهِ

(165/276)

السَّلَامُ أَنَّهُ ذَكَرَ الْآيَةَ الَّتِي أَيَّدَهُ اللَّهُ بِهَا عَقِبَ ذِكْرِ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ ، وَفِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ هُودٍ أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُمُ الْآيَةَ بَعْدَ رَدِّهِمْ لِدَعْوَتِهِ ، وَتَصْرِيحِهِمْ بِالشَّكِّ فِي صِدْقِهِ ، وَزَادَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ

طَلَبَهُمُ الْآيَةَ مِنْهُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ وَمُرَادٌ ، وَهُوَ الْمَسْنُونُ الْمُعْتَادُ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ ذَلِكَ التَّفْصِيلِ وَهَذَا الْإِجْمَالِ ، وَالْمَرْوِيُّ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ (الْأَعْرَافَ) نَزَلَتْ بَعْدَ تَيْنِكَ السُّورَتَيْنِ فَتَفْصِيلُهُمَا لِإِجْمَالِهَا جَاءَ عَلَى الْأَصْلِ الْمَأْلُوفِ فِي كَلَامِ النَّاسِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُلْتَزَمٍ فِي الْقُرْآنِ ؛ عَلَى أَنَّ تَرْتِيبَ السُّوَرِ لَمْ يُرَاعَ فِيهَا تَرْتِيبُ نُزُولِهَا وَالْمَعْنَى : قَدْ جَاءَتْكُمْ آيَةٌ عَظِيمَةُ الْقَدْرِ ، ظَاهِرَةُ الدَّالَّةِ عَلَى مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ، فَتَنْكِيرُ الْآيَةِ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ – وَقَوْلُهُ : (مِنْ رَبِّكُمْ) لِلْإِعْلَامِ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِهِ وَلَا مِمَّا يَنَالُهَا كَسْبُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا يُؤَيِّدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الرُّسُلَ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فَلْيَعْتَبِرْ بِذَلِكَ الْجَاهِلُونَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الْخَوَارِقَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي كَسْبِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ هُمْ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا سِيَّمَا الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمُ الْأَقْطَابَ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي الْكَوْنِ ، وَلَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَمْ تَكُنْ خَوَارِقَ ، وَلَا آيَاتٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى دَالَّةً عَلَى تَصْدِيقِ الرُّسُلِ فِي دَعْوَى النُّبُوَّةِ ، وَعَلَى كَمَالِ اتِّبَاعِ مَنْ دُونَهُمْ لَهُمْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ

(166/276)

مِنَ الْهِدَايَةِ ؛ إِذْ كَسْبُ الْعِبَادِ مَا زَالَ يَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا بِتَفَاوُتِ قُوَى عَضَلِهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ ، وَقُوَى عُقُولِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ وَعَزَائِمِهِمْ ، وَتَفَاوُتِ عُلُومِهِمْ وَمَعَارِفِهِمْ وَلِذَلِكَ اشْتَبَهَتِ الْآيَاتُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ بِالسِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ ، وَمَا يَكُونُ فِي بَعْضِ النَّاسِ

مِنَ التَّأْثِيرِ لِعُلُوِّ الْهِمَّةِ وَقُوَّةِ الْإِرَادَةِ .

(هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً) هَذَا بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِلْبَيِّنَةِ ، أَيْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ تَعَالَى - أَضَافَهَا إِلَى اسْمِهِ الْكَرِيمِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهَا . وَقِيلَ : لِأَنَّهُ خَلَقَهَا عَلَى خِلَافِ سُنَنِهِ فِي خَلْقِ الْإِبِلِ وَصِفَاتِهَا ، وَقِيلَ : لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَالِكٌ . وَالْمَعْنَى : أُشِيرُ إِلَيْهَا حَالَ كَوْنِهَا آيَةً لَكُمْ خَاصَّةً لَكُمْ . وَبَيَّنَ مَعْنَى كَوْنِهَا آيَةً بِقَوْلِهِ :

(فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَ الْعَذَابَ الْعَظِيمَ فَهُوَ أَلِيمٌ وَعَظِيمٌ - وَفِي (هُودٍ) إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَ الْعَذَابَ بِالْقَرِيبِ ، وَهُوَ أَنَّهُ يَقَعُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ مَسِّهِمْ

(167/276)

إِيَّاهَا بِسُوءٍ وَكَذَلِكَ كَانَ . وَفِي سُورَةِ الْقَمَرِ : (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ) (54 : 28) وَفَسَّرَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : (هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) (26 : 155) وَهُوَ قَبْلَ الْوَعِيدِ عَلَى مَسِّهَا بِسُوءٍ . وَالشِّرْبُ بِكَسْرِ الْمُعْجَمَةِ مَا يُشْرَبُ . وَفِي سُورَةِ الشَّمْسِ : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا) (91 : 11 - 14) إِلَخْ . فَدَلَّ

مَجْمُوعُ الْآيَاتِ عَلَى أَنَّ آيَةَ اللهِ تَعَالَى فِي النَّاقَةِ أَلَّا يَتَعَرَّضَ لَهَا أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ بِسُوءٍ فِي نَفْسِهَا ، وَلَا فِي أَكْلِهَا وَلَا فِي شُرْبِهَا ، وَأَنَّ مَاءَ ثَمُودَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاقَةِ إذَا كَانَ مَاءً قَلِيلًا ، فَكَانُوا يَشْرَبُونَهُ يَوْمًا وَتَشْرَبُهُ هِيَ يَوْمًا وَوَرَدَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعِيضُونَ عَنْهُ فِي يَوْمِهَا بِلَبَنِهَا ، رُوِيَ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ ، فَأَمَّا الرِّوَايَةُ عَنِ الْأَوَّلِ فَهِيَ تَصْدُقُ بِمَاءٍ مَعِينٍ مَعْرُوفٍ كَانَ لِشُرْبِهِمْ خَاصَّةً ؛ إذْ ذُكِرَ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ مُعَرَّفًا وَثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الْآتِي مَرْفُوعًا .

(168/276)

وَأَمَّا الرِّوَايَةُ عَنِ الثَّانِي فَفِيهَا أَنَّ الْمَاءَ كَانَ لَهُمْ وَلِمَاشِيَتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَهُوَ بَعِيدٌ بَلْ مَنْقُوضٌ بِمَا فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ مِنْ تَعَدُّدِ عُيُونِ الْمَاءِ عِنْدَهُمْ ، وَهُوَ قَوْلُ صَالِحٍ لَهُمْ : (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ) (26 : 146 - 148) وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا أَنَّهُ كَانَ لَهُمْ آبَارٌ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَلَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ حِينَ مَرُّوا بِدِيَارِ قَوْمِ صَالِحٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ . وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْهَا وَيُهْرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا مِنْ غَيْرِهَا مِنْ تِلْكَ الْآبَارِ قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَقَدْ عَلِمَهَا بِالْوَحْيِ . وَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ يُحْتَجُّ بِهِ فِي خَلْقِ النَّاقَةِ مِنَ الصَّخْرَةِ أَوْ مِنْ هَضْبَةٍ مِنَ الْأَرْضِ كَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ .

وَالْمُتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْمُبَاحَةُ لِلْأَنْعَامِ أَنْ تَرْعَى مَا يَنْبُتُ فِيهَا مِنَ الْكَلَإِ وَغَيْرِهِ دُونَ مَا يَزْرَعُهُ النَّاسُ وَيَحْمُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَفِيهِ مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ

(169/276)

بَيْنَ نَاقَةِ اللهِ وَأَرْضِ اللهِ ، أَيْ : فَذَرُوا وَاتْرُكُوا نَاقَتَهُ تَأْكُلْ مِنْ أَرْضِهِ الَّتِي خَلَقَهَا وَأَبَاحَهَا لِخَلْقِهِ . وَالْمُتَبَادَرُ مِنْ تَنْكِيرِ السُّوءِ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ أَنَّ الْوَعِيدَ مُرَتَّبٌ عَلَى أَيِّ أَنْوَاعِ الْإِيذَاءِ لَهَا فِي نَفْسِهَا أَوْ أَكْلِهَا أَوْ شُرْبِهَا كَمَا تَقَدَّمَ فَكَيْفَ وَقَدْ عَقَرُوهَا ! .

(وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) أَيْ وَتَذَكَّرُوا إِذْ جَعَلَكُمُ اللهُ تَعَالَى خُلَفَاءَ لِعَادٍ فِي الْحَضَارَةِ وَالْعُمْرَانِ وَالْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، أَيْ أَنْزَلَكُمْ فِيهَا وَجَعَلَهَا مَبَاءَةً وَمَنَازِلَ لَكُمْ : تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا زَاهِيَةً ، وَدُورًا عَالِيَةً ، بِمَا حَذَقْتُمْ بِإِلْهَامِهِ تَعَالَى مِنْ فُنُونِ الصِّنَاعَةِ كَضَرْبِ الْآجُرِّ وَاللَّبِنِ وَالْجِصِّ وَهَنْدَسَةِ الْبِنَاءِ وَدِقَّةِ النِّجَارَةِ . وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ أَيْ بَعْضَهَا كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (مِنَ الْجِبَالِ) (26 : 149) بُيُوتًا بِمَا عَلَّمَكُمْ مِنْ فَنِّ النَّحْتِ ، وَآتَاكُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّبْرِ ، قِيلَ : إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْجِبَالَ فِي الشِّتَاءِ لِمَا فِي الْبُيُوتِ الْمَنْحُوتَةِ فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ الَّتِي لَا تُؤَثِّرُ فِيهَا الْأَمْطَارُ وَالْعَوَاصِفُ ، وَيَسْكُنُونَ السُّهُولَ فِي

سَائِرِ الْفُصُولِ لِأَجْلِ الزِّرَاعَةِ وَالْعَمَلِ ، وَلَمْ تَكُنِ الْقُصُورُ فِيهَا مَتِينَةً وَلَا الطُّرُقُ مَرْصُوفَةً ، بِحَيْثُ يَرْتَاحُ سُكَّانُهَا فِي أَيَّامِ الْأَمْطَارِ الشَّدِيدَةِ .

(170/276)

(فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) أَيْ فَتَذَكَّرُوا نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَاشْكُرُوهَا لَهُ بِتَوْحِيدِهِ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ ، وَاسْتِعْمَالِهَا فِيمَا فِيهِ صَلَاحُكُمْ ، وَلَا تَسْتَبْدِلُوا الْكُفْرَ بِالشُّكْرِ فَتَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . يُقَالُ : عَثَى يَعْثَى وَعَثِيَ يَعْثِي ، " مِنْ بَابَيْ ضَرَبَ وَعَلِمَ " عَثْيًا وَعَثَيَانًا وَعَثَا يَعْثُو عَثْوًا بِمَعْنَى أَفْسَدَ وَكَفَرَ وَتَكَبَّرَ وَمِثْلُهُ مَقْلُوبَةٌ : عَاثَ يَعِيثُ عَيْثًا وَعَيَثَانًا . وَفِيهِ مَعْنَى الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ مَعَ الْإِفْسَادِ وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْعَيْثُ وَالْعَثْيُ يَتَقَارَبَانِ نَحْوَ جَذَبَ وَجَبَذَ إِلَّا أَنَّ الْعَيْثَ أَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي الْفَسَادِ الَّذِي يُدْرَكُ حِسًّا ، وَالْعَثْيُ فِيمَا يُدْرَكُ حُكْمًا اهـ . وَالْمَعْنَى : وَلَا تَتَصَرَّفُوا فِي هَذِهِ النِّعَمِ تَصَرُّفَ عَثَيَانٍ وَكُفْرٍ بِمُخَالَفَةِ مَا يُرْضِي اللَّهَ فِيهَا حَالَ كَوْنِكُمْ مُتَّصِفِينَ بِالْإِفْسَادِ ثَابِتِينَ عَلَيْهِ . وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ : إِنَّ مُفْسِدِينَ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ ، وَالصَّوَابُ أَنَّهَا تُفِيدُ مَعْنًى زَائِدًا عَلَى التَّأْكِيدِ كَمَا عَلِمْتَ .

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا

مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ) مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى بِأَنْ يَسْبِقَ الْفُقَرَاءُ الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَى إِجَابَةِ دَعْوَةِ الرُّسُلِ وَاتِّبَاعِهِمْ وَإِلَى كُلِّ دَعْوَةِ إِصْلَاحٍ؛ لِأَنَّهُ

(171/276)

لَا يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا تَبَعًا لِغَيْرِهِمْ وَأَنْ يَكْفُرَ بِهِمْ أَكَابِرُ الْقَوْمِ الْمُتَكَبِّرُونَ ، وَالْأَغْنِيَاءُ الْمُتْرَفُونَ ؛ لِأَنَّهُ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا مَرْءُوسِينَ ، وَأَنْ يَخْضَعُوا لِلْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي تُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْإِسْرَافَ الضَّارَّ . وَتُوقِفُ شَهَوَاتِهِمْ عِنْدَ حُدُودِ الْحَقِّ وَالِاعْتِدَالِ . وَعَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ جَرَى الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ فِي قَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قِيلَ : إِنَّ السُّؤَالَ لِلتَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ

وَلَا مَانِعَ مِنْ جَعْلِهِ اسْتِفْهَامًا حَقِيقِيًّا إِذْ سَأَلُوهُمْ عَنِ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ مُرْسَلٌ لِارْتِيَابِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ عَنْ عِلْمٍ بُرْهَانِيٍّ ، وَتَجْوِيزِهِمْ أَنْ يَكُونَ عَنِ اسْتِحْسَانٍ مَا وَتَفْضِيلٍ لَهُ عَلَيْهِمْ . وَاخْتِيَارٍ لِرِيَاسَتِهِ عَلَى رِيَاسَتِهِمْ .

(172/276)

(قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) أَيْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ دُونَ مَا يُخَالِفُهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْفَسَادِ مُصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى وَمُذْعِنُونَ لَهُ بِالْفِعْلِ . فَإِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ الَّذِي يَجْزِمُ بِهِ الْعَقْلُ . وَيَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ . وَتَخْضَعُ لَهُ الْإِرَادَةُ ، وَتَعْمَلُ بِهَدْيِهِ الْجَوَارِحُ ، وَكَانَ مُقْتَضَى مُطَابَقَةِ الْجَوَابِ لِلسُّؤَالِ أَنْ يَقُولُوا نَعَمْ ، أَوْ نَعْلَمُ أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ، أَوْ إِنَّا بِرِسَالَتِهِ عَالِمُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَجَابُوا بِمَا يَسْتَلْزِمُ هَذَا الْمَعْنَى وَيَزِيدُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَلِمُوا بِذَلِكَ عِلْمًا يَقِينِيًّا إِذْعَانِيًّا لَهُ السُّلْطَانُ عَلَى عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ، إِذْ آمَنُوا بِهِ إِيمَانًا صَادِقًا كَامِلًا صَارَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِمُ الرَّاسِخَةِ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْهَا أَعْمَالُهُمْ ، وَمَا كُلُّ مَنْ يَعْلَمُ شَيْئًا يَصِلُ عِلْمُهُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ . بَلْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْلَمُ الشَّيْءَ بِالْبُرْهَانِ وَهُوَ يَنْفُرُ مِنْهُ بِالْوُجْدَانِ . فَيَجْحَدُهُ وَيُحَارِبُهُ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهِ . اسْتِكْبَارًا عَنْهُ أَوْ حَسَدًا لِأَهْلِهِ (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (27 : 14) .

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) وَلَمْ يَقُولُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ كَافِرُونَ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ أَصْلِ الرِّسَالَةِ لَهُ ، وَلَوْ قَالُوهُ لَكَانَ شَهَادَةً مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ جَاحِدُونَ لِلْحَقِّ عَلَى عِلْمٍ لِمَحْضِ الِاسْتِكْبَارِ .

(فَعَقَرُوا النَّاقَةَ) أَصْلُ الْعَقْرِ الْجَرْحُ ، وَعَقْرُ الْإِبِلِ قَطْعُ قَوَائِمِهَا ، وَكَانُوا يَعْقِرُونَ الْبَعِيرَ قَبْلَ نَحْرِهِ لِيَمُوتَ فِي مَكَانِهِ وَلَا يَنِدَّ ، ثُمَّ صَارَ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى النَّحْرِ ، وَهُوَ طَعْنُهُ فِي الْمَكَانِ الْمَعْرُوفِ مِنْ حَلْقِهِ بِالْمَنْحَرِ . أُسْنِدَ الْعَقْرُ إلَى هَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْكَافِرِينَ ، وَقِيلَ : إلَى جَمِيعِ الْكُفَّارِ مِنَ الْقَبِيلَةِ - وَالْمُتَعَاطِي لَهُ

وَاحِدٌ مِنْهُمْ - لِأَنَّهُ بِتَوَاطُئِهِمْ وَرِضَاهُمْ كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْقَمَرِ : (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ) (54 : 29) وَفِي حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ مَرْفُوعًا " فَانْتَدَبَ لَهَا رَجُلٌ ذُو عِزٍّ وَمَنْعَةٍ فِي قَوْمِهِ كَأَبِي زَمْعَةَ " وَمِثْلُ هَذَا مِنْ أَعْمَالِ الْأُمَمِ يُنْسَبُ إلَيْهَا فِي جُمْلَتِهَا ، كَمَا أَنَّهَا تُعَاقَبُ عَلَيْهِ فِي جُمْلَتِهَا ، وَلَوْ بَقِيَ الصَّالِحُونَ فِيهَا لَأَصَابَهُمُ الْعَذَابُ (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (8 : 25) وَقَدْ رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ عَاقِرَ النَّاقَةِ قَالَ : لَا أَقْتُلُهَا حَتَّى تَرْضَوْا أَجْمَعِينَ فَجَعَلُوا يَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ فِي خِدْرِهَا فَيَقُولُونَ : أَتَرْضِينَ ؟ فَتَقُولُ : نَعَمْ ، وَعَلَى الصَّبِيِّ . . . حَتَّى رَضُوا أَجْمَعِينَ فَعَقَرُوهَا .

(174/276)

(وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ) أَيْ تَمَرَّدُوا مُسْتَكْبِرِينَ عَنِ امْتِثَالِ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، ضُمِّنَ الْعُتُوُّ مَعْنَى الِاسْتِكْبَارِ ، وَالْعُتُوُّ فِي اللُّغَةِ : التَّمَرُّدُ وَالِامْتِنَاعُ ، وَيَكُونُ عَنْ ضَعْفٍ وَعَجْزٍ وَمِنْهُ عَتَا

الشَّيْخُ وَبَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا : إِذَا أَسَنَّ فَامْتَنَعَ مِنَ الْمُوَاتَاةِ عَلَى مَا يُرَادُ مِنْهُ – وَعَنْ قُوَّةٍ وَعُتُوٍّ كَوَصْفِ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ بِالْعَاتِيَةِ ، وَمِنْهُ عُتُوُّ الْجَبَّارِينَ وَالْمُسْتَكْبِرِينَ ، وَتُوصَفُ النَّخْلَةُ الْعَالِيَةُ بِالْعَاتِيَةِ لِامْتِنَاعِهَا عَلَى مَنْ يُرِيدُ جَنَاهَا إِلَّا بِمَشَقَّةِ التَّسَلُّقِ وَالصُّعُودِ . رَوَى أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ بِإِسْنَادٍ حَسَّنَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحِجْرِ قَالَ : " لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ وَكَانَتِ النَّاقَةُ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَكَانَتْ تَشْرَبُ يَوْمًا وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا ، فَعَقَرُوهَا فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللَّهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ – وَهُوَ أَبُو رُغَالٍ – فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ .

(175/276)

(وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) نَادَوْهُ بِاسْمِهِ تَهْوِينًا لِشَأْنِهِ وَتَعْرِيضًا بِمَا يَظُنُّونَ مِنْ عَجْزِهِ ، وَقَالُوا ! ائْتِنَا بِمَا أَوْعَدْتَنَا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَلَا تَزَالُ مُصِرًّا عَلَيْهِ وَمُعَلِّقًا لَهُ عَلَى مَسِّ النَّاقَةِ بِسُوءٍ – إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَدَّعِي أَنَّ وَعِيدَكَ تَبْلِيغٌ عَنْهُ – وَاسْتَعْمَلَ الْوَعْدَ فِي الشَّرِّ لِأَنَّهُ عَامٌّ .

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) الرَّجْفَةُ الْمَرَّةُ مِنَ الرَّجْفِ ، وَهُوَ الْحَرَكَةُ وَالِاضْطِرَابُ يُقَالُ رَجَفَ

الْبَحْرُ إِذَا اضْطَرَبَتْ أَمْوَاجُهُ ، وَرَجَفَتِ الْأَرْضُ زُلْزِلَتْ وَاهْتَزَّتْ وَرَجَفَ الْقَلْبُ وَالْفُؤَادُ مِنَ الْخَوْفِ ، وَفِي حَدِيثِ الْوَحْيِ : فَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ يَرْجُفُ بِهَا فُؤَادُهُ ، وَفِي سُورَةِ هُودٍ : (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) (11 : 67) وَنَحْوِهِ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ . وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ اللَّفْظَيْنِ وَالْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . فَقِيلَ :

(176/276)

الصَّيْحَةُ صَيْحَةُ جِبْرِيلَ رَجَفَتْ مِنْهَا قُلُوبُهُمْ ، وَقِيلَ : بَلِ الرَّجْفَةُ الزَّلْزَلَةُ أَخَذَتْهُمْ مِنْ تَحْتِهِمْ ، وَالصَّيْحَةُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَجَعَلَ الزَّمَخْشَرِيُّ الصَّيْحَةَ سَبَبًا ، لِلزَّلْزَلَةِ وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ مِثْلَ السَّيِّدِ الْآلُوسِيِّ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ وَاسِعُ الِاطِّلَاعِ يَنْقُلُ هَذِهِ الْأَقْوَالَ وَيَجْمَعُ بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ بِمَا ذَكَرَ ، وَيُصَحِّحُ بِحَقِّ التَّعْبِيرِ عَنِ الصَّيْحَةِ الْعَظِيمَةِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ بِالطَّاغِيَةِ ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ ، وَيَنْسَى كَالَّذِينَ نَقَلَ عَنْهُمْ أَنَّهَا الصَّاعِقَةُ وَهِيَ الْأَصْلُ كَمَا وَرَدَ فِي سُورَةِ : " حم السَّجْدَةِ - فُصِّلَتْ " وَفِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ) (41 : 17) وَالثَّانِي : (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ) (51 : 44) وَلِنُزُولِ الصَّاعِقَةِ صَيْحَةٌ شَدِيدَةُ الْقُوَّةِ وَالطُّغْيَانِ ، تَرْجُفُ مِنْ وَقْعِهَا الْأَفْئِدَةُ وَتَضْطَرِبُ أَعْصَابُ الْأَبْدَانِ ، وَرُبَّمَا اضْطَرَبَتِ الْأَرْضُ وَتَصَدَّعَ مَا فِيهَا مِنْ بُنْيَانٍ وَسَبَبُهَا

اشْتِعَالٌ يُحْدِثُهُ اللهُ تَعَالَى بِاتِّصَالِ كَهْرَبَائِيَّةِ الْأَرْضِ بِكَهْرَبَائِيَّةِ الْجَوِّ الَّتِي يَحْمِلُهَا السَّحَابُ ، فَيَكُونُ لَهُ صَوْتٌ كَالصَّوْتِ الَّذِي يُحْدِثُهُ بِاشْتِعَالِ قَذَائِفِ الْمَدَافِعِ وَتَأْثِيرِهِ فِي الْهَوَاءِ ، وَهَذَا الصَّوْتُ هُوَ الْمُسَمَّى بِالرَّعْدِ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ ، وَأَمَّا الصَّاعِقَةُ فَهِيَ الشَّرَارَةُ الْكَهْرَبَائِيَّةُ الَّتِي تَتَّصِلُ بِالْأَرْضِ فَتُحْدِثُ فِيهَا تَأْثِيرَاتٍ عَظِيمَةً

(177/276)

بِقَدْرِهَا ، كَصَعْقِ النَّاسِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَمَوْتِهِمْ ، وَهَدْمِ الْمَبَانِي أَوْ تَصْدِيعِهَا ، وَإِحْرَاقِ الشَّجَرِ وَالْمَتَاعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . هَذَا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُ الْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَمِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى صِحَّتِهِ أَنَّ عِلْمَهُمْ بِسُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِيهِ هَدَاهُمْ إِلَى اتِّقَاءِ ضَرَرِ الصَّوَاعِقِ فِي الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ بِوَضْعِ مَا يُسَمُّونَهُ قَضِيبَ الصَّاعِقَةِ عَلَيْهَا ، فَيَمْتَنِعُ بِسُنَّةِ اللهِ نُزُولُهَا بِهَا . يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ الْقَادِرُ الْمُقَدِّرُ قَدْ جَعَلَ هَلَاكَهُمْ فِي وَقْتٍ سَاقَ فِيهِ السَّحَابَ الْمُتَشَبِّعَ بِالْكَهْرَبَاءِ إِلَى أَرْضِهِمْ بِأَسْبَابِهِ الْمُعْتَادَةِ ، كَمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَلَقَ تِلْكَ الصَّاعِقَةَ لِأَجْلِهِمْ عَلَى سَبِيلِ خَرْقِ الْعَادَةِ ، وَأَيًّا مَا كَانَ الْوَاقِعُ فَالْآيَةُ قَدْ وَقَعَتْ وَصَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ فِي إِنْذَارِ قَوْمِهِ .

(فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) دَارُ الرَّجُلِ مَا يَسْكُنُهُ هُوَ وَأَهْلُهُ " مُؤَنَّثَةٌ " وَتَكُونُ مُشْتَمِلَةً عَلَى عِدَّةِ بُيُوتٍ ، وَالْبَلَدُ دَارٌ لِأَهْلِهِ ، وَدَارُ الْإِسْلَامِ الْوَطَنُ الَّذِي تُنَفَّذُ فِيهِ شَرَائِعُهُ وَهِيَ دَارُ

الْعَدْلِ الَّذِي يُقِيمُهُ الْإِمَامُ الْحَقُّ ، وَيُقَابِلُهَا دَارُ الْكُفْرِ وَدَارُ الْحَرْبِ . وَالْجُثُومُ لِلْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ كَالْبُرُوكِ لِلْإِبِلِ ، فَالْأَوَّلُ وُقُوعُ النَّاسِ عَلَى رُكَبِهِمْ وَخُرُورُهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، وَالثَّانِي وُقُوعُ الطَّيْرِ لَاطِئَةً بِالْأَرْضِ فِي حَالِ

(178/276)

سُكُونِهَا بِاللَّيْلِ ، أَوْ قَتْلِهَا فِي الصَّيْدِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا وَقَدْ وَقَعَتِ الصَّاعِقَةُ بِهِمْ أَنْ سَقَطُوا مَصْعُوقِينَ ، وَجَثَمُوا هَامِدِينَ خَامِدِينَ . " وَأَصْبَحُوا " إِمَّا بِمَعْنَى صَارُوا وَإِمَّا بِمَعْنَى دَخَلُوا فِي وَقْتِ الصَّبَاحِ أَيْ حَالَ كَوْنِهِمْ جَاثِمِينَ .

(179/276)

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) فِي سُورَةِ هُودٍ أَنَّ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْهَلَ قَوْمَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَتَمَتَّعُونَ فِيهَا بَعْدَ عَقْرِ النَّاقَةِ ، فَلَمَّا انْتَهَتْ أَنْجَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَأَنْزَلَ الْعَذَابَ بِالْبَاقِينَ الظَّالِمِينَ بَعْدَ إِنْجَائِهِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْإِنْجَاءُ مِنْ عَذَابِ صَيْحَةِ الصَّاعِقَةِ الطَّاغِيَةِ الْمُتَجَاوِزَةِ لِلْحَدِّ

الْمُعْتَادِ بِالْبُعْدِ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ تَوَلَّى عَنْهُمْ عَقِبَ هَلَاكِهِمْ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْعَطْفُ بِالْفَاءِ ، وَالْمَعْهُودُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ تَتَقَدَّمَ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى مَا قَبْلَهَا فِي الذِّكْرِ ، كَتَقَدُّمِ مَدْلُولِهَا بِالْفِعْلِ ، وَلَكِنْ عُهِدَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تَرْكُ التَّرْتِيبِ بَيْنَ الْمَعَانِي لِنُكَتٍ فِي الْكَلَامِ ، وَلَا سِيَّمَا كَلَامٌ يُعْرَفُ فِيهِ التَّرْتِيبُ بِالضَّرُورَةِ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهَا فِي الظُّهُورِ ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمُ الْآيَتَيْنِ هُنَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ مِنْ إِعْذَارِ صَالِحٍ إِلَى قَوْمِهِ بِإِبْلَاغِهِمُ الرِّسَالَةَ وَمَحْضِهِمُ النَّصِيحَةَ ، وَمِنْ تَسْجِيلِهِ عَلَيْهِمْ أَفْنَ الرَّأْيِ وَفَسَادَ الْأَخْلَاقِ بِكُرْهِ النَّاصِحِينَ وَعَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِهِمْ - إِنَّمَا يَكُونُ قَبْلَ التَّوَلِّي وَالِانْصِرَافِ عَنْهُمْ أَوْ عِنْدَهُ وَلَكِنْ فِي حَالِ حَيَاتِهِمْ .

(180/276)

وَفِيهِ أَنَّ هَذَا وَإِنْ كَانَ هُوَ الْأَصْلَ الَّذِي سَبَقَ مِثْلُهُ فِي قِصَّتَيْ نُوحٍ وَهُودٍ ، إِلَّا أَنَّ مِثْلَهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَهُ طَرِيقٌ مَسْلُوكٌ ، وَأُسْلُوبٌ مَعْهُودٌ ، وَآخَرُ مَرْوِيٌّ مَأْثُورٌ .

فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَمَا يَقُولُهُ الْمُتَحَسِّرُ عَلَى مَنْ مَاتَ جَانِيًا عَلَى حَيَاتِهِ بِالسُّكْرِ وَنَحْوِهِ ، الْمُعَزِّي لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يُقَصِّرْ فِي دَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُ ، وَالْمُتَحَزِّنُ لِعَدَمِ قَبُولِهِ مَا بَذَلَ مِنَ النُّصْحِ لَهُ : أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذِهِ الْمُسْكِرَاتِ ؟ أَلَمْ أُحَذِّرْكَ عَاقِبَةَ هَذِهِ الْمُخَدِّرَاتِ فَمَاذَا أَفْعَلُ إِذَا كُنْتَ

تُفَضِّلُ لَذَّةَ السَّاعَاتِ وَالْأَيَّامِ ، عَلَى هَنَاءِ الْمَعِيشَةِ الْمُعْتَدِلَةِ فِي عَشَرَاتِ الْأَعْوَامِ ؟ وَنَحْوَ هَذَا مِمَّا يُقَالُ فِي أَحْوَالِ الْحُزْنِ الْمُخْتَلِفَةِ خِطَابًا لِلْمَوْتَى بِحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ ، بَلْ عُهِدَ مِنْهُمْ مُخَاطَبَةُ الدِّيَارِ ، وَالطُّلُولِ وَالْآثَارِ .

وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ مَا وَرَدَ مِنْ نِدَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِبَعْضِ قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ بَعْدَ دَفْنِهِمْ فِي الْقَلِيبِ "يَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانٍ ! وَفُلَانُ ابْنَ

(181/276)

فُلَانٍ ! أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ " قَالَ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ رَاوِي هَذَا الْحَدِيثِ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ لَهَا ؟ - أَوْ فِيهَا - فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ طَرِيقِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ثُمَّ قَالَ : قَالَ قَتَادَةُ أَحْيَاهُمُ اللهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنِقْمَةً حَسْرَةً وَنَدَمًا اهـ . قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَمِثْلُ هَذَا مِمَّا خَصَّ اللهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ ، وَلَكِنَّ بَعْضَ الْمُتَعَذِّرِينَ لِعُبَّادِ الْقُبُورِ بِدُعَاءِ أَصْحَابِهَا لِقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ يَقِيسُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَا وَرَدَ مِنْ حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالشُّهَدَاءِ فِي الْبَرْزَخِ أَنَّ كُلَّ

مَنْ دَعَا مَيِّتًا مِنَ الصَّالِحِينَ يَسْمَعُ مِنْهُ وَيَقْضِي حَاجَتَهُ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ أُمُورَ عَالَمِ الْغَيْبِ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْخَصَائِصِ الَّتِي لَا يَجْرِي الْقِيَاسُ فِيهَا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 445.452 ﴾

(182/276)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾

والفاء في قوله : ﴿ فتولى عنهم ﴾ عاطفة على جملة : ﴿ فعقروا الناقة ﴾ [الأعراف : 77] والتّولي الانصراف عن فراق وغضب ، ويطلق مجازاً على عدم الاكتراث بالشّيء ، وهو هنا يحتمل أن يكون حقيقة فيكون المراد به أنّه فارقَ ديار قومه حين علم أنّ العذاب نازل بهم ، فيكون التّعقيب لقوله : ﴿ فعقروا الناقة ﴾ [الأعراف : 77] لأن ظاهر تعقيب التّوليَ عنهم وخطابه إياهم أن لا يكون بعد أن تأخذهم الرّجفة وأصبحوا جاثمين . ويحتمل أن يكون مجازاً بقرينة الخطاب أيضاً ، أي فأعرض عن النّظر إلى القرية بعد اصابتها بالصّاعقة ، أو فأعرض عن الحَزن عليهم واشتغل بالمؤمنين كما قال تعالى : ﴿ لعلّك باخع

نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء : 3] .

فعلى الوجه الأول يكون قوله : ﴿ يا قومِ لقد أبلغتكم ﴾ إلخ مستعملاً في التّوبيخ لهم والتّسجيل عليهم ، وعلى الوجه الثّاني يكون مستعملاً في التحَسر أو في التّبرىء منهم ، فيكون النّداء تَحسر فلا يقتضي كونَ أصحاب الاسم المنادَى ممّن يعقل النّداء حينئذ ، مثل ما تنادَى الحسرة في : يا حسرة .

وقوله : ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ﴾ تفسيره مثل تفسير قوله في قصّة نوح عليه السّلام : ﴿ أبلّغكم رسالات ربي وأنصح لكم ﴾ [الأعراف : 62] واللاّم في (لقد) لام القسم ، وتقدّم نظيره عند قوله : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ [الأعراف : 59] .

(183/276)

والاستدراك بـ (لكن) ناشىء عن قوله : ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحتُ لكم ﴾ لأنّه مستعمل في التّبرّؤ من التقصير في معالجة كفرهم ، سواء كان بحيث هم يسمعونه أم كان قاله في نفسه ، فذلك التّبرّؤُ يؤذن بدفع توهّم تقصير في الإبلاغ والنّصيحة لإنعدام ظهور فائدة الابلاغ والنّصيحة ، فاستدرك بقوله : ﴿ ولكن لا تحبّون النّاصحين ﴾ ، أي تكرهون النّاصحين فلا تطيعونهم في نصحهم ، لأنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع ، فأراد بذلك الكناية عن

رفضهم النّصيحة .

واستعمال المضارع في قوله : ﴿ لا تحبّون ﴾ إن كان في حال سماعهم قولَه فهو للدّلالة على التّجديد والتّكرير ، أي لم يزل هذا دأبكم فيكون ذلك آخر علاج لإقلاعهم إن كانت فيهم بقيّه للإقلاع عمّا هم فيه ، وإن كان بعد انقضاء سماعهم فالمضارع لحكاية الحال الماضية مثلها في قوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرّياح فتثير سحاباً ﴾ [فاطر : 9] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(184/276)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79) ﴾

فهل كان سيدنا صالح يخاطبهم وهم موتى ؟ . نعم يخاطبهم إنصافاً لنفسه وإبراء لذمته ، مثلما يقع واحد في ورطة فيقول له صديقه : لا أملك لك شيئاً الآن : فقد نصحتك من قبل . أو أن شريراً قد قتل ، فتقول له : " ياما نصحتك " . وأنت تتكلم لكي تعطي لنفسك براءة العذر ، " أو كما فعل صلى الله عليه وسلم مع قتلى بدر وناداهم واحداً واحداً بعد

أن ألقوا جثثهم في قليب بدر ، وقال صلى الله عليه وسلم : يا أهل القليب ، يا فلان ، يا فلان ، يا فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، فقال الصحابة :

- أو تكلمهم يا رسول الله وقد جيَّفوا . قال : والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني " .

وكأن سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحنن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله ، لكنهم لم يستمعوا للنصح . ولم يحبوا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر ، وعندما ينصحه أحد يغضب عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(185/276)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى فى قصة صالح : "فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين " وقال فى قصة شعيب عليه السلام : "الذين كذبوا شعيبا كأن

لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين "

للسائل أن يسأل ويقول : إذا كان كل من الرسل عليهم السلام قد أبلغ قومه ما أرسل به وكلهم فى أداء تلك الأمانة وحفظها على نهج سواء من غير تفاضل فى هذا – أعنى الأمانة والإبلاغ والعصمة فى ذلك – وإنما التفاضل بأشياء غير ما ذكر فإذا تساووا فيما ذكر وكلهم أمر بإفراد الله سبحانه بالعبادة واتقاء عذابه بالتزام الطاعات وامتثال الأوامر والنواهى وكلهم أمر ونهى وأوضح لقومه طريق النجاة وحذرهم من المهالك ووصف كل واحد منهم ربسول ووصف ما جاء به بالرسالة فالإفراد محصل للمقصود فما وجه الجمع فى قوله فى قصة شعيب عليه السلام : "أبلغتكم رسالات ربى " ولم لم يرد على الإفراد كما ورد فى قصة صالح ؟

(186/276)

والجواب : أن العرب تراعى فى أجوبتها ما نيتها عليه من سؤال أو غيره ، إن إطالة فإطالة أو إيجاز فإيجاز فأجوبتهم مراعى فيها المعنى ملحوظ فيما وردت جوابا له ولما ورد فى دعاء شعيب عليه السلام تفصيل فى الأمر والنهى والتحذير ألا ترى قوله بعد أمرهم

بتوحيد الله : "قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها " ثم قال : "ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا " وذكرهم بتكثيرهم بعد القلة فقال : "واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم " وإن يتذكروا حلا من تقدمهم ممن كذب فقال : "وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين " وورد عقب هذا من قول قومه له فى قوله تعالى حاكيا عنهم : "لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودون فى ملتنا " وقولهم : "لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون " وقد انطوى هذا الكلام من التعريف بقبيح ردهم وشنيه مرتكبهم فى مجاوبتهم على أعظم اجترام ، فحصل فى هذا من خطابه إياهم وما ردوا به وجاوبوه عليه السلام إطناب فى العبارة وإمعان فيما تحتها من المعانى فى كلا الضربين فناسب ذلك الجمع فى قوله : "أبلغكم رسالات ربى " أما قصى صالح عليه السلام فلم يقع فيها بعد أمرهم بالعبادة غير تعريفهم بأمر الناقة وأمرهم برعيها وتذكيرهم بقوم هود فى قوله : "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد . . . "الآية ولم تنفصل مكالمته إياهم كتفصيل ما تقدم وأما المحكى عنهم من جوابهم فقوله تعالى مخبرا عنهم من قول كافريهم لمن آمن منهم : "إنا بالذى آمنتم به كافرون " وقولهم : "ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين " فليس هذا مثل المتقدم من جواب قوم شعيب له فى المحكى من العبارة ولا فيما تحتحته من المعنى فناسبه الإفراد الوارد فى قوله : "أبلغتكم رسالة ربى " .

فإن قلت فقد ورد : "أبلغكم رسالات ربى " بالجمع فى قصة نوح وهود عليهما السلام ، ولم يتقدم فى القصتين إطناب ولا إطالة تقتضى ذلك فإن الوارد فى قصة نوح من قول قومه له قوله تعالى : "قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين " وهذا ليس كجواب قوم شعيب عليه السلام فى إطالته وإذا لم يكن فى ذلك طول فما وجه الجمع فى قوله : "رسالات ربى " ؟ ولم لم يفرد كما فى قصة صالح إذ هى شبيهتها فى الإيجاز ؟ فالجواب أن افظ الضلال وإن كان هنا لا يرادف الكفر حسبما تقدم وما يأتى فإنه يقتضى بحسب كليته وانتشار مواقعه مقتضيات عدة ، وأنهم لم يريدوا تخصيصه بقوله بعينه من قوله عليه السلام بل أرادوا أقوالا كثيرة مما أمرهم به ونهاهم عنه ومما حذرهم وأنذرهم من عذاب الآخرة حين قال لهم : "إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " فلانسحاب اسم الضلال على مسميات شتى كان فى وزان ما طال من الكلام فأشبه الواقع فى قصة شعيب عليه الصلاة والسلام قال الزمخشرى : "الضلال الذهاب عن طريق الصواب والحق "فكأنهم قد فصحوا بأن قالوا لا نعتمد قولك فى شئ ولا نعول عليه لأنك ذاهب فيه عن طريق الصواب والحق ويشهد لإرادتهم هذا التفصيل قول نوح عليه السلام فى رد مقالتهم : "ليس بى ضلالة " ولم يقل ليس

بى ضلال فينفى عين ما قالوه بل عدل إلى ما يدفع قليل ذلك وكثيره فى كل قضية قضية ، وإذا نفى وجود الضلال فى كل واحدة من تلك القضايا بعد انتفاء الضلال عن كلها وبرئت ذمته الرفيعة عن الاتصاف بشئ مما رموه به ومثله الزمخشرى بجواب من قيل له : "ألك ثمر فقال ولا ثمرة واحدة " وهو تنظير حسن فقد حصل إطناب وتفصيل فى المعنى ولطول المجاورة بينه وبين قومه ما قالوه له فى آخر مقالهم : "قد جادلتنا فأكثرت جدالنا "فلهذا قال : "أبلغكم رسالات ربى " فجمع فكأنه عليه السلام يقول : كل قضية أبلغتكم إياها فربى أرسلنى بها وكل منها رسالة أرسلت بها إليكم محفوظا فى ذلك بعصمة الله إياى منزها عما

(188/276)

توهمتم من الضلال ثم أتبع

بقوله : "وأعلم من الله مالا تعلمون " يريد مما منعكم من تصديقى فيه ما رميتمونى به من الضلال فرد عليه السلام قولهم بألطف رد وأرفقه بقوله : "وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون " وفى طى هذا الكلام ما يفهم توبيخهم ويشير إلى تعاميهم وجهلهم فهو يرمى ما تمهد موضع جمع رسالة لما تحصل مما يفهمه النظم الجليل من التفصيل الذى به يتم المعنى المقصود

فكلامه عليه السلام مع ما بنى عليه من التفصيل الذى تضمنه جوابهم فليس كالوارد فى قصة صالح عليه السلام فى قضية خاصة والله أعلم .

ألا ترى قول ملإ قومه من كفارهم لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه فقصروا سؤالهم وخصوه بصحة الرسالة ثم قالوا للملإ من المؤمنين : "إنا بالذى آمنتم به كافرون " ثم بنوا على هذا سائر ما كان منهم من الكفر والعتو وعقر الناقة وإنما سألوا أولا ودار أمرهم على صحة إرساله عليه السلام فطابق ذلك الإفرد فى قوله : "أبلغتكم رسالة ربى " واما قول قوم هود فى جوابهم لنبيهم : "إنا لنراك فى سفاهة " والسفاهة الطيش وقلة الحلم فحال من اتصف بذلك كحال من اتصف بالضلال فلا يثبت على قول ولا يعتمد عليه فهذه كقضية قوم نوح فالجواب عنها كما تقدم فى تلك وكل وارد على ما يجب ويناسب والله سبحانه أعلم بما أراد .

(189/276)

فصل : قد تقدم لنا فى هذه الآية وفيما قبلها أن الضلال يقع ما دون الكفر فيكون مع شناعة فيما يقتضيه بوصفه وإن لم يرد به الكفر دون الإفصاح بلفظ الكفر إذ يصح أن يطلق على متصف بالإيمان برئ من الكفر وقد قال تعالى مخبرا عن إخوة يوسف فى قولهم لأبيهم عليه

السلام : "إنك لفى ضلالك القديم " وإنما أرادوا ما يرجع إلى خاطره عليه السلام برجائه يوسف وما يرجع إلى هذا وقد تكرر نحوه فى القرآن فاعلم أن الرسل عليهم السلام لم يجر أمرهم فى دعائهم أممهم إلى الإيمان اولا كما جرى آخرا وبنسبة ذلك جرى جواب أممهم فى مراجعتهم فى الأكثر فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام ابتدأوا دعاءهم الأمم بالتلطف والرفق والصبر وبذلك أمروا قال تعالى لموسى عليه السلام فى إرساله فرعون : "فقولا له قولا لينا " وهذا واضح والغال فى مجاوبة أممهم إنما جرى نسبة من هذا ألا ترى قول قوم نوح عليه السلام فى أول دعائه إياهم : "أنؤمن لك واتبعك الأرذلون " وظاهر هذا أنهم إنما أنفوا من الانقياد إلى أمره وقد سبقهم فى ذلك ضعفاؤهم ومن لم يروه بحسب التوهم الخيالى الضعيف أهلا أن يقتدى به وهذا كما قال غيرهم فى إخبار الله تعالى عنهم : "أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " وقول الآخرين : "لو كان خيرا ما سبقونا إليه " وهذا كله ليس إفصاحا بالتكذيب وإن أرادوه وكذا قول قوم نوح عليه السلام : "ما نراك إلا بشرا مثلنا " إلى ما اتبعوه من هذا وإنما أفصحوا بالتكذيب أخيرا قال تعالى فى أمر الكافة من الرسل حين توقف أممهم عن الاستجابة : "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا " وقال تعالى فى مكذبيهم : "فلما آسفونا انتقمنا منهم " وتأمل دعاء الرسل حيث دعوا أممهم والتدريج فيما جرى منهم وسير نبينا صلى الله عليه وسلم يلح لك هذا وهو أبين من أن

يطول بذكره فعلى هذا قلنا إن مقول قوم نوح فى أول جوابهم له : "إنا لنراك فى ضلال مبين "

ليس كقولهم أخيرا : "قد جادلتنا

(190/276)

فأكثرت جدالنا " وإنما قالوا : "بل

نظنكم كاذبين " بعد طول محاورة ثم إنهم لم يدعوا علما بما قالوه من ذلك بل أفصحوا بأن

ذلك ظن فالمراد والله أعلم بما رمى به قوم نوح نبيهم من الضلالة وإن تضمن من حيث

انتشار مواقع التفصيل واحتمل قصدهم الكفر وغيره ليس كما لو أفصحوا أولا فقالوا : إنك

كاذب أو كافر واعتبر هذا الذى أوجزته تجده أوضح شئ والله سبحانه أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 202 . 205 ﴾

(191/276)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن مطلب بن زياد قال : سألت عبد الله بن أبي ليلى عن اليهودي والنصراني يقال له أخ؟ قال : الأخ في الدار ، الا ترى قول الله ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ .

وأخرج سنيد وابن جرير والحاكم من طريق حجاج عن أبي بكر عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن عمرو بن خارجة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "كانت ثمود قوم صالح ، اعمرهم الله في الدنيا فأطال أعمارهم حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل منهم حي ، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً فنحتوها وجابوها وخرقوها ، وكانوا في سعة من معايشهم فقالوا : يا صالح ادع لنا ربك يخرج لنا آية نعلم أنك رسول الله . فدعا صالح ربه فأخرج لهم الناقة ، فكان شربها يوماً وشربهم يوماً معلوماً ، فإذا كان يوم شربها خلوا عنها وعن السماء وحلبوها لبناً ملأوا كل اناء ووعاء وسقاء ، حتى إذا كان يوم شربهم صرفوها عن الماء فلم تشرب منه شيئاً فملأوا كلَّ اناء ووعاء وسقاء .

فأوحى الله إلى صالح : إن قومك سيعقرون ناقتك . فقال لهم : فقالوا : ما كنا لنفعل . . . ! فقال لهم : أن لا تعقروها أنتم يوشك أن يولد فيكم مولود يعقرها . قالوا : فما علامة ذلك المولود ، فوالله لا نجده إلا قتلناه ؟ قال : فإنه غلام أشقر أزرق أصهب أحمر . وكان في المدينة شيخان عزيزان منيعان لاحدهما ابن يرغب به عن المناكح ، وللآخر ابنة لا يجد لها كفؤا ، فجمع بينهما مجلس فقال أحدهما لصاحبه : ما يمنعك أن تزوج ابنك ؟ قال : لا أجد له كفؤا ، قال : فإن ابنتي كفء له فانا أزوجك . فزوجه ، فولد بينهما مولود . وكان في المدينة ثمانية رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فلما قال لهم صالح : إنما يعقرها

مولود فيكم . اختاروا ثماني نسوة قوابل من القرية ، وجعلوا معهن شرطاً كانوا يطوفون في القرية فإذا نظروا المرأة تمخض نظروا ما ولدها ؟ إن كان غلاماً قلبنه فنظرن ما هو ؟ وإن كانت جارية أعرضن عنها .

(193/276)

فلما وجدوا ذلك المولود صرخت النسوة : هذا الذي يريد صالح رسول الله ، فأراد الشرط أن يأخذوه فحال جداه بينهم وقالوا : لو أن صالحاً أراد هذا قتلناه ، فكان شر مولود وكان يشب في اليوم شباب غيره في الجمعة ، ويشب في الجمعة شباب غيره في الشهر ، ويشب في الشهر شباب غيره في السنة ، فاجتمع الثمانية الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون وفيهم الشيخان ، فقالوا : استعمل علينا هذا الغلام لمنزلته وشرف جديه فكانوا تسعة ، وكان صالح لا ينام معهم في القرية ، كان يبيت في مسجده ، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكرهم ، وإذا أمسى إلى مسجده فبات فيه .

قال حجاج ، وقال ابن جريج : لما قال لهم صالح : إنه سيولد غلام يكون هلاككم على يديه قالوا : فكيف تأمرنا ؟ قال : آمركم بقتلهم : فقتلوهم إلا واحداً قال : فلما بلغ ذلك المولود قالوا : لو كنا لم نقتل أولادنا لكان لكل رجل منا مثل هذا ، هذا عمل صالح ، فأتمروا بينهم

بقتله وقالوا : نخرج مسافرين والناس يروننا علانية ، ثم نرجع من ليلة كذا من شهر كذا وكذا فنرصده عند مصلاه فنقتله فلا يحسب الناس إلا أنا مسافرون كما نحن ، فاقبلوا حتى دخلوا تحت صخرة يرصدونه ، فأرسل الله عليهم الصخرة فرضختهم فاصبحوا رضخاً ، فانطلق رجال ممن قد اطلع على ذلك منهم فإذا هم رضخ ، فرجعوا يصيحون في القرية : أي عباد الله أما رضي صالح إن أمرهم أن يقتلوا أولادهم حتى قتلهم ؟ ! فاجتمع أهل القرية على قتل الناقة أجمعين ، وأحجموا عنها إلا ذلك ابن العاشر .

(194/276)

ثم رجع الحديث إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وأرادوا أن يمكروا بصالح ، فمشوا حتى أتوا على شرب طريق صالح فاختبأ في ثمانية ، وقالوا : إذا خرج علينا قتلناه وأتينا أهله فبيتناهم ، فأمر الله الأرض فاستوت عليهم ، فاجتمعوا ومشوا إلى الناقة وهي على حوضها قائمة ، فقال الشقي لأحدهم ، ائتها فاعقرها . فاتاها فتعاظمه ذلك فاضرب عن ذلك ، فبعث آخر فأعظمه ذلك ، فجعل لا يبعث رجلاً إلا تعاظمه أمرها حتى مشى إليها وتطاول فضرب عرقوبيها فوقعت تركض ، فرأى رجل منهم صالحاً فقال : ادرك الناقة فقد عقرت . فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه يا نبي الله إنما عقرها فلان

إنه لا ذنب لنا .

قال : فانظروا هل تدركون فصليها ؟ فإن أدركتموه فعسى الله أن يرفع عنكم العذاب .

فخرجوا يطلبونه ، فلما رأى الفصيل أمه تضطرب أتى جبلاً يقال له القارة قصير ، فصعد وذهبوا ليأخذوه ، فأوحى الله إلى الجبل ، فطال في السماء حتى ما تناله الطير ، ودخل صالح القرية فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ، ثم استقبل صالحاً فرغا رغوة ، ثم رغا أخرى ، ثم رغا أخرى فقال صالح لقومه : لكل رغوة أجل فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، الا أن آية العذاب أن اليوم الأول تصبح وجوهكم مصفرة ، واليوم الثاني محمرة ، واليوم الثالث مسودة ، فلما أصبحوا إذا وجوههم كأنها قد طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل وحضركم العذاب ، فلما أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنها خضبت بالدماء ، فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أنه العذاب ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب ، فلما أصبحوا اليوم الثالث فإذا وجوههم مسودة كأنها طليت بالقار ، فصاحوا جميعاً ألا قد حضركم العذاب فتكفنوا وتحنطوا .

(195/276)

وكان حنوطهم الصبر والمغر وكانت أكفانهم الانطاع ، ثم ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم فينظرون إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة فلا يدرون من أين يأتيهم العذاب ، من فوقهم من السماء أم من تحت أرجلهم من الأرض خسفاً أو قذفاً ، فلما أصبحوا اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض ، فتقطعت قلوبهم في صدورهم ، فاصبحوا في ديارهم جاثمين " .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي الطفيل قال : قال ثمود لصالح : ائتنا بآية إن كنت من الصادقين . قال : اخرجوا ، فخرجوا إلى هضبة من الأرض فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل ، ثم إنها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها ، فقال لهم صالح ﴿ هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ فلما ملوها عقروها ﴿ فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ [هود : 65] .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة . أن صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة : تمتعوا ثلاثة أيام ثم قال لهم : آية عذابكم أن تصبح وجوهكم غداً مصفرة ، وتصبح اليوم الثاني محمرة ، ثم تصبح الثالث مسودة . فأصبحت كذلك . . . ! فما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك ، فتكفنوا وتحنطوا ، ثم أخذتهم الصيحة فاهمدتهم .

وقال عاقر الناقة : لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين . فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون : ترضين . . . ؟ فتقول : نعم والصبي ، حتى رضوا أجمعين فعقروها .

(196/276)

وأخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر قام فخطب الناس فقال : يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات ، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية فبعث الله إليهم الناقة ، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ، ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من مائها يوم غبها وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام ، وكان وعداً من الله غير مكذوب ، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً كان في حرم الله ، فمنعه حرم الله من عذاب الله . فقيل : يا رسول الله من هو ؟ قال : أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث ابن الطفيل مرفوعاً . مثله .

وأخرج أحمد وابن المنذر عن أبي كبشة الأنماري قال : لما كان في غزوة تبوك تسارع قوم إلى

أهل الحجر يدخلون عليهم ، فنودي في الناس ، إن الصلاة جامعة ؛ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول

" علام يدخلون على قوم غضب الله عليهم ؟ فقال رجل : نعجب منهم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا انبئكم بأعجب من ذلك ، رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم ، استقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة . أن ثمود لما عقروا الناقة تغامزوا وقالوا : عليكم الفصيل . فصعد الفصيل القارة جبلاً حتى إذا كان يوماً استقبل القبلة وقال : يا رب أمي ، يا رب أمي ، يا رب أمي ، فأرسلت عليهم الصيحة عند ذلك .

(197/276)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي الهذيل قال : لما عقرت الناقة صعد بكرها فوق جبل فرغا ، فما سمعه شيء إلا همد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : لما قتل قوم صالح الناقة قال لهم صالح : ان العذاب آتيكم . قالوا له : وما علامة ذلك ؟ قال : إن تصبح وجوهكم أول يوم محمرة ، وفي اليوم

الثاني مصفرة ، وفي اليوم الثالث مسودة . فلما أصبحوا أول يوم احمرت وجوههم ، فلما كان اليوم الثاني اصفرت وجوههم ، فلما كان اليوم الثالث أصبحت وجوههم مسودة ، فأيقنوا بالعذاب فتحنطوا وتكفنوا وأقاموا في بيوتهم ، فصاح بهم جبريل صيحة فذهبت أرواحهم .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال : إن الله بعث صالحاً إلى ثمود فدعاهم فكذبوه ، فسألوا أن يأتيهم بآية ، فجاءهم بالناقة لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فاقروا بها جميعاً فكانت الناقة لها شرب فيوم تشرب فيه الماء نهر بين جبلين فيزحمانه ففيها أثرها حتى الساعة ، ثم تأتي فتقف لهم حتى يحتلبوا اللبن فترويهم ويوم يشربون الماء لا تأتيهم ، وكان معها فصيل لها فقال لهم صالح : إنه يولد في شهركم هذا مولود يكون هلاككم على يديه ، فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ، ثم ولد للعاشر ابن فأبى أن يذبح ابنه ، وكان لم يولد له قبله شيء ، وكان أبو العاشر أحمر أزرق ، فنبت نباتاً سريعاً ، فإذا مر بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان ابناؤنا احياء كانوا مثل هذا : فغضب التسعة على صالح .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ قال : لا تعقروها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وتنحتون الجبال بيوتاً ﴾ قال : كانوا ينقبون في الجبال البيوت .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن

مجاهد في قوله ﴿ وعتوا عن أمر ربهم ﴾ قال : غلوا في الباطل . وفي قوله ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ قال : الصيحة .

(198/276)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾ يعني العسكر كله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ قال : ميتين .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ قال : ميتين .

وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن الحسن قال : لما عقرت ثمود الناقة ذهب فصيلها حتى صعد تلاً فقال : يا رب أين أمي رغا رغوة فنزلت الصيحة فأهدتهم .

وأخرج أحمد في الزهد عن عمار قال : إن قوم صالح سألوا الناقة فأتوها فعقروها ، وان بني إسرائيل سألوا المائدة فنزلت فكفروا بها ، وإن فتنتكم في الدينار والدرهم .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال : إن صالحاً لما نجا هو والذين معه قال : يا قوم إن هذه دار قد سخط الله عليها وعلى أهلها فأظعنوا وألحقوا بحرم الله وأمنه ، فاهلوا من ساعتهم

بالحج ، وانطلقوا حتى وردوا مكة ، فلم يزالوا حتى ماتوا ، فتلك قبورهم في غربي الكعبة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(199/276)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فتولى عَنْهُمْ ﴾ .

قيل : إنه تولى عنهم بعد موتهم لقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فتولى ﴾ و" الفاءُ " تقتضي التعقيب .

وقيل : تولّى عنهم قبل موتهم لقوله : ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ الناصحين ﴾ فدلَّ ذلك على كونهم أحياء من ثلاثة أوْجُهٍ :

[الأول] : قوله لهم "يَا قَوْمِ " ، والأموات لا يوصفون بالقوم ، لاشتقاق لفظ القوم من القيام ، وهو مفقود في حقِّ الميت .

والثاني : أنَّ هذه الكلمات خِطَاب معهم ، وخطاب الميت لا يجوز .

والثالث : قوله : ﴿ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ الناصحين ﴾ يقتضي كونهم بحيث تصحُّ حصول

المحبّة فيهم .

ويمكن الجوابُ : بأنَّه قد يقولُ الرَّجلُ لصاحبه الميت ، وقد كان نصحه فلم يقبل النَّصيحة ، حتى ألقى نفسه في الهلاك : يا أخي منذ كم نصحتك فلم تقبل ، وكمن منعتك فلم تمتنع ، فكذا هاهنا .

وفائدتُهُ : إمّا لأن يسمعه الحيُّ فيعتبر به ، وينزجِر عن مثل تلك الطريقة ، وإما لإحراق قلبه بسبب تلك الواقعة ، فإذا ذكر ذلك الكلام فرَّجت تلك القضية من قلبه .

وذكروا جواباً آخر ، وهو أن صالحاً – عليه السلامُ – خاطبهم بعد كونهم " جَاثِمِينَ " ، كما خاطب نبينا – عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ – قتلى " بدر " .

فقيل : تتكلم مع هؤلاء الجيف ؟ فقال : " مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُم ، ولكنْ لا يَقْدِرُونَ على الجوابِ "

وقيل : في الآية تقديمٌ وتأخير ، تقديره : فتولَّى عنهم وقال : يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُم رسالةَ رَبِّي ، فأخذتهم الرجفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 202 ﴾

(200/276)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ . . . الآيات ﴾

أجرى الله – سبحانه – سُنَّتَه ألا يخص بأفضاله ، وجميل صنعه وإقباله – في الغالب من عباده – إلاَّ مَنْ يسمو إليه طَرْفُه بالإجلال ، وألاَّ يوضحَ له قَدْرَه بين الأضراب والأشكال ؛ فأنصار كلِّ نبي إنما هم ضعفاء وقته ، ويلاحظهم أهل الغفلة بعين الاحتقار ، ولكن ليس الأمر كما تذهب إليه الأوهام ، ولا كما يعتقد فيهم الأنام ، بل الجواهر مستورة في معادنها ، وقيمة المَحَالِّ بساكنيها ، قال قائلهم :

وما ضرَّ نصلَ السيف إخلاقُ غمده . . . إذا كان غَصْباً حيث وجهته وترا

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه" .

قوله تعالى : ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ الحيلة تدعو إلى وِفاق الهوى ؛ فتستثقل النَّفْسُ قولَ الناصحين ، فيخرجون عليهم وكأن الناصحين هم الغائبون ، قال قائلهم :

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحةٍ . . . وقد يستفيد البغضة المتنصح . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 548 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشري في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ﴾

قرئ وَإِلى ثَمُودَ بمنع الصرف بتأويل القبيلة ، وإلى ثمود بالصرف بتأويل الحيّ ، أو باعتبار الأصل ، لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح . وقيل : سميت ثمود لقلة مائها ، من الثمد وهو الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ آيَةٌ ظاهرة وشاهد على صحة نبوّتي . وكأنه قيل : ما هذه البينة ؟ فقال هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً وآية نصب على الحال ، والعامل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل ، كأنه قيل : أشير إليها آية . ولكم : بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود ، لأنهم عاينوها وسائر الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة ، كأنه قال : لكم خصوصاً ، وإنما أضيفت إلى اسم اللّه تعظيما لها وتفخيما لشأنها ، وأنها جاءت من عنده مكوّنة من غير فحل وطروقة آية من آياته ، كما تقول : آية اللّه .

وروى أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمروا أعماراً طوالا ، حتى أن الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم في حياته ، فنحتوا البيوت من الجبال ، وكانوا في سعة ورخاء من العيش ، فعتوا على اللّه وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان ، فبعث اللّه تعالى إليهم صالحا عليه السلام ، وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا ، فدعاهم إلى اللّه تعالى فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، فقال : أية آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة ، فتدعوا إلهك وندعو آلهتنا ، فإن استجيب لك اتبعناك ، وإن استجيب لنا اتبعتنا ، فقال صالح : نعم ، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم ، ثم قال سيدهم - جندع بن عمرو ، وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة - أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء - والمخترجة التي شاكلت البحت - فإن فعلت صدّقناك وأجبناك . فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمننّ ولتصدّقنّ ، قالوا : نعم ، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء . كما

وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا اللّه تعالى ، وعظماؤهم ينظرون ، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع ورهط من قومه ، ومنع أعقابهم ناس من رؤسهم أن يؤمنوا ، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت ترد غبا ، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كلّ ماء فيها ، ثم تتفحج «1» فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم ، فيشربون ويدخرون . قال أبو موسى الأشعرى : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا . وكانت الناقة إذا وقع الحرّ تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان : عنيزة أمّ غنم ، وصدقة بنت المختار – لما أضرّت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشي – فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه ، فانطلق سقبها حتى رقى جبلا اسمه قارة فرغى ثلاثا وكان صالح قال لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه وانفجت «2» الصخرة بعد رغائه فدخلها . فقال لهم صالح : تصبحون غداً ووجوهكم مصفرّة ، وبعد غد ووجوهكم محمرة ، واليوم الثالث ووجوهكم مسودّة ، ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه . فأنجاه اللّه إلى أرض فلسطين . ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ أى الأرض أرض اللّه والناقة ناقة اللّه ، فذروها تأكل في أرض

ربها ، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من إنباتكم وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريبوها بشيء من الأذى إكراماً لآية اللّه .

ويروى : أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه «لا يدخلنّ أحد منكم القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم «3»» وقال صلى اللّه عليه وسلم «يا عليّ ، أتدري من أشقى الأوّلين» ؟ قال : اللّه ورسوله أعلم . قال «عاقر ناقة صالح ، أتدرى من أشقى الآخرين» ؟ قال : اللّه ورسوله أعلم . قال «قاتلك «4»» وقرأ أبو جعفر في رواية

---

(1) . قوله «ثم تتفحج» أى تفرج ما بين رجليها . (ع)

(2) . قوله «وانفجت الصخرة» أى انفتحت . (ع)

(3) . متفق عليه من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما من طرق .

(4) . أخرجه ابن إسحاق في المغازي : حدثني يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب القرظي عن محمد بن خيثم والد يزيد المذكور عن عمار بن ياسر قال «كنت أنا وعلى رفيقين في غزوة العسرة إلى أن قال : فقال يا على ، ألا أخبرك بأشقى الناس : رجلين ؟ قال : بلى يا رسول اللّه . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا على على هذه وأشار إلى رأسه - حتى يبل هذه - ووضع يده على لحيته» ومن هذا الوجه أخرجه النسائي في الخصائص والحاكم والطبري والبيهقي في الدلائل . وفي الباب

عن جابر بن سمرة أخرجه الطبراني وعن صهيب أخرجه أبو يعلى والطبراني . وعن على أخرجه ابن مردويه في تفسير والشمس وضحاها «تنبيه» في رواية المذكورين «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سأل عليا ، فقال له في الأول : عاقر الناقة ، قال صدقت . وقال في الثانية «لا علم لي» وفي رواية جابر بن سمرة «اللّه أعلم» .

(203/276)

تأكل في أرض اللّه ، وهو في موضع الحال بمعنى آكلة وَبَوَّأَكُمْ ونزلكم . والمباءة : المنزل فِي الْأَرْضِ في أرض الحجر بين الحجاز والشام مِنْ سُهُولِها قُصُوراً أى تبنونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص «1» واللبن والآجر . وقرأ الحسن : وتنحتون بفتح الحاء وتنحاتون بإشباع الفتحة ، كقوله :

يَنْبَاعُ مِنْ ذَفْرَى أَسِيلٍ حُرَّةٍ «2»

فإن قلت : علام انتصب بُيُوتاً ؟ قلت : على الحال ، كما تقول : خط هذا الثوب قميصاً وأبر هذه القصبة قلما ، وهي من الحال المقدّرة ، لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت ، ولا الثوب ولا القصبة قميصاً وقلما في حال الخياطة والبرى . وقيل : كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 75 إلى 79]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)

---

(1) . قوله «من الرهص» هو الصخر الثابت في أسفل الحائط . ا ه من الصحاح . (ع)

(2) وكان ربا أو كحيلا معقدا حش الوقود به جوانب قمقم

ينباع من ذفرى أسيل حرة زيافة مثل الفنيق المكرم

لعنترة بن شداد العبسي من معلقته ، يصف عرق ناقته من السير ، فشبه بالرب ، وهو العصير والطلاء . أو بالكحيل وهو القطران المنعقد بالنار على جوانب القمقم . وأعقدت الدواء : أغليته حتى خثر . وحش الوقود : أشعله وأوقده . وهو هنا مبنى للمجهول وأصل «ينباع» ينبع ، فتولدت الألف للأشباع ، والذفرى : نقرة منخفضة جنب الأذن ، إذا طال سير البعير انتفخ من وسطها جلدة وارتفعت وسال منها العرق في النقرة ، وهي المشبهة بالقمقم سابقاً . وقيل الذفرى أصل الأذن . والأسيل : الناقة المستقيمة الخلق ، من قولهم : خد أسيل ، وكف أسيل ، وحر كل شيء : خالصه . زيافة : كثيرة الزيف وهو

التبختر في السير . والفنيق : فحل الإبل المكرم باعفائه عن العمل لأجل الضراب ، فالمكرم : نعت مفسر . ويروى المكدم بالدال . ويقال : كدمه إذا عضه . وأما أكدمه فلم أقف عليها ، ولعلها لغة قليلة . والمكدم اسم مفعول منها ، أى الذي كدمته الفحول وعضته فأثرت فيه لتنقب جلدها من أثر الرحل والركض . وروى : من ذفرى غضوب جسرة ، أى شديدة الغضب صلبة موثقة الخلق . وقيل «ينباع» وزنه «ينفعل» من البوع ، وهو طى المسافة البعيدة ، ولا معنى له في البيت .

(204/276)

لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا للذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم ، وِلمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بدل من الذين استضعفوا . فان قلت : الضمير في منهم راجع إلى ما ذا «1» ؟ قلت : إلى قَوْمِهِ أو إلى لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا . فإن قلت : هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى ؟ قلت : نعم وذلك أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل لِمَنْ آمَنَ مفسراً لمن استضعف منهم ، فدل أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين ، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم ، ودلّ أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية ، كما تقول للمجسمة :

أتعلمون أن اللّه فوق العرش .

فان قلت : كيف صحّ قولهم إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ جوابا عنه «2» ؟ قلت : سألوهم عن العلم بإرساله ، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب ، كأنهم قالوا : العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه «3» ولا شبهة يدخله لوضوحه وإنارته ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به ، فنخبركم أنا به مؤمنون ، ولذلك كان جواب الكفرة إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ «4» فوضعوا آمَنْتُمْ بِهِ موضع أُرْسِلَ بِهِ رداً لما جعله المؤمنون معلوما وأخذوه مسلماً فَعَقَرُوا النَّاقَةَ أسند العقر إلى جميعهم لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم ، وقد يقال للقبيلة الضخمة : أنتم فعلتم كذا ، وما فعله إلا واحد منهم وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين ، وأمر ربهم : ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ أو شأن ربهم وهو دينه . ويجوز أن يكون المعنى : وصدر عتوّهم عن أمر ربهم ، كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوّهم . ونحو عن هذه ما في قوله

---

(1) . قال محمود : «إن قلت الضمير في منهم راجع إلى ما ذا ؟ قلت : إلى قومه . . . الخ» قال أحمد : فقوله لِمَنْ على الأول بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة . وعلى الثاني بدل بعض من كل .

(2) . عاد كلامه . قال محمود : «فان قلت كيف وقع قولهم إنا بما أرسل به مؤمنون جوابا

. . . الخ» قال أحمد :

وقولهم إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ليس إخبارا عن وجوب الايمان به ، بل عن امتثال الواجب والعمل به ، ونحن قد امتثلنا .

(3) . قوله «ما لا كلام فيه» لعله : مما لا كلام فيه . (ع)

(4) . عاد كلامه . قال محمود : «ولذلك كان جواب الكفرة إنا بالذي . . . الخ» قال أحمد : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها . وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم ، كما قال فرعون إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ فأثبت إرساله تهكما ، وليس هذا موضع التهكم ، فان الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله ، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الايمان بالرسالة احتياطاً للكفر وعلواً في الإصرار .

(205/276)

وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ائْتِنا بِما تَعِدُنا أرادوا من العذاب . وإنما جاز الإطلاق لأنه كان معلوما .

واستعجالهم له لتكذيبهم به ، ولذلك علقوه بما هم به كافرون ، وهو كونه من المرسلين

الرَّجْفَةُ الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها فِي دارِهِمْ في بلادهم أو في مساكنهم

جاثِمِينَ هامدين لا يتحركون موتى . يقال : الناس جثم ، أى قعود لا حراك بهم ولا ينبسون

نبسة . ومنه الجثمة التي جاء النهى عنها «1» ، وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمى .

وعن جابر أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم لما مر بالحجر قال : «لا تسألوا الآيات ، فقد

سألها قوم صالح فأخذتهم الصيحة ، فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم اللّه . قالوا

من هو ؟ قال : ذاك أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه «2»» وروى أنّ

صالحاً كان بعثه إلى قوم فخالف أمره . وروى أنه عليه السلام مرّ بقبر أبى رغال فقال : «أ

تدرون من هذا ؟ قالوا : اللّه ورسوله أعلم . فذكر قصة أبى رغال ، وأنه دفن ها هنا ودفن

معه غصن من ذهب» فابتدروه وبحثوا عنه بأسيافهم فاستخرجوا الغصن «3» . فَتَوَلَّى

عَنْهُمْ الظاهر أنه كان مشاهدا لما جرى عليهم ، وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين ،

تولى مغتمّ متحسر على ما فاته من إيمانهم يتحزن لهم ويقول يا قَوْمِ لَقَدْ بذلت فيكم وسعى

ولم آل جهداً في إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ويجوز أن يتولى عنهم

تولى ذاهب عنهم ، منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب . وروى أنّ

عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء ، ونزل بهم العذاب يوم السبت . وروى أنه خرج في مائة

وعشرة من المسلمين وهو يبكى ، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا ،

وكانوا ألفا وخمسمائة دار . وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم .

فإن قلت : كيف صحّ خطاب الموتى وقوله وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ؟ قلت : قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة : يا أخي ، كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني ؟ وقوله وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ حكاية حال ماضية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 120 . 124 ﴾

---

(1) . أما النهي فرواه أصحاب السنن وابن حيان والحاكم من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نهى عن الشرب من في السقاء ، وعن ركوب الجلالة ، وعن المجثمة» ورواه البزار من طريق الوراق عن قتادة عن أنس مثله . وكذا قال ، وأخرجه البزار وقال : إسناده حسن . ومن حديث العرباض بن سارية «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نهى عن المجثمة ، أخرجه الترمذي وحسنه من رواية سعيد بن المسيب عن أبي الدرداء قال «نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أكل المجثمة وهي التي تضرب بالنبل» .

(2) . أخرجه ابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والطبري من رواية عبد اللّه بن عثمان بن خيثم عن أبي الزبير عن جابر – وزاد «في غزوة تبوك» ، فقام فخطب الناس .

(3) . أخرجه أبو داود وابن حبان والطبراني والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من رواية بجير

بن أبي بجير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ولفظه «فابتدره الناس فاستخرجوا الغصن» وأما قوله «فبحثوا عنه بأسيافهم» فأخرجه عبد الرزاق عن معمر مرسلا. [. . . . .]

(206/276)

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة:

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79) ﴾

(207/276)

التفسير : القصة الرابعة قصة صالح مع قومه ثمود . قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثمود لقلة مائها من الثمد وهو الماء القليل . وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى . وإنه لا ينصرف تارة بتأويل القبيلة وينصرف أخرى بتأويل الحي ، أو باعتبار الأصل لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح . وقيل : إن ثمود أخو جديس وطسم . وقد ورد القرآن بالصرف وبمنعه جميعاً قال تعالى ﴿ ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾ [هود : 68] ﴿ قد جاءتكم بينة ﴾ آية ظاهرة دالة على صدقي وكأنه قيل : ما تلك البينة فقال ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ وانتصابها على الحال والعامل فيها ما في اسم الإشارة أو حرف التنبيه من معنى الفعل أي أشير إليه أو أنبه عليها آية . و ﴿ لكم ﴾ بيان لمن هي له آية موجبة للإيمان وهو ثمود . وسبب تخصيص أولئك الأقوام بها مع أنها آية لكل أحد أنهم عاينوها وغيرهم أخبروا بها وليس الخبر كالمعاينة . أو لعله يثبت سائر المعجزات إلا أن القوم التمسوا هذه المعجزة بعينها على سبيل الاقتراح فأطهرها الله تعالى لهم فلهذا حسن التخصيص . وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيماً لها وتفخيماً لشأنها حيث جاءت مكونة من عنده من غير فحل وطروقة آية من آياته كما تقول : آية الله وبيت الله ، وبالحقيقة هي آية تشتمل على آيات . فخروجها من الجبل آية ، وكونها لا من ذكر وأنثى آية ، وكمال خلقها من غير تدريج ومهل آية ، وأن لها شرب يوم ولجميع ثمود شرب يوم

آية ، وكذا الكلام في قوتها المناسب للماء وفي غزارة لبنها ، وأنكر الحسن فقال : إنها لم تحلب قطرة لبن قط . ويروى أن جميع الحيوانات كانت تمتنع عن الورود في يوم شربها .

(208/276)

وقيل : سميت ناقة الله لأنه لا مالك لها سوى الله تعالى . وقيل : لأنها حجة الله على القوم ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ﴾ أي الناقة ناقة الله والأرض أرض الله فدعوها تأكل في أرض ربها ومما أنبت منها ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ من الضرب والطرد وسائر أنواع الأذى إكراماً لآية الله . ﴿ فيأخذكم عذاب أليم ﴾ يعني أخذ الاستفزاز والاستئصال ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ تفسيره كما في قصة هود ﴿ وبوأكم في الأرض ﴾ أنزلكم فيها والمباءة المنزل والأرض أرض الحجر ﴿ تتخذون من سهولها ﴾ أي تبنون من سهول الأرض قصوراً بما تعملون من الأراضي السهلة لبناً وآجراً ورهصاً . وانتصاب ﴿ بيوتاً ﴾ على الحال المقدرة كما تقول خط هذا الثوب قميصاً لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت ولا الثوب قميصاً في حال الخياطة . ويجوز أن تكون من مقدرة اكتفاء بقوله : ﴿ من سهولها ﴾ كما جاءت في موضع آخر ﴿ تنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ [الشعراء : 149] فيكون منصوباً على أنه مفعول به . وقيل : المراد أنهم كانوا يسكنون

السهول في الصيف والجبال في الشتاء ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ يعني إني قد ذكرت لكم بعض نعم ربكم فاذكروا أنتم تمامها ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ قيل : نهى عن عقر الناقة والأولى حمله على العموم . وإعرابه قد مر في أوائل سورة البقرة . ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ﴾ أي المساكين الذين استحقرهم رؤساء الكفار . وقوله ﴿ لمن آمن منهم ﴾ بدل من إلى الذين استضعفوا فيكون البدل بدل البعض ودل على أن المستضعفين فريقان مؤمنون وكافرون ، وإما أن يرجع إلى قومه فيكون البدل بدل الكل ودل على أن الاستضعاف من شأن أهل الإيمان يستحقرهم المستكبرون ، ولا يكون صفة ذم في حقهم وإنما الذم يعود إلى المستحقرين . وفي الآية دلالة على أن الفقر خير من الغنى لأن الإستكبار يتولد من كثرة المال والجاه والتصديق والانقياد ينشأ من قلتهما ﴿ أتعلمون أن صالحاً

(209/276)

مرسل من ربه ﴾ قالوه على سبيل التهكم والسخرية لا للاستعلام والاسترشاد . ﴿ قالو إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ جعلوا إرساله أمراً بيناً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب وإنما الكلام في وجود الإيمان فنخبركم أنا به مؤمنون ولذلك ﴿ قال الذي استكبروا ﴾ في

جوابهم ﴿ إنا بالذي أمنتم به كافرون فعقروا الناقة ﴾ قال الأزهري : العقر عند العرب كشف عرقوب البعير ثم أطلق على النحر إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ، وأسند العقر إلى جميعهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم لأنه كان برضاهم ، وقد يقال للقبيلة العظيمة أنتم فعلتم كذا ولعله لم يفعله إلا واحد منهم كقوله ﴿ وإذ قتلتم ﴾ [البقرة : 72] ﴿ وعتوا عن أمر ربهم ﴾ استكبروا عن امتثاله . قال مجاهد : العتو الغلو في الباطل وأمر ربهم شأنه أي دينه ، أو المراد أمر به صالح من قوله ﴿ فذروها ﴾ ﴿ ولا تمسوها ﴾ والمعنى أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوهم فإن الإنسان حريص على ما منع .

(210/276)

﴿ وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ أطلقوا الوعد وأرادوا ما وعدهم من العذاب واستعجالهم العذاب إنما كان لأجل تكذيبهم بكل ما أخبر عنه من الوعد والوعيد ، ولذلك علقوه بما كانوا ينكرونه وهو كونه من المرسلين ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ قال الفراء والزجاج : هي الزلزلة الشديدة قال تعالى ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ [المزمل : 14] قال الليث : هي كرجفان البعير تحت الرحل وكما ترجف الشجرة إذا أرجفتها الريح وهذا لا يناقض ما ورد في موضع آخر أنهم أهلكوا بالطاغية وفي آخر أنهم

أهلكوا بالصيحة لأن الطغيان مجاوزة الحد . قال تعالى ﴿ إنا لما طغا الماء حملناكم ﴾ [الحاقة : 11] فالزلزلة هي الحركة الخارجة عن الحد المعتاد ، والغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة الهائلة . ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾ أي في بلدهم كقولك : دار الحرب ودار الإسلام . وقد جمع في آية أخرى فقال : ﴿ في ديارهم ﴾ [هود : 67] لأنه أراد بالدار ما لكل واحد من منزلة الخاص إلا أنه حيث ذكر الرجفة وحد وحيث ذكر الصيحة جمع لأن الصحية كأنها من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة . ومعنى ﴿ جاثمين ﴾ موتى لا حراك بهم . قال أبو عبيدة : الجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للإبل فجثوم الطير هو وقوعه لاطئاً بالأرض في حال سكونه بالليل ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها وهي البهيمة التي تربط وتجمع قوائمها لترمى ﴿ فتولى عنهم ﴾ الفاء للتعقيب . فالظاهر أن صالحاً عليه السلام أدبر عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين وكأنه تولى وهو مغتم متحسر على ما فاته من إيمانهم ﴿ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ﴾ وحد الرسالة بخلاف ما مر في قصتي نوح وهود لأن المراد هناك أشياء كانا يأمران بها قومهما بعد الإيمان بالله ، وههنا وقع في آخر القصة فأراد بها مجموع ما أدى من الرسالة ، أو أراد بذلك أداء حديث الناقة فقط . ﴿ ونصحت لكم ﴾ لم آل جهداً في النصيحة ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ حكاية

لحال ماضية . واعترض على هذا التفسير بأنه كيف يصح خطاب الموتى ؟ وأجيب بأنه قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه في حياته فلم يصغ إليه يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني حتى ألقيت بنفسك إلى التهلكة . والفائدة في مثل هذا الكلام أن يسمعه بعض الإحياء فيعتبر به . ولعل القائل أيضاً يتسلى بذلك وتزول بعض الغصة عن قلبه ويخف عليه ما نزل به ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على قليب قتلى بدر وقال : يا فلان ويا فلان قد وجدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فقيل له : كيف تتكلم مع هؤلاء الجيف ؟ فقال : ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يقدرون على الجواب .

(212/276)

وتفسير آخر وهو أن يكون تولى عنهم تولى ذاهب عنهم منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب . وجملة قصتهم ما روي أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض فكثروا وعمروا أعماراً طوالاً حتى إن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا في سعة ورخاء من العيش

، فعتوا عن أمر الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان فبعث الله إليهم صالحاً وكانوا قوماً عرباً . وصالح من أوسطهم نسباً . فدعاهم إلى الله فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال : أية آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة فندعو آلهتنا وتدعوا إلهك ، فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا . فقال صالح : نعم . فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم . ثم قال سيدهم جندع بن عمرو ، وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء ، والمخترجة التي شاكلت البخت فإن فعلت صدّقناك وأجبناك ، فأخذ صالح عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدّقن . قالوا : نعم . فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا ، وكانت في غاية العظم حتى قال أبو موسى الأشعري : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة يعني – موضع بروكها – فوجدته ستين ذراعاً . ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع ورهط من قومه ومنع بقاياهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا فمكثت الناقة وولدها ترعي الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غباً كما قال عز من قائل ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ [الشعراء : 155] وذلك أن الماء كان عندهم قليلاً فجعلوا ذلك الماء بالكلية شرباً لها يوماً وشرباً

للقوم يوماً . قال السدي : وكانت الناقة في اليوم الذي شرب فيه الماء تحلب فيكفي الكل فكأنها كانت تصب اللبن صباً ، وفي اليوم

(213/276)

الذي يشربون الماء لا تأتيهم وكانت إذا وقع الحر تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطن الوادي ، وإذا وقع البرد كان الأمر بالعكس فشق ذلك عليهم وقال لهم صالح : يولد في شهركم هذا غلام يكون هلاككم على يديه فذبحوا تسعة نفر من أبنائهم ثم ولد العاشر فأبى أن يذبح ابنه فنبت نباتاً سريعاً ، ولما كبر الغلام جلس مع قوم يشربون الشراب فأرادوا ماء يمزجونه به وكان يوم شرب الناقة فما وجدوا الماء فاشتد ذلك عليهم . فقال الغالم : هل لكم في أن أعقر هذه الناقة فشدّ عليها لما بصرت به شدّت عليه فهرب منها إلى جانب صخرة فردّوها عليه ، فلما مرت به تناولها فعقرها فسقطت فذلك قوله تعالى

(214/276)

﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ [القمر : 29] وأظهروا حينئذ كفرهم وقيل : زينت لهم عقرها امرأتان – عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار – لما أضرت الناقة بمواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه فانطلق فصيلها حتى رقي جبلاً اسمه قارة فرغا ثلاثاً وكان صالح قال لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح : تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة ، وبعد غد ووجوهكم محمرة ، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب . فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين . ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا . واستبعد بعضهم أن العاقل مع مشاهدة هذه المعجزات والعلامات كيف يبقى مصراً على كفره ؟ وأجيب بأنهم عنده مشاهدة العلامات خرجوا عن حدّ التكليف وأن تكون توبتهم مقبولة . " عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال : لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فأخذ بهم الصيحة فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم الله . قالوا : من هو قال صلى الله عليه وسلم : ذاك أبو رغال " فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ، وروي أن صالحاً كان بعثه إلى قوم فخالف أمره . وروي أن نبينا صلى الله عليه وسلم مر بقبر أبي رغال فقال : أتدرون من هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فذكر قصة أبي رغال وأنه دفن ههنا وأنه دفن معه غصن من

ذهب فابتدروه وبحثوا عنه بأسيافهم فاستخرجوا الغصن . وروي أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت . وروي أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفاً وخمسمائة دار ، وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال

(215/276)

لأصحابه : لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 273ـ278 ﴾

(216/276)

وقال البيضاوى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ ﴾

قبيلة أخرى من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وقيل سموا به لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل. وقرىء مصروفاً بتأويل الحي أو باعتبار الأصل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. ﴿ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي وقوله: ﴿ هذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ استئناف لبيانها، وآية نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة، ولكم بيان لمن هي له آية، ويجوز أن تكون ﴿ ناقة الله ﴾ بدلاً أو عطف بيان ولكم خبراً عاملاً في ﴿ آية ﴾، وإضافة الناقة إلى الله لتعظيمها ولأنها جاءت من عنده بلا وسائط وأسباب معهودة ولذلك كانت آية. ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ ﴾ العشب. ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة في الأمر وإزاحة للعذر. ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ جواب للنهي.

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أرض الحجر. ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصوراً ﴾ أي تبنون في سهولها، أو من سهولة الأرض بما تعملون منها كاللبن والآجر. ﴿ وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً ﴾ وقرىء ﴿ تنحتون ﴾ بالفتح وتنحاتون بالإشباع، وانتصاب ﴿ بيوتاً ﴾ على الحال المقدرة أو المفعول على أن التقدير بيوتاً من

الجبال ، أو تنحتون بمعنى تتخذون ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلاَ تَعثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

(217/276)

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي عن الإيمان . ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ أي للذين استضعفوهم واستذلوهم . ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ بدل من الذين استضعفوا بدل الكل إن كان الضمير لقومه وبدل البعض إن كان للذين . وقرأ ابن عامر وقال الملأ بالواو .

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قالوه على الاستهزاء . ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو نعم تنبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذوي رأي ، وإنما الكلام فيمن آمن به ومن كفر فلذلك قال :

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ على وجه المقابلة ، ووضعوا ﴿ آمنتم به ﴾ موضع ﴿ أرسل به ﴾ رداً لما جعلوه معلوماً مسلماً .

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ فنحروها . أسند إلى جميعهم فعل بعضهم للملابسة ، أو لأنه كان برضاهم . ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ واستكبروا عن امتثاله ، وهو ما بلغهم صالح عليه

الصلاة والسلام بقوله : ﴿ فذروها ﴾ . ﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

(218/276)

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ الزلزلة . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ خامدين ميتين . روي : أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم وكثروا ، وعمروا أعماراً طوالاً لا تفي بها الأبنية ، فنحتوا البيوت من الجبال ، وكانوا في خصب وسعة فعتوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم صالحاً من أشرافهم فأنذرهم ، فسألوه آية فقال أية آية تريدون قالوا : اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وندعو آلهتنا فمن استجيب له اتبع ، فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم تجبهم ، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها الكاثبة وقال : له أخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء إن فعلت صدقناك ، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا : نعم ، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا وهم ينظرون ، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع في جماعة ، ومنع الباقين من الإيمان ذؤاب بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صغر كاهنهم

، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غباً فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ، ثم تتفحج فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم ، فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه ، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار ، فعقروها واقتسموا لحمها ، فرقي سقبها جبلاً اسمه قارة فرغا ثلاثاً فقال صالح لهم ادركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه إذ انفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح : تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ، ثم يصبحكم العذاب ، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين ، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من

السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا .

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾

ظاهره أن توليه عنهم كان بعد أن أبصرهم جاثمين ، ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل قليب بدر وقال : " إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً " . أو ذكر ذلك على سبيل التحسر عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 35 . 37 ﴾

(220/276)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾

معطوف على ما تقدّم ، أي وأرسلنا إلى ثمود أخاهم ، وثمود قبيلة سموا باسم أبيهم ، وهو ثمود بن عاد بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

وصالح عطف بيان ، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ، وامتناع ثمود من الصرف لأنه جعل اسماً للقبيلة .

وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه أعجميّ .

قال النحاس : وهو غلط لأنه من الثمد ، وهو الماء القليل ، وقد قرأ القراء ﴿ أَلا إِنَ ثموداً كفروا ربهم ﴾ [هود : 68] على أنه اسم للحيّ ، وكانت مساكن ثمود الحجر ، بين

الحجاز والشام إلى وادي القرى .

قوله : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ قد تقدّم تفسيره في قصة نوح .

﴿ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي معجزة ظاهرة ، وهي إخراج الناقة من الحجر الصلد .

وجملة ﴿ هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ ءايَةً ﴾ مشتملة على بيان البينة المذكورة ، وانتصاب ﴿ آية ﴾ على الحال .

والعامل فيها معنى الإشارة ، وفي إضافة الناقة إلى الله تشريف لها وتكريم .

قوله : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ ﴾ أي دعوها تأكل في أرض الله ، فهي ناقة الله ، والأرض أرضه فلا تمنعوها مما ليس لكم ، ولا تملكونه ، ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا ﴾ بشيء من السوء ، أي لا تتعرّضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها .

قوله : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هو جواب النهي ، أي إذا لم تتركوا مسها بشيء من السوء أخذكم عذاب أليم : أي شديد الألم .

قوله : ﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾ أي استخلفكم في الأرض أو جعلكم ملوكاً فيها ، كما تقدّم في قصة هود .

﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِى الأَرض ﴾ أي جعل لكم فيها مباءة ، وهي المنزل الذي تسكنونه ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ أي : تتخذون من سهولة الأرض قصوراً ، أو هذه الجملة مبينة لجملة : ﴿ وبوّأكم في الأرض ﴾ ، وسهول الأرض ترابها ، يتخذون منه اللبن والآجر ، ونحو ذلك ، فيبنون به القصور .

﴿ وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتًا ﴾ أي تتخذون في الجبال التي هي صخور بيوتاً تسكنون فيها ، وقد كانوا لقوّتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها ، كهوفاً يسكنون فيها ، لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم .

وانتصاب ﴿ بيوتاً ﴾ على أنها حال مقدّرة ، أو على أنها مفعول ثان ل ﴿ تنحتون ﴾ على تضمينه معنى ﴿ تتخذون ﴾ .

قوله : ﴿ فاذكروا ءالآء الله ﴾ تقدّم تفسيره في القصة التي قبل هذه .

قوله : ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأَرض مُفْسِدِينَ ﴾ العثي والعثو لغتان ، وقد تقدم تحقيقه في البقرة بما يغني عن الإعادة .

﴿ قَالَ الملا الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ ﴾ أي قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين ، الذين استضعفهم المستكبرون ، و ﴿ لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ ﴾ بدل من الذين ﴿ استضعفوا ﴾ ، بإعادة حرف الجر ، بدل البعض من الكل ، لأن في المستضعفين من ليس

بمؤمن ، هذا على عود ضمير ﴿ منهم ﴾ إلى الذين استضعفوا ، فإن عاد إلى قومه كان بدل كل من المستضعفين ، ومقول القول : ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية .

(222/276)

قوله : ﴿ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ أجابوهم بأنهم مؤمنون برسالته ، مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم هل تعلمون برسالته أم لا ؟ مسارعة إلى إظهار ما لهم من الإيمان ، وتنبيهاً على أن كونه مرسلاً أمر واضح مكشوف ، لا يحتاج إلى السؤال عنه ، فأجابوا تمرداً وعناداً بقولهم : ﴿ إِنَّا بالذى آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ وهذه الجمل المعنوية ، يقال مستأنفة لأنها جوابات عن سؤالات مقدّرة كما سبق بيانه .

قوله : ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة ﴾ العقر : الجرح .

وقيل : قطع عضو يؤثر في تلف النفس .

يقال عقرت الفرس : إذا ضربت قوائمه بالسيف .

وقيل أصل العقر : كسر عرقوب البعير ، ثم قيل للنحر عقر ، لأن العقر سبب النحر في الغالب ، وأسند العقر إلى الجميع ، مع كون العاقر واحداً منهم ، لأنهم راضون بذلك

موافقون عليه .

وقد اختلف في عاقر الناقة ما كان اسمه ؟ فقيل قدار بن سالف ، وقيل غير ذلك ﴿ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي استكبروا ، يقال عتا يعتو عتوّاً : استكبر ، وتعتي فلان : إذا لم يطع ، والليل العاتي : الشديد الظلمة ﴿ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ هذا استعجال منهم للنقمة ، وطلب منهم لنزول العذاب ، وحلول البلية بهم .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ أي الزلزلة .

يقال رجف الشيء يرجف رجفاناً ، وأصله حركة مع صوت ، ومنه : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ [النازعات : 6] .

وقيل : كانت صيحة شديدة ، خلعت قلوبهم ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ أي : بلدهم ﴿ جاثمين ﴾ لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم ، كما يجثم الطائر .

وأصل الجثوم للأرنب وشبهها .

وقيل للناس والطير ، والمراد أنهم أصبحوا في دورهم ميتين لا حراك بهم ﴿ فتولى عَنْهُمْ ﴾ صالح عند اليأس من إجابتهم ﴿ وَقَالَ ﴾ لهم هذه المقالة ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ ويحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضية .

كما وقع من النبي صلى الله عليه وسلم من التكليم لأهل قليب بدر بعد موتهم ، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم ، وكأنه كان مشاهداً لذلك ، فنحسر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب ، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهداً في إبلاغهم الرسالة ومحض النصح ، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه ، فحق عليهم العذاب ، ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه .

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن أبي الطفيل قال : قالت ثمود لصالح

﴿ ائتنا بآية إن كنت من الصادقين ﴾ [الشعراء : 154] ، قال : اخرجوا ، فخرجوا إلى هضبة من الأرض ، فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل ، ثم إنها انفرجت ، فخرجت الناقة من وسطها ، فقال لهم صالح : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ [هود : 64] ، فلما ملوها عقروها : ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود : 65] .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة : أن صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة : تمتعوا ثلاثة أيام ، ثم قال لهم : آية هلاككم أن تصبح وجوهكم غداً

مصفرّة ، وتصبح اليوم الثاني محمرّة ، ثم تصبح اليوم الثالث مسودّة .

فأصبحت كذلك .

فلما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك ، فتكفنوا وتحنطوا .

ثم أخذتهم الصيحة فأهمدتهم .

وقال عاقر الناقة : لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين ، فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون أترضين ؟ فتقول نعم ، والصبيّ حتى رضوا أجمعون ، فعقرها .

(224/276)

وأخرج أحمد ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر قام فخطب فقال : " يا أيها الناس ، لا تسألوا نبيكم عن الآيات ، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية ، فبعث الله لهم الناقة ، فكانت ترد من هذا الفجّ ، فتشرب ماءهم يوم وردها ، ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من مائها يوم غبها ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها .

فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام ، وكان وعد من الله غير مكذوب ، ثم جاءتهم

الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها ، إلا رجلاً كان في حرم الله ، فمنعه حرم الله من عذاب الله " ، فقيل يا رسول الله من هو ؟ فقال : " أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه " قال ابن كثير : هذا الحديث على شرط مسلم .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، من حديث أبي الطفيل مرفوعاً مثله .

وأخرج أحمد من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم " ، وأصل الحديث في الصحيحين من غير وجه .

وفي لفظ لأحمد من هذا الحديث قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود .

وأخرج أحمد ، وابن المنذر ، نحوه مرفوعاً من حديث أبي كبشة الأنماري .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ قال : لا تعقروها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً ﴾ قال : كانوا ينقبون في الجبال البيوت .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ قال : غلوا في الباطل ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ قال : الصيحة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن زيد ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين ﴾ قال : ميتين .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(226/276)

وقال السعدى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ . إلى آخر قصتهم .

أي ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى ثَمُودَ ﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله ، من أرض الحجاز وجزيرة العرب ، أرسل اللّه إليهم ﴿ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ نبيا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد ، وينهاهم عن الشرك والتنديد ، فـ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين ، الأمر

بعبادة اللّه ، وبيان أنه ليس للعباد إله غير اللّه ، ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي: خارق من خوارق العادات ، التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها ، ثم فسرها بقوله: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى اللّه تعالى إضافة تشريف ، لكم فيها آية عظيمة . وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ .

وكان عندهم بئر كبيرة ، وهي المعروفة ببئر الناقة ، يتناوبونها هم والناقة ، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها ، ولهم يوم يردونها ، وتصدر الناقة عنهم .

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ فلا عليكم من مؤنتها شيء ، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ أي: بعقر أو غيره ، ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

(227/276)

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ في الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم ﴿ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾ الذين أهلكهم اللّه ، وجعلكم خلفاء من بعدهم ، ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: مكن لكم فيها ، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ أي: من الأراضي السهلة التي ليست بجبال ، تتخذون فيها القصور

العالية والأبنية الحصينة ، ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ كما هو مشاهد إلى الآن من أعمالهم التي في الجبال ، من المساكن والحجر ونحوها ، وهي باقية ما بقيت الجبال ، ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ﴾ أي: نعمه ، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة ، ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي: لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي ، فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع ، وقد أخلت ديارهم منهم ، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم .

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق ، ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين ، قالوا ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي: أهو صادق أم كاذب ؟ .

فقال المستضعفون: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ من توحيد اللّه والخبر عنه وأمره ونهيه .

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ حملهم الكبر أن لا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء .

(228/276)

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم ، ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: قسوا عنه ، واستكبروا عن أمره الذي من عتا عنه أذاقه العذاب الشديد . لا جرم أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم ﴿ وَقَالُوا ﴾ مع هذه الأفعال متجرئين على الله ، معجزين له ، غير مبالين بما فعلوا ، بل مفتخرين بها : ﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب فقال: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ على ركبهم ، قد أبادهم الله ، وقطع دابرهم .

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب ، ﴿ وَقَالَ ﴾ مخاطبا لهم توبيخا وعتابا بعدما أهلكهم الله: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم ، قد أبلغتكم به وحرصت على هدايتكم ، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم . ﴿ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ بل رددتم قول النصحاء ، وأطعتم كل شيطان رجيم .

واعلم أن كثيرا من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح وأنها تمخضت تمخض الحامل فخرجت الناقة وهم ينظرون وأن لها فصيلا حين عقروها رغى ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه وأن

صالحا عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم ، أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة ، واليوم الثاني: محمرة ، والثالث: مسودة ، فكان كما قال .

(229/276)

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب اللّه ، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه ، بل لو كانت صحيحة لذكرها اللّه تعالى ، لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره ، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله ، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات ، فإن صالحا قال لهم: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جدا ، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا ، وأي لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب ، وذكر لهم وقوع مقدماته ، فوقعت يوما فيوما ، على وجه يعمهم ويشملهم [احمرار وجوههم ، واصفرارها واسودادها من العذاب] .

هل هذا إلا مناقض للقرآن ، ومضاد له ؟" . فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه .

نعم لو صح شيء عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مما لا يناقض كتاب اللّه ، فعلى الرأس والعين ، وهو مما أمر القرآن باتباعه ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب اللّه بالأخبار الإسرائيلية ، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها ، فإن معاني كتاب اللّه يقينية ، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب ، فلا يمكن اتفاقهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 394.396 ﴾

(230/276)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض ، تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا – لمن آمن منهم – : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا : إنا بالذي آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ . .

وهذه صفحة أخرى من صحائف قصة البشرية ؛ وهي تمضي في خضم التاريخ ، وها هي ذي نكسة أخرى إلى الجاهلية ؛ ومشهد من مشاهد اللقاء بين الحق والباطل ، ومصرع جديد من مصارع المكذبين . .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . .

ذات الكلمة الواحدة التي بها بدأ هذا الخلق وإليها يعود ، وذات المنهج الواحد في الاعتقاد والاتجاه والمواجهة والتبليغ . .

ويزيد هنا تلك المعجزة التي صاحبت دعوة صالح ، حين طلبها قومه للتصديق :

﴿ قد جاءتكم بيّنة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ﴾ . .

والسياق هنا ، لأنه يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة ، ولعاقبة الإيمان بها وعاقبة التكذيب ، لا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة ، بل يعلن وجودها عقب الدعوة . وكذلك لا يذكر تفصيلاً عن الناقة أكثر من أنها بيّنة من ربهم ، وأنها ناقة الله وفيها آية منه .

(231/276)

ومن هذا الإسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية ، أو أنها أخرجت لهم إخراجاً غير عادي . مما يجعلها بينة من ربهم ، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى ، ويجعلها آية على

صدق نبوته . . ولا نزيد على هذا شيئاً مما لم يرد ذكره من أمرها في هذا المصدر المستيقن – وفيما جاء في هذه الإشارة كفاية عن كل تفصيل آخر – فنمضي نحن مع النصوص ونعيش في ظلالها :

﴿ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ . .

إنها ناقة الله ، فذروها تأكل في أرض الله ، وإلا فهو النذير بسوء المصير . .

وبعد عرض الآية والإنذار بالعاقبة ، يأخذ صالح في النصح لقومه بالتدبر والتذكر ، والنظر في مصائر الغابرين ، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض ، تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتاً . فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ .

ولا يذكر السياق هنا أين كان موطن ثمود ، ولكنه يذكر في سورة أخرى أنهم كانوا في الحجر – وهي بين الحجاز والشام . . ونلمح من تذكير صالح لهم ، أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود ، كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه . فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون في السهل القصور ، وينحتون في الجبال البيوت . فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير . . وصالح يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد ، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها ، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد ، وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضاً . وبذلك صاروا خلفاء ممكنين في

الأرض ، محكمين فيها . وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد ، اغتراراً بالقوة والتمكين ، وأمامهم العبرة ماثلة في عاد الغابرين !

(232/276)

وهنا كذلك نلمح فجوة في السياق على سبيل الإيجاز والاختصار . فقد آمنت طائفة من قوم صالح ، واستكبرت طائفة . والملأ هم آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان في الأرض ، وترده إلى إله واحد هو رب العالمين ! ولا بد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده ، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد !

وهكذا نرى الملأ المستكبرين من قوم صالح يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا – لمن آمن منهم – : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ ﴾ . .

وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ، ولاستنكار إيمانهم به ، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه .

ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً ! لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم ، والثقة في

نفوسهم ، والاطمئنان في منطقهم . . إنهم على يقين من أمرهم ، فماذا يجدي التهديد والتخويف ؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار . . من الملأ المستكبرين ؟ :

﴿ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ .

ومن ثم يعلن الملأ عن موقفهم في صراحة تحمل طابع التهديد :

﴿ إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ . .

على الرغم من البينة التي جاءهم بها صالح . والتي لا تدع ريبة لمستريب . . إنه ليست البينة هي التي تنقص الملأ للتصديق . . إنه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد . . إنها عقدة الحاكمية والسلطان ، إنها شهوة الملك العميقة في الإنسان ! إنه الشيطان الذي يقود الضالين من هذا الخطام !

وأتبعوا القول بالعمل ، فاعتدوا على ناقة الله التي جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه في دعواه ؛ والتي حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم :

﴿ فعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ؛ وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ . .

إنه التبجح الذي يصاحب المعصية . ويعبر عن عصيانهم بقوله : ﴿ عتوا ﴾ لإبراز سمة التبجح فيها ، وليصور الشعور النفسي المصاحب لها . والذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير :

ولا يستأني السياق في إعلان الخاتمة ، ولا يفصل كذلك :

﴿ فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ . .

والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح . فالرجفة يصاحبها الفزع ، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك . وما أجدر العاتي أن يرتجف ، وما أجدر المعتدي أن يعجز . جزاء وفاقاً في المصير . وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير .

ويدعهم السياق على هيئتهم . . ﴿ جاثمين ﴾ . . ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبوه وتحدوه :

﴿ فتولى عنهم ، وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح ؛ والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب .

. . وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين . ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1313 . 1314 ﴾

فصل

قال ابن الجوزى :

المجلس السادس في قصة ثمود

الحمد لله الذي مهد لطالبيه سبيلا واضحاً وكم ابتعث نبياً مرشداً ناصحا فأرسل آدم غادياً على بنيه بالتعليم ورائحا فخلفه شيث ثم إدريس وجاء نوح نائحاً وأمر هوداً بهداية عاد فلم يزل مكادحاً (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) أحمده ما بدا برق لائحاً وأصلي على رسوله محمد ما دام الفلك سابحاً وعلى صاحبه أبي بكر الصديق وقل في الصديق مادحاً وعلى عمر الفاروق الذي لم يزل بنور الحق لامحاً وعلى عثمان واعجب بمثل دمه طائحاً وعلى علي وأعلن بفضائله صائحاً وعلى عمه العباس وما زال عرف طيبه نافحاً قال الله تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) ثمود هو ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح أرسل إلى أولاده وهو صالح بن عبيد بن أنيف بن ماشح بن عبيد بن جادر ابن ثمود والثمد الماء القليل الذي لا مادة له وإنما قال أخاهم لأنه من قبيلتهم (قال يا قوم اعبدوا الله) أي وحدوه فلم يزدهم دعاؤه إلا طغيانا فقالوا ائتنا بآية فاقترحوا عليه ناقة فأخرجهم إلى صخرة ملساء

فتمخضت تمخض الحامل ثم انفلقت عن ناقة على الصفة التي طلبوها ثم انفصل عنها فصيل فقال (ذروها تأكل في أرض الله) أي ليس عليكم مؤنتها ولا علفها وتأكل مجزومة على جواب الشرط المقدر والمعنى إن تذروها تأكل (ولا تمسوها بسوء)

(235/276)

والسوء في القرآن على عشرة أوجه أحدها الشدة (يسومونكم سوء العذاب) والثاني الزنا (ما علمنا عليه من سوء) والثالث البرص (تخرج بيضاء من غير سوء) والرابع العذاب (لا يمسهم السوء) والخامس الشرك (ما كنا نعمل من سوء) والسادس السب (وألسنتهم بالسوء) والسابع الضر (ويكشف السوء) والثامن الذنب (يعملون السوء بجهالة) والتاسع القتل والهزيمة (لم يمسهم سوء) والعاشر العقر (ولا تمسوها بسوء) فكانت تشرب ماء الوادي كله في يوم وتسقيهم الدر مكانه قوله تعالى (وبوأكم في الأرض) أي أنزلكم (تتخذون من سهولها قصورا) السهل ضد الحزن والقصر ما شيد وعلا من المنازل قال ابن عباس رضي الله عنهما اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف ونقبوا في الجبال للشتاء قال وهب بن منبه كان الرجل منهم يبني البنيان فيمر عليه مائة سنة فيخرب ثم يجدده فيمر عليه مائة سنة فيخرب فأضجرهم ذلك فاتخذوا من الجبال بيوتاً قال علماء

السير لم يلتفتوا إلى قول صالح واحتالوا على قتله فذلك قوله تعالى (لنبيتنه وأهله) وقعدوا في أصل جبل ينتظرونه فوقع الجبل عليهم فهلكوا ثم أقبل قوم منهم يريدون قتل الناقة فقال لهم صالح (ناقة الله وسقياها) أي احذروا ناقة الله وشربها من الماء فكمن لها قاتلها وهو قدار بن سالف في أصل شجرة فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ثم شد عليها بالسيف فكشف عرقوبها ثم نحرها

(236/276)

وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا من العذاب فقال لهم صالح تمتعوا في داركم ثلاثة أيام قال المفسرون لما عقروها صعد فصيلها إلى الجبل فرغا ثلاث مرات فقال صالح لكل رغوة أجل يوم إلا أن اليوم الأول تصبح وجوهكم مصفرة واليوم الثاني محمرة واليوم الثالث مسودة فلما أصبحوا في اليوم الأول إذا وجوههم مصفرة فصاحوا وبكوا وعرفوا أنه العذاب فلما أصبحوا في اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة فضجوا وبكوا فلما أصبحوا في اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا بأجمعهم ألا قد حضركم الموت فتكفنوا وألقوا أنفسهم بالأرض لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما أصبحوا في اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة فتقطعت قلوبهم في صدورهم وقال مقاتل حفروا لأنفسهم

قبوراً فلما ارتفعت الشمس من اليوم الرابع ولم يأتهم العذاب ظنوا أن الله قد رحمهم فخرجوا من قبورهم يدعو بعضهم بعضا فقام جبريل عليه السلام فوق المدينة فسد ضوء الشمس فرجعوا إلى قبورهم فصاح بهم صيحة عظيمة موتوا عليكم اللعنة فماتوا وزلزلت بيوتهم فوقعت عليهم (فدمدم عليهم ربهم) أي أطبق عليهم العذاب ولما مر النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ على ديارهم قال لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين اعتبروا إخواني بهؤلاء الهالكين وانظروا سوء تدبير الخاسرين لا بالناقة اعتبروا ولا لتعويضهم اللبن شكروا وعتوا عن النعم وبطروا وعموا عن الكرم فما نظروا وأوعدوا بالعذاب فما حذروا كلما رأوا آية من الآيات كفروا

الطبع الخبيث لا يتغير والمقدّر ضلالة لا يزال يتحير خرجت إليهم ناقة من أحسن النعم ودر لبنها لهم فتواترت النعم فكفروا وما شكروا فأقبلت النقم أعاذنا الله وإياكم من الكفران وحفظنا من موجبات الخسران إنه إذا لطف صان

الكلام على البسملة

(أيها السكران بالآمال

قد حان الرحيل

(ومشيب الرأس والفودين

للموت دليل

فانتبه من رقدة الغفلة

فالعمر قليل

واطرح سوف وحتى

(237/276)

فهما داء دخيل

يا من صبح شيبه بعد ليل شبابه قد تبلج ونذيره قد حام حول حماه وعرج كأنك بالموت قد أتى سريعاً وأزعج ونقلك عن دار أمنت مكرها وأخرج وحملك على خشونة النعش بعد لين الهودج وأفصح بهلاكك وقد طال ما مجمج وأفقرك إلى قليل من الزاد وأحوج يا لاهياً في دار البلاء ما أقبح فعلك وما أسمج ويا عالماً نظر الناقد وبضاعته كلها بهرج ويا غافلاً عن رحيله سلب الأقران أنموذج (سيقطع ريب الدهر بين الفريقين

لكل اجتماع فرقة من يد البين

(وكل يقضي ساعة بعد ساعة

تخاتله عن نفسه ساعة الحين

(وما العيش إلا يوم موت له غد

وما الموت إلا رقدة بين يومين

(وما الحشر إلا كالصباح إذا انجلى

يقوم له اليقظان من رقدة العين

(فيا عجباً مني ويا طول غفلتي

أؤمل أن أبقى وأني ومن أين

يا من يبارز مولاه بما يكره ويخالفه في أمره آمناً مكره وينعم عليه وهو ينسى شكره والرحيل قد دنا وماله فيه فكرة يا من قبائحه ترفع عشياً وبكرة يا قليل الزاد ما أطول السفرة والنقلة قد دنت والمصير الحفرة متى تعمل في قلبك المواعظ متى تراقب العواقب وتلاحظ أما تحذر من أوعد وهدد أما تخاف من أنذر وشدد متى تضطرم نار الخوف في قلبك وتتوقد إلى متى بين القصور والتواني تتردد متى تحذر يوماً فيه الجلود تشهد متى تترك ما يفنى رغبة فيما لا ينفد متى تهب بك ريح الخوف كأنك غصن يتأود البدار البدار إلى الفضائل والحذار الحذار من الرذائل فإنما هي أيام قلائل (اغتنم في الفراغ فضل ركوع

فعسى أن يكون موتك بغتة

(كم صحيح رأيت من غير سقم

ذهبت نفسه السليمة فلتة

حج مسروق فما نام إلا ساجداً وكان مجير بن الربيع يصلي حتى ما يأتي فراشه إلا حبوا (

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله

إذا كنت فارغاً مستريحا

(وإذا ما هممت أن تفعل الباطل

فاجعل مكانه تسبيحا

(238/276)

يا سكران الهوى وإلى الآن ما صحا يا مفنياً زمانه الشريف لهوا ومرحا يا معرضا عن لوم من لام وعتب من لحا متى يعود هذا الفاسد مصلحا متى يرجع هذا الهالك مفلحا لقد أتعبت النصحاء الفصحاء أما وعظمت بما يكفي أما رأيت من العبرة ما يشفي فانظر لنفسك قبل أن يعمى الناظر وتفكر في أمرك بالقلب الحاضر ولا تساكن الفتور فإنك إلى مسكن القبور صائر فالحي للممات والجمع للشتات والأمر ظاهر (عاص الهوى إن الهوى مركب

يصعب بعد اللين منه الذلول

إن يجلب اليوم الهوى لذة

ففي غد منه البكا والعويل

(ما بين ما يحمد فيها وما

يدعو إليه الذم إلا القليل

الكلام على قوله تعالى

(واستمع يوم ينادي المنادي

والمعنى استمع حديث ذلك اليوم والمنادي إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس

فينادي يا أيها الناس هلموا إلى الحساب إن الله تعالى يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء وهذه

الصيحة هي الأخيرة قوله تعالى (من مكان قريب) المكان القريب هو الصخرة قال كعب

ومقاتل هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً وقال ابن المسيب باثني عشر ميلا

قال الزجّاج ويقال إن تلك الصخرة في وسط الأرض

سجع

يا من يُدعى إلى نجاته فلا يجيب يا من قد رضي أن يخسر ويخيب إن أمرك طريف وحالك

عجيب اذكر في زمان راحتك ساعة الوجيب (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب

) ويحك إن الحق حاضر ما يغيب تحصى عليك أعمال الطلوع وأفعال المغيب ضاعت

الرياضة في غير نجيب سيماك تدل وما يخفى المريب اسمع لا بد لغربان الفراق من نعيب

أنساكن الغفلة ولغيرنا نعيب يا من سلعه كلها معيب اذكر يوم الفزع والتأنيب (واستمع يوم

ينادي المنادي من مكان قريب) لا بد والله من فراق العيش الرطيب والتحاف البلى مكان الطيب واعجباً للذات بعد

(239/276)

هذا كيف تطيب ويحك أحضر قلبك لوعظ الخطيب (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب) تذكر من قد أصيب كيف نزل بهم يوم عصيب وانتبه لأحظ الحظ والنصيب واحترز فعليك شهيد ورقيب إذا حل الموت حل التركيب وتقلب مقل القلوب في قلب التقليب فتنزعج الروح انزعاج الصرمة إذا أحست بذيب فالتفت يا محب الهوى عن هذا الحبيب (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب) ستخرج والله من هذا الوادي الرحيب ولا ينفعك البكاء والنحيب لا بد من يوم يتحير فيه الشبان والشيب ويذهل فيه الطفل للهول ويشيب يا من عمله كله رديء فليته قد شيب (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب) كيف بك إذا أحضرت في حال كئيب وعليك ذنوب أكثر من رمل كثيب والمهيمن الطالب والعظيم الحسيب فحينئذ يبعد عنك الأهل والنسيب النوح أولى بك يا مغرور من التشبيب أتؤمن أم عندك تكذيب أم تراك تصبر على التعذيب كأنك بدمع العين ومائها قد أذيب اقبل نصحي وأقبل على التهذيب (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان

قريب) يا مطالباً بأعماله يا مسئولاً عن أفعاله يا مكتوباً عليه جميع أقواله يا مناقشاً على كل أحواله نسيانك لهذا أمر عجيب أتسكن إلى العافية وتساكن العيشة الصافية وتظن أيمان الغرور واقية لا بد من سهم مصيب (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب) لو أحسنت الخلاص أحسنت لو آمنت بالعرض لتجملت وتزينت يا من قد انعجمت

(240/276)

عليه الأمور لو سألت لتبينت ويحك أحضر قلبك إنما أنت في الدنيا غريب (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب) إلى متى أنت مع أغراضك متى ينقضي زمان إعراضك يا زمن البلى متى زمن إنهاضك تالله لقد كع من أمراضك الطبيب قوله تعالى (يوم يسمعون الصيحة) وهي النفخة الثانية (بالحق) أي بالبعث الذي لا شك فيه (ذلك يوم الخروج) من القبور تنشق السماء ذات البروج انشقاق الثوب المنسوج بأعجب فطور وأظرف فروج وينثر حب السماء ويسقط الدملوج وتقبل الملائكة إقبال الفيوج وتميد الأرض فتفلق وتموج وتعود جرداء بعد الرياض والمروج وتذل العتاة وتنكسر العلوج وتستوي أقدام العرب والعجم والزنوج فأخس الخلائق يومئذ يأجوج ومأجوج وأحقر الناس على طوله عوج ويقرب الحساب ويروج وينصب الصراط والريح خجوج أين حرارة القلوب أضربت بالثلوج

(يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) قوله تعالى (إنا نحن نحيي ونميت) أي نميت في الدنيا ونحيي بالبعث (وإلينا المصير) بعد البعث (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً) المعنى فيخرجون منها سراعاً يا له من يوم لا تستطيع له دفاعاً صاح بهم من لم يزل أمره مطاعاً فنازلتهم الحسرات فأسرتهم فزاعاً واستسلموا للهلاك وما مد بعد باعاً سماعاً لما يجري يومئذ سماعاً (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً) مزقتهم اللحود تمزيقاً مشاعاً وصيرت تلك الأبدان رفاتاً شياعاً ونفخ في

(241/276)

الصور فقاموا عطاشاً جياعاً وعلموا أن الهوى كان لهم خداعاً فتداعى بالويل من كان بالسرور تداعى (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً) حضروا من صحراء القيامة قاعاً فوجدوه أصعب البقاع بقاعاً وتناولوا بالأيمان والشمائل رقاعاً حفظت أعمالهم فما وجدوا شيئاً مضاعاً وكيل الجزاء بكف الوكيل كما كالوا صاعاً بصاعاً ذلك يوم لا يراعى فيه إلا من كان راعى (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً) قوله تعالى (ذلك حشر علينا يسير) أي هين (نحن أعلم بما يقولون) أي في تكذيبك وهذه تسلية له (وما أنت عليهم بجبار) أي بمسلط فتقهرهم على الإسلام وهذا منسوخ بآية السيف قوله تعالى (فذكر بالقرآن) أي

فعظ به قال بعض السلف من لم يعظه القرآن ولا الشيب فلو تناطحت بين يديه الجبال ما

اتعظ يا ذا النفس اللاهية تقرأ القرآن وهي ساهية أمالك ناهية في الآية الناهية كم خوفك

القرآن من داهية أما أخبرك أن أركان الحياة واهية أما أعلمك أن أيام العمر متناهية أما

عرفك أسباب الغرور كما هيه (قد يرعوي المرء يوماً بعد هفوته

ويحكم الجاهل الأيام والعبر

(والعلم يجلي العمى عن قلب صاحبه

كما يجلي سواد الظلمة القمر

(والذكر فيه حياة للقلوب كما

يحيي البلاد إذا ما ماتت المطر

(لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً

وهل يلين لقول الواعظ الحجر

(والموت جسر لمن يمشي على قدم

إلى الأمور التي تخشى وتنتظر

(فهم يجوزون أفواجاً وتجمعهم

دار إليها يصير البدو والحضر

(لا يلبث الشيء أن يبلى إذا اختلفت

يوماً على نقصه الروحات والبكر

(وكل بيت خراب بعد جدته

ومن وراء الشباب الموت والكبر

(بينا يرى الغصن لدناً في أرومته

ريان صار حطاماً جوفه نخر

(كم من جميع أشت الدهر شملهم

وكل شمل جميع سوف ينتشر

(أبعد آدم ترجون البقاء وهل

تبق فروع لأصل حين ينقعر

(لكم بيوت بمستن السيول وهل

يبقى على الماء بيت أسه مدر

(إلى الفناء وإن طالت سلامتهم

مصير كل بني أم وإن كثروا

(والمرء ما عاش في الدنيا له أمل

إذا انقضى سفر منهما أتى سفر

(لها حلاوة عيش غير دائمة

وفي العواقب منها المر والصبر

(إذا قضت زمر آجالها نزلت

على منازلها من بعدها زمر

(وليس بزجركم ما توعظون به

والبهم يزجرها الراعي فتنزجر

(ما لي أرى الناس والدنيا مولية

وكل جيل عليها سوف ينبتر

(لا يشعرون بما في دينهم نقصوا

جهلاً وإن نقصت دنياهم شعروا

يا متحيرا في طريقه قد بان البيان يا بليد الإعتبار وقد أنذره الأقران يا من تقرع قلبه المواعظ

وهو قاس ما لأن لو حضرت بالذهن كفاك زجر القرآن

كتب زر بن حبش إلى عبد الملك بن مروان لا يطمعنك في طول الحياة ما ترى من صحة

بدنك واذكر قول الأول (إذا الرجال ولدت أولادها

وبليت من كبر أجسادها

(وجعلت أسقامها تعتادها

تلك زروع قد دنا حصادها

فلما قرأ الكتاب بكى حتى بل طرف ثوبه كان الربيع بن خثيم يقول أما بعد فأعد زادك وجد في جهازك وكن وصي نفسك وكان إذا جن عليه الليل لا ينام فتناديه أمه ألا تنام فيقول يا أماه من جن عليه الليل وهو يخاف البيات حق له أن لا ينام فلما بلغ ورأت ما يلقى من البكاء والسهر قالت يا بني لعلك قتلت قتيلاً فقال نعم يا أماه فقالت ومن هذا القتيل فلو علم أهله ما تلقى من البكاء والسهر لرحموك فقال هي نفسي وقالت له ابنته يا أبت ألا تنام فقال يا بنية إن جهنم لا تدعني أنام أيها الغافل زاحم أهل العزم وبادر فكأن قد نزل بك ما تخاف وتحاذر فيختم الكتاب على الرذائل ويفوت تحصيل الفضائل فالدنيا منزل قلعة كأنها يوم أو جمعة (كل حي إلى فناء وما الدار

بدار ولا المقام مقام

(يستوي ساعة المنية في الرتبة

وجد الغني والإعدام

(والذي زال وانقضى من نعيم

أو شقاء كأنه أحلام

السجع على قوله تعالى (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) لقد وعظ القرآن المجيد يبدي التذكار عليكم وبعيد غير أن الفهم منكم بعيد ومع هذا فقد سبق العذاب التهديد (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) إن في القرآن ما يلين الجلاميد لو فهمه الصخر كأن الصخر يميد كم أخبرك بإهلاك الملوك الصيد وأعملك أن الموت بالباب والوصيد (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) إن مواعظ القرآن تذيب الحديد وللفهوم كل لحظة زجر جديد وللقلوب النيرة كل يوم به عيد غير أن الغافل يتلوه ولا يستفيد (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أما الموت للخلائق مبيد أما تراه قد مزقهم في البيد أما داسهم بالهلاك دوس الحصيد لا بالبسيط ينتهون ولا بالتشديد أين من كان لا ينظر بين يديه أين من أبصر العبر ولم ينتفع بعينيه أين من بارز بالذنوب المطلع عليه (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أين من كان يتحرك في أغراضه ويميد ويغرس الجنان لها طلع نضيد ويعجبه نغمات الورق على الورق بتغريد كان قريباً منا فهو اليوم بعيد (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أحضروا قلوبكم فإلى كم تقليد يا معشر الشيوخ في عقل الوليد أما فيكم من يذكر أنه في قبره وحيد أما فيكم من يتصور تمزيقه والتبديد غداً يباع أثاث البيت فمن يزيد غداً يتصرف الوارث كما يريد غداً يستوي في

بطون اللحود الفقير والسعيد يا قوم ستقومون للمبدئ المعيد يا قوم ستحاسبون على القريب والبعيد يا قوم المقصود كله وبيت القصيد فمنهم شقي وسعيد ألهمنا الله وإياكم ما ألهم الصالحين وأيقظنا من رقاد الغافلين إنه أكرم منعم وأعز معين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التبصرة حـ 1 صـ 93.104 ﴾

(244/276)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ذكر صالح عليه السلام)

وصالح اسم علَم عربىّ .

وهو أَوّل من سُمِّىَ بهذا الاسم .

قال الثعلبى : هو صالح بن عبيد ابن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود بن عَوْص بن إِرَم بن سام بن نُوح .

قال أَبو عمرو بن العلاء : سُمِّيت ثَمُود لقلة مائها .

والثَّمَدُ : الماءُ القليل .

وكانت مساكن ثَمُود الحِجْر بين الحِجاز والشام ، وكانوا عَرَباً ، وكان صالحٌ عليه السّلام من

أَفضلهم نَسَباً ، فبعثه الله إليهم رسولاً وهو شابّ ، فدعاهم إلى أَنْ شَمِطَ ولم يتَّبعه منهم إلاَّ قليل مستضعَفون .

ولّما طال دعاؤه إيّاهم اقترحوا أَن تَخْرُجَ له النَّاقةُ من الحَجَرِ آية ، وكان من أَمرها وأَمرهم ما ذكره الله عزّ وجلّ فى كتابه ، وكان عَقْر النَّاقة يَوْم الأَربعاء .

وانتقل صالحٌ بعد هلاك قومه إلى الشام بمن أَسْلَم معه ، فنزلوا رَمْلَة فِلَسْطِين ، ثم انتقل إلى مَكَّة ، فتوفِّىَ صالحٌ بها ، وهو ابن ثمانٍ وخمسين نسة ، وكان أَقام فى [قومه] عشرين سنة وقيل صار بقيّة المؤمنين من قوم صالح بمدينة جَابَلْص من ناحية المشرق ، وبقية المؤمنين من قوم هود بمدينة جَابَلْق من ناحية المغرب .

والعامة تلحن وتقول : جابَلْقا وجابَلْصا .

وعُرِضَ القَوْمان على النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليلة المعراج ، فدعاهم إلى دِينه وشَرِيعته فآمنوا به وصاروا من أُمّته ، وسيدخلون يوم القيامة فى شفاعته .

(245/276)

ودَعا الله تعالى صالحاً فى القرآن بعشرة أَسماء : مُرْسَلٌ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ رَسولٌ وأَمِينٌ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ، أَخٌ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ ، مُبَلِّغ ﴿لَقَدْ

أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ﴾ ، صادِقٌ ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ناجى ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً ﴾ ، بَشَرٌ وواحد ﴿ فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ ﴾ ناصِح ﴿ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ ، صالِحٌ ﴿ يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً ﴾ ، وقال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾ ، ﴿ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ ، ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحاً ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ .

قال [بعضهم] :

*يَعِيبُك قَومٌ حين لُقِّيْتَ صالِحا * ولاَمك قَوْمٌ حين سُمِّيت طالِحَا *

*لَقِيتَ البَلايا إنْ عُدِدْتَ محارِباً * وجُرْتَ العَطايا إن أَتَيْت مُصالحا *

*أَلَمْ يُنْجِيَنَّ اللهُ بيت نبيّه * وأَرْدَى ثَمُوداً حين كَذَّبَ صالِحا *

(بصيرة فى ذكر ثمود)

وهم قومُ صالح ، وقد قدّمنا أَنَّهم سُمُّوا بهذا الاسم لقلَّة مائهم .

والثَّمَدُ : الماء القليلُ ، وكانوا سَبْعَمائة قبيلة ، كُلّ قبيلة لها عددٌ لا يحصيه إلاَّ اللهُ تعالى ، وكان لهم بئرٌ واحدة بوادِى القُرَى من ديار الحِجْر ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وقال تعالى ﴿ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ .

وكانوا من القوّة والمَهارة والحَذاقة بحدٍّ يَبْنُون من الصَّخْر الأَصمّ والجَبل الراسى بَيْتاً عظيماً مَنْحُوتاً .

وهم كانوا أَيضاً شَعْباً من عاد قوم هُود ، وهم الَّذين قيل لهم عادٌ / الأُولَى .

وقيل لثَمُودَ الأخْرَى .

ولّما دعاهم صالح إِلى الله طلبوا منه المعجزة ، فقالوا عَيِّنُوا لى ما شئتم .

(246/276)

فقالوا : على سبيل الاستهزاء أَخْرِج لنا ناقةً من هذا الحجر .

فأَوحى الله إِليه إِنَّا قد خلقنا ناقةً فى قلب هذه الصَّخْرة منذ أَربعة آلافِ سنةٍ ، وقد ضاق صَدْرها وضاق مكانُها ، فادع الله بخلاصها من هذا المَضيق ، فدَعاه تعالى فانشقت الصّخرةُ من ساعته ، وخرجت ناقةٌ وتُتِجَت فى الحال .

ولم يترك القوم تَمَرُّدَهم وتكذيبهم فأَشْرَكها الله معهم فى الماء ، وظنُّوا أَنَّها تضيّق عليهم فقصدوها وعقروها ، وكان سببَ دَمارهم وخرابَ ديارهم .

فذكرهم الله عزَّ وجلّ فى مواضع من القرآن .

وقال ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴾ ، وقال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ

لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّى حِينٍ ﴾ وقال : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ .

قال بعضهم :

*أَإِخْوانِى إلى الرّحمان عُودُوا * يَنَلْكُم من كَرامَتِه السُّعودُ*

*ومَنْ يَعْصى الإله به اغْتِرارا * لَهُ فى القَبْرِ من نارٍ مُهُودُ*

*يُقال له عَدا من كُلّ خَيْر * أَلاّ بُعْداً كما بَعِدَتْ ثَمُودُ* انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 6 صـ 102.99 ﴾

(247/276)

فصل

قال ابن كثير :

قصة صالح نبي ثمود عليه السلام

وهم قبيلة مشهورة يقال ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك وقد مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتي بيانه وكانوا

بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو عبد الله ورسوله صالح بن عبد بن ماسح (1) بن عبيد بن حاجر

(248/276)

ابن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئًا فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى في سورة الأعراف وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم

رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وقال تعالى في سورة هود وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نترك ما يعبد آباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز وأخذ الذين ظلموا الصحية

فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعد الثمود وقال تعالى في سورة الحجر ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون وقال سبحانه وتعالى في سورة سبحان وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب

بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا وقال تعالى في سورة الشعراء كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتتركون فيما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا

تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وقال تعالى في سورة النمل ولقد أرسلنا ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا أطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله

وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون وقال تعالى في سورة حم السجدة وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون وقال تعالى في سورة اقتربت كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا من الكذاب الأشر انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وقال تعالى كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها وكثيرا ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود كما في سورة براءة وإبراهيم والفرقان وسورة ص وسورة ق والنجم والفجر ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى في

سورة إبراهيم وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات الآية الظاهر ان هذا من تمام كلام موسى مع قومه ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدا ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهورا في زمان موسى عليه السلام وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير متقصيا ولله الحمد والمنة والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم وكيف نجى الله نبيه صالحا عليه السلام ومن آمن به وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام قد قدمنا أنهم كانوا عربا وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله

(252/276)

ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في

الأرض مفسدين أي إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين أي حاذقين في صنعتها واتقانها وإحكامها فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة ولهذا وعظهم بقوله انتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم أي متراكم كثير حسن بهي ناضج وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون وقال لهم أيضا يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرزاق فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه فاستغفروه ثم توبوا إليه أي أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم إن ربي قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا أتنهانا أن نترك ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير وهذا تلطف منه لهم في العبارة ولين الجانب وحسن تأت

في الدعوة لهم إلى الخير أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ماذا عذركم عند الله وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون مني أن اترك دعائكم

(253/276)

إلى طاعته وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بيني وبينكم وقالوا له أيضا إنما أنت من المسحرين أي من المسحورين يعنون مسحورا لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد وهذا القول عليه الجمهور إن المراد بالمسحرين المسحورين وقيل من المسحرين أي ممن له سحر وهي الرئة كأنهم يقولون إنما أنت بشر له سحر والأول أظهر لقولهم بعد هذا ما أنت إلا بشر مثلنا وقولهم فأت بآية إن كنت من الصادقين سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم وقال قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم وقال تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها

(254/276)

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبي صالح عليه السلام أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به قالوا نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفظ عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذي طلبوا أو على الصفة التي نعتوا فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما ومنظرا هائلا وقدرة باهرة ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعا فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال فظلموا بها أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أي أكثرهم وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو بن محلاه بن لبيد بن جواس وكان من رؤساهم وهم بقية الأشراف بالإسلام قصدهم ذؤاب بن عمر بن لبيد والخباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمعر بن جلمس ودعا جندع بن عمه شهاب بن خليفة وكان من أشرافهم فهم بالإسلام فنهاه أولئك فمال إليهم فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله

. . . وكانت عصبة من آل عمرو . . . إلى دين النبي دعوا شهابا . . . عزيز ثمود كلهم جميعا . . . فهم بأن يجيب ولو أجابا . . . لأصبح صالح فينا عزيزا . . . وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا . . . ولكن الغواة من آل حجر . . . تولوا بعد رشدهم ذآبا (1) . . .

(255/276)

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام هذه ناقة الله لكم آية أضافها لله سبحانه وتعالى تشريف وتعظيم كقوله بيت الله وعبد الله لكم آية أي دليلا على صدق ما جئتكم به فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا قال لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولهذا قال تعالى إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم أي اختبار لهم أيؤمنون بها أم يكفرون والله أعلم بما يفعلون فارتقبهم أي انتظر ما يكون من أمرهم واصطبر على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم

الشيطان

أعمالهم قال الله تعالى فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع وكان أحمر أزرق أصهب وكان يقال إنه ولد زانية ولد على فراش سالف وهو ابن رجل يقال له صبيان وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم

(256/276)

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين أن امرأتين من ثمود اسم أحداهما صدوق ابنة المحيا ابن زهير بن المختار وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له مصرع بن مهرج بن المحيا وعرضت عليه نفسها أن هو عقر الناقة واسم الأخرى عنيزة بنت غنيم بن مجلز وتكنى أم عثمان وكانت عجوزا كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف أن هو عقر الناقة له أي بناتها شاء فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها

فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك فانطلقوا يرصدون الناقة فلما صدرت من وردها كمن لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النساء يزمرن القبيلة في قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيبا لهم فابتدرهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقبها وهو فصيلها فصعد جبلا منيعا ودعا ثلاثا وروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن أنه قال يا رب أين أمي ثم دخل في صخرة فغاب فيها ويقال بل اتبعوه فعقروه أيضا قال الله تعالى فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر وقال تعالى إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها أي احذروها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها

(257/276)

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا هاشم هو أبو عزرة عن أبيه عبد الله بن زمعة قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال إذ انبعثت أشقاها انبعث لها رجل من غارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة أخرجاه من

حديث هشام بن عارم أي شهم عزيز أي رئيس منيع أي مطاع في قومه وقال محمد بن إسحاق حدثني يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب عن محمد بن خيثم عن يزيد عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لعلي ألا أحدثكم بأشقى الناس قال بلى قال رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذا يعني قرنه حتى تبتل منه هذه يعني لحيته رواه ابن أبي حاتم وقال تعالى فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا

(258/276)

يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه منها أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين أحدهما الشرط عليهم في قوله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب وفي آية عظيم وفي الأخرى أليم والكل حق والثاني استعجالهم على ذلك ومنها أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علما جازما ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم قال الله تعالى فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك

وعد غير مكذوب وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قال لهم صالح تمتعوا في داركم ثلاثة أيام أي غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضا في هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله أي لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدن قتله وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه ولهذا قالوا ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك اهله وإنا لصادقون وقال الله تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كا أنذرهم صالح عليه السلام فلما أمسوا نادوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام

التأجيل وهو يوم الجمعة ووجهم ! محمرة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان من الأجل ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم العذاب فلم أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها قالوا ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة بنت السلق ويقال لها الذريعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حيا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء فلما شربت ماتت قال الله تعالى كأن لم يغنوا فيها أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء ألا إن ثمود كفروا ربهم إلا بعدا لثمود أي نادى عليهم لسان القدر بهذا

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبي الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت يعني الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم

صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان في حرم الله فقالوا من هو يا رسول الله قال هو أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة والله أعلم

(260/276)

وقد قال عبد الرزاق أيضا قال معمر أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي صلى الله عليه و سلم مر بقبر أبي رغال فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا قبر أبي رغال رجل من ثمود كان في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن قال عبد الرزاق قال معمر قال الزهري أبو رغال أبو ثقيف هذا مرسل من هذا الوجه وقد جاء من وجه آخر متصلا كما ذكره محمد بن إسحق في السيرة عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير سمعت عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال إن هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج منه أصابته النقمة التي اصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم

عنه أصبتموه معه فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحق به قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله هذا حديث حسن عزيز قلت تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ولا يعرف إلا بهذا الحديث ولم يرو عنه سوى إسماعيل ابن أمية قال شيخنا فيحتمل أنه وهم في رفعه وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملته والله أعلم قلت لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضا شاهد له والله أعلم وقوله تعالى فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلا لهم يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي ولكن لا تحبون الناصحين أي لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم

(261/276)

المتصل إلى الأبد وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان والذي وجب على من اداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد وهكذا خاطب النبي

صلى الله عليه و سلم أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل

من آخر الليل فقال يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا وقال لهم فيما قال بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم فقال له عمر يا رسول الله تخاطب أقواما قد جيفوا فقال والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله ويقال إن صالحا عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لما مر النبي صلى الله عليه و سلم بوادي عسفان حين حج قال يا أبا بكر أي واد هذا قال وادي عسفان قال لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق إسناد حسن وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام من رواية الطبراني وفيه نوح وهود وإبراهيم

مرور النبي بوادي الحجر من أرض ثمود عام

تبوك قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم ان يدخلوا على القوم الذين عذبوا إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم وقال احمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم أخرجاه في الصحيحين من غير وجه وفي بعض الروايات أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين وفي رواية فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم صلوات الله وسلامه عليه

وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون حدثنا المسعودي عن إسمعيل بن أوسط عن محمد بن أبي كبشة الأنباري عن أبيه واسمه عمرو بن سعد ويقال عامر بن سعد رضي الله عنه قال لما كان في غزوة تبوك فسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله

صلى الله عليه و سلم فنادى في الناس الصلاة جامعة قال فأتيت النبي صلى الله عليه و سلم وهو ممسك بعيره وهو يقول ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم فناداه رجل نعجب منهم يا رسول الله قال أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان

(263/276)

قبلكم وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئا وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا إسناد حسن ولم يخرجوه وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم فنحتوا لهم بيوتا في الجبال وذكروا أن صالحا عليه السلام لما سألوه آية فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب فبعثوا القوابل في البلد متى وجدوا مولودا بهذه الصفة يقتلنه فكانوا على ذلك دهرا طويلا وانقرض جيل وأتى جيل آخر فلما كان في بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله في الرياسه فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة وهو قدار بن سالف فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم فنشأ نشأة سريعة فكان يشب في الجمعة

كما يشب غيره في شهر حتى كان من أمره أن خرج مطاعا فيهم رئيسا بينهم فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة وبلغ ذلك صالحا عليه السلام جاءهم باكيا عليها فتلقوه يعتذرون إليه ويقولون إن هذا لم يقع عن ملأ منا وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا فيقال إنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضا عنها فذهبوا وراءه فصعد جبلا هناك فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير وبكى الفصيل حتى سالت دموعه ثم استقبل صالحا عليه السلام ودعا ثلاث فعندها قال صالح تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وذلك وعد غير مكذوب وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفرا ثم تحمر وجوههم في الثاني وفي اليوم الثالث تسود وجوههم فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين وفي بعض هذا السياق

نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم كما قدمنا والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 130. 139﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والسبعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/277)

الجزء السابع والسبعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 80 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 84 ﴾ من نفس السورة

(4/277)

قوله تعالى ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه ما وفى بمقصد هذه السورة في هذا السياق من قصتهم ، أتبعه من بعده ممن تعرفه العرب كما فعل فيما قبل فقال : ﴿ ولوطاً إذ قال ﴾ ولما كانت رسالته إلى مدن شتى ، وكأنهم كانوا قبائل شتى ، قيل : كانوا خمسة وهي المؤتفكات ، وقيل : كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة الشريفة ، قال : ﴿ لقومه ﴾ وقد جوزوا أن يكون العامل فيه ﴿ أرسلنا ﴾ و ﴿ اذكر ﴾ ولا يلزم من تقدير ﴿ أرسلنا ﴾ أن يكون إرساله في وقت تفوهه لهم بهذا القول غير سابق عليه ، لأنه كما أن ذلك الزمن – المنطبق على أول قوله

وآخره – وقت له فكذلك اليوم – الذي وقع فيه هذا القول – وقت له ، بل وذلك الشهر وتلك السنة وذلك القرن ، فإن من شأن العرب تسمية الأيام المشتركة في الفعل الواحد يوماً ، قالوا : يوم القادسية ، وهو أربعة أيام إن اعتبرنا مدة القتال فقط ، وعدة شهور إن اعتبرنا بالاجتماع له ، وكذا يوم صفين ، وقال تعالى في قصة بدر ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ إلى أن قال : ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ إلى أن قال : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾

(5/277)

﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة ﴾ [الأنفال : 7] وكلها إبدال من قوله : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴾ ولا ريب في أن زمان الكل يكن متحداً إلا بتأويل جميع الأيام المتعلقة بالوقعة من سير وقتال وغير ذلك – والله أعلم ، وعبر في قصة نوح عليه السلام ب ﴿ أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ [الأعراف : 59] ثم نسق من بعده عليه فقيل : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ [الأعراف : 65] ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ [الأعراف : 73] ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ [الأعراف : 85] وعدل عن هذا الأسلوب في قصة لوط فلم يقل : وإلى أهل أدوماً أخاهم لوطاً ، أو إلى أهل سدوم لوطاً أو وأرسلنا لوطاً

إلى قومه ونحو ذلك كما سيأتي في قصة موسى عليه السلام ، لأن من أعظم المقاصد بسياق هذه القصص تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، في مخالفة قومه لهو عدم استجابتهم وشدة أذاهم وإنذار

(6/277)

قومه أن يحل بهم ما حل بهذه الأمم من العذاب ، وقصص من عدا قوم لوط مشابهة لقصة قريش في الشرك بالله والأذى لعباده المؤمنين ، وأما قصة قوم لوط فزائدة عن ذلك بأمر فظيع عظيم الشناعة شديد العار والفحش فعدل عن ذلك النسق تنبيهاً عليه تهويلاً للامر وتبشيعاً له ، ليكون في التسلية أشد ، وفي استدعاء الحمد والشكر أتم ، وحينئذ يترجح أن يكون العامل ﴿ اذكر ﴾ لا ﴿ أرسلنا ﴾ أي واذكر لوطاً وما حصل عليه من قومه زيادة على شركهم من رؤيته فيهم هذا الأمر الذي لم يبق للشناعة موضعاً ، فالقصة في الحقيقة تسلية وتذكير بنعمة معافاة العرب من مثل هذا الحال وإنذار لهم سوء المآل مع ما شاركت فيه أخواتها من الدلالة على سوء جبلة هؤلاء القوم وشرارة جوهرهم المقتضي لتفردهم عن أهل الأرض بذلك الأمر الفاحش ، والدليل على أنه أشنع الشنع بعد الشرك – مع ما جعل الله تعالى في كل طبع سليم من النفرة عنه – اختصاصه بمشاركته للشرك في أنه لم يحل

في ملة من الملل في وقت من الأوقات ولا مع وصف من الأوصاف ، وبقية المحرمات ليست كذلك ، فأما قتل النفوس فقد حل في القصاص والجهاد وغير ذلك ، والوطء في القبل لم يحرم إلا بقيد كونه زنى ، ولولا الوصف لحل ، وأكل المال الأصل فيه الحل ، وما حرم إلا بقيد كونه بالباطل – وكذا غير ذلك ؛ قال أبو حيان : ولما كان هذا الفعل معهوداً قبحه ومركوزاً في العقول فحشه ، أتى معرفاً – أي في قوله بعد إنكاره عليهم وتقريعه وتوبيخه لهم : ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ أي أتفعلون السيئة المتمادية في القبح وإن كان بينكم وبينها مسافة بعيدة – أو تكون " أل " فيه للجنس على سبيل المبالغة ، كأنه لشدة قبحه جعل جميع الفواحش ولبعد العرب عن ذلك البعد التام ، وذلك بخلاف الزنى فإنه قال فيه

﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ﴾ [الإسراء : 32] .

(7/277)

ولما كان غير مستبعد على صفاقة وجوههم ووقاحتهم أن يقولوا : لم تكون فعلتنا منكراً موبخاً عليها ؟ قال : ﴿ ما سبقكم بها ﴾ وأغرق في النفي بقوله : ﴿ من أحد ﴾ وعظم ذلك بتعميمه في قوله : ﴿ من العالمين ﴾ فقد اخترعتم شيئاً لا يكون مثل فحشه لتذكروا به أسوأ ذكر ، كما أن ذوي الهمم العوال والفضل والكمال يستنبطون من المحاسن والمنافع ما

يبقى لهم ذكره وينفعهم أجره ، وفي ذلك أعظم إشارة إلى تقبيح البدع والتشنيع على فاعليها ، لأن العقول لا تستقل بمعرفة المحاسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 61 .

63 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة .

قال النحويون : إنما صرف لوط ونوح لخفته ، فإنه مركب من ثلاثة أحرف ، وهو ساكن الوسط ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ أتفعلون السيئة المتمادية في القبح ؟ وفي قوله : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : قال صاحب "الكشاف" : ﴿ من ﴾ الأولى زائدة لتوكيد النفي ، وإفادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض .

فإن قيل : كيف يجوز أن يقال : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ مع أن الشهوة داعية إلى ذلك العمل أبداً ؟

والجواب : أنا نرى كثيراً من الناس يستقذر ذلك العمل ، فإذا جاز في الكثير منهم استقذاره لم يبعد أيضاً انقضاء كثير من الإعصار بحيث لا يقدم أحد من أهل تلك الأعصار عليه ،

وفيه وجه آخر ، وهو أن يقال : لعلهم بكليتهم أقبلوا على ذلك العمل ، والإقبال بالكلية على ذلك العمل مما لم يوجد في الأعصار السابقة .

قال الحسن : كانوا ينكحون الرجال في أدبارهم ، وكانوا لا ينكحون إلا الغرباء .

وقال عطاء عن ابن عباس : استحكم ذلك فيهم حتى فعل بعضهم ببعض .

البحث الثاني : قوله : ﴿ ما سبقكم ﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً في التوبيخ لهم ، ويجوز أن يكون صفة الفاحشة ، كقوله تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [ياس : 37]

وقال الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 136 .

137 ﴾

(8/277)

وقال السمرقندى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾

يعني : وأرسلنا لوطاً إلى قومه .

ويقال : معناه واذكروا لوطاً إذ قال لقومه ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ يعني : اللواطة ﴿ مَا

سَبَقَكُمْ بِهَا ﴾ يعني : لم يعمل بمثل عملكم ﴿ مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ قبلكم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلُوطاً ﴾ يعني وأرسلنا لوطاً وقيل معناه : واذكر لوطاً . وهو لوط بن [هاران] بن تارخ أخي إبراهيم (عليه السلام) ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ وهم أهل سدوم ، وذلك أنّ لوطاً شخص من أرض بابل مع عمّه إبراهيم (عليه السلام) مؤمناً به مهاجراً معه إلى الشام فنزل إبراهيم (عليه السلام) فلسطين وأنزل ابن أخيه لوطاً الأردن فأرسل الله إلى أهل سدوم فقال لهم : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ يعني إتيان الذكران ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ قال عمرو بن دينار : ما كان يزني ذكر على ذكر في الدنيا حتّى كان قوم لوط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(9/277)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

" لوط " عليه السلام بعثه الله إلى أمة تسمى سدوم وروي أنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام

، ونصبه إما ﴿ أرسلنا ﴾ المتقدم في الأنبياء وإما بفعل مضمر تقديره واذكر ﴿ لوطاً ﴾ واستفهامه لهم هو على جهة التوقيف والتوبيخ والتشنيع ، و﴿ الفاحشة ﴾ هنا إتيان الرجال في الأدبار ، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أمم قبلهم .

قال القاضي أبو محمد : وإن كان لفظ الآية يقتضي هذا فقد كانت الآية تحتمل أن يراد بها ما سبقكم أحد إلى لزومها وتشهيرها وروي أنهم إن كانوا يأتي بعضهم بعضاً ، وروي أنهم إنما كانوا " يأتون " الغرباء قاله الحسن البصري ، قال عمرو بن دينار ما زنا ذكر على ذكر قبل قوم " لوط " ، وحكى النقاش : أن إبليس كان أصل عملهم بأن دعاهم إلى نفسه ، وقال بعض العلماء عامل اللواط كالزاني ، وقال مالك رحمه الله وغيره : يرجم أحصن أو لم يحصن ، وحرق أبو بكر الصديق رضي الله عنه رجلاً يسمى الفجأة حين عمل عمل قوم " لوط " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾

يعني : إتيان الرجال .

﴿ ما سبقكم بها من أحد ﴾ قال عمرو بن دينار : ما نزا ذكَر على ذكر في الدنيا حتى كان قوم لوط .

وقال بعض اللغويين : لوط : مشتق من لطت الحوض : إذا ملسته بالطين .

قال الزجاج : وهذا غلط ، لأنه اسم أعجمي كاسحاق ، ولا يقال : إنه مشتق من السحق وهو البعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(10/277)

وقال القرطبى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ قال الفرّاء : لوط مشتق من قولهم : هذا أَلْيَط بقلبي ، أي ألصق .

وقال النحاس : قال الزجاج زعم بعض النحويين يعني الفرّاء أن لوطاً يجوز أن يكون مشتقاً من لُطْتُ الحوض إذا ملسته بالطين .

قال : وهذا غلط ؛ لأن الأسماء الأعجمية لا تشتقّ كإسحاق ، فلا يقال : إنه من السُّحق وهو البُعد .

وإنما صرف لوط لخفته لأنه على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسط .

قال النقاش : لوط من الأسماء الأعجمية وليس من العربية .

فأما لُطْتُ الحوض ، وهذا أُلِيط بقلبي من هذا ، فصحيح .

ولكن الاسم أعجميّ كإبراهيم وإسحاق .

قال سيبويه : نُوحٌ ولُوطٌ أسماء أعجمية ، إلا أنها خفيفة فلذلك صرِفت .

بعثه الله تعالى إلى أمة تسمى سدوم ، وكان ابن أخي إبراهيم .

ونَصْبُه إما ب "أَرْسَلْنَا" المتقدّمة فيكون معطوفاً .

ويجوز أن يكون منصوباً بمعنى واذكر .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ يعني إتْيَان الذكور .

ذكرها الله باسم الفاحشة ليبيّن أنها زِنًى ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء : 32] .

واختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه ؛ فقال مالك : يُرْجَم ؛ أحْصِن أو لم يُحصَن .

وكذلك يرجم المفعول به إن كان محتلماً .

وروي عنه أيضاً : يرجم إن كان مُحْصَناً ، ويحبس ويؤدّب إن كان غير محصن .

وهو مذهب عطاء والنخعيّ وابن المسيب وغيرهم .

وقال أبو حنيفة : يُعَزَّر المحصن وغيره ؛ وروي عن مالك .

وقال الشافِعِيّ : يحدّ حَدّ الزِّنَى قياساً عليه .

احتج مالك بقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 74] .

فكان ذلك عقوبة لهم وجزاءً على فعلهم .

(11/277)

فإن قيل : لا حجة فيها لوجهين ؛ أحدهما أن قوم لوط إنما عوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم .

الثاني أن صغيرهم وكبيرهم دخل فيها ؛ فدلّ على خروجها من باب الحدود .

قيل : أمّا الأوّل فغلط ؛ فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصي فأخذهم بها ؛ منها هذه .

وأمّا الثاني فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ ، فعُوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه .

وهي حكمة الله وسنته في عباده .

وبَقِي أمرُ العقوبة على الفاعلين مستمراً .

والله أعلم .

وقد رَوَى أبو داود وابن ماجه والترمِذيّ والنسائِي والدّارَقُطْنِيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " لفظ أبي

داود وابن ماجه .

وعند الترمذِيّ " أحْصنا أو لم يحصنا " وروى أبو داود والدارقطنِيّ عن ابن عباس في البِكر يوجد على اللُّوطِية قال : يرجم .

وقد رُوي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه حرَّق رجلاً يُسمّى الفُجاءة حين عمل عمل قوم لوط بالنار .

وهو رأي عليّ بن أبي طالب ؛ فإنه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم واستشارهم فيه ؛ فقال عليّ : إن هذا الذنب لم تَعْصِ به أُمّةٌ من الأُمم إلا أُمّة واحدة صنع الله بها ما علمتم ، أرى أن يُحرق بالنار .

فاجتمع رأي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق بالنار .

فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه .

ثم أحرقهم ابن الزبير في زمانه .

ثم أحرقهم هشام بن الوليد .

ثم أحرقهم خالد القَسْرِي بالعراق .

ورُوي أن سبعة أُخذوا في زمن ابن الزبير في لِوَاط ؛ فسأل عنهم فوجد أربعة قد أُحْصِنوا فأمر بهم فخرجوا بهم من الحرم فرُجِموا بالحجارة حتى ماتوا ، وحدّ الثلاثة ؛ وعنده ابن عباس وابن عمر فلم ينكرا عليه .

وإلى هذا ذهب الشافعيّ .

قال ابن العربِيّ : والذي صار إليه مالك أحقُّ ، فهو أصحّ سنداً وأقوى معتَمَداً .

(12/277)

وتعلّق الحنفيون بأن قالوا : عقوبة الزِّنَى معلومة ؛ فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألاّ يشاركها في حدّها .

ويأثرون في هذا حديثاً : " مَن وضع حدّاً في غير حَدٍّ فقد تعدّى وظَلَم " وأيضاً فإنه وطء في فرج لا يتعلّق به إحلالٌ ولا إحصان ، ولا وجوبُ مهر ولا ثبوتُ نسب ؛ فلم يتعلق به حدّ .

الثالثة فإن أتى بهيمة فقد قيل : لا يقتل هو ولا البهيمة .

وقيل : يقتلان ؛ حكاه ابن المنْذِر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن .

وفي الباب حديث رواه أبو داود والدّارقطني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه " فقلنا لابن عباس : ما شأن البهيمة ؟ قال : ما أراه قال ذلك ، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل .

قال ابن المنذر : إن يَكُ الحديث ثابتاً فالقول به يجب ، وإن لم يثبت فليستغفر الله من فعل ذلك كثيراً ، وإن عزّره الحاكم كان حسناً .

والله أعلم .

وقد قيل : إن قتل البهيمة لئلا تُلْقِي خَلْقاً مُشَوَّهاً ؛ فيكون قتلها مصلحة لهذا المعنى مع ما جاء من السنة .

والله أعلم .

وقد روى أبو داود عن ابن عباس قال : ليس على الذي زنى بالبهيمة حد .

قال أبو داود : وكذا قال عطاء .

وقال الحكَم : أرى أن يجلد ولا يبلغ به الحدّ .

وقال الحسن : هو بمنزلة الزاني .

وقال الزهرِيّ : يجلد مائة أحصِن أو لم يحصن .

وقال مالك والثّوريّ وأحمد وأصحاب الرأي يعزّر .

ورُوي عن عطاء والنّخعيّ والحكَم .

واختلفت الرواية عن الشافعيّ ، وهذا أشبه على مذهبه في هذا الباب .

وقال جابر بن زيد : يقام عليه الحدّ ، إلا أن تكون البهيمة له .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ "مِن" لاستغراق الجنس ، أي لم يكن اللِّواط في أُمّة قبل قوم لوط .

والملحِدون يزعمون أن ذلك كان قبلهم .

والصدق ما ورد به القرآن .

(13/277)

وحكى النقاش أن إبليس كان أصْلَ عملهم بأن دعاهم إلى نفسه لعنه الله ، فكان يُنكح بعضهم بعضاً .

قال الحسن : كانوا يفعلون ذلك بالغُرَبَاء ، ولم يكن يفعله بعضهم ببعض .

وروى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف على أُمّتي عمل قوم لوط " وقال محمد بن سِيرين : ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(14/277)

وقال الخازن :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ ولوطاً ﴾ يعني وأرسلنا لوطاً وقيل : معناه واذكر يا محمد لوطاً وهو لوط بن هاران بن تارخ وهو ابن أخي إبراهيم وإبراهيم عمه ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يعني أهل سدوم وإليهم كان قد أرسل وذلك أن لوطاً عليه الصلاة والسلام لما هاجر مع عمه إبراهيم عليهم الصلاة والسلام إلى الشام فنزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أرض فلسطين ونزل لوط الأردن أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم يدعوهم إلى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى : ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ يعني أتفعلون الفعلة الخسيسة التي هي غاية في القبح وكانت فاحشتهم إتيان الذكران في أدبارهم ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ من الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض ، والمعنى : ما سبقكم أيها القوم بهذه الفعلة الفاشحة أحد من العالمين قبلكم وفي هذا الكلام توبيخ لهم وتقريع على فعلهم تلك الفاحشة .

قال عمرو بن دينار : ما نزل ذكر على ذكر في الدنيا إلا كان من قوم لوط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(15/277)

وقال أبو حيان :

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾

هو لوط بن هاران أخي إبراهيم عليه السلام وناحور وهم بنو تارح بن ناحور وتقدّم رفع نسبه وقوله هم أهل سدوم وسائر القرى المؤتفكة بعثه الله تعالى إليهم ، وقال ابن عطية بعثه الله إلى أمّة تسمى سدوم وانتصب ﴿ لوطاً ﴾ بإضمار وأرسلنا عطفاً على الأنبياء قبله و﴿ إذ ﴾ معمولة ﴿ لأرسلنا ﴾ وجوّز الزمخشري وابن عطية : نصبه بواذكر مضمرة زاد الزمخشري أنّ ﴿ إذ ﴾ بدل من لوط أي واذكر وقت قال لقومه ، وقد تقدم الكلام على كون إذ تكون مفعولاً بها صريحاً لأذكر وأنّ ذلك تصرف فيها والاستفهام هو على جهة الإنكار والتوبيخ والتشنيع والتوقيف على هذا الفعل القبيح و﴿ الفاحشة ﴾ هنا إتيان ذكران الآدميين في الادبار ولما كان هذا بالفعل معهوداً قبحه ومركوزاً في العقول فحشه أتى معرّفاً بالألف واللام أن تكون أل فيه للجنس على سبيل المبالغة كأنه لشدة قبحه جعل جميع الفواحش ولبعد العرب عن ذلك البعد التام وذلك بخلاف الزنا فإنه قال فيه : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ﴾ فأتى به منكراً أي فاحشة من الفواحش وكان كثير من العرب يفعله ولا يستنكرون من فعله ولا ذكره في أشعارهم والجملة المنفية تدلّ على أنهم هم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها والمبالغة في ﴿ من أحد ﴾ حيث زيدت لتأكيد نفي الجنس وفي الإتيان بعموم العالمين جمعاً .

قال عمر بن دينار : ما رئي ذكر على ذكر قبل قوم لوط روي أنهم كان يأتي بعضهم بعضاً ، وقال الحسن : كانوا يأتون الغرباء كانت بلادهم الأردن تؤتى من كل جانب لخصبها فقال لهم إبليس هو في صورة غلام إن أردتم دفع الغرباء فافعلوا بهم هكذا فمكنهم من نفسه تعليماً ثم فشا واستحلوا ما استحلوا وأبعد من ذهب إلى أنّ المراد من عالمي زمانهم ومن ذهب إلى أن المعنى ﴿ ما سبقكم ﴾ إلى لزومها ويشهدها وفي تسمية هذا الفعل بالفاحشة دليل على أنه يجري مجرى الزنا يرجم من أحصن ويجلد من لم يحصن وفعله عبد الله بن الزبير أتى بسبعة منهم فرجم ربعة أحصنوا وجلد ثلاثة وعنده ابن عمر وابن عباس ولم ينكروا وبه قال الشافعي ، وقال مالك : يرجم أحصن أو لم يحصن وكذا المفعول به إن كان محتلماً وعنده يرجم المحصن ويؤدّب ويحبس غير المحصن وهو مذهب عطية وابن المسيب والنخعي وغيرهم وعن مالك أيضاً يعزر أو لم يحصن وهو مذهب أبي حنيفة وحرق خالد بن الوليد رجلاً يقال له الفجاء عمل ذلك العمل وذلك برأي أبي بكر وعليّ وأنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمع رأيهم عليه وفيهم عليّ بن أبي طالب ، وروي أنّ ابن الزبير أحرقهم في زمانه وخالد القشيري بالعراق وهشام .

﴿ وما سبقكم ﴾ جملة حالية من الفاعل أو من ﴿ الفاحشة ﴾ لأنّ في ﴿ سبقكم بها ﴾ ضميرهم وضميرها ، وقال الزمخشري : هي جملة مستأنفة أنكر عليهم أولاً بقوله ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ ثم وبّخهم عليها فقال : أنتم أول من عملها أو على أنه جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا لم لا نأتيها فقال : ﴿ ما سبقكم بها أحد ﴾ فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به ، وقال الزمخشري : والباء للتعدية من قولك سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله ومنه قوله عليه السلام " سبقك بها عكاشة " انتهى ، ومعنى التعدية هنا قلق جداً لأنّ الباء المعدية في الفعل المتعدي إلى واحد هي بجعل المفعول الأول يفعل ذلك الفعل بما دخلت عليه الباء فهي كالهمزة وبيان ذلك أنك إذا قلت صككت الحجر بالحجر فمعناه أصككت الحجر الحجر أي جعلت الحجر يصك الحجر وكذلك دفعت زيداً بعمرو عن خالد معناه أدفعت زيداً عمراً عن خالد أي جعلت زيداً يدفع عمراً عن خالد فللمفعول الأوّل تأثير في الثاني ولا يتأتّى هذا المعنى هنا إذ لا يصحّ أن يقدّر أسبقت زيداً الكرة أي جعلت زيداً يسبق الكرة إلا بمجاز متكلّف وهو أن تجعل ضربك للكرة أول جعل ضربة قد سبقها أي تقدّمها في الزمان فلم يجتمعا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ ولوطاً ﴾ منصوبٌ بفعل مضمر على ما سبق ، وعدمُ التعرُّضِ للمرسل إليهم مقدماً على المنصوب حسبما وقع فيما سبق وما لحِق قد مر بيانُه في قصة هودٍ عليه السلام ، وهو لوطُ بنُ هارانَ بن تارح بنُ أخي إبراهيمَ كان من أرض بابلَ من العراق مع عمه إبراهيمَ فهاجر إلى الشام فنزل فلسطينَ وأنزل لوطاً الأردُنّ وهي كورةٌ بالشام فأرسله الله تعالى إلى أهل سَدومَ وهي بلدٌ بحِمْصَ ، وقوله تعالى : ﴿ إذ قال لقومه ﴾ ظرفٌ للمضمر المذكورِ أي أرسلنا لوطاً إلى قومه وقت قولِه لهم الخ ، ولعل تقييدَ إرسالِه عليه السلام بذلك لما أن إرسالَه إليهم لم يكن في أول وصولِه إليهم ، وقيل : هو بدلٌ من لوطاً بدلَ اشتمالٍ على أن انتصابَه باذكر ، أي اذكرْ وقتَ قولِه عليه السلام لقومه : ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ بطريق الإنكارِ التوبيخيِّ التقريعيِّ أي أتفعلون تلك الفعلةَ المتناهيةَ في القبح المتماديةِ في الشرية والسوء ﴿ ما سبقكم بها ﴾ ما عمِلها قبلكم على أن الباء للتعدية كما في قوله تعالى : ﴿ من أحد ﴾ مزيدةٌ لتأكيد النفي وإفادةِ معنى الاستغراقِ ، وفي قوله تعالى : ﴿ من العالمين ﴾ للتبعيض ، والجملةُ مستأنفةٌ مسوقة لتأكيد النكيرِ وتشديدِ التوبيخِ والتقريعِ ، فإن

مباشرةَ القبيحِ قبيحٌ واختراعَه أقبحُ ، ولقد أنكر الله تعالى عليهم أولاً إتيانَ الفاحشةِ ثم وبخهم بأنهم أولُ من عمِلها فإن سبكَ النظمِ الكريمِ وإن كان على نفي كونِهم مسبوقين من غير تعرّضٍ لكونهم سابقين ، لكن المرادَ أنهم سابقون لكل مَنْ عداهم من العالمين كما مر تحقيقه مراراً في نحو قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ أو مسوقةٌ جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل من جهتهم : لم لا نأتيها ؟ فقيل بياناً للعلة وإظهاراً للزاجر : ما سبقكم بها أحدٌ لغاية قُبْحِها وسوءِ سبيلها فكيف تفعلونها ؟ قال عمرو بن دينار : ما نزَا ذكرٌ على ذكر حتى كان قومُ لوط . قال محمد بنُ إسحاق :

(19/277)

كانت لهم ثمارٌ وقُرى لم يكن في الدنيا مثلُها فقصدهم الناسُ فآذَوْهم فعرض لهم إبليسُ في صورة شيخٍ فقال : إن فعلتم بهم كذا وكذا نجَوْتم منهم فأَبَوْا فلما ألحّ الناسُ عليهم قصدوهم فأصابوا غِلْماناً صِباحاً فأخبثوا فاستحكم فيهم ذلك ، قال الحسن : كانوا لا يفعلون ذلك إلا بالغرباء ، وقال الكلبي : أول من فُعل به ذلك الفعل إبليسُ الخبيثُ حيث تمثل لهم في صورة شابٍ جميل فدعاهم إلى نفسه ثم عبثوا بذلك العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلُوطاً ﴾ نصب بفعل مضمر أي أرسلنا معطوف على ما سبق أو به من غير خاجة إلى تقدير ، وإنما لم يذكر المرسل إليهم على طرز ما سبق وما لحق لأن قومه على ما قيل لم يعهدوا باسم معروف يقتضي الحال ذكره عليه السلام مضافاً إليهم كما في القصص من قبل ومن بعد وهو ابن هاران بن تارخ .

وابن اسحق ذكر بدل تارخ آزر .

وأكثر النسابين على أنه عليه السلام ابن أخي إبراهيم صلى الله عليه وسلم ورواه في "المستدرك" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وأخرج ابن عساكر عن سليمان بن صرد أن أبا لوط عليه السلام عم إبراهيم عليه السلام ، وقيل : إن لوطاً كان ابن خالة إبراهيم وكانت سارة زوجته أخت لوط وكان في أرض بابل من العراق مع إبراهيم فهاجر إلى الشام ونزل فلسطين وأنزل لوطاً الأردن وهو كرة بالشام فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم وهي بلدة بحمص .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس قال : أرسل لوط إلى المؤتفكات

وكانت قرى لوط أربع مدائن سدوم وأمورا وعامورا وصبوير وكان في كل قرية مائة ألف مقاتل وكانت أعظم مدائنهم سدوم وكان لوط يسكنها وهي من بلاد الشام ومن فلسطين مسيرة يوم وليلة ، وهذا اللفظ على ما قال الزجاج اسم أعجمي غير مشتق ضرورة أن العجمي لا يشتق من العربي وإنما صرف لخفته بسكون وسطه ، وقيل : إنه مشتق من لطت الحوض إذا ألزقت عليه الطين ، ويقال : هذا ألوط بقلبي من ذلك أي ألصق به ولاط الشيء أخفاه .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ظرف لأرسلنا كما قال غير واحد .

(21/277)

واعترض بأن الإرسال قبل وقت القول لا فيه كما تقتضيه هذه الظرفية ، ودفع بأنه يعتبر الظرف ممتداً كما يقال زيد في أرض الروم فهو ظرف غير حقيقي يعتبر وقوع المظروف في بعض أجزائه كما قرره القطب ، وجوز أن يكون ﴿ لُوطاً ﴾ منصوباً بأذكر محذوفاً فيكون من عطف القصة على القصة ، و ﴿ إِذْ ﴾ بدل من لوط بدل اشتمال بناء على أنها لا تلزم الظرفية ، وقال أبو البقاء : إنه ظرف الرسالة محذوفاً أي واذكر رسالة لوط إذ قال : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ استفهام على سبيل التوبيخ والتقريع أي أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت

أقصى القبح وغايته .

﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ أي ما عملها أحد قبلكم في زمن من الأزمان فالباء للتعدية كما في "الكشاف" من قولك : سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله ، ومنه ما صح من قوله صلى الله عليه وسلم : " سبقك بها عكاشة "

وتعقبه أبو حيان بأن معنى التعدية هنا قلق جداً لأن الباء المعدية في الفعل المعدى إلى واحد تجعل المفعول الأول يفعل ذلك الفعل بما دخلت عليه الباء فهي كالهمزة فإذا قلت : صككت الحجر بالحجر كان معناه أصككت الحجر الحجر أي جعلت الحجر يصك الحجر وكذلك دفعت زيداً بعمرو عن خالد معناه أدفعت زيداً عمراً عن خالد أي جعلت زيداً يدفع عمراً عن خالد فللمفعول الأول تأثير في الثاني ولا يصح هذا المعنى فيما ذكر إلا بتكلف فالظاهر أن الباء للمصاحبة أي ما سبقكم أحد مصاحباً وملتبساً بها ، ودفع بأن المعنى على التعدية ، ومعنى سبقته بالكرة أسبقت كرتي كرته لأن السبق بينهما لا بين الشخصين أو الضربين وكذا في الآية ومثله يفهم من غير تكلف ، وقال القطب الرازي : إن المعنى سبقت ضربه الكرة بضربي الكرة أي جعلت ضربي الكرة سابقاً على ضربة الكرة .

ثم استظهر جعل الباء للظرفية لعدم احتياجه إلى ما يحتاجه جعلها للتعدية أي ما سبقكم في فعل الفاحشة أحد ولعل الأمر كما قال .

و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى صلة لتأكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض ، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التقريع والتوبيخ ، وجوز أن يكون بيانياً كأنه قيل : لم لا نأتيها ؟ فقال : ما سبقكم بها أحد فلا تفعلوا ما لم تسبقوا إليه من المنكرات لأنه أشد ، ولا يتوهم أن سبب إنكار الفاحشة كونها مخترعة ولولاه لما أنكرت إذ لا مجال له بعد كونها فاحشة .

ووجه كون هذه الجملة مؤكدة للنكير أنها مؤذنة باختراع السوء ولا شك أن اختراعه أسوأ إذ لا مجال للاعتذار عنه كما اعتذروا عن عبادتهم الأصنام مثلاً بقولهم : انا ﴿ وَجَدْنَا ءابَاءنَا ﴾ [الزخرف : 22 ، 23] .

وجوز أبو البقاء كون الجملة في موضع الحال من المفعول أو الفاعل ، والنيسابوري جوز كونها صفة للفاحشة على حد

: ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

ورد بأن الفاحشة هنا متعينة دون اللئيم ، وكيفما كان فالمراد من نفي سبق أحد بها إياهم كونهم سابقين بها كل أحد ممن عداهم من العالمين لا مساواتهم الغير بها ، فقد أخرج

البيهقي وغيره عن عمرو بن دينار (قال ما نزا ذكر حتى كان قوم لوط) ، والذي حملهم على ذلك كما أخرج ابن عساكر وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم كانت لهم ثمار في منازلهم وحوائطهم وثمار خارجة على ظهر الطريق وانهم أصابهم قحط وقلة من الثمار فقال بعضهم لبعض : إنكم إن منعتم ثماركم هذه الظاهرة من أبناء السبيل كان لكم فيها عيش قالوا : بأي شيء نمنعها ؟ قالوا : اجعلوا سنتكم أن تنكحوا من وجدتم في بلادكم غريباً وتغرموه أربعة دراهم فإن الناس لا يظهرون ببلادكم إذا فعلتم ذلك ففعلوه واستحكم فيهم .

وفي بعض الطرق أن إبليس عليه اللعنة جاءهم عند ذكرهم ما ذكروا في هيئة صبي أجمل صبي رآه الناس فدعاهم إلى نفسه فنكحوه ثم جرؤوا على ذلك .

وجاء من رواية ابن أبي الدنيا عن طاوس أن قوم لوط إنما أتوا أولاً النساء في أدبارهن ثم أتوا الرجال .

وفي قول : ﴿ مّن العالمين ﴾ دون من الناس مبالغة لا تخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(23/277)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

عُطف ﴿ ولوطاً ﴾ على ﴿ نوحاً ﴾ في قوله : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ [الأعراف : 59] فالتّقدير : وأرسلنا لوطاً ، وتغيير الأسلوب في ابتداء قصّة لوط وقومه إذ ابتُدئت بذكر (لوطاً) كما ابتدئت قصّة بذكر نوح لأنه لم يكن لقوم لوط اسم يعرفون به كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به .

و(إذ) ظرف متعلّق بـ (أرسلنا) المقدر يعني أرسلناه وقت قال لقومه وجعل وقت القول ظرفاً للإرسال لإفادة مبادرته بدعوة قومه إلى ما أرسله الله به ، والمقارنة التي تقتضيها الظّرفية بين وقت الإرسال ووقت قوله ، مقارنةٌ عرفية بمعنى شدّة القرب بأقصى ما يستطاع من مبادرة التّبليغ .

وقوم لوط كانوا خليطاً من الكنعانيين وممّن نزل حولهم .

ولذلك لم يوصف بأنّه أخوهم إذ لم يكن من قبائلهم ، وإنّما نزل فيهم واستوطن ديارهم .

ولوط عليه السّلام هو ابن أخِي إبراهيم عليه السّلام كما تقدّم في سورة الأنعام ، وكان لوط عليه السّلام قد نزل ببلاد (سَدوم) ولم يكن بينهم وبينه قرَابة .

والقوم الذين أرسل إليهم لوط عليه السّلام هم أهل قرية (سدوم) و (عمُّورة) من أرض كنعان ، وربّما أطلق اسم سدوم وعمُّورة على سكّانهما .

وهو أسلاف الفنيقيين وكانتا على شاطىء السديم ، وهو بحر الملح ، كما جاء في التّوراة وهو البحر الميّت المدعو (بحيرة لوط) بقرب أرشليم .

وكانت قرب سدوم ومن معهم أحدثوا فاحشة استمتاع الرّجال بالرّجال ، فأمر الله لوطاً عليه السّلام لما نزل بقريتهم سدوم في رحلته مع عمّه إبراهيم عليه السّلام أن ينهاهم ويغلظ عليهم .

فالاستفهام في ﴿ أتأتون ﴾ إنكاري توبيخي ، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التّلبّس والعمل ، أي أتعملون الفاحشة ، وكني بالإتيان على العمل المخصوص وهي كناية مشهورة .

(24/277)

والفاحشه : الفعل الدّنيء الذّميم ، وقد تقدّم الكلام عليها عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ [الأعراف : 28] : والمراد هنا فاحشة معروفة ، فالتّعريف للعهد .

وجملة : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ مستأنفة استينافاً ابتدائياً ، فإنّه بعد أن أنكر عليهم إتيان الفاحشة ، وعبّر عنها بالفاحشة ، وبّخهم بأنّهم أحدثوها ، ولم تكن معروفة في البشر فقد سَنُّوا سنة سيّئة للفاحشين في ذلك .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ ما سبقكم بها من أحد ﴾ صفة للفاحشة ، ويجوز أن تكون حالا من ضمير : ﴿ تأتون ﴾ أو من : ﴿ الفاحشة ﴾ .

والسبق حقيقته : وصول الماشي إلى مكان مطلوب له ولغيره قبل وصول غيره ، ويستعمل مجازاً في التّقدّم في الزّمان ، أي الأوّلية والابتداءِ ، وهو المراد هنا ، والمقصود أنّهم سبقوا النّاس بهذه الفاحشة إذ لا يقصد بمثل هذا التّركيب أنّهم ابتدأوا مع غيرهم في وقت واحد .

والباء لتعدية فعل (سبق) لاستعماله بمعنى (ابتدا) فالباء ترشيح للتّبعيّة .

و(مِنْ) الدّاخلة على (أحدٍ) لتوكيد النّفي للدّلالة على معنى الاستغراق في النّفي .

و(مِن) الداخلة على ﴿ العالمين ﴾ للتبعيض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(25/277)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

وكما قال الحق : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾ وقال : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ ، ﴿ وإلى

ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ فهو هنا يأتي باسم " لوط " منصوباً لأنه معطوف على من سبقه من أصحاب الرسالات .

وما هو زمان الإِرسال ؟ إن قوله الحق : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ يفيد أن زمن القول كان وقت الإِرسال . وهي الإِشارة القرآنية ذات الدلالة الواضحة على أن الرسول حين يبعث ويرسل إليه ويبَلغ الرسالة لا يتوانى لحظة في أداء المهمة ، فكأن تبليغ الرسالة تزامن مع قوله : ﴿ يَاقَوْمِ ﴾ . والأسلوب يريد أن يبين لك أنه بمجرد أن يقال له : " بلغ " فهو يبلغ الرسالة على الفور ، وكأن الرسالة جاءت ساعة التبليغ فلا فاصل بينهما . ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ [الأعراف : 80]

وكلمة " قومه " تعني أنه منهم ، ولماذا لم يقل : " أخاهم لوطاً " ؟ وهذه لها معنى يفيد أن السابقين من الرسل كانوا من بيئة الأقوام الذين أرسلوا إليهم ؛ فعاد كان " هود " من بيئتهم و " ثمود " كان صالح من بيئتهم وإذا كان الحق لم يقل " أخاهم لوطاً " فلنلحظ أنه أوضح أنه قد أرسله إلى قومه ، وهذه تنبهنا إلى أن لوطاً لم يكن من هذا المكان ، لأن لوطاً وإبراهيم عليهما السلام كانا من مدينة بعيدة ، وجاء إلى هذا المكان فراراً من الاضطهاد هو وإبراهيم عليهما السلام ، وهذا يبين لنا أن لوطاً طارئ على هذا المكان ، ولم يكن أخاهم المقيم معهم في البيئة نفسها . ولكنهم " قومه " لأنه عاش معهم فترة فعرف بعضهم بعضاً ، وعرفوا بعضاً من صفاته ، وأنسوا به .

أقول ذلك لننتبه إلى دقة أداء القرآن ، فمع أن القصص واحد فسبحانه يضع لنا التمييز الدقيق ، ولم يقل لهم لوط : إن ربي نهاكم عن هذه العملية القذرة وهي إتيان الرجال . بل أراد أن يستفهم منهم استفهاماً قد يردعهم عن العملية ويقبحها .

وكان استفهام سيدنا لوط هو استفهام تقريع ، واستفهام إنكار ، فلم يقل لهم : إن ربنا يقول لكم امتنعوا عن هذا الفعل ، بل يستنكر الفعل كعمل مضاد للفطرة ، واستنكار فطري .

﴿ . . . أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ [الأعراف : 80]

وهذا يدل على أنه يريد أن يسألهم سؤالاً إنكاريًّا ليحرجهم ، لأن العقل الفطري يأبى هذه العملية : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ .

أي أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتي الرجل في محل القذارة ، لكنهم فعلوها ، وهذا الفعل يدل على أنها مسألة قد تشتهيها النفس غير السويَّة . ولكنها عملية قذرة تأباها الفطرة السليمة .

وكلمة " فاحشة " تعطينا معنى التزيد في القبح ؛ فهي ليست قبحاً فقط ، بل تَزَيُّدٌ وإيغال وتعمق في القبح ومبالغة فيه ؛ لأن الفاحشة تكون أيضاً إذا ما أتى الرجل أنثى معدة لهذه

العملية لأنه لم يعقد عليها ، ولم يتخذها زوجا ، وعندما يتزوجها تصير حِلاًّ له ، لكن إتيان الذكر للذكر هو تزيد في الفحش .

وإذا كان هذا الأمر محرماً في الأنثى التي ليست حلالاً له ويعد فاحشة ، فالرجل غير مخلوق لمثل هذا الفعل ولا يمكن أن يصير حلالاً ، يكون إتيانه فاحشة بمعنى مركّب . ﴿ . . . أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ [الأعراف : 80]

وقلنا من قبل : إن " من " قد تأتي مرة زائدة ، ويمكنك أن تقول إنها زائدة في كلام الإنسان ، لكن من العيب أن تقول ذلك في كلام ربنا . وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ .

(27/277)

أي ما سبقكم أحد من العالمين ، و " أحد " هي الفاعل ، وجاءت " من " لتوضح لنا أنه لم يأت بها أحد ابتداءً ، مثلما قلنا قديماً ، حين تأتي لواحد لتقول له : " ما عندي مال " .

فأنت قد نفيت أن يكون عندك مال يعتد به . وقد يكون معك من بداية ما يقال له أنه مال ، وقوله الحق : ﴿ . . . مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ . [الأعراف : 80]

يعني أنه لم يسبقكم أي أحد من بداية ما يقال له أحد ، وسبحانه يريد بذلك أن ينفيها أكثر ،

و " من " التي في قوله : ﴿ مِّن العالمين ﴾ هي تبعيضية أي ما سبقكم بها أحد " من بعض " العالمين . فما هذا الأمر ؟ لقد سماها فاحشة ، وهي تزيد في القبح ووصفة لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية .

لأننا حين نبحث هذه المسألة بحثاً عقلياً نجد أن الإنسان مخلوق كخليفة في الأرض وعليه استبقاء نوعه ؛ لأن كل فرد له عمر محدود ، ويخلف الناس بعضهم بعضاً ، ولابد من بقاء النوع ، وقد ضمن الله للإنسان الأقوات التي تبقيه ، وحلل له الزواج وسيلة لإبقاء النوع ، ومهمة الخلافة تفرض أن يخلف بعضنا بعضاً .

وكل خليفة يحتاج إلى اقتيات وإلى إنجاب . و " الاقتيات " خلقه الله في الأرض التي قدر فيها أقواتها .

والنوع البشري جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ومنهما يأتي الإنجاب الخلافي ؛ فهو محمول أولاً في ظهر أبيه نطفة ، ثم في أمه جنيناً ثم تضعه لترعاه مع والده ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده . وهذه خمس مراحل ، وكل مرحلة منها شاقة ، فحمل الأم في الطفل تسعة شهور هو أمر شاق ؛ لأن الإنسان منا إن حمل شيئاً طوال النهار سيصاب بالتعب ، لكن الأم تحمل الجنين تسعة أشهر ، وأراد الله أن يكون الحمل انسيابياً بمعنى أن الجنين في نشأته الأولى لا يبلغ وزنه إلا أقل القليل ، ثم يكبر بهدوء وبطء لمدة تسعة شهور حتى يكتمل نموه .

وهذا الجنين كان صغيراً في بدء تكوينه ، ثم صار وزنه غالباً ثلاثة كيلو جرام في يوم ولادته ، وبين بدء تكوينه إلى لحظة ميلاده هناك فترة زمنية ينمو فيها هذا الجنين تدريجياً ، وبشكل انسيابي ، فهو لا يزيد في الوزن كل ساعة ، بل ينمو في كل جزء من المليون من الثانية بمقدار يناسب هذا الجزء من الثانية ، وهذا يعني أن الجنين ينمو انسيابيا بما يناسب الزمن .

نلحظ ذلك أيضاً في أثناء التدريب على رياضة حمل الأثقال أنهم لا يدربون اللاعب الناشئ على حمل مائة كيلو جرام من أول مرة بل يدربونه على حمل عشرين كيلو جراماً في البداية ، ثم يزاد الحمل تباعاً بما لا يجعل حامل الأثقال في عنت ، ويسمون ذلك : انسياب التدريب ؛ لأن حمل هذه الأثقال يحتاج إلى تعود ، ولهذا لا يتم تدريبه على حمل الأثقال فجأة ، بل بانسياب بحيث لا يدرك الزمن مع الحركة ، كذلك النمو ، فأنت إذا نظرت إلى طفلك الوليد ساعة تلده أمه ، وسأقدر جدلاً أنك ظللت تنظر إليه دائماً ، فهو لا يكبر في نظرك أبداً ؛ لأنه ينمو بطريقة غير محسوسة لديك ، لكنك لو غبت شهراً عنه وتعود لرؤيته ستدرك نموه ، وهذا النمو الزائد قد تجمع في الزمن الفاصل بين آخر مرة رأيته فيها قبل غيابك وأول مرة تراه بعد عودتك .

ومن لطف الله – إذن – في الحمل أن الجنين ينمو انسيابياً ، ولذلك يزداد الرحم كل يوم من بدء الحمل إلى آخر يوم فيه ، وترى الأم الحامل ، وهي تسير بوهن وتبطئ في حركتها ، ثم

يأتي الميلاد مصحوباً بمتاعب الولادة وآلامها ، وبعد أن يولد المولود تستقبله رعاية أمه وأبيه ، ويأخذ سنوات إلى أن يبلغ الرشد . ونعلم أن أطول الأجناس طفولة هو الإنسان ، ولذلك نجد الأب الذي يريد الإنجاب يتحمل مع الأم متاعب التربية ، وقد قرن الله هذا الأمر بشهوة ، وهي أعنف شهوة تأتي من الإنسان ، وبعد ميلاد الطفل نجد المرأة تقول : لن أحمل مرة أخرى ، ولكنها تحمل بعد ذلك .

(29/277)

إذن كأن الشهوة هي الطُعم الموضوع في المصيدة ليأتي بالصيد وهو الإنجاب ؛ لذلك قرن الحق الإنجاب بالشهوة لنقبل عليها ، وبعد أن نقبل عليها ، ونتورط فيها نتوفر ونبذل الجهد لنربي الأولاد . فإذا أنت عزلت هذه الشهوة عن الإنجاب والامتداد تكون قد أخللت وملت عن سنة الكون ، لأنك ستأخذ اللذة بدون الإنجاب ، وإذا تعطل الإنجاب تعطلت خلافة الأرض ، والشيء الآخر أن الرجل في الجماع يلعب دور الفاعل ، وفي الشذوذ وهو العملية المضادة التي فعلها قوم لوط ينقلب الرجل إلى منفعل بعد أن كان فاعلاً . ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ [الأعراف : 80] والفاحشة هي العملية الجنسية الشاذة ، ولم يحددها سبحانه من البداية كدليل على أنها

أمر معلوم بالفطرة ، فساعة يقول : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ يعرفون ما فعلوا . وإن افترضنا أن هناك أغبياء أو من يدعون الغباء ويرفضون الفهم ، فقد جاء بعدها بالقول الواضح : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(30/277)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْفَاحِشَةُ : قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْمَعْصِيَةَ ، وَهِيَ إِتْيَانُ الرِّجَالِ بِاسْمِ الْفَاحِشَةِ لِيُبَيِّنَ أَنَّهَا زِنًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ لَمَّا ارْتَكَبُوا هَذِهِ الْفَاحِشَةَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ جَزَاءً عَلَى فِعْلِهِمْ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ يُعَزَّرُ ؛ قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ .

الثَّانِي : قَالَ الشَّافِعِيُّ وَجَمَاعَةٌ : يُحَدُّ حَدَّ الزَّانِي ، مُحْصَنًا بِجَزَائِهِ وَبِكْرًا بِجَزَائِهِ .

الثَّالِثُ : قَالَ مَالِكٌ : يُرْجَمُ أَحْصَنَ أَوْ لَمْ يُحْصَنْ ؛ وَقَالَهُ ابْنُ الْمُسَيِّبِ وَالنَّخَعِيُّ وَعَطَاءٌ وَجَمَاعَةٌ .

أَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ يُعَزَّرُ فَتَعَلَّقَ بِأَنَّ هَذَا لَمْ يَزْنِ ، وَعُقُوبَةُ الزَّانِي مَعْلُومَةٌ ؛ فَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْمَعْصِيَةُ غَيْرَهَا وَجَبَ أَلَّا يُشَارِكَهَا فِي حَدِّهَا .

(31/277)

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ زِنًا فَنَحْنُ الْآنَ نُثْبِتُهُ مَعَ الشَّافِعِيِّ رَدًّا عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ الَّذِي يَجْعَلُهُ بِمَنْزِلَةِ الْوَطْءِ بَيْنَ الْفَخِذَيْنِ ، فَيَقُولُ : قَدْ بَيَّنَّا مُسَاوَاتَهُ لِلزِّنَا فِي الِاسْمِ ، وَهِيَ الْفَاحِشَةُ ، وَهِيَ مُشَارَكَةٌ لَهُ فِي الْمَعْنَى ؛ لِأَنَّهُ مَعْنًى مُحَرَّمٌ شَرْعًا ، مُشْتَهًى طَبْعًا ؛ فَجَازَ لَهُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ الْحَدُّ إذَا كَانَ مَعَهُ إيلَاجٌ وَهَذَا الْفِقْهُ صَحِيحٌ .

وَذَلِكَ أَنَّ الْحَدَّ لِلزَّجْرِ عَنْ الْمَوْضِعِ الْمُشْتَهَى ، وَقَدْ وُجِدَ ذَلِكَ الْمَعْنَى كَامِلًا ؛ بَلْ هَذَا أَحْرَمُ وَأَفْحَشُ ؛ فَكَانَ بِالْعُقُوبَةِ أَوْلَى وَأَحْرَى .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا وَطْءٌ فِي فَرْجٍ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ إحْلَالٌ وَلَا إحْصَانٌ ، وَلَا وُجُوبُ مَهْرٍ ، وَلَا ثُبُوتُ

نَسَبٍ ؛ فَلَمْ
يَتَعَلَّقْ بِهِ حَدٌّ .

قُلْنَا : هَذَا بَيَانٌ لِمَذْهَبِ مَالِكٍ ؛ فَإِنَّ بَقَاءَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِيهِ لَا يُلْحِقُهُ بِوَطْءِ الْبَهِيمَةِ ، إنَّمَا يُعَظِّمُ أَمْرَهُ عَلَى الْوَطْءِ فِي الْقُبُلِ تَعْظِيمًا يُوجِبُ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِيهِ ، أَحْصَنَ أَوْ لَمْ يُحْصِنْ ؛ أَلَا تَرَى إلَى عُقُوبَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ مَا أَعْظَمَهَا .

فَإِنْ قِيلَ : عُقُوبَةُ اللَّهِ لَا حُجَّةَ فِيهَا لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ قَوْمَ لُوطٍ إنَّمَا عُوقِبُوا عَلَى الْكُفْرِ .

الثَّانِي : أَنَّ صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ دَخَلَ فِيهَا .

فَدَلَّ عَلَى خُرُوجِهَا عَنْ بَابِ الْحُدُودِ .

(32/277)

فَالْجَوَابُ أَنَّا نَقُولُ : أَمَّا قَوْلُهُمْ إنَّ اللَّهَ عَاقَبَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ لِهَذَا غَلَطٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مَعَاصٍ فَأَخَذَهُمْ مِنْهَا بِهَذِهِ ، أَلَا تَسْمَعُهُ يَقُولُ : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ .

قَالُوا لَهُ : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَنَفْعَلَنَّ بِك يَا لُوطُ ، فَفَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ .

الثَّانِي : أَنَّهُ إنَّمَا أَخَذَ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ ؛ لِسُكُوتِ الْجُمْلَةِ عَلَيْهِ وَالْجَمَاهِيرِ ؛ فَكَانَ مِنْهُمْ

فَاعِلٌ ، وَكَانَ مِنْهُمْ رَاضٍ ؛ فَعُوقِبَ الْجَمِيعُ ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ فِي الْعُقُوبَةِ عَلَى الْفَاعِلِينَ مُسْتَمِرًّا .

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَغَيْرُهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ رَوَى هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ وَغَيْرُهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ وَجَدْتُمُوهُ قَدْ أَتَى بَهِيمَةً فَاقْتُلُوهُ وَاقْتُلُوا الْبَهِيمَةَ ﴾ .

قُلْنَا : هَذَا الْحَدِيثُ مَتْرُوكٌ بِالْإِجْمَاعِ ، فَلَا يُلْتَفَتُ إلَيْهِ ، وَلَيْسَ يَلْزَمُ إذَا سَقَطَ حَدِيثٌ بِالْإِجْمَاعِ أَنْ يَسْقُطَ مَا لَمْ يُجْمَعْ عَلَيْهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(33/277)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ القصة .

في نصب " لُوطاً " وجهان :

أحدهما : أنه منصوب بـ " أرْسَلْنَا " الأوَّلِ ، و " إذ " ظرف الإرسال .

والثاني : أَنَّهُ منصوبٌ بإضمار " اذْكُرْ " ، وفي العامل في الظرف حينئذ وجهان :

أحدهما – وهو قول الزمخشريّ أَنَّهُ بدلٌ من " لوطاً " قال : " بمعنى : واذكر وقت إذ قال لقومه " وهذا على تسليم تصرف " إذ " .

والثاني : أنَّ العامل فيها مُقَدَّرٌ تقديره : " واذْكُرْ رسالةَ لُوط إذْ قَالَ " ف " إذ " مصوبة بـ " رسالة " .

قاله أبو البقاء ، والبدل حينئذٍ بدل اشتمال .

وصرّف نوح ولوط لخفَّتِه ، فإنَّهُ ساكنُ الوسط ، مركب من ثلاثة أحرف .

، لُطْتُ الحوض إذا ملسته بالطين ، وهذا غلط ؛ لأنَّ الأسماء الأعجميّة لا تشتق كإسْحَاق ، فلا يقال : إنه من السُّحق وهو البعد ؛ وإنَّمَا صرف لخفته ؛ لأَنَّه على ثلاثة أحْرُف ساكن الوسط ، فأمَّا لطتُ الحوضَ ، وهذا أليط فصحيح ، ولكن الاسم أعجميّ كإبراهيم وإسحاق .

وهو : لوطُ بْنُ هَاران بْنِ تَارخ ابْنِ أخيرِ إبراهيم ، كان في أرض بابل مع عمه إبراهيم ، ، فهاجر إلى الشَّام ، فنزل إبراهيمُ إلى فلسطين ، وأنزل لوطاً الأردن ، فأرسله اللَّهُ عز وجل إلى أهل سَدُوم .

قوله : " أتأْتُونَ الفَاحِشَة " أتفعلون السيئة المتناهية في القبح ، وذكرها باسم الفاحشة ليبين

أَنَّها زنا لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء : 32] .

﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ في هذه الجملة وجهان :

(34/277)

أحدهما : أَنَّهَا مستأنفة لا محلَّ لها من الإعرابِ ، وعلى الاستئناف يحتمل أن تكون جواباً لسؤال وألا تكون جواباً .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : " فإن قلت : ما موقع هذه الجملة " ؟

قلت : لا مَحَلَّ لها لأَنَّها مُسْتَأنفة ، أنكر عليهم أوّلاً بقوله : " أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ " ثُمَّ وبخهم عليها فقال : أنتم أوَّلُ من عملها .

أو تكون جواباً لسؤال مقدَّر ، كأَنَّهُم قالوا : لِمَ لا تأتيها ؟ فقال : " ما سبقكم بها أحَدٌ ؛ فلا تفعلوا ما لم تُسْبَقُوا به " وعلى هذا فتكون صفة للفاحشة ، كقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ [يس : 37] وقال الشَّاعِر : [الكامل]

2511 - وَلَقَدْ أَمُرُّ على اللَّئِيم يَسُبُّنِي . . . . . .

والباء في " بِهَا " فيها وجهان :

أظهرهما أنها حالية ، أي : ما سبقكم أحدٌ مصاحباً لها أي : ملتبساً بها .

والثاني : أنَّها للتعدية .

قال الزمخشريُّ : الباءُ للتعدية من قولك : " سَبَقْته بالكُرة " إذا ضربتها قبله .

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ " .

قال أبو حيان : " والتّعدية هنا قلقة جداً ؛ لأنَّ " الباء " المعدّية في الفعل المتعدي لواحد [هي] بجعل المفعولِ الأوّلِ يفعل ذلك الفعل بما دخلت عليه الباء فهي كالهمزة ، وبيان ذلك أنَّك إذا قلت : " صَكَكْتُ الحجرَ بالحَجر " كان معناه : أصْكَكْت الحجرَ بالحجر أي : جَعَلْت الحجر يَصُكُّ الحجر ، فكذلك : دفعت زيداً بعمرو عن خالد ، معناه : أدْفَعْتُ زيداً عمراً عن خالد أي جعلت زيداً يدفع عمراً عن خالد فللمفعول الأوّل تأثير في الثَّاني ولا يصحُّ هذا المعنى هنا ؛ إذْ لا يصحُّ أن يقدَّر : أسْبَقْتُ زيداً الكرة أي : جعلت زَيْداً يسبق الكَرَةَ غلا بمجاز متكلَّف ، وهو أن تجعل ضربك للكرةِ أول جَعْل ضربة قد سقبها أي : تقدَّمها في الزمان فلم يجتمعا " .

(35/277)

و " مِنْ " الأولى لتأكيد استغراق النفي والثانية للتبعيض .

والوجه الثاني من وجهي الجملة : أنَّها حال ، وفي صاحبها وجهان :

والثاني : هو المفعول أي : أتأتونها مُبْتَدَأ بها غير مسبوقة من غيركم .

قال عمرو بن دينار : " ما يراد ذكر على ذكر في الدُّنيا حتى كان قوم لوط " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 202.204 ﴾

(36/277)

قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أبهم الفاحشة ليحصل التشوف إلى معرفتها ، عينها في استفهام آخر كالأول في إنكاره وتوبيخه ليكون أدل على تناهي الزجر عنها فقال : ﴿ إنكم لتأتون الرجال ﴾ أي تغشونهم غشيان النساء ؛ ولما أبقى للتشوف مجالاً ، عين بقوله : ﴿ شهوة ﴾ أي مشتهين ، أو لأجل الشهوة ، لا حامل لكم على ذلك إلا الشهوة كالبهائم التي لا داعي لها من جهة العقل وصرح بقوله : ﴿ من دون النساء ﴾ فلما لم يدع لبساً ، وكان هذا ربما أوهم إقامة عذر لهم في عدم وجدان النساء أو عدم كفايتهن لهم ، أضرب عنه بقوله : ﴿ بل أنتم قوم ﴾ .

ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار كان الأليق به الإسراف الذي هو غاية الجهل المذكور

في سورة النمل فقال ﴿ مسرفون ﴾ أي لم يحملكم على ذلك ضرورة لشهوة تدعونها ، بل اعتياد المجاوزة للحدود ، ولم يسم قوم لوط في سورة من السور كما سميت عاد وثمود وغيرهم صوناً للكلام عن تسميتهم ، وأما قوم نوح فإنما لم يسموا لعدم تفرق القبائل إذ ذاك ، فكانوا لذلك جميع أهل الأرض ولذا عمهم الغرق – والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 63 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وحفص عن عاصم ﴿ إنكم ﴾ بكسر الألف ومذهب نافع أن يكتفي بالاستفهام بالأولى من الثاني في كل القرآن .

(37/277)

وقرأ ابن كثير ﴿ أئنكم ﴾ بهمزة غير ممدودة وبين الثانية ، وقرأ أبو عمرو بهمزة ممدودة بالتخفيف ، وبين الثانية .

والباقون بهمزتين على الأصل .

قال الواحدي : من استفهم كان هذا استفهاماً معناه الإنكار لقوله : ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ [الأعراف : 80] وكل واحد من الاستفهامين جملة مستقلة لا تحتاج في تمامها إلى شيء .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ شهوة ﴾ مصدر .

قال أبو زيد شهي يشهي شهوة وانتصابها على المصدر ، لأن قوله : ﴿ أتأتون الرجال ﴾ معناه أتشتهون شهوة ؟ وإن شئت قلت إنها مصدر وقع موقع الحال .

المسألة الثالثة :

في بيان الوجوه الموجبة لقبح هذا العمل .

اعلم أن قبح هذا العمل كالأمر المقرر في الطباع ، فلا حاجة فيه إلى تعديد الوجوه على التفصيل ثم نقول موجبات القبح فيه كثيرة : أولها : أن أكثر الناس يحترزون عن حصول الولد ، لأن حصوله يحمل الإنسان على طلب المال وإتعاب النفس في الكسب ، إلا أنه تعالى جعل الوقاع سبباً لحصول اللذة العظيمة ، حتى أن الإنسان بطلب تلك اللذة يقدم على الوقاع ، وحينئذ يحصل الولد شاء أم أبى ، وبهذا الطريق يبقى النسل ولا ينقطع النوع ،

فوضع اللذة في الوقاع ، كشبه الإنسان الذي وضع الفخ لبعض الحيوانات ، فإنه لا بد وأن يضع في ذلك الفخ شيئاً يشتهيه ذلك الحيوان حتى يصير سبباً لوقوعه في ذلك الفخ ، فوضع اللذة في الوقاع يشبه وضع الشيء الذي يشتهيه الحيوان في الفخ ، والمقصود منه إبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع .

إذا ثبت هذا فنقول : لو تمكن الإنسان من تحصيل تلك اللذة بطريق لا تفضي إلى الولد ، لم تحصل الحكمة المطلوبة ، ولأدى ذلك إلى انقطاع النسل ، وذلك على خلاف حكم الله ، فوجب الحكم بتحريمه قطعاً ، حتى تحصل تلك اللذة بالطريق المفضي إلى الولد .

(38/277)

والوجه الثاني : وهو أن الذكورة مظنة الفعل ، والأنوثة مظنة الانفعال ، فإذا صار الذكر منفعلاً ، والأنثى فاعلاً ، كان ذلك على خلاف مقتضى الطبيعة ، وعلى عكس الحكمة الإلهية .

والوجه الثالث : الاشتغال بمحض الشهوة تشبه بالبهيمة ، وإذا كان الاشتغال بالشهوة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة ، فليكن قضاء الشهوة من المرأة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة ، وهو حصول الولد وإبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع فأما قضاء

الشهوة من الذكر فإنه لا يفيد إلا مجرد قضاء الشهوة ، فكان ذلك تشبهاً بالبهائم ، وخروجاً عن الغريزة الإنسانية ، فكان في غاية القبح .

والوجه الرابع : هب أن الفاعل يلتذ بذلك العمل ، إلا أنه يبقى في إيجاب العار العظيم ، والعيب الكامل بالمفعول على وجه لا يزول ذلك العيب عنه أبداً لدهر ، والعاقل لا يرضى لأجل لذة خسيسة منقضية في الحال ، إيجاب العيب الدائم الباقي بالغير .

والوجه الخامس : أنه عمل يوجب استحكام العداوة بين الفاعل والمفعول ، وربما يؤدي ذلك إلى إقدام المفعول على قتل الفاعل لأجل أنه ينفر طبعه عند رؤيته ، أو على إيجاب إنكائه بكل طريق يقدر عليه .

أما حصول هذا العمل بين الرجل والمرأة ، فإنه يوجب استحكام الألفة والمودة وحصول المصالح الكبيرة ، كما قال تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : 21] .

والوجه السادس : أنه تعالى أودع في الرحم قوة شديدة الجذب للمني فإذا واقع الرجل المرأة قوي الجذب ، فلم يبق شيء من المني في المجاري إلا وينفصل .

(39/277)

أما إذا واقع الرجل فلم يحصل في ذلك العضو المعين من المفعول قوة جاذبة للمني ، وحينئذ لا يكمل الجذب ، فيبقى شيء من أجزاء المني في تلك المجاري ، ولا ينفصل ، ويعفن ويفسد ويتولد منه الأورام الشديدة والأسقام العظيمة وهذه فائدة لا يمكن معرفتها إلا بالقوانين الطبية ، فهذه هي الوجوه الموجبة لقبح هذا العمل ورأيت بعض من كان ضعيفاً في الدين يقول : إنه تعالى قال : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ [المؤمنون : 5 المعارج : 29] وذلك يقتضي حل وطء المملوك مطلقاً سواء كان ذكراً أو أنثى قال : ولا يمكن أن يقال أنا نخصص هذا العموم بقوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين ﴾ [الشعراء : 165] وقوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ [الأعراف : 80] قال لأن هاتين الآيتين كل واحد منهما أعم من الأخرى من وجه ، وأخص من وجه ، وذلك لأن المملوك قد يكون ذكراً ، وقد يكون أنثى ، وأيضاً الذكر قد يكون مملوكاً ، وقد لا يكون مملوكاً ، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن تخصيص إحداهما بالأخرى أولى من العكس ، والترجيح من هذا الجانب ، لأن قوله : ﴿ إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ شرع محمد ، وقصة لوط ، شرع سائر الأنبياء ، وشرع محمد عليه الصلاة والسلام أولى من شرع من تقدمه من الأنبياء ، وأيضاً الأصل في المنافع والملاذ الحل ، وأيضاً الملك مطلق للتصرف .

فقل له الاستدلال إنما يقبل في موضع الاحتمال ، وقد ثبت بالتواتر الظاهر من دين محمد

حرمة هذا العمل ، والمبالغة في المنع منه ، والاستدلال إذا وقع في مقابلة النقل المتواتر ، كان باطلاً .

ثم قال تعالى حكاية عن لوط أنه قال لهم : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ والمعنى كأنه قال لهم : أنتم مسرفون في كل الأعمال ، فلا يبعد منكم أيضاً إقدامكم على هذا الإسراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 137.139 ﴾

(40/277)

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مّن دُونِ النساء ﴾

أي : تجامعون الرجال من دون النساء يعني : إن إتيان الرجال أشهى إليكم من إتيان النساء وقرأ أبو عمرو آئِنَّكُمْ بالمد بغير همز وقرأ ابن كثير ونافع إِنَّكُمْ بهمزة واحدة بغير مد .

وقرأ الباقون بهمزتين بغير مد ومعنى ذلك كله واحد وهو الاستفهام .

ثم قال : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي : متعدون من الحلال إلى الحرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال ﴾ [في أدبارهم] ﴿ شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء ﴾ يعني أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ مشركون [تبدّلون] الحلال إلى الحرام.

قال محمد بن إسحاق : كانت لهم ثمار وقرى لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم إبليس في صورة شيخ قال : إن [عضلتم] بهم كلهم أنجوتكم منهم فأبوا ، فلما ألحّ الناس عليهم فعبدوهم فأصابوا غلماناً صباحاً فأخبثوا وأستحكم فيهم ذلك .

وقال الحسن : كانوا لا ينكحون [إلاّ الرجال] وقال الكلبي : أوّل مَنْ عمل عمل قوم لوط إبليس الخبيث لأن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان فتمثّل لهم إبليس في صورة شاب ثمّ دعا [في] دبره فنُكح في دبره ثمّ عتوا بذلك العمل فأكثر فيهم ذلك فعجّت الأرض إلى ربّها فسمعت السماء فعجّت إلى ربّها فسمع العرش فعجّ إلى ربّه فأمر الله السماء أن تحصبهم وأمر الأرض أن تخسف بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(41/277)

وقال ابن عطية :

وقرأ نافع والكسائي وحفص عن عاصم " إنكم " على الخبر كأنه فسر ﴿ الفاحشة ﴾

وقرأ ابن كثير أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وحمزة : " أإنكم " باستفهام آخر ، وهذا لأن الأول استفهام عن أمر مجمل والثاني عن مفسر ، إلا أن حمزة وعاصماً قرءا بهمزتين ، ولم يهمز أبو عمر وابن كثير إلا واحدة و﴿ شهوة ﴾ : نصب على المصدر من قولك شهيت الشيء شهاه ، والمعنى تدعون الغرض المقصود بالوطء وهو ابتغاء ما كتب الله من الوالد وتنفردون بالشهوة فقط ، وقوله : ﴿ بل أنتم ﴾ إضراب عن الإخبار عنهم أو تقريرهم على المعصية وترك لذلك إلى الحكم عليهم بأنهم قوم قد تجاوزوا الحد وارتكبوا الحظر ، والإسراف الزيادة المفسدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أإنكم لتأتون الرجال ﴾

هذا استفهام إنكار .

والمسرف : المجاوز ما أُمر به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(42/277)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة ، تفسيراً للفاحشة المذكورة ، فلم يحسن إدخال الاستفهام عليه لأنه يقطع ما بعده مما قبله .

وقرأ الباقون بهمزتين على لفظ الاستفهام الذي معناه التوبيخ ، وحسُن ذلك لأن ما قبله وبعده كلام مستقل .

واختار الأوّل أبو عبيد والكِسائي وغيرهما ؛ واحتجوا بقوله عز وجل : ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ [الأنبياء : 34] ولم يقل أفهم .

وقال : ﴿ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران : 144] ولم يقل أنقلبتم .

وهذا من أقبح الغلط لأنهما شبَّها شيئين بما لا يشتبهان ؛ لأن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد كالمبتدأ والخبر ؛ فلا يجوز أن يكون فيهما استفهامان .

فلا يجوز : أفإن مِت أفهم ، كما لا يجوز أزيد أمنطلق .

وقصة لوط عليه السلام فيها جملتان ، فلك أن تستفهم عن كل واحدة منهما .

هذا قول الخليل وسيبويه ، واختاره النحاس ومكّي وغيرهما ﴿ شَهْوَةً ﴾ نصب على المصدر ، أي تشتهونهم شهوة .

ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال .

﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ نظيره ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : 166] في جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(43/277)

وقال الخازن :

﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ يعني في أدبارهم ﴿ شهوة من دون النساء ﴾ يعني في أدبار الرجال اشهى عندكم من فروج النساء ﴿ بل أنتم ﴾ يعني أيها القوم ﴿ قوم مسرفون ﴾ أي مجاوزون الحلال إلى الحرام وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لأن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا وجعل النساء محلاً للشهوة وموضع النسل فإذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فكأنما قد أسرف وجاوز واعتدى لانه وضع الشيء في غير محله وموضعه الذي خلق له لأن أبدار الرجال ليست محلاً للولادة التي هي مقصودة بتلك الشهوة المركبة في الإنسان وكانت قصة قوم لوط ، على ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار والسير أنه كانت قرى قوم لوط مخصبة ذات زروع وثمار لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم وضيقوا عليهم فعرض لهم إبليس في صورة شيخ وقال لهم إذا فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم

منهم فأبوا فلما أحل الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلماناً حساناً صباحاً فأخبثوا واستحكم ذلك فيهم .

قال الحسن : كانوا لا ينكحون إلا الغرباء ، وقيل : استحكم ذلك الفعل فيهم حتى نكح بعضهم بعضاً .

وقال الكلبي : إن أول من عمل به عمل قوم لوط إبليس وذلك لأن بلادهم أخصبت فقصدها أهل البلدان فتمثل لهم إبليس في صورة شاب أمرد فدعا إلى نفسه فكان أول من نكح في دبره فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(44/277)

وقال أبو حيان :

﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾

هذا بيان لقوله ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ وأتى هنا من قوله أتى المرأة غشيها وهو استفهام على جهة التوبيخ والإنكار ، وقرأ نافع وحفص ﴿ إنكم ﴾ على الخبر المستأنف و ﴿ شهوة ﴾ مصدر في موضع الحال قاله الحوفي وابن عطية ، وجوّزه الزمخشري وأبو البقاء أي

مشتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين لقبحها أو مفعول من أجله قاله الزمخشري ، وبدأ به البقاء أي للاشتهاء لا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة ولا ذم أعظم منه لأنه وصف لهم بالبهيمة وأنهم لا داعي لهم من جهة العقل كطلب النسل ونحوه و ﴿ من دون النساء ﴾ في موضع الحال أي منفردين عن النساء ، وقال الحوفي : ﴿ من دون النساء ﴾ متعلّق بشهوة و ﴿ بل ﴾ هنا للخروج من قصة إلى قصة تنبىء بأنهم متجاوزو الحد في الاعتداء ، وقيل إضراب عن تقريرهم وتوبيخهم والإنكار أو عن الإخبار عنهم بهذه المعصية الشنيعة إلى الحكم عليهم بالحال التي تنشأ عنها القبائح وتدعوا إلى اتّباع الشهوات وهي الإسراف وهو الزيادة المفسدة لما كانت عادتهم الإسراف أسرفوا حتى في باب قضاء الشهوة وتجاوزوا المعتاد إلى غيره ونحوه

﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ ، وقيل إضراب عن محذوف تقديره ما عدلتم بل أنتم ، وقال الكرماني بل ردّ لجواب زعموا أن يكون لهم عذر أي لا عذر لكم ولا حجّة ﴿ بل أنتم ﴾ وجاء هنا ﴿ مسرفون ﴾ باسم الفاعل ليدلّ على الثبوت ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأسماء وجاء في النمل ﴿ تجهلون ﴾ بالمضارع لتجدد الجهل فيهم ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأفعال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال ﴾

خبرٌ مستأنفٌ لبيان تلك الفاحشةِ وقرىء بهمزتين صريحتين وبتليين الثانيةِ بغير مدَ وبمد أيضاً على أنه تأكيدٌ للإنكار السابقِ وتشديدٍ للتوبيخ ، وفي زيادة إنّ واللامِ مزيدُ توبيخٍ وتقريعٍ ، وكان ذلك أمرٌ لا يتحقق صدورُه عن أحد فيؤكد تأكيداً قوياً ، وفي إيراد لفظِ الرجالِ دون الغِلمان والمُرْدان ونحوِهما مبالغةٌ في التوبيخ وقوله تعالى : ﴿ شَهْوَةً ﴾ مفعول له أو مصدرٌ في موقع الحالِ ، وفي التقييد بها وصفُهم بالبهيمية الصِّرْفة وتنبيهٌ على أنّ العاقلَ ينبغي له أن يكون الداعيَ له المباشرَ طلبُ الولد وبقاءُ النوعِ لا قضاءُ الشهوةِ . ويجوز أن يكون المرادُ الإنكارَ عليهم وتقريعَهم على اشتهائهم تلك الفعلةَ الخبيثةَ المكروهة كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ مّن دُونِ النساء ﴾ أي متجاوزين النساءَ اللاتي هن محلُّ الاشتهاء كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ إضرابٌ عن الإنكار المذكورِ إلى الإخبار بحالهم التي أفضَتْهم إلى ارتكاب أمثالِها وهي اعتيادُ الإسرافِ في كل شيءٍ أو عن الإنكار عليها إلى الذم على جميع معايبِهم ، أو عن محذوف أي لا عذرَ لكم فيه بل أنتم قومٌ عادتُكم الإسراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ

﴾

وقال الآلوسى :

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال ﴾

يحتمل الاستئناف البياني والنحوي وهو مبين لتلك الفاحشة ، والاتيان هنا بمعنى الجماع ، وقرأ ابن عامر وجماعة ﴿ أَئِنَّكُمْ ﴾ بهمزتين صريحتين ، ومنهم من قرأ بتليين الثانية بغير مد ، ومنهم من مد وهو حينئذ تأكيد للإنكار السابق وتشديد للتوبيخ ، وفي الإتيان بإن واللام مزيد (تقبيح) وتقريع كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد فيؤكد تأكيداً قوياً ، وفي إيراد لفظ ﴿ الرجال ﴾ دون الغلمان والمردان ونحوهما كما قال شيخ الإسلام مبالغة في التوبيخ كأنه قال : لتأتون أمثالكم ﴿ شَهْوَةً ﴾ نصب على أنه مفعول له أي لأجل الاشتهاء لا غير أو على الحالية بتأويل مشتهين ، وجوز أن يكون منصوباً على المصدرية وناصبه (تأتون) لأنه بمعنى تشتهون ، وفي تقييد الجماع الذي لا ينفك عن الشهوة بها إيذان بوصفهم بالبهيمية الصرفة وأن ليس غرضهم إلا قضاء الشهوة ، وفيه تنبيه على أنه ينبغي للعاقل أن يكون الداعي (له) إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الشهوة ، وجوز أن يكون المراد الإنكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة القذرة الخبيثة كما ينبىء

عنه قوله تعالى : ﴿ مّن دُونِ النساء ﴾ أي متجاوزين النساء اللاتي هن محل الاشتهاء عند ذوي الطباع السليمة كما يؤذن به قوله سبحانه : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ فالجار والمجرور في موضع الحال من ضمير (تأتون) ، وجوز أن يكون حالا من الرجال على ما قاله أبو البقاء أي تأتونهم منفردين عن النساء ، وأن يكون في موضع الصفة لشهوة على ما قيل واستبعد تعلقه به ، و ﴿ بَلِ ﴾ للإضراب وهو إضراب انتقالي عن الإنكار المذكور إلى الإخبار بما أدى إلى ذلك وهو اعتياد الإسراف في كل شيء أو إلى بيان استجماعهم للعيوب كلها .

(47/277)

ويحتمل أن يكون إضراباً عن غير مذكور وهو ما توهموه من العذر في ذلك أي لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الإسراف والخروج عن الحدود ، وهذا في معنى ذمهم بالجهل كما في سورة النمل (55) (1) إلا أنه عبر بالاسم هنا وبالفعل هناك لموافقة رؤوس الآي المتقدمة في كل والله تعالى أعلم بأسرار كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(48/277)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ إنكم لتأتون الرجال ﴾

مبيّنة لجملة ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ ، والتّأكيد بإنّ واللاّم كناية عن التّوبيخ لأنّه مبني على تنزيلهم منزلة من ينكر ذلك لكونهم مسترسلون عليه غير سامعين لنهي النّاهي .

والإتيان كناية عن عمل الفاحشة .

وقرأ نافع ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر : ﴿ إنكم ﴾ بهمزة واحدة مكسورة بصيغة الخبر ، فالبيان راجع إلى الشيء المنكَر بهمزة الإنكار في ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ ، وبه يعرف بيان الإنكار ، ويجوز اعتباره خبراً مستعملاً في التّوبيخ ، ويجوز تقدير همزة استفهام حذفت للتّخفيف ولدلالة ما قبلها عليها .

وقرأه البقيّة : ﴿ أإنّكم ﴾ بهمزتين على صِيغة الاستفهام فالبيان للإنكار ، وبه يعرف بيان المنكرَ ، فالقراءتان مستويتان .

والشّهوة : الرّغبة في تحصيل شيء مرغوب ، وهي مصدر شَهِي كرضى ، جاء على صيغة الفَعْلة وليس مراداً به المرة .

وانتصب ﴿ شهوة ﴾ على المفعول لأجله .

والمقصود من هذا المفعول تفظيع الفاحشة وفاعِليها بأنّهم يشتهون ما هو حقيق بأن يُكره

ويستفظع .

وقوله : ﴿ من دون النساء ﴾ زيادة في التّفظيع وقطعِ للعذر في فعل هذه الفاحشة ، وليس قيداً للإنكار ، فليس إتيان الرّجال مع إتيان النّساء بأقلّ من الآخر فظاعة ، ولكن المراد أنّ إتيان الرّجال كلّه واقع في حالة من حقّها إتيان النّساء ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وتذَرون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم ﴾ [الشعراء : 166] .

و﴿ بل ﴾ للاضراب الانتقالي ، للانتقال من غرض الإنكار إلى غرض الذمّ والتّحقير والتّنبيه إلى حقيقة حالهم .

والإسراف مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه ، أي المُسرفون في الباطل والجرم ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً ﴾ في سورة النّساء (6) وعند قوله تعالى : ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحبّ المسرفين ﴾ في سورة الأنعام (141) .

(49/277)

ووصفُهم بالإسراف بطريق الجملة الاسميّة الدّالة على الثّبات ، أي أنتم قوم تمكَّن منهم الإسراف في الشّهوات فلذلك اشتهوا شهوة غريبة لما سئموا الشهوات المعتادة .

وهذه شنشنة الاسترسال في الشّهوات حتّى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء ، ونحوه

قوله عنهم في آية أخرى : ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ [الشعراء : 166] .

ووجه تسمية هذا الفعل الشّنيع فاحشة وإسرافاً أنّه يشتمل على مفاسد كثيرة : منها استعمال الشّهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت عليه ، لأنّ الله خلق في الإنسان الشّهوة الحيوانيّة لإرادة بقاء النّوع بقانون التّناسل ، حتّى يكون الدّاعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه ، فقضاء تلك الشّهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداء على الفطرة وعلى النّوع ، ولأنّه يغير خصوصية الرُجلة بالنّسبة إلى المفعول به إذ يصير في غير المنزلة التي وضعه الله فيها بخلقته ، ولأنّ فيه امتهاناً محضاً للمفعول به إذ يُجعل آلة لقضاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذّكورة والأنوثة من قضاء الشّهوتين معاً ، ولأنّه مفض إلى قطع النّسل أو تقليله ، ولأنّ ذلك الفعل يجلب أضراراً للفاعل والمفعول بسبب استعمال محليّن في غير ما خلقا له .

وحدثت هذه الفاحشة بين المسلمين في خلافة أبي بكر من رجل يسمّى الفجَاءة ، كتب فيه خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصّدّيق أنّه عمل عمل قوم لوط وإذ لم يُحفظ عن النّبيء صلى الله عليه وسلم فيها حدّ معروف جمع أبو بكر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واستشارهم فيه ، فقال عليّ : أرى أن يحرق بالنّار ، فاجتمع رأي الصّحابة على ذلك فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه فأحرقه ، وكذلك قضى ابن الزّبير في جماعة

عملوا الفاحشة في زمانه ، وهشام بن الوليد ، وخالد القَسري بالعراق ، ولعلّه قيَاس على أنّ الله أمْطر عليهم ناراً كما سيأتي .

(50/277)

وقال مالك : يرجم الفاعل والمفعولُ به ، إذا أطاع الفاعلَ وكانا بالغين ، رَجْمَ الزّاني المحصن .

سواء أُحصنا أم لمْ يُحصنا ، وقاس عقوبتهم على عقوبة الله لقوم لوط إذ أمطر عليهم حجارة ، والذي يؤخذ من مذهب مالك أنّه يجوز القياس على ما فعله الله تعالى في الدّنيا .

وروي أنّه أخذ في زمان ابن الزّبير أربعةٌ عمِلوا عمل قوم لوط ، وقد أُحصنوا .

فأمر بهم فأخرجوا من الحرم فرجموا بالحجارة حتّى ماتوا ، وعنده ابنُ عمر وابنُ عبّاس فلم ينكرا عليه .

وقال أبو حنيفة : يعزّر فاعله ولا يبلغ التّعزير حدّ الزّنى ، كذا عزا إليه القرطبي ، والذي في كتب الحنفيّة أنّ أبا حنيفة يرى فيه التّعزير إلاّ إذا تكرّر منه فيقتل ، وقال أبو يوسف ومحمّد : فيه حدّ الزّنى ، فإذا اعتاد ذلك ففيه التّعزير بالإحراق ، أو يهدم عليه جدار ، أو ينكس من مكان مرتفع ويتبع بالأحجار ، أو يسجن حتّى يموت أو يتوب .

وذكر الغزنوي في "الحاوي" أنّ الأصح عن أبي يوسف ومحمّد التّعزير بالجلد (أي دون تفصيل بين الاعتياد وغيره) وسياق كلامهم التّسوية في العقوبة بين الفاعل والمفعول به.

وقال الشّافعي: يحدّ حدّ الزّاني: فإن كان محصناً فحدّ المحصن، وإن كان غير محصن فحدّ غير المحصن.

كذا حكاه القرطبي.

وقال ابن هبيرة الحنبلي، في كتاب "اختلاف الأيمّة": إنّ للشّافعي قولين: أحدهما هذا، والآخر أنّه يرجم بكلّ حال، ولم يذكر له ترجيحاً، وقال الغزالي، في "الوجيز": "للواط يوجب قتل الفاعل والمفعول على قول، والرّجمَ بكلّ حال على قول، والتّعزيرَ على قول، وهو كالزّني على قول" وهذا كلام غير محرّر.

(51/277)

وفي كتاب "اختلاف الأيمّة" لابن هبيرة الحنبلي: أن أظهر الرّوايتين عن أحمد أنّ في اللّواط الرّجم بكلّ حال، أي محصناً كان أو غير محصن، وفي رواية عنه أنّه كالزّنى، وقال ابن حزم، في "المحلى": إنّ مذهب داود وجميعَ أصحابه أنّ اللّوطي يجلد دون الحد، ولم يصرّح، فيما نقلوا عن أبي حنيفة وصاحبيْه، ولا عن أحد، ولا الشّافعي بمساواة الفاعل والمفعول

به في الحكم إلاّ عند مالك ، ويؤخذ من حكاية ابن حزم في "المحلّى" : أنّ أصحاب المذاهب المختلفة في تعزير هذه الفاحشة لم يفرّقوا بين الفاعل والمفعول إلاّ قولاً شاذا لأحَدِ فقهاء الشّافعيّة رأى أنّ المفعول أغلظ عقوبة من الفاعل .

وروى أبو داود والتّرمذي ، عن عكرمة عن ابن عبّاس ، والتّرمذيُّ عن أبي هريرة ، وقال في إسناده ، مَقال عن النّبيء صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " مَن وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " وهو حديث غريب (لم يرو عن غير عكرمة عن ابن عبّاس) وقد علمت استشارة أبي بكر في هذه الجريمة ، ولو كان فيها سند صحيح لظهر يومئذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(52/277)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾

والإِسراف هو تجاوز الحد ، والله قد جعل للشهوة لديك مصرفاً طبيعياً منجبا ، وحيث تأخذ أكثر من ذلك تكون قد تجاوزت الحد ، ولقد جعل الله للرجل امرأة من جنس البشر وجعلها وعاء للإِنجاب ، وتعطيك الشهوة وتعطيها أنت الشهوة ، وتعطيك الإِنجاب ،

وتشتركان من بعد ذلك في رعاية الأولاد . وأي خروج عما حدده الله يكون الدافع إليه هو الشهوة فحسب لكي ينبغي أن يكون الدافع إلى هذه العملية مع الأنثى هو الشهوة والإنجاب معا ؛ لبقاء النوع ، ولذلك وصف الحق فعل قوم لوط : ﴿ . . . بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ . ويأتي الحق سبحانه بما أجابوا به عن سؤال سيدنا لوط : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(53/277)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أَإِنَّكُمْ " قرأ نافعٌ وحفصٌ عن عاصم : " إنكم " على الخبر المستأنف ، وهو بيان تلك الفاحشة ، وقرأ الباقون بالاستفهام المقتضي للتّوبيخ ، فقرأ ابنُ كثير بهمة غير ممدودة وتليين الثَّانية ، وقرأ أبُوا عمرو بهمزة ممدودة للتّخفيف وتليين الثانية ، والباقون بهمزتين على الأصل .

قال الواحديُّ : "كان هذا استفهاماً معناه الإنكار لقوله تعالى : " أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ " ، وكلُّ واحد من الاستفهامين جملة مستقلة غير محتاجة في تمامها إلى شيء آخر " .

قوله : ﴿ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً ﴾ قيل : نصب " شَهْوَةٍ " على أنه مفعول من أجله ، أي : لأجل الاشتِهَاءِ لا حامل لكم عليه إلاَّ مجرّد الشّهوة لا غير .

وقيل : إنَّها مصدر واقعٌ موقع الحال ، أي : مشتهين أو باق على مصدريَّته ، ناصبة " أتَأْتُونَ " ؛ لأنَّهُ بمعنى أتشتهون .

ويقال : شَهِيَ يَشْهَى شَهْوَةً ، [وشَهَا يَشْهُو شَهْوَةٍ] قال الشَّاعر : [الطويل]

2512 - وَأَشْعَثَ يَشْهَى النَّوْمَ قُلْتُ لَهُ : ارْتَحِلْ . . .

إذَا مَا النُّجُومُ أعْرَضَتْ واسْبَكَرَّتِ

وقد تقدَّم ذلك في آل عمران .

قوله : ﴿ مِّن دُونِ النسآء ﴾ فيه ثلاثة أوْجُهٍ :

أحدها : أنَّهُ متعلق بمحذوف ، لأنَّهُ حال من " الرِّجالِ " أي : أتأتونهم منفردين عن النِّساء .

والثاني : أنَّهُ متعلّق بـ " شَهْوَة " ، قاله الحوفيُّ .

وليس بظاهر أن تقول : " اشتهيتُ من كذا " ، إلاَّ بمعنى غير لائق هنا .

والثالث : أن يكُون صفة لـ " شهوة " أي : شهوة كَائِنَة من دونهن .

قوله : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ " بل " للإضراب ، والمشهور أنهُ إضراب انتقالٍ من قصّة إلى قصّة ، فقيل : عن مذكور ، وهو الإخبار بتجاوزهم عن الحدِّ في هذه الفاحشة ، أو عن توبيخهم وتقريرهم ، والإنكار عليهم .

وقيل : بل للإضراب عن شيء مَحْذُوفٍ .

واختلف فيه :

فقال أبو البقاء : " تقديرُهُ : ما عَدَلْتُم بل أنتم " .

وقال الكَرْمَانيُّ : " بل " ردٌّ لجواب زعموا أن يكون لهم عذراً أي : " لا عذر لكم بل " .

وجاء هنا بصفة القوم اسم الفاعل وهو " مُسْرِفُونَ " ؛ لأَنَّهُ أدلُّ على الثُّبوت ولموافقة رءوس الآي ؛ فإنَّهَا أسماء .

وجاء في النمل [55] ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ دلالة على أنَّ جهلهم يتجدد كل وقت ولموافقة رءوس الآي فإنها أفعال .

فصل في الإسراف

معنى " مُسْرِفُونَ " أي : يتجاوزون الحلال إلى الحَرَامِ .

قال الحسنُ : " كانوا لا ينكحون إلا الغرباء " .

وقال الكلبيُّ : " إنَّ أوَّل من عملَ عملَ قوم لوط إبليس ؛ لأنَّ بلادهم أخْصَبَتْ فانتجعها أهلُ

البلدان ، فتمثل لهم إبليس في صورة شابّ ، ثم دعى إلى دُبرِهِ فنكح في دبره ، فأمر الله – تعالى – السَّماءَ أن تحصبهم ، والأرض أن تخسف بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 204.206 ﴾

(55/277)

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : هذا التقريع يوجب غاية الاستحياء ، بل إنه يذهب كل من سمعه منهم إلى مكان لا يعرف فيه ستراً لحاله ، فيا ليت شعري ما كان حالهم عنده ! فقيل : كان كأنهم أجابوه بوقاحة عظيمة وفجور زائد على الحد ، فما كان جوابهم إلا أذى لوط عليه السلام وآله بما استحقوا منهم به شديد الإنذار الذي هو مقصود السورة ، عطف عليه قوله : ﴿ وما كان جواب قومه ﴾ أي الذين هم أهل قوة شديدة وعزم عظيم وقدرة على القيام بما يحاولونه ﴿ إلا أن قالوا ﴾ .

ولما كان المقصود بيان أنهم أسرعوا إجابته بما ينكيه أضمر ما لا يشكل بالإضمار ، أو أنه لما كان السياق لبيان الخبيث بين أنه لا أخبث من هؤلاء الذين بلغ من رذالتهم أنهم عدوا الطاهرين المتطهرين مما يصان اللسان عن ذكره فقال تعالى مشيراً إلى ذلك في حكاية قولهم : ﴿ أخرجوهم ﴾ أي المحدث عنهم ، وهم لوط ومن انضم إليه ﴿ من قريتكم ﴾ والمراد ببيان الإسراع في هذا تسلية النبي صلى الله عليه وسلم من رد قومه لكلامه لئلا يكون في صدره حرج من إنذارهم ، ثم عللوا إخراجهم بقولهم : ﴿ إنهم أناس ﴾ أي ضعفاء ﴿ يتطهرون ﴾ وكأنهم قصدوا بالتفعل نسبتهم إلى محبة هذا الفعل القبيح ، وأن تركهم له إنما هو تصنع وتكليف لنفوسهم بردها عما هي مائلة إليه ، وإقبال على الطهر من غير وجهة وإظهار له رياء بما أشار إليه إظهار تاء التفعيل ، وفيه مع ذلك حرف من السخرية ، وحصر جوابهم في هذا المعنى المؤدي بهذا اللفظ لا ينافي آية العنكبوت القائلة ﴿ فما كان جواب قومه إلا قالوا ائتنا بعذاب الله ﴾ [العنكبوت : 29] ، لأن إطلاق الجواب على هذا يجوز ، والمعنى : فما كان قولهم في جوابه إلا إتيانهم بما لا يصلح جواباً ، وذلك مضمون هذا القول وغيره مما لا يتعلق بالجواب ، أو أن هذا الجواب لما كان – لما فيه من التكذيب

والإيذان بالإصرار والإغلاظ لرسول الله صلى الله عليه وسلم - مستلزماً للعذب ، كانوا كأنهم نطقوا به فقالوا ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾ ، جعل نطقهم بالسبب نطقاً بالمسبب ، أو أنهم استعملوا لكل مقام مقالاً ، ويؤيده أن المعنى لما اتحد هنا وفي النمل حصر الجواب في هذا ، أي فما كان جوابهم لهذا القول إلا هذا ؛ ولما زادهم في العنكبوت في التقريع فقال : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ [العنكبوت : 29] أتوه بأبلغ من هذا تكذيباً واستهزاء فقالوا ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾ - الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 63.64 ﴾

فصل

قال الفخر :

(57/277)

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

المراد منه أخرجوا لوطاً وأتباعه ، لأنه تعالى في غير هذه السورة قال : ﴿ أَخْرِجوا آلَ لُوطٍ من قَرْيَتِكم إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : 56] ولأن الظاهر أنهم إنما سعوا في إخراج من نهاهم عن العمل الذي يشتهونه ويريدونه ، وذلك الناهي ليس إلا لوطاً وقومه ، وفي قوله :

﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ وجوه : الأول : أن ذلك العمل تصرف في موضع النجاسة ، فمن تركه فقد تطهر .

والثاني : أن البعد عن الإثم يسمى طهارة فقوله : ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي يتباعدون عن المعاصي والآثام .

الثالث : أنهم إنما قالوا : ﴿ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ على سبيل السخرية بهم وتطهرهم من الفواحش ، كما يقول الشيطان من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : ابعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 139 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُواْ ﴾

وإنما صار جواب نصباً لأنه خبر كان والاسم هو ما بعده ﴿ إِلا أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ يعني : يتقذرون منا ويتنزهون عن فعلنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾

إذا قال لهم ذلك ﴿ إِلاَّ أَن قالوا ﴾ قال بعضهم لبعض ﴿ أَخْرِجُوهُمْ ﴾ لوطاً وأهل دينه ﴿ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ يتنزّهون ويتحرّجون عن أتيان أدبار الرجال وأدبار النساء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : من إتيان الأدبار .

والثاني : يتطهرون بإتيان النساء في الأطهار ، قال الشاعر :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا سَدُّوا مَآزِرَهُم . . . دَونَ النِّسَاءِ وَلَو بَاتَتْ بِأَطْهَارِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقرأ الجمهور " جوابَ " بالنصب ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " جوابُ " بالرفع ، ولم تكن مراجعة قومه باحتجاج منهم ولا بمدافعة عقلية وإنما كانت بكفر وصرامة وخذلان بحت في قولهم ﴿ أخرجوهم ﴾ وتعليلهم الإخراج بتطهير المخرجين ، والضمير عائد على "

لوط " وأهله وإن كان لم يجر لهم ذكر فإن المعنى يقتضيهم ، وروي أنه لم يكن معه غير ابنتيه وعلى هذا عني في الضمير هو وابنتاه ، و ﴿ يتطهرون ﴾ معناه يتنزهون عن حالنا وعادتنا ، قال مجاهد معناه ﴿ يتطهرون ﴾ عن أدبار الرجال والنساء ، قال قتادة : عابوهم بغير عيب وذموهم بغير ذم ، والخلاف في أهله حسبما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(59/277)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أَخْرِجُوهُمْ ﴾ أي لُوطاً وأتباعه .

ومعنى ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ عن الإتيان في هذا المأتى .

يقال : تطهّر الرجل أي تنزّه عن الإثم .

قال قتادة : عابوهم واللَّهِ بغير عَيْب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وما كان جواب قومه ﴾

يعني وما كان جواب قوم لوط للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح وركوبهم ما حرم الله تعالى

عليهم من العمل الخبيث ﴿ إلا أن قالوا ﴾ يعني قال بعضهم لبعض ﴿ أخرجوهم من قريتكم ﴾ يعني أخرجوا لوطاً وأتباعه وأهل دينه من بلدكم ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ يعني أنهم أناس يتنزهون عن فعلكم وعن أدبار الرجال لأنها موضع النجاسة ومن تركها فقد تطهر ، وقيل : إن البعد عن المعاصي والآثام يسمى طهارة فمن تباعد عنهما فقد تطهر فلهذا قال إنهم أناس يتطهرون أي من فعل المعاصي والآثام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(60/277)

وقال أبو حيان :

﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم ﴾

الضمير في ﴿ أخرجوهم ﴾ عائد على لوط ومن آمن به ولما تأخر نزول هذه السورة عن سورة النمل أضمر ما فسره الظاهر في النمل من قوله ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾ وآل لوط ابنتاه وهما رغواء وريفاء ومن تبعه من المؤمنين ، وقيل : لم يكن معه إلا ابنتاه كما قال تعالى : ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ وقال ابن عطية : والضمير عائد على آل لوط وأهله وإن كان لم يجر لهم ذكر فإن المعنى يقتضيهم ، وقرأ الحسن ﴿ جواب

﴿ بالرفع انتهى وهنا جاء العطف بالواو والمراد بها أحد محاملها الثلاث من التعقيب المعني في النمل في قوله ﴿ تجهلون ﴾ فما وفي العنكبوت ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ فما وكان التعقيب مبالغة في الرد حيث لم يمهلوا في الجواب زماناً بل أعجلوه بالجواب سرعة وعدم البراءة بما يجاوبون به ولم يطابق الجواب قوله لأنه لما أنكر عليهم الفاحشة وعظم أمرها ونسبهم إلى الإسراف بادروا بشيء لا تعلّق له بكلامه وهو الأمر بالإخراج ونظيره جواب قوم إبراهيم بأن قالوا ﴿ حرّقوه وانصروا آلهتكم ﴾ حتى قبح عليهم بقوله ﴿ أفّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ فأتوا بجواب لا يطابق كلامه والقرية هي سدوم سميت باسم سدوم بن باقيم الذي يضرب المثل في الحكومات هاجر لوط مع عمه إبراهيم من أرض بابل فنزل إبراهيم أرض فلسطين وأنزل لوطاً الأردن .

﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد يتقذّرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء ، وقيل يأتون النساء في الأطهار ، وقال ابن بحر : يرتقبون أطهار النساء فيجامعونهنّ فيها ، وقيل : يتنزهون عن فعلنا وهو معنى قول ابن عباس ومجاهد ، وقيل : يغتسلون من الجنابة ويتطهرون بالماء عيروهم بذلك ويسمى هذا النوع في علم البيان التعريض بما يوهم الذمّ وهو مدح كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهنّ فلول من قراع الكتائب

(61/277)

ولذلك قال ابن عباس : عابوهم بما يمدح به ، والظاهر أن قوله ﴿ أنهم ﴾ تعليل للإخراج أي لأنهم لا يوافقوننا على ما نحن عليه ومن لا يوافقنا وجب أن نخرجه ، وقال الزمخشري : وقولهم ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش وافتخار بما كانوا فيه من القذارة كما يقول الشيطان من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهّد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(62/277)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾

أي المستكبرين منهم المتولين للأمر والنهي المتصدّين للعقد والحل وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأشياء أي ما كان جواباً من جهة قومِه شيءٌ من الأشياء إلا قولُهم أي لبعضهم الآخرين المباشِرين للأمور معرضين عن مخاطبته عليه السلام ﴿

أَخْرِجُوهُم ﴾ أي لوطاً ومن معه من أهله المؤمنين ﴿ مّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ أي إلا هذا القولُ الذي يستحيل أن يكون جواباً لكلام لوطٍ عليه السلام . وقرىء برفع جواب على أنه اسمُ كان و (إلا أن قالوا) الخ ، خبرُها وهو أظهرُ وإن كان الأولُ أقوى في الصناعة لأن الأعرفَ أحقُّ بالاسمية .

وأياً ما كان فليس المرادُ أنه لم يصدُرْ عنهم بصدد الجوابِ عن مقالات لوطٍ عليه السلام ومَواعظِه إلا هذه المقالةُ الباطلةُ كما هو المتسارعُ إلى الإفهام بل أنه لم يصدُرْ عنهم في المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم وبينه عليه السلام إلا هذه الكلمةُ الشنيعةُ ، وإلا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثيرٌ من التُرَّهات حسبما حُكي عنهم في سائر السورِ الكريمة وهذا هو الوجهُ في نظائره الواردةِ بطريق القصر ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ تعليلٌ للأمر بالإخراج ، ووصفُهم بالتطهر للاستهزاء والسخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش والخبائث والافتخارِ بما هم فيه من القذارة كما هو ديدنُ الشُطّار والدُعّار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(63/277)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾

أي المستكبرين منهم المتصدين للعقد والحل ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء أي ما كان جوابهم شيء من الأشياء إلا قولهم أي لبعضهم الآخرين المباشرين للأمور أو ما كان جواب قومه الذين خاطبهم بما خاطبهم شيء من الأشياء إلا قول بعضهم لبعض معرضين عن مخاطبته عليه السلام ﴿ أَخْرِجُوهُم ﴾ أي لوطاً ومن معه ﴿ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ أي بلدتكم التي أجمعتم فيها وسكنتم بها .

والنظم الكريم من قبيل

: تحية بينهم ضرب وجيع . . .

والقصد منه نفي الجواب على أبلغ وجه لأن ما ذكر في حيز الاستثناء لا تعلق له بكلامه عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ووسمهم بما هو أصل الشر كله ، ولو قيل : وقالوا أخرجوهم لم يكن بهذه المثابة من الإفادة .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ تعليل للأمر بالإخراج .

ومقصود الأشقياء بهذا الوصف السخرية بلوط ومن معه وبتطهرهم من الفواحش وتباعدهم عنها وتنزههم عما في المحاش والافتخار بما كانوا فيه من القذارة كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أخرجوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من

هذا المتزهد .

وقرىء برفع ﴿ جَوَابَ ﴾ على أنه اسم كان ، و﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ الخ خبر قيل : وهو أظهر وإن كان الأول أقوى في الصناعة لأن الأعرف أحق بالاسمية .

وقد تقدم ما ينفعك هنا فتذكر .

(64/277)

وأياً ما كان فليس المراد أنهم لم يصدر عنهم في مقابلة كلام لوط عليه السلام ومواعظه إلا هذه المقالة الباطلة كما ينساق إلى الذهن بل إنه لم يصدر عنهم في المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينه عليه السلام وبينهم إلا هذه الكلمة الشنيعة ، وإلا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات كما حكى عنهم في غير موضع من الكتاب الكريم ؛ وكذا يقال في نظائره ، قيل : وإنما جيء بالواو في ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ الخ دون الفاء كما في النمل (65) والعنكبوت (42) لوقوع الاسم قبل هنا والفعل هناك والتعقيب بالفعل بعد الفعل حسن دون التعقيب به بعد الاسم وفيه تأمل .

ولعل ذكر ﴿ أَخْرِجُوهُم ﴾ هنا و﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ ﴾ في النمل (65) إشارة إلى أنهم قالوا مرة هذا وأخرى ذاك أو أن بعضاً قال كذا وآخر قال كذا .

وقال النيسابوري : إنما جاء في النمل ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ ﴾ ليكون تفسيراً لهذه الكناية ، وقيل : إن تلك السورة نزلت قبل الأعراف وقد صرح في الأولى ، وكنى في الثانية اه .

ولعل ما ذكرناه أولى فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(65/277)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

عطفت جملة : ﴿ وما كان جواب قومه ﴾ على جملة : ﴿ قال لقومه ﴾ [الأعراف : 80] .

والتّقدير : وإذ ما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا إلخ ، والمعنى : أنّهم أفحموا عن ترويج شنعتهم والمجادلة في شأنها ، وابتدروا بالتّآمر على إخراج لوط عليه السّلام وأهله من القرية ، لأنّ لوطاً عليه السّلام كان غريباً بينهم وقد أرادوا الاستراحة من إنكاره عليهم شأن من يشعرون بفساد حالهم ، الممنوعين بشهواتهم عن الإقلاع عن سيّئاتهم ، المصمّمين على مداومة ذنوبهم ، فإنّ صدورهم تضيق عن تحمّل الموعظة ، وأسماعهم تصمّ لقبولها ، ولم يزل من شأن المنغمسين في الهوى تجهّم حلول من لا يشاركهم بينهم .

والجواب : الكلام الذي يقابل به كلام آخر : تقريراً ، أو ردّاً ، أو جزاء .

وانتصب قوله : ﴿ جواب ﴾ على أنّه خبر (كان) مقدّم على اسمها الواقعِ بعد أداة الاستثناء المفرغ ، وهذا هو الاستعمالُ الفصيحُ في مثل هذا التّركيب ، إذا كان أحد معمولي كان مصدراً منسبكاً من (أنْ) والفعلِ كما تقدّم في سورة آل عمران وسورة الأنعام ، ولذلك أجمعت القرءات المشهورة على نصب المعمول الأوّل .

والضّمير المنصوب في قوله : ﴿ أخرجوهم ﴾ عائد على محذوف عُلم من السّياق ، وهم لوط عليه السّلام وأهلُه : وهم زوجُه وابنتاه .

وجملة : ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ علّة للأمر بالإخراج ، وذلك شأن (إنّ) إذا جاءت في مقام لا شكّ فيه ولا إنكار ، بل كانت لمجرّد الاهتمام فإنَّها تفيد مُفاد فاء التّفريع وتدلّ على الربط والتّعليل .

(66/277)

والتّطهر تكلّف الطّهارة ، وحقيقتُها النّظافة ، وتطلق الطّهارة مجازاً على تزكية النّفس والحذر من الرذائل وهي المراد هنا ، وتلك صفة كمال ، لكن القوم لمّا تمرّدوا على الفسوق كان يعُدّون الكمال منافراً لطباعهم ، فلا يطيقون معاشرة أهل الكمال ، ويذمّون ما لهم من

الكمالات فيُسمّونها ثقلاً ، ولذا وصَفُوا تنزه لوط عليه السّلام وآله تطهّراً ، بصيغة التكلّف والتصنُّع ، ويجوز أن يكون حكاية لما في كلامهم من التّهكّم بلوط عليه السّلام وآله ، وهذا من قلب الحقائق لأجل مشايعة العوائد الذّميمة ، وأهل المجون والانخلاع ، يسمّون المتعفّف عن سيرتهم بالتّائب أو نحو ذلك ، فقولهم : ﴿ إنّهم أناس يتطهرّون ﴾ قصدوا به ذمّهم . وهُم قد علموا هذا التّطهر من خلق لوط عليه السّلام وأهله لأنّهم عاشروهم ، ورأوا سِيرتهم ، ولذلك جيء بالخبر جملة فعليّة مضارعيّة لدلالتها على أنّ التّطهر متكرّر منهم ، ومتجدّد ، وذلك أدعَى لمنافِرتهم طباعهم والغضب عليهم وتجهّم إنكار لوط عليه السّلام عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(67/277)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

وبذلك تمادى هؤلاء القوم رافضين أن يقبح أحد لهم الشذوذ ؛ لذلك قالوا : ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ . . . ﴾ .

وما هي الحجة التي من أجلها إخراج لوط والذين آمنوا معه من القرية ؟ ﴿ . . .

أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 82]

فهل التطهر عيب ! لا ، لكنهم عاشوا في النجاسة وألفوها ، ويرفضون الخروج منها ، لذلك كرهوا التطهر . والمثال على ذلك حين نجد شاباً يريد أن ينضم إلى صداقة جماعة في مثل عمره ، لكنه وجدهم يشربون الخمور ، فنصحهم بالابتعاد عنه ، ووجدهم يغازلون النساء فحذرهم من مغبة الخوض في أعراض الناس ، لكن جماعة الأصدقاء كرهت وجوده بينهم لأنه لم يألف الفساد فيقولون : لنبتعد عن هذا المستقيم المتزهد المتقشف ، وكأن هذه الصفات صارت سُبة في نظر أصحاب المزاج المنحرف ، مثلهم مثل الحيوان الذي يحيا في القذارة ، وإن خرج إلى النظافة يموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(68/277)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾

العامَة على نصب " جَوَابَ " خبراً للكون ، والاسمُ " أن " وما في حيّزِهَا وهو الأفصح ؛ إذ فيه جعل الأعرف اسماً .

وقرأ الحسن " جوابُ " بالرَّفع ، وهو اسمها ، والخبر " إلاَّ أن قالُوا " وقد تقدَّم ذلك .

وأتى هنا بقوله " ومَا " ، وفي النّمل [56] والعنكبوت [24] " فَمَا " ، والفاء هي الأصل في هذا الباب ؛ لأنَّ المراد أنَّهم لم يتأخر جوابهم عن نصيحته ، وأما الواو فالعتقيب أحدُ محاملها ، فتعيَّن هنا أنَّها للتعقيب لأمرٍ خارجي وهي العربية في السّورتين المذكورتين لأنَّها اقتضت ذلك بوضعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 206 ﴾

(69/277)

قوله تعالى ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (83) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تسبب عن عنادهم إهلاكهم وإنجاؤه ، وكان الإعلام بإنجائه – مع كونه يفهم إهلاكهم – أهم ، قال : ﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ أي من أطاعه ﴿ إلا امرأته ﴾ ولما كان كأنه قيل : ما لها ؟ قال : ﴿ كانت من الغابرين ﴾ أي الباقين الذين لحقتهم بالعذاب العبرة والتذكير إشارة إلى أنها أصابها مثل عذاب الرجال سواء ، لم تنقص عنهم لأنها كانت كافرة مثلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 64 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله ﴿ فأنجيناه وَأَهْلَهُ ﴾ يحتمل أن يكون المراد من أهله أنصاره وأتباعه الذين قبلوا دينه ويحتمل أن يكون المراد المتصلين به بالنسب .

قال ابن عباس : المراد ابنتاه .

وقوله : ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ أي زوجته .

يقال : امرأة الرجل بمعنى زوجته .

ويقال : رجل المرأة بمعنى زوجها لأن الزوج بمنزلة المالك لها ، وليست المرأة بمنزلة المالك للرجل ، فإذا أضيفت إلى الرجل بالاسم العام ، عرفت الزوجية .

وملك النكاح ، والرجل إذا أضيف إلى المرأة بالاسم العام ، تعرف الزوجية .

وقوله : ﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ يقال : غبر الشيء يغبر غبوراً ، إذا مكث وبقي .

قال الهذلي :

فغبرت بعدهم بعيش ناصب . . وإخال أني لاحق مستتبع

يعني بقيت فمعنى الآية : أنها كانت من الغابرين عن النجاة أي من الذين بقوا عنها ولم يدركوا النجاة يقال فلان غبر هذا الأمر أي لم يدركه ، ويجوز أن يكون المراد أنها لم تسر مع لوط

وأهله ، بل تخلفت عنه وبقيت في ذلك الموضع الذي هو موضع العذاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 139.140 ﴾

(70/277)

وقال السمرقندى :

﴿ فأنجيناه وَأَهْلَهُ ﴾ يعني : ابنتيه زعوراء وريثا ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ وهي واعلة ﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ يعني : من الباقين في الهلاك فيمن أهلكوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾ يعني لوطاً ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ المؤمنين به ، وقيل : وأهله بنتاه : نعوذا وديثا . ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ فاعلة فإنّها ﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ يعني الباقين في العذاب وقيل : معناه : كانت من الباقين والمعمّرين قبل الهلاك الذين قد أتى عليهم عمرت دهراً طويلا فهرمت فيمن هرم من الناس . فهلكت مع مَنْ هلك من قوم لوط حين أتاهم العذاب . وإنّما قال : (الغابرين) ولم يقل : الغابرات لأنه أراد أنّها ممّن بقى مع الرجال فلمّا ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل : الغابرين . وقيل : له غبر يغبر غبوراً ، وغبر إذا بقي . قال الشاعر :

وأبي الذي فتح البلاد بسيفه . . . فأذلّها لبني أبان الغابر

يعني الباقي .

وقال أبو ذؤيب :

وغبرت بعدهم بعيش ناصب . . . وإدخال أنّي لاحق مستتبع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(71/277)

وقال الماوردى :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾

فيه وجهان :

أحدها : فخلصناه .

والثاني : على نجوة من الأرض ، وقيل : إن أهله ابنتاه واسمهما زينا ورميا . ﴿ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من الباقين في الهلكى ، والغابر الباقي ، ومنه قول الراجز :

فَمَا وَنَى مُحَمَّدٌ مُذْ أَنْ غَفَر . . . لَهُ الإِلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبَر

والثاني : من الغابرين في النجاة ، من قولهم : قد غبر عنا فلان زماناً إذا غاب ، قال الشاعر :

أَفَبَعْدَنَا أو بَعْدَهُمْ . . . يُرْجَى لِغَابِرِنَا الْفَلاَحُ

والثالث : من الغابرين في الغم ، لأنها لقيت هلاك قومها ، قاله أبو عبيدة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

واستثنى الله امرأة " لوط " عليه السلام من الناجين وأخبر أنها هلكت ، والغابر الباقي هذا المشهور في اللغة ، ومنه غير الحيض كما قال أبو كبير الهذلي : [الكامل]

ومبرأ من كل غبر حيضة . . . وفساد من ضعة وداء مغيل

وغبر اللبن في الضرع بقيته ، فقال بعض المفسرين : ﴿ كانت من الغابرين ﴾ في العذاب والعقاب أي مع الباقين ممن لم ينج ، وقال أبو عبيدة معمر : ذكرها الله بأنها كانت ممن أسن وبقي من عصره إلى عصر غيره فكانت غابرة إلى أن هلكت مع قومها .

قال القاضي أبو محمد : فكأن قوله : ﴿ إلا امرأته ﴾ اكتفى به في أنها لم تنج ثم ابتدأ وصفها بعد ذلك بصفة لا تتعلق بها النجاة ولا الهلكة ، والأول أظهر ، وقد يجيء الغابر بمعنى الماضي ، وكذلك حكى أهل اللغة غبر بمعنى بقي وبمعنى مضى ، وأما قوله الأعشى : [السريع]

عض بما أبقى المواسي له . . . من أمه في الزمن الغابر

فالظاهر أنه أراد الماضي وذلك بالنسبة إلأى وقت الهجاء ، ويحتمل أن يريد في الزمن الباقي وذلك بالنسبة إلى الحين هو غابر بعد الإبقاء ، ويحتمل أن يعلق في الزمن بعض فيكون الباقي على الإطلاق والأول أظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(72/277)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فأنجيناه وأهله ﴾

في أهله قولان .

أحدهما : ابنتاه .

والثاني : المؤمنون به .

﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي : الباقين في عذاب الله تعالى .

قال أبو عبيدة : وإنما قال : "من الغابرين" لأن صفة النساء مع صفة الرجال تُذكَّر إذا أشرك بينهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ مِنَ الغابرين ﴾ أي الباقين في عذاب الله ؛ قاله ابن عباس وقتادة .

غَبَر الشيء إذا مَضَى ، وغبر إذا بَقَى .

وهو من الأضداد .

وقال قوم : الماضي عابر بالعين غير معجمة .

والباقي غابر بالغين معجمة .

حكاه ابن فارس في المجمل .

وقال الزجاج : "مِنَ الْغَابِرِينَ" أي من الغائبين عن النجاة وقيل ؛ لطول عمرها .

قال النحاس : وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من المعمّرين ؛ أي أنها قد هرمت .

والأكثر في اللغة أن يكون الغابر الباقي ؛ قال الراجز :

فما وَنَى محمدٌ مذْ أن غَفَرْ . . .

له الإله ما مضى وما غَبَرْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(73/277)

وقال الخازن :

﴿ فأنجيناه وأهله ﴾

يعني فأنجينا لوطاً ومن آمن به واتبعه على دينه ، وقيل : المراد بأهله المتصلون به بسبب النسل أو المراد بأهله ابنتاه ﴿ إلا امرأته ﴾ يعني زوجته ﴿ كانت من الغابرين ﴾ يعني كانت من الباقين في العذاب لأنها كانت كافرة ، وقيل : معناه كانت من الباقين المعمرين قد أتى عليها دهر طويل ثم هلكت مع من هلك من قوم لوط وإنما قال من الغابرين ولم يقل من الغابرات لأنها هلكت مع الرجال فغلب الرجال فقال من الغابرين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته من الغابرين ﴾

أي ﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ من العذاب الذي حل بقومه ﴿ وأهله ﴾ هم المؤمنون معه أو ابنتاه على الخلاف الذي سبق واستثنى من أهله امرأته فلم تنجُ واسمها واهلة كانت منافقة تسرّ الكفر موالية لأهل سدوم ومعنى ﴿ من الغابرين ﴾ من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا وعلى هذا يكون قوله ﴿ كانت من الغابرين ﴾ تفسيراً وتوكيداً لما تضمنه الاستثناء من كونها لم ينجها الله تعالى .

وقال أبو عبيدة : ﴿ إلا امرأته ﴾ اكتفى به في أنها لم تنجُ ثم ابتدأ وصفها بعد ذلك بصفة لا تتعلق بها النجاة ولا الهلكة وهي أنها كانت ممن أسن وبقي من عصره إلى عصر غيره فكانت غابرة أي متقدّمة في السن كما قال : إلا عجوزاً في الغابرين إلى أن هلكت مع قومها

انتهى ، وجاء ﴿ من الغابرين ﴾ تغليباً للذكور على الإناث ، وقال الزّجاج : من الغائبين عن النجاة فيكون توكيداً لما تضمنه الاستثناء انتهى ، و﴿ كانت ﴾ بمعنى صارت أو كانت في علم الله أو باقية على ظاهرها من تقييد غبورها بالزمان الماضي أقوال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(74/277)

وقال أبو السعود :

﴿ فأنجيناه وَأَهْلَهُ ﴾ أي المؤمنين منهم ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ استثناءٌ من أهله فإنها كانت تُسِرّ بالكفر ﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ أي الباقين في ديارهم الهالِكين فيها ، والتذكيرُ للتغليب ولبيان استحقاقِها لما يستحقه المباشِرون للفاحشة ، والجملةُ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأ عن استثنائها من حكم الإنجاءِ ، كأنه قيل : فماذا كان حالُها ؟ فقيل : كانت من الغابرين ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ أي نوعاً من المطر عجيباً وقد بينه قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مّن سِجّيلٍ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(75/277)

وقال الآلوسى :

﴿ فأنجيناه وَأَهْلَهُ ﴾

أي من اختص به واتبعه من المؤمنين سواء كانوا من ذوي قرابته عليه السلام أم لا .

وقيل : ابنتاه ريثا وبغوثا .

وللأهل معان ولكل مقام مقال ، وهو عند الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه في باب الوصية الزوجة للعرف ولقوله سبحانه : ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امكثوا ﴾ [القصص : 29] ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ [القصص : 29] فتدفع الوصية لها إن كانت كتابية أو مسلمة وأجازت الورثة .

وعند الإمامين أهل الرجل كل من في عياله ونفقته غير مماليكه وورثته ، وقولهما كما في "شرح التكملة" استحسان .

وأيده ابن الكمال بهذه الآية لأنه لا يصح فيها أن يكون بمعنى الزوجة أصلاً لقوله سبحانه : ﴿ إِلَّا امرأته ﴾ فإنه استثناء من أهله وحينئذ لا يصح الاستثناء ، وأنت تعلم أن الكلام في المطلق على القرينة لا في الأهل مطلقاً واسم امرأته عليه السلام واهلة وقيل : والهة .

﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ أي بعضاً منهم فالتذكير للتغليب ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة وكانت تسر الكفر وتوالي أهله فهلكت كما هلكوا .

وجوز أن يكون المعنى كانت مع القوم الغابرين فلا تغليب .

والغابر بمعنى الباقي ومنه قول الهذلي

: فغبرت بعدهم بعيش ناصب . . .

ويجيء بمعنى الماضي والذاهب .

ومنه قوله الأعشى

: في الزمن الغابر . . .

فهو من الأضداد كما في "الصحاح" وغيره .

ويكون بمعنى الهالك أيضاً .

وفي بقاء امرأته مع أولئك القوم روايتان ثانيتهما أنه عليه السلام أخرجها مع أهله ونهاهم عن الالتفات فالتفتت هي فأصابها حجر فهلكت .

والآية هنا محتملة للأمرين .

والحسن وقتادة يفسران الغبور هنا بالبقاء في عذاب الله تعالى .

وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمة لهذا الكلام .

والجملة استئناف وقع جواباً نشأ عن الاستثناء كأنه قيل : فما كان حالها ؟ فقيل : كانت من الغابرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى : ﴿ فأنجيناه ﴾ تعقيب لجملة : ﴿ وما كان جواب قومه ﴾ [الأعراف : 82] أو لجملة : ﴿ قال لقومه ﴾ [الأعراف : 80] وهذا التّعقيب يؤذن بأنّ لوطاً عليه السّلام أُرسل إلى قومه قبل حلول العذاب بهم بزمن قليل .

و ﴿ أنجيّناه ﴾ مقدّم من تأخير .

والتّقدير : فأمطرنا عليهم مطراً وأنجيناه وأهلَه ، فقدم الخبر بإنجاء لوط عليه السّلام على الخبر بإمطارهم مطرَ العذاب ، لقصد إظهار الاهتمام بأمر إنجاء لوط عليه السّلام ، ولتعجيل المسرّة للسّامعين من المؤمنين ، فتطمئنّ قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية ، فيعلموا أنّ تلك سنّة الله في عباده ، وقد تقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فكذّبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك ﴾ في هذه السّورة (64) .

وأهل لوط عليه السّلام هم زوجه وابنتان له بكران ، وكان له ابنتان متزوّجتان كما ورد في التّوراة امتنع زوجاهما من الخروج مع لوط عليه السّلام فهلكتا مع أهل القرية .

وأمّا امرأة لوط عليه السّلام فقد أخبر الله عنها هنا أنّ الله لم ينجها ، فهلكت مع قوم لوط ، وذكر في سورة هود ما ظاهره أنّها لم تمتثل ما أمر الله لوطاً عليه السّلام أن لا يلتفت هو ولا أحد من أهله الخارجين معه إلى المدن حين يصيبها العذاب فالتفتت امرأته فأصابها

العذاب ، وذكر في سورة التّحريم أنّ امرأة لوط عليه السّلام كانت كافرة .

وقال المفسّرون : كانت تُسِرّ الكفر وتظهر الإيمان ، ولعلّ ذلك سبب التفاتها لأنّها كانت غير موقنة بنزول العذاب على قوم لوط ، ويحتمل أنّها لم تخرج مع لوط عليه السّلام وإن قوله : ﴿ إلاّ امرأتك ﴾ في سورة هود (81) ، استثناء من أهلك ﴾ لا من ﴿ أحد ﴾ .

(77/277)

لعلّ امرأة لوط عليه السّلام كانت من أهل (سَدوم) تزوّجها لوط عليه السّلام هنالك بعد هجرته ، فإنّه أقام في (سدوم) سنين طويلة بعد أن هلكت أمّ بناته وقبل أن يرسل ، وليست هي أمّ بنتيه فإنّ التّوراة لم تذكر امرأة لوط عليه السّلام إلاّ في آخر القصّة .

ومعنى ﴿ من الغابرين ﴾ من الهالكين ، والغابر يطلق على المنقضي ، ويطلق على الآتي ، فهو من أسماء الأضداد ، وأشهر إطلاقيه هو المنقضي ، ولذلك يقال : غَبر بمعنى هلك ، وهو المراد هنا : أي كانت من الهالكين ، أي هلكت مع من هلك من أهل (سدوم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(78/277)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾

وهم حين أرادو طرد لوط وأهله ، إنما كانوا يجازفون .

إنهم بذلك قد تعجلوا العقاب ، وجاءهم العقاب وأنجى الحق سبحانه لوطاً وأهله بتدبير حكيم لا يحتاج فيه سبحانه إلى حد ، وإذا تساءل أحد : ومن هم أهل لوط الذين أنجاهم الله معه ؟ أهم أهل النسب أم أهل التدين والتبعية ؟ . إن كان أهله بالنسب فالحق يستثني منهم " إمرأته " ، وهذا دليل على أن أهل البيت آمنوا بما قاله لوط وكذلك الأتباع أيضاً ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ .

إذن كان مع لوط أيضاً بعض من أهله وبعض من الأتباع ، وكانوا من المتطهرين ، والتطهر هو أن يترفع الإنسان عن الرجس والسوء . ولذلك نجد سيدنا شعيباً حين ينصح وقومه : ﴿ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 85]

ويتعجب القوم سائلين شعيباً : ﴿ أصلاوتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ . . . ﴾ [هود : 87]

إنهم يتعجبون من أن الصلاة تنهى عن ذلك ، لقد أعمى ضلالهم بصيرتهم ، فلم يعرفوا أن الصلاة تنهى عن كل شيء . وكذلك فعل بعض من الكافرين حين اتهموا سيدنا رسول الله

بأنه مجنون : ﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَا الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6]

ومن قولهم يتأكد غباء تفكيرهم ، فماداموا قد قالوا : ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ فمن الذي نزل هذا الذكر ؟ ، والذكر هو القرآن ، والذي نزله هو الله – سبحانه وتعالى – فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ، ثم يتهمون الرسول بأنه " مجنون " ؟ ، لأنهم ماداموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر ، وإنه قد نزل عليه ، ولم يأت به من عنده ، فكيف يكون مجنوناً ؟ إنهم هم الكاذبون ، وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

(79/277)

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق يقول سبحانه : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ [الأعراف : 83]

إن إمرأة سيدنا لوط لم تدخل في الإنجاء لأنها من الغابرين ، و " غبر " تأتي لمعان متعددة ، فهي تعني إقامة ومكثا بالمكان ، أو تعني أي شيء مضى ، كما يقال : هذا الشيء غبرت أيامه ؛ أي مضت أيامه ، ولسائل أن يقول : كيف تأتي الكلمة الواحدة للمعنى ونقيضه ؟ فغبر تعني بقي ، وغبر أيضاً تعني مضى وانتهى . نقول : إن المعنى ملتق هنا في هذه الاية ، فمادام الحق ينجيه من العذاب الذي نزل على قوم لوط في القرية فنجد زوجته لم تخرج معه ،

بل بقيت في المكان الذي نزل فيه العذاب ، وبقيت في الماضي ، وهكذا يكون المعنى ملتقيا . فإن قلت مع الباقين الذين آتاهم العذاب فهذا صحيح . وإن قلت إنها صارت تاريخاً مضى فهذا صحيح أيضاً : ﴿ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ .

ونحن لا ندخل في تفاصل لماذا كانت امراته من الغابرين ؛ لأن البعض تكلم في حقها بما لا يقال ، وكأن الله يدلس على نبي من أنبيائه ، لا ، نحن لا نأخذ إلا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفة لمنهجه وغير مؤمنة به .

ونلحظ أيضاً أن الحق تحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط في مسألة الكفر ؛ فقال : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا . . . ﴾ [التحريم : 10]

(80/277)

ودقق النظر في كلمة ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ وتساءل البعض عن معنى الخيانة وهل المقصود بها الزنا ؟ . ونقول : ربنا لا يدلس على نبي له ، لكن أن تؤمن الزوجة أو تكفر ، فهذه مسألة اختيارية . وكأن الله سبحانه يوضح لنا أن الرسول مع أنه رسول من الله إلا أنه لا يستطيع أن يفرض إيماناً على امرأته ؛ فالمسألة هي حرية الاعتقاد

. وانظر إلى التعبير القرآني : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ ﴾

.

إياك أن تظن أن أيًّا منهما متكبرة على زوجها ؛ لأن الحق يقول : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أي أن إمرة وقوامة الرجل مؤكدة عليها ، يشير إلى ذلك قوله : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ ﴾ لكن الإيمان هو مسالة اختيار ، وهذا الاختيار متروك لكل إنسان ، وأكد الحق ذلك في مسألة ابن سيدنا نوح : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : 46]

وحاول البعض أن يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم في ذلك يجانبون الصدق ، إنه محض افتراء ، وقد نبهنا الحق إلى ذلك فقال عن امرأة نوح وامرأة لوط : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [التحريم : 10]

ولنفهم أن الاختيار في العقيدة هو الذي جعلهما من الكافرين ، وأن الرسولين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان في قلبي الزوجتين ؛ حتى يتأكد لدينا أن العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه ، ولذلك ضرب سبحانه لنا مثلاً آخر : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ امرأت فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ [التحريم : 11]

فهذه زوجة فرعون المتجبر؛ الذي "ادّعى الألوهية"، لكنه لا يقدر أن يمنع امرأته من أن تؤمن بالله، وهكذا نجد نبيًّا لا يقدر أن يقنع امرأته بالإيمان، ونجد مدّعي الألوهية عاجزاً عن أن يجعل امرأته كافرة مثله، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختياري محمي بكل أنواع الحماية؛ حتى لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره.

وضرب الله مثلاً آخر: ﴿ وَمَرْيَمَ ابنت عِمْرَانَ . . . ﴾ [التحريم: 12]

ونلاحظ أن الحق لم يأت بأسماء زوجتي نوح ولوط، وكذلك لم يأت باسم امرأة فرعون، لكنه أورد لنا اسم مريم واسم والدها. فلماذا كان الإبهام أولاً؟ لنعلم أنه من الجائز جدًّا أن يحصل مثل هذا الأمر لأي امرأة، فقد تكون تحت جبار وكافر، وتكون هي مؤمنة، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمان قلبها. ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾. [الأعراف: 83]

فكلمة "أنجيناه" تشير إلى أن عذاباً سيقع في المكان الذي فيه قوم لوط، ولأنه سبحانه شاء أن يعذب جماعة ولا يعذب جماعة أخرى، فلابد أن يدفع الجماعة التي كتب لها النجاة إلى الخروج. وهذا الخروج أراده لهم من يكرهونهم، فقد قالوا: ﴿ . . . أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 82]

لكن ربنا هو الذي أخرجهم ، والإِخراج كان من العذاب الذي نزل بهؤلاء المجرمين ؛ إنه كان لإِنجاء لوط وأهله مما نزل بهؤلاء الفجرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(82/277)

" فوائد لغوية "

قال ابن عادل :

قوله : " مِنَ الغَابِرِينَ " يعني الباقين في العذاب .

وقيل : من الباقين المعمّرين قد أتى عليها دَهْرٌ طويل فهلكت ، فهي مع من هلك .

يقال : غبر الشيء يغبر غبوراً إذا مكث وبقي .

وقوله : ﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ جواب سؤال مقدّر ، وهذا كما تقد في البقرة ، وفي أوّل هذه السُّورة في قصة " إبليس " .

والغابر : المقيم وهذا [هو] مشهور اللُّغة ، وأنشدوا قول بي ذُؤَيْبٍ الهذلي : [الكامل]

2513 - فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ . . .

وإِخَالُ أَنِّي لاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ

ومنه غُبَّرُ اللبن لبقيته في الضَّرْع ، وغُبَّرُ الحَيْض أيضاً ، قال أبو كبير الهُذَلِيُّ ، ويروى لتأبَّط

شَرّاً : [الكامل]

2514 - ومُبَرَّأ مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ . . .

وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُعْضِلِ

ومعنى " مِنَ الغَابِرِينَ " في الآية أي : من المقيمن في الهلاكِ .

وقال بعضهم : " غبر بمعنى مضى وذهب " ومعنى الآية يساعده ؛ وأنشد للأعشى : [السريع]

2515 - عَضَّ بِمَا أَبْقَى المَوَاسِي لَهُ . . .

مِنْ أَمِّهِ فِي الزَّمَنِ الغَابِرِ

أي : الزمان الماضي .

وقال بعضهم : غَبَرَ : أي غاب ، ومنه قولهم : " غَبَر عَنَّا زماناً " .

وقال أبو عبيدة : " غبر : عُمِّر دَهْراً طويلاً حتّى هَرِمَ " ، ويدلُّ له : ﴿ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابرين ﴾ [الصافات : 135] . وقد تقدَّم .

والحاصل أنَّ الغبور مشتركٌ كـ " عَسْعَسَ " ، أو حقيقة ومجازٌ وهو المرجح .

والغبارُ : ما يبقى من التُّراب المُثَارِ ومنه : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ [عبس : 40] .

تخييلاً لتغيرها واسودادها والغَبْراء : الأَرْضُ ؛ قال طرفةُ : [الطويل]

2516 - رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لاَ يُنْكِرُونَنِي . . .

وَلاَ أَهْلُ هَذَاكَ الطِّرَافِ الْمُمَدَّدِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 207 . 208 ﴾

(83/277)

قوله تعالى ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أفهم هذا إهلاكهم ، بينه دالاً على نوعه بقوله : ﴿ وأمطرنا ﴾ أي حجارة الكبريت بعد أن قلعت مدائنهم ورفعت وقلبت حتى رجم بها مسافروهم وشذابهم لأنه عذاب الاستئصال عمن لا يعجزه شيء ؛ وأوضحه بقصره الفعل وتعديته بحرف الاستعلاء فقال : ﴿ عليهم ﴾ وأكد كونه من السماء لا من سطح أو جبل ونحوه بقوله : ﴿ مطراً ﴾ وأشار إلى عظمه مزيلاً للبس أصلاً بما سبب عنه من قوله : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ المجرمين - ﴾ وأظهر موضع الإضمار تعليقاً للحكم بوصف القطع لما حقه الوصل بوصل ما حقه القطع من فاحش المعصية دليلاً على أن الرجم جزاء من فعل هذا

الفعل بشرطه ، لأن الحكم يدور مع العلة ، وسياتي في سورة هود عليه السلام سياق قصتهم من التوراة بعد أن مضى في البقرة عند ﴿ إذ قال له ربه أسلم ﴾ [البقرة : 131] أوائل أمرهم ، وهذا كما سومت الحجارة لقريش – لما أجمعوا أن يرجعوا بعد توجههم عن غزوة أحد من الطريق – ليفزعوا من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على زعمهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده ! لقد سومت لهم الحجارة ، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب " ولكنه صلى الله عليه وسلم لما كان رسول رحمة لم يقض الله برجوعهم فمضوا حتى أسلم بعد ذلك كثير منهم ، وكما أمطر الله الحجارة على أصحاب الفيل سنة مولده صلى الله عليه وسلم حماية لبلده ببركته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 64.65 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ يقال : مطرت السماء وأمطرت ، والأول أفصح ، وأمطرهم ، مطراً وعذاباً ، وكذلك أمطر عليهم ، والمراد أنه تعالى أمطر عليهم حجارة من السماء بدليل أنه تعالى قال في آية أخرى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 74] .

ثم قال : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(84/277)

ظاهر هذا اللفظ وإن كان مخصوصاً بالرسول عليه السلام إلا أن المراد سائر المكلفين ليعتبروا بذلك فينزجروا .

فإن قيل : كيف يعتبرون بذلك ، وقد آمنوا من عذاب الاستئصال ؟

قلنا : إن عذاب الآخرة أعظم وأدون من ذلك ، فعند سماع هذه القصة يذكرون عذاب الآخرة مؤنبة على عذاب الاستئصال ، ويكون ذلك زجراً وتحذيراً .

المسألة الثانية :

مذهب الشافعي رضي الله عنه : أن اللواطة توجب الحد .

وقال أبو حنيفة : لا توجبه .

وللشافعي رحمه الله : أن يحتج بهذه الآية من وجوه : الأول : أنه ثبت في شريعة لوط عليه السلام رجم اللوطي ، والأصل في الثابت البقاء ، إلا أن يظهر طريان الناسخ ، ولم يظهر في شرع محمد عليه الصلاة والسلام ناسخ هذا الحكم ، فوجب القول ببقائه .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] قد بينا في تفسير هذه الآية أنها تدل على أن شرع من قبلنا حجة علينا .

والثالث : أنه تعالى قال : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾ والظاهر أن المراد من هذه العاقبة ما سبق ذكره وهو إنزال الحجر عليهم ومن المجرمين ، الذين يعملون عمل قوم لوط ، لأن ذلك هو المذكور السابق فينصرف إليه ، فصار تقدير الآية : فانظر كيف أمطر الله الحجارة على من يعمل ذلك العمل المخصوص ، وذكر الحكم عقيب الوصف المناسب ، يدل على كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم ، فهذه الآية تقتضي كون هذا الجرم المخصوص علة لحصول هذا الزاجر المخصوص ، وإذا ظهرت العلة ، وجب أن يحصل هذا الحكم أينما حصلت هذه العلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 140 ﴾

(85/277)

وقال السمرقندى :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾

يعني : الحجارة ويقال : أمطر بالعذاب ومطر بالرحمة .

ويقال : أمطر ومطر بمعنى واحد ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾ أي : كيف كان آخر أمرهم ، وقد بيّن قصته في سورة هود .

وقال مجاهد : لو أن الذي يعمل عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة في السماء ، وبكل قطرة في الأرض ، ما زال نجساً إلى يوم القيامة وقد اختلف الناس في حَدّه .

قال بعضهم : هو كالزاني فإن كان محصناً يرجم وإن كان غير محصن يجلد .

وروي عن الشعبي أنه قال : يرجم في الأحوال كلها محصناً كان أو غير محصن .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أتي برجل قد عمل بذلك العمل ، فأمر بأن يلقى من أشرف البناء منكوساً ثم يتبع بالحجارة ، لأن الله تعالى ذكر قتلهم بالحجارة .

وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ أي : حجارة وقال بعضهم : يعزر ويحبس حتى تظهر توبته ولا يحد وهو قول أبي حنيفة رحمه الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَراً ﴾

يعني حجارة من سجّيل ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المجرمين ﴾ وسنذكر القصّة بتمامها في موضعها إن شاء الله .

وروى أبو اليمان بن الحكم بن نافع الحمّصي عن صفوان بن عمر قال : كتب عبد الملك ابن

مروان إلى ابن حبيب قاضي حمص سأله كم [عقوبة] اللوطي فكتب أن عليه أن يُرمى بالحجارة كما رجُم قوم لوط فإن الله تعالى قال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَراً ﴾ وقال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 74] فقبل عبد الملك ذلك منه وأستحسنه .

وروى عكرمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فأقتلوا الفاعل والمفعول به " .

وقال محمد بن المنكدر : كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر أنّه وجد رجلا في بعض قوافل العرب يُنكح كما تُنكح المرأة فشاور أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأشهدهم في ذلك عليه ، فاجتمع عليهم على أن يُحرقوه فأحرقوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(86/277)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ الآية ،

نص على إمطار وتظاهرت الآيات في غير هذه السورة أنه بحجارة ، وروي أن الله عز وجل

بعث جبريل فاقتلعها بجناحة وهي ست مدن ، وقيل خمس ، وقيل أربع ، فرفعها حتى سمع أهل السماء نهاق الحمير وصراخ الديكة ثم عكسها ورد أعلاها أسفلها وأرسلها إلى الأرض . وتبعتهم الحجارة مع هذا فأهلكت من كان منهم في سفر أو خارجاً عن البقع المرفوعة ، وقالت امرأة لوط حين سمعت الرجة : واقوماه والتفتت فأصابتها صخرة فقتلتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾

قال ابن عباس : يعني الحجارة .

قال مجاهد : نزل جبريل ، فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط ، ورفعها ، ثم قلبها ، فجعل أعلاها أسفلها ، ثم أُتبعوا بالحجارة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

سَرَى لُوطٌ بأهله كما وصف الله ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ [هود : 81 والحجر : 65] ثم أمر جبريل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الدِّيَكة ونباح الكلاب ، ثم جعل عاليها سافلها ، وأمطرت عليهم حجارة من سِجِّيل ، قيل : على من غاب منهم .

وأدرك امرأة لوط ، وكانت معه حجرٌ فقتلها .

وكانت فيما ذُكر أربع قُرًى .

وقيل : خمس فيها أربعمائة ألف .

وسيأتي في سورة "هود" قصة لوط بأبين من هذا ، إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(87/277)

وقال الخازن :

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾

يعني حجارة من سجّيل قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وأمطرت .

وقال أبو عبيدة : يقال في العذاب أمطرت وفي الرحمة مطرت ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ يعني انظر يا محمد كيف كان عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالله ورسوله وعملوا الفواحش كيف أهلكناهم .

قال مجاهد : نزل جبريل عليه السلام فأدخل جناحيه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها إلى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم اتبعوا بالحجارة .

وقوله فانظر كيف كان عاقبة المجرمين وإن كان هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لكن المراد به غيره من أمته ليعتبروا بما جرى على اولئك فينزجروا بذلك الاعتبار عن الأفعال القبيحة والفواحش الخبيثة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(88/277)

وقال أبو حيان :

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ ضمن ﴿ أمطرنا ﴾ معنى أرسلنا فلذلك عداه بعلى كقوله فأمطرنا عليهم حجارة من السماء والمطر هنا هي حجارة وقد ذكرت في غير آية خسف بهم وأمطرت عليهم الحجارة ، وقيل : كانت المؤتفكة خمس مدائن ، وقيل : ست ، وقيل : أربع اقتلعها جبريل بجناحه فرفعها حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير وصياح الديكة ثم عكسها فرد أعلاها أسفلها وأرسلها إلى الأرض ، وتبعتهم الحجارة مع هذا فأهلكت من كان منهم في سفر أو خارجاً عن البقاع وقالت امرأة لوط حين سمعت الرجّة واقوماه والتفتت فأصابتها صخرة فقتلتها ، والظاهر أن الأمطار شملهم كلهم ، وقيل : خسف بأهل المدن وأمطرت الحجارة على المسافرين منهم ، وسئل مجاهد هل سلم منهم أحد قال لا إلا رجلاً كان بمكة تاجراً وقف الحجر له أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم

فأصابه فمات وكان عددهم مائة ألف .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ خطاب للرسول أو للسامع قصتهم كيف كان مآل من أجرم وفيه إيقاظ وازدجار أن تسلك هذه الأمة هذا المسلك و﴿ المجرمين ﴾ عام في قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم وهو من نظر التفكر أو من نظر البصر فيمن بقيت له آثار منازل ومساكن كثمود وقوم لوط كما قال تعالى ﴿ وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾

قال أبو عبيدة : مُطر في الرحمة وأُمطِر في العذاب . وقال الراغب : مُطر في الخير وأُمطر في العذاب ، والصحيح أن أَمطَرنا بمعنى أرسلنا عليهم إرسالَ المطر . قيل : كانت المؤتَفِكةُ خمسَ مدائن ، وقيل : كانوا أربعةَ آلافٍ بين الشام والمدينة فأمطر الله عليهم الكِبريتَ والنارَ ، وقيل : خَسَف بالمقيمين منهم وأُمطرت الحجارةُ على مسافريهم وشُذّاذهم ، وقيل : أُمطر عليهم ثم خُسِف بهم . ورُوي أن تاجراً منهم كان في الحرَم فوقف الحجرُ له أربعين يوماً حتى قضى تجارتَه وخرج من الحرم فوقع عليه ، وروي أن امرأتَه التفتت نحوَ ديارِها فأصابها حَجَرٌ فماتت ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَتْ عاقبة المجرمين ﴾ خطابٌ لكل من يتأتى منه

التأملُ والنظرُ تعجيباً من حالهم وتحذيراً من أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(89/277)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾

أي نوعاً من المطر عجيباً وقد بينه قوله سبحانه : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحج : 74] .

وفي "الخازن" أن تلك الحجارة كانت معجونة بالكبريت والنار .

وظاهر الآية أنه أمطر عليهم كلهم .

وجاء في بعض الآثار أنه خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم حتى أن تأجرا منهم كان في الحرم فوقفت له حجر أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع غليه .

وفرق بين مطر وأمطر فعن أبي عبيدة أن الثلاثي في الرحمة والرباعي في العذاب ومثله عن الراغب ، وفي "الصحاح" عن أناس أن مطرت السماء وأمطرت بمعنى ، وفي "القاموس" (لا

يقال أمطرهم الله تعالى إلا في العذاب) .

وظاهر كلام "الكشاف" في الأنفال (23) الترادف كما في "الصحاح" لكنه قال : (وقد كثر الإمطار في معنى العذاب) وذكر هنا أنه يقال : (مطرتهم السماء وواد ممطور ويقال : أمطرت عليهم كذا أي أرسلته (عليهم) إرسال المطر) .

وحاصل الفرق كما في "الكشف" ملاحظة معنى الإصابة في الأول والإرسال في الثاني ولهذا عدي بعلى ، وذكر ابن المنير (أن مقصود الزمخشري الرد على من يقول : إن مطرت في الخير وأمطرت في الشر ويتوهم أنها تفرقة وضعية فبين أن أمطرت معناه أرسلت شيئاً على نحو المطر وإن لم يكن ماءً حتى لو أرسل الله تعالى من السماء أنواعاً من الخير . . . لجاز أن يقال فيه : أمطرت السماء خيراً أي أرسلته إرسال المطر فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة الرباعية ولكن اتفق أن السماء لم ترسل شيئاً سوى المطر إلا وكان عذاباً فظن أن الواقع اتفاقاً مقصود في الوضع) (وليس به انتهى) .

ويعلم منه كما قال الشهاب أن كلام أبي عبيدة وأضرابه مؤول وإن رد بقوله تعالى : ﴿ عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : 24] فإنه عنى به الرحمة .

(90/277)

ولا يخفى أنه لو قيل : إن التفرقة الاستعمالية إنما هي بين الفعلين دون متصرفاتهما لم يتأت هذا الرد إلا أن كلامهم غير صريح في طلك ، ولعل البعض صرح بما يخالفه ثم ان ﴿ مَّطَرًا ﴾ إما مفعول به أو مفعول مطلق .

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾ أي مآل أولئك الكافرين المقترفين لتلك الفعلة الشنعاء .

وهذا خطاب لكل من يتأتى منه التأمل والنظر تعجيباً من حالهم وتحذيراً من أفعالهم .

وقد مكث لوط عليه السلام فيهم على ما في بعض الآثار ثلاثين سنة يدعوهم إلى ما فيه صلاحهم فلم يجيبوه وكان إبراهيم عليه السلام يركب على حماره فيأتيهم وينصحهم فيأبون أن يقبلوا فكان يأتي بعد أن أيس منهم فينظر إلى سدوم ويقول سدوم أي يوم لك من الله تعالى سدوم حتى بلغ الكتاب أجله فكان ما قص الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم .

وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل ذلك .

ثم إن لوطاً عليه السلام كما أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن الزهري لما عذب قومه لحق بإبراهيم عليه السلام فلم يزل معه حتى قبضه الله تعالى إليه .

وفي هذه الآيات دليل على أن اللواطة من أعظم الفواحش .

وجاء في خبر أخرجه البيهقي في "الشعب" عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وصححه الحاكم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لعن الله تعالى سبعة من خلقه فوق سبع

سموات فردد لعنة على واحد منها ثلاثاً ولعن بعد كل واحد لعنة فقال : ملعون ملعون ملعون من عمل عمل قول لوطٍ " الحديث .

وجاء أيضاً (أربعة يصبحون في غضب الله تعالى) ويمسون في سخط الله تعالى وعد منهم من يأتي الرجل .

وأخرج ابن أبي الدنيا وغيره عن مجاهد رضي الله تعالى عنه أن الذي يعمل ذلك العمل لو اغتسل بكل قطرة من السماء وكل قطرة من الأرض لم يزل نجساً أي إن الماء لا يزيل عنه ذلك الإثم العظيم الذي بعده عن ربه .

والمقصود تهويل أمر تلك الفاحشة .

(91/277)

وألحق بها بعضهم السحاق وبدا أيضاً في قوم لوط عليه السلام فكانت المرأة تأتي المرأة فعن حذيفة رضي الله تعالى عنه إنما حق القول على قوم لوط عليه السلام حين استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال .

وعن أبي حمزة رضي الله تعالى عنه قلت لمحمد بن علي عذب الله تعالى نساء قوم لوط بعمل رجالهم فقال : الله تعالى أعدل من ذلك استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء .

وآخرون إتيان المرأة في عجيزتها واستدل بما أخرج غير واحد عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال على المنبر : سلوني ؟ فقال ابن الكواء : توّتى النساء في أعجازهن ؟ فقال كرم الله تعالى وجهه : سفلت سفل الله تعالى بك ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ [الأعراف : 80] الآية .

ولا يخفى أن ذلك لا يتم إلا بطريق القياس وإلا فالفاحشة في الآية مبينة بما علمت .

نعم جاء في آثار كثيرة ما يدل على حرمة إتيان الزوجة في عجيزتها والمسألة كما تقدم خلافية والمعتمد فيها الحرمة .

ولا فرق في اللواطة بين أن تكون بمملوك أو تكون بغيره .

واختلفوا في كفر مستحل وطء الحائض ووطء الدبر .

وفي "التتارخانية" نقلاً عن "السراجية" اللواطة بمملوكه أو مملوكته أو امرأته حرام إلا أنه لو استحله لا يكفر وهذا بخلاف اللواطة بأجنبي فإنه يكفر مستحلها قولاً واحداً .

وما ذكر مما يعلم ولا يعلم كما في "الشرنبلالية" لئلا يتجرأ الفسقة عليه بظنهم حله .

واختلف في حد اللواطة فقال الإمام : لا حد بوطء الدبر مطلقاً وفيه التعزير ويقتل من تكرر منه على المفتى به كما في "الأشباه" .

والظاهر على ما قال البيري أنه يقتل في المرة الثانية لصدق التكرار عليه .

وقال الإمامان : إن فعل في الأجانب حد كحد الزنا وإن في عبده أو أمته أو زوجته بنكاح

صحيح أو فاسد فلا حد إجماعاً كما في "الكافي" وغيره بل يعزر في ذلك كله ويقتل من اعتاده .

(92/277)

وفي "الحاوي القدسي" وتكلموا في هذا التعزير من الجلد ورميه من أعلى موضع وحبسه في أنتن بقعة وغير ذلك سوى الإخصاء والجب والجلد أصح .

وفي "الفتح" يعزر ويسجن حتى يموت أو يتوب ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حد اللواطة القتل للفاعل والمفعول ورواه مرفوعاً ، وفي رواية أخرى عنه أنه سئل ما حد اللوطي فقال : ينظر أعلى بناء في القرية فيلقى منه منكسا ثم يتبع بالحجارة .

قال في "الفتح" وكأن مأخذ هذا أن قوم لوط أهلكوا بذلك حيث حملت قراهم ونكست بهم ولا شك في اتباع الهدم بهم وهم نازلون .

وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه رجم لوطياً وهو أشبه شيء بما قص الله تعالى من إهلاك قوم لوط عليه السلام بإمطار الحجارة عليهم .

وصححوا أنها لا تكون في الجنة لأنه سبحانه استقبحها وسماها فاحشة والجنة منزهة عن ذلك .

وفي الأشباه أن حرمتها عقلية فلا وجود لها في الجنة ، وقيل : سمعية فتوجد أي فيمكن أن توجد .

وكأنه أراد بالحرمة هنا القبح إطلاقاً لاسم السبب على المسبب أي أن قبحها عقلي بمعنى أنه يدرك بالعقل وإن لم يرد به الشرع .

وليس هذا مذهب المعتزلة كما لا يخفى .

ونقل الجلال السيوطي عن ابن عقيل الحنبلي قال : جرت هذه المسألة بين أبي علي بن الوليد المعتزلي وبين أبي يوسف القزويني فقال ابن الوليد : لا يمنع أن يجعل ذلك من جملة اللذات في الجنة لزوال المفسدة لأنه إنما منع في الدنيا لما فيه من لطع النسل وكونه محلاً للأذى وليس في الجنة ذلك ولهذا أبيح شرب الخمر لما ليس فيه من السكر والعربدة وزوال العقل بل اللذة الصرفة فقال أبو يوسف رضي الله تعالى عنه : الميل إلى الذكور عاهة وهو قبيح في نفسه لأنه محل لم يخلق للوطء ولهذا لم يبح في شريعة بخلاف الخمر فقال ابن الوليد : هو قبيح وعاهة للتلويث بالأذى ولا أذى في الجنة فلم يبق إلا مجرد الالتذاذ انتهى .

(93/277)

وأنا أرى أن إنكار قبح اللواطة عقلاً مكابرة ولهذا كانت الجاهلية تعير بها ويقولون في الذم فلان مصفر استه ولا أدري هل يرضى ابن الوليد لنفسه أن يؤتى في الجنة أم لا ؟ فإن رضي اليوم أن يؤتي غدا فغالب الظن أن الرجل مأبون أو قد ألف ذلك وإن لم يرض لزمه الإقرار بالقبح العقلي .

وإن ادعى أن عدم رضائه لأن الناس قد اعتادوا التعيير به وذلك مفقود في الجنة قلنا له : يلزمك الرضا به في الدنيا إذا لم تعير ولم يطلع عليك أحد فإن التزمه فهو كما ترى ؛ ولا ينفعه ادعاء الفرق بين الفاعل والمفعول كما لا يخفى على الأحرار .

وصرحوا بأن حرمة اللواطة أشد من حرمة الزنا لقبحها عقلاً وطبعاً وشرعاً والزنا ليس بحرام كذلك وتزول حرمته بتزويج وشراء بخلافها وعدم الحد عند الإمام لا لخفتها بل للتغليظ لأنه مطهر على قول كثير من العلماء وإن كان خلاف مذهبنا ، وبعض الفسقة اليوم دمرهم الله تعالى يهونون أمرها ويتمنون بها ويفتخرون بالاكثار منها .

ومنهم من يفعلها أخذاً للثأر ولكن من أين ، ومنهم من يحمد الله سبحانه عليها مبنية للمفعول وذلك لأنهم نالوا الصدارة بأعجازهم ؛ نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة .

واعلم أن للواطة أحكاماً أخر فقد قالوا : إنه لا يجب بها المهر ولا العدة في النكاح الفاسد ولا في المأتي بها لشبهة ولا يحصل بها التحليل للزوج الأول ولا تثبت بها الرجعة ولا حرمة

المصاهرة عند الأكثر ولا الكفارة في رمضان في رواية ولو قذف بها لا يحد ولا يلاعن خلافاً لهما في المسألتين كما في "البحر" أخذاً من "المجتبى" .

وفي "الشرنبلالية" عن "السراج" يكفي في الشهادة عليها عدلان لا أربعة خلافاً لهما أيضاً .

(94/277)

هذا ولم أقف للسادة الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم على ما هو من باب الإشارة في قصة قوم لوط عليه السلام ، وذكر بعضهم في قصة قوم صالح عليه السلام بعد الإيمان بالظاهر أن الناقة هي مركب النفس الإنسانية لصالح عليه السلام ونسبتها إليه سبحانه لكونها مأمورة بأمره عز وجل مختصة به في طاعته وقربه .

وما قيل : إن الماء قسم بينها وبينهم لها شرب يوم ولهم شرب يوم إشارة إلى أن مشربهم من القوة العاقلة العملية ومشربه من القوة العاقلة النظرية .

وما روي أنها يوم شربها كانت تتفحج فيحلب منها اللبن حتى تملأ الأواني إشارة إلى أن نفسه تستخرج بالفكر من علومه الكلية الفطرية العلوم النافعة للناقصين من علوم الأخلاق والشرائع .

وخروجها من الجبل خروجها من بدن صالح عليه السلام .

وقال آخرون : إن الناقة كانت معجزة صالح عليه السلام وذلك أنهم سألوه أن يخرج لهم من حجارة القلب ناقة السر فخرجت فسقيت سر السر فأعطت بلد القالب من القوى والحواس لبن الواردات الإلهية ثم قال لهم : ذروها ترتع في رياض القدس وحياض الأنس ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ من مخالفات الشريعة ومعارضات الطريقة ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 73] وهو عذاب الانقطاع عن الوصول إلى الحقيقة ﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ أي مستعدين للخلافة ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض ﴾ أي أرض القلب ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا ﴾ وهي المعاملات بالصدق ﴿ قُصُوراً ﴾ تسكنون فيها ﴿ وَتَنْحِتُونَ الجبال ﴾ وهي جبال أطوار القلب

﴿ بُيُوتًا ﴾ [الأعراف : 74] هي مقامات السائرين إلى الله تعالى .

(95/277)

﴿ قَالَ الملا الذين استكبروا ﴾ وهي الأوصاف البشرية والأخلاف الذميمة ﴿ لِلَّذِينَ استضعفوا ﴾ من أوصاق القلب والروح ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الأعراف : 75] ليدعو إلى الأوصاف النورانية ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة ﴾ [الأعراف : 77] بسكاكين المخالفة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ لضعف قلوبهم وعدم قوة علمهم ﴿

فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين ﴾ [الأعراف : 78] موتى لا حراك بهم إلى حظيرة القدس .

وذكر البعض أن الناقة والسقب صورتا الإيمان بالله تعالى والإيمان برسوله عليه الصلاة والسلام وقد ظهرا بالذات وبالواسطة من الحجر الذي تشبهه قلوب القوم وعقرهم للناقة من قبيل ذبح يحيى عليه السلام للموت الظاهر في صورة الكبش يوم القيامة .

وفي ذلك دليل على أنهم من أسوأ الناس استعداداً وأتمهم حرماناً .

ويدل على سوء حالهم أن الشيخ الأكبر قدس سره لم ينظمهم في "فصوص الحكم" في سلك قوم نوح عليه السلام حيث حكم لهم بالنجاة على الوجه الذي ذكره .

وكذا لم ينظم في ذلك السلك قوم لوط عليه السلام وكأن ذلك لمزيد جهلهم وبعدهم عن الحكمة وإتيانهم البيوت من غير أبوابها وقذارتهم ودناءة نفوسهم .

والذي عليه المتشرعون أن أولئك الأقوام كلهم حصب جهنم لا ناجي فيهم والله تعالى أحكم الحاكمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(96/277)

وقال القاسمي :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً ﴾ أي : وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً غير متعارف ، وهو مبين بقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ ، أي : طين متحجر .

قال المهايمي : ولكفرهم بمطر الشرائع المحيي بإبقاء النسل وغيره ، انقلب عليهم في صورة العقاب .

وقرأت في التوراة المعربة ، أن الملكين اللذين جاءا لوطاً عليه السلام ، يخبرانه ويبشرانه بهلاك قومه ، قالا له : أخرج من هذا الموضع ، من لك ههنا من أصهارك وبنيك وبناتك وجميع من لك ، فإنا بعَثَنَا الرب لنهلك هذه المدينة .

ولما كان عند طلوع الفجر ألح الملكان على لوط بأخذ امرأته وابنتيه ، ثم أمسكا بأيديهم جميعاً وصيراهم خارج المدينة وقالا : لا يلتفت أحد منك إلى ورائه ، وتخلصا إلى الجبل .

ولما أشرقت أمطر الرب من السماء على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً ، وقلب تلك المدن ، وكل البقعة وجميع سكان المدن ونَبْتَ الأرض ، والتفتت امرأته إلى ورائها صارت نُصُبَ مِلْح ، وقدم إبراهيم غدوة من أرضه ، فتطلع إلى جهة سدوم وعمورة ، فإذا دخان الأرض صاعد كدخان الأُتُون . انتهى .

وقرأت في نبوة حَزْقيال عليه السلام ، في الفصل السادس عشر : في بيان إثم سدوم ما نصه : إن الإستكبار والشبع من الخبز ، وطمأنينه الفراغ ، كانت في سدوم وتوابعها ، ولم تعضد يد

البائس والمسكين ، وتشامخن وصنعن الرجس أمامي ، فنزعتهن كما رأيت . انتهى .

وقد صار موضع تلك المدن بحر ماء أجاج ، لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بالبحر الميت ، أو بحيرة لوط ، والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً .

(97/277)

قال في " مرشد الطالبين " : بحر لوط ، هو بحر سدوم ، ويدعى أيضاً البحر الميت ، وهو بركة مالحة في فلسطين ، طولها خمسون ميلاً ، وعرضها عشرة أميال ، وهي أوطأ من بحر الروم بنحو 1250 قدماً ، وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم . انتهى .

وقوله : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : هؤلاء أجرموا بالكفر وعمل الفواحش ، كيف أهلكناهم .

والنظر تعجيباً من حالهم ، وتحذيراً من أعمالهم ، فإن من تستولي عليه رذيلة الدعارة ، تكبحه عن التوفيق نفساً وجسداً ، وتورده موارد الهلكة والبوار ، جزاء ما جنى لهم اتباع الأهواء .

تنبيه في حد اللوطي :

اعلم أنه وردت السنة بقتل من لاط بذكر ، ولو كان بكراً ، كذلك المفعول به إذا كان مختاراً ، لحديث ابن عباس ، عند أحمد وأبي داود وابن ماجة والترمذي والحاكم والبيهقي ، قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : < من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به > .

قال ابن حجر : رجاله موثقون ، إلا أن فيه اختلافاً .

وأخرج ابن ماجة والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً : < اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أو لم يحصنا > - وإسناده ضعيف - .

قال ابن الطلاع في " أحكامه " : لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم في اللواط ، ولا أنه حكم فيه . وثبت عنه أنه قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به - رواه عنه ابن عباس وأبو هريرة - انتهى .

وأخرج البيهقي عن علي أنه رجم لوطياً .

وأخرج البيهقي أيضاً عن أبي بكر ، أنه جمع الناس في

حق رجل ينكح كما تنكح النساء ، فسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فكان من أشدهم يومئذ قولاً ، علي بن أبي طالب قال : هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة ، صنع الله بها ما قد علمتم ، نرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يحرقه بالنار ، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار .

وأخرج أبو داود عن سعيد بن جبير ومجاهد ، عن ابن عباس : في البكر يؤخذ على اللوطية ، يرجم .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس أيضاً ، أنه سئل عن حد اللوطي فقال : ينظر أعلى بناء في القرية فيرمى به منكساً ، ثم يتبع بالحجارة .

وقال المنذري : حرق اللوطية بالنار أبو بكر وعلي ، وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك .

وبالجملة : فلما ثبت أن حده القتل بقي الإجتهاد في هيئته حرقاً أو تردية أو غيرهما .

وقال بعض المحققين : إن كان اللواط مما يصح اندراجه تحت عموم أدلة الزنى فهو مخصص بما ورد فيه من القتل لكل فاعل ، محصناً أو غيره ، وإن كان غير داخل تحت أدلة الزنى ، ففي أدلته الخاصة له ما يشفي ويكفي . انتهى .

وقال الإمام الجشمي اليمني : لو كان في اللواط حد معلوم لما خفي على الصحابة ، حتى

شاورهم في ذلك أبو بكر رضي الله عنه ، لما كتب إليه خالد بن الوليد .

وقال الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " : لم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قضى في اللواط بشيء ، لأن هذا لم تكن تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه صلى الله عليه وسلم ، ولكن ثبت عنه أنه قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به – رواه أهل السنن الأربعة وإسناده صحيح – وقال الترمذي : حديث حسن ، وحكم به أبو بكر الصديق ، وكتب به إلى خالد ، بعد مشاورة الصحابة ، وكان علي كرم الله وجهه أشدهم في ذلك .

(99/277)

وقال ابن القصار وشيخنا : أجمعت الصحابة على قتله ، وإنما اختلفوا في كيفية قتله ، فقال أبو بكر الصديق : يرمى من شاهق ، وقال علي كرم الله وجه : يهدم عليه حائط ، وقال ابن عباس : يقتلان بالحجارة . فهذا اتفاق منهم على قتله ، وإن اختلفوا في كيفيته . وهذا موافق لحكمه صلى الله عليه وسلم فيمن وطئ ذات محرم ، لأن الوطء في الموضعين لا يباح للواطئ بحال . ولهذا جمع بينهما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، فإنه روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : < من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه > .

وروي أيضاً عنه : من وقع على ذات رحم فاقتلوه . وفي حديثه أيضاً بالإسناد : < من أتى

بهيمة فاقتلوه معه > .

وهذا الحكم على وفق حكم الشارع ، فإن المحرمات كلما تغلظت ، تغلظت عقوبتها ، ووطء من لا يباح بحال أعظم جرماً من وطء من يباح في بعض الأحوال ، فكون حده أغلظ .

وقد نص أحمد في إحدى الروايتين عنه ، أن حكم من أتى بهيمة حكم اللواط سواء ، فيقتل بكل حال ، أو يكون حده حد الزاني .

واختلف السلف في ذلك ، فقال الحسن : حده حد الزاني .

وقال أبو سلمة : يقتل بكل حال . وقال الشعبي والنخعي : يعزّر ، وبه أخذ الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية ، فإن ابن عباس أفتى بذلك ، وهو راوي الحديث . انتهى .

وقد طعن الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث " الهداية " في دعوى إجماع الصحابة على قتل اللوطي في رواية البيهقي : أن أبا بكر جمع الصحابة فسألهم ، فكان أشدهم في ذلك قولاً علي ، فقال : نرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع رأيهم على ذلك . قال ابن حجر : قلت : وهو ضعيف جداً ، ولو صح لكان قاطعاً للحجة . انتهى .

وجليٌّ أن عقوبات القتل أعظم الحدود ، فلا يؤخذ فيها إلا بالقواطع من كتاب أو سنة متواترة ، أو إجماع أو حديث صحيح السند والمتن ، قطعي الدلالة .

ولذا كان على الحاكم بذل جهده في ذلك استبراءاً لدينه – والله أعلم – . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 143.146 ﴾

(100/277)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) .

قِصَّةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

خَيْرُ مَا يُعْرَفُ بِهِ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ (صَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ) كَمَا فِي كُتُبِ الْأَنْسَابِ وَسِفْرِ التَّكْوِينِ ، وَفِيهِ أَنَّ اسْمَ وَالِدِهِ (حَارَانُ) وَأَنَّهُ وُلِدَ فِي (أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ) وَهِيَ فِي طَرْفِ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ جَنُوبِ الْعِرَاقِ الْغَرْبِيِّ مِنْ وِلَايَةِ الْبَصْرَةِ – وَكَانَتْ تِلْكَ

(101/277)

الْبُقْعَةُ تُسَمَّى أَرْضَ بَابِلَ . وَأَنَّهُ بَعْدَ مَوْتِ وَالِدِهِ سَافَرَ مَعَ عَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ إِلَى مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ الَّذِي كَانَ يُسَمَّى جَزِيرَةَ قُورَا ، وَمِنْهُ مَا يُسَمَّى الْآنَ بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ وَهُوَ مَكَانٌ تُحِيطُ بِهِ دِجْلَةُ فَقَطْ (وَهُنَالِكَ كَانَتْ مَمْلَكَةُ أَشُورَ) فَإِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ مِنْ سُورِيَّةَ . ثُمَّ أَسْكَنَهُ إِبْرَاهِيمُ فِي شَرْقِ الْأُرْدُنِ بِاخْتِيَارِهِ لَهَا لِجَوْدَةِ مَرَاعِيهَا ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ – الْمُسَمَّى بِعُمْقِ السَّدِيمِ بِقُرْبِ الْبَحْرِ الْمَيِّتِ الَّذِي سُمِّيَ بِبَحْرِ لُوطٍ أَيْضًا – الْقُرَى أَوِ الْمُدُنُ الْخَمْسُ : سَدُومُ وَعَمُورَةُ وَأَدْمَةُ وَصَبُوبِيمُ وَبَالِعُ الَّتِي سُمِّيَتْ بَعْدَ ذَلِكَ صُوغَرَ لِصِغَرِهَا ، فَسَكَنَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عَاصِمَتِهَا سَدُومَ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ الْآنَ أَيْنَ كَانَتْ تِلْكَ الْقُرَى مِنْ جِوَارِ بَحْرِ لُوطٍ إِذْ لَوْ لَمْ يُوجَدْ مِنَ الْآثَارِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا ، فَمِنَ الْمُؤَرِّخِينَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الْبَحْرَ غَمَرَ مَوْضِعَهَا وَلَا دَلِيلَ عَلَى ذَلِكَ . وَكَانَتْ عَمُورَةُ تَلِي سَدُومَ فِي الْكِبَرِ وَفِي الْفَسَادِ ، وَهُمَا اللَّتَانِ يَحْفَظُ اسْمَهُمَا النَّاسُ إِلَى الْآنِ .

(102/277)

وَاسْمُ لُوطٍ مَصْرُوفٌ وَإِنْ كَانَ أَعْجَمِيًّا لِكَوْنِهِ ثُلَاثِيًّا سَاكِنَ الْوَسَطِ كَنُوحٍ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّهُ عَرَبِيٌّ مِنْ مَادَّةِ لَاطَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ لَوْطًا أَيْ لَصَقَ بِهِ ، وَلَكِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَقُولُ : إِنَّ مَعْنَى كَلِمَةِ لُوطٍ بِالْعِبْرَانِيَّةِ " سَتْرٌ " فَهِيَ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَخْتَلِفُ مَعْنَى

مَادَّتِهَا الْعَرَبِيَّةِ عَنْ مَادَّتِهَا الْعِبْرِيَّةِ وَالسِّرْيَانِيَّةِ أُخْتَيِ الْعَرَبِيَّةِ الصُّغْرَيَيْنِ ، عَلَى أَنَّهُ يَقْرُبُ مِنْهُ فَإِنَّ اللُّصُوقَ ضَرْبٌ مِنَ السَّتْرِ . وَيُرَاجَعُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي لُغَةِ إِبْرَاهِيمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (74 س 6) [ص 445 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ] قَالَ تَعَالَى :

(103/277)

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ) النَّسَقُ الَّذِي قَبْلَ هَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : وَأَرْسَلْنَا لُوطًا - وَلَكِنْ حُذِفَ هُنَا مُتَعَلِّقُ الْإِرْسَالِ وَرُكْنُهُ الْأَوَّلُ وَهُوَ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ لِلْعِلْمِ بِهِ مِمَّا قَبْلَهُ وَمِمَّا ذُكِرَ فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، أَيْ أَرْسَلْنَاهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ فِعْلَ الْفَاحِشَةِ فِيمَا بَلَغَهُمْ مِنْ دَعْوَى الرِّسَالَةِ ، وَقِيلَ : إِنَّ لُوطًا مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ ، أَيْ وَاذْكُرْ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ مُوَبِّخًا لَهُمْ : أَتَفْعَلُونَ الْفِعْلَةَ الْبَالِغَةَ مُنْتَهَى الْقُبْحِ وَالْفُحْشِ ؟ (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) بَلْ هِيَ مِنْ مُبْتَدَعَاتِكُمْ فِي الْفَسَادِ ، فَأَنْتُمْ فِيهَا قُدْوَةُ سُوءٍ ، فَعَلَيْكُمْ وِزْرُهَا وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ يَتْبَعُكُمْ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . فَالْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافٌ نَحْوِيٌّ أَوْ بَيَانِيٌّ يُؤَكِّدُ التَّوْبِيخَ بِبَيَانِ أَنَّهُ فَسَادٌ مُخَالِفٌ لِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَلِهِدَايَةِ الدِّينِ مَعًا ، وَ " الْبَاءُ " فِي قَوْلِهِ : (بِهَا) لِلتَّعْدِيَةِ أَوِ الْمُلَابَسَةِ أَوِ الظَّرْفِيَّةِ - أَقْوَالٌ . وَقَوْلُهُ : (مِنْ أَحَدٍ) يُفِيدُ تَأْكِيدَ النَّفْيِ وَعُمُومَهُ الْمُسْتَغْرِقَ لِكُلِّ الْبَشَرِ عَلَى الظَّاهِرِ الْمُتَبَادَرِ وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ

يَصْدُقُ بِعَالِمِي زَمَانِهِمْ ، وَلِكَوْنِهِمْ هُمُ الْمُبْتَدِعِينَ لَهَا اشْتَقَّ الْعَرَبُ لَهَا اسْمًا مِنْ لُوطٍ فَقَالُوا لَاطَ بِهِ لِوَاطَةً .

(104/277)

(إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ) اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ مُفَسِّرٌ لِلْإِتْيَانِ الْمُجْمَلِ الَّذِي قَبْلَهُ . وَالْإِتْيَانُ كِنَايَةٌ عَنِ الِاسْتِمْتَاعِ الَّذِي عُهِدَ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ تَدْعُو إِلَيْهِ الشَّهْوَةُ وَيَقْصِدُ بِهِ النَّسْلَ ، وَتَعْلِيلُهُ هُنَا بِالشَّهْوَةِ وَتَجَنُّبِ النِّسَاءِ بَيَانٌ لِخُرُوجِهِمْ عَنْ مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ ، وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْغَرِيزَةُ مِنَ الْحِكْمَةِ الَّتِي يَقْصِدُهَا الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ وَالْحَيَوَانُ الْأَعْجَمُ . فَسَجَّلَ عَلَيْهِمْ بِابْتِغَاءِ الشَّهْوَةِ وَحْدَهَا أَنَّهُمْ أَخَسُّ مِنَ الْعَجْمَاوَاتِ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ، فَإِنَّ ذُكُورَهَا تَطْلُبُ إِنَاثَهَا بِسَائِقِ الشَّهْوَةِ لِأَجْلِ النَّسْلِ الَّذِي يُحْفَظُ بِهِ نَوْعُ كُلٍّ مِنْهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّيْرَ وَالْحَشَرَاتِ تَبْدَأُ حَيَاتَهَا الزَّوْجِيَّةَ بِبِنَاءِ الْمَسَاكِنِ الصَّالِحَةِ لِنَسْلِهَا فِي رَاحَتِهِ وَحِفْظِهِ مِمَّا يَعْدُو عَلَيْهِ - مِنْ عُشٍّ فِي أَعْلَى شَجَرَةٍ أَوْ وُكْنَةٍ فِي قُلَّةِ جَبَلٍ أَوْ جُحْرٍ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ أَوْ غِيلٍ فِي دَاخِلِ أَجَمَةٍ أَوْ حَرَجَةٍ ؟ - وَهَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ لَا غَرَضَ لَهُمْ إِلَّا إِرْضَاءُ حِسِّ الشَّهْوَةِ وَقَضَاءُ وَطَرِ اللَّذَّةِ . وَمَنْ قَصَدَ الشَّهَوَاتِ لِذَاتِهَا ، تَمَتُّعًا بِلَذَّاتِهَا ، دُونَ الْفَائِدَةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَجْلِهَا ، جَنَى عَلَى نَفْسِهِ غَائِلَةَ الْإِسْرَافِ فِيهَا ،

فَانْقَلَبَ نَفْعُهَا ضُرًّا ، وَصَارَ خَيْرُهَا شَرًّا ، يَجْعَلُ الْوَسِيلَةَ مَقْصِدًا ، وَصَيْرُورَةَ الْإِسْرَافِ فِيهِ خُلُقًا ؛ إذِ الْفِعْلُ يَكُونُ حِينَئِذٍ عَنْ دَاعِيَةٍ

(105/277)

ثَابِتَةٍ لَا عَنْ عِلَّةٍ عَارِضَةٍ ، فَلَا يَزَالُ صَاحِبُهُ يُعَاوِدُهُ حَتَّى يَكُونَ مَلَكَةً رَاسِخَةً لَهُ ، فَتَكْرَارُ الْعَمَلِ يُكَوِّنُ الْمَلَكَةَ ، وَالْمَلَكَةُ تَدْعُو إلَى تَكْرَارِ الْعَمَلِ وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهِ ، وَهَذَا وَجْهُ إضْرَابِ الِانْتِقَالِ مِنْ إسْنَادِ إتْيَانِ الْفَاحِشَةِ إلَيْهِمْ بِفِعْلِ الْمُضَارِعِ الْمُفِيدِ لِلتَّكْرَارِ وَالِاسْتِمْرَارِ إلَى إسْنَادِ صِفَةِ الْإِسْرَافِ إلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ :

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) أَيْ لَسْتُمْ تَأْتُونَ هَذِهِ الْفَاحِشَةَ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ بَعْدَ نَدَمٍ وَتَوْبَةٍ عَقِبَ كُلِّ مَرَّةٍ ، بَلْ أَنْتُمْ مُسْرِفُونَ فِيهَا وَفِي سَائِرِ أَعْمَالِكُمْ

لَا تَقِفُونَ عِنْدَ حَدِّ الِاعْتِدَالِ فِي عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ ، فَفِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ مَكَانُ هَذِهِ الْآيَةِ – وَمَا قَبْلَهَا عَيْنُ مَا قَبْلَهَا – (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ) (29 : 29) وَفِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ مَكَانُ هَذَا الْإِضْرَابِ هُنَا : (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) (26 : 166) أَيْ مُتَجَاوِزُونَ لِحُدُودِ الْفِطْرَةِ وَحُدُودِ الشَّرِيعَةِ ، فَهُوَ بِمَعْنَى الْإِسْرَافِ ، وَفِي سُورَةِ النَّمْلِ : (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (27 : 55) وَهُوَ يَشْمَلُ الْجَهْلَ الَّذِي

هُوَ ضِدُّ الْعِلْمِ ، وَالْجَهْلَ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى السَّفَهِ وَالطَّيْشِ . وَمَجْمُوعُ الْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُرْزَئِينَ بِفَسَادِ الْعَقْلِ وَالنَّفْسِ ، بِجَمْعِهِمْ بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالْعُدْوَانِ

(106/277)

وَالْجَهْلِ ، فَلَا هُمْ يَعْقِلُونَ ضَرَرَ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ فِي الْجِنَايَةِ عَلَى النَّسْلِ وَعَلَى الصِّحَّةِ وَعَلَى الْفَضِيلَةِ وَالْآدَابِ الْعَامَّةِ وَلَا غَيْرِهَا مِنْ مُنْكَرَاتِهِمْ - فَيَجْتَنِبُوهَا أَوْ يَجْتَنِبُوا الْإِسْرَافَ فِيهَا - وَلَا هُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَيَاءِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ يَصْرِفُهُمْ عَنْ ذَلِكَ .

(107/277)

وَمَا كَانَ الْعِلْمُ بِالضَّرَرِ وَحْدَهُ لِيَصْرِفَ عَنِ السُّوءِ وَالْفَسَادِ ، إِذَا حُرِمَ صَاحِبُهُ الْفَضَائِلَ وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ، بَلِ الْفَضَائِلُ الْمَوْهُوبَةُ بِسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ ، عُرْضَةٌ لِلْفَسَادِ بِسُوءِ الْقُدْوَةِ ، إِلَّا إِذَا رَسَخَتْ بِالْفَضَائِلِ الْمَكْسُوبَةِ بِتَرْبِيَةِ الدِّينِ ، فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْفَاحِشَةَ فَاشِيَةٌ بَيْنَ أَعْرَفِ النَّاسِ بِمَفَاسِدِهَا وَمَضَارِّهَا فِي الْأَبْدَانِ وَالْأَنْفُسِ وَنِظَامِ الِاجْتِمَاعِ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَدَنِيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ ، حَتَّى الْبَاحِثِينَ فِي الْفَلْسَفَةِ مِنْهُمْ ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ

لِأَخْدَانِهِ : إِنَّ هَذِهِ الْفِعْلَةَ لَا تُحْدِثُ نَقْصًا فِي النَّفْسِ النَّاطِقَةِ ! ! وَنَقُولُ : يَا لَهَا مِنْ فَلْسَفَةٍ فَاسِقَةٍ أَلَيْسُوا يَسْتَخِفُّونَ بِهَا مِنَ النَّاسِ حَتَّى أَشَدِّهِمُ اسْتِبَاحَةً لِلشَّهَوَاتِ كَالْإِفْرِنْجِ لِكَيْ لَا يَنْتَقِصُوهُمْ وَيَمْتَهِنُوهُمْ ؟ أَوَلَيْسُوا بِذَلِكَ يَشْعُرُونَ بِنَقْصِ أَنْفُسِهِمُ النَّاطِقَةِ وَدَنَسِهَا ، فَإِنْ لَمْ يَشْعُرِ الْفَاعِلُ ، أَفَلَا يَشْعُرُ الْقَابِلُ ؟ بَلَى وَلَكِنْ قَدْ يَجْهَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ الَّذِينَ يَخْدَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِهَذِهِ الْفَاحِشَةِ أَنَّهُمْ يُصَابُونَ بِدَاءِ الْأُبْنَةِ ، حَتَّى إِذَا كَبُرَ أَحَدُهُمْ وَصَارَ لَا يَجِدُ مِنَ الْفُسَّاقِ مَنْ يَرْغَبُ فِي إِتْيَانِهِ لِلِاسْتِمْتَاعِ بِهِ يَبْحَثُ هُوَ فِي الْخَفَاءِ عَمَّنْ يُؤَجِّرُ نَفْسَهُ لِهَذَا الْعَمَلِ مِنْ تُحُوتِ الْفُقَرَاءِ وَأَرَاذِلِ الْخَدَمِ ، فَيَجْعَلُ لَهُ جَعْلًا أَوْ رَاتِبًا عَلَى إِتْيَانِهِ ، وَهُوَ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَعَافَ

(108/277)

هَذَا الْمُنْكَرَ أَوْ يَعْجِزُ عَنْ إِرْضَاءِ صَاحِبِهِ (الْمَهِينِ عِنْدَهُ الْمُحْتَرَمِ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُ حَالَهُ) فَيَنْشُدُ الْمَأْبُونَ غَيْرَهُ ، وَلَا يَزَالُ يُذَلُّ وَيُخْزَى فِي مُسَاوَمَةِ أَفْرَادِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَفْتَضِحَ أَمْرُهُ فِي الْبَلَدِ ، وَيَشْتَهِرَ بَلْ يُشْهَرُ بَيْنَ سَائِرِ طَبَقَاتِ النَّاسِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ التُّحُوتِ الَّذِينَ يَعْلُونَهُ

لَا يَخْجَلُونَ مِنْ إِفْشَاءِ سِرِّهِمْ مَعَهُ ؛ وَلِأَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ وَيُرَاوِدُهُمْ

بِالتَّصْرِيحِ ، إذَا لَمْ يُعْرِضُوا عَنْهُ عِنْدَمَا يَبْدَأُ بِهِ مِنَ التَّعْرِيضِ وَالتَّلْوِيحِ ، أَفَنَسِيَ مَنْ ذَكَرْنَا مِنْ فَلَاسِفَةِ الْفِسْقِ هَذَا الْخِزْيَ ؟ أَمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُدَنِّسُ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ بِنَقْصٍ ؟ فَقُبْحُ اللُّوَاطَةِ وَفُحْشُهَا لَيْسَ بِكَوْنِهَا لَذَّةً بَهِيمِيَّةً كَمَا قِيلَ ، إذِ اللَّذَّةُ الْبَهِيمِيَّةُ لَا قُبْحَ فِيهَا لِذَاتِهَا لِأَنَّهَا مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَمَبْدَأُ حِكْمَةِ بَقَاءِ النَّسْلِ ، بَلْ فُحْشُهَا بِاسْتِعْمَالِهَا بِمَا يُخَالِفُ مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَحِكْمَتَهَا ، وَبِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَضَارِّ الْبَدَنِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ الْكَثِيرَةِ .

(109/277)

(وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) أَيْ وَمَا كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ عَنْ هَذَا الْإِنْكَارِ وَالنَّصِيحَةِ شَيْئًا مِمَّا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْحُجَّةِ وَلَا الِاعْتِذَارِ ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اعْتِيدَ فِي الْجِدَالِ ، مَا كَانَ إلَّا الْأَمْرَ بِإِخْرَاجِهِ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْ قَرْيَتِهِمْ ، وَتَعْلِيلُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ وَيَتَنَزَّهُونَ عَنْ مُشَارَكَتِهِمْ فِي رِجْسِهِمْ ، فَلَا سَبِيلَ إلَى مُعَاشَرَتِهِمْ وَلَا مَسَاكِنِهِمْ مَعَ هَذِهِ الْمُبَايَنَةِ ، فَإِنَّ النَّاقِصَ يَسْتَثْقِلُ مُعَاشَرَةَ الْكَامِلِ الَّذِي يَحْتَقِرُهُ وَفِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ أَنَّهُمْ أَنْذَرُوهُ هَذَا الْإِخْرَاجَ ، إذَا هُوَ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْإِنْكَارِ .

(فَإِنْ قِيلَ) : إنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ ذِكْرٌ لِمَنْ آمَنَ مَعَهُ فَيَعُودُ إلَيْهِمْ ضَمِيرُ (أَخْرِجُوهُمْ) .

(قُلْنَا) : إنَّ هَذَا مِمَّا يُعْرَفُ بِالْقَرِينَةِ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِهِ فِي آيَةِ النَّمْلِ فَفِيهَا : (أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ)

(27 : 56) بَدَلُ أُخْرِجُوهُمْ وَالْبَاقِي سَوَاءٌ ، إلَّا الْعَطْفَ فِي أَوَّلِهَا بِالْفَاءِ ، كَآيَةِ الْعَنْكَبُوتِ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا الْجَوَابُ ، وَهِيَ : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (29 : 29) وَالْقُرْآنُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَمَتَى كَانَ الْكَلَامُ مَفْهُومًا كَانَ صَحِيحًا فَصِيحًا وَإِنْ أَشْكَلَ عَلَى جَامِدِي النُّحَاةِ وَإِعْرَابُهُ كَمَا سَبَقَ نَظِيرُهُ .

(110/277)

(فَإِنْ قِيلَ) : إنَّ فِي حِكَايَةِ الْجَوَابَيْنِ تَعَارُضًا فِي الْمَعْنَى مَحْكِيًّا بِصِيغَةِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ فِيهِمَا ، فَكَيْفَ وَقَعَ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا الَّذِي يَدْفَعُ هَذَا التَّعَارُضَ ؟ (قُلْنَا) : إنَّهُ لَا تَعَارُضَ وَلَا تَنَافِيَ بَيْنَ الْجَوَابَيْنِ ؛ لِحَمْلِهِمَا عَلَى الْوُقُوعِ فِي وَقْتَيْنِ . وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ يَنْهَاهُمْ كَثِيرًا ، فَكَانَ يَسْمَعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ كَلَامًا مِمَّنْ حَضَرَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ قُلْنَا : إنَّ قِصَصَ الْقُرْآنِ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا سَرْدُ حَوَادِثِ التَّارِيخِ بَلِ الْعِبْرَةُ وَالْمَوْعِظَةُ ، فَيُذْكَرُ فِي كُلِّ سُورَةٍ مِنَ الْقِصَّةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْمَعَانِي وَالْمَوَاعِظِ مَا لَا يُذْكَرُ فِي الْأُخْرَى ، وَمَجْمُوعُهَا هُوَ كُلُّ مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَعِظَ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ . فَمِنَ الْمَعْهُودِ أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَكَذَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْوُعَّاظِ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ الضَّالِّينَ وَالْمُجْرِمِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ - يُكَرِّرُونَ لَهُمُ الْوَعْظَ بِمَعَانٍ مُتَقَارِبَةٍ ،

(111/277)

وَيَسْمَعُونَ مِنْهُمْ أَجْوِبَةً مُتَشَابِهَةً ، وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ مَا لَا يَقُولُ غَيْرُهُ فَيُعْجِبُهُمْ وَيُقِرُّونَهُ عَلَيْهِ فَيُسْنَدُ إِلَيْهِمْ كُلِّهِمْ . كَمَا يُسْنَدُ إِلَيْهِمْ فِعْلُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ إِذَا رَضُوهُ وَأَقَرُّوهُ عَلَيْهِ وَلَوْ بَعْدَ فِعْلِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا فِي إِسْنَادِ عَقْرِ النَّاقَةِ إِلَى قَوْمِ صَالِحٍ وَإِنَّمَا عَقَرَهَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، وَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَوْلِ رَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ مَا لَمْ يَحْكِهُ فِي سُورَتَيِ الْأَعْرَافِ وَالنَّمْلِ ، فَزَادَ عَلَى إِتْيَانِهِمُ الرِّجَالَ قَطْعَ السَّبِيلِ ، وَإِتْيَانَهُمُ الْمُنْكَرَ فِي النَّادِي الْحَافِلِ ، وَالْمَجْلِسِ الْحَاشِدِ . فَكَأَنَّهُمْ ضَاقُوا بِهِ حِينَئِذٍ ذَرْعًا وَاسْتَعْجَلُوهُ الْعَذَابَ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ إِذَا أَصَرُّوا عَلَى عِصْيَانِهِ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ أَمْرِهِمْ بِإِخْرَاجِهِ . وَأَنَّ التَّوَعُّدَ بِالْإِخْرَاجِ كَانَ قَبْلَ الْأَمْرِ بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(فَإِنْ قِيلَ) : هَذَا مَقْبُولٌ لِأَنَّ مِثْلَهُ مَعْهُودٌ مَعْرُوفٌ ، وَلَكِنْ مَا وَجْهُ بَدْءِ جُمْلَةِ الْجَوَابِ بِالْوَاوِ تَارَةً وَبِالْفَاءِ أُخْرَى ، وَمَا وَجْهُ اخْتِصَاصِ كُلٍّ مِنْهُمَا بِمَوْضِعِهِ ؟

(112/277)

(قُلْنَا) : إِنَّ عَطْفَ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا قَبْلَهَا بِكُلٍّ مِنَ " الْوَاوِ " وَ " الْفَاءِ " جَائِزٌ ، إِلَّا أَنَّ فِي " الْفَاءِ " زِيَادَةَ مَعْنًى ؛ لِأَنَّهَا تُفِيدُ رَبْطَ مَا بَعْدَهَا بِمَا قَبْلَهَا بِمَا يَقْتَضِي وُجُوبَ تَلُوِّهِ لَهُ ، فَهُوَ

جِمَاعُ مَعَانِيهَا الْعَامَّةِ مِنَ التَّعْقِيبِ وَالسَّبَبِيَّةِ وَجَزَاءِ الشَّرْطِ ، وَالْأَصْلُ الْعَامُّ فِي هَذَا الِارْتِبَاطِ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَ الْفَاءِ أَثَرًا لِفِعْلٍ وَقَعَ قَبْلَهُ ، وَكُلٌّ مِنْ آيَتَيِ النَّمْلِ وَالْعَنْكَبُوتِ جَاءَ بَعْدَ إِسْنَادِ فِعْلٍ إِلَى الْقَوْمِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ فِي الْأُولَى : (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (27 : 55) وَفِي الثَّانِيَةِ : (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ) (29 : 29) فَلِذَلِكَ عُطِفَ الْجَوَابُ عَلَى مَا بَعْدَهُمَا بِالْفَاءِ . وَأَمَّا آيَةُ الْأَعْرَافِ فَقَدْ جَاءَتْ بَعْدَ جُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ وَهِيَ قَوْلُهُ : (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) وَإِسْنَادُ صِفَةِ الْإِسْرَافِ إِلَيْهِمْ فِيهَا مَقْصُودٌ بِالذَّاتِ دُونَ مَا قَبْلَهُ مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ الَّذِي كَانَ بِتَكْرَارِهِ عِلَّةً لِهَذِهِ الصِّفَةِ ، وَكَانَ الْإِصْرَارُ عَلَيْهِ مَعْلُولًا لَهَا . وَثَمَّ وَجْهٌ آخَرُ لِعَطْفِ هَذِهِ بِالْوَاوِ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا اسْتَظْهَرْنَاهُ مِنْ كَوْنِ الْأَمْرِ بِإِخْرَاجِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(113/277)

مِنْ بَعْضِهِمْ قَدْ كَانَ بَعْدَ الْإِنْذَارِ وَالْوَعِيدِ بِهِ مِنْ آخَرِينَ مِنْهُمْ ، فَكَانَ بِهَذَا فِي مَعْنَى الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ – فَكَأَنَّهُ قَالَ : فَمَا كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالَ بَعْضُهُمْ : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ، وَأَنْ قَالَ بَعْضُهُمْ : أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ . وَرَدَّدَهُ آخَرُونَ : أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ . وَهَذِهِ الدِّقَّةُ فِي اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِي الْمَوَاقِعِ الْمُتَّحِدَةِ أَوِ الْمُتَشَابِهَةِ لِأَمْثَالِ هَذِهِ

النُّكَتِ لَا تَجِدُهَا مُطَّرِدَةً إلَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهِيَ مِنْ إعْجَازِهِ اللَّفْظِيِّ وَلِذَلِكَ يَغْفُلُ عَنْهَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ . لَا تَجِدُهَا مُطَّرِدَةً إلَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهِيَ مِنْ إعْجَازِهِ اللَّفْظِيِّ وَلِذَلِكَ يَغْفُلُ عَنْهَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ .

(114/277)

بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ رَاجَعْتُ (رُوحَ الْمَعَانِي) فَإِذَا هُوَ يَقُولُ : وَإِنَّمَا جِيءَ بِالْوَاوِ فِي (وَمَا كَانَ) إلَخْ . دُونَ الْفَاءِ كَمَا فِي النَّمْلِ وَالْعَنْكَبُوتِ لِوُقُوعِ الِاسْمِ قَبْلَ الْفِعْلِ هُنَا وَالْفِعْلِ هُنَاكَ ، وَالتَّعْقِيبُ بِالْفِعْلِ بَعْدَ الْفِعْلِ حَسَنٌ دُونَ التَّعْقِيبِ بِهِ بَعْدَ الِاسْمِ ، وَفِيهِ تَأَمُّلٌ اهـ وَلَعَمْرِي إنَّهُ جَدِيرٌ بِالتَّأَمُّلِ لِلَفْظِهِ الَّذِي أَوْرَدَهُ بِهِ أَوَّلًا وَلِمَعْنَاهُ بَعْدَ فَهْمِهِ ثَانِيًا ، فَإِنْ ظَهَرَ لِلْمُتَأَمِّلِ أَنَّ وَجْهَ الْحُسْنِ فِي التَّعْقِيبِ مَا بَسَطْنَاهُ انْتَهَى تَعَبُ التَّأَمُّلِ بِالْقَبُولِ إنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ عَبَثًا ، وَإِلَّا كَانَ حَظُّهُ مِنْهُ كَدَّ الذِّهْنِ وَإِضَاعَةَ الْوَقْتِ مَعًا ، وَمَا كَتَبْتُ هَذِهِ النُّكْتَةَ ، إلَّا لِأَقُولَ فِيهَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ ، وَأَنَّى بِذَكَاءِ أَصْحَابِ الْإِيجَازِ الْمُخِلِّ مِنَ الْمُتَعَجِّبِينَ ، وَإِنْ قَلَّ مَنْ يَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِمْ مِنَ الصَّابِرِينَ ، وَسَيَقِلُّ عَدَدُهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا قَلَّ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي عَرِفَتْ قِيمَةَ الْعُمْرِ ، فَضَنَّتْ بِهِ أَنْ يَضِيعَ جُلُّهُ فِي حَلِّ رُمُوزِ زَيْدٍ وَعَمْرٍو .

(115/277)

(فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ الْمَعْهُودَ مِنْ أَهْلِ الرَّذَائِلِ أَنْ يُنْكِرُوهَا أَوْ يُسَمُّوهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا وَيَأْلَمُونَ مِمَّنْ يُعَيِّرُهُمْ بِهَا لِمَا جَبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْبَشَرَ مِنْ حُبِّ الْكَمَالِ وَكُرْهِ النَّقْصِ ، فَكَيْفَ عَلَّلَ قَوْمُ لُوطٍ إِخْرَاجَهُ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ بِأَنَّهُمْ يَتَطَهَّرُونَ وَيَتَنَزَّهُونَ مِنْ أَدْرَانِ الْفَوَاحِشِ ، وَهُوَ شَهَادَةٌ لَهُمْ بِالْكَمَالِ وَشَهَادَةٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالنَّقْصِ ؟ .

(فَالْجَوَابُ) : مَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِيهِ وَهُوَ أَنَّهُ : سُخْرِيَةٌ بِهِمْ وَبِتَطَهُّرِهِمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ ، وَافْتِخَارِهِمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْقَذَارَةِ ، كَمَا يَقُولُ الشُّطَّارُ مِنَ الْفَسَقَةِ لِبَعْضِ الصُّلَحَاءِ إِذَا وَعَظَهُمْ : ابْعِدُوا عَنَّا هَذَا الْمُتَقَشِّفَ ، وَأَرِيحُونَا مِنْ هَذَا الْمُتَزَهِّدِ اهـ . وَمِثْلُهُ مَعْهُودٌ مِنَ الْمُجَاهِرِينَ بِالْفِسْقِ ، وَلِلنَّقْصِ وَالرَّذَائِلِ دَرَكَاتٌ ، كَمَا أَنَّ لِلْكَمَالِ وَالْفَضَائِلِ دَرَجَاتٌ ، فَأُولَاهَا أَنْ يُلِمَّ بِالرَّذِيلَةِ وَهُوَ يَشْعُرُ بِقُبْحِهَا ، وَيَلُومُ نَفْسَهُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ يَتُوبُ إِلَى رَبِّهِ مِنْهَا ، وَيَلِيهَا أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ مُسْتَتِرًا مُسْتَخْفِيًا ، وَيَلِيهَا أَنْ يُصِرَّ عَلَيْهَا ، حَتَّى يَزُولَ شُعُورُهُ بِقُبْحِهَا ، وَيَلِيهَا

أَنْ يَجْهَرَ بِهَا ، وَيَكُونُ قُدْوَةً سَيِّئَةً لِلْمُسْتَعِدِّينَ لَهَا ، وَيَلِيهَا أَنْ يُفَاخِرَ بِهَا أَهْلَهَا ، وَيَحْتَقِرَ مَنْ يَتَنَزَّهُونَ عَنْهَا ، وَهَذِهِ أَسْفَلُ الدَّرَكَاتِ ، وَهِيَ دَرَجَةُ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَا يَهْبِطُ إِلَيْهَا وَلَا يَسِفُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، بَلْ وَصَفَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ إِذَا عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ يَعْمَلُونَهَا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(117/277)

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) أَيْ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، وَلِذَلِكَ اسْتَثْنَى مِنْهُمُ امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا لَمْ تُؤْمِنْ بِهِ ، بَلْ خَانَتْهُ بِوِلَايَةِ قَوْمِهِ الْكَافِرِينَ الْفَاسِقِينَ عَلَيْهِ ، فَكَانَتْ مِنْ جَمَاعَةِ الْغَابِرِينَ أَيِ الْهَالِكِينَ ، أَوِ الْبَاقِينَ الَّذِينَ نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا وَيَلِيهِ عَذَابُ الْآخِرَةِ . يُقَالُ : غَبَرَ بِمَعْنَى بَقِيَ وَبِمَعْنَى مَضَى وَذَهَبَ وَهَلَكَ . وَمَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِنْ أَهْلَهُ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ سَوَاءٌ كَانُوا مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ أَمْ لَا ، فَقَدْ غَفَلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ : (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (51 : 35 ، 36) . (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا) أَيْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا عَجِيبًا أَمْرُهُ ، وَهُوَ الْحِجَارَةُ الَّتِي رُجِمُوا بِهَا . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ : الْفَرْقُ بَيْنَ مَطَرَ وَأَمْطَرَ أَنَّ مَعْنَى مَطَرَتْهُمُ السَّمَاءُ أَصَابَتْهُمْ بِالْمَطَرِ ، كَقَوْلِهِمْ غَاثَتْهُمْ وَوَبَلَتْهُمْ وَجَادَتْهُمْ

وَرَهِمَتْهُمْ . وَيُقَالُ : أَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ كَذَا - بِمَعْنَى أَرْسَلَتْهُ عَلَيْهِمْ إرْسَالَ الْمَطَرِ اهـ . وَعَنْ بَعْضِ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ أَنَّ مَطَرَ وَأَمْطَرَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ كَمَا فِي الصِّحَاحِ . وَقَالَ آخَرُونَ : إنَّ " مَطَرَ " لَا يُسْتَعْمَلُ إلَّا فِي الرَّحْمَةِ وَ " أَمْطَرَ " لَا يُسْتَعْمَلُ إلَّا فِي الْعَذَابِ . نُقِلَ هَذَا عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ وَتَبِعَهُ الرَّاغِبُ

(118/277)

وَالْفَيْرُوزَابَادِيُّ فِي الْقَامُوسِ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ يُقَالُ : مَطَرَتْهُمُ السَّمَاءُ وَأَمْطَرَتْهُمْ ، وَسَمَاءٌ مَاطِرَةٌ وَمُمْطِرَةٌ - قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي حَقِيقَةِ الْمَادَّةِ مِنْ أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ ، ثُمَّ قَالَ : وَمِنَ الْمَجَازِ أَمْطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحِجَارَةَ اهـ . فَالْأَمْطَارُ حَقِيقَةٌ فِي الْمَطَرِ مَجَازٌ فِيمَا يُشْبِهُهُ فِي الْكَثْرَةِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ حِسِّيَّيْنِ أَوْ مَعْنَوِيَّيْنِ مِمَّا يَجِيءُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنَ الْأَرْضِ . وَمَا قَالَ مَنْ قَالَ : إنَّهُ خَاصٌّ بِالشَّرِّ ، إلَّا مِنْ تَكَرُّرِ الْآيَاتِ فِي إرْسَالِ الْحِجَارَةِ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ بَعْضِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (8 : 32) وَغَفَلُوا عَنْ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ

الْأَحْقَافِ : (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا) (46 : 24)

.

(119/277)

نَحْنُ نُؤْمِنُ بِهَذِهِ الْآيَةِ كَمَا وَرَدَتْ فِي سُوَرِ الْقُرْآنِ وَلَا نَقُولُ فِي حَقِيقَتِهَا وَصِفَتِهَا قَوْلًا جَازِمًا ، وَلَكِنْ يَجُوزُ عَقْلًا أَنْ يَكُونَ سَبَبُ إمْطَارِ الْحِجَارَةِ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ إرْسَالَ إعْصَارٍ مِنَ الرِّيحِ حَمَلَتْهَا وَأَلْقَتْهَا عَلَيْهِمْ وَمِثْلُ هَذَا مَعْهُودٌ ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا بَعْضُ أَهْلِ سَاحِلِ الْبَحْرِ أَنَّ السَّمَاءَ أَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً طِينًا وَمَرَّةً سَمَكًا - أَيْ مَعَ الْمَطَرِ - وَسَأَلُوا : مِنْ أَيْنَ جَاءَ ذَلِكَ ؟ فَقُلْنَا : أَمَّا التُّرَابُ فَأَثَارَتْهُ السَّافِيَاءُ مِنَ الرِّيحِ فَحَمَلَتْهُ إلَى السَّحَابِ فَنَزَلَ مَعَ الْمَطَرِ طِينًا ، وَأَمَّا السَّمَكُ فَهَذَا الْإِعْصَارُ الَّذِي يُرَى مُتَدَلِّيًا مِنَ السَّحَابِ إلَى الْبَحْرِ أَوْ مُرْتَفِعًا مِنَ الْبَحْرِ إلَى السَّحَابِ كَعَمُودٍ مِنَ الدُّخَّانِ وَتُسَمُّونَهُ التِّنِّينَ ، هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ الْمَاءَ مِنَ الْبَحْرِ إلَى السَّحَابِ ، فَاتَّفَقَ أَنْ كَانَ فِيمَا رَفَعَهُ سَمَكٌ حَمَلَتْهُ الرِّيحُ إلَيْكُمْ لِقُرْبِكُمْ مِنَ الْبَحْرِ .

(120/277)

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْحِجَارَةُ مِنْ بَعْضِ النُّجُومِ الْمُحَطَّمَةِ الَّتِي يُسَمِّيهَا الْفَلَكِيُّونَ الْحِجَارَةَ النَّيْزَكِيَّةَ ، وَهِيَ بَقَايَا كَوْكَبٍ مُحَطَّمٍ تَجْذِبُهُ الْأَرْضُ إِلَيْهَا إِذَا صَارَتْ بِالْقُرْبِ مِنْهَا ، وَهِيَ تَحْتَرِقُ غَالِبًا مِنْ سُرْعَةِ الْجَذْبِ وَشِدَّتِهِ وَهِيَ الشُّهُبُ الَّتِي تُرَى فِي اللَّيْلِ ، فَإِذَا سَلِمَ مِنْهَا شَيْءٌ مِنَ الِاحْتِرَاقِ وَوَصَلَ إِلَى الْأَرْضِ سَاخَ فِيهَا ، وَكَانَ لِسُقُوطِهِ صَوْتٌ شَدِيدٌ ، وَقَدِ اهْتَدَى النَّاسُ إِلَى بَعْضِ هَذِهِ الْحِجَارَةِ وَوَضَعُوهَا فِي الْمَتَاحِفِ ، وَلَمْ يُعْهَدْ أَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً ، وَالْآيَاتُ تُخَالِفُ الْمَعْهُودَ وَتَخْتَرِقُ الْمُعْتَادَ وَإِنْ كَانَتْ مُوَافِقَةً لِسُنَنٍ خَفِيَّةٍ فِي الْكَوْنِ بِفِعْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَفِي سُورَتَيْ هُودٍ وَالْحِجْرِ أَنَّهَا حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيلٍ مُسَوَّمَةً . وَاخْتَلَفَ رُوَاةُ التَّفْسِيرِ فِي تَفْسِيرِ السِّجِّيلِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ بِالْفَارِسِيَّةِ أَوَّلُهَا حِجَارَةٌ وَآخِرُهَا طِينٌ ، وَفِي قَوْلِهِ : (مُسَوَّمَةً) (11 : 83) قَالَ : مُعَلَّمَةً . وَمِثْلُهُ عَنْ شَيْخِهِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : حِجَارَةٌ فِيهَا طِينٌ ، وَقَالَ : السَّوْمُ بَيَاضٌ فِي حُمْرَةٍ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : وَالسِّجِّيلُ حَجَرٌ وَطِينٌ مُخْتَلِطٌ وَأَصْلُهُ فِيمَا قِيلَ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ اهـ . وَهَذَا يُرَجِّحُ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ ، وَهُوَ كَوْنُ تِلْكَ الْحِجَارَةِ مِنَ الْأَرْضِ وَقَلَعَتْهَا الْأَعَاصِيرُ مِنْ أَرْضٍ رَطْبَةٍ مِنَ الْمَطَرِ أَوْ غَيْرِهِ ، وَحِجَارَةُ النَّيَازِكِ لَا تَكُونُ إِلَّا جَافَّةً ، بَلْ تَسْقُطُ حَامِيَةً مِنْ شِدَّةِ الْجَذْبِ ثُمَّ تَبْرُدُ .

(121/277)

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفِيلِ : السِّجِّيلُ طِينٌ مُتَحَجِّرٌ . وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ ، وَأَنَّهُ فَارِسِيُّ الْأَصْلِ . وَسَنَعُودُ إلَى هَذَا الْبَحْثِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَفِيهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ عَالِيَ تِلْكَ الْقُرَى سَافِلَهَا ، وَنُبَيِّنُ أَنَّ وُقُوعَ هَذَا وَذَاكَ بِالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ الْجَلِيَّةِ أَوِ الْخَفِيَّةِ لَا يُنَافِي كَوْنَهَا آيَةً .

(122/277)

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) الْخِطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ الْقِصَّةَ أَوْ يَقْرَؤُهَا مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ ، وَالْمُرَادُ : أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ عَاقِبَةَ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ لَا تَكُونُ إلَّا وَبَالًا وَعِقَابًا ، فَإِنَّ الْأُمَمَ تُعَاقَبُ عَلَى ذُنُوبِهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ بِاطِّرَادٍ . وَقَدْ بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ أَنَّ عِقَابَهَا إمَّا أَنْ يَكُونَ أَثَرًا طَبِيعِيًّا لِلذَّنْبِ كَالتَّرَفِ وَالسَّرَفِ فِي الْفِسْقِ يُفْسِدُ أَخْلَاقَ الْأُمَّةِ وَيَذْهَبُ بِبَأْسِهَا ، أَوْ يَجْعَلُهُ بَيْنَهَا شَدِيدًا بِتَفَرُّقِ كَلِمَتِهَا وَاخْتِلَافِ أَحْزَابِهَا وَتَعَادِيهِمْ ، فَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ تَسَلُّطُ أُمَّةٍ أُخْرَى عَلَيْهَا تَسْتَذِلُّهَا بِسَلْبِ اسْتِقْلَالِهَا ، وَتَسْخِيرِهَا فِي مَنَافِعِهَا ، حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ بِذَهَابِ مُقَوِّمَاتِهَا وَمُشَخِّصَاتِهَا ، أَوِ انْدِغَامِهَا فِي الْأُمَّةِ الْغَالِبَةِ أَوِ انْقِرَاضِهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِمَا يَحْدُثُ بِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجَوَائِحِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالزَّلَازِلِ وَالْخَسْفِ وَإِمْطَارِ النَّارِ وَالْمَوَادِّ الْمُصْطَهِرَةِ الَّتِي تَقْذِفُهَا الْبَرَاكِينُ مِنَ الْأَرْضِ

وَالْأَوْبِئَةِ - أَوِ الِانْقِلَابَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ كَالْحُرُوبِ وَالثَّوَرَاتِ وَالْفِتَنِ . وَهُنَالِكَ نَوْعٌ ثَالِثٌ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ آيَاتِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَدِ انْقَضَى زَمَانُهُ بِخَتْمِهِمْ بِنَبِيِّ الرَّحْمَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . رَاجِعْ تَفْسِيرَ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ

(123/277)

أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) (6 : 65) [ص408 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ] .

حَظْرُ اللُّوَاطَةِ وَالْعِقَابُ عَلَيْهَا وَمَفَاسِدُهَا

أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ اللُّوَاطَةَ مِنْ كَبَائِرِ الْمَعَاصِي لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّاهَا فَاحِشَةً وَخَبِيثَةً ، وَقَدْ وَرَدَتْ عِدَّةُ أَحَادِيثَ فِي لَعْنِ فَاعِلِهَا عِنْدَ النَّسَائِيِّ ، وَابْنِ حِبَّانَ ، وَصَحَّحَهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ وَصَحَّحَ بَعْضَهَا الْحَاكِمُ ، وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ يُؤَيِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي أَمْرٍ قَطْعِيٍّ بِالنَّصِّ مَعْلُومٍ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مَرْفُوعًا : " إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ " صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ غَرِيبٌ . وَمِنْ حَدِيثِهِ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ " إِذَا ظَلَمَ أَهْلُ الذِّمَّةِ

كَانَتِ الدَّوْلَةُ دَوْلَةَ الْعَدُوِّ ، وَإِذَا كَثُرَ الزِّنَا كَثُرَ السِّبَاءُ ، وَإِذَا كَثُرَ اللُّوطِيَّةُ رَفَعَ اللَّهُ يَدَهُ عَنِ الْخَلْقِ فَلَا يُبَالِي فِي أَيِّ وَادٍ هَلَكُوا "

(124/277)

وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ ، وَرَوَى أَحْمَدُ وَغَيْرُ النَّسَائِيِّ مِنْ أَصْحَابِ السُّنَنِ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا " مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ " قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي التَّلْخِيصِ وَاسْتَنْكَرَهُ النَّسَائِيُّ وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَإِسْنَادُهُ أَضْعَفُ مِنَ الْأَوَّلِ بِكَثِيرٍ . ثُمَّ قَالَ عَنِ ابْنِ الطَّلَّاعِ فِي أَحْكَامِهِ تَصْحِيحِ الْحَدِيثِ وَرَدِّهِ بِأَنَّ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ لَا يَصِحُّ ، وَأَنَّ ابْنَ مَاجَهْ رَوَاهُ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ الْعُمَرِيِّ بِلَفْظِ " فَارْجُمُوا الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ " وَقَالَ عَاصِمٌ مَتْرُوكٌ وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ مُخْتَلَفٌ فِي ثُبُوتِهِ انْتَهَى مُلَخَّصًا . وَلَكِنَّ الشَّوْكَانِيَّ قَالَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّ الْحَافِظَ قَالَ : رِجَالُهُ مَوْثُوقُونَ إِلَّا أَنَّ فِيهِ اخْتِلَافًا ، وَأَنَّ الشَّيْخَيْنِ احْتَجَّا بِعَمْرِو بْنِ أَبِي عُمَيْرٍ الَّذِي ضُعِّفَ بِهِ

ثُمَّ ذَكَرَ عِبَارَةَ ابْنِ الطَّلَّاعِ وَتَعَقُّبَ الْحَافِظِ لَهَا وَأَوْرَدَ بَعْضَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ فِي أَحْكَامِهَا مَا نَصُّهُ :

" وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي عُقُوبَةِ الْفَاعِلِ لِلُّوَاطِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَحْرِيمِهِ وَأَنَّهُ مِنَ الْكَبَائِرِ لِلْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ فِي تَحْرِيمِهِ وَلَعْنِ فَاعِلِهِ (أَيْ تَوَاتُرًا مَعْنَوِيًّا) فَذَهَبَ مَنْ ذُكِرَ مِنَ الصَّحَابَةِ (يَعْنِي الَّذِينَ اسْتَشَارَهُمْ أَبُو بَكْرٍ فِي الْمَسْأَلَةِ) وَعَلِيٌّ (وَهُوَ مِنْهُمْ وَابْنُ عَبَّاسٍ) إِلَى أَنَّ حَدَّهُ الْقَتْلُ وَلَوْ كَانَ بِكْرًا سَوَاءٌ كَانَ فَاعِلًا أَوْ مَفْعُولًا ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَالنَّاصِرُ وَالْقَاسِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَاسْتَدَلُّوا بِمَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ (يَعْنِي صَاحِبَ الْمُنْتَقَى) مِنْ حَدِيثِ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رَجْمِهِ اللُّوطِيَّةَ ، وَذَكَرْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَهُوَ بِمَجْمُوعِهِ يُنْتَهَضُ لِلِاحْتِجَاجِ بِهِ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ قَتْلِ اللُّوطِيِّ فَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ يُقْتَلُ بِالسَّيْفِ ثُمَّ يُحْرَقُ لِعِظَمِ الْمَعْصِيَةِ وَإِلَى ذَلِكَ ذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْهُ (أَيْ عَمَلًا بِرَأْيِ عَلِيٍّ فِي الشُّورَى) وَذَهَبَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ إِلَى أَنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ حَائِطٌ ، وَذَهَبَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِلَى أَنَّهُ يُلْقَى مِنْ أَعْلَى بِنَاءٍ فِي الْبَلَدِ (أَقُولُ : وَالرِّوَايَتَانِ ضَعِيفَتَانِ وَأَهْوَنُهُمَا الثَّانِيَةُ لِأَنَّ أَبْنِيَتَهُمْ كَانَتْ وَاطِئَةً جِدًّا) وَقَدْ حَكَى صَاحِبُ الشِّفَاءِ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ عَلَى الْقَتْلِ ، وَقَدْ حَكَى الْبَغَوِيُّ عَنِ الشَّعْبِيِّ وَالزُّهْرِيِّ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ أَنَّهُ يُرْجَمُ ، ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ مَنْ قَالُوا : إِنَّ اللُّوَاطَةَ كَالزِّنَا فَحَدُّهُمَا وَاحِدٌ ،

(126/277)

وَبَحَثَ فِي تَخْصِيصِ اللُّوطِيِّ بِعِقَابٍ . وَقَفَّى عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ :

وَمَا أَحِقُّ مُرْتَكِبَ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ ، وَمُقَارِفَ هَذِهِ الرَّذِيلَةِ الذَّمِيمَةِ ، بِأَنْ يُعَاقَبَ عُقُوبَةً يَصِيرُ بِهَا عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ ، وَيُعَذَّبَ تَعْذِيبًا يَكْسِرُ شَهْوَةَ الْفَسَقَةِ الْمُتَمَرِّدِينَ ، فَحَقِيقٌ بِمَنْ أَتَى بِفَاحِشَةِ قَوْمٍ مَا سَبَقَهُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ، أَنْ يَصْلَى مِنَ الْعُقُوبَةِ بِمَا يَكُونُ مِنَ الشِّدَّةِ وَالشَّنَاعَةِ مُشَابِهًا لِعُقُوبَتِهِمْ ، وَقَدْ خَسَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ وَاسْتَأْصَلَ بِذَلِكَ الْعَذَابِ بِكْرَهُمْ وَثَيِّبَهُمْ ، وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ فِي قَوْلٍ لَهُ وَالْمُرْتَضَى وَالْمُؤَيَّدُ بِاللَّهِ إلَى أَنَّهُ يُعَزَّرُ اللُّوطِيُّ فَقَطْ . وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذَا الْمَذْهَبِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِلْأَدِلَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي خُصُوصِ اللُّوطِيِّ ، وَالْأَدِلَّةِ الْوَارِدَةِ فِي الزَّانِي عَلَى الْعُمُومِ اهـ .

(127/277)

أَقُولُ : وَمِمَّا قَالَهُ الْحَنَفِيَّةُ فِي هَذَا التَّعْزِيرِ أَنَّهُ يَكُونُ بِالْجَلْدِ وَالْحَبْسِ فِي أُتُنِ بُقْعَةٍ ، وَبِالسِّجْنِ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَتُوبَ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ)

(4 : 15) الْآيَتَيْنِ " 15 ، 16 " أَنَّ أَبَا مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيَّ فَسَّرَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنَ النِّسَاءِ بِالْمُسَاحِقَاتِ – وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنَ الرِّجَالِ بِاللَّائِطِ وَالْمَلُوطِ بِهِ ، وَأَنَّ الْجَلَالَ قَالَ : إنَّهَا فِي الزِّنَا وَاللُّوَاطِ جَمِيعًا ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الْأُسْتَاذَ الْإِمَامَ رَجَّحَ قَوْلَ أَبِي مُسْلِمٍ فِي الْآيَتَيْنِ ، وَهُوَ يُوَافِقُ قَوْلَ مَنْ قَالُوا : إنَّ عِقَابَ اللُّوَاطَةِ التَّعْزِيرُ ، وَلَكِنْ بِمَا فِيهِ إيذَاءٌ لَا مُطْلَقًا ، فَالتَّعْزِيرُ يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَبِمَا فِيهِ تَعْذِيبٌ وَمَا لَا تَعْذِيبَ فِيهِ ، [رَاجِعْ ص 355 – 360 ج 4 ط الْهَيْئَةِ] .

ابْتِلَاءُ مُتْرَفِي الْحَضَارَةِ بِهَذِهِ الْفَاحِشَةِ

(128/277)

لَيْسَ لَدَيْنَا أَثَارَةٌ مِنَ التَّارِيخِ فِي سَبَبِ ابْتِلَاءِ قَوْمِ لُوطٍ بِهَذِهِ الْفَاحِشَةِ ، وَلَكِنْ رَوَى ابْنُ إسْحَاقَ عَنْ بَعْضِ رُوَاةِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ إبْلِيسَ تَزَيَّا لَهُمْ فِي صُورَةِ أَجْمَلِ صَبِيٍّ رَآهُ النَّاسُ فَدَعَاهُمْ إلَى نَفْسِهِ ثُمَّ جَرَوْا عَلَى ذَلِكَ . وَهَذَا أَثَرٌ لَا يَثْبُتُ بِهِ شَيْءٌ . وَأَخْرَجَ إسْحَاقُ بْنُ بِشْرٍ وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُمْ ثِمَارٌ بَعْضُهَا عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ ، وَأَنَّهُ أَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَقِلَّةُ ثِمَارٍ فَتَوَاطَئُوا عَلَى مَنْعِ ثِمَارِهِمُ الظَّاهِرَةِ أَنْ يُصِيبَ مِنْهَا أَبْنَاءُ السَّبِيلِ بِأَنْ يُعَاقِبُوا كُلَّ غَرِيبٍ يَأْخُذُونَهُ فِي دِيَارِهِمْ بِإِتْيَانِهِ وَتَغْرِيمِهِ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ ، قَالُوا : فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَظْهَرُونَ

بِبِلَادِكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ . فَفَعَلُوهُ فَأَلِفُوهُ . وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تُنَزِّهُ أَنْفُسَهَا عَنْ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ بِالْأَوْلَى ، وَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا مِنْ تَشَاوُرِ الصَّحَابَةِ فِي الْعِقَابِ عَلَيْهَا كَانَ سَبَبُهُ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ

(129/277)

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ وَجَدَ رَجُلًا فِي بَعْضِ ضَوَاحِي بِلَادِ الْعَرَبِ يُنْكَحُ كَمَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ . فَجَمَعَ لِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَشَارَهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ إِذْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَثَلٌ ، فَأَشَارَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ بِأَنْ يُحْرَقَ بِالنَّارِ - أَيْ بَعْدَ قَتْلِهِ - كَمَا تَقَدَّمَ فَوَافَقَهُ الصَّحَابَةُ وَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ بِذَلِكَ فَأَمْضَاهُ . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَالْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِهِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضَوَاحِي بِلَادِ الْعَرَبِ مَا يَلِي بِلَادَ فَارِسٍ مِنْهَا إِذْ كَانَ هُنَالِكَ ، وَلَمْ نَعْلَمْ جِنْسَ ذَلِكَ الرَّجُلِ وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَعَاجِمِ .

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَائِشَةَ : أَوَّلُ مَنِ اتُّهِمَ بِالْأَمْرِ الْقَبِيحِ - تَعْنِي عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ - رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ فَأَمَرَ عُمَرُ بَعْضَ شَبَابِ قُرَيْشٍ أَلَّا يُجَالِسُوهُ . أَيْ لِمُجَرَّدِ التُّهْمَةِ .

(130/277)

هَذِهِ الْفَاحِشَةُ مِنْ سَيِّئَاتِ تَرَفِ الْحَضَارَةِ وَهِيَ تَكْثُرُ فِي الْمُسْرِفِينَ فِي التَّرَفِ ، وَلَا سِيَّمَا حَيْثُ يَتَعَسَّرُ الِاسْتِمْتَاعُ بِالنِّسَاءِ ، كَثُكْنَاتِ الْجُنْدِ ، وَالْمَدَارِسِ الَّتِي لَا تَشْتَدُّ الْمُرَاقَبَةُ الدِّينِيَّةُ الْأَدَبِيَّةُ فِيهَا عَلَى التَّلَامِيذِ ، وَمِنْ أَسْبَابِ ابْتِلَاءِ بَعْضِ فُسَّاقِ الْمُسْلِمِينَ بِهَا فِي عُنْفُوَانِ حَضَارَتِهِمُ احْتِجَابُ النِّسَاءِ وَعِفَّتُهُنَّ مَعَ ضَعْفِ التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَكَثْرَةِ الْمَمَالِيكِ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَعَاجِمِ الْحِسَانِ الصُّوَرِ وَالِاتِّجَارِ بِهِمْ . قَالَ الْفَقِيهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي آخِرِ الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْكَبِيرَةِ مِنْ كِتَابِهِ الزَّوَاجِرِ مَا نَصُّهُ :

" وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ بِمَمْلُوكِهِ فِعْلَ قَوْمِ لُوطٍ مِنَ اللُّوطِيَّةِ الْمُجْرِمِينَ الْفَاسِقِينَ الْمَلْعُونِينَ ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَقَدْ فَشَا ذَلِكَ فِي التِّجَارَةِ وَالْمُتْرَفِينَ ، فَاتَّخَذُوا حِسَانَ الْمَمَالِيكِ سُودًا وَبِيضًا لِذَلِكَ ، فَعَلَيْهِمْ أَشَدُّ اللَّعْنَةِ الدَّائِمَةِ الظَّاهِرَةِ ، وَأَعْظَمُ الْخِزْيِ

(131/277)

وَالْبَوَارِ وَالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مَا دَامُوا عَلَى هَذِهِ الْقَبَائِحِ الشَّنِيعَةِ الْفَظِيعَةِ ، الْمُوجِبَةِ لِلْفَقْرِ وَهَلَاكِ الْأَمْوَالِ وَانْمِحَاقِ الْبَرَكَاتِ ، وَالْخِيَانَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَالْأَمَانَاتِ ؛ وَلِذَلِكَ تَجِدُ

أَكْثَرَهُمْ قَدِ افْتَقَرَ مِنْ سُوءِ مَا جَنَاهُ ، وَقَبِيحِ مُعَامَلَتِهِ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى بَارِئِهِ وَخَالِقِهِ ، وَمُوجِدِهِ وَرَازِقِهِ ، بَلْ بَارَزَهُ بِهَذِهِ الْمُبَارَزَةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى خَلْعِ جِلْبَابِ الْحَيَاءِ وَالْمُرُوءَةِ وَالتَّخَلِّي عَنْ سَائِرِ صِفَاتِ أَهْلِ الشَّهَامَةِ وَالْفُتُوَّةِ ، وَالتَّحَلِّي بِصِفَاتِ الْبَهَائِمِ بَلْ بِأَقْبَحِ وَأَفْظَعِ صِفَةٍ وَخَلَّةٍ ، إِذْ لَا نَجِدُ حَيَوَانًا ذَكَرًا يَنْكِحُ مِثْلَهُ ، فَنَاهِيكَ بِرَذِيلَةٍ تَعَفُّ عَنْهَا الْحَمِيرُ ، فَكَيْفَ يَلِيقُ فِعْلُهَا بِمَنْ هُوَ فِي صُورَةِ رَئِيسٍ أَوْ كَبِيرٍ ؟ كَلَّا بَلْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْ قَدْرِهِ ، وَأَشْأَمُ مِنْ خَبَرِهِ ، وَأَنْتَنُ مِنَ الْجِيَفِ ، وَأَحَقُّ بِالشُّرُورِ وَالسَّرَفِ ، وَأَخُو الْخِزْيِ وَالْمَهَانَةِ ، وَخَائِنُ عَهْدِ اللهِ وَمَالَهُ عِنْدَهُ مِنَ الْأَمَانَةِ ، فَبُعْدًا لَهُ وَسُحْقًا ، وَهَلَاكًا فِي جَهَنَّمَ وَحَرْقًا اهـ .

(132/277)

وَقَالَ السَّيِّدُ الْآلُوسِيُّ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ رُوحِ الْمَعَانِي : وَبَعْضُ الْفَسَقَةِ الْيَوْمَ – دَمَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَى – يُهَوِّنُونَ أَمْرَهَا وَيُتَيَّمُونَ بِهَا ، وَيَفْتَخِرُونَ بِالْإِكْثَارِ مِنْهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهَا أَخْذًا لِلثَّأْرِ ، وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ ؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمَدُ اللهَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهَا مَبْنِيَّةً لِلْمَفْعُولِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ نَالُوا الصَّدَارَةَ بِأَعْجَازِهِمْ نَسْأَلُ اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اهـ .

(133/277)

وَأَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ الْفِتَنَ بِالْمُرْدِ هِيَ الَّتِي حَمَلَتْ بَعْضَ الْفُقَهَاءِ عَلَى تَحْرِيمِ النَّظَرِ إِلَى الْغُلَامِ الْأَمْرَدِ وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ جَمِيلَ الصُّورَةِ ، أَطْلَقَهُ بَعْضُهُمْ وَخَصَّهُ آخَرُونَ بِنَظَرِ الشَّهْوَةِ الَّذِي هُوَ ذَرِيعَةُ الْفَاحِشَةِ . رَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَالْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْوَضِينِ بْنِ عَطَاءٍ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ قَالَ : كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَحُدَّ الرَّجُلُ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْغُلَامِ الْجَمِيلِ – وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ ذَكْوَانَ أَنَّهُ قَالَ : لَا تُجَالِسُوا أَوْلَادَ الْأَغْنِيَاءِ فَإِنَّ لَهُمْ صُوَرًا كَصُوَرِ النِّسَاءِ وَهُمْ أَشَدُّ فِتْنَةً مِنَ الْعَذَارَى – وَعَنِ النَّجِيبِ بْنِ السُّدِّيِّ قَالَ كَانَ يُقَالُ : لَا يَبِيتُ الرَّجُلُ فِي بَيْتٍ مَعَ الْمُرْدِ – وَعَنِ ابْنِ سَهْلٍ قَالَ : سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يُقَالُ لَهُمُ اللُّوطِيُّونَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ يَنْظُرُونَ ، وَصِنْفٌ يُصَافِحُونَ ، وَصِنْفٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ الْعَمَلَ – وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : لَوْ أَنَّ الَّذِي يَعْمَلُ ذَلِكَ الْعَمَلَ (يَعْنِي عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ) اغْتَسَلَ بِكُلِّ قَطْرَةٍ فِي السَّمَاءِ وَكُلِّ قَطْرَةٍ فِي الْأَرْضِ لَمْ يَزَلْ نَجِسًا .

(134/277)

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ قَالَ : دَخَلَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ الْحَمَّامَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ غُلَامٌ صَبِيحٌ فَقَالَ : أَخْرِجُوهُ فَإِنِّي أَرَى مَعَ كُلِّ امْرَأَةٍ شَيْطَانًا وَمَعَ كُلِّ غُلَامٍ بِضْعَةَ عَشَرَ

شَيْطَانًا . يَعْنِي أَنَّ الْوَسْوَسَةَ وَالْإِغْرَاءَ بِالْغُلَامِ الْجَمِيلِ يَزِيدُ عَلَى الْإِغْرَاءِ بِالْمَرْأَةِ بِضْعَةَ عَشَرَ ضِعْفًا لِسُهُولَةِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ وَكَثْرَةِ وَسَائِلِهِ ، وَهَلْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَدْخُلَ الْمَرْأَةُ الْحَمَّامَ عَلَى الرِّجَالِ كَمَا دَخَلَ ذَلِكَ الْغُلَامُ وَكَمَا يَدْخُلُ النِّسَاءُ فِي غَيْرِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى إِنَّهُنَّ يَتَوَلَّيْنَ تَنْظِيفَ الرِّجَالِ فِي الْحَمَّامَاتِ . وَمِنْ وَسَائِلِ الِافْتِتَانِ بِالْمُرْدِ التَّعْلِيمُ وَالِانْتِسَابُ إِلَى طَرِيقَةِ الْمُتَصَوِّفَةِ ، فَيُجْعَلُ الْخَيْرُ وَسِيلَةً إِلَى الشَّرِّ ، وَكَمْ فُتِنَ أُسْتَاذٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ بِمُرِيدِهِ وَتِلْمِيذِهِ وَأَخْفَى هَوَاهُ حَتَّى فَسَدَتْ

حَالُهُ ، وَسَاءَ مَآلُهُ ، وَكَمْ تَهَتَّكَ مُتَهَتِّكٌ فَفُضِحَ سِرُّهُ ، وَاشْتُهِرَ أَمْرُهُ ، كَالشَّيْخِ مُدْرِكٍ الَّذِي عَشِقَ عَمْرًا النَّصْرَانِيَّ أَحَدَ التَّلَامِيذِ الَّذِينَ كَانُوا يَأْخُذُونَ عَنْهُ عِلْمَ الْأَدَبِ ، فَكَتَمَ هَوَاهُ زَمَنًا حَتَّى غَلَبَهُ فَبَاحَ بِهِ فَانْقَطَعَ الْغُلَامُ عَنْ مَجْلِسِهِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ قَصِيدَتَهُ الْمُزْدَوِجَةَ الْمَشْهُورَةَ الَّتِي قَالَ فِيهَا :

إِنْ كَانَ ذَنْبِي عِنْدَهُ الْإِسْلَامُ . . . فَقَدْ سَعَتْ فِي نَقْضِهِ الْآثَامُ

وَاخْتَلَّتِ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ . . . وَجَازَ فِي الدِّينِ لَهُ الْحَرَامُ

(135/277)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي هَذِهِ الْفَاحِشَةِ أَنَّهَا :

(1) جِنَايَةٌ عَلَى الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ .

(2) مَفْسَدَةٌ لِلشُّبَّانِ بِالْإِسْرَافِ فِي الشَّهْوَةِ لِأَنَّهَا تُنَالُ بِسُهُولَةٍ .

(3) مَذَلَّةٌ لِلرِّجَالِ بِمَا تُحْدِثُهُ فِيهِمْ مِنْ دَاءِ الْأُبْنَةِ ، وَقَدْ أَشَرْنَا آنِفًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ خِزْيٍ وَمَهَانَةٍ .

(4) مَفْسَدَةٌ لِلنِّسَاءِ اللَّوَاتِي تُصْرَفُ أَزْوَاجُهُنَّ عَنْهُنَّ ، حَتَّى يُقَصِّرُوا فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِحْصَانِهِنَّ ، حَدَّثَنِي تَاجِرٌ أَنَّهُ دَخَلَتْ دُكَّانَهُ مَرَّةً امْرَأَةٌ بَارِعَةُ الْجَمَالِ فَأَسْفَرَتْ عَنْ وَجْهِهَا فَقَامَ لِخِدْمَتِهَا دُونَ أَعْوَانِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ دُهِشَ بِرَوْعَةِ حُسْنِهَا قَالَتْ لَهُ : انْظُرْ أَتَجِدُ فِيَّ عَيْبًا ؟ قَالَ : إِنِّي لَمْ أَرَ مِثْلَكِ قَطُّ ؟ قَالَتْ : وَلَكِنَّ زَوْجِي فُلَانًا يَتْرُكُنِي عَامَّةَ لَيَالِيهِ كَالشَّيْءِ اللُّقَا (هُوَ الَّذِي يُلْقَى وَيُرْمَى لِعَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِهِ) فِي غُرَفِ الدَّارِ وَيَلْهُو عَنِّي فِي الدَّوْرِ السُّفْلِيِّ بِغِلْمَانِ الشَّوَارِعِ حَتَّى مَسَّاحِي الْأَحْذِيَةِ ، وَهُوَ لَا يَشْكُو مِنِّي شَيْئًا مِنْ خُلُقٍ وَلَا خَلْقٍ وَلَا تَقْصِيرٍ فِي عَمَلٍ وَلَا خِيَانَةٍ فِي مَالٍ وَلَا عِرْضٍ عَلَى أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أَعْلَمُ هَذَا وَلَا يُبَالِي بِهِ وَلَا يَحْسِبُ حِسَابًا لِعَوَاقِبِهِ .

وَمِنَ الْبَدِيهِيِّ أَنَّهُ يُقِلُّ فِي النِّسَاءِ مَنْ تَصْبِرُ عَلَى هَذَا الظُّلْمِ طَوِيلًا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ (الْمِصْرِيَّةِ) الَّتِي تَرُوجُ فِي مُدُنِهَا أَسْوَاقُ الْفِسْقِ بِمَا لَهُ فِيهَا مِنَ الْمَوَاخِيرِ السِّرِّيَّةِ وَالْجَهْرِيَّةِ ، وَأَمَّا الْمُدُنُ الَّتِي يَعْسُرُ فِيهَا السِّفَاحُ وَاتِّخَاذُ الْأَخْدَانِ فَكَثِيرًا مَا يَسْتَغْنِي فِيهَا النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ كَمَا يَسْتَغْنِي الرِّجَالُ بِالْغِلْمَانِ كَمَا نُقِلَ عَنْ نِسَاءِ قَوْمِ لُوطٍ ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِنَّمَا حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ حِينَ اسْتَغْنَى النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ وَالرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ : عَذَّبَ اللهُ نِسَاءَ قَوْمِ لُوطٍ بِعَمَلِ رِجَالِهِمْ ؟ قَالَ اللهُ أَعْدَلُ مِنْ ذَلِكَ : اسْتَغْنَى النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ وَالرِّجَالُ بِالرِّجَالِ . أَبُو جَعْفَرٍ هُوَ الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ الْبَاقِرُ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ هُوَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ .

(5) قِلَّةُ النَّسْلِ بِفُشُوِّهَا ، فَإِنَّ مِنْ لَوَازِمِهَا الرَّغْبَةَ عَنِ الزَّوَاجِ فِي إِتْيَانِ الْأَزْوَاجِ

فِي غَيْرِ مَأْتَى الْحَرْثِ . وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي حَظْرِ إِتْيَانِ النِّسَاءِ فِي غَيْرِ سَبِيلِ النَّسْلِ وَلُعِنَ فَاعِلُ ذَلِكَ ، وَهُوَ مِنْ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ ، وَسَمَّاهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ اللُّوطِيَّةَ الصُّغْرَى .

(6) أَنَّهَا ذَرِيعَةٌ لِلِاسْتِمْنَاءِ وَلِإِتْيَانِ الْبَهَائِمِ وَهُمَا مَعْصِيَتَانِ قَبِيحَتَانِ شَدِيدَتَا الضَّرَرِ فِي الْأَبْدَانِ وَالْآدَابِ ، وَمُحَرَّمَتَانِ كَاللُّوَاطَةِ وَالزِّنَا فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ رَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ) فَقَصَدَ الشَّهْوَةَ لِذَاتِهَا يُفْضِي إِلَى وَضْعِهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، وَإِنَّمَا مَوْضِعُهَا الزَّوْجَةُ الشَّرْعِيَّةُ الْمُتَّخَذَةُ لِلنَّسْلِ ، وَفِي الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ إِحْصَانُ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الْآخَرَ بِقَصْرِ لَذَّةِ الِاسْتِمْتَاعِ عَلَيْهِ وَجَعْلِهِ وَسِيلَةً لِلْحَيَاةِ الْوَالِدِيَّةِ الَّتِي تُنَمَّى بِهَا الْأُمَّةُ وَيُحْفَظُ النَّوْعُ الْبَشَرِيُّ مِنَ الزَّوَالِ . وَالْخُرُوجُ عَنْ ذَلِكَ إِلَى جَعْلِ الشَّهْوَةِ مَقْصِدًا يَكْثُرُ مِنْ وَسَائِلِهَا مَا كَانَ أَقْرَبَ مَنَالًا وَأَقَلَّ كُلْفَةً ، فَإِذَا اعْتِيدَ اسْتُغْنِيَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ ، وَمَفَاسِدُ ذَلِكَ فَوْقَ مَا وَصَفْنَا .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 452. 465 ﴾

(138/277)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

والإمطار مشتقّ من المطر ، والمطر اسم للماء النّازل من السّحاب ، يقال : مطرتهم السّماء بدون همزة بمعنى نزل عليهم المطر ، كما يقال : غاثتهم ووبلتهم ، ويقال : مكان ممطور ، أي

أصابه المطر ، ولا يقال : مُمْطَر ، ويقال أمطروا بالهمزة بمعنى نزل عليهم من الجوّ ما يشبه المطر ، وليس هو بمطر ، فلا يقال : هم ممطرون ، ولكن يقال : هم مُمْطَرون ، كما قال تعالى : ﴿ وأمطَرنا عليهم حجارة من سجّيل ﴾ [هود : 82] وقال : ﴿ فأمْطِرْ علينا حجارة من السّماء ﴾

[الأنفال : 32] ، كذا قال الزّمخشري هنا وقال ، في سورة الأنفال : قد كثر الإمطار في معنى العذاب ، وعن أبي عبيدة أنّ التّفرقة بين مُطِرَ وأَمْطِر ؛ أن مُطر للرّحمة وأمطر للعذاب ، وأمّا قوله تعالى في سورة الأحقاف (24) : ﴿ قالوا هذا عارض مُمْطِرنا فهو يعكّر على كلتا التّفرقتين ﴾ ويعين أن تكون التفرقة أغلبيّة .

وكان الذي أصاب قوم لوط حجراً وكبريتاً من أعلى القُرى كما في التّوراة وكان الدّخان يظهر من الأرض مثل دخان الأتون ، وقد ظنّ بعض الباحثين أنّ آبار الحُمَر التي ورد في التّوراة أنّها كانت في عمق السديم ، كانت قابلة للالتهاب بسبب زلازل أو سقوط صواعق عليها .

وقد ذكر في آية أخرى ، في القرآن : أنّ الله جعل عَالِيَ تلك القُرى سافلاً ، وذلك هو الخَسْف وهو من آثار الزلازل .

ومن المستقرب أن يكون البحر الميّت هنالك قد طغى على هذه الآبار أو البراكين من آثار الزّلزال .

وتنكير : مطراً ﴾ للتعظيم والتّعجيب أي : مطراً عجيباً من شأنه أن يُهلك القرى .

وتفرّع عن هذه القصّة العجيبة الأمرُ بالنّظر في عاقبتهم بقوله : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ فالأمر للارشاد والاعتبار .

(139/277)

والخطاب يجوز أن يكون لغير مُعَيَّن بل لكلّ من يتأَتَّى منه الاعتبار ، كما هو شأن إيراد التّذييل بالاعتبار عقب الموعظة ، لأنّ المقصود بالخطاب كلّ من قصد بالموعظة ، ويجوز أن يكون الخطاب للنّبيء صلى الله عليه وسلم تسلية له على ما يلاقيه من قومه الذين كذّبوا بأنّه لا ييأس من نصر الله ، وأنّ شأن الرّسل انتظار العواقب .

والمجرمون فاعلوا الجريمة ، وهي المعصية والسيّئة ، وهذا ظاهر في أنّ الله عاقبهم بذلك العقاب على هذه الفاحشة ، وأنّ لوطاً عليه السّلام أرسل لهم لنهيهم عنها ، لا لأنّهم مشركون بالله ، إذ لم يُتعرّض له في القرآن بخلاف ما قُصّ عن الأمم الأخرى ، لكنّ تمالِئهم على فعل الفاحشة واستحلالهم إياها يدلّ على أنّهم لم يكونوا مؤمنين بالله ، وبذلك يؤذن قوله تعالى في سورة التّحريم (10) : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ فيكون إرسال لوط عليه السّلام بإنكار تلك الفاحشة ابتداء بتطهير نفوسهم ، ثمّ

يصف لهم الإيمان ، إذ لا شكّ أنّ لوطاً عليه السّلام بلّغهم الرّسالة عن الله تعالى ، وذلك يتضمّن أنّه دعاهم إلى الإيمان ، إلاّ أنّ اهتمامه الأوّل كان بإبطال هذه الفاحشة ، ولذلك وقع الاقتصار في إنكاره عليهم ومجادلتهم إياه على ما يخصّ تلك الفاحشة ، وقد علم أنّ الله أصابهم بالعذاب عقوبة ، على تلك الفاحشة ، كما قال في سورة العنكبوت : (34) : ﴿ إنَّا مُنزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السّماء بما كانوا يفسقون وأنّهم لو أقلعوا عنها لتُرك عذابهم على الكفر إلى يوم آخَر أو إلى اليومِ الآخِر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(140/277)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

فهل كان ذلك المطر مثل المطر الذي ينزل عادة ؟ لا ، بل هو مطر من نوع آخر . فسبحانه يقول : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات : 33-34]

يقول الحق : إنه سيعذبهم بالمطر ، فلننتبه أنه ليس المطر التقليدي ، بل إنه يعذبهم

ويستأصلهم بنوع آخر من المطر .

وقوله : " انظر " أي فاعتبريا من تسمع هذا النص ، وهذه القصة تبين وتوضح أن الله لا يدع المجرمين يصادمون دعوة الله على لسان رسله دون عقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(141/277)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84) " وفى سورة النمل : " وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ

قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58) " وقال فى سورة العنكبوت : " وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30) " .

(142/277)

قلت : قد تقدم البيان أن اختلاف مقالات الأنبياء لأممهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم إذ ليس دعاؤهم إياهم فى موقف واحد زلا لقوم مخصوصين بل يدعوا النبى طوائف من قومه فى أوقات مختلفة ومواطن شتى وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعى نبيهم ذلك فى دعائهم وقد يخاطب ملأهم الأعظم فى مواطن والفئة القليلة منهم فى موطن آخر وربما أطال فى موطن وأوجز فى موطن وذلك بحسب ما يرونه عليهم السلام أجدى وأنفع ولا اختلاف مجاوبة أممهم لهم ، فهذا مما لا يحتاج إلى سؤال عنه وقد مر ذكر بيان ذلك وإنما يبقى السؤال عن وجه خصوص كل سورة بما خصت به من ذلك ؟ وإذا أجبنا عن ذلك وأبدينا بحول الله المناسبة والالتحام حتى يتبين أن كلا من ذلك لا يصلح تأخيره عن الموضع الذى

ورد فيه تعويضا بالوارد فى غير ذلك الموضع منه لم يبق فى هذه الآيات ما يشكل والحمد لله .

وفى قصة لوط عليه السلام سبع سؤالات أولها : قوله فى مطلع الآيات فى الأعراف والنمل : "أتأتون الفاحشة " وقال فى سورة العنكبوت : "أئنكم لتأتون الفاحشة " وثانيها : وصف حالهم فى مرتكبهم فى الأعراف والعنكبوت بقوله : "ما سبقكم بها من أحد من العالمين " وفى سورة النمل : "وأنتم تبصرون " .

(143/277)

والجواب عن هذين السؤالين : أن قوله فى الأعراف والنمل : "أتأتون الفاحشة " الهمزة فيها للاستفهام المقصود به الانكار والتعظيم فى توبيخهم على الفاحشة الشنعاء التى لم يأتها غيرهم ولما كان قد تقدم فى الأعراف من ذكر الأمم المكذبين ذكر قوم نوح وهود وصالح وذكرت مرتكباتهم السيئة من معاندتهم للرسل وتكذيبهم وسوء مراجعتهم وذلك مما يطلع عليه من أتى بعدهم وقد خص بالذكر من مرتكباتهم أقبحها مما استوجبوا به العذاب وأخذ كل طائفة بذنبها قيل لقوم لوط ، عليه السلام : إن هؤلاء المكذبين من قبلكم على سوء مرتكباتهم لم يسبقوكم إلى ما أنتم عليه وقد سمعتم بهم وخلت من قبلكم المثلات

فناسب ما قدم من أحوال من قبلهم فى هذه السورة وذكر تلك الأحوال على التفصيل أن وبخ قوم لوط بقبيح جريمتهم وأم من قبلهم على سيئ أحوالهم لم يرضها فكأن قد قيل لهم : هذه قصص من تقدمكم وذكر مرتكباتهم التى أخذوا بها فهل وقع منهم ما وقع منكم ؟ أو هل سبق أحد منهم إلى مرتكبهم الشنيع ؟ فناسب ذكر الأمم المكذبين قبلهم تقريع هؤلاء بكونهم أول من فعل تلك الشناعة وأنهم لم يسبقهم قيل لهم فى سورة النمل : "أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون " أى تدركون فحشها ببصائركم وأمرها غير خاف على كل ذى عقل ، فهل يصدر هذا إلا عن معاند متصف بأعظم الجهل ؟ وقيل إنهم كانوا يتجاهرون بها ولا يستحيى بعضهم من بعض فالمراد بقوله : "وأنتم تبصرون " أى ترون ذلك بأعينكم لا يستتر بعضكم من بعض تهكما واستهتارا هذا أعظم الجهل فلستم ممن يعقل أو يعلم شيئا بل أنتم قوم تجهلون .

ولما لم يتقدم فى هذه السورة تفصيل أحوال الأمم المكذبين وأخذهم ولم يذكر ذلك كان ذكرهم كأن لم يتعرفوا حال من تقدمهم فعدل عن توبيخهم بما وبخوا حيث ذكر من كان قبلهم إلى ضرب آخر من التوبيخ لم يكن نص عيه فى الأعراف من بيان شنيع المرتكب فى فعلهم .

(144/277)

وأنه غير خاف ، فقيل : "وأنتم تبصرون " أى أن من شأن من له عقل أو بصر يبصر على المأخذ الآخر أن يكتفى بعقله وإبصاره فى ميز ما يشنع .

ثم قد تقدم فى هذه السورة قوله فى قصة موسى عليه السلام : "فلما جاءتهم آياتنا مبصرة " أى بينة واضحة جحدوا بها ، وهذا أقبح واضحة أو مرئية مشاهدة بالابصار جحدوا بها وهذا من أقبح مرتكب .

فلما تقدم هذا ناسبه فى قصة لوط عليه السلام قوله : "وأنتم تبصرون " ولقبح هذا التعامى ما أعقب بقوله بعد : "إنكم قوم تجهلون " .

ولما تقدم فى سورتى الأعراف والنمل تقريرهم تقريعا وتوبيخا وعرفوا بذلك مرة بعد مرة وردت قصتهم فى العنكبوت مؤكدة بأن واللام لثبوتها فوردت مورد ما يجئ بعد القسم متلقى به القسم ، إذ قد تقدم تقريرهم التوبيخى مرتين فجاء الاخبار بعد بما به يخبر عن المتقرر الثابت ولم يكن ليناسب العكس وهذا على مقتضى الترتيب فى السور والآى فجاء كل على ما يجب .

والسؤال الثالث إنه لما تقرر بقوله فى الأعراف والنمل : "إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء " ذكر مرتكبهم القبيح وأنهم فى ذلك من حيث لم يراعوا فى فعلهم إلا مجرد الشهوة ولم يلحظوا ما يلحظه العقلاء ولا ما قررته الشرائع من قصد التناسل والتوالد وقد جبلت عليه البهائم وجرى التعريف من حالهم فى سورة العنكبوت بمثل ذلك فقال تعالى : "أئنكم

بتأتون الرجال " فللسائل أن يقول ما وجه اختلاف ما بنى علي هذا الإخبار فى السورتين من وصفهم فقيل فى الأولى : "بل أنتم قوم مسرفون " وفى الثانية : "بل أنتم قوم تجهلون " ؟ والعدول فى سورة العنكبوت عن قوله : "شهوة من دون النساء " إلى قوله : "وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر " ؟ما الوجه فى هذا وقد اتفق الإخبار فى مطلع الآى فى هذه السور الثلاث ؟

(145/277)

والجواب عن ذلك والله أعلم أنه قصد بما ذكر فى سورة الأعراف الإشارة إلى التعريف بانهماكهم فى الجرائم وقبيح المرتكبات فنص على أفحشها وحصل الإيماء إلى ما وراء ذلك بما ذكر من إسرافهم : "بل أنتم قوم مسرفون " .

ولما قيل فى سورة النمل : "أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون " كان أهم شئ أن تنفى عنهم فائدة الأبصار إذ لم تغن عنهم شيئا فأعقب بقوله : "بل أنتم قوم تجهلون " أى أن مرتكبكم مع علمكم بشنيع ما فيه من أقبح ما يرتكبه الجهال ولم يذكر هنا إسرافهم إذ قد حصل فيما ذكر فى الأعراف .

وأما سورة العنكبوت فقصد فيها تفصيل ما أشير إليه فى الأعراف من شنيع ما ارتكبوه

من إسرافهم فقيل : "أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر "
وورد أولا – بحسب الترتيب المتقرر عليه السور والآيات – ذكر أفحش مرتكباتهم ثم أجمل القول فى سائر جرائمهم ثم أتبع فى السورة الثانية بشنيع حالهم فى تلك الفعلة المنصوص عليها من حيث بيان فحشها للأبصار والبصائر ثم أتبع ذلك فى السورة الثالثة بتفصيل بعض قبائح أفعالهم والتنصيص عليها وجاء كله على ما يجب ولا يمكن العكس فيما ورد والله أعلم .

والسؤال الرابع : ما وجه الاختلاف الوارد فى جواب قوم لوط عليه السلام له فى سورة الأعراف : "فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون " وفى سورة النمل : "أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون " وفى سورة العنكبوت : "ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين " ؟

(146/277)

والجواب أنه لما زيد فى تعنيفهم فى النمل وتعريفهم بإتيانهم الفاحشة على علم بها أو مع مشاهدة بعضهم بعضا وعدم استخفائهم بها وذلك أقبح فى المرتكب فلما زيد فى تعليل الاخراج التنصيص على الآل لأن قوله : "آل لوط " – أنص فى إخراج جميع من للوط عليه

السلام من ذويه وأهله من قوله : "أخرجوهم " بزيادة التنصيص الأعم بإزاء الأزيد فى التقريع ولما عدد من قبائح مرتكباتهم فى العنكبوت ما عدد بقوله : "أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر " فكان تعداد مرتكباتهم أشد توبيخا فى تقريعهم وأنكأ لتمييز أفئدتهم كان مظنة تهيج واشتعال لسئ أخلاقهم وقبيح جوابهم فجاوبوا جواب من استحكم حنقه وطبع على قلبه فقالوا : "ائتنا بعذاب الله " تحكيما وتحقيقا لتكذيبهم وشاهدا بتصميمهم على المعاندة والكفر لأن قولهم فى الموضعين قبل : "أخرجوهم من قريتكم " على شناعة مرتكبهم فيه ليس كقوله : "ائتنا بعذاب الله " لأن قولهم : "أخرجوهم من قريتكم " يفهم فحواه ما يستلزم إخراجهم من مجازاتهم على ذلك فهو فى قوة قول القائل لمعانده : أنا أعاملك بكذا فإن قدرت على الانتصار لنفسك فافعل وقول القائل : أنا أفعل كذا ولا أبالى بما يكون عن ذلك وكأن قد قالوا : أخرجوهم فإن كان عذاب فليأت به فلما اشتد حنقهم نا طلبوا العذاب وعدلوا عن ذلك السبب استعجالا للمسبب فجاء كل من هذا على ما يجب والله سبحانه أعلم .

والسؤال الخامس قوله فى الأعراف : "فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين " وفى سورة النمل : "قدرناها من الغابرين " ، وقد ورد فى إهلاك امرأة لوط عليه السلام فى الحجر : "إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين " وللسائل أن يسال عن وجه الاختلاف فيما ذكر وورود كل من هذه العبارات حيث ورد ؟

والجواب أن قدرناها معط من المعنى ما يعطيه كانت من غير فرق لأن المراد إلحاقها بالهالكين وإخراجها من الناجين وهذا المعنى هو المراد بقدرناها مشددا وذكلك قوله فى الحجر : "قرنا أنها " وأما وجه اختصاص "كانت " بآية الأعراف فليناسب إيجازا قوله : "أخرجوهم " وقوله فى النمل "قدرناها " ليناسب : "أخرجوا آل لوط " وقوله فى الحجر : "قدرنا أنها " ليجرى مع ما وكد قبل بأن ويناسبه كقوله : "إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين " وقوله : "إنا لمنجوهم أجمعين " فقيل مناسبا لذلك : "قدرنا أنها " وتناسب هذا كله .

والسؤال السادس ما وجه تعقيب قوله فى الأعراف : "وأمطرنا عليهم مطرا " بقوله : "فانظر كيف كان عاقبة المجرمين " وفى النمل بقوله : "فساء مطر المنذرين " وهل كان يحسن العكس ؟ والجواب أنه لما تقدم فى الأعراف قوله : "ما سبقكم بها من أحد من العالمين "حصل منه أن ارتكابهم ما لم يسبق إليه غيرهم قد جمع إلى قبيح الفحش الاجترام من حيث لم يفعل تلك الفعلة الشنعاء من تقدمهم فأجمع إلى الفحش الاجترام فأعقب بقوله : "فانظر كيف كان عاقبة المجرمين " ولما تقدم فى النمل قوله : "أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون " حصل منه تعنيف وإنذار لم يقع مثله فى الأعراف إذ ليس موقع قوله : "ما

سبقكم بها من أحد من العالمين " فى الانذار والتعنيف كموقع تعريفهم بعلمهم بها وشنعة معاينة بعضهم بعضا من ارتكابها فناسب إنذارهم بهذا ما أعقب به من قوله : طفساء مطر المنذرين " ولو أعقبت آية الأعراف بهذا أو آية النمل بما أعقبت به آية الأعراف لم يكن متناسبا فجاء كل على ما يجب والله أعلم .

والسؤال السابع ما وجه قوله فى الأعراف : "وما كان جواب قومه "منسوقا بالواو وفى النمل والعنكبوت : "فما كان جواب قومه " بالفاء مع ان القصة واحدة فلا فرق بين الجوابين ؟

(148/277)

والجواب أنه حيث يراد مع ما سببية أو ما يشبه معنى المجازاة وكان الكلام المجاوب بصريح الفعل إذ هو أوضح إحرازا لهذا المعنى فحيث يجئ هذا فالوجه والأولى أن يترتب الجواب بالفاء وسواء تسبب عن الأول أو أقيم مقام ما تسبب عن الأول مثال الجارى على طريقة السببية قوله تعالى : "سنقرئك فلا تنسى " وقوله : "فآمنوا فمتعناهم إلى حين " وقوله : "فكذبوه فأنجيناه "وهذا كثير .

ومثال الثانى : "ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا " وقوله : "وجعلنا لهم سمعا وأبصرا

وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ " .

ولما تقدم فى سورة النمل قوله تعالى : "أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون "أى وقد منحتم بصائر للفه والاعتبار أو أبصارا لإدراك الأشياء وإحراز الحياء المانع من مواقعة العار .

فما أثمر أنس ذلك لكم إلا التعامى عن رشادكم وتمادى عنادكم فختام الآيتين بقوله : "وأنتم تبصرون " وقوله : "بل أنتم قوم تجهلون " فالجملة الفعلية فى خبر المبتدأ فى الأول وفى الصفة الموطئة للخبر فى الثانية مسوغ لتقدير معنى السببية لذلك من الواو فى سورة الأعراف إذ الختم فى الآيتين قبل آية الجواب بالجمل الإسمية : "ما سبقكم بها من أحد من العالمين بل أنتم مسرفون " فليس هذا فى تقدير السببية كالأول فالجواب هنا بالواو وحسن مع جواز الفاء والجواب بالفاء حيث تقدم أقوى لمكان الفعل وكون المعنى عليه فورد على ما يقويه السياق ويشهد له المعنى .

وأما آية العنكبوت فقد تقدم فيها أيضا قوله تعالى : "أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر " فهذه جملة فعلية وتقدير معنى السببية فيها كآية النمل ، فالجواب فيها بالفاء كما فى آية النمل أولى وأجرى مع المعنى وما يعطيه السياق وجاء كل ذلك على ما يناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 205 . 211 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

أخرج ابن عساكر عن سليمان بن صرد قال : أبو لوط هو عم إبراهيم .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس قال : أرسل لوط إلى المؤتفكات ، وكانت قوى لوط أربع مدائن : سدوم ، وأمورا ، وعامورا ، وصبوير . وكان في كل قرية مائة ألف مقاتل ، وكانت أعظم مدائنهم سدوم ، وكان لوط يسكنها ، وهي من بلاد الشام ومن فلسطين مسيرة وليلة ، وكان إبراهيم خليل الرحمن عم لوط بن هاران بن تارح ، وكان إبراهيم ينصح قوم لوط ، وكان الله قد أمهل قوم لوط فخرقوا حجاب الإِسلام ، وانتهكوا المحارم ، وأتوا الفاحشة الكبرى ، فكان إبراهيم يركب على حماره حتى يأتي مدائن قوم لوط فينصحهم فيأبون أن يقبلوا ، فكان بعد ذلك يجيء على حماره فينظر إلى سدوم . فيقول : يا سدوم أي يوم لك من الله سدوم ، إنما أنهاكم أن لا تتعرضوا لعقوبة الله ، حتى بلغ الكتاب أجله ، فبعث الله جبريل في نفر من الملائكة فهبطوا في صورة الرجال حتى انتهوا إلى إبراهيم وهو في زرع له يثير الأرض ، فلما بلغ الماء إلى سكته من الأرض ركز مساحته في الأرض فصلى خلفها ركعتين ، فنظرت الملائكة إلى إبراهيم فقالوا : لو كان الله يبتغي أن

يتخذ خليلاً لاتخذ هذا العبد خليلاً ، ولا يعلمون أن الله قد اتخذه خليلاً .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في ذم الملاهي والشعب وابن عساكر عن ابن عباس في قوله ﴿ أَتأتون الفاحشة ﴾ قال : أدبار الرجال .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي وابن عساكر عن عمرو بن دينار في قوله ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ قال : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط .

(150/277)

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم والبيهقي وابن عساكر عن أبي صخرة جامع بن شداد رفعه قال "كان اللواط في قوم لوط ، في النساء قبل أن يكون في الرجال بأربعين سنة" .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن طاوس . أنه سئل عن الرجل يأتي المرأة في عجيزتها ؟ قال : إنما بدء قوم لوط ذاك ، صنعته الرجال بالنساء ثم صنعته الرجال بالرجال .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن علي . أنه قال على المنبر : سلوني فقال ابن الكواء : تؤتي النساء في أعجازهن ؟ فقال علي : سفلت سفل الله

بك ، ألم تسمع إلى قوله ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان الذي حملهم على إتيان الرجال دون النساء أنهم كانت لهم ثمار في منازلهم وحوائطهم وثمار خارجة على ظهر الطريق ، وإنهم أصابهم قحط وقلة من الثمار ، فقال بعضهم لبعض : إنكم إن منعتم ثماركم هذه الظاهرة من أبناء السبيل كان لكم فيها عيش .

قالوا : بأي شيء نمنعها ؟ قالوا : اجعلوا سنتكم من أخذتم في بلادكم غريباً سننتم فيه أن تنكحوه واغرموه أربعة دراهم فإن الناس لا يظهرون ببلادكم إذا فعلتم ذلك ، فذلك الذي حملهم على ما ارتبكوا من الأمر العظيم الذي لم يسبقهم إليه أحد من العالمين .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طريق محمد بن إسحق عن بعض رواة ابن عباس قال : إنما كان بدء عمل قوط لوط أن إبليس جاءهم عند ذكرهم ما ذكروا في هيئة صبي أجمل صبي رآه الناس ، فدعاهم إلى نفسه فنكحوه ، ثم جروا على ذلك .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ والبيهقي وابن عساكر عن حذيفة قال : إنما حق القول على قوم لوط حين استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي وابن عساكر عن أبي حمزة قال : قلت لمحمد بن علي : عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم ؟ قال : الله أعدل من ذلك ، استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ قال : من أدبار الرجال وأدبار النساء .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ قال : من أدبار الرجال وأدبار النساء استهزاء بهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ قال : عابوهم بغير عيب ، وذموهم بغير ذم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ قال : من الباقين في عذاب الله ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ قال : أمطر الله على بقايا قوم لوط حجارة من السماء فأهلكتهم .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن الزهري إن لوطاً لما عذب الله قومه لحق بإبراهيم ، فلم يزل معه حتى قبضه الله إليه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب في قوله ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ قال : على أهل بواديهم

وعلى رعاتهم وعلى مسافريهم ، فلم ينفلت منهم أحد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب في قوله ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ قال : الكبريت والنار .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبي عروبة قال : كان قوم لوط أربعة آلاف ألف .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لعن الله من تولى غير مواليه ، ولعن الله من غير تخوم الأرض ، ولعن الله من كمه أعمى عن السبيل ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من وقع على بهيمة ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ثلاث مرات " .

وأخرج احمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط " .

(152/277)

وأخرج ابن عدي والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أربعة يصبحون في غضب الله ويمسون في سخط الله . قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : المتشبهون من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال ، والذي يأتي البهيمة ، والذي يأتي الرجل " .

وأخرج عبد الرزاق وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن أبي الدنيا والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي نضرة . أن ابن عباس سئل ما حدُّ اللوطي ؟ قال : ينظر أعلى بناء في القرية فيلقي منه منكساً ، ثم يتبع بالحجارة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والبيهقي عن يزيد بن قبس : إن علياً رجم لوطياً .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن شهاب قال : اللوطي يرجم أحصن أم لم يحصن ، سنة ماضية .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والبيهقي عن إبراهيم قال : لو كان أحد ينبغي له أن يرجم مرتين لرجم اللوطي .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبيد الله بن عبد الله بن معمر قال : علة الرجم قتلة قوم لوط .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والبيهقي عن الحسن وإبراهيم قالا : حدُّ اللوطي حد

الزاني ، إن كان قد أحصن فالرجم وإلا فالحد .

وأخرج البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : أول من اتهم بالأمر القبيح يعني عمل قوم لوط اتهم به رجل على عهد عمر رضي الله عنه ، فأمر عمر بعض شباب قريش أن لا يجالسوه .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن الوضين بن عطاء عن بعض التابعين قال : كانوا يكرهون أن يحد الرجل النظر إلى وجه الغلام الجميل .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن بقية قال بعض التابعين : ما أنا بأخوف على الشاب الناسك من سبع ضار من الغلام الأمرد يقعد إليه .

(153/277)

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن الحسن بن ذكوان قال : لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صوراً كصور النساء ، وهم أشد فتنة من العذارى .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن النجيب بن السدي قال : كان يقال لا يبيت الرجل في بيت مع المرد .

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن المبارك قال : دخل سفيان الثوري الحمام ، فدخل عليه

غلام صبيح فقال : أخرجوه فإني أرى مع كل امرأة شيطاناً ، ومع كل غلام بضعة عشر شيطاناً .

وأخرج ابن أبي الدنيا والحكيم الترمذي والبيهقي عن ابن سيرين قال : ليس شيء من الدواب يعمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن سهل قال : سيكون في هذه الأمة قوم يقال لهم اللوطيون على ثلاثة أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون ذلك العمل .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن مجاهد قال : لو أن الذي يعمل ذلك العمل يعني عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن جابر بن زيد قال : حرمة الدبر أشد من حرمة الفرج .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة عي النبي صلى الله عليه وسلم قال " لعن الله سبعة من خلقه فوق سبع سموات ، فردد لعنته على واحدة منها ثلاثاً ولعن بعد كل واحدة لعنة لعنة . قال : ملعون ملعون ملعون من عمل عمل قوم لوط ، ملعون من أتى شيئاً من البهائم ، ملعون من جمع بين امرأة وابنتها ، ملعون من عقّ والديه ، معلون من ذبح لغير الله ، ملعون من غير حدود الأرض ، ملعون من تولى غير مواليه " .

وأخرج ابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من عمل عمل قوم لوط فارجموا الفاعل والمفعول به " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة في المصنف وأبو داود عن ابن عباس . في البكر يوجد على اللوطية ؟ قال : يرجم .

(154/277)

وأخرج عبد الرزاق عن عائشة " أنها رأت النبي صلى الله عليه وسلم حزيناً فقالت : يا رسول الله وما الذي يحزنك ؟ قال : شيء تخوّفته على أمتي أن يعملوا بعدي بعمل قوم لوط " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي حصين . أن عثمان أشرف على الناس يوم الدار فقال : أما علمتم أنه لا يحل دم امرىء مسلم إلا أربعة : رجل قتل فقتل ، أو رجل زنى بعد ما أحصن ، أو رجل ارتد بعد إسلامه ، أو رجل عمل عمل قوم لوط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(155/277)

" فوائد لغوية "

قال ابن عادل :

قوله : " وأَمْطَرْنَا "

قال أبو عُبَيْدٍ : " يقال : مُطِر في الرحمة ، وأَمْطِر في العذاب " .

وقال [أبو القاسم] الرَّاغِبُ : ويقال : مطر في الخير ، وأمطر في العذاب ، قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ﴾ [الحجر : 74] .

وهذا مردود بقوله تعالى : ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : 24] فإنهم إنَّما عنوا بذلك الرحمة ، وهو من أَمْطَرَ : وأَمْطرتهم ، وقوله تعالى هنا : " وأَمْطَرْنا " ضُمِّن معنى " أَرْسَلْنَا " ولذلك عُدِّي بـ " عَلَى " ، وعلى هذا ف " مَطَراً " مفعولٌ به لأَنَّهُ يُراد به الحجارة ، ولا يُرَادُ به المصدر أصلاً ، إذ لو كان كذلك لقيل : أمطار .

ويوم مَطِيرٌ : أي : مَمْطُورٌ .

ويوم ماطر ومُمْطِرٌ على المجاز كقوله : ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم : 18] ، ووادٍ مطير فقط فلم يُتَجَوَّزْ فيه ومطير بمعنى مُمْطِر ؛ قال : [الطويل]

2517 - حَمَامَةَ بَطْنِ الوَادِيَيْنِ تَرَنَّمِي . . .

سَقَاكِ من الغُرِّ الغَوَادِي مَطِيرُهَا

فعيل هنا بمعنى فاعل ؛ لأنَّ السَّحاب يمطرُ غيرها ، ونكَّر " مطراً " تعظيماً ، والمرادُ بالمطر هنا يعني حجارة من سجيل .

قال وهب : " هي الكبريت والنَّار فانظر كَيْفَ كان عاقِبةُ المجرمين " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 208 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84) ﴾

أباح الحقُّ – سبحانه – في الشرع ما أزاح به العذر ، فمن تَخَطَّ هذا الأمر وجرى على مقتضى الهوة استقبل هوانه ، واستوجب إذلاله ، واستجلب – باختياره – صغره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 549 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (80) ﴾

وَلُوطاً وأرسلنا لوطا . وإِذْ ظرف لأرسلنا . أو واذكر لوطا ، وإذ بدل منه ، بمعنى : واذكر وقت قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أتفعلون السيئة المتمادية في القبح ما سَبَقَكُمْ بِها ما عملها قبلكم ، والباء للتعدية من قولك : سبقته بالكرة ، إذا ضربتها قبله . ومنه قوله عليه السلام «سبقك بها عكاشة « 1 »» مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ «من» الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق ، والثانية للتبعيض . فإن قلت : ما موقع هذه الجملة ؟ قلت : هي جملة مستأنفة ، أنكر عليهم أوّلا بقوله أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ثم وبخهم عليها فقال : أنتم أوّل من عملها . أو على أنه جواب لسؤال مقدّر ، كأنهم قالوا : لم لا نأتيها ؟ فقال : ما سبقكم بها أحد ، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ بيان لقوله : أتأتون الفاحشة . والهمزة مثلها في أَتَأْتُونَ للإنكار والتعظيم . وقرئ : إنكم ، على الإخبار المستأنف لتأتون الرجال ، من أتى المرأة إذا غشيها شَهْوَةً مفعول له ، أى للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلا مجرّد الشهوة من غير داع آخر ، ولا ذم أعظم منه ، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، أنه لا داعى لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه أو حال بمعنى مشتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح

وتدعوا إلى اتباع الشهوات وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء ، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة ، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد . ونحوه بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ . وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا يعنى ما أجابوه بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط عليه السلام ، من إنكار الفاحشة ، وتعظيم أمرها ، ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله ، ولكنهم جاءوا

---

(1) . متفق عليه من حديث ابن عباس في قصته . ولمسلم من حديث أبى هريرة نحوه . ومن حديث عمران بن حصين رضى اللّه عنه .

بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته ، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ، ضجراً بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم . وقولهم إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف «1» ، وأريحونا من هذا المتزهد وَأَهْلَهُ ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين «2» مِنَ الْغابِرِينَ من الذين غبروا في ديارهم ، أى بقوا فهلكوا . والتذكير لتغليب الذكور على الإناث . وكانت كافرة موالية لأهل سدوم .

وروى أنها التفتت فأصابها حجر فماتت . وقيل : كانت المؤتفكة خمس مدائن . وقيل : كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة ، فأمطر اللّه عليهم الكبريت والنار . وقيل : خسف بالمقيمين منهم ، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم . وقيل : أمطر عليهم ثم خسف بهم . وروى أن تاجراً منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه . فإن قلت :

أى فرق بين مطر وأمطر ؟ قلت : يقال مطرتهم السماء وواد ممطور «3» . وفي نوابغ الكلم : حرى غير ممطور . حرى أن يكون غير ممطور «4» ومعنى مطرتهم : أصابتهم بالمطر ، كقولهم . غاثتهم ووبلتهم وجادتهم ورهمتهم . ويقال : أمطرت عليهم كذا ، بمعنى أرسلته عليهم إرسال المطر فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ . ومعنى وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً وأرسلنا عليهم نوعا من المطر عجيباً يعنى الحجارة . ألا ترى إلى قوله فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 125 .

﴿126

---

(1) . قوله «أبعدوا عنا هذا المتقشف» المنقشف : هو الذي يتبلغ بالقوت وبالمرقع ، من القشف : وهو التغير من الشمس أو الفقر اه . (ع)

(2) . قوله «من ذويه أو من المؤمنين» يعنى أقاربه وامرأته . (ع)

(3) . قال محمود : «يقال مطرتهم السماء وواد ممطور . . . الخ» قال أحمد : مقصود

المصنف الرد على من قول :

مطرت السماء في الخير ، وأمطرت في الشر . ويتوهم أنها تفرقة وضعية ، فبين أن أمطرت : معناه أرسالات شيئاً على نحو المطر وإن لم يكن ماء ، حتى لو أرسل اللّه من السماء أنواعا من الخيرات والأرزاق مثلا كالمن والسلوى ، لجاز أن يقال فيه : أمطرت السماء خيرات ، أى أرسلتها إرسال المطر . فليس الشر خصوصية في هذه الصيغة الرباعية ، ولكن اتفق أن السماء لم ترسل شيئا سوى المطر إلا وكان عذابا ، فظن الواقع اتفاقا مقصودا في الوضع فنبه على تحقيق الأمر فيه وأحسن وأجمل .

(4) . قوله «حرى غير ممطور حرى أن يكون غير ممطور» حرى الأول بمعنى ناحية وجانب . والثاني بمعنى جدير وحقيق . وممطور الأول بمعنى مصاب بالمطر . والثاني بمعنى مذهوب فيه . كذا يؤخذ من الصحاح . (ع)

(158/277)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84) ﴾

القصة الخامسة قوله سبحانه ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه ﴾ تقديره أرسلنا لوطاً وقت قال لقومه ، ويجوز أن يكون معناه واذكر لوطاً إذ قال لقومه على أن " إذ " بدل من المفعول به لا ظرف . وإنما صرف نوح ولوط مع أن فيه سببين : العجمة والعلمية ، لأن سكون وسطه قاوم أحد السببين ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ أتفعلون الخصلة المتمادية في القبح ﴿ ما سبقكم بها ﴾ قال في الكشاف : الباء للتعدية من قولك : سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله أي ما عملت قبلكم .

قلت : ومن المحتمل أن تكون الباء فيه مثله في قولك : كتبت بالقلم . وفي قوله ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] أي ما سبقكم ملتبساً بها من أحاد من العالمين " من " الأولى زائدة لتأكيد النفي وإفادة الاستغراق . والثانية للتبعيض . وموقع هذه الجملة استئناف لأنه أنكر عليهم أوّلاً بقوله ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ ثم وبخهم عليها فقال : وأنتم أوّل من عملها . أو هو جواب سؤال مقدر كأنه قيل : لم لا نأتيها ؟ فقال : ﴿ ما سبقكم بها من أحد ﴾ فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به . ويجوز أن تكون صفة للفاحشة كقوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . . وههنا سؤال وهو أنه كيف يجوز دعوى عدم السبق في هذه الخصلة ولم تزل الشهة داعية إليها ؟ والجواب لعل متقدميهم كانوا يستقذرونها وينفرون عنها طبعاً كسائر الحيوانات ، أو المراد أن الإقبال باكلية على ذلك العمل لم يوجد في الأعصار المتقدمة . قال الحسن : كانوا ينكحون الرجال في أدبارهم وكانوا لا ينكحون إلا الغرباء . وقال عطاء عن ابن عباس : استحكم ذلك فيهم حتى فعل بعضهم ببعض ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ بيان لما أجمله في قوله ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ وكلا الاستفهامين للإنكار . وفي الثاني أكثر ولهذا زيد فيه " إن " ومثله في النمل ﴿ أتأتون ﴾ وبعده ﴿ أئنكم لتؤتون ﴾ [النمل : 55] وفي العنكبوت ﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ [الآية : 28] ﴿ أئنكم لتؤتون الرجال ﴾ [النمل : 55] فجمع بين " إن " " وأئن " القصة ﴿ إنا منجوك ﴾ إنا منزلون . وانتصب ﴿ شهوة ﴾ على أنها مفعول له أي لا حامل لكم على غشيان الرجال من دون النساء إلا مجرد الشهوة ، أو مصدر وقع حالاً يقال : شهى يشهى شهوة ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحالة الموجبة لارتكاب القبائح وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء . وختم هذه الآية بلفظ الاسم موافقة لرؤوس الآيات التي تقدمت ﴿ العالمين ﴾ ﴿ الناصحين ﴾ ﴿ جاثمين ﴾ ﴿ المرسلين ﴾ وفي النمل ﴿ قال بل أنتم قوم تجهلون ﴾ [الآية : 55] أما العدول من الإسراف إلى الجهل فلتغير العبارة ، وكل إسراف جهل وكل جهل إسراف . وأما

العدول من الاسم إلى الفعل فلتوافق ما قبلها من الآيات وكلها أفعال ﴿ ينصرون ﴾ ﴿ تتقون ﴾ ﴿ يعلمون ﴾ واعلم أن قبح هذا العمل كالأمر المقرر في الطباع ووجوه القبح فيه كثيرة منها : أن أكثر الناس يحترزون فيه عن الولد لأن الولد يحمل المرء على طلب المال وإتعاب النفس في وجوه المكاسب إلا أنه تعالى جعل الوقاع سبباً لحصول اللذة العظيمة حتى إن الإنسان يطلب

(160/277)

تلك اللذة ويقدم على الوقاع وحينئذ يحصل الولد شاء أم أبى ، وبهذا الطريق يبقى النسل ولا ينقطع النوع فوضع اللذة في الوقاع يشبه وضع الشيء الذي يشتهيه الحيوان في الفخ والغرض إبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع .

(161/277)

فكل لذة لا تؤدي إلى هذا الغرض وجب الحكم بتحريمها لما فيه من ضياع البذر ولزوم خلاف الحكمة . ومنها أن الذكورة مظنة الفعل والأنوثة مظنة الانفعال ، فانعكاس القضية

يكون خروجاً عن مقتضى الطبيعة والحكمة ، ومنها أن الاشتغال بمحض الشهوة تشبه بالبهائم وخروج عن الغريزة الإنسانية . وهب أن الفاعل يلتذ بذلك العمل إلا أنه سعى في إلحاق العار العظيم بالمفعول ما دام حياً ، والعاقل لا يرضى لأجل لذة زائلة إلحاق منقصة دائمة بغيره . ومنها أنه يوجب استحكام العداوة بين الفاعل والمفعول إلى حيث يقدم المفعول على قتل الفاعل ، أو على إلحاق الضرر به بكل طريق يقدر عليه وذلك لنفور طبعه عن رؤيته . وأما حصول هذا العمل بين الرجل والمرأة فإنه يوجب زيادة الألفة والمحبة كما قال تعالى ﴿ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ [الروم : 21] ومنها أنه تعالى أودع في الرحم قوّة جاذبة للمني بحيث لا يبقى شيء منه في مجاريه وأوعيته ، أما إذا واقع الذكر فإنه يبقى شيء من أواخر المني في المجاري فيعفن ويفسد ويتولد من العلل والأورام في الأسافل كما يشهد به القوانين الطبية قال بعضهم : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ [المؤمنون : 5 ، 6] يقتضي حل وطء المملوك مطلقاً ذكراً كان أو أنثى . ولا يمكن تخصيص هذا العموم بقوله ﴿ أتأتون الذكران من العالمين ﴾ [الشعراء : 165] لأن كلاً من الآيتين أعم من الأخرى من وجه لأن المملوك قد يكون ذكراً وقد لا يكون ، والذكر قد يكون مملوكاً وقد لا يكون ، فتخصيص إحداهما بالأخرى ترجيح من غير مرجح بل الترجيح لجانب الحل لمقتضى الأصل وذلك لأن المالك مطلق التصرف ، ولأن شرع محمد أولى من شرع لوط .

وأجيب بأن الاعتماد على التواتر الظاهر من دين محمد صلى الله عليه وسلم أن هذا العمل حرام قال تعالى ﴿ وما كان جواب قومه ﴾ بالواو كيلا يكون التعقيب بالفاء بعد الاسم .

(162/277)

وفي النمل ﴿ تجهلون فما كان ﴾ [النمل : 55] وفي العنكبوت ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر فما كان ﴾ [الآية : 29] لصحة تعقيب الفعل الفعل ﴿ إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم ﴾ وفي النمل ﴿ أخرجوا آل لوط ﴾ [الآية : 56] ليكون ما في النمل تفسيراً لهذه الكناية وقيل : إن سورة النمل نزلت قبل الأعراف فيكون قد صرح في الأولى وكنى في الثانية . قال في الكشاف : يعني ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة . ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله ولكنهم جاؤا بكلام آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجراً بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم ، وقولهم ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش وافتخار بما كانوا فيه من القذارة كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد .

وقيل : المراد أن ذلك العمل في موضع النجاسة فمن تركه فقد تطهر . وقيل : ان البعد عن الإثم يسمى طهارة ، فالمراد أنهم يتباعدون عن المعاصي والآثم ﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ أي أنصاره وأتباعه والذين قبلوا دينه ، وعن ابن عباس : أراد المتصلين به في النسب بدليل قوله ﴿ إلا امرأته ﴾ يقال : امرأة الرجل بمعنى زوجته ولا يقال مرء المرأة يعني زوجها لأن المالكية حق الزوج ﴿ كانت من الغابرين ﴾ وفي النمل ﴿ قدرناها من الغابرين ﴾ [النمل : 57] أي كانت في علم الله من الغابرين . ﴿ فقدرناها من الغابرين ﴾ وإن قلنا بتأخر نزول الأعراف فالمعنى قدرناها من الغابرين فصارت من الغابرين ، والغبور المكث والبقاء أي من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا ، أو التذكير لتغليب الذكور وكانت كافرة موالية لأهل سدوم . روي أنها التفتت فأصابها حجر فماتت . ثم وصف العذاب فقال ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أي أرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً . قيل : كانت المؤتفكة خمس مدائن . وقيل كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة . فأمطر الله عليهم الكبريت والنار . وقيل : خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم . وقيل : أمطر عليهم ثم خسف بهم . وروي أن تاجراً منهم كان في الحرم فوقف له الحجر

أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه ﴿ فانظر ﴾ يا محمد أو كل من له أهلية النظر والاعتبار ﴿ كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ وهذه الأمة وإن أمنت من عذاب الاستئصال إلا أن الخوف والاعتبار من شعار المؤمن لا ينبغي أن ينفك عنه على أن عذاب الآخرة أشدّ وأبقى ولم يأمنوه بعده .

(164/277)

مسائل : الأولى مذهب الشافعي أن اللواط يوجب الحدّ لأنه ثبت في شريعة لوط فالأصل بقاؤه إلى طريان الناسخ ولم يظهر نسخ في شرعنا ، ولأن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على علية الوصف للحكم ، فالآية دلت على أن هذا الجرم المخصوص علة لحصول هذا الزاجر المخصوص . وقال أبو حنيفة : إن الواجب فيه التعزير لأنه فرج لا يجب المهر بالإيلاج فيه فلا يجب الحدّ كإتيان البهيمة ، وعلى الأول ففي عقوبة الفاعل قولان : أحدهما أن عقوبته القتل محصناً كان أو لم يكن لما روي انه صلى الله عليه وسلم قال " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول " وأصحهما أن حده حد الزنا فيرجم إن كان محصناً ويجلد ويغرب إن لم يكن محصناً لأنه حد يجب بالوطء ، ويختلف فيه البكر والثيب كالإتيان في القبل . وعلى قول القتل فيه وجوه أحدها : يقتل بالسيف كالمرتد ،

والثاني وبه قال مالك وأحمد يرجم تغليظاً ، ويرى عن علي عليه السلام أيضاً . والثالث يهدم عليه جدار أو يرمى من شاهق جبل ليموت أخذاً من عذاب قوم لوط .

وأما المفعول فإن كان صغيراً أو مجنوناً أو مكرهاً فلا حد عليه ولا مهر لأن منفعة بضع الرجل لا تتقوم ، وإن كان مكلفاً طائعاً فيقتل بما يقتل به الفاعل إن قلنا إن الفاعل يقتل ، وإن قلنا يحد حد الزنا فيجلد ويغرب محصناً كان أو لم يكن ، وإن أتى امرأة في دبرها ولا ملك ولا نكاح فالأظهر أنه لواط لأنه إتيان في غير المأتي ويجيء في الفاعل والمفعول ما ذكرنا .

وقيل : إنه زنا لأنه وطء أنثى فأشبه الوطء في القبل فعلى هذا حده حد الزنا بلا خلاف .

وترجم المرأة إن كانت محصنة . وإذا لاط بعبده فهو كالأجنبي على الأصح ولو أتى امرأته أو جاريته في الدبر فالأصح القطع بمنع الحد لأنها محل استمتاعه بالجملة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 278 . 281 ﴾

(165/277)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ وَلُوطاً ﴾ معطوف على ما سبق ، أي وأرسلنا لوطاً ، أو منصوب بفعل مقدّر ، أي واذكر لوطاً وقت قال لقومه .

قال الفراء : لوط مشتق من قولهم : هذا أليط بقلبي ، أي ألصق .

قال الزجاج : زعم بعض النحويين أن لوطاً يجوز أن يكون مشتقاً من لطت الحوض إذا ملسته بالطين ، وهذا غلط .

لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق .

وقال سيبويه نوح ولوط أسماء أعجمية إلا أنها خفيفة ، فلذلك صرفت .

ولوط هو ابن هاران بن تارخ ، فهو ابن أخي إبراهيم ، بعثه الله إلى أمة تسمى سدوم .

﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ أي الخصلة الفاحشة المتمادية في الفحش والقبح .

قال ذلك إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ أي لم يفعلها أحد قبلكم .

فإن اللواط لم يكن في أمة من الأمم قبل هذه الأمة ، و "من" مزيدة للتوكيد للعموم في النفي ، وإنه مستغرق لما دخل عليه ، والجملة مسوقة لتأكيد النكير عليهم والتوبيخ لهم .

قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة .

وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام المقتضي للتوبيخ والتقريع ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد والكسائي وغيرهما ، واختار الخليل وسيبويه القراءة الثانية ، فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة مبينة لقوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ وكذلك على القراءة الثانية ، مع

مزيد الاستفهام وتكريره المفيد للمبالغة في التقريع والتوبيخ ، وانتصاب ﴿ شهوة ﴾ على المصدرية ، أي تشتهونهم شهوة ، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال ، أي مشتهين .

(166/277)

ويجوز أن يكون مفعولاً له ، أي لأجل الشهوة ، وفيه أنه لا غرض لهم بإتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة من غير أن يكون لهم في ذلك غرض يوافق العقل ، فهم في هذا كالبهائم التي ينزو بعضها على بعض ، لما يتقاضاها من الشهوة ﴿ مّن دُونِ النساء ﴾ أي متجاوزين في فعلكم هذا للنساء ، اللاتي هنّ محل لقضاء الشهوة ، وموضع لطلب اللذة ، ثم أضرب عن الإنكار المتقدّم إلى الإخبار بما هم عليه من الإسراف الذي تسبب عنه إتيان هذه الفاحشة الفظيعة .

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ الواقعين في هذه الفاحشة على ما أنكره عليهم منها ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم ﴾ أي لوطاً وأتباعه ﴿ مّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ أي ما كان لهم جواب إلا هذا القول المباين للإنصاف ، المخالف لما طلبه منهم وأنكره عليهم ، وجملة : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ تعليل لما أمروا به من الإخراج ، ووصفهم بالتطهر ، يمكن أن يكون على حقيقته ، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة ، فلا يساكنونا في

قريتنا ، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء ، ثم أخبر الله سبحانه أنه أنجى لوطاً وأهله المؤمنين به ، واستثنى امرأته من الأهل ، لكونها لم تؤمن به ، ومعنى : ﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ أنها كانت من الباقين في عذاب الله ، يقال غبر الشيء إذا مضى ، وغبر إذا بقي فهو من الأضداد .

وحكى ابن فارس في المجمل عن قوم أنهم قالوا : الماضي عابر بالعين المهملة ، والباقي غابر بالمعجمة .

وقال الزجاج : ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ أي من الغائبين عن النجاة .

وقال أبو عبيد : المعنى ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ أي من المعمرين ، وكانت قد هرمت ، وأكثر أهل اللغة على أن الغابر الباقي .

قوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ قيل : أمطر بمعنى إرسال المطر .

(167/277)

وقال أبو عبيدة : مطر في الرحمة وأمطر في العذاب ، والمعنى هنا : أن الله أمطر عليهم مطراً غير ما يعتادونه ، وهو رميهم بالحجارة كما في قوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 74] ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾ هذا خطاب لكل من يصلح له

، أو لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وسيأتي في هود قصة لوط بأبين مما هنا .

وقد أخرج ابن أبي الدنيا ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن عساكر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ قال : أدبار الرجال .

وأخرج ابن عساكر ، عن ابن عباس ، قال : إنما كان بدء عمل قوم لوط : أن إبليس جاءهم في هيئة صبيّ ، أجمل صبيّ رآه الناس ، فدعاهم إلى نفسه ، فنكحوه ثم جسروا على ذلك .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عنه ، في قوله : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ قال : من أدبار الرجال ، ومن أدبار النساء .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ قال : من الباقين في عذاب الله .

وأخرج أبو الشيخ ، عن سعيد بن أبي عروبة ، قال : كان قوم لوط أربعة آلاف ألف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(168/277)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . . . الآيات ﴾

وتمضي عجلة التاريخ ، فيظلنا عهد إبراهيم – عليه السلام – ولكن السياق لا يتعرض هنا لقصة إبراهيم . ذلك أن السياق يتحرى مصارع المكذبين ؛ متناسقاً مع ما جاء في أول السورة : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴾ وهذا القصص إنما هو تفصيل لهذا الإجمال في إهلاك القرى التي كذبت بالنذير . . وقوم إبراهيم لم يهلكوا لأن إبراهيم – عليه السلام – لم يطلب من ربه هلاكهم . بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله . . إنما تجيء هنا قصة قوم لوط – ابن أخي إبراهيم – ومعاصره ، بما فيها من إنذار وتكذيب وإهلاك . يتمشى مع ظلال السياق ، على طريقة القرآن :

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال – شهوة – من دون النساء . بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً ، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ . .

وتكشف لنا قصة قوم لوط عن لون خاص من انحراف الفطرة ؛ وعن قضية أخرى غير قضية الألوهية والتوحيد التي كانت مدار القصص السابق .

ولكنها في الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد . . إن الاعتقاد في الله الواحد يقود إلى الإسلام لسننه وشرعه . وقد شاءت سنة الله أن يخلق البشر ذكراً وأنثى ، وأن يجعلهما شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما ؛ وأن يتم الامتداد في هذا الجنس عن طريق النسل ؛ وأن يكون النسل من التقاء ذكر وأنثى . . ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء ، صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء ، مجهزين عضوياً ونفسياً لهذا الالتقاء . . وجعل اللذة التي ينالانها عندئذ عميقة ، والرغبة في إتيانها أصيلة ، وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله في امتداد الحياة ؛ ثم لتكون هذه الرغبة الأصيلة وتلك اللذة العميقة دافعاً في مقابل المتاعب التي يلقيانها بعد ذلك في الذرية . من حمل ووضع ورضاعة . ومن نفقة وتربية وكفالة . . ثم لتكون كذلك ضماناً لبقائهما ملتصقين في أسرة ، تكفل الأطفال الناشئين ، الذين تطول فترة حضانتهم أكثر من أطفال الحيوان ، ويحتاجون إلى رعاية أطول من الجيل القديم !

هذه هي سنة الله التي يتصل إدراكها والعمل بمقتضاها بالاعتقاد في الله وحكمته ولطف تدبيره وتقديره . ومن ثم يكون الانحراف عنها متصلاً بالانحراف عن العقيدة ، وعن منهج

الله للحياة .

ويبدو انحراف الفطرة واضحاً في قصة قوم لوط ، حتى أن لوطا ليجبههم بأنهم بدع دون خلق الله فيها ، وأنهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين :

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال – شهوة – من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾ . .

(170/277)

والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية . والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها ، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة ، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب . فهي مجرد ﴿ شهوة ﴾ شاذة . لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة ، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري ، قبل أن يكون فساد الأخلاق . . ولا فرق في الحقيقة . فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية ، بلا انحراف ولا فساد .

إن التكوين العضوي للأنثى – كالتكوين النفسي – هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر

في هذا الالتقاء ، الذي لا يقصد به مجرد " الشهوة " . إنما هذه اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة ، إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة ، مصحوباً بلذة تعادل مشقة التكليف ! فأما التكوين العضوي للذكر – بالنسبة للذكر – فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة ؛ بل إن شعور الاستقذار ليسبق ، فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة .

وطبيعة التصور الاعتقادي ، ونظام الحياة الذي يقوم عليه ، ذو أثر حاسم في هذا الشأن . .

فهذه هي الجاهلية الحديثة في أوربا وفي أمريكا ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً . بغير ما مبرر إلا الانحراف عن الاعتقاد الصحيح ، وعن منهج الحياة الذي يقوم عليه .

(171/277)

وقد كانت هناك دعوى عريضة من الأجهزة التي يوجهها اليهود في الأرض لتدمير الحياة الإنسانية لغير اليهود ، بإشاعة الانحلال العقيدي والأخلاقي . . كانت هناك دعوى عريضة من هذه الأجهزة الموجهة بأن احتجاب المرأة هو الذي ينشر هذه الفاحشة الشاذة

في المجتمعات ! ولكن شهادة الواقع تخرق العيون . ففي أوربا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الكامل بين كل ذكر وكل أنثى – كما في عالم البهائم ! – وهذه الفاحشة الشاذة يرتفع معدلها بارتفاع الاختلاط ولا ينقص ! ولا يقتصر على الشذوذ بين الرجال ؛ بل يتعداه إلى الشذوذ بين النساء . . ومن لا تخرق عينيه هذه الشهادة فليقرأ : " السلوك الجنسي عند الرجال " و " السلوك الجنسي عند النساء " في تقرير "كنزي" الأمريكي . . ولكن هذه الأجهزة الموجهة ما تزال تردد هذه الأكذوبة ، وتسندها إلى حجاب المرأة . لتؤدي ما تريده بروتوكولات صهيون ، ووصايا مؤتمرات المبشرين !

ونعود إلى قوم لوط ! فيتجلى لنا الانحراف مرة أخرى في جوابهم لنبيهم :

﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون ﴾ !

يا عجباً ! أو من يتطهر يخرج من القرية إخراجاً ، ليبقى فيها الملوثون المدنسون ؟ !

ولكن لماذا العجب ؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ؟ أليست تطارد الذين يتطهرون ، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية – وتسميه تقدمية وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة – أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك ؛ ولا تطيق أن تراهم يتطهرون ؛ لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين ؟ ! إنه منطق الجاهلية في كل حين ! !

وتعرض الخاتمة سريعاً بلا تفصيل ولا تطويل كالذي يجيء في السياقات الأخرى :

﴿ فأنجيناه وأهله – إلا امرأته كانت من الغابرين – وأمطرنا عليهم مطراً ، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ . .

(172/277)

إنها النجاة لمن تهددهم العصاة . كما أنها هي الفصل بين القوم على أساس العقيدة والمنهج . فامرأته – وهي ألصق الناس به – لم تنج من الهلاك . لأن صلتها كانت بالغابرين المهلكين من قومه في المنهج والاعتقاد .

وقد أمطروا مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف . . ترى كان هذا المطر المغرق ، والماء الدافق ، لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه ، والوحل الذي عاشوا وماتوا فيه ؟ !

على أية حال لقد طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين المجرمين ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1314.1316 ﴾

(173/277)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ هذه ناقة الله ﴾ معجزة الخواص أن يخرج لهم من حجارة القلب ناقة السر عشراء بسقب سر السر وهو الخفي . وناقة الله هي التي تحمل أمانة معرفته وتعطي ساكني بلد القالب من القوى والحواس لبن الواردات الإلهية ، ﴿ فذروها ﴾ ترتع في رياض القدس وحياض الإنس ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ مخالفات الشريعة ومعارضات الطريقة ﴿ فيأخذكم عذاب أليم ﴾ بالانقطاع عن مواصلات الحقيقة . ﴿ إذ جعلكم خلفاء ﴾ مستعدين للخلافة ﴿ وبوأكم ﴾ في أرض القلوب ﴿ تتخذون من سهولها ﴾ وهي المعاملات بالصدق والإخلاص ﴿ قصوراً ﴾ في الجنان ﴿ وتنحتون ﴾ من جبال أطوار القلب ﴿ بيوتاً ﴾ هي مقامات السائرين إلى الله ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ النعماء والإخلاص . فالأول يتضمن ترويح الظاهر ، والثاني يوجب تلويح السر . فالترويح بوجود المسار والتلويح بشهود الأسرار ﴿ ولا تعثوا في الأرض ﴾ القلب بالفساد للاستعداد الفطري ﴿ الذين استكبروا ﴾ هم الأوصاف البشرية والأخلاق الذميمة ﴿ الذين استضعفوا ﴾ من أوصاف القلب والروح . ﴿ أتعلمون ﴾ أن صالح الروح ﴿ مرسل ﴾ بنفخة الحق إلى بلد القلب وساكنيه ليدعوهم من الأوصاف السفلية لظلمانية إلى الأخلاق العلوية النورانية ﴿ فعقروا ﴾ أي النفس وصفاتها ناقة سر القلب بسكاكين مخالفات الحق

﴿ فأخذتهم ﴾ رجفة الموت ﴿ فأصبحوا ﴾ في دار قالبهم ﴿ جاثمين ﴾ والله العزيز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 281.282 ﴾

(174/277)

فصل فيما فى الشرك والزنا واللواطة من الخبث

قال ابن القيم :

وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث فى كتابه دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك ، لكن الذى وقع فى القرآن قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: 28] وقوله تعالى فى حق اللوطية:

﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: 74] ، وقالت اللوطية: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: 56] .

فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس ، وأن لوطا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له ، وقال تعالى فى حق الزناة:

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ [النور: 26] .

فأما نجاسة الشرك فهى نوعان: نجاسة مغلظة ، ونجاسة مخففة ، فالمغلظة: الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله عز وجل ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به . والمخففة: الشرك الأصغر ، كيسير الرياء ، والتصنع للمخلوق ، والحلف به وخوفه ورجائه . ونجاسة الشرك عينية . ولهذا جعل سبحانه الشرك نجسا ، بفتح الجيم ، ولم يقل: إنما المشركون نجس ، بالكسر ، فإن النجس عين النجاسة ، والنجس ، بالكسر ، هو المتنجس . فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نجس . والبول والخمر نجس . فأنجس النجاسة الشرك ، كما أنه أظلم الظلم . فإن النجَس فى اللغة والشرع هو المستقذر الذى يطلب مباعدته والبعد منه ، بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرى ،

فضلا أن يخالط ويلابس لقذارته ، ونفرة الطباع السليمة عنه . وكلما كان الحى أكمل حياة وأصح حياء كان إبعاده لذلك أعظم ونفرته منه أقوى .

فالأعيان النجسة إما أن تؤذى البدن أو القلب ، أو تؤذيهما معا . والنجَس قد يؤذى برائحته ، وقد يؤذى بملابسته ، وإن لم تكن له رائحة كريهة .

(175/277)

والمقصود : أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة ، وتارة تكون معنوية باطنة فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة ، حتى إن صاحب القلب الحى ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها ، كما يتأذى من يشم رائحة النَّتْن ، ويظهر ذلك كثيرا فى عرقه ، حتى ليوجد لرائحة عرقه نتنا . فإن نَتْن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره . والعرق يفيض من الباطن ، ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق . وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أطيب الناس عرقا . قالت أم سليم ، وقد سألها رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه وهى تلتقطه "هو من أطيب الطيب" فالنفس النجسة الخبيثة يقوى خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد . والنفس الطيبة بضدها ، فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض ، ولتلك كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض .

والمقصود : أن الشرك لما كان أظلم الظلم ، وأقبح القبائح ، وأنكر المنكرات ، كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له ، وأشدها مقتا لديه . ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه ، وأخبر أنه لا يغفره ، وأن أهله نجس ، ومنعهم من قربان حرمه ، وحرم ذبائحهم ومناكحتهم ، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين ، وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين ، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأن يتخذوهم عبيدا ، وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية ، وتنقيص لعظمة الإلهية ،

وسوء ظن برب العالمين ، كما قال تعالى:

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: 6] .

(176/277)

فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الإشراك ، فإنهم ظنوا به ظن السوء ، حتى أشركوا به ، ولو أحسنوا به الظن لوحّدوه حق توحيده ، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره فى ثلاثة مواضع من كتابه وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلا وندا ، يحبه ، ويخافه ، ويرجوه ، ويذل له ، ويخضع له ، ويهرب من سخطه ، ويؤثر مرضاته ؟ قال تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 165] .

وقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: 1] .

أى يجعلون له عَدْلا فى العبادة والمحبة والتعظيم . وهذه هى التسوية التى أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم ، وعرفوا ، وهم فى النار ، أنها كانت ضلالا وباطلا ، فيقولون لآلهتهم

وهم فى النار معهم:

﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: 97-98] .

ومعلوم أنهم ما سووهم به فى الذات والصفات والأفعال ، ولا قالوا : إن آلهتهم خلقت السماوات والأرض ، وأنها تحيى وتميت ، وإنما سووها به فى محبتهم لها ، وتعظيمهم لها ، وعبادتهم إياها ، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام . ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين ، وما ذنبهم إلا أن قالوا : إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبدا ، بل قد

حرم الله شفاعتهم لهم ، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم فى الشفاعة ، فليس لهم من الأمر شىء ، بل الأمر كله لله ، والشفاعة كلها له سبحانه ، والولاية له ، فليس لخلقه من دونه ولى ولا شفيع .

(177/277)

فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى ، ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين:

﴿ أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: 86-87] .

وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به ، وقد عبدتم معه غيره ، وجعلتم له ندا ؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد : ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره ؟

فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه: من وزير ، أو ظهير ، أو عون . وهذا أعظم التنقيص لمن هو غنى عن كل ما سواه بذاته ، وكل ما سواه فقير إليه بذاته ، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك ، وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة ، أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم ، أو لا يكفى عبده وحده ، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة ، كما يشفع المخلوق عند المخلوق ، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به ، وتكثره به من القلة ، وتعززه به من الذلة ، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه ، كما هو حال ملوك الدنيا ، وهذا أصل شرك الخلق . أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم ، حتى يرفع الوسائط إليه ذلك ، أو يظن أن للمخلوق عليه حقا ، فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه ، ويتوسل إليه بذلك المخلوق ، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفته ، وكل هذا تنقص للربوبية ، وهضم لحقها ، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله تعالى وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، من قلب المشرك ، بسبب قسمته ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به ، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم

والمحبة والخوف والرجاء ، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه- لكفى فى شناعته .

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه ، والتنقص لازم له ضرورة ، شاء المشرك أم أبى ، ولهذا اقتضى حمده

(178/277)

سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره ، وأن يخلد صاحبه فى العذاب الأليم ، ويجعله أشقى البرية . فلا تجد مشركا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه ، وإن زعم أنه يعظمه بذلك . كما أنك لا تجد مبتدعا إلا وهو متنقص للرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة . فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب ، أو يزعم أنها هى السنة ، وإن كان مستبصرا فى بدعته فهو مشاق لله ورسوله .

فالمتنقصون المنقوصون عند الله تعالى ورسوله وأوليائه: هم أهل الشرك والبدعة ولا سيما من بَنَى دينه على أن كلام الله ورسوله أدلة لفظية لا تفيد اليقين ، ولا تغنى من اليقين والعلم شيئا . فيا لله للمسلمين ، أى شىء فات من هذا التنقص ؟ .

وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى ، خشية ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم

فقد جاء من التنقص بضد ما وصف الله سبحانه نفسه من الكمال .

والمقصود : أن هاتين الطائفتين هم أهل التنقص فى الحقيقة ، بل هم أعظم الناس تنقصا ، لبس عليهم الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال . ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك فى كتاب الله تعالى ، قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 33] .

فالإثم والبغى قرينان ، والشرك والبدعة قرينان .

فصل

وأما نجاسة الذنوب والمعاصى ، فإنها بوجه آخر ، فإنها لا تستلزم تنقيص الربوبية ، ولا سوء الظن بالله عز وجل . ولهذا لم يرتب الله سبحانه عليها من العقوبات والأحكام ما رتبه على الشرك ، وهكذا استقرت الشريعة على أنه يعفى عن النجاسة المخففة ، كالنجاسة فى محل الاستجمار ، وأسفل الخف ، والحذاء ، وبول الصبى الرضيع وغير ذلك ، مالا يعْفَى عن المغلظة .

(179/277)

وكذلك يعفى عن الصغائر ما لا يعفى عن الكبائر ، ويعفى لأهل التوحيد المحض الذى لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك

فلو لقى الموحد الذى لم يشرك بالله شيئًا

ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابه بالشرك . فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب . فإنه يتضمن من محبة الله تعالى وإجلاله ، وتعظيمه ، وخوفه ، ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ، ولو كانت قراب الأرض ، فالنجاسة عارضة ، والدافع لها قوى فلا تثبت معه ، ولكن نجاسة الزنا واللواط أغلظ من غيرهما من النجاسات ، من جهة أنها تفسد القلب ، وتضعف توحيده جدا ، ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاء ، فكلما كان الشرك فى العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر ، وكلما كان أعظم إخلاصا كان منها أبعد ، كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام .

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: 24] .

فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبد لها ، بل هو من أعلى أنواع التعبد ، ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكن منه صار تتيما ، والتتيم التعبد ، فيصير العاشق عابدا لمعشوقه ، وكثيرا ما يغلب حبه وذكره والشوق إليه ، والسعى فى مرضاته ، وإيثار محابه على حب الله وذكره ، والسعى فى مرضاته ، بل كثيرا ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ،

ويصير متعلقا بمعشوقه من الصور ، كما هو مشاهد ، فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عز وجل يقدم رضاه وحبه على رضى الله وحبه ، ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله ، وينفق فى مرضاته ما لا ينفقه فى مرضاة الله ، ويتجنب من سخطه ما لا يتجنب من سخط الله تعالى ، فيصير آثر عنده من ربه: حبا ، وخضوعا ، وذلا ، وسمعا ، وطاعة .

(180/277)

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين ، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط ، وعن امرأة العزيز ، وكانت إذ ذاك مشركة ، فكلما قوى شرك العبد بُلِىَ بعشق الصور ، وكلما قوى توحيده صرف ذلك عنه . والزنا واللواطة كمال لذتهما إنما يكون مع العشق ولا يخلو صاحبهما منه ، وإنما لِتنقله من محل إلى

محل لا يبقى عشقه مقصورا على محل واحد بل ينقسم على سهام كثيرة ، لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده .

فليس فى الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، ولهما خاصية فى تبعيد القلب من الله ، فإنهما من أعظم الخبائث ، فإذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيب ، لا يصعد إليه إلا طيب ، وكلما ازداد خبثا ازداد من الله بعدا ، ولهذا قال المسيح عليه

السلام فيما رواه الإمام أحمد فى كتاب الزهد : "لا يكون البطالون من الحكماء ، ولا يلج الزناة ملكوت السماء" .

ولما كانت هذا حال الزنا كان قريبا للشرك فى كتاب الله تعالى . قال الله تعالى:

﴿ الزَّانِى لا يَنْكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: 3] .

والصواب: القول بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شىء ، وهى مشتملة على خبر وتحريم ، ولم يأت من ادعى نسخها بحجة البتة ، والذى أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى ، فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿ الزَّانِى لا يَنْكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ [النور: 3] هل هو خبر أو نهى ، أو إباحة ؟ فإن كان خبرا فقد رأينا كثيرا من الزناة ينكح عفيفة ، وإن كان نهيا فيكون قد نهى الزانى أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة ، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف ، وإباحة له فى نكاح المشركات والزوانى ، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً ، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجها يصح حملها عليه .

(181/277)

فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا ، فكأنه قال: الزانى لا يزنى إلا بزانية أو مشركة .

وهذا فاسد ، فإنه لا فائدة فيه ، ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك ، فإنه من المعلوم أن الزانى لا يزنى إلا بزانية ، فأى فائدة فى الإخبار بذلك ؟ ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه .

ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى ، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة وهى عناق البَغِى وصاحبها فإنه أسلم ، واستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى نكاحها فنزلت هذه الآية .

وهذا أيضاً فاسد ، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها .

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿ وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ ﴾ [النور: 32] .

وهذا أفسد من الكل ، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين ، ولا تناقض إحداهما الأخرى ، بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى ، وحرم نكاح الزانية ، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة ، وذوات المحارم ، فأين الناسخ والمنسوخ فى هذا ؟ .

فإن قيل: فما وجه الآية ؟ .

قيل: وجهها ، والله أعلم ، أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة ، وإنما أبيح له نكاح المرأة

بهذا الشرط ، كما ذكر ذلك سبحانه فى سورتى النساء والمائدة والحكم المعلق على الشرط ينتفى عند انتفائه ، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان ، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به ، فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذى شرعه على لسان رسوله ، أو لا يلتزمه ، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله ، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه ، لم يصح النكاح ، فيكون زانيا ، فظهر معنى قوله:

﴿ لا يَنْكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ [النور: 3]

وتبين غاية البيان وكذلك حكم المرأة .

(182/277)

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة . ومقتضى العقل ، فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قَرْنانًا دَيُّوثا زوج بغى ، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه ، ولهذا إذا بالغوا فى سب الرجل قالوا زوج قحبة ، فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك .

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية ، والله الموفق .

ومما يوضح التحريم ، وأنه هو الذى يليق بهذه الشريعة الكاملة: أن هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج وفساد النسب الذى جعله الله تعالى بين الناس لتمام مصالحهم ، وعده من جملة نعمه عليهم ، فالزنا يفضى إلى اختلاط المياه ، واشتباه الأنساب ، فمن محاسن الشريعة: تحريم نكاح الزانية ، حتى تتوب وتستبرأ .

وأيضاً فإن الزانية خبيثة ، كما تقدم بيانه ، والله سبحانه جعل النكاح سببا للمودة والرحمة والمودة وخالص الحب ، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب ، زوجا له ، والزوج سمى زوجا من الازدواج وهو الاشتباه فالزوجان الاثنان المتشابهان ، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعاً وقَدَرًا ، فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتواد ، فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب ، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة .

فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة ، وقد وطئها الزانى البارحة ، وقال: ماء الزانى لا حرمة له ، فهب أن الأمر كذلك ، فماء الزوج له حرمة ، فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزانى فى رحم واحد ؟

والمقصود : أن الله سبحانه سمى الزوانى والزناة خبيثين وخبيثات ، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة ، وإن كان حلالا ، وسمى فاعله جنبا ، لبعده عن قراءة القرآن ، وعن الصلاة ، وعن المساجد ، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء . فكذلك إذا كان حراما

يبعد القلب عن الله تعالى ، وعن الدار الآخرة ، بل يحول بينه وبين الإيمان ، حتى يحدث طهرا كاملا بالتوبة ، وطهرًا لبدنه بالماء . وقول اللوطية:

(183/277)

﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 82] .

من جنس قوله سبحانه فى أصحاب الأخدود:

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: 8] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [المائدة: 59] .

وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد ، وأنه لا يشوبه بالإشراك . وهكذا المبتدع: إنما ينقم على السنى تجريده متابعة الرسول ، وأنه لم يشبها بآراء الرجال ، ولا بشىء مما خالفها . فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع ، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة .

إذَا لَمْ يَكُنْ بُد مِنَ الصَّبْرِ فَاصْطَبِرْ عَلَى الحقِّ ذَاكَ الصَّبْرُ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إغاثة اللهفان حـ 1 صـ 59. 67 ﴾

(184/277)

فصل

قال ابن كثير :

قصة قوم لوط عليه السلام وما حل بهم من النقمة

الغميمة وذلك أن لوطا بن هاران بن تارح وهو آزر كما تقدم ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدمنا ويقال إن هاران هذا هو الذي بنى حران وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب والله أعلم وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وأذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكان أم تلك المحله ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى

وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثلة في العالمين وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين فقال تعالى في سورة الأعراف ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين وقال تعالى في سورة هود ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن رواء اسحاق يعقوب قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا

أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى تجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتاهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد وقال تعالى في سورة الحجر ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون قال لا توجل إنا نبشرك

(186/277)

بغلام عليم قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من
القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا
أرسلنا إلى قوم مجرمين الا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين فلما
جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وآتيناك
بالحق وإنا لصادقون فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد
وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين وجاء أهل
المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزنون قالوا أولم ننهك
عن العالمين قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فأخذتهم
الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك
لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين وقال تعالى في سورة الشعراء
كذبت قوط لوط المرسلين إذ لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله
وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من
العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يا لوط
لتكونن من المخرجين قال إني لعملكم من القالين رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله
أجمعين إلا عجوزا في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين إن
في ذلك لآية وما أكن أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وقال تعالى في سورة النمل

ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين وقال تعالى في سورة

(187/277)

العنكبوت ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين قال رب انصرني على القوم المفسدين ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن أنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون وقال تعالى في سورة الصافات وإن لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا في الغابرين ثم دمرنا الأخرين وإنكم لتمرون عليهم مصبحين

وبالليل أفلا تعقلون وقال تعالى في الذاريات بعد قصة

ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى

قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين فاخرجنا من كان

فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب

الأليم وقال في سورة الانشقاق كذبت قوم لوط بالنذر إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط

نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا

بالنذر ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ولقد صبحهم بكرة

عذاب مستقر فذوقوا عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر

(188/277)

وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السورة في التفسير وقد ذكر الله لوطا

وقومه في مواضع أخر من القرآن تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود والمقصود الآن إيراد ما

كان من أمرهم وما أحل الله بهم مجموعا من الآيات والآثار وبالله المستعان وذلك أن لوطا

عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله

عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا ما

عنه نهوا بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فجعلوا غاية المدح ذما يقتضي الإخراج وما حملهم على مقالتهم هذه الا العناد واللجاج فطهره الله وأهله الا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج وتركهم في محلتهم خالدين لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج وما كان هذا جوابهم الا لما نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى التي لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحيون من مجالسهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماض ولا راموا في المستقبل تحويلا فأخذهم الله أخذا وبيلا وقالوا له فيما قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا

عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين فغار الله لغيرته وغضب لغضبته واستجاب لدعوته وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بما جاؤوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل

عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين وقال ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين وقال الله تعالى فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط وذلك إنه كان يرجوا أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا ولهذا قال تعالى إن إبراهيم لحليم أواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود أي أعرض عن هذا وتكلم في غيره فإنه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم إنه قد جاء أمر ربك أي قد أمر به من لا يرد أمره ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه وإنهم آتيهم عذاب غير مردود

وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن إسحاق أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن قالوا لا قال فمائتا مؤمن قالوا لا قال فأربعون مؤمنا قالوا لا قال فأربعة عشر مؤمنا قالوا لا قال ابن اسحق إلى أن قال أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد قالوا لا قالوا إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها الآية وعند أهل الكتاب أنه قال يا رب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلا صالحا فقال الله لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحا ثم تنازل إلى عشرة فقال الله لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون قال الله تعالى وقال ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب قال المفسرون لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل واسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان اختبارا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره وحسبهم بشرا من الناس وسيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم في غيرهم وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدا ولكن رأى من لا يمكن الحيد عنه وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيى منهم وانطلق امامهم وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية

وينزلوا في غيرها فقال لهم فيما قال يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك

(191/277)

وقال السدي خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى ذعرتا فقالوا لها يا جارية هل من منزل فقالت لهم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم من قومها فاتت أباها

(192/277)

فقالت يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فجاء بهم فلم يعلم أحدا إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت إن في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل

وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه وقوله ومن قبل كانوا يعملون السيئات أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعا لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد كما ورد في الحديث وكما قال تعالى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وفي قول بعض الصحابة والسلف وهو أب لهم وهذا كقوله أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحق وهو الصواب والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب وقد تصحف عليهم كما أخطأوا في قولهم إن الملائكة كانوا إثنين وانهم تعشوا عنده وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطا عظيما وقوله فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد نهى لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء فجرة أقوياء كفرة أغبياء وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد يقولون عليهم لعائن الله لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا في نسائنا وانك لتعلم مرادنا وغرضنا واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم

يخافوا سطوة العظيم ذي العذاب الأليم ولهذا قال عليه السلام لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ود أن لو كان له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل

(193/277)

بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب وقد قال الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعا نحن أحق بالشك من إبراهيم ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله عز و جل فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه وقال تعالى وجاء أهل المدينة يستبشرون قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أو لم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين فأمرهم بقربان نسائهم وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيآتهم هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون بل كلما لهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرضون ولم يعلموا ما حم

(194/277)

به القدر مما هم إليه صائرون وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون (1) ولهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون وقال تعالى ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ما لهم في الجاج والعاج فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد لأحللت بكم النكال قالت الملائكة يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك وذكروا أن جبريل عليه السلام حرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتجسسون مع الحيطان ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شان قال الله تعالى ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليهم السلام آمرين له بان يسرى هو وأهله من آخر الليل ولا يلتفت منكم أحد يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم وقوله إلا امرأتك على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله فاسر بأهلك كأنه يقول الا امرأتك فلا تسر

بها ويحتمل أن يكون من قوله ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك أي فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع ولكن الأول أظهر في المعنى والله أعلم

(195/277)

قال السهيلي واسم امرأة لوط والهة واسم امرأة نوح والغة وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفا لكل خائن مريب إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد ويقال إن امرأته خرجت معه فالله أعلم فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يرد ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد وعند أهل الكتاب أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذي هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم فقالوا اذهب فانا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ثم نحل بهم العذاب فذكروا أنه ذهب إلى قرية صغر التي يقول الناس غور زغر فلما اشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد قالوا اقتلعهن جبريل بطرف

جناحه من قرارهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم فقالوا إنهم كانوا أربع مائة نسمة وقيل أربعة آلاف نسمة وما معهم من الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها قال مجاهد فكان أول ما سقط منها شرفاتها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل والسجيل فارسي معرب وهو الشديد الصلب القوي منضود أي يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم من السماء مسومة أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه كما قال مسومة عند ربك للمسرفين وكما قال تعالى وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين وقال تعالى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى يعني قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديما وحديثا وقالت واقوماه فسقط عليها

حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان كما قال تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين أي خانتاهما في الدين فلم يتابعاهما فيه وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا ولما فإن الله لا يقدر على نبي أن تبغى امرأته كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف ما بغت امرأة نبي قط ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرا قال الله تعالى في قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال

(197/277)

لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وانب وزجر ووعظ وحذر وقال فيما قال إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم أي سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة وقوله ههنا وما هي من الظالمين ببعيد أي وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء

كان محصنا أو لا نص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة واحتجوا أيضا بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى وما هي من الظالمين ببعيد وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها

(198/277)

ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين في انجائه إياهم من المهلكات وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات كما قال تعالى إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وقال تعالى فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم كيف غير الله تلك البلاد وأهلها وكيف

جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة كما روى الترمذي وغيره مرفوعا اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ إن في ذلك لآيات للمتوسمين وقوله وإنها لبسبيل مقيم أي لبطريق مهيع مسلوك إلى الآن كما قال وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون وقال تعالى ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون وقال تعالى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم أي تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشي الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط ومن تشبه بقوم فهو منهم وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد فالعاقل اللبيب الخائف من ربه الفاهم يمتثل ما أمره الله به عز وجل ويقبل ما أرشده إليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال والجواري من السراري ذوات الجمال وإياه أن يتبع كل شيطان مريد فيحق عليه الوعيد ويدخل في قوله تعالى وما هي من الظالمين ببعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 175.183﴾

(199/277)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والسبعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/278)

الجزء الثامن والسبعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 85 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 87 ﴾ من نفس السورة

(4/278)

قوله تعالى ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضت هذه القصة العجيبة في القصص ، أعاد النسق الأول فقال ﴿ وإلى مدين ﴾ أي أرسلنا ، وهي بلد ، وقيل قبيلة من أولاد مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿ أخاهم ﴾ أي من النسب ، وبينه بقوله : ﴿ شعيباً ﴾ وهو موصوف بأنه خطيب الأنبياء عليهم السلام لحسن مراجعة قومه ؛ ثم استأنف قوله على ذلك النسق : ﴿ قال يا قوم ﴾ دالاً على النصيحة والشفقة بالتذكير بالقرابة ، وبدأ بالأصل المعتبر في جميع الشرائع

المأثورة عن الأنبياء عليهم السلام فقال : ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي الذي يستحق العبادة لذاته بما له من السماء الحسنى والصفات العلى .

ولما كان المراد إفراد بالعبادة لأنه لا يقبل الشرك لأنه غني ، علل ذلك بقوله : ﴿ ما لكم ﴾ وأغرق في النفي بقوله : ﴿ من إله غيره ﴾ ثم استأنف التذكير بما دل على صحة دعواه في نفسها وصدقه في دعوى الرسالة بقوله : ﴿ قد جاءتكم ﴾ أي على يدي ﴿ بينة ﴾ ولما كنا عالمين من قول النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه " ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر " أن هذه البينة معجزة ، مثلها كاف في صحة الدعوى ولم تدع ضرورة إلى ذكرها لنا ، لم تعن ؛ ثم زادهم ترغيباً بقوله : ﴿ من ربكم ﴾ أي الذي لم تروا إحساناً إلا منه .

(5/278)

ولما كان إتيانه بالبينات سبباً لوجوب امتثال أمره ، قال مسبباً عنه : ﴿ فأوفوا الكيل ﴾ أي والمكيال والوزن ﴿ والميزان ﴾ أي ابذلوا ما تعطون بهما وافياً ، فالآية من الاحتباك ، وكان المحكي عنه هنا من أوائل قوله لهم فترك التأكيد الرافع لمجاز المقاربة بذكر القسط .

ولما كان الأمر بالوفاء يتضمن النهي عن البخس ، صريح به على وجه يعم غيره فقال :

﴿ ولا تبخسوا ﴾ أي تنقصوا وتفسدوا كما أفسد البخسة ﴿ الناس أشياءهم ﴾ أي شيئاً من البخس في كيل ولا وزن ولا غيرهما ، والناس – قال في القاموس – يكون من الإنس ومن الجن جمع إنس أصله أناس جمع عزيز أدخل عليه " أل " ، وقال أبو عبد الله القزاز : الناس أصله عند البصريين أناس ، ثم أدخلوا الألف واللام على ذلك وحذفوا الهمزة وبقي الناس ، وكان أصله فعال من : أنست به ، فكأنه قيل : أناس – يعني على القلب ، قال : لأنه يؤنس إليهم – انتهى .

إذا علم هذا علم أن نهيه صلى الله عليه وسلم عن بخس الجمع الذين فيهم قوة المدافعة نهى عن بخس الواحد من باب الأخرى لأن الشرائع إنما جاءت بتقوية الضعيف على حقه .

ولما نهى عن الفساد بالبخس ، عم كل فساد فقال : ﴿ ولا تفسدوا ﴾ أي توقعوا الفساد ﴿ في الأرض ﴾ بوضع شيء من حق الحق أو الخلق في غير موضعه ؛ ولما نهاهم عن هذه الرذائل ، ذكر بنعمة الله تأكيداً للنهي بما في ذلك من التخويف وحثاً على التخلق بوصف السيد فقال : ﴿ بعد إصلاحها ﴾ أي إصلاح الله لها بنعمة الإيجاد الأول بخلقها وخلق منافعها وما فيها على هذا النظام البديع المحكم ثم بنعمة الإبقاء الأول بإنزال الكتب وإرسال الرسل ونصب الشرائع التي بها يحصل النفع وتتم النعمة بإصلاح أمر المعاش والمعاد بتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله ، ويجمع ذلك كله التنزه عن الإساءة .

ولما تقدم إليهم بالأمر والنهي ، أشار إلى عظمة ما تضمنه ذلك حثاً لهم على امتثاله فقال :

﴿ ذلكم ﴾ أي الأمر العظيم العالي الرتبه مما ذكر في هذه القصة ﴿ خير لكم ﴾ ولما كان الكافر ناقص المدارك كامل المهالك ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي فلا تفسدوا أو فأنتم تعرفون صحة ما قلته ، وإذ عرفتم صحته عملتم به ، وإذا عملتم به أفلحتم كل الفلاح ، ويجوز - وهو أحسن - أن يكون التقدير : فهو خير لكم ، لأن المؤمن يثاب على فعله لبنائه له على أساس الإيمان ، والكافر أعماله فاسده فلا يكون فعله لهذه الأشياء خيراً له من جهة إسعاده في الآخرة لأنه لا ثواب له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 65.66 ﴾

(6/278)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءة كما مر .

الوقوف : ﴿ شعيباً ﴾ ط ﴿ غيره ﴾ ط ﴿ إصلاحها ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ ج ه لعطف المتفقتين أو وقوع العارض أو رأس الآية ﴿ عوجاً ﴾ ج لاتفاق الجملتين مع طول الكلام ﴿ فكثركم ﴾ ج لعطف المتفقتين ﴿ المفسدين ﴾ ه ﴿ بيننا ﴾ ج لاحتمال الواو

الحال والاستئناف ﴿ الحاكمين ﴾ ه ﴿ ملتنا ﴾ ط ﴿ كارهين ﴾ ه وقيل لا وقف لأن الابتداء بقوله ﴿ وقد افترينا ﴾ قبيح قلنا إذا كان محكياً عن شعيب كان أقبح ولكن الكلام معلق بشرط يعقبه. ﴿ منها ﴾ ط ﴿ الله ﴾ ط ﴿ ربنا ﴾ ط ﴿ علماً ﴾ ط ﴿ توكلنا ﴾ وللعدول ﴿ الفاتحين ﴾ ه ﴿ الخاسرون ﴾ ه ﴿ جاثمين ﴾ ه ج إن وصل وقف على ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ على جعل ﴿ الذين ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿ أصبحوا ﴾ و ﴿ كأن لم يغنوا ﴾ حال لمعنى في الجاثمين. وإن على ﴿ الذين ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كأن لم يغنوا ﴾ وقف على ﴿ جاثمين ﴾ وعلى ﴿ شعيب ﴾ ويستأنف ب ﴿ كانوا ﴾ ولا يخلو من تعسف. ﴿ الخاسرين ﴾ ه ﴿ ونصحت لكم ﴾ ط لأن ﴿ كيف ﴾ للتعجب فيصلح للابتداء مع أنه فيه فاء التعقيب. ﴿ كافرين ﴾ ه والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 283. 284 ﴾

(7/278)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الخامسة ، وقد ذكرنا أن التقدير : ﴿ وَأَرْسَلْنَا إلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾ وذكرنا أن هذه الأخوة كانت في النسب لا في الدين ، وذكرنا الوجوه فيه ، واختلفوا في مدين فقيل : إنه اسم البلد ، وقيل : إنه اسم القبيلة بسبب أنهم أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام ، ومدين صار اسماً للقبيلة ، كما يقال : بكر وتميم وشعيب من أولاده ، وهو : شعيب بن نويب بن مدين بن إبراهيم خليل الرحمن .

واعلم أنه تعالى حكى عن شعيب أنه أمر قومه في هذه الآية بأشياء : الأول : أنه أمرهم بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غير الله ، وهذا أصل معتبر في شرائع جميع الأنبياء . فقال : ﴿ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ والثاني : أنه ادعى النبوة فقال : ﴿ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ويجب أن يكون المراد من البينة ههنا المعجزة ، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها ، وإلا لكان متنبئاً لا نبياً ، فهذه الآية دلت على أنه حصلت له معجزة دالة على صدقه .

(8/278)

فأما أن تلك المعجزة من أي الأنواع كانت فليس في القرآن دلالة عليه ، كما لم يحصل في القرآن الدلالة على كثير من معجزات رسولنا .

قال صاحب "الكشاف" : ومن معجزات شعيب أنه دفع إلى موسى عصاه ، وتلك العصا حاربت التنين ، وأيضاً قال لموسى : إن هذه الأغنام تلد أولاداً فيها سواد وبياض ، وقد وهبتها منك ، فكان الأمر كما أخبر عنه .

ثم قال : وهذه الأحوال كانت معجزات لشعيب عليه السلام ، لأن موسى في ذلك الوقت ما ادعى الرسالة .

واعلم أن هذا الكلام بناء على أصل مختلف بين أصحابنا ، وبين المعتزلة وذلك لأن عندنا أن الذي يصير نبياً ورسولاً بعد ذلك ، يجوز أن يظهر الله عليه أنواع المعجزات قبل إيصال الوحي ، ويسمى ذلك إرهاصاً للنبوة ، فهذا الإرهاص عندنا جائز ، وعند المعتزلة غير جائز ، فالأحوال التي حكاها صاحب "الكشاف" هي عندنا إرهاصات لموسى عليه السلام ، وعند المعتزلة معجزات لشعيب لما أن الإرهاص عندهم غير جائز ، والثالث : أنه قال : ﴿ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان ﴾ .

واعلم أن عادة الأنبياء عليهم السلام إذا رأوا قومهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالاً أكثر من إقبالهم على سائر أنواع المفاسد بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع ، وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف ، فلهذا السبب بدأ بذكر هذه الواقعة فقال : ﴿ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان ﴾ وههنا سؤالان :

السؤال الأول : الفاء في قوله : ﴿ فَأَوْفُواْ ﴾ توجب أن تكون للأمر بإيفاء الكيل كالمعلول

والنتيجة عما سبق ذكره وهو قوله : ﴿ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فكيف الوجه فيه ؟

والجواب : كأنه يقول البخس والتطفيف عبارة عن الخيانة بالشيء القليل .

وهو أمر مستقبح في العقول ، ومع ذلك قد جاءت البينة والشريعة الموجبة للحرمة ، فلم يبق لكم فيه عذر ﴿ فَأَوْفُواْ الكيل ﴾ .

السؤال الثاني : كيف قال ﴿ الكيل والميزان ﴾ ، ولم يقل ﴿ المكيال والميزان ﴾ [هود : 84] كما في سورة هود ؟

(9/278)

والجواب : أراد بالكيل آلة الكيل ، وهو المكيال ، أو يسمى ما يكال به بالكيل ، كما يقال العيش لما يعاش .

والرابع : قوله : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ ﴾ والمراد أنه لما منع قومه من البخس في الكيل والوزن منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص بجميع الوجوه ، ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقة ، وأخذ الرشوة ، وقطع الطريق وانتزاع الأموال بطريق الحيل .

والخامس : قوله : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِى الأرض بَعْدَ إصلاحها ﴾ وذلك لأنه لما كان أخذ

أموال الناس بغير رضاها يوجب المنازعة والخصومة ، وهما يوجبان الفساد ، لا جرم قال بعده : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِى الأرض بَعْدَ إصلاحها ﴾ وقد سبق تفسير هذه الكلمة ، وذكروا فيه وجوهاً فقيل : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِى الأرض بَعْدَ إصلاحها ﴾ بأن تقدموا على البخس في الكيل والوزن ، لأن ذلك يتبعه الفساد .

وقيل : أراد به المنع من كل ما كان فساداً حملاً للفظ على عمومه .

وقيل : قوله : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ منع من مفاسد الدنيا وقوله : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ منع من مفاسد الدين حتى تكون الآية جامعة للنهي عن مفاسد الدنيا والدين ، واختلفوا في معنى ﴿ بَعْدَ إصلاحها ﴾ قيل : بعد أن صلحت الأرض بمجيء النبي بعد أن كانت فاسدة بخلوها منه ، فنهاهم عن الفساد ، وقد صارت صالحة .

وقيل : المراد أن لا تفسدوا بعد أن أصلحها الله بتكثير النعم فيهم ، وحاصل هذه التكاليف الخمسة يرجع إلى أصلين التعظيم لأمر الله ، ويدخل فيه الإقرار بالتوحيد والنبوة ، والشفقة على خلق الله ، ويدخل فيه ترك البخس ، وترك الإفساد ، وحاصلها يرجع إلى ترك الإيذاء ، كأنه تعالى يقول : إيصال النفع إلى الكل متعذر .

وأما كف الشر عن الكل فممكن ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الخمسة .

قال : ﴿ ذلكم ﴾ وهو إشارة إلى هذه الخمسة ، والمعنى : خير لكم في الآخرة إن كنتم

مؤمنين بالآخرة ، والمراد : أترك البخس وترك الإفساد خير لكم في طلب المال في المعنى لأن الناس إذا علموا منكم الوفاء والصدق والأمانة ، رغبوا في المعاملات معكم ، فكثرت أموالكم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم مصدقين لي في قولي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 141.142 ﴾

(10/278)

وقال السمرقندى :

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾

يعني : أرسلنا إلى مدين نبيّهم شعيباً ومدين هو آل مدين وكان مدين بن إبراهيم خليل الرحمن ، تزوج ريثاء ابنة لوط ، فولدت آل مدين ، فتوالدوا وكثروا ، ثم صار هو اسماً للمدينة ، فسميت المدينة مدين ، وسمي أولئك القوم مدين .

فكفروا بالله تعالى ونقصوا المكيال والميزان في البيع ، وأظهروا الخيانة فبعث الله تعالى إليهم شعيباً .

وقال الضحاك كان شعيب أفضلهم نسباً ، وأصدقهم حديثاً ، وأحسنهم وجهاً ، ويقال : إنه بكى من خشية الله تعالى حتى ذهب بصره فصار أعمى فدعا قومه إلى الله تعالى و ﴿

قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله ﴾ أي وحّدوه وأطيعوه ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قال بعضهم : مجيء شعيب النبي عليه السلام إليهم آية ولم يكن لشعيب علامة سوى مجيئه وإخباره أن الله تعالى واحد .

وقال بعضهم : كانت له علامة لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا وقد جعل له علامة ليظهر تصديق مقالته ، إلا أن الله تعالى لم يبيّن لنا علامته ، وقد بيّن علامة بعض الأنبياء ، ولم يبيّن علامة الجميع .

ثم قال : ﴿ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط ﴾ أي أتموا الكيل والميزان بالعدل ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ يقول : ولا تنقصوا الناس حقوقهم في البيع والشراء ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِى الأرض بَعْدَ إصلاحها ﴾ يعني : لا تعملوا في الأرض المعاصي بعد ما بيّن الله تعالى طريق الحق وأمركم بالطاعة ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني : وفاء الكيل وترك الفساد في الأرض خير لكم من النقصان والفساد في الأرض إن كنتم مصدقين بما حرم الله تعالى عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(11/278)

وقال الثعلبي :

﴿ وإلى مَدْيَنَ ﴾

يعني وأرسلنا إلى بني مدين بن إبراهيم خليل الله وهم أصحاب الأيكة .

وقال قتادة : أرسل مرّتين إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ قال قتادة : هو شعيب بن [نويب] وقال عطاء : هو شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم ، وقال ابن إسحاق : هو شعيب بن ميكيل بن إسحاق بن مدين بن إبراهيم واسمه بالسريانية يثروب وأُمّه ميكيل بنت لوط وكان شعيب أعمى .

ويقال : إنّه خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر يكفرون بالله وبخس المكيال والميزان فقال لهم ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [يعني يجي] شعيب ﴿ فَأَوْفُواْ ﴾ فأتمّوا ﴿ الكيل والميزان وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ولا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوها [إياهم] ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ كانت الأرض قبل أن يُبعث إليها شعيباً رسولاً يُعمل فيها بالمعاصي ويُستحلّ فيها المحارم ويُسفك فيها الدماء بغير حقّها فذلك فسادها ، فلمّا بُعث إليها شعيباً ودعاهم إلى الله صلحت الأرض وكلّ نبيّ بُعث إلى قومه فهو يدعوهم لإصلاحهم الذي ذكرت لكم وأمرتكم به .

﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدّقين بما أقول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(12/278)

وقال ابن عطية :

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾

قيل في ﴿ مدين ﴾ إنه اسم بلد وقطر ، وقيل اسم قبيلة ، وقيل هم من ولد " مدين " بن إبراهيم الخليل ، وروي أن لوط عليه السلام هو جد شعيب لأمه ، وقال مكي كان زوج بنت لوط ، ومن رأى ﴿ مدين ﴾ اسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجمي ، ومن رآه اسماً للقبيلة أو الأرض فهو أحرى ألا يصرف ، وقوله : ﴿ أخاهم ﴾ منصوب بقوله ﴿ أرسلنا ﴾ [الأعراف : 59] في أول القصص ، وهذا يؤيد أن ﴿ لوطاً ﴾ [الأعراف : 80] به انتصب ، وأن اللفظ مستمر ، وهذه الأخوة في القرابة ، وقد تقدم القول في ﴿ غيره ﴾ وغيره ، والبينة إشارة إلى معجزته وإن كنا نحن لم ينص لنا عليها ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " قد جاءتكم آية من ربكم " مكان ﴿ بينة ﴾ وقوله : ﴿ فأوفوا الكيل ﴾ أمر لهم بالاستقامة في الإعطاء وهو بالمعنى في الأخذ والإعطاء ، وكانت هذه المعصية قد

فشت فيهم في ذلك الزمن وفحشت مع كفرهم الذي نالتهم الرجفة بسببه و ﴿ تبخسوا ﴾ معناه تظلموا . ومنه قولهم : تحسبها حمقاء وهي باخس أي ظالمة خادعة ، و ﴿ أشياءهم ﴾ يريد أموالهم وأمتعتهم مما يكال أو يوزن ، وقوله : ﴿ ولا تفسدوا ﴾ لفظ عام دقيق الفساد وجليله ، وكذلك الإصلاح عام والمفسرون نصوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد ، وإلى النبوءات والشرائع بالإصلاح ، وقوله : ﴿ ذلك خير لكم ﴾ أي نافع عند الله مكسب فوزه ورضوانه بشرط الإيمان والتوحيد وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(13/278)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإلى مدين ﴾

قال قتادة : مدين : ماء كان عليه قوم شعيب ، وكذلك قال الزجاج ، وقال : لا ينصرف ، لأنه اسم البقعة .

وقال مقاتل : مدْيَن : هو : ابن ابراهيم الخليل لصلبه .

وقال أبو سليمان الدمشقي : مدين : هو ابن مديان بن ابراهيم ، والمعنى : أرسلنا إلى ولد

مدين ، فعلى هذا هو اسم قبيلة .

وقال بعضهم : هو اسم للمدينة .

فالمعنى : وإلى أهل مدين .

قال شيخنا أبو منصور اللغوي : مدين : أسم أعجمي .

فإن كان عربياً ، فالياء زائدة ، من قولهم : مدن بالمكان : إذا أقام به .

قوله تعالى : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ قال الزجاج : البَخْسُ : النقص والقلَّة ؛ يقال : بَخَسْتُ أَبْخَسُ ؛ بالسين ، وبخصت عينه ، بالصاد لا غير .

﴿ ولا تُفْسِدوا في الأرض ﴾ أي : لا تعملوا فيها بالمعاصي بعد أن أصلحها الله بالأمر بالعدل ، وإرسال الرسل .

قوله تعالى : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي : مصدِّقين بما أخبرتكم عن الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(14/278)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ وإلى مَدْيَنَ ﴾ قيل في مَدْيَن : اسم بلد وقُطْر .

وقيل : اسم قبيلة كما يقال : بَكْر وتَمِيم .

وقيل : هم من ولد مَدْيَن بن إبراهيم الخليل عليه السلام .

فمن رأى أن مدين اسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجميّ .

ومن رآه اسماً للقبيلة أو الأرض فهو أحْرَى بألاّ يصرفه .

قال المهدويّ : ويروى أنه كان ابن بنت لوط .

وقال مكيّ : كان زوج بنت لوط .

واختلف في نسبه ؛ فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما : وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام .

وكان اسمه بالسريانية بَيْرُوت .

وأُمه ميكائيل بنت لوط .

وزعم الشرقِيّ بن القُطَامِيّ أن شعيباً بن عَيْفَاء بن يَوْبَبَ بن مدين بن إبراهيم .

وزعم ابن سَمْعَان أن شعيباً بن جزي بن يشجر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

وشُعَيْب تصغير شَعْب أو شِعْب .

وقال قتادة : هو شعيب بن يَوْبَبَ .

وقيل : شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم .

والله أعلم .

وكان أعمى ؛ ولذلك قال قومه : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ [هود : 91] .

وكان يقال له : خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه .

وكان قومه أهل كفر بالله وبخس للمكيال والميزان .

﴿ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي بيان ، وهو مجيء شعيب بالرسالة .

ولم يذكر له معجزة في القرآن .

وقيل : معجزته فيما ذكر الكسائي في قصص الأنبياء .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ ﴾ البخس النقص .

وهو يكون في السِّلعة بالتعييب والتزهيد فيها ، أو المخادعة عن القيمة ، والاحتيال في التزيّد في الكيل والنقصان منه .

(15/278)

وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك مَنْهِيٌّ عنه في الأُمم المتقدّمة والسالفة على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ عطف على "وَلاَ تَبْخَسُوا" .

وهو لفظ يعمّ دقيق الفساد وجليله .

قال ابن عباس : كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيباً رسولاً يُعمل فيها بالمعاصي وتُسْتَحَلُّ فيها المحارم وتُسفك فيها الدماء .

قال : فذلك فسادها .

فلما بعث الله شعيباً ودعاهم إلى الله صلحت الأرض .

وكل نبيّ بعث إلى قومه فهو صلاحهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(16/278)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾

يعني : وأرسلنا إلى مدين أكثر المفسرين على أن مدين اسم رجل وهو مدين بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فعلى هذا يكون المعنى وأرسلنا إلى ولد مدين ومدين اسم للقبيلة كما يقال بنو تميم بو عدي وبنو أسد .

وقيل : مدين اسم للماء الذي كانوا عيله وقيل هو اسم للمدينة وعلى هذين القولين يكون المعنى : وأرسلنا إلى أهل مدين والصحيح هو الأول لقوله أخاهم شعيباً يعني في النسب لا في الدين وشعيب هو ابن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قاله عطاء وقال محمد بن إسحاق وهو شعيب بن مكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأم ميكيل بنت لوط عليه السلام .

وقيل : هو شعيب بن يثرون بن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليه السلام وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر وبخس في المكيال والميزان ﴿ قال ﴾ يعني شعيباً ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ يعني : قد جاءتكم حجة وبرهان من ربكم بحقية ما أقول وصدق ما أدعي من النبوة والرسالة إليكم لأنه لا بد لكل نبي من معجزة تدل على صدق ما جاء به من عند الله غير أن تلك المعجزة التي كانت لشعيب لم تذكر في القرآن وليست كل آيات الأنبياء مذكورة في القرآن ، وقيل : أراد بالبينة مجيء شعيب بالرسالة إليهم وقيل أراد بالبينة الموعظة وهي قوله : ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ﴾ يعني فأتموا الكيل والميزان وأعطوا الناس حقوقهم وهو قوله ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ يعني لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياهم فتطففوا الكيل والوزن .

يقال : بخس فلان في الكيل والوزن إذا نقصه وطففه ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ يعني بعد أن أصلحها الله تعالى ببعثة الرسل وإقامة العدل وكل نبي يبعث إلى قوم فهو صلاحهم ﴿ ذلكم ﴾ يعني الذي ذكرت لكم وأمرتكم به من الإيمان بالله ووفاء الكيل والميزان وترك الظلم والبخس ﴿ خير لكم ﴾ يعني مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ يعني إن كنتم مصدّقين بما أقول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(18/278)

وقال أبو حيان :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

قال الفرّاء ﴿ مدين ﴾ اسم بلد وقطر وأنشد :

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا . . .

(19/278)

فعلى هذا التقدير وإلى أهل مدين ، وقيل : اسم قبيلة سميت باسم أبيها مدين بن إبراهيم قاله مقاتل وأبو سليمان الدمشقي ، وشعيب قيل : هو ابن بنت لوط ، وقيل زوج بنته وهذه مناسبة بين قصته وقصة لوط وشعيب اسم عربي تصغير شعب أو شعب والجمهور على أنّ مدين أعجمي فإن كان عربياً احتمل أن يكون فعيلاً من مدين بالمكان أقام به وهو بناء نادر ، وقيل : مهمل أو مفعلاً من دان فتصحيحه شاذ كمريم ومكورة ومطيبة وهو ممنوع الصّرف على كل حال سواء كان اسم أرض أو اسم قبيلة أعجمياً أم عربياً واختلفوا في نسب شعيب ، فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما : هو شعيب بن ميكيل بن سجن بن مدين بن إبراهيم واسمه بالسّريانية يبروت ، وقال الشرقي بن القطامي : شعيب بن عنقاء بن ثويب بن مدين بن إبراهيم ، وقال أبو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي الطلحيّ الأصبهاني في كتاب الإيضاح في التفسير من تأليفه : هو شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم ، وقيل : شعيب بن جذي بن سجن بن اللام بن يعقوب ، وكذا قال ابن سمعان إلا أنه جعل مكان اللام لاوي ولا يعرف في أولاد يعقوب اللام فلعله تصحيف من لاوي ، وقيل : شعيب بن صفوان بن عنقاء بن ثويب بن مدين بن إبراهيم ، وقال الشريف النسابة الجوّاني : وهو المنتهى إليه في هذا العلم هو شعيب بن حبيش بن وائل بن مالك بن حرام بن جذام واسمه عامر أخو نجم وهما ولدا الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد

بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر هود عليه السلام فبينه وبين هود في هذا النسب الأخير ثمانية عشر أباً وبينهما في بعض النسب المذكور سبعة آباء لأنه ذكر فيه أنه شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم وإبراهيم هو ابن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر وهو هود عليه السلام وكان يقال لشعيب : خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، قال قتادة : أرسل مرتين مرّة إلى مدين ومرة إلى أصحاب الأيكة وتعلّق إلى

(20/278)

مدين وانتصب ﴿ أخاهم ﴾ بأرسلنا وهذا يقوي قول من نصب لوطاً بأرسلنا وجعله معطوفاً على الأنبياء قبله .

﴿ قد جاءتكم بينة من ربّكم ﴾ قرأ الحسن آية من ربكم وهذا دليل على أنه جاء بالمعجزة إذ كان نبيّ لا بدّ له من معجزة تدلّ على صدقه لكنه لم يعين هنا ما المعجزة ولا من أي نوع هي كما أنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة جدّاً لم تعين في القرآن وقال قوم : كان شعيب نبيّاً ولم تكن له بينة والبينة هنا الموعظة وأنكر الزجاج هذا القول وقال : لا تقبل نبوة بغير معجزة ومن معجزاته أنه دفع إلى موسى عصاه وتلك العصا صارت تنيناً ، وقال الزمخشري : ومن معجزات شعيب ما روي من محاربة عصا موسى التنين حين

دفع إليه غنمة وولادة الغنم الدّرع خاصة حين وعده أن يكون له الدّرع من أولادها ووقوع عصا آدم على يده في المرّات السبع وغير ذلك من الآيات لأنّ هذه كلها كانت قبل أن ينبأ موسى عليه السلام فكانت معجزات لشعيب ، وقال الزجاج : وأيضاً قال لموسى عليه السلام هذه الأغنام تلد أولاداً فيها سواد وبياض وقد وهبتها لك فكان الأمر كما أخبر عنه وهذه الأحوال كلها كانت معجزة لشعيب عليه السلام لأنّ موسى عليه السلام في ذلك الوقت ما ادّعى الرسالة انتهى ، وما قاله الزمخشري متّبعاً فيه الزجاج هو قول المعتزلة وذلك أن الإرهاص وهو ظهور المعجزة على يد من سيصير نبيّاً ورسولاً بعد ذلك مختلف في جوازه فالمعتزلة تقول : هو غير جائز فلذلك جعلوا هذه المعجزات لشعيب وأهل السنّة يقولون بجوازه فهي إرهاص لموسى بالنبوة قبل الوحي إليه والحجج للمذهبين مذكورة في أصول الدين .

(21/278)

﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أمرهم أولاً بشيء خاص وهو إيفاء الكيل والميزان ثم نهاهم عن شيء عام وهو قوله ﴿ أشياءهم ﴾ و ﴿ الكيل ﴾ مصدر كنى به عن الآلة التي يكال بها كقوله في هود ﴿ المكيال والميزان ﴾ فطابق قوله ﴿

والميزان ﴾ أو هو باق على المصدرية وأريد بالميزان المصدر كالميعاد لا الآلة فتطابقا أو أخذ الميزان على حذف مضاف أي ووزن الميزان والكيل على إرادة المكيال فتطابقا والبخس تقدّم شرحه في قوله ﴿ ولا يبخس منه شيئاً ﴾ و﴿ أشياءهم ﴾ عام في كل شيء لهم ، وقيل : أموالهم ، وقال التبريزي : حقوقهم وفي إضافة الأشياء إلى الناس دليل على ملكهم إياها خلافاً للإباحيّة الزنادقة كانوا يبخسون الناس في مبايعاتهم وكانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه ومنه قيل للمكس البخس وروي أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا هي زيوف فقطعوها قطعاً ثم أخذوها بنقصان ظاهر وأعطوه بدلها زيوفاً وكانت هذه المعصية قد فشت فيهم في ذلك الزمان مع كفرهم الذي نالتهم الرّجفة بسببه .

﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ تقدّم تفسير هذه الجملة قريباً في هذه السورة .

(22/278)

﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ الإشارة إلى إيفاء الكيل والميزان وترك البخس والإفساد وخير أفعل التفضيل أي من التطفيف والبخس والإفساد لأنّ خيرية هذه لكم

عاجلة جداً منقضية عن قريب منكم إذ يقطع الناس معاملتكم ويحذرونكم فإذا أوفيتم وتركتم البخس والإفساد جملت سيرتكم وحسنت الأحدوثة عنكم وقصدكم الناس بالتجارات والمكاسب فيكون ذلك أخير مما كنتم تفعلون لديمومة التجارة والأرباح بالعدل في المعاملات والتحلي بالأمانات ، وقيل : ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى الإيمان الذي تضمنه قوله ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وإلى ترك البخس في الكيل والميزان ، وقيل : ﴿ خير ﴾ هنا ليست على بابها من التفضيل ولذلك فسّره ابن عطية بقوله أي ذاك نافع عند الله مكسب فوزه ورضوانه وظاهر قوله ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أنهم كانوا كافرين وعلى ذلك يدل صدر الآية وآخر القصة فمعنى ذلك أنه لا يكون ذلك لكم خيراً ونافعاً عند الله إلا بشرط الإيمان والتوحيد وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان ، وقال الزمخشري ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ إن كنتم مصدقين لي في قولي ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(23/278)

وقال أبو السعود :

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾

عطفٌ على قوله : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ وما عُطف عليه ، وقد روعيَ هاهنا ما في المعطوف عليه في تقديم المجرورِ على المنصوب ، أي وأرسلنا إليهم وهم أولادُ مدينَ بنِ إبراهيمَ عليه السلام وشعيبُ بنُ ميكائيلَ بنِ يشجَر بنِ مدينَ ، وقيل : شعيبُ بنُ ثويب بنِ مدينَ ، وقيل : شعيبُ بنُ يثرونَ بنِ مدينَ ، وكان يقال له : خطيبُ الأنبياء لحسن مراجعتِه قومَه وكانوا أهلَ بخسٍ للمكاييل والموازين مع كفرهم ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌ على سؤال نشأ عن حكاية إرسالِه إليهم كأنه قيل : فماذا قال لهم ؟ فقيل : قال : ﴿ فَقَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُم مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ مر تفسيرُه مراراً ﴿ قَدْ جَاءتْكُم بَيّنَةٌ ﴾ أي معجزةٌ وقوله تعالى : ﴿ مّن رَّبّكُمْ ﴾ متعلقٌ بجاءتْكم أو بمحذوف هو صلةٌ لفاعله مؤكدةٌ لفخامته الذاتيةِ المستفادةِ من تنكيره بفخامته الإضافيةِ ، أي بينةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ كائنةٌ من ربكم ومالِك أمورِكم ولم يُذكرْ معجزتُه عليه السلام في القرآن العظيم كما لم يُذكر أكثرُ معجزاتِ النبي صلى الله عليه وسلم فمنها ما روي من محاربة عصا موسى عليه السلام التّنّينَ حين دفع إليه غنمَه ومنها ولادةُ الغنمِ الدرعَ خاصة حين وعد أن يكون له الدرعُ من أولادها ، ومنها وقوعُ عصا آدمَ عليه السلام على يده في المرات السبعِ لأن كلَّ ذلك كان قبل أن يُستنبأ موسى عليه السلام . وقيل : البينةُ مجيئُه عليه السلام كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّى ﴾

أي حجةٌ واضحةٌ وبرهانٌ نيّرٌ ، عبّر بهما عما آتاه الله من النبوة والحكمة ﴿ فَأَوْفُواْ الكيل ﴾ أي المكيال كما وقع في سورة هودٍ ويؤيده قولُه تعالى : ﴿ والميزان ﴾ فإن المتبادرَ منه الآلةُ وإن جاز كونُه مصدراً كالمعيار وقيل : آلةَ الكيل والوزن على الإضمار ، والفاءُ لترتيب الأمرِ على مجيء البينةِ ويجوز أن تكون عاطفةً على اعبدوا فإن عبادةَ الله تعالى موجبةٌ للاجتناب عن المناهي التي معظمُها بعد الكفرِ البخْسِ الذي كانوا يباشرونه ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ التي تشترونها بهما معتمدين على تمامهما أيَّ شيءٍ كان وأيَّ مقدارٍ كان ، فإنهم كانوا يبخسون الجليلَ والحقيرَ والقليلَ والكثيرَ ، وقيل : كانوا مكّاسين لا يدَعون شيئاً إلا مكَسوه ، قال زهير :

أفي كل أسواقِ العراقِ إتاوة . . . وفي كل ما باع امرؤٌ مَكْسُ درهمِ

﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ أي بالكفر والحيف ﴿ بَعْدَ إصلاحها ﴾ بعد ما أصلح أمرَها وأهلَها الأنبياءُ وأتابعُهم بإجراء الشرائعِ ، أو أصلحوا فيها وإضافتُه إليها كإضافة مكرِ الليلِ والنهار ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ إشارةٌ إلى العمل بما أمرَهم به ونهاهم عنه ، ومعنى الخيريةِ إما الزيادةُ مطلقاً أو في الإنسانية وحسنِ الأُحدوثة وما يطلُبونه من التكسب والربح لأن الناسَ إذا عرفوهم بالأمانة رغِبوا في معاملتهم ومُتاجرَتهم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي مصدّقين لي في قولي هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾

عطف على ما مر .

والمراد أرسلنا إلى مدين الخ .

ومدين وسمع مديان في الأصل علم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام ومنع صرفه للعلمية والعجمة ثم سميت به القبيلة ، وقيل : هو عربي اسم لماء كانوا عليه ، وقيل : اسم بلد ومنع صرفه للعلمية والتأنيث فلا بد من تقدير مضاف حينئذٍ أي أهل مدين مثلاً أو المجاز .

والياء على هذا عند بعض زائدة .

وعن ابن بري الميم زائدة إذ ليس في كلامهم فعيل وفيه مفعل .

وقال آخرون : إنه شاذ كمريم إذ القياس إعلاله كمقام .

وعند المبرد ليس بشاذ قيل وهو الحق لجريانه على الفعل .

وشعيب قيل تصغير شعب بفتح فسكون اسم جبل أو شعب بكسر فسكون الطريق في الجبل .

واختير أنه وضع مرتجلاً هكذا .

والقول بأن القول بالتصغير باطل لأن أسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز تصغيرها فيه نظر لأن الممنوع التصغير بعد الوضع لا المقارن له ومدعي ذلك قد يدعي هذا وهو على ما وجد بخط النووي في "تهذيبه" (ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام) ، وقيل : ابن ميكيل بن يشجر بن لاوي بن يعقوب ، وبعضهم يقول : ميكائيل بدل ميكيل ، ونقل ذلك عن خط الذهبي في "اختصار المستدرك" .

وآخر يقول ملكاني بدله .

وذكر أن أم ميكيل بنت لوط عليه السلام .

وأخرج ابن عساكر من طريق إسحاق بن بشر عن الشرقي بن القطامي وكان نسابة أن شعيباً هو يثروب بالعبرانية وهو ابن عيفاء بن يوبب بمثناة تحتية أوله وواو وموحدتين بوزن جعفر بن إبراهيم عليه السلام ، وقيل : في نسبه غير ذاك ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كما أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إذا ذكر شعيب يقول : "ذلك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه" أي محاورته لهم ، وكأنه كما قيل عنى عليه الصلاة والسلام ما ذكر في هذه السورة كما يعلم بالتأمل فيه .

وبعث رسولاً إلى أمتين مدين وأصحاب الأيكة ، قال السدي وعكرمة رضي الله تعالى عنهما : ما بعث الله تعالى نبياً مرتين إلا شعيباً مرة إلى مدين فأخذهم الله تعالى بالصيحة ، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة .

وأخرج ابن عساكر في "تاريخه" من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً أن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله تعالى إليهما شعيباً .

وهو كما قال ابن كثير غريب وفي رفعه نظر واختار أنهما أمة واحدة ، واحتج له بأن كلاً منهما وعظ بوفاء الميزان والمكيال وهو يدل على أنهما واحدة وفيه ما لا يخفى .

ومن الناس من زعم أنه عليه السلام بعث إلى ثلاث أمم ، والثالثة أصحاب الرس .

والقول بأنه عليه السلام كان أعمى لا عكاز له يعتمد عليه بل قد نص العلماء ذوو البصيرة على أن الرسول لا بد أن يكون سليماً من منفر ومثلوه بالعمى والبرص والجذام ، ولا يرد بلاء أيوب وعمى يعقوب بناء على أنه حقيقي لطروه بعد الإنباء والكلام فيما قارنه ، والفرق أن هذا منفر بخلافه فيمن استقرت نبوته .

وقد يقال : إن صح ذلك فهو من هذا القبيل .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية إرساله إليهم كأنه قيل : فماذا قال لهم ؟ فقيل قال : ﴿ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ مر تفسيره ﴿ قَدْ جَاءتْكُم

بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم .

ولم تذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم السلام فيه .

(27/278)

والقول بأنه لم يكن له عليه السلام معجزة غلط لأن الفاء في قوله سبحانه : ﴿ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان ﴾ لترتيب الأمر على مجيء البينة ، واحتمال كونها عاطفة على ﴿ اعبدوا ﴾ بعيد ، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس فكأنه قيل : قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بها والأخذ بما أمرتكم به فأوفوا الخ ؛ ولو ادعى مدع النبوة بغير معجزة لم تقبل منه لأنها دعوى أمر غير ظاهر وفيه إلزام للغير ومثل ذلك لا يقبل من غير بينة .

ومن الناس من زعم أن البينة نفس شعيب .

ومنهم من زعم أن المراد بالبينة الموعظة وأنها نفس ﴿ فَأَوْفُواْ ﴾ الخ وليس بشيء كما لا يخفى .

وقال الزمخشري : (إن من معجزاته عليه السلام ما روي من محاربة عصا موسى عليه

السلام التنين حين دفع إليه غنمه وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها ووقوع عصا آدم عليه السلام على يده في المرات السبع وغير ذلك من الآيات لأن هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام فكانت معجزات لشعيب) اه .

وفيه نظر لأن ذلك متأخر عن المقاولة فلا يصح تفريع الأمر عليه ، ولأنه يحتمل أن يكون كرامة لموسى عليه السلام أو إرهاصاً لنبوته بل في "الكشف" أن هذا متعين لأن موسى أدرك شعيباً عليه السلام بعد هلاك قومه ولأن ذلك لم يكن معرض التحدي .

وزعم الإمام أن الإرهاص غير جائز عند المعتزلة ، ولهذا جعل ذلك معجزة لشعيب عليه السلام نظر فيه الطيبي بأن الزمخشري قال في آل عمران (54) في تكليم الملائكة عليهم السلام لمريم : إنه معجزة لزكريا أو إرهاص لنبوة عيسى عليهما السلام ، والمراد بالكيل ما يكال به مجازاً كالعيش بمعنى ما يعاش به .

(28/278)

ويؤيده أنه قد وقع في سورة هود (58) ﴿ المكيال ﴾ وكذا عطف ﴿ الميزان ﴾ عليه هنا ، فإن المتبادر منه الآلة وإن جاز كونه مصدراً بمعنى الوزن كالميعاد بمعنى الوعد ، وقيل : إن الكيل وما عطف عليه مصدران والكلام على الإضمار أي أوفوا آلة الكيل والوزن .

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس ﴾ أي لا تنقصوهم يقال بخسه حقه إذا نقصه إياه ومنه قيل للمكس البخس .

وفي أمثالهم تحسبها حمقاء وهي باخس أي ذات بخس .

وتعدى إلى مفعولين أولهما ﴿ الناس ﴾ والثاني ﴿ أَشْيَاءهُمْ ﴾ أي الكائنة في المبايعات من الثمن والمبيع ، وفائدة التصريح بالنهي عن النقص بعد الأمر بالإيفاء تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده ، وقد يراد بالأشياء الحقوق مطلقاً فإنهم كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه .

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم كانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالهم وكانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه الجياد ويقولون دراهمك هذه زيوف فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخس .

وروي أنهم يعطونه أيضاً بدلها زيوفاً فكأنه لما نهوا عن البخس في الكيل والوزن نهوا عن البخس والمكس في كل شيء .

قيل : ويدخل في ذلك بخس الرجل حقه من حسن المعاملة والتوقير اللائق به وبيان فضله على ما هو عليه للسائل عنه .

وكثير ممن انتسب إلى أهل العلم اليوم مبتلون بهذا البخس وليتهم قنعوا به بل جمعوا حشفاً وسوء كيلة فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وبدأ عليه السلام بذكر هذه الواقعة على ما قال الإمام (لأن عادة الأنبياء عليهم السلام أنهم إذا رأوا قومهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالاً أكثر من إقبالهم على سائر الأنواع بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع ، وكان قومه عليه السلام مشغوفين بالبخس والتطفيف) أكثر من غيره ، والمراد من الناس ما يعمهم وغيرهم أي لا تبخسوا غيركم ولا يبخس بعضكم بعضاً .

(29/278)

﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ بالجور أو به وبالكفر ﴿ بَعْدَ إصلاحها ﴾ أي إصلاح أمرها أو أهلها بالشرائع ، فالإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله بحذف المضاف ، والفاعل الأنبياء وأتباعهم .

وجوز أن لا يقدر مضاف ويعتبر التجوز في النسبة الإيقاعية لأن إصلاح من في الأرض إصلاح لها ، وأن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى الفاعل على الإسناد المجازي للمكان ، وأن تكون على معنى في أي بعد إصلاح الأنبياء فيها .

ويأبى الحمل على الظاهر لأن الإصلاح يتعلق بالأرض نفسها كتعميرها وإصلاح طرقها لا تفسدوا في الأرض .

﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ، وأياً ما كان فإفراد اسم الإشارة وتذكيره ظاهر .

ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقاً أو في الإنسانية وحسن الأحدوثة وما يطلبونه من التكسب والتربح لأن الناس إذا عرفوهم بالأمانة رغبوا في معاملتهم ومتاجرتهم ، وقيل : ليس المراد من ﴿ خَيْرٌ ﴾ هنا معنى الزيادة لأنه ليس للتفضيل بل المعنى ذلكم نافع لكم .

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قيل : المراد بالإيمان معناه اللغوي ، وتخص الخيرية بأمر الدنيا أي إن كنتم مصدقين لي في قولي ، ومثل هذا الشرط على ما قال الطيبي إنما يجاء به في آخر الكلام للتأكيد ، ويعلم من هذا أن شعيباً عليه السلام كان مشهوراً عندهم بالصدق والأمانة كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم مشهوراً عند قومه بالأمين .

وقال بعض الذاهبين إلى ما ذكر : إن تعليق الخيرية على هذا التصديق بتأويل العلم بها وإلا فهو خير مطلقاً .

وقال القطب الرازي : إن ذلك ليس شرطاً للخيرية نفسها بل لفعلهم كأنه قيل : فاتوا به إن كنتم مصدقين بي فلا يرد أنه لا توقف للخيرية في الإنسانية على تصديقهم به .

(30/278)

وقيل : المراد به مقابل الكفر وبالخيرية ما يشمل أمر الدنيا والآخرة أي ذلك خير لكم في الدارين بشرط أن تؤمنوا ، وشرط الإيمان لأن الفائدة من حصول الثواب مع النجاة من العقاب ظاهرة مع الإيمان خفية مع فقده للانغماس في غمرات الكفر ، وبنى بعضهم نفع ترك البخس ونحوه في الآخرة على أن الكفار يعذبون على المعاصي كما يعذبون على الكفر فيكون الترك خيراً لهم بلا شبهة لكن لا يخفى أنه إذا فسر الإفساد في الأرض بالإفساد فيها بالكفر لا يكون لهذا التعليق على الإيمان معنى كما لا يخفى ، وإخراجه من حيز الإشارة بعيد جداً .

وزعم الخيالي أن الأظهر أن ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ معترضة والشرط متعلق بما سبق من الأوامر والنواهي ، وكأنه التزم ذلك لخفاء أمر الشرطية عليه .

وقد فر من هرة ووقع في أسد وهرب من القطر ووقف تحت الميزاب فاعتبروا يا أولي الألباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

(31/278)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

تفسير صدر هذه الآية هو كتفسير نظيرها في قصّة ثمود ، سوى أنّ تجريد فعل ﴿ قال يا قوم ﴾ من الفاء هنا يترجّح أنّه للدّلالة على أنّ كلامه هذا ليس هو الذي فاتحهم به في ابتداء رسالته بل هو مِمّا خاطبهم به بعدَ أن دعاهم مِراراً ، وبعدَ أن آمنَ به مَن آمن منهم كما يأتي .

ومَدْيَن أمّة سُمّيت باسم جَدّها مَدْيَنَ بنِ إبراهيم الخليلِ عليه السّلام ، من زوجه الثّالثة التي تزوّجها في آخر عُمره وهي سرية اسمُها قَطُورَا .

وتزوّج مَدْيَنُ ابنةَ لوط عليه السّلام وولد له أبناء : هم (عيفة) و (عفر) و (حنوك) و (أبيداع) و (أُلْدَعة) وقد أسكنهم إبراهيم عليه السّلام في ديارهم ، وسطاً بين مسكن ابنه إسماعيل عليه السّلام ومسكن ابنه إسحاق عليه السّلام ، ومن ذرّيتهم تفرّعت بطون مَدْين ، وكانوا يعدّون نحو خمسة وعشرين ألفاً ، ومواطنهم بين الحجاز وخليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر ، وقاعدة بلادهم (وَجّ) على البحر الأحمر وتنتهي أرضهم من الشّمال إلى حدود مَعان من بلاد الشّام ، وإلى نحو تبوك من الحجاز ، وتسمّى بلادهم (الأيكَة) .

ويقال : إنّ الأيكة هي (تبوك) فعلى هذا هي من بلاد مَدين ، وكانت بلادهم قرى وبوادي ، وكان شعيب عليه السّلام من القرية وهي (الأيكَة) ، وقد تَعرّبوا بمجاورة الأمم العربيّة وكانوا في مدّة شعيب عليه السّلام تحت ملوك مصر ، وقد اكتسبوا بمجاورة قبائل العرب

ومخالطتهم لكونهم في طريق مصر ، عربيّة فأصبحوا في عداد العرب المستعربة ، مثل بني إسماعيل عليه السّلام ، وقد كان شاعر في الجاهلية يعرف بأبي الهَمَيْسَع هو من شعراء مَدْيَن وهو القائل:

إن تَمْنَعِي صَوْبَكِ صوب المدمع . . .

يجْري على الخدّ كضَبّ الثَّغْثَغ

من طَمْحَةٍ صبيرُها جَحْلَنْجَعِ . . .

(32/278)

ويقال : إنّ الخطّ العربي أوّل ما ظهر في مدْين .

وشعيب عليه السّلام هو رسولٌ لأهل مدين ، وهو من أنفسهم ، اسمُه في العربيّه شُعيب عليه السّلام واسمه في التّوراة : (يَثْرُون) ويسمّى أيضاً (رَعْوَئِيل) وهو ابن (نويلى أو نويب) بن (رَعْويل) بن (عيفا) بن (مدين) .

وكان موسى عليه السّلام لمّا خرج من مصر نزل بلاد مدَين وزوّجَه شعيبٌ ابنتَه المسمّاة (صَفورَه) وأقام موسى عليه السّلام عنده عشر سنين أجيراً .

وقد خبط في نسب مدين ونسب شُعيب عليه السّلام جمع عظيم من المفسّرين والمؤرّخين

، فما وجدت مَمّا يخالف هذا فانبذه .

وعَدّ الصفدي شعيباً في العِميان ، ولم أقف على ذلك في الكتب المعتمدة .

وقد ابتدأ الدّعوة بالإيمان لأنّ به صلاح الاعتقاد والقلب ، وإزالة الزّيف من العقل .

وبيّنة شعيب عليه السّلام التي جاءت في كلامه : يجوز أن تكون أطلقت على الآية لمعجزة أظهرها لقومه عَرفوها ولم يذكرها القرآن ، كما قال ذلك المفسّرون ، والأظهر عندي أن يكون المراد بالبيّنة حجّة أقامها على بطلان ما هم عليه من الشّرك وسوء الفعل ، وعجزوا عن مجادلته فيها ، فقامت عليهم الحجّة مثل المجادلة التي حكيت في سورة هود فتكون البيّنة أطلقت على ما يُبيّن صدق الدّعوى ، لا على خصوص خارق العادة ، أو أن يكون أراد بالبيّنة ما أشار إليه بقوله : ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ﴾ أي يكون أنذرهم بعذاب يحلّ بهم إن لم يؤمنوا ، كما قال في الآية الأخرى

(33/278)

﴿ فأسقط علينا كِسْفا من السّماء إن كنت من الصّادقين ﴾ [الشعراء : 187]

فيكون التّعبير بالماضي في قوله : ﴿ قد جاءتكم ﴾ مراداً به المستقبل القريب ، تنبيهاً على تحقيق وقوعه ، أو أن يكون عَرض عليهم أن يظهر لهم آية ، أي معجزة ليؤمنوا ، فلم

يسألوها وبادروا بالتّكذيب ، فيكون المعنى مثلَ ما حكاه الله تعالى عن موسى عليه السّلام : ﴿ قد جئتكم ببينة من ربّكم فأرسل معي بني إسرائيل قال إن كنتَ جئتَ بآية فأتتِ بها ﴾ [الأعراف : 105 ، 106] الآية ، فيكون معنى : ﴿ قد جاءتكم ﴾ قد أعِدّت لأنّ تجيئكم إذا كنتم تؤمنون عند مجيئها .

والفاء في قوله : ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ﴾ للتّفريع على مضمون معنى ﴿ بينة ﴾ لأنّ البيّنة تدلّ على صدقه ، فلمّا قام الدّليل على صدقه وكان قد أمرهم بالتّوحيد بادىء بدء ، لما فيه من صلاح القلب ، شرع يأمرهم بالشّرائع من الأعمال بعد الإيمان ، كما دلّ عليه قوله الآتي : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فتلك دعوة لمن آمن من قومه بأن يكملوا إيمانهم بالتزام الشّرائع الفرعيّة ، وإبلاغٌ لمن لم يؤمن بما يلزمهم بعد الإيمان بالله وحده .

وفي دعوة شعيب عليه السّلام قومه إلى الأعمال الفرعيّة بعد أن استقرت الدّعوة إلى التّوحيد ما يؤذن بأنّ البشر في ذلك العصر قد تطوّرت نفوسهم تطوّراً هيّأهم لقبول الشّرائع الفرعيّة ، فإنّ دعوة شعيب عليه السّلام كانت أوسع من دعوة الرّسل من قبله هودٍ وصالحٍ عليهم السّلام إذ كان فيها تشريع أحكام فرعيّة وقد كان عصر شعيب عليه السّلام قد أظَلّ عَصْرَ موسى عليه السّلام الذي جاء بشريعة عظيمة ماسّةٍ نواحيَ الحياة كُلَّها .

والبخس فسّروه بالنّقص ، وزاد الرّاغب في "المفردات" قيداً ، فقال : نقص الشّيء على سبيل الظلم ، وأحسن ما رأيت في تفسيره قول أبي بكر بن العربي في "أحكام القرآن" : "البخس في لسان العرب هو النّقص بالتعييب والتّزهيد أو المخادعة عن القيمة أو الاحتيال في التزيد في الكيل والنّقصان منه" فلنبن على أساس كلامه فنقول : البخس هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمالٍ في نوعه .

ففيه معنى الظلم والتّحيّل ، وقد ذكر ابن سيدة في "المخصص" البَخس في باب الذهاب بحقّ الإنسان ، ولكنّه عندما ذكره وقع فيما وقع فيه غيره من مدوّني اللّغة ، فالبَخس حدث يتّصف به فاعل وليس صفة للشّيء المبْخوس في ذاته ، إلاّ بمعنى الوصف بالمصدر ، كما قال تعالى : ﴿ وشَرَوه بثمنٍ بَخس ﴾ [يوسف : 20] أي دون قيمة أمثاله ، (أي تساهل بائعوه في ثمنه لأنّهم حصّلوه بغير عوض ولا كلفة) .

وأعلم أنّه قد يكون البَخس متعلّقاً بالكمّية كما يقول المشتري : هذا النّحْي لا يزن أكثر من عشرة أرطال ، وهو يعلم أنّ مثله يزن اثني عشر رطلاً ، أوْ يقولُ : ليس على هذا النّخل أكثر من عشرة قناطير تمراً في حين أنّه يعلم أنّه يبلغ عشرين قنطاراً ، وقد يكون متعلّقاً بالصّفة كما يقول : هذا البعير شَرود وهو من الرّواحل ، ويكون طريق البَخس قولاً ، كما

مثَّلنا ، وفعلاً كما يكون من بذل ثمنٍ رخيصٍ في شيء من شأنه أن يباع غالياً ، والمقصود من البَخس أن ينتفع البَاخس الرّاغب في السّلعة المبْخوسة بأنْ يصرف النَّاس عن الرّغبة فيها فتبقى كَلاًّ على جالبها فيضطرّ إلى بيعها بثمن زهيد ، وقد يقصد منه إلقاء الشكّ في نفس جالب السّلعة بأنّ سلعته هي دون ما هو رائج بين النّاس ، فيدخله اليأس من فوائد نتاجه فتكسل الهِمَم .

(35/278)

وما وقع في "اللّسان" من معاني البَخس : أنّه الخسيس فلعلّ ذلك على ضرب من المجاز أو التّوسّع ، وبهذا تعلم أنّ البَخس هو بمعنى النّقص الذي هو فعل الفاعل بالمفعول ، لا النّقص الذي هو صفة الشّيء النّاقص ، فهو أخص من النّقص في الاستعمال ، وهو أخص منه في المعنى أيضاً .

ثمّ إنّ حقّ فعله أن يتعدّى إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى : ﴿ ولا يبْخس منه شيئاً ﴾ [البقرة : 282] فإذا عُدّي إلى مفعولين كما في قوله هنا : ﴿ ولا تبْخسوا النّاس أشياءهم ﴾ فذلك على معنى التّحويل لتحصيل الإجمال ثمّ التّفصيل ، وأصل الكلام : "ولا تبْخسوا أشياءَ النّاس" فيكون قوله : ﴿ أشياءهم ﴾ بدل اشتمال من قوله : ﴿ الناس ﴾ وعلى

هذا فلو بني فعل ﴿ بخس ﴾ للمجهول لقلت بُخِس فلان شيئُه برفع فلان ورفع شيئه .

وقد جعله أبو البقاء مفعولاً ثانياً ، فعلى إعرابه لو بني الفعل للمجهول لبَقي (أشياءهم) منصوباً .

وعلى إعرابنا لو بني الفعل للمجهول لصار أشياؤُهم مرفوعاً على البدليّة من النّاس ، وبهذا تَعلم أنّ بيْن البَخس والتَّطفيف فرقاً قد خفي على كثير .

وحاصل ما أمر به شعيب عليه السّلام قومَه ، بعد الأمر بالتّوحيد ينحصر في ثلاثة أصول : هي حفظ حقوق المعاملة الماليّة ، وحفظ نظام الأمّة ومصالحها ، وحفظُ حقوق حرّية الاستهداء .

فالأوّل قوله : ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ فإيفاء الكيل والميزان يرجع إلى حفظ حقوق المشترين ، لأنّ الكائل أو الوازن هو البائع ، وهو الذي يحمله حبّ الاستفضال على تطْفيف الكيل أو الوزن ، ليكون باع الشّيءَ النّاقص بثمن الشّيء الوافي ، كما يحسبه المشتري .

وأمّا النَّهي عن بخس النّاس أشياءهم فيرجع إلى حفظ حقوق البائع لأنّ المشتري هو الذي يبْخس شيء البائع ليهيّئه لقبول الغبن في ثمن شيئه ، وكلا هذين الأمرين حيلة وخداع لتحصيل ربح من المال .

والكيل مصدر ، ويطلق على ما يكال به ، وهو المِكيال كقوله تعالى : ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ [يوسف : 65] وهو المراد هنا : لمقابلته بالميزان ، ولقوله في الآية الأخرى : ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ [هود : 84] ومعنى .

إيفاء المكيال والميزان أن تكون آلة الكيل وآلة الوزن بمقدار ما يقدّر بها من الأشياء المقدّرة .

وإنَّما خَصّ هذين التحيلين بالأمر والنّهي المذكورين : لأنَّهما كانا شائعين عند مَدْيَن ، ولأنّ التّحيلات في المعاملة الماليّة تنحصر فيهما إذ كان التّعامل بين أهل البوادي منحصراً في المبادلات بأعيان الأشياءِ : عرْضاً وطَلَباً .

وبهذا يَظهر أنّ النّهي في قوله : ﴿ ولا تبخسوا النّاس أشياءَهم ﴾ أفاد معنى غير الذي أفاده الأمر في قوله : ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ﴾ .

وليس ذلك النّهي جارياً مجرى العلّة للأمر ، أو التّأكيد لمضمونه ، كما فسّر به بعض المفسّرين .

وما جاء في هذا التّشريع هو أصل من أصول رواج المعاملة بين الأمّة لأنّ المعاملات تعتمد الثّقة المتبادَلة بين الأمّة ، وإنَّما تحصل بشيوع الأمانة فيها ، فإذا حصل ذلك نشط النّاس للتّعامل فالمُنتج يزداد إنتاجاً وعَرْضاً في الأسواق ، والطَّالبُ من تاجر أو مُستهلك يُقبِل

على الأسواق آمِناً لا يخشى غبناً ولا خديعة ولا خِلابة ، فتتوفّر السّلع في الأمّة ، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها وتحسينياتها ، فيقوم نَماء المدينة والحضارة على أساس متين ، ويَعيش النّاس في رخاء وتحابب وتآخ ، وبضد ذلك يختلّ حال الأمّة بمقدار تفشي ضدّ ذلك .

وقوله : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ هذا الأصل الثّاني من أصول دعوة شعيب عليه السّلام للنّهي عن كلّ ما يفضي إلى إفساد ما هو على حالة الصّلاح في الأرض .

وقد تقدّم القول في نظير هذا التّركيب عند قوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ في أوائل هذه السّورة (56) .

(37/278)

والإشارة ﴿ بذلكم ﴾ إلى مجموع ما تضمّنه كلامه ، أي ذلك المذكورُ ، ولذا أفرد اسم الإشارة .

والمذكور : هو عبادة الله وحده ، وإيفاءُ الكيل والميزان ، وتجنب بخس أشياء النّاس ، وتجنبُ الفساد في الأرض .

وقد أخبر عنه بأنّه خير لَهم ، أي نفع وصلاح تنتظم به أمورهم كقوله تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ﴾ [الحج : 36] .

وإنّما كان ما ذُكر خيراً : لأنّه يوجب هناء العيش واستقرار الأمن وصفاءَ الودّ بين الأمّة وزوال الإحَن المفضية إلى الخصومات والمقاتلات ، فإذا تمّ ذلك كثرت الأمّة وعزّت وهابها أعداؤُها وحسنت أحدوثتها وكثر مالها بسبب رغبة النّاس في التّجارة والزّراعة لأمْن صاحب المال من ابتزاز ماله .

وفيه خير الآخرة لأنّ ذلك إنْ فعلوه امتثالاً لأمر الله تعالى بواسطة رسوله أكسبهم رضى الله ، فنجَوْا من العذاب ، وسكنوا دار الثّواب ، فالتّنكير في قوله : ﴿ خير ﴾ للتعظيم والكمال لأنّه جامعُ خيري الدّنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ شرط مُقَيِّد لقوله : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ والمؤمنون لقب للمتّصفين بالإيمان بالله وحده ، كما هو مصطلح الشّرائع وحملُ المؤمنين على المصدّقين لقوله ، ونصحه ، وأمانته : حملٌ على ما يأبَاه السّياق ، بل المعنى ، أنّه يكون خيراً إن كنتم مؤمنين بالله وحدَه ، فهو رجوع إلى الدّعوة للتّوحيد بمنزلة ردّ العجز على الصّدر في كلامه ، ومعناه أنّ حصول الخير من الأشياء المشارِ إليها لا يكون إلاّ مع الإيمان ، لأنّهم إذا فعلوها وهم مشركون لم يحصل منها الخير لأنّ مفاسد الشّرك تُفسد ما في الأفعال من الخَير ، أمّا في الآخرة فظاهر ، وأمّا في الدّنيا فإنّ الشّرك يدعو إلى أضداد تلك الفضائل كما قال الله تعالى : ﴿

وما زَادوهم غَيْر تَتْبيب ﴾ [هود : 101] أو يدعو إلى مفاسد لا يَظهر معها نفع تلك المصالح .

(38/278)

والحاصل أنّ المراد بالتّقييد نفي الخير الكامل عن تلك الأعمال الصّالحة إن لم يكن فاعلوها مؤمنين بالله حقّ الإيمان ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَكّ رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مَقْرَبَة أو مسكيناً ذا مَتْرَبَة ثمّ كَان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 13 17] وتأويل الآية بغير هذا عدول بها عَن مهيع الوضوح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(39/278)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

و " مدين " هو ابن من أبناء سيدنا إبراهيم جاء واستقر في هذا المكان ، فهو علم على شخصه ، وعلم على المكان الذي أقام فيه وسمي المكان باسمه ، فلما تكاثر أبناؤه

وصاروا قبيلة أخذت القبيلة اسمه . إذن ف " مدين " اسم عَلَمٌ على ابن إبراهيم ، وأطلق على المكان الذي استقر فيه من طور سيناء إلى الفرات ، وأطلق على القبيلة : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى هنا يكرر " أخ " ليبين لك ؛ أنه إن قسا عليهم مرة فسيحنو عليهم مرة أخرى ؛ لأنهم إخوة له ومأنوس بهم ، وفيهم عاش ويعرفون عنه كل شيء ، وكان مدين قد تزوج من رقبة ابنة سيدنا لوط ، وحين تكاثر الاثنان صاروا قبيلة ، ويبلغهم سيدنا شعيب بالقضية العقدية التي يبلغها كل رسول : ﴿ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ .

والعبادة هي الطاعة للأمر والطاعة للنهي ، وأنت لا تطيع أمر آمر ولا نهي ناه إلا إذا كان أعلى منك ، لأنه إن كان مساويا لك ، فبعد أن يقول لك : " افعل كذا " ستسأله أنت : لماذا ؟ ، وبعد أن ينهاك عن شيء ستسأله أيضاً : لماذا ؟ . لكن الأب حينما يقول لطفله : أنت لا تفعل الشيء الفلاني ، فالابن لا يناقش ؛ لأنه يعرف أن أباه هو من يطعمه ويشربه ويكسوه ، وحين يكبر الطفل فهو يناقش ؛ لأن ذاتيته تتكون ، ويريد أن يعرف الأمر الذي سيقدم عليه . ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 85]

ومادام قد قال لهم : ﴿ اعبدوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ فهو رسول قادم ومرسل من الله ، ولا بد أن تكون معجزة يثبتها ، إلا أن شعيباً لم يأت لنا بالمعجزة ، إنما جاء بالبينة . ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان . . . ﴾ [الأعراف : 85]

لأن كل المعاصي والكفر تدفع إلى الإخلال في الكيل والميزان ، وإذا كان شعيب قد قال ذلك لقومه فلابد أن الإخلال في الكيل والميزان كان هو الأمر الشائع فيهم . فيأتي ليعالج الأمر الشائع . وهم كانوا يبخسون الكيل والميزان .

ويظن الناس في ظاهر الأمر أنها عملية سهلة ، وأن القبح فيها قليل ، والاختلاس فيها هين يسير ، فحين يبخس في الميزان ولو بجزء قليل ، إنما يأخذ لنفسه في آخر الأمر جزءاً كبيراً . وأنت ساعة تكيل وتزن وتطفف فأنت تفعل ذلك في من يشتري . وستذهب أنت بعد ذلك لتشتري من أناس كثيرين سيفعلون مثلما فعلت ، فإذا ما وفيت الكيل والميزان ، فأنت تفعل ما هو في مصلحتك ، لأنك تنشر العدل السلوكي بين الناس بادئاً بنفسك ، ومصالحك كلها مع الآخرين .

إنك حين تبيع أي سلعة ولو كانت بلحاً وتنقص في الميزان ، وستحقق لنفسك ربحاً ليس فيه حق ، وإن كنت تكيل قمحاً لتبيعه وأنقصت الكيل ، فأنت تأخذ ما ليس لك ، والقمح والبلح هما بعض من مقومات حياتك ؛ لأنك تحتاج إلى سلع كثيرة عند من يزن ، وعند من

يكيل ، فإن أنقصت الميزان أو الكيل فلسوف يفعلون مثلما فعلت فيما يملكون لك ، وبذلك تخسر أنت ويصبح الخسران عاماً .

﴿ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 85]

(41/278)

وإذا كانت الخسارة في الكيل والميزان طفيفة ومحتملة ، فمن باب أولى ألا نبخس الناس أشياءهم فلا نظلمهم بأخذ أموالهم والاستيلاء على حقوقهم ، فلا نسرف لأن السارق يأخذ ما تصل إليه يده ، ولا نغتصب ، ولا نختلس ، ولا نرتشي ، لأنه إذا كان وفاء الكيل هو أول مطلوب الله منكم مع أن الخسارة فيه طفيفة ، إذن فبخس الناس أشياءهم يكون من باب أولى .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا . . . ﴾ [الأعراف : 85] وبذلك نكون أمام أكثر من أمر جاء بها نبي الله شعيب : ﴿ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ وهذه العبادة لتربي فيهم مهابة وتزيدهم حباً واحتراماً للآمر الأعلى ، وكذلك ليخافوا من جبروته سبحانه . وبعد ذلك ضرورة يكون الأمر بالوفاء بالكيل والميزان ، والزجر عن أن يبخسوا الناس أشياءهم ، ثم النهي والتحذير من الإفساد في الأرض ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ

فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ ، والإِصلاح الذي يطلبه الله منا أن نستديمه أو نرقيه إنما يتأتى بإيجاد مقومات الحياة على وجه جميل .

مثال ذلك الهواء وهو العنصر الأول في الحياة المسخرة لك ؛ يصرّفه سبحانه حتى لا يفسد . والنعيم الثاني في الحياة وهو الشراب ؛ إنه سبحانه ينزل لك الماء من السماء ، ثم القوت الذي يخرجه لك من الأرض . والمواشي التي تأخذ منها اللبن ، والأوبار ، والأصواف ، والجلود ، كل ذلك سخره الله لك ، وهذا إصلاح في الأرض ، لكن هل هذه كل المقومات الأساسية ؟ لا ؛ لأنه إن وجدت كل هذه المقومات الأساسية ثم وجد الغصب ، والسرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، فسيفسد كل شيء ، ولا يعدل كل ذلك ويقيمه ويجعله سويا إلا الدين ؛ لأنه كمنهج يمنع الإفساد في الأرض . ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا . . . ﴾ [الأعراف : 85]

(42/278)

إذن فهذه الأشياء التي هي إيفاء الكيل والميزان يأتي الأمر بها ، ثم يتبعها بما ينهى عنه وهو ألا نبخس الناس أشياءهم وألا نفسد في الأرض بعد إصلاحها ، كل ذلك يجمع المنهج .

أوامر ونواهي ، وقد يبدو في ظاهر الأمر أنها مسائل تقيد حرية الإنسان ، فنقول : لا تنظر إلى نفسك أيها الإنسان وأنت بمعزل عن المجتمع الواسع ، فأنت لا تملك من مصالحك إلا أمراً واحداً ، وهذا الأمر الذي تملكه أنت من مصالحك يكون أقل الأشياء عندك ، ولكن الأمور الأخرى التي تحتاج إليها هي بيد غيرك ، فإن أنت وفيت الكيل والميزان .

فذلك خير لك ؛ فالذي يقيس لك القماش لا يغشك ، والذي يزن لك ما ليس عندك لا يغشك ، والذي يكيل لك الذي ليس عندك لا يغشك ، إذن فأنت واحد منهي عن أن تفعل ذلك ، وجميع الناس منهيون أن يفعلوا ذلك معك ، وبذلك تكون أن الكاسب .

وإذا جئت إلى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ، فأنت مأمور ألا تبخس الناس أشياءهم ، وكل الناس مأمورون ألا يبخسوك شيئاً ، وإذا أفسدت في الأرض بعد إصلاحها فالناس مأمورون أيضاً ألا يفسدوا هذه الأرض وبذلك تكون احظ منهم في كل شيء . ولذلك يجب على كل مكلف حين يستقبل تكليفاً قد يكون شاقاً على نفسه أن يتأمل هذا التكليف وأن يقول لنفسه : إياك أن تنظر إلى مشقة التكليف على نفسك ، ولكن انظر إلى ما يؤديه لنفسه : إياك أن تنظر إلى التكليف لك : لا تنظر إلى محارم غيرك ، فقد أمر غيرك ألا ننظر محارمك ، وفي هذا عزة لك . وإذا أمرك التكليف ألا تضع يدك في جيب غيرك وتسرق ، فقد أمر كل الناس ألا يضعوا أيديهم في جيوبك ليسرقوك ، وبهذا نعيش في أمان .

وإذا طلب التكليف منك وأنت غني أن تخرج زكاة مالك إياك أن تقول : مالي وتعبي وعرقي ؛ لأن المال مال الله ، وأنت كإنسان مخلوق ليس لك إلا توجيه الحركة ، والحركة تكون بطاقة مخلوقة لله ، والعقل الذي خطط مخلوق لله ، والانفعال الذي انفعل لك في الأرض من خلق الله ، ولكن الحق احترم عملك وناتجه وفرض عليك أن تخرج منه زكاة مقدرة . فإياك أن تقول : أنه يأخذ مني ، لماذا ؟ لأن عالم الأغيار باد وظاهر أمامك ، وكم رأيت من قوي ضعف ، ومن غني افتقر ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تعطي الفقير وتقويه ، فإن افتقرت فسيفعل لك ذلك ، وفي ذلك تأمين حياتك ؛ لأنك تعيش في مجتمع فلا تأس على نفسك إن مرت بك الأغيار لأن مجتمعك الإيماني لن يتركك ، أنت أو أولادك ، ويقول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ اللهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [النساء : 9]

فإن أردت أن تطمئن على أولادك الصغار بعد موتك فانظر للأيتام في مجتمعك وكن أبا لهم ، وحين تصير أنت أباً لهم ، وهذا أب لهم ، وذلك أب لهم ، سيشعر اليتيم أنه فقد أبا واحداً ، لكنه يحيا في مجتمع إيماني أوجد له من كل المؤمنين آباء ، فلا يحزن ، وكذلك لن تخاف على

أولادك إن صاروا أيتاماً بعد أن غادرتهم إلى لقاء ربك ؛ لأنك رعيت اليتامى وعشت في مجتمع يرعاهم . ولكنك تحزن عندما ترى يتيماً مضيعاً في مجتمع لا يقوم على شأنه وتقول لنفسك : أنا إن مت سيضيع أبنائي هكذا .

(44/278)

وهكذا تكون تكاليف الإيمان هي تأميناً للحياة . ومثال ذلك حين نقول للمرأة : تحجبي ، ولا تبدي زينتك لغير محارمك ، قد تظن المرأة في ظاهر الأمر أننا ضيقنا على حريتها ، لأنها تنسى أن المنهج يؤمن لها قبح الشيخوخة ، لأنها حين تتزوج صغيرة ، ثم يصل عمرها فوق الأربعين ويتغير شكلها من متاعب الحمل وتربية الأبناء ، ثم يرى زوجها فتاة في العشرين وغير محتشمة قد تفتنه وتصرفه عن زوجته ، وينظر إلى زوجته نظر غير المكترث بها ، وغير الراغب فيها . فالشرع قد أمر بالحجاب للمرأة وهي صغيرة ؛ ليصون لها زوجها إن صارت كبيرة غير مرغوب فيها . فإن منعها وهي صغيرة فقد منع عنها وهي كبيرة ؛ كل ذلك إذن من تأمينات المنهج للحياة .

إذن فإيفاء الكيل ، وعدم إبخاس الناس أشياءهم وعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها خير للجميع في الدنيا ، بالإضافة إلى خير الآخرة ، ولذلك يذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ . . . ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . [الأعراف : 85]

و" ذلكم " إشارة إلى ما سبق من الأمر بعبادة الله فلا إله غيره وإلى الآمر باستيفاء الكيل والميزان ، وألا نبخس الناس أشياءهم ، وألا نفسد في الأرض بعد إصلاحها ، ووضع الحق ذلك في إطار ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ على الرغم من أن الخير سيأتي أيضاً لغير المؤمن ، وهكذا تكون كلمة " خير " تشمل خيراً في الدنيا ، وخيراً في الآخرة للمؤمن فقط . أما الكافر فسيأخذ الخير في الدنيا فقط ، ولا خير له في الآخرة ، فإن كنتم مؤمنين فسيضاعف الخير لكم ليصير خيراً دائماً في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(45/278)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْبَخْسُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ هُوَ النَّقْصُ بِالتَّعْيِيبِ وَالتَّزْهِيدِ

، أَوْ الْمُخَادَعَةِ عَنْ الْقِيمَةِ ، أَوْ الِاحْتِيَالِ فِي التَّزْيِيدِ فِي الْكَيْلِ أَوْ النُّقْصَانِ مِنْهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : إنَّمَا أَذِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْأَمْوَالِ بِالْأَكْلِ بِالْحَقِّ ، وَالتَّعَامُلِ بِالصِّدْقِ ، وَطَلَبِ التِّجَارَةِ بِذَلِكَ ، فَمَتَى خَرَجَ عَنْ يَدِ أَحَدٍ شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ بِعِلْمِهِ لِأَخِيهِ فَقَدْ أَكَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَا يُرْضِي اللَّهَ وَيَرْتَضِيهِ ؛ وَإِنْ خَرَجَ شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ عَنْ يَدِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ فَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَتَغَابَنُ النَّاسُ بِمِثْلِهِ مِمَّا لَا غِنَى عَنْهُ فِي ارْتِفَاعِ الْأَسْوَاقِ وَانْخِفَاضِهَا عَنْهُ فَإِنَّهُ حَلَالٌ جَائِزٌ بِغَيْرِ خِلَافٍ ؛ إذْ لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ .

وَإِنْ كَانَ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ ؛ فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : إذَا جَرَى ذَلِكَ فِي بَيْعٍ كَانَ صَاحِبُهُ بِالْخِيَارِ إنْ شَاءَ أَمْضَاهُ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ وَإِنْ شَاءَ رَدَّهُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ وَآخَرُونَ غَيْرُهُمْ : إنَّهُ لَا رَدَّ فِيهِ .

وَالصَّحِيحُ هُوَ الْأَوَّلُ ؛ فَقَدْ ثَبَتَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِرَجُلٍ كَانَ يَخْدَعُ فِي الْبُيُوعِ : إذَا بَايَعْتَ فَقُلْ لَا خِلَابَةَ ﴾ .

وَفِي غَيْرِ الصَّحِيحِ : ﴿ وَاشْتَرِطْ الْخِيَارَ ثَلَاثًا ﴾ .

(46/278)

وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ وَلَكَ الْخِيَارُ ثَلَاثًا ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : كَانَ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ أَصَابَتْهُ مَأْمُومَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَثَّرَتْ فِي عَقْلِهِ ، فَكَانَ يَخْدَعُ لِأَجْلِ ذَلِكَ فِي بَيْعِهِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَالِ ، حَتَّى كَانَ يَقُولُ لِمَا أَصَابَهُ : ﴿ لَا خِلَابَةَ لَا خِلَابَةَ ﴾ .

فَالْجَوَابُ أَنَّ

النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ كَانَ الَّذِي قَالَهُ لَهُ مِنْ حُكْمِهِ لِمَا أَصَابَهُ مِنْ عَقْلِهِ لَمَا جَوَّزَ بَيْعَهُ ؛ لِأَنَّ بَيْعَ الْمَعْتُوهِ لَا يَجُوزُ بِخِيَارٍ ، وَلَا بِغَيْرِ خِيَارٍ ، وَلَكِنَّهُ أَمَرَهُ بِأَنْ يُصَرِّحَ عَنْ قَوْلِهِ ، حَتَّى يَقَعَ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(47/278)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره " وفى سورة هود : " وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره " وفى سورة العنكبوت : " وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله " فاختصت آية

العنكبوت بالفاء فى قوله "فقال "فيسأل عن ذلك ؟

والجواب عنه : أنه لم يقع فى سورة العنكبوت من ذكر إرسال الرسل ما بنى على أرسلنا ظاهرا ومقدرا منوطا به ذكر المرسل إليهم بحرف الغاية الذى هو "إلى " غير قوله تعالى : " لقد أرسلنا نوحا إلى قومه "وقوله : "وإلى مدين أخاهم شعيبا " وتعلق حرف الغاية فى الأولى بالفعل الظاهر وهو "أرسلنا " وتعلق فى الثانية بأرسلنا المقدر وقد قيل فيما بنى على الأخبار بالإرسال فى الأولى : "فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما " بالفاء فى قوله "فلبث فيهم " فقيل فى الثانية "فقال " بالفاء لتناسب ما ورد فى هذه السورة من ذكر إبراهيم ولوط عليهما السلام فعلى غير البناء على أرسلنا ظاهرا أو مقدرا أو إيصاله إلى المرسل إليهم بإلى عدل فى ذلك إلى ما يصح فيه تقدير أذكر كقوله : "وابراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه " وقوله : "ولوطا إذ قال لقومه " فلما انفردت الآيتان اولا وهما آية إرسال نوح وآية إرسال شعيب لما انفردتا بما ذكر نوسب بينهما فدخلت الفاء فى قوله "فقال " فى قصة شعيب عليه السلام كما دخلت فى قوله "فلبث " فى قصة نوح كما تقدم .

وأما آية الأعراف وآية هود فإنه لما ذكر فى كل واحدة من هاتين السورتين جماعة من الرسل مبينا أخبارهم على وتيلة واحدة من ذكر الرسل والمرسل إليهم وتكرر ذلك بدئ بأول قصة على الاستيفاء فقيل : "لقد أرسلنا نوحا إلى قومه " ثم أوجز بعد فورد بغير الافصاح

بلفظ الارسال وبغير الفاء والتحم ذلك وتناسب لاتحاد المقصد فى السورتين والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 212.211 ﴾

(48/278)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ القصة .

اختلف في " مَدْيَنَ " : فقيل : أعجميٌّ ، فمنعه للعُجْمَةِ والعلمية ، وهو مدين بن إبراهيم - عليه السلام - فسُمِّيت به القبيلة .

وقيل : هو عربيٌّ اسم بلد ، قاله الفرَّاءُ ، وأنشد : [الكامل]

2518 - رُهْبَانُ مَدْيَنَ والَّذينَ عَهِدْتُهُمْ . . .

يَبْكُونَ مِنْ حَذَرِ العَذَابِ قُعُودَا

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلامَهَا خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسُجُودَا

فمنعهُ للعَلَمِيَّة والتَّأنيث .

ولابدّ حينئذ من حذف مضاف ، أي : وإلى أهل مدين ، ولذلك أعاد الضَّمير في قوله : "

أخَاهُم " على الأهل ، ويجوز أن يراد بالمكان سَاكِنُوه ، فروعي ذلك بالنِّسْبَةِ إلى عود الضمير عليه وعلى تقدير كونه عربياً قالوا : فهو شاذ ، إذ كان من حقِّه الإعلال كمتاع ومقام ، ولكنهم شذُّوا فيه كما شذوا في مَرْيم ومَكْوذَة ، وليس بشاذٍ عند المبرِّد ، لعدم جَرَيَانِهِ على الفعل ، وهو حقٌّ وإن كان الجمهور على خلافه .

قوله : " شُعَيْباً " يجوز أن يكون تصغير شَعْب أو شِعْب هكذا قالوا ، والأدبُ ألاَّ يقالَ ذلك ، بل هذا موضوضعٌ على هذه الزِّنَةِ ، وأمَّا أسماءُ الأَنْبِيَاءِ فلا يدخلُ فيها تصغيرٌ أَلْبَتَّةَ ، إلا ما نطق به القرآن على صيغة تشبهه كشُعَيْب عليه السلام ، وهو عربي لا أعجمي .

فصل

قال عطاء : " هو شعيبُ بْنُ نويب بنِ مَدْيَنَ بنِ إبراهيمَ " .

(49/278)

وقال ابْنُ إسحاقَ : " هو شُعَيْبُ بْنُ ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ، وأم ميكائيل بنت لوط " .

وقيل : هو شُعَيْبُ بنُ ميرون بن مدْيَنَ ، وكان شعيب أعمى ، ويقال له : " خِطِيبُ الأَنْبِيَاء " لحسن مراجعته قومه وكان أهل كفر وبخس للكَيْلِ والميزان ، وهم أصحاب الأيكة .

قوله : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾

قد تقدّم معنى هذه اللفظة في قوله : ﴿ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ [البقرة : 282] ، وهو يتعدّى لاثنين ، وهما " النَّاس " و" أشياءهم " ، أي : لا تنقصوهم أشياءهم ولا يظلموهم ، ويدخل فيه المَنْعُ من الغَصْبِ ، والسرقة والرشوة ، وقطع الطريق ، وانتزاع الأموال بطريق الحيل .

قوله : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ .

وذلك أَنَّهُ لما كان أخذُ أموال النَّاس بغير رضاهم يوجب المُنازَعَة والخصومة ، وهما يوجبان الفَسَادَ ، لا جَرَمَ قال بعده : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ .

وقيل : أراد المَنْعَ من كلِّ فسادٍ .

وقيل : أراد بقوله : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ المنع من فساد الدُّنيا ، وبقوله : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ المنع من فساد الدِّين .

واختلفوا في معنى " بَعْدَ إِصْلاحِهَا " : فقيل : بعد أن صلحت ببعثة الرسل .

وقيل : بعد أن أصلحها بتكثير النِّعَمِ .

ثم قال : " ذَلِكُمْ " وهو إشارةٌ إلى ما تقدَّم من الأمر والنهي " خَيْرٌ لَّكُمْ " في الآخرة ﴿ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدِّقين بما أقول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 209 . 211 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾

خسَّت هِممُ قومِ شعيبٍ فقنعوا بالتطفيف في المكيال والميزان عند معاملاتهم ، ثم إنّ الحقَ - سبحانه - لم يُساهِلْهم في ذلك ليُعْلَم أَنَّ الأقدار ليست من حيث الأخطار . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 549 ﴾

(50/278)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان للتعميم بعد التخصيص والتفصيل بعد الإجمال من الموقع في النفوس ما لا يخفى ، وكان النهي عن الإفساد بالصد عن سبيل الله هو المقصود بالذات لأنه ينهى عن كل فساد ،

خصه بالذكر إشارة إلى أنه زبدة المراد بعد التعميم فقال : ﴿ ولا تقعدوا ﴾ أي تفعلوا فعل المترصد المقبل بكليته ﴿ بكل صراط ﴾ أي طريق من طرق الدنيا والدين من الحلال والحرام والأوامر والنواهي والمحكم والمتشابه والأمثال ﴿ توعدون ﴾ أي تتهددون من يسلكه بكل شر إن لم يوافقكم على ما تريدون .

ولما كان طريق الدين أهم ، خصه بالذكر فقال : ﴿ وتصدون ﴾ أي توقعون الصد على سبيل الاستمرار ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي طريق من له الأمر كله ؛ ولما ذكر الصدود عنه ، ذكر المصدود فقال : ﴿ من آمن به ﴾ آي بالله فسلك سبيله التي لا أقوم منها ؛ ولما كانوا لا يقنعون بمطلق الصد بالتهديد ونحوه ، بل يبدون للمصدود شبهاً توهمه أنه على ضلال ، قال عاطفاً : ﴿ وتبغونها عوجاً ﴾ أي وتطلبون السبيل حال كونها ذات عوج ، أي تطلبون اعوجاجها بإلقاء الشبهات والشكوك كما تقول : أريد فلاناً ملكاً ، أي أريد ملكه ، وقد تقدم في آل عمران أن نصبه على الحال أرجح ، وأن قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح " ابغني أحجاراً أستنفض بها " يرجح نصبه على المفعولية – والله اعلم .

(51/278)

ولما كانت أفعالهم نقص الناس إما في الأموال بالبخس وإما في الإيمان والنصرة بالصد ، ذكرهم أن الله تعالى فعل معهم ضد ذلك من التكثير بعد القلة في سياق منذر باجتثاثهم عن وجه الأرض وخصهم فضلاً عن تقليلهم ونقصهم ، فقال عطفاً على قوله ﴿ اعبدوا الله ﴾ وما بعده من الأوامر والنواهي : ﴿ واذكروا إذ ﴾ أي حين ﴿ كنتم قليلاً ﴾ أي في العدد والمدد ﴿ فكثركم ﴾ أي كثر عددكم وأموالكم وكل شيء ينسب إليكم ، فلا تقابلوا النعمة بضدها ، فإن ذكر النعمة مرغب في الشكر .

ولما رغبهم بالتذكير بالنعمة ، حذرهم بالتذكير بأهل النقمة فقال : ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ المفسدين ﴾ أي في عموم الإهلاك بأنواع العذاب لتحذروا من أن يصيبكم مثل ما أصابهم كما صرح به في سورة هود لكون الحال هناك مقتضياً للبسط كما سيأتي إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 66 . 67 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾

اعلم أن شعيباً عليه السلام ضم إلى ما تقدم ذكره من التكاليف الخمسة أشياء .

الأول : أنه منعهم من أن يقعدوا على طرق الدين ومناهج الحق ، لأجل أن يمنعوا الناس عن

قبوله وفي قوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صراط ﴾ قولان : الأول : يحمل الصراط على الطريق الذي يسلكه الناس .

روي أنهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من آمن بشعيب عليه السلام .

(52/278)

والثاني : أن يحمل الصراط على مناهج الدين ، قال صاحب "الكشاف" : ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صراط ﴾ أي ولا تقتدوا بالشيطان في قوله : ﴿ لاقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] قال والمراد بالصراط كل ما كان من مناهج الدين ، والدليل على أن المراد بالصراط ذلك قوله : ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ وقوله : ﴿ بِكُلِّ صراط ﴾ يقال قعد له بمكان كذا وعلى مكان كذا ، وفي مكان كذا ، وهذه الحروف تتعاقب في هذه المواضع لتقارب معانيها ، فإنك إذا قلت قعد بمكان كذا ، فالباء للإلصاق ، وهو قد التصق بذلك المكان .

وأما قوله : ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ فمحله ومحل ما عطف عليه النصب على الحال ، والتقدير : ولا تقعدوا موعدين ولا صادين عن سبيل الله ولا أن تبغوا عوجاً في سبيل الله ، والحاصل : أنه نهاهم عن القعود على صراط الله حال الاشتغال بأحد هذه الأمور الثلاثة .

واعلم أنه تعالى لما عطف بعض هذه الثلاثة على البعض .

وجب حصول المغايرة بينها فقوله : ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ يحصل بذلك إنزال المضار بهم وأما الصد ، فقد يكون بالإيعاد بالمضار ، وقد يكون بالوعد بالمنافع بما لو تركه ، وقد يكون بأن لا يمكنه من الذهاب إلى الرسول ليسمع كلامه .

أما قوله : ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ فالمراد إلقاء الشكوك والشبهات والمراد من الآية أن شعيباً منع القوم من أن يمنعوا الناس من قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاثة .

وإذا تأملت علمت أن أحداً لا يمكنه منع غيره من قبول مذهب أو مقالة إلا بأحد هذه الطرق الثلاثة .

(53/278)

ثم قال : ﴿ واذكروا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ والمقصود منه أنهم إذا تذكروا كثرة إنعام الله عليهم فالظاهر أن ذلك يحملهم على الطاعة والبعد عن المعصية ، قال الزجاج : وهذا الكلام يحتمل ثلاثة أوجه ، كثر عددكم بعد القلة ، وكثركم بالغنى بعد الفقر ، وكثركم بالقدرة بعد الضعف ، ووجه ذلك أنهم إذا كانوا فقراء أو ضعفاء فهم بمنزلة القليل ، في أنه لا يحصل من وجودهم قوة وشوكة .

فأما تكثير عددهم بعد القلة ؛ فهو أن مدين بن إبراهيم تزوج رئيا بنت لوط ، فولدت حتى كثر عددهم .

ثم قال بعده : ﴿ وانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ والمعنى تذكروا عاقبة المفسدين وما لحقهم من الخزي والنكال ، ليصير ذلك زاجراً لكم عن العصيان والفساد ، فقوله : ﴿ واذكروا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ المقصود منه أنهم إذا تذكروا نعم الله عليهم انقادوا وأطاعوا ، وقوله : ﴿ وانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ المقصود منه أنهم إذا عرفوا أن عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الخزي والنكال ، احترزوا عن الفساد والعصيان وأطاعوا ، فكان المقصود من هذين الكلامين حملهم على الطاعة بطريق الترغيب أولاً والترهيب ثانياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 142 . 143 ﴾

(54/278)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صراط تُوعِدُونَ ﴾

أي لا ترصدوا بكل طريق توعدون أهل الإيمان بالقتل ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ يقول : تمنعون الناس عن دين الإسلام ﴿ مَنْ ءامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يقول : تريدون بملة

الإسلام زيغاً وغيراً .

وروي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله : ﴿ بِكُلِّ صراط تُوعِدُونَ ﴾ قال : بكل سبيل حتى تصدوا أهلها عنها ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ قال وتلتمسون بها الزيغ .

ويقال معناه : لا تقعدوا على كل طريق تخوفون الناس وتخوفون أهل الإيمان بشعيب عليه السلام .

ثم قال : ﴿ واذكروا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أي كنتم قليلاً في العدد فكثَّر عددكم .

ويقال : كنتم فقراء فأغناكم وكثر أموالكم ﴿ وانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ أي كيف صار آخر أمر المكذبين بالرسل ، يعني : الذين قبلهم قوم نوح وقوم عاد وقوم هود وقوم صالح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾

[يعني] في هذا الطريق كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] .

﴿ تُوعِدُونَ ﴾ تهددون ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ دين الله ﴿ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ زيغاً وذلك أنّهم كانوا يجلسون على الطرق فيُخبرون مَنْ قصد شعيباً ليُؤمن به إنّ شعيباً كذّاب . فلا يفتّننك عن [ذلك] وكانوا يتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوّفونهم .

قال السدي وأبو روق : كانوا [جبّارين] . قال عبد الرحمن بن زيد : كانوا يقطعون الطريق

. وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " رأيت ليلة أُسري بي خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب إلاّ شقّته ولا شيء إلاّ خرقته فقلت ما هذا يا جبرائيل ؟

قال : هذا مثل أقوام من أُمّتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثمّ تلا : ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ " .

﴿ واذكروا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ [فكثّر بينكم] ﴿ وانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ يعني آخر قوم لوط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(55/278)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾

الصراط : الطريق ، قال الشاعر :

شَحَنَّا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى . . . تَرَكْنَاهُمْ أَذَلَّ مِنَ الصِّرَاطِ

وفي المراد به ثلاثة أقاويل :

أحدهما : أنهم كانوا يقعدون على الطريق إلى شعيب يؤذون من قصده للإيمان به ويخوفونه بالقتل ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه نهاهم عن قطع الطريق ، قاله أبو هريرة .

والثالث : أنهم العشارون نهاهم عن تعشير أموال الناس .

﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ ﴾ ويحتمل وجهين :

أحدهما : تصدون المؤمنين عن طاعة الله وعبادته .

والثاني : تصدون من أراد الإيمان بإغوائه ومخادعته .

﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ قال قتادة : يعني تبغون السبيل عوجاً عن الحق .

والفرق بين العوج بالكسر وبالفتح أن العوج بكسر العين ما كان في الدين ، ولا يُرَى ، والعوج بفتح العين ما كان في العود ، وما يرى .

﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ حكى الزجاج فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : كثر عددكم بعد القلة قال ابن عباس : وذلك أن مدين بن إبراهيم تزوج زينا بنت لوط وولد آل مدين منها .

والثاني : كثركم بالغنى بعد الفقر .

والثالث : كثركم بالقوة بعد الضعف .

وذكر بعض المفسرين وجهاً رابعاً : أنه كثرهم بطول الأعمار بعد قصرها من قبل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ الآية ،

قال السدي هذا نهي عن العشارين والمتقبلين ونحوه من أخذ أموال الناس بالباطل ، والصراط : الطريق وذلك أنهم كانوا يكثرون من هذا لأنه من قبيل : خسهم ونقصهم الكيل والوزن ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه ، وهو نهي عن السلب وقطع الطريق ، وكان ذلك من فعلهم روي في ذلك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : وما تقدم قبل من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والنحس يؤيد هذين القولين ويشبههما ، وفي هذا كله توعد للناس إن لم يتركوا أموالهم وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي أيضاً ، قوله : ﴿ ولا تقعدوا ﴾ نهي لهم عما كانوا يفعلونه من رد الناس عن شعيب ، وذلك أنهم كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : وما بعد هذا من ألفاظ الآية يشبه هذا القول ، وقوله تعالى : ﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن ﴾ الآية المعنى وتفتنون من آمن وتصدونه عن طريق الهدى و ﴿ سبيل الله ﴾ المفضية إلى رحمته ، والضمير في ﴿ به ﴾ يحتمل أن يعود على

اسم الله وأن يعود على شعيب في قول من رأى القعود على الطرق للرد عن شعيب ، وأن يعود على السبيل في لغة من يذكر " السبيل " وتقدم القول في مثل قوله : ﴿ وتبغونها عوجاً ﴾ في صدر السورة ، وقال أبو عبيدة والزجاج كسر العين في المعاني وفتحها في الأجرام ، ثم عدد عليهم نعم الله تعالى وأنه كثرهم بعد قلة عدد ، وقيل : أغناهم بعد فقر ، فالمعنى على هذا : إذ كنتم قليلاً قدركم ، ثم حذرهم ومثل لهم بمن امتحن من الأمم السابقة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(57/278)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾

أي : بكل طريق ﴿ توعِدون ﴾ مَن آمن بشعيب بالشر ، وتخوِّفونهم بالعذاب والقتل .

فإن قيل : كيف أفرد الفعل ، وأخلاه من المفعول ؛ فهلاَّ قال : توعِدون بكذا ؟ فالجواب : أن العرب إذا أخلت هذا الفعل من المفعول ، لم يدل إلا على شر ؛ يقولون : أوعدت فلاناً .

وكذلك إذا أفردوا : وعدت من مفعول ، لم يدل إلا على الخير .

قال الفراء : يقولون : وعدته خيراً ، وأوعدته شراً ؛ فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا :

وعدته : في الخير ، وأوعدته : في الشر ؛ فإذا جاؤوا بالباء ، قالوا : وعدته والشر .

وقال الراجز :

أوْعَدَنِي بالسِّجْنِ والأدَاهِمِ . . .

قال المصنف : وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : إذا أرادوا أن يذكروا ما تهدَّدوا به مع أوعدت ، جاؤوا بالباء ، فقالوا : أوعدته بالضرب ، ولا يقولون : أوعدته الضرب .

قال السدي : كانوا عشّارين .

وقال ابن زيد : كانوا يقطعون الطريق .

قوله تعالى : ﴿ وتصدون عن سبيل الله ﴾ أي : تصرفون عن دين الله من آمن به .

﴿ وتبغونها عوجاً ﴾ مفسر في [آل عمران : 99] .

قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركم ﴾ قال الزجاج : جائز أن يكون المعنى : جعلكم أغنياء بعد أن كنتم فقراء ؛ وجائز أن يكون : كثّر عددكم بعد أن كنتم قليلاً ، وجائز أن يكونوا غير ذوي مقدرة وأقدار ، فكثّرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾

نهاهم عن القعود بالطرق والصَّدِّ عن الطريق الذي يؤدّي إلى طاعة الله ، وكانوا يوعِدون العذاب من آمن .

واختلف العلماء في معنى قعودهم على الطرق على ثلاثة معان ؛ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي : كانوا يقعدون على الطرقات المِفضية إلى شعيب فيتوَعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون : إنه كذاب فلا تذهب إليه ؛ كما كانت قريش تفعله مع النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وهذا ظاهر الآية .

وقال أبو هريرة : هذا نهي عن قطع الطريق ، وأخذ السَّلْب ؛ وكان ذلك من فعلهم .

وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " رأيت ليلة أسرِي بي خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته فقلت ما هذا يا جبريل قال هذا مَثَلٌ لقوم من أُمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثم تلا ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ الآية "

وقد مضى القول في اللصوص والمحاربين ، والحمد لله .

وقال السدي أيضاً : كانوا عَشّارين متقبلين .

ومثلهم اليوم هؤلاء المكّاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعاً من الوظائف المالية بالقهر والجَبْر ؛ فضمَّنوا مالاً يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهي .

والمترتبون في الطرق إلى غير ذلك مما قد كثر في الوجود وعمل به في سائر البلاد .

وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها ؛ فإنه غَصْب وظُلْم وعَسْفٌ على الناس وإذَاعَةٌ للمنكر وعمل به ودوام عليه وإقرار له ، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! لم يبق من الإسلام إلا رَسْمه ، ولا من الدين إلا اسمه .

يَعْضُد هذا التأويل ما تقدّم من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والبخس .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ الضمير في "به" يحتمل أن يعود على اسم الله تعالى ، وأن يعود إلى شعيب في قول من رأى القعود على الطريق للصدّ ، وأن يعود على السبيل .

(59/278)

﴿ عِوَجاً ﴾ قال أبو عبيدة والزجاج : كسر العين في المعاني .

وفتحها في الأجرام .

قوله تعالى : ﴿ واذكروا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أي كثّر عددكم ، أو كثركم بالغنى بعد الفقر .

أي كنتم فقراء فأغناكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾

يعني أن شعيباً قال لقومه الكفار ولا تقعدوا على كل طريق من الدين والحق تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك ذلك أنهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من يريد الإيمان بالله وبرسوله شعيب وهو قوله تعالى : ﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به ﴾ يعني وتمنعون من يريد الإيمان بالله وتقولون إن شعيباً كذاب وتخوفونه بالقتل .

قال ابن عباس : كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من أتى عليهم أن شعيباً الذي تريدونه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم ﴿ وتبغونها عوجاً ﴾ يعني : وتريدون اعوجاج الطريق عن الحق وعدولها عن القصد .

وقيل معناه تلتمسون لها الزيغ والضلالة ولا تستقيمون على طريق الهدى والرشاد ﴿ واذكروا إذا كنتم قليلاً فكثركم ﴾ يعني : أن شعيباً عليه الصلاة والسلام ذكرهم نعمة الله عيلهم .

قال الزجاج : يحتمل ذلك ثلاثة أوجه كثر عددكم وكثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقوة بعد الضعف ووجه ذلك أنهم إذا كانوا فقراء ضعفاء فهم بمنزلة القليل والمعنى إنه كثركم بعد القلة وأعزكم بعد الذلة فاشكروا نعمة الله تعالى عليكم وآمنوا به ﴿ وانظروا كيف

كان عاقبة المفسدين ﴾ يعني وانظروا نظر اعتبار ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم السالفة والقرون الخالية حين عتوا على ربهم وعصوا رسله من العذاب والهلاك وأقرب الأمم إليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(60/278)

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ﴾

الظاهر النهي عن القعود بكل طريق لهم عن ما كانوا يفعلونه من إيعاد الناس وصدّهم عن طريق الدّين ، قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدّي : كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون : إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال السدّي : هذا نهي العشارين والمتقبلين ونحوه من أخذ أموال الناس بالباطل ، وقال أبو هريرة : هو نهي عن السّلب وقطع الطريق وكان ذلك من فعلهم وروي عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال : " رأيت ليلة أسري بي خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته فقلت ما هذا يا جبريل فقال هذا مثل لقوم من أمّتك يقعدون على الطريق فيقطعونه " ثم تلا ﴿ ولا تقعدوا بِكل صراط توعدون ﴾ وفي هذا القول والقول الذي قبله مناسبة لقوله ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ لكن لا تظهر مناسبة لهما بقوله ﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به ﴾ بل ذلك يناسب القول الأول قال القرطبي : قال علماؤنا ومثلهم اليوم هؤلاء المكاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعاً من الوظائف الماليّة بالقهر والجبر وضمنوا ما لا يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهي والمترتّبون في الطرق إلى غير ذلك مما قد كثر في الوجود وعمل به في سائر البلاد وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها فإنه غضب وظلم وعسف على الناس وإذاعة للمنكر وعمل به ودوام عليه وإقرار له وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لم يبق من الإسلام إلا رسمه ولا من الدّين إلا اسمه انتهى كلامه .

(61/278)

وقد قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال والأعراض بالدماء في قوله في حجة الوداع : " ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حراماً " وما أكثر ما تساهل الناس

في أخذ الأموال وفي الغيبة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قتل دون ماله فهو شهيد " والعجب إطباق من يتظاهر بالصلاح والدين والعلم على عدم إنكار هذه المكوس والضمانات وادعاء بعضهم أنه له تصرف في الوجود ودلال على الله تعالى بحيث إنه يدعو فيستجاب له فيما أراد ويضمن لمن كان من أصحابه وأتباعه الجنة وهو مع ذلك يتردّد لأصحاب المكوس ويتذلل إليهم في نزع شيء حقير وأخذه من المكس الذي حصّلوه وهذه وقاحة لا تصدر ممن شمّ رائحة الإيمان ولا تعلق بشيء من الإسلام ، وقال بعض الشعراء :

تساوى الكلّ منا في المساوي . . .

فأفضلنا فتيلاً ما يساوي

وعلى الأقوال السابقة يكون القعود بكل صراط حقيقة وحمل القعود والصراط الزمخشري على المجاز ، فقال ولا تقتدوا بالشيطان في قوله ﴿ لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ﴾ فتقعدوا بكل صراط أي بكل منهاج من مناهج الدّين والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله ﴿ وتصدون عن سبيل الله ﴾ ، فإن قلت : صراط الحقّ واحد ﴿ وإنّ هذا صراطي مستقيماً فأتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ فكيف قيل بكل صراط ، (قلت) : صراط الحقّ واحد ولكنه يتشعّب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة فكانوا إذا رأوا واحداً يشرع في شيء منه منعوه وصدّوه انتهى .

ولا تظهر الدلالة على أن المراد بالصراط سبيل الحق من قوله ﴿ وتصدون عن سبيل اللهِ ﴾ كما ذكر بل الظاهر التغاير لعموم كل صراط وخصوص سبيل الله فيكون ﴿ بكل صراط ﴾ حقيقة في الطرق ، و ﴿ سبيل الله ﴾ مجاز عن دين الله والباء في ﴿ بكل صراط ﴾ ظرفية نحو زيد بالبصرة أي في كل صراط وفي البصرة والجمل من قوله ﴿ توعدون ﴾ ﴿ وتصدون ﴾ ﴿ وتبغونها ﴾ أحوال أي موعدين وصادّين وباغين والإيعاد ذكر إنزال المضار بالموعد ولم يذكر الموعد به لتذهب النفس فيه كل مذهب من الشرّ لأن أوعد لا يكون إلا في الشر وإذا ذكر تعدى الفعل إليه بالباء .

قال أبو منصور الجواليقي : إذا أرادوا أن يذكروا ما يهددوا به مع أوعدت جاؤوا بالباء فقالوا : أوعدته بالضرب ولا يقولون أعدته الضرب والصدّ يمكن أن يكون حقيقة في عدم التمكين من الذهاب إلى الرسول ليسمع كلامه ويمكن أن يكون مجازاً عن الإيعاد من الصادّ بوجه ما أو عن وعد المصدود بالمنافع على تركه و ﴿ من آمن ﴾ مفعول بتصدون على إعمال الثاني ومفعول ﴿ توعدون ﴾ ضمير محذوف والضمير في ﴿ به ﴾ الظاهر أنه على ﴿ سبيل الله ﴾ وذكره لأن السبيل تذكر وتؤنث ، وقيل عائد على الله ، وقال الزمخشري : (فإن قلت) : إلام يرجع الضمير في آمن به ، (قلت) : إلى كلّ صراط تقديره توعدون من آمن به وتصدون عنه فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير زيادة في

تقبيح أمرهم دلالة على عظم ما يصدّون عنه انتهى وهذا تعسّف في الإعراب لا يليق بأن يحمل القرآن عليه لما فيه من التقديم والتأخير ووضع الظاهر موضع المضمر من غير حاجة إلى ذلك وعود الضمير على أبعد مذكور مع إمكان عوده على أقرب مذكور الإمكان السائغ الحسن الراجح وجعل ﴿ من آمن ﴾ منصوباً بتوعدون فيصير من إعمال الأوّل وهو قليل .

(63/278)

وقد قال النحاة أنه لم يرد في القرآن لقلته ولو كان من إعمال الأول للزم ذكر الضمير في الفعل الثاني وكان يكون التركيب ﴿ وتصدونه ﴾ أو وتصدونهم إذ هذا الضمير لا يجوز حذفه على قول الأكثرين إلا ضرورة على قول بعض النحاة يحذف في قليل من الكلام ويدلّ على ﴿ من آمن ﴾ منصوب بتصدون الآية الأخرى وهي قوله :

﴿ قل يا أهل الكتاب لمَ تصدون عن سبيل الله من آمن ﴾ ولا يحذف مثل هذا الضمير إلا في شعر وأجاز بعضهم حذفه على قلة مع هذه التكليفات المضافة إلى ذلك فكان جديراً بالمنع لما في ذلك من التعقيد البعيد عن الفصاحة وأجاز ابن عطية أن يعود على شعيب في قول من رأى القعود على الطريق للرد عن شعيب وهذا بعيد لأن القائل ﴿ ولا تقعدوا ﴾

وهو شعيب فكان يكون التركيب من آمن بي ولا يسوغ هنا أن يكون التفافاً لو قلت : يا هند أنا أقول لك لا تهيني من أكرمه تريد من أكرمني لم يصحّ وتقدم تفسير مثل قوله ﴿ وتبغونها عوجاً ﴾ في آل عمران .

﴿ واذكروا إذا كنتم قليلاً فكثركم ﴾ قال الزمخشري ﴿ إذ ﴾ مفعول به غير ظرف أي ﴿ واذكروا ﴾ على جهة الشكر وقت كونكم ﴿ قليلاً ﴾ عددكم ﴿ فكثركم ﴾ الله ووفر عددكم انتهى ؛ وذكر غيره أنه منصوب على الظرف فلا يمكن أن يعمل فيه ﴿ واذكروا ﴾ لاستقبال اذكروا وكون ﴿ إذ ﴾ ظرفاً لما مضى والقلّة والتكثير هنا بالنسبة إلى الأشخاص أو إلى الفقر والغنى أو إلى قصر الأعمار وطولها أقوال ثلاثة أظهرها الأول .

قيل : إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا ، وقال الزمخشري : إذ كنتم أقلة أذلّة فأعزّكم بكثرة العدد والعدد انتهى ولا ضرورة تدعو إلى حذف صفة وهي أذلّة ولا إلى تحميل قوله ﴿ فكثركم ﴾ معنى بالعدد ألا ترى أنّ القلة لا تستلزم الذلّة ولا الكثرة تستلزم العزّ ، وقال الشاعر :

تعيّرنا أنّا قليل عديدنا . . .

فقلت لها إنّ الكرام قليل

وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا . . .

عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقيل : المراد مجموع الأقوال الأربعة فإنه تعالى كثّر عددهم وأرزاقهم وطوّل أعمارهم وأعزّهم بعد أن كانوا على مقابلاتها .

﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ هذا تهديد لهم وتذكير بعاقبة من أفسد قبلهم وتمثيل لهم بمن جلّ به العذاب من قوم نوح وهود وصالح ولوط وكانوا قريبي عهد بما أجاب المؤتفكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(65/278)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صراط تُوعِدُونَ ﴾

أي بكل طريقٍ من طرق الدّين كالشيطان . وصراطُ الحقّ وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارفَ وحدودٍ وأحكامٍ وكانوا إذا رأَوْا أحداً يشرَعُ في شيء منها منعوه . وقيل : كانوا يجلِسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيباً إنه كذابٌ لا يفتنَنَّك عن دينك ويتوعّدون لمن آمن به وقيل : يقطعون الطريق ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي السبيلِ الذي قعَدوا

عليه فوقع المُظهرُ موقعَ المضمرِ بياناً لكل صراطٍ ودلالةً على عِظم ما يصدون عنه وتقبيحاً لما كانوا عليه ، أو الإيمانِ بالله أو بكل صراط على أنه عبارة عن طرق الدين وقوله تعالى : ﴿ مَنْ ءامَنَ بِهِ ﴾ مفعول تصدون على إعمال الأقربِ ، ولو كان مفعولَ توعِدون لقيل : وتصُدونهم ، وتوعِدون حالٌ من الضمير في تقعدوا ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي وتطلبون لسبيل الله عوجاً بإلقاء الشُبَهِ أو بوصفها للناس بأنها مُعْوجةٌ وهي أبعدُ شيءٍ من شائبة الاعوجاج.

﴿ واذكروا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ بالبركة في النسل والماء ﴿ وانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ من الأمم الماضيةِ كقوم نوحٍ ومَنْ بعدهم من عاد وثمودَ وأضرابِهم واعتبِروا بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(66/278)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلّ صراط ﴾

أي طريق من الطرق الحسية ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ أي تخوفون من آمن بالقتل كما نقل عن الحسن وقتادة ومجاهد وروي عن ابن عباس أن بلادهم كانت يسيرة وكان الناس يمتارون منهم

فكانوا يقعدون على الطريق ويخوفون الناس أن يأتوا شعيباً ويقولون لهم : إنه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم .

ويجوز أن يكون القعود على الصراط خارجاً مخرج التمثيل كما فيما حكي عن قول الشيطان : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] أي ولا تقعدوا بكل طريق من طرق الدين كالشيطان ، وإليه يشير ما روي عن مجاهد أيضاً .

والكلية مع أن دين الله الحق واحد باعتبار تشعبه إلى معارف وحدود وأحكام وكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها منعوه بكل ما يمكن من الحيل .

وقيل : كانوا يقطعون الطريق فنهوا عن ذلك .

وروي ذلك عن أبي هريرة وعبد الرحمن بن زيد ، ولعل المراد به ما يرجع إلى أحد القولين الأولين وإلا ففيه خفاء وإن قيل : إن في الآية عليه مبالغة في الوعيد وتغليظ ما كانوا يرومونه من قطع السبيل .

﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي الطريق الموصلة إليه وهي الإيمان أو السبيل الذي قعدوا عليه فوضع المظهر موضع المضمر بياناً لكل صراط (و) دلالة على عظم ما (يصدون عنه) وتقبيحاً لما كانوا عليه ، وقوله سبحانه : ﴿ مَنْ ءامَنَ بِهِ ﴾ مفعول ﴿ تَصُدُّونَ ﴾ على إعمال الأقرب لا ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ خلافاً لما يوهمه كلام الزمخشري إذ يجب عند الجمهور في مثل ذلك حينئذٍ إظهار ضمير الثاني .

ولا يجوز حذفه إلا في ضرورة الشعر فيلزم أن يقال : تصدونهم وإذا جعل ﴿ تَصُدُّونَ ﴾ بمعنى تعرضون يصير لازماً ولا يكون مما نحن فيه .

(67/278)

وضمير ﴿ بِهِ ﴾ لله تعالى أو لكل صراط أو سبيل الله تعالى لأن السبيل يذكر ويؤنث كما قيل ، وجملة ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ وما عطف عليه في موضع الحال من ضمير ﴿ تَقْعُدُواْ ﴾ أي موعدين وصادين : وقيل : هي على التفسير الأول استئناف بياني ، والأظهر ما ذكرنا .

﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي وتطلبون لسبيل الله تعالى عوجاً بإلقاء الشبه أو بوصفها للناس بما ينقصها وهي أبعد من شائبة الإعوجاج : وهذا إخبار فيه معنى التوبيخ وقد يكون تهكماً بهم حيث طلبوا ما هو محال إذ طريق الحق لا يعوج .

وفي الكلام ترق كأنه قيل : ما كفاكم أنكم توعدون الناس على متابعة الحق وتصدونهم عن سبيل الله تعالى حتى تصفونه بالاعوجاج ليكون الصد بالبرهان والدليل .

وعلى ما روي عن أبي هريرة وابن زيد جاء أن يراد بتبغونها عوجاً عيشهم في الأرض واعوجاج الطريق عبارة عن فوات أمنها .

وذكر الطيبي أن معنى هذا الطلب حينئذٍ معنى اللام في قوله سبحانه :

﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] وعلى سائر الأوجه في الكلام الحذف والإيصال .

﴿ واذكروا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً ﴾ عددكم ﴿ فَكَثَّرَكُمْ ﴾ فوفر عددكم بالبركة في النسل كما روي عن ابن عباس .

وحكي أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله تعالى في نسلها البركة والنماء فكثروا وفشوا .

وجوز الزجاج أن يكون المعنى إذ كنتم مقلين فقراء فجعلكم مكثرين موسرين ، أو كنتم أقلة أذلة فأعزكم بكثرة العدد والعدد .

و﴿ إِذْ ﴾ مفعول ﴿ اذكروا ﴾ أو ظرف لمقدر كالحادث أو النعم أي أذكروا ذلك الوقت أو ما فيه ﴿ وانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ أي آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود واعتبروا بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

(68/278)

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ ولا تقعدوا بكلّ صراط توعدون ﴾

هذا الأصل الثّالث من دعوته وهو النّهي عن التّعرّض للنّاس دون الإيمان ، فإنّه بعد أن أمرهم بالإيمان بالله وما يتطلّبه من الأعمال الصّالحة ، وفي ذلك صلاح أنفسهم ، أي أصلحوا أنفسكم ولا تمنعوا من يَرغب في إصلاح نفسه ذلك أنّهم كانوا يصدّون وفودَ النّاس عن الدّخول إلى المدينة التي كان بها شعيب عليه السّلام لئلا يؤمنوا به .

فالمراد بالصّراط الطريق الموصلة إلى لقاء شعيب عليه السّلام .

والقعود مستعمل كناية عن لازمه وهو الملازمة والاستقرار ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ لأَقْعُدَنّ لهم صراطك المستقيم ﴾ في هذه السّورة (16) .

و(كُلّ) للعموم وهو عموم عُرفي ، أي كلّ صراط مبلغ إلى القرية أو إلى منزل شعيب عليه السّلام ، ويجوز أن تكون كلمة (كلّ) مستعملة في الكثرة كما تقدّم .

والباء للإلصاق ، أو هي بمعنى (في) كشأنها إذا دخلت على أسماء المنازل .

كقول امرىء القيس:

بسِقْط اللّوَى . . .

البيت .

وجملة : ﴿ توعدون ﴾ حال من ضمير ﴿ تقعدوا ﴾ والإيعاد : الوعد بالشرّ .

والمقصود من الإيعاد الصدّ ، فيكون عطف جملة ﴿ وتصدون ﴾ عطفَ علّة على معلول ، أو أريد توعدون المصمّمين على اتّباع الإيمان ، وتصدّون الذين لم يصمّموا فهو عطف عام على خاص .

و ﴿ من آمن ﴾ يتنازعه كلٌّ من ﴿ توعدون ﴾ وتصدّون .

والتّعبير بالماضي في قوله : ﴿ مَن آمن به ﴾ عوضاً عن المضارع ، حيث المراد بمن آمن قاصدُ الإيمان ، فالتعبير عنه بالماضي لتحقيق عزم القاصد على الإيمان فهو لولا أنّهم يصدّونه لكان قد آمن .

و ﴿ سبيل الله ﴾ الدّين لأنّه مِثل الطريق الموصل إلى الله ، أي إلى القرب من مرضاته .

ومعنى ﴿ تبغونها عوجا ﴾ تبغون لسبيل الله عوجاً إذ كانوا يزعمون أن ما يدعو إليه شعيب باطل ، يقال : بغاه بمعنى طلب له ، فأصله بغى له فحذفوا حرف الجر لكثرة الاستعمال أو لتضمين بغى معنى أعطى .

(69/278)

والعِوَج بكسر العين عدم الاستقامة في المعاني ، وبفتح العين : عدم استقامة الذات ، والمعنى : تحاولون أن تصفوا دعوة شعيب المستقيمة بأنها باطل وضلال ، كمن يحاول

اعوجاج عود مستقيم .

وتقدم نظير هذا في هذه السورة في ذكر نداء أصحاب الجنة أصحاب النار .

وإنما أَخَّر النهي عن الصد عن سبيل الله ، بعد جملة ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ ولم يجعله في نسق الأوامر والنواهي الماضية ثم يعقبه بقوله : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ لأنه رتّب الكلام على الابتداء بالدعوة إلى التوحيد ، ثم إلى الأعمال الصالحة لمناسبة أن الجميع فيه صلاح المخاطبين ، فاعقبها ببيان أنها خير لهم إن كانوا مؤمنين فاعاد تنبيههم إلى الإيمان وإلى أنه شرط في صلاح الأعمال ، وبمناسبة ذكر الإيمان عاد إلى النهي عن صد الراغبين فيه ، فهذا مثل الترتيب في قول امرىء القيس:

كأنّيَ لم اركَبْ جواداً للذّةٍ . . .

ولم أتبطّنْ كاعباً ذات خلْخالٍ

ولم أسْبَأ الراحَ الكُميتَ ولم أقل . . .

لخَيْلي كُري كَرّةً بعد إجفال

روى الواحدي في "شرح ديوان المتنبي" أن المتنبي لما أنشد سيف الدولة قوله فيه:

وقَفْتَ وما في الموْت شكّ لواقِفٍ . . .

كأنّك في جفن الرّدى وهو نائم

تَمُر بك الأبطال كَلْمَي حزينة . . .

ووجهك وضَّاح وثَغْرُك باسم

أنكر عليه سيف الدولة تطبيق عَجُزي البيتين على صدريهما ، وقال له كان ينبغي أن تجعل العجز الثاني عَجُزاً اللأول والعكس وأنت في هذا مِثْل امرىء القيس في قوله:

كأنّي لم أركب جواداً للذة . . .

(70/278)

البيتين ، ووجه الكلام على ما قاله العلماء بالشّعر : أن يكون عجز البيت الأوّل للثّاني وعجز البيت الثّاني للأوّل ؛ ليكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكَر ، ويكون سباء الخمر مع تبطّن الكاعب ، فقال أبو الطّيّب : "إن صحّ أن الذي استدرك على امرىء القيس هذا أعلَمُ منه بالشّعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأتُ أنا ، ومولانا الأميرُ يعلم أنّ الثّوب لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك ، لأنّ البزّاز لا يعرف إلاّ جملته ، والحائكَ يعرف جملتَه وتفصيله ، لأنّه أخرجه من الغَزْلِيَّة إلى الثَّوْبِيَّة ، وإنَّما قَرن امرؤ القيس لذة النّساء بلذّة الرّكوب للصّيد وقرن السّماحة في شراء الخمر للأضياف بالشّجاعة في منازلة الأعداء ، وأنا لمّا ذكرت الموت في أوّل البيت أتبعتُه بذكر الردَى لتجانسه ، ولمّا كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينُه من أن تكون باكية قلتُ : "ووجهك وضّاح وثَغرك باسم" لأجمع بين الأضداد في

المعنى .

وهو يعني بهذا أن وجوه المناسبة في نظم الكلام تختلف وتتعدّد ، وإنّ بعضاً يكون أرجح من بعض .

وذَكَّرَهُم شُعيبٌ عليه السّلام عقب ذلك بتكثير الله إياهم بعد أن كانوا قليلاً ، وهي نعمة عليهم ، إذ صاروا أمّة بعد أن كانوا معشراً .

ومعنى تكثير الله إياهم تيسيره أسباب الكثرة لهم بأن قوّى فيهم قوّة التّناسل ، وحفظهم من أسباب المَوتَان ، ويَسَّر لنسلهم اليفاعة حتّى كثُرت مواليدهم وقلّت وفياتُهم ، فصاروا عدداً كثيراً في زمن لا يعهد في مثله مصير أمّة إلى عددهم ، فيُعد منعهم النّاس من الدّخول في دين الله سعياً في تقليل حزب الله ، وذلك كفران لنعمة الله عليهم بأنّ كثَّرهم ، وليقابلوا اعتبار هذه النّعمة باعتبار نقمته تعالى من الذين غضب عليهم ، إذْ استأصلهم بعد أن كانوا كثيراً فذلك من تمايز الأشياء بأضدادها .

فلذلك أعقبه بقوله : ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

وفي هذا الكلام جمع بين طريقي التّرغيب والتّرهيب .

وقليل وصْف يلزم الإفرادَ والتّذكير ، مثل كثير ، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وكأيِّن من نبيء قتل معه ربّيون كثير ﴾ في سورة آل عمران (146) .

والمراد بالمفسدين ﴾ الذين أفسدوا أنفسهم بعقيدة الشّرك وبأعمال الضّلال ، وأفسدوا المجتمع بمخالفة الشّرائع ، وأفسدوا النّاس بإمدادهم بالضّلال وصدّهم عن الهدى ، ولذلك لم يؤت : ل ﴿ المفسدين ﴾ بمتعلِّق لأنّه اعتبر صفة ، وقطع عن مشابهة الفعل ، أي الذين عرفوا بالإفساد .

وهذا الخطاب مقصود منه الكافرون من قومه ابتداء ، وفيه تذكير للمؤمنين منهم بنعمة الله ، فإنّها تشملهم وبالاعتبار بمن مضَوا فإنّه ينفعهم ، وفي هذا الكلام تعريض بالوعد للمسلمين وبالتّسلية لهم على ما يلاقونه من مفسدي أهل الشّرك لانطباق حال الفريقين على حال الفريقين من قوم شُعيب عليه السّلام .

و(إذ) في قوله : ﴿ إذْ كنتم قليلاً ﴾ اسم زمان ، غيرُ ظرف فهو في محل المفعول به أي اذكروا زمانَ كنتم قليلاً فأعقبه بأن كثّركم في مدّة قريبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ أي لا تقعدوا على كل طريق ، لأن من يقعد على الطريق قد يمنع من يحاول الذهاب ناحية الرسول . والشيطان قد قال : ﴿ . . . لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ [الأعراف : 16]

فحين تقعدون على كل صراط يصير كل منكم شيطاناً والعياذ بالله ؛ لأن الشيطان قال لربنا : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ ، وهنا ينهى الحق عن القعود بكل صراط ؛ لأن الصراط سبيل ، وحين يجمع الحق السبل لينهي عنها ، إنما ليذكرنا أن له صراطاً مستقيماً واحداً ، وسبيلاً واحداً يجب علينا أن نتبعه . ولذلك يقول : ﴿ فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ . . . ﴾ [الأنعام : 153]

إذن فللشيطان سبل متعددة وسبيل الاستقامة واحد ، لأن للطرق المتعددة غوايات منوعة ، فهذا طريق يغوي بالمال ، وذلك يغوي بالمرأة ، وذاك يغوي بالجاه . إذن فالغوايات متعددة .

أو أن الهداية التي يدعو إليها كل رسول شائعة في كل ما حوله ؛ فمن يأتي ناحية أي هداية

يجد من يصده . ومن يطلب هداية الرسول يلقى التهديد والوعيد ، والمنع عن سبيل الحق . ولماذا يفعلون ذلك ؟ تأتي إجابة الحق : ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ .

(73/278)

إنهم يبغون ويودون شريعة الله معوجة ومائلة عن الاستقامة ، أو تصفونها بأنها غير مستقيمة لتصدوا الناس عن الدخول فيها ، ولتنفروا منها ، مثال ذلك السخرية من تحريم الخمر والادعاء بأنها تعطي النفس السرور والانسجام . إن الواحد من هؤلاء إنما ينفر من شريعة الله ، ويدعي أنها شريعة معوجة ، فنجد من يحلل الربا ؛ لأن تحريم الربا في رأيهم السقيم المنحرف يضيق على الناس فرصهم . إنهم يبغون شريعة الله معوجة ليستفيدوا هم من اعوجاجها ، وينفروا الناس منها . ﴿ . . . واذكروا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ . [الأعراف : 86]

نعلم أن كل ردع ، وكل توجيه يهدف إلى أمرين اثنين : ترغيب وترهيب ، وعلى سبيل المثال نجد المدرس يقول للتلاميذ : من يجتهد فسنعطيه جائزة ، وهذا ترغيب ، ويضيف الأستاذ للتلاميذ : ومن يقصر في دروسه فسنفصله من المدرسة ؛ وهذا ترهيب . وما دام الناس صالحين لعمل الخير ولعمل الشر بحكم الاختيار المخلوق فيهم لله فلا بد من

مواجهتهم بالأمرين بالترغيب في الخير والترهيب من الشر .

والحق هنا يقول في الترغيب : ﴿ واذكروا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ .

وكأنه يطالبهم بأن يكونوا أصحاب ذوق وأدب ، فنحن نعلم أن مدين تزوج وأنجب عدداً من الذرية وكانوا قلة في العدد فكثرهم حتى صاروا قبيلة ، وكانوا ضعافاً فقواهم ، وكانوا فقراء فأغناهم ، فمن صنع فيكم ولكم كل هذه المسائل ألا يصح أن تطيعوا أوامره . كان عليكم أن تطيعوا أوامره . وهذا ترغيب وتحنين .

(74/278)

ونعلم أن شعيباً هو خامس نبي جاء بعد نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط . لذلك يذكرهم الحق بما حدث لمن كذبوا الأنبياء الأربعة السابقين . وقد يكون قوم نوح معذورين لأنهم كانوا البداية ، فلم يسبقهم من أخذ بالعذاب لتكذيب رسلهم ، ثم صارت من بعد ذلك قاعدة هي أن من يكذب الرسل يلقى العذاب ، مصداقا لقوله الحق : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 40]

فإذا كان شعيب ينذرهم بأن ينظروا كيف كان عاقبة المفسدين ممن سبقوهم فهذا تذكير بمن أغرقهم ومن أخذتهم الصيحة ، ومن كفأ وقلب ودمر ديارهم ، ومن جاء لهم بمطر من

سجيل ، فإن لم يعرفوا واجبهم نحو الله الذي أنعم عليهم بأن كانوا قليلاً فكثرهم ، فعليهم أن يخافوا عاقبة المفسدين . إذن فقد جمع لهم بين الترغيب والترهيب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(75/278)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

يجوز أن تكون " الباء " على حالها من الإلصاق أو المصاحبة ، أو تكون بمعنى " في " يقال : قَعَدَ لَهُ كذا ، وعلى مكان كذا ، وفي مكان كذا ، فتتعاقب هذه الحروف في هذا الموضع لتقارب معانيها ، فقعد بمكان : الباء للغلصاق ، وقد التصق بذلك المكان ، و" على " للاستعلاء ، وقد علا ذلك المكان ، و" في " للحلول ، وقد حلّ ذلك المكان .

و" تُوعَدُونَ " ، و" تَصُدُّون " ، و" تَبْغُونَ " هذه الجمل أحوال [أي] : لا تَقْعُدُوا مُوْعدين وصادّين وباغين .

ولم يذكر الزعد له لِتَذْهَبَ النَّفسُ كلَّ مذهبٍ : ومفعول " تصدُّون " " مَنْ آمَن " .

قال أبو البقاء : " مَنْ آمَنَ " مفعول " تَصُدُّونَ " لا مفعول " تُوعدُونَ " ، إذْ لو كان مفعولاً للأوّل لقال : " تَصُدُّونَهُم " ، يعني أنَّه لو كان كذلك لكانت المسألة من التَّنازع ، وإذا كانت من التنازع وأعْمَلْتَ الأول لأضْمَرْتَ في الثاني فكنت تقول : " تَصُدُّونهم " لكنه ليس القرآن كذا ، فدل على أن " تُوعَدُونَ " ليس عاملاً فيه ، وكلامُه يحتمل أنْ تكون المسألة من التَّنازع – يكون ذلك على إعمال الثاني ، وهو مختار البصريين وحذف من الأوّل – وألاَّ تكون وهو الظَّاهِر .

وظاهرُ كلام الزمخشري : أنَّهَا من التَّنَازُع ، وأنَّهُ من أعمال الأوّل ، فإنَّهُ قال : فإن قلت : إلامَ يَرْجِعُ الضَّميرُ في " من آمَنَ بِهِ " ؟

قلتُ : إلى كلِّ صراطٍ ، تقديره : تُوْعِدون من آمن به وتَصُدُّون عنه ، فوضعَ الظَّاهِر الذي هو " سبيل الله " موضع المضمر زيادة في تقبيح أمرهم .

قال أبو حيَّان : " وهذا تعسُّف وتكلُّفٌ مع عدم الاحتياج إلى تقديم وتأخير ، ووضع ظاهر موضع مضمر ، إذ الأصل خلاف ذلك كُلِّهِ ، ولا ضرورة تَدْعُوا إليه ، وأيضاً فإنَّهُ من أعمال الأوّل وهو مذهب مَرْجُوحٌ ، ولو كان من إعمال الأوّلِ لأضمر في الثاني وُجُوباً ، ولا يجوز حذفهُ إلا في ضرورة شعرٍ عند بعضهم [كقوله] : [مجزوء الكامل]

2519 – بِعُكَاظَ يُعْشِي النَّاظِرِي . . .

نَ إذَا هُمُ لَمَحُوا شُعَاعَهْ

فأعمل "يُغشي" ورفع به "شُعَاعه" وحذفَ الضمير من "لَمَحُوا" تقديره: لمحوه، وأجازه بعضهم بقلةٍ في غير الشِّعْرِ.

(76/278)

والضَّمير في "به": إمَّا لكل صراط كما تقدَّم عن الزمخشريِّ، وإمَّا على الله للعلم به، وإمَّا على سبيل الله، وجاز ذلك؛ لأنَّه يذكَّر ويُؤنَّثُ، وعلى هذا فقد جمع بين الاستعمالين هنا حيث قال: "به" فذكَّر، وقال: "وتَبْغُونها عِوَجاً" فأنَّث، ومثله: ﴿ قُلْ هذه سبيلي ﴾ [يوسف: 108] [وقد تقدَّم] نحو قوله: ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ [آل عمران: 99] في آل عمران.

ومعنى الآية أنَّهم كانوا يجلسون على الطَّريق فيقولون لمن يريدُ الإيمانَ بشُعَيْبٍ: إنَّ شُعَيْباً كذاب فلا يفتننَّك عن دينك، ويتوعدون المؤمنين بالقَتْل، ويخوفونهم.

قال الزمخشريُّ: قوله: ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ أي: ولا تقتدوا بالشَّيْطان في قوله: ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ [الأعراف: 16] قال: والمرادُ من قوله: "صِرَاطٍ" كلُّ ما كان من مناهج الدِّين ويدلُّ عليه قوله: ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾.

قوله: "وَاذْكُرُوا" إمَّا أن يكون مفعوله محذوفاً، فيكون هذا الظَّرف معمولاً لذلك المفعول

أي : اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عليكم في ذلك الوقت ، وإمَّا أن يجعل نفس الظرف مفعولاً به .

قاله الزمخشريُّ .

وقال ابن عطية : " إنّ " الهاء " في " به " يجوز أن تعود على شعيب عند مَنْ يرى أنَّ القُعُودَ على الطرق للردّ عن شعيب ، وهو بعيد ؛ لأن القائل : " ولا تقعدوا " هو شعيب ، وحينئذ كان التركيب " مَنْ آمَنَ بِي " ، والادّعَاءُ بأنَّهُ من باب الالتفات بعيد جداً ؛ إذ لا يَحْسُن أن يُقال : " [يا] هذا أنا أقول لك لا تُهِنْ مَنْ أكرَمَه " أي : مَنْ أكرمني .

قوله : ﴿ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ .

قال الزَّجَّاج : " هذا الكلام يحتمل ثلاث أوجه : كثر عددكم بعد القلّة ، وكثركم بالغنى بعد الفقر ، وكثركم بالقوة بعد الضعف " قال السدي : " كانوا عشارين " .

(77/278)

[قوله] : ﴿ وانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ .

" كيف " وما في حيّزها معلّقة للنظر عن العمل ، فهي وما بعدها في محل نصب على إسقاط الخافض .

والنظرُ هنا التفكُّرُ ، و " كيف " خبر كان ، واجب التقديم .

والمعنى : انظر كيف كان عاقبة المفسدين أي : جزاء قوم لوط من الخزي والنكار وعذاب الاستئصال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 211.213 ﴾

(78/278)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حذرهم وخامة الفساد الذي نهاهم عنه ، وعلق انتهاءهم عنه بوصف الإيمان ، رجع إلى قسم ما شرط به الانتهاء عن الإفساد فقال : ﴿ وإن كان طائفة منكم ﴾ أي جماعة فيهم كثرة بحيث يتحلقون بمن يريدون ﴿ آمنوا بالذي أرسلت به ﴾ وبناه للمفعول إشارة إلى أن الفاعل معروف بما تقدم من السياق ، وأنه صار بحيث لا يتطرق إليه شك لما نصب من الدلالات ﴿ وطائفة ﴾ أي منكم ﴿ لم يؤمنوا ﴾ أي بالذي أرسلني به من أيدني بما عملتم من البينات ، وحذرهم سطوته بقوله : ﴿ فاصبروا ﴾ أي أيها الفريقان ﴿ حتى يحكم الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ بيننا ﴾ أي بين فريقنا بإعزاز المصلح وإهلاك المفسد

كما أجرى بذلك عادته ﴿ وهو ﴾ أي الحال أنه ﴿ خير الحاكمين ﴾ لأنه يفصل النزاع على أتم وجه وأحكمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 67 . 68 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءامَنُواْ بالذى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فاصبروا ﴾ والمقصود منه تسلية قلوب المؤمنين وزجر من لم يؤمن ، لأن قوله : ﴿ فاصبروا ﴾ تهديد ، وكذلك قوله : ﴿ حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا ﴾ والمراد إعلاء درجات المؤمنين ، وإظهار هوان الكافرين ، وهذه الحالة قد تظهر في الدنيا فإن لم تظهر في الدنيا فلا بد من ظهورها في الآخرة .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ يعني أنه حاكم منزه عن الجور والميل والحيف ، فلا بد وأن يخص المؤمن التقي بالدرجات العالية ، والكافر الشقي بأنواع العقوبات ، ونظيره قوله : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض ﴾ [ص : 28] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 143 . 144 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءامَنُواْ بالذى أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾

يعني : إن كان جماعة منكم صدقوا بي ﴿ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ بي أي لم يصدقوا ﴿ فاصبروا حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا ﴾ يعني : حتى تنظروا عاقبة المؤمنين أفضل أم عاقبة الكافرين .

فذلك قوله : ﴿ حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا ﴾ يعني : حتى يقضي الله بين المؤمنين وبين الكافرين ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ أي أعدل العادلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ﴾

يعني الرؤساء الذين تعالوا عن الإيمان به ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ لترجعن إلى ديننا الذي نحن عليه وتدعون دينكم .

قال شعيب : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ لذلك يعني ولو كنّا كارهين لذلك تجبروننا عليه فأُدخلت الف الاستفهام على ولو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ

اللَّهُ بَيْنَنَا ﴾

المعنى : وإن كنتم يا قوم قد اختلفتم عليَّ وشعبتم بكفركم أمري فآمنت طائفة وكفرت طائفة فاصبروا أيها الكفرة حتى يأتي حكم الله بيني وبينكم ، وفي قوله : ﴿ فاصبروا ﴾ قوة التهديد والوعيد ، هذا ظاهر الكلام وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار ، وحكى منذر بن سعيد عن ابن عباس أن الخطاب بقوله : ﴿ فاصبروا ﴾ للمؤمنين على معنى الوعد لهم ، وقاله مقاتل بن حيان ، قال النقاش وقال مقاتل بن سليمان المعنى " فاصبروا " يا معشر الكفار .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول الجماعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(80/278)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به طائفة لم يؤمنوا ﴾

أي : إن أختلفتم في رسالتي ، فصرتم فريقين ، مصدِّقين ومكذِّبين ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ﴾ بتعذيب المكذبين ، وإنجاء المصدِّقين ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ لأنه العدل

الذي لا يجور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ﴾

يعني وإن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين فرقة آمنت بهي وصدق برسالتي وفرقة كذبن وجحدت رسالتي ﴿ فاصبروا ﴾ فيه وعيد وتهديد ﴿ حتى يحكم الله بيننا ﴾ يعني حتى يقضي الله ويفصل بيننا فيعجز المؤمنين المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ يعني أنه حاكم عادل منزه عن الجور والميل والحيف في حكمه وإنما قال خير الحاكمين لأنه قد يسمى بعض الأشخاص حاكماً على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم في الحقيقة فلهذا قال وهو خير الحاكمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(81/278)

وقال أبو حيان :

﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبِروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾

هذا الكلام من أحسن ما تلطف به في المحاورة إذ برز المتحقق في صورة المشكوك فيه وذلك أنه قد آمن به طائفة بدليل قول المستكبرين عن الإيمان ﴿ لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك ﴾ وهو أيضاً من بارع التقسيم إذ لا يخلو قومه من القسمين والذي أرسل به هنا ما أمرهم به من إفراد الله تعالى بالعبادة وإيفاء الكيل والميزان ونهاهم عنه من البخس والإفساد والقعود المذكور ومتعلق ﴿ لم يؤمنوا ﴾ محذوف دلّ عليه ما قبله وتقديره لم يؤمنوا به والخطاب بقوله ﴿ منكم ﴾ لقومه وينبغي أن يكون قوله ﴿ فاصبِروا ﴾ خطاباً لفريقي قومه من آمن ومن لم يؤمن ﴿ بيننا ﴾ أي بين الجميع فيكون ذلك وعداً للمؤمنين بالنصر الاذي هو نتيجة الصّبر فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا وعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار ، وقال ابن عطية : المعنى وإن كنتم يا قوم قد اختلفتم علي وشعبتم بكفركم أمري فآمنت طائفة وكفرت طائفة فاصبروا أيها الكفرة حتى يأتي حكم الله بيني وبينكم ففي قوله فاصبروا قوة التهديد والوعيد هذا ظاهر الكلام وأنّ المخاطبة بجميع الآية للكفار ، قال النقاش وقال مقاتل بن سليمان : المعنى ﴿ فاصبِروا ﴾ يا معشر الكفار قال : وهذا قول الجماعة انتهى ، وهذا القول بدأ به الزمخشري ، فقال ﴿ فاصبروا ﴾ فتربصوا وانتظروا ﴿ حتى يحكم الله بيننا ﴾ أي بين الفريقين بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم لقوله

تعالى

﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ انتهى .

(82/278)

قال ابن عطية : وحكى منذر بن سعيد عن أبي سعيد أنّ الخطاب بقوله ﴿ فاصبروا ﴾ للمؤمنين على معنى الوعد لهم وقاله مقاتل بن حيان انتهى وثنى به الزمخشري فقال أو هو موعظة للمؤمنين وحثّ على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم انتهى ، والذي قدمناه أولاً من أنه خطاب للفريقين هو قول أبي علي وأتى به الزمخشري ثالثاً فقال : ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيّب انتهى ، وهو جار على عادته من ذكر تجويزات في الكلام توهّم أنها من قوله وهي أفعال للعلماء المتقدمين ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ لأنّ حكمه عدل لا يخشى أن يكون به حيف وجور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(83/278)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءامَنُواْ بالذى أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾

من الشرائع والأحكام ﴿ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ أي به أو لم يفعلوا الإيمان ﴿ فاصبروا حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا ﴾ أي بين الفريقين بنصر المُحقّين على المبطلين فهو وعدٌ للمؤمنين ووعيدٌ للكافرين ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ إذ لا معقِّبَ لحكمه ولا حَيْفَ فيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءامَنُواْ بالذى أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾

من الشرائع والأحكام ﴿ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ به أو لم يفعلوا الإيمان ﴿ فاصبروا حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا ﴾ خطاب للكفار ووعيد لهم أي تربصوا لتروا حكم الله تعالى بيننا وبينكم فإنه سبحانه سينصر المحق على المبطل ويظهره عليه ، أو هو خطاب للمؤمنين وموعظة لهم وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله تعالى بينهم وينتقم لهم منهم .

ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين أي ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوؤهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم فيميز الخبيث من الطيب ، والظاهر الاحتمال

الأول .

وكان المقصود أن إيمان البعض لا ينفعكم في دفع بلاء الله تعالى وعذابه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه فهو في غاية السداد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(84/278)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) .

قِصَّةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

هُوَ مِنْ أَنْبِيَاءِ الْعَرَبِ الْمُرْسَلِينَ وَاسْمُهُ مُرْتَجَلٌ وَقِيلَ : مُصَغَّرُ شَعْبٍ بِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ أَوْ كَسْرِهَا ، وَمَا قِيلَ مِنْ حَظْرِ تَصْغِيرِ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَدْخُلُ فِيهِ الْوَضْعُ الْأَوَّلُ ، بَلِ الْمُرَادُ بِهِ تَصْغِيرُ الِاسْمِ الْمَعْرُوفِ بِمَا يُوهِمُ الِاحْتِقَارَ ، كَأَنْ تَقُولَ فِي شُعَيْبٍ " شُعَيْعِيبٌ " بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مُصَغَّرٍ فِي الْأَصْلِ ، وَقَصْدُ الِاحْتِقَارِ لَا يَقَعُ مِنْ مُؤْمِنٍ بِأَنَّهُ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

أَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرَ مِنْ طَرِيقِ إِسْحَاقَ بْنِ بِشْرٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي عَبِيدُ اللهِ بْنُ زِيَادِ بْنِ سَمْعَانَ عَنْ بَعْضِ مَنْ قَرَأَ الْكُتُبَ قَالَ : إِنَّ أَهْلَ التَّوْرَاةِ يَزْعُمُونَ أَنَّ شُعَيْبًا اسْمُهُ فِي التَّوْرَاةِ مِيكَائِيلُ وَاسْمُهُ بِالسُّرْيَانِيَّةِ خَبْرِيُّ بْنُ يَشْخُرَ بْنِ لَاوِي بْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَأَخْرَجَ مِنْ طَرِيقِهِ عَنِ الشَّرْقِيِّ بْنِ الْقَطَامِيِّ وَكَانَ نَسَّابَةً عَالِمًا بِالْأَنْسَابِ قَالَ : هُوَ يتروب بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَشُعَيْبٌ بِالْعَرَبِيَّةِ ابْنُ عَيْفَا بْنِ يَوْبَبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْبَبُ بِوَزْنِ جَعْفَرٍ أَوَّلُهُ مُثَنَّاةٌ تَحْتِيَّةٌ وَبَعْدَ الْوَاوِ مُوَحَّدَتَانِ انْتَهَى مِنَ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ . وَلَعَلَّ يَشْخُرَ فِيهِ مُصَحَّفُ يَشْجُرَ .

(85/278)

وَأَقُولُ : إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَغُشُّونَ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا يَرْوُونَ لَهُمْ مِنْ كُتُبِهِمْ ، وَالَّذِي فِي تَوْرَاتِهِمْ أَنَّ حِمَى مُوسَى كَانَ يُدْعَى رَعْوَئِيلَ كَمَا فِي سِفْرِ الْخُرُوجِ (2 : 18) وَسِفْرِ الْعَدَدِ (10 : 29) وَقَالُوا : إِنَّ " رَعْوَ " مَعْنَاهُ صَدِيقٌ فَمَعْنَى رَعْوَئِيلَ (صَدِيقُ اللهِ) أَيِ الصَّادِقُ فِي عِبَادَتِهِ ، وَفِي (3 : 1 خُرُوجٍ) أَنَّ اسْمَهُ يَثْرُونُ بِالْمُثَلَّثَةِ وَالنُّونِ ، إِذْ قَالَ : وَكَانَ مُوسَى يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيِّهِ كَاهِنِ مَدْيَنَ وَمِثْلُهُ فِي (4 : 18 مِنْهُ) وَضُبِطَ فِي تَرْجَمَةِ الْأَمِيرِكَانِ بِكَسْرِ الْيَاءِ وَسُكُونِ الثَّاءِ وَفِي تَرْجَمَةِ الْجِزْوِيت "يَثْرُو " بِفَتْحِ الْيَاءِ وَبِدُونِ نُونٍ ، وَفِي قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلدُّكْتُورِ بُوسْتْ الْأَمِيرِكَانِيِّ : يَثْرُونُ (فَضْلُهُ) كَاهِنٌ أَوْ أَمِيرٌ

مِدْيَانٌ وَهُوَ حَمُو مُوسَى (خر 3 : 1) وَيُدْعَى أَيْضًا رَعْوَئِيلُ (خر 2 : 18 وعد 1 : 29) وَيُثْرُ (حَاشِيَةُ خر 4 : 18) وَيُرَجَّحُ أَنَّ يَثْرُونَ كَانَ لَقَبًا لِوَظِيفَتِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ وَقَطُورَةَ (تك 25 : 2) اهـ . وَذَكَرَ قَبْلَ ذَلِكَ يُثْرَ وَفَسَّرَهُ بِفَضْلٍ كَمَا فَسَّرَ يَثْرُونَ بِفَضْلِهِ – أَيْ فَضْلُ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْغَائِبِ . وَلَعَلَّ مَرْجِعَ الضَّمِيرِ إِلَى اللهِ تَعَالَى كَضَمِيرِ عَبْدِهِ عَلَمًا فِي زَمَانِنَا وَيَخْتَصِرُونَ بِهِ عَبْدَ اللهِ .

(86/278)

وَفِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّ زَوْجَةَ إِبْرَاهِيمَ قَطُورَةَ وَلَدَتْ لَهُ سِتَّةَ أَوْلَادٍ مِنْهُمْ مُدَانُ وَمَدْيَنُ ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ يَكْسِرُونَ مِيمَ مَدْيَنَ ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : مَدْيَانُ ، وَالْمَدْيَنِيُّونَ عَرَبٌ ، وَالْعَرَبُ تَفْتَحُ مِيمَ الْكَلِمَةِ ، وَفِي قَامُوسِ بُوسْتْ أَنَّ مَعْنَاهَا خِصَامٌ ، وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ أَرْضَهُمْ كَانَتْ تَمْتَدُّ مِنْ خَلِيجِ الْعَقَبَةِ إِلَى مُوآبَ وَطُورِ سَيْنَاءَ . وَعَنْ آخَرِينَ أَنَّهَا كَانَتْ تَمْتَدُّ مِنْ شِبْهِ جَزِيرَةِ سَيْنَاءَ إِلَى الْفُرَاتِ . وَقَالَ : إِنَّ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ كَانُوا مِنْ سُكَّانِ مَدْيَنَ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ أَهْلَ مَدْيَنَ حُسِبُوا مَعَ الْعَرَبِ وَالْمُوآبِيِّينَ .

(87/278)

وَأَمَّا عُلَمَاؤُنَا فَقَالَ بَعْضُهُمْ كَأَبِي عُبَيْدَةَ مِنْ حَمَلَةِ اللُّغَةِ وَالْبُخَارِيُّ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ : إنَّ مَدْيَنَ بَلَدٌ ، وَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَإِلَى مَدْيَنَ) فِيهِ حَذْفُ الْمُضَافِ إلَى أَهْلِ مَدْيَنَ ، وَهُوَ غَلَطٌ . وَأَمَّا شُعَيْبٌ فَقَدْ قَالَ النَّوَوِيُّ فِي تَهْذِيبِ الْأَسْمَاءِ وَاللُّغَاتِ : هُوَ ابْنُ مِيكِيلَ بْنِ يَشْجُرَ بْنِ مَدْيَنَ بْنِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقِيلَ : إنَّ جَدَّهُ يَشْجُرَ بْنَ لَاوَى بْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ : هُوَ شُعَيْبُ بْنُ مِيكِيلَ بْنِ يَشْجُرَ بْنِ لَاوَى بْنِ يَعْقُوبَ . كَذَا قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ وَلَا يَثْبُتُ ، وَقِيلَ : هُوَ شُعَيْبُ بْنُ صُفُّورَ بْنِ عُنُقَا بْنِ ثَابِتِ بْنِ مَدْيَنَ وَكَانَ مَدْيَنُ مِمَّنْ آمَنَ بِإِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُحْرِقَ . وَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الطَّوِيلِ " أَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَمُحَمَّدٌ " فَعَلَى هَذَا هُوَ مِنَ الْعَرَبِ الْخُلَّصِ .

(88/278)

وَقِيلَ : إنَّهُ مِنْ بَنِي عَنَزَةَ بْنِ أَسَدٍ فَفِي حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ سَعِيدٍ الْعَنَزِيِّ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ فَانْتَسَبَ إلَى عَنَزَةَ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " نِعْمَ الْحَيُّ عَنَزَةُ مَبْغِيٌّ عَلَيْهِمْ مَنْصُورُونَ رَهْطُ شُعَيْبٍ وَأَخْتَانُ مُوسَى " أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ وَفِي إسْنَادِهِ مَجَاهِيلُ اهـ . وَقَالَ الْآلُوسِيُّ : وَمَدِينُ – وَسُمِعَ مَدْيَانُ فِي الْأَصْلِ – عَلَمٌ لِابْنِ إبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُنِعَ

صَرْفُهُ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالْعُجْمَةِ ثُمَّ سُمِّيَتْ بِهِ الْقَبِيلَةُ ، وَقِيلَ : هُوَ عَرَبِيٌّ اسْمٌ لِمَاءٍ كَانُوا عَلَيْهِ ، وَقِيلَ اسْمُ بَلَدٍ وَمُنِعَ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيثِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مُضَافٍ حِينَئِذٍ اهـ . وَمِمَّا تَقَدَّمَ تَعْلَمُ أَنَّ الرَّاجِحَ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَقْوَالِ هُوَ الْأَوَّلُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) قَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فِي قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا أَنَّهُ ذَكَرَ هُنَا أَنَّهُ قَدْ جَاءَتْهُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَذَكَرَ هُنَالِكَ آيَةً ، وَقَدْ عَيَّنَ الْآيَةَ بَعْدَ الْإِعْلَامِ بِمَجِيئِهَا وَهِيَ النَّاقَةُ . وَلَمْ يَذْكُرْ هُنَا وَلَا فِي سُورَةٍ أُخْرَى آيَةً كَوْنِيَّةً مُعَيَّنَةً لِشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "

(89/278)

مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ دَعْوَتِهِ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُؤْمِنَ الْبَشَرُ بِدَلَالَةِ مِثْلِهِ . وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ إِنْذَارَ قَوْمِهِ بِأَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ إِذَا هُمْ

أَصَرُّوا عَلَى شِقَاقِهِ وَعِنَادِهِ - هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى صِدْقِهِ ، وَقَدْ صَدَقَ إِنْذَارُهُ هَذَا وَهُوَ مُبَيَّنٌ فِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ هُودٍ . وَلَكِنْ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ آيَةٌ أُخْرَى دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِهِ تَقُومُ بِهَا الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ ظُهُورَ صِدْقِ هَذَا الْإِنْذَارِ إِنَّمَا يَكُونُ بِوُقُوعِ الْعَذَابِ الْمَانِعِ مِنْ صِحَّةِ الْإِيمَانِ ، فَلَا فَائِدَةَ لَهُمْ مِنْ قِيَامِ الْحُجَّةِ بِهِ ، عَلَى أَنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ الْحَقُّ ، فَهِيَ تَشْمَلُ الْمُعْجِزَاتِ الْكَوْنِيَّةَ وَالْبَرَاهِينَ الْعَقْلِيَّةَ ، وَالْمَعْرُوفُ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُذْعِنُ إِلَّا لِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْبَيِّنَةُ الَّتِي أَيَّدَ اللهُ تَعَالَى بِهَا شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ مُلْزِمَةً لِلْحُجَّةِ قَاطِعَةً لِأَلْسِنَةِ الْعُذْرِ وَمُكَابَرَةِ الْحَقِّ لَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهَا قَوْلُهُ :

(90/278)

(فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) فَإِنَّ عَطْفَ هَذَا الْأَمْرِ بِالْفَاءِ لَا يَصِحُّ إِلَّا إِذَا كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى مَا هُوَ سَبَبٌ لَهُ ، وَهُوَ الْبَيِّنَةُ عَلَى صِدْقِهِ وَوُجُوبِ طَاعَتِهِ ، وَلَوْ كَانَ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ : (اعْبُدُوا اللهَ) لَعُطِفَ بِالْوَاوِ .

بَدَأَ الدَّعْوَةَ بِالْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ فِي الْعِبَادَةِ لِأَنَّهُ أَسَاسُ الْعَقِيدَةِ وَرُكْنُ الدِّينِ الْأَعْظَمِ ، وَقَفَّى عَلَيْهِ بِالْأَمْرِ بِإِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ إِذَا بَاعُوا ، وَالنَّهْيِ عَنْ بَخْسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ إِذَا اشْتَرَوْا ؛ لِأَنَّ هَذَا كَانَ فَاشِيًا فِيهِمْ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ الْمَعَاصِي ، فَكَانَ شَأْنُهُ مَعَهُمْ كَشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِذْ بَدَأَ بِنَهْيِ قَوْمِهِ عَنِ الْفَاحِشَةِ السُّوأَى الَّتِي كَانَتْ فَاشِيَةً فِيهِمْ .

كَانَ قَوْمُ شُعَيْبٍ مِنَ الْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ أَوْ وَزَنُوا عَلَيْهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ مَا يَشْتَرُونَ مِنَ الْمُكَيَّلَاتِ وَالْمَوْزُونَاتِ يَسْتَوْفُونَ حَقَّهُمْ أَوْ يَزِيدُونَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ مَا يَبِيعُونَ لَهُمْ يُخْسِرُونَ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ أَيْ يُنْقِصُونَهُ ، فَيَبْخَسُونَهُمْ أَشْيَاءَهُمْ وَيُنْقِصُونَهُمْ حُقُوقَهُمْ وَالْبَخْسُ أَعَمُّ مِنْ نَقْصِ الْمُكَيَّلِ وَالْمَوْزُونِ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ غَيْرَهُمَا مِنَ الْمَبِيعَاتِ كَالْمَوَاشِي وَالْمَعْدُودَاتِ

(91/278)

وَيَشْمَلُ الْبَخْسَ فِي الْمُسَاوَمَةِ وَالْغِشَّ وَالْحِيَلَ الَّتِي تُنْتَقَصُ بِهَا الْحُقُوقُ ، وَكَذَا بَخْسُ الْحُقُوقِ الْمَعْنَوِيَّةِ كَالْعُلُومِ وَالْفَضَائِلِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْبَخْسَيْنِ فَاشٍ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، فَأَكْثَرُ التُّجَّارِ بَاخِسُونَ مُطَفِّفُونَ مُخْسِرُونَ ، فِيمَا يَبِيعُونَ وَفِيمَا يَشْتَرُونَ وَأَكْثَرُ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَكُتَّابُ السِّيَاسَةِ بَخَّاسُونَ لِحُقُوقِ صِنْفِهِمْ ، وَنَفَّاجُونَ فِيمَا يَدَّعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ، يَتَشَبَّعُونَ بِمَا لَمْ يُعْطَوْا كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ ،

وَيُنْكِرُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِبَاعِثِ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ وَالْغُرُورِ .

(92/278)

وَجُمْلَةُ (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) تُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَاطَئُونَ عَلَى هَضْمِ الْغَرِيبِ وَبَخْسِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ تَشْمَلُ بَخْسَ الْأَفْرَادِ بَعْضُهُمْ أَشْيَاءَ بَعْضٍ ، وَهَضْمَ الشَّعْبِ فِي جُمْلَتِهِ أَشْيَاءَ الْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُعَامِلُونَهُمْ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا دَخَلَ الْغَرِيبُ يَأْخُذُونَ دَرَاهِمَهُ وَيَقُولُونَ هَذِهِ زُيُوفٌ ، فَيَقْطَعُونَهَا ثُمَّ يَشْتَرُونَهَا مِنْهُ بِالْبَخْسِ يَعْنِي النُّقْصَانَ ، وَهَذِهِ النَّقِيصَةُ فَاشِيَةٌ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، فَتَجِدُ بَعْضَهُمْ يَذُمُّ بَعْضًا وَيُنْكِرُ فَضْلَهُ كَالْأَفْرَادِ وَتَرَى التُّجَّارَ فِي عَوَاصِمِ أُورُبَّةَ يُغَالُونَ مِنَ الْأَسْعَارِ لِلْغُرَبَاءِ مَا يُرَخِّصُونَ لِأَهْلِ الْبِلَادِ وَتَرَى بَعْضَ الْغُرَبَاءِ يَسْتَحِلُّونَ مِنْ نَهْبِ أَمْوَالِ الْمِصْرِيِّينَ بِضُرُوبِ الْحِيَلِ وَالتَّلْبِيسِ مَا لَا يَسْتَحِلُّونَ مِثْلَهُ فِي مُعَامَلَةِ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِمْ ، وَأَمَّا الْمِصْرِيُّونَ وَأَمْثَالُهُمْ مِنَ الشَّرْقِيِّينَ فَهُمْ فِي مُعَامَلَةِ الْإِفْرِنْجِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ . . . لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يُجْزَوْنَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً . . . وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

وَيَا لَيْتَهُمْ يُعَامِلُونَ أَنْفُسَهُمْ وَمَنْ تَجْمَعُهُمْ مَعَهُمْ أَقْوَى الْمُقَوِّمَاتِ هَذِهِ الْمُعَامَلَةَ ، بَلْ يَكْثُرُ فِيهِمْ مَنْ يَبْخَسُونَ أَبْنَاءَ قَوْمِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ أَشْيَاءَهُمْ وَيَهْضِمُونَ حُقُوقَهُمْ ، وَيُعَظِّمُونَ الْأَجْنَبِيَّ وَيُعْطُونَهُ فَوْقَ حَقِّهِ . وَإِنَّمَا اسْتَذَلَّهُمْ لِلْأَجَانِبِ حُكَّامُهُمْ ، فَهُمْ فِي جُمْلَتِهِمْ مَبْخُوسُونَ لَا بَاخِسُونَ ، وَمَظْلُومُونَ لَا ظَالِمُونَ ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَذْمُومُونَ لَا مَحْمُودُونَ ، وَمَكْفُورُونَ لَا مَشْكُورُونَ

.

(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) تَقَدَّمَ نَصُّ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي آيَةِ (56) خِطَابًا لِأُمَّتِنَا فَفَسَّرْنَاهَا بِمَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ . وَنَقُولُ فِيمَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ هُنَا : إِنَّ الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ يَشْمَلُ إِفْسَادَ نِظَامِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ بِالظُّلْمِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عَلَى

(94/278)

الْأَنْفُسِ وَالْأَعْرَاضِ ، وَإِفْسَادِ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ بِالْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَإِفْسَادِ الْعُمْرَانِ بِالْجَهْلِ وَعَدَمِ النِّظَامِ . وَإِصْلَاحُهَا هُوَ مَا يَصْلُحُ بِهِ أَمْرُهَا وَحَالُ أَهْلِهَا مِنَ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ الْمُنَافِيَةِ لِخُرَافَاتِ الشِّرْكِ وَمَهَانَتِهِ ، وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُزَكِّيَةِ لِلْأَنْفُسِ مِنْ أَدْرَانِ الرَّذَائِلِ ، وَالْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ الْمُرَقِّيَةِ لِلْعُمْرَانِ وَحُسْنِ الْمَعِيشَةِ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ

هَذِهِ السُّورَةِ : (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) (10) فَقَدْ أَصْلَحَ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ الْبَشَرِ بِنِظَامِ الْفِطْرَةِ وَكَمَالِ الْخِلْقَةِ ، وَمَكَّنَهُمْ مِنْ إِصْلَاحِ الْأَرْضِ بِمَا آتَاهُمْ مِنَ الْقُوَى الْعَقْلِيَّةِ وَالْجَوَارِحِ ، وَبِمَا أَوْدَعَ فِي خَلْقِ الْأَرْضِ مِنَ السُّنَنِ الْحَكِيمَةِ ،

(95/278)

وَبِمَا بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ مُكَمِّلَاتِ الْفِطْرَةِ ، فَالْإِفْسَادُ إِزَالَةُ صَلَاحٍ أَوْ إِصْلَاحٍ ، وَقَدْ كَانَ قَوْمُ شُعَيْبٍ مِنَ الْمُفْسِدِينَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا كَمَا يُعْلَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا ، وَالْإِصْلَاحُ مَا يَكُونُ بِفِعْلِ فَاعِلٍ ، وَهُوَ إِمَّا الْخَالِقُ الْحَكِيمُ وَحْدَهُ ، وَإِمَّا مَنْ سَخَّرَهُمْ لِلْإِصْلَاحِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ ، وَالْحُكَّامِ الْعَادِلِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الْقِسْطَ ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ يَنْفَعُونَ النَّاسَ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، كَالزُّرَّاعِ وَالصُّنَّاعِ وَالتُّجَّارِ أَهْلِ الْأَمَانَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ تَتَوَقَّفُ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى عُلُومٍ وَفُنُونٍ كَثِيرَةٍ ، فَهِيَ وَاجِبَةٌ وِفْقًا لِقَاعِدَةِ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ .

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الْإِشَارَةُ إِلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ ، أَيْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فِي دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ لَا تَكْلِيفَ إِعْنَاتٍ ، فَرَبُّكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ إِلَّا بِمَا هُوَ نَافِعٌ لَكُمْ ، وَلَا يَنْهَاكُمْ إِلَّا

عَمَّا هُوَ ضَارٌّ بِكُمْ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلَوْ شَاءَ لَأَعْنَتَكُمْ وَلَكِنَّهُ رَحِيمٌ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا تَتَحَقَّقُ لَكُمْ خَيْرِيَّةُ مَا ذُكِرَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَصِفَاتِهِ تَعَالَى وَبِرَسُولِهِ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ عَنْهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرْعِ وَسَيَأْتِي تَعْلِيلُ ذَلِكَ بَعْدَ بَيَانِ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْإِيمَانِ .

(96/278)

فَسَّرَ بَعْضُهُمُ الْإِيمَانَ هُنَا بِالتَّصْدِيقِ اللُّغَوِيِّ ، أَيِ اعْتِقَادِ صِحَّةِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ بِهِ عِنْدَهُمْ مِنَ الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَالنُّصْحِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ خَيْرِيَّةَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الدُّنْيَوِيَّةِ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَالْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ رَسُولِهِ . وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْإِشَارَةَ إِلَى قَوْلِهِ : (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ) وَمَا بَعْدَهُ دُونَ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ تَعَالَى ، وَقَالَ الطِّيبِيُّ : إِنَّ مِثْلَ هَذَا الشَّرْطِ إِنَّمَا يُجَاءُ بِهِ فِي آخِرِ الْكَلَامِ لِلتَّأْكِيدِ . وَقَالَ الْقُطْبُ الرَّازِيُّ : إِنَّ

ذَلِكَ لَيْسَ شَرْطًا لِلْخَيْرِيَّةِ نَفْسِهَا بَلْ لِفِعْلِهِمْ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : فَأْتُوا بِهِ إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ بِي . فَلَا يَرِدُ أَنَّهُ لَا تَوَقُّفَ لِلْخَيْرِيَّةِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى تَصْدِيقِهِمْ بِهِ . وَقَدْ أَطَالُوا الِاحْتِمَالَاتِ فِي الْآيَةِ

حَتَّى زَعَمَ الْخَيَالِيُّ أَنَّ قَوْلَهُ : (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ) جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ وَهُوَ مِنْ خَيَالَاتِهِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا .

(97/278)

وَالصَّوَابُ أَنَّ هَذَا التَّذْيِيلَ كَأَمْثَالِهِ فِي الْقُرْآنِ مَقْصُودٌ بِالذَّاتِ ، وَأَنَّ الْمَعْنَى : ذَلِكُمُ الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَعَدَمِ إِشْرَاكِ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ فِي عِبَادَتِهِ لِمَا تَرَوْنَ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ تَرْجُونَهُ أَوْ ضُرٍّ تَخَافُونَهُ - وَمِنْ إِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ . وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ - ذَلِكُمْ كُلُّهُ خَيْرٌ لَكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ . وَإِنَّمَا تَتَحَقَّقُ خَيْرِيَّتُهُ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

(98/278)

وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَغَيْرِهَا . ذَلِكَ بِأَنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي الِاتِّبَاعَ وَالِامْتِثَالَ وَالْعَمَلَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ خَالَفَ الْهَوَى أَوْ لَمْ تَظْهَرْ لَهُ فَائِدَتُهُ وَمَنْفَعَتُهُ بَادِيَ الرَّأْيِ ، بَلْ يَقْتَضِيهِ حَتَّى فِيمَا يَظُنُّ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُ مُنَافٍ لِمَصْلَحَتِهِ ،

فَتَحْصُلُ لَهُ فَوَائِدُهُ وَمَنَافِعُهُ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ عِلَّةٌ أَوْ سَبَبٌ لَهَا بِحَسَبِ حِكْمَةِ اللهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي أَقَامَ بِهَا نِظَامَ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ . فَكَيْفَ إِذَا عَلِمَ ذَلِكَ بِالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ وَالْوُقُوفِ عَلَى حِكَمِهِ وَأَسْرَارِهِ - كَكَوْنِ التَّوْحِيدِ وَاجْتِنَابِ نَزَعَاتِ الشِّرْكِ تَرْفَعُ قَدْرَ الْإِنْسَانِ ، وَتُطَهِّرُ عَقْلَهُ وَنَفْسَهُ فِي الْخُرَافَاتِ وَالْأَوْهَامِ وَتَعْتِقُ إِرَادَتَهُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَالذِّلَّةِ لِمَخْلُوقٍ مِثْلِهِ مُسَاوٍ لَهُ فِي كَوْنِهِ مَخْلُوقًا مُسَخَّرًا لِإِرَادَةِ الْخَالِقِ وَسُنَنِهِ ، وَإِنْ فَاقَهُ فِي عَظَمَةِ الْخَلْقِ أَوْ عِظَمِ الْمَنْفَعَةِ كَالشَّمْسِ ، أَوْ بَعْضِ الصِّفَاتِ أَوِ الْخَصَائِصِ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَوْ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ عَبَدُوا الْمُلُوكَ الْجَبَّارِينَ فَاتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً وَأَرْبَابًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَزَالُ يُذَلُّ لَهُمْ وَيُطِيعُهُمْ وَلَوْ فِي الْبَاطِلِ وَالْجَوْرِ خَوْفًا مِنْهُمْ ، أَوْ رَجَاءً فِي رِفْدِهِمْ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِ الْمُوَحِّدِينَ ، قَالَ تَعَالَى : (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (3 : 175)

(99/278)

فَالْمُؤْمِنُ الْمُوَحِّدُ لَا يَخْضَعُ لِأَحَدٍ لِذَاتِهِ إِلَّا لِرَبِّهِ وَإِلَهِهِ ، وَإِنَّمَا يُطِيعُ رَسُولَهُ لِأَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنْهُ ، قَالَ تَعَالَى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) (4 : 80) وَقَالَ خَاتَمُ رُسُلِهِ : " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ

" رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ : " إنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَإِنَّ الظَّنَّ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ ، وَلَكِنْ مَا قُلْتُ لَكُمْ قَالَ اللَّهُ فَلَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ وَقَالَ : " إنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَتْرُكْهَا " رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ كُلُّهَا مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(100/278)

وَفِي رِوَايَةٍ " فَلَا يَأْخُذْهُ " بَدَلَ تَخْيِيرِ التَّهْدِيدِ . وَفِي بَعْضِهَا " مِنْ حَقِّ أَخِيهِ " بَدَلًا مِنْ " بِحَقِّ مُسْلِمٍ " وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ . وَأَنَّ الذِّمِّيَّ وَالْمُعَاهِدَ كَذَلِكَ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الذِّمِّيَّ هُوَ الْخَاضِعُ لِأَحْكَامِنَا مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْمُعَاهِدَ مَنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَوْ بَيْنَ قَوْمِهِ مُعَاهَدَةٌ عَلَى السِّلْمِ وَالْمُرَادُ : أَنَّ غَيْرَ الْمُسْلِمِ إذَا لَمْ يَكُنْ حَرْبِيًّا فَهُوَ مُسَاوٍ لِلْمُسْلِمِينَ فِي احْتِرَامِ مَالِهِ وَنَفْسِهِ وَعِرْضِهِ وَفِي أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي تَصْدُرُ بِذَلِكَ . وَالشَّاهِدُ الْمُرَادُ لَنَا مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ الْحَقَّ فِي شَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى مَقْصُودٌ لِذَاتِهِ ، وَإِنْ حَكَمَ الْحَاكِمُ وَلَوْ كَانَ رَسُولًا مِنْ رُسُلِ اللَّهِ إنَّمَا يُنَفَّذُ عَلَى الظَّاهِرِ لِأَنَّهُ حَكَمَ بِالظَّاهِرِ دُونَ

الْبَاطِنِ ، فَإِذَا عَلِمَ الْمَحْكُومُ لَهُ أَنَّهُ خَطَأٌ فِي الْوَاقِعِ لَمْ يَحِلَّ لَهُ دِيَانَةً وَالْحَدِيثُ لَيْسَ نَصًّا فِي وُقُوعِ الْخَطَإِ أَوْ جَوَازِهِ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذْ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ ، حَتَّى لَا يَسْتَعِينَ أَحَدٌ بِخِلَابَةِ اللِّسَانِ لَدَى الْحُكَّامِ عَلَى الْقَضَاءِ لَهُ بِالْبَاطِلِ . وَالَّذِينَ قَالُوا بِجَوَازِ خَطَإِ الْأَنْبِيَاءِ فِي اجْتِهَادِهِمْ قَالُوا إنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُقِرُّهُمْ عَلَيْهَا عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ هُنَا بِالْبَيِّنَةِ ، وَهِيَ إنَّمَا تَكُونُ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ لَا بِمَحْضِ الِاجْتِهَادِ ، وَهَذِهِ الْمَبَاحِثُ لَيْسَتْ مِنْ مَوْضُوعِنَا هُنَا .

(101/278)

هَذَا مِثَالٌ لِكَوْنِ التَّوْحِيدِ فِي الْعِبَادَةِ هُوَ لِمَصْلَحَةِ النَّاسِ وَتَكْرِيمِهِمْ وَإِعْلَاءِ شَأْنِهِمْ ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْعِبَادَاتِ وَأَحْكَامُ الْحَظْرِ وَالْإِبَاحَةِ ، حَتَّى مَا يُسَمُّونَهُ فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِالْأَحْكَامِ الْمَدَنِيَّةِ – قَدْ شُرِعَتْ لِدَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْرِيرِ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَتَرَى غَيْرَ الْمُؤْمِنِ الْمُتَدَيِّنَ لَا يَلْتَزِمُ اجْتِنَابَ كُلِّ مَفْسَدَةٍ بَلْ يَسْتَبِيحُ مَا يَرَاهُ نَافِعًا لَهُ وَإِنْ كَانَ ضَارًّا بِغَيْرِهِ فَرْدًا كَانَ أَوْ جَمَاعَةً أَوْ أُمَّةً بِأَسْرِهَا ، فَإِنَّ مُجَرَّدَ الْعِلْمِ بِكَوْنِ الْأَمَانَةِ خَيْرًا مِنَ الْخِيَانَةِ ، وَكَوْنِ الْقِسْطِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَسَائِرِ الْمُعَامَلَاتِ خَيْرًا مِنَ الْغِشِّ وَالْخِيَانَةِ وَبَخْسِ الْحُقُوقِ – لَا يَكْفِي لِحَمْلِ الْجُمْهُورِ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ أَوَّلًا ؛ لِأَنَّ هَذَا الْعِلْمَ إجْمَالِيٌّ يُعْرَضُ لَهُ عِنْدَ التَّفْصِيلِ ضُرُوبٌ

مِنَ الْأَشْكَالِ

فِي تَحْدِيدِ الْأَمَانَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْقِسْطِ وَالْبَخْسِ ، وَضُرُوبٌ مِنَ الْهَوَى فِي تَطْبِيقِ حُدُودِهَا أَوْ رُسُومِهَا عَلَى جُزْئِيَّاتِهَا ، وَضُرُوبٌ مِنَ التَّأْوِيلِ وَالشُّبَهَاتِ فِي الْمُسَاوَاةِ فِيهَا بَيْنَ الْقَرِيبِ وَالْغَرِيبِ وَالصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ وَالضَّعِيفِ وَالْقَوِيِّ وَالْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ . وَأَمَّا الدِّينُ فَيُوجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ إقَامَةَ الْعَدْلِ لِذَاتِهِ بِالْمُسَاوَاةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ

(102/278)

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ) (5 : 8) وَيَقُولُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) .

(103/278)

لَمْ يَصِلِ الْبَشَرُ فِي عَصْرٍ مِنْ عُصُورِ التَّارِيخِ إِلَى عُشْرِ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الْعِلْمِ بِالْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ وَالْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ فِي مُعَامَلَاتِهِ وَآدَابِهِ حَتَّى زَعَمَ كَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ وَالْمُفَكِّرِينَ مِنْهُمْ أَنَّهُ يُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ بِالْعِلْمِ عَنِ الدِّينِ فِي تَرْبِيَةِ الْأَحْدَاثِ بِإِقْنَاعِهِمْ بِمَنَافِعِ الْفَضَائِلِ كَالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَالْعَدْلِ ، وَمَضَارِّ الرَّذَائِلِ كَأَضْدَادِهَا ، وَأَنَّ هَذَا أَهْدَى وَأَقْوَى إِقْنَاعًا مِنَ التَّبْشِيرِ بِثَوَابِ الْآخِرَةِ وَالْإِنْذَارِ بِعَذَابِهَا . وَلَكِنَّا نَرَى رُؤَسَاءَ أَوْ وُزَرَاءَ أَرْقَى الْأُمَمِ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ يَقْتَرِفُونَ أَفْحَشَ الرَّذَائِلِ بِالتَّأْوِيلِ لَهَا ، وَتَسْمِيَتِهَا بِغَيْرِ أَسْمَائِهَا ، وَبِالْخَفَاءِ وَالْحِيَلِ ، وَمَا زَالُوا يُرَاءُونَ النَّاسَ فِي ذَلِكَ حَتَّى فَضَحَتْهُمْ وَفَضَحَتْ شُعُوبَهُمُ الْحَرْبُ الْأَخِيرَةُ ، فَثَبَتَ بِهَا أَنَّهُمْ شَرُّ الْبَشَرِ وَأَعْرَقُهُمْ فِي الرَّذَائِلِ الْعَامَّةِ كَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ بِالظُّلْمِ وَالطَّمَعِ . وَالْمُبَارَاةِ فِي وَسَائِلِ إِفْسَادِ الشُّعُوبِ صِحَّةً وَأَخْلَاقًا وَاسْتِذْلَالًا ، لِأَجْلِ الِاسْتِلْذَاذِ بِاسْتِبْعَادِهَا ، وَالِاسْتِئْثَارِ بِثَمَرَاتِ أَعْمَالِهَا . عَلَى أَنَّهُمْ يَمُنُّونَ عَلَيْهَا بِذَلِكَ زَعْمًا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَجْذِبُونَهَا بِهِ إِلَى حَضَارَتِهِمُ الْمَلْعُونَةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الْإِسْرَافِ فِي الشَّهَوَاتِ ، وَاسْتِحْلَالِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَجَعْلِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي يُبَالِغُونَ فِي مَدْحِهَا ،

(104/278)

وَعُدَّ هَذَا الْإِطْلَاقُ سَبَبًا لِلْكَمَالِ فِيهَا .

هَذَا وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي الْجَمْعَ بَيْنَ عُلُومِ الْحُقُوقِ وَالْآدَابِ وَالْفَضَائِلِ وَسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ ، وَبَيْنَ دِينِ الْمُبَالَغَةِ فِي الزُّهْدِ وَالْعِفَّةِ وَالتَّوَاضُعِ وَالْإِيثَارِ ، وَهِيَ الْمِلَّةُ الْمَسِيحِيَّةُ الَّتِي يَفْتَخِرُونَ بِوَصْفِ أُمَمِهِمْ بِهَا ، وَهُمْ أَبْعَدُ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِ اللهِ عَنْهَا – فَالتَّحْقِيقُ الَّذِي ثَبَتَ بِالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ وَالتَّجَارِبِ الدَّقِيقَةِ أَنَّ مَلَكَاتِ الْفَضَائِلِ لَا تَنْطَبِعُ فِي الْأَنْفُسِ إِلَّا بِالتَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى ؛ وَلِذَلِكَ تَقِلُّ السَّرِقَةُ وَالْخِيَانَةُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهَا التَّدَيُّنُ الصَّحِيحُ كَبِلَادِ نَجْدٍ وَأَكْثَرِ بِلَادِ الْيَمَنِ عَلَى قِلَّةِ وَسَائِلِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْأَمْوَالِ فِيهِمَا ، وَتَكْثُرُ فِي غَيْرِهَا عَلَى كَثْرَةِ تِلْكَ الْوَسَائِلِ .

(105/278)

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ حُكُومَتِنَا الْمِصْرِيَّةِ أَنَّهَا تُقَلِّدُ الْإِفْرِنْجَ فِي نِظَامِ التَّعْلِيمِ وَفِي إِطْلَاقِ الْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَتَغْفُلُ عَمَّا يَجِبُ مِنَ التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ . حَتَّى إِنَّ أَدَاءَ الصَّلَاةِ فِي مَدَارِسِهَا اخْتِيَارِيٌّ لَا يُطَالَبُ بِهِ التَّلَامِيذُ وَالطُّلَّابُ وَلَا يُنْكَرُ عَلَيْهِمْ تَرْكُهُ . وَقَدْ فَشَتْ فِي الْبِلَادِ الْجَرَائِمُ مِنْ قَتْلٍ وَسَلْبٍ وَإِفْسَادِ زَرْعٍ وَفِسْقٍ وَفُجُورٍ ، وَقَدِ اتُّخِذَتْ عِدَّةُ وَسَائِلَ لِتَقْلِيلِ هَذِهِ الْجِنَايَاتِ بَعْدَ أَنْ عُقِدَتْ عِدَّةُ لِجَانٍ لِدَرْسِهَا وَلَكِنَّهَا لَمْ تَأْتِ أَدْنَى عَمَلٍ لِمُقَاوَمَتِهَا

بِالتَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ لِلنَّابِتَةِ ، وَبَثِّ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ فِي الْعَامَّةِ . وَهُوَ أَقْرَبُ الْوَسَائِلِ لِمَنْعِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ؛ لِأَنَّ الْوَازِعَ النَّفْسِيَّ أَقْوَى وَأَعَمُّ مِنَ الْوَازِعِ الْخَارِجِيِّ . وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى :

(106/278)

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا) قُلْنَا : إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ بَدَأَ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ لِأَنَّهُ رُكْنُ الدِّينِ الْأَعْظَمُ الَّذِي هَدَمَتْهُ الْوَثَنِيَّةُ ، وَثَنَّى بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَالِهِمُ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِمْ . وَأَمَّا هَذَا النَّهْيُ عَنْ قَطْعِهِمُ الطُّرُقَ عَلَى مَنْ يَغْشَى مَجْلِسَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَسْمَعُ دَعْوَتَهُ وَيُؤْمِنُ بِهِ فَلَمْ يُؤَخِّرْهُ لِأَنَّ اقْتِرَافَهُ دُونَ اقْتِرَافِ التَّطْفِيفِ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ وَبَخْسِ الْحُقُوقِ ؛ بَلْ لِأَنَّهُ مُتَأَخِّرٌ عَنْهَا فِي الزَّمَنِ ، فَالدَّعْوَةُ قَدْ وُجِّهَتْ أَوَّلًا إِلَى أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ فِي بَلَدِهِ ثُمَّ إِلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ مِنْهُمْ وَمِمَّنْ يَزُورُ أَرْضَهُمْ ، وَقَدْ كَانَ الْأَقْرَبُونَ دَارًا هُمُ الْأَبْعَدِينَ اسْتِجَابَةً لَهُ فِي الْأَكْثَرِ ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ فِي الْخَلْقِ . فَلَمَّا رَأَوْا غَيْرَهُمْ يَقْبَلُ دَعْوَتَهُ وَيَعْقِلُهَا وَيَهْتَدِي بِهَا شَرَعُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْهُ ، فَلَا يَدَعُونَ طَرِيقًا تُوَصِّلُ إِلَيْهِ إِلَّا قَعَدَ بِهَا مَنْ يَتَوَعَّدُ سَالِكِيهَا إِلَيْهِ وَيَصُدُّونَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ الَّتِي يَدْعُوهُمْ إِلَيْهَا ، يَطْلُبُونَ بِالتَّمْوِيهِ وَالتَّضْلِيلِ أَنْ يَجْعَلُوا اسْتِقَامَتَهَا عِوَجًا

وَهُدَاهَا ضَلَالًا ، وَتَقَدَّمَ مِثْلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ (فِي الْآيَةِ) 45 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ فِي ص 427 فَلْيُرَاجَعْ) .

(107/278)

رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ : (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ) قَالَ : كَانُوا يَجْلِسُونَ فِي الطَّرِيقِ فَيَقُولُونَ لِمَنْ أَتَى عَلَيْهِمْ : إنَّ شُعَيْبًا كَذَّابٌ فَلَا يَفْتِنَنَّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ .

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ ، بِكُلِّ صِرَاطٍ : طَرِيقٍ - تُوعِدُونَ ، قَالَ : تُخَوِّفُونَ النَّاسَ أَنْ يَأْتُوا شُعَيْبًا .

وَهَذَا تَفْسِيرٌ لِلصِّرَاطِ بِالطَّرِيقِ الْحِسِّيِّ الْحَقِيقِيِّ ، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ تَفْسِيرُهُ بِالسَّبِيلِ الْمَجَازِيِّ

قَالَ : (بِكُلِّ صِرَاطٍ) بِكُلِّ سَبِيلِ حَقٍّ إلَخْ . وَرُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُخَوِّفُونَ النَّاسَ بِالْقَتْلِ إذَا آمَنُوا بِهِ .

وَالْحَاصِلُ : أَنَّهُ نَهَاهُمْ هُنَا عَنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : (أَوَّلُهَا) قُعُودُهُمْ عَلَى الطُّرُقَاتِ الَّتِي تُوصِّلُ إلَيْهِ يُخَوِّفُونَ مَنْ يَجِيئُهُ لِيَرْجِعَ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ وَيَسْمَعَ دَعْوَتَهُ . (ثَانِيهَا) صَدُّهُمْ مَنْ وَصَلَ إلَيْهِ وَآمَنَ بِهِ بِصَرْفِهِ عَنِ الثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُوَصِّلَةِ إلَى سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ . (ثَالِثُهَا) ابْتِغَاؤُهُمْ جَعْلَ سَبِيلِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمَةِ ذَاتَ عِوَجٍ بِالطَّعْنِ

وَإِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ الْمُشَكِّكَةِ فِيهَا أَوِ الْمُشَوِّهَةِ لَهَا ، كَقَوْلِهِمْ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي حَكَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي سُورَةِ هُودٍ : (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) (11 : 87) .

فَهَاهُنَا ضَلَالَتَانِ – ضَلَالَةُ التَّقْلِيدِ وَالْعَصَبِيَّةِ لِلْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَلَا تَزَالُ

(108/278)

تَكَأَةَ أَكْثَرِ الضَّالِّينَ فِي أَصْلِ الدِّينِ وَفِي فَهْمِهِ وَفِي الِاهْتِدَاءِ بِهِ – وَضَلَالَةُ الْغُلُوِّ فِي الْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهَا فِي زَمَنٍ مَا أَشَدَّ وَأَعَمَّ مِنْهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ بِمَا بَثَّ الْإِفْرِنْجُ الْفَاتِنُونَ الْمُفْتُونُونَ لِدَعْوَتِهَا فِي كُلِّ الْأُمَمِ ، حَتَّى إِنَّ حُكُومَةً كَالْحُكُومَةِ الْمِصْرِيَّةِ تُبِيحُ الزِّنَا لِشَعْبٍ يَدِينُ أَكْثَرُ أَهْلِهِ بِالْإِسْلَامِ وَأَقَلُّهُ بِالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَكُلُّهُمْ يُحَرِّمُونَ الزِّنَا ، وَإِنَّمَا أَبَاحَتْهُ بِإِغْوَاءِ أَسَاتِذَتِهَا وَسَادَتِهَا مِنَ الْإِفْرِنْجِ ، وَقَدْ خَنَعَ الشَّعْبُ الْمُسْتَذَلُّ الْمُسْتَضْعَفُ لَهَا ، وَسَكَتَ عُلَمَاؤُهُ وَمُرْشِدُوهُ الدِّينِيُّونَ فَلَا يُنْكِرُونَ عَلَيْهَا أَفْرَادًا وَلَا جَمَاعَاتٍ ، وَلَا يَتَظَاهَرُونَ عَلَى الِاحْتِجَاجِ عَلَى عَمَلِهَا بِالْخُطَبِ الدِّينِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَا بِالنَّشْرِ فِي الصُّحُفِ الْعَامَّةِ ، وَقَدْ أَدَّى السُّكُوتُ عَنْ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ إِلَى أَنْ صَارَ الْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا يَكْثُرُ أَنْصَارُهُ وَالْمُسْتَحْسِنُونَ لَهُ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ اسْتِحْلَالَ الزِّنَا

وَإِبَاحَتُهُ كُفْرٌ وَرِدَّةٌ . وَعُلَمَاءُ الدِّينِ يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِكُفْرِ وَاضِعِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ فِي الْقَوَانِينِ وَالْمُسْتَبِيحِينَ لَهَا مِنْ سِوَاهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ قَلَّمَا يَتَجَاوَزُونَ التَّنَاجِي فِي ذَلِكَ بَيْنَهُمْ ، إمَّا لِضَعْفِهِمْ أَوْ لِأَنَّ أَرْزَاقَهُمْ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَمَنْصِبَ الْقَضَاءِ فِي أَيْدِي هَؤُلَاءِ الْحُكَّامِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي

(109/278)

مَوَاضِعَ . وَمِنْ مَفَاسِدِ هَذَا السُّكُوتِ عَنْ إنْكَارِ الْمُنْكَرِ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ يَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَى شَرْعِيَّةِ كُلِّ مَا يَسْكُتُ عَنْهُ عُلَمَاءُ الدِّينِ .

(وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ) أَيْ وَتَذَكَّرُوا ذَلِكَ الزَّمَنَ الَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ قَلِيلِي الْعَدَدِ فَكَثَّرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا بَارَكَ فِي نَسْلِكُمْ فَاشْكُرُوا لَهُ ذَلِكَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَاتِّبَاعِ وَصَايَاهُ فِي الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَتَرْكِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .

(وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) مِنَ الشُّعُوبِ الْمُجَاوِرَةِ لَكُمْ كَقَوْمِ لُوطٍ وَقَوْمِ صَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ ، وَكَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِفَسَادِهِمْ ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عِبْرَةٌ فِي ذَلِكَ .

(وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) أَيْ إِنْ كَانَ بَعْضُكُمْ قَدْ آمَنَ بِمَا أَرْسَلَنِي

اللهُ بِهِ إِلَيْكُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْأَحْكَامِ الْمُقَرَّرَةِ لِلْإِصْلَاحِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْإِفْسَادِ ، وَبَعْضُكُمْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ بَلْ أَصَرُّوا عَلَى شِرْكِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ ، فَسَتَكُونُ عَاقِبَتُكُمْ كَعَاقِبَةِ مَنْ قَبْلَكُمْ ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ بِالْفِعْلِ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ؛ لِأَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، لِتَنَزُّهِهِ عَنِ الْبَاطِلِ وَالْجَوْرِ ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَبِرْ كُفَّارُكُمْ بِعَاقِبَةِ مَنْ قَبْلَهُمْ ، فَسَيَرَوْنَ مَا يَحِلُّ بِهِمْ ، فَالْأَمْرُ بِالصَّبْرِ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ .

(110/278)

حُكْمُ اللهِ بَيْنَ عِبَادِهِ نَوْعَانِ : حُكْمٌ شَرْعِيٌّ يُوحِيهِ إِلَى رُسُلِهِ ، وَحُكْمٌ فِعْلِيٌّ يَفْصِلُ فِيهِ بَيْنَ الْخَلْقِ بِمُقْتَضَى عَدْلِهِ وَسُنَنِهِ ، فَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ : (إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) (5 : 1) فَإِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ وَإِحْلَالِ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا اسْتُثْنِيَ مِنْهَا بَعْدَ تِلْكَ الْآيَةِ . وَمِنَ الثَّانِي مَا حَكَاهُ اللهُ تَعَالَى هُنَا عَنْ رَسُولِهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ يُونُسَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (10 : 109) وَفِي مَعْنَاهُ مَا خُتِمَتْ بِهِ سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ فِي مَوْضُوعِ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي

أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (21 : 108 - 112) وَإِنَّمَا حُكْمُهُ تَعَالَى بَيْنَ الْأُمَمِ بِنَصْرِ أَقْرَبِهَا إِلَى الْعَدْلِ وَالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ ، وَحُكْمُهُ هُوَ الْحَقُّ ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، فَلْيَعْتَبِرِ الْمُسْلِمُونَ بِهَذَا قَبْلَ كُلِّ أَحَدٍ ، وَلْيَعْرِضُوا حَالَهُمْ وَحَالَ

(111/278)

دُوَلِهِمْ عَلَى الْقُرْآنِ

وَعَلَى أَحْكَامِ اللهِ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَثُوبُونَ إِلَى رُشْدِهِمْ ، وَيَتُوبُونَ إِلَى رَبِّهِمْ ، فَيُعِيدَ إِلَيْهِمْ مَا سُلِبَ مِنْهُمْ ، وَيَرْفَعَ مَقْتَهُ وَغَضَبَهُ عَنْهُمْ . اللهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا ، وَعَافِنَا وَاعْفُ عَنَّا ، وَاحْكُمْ لَنَا لَا عَلَيْنَا .

إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 465 . 477 ﴾

(112/278)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا ﴾

و﴿ الطائفة ﴾ الجماعة ذاتُ العدد الكثير وتقدّمت عند قوله تعالى : ﴿ فلتقُم طائفة منهم معك ﴾ في سورة النّساء (102) .

والشّرط في قوله : ﴿ وإن كان طائفة ﴾ أفاد تعليق حصول مضمون الجزاء في المستقبل ، أعني ما تضمّنه الوعيد للكافرين به والوعدُ للمؤمنين ، على تحقّق حصول مضمون فعل الشّرط ، لا على ترقّب حصول مضمونه ، لأنّه معلوم الحصول ، فالماضي الواقع فعلاً للشّرط هنا ماض حقيقي وليس مؤولاً بالمستقبل ، كما هو الغالب في وقوع الماضي في سياق الشّرط بقرينة كونه معلوم الحصول ، وبقرينة النّفي بلم المعطوف على الشّرط فإنّ (لَمْ) صَريحة في المضيّ ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ إنْ كنتُ قلتُه فقد علمتَهُ ﴾ [المائدة : 116] بقرينة .

(قد) إذ الماضي المدخول لقد لا يقلب إلى معنى المستقبل .

فالمعنى : إن تبيَّن أن طائفة آمنوا وطائفة كفروا فسيحكم الله بيننا فاصبروا حتّى يحكم

ويَؤول المعنى : إن اختلفتم في تصديقي فسيظهر الحكم بأنّي صادق .

وليست (إنْ) بمفيدة الشكّ في وقوع الشّرط كما هو الشان ، بل اجْتلبت هنا لأنّها أصل أدوات الشّرط ، وإنَّما يفيد معنى الشكّ أو ما يَقرب منه إذا وقع العدول عن اجتلاب (إذَا

) حين يصحّ اجتلابها ، فأمّا إذا لم يصحّ اجتلاب (إذا) فلا تدلّ (إنْ) على شكّ وكيفَ تفيد الشكّ مع تحقّق المضي ، ونظيره قول النّابغة:

لَئِنْ كنتَ قد بُلِّغْتَ عنّي وشَايَةً . . .

لَمُبْلغكَ الواشي أغَشّ وأكذب

(113/278)

والصّبر : حبس النّفس في حال التّرقب ، سواء كان ترقب محبوب أم ترقب مكروه ، وأشهر استعماله أن يطلق على حبس النّفس في حال فِقدان الأمر المحبوب ، وقد جاء في هذه الآية مستعملاً في القدْر المشترك لأنّه خوطب به الفريقان : المؤمنون والكافرون ، وصبر كلّ بما يناسبه ، ولعلّه رجح فيه حال المؤمنين ، ففيه إيذان بأنّ الحكم المترقّب هو في منفعة المؤمنين ، وقد قال بعض المفسّرين : إنّه خطاب للمؤمنين خاصة .

و﴿ حتّى ﴾ تفيد غاية للصّبر ، وهي مؤذنة بأن التّقدير : وإن كان طائفة منكم آمنوا وطائفة لم يؤمنوا فسيحكم الله بيْننا فاصبروا حتّى يحكم .

وحكم الله أريد به حكم في الدّنيا بإظهار أثر غضبه على أحد الفريقين ورضاه على الذين خالفوهم ، فيظهر الحقّ من المبطل ، وهذا صدر عن ثقة شعيب عليه السّلام بأنّ الله

سيحكم بينه وبين قومه استناداً لوعد الله إياه بالنَّصْر على قومه ، أو لعلمه بسنّة الله في رسله ومَن كذّبهم بإخبار الله تعالى إياه بذلك ، ولولا ذلك لجاز أن يتأخر الحكم بين الفريقين إلى يوم الحساب ، وليس هو المراد من كلامه لأنّه لا يناسب قوله : ﴿ فاصبروا ﴾ إذا كان خطاباً للفريقين ، فإن كان خطابا للمؤمنين خاصة صحّ إرادة الحُكمين جميعاً .

وأدْخَل نفسه في المحكوم بينهم بضمير المشاركة لأنّ الحكم المتعلّق بالفريق الذين آمنوا به يعتبر شاملاً له لأنّه مؤمن برسالة نفسه .

وجملة : ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ تذييل بالثّناء على الله بأنّ حكمه عَدْل محض لا يحتمل الظلم عَمداً ولا خطأً ، وغيره من الحاكمين يقع منه أحد الأمرين أو كلاهما .

و﴿ خير ﴾ : اسم تفضيل أصله أخْيَر فخفّفوه لكثرة الاستعمال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(114/278)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن طائفة آمنت ، وطائفة لم تؤمن ، ثم جاء الأمر للطائفتين ، فأمر المؤمنين بالصبر تأنيس لهم ، وأمر الكافرين بالصبر تهديد لهم .

وهذه دقة القرآن في الأداء وعظمة البيان والبلاغة . إذن ، فكلمة : فاصبروا نفعت في التعبير عن الأمر بالصبر للذين آمنوا ، ونفعت في كشف المصير الذي ينتظر الذين لم يؤمنوا ، فصبر الكافرين مآله وعاقبته ، إما أن يخجلوا من أنفسهم فيؤمنوا ، وإما أن يجدوا العذاب ، وصبر المؤمنين يقودهم إلى الجنة ، وأن الذي يحكم هو الله وهو خير الحاكمين ؛ لأن المحكوم عليهم بالنسبة له سواء ، فلا أحد منهم له أفضلية على أحد ، ولا أحد منهم قريبه ، وإلا قرابة القربى والزلفى إليه ، وسبحانه هو العادل بمطلق العدل ، ولا يظلم أحداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(115/278)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ أي : اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين مؤمنين ومكذبين ،

و" طائفة " الثانية عطف على " طائفة " الأولى فهي اسم كان و" لم يؤمنوا " معطوف على " آمنوا " الذي هو خبر كان ، عَطَفَتْ اسماً على اسم ، وخبراً على خبر ، ومثله لو قلت : " كان عبد الله ذاهباً وبكر خارجاً " ، عطفْتَ المرفوع على مثله ، وكذلك المنصوب ، وقد حذف وصف طائفة الثانية لدلالة وصف الأولى عليه ، إذ التقدير : " طائفة منكم لم يؤمنوا " ، وحذف أيضاً متعلق الإيمان في الثانية ، لدلالة الأولى عليه ، إذ التقدير : لم يؤمنوا بالذي أُرسلت به ، والوصف بقوله : منكم الظاهر أو المقّر هو الذي سَوغ وقوع " طائفة " اسماً لـ " كان " من حيث أن الاسم في هذا الباب كالمتبدأ ، والمبتدأ لا يكون نكرة إلا بمسوّغٍ تقدم التنبيه عليه .

(116/278)

قوله " فَاصْبِرُوا " يجوز أن يكون الضمير للمؤمنين من قومه ، وأن يكون للكافرين منهم ، وأن يكون للفريقين ، وهذا هو الظاهر أَمَرَ المؤمنين بالصبر ليحصُل لهم الظفر والغلبة ، والكافرون مأمورون به لِيَنْصُرَ الله عليهم المؤمنين لقوله : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ ﴾ [الطور : 31] ، أو على سبيل التنازل معهم أي : اصبروا فستعلمونَ مَنْ ينتصر ومن يَغْلب مع علمه بأن الغلبة له و" حتى " بمعنى " إلى " فقط .

وقوله " بيننا " غَلَّب ضمير المتكلم على المخاطب ، إذ المرادُ بيننا جميعاً من مؤمن وكافر ، ولا حاجة إلى ادّعاء حذف معطوف تقديره : بيننا وبينكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 213.214 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ .

من المعاصي ما لا يكون لازماً لصاحبه وحدَه بل يكون متعدّياً عنه إلى غيره . ثم بِقَدْرِ الأثر في التعدّي يحصل الضر للمبتدئ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذَا كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُم وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

مَنَّ عليهم بتكثير العدد لأن بالتناصر والتعاون تمشي الأمور ويحصل المراد .

ويقال كما أن كل أمرٍ بالأعوان والأنصار خيراً أو شراً ، فلا نعمة فوق اتفاق الأنصار في الخير ، ولا محنة فوق اتفاق الأعوان في الشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 550.549 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (1)

الإعراب :

حروف مقطّعة جرى إعراب نظيرها في سورة البقرة (ألم) . قال الخازن في تفسيره : هي حروف مقطعة استأثر بعلمها وهي سرّه في كتابة العزيز .

الفوائد

رغم الكلام الكثير الذي أورده المفسرون حول تفسير هذه الأحرف التي تأتي في مفتتح السور ورغم تلك الآراء المتعددة والمتغايرة حول هذه الأحرف . فإني مدفوع لأدلي بدلوي بين الدلاء : فأقول بما أن قراءة هذه الأحرف تطابق تسميتها لدى علماء العربية قديما وحديثا فلا مانع أن يكون الله أراد تذكيرنا بالأسس التي تقوم عليها لغتنا الملفوظة والمكتوبة وهي أحرف الهجاء وبأنها هي الأجزاء التي تتألف منها لغة الضاد بما فيه هذا القرآن

الكريم . فافتتاح السور بهذه الأحرف إن هو الا تقديس لها وتعليم لنا لنتعرف عليها في وقت كان القرّاء والكتّاب أندر من الكبريت الأحمر كما يقول القدامى . . . !

[سورة الأعراف (7) : آية 2]

كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2)

الإعراب :

(كتاب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا أو هو (أنزل) فعل ماض مبني للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (إلى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر " 1 " ، (لا) ناهية جازمة (يكن) مضارع ناقص – ناسخ – مجزوم (في صدر) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر يكن و(الكاف) ضمير مضاف إليه (حرج) اسم يكن مؤخّر مرفوع (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لحرج (اللام) حرف للتعليل (تنذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (به) مثل منه متعلّق بفعل تنذر .

والمصدر المؤوّل (أن تنذر به) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزل) " 2 " .

(الواو) عاطفة (ذكرى) معطوف على محلّ المصدر المؤوّل – الجرّ – وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف " 3 " ، (للمؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لذكرى .

جملة " (هذا) كتاب . . . " : لا محلّ لها ابتدائية .

وجملة " أنزل . . " : في محلّ رفع نعت لكتاب .

وجملة " لا يكن . . حرج " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن

---

(1) أو عاطفة لربط المسبّب بالسبب .

(2) أو متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به خبر يكن وحينئذ لا اعتراض .

(3) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو مرفوع ، والجملة في محلّ رفع معطوفة على جملة أنزل . . أو هو معطوف على كتاب مرفوع .

(118/278)

تلوته ، أو تتابع نزوله ، فلا يكن . . . حرج " 1 " .

وجملة " تنذر به " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

[سورة الأعراف (7) : آية 3]

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (3)

الإعراب :

(اتّبعوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو ضمير متصل في محلّ رفع فاعل (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (أنزل إليكم) مثل أنزل إليك " 2 " ، (من ربّ)

جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزل) " 3 " و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تتّبعوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من أولياء – نعت تقدّم على المنعوت – ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (أولياء) مفعول به منصوب (قليلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته " 4 " أي تذكّرون تذكّرا قليلا (ما) حرف زائد لتأكيد القلّة (تذكّرون) مضارع مرفوع حذفت منه إحدى التاءين ، وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل .

جملة " اتّبعوا . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة الابتدائيّة فلا محلّ لها إن كانت الفاء عاطفة . . . وجملة الشرط المقدّر مع جوابه اعتراض بين المتعلّق والمتعلّق به .

(2) في الآية السابقة (2) .

(3) يجوز تعليقه بمحذوف حال من نائب الفاعل في (أنزل) أي كائنا من ربّكم .

(4) أو مفعول فيه نائب عن الظرف أي تذكرون زمانا قليلا . [. . . . .]

وجملة " أنزل إليكم " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " لا تتّبعوا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " تذكّرون " : لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(تذكّرون) ، حذفت منه إحدى التاءين تخفيفا ، وأصله تتذكّرون وزنه تفعّلون .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 4 إلى 5]

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (4) فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (5)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (كم) خبريّة كناية عن عدد مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (من قرية) جارّ ومجرور في محلّ نصب تمييز (أهلكنا) فعل ماض مبني على السكون . . . (ونا) فاعل (ها) ضمير مفعول به " 2 " ، (الفاء) عاطفة (جاءها) فعل ماض ومفعوله (بأس) فاعل مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (بيا تا) حال منصوبة في تأويل مشتقّ أي : بائتين (أو) حرف عطف (هم) ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع (قائلون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة "كم من قرية . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن تكون مفعولا به لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره المذكور ويأتي بعدها لأن

لها الصدارة أي كم من قرية أهلكناها .

(2) والمعنى : أردنا إهلاكها .

(120/278)

وجملة " أهلكناها " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (كم) .

وجملة " جاءها بأسنا . . . . " : في محلّ رفع معطوفة على جملة أهلكناها .

وجملة " هم قائلون " : في محلّ نصب معطوفة على لفظ الحال (بياتا) .

(5) (الفاء) عاطفة (ما) حرف نفي (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - (دعوى) اسم كان مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة و(هم) ضمير مضاف إليه (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (دعوى) ، (جاءهم بأسنا) مثل جاءها بأسنا ، (إلّا) حرف للحصر (أن) حرف مصدريّ (قالوا) مثل اتّبعوا " 1 " ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (كنّا) فعل ماض ناقص واسمه (ظالمين) خبر كنّا منصوب وعلامة نصبه الياء .

والمصدر المؤوّل (أن قالوا) في محلّ نصب خبر كان .

وجملة " ما كان دعواهم . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئنافيّة ، وفي هذه

معنى التسبّب عمّا قبله .

وجملة " جاءهم بأسنا " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " قالوا . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة " إنّا كنّا ظالمين " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " كنّا ظالمين " : في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) في الآية المتقدمة (3) من هذه السورة .

الصرف :

(قائلون) جمع قائل بمعنى مستريح وقت القيلولة ، اسم فاعل وزنه فاعل .

(دعوى) ، مصدر سماعي لفعل دعا يدعو باب نصر وزنه فعلى بفتح الفاء ، وفيه إعلال بالقلب ، فالألف الأخيرة أصلها ياء لأنها جاءت رابعة فلمّا فتح ما قبلها قلبت ألفا .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى " وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها " فقد ذكر القرية وأراد أهلها ، وهو مجاز علاقته المحلية .

الفوائد

1 - كم الخبرية : يأتي بعدها الاسم مجرورا بـ " من " " و من " هذه حرف جر زائد والاسم الذي يليها مجرور لفظا منصوب محلا على أنه تمييز .

2 - حفظنا خلال معاناتنا الطويلة لشؤون الإعراب أن واو الحال هي التي يصحّ استبدالها بـ " إذ " الظرف لما مضى من الزمان . . . ! ويبقى المعنى على حاله دون أي تغيير أو تبديل . . . !

[سورة الأعراف (7) : الآيات 6 إلى 9]

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ (7) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة دالّة على الترتيب الزماني (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نسألنّ) مضارع مبني على الفتح في محلّ رفع . . .

و(النون) نون التوكيد ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (أرسل) فعل ماض مبني للمجهول (إليهم) حرف جرّ وضمير في محلّ جرّ والجارّ وما جرّه ناب مناب الفاعل (الواو) عاطفة (لنسألنّ) مثل الأول

(المرسلين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة " لنسألنّ . " : لا محلّ لها جواب قسم مقدّر ، وجملة القسم مستأنفة .

وجملة " أرسل إليهم " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " نسألن (الثانية) " : لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم .

(7) (الفاء) عاطفة (لنقصّنّ) مثل لنسألنّ (عليهم) مثل إليهم متعلّق بـ (نقصّنّ) ، (بعلم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل نقصّنّ أي متلبّسين بعلم ، والباء للمصاحبة (الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (كنّا غائبين) مثل كنّا ظالمين " 1 " .

وجملة " نقصّنّ . " : لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . . وجملة القسم معطوفة على الاستئناف المقدّم في الآية السابقة .

(122/278)

وجملة " ما كنّا غائبين " : في محلّ نصب معطوفة على الحال المحذوفة المتعلّق بها الجارّ والمجرور بعلم .

(8) (الواو) عاطفة (الوزن) مبتدأ مرفوع (يوم) ظرف زمان منصوب " 2 "

---

(1) في الآية السابقة (5) .

(2) يجوز أن يبنى على الفتح لاضافته لمبنيّ . . . كما يجوز أن يكون الظرف متعلّقا بمحذوف خبر المبتدأ ، ويعرب (الحقّ) حينئذ خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة اعتراضيّة .

(123/278)

متعلق بالوزن ، إذ اسم ظرفيّ في محلّ جرّ مضاف إليه ، والتنوين في آخره هو تنوين العوض (الحقّ) خبر مرفوع . (الفاء) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (ثقلت) فعل ماض مبني في محلّ جزم فعل الشرط . و(التاء) للتأنيث (موازين) فاعل مرفوع و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أولاء) اسم إشارة مبني على الكسر في محلّ رفع مبتدأ (هم) ضمير فصل " 1 " ، (المفلحون) خبر المبتدأ أولئك مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة " الوزن . . . . الحقّ " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف السابق .

وجملة " من ثقلت موازينه " : لا محلّ لها استئنافية وفيها معنى التسبّب عمّا قبلها .

وجملة " أولئك . . . المفلحون " : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

(9) (الواو) عاطفة (من خفّت . . . فأولئك) مثل نظيرتها المتقدّمة (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع خبر المبتدأ أولئك (خسروا) فعل ماض مبني على الضمّ . . . والواو فاعل (أنفس) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الباء) حرف جرّ سببيّة (ما) حرف مصدريّ (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على الضمّ . . . والواو اسم كان ، (بآيات)

---

(1) أو هو ضمير منفصل مبتدأ ثان خبره المفلحون . . . والجملة الاسميّة خبر المبتدأ أولئك .

(124/278)

جارّ ومجرور متعلّق بـ (يظلمون) بتضمينه معنى يكذبون أو يجحدون و(نا) ضمير مضاف إليه (يظلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

وجملة " من خفّت موازينه " : لا محلّ لها معطوفة على جملة من ثقلت . . . .

وجملة " خفّت موازينه " : في محلّ رفع خبر (من) " 1 " .

وجملة " أولئك الذين . . . . " : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " خسروا . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يظلمون . . " : في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(غائبين) ، جمع غائب ، اسم فاعل من غاب يغيب باب ضرب وزنه فاعل ، وفيه إبدال الياء همزة لمجيئها بعد ألف فاعل ، وأصله غائب .

(الوزن) ، مصدر سماعيّ لفعل وزن يزن باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(موازين) ، جمع ميزان . . . (انظر الآية - 152 - من سورة الأنعام) .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 10 إلى 18]

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (10) وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14)

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (مكّنّا) فعل ماض مبني على السكون (ونا) ضمير فاعل و(كم) ضمير مفعول به (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مكّنّا) ، (الواو) عاطفة (جعلنا) مثل مكّنّا (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمفعول ثان عامله جعلنا (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من معايش - نعت تقدّم على المنعوت - " 1 " ، (قليلا ما تشكرون) مثل قليلا ما تذكّرون " 2 "

---

(1) أو متعلّق بـ (جعلنا) بتضمينه معنى خلقنا .

(2) في الآية (3) من هذه السورة .

جملة " مكّناكم . . . " : لا محلّ لها جواب قسم مقدّر ، وجملة القسم لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " جعلنا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة " تشكرون " : لا محلّ لها استئنافيّة .

(11) (الواو) عاطفة (لقد خلقناكم) مثل لقد مكّناكم (ثمّ) حرف عطف (صوّرناكم) مثل مكّناكم (ثمّ) كالأول (قلنا) مثل مكّنا (للملائكة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قلنا) ، (اسجدوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . .

والواو فاعل (لآدم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اسجدوا) ، وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف (الفاء) عاطفة (سجدوا) فعل ماض مبني على الضمّ . . . والواو فاعل (إلّا) حرف للاستثناء (إبليس) مستثنى منصوب (لم) حرف نفي وقلب وجزم (يكن) مضارع مجزوم ناقص – ناسخ – واسمه ضمير مستتر تقدره هو (من الساجدين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر يكن .

وجملة " خلقناكم . . . . " : لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . . وجملة القسم لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأولى .

وجملة " صورناكم " : لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقناكم .

وجملة " قلنا . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " سجدوا " : لا محلّ لها معطوفة على جملة قلنا .

وجملة " لم يكن من الساجدين " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ لتأكيد الاستثناء في إبليس " 1 " .

(12) (قال) فعل ماض ، والفعل ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه (ما) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ (منع) مثل قال و(الكاف) ضمير مفعول به (أن) حرف مصدريّ (لا) زائدة (تسجد) مضارع منصوب بأن والفاعل أنت إذ ظرف للزمن الماضي مبني في محلّ نصب متعلّق بـ (تسجد) ، (أمرت) فعل ماض وفاعله و(الكاف) مفعول به .

والمصدر المؤول (ألّا تسجد) في محلّ نصب مفعول به ثان عامله منع " 2 " .

(قال) مثل الأول (أنا) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (خير) خبر مرفوع (منه) مثل فيها متعلّق بخير (خلقت) مثل أمرت و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (من نار) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلقتني) " 3 " ، (الواو) عاطفة (خلقته) مثل خلقتني (من طين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلقته) " 4 " .

جملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " ما منعك . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " منعك . . . . " : في محلّ رفع خبر (ما) .

وجملة " تسجد " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة " أمرتك " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من إبليس .

(2) أو في محلّ جرّ بـ (من) مقدّر متعلّق بـ (منع) .

(3 ، 4) أو متعلّق بمحذوف حال من ضمير المفعول المتصل في (خلق) .

(127/278)

وجملة " أنا خير منه " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " خلقتني من نار " : لا محلّ لها تعليليّة . . . أو استئناف بيانيّ .

وجملة " خلقته من طين " : لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقتني .

(13) (قال) مثل الأول (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اهبط) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (منها) مثل فيها متعلق بـ (اهبط) ، والضمير يعود إلى الجنة أو إلى السموات (الفاء) تعليليّة (ما) نافية (يكون) مضارع تام مرفوع بمعنى ينبغي (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يكون) ، (أن تتكبر) مثل أن تسجد (فيها) مثل الأول متعلّق بمحذوف حال من الفاعل " 1 " .

والمصدر المؤول (أن تتكبر) في محلّ رفع فاعل يكون .

(الفاء) عاطفة (اخرج) مثل اهبط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم انّ (من الصاغرين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " اهبط . . . " : في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي . إن امتنعت عن الطاعة فاهبط . . . والشرط وفعله وجوابه في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ما يكون . . . " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " تتكبّر " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) يجوز أن يتعلّق بفعل (تتكبر) .

(128/278)

وجملة " اخرج . . . . " : في محلّ جزم معطوفة على جملة اهبط لتأكيد الجواب .

وجملة " إنّك من الصاغرين " : لا محلّ لها تعليليّة " 1 " .

(14) (قال) مثل الأول (أنظر) فعل أمر دعائيّ والفاعل أنت و(النون) نون الوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (إلى يوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنظر) ، (يبعثون) مضارع مبني للمجهول

مرفوع . . . والواو ضمير في محلّ رفع نائب الفاعل وهو عائد إلى الخلق من بني آدم لدلالة سياق الكلام عليه .

وجملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أنظرني . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " يبعثون " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

(15) (قال) مثل الأول (إنّك من المنظرين) مثل إنّك من الصاغرين . . .

وجملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " إنّك من المنظرين " : في محلّ نصب مقول القول .

(16) (قال) مثل الأول (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (الباء) باء القسم " 2 " (ما) حرف مصدريّ (أغويت) فعل ماض وفاعله و(النون) للوقاية و(الياء) مفعول به .

والمصدر المؤوّل (ما أغويتني) في محلّ جرّ بالباء متعلّق ب

---

(1) هي استئنافية فيها معنى التعليل . [. . . . .]

(2) أو هي للسببيّة متعلقة بـ (أقعدن) .

(أقسم) ، أي : أقسم بإغوائك لأقعدنّ " 1 " .

(اللام) لام القسم (أقعدن) مضارع مبني على الفتح في محلّ رفع . . . و(النون) نون التوكيد ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أقعدن) بتضمينه معنى أتصدّى (صراط) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (أقعدن) " 2 " ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (المستقيم) نعت لصراط مجرور .

وجملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " (أقسم) المقدّرة " : في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنا أي : فأنا أقسم . . . والجملة الاسمية (أنا أقسم) جواب شرط مقدّر أي : إن أنظرتني فأنا أقسم بإغوائك . . . وجملة الشرط والجواب في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أقعدن . " : لا محلّ لها جواب القسم .

(17) (ثمّ) حرف عطف (لآتينّهم) مثل لأقعدنّ ومعطوف عليه . . . و(ثم) ضمير مفعول به (من بين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آتينّهم) ، (أيدي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (من خلف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آتيناهم) ، و(هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (عن أيمانهم ، عن

---

(1) إغواء اللّه إياه أثر من آثار قدرة اللّه تعالى وعزّته ، وحكم من أحكام سلطانه فمآل

القسم واحد بهما . . . (حاشية الجمل على الجلالين) .

هذا ويجوز أن تكون الباء سببيّة أي : بسبب إغوائك إياي لأقعدن . . . فالجارّ والمجرور حينئذ متعلّق بفعل أقعدنّ وتقدير الجواب : إن أنظرتني فلأقعدنّ لهم بسبب إغوائك إياي .

(2) أو منصوب على نزع الخافض أي : على صراطك .

(130/278)

شمائلهم) مثل من خلفهم ومعطوفان عليه (لا) نافية (تجد) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أكثر) مفعول به منصوب و(هم) مضاف إليه (شاكرين) حال منصوبة وعلامة النصب الياء " 1 " .

وجملة " آتيتهم . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم المتقدّم .

وجملة " لا تجد . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم " 2 " .

(18) (قال) مثل الأول (اخرج) مثل اهبط (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلق بـ (اخرج) ، (مذءوما) حال منصوبة من فاعل اخرج (مدحورا) حال ثانية منصوبة (اللام) موطّئة للقسم (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 3 " ، (تبع) فعل ماض و(الكاف) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على (من) ،

(منهم) مثل منها متعلّق بحال من الضمير المستتر في (تبعك) ، (اللام) لام القسم (أملأن) مثل أقعدنّ ، (جهنّم) مفعول به منصوب (منكم) مثل منها متعلّق بـ (املأن) ، (أجمعين) توكيد للضمير المتّصل في (منكم) تبعه في الجرّ وعلامة الجرّ الياء " 4 " .

وجملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو مفعول به ثان . . .

(2) يجوز قطعها على الاستئناف .

(3) يجوز أن يكون اسم موصول مبتدأ و(اللام) قبله لام الابتداء ، وجملة القسم المحذوفة وجوابه خبر المبتدأ .

(4) يجوز التوكيد بأجمعين من غير أن يسبقها لفظ (كلّكم) .

(131/278)

وجملة " اخرج منها " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " من تبعك . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " تبعك . . . . " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة " أملأن . . . . " : لا محلّ لها جواب القسم . . . وجواب الشرط محذوف دلّ

عليه جواب القسم .

الصرف :

(معايش) ، جمع معيشة ، اسم لما يكسبه الإنسان ويعيش به وزنه مفعلة بضمّ العين أو كسرها ، وقد يجوز فتحها ، وعلى هذا ففي الكلمة إعلال بالتسكين حيث نقلت حركة الياء إلى العين ثمّ قلبت الضمّة كسرة أو بقيت الكسرة على حالها . وفي المصباح عاش عيشا باب ساء صار ذا حياة فهو عائش والأنثى عائشة ، وعيّاش أيضا مبالغة ، ووزن معايش مفاعل فلا يهمز لأن الياء أصلية في المفرد .

(الساجدين) ، جمع الساجد ، اسم فاعل من سجد الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(الصاغرين) ، جمع الصاغر ، اسم فاعل من صغر الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(المنظرين) ، جمع المنظر ، اسم مفعول من الرباعي أنظر وهو على وزن مفعل بضمّ وفتح العين .

(خلف) ، اسم للجهة وزنه فعل بفتح فسكون .

(أيمان) ، جمع يمين ، اسم للجهة التي يكون فيها الجانب الأيمن من الإنسان ، أو اسم للجانب أو الجارحة ، وزنه فعيل ، وله جموع أخرى

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

هي أيمن بفتح الهمزة وضمّ الميم ، وأيامن بكسر الميم ، وأيامين زنة أفاعيل .

(شمائل) ، جمع شمال اسم ضدّ اليمين ووزنه فعال بكسر الفاء ، وثّمة جموع أخرى هي أشمل بفتح الهمزة وضمّ الميم ، وشمل بضمّتين ، وشمال زنة المفرد ، وفعائل وزن الجمع شمائل .

(مذءوما) ، اسم مفعول من ذأم يذأم بمعنى عاب ومقت من باب فتح ، ووزنه مفعول .

(مدحورا) ، اسم مفعول من دحر يدحر باب فتح بمعنى طرد وأبعد ، ووزنه مفعول .

البلاغة

الآية " 11 " . .

- الكناية : في قوله تعالى " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ " فالكلام كناية عن خلق آدم عليه السّلام ، والمعنى خلقنا أباكم آدم عليه السّلام طينا غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم .

الآية " 12 " . .

- فن التوهم : في قوله تعالى " ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ " فإن الظاهر ما منعك من

السجود . والتأويل الذي يرد هذا الكلام أن العلماء قالوا :

ما منعك أي : ما صيرك ممتنعا من السجود .

الآية " 17 " . . .

- الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ " حيث شبه حال تسويل إبليس ووسوسته لهم كذلك بحال إتيان العدو لمن يعاديه من أي جهة أمكنته ولذا لم يذكر الفوق والتحت إذ لا إتيان منهما .

الفوائد

1 - ثارت ثائرة من الخلاف حول كلمة " معايش " ونحن نعلم أنه يجوز تسهيل الهمزة إلى الحرف الذي يناسب حركة ما قبلها مثل بئر تسهل إلى بير ، ومثل فأس تسهل إلى فاس ومثل لؤلؤ تسهل إلى لولو وعكس ذلك صحيح فإن الياء تقلب إلى همزة في بعض حالاتها مثل عايش إلى عائش وعائشة إلى عائشة وكذلك الواو إذا وقعت متطرفة تقلب إلى همزة مثل دعاء وكساء وسماء كل هذه الهمزات قلبت عن واو لأنّ الأصل : كسا وسما ودعاو . . .

2 – قال النحاة في الفاء العاطفة : إنها تفيد الترتيب ، والجمهور على ذلك . أما الفراء فقد عارض الجمهور وزعم أنها لا تفيد الترتيب مطلقا . وفصل في ذلك " الجرمي " فقال : إنها لا تفيد الترتيب في عطف البقاع والأمصار بعضها على بعض واستشهد بقول امرئ القيس " بين الدخول فحومل " .

3 – قوله " فَبِما أَغْوَيْتَنِي " .

الباء هنا للسببية وهي حرف جر وهذا الحرف له ثلاثة عشر معنى :

قال سيبويه المعنى الأصلي للباء هو الإلصاق وهو لا يفارقها في جميع معانيها ولذلك اقتصر عليه . والإلصاق نوعان حقيقي ومجازي :

فالأول نحو أمسكت بيدك والثاني نحو مررت بدارك وبقية الأقسام الاثني عشر هي :

1 – الاستعانة 2 – السببية 3 – التعدية 4 – القسم 5 – العوض 6 – البدل 7 – الظرفية 8 – المصاحبة 9 – من التبعيضية 10 – معنى عن 11 – الاستعلاء 12 – التأكيد وهي الزائدة .

ولو لا التطويل لأوردنا لكل قسم مثالا فعد إليه في كتب النحو .

4 – قوله تعالى : " لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ " كان حق الصراط أن يجرّ بعلى لأن فعل قعد يتعدى بهذا الحرف ، وللنحاة كلام حول انتصاب أمثاله .

قال سيبويه : إنه نصب على الظرفيّة . . . !

ورجّح أبو حيان انتصابه بنزع الخافض .

وللعرب كلام كثير ورد على قاعدة نزع الخافض وجوازه ولكنه سماعي لا يقاس عليه فلا يقال " جلست الخشبة " . قال الزجاج : والأسلم من كل ذلك أن نضمّن فعل القعود معنى آخر مثل " ألزم " فيتعدى بنفسه ويصبح الصراط مفعولا به .

أقول : وماذا نفعل بالأمثلة التي لا تعدّ ونعربها كلها على إسقاط حرف الجر .

فاختر هداك الله إلى الصواب ، وكن من الميسرين لا من المعسرين .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 19 إلى 22]

(134/278)

وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (20) وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يا) حرف نداء (آدم) منادى مفرد علم مبني على الضمّ في محلّ نصب (اسكن) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أنت) ضمير منفصل مبني على الفتح في محلّ رفع توكيد للضمير المستتر فاعل اسكن (الواو) عاطفة (زوج) معطوف على الضمير المستتر فاعل اسكن مرفوع " 1 " ، ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الجنّة) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (كلا) فعل أمر مبني على حذف النون . . و(الألف) ضمير فاعل (من) حرف جرّ (حيث) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (كلا) ، وفي الكلام حذف أي كلا منها – أي من ثمارها – حيث شئتما (شئتما) فعل ماض مبني على السكون . .

(135/278)

و(التاء) ضمير فاعل و(ما) حرف عماد للتثنية . . . (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تقربا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون و(الألف) ضمير فاعل (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبني على الكسر في محلّ نصب مفعول به (الشجرة) بدل من الاسم الإشارة – أو عطف بيان – منصوب (الفاء) فاء السببيّة (تكونا) مضارع ناقص – ناسخ

- منصوب بأن مضمرة بعد الفاء ، و(الالف) ضمير في محلّ رفع اسم تكون (من الظالمين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر تكون .

جملة " النداء وصلتها . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " اسكن . . . " : لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " كلا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة " شئتما . . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " لا تقربا . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة كلا .

---

(1) انظر مزيدا من الشرح والتعليق في الآية (35) من سورة البقرة . . .

(136/278)

وجملة " تكونا . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن تكونا . . . .) معطوف على مصدر متصيّد من الكلام السابق أي : لا يكن منكما قرب فحصول الظلم منكما " 1 " .

(20) (الفاء) عاطفة (وسوس) فعل ماض (اللام) حرف جرّ و(هما) ضمير متصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (وسوس) ، (الشيطان) فاعل مرفوع (اللام) لام العاقبة " 2 " ، (يبدي)

مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل هو (لهما) مثل الأول متعلّق بـ (يبدي) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (ووري) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (عنهما) مثل لهما متعلّق بـ (ووري) ، (من سوءات) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الضمير المستتر ، و(هما) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يبدي . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق – (وسوس) .

(الواو) عاطفة (قال) فعل ماض والفاعل هو (ما) حرف نفي (نهى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و(كما) ضمير مفعول به (ربّ) فاعل مرفوع و(كما) مضاف إليه (عن) حرف جرّ (هذه الشجرة) مثل الأولى في محلّ جرّ متعلّق بـ (نهى) ، (إلّا) حرف للحصر (أن) حرف مصدريّ ونصب (تكونا) مثل الأول (ملكين) خبر تكون منصوب وعلامة النصب الياء (أو) حرف عطف (تكونا من الخالدين) مثل

---

(1) انظر الآية (35) من سورة البقرة .

(2) أو للتعليل والعاقبة .

تكونا من الظالمين والفعل معطوف على الأول .

والمصدر المؤوّل (أن تكونا . . . .) في محلّ نصب مفعول لأجله على حذف مضاف أي خشية أن تكونا . . .

وجملة " وسوس . . . . الشيطان " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف المتقدّم .

وجملة " يبدي . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " ووري . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " قال . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة وسوس .

وجملة " ما نهاكما ربّكما " : في محلّ نصب مقول القول وجملة " تكونا ملكين " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة " تكونا من الخالدين " : لا محلّ لها معطوفة على جملة تكونا ملكين .

(21) (الواو) عاطفة (قاسم) فعل ماض و(هما) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) حرف جرّ و(كما) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بالناصحين (اللام) هي الرابطة للقسم (من الناصحين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر إنّ ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة " قاسمهما . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة قال . . . .

وجملة " إنّي . . . من الناصحين " : لا محلّ لها جواب القسم .

(138/278)

---

(22) (الفاء) عاطفة (دلّاهما) مثل قاسمهما (بغرور) جارّ ومجرور متعلّق بحال من ضمير المفعول " 1 " . (الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (بدت) ، (ذاقا) فعل ماض . . . و(الألف) ضمير فاعل (الشجرة) مفعول به على حذف مضاف أي ثمر الشجرة ، منصوب (بدت) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . و(التاء) للتأنيث (لهما) مثل الأول متعلّق بـ (بدت) ، (سوءات) فاعل مرفوع و(هما) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (طفقا) فعل ماض ناقص للشروع ، و(الألف) ضمير اسم طفق (يخصفان) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . و(الألف) ضمير فاعل (على) حرف جرّ و(هما) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يخصفان) تجاوزا بتضمينه معنى يردان أو يهيلان ورق الجنّة عليهما (من ورق) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت للمفعول به المقدّر أي يخصفان عليهما شيئا حاصلا من ورق الجنّة (الجنّة) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (ناداهما) مثل دلّاهما (ربّ)

فاعل مرفوع و(هما) ضمير مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام (لم) حرف نفي وقلب وجزم (أنه) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة و(كما) ضمير مفعول به (عن) حرف جرّ (تلكما) اسم إشارة مبني في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنه) ، و(اللام) للبعد و(كما) حرف خطاب المثنى (الشجرة) بدل من اسم الإشارة – أو عطف بيان – مجرور (الواو) عاطفة (أقل) مثل أنه ومعطوف عليه (اللام) حرف جرّ و(كما) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أقل) ، (إنّ) حرف مشبّه

---

(1) يجوز أن يكون متعلّقا بمحذوف حال من الفاعل أي : دلّاهما مغرورا . . . والتقدير من المفعول : دلّاهما مغرورين به .

(139/278)

بالفعل – ناسخ – (الشيطان) اسم إنّ منصوب (لكما) مثل السابق متعلّق بعدو . . .

(عدو) خبر إنّ مرفوع (مبين) نعت لعدو مرفوع .

وجملة " دلّاهما . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف المتقدّم .

وجملة " ذاقا . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " بدت . . . . سواءتها " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " طفقا . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة بدت . . .

سوءاتهما .

وجملة " يخصفان . . . . " : في محلّ نصب خبر طفقا .

وجملة " ناداهما ربهما " : لا محلّ لها معطوفة على جملة بدت . . .

وجملة " أنهكما . . . . " : لا محلّ لها تفسير للنداء " 1 " .

وجملة " أقل " : لا محلّ لها معطوفة على جملة أنهكما .

وجملة " إنّ الشيطان . " : في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(ووري) ، فيه إعلال بالقلب لمناسبة البناء للمجهول ، أصله وارى ، فلمّا ضمّ أوله قلبت الألف بعده إلى واو لمناسبة الضمّ ، ولمّا كسر ما قبل آخره قلبت الألف الثانية إلى ياء لمناسبة الكسر .

(الناصحين) ، جمع الناصح ، اسم فاعل من نصح الثلاثيّ وزنه فاعل .

(دلّى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله دلّي ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا . وزنه فعّل .

---

(1) أو في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي : ناداهما قائلا ألم أنهكما . . .

البلاغة

الآية " 20 " . .

- سر تكرير الحروف في اللفظ الواحد :

وحدّه : كلما تكررت الحروف في اللفظ الواحد كان ذلك إيذانا بتكرير العمل ، ونقل الفعل من وزن إلى وزن لم يجنح إليه الواضع في الأصل إلا لهذا السر الخفي ، واللفظ هنا " وسوس " فهو تجسيد حي وتصوير بليغ لدأب إبليس على الإغواء ، وإجهاده نفسه لحملها على أن تزل بهما القدم ، ويرتطما في مزالق الشر ، فهو يوسوس إليهما المرة بعد المرة .

ومن ذلك قولهم : خشن واخشوشن ، لا تفيد خشن ما تفيد كلمة اخشوشن ، لما فيه من تكرير الحروف .

الفوائد

1 - قوله " فوسوس " هو من ضروب البلاغة المنتشرة في بطون اللغة العربية الناجم عن " تكرار الحروف في الفعل الواحد " .

فهو تصوير حيّ لدأب إبليس على متابعة الإغواء ومثله قولك " اخشوشن واعشوشب " ، فكأن العرب لما رأت كثرة العشب قالت اعشوشب وهكذا فإن تكرار الحروف يفيد تقوية المعنى ومضاعفة مضمون الكلمة . .

2 - " طفق " هي من أفعال المقاربة التي تعمل عمل كان وأخواتها مع شيء من التفصيل . وخبر هذه الأفعال " جملة " وشذّ مجيئه مفردا كقول تأبط شرا :

فأبت إلى فهم وما كنت آيبا وكم مثلها فارقت وهي تصغر

وتقسم هذه الأفعال إلى ثلاثة زمر :

الأولى : ما يدل على قرب وقوع الخبر وهي ثلاثة : كاد وكرب وأوشك .

الثانية : ما يدل على رجاء الخبر وهي ثلاثة : عسى وجرى واخلولق .

الثالثة : ما يدل على الشروع فيه وعددها كثير : قد يبلغ العشرين أو يزيد ومنه " أنشأ وطفق ، وجعل ، وعلق وهلهل وقام وابتدأ " ولولا التطويل لتابعنا البحث والتفصيل .

[سورة الأعراف (7) : آية 23]

قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)

الإعراب :

(قالا) مثل ذاقا "

، (ربّ) منادى مضاف حذف منه حرف النداء ، منصوب و(نا) ضمير مضاف إليه (ظلمنا) فعل ماض مبني على السكون . . . و(نا) ضمير فاعل (أنفس) مفعول به منصوب . . . (نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم ، وحذفت اللام الموطّئة للقسم قبله (لم) حرف نفي فقط " 2 " ، (تغفر) مضارع مجزوم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تغفر) ، (الواو) عاطفة (ترحم) مثل تغفر ومعطوف عليه و(نا) ضمير مفعول به (اللام) لام القسم (نكونن) مضارع ناقص – ناسخ – مبني على الفتح في محلّ رفع . . . و(النون) لتوكيد ، واسمه ضمير مستتر تقديره نحن (من الخاسرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر نكونن .

---

(1) في الآية (22) من هذه السورة . [. . . . .]

---

(2) الأوضح أن يكون الفعل بعده مجزوما بأداة الشرط لا به على الرغم من قوته في الجزم حتّى يبقى الفعل خالصا للاستقبال .

جملة " قالا . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " ربّنا . . . . . وجوابها " : في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة " ظلمنا . . " : لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " تغفر لنا " : لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء " 2 " .

وجملة " ترحمنا " : لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء " 3 " .

وجملة " نكونّ . . . " : لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

[سورة الأعراف (7) : آية 24]

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (24)

الإعراب :

(قال) مثل السابق " 4 " ، (اهبطوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (بعض) مبتدأ مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (لبعض) جارّ ومجرور متعلّق بعدوّ . . . وهو خبر المبتدأ مرفوع (الواو) عاطفة - أو استئنافيّة - (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بحال من مستقرّ - نعت تقدم على المنعوت - (مستقر) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (متاع)

---

(1) يجوز أن تكون الجملة اعتراضيّة للاسترحام ، وجملة ظلمنا في محلّ نصب مقول القول .

(2) يجوز أن تكون معطوفة على جملة مقول القول في محلّ نصب .

(3) يجوز أن تكون معطوفة على جملة تغفر لنا تأخذ محلّها من الإعراب في الحالين.

(4) في الآية (20) من هذه السورة.

(143/278)

معطوف على مستقرّ مرفوع (إلى حين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لمتاع.

جملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة " اهبطوا . . . " : في محلّ نصب مقول القول.

وجملة " بعضكم لبعض عدوّ " : في محلّ نصب حال.

وجملة " لكم . . مستقرّ " : في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال . . أو استئنافيّة لا محلّ لها.

[سورة الأعراف (7) : آية 25]

قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (25)

الإعراب:

(قال) مثل السابق، (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (تحيون) وهو مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل (الواو) عاطفة في الموضعين (فيها

تموتون) مثل فيها تحيون (منها) مثل فيها متعلّق بـ (تخرجون) وهو مضارع مبني للمجهول مرفوع . . والواو نائب الفاعل .

جملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " تحيون " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " تموتون " : في محلّ نصب معطوفة على جملة تحيون .

وجملة " تخرجون " : في محلّ نصب معطوفة على جملة تحيون .

الصرف :

(تحيون) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله تحياون ، التقى ساكنان الألف وواو الجماعة ، حذفت الألف وفتح ما قبل الواو - أو ظل مفتوحا - دلالة عليها ، وزنه تفعون .

[سورة الأعراف (7) : آية 26]

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26)

الإعراب :

(يا) حرف نداء (بني) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الياء ، ملحق بجمع المذكر (آدم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة ، ممنوع من الصرف (قد) حرف تحقيق (أنزلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . . (ونا) ضمير فاعل للتعظيم (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزلنا) ، (لباسا) مفعول به منصوب (يواري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (سوءات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ريشا) معطوف على لباس منصوب مثله ، وهو نائب عن موصوف محذوف أي لباسا ريشا أي زينة (الواو) استئنافيّة (لباس) مبتدأ مرفوع (التقوى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (خير) خبر الإشارة مرفوع (ذلك) مثل الأول (من آيات) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ ذلك (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (لعلّ) حرف مشبه بالفعل للترجّي – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (يذّكّرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة النداء " يا بني . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " قد أنزلنا . . . " : لا محلّ لها جواب النداء .

---

(1) أو بدل من لباس التقوى ، أو عطف بيان له ، و(خير) خبر لباس .

وجملة " يواري . . . " في محلّ نصب نعت لـ (لباسا) .

وجملة " لباس التقوى . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " ذلك خير " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (لباس التقوى) .

وجملة " ذلك من آيات اللّه " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لعلّهم يذّكّرون " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " يذّكّرون " : في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(ريشا) ، اسم لما ينبت على الطائر ، أو هو مصدر سماعيّ لفعل راش يريش أي وضع فيه ريشا ، وقد يحتمل الحالين بآن واحد ، وزنه فعل بكسر فسكون .

البلاغة

1 - الاستعارة المكنية التخيلية : في قوله تعالى : " وَلِباسُ التَّقْوى " ومثلها كثير الوقوع في كلام الشعراء ، ومنه :

إذا المرء لم يلبس لباسا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا

[سورة الأعراف (7) : آية 27]

يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27)

الإعراب :

(يا بني آدم) مثل الأولى " 1 " ، (لا) ناهية جازمة (يفتننّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم و(النون)

---

(1) في الآية السابقة (26) .

للتوكيد و(كم) ضمير مفعول به (الشيطان) فاعل مرفوع (الكاف) حرف جرّ وتشبيه (ما) حرف مصدريّ (أخرج) فعل ماض ، والفاعل هو (أبوي) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء و(كم) ضمير مضاف إليه (من الجنّة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخرج) .

والمصدر المؤوّل (ما أخرج) في محلّ جرّ بالكاف على حذف مضاف ، متعلّق بمفعول مطلق

عامله يفتننّكم أي : فتنة كفتنة إخراج أبويكم . . .

(ينزع) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (عن) حرف جرّ و(هما) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينزع) ، (لباس) مفعول به منصوب و(هما) ضمير مضاف إليه (اللام) للتعليل (يري) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام و(هما) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (سوءات) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الكسرة و(هما) مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يريهما) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (ينزع) .

(147/278)

(إنّ حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (يرى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل هو و(كم) ضمير مفعول به (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع توكيد للضمير المستتر (الواو) عاطفة (قبيل) معطوف على الضمير المستتر فاعل يرى و(الهاء) ضمير مضاف إليه (من) حرف جرّ (حيث) اسم مبني على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يراكم) ، (لا) نافية (ترون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به (إنّا) مثل أنّه (جعلنا) فعل ماض مبني على السكون . . .

(ونا) فاعل (الشياطين) مفعول به منصوب (أولياء) مفعول به ثان منصوب ومنع من التنوين لأنه ملحق بالاسم المنتهي بألف التأنيث الممدودة (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بأولياء (لا) نافية (يؤمنون) مثل ترون . . .

جملة " يا بني آدم . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لا يفتننّكم الشيطان " : لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " أخرج أبويكم " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة " ينزع . . " : في محلّ نصب حال من أبويكم أي منزوعا عنهما لباسهما أو من ضمير الفاعل في (أخرج) أي نازعا عنهما لباسهما .

وجملة " يريهما . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة " إنّه يراكم . . . " : لا محلّ لها تعليل للنهي في قوله : لا يفتننّكم .

وجملة " يراكم . . . " : في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة " لا ترونهم " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " إنا جعلنا . . . " : لا محلّ لها تعليل آخر للنهي .

وجملة " جعلنا . . . " : في محلّ رفع خبر إنّ الثاني .

وجملة " لا يؤمنون " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

الصرف :

(قبيل) ، اسم للجماعة يكونون من ثلاثة فأكثر ، وليست القبيلة تأنيث القبيل ، وجمعه قبل بضمتين ، وفي المصباح : القبيلة لغة في القبيل ، وزنه فعيل .

(148/278)

الفوائد

1 - الحوار في القرآن الكريم :

قد جرى التنويه إلى هذه الخاصة من خصائص القرآن وهي الحوار وأكثر ما يكون بين شركاء في الحديث ومادته " القول " وهي طريقة مبتكرة قد اتخذها القرآن وسيلة للقصص وعرض الأخبار فهي أدعى للفهم وأقوى في التأثير ولله بالغ الحكمة . .

2 - روابط الخبر بالمبتدأ إذا كان جملة أربعة :

أ - الضمير البارز أو المستتر نحو " الظلم مرتعه وخيم " .

ب - الإشارة إليه نحو و " لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ " .

ج - إعادة المبتدأ بلفظه : نحو " الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ " ء - العموم نحو " خالد نعم الرجل " .

فخالد مبتدأ وجملة نعم خبره والرابط هو العموم .

[سورة الأعراف (7) : آية 28]

وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (28)

إعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (قالوا) (فعلوا) فعل ماض مبني على الضمّ . . والواو فاعل (فاحشة) مفعول به منصوب (قالوا) مثل فعلوا (وجدنا) فعل ماض مبني على السكون . . (ونا) فاعل (على) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من آباء " 1 " أي عاكفين

---

(1) هذا إذا كان الفعل متعدّيا لواحد . . . وهو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان إذا كان الفعل متعدّيا لاثنين .

عليها (آباء) مفعول به منصوب و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (أمر) فعل ماض ، والفاعل هو ، و(نا) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أمر) ، (قل) فعل أمر والفاعل أنت (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (لا) نافية (يأمر) مضارع مرفوع

والفاعل هو (بالفحشاء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأمر) ، (الهمزة) للاستفهام الإنكاري التوبيخيّ (تقولون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقلون) بتضمينه معنى تتقوّلون (ما) اسم موصول " 1 " مبني في محلّ نصب مفعول به (لا) نافية (تعلمون) مثل تقولون .

جملة " فعلوا . . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " قالوا . . . . " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " وجدنا . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " اللّه أمرنا بها " : في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة " أمرنا . . . . " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة " قل . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " إنّ اللّه لا يأمر . . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " لا يأمر بالفحشاء " : في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " تقولون . . . . " : لا محلّ لها استئناف داخل في حيّز القول .

وجملة " لا تعلمون " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) أو نكرة موصوفة ، والجملة بعده نعت له . . . أمّا العائد فمحذوف في النوعين أي : تعلمونه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 29 إلى 30]

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30)

الإعراب :

(قل) فعل أمر والفاعل أنت (أمر) فعل ماض (ربّ) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (بالقسط) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أمر) ، (الواو) عاطفة (أقيموا) فعل أمر مبني على حذف النون . . والواو فاعل (وجوه) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (أقيموا) ، (كلّ) مضاف إليه مجرور (مسجد) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (ادعوا) مثل أقيموا و(الهاء) ضمير مفعول به (مخلصين) حال منصوبة من فاعل ادعوه ، وعلامة النصب الياء (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمخلصين (الدين) مفعول به لاسم الفاعل منصوب . (الكاف) حرف جرّ وتشبيه (ما) حرف مصدري (بدأ) فعل ماض

و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو .

والمصدر المؤوّل (ما بدأكم) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله الفعل الآتي أي : تعودون عودا كبدء خلقكم .

(تعودون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة " قل . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أمر ربّي . . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أقيموا . . . . " : في محلّ نصب معطوفة على مضمون جملة مقول القول " 1 " .

وجملة " ادعوه " : في محلّ نصب معطوفة على جملة أقيموا .

وجملة " بدأكم . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة " تعودون " : لا محلّ لها استئناف فيه معنى التعليل للأمر أقيموا .

(151/278)

---

(30) (فريقا) مفعول به مقدّم " 2 " منصوب عامله هدى (هدى) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه (الواو) عاطفة (فريقا) مفعول به لفعل محذوف تقديره أضلّ (حق) فعل ماض (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في

محلّ جرّ متعلّق بـ (حقّ) ، (الضلالة) فاعل مرفوع " 3 " ، (إنّهم اتّخذوا الشياطين) مثل إنّه يراكم " 4 " ، (أولياء) مفعول به ثان منصوب ومنع من التنوين لأنه ملحق بالاسم المنتهي بألف التأنيث الممدودة (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لأولياء (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (يحسبون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (أنّ) حرف مشبّه بالفعل

---

(1) لأن قوله : أمر ربّى بالقسط بمعنى أقسطوا ، فجملة مقول القول خبريّة لفظا إنشائية معنى ، فصحّ عطف جملة أقيموا عليها . . ويجوز أن تعطف جملة أقيموا على جملة صلة الموصول الحرفيّ المأخوذة من المصدر (القسط) ، لأن المعنى : أمر ربّي بأن أقسطوا وأقيموا . .

(2) أو حال منصوبة من فاعل تعودون ، أي تعودون فريقا مهديّا ، والجملة بعده نعت له .

(3) جاء الفاعل في حال التذكير لأن الفاعل المؤنّث (الضلالة) مؤنّث مجازي .

(4) في الآية (27) من هذه السورة .

للتوكيد – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب سم أنّ (مهتدون) خبر أنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

والمصدر المؤوّل (أنّهم مهتدون) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يحسبون .

وجملة " هدى . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة " حقّ عليهم الضلالة " : معطوفة على جملة هدى تأخذ إعرابها .

وجملة " إنّهم اتّخذوا " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " اتّخذوا . . . . " : في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " يحسبون . . . . : في محلّ رفع معطوفة على جملة اتّخذوا " 2 " .

الصرف :

(مسجد) ، اسم مكان من سجد الثلاثي باب نصر ، وزنه مفعل بكسر العين على غير قياس ، فالقياس أن تكون العين مفتوحة لأنه مضموم العين في المضارع . . . . وقد يكون مصدرا ميميّا على غير قياس أيضا .

البلاغة

1 – التشبيه : في قوله تعالى "كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ" حيث شبه سبحانه الإعادة بالإبداء تقريرا لإمكانها والقدرة عليها .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من فاعل بدأ وهو اللّه ، وذلك بتقدير قد .

[. . . . .]

(2) يجوز أن تكون في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، والجملة الاسميّة حال من فاعل اتّخذوا .

(153/278)

---

2 – فن التقديم : في قوله تعالى "كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ" حيث قدم سبحانه المشبه به على المشبه لينبه العاقل على أن قضاء الشؤون لا يخالف القدر والعلم الأزلي البتة .

الفوائد

– من رسم الكتابة في القرآن ؟

يرى المتأمل كثيرا من الكلمات قد غايرت في كتابتها ما ألفناه من قواعد الكتابة مثل " فحشة ، الضللة ، الشياطين " وكان حقها أن تكتب " فاحشة ، الضلالة ، الشياطين " ومثل ذلك أكثر من الكثير في رسم القرآن الكريم وحق ذلك أن يدرس ويجمع وتؤلف به رسالة . وقد عرفنا مراحل تطور هذه اللغة نحوها ، وتنقيطها ، وعزّ علينا أننا لم نجد أيّة إشارة لها تاريخ لهذه القفزة الإصلاحية في كتابة لغتنا حتى حصل هذا التفاوت بين ما نحن عليه في رسم الكلمات اليوم وبين ما نجد مستقرا في القرآن الكريم ونتحرّج من تغييره أو

تبديله تكريما لهذا الكتاب وحفظا له من عبث العابثين.

[سورة الأعراف (7) : آية 31]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)

الإعراب:

(يا بني آدم) مرّ إعرابها " 1 " ، (خذوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (زينة) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (عند) ظرف مكان منصوب " 2 " متعلّق بـ (خذوا) ، (كلّ

---

(1) في الآية (27) من هذه السورة.

(2) أو زمان.

مسجد) مثل الأولى " 1 " ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (كلوا ، اشربوا) مثل خذوا (لا) ناهية جازمة (تسرفوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (إنّه لا يحبّ) مثل إنّه يرى . . " 2 "

والفعل منفيّ بـ (لا) (المسرفين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة " يا بني آدم . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " خذوا . . . . " : لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " كلوا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة خذوا . .

وجملة " اشربوا " : لا محلّ لها معطوفة على جملة خذوا . . .

وجملة " لا تسرفوا " : لا محلّ لها معطوفة على جملة خذوا . . .

وجملة " إنّه لا يحبّ . . . . " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " لا يحبّ المسرفين " : في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(زينة) ، اسم لما يتزيّن به ، أو اسم مصدر من تزيّن ، وزنه فعلة بكسر فسكون .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى " خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ " .

أي : خذوا لباسكم ، والزينة حالة في اللباس ، فعبّر بالحال وأراد المحلّ . فالعلاقة حالية .

---

(1) في الآية (29) من هذه السورة .

(2) في الآية (27) من هذه السورة .

[سورة الأعراف (7) : آية 32]

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (حرّم) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (زينة) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (التي) اسم موصول مبني في محلّ نصب نعت لزينة (أخرج) مثل حرّم (لعباد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخرج) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (الطّيّبات) معطوف على زينة منصوب وعلامة النصب الكسرة (من الرزق) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الطيبات (قل) مثل الأول (هي) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ هي (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (في الحياة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمنوا) " 1 " ، (الدنيا) نعت للحياة مجرور مثله ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة

(خالصة) حال منصوبة من الضمير المستكنّ في الخبر المحذوف أي هي كائنة لهم يوم القيامة حالة كونها خالصة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بخالصة (القيامة) مضاف إليه مجرور (الكاف) حرف جرّ " 2 " وتشبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول

---

(1) يجوز أن يتعلّق بالخبر الذي تعلّق به (للذين آمنوا) .

(2) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته . أي نفصّلها تفصيلا مثل ذلك التفصيل .

(156/278)

مطلق عامله الفعل بعده و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (نفصّل) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (الآيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نفصّل) ، (يعلمون) مضارع مرفوع . . . . والواو فاعل .

جملة " قل . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " من حرّم . . . " : في محلّ رفع خبر (من) .

وجملة " أخرج . " : لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة " قل (الثانية) " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " هي للذين آمنوا " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " نفصل . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يعلمون " في محلّ جر نعت لقوم .

الفوائد

1 - من أسباب النزول :

قال ابن عباس أسباب نزول هذه الآية أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة النهار للرجال والليل للنساء وكانوا يقولون لا نطوف بثياب عصينا الله فيها ، وكأن المعصية لا تتجاوز الثياب إلى القلوب فنزلت هذه الآية .

2 - كان للرشيد طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين بن وافد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، فقال له : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه . قال : وما هي ؟ قال : قوله تعالى : " كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا " فقال

الطبيب ولا يؤثر عن رسولكم شي ء في الطب .

فقال : قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة . قال : وما هي ؟ قال : قوله : " المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء "

فقال الطبيب : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا .

[سورة الأعراف (7) : آية 33]

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33)

الإعراب :

(قل) مثل السابق " 1 " ، (إنما) كافة ومكفوفة (حرم) فعل ماض (رب) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير في محلّ جر مضاف إليه (الفواحش) مفعول به منصوب (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب بدل من الفواحش (ظهر) مثل حرم (من) حرف و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بحال من فاعل ظهر (الواو) عاطفة (ما بطن) مثل ما ظهر ومعطوف عليه (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (الإثم ، البغي) اسمان معطوفان على الفواحش منصوبان مثله " 2 " ، (بغير) جار ومجرور بمحذوف حال من البغي (الحق) مضاف إليه مجرور . (أن) حرف مصدري ونصب (تشركوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . . والواو فاعل (بالله) جار

ومجرور متعلق بـ (تشركوا) ، (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به عامله تشركوا

(لم) حرف نفي وجزم وقلب (ينزل) مضارع مجزوم والفاعل

---

(1) في الآية السابقة (22) .

(2) يجوز أن يكون (الإثم) مفعولا به لفعل محذوف تقديره حرم ، والعطف يصبح حينئذ من عطف الجمل .

(158/278)

هو (الباء) حرف جر و(الهاء) في محلّ جر متعلق بـ (ينزّل) ، (سلطانا) مفعول به منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن تشركوا) في محلّ نصب معطوف على البغي . . . أو مفعول به لفعل محذوف تقديره حرم أي حرم الشرك بالله " 1 " .

(أن تقولوا على الله ما) مثل أن تشركوا بالله ما " 2 " ، (لا) نافية (تعلمون) مثل يعلمون " 3 " .

جملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " حرم ربي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ظهر منها " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة " بطن . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة " تشركوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " لم ينزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث .

وجملة " تقولوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الثاني .

وجملة " تعلمون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الرابع .

والمصدر المؤوّل (أن تقولوا) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول .

---

(1) ويصبح العطف حينئذ من عطف الجمل .

(2) يجوز أن يكون (ما) نكرة موصوفة والجملة بعده نعت له ، والعائد محذوف في كلا الإعرابين .

(3) في الآية السابقة (32) .

[سورة الأعراف (7) : آية 34]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (34)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لكل) جار ومجرور متعلّق بخبر مقدم (أمة) مضاف إليه مجرور (أجل) مبتدأ مؤخر (الفاء) عاطفة (إذا) ظرف للمستقبل مبني في محلّ نصب متعلّق بالجواب يستأخرون (جاء) فعل ماض (أجل) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (لا) حرف نفي (يستأخرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (ساعة) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ(يستأخرون) ، (الواو) عاطفة (لا يستقدمون) مثل لا يستأخرون .

جملة " لكل أمة أجل . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " جاء أجلهم . . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " لا يستأخرون . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " لا يستقدمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 35 إلى 37]

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (36) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (37)

الإعراب :

(يا بني آدم) مرّ إعرابها " 1 " ، (إن) حرف شرط جازم (ما) حرف زائد (يأتين) مضارع مبني على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط . . . و(النون) للتوكيد و(كم) ضمير مفعول به (رسل) فاعل مرفوع (من) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلّق بمحذوف نعت لرسل (يقصون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل (عليكم) مثل منكم متعلّق بـ (يقصون) ، (آيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة المقدرة على ما قبل الياء . . . و(الياء) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط الأول (من) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (اتقى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) عاطفة (أصلح) في محلّ جزم معطوف على (اتقى) فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط الثاني (لا) حرف للنفي مهمل " 2 " ، (خوف) مبتدأ مرفوع " 3 " ، (عليهم) مثل منكم متعلّق بمحذوف خبر (الواو) عاطفة (لا) حرف زائد لتأكيد النفي (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (يحزنون) مثل يقصون .

---

(1) في الآية (27) من هذه السورة .

(2) أو يعمل عمل ليس ، واسمه (خوف) وخبره (عليهم) . [. . . . .]

(3) جاز الابتداء بالنكرة لاعتمادها على النفي .

جملة النداء وجوابها . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يأتينكم رسل . . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " يقصون . . . . " في محلّ رفع نعت ثان لرسل " 1 " .

وجملة " من اتقى . . . . " في محلّ جزم جواب الشرط إن مقترنة بالفاء .

وجملة " اتقى . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة " أصلح) في محلّ رفع معطوفة على جملة اتقى .

وجملة " لا خوف عليهم " في محلّ جزم جواب الشرط (من) مقترنة بالفاء .

وجملة " هم يحزنون " في محلّ جزم معطوفة على جملة الجواب الثاني .

وجملة " يحزنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(36) (الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ (كذّبوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (بآيات) جار ومجرور متعلق بـ (كذّبوا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (استكبروا) مثل كذبوا (عن) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (استكبروا) بتضمينه معنى ابتعدوا (أولاء) اسم إشارة مبني في محلّ رفع

مبتدأ " 2 " ، و(الكاف) حرف خطاب (أصحاب) خبر مرفوع (النار) مضاف إليه مجرور (هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (فيها) مثل عنها متعلّق بـ (خالدون) وهو خبر المبتدأ هم مرفوع.

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من (رسل) لأن النكرة قد وصفت.

(2) يجوز أن يكون بدلا من اسم الموصول، وخبر الموصول هو أصحاب . . .

(161/278)

وجملة " الذين كذّبوا . . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة من اتقى.

وجملة "كذّبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة " استكبروا عنها " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة " أولئك أصحاب . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين).

وجملة " هم فيها خالدون " في محلّ نصب حال من أصحاب، والعامل فيها معنى الإشارة.

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (من) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ (أظلم) خبر مرفوع (من) حرف جر (من) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بأظلم (افترى) مثل اتقى

(على الله) جار ومجرور متعلق بـ (افترى) ، (كذبا) مفعول به منصوب " 1 " ، (أو) حرف عطف (كذّب) فعل ماض والفاعل هو (بآيات) مثل الأول متعلق بـ (كذب) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (أولئك) مثل الأول (ينال) مضارع مرفوع و(هم) ضمير مفعول به (نصيب) فاعل مرفوع و(هم) مضاف إليه (من الكتاب) جار ومجرور متعلق بحال من نصيب (حتى) حرف ابتداء (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط في محلّ نصب متعلق بـ (قالوا) ، (جاءت) فعل ماض . . . و(التاء) للتأنيث و(هم) ضمير مفعول به (رسل) فاعل مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (يتوفون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (هم) مثل السابق (قالوا) مثل كذّبوا (أين) اسم استفهام مبني في محلّ نصب على الظرفية المكانية متعلّق بمحذوف خبر

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه مرادفه ، إذ الافتراء مرادف الكذب . . . أو هو مصدر في موضع الحال .

مقدم (ما) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ مؤخر (كنتم) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على السكون . . . و(تم) ضمير اسم كان (تدعون) مثل يقصون (من دون) جار

ومجرور متعلّق بحال من العائد المحذوف أي تدعونه من دون الله (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (قالوا) مثل كذّبوا وكذلك (ضلّوا) ، (عنّا) مثل عنها متعلّق بـ (ضلّوا) . (الواو) استئنافية (شهدوا) مثل كذبوا (على أنفس) جار ومجرور متعلّق بـ (شهدوا) و(هم) ضمير مضاف إليه (أنّ) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أن (كانوا) مثل كنتم (كافرين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

والمصدر المؤوّل (أنهم كانوا كافرين) في محلّ جر بحرف جر محذوف متعلّق بـ (شهدوا) أي شهدوا على أنفسهم بكونهم كافرين أو بكفرهم .

جملة " جاءتهم رسلنا . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " يتوفونهم " في محلّ نصب حال من رسلنا .

وجملة " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " أين ما كنتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " كنتم تدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " تدعون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

وجملة " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " ضلوا عنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " شهدوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة "كانوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

الصرف :

(يتوفونهم) ، جرى فيه مجرى الإعلال في (يتوفّون) – بالبناء للمجهول – في الآية (234) من سورة البقرة .

البلاغة

1 – خروج الاستفهام عن معناه الأصلي : في قوله تعالى " فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً " وقوله " أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ " ففي الأول :

الاستفهام للإنكار وفي الثاني الاستفهام للتوبيخ والتقريع .

الفوائد

حتى تكون على خمسة أنواع :

أ – حتى الابتدائية ، وهي حرف يدخل على الجمل الاسمية ب – حتى التي تضمر أن بعدها وتدخل على الفعل المضارع .

ج – حتى التي يرتفع المضارع بعدها .

ء – حتى التي تكون حرف جر وهي بمنزلة " إلى " وتدل على انتهاء الغاية سواء أكانت مكانية أم زمانية .

ه – حتى العاطفة وهي تعطف بشروط ، ولكل من الأنواع الخمسة شروط يتعذر لدينا

شرحها في هذا المقام، مقام الإيجاز والاختصار.

[سورة الأعراف (7) : آية 38]

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (38)

(163/278)

الإعراب:

(قال) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الله (ادخلوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والفاعل الضمير الواو (في أمم) جار ومجرور متعلّق بـ (ادخلوا) بحذف مضاف أي في بعض أمم (قد) حرف تحقيق (خلت) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . . . و(التاء) للتأنيث (من قبل) جار ومجرور متعلّق بـ (خلت) " 1 " ، و(كم) ضمير مضاف إليه (من الجن) جار ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لأمم (الواو) عاطفة (الإنس) معطوف على الجن مجرور (في النار) جار ومجرور متعلّق بـ (ادخلوا) " 2 " ، (كلما) ظرف بمعنى حين " 3 " متضمن معنى الشرط

متعلّق بالجواب لعنت (دخلت) فعل ماض ، و(التّاء) للتأنيث (أمة) فاعل مرفوع (لعنت) مثل دخلت (أخت) مفعول به منصوب و(ها) ضمير مضاف إليه . (حتى إذا) مر إعرابها " 4 " ، (اداركوا) مثل كذّبوا " 5 " ، (في) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (ادّاركوا) ، (جميعا) حال منصوبة من فاعل ادّاركوا (قالت) مثل دخلت (أخرى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف و(هم) ضمير مضاف إليه (لأولى) جار ومجرور متعلّق بـ (قالت) وعلامة الجر الكسرة المقدرة على الألف و(هم) مثل الأول (رب) منادى محذوف منه أداة النداء مضاف منصوب و(نا) ضمير مضاف

---

(1) يجوز أن يكون متعلقا بمحذوف نعت لأمم .

(2) تعلّق حرفا الجر (في) بعامل واحد لأن الأول ليس للظرفية بل للمعية أي : مصاحبين أمما . . . أو يجوز أن يكون الثاني بدل اشتمال من الأول ، والظرفية في الأولى مجاز .

(3) يجوز أن يكون لفظ (كل) فيه معنى الظرف و(ما) حرفا مصدريا . . . والمصدر المؤوّل في محلّ جر مضاف إليه .

(4) في الآية السابقة (37) .

(5) في الآية (36) من هذه السورة .

إليه (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (أضلّوا) مثل كذّبوا " 1 " و(نا) ضمير مفعول به (الفاء) لربط المسبّب بالسبب (آت) فعل أمر مبني على حذف حرف العلة و(هم) ضمير مفعول به أول (عذابا) مفعول به ثان منصوب (ضعفا) نعت لـ (عذابا) منصوب ، (من النار) جار ومجرور متعلّق بمحذوف نعت ثان لـ (عذابا) " 2 " ، (قال) مثل الأول (لكل) جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدم (ضعف) مبتدأ مؤخر مرفوع (الواو) عاطفة (لكن) حرف للاستدراك (لا) حرف نفي تعلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " ادخلوا . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قد خلت . . . " في محلّ جر نعت لأمم .

وجملة " دخلت أمة " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " لعنت . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (كلما) .

وجملة " ادّاركوا " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " قالت أخراهم " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (إذا) .

وجملة " النداء وجوابها في محلّ نصب مقول القول " 3 " .

وجملة " هؤلاء أضلّونا " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " أضلونا " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هؤلاء) .

---

(1) في الآية (36) من هذه السورة .

(2) يجوز أن يتعلّق بمحذوف حال من (عذابا) لأنه وصف .

(3) يجوز أن تكون جملة وحدها اعتراضية استرحامية .

(165/278)

وجملة " آتهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء " 1 " .

وجملة " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " لكل ضعف " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة لا تعلمون " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

الصرف :

(ادّاركوا) ، فيه إبدال أصله تداركوا ، أبدلت التاء دالا ، ثم سكّنت ليصح إدغامها ثم أدخل عليها همزة الوصل ليصح النطق . . .

وزنه أ تفاعلوا .

(أخراهم) ، انظر الآية (184) من سورة البقرة .

(أولاهم) ، مؤنث الأول وهو صفة مشتقة وزنه فعلى بضم الفاء ، والألف ملحقة للتأنيث .

[سورة الأعراف (7) : آية 39]

وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (قالت . . . لأخراهم) مثل قالت . . .

لأولاهم " 2 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلّق بخبر مقدم لكان (على) حرف جر و(نا) ضمير في محلّ جر متعلّق بفضل

---

(1) يجوز أن تكون جواب شرط مقدر أي إن كانوا يستحقون العذاب فآتهم . . .

(2) في الآية السابقة (38) . [. . . . .]

(من) حرف جر زائد (فضل) مجرور لفظا مرفوع محلا اسم كان مؤخر (الفاء) لربط المسبب بالسبب (ذوقوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (العذاب) مفعول به منصوب (الباء) حرف جر للسببية (ما) حرف مصدري (كنتم) فعل ماض ناقص ناسخ واسمه (تكسبون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم تكسبون) في محلّ جر بالباء متعلّق بـ (ذوقوا) .

جملة " قالت أولاهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالت أخراهم " 1 " .

وجملة " ما كان . . " جواب شرط مقدّر أي : إن كنتم ضالين بسببنا فما كان ، وجملة الشرط المقدرة مع جوابها في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ذوقوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 2 " .

وجملة "كنتم تكسبون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة " تكسبون " في محلّ نصب خبر كنتم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 40 إلى 41]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)

---

(1) في الآية السابقة (38) .

(2) فإذا كان الكلام هو من قول الله وليس من قول الطائفة فالجملة استئنافيّة .

(167/278)

الإعراب :

(إن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب اسم إن

(كذّبوا) فعل ماض مبني على الضم . . .

والواو فاعل (بآيات) جار ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو)

عاطفة (استكبروا) مثل كذبوا (عن) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ

(استكبروا) بتضمينه معنى ترفعوا (لا) حرف نفي (تفتح) مضارع مبني للمجهول مرفوع

(اللام) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (تفتح) ، (أبواب) نائب الفاعل مرفوع

(السماء) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (لا) مثل الأول (يدخلون) مضارع مرفوع

. . . والواو فاعل (الجنة) مفعول به منصوب (حتى) حرف غاية وجر (يلج) مضارع

منصوب بأن مضمرة بعد حتى (الجمل) فاعل مرفوع (في سمّ) جار ومجرور متعلّق بـ (يلج)

، (الخياط) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أن يلج الجمل) في محلّ جر بـ (حتى) متعلّق بـ (يدخلون) .

(الواو) استئنافية – أو اعتراضية – (الكاف) حرف جر وتشبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (نجزي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء (المجرمين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

(168/278)

جملة " إن الذين كذبوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " كذّبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " استكبروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبوا . . .

وجملة " لا تفتح . . . أبواب . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " يدخلون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا تفتح .

وجملة " يلج الجمل " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " نجزي المجرمين " لا محلّ لها استئنافيّة . . .

(41) (لهم) مثل الأول متعلّق بخبر مقدم (من جهنم) جار ومجرور متعلّق بحال من مهاد - نعت تقدم على المنعوت - (مهاد) مبتدأ مؤخر مرفوع (الواو) عاطفة (من فوق) جار ومجرور متعلّق بخبر مقدم و(هم) ضمير مضاف إليه (غواش) مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء المحذوفة لأنه اسم منقوص (وكذلك نجزي الظالمين) مثل وكذلك نجزي المجرمين . . .

وجملة " لهم من جهنم مهاد " لا محلّ لها استئنافية " 1 " .

وجملة " من فوقهم غواش " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " نجزي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن تكون حالا من المجرمين .

(169/278)

الصرف :

(الجمل) ، اسم جامد للحيوان المعروف ، وفي القاموس : الجمل حبل السفينة وزنه فعل بفتحتين .

(سم) ، اسم جامد لثقب الإبرة وزنه فعل بفتح فسكون - ويجوز ضم السين وكسرها -

ويجمع على سموم وسمام .

(الخياط) ، اسم جامد للآلة التي يخاط بها ، وزنه فعال بكسر الفاء .

(مهاد) ، انظر الآية (206) من سورة البقرة .

(غواش) ، جمع غاشية مؤنث غاش ، اسم فاعل من غشي الناقص وزنه فاع ووزن غواش فواع ، فيه إعلال بالحذف ، والتنوين فيه تنوين عوض أي عوض من الياء المحذوفة " 1 " .

البلاغة

1 – في قوله تعالى : " حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ " فن بلاغي يسمى المذهب الكلامي . وحدّه أنه احتجاج المتكلم على ما يريد وإثباته بحجة تفلّ سلاح المعاند المكابر ، وتقطع بينته على طريقة علماء الكلام . لأن علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بحجج عقلية وبراهين قاطعة تدحض اللجاج ، ومنه نوع منطقي تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات

---

(1) جاء في حاشية الجمل على الجلالين ما يلي : " الإعلال أي التغيير والتصرف بالحذف مقدم على منع الصرف أي حذف التنوين ، فأصله غواشي – بتنوين الصرف – استثقلت الضمة على الياء فسكنت ، اجتمع ساكنان الياء والتنوين فحذفت الياء . . . ثم لوحظ كونه على صيغة فواعل في الأصل فحذفت تنوين الصرف وخيف من رجوع الياء فيحصل الثقل فأتي بتنوين العوض . فغواش المنون ممنوع من الصرف ، والتنوين هنا هو تنوين عوض

. . . . وإنما كان الراجح تقديم الإعلال لأن سببه ظاهر الثقل وسبب منع الصرف خفي . . . اه .

(170/278)

الصادقة . وفي الآية التي نحن بصددها وجه استنتاج النتيجة من المقدّمتين أن يقال : إن الكفار لا يدخلون الجنة أبدا حتى يلج الجمل في خرم الإبرة ، والجمل لا يدخل في خرم الإبرة أبدا ، فهم لا يدخلون الجنة أبدا ، لأن تعليق الشرط على مستحيل يلزم منه استحالة وقوع المشروط .

الفوائد

1 – غواش : هو اسم منقوص وهو في محلّ رفع مبتدأ مؤخر . وكان حقه أن يقال " غواشي ولما كانت ياؤه ساكنة ولا تظهر الضمة عليها فقد التقى ساكنان الياء الساكنة والتنوين الذي هو نون ساكنة فاقتضى أن نحذف الياء الساكنة لدلالة الكسرة عليها ، وقيل إن هذا التنوين هو تنوين العوض لأنه عوض عن الياء الساكنة المحذوفة .

وجمع غاشية " غواش " وفي اعرابه مذهبان الجمهور أنه ممنوع من الصرف ، وآخرون قالوا إنه منصرف .

[سورة الأعراف (7) : آية 42]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (42)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (الذين) موصول مبتدأ (آمنوا) مثل كذّبوا " 1 " ، (الواو) عاطفة (عملوا) مثل كذبوا " 2 " ، (الصالحات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (لا) حرف نفي (نكلف) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (نفسا) مفعول به منصوب (إلا) حرف للحصر (وسع) مفعول به ثان منصوب ، و(ها)

(1 ، 2) في الآية (40) من هذه السورة .

ضمير مضاف إليه (أولاء) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (أصحاب) خبر مرفوع (الجنة) مضاف إليه مجرور (هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (في) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلّق بخالدون (خالدون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " لا نكلف . . . . " لا محلّ لها اعتراضية " 1 " .

وجملة " أولئك أصحاب . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة " هم فيها خالدون " في محلّ نصب حال من أصحاب والعامل فيه الإشارة .

[سورة الأعراف (7) : آية 43]

وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

---

(1) يجوز أن تكون الجملة خبرا للمبتدأ (الذين آمنوا . . . .) بتقدير العائد وهو قوله منهم أي : لا نكلف نفسا منهم . . . وحينئذ تعرب جملة أولئك أصحاب الجنة . . . . خبرا ثانيا ، أو تقطع على الاستئناف .

الإعراب :

(الواو) عاطفة (نزعنا) فعل ماض وفاعله (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (في صدور) جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة ما و(هم) ضمير مضاف إليه (من غلّ) جار ومجرور متعلق بحال من العائد في الصلة أو من الموصول (تجري) ، مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (من تحت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) " 1 " (هم) مثل الأول (الأنهار) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (قالوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (الحمد) مبتدأ مرفوع (لله) جار ومجرور متعلق بخبر محذوف (الذي) اسم موصول في محلّ جر نعت للفظ الجلالة (هدى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف و(نا) ضمير مفعول به ، والفاعل هو ، (اللام) حرف جر (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلق بـ (هدى) ، (الواو) عاطفة " 2 " (ما) نافية (كنا) فعل ماض ناقص – ناسخ – واسمه (اللام) لام الجحود (نهتدي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (لولا) حرف امتناع لوجود فيه معنى الشرط (أن) حرف مصدري (هدانا) مثل الأول (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع .

والمصدر المؤول (أن نهتدي) في محلّ جر باللام متعلق بمحذوف خبر كنا .

والمصدر المؤول (أن هدانا الله) في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف وجوبا ، والتقدير : لولا

هداية الله لنا موجودة .

---

(1) أو بمحذوف حال من الأنهار .

(2) أو استئنافية ، والجملة بعدها لا محلّ لها على الاستئناف .

(173/278)

(اللام) لام القسم لقسم مقدر (قد) حرف تحقيق (جاء) فعل ماض و(التاء) تاء التأنيث (رسل) فاعل مرفوع (ربّ) مضاف إليه مجرور و(نا) ضمير مضاف إليه (بالحق) جار ومجرور متعلق بحال من رسل أي جاؤوا متلبسين بالحق (الواو) عاطفة (نودوا) فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم . . . والواو نائب الفاعل (أن) حرف تفسير " 1 " (تلكم) اسم إشارة مبني على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ رفع مبتدأ . . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب و(الميم) لجمع الذكور (الجنة) بدل من اسم الإشارة أو عطف بيان له " 2 " مرفوع (أورثتم) فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون . . . و(تم) ضمير نائب الفاعل و(الواو) زائدة هي إشباع حركة الضم و(ها) ضمير مفعول به (الباء) حرف جر (ما) حرف مصدري (كنتم) فعل ماض ناقص – ناسخ – واسمه (تعملون) مضارع مرفوع والواو فاعل .

والمصدر المؤول (ما كنتم . . .) في محلّ جر بالباء متعلق بـ (أورثتموها) .

جملة " نزعنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أولئك أصحاب " 3 " . . .

وجملة " تجري . . . . الأنهار " في محلّ نصب حال من الضمير في (صدورهم) .

---

(1) أو مخفف من (أن) الثقيلة واسمه ضمير الشأن محذوف ، والجملة بعده خبر .

(2) يجوز أن يكون خبرا لاسم الإشارة ، والجملة بعده حالا منه .

(3) في الآية السابقة (42) .

وجملة " قالوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تجري .

وجملة " الحمد لله . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " هدانا لهذا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " ما كنا لنهتدي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة " نهتدي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " هدانا الله " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الظاهر .

والجملة الاسميّة " لولا أن هدانا اللّه " : في محلّ نصب حال " 1 " .

وجواب لولا محذوف دلّ عليه ما قبله أي لولا أن هدانا اللّه ما كنّا لنهتدي .

وجملة " جاءت رسل . . . " : لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة " نودوا . . . " : في محلّ نصب معطوفة على جملة قالوا " 2 " .

وجملة " تلكم الجنّة . . . " : لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة " أورثتموها . . . " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (تلكم) .

وجملة "كنتم . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة " تعملون " : في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(غلّ) ، مصدر سماعيّ لفعل غلّ يغلّ باب ضرب ، وزنه فعل

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

(2) أو مقطوعة على الاستئناف .

بكسر الفاء ، وثمّة مصدر آخر للفعل هو غليل وزنه فعيل .

(نودوا) ، فيه قلب الألف واوا لمناسبة البناء للمجهول وأصله نادى ، ثمّ فيه إعلال

بالحذف وأصله نوديوا - بضمّ الياء - استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت - إعلال بالتسكين - ونقلت الحركة إلى الدال ، ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين فأصبح نودوا ، وزنه فوعوا .

الفوائد

1 - يلحق اسم الإشارة ضمير ، هو كاف المخاطب للدلالة على نوع المخاطب ، ولذلك يتصرف بتصرفه ، فيقال : تلكم وتلكما وتلكن إلخ وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة توضيح ذلك كقوله تعالى : " فَذانِكَ بُرْهانانِ " وقول امرأة العزيز : " فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ " ولنا عودة على هذا الموضوع في مواطن أخرى إن شاء الله .

[سورة الأعراف (7) : آية 44]

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (نادى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (أصحاب) فاعل مرفوع (الجنّة) مضاف إليه مجرور (أصحاب) مفعول به منصوب (النار) مضاف إليه مجرور (أن) تفسيريّة " 1 " ، (قد) حرف تحقيق (وجدنا) فعل ماض مبني على

(1) أو مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي : أنه قد وجدنا . . .

وخبرها الجملة بعدها . [. . . . .]

(176/278)

السكون . . . (ونا) فاعل (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (وعدنا) فعل ماض ومفعوله (ربّ) فاعل مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (حقّا) مفعول به ثان منصوب " 1 " ، (الفاء) عاطفة (هل) حرف استفهام (وجدتم) مثل وجدنا (ما وعد ربّكم حقّا) مثل ما وعدنا ربّنا حقا والمفعول الأول محذوف أي وعدكم أو وعدنا . . . (قالوا) فعل ماض وفاعله (نعم) حرف جواب (الفاء) استئنافيّة (أذّن) فعل ماض (مؤذّن) فاعل مرفوع (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ(أذن) " 2 " ، و(هم) ضمير مضاف إليه (أن) مثل الأول " 3 " ، (لعنة) مبتدأ مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (على الظالمين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ .

جملة " نادى أصحاب الجنّة . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " قد وجدنا . . . . " : لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة " وعدنا ربّنا . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " هل وجدتم " : لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة .

وجملة " وعد ربّكم . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة " قالوا . . . . " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . . وناب حرف الجواب عن جملة مقول القول أي : نعم قد وجدنا ذلك .

وجملة " أذّن مؤذّن . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

---

(1) أو حال إن كان الفعل متعدّيا لواحد بمعنى لقينا .

(2) أو متعلّق بمحذوف نعت لمؤذّن .

(3) أو مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي : أنّه لعنة اللّه على الظالمين .

(177/278)

وجملة " لعنة اللّه على الظالمين . . . . " : لا محلّ لها تفسيريّة .

الصرف :

(نادى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله نادي – بالياء في آخره – جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(مؤذّن) ، اسم فاعل من أذّن الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة .

[سورة الأعراف (7) : آية 45]

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (45)

الإعراب :

(الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم " 1 " ، (يصدّون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (عن سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يصدّون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (يبغون) مثل يصدّون و(ها) ضمير مفعول به (عوجا) مصدر في موضع الحال بتأويل مشتقّ أي معوجّة ، منصوب (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (بالآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كافرون) وهو خبر المبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة " (هم) الذين . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يصدّون . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) أو في محلّ جرّ نعت للظالمين في الآية السابقة (44) . . . أو في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني .

وجملة " يبغونها . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " هم . . . . كافرون " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف . . . أو في محلّ نصب حال .

[سورة الأعراف (7) : آية 46]

وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بخبر مقدّم و(هما) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (حجاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (على الأعراف) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم (رجال) مبتدأ مؤخّر (يعرفون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (كلّا) مفعول به منصوب (بسيما) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعرفون) وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (نادوا) فعل ماض مبني على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . .

والواو فاعل (أصحاب) مفعول به منصوب (الجنّة) مضاف إليه مجرور (أن سلام) مثل أن لعنة " 1 " ، (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ سلام (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يدخلوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون

. . . والواو فاعل و(ها) ضمير مفعول به (الواو) استئنافيّة (هم) ضمير مبتدأ (يطمعون) مثل يعرفون.

---

(1) في الآية (44) من هذه السورة . . . وجاز بالابتداء بالنكرة لأنها دالّة على عموم ففيها معنى الدعاء.

جملة "بينهما حجاب . . . ": لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة "على الأعراف رجال": لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة "يعرفون . . . ": في محلّ رفع نعت لرجال.

وجملة "نادوا . . . ": في محلّ رفع معطوفة على جملة يعرفون.

وجملة "سلام عليكم": لا محلّ لها تفسيرية.

وجملة "لم يدخلوها . . . ": في محلّ نصب حال من فاعل نادوا وليس ثمّة فاصل بين الحال وصاحبها لأن الكلام بينهما من تمام صلة النداء.

وجملة "هم يطمعون": لا محلّ استئنافيّة.

وجملة "يطمعون": في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

الصرف :

(حجاب) ، اسم جامد لما يحجب به ، وزنه فعال بكسر الفاء وهو على لفظ المصدر .

(الأعراف) ، قيل هو سور الجنّة فهو اسم جامد ، أو اسم علم للحجاب الفاصل بين الجنّة والنار وزنه أفعال .

(سيماهم) ، اسم جامد بمعنى العلامة ، وجاء مقصورا وأصله ممدود سيماء ، وزنه فعلاء بكسر الفاء والياء منقلبة عن واو سوماء ، فلما جاءت الواو ساكنة بعد كسر قلبت ياء .

(نادوا) ، فيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين ، وأصله نادوا ، حذفت الألف قبل واو الجماعة لمجيئها ساكنة معها ، وبقيت الفتحة على الدال دلالة على الألف المحذوفة وزنه فاعوا بفتح العين .

(180/278)

[سورة الأعراف (7) : آية 47]

وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب قالوا (صرفت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . . والتاء للتأنيث (أبصار) نائب الفاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (تلقاء) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (صرفت) ، (أصحاب) مضاف إليه مجرور (النار) مضاف إليه مجرور (قالوا) فعل ماض وفاعله (ربّ) منادى مضاف منصوب حذفت منه أداة النداء و(نا) ضمير مضاف إليه (لا) حرف جازم ناه (تجعل) مضارع مجزوم و(نا) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بفعل (تجعل) ، (القوم) مضاف إليه مجرور (الظالمين) مثل القوم وعلامة الجرّ الياء .

جملة " صرفت أبصارهم . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " قالوا . . . " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " ربّنا لا تجعلنا . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " لا تجعلنا . . . " : لا محلّ لها جواب النداء .

الصرف :

(تلقاء) ، الاسم من اللقاء استخدم ظرفا وزنه تفعال بكسر التاء ، وقد يستعمل مصدرا ،

قيل : لم يجئ من المصادر على التفعال بالكسر غير التلقاء والتبيان ، وهو ممدود .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 48 إلى 49]

(181/278)

وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (نادى أصحاب الأعراف رجالا) مثل نادى أصحاب الجنة أصحاب " 1 " ، (يعرفونهم بسيماهم) مثل يعرفون كلّا بسيماهم " 2 " ، (قالوا) مثل السابق " 3 " ، (ما) حرف نفي (أغنى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (عن) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أغنى) ، (جمع) فاعل مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه

(الواو) عاطفة (ما) حرف مصدريّ (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبني على السكون و(تم) ضمير اسم كان (تستكبرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم تستكبرون) في محلّ رفع معطوف على المصدر الصريح جمعكم .

جملة " نادى أصحاب الأعراف . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يعرفونهم . . . " : في محلّ نصب نعت لـ (رجالا) . . . أو حال من أصحاب الأعراف .

---

(1) في الآية (44) من هذه السورة .

(2) في الآية (46) من هذه السورة .

(3) في الآية السابقة (47) .

وجملة " قالوا . . . " : في محلّ نصب حال من الفاعل أصحاب " 1 " .

وجملة " ما أغنى . . . جمعكم " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " كنتم تستكبرون " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة " تستكبرون " : في محلّ نصب خبر كنتم .

(49) (الهمزة) للاستفهام (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع خبر (أقسمتم) فعل ماض مبني على السكون . و(تم) ضمير فاعل (لا) حرف نفي (ينال) مضارع مرفوع و(هم) ضمير مفعول به (اللّه)

لفظ الجلالة فاعل مرفوع (برحمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينال) ، (ادخلوا) فعل أمر مبني على حذف حرف النون . . . والواو فاعل (الجنّة) مفعول به منصوب (لا) حرف نفي مهمل " 2 " ، (خوف) مبتدأ مرفوع " 3 " ، (عليكم) مثل عنكم متعلّق بمحذوف خبر (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (تحزنون) مثل تستكبرون .

وجملة " هؤلاء الذين . . . " : لا محلّ لها استئناف في حيّز القول السابق .

وجملة " أقسمتم . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " لا ينالهم اللّه . . . " : لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة " ادخلوا . . . " : في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانّي .

(2) أو عامل عمل ليس و(خوف) اسمه و(عليكم) خبره .

(3) جاء المبتدأ نكرة لأنه اعتمد على نفي .

أي : قال اللّه لهم : ادخلوا الجنّة . . . وجملة " القول المقدرّة في محلّ رفع خبر ثاني لاسم الإشارة أي : هؤلاء قال اللّه لهم . . .

وجملة " لا خوف عليكم " : في محلّ نصب حال من فاعل ادخلوا .

وجملة " أنتم تحزنون " : في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال الأخيرة .

وجملة " تحزنون " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

الصرف :

(أغنى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله أغني ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه أفعل .

(جمعكم) ، مصدر سماعيّ لفعل جمع يجمع باب فتح ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 50 إلى 51]

وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (51)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (نادى أصحاب . . . الجنّة أن) مثل نادى أصحاب . . النار أن " 1 "

.

(أفيضوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (على) حرف

---

(1) في الآية (44) من هذه السورة .

جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أفيضوا) (من الماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أفيضوا) ، (أو) حرف عطف (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بـ (أفيضوا) ، (رزق) فعل ماض (وكم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (قالوا) فعل ماض وفاعله (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (حرّم) فعل ماض و(هما) ضمير مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على الكافرين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (حرّمهما) ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة " نادى أصحاب . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أفيضوا . . . " : لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة " رزقكم اللّه " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " قالوا . . . " : لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " إنّ اللّه حرّمهما . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " حرّمهما . . . " : في محلّ رفع خبر إنّ .

(185/278)

---

(51) (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جرّ نعت للكافرين " 1 " ، (اتّخذوا) مثل قالوا (دين) مفعول به أول منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (لهوا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (لعبا) معطوف على (لهوا) منصوب مثله (الواو) عاطفة (غرّت) فعل ماض . و(التاء) للتأنيث و(هم) ضمير مفعول به (الحياة) فاعل مرفوع (الدنيا) نعت للحياة مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الفاء) استئنافيّة (اليوم) ظرف

---

(1) أو في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . . والجملة الاسمّية استئناف بياني . . . ويجوز أن يكون في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني أو أذمّ .

(186/278)

زمان منصوب متعلّق بـ (ننساهم) وهو مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف . . . و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (الكاف) حرف جرّ وتشبيه " 1 " ، (ما) حرف مصدري (نسوا) مثل اتّخذوا وقالوا (لقاء) مفعول به منصوب (يوم) مضاف إليه مجرور و(هم) ضمير مضاف إليه (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ جرّ نعت ليوم " 2 " .

والمصدر المؤول (ما نسوا . . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق . . .

(الواو) عاطفة (ما) مثل الأول (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على الضمّ . . .

والواو اسم كان (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يجحدون) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (يجحدون) مضارع مرفوع . . .

والواو فاعل .

وجملة " اتّخذوا . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " غرّتهم الحياة . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " ننساهم " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة " نسوا . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الأول .

وجملة " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني .

---

(1) أو هي للتعليل. [. . . . . .]

(2) أو بدل أو عطف بيان له.

(187/278)

وجملة "يجحدون": في محلّ نصب خبر كانوا.

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل الأول.

الفوائد

1 - المشاكلة، وهي أن يستعمل لفظ مجاراة للفظ آخر وإن كان مخالفا في مفهومه وفحواه، فقد استعمل سبحانه لفظ النسيان وأسنده إلى نفسه مشاكلة ومعاملة بالمثل للكافرين الذين تناسوا يوم البعث والجزاء وحاشى لله أن يتصف بالنسيان وعدم التذكير وهو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

[سورة الأعراف (7): آية 52]

وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (جئنا) فعل ماض مبني على السكون . .

و(نا) ضمير فاعل و(هم) ضمير مفعول به (بكتاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جئناهم) ، (فصّلناه) مثل جئناهم (على علم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الهاء - أي مشتملا على علم - أو من الفاعل أي ونحن عالمون (هدى) حال منصوبة على حذف مضاف أي ذا هدى ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (رحمة) معطوف على هدى منصوب (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (هدى ورحمة) أو بنعت لهما (يؤمنون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل.

جملة " جئناهم . . . " : لا محلّ لها جواب قسم مقدّر " 1 " .

---

(1) وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة " فصّلناه . . . " : في محلّ جرّ نعت لكتاب.

وجملة " يؤمنون " : في محلّ جرّ نعت لقوم.

[سورة الأعراف (7) : آية 53]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ

عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (53)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام بمعنى النفي (ينظرون) مثل يؤمنون " 1 " ، (إلّا) حرف للحصر (تأويل) مفعول به منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يقول) ، (يأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (تأويل) فاعل مرفوع و(الهاء) مثل الأول (يقول) مثل يأتي (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (نسوا) فعل ماض مبني على الضمّ . . . والواو فاعل و(الهاء) مفعول به (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبني على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (نسوه) ، (قد) حرف تحقيق (جاءت) فعل ماض . و(التاء) للتأنيث (رسل) فاعل مرفوع (ربّ) مضاف إليه مجرور و(نا) ضمير مضاف إليه (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بحال من رسل أي مؤيّدين بالحقّ (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هل) مثل الأول من غير نفي (اللام)

---

(1) في الآية السابقة (52) .

حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (من) حرف جرّ زائد (شفعاء) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (الفاء) فاء السببيّة (يشفعوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء (لنا) مثل الأول متعلّق بـ (يشفعوا) .

والمصدر المؤوّل (أن يشفعوا .) معطوف على شفعاء ، والتقدير هل لنا شفعاء فشفاعة لنا .

(أو) حرف عطف (نردّ) مضارع مبني للمجهول مرفوع ، ونائب الفاعل نحن ، وفي الكلام استفهام مقدّر أي هل نردّ (فنعمل) مثل فيشفعوا (غير) مفعول به منصوب (الذي) اسم موصول مبني في محلّ جرّ مضاف إليه (كنّا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على السكون . . . و(نا) ضمير اسم كان (نعمل) مضارع مرفوع . . . والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن .

والمصدر المؤوّل (أن نعمل . . .) معطوف على مصدر متصيّد من الكلام السابق . . . والتقدير : هل ثمّة ردّ لنا فعمل أخر . . .

(قد) حرف تحقيق (خسروا) مثل نسوا (أنفس) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ضلّ) مثل جاء (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ضلّ) بتضمينه معنى بعد (ما) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل " 1 " ، والعائد محذوف (كانوا) فعل ماض ناقص واسمه (يفترون) مثل ينظرون .

جملة " هل ينظرون . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو هو حرف مصدريّ . . . والمصدر المؤوّل في محلّ رفع فاعل .

(190/278)

وجملة " يأتي تأويله " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " يقول . . . " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة " نسوه " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " جاءت رسل . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " هل لنا من شفعاء " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنّا قد ضللنا فهل لنا من . . .

وجملة " يشفعوا . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة " نردّ . . . " : معطوفة على جملة هل لنا من شفعاء .

وجملة " نعمل . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني .

وجملة " كنّا نعمل " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " نعمل . . . " : في محلّ نصب خبر كنّا .

وجملة " قد خسروا أنفسهم " : لا محلّ لها استئنافيّة .

(191/278)

وجملة " ضلّ عنهم ما . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة خسروا لا محلّ لها وجملة : " كانوا . . . . " لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفي .

وجملة " يفترون " : في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة الأعراف (7) : آية 54]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (54)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ربّ) اسم إنّ منصوب (كم) ضمير مضاف إليه (اللّه) لفظ الجلالة خبر مرفوع (الذي) موصول في محلّ رفع نعت للفظ الجلالة (خلق) فعل ماض ، والفاعل هو (السموات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة

(الأرض) معطوف على السموات منصوب مثله (في ستّة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلق) ، (أيّام) مضاف إليه مجرور (ثمّ) حرف عطف (استوى) مثل خلق ، والفتح مقدّر على الألف (على العرش) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استوى) ، (يغشي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه (الليل) مفعول به أوّل منصوب (النهار) مفعول به ثان منصوب (يطلب) مضارع مرفوع و(الهاء) ضمير مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الليل " 1 " ، (حثيثا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي طلبا حثيثا " 2 " (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (الشمس ، القمر ، النجوم) معطوفة على السموات منصوبة (مسخّرات) حال منصوبة من الألفاظ الثلاثة وعلامة النصب الكسرة (بأمر) جارّ ومجرور متعلّق بمسخّرات و(الهاء) ضمير مضاف إليه (ألا) حرف استفتاح وتنبيه (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم

---

(1) إذا كان الاسمان يصلح كلّ منهما أن يكون فاعلا ومفعولا به وجب جعل الفاعل في المعنى متقدّما على المفعول في المعنى لدفع الالتباس .

(2) يجوز أن يكون حالا من فاعل يطلب أي حاثّا أو من مفعوله أي محثوثا .

(الخلق) مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (الأمر) معطوف على الخلق مرفوع مثله (تبارك) مثل خلق " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ربّ) نعت للفظ الجلالة مرفوع (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة " إنّ ربّكم اللّه " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " خلق . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " استوى . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " يغشي . . . . " : في محلّ نصب حال من فاعل خلق " 2 " .

وجملة " يطلبه " : في محلّ نصب حال من الليل أو من النهار .

وجملة " له الخلق " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " تبارك اللّه . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(استوى) ، فيه إعلال بالقلب ، فالألف منقلبة عن ياء لمجيئها – أي الياء – متحرّكة بعد فتح .

(العرش) ، اسم جامد بمعنى سرير الملك لغة ، وجاء في التفسير أنّه الجسم النورانيّ المرتفع على كلّ الأجسام المحيط بكلها .

(حثيثا) ، صفة مشتقّة من صفات المبالغة من حثّ يحث باب نصر وزنه فعيل .

(مسخّرات) ، جمع مسخّرة مؤنث مسخّر . . . (انظر الآية 164 من سورة البقرة) .

(الخلق) ، اسم جمع بمعنى الناس ، وزنه فعل بفتح فسكون .

---

(1) يجعله بعضهم جامدا فلا يأتي منه المضارع ولا الأمر .

(2) يجوز أن تكون الجملة مستأنفة فلا محلّ لها .

(193/278)

الفوائد

1 - يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يكاد يكون مجيء الغين مع الشين فاء وعينا للفعل مفيدا معنى متشابها أو متقاربا مفاده الستر والتغطية وهذا من فقه اللغة وأسرارها الدقيقة .

]

سورة الأعراف (7) : الآيات 55 إلى 56]

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56)

الإعراب :

(ادعوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (ربّ) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (تضرّعا) مصدر في موضع الحال من ضمير الفاعل " 1 " ، (الواو) عاطفة (خفية) معطوفة على (تضرّعا) منصوب (إنه) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – واسمه (لا) حرف نفي (يحبّ) مضارع مرفوع والفاعل هو (المعتدين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة " ادعوا . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " إنه لا يحبّ . . . " : لا محلّ لها تعليليّة استئنافيّة .

وجملة " لا يحبّ . . . " : في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا لأجله ، أو مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر لأنه معبّر عن نوعه أي دعاء التضرّع والخفاء .

---

(56) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تفسدوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تفسدوا) ، (بعد) ظرف

زمان منصوب متعلّق بـ (تفسدوا) ، (إصلاح) مضاف إليه مجرور و(ها) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ادعوه خوفا وطمعا) مثل ادعوا ربّكم تضرّعا وخفية (إنّ) مثل الأول ، (رحمة) اسم إنّ منصوب (اللّه) مضاف إليه مجرور (قريب) خبر إنّ مرفوع (من المحسنين) جارّ ومجرور متعلّق بقريب .

وجملة " لا تفسدوا . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة ادعوا .

وجملة " ادعوه . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تفسدوا .

وجملة " إنّ رحمة اللّه قريب " : لا محلّ لها تعليليّة استئنافيّة .

الصرف :

(طمعا) ، مصدر سماعيّ لفعل طمع يطمع باب فرح وزنه فعل بفتحتين ، وثمّة مصادر أخرى هي طماع بفتح الطاء ، وطماعية بفتح الياء المخفّفة .

(195/278)

(قريب) ، انظر الآية (186) من سورة البقرة . . . وقد جاء اللفظ مذكّرا لأن الرحمة بمعنى الثواب ، فعاد النعت إلى المعنى .

الفوائد

1 - اختلف اللغويون والنحاة اختلافا كبيرا حول تذكير كلمة " قريب " مع أنها صفة للرحمة التي هي مؤنثة ، ولعلّ قول الفراء أقرب إلى الحق فقد قال : إذا كان القريب بمعنى المسافة فهو يذكر ويؤنث ، وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم فيقال : دارك منا قريب أو قريبة وفلانة منا قريبة قال تعالى :

" لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً " . . . . !

[سورة الأعراف (7) : آية 57]

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57)

الإعراب :

(196/278)

(الواو) عاطفة - أو استئنافيّة - (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول في محلّ رفع خبر (يرسل) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو - أي الله - (الرياح) مفعول به منصوب (بشرا) حال منصوبة من الرياح (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (بشرا) ، (يدي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء (رحمة) مضاف إليه مجرور

و(الهاء) مضاف إليه . (حتى) حرف ابتداء (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب سقناه (أقلت) فعل ماض . . . . والتاء) للتأنيث والفاعل هي أي الرياح (سحابا) مفعول به منصوب (ثقالا) نعت لـ (سحابا) منصوب " 1 " ، (سقنا) فعل ماض وفاعله و(الهاء) ضمير مفعول به " 2 " (لبلد) جار ومجرور متعلّق بـ (سقناه) ، (ميت) نعت لبلد مجرور (الفاء) عاطفة (أنزلنا) مثل سقنا (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (أنزلنا) ، (الماء) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (أخرجنا به) مثل أنزلنا به والباء

---

(1) جاء (ثقالا) جمعا مراعاة لمعنى سحاب ، وهو اسم جمع جنسيّ .

(2) جاء الضمير مفردا مذكّرا مراعاة للفظ سحاب .

(197/278)

للسببية في كل منهما (من كل) جار ومجرور متعلّق بـ (أخرجنا) ، (الثمرات) مضاف إليه مجرور . (الكاف) حرف جر وتشبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نخرج و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (نخرج) مضارع مرفوع والفاعل نحن للتعظيم (الموتى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على

الألف (لعل) حرف مشبه للفعل – ناسخ – للترجي و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعل

(تذكرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " هو الذي . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ ربكم " 1 " . . . .

وجملة " يرسل . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " أقلّت . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " سقناه . . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " أنزلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة " أخرجنا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة " نخرج الموتى " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لعلكم تذكرون " لا محلّ لها تعليلية أو استئناف بياني .

وجملة " تذكرون " في محلّ رفع خبر لعل .

---

(1) في الآية (54) من هذه السورة ، وما بينهما نوع من الاعتراض ، . . . ويجوز أن تكون الجملة استئنافيّة .

الصرف :

(بشرا) ، جمع بشور ، صفة مشتقة مبالغة اسم الفاعل وزنه فعول بفتح الفاء ، أو جمع بشير ، وبشر بضم الباء وسكون الشين وهو مخفف من بشر بضمتين .

(ثقالا) ، جمع ثقيل وثقال بفتح الثاء وضمها ، من ثقل يثقل باب نصر ، وهو صفة مشبّهة وزن ثقال فعال بكسر الفاء وفتح العين . . . وثمة جمع آخر لثقيل هو ثقلاء بضمّ الثاء ، وثقل بضمتين .

البلاغة

1 – التشبيه التمثيلي : في قوله تعالى " وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " .

أي كما أحيينا الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها ، وإخراج النبات والثمرات منها نخرج الموتى من الأرض ونبعثهم أحياء في اليوم الآخر .

ووجه الشبه في إخراج الأموات بإخراج النبات أن المنزلة فيهما سواء ، والقادر على أحدهما قادر على الآخر في مقتضى العقل .

2 – المجاز المرسل : في قوله تعالى " بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ " أي قدام رحمته وهو من المجاز ،

والمراد بالرحمة المطر . وسمي رحمة لما يترتب عليه بحسب جري العادة من المنافع .

والعلاقة هي السببية ، لأن اليد سبب الإنعام ، والإنعام الرحمة .

(199/278)

---

3 - التشبيه المرسل : في قوله تعالى " كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى " أي مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات " نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " وسمي مرسلا لذكر أداة التشبيه .

[سورة الأعراف (7) : آية 58]

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (البلد) مبتدأ مرفوع (الطيّب) نعت للبلد مرفوع مثله (يخرج) مضارع مرفوع (نبات) فاعل مرفوع و(الهاء) ضمير مضاف إليه (بإذن) جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من نبات " 1 " (رب) مضاف إليه مجرور و(الهاء) مثل الأول (الواو) عاطفة (الذي) موصول في محلّ رفع مبتدأ (خبث) فعل ماض والفاعل هو - وهو العائد - (لا) حرف ناف (يخرج) مثل الأول والضمير الفاعل يعود على النبات (إلا) أداة حصر

(نكدا) حال منصوبة " 2 " (كذلك نصرف الآيات) مثل كذلك نخرج الموتى " 3 " ، (لقوم) جار ومجرور متعلّق بـ (نصرّف) ، (يشكرون) مثل تذكرون " 4 " .

جملة " البلد . . . يخرج " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يخرج نباته . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ .

وجملة " الذي خبث . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " خبث . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " لا يخرج . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذي) .

---

(1) أو متعلّق بـ (يخرج) إذا كانت الباء للسببية .

(2) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر - فهو صفته - أي خروجا نكدا . [. . . . .]

(3) في الآية السابقة (57) .

(4) في الآية السابقة (57) .

وجملة " نصرّف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " يشكرون " في محلّ جر نعت لقوم .

الصرف :

(نكدا) ، صفة مشبهة من فعل نكد ينكد باب فرح وزنه فعل بفتح الفاء وكسر العين .

]

سورة الأعراف (7) : الآيات 59 إلى 64]

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (60) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (62) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63)

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (64)

الإعراب :

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (أرسلنا) فعل ماض مبني على السكون . . . و(نا) ضمير في محلّ رفع فاعل (نوحا) مفعول به منصوب (إلى قوم) جار ومجرور متعلق بـ (أرسلنا) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (قال) فعل ماض والفاعل

هو (يا) حرف نداء (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . . . و(الياء) ضمير في محلّ

(201/278)

جر مضاف إليه (اعبدوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (ما) حرف نفي (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف خبر مقدم (من) حرف جر زائد (إله) مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر (غير) نعت لإله تبعه في المحلّ فهو مرفوع و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إن (أخاف) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (على) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (أخاف) ، (عذاب) مفعول به منصوب (يوم) مضاف إليه مجرور (عظيم) نعت ليوم مجرور .

جملة " أرسلنا . . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدر . . . وجملة القسم استئناف .

وجملة " قال . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة النداء " يا قوم . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " اعبدوا . . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " ما لكم من إله . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " إني أخاف عليكم . . . " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " أخاف عليكم . . . " في محلّ رفع خبر إن .

(60) (قال) مثل الأول (الملأ) فاعل مرفوع (من قوم) جار ومجرور متعلق بحال من الملأ

و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إنّا) مثل إني (اللام) هي المزحلقة تفيد التوكيد (نرى)

مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن

و(الكاف) ضمير في محلّ نصب مفعول به (في ضلال) جار ومجرور متعلق بـ (نراك) ،

(مبين) نعت لضلال مجرور .

جملة " قال الملأ . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " إنا لنراك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " نراك . . . . " في محلّ رفع خبر إن .

(202/278)

(61) (قال) مثل الأول (يا قوم) مثل الأولى (ليس) فعل ماض ناقص – ناسخ – جامد (الباء) حرف جر و(الياء) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف خبر ليس مقدم (ضلالة) اسم ليس مؤخر مرفوع (الواو) عاطفة (لكن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – للاستدراك و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم لكن (رسول) خبر مرفوع (من رب) جار ومجرور متعلق بنعت لرسول (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

جملة " قال . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " يا قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ليس بي ضلالة " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " لكني رسول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

(62) (أبلغ) مثل أخاف و(كم) ضمير مفعول به (رسالات) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الكسرة (رب) مضاف إليه مجرور و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أنصح) مثل أخاف (لكم) مثل عليكم متعلق بـ (أنصح) ، (الواو) عاطفة (أعلم) مثل أخاف (من الله) جار

ومجرور متعلق بـ (أعلم) " 1 " ، (ما) اسم موصول " 2 " في محلّ نصب مفعول به (لا) حرف ناف (تعلمون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل .

جملة " أبلغكم . . . " في محلّ رفع نعت ثان لرسول " 3 " .

وجملة " أنصح لكم " في محلّ رفع معطوفة على جملة أبلغكم .

وجملة " أعلم . . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أبلغكم .

وجملة " تعلمون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

ضمير في محلّ جر متعلق بنعت لرجل (اللام) للتعليل (ينذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام و(كم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (لتتقوا) مثل لينذر ، وعلامة النصب حذف النون . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤول (أن جاءكم . . .) في محلّ جر بحرف جر محذوف تقديره من . . . متعلق بـ (عجبتم) .

---

(1) يجوز أن يكون متعلّقا بمحذوف حال من (ما) أو من العائد أي أعلم ما لا تعلمونه كائنا من اللّه .

(2) أو نكرة موصوفة ، والجملة بعده في محلّ نصب نعت له ، والعائد محذوف .

(3) أو في محلّ نصب حال من رسول لأنه وصف . . . ويجوز أن تكون منقطعة على الاستئناف .

(63) (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الواو) عاطفة (عجبتم) مثل أرسلنا (أن) حرف مصدري (جاء) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به (ذكر) فاعل مرفوع (من رب) مثل الأول متعلق بنعت لذكر و(كم) ضمير مضاف إليه (على رجل) جار ومجرور متعلق بنعت ثان لذكر (من) حرف جر و(كم)

والمصدر المؤول (أن ينذر) في محلّ جر باللام متعلق بـ (جاءكم) .

والمصدر المؤول (أن تتقوا) في محلّ جر باللام متعلق بـ (جاءكم) لأنه معطوف على المصدر (أن ينذر) .

(الواو) عاطفة (لعلكم ترحمون) مثل لعلكم تذكرون " 1 " . . .

والفعل مبني للمجهول ، والواو نائب الفاعل .

جملة " عجبتم . . . . " لا محلّ لها معطوفة بالواو على جملة مستأنفة " 2 " .

وجملة " جاءكم ذكر " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الأول .

وجملة " ينذركم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الثاني .

وجملة " تتقوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الثالث .

وجملة " لعلكم ترحمون " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " ترحمون " في محلّ رفع خبر لعل .

(64) (الفاء) استئنافية (كذّبوا) فعل ماض وفاعله و(الهاء) ضمير مفعول به (الفاء) عاطفة (أنجينا) مثل أرسلنا و(الهاء) مثل السابق (الواو) عاطفة (الذين) موصول في محلّ نصب معطوف على الضمير المفعول في (أنجيناه) ، (مع) ظرف مكان منصوب متعلق بمحذوف الصلة المحذوفة

---

(1) في الآية (57) من هذه السورة.

(2) أي: أكذبتم وعجبتم أن جاءكم . . . . ، والجملة المستأنفة داخلة في حيّز الكلام المسوق من نوح عليه السّلام لقومه . . . فالآية امتداد للآية السابقة.

و(الهاء) ضمير مضاف إليه (في الفلك) جار ومجرور متعلق بالصلة المحذوفة (الواو) عاطفة (أغرقنا) مثل أرسلنا (الذين) موصول في محلّ نصب مفعول به (كذبوا) مثل الأول (بآيات) جار ومجرور متعلق بـ (كذّبوا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (إنهم) مثل إني (كانوا)

فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على الضم . . . والواو اسم كان (قوما) خبر كان منصوب (عمين) نعت لقوم منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة "كذّبوه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أنجيناه . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " أغرقنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنجيناه .

وجملة "كذّبوا بآياتنا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " إنهم كانوا . . . . " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة "كانوا قوما . . . " في محلّ رفع خبر إن .

الصرف :

(رسالات) ، جمع رسالة الاسم من أرسل ، وقد تكون اسما جامدا دالا على الشيء المرسل ، وزنه فعالة بكسر الفاء ، ويجوز فتحها .

(عمين) ، جمع عم ، صفة مشبهة من عمي يعمى باب فرح وزنه فع بفتح الفاء وكسر العين ، وفي عم إعلال بالحذف ، حذفت منه الياء لأنه اسم منقوص . . . وفي عمين إعلال بالحذف أيضا أصله عميين بياءين ، الأولى مكسورة والثانية ساكنة ، حذفت الأولى لاستثقال الكسرة عليها وتسكينها ونقل حركتها إلى الميم قبلها ، وبسبب التقاء الساكنين بعد ذلك .

البلاغة

- المجاز المرسل : في قوله تعالى " إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ " وقوله " لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ " فقد جعل الضلال ظرفا والضلال ليس ظرفا يحل فيه الإنسان . لأنه معنى من المعاني ، إنما يحل في مكانه فاستعمال الضلال في مكانه مجاز مرسل أطلق فيه الحال وأريد المحلّ ، فعلاقته الحاليّة ، وفائدته المبالغة في وصفه بالضلال وإيغاله فيه ، حتى كأنه مستقر في ظلماته لا يتزحزح عنها .

الفوائد

1 - اتفق العلماء على أن اللام الموطئة للقسم تأتي متصلة بـ " قد " تجاوبا مع تأكيد ما أقسم عليه ، وشذت عن هذه القاعدة أقوال ندّت عن لسان قائليها ولا يقاس عليه كقول امرئ القيس :

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا صال

وكان حقه أن يقول : لقد ناموا فحذف قد استجابة لصحة الوزن .

فتأمل . . . . !

[سورة الأعراف (7) : الآيات 65 إلى 72]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (65) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (66) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69)

(207/278)

قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ (72)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (إلى عاد) جار ومجرور متعلق بفعل محذوف تقديره أرسلنا (أخا)

مفعول به منصوب وعلامة النصب الألف و(هم) ضمير مضاف إليه (هودا) بدل من (أخاهم) أو عطف بيان منصوب (قال يا قوم . . . إله غيره) مرّ إعرابها " 1 " ، (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (لا) نافية (تتقون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل.

جملة " أرسلنا إلى عاد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة " قال . . . . " في محلّ نصب حال بتقدير قد " 2 " .

---

(1) في الآية (59) من هذه السورة.

(2) أو استئناف بياني لا محلّ لها .

وجملة " النداء وجوابها " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة " اعبدوا . . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " ما لكم من إله . . . . " لا محلّ لها تعليلية.

وجملة " تتقون " لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة مقدرة أي أ تغفلون فلا تتقون.

(66) (قال الملأ) مرّ إعرابها " 1 " ، (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع نعت للملأ (كفروا) فعل ماض وفاعله (من قوم) جار ومجرور متعلق بحال من فاعل كفروا و(الهاء)

ضمير مضاف إليه (إنا لنراك في سفاهة) مثل إنا لنراك في ضلال " 2 " ، (الواو) عاطفة (إنا لنظنّك من الكاذبين) مثل إنا لنراك في ضلال " 3 " . . . والجار والمجرور مفعول ثان لـ (نظنك) .

وجملة " قال الملأ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " إنا لنراك . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " نراك . . . . " في محلّ رفع خبر إن .

وجملة " إنا لنظنك . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة " نظنك " في محلّ رفع خبر إن الثاني .

(67) (قال يا قوم . . . رب العالمين) مر إعراب نظيرها مفردات وجملا " 4 " .

(1 ، 2 ، 3) في الآية (60) من هذه السورة .

(4) في الآية (61) من هذه السورة .

(68) (أبلغكم رسالات ربي) مرّ إعرابها " 1 " ، (الواو) حالية (أنا) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بناصح . . . وهو خبر المبتدأ مرفوع (أمين) خبر ثان مرفوع .

جملة أبلغكم . . . " في محلّ رفع نعت ثان لرسول في الآية السابقة " 2 " .

وجملة " أنا لكم ناصح . . . " في محلّ نصب حال " 3 " .

(69) (أو عجبتم أن جاءكم . . . . لينذركم) مرّ إعرابها " 4 " ، (الواو) عاطفة (اذكروا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . . والواو فاعل (إذ) اسم مبني في محلّ نصب مفعول به عامله اذكروا " 5 " ، (جعل) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على ربكم (خلفاء) مفعول به ثان منصوب ، ومنع من التنوين لأنه ملحق بالممدود على وزن فعلاء (من بعد) جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لخلفاء (قوم) مضاف إليه مجرور (نوح) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (زادكم) مثل جعلكم (في الخلق) جار ومجرور متعلق بـ (زادكم) " 6 " (بسطة) مفعول

---

(1) في الآية (62) من هذه السورة .

(2) أو هي حال أو استئنافيّة .

(3) أو معطوفة على جملة (لكني رسول من ربّ العالمين) . . . انظر الآية (61) من هذه السورة . [. . . . .]

(4) في الآية (63) من هذه السورة .

(5) قد يخلص إذ للظرفيّة المحضة فيتعلّق بمحذوف تقديره نعمة أي : اذكروا نعمة ربّكم إذ جعلكم . . .

(6) أو بمحذوف حال من (بسطة) – نعت تقدّم على المنعوت – .

(210/278)

به ثان منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط المقدر (اذكروا) مثل الأول (آلاء) مفعول به منصوب (الله) مضاف إليه مجرور (لعل) حرف مشبه بالفعل و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعل (تفلحون) مضارع مرفوع والواو فاعل .

جملة " عجبتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة " 1 " .

وجملة " جاءكم ذكر . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " ينذركم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المقدر .

وجملة " اذكروا " لا محلّ لها معطوفة على مستأنف مقدر أي : لا تعجبوا أو تدبروا أمركم واذكروا . . .

وجملة " جعلكم . . . " في محلّ جر بإضافة إذ إليها .

وجملة " زادكم . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة جعلكم .

وجملة " اذكروا . . . . (الثانية) " في محلّ جزم جواب شرط مقدر أي :

إن عرفتم فضل اللّه عليكم فاذكروا آلاء اللّه .

وجملة " لعلكم تفلحون " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " تفلحون " في محلّ رفع خبر لعل .

(70) (قالوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (الهمزة) للاستفهام الإنكاري

(جئت) فعل ماض مبني على السكون وفاعله و(نا)

---

(1) أي : كذبتم وعجبتم أن جاءكم . . . والجملة المستأنفة داخلة في حيّز الكلام لمسبوق من هود عليه السّلام .

(211/278)

ضمير مفعول به (اللام) للتعليل (نعبد) مضارع والفاعل نحن وهو منصوب بأن مضمرة بعد اللام (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (وحد) حال منصوبة من لفظ الجلالة ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤول (أن نعبد) في محلّ جر باللام متعلق بـ (جئتنا) .

(الواو) عاطفة (نذر) مضارع منصوب معطوف على (نعبد) ، والفاعل نحن (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود على آباء " 1 " ، (يعبد) مضارع مرفوع ، ومفعوله محذوف أي يعبده (آباء) فاعل يعبد مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ائت) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت و(نا) ضمير مفعول به (الباء) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (ائت) ، (تعد) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت و(نا) ضمير مفعول به (إن) حرف شرط جازم (كنت) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط ، و(التاء) ضمير اسم كنت (من الصادقين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر كنت .

وجملة " قالوا . . . . " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة " جئتنا . . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " نعبد . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة " نذر . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ .

(1) تنازع على لفظ الآباء الفعلان (كان ، يعبد) ، ويجوز أن يكون اسم كان لفظ آباؤنا .

وجملة "كان . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة "يعبد آباؤنا " : في محلّ نصب خبر كان .

وجملة " ائتنا . . . " : في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كنت صادقا بما تقول فأتنا .

وجملة " تعدنا " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة "كنت من الصادقين " : لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إن كنت من الصادقين فأتنا بما تعدنا .

(71) (قال) مثل الأول (قد) حرف تحقيق (وقع) مثل قال (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (وقع) ، (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (وقع) بتضمينه معنى وجب " 2 " ، و(كم) ضمير مضاف إليه (رجس) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (غضب) معطوف على رجس مرفوع (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (تجادلون) مثل تتّقون و(النون) للوقاية و(الياء) مفعول به (في أسماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجادلون) " 3 " ، (سمّيتم) مثل عجبتم و(الواو) زائدة حركة إشباع الميم ، (ها) ضمير مفعول به (أنتم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع توكيد للضمير المتّصل فاعل سمّيتم (الواو) عاطفة (آباء) معطوف على الضمير المتّصل فاعل سمّيتم و(كم) ضمير مضاف إليه (ما) نافية (نزّل) فعل ماض (اللّه)

لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نزّل) على حذف مضاف أي بعبادتها (من) حرف جرّ زائد (سلطان)

---

(1) أو هي تفسير لجملة الشرط المقدّرة المتقدّمة .

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من رجس – نعت تقدّم على المنعوت – .

(3) على حذف مضاف أي في ذوي أسماء سميتموها .

(213/278)

مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (انتظروا) مثل اعبدوا (إنّي) مثل إنّا (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بالمنتظرين و(كم) ضمير مضاف إليه (من المنتظرين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ .

وجملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " قد وقع . . . رجس " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " تجادلونني . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول .

وجملة " سمّيتموها " : في محلّ جرّ نعت ثان لأسماء .

وجملة " ما نزّل اللّه . . . . . " : في محلّ جرّ نعت ثان لأسماء " 1 " .

وجملة " انتظروا . . . . " : جواب شرط مقدّر في محلّ جزم أي إن لم تصدّقوا فانتظروا . .

وجملة " إنّي معكم . . . " : لا محلّ لها تعليليّة أو في حكمه .

(72) (الفاء) عاطفة (أنجينا) فعل ماض وفاعله و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (الذين معه) مرّ إعرابها " 2 " (برحمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنجيناه) والباء سببيّة (من) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لرحمة (الواو) عاطفة (قطعنا) مثل أنجينا (دابر) مفعول به منصوب (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جرّ مضاف إليه (كذّبوا) مثل كفروا (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما) نافية ، (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على

---

(1) أو في محلّ نصب حال من أسماء لأنه وصف .

(2) في الآية السابقة (64) .

الضمّ . . . والواو ضمير اسم كان (مؤمنين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة " أنجيناه . . . " : معطوفة على جملة مقدّرة مستأنفة أي :

أرسلت عليهم الريح . . . فأنجيناه .

وجملة " قطعنا . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة أنجيناه .

وجملة "كذّبوا . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " ما كانوا مؤمنين " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(سفاهة) ، مصدر سماعيّ لفعل سفه يسفه باب كرم بمعنى جهل ، وزنه فعالة بفتح الفاء ، ومجيء هذا الوزن لمصدر فعل مضموم العين غالب ، وثمّة مصدر آخر لهذا الفعل هو سفاه بغير التاء المربوطة وبفتح السين أيضا .

(215/278)

(أمين) ، صفة مشتقّة فعله أمن يأمن باب فرح ، والوزن فعيل بمعنى مفعول أي مأمون على الرسالة .

(آلاء) ، جمع إلي بكسر الهمزة وسكون اللام كحمل وأحمال أو ألي بضم الهمزة وسكون اللام كقفل وأقفال أو إلى بكسر الهمزة وفتح اللام كعنب وأعناب أو ألى بفتح الهمزة واللام كقفا وأقفاء . . . وهو اسم بمعنى النعمة ، وفيه قلب الياء همزة لمجيئها متطرّفة بعد ألف ساكنة

، وأصله آلاي .

(وحده) ، مصدر سماعيّ لفعل وحد يحد باب ضرب وزنه فعل بفتح فسكون ، وثمّة مصادر أخرى للفعل هي (وحدة) بفتح الواو و(وحدة) بكسر الحاء و(وحود) بضمّ الواو . . . ثمّ (وحادة) بفتح الواو ، و(وحودة) بضمّ

الواو مصدران لفعل وحد يحد بضمّ الحاء في الماضي وكسرها في المضارع – على غير قياس – .

(تعدنا) ، فيه إعلال بالحذف لأنه مضارع المثال المكسور العين حيث تحذف فاؤه أبدا ، وزنه تعلنا .

البلاغة

1 – الكناية : وذلك في قوله تعالى " قالَ : يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلَكِنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ " فقد كنى عن تكذيبهم بقولهم لهود عليه السّلام : إنا لنراك في سفاهة .

2 – العدول إلى الاسمية : أتى في قصة هود بالجملة الاسمية فقال " وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ " وأتى في قصة نوح بالجملة الفعلية حيث قال " وَأَنْصَحُ لَكُمْ " وفي هذا العدول عن الفعلية إلى الاسمية ما لا يخفى . ولعل التعبير بها هنا وبالفعلية فيما تقدم لتجدد النصح من نوح دون هود عليهما السّلام .

3 – الكناية : في قوله تعالى " قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا " فالكلام كناية عن الاستئصال

، والدابر الآخر أي أهلكناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم .

الفوائد

1 - إنّ المكسورة تقع بعد القول الذي لا يتضمن معنى الظنّ وهو موضع من اثني عشر موضعا يتحتم فيها كسر همزة " إنّ " سيكون لنا معها حديث مفصّل إن شاء الله .

(216/278)

---

2 - من قصص القرآن :

لا نريد أن نتعرض لهذه الآيات وما فيها من رائع الحوار ، ومن الإيجاز والاختصار ، والتصوير الفني والحركة الحيوية وإنما هذا مجمل لقصة عاد . زعم التاريخ أن عادا قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت وكانت لهم أوثان يعبدونها من دون الله وهي صداء وصمود والهباء فبعث الله إليهم هودا نبيا من أوسطهم حسبا ونسبا . فكذبوه وازدادوا عتوّا وتجبّرا فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا وكان الناس إذا نزل بهم البلاء طلبوا من الله الفرج وفزعوا إلى بيته المحرّم ، فأرسلت عاد إلى مكة سبعين رجلا من أماثلهم فدخلوا مكة ، فقال قيل بن عنتر أحد زعماء الوفد : اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم . فأنشأ الله سحابا ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه من السماء : يا قيل :

اختر لنفسك ولقومك . فقال اخترت السوداء فإنها أكثرهنّ ماء . فخرجت على عاد من واد لهم يقال له : المغيث فاستبشروا بها وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا .

إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب . . . . !

[سورة الأعراف (7) : الآيات 73 إلى 79]

(217/278)

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)

الإعراب :

(218/278)

(وإلى ثمود . . . إله غيره) مرّ إعراب نظيرها في الآية (65) من هذه السورة (قد) حرف تحقيق (جاءت) فعل ماض ، والتاء للتأنيث و(كم) ضمير مفعول به (بيّنة) فاعل ومرفوع (من رب) جار ومجرور متعلّق بـ(جاءتكم) " 1 " ، و(كم) ضمير مضاف إليه (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (ناقة) خبر مرفوع " 2 " ، (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلّق بمحذوف حال من آية " 3 " – نعت تقدم على المنعوت – (آية) حال من ناقة منصوبة والعامل فيها معنى الإشارة (الفاء) لربط

---

(1) أو متعلّق بنعت لبيّنة .

(2) يجوز أن يكون بدلا من ذه أو عطف بيان ، و(لكم) هو الخبر لاسم الإشارة .

(3) يجوز أن يكون متعلّقا بمحذوف خبر ثان لاسم الإشارة .

المسبب بالسبب " 1 " ، (ذروا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل و(ها) ضمير مفعول به (تأكل) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (في أرض) جار ومجرور متعلّق بـ (تأكل) ، (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تمسوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل و(ها) ضمير مفعول به (بسوء) جار ومجرور متعلّق بـ (تمسوها) ، (الفاء) فاء السببية (يأخذ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء و(كم) ضمير مفعول به (عذاب) فاعل مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع .

والمصدر المؤول (أن يأخذكم . . .) معطوف على مصدر متصيد من الكلام السابق أي : لا يكن منكم مس بسوء فأخذكم بعذاب .

جملة " (أرسلنا) إلى ثمود . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " يا قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " اعبدوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " ما لكم من إله غيره " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " قد جاءتكم بينة . . . . " لا محلّ لها استئناف في معرض قول صالح .

وجملة " هذه ناقة الله . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " ذروها . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هذه ناقة الله " 2 " .

---

(1) أو رابطة لجواب شرط مقدّر . [. . . . .]

(2) أو هي جواب الشرط المقدّر في محلّ جزم أي إن كنتم أهلا للإيمان فذروها . . .

وجملة " تأكل . . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدر غير مقترنة بالفاء " 1 " .

وجملة " لا تمسوها بسوء " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذروها .

وجملة " يأخذكم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

(74) (الواو) عاطفة (اذكروا إذ . . . بعد عاد) مرّ إعراب نظيرها " 2 " ، (الواو) عاطفة (بوأكم) فعل ماض ومفعوله والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الله (في الأرض) جار ومجرور متعلّق بـ (بوّأكم) ، (تتخذون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (من سهول)

جار ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به ثان " 3 " ، (ها) ضمير مضاف إليه (قصورا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (تنحتون) مثل تتخذون (الجبال) مفعول به منصوب (بيوتا) حال مقدرة " 4 " منصوبة بتأويل مشتق أي مسكونة (فاذكروا آلاء الله) مرّ إعرابها " 5 " ، (الواو) عاطفة (لا تعثوا) مثل لا تمسوا (في الأرض) جار ومجرور متعلّق بـ (تعثوا) ، (مفسدين) حال منصوبة مؤكدة من ضمير الفاعل ، وعلامة النصب الياء .

---

(1) أي إن تتركوها تأكل .

(2) في الآية (69) من هذه السورة .

(3) أو متعلّق بمحذوف حال من (قصورا) إذا كان الفعل متعدّيا لواحد . . كما يجوز تعليقه بالفعل .

(4) لأن البيوت لم تكن موجودة حال النحت . . ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا بتضمين تنحتون معنى تتّخذون . . أو هو مفعول به و(الجبال) منصوب على نزع الخافض أي من الجبال .

(5) في الآية (69) من هذه السورة .

جملة " اذكروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على مستأنف مقدّر أي تدبروا . . .

وجملة " جعلكم . . . " في محلّ جر بإضافة إذ إليها .

وجملة " بوّأكم . . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة جعلكم .

وجملة " تتخذون " في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في (بوّأكم) .

وجملة " تنحتون . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تتخذون .

وجملة " اذكروا آلاء . . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن عرفتم فضل اللّه عليكم فاذكروا آلاء اللّه .

وجملة " لا تعثوا في الأرض " معطوفة على جملة اذكروا آلاء الله .

(75) (قال الملأ . . . من قومه) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (اللام) حرف جر (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلّق بـ (قال) ، (استضعفوا) فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم . . . والواو ضمير في محلّ رفع نائب الفاعل (لمن) مثل للذين وهو بدل من الأول بإعادة الجار في محلّ جر (آمن) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (من) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلّق بمحذوف حال من ضمير الفاعل في (آمن) ، (الهمزة) للاستفهام (تعلمون) مثل تتخذون (أنّ) حرف مشبه بالفعل للتوكيد (صالحا) اسم أن منصوب (مرسل) خبر أن مرفوع (من رب) جار ومجرور متعلّق بـ (مرسل) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه .

(1) في الآية (66) من هذه السورة .

والمصدر المؤول (أن صالحا مرسل . . .) في محلّ نصب سد مسد مفعولي تعلمون .

(قالوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (إن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم إن (الباء) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلّق بـ (مؤمنون) ، (أرسل) فعل ماض مبني للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي صالح (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (أرسل) ، (مؤمنون) خبر إن مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة " قال الملأ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " استكبروا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " استضعفوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة " آمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " تعلمون . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " إنا . . . مؤمنون " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أرسل . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(76) (قال الذين استكبروا) مثل قال الملأ الذين استكبروا " 1 " ، (إنّا) مثل المتقدم (بالذي) مثل للذين متعلّق بـ (كافرون) ، (آمنتم) فعل ماض مبني على السكون . . . و(تم) ضمير فاعل (به) مثل المتقدم متعلّق بـ (آمنتم) ، (كافرون) خبر إن مرفوع وعلامة الرفع الواو .

---

(1) في الآية (66) من هذه السورة .

وجملة " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " استكبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " إنا . . . كافرون " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " آمنتم به " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

(77) (الفاء) استئنافية (عقروا) مثل قالوا (الناقة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (عتوا) مثل قالوا ، والبناء على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (عن

أمر) جار ومجرور متعلّق بـ (عتوا) ، (رب) مضاف إليه مجرور و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (قالوا) مثل الأول (يا) أداة نداء (صالح) منادى مفرد علم مبني على الضم في محلّ نصب (ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) مرّ إعراب نظيرها " 1 " .

وجملة " عقروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " عتوا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة النداء " يا صالح " في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

وجملة " ائتنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " تعدنا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " كنت من المرسلين " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي : إن كنت من المرسلين فأتنا بما تعدنا .

---

(1) في الآية (70) من هذه السورة .

(2) يجوز أن تكون الجملة اعتراضيّة ، وجملة ائتنا . . . مقول القول .

(78) (الفاء) عاطفة (أخذت) مثل جاءت و(هم) ضمير مفعول به (الرجفة) فاعل مرفوع (الفاء) عاطفة (أصبحوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على الضم . . . والواو ضمير اسم أصبح " 1 " ، (في دار) جار ومجرور متعلّق بجاثمين و(هم) ضمير مضاف إليه (جاثمين) خبر أصبح منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة " أخذتهم الرجفة " لا محلّ لها معطوفة على جملة عقروا الناقة .

وجملة " أصبحوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذتهم الرجفة .

(79) (الفاء) عاطفة (تولى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي صالح (عن) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (تولى) ، (الواو) عاطفة (قال) مثل الأول (يا قوم) مثل الأولى " 2 " (اللام) لام القسم لقسم مقدر (قد) حرف تحقيق (أبلغت) مثل آمنتم و(كم) ضمير مفعول به (رسالة) مفعول به ثان منصوب (ربي) مثل ربهم " 3 " (الواو) عاطفة (نصحت) مثل آمنتم (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (نصحت) (الواو) عاطفة (لكن) حرف للاستدراك لا عمل له (لا) نافية (تحبون) مثل تتخذون (الناصحين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة " تولى عنهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أصبحوا .

---

(1) يجوز أن يكون الفعل تامّا ، والواو فاعلا ، و(جاثمين) حالا .

(2) في الآية (73) من هذه السورة .

(3) في الآية 77 من هذه السورة .

وجملة " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (تولى) " 1 " .

وجملة " يا قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

وجملة " أبلغتكم . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدر ، وجملة القسم المقدرة جواب النداء .

وجملة " نصحت لكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة " لا تحبون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نصحت .

الصرف :

(ناقة) ، اسم جامد معروف ، والألف منقلبة عن واو ، جمعه ناق ونوق وأنوق وأنؤق وأونق وأينق ونياق وناقات وأنواق ، وجمع الجمع أيانق ونياقات .

(سهول) ، جمع سهل ، اسم جامد للأرض المنبسطة ، وهو في الأصل صفة مشتقة سمي به

اسم ذات وزنه فعل ، ووزن سهول فعول بضم الفاء .

(قصورا) ، جمع قصر ، اسم جامد للمنزل المنيف ، وهو في الأصل مصدر سمي به اسم ذات ، وزنه فعل بفتح فسكون ، ووزن قصور فعول بضم الفاء .

(عتوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله عتاوا ، التقى ساكنان : الألف والواو ، حذفت الألف وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة عليها ، وزنه فعوا .

(الرجفة) ، مصدر مرة من رجف يرجف باب نصر ، وزنه فعلة بفتح

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حالية بتقدير (قد) . [. . . . .]

(2) يجوز أن تكون الجملة اعتراضيّة ، وجملة أبلغتكم مقول القول .

الفاء وسكون العين .

(جاثمين) ، جمع جاثم ، اسم فاعل من جثم الثلاثي ، وزنه فاعل .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى " فَعَقَرُوا النَّاقَةَ " .

حيث أسند العقر إلى الجميع والعاقر لها واحد يسمى قدار . فعلاقة هذا المجاز العموم .

الفوائد

2 - ولكن لا تحبون الناصحين .

معنى " لكن " الاستدراك والتوكيد .

وإذا خففت " لكنّ " أهملت وبطل عملها عند الجمهور وخالفهم يونس والأخفش فأجاز إعمالها . وإذا جاء بعد إنّ أو إحدى أخواتها ظرف أو جار ومجرور كان اسمها مؤخرا فلينتبه إليه خشية الوقوع في الخطأ .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 80 إلى 84]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (لوطا) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 1 " ، (إذ) اسم ظرفي بدل من (لوطا) في محلّ نصب (قال) فعل ماض ، والفاعل هو (لقوم) جار ومجرور متعلق بـ (قال) ، و(الهاء) ضمير في محلّ جر مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام الإنكاري التوبيخي (تأتون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (الفاحشة) مفعول به منصوب (ما) نافية (سبق) مثل

قال و(كم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف حال من أحد أي متلبسا بها (من) حرف جر زائد (أحد) مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل سبق (من العالمين) جار ومجرور متعلق بنعت لأحد .

جملة " (اذكر) لوطا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " قال . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " تأتون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ما سبقكم . . . أحد " : في محلّ نصب حال من الفاعل في (تأتون) ، أي : مبتدئين بها ، أو من الفاحشة أي : غير مسبوقة من غيركم " 2 " .

(81) (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة للتوكيد (تأتون) مثل الأول (الرجال) مفعول به منصوب (شهوة) مفعول لأجله منصوب " 3 " ، (من دون) جارّ ومجرور في

---

(1) جاء في حاشية الجمل : " لم يقدّر هنا أرسلنا ، لأن الإرسال لم يكن وقت قوله المذكور ، فالظرف هنا مانع من تقدير الإرسال . . . " اه .

(2) يجوز قطعها على الاستئناف فلا محلّ لها

(3) أو مصدر في موضع الحال أي مشهين . . وإذا قدّر (تأتون) بمعنى تشتهون فيكون (شهوة) مفعولا عن المصدر فهو اسم مصدر .

محلّ نصب حال من الرجال أي متجاوزين بفتح الواو ، أو من الفاعل أي متجاوزين بكسر الواو (النساء) مضاف إليه مجرور (بل) حرف إضراب وابتداء (أنتم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (قوم) خبر مرفوع (مسرفون) نعت لقوم مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة " إنّكم لتأتون . . . . " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة " تأتون . . . " : في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " أنتم قوم . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

(82) (الواو) استئنافيّة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – (جواب) خبر كان مقدّم منصوب (قوم) مضاف إليه مجرور و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إلّا) حرف للحصر (أن) حرف مصدري (قالوا) فعل ماض مبني على الضمّ . . والواو فاعل (أخرجوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به (من قرية) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخرجوا) ، و(كم) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن قالوا . . .) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر .

(إنّهم) مثل إنّكم (أناس) خبر إنّ مرفوع (يتطهرون) مثل تأتون .

وجملة " وما كان جواب . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " قالوا . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (أن) الحرفيّ .

وجملة " أخرجوهم . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " إنّهم أناس . . . " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " يتطهّرون " : في محلّ رفع نعت لأناس .

(228/278)

---

(83) (فأنجيناه وأهله) مرّ اعراب نظيرها " 1 " ، (إلا) حرف للاستثناء (امرأة) مستثنى بإلّا منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (كانت) فعل ماض ناقص – ناسخ – ، و(التاء) للتأنيث ، واسمه ضمير مستتر تقديره هي (من الغابرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كانت ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة " أنجيناه . . . " : معطوفة على جملة مستأنفة مقدّرة أي :

أرادوا إخراجه فأنجيناه أو همّوا بإخراجه فأنجيناه .

وجملة " كانت من الغابرين " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(84) (الواو) حاليّة " 2 " ، (أمطرنا) مثل أنجينا (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ

جرّ متعلّق بـ (أمطرنا) بتضمينه معنى أرسلنا (مطرا) .

مفعول به منصوب (الفاء) استئنافيّة (انظر) فعل أمر والفاعل أنت (كيف) اسم استفهام مبني في محلّ نصب خبر كان مقدّم (كان) مثل الأول (عاقبة) اسم كان مرفوع (المجرمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة "أمطرنا . . . " : في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة "انظر . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة "كان عاقبة المجرمين" : في محلّ نصب مفعول به لفعل انظر المعلّق بالاستفهام كيف .

الصرف :

(جواب) ، اسم مصدر لفعل أجاب ، وزنه فعال بفتح

---

(1) في الآية (72) من هذه السورة .

(2) جاء الإمطار قبل الإنجاء إذ أمطروا أوّلا ثم كانت نجاة لوط وأهله ، ولهذا كان من المناسب أن تكون الجملة حاليّة . . ويجوز أن تكون مقطوعة على الاستئناف .

الفاء .

(الغابرين) ، جمع الغابر اسم فاعل من غبر الثلاثيّ بمعنى بقي أو مكث ، وزنه فاعل .

(مطرا) ، اسم جامد لماء السحاب ، هو على وزن المصدر ولكنه قصد به اسم الذات ، وزنه فعل بفتحتين .

الفوائد

1 - بل تكون للإضراب والعطف والعدول عن حكم إلى آخر وذلك إذا وقعت بعد كلام مثبت وتكون للاستدراك مثلها مثل " لكن " إذ جاءت بعد نفي أو نهي .

وإن تلتها جملة لم تكن للعطف بل تكون حرف ابتداء ويفيد الاضراب الابطالي أو الانتقالي :

فالابطالي كقوله تعالى : وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ . بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ .

والانتقالي : نحو ما ورد في هذه الآية التي نحن بصددها " بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ " .

1 - ممن فرّق بين الثلاثي (مطر) والرباعي (أمطر) الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط فقال : أمطرهم الله لا يقال الا في العذاب ، وفي ذلك خلاف . . . !

[سورة الأعراف (7) : الآيات 85 إلى 87]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ

وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87)

الإعراب :

(230/278)

(وإلى مدين أخاهم . . . من إله غيره) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (قد جاءتكم بيّنة من ربّكم) مرّ إعرابها " 2 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (أوفوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (الكيل) مفعول به مصوب (الواو) عاطفة (الميزان) معطوف على الكيل منصوب (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تبخسوا) فعل مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (الناس) مفعول به منصوب (أشياء) مفعول به ثان منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا تفسدوا) مثل لا تبخسوا (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تفسدوا) ، (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تفسدوا) ، (إصلاح) مضاف إليه مجرور و(ها) ضمير في محلّ جرّ

---

(1) في الآية (65) من هذه السورة .

(2) في الآية (73) من هذه السورة .

مضاف إليه (ذلكم) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ . . و(اللام) للبعد و(كم) حرف خطاب (خير) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خير) ، (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على السكون . و(بم) ضمير اسم كان ، وهو في محلّ جزم فعل الشرط (مؤمنين) خبر كنتم منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة " (أرسلنا) إلى مدين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " قال . . . " : في محلّ نصب حال بتقدير (قد) " 1 " .

وجملة " النداء وجوابها . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " اعبدوا . . . " : لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " ما لكم من إله غيره " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " قد جاءتكم بينة " : لا محلّ لها استئناف في حيّز قول شعيب .

وجملة " أوفوا الكيل " : في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن آمنتم بالبيّنة فأوفوا . . . . " 2 " .

وجملة " لا تبخسوا . . " : معطوفة على جملة أوفوا الكيل .

وجملة " لا تفسدوا . . . " : معطوفة على جملة أوفوا الكيل .

وجملة " ذلكم خير لكم " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " كنتم مؤمنين " : لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط

---

(1) أو هي استئناف بيانيّ لا محلّ لها .

(2) يجوز أن تكون الفاء لربط المسبب بالسبب فتعطف جملة أوفوا الإنشائيّة على جملة جاءتكم الخبرية .

محذوف دلّ عليه معنى ما سبق أي : إن كنتم مؤمنين فافعلوا ذلك الخير " 1 " .

(86) (الواو) عاطفة (لا تقعدوا) مثل لا تبخسوا (بكل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقعدوا) " 2 " ، (صراط) مضاف إليه مجرور (توعدون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (تصدون) مثل توعدون (عن سبيل) جارّ ومجرور

متعلّق بـ (تصدّون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (من) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (آمن) فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (آمن) ، (الواو) عاطفة (تبغون) مثل توعدون و(ها) ضمير مفعول به (عوجا) مصدر في موضع الحال أي معوجّة منصوب (الواو) عاطفة (اذكروا) مثل أوفوا (إذ) ظرف مبني في محلّ نصب على الظرفية متعلّق بمحذوف هو مفعول الفعل اذكروا . . أي اذكروا نعمة اللّه في هذا الوقت " 3 " ، (كنتم) مثل الأول (قليلا) خبر كنتم منصوب (الواو) عاطفة (كثّر) فعل ماض ، والفاعل هو أي اللّه و(كم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (انظروا) مثل أوفوا (كيف كان عاقبة المفسدين) مثل كيف كان عاقبة المجرمين " 4 " .

وجملة " لا تقعدوا : في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تفسدوا . .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة اعتراضيّة بين متعاطفين أي بين جملة لا تفسدوا . . . وبين جملة لا تقعدوا في الآية التالية .

(2) والباء للإلصاق ، أو للظرفيّة . . ويجوز أن تكون للمصاحبة فالتعليق بمحذوف حال من الفاعل أي متلبّسين بكلّ صراط .

(3) يجوز نصب (إذ) على المفعوليّة حيث يقع الذكر على الوقت الذي يتحدّث عنه .

(4) في الآية (84) من هذه السورة . [. . . . .]

وجملة " توعدون " : في محلّ نصب حال من فاعل تقعدوا .

وجملة " تصدّون " : في محلّ نصب معطوفة على جملة توعدون .

وجملة " آمن " : لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " تبغونها . . . " : في محلّ نصب معطوفة على جملة توعدون .

وجملة " اذكروا " : في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تقعدوا .

وجملة "كنتم قليلا " : في محلّ جرّ بإضافة (إذ) إليها .

وجملة "كثّركم " : في محلّ جرّ معطوفة على جملة كنتم قليلا .

وجملة " انظروا . " : معطوفة على جملة اذكروا .

وجملة "كان عاقبة . . . " : في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام كيف .

(87) (الواو) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (كان) فعل ناقص – ناسخ – مبني في محلّ جزم فعل الشرط (طائفة) اسم كان مرفوع (من) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لطائفة (آمنوا) فعل ماض مبني على الضمّ . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ (الذي) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بـ (آمنوا) ، (أرسلت) فعل ماض

مبني للمجهول مبني على السكون . . و(التاء) ضمير نائب الفاعل (به) مثل الأول متعلّق بـ (أرسلت) " 1 " ، (الواو) عاطفة (طائفة) معطوف على اللفظ الأول ، وقد حذف نعته لدلالة نعت الأول عليه (لم) حرف نفي وقلب وجزم (يؤمنوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل

---

(1) أو بمحذوف حال من النائب الفاعل في (أرسلت) .

(234/278)

(الفاء) رابطة لجواب الشرط (اصبروا) مثل أوفوا (حتى) حرف غاية وجرّ (يحكم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد (حتّى) ، (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (بين) ظرف منصوب متعلق بـ (يحكم) ، و(نا) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤول (أن يحكم اللّه) في محل جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (اصبروا) .

(الواو) حاليّة (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (خير) خبر مرفوع (الحاكمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة " آمنوا . " : في محلّ نصب خبر كان .

وجملة " أرسلت به " : في محلّ نصب معطوفة على جملة آمنوا .

ومتعلّق الفعل محذوف دلّ عليه متعلّق الفعل السابق أي لم يؤمنوا بالذي أرسلت به .

وجملة " اصبروا " : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " يحكم اللّه " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة " هو خير . . . " : في محلّ نصب حال " 1 " .

الصرف :

(مدين) اسم علم لمدينة بعينها وزنه فعيل بفتح الفاء والياء بينهما عين ساكنة ولم تعل الياء لسكون ما قبلها .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة استئنافا بيانيا فلا محلّ لها .

الفوائد

- أبو العلاء ولزوم ما لا يلزم في هذه الآية لفظتان " قريتنا وملتنا " وقد انتهت كل منهما بنفس الحرفين التاء والنون ، وهو ضرب من المحسنات اللفظية عضّ عليه الشعراء والكتاب بالنواجذ حتى وصل إلى عصر المعري وإذا به مذهب من التصنع وليس من

الصنعة ومع ذلك فقد اتخذه المعري خطة ملتزمة في ديوانه " اللزوميات " وقد بلغ أبو العلاء من الالتزام في لزومياته ما لم يبلغه شاعر قط ، فقد التزم في احدى قصائده أربعة أحرف والتزم في أخرى خمسة أحرف منها : ضرائرهم ، وسرائرهم ، وصرائرهم .

الا إنه لكشف عن إمكانات لغتنا وثروتها في المفردات . ولكن شهد الله إنه لمقتلة للذوق الشعري وتصنع لا يغني ولا يفيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 8 صـ 354 .

474 ﴾

(236/278)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(7) سورة الأعراف

مكيّة وآياتها ستّ ومائتان

[سورة الأعراف (7) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (1) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2)

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (3)

اللغة :

(المص) : تقدم القول مفصلا في سورة البقرة عن فواتح السّور ، ونضيف إليه الآن ما أورده السيوطي في إحدى رواياته ، ومؤدّاه أن هذه الحروف صوت الوحي عند أول نزوله على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كألا وأما ، ، لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم ، والقرآن كلام لا يشبه الكلام ، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد ، لتكون أبلغ في قرع الأسماع . وذكر أيضا أن العرب إذا سمعوا القرآن لغوا فيه ، فأنزل اللّه هذا النظم البديع ليعجبوا منه ، ويكون تعجبهم منه سبيلا لاستمالتهم ، وسماعهم له سبيلا لاستماع ما بعده فترقّ القلوب ، وتلين الأفئدة . وفي هذا الذي أورده السيوطي الكثير من الحصافة ، ودقة النظر ، فالنفس إلى المعجب أهشّ ، وإلى المفاجئ غير المألوف المعتاد أشوق .

الاعراب :

(المص كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) : المص :

تقدم إعراب فواتح السور في سورة البقرة ، فجدّد به عهدا . وكتاب خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هو كتاب ، وجملة أنزل إليك صفة لكتاب ، وإليك جار ومجرور متعلقان بأنزل ، والفاء عاطفة لتأكيد المبالغة في النهي عن الجرح ، وهو هنا الشك والامتراء ، والنهي عن السبب نهي عن المسبب بالطريق البرهاني ، فالمراد نهيه عما يورث الحرج . ولا ناهية ، ويكن فعل مضارع مجزوم بلا ، وفي صدرك جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكن المقدم ، وحرج اسمها المؤخر ، ومنه جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لحرج ، فمن الجارة سببية

(لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) اللام للتعليل ، وتنذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بأنزل ، وبه جار ومجرور متعلقان بتنذر ، وذكرى : يحتمل أن تكون معطوفة على " لتنذر " ، وامتنع نصبه على المفعولية لأجله لاختلاف زمنه مع زمن المعلل ، ولاختلاف الفاعل ، ففاعل الإنزال هو اللّه ، وفاعل الإنذار هو النبي ، ويجوز عطفه على محل " لتنذر " ، على غرار عطف الحال

الصريحة على الحال المؤوّلة ، كقوله تعالى " . . . دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما " ، ويجوز رفع " ذكرى " على أنها خبر لمبتدأ محذوف أو العطف على "كتاب " ، وقد سها أبو البقاء فأجاز أن تكون حالا ، وهذا لا يجوز لدخول الواو على حال صريحة . ويجوز جره عطفا على المصدر المؤول من أن المقدرة والفعل ، والتقدير : للإنزال والتذكير .

و قال الكوفيون : هو مجرور عطفا على الضمير في " به " ، وللمؤمنين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لذكرى (اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) كلام مستأنف مسوق لمخاطبة المكلفين عامة ، وخاصة الكافرين ، بدليل قوله : ولا تتبعوا من دونه أولياء . واتبعوا فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعل ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة أنزل صلة الموصول ، وإليكم جار ومجرور متعلقان بأنزل ، ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الموصول (وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ) الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتتبعوا فعل مضارع مجزوم بلا ، ومن دونه جار ومجرور متعلقان بتتبعوا ، أو بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لأولياء وتقدمت ، وأولياء مفعول به ، وقليلا نعت لمصدر محذوف ، أي تذكرا قليلا ، أو نعت لزمان ، أي زمانا قليلا ، وما مزيدة للإيغال في التوكيد للقلة ، وتذكرون : أصله تتذكرون ، فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه ، وعلامة رفعه ثبوت النون ، والواو فاعل .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 4 إلى 7]

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (4) فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (5) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ (7)

اللغة :

(بَياتاً) أي : ليلا ، وهو في الأصل مصدر ، يقال : بات يبيت ويبات بيتا وبيتة وبياتا وبيتوتة ومبيتا ومباتا من بابي فتح وجلس في المكان : أقام فيه الليل .

)

(239/278)

قائِلُونَ) نائمون وقت الظهيرة ، والقيلولة هي نوم نصف النهار أو استراحة نصفه ، وإن لم يكن معها نوم . وهذا مقيل طيب ، وهو شروب للقيل ، وهو شراب القائلة : وهي نصف النهار . وقالت أمّ تأبّط شرّا : " ما سقيته غيلا ، ولا حرمته قيلا " ، وهي رضعة نصف النهار . واقتال الرجل كما تقول : اصطبح واغتبق .

الاعراب :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة للتحدث عن الأمم الماضية ، وماذا كان مصيرها ؟ بسبب إعراضها عن الحق وصدوفها عن استماع تعاليمه .

وكم خبرية في موضع رفع على الابتداء ، ومن قرية تمييز كم الخبرية ، وقد تقدّم حكمه ،

وجملة أهلكناها خبر "كم" . ويجوز إعراب "كم" على أنها في موضع نصب على الاشتغال بإضمار فعل يفسره

(240/278)

ما بعده ، وجملة أهلكناها لا محل لها لأنها مفسرة ، والفاء عاطفة للترتيب والتعقيب ، وسيأتي بحث طريف عنها في باب الفوائد ، وجاءها بأسنا فعل ومفعول به وفاعل ، والجملة معطوفة على أهلكناها ، وبياتا يجوز أن يكون ظرفا باعتبار المعنى ، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال ، بمعنى بائتين ، وعليه أكثر المعربين ، والأول أمكن في المعنى ، والثاني أقيس في الإعراب . وأو حرف عطف ، وهم مبتدأ ، وقائلون خبر ، والجملة معطوفة على " بياتا " ، فهي حالية . وهنا يرد اعتراض وهو : كيف أتت الجملة حالية من دون واو ؟ إذ لا يقال : جاءني زيد هو فارس ، بغير واو ؟ والجواب سيأتي في باب الفوائد (فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا) الفاء استئنافية ، وما نافية ، وكان واسمها ، وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بدعواهم ، وجملة جاءهم بأسنا في محل جر بالإضافة (إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ) إلا أداة حصر ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر كان ، وإن واسمها ، وجملة كنا ظالمين خبر إن ، وجملة إنا وما في حيزها في محل نصب مقول القول (فَلَنَسْئَلَنَّ

الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) الفاء عاطفة ، والمقصود منها ترتيب الأحوال الأخروية على الأحوال الدنيوية في الذكر حسب ترتيبها عليها في الوجود . واللام موطّئة للقسم ، ونسألن فعل مضارع مبني على الفتح لاقترانه بنون التوكيد الثقيلة وجوبا ، كما ستعلم في باب الفوائد ، والفاعل مستتر تقديره نحن وجملة لنسألنّ معطوفة والذين اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة أرسل صلة الموصول ، وهو بالبناء للمجهول ، ونائب الفاعل الجار والمجرور وهو إليهم ، ولنسألن المرسلين عطف على ما تقدم .

(241/278)

و معنى سؤل المرسل إليهم التسجيل على الكفار إحجامهم عن الاستماع لما قالوه لهم وأبلغوهم إياه (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) عطف على ما تقدم ، وعليهم جار ومجرور

متعلقان بنقصنّ ، أي : على كل من الرسل والمرسل إليهم ما كان من أمرهم ، وبعلم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل نقصنّ ، أي : عالمين بمكنونات أحوالهم ، ومنطويات سرائرهم ، وما ندّت عنه شفاههم . والواو للحال ، وما نافية ، وكان واسمها ، وغائبين خبرها ، والجملة في محل نصب على الحال . وجميع هذه الأسئلة والقصص للتوبيخ

والتقريع كما يفعل المحقق مع المجرم لإدانته بما فعلته يداه أمامه .

البلاغة :

المجاز المرسل بقوله وكم من قرية أهلكناها فقد ذكر القرية وأراد أهلها ، وهو مجاز علاقته المحلية . وقد تقدمت له نظائر .

الفوائد :

واو الحال :

هي واو يصحّ وقوع الظرف موقعها ، ولها ثلاث أحوال : وجوب الذكر وامتناعه وجوازه .

وفيما يلي مواقع تلك الأحوال :

1- وجوب الذّكر :

آ- أن تكون جملة الحال اسمية مجردة من ضمير يربطها بصاحبها ، نحو قوله تعالى : " لئن أكله الذئب ونحن عصبة " .

ب- أن تكون جملة الحال مصدرة بضمير صاحبها ، نحو :

" لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى " .

2- امتناع الذكر في سبع صور :

آ- أن تقع بعد عاطف نحو : " وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون " .

ب- أن تكون مؤكدة لمضمون الجملة قبلها نحو : " ذلك الكتاب لا ريب فيه " إذا أعربنا

جملة " لا ريب " حالية .

ج- أن تكون ماضية بعد إلا نحو : " وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون " .

د- أن تكون ماضية قبل " أو " نحو :

كن للخليل نصيرا جاد أو عدلا ولا تشحّ عليه جار أم بخلا

ه- أن تكون مضارعة مثبتة غير مقترنة ب " قد " ، وحينئذ تربط بالضمير وحده ، نحو : " ولا تمنن تستكثر " . وأما قول عنترة :

(242/278)

علقتها عرضا وأقتل قومها قسما لعمر أبيك ليس بمزعم

فجملة : " وأقتل قومها " حال من التاء في " علقتها " ، وهي مقترنة بالواو مع المضارع المثبت ، واختلف في تخريجها ، فقيل :

ضرورة ، وقيل : الواو عاطفة ، والمضارع مؤوّل بالماضي ، والتقدير :

وقتلت قومها ، فعدل عن لفظ الماضي إلى لفظ المضارع لحكاية الحال الماضية ، ومعناها أن يفرض ما كان في الزمن الماضي واقعا في هذا الزمان ، فيعبر عنه بلفظ المضارع . وقيل : هي واو الحال ، والمضارع خبر مبتدأ محذوف ، أي : وأنا أقتل قومها .

و- أن تكون مضارعة منفية ب " ما " ، نحو قوله :

عهدتك ما تصبو وفيك شبيبة فما لك بعد الشّيب صبّا متيّما

ز- أن تكون مضارعة منفية ب " لا " نحو : " وما لنا لا نؤمن باللّه " ، فإن كانت الجملة المضارعة منفية ب " لم " جاز ارتباطها بالواو كقول النابغة :

سقط النّصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتّقتنا باليد

وجاز عدم ارتباطها بها ، ولكن بالضمير وحده ، نحو : " فانقلبوا بنعمة من اللّه وفضل لم يمسسهم سوء " ، وقول زهير :

كأنّ فتات العهن في كلّ موطن نزلن به حبّ الفنا لم يحطّم

وإن كانت منفية ب " لما " فالمختار ربطها بالواو نحو : " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين " ، وقول الشاعر :

أشوقا ولما يمض لي غير ليلة فكيف إذا جدّ المطيّ بنا عشرا

3- جواز الذكر وعدمه :

وذلك في غير ما تقدم من صور وجوبها وامتناعها . وهناك تفاصيل أعرضنا عنها ، يرجع إليها من شاء في كتب النحو المفصلة .

إذا عرفت هذا أدركت أن اعتراض الزمخشري غير وارد ، وإليك التفصيل .

مناقشة ممتعة :

ما يقوله الزمخشري :

(243/278)

ويقول الزمخشري : " فإن قلت : يقال : " جاء زيد هو فارس " بغير واو فما بال قوله تعالى : " أو هم قائلون " ؟ قلت : قدّر بعض النحويين الواو المحذوفة ، ورده الزّجّاج وقال : لو قلت : جاءني زيد راجلا أو هو فارس ، أو جاءني زيد هو فارس ، لم يحتج فيه إلى واو ، لأن الذكر قد عاد إلى الأول . والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حذفت الواو استثقالا لاجتماع حرفي عطف ، لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل ، فقولك : جاز زيد راجلا ، أو هو فارس ، كلام فصيح وارد على حدّه . وأما : جاءني زيد هو فارس ، فخبيث " .

ردّ أبي حيّان على الزمخشري والزجاج :

وقد رد أبو حيان يقول : " فأما بعض النحويين الذي اتهمه الزمخشري فهو الفراء ، وأما قول الزمخشري في التمثيلين : لم يحتج فيه إلى الواو لأن الذكر قد عاد إلى الأول ، ففيه إيهام ، وتعيينه لم يجز دخولها في المثال الثاني ، فانتفاء الاحتياج ليس على حدّ سواء ، لأنه في

الأول لامتناع الدخول ، وفي الثاني لكثرة الدخول ، ولا لامتناعه .

وأما قول الزمخشري : والصحيح إلى آخره ، فتعليله ليس بصحيح ، لأن واو الحال ليست حرف عطف فيلزم من ذكرها اجتماع حرفي عطف ، لأنها لو كانت للعطف للزم أن يكون ما قبل الواو حالا حتى يعطف حال على حال ، فمجيئها فيما لا يمكن أن يكون حالا دليل على أنها ليست واو عطف ولا لحظ فيها معنى العطف . تقول : جاءني زيد

(244/278)

و الشمس طالعة ، فجاء زيد ليس بحال ، فتعطف عليه جملة حال ، وإنما هذه الواو مغايرة لواو العطف بكل حال ، وهي قسم من أقسام الواو ، كما تأتي للقسم ، وليست فيه للعطف إذا قلت : واللّه لتخرجنّ . أما قوله : " فخبيث " فليس بخبيث ، وذلك أنه بناه على أن الجملة الاسمية إذا كان فيها ضمير ذي الحال فإن حذف الواو منها شاذ ، وتبع في ذلك الفراء ، وليس بشاذّ ، بل هو كثير وقوعه في القرآن وفي كلام العرب ، نثرها ونظمها ، وهو أكثر من رمل يبرين وفلسطين .

وقد ذكرنا كثرة مجيء ذلك في شرح التسهيل . وقد رجع الزمخشري عن هذا المذهب إلى مذهب الجماعة " .

تعقيب على كلام أبي حيان :

أقول : لا يخلو ردّ أبي حيان من تهافت ، فقد تعقب عليه بأن أصل الواو العطف ، ثم استعيرت لربط الحال بعاملها ، كما أن الفاء أصلها العطف ، ثم استعيرت لربط الجزاء بالشرط .

الفاء العاطفة :

الفاء للترتيب . وهو إما معنوي كما في : " قام زيد فعمرو " وهو أن يكون ما بعدها حاصلا بعد ما قبلها في الواقع . أو ذكريّ وهو عطف مفصّل على مجمل ، نحو : " فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه " . وهو أن يكون ما بعدها حاصلا بعد ما قبلها في اللفظ فقط ، وأما في الواقع فتارة يكون حاصلا معه في آن واحد أو قبل ما قبلها . وقال الفراء : إنها لا تفيد الترتيب مطلقا .

واحتج بقوله تعالى : " أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون " .

وأجيب بأن المعنى : أردنا إهلاكها . ولا شك أن إرادة الإهلاك قبل مجيء البأس ، فيكون ترتيبا ذكريا إذ هو بيان لقوله : " أهلكناها " إذ هو مجمل . والحاصل أن الجمهور يقولون بإفادتها الترتيب مطلقا ، والفراء يمنع ذلك مطلقا . وقال الجرمي : لا تفيد الترتيب في البقاع ولا في الأمصار ، بدليل : " بين الدخول فحومل " ، وقولهم : " مطرنا بنوء بمكان كذا "

فمكان كذا إذا كان وقوع الأمطار فيهما واحدا .

عودة الضمير :

(245/278)

قد أعربوا المضاف إليه بإعراب المضاف ، ولذلك عاد الضمير مؤنثا ومذكرا ، والمراد : وكم من أهل قرية ، ثم حذف المضاف الذي هو الأهل ، وعاد الضمير على الأمرين ، فأنّث في قوله : " فجاءها بأسنا " نظرا إلى التأنيث في اللفظ ، وهو القرية . وذكّر في قوله : " أو هم قائلون " ملاحظة للمحذوف ، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه فباشره العامل فانتصب انتصاب المفعول به ، وإن لم يكن إياه في الحقيقة كذلك أعطوه حكمه في غير الإعراب من التأنيث والتذكير ، فمن ذلك قول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفّق بالرحيق السلسل

والشاهد فيه تذكير الضمير الراجع إلى بردى ، وهو مؤنث .

والبريص موضع بأرض دمشق .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 8 إلى 10]

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ

فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (10)

اللغة :

(مَعايِشَ) في المصباح : عاش عيشا ، من باب سار : صار ذا حياة ، فهو عائش ، والأنثى عائشة ، وعيّاش أيضا مبالغة ، والمعيش والمعيشة مكسب الإنسان الذي يعيش به ، والجمع المعايش . هذا على قول الجمهور إنه من عاش ، فالميم زائدة ، ووزن معايش مفاعل ، فلا يهمز ، وبه قرأ السبعة . وقيل : هو من معش ، فالميم أصلية ، ووزن معيش ومعيشة فعيل وفعيلة ، ووزن معائش فعائل ، فيهمز . هذا وسيأتي في باب الفوائد مزيد بحث عن عدم همز معايش .

الاعراب :

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ) الواو استئنافية والكلام مستأنف لتقرير وزن الأعمال يوم القيامة بميزانها الحق الثابت الذي لا يطيش به الموزون ، لامتحان الخلق وإظهار حكم العدل ، وإقامة الحجة على الناس . والوزن مبتدأ ، وفي الخبر وجهان : أحدهما هو الظرف

" يومئذ " ، أي : الوزن الحق كائن أو مستقر يومئذ ، أي يوم يسأل الرسل والمرسل إليهم ، فحذفت الجملة المضاف إليها " إذ " وعوض منها التنوين . وقد تقدم بحث هذه المسألة . وفي الحق على هذا الوجه أوجه : منها أنه نعت للوزن ، أي الوزن الحق كائن في ذلك اليوم ، ومنها أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه جواب سؤال مقدر من قائل يقول :

(247/278)

ما ذلك الوزن ؟ فقيل : هو الحق لا الباطل ، وثاني الوجهين في خبر " الوزن " أن يكون الخبر " الحق " و " يومئذ " على هذا الوجه متعلق ب " الوزن " ، أي : يقع الوزن يومئذ (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الفاء استئنافية ، ومن اسم شرط جازم مبتدأ ، وثقلت فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، وموازينه فاعل ، والفاء رابطة لجواب الشرط ، واسم الاشارة مبتدأ ، وهم مبتدأ ثان ، والمفلحون خبر " هم " ، والجملة الاسمية خبر اسم الاشارة . ويجوز أن يكون " هم " ضمير فصل لا محل له ، والمفلحون خبر أولئك ، وجملة " فأولئك هم المفلحون " في محل جزم جواب الشرط ، وفعل الشرط وجوابه خبر " من " (وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) الجملة عطف على الجملة المتقدمة ، وأولئك اسم إشارة مبتدأ ، والذين اسم موصول خبر ، والجملة جواب الشرط الجازم

المقترن بالفاء ، وجملة خسروا أنفسهم صلة الموصول ، وأنفسهم مفعول به (بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ) الجار والمجرور متعلقان بخسروا ، وبآياتنا جار ومجرور متعلقان بيظلمون ، وقد تعدى يظلمون بالباء لتضمنه معنى التكذيب . وسيأتي المزيد عن التضمين في باب الفوائد . وما مصدرية ، وجملة كانوا لا محل لها لوقوعها بعد موصول حرفي ، وجملة يظلمون خبر كانوا (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق لتذكيرهم بما

أفاض عليهم من النعم التي تستوجب الشكر ، ولكنهم لم يقابلوها بما يستوجب ، واللام جواب قسم محذوف ، وقد حرف تحقيق ، ومكناهم فعل ماض وفاعل ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بمكناهم ، وجعلنا فعل وفاعل ، ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف مفعول جعلنا الأول ، ومعايش مفعول جعلنا الثاني ، وفيها جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ) قليلا نعت لمصدر محذوف أو لظرف محذوف ، وقد تقدمت نظائره . وما زائدة لتأكيد القلة ، وتشكرون فعل مضارع مرفوع وفاعل ، والجملة حالية أو مستأنفة .

الفوائد :

1- التضمين :

هو إشراب لفظ معنى لفظ ، فيعطى حكمه ، ويسمى ذلك تضمينا .

وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدّى كلمتين . هذا ما قاله ابن هشام ، واستشهد على ذلك بقول الزمخشري " ألا ترى كيف رجع معنى " ولا تعد عيناك عنهم " إلى قولك : ولا تقتحم عيناك مجاوزين إلى غيرهم ، " ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم " أي : ولا تضموها إليها آكلين " .

وواضح أن هذا ثراء لفظي ، يزيد في مرونة لغتنا ، وسعة تصرفها ، ولهذا آثرناه بالإشارة .

رأي ابن جنّي :

وقال ابن جني في الخصائص : " إن العرب قد تتوسع فتوقع أحد الحرفين موقع الآخر ، إيذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر

فقط ، وعلى هذا فالتضمين مجاز مرسل ، لأنه استعمل اللفظ في غير معناه لعلاقة بينهما وقرينة " .

رأي آخر :

وقيل تعقيبا على قول ابن جني : إن فيه جمعا بين الحقيقة والمجاز ، لدلالة المذكور على معناه بنفسه وعلى المحذوف بالقرينة .

رأي العزّ بن عبد السلام :

وقال العز بن عبد السلام في كتابه " مجاز القرآن " التضمين :

(249/278)

هو أن يضمن اسم معنى آخر لإفادة معنى الاسمين ، فتعديه تعديته في بعض المواضع ، كقوله : " حقيق على أن لا أقول على اللّه إلا الحق " فيضمّن " حقيق " معنى حريص ، ليفيد أنه حريص عليه ، ويضمن معنى فعل ، فتعديه تعديته في بعض المواضع ، كقول الشاعر " قد قتل اللّه زيادا عنّي " ضمن " قتل " معنى صرف ، لإفادة أنه صرفه حكما بالقتل دون ما عداه من الأسباب ، فأفاد معنى القتل والصرف جميعا .

وسيأتي من آيات اللّه غرائب في التضمين ، ولهذا نجتزئ بما قدمناه عنه الآن .

2- إبدال الهمز من الواو والياء :

1- أن تتطرّف إحداهما وهي لام أو زائدة للإلحاق بعد ألف زائدة ، نحو : كساء وسماء ودعاء ، فالهمزة فيهما مبدلة عن واو ،

والأصل كساو وسماو ودعاو ، ونحو : بناء وظباء وفناء ، فالهمزة فيهنّ مبدلة عن ياء ، والأصل : بناي وظباي وفناي .

2- أن تقع إحداهما عينا لاسم فاعل أعلت فيه ، نحو : قائل وبائع ، فقلبوا عينهما ألفا .

3- أن تقع إحداهما بعد ألف " مفاعل " ، وقد كانت مدة زائدة في الواحد ، نحو : عجوز وعجائز ، وصحيفة وصحائف ، بخلاف نحو :

قسورة وقساور ، ومعيشة ومعايش ، لأن المدة أصلية في الواحد فلا تبدل وشذّ : مصيبة ومصائب ومنارة ومنائر ، بالإبدال ، مع أن المدة في الواحد أصلية .

4- أن تقع إحداهما ثاني حرفين لينين بينهما ألف مفاعل ، سواء كان اللينان ياءين كنيائف جمع نيف ، أو واوين كأوائل جمع أول ، أو مختلفين كسيائد جمع سيد ، إذ أصله سيود ، اجتمعت فيه الواو والياء ، وسبقت إحداهما فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء .

وهذا المبحث طويل ، وقد اختصرناه جهد الإمكان .

آراء في قراءة الهمزة :

إذا عرفت هذا فاعلم أنه قرأ الأعرج وزيد بن علي والأعمش وخارجة عن نافع وابن عامر في رواية : " معائش " بالهمز ، وليس بالقياس كما تقدم ، ولكن هؤلاء رووه وهم ثقات ، فوجب قبوله .

و لذلك نورد بعض آراء علماء اللغة :

الزّجّاج :

قال الزجاج : جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ ، ولا أعلم لها وجها إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ، ولا ينبغي التعويل على هذه القراءة .

المازنيّ :

وقال المازني : أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ، ولم يكن يدري ما العربية ، وكلام العرب التصحيح في نحو هذا .

الفرّاء :

وقال الفراء : ربما همزت العرب هذا وشبهه ، يتوهمون أنها فعلية فيشبهون مفعلة بفعيلة .

أبو حيّان :

أما أبو حيان فقد دافع عنها فقال : لسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة . ورد على المازني فقال : وأما قوله : إن نافعا لم يكن يدري ما العربية ، فشهادة على النفي . إلى آخر تلك المناقشة المفيدة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 11 إلى 12]

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ

وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)

الاعراب :

)

(251/278)

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق للتذكير بالنعمة السارية من آدم إلى ذريته ، والتي تستوجب الشكران الدائم . واللام جواب قسم محذوف ، وقد حرف تحقيق ، وخلقناكم فعل وفاعل ومفعول به ، ثم حرف عطف للترتيب والمهلة ، وصورناكم عطف على خلقناكم ، وتوجيه الخطاب إلى المخاطبين مع أن المراد آدم هو تأكيد معنى الشكران للنعمة السابغة ، ثم قلنا للملائكة عطف على ما تقدم ، وللملائكة جار ومجرور متعلقان بقلنا ، واسجدوا فعل أمر ، والواو فاعل ، والجملة في محل نصب مقول القول ، ولآدم جار ومجرور متعلقان بقوله : اسجدوا (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) الفاء للترتيب مع التعقيب ، كأنما امتثلوا للأمر فور صدوره ، وسجدوا فعل وفاعل ، وإلا أداة استثناء وإبليس مستثنى من فاعل سجدوا ، وجملة لم يكن من الساجدين إما استئنافية كأنها جواب عن سؤال مقدر ،

ويجوز أن تكون حالية ، أي : إلا إبليس حال كونه ممتنعا من السجود ، ومن الساجدين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكن (قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ، وجملة منعك في محل رفع خبرها ، والمعنى : أي شيء منعك . وأن وما بعدها في

موضع نصب بنزع الخافض ، أي : ما منعك من السجود . وإذ ظرف ماض متعلق بتسجد ، أي : ما منعك من السجود وقت أمري إياك به .

(252/278)

و لا زائدة لتأكيد معنى النفي ، وجملة أمرتك في محل جر بالإضافة (قالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) جملة القول مستأنفة مسوقة لجواب إبليس عن السؤال الناشئ عن حكاية عدم سجوده ، وأنا مبتدأ ، وخير خبر ، ومنه جار ومجرور متعلقان بخير ، وجملة خلقتني لا محل لها لأنها مسوقة لتعليل ما ادعاه غرورا واستكبارا من فضله على آدم . ومن نار جار ومجرور متعلقان بخلقتني ، وجملة خلقتني من طين عطف على سابقتها .

البلاغة :

في قوله : " ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك " فنّ التوهيم ، وقد تقدم الإلماع إليه . أي أن يأتي المتكلم بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيفها أو تحريفها أو اختلاف إعرابها أو اختلاف معناها . فإن الظاهر ما منعك من السجود . والتأويل الذي يرد هذا الكلام أن العلماء قالوا : ما منعك أي : ما صيرك ممتنعا من السجود . وقد تقدم في آل عمران قوله في اختلاف الإعراب : " ثم لا ينصرون " ليبقى الفعل دالا على الحال والاستقبال . ومن توهيم التصحيف قول أبي الطيب المتنبي :

وإن الفيام التي حوله لتحسد أرجلها الأرؤس

فإن لفظة " الأرجل " أوهمت السامع أن المتنبي أراد القيام بالقاف ، ومراده الفيام ، وهي الجماعات ، لأن الفيام يصدق على أقل الجمع ، فتفوت المبالغة منه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 13 إلى 16]

قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16)

اللغة :

(الصَّاغِرِينَ) الصّغار بفتح الصاد : الذل والضيم . وقد صغر الرجل ، من باب طرب ، فهو صاغر ، والصاغر أيضا : الراضي بالضيم .

(أَنْظِرْنِي) : أخّرني .

الاعراب :

)

(253/278)

قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها) جملة القول استئنافية ، وفاهبط الفاء عاطفة لترتيب الأمر على ما ظهر من إبليس من المخالفة ، وفما الفاء عاطفة أيضا ، و" ما " نافية أيضا ، ويكون فعل مضارع تام لأنه متضمن معنى ينبغي أو يصح ، ولك جار ومجرور متعلقان بيكون لأنه متضمن معنى يصح ، وأن مع مدخولها في تأويل مصدر فاعل يكون ، وفيها جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) الفاء عاطفة ، لتأكيد الأمر بالهبوط ، وإن واسمها ، ومن الصاغرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، وجملة إن وما في حيزها في محل نصب حال ، أي : ذليلا صاغرا

(قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) جملة القول مستأنفة ، وجملة أنظرني في محل نصب مقول القول ، والى يوم جار ومجرور متعلقان بأنظرني ، وجملة يبعثون في محل جر بالإضافة ، ولهذا أعرب الظرف لإضافته لجملة معربة كما تقدم ، ويبعثون فعل مضارع مبني للمجهول ، والواو نائب

فاعل (قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ) جملة إنك من المنظرين في محل نصب مقول القول (قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) الجملة مستأنفة أيضا ، والفاء عاطفة ، والباء حرف جر للسببية ، وما مصدرية ، والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف ، ولا يجوز أن يتعلق الجار والمجرور ب " أقعدن " ، لأن لام القسم تصد عن ذلك ، لا نقول : والله لأمرن بزيد ، والمعنى : فبسبب إغوائك أقسم . ويجوز أن تكون الباء للقسم ، أي : فأقسم بإغوائك لأقعدن . وهي مع مجرورها متعلقان بفعله المحذوف ، واللام واقعة في جواب القسم المحذوف ، وأقعدن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، ولهم جار ومجرور متعلقان بأقعدن ، وصراطك نصب على الظرفية المكانية ، وسيأتي المزيد من إعرابها في باب الفوائد ، والمستقيم : صفة .

(254/278)

الفوائد :

قال سيبويه في كتابه : وانتصاب " صراطك " على الظرفية ، أي :

في صراطك المستقيم . وحكى سيبويه أيضا : ضرب زيد الظهر والبطن .

ورجح أبو حيان انتصابه بنزع الخافض .

عبارة أبي حيّان :

" وانتصب صراطك على إسقاط " على " ، قاله الزّجّاج ، وشبهه بقول العرب : " ضرب زيد الظهر والبطن " ، أي على الظهر والبطن .

وإسقاط حرف الجر لا ينقاس في مثل هذا ، لا يقال : " قعدت الخشبة " تريد على الخشبة . قالوا : وعلى الظرف ، كما قال الشاعر فيه : "كما عسل الطريق الثعلب " ، وهذا أيضا تخريج فيه ضعف ، لأن " صراطك " ظرف مكان مختصّ ، وكذلك الطريق ، فلا يتعدى إليه الفعل إلا بواسطة " في " ، وما جاء خلاف ذلك شاذ أو ضرورة " . إلى أن يقول :

" والأولى أن يضمن لأقعدنّ معنى ما يتعدّى بنفسه فينتصب " الصراط " على أنه مفعول به ، والتقدير : لألزمن بقعودي صراطك المستقيم .

الزمخشري وافق سيبويه :

أما الزمخشري فوافق سيبويه قال : " وانتصابه على الظرف كقول ساعدة بن جؤية يصف رمحا :

لدن بهز الكفّ يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

يصفه بأنه لين يضطرب صلبه بسبب هزه فلا يبس فيه كما عسل أي اضطرب الثعلب في الطريق . فحذف الجار من الثاني للضرورة .

وفي " عسل " معنى الدخول بسرعة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 17 إلى 18]

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

اللغة :

(مَذْؤُماً) في المختار : الذّأم : العيب يهمز ولا يهز ، يقال :

ذأمه من باب قطع إذا عابه وحقره ، فهو مذءوم .

(مَدْحُوراً) : دحره : طرده وأبعده ، وبابه قطع .

الاعراب :

)

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ) ثم حرف عطف للترتيب والمهلة ، واللام موطّئة للقسم ، وآتينهم : فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، والفاعل ضمير مستتر ، والهاء مفعول به ، ومن بين أيديهم جار ومجرور متعلقان

بآتينهم ، أي : لآتينهم من الجهات الأربع الي يأتي منها العدو ، ولكنه خالف بين حرفي الجر ، فجعل الفعل في الأولين يتعدى بمن ، وهي للابتداء ، وفي الأخيرين بعن ، وهي للمجاوزة ، لأنه يتوجه من الأولين وينحرف من الآخرين متجاوزا ، وسيأتي المزيد من التفصيل في باب البلاغة (وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ) الواو استئنافية أو عاطفة ، فالجملة بعدها مستأنفة أو معطوفة ، ولا نافية ، وتجد فعل مضارع إمّا من الوجود بمعنى اللّقاء فيتعدّى لواحد ، فيكون " أكثرهم " مفعولا به ، وشاكرين حالا ، وإما من الوجود بمعنى العلم فيكون قوله " شاكرين " مفعولا به ثانيا (قالَ : اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً) الجملة مستأنفة ، وأخرج فعل أمر ، ومنها جار ومجرور متعلقان باخرج ، ومذءوما مدحورا حالان من فاعل اخرج والجملة مقول القول (لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ) اللام هي الموطئة للقسم المحذوف ، ومن اسم شرط جازم في محل رفع ، وتبعك فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، ومنهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، ولأملأن اللام جواب القسم المدلول عليه بلام التوطئة ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه والجملة القسمية مستأنفة .

ويجوز أن تكون اللام لام الابتداء ، ومن اسم موصول في محل رفع مبتدأ ، وجملة تبعك صلة ، ولأملأن جواب قسم محذوف ، وذلك القسم وجوابه في محل رفع للمبتدأ ، والتقدير : للذي تبعك منهم والله لأملأن جهنم منكم ، وجهنم مفعول به ، ومنكم جار ومجرور متعلقان بأملأن ، وأجمعين تأكيد للضمير .

البلاغة :

في هذه الآية فن المخالفة بين حرفي الجر ، فقد ذكر الجهات الأربع ، لأنها هي التي يأتي منها العدوّ عدوّه ، ولهذا ترك جهة الفوق والتحت ، وعدى الفعل إلى الجهتين الأوليين بمن ، والى الأخريين بعن ، لأن الغالب فيمن يأتي من قدام وخلف أن يكون متوجها بكليته ، والغالب فيمن يأتي من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفا ، فناسب في الأولين التعدية بحرف الابتداء ، وفي الآخرين التعدية بحرف المجاوزة . وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن يأتي حقيقة .

فصل رائع للزمخشري :

و فيما يلي فصل رائع للزمخشري بهذا الصدد ، نقتبس منه الفقرات التالية ، لما تضمنته من تجسيد حي ، قال : " فإن قلت : كيف قيل : " من بين أيديهم ومن خلفهم " بحرف الابتداء ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم " بحرف المجاوزة ؟ قلت : المفعول فيه عدي إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به ، فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا ، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس ، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط ، فلما سمعناهم يقولون : جلس عن يمينه وعلى يمينه ، وعن شماله وعلى شماله ، قلنا : معنى على يمينه أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلى عليه ، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافيا عن صاحب اليمين منحرفا عنه غير ملاصق له ، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره ، ونحوه من المفعول به قولهم : " رميت عن القوس ، وعلى القوس ، ومن القوس " ، لأن السهم يبعد عنها ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي ويبتدأ الرمي منها . وكذلك قالوا : جلس بين يديه وخلفه ، بمعنى فيه ، لأنهما ظرفان للفعل ، ومن بين يديه ومن خلفه لأن الفعل يقع في بعض الجهتين ، تقول : جئته من الليل تريد بعض الليل " .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 19 إلى 20]

وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (20)

اللغة :

)

(258/278)

وسوس) الوسوسة : الكلام الخفي المكرر ، ومثله الوسواس ، وهو صوت الحليّ .

والوسوسة أيضا : الخطرة الرديئة ، ووسوس لا يتعدى إلى مفعول بل هو لازم ، يقال : هو رجل موسوس بكسر الواو ، ولا يقال بفتحها . قاله ابن الأعرابيّ . وقال غيره : يقال موسوس له ، وموسوس إليه . وقال الليث : الوسوسة : حديث النفس ، والصوت الخفي من ريح تهزّ قضيبا ونحوه ، كالهمس .

وقال الأزهري : وسوس ووزوز بمعنى واحد ، وفي القاموس : رجل موزوز أي مغرّد .

وسيأتي سرّ تكرير الحروف في باب البلاغة .

(وُورِيَ) : ستر وغطّي ، وهو ماض مبني للمجهول ، وأصله :

وارى كضارب ، فلما بني للمجهول أبدلت الألف واوا كضورب .

(السوآت) : العورات ، وكلّ ما يستحيا منه .

الاعراب :

(وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) الواو عاطفة أو استئنافية ، ويا حرف نداء ، وآدم منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب ، والكلام معطوف على اخرج ، أو بتقدير عامل ، أي : قلنا : يا آدم ،

(259/278)

و اسكن فعل أمر ، وفاعله مستتر تقديره أنت ، وأنت تأكيد للفاعل المستتر ، وزوجك عطف على الضمير المستتر ، والجنة مفعول به ، على السعة ، أو منصوب بنزع الخافض ، وقد تقدم (فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما) الفاء حرف عطف ، وكلا فعل أمر مبني على حذف النون ، والألف فاعل ، ومن حرف جر ، وحيث ظرف مكان مبني على الضم في محل جر بمن ، والجار والمجرور متعلقان بكلا ، وجملة شئتما في محل جر بالإضافة (وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ) الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتقربا فعل مضارع مجزوم بلا ، والألف فاعل ، وهذه اسم إشارة في محل نصب مفعول به ، وقرب يستعمل لازما ومتعديا كما هنا ، والشجرة بدل من اسم الاشارة ، فتكونا الفاء هي السببية ، وتكونا فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لوقوعها جوابا للنهي ، والألف اسم تكونا ، ومن الظالمين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر تكونا (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما

وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما) الفاء عاطفة ، ووسوس فعل ماض ، ولهما جار ومجرور متعلقان بوسوس ، والشيطان فاعل ، وليبدي اللام لام التعليل ، ويبدي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ويصح أن تكون لام الصيرورة أو العاقبة ، ولهما جار ومجرور متعلقان بيبدي ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة ووري صلة لا محل لها ، وعنهما جار ومجرور متعلقان بووري ، ومن سوءاتهما : جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال . (وَقالَ : ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ) الواو عاطفة ، وقال فعل ماض معطوف على وسوس ، وما نافية ، ونهاكما فعل ماض ، والكاف مفعول به ، والميم والألف حرفان دالان على التثنية ، وربكما فاعل ، وعن هذه جار ومجرور متعلقان بنهاكما ، والشجرة بدل من اسم

الإشارة . وإلا أداة حصر . وأن وما في حيزها استثناء مفرغ من أعم العلل . فهو مفعول لأجله على حذف مضاف ، أي ، إلا كراهة . وأن تكونا مصدر مؤول في محل جر بالإضافة ، تكونا فعل مضارع ناقص منصوب بأن ، والألف اسمها ، وملكين خبر تكونا ، وأو تكونا من الخالدين عطف على جملة تكونا الأولى ، وجملة ما نهاكما مقول القول .

البلاغة :

سر تكرير الحروف في اللفظ الواحد :

هذا باب من أبواب البلاغة ، قلّ من يتفطن له . وقد المع إليه الزمخشري في كشافه وابن الأثير في مثله السائر وابن جني في خصائصه .

ولكن إلماعهم لا يعدو لغة النظر التي لا تنقع الغلة ، ولا تشفي من الأوام ، ويتلخص هذا الباب في أنه كلما تكررت الحروف في اللفظ الواحد كان ذلك إيذانا بتكرير العمل ونقل الفعل من وزن إلى وزن ، لم يجنح إليه الواضح في الأصل إلا لهذا السر الخفي ، واللفظ هنا " وسوس " فهو تجسيد حي وتصوير بليغ لدأب إبليس على الإغواء ، وإجهاده نفسه لحملها على أن تزل بهما القدم ، ويرتطما في مزالق الشر ، فهو يوسوس إليهما المرة بعد المرة .

ومن ذلك قولهم : خشن واخشوشن ، لا تفيد خشن ما تفيد كلمة اخشوشن ، لما فيه من تكرير الحروف . وقل مثل هذا في أعشب المكان واعشوشب . فكأنهم لما رأوا كثرة العشب قالوا : اعشوشب .

وسيرد معنا في القرآن الكريم العجيب منه ، كما في هذه الآية .

نموذج شعري للتكرير :

ويحسن بنا هنا أن نورد الآن نموذجا شعريا تعلق فيه الشاعر بأذيال هذا السر الخفي ، وهو قول البحتري من قصيدة يمدح بها المتوكل على الله ، ويذكر حديث الصلح بين أبناء العمومة

والخئولة من بني تغلب ، منها قوله :

رفعت بضبعي تغلب بنة وائل وقد يئست أن يستقلّ صريعها

فكنت أمين اللّه مولى حياتها ومولاك فتح يوم ذاك شفيعها

تألّفتهم من بعد ما شرّدت بهم حفائظ أخلاق بطيء رجوعها

فأبصر غاويها المحجّة فاهتدى وأقصر غاليها ودانى شسوعها

(261/278)

و موضع الاستشهاد قوله : " تألّفتهم من بعد ما شردت بهم " فتثقيل تألّفتهم وشردت بهم أمر يستوجبه المقام ، لأنه مقام الإصلاح وإعادة المياه إلى مجاريها بين أبناء العمومة والخئولة .

وحسبنا ما تقدم الآن . وسيرد له ما يدعمه ويظهر مكان حسنه في مكان آخر .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 21 إلى 22]

وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)

اللغة :

(وَقاسَمَهُما) : أقسم لهما ، والمفاعلة هنا ليست على بابها بل للمبالغة ، ويجوز أن تبقى على باب المفاعلة كما قرر الزمخشري ، كأنه قال أقسم لكما أني لمن الناصحين ، وقالا له : أتقسم باللّه أنك لمن الناصحين ؟ فجعل ذلك مقاسمة بينهم .

(فَدَلَّاهُما) التدلية والإدلاء : إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل . وقال الأزهري : وأصله أن الرجل العطشان يتدلى في البئر ليأخذ الماء ، فلا يجد فيها ماء ، فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا مطمع فيه ، ولا فائدة منه . قال الفرزدق :

هما دلّتاني من ثمانين قامة كما انقض باز أقتم الريش كاسره

(بِغُرُورٍ) الغرور : إظهار النصح وإبطان الغش . وغرّه غرّا وغرّة وغرورا : أي خدعه وأطمعه بالباطل . وفي أمثالهم : " أفرّ من ظبي مقمر " لأنه يخرج في الليلة المقمرة ، يرى أنه النهار ، فتأكله

السباع ، ولم يزل يطلب غرّته حتى صادفها ، وأصاب منه غرّة فبطش به . وما غرّك به ؟ كيف اجترأت عليه . و" ما غرّك بربك الكريم " ؟

وأنا غريرك من هذا الأمر : أي إن سألتني على غرّة أجبك به ، لاستحكام علمي بحقيقته .

وهو على غرارة : أي على خطر ، وقال النمر بن تولب :

تصابى وأمسى علاه الكبر وأمسى لجمرة حبل غرر

أي : غير موثوق به . ورضى أعرابي عن امرأة فقال : هي الغرّاء بنت المخضبة . شبهها بالزبدة . ويقال للسوق درّة غرار : أي نفاق وكساد . و" لا غرار في الصلاة " وأصله : غارّت الناقة غرارا إذا نقص لبنها . وفلان مغار الكف للبخيل . ومنه : ما أذوق النوم إلا غرارا . وهذه المادة عجيبة في تنوع معانيها وتساوقها ، في حين تئول كلها إلى أصل واحد .

(طَفِقا) : من أفعال الشروع ، وسيأتي الحديث عنها في باب الفوائد .

(يَخْصِفانِ) : في المختار : " خصف النعل خصفا : خرزها .

وقوله تعالى : " وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة " : أي يلزقان بعضه ببعض ليسترا به عورتهما " . وفي المصباح : " خصف الرجل نعله خصفا من باب ضرب فهو خصّاف ، وهو فيه كرقع الثوب " .

الاعراب :

(وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ) الواو استئنافية ، وقاسمهما فعل وفاعل مستتر ، والهاء مفعول به ، والميم والألف حرفان

دالان على التثنية ، والجملة مستأنفة ، وجملة إن وما في حيزها مفسرة ، لما تنطوي عليه

المقاسمة ، وإن واسمها ، ولكما جار ومجرور متعلقان بالناصحين ، ونصح فعل يتعدى تارة بنفسه وتارة بحرف الجر ، وقال الفراء : " العرب لا تكاد تقول نصحتك ، وإنما يقولون : نصحت لك ، وأنصح لك ، وقد يجوز نصحتك " . واللام هي المزحلقة ، ومن الناصحين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر إن (فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ) الفاء عاطفة ، ودلاهما فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، وبغرور جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي مصاحبين للغرور ، فالفاء للمصاحبة ، ويجوز أن يتعلقا بدلاهما ، فتكون لمجرد السببية ، أي :

دلاهما بسبب غروره إياهما (فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما) الفاء عاطفة ، ولما حينية ظرفية ، أو حرف لمجرد الربط ، وذاقا الشجرة فعل وفاعل ومفعول به وجملة ذاقا في محل جر بالإضافة ، وجملة بدت لهما لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، ولهما جار ومجرور متعلقان ببدت ، وسوءاتهما : فاعل بدت (وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) الواو حرف عطف ، وطفقا من أفعال الشروع ، وسيأتي حكمها ، والألف اسمها ، وجملة يخصفان خبرها ، وعليهما : جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، ومن ورق الجنة جار ومجرور متعلقان بيخصفان ، والجنة مضاف إليه (وَناداهُما رَبُّهُما : أَلَمْ أَنْهَكُما

عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ) الواو عاطفة ، وناداهما ربهما فعل ومفعول به وفاعل ، وجملة ألم أنهكما مفسرة لا محل لها ، والهمزة للاستفهام ، وتفيد العتاب والتقريع على الخطأ ، حيث لم يتحوّطا ويعتصما بالحذر مما حذرهما اللّه منه ، وعن تلكما جار ومجرور متعلقان بأنهكما ، والشجرة بدل من اسم الاشارة (وَأَقُلْ لَكُما : إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ) الواو حرف عطف ، وأقل فعل مضارع معطوف على الفعل المجزوم بلم ،

وإن واسمها ، ولكما جار ومجرور متعلقان بعدو أو بمحذوف حال ، لأنه كان في الأصل صفة لعدو ، وتقدم عليه ، ومبين صفة لعدو ، وجملة إن وما في حيزها في محل نصب مقول القول .

الفوائد :

أفعال المقاربة : يطلق النحاة على الأفعال التي تعمل عمل كان وأخواتها اسم أفعال المقاربة ، من إطلاق الجزء على الكل ، وحقيقة الأمر في ذلك أن هذه الأفعال ثلاثة أنواع :

1- ما وضع للدلالة على قرب الخبر المسمى باسمها ، وهو ثلاثة أنواع : كاد وكرب وأوشك .

2- ما وضع للدلالة على رجائه ، وهو ثلاثة أنواع : عسى وحرى واخلولق .

3- ما وضع للدلالة على الشروع فيه ، وهو كثير ، وقد أنهى أفعاله بعضهم إلى نيف وعشرين فعلا ، وأشهرها : أنشأ وطفق وطبق - بكسر الباء - وجعل وعلق وهلهل وقام وابتدأ .

شرط الخبر لهذه الأفعال :

ويجب أن يكون خبر هذه الأفعال جملة ، وشذّ مجيئه مفردا بعد كاد وعسى كقول تأبط شرّا :

فأبت إلى فهم وما كدت آئبا وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

وقولهم في المثل : " عسى الغوير أبؤسا " ، وقد قالته الزّبّاء ، والغوير اسم موضع بعينه ، وأوله بعضهم بأنه خبر " يكون " محذوفة ، وقال الأصمعي : خبر " يصير " محذوفة ، واختار ابن هشام أن يكون مفعولا مطلقا لفعل محذوف ، نحو : " فطفق مسحا " ، أي : يمسح مسحا . وشرط الفعل أن يكون رافعا لضمير الاسم . فأما قول أبي حية النّميريّ :

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلني ثوبي فأنهض نهض الشّارب الثّمل

وقول ذي الرّمّة :

وأسقيه حتّى كاد ممّا أبثّه تكلّمني أحجاره وملاعبه

ف " ثوبي " في البيت الأول ، و " أحجاره " في البيت الثاني بدلان من اسمي جعل وكاد ،

بدل اشتمال لا فاعلان ليثقلني وتكلمني ، بل فاعلهما ضمير مستتر ، والتقدير : جعل ثوبي يثقلني ، وكادت أحجارة تكلمني ، فعاد الضمير على البدل دون المبدل منه . وأن يكون فعلا مضارعا ، وأن يكون مقرونا ب " أن " إن كان دالا على الترجّي ، وأن يكون مجردا منها إن كان دالا على الشروع . والغالب في خبر عسى وأوشك الاقتران بها ، كقوله تعالى : " عسى ربكم أن يرحمكم " وقوله :

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل : هاتوا أن يملّوا ويمنعوا

والتجرد من " أن " قليل ، كقول هدبة :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

وقول أمية بن أبي الصلت :

يوشك من فرّ من منيّته في بعض غرّاته يوافقها

وكاد وكرب بالعكس ، فمن الغالب قوله تعالى : " وما كادوا يفعلون " ، وقول كلحبة اليربوعي :

كرب القلب من جواه يذوب حين قال الوشاة : هند غضوب

ومن القليل قوله :

كادت النفس أن تفيض عليه مذ غدا حشو ربطة وبرود

تنبيه :

هذه الأفعال ملازمة لصيغة الماضي إلا أربعة استعمل لها مضارع ، وهو كاد ، نحو : " يكاد زيتها يضيء " ، وأوشك ، نحو :

يوشك من فر من منيته في بعض غرّاته يوافقها

وطفق يطفق ، وجعل . واستعمل اسم فاعل لثلاثة ، وهي : كاد وعليه قول كثير بن عبد الرحمن :

أموت أسى يوم الرجاء وإنني يقينا لرهن بالذي أنا كائد

وكرب ، قال عبد قيس بن خفاف بن ندبة :

أبنيّ إنّ أباك كارب يومه فإذا دعيت إلى المكارم فاعجل

وأوشك نحو قول كثير بن عبد الرحمن :

فإنّك موشك أن لا تراها وتعدو دون غافره العوادي

[سورة الأعراف (7) : الآيات 23 إلى 27]

قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (23) قالَ اهْبِطُوا

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (24) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (25) يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27)

اللغة :

(رِيشاً) الريش : لباس الزينة ، استعير من لباس الطائر لأنه لباسه وزينته . وفيه قولان :

1 - أنه اسم لهذا الشيء المعروف .

(266/278)

---

2 - أنه مصدر ، يقال : راشه يريشه ريشا إذا جعل فيه الريش .

فينبغي أن يكون الريش مشتركا بين المصدر والعين . ومن المجاز رشت فلانا : قويت جناحه بالإحسان إليه ، فارتاش وترّيش . قال :

فرشني بخير طال ما قد بريتني فخير الموالي من يريش ولا يبري

وقال النابغة :

كم قد أحلّ بدار الفقر بعد غنى قوما وقد راش قوما بعد إقتار

يريش قوما ويربي آخرين بهم لله من رائش عمرو ومن بار

وقال جرير :

فريشي منكم وهواي معكم وإن كانت زيارتكم لماما

" ولعن اللّه الراشي والمرتشي والرائش " وهو المتوسط الذي

يريش هذا من مال هذا ، وفلان له رياش : لباس وحسن حال وشارة .

وأجاز النعمان النابغة بمائة من عصافيره بريشها : أي برجالها . وقيل :

كانت الملوك يجعلون في أسنمتها ريشا ليعلم أنها حباء ملك . ومن المجاز اللطيف قولهم :

أخفّ من ريشة ، يراد خفة اللحم وقلته من الهزال . فما أعجب هذه المادة ! (قَبِيلَةُ)

القبيل الجماعة يكونون من ثلاثة فصاعدا ، من جماعة شتى . هذا قول أبي عبيدة .

والقبيل : الجماعة من أب واحد ، فليست القبيلة تأنيث القبيل لهذه المغايرة . وفي المصباح

: " والقبيل :

الجماعة ثلاثة فصاعدا من قوم شتى ، والجمع قبل بضمتين ، والقبيلة لغة فيها ، وقبائل

الرأس : القطع المتصل بعضها ببعض ، وبها سمّيت قبائل العرب ، الواحدة قبيلة ، وهم بنو

أب واحد " .

الاعراب :

)

(267/278)

قالا : رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا) جملة القول مستأنفة ، مسوقة للإخبار عن اعتراف آدم وحواء على أنفسهما بالذنب وشعورهما بالندم . وقالا فعل وفاعل ، وربنا منادى محذوف منه حرف النداء ، وظلمنا : فعل وفاعل ، وأنفسنا مفعول به ، والجملة نصب على أنها مقول للقول (وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ) الواو عاطفة ، وإن شرطية ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، وتغفر فعل الشرط ، ولنا جار ومجرور متعلقان بتغفر ، وترحمنا عطف على تغفر ، ولنكونن : اللام جواب للقسم المقدر ، ونكونن فعل مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، واسمها مستتر تقديره نحن ، ومن الخاسرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، وجملة وتكونن

(268/278)

جواب للقسم ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ، والتقدير : ولئن لم تغفر لنا وترحمنا . ويجوز العكس ، فلا داعي لتقدير القسم ، وتكون اللام موطئة للقسم (قالَ : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) جملة القول مستأنفة ، مسوقة للبت فيما جرى في صفحة المقدور . وجملة اهبطوا في محل نصب مقول القول ، وبعضكم مبتدأ ، ولبعض جار ومجرور متعلقان بعدوّ ، أو حال منه لأنه كان صفة وتقدمت عليه ، وعدو خبر ، والجملة الاسمية حال من الواو في اهبطوا (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ) الواو عاطفة ، ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بمستقر ، ومتاع عطف على مستقر ، والى حين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمتاع ، أي : ممتد إلى حين (قالَ : فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ) جملة القول مستأنفة ، وكرر الاستئناف للاعتناء بمضمون ما بعده من الحياة البشرية . وفيها جار ومجرور متعلقان بتحيون ، وما بعده عطف عليه ، والجملة كلها مقول قوله تعالى (يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً) جملة مستأنفة مسوقة لتذكير أبناء آدم ببعض النعم . ويا حرف نداء ، وبني آدم منادى مضاف ، وقد حرف تحقيق ، وأنزلنا فعل وفاعل ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بأنزلنا ، ولباسا مفعول به ، وجملة يواري سوءاتكم صفة ل " لباسا " وريشا عطف على قوله لباسا (وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ) الواو استئنافية أو حالية ، ولباس مبتدأ ، والتقوى مضاف إليه ، وذلك اسم اشارة مبتدأ ثان ، وخير خبر ذلك ،

والرابط هو اسم الإشارة ، لأن أسماء الاشارة تقرب من الضمائر ، وسيأتي تفصيل الروابط في باب الفوائد ، وجملة ذلك خير خبر " لباس " ، (ذِلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) الجملة مستأنفة لتأكيد ما تقدم .

(269/278)

و ذلك مبتدأ ، ومن آيات اللّه جار ومجرور

متعلقان بمحذوف خبر ، ولعل واسمها ، وجملة يذكرون خبرها ، وجملة الرجاء حالية (يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ) كلام مستأنف لمخاطبة بني آدم وتحذيرهم ، ولا الناهية ، ويفتننكم فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم بلا ، والكاف مفعول به ، والشيطان فاعل (كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ) كما نعت لمصدر محذوف ، أي : لا يفتننّكم فتنة مثل إخراج أبويكم من الجنة ، وأبويكم مفعول ، ومن الجنة جار ومجرور متعلقان بأخرج (يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما) الجملة حالية من الضمير في " أخرج " العائد على الشيطان ، أو من الأبوين ، وعنهما جار ومجرور متعلقان بينزع ، ولباسهما مفعول به ، وليريهما : اللام للتعليل ، ويريهما فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والجار والمجرور متعلقان بينزع ، وسوءاتهما مفعول به (إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ) الجملة تعليلية لا محل

لها مسوقة لتعليل النهي ، والتحذير من فتنة الشيطان . وإن واسمها ، وجملة يراكم خبرها ، و" هو " تأكيد للضمير المرفوع ، في " يراكم " ، وقبيله عطف على الضمير المرفوع ، أو " هو " مبتدأ خبره محذوف دل عليه سياق الكلام (مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ) من حيث جار ومجرور متعلقان بيراكم ، وجملة لا ترونهم في محل جر بالإضافة (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ) الجملة تعليل لما تقدم ، وإن واسمها ، وجملة جعلنا خبرها ، والشياطين مفعول به أول ، وأولياء مفعول به ثان ، وللذين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لأولياء ، وجملة لا يؤمنون صلة الموصول .

البلاغة :

1 - الالتفات :

في قوله تعالى : " ولباس التقوى ذلك خير " ، وقد تقدم بحث .

هذا الفنّ ، فإنه سبحانه لما امتنّ على البشر بما أنزل عليهم من اللباس المواري سوءاتهم بعد سياق قصة خروج أبيهم آدم من الجنة ، وأراد تذكيرهم وتحريضهم على التقوى قال قبل تمام الامتنان : " ولباس التقوى ذلك خير " . وكان يمكن في هذه الآية ما أمكن في الآية التي قبلها

من تأخير الجملة ، بحيث يقال : قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ذلك من آيات اللّه ، ولباس التقوى ذلك خير .

وإنما جنح إلى تأخير ما كان يجوز تقديمه ليحصل في نظم الكلام نوع من المحاسن يقال له : التعطّف ، وذلك مجيء الكلام مستهلا بذكر اللباس كما استهلّه في أوله ، وتفاديا من أن يفصل بين لآيات التي يلائم بعضها بعضا بألفاظ من غير جنسها ليوصف الكلام بالائتلاف ، وهذا يسميه قدامة الالتفات ، وغيره يرى الالتفات غير ذلك ، كابن المعتز وأضرابه . وقد جرينا على رأي ابن المعتز فيما قدمناه في مكان آخر من أول الكتاب .

تعريف قدامة للالتفات :

أما تعريف قدامة للالتفات فهو كما جاء في كتابه " نقد الشعر " أن يكون المتكلم آخذا في معنى فيعترضه إما شك فيه أو ظنّ أن رادا ردّه عليه ، أو سائلا سأله عنه أو عن سببه ، فيلتفت قبل فراغه من التعبير عنه ، فإما أن يجلّي شكه أو يؤكده ويقرره ويذكر سببه .

والذي نراه أن هذا أشبه بالاعتراض ، وأولى أن يندرج في سلكه .

وهناك التفات آخر في قوله " لعلهم يذكرون " فقد التفت عن الخطاب إلى الغيبة وكان مقتضى المقام : لعلكم .

2- الاستعارة :

في قوله " لباس التقوى " وقد تقدمت الإشارة إليها ، ومثلها كثير الوقوع في كلام الشعراء ،

ومنه :

إذا المرء لم يلبس لباسا من التقى تقلّب عريانا وإن كان كاسيا

وقول الآخر :

تغطّ بأثواب السّخاء فإنني أرى كلّ عيب والسّخاء غطاؤه

(271/278)

و الاستعارة في الريش ، والريش لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته . أي : أنزلنا عليكم لباسين لباسا يواري سوءاتكم ولباسا يزينكم ، لأن الزينة غرض صحيح .

3- الطباق :

بين قوله " تحيون " وقوله " تموتون " .

4- التشبيه التمثيلي :

في تمثيل فتنة الشيطان لهم بقصة آدم وحواء حين أخرجهما الشيطان بأحابيله من الجنة ، وجاء بالمضارع في قوله : " ينزع عنهما لباسهما " لاستحضار الصورة التي وقعت في أوغل العصور وتجسيدها أمام السامع .

الفوائد :

روابط الخبر الجملة :

يشترط في الجملة الواقعة خبرا أن تكون مشتملة على رابط يربطها بالمبتدأ ، والروابط أربعة :

آ- الضمير البارز ، نحو : الظلم مرتعه وخيم ، أو المستتر نحو :

" الحق يعلو " .

ب- الإشارة إليه ، نحو : " ولباس التقوى ذلك خير " .

ج- إعادة المبتدأ بلفظه ، نحو : " الحاقّة ما الحاقّة " ، وقول كعب :

أخي ما أخي لا فاحش عند بيته ولا ورع عند اللقاء هيوب

د- العموم ، نحو : زيد نعم الرجل ، فزيد مبتدأ ، وجملة نعم خبره ، والرابط بينهما العموم .

ومنه قول ابن ميّادة :

ألا ليت شعري هل إلى أمّ معمر سهيل فأمّا الصّبر عنها فلا صبرا

فالصبر مبتدأ ، وعنها جار ومجرور متعلقان به ، ولا نافية للجنس ، وصبرا اسمها مبني على الفتح ، والخبر محذوف تقديره " لي " ، وجملة لا صبر لي خبر المبتدأ ، والرابط بينهما العموم الذي في اسم " لا " لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم .

وقد لا تحتاج الجملة إلى رابط :

هذا وقد تكون الجملة الواقعة خبرا نفس المبتدأ في المعنى .

فلا تحتاج إلى رابط ، لأنها ليست أجنبية عنه ، كقوله تعالى : " قل هو اللّه أحد " ، ف " هو " ضمير الشأن مبتدأ ، والجملة الاسمية بعده هي الخبر ، لا تحتاج إلى رابط لأنها عينه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 28 إلى 30]

(272/278)

وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (28) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30)

الإعراب :

(وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا : وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا) الواو للاستئناف ، ولعله أظهر ، ويجوز أن تكون عاطفة على الصلة قبلها ، وفيها على الحالين تأكيد على إصرارهم على الفاحشة ، وإذا ظرف مستقبل متضمن

معنى الشرط ، متعلق بالجواب وهو قالوا ، وجملة فعلوا في محل جر بالإضافة ، وفاحشة مفعول به ، وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وجملة وجدنا عليها آباءنا

في محل نصب مقول القول (وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِها) واللّه الواو عاطفة ، واللّه مبتدأ ، وجملة أمرنا بها خبر ، والجملة معطوفة على الجملة المتقدمة ، داخلة في حيّز القول ، أي :

(273/278)

و قالوا : اللّه أمرنا بها (قُلْ : إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ) جملة القول مستأنفة مسوقة لردّ قولهم ، وإن التقليد ليس حجة ، وجملة إن وما في حيزها نصب مقول القول ، وإن واسمها ، وجملة لا يأمر خبرها ، وبالفحشاء جار ومجرور متعلقان بيأمر ، والهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي ، وتقولون فعل مضارع مرفوع ، وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بتقولون ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة لا تعلمون صلة (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) كلام مستأنف مسوق لبيان ما أمر اللّه به حقيقة ، وجملة أمر ربي في محل نصب مقول القول ، وبالقسط جار ومجرور متعلقان بأمر ، وأقيموا الواو عاطفة ، وأقيموا فعل أمر معطوف على الأمر المقدر الذي ينحلّ اليه المصدر ، وهو القسط ، على حد قول ميسون :

ولبس عباءة وتقرّ عيني أحبّ إليّ من لبس الشّفوف

كأنه قال : أقسطوا وأقيموا ، تفاديا لعطف الإنشاء على الخبر ، وهو ضعيف . ووجوهكم

مفعول به لأقيموا ، وعند ظرف مكان متعلق بأقيموا ، وكل مسجد مضاف إليه (وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) عطف على ما تقدم ، وادعوه فعل أمر وفاعل ومفعول به ، ومخلصين حال ، وله جار ومجرور متعلقان بمخلصين ، والدين مفعول لمخلصين لأنه اسم فاعل (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) كما نعت لمصدر محذوف تقديره :

تعودون عودا مثلما بدأكم ، وجملة بدأكم لا محل لها لوقوعها بعد موصول حرفي (فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) فريقا مفعول به مقدم لهدى ، وفريقا الثاني منصوب بإضمار فعل يفسره قوله : حق عليهم الضلالة ، من حيث المعنى والتقدير ، وأضلّ فريقا حق عليهم ، وقدره الزمخشري : وخذل فريقا ، هادفا إلى تأييد مذهبه الاعتزالي .

(274/278)

و الجملة الفعلية والجملة المعطوفة عليها في محل نصب على الحال من فاعل بدأكم ، أي : بدأكم حال كونه هاديا فريقا ومضلا فريقا ، أو تكون الجملتان مستأنفتين ، ومن التكلف إعراب " فريقا " حالا كما ورد لبعض المعربين ، وجملة حق عليهم الضلالة صفة ل " فريقا " (إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) الجملة تعليلية لا محل لها ، وإن واسمها ، وجملة اتخذوا الشياطين خبر ، والشياطين مفعول به أول لاتخذوا ،

وأولياء مفعوله الثاني ، ومن دون اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، والواو عاطفة أو حالية ، وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يحسبون ، ومهتدون خبر أنهم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 31 إلى 32]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)

الاعراب :

)

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) كلام مستأنف مسوق لخطاب العرب وحملهم على الإقلاع عن التشدد وحرمان أنفسهم من الزينة . ويا حرف نداء ، وبني منادى مضاف ، وخذوا فعل أمر مبني على حذف النون ، وزينتكم مفعول به ، وعند كل مسجد الظرف متعلق بخذوا (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) عطف على خذوا ، ولا ناهية ، وتسرفوا فعل مضارع مجزوم بلا ، وإن واسمها ، وجملة لا يحب المسرفين خبرها ،

والجملة تعليلية لا محل لها (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ) جملة القول مستأنفة مسوقة لتأكيد الإباحة والاستمتاع بالزينة ، والأكل والشرب ، مع عدم الإسراف . ومن اسم استفهام للإنكار ، مبتدأ ، وجملة حرم زينة اللّه خبر من ، والجملة الاستفهامية في محل نصب مقول القول ، والطيبات عطف على زينة ، ومن الرزق جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وخالصة حال ثانية ، ويوم القيامة ظرف متعلق بخالصة (كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) تقدمت أعاريب مماثلة لهذه الجملة .

الفوائد :

قال ابن عباس : كان العرب يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، يقولون : لا نطوف بثياب عصينا اللّه فيها ، فنزلت .

ويحكى أن الرشيد كان له طبيب نصرانيّ حاذق ، فقال لعلي بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطبّ شيء ؟ فقال له :

قد جمع اللّه الطب كله في نصف آية من كتابه . قال : وما هي ؟ قال :

قوله تعالى : "كلوا واشربوا ولا تسرفوا " ، فقال الطبيب : ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطبّ ؟ فقال : قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة . قال : وما هي ؟ قال : قوله : " المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء " . فقال الطبيب : ما ترك كتابكم ولا نبيكم

لجالينوس طبا .

]

(276/278)

سورة الأعراف (7) : الآيات 33 إلى 34]

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (34)

اللغة :

(أجل) الأجل بفتحتين : مدة العمر من أولها إلى آخرها . وأعاد ذكره بقوله : " فإذا جاء أجلهم " للاشارة إلى آخر المدة . وفي المصباح :

" أجل الشيء مدته ووقته الذي يحل فيه ، وهو مصدر أجل الشيء إجلالا من باب تعب ، وأجل أجولا من باب قعد لغة ، وأجّلته

تأجيلا : جعلت له أجلا ، وجمع الأجل آجال ، مثل سبب وأسباب " .

ومن أقوالهم : ابن آدم قصير الأجل ، طويل الأمل ، يؤثر العاجل ويذر الآجل . ومن أقوالهم

أيضا : " أجلن عيون الآجال ، فأصبن النفوس بالآجال " .

الاعراب :

)

(277/278)

قُلْ : إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ) كلام مستأنف مسوق لخطاب الذين يحرمون ويحللون ، إن اللّه لم يحرّم ما تحرمونه من أجله وإنما حرم الفواحش . وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ، وإنما كافة ومكفوفة ، وجملة حرم ربي الفواحش مقول القول ، وما اسم موصول في محل نصب بدل من الفواحش ، وجملة ظهر صلة ، ومنها جار ومجرور متعلقان بظهر ، وما بطن عطف على ما ظهر (وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) من عطف الخاص على العام ، للاعتناء به . وبغير الحق جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أو بالبغي لأنه مصدر (وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً) المصدر المؤول من أن وما في حيزها عطف أيضا ، وباللّه جار ومجرور متعلقان بتشركوا ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة لم ينزل صلة . وبه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وسلطانا مفعول به لينزل (وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ) عطف أيضا ، وعلى اللّه جار ومجرور

متعلقان بتقولوا ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة لا تعلمون صلة الموصول (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) كلام مستأنف مسوق للدلالة على أن الآجال مكتوبة ، والأعمار محسوبة ، لئلا يغتر الإنسان أفاويق اللذات وتعاجيبها الخلوب . ولكل جار ومجرور متعلقان

(278/278)

بمحذوف خبر مقدم ، وأمة مضاف اليه ، وأجل مبتدأ مؤخر (فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) الفاء استئنافية ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ، وجملة جاء أجلهم في محل جر بالإضافة ، وجملة لا يستأخرون لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، والمضارع المنفي بلا إذا وقع جوابا لإذا جاز أن يقترن بالفاء ، وأن لا يقترن بها . وساعة ظرف زمان متعلق بيستأخرون ، وهي أقل الأوقات في حساب الناس ، يقول المستعجل : أفي ساعة تريد ذلك ؟ يريد غاية القلة في الزمان .

ولا يستقدمون عطف على قوله : لا يستأخرون ، أو الواو استئنافية ، كما ترى في باب الفوائد .

الفوائد :

وفيما يلي خلاصة لأقوال الأئمة حول هذا الكلام :

رأي الواحدي :

قال الواحدي بعد كلام طويل : إن قيل ما معنى هذا مع استحالة التقدم على الأجل وقت حضوره ؟ قيل : هذا مبني على المقاربة ، تقول :

إذا جاء الشتاء إذا قرب وقته ، ومع مقاربة الأجل يتصور التقدم ، وإن كان لا يتصور مع الانقضاء ، والمعنى لا يستأخرون عن آجالهم إذا انقضت ، ولا يستقدمون عليها إذا قاربت الانقضاء . وهذا بناء على أنه معطوف على قوله : لا يستأخرون .

رأي الكرخي :

وقال الكرخي : " قوله : ولا يستقدمون معطوف على الجملة الشرطية لا على جواب الشرط ، لأن إذا الشرطية لا يترتب عليها إلا

المستقبل ، أي : فلا يترتب على مجيء الأجل إلا مستقبل ، أو لاستقدام سابق ، فالوجه انقطاع " لا يستقدمون " عن الجواب استئنافا ، كما حققه التفتازاني .

رأي البيضاوي :

وحاصل كلام القاضي البيضاوي أن هذا بمنزلة المثل ، أي :

لا يقصد من مجموع الكلام إلا أن الوقت لا يتغير ولا يتبدل ، وهو نظير قولهم : الرمان حلو حامض ، يعني فالجزاء مجموع الأمرين لا كل واحد على حدته . وهذا كلام لطيف من

البيضاوي ، ولعل فيه حسما للخلاف .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 35 إلى 37]

(279/278)

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (36) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (37)

الاعراب :

)

(280/278)

يا بَنِي آدَمَ) تقدم إعرابها كثيرا (إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) الكلام مستأنف مسوق لبيان مسألة إرسال الرسل ، وإن شرطية أدغمت في " ما " المزيدة المؤكدة لمعنى الشرط ، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة ، ويأتينكم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، ورسل فاعل ، ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرسل ، وجعل الرسل منهم أقطع للحجة ، وأبعد عن العذر (يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي) الجملة صفة لرسل أيضا ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بيقصون ، وآيات مفعول به (فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) هذه الجملة الشرطية جواب للشرط السابق ، والفاء رابطة ، ومن اسم شرط مبتدأ ، والفاء في قوله : فلا خوف ، رابطة ، وقد تقدم إعراب ما بعد ذلك كثيرا (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) الواو عاطفة ، والذين اسم موصول مبتدأ ، وجملة كذبوا بآياتنا صلة ، واستكبروا عنها معطوفة ، وأولئك مبتدأ ، وأصحاب النار خبره ، والجملة خبر الذين ، والرابط اسم الاشارة كما تقدم ، وهم مبتدأ ، وفيها جار ومجرور متعلقان بالخبر " خالدون " ، والجملة حالية أو خبر ثان للذين (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) الفاء استئنافية ، ومن اسم استفهام معناه النفي ، أي : لا أحد أظلم ، وأظلم خبر " من " ، وممن جار ومجرور متعلقان بأظلم ، وجملة افترى لا محل لها لأنها صلة الموصول ،

وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بافترى ، وكذبا مفعول به ، أو مفعول مطلق ، وجملة كذب بآياته عطف على جملة افترى (أُولَئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ) اسم الاشارة مبتدأ ،

(281/278)

وجملة ينالهم خبر ، ونصيبهم فاعل ينالهم ، ومن الكتاب جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ) حتى حرف غاية وجر أو ابتدائية ، وقد تقدم الكلام عن هذا التعبير فجدد به عهدا ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ، وجملة جاءتهم رسلنا في محل جر بالإضافة ، وجملة يتوفونهم حال من رسلنا ، أي : متوفية إياهم (قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) جملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وأين اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية ، وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وما اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر ، وجملة الاستفهام في موضع نصب مقول القول ، وجملة كنتم صلة الموصول ، والتاء اسم كان ، وجملة تدعون خبرها ، ومن دون اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أو متعلقان بتدعون (قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ) الجملة جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : ما فعل معبودكم ومن كنتم تدعونه ؟ فأجابوا بأنهم ضلوا . وجملة ضلوا مقول القول ، وجملة شهدوا معطوفة

على جملة قالوا ، أو مستأنفة ، وعلى أنفسهم جار ومجرور متعلقان بشهدوا ، وأن وما في حيزها في موضع نصب بنزع الخافض ، والجار والمجرور متعلقان بشهدوا ، وجملة كانوا كافرين خبر " أن " .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 38 إلى 41]

(282/278)

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (38) وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)

اللغة :

(ادَّارَكُوا) : أي : تداركوا ، بمعنى تلاحقوا في النار ، وأصله تداركوا ، فأدغمت التاء في

الدال بعد قلبها دالا وتسكينها ثم اجتلبت همزة الوصل ، وسيأتي في باب الفوائد كيفية ذلك .

(أخراهم وأولاهم) : يحتمل أن تكون " فعلى " أنثى " أفعل " الدال على المفاضلة ، والمعنى على هذا أخراهم منزلة ، وهم الأتباع والسفلة ، لأولاهم منزلة ، وهم القادة والسادة والرؤساء . ويحتمل أن تكون " أخرى " بمعنى آخرة ، تأنيث " آخر " ، مقابل " أول " ، لا تأنيث " آخر " الذي للمفاضلة ، ومنها قوله تعالى : " ولا تزر وازرة وزر أخرى " . ولعلها الأظهر في الآية .

(الضِّعْفِ) : قال أبو عبيدة الضعف مثل الشيء مرة واحدة ، وقال الأزهري : هو ما يستعمله الناس في مجاري كلامهم . والضعف في كلام العرب : المثل إلى ما زاد ، ولا يقتصر به على مثلين ، بل تقول :

(283/278)

هذا ضعفه أي : مثلاه وثلاثة أمثاله ، لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : " فأولئك لهم جزاء الضعف " ، لم يرد به مثلا ولا مثلين ، وأولى الأشياء به أن يجعل عشرة أمثاله ، كقوله تعالى : " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " فأقلّ الضعف

محصور وهو المثل ، وأكثره غير محصور . وفي القاموس : " وضعف الشيء بالكسر مثله ، وضعفاه مثلاه ، والضعف المثل إلى ما زاد ، ويقال : لك ضعفه ، يريدون مثليه ، وثلاثة أمثاله ، لأنه زيادة غير محصورة " .

(يَلِجَ) : في المصباح : " ولج الشيء في غيره يلج ، من باب وعد ، ولوجا ، وأولجته إيلاجا أدخلته " .

(سَمِّ) السم : بتثليث السين ، وفي المصباح : " السم ما يقتل ، بالفتح في الأكثر ، وجمعه سموم وسمام مثل : فليس وفلوس ، وسمام أيضا ، مثل : سهم وسهام . والضم لغة لأهل العالية ، والكسر لغة لبني تميم . . . والسم : ثقب الإبرة ، وفيه اللغات الثلاث ، وجمعه سمام " . وهو المراد في الآية ، ولكن السبعة على الفتح ، وقرئ شاذا بالكسر والضم . وسم الإبرة مثل في ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خرت الإبرة ، وقالوا للدليل الماهر : خرّيت ، للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر ، والجمل مثل في عظم الجرم ، قال حسان ابن ثابت :

لا بأس في القوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

أي : لا بأس ولا ضرر يعتري هؤلاء من جهة الطول والغلظ .

وفيه تهكم بهم ، فأجسامهم كأجسام البغال ، وعقولهم كعقل العصافير ، ان كان لها عقول ، يعني أنهم لا عقل لهم .

(غَواشٍ) : جمع غاشية ، وهي الغطاء .

الاعراب :

)

(284/278)

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ) الكلام مستأنف لحكاية قول اللّه لهم يوم القيامة . وقال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ، وجملة ادخلوا في محل نصب مقول القول ، وفي أمم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي كائنين في جملة أمم ، وفي غمارهم مصاحبين لهم ، وقيل : هما متعلقان بادخلوا ، والمعنى في جملة أمم ، وجملة قد خلت صفة لأمم ، ومن قبلكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ثانية ، ومن الجن والإنس جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ثالثة ، وفي النار جار ومجرور بدل من قوله :

" في أمم " ، والظروف مجاز ، وسيأتي الحديث عنها . وقال أبو حيان :

وفي النار جار ومجرور متعلقان ب " خلت " ، على أن المعنى تقدم دخولها ، أو بمحذوف صفة الأمم ، أي في أمم سابقة في الزمان كائنة من الجن والإنس ، كائنة في النار ، وأطال أبو

حيان فيما لا طائل تحته (كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها) كلما ظرف زمان متضمن معنى الشرط ، وجملة دخلت أمة في محل جر بالإضافة أو لا محل لها إذا اعتبرنا " ما " موصولا حرفيا ، وجملة لعنت أختها لا محلّ لها لأنها جواب شرط غير جازم والجملة الظرفية من تتمة مقول القول (حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً) حتى حرف غاية وجر ، أو ابتدائية ، وإذا ظرف مستقبل

(285/278)

متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب ، أي : بقالت الآتية ، وجملة اداركوا في محل جر بالإضافة ، وفيها جار ومجرور متعلقان باداركوا ، وجميعا حال (قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ) الجملة لا محل لها لأنها جواب إذا ، ولأولاهم اللام حرف جر للتعليل أي : لأجلهم ، أو للتبليغ ، والجار والمجرور متعلقان بقالت (رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ) ربنا منادى مضاف حذف منه حرف النداء ، واسم الاشارة مبتدأ ، وجملة أضلونا خبره ، وجملة ربنا هؤلاء في محل نصب مقول القول فآتهم الفاء الفصيحة ، وآتهم فعل أمر مبني على حذف حرف العلة ، والهاء مفعول به ، وعذابا مفعول به ثان ، وضعفا صفة ل " عذابا " ، من النار جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ثانية (قالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ)

جملة القول مستأنفة ، ولكل جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وضعف مبتدأ مؤخر ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول قوله تعالى ، ولكن الواو حالية ، أو استئنافية ، ولكن حرف استدراك مهمل ، ولا نافية ، وتعلمون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون (وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ) عطف على ما تقدم ، والفاء عاطفة ، عطفت ما بعدها من الكلام على قول اللّه تعالى للسفلة : لكل ضعف ، فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا . وما نافية ، وكان فعل ماض ناقص ، ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كان الناقصة ، ومن حرف جر زائد ، وفضل مجرور لفظا اسم كان محلا ، وعلينا جار ومجرور ، أي : إنا وإياكم سيان في الضلال واستحقاق العذاب (فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) الفاء الفصيحة ، أي : إذا تبين لكم وعلمتموه ثم أصررتم على موقفكم المغاير فذوقوا ، والعذاب مفعوله ، وبما الباء سببية جارّة ، وما مصدرية ، أي بسبب كسبكم ، وجملة تكسبون خبر كنتم

(286/278)

)

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ) كلام مستأنف مسوق

لتأكيد مصير الكافرين ، وإن واسمها ، وجملة كذبوا بآياتنا صلة الموصول لا محل لها ، وجملة استكبروا عطف على جملة كفروا ، وعنها جار ومجرور متعلقان باستكبروا ، وجملة لا تفتح خبر إن ، ولهم جار ومجرور متعلقان بتفتح ، وأبواب السماء نائب فاعل ، (وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) هذه الجملة معطوفة على جملة لا تفتح لهم ، وحتى حرف غاية وجر ، وفي سم الخياط جار ومجرور متعلقان بيلج (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) الواو استئنافية ، وكذلك نعت لمصدر محذوف ، أي : جزاء مثل ذلك ، والمجرمين مفعول به (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ) الجملة الاسمية تحتمل الحالية والاستئنافية ، ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومهاد مبتدأ مؤخر ، ومن جهنم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، لأنه كان في الأصل صفة لجهنم (وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) عطف ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وغواش مبتدأ مؤخر ، والضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين ، وسيأتي مزيد من الكلام عنه في باب الفوائد .

البلاغة :

في قوله تعالى : " حتى يلج الجمل سم الخياط " فن بلاغي يسمى المذهب الكلامي . ويقول ابن المعتز في كتابه البديع : إن الجاحظ سماه هذه التسمية ، وعرفوه بأنه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تفلّ سلاح المعاند المكابر ، وتقطع بينته ، على طريقة علماء

الكلام .

لأن علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بحجج عقلية وبراهين

(287/278)

قاطعة تدحض اللجاج ، ومنه نوع منطقي تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة . وفي الآية التي نحن بصددها وجه استنتاج النتيجة من المقدّمتين أن يقال : إن الكفار لا يدخلون الجنة أبدا حتى يلج الجمل في خرم الابرة ، والجمل لا يدخل في خرم لإبرة أبدا ، فهم لا يدخلون الجنة أبدا ، لأن تعليق الشرط على مستحيل يلزم منه استحالة وقوع المشروط . وسيرد الكثير منه في القرآن الكريم .

المذهب الكلامي في الشعر :

وقد جاء هذا الفن في كثير من الشعر العربي ، ولهم فيه روائع فمن ذلك قول أبي تمام :

وإذا أراد اللّه نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

والقطعة التالية لبهاء الدين زهير حافلة بضروب من هذا الفن ، وتجتزئ بإيرادها :

يا من أكابد فيه ما أكابده مولاي أصبر حتى يحكم اللّه

سمّيت غيرك محبوبي مغالطة لمعشر فيك قد فاهوا بما فاهوا

أقول زيد ، وزيد لست أعرفه وإنما هو لفظ أنت م

عناه وكم ذكرت مسمّى لا اكتراث به حتى يجرّ إلى ذكراك ذ

كراه أتيه فيك على العشاق كلهم قد عزّ من أنت يا مولاي

مولاه والناس فينا ببعض القول قد لهجوا لو صحّ ما ذكروا ما كنت

آباه كادت عيونهم بالبغض تنطق لي حتى كأنّ عيون الناس أفواه

فإن جميع هذه العلل المذكورة ضمن هذه الأبيات علل حقيقية أصلية يسلم بها الخصم المعاند عند سماعها من غير مجادلة ، ولا لجوء إلى اللجاج والمكابرة ، وذلك لا يخفى على من له مسكة من ذوق .

الفوائد :

1- إبدال التاء :

في ادّكر : وجهان : أولهما : أن الأصل تداركوا ، كما ذكرنا في باب اللغة . وما كانت فاؤه ثاء أو ذالا أو دالا أو زايا أو صادا أو

ضادا أو طاء أو ظاء مما هو على وزن تفاعل أو تفعّل أو تفعلل ، بحيث تجتمع التاء وهذه الأحرف جاء فيه إبدال التاء حرفا من جنس ما بعدها مع إدغامها فيه ، وذلك نحو : اثّاقل وادّكر وازّين واصتبر واضّرع واطّرب واظّلم ، والأصل : تثاقل وتذكّر وتزيّن وتصبّر وتضرّع وتطرّب وتظلّم ، فأبدلت التاء حرفا من جنس ما بعدها ، ثم أسكن لإدغامه . فتعذر الابتداء بالساكن ، فأتي بهمزة الوصل تخلصا من ذلك .

وثانيهما أنه إذا أبدلت تاء افتعل إلى حرف مجانس لما بعدها تلفظ في الوزن بأصل تاء الافتعال ، ولا تلفظ بما صارت إليه من طاء أو دال ، فنقول وزن اصطبر افتعل لا افطعل ، ووزن ازدجر افتعل لا افدعل ، فكذلك نقول هنا وزن ادّاركوا اتفاعلوا لا افّاعلوا ، فلا فرق بين تاء الافتعال والتفاعل في ذلك .

2- الجمع المنقوص على وزن مفاعل :

للنحاة في الجمع الذي على وزن مفاعل- إذا كان منقوصا - مذهبان ، فبعضهم قال : هو منصرف ، لأنه قد زالت عنه صيغة منتهى الجموع ، فصار وزنه وزن جناح ، وقد زال فانصرف . وقال الجمهور :

هو ممنوع من الصرف ، والتنوين تنوين عوض ، وقد تقدم بحثه .

واختلفوا في المعوض عنه ماذا ؟ فالجمهور على أنه عوض عن الياء المحذوفة ، وذهب المبرد إلى أنه عوض عن حركتها ، والكسر ليس كسر إعراب .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 42 إلى 43]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (42) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

اللغة :

)

(289/278)

الوسع) بتثليث الواو : الطاقة يقال : ليس في وسعه أن يفعل كذا ، أي : لا يقدر عليه . وقال الزجاج : الوسع : ما يقدر عليه .

(الغل) : الحقد .

الاعراب :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) كلام مستأنف مسوق للشروع في ذكر وعد المؤمنين وما أعدّ لهم في الآخرة ، بعد أن ذكر وعيد الكافرين وما أعد لهم في الآخرة . واسم الموصول

مبتدأ ، وجملة آمنوا صلة ، وجملة عملوا الصالحات عطف على الصلة (لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها) الجملة معترضة بين المبتدأ وخبره ، وقد حسن الاعتراض هنا لأنه من جنس الكلام ، فإنه تعالى لما نوه بعملهم الصالح ذكر أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن نطاق قدرتهم ، ولا نافية ، ونكلف فعل مضارع مرفوع ، وفاعله مستتر تقديره نحن ،

(290/278)

و نفسا مفعول نكلف الأول ، وإلا أداة حصر ، ووسعها مفعول نكلف الثاني (أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) الجملة الاسمية خبر الذين ، واسم الاشارة مبتدأ ، وأصحاب الجنة خبره ، وهم مبتدأ ، وخالدون خبره ، وفيها جار ومجرور متعلقان بقوله : خالدون ، وجملة هم فيها خالدون خبر ثان لأولئك ، أو حال من أصحاب الجنة (وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ) الواو عاطفة ، ونزعنا فعل وفاعل ، وما اسم موصول مفعول به ، وفي صدورهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول ومن غلّ جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وجملة تجري حال من الضمير (وَقالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا) الواو عاطفة ، وقالوا فعل وفاعل ، والحمد مبتدأ ، ولله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول ، والذي اسم

موصول نعت للّه ، وجملة هدانا لهذا لا محل لها لأنها صلة الموصول (وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ) يجوز أن تكون الواو للاستئناف أو للحال ، وما نافية ، وكان واسمها واللام لام الجحود ، ونهتدي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ، ولولا حرف امتناع لوجود ، وأن مصدرية ، وهي مع مدخولها في موضع رفع مبتدأ ، وخبر المبتدأ محذوف ، كما هي القاعدة :

وبعد لولا غالبا حذف الخبر حتم وفي نص يمين ذا استقر

وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والتقدير : لولا هداية اللّه لنا موجودة ما اهتدينا أو لشقينا ، والجملة كلها مستأنفة أو حالية (لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ) اللام جواب قسم محذوف ، وقد حرف تحقيق ، وجاءت رسل ربنا فعل وفاعل ، وبالحق جار ومجرور متعلقان

(291/278)

بجاءت (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الواو استئنافية ، ونودوا فعل ماض مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل ، وأن يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة أو مفسرة ، وتلكم الجنة اسم الاشارة مبتدأ ، والجنة خبر أو بدل من اسم الاشارة ، والخبر جملة

أورثتموها . وعلى الأول تكون جملة أورثتموها حالية ، وبما كنتم تعملون تقدم إعراب نظائرها كثيرا .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 44 إلى 47]

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (45) وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46) وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47)

اللغة :

(العوج) بكسر العين : في المعاني وفي الأعيان ، ما لم يكن منتصبا ، وبالفتح فيما كان منتصبا كالرمح والحائط . وسيرد المزيد من البحث لهذه المادة اللغوية .

(الْأَعْرافِ) : سور مضروب بين الجنة والنار ، وهي أعاليه ، جمع عرف ، استعير من عرف الديك والفرس ، وقد أفاض أصحاب المطوّلات في وصفه ، وأنهى بعضهم الأقوال فيه إلى ثلاثة عشر قولا .

أما مادة عرف اللغوية فهي عجيبة ، ونورد هنا بعض خصائصها ومعانيها جريا على ما توخيناه في هذا الكتاب . يقال عرف الشيء يعرفه من باب ضرب عرفة وعرفانا ومعرفة علمه ، وعرف يعرف بالضم من باب نصر عرافة على القوم دبرهم وساس أمرهم ، وعرف يعرف بالضم في الماضي والمضارع عرافة : صار عريفا وأكثر من الطيب . ومن المستعار : أعراف الريح والسحاب والضباب لأوائلها ، واعرورف البحر : أي ارتفعت أمواجه ، واعرورف فلان للشرّ : اشرأب له ، وقلة عرفاء مرتفعة ، قال زهير :

ومرقبة عرفاء أوفيت مقصرا لأستأنس الأشباح فيه وأنظرا

ومقصرا من القصر وهو العشيّ . والعرّاف : دون الكاهن ، قالوا : إذا سال بك الغراف لم ينفعك العراف . وقال عروة :

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه وعرّاف نجد إذ هما شفياني

(السّيمى) والسّيمة والسّومة والسّيماء والسيمياء : العلامة والهيئة والبهجة والحسن .

الاعراب :

)

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ) الجملة استئنافية مسوقة للتقرير والتبكيت .

وأصحاب الجنة فاعل نادى ، وأصحاب النار مفعوله (أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا)

أن مخففة من الثقيلة ، فيكون اسمها ضمير الشأن ، وجملة قد وجدنا خبرها ، أو تكون "

أن " مفسرة ، فتكون جملة قد وجدنا لا محل لها لأنها مفسره ، وما مفعول به ، وجملة وعدنا

ربنا صلة لا محل لها ، وحقا مفعول به ثان لوجدنا (فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا

نَعَمْ) الفاء عاطفة ، وهل حرف استفهام ، ووجدتم وما بعدها تقدم إعرابه ، قالوا فعل

وفاعل ، والجملة مستأنفة ، ونعم حرف جواب ، وجملة الجواب المحذوفة في محل نصب

مقول القول (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) الفاء عاطفة ، وأذن مؤذن فعل

وفاعل ، وأن مخففة من الثقيلة ، وهي مع مدخولها في محل جر بنزع الخافض ، والجار

والمجرور متعلقان بأذن ، ويجوز أن تكون " أن " مفسرة فجملة أن وما في حيزها لا محل لها ،

ولعنة اللّه مبتدأ ، وعلى الظالمين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لعنة وان كانت أن

مخففة من الثقيلة فتع

ونادوا فعل وفاعل ، والضمير يعود على أصحاب الأعرا متصل في محل نصب مفعول به ،

ومع ظرف مكان

متعلق بمحذوف مفعول به ثان ، والقوم مضاف إليه ، والظالمين نعت للقوم .

الفوائد :

(294/278)

المصادر كلها من هذا الوزن على تفعال بفتح التاء ، وإنما تجيء تفعال في الأسماء ، وليست كثيرة ، ذكر بعض أئمة اللغة منها ستة عشر اسما ، ومنها التبيان والتلقاء ، ومر تهواء من الليل ، وتبراك وتعشار وترباع وهي مواضع ، وتمساح للدابة المعروفة ، والتمساح الرجل الكذاب أيضا ، والزلزال وتجفاف وتمثال وتمراد والتمراد بيت صغير في بيت الحمام لمبيضه ، وتلفاق وهما ثوبان يلفقان ، وتلقام أي : سريع اللقم ، ويقال أتت الناقة على تضرابها أي : على الوقت الذي ضربها الفحل فيه ، وتضراب كثير الضرب ، وتقصار وهي المخنفة ، وتنبال وهو القصير .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 48 إلى 51]

وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ

وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49) وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (51)

الاعراب :

)

(295/278)

وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ) الواو عاطفة أو استئنافية ، مسوقة لبيان ما يقوله أصحاب الأعراف لأهل النار . ونادى أصحاب الأعراف فعل وفاعل ، ورجالا مفعول به ، وجملة يعرفونهم صفة ل " رجالا " ، وبسيماهم جار ومجرور متعلقان بيعرفونهم ، أي : ممن كانوا في الدنيا موسومين بالعظمة والخيلاء (قالُوا : ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) جملة القول لا محل لها لأنها مفسرة ، فسرت النداء . وما اسم استفهام للتوبيخ ، أي : أيّ شيء أغنى عنكم ؟ ويصح أن تكون نافية ، وعلى الأول تكون مفعولا مقدما لأغنى ، أي نفعكم ودفع عنكم جمعكم في الدنيا ، وجمعكم فاعل ،

وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر معطوف على جمعكم ، أي : واستكباركم ، المفهوم قوله " وكنتم تستكبرون " ، وجملة تستكبرون خبر كنتم ، والجملة مقول القول (أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ) الهمزة للاستفهام التقريري التوبيخي ، وهؤلاء مبتدأ ، والذين اسم موصول خبر ، وجملة أقسمتم صلة الموصول ، وجملة لا ينالهم اللّه برحمة لا محل لها لأنها جواب للقسم ، ولا نافية ، وينالهم اللّه فعل ومفعول به وفاعل ، وبرحمة جار ومجرور متعلقان بينالهم (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) الجملة الأمرية مقول قول محذوف ، أي : قد قيل لهم ، والجملة القولية

(296/278)

المحذوفة خبر ثان لاسم الاشارة ، أو حال منه ، أي مقولا لهم ذلك ، ولا نافية مهملة وخوف مبتدأ ، ساغ الابتداء به لدخول النفي عليه ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، وجملة ولا أنتم تحزنون عطف على الجملة المتقدمة (وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ) تقدم إعراب نظيرها (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) أن مخففة من الثقيلة أو مفسرة ، وقد تقدمت لها نظائر ، وأفيضوا فعل أمر والواو فاعل ، وعلينا جار ومجرور متعلقان بأفيضوا ، ومن الماء جار ومجرور متعلقان بأفيضوا أيضا ، لأن معنى

الإفاضة هنا متضمن معنى الإلقاء ، وأو حرف عطف ، ومما جار ومجرور متعلقان بمحذوف معطوف من الماء ، ولا بد من تقدير فعل ، أي : وأطعمونا ، على حدّ قولهم : " علفتها تبنا وماء باردا " ، أو بتضمين أفيضوا معنى ألقوا يصح تعلق المعطوف به ، وجملة رزقكم اللّه صلة ، والأولى أن تكون " أو " بمعنى الواو ليصح ، ولها نظائر في اللغة (قالُوا : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ) الجملة مستأنفة لتقرير جوابهم ، وجملة إن واسمها وخبرها في محل نصب مقول قولهم ، وجملة حرمهما خبر إن ، وعلى الكافرين جار ومجرور متعلقان بحرمهما ، والمراد بالتحريم لازمه وهو المنع (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً) اسم موصول في محل جر صفة للكافرين ، وجملة اتخذوا صلة ، ودينهم مفعول اتخذوا الأول ، ولهوا مفعوله الثاني ، ولعبا عطف على " لهوا " (وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا) الواو عاطفة ، وغرتهم الحياة فعل ومفعول به وفاعل ، والدنيا صفة للحياة ، أي : استهوتهم بزخارفها وشغلتهم بالأطماع (فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا) الفاء هي الفصيحة ، واليوم ظرف زمان متعلق بننساهم ، والكاف حرف جر ، وما مصدرية ، أي : كنسيانهم ، والجار والمجرور في محل نصب صفة إعراب القرآن وبيانه ،

(297/278)

لمفعول مطلق محذوف ، ولقاء مفعول به لنسوا ، ويومهم مضاف إليه ، وهذا نعت ليومهم أو بدل منه (وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ) الواو حرف عطف ، وما مصدرية ، والمصدر المنسبك معطوف على المصدر الأول وكان واسمها ، وجملة يجحدون خبرها ، والجار والمجرور متعلقان بيجحدون .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 52 إلى 53]

وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (53)

الإعراب :

(وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما ورد في الكتاب من تفصيل ما فعلوه . واللام جواب قسم محذوف ، وقد حرف تحقيق ، وجئناهم فعل وفاعل ومفعول به ، والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم ، وبكتاب جار ومجرور متعلقان بجئناهم ، وجملة فصلناه نعت للكتاب ، وعلى علم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال إما من الفاعل في " فصلناه " ، أي : فصلناه عالمين

بتفصيله ، وإما من المفعول ، أي : فصلناه مشتملا على علم (هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

هدى ورحمة حال من مفعول فصلناه ، أي :

(298/278)

هاديا وراحما . ويجوز أن يعربا مفعولا من أجله ، أي : فصلناه لأجل الهداية والرحمة ، ولقوم جار ومجرور متعلقان بالمصدر ، وجملة يؤمنون نعت لقوم (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ) كلام مستأنف لبيان موقفهم من الكتاب الذي يجحدون ، وفي نفس الوقت ينتظرون ما يؤول إليه وعاقبة أمره . وهل حرف استفهام بمعنى النفي والإنكار ، أي : ما ينتظرون ويتوقعون غير ذلك ، وإلا أداة حصر ، نزلهم منزلة المتوقع المنتظر ، وهم ليسوا كذلك لجحودهم له ، وتأويله مفعول به (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما يقولونه في ذلك اليوم . والظرف متعلق بيقول ، وجملة يأتي تأويله في محل جر بالإضافة ، وتأويله فاعل يأتي ، ويقول الذين فعل وفاعل ، وجملة نسوه صلة الموصول ، ومن قبل جار ومجرور متعلقان بنسوة ، أي : من قبل إتيان تأويله (قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ) الجملة في محل نصب مقول قولهم ، وجاءت رسل ربنا فعل وفاعل :

وبالحق جار ومجرور متعلقان بجاءت (فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا) الفاء عاطفة ، وهل

حرف استفهام ، ولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومن حرف جر زائد ، وشفعاء مجرور بمن لفظا في محل رفع مبتدأ مؤخر ، والفاء فاء السببية لوقوعها في جواب الاستفهام ، ويشفعوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء ، ولنا جار ومجرور متعلقان بيشفعوا (أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) أو حرف عطف ونرد فعل مضارع مبني للمجهول ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ، داخلة معها في حكم الاستفهام ، كأنه قيل : هل لنا من شفعاء أو هل نرد ؟ ورفع نرد لوقوعه موقع الاسم ، فيكون من

(299/278)

باب عطف الاسم المؤول على الاسم الصريح ، أي : فهل لنا شفعاء فشفاعة منهم لنا ؟ والفاء للسببية أيضا ، ونعمل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء في جواب الاستفهام الثاني ، وغير مفعول نعمل ، والذي مضاف إليه ، وجملة كنا نعمل صلة ، وكان واسمها ، وجملة نعمل خبر كان (قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ) كلام مستأنف مسوق لتقرير الإجابة عن الاستفهامين السابقين ، وقد حرف تحقيق ، وخسروا فعل وفاعل ، وأنفسهم مفعول به ، وضل عنهم عطف على خسروا ، وعنهم جار ومجرور متعلقان بضل ، وما اسم موصول فاعل ، وجملة كانوا يفترون صلة الموصول ، وجملة يفترون

خبر كانوا .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 54 إلى 55]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (54) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55)

اللغة :

(يُغْشِي) : يغطّي ، وانجلت عنه غشية الحمّى أي : لمّتها ، ونزلت به غشية الموت ، وغشي عليه ، وأصابه غشي ، قال ذو الرّمة :

وردت وأغباش السّواد كأنها سمادير غشي في العيون النواظر

وعلى قلبه غشاوة فما يقبل الحق ، واستغش ثوبك كي لا تسمع ولا ترى ، وكثرت غاشية فلان . وللغين مع الشين فاء وعينا للفعل معنى يكاد يكون متشابها ، وهو التغطية والستر ، وغشّ معروف كأنه أخفى كيده ، وغشم الوالي الرعية وهو غشوم إذا خبطهم بعسفه ، وغشمر السيل : أقبل ، والرجل : ركب رأسه في الحق والباطل فلا يبالي بما صنع ، وهذا من دقيق اللغة فتدبره .

الاعراب :

)

(300/278)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) كلام مستأنف مسوق لتقرير خلق السموات والأرض . وإن واسمها ، واللّه خبرها ، والذي اسم موصول في محل رفع نعت اللّه ، وجملة خلق السموات والأرض صلة ، وفي ستة أيام جار ومجرور متعلقان بخلق (ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ، واستوى فعل ماض ، وفاعله مستتر تقديره هو ، أي : تمكن واستقرّ استقرارا مجردا عن الكيفية ، وعلى العرش جار ومجرور متعلقان باستوى (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ) الجملة حال ، والليل مفعول به أول ليغشي ، والنهار مفعول به ثان ، أو بالعكس ، أي : يلحق الليل بالنهار أو النهار بالليل (يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ) الجملة حال من الليل ، لأنه هو المحدّث عنه ، أي : يغشي النهار طالبا له ، ويجوز أن تكون حالا من النهار ، أي : مطلوبا ، ويطلبه فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، وحثيثا حال من فاعل يطلبه .

(301/278)

أو من مفعوله ، أي : حاثا أو محثوثا ، ويجوز أن يعرب نعتا لمصدر محذوف ، فهو مفعول مطلق ، أي طلبا حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم والألفاظ الثلاثة منصوبة عطفا على السموات والأرض ، ومسخرات حال منها ، أي : مذللات لما يراد منها من طلوع وأفول ، وبأمره جار ومجرور متعلقان بمسخرات أو بمحذوف حال ، وتكون الباء للمصاحبة ، أي : مصاحبة لأمره غير خارجة عنه في تسخيره (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) كلام مستأنف مسوق للتنويه بالرد على القائلين بأن لهذه الأمور تأثيرات في هذا العالم العجيب . وألا أداة استفتاح وتنبيه ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، والخلق مبتدأ مؤخر ، والأمر عطف عليه (تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ) استئناف آخر مسوق للتنويه بكثرة خيره تعالى وتبارك وتقديسه وتنزيهه . وتبارك فعل ماض ، أي : تقدس وتنزه ، وهو فعل جامد لا يتصرف ، أي لا يأتي منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل ، واللّه فاعل ، ورب العالمين صفة أو بدل من اللّه (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) كلام مستأنف مسوق للتنويه بأن الدعاء يجب أن يكون مصروفا إليه تعالى وحده .

وادعوا فعل أمر ، والواو فاعل ، وربكم مفعول به ، وتضرعا نصب على الحال ، أي : ذوي تضرع ، وخفية ، عطف عليه ، ويجوز أن يعرب صفة لمصدر محذوف ، أي ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية ، وأيهما أفضل ؟

هناك خلاف يرجع إليه في المطولات . ويجوز أن يعربا مفعولا لأجله ، وجملة إنه لا يحب

المعتدين تعليلية داخلة في حكم الاستئنافية ، لا محل لها ، ومعنى الاعتداء هنا تجاوز الحدّ ، وجملة لا يحب المعتدين خبر " إن " .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 56 إلى 58]

(302/278)

وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)

اللغة :

(بُشْراً) بضمّ الباء وسكون الشين جمع بشير ، أي مبشرات .

وفيه أربع قراءات سبعية ، والثانية بشرا بضمتين ، والثالثة فشرا بالنون وبضمتين ، والرابعة نشرا بفتح النون وسكون الشين ، ومعنى نشرا متفرقة .

(أَقَلَّتْ) : حملت ورفعت ، واشتقاق الإقلال من القلة ، لأن الرافع المطيق يرى الذي يرفعه

قليلا .

(نَكِداً) النكد : بكسر الكاف الذي لا خير فيه ، أو الذي اشتدّ وعسر ، وقوم أنكاد ومناكيد ، قال أبو الطيب :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إنّ العبيد لأنجاس مناكيد

الاعراب :

)

(303/278)

وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها) كلام مستأنف مسوق لتحذير البشر من الفساد في الأرض . ولا ناهية ، وتفسدوا فعل مضارع مجزوم بلا ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بتفسدوا ، وبعد ظرف متعلق بتفسدوا أيضا ، وإصلاحها مضاف إليه (وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً) عطف على ما تقدم ، وخوفا وطمعا منصوبان على الحال ، أي : خائفين وطامعين ، أو على أنهما صفة لمصدر محذوف ، أو على أنهما مفعولان لأجلهما (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) الجملة تعليل لما ذكر ، وإن واسمها ، وقريب خبرها ، ومن المحسنين جار ومجرور متعلقان بقريب (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)

الواو عاطفة ، والكلام معطوف على ما قبله ، وهو : إن ربكم إلخ ، وهو مبتدأ ، والذي اسم موصول في محل رفع خبر ، وجملة يرسل الرياح صلة لا محل لها ، وبشرا حال ، أي : مبشرات بالخصب والنماء ، فهو من المفعول به ، وبين ظرف مكان متعلق بيرسل ، وإضافته إلى يدي مجاز مرسل ، (حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ) حتى حرف غاية وجر ، والغاية للإرسال ، وإذا ظرف زمان مستقبل ، وجملة أقلت في محل جر بالإضافة ، والظرف متعلق بسقناه الذي هو جواب الشرط ، وسحابا مفعول به ، وثقالا صفة ، وجملة سقناه لا محل لها ، ولبلد جار ومجرور متعلقان بسقناه ، وميت صفة لبلد (فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ) الفاء عاطفة ، وأنزلنا فعل وفاعل ، وبه جار ومجرور متعلقان بأنزلنا ، والباء للسببية ،

(304/278)

والضمير يعود على البلد الميت ، أو السحاب ، فعلى الأول تكون الباء للظرفية بمعنى أنزلنا في ذلك البلد الميت الماء ، وعلى الثاني تكون الماء للسببية ، أي فأنزلنا الماء بسبب السحاب ، والماء مفعول به ، والفاء عاطفة ، وأخرجنا عطف على أنزلنا ، والضمير في " به " يعود على الماء أو البلد أو السحاب أيضا كما تقدم ، ومن كل الثمرات جار ومجرور

متعلقان بمحذوف صفة للمفعول به المحذوف ، أي : رزقا أو نباتا (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) كلام مستأنف مسوق بأسلوب بلاغي على طريق التشبيه بمعنى أن من قدر على إخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على إحياء الموتى . وكذلك جار ومجرور متعلقان بمحذوف نعت لمصدر محذوف ، فهو مفعول مطلق مقدم ، ونخرج الموتى فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، وجملة الرجاء حالية ، وجملة تذكرون خبر لعل (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ) كلام مستأنف مسوق لتتميم التشبيه . والبلد مبتدأ ، والطيب صفة ، وجملة يخرج نباته خبر ، وبإذن ربه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، كأنه قيل : يخرج نباته حسنا وافيا ، لأنه في مقابلة قوله : " نكدا " فيما بعد ، ففي الكلام حذف لفهم المعنى ، ولدلالة البلد الطيب ، ولمقابلتها بقوله : نكدا (وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً) الواو عاطفة ، والذي مبتدأ ، وهو وصف لمحذوف ، أي البلد الذي خبث ، وجملة خبث صلة ، وجملة لا يخرج خبر ، وإلا أداة حصر لتقدّم النفي ، ونكدا حال ، أي : عسرا مبطئا ، ويجوز أن ينتصب على المصدرية ، أي أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : إلا خروجا نكدا (كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) كذلك نعت لمصدر محذوف ، وقد تقدم إعراب نظائر له ، والآيات مفعول نصرف ، ولقوم جار ومجرور متعلقان بنصرف ، وجملة يشكرون نعت لقوم .

البلاغة :

1- المجاز المرسل في قوله : " بين يدي رحمته " التي هي الغيث ، والعلاقة هي السببية ، لأن اليد سبب الإنعام ، والإنعام الرحمة .

2- التشبيه المرسل في قوله : "كذلك نخرج الموتى " . وقد تقدمت الإشارة إليه في الإعراب .

الفوائد :

قال الزمخشري : " وإنما ذكّر " قريب " على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم ، أو لأنه صفة موصوف محذوف ، أي : شيء قريب ، على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول ، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي " وقال أبو عبيدة : تذكير " قريب " على تذكير المكان ، أي : مكان قريب . ورد عليه الأخفش فقال : هذا خطأ ، ولو كان كما قال لكان " قريب " منصوب ، كما تقول إن زيدا قريبا منك . وقال الفراء : إن القريب إذا كان بمعنى المسافة يذكر ويؤنث ، وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم ، فيقال : دارك منا قريب ، وفلانة منا قريب ، قال تعالى : " لعل الساعة تكون قريبا " .

ومنه قول امرئ القيس :

لك الويل إن أمسى ولا أمّ هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

[سورة الأعراف (7) : الآيات 59 إلى 64]

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (60) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (62) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63)

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (64)

اللغة :

)

(306/278)

الْمَلَأُ) : الأشراف والسادة ، وقيل : الرجال ليس معهم نساء .

وفي المصباح : " الملأ مهموز : أشراف القوم ، سموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من

المعروف وجودة الرأي ، أو لأنهم يملئون العيون أبهة والصدور هيبة ، والجمع أملاء ، مثل سبب وأسباب " . وفي الأساس : وقام به الملأ والأملاء : الأشراف الذين يتمالئون في النوائب .

قال :

وقال لها الأملاء من كل معشر وخير أقاويل الرجال سديدها

وما كان هذا الأمر عن ملأ منّا : أي ممالأة ومشاورة . ومنه هو مليء بكذا : مضطلع به .

وعليها ملاءة الحسن . قال ابن ميّادة :

بذّتهم ميالة تميد ملاءة الحسن لها جديد

وجمّش فتى من العرب حضرية فتشاحّت عليه ، فقال لها : واللّه مالك ملاءة الحسن ولا عموده ولا برنسه ، فما هذا الامتناع ؟

الإعراب :

(لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ)

كلام مستأنف مسوق لذكر قصص عن الأنبياء السابقين تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلم ، وليتأسّى بمن قبله ، فلا يتحيّفه يأس ، ولا يخالجه فتور أو وهن في أداء رسالته .

واللام جواب للقسم المحذوف ، ولا يكاد العرب ينطقون بهذه اللام إلا مع قد ، وأرسلنا نوحا فعل وفاعل ومفعول به ، وإلى قومه جار ومجرور متعلقان بأرسلنا (فَقالَ : يا قَوْمِ

اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ) الفاء عاطفة ، ويا أداة نداء ، وقوم منادى مضاف الى ياء المتكلم المحذوفة بدليل الكسرة ، واعبدوا فعل أمر ، والواو فاعله ، واللّه مفعوله ، وما نافية ، ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومن حرف جر زائد ، وإله مبتدأ مؤخر محلا ، وغيره صفة ل « إله » على المحل ، كأنه قيل : ما لكم إله غيره ، وجملة اعبدوا اللّه في محل نصب مقول القول ، وجملة ما لكم من إله غيره استئنافية (إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) الجملة تعليل للأمر بالعبادة لا محل لها ، وإن واسمها ، وجملة أخاف خبرها ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بأخاف ، وعذاب مفعول به ، ويوم مضاف إليه ، وعظيم صفة (قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

(307/278)

قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

كلام مستأنف مسوق لبيان جواب قومه . وقال الملأ فعل وفاعل ، ومن قومه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وجملة إن وما في حيزها في محل نصب مقول القول ، وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، ونراك فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ، والجملة خبر «إن» ، وفي ضلال جار ومجرور متعلقان بنراك على أنه مفعول به ثان للرؤية ، والرؤية هنا قلبية ، ومبين

صفة (قالَ : يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ) كلام مستأنف مسوق لبيان ردّ نوح عليهم ، وهو من أحسن الكلام وأبلغه . ليس فعل ماض ناقص ، وبي جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ليس المقدّم ، وضلالة اسمها المؤخر . (وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) الواو عاطفة ، ولكن واسمها ، وقد جاءت في أحسن موقع لأنها بين نقيضين ، ورسول خبر لكن ، ومن رب العالمين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرسول (أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ) كلام مستأنف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها ومهمتها . ويجوز أن تكون الجملة صفة ثانية لرسول ، ولكنه راعى الضمير السابق الذي للمتكلم ، فقال : أبلغكم ، ولو راعى الاسم الظاهر بعده لقال : يبلغكم ، والكاف مفعول أبلغكم الأول ، ورسالات ربي مفعوله الثاني ، وأنصح لكم عطف على أبلغكم ، ومعلوم أن «نصح» يتعدى بنفسه وباللام ، يقال نصحه ونصح له (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ) عطف على أبلغكم ، ومن اللّه جار ومجرور متعلقان بأعلم ، ولا بد من تقدير محذوف ، أي : جهته ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة لا تعلمون صلة الموصول لا محل لها (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ) عطف على ما تقدم مسوق في أسلوب الاستفهام الإنكاري في الهمزة ، والواو عاطفة ، وعجبتم معطوف على محذوف لا بد من تقديره ، أي : أكذبتم

وعجبتم ، وأن حرف مصدري ونصب ، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض ، أي : من أن جاءكم ، وذكر فاعل ، ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لذكر أو بجاءكم ، وعلى رجل صفة لذكر ، ولا بد من تقدير محذوف ، أي : على لسان رجل ، ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرجل ، أي من جملتكم ومن جنسكم ، لأنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ، ويقولون : «لو شاء اللّه لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين» (لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) اللام علة للمجيء ، وينذركم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، ولتتقوا عطف على لينذركم ، وجملة الرجاء حالية ، وجملة ترحمون خبر لعل . جعل العلل لمجيء الذكر على لسان رجل منهم ثلاثا :

أولاها لينذركم ، وثانيتها لتتقوا ، وثالثتها لعلكم ترحمون . وهو ترتيب حسن بالغ موقعه من الإجادة والحسن (فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ) الفاء الفصيحة لأنها وقعت جواب شرط محذوف ، أي :

إذا أردت أن تعلم مغبة أمرهم فقد كذبوه . وكذبوه فعل وفاعل ومفعول به ، وفأنجيناه عطف على فكذبوه ، والواو للمعية ، والذين اسم موصول في محل نصب مفعول معه ، ولك أن تعطفه على الهاء ، ومعه ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول ، أي : استقروا

معه في الفلك ، وفي الفلك جار ومجرور متعلقان بما في الملك من الاستقرار ، أي بمتعلق الظرف أو بأنجيناه (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) عطف على ما تقدم ، وأغرقنا الذين فعل وفاعل ومفعول به ، وجملة كذبوا صلة ، وبآياتنا جار ومجرور متعلقان بكذبوا (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ) الجملة تعليل لما سبق من هلاكهم ، أي : هلكوا لعمى في بصيرتهم .

وإن واسمها ، وجملة كانوا خبرها ، وقوما خبر كانوا ، وعمين صفة ل «قوما» .

(309/278)

البلاغة :

1- المجاز المرسل :

في قوله تعالى : «إنا لنراك في ضلال مبين» وقوله : «ليس بي ضلالة» فقد جعل الضلال ظرفا والضلال ليس ظرفا يحل فيه الإنسان .

لأنه معنى من المعاني ، وإنما يحل في مكانه فاستعمال الضلال في مكانه مجاز مرسل أطلق فيه الحال وأريد المحل ، فعلاقته الحاليّة ، وفائدته المبالغة في وصفه بالضلال وإيغاله فيه ، حتى كأنه مستقر في ظلماته لا يتزحزح عنها . وزادوا في المبالغة بأن أكدوا ذلك بأن صدّروا الجملة بأن وزادوا اللام في خبرها .

2- نفي الأخصّ والأعمّ :

وأردف ذلك بقوله : «ليس بي ضلالة» للإطاحة بما زعموه ، وتفنيد ما توهموه ، وهو من أحسن الرد وأبلغه وأفلجه للخصم ، لأنه نفى أن تلتبس به ضلالة واحدة ، فضلا عن أن يحيط به الضلال ، فلم يقل : ضلال ، كما قالوا ، كما يقتضيه السياق . وقد توثّب خيال الزمخشري فقرر أن الضلالة أخص من الضلال ، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه ، كأنه قال : ليس بي شيء من الضلال ، كما لو قيل لك : ألك تمر ؟ فقلت : مالي ثمرة . ولكن الزمخشري غفل عن نقطة هامة جدا في هذا البحث العظيم ، لأن نفي الأخص أعم من نفي الأعم ، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخص ، بخلاف العكس ، ألا ترى أنك إذا قلت : هذا ليس بإنسان ، لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيوانا ، ولو قلت : هذا ليس بحيوان ، لاستلزم أن لا يكون إنسانا .

(310/278)

فنفي الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخص ، إذا تقرر هذا فالتحقيق في الجواب أن يقال : الضلالة أدنى من الضلال وأقل ، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه ، وأما الضلال فينطلق على القليل والكثير من جنسه ، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى ، لا من حيث

كونه أخص بل من حيث التنبيه بالأدنى على الأعلى ، كما قررنا في مستهل هذا البحث .

الفوائد :

1- الاسم إذا كان سبقه الضمير :

(311/278)

كل اسم سبقه ضمير حاضر من متكلم أو مخاطب يجوز فيه وجهان ، أولهما : مراعاة الضمير السابق ، وثانيهما مراعاة الاسم الظاهر ، تقول : أنا رجل أفعل كذا ، مراعاة للضمير " أنا " ، وان شئت قلت : يفعل كذا ، مراعاة لرجل . ومثله : أنت رجل تفعل العجائب ، ويفعل العجائب ، بالخطاب والغيبة . قال الإمام علي بن أبي طالب :

أنا الذي سمّتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظرة

قاله حين بارز اليهودي " مرحبا " يوم خيبر فقال اليهودي :

قد علمت خيبر أنّي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

فأجابه علي بذلك . وكانت أمه فاطمة بنت أسد سمته كاسم أبيها ، لأن حيدرة من أسماء الأسد . فلما حضر أبو طالب سماه عليا .

وسمّي الأسد حيدرة لشدة انحداره على من يصول عليه ، والليث اسم جامد للأسد ،

واشتقوا منه : لايثه أي : عامله معاملة الليث .

والغاب بيته الذي يغيب فيه . وكان الظاهر أن يقول : إن الذي سمته أمه ، ليطابق الضمير مرجعه ، وهو الموصول في الغيبة ، ولكنه أتى بضمير المتكلم ذهابا إلى المعنى ، وحسنه تقدم ضمير المتكلم ، أي :

أنا الشجاع الذي ظهرت عليّ أمارات الشجاعة من صغري فسمتني أمي باسم الأسد .

ولا أكذبها ظنا .

وقد استدرك ابن جني على أبي الطيب المتنبي قوله :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

عدولا عن لفظ الغيبة ، ولكن الآية الكريمة كفيلة بتسويغ ما استعمله أبو الطيب .

2- اللام الداخلة على قد :

لا يكاد العرب ينطقون بهذه اللام إلا مع " قد " ، وقل عنهم نحو قول امرئ القيس :

حلفت لها باللّه حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا صال

وذلك لأنه لما كانت الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيدا للجملة المقسم عليها التي هي جوابها كانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى " قد " عند استماع المخاطب كلمة القسم ، وقد جرى ابن الرومي الشاعر العباسي على غرار امرئ القيس بقوله :

لرأينا مستيقظين أمورا حسبنا أن تكون رؤيا منام

وقيل : إذا أجيب القسم بماض متصرف مثبت فإن كان قريبا من

الحال جيء باللام وقد جميعا ، نحو : " تاللّه لقد آثرك اللّه علينا " ، وإن كان بعيدا جيء

باللام وحدها ، كقول امرئ القيس الآنف الذكر وقول ابن الرومي .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 65 إلى 68]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (65) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (66) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (68)

اللغة :

(سَفاهَةٍ) : جهالة وخفة حلم وسخافة عقل .

الاعراب :

(وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً) الواو حرف عطف ، والى عاد جار ومجرور متعلقان بالفعل المعطوف على أرسلنا ، وأخاهم مفعول به لأرسلنا ، وهودا بدل مطابق من " أخاهم "

(قالَ : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ) حذف العاطف من " قال " خلافا للآية الأولى في قصة نوح ،

والسر في ذلك أن العاطف ينتظم الجمل حتى يصيرها كالجملة الواحدة ، فاجتنب لإرادة استقلال كل واحدة منها في معناها . وجملة النداء والأمر مقول

(313/278)

القول (ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ) الجملة مستأنفة ، وقد تقدم إعراب نظيرها بحروفه (أَفَلا تَتَّقُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والاستعباد لعدم اتقائهم العذاب بعد ما علموا ما حل بقوم نوح . والفاء للعطف على مقدر ، أي : ألا تتفكرون ؟ أو أتغفلون فلا تتقون ؟ ولا نافية ، وتتقون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون ، والواو فاعل (قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان ماذا أجابه قومه على دعوته . وقال الملأ فعل وفاعل ، والذين نعت ، وجملة كفروا صلة ، ومن قومه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، ووصف الملأ هنا ولم يصف الملأ في قصة نوح ، لأنه كان في أشراف هود من آمن به ، منهم فيما يروى مرثد بن سعد الذي أسلم ، وكان يكتم إسلامه ، فأريدت التفرقة بالوصف ، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن .

ويجوز أن يكون إيراد الوصف تسجيلا للذمّ ، ونعتهم بالكفران المجرد والإنحاء عليهم بما يتبرأ منه العقلاء (إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ) جملة إن وما في حيزها في محل نصب مقول قول الملأ

، وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، وجملة نراك خبر إن ، وفي سفاهة جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أو مفعول به ثان إن كانت الرؤية قلبية ، ولعلها الأولى (وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ) عطف على ما تقدم ، وقد سبق إعراب مثيله (قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ) كلام مستأنف مساق لبيان جواب هود ، وما بعده مقول لقوله ، وليس فعل ماض ناقص ، وبي جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها المقدم وسفاهة اسمها المؤخر (وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) الواو حالية ، ولكن واسمها ، ورسول خبرها ، وهو استدراك على ما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في الغاية القصوى من الرشد ، ومن رب العالمين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرسول (أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي) سبق إعرابها

(314/278)

قريبا (وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ) الواو عاطفة ، وأنا مبتدأ ، ولكم جار ومجرور متعلقان بناصح ، وناصح خبر أنا الأول . وأمين خبر أنا الثاني ، ويجوز إعرابه صفة لناصح .

البلاغة :

1- المجاز المرسل :

في جعل السفاهة ظرفا على طريق المجاز المرسل ، وعلاقته الحاليّة كما تقدم في آية نوح ،

وهي " إنا لنراك في ضلال مبين " . ويقال في تصدير الجملة بإن وزيادة اللام المزحلقة في خبرها ما قيل هناك ، فجدّد به عهدا .

2- العدول إلى الاسمية :

أتى في قصة هود بالجملة الاسمية ، فقال : " وأنا لكم ناصح أمين " ، وأتى في قصة نوح بالجملة الفعلية ، حيث قال : " وأنصح لكم " ، وذلك لأن صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد ساعة ، وكان نوح يكرر دعاءه ليلا ونهارا من غير تراخ ، فناسب التعبير بالفعلية ، وأما هود فلم يكن كذلك وقتا بعد وقت وقت ، فلهذا عبر عنه بالاسمية .

3- الكناية :

وذلك في قوله : " قال : يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين " ، فقد كنى عن تكذيبهم بقوله لهود عليه السلام :

إنا لنراك في سفاهة وقد تقدم البحث عنها كثيرا فجدد به عهدا .

[سورة الأعراف (7) : آية 69]

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69)

اللغة :

(بَصْطَةً) : بفتح الباء : أي قوة وطولا ، وفي معاجم اللغة :

البسطة : بفتح الباء التوسع والطول والكمال ، وبسطة العيش : سعته .

(آلاءَ) جمع مفرده إلي بكسر الهمزة وسكون اللام كحمل وأحمال ، أو ألي بضم الهمزة وسكون اللام كقفل وأقفال ، وإلى بكسر الهمزة وفتح اللام كعنب وأعناب ، أو ألى بفتح الهمزة واللام كقفا وأقفاء .

الاعراب :

(315/278)

(أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ) الهمزة للاستفهام الإنكاري المراد به النهي ، أي : لا تعجبوا وتدبروا في أمركم . والواو حرف عطف ، وعجبتم فعل ماض معطوف على محذوف دل عليه سياق الكلام ، أي : أفكذبتم أو عجبتم ، والمحذوف مستأنف مسوق لنهيهم عن الإمعان فيما هم عليه ، وأن جاءكم مصدر مؤول منصوب بنزع الخافض ، والجار والمجرور متعلقان بعجبتم ، أي :

أو عجبتم من مجيء ذكر من ربكم ، وذكر فاعل جاءكم ، ومن ربكم

(316/278)

جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لذكر ، وعلى رجل جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لذكر ، أي : مقول على لسان رجل ، ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرجل ، ولينذركم اللام لام التعليل ، وينذركم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، والمصدر مجرور باللام ، والجار والمجرور متعلقان بجاءكم (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ) الواو عاطفة ، والجملة منسوقة على ما قبلها لبيان ترتيب أحكام المناصحة والأمانة والإنذار ، وإذ نصب على المفعولية لا على الظرفية ، أي : واذكروا وقت الجعل المذكور ، لأن المقام مقام تجسيد واستحضار للصورة بكامل تفاصيلها ، وكأنما هي منصوبة أمامهم يستجلبون منه شتى العظات والعبر ، والجملة عطف على مقدر على كل حال ، كأنه قيل : لا تعجبوا أو تدبّروا في أمركم واستبصروا واذكروا ، وجملة جعلكم في محل جر بالإضافة ، والكاف مفعول به أول لجعلكم وخلفاء مفعول به ثان ، ومن بعد قوم نوح جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لخلفاء (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً) عطف على جعلكم ، وفي الخلق جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وبسطة مفعول به ثان لزادكم أو تمييز والكاف هي المفعول الأول ، (فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) الفاء هي الفصيحة ، لأنها وقعت جواب شرط مقدر ، أي : إذا عرفتم هذا حق المعرفة وتدبرتموه وتبصّرتم في مغابّه وخوافيه ، فاذكروا ، وآلاء اللّه مفعول به ، وجملة الرجاء حالية ، وجملة تفلحون خبر

لعل .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 70 إلى 72]

(317/278)

قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ (72)

اللغة :

(الدابر) : الآخر ، وقطع الدابر يعني الاستئصال ، لأنه إذا قطع الآخر فقد قطع ما قبله ، فحصل الاستئصال .

الاعراب :

(قالُوا : أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا) كلام مستأنف مسوق لينكروا عليه مجيئه ، وقد أرادوا المجيء من متعبّده ، أي : المكان الذي اعتزل فيه للعبادة ، أو أنهم لم يريدوا حقيقة المجيء ولكنهم أرادوا به مطلق التعرض والتصدي ، كما يقال : ذهب

ليشتمني ، وليس المراد حقيقة الذهاب ، ولعل هذا أبلغ وأبين . والهمزة للاستفهام الإنكاري ، وجئتنا فعل وفاعل ومفعول به ، واللام للتعليل ، ونعبد فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والجار والمجرور متعلقان بجئتنا ، والله مفعوله ، ووحده حال مؤولة ، أي : منفردا ، ونذر فعل مضارع معطوف على نعبد ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول

(318/278)

به ، وكان فعل ماض ناقص ، واسمها مستتر ، وجملة يعبد آباؤنا في محل نصب خبر كان ، وجملة كان وما في حيزها صلة الموصول (فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) الفاء الفصيحة ، وات فعل أمر ، وفاعله مستتر تقديره أنت ، ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول ، وبما جار ومجرور متعلقان ب " اتنا " وجملة تعدنا صلة الموصول ، وإن شرطية . وكنت فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط ، وكان واسمها ، ومن الصادقين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، وجواب إن محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : فأتنا . (قال : قد وقع عليكم رجس من ربكم وغضب) كلام مستأنف مسوق لبيان جواب هود لقومه . وقد حرف تحقيق ، ووقع فعل ماض ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بوقع ،

ورجس فاعل ، ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرجس ، وغضب معطوف على رجس ، وجملة قد وما في حيزها مقول القول ، أي : حق عليكم العذاب ووجب ، أو قد نزل عليكم ، جعل المتوقع بمثابة الواقع المتحقق ، ومن هذا الوادي ما يروى عن حسان بن ثابت أن ابنه لسعه زنبور وهو طفل ، فجاء يبكي ، فقال :

يا بني ما لك ؟ قال : قد لسعني طوير كأنه ملتف في بردي حبرة ، فضمه إلى صدره وقال له : يا بنيّ قد قلت الشعر (أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ) الهمزة للاستفهام الإنكاري ، ولاستقباح إنكارهم مجيئه داعيا إياهم إلى عبادة اللّه وترك الأصنام .

وتجادلونني فعل مضارع وفاعل ومفعول به ، وفي أسماء جار ومجرور متعلقان بتجادلونني ، وجملة سميتموها صفة لأسماء ، والواو لاسباغ الضمة ، وأنتم تأكيد ، وآباؤكم عطف على أنتم (ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) جملة ما نزّل صفة ثانية لأسماء ، وبها جار ومجرور متعلقان بنزل ، أو بمحذوف حال ، لأنه

(319/278)

كان في الأصل صفة لسلطان فلما تقدمت أعربت حالا ، ومن حرف جر زائد ، وسلطان مجرور لفظا منصوب على المفعولية محلا ، فانتظروا الفاء الفصيحة ، وانتظروا فعل أمر

وفاعل ، وإن واسمها ، ومعكم ظرف متعلق بالمنتظرين ، ومن المنتظرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر إن (فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) الفاء الفصيحة ، كما في قوله فانفجرت ، أي : فوقع ما وقع فأنجيناه ، وأنجيناه فعل وفاعل ومفعول به ، والذين عطف على الهاء في أنجيناه ، أو مفعول معه ، ومعه ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة ، وبرحمة جار ومجرور متعلقان بأنجيناه ، ومنّا جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرحمة (وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ) عطف على أنجيناه ، ودابر مفعول به ، والذين اسم موصول في محل جر بالإضافة ، وجملة كذبوا صلة لا محل لها ، وما كانوا عطف على كذبوا ، ومؤمنين خبر كانوا .

الفوائد :

قصة عاد :

روى التاريخ أن عادا قد تبسّطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت ، وكانت لهم أصنام يعبدونها ، وهي صدّاء وصمود والهباء ، فبعث اللّه إليهم هودا نبيا من أوسطهم وأفضلهم حسبا ، فكذّبوه وازدادوا عتوّا وتجبّرا ، فأمسك اللّه عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا ، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى اللّه تعالى الفرج منه عند بيته المحرّم ، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وسيدهم معاوية بن بكر ، فهجّرت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلا ، منهم قيل بن عتر ومرثد بن سعد الذي كان

يكتم إسلامه ، فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر ، وهو بظاهر مكة خارجا من الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم ، وكانوا أخواله وأصهاره ، فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنّيهم الجرادتان .

أسطورة الجرادتين :

(320/278)

و هما قينتان كانتا لمعاوية ، فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمّه ذلك ، وقال : قد هلك أخوالي وأصهاري ، وهؤلاء على ما هم عليه ، وكان يستحيي أن يكلمهم خيفة أن يظنوا ثقل مقامهم عليه ، فذكر ذلك للقينتين فقالتا : قل شعرا نغنيهم به لا يدرون من قاله ، فقال معاوية بن بكر :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعلّ اللّه يسقينا غماما

فيسقي أرض عاد إنّ عادا قد أمسوا ما يبينون الكلاما

فلما غنتا به قالوا : إن قومكم يتغوّثون من البلاء الذي نزل بهم ، وقد أبطأتم عليهم ، فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم . فقال لهم مرثد بن سعد : واللّه لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم ، وتبتم إلى اللّه سقيتم ، وأظهر إسلامه . فقالوا لمعاوية : احبس عنا مرثدا لا

يقدمنّ معنا مكة ، فإنه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة . فقال قيل بن عتر : اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم ، فأنشأ اللّه سحابا ثلاثا : بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء :

يا قيل اختر لنفسك ولقومك ! فقال : اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء . فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث ، فاستبشروا بها ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ، ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة فعبدوا اللّه فيها حتى ماتوا .

[سورة الأعراف (7) : آية 73]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (73)

اللغة :

)

(321/278)

ثَمُودَ) ثمود بمنع الصرف بتأويل القبيلة ، وبالصرف بتأويل الحيّ ، أو باعتبار الأصل ، لأنه اسم أبيهم الأكبر ، وهو ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح . وقيل : سميت ثمود لقلة مائها ، من الثمد ، وهو الماء القليل ، قال النابغة :

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام شراع وارد الثّمد

وكانت مساكنهم الحجر ، بين الشام والحجاز .

الاعراب :

(وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً) تقدم إعراب نظيرها ، وصالحا بدل

(322/278)

من " أخاهم " (قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ) تقدم إعراب نظيرها ، والجملة مقول قوله (قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) الجملة مندرجة في مقول قوله ، وجاءتكم فعل ماض ومفعول به ، وبينة فاعل ، ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بجاءتكم أو بمحذوف صفة لبيّنة (هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان البينة . واسم الاشارة مبتدأ ، وناقة اللّه خبر ، والإضافة لتعظيم أمر الناقة ، ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ثان أو حال ، وآية حال والعامل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى

الفعل ، ويجوز أن تعرب هذه الجملة بدلا من بيّنة ، لأنها بمثابة التفسير لها ، وجاز إبدال جملة من مفرد لأنها في قوته (فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ) الفاء تفريعية ، لأنها جاءت تفريعا على كونها آية من آيات اللّه ، مما يستوجب عدم التعرض لها بسوء ، وذروها فعل أمر وفاعل ومفعول به ، وتأكل فعل مضارع ، وهو مجزوم لأنه جواب الطلب ، وفي أرض اللّه جار ومجرور متعلقان بتأكل أو بقوله : فذروها ، على أنه من باب التنازع (وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتمسوها فعل مضارع مجزوم ، والواو فاعل ، والهاء مفعول به ، وبسوء جار ومجرور متعلقان بتمسوها ، فيأخذكم : الفاء فاء السببية ، ويأخذكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لأنه جواب النهي ، والكاف مفعول به ، وعذاب فاعل ، وأليم صفة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 74 إلى 75]

(323/278)

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا

إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75)

اللغة :

(تَنْحِتُونَ) في القاموس : " نحته ينحته كيضربه وينصره ويعلمه : براه " .

الاعراب :

(وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ) عطف على ما تقدم ، وإذ منصوب على المفعولية لا الظرفية ، أي اذكروا وقت الجعل ، وجملة جعلكم في محل جرّ بالإضافة ، والكاف مفعول به أول ، وخلفاء مفعول به ثان ، ومن بعد عاد جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لخلفاء (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً) عطف على جعلكم ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان ببوأكم ، وجملة تتخذون حالية من المفعول ، ومن سهولها جار ومجرور متعلقان بتتخذون أو بمحذوف حال من " قصورا " ، إذ هو في الأصل صفة لها لو تأخر ، وقصورا مفعول به ، وسمي القصر قصرا لقصور الفقراء عن تحصيله (وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً) الواو عاطفة ، وتنحتون فعل مضارع وفاعل ، والجبال يجوز أن يكون منصوبا بنزع الخافض ، أي : من الجبال ، كقوله تعالى : " واختار موسى قومه سبعين رجلا " ، فيكون " بيوتا "

مفعولا به ، ويجوز أن يضمن معنى ما يتعدى لاثنين ، أي : وتتخذون الجبال بيوتا بالنحت أو تصيرونها بيوتا بالنحت ، ويجوز أن يكون الجبال هو المفعول به ، و" بيوتا " حالا مقدّرة ، كما تقول : خط هذا الثوب قميصا . وابر هذه القصبة قلما . وإنما قلنا مقدرة لأن الجبل لا يكون بيتا في حال النحت ، ولا الثوب قميصا ، ولا القصبة قلما في حال الخياطة والبري . و" بيوتا " وإن لم يكن مشتقا فإنه في معنى المشتقّ ، أي : مسكونة (فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) الفاء الفصيحة ، واذكروا فعل أمر ، والواو فاعل ، وآلاء اللّه مفعول به ، والواو حرف عطف ، ولا ناهية ، وتعثوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بتعثوا ، ومفسدين حال (قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) كلام مستأنف مسوق ليكون جوابا عن استفهام ، وقال الملأ فعل وفاعل ، والذين اسم موصول في محل رفع صفة ، وجملة استكبروا لا محل لها لأنها صلة الموصول ، ومن قومه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ) الجار والمجرور متعلقان بقال ، وجملة استضعفوا صلة ، ولمن جار ومجرور متعلقان بمحذوف بدل من الذين استضعفوا ، بإعادة العامل ، وفيه وجهان : أحدهما أنه بدل كل من كل إن عاد الضمير في " منهم " على " قومه " ، ويكون المستضعفون كلهم المؤمنين فقط ، كأنه قيل : قال المستكبرون للمؤمنين من قوم صالح ، وإما بدل بعض من كلّ إن عاد الضمير على

المستضعفين ، ويكون المستضعفون ضربين : مؤمنين وكافرين ، كأنه قيل : قال المستكبرون من الضعفاء دون الكافرين من الضعفاء ، ومنهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ) الهمزة للاستفهام التهكمي ، أي : قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء ، والجملة

(325/278)

المستفهمة في محل نصب مقول القول ، وأن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي تعلمون ، ومن ربه جار ومجرور متعلقان بمرسل (قالُوا : إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة لتكون جوابهم ، وقد استبقوا الحوادث ، فمقتضى السياق أن يقولوا : نعم أو نعلم أنه مرسل . وإن واسمها ، وبما جار ومجرور متعلقان بالخبر " مؤمنون " ، وجملة أرسل صلة ، وإن وما بعدها جملة في محل نصب مقول القول ، وبه جار ومجرور متعلقان بأرسل .

البلاغة :

في هذه الآية فن طريف اسمه فنّ التغاير ، وقد مرّ طرف منه ، ونعيد الآن تعريفه للذكرى ، وهو تغاير المذهبين إما في المعنى الواحد بحيث يمدح إنسان شيئا أو يذمه ، أو يذمّ ما مدحه غيره وبالعكس ، أو يفضل شيئا أو يذمه أو يذم ما مدحه غيره وبالعكس ، أو يفضل

شيئا على شيء ، ثم يعود فيجعل المفضول فاضلا والفاضل مفضولا ، فقد غاير بعضهم في باب الطاعة والعصيان بعد التغاير في مقالهم واعتقادهم في نيّاتهم ، وهذا ما يغاير به الإنسان فيه غيره .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 76 إلى 79]

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)

اللغة :

)

(326/278)

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ) العقر أصله كشف العراقيب في الإبل وهو- كما قال الأزهري- أن يضرب قوائم البعير أو الناقة فيقع ، وكانت هذه سنتهم في الذبح ، ثم أطلق على كل نحر عقر ، وإن لم يكن فيه كشف عراقيب ، تسميته للشيء بما يلازمه غالبا ، إطلاقا للسبب على

مسببه . وقال ابن قتيبة : العقر : القتل كيف كان ، يقال عقرتها فهي معقورة ، وقيل : العقر الجرح .

(عَتَوْا) تولوا عن أمر ربهم واستكبروا عن الامتثال له .

(جاثِمِينَ) : جثم : أي لزم مكانه ولم يبرح ، أو وقع على صدره .

وقال أبو عبيدة : الجثوم للناس وللطير كالبروك للإبل .

الاعراب :

(قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) فعل وفاعل وصلة الموصول (إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ) تقدم إعراب نظيره ، والجملة مقول قولهم ، ولم يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، كما هو ظاهر السياق ، إظهارا لمخالفتهم ، وإصرارا على عنادهم ، وتحاشيا مما يوهم ظاهره إثباتهم لرسالته ، وهم يجحدونها (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ) الفاء الفصيحة ، وعقروا الناقة فعل وفاعل ومفعول به ، وعقروا عطف على

عتوا ، وعن أمر ربهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي :

مستكبرين أو صادرين عما يوحيه العتو إليهم ، ومثله : " وما فعلته عن أمري " ، وأسند العقر إلى الجميع ، لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشر القيام به إلا بعضهم (وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) عطف على ما تقدم ، وجملة ائتنا في محل نصب مقول القول ، وبما جار ومجرور متعلقان بائتنا ، وجملة تعدنا صلة الموصول ، وإن شرطية ، والجواب محذوف دل عليه ما قبله ، أي : فائتنا ، ومن المرسلين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كنت (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ) الفاء عاطفة ، وأخذتهم الرجفة فعل ومفعول به وفاعل ، فأصبحوا عطف على فأخذتهم ، والواو اسم أصبحوا ، وفي دارهم جار ومجرور متعلقان بجاثمين ، وجاثمين خبر أصبحوا (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ : يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي) الفاء عاطفة للتعقيب ، والظاهر أنه كان مشاهدا بعينه ما حصل لهم ، فتولى مغتمّا متحزّنا لإصرارهم على الكفر . وعنهم جار ومجرور متعلقان بتولي ، وقال عطف على فتولى ، ويا حرف نداء ، وقوم منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة ، ولقد اللام جواب قسم محذوف ، وقد حرف تحقيق ، وأبلغتكم فعل ماض وفاعل ومفعول به أول ، ورسالة ربي مفعول به ثان (وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) عطف على أبلغتكم ، ولكم جار ومجرور متعلقان بنصحت ، والواو حالية ، ولكن حرف استدراك مخفف مهمل ، ولا نافية ، وجملة لا تحبون الناصحين حالية ، لأنها حكاية حال ماضية .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 80 إلى 81]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81)

الإعراب :

)

(328/278)

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ) الواو عاطفة على ما تقدم من القصص ، أي : واذكر لوطا في ذلك الوقت . ولوطا مفعول به لفعل محذوف ، أي : واذكر لوطا ، وإذ ظرف مبدل من قوله :

" ولوطا " ، أي : واذكر وقت قال لقومه ، وجملة قال في محل جر بالإضافة ، ولقومه جار ومجرور متعلقان بقال ، والهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي ، وتأتون الفاحشة فعل وفاعل ومفعول به ، والجملة في محل نصب مقول القول (ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ) هذه الجملة يصح فيها أن تكون مستأنفة مسوقة لتأكيد النكر وتشديد التوبيخ والتقريع ، فإن مباشرة القبيح قبيحة ، واختراعه أقبح ، ويصح أن تكون حالية إما من الفاعل بمعنى

أتأتونها مبتدئين بها ، وإما من المفعول به معنى أتأتونها مبتدأ بها غير مسبوقة من غيركم .

وسبقكم فعل ماض ومفعول به ، وبها جار ومجرور متعلقان بسبقكم ، أو بمحذوف حال ، أي : ما سبقكم أحد مصاحبا لها ، أي ملتبسا بها ، ومن حرف جر زائد ، وأحد فاعل سبقكم ، ومن العالمين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لأحد (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان النوع من الفاحشة التي ابتدعوها ، وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، وجملة تأتون خبر إن ، والرجال مفعول به ، وشهوة مفعول لأجله ، أي : لا دافع لكم إلا الشهوة المجردة ، وهو ذم بليغ ، لأنه إلحاق لهم بالبهيمية المرتطمة

(329/278)

بالأقذار ، ويجوز أن تعرب حالا بمعنى مشتهين ، أي : تابعين لدواعي الشهوة وحوافزها ، غير آبهين لسماجتها . ومن دون النساء جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الواو في " تأتون " ، أي ، متجاوزين النساء ، أو من الرجال (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) بل حرف إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب اقتران الفضائح والمذامّ . وأنتم مبتدأ ، وقوم خبر ، ومسرفون صفة .

الفوائد :

(بَلْ) تكون للإضراب والعطف والعدول عن شيء إلى آخر ، إن وقعت بعد كلام مثبت ، خبرا كان أو أمرا ، أو للاستدراك بمنزلة " لكن " إن وقعت بعد نفي أو نهي . ولا يعطف بها إلا بشرط أن يكون معطوفها مفردا غير جملة ، وهي إن وقعت بعد الإيجاب أو الأمر كان معناها سلب الحكم عما قبلها ، حتى كأنه مسكوت عنه ، وجعله لما بعدها ، نحو : قام علي بل خالد ، ونحو : ليقم عليّ بل سعيد ، وإن وقعت بعد النفي أو النهي كان معناها إثبات النفي أو النهي لما قبلها ، وجعل ضدّه لما بعدها ، نحو : ما قام علي بل خالد ، ونحو : لا يذهب عليّ بل خالد . وإن تلاها جملة لم تكن للعطف بل تكون حرف ابتداء مفيدا للإضراب الإبطالي أو الانتقالي . فالأول كقوله تعالى " وقالوا :

اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون " ، أي : بل هم عباد .

والثاني كما في الآية الآنفة . وقد تزاد قبلها " لا " بعد إثبات أو نفي ، فالأول كقول الشاعر :

وجهك البدر لا بل الشمس لو لم يقض للشمس كسفنة أو أفول

والثاني كقول الآخر :

وما هجرتك لا بل زادني شغفا هجر وبعد تراخ لا إلى أجل

[سورة الأعراف (7) : الآيات 82 إلى 84]

وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84)

اللغة :

(الْغابِرِينَ) : الباقين ، أي : الذين غبروا في ديارهم ، أي بقوا فيها . والتذكير لتعليب الذكور على الإناث . وكانت امرأته كافرة مولية لأهل سدوم ، بالدال المهملة ، وقيل : هي بالمعجمة . وهي مدينة واقعة على شاطئ بحيرة طبرية .

الاعراب :

(وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا :) الواو عاطفة ، وما نافية ، وكان فعل ماض ناقص ، وجواب خبرها المقدم ، وقومه مضاف إليه ، وإلا أداة حصر . وأن المصدرية وما في حيزها في تأويل مصدر اسم كان المؤخر ، أي : إلا قولهم (أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

الجملة في محل نصب مقول قولهم ، ومن قريتكم جار ومجرور متعلقان بأخرجوهم ، وإن واسمها ، وأناس خبرها ، والجملة تعليلية لا محل لها ، أوردها تعبيرا عن سخريتهم واستهزائهم بلوط وقومه ، وجملة يتطهرون صفة لأناس (فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ

الْغابِرِينَ) الفاء عاطفة على محذوف مفهوم من سياق الكلام ، أي : فحل عليهم العذاب فأنجيناه .

وأنجيناه فعل وفاعل ومفعول به ، وأهله عطف على الهاء ، أو مفعول معه ، وإلا أداة استثناء ، وأهله مستثنى ، وجملة كانت من الغابرين استئنافية مسوقة للرد على سؤال نشأ عن استثنائها ، كأنه قيل : فماذا كانت حالها ؟

(331/278)

فقيل : كانت من الغابرين . أي الذين غبروا في ديارهم ، أي : بقوا فيها فهلكوا (وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً) الواو عاطفة ، وأمطر فعل ماض ، مثل مطر ، ونا ضمير متصل في محل رفع فاعل ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بأمطرنا ، ومطرا مفعول به ، لأنه يراد به الحجارة ، ولا يراد به المطر أصلا . وضمن أمطرنا معنى أرسلنا ، ولذلك عدّي بعلى ، ولو أراد المصدر لقال : إمطارا ، كما هو القياس (فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) الفاء استئنافية ، وانظر فعل أمر ، وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم ، وعاقبة اسمها ، والمجرمين مضاف إليه .

الفوائد :

شجر خلاف بين أهل اللغة حول مطر وأمطر ، فقال أبو عبيدة :

يقال : مطر في الرحمة ، وأمطر في العذاب . وهذا مردود بقوله تعالى :

" هذا عارض ممطرنا " ، فإنهم إنما عنوا الرحمة بذلك ، وقال الزمخشري : " أي فرق بين مطر وأمطر " ؟ وأجاب عن هذا السؤال قائلا : يقال : مطرتهم السماء ، وواد ممطور . وفي نوابغ الكلم :

حرى ممطور ، حرى أن يكون غير ممطور " ، وحرى الأول بمعنى ناحية وجانب ، والثاني بمعنى جدير وحقيق ، وممطور الأول مصاب بالمطر ، والثاني بمعنى مذهوب فيه . " ومعنى مطرتهم :

أصابتهم بالمطر ، كقوله : غاثتهم وبلتهم وجادتهم ورهمتهم ، ويقال :

(332/278)

أمطرت عليهم كذا بمعنى أرسلته إليهم إرسال المطر ، " فأمطر علينا حجارة من السماء " ، " وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل " ، ومعنى " وأمطرنا عليهم مطرا " وأرسلنا عليهم نوعا من المطر عجيبا ، يعني الحجارة " . وغاية الزمخشري من ذلك كله الرد على من يقول : مطرت السماء في الخير ، وأمطرت في الشر ، ويتوهم أنها تفرقة وضعية ، فبيّن أن " أمطرت

" معناه أرسلت شيئا على نحو المطر وإن لم يكن ماء ، حتى أرسل اللّه من السماء أنواعا من الخيرات والأرزاق مثلا كالمن والسلوى لجاز أن يقال فيه : أمطرت السماء خيرات ، أي : أرسلتها إرسال المطر ، فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة الرباعية ، ولكن اتفق أن السماء لم ترسل شيئا سوى المطر ، وإلا كان عذابا ، فظن الواقع اتفاقا مقصودا في الوضع ، فنبه الزمخشري على تحقيق الأمر فيه .

وممن فرّق بين الثلاثي والرباعي الفيروزبادي صاحب القاموس ، قال : وأمطرهم اللّه لا يقال إلا في العذاب .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 85 إلى 87]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (87)

اللغة :

)

مَدْيَنَ) : اسم أعجمي ، وهو اسم قبيلة ، سموا باسم أبيهم مدين بن إبراهيم ، وشعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين ، وهو اسم قبيلة ، فهو أخوهم في النسب ، وليس من أنبياء بني إسرائيل . ومدين أيضا اسم قرية شعيب ، فهو اسم مشترك بين القرية والقبيلة وأبيها .

(تَبْخَسُوا) : تنقصوا ، يقال : بخسته حقه إذا نقصته إياه ، وفي المثل : تحسبها حمقاء وهي باخس . ومن غريب أمر الباء والخاء أنها إذا اجتمعا فاء وعينا للكلمة عبرنا عن التأثير في الأشياء ، فمن ذلك البخت ، وهو الحظ ، وأثره أشهر من أن يذكر ، وبخ لك كلمة إعجاب ومدح للشيء ، وهي بالكسر والتنوين ، وقد تشدد الخاء وتكرر ،

فيقال : بخّ بخّ ، وتبنيان عندئذ على السكون ، وبخر الثوب أحدث فيه رائحة طيبة ، والبخر بفتحتين نتن الفم ، فهو من الأضداد . والبخار وهو الماء في الحالة الغازية ، وكل ما ارتفع من السوائل الحارّة كالدخان . وأثره في تسيير القواطر وغيرها مشهور متعارف ، وبخص عينه قلعها ، وبخع نفسه أهلكها ، وبخل أمسك ومنع .

الاعراب :

(وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ) تكررت هذه الآية

مرارا وقد تقدم إعرابها (قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) الجملة داخلة في حيز القول ، منصوبة به ، وبينة فاعل جاء تكم ، ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لبينة (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ) الفاء الفصيحة . وأوفوا فعل أمر ، والواو فاعل ، والكيل مفعول به ، والميزان عطف على الكيل (وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ) الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتبخسوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية ، والواو فاعله ، والناس مفعول به ، وأشياءهم مفعول به ثان ، يقال :

(334/278)

بخسته حقه إذا أنقصته إياه (وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها) عطف على ما تقدم ، ولا ناهية ، وتفسدوا فعل مضارع مجزوم بلا ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بتفسدوا ، وبعد إصلاحها ظرف زمان متعلق بمحذوف حال ، ولا بد من تقدير مضاف ، أي : إصلاح أهلها (ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الجملة مستأنفة ، واسم الإشارة مبتدأ ، وخير خبر ، ولكم جار ومجرور متعلقان بخير ، وإن شرطية ، وكنتم كان واسمها في محل جزم فعل الشرط ، ومؤمنين خبر كنتم ، وجواب إن محذوف ، أي : فبادروا إلى الايمان (وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ)

عطف أيضا ، وبكل جار ومجرور متعلقان بتقعدوا ، وصراط مضاف إليه ، وجملة توعدون في محل نصب على الحال ، أي : ولا تقعدوا موعدين (وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ) عطف أيضا ، وعن سبيل اللّه جار ومجرور متعلقان بتصدون ، ومن مفعول لتصدون ، وجملة آمن به صلة ، وبه جار ومجرور متعلقان بآمن (وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً) وتبغونها فعل وفاعل ومفعول به ، وعوجا حال وقع فيها المصدر موضع الاسم المشتق ، أي : معوجة . ويجوز أن تكون الهاء في محل نصب بنزع الخافض ، وعوجا مفعول به . وهو قول سليم تقدم في آل عمران ، فجدد عهدا به (وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ) عطف أيضا ، وإذ ظرف لما مضى من الزمن في محل نصب مفعول به ، أي : واذكروا شاكرين وقت كونكم قليلا عددكم . ويجوز أن تكون ظرفا ، والمفعول به محذوفا ، فيكون الظرف معمولا لذلك المحذوف ، أي : واذكروا نعمته عليكم في ذلك الوقت ، وجملة كنتم في محل جر بالإضافة ، وكان واسمها وخبرها ، فكثركم عطف على كنتم ، أي : كثركم بالغنى بعد الفقر ، وبالقدرة بعد الضعف (وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) عطف أيضا ، وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم ، وعاقبة المفسدين اسمها ، وقد علق الاستفهام

النظر فالجملة في محل نصب بنزع الخافض ، والجار والمجرور متعلقان بانظروا (وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) الواو عاطفة ، وإن شرطية ، وكان واسمها ، منكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لطائفة ، وجملة آمنوا خبر كان ، وبالذي جار ومجرور متعلقان بآمنوا ، وجملة أرسلت به صلة (وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا) طائفة عطف على طائفة الأولى ، وجملة لم يؤمنوا معطوفة على جملة آمنوا التي هي خبر كان ، من عطف الاسم وعطف الخبر على الخبر ، وحذف متعلق لم يؤمنوا

(336/278)

اكتفاء بمتعلق آمنوا (فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا) الفاء رابطة لجواب الشرط ، وحتى حرف غاية وجر ، ويحكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، والجار والمجرور متعلقان باصبروا ، وبيننا ظرف متعلق بيحكم (وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ) الواو للحال أو الاستئناف ، وهو مبتدأ ، وخير الحاكمين خبره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 3 صـ 293. 403﴾

(337/278)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والسبعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والسبعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 88 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 93 ﴾ من نفس السورة

(4/279)

قوله تعالى ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انتهى كلامه عليه السلام على هذا الوجه البديع ، أخبر سبحانه بما أفهم أن قومه لم يجدوا جواباً عنه أصلاً لأنهم انتقلوا إلى الدفاع بالفعل ، وهو أمارة الانقطاع ، فقال مستأنفاً : ﴿ قال الملأ ﴾ أي الأشراف ﴿ الذين استكبروا ﴾ أي أوجدوا الكبر إيجاد من هو طالب له بغاية الرغبة ، وخصهم ليحصل تمام التسلية بقوله : ﴿ من قومه لنخرجنك ﴾ وبين غلظتهم وحفاءهم بقولهم : ﴿ يا شعيب ﴾ من غير استعطاف ولا إجلال ﴿ والذين آمنوا ﴾ ويجوز أن يتعلق قوله : ﴿ معك ﴾ بـ " آمنوا " وبـ " نخرج " ﴿ من قريتنا ﴾ أي من

المكان الجامع لنا لمفارقتكم إيانا ﴿ أو لتعودن ﴾ أي إلا أن تعودوا ، أي ليكونن آخر الأمرين : إما الإخراج وإما العود ﴿ في ملتنا ﴾ أي بالسكوت عنا كما كنتم ، ولم يريدوا منه العود إلى الكفر لأنه صلى الله عليه وسلم كان محفوظاً قبل النبوة كإخوانه من الأنبياء عليهم السلام ، بل كانوا يعدون سكوته عليه السلام – قبل إرساله إليهم من دعائهم وسب آلهتهم وعيب دينهم – كوناً في ملتهم ، ومرادهم الآن رجوعه عليه السلام إلى تلك الحالة والقناعة ممن اتبعه بذلك ، فيكون مرادهم بالعود حقيقة في الجميع .

ولما كان من الإخراج والرد مستعظماً ، أخبر تعالى أنه أنكره بقوله : ﴿ قال أولو ﴾ أي أتخرجوننا أو تعيدوننا لو كنا راضين للإخراج والعود ولو ﴿ كنا كارهين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 68 ﴾

(5/279)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

اعلم أن شعيباً لما قرر تلك الكلمات قال : ﴿ الذين استكبروا ﴾ وأنفوا من تصديقه وقبول قوله لا بد من أحد أمرين : إما أن ونخرجك ونخرج أتباعك من هذه القرية وإما أن تعود إلى ملتنا ، والإشكال فيه أن يقال : إن قولهم : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ يدل على أنه عليه السلام كان على ملتهم التي هي الكفر ، فهذا يقتضي أنه عليه السلام كان كافراً قبل ذلك ، وذلك في غاية الفساد ، وقوله : ﴿ قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ ﴾ يدل أيضاً على هذا المعنى .

والجواب من وجوه :

الأول : أن أتباع شعيب كانوا قبل دخولهم في دينه كفاراً فخاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه وأجروا عليه أحكامهم .

الثاني : أن رؤساءهم قالوا ذلك على وجه التلبيس على العوام يوهمون أنه كان منهم ، وأن شعيباً ذكر جوابه على وفق ذلك الإيهام .

الثالث : أن شعيباً في أول أمره كان يخفي دينه ومذهبه ، فتوهموا أنه كان على دين قومه . (1)

الرابع : لا يبعد أن يقال : إن شعيباً كان على شريعتهم ، ثم إنه تعالى نسخ تلك الشريعة بالوحي الذي أوحاه إليه . (2)

الخامس : المراد من قوله : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ أي لتصيرن إلى ملتنا فوقع العود بمعنى

الابتداء .

تقول العرب : قد عاد إلي من فلان مكروه ، يريدون قد صار إلي منه المكروه ابتداء .

قال الشاعر :

فإن تكن الأيام أحسن مدة . . إلى فقد عادت لهن ذنوب

أراد فقد صارت لهن ذنوب ، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان ، ثم إنه تعالى بين أن القوم لما قالوا ذلك أجاب شعيب عليه السلام عن كلامهم بوجهين : الأول : قوله : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ الهمزة للاستفهام ، والواو واو الحال .

تقديره : أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ، ومع كوننا كارهين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 144.145 ﴾

---

(1) جواب ضعيف .

(2) بل هو فى غاية البعد وهو جواب فاسد غير مقبول .

(3) هذا أحسن الأجوبة . والله أعلم . وقد تأتى ﴿ عاد ﴾ بمعنى صار كما فى قوله تعالى فى سورة يس ﴿ ﴾

ومن الجيب المبهر أن القرآن يستخدم هذا اللفظ ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ ولم يقل : أَوْ لَتَصيرنَّ فِى مِلَّتِنَا ؛

لأن لفظ ﴿ تعودن ﴾ إن قصد به قوم شعيب . عليه السلام . صح معناه لأنهم كانوا على

ملة قومهم قبل إيمانهم وتوحيدهم ، وإن قصد به شعيب ـ عليه السلام ـ فيكون المعنى : أَوْ لَتَصيرنَّ فِى مِلَّتِنَا .

وقيل : إنهم خاطبوا الأكثرية ؛ لذا أدخلوا شعيبا ـ عليه السلام ـ فى الخطاب . والله أعلم .

(6/279)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ ﴾

يعني : الأشراف والرؤساء تعظموا عن الإيمان من قومه ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين ءامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أي لتدخلنا في ديننا الذي نحن عليه .

ويقال : هذا الخطاب لقومه الذين آمنوا لترجعن إلى ديننا كما كنتم ﴿ قَالَ ﴾ لهم شعيب ﴿ أَوْ لَوْ كُنَّا كارهين ﴾ يعني : أتجبروننا على ذلك ؟ قالوا : نعم قال لهم شعيب : ﴿ قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(7/279)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ ﴾

وتقدم القول في معنى ﴿ الملأ ﴾ ومعنى الاستكبار ، وقولهم : ﴿ لنخرجنك يا شعيب ﴾ تهديد بالنفي ، والقرية المدينة الجامعة للناس لأنها تقرت أي اجتمعت ، وقولهم أو ﴿ لتعودون في ملتنا ﴾ معناه أو لتصيرن ، وعاد : تجيء في كلام العرب على وجهين .

أحدهما عاد الشيء إلى حال قد كان فيها قبل ذلك ، وهي على هذه الجهة لا تتعدى فإن عديت فبحرف ، ومنه قول الشاعر : [السريع]

إن عادت العقرب عدنا لها . . . وكانت النعل لها حاضرة

ومنه قول الآخر : [الطويل]

ألا ليت أيام الشباب جديدُ . . . وعصراً تولّى يا بثين يعودُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا ﴾ [الأنعام : 28] ومنه قول الشاعر : [الطويل]

فإن تكن الأيام أحسن مرة . . . إليّ فقد عادَتْ لَهُنَّ ذنُوبُ

والوجه الثاني أن تكون بمعنى صار وعاملة عملها ولا تتضمن أن الحال قد كانت متقدمة .

ومن هذه قول الشاعر : [البسيط]

تلك المكارم لاقعبان من لبن . . . شيباً بماء فعادوا بعد أبوالا

ومنه قول الآخر : [الرجز]

وعاد رأسي كالثغامة . . . ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ [يس : 39] على أن هذه محتملة ، فقوله في الآية أو ﴿ لتعودن ﴾ و ﴿ شعيب ﴾ عليه السلام لم يكن قط كافراً يقتضي أنها بمعنى صار ، وأما في جهة المؤمنين بعد كفرهم فيترتب المعنى الآخر ويخرج عنه " شعيب " إلا أن يريدوا عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث ، وقوله ﴿ أو لو كنا كارهين ﴾ توقيف منه لهم على شنعة المعصية وطلب أن يقروا بألسنتهم بإكراه المؤمنين بالله على الإخراج ظلماً وغشماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(8/279)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أو لتعودُنَّ في ملتنا ﴾

يعنون : ديننا ، وهو الشرك .

قال الفراء : جعل في قوله : "لتعودن" لاماً كجواب اليمين ، وهو في معنى شرط ، ومثله في الكلام : والله لأضربنَّك أو تُقِرّ لي ، فيكون معناه معنى : "إلا" أو معنى : "حتى" .

﴿ قال أو لو كنا كارهين ﴾ أي : أو تجبروننا على ملتكم إن كرهناها ؟ ! والألف للاستفهام .

فإن قيل : كيف قالوا : "لتعودن" ، وشعيب لم يكن في كفر قط ، فيعود إليه ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنهم لما جمعوا في الخطاب معه من كان كافراً ، ثم آمن ، خاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه ، وغلَّبوا لفظهم على لفظه ، لكثرتهم ، وانفراده .

والثاني : أن المعنى : لتصيرُنّ إلى ملتنا ؛ فوقع العَود على معنى الابتداء ، كما يقال : قد عاد عليَّ من فلان مكروه ، أي : قد لحقني منه ذلك ؛ وإن لم يكن سبق منه مكروه .

قال الشاعر :

فانْ تكنِ الأَيَامُ أَحسنَّ مَرةً . . .

إليَّ فقد عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوْبُ

وقد شرحنا هذا في قوله : ﴿ وإلى الله تُرجع الأمور ﴾ في سورة [البقرة : 210] ، وقد ذكر معنى الجوابين الزجاج ، وابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(9/279)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ تقدّم معناه .

ومعنى «أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا» أي لتصِيرُنّ إلى ملتنا .

وقيل : كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر ، أي لتعودُنّ إلينا كما كنتم من قبل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

قال الزجاج : يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء ؛ يقال : عاد إليّ من فلان مكروه ، أي صار ، وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك ، أي لحقني ذلك منه .

فقال لهم شعيب ؛ ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أي ولو كنا كارهين تجبروننا عليه ، أي على الخروج من الوطن أو العود في مِلتكم .

أي إن فعلتم هذا أتيتم عظيماً .

(10/279)

وقال الخازن :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ﴾

يعني قال الجماعة من أشراف قومه الذين تكبروا عن الإيمان بالله وبرسوله وتعظموا عن اتباع شعيب ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ في ملتنا ﴾ عين أن قوم شعيب أجابوه بأن قالوا لا بد من أحد أمرين إما إخراجك ومن تبعك على دينك من بلدنا او لترجعن إلى ديننا وملتنا وما نحن عليه وهذا فيه إشكال وهو أن شعيباً عليه الصلاة والسلام لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع إلى ما كان عليه فما معنى قوله أو لتعودن في ملتنا وأجيب عن هذا الإشكال بأن اتباع شعيب كانوا قبل الإيمان به على ملة أولئك الكفار فخاطبوا شعيبا وأتباعه جميعاً فدخل هو في الخطاب وإن لم يكن على ملتهم قط .

وقيل : معناه لتصيرن إلى ملتنا فوقع العود على معنى الابتداء كما تقول قد عاد عليّ من فلان مكروه بمعنى قد لحقني منه ذلك وإن لم يكن قد سبق منه مكروه فهو كما قال الشاعر :

فإن تكن الأيام أحسن مدة . . .

إلي فقد عادت لهن ذنوب

أراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان .

وقوله تعالى : ﴿ قال أولو كنا كارهين ﴾ أي لا نعود في ملتكم وإن أكرهتمونا وأجبرتمونا على الدخول فيها فلا نقبل ولا ندخل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ﴾

(12/279)

أي الكفار ﴿ الذين استكبروا ﴾ عن الإيمان أقسموا على أحد الأمرين إخراج شعيب وأتباعه أو عودتهم في ملته والقسم يكون على فعل المقسم وفعل غيره سوّوا بين نفيه ونفي أتباعه وبين العود في الملّة وهذا يدلّ على صعوبة مفارقة الوطن إذ قرنوا ذلك بالعود إلى الكفر وفي الإخراج والعود طباق معنوي وعاد كما تقدّم لها استعمالان أحدهما أن تكون بمعنى صار والثاني بمعنى رجع إلى ما كان عليه فعلى الأوّل لا إشكال في قوله أو لتعودن إذ صار فعلاً مسنداً إلى شعيب وأتباعه ولا يدلّ على أن شعيباً كان في ملتهم وعلى المعنى الثاني يشكل لأنّ شعيباً لم يكن في ملتهم قط لكن أتباعهم كانوا فيها ، وأجيب عن هذا بوجوه ، أحدها : أن يراد بعود شعيب في الملة حال سكوته عنهم قبل أن يبعث لإحالة الضلال فإنه كان يخفي دينه إلى أن أوحى الله إليه ، الثاني : أن يكون من باب تغليب حكم

الجماعة على الواحد لما عطفوا أتباعه على ضميره في الإخراج سحبوا عليه حكمهم في العود وإن كان شعيب بريئاً مما كان عليه أتباعه قبل الإيمان ، الثالث : أن رؤساءهم قالوا ذلك على سبيل التلبيس على العامّة والإيهام أنه كان منهم ﴿ قال أولو كنا كارهين ﴾ أي أيقع منكم أحد هذين الأمرين على كل حال حتى في حال كراهيتنا لذلك والاستفهام للتوقيف على شنعة المعصية بما أقسموا عليه من الإخراج عن مواطنهم ظلماً أو الإقرار بالعود في ملتهم ، قال الزمخشري الهمزة للاستفهام والواو واو الحال تقديره أتعيدوننا في ملّتكم في حال كراهتنا أو مع كوننا كارهين انتهى ، فجعل الاستفهام خاصاً بالعود في ملتهم وليس كذلك بل الاستفهام هو عن أحد الأمرين الإخراج أو العود وجعل الواو واو الحال وقدره أتعيدوننا في حال كراهتنا وليست واو الحال التي يعبّر عنها النحويون بواو الحال بل هي واو العطف عطفت على حال محذوفة كقوله "ردّوا السائل ولو بظلف محرق" ليس المعنى ردّوه في حال الصدقة عليه بظلف محرق بل المعنى ردّوه مصحوباً بالصدقة ولو مصحوباً بظلف محرق تقدم لنا إشباع القول في نحو هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(13/279)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ الملا الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ ﴾

استئنافٌ مبنيٌ على سؤال ينساق إليه المقالُ كأنه قيل : فماذا قالوا بعد ما سمعوا هذه المواعظَ من شعيبٍ عليه السلام ؟ فقل : قال أشرافُ قومِه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غيرَ مكتفِين بمجرد الاستعصاءِ عليه والامتناعِ من الطاعة له بل بالغين من العُتوّ والاستكبارِ إلى أن قصَدوا استتباعَه عليه السلام فيما هم فيه وأتباعَه المؤمنين واجترأوا على إكراههم عليه بوعيد النفي وخاطبوه بذلك على طريقة التوكيدِ القسمي : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين ءامَنُواْ ﴾ بنسبة الإخراجِ إليه عليه السلام أولاً وإلى المؤمنين ثانياً بعطفهم عليه تنبيهاً على أصالته عليه السلام في الإخراج وتبعيتِهم له فيه كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ مَعَكَ ﴾ فإنه متعلقٌ بالإخراج لا بالإيمان وتوسيطُ النداءِ باسمه العَلَميّ بين المعطوفَين لزيادة التقريرِ والتهديدِ الناشئةِ من غاية الوقاحةِ والطغيان ، أي والله لنُخرجنّك وأتباعَك ﴿ مِن قَرْيَتِنَا ﴾ بغضاً لكم ودفعاً لفتنتكم المترتبةِ على المساكنة والجِوارِ ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ عطفٌ على جواب القسم ، أي والله ليكونن أحدُ الأمرين البتة ، على أن المقصِدَ الأصليَّ هو العَوْدُ ، وإنما ذُكر النفيُ والإجلاءُ لمحض القسر والإلجاءِ كما يُفصِحُ عنه عدمُ تعرُّضِه عليه السلام لجواب الإخراجِ كأنهم قالوا : لا ندعكم فيما بيننا حتى تدخُلوا في ملتنا ، وإدخالُهم له عليه السلام في خطاب العَوْدِ مع

استحالة كونِه عليه السلام في ملتهم قبل ذلك إنما هو بطريق تغليبِ الجماعةِ على الواحد وإنما لم يقولوا : أو لنُعيدنّكم على طريقة ما قبلهِ لما أن مُرادَهم أن يعودوا إليها بصورة الطواعيةِ حِذارَ الإخراجِ باختيار أهونِ الشرَّين لا إعادتُهم بسائر وجوهِ الإكراهِ والتعذيب .

(14/279)

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ كما سبق أي قال عليه السلام رداً لمقالتهم الباطلةِ وتكذيباً لهم في أَيمانهم الفاجرة : ﴿ أَوْلَوْ كُنَّا كارهين ﴾ على أن الهمزةَ لإنكار الوقوعِ ونفيه لا لإنكار الواقعِ واستقباحِه كالتي في قوله تعالى : ﴿ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَىء مُّبِينٍ ﴾ ويجوز أن يكون الاستفهامُ فيه باقياً على حاله وقد مر مراراً أن كلمةَ لو في مثل هذا المقامِ ليست لبيان انتفاءِ الشيءِ في الزمن الماضي لانتفاء غيرِه فيه فلا يلاحظ لها جوابٌ قد حذف تعويلاً على دِلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديةً إلا عند القصدِ إلى بيان الإعرابِ على القواعد الصناعيةِ بل هي لبيان تحققِ ما يفيده الكلامُ السابقُ بالذات أو بالواسطة من الحُكم الموجَب أو المنفي على كل حال مفروضٍ من الأحوال المقارنةِ له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدّها منافاةً له ليظهر بثبوته أو انتفائِه معه ثبوتُه أو انتفاؤُه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولويةِ لما أن الشيءَ متى تحقق مع المنافي القويّ فلأَن يتحققَ مع غيره أولى ولذلك لا يُذكرُ

معه شيءٌ من سائر الأحوال ويُكتفى عنه بذكر الواو العاطفةِ للجملة على نظيرتها المقابلةِ لها الشاملةِ لجميع الأحوالِ المغايرةِ لها عند تعدّدِها ، وهذا معنى قولِهم : إنها لاستقصاء الأحوالِ على سبيل الإجمالِ ، وهذا المعنى ظاهرٌ في الخبر الموجَبِ والمنفيّ والأمرِ والنهي كما في قولك : فلانٌ جوادٌ يعطي ولو كان فقيراً أو بخيلٌ لا يعطي ولو كان غنياً ، وكقولك : أحسنْ إليه ولو أساء إليك ولا تُهِنْه ولو أهانك لبقائه على حاله سالماً عما يغيّره ، وأما فيما نحنُ فيه ففية نوعُ خفاءٍ لتغيّره بورود الإنكارِ عليه ، لكن الأصلَ في الكل واحدٌ إلا أن كلمةَ لو في الصور المذكورةِ متعلقةٌ بنفس الفعل المذكورِ قبلها وأن ما يُقصد بيانُ تحققِه على كل حال هو نفسُ مدلولِه وأن الجملةَ حالٌ من ضميره أو مما يتعلق به وأن ما في

(15/279)

حيز لو مقرّرٌ على ما هو عليه من الاستبعاد ، بخلاف ما نحن فيه ، لما أن كلمةَ لو متعلقةٌ فيه بفعل مقدرٍ يقتضيه المذكورُ وأن ما يُقصد بيانُ تحققِه على كل حال هو مدلولُه لا مدلولُ المذكورِ وأن الجملةَ حالٌ من ضميره لا من ضمير المذكورِ كما سيأتي أو المقصودُ الأصلي إنكارُ مدلولِه من حيث مقارنتُه للحالة المذكورةِ ، وأما تقديرُ مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرةِ وأن ما في حيز (لو) لا يقصد استبعادُه في نفسه بل يقصد الإشعارُ بأنه أمرٌ مقرّرٌ إلا أنه

أُخرج مُخرَجَ الاستبعادِ مبالغةً في الإنكار من جهة أن العودَ مما يُنكر عند كونِ الكراهةِ أمراً مستعداً فكيف به عند كونِها أمراً محققاً ومعاملةً مع المخاطَبين على معتقدَهم لاستنزالهم من رتبة العِناد ؟ وليس المرادُ بالكراهة مجردَ كراهةِ المؤمنين للعود في ملة الكفرِ ابتداءً حتى يقال إنها معلومةٌ لهم فكيف تكون مستبعدةً عندهم بل إنما هي كراهتُهم له بعد وعيدِ الإخراجِ الذي جُعل قريناً للقتل في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا ﴾ الآية ، فإنهم كانوا يستبعدونها ويطمَعون في أنهم حينئذ يختارون العَوْدَ خشيةَ الإخراجِ ، إذ رُب مكروهٍ يُختار عند حلولِ ما هو أشدُّ منه وأفظعُ ، والتقديرُ : أنعودُ فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين غيرَ مبالين بالإكراه ؟ فالجملةُ في محل النصب على الحالية من ضمير الفعل المقدرِ حسبما أُشير إليه ، إذ مآلُه : أنعود فيها حالَ عدمِ الكراهةِ ، وحالُ الكراهةِ إنكارٌ لما تفيده كلمتُهم الشنيعةُ بإطلاقها من العَوْد على أي حالة كانت ، غيرَ أنه اكتُفِيَ بذكر الحالة الثانيةِ التي هي أشدُّ الأحوالِ منافاةً للعود وأكثرُها بُعداً منه تنبيهاً على أنها هي الواقعةُ في نفس الأمر ، وثقةً بإغنائها عن ذكر الأولى إغناءً واضحاً لأن العودَ الذي تعلق به الإنكارُ حين تحققَ مع الكراهة على ما يوجبه كلامُهم فلأن يتحققَ مع عدمها أولى .

(16/279)

إن قلتَ : النفيُ المستفادُ من الاستفهام الإنكاريّ فيما نحن فيه بمنزلة صريحِ النفي ولا ريب في أن الأولويةَ هناك معتبرةٌ بالنسبة إلى النفي ، ألا يُرى أن الأولى بالتحقق فيما ذُكر من مثال النفي عند الحالةِ المسكوتِ عنها أعني عدمَ الغِنى هو عدمُ الإعطاءِ لا نفسُه فكان ينبغي أن يكون الأولى بالتحقيق فيما نحن فيه عند عدمِ الكراهةِ عدمُ العَوْدِ لا نفسُه ، إذ هو الذي يدل عليه قولُنا : أنعود ؟ لأنه في معنى لا نعود ، فلمَ اختلف الحالُ بينهما ؟ قلتُ : لِما أن مناطَ الأولويةِ هو الحكمُ الذي أريد بيانُ تحققِه على كل حالٍ وذلك في مثال النفي عدمُ الإعطاءِ المستفادِ من الفعل المنفي المذكور ، وأما فيما نحن فيه فهو نفسُ العودِ المستفادِ من الفعل المقدرِ إذ هو الذي يقتضيه الكلامُ السابقُ أعني قولَهم : (لتعودُن) وأما الاستفهامُ فخارجٌ عنه واردٌ عليه لإبطال ما يفيده ونفيِ ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما في صورة النفي ، وتوضيحُه أن بين النفيين فرقاً معنوياً تختلف به أحكامُهما التي من جملتها ما ذُكر من اعتبار الأولوية في أحدهما بالنسبة إلى نفسه ، وفي الآخر بالنسبة إلى متعلَّقه ولذلك لا تستقيم إقامةُ أحدِهما مُقامَ الآخَر على وجه الكلية ، ألا يُرى أنك لو قلت مكانَ أنعود فيها الخ ، لا نعود فيها ولو كنا كارهين لاختلَّ المعنى اختلالاً فاحشاً ، لأن مدلولَ الأولِ نفيُ العَوْد المقيدِ بحال الكراهة ومدلولَ الثاني تقييدُ العودِ المنفيِّ بها وذلك لأن حرفَ النفي يباشر نفسَ الفعلِ وينفيه ، وما يُذكر بعده يرجعُ إليه من حيث هو منفيٌّ . وأما همزةُ الاستفهامِ فإنها

تباشر الفعلَ بعد تقيُّدِه بما بعده ، لما أن دِلالتَها على الإنكار والنفي ليست بدلالة وضعيةٍ كدِلالة حرفِ النفي حتى يتعلقَ معناها بنفس الفعلِ الذي يليها ، ويكونَ ما بعده راجعاً إليه من حيث هو منفيٌّ ، بل هي دِلالةٌ عقليةٌ مستفادةٌ من سياق الكلامِ فلا بد

(17/279)

أن يكون ما يُذكر بعد الفعلِ من موانعه ودواعي إنكارِه ونفيِه حتماً ليكون قرينةً صارفةً للهمزة عن حقيقتها إلى معنى الإنكارِ والنفي ، ثم لما كان المقصودُ نفيَ الحُكم على كل حال مع الاقتصار على ذكر بعضٍ منها مغنٍ عن ذكر ما عداها لاستلزام تحقّقِه معه تحققه مع غيره بطريق الأولوية وكانت حالُ الكراهةِ عند كونها قيداً لنفس العَوْدِ كذلك أي مغنياً عن ذكر سائرِ الأحوالِ ضرورة أن تحققَ العَوْدِ في حال الكراهةِ مستلزِمٌ لتحققه في حال عدمِها ألبتةَ ، وعند كونِها قيداً لنفيه بخلاف ذلك أي غيرُ مغنٍ عن ذكر غيرِها ضرورة أن نفيَ العودِ في حال الكراهةِ لا يستلزم بقية في غيرها بل الأمرُ بالعكس فإن نفيَه في حال الإرادةِ مستلزِمٌ لنفيه في حال الكراهةِ قطعاً .

استقام الأول لإفادته نفيَ العودِ في الحالتين مع الاقتصار على ذِكْر ما هو مغنٍ عن ذكر الآخر ، ولم يستقم الثاني لعدم إفادتِه إياه على الوجه المذكور . إن قيل : فما وجهُ استقامتِهما

جميعاً عند ذكرِ المعطوفَيْن معاً حيث يصِحّ أن يقال : لا نعودُ فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين كما يصح أن يقال : أنعودُ فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين مع أن المقدّر في حكم الملفوظِ قلنا : وجهُها أن كلاًّ منهما يفيد معنىً صحيحاً في نفسه لا أن معنى أحدِهما عينُ معنى الآخر أو متلازمان متفقانِ في جميع الأحكام ، كيف لا ومدلولُ الأولِ أن العودَ منتفٍ في الحالتين ومدلولُ الثاني أن العودَ في الحالتين منتفٍ وكلا المعنيين صحيحٌ في نفسه مصحّحٌ لنفي العَوْدِ في الحالتين مع الاقتصار على ذكر حالة الكراهة على عكس المعنى الأول فإنه مصحّحٌ لنفيه فيهما مع الاقتصار على ذكر حالةِ الإرادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(18/279)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ ﴾

استئناف مبني على سؤال ينساق إليه المقال كأنه قيل له : فماذا قالوا له عليه السلام بعد ما سمعوا منه هذه المواعظ ؟ فقيل : قال أشراف قومه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غير مكتفين بمجرد الاستعصاء بل بالغين من العتو مبلغاً عظيماً ﴿ لَنُخرِجَنَّكَ يا

شعيب والذين ءامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ﴾ بغضاً لكم ودفعاً لفتنتكم المترتبة على المساكنة والجوار ، والتأكيد القسمي للمبالغة والاعتناء بالحكم و﴿ مَعَكَ ﴾ متعلق بالإخراج لا بالايمان ، ونسبة الإخراج إليه عليه السلام أولاً وإلى المؤمنين ثانياً للتنبيه على أصالته عليه السلام في ذلك وتبعيتهم له فيه ، وتوسيط النداء باسمه العلي بين المعطوفين لزيادة التقرير والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ عطف على جواب القسم أي والله ليكونن أحد الأمرين البتة الإخراج أو العود على أن المقصد الأهم هو العود وإنما ذكر الأول لمجرد القسر والإلجاء كما يفصح عنه عدم تعرضه عليه السلام بجواب الإخراج ، والمتبادر من العود الرجوع إلى الحالة الأولى وهذا مما لا يمكن في حق شعيب عليه السلام لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون عما دون الكفر بمراتب . نعم هو ممكن في حق من آمن به فإسناده إليه عليه السلام من باب التغليب ، قيل : وقد غلب عليه المؤمنون هنا كما غلب هو عليهم في الخطاب فيكون في الآية حينئذ تغليبان ، وقال غير واحد : أن تعود بمعنى تصير كما أثبته بعض النحاة واللغويين فلا يستدعي العود إلى حالة سابقة وعلى ذلك قوله :

فإن لم تك الأيام تحسن مرة . . .

إلى فقد عادت لهن ذنوب

فكأنهم قالوا : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن مثلنا فحينئذ لا إشكال ولا تغليب ، وكذا يقال فيما بعد وهو حسن ولا يأباه ﴿ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : 89] لاحتمال أن يقال بالتغليب فيه أو يقال إن التنجية لا يلزم أن تكون بعد الوقوع في المكروه ، ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ فأنجيناه وَأَهْلَهُ ﴾ [الأعراف : 83] وأمثاله .

وقال ابن المنير على احتمال تسليم استعمال العود بمعنى الجروع إلى أمر سابق يجاب بأنه على نهج قوله تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين ءامَنُواْ يُخْرِجُهُم مّنَ الظلمات إِلَى النور والذين كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطاغوت يُخْرِجُونَهُم مّنَ النور إِلَى الظلمات ﴾ [البقرة : 257] فإن الإخراج يستدعي دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه ، وهو غير متحقق في المؤمن والكافر الأصليين ، لكن لما كان الايمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله تعالى العبد ميسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراده عبر عن تمكن المؤمن من الكفر ، ثم عدوله عنه إلى الايمان اختياراً بالإخراج من الظلمات إلى النور توفيقاً من الله تعالى له ولطفاً به وبالعكس في حق الكافر ، ويأتي نظير ذلك في قوله تعالى :

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة : 61] وهذا من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب .

وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار لإقامة حجة الله تعالى على عباده .

(20/279)

وقيل : إن هذا القول كان جارياً على ظنهم أنه عليه السلام كان في ملتهم لسكوته قبل البعثة عن الانكار عليهم أو أنه صدر عن رؤسائهم تلبيساً على الناس وإيهاماً لأنه كان على دينهم ، وما صدر عنه عليه السلام في أثناء المحاورة وقع على طريق المشاكلة ، وذكر الشهاب احتمالاً آخر في الجواب وهو أن الظاهر أن العود هو المقابل للخروج إلى ما خرج منه وهو القرية ، والجار والمجرور في موضع الحال أي ليكن منكم الخروج من قريتنا أو العود إليها كائنين في ملتنا فينحل الإشكال من غير حاجة إلى ما تقدم ، ولا يخفى بعده .

(21/279)

وإنما لم يقولوا أو لنعيدنكم على طريقة ما قبله لما أن مرادهم أن يعودوا بصورة الطواعية حذر الإخراج عن الوطن باختيار أهون الشرين لا إعادتهم بسائر وجوه الإكراه والتعذيب ،

ومن الناس من زعم أن تعودن لا يصلح أن يكون جواباً للقسم لأنه ليس فعل المقسم ، وجعل ما أشرنا إليه أولى في بيان المعنى مخلصاً من ذلك وهو باطل لأنه يقتضي أن القسم لا يكون على فعل الغير ولم يقل أحد به ، وقد شاع نحو والله ليضربن زيد من غير نكير وعدي العود بفي إيماء إلى أن الملة لهم بمنزلة الوعاء المحيط بهم ﴿ قَالَ ﴾ استئناف كنظائر أي قال شعيب عليه السلام رداً لمقالتهم الباطلة وتكذيباً لهم في أيمانهم الفاجرة : ﴿ أَوْلَوْ كُنَّا كارهين ﴾ على أن الهمزة لإنكار الوقوع ونفيه ، والواو للعطف على محذوف ، وقد يقال : لها في مثل هذا الموضع واو الحال أيضاً و ﴿ لَوْ ﴾ هي التي يؤتى بها لبيان ما يفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ما عداه من الأحوال بطريق الألوية ، والكلام ههنا في تقدير أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين غير مبالين بالإكراه ، فالجملة في موضع الحال من ضمير الفعل المقدر والمآل أنعود فيها حال عدم الكراهة وحال الكراهة إنكاراً لما تفيده كلمتهم الشنيعة بإطلاقها من العود على أي حالة غير أنه اكتفى بذكر الحالة التي هي أشد الأحوال منافاة للعود وأكثرها بعداً منه تنبيهاً على أنها هي الواقعة في نفس الأمر وثقة بإغنائها عن ذكر الأولى إغناءاً واضحاً لأن العود الذي تعلق به الإنكار حين تحقق مع الكراهة على ما يوجبه كلامهم فلأن يتحقق مع عدمها أولى ، وهذا بعض مما ذكره شيخ

الإسلام في هذا المقام ، وقد أطنب فيه الكلام وأتى بالنقض والإبرام فأرجع إليه ، وقد جوز أن

(22/279)

يكون الاستفهام باقياً على حاله ، وجعل بعضهم الهمزة بمعنى كيف ، ووجه التعجيب إلى العود أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها وتقدير فعل العودة لقوة دلالة الكلام عليه أولى من تقدير فعل الإعادة كما فعل الزمخشري ، وفي "التيسير" تقدير فعل الإخراج أي تخرجوننا من غير ذنب ونحن كارهون لمفارقة الأوطان ، وقد وجه بأن العود مفروغ عنه لا يتصور من عاقل فلا يكون إلا الإخراج ، ولا يخفى ضعف هذا التقدير .

وذكر أبو البقاء أن ﴿ لَوْ ﴾ هنا بمعنى أن لأنها للمستقبل ، وجوز أن تكون على أصلها وما أشار إليه شيخ الإسلام في هذا المقام أبعد مغزى فليتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(23/279)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

كان جوابهم عن حجّة شعيب جوابَ المفحَم عن الحجّة ، الصائر إلى الشدّة ، المزدهي بالقوة ، المتوقّعِ أن يكثر معاندوه ، فلذلك عدلوا إلى إقصاء شعيب وأتباعه عن بلادهم خشية ظهور دعوته بين قومهم ، وبث أتنباعه دعوته بين الناس ، فلذلك قالوا : ﴿ لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ .

وتفسير صدر الآية هو كتفسير نظيره من قصّة ثمود .

وإيثار وصفهم بالاستكبار هنا دون الكفر ، مع أنّه لم يحك عنم هنا خطاب المستضعفين ، حتّى يكون ذكر الاستكبار إشارة إلى أمّهم استضعفوا المؤمنين كما اقتضته قصة ثمود ، فاختير وصف الاستكبار هنا لمناسبة مخاطبتهم شعيباً بالإخراج أو الإكراه على اتّباع دينهم ، وذلك من فعل الجبّارين أصحاب القوة .

وكان إخراج المغضوب عليه من ديار قبيلته عقوبة متّبعة في العرب إذا أجمعت القبيلة على ذلك ويسمّى هذا الإخراج عند العرب بالخَلْع ، والمخرَج يسمّى خليعاً .

قال امرؤ القيس:

به الذئبُ يعوي كالخليع المعيل . . .

وأكدوا التوعّد بلام القسم ونون التوكيد : ليوقن شعيب بأنّهم منجزو ذلك الوعيد .

وخطابهم إيّاه بالنداء جار على طريقة خطاب الغضب ، كما حكى الله قول آزر خطاباً لإبراهيم عليه السلام ﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ﴾ [مريم : 46] .

وقوله : ﴿ معك ﴾ متعلّق بـ ﴿ لنخرجنّك ﴾ ، ومتعلّق ﴿ آمنوا ﴾ محذوف ، أي بك ، لأنهم لا يصفونهم بالإيمان الحقّ في اعتقادهم .

والقرية (المدينة) لأنها يجتمع بها السكان .

والتقرّي : الاجتماع .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ أوْ كالذي مرّ على قرية ﴾ [البقرة : 259] ، والمراد بقريتهم هنا هي (الأيكة) وهي (تبوك) وقد رددوا أمر شعيب ومن معه بين أن يُخرجوا من القرية وبين العود إلى ملة الكفر .

(24/279)

وقد جعلوا عود شعيب والذين معه إلى ملّة القوم مقسماً عليه فقالوا : ﴿ أو لتعودُن ﴾ ولم يقولوا : لنخرجنّكم من أرضنَا أو تعودن في ملّتنا ، لأنّهم أرادوا ترديد الأمرين في حيز القسم لأنهم فاعلون أحد الأمرين لا محالة وأنّهم ملحّون في عودهم إلى ملّتهم .

وكانوا يظنّون اختياره العود إلى ملّتهم ، فأكدوا هذا العود بالقسم للإشارة إلى أنّه لا مَحيد عن حصوله عوضاً عن حصول الإخراج لأن أحد الأمرين مُرضٍ للمقسمين ، وأيضاً فإن التوكيد مؤذن بأنّهم إن أبوا الخروج من القرية فإنهم يكرهون على العود إلى ملّة القوم كما دل عليه قول شعيب في جوابهم : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ ولما كان المقام للتوعّد والتّهديد كان ذكر الإخراج من أرضهم أهم ، فلذلك قدموا القسم عليه ثم أعقبوه بالمعطوف بحرف (أَوْ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(25/279)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

علمنا من قبل أن الملأ هم السادة ، والأعيان الذين يملأون العيون هيبة ، ويملأون القلوب هيبة ، ويملأون الأماكن تحيزاً . وقد استكبر الملأ من قوم شعيب عن الإيمان به ، طغوا وهددوه بأن يخرجوه من أرضهم . وقالوا مثلما قال من سبقوهم . فقد نادى بعض من قوم لوط بأن يخرجوا لوطاً ومن آمن معه من قريتهم . قال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ

قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : 56]

وكلمة " قرية " تأخذ في حياتنا وضعاً غير وضعها الحقيقي ، فالقرية الآن هي الموقع الأقل من المدينة الصغيرة . لكنها كانت قديماً البلد الذي توجد فيه كل متطلبات الحياة ، بدليل أنهم كانوا يقولوا عن مكة " أم القرى " . وقد وضع شعيباً ومن آمن معه بين أمرين : إما أن يخرجوهم حتى لا يفسدوا من لم يؤمن فيؤمن ، وإما أن يعودوا إلى الملة .

وهنا " لفتة لفظية " أحب أن تنتبهوا إليها في قوله : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ لأن العود يقتضي وجوداً سابقاً خرج عنه ، ونريد أن نعود إلى الأصل ، فهل كان شعيب والذين آمنوا معه على ملتهم ثم آمنوا والمطلوب منه أنهم يعودون ؟

(26/279)

علينا أن ننتبه إلى أن الخطاب هنا يضم شعيباً والذين معه . وقد يصدق أمر العودة إلى الملة القديمة على الذين مع شعيب ، ولكنها لا تصدق على شعيب لأنه نبي مرسل ، وهنا ننتبه أيضاً إلى أن الذي يتكلم هنا هم الملأ من قوم مدين ، ووضعوا شعيباً والذين آمنوا معه أمام اختيارين : إما العودة إلى الملة ، وإمَّا الخروج ، ونسوا أن الحق قد يشاء تقسيماً آخر غير هذين القسمين . فقد يوجد ويريد سبحانه أمراً ثالثاً لا يخرج فيه شعيب والذين آمنوا معه

، وأيضاً لا يعودون إلى ملة الكفر ، كأن تأتي كارثة تمنع ذلك .

لقد عزل الملأ من قوم شعيب أنفسهم عن المقادير العليا ، لأن الله قد يشاء غير هذين الأمرين ، فقد يمنعكم أمر فوق طاقتكم أن تُخْرِجوا ؛ شعيباً ومن آمن معه ؛ بأن يصيبكم ضعف لا تستطيعون معه أن تخرجوهم ، أو أن يسلط الله عليكم أمراً يفنيكم وينجي شعيباً والذين آمنوا معه . إذن أنت أيها الإِنسان الحادث ، العاجز لا تفتئت ولا تفتري وتختلق على القوة العليا في أنك تخير بين أمرين قد يكون لله أمر ثالث لا تعلمه ، ويأتي الرد على لسان مَن آمنوا مع شعيب : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف : 88]

لقد سأل شعيب والذين معه : أيمكن أن يتم قهر أحد على أن يترك الإِيمان إلى الكفر ، كأن الكافرين قد تناسوا أن التكليف مطمور في الاختيار ، فالإِنسان يختار بين سبيل الإِيمان وسبيل الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(27/279)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا ﴾

هم الرؤساء ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب ﴾ ونخرج أتباعك من قريتنا .

وقوله : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ عطف على الكاف ، و" يا شعيبُ " اعتراض بين المتعاطفين .

قوله : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ عطف على جواب القسم ، إذ التقدير : والله لنخرجنَّكَ والمؤمنين أو لتعودُنَّ ، فالعَوْدُ مُسند إلى ضمير النبي ومَنْ آمن معه .

فإن قيل : إن شعيباً لم يكن قطّ على دينهم ولا ملتهم ، فكيف يحسن أن يقال : " أو لتعودن في ملتنا " ، وقوله : ﴿ قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِباً ﴾ يدل أيضاً على ذلك ؟ .

فالجواب : إن " عاد " في لسان العرب لها استعمالان .

أحدهما – وهو الأصل – أنه الرجوع إلى ما كان عليه من الحال الأول .

والثاني : استعمالُها بمعنى " صار " ، وحينئذ ترفعُ الاسم وتنصبُ الخبرَ ، فلا تكتفي بمرفوع وتفتقر إلى منصوب ، [وهذا عند بعضهم] ومنهم من منع أن تكون بمعنى " صار " فمن مجيئها بمعنى " صار " قوله : [الطويل]

2520 – وَرَبَّيْتُهُ حَتَّى إذَا ما تَرَكْتُهُ . . .

أخَا القَومِ واسْتَغْنَى عَنِ المَسْحِ شَارِبُهَ

وَبِالْمَحْضَ حَتَّى عَادَ جَعْداً عَنَطْنَطاً . . .

إذَا قَامَ سَاوَى غَارِبَ الفَحْلِ غَارِبُهْ

فرفع بـ " عاد " ضمير الأول ونصب بها " جَعْداً " ، ومَنْ مَنَع ذلك يَجْعل المنصوب حالاً قال

: [الطويل]

2521 - فَإِنْ تَكُنْ الأَيَّامُ أَحْسَنَ مُدَّةً . . .

إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

أي : صار لهن ذنوب ، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان ، وعلى هذا فزال الإشكال ، والمعنى : لتصرينّ في ملتنا بعد أن لم تكونوا ، ف " في ملتنا " خبر على هذا وأمّا على الأول فالجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا القول من رؤسائهم ، قصدوا به التلبيس على العوام ، والإيهام لهم أنه كان على دينهم وفي مِلَّتِهِمْ .

الثاني : أنهم خاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه ، وأجروا عليه أحكامهم .

(28/279)

الثالث : أن يُراد بعَوْده رجوعُه إلى حالة سكوته قبل بعثته ؛ لأنه قبل أن يبعث إليهم كان يُخْفي إيمانه ، وهو ساكت عنهم بريء مِنْ معبودهم غير الله .

وعدَّى " عاد " بـ " في " الظرفية ، كأن المِلَّة لهم بمنزلةِ الوعاءِ المحيط بهم .

قوله : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ الاستفهامُ للإنكار تقديره : أيوجدُ منكم أحد هذين الشيئين

: أعني الإخراج من القرية ، والعَوْد في الملة على كل حال حتى في حال كراهتنا لذلك ؟ .

وقال الزمخشري : " الهمزةُ للاستفهام ، والواوُ واو الحال تقديره : أتعيدوننا في ملَّتكم في حال كراهتنا " .

قال أبو حيان : " وليست هذه واو الحال ، بل واو العطف ، عطفت هذه الحال على حال محذوفة ، كقوله – عليه الصلاة والسلام – : " رُدُّوا السائِلَ ولَوْ بظِلْفٍ مُحرقٍ "

ليس المعنى : رُدُّوه حال الصدقة عليه بظلف مُحرق ، بل معناه : رُدُّوه مصحوباً بالصدقة ولو مصحوباً بظلفٍ محرق ، وقد تقدّمت هذه المسألة ، وأنه يصح أن تُسمَّى واو الحال وواو العطف [وتحرير ذلك ، ولولا تكريره لما كرَّرْته] .

وقال أبو البقاء : و" لو " هنا بمعنى " إنْ " لأنها للمستقبل ، ويجوز أن تكون على أصلها ، ويكون المعنى : لو كنا كارهين في هذا الحال أي أن كنا كارهين لذلك فتجبروننا عليه .

وقوله : " لأنها للمستقبل "ممنوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 214 .

216 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ .

كما أن (أهل) الخير لا يميلون إلا إلى أشكالهم فأهل الشر لا ينصرون إلا من رأوا بأنه يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم ، والأوحد في بابه مَنْ بايَنَ نهج أضرابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 550 ﴾

(29/279)

قوله تعالى ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان العرب أبعد الناس من مطلق الكذب وأشدهم له تحامياً ومنه نفرة فكيف بالكذب على الأكابر فكيف به على الملوك فيكف به على ملك الملوك ! علق الكذب على الله تعالى بالعود إلى ملتهم بقوله مستأنفاً الإخبار لمن تشوف إلى علم ما كان منه بعد هذا الكلام اللين وتوقع غيره : ﴿ قد افترينا ﴾ أي تعمدنا الآن بما نقوله لكم ، أي من أن الله حرم الكفر والإقرار عليه ﴿ على الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ كذباً ﴾ ويجوز أن يكون

تنوينه للتعظيم ، ويجوز أن يكون للتحقير ، ولكل وجه يدعو إليه المقام لا يخفى ﴿ إن عدنا ﴾ أي ساعة من الدهر ﴿ في ملتكم ﴾ أي بسكوتنا أو بسكوتي وكفر من كان ممن تبعني كافراً ﴿ بعد إذ نجانا الله ﴾ أي الملك الأعلى خارقاً للعادة بما كنا جديرين بالانغماس فيه متابعة للآباء والأجداد والعشيرة بما له من القدرة والعظمة ﴿ منها ﴾ أي إن فعلنا ذلك فقد ارتكبنا أقبح القبائح على بصيرة منا بذلك ، فهو تعليق على محال عادة ، وهو من وادي قول الأشتر النخعي :

بقّيت وفري وانحرفت عن العلى . . .

ولقيت أضيافي بوجه عبوس

إن لم أشنَّ على ابن هند غارة . . .

لم تخل يوماً من نهاب نفوس

غير أن المعلق في البيت تقديري ، وفي الآية تحقيقي ، لأنهم أخبروهم أن الله تعالى نهى عن الكفر وأمرهم بإنذار كل كافر ، فمتى تركوا ذلك لزمهم الكذب حتماً ﴿ وما يكون لنا ﴾ أي ما يصح وما يتفق ﴿ أن نعود فيها ﴾ أي ملكتم .

(30/279)

ولما كان الله سبحانه أن يفعل ما يشاء لا واجب عليه ولا قبيح منه ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ فذكر اسم الذات إشارة إلى أن له جميع الحمد لذاته ؛ ثم ذكر صفه الإحسان عياذاً من أن يراد بهم الهوان فقال : ﴿ ربنا ﴾ أي خرق العادة فله ذلك ، فهو من باب التذكر للمخاوف والإشراف على إمكان سوء العواقب للصدق في التضرع إلى الله تعالى والالتجاء إليه والاستعاذة من مكره ، ولذلك أتى باسم الجلالة الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى وصفة الربوبية الملتمس بذكرها فعل ما يفعل لمربي الشفيق ، فكأنه قال : إن عودنا في ملتكم غير ممكن عادة ، والمحال عادة لا يقدر عليه إلا بقدر من الله ، بل ولا توجه الهمم إليه ، والله تعالى أكرام من أن يعود فيما وهبه لنا من هذا الأمر الجليل ، وينزع عنا هذا اللباس الجميل ، وهو صريح في أن الكفر يكون بمشيئة الله ، بل ولا يكون إلا بمشيئته ، وقوله : ﴿ وسع ربنا ﴾ أي المحسن إلينا ﴿ كل شيء علماً ﴾ زيادة في حث أمته على الالتجاء والتبري من الحول والقوة ، أي لا علم لنا بخواتم العمال والعلم لله فهو التام العلم الكامل القدرة ، فهذه الجملة كالتعليل للتعليق بالمشيئة قطعاً – لما عساه أن يحدث من طمع المخاطبين في عودهم ، كأنه قيل : وإنما علقنا العود بالمشيئة لنقص علومنا ، فربما كان في سعة علمه قسم ثالث ، وهو أن نكون في القرية على ديننا وتكونون أنتم أو لا ، أو توافقوننا على ما نحن عليه ، وهكذا ينبغي للمربوب ، ولا ينبغي الجزم بأمر يستقبل إلا الله ربنا لإحاطة علمه ، والآية تدل على انه كان في الأزل عالماً بكل شيء من الكليات والجزئيات

لأن " وسع " ماض ، وقد تقدم في الأنعام أن قول الخليل عليه السلام وهذا وآية الكهف من مخبر واحد - والله أعلم .

(31/279)

ولما كان المراد من هذا ما ذكر ، كان مزعجاً للقلوب مقلقاً للنفوس مزعزعاً للخواطر مزلزلاً للأفكار بتأمل هذه الأخطار المشفية على غاية الخسار ، فكأن المؤمنين قالوا : ما العمل وأين المفر ؟ فقال : ﴿ على الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه ، وحده لا على غيره ﴿ توكلنا ﴾ أي فوضنا جميع أمورنا إليه ، وهو أكرم من أن يختار لنا غير الأرشد وقد تبرأنا من حولنا وقوتنا واعتصمنا بحوله وقوته ، وجعلنا جميع أمورنا كلها محمولة على قدرته كما يحمل الوكيل أمر موكله عنه ويريحه من همه وقلقه منه .

ولما جرت العادة بأن الموكل يخبر الوكيل بما يريد ليفعله ، أتبع ذلك الدعاء بالحكم بما يقتضيه ظاهر الحال من نصر المحقّ وخذل المبطل فقال : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿ افتح ﴾ أي احكم ﴿ بيننا ﴾ ولما كان يريد استعطافهم لإسعادهم قال : ﴿ وبين قومنا ﴾ وفيه إشارة إلى ميله إلى الدعاء بهدايتهم ، وأدب بعدم التصريح بما لم يؤذن له فيه ﴿ بالحق ﴾ أي بالأمر الفيصل من معاملة كل من المحقّ والمبطل بما يستحقه شرعاً وعرفاً

بحيث يكون لكل فريق باب يصل به إلى غاية أمره وهذا مقام الإنصاف ، فقد علم من إشارة قوله العناية بقومه ، ومن عبارته الإنصاف من نفسه ، ولو أراد ترجيح نفسه ومتبعيه لدعا لهم أن يعاملوا بالفضل وأن يعامل ضدهم بالعدل ، والآية معلمة بأن له تعالى أن يفعل ما يريد من خذلان الظالم ونصر المظلوم وتعذيب العاصي وإثابة الطائع وعكس ذلك ،

﴿ لا يسئل عما يفعل ﴾ [الأنبياء : 23] لأنه التام المِلك العظيم المُلك الشامل القدرة الحكيم الخبير ، ويجوز أن يكون المراد : لا نعود إلى ما كنا عليه من السكوت عن دعائكم إلى الله ونهيكم عن أفعال الضلال لأنا أمرنا بإنذاركم إلا أن يشاء الله سكوتنا بامر يحدثه إلينا في ذلك لمصلحة اقتضاها علمه وقصرت عنها علومنا ، فإذا أراد ذلك وأمرنا به فعلنا ، فله الخلق والأمر .

(32/279)

ولما اشار الدعاء لقومه ، أشار – بالعطف على غير معطوف عليه ظاهر – إلى أن التقدير : فأنت خير الراحمين : ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ أي على من سدت عليه الأبواب ولم يجد مخلصاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 68 . 70 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ قَدِ افترينا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ والجواب الأول يجري مجرى الرمز في أنه لا يعود إلى ملتهم ، وهذا الجواب الثاني تصريح بأنه لا يفعل ذلك فقال : إنه إن فعلنا ذلك فقد افترينا على الله .

وأصل الباب في النبوة والرسالة صدق اللهجة ، والبراءة عن الكذب ، فالعود في ملتكم يبطل النبوة ، ويزيل الرسالة .

وقوله : ﴿ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ فيه وجوه :

الأول : معنى ﴿ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ علمنا قبحه وفساده ، ونصب الأدلة على أنه باطل .

الثاني : أن المراد أن الله نجى قومه من تلك الملة ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم ، وإن كان بريئاً منه إجراء الكلام على حكم التغليب .

والثالث : أن القوم أوهموا أنه كان على ملتهم ، أو اعتقدوا أنه كان كذلك .

فقوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ أي حسب معتقدكم وزعمكم .

أما قوله : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ .

فاعلم أن أصحابنا يتمسكون بهذه الآية على أنه تعالى قد يشاء الكفر ، والمعتزلة يتمسكون بها على أنه تعالى لا يشاء إلا الخير والصلاح .

أما وجه استدلال أصحابنا بهذه ، فمن وجهين : الأول : قوله : ﴿ إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ يدل على أن المنجي من الكفر هو الله تعالى ، ولو كان الإيمان يحصل بخلق العبد ، لكانت النجاة من الكفر تحصل للإنسان من نفسه ، لا من الله تعالى ، وذلك على خلاف مقتضى قوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ الثاني : أن معنى الآية أنه ليس لنا أن نعود إلى ملتكم إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إلى تلك الملة ، ولما كانت تلك الملة كفراً ، كان هذا تجويزاً من شعيب عليه السلام أن يعيدهم إلى الكفر ، فكاد هذا يكون تصريحاً من شعيب بأنه تعالى قد شاء رد المسلم إلى الكفر ، وذلك غير مذهبنا .

قال الواحدي : ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر .

ألا ترى إلى قول الخليل عليه السلام : ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الاصنام ﴾ [إبراهيم : 35] وكثيراً ما كان محمد عليه الصلاة والسلام يقول : " يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك وطاعتك " وقال يوسف : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ [يوسف : 101]

أجابت المعتزلة عنه من وجوه : الأول : أن قوله ليس لنا أن نعود إلى تلك الملة إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إليها قضية شرطية ، وليس فيها بيان أنه تعالى شاء ذلك أو ما شاء .

والثاني : أن هذا مذكور على طريق التبعيد ، كما يقال : لا أفعل ذلك إلا إذا ابيض القار ،

وشاب الغراب : فعلق شعيب عليه السلام عوده إلى ملتهم على مشيئته .

ومن المعلوم أنه لا يكون نفياً لذلك أصلاً ، فهو على طريق التبعيد ، لا على وجه الشرط .

(34/279)

الثالث : أن قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ ﴾ ليس فيه بيان أن الذي شاءه الله ما هو ، فنحن نحمله على أن المراد إلا أن يشاء الله ربنا بأن يظهر هذا الكفر من أنفسنا إذا أكرهتمونا عليه بالقتل ، وذلك لأن عند الإكراه على إظهار الكفر بالقتل يجوز إظهاره ، وما كان جائزاً كان مراداً لله تعالى ، وكون الضمير أفضل من الإظهار ، لا يخرج ذلك الإظهار من أن يكون مراد الله تعالى ، كما أن المسح على الخفين مراد الله تعالى وإن كان غسل الرجلين أفضل .

الرابع : أن قوله : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب ﴾ المراد الإخراج عن القرية ، فيحمل قوله : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾ أي القرية ، لأنه تعالى قد كان حرم عليه إذا أخرجوه عن القرية ، أن يعود فيها إلا بإذن الله ومشيئته .

الخامس : أن نقول يجب حمل المشيئة ههنا على الأمر ، لأن قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ ﴾ معناه : أنه إذا شاء كان لنا أن نعود فيها .

وقوله : ﴿ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾ أي يكون ذلك العود جائزاً ، والمشيئة عند أهل السنة لا

يوجب جواز الفعل ، فإنه تعالى يشاء الكفر من الكافر عندهم ، ولا يجوز له فعله ، إنما الذي يوجب الجواز هو الأمر .

فثبت أن المراد من المشيئة ههنا الأمر ، فكان التقدير : إلا أن يأمر الله بعودنا في ملتكم فإنا نعود إليها ، والشريعة التي صارت منسوخة ، لا يبعد أن يأمر الله بالعمل بها مرة أخرى ، وعلى هذا التقدير يسقط استدلالكم .

(35/279)

والوجه السادس : للقوم في الجواب ما ذكره الجبائي ، فقال : المراد من الملة الشريعة التي يجوز اختلاف العبادة فيها بالأوقات ، كالصلاة والصيام وغيرهما ، فقال شعيب : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ ولما دخل في ذلك كل ما هم عليه ، وكان من الجائز أن يكون بعض تلك الأحكام والشرائع باقياً غير منسوخ ، لا جرم قال : ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ والمعنى : إلا أن يشاء الله إبقاء بعضها فيدلنا عليه ، فحينئذ نعود إليها فهذا الاستثناء عائد إلى الأحكام التي يجوز دخول النسخ والتغيير فيها ، وغير عائد إلى ما لا يقبل التغير ألبتة فهذه أسئلة القوم على هذه الطريقة وهي جيدة ، وفي الآيات الدالة على صحة مذهبنا كثرة ، ولا يلزم من ضعف استدلال أصحابنا بهذه الآية دخول الضعف في المذهب .

وأما المعتزلة فقد تمسكوا بهذه الآية على صحة قولهم من وجهين :

الوجه الأول : لما قالوا ظاهر قوله : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاء اللهُ رَبُّنَا ﴾ يقتضي أنه لو شاء الله عودنا إليها لكان لنا أن نعود إليها ، وذلك يقتضي أن كل ما شاء الله وجوده ، كان فعله جائزاً مأذوناً فيه ، ولم يكن حراماً .

قالوا : وهذا عين مذهبنا أن كل ما أراد الله حصوله ، كان حسناً مأذوناً فيه ، وما كان حراماً ممنوعاً منه لم يكن مراداً لله تعالى .

والوجه الثاني : لهم أن قالوا : إن قوله : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ . . . أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ لا وجه للفصل بين هذين القسمين على قول الخصم ، لأن على قولهم خروجهم من القرية بخلق الله وعودهم إلى تلك الملة أيضاً بخلق الله ، وإذا كان حصول القسمين بخلق الله ، لم يبق للفرق بين القسمين فائدة .

واعلم أنه لما تعارض استدلال الفريقين بهذه الآية وجب الرجوع إلى سائر الآيات في هذا الباب .

أما قوله : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تعلق هذا الكلام بالكلام الأول وجوه : قال القاضي : قد نقلنا عن أبي علي الجبائي أن قول شعيب : ﴿ إِلا أَن يَشَاء اللهُ رَبُّنَا ﴾ معناه : إلا أن يخلق المصلحة في تلك العبادات ، فحينئذ يكلفنا بها ، والعالم بالمصالح ليس إلا من وسع علمه كل شيء ، فلذلك أتبعه بهذا القول .

وقال أصحابنا : وجه تعلق هذا الكلام بما قبله ، هو أن القوم لما قالوا لشعيب : إما أن تخرج من قريتنا وإما أن تعود إلى ملتنا ، فقال شعيب : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ فربما كان في علمه حصول قسم ثالث ، وهو أن نبقى في هذه القرية من غير أن نعود إلى ملتكم بل يجعلكم مقهورين تحت أمرنا ذليلين خاضعين تحت حكمنا ، وهذا الوجه أولى مما قاله القاضي ، لأن قوله : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لائق بهذا الوجه ، لا بما قاله القاضي .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ يدل على أنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء ، لأن قوله : ﴿ وَسِعَ ﴾ فعل ماض ، فيتناول كل ماض .

وإذا ثبت أنه كان في الأزل عالماً بجميع المعلومات وثبت أن تغير معلومات الله تعالى محال ، لزم أنه ثبتت الأحكام وجفت الأقلام والسعيد من سعد في علم الله ، والشقي من شقي في علم الله .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ يدل على أنه علم الماضي ، والحال والمستقبل وعلم المعدوم أنه لو كان كيف كان يكون ، فهذه أقسام أربعة ، ثم كل واحد من هذه الأقسام الأربعة يقع على أربعة أوجه .

أما الماضي : فإنه علم أنه لما كان ماضياً ، فإنه كيف كان .

وعلم أنه لو لم يكن ماضياً ، بل كان حاضراً ، فإنه كيف يكون وعلم أنه لو كان مستقبلاً كيف يكون .

(37/279)

وعلم أنه لو كان عدماً محضاً كيف يكون ، فهذه أقسام أربعة بحسب الماضي ، واعتبر هذه الأقسام الأربعة بحسب الحال ، وبحسب المستقبل ، وبحسب المعدوم المحض ، فيكون المجموع ستة عشر ، ثم اعتبر هذه الأقسام الستة عشر بحسب كل واحد من الذوات والألوان والطعوم والروائح ، وكذا القول في سائر المفردات من أنواع الأعراض وأجناسها ، فحينئذ يلوح لعقلك من قوله : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ بحر لا ينتهي مجموع عقول العقلاء إلى أول خطوة من خطوات ساحله .

المسألة الرابعة :

قال الواحدي : قوله : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ منصوب على التمييز .

واعلم أنه عليه الصلاة والسلام ختم كلامه بأمرين : الأول : بالتوكل على الله .

فقال : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فهذا يفيد الحصر ، أي عليه توكلنا لا على غيره ، وكأنه في هذا المقام عزل الأسباب ، وارتقى عنها إلى مسبب الأسباب .

والثاني : الدعاء .

فقال : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة ، والسدي : احكم واقض .

وقال الفراء : أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح لأنه يفتح مواضع الحق ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما كنت أدري قوله : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك أي أحاكمك .

قال الزجاج : وجائز أن يكون قوله : ﴿ افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ أي أظهر أمرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف ، والمراد منه : أن ينزل عليهم عذاباً يدل على كونهم مبطلين ، وعلى كون شعيب وقومه محقين ، وعلى هذا الوجه فالفتح يراد به الكشف والتبيين .

ثم قال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ والمراد منه الثناء على الله .

واحتج أصحابنا بهذا اللفظ على أنه هو الذي يخلق الإيمان من العبد ، وذلك لأن الإيمان أشرف المحدثات ، ولو فسرنا لفتح بالكشف والتبيين ، فلا شك أن الإيمان كذلك .

إذا ثبت هذا فنقول : لو كان الموجد للإيمان هو العبد ، لكان خير الفاتحين هو العبد ، وذلك ينفي كونه تعالى خير الفاتحين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 145 . 147 ﴾

(38/279)

وقال السمرقندى :

﴿ قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ ﴾

يقول : قد اختلقنا على الله كذباً إن دخلنا في دينكم ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا ﴾ يقول : إن الله تعالى أكرمنا بالإسلام وأنقذنا من ملّتكم .

يقال : معناه كنا كاذبين مثلكم لو دخلنا في دينكم بعد إذ نجانا الله منها .

ويقال : أكرمنا الله تعالى بالإسلام ولم يجعلنا من أهل الكفر فأنقذنا وأبعدنا من ملتكم .

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاء الله ﴾ يعني : ما ينبغي لنا وما يجوز لنا أن ندخل في ملتكم إلا أن يشاء الله ﴿ رَّبَّنَا ﴾ دخولنا فيها وأن ينزع المعرفة من قلوبنا .

ويقال : معناه وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون في علم الله ومشيئته أنا نعود فيها .

ويقال : معناه إلا أن يشاء الله يعني : لا يشاء الله الكفر مثل قولك .

لا أكلمك حتى يبيض القار ، وحتى يشيب الغراب ، وهذا طريق المعتزلة .

ثم قال : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ يعني : علم ما يكون منا ومن الخلق ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي فوضنا أمرنا إلى الله لقولهم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب شُعَيْبُ ﴾ ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ أي اقض بيننا وبين قومنا بالعدل .

وروى قتادة عن ابن عباس قال : ما كنت أدري ما معنى قوله : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا ﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لعلي بن أبي طالب تعال أفاتحك يعني : أخاصمك .

وقال القتبي : الفتح أن تفتح شيئاً مغلقاً كقوله : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سلام عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر : 73] وسمي القضاء فتحاً لأن القضاء فصل للأمور وفتح لما أشكل منها ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ يعني : خير الفاصلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(39/279)

وقال الثعلبي :

﴿ قَدِ افترينا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ نرجع إليها بعد إذ أنقذنا الله منها ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّنَا ﴾ تقول إلاّ أن يكون سبق لنا في علم الله ومشيئته أن نعود فيها فيمضي حينئذ قضاء الله فينا [وينفذ] حكمه وعلمه علينا ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أحاط علمه بكل شيء فلا يخفى عليه شيء كان ولا شيء هو كائن ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فيما تتوعدوننا به .

واختلف العلماء في معنى قوله ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ وقوله ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ فقال بعضهم : معناه أو لتدخلن فيها ولن تدخل [إلاّ] إن يشاء الله ربّنا فيضلنا بعد إذ هدانا .

وسمعت أبا القاسم الحسين بن محمد الحبيبي يقول : سمعت عليّ بن مهدي الطبري بها يقول : إنّ عدنا في ملّتكم أي صرنا ، لا أن نعود ، يكون ابتداء ورجوعاً .

قال أُميّة بن أبي الصلت :

تلك المكارم لا قعبان من لبن . . . شيباً بماء فعادا بعد أبوالا

أي صار الآن اللبن ، كأن لم تكن قط بولا .

وسمعت [الحسين بن الحبيبي] قال : سمعت أبا زكريا العنبري يقول : معناه : إذ نجّانا الله منها في سابق علمه وعند اللوح والقلم .

وقال بعضهم : كان شعيب ومَنْ آمن معه في بدء أمرهم مستخفين ثمّ أظهروا أمرهم وإنما قال لهم قومهم ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ حسبوا أنّهم على ملّتهم [قيل : من هو معه] على أصحاب شعيب دون شعيب لأنّهم كانوا كفّاراً ثمّ آمنوا بالخطاب لهم وجواب شعيب عنهم لا عن نفسه ، لأن شعيباً لم يكن كافراً قط وإنّما ناوله الخطاب في أصناف مَنْ فارق دينهم إليه .

ورأيت في بعض التفاسير أن الملّة هاهنا الشريعة وكان عليه قبل نبوّته فلمّا [نُبّئ] فارقهم .

(40/279)

ثمّ دعا شعيب على قومه إذ لمس ما فيهم فقال ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ أي اقض .

وقال [المؤرخ] : افصل .

وقال ابن عباس : ما كنت أدري ما قوله ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ حتّى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك . أي أقاضيك .

وقال الفراء : أهل عمان يسمّون القاضي الفاتح والفتّاح . وذكر غيره أنّه لغة مهاد . فأنشد لبعضهم :

ألا أبلغ بني عصُم رسولا . . . بأنّي عن فتاحتكم غنيّ

أي حكمكم . ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ يعني الحاكمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(41/279)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾

والفرق بين الملة والدين أن الملة ما شرعه الله ، والدين ما اعتقده الناس تقرباً إلى الله ، فصار كل دين ملة وليس كل ملة ديناً .

فإن قيل : فالعود إلى الشيء الرجوع إليه بعد الخروج منه فهل كان شعيب على ملة قومه من الكفر حتى يقول : ﴿ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم ﴾ .

في الجواب عنه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن هذه حكاية عمن اتبع شعيباً من قومه الذين كانوا قبل اتباعه على ملة الكفر .

الثاني : أنه قال ذلك على التوهم أنه لو كان عليها لم يعد إليها .

والثالث : أنه يطلق ذكر العَود على المبتدىء بالفعل وإن لم يسبق منه فعل مثله من قولهم :

قد عاد عليّ من فلان مكروه وإن لم يسبقه بمثله كقول الشاعر :

لَئِن كَانَت الأَيَّامُ أَحْسَنَّ مَرَّةً . . . إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

أَتَى دَونَ حُلْوِ الْعَيْشِ شَيْءٌ أُمِرُّهُ . . . كُرُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ كُرُوبُ

ثم قال : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن نعود في القرية إلاّ أن يشاء الله ، قاله بعض المتكلمين .

والثاني : وهو قول الجمهور أن نعود في ملة الكفر وعبادة الأوثان .

فإن قيل فالله تعالى لا يشاء عبادة الأوثان فما وجه هذا القول من شعيب ؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه قد كان في ملتهم ما يجوز التعبد به .

والثاني : أنه لو شاء عبادة الوثن لكانت عبادته طاعة لأنه شاءه كتعبده بتعظيم الحجر الأسود .

والثالث : أن هذا القول من شعيب على التعبيد والامتناع كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : 40] وكقولهم : حتى يشيب الغراب .

(42/279)

ثم قال : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اكشف بيننا وبين قومنا ، قاله قتادة .

والثاني : احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين . وذكر الفراء ، أن أهل عُمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح . وقال غيره : إنه لغة مراد ، قال الشاعر :

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِي عُصَمَ رَسُولاً . . . بِأَنِّي عَنْ فَتَّاحِكُمُ غَنِي

وقد قال ابن عباس : كنت لا أدري ما قوله : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ حتى سمعت بنت ذي يزن تقول : تعالَيْ أفاتحك ، يعني أقاضيك .

وقيل : إنه سمي بذلك لأنه يفتح باب العلم الذي قد انغلق على غيره .

فإن قيل : فما معنى قوله ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ومعلوم أن الله لا يحكم إلا بالحق ؟ .

ففي الجواب عنه أربعة أوجه : أحدها : أنه قال ذلك صفة لحكمه لا طلباً له .

والثاني : أنه سأل الله أن يكشف لمخالفه من قومه أنه على حق .

والثالث : أن معناه احكم بيننا الذي هو الحق ، قاله ابن بحر .

والرابع : احكم في الدنيا بنصر الحق ، قاله السدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

والظاهر في قوله : ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم ﴾

أنه خبر منه أي لقد كنا نواقع عظيماً ونفتري على الله الكذب في الرجوع إلى الكفر ، ويحتمل أن يكون على جهة القسم الذي هو في صيغة الدعاء ، مثل قول الشاعر : بقيت وفري .

وكما تقول " افتريت على الله " إن كلمت فلاناً ، و ﴿ افترينا ﴾ معناه شققنا بالقول واختلفنا . ومنه قول عائشة : من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى به فقد أعظم على الله الفرية ، ونجاة " شعيب " من ملتهم كانت منذ أول أمره ، ونجاه من آمن معه كانت بعد مواقعة الكفر ، وقوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ يحتمل أن يريد إلا أن يسبق علينا من الله في ذلك سابق وسوء وينفذ منه قضاء لا يرد .

قال القاضي أبو محمد : والمؤمنون هم المجوزون لذلك وشعيب قد عصمته النبوة ، وهذا أظهر ما يحتمل القول ، ويحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعبد الله به المؤمنين مما يفعله الكفار من القربات ، فلما قال لهم : إنا لا نعود في ملتكم ثم خشي أن يتعبد الله بشيء من أفعال الكفرة فيعاضر ملحد بذلك ويقول : هذه عودة إلى ملتنا استثنى مشيئة الله تعالى فيما يمكن أن يتعبد به ويحتمل أن يريد بذلك معنى الاستبعاد كما تقول : لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب وحتى يلج الجمل في سم الخياط ، وقد علم امتناع ذلك فهو إحالة على

مستحيل .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تأويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله تعالى فلا يترتب هذا التأويل إلا عندهم ، وهذا تأويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه ، وقيل : إن هذا الاستثناء إنما هو تستر وتأدُّب .

(44/279)

قال القاضي أبو محمد : ويقلق هذا التأويل من جهة استقبال الاستثناء ولو كان في الكلام إن شاء الله قوى هذا التأويل ، وقوله : ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ معناه : وسع علم ربنا كل شيء كما تقول : تصبب زيد عرقاً أي تصبب عرق زيد ، و ﴿ وسع ﴾ بمعنى أحاط ، وقوله ﴿ افتح ﴾ معناه أحكم والفاتح الفتاح القاضي بلغة حمير ، وقيل بلغة مراد ، وقال بعضهم : [الوافر]

ألا أبلغْ بني عصم رسولاً . . . فإني عن فتاحتكم غنيُّ

وقال الحسن بن أبي الحسن : إن كل نبي أراد الله هلاك قومه أمره بالدعاء عليهم ثم استجاب له فأهلكهم ، وقال ابن عباس ما كنت أعرف معنى هذه اللفظة حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك أي أحاكمك ، وقوله ﴿ على الله توكلنا ﴾

استسلام لله وتمسك بلفظه وذلك يؤيد التأويل الأول في قوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(45/279)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم ﴾

وذلك أن القوم كانوا يدّعون أن الله أمرهم بما هم عليه ، فلذلك سمَّوه مِلَّةً .

﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ أي : في الملة ، ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي : إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها ، ﴿ وسع ربُّنا كل شيء علماً ﴾ قال ابن عباس : يعلم ما يكون قبل أن يكون .

قوله تعالى : ﴿ على الله توكلنا ﴾ أي : فيما توعدتمونا به ، وفي حراستنا عن الضلال .

﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ قال أبو عبيدة : احكم بيننا ، وأنشد :

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِي عُصْمٍ رَسُوْلاً . . .

بِأَنِّي عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ

قال الفراء : وأهل عُمان يسمون القاضي : الفاتح والفتَّاح .

قال الزجاج: وجائز أن يكون المعنى: أظهِر أمرنا حتى ينفتح ما بيننا وينكشف، فجائز أن يكونوا سألوا بهذا نزول العذاب بقومهم ليظهر أن الحق معهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ2 صـ ﴾

(46/279)

وقال القرطبى:

﴿ قَدِ افترينا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾

إياس من العود إلى مِلتهم.

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّنَا ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج: أي إلا بمشيئة الله عز وجل، قال: وهذا قول أهل السنة؛ أي وما يقع منا العود إلى الكفر إلى أن يشاء الله ذلك.

فالاستثناء منقطع.

وقيل: الاستثناء هنا على جهة التسليم للَّه عز وجل؛ كما قال: ﴿ وَمَا توفيقي إِلاَّ بالله ﴾ [هود: 88].

والدليل على هذا أن بعده ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾.

وقيل : هو كقولك لا أُكلمك حتى يبيض الغراب ، وحتى يلج الجمل في سم الخياط .

والغراب لا يبيض أبداً ، والجمل لا يلج في سم الخياط .

قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أي عِلم ما كان وما يكون .

"عِلْماً" نصب على التمييز .

وقيل : المعنى "وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا" أي في القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا ، بل نخرج من قريتكم مهاجرين إلى غيرها .

"إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" ردّنا إليها .

وفيه بعد ؛ لأنه يقال : عاد للقرية ولا يقال عاد في القرية .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي اعتمدنا .

وقد تقدّم في غير موضع .

﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ قال قتادة : بعثه الله إلى أُمتين : أهل مدين ، وَأَصْحَاب الأَيكَة .

قال ابن عباس : وكان شعيب كثير الصلاة ، فلما طال تمادي قومه في كفرهم وغيهم ، ويئس من صلاحهم ، دعا عليهم فقال : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ [الأعراف : 89] .

فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالرجفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(47/279)

وقال الخازن :

﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾

يعني أن شعيباً أجاب قومه إذ دعوه ومن آمن به إلى العود إلى ملتهم والدخول فيها فقال قد افترينا يعني قد اختلقنا على الله كذباً وتخرصنا عليه من القول باطلاً إن نحن رجعنا إلى ملتكم وقد علمنا فساد ما أنتم عليه من الملة والدين وقد أنقذنا الله وخلصنا منها وبصرنا خطأها وهذا أيضاً فيه من الاشكال مثل ما في الأول وهو أن شعيباً عليه الصلاة والسلام ما كان في ملتهم قط حتى يقول إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها والجواب عنه مثل ما أجيب عن الإشكال الأول وهو أن نقول إن الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة ، إلا أن شعيباً نظم نفسه في جملتهم وإن كانا بريئاً ما كانوا عليه من الكفر فأجرى الكلام على حكم التغليب .

وقيل : معنى نجانا الله منها علمنا قبح ملتكم وفسادها فكأنه خلصنا منها وقوله تعالى

إخباراً عنه ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ يعني وما يكون لنا أن نرجع إلى ملتكم ونترك الحق الذي نحن عليه إلا أن يشاء الله ربنا يعني إلا أن يكون قد سبق لنا في علم الله أن نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله وقدره فينا وينفذ سابق مشيئته علينا وقال الواحدي : ومعنى العود هنا الابتداء والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية أن شعيباً وأصحابه قالوا ما كنا لنرجع إلى ملتكم بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار إلا أن يريد الله إهلاكنا فأمورنا راجعة إلى الله غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء بالطاعة ويشقي من يشاء بالمعصية وهذا شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ألا ترى إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول

(48/279)

" يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " قال الزجاج رحمه الله تعالى المعنى وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها وتصديق ذلك قوله ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ يعني أنه تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون وما سيكون وأنه

تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء فالسعيد من سعد في علم الله تعالى والشقي من شقي في علم الله تعالى ﴿ على الله توكلنا ﴾ على الله نعتمد وإليه نستند في أمورنا كلها فإنه الكافي لمن توكل عليه والمعنى : على الله توكلنا لا على غيره فكأنه ترك الأسباب ونظر إلى مسبب الأسباب ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ لما أيس شعيب من إيمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال ربنا افتح أي اقض وافصل واحكم بيننا وبين قومنا بالحق يعني بالعدل الذي لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ يعني خير الحاكمين قال الفراء إن أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح وقال غيره من أهل اللغة هي لغة مراد وأنشد لبعضهم في ذلك :

ألا أبلغ بني عصم رسولاً . . .

فإني عن فتى حكم غني

أراد أنه غني عن حاكمهم وقاضيهم .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنت أدري ما معنى قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول تعال أفاتحك يعني أقاضيك .

وهذا قول قتادة والسدي وابن جريج وجمهور المفسرين أن الفاتح هو القاضي والحاكم سمي بذلك لأنه يفتح أغلاق الإشكال بين الخصوم ويفصلها .

وقال الزجاج : وجائز أن يكون معناه ربنا أظهر أمرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف

والمراد منه أن ينزل عليهم عذاباً يدل على كونهم مبطلين وعلى كون شعيب وقومه محقين وعلى هذا الوجه فالفتح يراد به الكشف والتمييز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(49/279)

وقال أبو حيان :

﴿ قَد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملّتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾

هذا إخباره مقيّد من حيث المعنى بالشرط وجواب الشرط محذوف من حيث الصناعة وتقديره ﴿ إن عدنا في ملتكم ﴾ فقد افترينا وليس قوله ﴿ قَد افترينا على الله كذباً ﴾ هو جواب الشرط إلا على مذهب من يجيز تقديم جواب الشرط على الشرط فيمكن أن يخرج هذا عليه وجوّزوا في هذه الجملة وجهين أحدهما أن يكون إخباراً مستأنفاً ، قال الزمخشري : فيه معنى التعجّب كأنهم قالوا ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام لأنّ المرتدّ أبلغ في الافتراء من الكافر يعني الأصلي لأن الكافر مفتر على الله الكذب حيث يزعم أن لله نداً ولا ندّ له والمرتد مثله في ذلك وزائد عليه حيث يزعم أنه قد بيّن له ما خفي عليه من التمييز ما بين الحق والباطل .

وقال ابن عطية : الظاهر أنه خبر أي قد كنا نواقع أمراً عظيماً في الرجوع إلى الكفر ، والوجه الثاني أن يكون قسماً على تقدير حذف اللام أي والله لقد افترينا ذكره الزمخشري وأورده ابن عطية احتمالاً قال : ويحتمل أن يكون على جهة القسم الذي هو في صيغة الدّعاء مثل قول الشاعر :

بقيت وفري وانحرفت عن العلا . . .

ولقيت أضيافي بوجه عبوس

وكما تقول افتريت على الله أن كلمت فلاناً ولم ينشد ابن عطية البيت الذي يقيّد قوله بقيت وما بعده بالشرط وهو قوله :

إن لم أشن على ابن هند غارة . . .

لم تخلُ يوماً من نهاب نفوس

ولما كان أمر الدّين هو الأعظم عند المؤمن والمؤثر على أمر الدنيا لم يلتفتوا إلى الإخراج وإن كان أحد الأمرين هو الأعظم عند المؤمن والمؤثر على الكذب أقسم على وقوعه الكفار فقالوا قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملّتكم وتقدّم تفسير العود بالصيرورة وتأويله إن كان في معنى الرجوع إلى ما كان الإنسان فيه بالنسبة إلى النبي المعصوم من الكبائر والصغائر .

﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ أي وما ينبغي ولا يتهيّأ لنا ﴿ أن نعود ﴾ في ملّتكم ﴿ إلا أن يشاء الله ربّنا ﴾ فنعود فيها وهذا الاستثناء على سبيل عذق جميع الأمور بمشيئة الله وإرادته وتجويز العود من المؤمنين إلى ملتهم دون شعيب لعصمته بالنبوّة فجرى الاستثناء على سبيل تغليب حكم الجمع على الواحد وإن لم يكن ذلك الواحد داخلاً في حكم الجمع ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعبّد الله به المؤمنين مما تفعله الكفرة من القربات فلما قال لهم إنا لا نعود في ملّتكم ثم خشي أن يتعبّد الله بشيء من أفعال الكفرة فيعارض ملحد بذلك ويقول هذه عودة إلى ملتنا استثنى مشيئة الله فيما يمكن أن يتعبّد به انتهى ، وهذا الاحتمال لا يصحّ لأن قوله ﴿ بعد إذ نجانا الله منها ﴾ إنما يعني النجاة من الكفرة والمعاصي لا من أعمال البرّ ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بذلك معنى الاستبعاد كما تقول لا أفعل ذلك حتى يشيب الغراب وحتى يلج الجمل في سم الخياط وقد علم امتناع ذلك فهي إحالة على مستحيل وهذا تأويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه انتهى ، وهذا تأويل إنما هو للمعتزلة مذهبهم أنّ الكفر والإيمان ليس بمشيئة من الله تعالى ، وقال الزمخشري : (فإن قلت) : وما معنى قوله ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ﴾ والله تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم في الكفر ، (قلت) : معناه إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الإلطاف لعلمه تعالى أنها لا تنفع

فينا ويكون عبثاً والعبث قبيح لا يفعله الحكيم والدليل عليه قوله ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ أي هو عالم بكل شيء مما كان ويكون وهو تعالى يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل قلوبهم وكيف تنقلب وكيف تقسو بعد الرّقة وتمرض بعد الصحة وترجع إلى الكفر بعد الإيمان ويجوز أن يكون قوله ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ حسماً لطمعهم في العود لأن مشيئة الله تعالى بعودهم في الكفر

(51/279)

محال خارج عن الحكمة انتهى وهذان التأويلان على مذهب المعتزلة ، وقيل : هذا الاستثناء إنما هو تسليم وتأدّب ، قال ابن عطية : وتعلق هذا التأويل من جهة استقبال الاستثناء ولو كان الكلام إن شاء قوى هذا التأويل انتهى وليس يقوي هذا التأويل لا فرق بين إلا أن يشاء وبين إلا أن شاء لأنّ إنّ تخلص الماضي للاستقبال كما تخلص أنْ المضارع للاستقبال وكلا الفعلين مستقبل وأبعد من ذهب إلى أن الضمير في ﴿ فيها ﴾ يعود على القرية لا على الملح .

﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ تقدم تفسير نظيرها في الأنعام في قصة إبراهيم عليه السلام .

﴿ على الله توكلنا ﴾ أي في دفع ما توعدتمونا به وفي حمايتنا من الضلال وفي ذلك استسلام الله وتمسّك بلطفه وذلك يؤيد التأويل الأوّل في إلا أن يشاء الله ، وقال الزمخشري : يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد الإيقان .

﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ أي احكم والفاتح والفتاح القاضي بلغة حمير وقيل بلغة مراد ، وقال بعضهم :

ألا أبلغ بني عصم رسولا . . .

فإني عن فتاحتكم غني

وقال ابن عباس : ما كنت أعرف معنى هذه اللفظة حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها تعال أفاتحْك أي أحاكمك ، وقال الفرّاء أهل عمان يسمون القاضي الفاتح ، وقال السدّي وابن بحر : احكم بيننا ، قال أبو إسحاق وجائز أن يكون المعنى أظهر أمرنا حتى ينفتح ما بيننا وبين قومنا وينكشف ذلك وذلك بأن ينزل بعدوّهم من العذاب ما يظهر به أنّ الحق معهم ، قال ابن عباس : كان كثير الصلاة ولما طال تمادى قومه في كفرهم ويئس من صلاحهم دعا عليهم فاستجاب دعاءه وأهلكهم بالرّجفة ، وقال الحسن : إنّ كل نبي أراد هلاك قومه أمره بالدعاء عليهم ثم استجاب له فأهلكهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَدِ افترينا عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾

أي كذباً عظيماً لا يُقادَر قدرُه ﴿ إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ ﴾ التي هي الشركُ ، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ لدِلالة ما قبله عليه أي إن عدنا في ملتكم ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ فقد افترينا على الله كذباً عظيماً حيث نزعُم حينئذ أن لله تعالى نِداً وليس كمثله شيءٌ وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه من الإسلام باطلٌ وأن ما كنتم عليه من الكفر حقٌّ وأيُّ افتراءٍ أعظمُ من ذلك ؟ وقيل : إنه جوابُ قسمٍ حذف عنه اللامُ تقديره والله لقد افترينا الخ ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا ﴾ أي وما يصِحّ وما يستقيم لنا ﴿ أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾ في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ أي إلا حالَ مشيئةِ الله تعالى أي وقتَ مشيئتِه تعالى لعَوْدنا فيها وذلك مما لا يكاد يكون كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ﴾ فإن التعرضَ لعنوان ربوبيتِه تعالى لهم مما ينبىء عن استحالة مشيئتِه تعالى لارتدادهم قطعاً وكذا قوله تعالى : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ فإن تنجيتَه تعالى لهم منها من دلائل عدمِ مشيئتِه لعَودِهم فيها وقيل : معناه إلا أن يشاء الله خِذلانَنا . وقيل : فيه دليلٌ على أن الكفرَ بمشيئته تعالى وأياً ما كان فليس المرادُ بذلك بيانَ أن العودَ فيها في حيز الإمكانِ وخطرِ الوقوعِ بناءً على كون مشيئتِه تعالى كذلك بل بيانُ استحالةِ وقوعِها كأنه قيل : وما كان لنا

أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا وهيهاتَ ذلك بدليل ما ذُكر من موجبات عدم مشيئتِه تعالى له ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فهو محيطٌ بكل ما كان وما سيكون من الأشياء التي من جملتها أحوالُ عبادِه وعزائمُهم ونياتُهم وما هو اللائقُ بكل واحدٍ منهم فمُحالٌ من لطفه أن يشاء عَودَنا فيها بعد ما نجانا منها مع اعتصامنا به خاصةً حسبما ينطِق به قوله تعالى : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي في أن يثبتَنا على ما نحن عليه من

(53/279)

الإيمان ويُتمَّ علينا نعمتَه بإنجائنا من الإشراك بالكلية ، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقع الإضمارِ للمبالغة في التضرع والجُؤار ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ إعراضٌ عن مقاولتهم إثرَ ما ظهر له عليه الصلاة والسلام أنهم من العتو والعِناد بحيث لا يُتصور منهم الإيمانُ أصلاً ، وإقبالٌ على الله تعالى بالدعاء لفصل ما بينه وبينهم بما يليق بحال كلٍ من الفريقين أي احكم بيننا بالحق ، والفَتاحَةُ الحكومة ، أو أظهرْ أمرنا حتى ينكشِفَ ما بيننا وبينهم ويتميز المُحقُّ من المبطِل من فتَحَ المُشكلَ إذا بيّنه ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله على المعنيين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَدِ افترينا عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾

عظيماً لا يقادر قدره .

﴿ إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ ﴾ التي هي الشرك وزعمنا كما زعمتم أن لله سبحانه نداً تعالى عن ذلك علواً كبير .

﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللهُ مِنْهَا ﴾ وعلمنا بطلانها وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي إن عدنا في ملتكم فقد افترينا ، واستشكل ذلك بأن الظاهر فيما إذا كان الجواب مثل ما ذكر أن يتعلق ظهوره والعلم به بالشرط نحو ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 77] و ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ﴾ [التوبة : 40] وإن أكرمتني اليوم فقد أكرمتك أمس ، والمقصود هنا تقييد نفس الافتراء بالعود ، ولفظ قد وصيغة الماضي يمنعانه ، والجواب ما أشار إليه الزمخشري من أنه من باب الإخراج لا على مقتضى الظاهر وإيثار قد والماضي الدالين على التأكيد إما لأنه جواب قسم مقدر أو لأنه تعجيب على معنى ما أكذبنا أن عدنا الخ .

ووجه التعجيب أن المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر لأن الكافر مفتر على الله تعالى الكذب حيث يزعم أن لله سبحانه نداً ولا ند له والمرتد مثله في ذلك وزائد عليه حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل والحمل على التعجب على ما في "الكشف" أولى لأن حذف اللام ضعيف ، وجوز أبو حيان تبعاً لابن عطية أن يكون الفعل المذكور قسماً كما يقال برئت من الله تعالى إن فعلت كذا وكقول مالك بن الأشتر النخعي :

أبقيت وفري وانحرفت عن العلا . . .

ولقيت أضيافي بوجه عبوس

إن لم أشن على ابن هند غارة . . .

لم تخل يوماً من ذهاب نفوس

وهذا نوع من أنواع البديع وقد ذكره غير واحد من أصحاب البديعيات ، ومثله عز الدين الموصلي بقوله :

برئت من سلفي والشم من همي . . .

إن لم أدن بتقى مبرورة القسم

والباعونية بقولها :

لامكنتني المعالي من سيادتها . . .

إن لم أكن لهم من جملة الخدم

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا ﴾ أي ما يصح لنا وما يقع فكيون تامة ، وقد يأتي ذلك بمعنى ما ينبغي وما يليق .

﴿ أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾ في حال من الأحوال أو وقت من الأوقات ﴿ إِلا أَن يَشَاء اللهُ رَبُّنَا ﴾ أي إلا حال أو وقت مشيئة الله لعودنا ، والتعرض لعنوان الربوبية للتصريح بأنه المالك الذي لا يسأل عما يفعل .

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فهو سبحانه يعلم كل حكمة ومصلحة ومشيئته على موجب الحكمة فكل ما يقع مشتمل عليها ، وهذا إشارة إلى عدم الأمن من مكر الله سبحانه فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الكافرين ، وفيه من الانقطاع إلى الله تعالى ما لا يخفى ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فإن التوكل عليه سبحانه إظهار العجز والاعتماد عليه جل شأنه ، وأظهار الاسم الجليل للمبالغة ، وتقديم المعمول لإفادة الحصر . وفي الآية دلالة على أن لله تعالى أن يشاء الكفر .

وادعى شيخ الإسلام أن المراد استحالة وقوع ذلك كأنه قيل : وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله تعالى العود وهيهات ذلك ، ولا يكاد يكون كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية ، وقولهم : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ ﴾ فإن تنجيته تعالى إياهم منها من دلائل عدم مشيئته سبحانه لعودهم فيها ، وفرع على قوله تعالى : ﴿ واسع ﴾ الخ بعد أن فسره بما فسره محالية مشيئته العود لكن لطفاً وهو وجه في الآية ، ولعل ما ذهبت إليه فيها أولى ، ولا يرد على تقدير العود مفعولاً للمشيئة أنه ليس لذلك سعة العلم بعد حينئذ كبير معنى ، بل كان المناسب ذكر شمول الإرادة وأن الحوادث كلها بمشيئة الله تعالى لما لا يخفى ، ولا يحتاج إلى القول بأن ذلك منه عليه السلام رد لدعوى الحصر باحتمال قسم ثالث ، والزمخشري بني تفسيره على عقيدته الفاسدة من وجوب رعاية الصلاح والأصلح وأن الله تعالى لا يمكن أن يشار الكفر بوجه لخروجه عن الحكمة ، واستدل بقوله سبحانه : ﴿ واسع ﴾ الخ ، ورده ابن المنير بأن موقع ما ذكر الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة والاطلاع على الأمور الغائبة . ونظير ذلك قوله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ [الأنعام : 80] فإنه عليه السلام لما رد الأمر إلى المشيئة وهي مغيبة مجد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات انتهى ، وإلى كون المراد من الاستثناء التأبيد ذهب جعفر بن الحرث والزجاج أيضاً وجعلوا ذلك كقول الشاعر :

إذا شاب الغراب أتيت أهلي . . .

وصار القار كاللبن الحليب

وأنت خبير بأن ذلك مخالف للنصوص النقلية والعقلية وللعبارة والإشارة ، وقال الجبائي .

(57/279)

والقاضي : المراد بالملة الشريعة وفيها ما لا يرجع إلى الاعتقاد ، ويجوز أن يتعبد الله تعالى عباده به ومفعول المشيئة العود إلى ذلك أي ليس لنا أن نعود إلى ملتكم إلا أن يشاء الله تعالى عودنا بأن يتعبدنا بها وينقلنا إليها وينسخ ما نحن فيه من الشريعة ، وقيل : المراد إلا أن يشاء الله تعالى أن يمكنكم من إكراهنا ويخلي بينكم وبينه فنعود إلى أظهار ملتكم مكرهين ، وقوى بسبق ﴿ أَوْلَوْ كُنَّا كارهين ﴾ [الأعراف : 88] .

وقيل : إن الهاء في قوله سبحانه ﴿ فِيهَا ﴾ يعود إلى القرية لا الملة فيكون المعنى أنا سنخرج من قريتكم ولا نعود فيها إلا أن يشاء الله بما ينجزه لنا من الوعد في الإظهار عليكم والظفر بكم فنعود فيها ؛ وقيل : إن التقدير إلا أن يشاء الله أن يردكم إلى الحق فنكون جميعاً على ملة واحدة ، ولا يخفى أن كل ذلك مما يضحك الثكلى ، وبالجملة الآية ظاهرة فيما ذهب إليه أهل السنة وسبحانه من سد باب الرشد عن المعتزلة .

﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ إعراض عن مفاوضتهم أثر ما ظهر من عتوهم

وعنادهم وإقبال على الله تعالى بالدعاء والفتح بمعنى الحكم والقضاء لغة لحمير أو لمراد .

والفتاح عندهم القاضي والفتاحة بالضم الحكومة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال : الفتح القضاء لغة يمانية .

(58/279)

وأخرج البيهقي وجماعة عن ابن عباس قال : ما كنت أدري ما قوله ﴿ رَبَّنَا افتح ﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزن وقد جرى بيني وبينها كلام فقالت أفاتحك تريد أقاضيك و ﴿ بَيْنِنَا ﴾ منصوب على الظرفية والتقييد بالحق لإظهار النصفة ، وجوز أن يكون مجازاً عن البيان والإظهار وإليه ذهب الزجاج ، ومنه فتح المشكل لبيانه وحله تشبيهاً له بفتح الباب وإزالة الإغلاق حتى يوصل إلى ما خلفها وبيننا على ما قيل مفعولب به بتقدير ما بيننا ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ أي الحاكمين لخلو حكمك عن الجور والحيف أو المظهرين لمزيد علمك وسعة قدرتك والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(59/279)

وقال القاسمي :

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِباً ﴾

أي : اختلفنا عليه باطلاً بأن له شريكاً ﴿ إِنْ عُدْنَا ﴾ إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، لندخل : ﴿ فِي مِلَّتِكُم ﴾ القائلة بأن له شريكاً .

﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا ﴾ فأرانا أنه كالإنجاء من النار .

﴿ وَمَا يَكُونُ ﴾ أي : ينبغي : ﴿ لَنَا أَن نَّعُودَ ﴾ أي : عن دعوى الرسالة والإقرار بها فنصير : ﴿ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا ﴾ أي : الذي يربينا بما علم من استعدادنا ، لأنه : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أي : فعلم استعداد كل واحد في كل وقت ، لكن : ﴿ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي : لحفظنا عن المصير إليها : ﴿ رَبَّنَا ﴾ إن قصدوا إكراهنا عليها ، أو إخراجنا من قريتهم : ﴿ افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ فغلبنا عليهم ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ أي : خير الحاكمين ، فلا تغلّب الظالمين وإن كثروا ، على المظلومين إذا استفتحوك .

تنبيهات :

الأول : اعلم أن ظاهر قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ وقوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ

مِنْهَا ﴾ يدل على أن شعيباً عليه السلام كان على ملتهم قبل بعثته ، ومعلوم عصمة الأنبياء عن الكبائر ، فضلاً عن الشرك .

(60/279)

وفي " المواقف وشرحها " : أن الأمة أجمعت على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها ، غير أن الأزارقة من الخوارج جوزوا عليهم الذنب ، وكل ذنب عندهم كفر ، فلزمهم تجويز الكفر ، وجوز الشيعة إظهار الكفر تقية عند خوف الهلاك ، واحترازاً عن إلقاء النفس في التهلكة . ومثله في " شرح التجريد " .

ولما تقرر إجماع الأمة على ما ذكر ، كان للعلماء في هذه الآية وجوه :

منها : أن العود المقابل للخروج ، هو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها .

والجار والمجرور حال ، أي : ليكن منكم الخروج من قريتنا ، أو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، داخلين في ملتنا ، وهذا الوجه اقتصر عليه المهايمي ، وسايرناه فيه مع تفسير تتمة الآية .

ومنها : أن العود المذكور إلى ما خرج منه ، وهو القرية . والمجرور حال كالسابق ، أي : ليكن منكم الخروج من قريتنا أو العود إليها ، كائنين في ملتنا . وعُدِّي عاد بفي كأن الملة لهم

منزلة الوعاء المحيط بهم .

ومنها : أن هذا القول جار على ظنهم أنه كان في ملتهم ، لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم .

ومنها : أنه صدر عن رؤسائهم تلبيساً على الناس ، وإيهاماً لأنه كان على دينهم ، وما صدر عن شعيب عليه السلام كان على طريق المشاكلة .

ومنها : أن : ﴿ لَتَعُودُنَّ ﴾ بمعنى لتصيرن ، إذ كثيراً ما يرد عاد بمعنى صار ، فيعمل عمل كان ، ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك ، وهو الانتقال من حال سابقة ، إلى حال مؤتنفة مثل صار .

وكأنهم قالوا – والله أعلم – : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتصيرن كفاراً مثلنا .

قال الرازي : تقول العرب : قد عاد إليَّ من فلان مكروه ، يريدون : قد صار إلي من المكروه ابتداء .

قال الشاعر :

فإن تكنِ الأيام أحسنّ مدةً إليّ فقد عادت لهنَّ ذنُوبُ

أراد [في المطبوع : أردا] : فقد صارت لهن ذنوب ، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان . انتهى .

ومنه حديث معاذ . قال له النبي صلى الله عليه وسلم : < أعُدت فتّاناً يا معاذ ؟ > أي : صرت .

ومنه حديث خزيمة : < عاد لها النِّقادُ مُجْرَنْثماً > أي : صار .

وفي حديث كعب : وددت أن هذا اللبن يعود قطراناً ، أي : يصير . فقيل له : لم ذلك ؟ قال تتبعت قريش أذناب الإبل ، وتركوا الجماعات .

قال الشهاب : إلا أنه قيل إنه لا يلائم قوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ إلا أن يقال بالتغليب فيه ، أو يقال : التنجية لا يلزم أن تكون بعد الوقوع في المكروه ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ وأمثاله ؟

ومنها : أن العود يطلق ، ويراد به الابتداء . حققه الراغب والجار بردي وغير واحد .

وأنشدوا قول الشاعر :

وعادَ الرأسُ مِنّي الكَثَّغَامِ

ومعنى الآية : لتدخلّن في ملتنا ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ عُدْنَا ﴾ أي : دخلنا ـ كذا في " تاج العروس " ـ .

ومنها : إبقاء صيغة العود على ظاهرها ، من استدعائها رجوع العائد ، إلى حال كان عليها قبل ، كما يقال : عاد له ، بعد ما كان أعرض عنه ، إلا أن الكلام من باب التغليب .

قال الزمخشري : لما قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ ﴾ فعطفوا على ضميره ، الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم ، قالوا : ﴿ لَتَعُودُنَّ ﴾ فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجعلوهم عائدين جميعاً ، إجراءاً للكلام على حكم التغليب .

وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال : ﴿ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ وهو يريد عود قومه ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم ، وإن كان بريئاً من ذلك ، إجراء لكلامه على حكم التغليب . انتهى .

(62/279)

ومنها : ما قاله الناصر في " الانتصاف " : إنه يسلم استعمال العود بمعنى الرجوع إلى أمر سابق ، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾

.

والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه ، نحن نعلم أن المؤمن الناشئ في

الإيمان لم يدخل قط في ظلمة الكفر ولا كان فيها ، وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان ، ولا كان فيه ، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الإختيارية التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منها متمكناً منه لو أراده ، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله عنه إلى الإيمان ، إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور ، توفيقاً من الله له ، ولطفاً به ، بل وبالعكس في حق الكافر .

وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى ﴾ ، وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب ، وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والإختيار لإقامة حجة الله على عباده – والله أعلم – انتهى .

الثاني : في قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا ﴾ رد إلى الله تعالى مستقيم .

قال الواحدي : والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية ، أن شعيباً وأصحابه قالوا : ما كنا لنرجع إلى ملتكم ، بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار ، إلا أن يريد إهلاكنا ، فأمورنا راجعة إلى الله ، غير خارجة عن قبضته ، يسعد من يشاء بالطاعة ، ويشقي من يشاء بالمعصية وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله .

ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة ، وانقلاب الأمر . ألا ترى إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ ؟ وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول : < يا مقلب القلوب ! ثبت قلبي على دينك > .

وقال الزجاج : المعنى : وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها ، وتصديق ذلك قوله : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ ، يعني أنه تعالى يعلم ما يكون ، من قبل أن يكون ، وما سيكون ، وأنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء ، فالسعيد من سعد في علم الله تعالى ، والشقي من شقي في علم الله تعالى .

وقال الناصر في " الانتصاف " : موقع قوله : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ الإعتراف بالقصور عن علم العاقبة ، والإطلاع على الأمور الغائبة ، فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد ، ولو وقع فبقدرة الله ومشيئته المغيبة عن خلقه ، فالحذر قائم ، والخوف لازم .

ونظيره قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ لما رد الأمر إلى المشيئة ، وهي مغيبة ، مجد الله تعالى بالإنفراد بعلم الغائبات – والله أعلم . .

وقال أبو السعود : معنى : ﴿ وما يَكُونُ لَنا ﴾ الآية ، أي : ما يصح لنا أن نعود فيها حال من الأحوال ، أو في وقت من الأوقات ، إلا أن يشاء الله ، أي : إلا حال

مشيئة الله تعالى ، أو وقت مشيئته تعالى لعودنا فيها ، وذلك مما لا يكاد يكون ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ﴾ فإن التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم ، مما ينبئ عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعاً ، وكذا قوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ فإن تنجيته تعالى لهم منها ، من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها .

وقيل معناه : إلا أن يشاء الله خذلاننا ، فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى ، وأياً ما كان ، فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها في حيز الإمكان ، وخطر الوقوع ، بناء على كون مشيئته تعالى كذلك ، بل بيان استحالة وقوعها . كأنه قيل : وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وهيهات ذلك ، بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له . انتهى .

ولا يخفى أن إفهام ذلك الإستحالة ، هو باعتبار الواقع وما يقتضيه منصب النبوة ، وأما إذا لوحظ مقام الخوف والخشية ، الذي هو من أعلى مقامات الخواص ، فيكون ما ذكرناه أولاً أدق ، وبالقبول أحق .

قال الإمام ابن القيم في " طريق الهجرتين " : قد أثنى الله سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه ، فقال عن أنبيائه ، بعد أن أثنى عليهم ومدحهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي

الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ ، فالرغب الرجاء ، والرهب الخوف والخشية .

وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < إني أعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية > . وفي لفظ آخر : < إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقي > . وكان صلى الله عليه وسلم يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء .

وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، فكلما كان العبد بالله أعلم ، كان له أخوف .

(65/279)

الثالث : قال الفراء : أهل عُمان يسمون القاضي ، الفاتح والفتاح . لأنه يفتح مواضع الحق ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما كنت أدري ما قوله : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك ، أي : أحاكمك .

وقال الشهاب : الفتح ، بمعنى الحكم ، وهي لغةٌ لِحْمَير أو لمراد ، الفُتَاحة بالضم عندهم الحكومة . أو هو مجاز بمعنى : أظهر وبين أمرنا ، حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ، ويتميز المحق من المبطل .

ومنه فتح المشكل لبيانه وحلّه ، تشبيهاً له بفتح الباب وإزالة الأغلاق ، حتى يوصل إلى ما خلفها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 149.154 ﴾

(66/279)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾

والعَوْد : الرجوع إلى ما كان فيه المرء من مكان أو عمل ، وجعلوا موافقة شعيب إياهم على الكفر عوداً لأنهم يحسبون شعيباً كان على دينهم ، حيث لم يكونوا يعلمون منه ما يخالف ذلك ، فهم يحسبونه ، موافقاً لهم من قبل أن يدعو إلى ما دعا إليه .

وشأن الذين أرادهم الله للنبوءة أن يكونوا غير مشاركين لأهل الضلال من قومهم ولكنّهم يكونون قبل أن يُوحى إليهم في حالة خلو عن الإيمان حتى يهديهم الله إليه تدريجاً ، وقومهم لا يعلمون باطنهم فلا حيرة في تسمية قومه مُوافقته إيّاهم عوداً .

وهذا بناء على أن الأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوءة ، وذلك قول جميع المتكلمين من المسلمين ، وقد نبّه على ذلك عياض في "الشفاء" في القسم الثالث وأورد قول شعيب : ﴿ إنْ عُدنا في ملّتكُم ﴾ [الأعراف : 89] وتأول العود بأنّه المصير ، وذلك تأويل كثير

من المفسرين لهذه الآية .

ودليل العصمة من هذا هو كمالهم ، والدليل مبني على أن خلاف الكمال قبل الوحي يُعد نقصاً ، وليس في الشريعة دليل قاطع على ذلك ، وإنّما الإشكال في قول شعيب ﴿ إنْ عدنا في ملّتكم ﴾ [الأعراف : 89] فوجهه أنّه أجراه على المشاكلة والتغليب .

وكلاهما مصحّح لاستعمال لفظ العود في غير معناه بالنسبة إليه خاصة ، وقد تولى شعيب الجواب عمّن معه من المؤمنين ليقينه بصدق إيمانهم .

والملّة : الدين ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ مَنْ سَفِه نفسَه ﴾ في سورة البقرة (130) .

وفصل جملة : قال الملأ ﴾ لوقوعها في المحاورة على ما بيناه عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة (30) .

فصل جملة ﴿ قال .

.

﴾ لوقوعها في سياق المحاورة .

والاستفهام مستعمل في التعجب تعجباً من قولهم : ﴿ أو لتعودن في ملّتنا ﴾ المؤذنِ ما فيه من المؤكّدات بأنّهم يُكرهونهم على المصير إلى ملّة الكفر ، وذلك التعجب تمهيد لبيان تصميمه ومن معه على الإيمان ، ليعلم قومه أنّه أحاط خبراً بما أرادُوا من تخييره والمؤمنين معه بين الأمرين : الإخراج أو الرجوع إلى ملّة الكفر ، شأنَ الخصم اللبيب الذي يأتي في جوابه بما لا يغادر شيئاً مما أراده خصمه في حوارِه ، وفي كلامه تعريض بحماقة خصومه إذ يحاولون حمله على ملّتهم بالإكراه ، مع أن شأن المُحقّ أن يشرك للحق سلطانه على النفوس ولا يتوكّأ على عصا الضّغط والإكراه ، ولذا قال الله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ ﴾ [البقرة : 256] .

فإن التزام الدين عن إكراه لا يأتي بالغرض المطلوب من التّديّن وهو تزكية النفس وتكثير جند الحق والصلاح المطلوب .

والكاره مشتق من كره الذي مصدره الكَرهُ بفتح الكاف وسكون الراء وهو ضد المحبة ، فكاره الشيء لا يدانيه إلاّ مغصوباً ويقال للغصب إكراه ، أي مُلجَئين ومغصوبين وتقدم في قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم ﴾ في سورة البقرة (216) .

و(لو) وصلية تفيد أن شرطها هو أقصى الأحوال التي يحصل معها الفعل الذي في جوابها ، فيكون ما بعدها أحرى بالتعجب .

فالتقدير : أتعيدوننا إلى ملّتكم ولو كنا كارهين .

وقد تقدم تفصيل (لو) هذه عند قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾

في سورة آل عمران (91) .

وتقدم معنى الواو الداخلة عليها وأنها واو الحال .

(68/279)

واستأنف مرتقياً في الجواب ، فبيّن استحالة عودهم إلى ملّة الكفر بأن العود إليها يستلزم كذبَه فيما بلّغه عن الله تعالى من إرساله إليهم بالتوحيد فذلك كذب على الله عن عمد ، لأن الذي يرسله الله لا يرجع إلى الكفر ، ويستلزم كذب الذين آمنوا به على الله حيث أيقنوا بأن شعيباً مبعوث من الله بما دلهم على ذلك من الدلائل ، ولذلك جاء بضمير المتكلّم المشارك في كل من قوله : افترينا ﴾ و ﴿ عدنا ﴾ و ﴿ نجانا ﴾ و ﴿ نعود ﴾ و ﴿ ربُنا ﴾ و ﴿ توكّلنا ﴾ .

والربط بين الشرط وجوابه ربط التّبيّن والانكشاف .

لأنه لا يصح تعليق حصول الافتراء بالعود في ملة قومه ، فإن الافتراء المفروض بهذا المعنى سابق متحقق وإنّما يكشفه رجوعهم إلى ملّة قومهم ، أي إنْ يَقع عودنا في ملتكم فقد تبين

أننا افترينا على الله كذباً ، فالماضي في قوله : ﴿ افترينا ﴾ ماض حقيقي كما يقتضيه دخول ﴿ قد ﴾ عليه ، وتقديمه على الشرط لأنه في الحالتين لا تقلبه (إن) للاستقبال ، أما الماضي الواقع شرطاً ل (إن) في قوله : ﴿ إن عدنا ﴾ فهو بمعنى المستقبل لأن (إنْ) تقلب الماضي للمستقبل عكس (لم) .

وقوله : ﴿ بعد إذ نجّانا الله منها ﴾ على هذا الوجه ، معناه : بعد إذ هدانا الله للدين الحق الذي اتبعناه بالوحي فنجانا من الكفر ، فذكر الإنجاء لدلالته على الإهداء والإعلان بأن مفارقة الكفر نجاة ، فيكون في الكلام إيجاز حذف أو كناية .

وهذه البعدية ليست قيداً ل ﴿ افترينا ﴾ ولا هي موجب كون العود في ملّتهم دالاً على كذبه في الرسالة ، بل هذه البعدية متعلقة بـ ﴿ عُدْنَا ﴾ يقصد منها تفظيع هذا العود وتأييس الكافرين من عود شعيب وأتباعه إلى ملّة الكفر ، بخلاف حالهم الأولى قبلَ الإيمان فإنهم يوصفون بالكفر لا بالافتراء إذ لم يظهر لهم وجه الحق ، ولذلك عقبه بقوله : ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ أي لأن ذلك لا يقصده العاقل فيلقي نفسه في الضلال والتعرض للعذاب .

وانتصاب ﴿ كذباً ﴾ على المفعولية المطلقة تأكيداً ل ﴿ افترينا ﴾ بنا هو ماسوله أو أعم منه ، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة المائدة (103) .

وقد رَتّب على مقدمة لزوم الافتراء نتيجةَ تأييس قومه من أن يعود المؤمنون إلى ملّة الكفر بقوله : ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ فنفي العود نفياً مؤكداً بلام الجحود وقد تقدم بيان تأكيد النفي بلام الجحود في قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب ﴾ الخ في سورة آل عمران (79) .

وقوله : ﴿ إلاّ أن يشاء الله ربّنا ﴾ تأدب مع الله وتفويضُ أمره وأمرِ المؤمنين إليه ، أي : إلاّ أن يقدّر الله لنا العود في ملّتكم فإنّه لا يسأل عمّا يفعل ، فأمَا عود المؤمنين إلى الكفرِ فممكن في العقل حصوله وليس في الشرعِ استحَالته ، والارتداد وقع في طوائف من أمم .

وأمّا ارتداد شعيب بعد النبوءَةِ فهو مستحيل شرعاً لعصمة الله للأنبياء ، فلو شاء الله سلب العصمة عن أحد منهم لمَا ترتّب عليه محال عقلاً ، ولكنه غير ممكن شرعاً ، وقد علمتَ آنفاً عصمة الأنبياء من الشرك قبل النبوءة فعصمتهم منه بعد النبوءة بالأولى ، قال تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطَن عملك ﴾ [الزمر : 65] على أحد التأويلين .

وفي قول شعيب : ﴿ إلاّ أنْ يشاء الله ربّنا ﴾ تقييدُ عدم العود إلى الكفر بمشيئة الله ، وهو يستلزم تقييد الدوام على الإيمان بمشيئة الله ، لأن عدم العود إلى الكفر مساو للثبات على

الإيمان ، وهو تقييد مقصود منه التأدب وتفويض العلم بالمستقبل إلى الله ، والكناية عن سؤال الدوام على الإيمان من الله تعالى كقوله : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ [آل عمران : 8] .

(70/279)

ومن هنا يستدل لقول الأشعري وجماعةٍ على رأسهم محمد بن عبدوس الفقيه المالكي الجليل أن المسلم يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، لأنّه لا يعلم ما يُختم له به ، ويضعف قول الماتريدي وطائفةٍ من علماء القيروان على رأسهم محمد بن سحنون أن المسلم لا يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، لأنّه متحقق أنه مؤمن فلا يقول كلمة تنبىء عن الشك في إيمانه .

وقد تطاير شرر الخلاف بين ابن عبدوس وأصحابه من جهة ، وابن سحنون وأصحابه من جهة ، في القيروان زماناً طويلاً ورمى كل فريق الفريق الآخر بما لا يليق بهما ، وكان أصحاب ابن سحنون يدْعون ابنَ عبدوس وأصحابَه الشكوكية وتلقفت العامة بالقيسروان هذا الخلاف على غير فهم فربما اجْترؤا على ابن عبدوس وأصحابة اجتراء وافتراء ، كما ذكره مفصلاً عياض في "المدارك" في ترجمة محمد بن سحنون ، وترجمة ابن النبّان ، والذي حقّقه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد وعياض أن الخلاف لفظي : فإن كان يقول

: إن شاء الله ، وسريرتُه في الإيمان مثلُ علانيته فلا بأس بذلك ، وإن كان شكاً فهو شك في الإيمان ، وليس ذلك ما يريده ابن عبدوس ، وقد قال المحققون : أن الخلاف بين الأشعري والماتريدي في هذه المسألة من الخلاف اللفظي ، كما حقّقه تاج الدين السبكي في "منظومته النونية" ، وتبعه تلميذه نور الدين الشيرازي في "شرحه" .

ومما يجب التنبيه له أن الخلاف في المسألة إنما هو مفروض في صحّة قول المؤمن : أنا مؤمن إن شاء الله ، وأن قوله ذلك هل ينبىء عن شكه في إيمانه ، وليس الخلاف في أنّه يجب عليه أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله ، عند القائلين بذلك ، بدليل أنهم كثيراً ما يقابلون قول القائلين بالمشيئة بقول الآخرين : أنا مؤمن عند الله ، فرجعت المسألة إلى اختلاف النظر في حالة عقد القلب مع ما هو في علم الله من خاتمته ، وبذلك سهل إرجاع الخلاف إلى الخلاف اللفظي .

(71/279)

والإتيان بوصف الرب وإضافتُه إلى ضمير المتكلم المشارَك : إظهار لحضرة الإطلاق ، وتعريض بأن الله مولى الذين آمنوا .

والخلاف بيننا وبين المعتزلة في جواز مشيئة الله تعالى الكفرَ والمعاصي خلاف ناشىء عن

الخلاف في تحقيق معنى المشيئة والإرادة ، ولكلا الفريقين اصطلاح في ذلك يخالف اصطلاح الآخر ، والمسألة طفيفة وإن هوّلها الفريقان ، واصطلاحنا أسعد بالشريعة وأقرب إلى اللغة ، والمسألة كلها من فروع مسألة التكليف وقدرة المكلف .

وقوله : ﴿ وسعَ ربنا كل شيء علْماً ﴾ تفويض لعلم الله ، أي إلاّ أن يشاء ذلك فهو أعلم بمراده منا ، وإعادة وصف الربوبية إظهار في مقام الإضمار لزيادة إظهار وصفه بالربوبية ، وتأكيد التعريض المتقدم ، حتى يصير كالتصريح .

وانتصب ﴿ علماً ﴾ على التمييز المحول عن الفاعل لقصد الإجمال ثم التفصيل للاهتمام .

وانتصب ﴿ كل شيء ﴾ على المفعول به ل ﴿ وَسعَ ﴾ ، أي : وسع علم ربنا كل شيء .

والسعة : مستعملة مجازاً في الإحاطة بكل شيء لأن الشيء الواسع يكون أكثر إحاطة .

وفي هذه المجادلة إدماج تعليم بعض صفات الله لأتْباعه وغيرهم على عادة الخطباء في انتهاز الفرصة .

ثم أخبر بأنه ومَن تبعه قد توكلوا على الله ، والتوكل : تفويض مباشرة صلاح المرء إلى غيره ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ في آل عمران (159) ، وهذا تفويض يقتضي طلب الخير ، أي : رجونا أن لا يسلبنا الإيمان الحق ولا يفسد خلق عقولنا وقلوبنا فلا نفتن ونضل ، ورجونا أن يكفينا شر من يُضمر لنا شراً وذلك شر الكفرة

المضمر لهم ، وهو الفتنة في الأهل بالإخراج ، وفي الدين بالإكراه على إتباع الكفر .

وتقديم الجار والمجرور على فعل توكلنا ﴾ لإفادة الاختصاص تحقيقاً لمعنى التوحيد ونبذ غير الله ، ولِمَا في قوله : ﴿ على الله توكلنا ﴾ من التفويض إليه في كفايتهم أمر أعدائهم ، صرح بما يزيد ذلك بقوله : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ .

(72/279)

وفسروا الفتح هنا بالقضاء والحكم ، وقالوا : هو لغة أزد عمان من اليمن ، أي احكم بيننا وبينهم ، وهي مأخوذة من الفتح بمعنى النصر لأن العرب كانوا لا يتحاكمون لغير السيف ، ويحسبون أن النصر حُكم الله للغالب على المغلوب .

وقوله : ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ هو كقوله : ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ [الأعراف : 87] ، أي وأنت خير الناصرين ، وخير الحاكمين هو أفضل أهل هذا الوصف ، وهو الذي يتحقق فيه كمال هذا الوصف فيما يقصد منه وفي فائدته بحيث لا يشتبه عليه الحق بالباطل ولا تروج عليه الترهات .

والحكام مراتب كثيرة ، فتبين وجه التفضيل في قوله : ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ [الأعراف : 87] وكذلك القياس في قوله : ﴿ خير الناصرين ﴾ [آل عمران : 150] و ﴿ خير

الماكرين ﴾ [آل عمران : 54] وقد تقدم في سورة آل عمران (150) : ﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(73/279)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾

وقولهم : ﴿ قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِبا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ أي أنهم يعلمون أن العودة إلى مثل هذه الملة لون من الكذب المتعمد على الله . لأن الكذب أن تقول كلاماً غير واقع ، وتعلن قضية غير حقيقية ثم قلت على مقتضى علمك فهذا مطلق كذب . لكن إن كنت عارفاً بالحقيقة ثم قلت غيرها فهذا افتراء واختلاق وكذب . والذين آمنوا مع شعيب عليه السلام يعلمون أن الملة القديمة ملة باطلة ، وهم قد شهدوا مع شعيب حلاوة الإيمان بالله ؛ لذلك رفضوا الكذب المتعمد على الله . ويقولون بعد ذلك : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . ﴾ [الأعراف : 89]

قد عرفوا أن التكليف اختيار وهم قد اختاروا الإيمان ، وأقروا وأكدوا إيمانهم بأنه سبحانه له طلاقة القدرة ، فقالوا : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ . فمشيئته سبحانه فوق كل

مشيئة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن قلوب بني آدم كلَّها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقَلْبٍ واحدٍ يصرفُه حيث شاء " .

وألم يقل سيدنا إبراهيم وهو أبو الأنبياء والرسل : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام . . . ﴾ [إبراهيم : 35]

لم يقل : واجنبنا . بل قالها واضحة ودعا ربَّه أن يبعده وينأى به وبنيه أن يعبدوا الأصنام ، لأنه يعلم طلاقة قدرته سبحانه . إذن فمن آمنوا مع شعيب احترموا طلاقة القدرة في الحق ؛ لذلك قالوا : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله رَبُّنَا . . . ﴾ [الأعراف : 89]

ولكن الله لا يشاء لمعصوم أن يعود ، وسبحانه يهدي من آمن بهداية الدلالة ويمده بالمزيد من هداية المعونة إلى الطريق المستقيم .

(74/279)

ويتابع أهل الإيمان مع شعيب . ﴿ . . . وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى الله تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ [الأعراف : 89]

جاء قولهم : ﴿ عَلَى الله تَوَكَّلْنَا ﴾ لأن خصومهم من الملأ بقوتهم وبجبروتهم قالوا لهم :

انتم بين أمرين اثنين : إما أن تخرجوا من القرية ، وإما أن تعودوا في ملتنا . وأعلن المؤمنون برسولهم شعيب : أن العود في الملة لا يكون إلا بالاختيار وقد اخترنا ألا نعود . إذن فليس أمامهم إلا الإخراج بالإجبار ؛ لذلك توكل المؤمنون على الله ليتولاهم ، ويمنع عنهم تسلط هؤلاء الكافرين . ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ [الأعراف : 89]

وساعة نسمع كلمة " افتح " أو " فتَح " أو " فَتْح " نفهم أن هناك شيئاً مغلقاً أو مشكلاً ، فإن كان من المُحسّات يكون الشيء مغلقاً والفتح يكون بإزالة الأغلاق وهي الأقفال ، وإن كان في المعنويات فيكون الفتح هو إزالة الإشكال ، والفتح الحسي له نظير في القرآن ، وحين نقرأ سورة يوسف نجد قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يا أبانا مَا نَبْغِي هذه بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا . . . ﴾ [يوسف : 65]

وكلمة ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ ﴾ تعني أن المتاع الذي معهم كان مغلقاً واحتاج إلى فتح حسي ليجدوا بضاعتهم كما هي . وأيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا . . . ﴾ [الزمر : 73]

ومادام هناك أبواب تفتح فهذا فتح حسي ، وقد يكون الفتح فتح علم مثلما نقول : ربنا فتح علينا بالإيمان والعلم ، ويقول الحق : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 76]

فما دام ربنا قد علمهم من الكتاب الكثير فهذا فتح علمي . ويكون الفتح بسوق الخير والإمداد به . والمثال على ذلك قوله الحق : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا . . . ﴾ [فاطر : 2]

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض . . . ﴾ [الأعراف : 96]

والبركات من السماء كالمطر وهو يأتي من أعلى ، وهو سبب فيما يأتي من الأسفل أي من الأرض .

والفتح أيضاً بمعنى إزالة إشكال في قضية بين خصمين ، ففي اليمن حتى الآن ، يسمون القاضي الذي يحكم في قضايا الناس " الفاتح " لأنه يزيل الإشكالات بين الناس . وقد يكون " الفتح " بمعنى " النصر " ، مثل قوله الحق : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ . . . ﴾ [البقرة : 89]

لقد كانوا ينتظرون النبي صلى الله عليه وسلم لينتصروا به على الذين كفروا ، ومن الفتح

أيضاً الفصل في الأمر من قوله الحق هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين . . . ﴾ [الأعراف : 89] .

وهذا القول هو دعاء للحق : احكم يا رب بيننا وبين قومنا بالحق بنصر الإيمان وهزيمة الكفر ، وأنت خير الفاتحين فليس لك هوى ضد أحد أو مع أحدٍ من مخلوقاتك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(76/279)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " إنْ عُدْنَا "

شرط جوابه محذوف عند الجمهور أي : فقد افترينا ، حذف لدلالة ما تقدم عليه ، وعند أب زيد والمبرد والكوفيين هو قوله : " فقد افتَرَيْنا " وهو مردود بأنه لو كان جواباً بنفسه لوَجَبَتْ فيه الفاء .

وقال أبو البقاء : " قد افترينا بمعنى المستقبل ؛ لأنه لم يقع ، وإنما سَدَّ مَسَدَّ جواب " إنْ عُدْنا " وساغ دخولُ " قد " هنا لأنهم نَزَّلوا الافتراء عند العود منزلة الواقع فقرنوه بـ " قد " ، وكأنَّ

المعنى : قد افتَرَيْناه الآن إن هَمَمْنا بالعود " .

وفي هذه الجملة وجهان :

أحدهما : أنها استئناف إخبار فيه معنى التعجب ، قاله الزمخشري ، كأنه قيل : ما أكذبنا على الله إن عُدْنا في الكفر .

والثاني : أنها جواب قسم محذوف حذفت اللام منه ، والتقدير : والله لقد افترينا ، ذكره الزمخشري أيضاً ، وجعله ابن عطية احتمالاً وأنشد : [الكامل]

2522 - بَقَّيْتُ مَالِي وانْحَرَفْتُ عَنِ العُلَى . . .

وَلَقِيتُ أَضْيَافِي بِوَجْهِ عَبُوسِ

قال : "كما تقول : افتريتُ على الله إن كلَّمت فلاناً " ولم يُنْشِدْ ابن عطية البيت الذي بعد هذا ، وهو محلُّ الفائدة ؛ لأنه مشتمل على الشرط وهو : [الكامل]

2523 - إنْ لَمْ أَشُنَّ عَلَى ابْنِ هِنْدِ غَارَةً . . .

لَمْ تَخْلُ يَوْماً مِنْ نهابِ نُفُوسِ

قوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا ﴾ منصوب بـ " نعود " أي : ما يكون ولا يستقيم لنا عود بعد أن حصل لنا التنجيةُ منها .

فصل في معنى التنجية

وفي معنى ﴿ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ وجوه :

الأول : علمنا قبحه وفساده وبطلانه .

الثاني : أن الله نجّى قومه من تلك الملة ، وإنما نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئاً منهم تغليباً للأكثر .

(77/279)

الثالث : أن القوم أوهموا المستضعفين أنه كان على ملتهم ، فقوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ أي على حسب معتقدكم .

قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ في هذا الاستثناء وجهان :

أحدهما : أنه متصل .

والثاني : أنه منقطع .

ثم القائلون بالاتصال مختلفون : فمنهم من قال : هو مستثنى من الأوقات [العامة] والتقدير : وما يكونُ لنا أن نعود فيها في وقت من الأوقات إلا في وقت مشيئة الله ذلك ، وهذا متصور في حقِّ مَنْ عدا شعيباً ، فإن الأنبياء لا يشاء الله ذلك لهم ؛ لأنه عَصَمهم .

ومنهم من قال : " هو مستثنى من الأحوال العامة والتقدير : ما يكون لنا أن نعود فيها في كل حال إلا في حال مشيئة الله تعالى " .

وقال ابن عطية : " ويُحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعَبَّد الله [به] المؤمنين ممَّا تفعلهُ الكفرةُ من القُرُبات فلمَّا قال لهم : إنا لا نعودُ في مِلَّتكم ، ثم خشي أن يتعَبَّد الله بشيء من أفعال الكفرة فيعارض ملحدٌ بذلك ويقول : هذه عودة إلى ملَّتنا استثنى مشيئة الله فيما يمكن أن يتعبَّدَ به " .

قال أبو حيان : " وهذا الاحتمال لا يَصِحُّ لأن قوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ إنما يعني النجاة من الكفر والمعاصي لا من أعمال البر " .

قال شهاب الدين : " قد حكى ابن الأنباري هذا القول عن المعتزلة الذين لا يؤمنون بالإرادة ثم قال : وهذا القول مُتَناولهُ بعيد ، لأن فيه تبعيض الملّة " .

وقيل : هذا استثناء على سبيل التسليم والتأدُّب .

قال ابن عطية : " ويقلق هذا التأويلُ من جهةِ استقبال الاستثناء ، ولو كان الكلام : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ ﴾ قوي هذا التأويل " .

وهذا الذي قاله سهوٌ ؛ لأنَّ الماضيَ يتخلَّص للاستقبال بعد " إنْ " الشرطية ، كما يتخلَّص المضارع له بـ " أنْ " المصدرية .

(78/279)

وقيل : إن الضمير في قوله : " فيها " ليس عائداً على المِلَّة ، بل عائد على الفِرْية ، والتقدير : وما يكون لنا أن نعود في الفِرْية إلا أن يشاء ربنا ، وهو حَسَنٌ لولا بُعْدُه .

قوله : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾

نصب " عِلْماً " على التمييز وهو منقول من الفاعلية ، تقديره : وَسِعَ علمُ ربِّنا كلَّ شيء كقوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ [مريم : 24] والمعنى : أحاط علمه بكل شيء .

ثم قال : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ﴾ فيما توعدوننا به ، ثم دعا شعيب بعدما أيس من فلاحهم فقال : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ .

قال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي : " احكم واقض " .

وقال الفراء : " وأهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح ؛ لأنه يفتح مواضع الحقِّ " .

وعن ابن عباس قال : " ما كنت أدري قوله ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا ﴾ حتَّى سمعت ابنة ذي يزن تقول لزوجها : أفاتحك أي : أحاكمك " ، وقد تقدَّم أن الفتح الحُكْم بلغة حمير .

وقيل : بلغة مُرَاد وأنشد : [الوافر]

2524 - أَلاَ أَبْلِغْ بَنِي عُصْمٍ رَسُولاً . . .

بِأَنِّي عَنْ فَتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ

قال الزجاج : وجائز أن يكون قوله : ﴿ افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ أي أظهر أمرنا حتى

ينفتح بيننا وبني قومنا وينكشف والمراد منه أن ينزل عليهم عذاباً يدلُّ على كونهم مبطلين ، وعلى كون شعيب وقومه محقين ، وعلى هذا المراد بالفتح الكشف والتبيين ، وكرر ﴿ بيننا وبين قومنا ﴾ بخلاف قوله : ﴿ حتى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا ﴾ [الأعراف : 87] زيادة في تأكيد تمييزه ، ومَنْ تبعه من قومه ثم قال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ [أي : خير الحاكمين أو خير المظهرين ، وذا معنى قول من على المعنيين] ، والمراد به الثناء على الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 216.226 ﴾ . باختصار .

(79/279)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

نطقوا عن صحة عزائمهم حيث قالوا : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم ﴾ ، ثم أقروا بالشكر حيث قالوا : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ ، ثم تبرأوا عن حولهم وقوتهم حيث قالوا : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا ﴾ يعني إنْ يُلبسنا

لِباسَ الخذلان نُرَدُّ إلى الصغر والهوان .

ثم اشتاقوا إلى جميل التوكل فقالوا : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي به وَثِقْنَا ، ومنه الخيرَ أَمَّلْنا .

ثم فوضوا أمورهم إلى الله فقالوا : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ فتداركهم الحقُّ - سبحانه - عند ذلك بجميل العصْمة وحسن الكفاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 550. 551 ﴾

(80/279)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (90) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضى جواب الفصل المبني على إبطال الفضل وإظهار العدل ، ذكر سبحانه قولهم بعده عاطفاً له على ما مضى من قولهم أو قوله ، كان الأصل أن يقال : وقالوا ، ولكنه أظهر الوصف بالشرف إشارة إلى أنه الذي حملهم على نتيجة الاستكبار وهي الكفر ، ثم لم يرضوا به حتى أضافوا إليه تكفير غيرهم فقال : ﴿ وقال الملأ ﴾ أي الأكابر ﴿ الذين ﴾

يملؤون العيون مرأى والقلوب مهابة ، فحلمهم التكبر على أنهم ﴿ كفروا ﴾ .

ولما كان من المستبعد أن يكون أقاربه يتنكبون عما أتاهم به من الخير لحسد أو اتهام أو غيرها ، فكان ربما ظن أن هؤلاء الذين يعاملونه بهذه الغلطة أجانب عنه ، قال : ﴿ من قومه ﴾ بياناً لأن الفضل بيد الله فقد يؤتيه البغيض البعيد ويمنعه الحبيب القريب ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ [القصص : 56] ، ووطؤوا للقسم بقولهم : ﴿ لئن اتبعتم ﴾ أي أيها الأتباع ممن لم يؤمن بعد ﴿ شعيباً ﴾ أو تركتم ما أنتم عليه مما أورثه لكم آباؤكم ؛ واجاب القسم بما سد عن جواب الشرط بقوله : ﴿ إنكم إذاً ﴾ أي وقت اتباعه ﴿ لخاسرون ﴾ أي لأنكم استبدلتم بدين الآباء غيره وحرمتم فوائد البخس والتطفيف وقط السبل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 71 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾

اعلم أنه تعالى بين عظم ضلالتهم بتكذيب شعيب ثم بين أنهم لم يقتصروا على ذلك ، حتى أضلوا غيرهم ، ولاموهم على متابعته فقالوا : ﴿ لَئِنِ اتبعتم شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون ﴾ واختلفوا فقال بعضهم : خاسرون في الدين وقال آخرون : خاسرون في الدنيا ، لأنه يمنعكم من أخذ الزيادة من أموال الناس ، وعند هذا المقال كمل حالهم في الضلال أولاً وفي

الإضلال ثانياً ، فاستحقوا الإهلاك فلهذا قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 148 ﴾

(81/279)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنْ اتبعتم شُعَيْبًا ﴾ أي لأن أطعتم شعيباً في دينه ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون ﴾ يعني : جاهلون .

فلما وعظهم شعيب ، ولم يتعظوا أخبرهم أن العذاب نازل بهم .

فلم يصدقوه .

فخرج شعيب ومن آمن معه من بين أظهرهم فأصابهم يعني : أهل القرية حر شديد ،

فخرجوا من القرية ، ودخلوا غيضة كانت عند قريتهم وهي الأيكة كما قال الله تعالى في آية أُخرى ﴿ كَذَّبَ أصحاب لْأَيْكَةِ المرسلين ﴾ [الشعراء : 176] فأرسل الله تعالى ناراً فأحرقت الأشجار ومن فيها من الناس .

ويقال : أصابتهم زلزلة فخرجوا ، فأتتهم نار فأحرقتهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ يعني : الزلزلة والحر الشديد فهلكوا واحترقوا ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين

﴿ يعني : صاروا ميتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتبعتم شُعَيْباً ﴾ وتركتم دينكم ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : مغبونون . قال عطاء : جاهلون . قال الضحاك : فجرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(82/279)

وقال أبو حيان :

﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾

أي قال بعضهم لبعض أي كبراؤهم لاتباعهم تثبيطاً عن الإيمان : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ، قال الزمخشري : (فإن قلت) : ما جواب القسم الذي وطأته اللام في ﴿ لئن اتبعتم ﴾ وجواب الشرط ؟ (قلت) : قوله ﴿ إنكم إذاً لخاسرون ﴾ سادّ مسدّ الجوابين انتهى ، والذي تقول النحويون إنّ جواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ولذلك وجب مضي فعل الشرط فإن عنى الزمخشري بقوله سادّ مسدّ الجوابين إنه اجتزىء به عن ذكر جواب الشرط فهو قريب وإن عنى به أنه من حيث الصناعة

النحوية فليس كما زعم لأن الجملة يمتنع أن تكون لا موضع لها من الإعراب وأن يكون لها موضع من الإعراب ﴿ وإذا ﴾ هنا معناها التوكيد وهي الحرف الذي هو جواب ويكون معه الجزاء وقد لا يكون وزعم بعض النحويين أنها في هذا الموضع ظرف العامل فيه ﴿ لخاسرون ﴾ والنون عوض من المحذوف والتقدير أنكم إذا اتبعتموه ﴿ لخاسرون ﴾ فلما حذف ما أضيف إليه عوض من ذلك النون فصادفت الألف فالتقى ساكنان فحذف الألف لالتقائهما والتعويض فيه مثل التعويض في يومئذ وحينئذ ونحوه وما ذهب إليه هذا الزاعم ليس بشيء لأنه لم يثبت التعويض والحذف في ﴿ إذا ﴾ التي للاستقبال في موضع فيحمل هذا عليه ، ﴿ لخاسرون ﴾ قال ابن عباس : مغبونون ، وقال عطاء : جاهلون ، وقال الضحاك : عجزة ، وقال الزمخشري : ﴿ لخاسرون ﴾ لاستبدالكم الضلالة بالهدى لقوله ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾ وقيل تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف لأنه ينهاكم عنه ويحملكم على الإيفاء والتسوية انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(83/279)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾

عطفٌ على قال الملأ الذين الخ ، ولعل هؤلاء غيرُ المستكبرين ودونهم في الرتبة شأنُهم الوساطةُ بينهم وبين العامةِ والقيامُ بأمورهم حسبما يراه المستكبرون ، ويجوز أن يكون عينَ الأولين ، وتغييرُ الصلةِ لما أن مدارَ قولِهم هذا هو الكفرُ كما أن مناطَ قولِهم السابقِ هو الاستكبارُ أي قال أشرافُهم الذين أصروا على الكفر لأعقابهم بعد ما شاهدوا صلابةَ شعيبٍ عليه السلام ومن معه من المؤمنين في الإيمان وخافوا أن يستتبعوا قومَهم تثبيطاً لهم عن الإيمان به وتنفيراً لهم عنه على طريقة التوكيدِ القسَمي والله ﴿ لَئِنِ اتبعتم شُعَيْبًا ﴾ ودخلتم في دينه وتركتم دينَ آبائِكم ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون ﴾ أي في الدين لاشترائكم الضلالةَ بهداكم أو في الدنيا لفوات ما يحصُل لكم بالبخْس والتطفيف ، وإذن حرفُ جوابٍ وجزاء معترِضٌ بين اسم إن وخبرِها والجملةُ سادةٌ مسدَّ جوابي الشرطِ والقسمِ الذي وطَّأَتْه اللام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(84/279)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾

عطف على ﴿ قَالَ الملأ ﴾ [الأعراف : 88] الخ والمراد من هؤلاء الملأ يحتمل أن يكون أولئك المستكبرين وتغيير الصلة لما أن مناط قولهم السابق هو الاستكبار ويكون هذا حكاية لإضلالهم بعد حكاية ضلالهم على ما قيل ، ويحتمل أن يكون غيرهم ودونهم في الرتبة شأنهم الوساطة بينهم وبين العامة والقيامة بأمورهم حسبما يراه المستكبرون ، أي قالوا لأهل ملتهم تنفيراً لهم وتثبيطاً عن الايمان بعد أن شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين فيه وخافوا أن يفارقوهم ﴿ لَئِنِ اتبعتم شُعَيْبًا ﴾ ودخلتم في ملته وفارقتم ملة آبائكم ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون ﴾ أي مغبونون لاستبدالكم الضلالة بالهدى ولفوات ما يحصل لكم بالبخص والتطفيف فالخسران على الأول استعارة وعلى الثاني حقيقة وإلى تفسير الخاسرين بالمغبونين ذهب ابن عباس ، وعن عطاء تفسيره بالجاهلين ، وعن الضحاك تفسيره بالفجرة ؛ وإذا حرف جواب وجزاء معترض كما قال غير واحد بين اسم إن وخبرها .

وقيل : هي إذاً الظرفية الاستقبالية وحذفت الجملة المضاف إليها وعوض عنها التنوين ، ورده أبو حيان بأنه لم يقله أحد من النحاة ، والجملة جواب للقسم الذي وطأته اللام بدليل عدم الاقتراب بالفاء وسادة مسد جواب الشرط وليست جواباً لهما معاً كما يوهمه كلام

بعضهم لأنه كما قيل مع مخالفته للقواعد النحوية يلزم فيه أن يكون جملة واحدة لها محل من الإعراب ولا محل لها وإن جاز باعتبارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(85/279)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾

عُطفت جملة : ﴿ وقال الملأ ﴾ ولم تفصل كما فصلت التي قبلها لانتهاء المحاورة المقتضية فصل الجمل في حكاية المحاورة ، وهذا قول أنف وجه فيه الملأ خطابهم إلى عامة قومهم الباقين على الكفر تحذيراً لهم من اتباع شعيب خشية عليهم من أن تحيك في نفوسهم دعوة شعيب وصدْق مجادلته ، فلما رأوا حجته ساطعة ولم يستطيعوا الفلج عليه في المجادلة ، وصمموا على كفرهم ، أقبلوا على خطاب الحاضرين من قومهم ليحذروهم من متابعة شعيب ويهددوهم بالخسارة .

وذِكْرُ ﴿ المَلأ ﴾ إظهار في مقام الإضمار لبعد المعاد .

وإنّما وصف الملأ بالموصول وصلته دون أن يكتفي بحرف التعريف المقتضي أن الملأ الثاني هو الملأ المذكور قبله ، لقصد زيادة ذم الملأ بوصف الكفر ، كما ذم فيما سبق بوصف

الاستكبار .

ووصف ﴿ الملأ ﴾ هنا بالكفر لمناسبة الكلام المحكي عنهم ، الدال على تصلبّهم في كفرهم ، كما وصفوا في الآية السابقة بالاستكبار لمناسبة حال مجادلتهم شعيباً ، كما تقدم ، فحصل من الآيتين أنّهم مُستكبرون كافرون .

والمخاطب في قوله : ﴿ لئن اتّبعتم شعيباً ﴾ هم الحاضرون حين الخطاب لدى الملإِ ، فحُكي كلام الملأ كما صدر منهم ، والسياق يفسر المعنيين بالخطاب ، أعني عامّة قوم شعيب الباقين على الكفر .

(واللام) موطّئة للقسم .

و ﴿ إنكم إذا لخاسرون ﴾ جواب القسم وهو دليل على جواب الشرط محذوف ، كما هو الشأن في مثل هذا التركيب .

والخُسران تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم ﴾ في سورة الأنعام (140) .

(86/279)

وهو مستعار لحصول الضر من حيث أريد النفع ، والمراد به هنا التحذير من أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم ، لأن الظاهر أنّهم لا يعتقدون البعث ، فإن كانوا يعتقدونه ، فالمراد الخسران الأعم ، ولكن الأهم عندهم هو الدنيوي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(87/279)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾

وهنا يقول الملأ من قوم مدين لمن آمنوا ولمن كان لديهم الاستعداد والتهيؤ للإيمان محذرين لهم من اتباع شعيب حتى لا يظل الملأ والكبراء وحدهم في الضلال :

وساعة نرى " اللام " في " لئن " نعلم أن هنا قَسَماً دلّت عليه هذه " اللام " . وهنا أيضاً " إن " الشرطية ، والقسم يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج كذلك إلى جواب ، فإذا اجتمع شرط وقسم اكتفينا بالإتيان بجواب المتقدم والسابق منهما ، مثل قولنا : " والله إن فعلت كذا ليكونن كذا " : ﴿ لَئِنِ اتبعتم شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ .

وماذا سيخسرون ؟ سيخسرون لأنهم كانوا سيأخذون أكثر من حقهم حين يطففون

الكيل ويخسرون الميزان ، والقوي يأخذ من الضعيف ؛ فإذا ما ارتبطوا بالمنهج واتبعوه خسروا ما كانوا يأخذونه من تطفيف الكيل وبخس وخسران الميزان بمنهج . وهذه هي الخسارة في نظر المنحرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(88/279)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُون ﴾

" إذن " حرفُ جواب وجزاء ، وقد تقدّم الكلام عليها مُشْبعاً] وهي هنا معترضة بين الاسم والخبر ، وقد توهمَّ بعضهم فجعل " إذن " هذه " إذا " الظرفية في الاستقبال نحو [قولك] : " أَلْزِمُك إذا جئْتني " أي وقت مجيئك .

قال : " ثم حُذِفَت الجملة المضافةُ هي إليها ، والأصل : إنكم إذا اتبعتموه لخاسرون ، ف " إذا " ظرف والعاملُ فيه " لخاسرون " ، ثم حذفت الجملة المضافة إليها وهي " اتبعتموه " ، وعُوِّضَ منها التنوين ، فلما جيء بالتنوين وهو ساكن التقى بمجيئه ساكنان ، هو والألفُ قبله ، فحُذِفَت الألفُ لالتقاء الساكنين ، فبقي اللفظ " إذن " كما ترى " .

وزعم هذا القائل أن ذلك جائز بالحَمْل على " إذا " التي للمضيّ في قولهم : " حينئذٍ " و" يومئذٍ " فكما أن التنوين هنا عوض عن جملة عند الجمهور كذلك هنا .

وردّ أبو حيان هذا بأنه لم يَثْبُتْ هذا الحكم لـ " إذا " الاستقبالية في غير هذا الموضع فيحمل هذا عليه .

قال شهاب الدين : وهذا ليس بلازم إذ لذلك القائل أن يقول : قَد وَجَدْتُ موضعاً غير هذا وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ إِذاً لَّظَالِمُونَ ﴾ [يوسف : 79] .

وقد رأيت كلام القرافي في قوله صلى الله عليه وسلم لمّا سألوه عن بيع الرطب بالتمر فقال : " أينقص الرُّطبُ إذا جفَّ ؟ فقالوا : نعم .

فقال : فلا إذن " أن " إذن " هذه هي " إذا " الظرفية ، قال : كالتي في قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرض زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 1] فحذفت الجملة ، وذكره إلى آخره .

وكنت لمّا رأيته تعجبت غاية العجب كيف يَصْدرُ هذا منه حتى رأيته في كتاب الشيخ في هذا الموضع عن بعضهم ولم يُسَمِّه ، فذهب تعجبي منه ، فإن لم يكن ذلك القائلُ القرافيَّ فقد صار له في هذه المسألة سَلَفٌ ، وإلاَّ فقد اتحد الأصل ، والظاهر أنه غيره .

وقوله : " إنكم " هو جواب والقسم الموطَّأ له باللاَّم .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما جوا بالقسم الذي وطَّأْته اللام في قوله : ﴿ لَئِنِ اتبعتم

شُعَيْباً ﴾ وجوابُ الشرط؟ .

قلت : قوله : ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُون ﴾ سادٌّ مسد الجوابين .

(89/279)

قال أبو حيان : " فالذي قاله النحويون : إن جواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ، ولذلك وجب مُضِيُّ فعل الشرط فإن عَنَى بأنه سادٌّ مَسَدَّهما أنه اجْتُزِئ بذكره عن ذكر جواب الشرط فهو قريب ، وإن عنى من حيث الصناعة النحوية فليس كما زعم ، لأن الجملة يمتنع ألا يكون لها محل من الإعراب وأن يكون لها محلٌّ من الإعراب " .

وهذه المسألة قد تقدَّمَتْ مِراراً واعتراض الشيخ عليه ، وتقدَّم جوابه ويعني الشيخ بقوله : لأنَّ الجملة يمتنع أن يكون لها محلٌّ من الغعراب إلى آخره ؛ لأنها من حيث كونها .

جواباً للشرط تستدعي ألا يكون لها محل إذ الجملة [الابتدائية] لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 226 . 228 ﴾

(90/279)

قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كمل إثمهم بالضلال والإضلال ، استحقوا الأخذ فقال : ﴿ فأخذتهم ﴾ أي فتسبب عن أقوالهم هذه وأفعالهم أنه أخذتهم ﴿ الرجفة ﴾ أي الزلزلة العظيمة في القلوب أو الديار التي كانت سبباً للصيحة أو مسببة عنها ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾ أي مساكنهم ، وتقدم سر توحيدها ﴿ جاثمين ﴾ أي باركين على الركب أو لازمين أمكنتهم لا حراك بهم ، وهذا دون ما كان النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت الملائكة بحنين ، فكان الكفار يسمعون في أجوافهم مثل وقع الحصاة في الطست ، ودون ما كان يجد مخالفه من الرعب من مسيرة شهر من ورائه وشهر من أمامه ، ولكونه كان نبي الرحمة ما اقتضى ذلك الهلاك بل النجاة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 71 . 72 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ .

وهي الزلزلة الشديدة المهلكة ، فإذا انضاف إليها الجزاء الشديد المخوف على ما ذكره الله تعالى من قصة الظلمة ، كان الهلاك أعظم ، لأنه أحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت

أرجلهم ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ أي في مساكنهم ﴿ جاثمين ﴾ أي خامدين ساكنين بلا حياة وقد سبق الاستقصاء في تفسير هذه الألفاظ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 148 ﴾

(91/279)

وقال الثعلبى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ قال الكلبي : الزلزلة.

قال ابن عباس : وغيره من المفسّرين : فتح الله عليهم باباً من أبواب جهنم فأرسل عليهم ريحاً وحرّاً شديداً ، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر فبعث الله عزّ وجلّ سحابة فيها ريح طيّبة فوجدوا برد الريح بطيبها وظل السحابة فتنادوا عليكم بها فخرجوا إلى البرّية فلمّا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجرّاد المعلّى وصاروا رماداً وهو عذاب يوم الظلّة ، وذلك قوله : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ميّتين قال أبو العالية : ديارهم منازلهم ، وقال محمد بن مروان : كل شيء في القرآن (دارهم) فهو [مرغمهم] وكلّ شيء (ديارهم) فهو عساكرهم .

قال ابن إسحاق : بلغني أن رجلاً من أهل مدين يُقال له عمر بن [جلهاء] لمّا رأى الظلّة فيها الغضب . قال : يا قوم إن شُعيباً مُرسلٌ فذروا عنكم سُميراً أو عمران بن شداد إني أرى غيمة يا قوم طلعت دعو بصوت على صمانة الوادي ، فإنّكم إن تروا فيها ضحاة غد إلاّ الرقيم يمشي بين أنجاد وسُميراً وعمران : كاهناهم راعيين ، والرقيم كلباً لهما .

قال أبو عبد الله البجلي : أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت : أسماء ملوك وكان ملكهم يوم الظلة في زمان شعيب . فقالت أخت كلمون تبكيه :

كلمون هدَّ ركني هلكه وسط المحله سيّد القوم أتاه الحتف ناراً وسط ظلة . . . . جعلت نار عليهم دارهم كالمضمحلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(92/279)

وقال ابن عطية :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾

و ﴿ الرجفة ﴾ الزلزلة الشديدة التي ينال معها الإنسان اهتزاز وارتعاد واضطراب .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن فرقة من قوم شعيب أهلكت ب ﴿ الرجفة ﴾ وفرقة بالظلة ويحتمل أن الظلة و ﴿ الرجفة ﴾ كانتا في حين واحد ، وروي أن الله تعالى بعث ﴿

شعيباً ﴾ إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة ، وقيل هما طائفتان وقيل واحدة وكانوا مع كفرهم يبخسون الكيل والوزن فدعاهم فكذبوه فجرت بينهم هذه المقاولة المتقدمة ، فلما عتوا وطالت بهم المدة فتح الله عليهم باباً من أبواب جهنم فأهلكهم الحر منه فلم ينفعهم ظل ولا ماء ، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برد الريح وطيبها فتنادوا ، عليكم الظلة ، فلما اجتمعوا تحت الظلة وهي تلك السحابة انطبقت عليهم فأهلكتهم ، قال الطبري : فبلغني أن رجلاً من أهل مدين يقال له عمرو بن جلهاء قال لما رأها : [البسيط]

يا قوم إن شعيباً مرسل فذروا . . . عنكم سميراً وعمران بن شداد

إني أرى غيمة يا قوم قد طلعت . . . تدعو بصوت على ضمّانه الواد

وإنه لن تروا فيها ضحاء غد . . . إلا الرقيم يمشّي بين انجاد

وسمير وعمران كاهناهم والرقيم كلبهم ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر " شعيباً " قال : ذلك خطيب الأنبياء لقوله لقومه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [هود : 88] .

قال القاضي أبو محمد : يريد لحسن مراجعته وجميل تلطفه . وحكى الطبري عن أبي عبد الله البجلي أنه قال : أبو جاد وهوز وحطي وكلمن وصعفض وقرست أسماء ملوك مدين ، وكان الملك يوم الظلة كلمن ، فقالت أخته ترثيه : [مجزوء الرمل]

كلمن قد هد ركني . . . هلكه وسط المحله

سيد القوم اتساه . . . حتف نار وسط ظله

جعلت نار عليهم . . . دارهم كالمضمحله

قال القاضي أبو محمد : وهذه حكاية مظنون بها والله علم ، وقد تقدم معنى ﴿ جاثمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(93/279)

وقال الخازن :

﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾

يعني الزلزلة الشديدة ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ قال ابن عباس وغيره : فتح الله عليهم باباً من جهنم فأرسل عيلهم حراً شديداً من الظاهر فخرجوا هرباً إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم وهي الظلة فوجدوا لها برداً ونسيماً فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض من تحتهم فاحترقوا كاحتراق الجراد في المقلاة وصاروا رماداً ، وروي أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا

بها .

وقال قتادة : بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة وأما أهل مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة هلكوا جميعاً .

قال أبو عبد الله البجلي : كان أبو جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم في زمن شعيب يوم الظلة اسمه كلمن فلما هلك قالت ابنته شعراً تبكيه وترثيه به :

كلمن هدم ركني . . .

هلكه وسط المحلهْ

سيد القوم أتاه . . .

هلك نار تحت ظلهْ

جعلت ناراً عليهم . . .

دارهم كالمضمحلهْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(94/279)

وقال أبو حيان :

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾

تقدم تفسير مثل هذه الجملة ، قال ابن عباس وغيره : لما دعى عليهم فتح عليهم باب من جهنم بحرَ شديد أخذ بأنفاسهم فلم ينفعهم ظلّ ولا ماء فإذا دخلوا الأسراب ليتبرّدوا وجدوها أشدّ حرّاً من الظاهر فخرجوا هرباً إلى البرية فأظلتهم سحابة فيها ريح طيبة فتنادوا عليكم الظلة فاجتمعوا تحتها كلهم فانطبقت عليهم وألهبها الله ناراً ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلو فصاروا رماداً .

وروي أن الريح حبست عنهم سبعة أيام ثم سلّط عليهم الحر ، وقال يزيد الجريري : سلط عليهم الرّيح سبعة أيام ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم ، وقال قتادة : أرسل شعيب إلى أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلّة وإلى أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحةً فهلكوا جميعاً وقال ابن عطية : ويحتمل أنّ فرقة من قوم شعيب هلكت بالرّجفة وفرقة هلكت بالظلّة ، وقال الطبري بلغني أنّ رجلاً منه يقال له عمرو بن جلّها لما رأى الظلة .

قال الشاعر :

يا قوم إن شعيباً مرسل فذروا . . .

عنكم سميراً وعمران بن شدّاد

إني أرى غيمة يا قوم قد طلعت . . .

تدعو بصوت على صمانة الواد

وإنه لن تروا فيها صحاء غد . . .

إلا الرّقيم تمشي بين أنجاد

سمير وعمران كاهناهم والرّقيم كلبهم ، وعن أبي عبد الله البجلي : أبو جاد وهوّز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت أسماء كملوك مدين وكان كلمن ملكهم يوم نزول العذاب بهم زمان شعيب عليه السلام فلما هلك قالت ابنته تبكيه :

كلمن قد هدّ ركني . . .

هلكه وسط المحله

سيّد القوم أتاه . . .

حتف نار وسط ظله

جُعلت نار عليهم . . .

دارهم كالمضمحلهْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(95/279)

وقال أبو السعود :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾

أي الزلزلة وهكذا في سورة العنكبوت وفي سورة هود : ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ أي صيحةُ جبريلَ عليه السلام ، ولعلها من مبادىء الرجفةِ فأُسند هلاكُهم إلى السبب القريبِ تارةً وإلى البعد أخرى ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ أي في مدينتهم وفي سورة هودٍ في ديارهم ﴿ جاثمين ﴾ أي ميّتين لازمين لأماكنهم لا بَراحَ لهم منها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(96/279)

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾

أي الزلزلة كما قال الكلبي وفي سورة هود ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ [هود : 94] أي صيحة جبريل عليه السلام ، ولعلها كانت من مبادي الرجفة فأسند إهلاكهم إلى السبب القريب تارة وإلى البعيد أخرى ، وقال بعضهم : إن القصة غير واحدة فإن شعيباً عليه السلام بعث إلى أمتين أهل مدين وأهل الأيكة فأهلكت أحدهما بالرجفة والأخرى

بالصيحة ، وفيه أنه إنما يتم لو لم يكن هلاك أهل مدين بالصيحة ، والمروي عن قتادة أنهم الذين أهلكوا بها وأن أهل الأيكة أهلكوا بالظلة .

وجاء في بعض الآثار أن أهل مدين أهلكوا بالظلة والرجفة ، فقد روى عن ابن عباس وغيره في هذه الآية إن الله تعالى فتح عليه باباً من جهنم فأرسل عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أشد حراً من الظاهر فخرجوا إلى البرية فبعث الله تعالى سحابة فيها ريح طيبة فأظلتهم فوجدوا لها برداً فنادى بعضهم بعضاً حتى اجتمعوا تحتها رجالهم ونساؤهم وصبياهم فألهبها عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي وصاروا رماداً .

ويشكل على هلاكهم جميعاً نساء ورجالاً ما نقل عن عبد الله البجلي قال : كان أبو جاد وهوزو حطى وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم في زمن شعيب عليه السلام كلمن فلما هلك يوم الظلة رثته ابنته بقولها :

كلمن قد هد ركني . . .

هكله وسط المحله

سيد القوم أتاه الحـ . . .

تف نار تحت ظله

جعلت نار عليهم . . .

دارهم كالمضمحله

اللهم إلا أن يقال : إنها كانت مؤمنة فنجت ، وقد يقال : إن هذا الخبر مما ليس له سند يعول عليه .

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين ﴾ تقدم نظيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(97/279)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

(والفاء) في : فأخذتهم الرجفة ﴾ للتعقيب ، أي : كان أخذ الرجفة إياهم عقب قولهم لقومهم ما قالوا .

وتقدم تفسير : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ في نظيرها من قصة ثمود .

والرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظُلة ، وهي السحابة ، قال تعالى في سورة الشعراء (189) .

﴿ فأخَذَهم عذابُ يوم الظلة ﴾ وقد عبر عن الرجفة في سورة هود بالصيحة فتعين أن تكون من نوع الأصوات المنشقة عن قالع ومقلوع لا عن قارع ومقروع وهو الزلزال ، والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق فتكون الرجفة الزلزال والصيحة الصاعقة كما يدل عليه قوله : ﴿ كأن لم يَغْنَوا فيها ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(98/279)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

والرجفة هي الهزّة العنيفة التي ترج الإِنسان رجًّا غير اختياري ، وصاروا بها جاثمين أي قاعدين على ركبهم ؛ ولا حراك بهم ؛ ميتين ، وفي هيئة الذلة . وهذا يدل على أن كلا منهم ساعة أُخِذ تذكر كل ما فعله من كفر وعصيان ، وأراد استدراك ما فاته من مخالفاته للرسول ، وأخذ يوبخ نفسه ويندم على ما فعل ، ولم تأخذه الأبهة والاستكبار ، لأن هناك لحظة تمر على الإِنسان لا يقدر فيها أن يكذب على نفسه ، ولذلك نجد أن من ظلم وطغى وأخذ حقوق الغير ثم يأتيه الموت يحاول أن ينادي على كل من بغى عليه أو ظلمه ليعطيه حقه لكنه لا يجده . ولذلك يسمون تلك اللحظة أنها التي يؤمن فيها الفاجر ، لكن هل ينفع

إيمانه؟ طبعاً لا . في هذه الحالة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(99/279)

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (92) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر سبحانه بهلاكهم وما سببه من أقوالهم وأفعالهم ، وكان للتخليص من العظمة في القلوب بتصوير المخلص للأذهان ما لا يخفى ، لخص ذلك ذاكراً لأنه حل بهم بالخصوص - ما نسبوا إلى المؤمنين من الخسارة فقال : ﴿ الذين كذبوا شعيباً ﴾ أي نسبوه إلى الكذب فيما قاله عنا وأيدناه فيه بالبينات ﴿ كأن ﴾ أي هم المخصصون بالهلاك حتى كأنهم ﴿ لم يغنوا ﴾ أي ينزلوا ويقيموا ، وبطل مقامهم لاهين بالأفراح والغناء والاستغناء من المغاني وهي المنازل والاستغناء ﴿ فيها ﴾ أي الدار بسبب تكذيبهم .

ولما كان تكذيب الصادقين لا سيما الرسل في غاية الشناعة ، كرره إشارة إلى ذلك وإعلاماً

بأنه سبب لهم أعظم من هلاك الأشباح ضد ما سبب التصديق للمؤمنين فقال : ﴿ الذين كذبوا شعيباً ﴾ أي تكذيبه سبباً لهلاكهم ﴿ كانوا ﴾ أي بسبب التكذيب أيضاً ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الخاسرين ﴾ أي خسروا أرواحهم كما خسروا أشباحهم فهم لما سوى ذلك أخسر ، وأما الذين اتبعوه فما نالهم شيء من الخسار ، وفي هذا الاستئناف والابتداء والتكرير مبالغة في رد مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيه لآرائهم واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 72 ﴾

(100/279)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : في قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ قولان : أحدهما : يقال غني القوم في دارهم إذا طال مقامهم فيها .

والثاني : المنازل التي كان بها أهلوها واحدها مغني .

قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة . . في ظل ملك ثابت الأوتاد

أراد أقاموا فيها ، وعلى هذا الوجه كان قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ كأن لم يقيموا بها ولم ينزلوا فيها .

والقول الثاني : قال الزجاج : كأن لم يغنوا فيها ، كأن لم يعيشوا فيها مستغنين ، يقال غني الرجل يغنى إذا استغنى ، وهو من الغني الذي هو ضد الفقر .

وإذا عرفت هذا فنقول : على التفسيرين شبه الله حال هؤلاء المكذبين بحال من لم يكن قط في تلك الديار .

قال الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا . . أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا . . صروف الليالي والجدود العواثر

البحث الثاني : قوله : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ الذين يدل على أن ذلك العذاب كان مختصاً بأولئك المكذبين ، وذلك يدل على أشياء : أحدها : أن ذلك العذاب إنما حدث بتخليق فاعل مختار ، وليس ذلك أثر الكواكب والطبيعة ، وإلا لحصل في أتباع شعيب ، كما حصل في حق الكفار .

والثاني : يدل على أن ذلك الفاعل المختار ، عالم بجميع الجزئيات ، حتى يمكنه التمييز بين المطيع والعاصي .

وثالثها : يدل على المعجز العظيم في حق شعيب ، لأن العذاب النازل من السماء لما وقع على قوم دون قوم مع كونهم مجتمعين في بلدة واحدة ، كان ذلك من أعظم المعجزات .

ثم قال تعالى : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الخاسرين ﴾ وإنما كرر قوله : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا ﴾ لتعظيم المذلة لهم وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم ، والعرب تكرر مثل هذا في التفخيم والتعظيم ، فيقول الرجل لغيره : أخوك الذي ظلمنا ، أخوك الذي أخذ أموالنا ، أخوك الذي هتك أعراضنا ، وأيضاً أن القوم لما قالوا : ﴿ لَئِنِ اتبعتم شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون ﴾ بين تعالى أن الذين لم يتبعوه وخالفوه هم الخاسرون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 148.149 ﴾

(101/279)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾

يعني : كأن لم يكونوا فيها قط وقال قتادة : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ يعني : كأن لم يتنعموا فيها .

ويقال : معناه من كان رآهم بعد إهلاكنا إياهم ظن أنه لم يكن هناك أحد يعني : لم يعيشوا .

ويقال : كأن لم يعمروا .

ثم قال : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الخاسرين ﴾ يعني : المغبونين في العقوبة ، يعني : إنهم كانوا يقولون لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون .

فصار الذين كذبوا هم الخاسرون لا الذين آمنوا منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾

أي لم يعيشوا ولم ينزلوا ولم يقيموا ولم ينعموا ، وأصله من قولهم غنيّة بالمكان إذا أقمت به والمغاني المنازل وأحدها مغنى قال لبيد :

وغنيت ستاً قبل مجرى داهس . . . لو كان للنفس اللجوج خلود

وقال حاتم :

غنينا زماناً للتصعلك والغنى . . . فكلا سقانا بكأسيهما الدهر

﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الخاسرين ﴾ لا المؤمنون كما زعموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : كأنك لم يقيموا فيها ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : كأن لم يعيشوا فيها ، قاله الأخفش .

والثالث : كأن لم ينعموا فيها ، قاله قتادة .

والرابع : كأن لم يعمروا فيها ، قاله ابن عباس .

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوْا شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الخَاسِرِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالكفر .

والثاني : بالهلاك ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾

لفظ فيها للإخبار عن قوة هلاكهم ونزول النقمة بهم والتنبيه على العبرة بهم ، ونحو هذا قول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا . . . و ﴿ يغنوا ﴾ معناه يقيموا ويسكنوا .

قال القاضي أبو محمد : وغنيت في المكان إنما يقال في الإقامة التي هي مقترنة بتنعم وعيش مرضٍ ، هذا الذي استقريت من الأشعار التي ذكرت العرب فيها هذه اللفظة فمن ذلك قول الشاعر : [الوافر]

وقد نغنى بها ونرى عصوراً . . . بها يقتدننا الخرد الخذالا

ومنه قول الآخر : [الرمل]

ولقد يغني بها جيرانك المس . . . تمسكون منكم بعهد ووصال

أنشده الطبري ، ومنه قول الآخر : [الطويل]

ألا حيّ من أجلِ الحبيبِ المغانيا . . . ومنه قول مهلهل : [الخفيف]

غنيت دارنا تهامة في الدهر . . . وفيها بنو معد حَلُّوا

ويشبه أن تكون اللفظة من الاستغناء ، وأما قوله : كأن لم تغن بالأمس ففيه هذا المعنى لأن المراد كأن لم تكن ناعمة نضرة مستقلة ، ولا توجد فيما علمت إلا مقترنه بهذا المعنى وأما قول الشاعر : [الطويل]

غنينا زماناً بالتصعلك والغنا . . . وكلاً سقاناه بكأسيهما الدهرُ

فمعناه استغنينا بذلك ورضيناه مع أن هذه اللفظة ليست مقترنه بمكان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ كأن لم يَغْنَوا فيها ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : كأن لم يعيشوا في دارهم ، قاله ابن عباس ، والأخفش .

قال حاتم طيىء :

غَنِيْنَا زَمَاناً بالتَّصَعْلُكِ وَالغِنَى . . .

فَكُلاًّ سَقَانَاه بكأْسَيْهِما الدَّهْرُ

فَمَا زَادَنَا بَغْيَاً عَلَى ذِي قَرَابَةٍ . . .

غِنَانَا ، ولا أَزْرَى بأحْسَابِنَا الفَقْرُ

قال الزجاج : معنى غنينا : عشنا .

والتصعلك : الفقر ، والعرب تقول للفقير : الصعلوك .

والثاني : كأن لم يتنعَّموا فيها ، قاله قتادة .

والثالث : كأن لم يكونوا فيها ، قاله ابن زيد ، ومقاتل .

والرابع : كأن لم ينزلوا فيها ، قاله الزجاج .

قال الأصمعي المغاني : المنازل ؛ يقال : غنينا بمكان كذا ، أي : نزلنا به .

وقال ابن قتيبة : كأن لم يقيموا فيها ، ومعنى : غنينا بمكان كذا : أقمنا .

قال ابن الأنباري : وإنما كرر قوله : ﴿ الذين كذبوا شعيباً ﴾ للمبالغة في ذمهم ؛ كما تقول أخوك الذي أخذ أموالنا ، أخوك الذي شتم أعراضنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(104/279)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ قال الجرجانِيّ : قيل هذا كلام مستأنف ؛ أي الذين كذبوا شعيبا صاروا كأنهم لم يزالوا موتى .

و "يَغْنَوْا" يقيموا ؛ يقال : غَنِيت بالمكان إذا أقمت به .

وغنِي القوم في دارهم أي طال مُقامهم فيها .

والمَغْنَى : المنزل ؛ والجمع المَغَاني .

قال لَبيد :

وغَنِيت سِتاً قبل مَجْرَى دَاحِسٍ . . .

لو كان للنفس اللَّجُوجِ خُلود

وقال حاتم طيّ :

غنِينا زمانا بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى . . .

كما الدّهرُ في أيامه العسرُ واليسرُ

كسبنا صُروفَ الدَّهْرِ ليناً وغِلظة . . .

وكلاًّ سقاناه بكأْسِهما الدهرُ

فما زادنا بَغْياً على ذِي قرابة . . .

غِنَانَا ولا أَزْرَى بأحسابنا الفَقْرُ

﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الخاسرين ﴾ ابتداء خطاب ، وهو مبالغة في الذم والتوبيخ وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه .

ولما قالوا : من اتبع شعيباً خاسِر قال الله الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ﴾

يعني كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوماً من الدهر يقال : غنيت بالمكان أي أقمت به .

والمغاني : المنازل التي بها أهلها واحدها مغنى قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة . . .

في ظل ملك ثابت الأوتاد

أراد أقاموا فيها وقيل في معنى الآية كأن لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين يقال : غني الرجل إذا انغنى وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر ﴿ الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ يعني خسروا أنفسهم بهلاكهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(105/279)

وقال أبو حيان :

﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ﴾

أي كأن لم يقيموا ناعمي البال رخيي العيش في دارهم وفيها قوة الإخبار عن هلاكهم وحلول المكروه بهم والتنبيه على الاعتبار بهم كقوله تعالى : ﴿ فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾ وكقول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا . . .

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وقال ابن عطية : وغنيت بالمكان إنما يقال في الإقامة التي هي مقترنة بتنعم وعيش رخي هذا الذي استقريت من الأشعار التي ذكرت العرب فيها هذه اللفظة وأنشد على ذلك عدّة

أبيات ثم قال وأما قول الشاعر :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى . . .

فكلاًّ سقانا بكاسيهما الدهر

فمعناه استغنينا ورضينا مع أنّ هذه اللفظه ليست مقترنة بمكان انتهى ، وقال ابن عباس : كأن لم يعمروا ، وقال قتادة : كأن لم ينعموا ، وقال الأخفش : كأن لم يعيشوا ، وقال أيضاً قتادة وابن زيد ومقاتل : كأن لم يكونوا ، وقال الزجاج : كأن لم ينزلوا ، وقال ابن قتيبة : كأن لم يقيموا و﴿ الذين ﴾ مبتدأ والجملة التشبيهية خبره ، قال الزمخشري : وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص كأنه قيل ﴿ الذين كذبوا ﴾ شعيباً المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا كأن لم يقيموا في دارهم لأنّ الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله تعالى انتهى ، وجوّز أبو البقاء أن يكون الخبر ﴿ الذين كذبوا شعيباً ﴾ كانوا هم الخاسرين و﴿ كأن لم يغنوا ﴾ حال من الضمير في ﴿ كذبوا ﴾ وجوّز أيضاً أن يكون ﴿ الذين كذبوا ﴾ صفة لقول الذين كفروا من قومه وأن يكون بدلاً منه وعلى هذين الوجهين يكون ﴿ كان ﴾ حالاً انتهى ، وهذه أوجه متكلفة والظاهر أنها جمل مستقلة لا تعلق بما قبلها من جهة الإعراب .

(106/279)

﴿ الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ هذا أيضاً مبتدأ وخبره ، وقال الزمخشري : وفيه معنى الاختصاص أي هم المخصوصون بالخسران العظيم دون اتباعه فإنهم هم الرابحون وفي هذا الاستئناف لهذا الابتداء وهذا التكرير مبالغة في ردّ مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيه لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم انتهى ، وها تان الجملتان منبئتان عن ما فعل الله بهم في مقالتهم قالوا ﴿ لنخرجنك يا شعيب ﴾ فجاء الإخبار بإخراجهم بالهلاك وأي إخراج أعظم من إخراجهم وقالوا : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فحكم تعالى عليهم هم بالخسران وأجاز أبو البقاء في إعراب ﴿ الذين ﴾ هنا أن يكون بدلاً من الضمير في ﴿ يغنوا ﴾ أو منصوباً بإضمار أعني والابتداء الذي ذكرناه أقوى وأجزل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(107/279)

وقال أبو السعود :

﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا ﴾

استئنافٌ لبيان ابتلائِهم بشؤم قولِهم فيما سبق : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين ءامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ﴾ وعقوبتِهم بمقابلته ، والموصولُ مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ

فِيهَا ﴾ أي استُؤصِلوا بالمرة وصاروا كأنهم لم يقيموا بقريتهم أصلاً أي عوقبوا بقولهم ذلك وصاروا هم المُخرَجين من القرية إخراجاً لا دخولَ بعده أبداً وقوله تعالى : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الخاسرين ﴾ استئنافٌ آخرُ لبيان ابتلائِهم بعقوبة قولِهم الأخيرِ ، وإعادةُ الموصولِ والصلةِ كما هي لزيادة التقريرِ والإيذانِ بأن ما ذكر في حيز الصلةِ هو الذي استوجب العقوبتين أي الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بمقالتهم الأخيرة فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لا المتبعون له عليه الصلاة والسلام ، وبهذا القصر اكتُفي عن التصريح بإنجائه عليه الصلاة والسلام كما وقع في سورة هود من قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا ﴾

استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين ءامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ﴾ [الأعراف : 88] والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ أي لم يقيموا في دارهم ، وقال قتادة : المعنى كأن لم يعيشوا فيها مستغنين ، وذكر غير واحد أنه يقال : غنى بالمكان يغني غني وغنياناً إذا أقام به دهراً طويلاً ، وقيده بعضهم بالإقامة في عيش رغد ، وقال ابن الأنباري كغيره : إنه من الغنى ضد الفقر كما في قول حاتم :

غنينا زماماً بالتصعلك والغنى . . .

فكلا سقاناه بكأسهما الدهر

فما زادنا بغياً على ذي قرابة . . .

غنانا ولا أزري بأحسابنا الفقر

(108/279)

وعلى هذا تفسير قتادة ، ورد الراغب غنى بمعنى أقام إلى هذا المعنى فقال : غنى بالمكان طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره ، وقول بعضهم في بيان الآية : إنهم استؤصلوا بالمرة بيان لحاصل المعنى ، وفي بناء الخبر على الموصول إيماء إلى أن علة الحكم هي الصلة فكأنه قيل : الذي كذبوا شعيباً هلكوا لتكذيبهم إياه هلاك الأبد ، ويشعر ذلك هنا بأن مصدقيه عليه السلام نجوا نجاة الأبد ، وهذا مراد من قال بالاختصاص في الآية ، وقيل : إنه مبني على أن مثل هذا التركيب كما يفيد التقوى قد يفيد الاختصاص نحو ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزق ﴾ [الرعد : 26] والقرينة عليه هنا أنه سبحانه ذكر فيما سبق المؤمنين والكافرين ولم يذكر هنا الإهلاك المكذبين ، ويرجع حاصل المعنى بالآخرة إلى أنهم عوقبوا بتوعدهم السابق بالإخراج وصاروا هم المخرجين من القرية إخراجاً لا دخول بعده دون شعيب

عليه السلام ومن معه ، وقوله تعالى : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الخاسرين ﴾ استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير ، واستفادة الحصر هنا أوشح من استفادته فيما تقدم ، أي الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بقولهم ﴿ لَئِنْ اتبعتم شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون ﴾ [الأعراف : 90] فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لتكذيبهم لا المتبعون له عليه السلام المصدقون إياه عليه السلام ، وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بالانجاء كما وقع في سورة هود من قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ [هود : 94] الخ ، وفي "الكشاف" أن في هذا الاستئناف وتكرير الموصول والصلة مبالغة في رد مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيه لرأيهم واستهزاء بنصحهم بقومهم واستعظام لما جرى عليهم .

وأنت تعلم أن في استفادة ذلك كله من نفس هذه الآية خفاء ، والظاهر أن مجموع الاستئنافين مؤذن به .

(109/279)

وبين الطيبي ذلك بأنه تعالى لما رتب العقاب بأخذ الرجفة وتكرهم هامدين لاحراك بهم على التكذيب والعناد اتجه لسائل أن يسأل إلى ماذا صار مآل أمرهم بعد الجثوم ؟ فقيل :

﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ أي إنهم استؤصلوا وتلاشت جسومهم كأن لم يقيموا فيها .

ثم سأل أخصص الدمار بهم أم تعدى إلى غيرهم ؟ فقيل : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الخاسرين ﴾ أي اختص بهم الدمار فجعلت الصلة الأولى ذريعة إلى تحقيق الخبر كقوله :

أن التي ضربت بيتاً مهاجرة . . .

بكوفة الجند غالبت ودها غول

وكذلك بولغ في الإخبار عن دمار القوم وجيء بتقوى الحكم والتخصيص وجعلت الصلة الثانية علة لوجود الخبر ، وجاء تسفيه الرأي من الرد عليهم بعين ما تلفظوا به في نصح قومهم ، والاستهزاء من الإشارة إلى أن ما جعلوه نصيحة صار فضيحة وانعكس الحال الذي زعموه ؛ ويستفاد عظم الخسران من تعريف الخبر بلام الجنس .

وأما استعظام ما جرى فمن قوله سبحانه : ﴿ كَأَن لَّمْ ﴾ الخ وكذا من مجموع الكلام ، ولايخفى أن القول بالاستئناف البياني في الجملتين وجعل الصلة الأولى ذريعة إلى تحقيق الخبر ليس بشيء ، وقد ذكر غير واحد أن هذا الاستئناف من غير عطف جار على عادة العرب في مثل هذا المقام فإن عادتهم الاستئناف كذلك في الذم والتوبيخ فيقولون : أخوك الذين نهب مالنا أخوك الذي هتك سترنا أخوك الذي ظلمنا ، وجوز أبو البقاء أن يكون الموصول الثاني بدلاً من الضمير في ﴿ يُغْنُواْ ﴾ وأن يكون في محل نصب بإضمار أعني ،

وأن يكون الأول مبتدأ والخبر ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ ﴾ و ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ ﴾ حال من ضمير ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ وأن يكون الأول صفة للذين كفروا أو بدلاً منه وعلى الوجهين يكون ﴿ كَأَن لَّمْ ﴾ الخ حالاً ، وما اخترناه هو الأولى كما هو ظاهر فليتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(110/279)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ الذين كذبوا شعيباً ﴾

مستأنفة ابتدائية ، والتعريف بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر ، وهو أن اضمحلالهم وانقطاع دابرهم كان جزاء لهم على تكذيبهم شعيباً .

ومعنى : ﴿ كأن لم يَغنَوا فيها ﴾ تشبيه حالة استيصالهم وعفاء آثارهم بحال من لم تسبق لهم حياة ، يقال : غَنَى بالمكان كرَضي أقام ، ولذلك سمي مكان القوم مغنى .

قال ابن عطية : "الذي استقريتُ من أشعار العرب أن غَنى معناه : أقام إقامة مقترنة بتنعم عيش ويشبه أن تكون مأخوذة من الاستغناء" أي كأن لم تكن لهم إقامة ، وهذا إنما يُعنى به انمحاء آثارهم كما قال : ﴿ فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾ [يونس : 24] ،

وهو يرجح أن يكون أصابهم زلزال مع الصواعق بحيث احترقت أجسادهم وخُسف لهم في الأرض وانقلبت ديارهم في باطن الأرض ولم يبق شيء أو بقي شيء قليل .

فهذا هو وجه التشبيه ، وليس وجه التشبيه حالة موتهم لأن ذلك حاصل في كل ميت ولا يختص بأمثال مدين ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ [الحاقة : 8] .

وتقديم المسند إليه في قوله : ﴿ الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ إذا اعتُبرت ﴿ كانوا ﴾ فعلاً ، واعتبر المسند فعلياً فهو تقديم لإفادة تقوي الحكم ، وإن اعتبرت (كان) بمنزلة الرابطة ، وهو الظاهر ، فالتقوي حاصل من معنى الثبوت الذي تفيده الجملة الاسمية .

والتكرير لقوله : ﴿ الذين كذبوا شعيباً ﴾ للتعديد وإيقاظ السامعين ، وهم مشركو العرب ، ليتقوا عاقبة أمثالهم في الشرك والتكذيب على طريقة التعريض ، كما وقع التصريح بذلك في قوله تعالى : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ [محمد : 10] .

(111/279)

وضمير الفصل في قوله : ﴿ كانوا هم الخاسرين ﴾ يفيد القصر وهو قصر إضافي ، أي دون الذين اتبعوا شعيباً ، وذلك لإظهار سَفه قول الملإ للعامة ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذن

لخاسرون ﴾ توقيفاً للمعتبرين بهم على تهافت أقوالهم وسفاهة رأيهم ، وتحذيراً لأمثالهم من الوقوع في ذلك الضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(112/279)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾

وغنى بالمكان : أقام به ؛ فحين صاروا جاثمين وخلت منهم الديار ، كأنهم لم تكن لهم إقامة إذ استؤصلوا وأهلكوا إهلاكاً كاملا ، وإذا كان هؤلاء المكذبون قد قالوا : ﴿ لَئِنِ اتبعتم شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ فيكون مآلهم هو ذكره ربنا بقوله : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ هُمُ الخاسرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(113/279)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً ﴾

فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن هذا الموصول في محل رفع بالابتداء وخبره الجملة التشبيهية بعده .

قال الزمخشري : " وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص ، كأنه قيل : الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهْلِكوا واستُؤصلوا كأن لم يُقيموا في دارهم ؛ لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله تعالى " .

قال شهاب الدين : " قوله : " يفيد الاختصاص " هو معنى قول الأصوليين : " يفيد الحصر " على خلاف بينهم في ذلك إذا قلت : زيد العالمن والخلاف في قولك : العالم زيد أشهرُ منه فيما تقدَّم فيه المبتدأ " .

الثاني : أن الخبر هو نفس الموصول الثاني وخبره ، فإن الموصول الثاني مبتدأ والجملةُ من قوله : ﴿ كانوا هم الخاسرين ﴾ في محل رفع خبراً له ، وهو وخبره خبر الأول ، و ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ ﴾ : إمَّا اعتراض ، وإمَّا حال من فاعل "كذَّبوا " .

الثالث : أن يكون الموصولُ الثاني خبراً بعد خبر عن الموصول الأول ، والخبر الأول الجملة التشبيهية .

الرابع : أن يكون الموصول الثاني بدلاً من قوله : ﴿ وَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾ [

الأعراف : 90] فكأنه قال : " وقال الذين كفروا منهم الذين كذّبوا شعيباً " وقوله : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً ﴾ معمول للقول فليس بأجنبي .

(114/279)

الخامس : أنه صفة له ، أي : للذين كفروا من قومه .

هذه عبارة عن أبي البقاء ، وتابعه أبو حيان عليها ، والأحسن أن يقال : بدلٌ من الملأ أو نعت له ؛ لأنه هو المحدَّثُ عنه والموصول صفة له ، والجملة التشبيهية على هذين الوجهين حال من فاعل "كذَّبوا " .

وأمّا الموصول الثاني فقد تقدم أنه يجوز أن يكون خبراً باعتبارين : أعني كونه أول أو ثانياً ، ويجوز أن يكون بدلاً من فاعل " يغنوا " أو منصوباً بإضمار " أعني " أو مبتدأ وما بعده الخبر .

وهذا هو الظاهر لتكون كل جملة مستقلة بنفسها ، وعلى هذا الوجه ذكر الزمخشري أيضاً أن الابتداء يفيد الاختصاص قال : " أي هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه ، وقد تقدَّم موضحاً " .

قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ يغنون : بمعنى يقيمون يقال : غَنِي بالمكان يَغْنى فيه أي : أقام

دهراً طويلاً ، والمغاني المنازل التي كانوا فيها واحدها مغنى ، وقيّده بعضهم بالإقامة في عيش رغد ، فهو أخصُّ من مطلق الإقامة ؛ قال الأَسَودُ بْنُ يَعْفُرَ : [الكامل]

2526 - وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بأَنْعَمِ عِيشَةٍ . . .

فِي ظِلِّ مَلْكٍ ثَابتِ الأَوْتَادِ

وقيل : معنى الآية هنا من الغِنَى الذي هو ضد الفقر ، قاله الزجاج وابن الأنباري وتابعهما ابن عطية ؛ وأنشدوا : [الطويل]

2527 - غَنِيَا زَمَاناً بالتَّصَعْلُك والغِنَى . . .

[كما الدَّهرُ في أيَّامِهِ العُسْرُ واليُسْرُ]

كَسَبْنَا صُرُوفَ الدَّهْرِ لِيناً وغِلْظَةً . . .

وكُلاًّ سَقَانَاهُ بِكأسيهما الدَّهْرُ

قالوا : معناه استغنينا ورضينا ن فمعنى ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ كأن لم يعيشوا فيها مستغنين .

قال ابن الخطيب : فعلى هذا التفسير شبّه الله - تعالى - حال هؤلاء المكذبين بحال من من لم يكن قط في تلك الديار قال الشاعر : [الطويل]

2528 - كأن لم يَكُنْ بَيْنَ الحجون إلى الصفا . . .

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فأَبَادَنَا . . .

(115/279)

صُرُوفُ اللَّيَالِي والحُدُودُ العَوَاثِرُ

وقدّر الراغب غني بمعنى الإقامة بالمكان إلى معنى الغنى الذي هو ضد الفقر فقال : ﴿ وغني في مكان كذا إذا طال مقامه فيه مُسْتَغْنِياً به عن غيره " . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 229.230 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ فَأَخذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ .

تواصوا فيما بينهم بتكذيب نبيِّهم ، وأشار بعضهم باستشعار وقوع الفتنة بمتابعته ، وكانوا مخطئين في حكمهم ، مبطلين في ظنهم ، فعُلِمَ أنّ كل نصيحة لا يجب قبولها ، وكل إشارة لا يَحْسُنُ اتباعُها .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ كانت لهم غلبتهم في وقتهم ، ولكن لما اندرست أيامُهم سَقَطَ صِيتُهم ، و (خمد) ذكرهم ، وانقشع سحابُ مَنْ تَوَهَّم أنَّ منهم شيئاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الخَاسِرِينَ ﴾ .

الحقُّ غالِبٌ في كل أمر ، والباطل زاهق بكل وصف ، وإذا كانت العِزَّةُ نعتَ مَنْ هو أزليُّ الوجود ، وكان الجلال حقَّ مَنْ هو المَلِك فأي أثر للكثرة مع القدرة ؟ وأي خطر للعلل مع الأزل ؟ ولقد أنشدوا في قريبٍ من هذا :

استقبلني وسيفه مسلول . . . وقال لي واحدنا معذول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 551 ﴾

(116/279)

قوله تعالى ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما صارت تلك الدار محل الغضب ، سبب ذلك أن هاجر عنها كما كانت عادة من قبله من الأنبياء عليهم السلام ، فقال : ﴿ فتولى عنهم ﴾ بعد نزول العذاب وقبله عند رؤية مخايله ذاهباً إلى مكان غيره ، يعبد ربه فيه ﴿ وقال ﴾ متأسفاً على ما فاته من هدايتهم ﴿ يا قوم ﴾ أي يا عشيرتي وأقرب الناس إليّ ﴿ لقد أبلغتكم ﴾ ولعله جمع لأجل كثرة ما أتاهم به من المعجزات فقال : ﴿ رسالات ربي ﴾ أي المحسن إليّ بإنجائي ومن تبعني من عذابكم لتوفيقه لنا إلى ما يرضيه ﴿ ونصحت ﴾ أي وأوقعت النصح ﴿ لكم ﴾ أي خاصة .

ولما كان هذا مفهماً لما طبع البشر من الأسف أهله وعشيرته ، سبب عنه منكراً على نفسه قوله : ﴿ فكيف آسى ﴾ أي أحزن حزناً شديداً ﴿ على قوم كافرين ﴾ أي عريقين في الكفر ، فعرف أنه أسف عليهم من أجل قربهم وفوات الإيمان لهم غير آسف عليهم من أجل كفرهم ، وتخصيص تكرير هذه القصص الخمس على هذا الترتيب في كثير من سور القرآن – دون قصة إبراهيم عليه السلام وهو أعظمهم – لانتظامهم في أنهم أقرت أعينهم بأن رأوا مصارع من خالفهم ، وأما إبراهيم عليه السلام فإنه وقع النص في قوله ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ [الصافات : 99] بأنه خرج من بين قومه قبل عذابهم ولم يسلك به سبيلهم في إقرار عينه بإهلاك من كذبه بحضرته ، وهو أفضلهم لأن الكائن في قصته أعظم في الأفضلية ، وهو طبق ما اتفق لولده أفضل البشر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ،

وانظر إلى قوله تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : 33] تعرف ما في هذا المقام من الإكرام ، وأن الأمر كما قيل : لعين تجازى ألف عين وتكرم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 72 . 73 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ فتولى عَنْهُمْ ﴾

واختلفوا في أنه تولى بعد نزول العذاب بهم أو قبل ذلك ، وقد سبق ذكر هذه المسألة .

قال الكلبي : خرج من بين أظهرهم ، ولم يعذب قوم نبي حتى أخرج من بينهم .

ثم قال : ﴿ فَكَيْفَ ءاسى على قَوْمٍ كافرين ﴾ الأسى شدة الحزن .

(117/279)

قال العجاج :

وانحلبت عيناه من فرط الأسى . . إذا عرفت هذا فنقول : في الآية قولان :

القول الأول : أنه اشتد حزنه على قومه ، لأنهم كانوا كثيرين ، وكان يتوقع منهم الاستجابة للإيمان ، فلما أن نزل بهم ذلك الهلاك العظيم ، حصل في قلبه من جهة الوصلة والقرابة

والمجاورة وطول الألفة .

ثم عزى نفسه وقال : ﴿ فَكَيْفَ ءاسى على قَوْمٍ كافرين ﴾ لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب إصرارهم على الكفر .

والقول الثاني : أن المراد لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حل بكم ، فلم تسمعوا قولي ، ولم تقبلوا نصيحتي ﴿ فَكَيْفَ ءاسى على قَومٍ كافرين ﴾ يعني أنهم ليسوا مستحقين بأن يأسى الإنسان عليهم .

قال صاحب "الكشاف" : وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ فَكَيْفَ إِسى ﴾ بكسر الهمزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 149 ﴾

(118/279)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ فتولى عَنْهُمْ ﴾

يعني : أعرض عنهم حين خرج من بين أظهرهم ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسالات رَبِّى ﴾ في نزول العذاب ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ وقد ذكرناه ﴿ فَكَيْفَ ءاسى على قَوْمٍ كافرين ﴾ أي كيف أحزن بعد النصيحة على قوم إن عذبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ

1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فتولى ﴾ أعرض ﴿ عَنْهُمْ ﴾ شعيب [بن شامخ] من أظهرهم حين أتاهم العذاب ﴿ وَقَالَ يا قوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى ﴾ [أحزن] ﴿ على قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ حين يُعذّبون ، يقال : آسيتم آسي أسىً . قال الشاعر :

آسيت على زيد ولم أدر ما فعل . . . والأسى الحزن [والأسى] الصبر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(119/279)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ﴾ إلى آخر الآية

كلام يقتضي أن ﴿ شعيباً ﴾ عليه السلام وجد في نفسه لما رأى هلاك قومه حزناً وإشفاقاً إذ كان أمله فيهم غير ذلك ، فلما وجد ذلك طلب أن يثير في نفسه سبب التسلي عنهم والقسوة عليهم فجعل يعدد معاصيهم وإعراضهم الذي استوجبوا به أن لا يتأسف عليهم ، فذكر أنه بلغ الرسالة ونصح ، والمعنى فأعرضوا وكذبوا ، ثم قال لنفسه لما نظرت

في هذا وفكرت فيه ﴿ فكيف آسى ﴾ على هؤلاء الكفرة ، ويحتمل أن يقول هذه المقالة على نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم لأهل قليب بدر ، وقال مكي : وسار شعيب بمن معه حتى سكن مكة إلى أن ماتوا بها ، و﴿ آسى ﴾ : أحزن ، وقرأ بن وثاب وطلحة بن مصرف والأعمش : " إيسى " بكسر الهمزة وهي لغة كما يقال أخال وأيمن ، قال عبد الله ابن عمر لا أخاله ، وقال ابنه عبد الله بن عبد الله بن عمر في كتاب الحج لا أيمن وجميع ذلك في البخاري ، وهذه اللغة تطرد في العلامات الثلاث ، همزة التكلم ونون الجماعة وتاء المخاطبة ، ولا يجوز ذلك في ياء الغائب كذا قال سيبويه ، وأما قولهم من جل يجل فلعله من غير هذا الباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فتولى عنهم ﴾

فيه قولان .

أحدهما : أعرض .

والثاني : انصرف .

﴿ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ﴾

قال قتادة : أسمع شعيب قومَه ، وأسمع صالح قومَه ، كما أسمع نبيكم قومَه يوم بدر ؛ يعني : أنه خاطبهم بعد الهلاك .

﴿ فكيف آسى ﴾ أي : أحزن .

وقال ابن اسحاق : أصاب شعيباً على قومه حزنٌ شديد ، ثم عاتب نفسه ، فقال : كيف آسى على قوم كافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(120/279)

وقال البيضاوى :

﴿ فتولى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسالات ربّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ قال تأسفاً بهم لشدة حزنه عليهم ثم أنكر على نفسه فقال ﴿ فكيف آسَى عَلَى قَومٍ كَافِرِينَ ﴾ ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم ، أو قاله اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم . والمعنى لقد بالغت في الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعي في النصح والإشفاق فلم تصدقوا قولي ، فكيف آسى عليكم . وقرىء «فكيف إيسي» بإمالتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 42 ﴾

(121/279)

وقال الخازن :

﴿ فتولى عنهم ﴾

يعني فأعرض عنهم شعيب شاخصاً من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب ﴿ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾ يعني أنه قال لهم ذلك لما تيقن نزول العذاب بقومه واختلفوا هل كان ذلك القول قبل نزول العذاب أو بعده على قولين سبقا في قصة صالح عليه الصلاة والسلام وقوله ﴿ فكيف آسى ﴾ يعني أحزن ﴿ على قوم كافرين ﴾ والأسى أشد الحزن وإنما اشتد حزنه على قومه لأنهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الإجابة والإيمان فلما نزل بهم ما نزل من العذاب عزى نفسه فقال كيف أحزن على قوم كافرين لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بإصرارهم على الكفر .

وقيل في معنى الآية إن شعيباً قال لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير فلم تسمعوا قولي ولم تقبلوا نصحي فكيف أحزن عليكم يعني إنكم لستم مستحقِّين لأن يحزن عليكم .

فعلى القول الأول : إنه حصل لشعيب حزن على قومه .

وعلى القول الثاني : لم يحزن عليه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾

تقدّم تفسير نظيره في قصة صالح عليه السلام .

﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ أي فكيف أحزن على من لا يستحق أن يحزن عليه ونبّه على العلة التي لا تبعث على الحزن وهي الكفر إذ هو أعظم ما يعادى به المؤمن إذ هما نقضيان كما جاء لا تتراءى ناراً هما وكأنه وجد في نفسه رقّة عليهم حيث كان أمله فيهم أن يؤمنوا فلم يقدر فسرى ذلك عن نفسه باستحضار سبب التسلي عنهم والقسوة فذكر أشنع ما ارتكبوه معه من الوصف الذي هو الكفر بالله الباعث على تكذيب الرّسل وعلى المناوأة الشديدة حتى لا يساكنوه وتوعدوه بالإخراج وبأشد منه وهو عودهم إلى ملتهم ، قال مكي : وسار شعيب بمن تبعه إلى مكة فسكنوها وقرأ ابن وثاب وابن مصرّف والأعمش إيسي بكسر الهمزة وهي لغة تقدّم ذكرها في الفاتحة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(122/279)

وقال أبو السعود :

﴿ فتولى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسالات رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾

قاله عليه الصلاة والسلام بعد ما هلكوا تأسفاً بهم لشدة حزنه عليهم ثم أنكر على نفسه ذلك فقال : ﴿ فَكَيْفَ ءاسى ﴾ أحزن حزناً شديداً ﴿ على قَوْمٍ كافرين ﴾ أي مُصِرّين على الكفر ليسوا أهلَ حزنٍ لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم ، أو قاله اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم ، والمعنى لقد بالغتُ في الإبلاغ والإنذار وبذلتُ وُسعي في النصح والإشفاقِ فلم تُصدّقوا قولي فكيف آسى عليكم وقرىء إيسى بإمالتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(123/279)

وقال الآلوسى :

﴿ فتولى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسالات رَبّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾

تقدم الكلام على نظيره ، بيد أن هذا القول يحتمل أن يكون تأنيباً وتوبيخاً لهم وقوله سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ ءاسى على قَوْمٍ كافرين ﴾ إنكار لمضمونه ، أي لقد أعذرت لكم في الإبلاغ والنصحية والتحذير مما حل بكم فلم تسمعوا قولي ولم تصدقوني ﴿ فَكَيْفَ ءاسى ﴾ أي لا آسي عليكم لأنكم لستم أحقاء بالأسى وهو الحزن كما في "الصحاح والقاموس" أو شدة الحزن كما في "الكشاف" ومجمع البيان ، ويحتمل أن يكون تأسفاً بهم لشدة خزنه عليهم ،

وقوله سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ ﴾ الخ إنكار على نفسه لذلك ، وفيه تجريد والتفات على ما قيل حيث جرد عليه السلام من نفسه شخصاً وأنكر عليه حزنه على قوم لا يستحقونه والتفت على الخطاب إلى التكلم ، وذكر بعض المحققين أن الظاهر أنه ليس من الالتفات والتجريد في شيء فإن قال يقتضي صيغة التكلم وهي تنافي التجريد ، وإنما هو نوع من البديع يسمى الرجوع وهو العود على الكلام السابق بالنقض لأنه إذا كان قد أبلغتكم تأسفاً ينافي ما بعده فكأنه بدا له ورجع عن التأسف منكراً لفعله الأول ، وقد جاء ذلك كثيراً في كلامهم ومن ذلك قول زهير :

قف بالديار التي لم تعفها القدم . . .

بلى وغيرها الأرواح والديم

والنكتة فيه الإشعار بالتوله والذهول من شدة الحيرة لعظم الأمر بحيث لا يفرق بين ما هو كالمتناقض من الكلام وغيره ، وابن حجة لا يفرق بين هذا النوع ونوع السلب والايجاب وكأن منشأ ذلك اعتماد في النوع الأخير على تعريف أبي هلال العسكري له ولو اعتمد على تعريف إمام الصناعة ابن أبي الأصبع لما اشتبه عليه الفرق ، وعلى الاحتمالين في قوله سبحانه : ﴿ على قَوْمٍ ﴾ الخ إقامة الظاهر مقام الضمير للإشعار بعدم استحقاقهم التأسف عليهم لكفرهم ، وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ فَكَيْفَ ﴾ بكسر الهمزة وقلب الألف ياء على لغة من يكسر حرف الضارعة كقوله :

قعيدك أن لا تسمعيني ملامة . . .

ولا تنكىء جرح الفؤاد فييجعا

وإمالة الألف الثانية ، هذا ثم إن شعيباً عليه السلام بعد هلاك من أرسل إليهم نزل مع المؤمنين به بمكة حتى ماتوا هناك وقبورهم على ما روى عن وهب بنمنبه في غربي الكعبة بين دار الندوة وباب سهم .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام أما قبر إسماعيل ففي الحجر وأما قبر شعيب فمقابل الحجر الأسود ، وروى عنه أيضاً أنه عليه السلام كان يقرأ الكتب التي كان الله تعالى أنزلها على إبراهيم عليه السلام ، ومن الغريب ما نقل الشهاب أن شعيباً إثنان وأن صهر موسى عليهما الصلاة والسلام من قبيلة من العرب تسمى عنزة وعنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وبينه وبين من تقدم دهر طويل فتبصر والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

قال السعدى :

﴿ فتولى عَنْهُمْ ﴾

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ وَقَالَ ﴾ معاتبا وموبخا ومخاطبا بعد موتهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ﴾ أي: أوصلتها إليكم ، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه ، وخالطت أفئدتكم ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ فلم تقبلوا نصحي ، ولا انقدتم لإرشادي ، بل فسقتم وطغيتم .

﴿ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم ، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه ولا يليق بهم إلا الشر ، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم ، بل يفرح بإهلاكهم ومحقهم . فعياذا بك اللهم من الخزي والفضيحة ، وأي: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم ؟" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 296 ﴾

(126/279)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ وَمَا بَعْدَهَا تَتِمَّةُ قِصَّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مَبْدُوءَةٌ بِجَوَابِ قَوْمِهِ لَهُ عَمَّا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْبِرِّ ، وَنَهَاهُمْ عَنْهُ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ وَالْآثَامِ ، وَأَنْذَرَهُمْ إِيَّاهُ مِنَ الِانْتِقَامِ بِقَوْلِهِ : فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَرَدَ بِأُسْلُوبِ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ كَأَمْثِلَةٍ مِنْ مُرَاجَعَةِ الْكَلَامِ ، وَتَوَلَّاهُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ؛ أَيْ : كُبَرَاءُ رِجَالِهِمْ كَدَأْبِ الْجَمَاعَاتِ وَالْأَقْوَامِ ، وَهُوَ : قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا أَيْ : قَالَ أَشْرَافُ قَوْمِهِ وَأَكَابِرُهُمُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِيمَانِ لَهُ ، وَعَتَوْا عَمَّا أَمَرَهُمْ بِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْهُ اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ وَقَدِ اسْتَضْعَفُوهُ : نُقْسِمُ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ أَنْتَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا الْجَامِعَةِ أَوْ مِنْ بِلَادِنَا كُلِّهَا ، فَلَفْظُ الْقَرْيَةِ وَالْبَلَدِ يُطْلَقُ أَحْيَانًا عَلَى الْقُطْرِ أَوِ الْمَمْلَكَةِ ، أَوْ لَتَعُودُنَّ وَتَرْجِعُنَّ إِلَى مِلَّتِنَا ، وَمَا نَدِينُ بِهِ مِنْ تَقَالِيدِنَا الْمَوْرُوثَةِ عَنْ آبَائِنَا فَتَكُونَ مِلَّةً لَكُمْ ، وَمُحِيطَةً بِكُمْ مَعَنَا . ضُمِّنَ الْعَوْدُ مَعْنَى الظَّرْفِيَّةِ ، وَهُوَ يَتَعَدَّى

بِـ " اللَّامِ " وَ " إِلَى " وَ " فِي " ، وَمِنْهُ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى (17 : 69) يَعْنِي الْبَحْرَ ، إِذِ الْخِطَابُ قَبْلَهُ لِمَنْ مَسَّهُمُ الضُّرُّ فِيهِ ، وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى الظَّرْفِيَّةِ مَا فِي قَوْلِهِ : مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ (20 : 55) يَعْنِي الْأَرْضَ ، وَالْمَعْنَى : نُقْسِمُ لَيَكُونَنَّ أَحَدُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ : إِخْرَاجِكُمْ أَوْ عَوْدَتِكُمْ فِي الْمِلَّةِ ، فَاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، قِيلَ : إِنَّ التَّعْبِيرَ بِالْعَوْدِ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْهَا ، وَهُوَ يَصْدُقُ بِالْمَجْمُوعِ ، فَلَا يُنَافِي الْقَوْلَ بِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْكُفْرِ حَتَّى قَبْلَ النُّبُوَّةِ ، عَلَى أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ النُّبُوَّةِ عَلَى مِلَّةٍ أُخْرَى غَيْرِ مِلَّةِ قَوْمِهِ فَيَمْنَعُهُمْ ذَلِكَ مِنَ التَّعْبِيرِ فِي شَأْنِهِ بِالْعَوْدَةِ ، وَكَوْنُهُ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي شِرْكِهِمْ ، وَلَا فِي بَخْسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ ، وَهَضْمِ حُقُوقِهِمْ أَمْرٌ سَلْبِيٌّ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ جُمْهُورُهُمْ ، وَلَا يَعُدُّونَهُ بِهِ خَارِجًا عَنْهُمْ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْعَوْدُ : الرُّجُوعُ إِلَى الشَّيْءِ بَعْدَ الِانْصِرَافِ عَنْهُ ، إِمَّا انْصِرَافًا بِالذَّاتِ أَوْ بِالْقَوْلِ وَالْعَزِيمَةِ ا هـ ، وَمِنْهُ ذَمُّهُ وَالدَّعْوَةُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا الْمَعْنَى سَبْقَ الْكَوْنِ فِيهِ وَلَا عَدَمَهُ ، فَلَا حَاجَةَ إِذَنْ إِلَى تَصْحِيحِ التَّعْبِيرِ بِمَا قِيلَ مِنْ تَفْسِيرِ الْعَوْدِ بِالْمَصِيرِ ، وَفِيهِ مِنَ التَّكَلُّفِ مَا لَيْسَ فِي الْقَوْلِ بِالتَّغْلِيبِ ، وَلَا سِيَّمَا فِي جَوَابِهِ

عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(129/279)

قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ؟ يَعْنِي : أَنَعُودُ فِي مِلَّتِكُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ حَتَّى حَالِ الْكَرَاهَةِ لَهَا النَّاشِئَةِ عَنِ اعْتِقَادِ بُطْلَانِهَا وَقُبْحِهَا ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْفَسَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ ؟ فَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَ (لَوْ) لِلْغَايَةِ ، أَوْ : أَتَأْمُرُونَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ، وَتُهَدِّدُونَنَا بِالنَّفْيِ مِنْ وَطَنِنَا ، وَالْإِخْرَاجِ مِنْ دِيَارِنَا إِنْ لَمْ نَفْعَلْ ، وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ لِكُلِّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ ؟ عَلَى الْأَصْلِ فِيمَا يُحْذَفُ مُتَعَلِّقُهُ ، وَهُوَ أَنْ يَتَنَاوَلَ كُلَّ مَا يَصْلُحُ لَهُ ، فَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّعَجُّبِ مِنْ صَنِيعِهِمْ وَاسْتِنْكَارِ طَلَبِهِمْ ، وَرَفْضِهِ بِدُونِ مُبَالَاةٍ ، وَوَجْهُ كُلٍّ مِنَ الْإِنْكَارِ وَالتَّعَجُّبِ جَهْلُ هَؤُلَاءِ الْمَلَأِ بِكُنْهِ الدِّينِ وَالْمِلَّةِ ، وَكَوْنِهِ عَقِيدَةً يُدَانُ اللهُ بِهَا ، وَأَعْمَالًا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِأَدَائِهَا ، وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا عَنْهَا ، وَإِنَّمَا شَرَعَهَا لِتَكْمُلَ الْفِطْرَةُ الْبَشَرِيَّةُ بِالْتِزَامِهَا ، وَجَهْلُهُمْ بِكَوْنِ حُبِّ الْوَطَنِ وَإِلْفِ السَّكَنِ لَا يَبْلُغُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَلِجَهْلِهِمْ هَذَا ظَنُّوا أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ يُؤْثِرُ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ التَّمَتُّعَ بِالْإِقَامَةِ فِي وَطَنِهِ ، وَمُجَارَاةِ أَهْلِهِ فِي كُفْرِهِمْ

وَرَذَائِلِهِمْ عَلَى مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى بِالتَّوْحِيدِ الْمُطَهِّرُ لِلنَّفْسِ مِنْ أَدْرَانِ الْخُرَافَاتِ ، وَبِالْفَضَائِلِ الْمُرَقِّيَةِ لِلنَّفْسِ فِي مَعَارِجِ الْكَمَالِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ الْمِلَّةَ عِنْدَ أُولَئِكَ الْخَاسِرِينَ رَابِطَةٌ تَقْلِيدِيَّةٌ

(130/279)

وَعَصَبِيَّةٌ قَوْمِيَّةٌ ، يَجْرِي أَصْحَابُهَا فِيهَا عَلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ . . . غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

(131/279)

وَمِلَّةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ بَلْ هِيَ دِينٌ مَالِكٌ لِلنَّفْسِ ، حَاكِمٌ عَلَى الْوِجْدَانِ وَالْعَقْلِ ، يُقْصَدُ بِهِ الْكَمَالُ الْبَشَرِيُّ الْأَعْلَى بِمَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى وَالْقُرْبِ مِنْهُ ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ صَلَاحِ الدُّنْيَا وَسَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، فَإِنْ تَمَكَّنَ صَاحِبُهُ مِنْ إِقَامَتِهِ فِي وَطَنِهِ ، وَإِصْلَاحِ أَهْلِهِ بِهِ فَهُمْ أَحَقُّ بِهِ بَدْءًا وَدَوَامًا ، وَإِنْ مُنِعَ فِيهِ حُرِّيَّتَهُ فَفُتِنَ فِي دِينِهِ كَانَ تَرْكُهُ وَاجِبًا ، فَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شُعَيْبٌ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِخْرَاجًا وَهُمْ كَارِهُونَ ، كَمَا أُخْرِجَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ مَعَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، خَرَجُوا مُهَاجِرِينَ كَمَا فَعَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : وَقَالَ إِنِّي

مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (29 : 26) وَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَى الْهِجْرَةَ عَلَى مَنْ يُسْتَضْعَفُ فِي أَرْضِ وَطَنِهِ فَيُمْنَعُ مِنْ إِقَامَةِ دِينِهِ فِيهَا ، وَيُوجِبُ الْمُتَعَصِّبُونَ لِلْأَوْطَانِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْهِجْرَةَ مِنْهَا إِذَا مُنِعُوا حُرِّيَّتَهُمُ الشَّخْصِيَّةَ فِيمَا هُوَ دُونَ الدِّينِ وَالْوِجْدَانِ ، بَلْ يَعِزُّ عَلَى بَعْضِهِمْ أَنْ يُقِيمَ فِي وَطَنِهِ إِذَا مُنِعَ فِيهِ حُرِّيَّةَ الْفِسْقِ وَالْآثَامِ ، وَرُبَّ أُنَاسٍ عَزَّ عَلَيْهِمْ تَرْكُ وَطَنِهِمْ ، فَآثَرُوا الْبَقَاءَ فِيهِ مَفْتُونِينَ فِي دِينِهِمْ ، فَأَظْهَرُوا الْكُفْرَ لِيَأْمَنُوا عَلَى حَيَاتِهِمْ ، وَظَلُّوا يُسِرُّونَ الْمُحَافَظَةَ عَلَى الْإِسْلَامِ فِي خَاصَّةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ تَلْقِينِهِ لِأَوْلَادِهِمْ وَتَرْبِيَتِهِمْ

(132/279)

عَلَيْهِ فَارْتَدَّتْ ذُرِّيَّتُهُمْ عَنْهُ فِي زَمَنِهِمْ أَوْ مِنْ بَعْدِهِمْ ، كَمَا وَقَعَ لِبَعْضِ مُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ بَعْدَ ثَلِّ الْأَسْبَانِيِّينَ لِعَرْشِ دَوْلَتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ ، وَإِكْرَاهِهِمْ عَلَى التَّنَصُّرِ أَوِ الْخُرُوجِ مِنَ الْبِلَادِ ، فَخَرَجَ بَعْضٌ وَبَقِيَ آخَرُونَ تَحْتَ وَعِيدِ قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا

(4 : 97 - 99) .

وَقَدْ قَدَّرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ الْفِعْلَ الْمَحْذُوفَ مِنَ الْجُمْلَةِ ، وَمُتَعَلِّقَ الْكَرَاهَةِ هَكَذَا : قَالَ أَتُخْرِجُونَنَا مِنْ وَطَنِنَا بِغَيْرِ ذَنْبٍ يَقْتَضِي الْإِخْرَاجَ ، وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ لِمُفَارَقَتِهِ حَرِيصِينَ عَلَى الْإِقَامَةِ فِيهِ ؟ وَهُوَ تَخْصِيصٌ لَا وَجْهَ لَهُ ، فَاللَّفْظُ يَقْتَضِي تَقْدِيرَ كَرَاهَةِ كُلٍّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ لِحَذْفِ مُتَعَلِّقِ الْكَرَاهَةِ ، وَالْمَقَامُ يَجُوزُ تَخْصِيصُهُ بِالْعَوْدِ فِي مِلَّتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ الْأَهَمُّ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُنَاسِبُ لِبَقِيَّةِ جَوَابِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا

(133/279)

هَذَا كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ لِبَيَانِ أَهَمِّ الْأَمْرَيْنِ وَأَوْلَاهُمَا بِالرَّفْضِ وَالْكَرَاهَةِ ، وَهُوَ إِنْشَاءٌ فِي لَفْظِ الْخَبَرِ ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَأْكِيدًا قَسَمِيًّا لِرَفْضِ دَعْوَةِ الْمَلَأِ إِيَّاهُمْ إِلَى الْعَوْدِ فِي مِلَّتِهِمْ ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : بَرِئْتُ مِنَ الذِّمَّةِ ، أَوْ مِنْ دِينِي ، أَوْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِنْ فَعَلْتُ كَذَا ، فَيَكُونُ مُقَابَلَةً لِقَسَمِهِمْ بِقَسَمٍ أَعْرَقَ مِنْهُ فِي التَّوْكِيدِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَعَجُّبًا خَرَجَ لَا عَلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ ، وَأُكِّدَ بِقَدْ وَالْفِعْلِ الْمَاضِي ، وَالْمَعْنَى : مَا أَعْظَمَ افْتِرَاءَنَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَهَدَانَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ بِالْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَإِذَا

كَانَ مَنْ يَتَّبِعُ مِلَّتَكُمْ يُعَدُّ مُفْتَرِيًا عَلَى اللهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُ ، لَا بِهِدَايَةٍ مِنَ الْوَحْيِ وَلَا بُرْهَانٍ مِنَ الْعَقْلِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ

افْتَرَى عَلَيْهِ وَضَلَّ عَنْ صِرَاطِهِ عَلَى عِلْمٍ ؟ وَإِنَّ كُفْرَ الْجُحُودِ - وَهُوَ إِنْكَارُ الْحَقِّ وَغَمْطُهُ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ - هُوَ شَرُّ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ ، وَالِافْتِرَاءُ عَلَى اللهِ تَعَالَى فِيهِ أَفْظَعُ ضُرُوبِ الِافْتِرَاءِ الَّتِي لَا يُقْبَلُ فِيهَا أَدْنَى عُذْرٍ .

(134/279)

وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ النَّتِيجَةَ أَدَلُّ مِنَ الْعَوْدِ عَلَى إِثْبَاتِ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِلَّةِ قَوْمِهِمْ حَقِيقَةً ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ يَجْعَلُونَهُ تَغْلِيبًا لِاسْتِثْنَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَنَقُولُ بِنَاءً عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عَدَّهُمْ إِيَّاهُ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ كَانَ يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُونَ ، وَيَفْعَلُ مِنَ التَّطْفِيفِ وَبَخْسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ : إِنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يَشْمَلَهُ إِنْجَاءُ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ مِنْهَا ، بِمَعْنَى إِنْجَائِهِ مِنَ الِانْتِمَاءِ إِلَى مِلَّةٍ مَا كَانَ يُؤْمِنُ بِعَقِيدَتِهَا ، وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِهَا ، وَلَا كَانَ يَهْتَدِي بِعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ إِلَى مِلَّةٍ خَيْرٍ مِنْهَا ، فَكَانَ مَوْقِفُهُ مَوْقِفَ الْحَيْرَةِ فِي شَأْنِهَا ، كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي خِطَابِ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ الْأَعْظَمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (93

: 7) وَتَفْسِيرُهُ بِقَوْلِهِ : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا (42 : 52) الْآيَةَ .

(135/279)

وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا هَذَا رَفْضٌ آخَرُ لِلْعَوْدِ فِي مِلَّتِهِمْ مُؤَكَّدٌ أَبْلَغَ التَّأْكِيدِ مَعْطُوفٌ عَلَى مُنَاسِبِهِ ، وَالتَّعْبِيرُ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الشَّأْنِ ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الْفِعْلِ ؛ لِأَنَّهُ نَفْيٌ لَهُ بِالدَّلِيلِ ، وَهُوَ كَوْنُهُ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ وَلَا جَارٍ عَلَى سُنَنِ اللَّهِ فِي الِاجْتِمَاعِ ، وَالْمَعْنَى : لَيْسَ مِنْ شَأْنِنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا حَالَ مَشِيئَةِ اللَّهِ رَبِّنَا الْمُتَصَرِّفِ فِي جَمِيعِ شُئُونِنَا ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ لَا أَنْتُمْ وَلَا نَحْنُ أَيْضًا ؛ لِأَنَّنَا مُوقِنُونَ بِأَنَّ مِلَّتَكُمْ

(136/279)

بَاطِلَةٌ ضَارَّةٌ مُفْسِدَةٌ ، وَمِلَّتَنَا هِيَ الْحَقُّ الَّتِي بِهَا صَلَاحُ النَّاسِ وَعُمْرَانُ الْأَرْضِ ، وَالْمُوقِنُ لَا يَسْتَطِيعُ إِزَالَةَ يَقِينِهِ وَلَا تَغْيِيرَهُ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِيَدِ مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ سُبْحَانَهُ ، وَرَهْنِ مَشِيئَتِهِ وَسِعَ

رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا فَعِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ بِأَسْبَابِ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ وَالصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ مَا لَيْسَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ ، وَمَشِيئَتُهُ تَجْرِي بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَمِمَّا كَانَ يَعْلَمُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ حِكْمَتِهِ تَعَالَى وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ يُقِيمُ حُجَّتَهُ بِأَهْلِ الْحَقِّ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ ، وَيَنْصُرُهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَا دَامُوا نَاصِرِينَ لَهُ ، وَقَائِمِينَ بِمَا هَدَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْهُ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا تَطْمَعُوا إِذًا أَنْ يَشَاءَ رَبُّنَا الْحَفِيُّ بِنَا عَوْدَتَنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا بِفَضْلِهِ مِنْهَا ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَيْكُمْ بِنَا ، وَمَا كَانَ تَعَالَى لِيُدْحِضَ حُجَّتَهُ وَيُبْطِلَ سُنَّتَهُ .

فَهَذَا الِاسْتِثْنَاءُ مُؤْيِسٌ لِلْمَلَأِ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ مِنْ عَوْدَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَنْ آمَنَ مَعَهُ فِي مِلَّتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ نَفَى وُقُوعَ الْعَوْدِ مِنْهُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ نَفْيًا مُؤَكَّدًا بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ

(137/279)

وَلَا مِمَّا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِهِمْ فِي حَالٍ مَا مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَيْهِمْ كَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَالرَّجَاءِ فِي الْمَنَافِعِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْمَضَارِّ ، وَمِنْهَا الْإِخْرَاجُ مِنَ الدِّيَارِ ، وَاسْتَثْنَى حَالًا وَاحِدَةً وَهِيَ مَشِيئَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، فَدَلَّ عَلَى عُمُومِ النَّفْيِ فِيمَا عَدَا الْمُسْتَثْنَى ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ لِتَوْكِيدِهِ مِنْ غَيْرِ مُلَاحَظَةٍ لِمُتَعَلِّقِ الْمَشِيئَةِ هَلْ هُوَ مُمْكِنٌ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ أَمْ لَا ؟ كَقَوْلِهِ

تَعَالَى : سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ (87 : 6 ، 7) أَوْ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى النَّفْيِ بِكَرَمِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَا بِالْإِيجَابِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْوَجْهُ الَّذِي اخْتَارَهُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْلَى ، وَلَا يَخِلُّ بِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْيِ جَوَازُ تَعَلُّقِ الْمَشِيئَةِ بِالنَّفْيِ فِي كَلَامِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْقَرَائِنُ اللَّفْظِيَّةُ وَالْمَعْنَوِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ وُقُوعِ هَذَا الْجَائِزِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَشَاءُ عَوْدَتَهُمْ مَعَ مَنْ آمَنَ مَعَهُ فِي مِلَّةِ قَوْمِهِمْ ، فَهُوَ قَدْ قَرَّرَ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، فَطَلَبُهُ مِنْ غَيْرِهِ عَبَثٌ ، يُؤَكِّدُهُ ذِكْرُ الرَّبِّ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ وَمَنْ مَعَهُ ، فَأَفَادَ بِدَلَالَةِ الِالْتِزَامِ أَوِ الِاقْتِضَاءِ أَنَّهُ لَا يَشَاءُ لَهُمْ إِلَّا مَا عَوَّدَهُمْ بِحُسْنِ تَرْبِيَتِهِ إِيَّاهُمْ ، وَلُطْفِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِمْ ؛ إِذْ أَنْجَاهُمْ مِنْ تِلْكَ الْمِلَّةِ الْبَاطِلَةِ ، وَهُوَ تَأْيِيدُ عِصْمَةِ رَسُولِهِمْ وَحِفْظِ جَمَاعَتِهِمْ مِنَ

(138/279)

الْعَوْدِ فِيهَا ، فَكَانَ هَذَا بِمَعْنَى قَوْلِ عَبْدٍ أَمِينٍ أَرَادَ أَنْ يُغْوِيَهُ بَعْضُ الْمُغْوِينَ ، وَيُغْرِيَهُ بِخِيَانَةِ سَيِّدِهِ الْحَفِيِّ بِهِ ، وَصَرَفَ بَعْضَ مَالِهِ فِيمَا يَضُرُّهُ هُوَ ، وَيُفْسِدُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ : لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِي ، وَلَا مِمَّا يَدْخُلُ فِي تَصَرُّفِي إِلَّا أَنْ يَشَاءَ سَيِّدِي الصَّالِحُ الْمُصْلِحُ الْمُعْتَنِي بِشَأْنِي ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنِّي بِأَمْرِي . فَالتَّعْبِيرُ لَيْسَ مَسُوقًا

لِتَقْرِيرِ حُجَّةِ الْأَشَاعِرَةِ عَلَى جَوَازِ مَشِيئَةِ اللهِ لِكُفْرِهِمْ بِالْفِعْلِ ، وَلَا حُجَّةِ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى وُجُوبِ رِعَايَةِ الصَّلَاحِ وَالْأَصْلَحِ لَهُمْ ، وَلِغَيْرِهِمْ بِالْعَقْلِ ، وَلَكِنَّهُ يَدُلُّ بِطَرِيقِ الِالْتِزَامِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ عِنَايَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِرُسُلِهِ وَأَتْبَاعِهِمُ الْمُسْتَقِيمِينَ عَلَى دِينِهِمْ وَمُضِيِّ سُنَّتِهِ وَوَعْدِهِ بِتَأْيِيدِهِمُ الْمُصَرَّحِ بِهِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (40 : 51) وَقَوْلُهُ : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (37 : 171 - 173) فَهُوَ لَنْ يَشَاءَ كُفْرَهُمْ بِالْفِعْلِ ، بَلْ يَخْتَارُ لَهُمُ الْأَصْلَحَ بِحِكْمَتِهِ وَفَضْلِهِ لَا بِإِيجَابِ الْعَقْلِ .

(139/279)

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ عَنْ : السُّدِّيِّ ، أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ : وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعُودَ فِي شِرْكِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا ، وَاللهُ لَا يَشَاءُ الشِّرْكَ ، وَلَكِنْ يَقُولُ : إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ عَلِمَ شَيْئًا فَإِنَّهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا اهـ ، وَلَعَلَّهُ يُرِيدُ أَنَّهُ لَا يَشَاءُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِسُنَّتِهِ الْحَكِيمَةِ وَفَضْلِهِ الْعَظِيمِ عَلَى رُسُلِهِ وَمَنْ آمَنَ بِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَقَعُ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِمْ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَمُقْتَضَى سُنَّتِهِ ، وَسُنَنُهُ فِي الْفَرِيقَيْنِ مُخْتَلِفَةٌ كَمَا شَرَحْنَاهُ مِرَارًا .

وَقَدْ سَبَقَ مِثْلُ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، حِكَايَةً عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (6 : 80)

(140/279)

وَقَدِ اخْتَرْنَا هُنَالِكَ أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ عُمُومِ الْأَوْقَاتِ ، وَأَنَّهُ مُنْقَطِعٌ مَعْنَاهُ : لَكِنْ إِنْ شَاءَ رَبِّي أَنْ يُصِيبَنِي فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مَكْرُوهٌ مِنْ قِبَلِ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ كَوُقُوعِ صَنَمٍ عَلَيَّ يَشُجُّنِي ، فَإِنَّهُ يَقَعُ بِقُدْرَتِهِ تَنْفِيذًا لِمَشِيئَتِهِ ، لَا بِقُدْرَةِ شُرَكَائِكُمْ وَلَا بِمَشِيئَتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ وَلَا مَشِيئَةَ ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِمِثْلِ مَا عَلَّلَهُ بِهِ بَعْدَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَعَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ فَقَالَ : وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَيْ : وَمَعْبُودَاتُكُمْ لَا تَعْلَمُ شَيْئًا إِلَخْ ، وَاخْتَرْنَا هُنَا جَعْلَ الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ أَعَمِّ الْأَحْوَالِ لَا الْأَوْقَاتِ ، وَإِنْ جَازَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ؛ لِأَنَّ الْوَقْتَ لَا شَأْنَ لَهُ هُنَا ، عَلَى أَنَّ عُمُومَ الْأَحْوَالِ يَسْتَلْزِمُ عُمُومَ الْأَوْقَاتِ .

ثُمَّ أَكَّدَ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ذَلِكَ كُلَّهُ بِقَوْلِهِ : عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا أَيْ : إِلَيْهِ وَحْدَهُ وَكَّلْنَا أَمْرَنَا مَعَ قِيَامِنَا بِكُلِّ مَا أَوْجَبَهُ عَلَيْنَا مِنَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ لَنَا ، فَهُوَ يَكْفِينَا أَمْرَ

تَهْدِيدِكُمْ ، وَكُلَّ مَا لَمْ يَجْعَلْهُ فِي اسْتِطَاعَتِنَا مِنْ جِهَادِكُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ مِنْ أُصُولِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي يَعْرِفُهَا جَمِيعُ رُسُلِهِ أَنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

(141/279)

فَهُوَ حَسْبُهُ (65 : 3) وَإِنَّ مِنْ شُرُوطِ التَّوْكِيلِ الصَّحِيحِ فِي الْأَمْرِ الْقِيَامَ بِكُلِّ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَمُرَاعَاةَ مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ فِيهِ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالسُّنَنِ الْكَوْنِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَمَنْ يَتْرُكِ الْعَمَلَ بِالْأَسْبَابِ فَهُوَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ ، لَا مُتَوَكِّلٌ مَنْصُورٌ وَلَا مَأْجُورٌ ، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمَنْ سَأَلَهُ أَيَتْرُكُ نَاقَتَهُ سَائِبَةً ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ؟ : اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ بَعْدَ أَمْرِهِ بِمُشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ : فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (3 : 159) وَإِنَّمَا يَكُونُ الْعَزْمُ بَعْدَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ وَمِنْهَا مُظَاهَرَتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمَئِذٍ بِلَبْسِ دِرْعَيْنِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ مُفَصَّلًا فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ .

(142/279)

وَالْخُلَاصَةُ : أَنَّهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بَدَأَ جَوَابَهُ لِلْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ بِالتَّعَجُّبِ مِنْ تَهْدِيدِهِمْ وَإِنْذَارِهِمْ وَإِقَامَةِ الْأَدِلَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ عَلَى امْتِنَاعِ عَوْدِهِمْ إلَى مِلَّةِ الْكُفْرِ بِاخْتِيَارِهِمْ ، وَعَدَمِ اسْتِطَاعَةِ أَحَدٍ عَلَى إجْبَارِهِمْ عَلَيْهِ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى الْفَعَّالِ لِمَا يُرِيدُ ، وَالِاسْتِدْلَالُ عَلَى أَنَّ هَذَا مِمَّا لَا يُرِيدُهُ ، وَثَنَى بِبَيَانِ تَوَكُّلِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَكْفِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ مَا أَهَمَّهُ ، وَهُوَ فَوْقَ كَسْبِهِ وَاخْتِيَارِهِ ، فَتَجْتَمِعُ لَهُ الْعِنَايَةُ الْكَسْبِيَّةُ وَالْوَهْبِيَّةُ ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِالدُّعَاءِ الَّذِي لَا يَكُونُ شَرْعِيًّا مَرْجُوَّ الْإِجَابَةِ إلَّا بَعْدَ الْقِيَامِ بِمَا فِي الطَّاقَةِ مِنَ الْعَمَلِ الْكَسْبِيِّ ، وَالتَّوَكُّلِ الْقَلْبِيِّ ، فَقَالَ :

(143/279)

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ الْمَعْنَى لِمَادَّةِ (الْفَتْحِ) كَمَا حَقَّقَهُ الرَّاغِبُ : إزَالَةُ الْإِغْلَاقِ وَالْإِشْكَالِ ، وَهُوَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا : مَا يُدْرَكُ بِالْبَصَرِ كَفَتْحِ الْعَيْنِ وَالْقُفْلِ وَالْغَلْقِ وَالْمَتَاعِ مِنْ صُنْدُوقٍ وَغِرَارَةٍ وَخُرْجٍ وَعُلْبَةٍ ، وَالثَّانِي : هُوَ مَا يُدْرَكُ بِالْبَصِيرَةِ كَفَتْحِ أَبْوَابِ الرِّزْقِ ، وَالْمُغْلَقِ مِنْ مَسَائِلِ الْعِلْمِ ، وَالْمُبْهَمِ مِنْ قَضَايَا الْحُكْمِ ، وَالنَّصْرِ فِي وَقَائِعِ الْحَرْبِ ، وَفِي آيَاتِ الْقُرْآنِ اسْتِعْمَالَاتٌ مِنَ الضَّرْبَيْنِ كِلَيْهِمَا ، وَلَكَ أَنْ تُقَسِّمَهُ إلَى حِسِّيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ ، وَمِنَ الْأَوَّلِ : الْفَتْحُ الَّذِي يَكُونُ بِالْكَلَامِ كَحُكْمِ الْقَاضِي ، وَفَتْحِ الْمَأْمُومِ

عَلَى الْإِمَامِ فِي الصَّلَاةِ ، وَهُوَ أَنْ يَقْرَأَ الْآيَةَ الَّتِي أَخْطَأَ فِيهَا أَوْ وَقَفَ عَنِ الْقِرَاءَةِ نَاسِيًا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا ، وَإِلَى حَقِيقِيٍّ وَمَجَازِيٍّ ، وَمِنْ مَجَازِ الْأَسَاسِ : فَتْحٌ عَلَى فُلَانٍ إذَا جَدَّ وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ : نَصَرَهُ ، وَفَتَحَ الْحَاكِمُ بَيْنَهُمْ ، وَمَا أَحْسَنَ فُتَاحَتَهُ ؛ أَيْ : حُكْمَهُ ، قَالَ :

أَلَا أَبْلِغْ بَنِي وَهْبٍ رَسُولًا . . . بِأَنِّي عَنْ فُتُحَاتِهِمْ غَنِيُّ

(144/279)

وَبَيْنَهُمْ فُتَاحَاتٌ ؛ أَيْ : خُصُومَاتٌ ، وَفُلَانٌ وَلِيَ الْفِتَاحَةَ - بِالْكَسْرِ - وَهِيَ وِلَايَةُ الْقَضَاءِ ، وَفَاتَحَهُ : حَاكَمَهُ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : مَا كُنْتُ أَدْرِي مَا قَوْلُهُ تَعَالَى : رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا حَتَّى سَمِعْتُ بِنْتَ ذِي يَزَنٍ ، تَقُولُ لِزَوْجِهَا : تَعَالَى أُفَاتِحُكَ ، وَقَالَتْ أَعْرَابِيَّةٌ لِزَوْجِهَا : بَيْنِي وَبَيْنَكَ الْفَتَّاحُ اهـ ، وَأَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ أَخْرَجَهُ قُدَمَاءُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ ، وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي الْوَقْفِ وَالِابْتِدَاءِ ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ، وَفَسَّرَ الْمُفَاتَحَةَ فِيهِ بِالْمُقَاضَاةِ ، وَهُوَ يَدُلُّ لُغَةً عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ قُرَشِيَّةً بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَيُؤَيِّدُ مَا رُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ مِنْ أَنَّهَا يَمَانِيَّةٌ ، وَخَصَّهَا بَعْضُهُمْ بِالْحِمْيَرِيَّةِ ، وَذُو يَزَنٍ مِنْ أَسْمَائِهِمْ ، وَالْمُنَاسِبُ أَنَّ كُلَّ فَتْحٍ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ فَهُوَ بِمَعْنَى الْحُكْمِ وَالْفَصْلِ بَيْنَهُمَا إمَّا بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ أَوْ بِأَحَدِهِمَا ، وَمِنْهُ النَّصْرُ ، وَمِنَ الْآيَاتِ فِيهِ

: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (34 : 26) وَمِنْهَا حِكَايَةٌ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (26 : 118) وَهَذَا عَيْنُ مُرَادِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دُعَائِهِ الْمُلَاقِي لِإِنْذَارِهِ قَبْلَهُ بِقَوْلِهِ : حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ (7 : 87) إلَخْ .

(145/279)

وَالْمَعْنَى : رَبَّنَا احْكُمْ وَافْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ الَّذِي مَضَتْ بِهِ سُنَّتُكَ فِي التَّنَازُعِ بَيْنَ الْمُرْسَلِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَبَيْنَ سَائِرِ الْمُحَقِّقِينَ الْمُصْلِحِينَ وَالْمُبْطِلِينَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ؛ لِإِحَاطَةِ عِلْمِكَ بِمَا يَقَعُ فِي التَّخَاصُمِ ، وَتَنَزُّهِكَ عَنِ الظُّلْمِ ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَى فِي الْحُكْمِ .

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ لَمَّا يَئِسَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ مِنْ عَوْدَتِهِ فِي مِلَّتِهِمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ ثَابِتٌ

عَلَى مُقَارَعَتِهِمْ ، خَافُوا أَنْ يَكْثُرَ الْمُهْتَدُونَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِمْ ، فَحَذَّرُوهُمْ ذَلِكَ بِمَا حَكَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ :

(146/279)

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ . هَذَا عَطْفٌ عَلَى قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وَلَيْسَ جَوَابًا لِشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَا دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْمُرَاجَعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَفَصَلَ وَلَمْ يَعْطِفْ ، بَلْ ذَلِكَ مَا قَالُوهُ لَهُ ، وَالْمُنَاسِبُ فِيهِ وَصْفُهُمْ بِالِاسْتِكْبَارِ ، فَهُوَ الَّذِي جَرَّأَهُمْ عَلَى تَهْدِيدِهِ ، وَإِنْذَارِهِ الْإِخْرَاجَ مِنْ قَرْيَتِهِمُ الْمُشْعِرِ بِأَنَّهُمْ هُمْ أَصْحَابُ السُّلْطَانِ فِيهِ ، وَهَذَا مَا قَالُوهُ لِقَوْمِهِمْ إِغْوَاءً لَهُمْ بِصَدِّهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ لَهُ ، وَالْأَخْذِ بِمَا جَاءَ بِهِ ، وَالْمُنَاسِبُ فِيهِ وَصْفُهُمْ بِالْكُفْرِ ، فَهُوَ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَيْهِ ، سَوَاءٌ كَانَ سَبَبُهُ الِاسْتِكْبَارَ عَنِ اتِّبَاعِهِ أَوْ غَيْرِهِ ، بَلْ لَوْ عَلِمَ أُولُو الرَّأْيِ مِنْ قَوْمِهِمْ أَنَّ سَبَبَ صَدِّهِمْ عَنْهُ هُوَ الِاسْتِكْبَارُ وَالْعُتُوُّ لَمَا أَطَاعُوهُمْ ؛ وَلِذَلِكَ عَلَّلُوا لَهُمْ صَدَّهُمْ عَنْهُ بِمَا يُوهِمُهُمْ أَنَّهُ هُوَ الْمَصْلَحَةُ لَهُمْ ، إِذْ قَالُوا لَهُمْ بِصِيغَةِ الْقَسَمِ : لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَخَاسِرُونَ ، وَحَذَفَ مُتَعَلَّقَ الْخَسَارِ لِيُعَمِّمَ كُلَّ مَا يَصْلُحُ لَهُ ، أَيْ : خَاسِرُونَ لِشَرَفِكُمْ وَمَجْدِكُمْ بِإِيثَارِ مِلَّتِهِ عَلَى مِلَّةِ آبَائِكُمْ وَأَجْدَادِكُمْ ، وَمَنَاطِ عِزِّكُمْ وَفَخْرِكُمْ ، وَاعْتِرَافِكُمْ

بِأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ضَالِّينَ وَأَنَّهُمْ مُعَذَّبُونَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، وَخَاسِرُونَ لِثَرْوَتِكُمْ وَرِبْحِكُمْ مِنَ النَّاسِ بِمَا حَذَقْتُمُوهُ مِنْ

(147/279)

تَطْفِيفِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ ، وَبَخْسِ الْغُرَبَاءِ أَشْيَاءَهُمْ لِابْتِزَازِ أَمْوَالِهِمْ ، وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَكْبَرُ مِنْ خَسَارَةِ الشَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ ؟ فَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّامَ فِي قَوْلِهِمْ : (لَئِنْ) مُوطِئَةٌ لِلْقَسَمِ ، وَهِيَ أَقْوَى مُؤَكِّدٌ لِلْكَلَامِ ، وَالْجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ وَتَصْدِيرُهَا بِـ " إِنَّ " وَقَرْنُ خَبَرِهَا بِـ " اللَّامِ " وَتَوْسِيطُ (إِذًا) الَّتِي هِيَ جَوَابٌ وَجَزَاءٌ بَيْنَ طَرَفَيْهَا ، كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤَكِّدَاتِ لِمَضْمُونِهَا الْخَادِعَةِ لِسَامِعِيهَا ، وَإِنَّ مِثْلَهَا مِمَّا يَرُوجُ بَيْنَ أَمْثَالِهِمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَلَا سِيَّمَا زَمَنُ التَّفَاخُرِ بِالْآبَاءِ ، وَالتَّعَصُّبِ لِلْأَقْوَامِ

(148/279)

وَالْأَوْطَانِ ، فَإِنَّنَا ابْتُلِينَا فِي دَعْوَتِنَا إِلَى الْإِصْلَاحِ بِمَنْ كَانُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنَّا ، وَعَنْ نَصِيحَتِنَا لِأَهْلِ مِلَّتِنَا بِأَنَّنَا لَمْ نُوَلَدْ فِي بِلَادِهِمْ ، وَلَا نَنْتَمِي إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَجْدَادِهِمْ ، عَلَى أَنَّنَا

نَنْتَمِي بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى إِلَى آلِ بَيْتِ نَبِيِّهِمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُعْرَفُ لَهُ نَسَبٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَيْسَ مِنَ الْقِبْطِ وَلَا الْعَرَبِ ، وَإِنَّنَا نَرَى أَشَدَّ الشُّعُوبِ عَصَبِيَّةً لِلْوَطَنِ لَا يَجْعَلُونَهَا سَبَبًا لِلصَّدِّ عَنِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ ، وَلَا الدِّينِ وَمَذَاهِبِهِ ، وَإِنَّمَا التَّنَافُسُ بَيْنَهُمْ فِي جَعْلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَطَنَهُ أَعَزَّ وَأَقْوَى وَأَغْنَى وَأَقْنَى وَلَوْ بِاقْتِبَاسِ الْعِلْمِ مِنَ الْآخَرِ ، نَرَى رِجَالَ الدِّينِ الْكَاثُولِيكِيِّ مِنَ الْأَلْمَانِ وَالْفَرَنْسِيسِ أَعْوَانًا عَلَى نَصْرِ الْكَثْلَكَةِ ، وَنَشْرِهَا فِي بِلَادِهِمْ وَغَيْرِهَا ، كَمَا نَرَى مِثْلَ هَذَا بَيْنَ رِجَالِ الْبُرُوتَسْتَانْتِيَّةِ مِنَ الْأَلْمَانِ وَالْإِنْكِلِيزِ ، كَدَأْبِهِمْ وَسِيرَتِهِمْ فِي الْعِلْمِ ، فَعُلَمَاءُ كُلِّ شَعْبٍ

(149/279)

يَتَسَابَقُونَ إِلَى اقْتِبَاسِ مَا يَظْهَرُ عِنْدَ الْآخَرِ مِنَ اخْتِرَاعٍ أَوْ كَشْفٍ عَنْ حَقِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ ، أَوِ اهْتِدَاءٍ لِسُنَّةٍ كَوْنِيَّةٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ لِلْخَلْقِ ، وَيَعْزُونَ كُلَّ أَمْرٍ إِلَى صَاحِبِهِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْعِلْمَ لَا وَطَنَ لَهُ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ التَّغَايُرُ وَالتَّفَرُّقُ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي مِثْلِ هَذَا فِي إِبَّانِ ضَعْفِهِمْ ، وَغَلَبَةِ الْجَهْلِ عَلَيْهِمْ ، وَفُشُوِّ التَّحَاسُدِ وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ فِيهِمْ ، وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي إِبَّانِ ارْتِقَائِهَا الْعِلْمِيِّ حَتَّى الْقَرْنِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ ، إِذْ كَانَ مِثْلُ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ يَجِيءُ بَغْدَادَ عَاصِمَةَ الْعِلْمِ وَالْمُلْكِ الْكُبْرَى فِي الْأَرْضِ فَيَكُونُ رَئِيسًا لِأَعْظَمِ مَدْرَسَةٍ فِيهَا بَلْ فِي

الْعَالَمِ (وَهِيَ النِّظَامِيَّةُ) وَلَا يَحُولُ دُونَ ذَلِكَ كَوْنُهُ مِنْ قَرْيَةِ طُوسَ فِي بِلَادِ الْفُرْسِ ، وَفِيمَا بَعْدَهُ إذْ تَغَيَّرَتِ الْحَالُ ، كَمَا بَيَّنَاهُ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْمَنَارِ ، وَنَحْمَدُ اللَّهَ أَنَّ تِلْكَ النَّزْعَةَ الشَّيْطَانِيَّةَ تَكَادُ تَزُولُ مِنْ مِصْرَ بِارْتِقَاءِ الْعِلْمِ وَالْعُمْرَانِ ، عَلَى كَوْنِ النَّزْعَةِ الْوَطَنِيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ تَزْدَادُ قُوَّةً وَانْتِشَارًا .

(150/279)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ تَقَدَّمَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ بِنَصِّهَا فِي بَيَانِ عَذَابِ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (الْآيَةِ : 78) فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهَا فِي مَكَانِهَا مِنَ الْجُزْءِ الثَّامِنِ ، وَفِيهِ أَنَّهُ عَبَّرَ عَنْ عَذَابِهِمْ فِي سُورَةِ هُودٍ بِالصَّيْحَةِ بَدَلَ الرَّجْفَةِ ، وَكَذَلِكَ قَوْمُ شُعَيْبٍ ، وَالرَّجْفَةُ : الْمَرَّةُ مِنَ الرَّجْفِ ، وَهُوَ الْحَرَكَةُ وَالِاضْطِرَابُ ، وَيَصْدُقُ بِرَجَفَانِ الْأَرْضِ وَهُوَ الزَّلْزَلَةُ ، وَمِنْهُ : يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ (73 : 14) وَبِرَجَفَانِ الْقُلُوبِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْخَوْفِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فِي حَدِيثِ بَدْءِ الْوَحْيِ : " فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَرْجُفُ فُؤَادُهُ " وَالرَّاجِحُ هُنَا الْأَوَّلُ ، وَالْمَعْنَى : فَأَخَذَتْهُمُ الزَّلْزَلَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ بَارِكِينَ عَلَى رُكْبِهِمْ أَوْ مُنْكَبِّينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ مَيِّتِينَ ،

فَهَذَا عَذَابُ أَهْلِ مَدْيَنَ عَبَّرَ عَنْهُ هُنَا بِالرَّجْفَةِ وَفِي سُورَةِ هُودٍ بِالصَّيْحَةِ ، كَعَذَابِ ثَمُودَ فِي السُّورَتَيْنِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا .

(151/279)

وَفِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ شُعَيْبًا إلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ ، وَهُمْ غَيْرُ مَدْيَنَ ، فَإِنَّهُ وَصَفَهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بِأَنَّهُ أَخُو مَدْيَنَ أَيْ فِي النَّسَبِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَلَمْ يَصِفْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ بِذَلِكَ كَمَا وَصَفَ مَنْ ذُكِرَ قَبْلَهُ : نُوحًا ، وَهُودًا ، وَصَالِحًا ، وَلُوطًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَقَدْ أَخْرَجَ إسْحَاقُ بْنُ بِشْرٍ ، وَابْنُ عَسَاكِرَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (26 : 176) قَالُوا : كَانُوا أَصْحَابَ غَيْضَةٍ بَيْنَ سَاحِلِ الْبَحْرِ إلَى مَدْيَنَ إلَخْ ، فَأَفَادَ هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ إلَى قَوْمِهِ أَهْلِ مَدْيَنَ ، وَإِلَى مَنِ

اتَّصَلَ بِهِمْ إلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، وَأَنَّ حَالَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي كَانَتْ وَاحِدَةً ، وَكَانَ يُنْذِرُهُمْ مُتَنَقِّلًا بَيْنَهُمْ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ ، فَلَا يَبْعُدُ حِينَئِذٍ أَنْ يَكُونَ الْعَذَابُ قَدْ أَخَذَ الْفَرِيقَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ أَوْ وَقْتَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ ، فَكَانَ عَذَابُ مَدْيَنَ بِالرَّجْفَةِ وَالصَّيْحَةِ الْمُصَاحِبَةِ لَهَا ، وَعَذَابُ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ بِالسَّمُومِ ، وَشِدَّةِ الْحَرِّ الَّذِي انْتَهَى بِظُلَّةٍ مِنَ

السَّحَاب ، فَزِعُوا إِلَيْهَا يَبْتَرِدُونَ بِظِلِّهَا ، فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ ، فَاخْتَلَفُوا بِهَا أَجْمَعُونَ ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ عِقَابَ الْفَرِيقَيْنِ وَاحِدٌ ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(152/279)

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ يُقَالُ : غَنِيَ بِالْمَكَانِ يَغْنَى بِوَزْنِ " رَضِيَ يَرْضَى " إِذَا نَزَلَ بِهِ وَأَقَامَ فِيهِ ، هَكَذَا أَطْلَقُوهُ ، وَقَيَّدَهُ بَعْضُهُمْ بِقَيْدٍ أَوْ قَيْدَيْنِ ، قَالَ الرَّاغِبُ : وَغَنِيَ فِي مَكَانِ كَذَا إِذَا طَالَ مُقَامُهُ فِيهِ مُسْتَغْنِيًا بِهِ عَنْ غَيْرِهِ ، وَاكْتَفَى بَعْضُهُمْ بِقَيْدِ طُولِ الْإِقَامَةِ ، وَبَعْضُهُمْ بِالْإِقَامَةِ فِي رَغَدِ عَيْشٍ .

وَالْآيَةُ بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ نَاقِضٌ لِقَوْلِ الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ لِقَوْمِهِمْ : لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ وَقَوْلِهِمْ قَبْلَهُ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا كَأَنَّ سَائِلًا يَسْأَلُ عَنْهُمْ بِاعْتِبَارِ كُلٍّ مِنَ الْحَالَيْنِ : كَيْفَ انْتَهَى الْأَمْرُ فِيهَا ؟ وَكَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ أَهْلِهَا ؟ فَأُجِيبَ عَنِ الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ : الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا وَهَدَّدُوهُ وَأَنْذَرُوهُ الْإِخْرَاجَ مِنْ قَرْيَتِهِمْ قَدْ هَلَكُوا ، وَهَلَكَتْ قَرْيَتُهُمْ فَحُرِمُوهَا كَأَنْ لَمْ يُقِيمُوا ، وَلَمْ يَعِيشُوا فِيهَا مُطْلَقًا أَوْ فِي ذَلِكَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ ، وَالْأَمَدِ الْمَدِيدِ فَمَتَى انْقَضَى الشَّيْءُ صَارَ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ .

وَأُجِيبَ عَنِ الثَّانِي بِقَوْلِهِ : الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا ، وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ يَتَّبِعُهُ يَكُونُ خَاسِرًا ، وَأَكَّدُوا زَعْمَهُمْ بِأَقْوَى الْمُؤَكِّدَاتِ ، كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ لِمَا يَعْتَزُّونَ بِهِ مِنْ تَقَالِيدِ مِلَّتِهِمْ ، وَمِنْ مَالِهِمْ وَوَطَنِهِمْ ، وَلِمَا كَانُوا مَوْعُودِينَ بِهِ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوْ آمَنُوا ، دُونَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فَإِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الْفَائِزِينَ الْمُفْلِحِينَ ، فَالْجُمْلَةُ تُفِيدُ حَصْرَ الْخَسَارِ فِي الْمُكَذِّبِينَ لَهُ بِالنَّصِّ ، وَتَقْتَضِي نَفْيَهُ عَنِ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ بِالْأَوْلَى ، وَمُنَاسَبَةُ الْجَزَاءِ لِلذَّنْبِ يَجْعَلُ الْحِرْصَ عَلَى التَّمَتُّعِ بِالْوَطَنِ وَالِاسْتِبْدَادِ فِيهِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ سَبَبًا لِلْحِرْمَانِ الْأَبَدِيِّ مِنْهُ ، وَجَعَلَ الْحِرْصَ عَلَى الرِّبْحِ بِأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ سَبَبًا لِلْخُسْرَانِ بِالْحِرْمَانِ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ .

وَاخْتَارَ بَعْضُهُمْ فِي نُكْتَةِ الْفَصْلِ وَالتَّكْرَارِ وَجْهًا آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّهُ بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى جَاءَ بِأُسْلُوبِ الْخَطَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْوَعْظِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا ، نَحْوَ : أَنْتَ الَّذِي جَنَيْتَ عَلَيْنَا ، أَنْتَ الَّذِي سَلَّطْتَ عَلَيْنَا أَعْدَاءَنَا ، أَنْتَ الَّذِي فَرَّقْتَ كَلِمَتَنَا ، أَنْتَ الَّذِي أَوْقَعْتَ الشِّقَاقَ بَيْنَنَا .

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ : إِنَّ فِي هَذَا الِاسْتِئْنَافِ وَتَكْرِيرِ الْمَوْصُولِ وَالصِّلَةِ مُبَالَغَةً فِي رَدِّ مَقَالَةِ الْمَلَأِ لِأَشْيَاعِهِمْ ، وَتَسْفِيهًا لِرَأْيِهِمْ ، وَاسْتِهْزَاءً بِنُصْحِهِمْ لِقَوْمِهِمْ ، وَاسْتِعْظَامًا لِمَا جَرَى عَلَيْهِمْ اهـ ، وَقَدْ خَفِيَتْ عَلَى بَعْضِ الْعُلَمَاءِ الْأَذْكِيَاءِ دَلَالَةُ الْعِبَارَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي كُلِّهَا لِعَدَمِ تَأَمُّلِهَا ، فَأَمَّا الْمُبَالَغَةُ فِي الرَّدِّ فَظَاهِرَةٌ لِمَا يُدْرِكُهُ كُلٌّ مِنَ الْفَرْقِ فِي نَفْسِهِ بَيْنَ مَا مَثَّلْنَا بِهِ آنِفًا لِأُسْلُوبِ الْخَطَابَةِ ، وَبَيْنَ ذِكْرِ تِلْكَ الْمُسْتَنَدَاتِ بِالْعَطْفِ ، وَسَبَبُهُ أَنَّ تَكْرَارَ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِصِيغَةِ الْمَوْصُولِ وَالصِّلَةِ الْمُؤْذِنِ بِعِلَّةِ الْجَزَاءِ يُعِيدُ صُورَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي الذِّهْنِ ، وَيَكُونُ حُكْمًا جَدِيدًا بَعْدَ حُكْمٍ ، وَلِلْحُكْمَيْنِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي النَّفْسِ مَا لَيْسَ لِلْحُكْمِ الْوَاحِدِ ، وَأَمَّا تَسْفِيهُ الرَّأْيِ وَالِاسْتِهْزَاءُ بِذَلِكَ النُّصْحِ ، فَهُوَ تَابِعٌ لِهَذَا التَّأْثِيرِ الْمُتَضَمِّنِ لِمَا ذُكِرَ مِنَ التَّصْوِيرِ وَالتَّمْثِيلِ .

(155/279)

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِهِ فِي قِصَّةِ صَالِحٍ وَفِيهِ بَحْثٌ دَقِيقٌ فِي ذِكْرِ التَّوَلِّي عَنِ الْقَوْمِ ، وَمُخَاطَبَتِهِمْ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ ، وَقَدِ اتَّحَدَ إِعْذَارُ الرَّسُولَيْنِ لِاتِّحَادِ حَالِ الْقَوْمَيْنِ وَعَذَابِهِمَا ، وَلَكِنْ تَتِمَّةُ الْآيَةِ هُنَاكَ : وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79) وَتَتِمَّةُ الْآيَةِ هُنَا : فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ؟ وَلَا يَبْعُدُ عِنْدِي أَنْ

يَكُونَا قَدْ قَالَا هَذَا وَذَاكَ ، فَعَبَّرَ عَنْهُمَا بِأُسْلُوبِ الِاحْتِبَاكِ ، وَالْمَعْنَى : إِنِّي يَا قَوْمِ قَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي - أَيْ : مَا أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْأَحْكَامِ وَالْآدَابِ - فَجَمَعَ الرِّسَالَةَ هُنَا بِحَسَبِ مُتَعَلِّقِهَا ، وَأَفْرَدَهَا فِي قِصَّةِ صَالِحٍ بِحَسَبِ مَعْنَاهَا الْمَصْدَرِيِّ - وَنَصَحْتُ لَكُمْ بِمَا بَيَّنْتُهُ مِنْ مَعَانِيهَا وَالتَّرْغِيبِ فِيهَا وَإِنْذَارِ عَاقِبَةِ الْكُفْرِ بِهَا فَكَيْفَ آسَى ؟ أَيْ : أَحْزَنُ الْحُزْنَ الشَّدِيدَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ أَعْذَرْتُ إِلَيْهِمْ ، وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي سَبِيلِ هِدَايَتِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ ، فَاخْتَارُوا مَا فِيهِ هَلَاكُهُمْ ، وَإِنَّمَا يَأْسَى مَنْ قَصَّرَ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ النُّصْحِ وَالْإِنْذَارِ .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"

(156/279)

سُنَنُ اللَّهِ وَحِكَمُهُ فِي هَذِهِ الْقَصَصِ وَأَمْثَالِهَا وَالِاعْتِبَارُ بِهَا "

مِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ أَنَّهُ يُبَيِّنُ الْعَقَائِدَ بِدَلَائِلِهَا ، وَالْأَحْكَامُ مُؤَيَّدَةٌ بِحِكَمِهَا وَعِلَلِهَا ، وَالْقَصَصُ مَقْرُونَةٌ بِوُجُوهِ الْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ بِهَا وَسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ فِيهَا ، كَمَا تَرَى فِي هَذِهِ

الْآيَاتِ التِّسْعَةِ الَّتِي قَفَى بِهَا عَلَى قَصَصِ الْقَوْمِ الْمُهْلَكِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 9 صـ 14.3 ﴾

(157/279)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية إلى قوله : ﴿ ونصحت لكم ﴾ من قصة ثمود ، وتقدم وجه التعبير بـ ﴿ رسالات ﴾ بصيغة الجمع في نظيرها من قصة قوم نوح.

ونداؤُه قومه نداء تحسر وتبرىء من عملهم ، وهو مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر ، حين وقف على القليب الذي ألقي فيه قتلى المشركين فناداهم بأسماء صناديدهم ثم قال : " لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً " وجاء بالاستفهام الإنكاري في قوله : ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ مخاطباً نفسه على طريقة التجريد ، إذ خطر له خاطر الحزن عليهم فدفعه عن نفسه بأنهم لا يستحقون أن يؤسف عليهم لأنهم اختاروا ذلك لأنفسهم ، ولأنه لم يترك من تحذيرهم ما لو ألقاه إليهم لأقلعوا عما هم فيه فلم يبق ما يوجب أسفه وندامته كقوله تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك

على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ [الكهف : 6] وقوله : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : 8] .

فالفاء في ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ للتفريع على قوله : ﴿ لقد أبلغتكم ﴾ الخ . . .

فرع الاستفهام الإنكاري على ذلك لأنه لمّا أبلغهم ونَصحَ لهم وأعرضوا عنه ، فقد استحقوا غضب من يَغضب لله ، وهو الرسول ، ويرى استحقاقهم العقاب فكيف يحزن عليهم لما أصابهم من العقوبة .

والأسى : شدة الحزن ، وفعله كرضي ، و"آسى" مضارع مفتتح بهمزة التكلم ، فاجتمع همزتان .

ويجوز أن يكون الاستفهام الإنكاري موجهاً إلى نفسه في الظاهر ، والمقصود نهي من معه من المؤمنين عن الأسى على قومهم الهالكين ، إذ يجوز أن يحصل في نفوسهم حزن على هلكى قومهم وإن كانوا قد استحقوا الهلاك .

(158/279)

وقوله : ﴿ على قوم كافرين ﴾ إظهار في مقام الإضمار : ليتأتى وصفهم بالكفر زيادة في تعزية نفسه وترك الحزن عليهم .

وقد نَجى الله شعيباً مما حلّ بقومه بأن فارق ديار العذاب ، قيل : إنه خرج مع من آمن به إلى مكة واستقروا بها إلى أن تُوُفوا ، والأظهر أنهم سكنوا محلة خاصة بهم في بلدهم رفع الله عنها العذاب ، فإن بقية مدين لم يزالوا بأرضهم ، وقد ذكرت التوراة أن شعيباً كان بأرض قومه حينما مرّت بنو إسرائيل على ديارهم في خروجهم من مصر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(159/279)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾

و" تولى عنهم " أي تركهم وسار بعيداً عنهم ، وحدثهم متخيلاً إياهم ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ ، فكأن المنظر العاطفي الإنساني حين رأى كيف أصبحوا ، وتعطف عليهم وأسى من أجلهم ، لكن يرد هذا التعاطف متسائلا متعجباً ﴿

فَكَيْفَ آسَى على قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ؟ إنهم نوع من الناس لا يحزن عليهم المؤمن . فما بالنا بنبي ورسول ؟ إنه يحدث نفسه وكأنه يقول : ما قصرت في مهمتي ، بل أبلغتكم رسالاتي التي تلقيتها من الله ، والرسالات إذا جمعت فالمقصود منها أو رسالته ورسالة الرسل السابقين في الأمور التي لم يحدث فيها نسخ ولا تغيير ، أو رسالاته أي في كل أمر بلغ به ؛ لأنه كان كلما نزل عليه حكم يبلغه لهم . أو أن لكل خير رسالة ، ولكل شر رسالة ، وقد أبلغهم كل ما وصله من الله ، ولم يقتصر على البلاغ بل أضاف عليه النصح ، والنصح غير البلاغ ، فالبلاغ أن تقول ما وصلك وينتهي الأمر ، و " النصح " هو الإلحاح عليهم في أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يتبعوا نهج الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(160/279)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا . . . الآيات ﴾

أخرج ابن عساكر من طريق إسحق بن بشر قال : أخبرني عبيد الله بن زياد بن سمعان عن بعض من قرأ الكتب قال : إن أهل التوراة يزعمون أن شعيباً اسمه في التوراة ميكائيل ، واسمه بالسريانية جزى بن بشخر ، وبالعبرانية شعيب بن بشخر بن لاوي بن يعقوب عليه السلام .

وأخرج ابن عساكر من طريق إسحق بن بشر عن الشرقي ابن القطامي وكان نسابة عالماً بالأنساب قال : هو ثيروب بالعبرانية ، وشعيب بالعربية ابن عيفا بن يوبب بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام . يوبب بوزن جعفر أوله مثناة تحتية وبعد الواو موحدتان .

(161/279)

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان شعيب نبياً ورسولاً من بعد يوسف ، وكان من خبره وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ فكانوا مع ما كان فيهم من الشرك أهل بخس في مكايلهم وموازينهم مع كفرهم بربهم وتكذيبهم نبيهم ، وكانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالهم حتى يشترونه ، وكان أوّل من سن ذلك هم ، وكانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه ويقولون دراهمك هذه زيوف فيقطعونها ثم يشرونها

منه بالبخس يعني بالنقصان ، فذلك قوله ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ وكانت بلادهم بلاد ميرة يمتار الناس منهم ، فكانوا يقعدون على الطريق فيصدون الناس عن شعيب يقولون : لا تسمعوا منه فإنه كذاب يفتنكم ، فذلك قوله ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ الناس أن اتبعتم شعيباً فتنكم ، ثم إنهم تواعدوه فقالوا : يا شعيب لنخرجنك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا أي إلى دين آبائنا ، فقال عند ذلك ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإِصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت ﴾ [هود : 88] وهو الذي يعصمني ﴿ وإليه أنيب ﴾ [هود : 88] يقول : إليه ارجع . ثم قال ﴿ أولو كنا كارهين ﴾ يقول : إلى الرجعة إلى دينكم إن رجعنا إلى دينكم ﴿ فقد افترينا على الله كذباً . . . وما يكون لنا ﴾ يقول : وما ينبغي لنا أن نعود فيها بعد إذ نجانا الله منها ﴿ إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ فخاف العاقبة فرد المشيئة إلى الله تعالى فقال ﴿ إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما ﴾ ما ندري ما سبق لنا ﴿ عليه توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ يعني الفاصلين قال ابن عباس : كان حليماً صادقاً وقوراً ، وكان رسول الله صلى عليه وسلم إذا ذكر شعيباً يقول " ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما دعاهم إليه ، وفيما ردوا عليه

وكذبوه وتواعدوه بالرجم والنفي من بلادهم "

وتواعد كبراؤهم ضعفاءهم قالوا ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فلم ينته شعيب أن دعاهم ، فلما عتوا على الله ﴿ أخذتهم الرجفة ﴾ وذلك أن جبريل نزل فوقف عليهم ، فصاح صيحة رجفت منها الجبال والأرض فخرجت أرواحهم من أبدانهم ، فذلك قوله ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ وذلك أنهم حين سمعوا الصيحة قاموا قياماً وفزعوا لها ، فرجفت بهم الأرض فرمتهم ميتين .

وأخرج إسحق وابن عساكر عن عكرمة والسدي قالا : ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً . مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة ، ومرة أخرى إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ قال : لا تظلموا الناس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ قال : لا تظلموهم ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ قال : كانوا يوعدون من أتى شعيباً وغشيه وأراد الإِسلام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط

توعدون ﴾ قال : كانوا يجلسون في الطريق فيخبرون من أتى عليهم أن شعيباً كذاب ، فلا يفتننّكم عن دينكم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ قال : طريق ﴿ توعدون ﴾ قال : تخوّفون الناس أن يأتوا شعيباً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ قال : بكل سبيل حق ﴿ وتصدون عن سبيل الله ﴾ قال : تصدون أهلها ﴿ وتبغونها عوجا ﴾ قال : تلتمسون لها الزيغ .

وأخرج ابن جرير وابي أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ قال : العاشر ﴿ وتصدون عن سبيل الله ﴾ قال : تصدون عن الإِسلام ﴿ وتبغونها عوجاً ﴾ قال : هلاكاً .

(163/279)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وتبغونها ﴾ قال : تبغون السبيل عوجا قال : عن الحق .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ قال : هم العشار .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية عن أبي هريرة أو غيره شك أبو عالية قال : " أتى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسريَ به على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته . قال " ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل أقوام من أمتك يعقدون على الطريق فيقطعونه ، ثم تلا ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ " " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ قال : ما ينبغي لنا أن نعود في شرككم ﴿ بعد إذ نجانا الله إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ والله لا يشاء الشرك ، ولكن يقول : إلا أن يكون الله قد علم شيئاً فإنه قد وسع كل شيء علماً .

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن زيد بن أسلم : أنه قال في القدرية والله ما قالوا كما قال الله ولا كما قال النبيون ولا كما قال أصحاب الجنة ولا كما قال أصحاب النار ولا كما قال أخوهم إبليس . قال الله ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء ﴾ [الإنسان : 30] وقال شعيب ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ﴾ وقال أصحاب الجنة ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ [الأعراف : 43] وقال أصحاب النار ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ [الزمر : 71] وقال إبليس ﴿ رب بما أغويتني ﴾ [الحجر : 39] .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في الوقف والابتداء والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : ما كنت أدري ما قوله ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزي تقول : تعال أفاتحك : يعني أقاضيك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ربنا افتح ﴾ يقول : اقض .

(164/279)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : الفتح : القضاء . لغة يمانية إذا قال أحدهم : تعال أقاضيك القضاء قال : تعال أفاتحك .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ قال : كأن لم يعمروا فيها .

وأخرج ابي جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ قال : كأن لم يعيشوا فيها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ يقول : كأن لم يعيشوا فيها .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله شعيباً أسمع قومه ، وأن نبي الله صالحاً أسمع قومه كما أسمع والله نبيكم محمد قومه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فكيف آسى ﴾ قال : أحزن .

وأخرج ابن عساكر عن مبلة بن عبد الله قال : بعث الله جبريل إلى أهل مدين شطر الليل ليأفكهم بمغانيهم ، فألفى رجلاً قائماً يتلو كتاب الله ، فهاله أن يهلكه فيمن يهلك ، فرجع إلى المعراج فقال : اللهمَّ أنت سبوح قدوس بعثتني إلى مدين لإفك مدائنهم فأصبت رجلاً قائماً يتلو كتاب الله ، فأوحى الله : ما أعرفني به هو فلان بن فلان ، فابدأ به فإنه لم يدفع عن محارمي إلا موادعاً .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس . أن شعيباً كان يقرأ من الكتب التي كان الله أنزلها على إبراهيم عليه السلام .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما ، قبر إسمعيل وشعيب . فقبر إسمعيل في الحجر ، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود .

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه . أن شعيباً مات بمكة ومن معه من المؤمنين فقبورهم في غربي الكعبة ، بين دار الندوة وبين باب بني سهم .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب عن مالك بن أنس قال : كان شعيب خطيب الأنبياء .

(165/279)

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن ابن إسحق قال : ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر شعيباً قال : ذلك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، فيما يرادهم به ، فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلاده وعتوا على الله ، أخذهم عذاب يوم الظلة ، فبلغني أن رجلاً من أهل مدين يقال له عمرو بن حلها فما رآها قال : "

يا قوم إن شعيباً مرسل فذروا . . . عنكم سميراً وعمران بن شداد

إني أرى عينة يا قوم قد طلعت . . . تدعو بصوت على ضمانة الواد

وإنه لا يروي فيه ضحى غد . . . إلا الرقيم يحشى بين أنجاد

" وسمير وعمران كاهناهم ، والرقيم كلبهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(166/279)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَكَيْفَ آسى على قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ "كيف" هنا مثل "كيف" في : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة : 28] وتقدم الكلام على "آسى" وبابه .

وقرأ ابن وثاب وابن مصرّف والأعمش : "إيسى" بكسر الهمزة التي هي حرف مضارعة ، وتقدم أنها لغة بني أخْيَل في "الفاتحة" ، ولزم من ذلك قلب الفاء بعدها ياءً ؛ لأن الأصل أأسى بهمزتين .

والأسى : شدة الحظن قال العجّاج : [الرجز]

2529 - وانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الأسَى . . .

والأسى : الصبر .

وفي المعنى قولان :

الأول : أنه اشتد حزنه على قومه ، لأنهم كانوا كثيرين ، وكان يتوقع منهم الإيمان ، فلمّا نزل بهم الهلاك العظيم حصل في قلبه من جهة القرابة والمجاورة وطول الألفة حزن ، ثم عزى نفسه وقال : ﴿ كيف آسى على قوم كافرين ﴾ ، لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بإصْرارِهِمْ على الكُفْرِ .

الثاني : أنَّ المعنى : لقد أعْذَرْتُ إليكم في الإبلاغِ والنَّصِيحَةِ والتَّحْذِير مما حلَّ بكم ؛ فلم تسمعوا قولي ، ولم تَقْبَلُوا نَصِيحَتِي " فَكَيْفَ آسَى عَلَيْكُمْ " ، بمعنى أَنَّكُمْ لستم مستحقِّين بأنْ آسى عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 231.232 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93)

بَيَّنَ أنه راعى حدَّ الأمر ؛ فإذا خرج عن عهدة التكليف في التبليغ فما عليه من إقرارهم أو إنكارهم ، من توحيدهم أو جحودهم ؛ إنْ أحسنوا فالميراثُ الجميلُ لهم ، وإن أساءوا فالضررُ بالتألم عائدٌ عليهم ، ومَالِكُ الأعيان أوْلى بها من الأغيار ، فالخَلْقُ خَلْقُه والمُلْكُ مُلْكُه ؛ إن شاءَ هداهم ، وإن شاء أغواهم ، فلا تأسُّفُ على نفيٍ وفقد ، ولا أثر من كَوْنٍ ووجود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 552 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ﴾

كان يقال لشعيب عليه السلام خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ معجزة شاهدة بصحة نبوّتى أوجبت عليكم الإيمان بى والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه ، فأوفوا ولا تبخسوا . فإن قلت : ما كانت معجزته ؟ قلت : قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة ، لقوله قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ .

ولأنه لا بدّ لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه ، وإلا لم تصح دعواه ، وكان متنبئاً لا نبيا غير أنّ معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى اللّه عليه وسلم فيه . ومن معجزات شعيب عليه السلام : ما روى من محاربة عصى موسى عليه السلام التنين « 1 » حين دفع إليه غنمه . وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها ، ووقوع عصى آدم عليه السلام على يده في المرات السبع ، وغير ذلك من الآيات ، لأنّ هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام ، فكانت معجزات لشعيب . فإن قلت : كيف قيل الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وهلا قيل : المكيال والميزان ، كما في سورة

هود عليه السلام؟ قلت: أريد بالكيل: آلة الكيل وهو المكيال. أو سمى ما يكال به بالكيل، كما قيل: العيش، لما يعاش به. أو أريد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر، ويقال: بخسته حقه: إذا نقصته إياه. ومنه قيل للمكس البخس. وفي أمثالهم: تحسبها حمقاء وهي باخس. وقيل أَشْياءَهُمْ لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوة كما يفعل أمراء الحرمين. وروى أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا هي زيوف فقطعوها قطاعا، ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلها زيوفا بَعْدَ إِصْلاحِها بعد الإصلاح فيها، أى لا تفسدوا فيها بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم. وإضافته كإضافة قوله بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بمعنى بل مكركم في الليل والنهار، أو

---

(1). قوله «التنين» هو ضرب من الحيات والدرع سود الرؤوس بيض سائر الأبدان ا ه.

(ع)

بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف ذِلِكُمْ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض. أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه. ومعنى خَيْرٌ لَكُمْ يعنى في الإنسانية وحسن الأحدوثة، وما تطلبونه من التكسب والتربح، لأن الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إن كنتم مصدقين لي في قولي ذلكم خير لكم وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ ولا تقتدوا بالشيطان في قوله لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ فتقعدوا بكل صراط أى بكل منهاج من مناهج الدين. والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ومحل تُوعِدُونَ وما عطف عليه: النصب على الحال أى:

ولا تقعدوا موعدين وصادّين عن سبيل اللّه، وباغيها عوجاً. فإن قلت: صراط الحق واحد، وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ فكيف قيل: بكل صراط؟

قلت: صراط الحق واحد، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أوعدوه وصدّوه. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في آمَنَ بِهِ؟ قلت: إلى كل صراط. تقديره: توعدون من آمن به وتصدّون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل اللّه موضع الضمير، زيادة في تقبيح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدّون عنه. وقيل: كانوا يجلسون على الطرق والمراصد، فيقولون لمن مرّ بهم: إن

شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم ، كما كان يفعل قريش بمكة . وقيل : كانوا يقطعون الطرق .

وقيل : كانوا عشارين وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وتطلبون لسبيل اللّه عوجا ، أى تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة ، لتصدّوهم عن سلوكها والدخول فيها : أو يكون تهكما بهم ، وأنهم يطلبون لها ما هو محال ، لأنّ طريق الحق لا يعوج وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا إذ مفعول به غير ظرف . أى : واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلا عددكم فَكَثَّرَكُمْ اللّه ووفر عددكم .

قيل : إن مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط فولدت فرمى اللّه في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا . ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم : فجعلكم مكثرين موسرين . أو كنتم أقلة أذلة فأعزكم بكثرة العدد والعدد عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم ، كقوم نوح وهود وصالح ولوط ، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفكة فَاصْبِرُوا فتربصوا وانتظروا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا أى بين الفريقين ، بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم . وهذا وعيد للكافرين بانتقام اللّه منهم ، كقوله فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ أو هو عظة للمؤمنين وحثّ على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم اللّه بينهم وينتقم لهم منهم .

ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين ، أى ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم ، حتى يحكم اللّه فيميز الخبيث من الطيب وَهُوَ خَيْرُ

(170/279)

الْحاكِمِينَ

لأنّ حكمه حق وعدل ، لا يخاف فيه الحيف .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 88 إلى 89]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (89)

أى ليكوننّ أحد الأمرين : إمّا إخراجكم ، وإمّا عودكم في الكفر . فإن قلت : كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود «1» في الكفر في قولهم أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا وكيف أجابهم بقوله إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير ، فضلا عن الكبائر ، فضلا

عن الكفر ؟ قلت : لما قالوا لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك ، فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا : لتعودنّ ، فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجعلوهم عائدين جميعا ، إجراء للكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال :

إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا اللّه منها ، وهو يريد عود قومه ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم

---

(1) . قال محمود : «إن قلت كيف خاطبوا شعيباً بصيغة العود . . . الخ» قال أحمد : والزمخشري بنى هذا الكلام على أن صيغة العود تستدعى رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل . والتحقيق في الجواب عن السؤال المذكور مع اقتضاء العود لذلك : أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك ، إلا أنه كثيراً ما يرد بمعنى صار . وحينئذ يجوز أن يكون أخا لكان ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك وهو الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتنفة مثل صار ، وكأنهم قالوا – واللّه أعلم – : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفاراً مثلنا ، وحينئذ يندفع السؤال . أو يسلم استعمال العود بمعنى الرجوع إلى أمر سابق . ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ والإخراج يستدعى دخولا سابقا فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الايمان لم يدخل قط في ظلمة الكفر ولا كان فيها وكذلك الكافر

الأصلى لم يدخل قط في نور الايمان ولا كان فيه ، ولكن لما كان الايمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق اللّه العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكنا منه لو أراده ، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله عنه إلى الايمان إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور . توفيقاً من اللّه له ولطفا به . وبالعكس في حق الكافر ، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب . وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار لاقامة حجة اللّه على عباده ، واللّه أعلم .

(171/279)

وإن كان بريئا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب ، فإن قلت : فما معنى قوله وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ واللّه تعالى متعال أن يشاء ردّة المؤمنين «1» وعودهم في الكفر «2» ؟ قلت : معناه إلا أن يشاء اللّه خذلاننا ومنعنا الألطاف ، لعلمه انها لا تنفع فينا وتكون عبثاً . والعبث قبيح لا يفعله الحكيم ، والدليل عليه قوله وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أى هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون ، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل ، وقلوبهم كيف تتقلب ، وكيف تقسو بعد الرقة ، وتمرض بعد الصحة ، وترجع إلى الكفر

بعد الإيمان عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد الإيقان . ويجوز أن يكون قوله إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ حسما لطمعهم «3» في العود ، لأن مشيئة اللّه لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة «4» أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ الهمزة للاستفهام ، والواو واو الحال ، تقديره : أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ، ومع كوننا كارهين . وما يكون لنا ، وما ينبغي لنا ، وما يصح لنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا احكم بيننا . والفتاحة ، الحكومة ، أو أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا وَبَيْنَ قَوْمِنا وينكشف بأن تنزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ كقوله وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ . فإن قلت : كيف أسلوب قوله قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ ؟ قلت : هو إخبار مقيد بالشرط ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون كلاما مستأنفاً فيه معنى التعجب ، كأنهم قالوا : ما أكذبنا على اللّه إن عدنا في الكفر بعد الإسلام ، لأنّ المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر ، لأنّ الكافر مفتر على اللّه الكذب ، حيث يزعم أنّ للّه نداً ولا ندّ له . والمرتدّ مثله في ذلك وزائد عليه ، حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفى عليه من التمييز

---

(1) . قوله «و اللّه تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين» أى تنزه عن أن يشاء . . . الخ ، على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر . أما عند أهل السنة فيريده كالخير . (ع)

(2) . قال محمود : «إن قلت اللّه تعالى مقدس عن أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم إلى الكفر . . . الخ» . قال أحمد : وهذا السؤال كما ترى مفرع على القاعدة الفاسدة ، في

اعتقاد وجوب رعاية الصلاح والأصلح ، وهو غير موجه على قاعدة السنة ، فظاهر الآية هو المعول عليه لا يجوز تأويله ولا تبديله . وأما استدلال الزمخشري على صحة تأويله بقوله وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً فمن احتيالاته في التأويلات الباطلة ، يعضدها ويتبع الشبه ويلفقها . وموقع قوله وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة والاطلاع على الأمور الغائبة ، فان العود إلى الكفر جائز في قدرة اللّه أن يقع من العبد ، ولو وقع فبقدرة اللّه ومشيئته المغيبة عن خلقه ، فالحذر قائم والخوف لازم ، ولكن لمن وفقه اللّه تعالى للعقيدة الصحيحة والايمان السالم ، واللّه الموفق . ونظيره قول إبراهيم عليه السلام وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً لما رد الأمر إلى المشيئة وهي مغيبة بحد اللّه تعالى بالانفراد بعلم الغائبات ، واللّه أعلم .

(3) . عاد كلامه . قال : ويجوز أن يكون المراد حسم طمعهم . . . الخ» قال أحمد : وهذا من الطراز الأول ، فألحقه به ، وسحقا سحقا .

(4) . قوله «محال خارج عن الحكمة» مبنى على مذهب المعتزلة أيضا . (ع)

بين الحق والباطل. والثاني أن يكون قسما على تقدير حذف اللام، بمعنى: واللّه لقد افترينا على اللّه كذبا.

[سورة الأعراف (7): الآيات 90 إلى 92]

وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92)

وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ أى أشرافهم للذين دونهم يثبطونهم عن الإيمان لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ لاستبدالكم الضلالة بالهدى، كقوله تعالى أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وقيل: تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية. فإن قلت: ما جواب القسم الذي وطأته اللام في لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً وجواب الشرط؟ قلت: قوله إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ سادّ مسدّ الجوابين الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً مبتدأ خبره كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا وكذلك كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا، كأن لم يقيموا في دارهم، لأنّ الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم اللّه، الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم، دون أتباعه فإنهم الرابحون. وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير: مبالغة في ردّ مقالة الملإ لأشياعهم، وتسفيه

لرأيهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم .

[سورة الأعراف (7) : آية 93]

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (93)

الأسى : شدّة الحزن . قال العجاج :

وانحلبت عيناه من فرط الأسى

اشتدّ حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال : فكيف يشتدّ حزنى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم ويجوز أن يريد لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حلّ بكم فلم تسمعوا قولي ولم تصدقوني فكيف آسى عليكم يعنى أنه لا يأسى عليهم لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى . وقرأ يحيى بن وثاب : فكيف إيسى ، بكسر الهمزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 127 . 131﴾

(173/279)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ

مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93) ﴾

(174/279)

التفسير : القصة السادسة قصة شعيب ومدين اسم البلد . وقيل : اسم القبيلة لأنه شعيب بن توبب بن مدين بن إبراهيم خليل الرحمن وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، وذلك أنه أمرهم بأشياء : الأوّل : عبادة الله ، أمرهم بها ونهاهم عن عبادة غير الله وهذا أصل معتبر في شرائع جميع الأنبياء . الثاني : تصديق ما ادعاه من النبوّة وأشار إليه بقوله ﴿ قد جاءتكم بينة ﴾ أي معجزة دالة على نبوّتي . ففي الآية دلالة مجملة على أن لشعيب معجزة ظاهرة كما ينبغي لكل مدعي نبوّة وإلا كان متنبئاً ، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم يذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وآله فيه . يحكى أنه دفع إلى موسى عصاه وتلك العصا ربت التنين وأيضاً قال لموسى : إن هذه الأغنام تلد

أولاداً عنقها أسود وسائرها أبيض وقد وهبتها منك وكان الأمر كما أخبر . وكل ذلك قبل أن يستنبأ موسى . فقال أهل السنة : إن هذه الأمور علامات نبوّة موسى ويمسى إرهاصاً . وقالت المعتزلة : إنها معجزات شعيب بناء على أن الإرهاص عندهم غير جائز . الثالث قوله ﴿ فأوفوا الكيل ﴾ الآية . واعلم أن للأنبياء عليهم السلام أن يبدأوا في الموعظة بما يكون قومهم مقبلين عليه . وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف فكأنه يقول : البخس عبارة عن الخيانة بالشيء القليل وهو أمر مستقبح في العقول ومع ذلك فقد جاءت البينة والشريعة الموجبة لتحريمه فلم يبق لكم فيه عذر فأوفوا الكيل والميزان . قال في الكشاف : لم يقل المكيال والميزان كما في سورة هود لأنه أراد بالكيل آلة الكيل وهو المكيال ، أو سمى ما يكال به بالكيل كما قيل العيش لما يعاش به ، أو أريد فأوفوا الكيل ووزن الميزان ، أو الميزان مصدر كالميعاد والميلاد .

(175/279)

الرابع ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ يقال : بخسته حقه إذا نقصته إياه ومنه قيل للمكس البخس . وفي المثل تحسبها حمقاء وهي باخس . قال ثعلب : وإن شئت قلت باخسة وذلك بتأويل الإنسان أن النسمة يضرب لمن لا يعبأ به وفيه دهاء وجربزة . خص

أولاً ثم عمم ليشمل جميع أنواع الظلم كالغصب والسرقة وأخذ الرشوة وقطع الطريق وانتزاع الأموال بوجوه الاحتيال . يروى أنهم كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه ، وكانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا هي زيوف فقطعوها قطعاً ثم أخذوها بنقصان ظاهر وأعطوه بدلها زيوفاً . الخامس ﴿ ولا تفسدوا في الأرض ﴾ وهذا أعم من البخس لشموله الأموال والأعراض والنفوس وكل ما يوجب مفسدة دنيوية أو دينية .

والمعنى بعد إصلاح أهلاه على حذف المضاف أو هو كقوله ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] أي بعد الإصلاح فيها يعني إصلاح الصالحين من الأنبياء ومتابعيهم العالمين بشرائعهم ﴿ ذلكم ﴾ الذي ذكر من الأمور الخمسة ﴿ خيرٌ لكم ﴾ في الإنسانية وحسن الأحدوثة وزيادة البركة لرغبة الناس في متاجرتكم عند اشتهاركم بالأمانة والديانة . ولا يخفى أن حاصل هذه التكاليف الخمسة يرجع إلى التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ مصدقين لي في قولي . ثم فصل بعض ما أجمل فقال ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ قيل : الصراط حقيقة وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطرق والمراصد كما كانت تفعل قريش بمكة يخوّفون من آمن بشعيب ويقولون إنه كذاب لا يفتنكم عن دينكم ، أو كانوا يقطعون الطرق أو كانوا عشارين . وقيل : إنه مجاز عن الدين أي لا تقعدوا على طريق الدين ومنهاج الحق لأجل أن تمنعوا الناس عن قبوله اقتداء بالشيطان حيث قال ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] ودليل هذا المجاز قوله ﴿

وتصدون عن سبيل الله ﴾ يقال : قعد بمكان كذا أي التصق به ، وعلى مكان كذا أي علا ذلك المكان وفيه إذا حل ، فحروف الجر تتعاقب في

(176/279)

مثل هذا الموضع لتقارب معانيها . ومحل ﴿ توعدون ﴾ وما عطف عليه نصب على الحال ، نهاهم عن القعود على صراط الله حال الاشتغال بأحد هذه الأفعال . وإنما قال ﴿ بكل صراط ﴾ مع أن صراط الحق واحد لأنه يتشعب إلى معالم وحدود وأحكام كثيرة كل منها في نفسه سبيل ، وكانوا إذا رأوا أحداً يشرع فيها أوعدوه وصدوه . والضمير في ﴿ به ﴾ راجع إلى كل صراط والتقدير : توعدون من آمن به وتصدون عنه فوضع الظاهر موضع الضمير زيادة في التقبيح والتفظيع . ومعنى ﴿ وتبغونها ﴾ تطلبون لسبيل الله ﴿ عوجاً ﴾ أي تصفونها للناس بأنها معوجة وذلك بالقاء الشكوك والشبهات . قال في الكشاف : أو يكون تهكماً بهم وأنهم يطلبون لها ما هو محال لأن طريق الحق لا تعوج .

(177/279)

ثم ذكرهم نعم الله تعالى لأن ذكر النعم مما يحمل على الطاعة ويبعد عن المعصية فقال ﴿ واذكرا إذ كنتم ﴾ أي وقت كونكم ﴿ قليلاً فكثركم ﴾ قال الزجاج يحتمل كثرة العدد بعد القلة وكثرة الغنى بعد الفقر وكثرة القدرة والشدة بعد الضعف والذلة . قيل : إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء وصاروا كثيراً في العدة والعدة والشدّة . ثم حذرهم سوء عاقبة من أفسد قبلهم من الأمم وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفكة فقال ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ رغبهم أولاً ثم رهبهم ثانياً وأكد الترهيب بقوله ﴿ وإن كان طائفة ﴾ الآية . وفيه وعيد للكافرين ووعد للمؤمنين وحث لهم على الصبر على ما يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم بمقتضى العدل والحكمة خير الحاكمين . ثم حكى جواب قومه المحجوجين المستكبرين وذلك قولهم ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ أي أحد الأمرين كائن لا محالة إما إخراجكم وإما عودكم إلى الكفر . وههنا سؤال وهو أن الكفر على الأنبياء محال فكيف يتصور عوده إليه ؟ وهب أن قول الكفار ليس حجة أليس قول شعيب حجة حيث قال ﴿ إن عدنا في ملتكم ﴾ ؟ وأجيب بأن الكلام بني على التغليب ، وأن شعيباً أراد عود قومه إلا أنه نظم نفسه في جملتهم لما ذكرنا ، أو لعل رؤساءهم قالوا ذلك تلبيساً على القوم وشعيب أجرى كلامه على وفق ذلك ، أو أنه كان في أوّل أمره يخفي مذهبه فتوهموا أنه على دينهم ، أو أريد بالملة الشريعة التي صارت

منسوخة بشرعه ، أو يطلق العود على الابتداء كقوله :

وإن تكن الأيام أحسنّ مرّة . . . إليّ فقد عادت لهن ذنوب .

(178/279)

قال شعيب في جوابهم ﴿ أولو كنا كارهين ﴾ الهمزة للاستفهام والواو للحال والتقدير : أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهيتنا ؟ . ثم صرح بأنه لا يفعل ذلك فقال ﴿ قد افترينا على الله كذباً ﴾ إن فعلنا ذلك وذلك أن أصل الباب في النبوة والرسالة صدق اللهجة والبراءة عن الكذب والعود في ملتكم ينافي ذلك . ومعنى قوله ﴿ بعد إذ نجانا الله منها ﴾ بعد أن علمنا قبحه وفساده ونصب الأدلة على بطلانه ، أو المراد نجى قومه فغلب ، أو المراد على حسب زعمكم ومعتقدكم كما مر . قال في الكشاف : وقوله ﴿ قد افترينا ﴾ إخبار مقيد بالشرط وفيه وجهان : أحدهما : أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه معنى التعجب كأنهم قالوا : ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام لأن الارتداد أعظم من الكفر حيث إن المرتد يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل وكفره أزيد . والثاني أن يكون قسماً على تقدير حذف اللام معناه والله لقد افترينا على الله كذباً ﴿ وما يكون لنا ﴾ أي ما ينبغي لنا وما يصح ﴿ أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ قال أهل

السنة : في الآية دلالة على أن المنجي من الكفر هو الله تعالى وكذا المعيد إليه قال الواحدي : ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ، ألا ترى إلى قول الخليل عليه السلام

(179/279)

﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ [إبراهيم : 35] وكثيراً ما كان يقول نبينا صلى الله عليه وسلم : " يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك وطاعتك " وقال يوسف ﴿ توفني مسلماً ﴾ [يوسف : 101] أجابت المعتزلة بوجوه : الأوّل : أن قوله ﴿ إلا أن يشاء ﴾ قضية شرطية أي إن شاء يعد وليس فيه بيان أنه شاء أم أبى . الثاني : أن هذا على طريق التبعيد والإحالة . كما يقال لا يفعل ذلك إلا إذا ابيض القار وشار الغراب . الثالث : لعل المراد ما لو أكرهوا على العود فإن إظهار الكفر عند الإكراه جائز وإن كان الصبر أفضل وما كان جائزاً صح أن يكون مراد الله تعالى كما أن المسح على الخفين مراد الله وإن كان غسل الرجلين أفضل . الرابع : يحتمل أن يعود الضمير في ﴿ فيها ﴾ إلى قرية . كأنه قال : إن أخرجتمونا من القرية حرم علينا العود فيها إلا بإذن الله تعال . الخامس : المشيئة عند أهل السنة لا توجب جواز الفعل فإنه تعالى يريد الكفر من الكافر ولا يجوز فعله إنما الذي يوجب الجزواز هو الأمر فيحتمل أن يراد بالمشيئة ههنا الأمر فيكون التقدير

: إلا أن يأمر الله أن نعود إلى شريعتكم المنسوخة ، فإن الشرع المنسوخ لا يبعد أن يأمر الله تعالى بالعمل به مرة أخرى . السادس : قال الجبائيّ : المراد من الملة الشريعة التي يجوز اختلاف التعبد فيها بالأوقات كالصوم والصلاة ، فمن الجائز أن يكون بعض أحكام الشريعة المنسوخة باقياً فيكون المعنى إلا أن يشاء الله إبقاء بعض تلك الملة فيدلنا عليها . ثم إن المعتزلة تمسكوا بالآية على صحة قولهم من وجهين : أحدهما : أن قوله ﴿ وما يكون لنا ﴾ معناه لو شاء الله عودنا إليها لكان لنا أن نعود وذلك يقتضي أن كل ما شاء تعالى وجوده كان فعلاً جائزاً مأذوناً فيه ، وما كان حراماً ممنوعاً منه لم يكن مراد الله تعالى . وثانيهما : أن قوله ﴿ لنخرجنك ﴾ أو ﴿ لتعودن ﴾ لا وجه للفصل بينهما فإن كان العود بخلق الله كان الإخراج أيضاً

(180/279)

بخلقه . قلت : للسني أن يلتزم ذلك . أما قوله ﴿ وسع ربنا كل شيء ﴾ فوجه تعلقه بما تقدمه على قول الجبائيّ هو أن التكليف بحسب المصالح فيكون معنى قول شعيب إلا أن يشاء الله إلا أن تختلف المصلحة في تلك العبادات فحينئذ يكلفنا بها والعلم بالمصالح لا يكون إلا بأن وسع كل شيء علماً . وقالت الأشاعرة : وجه التعلق هو أن القوم لمّا قالوا

لنخرجنك أو لتعودن قال شعيب ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ فربما كان في علمه قسم ثالث : وهو أن يبقينا في القرية مؤمنين ويجعلكم مقهورين خاسرين ويؤكد هذا التفسير قوله عقيب ذلك ﴿ على الله توكلنا ﴾ أي لا على غيره وانتصاب ﴿ علماً ﴾ على التمييز .

(181/279)

وفي قوله ﴿ وسع ﴾ بلفظ الماضي دلالة على أنه تعالى كان في الأزل عالماً بجميع المعلومات فلا يخرج عن شيء عن مقتضى علمه وهو معنى جفاف الأقلام وطي الصحف ولزوم الأحكام وسعادة السعيد وشقاوة الشقي ويعلم من عموم كل شيء أنه علم الماضي والحال والمستقبل وعلم المعدوم أنه لو كان كيف يكون . فهذه أقسام أربعة يقع كل منها على أربعة أوجه لأنه علم الماضي كيف كان ، وعلم أنه لو لم يكن ماضياً بل كان حالاً أو مستقبلاً أو معدوماً محضاً فإنه كيف يكون ، وكذا الكلام في الأقسام الأخر فيكون المجموع ستة عشر . وإذا اعتبر كل منها بحب كل جنس أو نوع أو صنف أو شخص من الجواهر أو الأعراض صار مبلغاً تتحير فيه عقول العقلاء بل تقف دون أوّل قطرة من قطرات بحاره . ثم إن شعيباً لما أعرض عن الأسباب وارتقى بطريق التوكل إلى مسببها ختم كلامه بالدعاء قائلاً ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي : احكم

واقض . وعن ابن عباس : ما أدري ما معناه حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لزوجها : تعالى أفاتحك أي أحاكمك . وجوز الزجاج أن يكون معنى الآية أظهر أمرنا حتى يتضح وينكشف ما بيننا وبين قومنا . والمراد أن ينزل عليهم عذاباً يدل على كونهم مبطلين وعلى كون شعيب وقومه محقين . ثم أثنى على الله بقوله ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ كما قال ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ قالت الأشاعرة : الإيمان فتح باب الخيرات وهو أشرف صفات المحدثات ، فلو كان موجد الإيمان هو العبد كان خير الفاتحين هو العبد . وللمعتزلة أن يقولوا : لولا ألطافه المرجحة الداعية لم يوجد الإيمان من العبد فصح أن الله هو خير الفاتحين . ثم بيّن أن رؤساء قوم شعيب لمن يقتصروا على الضلال بل بادروا إلى الإضلال قائلين لمن دونهم ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ أي في الدين أو في الدنيا لأنه يمنعكم من ازدياد الأموال بطريق البخس والتطفيف ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ قد سبق تفسيرها ﴿ الذين كذبوا

(182/279)

شعيباً كأن لم يغنوا فيها ﴾ يقال غني القوم في دارهم إذا طال مقامهم فيها . والمغاني المنازل إذا كان فيها أهلها . وقال الزجاج : أي كأن لم يعيشوا فيها مستغنين من الغنى الذي هو ضد

الفقر . وعلى التفسيرين شبه حال المكذبين بحال من لم يكن قط في تلك الديار كقوله : كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر . قال في الكشاف ﴿ الذين كذبوا ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كأن لم يغنوا ﴾ وكذلك ﴿ كانوا هم الخاسرين ﴾ وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص كأنه قيل : الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا كأن لم يقيموا في ديارهم لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله ﴿ الذين كذبوا شعيباً ﴾ هم المختصون بالخسران العظيم دون أتباعه فإنهم الرابحون ، وفي هذا الاستئناف والابتداء والتكرير مبالغة في رد مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيه لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم .

(183/279)

قلت : والعرب قد تكرر للتفخيم والتعظيم فتقول : أخوك الذي ظلمنا أخوك الذي أخذ أموالنا أخوك الذي هتك أعراضنا . وأيضاً إن القوم لما قالوا ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ بيّن الله تعالى أن الذين لم يتبعوه وخالفوه وهم الخاسرون . وفي الآية فوائد أخرى منها : أن ذلك العذاب إنما حدث بتخليق فاعل مختار وليس ذلك أثر الكواكب والطبيعة وإلا حصل في أتباع شعيب كما حصل في حق الكفار . ومنها أن ذلك الفاعل

عليم بالجزئيات حتى يمكنه التمييز بين المطيع والعاصي . ومنها أن يكون معجزة لشعيب حيث وقع ذلك العذاب على قوم دون قوم مع كونهم مجتمعين في بلد واحد ﴿ فتولى عنهم ﴾ قد تقدم أن هذا التولي جائز أن يكون قبل نزول العذاب وجائز أن يكون بعده . قال الكلبي : خرج من بينهم ولم يعذب قوم نبي حتى أخرج من بين أظهرهم . ولما اشتد حزنه على قومه من جهة الوصلة والقرابة والمجاورة وطول الإلفة لأنهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منم الإجابه للإيمان عزّى نفسه وقال ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ لأنهم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب إصرارهم على الكفر . والأسى شدة الحزن . وقيل : المراد لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حل بكم فلم تسمعوا قولي ولم تقبلوا نصيحتي فكيف آسى عليكم لأنكم لستم مستحقين لذلك ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 284. 289 ﴾

(184/279)

فصل

قال الشوكانى :

قوله : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾ معطوف على ما تقدّم ، أي وأرسلنا .

ومدين : اسم قبيلة ، وقيل : اسم بلد والأوّل أولى .

وسميت القبيلة باسم أبيهم ، وهو مدين بن إبراهيم كما يقال بكر وتميم .

قوله : ﴿ أخاهم شُعَيْباً ﴾ شعيب عطف بيان ، وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب بن مدين بن إبراهيم ، قاله عطاء وابن إسحاق وغيرهما .

وقال الشرقي بن القطامي : إنه شعيب بن عيفاء بن ثويب بن مدين بن إبراهيم .

وزعم ابن سمعان أنه شعيب بن حرّة بن يشجب بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

وقال قتادة : هو شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم .

قوله : ﴿ قَالَ يا قوم ﴾ إلى قوله : ﴿ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قد سبق شرحه في قصة نوح .

قوله : ﴿ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان ﴾ أمرهم بإيفاء الكيل والميزان ، لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن ، وكانوا لا يوفونهما ، وذكر الكيل الذي هو المصدر ، وعطف عليه الميزان الذي هو اسم للآلة .

واختلف في توجيه ذلك ، فقيل المراد بالكيل : المكيال ، فتناسب عطف الميزان عليه .

وقيل المراد بالميزان : الوزن فيناسب الكيل ، والفاء في ﴿ فأوفوا ﴾ للعطف على اعبدوا .

قوله : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ البخس النقص ، وهو يكون بالتعييب للسلعة

أو التزهيد فيها ، أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه ، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، وظاهر قوله : ﴿ أَشْيَاءهُمْ ﴾ أنهم كانوا يبخسون الناس في كل الأشياء .

وقيل : كانوا مكاسين ، يمكسون كل ما دخل إلى أسواقهم ، ومنه قول زهير :

أفي كل أسواق العراق إتاوة . . . وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

(185/279)

قوله : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى الأَرض بَعْدَ إِصلاحها ﴾ قد تقدّم تفسيره قريباً ، ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره ، ودقيقه وجليله ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى العمل بما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ، والمراد بالخيرية هنا : الزيادة المطلقة ، لأنه لا خير في عدم إيفاء الكيل والوزن ، وفي بخس الناس ، وفي الفساد في الأرض أصلاً .

قوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلّ صراط تُوعِدُونَ ﴾ الصراط : الطريق ، أي لا تقعدوا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب .

قيل : كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب ، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ، ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه ، كما كانت قريش تفعله مع النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، والسديّ ، وغيرهم .

وقيل المراد : القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها .

وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة .

ويؤيده : ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ ءامَنَ بِهِ ﴾ وقيل : المراد بالآية النهي عن قطع الطريق ، وأخذ السلب ، وكان ذلك من فعلهم .

وقيل : إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطرق من أموال الناس ، فنهوا عن ذلك .

والقول الأوّل : أقربها إلى الصواب ، مع أنه لا مانع من حمل النهي على جميع هذه الأقوال المذكورة .

وجملة ﴿ توعدون ﴾ في محل نصب على الحال ، وكذلك ما عطف عليها ، أي لا تقعدوا بكل طريق موعدين لأهله ، صادّين عن سبيل الله ، باغين لها عوجاً ، والمراد بالصدّ ﴿ عن سبيل الله ﴾ : صدّ الناس عن الطريق الذي قعدوا عليه ، ومنعهم من الوصول إلى شعيب ، فإن سلوك الناس في ذلك السبيل للوصول إلى نبيّ الله هو سلوك سبيل الله ، و ﴿ مَنْ ءامَنَ بِهِ ﴾ مفعول ﴿ تصدّون ﴾ ، والضمير في ﴿ آمن به ﴾ يرجع إلى الله ، أو إلى سبيل الله ، أو إلى كل صراط أو إلى شعيب ، و ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ أي تطلبون سبيل الله أن تكون معوجة غير مستقيمة ، وقد سبق الكلام على العوج .

قال الزجاج : كسر العين في المعاني وفتحها في الأجرام ﴿ واذكروا إِذْ كُنتُمْ ﴾ أي وقت كنتم ﴿ قَلِيلاً ﴾ عددكم ﴿ فَكَثَّرَكُمْ ﴾ بالنسل .

وقيل : كنتم فقراء فأغناكم .

﴿ وانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ من الأمم الماضية ، فإن الله أهلكهم ، وأنزل بهم من العقوبات ما ذهب بهم ومحا أثرهم .

﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءامَنُواْ بالذى أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ إليكم من الأحكام التي شرعها الله لكم ﴿ وَطَائِفَةٌ ﴾ منكم ﴿ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فاصبروا حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم .

وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر .

وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : 52] أو هو أمر للمؤمنين بالصبر على ما يحلّ بهم من أذى الكفار ، حتى ينصرهم الله عليهم .

﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ ﴾ أي قال الأشراف المستكبرون ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين ءامَنُواْ مَعَكَ ﴾ لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرّد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه ، بل جاوزوا ذلك بغياً وبطراً وأشرا إلى توعد نبيهم ، ومن آمن به ، بالإخراج من قريتهم ، أو

عوده هو ومن معه في ملتهم الكفرية ، أي لا بدّ من أحد الأمرين : إما الإخراج ، أو العود .

قال الزجاج : يجوز أن يكون العود بمعنى الإبتداء .

يقال عاد إليّ من فلان مكروه ، أي صار وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك ، فلا يرد ما يقال : كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه الله رسولاً ؟ ويحتاج إلى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه في الخطاب ، بالعود إلى ملتهم .

وجملة ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقدّر .

(187/279)

والهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود ، والواو للحال ، أي أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا للعود إليها ، أو أتخرجوننا من قريتكم في حال كراهتنا للخروج منها ، أو في حال كراهتنا للأمرين جميعاً ، والمعنى : إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين ، ولا يصح لكم ذلك ، فإن المكره لا اختيار له ، ولا تعدّ موافقته مكرها موافقة ، ولا عوده إلى ملتكم مكرهاً عوداً ، وبهذا التقرير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين في هذا المقام ، حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام .

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ التي هي الشرك ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ

مِنْهَا ﴾ بالإيمان ، فلا يكون منا عود إليها أصلاً ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا ﴾ أي ما يصح لنا ولا يستقيم ﴿ أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾ بحال من الأحوال ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ ﴾ أي إلا حال مشيئته سبحانه ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قال الزجاج : أي إلا بمشيئة الله عزّ وجلّ ، قال : وهذا قول أهل السنة .

والمعنى : أنه لا يكون منا العود إلى الكفر ، إلا أن يشاء الله ذلك ، فالاستثناء منقطع .

وقيل : إن الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عزّ وجلّ ، كما في قوله : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ ﴾ [هود : 88] وقيل : هو كقولهم لا أكلمك حتى يبيضّ الغراب ، وحتى يلج الجمل في سمّ الخياط ، والغراب لا يبيض ، والجمل لا يلج ، فهو من باب التعليق بالمحال .

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أي أحاط علمه بكل المعلومات ، فلا يخرج عنه منها شيء ، و ﴿ علماً ﴾ منصوب على التمييز .

(188/279)

وقيل المعنى : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾ أي القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لهم ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ ﴾ عودنا إليها ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي عليه اعتمدنا في أن يثبتنا على الإيمان ، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله ، ويتمّ علينا نعمته ، ويعصمنا من نقمته .

قوله : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ الفتاحة الحكومة ، أي احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين .

دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم ، ولا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقين على المبطلين ، كما أخبرنا به في غير موضع من كتابه فكأنهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين ، وحلول نقمة الله بهم ﴿ وَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾ معطوف على ﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا ﴾ يحتمل أن يكون هؤلاء هم أولئك ، ويحتمل أن يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين أرسل إليهم شعيب ، واللام في ﴿ لئن اتبعتم شعيبا ﴾ موطئة لجواب قسم محذوف ، أي دخلتم في دينه ، وتركتم دينكم ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون ﴾ جواب القسم ساد مسدّ جواب الشرط .

وخسرانهم : هلاكهم ، أو ما يخسرونه بسبب إيفاء الكيل والوزن ، وترك التطفيف الذي كانوا يعاملون الناس به ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ أي : الزلزلة .

وقيل : الصيحة كما في قوله : ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جاثمين ﴾ [هود : 94] قد تقدم تفسيره في قصة صالح .

قوله : ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة لما حلّ بهم من النعمة ، والموصول مبتدأ ، و ﴿ كأن لم يغنوا ﴾ خبره يقال غنيت بالمكان إذا أقمت به ، وغنى القوم في دارهم ، أي طال مقامهم فيها ، والمغني : المنزل ، والجمع المغاني .

قال حاتم الطائي :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى . . . وكلا سقاناه بكاسيهما الدهر

(189/279)

فما زادنا بغياً على ذي قرابة . . . غنانا ولا أزرى باحساننا الفقر

ومعنى الآية : الذين كذبوا شعيباً كأن لم يقيموا في دارهم ، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب ، والموصول ﴿ في الذين كذبوا ﴾ شعيباً مبتدأ خبره ﴿ كَانُواْ هُمُ الخاسرين ﴾ ، وهذه الجملة مستأنفة كالأولى ، متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين ﴿ فتولى عَنْهُمْ ﴾ أي شعيب لما شاهد نزول العذاب بهم ﴿ وَقَالَ يا قوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسالات ربّى ﴾ التي أرسلني بها إليكم ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ ببيان ما فيه سلامة دينكم ودنياكم ﴿ فَكَيْفَ ءاسى ﴾ أي أحزن ﴿ على قَوْمٍ كافرين ﴾ بالله ، مصرّين على كفرهم ، متمردين عن الإجابة ، أو الأسى شدة الحزن ، آسى على ذلك فهو آس .

قال شعيب هذه المقالة تحسراً على عدم إيمان قومه ، ثم سلا نفسه بأنه كيف يقع منه الأسى على قوم ليس بأهل للحزن عليهم لكفرهم بالله ، وعدم قبولهم لما جاء به رسوله .

وقد أخرج ابن إسحاق ، وابن عساكر ، عن عكرمة ، والسدي قالا : ما بعث الله نبياً

مرتين إلا شعيباً : مرة إلى مدين فأخذتهم الصيحة ، ومرة إلى أصحاب الأيكة ﴿ فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة ﴾ [الشعراء : 189] .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ قال : لا تظلموا الناس .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ قال : لا تظلموهم ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلّ صراط تُوعِدُونَ ﴾ قال : كانوا يوعدون من أتى شعيباً وغشيه وأراد الإسلام .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلّ صراط تُوعِدُونَ ﴾ قال : كانوا يجلسون في الطريق ، فيخبرون من أتى عليهم أن شعيباً كذاب ، فلا يفتننكم عن دينكم .

(190/279)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ﴿ بِكُلّ صراط تُوعِدُونَ ﴾ قال : بكل سبيل حق ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ قال : تصدّون أهلها ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ قال : تلتمسون لها الزيغ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلّ صراط تُوعِدُونَ ﴾ قال : هو العاشر ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ قال : تصدّون عن الإسلام ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ قال : هلاكاً .

وأخرج أبو الشيخ ، عن مجاهد ، قال : هم العُشَّار .

وأخرج ابن جرير ، عن أبي العالية ، عن أبي هريرة أو غيره ، شك أبو العالية قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به على خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب إلا شقته ، ولا شيء إلا خرقته ، قال :

" ما هذا يا جبريل ؟ " قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثم تلا ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلّ صراط تُوعِدُونَ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السدي ، في قوله : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾ قال : ما ينبغي لنا أن نعود في شرككم بعد إذ نجانا الله ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء الله رَبُّنَا ﴾ والله لا يشاء الشرك ، ولكن يقول : إلا أن يكون الله قد علم شيئاً ، فإنه قد وسع كل شيء علماً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن الأنباري في الوقف والابتداء ، عن ابن عباس قال : ما ما كنت أدري ما قوله : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ حتى سمعت ابنته ذي يزن تقول : تعال

أفاتحك ، تعني أقاضيك .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه ، في قوله : ﴿ رَبَّنَا افتح ﴾ يقول : اقض .

(191/279)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، قال : الفتح القضاء لغة يمانية إذا قال أحدهم تعال أقاضيك القضاء قال : تعال أفاتحك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ قال : لم يعيشوا فيها .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة ، مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ فَكَيْفَ ءاسى ﴾ قال : أحزن .

وأخرج ابن عساكر ، عن ابن عباس قال : في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما ، قبر إسماعيل ، وقبر شعيب ، فقبر إسماعيل في الحجر ، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود .

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه أن شعيباً مات بمكة ، ومن معه من المؤمنين ،

فقبورهم في غربي الكعبة بين دار الندوة وبين باب بني سهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم ، عن ابن إسحاق قال : ذكر لي يعقوب بن أبي مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر شعيباً قال : " ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يريدهم به ، فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(192/279)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

ونأتي للصفحة الأخيرة من صحائف الأقوام المكذبة في تلك الحقبة من التاريخ . . صفحة مدين وأخيهم شعيب :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في

الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين .

ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين ﴾ . .

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا . قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها – إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً – على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ، فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ ﴾ . .

(193/279)

إننا نجد شيئاً من الإطالة في هذه القصة ، بالقياس إلى نظائرها في هذا الموضع ، ذلك أنها تتضمن غير قضية العقيدة شيئاً عن المعاملات ، وإن كانت القصة سائرة على منهج الاستعراض الإجمالي في هذا السياق .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

فهي قاعدة الدعوة التي لا تغيير فيها ولا تبديل . . ثم تبدأ بعدها بعض التفصيلات في رسالة النبي الجديد : ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ . .

ولا يذكر السياق نوع هذه البينة – كما ذكرها في قصة صالح – ولا نعرف لها تحديداً من مواضع القصة في السور الأخرى . ولكن النص يشير إلى أنه كانت هناك بينة جاءهم بها ، تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله . ويرتب على هذه البينة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان ، والنهي عن الإفساد في الأرض ، والكف عن قطع الطريق على الناس ، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذي ارتضوه :

﴿ فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ . .

وندرك من هذا النهي أن قوم شعيب ، كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده ، إنما

يشركون معه عباده في سلطانه ؛ وأنهم ما كانوا يرجعون في معاملاتهم إلى شرع الله العادل ؛ إنما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل – ولعل شركهم إنما كان في هذه الخصلة – وأنهم – لذلك – كانوا سيئي المعاملة في البيع والشراء ؛ كما كانوا مفسدين في الأرض ، يقطعون الطريق على سواهم .

ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم ؛ ويكرهون الاستقامة التي في سبيل الله ؛ ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة ، لا تمضي على استقامتها كما هي في منهج الله .

(194/279)

ويبدأ شعيب – عليه السلام – بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالألوهية ، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان في أمر الحياة كله .

يبدأ شعيب – عليه السلام – في دعوتهم من هذه القاعدة ؛ التي يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها ؛ كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل . ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه القاعدة .

ويستصحب في دعوتهم إلى الدينونة لله وحده ، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم ،

وترك الإفساد في الأرض بالهوى بعد ما أصلحها الله بالشريعة . . يستصحب في دعوتهم إلى هذا كله بعض المؤثرات الموحية . . يذكرهم نعمة الله عليهم :

﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ .

ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم :

﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ . .

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر ؛ فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم ، ولا يقعدوا لهم بكل صراط ، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل ، مهددين لهم موعدين ، وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين . إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين :

﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين ﴾ . .

لقد دعاهم إلى أعدل خطة . ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة . . نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كلٍّ وما اعتنق من دين ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت . . إن وجود جماعة مسلمة في الأرض ، لا تدين إلا لله ، ولا تعترف

بسلطان إلا سلطانه ، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه ، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه . . إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت – حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده .

(195/279)

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة – حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة – إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل . وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل . . إنها سنة الله لا بد أن تجري .

.

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن في ملتنا ﴾ .

هكذا في تبجح سافر ، وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش !

إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد . . لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة . . نقطة المسالمة والتعايش – على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء ؛ وأن يدين للسلطان الذي يشاء : في

انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين – وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت . . وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه . . فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم ، صدع شعيب بالحق ، مستمسكاً بملته ، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله :

﴿ قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها – إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً – على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين ﴾ . .

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان ، ومذاقه في نفوس أهله ، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه . كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع . . مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلى فيه .

﴿ قال : أو لو كنا كارهين ؟ ﴾

يستنكر تلك القولة الفاجرة : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ . . يقول لهم : أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التي نجانا الله منها ؟ ! ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾ . .

إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية ، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده ، والتي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله . . إن الذي يعود إلى هذه الملة – بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد – إنما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت ! أو مؤداها – على الأقل – أن لملة الطاغوت حقاً في الوجود ، وشرعية في السلطان ؛ وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله . فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله . . وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام .

شهادة الاعتراف براية الطغيان . ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة !

وكذلك يستنكر شعيب – عليه السلام – ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التي أنجاهم الله منها :

﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ . .

وما من شأننا أصلاً ؛ وما ينبغي لنا قطعاً أن نعود فيها . . يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله

الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة ، التي تعلن خروجها عن سلطانه ، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه .

(197/279)

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده – مهما عظمت وشقت – أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت ! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة – مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ! – إنه تكاليف بطيئة طويلة مديدة ! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه " الإنسانية " لا توجد ، والإنسان عبد للإنسان – وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان ؟ ! . . وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه ؟ ! . . وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته ؟ ! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان ؟ !

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة . . إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس – في حكم الطواغيت – أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج . كما يكلفهم

أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات . فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها ، فيذبحهم على مذبح هواه ، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه ! ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية . . حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت ، سواء في صورة الغصب المباشر – كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ – أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار ! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار . . والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله . إنما يعيش في وهم ، أو يفقد الإحساس بالواقع !

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال . . ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة . فضلاً على وزنها في ميزان الله . .

(198/279)

يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتاب : الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية :

" . . . وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية ، لا يخفى عليه أن المسألة – التي

تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها – إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها .

(199/279)

وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه ، وأنه لا بد للركاب أن يسافروا – طوعاً أو كرهاً – إلى تلك الجهة نفسها . فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية . ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طراً ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر ، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية ، وإنشاء النظام الجماعي ، وتحديد القيم الخلقية . فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه . . فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم . وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، وأقل ما يكون من تأثير

المجتمع في السيئات أنها لا تربو . إن لم تمحق وتنقرض آثارها . وأما إذا كانت هذه السلطة – سلطة الزعامة والقيادة والإمامة – بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله ، واتبعوا الشهوات ، وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها . . . "

(200/279)

. . . " والظاهر أن أول ما يطالب به دين الله عباده ، أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد ، حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى . ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول الأمي الكريم – صلى الله عليه وسلم – ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد ، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه . وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ؛ ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره

إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ، يذكرون الله قابعين في زواياهم ، منقطعين عن الدنيا وشؤونها ، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات ! ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه . والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها .

(201/279)

. ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة – ولو قيد شعره – وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق ، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض . وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية ، والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها ، يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد . . ثم انظروا إلى ما كسب " الجهاد " من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين ، حتى إن القرآن ليحكم " بالنفاق " على الذين ينكلون عنه ويثاقلون إلى الأرض . ذلك أن " الجهاد " هو السعي

المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق ، ليس غير . وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين . وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل ، أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق . . فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب ، فاعلم أنه مدخول في إيمانه ، مرتاب في أمره ، فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك ؟ " . . .

. . . " إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام . فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام ، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضيّ عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها . . "

(202/279)

إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر ورده كله لله ، إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد ؛ كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم . . إنه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت – تحت رايته – بكل ما فيها من تضحيات ؛ ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول ، كما أنها أذل وأحقر ! . . إنه يدعوهم للكرامة ، وللسلامة ، في آن . .

لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة :

﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها . . ﴾ . .

ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه ، وبقدر ما يرفع صوته ، في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه .

. بقدر ما يخفض هامته ، ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل ، الذي وسع كل شيء علماً . فهو في مواجهة ربه ، لا يتألى عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره ، ويدع له قياده وزمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه :

﴿ إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ . .

إنه يفوض الأمر لله ربه ، في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه . . إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت ، من العودة في ملتهم ؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم

العودة ؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته . . ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم . . فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون ، وربهم وسع كل شيء علماً . فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .

إنه أدب ولي الله مع الله . الأدب الذي يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره . ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه .

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق .

﴿ على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين ﴾ . .

(203/279)

وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر : مشهد تجلي حقيقة " الألوهية " في نفس ولي الله ونبيه . .

إنه يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان . ويعلم أن ربه هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان . ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه ، والتي ليس منها مفر . إلا بفتح من ربه ونصر .

عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم . ليفتنوهم عن دينهم : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ . .

إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير . . إن الطواغيت يتوجهون أولاً إلى الداعية ليكف عن الدعوة . فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه ، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته ، ولم يرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل . . تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد ، ثم بالبطش والعذاب . . إنهم لا يملكون حجة على باطلهم ، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ؛ ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم – وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل – ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان ، الذي أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان .

ولكنه من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل ، ويقفان وجهاً لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة الله التي لا تتخلف . . وهكذا كان . .

﴿ فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ . .

الرجفة والجثوم ، جزاء التهديد والاستطالة ، وبسط الأيدي بالأذى والفتنة . .

ويرد السياق على قولتهم : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ﴾ . . وهي التي قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ! فيقرر – في تهكم واضح – أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيباً ، إنما كان من نصيب قوم آخرين :

﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها .

الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ . .

(204/279)

ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين . لا حياة ولا حراك . كأن لم يعمروا هذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار !

ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال ، من رسولهم الذي كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم ، وعلى ضيعتهم في الغابرين :

﴿ فتولى عنهم ، وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ ﴾ . .

إنه من ملة وهم من ملة . فهو أمة وهم أمة . أما صلة الأنساب والأقوام ، فلا اعتبار لها في هذا الدين ، ولا وزن لها في ميزان الله . . فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين ، والارتباط بين الناس إنما يكون في حبل الله المتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1322.1316 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولا تبخسوا ﴾ فيه أن البخاسة والدناءة والحرص والظلم من الصفات التي يجب تزكية النفس عنها فإن الله تعالى يحب معالي الأمور ويبغض سفسافها . ﴿ ولا تفسدوا في الأرض ﴾ أرض الطبيعة التي جبل الإنسان عليها ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ لا تقطعوا الطريق على الطالبين بأنواع الحيل والمكايد . ﴿ إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ بالتناصر والتعاون في الأمور وبكثرة العدد والعدد نعمة تامة يجب أن تصرف في إعلاء كلمة الدين ﴿ وإن كان طائفة منكم ﴾ أي الروح والقلب ﴿ وطائفة لم يؤمنوا ﴾ وهم النفس وصفاتها ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ لا يجعل الروح والقلب المؤمنين تبعاً للنفس الكافرة في العذاب وإذاقة ألم الهجران ﴿ أو لتعودن في ملتنا ﴾ إشارة إلى أن كل جنس لا يميل إلا إلى أشكاله وإلا وجد في إيابه من يأمن نهج أضرابه ﴿ بعد إذ نجانا الله منها ﴾ في القسمة الأزلية ﴿ افتح بيننا ﴾ احكم بيننا وبينهم بإظهار حقيقة ما قدرت لنا من خاتمة الخير وإظهار ما قدرت لهم من خاتمة السوء ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ فصارت صورتهم تبعاً

لمعناهم فإنهم كانوا جاثمي الأرواح في ديار الأشباح ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ لأن الباطل زاهق لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 289 ﴾

(206/279)

فصل

قال ابن الجوزى :

المجلس الرابع عشر في ذكر قصة شعيب عليه السلام

الحمد لله القديم فلا يقال متى كان العظيم فلا يحويه مكان أنشأ آدم وأخرج ذريته بنعمان ورفع إدريس إلى أعالي الجنان ونجى نوحاً وأهلك كنعان وسلم الخليل بلطفه يوم النيران ويوسف من الفاحشة حين البرهان وبعث شعيباً إلى مدين ينهى عن البخس والعدوان ويناديهم في ناديهم ولكن صمت الآذان (قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان) أحمده حمداً يملأ الميزان وأصلي على رسوله محمد الذي فاق دينه الأديان وعلى صاحبه أبو بكر أول من جمع القرآن وعلى عمر الفاروق الذي كان يفرق منه الشيطان وعلى زوج الابنتين عثمان بن عفان وعلى علي بحر العلوم وسيد الشجعان وعلى عمه المستسقى بشيبته فأقبح السح الهتان قال الله عز وجل (وإلى مدين أخاهم شعيباً) قال قتادة مدين

ماء كان عليه قوم شعيب وقال مقاتل مدين هذا هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه وقال أبو سليمان الدمشقي هو مدين بن مديان بن إبراهيم والمعنى أرسلنا إلى ولد مدين فعلى هذا هو اسم قبيلة وشعيب هو ابن عيفا بن نويب بن مدين بن إبراهيم أرسل إلى مدين وهو ابن عشرين سنة وكانوا مع كفرهم يبخسون المكاييل والموازين فدعاهم إلى التوحيد ونهاهم عن التطفيف وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه قوله تعالى (قد جاءتكم بينة من ربكم) ولم يذكر معجزته (ولا تبخسوا

(207/279)

المكيال والميزان) أي لا تنقصوا (ولا تفسدوا في الأرض) أي لا تعملوا فيها المعاصي بعد أن أصلحها بالأمر بالعدل (ولا تقعدوا بكل صراط) أي بكل طريق (توعدون) وإنما لم يقل بكذا لأن العرب إذا أخلت الفعل من المفعول لا يدل إلا على شر يقولون أوعدت فلاناً وكذلك إذا أفردوا (وعدت) من مفعول فإنه لا يدل إلا على خير قال الفراء يقولون وعدته خيراً ووعدته شراً فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا وعدته في الخير وأوعدته في الشر وللمفسرين في المراد بهذا الإيعاد ثلاثة أقوال أحدها أنهم كانوا يوعدون من آمن بشعيب قاله ابن عباس والثاني أنهم كانوا عشارين قاله السدى والثالث أنهم كانوا يقطعون الطريق

قاله ابن زيد قوله تعالى (وتصدون عن سبيل الله) أي تصرفون عن دينه (من آمن به وتبغونها عوجاً) أي تطلبون للسبيل عوجاً أي زيغا (واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم) يحتمل ثلاثة أشياء أحدها كنتم فقراء فأغناكم وقليلاً عددكم فكثركم وغير ذي مقدرة فأقدركم وكانوا مع كثرة أموالهم قد أغروا بالتطفيف وكان من جملة ما ردوا عليه أصلاتك تأمرك أي دينك وقراءتك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا المعنى أو أن نترك أن نفعل وقرأ الضحاك بن قيس الفهري (ما تشاء) فاستغنى عن الإضمار وقال سفيان الثوري أمرهم بالزكاة فامتنعوا وقالوا (إنك لأنت الحليم الرشيد) استهزاء به فخوفهم أخذات الأمم وقال (لا يجرمنكم شقاقي) أي لا تحملنكم عداوتكم إياي أن تعذبوا وكان أقرب الإهلاكات إليهم قوم لوط فقال (وما قوم لوط منكم ببعيد) فقالوا ما نفقه كثيراً مما تقول أي ما نعرف صحة ذلك (وإنا لنراك فينا ضعيفاً)

(208/279)

وكان قد ذهب بصره كذا يقول سعيد بن جبير وقال ابن المنادي وهذا إن ثبت كان في آخر عمره لأنه لا يبعث نبي أعمى قال أبو روق لم يبعث الله نبياً أعمى ولا من به زمانة قال ابن المنادي وهذا القول أليط بالقلوب من قول سعيد بن جبير (ولولا رهطك) يعني عشيرتك (

لرجمناك) أي لقتلناك بالرجم فقال لهم (أرهطي أعز عليكم من الله) أي تراعون رهطي في ولا تراعون الله في (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أي رميتم أمر الله وراء ظهوركم ثم كان آخر أمره أن قال (فارتقبوا إني معكم رقيب) قال ابن عباس رضي الله عنهما ارتقبوا العذاب فإني أرتقب الثواب قال محمد بن كعب عذب أهل مدين بثلاثة أصناف أخذتهم رجفة في ديارهم حتى خافوا أن تسقط عليهم فخرجوا منها فأصابهم حر شديد فبعث الله تعالى الظلة فنادوا هلموا إلى الظل فدخلوا فيه فصيح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم وهذا القول على أن أهل مدين أصحاب الظلة وإليه ذهب جماعة من العلماء فعلى هذا إنما خذف ذكر الأخ من سورة الشعراء تخفيفاً وذهب مقاتل إلى أن أهل مدين لما هلكوا بعث شعيب إلى أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة قال أبو الحسين بن المنادى وكان أبو جاد وهواز وحطى وكلمون وسعفص وقريشات بن الامحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم ملوكاً وكان أبو جاد ملك مكة وما والاها من تهامة وكان هواز وحطى ملكي وج وهو الطائف وكان سعفص وقريشات ملكي مدين ثم خلفهم كلمون فكان عذاب يوم الظلة في ملكه فقالت حالفة بنت كلمون ترثيه (كلمون هد ركني

هلكه وسط المحله

(سيد القوم أتاه الحتف نار وسط ظله

كونت ناراً فأضحت

دارهم كالمضمحلة

(209/279)

قال ابن المنادى ثم إن شعيباً مكث في أصحاب الأيكة باقي عمره يدعوهم إلى الله تعالى فما ازدادوا إلا عتواً فسلط عليهم الحر فجائز أن تكون الأمتان اتفقتا في التعذيب وقد قال قتادة أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة والرجفة وأما أصحاب الأيكة فسلط عليهم الحر سبعة أيام ثم إن الله تعالى أرسل عليهم ناراً فأكلتهم فذلك عذاب يوم الظلة ثم إن شعيباً زوج موسى ابنته ثم خرج إلى مكة فمات بها وكان عمره مائة وأربعين سنة ودفن في المسجد الحرام حيال الحجر الأسود واعلم أن الله تعالى عظم ذكر البخس في قصتهم وشدد فيه وأطنب في ذكره وأشار إلى التوحيد لينبهنا على ما نرتكبه فإذ قد عرفنا قبح الشرك لم نحتج إلى الإطناب في ذكره وكذلك عاب قوم لوط بالفاحشة وبالغ في ذكرها وكل ذلك لتخويفنا قال ابن عباس لما قدم النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى (ويل للمطففين

واعلم أنه خوف المطففين بذكر الويل لهم ثم قال (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون) والمعنى لو

ظنوا البعث ما بخسوا (يوم يقوم الناس لرب العالمين) أي لأمر الجزاء وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه وقال كعب يقفون ثلاثمائة عام أخبرنا ابن الحصين أنبأنا ابن المذهب أنبأنا أحمد بن جعفر حدثنا عبد الله ابن أحمد حدثني أبي حدثنا سفيان عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه

(210/279)

أن رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ مر برجل يبيع طعاماً فسأله كيف تبيع فأخبره فأوحى الله تعالى إليه أدخل يدك فيه فأدخل يده فإذا هو مبلول فقال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ليس منا من غش وقد روينا عن محمد بن واسع أنه رئي يعرض حماراً له على البيع فقال له رجل أترضاه لي فقال لو رضيته لم أبعه وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال من حلال أم حرام وفي الصحيحين من حديث حذيفة رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ عن رفع الأمانة فقال ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه

الكلام على البسملة

(يا أخي كن على حذر

قبل أن تحدث الغير

(لا تكن جاهلاً كأنك لا تعرف الخبر

(نشر العيش صفوه

فطوى الموت ما نشر

(فإذا ما صفا لك الدهر فاعمل على الحر

(أين من طال عمره

أين من كان ذا قصر

(لا الرقي أخرتهم

من طبيب ولا البشر

(رحم الله من تفكر في الموت واعتبر

(قبل أن تخرج النفوس

ولا تمكن الفكر

(فكأنا بيومنا

قد أتانا به القدر

(واستوى عنده المواصل

فيه ومن هجر

(وعدمنا النهار والليل

والحر والمطر

(وانقضى العد بالنجوم

وبالشمس والقمر

(ما انتظاري وكل وحي له

الموت ينتظر

(رق جلدي ودق عظمي

وقلبي فمن حجر

(كلما تبت من ذنوب

تقحمت في أخر

(211/279)

يا غريقاً في لجج لجاجه يا راحلاً عن قليل عن أهله وماله وأزواجه يا مسئولاً ماله جواب في احتجاجه متى يأتي الهدى من طرقه وفجاجه متى تنير القلوب بإيقاد سراجه متى يكتم هذا الجرح بانتساجه متى يفتح باب يا طول ارتياجه متى يستدرك عمر قد مر باندماجه متى يرجع سفر الندم بقضاء حاجه إلى متى يقال فلا تقبل أما الموت نحوك قد أقبل أما العمر أيام تنهب أما الساعات أحلام تذهب أما المعاصي تضر الكاسب أما الخطايا شر المكاسب أبعد احتجاج الشيب ما ترعوي أبعد اعوجاج الصلب ما تستوى (إلى كم يكون العتب في كل لحظة

ولم لا تملون القطيعة والهجرا

(رويدك إن الدهر فيه كفاية

لتفريق ذات البين فانتظر الدهرا

لله در أقوام نظروا إلى الأشياء بعيبها فكشفت لهم العواقب عن غيبها وأخبرتهم الدنيا بكل عيبها فشمروا للجد عن سوق العزائم وأنت في الغفلة نائم أخبرنا يحيى بن علي أنبأنا أبو الحسين بن المهتدي حدثنا محمد بن يوسف العلاف حدثنا عبد الله بن محمد البغوي حدثنا عبد الله بن عون حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال بينما رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يمشي استقبله رجل من الأنصار فقال له رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ كيف أصبحت يا حارثة قال أصبحت

مؤمناً بالله حقاً قال انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك قال يا رسول الله عرفت نفسي الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني بعرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهل

(212/279)

الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها قال أبصرت فالزم عبد نور الله الإيمان في قلبه فقال يا رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ادع الله لي بالشهادة فدعا له رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فنودي يوماً في الخيل فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد قال فبلغ ذلك أمه فجاءت إلى رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فقالت إن يكن في الجنة لم أبك عليه ولكن أحزن وإن يكن في النار بكيت عليه ما عشت في دار الدنيا فقال يا أم حارثة إنها ليست بجنة ولكن جنات والحارث في الفردوس الأعلى فرجعت وهي تضحك وتقول بخ بخ لك يا حارثة يا هذا سبقك أهل العزائم وأنت في الغفلة نائم لقد بعث المعالي بالكسل وآثرت البطالة على العمل أزعج ذكر القيامة قلوب الخائفين وقلقل خوف العتاب أفئدة العارفين فاشتغلوا عن طعام الطغام ومال بهم حذر الباس عن تنوق اللباس كان أويس القرني يلتقط الرقاع من المزابل ويغسلها في الفرات ويضع بعضها على

بعض (أطماره رثة فقد ضاع

لا ضاع وضاع الثمين في بلده

(ليس له ناقد فيعرفه

وآفة التبر ضعف منتقده

يا مفرطاً في ساعاته بالليل والنهار لو علمت ما فات شابهت دموعك الأنهار يا طويل النوم عدمت خيرات الأسحار لو رأى طرفك ما نال الأبرار حار يا مخدوعاً بالهوى ساكناً في دار قد حام حول ساكنها طارق الفناء ودار سار الصالحون فاجتهد في اتباع الآثار واذكر بظلام لليل ظلام القبر وخلو الديار وحارب عدواً قد قتلك بالهوى واطلب الثار فقد أريتك طريقاً إن سلكتها أمنت العثار فإن فزت بالمراد فالصيد لمن أثار

من لنفس أبت ناصحاً إذ صبت

كم جديد من صبا في جديد أبلت

(وأطاعت من هوى فهوت إذ هفت

عدمت يقظتها فيه حتى قضت

(ويك يا نفس ألا حذر من غفلة

إنما الدنيا أسى كم دموع أذرت

(إن بنت ما شيدت هدمت ما بنت

أوحبت سائلها رجعت في الهبة

(أو صفت عند فتى كدرت ما أصفت

كم صريع نقلت إذ قلت في قلة

(كم غبي غافل أسمعت إذ نعت

(213/279)

غادرته جثة لرفات علة

(لم يكن ينفعه كل عين بكت

آه يوماً حسرة لأمور جرت

الكلام على قوله تعالى

(كلا إذا بلغت التراقي

كلا ردع وزجر والمعنى ارتدعوا عن ما يؤدي إلى العذاب (إذا بلغت) يعني النفس وهذه كناية عن غير مذكور والتراقي العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال وواحد التراقي ترقوة ويكنى ببلوغ النفس إلى التراقي عن الإشفاء على الموت (وقيل من راق) فيه قولان أحدهما أنه قول الملائكة بعضهم لبعض من يرقى روحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب

والثاني أنه من قول أهله من يرقيه بالرقي والقولان عن ابن عباس قوله تعالى (وظن) أي أيقن الذي بلغت روحه إلى التراقي (أنه الفراق) للدنيا (والتفت الساق بالساق) فيه خمسة أقوال أحدها أمر الدنيا بأمر الآخرة قاله ابن عباس والثاني اجتمع فيه الحياة والموت قاله الحسن والثالث التفت ساقاه عند الموت قاله الشعبي والرابع التفت ساقاه في الكفن قاله سعيد بن المسيب والخامس التفت الشدة بالشدة قاله قتادة قال الزجاج آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة

يا لها من ساعة لا تشبهها ساعة يندم فيها أهل التقى فكيف أهل الإضاعة يجتمع فيها شدة الموت إلى حسرة الفوت لما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه قالت عائشة

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال ليس كذلك ولكن قولي (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد

ولذلك كان يقولها أبو بكر وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند الموت ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي ولما دخلوا على عثمان رضي الله عنه جعل يتمثل (أرى الموت لا يبقى حزيناً ولا يدع

لعاد ملاكا في البلاد ومرتقى

(يبيت أهل الحصن والحصن مغلق

ويأتي الجبال من شماريخها العلى

ولما جرح علي بن أبي طالب رضي الله عنه جعل يقول (شد حيازيمك للموت

فإن الموت لاقيك

(ولا تجزع من الموت

إذا حل بواديك

ولما احتضر معاوية جعل يقول (إن تناقش يكن نقاشك يا رب

(214/279)

عذاباً لا طوق لي بالعذاب

(أو تجاوز فأنت رب عفو

عن مسيء ذنوبه كالتراب

ولما احتضر معاذ جعل يقول أعوذ بالله من ليلة صباحها النار مرحباً بالموت مرحباً زائر مغب حبيب جاء على فاقة اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر ولما احتضر أبو الدرداء

جعل يقول ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا ألا رجل

يعمل لمثل ساعتي هذه ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا وبكى فقالت له امرأته تبكي وقد صاحبت رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فقال ومالي لا أبكي ولا أدري علام أهجم من ذنوبي ولما احتضر أبو هريرة بكى فقيل له وما يبكيك فقال بعد المفازة وقلة الزاد وعقبة كئود المهبط منها إلى الجنة أو إلى النار وقيل لحذيفة في مرضه ما تشتهي قال الجنة قيل فما تشتكي قال الذنوب ولما احتضر عمرو بن العاص قيل له كيف تجدك فقال والله لكأن جنبي في تخت وكأني أتنفس من سم الخياط وكأن غصن شوك يجر به من قدمي إلى هامتي ثم قال (ليتني كنت قبل ما قد بدا لي

في قلال الجبال أرعى الوعولا

ليتني كنت حمضا عركتني الإماء بذرير الإذخر ونظر إلى صناديق فيها مال فقال لبنيه من يأخذها بما فيها يا ليته كان بعراً وكان عبد الملك بن مروان يقول في مرضه وددت إني عبد لرحل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها وأني لم أل من هذا الأمر شيئاً ولما احتضر عمر بن عبد العزيز قال إلهي أمرتني فلم أئتمر وزجرتني فلم أنزجر غير أني أقول لا له إلا الله ولما احتضر الرشيد أمر بحفر قبره ثم حمل إليه فاطلع فيه فبكى حتى رحم ثم قال يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان المعتصم يقول عند موته ذهبت الحيل فلا حيلة وبكى عامر بن عبد قيس لما احتضر وقال إنما أبكي على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء

وبكى أبو الشعثاء عند موته فقيل له ما يبكيك فقال لم أشتف من قيام الليل وبكى يزيد الرقاشي عند موته فقيل ما يبكيك فقال أبكي على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار ثم جعل يقول يا يزيد من يصلي لك ومن يصوم عنك ومن يتقرب إلى الله عز وجل بالأعمال بعدك ويحكم يا إخواني لا تغتروا بشبابكم فكأن قد حل بكم مثل ما قد حل بي وقال المزني دخلت على الشافعي في علته التي مات فيها فقلت له أبا عبد الله كيف أصبحت قال أصبحت من الدنيا راحلاً ولإخواني مفارقاً وبكأس المنية شارباً وعلى الله تعالى وارداً ولا أدري نفسي تصير إلى الجنة فأهنئها أم إلى النار فأعزيها ثم بكى وقال (ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي

جعلت رجائي نحو عفوك سلما

(تعاظمني ذنبي فلما قرنته

بعفوك ربي كان عفوك أعظماً

(وما زلت ذا عفو عن الذنب سيدي

تجود وتعفو منة وتكرما

(ولولاك لم يغوي بإبليس عابد

فكيف وقد أغوى صفيك آدماً

وقال إبراهيم بن أدهم مرض بعض العباد فدخلنا نعوده فجعل يتنفس ويتأسف فقلت له على ماذا تتأسف قال على ليلة نمتها ويوم أفطرته وساعة غفلت فيها عن ذكر الله عز وجل وبكى بعض العباد عند موته فقيل له ما يبكيك فقال أن يصوم الصائمون ولست فيهم ويذكر الذاكرون ولست فيهم ويصلي المصلون ولست فيهم وقال أبو محمد العجلي دخلت على رجل وهو في الموت فقال لي سخرت بي الدنيا حتى ذهبت أيامي ولما احتضر عضد الدولة تمثل

(قتلت صناديد الرجال فلم أدع

عدوا ولم أمهل على ظنه خلقا

(وأخليت دور الملك من كل نازل

فشردتهم غربا وبددتهم شرقاً

(فلما بلغت المجد عزا ورفعة

وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقا

(رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي

فها أنا ذا في جفوتي عاطلاً ملقاً

(فأذهبت دنياي وديني سفاهة

فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقى

ثم جعل يقول ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانية فرددها إلى أن مات (ركب الأمان من الزمان مطية

ليست كما اعتاد الركائب تبرك

(والمرء مثل الخوف بين سهاده

(216/279)

وكراه يسكن تارة ويحرك

يا مشغولاً قلبه بلبني وسعدى يا مستلذ الرقاد وهذي الركائب تحدى يا عظيم المعاصي يا مخطئاً جداً يا طالما طال ما عتا وتعدى كم جاوز حداً وكم أتى ذنباً عمداً يا أسير الهوى قد أصبح له عبدا يا ناظماً خرزات الأمل في سلك المنى عقداً يا معرضا عما قد حل كم حل عقداً كم عاهد مرة وكم نقض عهداً من لك إذا سقيت كأساً لا تجد من شربها بدا مزجت أو صاباً وصابا صار المصاب عندها شهداً من لك إذا لحقت أباً وأما وأخا وعما وجدا وتوسدت بعد اللين حجراً صلباً صلداً وسافرت سفراً يا له من سفر بعداً

واحتوشك عملك هزلاً كان أو جداً ولقيت منكراً ونكيراً فهل لقيت أسداً فبادر قبل

الموت فما تستطيع للفوت رداً (نهاك عن البطالة والتصابي

نحول الجسم والرأس الخضيب

(إذا ما مات بعضك فابك بعضاً

فبعض الشيء من بعض قريب

أخبرنا محمد بن أبي منصور أنبأنا علي بن الحسين أنبأنا أبو علي بن شاذان سمعت

(217/279)

أبا صالح كاتب الليث يذكر عن الفضل بن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته أيها

الناس تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من النار الموقدة التي تطلع على

الأفئدة فإنكم في دار الثواء فيها قليل وأنتم فيها مؤجلون وخلائف من بعد القرون الذين

استقبلوا من الدنيا زخرفها وزهرتها فهم كانوا أطول منكم أعمارا وأمد أجساماً وأعظم

آثارا فحددوا الجبال وجابوا الصخور ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام

كالعماد فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مدتهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست

ذكرهم فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً كانوا بلهو الأمل آمنين كبيات قوم غافلين

أو كصباح قوم نادمين ثم إنكم قد علمتم الذي قد نزل بساحتهم بيا تا فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين وأصبح الباقون ينظرون في آثار نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لمن يخشى وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة في زمان قد ولى عفوه وذهب رجاؤه فلم يبق منه إلا جمة شر وصبابة كدر وأهاويل عبر وعقوبات غبر وأرسال فتن ورذالة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر فلا تكونوا أشباها لمن خدعه الأمل وغره طول الأجل نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن وعى نذره وعقل سراه فمهد لنفسه

تزوج دنياه الغبي بجهله

فقد نشزت من بعد ما قبض المهر

(تطهر ببعد من أذاها وكيدها

فتلك بغي لا يصح لها طهر

(ونحن كركب الموج ما بين بعضهم

وبين الردى إلا الذراع أو الشبر

الكلام على قوله تعالى

(ما عندكم ينفد وما عند الله باق

يا كثير الخلاف يا عظيم الشقاق يا سيىء الآداب يا قبيح الأخلاق يا قليل الصبر

يا عديم الوفاق يا من سيبكي كثيراً إذا انتبه وفاق والتفت الساق بالساق أين من أنس بالدنيا ونسي الزوال أين من عمر القصور وجمع المال تقلبت بالقوم أحوال الأهوال كم أراك عبرة وقد قال (سنريهم آياتنا في الآفاق) أين صديقك المؤانس أين رفيقك المجالس أين الماشي فقيراً وأين الفارس امتدت إلى الكل كف المخالس فنزلوا تحت الأطباق وكأن قد رحلت كما رحلوا ونزلت وشيكاً حيث نزلوا وحملت إلى القبر كما حملوا إلى ربك يومئذ المساق من لك إذا ألم الألم وسكت الصوت وتمكن الندم ووقع بك الفوت وأقبل لأخذ الروح ملك الموت وجاءت جنوده وقيل من راق ونزلت منزلاً ليس بمسكون وتعوضت بعد الحركات السكون فيا أسفاً لك كيف تكون وأهوال القبر لا تطاق وفرق مالك وسكنت الدار ودار البلاء فما دار إذ دار وشغلك الوزر عمن هجر وزار ولم ينفعك ندم الرفاق أما أكثر عمرك قد مضى أما أعظم زمانك قد انقضى أفي أفعالك ما يصلح للرضا إذا التقينا يوم التلاق يا ساعياً في هواه تصور رمسك يا موسعا إلى خطاه تذكر حبسك يا مأسوراً في سجن الشهوات خلص نفسك قبل أن تعز السلامة وتعتاق الأعناق وينصب الصراط ويوضع الميزان وينشر الكتاب يحوي ما قد كان ويشهد الجلد والملك والمكان والنار الحبس

والحاكم الخلاق فحينئذ يشيب المولود وتخرس الألسن وتنطق الجلود وتظهر الوجوه بين بيض وسود يوم يكشف عن ساق فبادر قبل أن لا يمكن وحاذر قبل أن يفوت الممكن وأحسن قبل أن لا تحسن فاليوم البرهان وغداً السباق فانتهب عمراً يفنى بالمساء والصباح وعامل مولى يجزل العطايا والأرباح ولا تبخل فقد حدث على السماح (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) . انتهى انتهى . اهـ ﴿التبصرة حـ 1 صـ 204. 217﴾

(219/279)

فصل

قال ابن كثير :

قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جائتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين وان كان طائفة منكم

آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين
قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو
لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد أفترينا على الله كذبا ان عدنا

(220/279)

في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل
شي علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين وقال الملأ
اللذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في
دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين
فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فيكف آسي على قوم
كافرين وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضا وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف
عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشيائهم
ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ قالوا
يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت

الحليم الرشيد قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه ورائكم ظهريا إن ربي بما تعلمون محيط ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وقال

(221/279)

في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضا وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبامام مبين وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن

أجري إلى على رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الله الذي خلقكم والجبلة الأولين قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط وكانوا بعدهم بمدة قريبة ومدين قبيلة عرفت بهم القبيلة

وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل (1) بن يشجن (2) ذكره ابن اسحاق قال ويقال له بالسريانية بنزون (3) وفي هذا نظر ويقال شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب ويقال شعيب بن نويب بن عيفا (4) بن مدين بن إبراهيم ويقال شعيب بن ضيفور بن عيفا (5) بن ثابت بن مدين بن إبراهيم وقيل غير ذلك في نسبه

قال ابن عساكر ويقال جدته ويقال أمه بنت لوط وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق وعن وهب ابن منبه أنه قال شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم (6) يوم أحرق

بالنار وهاجرا معه إلى الشام فزوجهما بنتي لوط عليه السلام ذكره ابن قتيبة وفي هذا كله نظر أيضا والله أعلم

(222/279)

وذكر أبو عمر بن عبد البر في الاستعباب في ترجمة سلمة بن سعد العنزي قدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم فأسلم وانتسب إلى عنزة فقال نعم الحي عنزة مبغى عليهم منصورون قوم شعيب وأختان (7) موسى فلو صح هذا لدل على أن شعيبا من موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فإن هؤلاء بعده بدهر طويل والله أعلم

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر وكان بعض السلف يسمى شعيبا خطيب الأنبياء يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته وقد روى ابن إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا ذكر شعيبا قال ذاك خطيب الأنبياء وكان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها

وكانوا من أسوء الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشيائهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد وهو الولي الحميد كما قال تعالى وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جائتكم بينة من ربكم أي دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وانه أرسلني وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلا وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالا

(223/279)

فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشيائهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط أي طريق توعدون أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل قال السدي في تفسيره عن الصحابة ولا تقعدوا بكل صراط توعدون أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة وقال إسحاق بن بشر عن

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال كانوا قوما طغاة بناة يجلسون على الطريق يبخسون الناس يعني يعشرونهم وكانوا أول من سن ذلك وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية واذكروا أذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه كما قال لهم في القصة الأخرى ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط أي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة ما في أيديكم ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة فنهاهم أولا عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم وعذابه الأليم في أخراهم وعنفهم أشد تعنيف ثم قال لهم آمرا بعد ما كان عن ضده زاجرا ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشيائهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ قال ابن عباس والحسن البصري بقيت الله خير لكم أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس وقال ابن جرير ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف قال وقد روى هذا عن ابن عباس وهذا الذي قاله وحكاه حسن وهو شبيه بقوله تعالى قل لا يستوي

الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام فإن الحلال مبارك وإن قل والحرام ممحوق وإن كثر كما قال تعالى يمحق الله الربا ويربي الصدقات وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل رواه أحمد أي إلى قلة وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل والحرام لا يجدي وان كثر ولهذا قال نبي الله شعيب بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وقوله وما أنا عليكم بحفيظ أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيري قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء أنك لأنت الحليم الرشيد يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم أصلوتك هذه التي تصليها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد الا إلهك

ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها إنك لأنت الحليم الرشيد قال ابن عباس وميمون ابن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الإستهزاء قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب هذا تلطف معهم في العبارة ودعوة لهم إلى الحق بابين إشارة يقول لهم أرأيتم أيها المكذبون إن كنت على بينة من ربي أي على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلني إليكم ورزقني منه رزقا حسنا يعني النبوة والرسالة يعني وعمى عليكم معرفتها فأي حيلة لي بكم وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء وقوله وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه أي لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة وضدها هي المردودة الذميمة كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم وخطباؤهم الجاهلون قال الله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وذكر عندها في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه أي تخرج أمعاؤه من بطنه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن

المنكر وآتيه وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغب فحالهم كما قال نبي الله شعيب وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد الاصلاح ما استطعت أي ما أريد في جميع أمري إلا الاصلاح في الفعال

(226/279)

والمقال بجهدي وطاقتي وما توفيقي أي في جميع أحوالي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب أي عليه أتوكل في سائر الأمور وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري وهذا مقام ترغيب ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد أي لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين وقوله وما قوم لوط منكم ببعيد قيل معناه في الزمان أي ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم وقيل معناه وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بانواع

الحيل والشبهات والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانا ولا مكانا ولا صفات ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال واستغفروا ربكم ثم توبوا

(227/279)

إليه إن ربي رحيم ودود أي أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود فإنه من تاب إليه تاب عليه فإنه رحيم بعباده أرحم بهم من الوالدة بولدها ودود وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده ولو من الموبقات العظام قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا كان ضرير البصر وقد روى في حديث مرفوع أنه بكى من حب الله حتى عمى فرد الله عليه بصره وقال يا شعيب أتبكي خوفا من النار أو من شوقك إلى الجنة فقال بل من محبتك فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يصنع بي فأوحى الله إليه هنيئا لك يا شعيب لقائي فلذلك أخدمتك موسى ابن عمران كليمي رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي عن علي بن الحسن بن بندار عن أبي عبد الله محمد بن إسحق التربلي (1) عن هشام بن عمار عن إسمعيل بن عباس عن يحيى بن سعيد عن شداد بن أمين عن النبي صلى الله عليه و سلم بنحوه وهو غريب جدا وقد ضعفه الخطيب البغدادي وقولهم ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا

بعزيز وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا ما نفقه كثيرا مما تقول أي ما نفهمه ولا نعقله لأنا لا نحبه ولا نريده وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه وهو كما قال كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون وقولهم وإنا لنراك فينا ضعيفا أي مضطهدا مهجورا ولولا رهطك أي قبيلتك وعشيرتك فينا لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال يا قوم ارهطي أعز عليكم من الله أي تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعوني بسببهم ولا تخافون جنبة الله ولا تراعوني لأني رسول الله فصار رهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا أي جانب الله وراء ظهوركم إن ربي بما تعملون محيط أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه ويا قوم اعملوا على

(228/279)

مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بان يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والبوار من يأتيه عذاب يخزيه أي في هذه الحياة الدنيا ويحل عليه عذاب مقيم أي في الأخرى ومن هو كاذب

أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر وارتقبوا إني معكم رقيب وهذا كقوله وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح

(229/279)

بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم فانتصب شعيب للحاجة عن قومه فقال أولو كنا كارهين أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختيارا وإنما يعودون إليه إن عادوا اضطرارا مكرهين وذلك لأن الإيمان إذا خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد ولا يرتد أحد عنه ولا محيد لأحد منه ولهذا قال قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا أي فهو كافينا وهو العاصم لنا وإليه ملجاؤنا في جميع أمرنا ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليه في تعجيل ما

يستحقونه إليهم فقال ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين أي الحاكمين فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه ورسوله خالفوه ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون وبه متلبسون وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون قال الله تعالى فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ذكر في سورة الأعراف أنهم اخذتهم رجفة أي رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالا شديدا أزهقت أرواحهم من أجسادها وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات وأشكالا من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات وظلة أرسل الله عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها في سباق قصة الأعراف ارجفوا نبي الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم راجعين فقال تعالى فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فقابل الإرجفاف بالرجفة والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق

ومتعلق بما تقدمه من السباق وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والإستهزاء والتنقص أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة وكان ذلك إجابة لما طلبوا وتقريبا إلى ما إليه رغبوا فإنهم قالوا إنما أنت من المسحرين وما أن إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فاسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين قال رب أعلم بما تعلمون قال الله تعالى وهو السميع العليم فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إن كان عذاب يوم عظيم ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير اهل مدين فقوله ضعيف وإنما

(231/279)

عمدتهم شيئان أحدهما أنه قال كذب اصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ولم يقل اخوهم كما قال وإلى مدين أخاهم شعيبا والثاني أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله كذب اصحاب الأيكة المرسلين لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة وأما إحتجاجهم بيوم الظلة فإن كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الإنتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أنهما أمتان أخريان وهذا لا يقوله أحد يفهم شيأ من هذا الشأن فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شفيق بن ابي هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعا إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبي عليه السلام فإنه حديث غريب وفي رجاله من تكلم فيه والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل والله أعلم

(232/279)

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب وقوله فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ذكروا أنهم أصابهم حر شديد وأسكن الله هبوب الهوا عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم في الإسراب فهربوا من محلتهم إلى البرية فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح وخرجت الأشباح فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ونجى الله شعيبا ومن معه من المؤمنين كما قال تعالى وهو أصدق القائلين ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وقال تعالى وقال الملأ من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين وهذا في مقابلة قولهم لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخا ومؤبنا ومقرعا فقال تعالى يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين أي أعرض عنهم موليا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلا يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم أي

قد أديت ما كان واجبا علي من البلاغ التام والنصح الكامل وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه فلم

(233/279)

ينفعكم ذلك لأن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين فلست أتأسف بعد هذا عليكم لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة ولهذا قال فكيف آسى أي احزن على قوم كافرين أي لا تقبلون الحق ولا ترجعون إليه ولا ! تلتفون إليه فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدافع ولا يمانع ولا محيد لأحد أريد به عنه ولا مناص منه

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس أن شعيبا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام وعن وهب بن منبه أن شعيبا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 183 . 191﴾

(234/279)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثمانون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/280)

الجزء الثمانون بعد المائتين

من الآية ﴿ 94 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 102 ﴾ من نفس السورة

(4/280)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم سبحانه إجمال الإنذار بما اشتركت فيه الأمم من الإهلاك بقوله تعالى : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ [الأعراف : 4] الآية ، ثم أتبعه – بعد تقديم ما يحتاج إليه على النظم الذي سبق التنبيه عليه – تفصيل ما انفردت به كل أمه من العذاب الحاث على سبيل الصواب ، أتبع ذلك إجمالاً آخر أبسط من الأول على نمط غريب دال على عادته المستمرة وسنته المستقرة في شرح حال هؤلاء الأمم الذين ذكرهم وغيرهم ، لئلا يظن أن غيرهم كان حاله غير حالهم ، فبين أن الكل على نهج واحد وأن السبب في استئصالهم واحد ، وهو

التكذيب والاستكبار على الحق ، ليكون الإجمال كالضوابط والقواعد الكلية لتنطبق على الجزيئات .

وذلك الاستبصار بما يكون من نافع أو ضار وعدم الاغترار بأحوال المستدرجين الأشرار متكفل بالتسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم والتأسية ، متقدم على قصة موسى وهارون عليهما السلام لطولها وتعجيلاً بما في ذلك من مصارع الإنذار بقوله تعالى : ﴿ وما ﴾ أي أرسلنا فلاناً فكان كذا وفلاناً فكان كذا ، وما ﴿ أرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ في قرية ﴾ أي من قرى أولئك وغيرهم ﴿ من نبيٍّ ﴾ أي من الأنبياء الذين تقدموك ﴿ إلا ﴾ كان ما نخبر به من ترهيبهم من سطواتنا وهو أنا ﴿ أخذنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ أهلها ﴾ أي أخذ قهر وسطوة ، أي لأجل استكبارهم عن الحق ﴿ بالبأساء ﴾ أي قهر الرجال ﴿ والضراء ﴾ أي المرض والفقر ﴿ لعلهم يضرعون ﴾ أي ليكون حالهم عند المساءة حال من يرجى تضرعه وتذلله وتخضعه لمن لا يكشف ذلك عنه غيره ولو كان التضرع في أدنى المراتب – على ما أشار إليه الإدغام ، لأن ذلك كاف في الإنقاذ من عذاب الإنذار الذي هذه سورته بخلاف ما مضى في الأنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 73 ﴾

(5/280)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ لفتحنا ﴾ بالتشديد : ابن عامر ويزيد ﴿ أو أمن ﴾ بسكون الواو : أو جعفر ونافع غير ورش ، وابن عامر وابن كثير غير ابن فليح ، وقرأ ورش بنقل حركتها إلى الساكن قبلها ﴿ أولم نهد ﴾ النون حيث كان : زيد عن يعقوب . الباقون : بالياء التحتانية ﴿ رسلهم ﴾ بسكون السين حيث كان : أبو عمرو .

الوقوف : ﴿ يضرعون ﴾ ه ﴿ لا يشعرون ﴾ ه ﴿ يكسبون ﴾ ه ﴿ نائمون ﴾ ه لمن قرأ ﴿ أو أمن ﴾ بفتح الواو على أن الهمز للاستفهام ، ومن سكن الواو فلا وقف لأن " أو " للعطف ﴿ يلعبون ﴾ ه ﴿ مكر الله ﴾ ج للفصل بين الإخبار والاستخبار مع أن الفاء للتعقيب . ﴿ الخاسرون ﴾ ه ﴿ بذنوبهم ﴾ ج للفصل بين الماضي والمستقبل والتقدير : نحن نطبع مع اتحاد القصة . ﴿ لا يسمعون ﴾ ه ﴿ من أنبائها ﴾ ج لعطف المختلفتين ﴿ بالبينات ﴾ ط لأن ضمير ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ لأهل مكة وضمير . ﴿ جاءهم ﴾ للأمم الماضية مع أن الفاء توجب الاتصال ﴿ من قبل ﴾ ط ﴿ الكافرين ﴾ ه ﴿ من عهد ﴾ ج لعطف الجملتين المختلفين ﴿ لفاسقين ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 290 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما عرفنا أحوال هؤلاء الأنبياء ، وأحوال ما جرى على أممهم ، كان من الجائز أن يظن أنه تعالى ما أنزل عذاب الاستئصال ، إلا في زمن هؤلاء الأنبياء فقط ، فبين في هذه الآية أن هذا الجنس من الهلاك قد فعله بغيرهم ، وبين العلة التي بها يفعل ذلك : قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بالبأساء والضراء ﴾ وإنما ذكر القرية لأنها مجتمع القوم الذين إليهم يبعث الرسل ، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة ، لأنها مجتمع الأقوام وقوله : ﴿ مِّن نَّبِىٍّ ﴾ فيه حذف وإضمار ، والتقدير : من نبي فكذب أو كذبه أهلها ، إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء .

قال الزجاج : البأساء كل ما نالهم من الشدة في أحوالهم ، والضراء ما نالهم من الأمراض . وقيل على العكس ، ثم بين تعالى أنه يفعل ذلك لكي يضرعوا ، معناه : يتضرعوا ، والتضرع هو الخضوع والانقياد لله تعالى ، ولما علمت أن قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ لا يمكن حمله على الشك في حق الله تعالى ، وجب حمله على أن المراد أنه تعالى فعل هذا الفعل لكي يتضرعوا .

قالت المعتزلة : وهذا يدل على أنه تعالى أراد من كل المكلفين الإيمان والطاعة .

وقال أصحابنا : لما ثبت بالدليل أن تعليل أفعال الله وأحكامه محال وجب حمل الآية على أنه تعالى فعل ، ما لو فعله غيره لكان ذلك شبيهاً بالعلة والغرض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 149.150 ﴾

(7/280)

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا ﴾

في الآية مضمر ومعناه : وما أرسلنا في قرية من نبي فكذبوه إلا أخذنا أهلها ﴿ بالبأساء والضراء ﴾ يعني : عاقبنا أهلها بالخوف والبلاء والقحط والفقر .

ويقال : البأساء ما يصيبهم من الشدة في أموالهم ، والضراء ما يصيبهم في أنفسهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ يعني : لكي يتضرعوا ، فأدغمت التاء في الضاد وأقيم التشديد مقامه .

ومعناه : لكي يدعوا ربهم ويؤمنوا بالرسل ويعرفوا ضعف معبودهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ ﴾

فيه إضمار واختصار يعني فكذّبوه ﴿ إِلاَّ أَخَذْنَا ﴾ عاقبنا ﴿ أَهْلَهَا ﴾ حين لم يُؤمنوا ﴿ بالبأسآء ﴾ يعني بالبؤس الشدّة وضيق العيش ﴿ والضرآء ﴾ تعني أضر وهو الحال . وقيل : المرض والزمناء قال : السدي البأساء يعني الفقر والجوع ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ لكي يتضرعوا [فينيبوا] ويتوبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(8/280)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ ﴾

فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن البأساء : القحط ، والضراء : الأمراض والشدائد ، قاله الحسن .

والثاني : أن البأساء الجوع ، والضراء : الفقر ، قاله ابن عباس .

والثالث : أن البأساء : البلاء ، والضراء الزمانة .

والرابع : أن البأساء : ما نالهم من الشدة في أنفسهم .

والضراء : ما نالهم في أموالهم ، حكاه علي بن عيسى .

ويحتمل قولاً خامساً : أن البأساء الحروب .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يتوبون .

الثاني : يدعون ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

هذه الآية خبر من الله عز وجل أنه ما بعث نبياً في مدينة وهي " القرية " إلا أخذ أهلها المكذبين له ﴿ بالبأساء ﴾ وهي المصائب في الأموال والهموم وعوارض الزمن ، ﴿ الضراء ﴾ وهي المصاب في البدن كالأمراض ونحوها ، هذا قول ابن مسعود وكثير من أهل اللغة ، وحكي عن السدي ما يقتضي أن اللفظتين ينقادون إلى الإيمان ، وهكذا قولهم الحمى أضرعتني لك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(9/280)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية ﴾

قال الزجاج : يقال لكل مدينة : قرية ، لاجتماع الناس فيها .

وقال غيره : في الآية اختصار تقديره : فكذبوه .

﴿ إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾ وقد سبق تفسير البأساء والضراء في [الأنعام : 42] ، وتفسير التضرع في هذه السورة [الأعراف : 55] .

ومقصود الآية : إعلام النبي صلى الله عليه وسلم بسنَّةِ الله في المكذِّبين ، وتهديد قريش .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي ﴾

فيه إضمار وحذف تقديره فكذبوه ﴿ إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾ قال ابن مسعود : البأساء الفقر والضراء المرضى وهو معنى قول الزجاج : فإنه قال البأساء كل ما نالهم من الشدة في أموالهم والضراء كل ما نالهم من الأمراض .

وقيل : البأساء الشدة وضيق العيش والضراء الضر وسوء الحال ﴿ لعلهم يضرعون ﴾ يعني إنما فعلنا بهم ذلك لكي يتضرعون ويتوبوا والتضرع الخضوع والانقياد لأمر الله عز وجل والمراد من هذه الآية أن الله عز وجل لما عرف نبيه صلى الله عليه وسلم أحوال الأنبياء مع أممهم المكذبة وقص عليه من أخبارهم وعرفه سنته في الأمم الذين خلقوا من قبله وما صاروا إليه من الهلاك والعذاب عرفه في هذه الآية انه قد أرسل رسلاً إلى أمم أخر فكذبوا

رسلهم فأخذهم بالبأساء والضراء كما فعل بمن كذب برسله وفيه تخويف وتحذير الكفار قريش وغيرهم من لكفار لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ثم بين تعالى أنه لا يجري تدبيره في أهل القرى على نمط واحد وسنة واحدة إنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب وهو قوله تعالى : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ لأن ورود النعمة على البدن والمال بعد الشدة والضيق يستدعي الانقياد للطاعة والاشتغال بالشكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(10/280)

وقال أبو حيان :

﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضرّاء لعلهم يضرّعون ﴾

لما ذكر تعالى ما حلّ بالأمم السالفة من بأسه وسطوته عليهم آخر أمرهم حين لا تجدي فيهم الموعظة ذكر تعالى أن تلك عادته في أتباع الأنبياء إذا أصرّوا على تكذيبهم وجاء بعد إلا فعل ماض وهو ﴿ أخذنا ﴾ ولا يليها فعل ماض إلا أن تقدم فعل أو أصحب بقد فمثال ما تقدّمه فعل هذه الآية ومثال ما أصحب قد قولك ما زيد إلا قد قام والجملة من قوله ﴿ أخذنا ﴾ حاليّة أي إلا آخذين أهلها وهو استثناء مفرّغ من الأحوال وتقدّم تفسير نظير

قوله ﴿ إلا أخذنا ﴾ إلى آخره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ ﴾

إشارةٌ إجمالية إلى بيان أحوال سائر الأمم إثرَ بيان أحوال الأمم المذكورة تفصيلاً ، ومِنْ مزيدةٌ لتأكيد النفي والصفةُ محذوفةٌ أي من نبي كُذِّب أو كذَّبه أهلُها ﴿ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعم الأحوالِ ، وأخذنا في محل النصب من فاعل أرسلنا والفعلُ الماضي لا يقع بعد إلا بأحد شرطين إما تقديرِ قد كما في هذه الآية أو مقارَنةِ قد ، كما في قولك : ما زيد إلا قد قام والتقديرُ وما أرسلنا في قرية من القرى المُهلَكة نبياً من الأنبياء في حال من الأحوال إلا حال كونِنا آخذين أهلَها ﴿ بالبأساء ﴾ بالبؤس والفقرِ ﴿ والضراء ﴾ بالضُّرّ والمرض ، لكن لا على معنى أن ابتداءَ الإرسالِ مقارِنٌ للأخذ المذكورِ بل على أنه مستتبِعٌ له غيرُ منفكٍ عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتباع نبيِّهم وتعزُّزِهم عليه حسبما فعلت الأممُ المذكورة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ كي يتضرعوا ويتذللوا ويحُطّوا أرديةَ الكِبْر والعزةِ عن أكتافهم كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إلى أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ فأخذناهم بالبأساء والضراء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(11/280)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ ﴾ إشارة إجمالية إلى بيان أحوال سائر الأمم المذكورة تفصيلاً ، وفيه تخويف لقريش وتحذير ، ومن سيف خطيب جيء بها لتأكيد النفي ، وفي الكلام حذف صفة نبي أي كذب أو كذبه أهلها ﴿ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال ﴿ وَأَخَذْنَا ﴾ في موضع نصب على الحال من فاعل ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ وفي الرضى أن الماضي الواقع حالاً إلا إذا كان بعد إلا فاكتفاؤه بالضمير من دون الواو ، وقد كثر نحو ما لقيته إلا أكرمني لأن دخول إلا في الأغلب الأكثر على الاسم فهو بتأويل الأمكر ما لي فصار كالمضارع المثبت وما في هذه الآية من هذا القبيل ، وقد يجيء مع الواو وقد نحو ما لقيته إلا وقد أكرمني ، ومع الواو وحدها نحو ما لقيته إلا أكرمني لأن الواو مع إلا تدخل في خبر المبتدأ فكيف بالحال ولم يسمع فيه قد من دون الواو ، وقال المرادي في "شرح الألفية" إن الحال المصدرة بالماضي المثبت إذا كان تالياً لئلا يلزمها الضمير والخلو من الواو ويمتنع دخول قد وقول

متى يأت هذا الموت لم تلف حاجة . . .

لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

نادر ، وقد نصر على ذلك الأشموني وغيره أيضاً ، والظاهر أن امتناع قد بعد إلا فيما ذكر إذا كان الماضي حالاً لا مطلقاً ، وإلا فقد ذكر الشهاب أن الفعل الماضي لا يقع بعد إلا إلا بأحد شرطين إما تقدم فعل كما هنا .

(12/280)

وإما مع قد نحو ما زيد إلا قد قام ، ولا يجوز ما زيد إلا ضرب ، ويعلم مما ذكرنا أن ما وقع في غالب نسخ تفسير مولانا شيخ الإسلام من أن الفعل الماضي لا يقع بعد إلا إلا بأحد شرطين إما تقدير قد كما في هذه الآية أو مقارنة قد كما في قولك : ما زيد إلا قد قام ليس على ما ينبغي بل هو غلط ظاهر كما لا يخفى ، والمعنى فيما نحن فيه وما أرسلنا في قرية من القرى المهلكة نبياً من الأنبياء عليهم السلام في حال من الأحوال الإحال كوننا آخذين أهلها ﴿ بالبأساء ﴾ أي بالبؤس والفقر ﴿ والضراء ﴾ بالضر والمرض ، وبذلك فسرهما ابن مسعود وهو معنى قول من قال : البأساء في المال والضراء في النفس وليس المراد أن ابتداء الإرسال مقارن للأخذ المذكور بل إنه مستتبع له غير منفك عنه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنبهم وينقادوا لأمر الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

عطفت الواو جملة ﴿ ما أرسلنا ﴾ على جملة ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ [الأعراف : 85] ، عطف الأعم على الأخص .

لأن ما ذكر من القصص ابتداء من قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ [الأعراف : 59] كله ، القصد منه العبرة بالأمم الخالية موعظة لكفّار العرب فلما تلا عليهم قصص خمس أمم جاء الآن بحكم كلي يعم سائر الأمم المكذبة على طريقة قياس التمثيل ، أو قياس الاستقراء الناقص ، وهو أشهر قياس يسلك في المقامات الخطابية ، وهذه الجمل إلى قوله : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ [يونس : 75] كالمعترضة بين القَصَص ، للتنبيه على موقع الموعظة ، وذلك هو المقصود من تلك القصص ، فهو اعتراض ببيان المقصود من الكلام وهذا كثير الوقوع في اعتراض الكلام .

وعُدّيَ ﴿ أرسلنا ﴾ بـ (في) دون (إلى) لأن المراد بالقرية حقيقتها ، وهي لا يرسل إليها وإنما يرسل فيها إلى أهلها ، فالتقدير : وما أرسلنا في قرية من نبيء إلى أهلها إلاّ أخذنا أهلها

فهو كقوله تعالى : ﴿ وما كان ربّك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً ﴾ [القصص : 59] ولا يجري في هذا من المعنى ما يجري في قوله تعالى الآتي قريباً : ﴿ وأرسل في المدائن حاشرين ﴾ [الأعراف : 111] إذ لا داعي إليه هنا .

(14/280)

و ﴿ منْ ﴾ مزيد للتنصيص على العموم المستفاد من وقوع النكرة في سياق النفي ، وتخصيص القرى بإرسال الرسل فيها دون البوادي كما أشارت إليه هذه الآية وغيرها من آي القرآن ، وشهد به تاريخ الأديان ، ينبىء أن مراد الله تعالى من إرسال الرسل هو بث الصلاح لأصحاب الحضارة التي يتطرق إليها الخلل بسبب اجتماع الأصناف المختلفة ، وإن أهل البوادي لا يخلون عن الإنحياز إلى القرى والإيواء في حاجاتهم المدنية إلى القرى القريبة ، فأما مجيء نبيء غير رسول لأهل البوادي فقد جاء خالد بن سنان نبياً في بني عبس ، وأما حنظلة بن صفوان نبيء أهل الرسّ فالأظهر أنه رسول لأن الله ذكر أهل الرسل في عداد الأمم المكذبة ، وقد قيل : إنه ظهر بقرية الرس التي تسمى أيضاً (فتح) بالمهملة أو (فتَخ) بالمعجمة أو (فيْج) بتحتية وجيم ، أو فلْج (بلام وجيم) من اليمامة .

والاستثناء مفرغ من أحوال ، أي ما أرسلنا نبيّاً في قرية في حال من الأحوال إلاّ في حال أنّنا

أخذنا أهلها بالبأساء ، وقد وقع في الكلام إيجاز حذف دل عليه قوله : ﴿ لعلهم يضرّعون ﴾ فإنه يدل على أنهم لم يضرّعُوا قبل الأخذ بالبأساء والضراء ، فالتقدير : وما أرسلنا في قرية من نبيء إلاّ كذبه أهل القرية فخوفناهم لعلّهم يذلون لله ويتركون العناد الخ . . .

والأخذ : هنا مجاز في التناول والإصابة بالمكروه الذي لا يستطاع دفعه ، وهو معنى الغلبة ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء ﴾ في سورة الأنعام (42) .

وقوله : بالبأساء والضراء لعلهم يضرّعون ﴾ تقدم ما يُفسّرها في قوله : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلّهم يتضرعون ﴾ في سورة الأنعام (42) .

ويُفسر بعضها أيضاً في قوله : ﴿ والصابرين في البأساء والضراء ﴾ في سورة البقرة (177) .

(15/280)

واستغنت جملة الحال الماضوية على الواو و (قد) بحرف الاستثناء ، فلا يجتمع مع (قد) إلاَّ نادراً ، أي : ابتدأناهم بالتخويف والمصائب لتَفُل من حدتهم وتصرف تأملهم إلى تطلب

أسباب المصائب فيعلموا أنها من غضب الله عليهم فيتوبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(16/280)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ﴾

وعرفنا من قبل أن القرية هي البلد الجامع لكل مصالح سكانها في دنياهم .

والمقصود هنا أن القرية التي يرسل إليها الحق رسولاً ثم تُكَذِّب فسبحانه يأخذ أهلها بالبأساء والضراء . والبأساء هي المصيبة تصيب الإنسان في أمر خارج عن ذاته ؛ من مال يضيع ، أو تجارة تبور وتهلك ، أو بيت يهدم ، والضراء هي المصيبة التي تصيب الإنسان في ذاته ونفسه كالمرض ، ويصيبهم الحق بالبأساء والضراء لأنهم نسوا الله في الرخاء فأصابهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتعرفون إليه ، ليكون معهم في السراء والضراء . والحق يقول : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدا أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . ﴾ [يونس : 12]

وكان من الواجب على الإنسان أنه ساعة ما تمسه الضراء أن يتجه إلى خالقه ، ولقد جعل الله الضراء وسيلة تنبيه يتذكر بها الإنسان أن له ربا ، وفي هذه اللحظة يجيب الحق الإنسان المضطر ، ويغيثه مصداقاً لقوله الحق : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : 62]

وإذا صنع الله مع المضطر هذا فقد يثوب إلى رشده ويقول : إن الإله الذي لم أجد لي مفزعاً إلا هو ، لا يصح أن أنساه

وكأن الحق سبحانه وتعالى يذكرنا بطلاقة قدرته حين يقول : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ . . . ﴾ [الأنعام : 43]

(17/280)

وكأنه سبحانه يطلب منا حين تجيء البأساء أن نفزع إليه ولا نعتقد أننا نعيش الحياة وحدنا ، بل نعيش في الحياة بالأسباب المخلوقة لله وبالمسبب وهو الله ، فالذي عزت عليه الأسباب وأتعبته يروح للمسبب ، ولذلك يأخذ سبحانه أية قرية لا تصدق الرسل بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون وذلك رحمة بهم .

ويقول : ﴿ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾ [الأنعام : 43]

فهل يتركهم الله في السراء والضراء دائماً ؟ لا ، فهو سبحانه يجيئهم ويبتليهم بالبأساء والضراء ليلفتهم إليه ، فإذا لم يلتفتوا إلى الله ، فسبحانه يبدل مكان السيئة الحسنة ، لذلك يقول : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الْحَسَنَةَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(18/280)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ بالبأسآء والضرآء ﴾ .

قال الزَّجَّاجُ : " البَأْسَاءُ : كلُّ ما ينالم من الشِّدَّةِ في أحوالهم ، والضراء : ما ينالهم من الأَمْرَاضِ " .

وقيل : " على العكس " .

وقال ابْنُ مسعود : " البَأْسَاءُ : الفقر ، والضَّرَّاءُ : المَرَضُ " .

وقيل : " البَأْسَاءُ في المال ، والضَّرَّاءُ في النَّفْسِ " .

وقيل : " البَأْسَاءُ : البؤس ، وضيقُ العيشِ ، والضَّرَّاءُ : الضرُّ وسوءُ الحال " .

وقيل : " البَأسَاءُ : في الحزن والضَّرَّاءُ : في الجدب " .

" لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ " لكي يَتَضَرَّعُوا ؛ فيتوبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 232 ﴾

(19/280)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لم يتضرعوا صادقين من قلوبهم معترفين بالحق لأهله كما يحق له ، استدراجهم بإدرار النعم ، فقال مشيراً إلى طول مدة الابتلاء واستبعادهم لكشف ذلك البلاء : ﴿ ثم بدلنا ﴾ ومظهر العظمة يؤيد الاحتمال الثاني ﴿ مكان ﴾ أي جعلنا ﴿ السيئة ﴾ أي النقمة ﴿ الحسنة ﴾ أي النعمة ، وبين أنه مد النعمة بقوله : ﴿ حتى عفوا ﴾ أي بدل كثروا وكثرت نعمهم فلم يشكروا ﴿ وقالوا ﴾ مسندين الأمر إلى غير أهله ﴿ قد مس آباءنا الضراء ﴾ أي الشدة ﴿ والسراء ﴾ أي الرخاء والنعمة ، معتقدين أن هذه عادة الدهر لا

فعل الفاعل المختار .

ولما لم يعتبروا ويعلموا أن ذلك ممن يحب أن لا يعدل عن بابه ولا يغفل عن جنابه ، وظنوا أن ذلك دأب الدهر وفعل الزمان ، واستمروا على فسادهم في حال الشدة والرخاء ، سبب عنه قوله : ﴿ فأخذناهم ﴾ أي بعظمتنا أشد الأخذ وأفظعه في الظاهر والباطن ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة حتى لا ينفعهم التوبة ، وأكد معنى البغت تحقيقاً لأمره بقوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فحق من سمع هذا أن يبادر إلى الرجوع عن كل مخالفة فيها خوفاً من الأخذ بغتة .

أهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 73 . 74 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى أن تدبيره في أهل القرى لا يجري على نمط واحد ، وإنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب فقال : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة ﴾ لأن ورود النعمة في البدن والمال بعد البأساء والضراء ، يدعو إلى الانقياد والاشتغال بالشكر ، ومعنى الحسنة والسيئة ههنا الشدة والرخاء .

قال أهل اللغة : (السيئة) كل ما يسوء صاحبه ، و (الحسنة) ما يستحسنه الطبع والعقل ، والمعنى : أنه تعالى أخبر أنه يأخذ أهل المعاصي بالشدة تارة ، وبالرخاء أخرى .

وقوله : ﴿ حتى عَفَواْ ﴾ قال الكسائي : يقال : قد عفا الشعر وغيره ، إذا كثر ، يعفو فهو عاف ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى عَفَواْ ﴾ يعني كثروا ومنه ما ورد في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام ، أمر أن تحف الشوارب ، وتعفى اللحى يعني توفر وتكثر وقوله : ﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءابَآءَنَا الضرآء والسراء ﴾ فالمعنى : أنهم متى نالهم شدة قالوا : ليس هذا بسبب ما نحن عليه من الدين والعمل وتلك عادة الدهر ، ولم يكن ما مسنا من البأساء والضراء عقوبة من الله وهذه الحكاية تدل على أنهم لم ينتفعوا بما دبرهم الله عليه من رخاء بعد شدة ، وأمن بعد خوف ، بل عدلوا إلى أن هذه عادة الزمان في أهله ، فمرة يحصل فيهم الشدة والنكد ، ومرة يحصل لهم الرخاء والراحة ، فبين تعالى أنه أزال عذرهم وأزاح علتهم ، فلم ينقادوا ولم ينتفعوا بذلك الإمهال ، وقوله : ﴿ فأخذناهم بَغْتَةً ﴾ والمعنى : أنهم لما تمردوا على التقديرين ، أخذهم الله بغتة أينما كانوا ، ليكون ذلك أعظم في الحسرة .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي يرون العذاب والحكمة في حكاية هذا المعنى أن يحصل الاعتبار لمن سمع هذه القصة وعرفها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 150 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة ﴾

يعني : حولنا مكان الشدة الرخاء ، ومكان الجدوبة الخصب ، ﴿ حتى عَفَواْ ﴾ أي كثروا ، واستغنوا ، وكثرت أموالهم فلم يشكروا الله تعالى .

ويقال : حتى عفوا أي حتى سروا به ﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءابَاءنَا الضراء والسراء ﴾ أي مثل ما أصابنا مرة يكون الرخاء ، ومرة يكون الشدة ، ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يعني : أتاهم العذاب من حيث لم يعلموا به .

ويقال : إن الشدة للعامة تكون تنبيهاً وزجراً .

والنعمة تكون استدراجاً وأما النعمة للخاصة فهي تنبيه ، لأنه بعد ذلك عقوبة .

كما روي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك فقل مرحباً بشعار الصالحين .

وإذا رأيت الغنى مقبلاً إليك فقل ذنب عجلت عقوبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة ﴾

وهي البأساء والجواب والجوع ﴿ الحسنة ﴾ يعني النعمة والسعة والرخاء والخصب ﴿ حتى عَفَوْاْ ﴾ أي كثروا وأثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، قال ابن عباس : (عفوا) يعني [جهدوا] ، وقال ابن زيد : يعني كثروا كما يكثر النبات والريش .

قال قتادة : (حتّى عفوا) : سروا بذلك ، وقال مقاتل بن حيان : (عفوا) حتى كثروا وتركوا ولم يستكثروا وأصله من الكثرة .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى " .

وقال الشاعر :

يقول من بعد أُولاك أولات . . . أتوا زماناً ليس عندهم بعيد

وقال آخر :

ولكنا نعض السيف منها . . . بأسوق عافيات الشحم كوم

﴿ وَّقَالُواْ ﴾ من جهلهم وغفلتهم ﴿ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء ﴾ فنحن مثلنا فقال

الله تعالى ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ [فجأة عِبرة لمن بعدهم] . ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بنزول العذاب ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا ﴾ يعني وحدوا الله وأطاعوه ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء ﴾ يعني المطر ﴿ والأرض ﴾ يعني النبات ، وأصل البركة المواضبة على الشيء تقول : برك فلان على فلان إذا [أجابه ، وبركات الأرض أي] تابعنا عليهم بالمطر والنبات والخصب ورفعنا الحرث والقحط ﴿ ولكن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ فجعلنا لهم العقوبات ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعصية والأعمال الخبيثة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(23/280)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : مكان الشدة الرخاء ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد .

والثاني : مكان الخير والشر .

﴿ حَتَّى عَفَواْ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : حتى كثروا ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي ، قال لبيد :

وَأَنَاسٌ بَعْدَ قَتْلٍ قَدْ عَفَوا . . . وَكَثِيرٌ زَالَ عَنْهُمْ فَانْتَقَلْ

والثاني : حتى أعرضوا ، قاله ابن بحر .

والثالث : حتى سُرّوا ، قاله قتادة .

والرابع : حتى سمنوا ، قاله الحسن ، ومنه قول بشر بن أبي حازم :

فَلَمَّا أَنْ عَفَا وَأَصَابَ مَالاً . . . تَسَمَّنَ مَعْرِضاً فِيهِ ازْوِرَارُ

﴿ وَّقَالُوْا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّآءُ ﴾ أي الشدة والرخاء يعنون ليس البأساء والضراء عقوبة على تكذيبك وإنما هي عادة الله في خلقه أن بعد كل خصب جدباً وبعد كل جدب خصباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(24/280)

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾

ثم قال تعالى إنه بعد إنفاذ الحكم في الأولين بدل للخلق مكان السيئة وهي " البأساء " و" الضراء " الحسنة وهي " السراء " والنعمة ، وهذا بحسب ما عند الناس ، وإلا فقد يجيء

الأمر كما قال الشاعر : [البسيط]

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت . . . ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

قال القاضي أبو محمد : وهذا إنما يصح مع النظر إلى الدار الآخرة والجزاء فيها ، والنعمة المطلقة هي التي لا عقوبة فيها : والبلوى المطلقة هي التي لا ثواب عليها ، و﴿ حتى عفواً ﴾ معناه : حتى كثروا يقال عفا النبات والريش " يعفو " إذا كثر نباته ، ومن هذا المعنى قول الشاعر : [الوافر]

ولكنها يعضُّ السيف منها . . . بأسوق عافيات الشحم كوم

وعليه قوله صلى الله عليه وسلم " أحفوا الشوارب واعفوا اللحى " وعفا أيضاً في اللغة بمعنى درس وبلى فقال بعض الناس هي من الألفاظ التي تستعمل للضدين ، أما قول زهير :

على آثار من ذهب العفاء . . . فيحتمل ثلاثة معانٍ الدعاء بالدرس ، والإخبار به ، والدعاء بنمو والنبات ، كما يقال جادته الديم وسقته العهاد ولما بدل الله حالهم بالخير لطفاً بهم فنموا رأى الخلق بعد ذلك للكفر الذي هم فيه أن إصابة ﴿ الضراء والسراء ﴾ إنما هي بالاتفاق ، وليست بقصد كما يخبر النبي ، واعتقدوا أن ما أصابهم من ذلك إنما هو كالاتفاق الذي كان لآبائهم فجعلوه مثالاً ، أي قد أصاب هذا آباءنا فلا ينبغي لنا أن ننكره ، فأخبر الله تعالى أنه أخذ هذه الطوائف التي هذا معتقدها ، وقوله ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة وأخذة أسف وبطشاً للشقاء السابق لهم في قديم علمه ، و﴿ السراء ﴾ السرور والحبرة

، ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ معناه وهم مكذبون بالعذاب لا يتحسسون لشيء منه ولا يستشعرونه باستذلال وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(25/280)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ثم بَدّلنا مكان السيئةِ الحسنة ﴾

فيه قولان .

أحدهما : أن السيئة : الشدة ؛ والحسنة : الرخاء ، قاله ابن عباس .

والثاني : السيئة : الشر ؛ والحسنة : الخير ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ حتى عَفوا ﴾ قال ابن عباس : كثروا ، وكثرت أموالهم .

﴿ وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء ﴾ فنحن مثلهم ، يصيبنا ما أصابهم ، يعني : أنهم أرادوا أن هذا دأب الدهر ، وليس بعقوبة .

﴿ فأخذناهم بغتة ﴾ أي : فجأة بنزول العذاب ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بنزوله ، حتى أهلكهم الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة ﴾

أي أبدلناهم بالجدب خِصباً .

﴿ حتى عَفَوْاْ ﴾ أي كثروا ؛ عن ابن عباس .

وقال ابن زيد : كثرت أموالهم وأولادهم .

وعفا : من الأضداد .

عفا : كثر .

وعفا : درس .

أعلم الله تعالى أنّه أخذهم بالشدّة والرخاء فلم يزدجِروا ولم يشكروا .

﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء ﴾ فنحن مثلهم .

﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ليكون أكثر حسرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(26/280)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾

قال أهل اللغة : السيئة كل ما يسوء صاحبه والحسنة كل ما يستحسنه الطبع والعقل فالسيئة والحسنة هنا الشدة والرخاء .

والمعنى أنه تعالى بدل مكان البأساء والضراء النعمة والسعة والخصب والصحة في الأبدان فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يأخذ أهل المعاصي والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله ﴿ حتى عفوا ﴾ يعني أنه فعل ذلك بهم حتى كثروا وكثرت أموالهم .

يقال : عفا الشعر إذا كثر وطال .

قال مجاهد : حتى كثرت أموالهم وأولادهم ﴿ وقالوا ﴾ يعني من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا إلى الرخاء والسعة ﴿ قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ يعني أنهم قالوا هكذا عادة الدهر قديماً وحديثاً لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فإنهم لم يتركوا دينهم مما أصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى : ﴿ فأخذناهم بغتة ﴾ يعني أخذناهم فجأة آمن ما كانوا ليكون ذلك أعظم لحسرتهم ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ يعني بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة اعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة ﴾

أي مكان الحال السيئة من البأساء والضراء الحال الحسنة من السّرّاء والنعمة ، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة مكان الشدّة الرخاء ، وقيل مكان الشرّ الخير ومكان و ﴿ الحسنة ﴾ مفعولاً بدل و ﴿ مكان ﴾ هو محل الباء أي بمكان السيئة وفي لفظ ﴿ مكان ﴾ إشعار بتمكن البأساء منهم كأنه صار للشدة عندهم مكان وأعرب بعضهم ﴿ مكان ﴾ ظرفاً أي في مكان .

﴿ حتى عفوا ﴾ أي كثروا وتناسلوا ، وقال مجاهد : كثرت أموالهم وأولادهم ، وقال ابن بجر حتى أعرضوا من عفا عن ذنبه أي أعرض عنه ، وقال الحسن : سمنوا ، وقال قتادة سرّوا بكثرتهم وذلك استدراج منه لهم لأنه أخذهم بالشدة ليتعظوا ويزدجروا فلم يفعلوا ثم أخذهم بالرخاء ليشكروا .

﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا هذه عادة الدّهر ضرّاء وسرّاء وقد أصاب آباءنا مثل ذلك لا بابتلاء وقصد بل ذلك بالاتفاق لا على ما تخبر الأنبياء جعلوا أسلافهم وما أصابهم مثلاً لهم ولما يصيبهم فلا ينبغي أن ننكر هذه العادة من أفعال الدهر .

﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ تقدّم الكلام على مثل هذه الآية لما أفسدوا على التقديرين أخذوا هذا الأخذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(28/280)

وقال أبو السعود :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا ﴾ عطفٌ على أخذنا داخلٌ في حكمه ﴿ مَكَانَ السيئة ﴾ التي أصابتهم للغاية المذكورةِ ﴿ الحسنة ﴾ أي أعطيناهم بدلَ ما كانوا فيه من البلاء والمحنةِ الرخاءَ والسعةَ كقوله تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ ﴿ حتى عَفَواْ ﴾ أي كثُروا عَدداً وعُدداً من عفا النباتُ إذا كثر وتكاثف وأبطرتْهم النعمة ﴿ وَقَالُواْ ﴾ غيرَ واقفين على أن ما أصابهم من الأمرين ابتلاءٌ من الله سبحانه ﴿ قَدْ مَسَّ ءابَاءنَا الضراء والسراء ﴾ كما مسّنا ذلك ، وما هو إلا من عادة الدهرِ يعاقِب في الناس بين الضراءِ والسراء من غير أن يكون هناك داعيةٌ تؤدي إليهما أو تبعةٌ تترتب عليهما ، ولعل تأخيرَ السراءِ للإشعار بأنها تعقُب الضراءَ فلا ضيرَ فيها ﴿ فأخذناهم ﴾ إثرَ ذلك ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأةً أشدَّ الأخذِ وأفظعَه ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك ولا يُخطِرُ ببالهم شيئاً من المكاره كقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ ﴾ الآية ، وليس المرادُ بالأخذ بغتةً إهلاكَهم طرفة

عينٍ كإهلاك عادٍ وقومِ لوطٍ بل ما يعُمّه وما يمضي بين الأخذ وإتمام الإهلاكِ أياماً كدأب ثمود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(29/280)

وقال الآلوسي :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَآ ﴾ عطف على ﴿ أخذنا ﴾ [الأعراف : 94] داخل في حكمه ﴿ مَكَانَ السيئة ﴾ التي أصابتهم لما تقدم ﴿ الحسنة ﴾ وهي السعة والسلامة ، ونصب ﴿ مَّكَانَ ﴾ كما قيل على الظرفية و ﴿ بَدَّلَ ﴾ متضمن معنى أعطى الناصب لمفعولين وهما هنا الضمير المحذوف والحسنة أي أعطيناهم الحسنة في مكان السيئة ، ومعنى كونها في مكانها أنها بدل منها .

وقال بعض المحققين : الأظهر أن مكان مفعول به لبدلنا لا ظرف ، والمعنى بدلنا مكان الحال السيئة الحال الحسنة فالحسنة هي المأخوذة الحاصلة في مكان السيئة المتروكة والمتروك هو الذي تصحبه الباء في نحو بدلت زيداً بعمرو ﴿ حتى عَفَواْ ﴾ أي كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم ، وبذلك فسره ابن عباس وغيره من عفا النبات وعفا الشحم والوبر إذا كثرت ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " أحفوا الشوارب واعفوا اللحى " وقول الحطيئة :

بمستأسد القريان عاف نباته . . .

تساقطني والرحل من صوت هدهد

وقوله :

ولكنا نعض السيف منها . . .

بأسوق عافيات الشحم كوم

وتفسير أبي مسلم له بالإعراض عن الشكر ليس بياناً للمعنى اللغوي كما لا يخفى ، ﴿ وحتى ﴾ هذه الداخلة على الماضي ابتدائية لا غائية عند الجمهور ، ولا محل للجملة بعدها كما نقل ذلك الجلال السيوطي في "شرح جمع الجوامع" له عن بعض مشايخه ، وأما زعم ابن مالك أنها جارة غائية وأن مضمرة بعدها على تأويل المصدر فغلطه فيه أبو حيان وتبعه ابن هشام فقال : لا أعرف له في ذلك سلفاً ، وفيه تكلف إضمار من غير ضرورة ، ولا يشكل عليه ولا على من يقول ؛ إن معنى الغاية لازم لحتى ولو كانت ابتدائية أن الماضي لمضيه لا يصلح أن يكون غاية لما قبل لتأخر الغاية عن ذي الغاية لأن الفعل وإن كان ماضياً لكنه بالنسبة إلى ما صار غاية له مستقبل فافهم .

﴿ يَصِدُّونَ وَقَالُواْ ﴾ غير واقفين على أن ما أصابهم من الأمرين ابتلاء منه سبحانه ﴿ قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا ﴾ كما مسنا .

﴿ الضراء والسراء ﴾ وما ذلك إلا من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء ويداولهما بنيهم من غير أن يكون هناك داعية إليهما أو تبعة تترتب عليهما وليس هذا كقول القائل :

ثمانية عمت بأسبابها الورى . . .

فكل امرىء لا بد يلقى الثمانية

سرور وحزن واجتماع وفرقة . . .

وعسر ويسر ثم سقم وعافية

كما لا يخفى ، ولعل تأخير السراء للإشعار بأنها تعقب الضراء فلا ضير فيها ﴿ فأخذناهم ﴾ عطف على مجموع عفواً وقالوا أو على قالوا لأنه المسبب عنه أي فأخذناهم إثر ذلك ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة .

﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بشيء من ذلك ولا يخطرون ببالهم شيئاً من المكاره ، والجملة حال مؤكدة لمعنى البغتة ، وهذا أشد أنواع الأخذ كما قيل : وأنكأ شيء يفجؤك البغت ، وقيل : المراد بعدم الشعور عدم تصديقهم بإخبار الرسل عليهم السلام بذلك لا خلو أذهانهم عنه ولا عن وقته لقوله تعالى : ﴿ ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا

غافلون ﴾ [الأنعام : 131] ولا يخفى ما فيه من الغفلة عن معنى الغفلة وعن محل الجملة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 9 صـ ﴾

(31/280)

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾

والتبديل : التعويض ، فحقه أن يتعدى إلى المفعول الثاني بالباء المفيدة معنى البدلية ويكون ذلك المفعول الثاني المدخول للباء هو المتروك ، والمفعول الأول هو المأخوذ ، كما في قوله تعالى : ﴿ قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ في سورة البقرة (61) ، وقوله : ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ في سورة النساء (2) ، لذلك انتصب الحسنة ﴾ هنا لأنها المأخوذة لهم بعد السيّئة فهي المفعول الأول والسيّئة هي المتروكة ، وعدل عن جر السيئة بالباء إلى لفظ يؤدي مُؤَدى باء البدلية وهو لفظ (مكان) المستعمل ظرفاً مجازاً عن الخَلفية ، يقال خذ هذا مكانَ ذلك ، أي : خذه خلفاً عن ذلك لأن الخَلف يحل في مكان المخلوف عنه ، ومن هذا القبيل قول امرىء القيس:

وبُدلْتُ قُرحاً دامياً بعد نعمة . . .

فجعل (بعدَ) عوضاً عن باء البدلية .

فقوله : ﴿ مكانَ ﴾ مَنصوب على الظرفية مجازاً ، أي : بَدلناهم حسنة في مكان السيّئة ، والحسنة اسم اعتبر مؤنثاً لتأويله بالحالة والحادثة وكذلك السيئة فهما في الأصل صفتان لموصوف محذوف ، ثم كثر حذف الموصوف لقلة جدوى ذكره فصارت الصفتان كالاسمين ، ولذلك عبر عن الحسنة في بعض الآيات بما يُتَلَمّح منه معنى وصفيّتها نحو قوله تعالى : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيّئة ادفع بالتي هي أحسنُ ﴾ [فصلت : 34] أي : ادفع السيّئة بالحسنة ، فلما جاء بطريقة الموصولية والصلة بأفعل التفضيل تُلمح معنى الوصفية فيهما ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيّئة ﴾ [فصلت : 34] .

ومثلهما في هذا المصيبة ، كما في قوله تعالى في سورة براءة (50) : ﴿ إن تُصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ أي : بدّلناهم حالة حسنة بحالتهم السيّئة وهي حالة البأساء والضراء .

فالتعريف تعريف الجنس ، وهو مشعر بأنهم أعطوا حالة حسنة بطيئة النفع لا تبلغ مبلغ البركة .

(32/280)

و ﴿ حتى ﴾ غاية لما يتضمنه ﴿ بدّلنا ﴾ من استمرار ذلك وهي ابتدائية ، والجملة التي بعدها لا محل لها .

و ﴿ عَفْوا ﴾ كثُروا .

يقال : عفا النبات ، إذا كثر ونما ، وعطف ﴿ وقالوا ﴾ على ﴿ عفوا ﴾ فهو من بقية الغاية .

والسّرّاء : النعمة ورَخاء العيش ، وهي ضد الضراء .

والمعنى أنا نأخذهم بما يغير حالهم التي كانوا فيها من رخاء وصحة عسى أن يعلموا أن سلب النعمة عنهم أمارة على غضب الله عليهم من جرّاء تكذيبهم رسولهم فلا يهتدون ، ثم نردهم إلى حالتهم الأولى إمهالاً لهم واستدراجاً فيزدادون ضلالاً ، فإذا رأوا ذلك تعللوا لما أصابهم من البؤس والضر بأن ذلك التغيير إنما هو عارض من عوارض الزمان وأنه قد أصاب أسلافهم من قبلهم ولم يَجئهم رسُل .

وهذه عادة الله تعالى في تنبيه عباده ، فإنه يحب منهم التوسم في الأشياء والاستدلال بالعقل والنظر بالمسببات على الأسباب ، كما قال تعالى : ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ [التوبة : 126] لأن الله لما وهب الإنسان العقل فقد أحب منه أن يستعمله فيما يبلغ به الكمال ويقيه الضلال .

وظاهر الآية : أن هذا القول صادر بألسنتهم وهو يكون دائراً فيما بين بعضهم وبعض في

مجادلتهم لرسُلهم حينما يعظونهم بما حلّ بهم ويدْعونهم إلى التوبة والإيمان ليكشف عنهم الضر .

ويجوز أن يكون هذا القول أيضاً : يجيش في نفوسهم ليدفعوا بذلك ما يخطر ببالهم من توقع أن يكون ذلك الضر عقاباً من الله تعالى ، وإذ قد كان محكياً عن أمم كثيرة كانت له أحوال متعددة بتعدد ميادين النفوس والأحوال .

(33/280)

وحاصل ما دفعوا به دلالة الضراء على غضب الله أن مثل ذلك قد حل بآبائهم الذين لم يدْعُهم رسول إلى توحيد الله ، وهذا من خطأ القياس وفساد الاستدلال ، وذلك بحصر الشيء ذي الأسباب المتعددة في سبب واحد ، والغفلة عن كون الأسباب يخلف بعضها بعضاً ، مع الغفلة عن الفارق في قياس حالهم على حال آبائهم بأن آباءهم لم يأتهم رسُل من الله ، وأما أقوام الرسل فإن الرسل تحذرهم الغضب والبأساء والضراء فتحيق بهم ، أفلا يَدلُهم ذلك على أن ما حصل لهم هو من غضب الله عليهم ، على أن غضب الله ليس منحصر الترتب على معصية الرسول بل يكون أيضاً عن الانغماس في الضلال المبين ، مع وضوح أدلة الهدى للعقول ، فإن الإشراك ضلال ، وأدلة التوحيد واضحة للعقول ، فإذا

تأيدت الدلالة بإرسال الرسل المنذرين قويت الضلالة باستمرارها ، وانقطاع أعذارها ، ومثل هذا الخطأ يعرض للناس بداعي الهوى وإلف حال الضلال .

والفَاء في قوله : ﴿ فأخذناهم ﴾ للتعقيب عن قوله : ﴿ عَفَوْا ﴾ ، و ﴿ قالوا ﴾ ، باعتبار كونهما غاية لإبدال الحسنة مكان السيئة ، ولا إشعار فيه بأن قولهم ذلك هو سبب أخذهم بغتة ولكنه دل على إصرارهم ، أي : فحصل أخذنا إياهم عقب تحسن حالهم وبَطرهم النعمة .

والتعقيب عرفي فيصدق بالمدة التي لا تعد طولاً في العادة لحصول مثل هذه الحوادث العظيمة .

والأخذ هنا بمعنى الإهلاك كما في قوله تعالى : ﴿ أخذهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ في سورة الأنعام (44) .

والبغتة : الفجْأة ، وتقدمت عند قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ﴾ [الأنعام : 31] ، وفي قوله : ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾ في سورة الأنعام (44) ، وتقدم هنالك وجه نصبها .

وجملة : وهم لا يشعرون ﴾ حال مؤكدة لمعنى ﴿ بغتة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) ﴾

ويعطي سبحانه بعد ذلك لهم الرزق ، والعافية ، والغنى ؛ لأن الحق إذا أراد أن يأخذ جباراً أخذ عزيز مقتدر فهو يمهله ، ويرخي له العِنان ليتجبر – كفرعون – من أجل أن يأخذه بغتة ، كأنه يسقط من أعلى ، فيعليه من أجل أن ينزل به – كما يقولون – على جذور رقبته : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْا ﴾ .

(عَفَوْا) أي كثروا عدداً ومالاً وقوة أي أنه ما أخذهم سبحانه بالبأساء والضراء إلاّ وكان القصد منها أن يلفتهم إليه ، فلم يلتفتوا ، فيمدهم ويعطي لهم العافية وما يسرّهم ، ثم يصيبهم بالعذاب بغتة . ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْا وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف : 95]

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تكلم على خلافة الإنسان في الأرض ، وأنه أمده بكل ما تقوم به حياته ، وأمده بالقيم بواسطة مناهج السماء ، وأنزل المنهج مبينا ما أحل ، وما حرم بعد أن كانوا يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، فبيّن لهم الحق أن الذي خلق الخلق عالم بما يصلحهم فأحله ، وعالم بما يفسدهم فحرّمه ، فليس لكم أن تقترحوا

على الله حلالاً ، ولا حراماً ، ولكن بعض المشككين في منهج الله قالوا – وما زالوا يقولون – : إذا كان الله قد أحل شيئاً وحرم شيئاً فلماذا خلق ما حرم ؟ ونقول : لقد خلق سبحانه كل شيء لحكمة قد تكون لغير الطعام والشراب والكسوة ، فبعض الأشياء يكون مخلوقاً لمهمة وإن لم تكن مباشرة لك ؛ فالبترول مثلاً مخلوق لمهمة أن يوجد طاقة ، لذلك لا نشربه .

(35/280)

والخنزير مخلوق لحكمة لا نعلمها نحن ، وإنما يعلمها من خلق ، لأنه من الجائز أن يكون أداة لالتقاط الميكروبات التي تنشأ من عفن الأشياء التي يستعملها الناس في حياتهم ، إذن فكل شيء مخلوق لحكمة ، فلا تخرج أنت حكمة الأشياء من غير مراد خالقها ؛ لأن صانع الصنعة هو الذي يحدد الشيء الذي يوجد وينشئ القوة لها . ونحن نعلم – مثلاً – أن أنواع الوقود كثيرة ، فهناك " البنزين " النقي جداً ويرقمونه برقم (1) وهو مخصص للطائرة ، ووقود السيارة وهو " البنزين " رقم (2) . فإذا استخدمنا وقود ماكينة وآلة بدل ماكينة أخرى أفسدناها . كذلك خلق الله الإنسان وسخر له كل المخلوقات وأوضح : هذا يصلح لك مباشرة ، وهذا مخلوق ليخدمك خدمة غير مباشرة فدعه في مكانه .

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى مواقف الجنة ، ومواقف النار ، ومواقف أصحاب

الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ؛ وبعد أن بين المنهج كله أراد أن يبين أن ذلك ليس نظرياً ، وإنما هو واقع كوني أيضاً . ففرق بين الشيء يقال نظرا ، والشيء يقع واقعاً ، فقص علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم ، فمن كذب بالرسل أخذه الله أخذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع ؛ فذكر نوحا مع قومه ، وذكر عاداً وأخاهم هوداً ، وذكر ثمود وأخاهم صالحاً ، ومدين وأخاهم شعيباً ، وقوم لوط وسيدنا لوطا .

وبين ما حدث للمؤمنين بالنجاة ، وما حدث للكافرين بالعطب والإذلال ، ويوضح الحق سبحانه وتعالى : أنني آخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، لأن الإنسان مخلوق أفاض الله عليه من صفات جلاله ، ومن صفات جماله الشيء الكثير ، فالله قوي ، وأعطى الإنسان من قوته . والله غني وأعطى الإنسان من غناه ، والله حكيم وأعطى الإنسان من حكمته ، والله عليم وأعطى الإنسان من علمه .

(36/280)

وإذا أردت أن تستوعب ما يقربك إلى كمال العلم في الله ، فانظر ما علمه لكل خلق الله . ومع ذلك فعلمهم ناقص . ويريدون إلى العلم الذاتي في الحق سبحانه وتعالى ، وربما غر الإنسان بالأسباب وهي تستجيب له ، فهو يحرث ويبذر ويروي ، وإذا بالأرض تعطيه

أكلها . وهو يصنع الشيء فيستجيب له . كل ذلك قد يغريه بأن الأشياء استجابت لذاتيته فيذكره الله : أن أذكر من ذللها لك . ﴿ كَلَّآ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7]

وساعة ما يجد الإنسان أن كل الأسباب مواتية له فعليه أن يذكر الله . إن الإنسان بمجرد إرادة أن يقوم من مكانه فهو يقوم . وبمجرد إرادة أن يصفع أحداً فهو يصفعه ؛ لأن الأبعاض التي في الإنسان خاضعة لمراده ، فإذا كانت أبعاضك خاضعة لمراداتك أنت ، وأنت مخلوق ، فكيف لا يكون الكون كله مراداً للحق بالإرادة ؟ فإذا استغنى الإنسان بالأسباب ، فالحق يلفته إليه . فالقادر الذي كان بفتوته يفعل . سلب الله منه القدرة بالمرض ؛ فيمد يده ليساعده إنسان على القيام والذي اعتز بشيء يذله الله بأشياء . لماذا ؟ حتى يلفته إلى المسبِّب ، فلا يُفتن بالأسباب .

ويدع لنا الحق سبحانه وتعالى في كونه عجائب ، ونجد العالم وقد تقدم الآن تقدماً فضائيًّا واسعاً ، واستطاع الإنسان أن يكتشف من أسرار كون الله ما شاء ، ولكن الحق يصنع لهم أحياناً أشياء تدلهم على أنهم لا يزالون عاجزين . فبعد أن تكتمل لهم صناعة الآلات المتقدمة يكتشفون خطأً واحداً يفسد الآلة ويحطمها ، وتهب زوبعة أو إعصار يدمر كل شيء ، أو يشتعل حريق هائل . فهل يريد الله بكونه فساداً وقد خلقه بالصلاح ؟ لا ، إنه يريد أن يلفتنا إلى ألا نغتر بما أوتينا من أسباب . فالذين عملوا " الرادار " لكي يبين لهم

الحدث قبل أن يقع ، يفاجئهم ربنا – أحياناً – بأشياء تعطل عمل " الرادار " ، فيعرفون أنهم مازالوا ناقصي علم .

(37/280)

إذن فالأخذ بالبأساء ، والأخذ بالضراء ، سنة كونية الإِنسان فاهماً وعالماً أنه خليفة في الأرض لله . وفساد الإِنسان أن يعلم أنه أصيل في الكون ، فلو كنت أصيلاً في الكون فحافظ على نفسك في الكون ولا تفارقه بالموت .

وإن كنت أصيلاً في الكون فذلل الكون لمراداتك . ولن تستطيع ؛ لأن هناك طبائع في الكون تتمرد عليك ، ولا تقدر عليها أبداً .

وترى أكثر من مفاعل ذري ينفجر بعد إحكامه وضبطه لماذا ؟ ! ليدل على طلاقة القدرة وأن يد الله فوق أيديهم ، إذن فأخذ الناس بالبأساء والضراء ، وبالشيء الذي نقول إنه شر إنما هو طلب اعتدال للإِنسان الخليفة ، حتى إذا اغتر يرده الله سبحانه وتعالى من الأسباب إلى المسبِّب . وحين يأخذ الله قوماً بالبأساء التي تصيب الإِنسان في غير ذاته : مال يضيع ، ولد يفقد ، بيت يهدم ، أو يأخذهم بالضراء وهي الأشياء التي تصيب الإِنسان في ذاته ، فلذلك ليسلب منهم أبهة الكبرياء ، فلا يجدون ملجأ إلا أن يخضعوا لرب الأرض

والسماء ، ولكي يتضرعوا إلى الله ، ومعنى التضرع – كما عرفنا – إظهار الذلة لله . وإذا لم يُجْدِ وينفع فيهم هذا ، وقالوا : لا ، إن البأساء والضراء مجرد سنن كونية ، وقد تأتي للناس في أي زمان أو مكان . نقول لهم : صحيح البأساء والضراء سنن كونية من مكوّن أعلى من الكون ، فإذا لم يرتدعوا بالبأساء والضراء ويرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه يبتليهم الله بالنعماء ، فهو القائل : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا آوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : 44]

(38/280)

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء نجد الحق ينتقم منهم انتقاماً يناسب جرمهم ، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية ؛ لذلك يوسع عليهم في كل شيء حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضربة قوية قاصمة ويصيبهم اليأس والحسرة .

وقديماً قلنا تعبيراً ريفيًّا هو : إن الإنسان إن أراد أن يوقع بآخر لا يوقعه من على حصيرة ، إنما يوقعه من مكان عال . وربنا يعطي للمنكرين الكثير ويمدهم في طغيانهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقد دلت وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبار في

الأرض والحق يملي له في العلو ويمد له في هذه الأسباب ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه . ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف : 95]

وقد يضبط الإِنسان أشياء تُعْلمه بواقع الشر في مستقبله . مثلها مثل " الرادار " الذي يكشف لنا أي خطر في الأفق قبل أن يأتي ، وحين يقول سبحانه : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي ليس عندهم حساب ولا مقاييس تدلهم على أن شرًّا يحيق بهم .

وأنت لو نظرت إلى هذه المسألة لوجدت الإِنسان بعقله وفكره الذي لم يسلك فيه طريق الله بل سلك فيه السبيل غير المنهج بمنهج الله ، وبينما لا يلتفت الانسان إلى مجيء الكارثة ، ويتساءل : لماذا تجري هذه الحيوانات ؟ ! إنه في هذه الحالة يكون أقل من الحيوانات ؛ لأن الحيوان من واقع الأحداث في بلد تحدث فيه الزلازل يكون أول خارج من منطقة الزلزال ، إنَّ الله قد سلبه هذه المعرفة حتى تتمكن منه الضربة ، إننا نجد الحمار يجري ليغادر مكان الزلزال ، بينما يظل الإِنسان واقفاً حتى يحيق ويحيط به الخطر ، فأي إحساس وأي استشعار عند الحيوان ؟ إنه استشعار غريزي خلقه ربه فيه ؛ لأنه سلب منه التعقل فأعطاه حكمة الغرائز .

(39/280)

وما دام الحق قد نبه الإنسان بالبأساء فلم يلتفت ، وبالضراء فلم ينتبه إلى المنهج ؛ لذلك يأتي له الحق ويمد له بالطغيان .

لكن أهل الإيمان أمرهم يختلف ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(40/280)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ قال : مكان الشدة الرخاء ﴿ حتى عفوا ﴾ قال : كثروا وكثرت أموالهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن

مجاهد في قوله ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة ﴾ قال : الشر ﴿ الحسنة ﴾ قال : الرخاء والعدل والولد ﴿ حتى عفوا ﴾ يقول : حتى كثرت أموالهم وأولاهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ حتى عفوا ﴾ قال : جمعوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ قال : قالوا قد آتى على آبائنا مثل هذا فلم يكن شيئاً ﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ قال : بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكوتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(41/280)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾

في " مكان " وجهان :

أظهرهما : أَنَّهُ مفعول به لا ظَرْف ، والمعنى : بَدَّلْنَا مكان الحال السَّيِّئَةِ [الحال الحسنة] ، فالحسنةُ هي المأخوذة الحاصلةُ ومكان السيِّئةِ هو المتروك الذَّاهِبُ ، وهو الذي تصحبه " الباء " في مثل هذا التركيب لو قيل في نظيره : بدَّلْتُ زيداً بِعَمْرٍو ، فزيدٌ هو المأخوذ ، وعمرو المتروكُ ، وقد تقدَّمَ تحقيقُ هذا في البَقَرَةِ في موضعين :

أولهما : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ [البقرة : 59] .

والثاني : ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ الله ﴾ [البقرة : 211] .

ف " مَكَانَ " و " الحَسنَة " مفعولان إلاَّ أن أحدهُما وصل إليه الفعل بِنَفْسِهِ [وهو " الحَسَنَةُ "] ، والآخر بحذف حرف الجرّ وهو " مكان " .

والثاني : أَنَّهُ مَنْصُوبٌ على الظَّرْفِ ، والتَّقديرُ : " ثمَّ بَدَّلْنَا [في] مكان السَّيِّئَةِ الحسنةِ " إلا أنَّ هذا ينبغي أن يُردَّ ؛ لأن " بدَّل " لا بُدَّ له من مفعولين أحَدُهَمَا على إسقاط الباءِ .

والمراد بالحَسَنَةِ والسيِّئَةِ ها هنا : الشِّدَّةُ والرَّخَاءُ .

قال أهل اللُّغَةِ : " السَّيِّئَةُ : كلُّ ما يَسُوءُ صَاحِبَهُ ، والحسنَةُ : كل ما اسْتَحسَنَهُ الطَّبْعُ والعَقْلُ " .

قوله : " حَتَّى عَفَوا " " حتَّى " هنا غائيةٌ ، وتقدير مَنْ قدّرها بـ " إلَى " فإنَّمَا يريدُ تَفْسِيرَ المعنى لا الإعرابَ ؛ لأن حتَّى الجارَّة لا تُبَاشِرُ إلاَّ المضارع المنصوب بإضمار " أنْ " ؛ لأنها في التَّقْديرِ داخلة على المصدر المُنْسَبِك منها ، ومن الفعل ، [وأمّا الماضي] فلا يطَّرِدُ

حذف "أنْ" معه، فلا يقدّر معه أنَّها حرف جرٍّ داخلة على أن المصدريَّة، أي: حتَّى أن عفوا، وهذا الذي ينبغي أن يحمل عليه قول أبي البقاءِ: "حتَّى عَفَوْا أي: إلى أن عفوا".

ومعنى "عَفَوا" هنا كَثُروا من عَفَا الشعْر إذا كَثُر، ومنه: "وأعْفُوا اللِّحَى" يُقَالُ: عَفَاه، وأعْفَاه ثلاثياً ورباعيّاً؛ قال زهيرٌ: [الوافر]

2530 - أذَلِكَ أمْ أقَبُّ البَطْنِ جَأبٌ . . .

عَلَيْهِ مِنْ عَقِيقَتِهِ عَفَاءُ

وفي الحديث: "إذَا عَفَا الوَبَرُ وبَرَأ الدُّبُرُ فَقَدْ حضلَّت العُمْرَةُ لِمَنْ اعْتَمَرَ؛ وأنشد الزَّمَخْشريُّ على ذلك قول الحُطَيْئَةِ: [الطويل]

2531 - بِمُسْتَأسِدِ القُرْبَانِ عَافٍ نَبَاتُهُ . . . . . .

وقول لَبِيد: [الوافر]

(42/280)

2532 - ولَكِنَّا نُعِضُّ السَّيْفَ مِنْهَا . . .

بأسْوُقِ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ كُومِ

وتقدَّم تحقيقُ هذه المادّة في البقرة.

قوله : " فَأَخَذْنَاهُمْ " .

قال أبو البقاءِ : " هو عطفٌ على " عَفَوْا " .

يريدُ : وما عطف عليه أيضاً ، أعني أنَّ الأخذ ليس متسبباً عن الفَاءِ فقط ، بل عليه وعلى قولهم تلك المَقَالةِ الجاهليَّةِ ؛ لأنَّ المعنى ليس أنَّهُ لمُجرَّدِ كثْرَتِهِمْ ، ونموِّ أموالِهِمْ أخذهم بغتة بل بمجموع الأمْرَيْنِ ، بل الظَّاهِرُ أنَّهُ بقولهم ذلك فقط .

و " بَغْتَةً " إمَّا حالاً أو مَصْدراً ، والبَغْتَةُ الفُجَاءَة ، ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ حال أيضاً وهي في قوَّةِ المُؤكِّدَةِ ؛ لأنَّ " بَغْتَةً " تفيدُ إفادتها ، سواء أعْرَبْنَا " بغتة " حالاً أم مَصْدراً .

واعلم أنَّ الحكمة في حكاية هذا المعنى ليعتبر من سمع هذه القصَّة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 233 . 234 ﴾ . باختصار .

(43/280)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ضرع)

الضَّرْع لكلّ ذات ظِلْف أَو خُفّ .

اللَّيث : الضَرْع للشّاة والبقرة ونحوهما ، وللنّاقة خِلْف .

أَبو زيد : الضَّرْع جِمَاع .

وفيه الأَطْباء وهى الأَخلاف ، واحدها طُبْىٌ وخِلف .

وفى الأَطْباءِ الأَحاليل ، وهى خروق اللبن .

ابن دريد : الضَرْع : ضَرْع الشاة .

والجمع : ضروع .

وشاة ضَرْعاء : عظيمة الضَّرع .

والضَّريع : نبات أَخضر مُنْتِنُ الرّيح ، يَرمِى به البحر .

وقال أَبو الجوزاء : الضَّرّيع : السُّلاّءُ .

وجاءَ فى التفسير أَنَّ الكفَّار قالوا : إِنَّ الضَّريع لتسمَن عليه إِبلنا ، قال الله تعالى : ﴿ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ .

وقال ابن الأَعرابىّ : الضريع : العَوْسَج الرَّطْب .

فإِذا جفَّ فهو عوسج .

فإِذا زاد فهو الخَزيز .

ابن عبّاد : الضريع : يبيس كلّ شجر .

قال : والضريع : الشراب الرّقيق .

الليث : الضَّريع : الجلدة التى على العظم تحت اللحم من الضِّلَع .

قال : والضَّريع : نبت فى الماء الآجِن ، له عروق لا تصل إلى الأَرض .

وقال غيره : الضَّريع الخَمْر .

ويقال للرّجل إذا استكان وخضع وذلّ : ضَرَعَ وضَرُع ، وضَرِع ضَرَعًا وضَرَاعة .

وقومٌ ضَرَعٌ .

وتضرّع إلى الله تعالى : ابتهل وأَظهر الضَّرّاعة .

الفرّاء : جاءَ فلان يتضرّع/ وتعرّض ، بمعنى واحد : إذا جاءَ يطلب إليك الحاجة .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ، أَى يتذلَّلُون فى دعائهم إيّاه .

والدّعاءُ تضرّع ؛ لأَنَّ فيه تذلّل الرّاغبين .

وقوله تعالى : ﴿ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ ، أَى مظهرين الضَّرَاعة ، وهى شدّة الفقر إلى الله تعالى ، وحقيقته الخشوع .

و(خُفْية) ، أَى تُخفون فى أَنفسكم مثل ما تظهرون .

وتضرّع الظلُّ : قَلَص .

وتضرّع : تَقَرَّب فى رَوَغان كضَرّع تضريعًا .

والمضارعة المشابهة ، وأَصلها التّشارك ؛ نحو المراضعة وهو التّشارك فى الرضاعة ثمّ جُرِّد للمشاركة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 472 . 473 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ﴾

حرَّكهم بالبلاء الأَهْوَنِ تحذيراً من البلاء الأصعب ، فإذا تمادوا في غيهم ، ولم ينتبهوا من غفلتهم مَدَّ عليهم ظلالَ الاستدراجِ ، ووسّعَ عليهم أسبابَ التفرقة مكراً بهم في الحال ، فإذا وَطَّنُوا – على مساعدة الدنيا – قلوبهم ، وركنوا إلى ما سوّلَت لهم من امتدادها ، أبرز لهم من مكامن التقدير ما نَغَّصَ عليهم طيبَ الحياة ، واندق بغتةً عُنُقُ السرور ، وشَرِقُوا بما كانوا ينهلون من كاسات المنى ، فتبدّل ضياءُ نهارهم بِسُدفَةِ الوحشة ، وتكدّر صافي مشربهم بيد النوائب ، كما سبقت به القسمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 552 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين تعالى ما كان قولهم مسبباً له من الأخذ بغتة ، بين ما كان يكون ضد قولهم مسبباً له من البركات لو وقع بقوله : ﴿ ولو أن أهل القرى ﴾ أي هذه التي قصصنا أخبارها ﴿ آمنوا ﴾ أي بما أتاهم به رسلهم ﴿ واتقوا ﴾ أي خافوا أمر الله وجعلوا بينهم وبين سخطه وقاية من طاعاته فاستمروا على إيمانهم ﴿ لفتحنا عليهم بركات ﴾ أي خيرات ثابته لا يقدر أحد على إزالتها ﴿ من السماء ﴾ أي بالمطر الذي يكون كأفواه القرب وما شابهه ﴿ والأرض ﴾ بالنبت الغليظ وما قاربه ، وقراءة ابن عامر بالتشديد يدل على كثرة تلك البركات ، وأصل البركة الموظبة على الخير .

ولما كان الكلام بما أفهمته ﴿ لو ﴾ في قوة أنهم يؤمنوا عبر بقوله : ﴿ ولكن كذبوا ﴾ أي كان التكذيب ديدنهم وشأنهم ، فلذلك لم يصدقوا رسلنا في شيء ، ولما كان التكذيب موضع الجلافة والجمود الذي هو سبب لعدم النظر في الدليل ، سبب عنه العذاب فقال :

﴿ فأخذناهم ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كانوا يكسبون ﴾ أي بجبلاتهم الخبيثة من الأعمال المناسبة لها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ

﴿ 74

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الذين عصوا وتمردوا أخذهم الله بغتة ، بين في هذه الآية أنهم لو أطاعوا لفتح الله عليهم أبواب الخيرات فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءامَنُواْ ﴾ أي آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ واتقوا ﴾ ما نهى الله عنه وحرمه ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مّنَ السماء والأرض ﴾ بركات السماء بالمطر ، وبركات الأرض بالنبات والثمار ، وكثرة المواشي والأنعام ، وحصول الأمن والسلامة ، وذلك لأن السماء تجري مجرى الأب ، والأرض تجري مجرى الأم ، ومنها يحصل جميع المنافع والخيرات بخلق الله تعالى وتدبيره .

وقوله : ﴿ ولكن كَذَّبُواْ ﴾ يعني الرسل ﴿ فأخذناهم ﴾ بالجدوبة والقحط ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 151 ﴾

(46/280)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءامَنُواْ واتقوا ﴾

يعني : وحّدوا الله تعالى واتقوا الشرك ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مّنَ السماء والأرض ﴾

يعني : أنزلنا عليهم من السماء المطر والرزق والنبات من الأرض ﴿ ولكن كَذَّبُواْ ﴾ الرسل

﴿ فأخذناهم ﴾ أي عاقبناهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الشرك .

ففي الآية دليل على أن الكفاية والسعة في الرزق من السعادة إذا كان المرء شاكراً .

وتكون عقوبة له إذا لم يكن شاكراً .

لأنه قال في آية أخرى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن

لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف : 33] يعني : الغنى يكون

وبالاً لمن لا يشكر الله تعالى وعقوبة له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجلَّ : ﴿ . . . لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾

فيه وجهان : أحدهما : لرزقنا ، قاله السدي .

والثاني : لوسعنا .

﴿ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ ﴾ : (بركات السماء : القطر . وبركات الأرض .

النبات والثمار ويحتمل أن تكون بركات السماء قبول الدعاء . وبركات الأرض : تسهيل الحاجات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(47/280)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ الآية

المعنى في هذه الآية أنهم لو كانوا ممن سبق في علم الله أن يكتسبوا الإيمان والطاعات ويتصفوا بالتقى لتبع ذلك من فضل الله ورحمته وإنعامه ما ذكر من بركات المطر والنبات ولكنهم لما كانوا ممن سبق كفرهم وتكذيبهم تبع ذلك أخذ الله لهم بسوء ما اجترموه ، وكل مقدور ، والثواب والعقاب متعلق بكسب البشر ، وبسببه استندت الأفعال إليهم في قوله : ﴿ آمنوا واتقوا ﴾ وفي ﴿ كذبوا ﴾ وقرأ الستة من القراء السبعة " لفتحَنا " بخفيف التاء وهي قراءة الناس ، وقرأ ابن عامر وحده وعيسى الثقفي وأبو عبد الرحمن : " لفتّحنا " بتشديد التاء ، وفتح البركات إنزالها على الناس ومنه قوله تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ﴾ [فاطر : 1] ومنه قالت الصوفية : الفتوح والبركات النمو والزيادات ، ومن السماء لجهة المطر والريح والشمس ، ومن الأرض لجهة الإنبات والحفظ لما ينبت ، هذا هو الذي

يدركه نظر البشر ولله خدام غير ذلك لا يحصى عددهم ، وما في علم الله أكثر . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لفتحنا عليهم بَرَكَاتٍ من السماء والأرض ﴾

قال الزجاج : المعنى : أتاهم الغيث من السماء ، والنبات من الأرض ، وجعل ذلك زاكياً كثيراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ﴾

يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها .

من قريت الماء إذا جمعته .

وقد مضى في "البقرة" مستوفى ﴿ آمَنُواْ ﴾ أي صدقوا .

﴿ واتقوا ﴾ أي الشرك .

﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ يعني المطر والنبات .

وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم .

إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيراً لذنوبهم .

ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه ﴿ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السمآء

عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ [نوح: 10 و 11].

وعن هود ﴿ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ [هود: 52].

فوعدهم المطر والخصب على التخصيص.

يدل عليه ﴿ ولكن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي كذبوا الرسل.

والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(48/280)

وقال الخازن:

قوله عز وجل: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾

لما بين الله تعالى في هذه الآية الأولى ﴿ إن الذين عصوا وتمردوا أخذهم بعذابه ﴾ بين في هذه الآية أنهم لو آمنوا يعني بالله ورسوله وأطاعوه فيما أمرهم به واتقوا يعني ما نهى الله تعالى عنه وحرمه عليهم ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ وبركات السماء المطر وبركات الأرض النبات والثمار وجميع ما فيها من الخيرات والأنعام والأرزاق والأمن والسلامة من الآفات وكل ذلك من فضل الله تعالى وإحسانه على عباده.

وأصل البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء وسمي المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا

ثبوت البركة في نابت الأرض لأنه نشأ عن بركات السماء وهي المطر .

وقال البغوي : أصل البركة المواظبة على الشي .

أي تابعنا عليهم بالمطر من السماء والنبات من الأض ورفعنا عنهم القحط والجدب ﴿ ولكن كذبوا ﴾ يعني فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا يعني الرسل ﴿ فأخذناهم ﴾ يعني بأنواع العذاب ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ يعني أخذناهم بسبب كسبهم الأعمال الخبيثة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(49/280)

وقال أبو حيان :

﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾

(50/280)

أي لو كانوا ممن سبق في علم الله أنهم يتلبسون بالإيمان بما جاءت به الأنبياء وبالطاعات التي هي ثمرة الإيمان ليتيسر لهم من بركات السماء ولكن كانوا ممن سبق في علمه أنهم يكذّبون الأنبياء فيؤخذون باجترامهم وكل من الإيمان والتكذيب والثواب والعقاب سبق به القدر وأضيف الإيمان والتكذيب إلى العبد كسباً والموجد لهما هو الله تعالى لا يسأل عما يفعل ، وقال الزمخشري : اللام في القرى إشارة إلى ﴿ القرى ﴾ التي دلّ عليها قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي ﴾ كأنه قال ولو أنّ أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا آمنوا بدل كفرهم واتقوا المعاصي مكان ارتكابها ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ لآتيناهم بالخير من كل وجه ، وقيل : أراد المطر والنبات ﴿ ولكن كذّبوا فأخذناهم ﴾ بسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام في ﴿ القرى ﴾ للجنس انتهى ، وفي قوله واتقوا المعاصي نزغة الاعتزال رتب تعالى على الإيمان والتقوى فتح البركات ورتب على التكذيب وحده وهو المقابل للإيمان الهلاك ولم يذكر مقابل التقوى لأنّ التكذيب لم ينفع معه الخير بخلاف الإيمان فإنه ينفع وإن لم يكن معه فعل الطاعات والظاهر أن قوله ﴿ بركات من السماء والأرض ﴾ لا يراد بها معين ولذلك جاءت نكرة ، وقيل : بركات السماء المطر وبركات الأرض الثمار ، وقال السدّي : المعنى لفتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق ، وقيل بركات السماء إجابة الدعاء ، وبركات الأرض تيسير الحاجات ، وقيل : بركات السماء المطر وبركات الأرض المواشي والأنعام وحصول السلامة والأمن ، وقيل :

البركات النمو والزيادات فمن السماء بجهة المطر والريح والشمس ومن الأرض بجهة النبات والحفظ لما نبت هذا الذي تدركه فطر البشر ولله خدام غير ذلك لا يحصى عددهم وما علم الله أكثر وذلك أنّ السماء تجري مجرى الأب والأرض مجرى الأم ومنهما تحصل جميع الخيرات يخلق الله وتدبيره والأخذ أخذ إهلاك بالذنوب ، وقرأ ابن عامر : وعيسى الثقفي وأبو عبد الرحمن ﴿ لفتحنا ﴾ بتشديد التاء ومعنى الفتح هنا التيسير عليهم كما تيسر على الأبواب المستغلقة بفتحها ومنه فتحت على القارىء إذا يسرت عليه بتلقينك إياه ما تعذّر عليه حفظه من القرآن إذا أراد القراءة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(51/280)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ﴾

أي القرى المُهلَكة المدلولَ عليها بقوله تعالى : ﴿ فِى قَرْيَةٍ ﴾ وقيل : هي مكةُ وما حولها من القُرى المنتظمةِ لما ذكرها هنا انتظاماً أولياً ﴿ ءامَنُواْ ﴾ بما أوحيَ إلى أنبيائهم معتبِرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالضراء والسراء ﴿ واتقوا ﴾ أي الكفرَ والمعاصيَ أو اتقَوْا ما

أُنذروا به على ألسنة الأنبياءِ ولم يُصِرّوا على ما فعلوا من القبائح ولم يحمِلوا ابتلاءَ الله تعالى على عادات الدهر وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : وحّدوا الله واتقَوا الشر ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مّنَ السماء والأرض ﴾ لوسّعنا عليهم الخيرَ ويسّرناه لهم من كل جانبٍ مكانَ ما أصابهم من فنون العقوباتِ التي بعضُها من السماء وبعضُها من الأرض . وقيل : المرادُ المطرُ والنباتُ وقرىء لفتّحنا بالتشديد للتكثير ﴿ ولكن كَذَّبُواْ ﴾ أي ولكن لم يؤمنوا ولم يتقوا وقد اكتُفي بذكر الأولِ لاستلزامه للثاني ﴿ فأخذناهم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من أنواع الكفرِ والمعاصي التي من جملتها قولُهم : قد مس آباءَنا الخ ، وهذا الأخذُ عبارةٌ عما في قوله تعالى : ﴿ فأخذناهم بَغْتَةً ﴾ لا عن الجدب والقَحطِ كما قيل فإنهما قد زالا بتبديل الحسنةِ مكانَ السيئة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(52/280)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ﴾

أي القرى المهلكة المدلول عليها بقوله سبحانه : ﴿ فِى قَرْيَةٍ ﴾ [الأعراف : 94] فاللام للعهد الذكرى والقرية وإن كانت مفردة لكنها في سياق النفي فتساوي الجمع ، وجوز أن

تكون اللام للعهد الخارجي إشارة إلى مكة وما حولها .

وتعقب ذلك بأنه غير ظاهر من السياق ، ووجه بأنه تعالى لما أخبر عن القرى الهالكة بتكذيب الرسل وأنهم لو آمنوا سلموا وغنموا انتقل إلى انذار أهل مكة وما حولها مما وقع بالأمم والقرى السابقة .

وجوز في "الكشاف" أن تكون للجنس ، والظاهر أن المراد حينئذ ما يتناول القرى المرسل إلى أهلها من المذكورة وغيرها لا ما لا يتناول قرى أرسل إليها نبي وأخذ أهلها بما أخذ وغيرها كما قيل لإباء ظاهر ما في حين الاستدراك الآتي ﴿ ءامَنُواْ ﴾ أي بما أنزل على أنبيائهم ﴿ واتقوا ﴾ أي ما حرم الله تعالى عليهم كما قال قتادة ويدخل في ذلك ما أرادوه من كلمتهم السابقة .

﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مّنَ السماء والأرض ﴾ أي ليسرنا عليهم الخير من كل جانب ، وقيل : المراد بالبركات السماوية المطر وبالبركات الأرضية النبات ، وأياً ما كان ففي فتحنا استعارة تبعية .

(53/280)

ووجه الشبه بين لمستعار منه والمستعار له الذي أشرنا إليه سهولة التناول ، ويجوز أن يكون هناك مجاز مرسل والعلاقة اللزوم ويمكن أن يتكلف لتحصيل الاستعارة التمثيلية ، وفي الآية على ما قيل إشكال وهو أنه يفهم بحسب الظاهر منها أنه لم يفتح عليهم بركات من السماء والأرض ، وفي الأنعام ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 44] وهو يدل على أنه فتح عليهم بركات من السماء والأرض ؛ وهو معنى قوله سبحانه : ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وهو يدل على أنه فتح عليهم بركات من السماء والأرض ؛ وهو معنى قوله سبحانه : ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لأن المراد منها الخصب والرخاء والصحة والعافية المقابلة أخذناهم بالبأساء والضراء ، وحمل فتح البركات على إدامته أو زيادته عدول عن الظاهر وغير ملائم لتفسيرهم الفتح بتيسير الخير ولا المطر والنبات .

وأجاب عنه الخيالي بأنه ينبغي أن يارد بالبركات غير الحسنة أو يراد آمنوا من أول الأمر فنجوا من البأساء والضراء كما هو الظاهر ، والمراد في سورة الأنعام بالفتح ما أريد بالحسنة ههنا فلا يتوهم الأشكال انتهى .

(54/280)

وأنت خبير بأن أرادة آمنوا من أول الأمر إلى آخره غير ظاهرة بل الظاهر أنهم لو أنهم آمنوا بعد أن ابتلوا ليسرنا عليهم ما يسرنا مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء كأمطار الحجارة وبعضها من الأرض كالرجفة وبهذا ينحل الإشكال لأن آية الأنعام لا تدل على نه فتح لهم هذا الفتح كما هو ظاهر لتاليها ، وما ذكر من أن المراد بالفتح هناك ما أريد بالحسنة ههنا إن كان المراد به أن الفتح هناك واقع موقع إعطاء الحسنة بدل السيئة هنا حيث كان ذكر كل منهما بعد ذكر الأخذ بالبأساء والضراء وبعده الأخذ بغتة فربما يكون له وجه لكنه وحده لا يجدي نفعاً ، وإن كان المراد به أن مدلول ذلك العام المراد به التكثير هو مدلول الحسنة فلا يخفى ما فيه فتدبر ، وقيل : المراد بالبركات السماوية والأرضية الأشياء التي تحمد عواقبها ويسعد في الدارين صاحبها وقد جاءت البركة بمعنى السعادة في كلامهم فتحمل هنا على الكامل من ذلك الجنس ولا يفتح ذلك إلا للمؤمن بخلاف نحو المطر والنبات والصحة والعافية فإنه يفتح له وللكافر أيضاً استدراجاً ومكراً ، ويتعين هذا الحمل على ما قيل إذا أريد من القرى ما يتناول قرى أرسل إليها نبي وأخذ أهلها بما أخذ وغيرها ، وقيل : البركات السماوية إجابة الدعاء والأرضية قضاء الحوائج فليفهم .

وقرأ ابن عامر ﴿ لَفَتَحْنَا ﴾ بالتشديد ﴿ ولكن كَذَّبُواْ ﴾ أي ولكن لم يؤمنوا ولم يتقوا ، وقد اكتفى بذكر الأول لاستلزامه الثاني وللإشارة إلى أنه أعظم الأمرين ﴿ فأخذناهم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي التي من جملتها قولهم السابق ، والظاهر أن هذا الأخذ والمتقدم في قوله سبحانه : ﴿ فأخذناهم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف : 95] واحد وليس عبارة عن الجدب والقحط كما قيل : لأنهما قد زالا بتبديل الحسنة مكان السيئة ، وحمل أحد الأخذين على الأخذ الأخروي والآخر على الدنيوي بعيد ، ومن ذهب إلى حمل أل على الجنس على الوجه الأخير فيه يلزمه أن يحمل كذبوا فأخذناهم على وقوع التكذيب والأخذ فيما بينهم ولا يخفى بعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(56/280)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

عُطفت جملة ﴿ ولو أن أهل القرى ﴾ على جملة : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبيء إلاّ

أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾ [الأعراف : 94] أي : ما أرسلنا في قرية نبيئاً فكذبه أهلها إلاّ نبهناهم واستدرجناهم ثم عاقبناهم ، ولو أن أهل تلك القرى المُهْلَكَةِ آمنوا بما جاءهم به رسولهم واتقوا ربهم لما أصبناهم بالبأساء ولأحييناهم حياة البركة ، أي : ما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم .

وشرط (لو) الامتناعية يحصل في الزمن الماضي ، ولما جاءت جملة شرطها مقترنة بحرف (أنّ) المفيد للتأكيد والمصدرية ، وكان خبر (أنّ) فعلاً ماضياً توفر معنى المضي في جملة الشرط .

والمعنى : لو حصل إيمانهم فيما مضى لفتحنا عليهم بركات .

والتقْوى : هي تقوى الله بالوقوف عند حدوده وذلك بعد الإيمان .

والتعريف في ﴿ القرى ﴾ تعريف العهد ، فإضافة ﴿ أهل ﴾ إليه تفيد عمومه بقدر ما أضيف هو إليه ، وهذا تصريح بما أفهمه الإيجاز في قوله : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبيء إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾ [الأعراف : 94] الآية كما تقدم ، وتعريض بإنذار الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم من أهل مكة ، وتعريض ببشارة أهل القُرى الذين يؤمنون كأهل المدينة ، وقد مضى في صدر تفسير هذه السورة ما يقرّب أنها من آخر ما نزل بمكة ، وقيل ، إن آيات منها نزلت بالمدينة كما تقدم وبذلك يظهر موقع التعريض بالنذارة والبشارة للفريقين من أهل القرى ، وقد أخذ الله أهل مكة بعد خروج المؤمنين منها

فأصابهم بسبع سنين من القحط ، وبارك لأهل المدينة وأغناهم وصرف عنهم الحمى إلى الجُحفة ، والجُحفة يومئذٍ بلاد شرك .

(57/280)

والفتح : إزالة حَجْز شيء حاجز عن الدخول إلى مكان ، يقال : فتح الباب وفتح البيت ، وتعديته إلى البيت على طريقة التوسع ، وأصله فتح للبيت ، وكذلك قوله هنا : ﴿ لفتحنا عليهم بركات ﴾ وقولُه : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ [فاطر : 2] ، ويقال : فتح كوة ، أي : جعلها فتحة ، والفتح هنا استعارة للتمكين ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ في سورة الأنعام (44) .

وتعدية فعل الفتح إلى البركات هنا استعارة مكنية بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه ، فهنا استعارتان مكنية وتبعية ، وقرأ ابن عامر : لفتّحنا ﴾ بتشديد التاءِ وهو يفيد المبالغة .

والبركات : جمع بركة ، والمقصود من الجمع تعددها ، باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة .

وتقدم تفسير البركة عند قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ في سورة الأنعام (

92) .

وتقدم أيضاً في قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للّذي بمكّة مباركاً ﴾ في سورة آل عمران (96) .

وتقدم أيضاً في قوله تعالى : ﴿ تَبارك الله رب العالمين ﴾ في هذه السورة (54) ، وجُماع معناها هو الخير الصالح الذي لا تبعة عليه في الآخرة فهو أحسن أحوال النعمة ، ولذلك عبر في جانب المغضوب عليهم المستدرَجين بلفظ الحسنة ﴾ بصيغة الإفراد في قوله: ﴿ مكان السيئة الحسنة ﴾ وفي ج[الأعراف : 95] انب المؤمنين بالبركات مجموعة .

وقوله : ﴿ من السماء والأرض ﴾ مراد به حقيقته ، لأن ما يناله الناس من الخيرات الدنيوية لا يعدو أن يكون ناشئاً من الأرض ، وذلك معظم المنافع ، أو من السماء مثل ماء المطر وشعاع الشمس وضوء القمر والنجوم والهواء والرياح الصالحة .

وقوله : ﴿ ولكن كذبوا ﴾ استثناء لنقيض شرط (لو) فإن التكذيب هو عدم الإيمان فهو قياس استثنائي .

(58/280)

وجملة : ﴿ فأخذناهم ﴾ متسببة على جملة : ﴿ ولكن كذبوا ﴾ وهو مثل نتيجة القياس ، لأنه مساوي نقيضِ التالي ، لأن أخذهم بما كسبوا فيه عدم فتح البركات عليهم .

وتقدم معنى الأخذ آنفاً في قوله تعالى : ﴿ فأخذناهم بغتة ﴾ [الأعراف : 95] ، والمراد به أخذ الاستئصال .

والباء للسببية أي بسبب ما كسبوه من الكفر والعصيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(59/280)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) ﴾

أي أنهم لو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمراً باتباع أمراً ونهيًا تسلم آلاتهم ، لأن الصانع من البشر حتى يصنع آلة من الآلات ، يحدد ويبيّن الغاية من الآلة قبل أن يبتكرها ، ويصمم لها أسلوب استخدام معين ، وقانون صيانة خاصا لتؤدي مهمتها ، فما بالنا بمن

خلق الإِنسان ، إذن فالبشر إذا تركوا رب الإِنسان يضع منهج صيانة الإِنسان لعاش هذا الإِنسان في كل خير ، وسبحانه وتعالى أوضح أنهم إن اتقوا ، تأت لهم بركات من السماء والأرض ، فإن أردتها بركات مادية تجدها في المطر الذي ينزل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل النبات ، وكذلك كنوزها التي تستنبط منها الكماليات المرادة في الحياة .

وما معنى البركة ؟ . البركة هي أن يعطي الموجودُ فوق ما يتطلبه حجمه ؛ كواحد مرتبه خمسون جنيهاً ونجده يعيش هو وأولاده في رضا وسعادة ، ودون ضيق ، فنتساءل : كيف يعيش ؟ ويجيبك : إنها البركة . وللبركة تفسير كوني لأن الناس دائماً – كما قلنا سابقاً – ينظرون في وارداتهم إلى رزق الإِيجاب ، ويغفلون رزق السلب . رزق الإِيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلاف الجنيهات ولكنك قد تحتاج إلى أضعافهم ، ورزق السلب يجعل دخلك مائة جنيه ويسلب عنك مصارف كثيرة ، كأن يمنحك العافية فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج .

(60/280)

إذن فقوله : ﴿ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ أي أن يعطي الحق سبحانه وتعالى القليل الكثير في الرزق الحلال ، ويمحق الكثير الذي جاء من الحرام كالربا ، ولذلك سمى المال

الذي نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة سماه زكاة مع أن الزكاة في ظاهرها نقص ، فحين تملك مائة جنيه وتخرج منها جنيهين ونصف الجنيه يكون قد نقص مالك في الظاهر . وإن أقرضت أحداً بالربا مائة جنيه فأنت تأخذها منه مائة وعشرة ، لكن الحق سمى النقص في الأولى نماء وزكاة ، وسمى الزيادة في الثانية محقا وسحتاً ، وسبحانه قابض باسط . ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض ولكن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : 96]

إذن فلو أخذ الإنسان قانون صيانته من خالقه لاستقامت له كل الأمور ، لكن الإنسان قد لا يفعل ذلك . ويقول الحق : ﴿ ولكن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ .

وهكذا نعلم أن الأخذ ليس عملية جبروت من الخالق ، وإنما هي عدالة منه سبحانه ؛ لأن الحق لو لم يؤاخذ المفسدين ، فماذا يقول غير المفسدين ؟ . سيقول الواحد منهم : مادمنا قد استوينا والمفسدين ، وحالة المفسدين تسير على ما يرام ، إذن فلأفسد أنا أيضاً .

وذلك يغري غير المفسد بأن يفسد ، ويعطي لنفسه راحتها وشهوتها ، لكن حين يأخذ الله المفسدين بما كانوا يكسبون ، يعلم غير المفسد أن سوء المصير للمفسد واضح ، فيحفظ نفسه من الزلل .

كان القياس أنه يقول سبحانه : بما كانوا يكتسبون ، لأن مسألة الحرام تتطلب انفعالات شتى ، وضربنا المثل من قبل بأن إنساناً يجلس مع زوجته ، وينظر إلى جمالها ويملأ عينيه منها ، لكن إن جلس مع أجنبية وأراد أن يغازلها ليتمتع بحسنها ، فهو يناور ويتحايل ، وتتضارب ملكاته بين انفعالات شتى ، وهو يختلف في ذلك عن صاحب الحلال الذي تتناسق ملكاته وهو يستمتع بما أحل له الله ، ولكنْ هؤلاء المفسدين تدربوا على الفساد فصار دربة تقرب من الملكة فقال فيهم الحق : إنهم يكسبون الفساد ، ولا يجدون في ارتكابه عنتا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(62/280)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا ﴾ قال :

بما أنزل ﴿ واتقوا ﴾ قال : ما حرم الله ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ يقول : لأعطتهم السماء بركتها والأرض نباتها .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق معاذ بن رفاعة عن موسى الطائفي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء ، وأخرجه من بركات الأرض " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق معاذ بن رفاعة عن موسى الطائفي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء ، وأخرجه من بركات الأرض " .

وأخرج البزار والطبراني بسقد ضعيف عن عبد الله بن أم حرام قال : صليت القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول " أكرموا الخبز فان الله أنزله من بركات السماء ، وسخر له بركات الأرض ، ومن يتبع ما يسقط من السفرة غفر له " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : كان أهل قرية أوسع الله عليهم حتى كانوا يستنجون بالخبز ، فبعث عليهم الجوع حتى أنهم يأكلون ما يتغذون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) ﴾

لو آمنوا بالله ، واتَّقُوا الشِّرْكَ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض بأسبابِ العطاء – ولكنْ سَبَقَ بخلافه القضاء – وأبوابِ الرضاء ، والرضاءُ أتمُّ من العطاء .

ويقال ليست العِبْرة بالنعمة إنما العبرة بالبركة في النعمة ، ولذا لم يَقُلْ أضعفنا لهم النعمة ولكنه قال : باركنا لهم فيما خوّلنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 553 ﴾

(64/280)

قوله تعالى ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانوا قد ضلوا ضلالاً بعيداً في غلطهم في جعلهم السراء والضراء سبباً للأمن من مكر الله ، قال منكراً عليهم أمنهم عاطفاً له على ﴿كذبوا﴾ لأنه سبب الغلط وهو سبب الأمن فقال : ﴿أفأمن أهل القرى﴾ أي كذبوا ناسين أفعالنا المرهبة بالمضارّ والمرغبة بالمسارّ فأمنوا ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ أي الناشىء عما لنا من العظمة التي لا ينساها إلا خاسر ﴿بياتاً﴾ أي ليلاً وهم قد أخذوا الراحة في بيوتهم ، ولما كان النوم شيئاً واحداً يغمر الحواس فيقتضي الاستقرار ، عبر بالاسم الدالّ على الثبات فقال : ﴿وهم نائمون﴾ أي على غاية الغفلة عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 74﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى أعاد التهديد بعذاب الاستئصال فقال : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار عليهم ، والمقصود أنه تعالى خوفهم بنزول ذلك العذاب عليهم في الوقت الذي يكونون فيه في غاية الغفلة ، وهو حال النوم بالليل ، وحال الضحى بالنهار ؛ لأنه الوقت الذي يغلب على المرء التشاغل باللذات فيه .

وقوله : ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يحتمل التشاغل بأمور الدنيا ، فهي لعب ولهو ، ويحتمل خوضهم في كفرهم ، لأن ذلك كاللعب في أنه لا يضر ولا ينفع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 151﴾

وقال ابن عطية :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾

هذه الآية تتضمن وعيداً للكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه لما أخبر عما فعل في الأمم الخالية قال : ومن يؤمن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك ، وهذا استفهام على جهة التوقيف ، والبأس : العذاب ، و﴿ بياناً ﴾ نصب على الظرف أي وقت مبيتهم بالليل ، ويحتمل أن يكون هذا في موضع الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾

الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف .

نظيره : ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهلية ﴾ [المائدة : 50] .

والمراد بالقرى مكة وما حولها ؛ لأنهم كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقيل : هو عام في جميع القرى .

﴿ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ أي عذابنا .

﴿ بَيَاتاً ﴾ أي ليلاً ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ

﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾

هو استفهام بمعنى الإنكار وفيه وعيد وتهديد وزجر ، والمراد بالقرى مكة وما حولها ،

وقيل : هو عام في كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا ﴿ أن يأتيهم بأسنا ﴾ يعني عذابنا

﴿ بياتاً ﴾ يعني ليلاً ﴿ وهم نائمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ

﴾

(66/280)

وقال أبو حيان :

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾

الهمزة دخلت على أمن للاستفهام على جهة التوقيف والتوبيخ والإنكار والوعيد للكافرين

المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك والفاء لعطف هذه

الجملة على ما قبلها ، وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما المعطوف عليه ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو ، (قلت) : المعطوف عليه قوله ﴿ فأخذهم بغتة ﴾ وقوله ﴿ ولو أن أهل القرى – إلى – يكسبون ﴾ وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما عطفت بالفاء لأنّ المعنى فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة أبعد ذلك أمن ﴿ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً ﴾ وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى انتهى .

وهذا الذي ذكره الزمخشري من أن حرف العطف الذي بعد همزة الاستفهام وهو عاطف ما بعدها على ما قبل الهمزة من الجمل رجوع إلى مذهب الجماعة في ذلك وتخريج لهذه الآية على خلاف ما قرّر هو من مذهبه في غير آية أنه يقدر محذوف بين الهمزة وحرف العطف يصحّ بتقديره عطف ما بعد الحرف عليه وأنّ الهمزة وحرف العطف واقعان في موضعهما من غير اعتبار تقديم حرف العطف على الهمزة في التقدير وأنه قدّم الاستفهام اعتناء لأنه له صدر الكلام وقد تقدّم كلامنا معه على هذه المسألة وبأسنا عذابنا وبياتاً ليلاً وتقدم تفسيره أول السورة ، ونصبه على الظرف أي وقت مبيتهم أو الحال وذلك وقت الغفلة والنوم فمجيء العذاب في ذلك الوقت وهو وقت الراحة والاجتماع في غاية الصعوبة إذ أتى وقت المأمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾

أي أهلُ القرى المذكورةِ ، على وضع المُظهرِ موضِعَ المُضمر للإيذان بأن مدارَ التوبيخِ أمْنُ كلِّ طائفةٍ ما أتاهم من البأس لا أمنُ مجموعِ الأمم ، فإن كلَّ طائفةٍ منهم أصابهم بأسٌ خاصٌّ بهم لا يتعداهم إلى غيرهم كما سيأتي ، والهمزةُ لإنكار الواقعِ واستقباحِه لا لإنكار الوقوعِ ونفيه كما قاله أبو شامةَ وغيرُه لقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ والفاءُ للعطف على أخذناهم وما بينهما اعتراضٌ توسّط بينهما للمسارعة إلى بيان أن الأخذَ المذكورَ مما كسبتْه أيديهم والمعنى أبعدَ ذلك الأخذِ أمِنَ أهلُ القرى ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بياتا ﴾ أي تبييتاً أو وقتَ بياتٍ أي مَبيتاً أو مبيتين وهو في الأصل مصدرٌ بمعنى البيتوتة ويجيء بمعنى التبييتِ كالسلام بمعنى التسليم ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ حالٌ من ضميرهم البارزِ أو المستترِ في بياتاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(68/280)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾

الهمزة لانكار الواقع واستقباحه ، وقيل : لانكار الوقوع ونفيه ، وتعقب بأن ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله ﴾ [الأعراف : 99] الخ يأباه ، والفاء للتعقيب مع السبب ، والمراد بأهل القرى قيل : أهل القرى المذكورة على وضع المظهر موضع المضمر للإيذان بأن مدار التوبيخ أمن كل طائفة ما أتاهم من البأس لا أمن مجموع الأمم ، وقيل : المراد بهم أهل مكة وما حواليها ممن بعث إليه نبينا صلى الله عليه وسلم وهو الأولى عندي وإلى ذلك ذهب محيي السنة ، والعطف على القولين على ﴿ فأخذناهم بَغْتَةً ﴾ [الأعراف : 95] لا على محذوف ويقدر بما يناسب المقام كما وقع نحو ذلك في القرآن كثيراً ، وأمر صدارة الاستفهام سهل ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءامَنُواْ ﴾ [الأعراف : 96] الخ اعتراض توسط بينهما للمسارعة إلى بيان أن الأخذ المذكور مما كسبته أيديهم نظراً للأول ولأنه يؤيد ما ذكر من أن الأخذ بغتة ترتب على الإيمان والتقوى ، ولو عكس لانعكس الأمر نظراً للثاني ، ولو جعلت اللام فيما تقدم للجنس أكد هذا الاعتراض المعطوف والمعطوف عليها وشملهما شمولاً سواء على ما في الكشف ولم يجعل العطف على ﴿ فإخذناهم ﴾ [الأعراف : 96] الأقرب لأنه لم يسق لبيان القرى وقصة هلاكها قصداً كالذي قبله فكان العطف عليه دونه أنسب وهذا إذا أريد بالقرى القرى المدلول عليها بما سبق ، وأما إذا أريد بها مكة وما

حولها فوجه ذلك أظهر لأن منشأ الانكار ما أصاب الأمم السالفة لا ما أصاب أهل مكة ومن حولها من القحط وضيق الحال ، وربما يقال : إذا كان المراد بأهل القرى في الموضعين أهل مكة وما حولها يكون العطف على الأقرب أنسب ، والمعنى أبعد ذلك الأخذ لمن استكبر وتعزز وخالف الرسل عليهم السلام وشيوعه والعلم به يأمن أهل القرى المشاركون لهم في ذلك ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أي عذابنا ﴿ بياتا ﴾ أي وقت بيات وهو مراد من قال ليلا ، وهو مصدر بات ونصبه على

(69/280)

الظرفية بتقدير مضاف ، ويجوز أن يكون حالا من المفعول أي بائتين ، وجوز أن يكون مصدر بيت ونصبع على أنه مفعول مطلق ليأتيهم من غير لفظه أي تبييتاً أو حال من الفاعل بمعنى مبيتا بالكسر أو من المفعول بمعنى مبيتين بالفتح ، واختار غير واحد الظرفية ليناسب ما سيأتي ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر في بياتا لتأويله بالصفة كما سمعت وهو حال متداخلة حينئذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(70/280)

وقال ابن عاشور :

(والفاء) في قوله : ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ عاطفة أفادت الترتب الذكري ، فإنه لما ذكر من أحوال جميعهم ما هو مثار التعجيب من حالهم أعقبه بما يدل عليه معطوفاً بفاء الترتب .

ومحل التعجيب هو تواطؤهم على هذا الغرور ، أي يترتب على حكاية تكذيبهم وأخذِهم استفهامُ التعجيب من غرورهم وأمنهم غضب القادر العليم .

وقد تقدم الكلام على مثل هذا التركيب عند قوله تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول ﴾ في سورة البقرة (87) .

وجيء بقوله : ﴿ يأتيهم ﴾ بصيغة المضارع لأن المراد حكاية أمنهم الذي مضى من إتيان بأس الله في مستقبل ذلك الوقت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(71/280)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن أبي نضرة قال : يستحب إذا قرأ الرجل هذه الآية ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾ يرفع بها صوته .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لا تتخذوا الدجاج والكلاب فتكونوا من أهل القرى ، وتلا ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(72/280)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أَفَأَمِنَ " .

قال الزَّمخشريُّ : " فإن قلت : ما المعطوف عليه ، ولم عطفت الأولى بالفَاءِ والثَّانية بالواو ؟ .

قلتُ : المعطوف عليه قوله : " فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً " ، [وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ﴾ إلى : " يَكْسِبُونَ " وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه وإنَّمَا عطفت بالفاء ؛ لأنَّ المعنى :

" فَعَلُوا وَصَنعوا فأخذناهم بغتة ، أبعد ذلك] أمن أهل القرى أن يأتيَهُمْ بأسنا بياتاً أو أمن أهل القُرَى أن يأتيهم بَأسُنَا ضُحىً " .

قال أبو حيَّان : وهذا الَّذي ذَكَرَهُ رجوعٌ عن مذهبه في مثل ذلك إلى مذهب الجَماعَةِ ، وذلك أنَّ مَذْهبَهُ في الهمزة المصدرة على حرف العطف تقدير معطوف عليه بين الهمزة وحرف العطفِ ، ومذهب الجماعةِ أنَّ حَرْفَ العطف في نِيَّةِ التقدُّم ، وإنَّمَا تأخَّرَ وتقدَّمت عليه همزةُ الاستفهام لقوَّةِ تَصَدُّرها في أوَّلِ الكلام " .

وقد تقدَّم تحقيقه ، والزَّمَخْشريُّ هنا لم يقدِّر بينهما معطوفاً عليه ، بل جعل ما بعد الفاءِ معطوفاً على ما قَبْلَهَا من الجُمَلِ ، وهو قوله : " فأخَذْنَاهُم بَغْتَةً " .

قوله : " بَيَاتاً " تقدَّم أوَّلَ السُّورةِ أنَّهُ يجوز أن يكون حالاً ، وأن يكون ظرفاً .

وقوله : " وهُمْ نَائِمُونَ " جدملة حاليّة ، والظَّاهِرُ أنَّها حال من الضَّميرِ المستتر في " بَيَاتاً " ؛ لأنَّهُ يتحمَّلُ ضميراً لوقوعه حالاً ، فيكون الحالان مُتَدَاخِلَيْنِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 235 ﴾

(73/280)

قوله تعالى ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ربما قال جاهل : لو جاءهم وهم إيقاظ لأمكن أن يدافعوا ! قال : ﴿ أو أمن أهل القرى ﴾ أي مجتمعين أو منفردين فأنه لا فرق عندنا في ذلك ﴿ أن يأتيهم بأسنا ضحى ﴾ أي وقت راحتهم واجتماع قواهم ونشاطهم ؛ ولما كانت اليقظة موجبة للحركة ، عبر بالمضارع في قوله : ﴿ وهم يلعبون ﴾ أي يتجدد لعبهم شيئاً فشيئاً في ذلك الوقت ، وفيه تقريع لهم بنسبتهم إلى أنهم صبيان العقول ، لا التفات لهم إلى غير اللعب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 75 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ أكثر القراء ﴿ أَوَأَمِنَ ﴾ بفتح الواو ، وهو حرف العطف دخلت عليه همزة الاستفهام ، كما دخل في قوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ [يونس : 51] وقوله : ﴿ أَوَكُلَّمَا عاهدوا ﴾ [البقرة : 100] وهذه القراءة أشبه بما قبله وبعده ، لأن قبله ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ وما بعده ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله ﴾ [الأعراف : 99] ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض ﴾ [الأعراف : 100] وقرأ ابن عامر ﴿ أَوَأَمِنَ ﴾ ساكنة الواو ، واستعمل على ضربين :

أحدهما : أن تكون بمعنى أحد الشيئين ، كقوله : زيد أو عمرو جاء ، والمعنى أحدهما جاء .

والضرب الثاني : أن تكون للإضراب عما قبلها ، كقولك : أنا أخرج أو أقيم ، أضربت عن الخروج ، وأثبت الإقامة ، كأنك قلت : لا بل أقيم .

فوجه هذه القراءة أنه جعل "أو" للاضراب لا على أنه أبطل الأول ، وهو ﴿ الم تَنزِيلُ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِ العالمين أَمْ يَقُولُونَ ﴾ [السجدة : 1 ، 2] فكان المعنى من هذه الآية استواء هذه الضروب من العذاب ، وإن شئت جعلت "أو" ههنا التي لأحد الشيئين ، ويكون المعنى : أفأمنوا إحدى هذه العقوبات ، وقوله : ﴿ ضُحًى ﴾ الضحى صدر النهار ، وأصله الظهور من قولهم : ضحا للشمس إذا ظهر لها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 151 ﴾

(74/280)

وقال السمرقندى :

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾

فتحت الواو لأنها واو العطف ، أدخلت عليها ألف الاستفهام .

وكذلك أفأمن لأنها فاء العطف دخلت عليها ألف الاستفهام .

قرأ نافع وابن كثير أو أمن بجزم الواو لأن أصله أو وأمن وأو حرف من حروف الشك فأدغم في حرف النسق ﴿ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ يعني : يأتيهم عذابنا نهاراً ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ يعني : لاهون عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ﴿ أَوْ أمن ﴾ بسكون الواو وإظهار الهمزتين ، وقرأ ورش عن نافع " أوَامن " بفتح الواو وإلقاء حركة الهمزة الثانية عليها ، وهذه القراءة في معنى الأولى ولكن سهلت ، وقرأ عصام وأبو عمرو وحمزة والكسائي ، " أوَأمن " بفتح الواو وإظهار الهمزتين ومعنى هذه القراءة : أنه دخل ألف الاستفهام على حرف العطف ، ومعنى القراءة الأولى : أنه عطف با والتي هي لأحد الشيئين ، المعنى : ﴿ أفأمنوا ﴾ هذه أو هذا كما تقول : أجاء زيد أو عمرو وليست هذه أو التي هي للإضراب عن الأول كما تقول : أنا أقوم أو أجلس وأنت تقصد الإضراب عن القيام والإثبات للجلوس وتقريره ، وقولنا التي هي لأحد الشيئين يعم الإباحة والتخيير كقولك : جالس الحسن أو ابن سيرين أو قولك : جالس الحسن أو جالس ابن سيرين ، وقوله ﴿ يلعبون ﴾ يريد في غاية الغفلة والإعراض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾

قرأه الحرميان وابن عامر بإسكان الواو للعطف ، على معنى الإباحة ؛ مثل ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] .

جالس الحسن أو ابن سيرين .

والمعنى : أو أمنوا هذه الضروب من العقوبات .

أي إن أمنتم ضرباً منها لم تأمنوا الآخر .

ويجوز أن يكون "أو" لأحد الشيئين ، كقولك : ضربت زيداً أو عمراً .

وقرأ الباقون بفتحها بهمزة بعدها .

جعلها واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام ؛ نظيره ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً ﴾ [البقرة : 100] .

ومعنى ﴿ ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي وهم فيما لا يجدي عليهم ؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدي عليه لاعب ، ذكره النحاس .

وفي الصحاح .

اللعب معروف ، واللّعْب مثله .

وقد لعِب يلعَب .

وتَلَعَّب : لَعِبَ مرة بعد أخرى .

ورجلٌ تِلْعَابَة : كثير اللعب ، والتلعاب (بالفتح) المصدر .

وجارية لَعُوبٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى ﴾

يعني نهاراً لأن الضحى صدر النهار ﴿ وهم يلعبون ﴾ يعني : وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم .

والمقصود من الآية أن الله خوفهم بنزول العذاب وهم في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذي يغلب على الإنسان التشاغل فيه بأمور الدنيا ، وأمور الدنيا كلها لعب ويحتمل أن يكون المراد خوضهم في كفرهم وذلك لعب أيضاً لأنه يضر ولا ينفع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(76/280)

وقال أبو حيان :

﴿ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾

أي في حال الغفلة والإعراض والاشتغال بما لا يجدي كأنهم يلعبون ﴿ وضحى ﴾ منصوب على الظرف أي صحوة ويقيد كل ظرف بما يناسبة من الحال فيقيد البيات بالنوم والضحى باللعب وجاء ﴿ وهم نائمون ﴾ باسم الفاعل لأنها حالة ثبوت واستقرار للبائتين وجاء ﴿ يلعبون ﴾ بالمضارع لأنهم مشتغلون بأفعال متجدّدة شيئاً فشيئاً في ذلك الوقت ، وقرأ نافع والابنان ﴿ أو أمن ﴾ بسكون الواو جعل أو عاطفة ومعناها التنويع لا أنّ معناها الإباحة أو التخيير خلافاً لمن ذهب إلى ذلك وحذف ورش همزة أمن ونقل حركتها إلى الواو الساكنة والباقون بهمزة الاستفهام بعدها واو العطف وتكرر لفظ ﴿ أهل القرى ﴾ لما في ذلك من التسميع والإبلاغ والتهديد والوعيد بالسامع ما لا يكون في الضمير لو جاء أو أمنوا فإنه متى قصد التفخيم والتعظيم والتهويل جيء بالاسم الظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾

إنكارٌ بعد إنكارٍ للمبالغة في التوبيخ والتشديدِ ولذلك لم يقل : أفأمن أهلُ القرى أي يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو ضحىً وهم يلعبون ، وقرىء أوْ بسكون الواوِ على الترديد ﴿

أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ أي ضحوةَ النهارِ وهو في الأصل ضوءُ الشمسِ إذا ارتفعت ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي يلهُون من فرط الغفلةِ أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(77/280)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾

إنكار بعد إنكار للمبالغة في التوبيخ والتشديد ، ولم يقصد الترتيب بينهما فلذا لم يؤت بالفاء .

وقرأ نافع .

وابن كثير .

وابن عامر .

﴿ أَوْ ﴾ بسكون الواو وهي لأحد الشيئين والمراد الترديد بين أن يأتيهم العذاب بياتاً وما دل عليه قوله سبحانه : ﴿ أَن يَأْتِيَهُمْ ﴾ أي ضحوة النهار وهو في الأصل ارتفاع الشمس أو شروقها وقت ارتفاعها ثم استعمل للوقت الواقع فيه ذلك وهو أحد ساعات النهار

عندهم وهي الذرور والبزوغ والضحى والغزالة والهاجرة والزوال والدلوك والعصر والأصيل والصنوت والحدور والغروب وبعضهم يسميها البكور والشروق والأشراق والراد والضحى والمنوع والهاجرة والأصيل والعصر والطفل والحدود والغروب ، ويكون كما قال الشهاب متصرفاً إن لم يرد به وقت من يوم بعينه وغير متصرف ان أريد به ضحوة يوم معين فيلزم النصب على الظرفية وهو مقصور فإن فتح مد ، وقد عدوا لفظ الضحى مما يذكر ويؤنث .

﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي يلهون من فرط الغفلة وهو مجاز مرسل في ذلك ، ويحتمل أن يكون هناك استعارة أي يشتغلون بما لا نفع فيه كأنهم يلعبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(78/280)

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾

قرأه نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو جعفر بسكون الواو على أنه عطف بحرف (أو) الذي هو لأحد الشيئين عطفاً على التعجيب ، أي : هو تعجيب من أحد الحالين .

وقرأه الباقون بفتح الواو على أنه عطف بالواو مقدمة عليه همزةُ الاستفهام ، فهو عطف استفهام ثان بالواو المفيدة للجمع ، فيكون كلا الاستفهامين مدخولاً لفاء التعقيب ، على قول جمهور النحاة ، وأما على رأي الزمخشري فيتعين أن تكون الواو للتقسيم ، أي تقسيم الاستفهام إلى استفهامين ، وتقدم ذكر الرأيين عند قوله تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول ﴾ في سورة البقرة (87) .

و﴿ بياتاً ﴾ تقدم معناه ووجه نصبه عند قوله تعالى : ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً ﴾ في أول هذه السورة (4) .

والضحَى بالضم مع القصر هو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرق وارتفع ، وفسره الفقهاء بأن ترتفع الشمس قيد رمح ، ويرادفه الضحوة والضّحْوُ .

والضحى يذكر ويؤنث ، وشاع التوقيت به عند العرب ومن قبلهم ، قال تعالى حكاية عن موسى : ﴿ قال مَوْعدكُمْ يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضُحى ﴾ [طه : 59] .

وتقييد التعجيب من أمْنهم مجيءَ البأس ، بوقتي البيات والضحى ، من بين سائر الأوقات ، وبحالي النوم واللعب ، من بين سائر الأحوال ، لأن الوقتين أجدر بأن يحذر حلول العذاب فيهما ، لأنهما وقتان للدعة ، فالبيات للنوم بعد الفراغ من الشغل .

والضحى للعب قبل استقبال الشغل ، فكان شأن أولي النهى المعرضين عن دعوة رسل الله أن لا يأمنوا عذابه ، بخاصة في هذين الوقتين والحالين .

وفي هذا التعجيب تعريض بالمشركين المكذبين للنبيء صلى الله عليه وسلم أن يحل بهم ما حلَّ بالأمم الماضية ، فكان ذكر وقت البيات ، ووقت اللعب ، أشد مناسبة بالمعنى التعريضي ، .

تهديداً لهم بأن يصيبهم العذاب بأفظع أحواله ، إذ يكون حلوله بهم في ساعة دعتهم وساعة لهوهم نكاية بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(79/280)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) ﴾

ونلحظ وجود ذ " همزة استفهام " و " فاء تعقيب " في قوله : ﴿ أَفَأَمِنَ ﴾ وهذا يعني أن هناك معطوفاً ومعطوفاً عليه ، ثم دخل عليهما الاستفهام ، أي أنهم فعلوا وصنعوا من الكفر والعصيان فأخذناهم بغتة ، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا وعذابنا بياتاً أو ضحى كما صنع بمن كان قبلهم من الأمم السابقة ؟ هم إذن لم يتذكروا ما حدث للأمم السابقة من العذاب والدمار .

ويوضح الحق أن الذين كذبوا من أهل القرى ، هل استطاعوا تأمين أنفسهم فلا يأتيهم العذاب بغتة كما أتى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ؟ والبأس هو الشدة التي يؤاخذ بها الحق سبحانه الأمم حين يعزفون عن منهجه . وما الذي جعلهم يأمنون على أنفسهم أن تنزل بهم أهوال كالتي نزلت بمن سبقهم من الأمم .

وحين يتكلم الحق عن الأحداث فهو يتكلم عما يتطلبه الأحداث من زمان ومكان ؛ لأن كل حدث لابد له من زمن ولابد له من مكان ، ولا يوجد حدث بلا زمان ولا مكان ، والمكان هنا هو القرى التي يعيش فيها أهلها ، والزمان هو ما سوف يأتي فيه البأس ، وهو قد يأتي لهم وهم نائمون ، أو يأتي لهم ضحى وهم يلعبون ، وهذه تعابير إلهية ، والإنسان إذا ما كان في مواجهة الشمس فالدنيا تكون بالنسبة له نهاراً . والمقابل له يكون الليل . وقد يجيء البأس على أهل قرية نهاراً ، أو ليلاً في أي وقت من دورة الزمن ، ونعلم أن كل لحظة من اللحظات للشمس تكون لمكان ما في الأرض شروقاً ، وتكون لمكان آخر غروباً ، وفي كل لحظة من اللحظات يبدأ يوم ويبدأ ليل ، إذن أنت لا تأمن يا صاحب النهار أن يأتي البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أن يكون البأس نهاراً أو ليلاً .

(80/280)

وأهل القرى هم الذين قال الله فيهم : ﴿ . . . ولكن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : 96]

وما داموا قد كذبوا فمعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا برسول مبلغ عن الله ، وتبعاً لذلك لم يؤمنوا بمنهج يحدد قانون حركتهم ب " افعل " و " لا تفعل " .

إذن فنهارهم هو حركة غير مجدية ، وغير نافعة ، بل هي لعب في الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفقد للحركة ، أو عبث ومجون وانحراف ، وكل من يسير على غير منهج الله يقضي ليله نائماً أو لاهيًا عاصيًا ، ونهاره لاعباً ؛ لأن عمله مهما عظم ، ليس له مقابل في الآخرة من الجزاء الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(81/280)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ضُحىً " مَنْصوبٌ على الظَّرف الزَّمانيِّ ، ويكون متصرفاً وغير متصرف ، [فالمتصرَّفُ] ما لم يرد به وقته من يوم بعَيْنِهِ نحو : " ضُحاك ضحىً مُبَرَك " .

فإن قلت : " أَتَيْتُكَ يوم الجُمْعَةِ ضُحىً " فهذا لا يتصرّف ، بل يَلْزَمُ النَّصْبُ على الظَّرْفية ،

وهذه العبارَةُ أحسنُ من عِبَارَةِ أبِي حيَّان حيث قال : " ظرف متصرّفٌ إذا كان نكرةً ، وغير متصرّلإ إذا كان من يوم بعينه " ؛ لأَنَّهُ تَوَهَّم [متى] كان معرفةً بأي نوع كان من أنواع التَّعْرِيف فإنَّهُ لا يتصرَّفُ ، وليس الأمر كذلك قال تعالى : ﴿ والضحى ﴾ [الضحى : 1] فاستعمله مجروراً بالقسم مع أنه معروفٌ بأل ، وقال تعالى : ﴿ والشمس وَضُحَاهَا ﴾ [الشمس : 1] جرّه بحرف القسم أيضاً مع أَنَّهُ معرَّفٌ بالإضافة ، وهو امتداد الشَّمْسِ وامتداد النَّهار .

ويقال : ضُحى ، وضحاءُ ، إذا ضَمَمْتَ قَصَرْتَ ، وإذا فتحت مَدَدْتَ .

وقال بعضهم : الضُّحى بالضم والقسر لأول ارتفاع الشمس والضَّحَاءُ بالفتح والمدّ لقوَّة ارتفاعها قبل الزَّوَالِ .

والضُّحى مُؤَنَّثٌ ، وشذُّوا في تصغيرِهِ على " ضُحَيٌّ " بدون تاء كعُرَيْب وأخواتها ، والضَّحَاءُ أيضاً طعامُ الضُّحَى كالغدَاء طَعَامُ وَقْتِ الغدْوَة يقال منهما : تَضَحَّى ضَحَاءً وتَغَدَّى غَدَاءً : وضَحِيَ يَضْحَى إذَا برز للشَّمْسِ وقت الضُّحَى ، ثم عُبِّر به عن إصَابَةِ الشَّمْسِ مطلقاً ، ومنه قوله : ﴿ وَلاَ تضحى ﴾ [طه : 119] [أي] : لا تبرزُ للشمس .

ويقال : ليلة أضحِيَانَةٌ بضمّ الهمزة ، وضَحْيَاء بالمدّ أي : مضيئة إضاءَةُ الضُّحى ، والأُضْحِيَة وجمعها : أضَاحِ ، والضَّحِيَّة وجمعها ضحايا ، والأُضْحَاة وجمعها أُضْحًى هي

المَذْبُوحُ يوم النَّحْرِ ، سمّيَت بذلك لذَبْحها ذلك الوقت لقوله عليه الصلاة والسلام : " مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ صَلاتِنَا هَذِهِ فَلْيُعِدْ "

وضواحي الشَّيء نواحيه البارزة .

(82/280)

قوله : " وَهُمْ يَلْعَبُونَ " حالٌ ، وهذا يقوّي أنَّ " بَيَاناً " ظرفٌ لا حال ، لتتطابق الجملتان فيصيرُ في كلٍّ منهما وقت وحال ، وأتى [بالحال] الأولى مُتَضَمّنَة لاسم فاعل ؛ لأَنَّهُ يدلُّ على ثباتٍ واستقرارٍ وهو مناسب للنَّوْمِ ، وبالثَّانيةِ متضمّنة لفعل ؛ لأَنَّهُ يدلُّ على التجدُّدِ والحدوث وهو مناسبٌ للَّعب والهزل .

قال النَّحَّاسُ : " وفي الصَّحاح : اللَّعِبُ معروفٌ ، واللّعْبُ مثله ، وقد لَعِبَ يَلْعَبُ ، ويَلْعبُ مرة بعد أخرى ، ورجل تَلْعَابَةٌ : كثيرُ اللَّعبِ والتَّلْعَابُ بالفتح المصدر ، وجارته لَعُوبٌ " .

وقرأ نافع وابن عامِر وابنُ كثيرٍ " أوْ " بسكون الواو والباقون بفتحها ، ففي القراءة الأولى تكونُ " أو " بجملتها حرف عطف ومعناها حينئذ التقسيم .

قال ابنُ الخطيبِ : تسعتملُ على ضَرْبَيْن :

أحدهما : أن تكون بمعنى أحد الشَّيْئَيْنِ كقوله : زيد أو عمرو جاءك ، والمعنى : أحدهما

جاء .

والثاني : أن تكون للإضْرابِ عمَّا قبلها كقولك : " أَنَا أَخْرُجُ " ثم تقول : " أو أقيم " أضربت عن الخروج وأثبت الإقامة ، كأنك قلت : لا بل أقيمُ ، فوجه هذه القراءة أنَّهُ جعل " أو " للإضراب ، لا على أنَّه أبطل الأوَّلَ .

وزعم بعضهم أنَّها للإبَاحةِ والتَّخْيير ، وليس بظاهرٍ .

وفي القراءة الثَّانية هي واو العَطْفِ دخلت عليها همزة الاستفهام مقدَّمة عليها لفظاً ، وإنْ كانت بَعْدَهَا تقديراً عند الجمهور .

وقد عرف مذهب الزَّمَخْشَرِيِّ في ذلك ، ومعنى الاستفهام هنا : التَّوبيخُ ، والتَّقريعُ .

وقال أبو شَامَة وغيره : " إنَّهُ بمعنى النَّفي " .

وكرّرت الجملة في قوله تعالى : ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ : " أفَأَمِنوا " توكيداً لذلك ، وأتي في الجُمْلَةِ الثَّانية بالاسم ظاهراً ، وحقّه أن يضمر مبالغة في التَّوكِيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 235 . 237 ﴾

(83/280)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) ﴾

أكثر ما ينزل البلاء ينزل فجأةً على غفلةٍ من أهله ، ويقال مَنْ حَذِرَ البيات لم يجدْ روْحَ الرُّقاد .

ويقال رُبَّ ليلةٍ مُفْتَتَحةٍ بالفَرَحِ مختتمةٌ (بالترح) . ويقال رُبّ يومٍ تطلع شمسه من أوج السعادة قامت ظهيرته على قيام الفتنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 553 ﴾

(84/280)

قوله تعالى ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ضلالهم – الذي نسبوا فيه الأمر إلى غير أهله – أشنع ضلال لتضمنه التعطيل وما يجر إليه من الأباطيل ، كرر الإنكار عليهم على وجه أشد من الأول فقال مسبباً الإنكار

عما أثبت هذا الكلام من العظمة التي لا يتمارى فيها ذو لب : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ أي فعله الذي يشبه المكر بأخذ الإنسان من حيث لا يشعر بالاستدراج بما يريد من النعم والنقم ؛ وسبب عن ذلك قوله : ﴿ فلا يأمن مكر الله ﴾ أي الذي لا أعظم منه فلا يرد له أمر ﴿ إلا القوم الخاسرون ﴾ أي الذين كانت قواهم سبباً لعراقتهم في الأفعال الضارة والخصال المهلكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 75 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ ﴾ وقد سبق تفسير المكر في اللغة ، ومعنى المكر في حق الله تعالى في سورة آل عمران عند قوله : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ ﴾ [آل عمران : 54] ويدل قوله : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ ﴾ أن المراد أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون .

(85/280)

قاله على وجه التحذير ، وسمي هذا العذاب مكراً توسعاً ، لأن الواحد منا إذا أراد المكر بصاحبه ، فإنه يوقعه في البلاء من حيث لا يشعر به ، فسمي العذاب مكراً لنزوله بهم من حيث لا يشعرون ، وبين أنه لا يأمن من نزول عذاب الله على هذا الوجه ﴿ إِلاَّ القوم

الخاسرون ﴾ وهم الذين لغفلتهم وجهلهم لا يعرفون ربهم ، فلا يخافونه ، ومن هذه سبيله ، فهو أخسر الخاسرين في الدنيا والآخرة ، لأنه أوقع نفسه في الدنيا في الضرر ، وفي الآخرة في أشد العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 151 ﴾

(86/280)

وقال الثعلبى :

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ ومعني (مكر) استدراج القوم بما أراهم في دنياهم .

قال قتادة : مكر الله استدراجه بطول الصحة وتظاهر النعم ، وقال عطيّة : يعني أخذه وعذابه ، وحكى [الشبلي] أنه سئل عن مكر الله فأجاب بقول :

محبتك لا ببعضي بل بكلي . . . وإن لم يبقَ حبك لي حراكاً

ومقبح من موالد ليفع . . . ل سنتي ويفعله فيحسن

فقال السائل : اسأله عن آية من كتاب الله ويجيبني من الشعر فعلم الشبلي أنه لم يفطن لما قال ، فقال : يا هذا [. . . .] إياهم على ما هم فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾

و﴿ مكر الله ﴾ هي إضافة مخلوق إلى الخالق كما تقول : ناقة الله وبيت الله ، والمراد فعل يعاقب به مكرة الكفار ، وأضيف إلى الله لما كان عقوبة الذنب فإن العرب تسمي العقوبة على أي وجه كانت باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة ، وهذا نص في قوله ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ ، وهذا الموضع أيضاً كان كفرهم بعد الرسالة وظهور دعوة الله مكر وخديعة واستخفاف ، وقيل عومل في مثل هذا وغيره اللفظ دون المعنى في مثل قوله ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ [البقرة : 15] و" أن الله لا يمل حتى تملوا " وغير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(87/280)

وقال الخازن :

﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾

يعني استدراجه إياهم بما أنعم عليهم من الدنيا وقيل : المراد به أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون ، وعلى هذا الوجه فيكون بمعنى التحذير وسمي هذا العذاب مكراً لنزوله وهم

في غفلة عنه لا يشعرون به ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ يعني أنه لا يأمن أن يكون ما أعطاهم من النعمة مع كفرهم استدراجاً إلا من خسر في أخراه وهلك مع الهالكين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان:

﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾

جاء العطف بالفاء وإسناد الفعل إلى الضمير لأن الجملة المعطوفة تكرير لقوله ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ ﴿ أو أمن ﴾ وتأكيد لمضمون ذلك فناسب إعادة الجملة مصحوبة بالفاء ومكر مصدر أضيف إلى الفاعل وهو استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر، قال ابن عطية: ﴿ ومكر الله ﴾ هي إضافة مخلوق إلى الخالق كما تقول ناقة الله وبيت الله والمراد فعل معاقب به مكر الكفرة وأضيف إلى الله لما كان عقوبة الذنب فإن العرب تسمى العقوبة على أي جهة كانت باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة وهذا نص في قوله ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ انتهى، وقال عطية العوفي: ﴿ مكر الله ﴾ عذابه وجزاؤه على مكرهم، وقيل مكره استدراجه بالنعمة والصحة وأخذه على غرّة وكرّر المكر مضافاً إلى الله تحقيقاً لوقوع جزاء المكر بهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود:

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ ﴾

تكريرٌ للنكير لزيادة التقريرِ ، ومكرُ الله تعالى استعارةٌ لاستدراجه العبدَ وأخذِه من حيث لا يحتسب ، والمرادُ به إتيانُ بأسِه تعالى في الوقتين المذكورين ولذلك عُطف الأولُ والثالثُ بالفاء فالإنكارُ فيهما متوجهٌ إلى ترتب الأمنِ على الأخذ المذكور ، وأما الثاني فمن تتمة الأولِ ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ أي الذين خسِروا أنفسَهم وأضاعوا فطرةَ الله التي فطرَ الناسَ عليها والاستعدادَ القريبَ المستفادَ من النظر في الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(88/280)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ﴾

تكرير لمجموع الانكارين السابقين جمعاً بين التفريق قصداً إلى زيادة التحذير والإنذار ، وذكر جمع من جلة المحققين أنه لو جعل تكريراً له ولما سلف من غرة أهل القرى السابقة أيضاً على معنى أن الكل نتيجة الأمن من مكر الله تعالى لجاز إلا أنه لما جعل تهديداً للموجودين كان الأنسب التخصيص ، وفيه تأمل .

والمكر في الأصل الخداع ويطلق على الستر يقال : مكر الليل أي ستر بظلمته ما هو فيه ،

وإذا نسب إليه سبحانه فالمراد به استدراجه العبد العاصي حتى يهلكه في غفلته تشبيهاً لذلك بالخداع ، وتجوز هذه النسبة إليه سبحانه من غير مشاكلة خلافاً لبعضهم ، وهو هنا إتيان البأس في الوقتين والحالين المذكورين ، وهل كان تبديل مكان السيئة الحسنة المذكور قبل مكراً واستدراجاً أو ملاطفة ومراوحة ؟ فيه خلاف والكل محتمل ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم فاضاعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها والاستعداد القريب المستفاد من النظر في الآيات والفاء هنا متعلق كما قال القطب الرازي وغيره بمقدر كأنه قيل فلما آمنوا خسروا فلا يأمن الخ .

وقال أبو البقاء إنها للتنبيه على تعقيب العذاب أمن مكر الله تعالى ، وقد يقال : إنها لتعليل ما يفهمه الكلام من ذم الأمن واستقباحه أو يقال إنها فصيحة ، ويقدر ما يستفاد من الكلام شرطاً أي إذا كان الأمن في غاية القبح فلا يرتكبه إلا من خسر نفسه ، واستدلت الحنفية بالآية على أن الأمن من مكر الله تعالى وهو كما في جميع الجوامع الاسترسال في المعاصي إتكالاً على عفو الله تعالى كفر ، ومثله اليأس من رحمة الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَس مِنْ رُوحِ اللهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُون ﴾ [يوسف : 87] وذهبت الشافعية إلى أنهما من الكبائر لتصريح ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بذلك وروى ابن أبي حاتم .

والبزار عن ابن عباس أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سئل ما الكبائر ؟ فقال : الشرك بالله تعالى واليأس من روح الله والامن من مكر الله وهذا أكبر الكبائر قالوا : وما ورد من أن ذلك كفر محمول على التغليظ وآية لا ييأس الخ كقوله تعالى : ﴿ الزانية لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ ﴾ [النور : 3] و﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله ﴾ [المجادلة : 22] في قول .

وقال بعض المحققين : إن كان في الأمن اعتقاد أن الله تعالى لا يقدر على الانتقام منه وكذا إذا كان في اليأس اعتقاد عدم القدرة على الرحمة والاحسان أو نحو ذلك فذلك مما لا ريب في أنه كفر وإن خلا عن نحو هذا الاعتقاد ولم يكن فيه تهاون وعدم مبالاة بالله تعالى فذلك كبيرة وهو كالمحاكمة بين القولين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(90/280)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

الْوَاوُ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ لِعَطْفِ الْجُمْلَةِ ، وَمَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ السِّيَاقِ الَّذِي وَضَعْنَا لَهُ الْعُنْوَانَ عَلَى مَجْمُوعِ مَا قَبْلَهُنَّ مِنَ الْقَصَصِ ، لِمُشَارَكَتِهِ إِيَّاهُ فِي كَوْنِهِ حِكَمًا لَهُ وَعِبَرًا مُسْتَفَادَةً مِنْهُ ، فَعَطْفُ الْجُمَلِ يَشْمَلُ الْكَثِيرَ مِنْهَا ، كَالسِّيَاقِ بِرُمَّتِهِ ، وَلَا وَجْهَ لِلْفَصْلِ هُنَا ، وَالْقَرْيَةُ : الْمَدِينَةُ الْجَامِعَةُ لِزُعَمَاءِ الْأُمَّةِ وَرُؤَسَائِهَا الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِالْعَاصِمَةِ كَمَا تَقَدَّمَ مِرَارًا ، وَكَانَ الْأَنْبِيَاءُ يُبْعَثُونَ فِي الْقُرَى الْجَامِعَةِ ؛ لِأَنَّ سَائِرَ الْبِلَادِ تَتْبَعُ أَهْلَهَا إِذَا آمَنُوا ، وَالْبَأْسَاءُ : الشِّدَّةُ وَالْمَشَقَّةُ كَالْحَرْبِ وَالْجَدْبِ وَشِدَّةِ الْفَقْرِ ، وَالضَّرَّاءُ : مَا يَضُرُّ الْإِنْسَانَ فِي بَدَنِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ مَعِيشَتِهِ وَالْأَخْذُ بِهَا : جَعَلَهَا عِقَابًا ، وَقَدْ تَكُونُ تَجْرِبَةً وَتَرْبِيَةً نَافِعَةً ، وَتَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (6 : 42) فَيُرَاجَعُ (فِي ص 345 ج 7 ط الْهَيْئَةِ) فَإِنَّهُ بِمَعْنَى مَا هُنَا ، وَلَكِنَّ السِّيَاقَ مُخْتَلِفٌ ، فَلَمَّا كَانَ مَا هُنَا قَدْ وَرَدَ عَقِبَ قَصَصِ طَائِفَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، جُعِلَ هَذَا الْمَعْنَى قَاعِدَةً كُلِّيَّةً وَسُنَّةً مُطَّرِدَةً فِي الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ لِيَعْتَبِرَ بِهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ أَوْ قَرَأَهُ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ وَمَا بَعْدَهُ ، وَلَمَّا كَانَ مَا هُنَالِكَ قَدْ وَرَدَ فِي سِيَاقِ تَبْلِيغِ خَاتَمِ الرُّسُلِ

لِلدَّعْوَةِ وَمُحَاجَّةِ قَوْمِهِ ، جَعَلَ خِطَابًا خَبَرِيًّا لَهُ ، لِتَسْلِيَتِهِ وَتَثْبِيتِ قَلْبِهِ مِنْ جِهَةٍ ، وَلِتَخْوِيفِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَإِنْذَارِهِمْ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، وَهَذَا مُلَاحَظٌ هُنَا أَيْضًا ، وَلَكِنْ بِالتَّبَعِ لِلِاعْتِبَارِ بِالسُّنَّةِ الْعَامَّةِ لَا بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ .

وَالْمَعْنَى : ذَلِكَ شَأْنُ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمُ الْهَالِكِينَ ، وَمَا أَرْسَلْنَا نَبِيًّا فِي قَوْمِهِ إِلَّا وَقَدْ أَنْزَلْنَا بِهِمُ الشَّدَائِدَ وَالْمَصَائِبَ بَعْدَ إِرْسَالِهِ أَوْ قُبَيْلَهُ ، لِنَعُدَّهُمْ وَنُؤَهِّلَهُمْ بِهَا لِلتَّضَرُّعِ ، وَهُوَ إِظْهَارُ الضَّرَاعَةِ ؛ أَيِ الضَّعْفِ وَالْخُضُوعِ لَنَا وَالْإِخْلَاصِ فِي دُعَائِنَا بِكَشْفِهَا ، فَـ " لَعَلَّ " تُفِيدُ الْإِعْدَادَ لِلشَّيْءِ ، وَجَعْلَهُ مَرْجُوًّا ، وَمِمَّا ثَبَتَ بِالتَّجَارِبِ وَتَقَرَّرَ عِنْدَ عُلَمَاءِ النَّفْسِ وَالْأَخْلَاقِ أَنَّ الشَّدَائِدَ وَمَلَاحِجَ الْأُمُورِ مِمَّا يُرَبِّي النَّاسَ ، وَيُصْلِحُ مِنْ فَسَادِهِمْ ، فَالْمُؤْمِنُ قَدْ يَشْغَلُهُ

الرَّخَاءُ وَهَنَاءُ الْعَيْشِ فَيُنْسِيهِ ضَعْفَهُ وَحَاجَتَهُ إِلَى رَبِّهِ ، وَالشَّدَائِدُ تُذَكِّرُهُ بِهِ ، وَالْكَافِرُ بِالنِّعَمِ قَدْ يَعْرِفُ قِيمَتَهَا بِفَقْدِهَا ، فَيَنْقَلِبُ شَاكِرًا بَعْدَ عَوْدِهَا ، بَلِ الْكَافِرُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ تَنَبَّهَ الشَّدَائِدَ وَالْأَهْوَالَ مَرْكَزَ الشُّعُورِ بِوُجُودِ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْمُدَبِّرِ لِأُمُورِ الْخَلْقِ فِي دِمَاغِهِ ، وَتَذَكُّرِهِ بِمَا أَوْدَعَ فِي فِطْرَتِهِ مِنْ وُجُودِ مَصْدَرٍ لِنِظَامِ الْكَوْنِ وَأَقْدَارِهِ ، كَمَا وَقَعَ كَثِيرًا ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ تَقَدَّمَ بَعْضُهَا ، وَقَدْ رُوِيَ لَنَا أَنَّ الْحَرْبَ الْعُظْمَى قَدْ كَانَ لَهَا هَذَا التَّأْثِيرُ حَتَّى فِي أَقَلِّ النَّاسِ تَدَيُّنًا ، وَهُمْ أَهْلُ مَدِينَةِ بَارِيسَ ، فَكَانَتِ الْمَعَابِدُ تُرَى مُكْتَظَّةً بِالْمُصَلِّينَ فِي أَثْنَاءِ شَدَائِدِ الْحَرْبِ .

(94/280)

وَمِنْ مَبَاحِثِ الْبَلَاغَةِ أَنَّ نُكْتَةَ خُلُوِّ جُمْلَةِ أَخَذْنَا أَهْلَهَا الْحَالِيَّةِ مِنَ الْوَاوِ ، " وَقَدْ " هِيَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمُقْتَرِنَةِ بِهِمَا أَنْ يَكُونَ مَضْمُونُهَا مُقَدَّمًا عَلَى الْعَامِلِ فِيهَا كَالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ ، فَإِذَا قُلْتَ : مَا فَعَلَ زَيْدٌ كَذَا إِلَّا ، وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عُدَّتَهُ ، كَانَ الْمُتَبَادَرُ أَنَّهُ أَعَدَّهَا قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي فِعْلِهِ لِأَجْلِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ : وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (28 : 59) أَيْ : مُتَلَبِّسُونَ بِالظُّلْمِ مِنْ قَبْلُ لَا حَالَ الْإِهْلَاكِ فَقَطْ ، وَإِذَا قِيلَ : مَا فَعَلَهُ إِلَّا أَعَدَّ لَهُ عُدَّتَهُ شَمِلَ إِعْدَادَهَا قَبْلَهُ لِأَجْلِهِ وَهِيَ الْحَالُ السَّابِقَةُ ، وَإِعْدَادَهَا عِنْدَ الشُّرُوعِ فِيهِ

وَهِيَ الْحَالُ الْمُقَارَنَةُ ، بَلْ هَذِهِ الْمُتَبَادَرَةُ إلَى الذِّهْنِ هُنَا ، كَقَوْلِك : مَا سَأَلْتُهُ إلَّا أَجَابَنِي ؛ أَيْ : عِنْدَ السُّؤَالِ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَقُولَ : إلَّا وَقَدْ أَجَابَنِي ، وَيَصِحُّ أَنْ تَقُولَ : مَا سَأَلْتُهُ إلَّا وَقَدْ أَذِنَ لِي ؛ أَيْ : قَبْلَ السُّؤَالِ ، فَإِنْ قُلْنَا : إنَّهُ يَتَعَيَّنُ أَنْ تَكُونَ الْحَالُ مُقَارَنَةً فِي الْآيَةِ ، اقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مَا أَفَادَتْهُ هِيَ وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الِابْتِلَاءِ بِالسَّيِّئَةِ ثُمَّ بِالْحَسَنَةِ ثُمَّ بِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْكَثْرَةِ وَكُفْرِ النِّعْمَةِ وَاقِعًا كُلُّهُ بَعْدَ إرْسَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَفِي عَهْدِهِمْ ، وَهُوَ قَدْ يَصْدُقُ فِي قَوْمِ نُوحٍ دُونَ مَنْ بَعْدَهُ فَلِذَلِكَ قُلْنَا : إنَّهَا تَشْمَلُ الْحَالَ السَّابِقَةَ وَالْمُقَارَنَةَ ،

(95/280)

فَلْيَتَأَمَّلْ فَإِنَّنَا لَمْ نَرَ لِأَحَدٍ بَحْثًا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَلَكِنَّ الْإِمَامَ عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيَّ حَقَّقَ أَنَّ الْحَالَ الْمُفْرَدَةَ تُفِيدُ الْمُقَارَنَةَ ، وَالْجُمْلَةُ الْحَالِيَّةُ

تُفِيدُ سَبْقَ مَضْمُونِهَا ، وَفَرَّقَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بَيْنَ قَوْلِك : عَلَى أَنْ أَعْتَكِفَ صَائِمًا ، وَقَوْلِك : عَلَى أَنْ أَعْتَكِفَ وَأَنَا صَائِمٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي التَّفْسِيرِ : لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا (4 : 43) الْآيَةَ : (فَرَاجِعْهُ فِي ص 92 وَمَا بَعْدَهَا ج 5 ط الْهَيْئَةِ) .

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ أَيْ : ثُمَّ بَلَوْنَاهُمْ بِضِدِّ ذَلِكَ ، فَجَعَلْنَا الْحَالَةَ الْحَسَنَةَ فِي

مَكَانِ الْحَالَةِ السَّيِّئَةِ كَالْيُسْرِ بَعْدَ الْعُسْرِ ، وَالْغِنَى فِي مَكَانِ الْفَقْرِ ، وَالنَّصْرِ عَقِبَ الْكَسْرِ ، حَتَّى عَفَوْا أَيْ : كَثُرُوا وَنَمَوْا ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : وَهُوَ مِنْ : عَفَا النَّبَاتُ وَالشَّحْمُ وَالشَّعْرُ وَنَحْوُهُ إِذْ كَثُرَ ، وَلَهُ شَوَاهِدُ عَنِ الْعَرَبِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْيُسْرَ وَالرَّخَاءَ سَبَبٌ لِكَثْرَةِ النَّسْلِ وَبِهِ تَتِمُّ نِعَمُ الدُّنْيَا عَلَى الْمُوسِرِينَ ،

(96/280)

وَمِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى هَذَا الِابْتِلَاءِ فِي الْقَصَصِ الَّتِي قَفَّى عَلَيْهَا بِهَذِهِ الْعِبَرِ قَوْلُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَقَوْلُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

(97/280)

وَقَوْلُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ : وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَلَكِنْ لَمْ تَزِدِ الْآلَاءُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ إِلَّا بُغْيًا وَبَطَرًا وَفَسَادًا فِي الْأَرْضِ : وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ أَيْ : وَقَالُوا مَعَ ذَلِكَ قَوْلًا يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ فِطْرَتِهِمْ ، وَانْطِمَاسِ بَصِيرَتِهِمْ وَفَقْدِهِمُ الِاسْتِعْدَادَ لِلِاتِّعَاظِ وَالِاعْتِبَارِ بِأَحْدَاثِ الزَّمَانِ ، وَتَغَيُّرِ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ ، وَتَقَلُّبِ شُئُونِ الْعُمْرَانِ ، قَالُوا : قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا مِنْ قَبْلِنَا مَا يَسُوءُ وَمَا يَسُرُّ وَتَنَاوَبَهُمْ مَا يَنْفَعُ وَمَا يَضُرُّ ، وَنَحْنُ مِثْلُهُمْ يُصِيبُنَا مَا أَصَابَهُمْ فَتِلْكَ عَادَةُ الزَّمَانِ فِي أَبْنَائِهِ ، فَلَا الضَّرَّاءُ عِقَابٌ مِنَ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ عَلَى مَعَاصٍ تُقْتَرَفُ وَرَذَائِلَ تُرْتَكَبُ ، وَلَا السَّرَّاءُ جَزَاءٌ مِنْهُ عَلَى صَالِحَاتٍ تُعْمَلُ وَفَضَائِلَ تُلْتَزَمُ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُمْ جَهِلُوا سُنَنَهُ تَعَالَى فِي أَسْبَابِ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ فِي الْبَشَرِ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ ، الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (13 : 11) فَلَمَّا ذَكَّرَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِهَا لَمْ يَتَذَكَّرُوا وَلَمْ يَعْتَبِرُوا ، بَلْ نَسُوا وَأَعْرَضُوا وَأَنْكَرُوا .

فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَيْ : فَكَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنْ أَخَذْنَاهُمْ

بِالْعَذَابِ فَجْأَةً ، وَهُمْ فَاقِدُونَ لِلشُّعُورِ بِمَا سَيَحِلُّ بِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْهَلُونَ سُنَنَ اللهِ تَعَالَى فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ فَلَا عَرَفُوهَا بِعُقُولِهِمْ ، وَلَا هُمْ صَدَّقُوا الرُّسُلَ فِي نُذُرِهِمْ ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سِيَاقِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ آنِفًا : فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (6 : 44) وَذَلِكَ شَأْنُ الْكَافِرِينَ وَالْجَاهِلِينَ ، إِذَا مَسَّهُمُ الشَّرُّ يَئِسُوا وَابْتَأَسُوا ، وَإِذَا مَسَّهُمُ الْخَيْرُ أَشَرُّوا وَبَطِرُوا ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْخَيْرُ قُوَّةً وَسُلْطَةً بَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَأَهْلَكُوا الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .

أَصَابَ أَهْلَ بَيْتٍ فِي إِحْدَى الْمُدُنِ السُّورِيَّةِ نَفْحَةٌ مِنْ جَاهِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ أَبِي الْهُدَى الصَّيَّادِيِّ أَحَدِ الْمُقَرَّبِينَ مِنَ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ فِي عَصْرِهِ ، فَنَهَبُوا بِجَاهِهِ الْأَمْوَالَ ، وَانْتَهَكُوا الْأَعْرَاضَ ، وَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ، فَكُنَّا نَتَحَدَّثُ مَرَّةً فِي أَمْرِهِمْ فَقُلْنَا : أَلَمْ يَكُنْ خَيْرًا لِهَؤُلَاءِ لَوِ اغْتَنَمُوا هَذِهِ الْفُرْصَةَ بِاصْطِنَاعِ النَّاسِ بِالْمَعْرُوفِ وَعَمَلِ الْبِرِّ النَّافِعِ لِلْوَطَنِ ، فَإِنَّ جَاهَ أَبِي الْهُدَى لَيْسَ لَهُ دَوَامٌ ، وَنَحْوًا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، فَقَالَ السَّيِّدُ الْوَالِدُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : إِنَّ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ لَا يَفْهَمُونَ هَذِهِ الْحِكَمَ وَلَا يَعْقِلُونَهَا ، وَلَقَدْ أَصَابَ وَالِدُهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ رِيَاسَةً

إِدَارِيَّةً صَغِيرَةً كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَبَغَى وَبَطِرَ وَتَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَآذَى النَّاسَ ، فَنَصَحْتُ لَهُ إِذْ كَانَ يُوادُّنِي وَيَحْتَرِمُنِي وَذَكَّرْتُهُ بِتَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ ، فَقَالَ لِي : يَا سَيِّدُ ، إِنَّ لِكُلِّ أَحَدٍ يَوْمًا يَرْقُصُ لَهُ فِيهِ الزَّمَانُ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَمْتِعَ فِيهِ ، وَلَا يُضَيِّعَ الْفُرْصَةَ عَلَى نَفْسِهِ .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذَا الْمَعْنَى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (17 : 83 ، 84) وَقَالَ : وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (42 : 48) الْمُرَادُ بِالْفَرَحِ مَا كَانَ عَنْ بَطَرٍ وَغُرُورٍ ، وَقَالَ : هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ (10 : 22 ، 23) اقْرَأْ تَتِمَّةَ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا .

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَمَا جَاءَ بِهِ رُسُلُهُ حَقًّا فَهُمُ الَّذِينَ تَكُونُ الشَّدَائِدُ وَالْمَصَائِبُ

تَرْبِيَةً لَهُمْ وَتَمْحِيصًا ، كَمَا تَكُونُ لِلْكَافِرِينَ عِقَابًا وَإِبْلَاسًا ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ ، أَظْهَرَهَا بَيَانُهُ إِيَّاهُ بِالتَّفْصِيلِ فِي قِصَّةِ أُحُدٍ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : إِذْ قَضَتْ حِكْمَتُهُ بِأَنْ يُقَصِّرَ الْمُسْلِمُونَ فِي سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ فِي الْحَرْبِ فَيَظْهَرَ عَلَيْهِمُ الْمُشْرِكُونَ ، فَيُنْزِلَ تِلْكَ الْآيَاتِ الْحَكِيمَةَ الْمُبَيِّنَةَ لِلْحَقَائِقِ ، وَسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ فِي الْحُرُوبِ وَالشَّدَائِدِ الَّتِي أَوَّلُهَا : قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا إِلَى قَوْلِهِ : وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (3 : 137 - 141) وَمِنْهَا قَوْلُهُ : وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (3 : 140) وَلَكِنَّ شَأْنَ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْرِفَ هَذِهِ الْمُدَاوَلَاتِ بِأَسْبَابِهَا وَحِكَمِهَا ، وَيَتَحَرَّى الِاتِّعَاظَ ، وَتَرْبِيَةَ نَفْسِهِ بِهَا ، لَا كَمَا يَرَاهَا الْكَافِرُونَ وَالْجَاهِلُونَ بِظَوَاهِرِهَا وَصُوَرِهَا ، وَالْآيَاتُ الَّتِي بَعْدَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْهَا تَتِمَّةٌ وَإِيضَاحٌ لَهَا ، فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهَا فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ التَّفْسِيرِ ، وَفِي مَعْنَاهَا أَحَادِيثُ كَقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ صُهَيْبٍ الرُّومِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - .

(101/280)

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّنَا نَرَى غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ يَعْلَمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَا لَا يَعْلَمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ السُّنَنِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي أَرْشَدَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ ، وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا عِبَرًا وَتَقْوَى لِلْمُضَارِّ ، يَظْهَرُ أَثَرُهَا بِاسْتِعْدَادِهِمْ لِلْمَصَائِبِ قَبْلَ وُقُوعِهَا ، حَتَّى لَا تَأْخُذَهُمْ بَغْتَةً ، وَحَتَّى يَتَلَافَوْا شُرُورَهَا بَعْدَ وُقُوعِهَا بِقَدْرِ الطَّاقَةِ ، وَنَرَى أَكْثَرَ الْمُسْلِمِينَ جَاهِلِينَ وَغَافِلِينَ عَنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ فُتِنَ بَعْضُهُمْ بِهَؤُلَاءِ الْإِفْرِنْجِ وَحَسِبُوا أَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِثْلَهُمْ فِي اسْتِمْتَاعِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِدَفْعِ الشَّدَائِدِ ،

(102/280)

وَالِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْوَقَائِعِ ، إِلَّا إِذَا تَرَكُوا الْإِسْلَامَ وَنَبَذُوا هِدَايَةَ الْقُرْآنِ ! ! كَمَا فُتِنُوا هُمْ بِالْمُسْلِمِينَ بِاحْتِقَارِهِمْ لِدِينِهِمْ تَبَعًا لِاحْتِقَارِهِمْ لَهُمْ ، وَطَعْنًا فِيهِ بِمَا يَظُنُّونَ مِنْ تَأْثِيرِهِ فِي إِذْلَالِهِمْ وَإِضْعَافِهِمْ ، فَمَا قَوْلُكَ فِي ظُلْمِ الْفَرِيقَيْنِ لَهُ ، وَفِي انْتِهَاءِ الْحَرْبِ الْعَامَّةِ الْأَخِيرَةِ بِاسْتِيلَاءِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَقْطَارٍ عَظِيمَةٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ؟ وَكَوْنِ أَشَدِّ أَهْلِ هَذِهِ الْأَقْطَارِ اسْتِسْلَامًا لِلذُّلِّ وَخُضُوعًا لِلْقَهْرِ ، هُمُ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَصَحُّ إِيمَانًا ، وَأَحْسَنُ إِسْلَامًا ؟ حَتَّى كَانَ ذَلِكَ فِتْنَةً لِبَعْضِ زُعَمَاءِ شَعْبٍ سَلِمَ مِنَ الْهَلَاكِ بَعْدَ أَنْ كَادَ يُحَاطُ بِهِ ، فَظَنُّوا أَنَّ التَّقَيُّدَ بِالْإِسْلَامِ سَبَبُ الْهَلَكَةِ وَالْإِلْقَاءِ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَأَنَّ فِي الِانْسِلَالِ مِنْهُ الْمَنْجَاةَ وَارْتِقَاءَ الْمَمْلَكَةِ ؟ !

قُلْنَا : إِنَّا كَشَفْنَا أَمْثَالَ هَذِهِ الشُّبَهَاتِ فِي تَفْسِيرِ كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ ، وَفِي غَيْرِ التَّفْسِيرِ مِنَ الْمَنَارِ ، وَبَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ تَرَكُوا هِدَايَةَ الْقُرْآنِ فِي حُكُومَاتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمُ الْعَامَّةِ ، وَفَوَّضُوا أُمُورَهُمْ إِلَى حُكَّامِهِمُ الَّذِينَ يَنْدُرُ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ إِلْمَامٌ بِتَفْسِيرِهِ أَوْ عِلْمِ السُّنَّةِ ، حَتَّى مَنْ سَلَّمُوا لَهُمْ بِمَنْصِبِ خِلَافَةِ النُّبُوَّةِ ، كَمَا تَرَكُوا هِدَايَةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي أَعْمَالِ الْأَفْرَادِ ، فَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْرِفُ مِنْ دِينِهِ إِلَّا مَا يَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ مِمَّنْ يَعِيشُ مَعَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ ، وَفِيهِ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ وَالسُّنَّةُ وَالْبِدْعَةُ ، وَأَقَلُّهُمْ يَتَلَقَّى عَنْ بَعْضِ الشُّيُوخِ بَعْضَ كُتُبِ الْكَلَامِ الْجَدَلِيَّةِ الَّتِي أَلَّفَتِ الرَّدَّ عَلَى فَلْسَفَةٍ نُسِخَتْ وَبِدَعٍ بَادَ أَهْلُهَا ، وَكُتُبِ الْفِقْهِ التَّقْلِيدِيَّةِ الْخَالِيَةِ مِنْ جُلِّ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي مِثْلِ مَوْضُوعِ الْآيَاتِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا ، وَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ مِنْ آيَاتِ الشَّوَاهِدِ ، حَتَّى بَلَغَ الْجَهْلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أُمِّ الْمَسَائِلِ الْخَاصَّةِ بِحَيَاتِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَنَاطُ دَوْلَتِهِمْ ، وَبَقَاءُ مُلْكِهِمْ أَوْ زَوَالُهُ ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْإِمَامَةِ الْعُظْمَى ، أَنْ يَكْتُبَ الْأَفْرَادُ وَالْجَمَاعَاتُ مِنْ عُلَمَائِهِمْ فِيهَا مَا هُوَ مُخَالِفٌ لِجَمِيعِ أَئِمَّتِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، وَلِإِجْمَاعِ سَلَفِهِمْ عَلَى تَهَافُتٍ ظَاهِرٍ ، وَاخْتِلَافٍ فَاضِحٍ ، عَلَى أَنَّ الْعُلَمَاءَ

الْمُتَقَدِّمِينَ قَدْ قَصَّرُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَهُمُ الَّذِينَ كَانَ الْعِلْمُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِمْ ، وَمَلَكَةً مِنْ مَلَكَاتِهِمْ لَا وَرَقَةَ شَهَادَةٍ يَحْمِلُونَهَا مِمَّنْ سَبَقَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ مِثْلَهُمْ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ لَا يُعَدُّ عَالِمًا فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ ، حَتَّى يُعْتَدَّ بِشَهَادَتِهِ لِغَيْرِهِ ، بَلْهَ مَا عُرِفَ عَنْ بَعْضِهِمْ مِنْ شَهَادَةِ الزُّورِ وَقَوْلِ الْكَذِبِ وَأَكْلِ السُّحْتِ ، وَقَدِ اسْتَسْفَرَ بَعْضُ مُجَاوِرِي الْأَزْهَرِ الْمُقَدَّمِينَ لِامْتِحَانِ شَهَادَةِ الْعَالَمِيَّةِ وَاحِدًا مِنْهُمْ لِعَرْضِ الرِّشْوَةِ عَلَى الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - لِيُسَاعِدَهُمْ فِي الِامْتِحَانِ فَضَرَبَهُ الْأُسْتَاذُ - رَحِمَهُ اللهُ - بِيَدَيْهِ ، وَرَفَسَهُ بِرِجْلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ : يَا عَدُوَّ اللهِ أَتُرِيدُ أَنْ أَغُشَّ الْمُسْلِمِينَ بِكَ وَبِأَمْثَالِكَ مِنَ الْجَاهِلِينَ بَعْدَ هَذِهِ الشَّيْبَةِ وَانْتِظَارِ لِقَاءِ اللهِ ؛ فَأَكُونَ مِمَّنْ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ؟ وَلَوْ كُنْتُ مِمَّنْ يُطَيِّبُهُمُ الْمَالُ وَيَحْفَلُونَ بِجَمْعِهِ وَلَوْ مِنَ الْحَلَالِ ، لَكُنْتُ مِنْ أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ ؟

وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ هُوَ الَّذِي هَدَى الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْوَاعِ الْعِلْمِ ، وَأَعْطَاهُمُ الْحِكْمَةَ وَالْحُكْمَ

كَانَ تَرْكُهُمْ لِهِدَايَتِهِ هُوَ الَّذِي سَلَبَهُ ذَلِكَ حَتَّى انْقَلَبَ الْأَمْرُ ، وَانْعَكَسَ الْوَضْعُ ، وَاتَّبَعُوا سُنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، كَمَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ ، فَالسَّوَادُ الْأَعْظَمُ الْجَاهِلُ

اتَّبَعَ سُنَنَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي شَرِّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي طَوْرِ جَهْلِهِمْ مِنَ الْخُرَافَاتِ ، وَابْتِدَاعِ الِاحْتِفَالَاتِ ، وَتَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَاتِّخَاذِ الْأَرْبَابِ وَالْأَنْدَادِ ، كَإِعْطَاءِ حَقِّ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ لِلْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ، وَطَلَبِ النَّفْعِ ، وَدَفْعِ الضُّرِّ مِنْ دَجَّالِي الْأَحْيَاءِ ، وَقُبُورِ الْأَمْوَاتِ ، فَغَشِيَهُمْ مَا غَشِيَ أُولَئِكَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ ، وَجَعَلَ الدِّينَ عَدُوًّا لِلْعِلْمِ وَالْعَقْلِ ، وَالنَّابِتَةُ الْعَصْرِيَّةُ الْمُتَفَرْنِجَةُ اتَّبَعَتْ سُنَنَ الْمُرْتَدِّينَ الْفَاسِقِينَ مِنْهُمْ فِي شَرِّ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ طَوْرِ فَسَادِ حَضَارَتِهِمْ ، وَقَلَّدُوهُمْ حَتَّى فِيمَا لَا يَنْطَبِقُ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ ، كَذَلِكَ ضَلَّ الْفَرِيقَانِ عَنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ ، وَاشْتَرَكَا فِي إِضَاعَةِ مَا بَقِيَ مِنْ مُلْكِ الْإِسْلَامِ .

لَا عَالِمَ الشَّرْقِ بِدِينِهِ وَلَا . . . مُقْتَبِسَ الْعِلْمِ مِنَ الْغَرْبِ هُدَى

(106/280)

وَأَمَّا الْإِفْرِنْجُ ، فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ وَاسِعٍ بِسُنَنِ اللهِ فِي أَحْوَالِ الْبَشَرِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْكَوْنِ ، قَدْ نَالُوا بِهِ مُلْكًا عَظِيمًا فِي الْأَرْضِ ، فَأَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُ مَصْدَرَ هَذِهِ السُّنَنِ وَحِكَمَ اللهِ تَعَالَى فِيهَا ، وَلَا يَعْتَبِرُونَ حَقَّ الِاعْتِبَارِ بِمَا تَعَقَّبَ الشُّرُورَ وَالْمَعَاصِيَ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، فَهُمْ كَأَقْوَامِ أُولَئِكَ الرُّسُلِ الَّذِينَ لَمْ تُفِدْهُمُ النِّعَمُ شُكْرَ الرَّبِّ الْمُنْعِمِ ، وَلَمْ تُفِدْهُمُ النِّقَمُ تَقْوَى الرَّبِّ

الْمُنْتَقِمِ ، فَقَدِ اسْتَعْمَلُوا نِعَمَهُ بِالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَتَسْخِيرِ قُوَى الْعَالَمِ لِاسْتِعْبَادِ الضُّعَفَاءِ ، وَالسَّرَفِ فِي فُجُورِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَالتَّقَاتُلِ عَلَى السُّلْطَانِ وَالثَّرَاءِ ؛ وَلِذَلِكَ سَلَّطَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَصَدَقَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (6 : 65) كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِهَا (ص 408 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ) .

(107/280)

فَعُلِمَ بِمَا ذُكِرَ وَبِغَيْرِهِ أَنَّ الْعِلْمَ بِسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ وَالْعُمْرَانِ لَا يُغْنِي عَنْ هِدَايَةِ الدِّينِ الَّتِي تُوقِفُ أَهْوَاءَ الْبَشَرِ وَمَطَامِعَهُمْ أَنْ تَجْمَحَ إِلَى مَا لَا غَايَةَ لَهُ مِنَ الشَّرِّ ، وَلَوْلَا أَنَّ عِنْدَ بَعْضِ أُمَمٍ أُورُبِّيَّةَ بَقِيَّةً قَلِيلَةً مِنْهَا تَتَفَاوَتُ فِي أَفْرَادِهِمْ قُوَّةً وَضَعْفًا لَحَشَرَتْهُمُ الْمَطَامِعُ وَالْأَحْقَادُ صَفًّا صَفًّا ، فَدَكُّوا مَعَالِمَ أَرْضِهِمُ الَّتِي بَلَغَتْ مُنْتَهَى الْعُمْرَانِ دَكًّا دَكًّا ، فَجَعَلُوهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ، بَلْ لَجَعَلُوهَا بَعْدَ دَكِّ صُرُوحِهَا وِهَادًا عَمِيقَةً ، وَمَهَاوِيَ سَحِيقَةً ، بِقَذَائِفِ الْمَدَافِعِ الضَّخْمَةِ الَّتِي تَشُقُّ الْأَرْضَ شَقًّا ، وَتَسْحَقُ مَا فِيهَا سَحْقًا ، عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ شَرَعُوا ، فَإِمَّا أَنْ يُجَهِّزُوا وَإِمَّا أَنْ يَنْزَعُوا .

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ : فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (11 : 116 ، 117)

(108/280)

الْقُرُونُ : هِيَ الْأَجْيَالُ وَالشُّعُوبُ ، وَأُولُو بَقِيَّةٍ : أَصْحَابُ بَقِيَّةٍ مِنْ دِينٍ وَتَقْوَى وَعَقْلٍ وَحِكْمَةٍ ، رَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ، قَالَ : أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ - وَأَحْلَامٍ - يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ " وَالْأَحْلَامُ : الْعُقُولُ الرَّاجِحَةُ ، وَالْمُرَادُ مِنَ التَّحْضِيضِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى النَّفْيُ ؛ أَيْ : أَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْقُرُونِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ بِالْإِصْلَاحِ الْعَامِّ أَصْحَابُ بَقِيَّةٍ مِنْ دِينِ مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ حُكَمَاءِ الْعُقَلَاءِ ، الَّذِينَ فَسَّرَ بِهِمُ الْآمِرُونَ بِالْعَدْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ (3 : 21) وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الْأَكْثَرُونَ مَا أُتْرِفُوا فِيهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ ، وَكَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ ؛ أَيْ : أَزَالَ اللَّهُ مُلْكَهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَبَطَرِهِمْ

وَتَرْكِهِمْ لِلْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : فِي أَتْبَاعِ هَذَا الْإِتْرَافِ فِي مُلْكِهِمْ وَتَجَبُّرِهِمْ وَتَرْكِهِمُ الْحَقَّ .

(109/280)

وَمَعْنَى الْآيَةِ الثَّانِيَةِ : أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِ رَبِّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْمُصْلِحُ وَلَا مِنْ سُنَّتِهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ يُهْلِكَ الْعَوَاصِمَ وَالْمَدَائِنَ بِظُلْمٍ مِنْهُ أَوْ بِشِرْكٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ فِي أَحْكَامِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَفِي تَفْسِيرِ الْمَرْفُوعِ إلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ فَقَالَ : " وَأَهْلُهَا يُنْصِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا " رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَالدَّيْلَمِيُّ ، عَنْ جَرِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَوْقُوفًا أَيْضًا .

وَهَؤُلَاءِ الْبَقِيَّةُ لَا تَخْلُو مِنْهُمْ أُمَّةٌ فَهُمْ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْأَقْوَامِ ، وَمَتَى قَلُّوا فِي أُمَّةٍ غَلَبَ عَلَيْهَا الْفَسَادُ ، وَقَرُبَ انْتِقَامُ اللَّهِ مِنْهَا ، وَقَدْ شَهِدَ الْقُرْآنُ بِوُجُودِ أُنَاسٍ مِنْهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَهُمْ يَقِلُّونَ فِي أُورُبَّةَ عَامًا بَعْدَ عَامٍ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَحْلَامِ مِنْهُمُ الْفَيْلَسُوفُ هِرْبِرْت سِبِنْسَر الْإِنْجِلِيزِيُّ الَّذِي نَهَى الْيَابَانِيِّينَ عَنِ الِاسْتِعَانَةِ بِقَوْمِهِ الْإِنْكِلِيزِ عَلَى إصْلَاحِ بِلَادِهِمْ فِيهَا ، وَقَالَ لَهُمْ : إنَّهُمْ إذَا دَخَلُوهَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ حِينَ تَلَاقَيَا

بِمَدِينَةِ بِرِيتِنْ (فِي صَيْفِ سَنَةِ 1321 - 10 أُغُسْطُسَ سَنَةَ 1903) مَا تَرْجَمَتُهُ :

مُحِيَ الْحَقُّ مِنْ عُقُولِ أَهْلِ أُورُبَّةَ ، وَاسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهَا الْأَفْكَارُ الْمَادِّيَّةُ

(110/280)

فَذَهَبَتِ الْفَضِيلَةُ ، وَهَذِهِ الْأَفْكَارُ الْمَادِّيَّةُ ظَهَرَتْ فِي اللَّاتِينَ أَوَّلًا فَأَفْسَدَتِ الْأَخْلَاقَ ، وَأَضْعَفَتِ الْفَضِيلَةَ ، ثُمَّ سَرَتْ عَدْوَاهَا مِنْهُمْ إِلَى الْإِنْكِلِيزِ ، فَهُمُ الْآنَ يَرْجِعُونَ الْقَهْقَرِيَّ بِذَلِكَ ، وَسَتَرَى هَذِهِ الْأُمَمَ يَخْتَبِطُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَتَنْتَهِي إِلَى حَرْبٍ طَامَّةٍ لِيَتَبَيَّنَ أَيُّهَا الْأَقْوَى ، فَيَكُونُ سُلْطَانَ الْعَالَمِ .

قَالَ لَهُ الْإِمَامُ : إِنِّي آمِلُ أَنْ يَحُولَ دُونَ ذَلِكَ هِمَمُ الْحُكَمَاءِ (مِثْلِكُمْ) وَاجْتِهَادِهِمْ فِي تَقْرِيرِ مَبَادِئِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَنَصْرِ الْفَضِيلَةِ .

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : وَأَمَّا أَنَا فَلَيْسَ عِنْدِي مِثْلُ هَذَا الْأَمَلِ ، فَإِنَّ هَذَا التَّيَّارَ الْمَادِّيَّ لَا بُدَّ أَنْ يَبْلُغَ مَدَّهُ غَايَةَ حَدِّهِ .

وَأَقُولُ : إِنَّنِي ذَاكَرْتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى سِيَاسِيًّا أُورُبِّيًّا فِي جِنِيفَ مِنْ بِلَادِ سُوِيسْرَةَ ، فَرَأَيْتُهُ يَعْتَقِدُ اعْتِقَادَ سِبِنْسَرَ ، بَلْ أَخْبَرَنِي أَنَّ كَثِيرًا مِنْ عُقَلَاءِ أُورُبَّةَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ فَسَادَ الْأَخْلَاقِ بِالتَّرَفِ الَّذِي أَهْلَكَ الْأُمَمَ الْكُبْرَى كَالْيُونَانِ وَالرُّومَانِ وَالْفُرْسِ وَالْعَرَبِ قَدْ أَوْشَكَ أَنْ يَقْضِيَ

عَلَى أُورُبَّةَ ، وَسَتَهْلَكُ بِالْحَرْبِ الَّتِي تَلِي هَذِهِ الْحَرْبَ الْأَخِيرَةَ ، وَمَا هِيَ بِبَعِيدَةٍ ، وَنَصَحَ لَنَا بِأَلَّا نُقَلِّدَ أُورُبَّةَ فِي مَدَنِيَّتِهَا الْمَادِّيَّةِ ، وَأَنْ نُحَافِظَ عَلَى آدَابِ دِينِنَا وَفَضَائِلِهِ ، وَأَنْ نَجْمَعَ كَلِمَتَنَا ، وَنَجْعَلَ الزَّعَامَةَ فِينَا لِأَهْلِ الرَّأْيِ وَالْفَضِيلَةِ مِنَّا ، وَنَتَرَبَّصُ الدَّوَائِرَ بِالْأُورُبِّيِّينَ الْمُعْتَدِينَ عَلَيْنَا .

(111/280)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الْإِنْسَانَ حَيَوَانٌ إِنْسِيٌّ وَحْشِيٌّ بِجَسَدِهِ ، وَمَلَكٌ رُوحَانِيٌّ بِعَقْلِهِ وَرُوحِهِ ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَكْمُلُ بِكَمَالِ الْعَقْلِ وَالرُّوحِ ، وَيَعْتَدِلُ بِالتَّوَازُنِ بَيْنَهُمَا ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا بِهِدَايَةِ الْإِسْلَامِ الْجَامِعِ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا نَصَحْنَا لِزُعَمَاءِ التُّرْكِ الْمَفْتُونِينَ بِمَدِينَةِ الْإِفْرِنْجِ الْمَادِّيَّةِ لِجَهْلِهِمْ بِمَا يَفْتِكُ بِهَا مِنْ دُودِ الْفَسَادِ بِأَنْ يُقِيمُوا حُكْمَ الْإِسْلَامِ وَإِصْلَاحَهُ الَّذِي يَكْفُلُ لَهُمُ الْقُوَّةَ الْمَادِّيَّةَ وَالْعُمْرَانَ ، وَيَقِيهِمْ غَوَائِلَ هَذَا الْفَسَادِ كَالْبَلْشَفِيَّةِ الَّتِي ثَلَّتْ عَرْشَ قَيْصَرِيَّةِ الرُّوسِيَّةِ ، فَقُلْنَا فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ الَّذِي صَنَّفْنَاهُ فِي مَسْأَلَةِ الْخِلَافَةِ – أَوِ – الْإِمَامَةِ الْعُظْمَى مَا نَصُّهُ : " أَيُّهَا الشَّعْبُ التُّرْكِيُّ الْحَيُّ ! إِنَّ الْإِسْلَامَ أَعْظَمُ قُوَّةٍ مَعْنَوِيَّةٍ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُحْيِيَ مَدِينَةَ الشَّرْقِ ، وَيُنْقِذَ مَدِينَةَ الْغَرْبِ ، فَإِنَّ الْمَدِينَةَ لَا

(112/280)

تَبْقَى إِلَّا بِالْفَضِيلَةِ ، وَالْفَضِيلَةُ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالدِّينِ ، وَلَا يُوجَدُ دِينٌ يَتَّفِقُ مَعَ الْعِلْمِ وَالْمَدَنِيَّةِ إِلَّا الْإِسْلَامَ ، وَإِنَّمَا عَاشَتِ الْمَدَنِيَّةُ الْغَرْبِيَّةُ هَذِهِ الْقُرُونَ بِمَا كَانَ فِيهَا مِنَ التَّوَازُنِ بَيْنَ بَقَايَا الْفَضَائِلِ الْمَسِيحِيَّةِ مَعَ التَّنَازُعِ بَيْنَ الْعِلْمِ الِاسْتِقْلَالِيِّ وَالتَّعَالِيمِ الْكَنَسِيَّةِ ، فَإِنَّ الْأُمَمَ لَا تَنْسَلُّ مِنْ فَضَائِلِ دِينِهَا ، بِمُجَرَّدِ طُرُوءِ الشَّكِّ فِي عَقَائِدِهِ عَلَى أَذْهَانِ بَعْضِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ مِنْهَا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِالتَّدْرِيجِ فِي عِدَّةِ أَجْيَالٍ ، وَقَدِ انْتَهَى التَّنَازُعُ ، بِفَقْدِ ذَلِكَ التَّوَازُنِ ، وَأَصْبَحَ الدِّينُ وَالْحَضَارَةُ عَلَى خَطَرِ الزَّوَالِ ، وَاشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْبَشَرِ إِلَى إِصْلَاحٍ رُوحِيٍّ مَدَنِيٍّ ثَابِتِ الْأَرْكَانِ ، يَزُولُ بِهِ اسْتِعْبَادُ الْأَقْوِيَاءِ لِلضُّعَفَاءِ ، وَاسْتِذْلَالُ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ ، وَخَطَرُ الْبَلْشَفِيَّةِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ ، وَيُبْطِلُ بِهِ امْتِيَازَ الْأَجْنَاسِ ، لِتَحَقُّقِ الْأُخُوَّةِ الْعَامَّةِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا بِحُكُومَةِ الْإِسْلَامِ ، الَّتِي بَيَّنَّاهَا بِالْإِجْمَالِ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، وَنَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لِلْمُسَاعَدَةِ عَلَى تَفْصِيلِهَا ، إِذَا وَفَّقَ اللهُ لِلْعَمَلِ بِهَا " .

(113/280)

" أَيُّهَا الشَّعْبُ التُّرْكِيُّ الْبَاسِلُ ، إِنَّكَ الْيَوْمَ أَقْدَرُ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى أَنْ تُحَقِّقَ لِلْبَشَرِ هَذِهِ الْأُمْنِيَةَ ، فَاغْتَنِمْ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ؛ لِتَأْسِيسِ مَجْدٍ إِنْسَانِيٍّ خَالِدٍ ، لَا يُذْكَرُ مَعَهُ مَجْدُكَ الْحَرْبِيُّ التَّالِدُ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكَ الْمُتَفَرْنِجُونَ عَلَى تَقْلِيدِ الْإِفْرِنْجِ فِي سِيرَتِهِمْ ، وَأَنْتَ أَهْلٌ لِأَنْ تَكُونَ إِمَامًا لَهُمْ بِمَدَنِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ مَدَنِيَّتِهِمْ ، وَمَا ثَمَّ إِلَّا الْمَدَنِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الثَّابِتَةُ قَوَاعِدُهَا الْمَعْقُولَةُ عَلَى أَسَاسِ الْعَقِيدَةِ الدِّينِيَّةِ ، فَلَا تُزَلْزِلُهَا النَّظَرِيَّاتُ الَّتِي تَعْبَثُ بِالْعُمْرَانِ ، وَتُفْسِدُ نُظُمَ الْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ عَلَى النَّاسِ " .

نَصَحْنَا لِلشَّعْبِ التُّرْكِيِّ بِهَذَا ، وَلَكِنَّ زُعَمَاءَهُ الْكَمَالِيِّينَ الْيَوْمَ كَزُعَمَائِهِ الِاتِّحَادِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَدْ فُتِنُوا بِهَذِهِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ ، وَجَهِلُوا كُنْهَ الْإِسْلَامِ وَالْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَقَدْ أَعْذَرْنَا إِلَيْهِمْ بَيَانَهَا ، وَأَنْذَرْنَاهُمْ عَذَابَ اللهِ بِإِهْمَالِهَا ، فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ، وَطَفِقُوا يَطْمِسُونَ مَا بَقِيَ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي حُكُومَتِهِمْ وَأُمَّتِهِمْ ، وَسَنَرَى مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَقَدْ ظَهَرَ مَا كَانَ مَسْتُورًا مِنْ فَسَادِ سَرِيرَتِهِمْ ، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى لَنَا وَلَهُمْ صَلَاحَ الْحَالِ ، وَحُسْنَ الْمَآلِ .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

(114/280)

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَخْذَهُ لِأَهْلِ الْقُرَى الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ بِمَا كَانَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ ؛ بَيَّنَ لِأَهْلِ أُمِّ الْقُرَى - مَكَّةَ - وَلِسَائِرِ النَّاسِ مَا كَانَ يَكُونُ مِنْ إغْدَاقِ نِعَمِهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِالرُّسُلِ ، وَاعْتَبَرُوا بِالسُّنَنِ ، فَقَالَ :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا أَيْ : آمَنُوا بِمَا دَعَاهُمْ إلَيْهِ رُسُلُهُمْ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ بِمَا شَرَعَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَاتَّقَوْا مَا نَهَوْهُمْ عَنْهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِالظُّلْمِ وَالْمَعَاصِي كَارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ ، وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ : لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قَرَأَ الْجُمْهُورُ : فَتَحْنَا بِالتَّخْفِيفِ مِنَ الْفَتْحِ ، وَقَرَأَهَا ابْنُ عَامِرٍ بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّفْتِيحِ الدَّالِّ عَلَى الْكَثْرَةِ ، وَالْمَعْنَى : لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَنْوَاعًا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَمْ يَعْهَدُوهَا مُجْتَمِعَةً وَلَا مُتَفَرِّقَةً ، فَإِذَا أُرِيدَ بِبَرَكَاتِ السَّمَاءِ مَعَارِفُ الْوَحْيِ الْعَقْلِيَّةُ ، وَأَنْوَارُ الْإِيمَانِ الرُّوحَانِيَّةُ ، وَنَفَحَاتُ الْإِلْهَامَاتِ الرَّبَّانِيَّةُ ، فَالْمَعْنَى : أَنَّ فَائِدَةَ الْإِيمَانِ وَاتِّبَاعِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تَكُونُ تَكْمِيلَ الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ رُوحًا وَجَسَدًا ، وَغَايَتُهُ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ - الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ -

(115/280)

وَإِذَا أُرِيدَ بِبَرَكَاتِ السَّمَاءِ الْمَطَرُ ، وَبِبَرَكَاتِ الْأَرْضِ النَّبَاتُ ، كَمَا قِيلَ ، فَالْمَعْنَى : أَنَّهَا أَبْوَابُ نِعَمٍ لَا تَكُونُ بَرَكَاتٍ لَهُمْ غَيْرَ الَّتِي عَهِدُوهَا فِي صِفَاتِهَا وَنَمَائِهَا وَثَبَاتِهَا وَحَالَتِهِمْ فِيهَا وَأَثَرِهَا فِيهِمْ ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ بَرَكَاتٍ ، فَإِنَّ مَادَّةَ الْبَرَكَةِ تَدُلُّ عَلَى السَّعَةِ وَالزَّكَاءِ مِنْ بِرْكَةِ الْمَاءِ ، وَعَلَى الثَّابِتِ وَالِاسْتِقْرَارِ مِنْ بَرَكِ الْبَعِيرِ ، أَلَمْ تَقْرَأْ أَوْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ هُودٍ : قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11 : 84) فَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَرَكَاتِ ، وَجَعَلَ نِعْمَةَ الدُّنْيَا مَتَاعًا مُؤَقَّتًا لِلْكَافِرِينَ يَتْلُوهُ الْعَذَابُ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَعْطِفْهُمْ عَلَى مَنْ قَبْلَهُمْ ، رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ أَنَّهُ دَخَلَ فِي تِلْكَ الْبَرَكَاتِ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وَفِي ذَلِكَ الْمَتَاعِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ كُلُّ كَافِرٍ وَكَافِرَةٍ ، وَعَنِ الضَّحَّاكِ قَالَ : وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ يَعْنِي مِمَّنْ لَمْ يُولَدْ ، أَوْجَبَ لَهُمُ الْبَرَكَاتِ لِمَا سَبَقَ لَهُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنَ السَّعَادَةِ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ يَعْنِي مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ لِمَا سَبَقَ لَهُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الشَّقَاوَةِ .

(116/280)

فَالْقَاعِدَةُ الْمُقَرَّرَةُ فِي الْقُرْآنِ : أَنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ وَدِينَ الْحَقِّ سَبَبٌ لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَنِعْمَتِهَا بِالْحَقِّ وَالِاسْتِحْقَاقِ ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ قَدْ يُشَارِكُونَهُمْ فِي الْمَادِّيِّ مِنْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ مِنْ

سُورَةِ الْأَنْعَامِ : فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ (6 : 44) فَذَلِكَ الْفَتْحُ ابْتِلَاءٌ وَاخْتِبَارٌ لِحَالِهِمْ ، كَانَ أَثَرُهُ فِيهِمْ فَرَحَ الْبَطَرِ وَالْأَشَرِ بَدَلًا مِنَ الشُّكْرِ ، وَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْعِقَابُ الْإِلَهِيُّ فَكَانَ نِقْمَةً لَا نِعْمَةً ، وَفِتْنَةً لَا بَرَكَةً .

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ : فَإِنَّ مَا يُفْتَحُ عَلَيْهِمْ يَكُونُ بَرَكَةً وَنِعْمَةً ، وَيَكُونُ أَثَرُهُ فِيهِمُ الشُّكْرَ لِلَّهِ عَلَيْهِ ، وَالرِّضَا مِنْهُ ، وَالِاغْتِبَاطَ بِفَضْلِهِ ، وَاسْتِعْمَالَهُ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ دُونَ الشَّرِّ ، وَفِي الْإِصْلَاحِ دُونَ الْإِفْسَادِ ، وَيَكُونُ جَزَاؤُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى زِيَادَةَ النِّعَمِ وَنُمُوَّهَا فِي الدُّنْيَا ، وَحُسْنَ الثَّوَابِ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ ، فَالْفَارِقُ بَيْنَ الْفَتْحَيْنِ يُؤْخَذُ مِنْ جَعْلِ هَذَا مِنَ الْبَرَكَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ ، وَمِنْ تَنْكِيرِهِ الدَّالِّ عَلَى أَنْوَاعٍ لَمْ يَعْهَدْهَا الْكُفَّارُ .

(117/280)

وَمِمَّا وَرَدَ فِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ غَايَةَ هِدَايَةِ الْإِيمَانِ الْجَمْعُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى خِطَابًا لِلْبَشَرِ مُوَجَّهًا لِأَبَوَيْهِمْ مِنْ قِصَّةِ آدَمَ فِي سُورَةِ طَهَ : فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (20 : 123 ، 124) وَقَوْلُهُ فِي خِطَابِ بَنِي آدَمَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ بَعْدَ ذِكْرِ قِصَّتِهِ الْمُبَيِّنَةِ لِخَوَاصِّ هَذَا النَّوْعِ ، وَحِكَمِ اللهِ فِي خَلْقِهِ ، وَالْأُصُولِ الْعَامَّةِ

لِدِينِ الرُّسُلِ الَّذِينَ يَبْعَثُهُمْ لِهِدَايَتِهِ : يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (31 ، 32)

فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهُمَا فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ التَّفْسِيرِ .

(118/280)

فَهَذَا بَيَانٌ لِكَوْنِ أَصْلِ الدِّينِ يَقْتَضِي سَعَادَةَ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ مِنْ أَوَّلِ النَّشْأَةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي عَهْدِ آدَمَ ، وَتَقَدَّمَ آنِفًا مَا أَنْزَلَهُ تَعَالَى عَلَى نُوحٍ ، وَهُوَ الْأَبُ الثَّانِي لِلْبَشَرِ ، وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ هُودٍ فِي سُورَتِهِ : وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ (11 : 52) وَهَذِهِ الْآيَاتُ كُلُّهَا حُجَجٌ عَلَى أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُنْتَمِينَ إِلَيْهِ ، وَمِنْ غَيْرِهِمُ الزَّاعِمِينَ أَنَّهُ – وَكَذَا كُلُّ دِينٍ إِلَهِيٍّ – سَبَبٌ لِلضَّعْفِ وَالْفَقْرِ ! وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنْ أَعْمَالِ الشِّرْكِ الْخُرَافِيَّةِ ، وَالْمَعَاصِي الْمُفْسِدَةِ لِنِظَامِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ ، فَكَانَ أَخْذُهُمْ بِالْعِقَابِ أَثَرًا لَازِمًا لِكَسْبِهِمْ بِحَسَبِ سُنَنِ الْكَوْنِ ، وَعِبْرَةً لِأَمْثَالِهِمْ إِنْ كَانُوا يَعْقِلُونَ .

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا

(119/280)

مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ إِنْذَارٌ لِأُمَّةِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَرَبِهَا وَعَجَمِهَا مِنْ عَصْرِ النُّورِ الْأَعْظَمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لِتَعْتَبِرَ بِمَا نَزَلَ بِغَيْرِهَا كَمَا تَرْشُدُ إِلَيْهِ الرَّابِعَةُ مِنْهَا ، وَأَهْلُ الْقُرَى فِيهَا يُرَادُ بِهِ الْجِنْسُ ؛ أَيِ : الْأُمَمُ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ مِنْ ذِكْرِ حَالِهِمْ فِيمَا تَقَدَّمَ وَضْعَ الْمُظْهَرِ فِيهِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ مَضْمُونَهَا لَيْسَ خَاصًّا بِأَقْوَامٍ بِأَعْيَانِهِمْ فَيَذْكُرُ ضَمِيرَهُمْ ، بَلْ هُوَ قَوَاعِدُ عَامَّةٌ فِي أَحْوَالِ الْأُمَمِ ، فَيُرَادُ بِالِاسْمِ الْمُظْهَرِ الْعُنْوَانُ الْعَامُّ لَهَا ، لَا آحَادَ مَا ذُكِرَ مِنْهَا ، وَلَوْ ذَكَرَهَا بِضَمِيرِهَا أَوِ اسْمِ الْإِشَارَةِ الَّذِي يُعَيِّنُهَا ؛ لَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعِقَابَ كَانَ خَاصًّا بِهَا لَا دَاخِلًا فِي أَفْرَادِ سُنَّةٍ عَامَّةٍ ، وَهَذَا عَيْنُ مَا كَانَ يَصْرِفُ الْأَقْوَامَ الْجَاهِلَةَ الْكَافِرَةَ عَنِ الِاعْتِبَارِ بِعِقَابِ مَنْ كَانَ قَبْلَهَا ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ أَهْلَ أُمِّ الْقُرَى عَاصِمَةِ قَوْمِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ وَعَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ ، وَسَائِرِ قُرَى الْأُمَمِ الَّتِي بَعَثَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى أَهْلِهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّ بَعْثَتَهُ عَامَّةٌ

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّذْكِيرِ وَالتَّعَجُّبِ مِنْ أَمْرٍ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقَعَ مِنَ الْعَاقِلِ ، وَالْفَاءُ عَطْفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ ، أَغَرَّ أَهْلَ تِلْكَ الْقُرَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ حِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَأَمِنُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ؟ إِلَخْ .

وَعَلَى الثَّانِي أَجَهِلَ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْقُرَى الَّتِي بَلَغَتْهَا الدَّعْوَةُ – وَمِثْلُهَا مَنْ سَتَبْلُغُهَا – مَا نَزَلَ بِمَنْ قَبْلَهُمْ ، وَغَرَّهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ فَأَمِنُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُنَا وَقْتَ بَيَاتِهِمْ – أَوْ إِتْيَانَ بَيَاتٍ – وَهُوَ الْهُجُومُ عَلَى الْعَدُوِّ لَيْلًا وَهُوَ بَائِتٌ ، فَقَوْلُهُ : وَهُمْ نَائِمُونَ حَالٌ مُبَيِّنَةٌ لِغَايَةِ الْغَفْلَةِ وَكَوْنِ الْأَخْذِ عَلَى غِرَّةٍ ، كَمَا قَالَ فِيمَنْ عُذِّبُوا : فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَلْيُرَاجَعْ تَفْسِيرُ الْآيَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ : وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ ، وَابْنُ عَامِرٍ ، أَوْ بِسُكُونِ الْوَاوِ ، وَالْمَعْنَى بِحَسَبِ أَهْلِ اللُّغَةِ : أَأَمِنُوا ذَلِكَ الْإِتْيَانَ أَوْ هَذَا ؟ وَهُوَ لَا يَمْنَعُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَمْنَيْنِ ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِ

الْوَاوِ عَلَى أَنَّ الْهَمْزَةَ لِلْإِنْكَارِ ، وَالْوَاوَ لِلْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفٍ كَالَّذِي قَبْلَهُ ، وَقَدْ أُعِيدَ الِاسْتِفْهَامُ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ لِنُكْتَةِ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ الَّتِي بَيَّنَّاهَا آنِفًا ، وَالضُّحَى انْبِسَاطُ الشَّمْسِ ، وَامْتِدَادُ النَّهَارِ ، وَيُسَمَّى بِهِ الْوَقْتُ ، أَوْ ضَوْءُ الشَّمْسِ فِي شَبَابِ النَّهَارِ ، وَاخْتَارَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، وَاللَّعِبُ - بِفَتْحِ اللَّامِ وَكَسْرِ الْعَيْنِ - مَا لَا يَقْصِدُ فَاعِلُهُ بِسَبَبِ مَنْفَعَةٍ ، وَلَا دَفْعِ مَضَرَّةٍ بَلْ يَفْعَلُهُ لِأُنْسٍ لَهُ بِهِ أَوْ لَذَّةٍ لَهُ فِيهِ كَلَعِبِ الْأَطْفَالِ ، وَمَا يَقْصِدُ بِهِ الْعُقَلَاءُ رِيَاضَةَ الْجِسْمِ قَدْ يَخْرُجُ عَنْ حَقِيقَةِ اللَّعِبِ ، وَيَكُونُ إِطْلَاقُهُ عَلَيْهِ مَجَازِيًّا بِحَسَبِ صُورَتِهِ ، وَكَمْ مِنْ عَمَلٍ صُورَتُهُ لَعِبٌ أَوْ هَزْلٌ ، وَحَقِيقَتُهُ حِكْمَةٌ وَجِدٌّ ، وَكَمْ مِنْ عَمَلٍ هُوَ عَكْسُ ذَلِكَ كَالْعَمَلِ الْفَاسِدِ الَّذِي يَقْصِدُ بِهِ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ نَافِعٌ وَهُوَ ضَارٌّ ، وَمَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ حِكْمَةٌ وَهُوَ عَبَثٌ وَخَرْقٌ ، وَقَدْ يَكُونُ إِطْلَاقُ اللَّعِبِ عَلَى أَعْمَالِ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلِينَ الْغَافِلِينَ مِنْ هَذَا الْبَابِ ؛ أَيْ : أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُنَا فِي وَقْتِ الضُّحَى ، وَهُمْ مُنْهَمِكُونَ فِي أَعْمَالِهِمُ الَّتِي تُعَدُّ مِنْ قَبِيلِ لَعِبِ الْأَطْفَالِ لِعَدَمِ فَائِدَةٍ تَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مُطْلَقًا ، أَوْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا كَانَ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَيْهَا مِنْ سُلُوكِ سَبِيلِ السَّلَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ ؟ !

(122/280)

فَأَمَّا أَهْلُ الْقُرَى مِنَ الْغَابِرِينَ فَالظَّاهِرُ مَا حَكَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا آمِنِينَ إِتْيَانَ هَذَا الْعَذَابِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَكَانَ إِتْيَانُهُ إِيَّاهُمْ فَجْأَةً فِي وَقْتٍ لَا يَتَّسِعُ لِتَلَاقِيهِ وَتَدَارُكِهِ ، فَالِاسْتِفْهَامُ لَا يَظْهَرُ فِي شَأْنِهِمْ إِلَّا بِتَأَوُّلٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مِثْلِهِ فِي أَهْلِ الْقُرَى الْحَاضِرِينَ ، وَمَنْ سَيَكُونُ فِي حُكْمِهِمْ مِنَ الْآتِينَ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَأْمَنُوا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، فَإِنَّ وُجُودَ النِّعَمِ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى دَوَامِهَا ، فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ زَالَتْ بِكُفْرِ أَهْلِهَا ، وَهَذَا مَا كَانَ يَجْهَلُهُ الَّذِينَ قَالُوا : قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ، فَرَأَوْا صُورَةَ الْوَاقِعِ وَجَهِلُوا أَسْبَابَهُ ، وَأَمَّا الْحَاضِرُونَ فَلَا يُعْذَرُونَ بِالْجَهْلِ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ لَهُمُ الْقُرْآنُ كُنْهَ الْأَمْرِ ، وَسُنَنَ اللهِ فِي الْخَلْقِ ، وَلَكِنَّ أَدْعِيَاءَ الْقُرْآنِ ، قَدْ صَارُوا أَجْهَلَ الْبَشَرِ بِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ ، وَيَدَّعِي بَعْضُهُمْ أَنَّ سَبَبَ جَهْلِهِمُ الِانْتِمَاءُ إِلَى دِينِ الْقُرْآنِ ؟ ! !

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ قَالَ الرَّاغِبُ : الْمَكْرُ : صَرْفُ الْغَيْرِ عَمَّا تَقْصِدُهُ بِحِيلَةٍ ، وَقَسَّمَهُ إِلَى مَحْمُودٍ وَمَذْمُومٍ ، وَأَصَحُّ مِنْهُ وَأَدَقُّ قَوْلُنَا فِي تَفْسِيرِ : وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (3 : 54) وَالْمَكْرُ فِي

الْأَصْلِ : التَّدْبِيرُ الْخَفِيُّ الْمُفْضِي بِالْمَمْكُورِ بِهِ إِلَى مَا لَا يُحْتَسَبُ ، وَقَفْنَا عَلَى هَذَا التَّعْرِيفِ بِبَيَانِ السَّيِّءِ وَالْحَسَنِ مِنَ الْمَكْرِ ، وَكَوْنِ الْأَكْثَرِ فِيهِ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا كَالشَّأْنِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَتَحَرَّى إِخْفَاؤُهَا ، وَفِيهِ أَنَّ مَكْرَ اللهِ تَعَالَى ، وَهُوَ تَدْبِيرُهُ الَّذِي يَخْفَى عَلَى النَّاسِ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِقَامَةِ سُنَنِهِ وَإِتْمَامِ حُكْمِهِ ، وَكُلُّهَا خَيْرٌ فِي أَنْفُسِهَا ، وَإِنْ قَصَّرَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي الِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا بِجَهْلِهِمْ وَسُوءِ اخْتِيَارِهِمْ اهـ ، وَالْمُرَادُ بِالْجَهْلِ مَا يَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَنِهِ اغْتِرَارًا بِالظَّوَاهِرِ ، كَأَنْ يَغْتَرَّ الْقَوِيُّ بِقُوَّتِهِ ، وَالْغَنِيُّ بِثَرْوَتِهِ ، وَالْعَالِمُ بِعِلْمِهِ ، وَالْعَابِدُ بِعِبَادَتِهِ ، فَيُخْطِئُ تَقْدِيرُهُ مَا قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى فَيَظُنُّ أَنَّ مَا عِنْدَهُ يَبْقَى ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْآثَارِ فِي ظَنِّهِ لَا يَتَخَلَّفُ ، كَمَا أَخْطَأَ الْأَلْمَانُ فِي تَقْدِيرِ قُوَّتِهِمْ وَقُوَّةِ مَنْ يُقَاتِلُهُمْ مِنَ الدُّوَلِ ، فَلَمْ يَحْسَبُوا أَنْ تَكُونَ دَوْلَةُ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ مِنْهُمْ ، وَالْمَعْنَى : أَكَانَ سَبَبَ أَمْنِهِمْ إِتْيَانَ بَأْسِنَا بَيَاتًا أَوْ ضُحًى وَهُمْ غَافِلُونَ أَنَّهُمْ أَمِنُوا مَكْرَ اللهِ بِهِمْ بِإِتْيَانِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَلَمْ يُقَدِّرُوا ؟ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ فَقَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ؟ وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِي خُسْرَانِ النَّفْسِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

(124/280)

وَإِذَا كَانَ أَمْنُ الْعَالِمِ الْمُدَبِّرِ وَالصَّالِحِ الْمُتَعَبِّدِ مِنْ مَكْرِ اللهِ تَعَالَى جَهْلًا يُورِثُ الْخُسْرَ ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ ، وَهُوَ مُسْتَرْسِلٌ فِي مَعَاصِيهِ اتِّكَالًا عَلَى عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ؟ قَالَ تَعَالَى : وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (41 : 23) فَأَعْلَمُ النَّاسِ بِاللهِ وَأَعْبَدُهُمْ لَهُ وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ هُمْ أَبْعَدُ خَلْقِهِ عَنِ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِهِ ؛ إِذْ لَا يَصِحُّ أَنْ يَأْمَنَ مِنْهُ إِلَّا مَنْ أَحَاطَ بِعِلْمِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَلَيْسَ هَذَا لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا لِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (20 : 110) أَلَمْ تَرَ إِلَى الرُّسُلِ الْكِرَامِ كَيْفَ كَانُوا يَسْتَثْنُونَ مَشِيئَتَهُ حَتَّى فِيمَا عَصَمَهُمْ مِنْهُ ؟ كَقَوْلِ شُعَيْبٍ الَّذِي حَكَاهُ اللهُ عَنْهُ قُبَيْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ : قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا وَقَدْ كَانَ أَصْلَحُ الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يُكْثِرُ مِنَ الدُّعَاءِ بِقَوْلِهِ : "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ" كَمَا ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ ، وَقَدْ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَدْعُونَهُ بِقَوْلِهِ : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

(125/280)

الْوَهَّابُ

(3 : 8) وَقَالَ : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (35 : 28) وَيُقَابِلُ الْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ ضِدَّهُ ، وَهُوَ الْيَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا مَفْسَدَةٌ تَتْبَعُهَا مَفَاسِدَ كَثِيرَةٌ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير المنار جـ9 صـ 14.26 ﴾

(126/280)

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾

تكرير لقوله : ﴿ أفأمنَ أهل القرى ﴾ قصد منه تقرير التعجيب من غفلتهم ، وتقرير معنى التعريض بالسامعين من المشركين ، مع زيادة التذكير بأن ما حل بأولئك من عذاب الله يماثل هيئة مكر الماكر بالممكور فلا يحسبوا الإمهال إعراضاً عنهم ، وليحذروا أن يكون ذلك كفعل الماكر بعدوّه .

والمكر حقيقته : فعل يقصد به ضر أحد في هيئة تخفَى أو هيئة يحسبها منفعة .

وهو هنا استعارة للإمهال والإنعام في حال الإمهال ، فهي تمثيلية ، شبه حال الإنعام مع الإمهال وتعقيبه بالانتقام بحال المكر ، وتقدم في سورة آل عمران (54) عند قوله : ﴿

ومكَروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ وقوله : ﴿ فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾ مُترتب ومتفرع عن التعجيب في قوله : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ لأن المقصود منه تفريع أن أهل القرى المذكورين خاسرون لثبوت أنهم أمنوا مكر الله ، والتقدير : أفأمنوا مكر الله فهم قوم خاسرون .

وإنما صيغ هذا التفريع بصيغة تعُم المخبَر عنهم وغيرهم ليجري مجرى المثل ويصير تذييلاً للكلام ، ويدخل فيه المعرّض بهم في هذه الموعظة وهم المشركون الحاضرون ، والتقدير : فهم قوم خاسرون ، إذ لا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون .

والخسران هنا هو إضاعة ما فيه نفعهم بسوء اعتقادهم ، شُبه ذلك بالخسران وهو إضاعة التاجر رأس ماله بسوء تصرفه ، لأنهم باطمئنانهم إلى السلامة الحاضرة ، وإعراضهم عن التفكر فيما يعقبها من الأخذ الشبيه بفعل الماكر قد خسروا الانتفاع بعقولهم وخسروا أنفسهم .

وتقدم قوله تعالى : ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ في سورة الأنعام (12) ، وقوله : ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ في أول السورة (9) .

وتقدم أن إطلاق المَكْر على أخذ الله مستحقي العقاب بعد إمهالهم : أن ذلك تمثيل عند قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ في سورة آل عمران (54) .

واعلم أن المراد بأمن مكر الله في هذه الآية هو الأمن الذي من نوع أمن أهل القرى المكذبين ، الذي ابتُدِىء الحديث عنه من قوله : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبيء إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضّراء لعلهم يضرّعون ﴾ [الأعراف : 94] ثم قوله : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً ﴾ الآياتِ ، وهو الأمن الناشىء عن تكذيب خبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن الغرور بأن دين الشرك هو الحق فهو أمن ناشىء عن كفر ، والمأمون منه هو وعيد الرسل إياهم وما أطلق عليه أنه مكر الله .

ومن الأمن من عذاب الله أصنْاف أخرى تُغاير هذا الأمن ، وتتقارب منه ، وتتباعد ، بحسب اختلاف ضمائر الناس ومبالغ نياتهم ، فأما ما كان منها مستنداً لدليل شرعي فلا تَبعةَ على صاحبه ، وذلك مثل أمن المسلمين من أمثال عذاب الأمم الماضية المستند إلى قوله تعالى : ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [الأنفال : 33] ، وإلى قول النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أعوذ بسبحات وجهك الكريم ﴿ أَوْ مِن تحت أرجلكم ﴾ فقال : " أعوذ بسبحات وجهك الكريم ﴿ أو يلبسكم شيعا ﴾ [الأنعام : 65] الآية فقال : هذه أهون " كما تقدم في تفسيرها في سورة الأنعام ومثل ، أمن

أهل بدر من عذاب الآخرة لقول النبي صلى الله عليه وسلم " ما يدريك لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال : "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " في قصة حاطب بن أبي بلتعة .

(128/280)

ومثل إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن سلام أنه لا يزال آخذاً بالعروة الوثقى ، ومثل الأنبياء فإنهم آمنون من مكر الله بإخبار الله إياهم بذلك ، وأولياءُ الله كذلك ، قال تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [يونس : 62 ، 63] فمن العجيب ما ذكره الخفاجي أن الحنفية قالوا : الأمنُ من مكر الله كفر لقوله تعالى : ﴿ فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾ .

والأمنُ مجمل ومكر الله تمثيل والخسران مشكك الحقيقة .

وقال الخفاجي : الأمنُ من مكر الله كبيرة عند الشافعية ، وهو الاسترسال على المعاصي اتكالاً على عفو الله وذلك مما نسبه الزركشي في "شرح جمع الجوامع" إلى ولي الدين ، وروى البزار وابن أبي حاتم عن ابن عباس : " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : ما الكبائر فقال : الشرك بالله واليأس من روح الله والأمنُ من مكر الله " ولم أقف على مبلغ هذا الحديث من الصحة ، وقد ذكرنا غير مرة أن ما يأتي في القرآن من الوعيد لأهل الكفر على

أعمال لهم مرادٌ منه أيضاً تحذير المسلمين مما يشبه تلك الأعمال بقدر اقتراب شبهه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(129/280)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99) ﴾

و" الأمن " هو الاطمئنان إلى قضية لا تثير مخاوف ولا متاعب ، ويقال : فلان " آمن " ؛ أي لا يوجد ما يكدر حياته . والحق يقول : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله ﴾ ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ، ونقول : وهل يمكر ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . . وهنا نقول : انتبه إلى أن القرآن قد قال : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ . . . ﴾ [فاطر : 43]

إذن ففيه مكر خير ، ولذلك قال الحق : ﴿ . . . والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران : 54]

والمكر أصله الالتفاف . وحين نذهب إلى حديقة أو غابة نجد الشجر ملتف الأغصان وكأنه مجدول بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة في أعلى إلى غصن معين ؛ لأن الأغصان

ملفوفة بعضها على بعض ، وكذلك نرى هذا الالتفاف في النباتات المتسلقة ونجد أغصانها مجدولة كالحبل .

إذن فالمكر مؤداه أن تلف المسائل ، فلا تجعلها واضحة . ولكي تتمكن من خصمك فأنت تبيت له أمراً لا يفطن إليه ، وإذا كان الإنسان من البشر حين يبيت لأخيه شرًّا ، ويفتنه فتناً يُعمي عليه وجه الحق وليس عند الإنسان العلم الواسع القوي الذي يمكر به على كل من أمامه من خصوم لأنهم سيمكرون له أيضاً .

وإذا كان هناك مكر وتبييت لا يكتشفه أحد فهو مكر وتبييت الله لأهل الشر ، وهذا هو مكر الخير ؛ لأن الله يحمي الوجود من الشر وأهله بإهلاكهم . ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف : 99]

وهناك من يسأل : هل أمن الأنبياء مكر الله ؟ نقول نعم . لقد آمنوا مكر الله باصطفائهم للرسالة ، وهناك من يسأل : كيف إذن لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؟ !

(130/280)

نقول : لقد جاء في منهج الرسل جميعاً أن الذي يأمن مكر الله هو الخاسر ؛ لأن الله هو القادر ، وهو الذي أنزل المنهج ليختار الإنسان به كسب الدنيا والآخرة إن عمل به ، وإن لم يعمل به

يخسر طمأنينة الإيمان في الدنيا وإن كسب فيها مالا أو جاها أو علماً ، ويخسر الآخرة أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(131/280)

فائدة

قال التسترى :

وقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ ﴾ [99] قال : المكر المضاف إلى تدبيره في سابق علمه من قدرته فلا ينبغي لأحد أن يأمن مكره ، لأن أمن المكر لا يدفع القدر ، ولا يخرج أحداً عن قدرة الله تعالى ، ولا يخلو أحد من خوف وإن بلغ كل خوف ، وإذا عرف منزلته عند الله تعالى ازداد علمه وتكاملت رغبته ، فأما من لم يعرف منزلته فذلك عار عليه . قال عمر بن واصل : فقلت له : كيف يزداد مع علمه منزلة ؟ فقال : هما رجلان ، فرجل ازداد وطلب الزيادة وحرص لذلك ، ورجل أضعف منه ، كان ذلك منه شكراً لئلا يسلب ما أعطاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 66 . 67 ﴾

(132/280)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن هشام بن عروة قال : كتب رجل إلى صاحب له : إذا أصبت من الله شيئاً يسرك فلا تأمن أن يكون فيه من الله مكر ﴿ فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن الله تبارك وتعالى قال للملائكة " ما هذا الخوف الذي قد بلغكم وقد أنزلتكم المنزلة التي لم أنزلها غيركم ؟ قالوا : ربنا لا نأمن مكرك ، لا يأمن مكرك إلا القوم الخاسرون " .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن علي بن أبي حليمة قال : كان ذر بن عبد الله الخولاني إذا صلى العشاء يختلف في المسجد ، فإذا أراد أن ينصرف رفع صوته بهذه الآية ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن إسمعيل بن رافع قال : من الأمن لمكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(133/280)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99) ﴾

يقال مَنْ عرف علوّ قدره – سبحانه – خشي خفيّ مكره ، ومَنْ أمِنَ خفيّ مكره نَسِيَ عظيم قَدْرِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 553 ﴾

(134/280)

فصل

قال صاحب الأمثل :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . . . الآيات ﴾

التّفسير

التّقدم والعمران في ظل الإيمان والتقوى :

في الآيات الماضية وقع البحث فيما جرى لأقوام مثل قوم هود وصالح وشعيب ونوح ولوط على نحو الإجمال ، وإن كانت تلك الآيات كافية لبيان

[125]

النتائج المشحونة بالعبر في هذه القصص ، ولكن الآيات الحاضرة تبيّن النتائج بصورة أكثر وضوحاً فتقول: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) ، أي لو أنّهم سلكوا سبيل الإيمان والتقوى ، بدل الطغيان والتمرد وتكذيب آيات الله والظلم والفساد ، لم يتخلصوا من غضب الله وعقوبته فسحب ، بل لفتحت عليهم أبواب السماء والأرض .

ولكن للأسف ـ تركوا الصراط المستقيم الذي هو طريق السعادة والرفاه والأمن ، وكذبوا الأنبياء ، وتجاهلوا برامجهم الإصلاحية ، فعاقبناهم بسبب أعمالهم (ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) .

بحوث

وهنا مواضيع ينبغي الوقوف عندها :

1 ـ بركات الأرض والسماء

لقد وقع حديث بين المفسّرين في ما هو المراد من "بركات" الأرض والسماء ؟ فقال البعض:

إنّها المطر ، والنباتات التي تنبت من الأرض .

وفسّرها البعض بإجابة الدعاء ، وحل مشاكل الحياة .

ولكن هناك احتمال آخر ـ أيضاً ـ هو أنّ المراد من البركات السماوية هي البركات المعنوية ، والمراد من البركات الأرضية هي البركات المادية .

ولكن مع ملاحظة الآيات السابقة يكون التّفسير الأوّل أنسب من الجميع ، لأنّه في الآيات السابقة التي شرحت العقوبات الشديدة التي حلّت بالمجرمين والطغاة ، فأشارت تارة إلى نزول السيول من السماء وطغيان الينابيع والعيون من الأرض (مثل طوفان نوح) وأُخرى إلى الصواعق والصيحات السماوية ، وثالثة إلى الزلازل الأرضية الرهيبة .

(135/280)

وفي الآية المطروحة هنا طرحت هذه الحقيقة على بساط البحث ، وهي : أنّ العقوبات ما هي إلاّ لأفعالهم هم ، وإلاّ فلو كان الإنسان طاهراً مؤمناً ، فإنّه بدل أن يحل العذاب السماوي أو الأرضي بساحته ، تتواتر عليه البركات الإلهية من السماء والأرض . . . .

أجل ، إنّ الإنسان هو الذي يبدل البركات بالبلايا .

2 ـ معنى "البركات"

"البركات" جمع "بركة" وهذه الكلمة ـ كما أسلفنا ـ تعني في الأصل "الثبات" والإستقرار ، ويطلق على كل نعمة وموهبة تبقى ولا تزول ، في مقابل الموجودات العارية عن البركة ، والسريعة الفناء والزوال ، والخالية عن الأثر .

والملفت للنظر أنّ فائدة التقوى والإيمان لا تقتصر على نزول البركات الإلهية ، بل هما سبب في أن يَصرف الإنسان مالديه في المصارف اللازمة الصَحيحة .

ففي المثل نلاحظ اليوم أنّ قسماً كبيراً من الطاقات الإنسانية ، والمصادر الإقتصادية تصرف في سبيل سباق التسلح وصنع الأسلحة المدمّرة . وبذلك تنعدم البركة فيها ، ولا تثمر سوى الدمار والخراب ، ولكن المجتمعات البشرية اذا تحلّت بالتقوى والإيمان ، فإنّ هذه المواهب الإلهية سيكون لها وضع آخر ، ومن الطبيعي أن تبقى آثارها وتخلد ، وتكون مصداقاً لكلمة البركات .

3 ـ ماذا يعني "الأخذ" ؟

في الآية أعلاه استعملت كلمة "أخذ" في مفهوم المجازاة والعقوبة ، وهذا في الحقيقة لأجل أنّ الشخص الذي يراد عقوبته يؤخذ أوّلا في العادة ، ثمّ يُوَثق بوسائل خاصّة حتى لا تبقى له قدرة على الفرار ، ثمّ يعاقب .

4 ـ المفهوم الواسع للآية

إنّ الآية الحاضرة وإن كانت ناظرة إلى وضع الأقوام الغابرة ، ولكنّه من المسلّم أن مفهومها مفهوم واسع وعام ودائم ، ولا تنحصر في شعب معين أو قوم خاص ، فإنّها سنة إلهية أن يبتلى غير المؤمنين ، والمتورطين في المعاصي والذنوب بأنواع مختلفة ومتنوعة من البلايا في هذه الدنيا ، فربّما ينزل عليهم البلاء السماوي والأرضي ، وربّما تشتعل نيران الحروب العالمية أو المحلية فتبتلع أموالهم وتبيدها وربّما يفارقهم الأمن والإستقرار ، فتسحق المخاوف والهواجس بأظلافها أبدانهم ونفوسهم ، وحسب تعبير القرآن يكون كل ذلك بما كسبت أيديهم ورد فعل لأعمالهم .

إن فيض الله ليس محدوداً ولا ممنوعاً ، كما أنّ عقوباته لا تختص بقوم أو شعب .

لماذا تعيش الأُمم الكافرة في الرخاء ؟

من كل ما قلناه يتّضح الجواب على سؤال يدور كثيراً بين جماعة من الناس ، وهو: إذا كان الإيمان والتقوى يبعثان على نزول أنواع البركات الإلهية ، ويكون العكس موجباً لسلب البركات ، فلماذا نشاهد الشعوب غير المؤمنة ترفل في الرخاء والرفاه ، في حين يعيش جماعة من أهل الإيمان بعسر ومشقّة ؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال تتّضح بملاحظة نقطتين:

1 ـ إنّ تصوّر أنّ الشعوب غير المؤمنة الفاقدة للتقوى ترفل في النعمة والرخاء وتغرق في

السعادة هو تصور خاطيء ينبع من اشتباه أكبر ، وهو إعتبار الثروة دليلا على السعادة .

إنّ الناس يتصورون ـ عادة ـ أنّ كل شعب امتلك صناعة أكثر تقدماً ، وثروة أكبر ، كان أسعد من غيره ، في حين لو تسنى لنا أن ننفذ إلى أعماق هذه المجتمعات

ونلاحظ الآلام الممضة التي تحطم روح هذه الشعوب وجسمها عن كثب ، فسوف نُسلّم أن أكثر تلك الشعوب هي من أشقى سكان الأرض .

هذا بغض النظر عن أنّ هذا التقدم النسبيّ إنّما هو نتيجة استخدامهم لأُصول ومباديء مثل السعي والإجتهاد ، والنظم والشعور بالمسؤولية التي هي جزء من تعاليم الأنبياء ، ومن صلب توجيهاتهم .

(137/280)

في هذه الأيام ـ التي نكتب فيها هذا القسم من التّفسير ـ نشرت الجرائد والصحف أنّه حدث في نيويورك ـ التي هي واحدة من أكبر نقاط العالم المادي ثروة وأكثرها تقدماً ـ حادث جدّ عجيب على أثر انقطاع فجائي للتيار الكهربائي ، وذلك الحادث هو أنّ كثيراً من الناس هاجموا المحلات والمخازن وسرقوا كل ما فيها بحيث أن ثلاثة آلاف من المغيرين على المحلات اعتقلوا بواسطة البوليس .

إنّ من المسلّم أن عدد المغيرين ـ في الواقع ـ أكثر بأضعاف من هذا العدد ، وهذا العدد هم الذين لم يمكنهم الفرار والهرب والنجاة من قبضة البوليس ، كما أنّه من المسلّم أن المغيرين لم يكونوا سراقاً محترفين هيّأوا أنفسهم من قبل لمثل هذه الإغارة العمومية ، لأنّ الحادثة المذكورة كانت حادثة فجائية .

من هذا نستنتج أنّه مع حالة إنقطاع عابر للتيار الكهربائي يتحول عشرات الآلاف من سكان مدينة ثرية ومتقدمة ـ كما يشاؤون تسميتها ـ إلى لصوص وسراق ، إن هذا لا يدل على الإنحطاط الخلقي لدى شعب من الشعوب فحسب ، بل يدل على فقدان الأمن الإجتماعي الشديد أيضاً .

والخبر الآخر الذي نقلته الصحف ، ويكمل ـ في الحقيقة ـ هذا الخبر ، وهو أن أحد الشخصيات المعروفة كان يقيم في تلك الأيام في نيويورك ، في أحد الفنادق الشهيرة ذات العشرات من الطوابق ، قال: إنّ انقطاع التيار الكهربائي تسبب في أن يمسي التجول في معابر وصالات ذلك الفندق عملا بالغ الخطورة ، بحيث أنّ مسؤولي الفندق ما كانوا يسمحون لأحد بأن يغادر مكانه إلى غرفته منعاً من أن

يتعرض للمغيرين داخل صالات الفندق ، ولهذا نظموا المسافرين والنزلاء في جماعات مكونة من عشرة أو أكثر ، وتولى موظفون مسلحون إيصالهم إلى غرفهم تحت حراسة مشددة .

ثمّ يضيف ذلك الشخص المذكور: أنّه ما لم يعانِ من الجوع الشديد لم يجرؤ على الخروج من غرفته.

(138/280)

ولكن انقطاع التيار الكهربائي هذا يقع في البلاد المتأخرة الشرقية كثيراً، ولكن لا تحدث مثل هذه المشاكل، وهذا يفيد أن سكان البلدان المتقدمة رغم كونهم يمتلكون ثروة عظيمة، وصنائع عظيمة، لا يملكون أدنى قدر من الأمن في بيئتهم.

هذا مضافاً إلى أنّ شهود عيان يقولون: إنّ القتل والإغتيال في تلك البيئات كشرب الماء من حيث السهولة واليسر.

ونحن نعلم أنّنا أعطينا الدنيا كلها لأحد وكان يعيش في مثل هذه الظروف، كان من أشقى أهل الأرض... على أنّ مشكلة الأمن هي واحدة من مشكلاتهم، وإلاّ فهناك مفاسد إجتماعية أُخرى كل واحد منها بدوره حالة مؤلمة جداً... ومع الإلتفات إلى هذه الحقائق فلا معنى لتوهّم أنّ الثروة سعادة.

2. أمّا ما يقال عن سبب تخلّف المجتمعات المتحلية بالإيمان والتقوى، فإذا كان المقصود من الإيمان والتقوى هو مجرّد ادعاء الإسلام وإدعاء أتباع مبادىء الأنبياء وتعاليمهم،

فالاعتراض وجيه . ولكننا لا نعتبر حقيقة الإيمان والتقوى إلاّ نفوذهما في جميع أعمال الإنسان ، وجميع شؤون الحياة ، وهذا أمر لا يتحقق بمجرّد الإدعاء والزعم .

إنّ من المؤسف جدّاً أن نجد التعاليم الإسلامية ومبادىء الأنبياء متروكة أو شبه متروكة في كثير من المجتمعات الإسلامية ، فملامح هذه المجتمعات ليست ملامح مجتمعات المسلمين الصادقين الحقيقيين .

لقد دعا الإسلام إلى الطهارة والإستقامة والأمانة والإجتهاد والجد ، فأين تلك الأمانة والإجتهاد ؟

إنّ الإسلام يدعو إلى العلم والمعرفة واليقظة والوعي ، فأين ذلك العلم والوعي واليقظة ؟ !

وإن الإسلام يدعو إلى الإتحاد والتضامن ووحدة الصفوف والتفاني ، فهل سادت هذه الأصول والمبادىء في المجتمعات الإسلامية الحاضرة بصورة كاملة ، ومع ذلك بقيت متخلّفة ؟ !

لهذا يجب أن نعترف بأنّ الإسلام شيء ، والمسلمون اليوم شيء آخر .

(139/280)

في الآيات اللاحقة ولمزيد من التأكيد على عمومية هذا الحكم ، وأن القانون أعلاه ليس خاصاً بالأقوام الغابرة بل يشمل الحاضر والمستقبل أيضاً . يقول: هل أنّ المجرمين الذين يعيشون في نقاط مختلفة من الأرض يرون أنفسهم في أمن من أن تحل بهم العقوبات الإلهية ، فتنزل بهم صاعقة أو يصبهم زلزال في الليل وهم نائمون (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون) .

وهل هم في أمان من ذلك العذاب في النهار وهم غارقون في أنواع اللهو واللعب (أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) .

يعني أنّهم في قبضة القدرة الإلهية في جميع الأحوال والأوقات ، ليلا ونهاراً ، في اليقظة والنوم ، في ساعات الفرح والترح ، وبإشارة واحدة وأمر واحد يقضى عليهم جميعاً ، ويطوي صفحة حياتهم نهائياً ، دون الحاجة الى مقدمات وأسباب قبلية ، أو لمرور الزمان لهذا العمل .

أجل في لحظة واحدة ، ومن دون أية مقدمات يمكن أن تحل أنواع المصائب والنوائب بهذا الإنسان الغافل .

والعجيب أنّ البشرية الحاضرة ، رغم كل ما أحرزته من تقدم ورقي في الصنائع وفي التكنولوجيا ، ومع أنّها سخرت طاقات الكون والطبيعة المختلفة

لخدمة نفسها ، فإنّها ضعيفة وعاجزة تجاه هذه الحوادث ، بنفس المقدار من العجز

والضعف الذي كان عليه إنسان العصور السابقة . يعني أن الإنسان لم يتغير حاله تجاه الزلازل والصواعق وما شابهها ، حتى بالنسبة إلى إنسان ما قبل التاريخ . وهذه علامة قوية على نهاية عجز الإنسان وشدة ضعفه رغم قدرته وقوته . . . وهذه حقيقة يجب أن يجعلها الإنسان نصب عينيه دائماً وأبداً .

وفي الآية اللاحقة يعود القرآن الكريم إلى ذكر وتأكيد هذه الحقيقة بشكل آخر فيقول: أفأمن المجرمون من المكر الإلهي في حين لا يأمن مكره إلاّ الخاسرون (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون) .

(140/280)

و"المكر" ـ كما قلنا في ذيل الآية 94 من سورة آل عمران ـ يعني في اللغة العربية كل حيلة ووسيلة لصرف الشخص عن الهدف الذي يمضي إليه ، سواء كان حقاً أو باطلا ، وقد أخذ في مفهوم هذه اللغة نوع من التدرج والنفوذ التدريجي .

وعلى هذا فالمراد من المكر الإلهي ، هو أنّ الله تعالى يصرفهم بخططه القوية التي لا تقهر عن حياة الرفاه واللذة دون اختيارهم ويقطعها عليهم . وهذه إشارة إلى العقوبات الإلهية الفجائية والمهلكة .

جواب على سؤال:

إنّ الجملة التي وردت في ختام الآية الحاضرة تقول: لا يأمن أحد ـ إلاّ الخاسرون ـ من المكر الإلهي والعقوبة الإلهية ، وهنا يطرح هذا السؤال ، وهو: هل تشمل هذه العبارة الأنبياء والأئمّة العظام والصالحين ؟

لقد تصوّر البعض أنّهم خارجون من هذا الحكم ، وأنّ الآية تختص بالمجرمين . ولكن الظاهر أن هذا الحكم عام يشمل الجميع ، لأنّه حتى الأنبياء والأئمّة كانوا مراقبين لأعمالهم دائماً كي لا تصدر منهم أدنى زلة أو عثرة ، لأنّنا نعلم أن مقام العصمة ليس مفهومه أن المعصية مستحيلة عليهم ، بل يعني أنّهم

مصونون عن الإثمّ والمعصية بفعل إرادتهم وإيمانهم وحسن اختيارهم ، إلى جانب العنايات الربانية .

إنّهم كانوا يخافون من ترك الأولى ويتجنبونه ، ويخشون أن لا يتمكنوا من القيام بمسؤولياتهم الثقيلة . ولهذا نقرأ في الآية (15) من سورة الأنعام حول الرّسول الأعظم (قل إنّي أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم) .

ولقد رويت في تفسير الآية الحاضرة ـ أيضاً ـ أحاديث تؤيد ما قلناه: "صليت خلف أبي عبد الله (الصادق) (عليه السلام) ، فسمعته يقول: "اللّهم لا تؤمني مكرك . ثمّ جهر فقال: (فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون) " .

ونقرأ في نهج البلاغة أيضاً : "لا تأمنن على خير هذه الأُمّة عذاب الله ، لقول الله سبحانه: (فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون) " .

(141/280)

إنّ عدم الأمن من المكر الإِلهي -في الحقيقة- يعني الخوف من المسؤوليات والخوف من التقصير فيها ، ومن المعلوم أن الخوف يجب أن يكون في قلوب المؤمنين دائماً إلى جانب الأمل بالرحمة الإلهية بشكل متساو ، وأن التوازن بين هذين هو منشأ كلّ حركة ونشاط ، وهو الذي يعبّر عنه في الرّوايات بالخوف والرجاء .

وقد جاء التصريح في هذه الرّوايات بوجوب أن يكون المؤمنون دائماً بين الخوف والرجاء ، ولكن المجرمين الخاسرين نسوا العقوبات الإِلهية بحيث صاروا يرون أنفسهم في منتهى الأمن المكر الإِلهي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ 5 صـ 124 . 133 ﴾

(142/280)

قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (100) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بان بما مضى حال الكفار مجملاً ومفصلاً ، وكان المقصود من ذلك عبرة السامعين ، وكان أخذهم بالبأساء والضراء مع إبقاء مهجهم وحفظ أرواحهم وأفهامهم بعد إهلاك من قبلهم في بعض ما لحقهم من ذلك وإيراثهم الأرض من بعدهم حالاً يكونون بها في حيز من يرجى منه الخوف المقتضي للتضرع والعلم قطعاً بأن الفاعل لذلك هو الله ، وأنه لو شاء لأهلكهم بالذنوب أو غطى أفهامهم بحيث يصيرون كالبهائم لا يسمعون إلا دعاء ونداء ، فسماعهم حيث لا فهم كلا سماع ، فجعلوا ذلك سبباً للأمن ؛ أنكر عليهم ذلك بقوله ﴿ أفأمن ﴾ إلى آخره ؛ ثم أنكر عليهم عدم الاستدلال على القدرة فقال عاطفاً على ﴿ أفأمن ﴾ : ﴿ أولم يهد ﴾ أي يبين أخذنا الأمم الماضية بالبأساء والضراء ثم إهلاكهم إذا لم يتعظوا ﴿ للذين يرثون الأرض ﴾ وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف وإشارة إلى بلادتهم لعدم البحث عن الأخبار ليعلموا منها ما يضر وما ينفع فلا يكونوا كالبهائم ، فإنهم لو تأملوا أحوالهم وأحوال من ورثوا أرضهم وأحوال الأرض لكفاهم ذلك في الهداية إلى سواء السبيل .

ولما كان إرثهم غير مستغرق للزمان ، أتى بالجارّ فقال : ﴿ من بعد أهلها ﴾ ثم ذكر مفعول ﴿ يهد ﴾ بقوله : ﴿ أن ﴾ أي إنا ﴿ لو نشاء ﴾ أي في أيّ وقت أردنا ﴿ أصبناهم بذنوبهم ﴾ أي إصابة نمحقهم بها كما فعلنا بمن ورثوا أرضهم ؛ ولما كان هذا تخويفاً للموجودين بعد المهلكين ، ومنهم قريش وسائر العرب الذين يخاطبون بهذا القرآن ، فكأن المخوف به لم يقع بعد ، عطف على أصبنا قوله : ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ أي بإزالة عقولهم حتى يكونوا كالبهائم ، ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أي سماع فهم ، وعبر عن الإصابة بالماضي إشارة إلى سرعة الإهلاك مع كونه شيئاً واحداً غير متجزىء ، وعن الطبع بالمضارع إيماء إلى التجدد بحيث لا يمر زمن إلا كانوا فيه في طبع جديد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 75 . 76 ﴾

فصل

قال الفخر :

(143/280)

اعلم أنه تعالى لما بين فيما تقدم من الآيات حال الكفار الذين أهلكهم الله بالاستئصال مجملاً ومفصلاً أتبعه ببيان أن الغرض من ذكر هذه القصص حصول العبرة لجميع المكلفين في

مصالح أديانهم وطاعاتهم ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اختلف القراء فقرأ بعضهم ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ بالياء المعجمة من تحتها ، وبعضهم بالنون ، قال الزجاج : إذا قرىء بالياء المعجمة من تحت كان قوله : ﴿ أَن لَّوْ نَشَاءُ ﴾ مرفوعاً بأنه فاعله بمعنى أو لم يهد للذين يخلفون أولئك المتقدمين ويرثون أرضهم وديارهم ، وهذا الشأن وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين ، إذا قرىء بالنون فهو منصوب ، كأنه قيل أولم نهد للوارثين هذا الشأن بمعنى أو لم نبين لهم أن قريشاً أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم ؟

المسألة الثانية :

المعنى أو لم نبين للذين نبعثهم في الأرض بعد إهلاكنا من كان قبلهم فيها فنهلكهم بعدهم ؟ وهو معنى لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، أي عقاب ذنوبهم ، وقوله : ﴿ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ أي إن لم نهلكهم بالعقاب نطبع على قلوبهم ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يقبلون ، ولا يتعظون ، ولا ينزجرون وإنما قلنا : إن المراد إما الإهلاك وإما الطبع على القلب ، لأن الإهلاك لا يجتمع مع الطبع على القلب ، فإنه إذا أهلكه يستحيل أن يطبع على قلبه .

المسألة الثالثة :

استدل أصحابنا على أنه تعالى قد يمنع العبد عن الإيمان بقوله : ﴿ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ

لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ والطبع والختم والرين والكنان والغشاوة والصد والمنع واحد على ما قررناه في آيات كثيرة .

قال الجبائي : المراد من هذا الطبع أنه تعالى يسم قلوب الكفار بسمات وعلامات تعرف الملائكة بها أن أصحابها لا يؤمنون ، وتلك العلامة غير مانعة من الإيمان .

(144/280)

وقال الكعبي : إنما أضاف الطبع إلى نفسه لأجل أن القوم إنما صاروا إلى ذلك الكفر عند أمره وامتحانه فهو كقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ﴾ [نوح : 6] .

واعلم أن البحث عن حقيقة الطبع والختم قد مر مراراً كثيرة فلا فائدة في الإعادة .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ وَنَطْبَعُ ﴾ هل هو منقطع عما قبله أو معطوف على ما قبله .

فيه قولان :

القول الأول : أنه منقطع عن الذي قبله ، لأن قوله : ﴿ أصبنا ﴾ ماض وقوله : ﴿ وَنَطْبَعُ ﴾ مستقبل وهذا العطف ليس بمستحسن ، بل هو منقطع عما قبله ، والتقدير : ونحن نطبع على قلوبهم .

والقول الثاني : أنه معطوف على ما قبله قال صاحب "الكشاف" : هو معطوف على ما دل عليه معنى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ، ونطبع على قلوبهم أو معطوف على قوله : ﴿ يَرِثُونَ الأرض ﴾ ثم قال : ولا يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ أصبناهم ﴾ لأنهم كانوا كفاراً وكل كافر فهو مطبوع على قلبه ، فقوله بعد ذلك : ﴿ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ يجري مجرى تحصيل الحاصل وهو محال ، هذا تقرير قول صاحب "الكشاف" على أقوى الوجوه وهو ضعيف ، لأن كونه مطبوعاً عليه إنما يحصل حال استمراره وثباته عليه ، فهو يكفر أولاً ، ثم يصير مطبوعاً عليه في الكفر ، فلم يكن هذا منافياً لصحة العطف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 152.153 ﴾

(145/280)

وقال السمرقندى :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض ﴾

يعني : أولم يبيّن .

قال القتبي : أصل الهدى الإرشاد كقوله : ﴿ عسى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى ﴾ يعني : يرشدني . ثم يصير الإرشاد لمعان منها إرشاد بيان مثل قوله ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ ﴾ يعني : أولم يبين

لهم.

ومنها إرشادٌ بمعنى بالدعاء كقوله: ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: 7] يعني: نبياً يدعوهم وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكاة وَكَانُواْ لَنَا عابدين ﴾ [الأنبياء: 73] أي يدعون الخلق.

وقرأ بعضهم أو لم نهد بالنون يعني: أو لم نبين لهم الطريق.

ومن قرأ بالياء معناه: أو لم يبين الله للذين يرثون الأرض من بعد أهلها يعني: ينزلون الأرض ﴿ مِن بَعْدِ ﴾ هلاك ﴿ أَهْلِهَا ﴾.

ويقول أو نبيّن لأهل مكة هلاك الأمم الخالية كيف أهلكناهم ولم يقدر مبعودهم على نصرتهم.

﴿ أَن لَّوْ نَشَاء أصبناهم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ يعني: أهلكناهم بذنوبهم كما أهلكنا من كان قبلهم عند التكذيب.

ثم قال: ﴿ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني: نختم على قلوبهم بأعمالهم الخبيثة عقوبة لهم ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ الحق ولا يقبلون المواعظ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾

قرأ أبو عبد الرحمن وقتادة ويعقوب في رواية زيد (نهد) بالنون على التعظيم والباقون بالياء على [التفريد] ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ﴾ يستخلفون في ﴿ الأرض ﴾ بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا بسيرتهم [. . . .] ربّهم ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ ﴾ أهلكناهم ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ بما أهلكنا من قبلهم ﴿ وَنَطْبَعُ ﴾ نختم ﴿ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ الهدى ولا يقبلون الموعظة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فَهُم لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يقبلون ، كما قال في الصلاة ، سمع الله لمن حمده ، أي قبل الله ممن حمده ، وقال الشاعر :

دَعَوْتُ اللَّهَ حَتَّى خِفْتُ أَلاَّ . . . يَكُونَ اللَّهُ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ

أي يقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(146/280)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض ﴾ الآية ،

هذه ألف تقرير دخلت على واو العطف ، و" يهدي " معناه يبين والهدى الصباح وأنشدوا

على ذلك :

حتى استبنت الهدى والبيد هاجمة . . . يسبحن في الآل غلفاً أو يصلينا

ويحتمل أن يكون المبين الله ويحتمل أن يكون المبين قوله ﴿ أن لو نشاء ﴾ أي علمهم بذلك وقال ابن عباس ومجاهد وابن زيد : و" يهدي " معناه يتبين ، وهذه أيضاً آية وعيد ، أي ألم يظهر لوارث الأرض بعد أولئك الذين تقدم ذكرهم وما حل بهم أنا نقدر لو شئنا أن نصيبهم إصابة إهلاك بسبب معاصيهم كما فعل بمن تقدم وكنا نطبع : أي نختم ، ونختم عليها بالشقاوة ، وفي هذه العبارة ذكر القوم الذين قصد ذكرهم وتعديد النعمة عليهم فيما " ورثوا " والوعظ بحال من سلف من المهلكين ، ونطبع عطف على المعاصي إذ المراد به الاستقبال ، ويحتمل أن يكون ونطبع منقطعاً إخباراً عن وقوع الطبع لا أنه متوعد به ويبقى التوعد بالإهلاك الذي هو بعذاب كالصيحة والغرق ونحوه ، وقرأ أبو عمرو : ﴿ ونطبع على ﴾ بإدغام العين في العين وإشمام الضم ، ذكره أبو حاتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(147/280)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أو لم يهد للذين ﴾

قرأ يعقوب "نَهِد" بالنون ، وكذلك في [طه : 128] و [السجدة : 26] .

قال الزجاج : من قرأ بالياء ، فالمعنى : أو لم يبيِّن الله لهم .

ومن قرأ بالنون ، فالمعنى : أو لم نبيِّن .

وقوله تعالى : ﴿ ونطبع ﴾ ليس بمحمول على "أصبناهم" ، لأنه لو حمل على "أصبناهم" لكان : ولطبعنا .

وإنما المعنى : ونحن نطبع على قلوبهم .

ويجوز أن يكون محمولاً على الماضي ، ولفظه لفظ المستقبل ، كما قال : ﴿ ان لو نشاء ﴾ ، والمعنى : لو شئنا .

وقال ابن الأنباري : يجوز أن يكون معطوفاً على : أصبنا ، إذ كان بمعنى نُصيب ؛ فوضع الماضي في موضع المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال ، كما قال : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ [الفرقان : 10] أي : إن يشأ ، يدل عليه قوله : ﴿ ويجعل لك قصوراً ﴾ ، قال الشاعر :

إنْ يَسْمَعُوا رِيْبةً طارُوا بِهَا فَرَحاً . . .

مِنّي ، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

أي : يدفنوا .

قوله تعالى : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أي : لا يقبلون ، ومنه : "سمع الله لمن حمده" ، قال الشاعر :

دَعَوْتُ اللهَ حتَّى خِفْتُ أنْ لاَ . . .

يَكُوْنَ اللهُ يَسْمَعُ مَا أقُوْل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ أي يُبيّن .

﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض ﴾ يريد كفار مكة ومن حولهم .

﴿ أَصَبْنَاهُمْ ﴾ أي أخذناهم ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي بكفرهم وتكذيبهم .

﴿ وَنَطْبَعُ ﴾ أي ونحن نطبع ؛ فهو مستأنف .

وقيل : هو معطوف على أصبنا ، أي نصيبهم ونطبع ؛ فوقع الماضي موقع المستقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(148/280)

وقال الخازن :

﴿ أو لم يهد ﴾ أو لم يبين ﴿ للذين يرثون الأرض من بعد ﴾ هلاك ﴿ أهلها ﴾ الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ يعني لو نشاء أخذناهم وعاقبناهم بسبب كفرهم ﴿ ونطبع ﴾ أي نختم ﴿ على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ يعني لا يسمعون موعظة ولا يقبلون الإيمان ونطبع منقطع عما قبله والمعنى قبله والمعنى ونحن نطبع على قلوبهم ويجوز أن يكون معطوفاً على الماضي ولفظه لفظ المستقبل والمعنى لو شئنا طبعنا على قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(149/280)

وقال أبو حيان :

﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد ﴿ يهد ﴾ يبين وهذا كقوله ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ أي بيّنا لهم طريق الهدى والفاعل بيهد يحتمل وجوهاً ، أحدها أن يعود على الله ويؤيد قراءة من قرأ ﴿ يهد ﴾ بالنون ، والثاني أن يكون ضميراً عائداً على ما يفهم من سياق الكلام السابق أي ﴿ أو لم يهد ﴾ ما جرى للأمم السالفة أهل القرى وغيرهم وعلى هذين

الوجهين يكون أن لو نشاء وما بعده في موضع المفعول بيهد أي أو لم يبيّن الله أو ما سبق من قصص القرى ومآل أمرهم للوارثين أصابتنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك أي علمهم بإصابتنا أو قدرتنا على إصابتنا إياهم ، والمعنى أنكم مذنبون لهم وقد علمتم ما حلّ بهم أفما تحذرون أن يحلّ بكم ما حل بهم فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا ، والوجه الثالث أن يكون الفاعل بيهد قوله ﴿ أن لو نشاء ﴾ فينسبك المصدر من جواب لو والتقدير أو لم نبين ونوضح للوارثين مآلهم وعاقبتهم إصابتنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك أي علمهم بإصابتنا أو قدرتنا على إصابتنا إياهم والمعنى على التقديرين إذا كانت ﴿ أن ﴾ مفعولة و﴿ أن ﴾ هنا هي المخففة من الثقيلة لأن الهداية فيها معنى العلم واسمها ضمير الشأن محذوف والخبر الجملة المصدرية بلو و﴿ نشاء ﴾ في معنى شئنا لا أن لو التي هي لما كان سيقع لوقوع غيره إذا جاء بعدها المضارع صرفت معناه إلى المضي ومفعول ﴿ نشاء ﴾ محذوف دلّ عليه جواب ﴿ لو ﴾ والجواب ﴿ أصبناهم ﴾ ولم يأتِ باللام وإن كان الفعل مثبتاً إذ حذفها جائز فيصحّ كقوله ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ والأكثر الإتيان باللام كقوله

(150/280)

﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ والذين يرثون الأرض أي يخلفون فيها من بعد هلاك أهلها وظاهره التسميع لمن كان في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم من مشركي قريش وغيرهم ، وقال ابن عباس يريد أهل مكة ، ﴿ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ الظاهر أنها جملة مستأنفة أي ونحن ﴿ نطبع على قلوبهم ﴾ والمعنى أنّ من أوضح الله له سبل الهدى وذكر له أمثالاً ممن أهلكه الله تعالى بذنوبهم وهو مع ذلك دائم على غيّه لا يرعوي يطبع الله على قلبه فينبو سمعه عن سماع الحق ، وقال ابن الأنباري يجوز أن يكون معطوفاً على أصبنا إذا كان بمعنى نصيب فوضع الماضي موضع المستقبل عند وضوح معنى الاستعمال كما قال تعالى ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ أي إن يشأ يدل عليه قوله ﴿ ويجعل لك قصوراً ﴾ انتهى فجعل ﴿ لو ﴾ شرطية بمعنى أن ولم يجعلها التي هي لما كان سيقع لوقوع غيره ولذلك جعل أصبنا بمعنى نصيب ومثال وقوع لو موقع أن قول الشاعر :

لا يلفك الراجيك إلاّ مظهرا . . .

خلق الكرام ولو تكون عديما

(151/280)

وهذا الذي قاله ابن الأنباري ردّه الزمخشري من جهة المعنى لكن بتقدير أن يكون ﴿ ونطبع ﴾ بمعنى طبعنا فيكون قد عطف المضارع على الماضي الذي هو جواب ﴿ لو نشاء ﴾ فجعله بمعنى نصيب فتأوّل المعطوف عليه وهو الجواب وردّه إلى المستقبل والزمخشري تأوّل المعطوف وردّه إلى المضي وأنتج ردّ الزمخشري أنّ كلا التقديرين لا يصحّ ، قال الزمخشري : (فإن قلت) : هل يجوز أن يكون ﴿ ونطبع ﴾ بمعنى طبعنا كما كان لو نشاء بمعنى لو شئنا ويعطف على ﴿ أصبناهم ﴾ ، ﴿ قلت) : لا يساعد هذا المعنى لأنّ القوم كان مطبوعاً على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها وهذا التفسير يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة وأن الله تعالى لو شاء لاتصفوا بها انتهى هذا الردّ ظاهره الصحة وملخصة أنّ المعطوف على الجواب جواب سواء تأوّلنا المعطوف عليه أم المعطوف وجواب لو لم يقع بعد سواء كانت حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره أم بمعنى إن الشرطية والإصابة لم تقع والطبع على القلوب واقع فلا تصحّ أن يعطف على الجواب فإن تأوّل ﴿ ونطبع ﴾ على معنى ونستمر على الطبع على قلوبهم أمكن التعاطف لأنّ الاستمرار لم يقع بعد وإن كان الطبع قد وقع .

وقال أبو عبد الله الرازي : تقرير صاحب الكشاف على أقوى الوجوه هو ضعيف لأنّ كونه مطبوعاً عليه في الكفر لم يكن منافياً لصحة العطف وكان قد قرّر أن المعنى أو لم يبين للذين نبقيهم في الأرض بعد إهلاكنا من كان قبلهم فيها أن تهلكهم بعدهم وهو معنى قوله ﴿ أن لو

نشاء ﴿ أصبناهم أي بعقاب ذنوبهم ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ أي لم نهلكهم بالعذاب ﴿ نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ أي لا يقبلون ولا يتّعظون ولا ينزجرون وإنما قلنا إن المراد إما الإهلاك وإما الطّبع على القلب لأن الإهلاك لا يجتمع مع الطبع على القلب فإنه إذا أهلكه يستحيل أن يطبع على قلبه انتهى .

(152/280)

والعطف في ﴿ ونطبع ﴾ بالواو يمنع ما ذكره لأن جعل المعنى على أنه إما الإهلاك وإما الطبع وظاهر العطف بالواو وينبو عن الدلالة على هذا المعنى فإن جعلت الواو بمعنى أو أمكن ذلك وكذلك ينبو عن قوله إن لم نهلكهم بالعذاب ونطبع على قلوبهم العطف بالواو وأورد أبو عبد الله الرازي من أقوال المفسّرين ما يدلّ على أنّ كونه مطبوعاً عليه في الكفر لا ينافي صحة العطف فقال أبو علي ويعني به والله أعلم الجبائي الطّبع سمة في القلب من نكتة سوداء إن صاحبها لا يفلح وقال الأصم : أي يلزمهم ما هم عليه فلا يتوبون إلا عند المعاينة فلا تقبل توبتهم ، وقال أبو مسلم : الطبع الخذلان إنه يخذل الكافر فيرى الآية فلا يؤمن بها ويختار ما اعتاد وألف وهذه الأقوال لا يمكن معها العطف إلا على تأويل أن تكون الواو بمعنى أو وأجاز الزمخشري في عطف ﴿ ونطبع ﴾ وجهين آخرين أحدهما ضعيف

والآخر خطأ ، قال الزمخشري : (فإن قلت) : بم يتعلق قوله تعالى ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ ، (قلت) : فيه أوجه أو يكون معطوفاً على ما دلّ عليه معنى أو ﴿ لم يهدني لهم ﴾ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ أو على ﴿ يرثون الأرض ﴾ انتهى فقوله أنه معطوف على مقدر وهو يغفلون عن الهداية ضعيف لأنه إضمار لا يحتاج إليه إذ قد صحّ أن يكون على الاستئناف من باب العطف في الجمل فهو معطوف على مجموع الجملة المصدرة بأداة الاستفهام وقد قاله الزمخشري وغيره ، وقوله أنه معطوف علي ﴿ يرثون ﴾ خطأ لأنه إذا كان معطوفاً على يرثون كان صلة للذين لأنّ المعطوف على الصلة صلة ويكون قد فصل بين أبعاض الصلة بأجنبي من الصلة وهو قوله ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ سواء قدرنا ﴿ أن لو نشاء ﴾ في موضع الفاعل ليهدأ أو في موضع المفعول فهو معمول ليهد لا تعلق له بشيء من صلة ﴿ الذين ﴾ وهو لا يجوز ومعنى قوله ﴿ أصبناهم بذنوبهم ﴾ بعقاب ذنوبهم أو يضمن ﴿ أصبناهم ﴾ معنى أهلكناهم فهو من مجاز الإضمار أو

التضمين ونفي السماع والمعنى نفي القبول والاتعاظ المترتب على وجود السماع جعل انتفاء فائدته انتفاء له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100) ﴾

قال ابن عباس ، رضي الله عنهما ، في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ أو لم نُبَيِّن ، [وكذا قال مجاهد والسدي ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أو لم نبين] لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم .

وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها : يقول تعالى : أو لم نبيّن للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها ، فساروا سيرتهم ، وعملوا أعمالهم ، وعتوا على ربهم : ﴿ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ يقول : أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ، ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : ونختم على قلوبهم ﴿ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ موعظة ولا تذكيرًا .

قلت : وهكذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى ﴾ [طه : 128] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة : 29] وقال ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ . وَسَكَنْتُمْ فِي

مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ [وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ] ﴾ [إبراهيم : 44 ، 45] وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : 98]

(154/280)

أي : هل ترى لهم شخصًا أو تسمع لهم صوتًا ؟ وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : 6] وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد : ﴿ فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف : 25 - 27] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ : 45] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الملك : 18] وقال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ

قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : 45 ، 46] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنعام : 10] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه ، وحصول نعمه لأوليائه ؛ ولهذا عقب ذلك بقوله ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 451.452 ﴾

(155/280)

وقال أبو السعود :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾

أي يخلُفون مَنْ خلا قبلهم من الأمم المُهلَكة ويرثون ديارَهم والمرادُ بهم أهلُ مكةَ ومَنْ حولها ، وتعديةُ فعل الهداية باللام إما لتنزيلها منزلةَ اللازم كأنه قيل : أغفلَوا ولمْ يُغفل الهداية لهم ؟ الخ ، وإما لأنها بمعنى التبيينِ والمفعولُ محذوفٌ والفاعلُ على التقديرين هو الجملةُ الشرطية أي أوَلمْ يبيَّن لهم مآلُ أمرِهم ﴿ أَن لَّوْ نَشَاء أصبناهم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أن الشأنَ لو نشاء

أصبْناهم بجزاء ذنوبِهم أو بسبب ذنوبِهم كما أصبنا مَنْ قبلهم وقرىء نَهدِ بنون العظمة فالجملة مفعولُه ﴿ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ عطفٌ على ما يُفهم من قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ كأنه قيل : لا يهتدون أو يغفُلون عن الهداية أو عن التفكر والتأمل ، أو منقطعٌ عنه بمعنى ونحن نطبع ولا يجوز عطفُه على أصبناهم على أنه بمعنى طبعنا لإفضائه إلى نفي الطبْعِ عنهم لأنه في سياق جوابِ لو ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي أخبارَ الأممِ المهلَكة فضلاً عن التدبر والنظرِ فيها والاغتنامِ بما في تضاعيفها من الهداية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(156/280)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾

أي يخلفون من خلا قبلهم من الأمم ، والمراد بهم كما روي عن السدى المشركون وفسروا بأهل مكة ومن حولها ، وعليه لا يبعد أن يكون في الآية إقامة الظاهر مقام الضمير إذا كان المراد بأهل القرى سابقاً أهل مكة وما حولها ، وتعدية فعل الهداية باللام لأنها كما روي عن ابن عباس .

ومجاهد بمعنى التبيين وهو على ما قيل : إما بطريق المجاز أو التضمين أو لتنزيله منزلة اللازم كأنه قيل : أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم ﴿ أَن لَّوْ نَشَاء أصبناهم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم ، وإذا ضمن اصبنا معنى أهلكنا لا يحتاج إلى تقدير مضاف .

وأن مخففة من الثقيلة وسمها ضمير شأن مقدر وخبره الجملة الشرطية والمصدر المؤول فاعل ﴿ يَهْدِ ﴾ ومفعوله على احتمال التضمين محذوف أي أو لم يتبين لهم مآل أمرهم أو نحو ذلك .

وجوز أن يكون الفاعل ضمير الله تعالى وأن يكون ضميراً عائداً على ما يفهم مما قبل ، أي أو لم يهد لهم ما جرى على الأمم السابقة .

وقرأ عبد الرحمن السلمي .

وقتادة ، وروي عن مجاهد .

ويعقوب ﴿ نهد ﴾ بالنون فالمصدر حينئذ مفعول ، ومن الناس من خص اعتبار التضمين أو المجاز بهذه القراءة واعتبار التنزيل منزلة اللازم بقراءة الياء ، وفيه بحث ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ جملة معترضة تذييلية أي ونحن من شأننا وسنتنا أن نطبع على قلب من لم نرد منه الأيمان حتى لا يتعظ بأحوال من قبله ولا يلتفت إلى الأدلة ، ومن أراد من أهل القرى فيما تقدم أهل مكة جعله تأكيداً لما نعى عليهم من الغرة والأمن والخسران أي

ونحن نطبع على قلوبهم فلذلك اقتفوا آثار من قبلهم ولم يعتبروا بالآيات وأمنوا من البيات لمستخلفيهم حذو النعل بالنعل .

(157/280)

وجوز عطفه على مقدر دل عليه قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ وعطفه عليه أيضاً وهو وإن كان إنشاء إلا أن المقصود منه الأخبار بغفلتهم وعدم اهتدائهم أي لا يهتدون أو يغفلون عن الهداية أو عن التأمل والتفكر ونطبع الخ .

(158/280)

وجوز أن يكون عطفا على يرثون ، واعترض بأنه صلة والمعطوف على الصلة صلة ففيه الفصل بين أبعاض الصلة بأجنبي وهو ﴿ أَن لَّوْ نَشَاء ﴾ سواء كانت فاعلاً أو مفعولاً ، ونقل أبو حيان عن الأنباري أنه قال : يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ أصبنا ﴾ إذا كان بمعنى نصيب فوضع الماضي موضع المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال كما في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذى إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مّن ذلك ﴾ [الفرقان : 10] أي إن يشأ ،

يدل عليه ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ [الفرقان : 10] فجعل لو شرطية بمعنى إن ولم يجعلها التي هي لما كان سيقع لوقوع غيره وجعل أصبنا بمعنى نصيب ، وقد يرتكب التأويل في جانب المعطوف فيؤول ﴿ نَطْبَعُ ﴾ بطبعنا ، ورد الزمخشري هذا العطف بأنه لا يساعد عليه المعنى لأن القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها وذلك يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة وأن الله تعالى لو شاء لاتصفوا بها ، وتعقبه ابن المنير بأنه لا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع ولا بد وهم وإن كانوا كفاراً ومقترفين للذنوب فليس الطبع من لوازم الاقتراف البتة إذ هو التمادي على الكفر والإصرار والغلو في التصميم حتى يكون الموصوف به مأيوساً من قبوله للحق ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة بلى إن الكافر يهدد لتماديه على الكفر بأن يطبع الله تعالى على قلبه فلا يؤمن أبدا وهو مقتضى العطف على ﴿ أصبنا ﴾ فتكون الآية قد هددتهم بأمرين الإصابة بذنوبهم والطبع على قلوبهم والثاني أشد من الأول وهو أيضاً نوع من الإصابة بالذنوب والعقوبة عليها ولكنه أنكى أنواع العذاب وأبلغ صنوف العقاب ، وكثيراً ما يعاقب الله تعالى على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه ، وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه كما قال سبحانه :

﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : 125] كما زادت المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسب لما كان سبباً فيه وجزاء عليه فثواب الإيمان إيمان وثواب الكفر كفر ، وإنما الزمخشري يحاذر من هذا الوجه دخول الطبع في مشيئة الله تعالى وذلك عنده محال لأنه بزعمه قبيح والله سبحانه عنه متعال ، وفي التقريب نحو ذلك فإنه نظر فيما ذكره الزمخشري بأن المذكور كونهم مذنبين دون الطبع وأيضاً جاز أن يراد لو شئنا زدنا في طبعهم أو لأمناه ، والحق كما قال غير واحد من المحققين أن منعه من هذا العطف ليس بناء على أنه لا يوافق رأيه فقط بل لأن النظم لا يقتضيه فإن قوله سبحانه ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي سماع تفهم واعتبار يدل على أنهم مطبوع على قلوبهم لأن المراد استمرار هذه الحال لا أنه داخل في حكم المشيئة لأن عدم السماع كان حاصلاً ولو كان كذلك لوجب أن يكون منفياً ، وأيضاً التحقيق لا يناسب الغرض ، و ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على قُلُوبِ الكافرين ﴾ [الأعراف : 101] ظاهر الدلالة على أن الوارثين والموروثين كل من أهل الطبع وكذا قوله سبحانه : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ [الأعراف : 101] يدل على أن حالهم منافية للإيمان وأنه لا يجيء منه البتة وأيضاً إدامة الطبع أو زيادته لا يصلح عقوبة للكافرين بل قد يكون عقوبة ذنب المؤمن كما ورد في الصحيح وما يورد من الدغدغة على هذا مما لا يلتفت إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

عطفت على جملة : ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ [الأعراف : 97] لاشتراك مضمون الجملتين في الاستفهام التعجيبي ، فانتقُل عن التعجيب من حال الذين مضوا إلى التعجيب من حال الأمة الحاضرة ، وهي الأمة العربية الذين ورثوا ديار الأمم الماضية فسكنوها : مثل أهل نَجْران ، وأهل اليمن ، ومن سكنوا ديار ثمود مثل بَلِيّ ، وكعب ، والضجاغم ، وبهراء ، ومن سكنوا ديار مَدْين مثل جُهَيْنة ، وجَرْم ، وكذلك من صاروا قبائل عظيمة فنالوا السيادة على القبائل : مثل قُريش ، وطَي ، وتَميم ، وهُذَيْل .

فالموصول بمنزلة لام التعريف العهدي ، وقد يقصد بالذين يرثون الأرض كل أمة خلفت أمة قبلها ، فيشمل عاداً وثموداً ، فقد قال لكل نَبيّهم ﴿ واذكروا إذ جلعكم خلفاء ﴾ [الأعراف : 74] الخ ولكن المشركين من العرب يومئذٍ مقصودون في هذا ابتداء .

فالموصول بمنزلة لام الجنس .

والاستفهام في قوله : ﴿ أو لم يهد ﴾ مستعمل في التعجيب .

مثل الذي في قوله : ﴿ أفأمن أهلُ القرى ﴾ [الأعراف : 97] تعجيباً من شدة ضلالتهم إذ عدموا الاهتداء والاتعاظ بحال من قبلهم من الأمم ، ونسوا أن الله قادر على استئصالهم إذا شاءه .

والتعريف في الأرض تعريف الجنس ، أي يرثون أي أرض كانت منازل لقوم قبلهم ، وهذا إطلاق شائع في كلام العرب ، يقولون هذه أرض طَيء ، وفي حديث الجنازة "من أهل الأرض" أي من السكان القاطنين بأرضهم لا من المسلمين الفاتحين فالأرض بهذا المعنى اسم جنس صادق على شائع متعدد ، فتعريفه تعريف الجنس ، وبهذا الإطلاق جُمعت على أرضين ، فالمعنى : أو لم يهد للذين يرثون أرضاً من بعد أهلها .

(161/280)

والإرث : مصير مال الميت إلى من هو أولى به ، ويطلق مجازاً على مماثلة الحي مَيتاً في صفات كانت له ، من عزّاً وسيادة ، كما فسر به قوله تعالى حكاية عن زكرياء ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ﴾ [مريم : 5 ، 6] أي يخلفني في النبوءة ، وقد يطلق على القَدْر المشترك بين المعنيين ، وهو مطلقُ خلافةِ المُنْقَرَضِ .

وهو هنا محتمل للإطلاقين ، لأنه إن أريد بالكلام أهل مكة فالإرث بمعناه المجازي ، وإن أريد

أهل مكة والقبائل التي سكنت بلاد الأمم الماضية فهو مستعمل في القدر المشترك ، وهو كقوله تعالى : ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] وأيّاً ما كان فقيْدُ ﴿ من بعد أهلها ﴾ تأكيدٌ لمعنى ﴿ يرثون ﴾ ، يراد منه تذكير السامعين بما كان فيه أهل الأرض الموروثة من بحبوحة العيش ، ثم ما صاروا إليه من الهلاك الشامل العاجل ، تصويراً للموعظة بأعظم صورة فهو كقوله تعالى : ﴿ ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ [الأعراف : 129] .

ومعنى ﴿ لم يهد ﴾ لم يرشد ويُبَيْن لهم ، فالهداية أصلها تبيين الطريق للسائر ، واشتهر استعمالهم في مطلق الإرشاد : مجازاً أو استعارة كقوله تعالى : ﴿ اهْدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] .

وتقدم أن فعلها يتعدى إلى مفعولين ، وأنه يتعدى إلى الأول منهما بنفسه وإلى الثاني تارة بنفسه وأخرى بالحرف : اللام أو (إلى) ، فلذلك كانت تعديته إلى المفعول الأول باللام في هذه الآية إمّا لتضمينه معنى يُبين ، وإما لتقوية تعلق معنى الفعل بالمفعول كما في قولهم : شكرتُ له ، وقوله تعالى:

﴿ فَهَبْ لي من لدنك ولياً ﴾ [مريم : 5] ، ومثل قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ﴾ في سورة طه (128) .

و ﴿ أنْ ﴾ مخففة من (أنّ) واسمها ضمير الشأن ، وجملة ﴿ لو نشاء ﴾ خبرها .

ولما كانت (أن) المفتوحة الهمزة من الحروف التي تفيد المصدرية على التحقيق لأنها مركّبة من (إنّ) المكسورة المشددة ، ومن (أنّ) المفتوحة المخففة المصدرية لذلك عُدّت في الموصولات الحرفية وكان ما بعدها مؤولاً بمصدر منسبك من لفظ خبرها إن كان مفرداً مشتقاً ، أو من الكَون إن كان خبرها جملة ، فموقع ﴿ أن لو نشاء أصبناهم ﴾ موقعُ فاعل ﴿ يهد ﴾ ، والمعنى : أو لم يبيّنْ للذين يخْلفون في الأرض بعد أهلها كونُ الشأن المهم وهو لو نشاءُ أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم .

وهؤلاء هم الذين أشركوا بالله وكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم

والإصابة : نوال الشيء المطلوب بتمكّن فيه .

فالمعنى : أن نأخذهم أخذاً لا يفلتون منه .

والباء في ﴿ بذنوبهم ﴾ للسببية ، وليست لتعدية فعل ﴿ أصبناهم ﴾ .

وجملة : ﴿ أنْ لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ واقعة موقع مفرد ، هو فاعل ﴿ يَهْدِ ﴾ ، ف (إنْ) مخففة من الثقيلة وهي من حروف التأكيد والمصدرية واسمها في حالةِ التخفيف ، ضمير شأن مقدر ، وجملة شرط (لو) وجوابه خبر (أنّ) .

و (لو) حرف شرط يفيد تعليق امتناع حصول جوابه لأجل امتناع حصول شرطه : في الماضي ، أو في المستقبل ، وإذ قد كان فعل الشرط هنا مضارعاً كان في معنى الماضي ، إذ لا يجوز اختلاف زمني فعلي الشرط والجواب ، وإنما يخالف بينهما في الصورة لمجرد التفنن كراهية تكرير الصورة الواحدة ، فتقدير قوله : ﴿ لَوْ نشاء أصبناهُم ﴾ انْتفى أخذُنا إياهم في الماضي بذنوب تكذيبهم ، لأجل انتفاء مشيئتنا ذلك لحكمة إمهالهم لا لكونهم أعزّ من الأمم البائدة أو أفضل حالاً منهم ، كما قال تعالى : ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ [غافر : 21] الآية ، وفي هذا تهديد بأن الله قد يصيبهم بذنوبهم في المستقبل ، إذ لا يصده عن ذلك غالبٌ ، والمعنى : أغرهم تأخّر العذاب مع تكذيبهم فحسبوا أنفسهم في منعة منه ، ولم يهتدوا إلى أن انتفاء نزوله بهم معلق على انتفاء مشيئتنا وقوعَه لحكمة ، فما بينهم وبين العذاب إلاّ أن نشاء أخذهم ، والمصدر الذي تفيده (أن) المخففة ، إذا كان اسمها ضمير شأن ، يقدر ثُبوتاً متصيّداً مما في (أنْ) وخبرها من النسبة المؤكدة ، وهو فاعل ﴿ يَهِد ﴾ فالتقدير في الآية : أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ثبوتُ هذا

الخبر المُهم وهو ﴿ لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ .

والمعنى : اعْجَبوا كيف لم يهتدوا إلى أن تأخير العذاب عنهم هو بمحض مشيئتنا وأنه يحق عليهم عندما نشاؤه .

(164/280)

وجملة : ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ ليست معطوفة على جملة : ﴿ أصبناهم ﴾ حتى تكون في حكم جواب (لو) لأن هذا يفسد المعنى ، فإن هؤلا الذين ورثوا الأرض من بعد أهلها قد طُبع على قلوبهم فلذلك لم تُجْدِ فيهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم مُنذ بُعث إلى زمن نزول هذه السورة ، فلو كان جواباً ل (لو) لصار الطبع على قلوبهم ممتنعاً وهذا فاسد ، فتعين : إما أن تكون جملة ﴿ ونطبع ﴾ معطوفة على جملة الاستفهام برُمَتها فلها حكمها من العطف على أخبار الأمم الماضية والحاضرة .

والتقدير : وطَبَعنا على قلوبهم ، ولكنه صيغ بصيغة المضارع للدلالة على استمرار هذا الطبع وازدياده آنا فآنا ، وإمّا أن تجعل (الواو) للاستئناف والجملة مستأنفة ، أي : ونحن نطبع على قلوبهم في المستقبل كما طبعنا عليها في الماضي ، ويُعرف الطبع عليها في الماضي بأخبار أخرى كقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم ﴾ [البقرة : 6] الآية ،

فتكون الجملة تذييلاً لتنهية القصة ، ولكن موقع الواو في أول الجملة يرجح الوجه الأول ، وكأن صاحب "المفتاح" يأبى اعتبار الاستئناف من معاني الواو .

وجملة : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ معطوفة بالفاء على ﴿ نطبع ﴾ متفرعاً عليه ، والمراد بالسماع فهم مغزى المسموعات لا استكاك الآذان ، بقرينة قوله : ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ .

وتقدم معنى الطبع عند قوله تعالى : ﴿ بَلْ طبع الله عليها بكفرهم ﴾ في سورة النساء (155) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(165/280)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

و ﴿ يَهْدِ ﴾ أي يبين للذين يرثون الأرض طريق الخير ، ومعنى ﴿ يَرِثُونَ الأرض مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾ أن الأرض كانت مملوكة لسواهم ، وهم جاءوا عقبهم . وحين يستقرئ الإنسان الوجود الحضاري في الكون يجد أن كل حضارة جاءت على أنقاض حضارة ، وما في يدك وملكك جاء على أنقاض ملك غيرك ، والذي يأتي على أنقاض الغير يسمى إرثاً ، وما دمتم

قد رأيتم أنكم ورثتم عن غيركم كان يجب أن يظل في بالكم أن غيركم سيرثكم .

إذن فالمسألة دُوَلٌ ، ويجب ألا يغتر الإنسان بموقع أو منصب ، ونحن نرى في حياتنا من يحتل منصباً كبيراً ، ثم يُقال ويعزل عن منصبه ، أو يحال إلى التقاعد ويأتي آخر من بعده .

ولذلك يقال : لو دامت لغيرك ما وصلت إليك . فإن كنت صاحب مكانة وقد أحسنت الدخول إلى وضعك وإلى جاهك ، وإلى منصبك ؛ فيجب أن تفطن وتتذكر الخروج قبل الدخول إلى هذا المنصب حتى لا يعز عليك فراقه يوماً .

واحذر أن تحسن الدخول في أمر قبل أن تحاول أن تحسن الخروج منه .

واستمع إلى قول الشاعر في هذا المعنى :

إن الأمير هو الذي يُمسي أميراً يوم عزلهْ . . . إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطانُ فضلِهْ

وحين يقول الحق : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرض ﴾ .

(166/280)

نلحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هنا على وضع المفعول ، فلم يقل : أو لم يهد الذين ، بل قال : ﴿ يَهْدِ لِلَّذِينَ ﴾ ، فما الحكمة في ذلك ؟ . نعرف أن " الهداية " هي الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، وقد تعود فائدته عليك ، أي أنك قد هَدَيْت غيرك لصالحك . وقد تكون

الهداية وهي الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذي هَدَى وعلى المَهْدِيّ معاً ، لكن إذا كانت الهداية لا تعود إلا لك أنت ، ولا تعود على مَن هداك ، أتشك في هدايته لك ؟ لا ، إن من حقك أن تشك في الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هَدَى ، أو يعود أمرها على الاثنين ؛ ففي ذلك شبهة لمصلحة ، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يَهْدِي ويعود كله لمن يُهْدَي فليس في ذلك أدنى شك .

ولذلك يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي :

" . . . يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المَخْيط إذا أُدْخِلَ البحر " .

إذن فحين يهديهم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذي يعود عليه سبحانه من صفات بهذا العمل ؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه ، فلن ينشئ خلقه لكم صفة من صفات الكمال زائدة على ما هو له ، وهكذا نرى أن كل هداية راجعة إلى المَهْدِيّ . وبذلك يتأكد قوله : ﴿ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض ﴾ ما هو مصلحتهم . ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض مِن بَعْدِ

أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : 100]

(167/280)

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن المشيئة يقول : ﴿ لَّوْ نَشَآءُ ﴾ ويحدد أسباب المشيئة وهو قوله : ﴿ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، وهكذا نعلم أن المشيئة ليست مشيئة ربنا فقط لا ، بل هي أيضاً مشيئة العباد الذين ميزهم بالاختيار ، وسبحانه يقول : ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ الله لَهَدَى الناس جَمِيعاً . . . ﴾ [الرعد : 31]

وما الذي يمنعه سبحانه أن يشاء هداية الناس جميعاً ؟ . لا أحد يمنع الخالق ، ولكنه سبحانه خلق خلقاً مهديين بطبيعتهم ، لا قدرة لهم على المعصية وهم الملائكة ، وجعل سائر أجناس الأرض مسخرة مسبحة ، وذلك يثبت صفة القدرة ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن مراد الله ، ولكن هذا لا يعطي صفة المحبوبية للمشرع الأعلى ، ثم إنه – سبحانه – خلق خلقاً لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا .

فالمخلوق الذي اختصه سبحانه بقدرة الاختيار في أن يؤمن وأن يكفر ، وأن يطيع وأن يعصي ، ثم آمن يكون إيمانه دليلا على إثبات صفات المحبوبية للإله .

إذن المقهورون على الفعل أثبتوا القدرة ، والمختارون الفعل أثبتوا المحبوبية للمشروع الأعلى ، ويتابع سبحانه في الآية نفسها : ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ . [الأعراف : 100]

ونلحظ أن الحق لم يقل أنه لو نشاء أصبناهم لذنوبهم وذلك رحمة منه ، بل جعل العقاب بالذنوب التي يختارونها هم ، وكذلك جعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار . وسبق أن تكلمنا في أول سورة البقرة . عن كلمة " الطبع " ؛ وهو الختم : ﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ . . . ﴾ [البقرة : 7]

(168/280)

لأن القلوب وعاء اليقين الإِيماني ؛ فحين يملأ إنسان وعاء اليقين الكفر ، فهذا يعني أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده ؛ لذلك يساعده الله على مراده ، وكأنه يقول له : أنا سأكون على مرادك ، ولذلك أطبع على قلبك فلا يخرج ما فيه من الكفر ، ولا يدخل فيه ما خرج منه من الإِيمان الفطري الذي خلق الله الناس عليه . لأنك أنت قد سَبَّقت ووضعت في قلبك قضية يقينية على غير إيمان ؛ لأن أصول الإِيمان أن تُخْرِج ما في قلبك من أي اعتقاد ، ثم تستقبل الإِيمان بالله ، ولكنك تستقبل الكفر وترجحه على الإِيمان .

إن الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه : قلب يؤمن ، وقلب لا يؤمن ، بل جعل قلباً واحداً ، والقلب الواحد حيز ، والحيز – كما قلنا – لا تداخل للمحيَّز فيه ؛ فحين نأتي بزجاجة فارغة ونقول : إنها " فارغة " فالذي يدل على كذب هذه الكلمة أننا حين نضع فيها المياه تخرج منها فقاقيع الهواء ، وخروج فقاقيع الهواء هو الذي يسمح بدخول المياه فيها ؛ لأن الزجاجة ليست فارغة ، بل يخيل لنا ذلك ؛ لأن الهواء غير مرئي لنا .

ولو كانت الزجاجة مفرغة من الهواء دون إعداد دقيق قي صناعتها لتلك المهمة لكان من الحتمي أن تنكسر . والقلب كذلك له حيز إن دخل فيه الإيمان بالله لا يسع الكفر ، وإن دخل فيه الكفر – والعياذ بالله لا يسع الإيمان ، والعاقل هو من يطرح القضيتين خارج القلب ، ثم يدرس هذه ويدرس تلك ، وما يراه مفيداً لحياته ولآخرته يسمح له بالدخول . أما أن تناقش قضية الإيمان بيقين قلبي بالكفر فهذه عملية لا تؤدي إلى نتيجة . ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : 100]

(169/280)

أي أو لم يتبيّن للذين يُستخلفون في الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم بما فعلوا من المعاصي والكفر فسار هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلنا بمن قبلهم وقوله : ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي السماع المؤدي إلى الاعتبار والاتعاظ فكأنهم لم يسمعوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(170/280)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (100) ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ أو لم يهد ﴾ قال : أو لم يبين .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عي مجاهد في قوله ﴿ أو لم يهد ﴾ قال : يبين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ قال : المشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(171/280)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ يريدُ كبراء مكَّةَ .

قرأ الجمهور : "يَهْد " بالياء من تحت ، وفي فاعله حينئذ ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنَّهُ المصدرُ المؤوَّلُ من " أن " وما في حيِّزها ، والمفعول محذوفٌ ، والتقديرُ : أولم يهد أي يبين ويوضح للوارثين مآلهم وعاقبة أمرهم ، وإصابتنا إيَّاهُم بذنُوبِهم لو شئنا ذلك ، فقد سبكنا المصدر من " أنْ " ومن جواب لو .

والثاني : أنَّ الفاعل هو ضميرُ الله تعالى ، أي : أولم يبيِّن الله ويُؤيِّدُه قراءةُ من قرأ " نَهْدِ " بالنون .

الثالث : أنَّهُ ضمير عائدٌ على ما يفهم من سياق الكلام ، أي : أولم يهد ما جرى للأمم السَّالِفَةِ كقولهم : إذا كَانَ غَداً فأتني أي : إذا كان ما بيني وبينك مما دلَّ عليه السِّياق .

وعلى هذين الوجهين ، فـ " أنْ " وما في حيّزها بتأويلِ مصدر كما تقدّم في محلِّ المفعُول والتَّقديرُ : أو لم يبين ويوضّح الله أو ما جرى لأمم إصابتنا إيَّاهُم بذنوبهم أي : بعقاب ذنوبِهم لو شئنا ذلك .

وقرأ مُجاهدٌ وقتادةُ ويعقوبُ : " نَهْدِ " بنون العَظَمَةِ و " أنْ " مفعولٌ فقط ، و " أنْ " هي المخفَّفةُ من الثَّقيلة و " لَوْ " فاصلةٌ بينها وبين الفِعْلِ ، وقد تقدَّم أنَّ الفصل بها قليل .

و " نَشَاءُ " وإن كان مُضَارعاً لفظاً فهو ماضٍ معنى ؛ لأنَّ " لو " الامتناعية تخلِّصُ المضارع للمُضِيِّ .

وفي كلام ابن الأنْبَاريِّ خلافه ، فإنَّهُ قال في " ونَطْبَعُ " : " هذا فعل مستأنفٌ ومنقطعٌ مما قبله ؛ لأنَّ قوله : " أصَبْنَا " ماضٍ و " نَطْبع " مستقبل ثم قال : ويجوزُ أن يكون معطوفاً على " أصَبْنَا " إذ كان بمعنى نُصِيبُ ، والمعنى : " لو يَشَاءُ يصيبهم ويطبع " ، فوضع الماضي موضعَ المستقبلِ عند وضوح معنى الاستقبال كقوله تعالى : ﴿ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ [الفرقان : 10] [أي :] يجعلُ ، بدليل قوله : " ويَجْعَل لَكَ " ، وهذا ظَاهِرٌ قَوِيٌّ في أن " لَوْ " هذه لا تخلِّصُ المضارع للمضيّ ، وتنظير بالآية الأخْرَى مُقَوِّل أيضاً ، وسيأتي تحقيقُ ذلك عند قوله : " ونَطْبَعُ "

وقال الفرَّاءُ : " وجاز أنْ تَرُدَّ "يَفْعل" [على فَعَلَ] في جواب " لو " كقوله : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ﴾ [يونس : 11] فقوله : " فَنَذَرُ " مردود على " لقضى " ، وهذا قول الجمهور ، ومفعول "يَشَاءُ" محذوف لدلالةِ جواب " لو " عليه ، والتَّقديرُ : لو يشاء تعذيبهم ، أو الانتقام منهم .

وأتى جوابها بغير لام ، وإن كان مبنيّاً على أحد الجائزين وإن كان الأكثر خلافه ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾

[الواقعة : 70] .

قوله : " ونَطْبَعُ " في هذه الجملة أوْجُهٌ :

أحدها : أنَّها نسقٌ على " أصَبْنَاهم " وجاز عطف المضارع على الماضي ؛ لأنَّهُ بمعناه ، وقد تقدَّم أنَّ " لو " تخلِّص المضارع للمُضِيِّ ، ولما حكى أبو حيَّان كلام ابن الأنْبَارِيْ المتقدم قال : " فَجَعل " لو " شرطيّةً بمعنى " إنْ " ولم يجعلها التي هي لِما كان سيقعُ لوقوع غيره ، ولذلِكَ جعل " أصَبْنَا " بمعنى نُصِيبُ .

ومثال وقوع " لو " بمعنى " إن " قوله : [الكامل]

2533 - لا يُلْفِكَ الرَّاجيكَ إلاَّ مُظْهِراً . . .

خُلُقَ الكِرَامِ ولَوْ تكُونُ عَدِيمَا

وهذا الذي قاله ابن الأنباريّ ردَّهُ الزَّمخشريُّ من حيث المعنى ، لكن بتقدير : أن يكون " وَنَطْبَعُ " بمعنى " طَبَعنا " فيكون قد عطف المضارع على المَاضِي لكَوْنِهِ بمعنى المضاي

وابن الأنباري جعل التَّأويل في " أصَبْنَا " الذي هو جواب " لو نَشَاءُ " فجعله بمعنى " نُصِيبُ " فتأوَّلَ المعطوف عليه وهو الجوابُ ، وردَّهُ إلى المستقبل ، والزمخشريُّ تأوَّلَ المعطوف وردَّهُ إلى المضي وأنتج ردُّ الزَّمخشري أنَّ كلا التقديرين لا يصحُّ " .

قال الزمخشريُّ : " فإن قلت : هل يجوز أن يكون " وَنَطْبَعُ " بمعنى " طَبَعْنَا " كما كان " لَوْ نَشَاءُ " بمعنى " لَوْ شِئْنَا " ويعطف على " أصَبْنَاهُم " ؟

(173/280)

قلت : لا يساعدُ على المعنى ؛ لأنَّ القَوْمَ كانوا مطبوعاً على قلوبهم ، موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذُّنوب والإصابةِ بها ، وهذا التَّفسيرُ يؤدّي إلى خلوِّهِم من هذه الصِّفةِ ، وأن الله لو شاء لاتَّصَفُوا بها " .

قال أبو حيَّان : " وهذا الرَّدُّ ظَاهِرُ الصِّحَّةِ ، وملخصهُ : أن المعطوفَ على الجوابِ جوابٌ ، سواءً تأوَّلْنَا المعطوف عليه أم المعطوف ، وجواب " لو " لم يقع بَعْدُ ، سواءً كانت حرفاً لما كان سيقعُ لوقوع غيره أمْ بمعنى " إن " الشَّرطية ، والإصابة لم تقع ، والطَّبْعُ على القلوب واقعٌ

، فلا يَصِحُّ أن تعطف على الجوابِ .

فإن تؤوّل " ونُطِبعُ " على معنى : ونستمرُّ على الطَّبْعِ على قلوبهم ، أمكن التَّعاطف ؛ لأنَّ الاستمرار لم يقع بعدُ ، وإن كان الطَّبْعُ قد وقع " .

قال شهابُ الدّين : " فهذا الوجه الأوّلُ ممتنعٌ لما ذكره الزَّمخشريّ " .

ونقل ابنُ الخطيب عن الزَّمَخْشَري أنَّهُ قال : " ولا يجوز أن يكون معطوفاً على " أصَبْنَاهُمْ " ؛ لأنَّهم كانوا كُفَّاراً ، إذْ كل كَافِرٍ فهو مَطْبُوعٌ على قلبه ، فقوله بعد ذلك : ﴿ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ يَجْرِي مَجْرَى تحصيل الحاصلِ وهو مُحَالٌ " .

قال ابن الخطيب : " وهذا ضَعِيفٌ ؛ لأنَّ كونه مطبوعاً عليه في الكفر لم يكن هذا منافياً لصِحَّةِ العطفِ " .

الوجه الثاني : أن يكون " نَطْبَعُ " مستأنفاً ، ومنقطعاً عمَّا قبله فهو في نيَّةِ خبر مبتدأ مَحْذُوفٍ أ : ونحن نَطْبَعُ .

وهذا اختيار الزَّجَّاج والزمخشري وجماعة .

الثالث : أن يكون معطوفاً على " يَرِثُونَ الأرْضَ " قال الزَّمَخْشَرِيُّ .

قال أبو حيَّان : " وهو خطأٌ ؛ لأنَّ المعطوف على الصِّلةِ صلةٌ ، و" يَرِثُونَ " صلة لـ " الَّذين " ؛ فَيَلْزِمُ الفصلُ بين أبعاض الصِّلة بأجنبي ، فإن قوله : ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ ﴾ إمَّا فاعل لـ " يَهد " أو مفعوله كما تقدم وعلى كلا التقديرْينِ فلا تعلق له بشيء من الصِّلة ، وهو أجنبيٌّ منها ، فلا يفصل به بين أبعاضها ، وهذا الوجْهُ مؤدٍّ إلى ذلك فهو خطأ " .

الرابع : أن يكون معطوفاً على ما دَلَّ عليه معنى " أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ " كأَنَّهُ قيل : يغفلون عن الهداية ، ونَطْبَعُ على قُلُوبِهم قاله الزَّمخشريُّ أيضاً .

قال أبو حيَّان : " وهو ضعيف ؛ لأَنَّه إضمار لا يحتاج إليه ، إذْ قد صحَّ عطفه على الاستِئْنافِ من باب العطفِ على الجُمَلِ ، فهو معطوف على مَجْمُوع المصدَّرة بأداء الاستفهام ، وقد قاله الزَّمخْشَرِيُّ وغيره .

وقوله : ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أتى بـ " الفاء " هنا إيذاناً بتعقيب عدم سماعهم على أثَرِ الطَّبْع على قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 238 . 240 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (100) ﴾

أَوَلا يعلم المغترون بطول سترنا أَنْ لو أردنا لعجَّلنا لهم الانتقام ، أو بلغنا فيهم الاصطلام ، ثم

لا ينفعهم ندم ، ولا يُشْكى عنهم ألم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 554 ﴾

(175/280)

قوله تعالى ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (101) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضى ذلك على هذا الوجه الأعظم والنظم الأبلغ الأحكم ، وكانت هذه القرى بحيث تعرفها العرب ويرونها ، أشار إليهم حثّاً على الاعتبار بهم ، ولما كان أهلها جديرين بالبعد عنهم والهرب منهم ، عبر عنهم بأداة البعد فقال : ﴿ تلك القرى ﴾ أي محالّ القبائل الخمس ، ويجوز أن يكون البعد لعظمة ما حصل لأهلها من العذاب ، ويؤيده قوله مبيناً لحالها : ﴿ نقص عليك ﴾ .

ولما كان العاقل من يكفيه أدنى شيء ، هوّل الأمر بأن أخبارها تفوت الحصر ، وأن ما قص منها يكفي المعتبر ، فقال : ﴿ من أنبائها ﴾ أي أخبارها العظيمة الهائلة المطابقة للواقع

شيئاً بعد شيء كما يفعل من يتتبع الأثر ، وأنث الضمير لأن لرؤية القرى أنفسها مدخلاً في معرفة أخبار أهلها .

ولما كان المقام مقام العجب من التكذيب بعد ذلك البيان ، كان ربما تخيل متخيل أنهم لم يؤتوا بالبيان الشافي ، فشهد الله تعالى للرسل عليهم السلام تصديقاً لمن قال مهم : قد جاءتكم بينة ، بقوله : ﴿ ولقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ جاءتهم ﴾ أي أهل القرى لأنهم المقصودون بالذات ﴿ رسلهم ﴾ أي الذين أرسلناهم إليهم ﴿ بالبينات فما ﴾ أي فلم يتسبب عن ذلك بسبب طبعنا على قلوبهم إلا أنهم ما ﴿ كانوا ﴾ موفقين ﴿ ليؤمنوا ﴾ أي عند مجيئها ، وقد أكد منافاة حالهم الإيمان باللام والكون أتم تأكيد ﴿ بما ﴾ أي بالذي ﴿ كذبوا ﴾ أي به ، وحذفها أدل على الزجر من مطلق التكذيب وأوفق لمقصود السورة .

ولما كان تكذيبهم غير مستغرق للزمان الماضي ، أدخل الجارّ فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل مجيء الرسل إليهم أو بتكذيبهم الواقع منهم للرسل فيما أتوا به عن الله من قبل الأخذ بغتة ، أو من قبل مجيء الرسل بالآيات ، فإنهم أول ما جاؤوهم فاجؤوهم بالتكذيب ، فجوزوا على تكذيب الحق من غير نظر في دليل بالطبع على قلوبهم فأتوهم .

(176/280)

بالمعجزات فأصروا على ذلك التكذيب ووقفوا لذلك الطبع مع حظوظهم ، ومنعتهم شماختهم وشدة شكائمهم عن الإيمان لئلا يقال : إنهم خافوا أولا فيما وقع منهم من التكذيب فكانوا فيه على غير بصيرة ، أو إنهم خافوا ثانياً ما قرعتهم به الرسل من الوعيد ، فدخلوا جبناً فيما يعلمون بطلانه ، فكان تزيين هذا لهم طبعاً على قلوبهم ، فكأنه قيل : إن هذا العجب هل يقع في مثل ذلك أحد ؟ فقيل : نعم ، مثل ما طبعنا على قلوبهم حتى صارت مع الفهم لا تنتفع ، فكأنها لا تفهم فكأنها لا تسمع ﴿ كذلك يطبع الله ﴾ أي الجامع لصفات الكبر ونعوت الجلال بما يجعل من الرين بما له من العظمة ﴿ على قلوب الكافرين ﴾ أي كل من يغطي ما أعطاه الله من نور العقل بما تدعوه إليه نفسه من الهوى عريقاً في الاتصاف بذلك فيترك آيات الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 76 . 77 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾ قوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ مبتدأ ﴿ والقرى ﴾ صفة و ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ خبر ، والمراد بتلك القرى قرى الأقوام الخمسة الذين وصفهم فيما سبق ، وهم : قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، نقص عليك من أخبارها كيف أهلكت .

وأما أخبار غير هؤلاء الأقوام ، فلم نقصها عليك ، وإنما خص الله أنباء هذه القرى لأنهم

اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم فتوهموا أنهم على الحق ، فذكرها الله تعالى تنبيهاً لقوم محمد عليه الصلاة والسلام عن الاحتراز من مثل تلك الأعمال .

ثم عزاه الله تعالى بقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ يريد الأنبياء الذين أرسلوا إليهم وقوله : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ فيه قولان : الأول : قال ابن عباس والسدي : فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا به يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم ، فآمنوا كرهاً ، وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب .

(177/280)

الثاني : قال الزجاج : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ بعد رؤية المعجزات بما كذبوا به قبل رؤية تلك المعجزات .

الثالث : ما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل إهلاكهم ، ونظيره قوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأَنعام : 28] الرابع : قبل مجيء الرسول كانوا مصرين على الكفر ، فهؤلاء ما كانوا ليؤمنوا بعد مجيء الرسل أيضاً .

الخامس : ليؤمنوا في الزمان المستقبل .

ثم إنه تعالى بين السبب في عدم هذا القبول فقال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على قُلُوبِ الكافرين ﴾ قال الزجاج : والكاف في ﴿ كذلك ﴾ نصب ، والمعنى : مثل ذلك الذي طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية ، يطبع على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم أن لا يؤمنوا أبداً والله أعلم بحقائق الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 153 ﴾

(178/280)

وقال السمرقندى :

قوله عز وجل : ﴿ تِلْكَ القرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾

أي تلك القرى التي أهلكنا أهلها ، نخبرك في القرآن من حديثها ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ يعني : بالعلامات الواضحة ، والبراهين القاطعة ، التي لو اعتبروا بها لاهتدوا . ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ يعني : إنّ أهل مكة لم يصدقوا بما كذب به الأمم الخالية .

وقال مجاهد : فما كانوا ليؤمنوا بعد العذاب بما كذبوا من قبل وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ [الأنعام :

28] وقال السدي : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي يوم الميثاق فما كانوا ليؤمنوا في دار الدنيا بما كذبوا من قبل يوم الميثاق وأقروا به .

وهو قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بنى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ [الأعراف : 172] ثم في الدنيا ما وجدناهم على ذلك الإقرار .

ويقال : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ عند مجيء الرسل ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ مجيء الرسل معناه أن مجيء الرسل لم ينفعهم .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله ﴾ يعني : هكذا يختم الله تعالى ﴿ على قُلُوبِ الكافرين ﴾ مجازاة لكفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(179/280)

وقال الثعلبى :

﴿ تِلْكَ القرى ﴾

هذه القرى التي ذكرت لك وأهلكناهم وهي قرى نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا ﴾ نخبرك أخبارها ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ [بالآيات

والعلامات والدلالات] ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ اختلف في تأويله .

قال أُبي بن كعب : معناه فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق في علم الله أنّهم يكذّبون به يوم أقرّوا له بالميثاق حين أخرجهم من صلب آدم .

وقال ابن عباس والسدي : يعني فما كان هؤلاء الكفار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذ ميثاقهم حتّى أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهاً وأقروا باللسان وأظهروا التكذيب .

وقال مجاهد : معناه فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ورددناهم إلى الدنيا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم كقوله ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] وقال يمان بن رئاب : هذا معنى أنّ كلّ نبي أخذ قومه بالعذاب ما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأُمم الكفار بل كذّبوا كما كذب نظير قوله ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ﴾ [الذاريات : 52-53] .

وقيل : معناه : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ يعني بالمعجزات والعجائب التي سألوهم فما كانوا ليؤمنوا بعد ما رأوا الآيات والعجائب بما كذبوا به من قبل رؤيتهم تلك العجائب نظيره قوله ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ ﴾ [المائدة : 102] ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ [الإسراء : 59] .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على قُلُوبِ الكافرين ﴾ الذين كتب عليهم أن لا يؤمنون من قومك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(180/280)

وقال ابن عطية :

﴿ تلك ﴾ ابتداء ، و ﴿ القرى ﴾ قال قوم هو نعت والخبر ﴿ نقصّ ﴾ ويؤيد هذا أن القصد إنما الإخبار بالقصص .

قال القاضي أبو محمد : والظاهر عندي أن ﴿ القرى ﴾ هي خبر الابتداء ، وفي ذلك معنى التعظيم لها ولمهلكها ، وهذا كما قيل في ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 2] أنه ابتداء وخبر ، وكما قال صلى الله عليه وسلم " أولئك الملأ " ، وكقول أبي الصلت تلك المكارم وهذا كثير ، وكأن في اللفظ معنى التحسر على القرى المذكورة ، والمعنى : نقص عليك من أنباء الماضين لتتبين العبر وتعلم المثلات التي أوقعها الله بالماضين ثم ابتدأ الخبر عن جميعهم بقوله ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذا الكلام يحتمل أربعة وجوه من التأويل ، أحدها أن يريد أن الرسول جاء لكل فريق منهم فكذبوه لأول أمره ثم استبانت حجته وظهرت الآيات الدالة

على صدقه مع استمرار دعوته فلجّوا هم في كفرهم ولم يؤمنوا بما تبين به تكذيبهم من قبل ، وكأنه وصفهم على هذا التأويل باللجاج في الكفر والصرامة عليه ويؤيد هذا قوله ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ ويحتمل في هذا الوجه أن يكون المعنى فما كانوا ليؤمنوا أي ما كانوا ليوفقهم الله إلى الإيمان بسبب أنهم كذبوا قبل فكان تكذيبهم سبباً لأن يمنعوا الإيمان بعد ، والثاني من الوجوه أن يريد فما كان آخرهم في الزمن والعصر ليهتدي ويؤمن بما كذب به أولهم في الزمن والعصر ، بل كفر كلهم ومشى بعضهم عن سنن بعض في الكفر .

(181/280)

قال القاضي أبو محمد : أشار إلى هذا القول النقاش ، فكأن الضمير في قوله ﴿ كانوا ﴾ يختص بالآخرين ، والضمير في قوله ﴿ كذبوا ﴾ يختص بالقدماء منهم ، والثالث من الوجوه يحتمل أني ريد فما كان هؤلاء المذكورون بأجمعهم وقرنه بقوله تعالى : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] وهذه أيضاً صفة بليغة في اللجاج والثبوت على الكفر ، بل هي غاية في ذلك ، والرابع من الوجوه أنه يحتمل أن يريد وصفهم بأنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما قد سبق في علم الله تعالى أنهم مكذبون به ، فجعل سابق القدر عليهم بمثابة تكذيبهم بأنفسهم لا سيما وقد خرج تكذيبهم إلى الوجود في وقت مجيء الرسل ، وذكر

هذا التأويل المفسرون وقرنوه بأن الله عز وجل حتم عليهم التكذيب وقت أخذ الميثاق ، وهو قول أبي بن كعب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(182/280)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾

فيه خمسة أقوال .

أحدها : فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق في علم الله أنهم يكذِّبون به يوم أقروا به بالميثاق حين أخرجهم من صلب آدم ، هذا قول أُبيِّ بن كعب .

والثاني : فما كانوا ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذِّبوا به يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من صلب آدم ، فآمنوا كرهاً حيث أقروا بالألسن ، وأضمروا التكذيب ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثالث : فما كانوا لو رددناهم إلى الدنيا بعد موتهم ليؤمنوا بما كذَّبوا به من قبل هلاكهم ، هذا قول مجاهد .

والرابع : فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّب به أوائلهم من الأمم الخالية ، بل شاركوهم في التكذيب ،

قاله يمان بن رباب .

والخامس : فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذَّبوا قبل رؤيتها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ القرى ﴾

أي هذه القرى التي أهلكناها ؛ وهي قرى نُوحٍ وعادٍ ولُوطٍ وهُودٍ وشُعَيْب المتقدّمة الذكر .

﴿ نَقُصُّ ﴾ أي نتلو .

﴿ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا ﴾ أي من أخبارها .

وهي تسلية للنبيّ عليه السلام والمسلمين .

﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ أي فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم ؛ قاله مجاهد .

نظيره ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ ﴾ [الأنعام : 28] .

وقال ابن عباس والرّبيع : كان في علم الله تعالى يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون بالرسل .

﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ يريد يوم الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهاً لا طوعاً .

قال السدي : آمنوا يوم أخذ عليهم الميثاق كرهاً فلم يكونوا ليؤمنوا الآن حقيقة .

وقيل : سألوا المعجزات ، فلما رأوها ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤية المعجزة .

نظيره ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 110] .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الكافرين ﴾ أي مثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(183/280)

وقال الخازن :

﴿ تلك القرى ﴾

يعني هذه القرى التي ذكرنا لك يا محمد أمرها وأمر أهلها وهي قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ﴿ نقصّ عليك من أنبائها ﴾ يعني نخبرك عنها وعن أخبار أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين أرسلوا إليهم لتعلم يا محمد إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائنا وأعدائهم من أهل الكفر والعناد وكيف أهلكناهم بكفرهم وبمخالفتهم رسلهم ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتحذير لكفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصابهم ﴿ ولقد جاءتهم ﴾ يعني لأهل تلك القرى ﴿ رسلهم بالبينات ﴾ يعني جاءتهم

رسلهم المعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ اختلف أهل التفسير في معنى ذلك فقيل : معناه فما كانوا هؤلاء المشركين الذين أهلكناهم من أهل القرى ليؤمنوا عند إرسالنا إليهم رسلهم بما كذبوا من قبل ذلك وهو يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم عليه السلام فأقروا باللسان وأضمروا التكذيب وهذا معنى قول ابن عباس والسدي .

قال السدي : آمنوا كرهاً يوم أخذ الميثاق ، وقال مجاهد : ما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ومعاينتهم العذاب ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هلاكهم وقيل معناه فما كانوا يؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق لهم في علم الله أنهم يكذبون به حين أخرجهم من صلب آدم عليه الصلاة والسلام .

قال أبيّ بن كعب : كان سبق لهم في علمه يوم أقروا له بالميثاق أنهم لا يؤمنون به وقال الربيع بن أنس يحق على العباد أن يأخذوا من العلم ما أبدى لهم ربهم وأن لا يتأولوا علم ما أخفى الله تعالى عنهم فإن علمه نافذ فيما كان وفيما يكون وفي ذلك قال تعالى : ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ قال : نفذ علمه فيهم أيهم المطيع من العاصي حيث خلقهم في صلب آدم عليه الصلاة والسلام .

قال الطبري : وأولى الأقوال بالصواب قول أبيّ بن كعب والربيع بن أنس وذلك أن من سبق في علم الله أنه لا يؤمن به فلا يؤمن أبداً وقد كان سبق في علم الله لمن هلك من الأمم الذين قص خبرهم في هذه السورة أنهم لا يؤمنون أبداً فأخبر عنهم أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم مكذبون به في سابق علمه قبل مجيء الرسل عند مجيئهم إليهم ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ يعني كما طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية وأهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون من قومك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(185/280)

وقال أبو حيان :

﴿ تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ﴾

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم و ﴿ القرى ﴾ هي بلاد قوم نوح وهود وصالح وشعيب بلا خلاف بين المفسرين وجاءت الإشارة بتلك إشارة إلى بعد هلاكها وتقادمه وحصل الرّبط بين هذه وبين قوله و ﴿ لو أن أهل القرى ﴾ ﴿ ونقص ﴾ يحتمل إبقاؤه على

حاله من الاستقبال والمعنى قد قصصنا عليك ﴿ من أنبائها ﴾ ونحن نقصّ عليك أيضاً منها مفرقاً في السّور ويجوز أن يكون عبر بالمضارع عن الماضي أي ﴿ تلك القرى ﴾ قصصنا والأنباء هنا إخبارهم مع أنبيائهم ومآل عصيانهم ، و ﴿ تلك ﴾ مبتدأ ﴿ والقرى ﴾ خبر ﴿ ونقص ﴾ جملة حالية نحو قوله

﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾ وفي الإخبار بالقرى معنى التعظيم لمهلكها ، كما قيل في قوله تعالى ﴿ ذلك الكتاب ﴾ وفي قوله عليه السلام " أولئك الملأ من قريش " وكقول أمية .

تلك المكارم لا قعبان من لبن . . .

ولما كان الخبر مقيّداً بالحال أفاد كالتقييد بالصفة في قولك هو الرجل الكريم وأجازوا أن يكون ﴿ نقص ﴾ خبراً بعد خبر وأن يكون خبراً ﴿ والقرى ﴾ صفة ومعنى ﴿ من ﴾ التبعيض فدلّ على أنّ لها أنباء أخر لم تقصّ عليه وإنما قصّ ما فيه عظة وازدجار وادكار بما جرى على من خالف الرّسل ليتّعظ بذلك السامع من هذه الأمة .

﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ قال أبي بن كعب ليؤمنوا اليوم بما كذبوا من قبل يوم الميثاق ، وقال ابن عباس ما كانوا ليخالفوا علم الله فيهم ، وقال يمان بن رئاب بما كذبوا أسلافهم من الأمم الخالية لقوله ﴿ ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا ساحر أو مجنون ﴾ فالفعل في ﴿ ليؤمنوا ﴾ لقوم وفي ﴿ بما كذبوا ﴾ لقوم آخرين .

وقيل ﴿ جاءتهم رسلهم ﴾ بالمعجزات التي اقترحوها ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ بعد المعجزات ﴿ بما كذبوا ﴾ به قبلها كما قال ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ ، وقال الكرماني : ﴿ من قبل ﴾ يعود على الرسل تقديره من قبل مجيء الرسل لم يسلب عنهم اسم الكفر والتكذيب بل بقوا كافرين مكذبين كما كانوا قبل الرسل ، قال الزمخشري : فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله قبل مجيء الرسل أو مما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حتى جاءتهم الرسل أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن باتوا مصرّين لا يرعوون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات وقال ابن عطية : يحتمل أربعة وجوه من التأويل ، أحدها أن يريد أن الرسول جاء لكل فريق منهم فكذّبوه لأول أمره ثم استبانت حجته وظهرت الآيات الدالة على صدقه مع استمرار دعوته فلجّوا هم في كفرهم ولم يؤمنوا بما سبق به تكذيبهم من قبل وكأنه وصفهم على هذا التأويل باللجاج في الكفر والصّرامة عليه ويؤيد هذا التأويل قوله ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ ويحتمل في هذا الوجه أن يكون المعنى فما كانوا ليوفقهم الله إلى الإيمان بسبب أنهم

كذبوا من قبل فكان تكذيبهم سبباً لأن يمنعوا الإيمان بعد .

والثاني من الوجوه أن يريد فما كان آخرهم في الزمن والعصر ليهتدي ويؤمن بما كذب به أولهم في الزمن والعصر بل كفر كلهم ومشى بعضهم على سنن بعض في الكفر أشار إلى هذا القول النقاش ، فكان الضمير في قوله ﴿ كانوا ﴾ يختص بالآخرين والضمير في قوله ﴿ كذبوا ﴾ يختص بالقدماء منهم ، والثالث من الوجوه يحتمل أن يريد فما كان هؤلاء المذكورون بأجمعهم لو ردّوا إلى الدنيا ومكنوا من العودة ليؤمنوا بما قد كذبوا به في حال حياتهم ودعا الرسول لهم قاله مجاهد وقرّبه بقوله تعالى

(187/280)

﴿ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ وهذه أيضاً صفة بليغة في اللحاج والثبوت على الكفر بل هي غاية في ذلك .

والرابع من الوجوه أنه يحتمل أن يريد وصفهم بأنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما قد سبق في علم الله تعالى بأنهم مكذبون به فحمل سابق القدر عليهم بمثابة تكذيبهم بأنفسهم لا سيما وقد خرج تكذيبهم إلى الوجود في وقت مجيء الرّسل وذكر هذا القول المفسرون وقربوه بأن الله تعالى حتم عليهم التكذيب وقت أخذ الميثاق وهو قول أبي بن كعب انتهى كلام ابن عطية .

والذي يظهر أنّ الضمير في ﴿ كانوا ﴾ وفي ﴿ ليؤمنوا ﴾ عائد على أهل القرى وأن الباء في ﴿ بما ﴾ ليست سببية فالمعنى أنهم انتفت عنهم قابلية الإيمان وقت مجيء الرسل بالمعجزات بما كذبوا به قبل مجيء الرسل بالمعجزات بل حالهم واحد قبل ظهور المعجزات وبعد ظهورها لم تجد عنهم شيئاً وفي الإتيان بلام الجحود في ﴿ ليؤمنوا ﴾ مبالغة في نفي القابلية والوقوع وهو أبلغ من تسلّط النفي على الفعل بغير لام وما في ﴿ بما كذبوا ﴾ موصولة والعائد منصوب محذوف أي بما كذبوه وجوّز أن تكون مصدرية ، قال الكرماني : وجاء هنا ﴿ بما كذبوا ﴾ فحذف متعلق التكذيب لما حذف المتعلق في ﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا ﴾ وقوله ﴿ ولكن كذبوا ﴾ وفي يونس أبرزه فقال ﴿ بما كذبوا به من قبل ﴾ لما كان قد أبرز في ﴿ فكذبوه فنجيناه ثم كذّبوا بآياتنا ﴾ فوافق الختم في كل منهما بما يناسب ما قبله انتهى ، ملخصاً .

﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ أي مثل ذلك الطبع على قلوب أهل القرى حين انتفت عنهم قابلية الإيمان وتساوي أمرهم في الكفر قبل المعجزات وبعدها ﴿ يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ ممن أتى بعدهم ،

(188/280)

قال الكرماني تقدم ذكر الله بالصريح وبالكناية فجمع بينهما فقال ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ وختم بالصريح فقال ﴿ كذلك يطبع الله ﴾ ، وفي يونس بني على ما قبله بنون العظمة في قوله ﴿ فنجيناه وجعلناهم ثم بعثنا ﴾ فناسب لطبع بالنون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(189/280)

وقال ابن كثير :

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي : يا محمد ﴿ مِنْ أَنْبَائِهَا ﴾ أي : من أخبارها ، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا ﴾ [الإسراء : 15] وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [هود : 101 ، 102]

(190/280)

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ الباء سببية ، أي : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم . حكاه ابن عطية ، رحمه الله ، وهو متجه حسن ، كقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ [فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ] ﴾ [الأنعام : 110 ، 111] ؛ ولهذا قال هنا : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ ﴾ أي : لأكثر الأمم الماضية ﴿ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ أي : ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال . والعهد الذي أخذه [عليهم] (1) هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه ، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، فأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة ، لا من عقل ولا شرع ، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك ، كما جاء في صحيح مسلم يقول الله تعالى : "إني خلقت عبادي حُنَفَاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحَرّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم" . وفي الصحيحين : "كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" الحديث . وقال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : 25]

وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ

(191/280)

اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : 36] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ ما روى (2) أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أُبيّ بن كعب في قوله : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ قال : كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق ، أي : فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك ، وكذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير .

وقال السدي : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ قال : ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرها .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ هذا كقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ] ﴾ [الأنعام : 28] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 452 . 453 ﴾

(192/280)

وقال أبو السعود :

﴿ تِلْكَ القرى ﴾

جملةٌ مستأنفةٌ جاريةٌ مجرى الفذلكةِ لما قبلها من القِصص منبئةٌ عن غاية غَوايةِ الأممِ المذكورة وتماديهم فيها بعد ما أتتهم الرسلُ بالمعجزات الباهرة ، وتلك إشارةٌ إلى قرى الأمم المُهلَكة على أن اللامَ للعهد وهو مبتدأٌ وقوله تعالى : ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾ خبرُه ، وصيغة المضارع للإيذان بعدم انقضاءِ القصة بعد ، ومِنْ للتبعيض ، أي بعضُ أخبارها التي فيها عظةٌ وتذكيرٌ .

(193/280)

وقيل : تلك مبتدأ والقرى خبرُه وما بعده حالٌ أو خبرٌ بعد خبرٍ عند من يجوز كون الخبر الثاني جملةً كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ وتصديرُ الكلام بذكر القرى وإضافةُ الأنباء إليها مع أن المقصوصَ أنباءُ أهلِها والمقصودُ بيانُ أحوالهم حسبما يُعرب عنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ لما أن حكايةَ هلاكِهم بالمرة على وجه الاستئصالِ بحيث يشمل أماكنَهم أيضاً بالخسف بها والرجفةِ وبقائِها خاويةً معطلةً

أهولُ وأفظعُ . والباء في قوله تعالى : ﴿ بالبينات ﴾ متعلقةٌ إما بالفعل المذكور على أنها للتعدية وإما بمحذوف وقع حالاً من فاعله أي ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتيَ كلُّ رسولٍ ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصةٍ به معينةٍ حسبَ اقتضاءِ الحكمة ، فإن مراعاة انقسامِ الآحاد إنما هي فيما بين الرسل وضميرِ الأممِ ، والجملةُ مستأنفةٌ مبينةٌ لكمال عُتوّهم وعنادِهم أي وبالله لقد جاء كلَّ أمةٍ من تلك الأممِ المُهلَكة رسولُهم الخاصُّ بهم بالمعجزات البيّنةِ المتكثرة المتواردةِ عليهم الواضحةِ الدِلالةِ على صحة رسالتِه الموجبةِ للإيمان حتماً ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ بيانٌ لاستمرار عدمِ إيمانِهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرارِ إيمانِهم ، وترتيبُ حالتِهم هذه على مجيء الرسلِ بالبينات بالفاء لما أن الاستمرارَ على فعل من الأفعال بعد ورودِ ما يوجب الإقلاعَ عنه وإن كان استمراراً على فعل من الأفعال بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان عليه في الحقيقة لكنه بحسب العنوانِ فعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ نحوُ وعظتُه فلم ينزجرْ ودعوتُه فلم يُجب ، واللامُ لتأكيد النفي أي فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوامِ في وقت من الأوقات أن يؤمنوا بكل ، وكان ذلك ممتنعاً منهم إلى أنْ لَقوُا ما لقوُا لغاية عتوّهم وشدةِ شكيمتِهم في الكفر والطغيانِ ، ثم إن كان المحكيُ عنهم

آخرَ حالِ كلِّ قومغ منهم فالمرادُ بعدم إيمانِهم المذكور هاهنا إصرارُهم على ذلك بعد اللتيا والتي وبما أشير إليه بقوله تعالى : ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ تكذيبُهم من لدن مجيءِ الرسل إلى وقت الإصرارِ والعناد ، وإنما لم يُجعل ذلك مقصوداً بالذات كالأول بل جُعل صلةً للموصول إيذاناً بأنه بيّنٌ بنفسه ، وإنما المحتاجُ إلى البيان عدمُ إيمانِهم بعد تواترِ البينات الظاهرةِ وتظاهُرِ المعجزاتِ الباهرةِ التي كانت تَضْطرُّهم إلى القَبول لو كانوا من أصحاب العقولِ ، والموصولُ الذي تعلق به الإيمانُ والتكذيبُ سلباً وإيجاباً عبارةٌ عن جميع الشرائعِ التي جاء بها كلُّ رسولٍ أصولِها وفروعِها ، وإن كان المحكيُّ جميعَ أحوالِ كل قوم منهم فالمرادُ بما ذكر أولاً كفرُهم المستمرُّ من حين مجيءِ الرسل الخ ، وبما أشير إليه آخِراً تكذيبُهم قبل مجيئِهم فلا بد من جعل الموصولِ المذكورِ عبارةً عن أصول الشرائعِ التي أجمعت عليها الرسلُ قاطبةً ودعَوا أُمَمهم إليها آثِرَ ذي أثيرٍ لاستحالة تبدّلِها وتغيّرِها ، مثلُ ملةِ التوحيد ولوازمِها ، ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيءِ رسلهم أنهم ما كانوا في زمن الجاهليةِ بحيث لم يسمعوا كلمةَ التوحيد قط بل كانت كلُّ أمةٍ من أولئك الأمم يتسامعون بها من بقايا مَنْ قبلهم فيكذّبونها ، ثم كانت حالتُهم بعد مجيءِ رسلِهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يُبعثْ إليهم أحدٌ ، وتخصيصُ التكذيب وعدمُ الإيمان بما ذُكر من الأصول لظهور حالِ الباقي بدِلالة النصّ ، فإنهم حين لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافةُ الرسلِ فلأنْ لا يؤمنوا بما تفرّد به بعضُهم أولى ،

وعدمُ جعلِ التكذيبِ مقصوداً بالذات لما أن ما عليه يدور فلكُ العذابِ والعقابِ هو التكذيبُ الواقعُ بعد الدعوةِ حسبما يعرب عنه قوله تعالى :

(195/280)

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وإنما ذُكر ما وقع قبلها بياناً لعراقتهم في الكفر والتكذيب ، وعلى كلا التقديرين فالضمائرُ الثلاثة متوافقةٌ في المرجعِ ، وقيل : ضميرُ كذبوا راجعٌ إلى أسلافهم ، والمعنى فما كان الأبناءُ ليؤمنوا بما كذب به الآباءُ ، ولا يخفى ما فيه من التعسف ، وقيل : المرادُ ما كانوا ليؤمنوا لو أحييناهم بعد إهلاكِهم ورددناهم إلى دار التكليفِ بما كذبوا من قبلُ كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ وقي : الباء للسببية وما مصدريةٌ أي بسبب تعوُّدِهم تكذيبَ الحقِّ وتمرّنهم عليه قبل بعثةِ الرسلِ ، ولا يرِدُ عليه هاهنا ما ورد في سورة يونُسَ من مخالفة الجمهورِ بجعل ما المصدريةِ من قبيل الأسماء كما هو رأيُ الأخفشِ وابنِ السرّاج ليرجعَ إليه الضميرُ في به .

﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك الطبعِ الشديدِ المُحكَم ﴿ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الكافرين ﴾ أي من المذكورين وغيرهم فلا يكاد يؤثر فيها الآياتُ والنذرُ ، وفيه تحذير للسامعين ،

وإظهارُ الاسم الجليلِ بطريق الالتفاتِ لتربية المهابة وإدخالِ الروعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(196/280)

وقال الآلوسى :

﴿ تِلْكَ القرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾

جملة مستأنفة جارية مجرى الفذلكة مما قبلها منبئة عن غاية غواية الأمم المذكورة وتلك إشارة إلى قرى الأمم المحكية من قوم نوح وعاد وثمود وأضرابهم ، واللام للعهد وجوز أن تكون للجنس ، وهو مبتدأ والقرى صفته والجملة بعده خبر .

وجوز الزمخشري أن تكون تلك مبتدأ ، والقرى خبر ، والجملة خبر بعد خبر على رأي من يرى جواز كون الخبر الثاني جملة ، وأن تكون الجملة حالا ، وإفادة الكلام بالتقييد بها ، واعترضه في التقريب بأنه جعل شرط الإفادة التقييد بالحال وعلى تقدير كون ذلك خبراً بعد خبر ينتفي الشرط إلا أن يريد تلك القرى المعلومة حالها أو صفتها على أن اللام للعهد لكنه يوجب الاستغناء عن اشتراط إفادته بالحال انتهى ، وفيه أن حديث الاستغناء ممنوع فإن المعنى كما في الكشف على التقديرين مختلف لأنه إذا جعل حالا يكون المقصود تقييده

بالحال كما ذكره الزجاج في نحو هذا زيد قائماً إذا جعل قيداً للخبر إن الكلام إنما يكون مع من يعلم أنه زيد والاجاء الإحالة لأنه يكون زيد قائماً كان أولا ، وإذا جعل خبراً بعد خبر فتلك القرى على أسلوب ﴿ ذَلِكَ الكِتَاب ﴾ [البقرة : 2] على أحد الوجوه و ﴿ نَقُصُّ ﴾ خبر ثان تفخيماً على تفخيم حيث نبه على أن لها قصصاً وأحوالاً أخرى مطوية .

(197/280)

وقال الطيبي : إن الحال لما كانت فضلة كان الاشكال قائماً في عدم إفادة الخبر فأجيب بأنها ليست فضلة من كل وجه وأما الخبر فلا عجب من كونه كالجزء من الأول كما في قولك هذا حلو حامض ، وهذا بمنزلته ، وفيه أن عد ما نحن فيه من ذلك القبيل حامض ومستغنى عنه بالحلو ، ومثله بل أدهى وأمر الجواب بأنه لما اشترك الحلوان في ذات المبتدأ كفى إفادة أحدهما وصيغة المضارع للإيذان بعدم انقضاء القصة بعد و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض أي بعض أخبارها التي فيها عظة وتذكير ، وتصدير الكلام بذكر القرى وإضافة الأنباء أي الأخبار العظيمة الشأن إليها مع أن المقصود أنباء أهلها وبيان أحوالهم حسبما يؤذن به قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ لما ذكره سيخ الإسلام من أن حكاية هلاكهم بالمرة على وجه الاستئصال بحيث يشمل أماكنهم أيضاً بالخسف بها والرجفة وبقائها خاوية

معطلة أهول وأفظع ، والباء في قوله تعالى : ﴿ بالبينات ﴾ متعلقة أما بالفعل المذكور على أنها للتعدية ، وإما بمحذوف وقع حالا من فاعله أي متلبسين بالبينات على معنى أن رسول كل أمة من الأمم المهلكة الخاص بهم جاءهم بالمعجزات البينة الجمة لا أن كل رسول جاء ببينة واحدة ، وما ذكروه من أن مقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد على الآحاد لا يقتضي كما قال المولى المدقق أبو القاسم السمرقندي في تعليقاته على المطول أن يلزم في كل مقابلة مقارنة الواحد للواحد لأن انقسام الآحاد على الآحاد كما يجوز أن يكون على السواء يجوز أن يكون على التفاوت ، مثلا إذا قيل : باع القوم دوابهم يفهم أن كلا منهم باع ماله من دابة ، ويجوز أن تتعدد دابة البعض ، ولهذا قيل في قوله سبحانه :

(198/280)

﴿ فاغسلوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] إن غسل يدي كل شخص ثابت بالكتاب والمقام هنا يقتضي ما ذكرناه فإن الجملة مستأنفة مبينة لكمال عتوهم وعنادهم ، وقول عز شأنه : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرار إيمانهم ، ونظير ذلك ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 62] ، وترتيب حالهم هذه على مجيء الرسل بالبينات بالفاء لما أن الاستمرار على فعل بعد

ورود ما يوجب الإقلاع عنه يعد بحسب العنوان فعلا جديداً وصنعاً حادثاً كما في وعظته فلم ينزجر ودعوته فلم يجب ، واللام لتأكيد النفي أي فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام في وقت من الأوقات ليؤمنوا بل كان ذلك ممتنعاً منهم إلى أن لقوا ما لقوا لغاية عتوهم وشدة شكيمتهم في الكفر والطغيان ثم إن كان المحكى آخر حال كل قوم منهم فالمراد بعدم إيمانهم هو إصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتي وبما أشير إليه بقوله تعالى : ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ تكذيبهم من لدن مجيء الرسل عليهم السلام إلى وقت الإصرار والعناد ، وهذا معنى كلام الزجاج فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية تلك المعجزات بما كذبوا قبل رؤيتها ، يعني أول ما جاؤوهم فاجأوهم بالتكذيب فأتوا بالمعجزات فأصروا على التكذيب وإلى هذا ذهب الحسن أيضاً ، وإنما لم يجعل ذلك مقصوداً بالذات كالأول بل جعل صلة للموصول المحذوف عائده أي الذي كذبوه إيذاناً بأنه بين في نفسه ، وإنما المحتاج إلى البيان عدم إيمانهم بعد تواتر البينات الباهرة وتظاهر المعجزات الظاهرة التي كانت تضطرهم إلى القبول لو كانوا من ذوي العقول ، والموصول الذي تعلق به الإيمان والتكذيب إيجاباً وسلباً عبارة عن جميع الشرائع التي جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وإن كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد على ما قيل بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجيء الرسل عليهم السلام

إلى آخر أمرهم وبما أشير إليه آخراً تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من جعل الموصول عبارة عن أصول الشرائع التي لا تقبل التبدل والتغير واجتمعت الرسل قاطبة عليها ودعوا الأمم إليها كلمة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء الرسل أنهم كانوا يسمعونها من بقايا من قبلهم فيكذبونها لا أن العقل يرشد إليها ويحكم بها ويخالفونه ثم كانت حالهم بعد مجيء الرسل إليهم كحالهم قبل كأن لم يبعث إليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الإيمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقي بدلالة النص فإنهم حين لم يؤمنوا بما اجتمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى ، وعدم جعل هذا التكذيب مقصوداً بالذات لما أنه ليس مدار العذاب بل مداره التكذيب بعد البعثة كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وإنما ذكر ما وقع قبلها بياناً لعراقتهم في الكفر والتكذيب ، وقيل : المراد بما أشير إليه آخرا تكذيبهم الذي أسروه يوم الميثاق ، وروي ذلك عن أبي بن كعب . والربيع . والسدى . ومقاتل . واختاره الطبري . وأخرج ابن جرير .

(200/280)

وابن أبي حاتم وغيرهما عن مجاهد أن الآية على حد قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] فالمعنى ما كانوا لو أهلكناهم ثم أحييناهم ليؤمنوا بما كذبوا قبل إهلاكهم ، وعلى هذا فالمراد بالموصول جميع الشرائع أصولها وفروعها وفيه من المبالغة في إصرارهم وعتوهم ما لا يخفى إلا أنه في غاية الخفاء ، وأيا ما كان فالضمائر الثلاثة متوافقة في المرجع ، وقيل ضمير ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ راجع إلى أسلافهم ، والمعنى فما كان الأبناء ليؤمنوا بما كذب به الآباء ، ولا يخفى ما فيه من التعسف ، وذهب الأخفش إلى أن الباء سببية وما مصدرية والمعنى عليه كما قيل : فما كانوا ليؤمنوا الآن أي عند مجيء الرسل لما سبق منهم من التكذيب الذي ألفوه وتمرنوا عليه قبل مجيئهم أو لم يؤمنوا قط واستمروا على تكذيبهم لما حصل منهم من التكذيب حين مجيء الرسل .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم ﴿ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الكافرين ﴾ أي قلوبهم فوضع المظهر موضع المضمر ليدل على أن الطبع بسبب الكفر وإلى هذا يشير كلام الزجاج وصرح به بعضهم ، ويجوز ولعله الأولى أن يراد بالكفافرين ما يشمل المذكورين وغيرهم وفي ذلك من تحذير السامعين ما لا يخفى ، وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وإدخال الروعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ﴾

لما تكرر ذكر القرى التي كذب أهلها رسل الله بالتعيين وبالتعميم ، صارت للسامعين كالحاضرة المشاهدة الصالحة لأن يشار إليها ، فجاء اسم الإشارة لزيادة إحضارها في أذهان السامعين من قوم محمد صلى الله عليه وسلم ليعتبروا حالهم بحال أهل القرى ، فيروا أنهم سواء فيفيئوا إلى الحق .

وجملة : ﴿ تلك القرى ﴾ مستأنفة استئناف الفذلكة لما قبلها من القصص من قوله : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ [الأعراف : 59] ثم قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبيء ﴾ [الأعراف : 94] الآية .

و﴿ القرى ﴾ يجوز أن يكون خبراً عن اسم الإشارة لأن استحضار القرى في الذهن بحيث صارت كالمشاهد للسامع ، فكانت الإشارة إليها إشارة عبرة بحالها ، وذلك مفيد للمقصود من الإخبار عنها باسمها لمن لا يجهل الخبر كقوله تعالى : ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴾ [التوبة : 35] أي هذا الذي تشاهدونه تُكْوَون به هو كنزكم ، وهم قد علموا أنه كنزهم ، وإنما أريد من الإخبار بأنه كنزهم إظهارُ خطأ فعلهم ، ويجوز أن يكون القرى بياناً لاسم الإشارة .

وجملة : ﴿ نقص عليك من أنبائها ﴾ إما حال من ﴿ القرى ﴾ على الوجه الأول .

وفائدة هذه الحال الامتنان بذكر قَصصها ، والاستدلال على نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم إذ علمه الله من علم الأولين ما لم يسبق له علمه ، والوعدُ بالزيادة من ذلك ، لما دل عليه قوله : ﴿ نقص ﴾ من التجدد والاستمرار ، والتعريضُ بالمعرضين عن الإتعاظ بأخبارها .

وإمّا خبر عن اسم الإشارة على الوجه الثاني في محمل قوله : ﴿ القرى ﴾ .

و(منْ) تبعيضية لأن لها أنباء غير ما ذكر هنا مما ذكر بعضه في آيات أخرى وطوى ذكر بعضه لعدم الحاجة إليه في التبليغ .

والأنباء : الأخبار ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءك من نبإ المرسلين ﴾ في سورة الأنعام (34) .

(202/280)

والمراد بالقرى وضمير أنبائها : أهلها ، كما دل عليه الضمير في قوله : رسلهم .

وجملة : ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ عطف على جملة : ﴿ تلك القرى ﴾ لمناسبة ما في كلتا الجملتين من قصد التنظير بحال المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم

وجمع "البينات" يشير إلى تكرر البينات مع كل رسول ، والبينات : الدلائل الدالة على الصدق وقد تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ في قصة ثمود في هذه السورة (73) .

(والفاء) في قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ لترتيب الإخبار بانتفاء إيمانهم عن الإخبار بمجيء الرسل إليهم بما من شأنه أن يحملهم على الإيمان .

وصيغة ﴿ ما كانوا ليؤمنوا ﴾ تفيد مبالغة النفي بلام الجحود الدالة على أن حصول الإيمان كان منافياً لحالهم من التصلب في الكفر .

وقد تقدم وجه دلالة لام الجحود على مبالغة النفي عند قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب ﴾ الآية في سورة آل عمران (79) .

والمعنى : فاستمر عدم إيمانهم وتمكّن منهم الكفر في حين كان الشأن أن يقلعوا عنه .

وما كذبوا ﴾ موصول وصلته وحُذف العائد المجرور على طريقة حذف أمثاله إذا جر الموصول بمثل الحرف المحذوف ، ولا يشترط اتحاد متعلقي الحرفين على ما ذهب إليه المحققون منهم الرضي كما في هذه الآية .

وما صْدَقُ (ما) الموصولة : ما يدل عليه ﴿ كذبوا ﴾ ، أي : فما كانوا ليؤمنوا بشيء كذبوا به من قبل مما دُعوا إلى الإيمان به من التوحيد والبعث .

وشأن (ما) الموصولة أن يراد بها غير العاقل ، فلا يكون ما صْدقُ (ما) هنا الرسل ، بل ما جاءت به الرسل ، فلذلك كان فعل ﴿ كذبوا ﴾ هنا مقدراً متعلّقهُ لفظُ (به) كما هو الفرق بين كذّبه وكذّب به ، قال تعالى : ﴿ فكذّبوه فأنجيناه ﴾ [الأعراف : 64] وقال : ﴿ وكذّب به قومُك وهو الحق ﴾ [الأنعام : 66] وحُذف المتعلق هنا إيجازاً ، لأنه قد سبق ذكر تكذيب أهل القرى ، ابتداء من قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبيء إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴾ [الأعراف : 94] وقد سبق في ذلك قوله : ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ [الأعراف : 96] ولهذا لم يحذف متعلق فعل ﴿ كذبوا ﴾ في نظير هذه الآية من سورة يونس .

والمعنى : ما أفادتهم البينات أن يؤمنوا بشيء كان بَدَرَ منهم التكذيب به في ابتداء الدعوة ، فالمضاف المحذوف الذي دل عليه بناء ﴿ قبلُ ﴾ على الضم تقديره : من قبلِ مجيء البينات .

وأسند نفي الإيمان إلى ضمير جميع أهل القرى باعتبار الغالب ، وهو استعمال كثير ، وسيُخرج المؤمنون منهم بقوله : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ .

ومعنى قولهن : ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ مثلَ ذلك الطبع العجيب

المستفاد من حكاية استمرارهم على الكفر ، والمؤذن به فعل ﴿ يطبع ﴾ ، وقد تقدم نظائره غير مرة ، منها عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) .

وتقدم معنى الطبع عند قوله تعالى : ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ في سورة النساء (155) .

وإظهار المسند إليه في جملة يطبع الله ﴾ دون الإضمار : لما في إسناد الطبع إلى الاسم العلم من صراحة التنبيه على أنه طبع رهيب لا يغادر للهدى منفذاً إلى قلوبهم كقوله تعالى : ﴿ هذا خلق الله ﴾ [لقمان : 11] دون أن يقول : هذا خلقي ، ولهذا اختير له الفعل المضارع الدال على استمرار الختم وتجدده .

(204/280)

والقلوب : العقول ، والقلب ، في لسان العرب : من أسماء العقل ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ في سورة البقرة (7) .

والتعريف في الكافرين ﴾ تعريف الجنس ، مفيد للاستغراق ، أي : جميع الكافرين ممن ذكر وغيرهم .

وفي قوله : ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ إلى آخر الآية ، تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن ما لقيه من قومه هو سنّة الرسل السابقين ، وأن ذلك ليس لتقصير منه ، ولا لضعف آياته ، ولكنه للختم على قلوب كثير من قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(205/280)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ القرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا ﴾ الآية .

ذكر أنباءهم مفصلة في مواضع كثيرة . كالآيات التي ذكر فيها خبر نوح وهود ، وصالح ولوط ، وشعيب وغيرهم ، مع أممهم صلوات الله وسلامه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ الآية .

في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه من التفسير : بعضها يشهد له القرآن .

منها : أن المعنى فما كانوا ليؤمنوا بما سبق في علم الله يوم أخذ الميثاق أنهم يكذبون به ، ولم يؤمنوا به ، لاستحالة التغير فيما سبق به العلم الأزلي ، ويروى هذا عن أبي بن كعب وأنس ، واختاره ابن جرير ، ويدل لهذا الوجه لآيات كثيرة كقوله : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ

رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 96] الآية ، وقوله : ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 101] ونحو ذلك من الآيات .

ومنها : أن المعنى الآية أنهم أخذ عليهم الميثاق ، فآمنوا كرهاً ، فما كانوا ليؤمنوا بعد ذلك طوعاً . ويروى هذا عن السدي وهو راجع في المعنى إلى الأول .

ومنها : أن معنى الآية أنهم لو ردوا إلى الدنيا مرة لكفروا أيضاً ، فما كان ليؤمنوا في الرد إلى الدنيا بما كذبوا به من قبل أي في المرة الأولى .

ويروى هذا عن مجاهد . ويدل لمعنى هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] الآية . لكنه بعيد من ظاهر الآية .

(206/280)

ومنها : أن معنى الآية . فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم ، وهذا القول حكاه ابن عطية ، واستحسنه ابن كثير ، وهو من أقرب الأقوال لظاهر الآية الكريمة . ووجهه ظاهر ، لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب والإبعاد عن الهدى ، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة . كقوله تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : 155] ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ

﴿ [الصف : 5] ، وقوله : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ [البقرة : 10] ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ [المنافقون : 3] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد تكون فيها أوجه من التفسير كلها يشهد له قرآن ، وكلها حق . فنذكر جميعها – والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(207/280)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾

هذا هو المراد في سرد القصص بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوضحه الحق في موضع آخر من القرآن فقال : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . . . ﴾ [هود : 120]

فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شيء من العناد والإصرار والمكابرة فاعلم أنك لست

بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإلحادية من القوم الذين خاطبهم .

وإذا كان رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما في رسالته من العلو فلابد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوي ابتلاءات الرسل جميعاً . ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الكافرين ﴾ [الأعراف : 101]

والطبع – كما قلنا – هو الختم ؛ لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال ؛ لذلك يعلنون التكذيب للرسول . وقد طبع الله على قلوبهم لا قهراً منه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه في قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(208/280)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ " وفى سورة يونس : " ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) " وورد فى أول هذه السورة أيضا : " وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) " .

فيها أربع سؤالات الأول : ورود الضمير المجرور فى الآية الثانية من سورة يونس وهو قوله "به " وسقوطه مما سواها والثانى قوله "كذلك يطبع الله " فجئ بالاسم الظاهر فى سورة الأعراف بالكفر وفى ثانية يونس بالاعتداء والرابع قوله تعالى فى الأولى فى سورة يونس عدولا عما فى السورتين "كذلك نجزى القوم المجرمين " .

للسائل أن يسأل عن ذلك ؟

(209/280)

والجواب عن الأول : أنه لما تقدم فى سورة الأعراف قوله تعالى : " وتصدون عن سبيل الله من آمن به " وقوله : "وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا " ثم قال بعد : "فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا " وقع الاكتفاء بما تقدم من قوله "بالذى أرسلت به " والذى أرسل به هو الذى طلب منهم الإيمان به فحصل المقصود فلو قيل أخيرا "به " لكان تكرارا فاقتضى الإيجاز وإحراز البلاغة حذفه لحصوله كما حذف من قوله : "زطائفة لم

يؤمنوا " مع أنه مراد فحذف الموصول وصلته ورابطها إذ التقدير وطائفة لم يؤمنوا بالذى أرسلت به لحصول ذلك مما تقدم وأما قوله فى يونس : "فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل " فإنه لما تقدم هنا ما تقدم هناك فلم يكن بد من الإتيان بالضمير ليحصل ما وقع من التكذيب ولترتبط الصلة بالموصول .

والجواب عن الثانى : أن قوله تعالى فى سورة يونس : "كذلك نطبع على قلوب المعتدين " مناسب ومرتبط بما افتتحت به الآية من قوله تعالى : " ثم بعثنا " فأخبر تعالى بإنعامه على عباده – ممن هداه – بنعمة الرسل إحسانا وامتنانا ولتقوم الحجة على الخلق فقال تعالى : "بعثنا " بإضافة هذا الفعل إلى الكناية العلية وهى ضمير المتكلم فناسب ذلك ما بنى عليه وارتبط به من قوله تعالى : "كذلك نطبع " مراعاة للتناظر والتقابل وأما آية الأعراف فمبنية على مطلعها من قوله تعالى أول الآية : "ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل " فلم يتقدم ما يطلب بورود الفاعل مضمرا فجاء على ما يجب إذ لا طالب بمناسبة .

(210/280)

والجواب عن الثالث : أن آية الأعراف لما تقدمها قصص قد جرى فيها ذكر مكذبى الأمم أنبياءهم وما ردوا عليهم وخاطبوهم به كقول كفار قوم صالح عليه السلام لمن آمن به منهم : "إنا بالذى آمنتم به كافرون " وقولهم : "ياصالح ائتنا بما تعدنا " وقول الملإ من قوم شعيب لمن آمن منهم : "لئن اتبعتم شهيبا إنكم إذا لخاسرون " إلى ما بعد وما قبل من سئ المجاورة من مكذبى الأمم فحصل من هذه الآى من التعريف بحال هؤلاء الأمم هذه القصص بذكر غيرهم ممن سلك مسلك من تقدمهم من المذكورين ما ناسبه قوله تعالى عقب جميعها : "كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين " وأما آية يونس فلم يتقدم قبلها تفصيل ولا إفصاح بمخاطبة نبى ومواجهته بمثل ما فى آى الأعراف بل ورد ذلك مورد الإجمال فناسبه وصفهم بالاعتداء وإن لم يقع إفصاح بكفرهم مع أنهم كفار وإن ذلك حاصل من مجمل ذكرهم إلا أن جليل مناسبة النظم مقتض ما ورد عليه كل مما فى السورتين وذلك واضح ، والله أعلم بما أراد .

والجواب عن السؤال الرابع : أن قوله تعالى : "كذلك نجزى القوم المجرمين " لم يتقدم قبله تفصيل قصص ولا بسط قصة منها بل أوجز معنى ما انطوت عليه تلك القصة فعبر عن ذلك بقوله تعالى : "ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا " فناسب هذا الإيجاز ما بنى عليه من قوله : "كذلك نجزى القوم المجرمين " ومن التعبير عن المشار إليهم من المهلكين بالاجرام – وهو أكبر موقعا من الاعتداء – ليطابق وصفهم بالظلم والمراد به تكذيبهم

الرسل وكفرهم بما جاؤوهم به ، فلم يكن ليطابق ذلك الوصف الاعتداء ولم يوصفوا أيضا بالكفر إذ لم يقع به إفصاح فيما تقدم فكان وصفهم بالإجرام أنسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 212.214 ﴾

(211/280)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابي أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي بن كعب في قوله ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ قال : كان في علم الله يوم أقروا له بالميثاق من يكذب به ومن يصدق .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ قال : مثل قوله ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ قال : ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع في قوله ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ قال : لقد علمه فيهم أيهم المطيع من العاصي حيث خلقهم في زمان آدم . قال : وتصديق ذلك حين قال لنوح ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ [هود : 48] ففي ذلك قال ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ [الأنعام : 28] وفي ذلك ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

(212/280)

وأخرج الشيخ عن مقاتل بن حيان في قوله ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ [الأعراف : 172] قال : أخرجهم مثل الذر فركب فيهم العقول ، ثم استنطقهم فقال لهم ﴿ ألست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] قالوا جميعاً : بلى فأقروا بألسنتهم وأسر بعضهم الكفر في قلوبهم يوم الميثاق ، فهو قوله ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم ﴾

بعد البلاغ ﴿ بالبينات فما كانوا ليؤمنوا ﴾ بعد البلوغ ﴿ بما كذبوا ﴾ يعني يوم الميثاق ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(213/280)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ القرى نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : كقوله : ﴿ وهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ [هود : 72] في كونه مبتدأ وخبراً وحالاً يعني أن " تِلْكَ " مبتدأ مشارٌ بها إلى ما بعدها ، و " القُرَى " خبرها ، و " نَقُصُّ " حال أي قاصّينَ كقوله : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ [النمل : 52] .

قال الزمخشريُّ : فإن قلت : ما معنى " تِلْكَ القُرَى " حتى يكون كلاماً مفيداً ؟

قلت : هو مفيدٌ ولكن بالصِّفةِ في قولك : " هو الرَّجُلُ الكريم " يعني أنَّ الحال هنا لازمه ليفيد التَّركيب كما تلزم الصِّفةِ في قولك : " هو الرَّجُلُ الكريمُ " ألا ترى أنَّكَ لو اقتصرت على " هو الرَّجُلُ " لم يكن مفيداً ، ويجوز أن تكون " القُرَى " صفة لتلك ، و " نقصُّ " الخبر ، ويجوز أن يكون " نقصُّ " خبراً بعد خبر .

و" نَقُصُّ " يجوز أن يكون على حاله من الاستقبال أي : قد قصصنا عليك من أَنْبَائِهَا ونحن نَقُصُّ عليك أيضاً بعض أبنائها [ويجوز أن يكون عبر به عن الماضي ، أي : قد قَصَصْنَا عليك من أبنائها] وأُشير بالبُعْدِ تنبيهاً على بعد هلاكها وتقادمه عن زمن الإخبار فهو من الغيب ، وأراد القصص المتقدمة .

وفي قوله : " القُرَى " بـ " أل " تعظيم كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الكتاب ﴾ [البقرة : 22] ، وقول الرسول – عليه الصلاة والسلام : " أُوْلَئِكَ المَلأُ مِنْ قُرَيشٍ " ، وقول أمية : [البسيط]

2534 – تِلْكَ المَكَارِمُ لا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ . . .

شِيبا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاً

و" مِنْ " للتبعيض كما تقدَّم ؛ لأَنَّهُ إنَّما قصَّ عليه – عليه الصلاة والسلام – ما فيه عظةٌ وانزجارٌ دون غيرهما ، وإنَّما قصّ أنباء أهل القرى ؛ لأَنَّهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النِّعم فتوهموا أَنَّهُم على الحقِّن فذكرها الله – تعالى – لقوم محمد – عليه الصلاة والسلام – ليحترزوا عن مثل تلك الأعمال ، ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ .

قوله : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ الضَّمائرَ عائدة على أهل القرى .

وقال يمان بن رئاب : " إنَّ الضميرين الأَوَّلين لأهل القرى ، والضَّميرُ في "كذَّبُوا " لأَسْلافِهم .

وكذا جوَّزَهُ ابن عطية أيضاً أي : " فما كان الأبناء ليؤمِنُوا بما كذَّب به الآباء " ، وقد تقدَّم الكلامُ على لام الجُحُودِ ، وأنَّ نفي الفِعْلِ معها أَبْلَغُ .

و " ما " موصولة اسميَّة ، وعائدها مَحْذُوفٌ ؛ لأَنَّه مَنصوبٌ متَّصل أي : بما كذبوه [ولا يجوز أن يقدر به وإن كان الموصول مجرورا بالباء أيضاً لاختلاف المتعلقن وقال هنا " بما كذبوا "] فلم يذكر متعلق التكذيب ، وفي " يونس " ذكره فقال : ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ ﴾ [يونس : 74] ، والفرق أَنَّهُ لَمَّا حذفه في قوله : ﴿ ولكن كَذَّبُواْ ﴾ [الأعراف : 96] استمرّ حذفه بعد ذلك ، وأمَّا في يونس فقد أبرزه في قوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ ﴾ [يونس 74] .

﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ [يونس : 73] فناسب ذكره موافقة قال معناه الكرمَانِيّ .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الكافرين ﴾ .

قال الزَّجَّاجُ : والكاف في " كذلك " في محلِّ نصب [أي : مثل ذلك الطبع على قلوب أهل القرى المنتفي عنهم الإيمان يطبع الله على قلوب الكفرة الجانين] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 141.142 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (101) ﴾

سلكوا طريقاً واحداً في التمرد ، واجتمعوا في خطٍ واحد في الجحد والتَّبلُّد ؛ فلا للإيمان جَنَحُوا ، ولا عن العدوان رجعوا ، وكذلك صفة من سَبَقَتْ بالشقاء قِسمتُه ، وحقت بالعذاب عليه كَلِمتُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 554 ﴾

(215/280)

قوله تعالى ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان نقض العهد أفظع شيء ولا سيما عند العرب ، قال عاطفاً على " فما كانوا " : ﴿ وما وجدنا ﴾ أي في عالم الشهادة ﴿ لأكثرهم ﴾ أي الناس ، وأكد الاستغراق فقال : ﴿ من عهد ﴾ طبق ما كان عندنا في عالم الغيب ، وهذا إما إشارة إلى الميثاق يوم ﴿ ألست بربكم ﴾ إن كان ذلك على حقيقته ، أو إلى ما يفعلون حال الشدائد من الإقلاع عن المعاصي والمعاهدة على الشكر ﴿ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ [

يونس : 22] أو إلى إقامة الحجج بإفاضة العقول ونصب الأدلة ، فصار بنصبها وإيضاحها للعقول كأنه أخذ العهد على من عقل أنه يبذل الجهد في التأمل ولا يتجاوز ما أبداه له صحيح النظر ﴿ وإن ﴾ أي وإنا ﴿ وجدنا ﴾ أي علمنا في عالم الشهادة ﴿ أكثرهم لفاسقين ﴾ أي خارجين عن دائرة العهد مارقين مما أوقفهم عند الحد عريقين في ذلك طبق ما كنا نعلمه منهم في عالم الغيب ، وما أبرزناه في عالم الشهادة إلا لنقيم عليهم به الحجة على ما يتعارفونه بينهم في مجاري عاداتهم ومدارك عقولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 77 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ﴾

فيه أقوال : الأول : قال ابن عباس : يريد الوفاء بالعهد الذي عاهدهم الله وهم في صلب آدم ، حيث قال : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] فلما أخذ الله منهم هذا العهد وأقروا به ، ثم خالفوا ذلك ، صار كأنه ما كان لهم عهد ، فلهذا قال : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ والثاني : قال ابن مسعود : العهد هنا الإيمان ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 87] يعني آمن وقال لا إله إلا الله والثالث : أن العهد عبارة عن وضع الأدلة الدالة على صحة التوحيد والنبوة ، وعلى

هذا التقدير فالمراد ما وجدنا لأكثرهم من الوفاء بالعهد .

ثم قال : ﴿ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لفاسقين ﴾ أي وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة ، صارفين عن الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 153.154 ﴾

(216/280)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾

مِنْ زيادة للصلة يعني : ما وجدنا لأكثرهم وفاءً فيما أمروا به يعني : الذين كذبوا من الأمم الخالية .

ويقال : ﴿ مَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ لأنهم أقروا يوم الميثاق ، ثم نقضوا العهد حيث كفروا .

ويقال : ﴿ مَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ أي قبول العهد الذي عاهدوا على لسان الرسل .

ثم قال : ﴿ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لفاسقين ﴾ يعني : وقد وجدنا أكثرهم لناقضين العهد ،

تاركين لما أمروا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾

يعني وفاء بالعهد ، والعهد الوصية ﴿ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ أي ما وجدنا أكثرهم إلاّ فاسقين ناقضين العهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ ﴾

في قوله : ﴿ مِنْ عَهْدٍ ﴾ قولان :

أحدهما : أن العهد الطاعة ، يريد : ما وجدنا لأكثرهم من طاعة لأنبيائهم ، لأنه قال بعده ﴿ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ وتكون ﴿ مِنْ ﴾ في هذا الموضع على هذا التأويل زائدة .

والثاني : أنه محمول على ظاهر العهد أي من وفاء بعهده .

وفي المراد بالعهد هنا ثلاثة أقاويل . أحدها : الميثاق الذي أخذه الله عليهم في ظهر آدم قاله أبو جعفر الطبري .

والثاني : ما جعله الله في عقولهم من وجوب شكر النعمة ، وأن الله هو المنعم ، قاله علي بن عيسى .

والثالث : أنه ما عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، قاله الحسن ﴿ وإن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُم لَفَاسِقِينَ ﴾ في قوله ﴿ لَفَاسِقِينَ ﴾ وجهان :

أحدهما : خارجين عن طاعته .

والثاني : خائنين في عهده ، وهذا يدل على أن العصاة أكثر من المطيعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(217/280)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ الآية ،

أخبر تعالى أنه لم يجد لأكثرهم ثبوتاً على العهد الذي أخذه على ذرية آدم وقت استخراجهم من ظهره ، قاله أبو العالية عن أبي بن كعب ، ويحتمل أن يكون الكلام عبارة عن أنهم لم يصرفوا عقولهم في الآيات المنصوبة ولا شكروا نعم الله ولا قادتهم معجزات الأنبياء ، لأن هذه الأمور عهد في رقاب العقلاء كالعهود ينبغي أن يوفى بها ، وأيضاً فمن لدن آدم تقرر العهد الذي هو بمعنى الوصية وبه فسر الحسن هذه الآية فيجيء المعنى : وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد وقبول وصاة ، ذكره المهدوي ، و ﴿ من ﴾ في هذه الآية زائدة

، إلا أنها تعطي استغراق جنس العهد ولا تجيء هذه إلا بعد النفي ، و﴿ إن ﴾ هي المخففة من الثقيلة عند سيبويه ، واللام في قوله ﴿ لفاسقين ﴾ للفرق بين ﴿ إن ﴾ المخففة وغيرها ، و﴿ إن ﴾ عند الفراء هي بمعنى ما واللام بمعنى إلا والتقدير عنده وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم ﴾

قال مجاهد : يعني : القرون الماضية .

﴿ من عهد ﴾ قال أبو عبيدة : أي : وفاء .

قال ابن عباس : يريد : الوفاء بالعهد الذي عاهدهم حين أخرجهم من صلب آدم .

وقال الحسن : العهد هاهنا : ما عهده إليهم مع الأنبياء أن لا يشركوا به شيئاً .

قوله تعالى : ﴿ وإن وجدنا ﴾ قال أبو عبيدة : وما وجدنا أكثرهم إلا الفاسقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(218/280)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾

"مِن" زائدة ، وهي تدل على معنى الجِنس ؛ ولولا "مِن" لجاز أن يتوهم أنه واحد في المعنى .

قال ابن عباس : يريد العهد المأخوذ عليهم وقت الذَّرِّ ، ومن نقض العهد قيل له إنه لا عهد له ، أي كأنه لم يعهد .

وقال الحسن : العهد الذي عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

وقيل : أراد أن الكفار منقسمون ؛ فالأكثرون منهم من لا أمانة له ولا وفاء ، ومنهم من له أمانة مع كفره وإن قلّوا ؛ روي عن أبي عبيدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾

يعني وما وجدنا لأكثر الأمم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك يا محمد من وفاء بالعهد الذي عهدناه إليهم وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق قال ابن عباس إنما أهلك الله أهل القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ أي ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين خارجين عن طاعتنا وأمرنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾

أي لأكثر الناس أو أهل القرى أو الأمم الماضية احتمالات ثلاثة قاله التبريزي والعهد هنا هو الذي عوهدوا عليه في صلب آدم قاله أبيّ وابن عباس أو الإيمان قاله ابن مسعود ويدلّ عليه الأمن اتخذ عند الله عهداً وهو لا إله إلا الله فالمعنى من إيفاء أو التزام عهد ، وقيل العهد هو وضع الأدلة على صحة التوحيد والنبوة إذ ذلك عهد في رقاب العقلاء كالعقود فعبر عن صرف عقولهم إلى النظر في ذلك بانتفاء وجدان العهد و﴿ من ﴾ في ﴿ من عهد ﴾ زائدة تدلّ على الاستغراق لجنس العهد .

﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ إنْ هنا هي المخففة من الثقيلة ووجد بمعنى علم ومفعول ﴿ وجدنا ﴾ الأولى ﴿ لأكثرهم ﴾ ومفعول الثانية ﴿ لفاسقين ﴾ واللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة وإن النافية وتقدّم الكلام على ذلك في قوله ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ ودعوى بعض الكوفيين أنّ إن في نحو هذا التركيب هي النافية واللام بمعنى إلا ، وقال الزمخشري : وإنّ الشأن والحديث وجدنا انتهى ، ولا يحتاج إلى هذا التقدير وكان

الزمخشري يزعم أنّ إن إذا خففت كان محذوفاً منها الاسم وهو الشأن والحديث إبقاءً لها على الاختصاص بالدخول على الأسماء وقد تقدّم لنا تقدير نظير ذلك ورددنا عليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(220/280)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم ﴾ أي أكثرِ الأممِ المذكورين ، واللامُ متعلقةٌ بالوُجدان كما في قولك : ما وجدتُ له مالاً أي ما صادفت له مالاً ولا لقِيته ، أو بمحذوف وقع حالاً من قوله تعالى : ﴿ مِّنْ عَهْدٍ ﴾ لأنه في الأصل صفةٌ للنكرة فلما قُدّمت عليها انتصبت حالاً ، والأصلُ ما وجدنا عهداً كائناً لأكثرهم ومِنْ وفاء عهدٍ فإنهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه عند مساسِ البأساء والضراءِ قائلين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونَنّ من الشاكرين ، فتخصيصُ هذا الشأنِ بأكثرهم ليس لأن بعضَهم كانوا يوفون بعهودهم بل لأن بعضَهم كانوا لا يعهدون ولا يوفون ، وقيل : المرادُ بالعهد ما عهِد الله تعالى إليهم من الإيمان والتقوى بنصب الآياتِ وإنزالِ الحُجج ، وقيل : ما عهِدوا عند خطابِ ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ فالمرادُ بأكثرهم كلُّهم ، وقيل : الضميرُ للناس والجملةُ اعتراضٌ فإن أكثرَهم لا يوفون بالعهد بأي معنى كان ﴿ وَإِن

وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ ﴾ أي أكثرُ الأمم أي عِلمناهم كما في قولك : وجدتُ زيداً ذا حِفاظ وقيل : الأول أيضاً كذلك ، وإن مخففةٌ من إنّ وضميرُ الشأن محذوفٌ أي إن الشأنَ وجدناهم ﴿ لفاسقين ﴾ خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود ، وعند الكوفيين أنّ إنْ نافيةٌ واللامُ بمعنى إلا أي ما وجدناهم إلا فاسقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(221/280)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم ﴾

أي أكثر الأمم المذكورين ، ووجد متعدية لواحد واللام متعلقة بها كما في قولك : ما وجدت لزيد مالا أي ما صادفت له مالا ولا لقيته أو بمحذوف كما قال أبو البقاء وقع حالا من قوله تعالى : ﴿ مِّنْ عاهد ﴾ لأنه في الأصل صفة للنكرة فلما قدمت عليها انتصبت حالا ومن مزيدة للاستغراق وجوز أن تكون وجد علمية والأول أظهر ، والكلام على تقدير مضاف أي ما وجدنا وفاء عهد كائن لأكثرهم فإنهم نقضوا ما عاهدوا عليه الله تعالى عند مساس البأساء والضراء قائلين ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس : 22] وإلى هذا ذهب قتادة وتخصيص هذا الشأن بأكثرهم ليس لأن بعضهم كانوا يوفون بالعهد

بل لأن بعضهم كانوا لا يعهدون ولا يوفون ، وقيل : المراد بالعهد ما وقع يوم أخد الميثاق ، وروي ذلك عن أبي بن كعب .

وأبي العالية ، وقيل : المراد به ما عهد الله تعالى إليهم من الإيمان والتقوى بنصب الدلائل والحجج وإنزال الآيات ، وفسره ابن مسعود بالإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 78] ، وقيل : هو بمعنى البقاء أي ما وجدنا لهم بقاء على فطرتهم ، والمراد بالأكثر في الكل الكل ، وذهب كثير من الناس إلى أن ضمير أكثرهم للناس وهو معلوم لشهرته ، والجملة إلى فاسقين اعتراض لأنه لا اختصاص له بما قبله لكن لعمومه يؤكده .

(222/280)

وعلى الأول تتميم على ما نص عليه الطيبي وغيره ﴿ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ ﴾ أي أكثر الأمم أو أكثر الناس أي علمناهم كقولك : وجدت زيداً فاضلاً وبين وجد هذه ووجد السابق على المعنى الأول فيه الجناس التام المماثل و ﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف ولا عمل لها فيه لأنها ملغاة على المشهور ، وتعين تفسير وجد بعلم الناصبة للمبتدأ والخبر لدخولها عليهما ، فقد صرح الجمهور أنها لا تدخل إلا على المبتدأ أو على

الأفعال الناسخة وخالف في ذلك الأخفش فلا يرى ذلك .

وجوز دخولها على غيرهما ، وذهب الكوفيون إلى أن إن نافية ، واللام في قوله سبحانه : ﴿ لفاسقين ﴾ اللام الفارقة وعند الكوفيين أن إن نافية واللام بمعنى إلا أي ما وجدنا أكثرهم الا خارجين عن الطاعة ويدخل في ذلك نقض العهد ، وذكر الطيبي أنه إذا فسر الفاسقون بالناكثين يكون في الآية الطرد والعكس ، وهو أن يؤتي بكلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس ، وهو كقوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ [النور : 58] فمنطوق الأمر بالاستئذان في الأوقات الثلاثة خاصة مقرر لمفهوم رفع الجناح فيما عداها وبالعكس ، وكذا قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] وهذا النوع من الأطناب يقابله في الإيجاز نوع الاحتباك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(223/280)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

يُقَالُ : هَدَاهُ السَّبِيلَ أَوِ الشَّيْءَ ، وَهَدَاهُ لَهُ وَهَدَاهُ إِلَيْهِ ، إِذَا دَلَّهُ عَلَيْهِ وَبَيَّنَهُ لَهُ ، وَأَهْلُ الْغَوْرِ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يَقُولُونَ : هَدَى لَهُ الشَّيْءَ بِمَعْنَى بَيَّنَهُ لَهُ ، نَقَلَهُ فِي (لِسَانِ الْعَرَبِ) وَذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ فَسَّرَ بِهِ مَا فِي الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا ، وَهَذَا التَّعْبِيرُ وَرَدَ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ وَالِاسْتِفْهَامِ ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ طَهَ : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (20 : 128) وَفِي سُورَةِ (الم – السَّجْدَةِ) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (32 : 26) وَالسِّيَاقُ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ آيَةُ الْأَعْرَافِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا مِثْلُ السِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ آيَتَا طَهَ وَالسَّجْدَةِ ، وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا دَاخِلٌ عَلَى فِعْلٍ مَحْذُوفٍ عُطِفَ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ كَمَا سَبَقَ فِي نَظَائِرِهِ ، وَلِلتَّقْدِيرِ وُجُوهٌ كُلُّهَا تُفِيدُ الْعِبْرَةَ ، فَهُوَ مِمَّا تَذْهَبُ النَّفْسُ فِيهِ مَذَاهِبَ مِنْ أَقْرَبِهَا أَنْ يُقَالَ : أَكَانَ مَجْهُولًا مَا ذُكِرَ آنِفًا عَنْ أَهْلِ الْقُرَى وَسُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِيهِمْ ، وَلَمْ يُبَيَّنْ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلًا فِي أَثَرِ جِيلٍ ، أَوَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُمْ بِهِ ، أَنَّ شَأْنَنَا فِيهِمْ كَشَأْنِنَا فِيمَنْ سَبَقَهُمْ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ خَاضِعُونَ لِمَشِيئَتِنَا فَلَوْ نَشَاءُ أَنْ نُصِيبَهُمْ وَنُعَذِّبَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ أَصَبْنَاهُمْ

كَمَا أَصَبْنَا أَمْثَالَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ بِمِثْلِهَا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَعْطُوفٌ عَلَى (أَصَبْنَاهُمْ) لِأَنَّهُ بِمَعْنَى : نُصِيبُهُمْ ؛ إِذِ الْكَلَامُ فِي الَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ فِي الْعَصْرِ الْحَالِي أَوِ الْمُسْتَقْبَلِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَيْسَ فِي قَوْمٍ مُعَيَّنِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِالْفِعْلِ ، كَمَا ظَنَّ الزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُ فَمَنَعُوا هَذَا الْعَطْفَ ، وَقَالُوا : الْمَعْنَى ، وَنَحْنُ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ يَسْتَخْلِفُهُمُ اللهُ فِي الْأَرْضِ ، وَيَرِثُونَ مَا كَانَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَالْمِلْكِ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ ، وَلَا يَكُونُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ الظَّالِمِينَ ، وَلَا مِنَ الْمُتْرَفِينَ الْفَاسِقِينَ ، وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ مِنَ الْمُحَتَّمِ عِقَابَ الْأُمَمِ عَلَى السَّيِّئَاتِ ، وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، فَلَمْ يَكُنْ مَا حَلَّ بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُصَادَفَاتِ ، بَلْ هُوَ مِنَ السُّنَنِ الْمُطَّرِدَةِ بِالْمَشِيئَةِ وَالِاخْتِيَارِ ، فَلَا هَوَادَةَ فِيهِ وَلَا ظُلْمَ وَلَا مُحَابَاةَ ، وَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ فَرِيقَانِ : فَرِيقٌ يُصَابُ بِذَنْبِهِ فَيَتَّعِظُ وَيَتُوبُ إِلَى رَبِّهِ ، وَفَرِيقٌ يُصِرُّ عَلَيْهِ حَتَّى يَطْبَعَ عَلَى قَلْبِهِ ،

وَهُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ طَبْعِ السِّكَّةِ وَنَقْشِهَا بِصُورَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ لَا تَقْبَلُ غَيْرَهَا ، أَوْ مِنَ الطَّبْعِ الَّذِي بِمَعْنَى الْخَتْمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (2 : 7) وَالطَّابَعُ وَالْخَاتَمُ بِفَتْحِ الْبَاءِ وَالتَّاءِ وَاحِدٌ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الطَّبَعِ بِالتَّحْرِيكِ ، وَهُوَ الصَّدَأُ الشَّدِيدُ يَعْرِضُ لِلسَّيْفِ وَنَحْوِهِ فَيُفْسِدُهُ يُقَالُ : طَبَعَ الطَّبَّاعُ السَّيْفَ وَالدِّرْهَمَ ؛ أَيْ : ضَرَبَهُ ، وَطَبَعَ الْكِتَابَ وَعَلَى الْكِتَابِ وَخَتَمَهُ إِذَا ضَرَبَ عَلَيْهِ الطَّابَعَ وَالْخَاتَمَ بَعْدَ إِتْمَامِهِ وَوَضْعِهِ فِي ظَرْفِهِ حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهِ شَيْءٌ آخَرُ ، وَمِنْهُ الطَّبْعُ وَالطَّبِيعَةُ وَهِيَ الصِّفَةُ الثَّابِتَةُ لِلشَّيْءِ أَوِ الشَّخْصِ ، فَالسَّجِيَّةُ نَقْشُ النَّفْسِ بِصُورَةٍ ثَابِتَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ ؛ لِأَنَّ مَا يَتَغَيَّرُ لَا يُسَمَّى طَبِيعَةً ، وَمِنْهُ طَبْعُ الْكُتُبِ فِي الْآلَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْمَطْبَعَةِ سُمِّيَ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الْمَحْوَ وَالتَّغْيِيرَ كَالْخَطِّ ، عَلَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ صَنَعُوا أَحْبَارًا لَا تُمْحَى أَيْضًا .

(227/280)

وَلَا يُسْتَعْمَلُ الطَّبْعُ عَلَى الْقُلُوبِ إِلَّا فِي الشَّرِّ ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّهَا وَصَلَتْ مِنَ الْفَسَادِ إِلَى حَالَةٍ لَا تَقْبَلُ مَعَهَا خَيْرًا كَالْهُدَى وَالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي هُوَ فِقْهُ الْأُمُورِ وَلُبَابُهَا ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الشُّرُورِ وَالْمَعَاصِي اسْتِحْلَالًا وَاسْتِحْسَانًا لَهَا حَتَّى لَا يَعُودَ فِي النَّفْسِ مَوْضِعٌ لِغَيْرِهَا ، قَالَ تَعَالَى فِي الْيَهُودِ : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ

الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (4 : 155) أَيْ : إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ؛ وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يُطْبَعْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ : وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (9 : 87) وَمِثْلُهُ فِي سُورَتِهِمْ ، وَقَالَ هُنَا : فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ أَيْ : فَهُمْ بِهَذَا الطَّبْعِ لَا يَسْمَعُونَ الْحُكْمَ وَالنَّصَائِحَ سَمَاعَ تَفَقُّهٍ وَتَدَبُّرٍ وَاتِّعَاظٍ : وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (10 : 101) مَا يُرَادُ مِنْهَا ؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ مُلِئَتْ بِمَا يَشْغَلُهُمْ عَنْهَا مِنْ آرَاءٍ وَأَفْكَارٍ وَشَهَوَاتٍ مَلَكَتْ عَلَيْهَا أَمْرَهَا ، حَتَّى صَرَفَتْهُمْ عَنْ غَيْرِهَا فَجَعَلَتْهُمْ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (18 : 104) .

(228/280)

قَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ وَهَذَا كِتَابُهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَتَّقُوهُ تَعَالَى بِانْتِقَاءِ كُلِّ مَا قَصَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ ذُنُوبِ الْأُمَمِ الَّتِي هَلَكَ بِهَا مَنْ قَبْلَهُمْ وَزَالَ مُلْكُهُمْ ، وَدَالَتْ بِسَبَبِهَا الدَّوْلَةُ لِأَعْدَائِهِمْ ؛ إِذْ بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ ذُنُوبَ الْأُمَمِ لَا تُغْفَرُ كَذُنُوبِ بَعْضِ الْأَفْرَادِ ؛ وَسُنَّتَهُ فِيهَا لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ ، وَلَكِنَّهُمْ قَصَّرُوا

(229/280)

أَوَّلًا فِي تَفْسِيرِ أَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُبَيِّنَةِ لِهَذِهِ الْحَقَائِقِ ، ثُمَّ فِي وَعْظِ الْأُمَّةِ بِهَا ، وَإِنْذَارِهِمْ عَاقِبَةَ الْإِعْرَاضِ عَنْهَا ، وَتَرْكِ الِاتِّعَاظِ بِتَدَبُّرِهَا ، وَمَنْ يَقْرَأُ شَيْئًا مِنْ تَفْسِيرِهَا فَإِنَّمَا يُعْنَى بِإِعْرَابِهَا ، وَالْبَحْثِ فِي أَلْفَاظِهَا ، أَوْ جَدَلِ الْمَذَاهِبِ فِيهَا ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ مَعَانِيَهَا خَاصَّةً بِالْكَافِرِينَ ، وَيُفَسِّرُونَ الْكَافِرِينَ بِمَنْ لَا يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ مُسْلِمِينَ ، وَطَالَمَا أَنْكَرَ عَلَيْنَا بَعْضُ أَدْعِيَاءِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، أَنَّنَا جَعَلْنَا الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ شَامِلَةً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ مَأْفُوكِينَ عَنْ تَدَبُّرِهَا الْمُرَادِ مِنْهَا جَاهِلِينَ لِلسُّنَنِ الْعَامَّةِ فِيهَا ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَقُولُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَظَنُّوا كَمَا ظَنُّوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحَابِي الْأَقْوَامَ لِأَجْلِ رُسُلِهِمْ ، وَأَنَّهُ يُعْطِيهِمْ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِجَاهِهِمْ لَا بِاتِّبَاعِهِمْ ، وَقَدْ رَاجَتْ هَذِهِ الْعَقَائِدُ الْفَاسِدَةُ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَتْ تِجَارَةً لِلشُّيُوخِ الْمُقَلِّدِينَ الْجَامِدِينَ وَالدَّجَّالِينَ الضَّالِّينَ الْمُضِلِّينَ : فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (2 : 16) بَلْ كَانُوا فِتْنَةً لِلْكَافِرِينَ وَحُجَّةً عَلَى الدِّينِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هَذَا السِّيَاقِ آنِفًا : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (47 : 24) ؟

أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِقَوْلِ رَسُولِهِمْ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : " شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا " أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (23 : 68 ، 69) .

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ وَجَّهَ الْخِطَابَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ إلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِأَجْلِ تَسْلِيَتِهِ وَتَثْبِيتِ فُؤَادِهِ بِمَا فِي قَصَصِ أُولَئِكَ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ مِنَ الْعِبَرِ وَالسُّنَنِ الَّتِي بَيَّنَ فِقْهَهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْحِكَمِ فِي الْآيَاتِ السَّبْعِ الَّتِي قَبْلَهُمَا . قَالَ تَعَالَى :

(231/280)

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ قَفَى بِهِ عَلَى جُمْلَةِ قَصَصِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّتِي تَقَدَّمَتْ ، وَمَا عَطَفَ عَلَيْهَا مِنْ بَيَانِ حِكَمِهَا وَفِقْهِهَا فَكَانَتْ كَالْفَذْلَكَةِ لَهَا ، فَالْقُرَى هُنَا هِيَ الْمَعْهُودَةُ فِي هَذِهِ الْقَصَصِ ، وَحِكْمَةُ تَخْصِيصِهَا بِالذِّكْرِ أَنَّهَا كَانَتْ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ مِمَّا جَاوَرَهَا ، وَكَانَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ مِنَ الْعَرَبِ ، وَكَانَ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ وُجِّهَتْ إلَيْهِمْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ يَتَنَاقَلُونَ بَعْضَ أَخْبَارِهِمْ مُبْهَمَةً مُجْمَلَةً ،

وَكَانَتْ عَلَى هَذَا كُلِّهِ قَدْ طُبِعَتْ عَلَى غِرَارٍ وَاحِدٍ فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ ، وَالتَّمَارِي فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ النُّذُرِ ، إِلَى أَنْ حَلَّ بِهِمُ النَّكَالُ ، وَأُخِذُوا بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ ، فَالْعِبْرَةُ فِيهَا كُلِّهَا وَاحِدَةٌ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ قَوْمُ مُوسَى فَإِنَّهُمْ آمَنُوا ، وَإِنَّمَا كَذَّبَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ فَعُذِّبُوا ، وَلِذَلِكَ أَخَّرَ قِصَّتَهُ .

وَالْمَعْنَى : تِلْكَ الْقُرَى الَّتِي بَعُدَ عَهْدُهَا ، وَطَالَ الْأَمَدُ عَلَى تَارِيخِهَا ، وَجَهِلَ قَوْمُكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ حَقِيقَةَ حَالِهَا ، نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآنَ بَعْضَ أَنْبَائِهَا ، وَهُوَ مَا فِيهِ الْعِبَرُ مِنْهَا ، وَإِنَّمَا قَالَ : نَقُصُّ لَا قَصَصْنَا ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ مَعَ تِلْكَ الْقَصَصِ لَا بَعْدَهَا . وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ أَيْ : وَلَقَدْ جَاءَ أَهْلَ تِلْكَ الْقُرَى رُسُلُهُمْ

(232/280)

بِالْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ دَعْوَتِهِمْ ، وَبِالْآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا عَلَيْهِمْ لِإِقَامَةِ حُجَّتِهِمْ ، بِأَنْ جَاءَ كُلُّ رَسُولٍ قَوْمَهُ بِمَا أَعْذَرَ بِهِ إِلَيْهِمْ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ مَجِيءِ الْبَيِّنَاتِ بِمَا كَانُوا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ مَجِيئَهَا عِنْدَ بَدْءِ الدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ بِمَا شَرَعَهُ ، وَتَرْكِ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي ، وَقِيلَ : إِنَّ الْبَاءَ لِلسَّبَبِيَّةِ ، وَالْمَعْنَى : فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بَعْدَ بَعْثَتِهِ ؛ بِسَبَبِ تَعَوُّدِهِمْ تَكْذِيبَ الْحَقِّ قَبْلَهَا ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ وَاهٍ جِدًّا فَإِنَّ قَوْلَهُ : فَمَا كَانُوا

نَفْيٌ لِلشَّأْنِ ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ كُلِّ مَنْ كَذَّبَ بِشَيْءٍ أَنْ يُصِرَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ظُهُورِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى خَطَئِهِ فِيهِ ، وَلَكِنْ شَأْنُ بَعْضِ الْمُكَذِّبِينَ عِنَادًا أَوْ تَقْلِيدًا أَنْ يُصِرُّوا عَلَيْهِ بَعْدَ إِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ ؛ لِأَنَّهَا لَا قِيمَةَ لَهَا عِنْدَهُمْ ، فَهُمْ إِمَّا جَاحِدٌ مُعَانِدٌ ضَلَّ عَلَى عِلْمٍ ، وَإِمَّا مُقَلِّدٌ يَأْبَى النَّظَرَ وَالْعِلْمَ ، عَلَى أَنَّ مَا قَالُوهُ لَا يُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ إِلَّا بِتَكَلُّفٍ يُخَالِفُهُ الْمُتَبَادَرُ مِنَ اللَّفْظِ ، فَالْعَجَبُ مِمَّنِ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ ؛ وَلَمْ يَفْهَمْ غَيْرَهُ ، وَسَيَأْتِي فِي سُورَةِ يُونُسَ بَعْدَ ذِكْرِ خُلَاصَةِ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ

(233/280)

الْمُعْتَدِينَ (10 : 74) فَالْمُرَادُ بِهَؤُلَاءِ الرُّسُلِ الَّذِينَ بُعِثُوا بَعْدَ نُوحٍ مَنْ ذُكِرُوا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ هُنَا وَهُنَالِكَ : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَحِينَئِذٍ يُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ : إِنَّ أَهْلَ تِلْكَ الْقُرَى فِي جُمْلَتِهِمْ وَمَجْمُوعِهِمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يُؤْمِنَ الْمُتَأَخِّرُ مِنْهُمْ بِمَا كَذَّبَ بِهِ الْمُتَقَدِّمُ ، وَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَمِيعِ ، ثُمَّ قَوْمُ هُودٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قَوْمِ صَالِحٍ إِلَخْ ، وَالرَّاجِحُ الْمُخْتَارُ هُوَ الْأَوَّلُ وَيَلِيهِ هَذَا ، وَالثَّانِي بَاطِلٌ الْبَتَّةَ .

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ أَيْ : مِثْلَ هَذَا الَّذِي وُصِفَ مِنْ عِنَادِ هَؤُلَاءِ

وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ ، وَعَدَمِ تَأْثِيرِ الدَّلَائِلِ وَالْبَيِّنَاتِ فِي عُقُولِهِمْ ، يَكُونُ الطَّبْعُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ صَارَ الْكُفْرُ صِفَةً لَازِمَةً لَهُمْ ، بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي أَخْلَاقِ الْبَشَرِ وَشُئُونِهِمْ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَأْنَسُوا بِالْكُفْرِ وَأَعْمَالِهِ ؛ حَتَّى تَسْتَحْوِذَ أَوْهَامُهُ عَلَى أَفْكَارِهِمْ ، وَيَمْلَأَ حُبُّ شَهَوَاتِهِ جَوَانِبَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَصِيرَ وِجْدَانًا تَقْلِيدِيًّا لَهُمْ ، لَا يَقْبَلُونَ فِيهِ بَحْثًا ، وَلَا يَسْمَعُونَ فِيهِ نَقْدًا ، فَيَكُونُ كَالسِّكَّةِ الَّتِي طُبِعَتْ فِي أَثْنَاءِ لِينِ مَعْدِنِهَا بِصَهْرِهِ وَإِذَابَتِهِ ثُمَّ جَمَدَتْ فَلَا تَقْبَلُ نَقْشًا وَلَا شَكْلًا آخَرَ .

(234/280)

وَمِنْ وُجُوهِ تَسْلِيَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْآيَةِ إِعْلَامُهُ أَنَّ مَنْ وَصَلُوا بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ أَوِ التَّقَالِيدِ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنْ فَسَادِ الْفِطْرَةِ ، وَإِهْمَالِ اسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِنْ وَضَحَتْ ، وَلَا بِالْآيَاتِ وَإِنِ اقْتَرَحَتْ ، فَقَدْ كَانَ كُفَّارُ مَكَّةَ يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِ الْآيَاتِ ، وَكَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ وَمَا اقْتَرَحُوا مِنْهَا حِرْصًا عَلَى إِيمَانِهِمْ ، حَتَّى بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لَهُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ مِنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ وَأَخْلَاقِهِمْ ، وَتَقَدَّمَ هَذَا الْبَيَانُ فِي آيَاتٍ مِنْ أَوَائِلِ سُورَةِ

الْأَنْعَامِ وَأَثْنَائِهَا ، وَمِمَّا يُنَاسِبُ مَا هُنَا مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ

جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (6 : 109 ، 110) فَقَوْلُهُ تَعَالَى : كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ بِمَعْنَى قَوْلِهِ هُنَا : فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ .

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ الْعَهْدُ : الْوَصِيَّةُ بِمَعْنَى إِنْشَائِهَا ، وَبِمَعْنَى مُتَعَلِّقِهَا وَهُوَ مَا يُوصِي بِهِ الْمُوصِي ، وَعَهِدْتُ إِلَيْهِ بِكَذَا وَصَّيْتُهُ بِفِعْلِهِ أَوْ حِفْظِهِ ، وَيَكُونُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ ، وَهُوَ الْمُعَاهَدَةُ كَمَا يَكُونُ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ ؛ وَهُوَ مَنْ يَعْهَدُ إِلَيْكَ

(235/280)

بِشَيْءٍ ، وَمَنْ تَلْتَزِمُ لَهُ شَيْئًا ، وَالْمِيثَاقُ : الْعَهْدُ الْمُوَثَّقُ بِضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ التَّأْكِيدِ ، قَالَ تَعَالَى : وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (2 : 40) أَيْ : أَوْفُوا بِمَا عَهِدْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ أُوفِ لَكُمْ بِمَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى ذَلِكَ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يُسَمَّى عَهْدَ اللَّهِ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : عَهْدُ اللَّهِ تَارَةً يَكُونُ بِمَا رَكَّزَهُ فِي عُقُولِنَا ، وَتَارَةً يَكُونُ بِمَا أَمَرَنَا بِهِ فِي الْكِتَابِ وَبِأَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، وَتَارَةً بِمَا نَلْتَزِمُهُ وَلَيْسَ بِلَازِمٍ فِي أَصْلِ الشَّرْعِ كَالنُّذُورِ ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا ا هـ ، وَالْمُرَادُ

مِنَ الْأَوَّلِ ؛ الْعَهْدُ الَّذِي تَقْتَضِيهِ فِطْرَةُ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، فَهِيَ عَهْدٌ مِنْهُ يُطَالِبُ النَّاسَ بِهِ وَيُحَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ الْحَنِيفِيَّةُ ، وَأَصْلُهَا الْمَيْلُ عَنْ جَانِبِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ إِلَى جَانِبِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ ، فَقَدْ فَطَرَ اللهُ أُنُفُسَ الْبَشَرِ عَلَى الشُّعُورِ بِسُلْطَانٍ غَيْبِيٍّ فَوْقَ جَمِيعِ قُوَى الْعَالَمِ ، وَعَلَى إِيثَارِ مَا تَرَاهُ حَسَنًا وَاجْتِنَابِ غَيْرِهِ ، وَعَلَى حُبِّ الْكَمَالِ وَكَرَاهَةِ النَّقْصِ ، وَلَكِنَّهُمْ يُخْطِئُونَ فِي تَحْدِيدِ هَذِهِ الْمَعَانِي ، وَيَحْتَاجُونَ إِلَى بَيَانِهَا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَهُوَ عَهْدُ اللهِ الْمُفَصَّلُ الَّذِي يُرْسِلُ بِهِ رُسُلَهُ لِمُسَاعَدَةِ الْفِطْرَةِ عَلَى تَزْكِيَةِ النَّفْسِ ، وَإِزَالَةِ مَا يَطْرَأُ عَلَيْهَا مِنَ الْفَسَادِ بِالْجَهْلِ وَسُوءِ الِاخْتِيَارِ ، وَمِنَ الْأُصُولِ الْعَامَّةِ لِعَهْدِ اللهِ الْعَامِّ ، عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، مَا

(236/280)

بَيَّنَهُ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ هَذِهِ السُّورَةِ بَعْدَ بَيَانِ النَّشْأَةِ الْآدَمِيَّةِ وَالنَّشْأَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّنَافُرِ وَالتَّعَادِي ، أَعْنِي تِلْكَ الْمُنَادَاةَ الَّتِي نَادَى بِهَا بَنِي آدَمَ فِي الْآيَاتِ الْعَشْرِ مِنْ (26 إِلَى 35) وَمِنْهَا التَّحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الشَّيْطَانِ ، وَهُوَ مَا عَهِدَهُ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (36 : 60) وَمِنْهَا الْوَصَايَا الْعَشْرُ الَّتِي هِيَ أُصُولُ الدِّينِ وَقَوَاعِدُهُ الْكُبْرَى فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ 151 – 153 مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَفِي الثَّانِيَةِ مِنْهَا قَوْلُهُ

تَعَالَى : وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا (6 : 152) .

وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ السَّلَفِ الْعَهْدَ بِالْمِيثَاقِ الْفِطْرِيِّ الْعَامِّ الَّذِي يَأْتِي بَيَانُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى إلَخْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ، وَابْنِ الْمُنْذِرِ ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ، وَهُمَا وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ،

(237/280)

وَرَوَى أَبُو الشَّيْخِ عَنْ قَتَادَةَ ، قَالَ : لَمَّا ابْتَلَاهُمْ بِالشِّدَّةِ وَالْجَهْدِ وَالْبَلَاءِ ثُمَّ أَتَاهُمْ بِالرَّخَاءِ وَالْعَافِيَةِ ذَمَّ اللهُ أَكْثَرَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ فَقَالَ : وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ وَيَعْنِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ شَأْنِ الْفِطْرَةِ فِي الرُّجُوعِ إلَى اللهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ ، وَكَوْنِ هَؤُلَاءِ لَمْ تُؤَدِّبْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَهَذَا فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ الْعَهْدِ الْفِطْرِيِّ ، وَقِيلَ : إنَّهُ أَرَادَ بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُعَاهِدُونَ اللهَ تَعَالَى عِنْدَ الضِّيقِ بِأَنْ يَشْكُرُوا لَهُ وَيُوَحِّدُوهُ إذَا أَنْجَاهُمْ كَمَا حَكَى عَنْ بَعْضِهِمْ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ تَفْسِيرُ الْعَهْدِ بِالْإِيمَانِ أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : إلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (19 : 87) وَهُوَ يَتَّفِقُ مَعَ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ ، وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ ، كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَةِ : وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ ؛ أَيْ : لِأَكْثَرِ الْأُمَمِ

الْمَاضِيَةِ مِنْ عَهْدٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَالْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ هُوَ الَّذِي جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَصْلَابِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَقَرُّوا بِذَلِكَ ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ ، وَخَالَفُوهُ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَعَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ لَا مِنْ عَقْلٍ ، وَلَا مِنْ شَرْعٍ ، وَفِي الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ خِلَافُ ذَلِكَ ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ الْكِرَامُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى

(238/280)

آخِرِهِمْ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : "يَقُولُ اللَّهُ : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ " وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ " الْحَدِيثَ اهـ .

وَالصَّوَابُ : أَنَّ الْعَهْدَ يَعُمُّ هُنَا كُلَّ مَا يَصْلُحُ لَهُ مِنْ عَهْدٍ فِطْرِيٍّ وَشَرْعِيٍّ وَعُرْفِيٍّ مِمَّا يَلْتَزِمُهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي تَعَاهُدِهِمْ وَتَعَاقُدِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ نَكِرَةً فِي سِيَاقِ النَّفْيِ مَعَ تَأْكِيدِ النَّفْيِ بِـ " مِنْ " كَأَنَّهُ قَالَ : وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ عَهْدًا مَا يَفُونُ بِهِ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ أَيْ : وَإِنَّ الشَّأْنَ الَّذِي وَجَدْنَا عَلَيْهِمْ أَكْثَرَهُمْ هُوَ التَّمَكُّنُ مِنَ الْفُسُوقِ ، وَهُوَ

الْخُرُوجُ عَنْ كُلِّ عَهْدٍ فِطْرِيٍّ وَشَرْعِيٍّ بِالنَّكْثِ وَالْغَدْرِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَاصِي ، وَإِنَّمَا حَكَمَ عَلَى الْأَكْثَرِ ؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ آمَنَ وَالْتَزَمَ كُلَّ عَهْدٍ عَاهَدَ اللهَ عَلَيْهِ ، أَوْ عَاهَدَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، أَوْ تَعَاهَدَ عَلَيْهِ مَعَ النَّاسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَفِي بِبَعْضِ ذَلِكَ حَتَّى فِي حَالِ الْكُفْرِ ؛ إِذْ لَا تَتَّفِقُ أَفْرَادُ أُمَّةٍ كَبِيرَةٍ عَلَى الشَّرِّ وَالْبَاطِلِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَهَذَا مِنْ دِقَّةِ الْقُرْآنِ فِي تَحْدِيدِ الْحَقَائِقِ بِالصِّدْقِ الَّذِي لَا تَشُوبُهُ شُبَهَاتُ الْمُبَالَغَةِ بِمَا يَسْلُبُ أَحَدًا حَقَّهُ ، أَوْ يُعْطِي أَحَدًا غَيْرَ حَقِّهِ ، وَقَدْ نَوَّهْنَا

(239/280)

بِهَذِهِ الدِّقَّةِ مِنْ قَبْلُ ، وَغَفَلَ عَنْهَا بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فَزَعَمُوا هُنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَكْثَرِ الْكُلُّ فِي الْكُلِّ

وَالْفِسْقُ فِي الْأَصْلِ أَعَمُّ مِنْ نَكْثِ الْعَهْدِ ، وَيَتَسَاوَى مَفْهُومُهُمَا بِمَا فَسَّرْنَا بِهِ عُمُومَ الْعَهْدِ هُنَا ، فَفِي التَّعْبِيرِ مِنْ مَحَاسِنِ الْكَلَامِ الطَّرْدُ وَالْعَكْسُ ، بِاعْتِبَارِ مَدْلُولِ اللَّفْظِ ، إِذِ الْأَوَّلُ يُقَرِّرُ بِمَنْطُوقِهِ الثَّانِي الَّذِي يُقَرِّرُ بِمَفْهُومِهِ مَنْطُوقَ الْأَوَّلِ ، وَفِيهِ الْجِنَاسُ التَّامُّ بَيْنَ (وَجَدْنَا) الْأُولَى وَهِيَ بِمَعْنَى أَلْفَيْنَا ، وَالثَّانِيَةِ وَهِيَ بِمَعْنَى عَلِمْنَا ، وَالْمُقَابَلَةُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ فِي سَلْبِ الْوُجُودِ الْأَوَّلِ وَإِثْبَاتِ الثَّانِي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 9 صـ 27 . 33 ﴾

وقال ابن عاشور :

وعطفت جملة : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ على جملة : ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم ﴾ وما رتب عليها من قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ تنبيهاً على رسوخ الكفر من نفوسهم بحيث لم يقلعه منهم لا ما شاهدوه من البينات ، ولا ما وضعه الله في فطرة الإنسان من اعتقاد وجود إله واحد وتصديق الرسل الداعين إليه ، ولا الوفاءُ بما عاهدوا عليه الرسل عند الدعوة : إنهم إن أتوهم بالبينات يؤمنون بها .

والوجدان في الموضعين مجاز في العلم ، فصار من أفعال القلوب ، ونفيه في الأول كناية عن انتفاء العهد بالمعنى المقصود ، أي : وفائه ، لأنه لو كان موجوداً لعَلمه مَنْ شأنه أن يعلمَه ويبحث عنه عند طلب الوفاء به ، لا سيما والمتكلم هو الذي لا تخفى عليه خافية كقوله : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً ﴾ [الأنعام : 145] الآية ، أي لا محرم إلاّ ما ذكر ، فمعنى ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ ما لأكثرهم عهد .

والعهدُ : الالتزامُ والوعدُ المؤكّدُ وقوعُه ، والمُوَثّقُ بما يمنع من إخلافه : من يمين ، أو ضمان ، أو خشية مسبة ، وهو مشتق من عَهِد الشيء بمعنى عَرفه ، لأن الوعد المؤكد يعرفه ملتزمه

ويحرص أن لا ينساه .

ويسمى إيقاع ما التزمه الملتزم من عهده الوفاءَ بالعهد ، فالعهد هنا يجوز أن يراد به الوعد الذي حققَه الأممُ لرسلهم مثل قولهم : فأتنا بآية إن كنت من الصادقين ، فإن معنى ذلك : إن أتيتنا بآية صدقناك .

ويجوز أن يراد به وعد وثقه أسلاف الأمم من عهد آدم أن لا يعبدوا إلاّ الله وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ [يس : 60] الآية ، فكان لازماً لأعقابهم .

ويجوز أن يراد به ما وعَدت به أرواح البشر خالقها في الأزل المحكيُ في قوله تعالى : ﴿ وإذْ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّاتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربّكم قالوا بلى شهدنا ﴾ [الأعراف : 172] الآية .

(241/280)

وهو عبارة عن خلق الله فطرة البشرية معتقدة وجود خالقها ووحدانيتَه ، ثم حرفتها النزعات الوثنية والضلالات الشيطانية .

ووقوع اسم هذا الجنس في سياق النفي يقتضي انتفاءه بجميع المعاني الصادق هو عليها .

ومعنى انتفاء وجدانه .

هو انتفاء الوفاء به ، لأن أصل الوعد ثابت موجود ، ولكنه لما كان تحققه لا يظهر إلاّ في المستقبل ، وهو الوفاء ، جعل انتفاء الوفاء بمنزلة انتفاء الوقوع ، والمعنى على تقدير مضاف ، أي : ما وجدنا لأكثرهم من وفاء عهد .

وإنما عدّي عدم وجدان الوفاء بالعهد في ﴿ أكثرهم ﴾ للإشارة إلى إخراج مؤمني كل أمة من هذا الذم ، والمراد بأكثرهم ، أكثر كل أمة منهم ، لا أمة واحدة قليلة من بين جميع الأمم .

وقوله : ﴿ وإنْ وجدْنا أكثرهم لفَاسقين ﴾ إخبار بأن عدم الوفاء بالعهد من أكثرهم كان منهم عن عمد ونكث ، ولكون ذلك معنى زائداً على ما في الجملة التي قبلها عطفت ولم تجعل تأكيداً للتي قبلها أو بياناً ، لأن الفسق هو عصيان الأمر ، وذلك أنهم كذبوا فيما وعدوا عن قصد للكفر .

و(إنْ) مخففة من الثقيلة ، وبعدها مبتدأ محذوف هو ضمير الشأن ، والجملة خبر عنه تنويهاً بشأن هذا الخبر ليعلمه السامعون .

واللام الداخلة في خبر ﴿ وجدنا ﴾ لام ابتداء ، باعتبار كون ذلك الخبر خبراً من جملة هي خبر عن الاسم الواقع بعد (إنْ) ، وجلبت اللام للتفرقة بين المخففة والنافية .

وقد تقدم نظير هذا عند قوله تعالى : ﴿ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [آل عمران : 164] .

وأسند حكم النكث إلى أكثر أهل القرى ، تبيناً لكون ضمير ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ جرى على التغليب ، ولعل نكتة هذا التصريح في خصوص هذا الحكم أنه حكم مذمة ومسبة ، فناسبت محاشاة من لم تلتصق به تلك المسبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(242/280)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102) ﴾

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل ، وردوا منهج الله الذي أرسله على ألسنة رسله . كانت لهم عهود كثيرة . فما وفوا بعهد منها ، مثال ذلك : العهد الجامع لكل الخلق ، وهو العهد الذي أخذه الله على ذرية آدم من صلبه حين مسح الله على ظهر آدم ، وأخرج ذريته وقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172]

وقد يقف العقل في أخذ مثل هذا العهد على الذرية الموجودة في آدم ؛ لذلك نقول : إذا قال الله فقد صدق عَقِلْنا ذلك أو لم نعقله ، إنك لو نظرت إلى " آحاد البشر " ، أي إلى الأفراد الموجودين ، تجد نفسك وغيرك يجد نفسه نسلاً لآبائكم ، وهذا يدل على أنَّ الإنسان

وجد من حيوان منوي حي انتقل إلى بويضة حيّة من أمه فنشأ هذا الإنسان . ولو طرأ على الحيوان المنوي موت ، أو طرأ على البويضة موت امتنع الإِنسال .

إذن فكل إنسان منا جزء من حياة أبيه ، وأبوه جزء من حياة والده ، ووالده جزء من حياة أبيه ، وإن سلسلت ذلك فسنصل لآدم ، فكل واحد من ذرية آدم إلى أن تقوم الساعة فيه جزئ حي من آدم . ومادام فيه جزئ حي من آدم فقد شهد الخلق الأول ، ولذلك حين يسألهم الله سؤال التقرير ويقول : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ بلى ﴾ .

(243/280)

وضربنا المثل لنقرب وقلنا إن الذرة الشائعة في شيء ، تشيع في أضعاف الشيء ، وسبق أن قلنا : إننا إذا جئنا بمادة حمراء – مثلاً – في حجم سنتيمتر مكعب ، ثم أذبناها في قارورة ، وبذلك يصبح كل جزء في القارورة فيه جزء من المادة الملونة ، وإن أخذت القارورة وألقيتها في برميل واسع ، هنا تصير كل قطرة من البرميل فيها جزيء من المادة الحمراء ، وإن أخذت ماء البرميل وألقيته في البحر فكل ذرة في البحر الواسع يصير فيها جزيء من المادة الملونة ، وهكذا يقرب من ذهن كل منا أن في كل إنسان جزيئاً من آدم ، وقد شهد هذا الجزئ العهد الأول . ولقائل أن يسأل : كيف يخاطب الله الذر الذي كان

موجوداً في ظهر آدم ؟ . نقول : كما خاطب الأرض وخاطب السماء ، فهو القائل : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

[فصلت : 11]

إذن فعدم إدراكنا لكيفية الخطاب بين رب ومربوب ، لا يقدح في أن هذه المسألة لها أصل ولها وجود .

وهذا بالنسبة للعهد الأول ، وبعده العهد الثاني الذي أخذه الله على رسله ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين ﴾

[آل عمران : 81]

(244/280)

ثم هناك عهود خاصة أنشأتها الأحداث الخاصة ، مثلما يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ

لَهُ الدين لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [يونس : 22]

إنهم لا يسلمون أنفسهم للعطب ، ولا يغترون بجاههم وبالأسباب التي عندهم لأنها قد امتنعت ، ولذلك لا يغشون أنفسهم بل يلجأون صاغرين إلى الله قائلين : ﴿ . . . لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [يونس : 22]

هكذا نرى أنهم أعطوا العهد في حادثة ، فلما أنجاهم الله أعرضوا ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . ﴾ [يونس : 12]

إذن فالعهد إما أن يكون عهداً عاماً وإما أن يكون عهداً خاصًّا .

والحق يقول : ﴿ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ .

(245/280)

أي أن حال وشأن أكثرهم ظل على الفسق ونقض العهد والخروج عنه ؛ لأن العهد إطار يحكم حركة المختار فيما أعطاه على نفسه من المواثيق ، وهو حر في أن يفعل أو لا يفعل ، لكنه إذا عاهد أن يفعل أصبح ملزماً ووجب عليه أن ينفذ العهد باختياره ، لأنه إذا قطع العهد على نفسه فعليه أن يحكم حركته في إطار هذا العهد ، فإن خرج بحركته عن إطار

هذا العهد فهذا هو الفسق ، والأصل في الفسق أنه خروج الرطبة من القشرة لأن القشرة تصنع سياجاً على الثمرة بحيث لا تُدخل إلى الثمرة شيئاً مفسداً من الخارج ، ويقال : فسقت الرطبة أي خرجت عن قشرتها . كأن ربنا جعل التكليف تغليفاً حماية للإنسان من العطب ، فإذا ما خرج عن الدين مثل خروج الرطبة عن الغطاء والقشرة صار عرضة للتلوث وللميكروبات ؟ ، فسمى الله الخارج على منهجه بالفاسق ، لأنه خرج عن الإطار الذي جعله الله له ليحميه من المفاسد ، ومن العطب الذي يقع عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(246/280)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ قال : الوفاء .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ يقول : فما ابتلاهم به ثم عافاهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ قال : هو ذاك العهد يوم أخذ الميثاق .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ قال : لما ابتلاهم بالشدة والجهد والبلاء ثم أتاهم بالرخاء والعافية ، ذم الله أكثرهم عند ذلك فقال ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ قال : الميثاق الذي أخذه في ظهر آدم .

وأخرج ابن المنذر عن أبي بن كعب في قوله ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ قال : علم الله يومئذ من يفي ممن لا يفي فقال ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ قال : الذي أخذ من بني آدم في ظهر آدم لم يفوا به ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ قال : القرون الماضية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ قال : وذلك أن الله إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما أوصاهم به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله " لأَكْثَرِهِمْ " فيه وجوه :

الظَّاهِرُ أَنَّهُ متعلقٌ بالوجْدانِ كقولك : ما وجدتُ له مالاً أي : ما صَادَفْتُ له مالاً ولا لقيته .

الثاني : أن يكون حالاً من " عهد " ؛ لأَنَّه في الأَصل صفة نكرةٍ فلما قُدِّم عليها نُصب على الحال ، والأَصْلُ : ما وجدنا عهداً لأَكثرهم ، وهذا ما لم يذكر أَبو البقاءِ غيره .

وعلى هذين الوجهين ف " وَجَدَ " متعدِّية لواحد وهو " من عَهْدٍ " ، و " منْ " مزيدةٌ فيه لوجود الشرطين .

الثالث : أَنَّهُ في محلِّ نصب مفعولاً ثانياً لوجَدَ إذ هي بمعنى علمية ، والمفعول هو " مِنْ عَهْدٍ " .

وقد يترجَّحُ هذا بأَنَّ " وَجَدَ " الثانية علمية لا وجدانيَّة بمعنى الإصابة ، وسيأتي دليل ذلك .

وإذا تقرَّر هذا فينبغي أن تكون الأولى كذلك مطابقة للكلام ومناسبة له ، ومن يرجّح الأَوَّل يقولُ : إنَّ الأولى لمعنى : والثَّانية لمعنى آخر .

قوله : " وَإِنْ وَجدْنَا " " إنْ " هذه هي المخفَّفةُ وليس هنا عاملة لمباشرتها الفعل فَزَالَ

اختصاصُهَا المُقْتَضِي لإعمالها .

وقال الزَّمخشريُّ : " وإنَّ الشَّأن والحديث وجدنا " .

فظاهِرُ هذه العبارة أنَّها مُعْملَة ، وأنَّ اسمها ضميرُ الأمر والشَّأن ، وقد صرَّحَ أبو البقاء هنا بأنَّها معملةٌ ، وأن اسمها محذوف ، إلا أنَّهُ لم يقدِّر ضمير الحديث بل غيره فقال : " واسمها محذوفٌ أي : إنَّا وَجَدْنَا " .

وهذا مذهب النَّحويين أعني اعتقاد إعمال المخفَّف من هذه الحروف في " أن " المفتوحة على الصَّحيح ، وفي " كأن " التَّشبيهية ، وأمَّا " إنْ " المخففة المكسورة فلا .

وقد تقدَّم إيضاحه .

(248/280)

ووجدنا هنا متعدية لاثنين أولهما " أكْثَرَهُم " ، والثاني " لفاسقين " ، قال الزمخشريُّ : والوجود بمعنى العلم من قولك : وجدتُ زيداً ذا الحفاظ بدليل دخول " إنْ " المخفَّفة ، واللاَّم الفارقة ولا يسوغ ذلك إلاَّ في المبتدأ والخبر والأفعالِ الدَّاخلة عليهما يعني أنها مختصة بالابتداء ، وبالأفعال النَّاسخةِ له ، وهذا مذهبُ الجُمْهُورِ ، وقد تقدَّم الخلافُ عن الأخْفَشِ أنَّهُ يجوزُ على غيرها ، وتقدَّم دليله على ذلك ، واللاَّمُ فارقة وقيل : هي عوض من

التَّشديد .

قال مَكيٌّ : " ولزمت اللاَّمُ في خبرها عوضاً من التشديد والمحذوف الأوَّلِ ، وقد تقدَّم أنَّ بعض الكوفيين يجعلون " إن " نافية ، واللاَّم بمعنى " إلاَّ " في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ [البقرة : 143] .

ومعنى فاسقين خارجين عن الطَّاعةِ ، مارقين عن الدِّينِ ، وقيل : ناقضين العَهْدَ .

وقوله : " لأَكْثَرهُم " ، و" أَكْثَرهُم " ، و" من بعدهم " : إنْ جعلنا هذه الضَّمائر كلَّها للأمم السَّالِفَةِ فلا اعتراضَ ، وإن جعلنا الضَّمير في " لأكثرهُم " و" أَكْثَرهُمْ " لعموم النَّاسِ والضَّمير في " من بعدهم " للأمم السَّالِفَةِ كانت هذه الجملة - أعني ما وجدنا - اعتراضاً كذلك قاله الزمخشريُّ ، وفيه نظر ؛ لأَنَّهُ إذا كان الأوَّلُ عاماً ثم ذكر شيء يندرجُ فيه ما بعده وما قبله كيف يُجْعل ذلك العامُّ معترضاً بين الخاصين .

وأيضاً ، فالنَّحْويُّون إنما يعرفون الاعتراض فيما اعترض به بين متلازمين ، إلاَّ أنَّ أهل البيان عندهم الاعتراض أعمُّ من ذلك ، حتَّى إذا أتي بشيء بين شيئين مذكورَيْنِ في قصَّةٍ واحدة سَمَّوه اعتراضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 142.144 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102) ﴾

نجم في العذر طارِقُهم ، وأَقَلَ من سماء الوفاء شارِقُهم ، فَعَدِمَ أكثرُهم رعاية العهد ، وحقت من الحق لهم قسمة الرد والصد .

ويقال : شكا مِنْ أكثرِهم إلى أقلِّهم ، فالأكثرون مَنْ ردَّتهم القسمة ، والأقلون مَنْ قَبِلَتْهم الوصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 554 ﴾

(250/280)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ﴾

إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ بالبؤس والفقر وَالضَّرَّاءِ بالضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع

نبيهم وتعززهم عليه لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر والعزة ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة والرخاء والصحة والسعة كقوله وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ حَتَّى عَفَوْا كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، من قولهم: عفا النبات وعفا الشحم والوبر، إذا كثرت. ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم «وأعفوا اللحى» «1» وقال الحطيئة:

بِمُسْتَأْسِدِ القُرْيَانِ عَافَ نَبَاتُهُ «2»

وقال:

ولكنّا نعضّ السّيف منها بأسوق عافيّات الشّحم كوم «3»

---

(1). تقدم في البقرة.

(2) فان نظرت يوما بمؤخر عينها إلى علم في الغور قالت أبعد

بأرض ترى فرخ الحبارى كأنها بها راكب موف على ظهر قردد

بمستأسد القريان عاف نباته تساقطنى والرحل من صوت هدد

لحطيئة. ومؤخر العين - كمؤمن -: جانبها. والعلم: الجبل والعلامة في الطريق. والغور: الموضع الغائر المنخفض.

وقالت له «ابعد» مجاز عن تركها إياه بسرعة، فيبعد عنها. والحبارى: طير يهوى الجبال، وفرخها يسمى النهار.

وفرخ الكروان يسمي الليل . والموفى : المشرف . والقردد – كهدهد – المكان الغليظ المرتفع . والمستأسد : النبات القوى الغليظ الطويل ، كما سمى السبع أسداً لقوته . والقريان – بالضم – جمع قرى كفعيل : مجرى الماء الذي يجمعه إلى الروض . والعافي الكثير ، يصف ناقته بسرعة السير وأنها لخوفها في ذلك الطريق لا تتمكن من تمام النظر إلى أعلامه ، فإذا لمحت فيه شبحاً أسرعت مبعدة عنه في أرض مجهل ، كأن فرخ الحبارى فيها راكب مشرف فوق مكان مرتفع . وقوله «بمستأسد» بدل من قوله «بأرض» أو متعلق بتساقطنى .

والمعنى : أنه لا فرق عندها بين الحزن والسهل في نبات الغدران حال كثرته ، ترديني مع رحلها لسرعة سيرها من خوفها من صوت هدهد واحد . وعلى الأول ، تساقطني حال من فاعل «قالت» أو جواب الشرط ، وقالت له : ابعد ، صفة علم . وعبر بالتساقط ، لأن المعنى :

كلما تمكنت حركتنى ، حتى أكاد أسقط .

(3) إذا ما درها لم يقر ضيفا ضمن له قراه من الشحوم

فلا تتجاوز العضلات منها إلى البكر المعازب والكروم

ولكنا لعض السيف منها بأسوق عافيات الشحم كوم

البيد بن ربيعة العامري . يقول : إذا لم يكف در النوق في قرى الضيف ، كان قراء من شحومها ، فأسند القرى إلى اللبن لأنه آلته أو سببه . وإسناد الضمان إلى نوق الإبل مجاز

أيضاً ، لأنها محل المضمون . والفعلان في الحقيقة لمالك الإبل . والمراد : أنها معدة لذلك إما بلبنها أو شحمها . والعضلة : الحسنة السمينة . والبكر : الفتى من الإبل ذكراً أو أنثى . والمعازب المهزول ، من عزب إذا أبعد . والمعزابة والمعزاب : الذي طالت عزوبته وبعده لعدم نسله أو لبعده عن البيوت ، فكأنه بمعنى المباعد في الأصل ، ثم أريد به المهزول مجازاً . والكزم بالزاي القصير . ومنه كزم ككتف . وأكزم وكزما ، فالكزوم كصبور القصيرة . وقيل المسنة التي قصر مشفرها الأسفل عن الأعلى . أو التي لم يبق لها سن من الهرم . وكزمه أيضا إذا كسره بمقدم فمه . ويجوز أن المعازب بالفتح جمع معزاب أو معزابة ، فيكون البكر مستعملا في معنى الجمع ، أى لا تترك الوسط السمان من الإبل ذاهبين إلى الصغار المهازيل والمسنات البالغات في الهرم ، ولكنا نجعل السيف يعض منها ، بأسوق جمع ساق مضاف إلى عافيات ، أى كثيرات الشحم لتركها من العمل سنة أو سنتين . والكوم جمع كوماء ، أى عظيمات الأسنمة مرتفعاتها . [. . . . .]

(251/280)

وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ يعنى وأبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا : هذه عادة الدهر ، يعاقب في الناس بين الضراء والسراء . وقد مس آباؤنا نحو ذلك ، وما هو بابتلاء

من اللّه لعباده ، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب فَأَخَذْناهُمْ أشد الأخذ وأفظعه ، وهو أخذهم فجأة من غير شعور منهم .

[سورة الأعراف (7) : آية 96]

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (96)

اللام في القرى : إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ كأنه قال : ولو أنّ أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا آمَنُوا بدل كفرهم وَاتَّقَوْا المعاصي مكان ارتكابها لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لآتيناهم بالخير من كل وجه . وقيل أراد المطر والنبات وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس . فإن قلت : ما معنى فتح البركات عليهم ؟ قلت : تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها . ومنه قولهم : فتحت على القارئ ، إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليه بالتلقين .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 97 إلى 98]

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98)

البيات يكون بمعنى البيتوتة . يقال : بات بياتاً . ومنه قوله تعالى فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ

قائِلُونَ وقد يكون بمعنى التبييت ، كالسلام بمعنى التسليم . يقال : بيته العدو بياتاً ، فيجوز أن يراد : أن يأتيهم بأسنا بائتين ، أو وقت بيات ، أو مبيتاً ، أو مبيتين ، أو يكون بمعنى تبييتاً ، كأنه قيل :

أن يبيتهم بأسنا بياتاً . وضُحًى نصب على الظرف . يقال : أتانا ضحى ، وضحيا ، وضحاء

(252/280)

والضحى - في الأصل - اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت . والفاء والواو في أَفَأَمِنَ وأَ وَأَمِنَ حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار . فإن قلت : ما المعطوف عليه ؟ ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو ؟ قلت : المعطوف عليه قوله فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وقوله وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى إلى يَكْسِبُونَ وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه . وإنما عطف بالفاء ، لأنّ المعنى : فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى ؟ وقرئ : أو أمن ، على العطف بأو وَهُمْ يَلْعَبُونَ يشتغلون بما لا يجدى عليهم كأنهم يلعبون .

[سورة الأعراف (7) : آية 99]

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99)

فإن قلت : فلم رجع فعطف بالفاء قوله أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ قلت : هو تكرير لقوله أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى ومكر اللّه : استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر . ولاستدراجه . فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر اللّه ، كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين والبيات والغيلة .

وعن الربيع بن خثيم ، أن ابنته قالت له : مالى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ، فقال : يا بنتاه ، إنّ أباك يخاف البيات ، أراد قوله أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً

[سورة الأعراف (7) : آية 100]

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100)

إذا قرئ أَوَلَمْ يَهْدِ بالياء كان أَنْ لَوْ نَشاءُ مرفوعاً بأنه فاعله ، بمعنى : أو لم يهد للذين يخلفون ، من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن ، وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، كما أصبنا من قبلهم ، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورّثين . وإذا قرئ بالنون ، فهو منصوب كأنه قيل : أو لم يهد اللّه للوارثين هذا الشأن ، بمعنى : أولم نبين لهم أنا لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ كما أصبنا من قبلهم . وإنما عدّى فعل الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين .

فإن قلت : بم تعلق قوله تعالى وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ «1» ؟ قلت : فيه أوجه ، أن يكون معطوفا على ما دلّ عليه

(1) . قال محمود : «إن قلت بم يتعلق قوله وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ . . . الخ» قال أحمد : بل يجوز والله عطفه عليه ، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع ، ولا يضرهم إن كانوا كفارا أو مقترفين للذنوب ، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنب ولا بد ، إذ الطبع هو التمادي على الكفر والإصرار والغلو في التصميم ، حتى يكون الموصوف به مأيوسا من قبوله للحق . ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المنابة . بل إن الكافر يهدد من تماديه على كفرهم بأن يطبع الله على قلبه ، فلا يؤمن أبداً ، وهو مقتضى العطف على أصبناهم ، فتكون الآية قد هددتهم بأمرين ، أحدهما :

الاصابة ببعض ذنوبهم ، والآخر الطبع على قلوبهم . وهذا الثاني أشد من الأول ، وهو أيضا نوع من الاصابة بالذنوب أو العقوبة عليها ، ولكنه أنكى أنواع العذاب وأبلغ صنوف العقاب . وكثيرا ما يعاقب الله على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه ، كما قال تعالى : فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ كما زادت المؤمنين إيمانا إلى إيمانهم . وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسب لما كان سببا فيه وجزاء عليه ، فثواب الايمان إيمان وثواب الكفر كفر . وإنما الزمخشري يحاذوا من هذا الوجه دخول الطبع في مشيئة الله تعالى . وذلك عنده محال ، لأنه قبيح والله عنه متعال ، وأنى يتم الفرار من الحق . وكم من آية صرحت بوقوع الطبع من الله ، فضلا عن تعلق المشيئة به .

معنى أَوَلَمْ يَهْدِ كأنه قيل : يغفلون عن الهداية ، ونطبع على قلوبهم . أو على يرثون الأرض أو يكون منقطعاً بمعنى : ونحن نطبع على قلوبهم . فإن قلت : هل يجوز أن يكون وَنَطْبَعُ بمعنى وطبعنا ، كما لَوْ نَشاءُ بمعنى : لو شئنا ، ويعطف على أصبناهم ؟ قلت : لا يساعد عليه المعنى ؟ لأن القوم كانوا مطبوعا على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها . وهذا التفسير يؤدى إلى خلوهم عن هذه الصفة ، وأن اللّه تعالى لو شاء لا تصفوا بها .

[سورة الأعراف (7) : آية 101]

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101)

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها كقوله هذا بَعْلِي شَيْخاً في أنه مبتدأ وخبر وحال ويجوز أن يكون الْقُرى صفة لتلك ونَقُصُّ خبرا ، وأن يكون الْقُرى نَقُصُّ خبرا بعد خبر .

فإن قلت : ما معنى تِلْكَ الْقُرى حتى يكون كلاما مفيدا ؟ قلت : هو مفيد ، ولكن بشرط التقييد بالحال كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك : هو الرجل الكريم . فإن قلت : ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها ؟ قلت : معناه أنّ تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا

عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات اللّه من قبل مجيء الرسل أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أوّلا حين جاءتهم الرسل ، أى استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين ، لا يرعوون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات . ومعنى اللام تأكيد النفي وأنّ الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر . وعن مجاهد : هو كقوله وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ . كَذلِكَ مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين .

[سورة الأعراف (7) : آية 102]

وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102)

(254/280)

وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ الضمير للناس على الإطلاق ، أى وما وجدنا لأكثر الناس من عهد يعنى أنّ أكثرهم نقض عهد اللّه وميثاقه في الإيمان والتقوى وَإِنْ وَجَدْنا وإنّ الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين ، خارجين عن الطاعة مارقين . والآية اعتراض . ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين ، وأنهم كانوا إذا عاهدوا اللّه في ضرّ ومخافة ، لئن أنجيتنا لنؤمننّ ، ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام : لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا

الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، إلى قوله إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ والوجود بمعنى العلم من قولك : وجدت زيداً ذا الحفاظ ، بدليل دخول «إن» المخففة واللام الفارقة . ولا يسوغ ذلك إلا في المبتدإ والخبر . والأفعال الداخلة عليهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 132. 136 ﴾

(255/280)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102) ﴾

التفسير : إنه سبحانه لما عرّفنا أحوال هؤلاء الأنبياء وما جرى على أممهم ذكر ما يدل على أن هذا الجنس من الهلاك قد فعله بغيرهم وليس مقصوراً عليهم ، وبيّن العلة التي لأجلها فعل بهم ما فعل . والقرية مجتمع القوم فتشمل المدينة أيضاً وتقدير الكلام : وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء . قال الزجاج : البأساء

(256/280)

الشدة في الأموال والضراء الأمراض في الأبدان . وقيل بالعكس ﴿ لعلهم يضرعون ﴾ أي يتضرعون فأدغم التاء في الضاد والمعنى : ليحطوا أردية التعزز والاستكبار ويتبعوا نبيهم . ثم بيّن أن تدبيره في أهل القرى لا يجري على نمط واحد فقال ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة ﴾ وهي كل ما يسوء صاحبه ﴿ الحسنة ﴾ وهي ما يستحسنه الطبع والعقل أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من الفقر والضر السعة والصحة ﴿ حتى عفوا ﴾ كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم من قولهم عفا النبات والشحم والوبر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " وأعفوا اللحى " ﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ كما هو دأب الأشرين يقولون هذه عادة الدهر في أهله يوم محنة ويوم منحة . والمراد أنهم لم ينتفعوا بتدبير الله تعالى فيهم من رجاء بعد شدّة وأمن بعد خوف وراحة بعد عناء ﴿ فأخذناهم بغتة ﴾ آمن ما كانوا عليه ليكون ذلك أعظم من الحسرة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بنزول العذاب . والحكمة في جميع هذه الحكايات اعتبار من سمعها ووعاها وتعريف أن العصيان سبب الحرمان عن الخيرات وسد لجميع أبواب السعادات ولهذا قال ﴿ ولو أن أهل القرى ﴾ أي جنسها أو القرى المذكورة في قوله وما أرسلنا في قرية ﴿ آمنوا ﴾ بما يجب به الإيمان في باب المبدأ والمعاد ﴿ واتقوا ﴾ كل ما نهى الله عنه ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ أي لأتيناهم بالخير من كل وجه أو أراد القطر والنبات .

والمراد بفتح البركات عليهم تيسير أسباب النجاح كقولهم : فتحت على القارىء إذا يسرت القراءة عليه بالتلقين ﴿ ولكن كذبوا الرسل فأخذناهم ﴾ بالجذب والمحل وهو ضد البركة والخير ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي بشؤم كسبهم وهو الكفر والمعاصي . ثم خوف المكلفين نزول العذاب عليهم في الوقت الذي يكونون فيه في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار ، لأنه الوقت الذي يغلب على المرء في التشاغل باللذات والمهمات فقال ﴿ أفأمن ﴾ قال في الكشاف : الهمزة للإنكار والفاء للعطف على قوله ﴿ فأخذناهم بغتة ﴾ والآية بينهما اعتراض والتقدير : أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً ، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى ؟ فلهذا عطف الثانية بالواو . وأما قوله ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ فتكرير لقوله ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ فلهذا رجع فعطف بالفاء .

قلت : يجوز أن يقدّر المعطوف عليه بعد الهمزة والمعنى : أفعلوا ما فعلوا فأمن وأما من قرأ " أو " ساكنة فمعناه إما أحد الشيئين ويرجع المعنى إلى قولنا فأمنوا إحدى هذه العقوبات ، وإما للإضراب كما تقول : أنا أخرج ثم تقول أو أقيم . على أن المراد هو الإضراب عن الخروج وإثبات للإقامة أي لا بل أقيم . ومعنى ﴿ بياتاً ﴾ قد تقدم في أوّل السورة . و ﴿

ضحى ﴾ نصب على الظرف قال الجوهري : ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى وهو حين تشرق الشمس مقصورة ، وتذكر على أنه مفرد كصرد وتؤنث على أنها جمع ضحوة . ثم بعده الضحاء ممدوداً مذكراً وهو عند ارتفاع النهار الأعلى . في قوله ﴿ وهم يلعبون ﴾ يحتمل التشاغل بما لا يجدي عليهم من أمور الدنيا فهي لهو ولعب ، ويحتمل خوضهم في كفرهم لأن ذلك كاللعب في أنه يضر ولا ينفع . ومكر الله كما تقدم في آل عمران عذاب بعد الاستدراج أو سمي جزاء المكر مكراً . وعن الربيع بن خثيم أن ابنته قالت له : ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ قال : يا بنتاه إن أباك يخاف البيات يعني المذكور في

(258/280)

الآية . اللهم اجعلنا من الخائفين العاقلين لا من الآمنين الغافلين . ثم لما بيّن حال المهلكين مفصلاً ومجملاً ذكر أن الغرض من القصص حصول العبرة للباقين فقال ﴿ أولم يهد ﴾ من قرأ بالياء ففاعله ﴿ أن لو نشاء ﴾ والمعنى : أو لم يهد الذين يخلفون أولئك المتقدمين فيرثون أرضهم وديارهم هذا الشأن وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم أي بعقابها كما أصبنا من قبلهم . ومن قرأ بالنون فقوله ﴿ أن لو نشاء ﴾ منصوب والهداية بمعنى التبيين على

القراءتين ولهذا عُدّي فعلها باللام ، والمفعول على القراءة الأولى محذوف والتقدير : أولم يكشف لهم الحال والشأن المذكور .

(259/280)

وأما قوله ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ فإما أن يكون منقطعاً عما قبله بمعنى ونحن نطبع كما مر في الوقوف ، وإما أن يكون متصلاً بما قبله . قال الكشاف : وذلك هو يرثون أو ما دلّ عليه معنى ﴿ أولم يهد ﴾ كأنه قيل : يغفلون عن الهداية ونطبع . ثم قال : ولا يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ أصبناهم ﴾ و ﴿ طبعنا ﴾ لأن القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم فيجري مجرى تحصيل الحاصل ولقائل أن يقول : لا يلزم من المذكور وهو كونهم مذنبين أن يكونوا مطبوعين ، فاقتراف الذنوب غير الطبع لأن يذنب أوّلاً أو يكفر ثم يستمر على ذلك فيصير مطبوعاً على قلبه . وأيضاً جاز أن يراد لو شئنا لزدنا في طبعهم أو لأدمناه والله سبحانه أعلم بمراده . ثم أخبر عن الأقوام المذكورين تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ تلك القرى ﴾ وهي مبتدأ وخبر . وقوله ﴿ يقص ﴾ حال والعامل معنى اسم الإشارة ، أو خبر بعد خبر ، أو ﴿ القرى ﴾ صفة ل ﴿ تلك ﴾ و ﴿ نقص ﴾ خبر . وفائدة الإخبار على هذا التقدير ظاهرة . وأما على الأوّلين فترجع الفائدة إلى الحال أو

الخبر الثاني كما ترجع إلى الصفة في قولك : هو الرجل الكريم . الحاصل أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك ، وأيضاً خصصنا تلك القرى بقصص بعض أنبائها لأنهم اغتروا بطول الأمهال مع كثرة النعم وكانوا أقرب الأمم إلى العرب فذكرنا أحوالهم تنبيهاً على الاحتراز عن مثل أعمالهم . ثم عزى رسوله بقوله ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا ﴾ من قبل اللام لتأكيد النفي وأن الإيمان كان منافياً لحالهم . قال ابن عباس والسدي : فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بسبب تكذيبهم يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم أقروا باللسان كرهاً وأضمروا التكذيب . وقال الزجاج : فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات بما كذبوا به من قبل رؤية تلك المعجزات . وعن مجاهد فما كانوا ليؤمنوا لو أحييناهم بعد

الإهلاك ورددناهم إلى دار التكليف بما كذبوا من قبل كقوله ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] وقيل : فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما كذبوا من قبل مجيئهم . وقيل : ما كانوا ليؤمنوا في الزمان المستقبل بما كذبوا به في الزمان الماضي أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إلى أن ماتوا مصرين لم ينجع فيهم تكرير المواعظ وتتابع

الآيات ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد ﴿ يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ الذي كتب أن لا يؤمنوا أبداً . والطبع والختم والرين والكنان والغشاوة والصد والمنع واحد كما سلف . وقال الجبائي : هو أن يسم قلوب الكفار بسمات وعلامات تعرف الملائكة بها أن صاحبها لا يؤمن . وقال الكعبي : إنما أضاف الطبع إلى نفسه لأجل أن القوم إنما صاروا إلى ذلك الكفر عند أمره وامتحانه فهو كقوله تعالى

﴿ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ [نوح : 6] ثم شرح حال المكلفين فقال ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ والضمير للناس على الإطلاق . قال ابن عباس : يعني بالعهد قوله للذر ﴿ ألست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] أقروا به ثم خالفوا . عن ابن مسعود هو الإيمان كقوله ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهد ﴾ [مريم : 87] يعني من قال لا إله إلا الله . وقيل : العهد عبارة عن الأدلة على التوحيد والنبوّة والمراد الوفاء بالعهد ﴿ وإن وجدنا ﴾ هي المخففة من الثقيلة بدليل اللام الفارقة في قوله ﴿ لفاسقين ﴾ وقد عملت في ضمير شأن مقدر والتقدير : وإن الشأن والحديث علمنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والآية اعتراض . ويحتمل أن يعود الضمير على الأمم المذكورين كانوا إذا عاهدوا الله في ضرر ومخافة لئن أنجيتنا لنؤمنن نكثوه بعد كشف الضر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 290 . 293 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بالبأساء والضراء ﴾ بالبؤس والضر . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ حتى يتضرعوا ويتذللوا .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة ﴾ أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة ابتلاء لهم بالأمرين . ﴿ حتى عَفَوا ﴾ كثروا عَدَداً وعُدَداً يقال عفا النبات إذا كثر ومنه إعفاء اللحى . ﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءابَاءنَا الضراء والسراء ﴾ كفراناً لنعمة الله ونسياناً لذكره واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء وقد مس آباءنا منه مثل ما مسنا . ﴿ فأخذناهم بَغْتَةً ﴾ فجأة . ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بنزول العذاب .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ﴾ يعني القرى المدلول عليها بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ ﴾ وقيل مكة وما حولها . ﴿ آمَنُوا وَاتَّقَوا ﴾ مكان كفرهم وعصيانهم . ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مِّنَ السماء والأرض ﴾ لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب وقيل المراد المطر والنبات . وقرأ ابن عامر " لَفَتَّحْنَا " بالتشديد . ﴿ ولكن كَذَّبُواْ ﴾ الرسل . ﴿ فأخذناهم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي .

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ عطف على قوله : ﴿ فأخذناهم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وما

بينهما اعتراض والمعنى : أبعد ذلك أمن أهل القرى . ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بياتا ﴾ تبييتاً أو وقت بيات أو مبيتاً أو مبيتين ، وهو في الأصل مصدر بمعنى البيتوتة ويجيء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم . ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر في بياتاً .

(262/280)

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر أو بالسكون على الترديد . ﴿ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ ضحوة النهار ، وهو في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت : ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ يلهون من فرط الغفلة ، أو يشتغلون بما لا ينفعهم .

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله ﴾ تكرير لقوله : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ و ﴿ مَكْرَ الله ﴾ استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب . ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ أي يخلفون من خلا قبلهم ويرثون ديارهم ، وإنما عدي يهد باللام لأنه بمعنى يبين . ﴿ أَن لَّوْ نَشَاء أصبناهم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أن الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم ، وهو فاعل يهد ومن قرأه بالنون جعله مفعولاً . ﴿ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ عطف على ما دل عليه ، أو لم يهد أي يغفلون عن

الهداية أو منقطع عنه بمعنى ونحن نطبع ، ولا يجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى وطبعنا لأنه في سياقه جواب لولا فضائه إلى نفي الطبع عنهم ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تفهم واعتبار .

(263/280)

﴿ تِلْكَ القرى ﴾ يعني قرى الأمم المار ذكرهم . ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾ حال إن جعل ﴿ القرى ﴾ خبراً وتكون إفادته بالتقييد بها ، وخبر إن جعلت صفة ويجوز أن يكونا خبرين و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض أي نقص بعض أنبائها ، ولها أنباء غيرها لا نقصها . ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات . ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ عند مجيئهم بها . ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ بما كذبوه من قبل الرسل بل كانوا مستمرين على التكذيب ، أو فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل ، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة ، واللام لتأكيد النفي والدلالة على أنهم ما صلحوا للإيمان لمنافاته لحالهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم . ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الكافرين ﴾ فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر . ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم ﴾ لأكثر الناس ، والآية اعتراض أو لأكثر الأمم المذكورين . ﴿ مِّنْ عَهْدٍ ﴾ من وفاء عهد ، فإن أكثرهم

نقضوا ما عهد الله إليهم في الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج ، أو ما عاهدوا إليه حين كانوا في ضرر مخافة مثل ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ ﴿ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ ﴾ أي علمناهم . ﴿ لفاسقين ﴾ من وجدت زيداً إذا لحافظ لدخول أن المخففة واللام الفارقة ، وذلك لا يسوغ إلا في المبتدأ والخبر والأفعال الداخلة عليهما ، وعند الكوفيين إن للنفي واللام بمعنى إلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 44.42 ﴾

(264/280)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ ﴾ لما فصل الله سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وهم المذكورون سابقاً ، أجمل حال سائر الأمم المرسل إليها ، أي وما أرسلنا في قرية من القرى من نبيّ من الأنبياء .

وفي الكلام محذوف ، أي فكذب أهلها ﴿ إلا أخذناهم ﴾ ، والاستثناء مفرّغ ، أي ما أرسلنا في حال من الأحوال ، إلا في حال أخذنا أهلها ، فمحل أخذنا النصب .

والبأساء : البؤس والفقر .

والضراء : الضرّ .

وقد تقدم تحقيق معنى البأساء والضراء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي لكي يتضرعوا ويتذللوا ، فيدعوا ما هم عليه من الاستكبار وتكذيب الأنبياء .

قوله : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا ﴾ معطوف على ﴿ أخذنا ﴾ أي ثم بعد الأخذ لأهل القرى بدّلناهم ﴿ مَكَانَ السيئة ﴾ التي أصبناهم بها من البلاء والامتحان ﴿ الحسنة ﴾ أي الخصلة الحسنة ، فصاروا في خير وسعة وأمن ﴿ حتى عَفَواْ ﴾ يقال عفا كثر ، وعفا درس ، فهو من أسماء الأضداد ، والمراد هنا : أنهم كثروا في أنفسهم وفي أموالهم ، أي أعطيناهم الحسنة مكان السيئة ، حتى كثروا ﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضراء والسراء ﴾ أي قالوا هذه المقالة عند أن صاروا في الحسنة بعد السيئة ، أي أن هذا الذي مسنا من البأساء والضراء ، ثم من الرخاء والخصب من بعد ، هو أمر وقع لآبائنا قبلنا مثله .

فمسهم من البأساء والضراء ما مسنا ، ومن النعمة والخير ما نلناه ، ومعناهم : أن هذه العادة الجارية في السلف والخلف ، وأن ذلك ليس من الله سبحانه ابتلاء لهم ، واختبار لما عندهم ، وفي هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوّهم ما لا يخفى ، ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ولم يمهلهم فقال : ﴿ فأخذناهم بَغْتَةً ﴾ أي فجأة عقب أن قالوا هذه المقالة من دون تراخ ولا إمهال " و " الحال أن ﴿ هُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك ولا يترقبونه .

واللام في ﴿ القرى ﴾ للعهد ، أي : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ﴾ التي أرسلنا إليها رسلنا ﴿ ءامَنُواْ ﴾ بالرسل المرسلين إليهم ﴿ واتقوا ﴾ ما صمموا عليه من الكفر ، ولم يصرّوا على ما فعلوا من القبائح ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مّنَ السماء والأرض ﴾ أي يسرنا لهم خير السماء والأرض ، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها .

قيل المراد بخير السماء : المطر ، وخير : الأرض النبات ، والأولى حمل ما في الآية على ما هو أعمّ من ذلك .

ويجوز أن تكون اللام في ﴿ القرى ﴾ للجنس .

والمراد : لو أن أهل القرى أين كانوا ، وفي أيّ بلاد سكنوا ﴿ آمنوا واتقوا ﴾ إلى آخر الآية .

﴿ ولكن كَذَّبُواْ ﴾ بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا ﴿ فأخذناهم ﴾ بالعذاب بسبب ﴿ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الذنوب الموجبة لعذابهم .

والاستفهام في ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ للتقريع والتوبيخ ، وأهل القرى هم أهل القرى : المذكورة قبله ، والفاء للعطف ، وهو مثل :

﴿ أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ ﴾ [المائدة : 50] .

وقيل : المراد بالقرى مكة وما حولها ، لتكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، والحمل على العموم أولى .

قوله : ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بياتا ﴾ أي : وقت بيات ، وهو الليل ، على أنه منصوب على الظرفية ، ويجوز أن يكون مصدراً ، بمعنى تبيتاً ، أو مصدراً في موضع الحال ، أي مبيتين ، وجملة : ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، والاستفهام في ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ كالاستفهام الذي قبله .

والضحى ضحوة النهار ، وهو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت .

قرأ ابن عامر والحرميان " أوْأمن " بإسكان الواو ، وقرأ الباقون بفتحها .

وجملة ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي يشتغلون بما لا يعود عليهم بفائدة .

(266/280)

والاستفهام في ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله ﴾ للتقريع والتوبيخ ، وإنكار ما هم عليه من أمان مالا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم ، وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير ، لإنكار ما أنكره عليهم ، ثم بين حال من أمن مكر الله ، فقال : ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ أي الذين أفرطوا في الخسران ، ووقعوا في وعيده الشديد .

وقيل : مكر الله هنا هو استدراجه بالنعمة والصحة .

والأولى حمله على ما هو أعمّ من ذلك .

قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرض مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ قرىء "نهد" بالنون وبالتحتية .

فعلى القراءة بالنون يكون فاعل الفعل هو الله سبحانه ، ومفعول الفعل ﴿ أَن لَّوْ نَشَاء أصبناهم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أن الشأن هو هذا ، وعلى القراءة بالتحتية يكون فاعل يهد هو ﴿ أَن لَّوْ نَشَاء أصبناهم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أخذناهم بكفرهم وتكذيبهم .

والهداية هنا بمعنى التبيين ، ولهذا عديت باللام .

قوله : ﴿ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ أي ونحن نطبع على قلوبهم على الاستئناف ، ولا يصح عطفه على ﴿ أصبنا ﴾ لأنهم ممن طبع الله على قلبه ، لعدم قبولهم للإيمان .

وقيل : هو معطوف على فعل مقدّر دلّ عليه الكلام .

كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع .

وقيل معطوف على ﴿ يرثون ﴾ قوله : ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ جواب "لو" أي صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم ، والطبع على قلوبهم ، لا يسمعون ما يتلوه عليهم من أرسله الله إليهم من الوعظ ، والإعذار ، والإنذار .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة ﴾ قال : مكان الشدة الرخاء ﴿ حتى عَفَواْ ﴾ قال : كثروا ، وكثرت أموالهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد نحوه .

(267/280)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ حتى عَفَواْ ﴾ قال : جَمُّوا .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ قَدْ مَسَّ ءابَاءنَا الضراء والسراء ﴾ قال : قالوا قد أتى على آبائنا مثل هذا فلم يكن شيئاً ﴿ فأخذناهم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عنه في قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءامَنُواْ ﴾ قال : بما أنزل الله ﴿ واتقوا ﴾ قال : ما حرّمه الله ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مّنَ السماء والأرض ﴾ يقول : أعطتهم السماء بركتها والأرض نباتها .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق معاذ بن رفاعة ، عن موسى الطائفي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكرموا الخبز ، فإن الله أنزله من بركات السماء ، وأخرجه من بركات الأرض " وأخرج البزار والطبراني ، قال السيوطي ، بسند ضعيف ، عن عبد الله

ابن أمّ حرام قال : صليت القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أكرموا الخبز ، فإن الله أنزله من بركات السماء ، وسخر له بركات الأرض ، ومن تتبع ما يسقط من السفرة ، غفر له " وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : كان أهل قريةٍ أوسع الله عليهم ، حتى كانوا يستنجون بالخبز ، فبعث الله عليهم الجوع .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ قال : أو لم نبين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن السديّ في قوله : ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرض مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ قال : المشركون .

قوله : ﴿ تِلْكَ القرى ﴾ أي التي أهلكناها ، وهي قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، المتقدّم ذكرها .

﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي نتلو عليك ﴿ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾ أي من أخبارها .

وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين .

و﴿ نقصّ ﴾ إما في محل نصب على أنه حال ، و ﴿ تِلْكَ القرى ﴾ مبتدأ وخبر ، أو يكون في محل رفع على أنه الخبر ، و ﴿ القرى ﴾ صفة ﴿ لتلك ﴾ ، و ﴿ من ﴾ في ﴿ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾ للتبعيض ، أي نقصّ عليك بعض أنبائها ، واللام في ﴿ وَلَقَد جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ جواب القسم .

والمعنى : أن من أخبارهم أنها جاءتهم رسل الله ببيناته ، كما سبق بيانه في قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ عند مجيء الرسل ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ ﴾ به ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ مجيئهم ، أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل ، في حال من الأحوال ، ولا في وقت من الأوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم ، بل هم مستمرون على الكفر ، متشبثون بأذيال الطغيان دائماً ، ولم ينجع فيهم مجيء الرسل ، ولا ظهر له أثر ، بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله .

وقيل المعنى : فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو أحييناهم كقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا ﴾ [الأنعام : 28] وقيل سألوا المعجزات ، فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها ، والأوّل : أولى ، ومعنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل : أنهم كانوا في الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الكافرين ﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله

على قلوب الكافرين ، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولا ترهيب .

قوله : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مّنْ عَهْدٍ ﴾ الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقاً ، أي ما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى من عهد ، أي عهد يحافظون عليه ويتمسكون به ، بل دأبهم نقض العهود في كل حال .

وقيل الضمير يرجع إلى الناس على العموم ، أي ما وجدنا لأكثر الناس من عهد .

وقيل المراد بالعهد : هو المأخوذ عليهم في عالم الذرّ .

(269/280)

وقيل : الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى ، أي الأكثر منهم لا عهد ولا وفاء .

والقليل منهم قد يفي بعهده ويحافظ عليه ، و " إن " في ﴿ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لفاسقين ﴾ هي المخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن محذوف ، أي أن الشأن وجدنا أكثرهم لفاسقين ، أو هي النافية .

واللام في ﴿ لفاسقين ﴾ بمعنى إلا ، أي إلا فاسقين خارجين عن الطاعة خروجاً شديداً .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبيّ بن كعب ، في قوله : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ قال : كان في علم الله يوم أقروا له بالميثاق من يكذب به ممن يصدّق به .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ قال : مثل قوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن ، في قوله : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مّنْ عَهْدٍ ﴾ قال : الوفاء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، في الآية قال : هو ذاك العهد يوم أخذ الميثاق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لفاسقين ﴾ قال : ذاك أن الله إنما أهلك القرى ، لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ . . . الآيات ﴾

هذه وقفة في سياق السورة للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب . . وقفة لبيان سنة الله التي جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين في كل قرية – والقرية هي المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية – وهي سنة واحدة يأخذ الله بها المكذبين ؛ ويتشكل بها تاريخ الإنسان في جانب منه أصيل . . أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء ؛ لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله ، وتعرف حقيقة ألوهيته وحقيقة عبودية البشر لهذه الألوهية القاهرة . فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء ، وفتح عليهم الأبواب ، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون . . كل ذلك للابتلاء . . حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص ، وإلى الغفلة وقلة المبالاة ، وحسبوا أن الأمور تمضي جزافاً بلا قصد ولا غاية ، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء ، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير : ﴿ وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ ! أخذهم الله بغتة ، وهم سادرون في هذه الغفلة . لم يدركوا حكمة الله في الابتلاء بالضراء والسراء ، ولم يتدبروا حكمته في تقلب الأمور بالعباد ، ولم يتقوا غضبه على المستهترين الغافلين ، وعاشوا

كالأنعام بل أضل حتى جاءهم بأس الله . . ولو أنهم آمنوا بالله واتقوه لتبدلت الحال ، ولحلت عليهم البركات ، ولأفاض الله عليهم من رزقه في السماء والأرض ، ولأنعم عليهم نعيمه المبارك الذي تطمئن به الحياة ، ولا يعقبه النكال والبوار . .

(271/280)

ثم يحذر الله الذين يرثون الأرض من بعد أهلها . . يحذرهم الغفلة والغرة ، ويدعوهم إلى اليقظة والتقوى ، ويلفتهم إلى العبرة في مصارع الغابرين الذين ورثوا هم الأرض من بعدهم ، فإنما تنتظرهم سنة الله التي لا تتبدل ، والتي يتكيف بها تاريخ البشر على مدارج القرون . وتنتهي الوقفة بتوجيه الخطاب إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – : ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها . . . ﴾ لإظهاره على سنة الله فيها ، وعلى حقيقة هذه القرى وأهلها : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ . . فهذا الرسول الأخير وأمته هم الوارثون لحصيلة رسالة الله كلها ، وهم الذين يفيدون من أنبائها وعظاتها . .

﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء . فأخذناهم

بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ؛ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ . .

إن السياق القرآني هنا لا يروي حادثة ، إنما يكشف عن سنة . ولا يعرض سيرة قوم إنما يعلن عن خطوات قدر . . ومن ثم يتكشف أن هناك ناموساً تجري عليه الأمور ؛ وتتم وفقه الأحداث ؛ ويتحرك به تاريخ " الإنسان " في هذه الأرض .

وأن الرسالة ذاتها – على عظم قدرها – هي وسيلة من وسائل تحقيق الناموس – وهو أكبر من الرسالة وأشمل – وأن الأمور لا تمضي جزافاً ؛ وأن الإنسان لا يقوم وحده في هذه الأرض – كما يزعم الملحدون بالله في هذا الزمان ! – وأن كل ما يقع في هذا الكون إنما يقع عن تدبير ، ويصدر عن حكمة ، ويتجه إلى غاية . وأن هنالك في النهاية سنة ماضية وفق المشيئة الطليقة ؛ التي وضعت السنة ، وارتضت الناموس . .

ووفقاً لسنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة كان من أمر تلك القرى ما كان ، مما حكاه السياق . ويكون من أمر غيرها ما يكون !

إن إرادة الإنسان وحركته – في التصور الإسلامي – عامل مهم في حركة تاريخه وفي تفسير هذا التاريخ أيضاً . ولكن إرادة الإنسان وحركته إنما يقعان في إطار من مشيئة الله الطليقة وقدره الفاعل . . والله بكل شيء محيط . . وإرادة الإنسان وحركته – في إطار المشيئة الطليقة والقدر الفاعل – يتعاملان مع الوجود كله ؛ ويتأثران ويؤثران في هذا الوجود أيضاً . . فهناك زحمة من العوامل والعوالم المحركة للتاريخ الإنساني ؛ وهناك سعة وعمق في مجال هذه الحركة ؛ مما يبدو إلى جانبه " التفسير الاقتصادي للتاريخ " ، و " التفسير البيولوجي للتاريخ " ، و " التفسير الجغرافي للتاريخ " . . . بقعاً صغيرة في الرقعة الكبيرة . وعبثاً صغيراً من عبث الإنسان الصغير ! .

﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴾ . . فليس للعبث – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – يأخذ الله عباده بالشدة في أنفسهم وأبدانهم وأرزاقهم وأموالهم . وليس لإرواء غلة ولا شفاء إحنة – كما كانت أساطير الوثنيات تقول عن آلهتها العابثة الحاقدة ! إنما يأخذ الله المكذبين برسله بالبأساء والضراء ، لأن من طبيعة الابتلاء بالشدة أن يوقظ الفطرة التي ما يزال فيها خير يرجى ؛ وأن يرقق القلوب التي طال عليها الأمد متى كانت فيها بقية ؛ وأن يتجه بالبشر الضعاف إلى خالقهم القهار ؛ يتضرعون إليه ؛ ويطلبون رحمته وعفوه ؛ ويعلنون بهذا التضرع عن عبوديتهم له – والعبودية لله غاية الوجود الإنساني – وما بالله سبحانه من حاجة إلى تضرع العباد وإعلان

العبودية : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ولو اجتمع الإنس والجن – على قلب رجل واحد – على طاعة الله ما زاد هذا في ملكه شيئاً . ولو اجتمع الإنس والجن – على قلب رجل واحد – على معصيته – سبحانه – ما نقصوا في ملكه شيئاً (كما جاء في الحديث القدسي) .

(273/280)

. ولكن تضرع العباد وإعلان عبوديتهم لله إنما يصلحهم هم ؛ ويصلح حياتهم ومعاشهم كذلك . . فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه . . تحرروا من العبودية للشيطان الذي يريد ليغويهم – كما جاء في أوائل السورة – وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم . وتحرروا من العبودية للعبيد من أمثالهم ؛ واستحيوا أن يتبعوا خطوات الشيطان ؛ واستحيوا أن يغضبوا الله بعمل أو نية يتجهون إليه في الشدة ويتضرعون ، واستقاموا على الطريقة التي تحررهم وتطهرهم وتزكيهم ، وترفعهم من العبودية للهوى والعبودية للعبيد ! لذلك اقتضت مشيئة الله أن يأخذ أهل كل قرية يرسل إليها نبياً فتكذبه ، بالبأساء في أنفسهم وأرواحهم ، وبالضراء في أبدانهم وأموالهم . استحياء لقلوبهم بالألم . والألم خير

مهذب ، وخير مفجر لينابيع الخير المستكنة ، وخير مرهف للحساسية في الضمائر الحية ، وخير موجه إلى ظلال الرحمة التي تنسم على الضعاف المكروبين نسمات الراحة والعافية في ساعات العسرة والضيق . . ﴿ لعلهم يضرعون ﴾ . .

﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ . .

فإذا الرخاء مكان الشدة ، واليسر مكان العسر ، والنعمة مكان الشظف ، والعافية مكان الضر ، والذرية مكان العقر ، والكثرة مكان القلة ، والأمن مكان الخوف . وإذا هو متاع ورخاء ، وهينة ونعماء ، وكثرة وامتلاء . . وإنما هو في الحقيقة اختبار وابتلاء . . والابتلاء بالشدة قد يصبر عليه الكثيرون ، ويحتمل مشقاته الكثيرون . فالشدة تستثير عناصر المقاومة . وقد تذكر صاحبها بالله – إن كان فيه خير – فيتجه إليه ويتضرع بين يديه ، ويجد في ظله طمأنينة ، وفي رحابه فسحه ، وفي فرَجه أملاً ، وفي وعده بشرى . . فأما الابتلاء بالرخاء فالذين يصبرون عليه قليلون . فالرخاء ينسي ، والمتاع يلهي ، والثراء يطغي . فلا يصبر عليه إلا الأقلون من عباد الله .

﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ . .

أي حتى كثروا وانتشروا ، واستسهلوا العيش ، واستيسروا الحياة : ولم يعودوا يجدون في أنفسهم تحرجاً من شيء يعملونه ، ولا تخوفاً من أمر يصنعونه . . والتعبير : ﴿ عفوا ﴾ – إلى جانب دلالته على الكثرة – يوحي بحالة نفسية خاصة : حالة قلة المبالاة . حالة الاستخفاف والاستهتار . حالة استسهال كل أمر ، واتباع عفو الخاطر في الشعور والسلوك سواء . . وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة ، حين يطول بهم العهد في اليسار والنعمة والرخاء – أفراداً وأمماً – كأن حساسية نفوسهم قد ترهلت فلم تعد تحفل شيئاً ، أو تحسب حساباً لشيء . فهم ينفقون في يسر ويلتذون في يسر ، ويلهون في يسر ، ويبطشون كذلك في استهتار ! ويقترفون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان ويرتعش لها الوجدان ، في يسر واطمئنان ! وهم لا يتقون غضب الله ، ولا لوم الناس ، فكل شيء يصدر منهم عفواً بلا تحرج ولا مبالاة . وهم لا يفطنون لسنة الله في الكون ، ولا يتدبرون اختباراته وابتلاءاته للناس . ومن ثم يحسبونها تمضي هكذا جزافاً ، بلا سبب معلوم ، وبلا قصد مرسوم :

﴿ وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ .

.

وقد أخذ دورنا في الضراء وجاء دورنا في السراء ! وها هي ذي ماضية بلا عاقبة ، فهي

تمضي هكذا خبط عشواء !

عندئذ . . وفي ساعة الغفلة السادرة ، وثمرة للنسيان واللهو والطغيان ، تجيء العاقبة وفق السنة الجارية :

﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ . .

جزاء بما نسوا واغتروا وبعدوا عن الله ؛ وأطلقوا لشهواتهم العنان ، فما عادوا يتحرجون من فعل ، وما عادت التقوى تخطر لهم ببال !

(275/280)

هكذا تمضي سنة الله أبداً . وفق مشيئته في عباده . وهكذا يتحرك التاريخ الإنساني بإرادة الإنسان وعمله – في إطار سنة الله ومشيئته – وها هو ذا القرآن الكريم يكشف للناس عن السنة ؛ ويحذرهم الفتنة . . فتنة الاختبار والابتلاء بالضراء والسراء . . وينبه فيهم دواعي الحرص واليقظة ، واتقاء العاقبة التي لا تتخلف ، جزاء وفاقاً على اتجاههم وكسبهم . فمن لم يتيقظ ، ومن لم يتحرج ، ومن لم يتق ، فهو الذي يظلم نفسه ، ويعرضها لبأس الله الذي لا يرد . ولن تظلم نفس شيئاً .

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا

فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ . .

فذلك هو الطرف الآخر لسنة الله الجارية . فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب ، واتقوا بدل الاستهتار ؛ لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض . . هكذا . . ﴿ بركات من السماء والأرض ﴾ مفتوحة بلا حساب . من فوقهم ومن تحت أرجلهم . والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر ، الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات . .

وأمام هذا النص – والنص الذي قبله – نقف أمام حقيقة من حقائق العقيدة وحقائق الحياة البشرية والكونية سواء . وأمام عامل من العوامل المؤثرة في تاريخ الإنسان ، تغفل عنه المذاهب الوضعية وتغفله كل الإغفال . بل تنكره كل الإنكار ! . .

إن العقيدة الإيمانية في الله ، وتقواه ، ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة ، وعن خط تاريخ الإنسان . إن الإيمان بالله ، وتقواه ، ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض . وعدا من الله . ومن أوفى بعهده من الله ؟

ونحن – المؤمنين بالله – نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن ، فنصدقه ابتداء ، لا نسأل عن علله وأسبابه ؛ ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله . . نحن نؤمن بالله – بالغيب – ونصدق بوعده بمقتضى هذا الإيمان . .

ثم ننظر إلى وعد الله نظرة التدبر – كما يأمرنا إيماننا كذلك – فنجد علته وسببه !

إن الإيمان بالله دليل على حيوية في الفطرة ؛ وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية ؛ وصدق في الإدراك الإنساني ، وحيوية في البنية البشرية ، ورحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود . . وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية .

والإيمان بالله قوة دافعة دافقة ، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها ، وتتجه بها إلى وجهة واحدة ، وتطلقها تستمد من قوة الله ، وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها ، وفي دفع الفساد والفتنة عنها ، وفي ترقية الحياة ونمائها .

. وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية .

والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد . وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله ، أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة . من العبيد للهوى ولبعضهم بعضاً !

وتقوى الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور ، في دفعة الحركة ودفعة الحياة . . وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج ، فلا يعتدي ، ولا يتهور ، ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح .

وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح ، عاملة في الأرض ، متطلعة إلى السماء ، متحررة من الهوى والطغيان البشري ، عابدة خاشعة لله . . تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه ، فلا جرم تحفها البركة ، ويعمها الخير ، ويظلها الفلاح . .

والمسألة – من هذا الجانب – مسألة واقع منظور – إلى جانب لطف الله المستور – واقع له علله وأسبابه الظاهرة ، إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود . .

والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون ، في توكيد ويقين ، ألوان شتى لا يفصلها النص ولا يحددها وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان ، النابع من كل مكان ، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان . فهي البركات بكل أنواعها وألوانها ، وبكل صورها وأشكالها ، ما يعهده الناس وما يتخيلونه ، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال !

(277/280)

والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة ، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض ، لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة ! وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله – سبحانه – وكفى بالله شهيداً . ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . ولكن كذبوا

فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ . .

ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمماً – يقولون : إنهم مسلمون – مضيقاً عليهم في الرزق ، لا يجدون إلا الجدب والمحق ! . . ويرى أمماً لا يؤمنون ولا يتقون ، مفتوحاً عليهم في الرزق والقوة والنفوذ . . فيتساءل : وأين إذن هي السنة التي لا تتخلف ؟

ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال !

إن أولئك الذين يقولون : إنهم مسلمون . . لا مؤمنون ولا متقون ! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله ! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم ، يتألهون عليهم ، ويشرعون لهم – سواء القوانين أو القيم والتقاليد – وما أولئك بالمؤمنين . فالمؤمن لا يدع عبداً من العبيد يتأله عليه ، ولا يجعل عبداً من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره . . ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقاً . دانت لهم الدنيا ، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض ، وتحقق لهم وعد الله . فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق .

(278/280)

. فهذه هي السنة : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ ! فهو الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره . وهو أخطر من الابتلاء بالشدة . . وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح . . وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة ، مهددة في أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال . فهي قوة بلا أمن . وهو متاع بلا رضى . وهي وفرة بلا صلاح . وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد . وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال . .

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى ، بركات في الأشياء ، وبركات في النفوس ، وبركات في المشاعر ، وبركات في طيبات الحياة . . بركات تنمي الحياة وترفعها في آن . وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال .

وبعد أن يقرر السياق القرآني تلك السنة الجارية . التي يشهد بها تاريخ القرى الخالية . وفي اللحظة التي تنتفض فيها المشاعر ، ويرتعش فيها الوجدان ، على مصارع المكذبين الذين لم يؤمنوا ولم يتقوا ؛ وغرهم ما كانوا فيه من رخاء ونعماء ، فغفلوا عن حكمة الله في الابتلاء . . في هذه اللحظة يتجه إلى الغافلين السادرين ، يوقظ فيهم مشاعر الترقب أن يأتيهم بأس الله في أية لحظة من ليل أو نهار ، وهم سادرون في النوم واللهو والمتاع :

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا

ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ . .

(279/280)

أفأمن أهل القرى – وتلك سنة الله في الابتلاء بالضراء والسراء ، والبأساء والنعماء ، وتلك مصارع المكذبين السادرين ، الذين كانوا قبلهم يعمرون هذه القرى ثم تركوها فخلفوهم فيها – أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله في غفلة من غفلاتهم ، وغرة من غراتهم ؟ أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله بالهلاك والدمار . . بياتاً وهم نائمون . . والإنسان في نومه مسلوب الإرادة ، مسلوب القوة ، لا يملك أن يحتاط ولا يملك أن يدفع عادية من حشرة صغيرة . . فكيف ببأس الله الجبار ؟ الذي لا يقف له الإنسان في أشد ساعات صحوه واحتياطه وقوته ؟

أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله . . ضحى وهم يلعبون . . واللعب يستغرق اليقظة والتحفز ، ويلهي عن الأهبة والاحتياط . فلا يملك الإنسان ، وهو غارٌّ في لعبه ، أن يدفع عن نفسه مغيراً . فكيف بغارة الله التي لا يقف لها الإنسان وهو في أشد ساعات جده وتأهبه

للدفاع؟

وإن بأس الله لأشد من أن يقفوا له نائمين أم صاحين. لاعبين أم جادين. ولكن السياق القرآني يعرض لحظات الضعف الإنساني، ليلمس الوجدان البشري بقوة، ويثير حذره وانتباهه، حين يترقب الغارة الطامة الغامرة، في لحظة من لحظات الضعف والغرة والفجاءة.

وما هو بناج في يقظة أو غرة. فهذه كتلك أمام بأس الله سواء!

﴿ أفأمنوا مكر الله؟ ﴾.

وتدبيره الخفي المغيب على البشر.. ليتقوه ويحذروه.

﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾..

فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار. وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار! أفأمنوا مكر الله؛ وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين، الذين هلكوا بذنوبهم، وجنت عليهم غفلتهم؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم؟

﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾..

إن سنة الله لا تتخلف ؛ ومشيئة الله لا تتوقف . فما الذي يؤمنهم أن يأخذهم الله بذنوبهم كما أخذ من قبلهم ؟ وأن يطبع على قلوبهم فلا يهتدوا بعد ذلك ، بل لا يستمعوا إلى دلائل الهدى ، ثم ينالهم جزاء الضلال في الدنيا والآخرة . . ألا إن مصارع الخالين قبلهم ، ووراثتهم لهم ، وسنة الله الجارية . . كل أولئك كان نذيراً لهم أن يتقوا ويحذروا ؛ وأن يطرحوا عنهم الأمن الكاذب ، والاستهتار السادر ، والغفلة المردية ؛ وأن يعتبروا بما كان في الذين خلوا من قبلهم . عسى ألا يكون فيهم . لو كانوا يسمعون !

وما يريد الله للناس بهذا التحذير في القرآن أن يعيشوا مفزعين قلقين ؛ يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم في لحظة من ليل أو نهار . فالفزع الدائم من المجهول ، والقلق الدائم من المستقبل ، وتوقع الدمار في كل لحظة . . قد تشل طاقة البشر وتشتتها ؛ وقد تنتهي بهم إلى اليأس من العمل والنتاج وتنمية الحياة وعمارة الأرض . . إنما يريد الله منهم اليقظة والحساسية والتقوى ، ومراقبة النفس ، والعظة بتجارب البشر ، ورؤية محركات التاريخ الإنساني ، وإدامة الاتصال بالله ، وعدم الاغترار بطراءة العيش ورخاء الحياة .

والله يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح في الدنيا والآخرة ، إذا هم أرهفوا حساسيتهم به ، وإذا هم أخلصوا العبودية له ؛ وإذا هم اتقوه فاتقوا كل ما يلوث الحياة . فهو يدعوهم إلى الأمن في جوار الله لا في جوار النعيم المادي المغري . وإلى الثقة بقوة الله لا

بقوتهم المادية الزائلة . وإلى الركون إلى ما عند الله لا إلى ما يملكون من عرض الحياة .

ولقد سلف من المؤمنين بالله المتقين لله سلف ما كان يأمن مكر الله . وما كان يركن إلى سواه . وكان بهذا وذاك عامر القلب بالإيمان ، مطمئناً بذكر الله ، قوياً على الشيطان وعلى هواه ، مصلحاً في الأرض بهدى الله ، لا يخشى الناس والله أحق أن يخشاه .

(281/280)

وهكذا ينبغي أن نفهم ذلك التخويف الدائم من بأس الله الذي لا يدفع ، ومن مكر الله الذي لا يدرك . لندرك أنه لا يدعو إلى القلق إنما يدعو إلى اليقظة ، ولا يؤدي إلى الفزع إنما يؤدي إلى الحساسية ، ولا يعطل الحياة إنما يحرسها من الاستهتار والطغيان .

والمنهج القرآني – مع ذلك – إنما يعالج أطوار النفوس والقلوب المتقلبة ، وأطوار الأمم والجماعات المتنوعة ، ويطب لكل منها بالطب المناسب في الوقت الملائم . فيعطيها جرعة من الأمن والثقة والطمأنينة إلى جوار الله ، حين تخشى قوى الأرض وملابسات الحياة .

ويعطيها جرعة من الخوف والحذر والترقب لبأس الله ، حين تركن إلى قوى الأرض ومغريات الحياة . وربك أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير . .

والآن – وقد انتهى السياق من بيان السنة الجارية ، ولمس بها الوجدان البشري تلك

اللمسات الموحية – يتجه بالخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يطلعه على العاقبة الشاملة لابتلاء تلك القرى ، وما تكشف عنه من حقائق عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان ، ثم عن طبيعة البشر الغالبة كما تجلت في هذه الأقوام :

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ . .

فهو قصص من عند الله ، ما كان للرسول – صلى الله عليه وسلم – به من علم ، إنما هو وحي الله وتعليمه .

﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ . .

(282/280)

فلم تنفعهم البينات . وظلوا يكذبون بعدها ، كما كذبوا قبلها . ولم يؤمنوا بما كانوا قد كذبوا به من قبل أن تأتيهم البينة عليه . فالبينات لا تؤدي بالمكذبين إلى الإيمان . وليست البينة هي ما كان ينقصهم ليؤمنوا . إنما كان ينقصهم القلب المفتوح ، والحس المرهف والتوجه إلى الهدى . كان ينقصهم الفطرة الحية التي تستقبل وتنفعل وتستجيب . فلما لم يوجهوا قلوبهم

إلى موحيات الهدى ودلائل الإيمان طبع الله على قلوبهم وأغلقها . فما عادت تتلقى ولا تنفعل ولا تستجيب :

﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ . .

ولقد تكشفت تلك التجارب عن طبيعة غالبة :

﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ . .

والعهد الذي يشار إليه هنا قد يكون هو عهد الله على فطرة البشر ، الذي ورد ذكره في أواخر السورة :

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ﴾ . .

وقد يكون هو عهد الإيمان الذي أعطاه أسلافهم الذين آمنوا بالرسل . ثم انحرفت الخلائف . كما يقع في كل جاهلية . إذا تظل الأجيال تنحرف شيئاً فشيئاً حتى تخرج من عهد الإيمان ، وترتد إلى الجاهلية .

وإياً كان العهد فقد تبين أن أهل هذه القرى لا عهد لأكثرهم يستمسكون به ، ويثبتون عليه . إنما هو الهوى المتقلب ، والطبيعة التي لا تصبر على تكاليف العهد ولا تستقيم .

﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ . .

منحرفين عن دين الله وعهده القديم . . وهذه ثمرة التقلب ، ونقض العهد ، واتباع الهوى . .

ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله ، مستقيماً على طريقته ، مسترشداً بهداه . فلا بد أن تتفرق به السبل ، ولا بد أن ينحرف ، ولا بد أن يفسق . . وكذلك كان أهل تلك القرى . وكذلك انتهى بهم المطاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1327 . 1342 ﴾

(283/280)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾

الوفي يتضرع إليه عند البلاء ويتوكل عليه والعدوّ يذهل عن الحق ولا يرجع إليه ﴿ ولو أن أهل القرى ﴾ يعني صفات النفس ﴿ آمنوا ﴾ بما يرد إلى صفات القلب والروح من ألطاف الحق ﴿ واتقوا ﴾ مشتبهات النفس ﴿ فتحنا عليهم ﴾ أسباب العواطف من سماء الروح وأرض القلب ﴿ فأخذناهم ﴾ عاقبناهم بعذاب البعد ﴿ بما كسبوا ﴾ من مخالفات الحق وموافقات الطبع ﴿ بياتاً ﴾ في صور القهر ﴿ ضحى ﴾ في صورة اللطف بسطوات الجذبات ﴿ وهم يلعبون ﴾ يشتغلون بالدنيا . ﴿ إلا القوم الخاسرون ﴾ من أهل القهر هم الذين خسروا سعادة الدارين من أهل اللطف هم الذين خسروا الدنيا

والعقبى وربحوا المولى ﴿ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 293 . 294 ﴾

(284/280)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثمانون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/281)

الجزء الحادى والثمانون بعد المائتين

من الآية ﴿ 103 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 116 ﴾ من نفس السورة

(4/281)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انقضى بيان هذا الإجمال الخالع لقلوب الرجال ، أتبعه الكشف عما كان بعد قصة شعيب عليه السلام من قصة صهره موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، وهي كالدليل على آيات الإجمال كما كانت القصص الماضية كالدليل على ما في أول السورة من الإجمال ،

فإن قصة فرعون مشتملة على الأخذ بالبأساء والضراء ، ثم الإنعام بالرخاء والسراء ، ثم الأخذ بغتة بسبب شدة الوقوف مع الضلال بعد الكشف الشافي والبيان لما على قلوبهم من الطبع وما قادت إليه الحظوظ من الفسق ، وكأنه فصلها عن القصص الماضية تنويهاً بذكرها وتنبيهاً على عليّ قدرها ، لأن معجزات صاحبها من معجزات من كان قبله ، وجهل من عالجهم كان أعظم وأفحش من جهل تلك الأمم ، ولذلك عطفها بأداة البعد مع قرب زمنها من التي قبلها إشارة إلى بعد رتبتها بما فيها من العجائب وما اشتملت عليه من الرغائب والغرائب ، ولذلك مد لها الميدان وأطلق في سياقها للجواد العنان فقال : ﴿ ثم بعثنا ﴾ أي على عظمتنا ﴿ من بعدهم ﴾ أي الرسل المذكورين والأمم المهلكين ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي التي يحق لها العظمة بإضافتها إلينا فثبت بها النبوة ﴿ إلى فرعون ﴾ هو علم جنس لملوك مصر ككسرى لملوك فارس وقيصر لملوك الروم ، وكان اسم فرعون موسى عليه السلام قابوس ، وقيل : الوليد بن مصعب ابن الريان ﴿ وملئه ﴾ أي عظماء قومه ، وخصمهم لأنهم إذا أذعنوا أذعن من دونهم ، فكأنهم المقصودون والإرسال إليهم إرسال إلى الكل .

ولما سببت لهم الظلم الظلم قال : ﴿ فظلموا ﴾ أي وقعوا في مثل الظلام حتى وضعوا الأشياء في غير مواضعها فوضعوا الإنكار موضع الإقرار ﴿ بها ﴾ أي بسبب رؤيتها خوفاً على رئاستهم ومملكتهم الفانية أن تخرج من أيديهم ؛ ولما كان ذلك من أعجب العجب ،

وهو أن سبب العدل يكون سبب الظلم ، وكان هذا الظلم أعظم الفساد ، سبب عنه قوله معجباً : ﴿ فانظر ﴾ أي بعين البصيرة ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ المفسدين ﴾ فلخص في هذه الآية على وجازتها جميع قصتهم على طولها ، وقدم ذكر الآيات اهتماماً بها ولأنها الدليل على صحة دعوى البعث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 77 . 78 ﴾

(5/281)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ حقيق على ﴾ بالتشديد : نافع . الباقون : بالتخفيف ﴿ معي ﴾ بفتح الياء حيث كان : حفص ﴿ أرجه ﴾ بإسكان هاء الضمير : حمزة وعاصم غير المفضل ﴿ أرجه ﴾ بكسر الجيم والهاء من غير إشباع يزيد وقالون ﴿ أرجهي ﴾ بالإشباع : نافع غير قالون وعلي وعباس وخلف المفضل ﴿ أرجئه ﴾ بالهمزة : أبو عمرو غير عباس وسهل ويعقوب وابن الأخرم عن ابن ذكوان وهشام غير الحلواني ﴿ أرجئهو ﴾ بالإشباع : ابن كثير والحلواني عن هشام ﴿ أرجئه ﴾ بكسر الهاء : ابن مجاهد والنقاش

عن ابن ذكوان ﴿ سحار ﴾ بالمبالغة : حمزة وعلي وخلف وكذلك في يونس . وقرأ قتيبة ونصير والدوري وحمزة في رواية ابن سعدان وأبي عمرو بالإمالة . البقون ﴿ ساحر ﴾ . ﴿ أن لنا ﴾ بحذف همزة الاستفهام : ابن كثير وأبو جعفر ونافع وحفص . ﴿ أئن لنا ﴾ بإثبات همزة الاستفهام : عاصم غير حفص وحمزة وعلي وخلف وابن عامر وهشام . يدخل بينهما مدة ﴿ آين لنا ﴾ المدة وقلب الهمزة ياء : أبو عمرو وزيد . ﴿ أين لنا ﴾ بالياء ولا مدة : سهل ويعقوب غير زيد ﴿ تلقف ﴾ بالتخفيف حيث كان : حفص والمفضل ﴿ تلقف ﴾ بالتشديد وإدغام التاء الأولى في الثانية : البزي وابن فليح . الباقون : بتشديد القاف وحذف تاء التفعل . ﴿ آمنتم ﴾ بهمزة واحدة ممدودة : حفص . ﴿ أأمنتم ﴾ بزيادة همزة الاستفهام : حمزة وعلي وخلف وعاصم سوى حفص . ﴿ آمنتم ﴾ بالمد وتليين الهمزة : أبو جعفر ونافع وابن عامر وأبو عمرو وسهل ويعقوب وابن كثير غير الهاشمي وابن مجاهد وأبي عون عن قنبل ﴿ فرعون وآمنتم ﴾ بالواو الخالصة : الهاشمي عن قنبل ﴿ وآمنتم ﴾ بالواو وتحقيق الهمزة الأولى : ابن مجاهد وأبو عون والهرندي عن قنبل .

الوقوف : ﴿ فظلموا بها ﴾ ج للفصل بين الخبر والطلب مع العطف بالفاء ﴿ المفسدين ﴾ ه ﴿ العالمين ﴾ ه ج وقف لمن قرأ ﴿ حقيق عليّ ﴾ بالتشديد أي واجب عليّ ، ومن قرأه مخففاً جاز له الوصل على جعل ﴿ حقيق ﴾ وصف الرسول و " على " بمعنى الباء ﴿ إلا الحق ﴾ ط ﴿ بني إسرائيل ﴾ ط ﴿ الصادقين ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه للفصل بين الجملتين والوصل أجود للجمع بين الحجتين ﴿ للناظرين ﴾ ه ﴿ عليم ﴾ ه لا لأن ما بعده وصف لساحر ﴿ من أرضكم ﴾ ج لاحتمال أن ما بعده من تمام قول الملأ لفرعون وحده ، والجمع للتعظيم أوله ولعظمائه حضرته ، وأن يكون ابتداء جواب من فرعون أي فماذا تشيرون ﴿ قاهرون ﴾ ه ﴿ حاشرين ﴾ ه لا لأن ما بعده جواب الأمر ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ الغالبين ﴾ ه ﴿ المقربين ﴾ ه ﴿ الملقين ﴾ ه ﴿ ألقوا ﴾ ج للعطف ﴿ عظيم ﴾ ه ﴿ عصاك ﴾ ط لحق المحذوف لأن التقدير فألقاها فإذا هي ﴿ ما يأفكون ﴾ ه ﴿ وكذلك يعملون ﴾ ه ﴿ صاغرين ﴾ ه ج لمكان حروف العطف ﴿ ساجدين ﴾ ه ج لاحتمال كون ﴿ قالوا ﴾ حالاً بإضمار " قد " ﴿ العالمين ﴾ ه لا للبدر ﴿ هرون ﴾ ه ﴿ آذن لكم ﴾ ج للابتداء مع اتحاد القائل ﴿ أهلها ﴾ ج لأن " سوف " للتهديد مع العطف ﴿ تعلمون ﴾ ه ﴿ أجمعين ﴾ ه ﴿ منقلبون ﴾ ه للآية مع اتحاد المقول ﴿ جاءتنا ﴾ ط للعدول عن المحاباة إلى المناجاة ﴿ المسلمين ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 294 . 295 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو القصة السادسة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة ، وذكر في هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر في سائر القصص ، لأجل أن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات سائر الأنبياء ، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام .

واعلم أن الكناية في قوله : ﴿ مّن بَعْدِهِمْ ﴾ يجوز أن تعود إلى الأنبياء الذين جرى ذكرهم ، ويجوز أن تعود إلى الأمم الذين تقدم ذكرهم بإهلاكهم وقوله : ﴿ بئاياتنا ﴾ فيه مباحث .

البحث الأول : هذه الآية تدل على أن النبي لا بد له من آية ومعجزة بها يمتاز عن غيره ، إذ لو لم يكن مختصاً بهذه الآية لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره .

والبحث الثاني : هذه الآية تدل على أنه تعالى آتاه آيات كثيرة ، ومعجزات كثيرة .

والبحث الثالث : قال ابن عباس رضي الله عنهما : أول آياته العصا ثم اليد ، ضرب بالعصا باب فرعون ، ففزع منها فشاب رأسه ، فاستحيا فخضب بالسواد ، فهو أول من

خضب .

قال : وآخر الآيات الطمس .

(8/281)

قال : وللعصا فوائد كثيرة منها ما هو مذكور في القرآن كقوله : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 18] وذكر الله من تلك المآرب في القرآن قوله : ﴿ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [البقرة : 60] وذكر ابن عباس أشياء أخرى منها : أنه كان يضرب الأرض بها فتنبت ، ومنها : أنه كانت تحارب اللصوص والسباع التي كانت تقصد غنمه ، ومنها : أنها كانت تشتعل في الليل كاشتعال الشمعة ، ومنها : أنها كانت تصير كالحبل الطويل فينزح به الماء من البئر العميقة .

واعلم أن الفوائد المذكورة في القرآن معلومة ، فأما الأمور التي هي غير مذكورة في القرآن فكل ما ورد به خبر صحيح فهو مقبول وما لا فلا ، وقوله أنه كان يضرب بها الأرض فتخرج النبات ضعيف ، لأن القرآن يدل على أن موسى عليه السلام ، كان يفزع إلى العصا في الماء الخارج من الحجر ، وما كان يفزع إليها في طلب الطعام .

أما قوله : ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي فظلموا بالآيات التي جاءتهم ، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه فلما كانت تلك الآيات قاهرة ظاهرة ، ثم إنهم كفروا بها فوضعوا الإنكار في موضع الإقرار والكفر في موضع الإيمان ، كان ذلك ظلماً منهم على تلك الآيات .

ثم قال : ﴿ فانظر ﴾ أي بعين عقلك ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ وكيف فعلنا بهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 145.155 ﴾

(9/281)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى ﴾

يعني : أرسلنا من بعد الرسل الذين ذكرهم في هذه السورة .

ويقال : ثم بعثنا من بعد هلاكهم موسى وهو موسى بن عمران ﴿ بآياتنا ﴾ يعني : اليد البيضاء والعصا ﴿ إلى فِرْعَوْنَ ﴾ وهو ملك مصر واسمه الوليد بن مصعب .

وروي عن وهب بن منبه أنه قال : كان فرعون في وقت يوسف فعاش إلى وقت موسى عليهما السلام .

فبعث الله تعالى إليه موسى ليأخذ عليه الحجة .

وأنكر عليه ذلك عامة المفسرين .

وقالوا هو كان غيره ، وكان جباراً ، ظهر بمصر واستولى عليها ، وأرسل الله تعالى إليه موسى فذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بآياتنا إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيهِ ﴾ يعني : جنوده وأتباعه ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ يعني : فجحدوا بالآيات ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ يعني : كيف صار آخر أمر المشركين .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أول الآيات العصا فضرب بها موسى باب فرعون ، ففزع منها فرعون ، فشاب رأسه ، فاستحيا فخضب بالسواد ، فأول من خضب بالسواد فرعون .

قال ابن عباس : كان طول العصا عشرة أذرع على طول موسى ، وكانت من آس الجنة يضرب بها الأرض فتخرج النبات ، فلما دخل عليه مع هارون . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

---

(1) لا يخفى ما فى هذا الخبر من البعد البعيد . والظاهر . والله تعالى أعلم . أنه من أساطير التوراة المحرفة .

وقال ابن عطية :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) ﴾

الضمير في قوله ﴿ من بعدهم ﴾ عائد على الأنبياء المتقدم ذكرهم وعلى أممهم ، و" الآيات " في هذه الآية عام في التسع وغيرها ، وقوله ﴿ فظلموا بها ﴾ المعنى فظلموا أنفسهم فيها وبسببها وظلموا أيضاً مظهرها ، ومتبعي مظهرها وقيل لما نزلت ظلموا منزلة كفروا وجحدوا عديت بالباء كما قال : [الفرزدق]

قد قتل الله زياداً عني . . . فأنزل قتل منزلة صرف ، ثم حذر الله من عاقبة المفسدين الظالمين وجعلهم مثالاً يتوعد به كفرة عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

و ﴿ فرعون ﴾ اسم كل ملك لمصر في ذلك الزمان فخاطبه موسى بأعظم أسمائه وأحبها إليه إذ كان من الفراعنة كالنمارذة في يونان وقيصر في الروم وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة ، وروي أن موسى بن عمران بن فاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ، وروي أن اسم فرعون موسى عليه السلام الوليد بن مصعب ، وقيل هو فرعون يوسف وأنه عمر نيفاً وأربعمائة سنة .

قال القاضي أبو محمد : ومن قال إن يوسف المبعوث الذي أشار إليه موسى في قوله ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ [غافر : 34] هو غير يوسف الصديق فليس

يحتاج إلى نظر ، ومن قال إنه يوسف الصديق فيعارضه ما يظهر من قصة يوسف ، وذلك أنه ملك مصر بعد عزيزها ، فكيف يستقيم أن يعيش عزيزها إلى مدة موسى ، فينفصل أن العزيز ليس بفرعون الملك إنما كان حاجباً له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(11/281)

وقال أبو حيان :

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾

لما قصّ الله تعالى على نبيه أخبار نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما آل إليه أمر قومهم وكان هؤلاء لم يبقَ منهم أحد أتبع بقصص موسى وفرعون وبني إسرائيل إذ كانت معجزاته من أعظم المعجزات وأمته من أكثر الأمم تكذيباً وتعنتاً واقتراحاً وجهلاً وكان قد بقي من اتباعه عالم وهم اليهود فقصّ الله علينا قصصهم لنعتبر ونتعظ وننزجر عن أن نتشبه بهم ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنّ بين موسى وشعيب عليهما السلام مصاهرة كما حكى الله في كتابه ونسب لكونهما من نسل إبراهيم ولما استفتح قصة نوح ب ﴿ أرسلنا ﴾ بنون

العظمة اتبع ذلك قصة موسى فقال : ﴿ ثم بعثنا ﴾ والضمير في ﴿ من بعدهم ﴾ عائد على الرسل من قوله و ﴿ لقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أو للأمم السابقة والآيات الحجج التي آتاه الله على قومه أو الآيات التسع أو التوراة أقوال وتعدية فظلموا بالباء إما على سبيل التضمين بمعنى كفروا بها ألا ترى إلى قوله ﴿ إن الشّرك لظلم عظيم ﴾ وإما أن تكون الباء سببية أي ظلموا أنفسهم بسببها أو الناس حيث صدوهم عن الإيمان أو الرسول فقالوا سحر وتمويه أقوال ، وقال الأصم : ظلموا تلك النعم التي آتاهم الله بأن استعانوا بها على معصية الله تعالى فانظر أيها السامع ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين جعلهم مثالاً توعد به كفرة عصر الرسول عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(12/281)

وقال أبو السعود :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى ﴾

أي أرسلناه من بعد انقضاء وقائعِ الرسل المذكورين أو من بعد هلاكِ الأممِ المحكيةِ ، والتصريحُ بذلك مع دِلالة (ثم) على التراخي للإيذان بأن بعثه عليه الصلاة والسلام جرى على سَنن السُنةِ الإلهية من إرسال الرسلِ تترى ، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول

الصريحِ لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر ﴿ بآياتنا ﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع حالاً من مفعول بعثنا ، أو صفةٌ لمصدره أي بعثناه عليه الصلاة والسلام ملتبساً بآياتنا أو بعثناه بَعْثاً ملتبساً بها ، وهي الآياتُ التِسعُ المُفَصَّلاتُ التي هي : العصا ، واليدُ البيضاء ، والسِّنونَ ، ونقصُ الثمرات ، والطُّوفانُ ، والجرادُ ، والقُمّلُ ، والضفادِعُ ، والدم ، حسبما سيأتي على التفصيل ﴿ إلى فِرْعَوْنَ ﴾ هو لقبٌ لكل من ملَك مِصْرَ من العمالقة كما أن كِسرى لقبٌ لكل من ملك فارسَ ، وقيصرَ لكل مَنْ ملك الروم واسمُه قابوسُ ، وقيل : الوليدُ بنُ مصعبِ بن الريان ﴿ وَمَلَئِهِ ﴾ أي أشرافِ قومِه ، وتخصيصُهم بالذكر مع عموم رسالتِه عليه الصلاة والسلام لقومه كافةً حيث كانوا جميعاً مأمورين بعبادة ربِّ العالمين عزَّ سلطانُه ، وتركِ العظيمةِ الشنعاءِ التي كان يدّعيها الطاغيةُ وتقبلها منه فئتُه الباغية لأصالتهم في تدبير الأمور واتباعِ غيرِهم لهم في الورود والصدور ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي كفروا بها ، أُجري الظلمُ مُجرى الكفرِ لكونهما من واد واحدٍ ، أو ضُمّن معنى الكفرِ أو التكذيبِ أي ظلموا كافرين بها أو مكذِّبين بها ، أو كفروا بها مكان الإيمانِ الذي هو من حقها لوضوحها ولهذا المعنى وُضع ظَلَموا موضِعَ كفروا وقيل : ظلموا أنفسَهم بسببها بأن عرّضوها للعذاب الخالد ، أو ظلموا الناسَ بصدهم عن الإيمان بها ، والمرادُ به الاستمرارُ على الكفر بها إلى أن لقُوا من العذاب ما لقُوا ، ألا يُرى إلى قوله تعالى : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ فكما أن ظلمهم

(13/281)

بها مستتبعٌ لتلك العاقبةِ الهائلةِ كذلك حكايةُ ظلمِهم بها مستتبعٌ للأمر بالنظر إليها ، وكيف خبرُ كان قُدّم على اسمها لاقتضائه الصدارةَ والجملةُ في حيز النصب بإسقاط الخافضِ أي فانظر بعين عقلِك إلى كيفية ما فعلنا بهم ، ووضعُ المفسدين موضعَ ضميرِهم للإيذان بأن الظلم مستلزِمٌ للإفساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(14/281)

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى ﴾

أي أرسلناه عليه السلام بعد الرسل أو بعد الأمم والأول متقدم في قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ [الأعراف : 101] والثاني مدلول عليه بـ ﴿ تلك القرى ﴾ [الأعراف : 101] والاحتمال الأول أولى ، والتصريح بالبعدية مع ثم الدالة عليها قيل للتنصيص على أنها للتراخي الزماني فإنها كثيراً ما تسعمل في غيره ، وقيل : للإيذان بأن

بعثه عليه السلام جرى على سنن السنة الإلهية من ارسال الرسل تترى ، و ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، وقوله سبحانه : ﴿ بآياتنا ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا أو صفة لمصدره أي بعثناه عليه السلام ملتبساً بها أو بعثناه بعثاً ملتبساً بها وأريد بها الآيات التسع المفصلة ﴿ إلى فِرْعَوْنَ ﴾ هو علم شخص ثم صار لقبا لكل من ملك مصر من العمالقة ، كما أن كسرى لقب من ملك فارس ، وقيصر لقب من ملك الروم ، والنجاشي لقب من ملك الحبشة ، وتبع لقب من ملك اليمن ، وقيل : إنه من أول الأمر لقب لمن ذكر ، واسمه الوليد بن مصعب بن الريان ، وقيل : قابوس وكنيته أبو العباس ، وقيل : أبو مرة ، وقيل : أبو الوليد ، وعن جماعة أن قابوسا والوليد اسمان لشخصين أحدهما فرعون موسى والآخر فرعون يوسف عليهما السلام ، وعن النقاش .

وتاج القراء أن فرعون موسى هو والد الخضر عليه السلام ، وقيل : ابنه وذلك من الغرابة بمكان ، ويلقب به كل عات ويقال فيه فرعون كزنبور ، وحكى ابن خالويه عن الفراء ضم فائه وفتح عينه وهي لغة نادرة ، ويقال فيه : فريع كزبير وعليه قول أمية بن الصلت :

حي داود بن عاد وموسى . . .

وفريع بنيانه بالثقال

وقيل : هو فيه ضرورة شعر ومنع من الصرف لأنه أعجمي ، وحكى أبو الخطاب بن دحية في مروج البحرين عن أبي النصر القشيري في التيسير أنه بلغة القبط اسم للتمساح ، والقول بأنه لم ينصرف لأنه لا سميّ له كابليس عند من أخذ من أبلس ليس بشيء ، وقيل : هو وأضراً به السابقة أعلام أشخاص وليست من علم الجنس لجمعها على فراعنة وقياصرة وأكاسرة ، وعلم الجنس لا يجمع فلا بد من القول بوضع خاص لكل من تطلق عليه .

وتعقب بأنه ليس بشيء لأن الذي غره قول الرضى إن علم الجنس لا يجمع لأنه كالنكرة شامل للقليل والكثير لوضعه للماهية فلا حاجة لجمعه ، وقد صرح النحاة بخلافه وممن ذكر جمعه السهيلي في الروض الأنف فكأن مراد الرضى أنه لا يطرد جمعه وما ذكره تعسف نحن في غنى عنه ﴿ وَمَلَائِه ﴾ أي أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر مع عموم بعثته عليه السلام لقومه كافة لاصالتهم في تدبير الأمور واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور ﴿ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي بالآيات ، وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه وهو يتعدى بنفسه لا بالباء إلا أنه لما كان هو والكفر من واد واحد عدى تعديته أو هو بمعنى الكفر مجازاً أو تضميناً أو هو مضمن معنى التكذيب أي ظلموا كافرين بها أو مكذبين بها ، وقول بعضهم : إن المعنى كفروا بها مكان الإيمان الذي هو من حقها لوضوحها ظاهر في التضمين كأنه قيل كفروا بها واضعين الكفر في غير موضعه حيث كان اللائق بهم الإيمان .

وقيل : الباء للسببية ومفعول ظلموا محذوف أي ظلموا الناس بصدهم عن الإيمان أو أنفسهم كما قال الحسن .

والجبائي بسببها ، والمراد به الاستمرار على الكفر بها إلى أن لقوا من العذاب ما لقوا .

(16/281)

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ أي آخر أمرهم ، ووضع المفسدين موضع ضميرهم للإيذان بأن الظلم مستلزم للافساد ، والفاء لأنه كما أن ظلمهم بالآيات مستتبع لتلك العاقبة الهائلة كذلك حكايته مستتبع للأمر بالنظر إليها ، والخطاب إما للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه النظر ، و﴿ كَيْفَ ﴾ كما قال أبو البقاء وغيره خبر كان قدم على اسمها لاقتضائه الصدارة ، والجملة في حيز النصب باسقاط الخافض كما ، قيل : أي فانظر بعين عقلك إلى كيفية ما فعلنا بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(17/281)

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾

انتقال من أخبار الرسالات السابقة إلى أخبار رسالة عظيمة لأمة باقية إلى وقت نزول القرآن فضّلها الله بفضله فلم تُوَف حق الشكر وتلقت رسولها بين طاعة وإباء وانقياد ونفار ، فلم يعاملها الله بالاستيصال ولكنه أراها جزاء مختلف أَعمالها ، جزاء وفاقاً ، إنْ خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وخصت بالتفضيل قصة إرسال موسى لما تحتوي عليه من الحوادث العظيمة ، والأنباء القيمة ، ولأن رسالته جاءت بأعظم شريعة بين يدي شريعة الإسلام ، وأرسل رسولها هادياً وشارعاً تمهيداً لشريعة تأتي لأمة أعظم منها تكون بعدها ، ولأن حال المرسل إليهم أشبه بحال من أرسل إليهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا فريقيْن كثيريْن اتَبع أحدهم موسى وكفَر به الآخر ، كما اتّبع محمداً عليه السلام جمع عظيم وكفر به فريق كثير ، فأهلك الله من كفر ونصر من آمن .

وقد دلت ﴿ ثم ﴾ على المُهلة : لأن موسى عليه السلام بعث بعد شعيب بزمن طويل ، فإنه لما توجه إلى مدين حين خروجه من مصر ، رجَا الله أن يهديَه فوجد شعيباً ، وكان اتصاله به ومصاهرته تدريجاً له في سلم قبول الرسالة عن الله تعالى فالمهلة باعتبار مجموع الأمم المحكي عنها قبل ، فإن منها ما بينه وبين موسى قرونَ مثل قوم نوح ، ومثل عاد وثمود ،

وقوم لوط ، فالمهلة التي دلت عليها ﴿ ثم ﴾ متفاوتة المقدار ، مع ما يقتضيه عطف الجملة بحرف ﴿ ثم ﴾ من التراخي الرتبي وهو ملازم لها إذا عطفت بها الجمل .

فحرف (ثم) هنا مستعمل في معنيي المهلة الحقيقي والمجازي .

والضمير في قوله : ﴿ من بعدهم ﴾ يعود إلى القرى ، باعتبار أهلها ، كما عادت عليهم الضمائر في قوله ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم ﴾ الآيتين [الأعراف : 101] .

(18/281)

والباء في ﴿ بآياتنا ﴾ للملابسة ، وهي في موضع الحال من موسى ، أي : مصحوباً بآيات منا ، والآيات : الدلائل على صدق الرسول ، وهي المعجزات ، قال تعالى : ﴿ قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ [الأعراف : 106 ، 107] .

و ﴿ فرعون ﴾ علَم جنس لملك مصر في القديم ، أي : قبل أن يملكها اليونان ، وهو اسم من لغة القبط .

قيل : أصله في القبطية (فاراه) ولعل الهاء فيه مبدلة عن العين فإن (رع) اسم الشمس فمعنى (فاراه) نور الشمس لأنهم كانوا يعبدون الشمس فجعلوا ملك مصر بمنزلة نور

الشمس ، لأنه يصلح الناس ، نقل هذا الاسم عنهم في كتب اليهود وانتقل عنهم إلى العربية ، ولعله مما أدخله الإسلام ، وهذا الاسم نظير (كسرى) لملك ملوك الفرس القدماء ، و (قيصر) لملك الروم ، و (نمروذ) لملك كنعان ، و (النجاشي) لملك الحبش ، و (تُبَع) لملك ملوك اليمن ، و (خان) لملك الترك .

واسم فرعون الذي أرسل موسى إليه : منفطاح الثاني ، أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر ، على ترتيب المؤرخين من الإفرنج وذلك في سنة 1491 قبل ميلاد المسيح .

والملأ : الجماعة من علية القوم ، وتقدم قريباً ، وهم وزراء فرعون وسادة أهل مصر من الكهنة وقواد الجند ، وإنما خص فرعون وملأه لأنهم أهل الحل والعقد الذين يأذنون في سراح بني إسرائيل ، فإن موسى بعثه الله إلى بني إسرائيل ليحررهم من الرق الذي كانوا فيه بمصر ، ولما كان خروجهم من مصر متوقفاً على أمر فرعون وملئه بعثه الله إليهم ليعلموا أن الله أرسل موسى بذلك ، وفي ضمن ذلك تحصل دعوة فرعون للهُدى ، لأن كل نبيء يُعلن التوحيد ويأمر بالهدى ، وإن كان المأمور من غير المبعوث إليهم حرصاً على الهُدى إلاّ أنَّه لا يقيم فيهم ولا يكرر ذلك ، والفاء في قوله : ﴿ فظلموا ﴾ للتعقيب أي فبادروا بالتكذيب .

(19/281)

والظلم : الاعتداء على حق الغير ، فيجوز أن يكون ﴿ فظلموا ﴾ هنا على أصل وضعه وتكون الباء للسببية ، وحذف مفعول (ظلموا) لقصد العموم ، والمعنى : فظلموا كل من له حق في الانتفاع بالآيات ، أي منعوا الناس من التصديق بها وآذوا الذين آمنوا بموسى لَمّا رأوا آياته ، كما قال تعالى : ﴿ قال فرعون آآمنتم به قبل أن آذن لكم إلى قوله لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ [الأعراف : 123 ، 124] الآية .

وظلموا أنفسهم إذ كابروا ولم يُؤمنوا ، فكان الظلم بسبب الآيات أي بسبب الاعتراف بها .

ويجوز أن يكون ضمّن ﴿ ظلموا ﴾ معنى كفروا فعدّي إلى الآيات بالباء ، والتقدير : فظلموا إذ كفروا بها ، لأن الكفر بالآيات ظلم حقيقة ، إذ الظلم الاعتداء على الحق فمن كفر بالدلائل الواضحة المسماة (آيات) فقد اعتدى على حق التأمل والنظر .

والفاء في قوله : ﴿ فانظر ﴾ لتفريع الأمر على هذا الإخبار ، أي : لا تتريّث عند سماع خبر كفرهم عن أن تبادر بالتدبّر فيما سنقص عليك من عاقبتهم .

والمنظور هو عاقبتهم التي دل عليها قوله : ﴿ فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ [الأعراف : 136] وهذا النظر نظر العقل وهو الفكر المُؤَدِّي إلى العلم فهو من أفعال القلوب .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمراد هو ومن يَبْلغْه ، أو المخاطب غيرُ معين وهو

كل من يتأتى منه النظر والاعتبار عند سماع هذه الآيات ، فالتقدير : فانظر أيها الناظر ، وهذا استعمال شائع في كل كلام موجه لغير معين .

ولما كان ما آل إليه أمر فرعون وملئه حالة عجيبة ، عبر عنه بـ (كيف) الموضوعة للسؤال عن الحال ، والاستفهام المستفاد من (كيف) يقتضي تقدير شيء ، أي : انظر عاقبة المفسدين التي يسأل عنها بكيف .

(20/281)

وعُلّق فعل النظر عن العمل لمجيء الاستفهام بعده ، فصار التقدير : فانظر ، ثم افتتح كلاماً بجملة ﴿ كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ، والتقدير في أمثاله أن يقدر : فانظر جوابَ كيفَ كان عاقبة المفسدين .

والعاقبة : آخر الأمر ونهايته ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ في سورة الأنعام (11) .

والمراد بالمفسدين : فرعون وملأه ، فهو من الإظهار في مقام الإضمار تنبيهاً على أنهم أصيبوا بسوء العاقبة لكفرهم وفسادهم ، والكفر أعظم الفساد لأنه فساد القلب ينشأ عنه فساد الأعمال ، وفي الحديث : " ألا وإن في الجسد مُضْغة إذا صلحت صلح الجسد

كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(21/281)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) ﴾

وبعد أن تكلم الحق عن نوح وهو وصالح ولوط وشعيب وما دار بينهم وبين أقوامهم ، وكيف أهلك سبحانه المكذبين وأنجى المؤمنين ، أراد أن يأتي بتاريخ رسول من أولى العزم من الرسل ، أي من الذين تعرضوا في رسالاتهم لأشياء لا يتحملها إلا جَلْد قوي . وأظن أنكم تعلمون أن علاج موسى لليهود أخذ قسطاً وافراً في القرآن ، بل إن قصة موسى مع قومه هي أطول قصص القرآن ؛ لأن انحرافاتهم ونزواتهم وتمردهم على أنبيائهم كانت كثيرة ، وكان أنبياؤهم كثيرون لذلك فهم يفتخرون بأنهم كثيرو الأنبياء ، وقالوا : نحن أكثر الأمم أنبياء . وقلنا لهم : إن كثرة أنبيائكم تدل على تأصل دائكم ؛ لأن الأطباء لا يكثرون إلا حين يصبح علاج المريض أمراً شاقاً . إذن فكثرة أنبيائكم ، دليل على أن رسولاً واحداً لا يكفيهم ، بل

لابد من أنبياء كثيرين .

وقوله الحق : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى ﴾ .

(22/281)

وكلمة " بعث " – كما نفهمها – توحي وتشير إلى أنه سبحانه قد أرسل موسى رسولاً إلى فرعون ، واختيرت كلمة " بعث " للرسالات لأن البعث يقتضي أن شيئاً كان موجوداً ثم انطمر ثم بعثه الحق من جديد ، والإيمان يتمثل في عهد الفطرة الأول الذي كان من آدم ؛ لأن الله خلقه بيديه خلقاً مباشراً وكلفه تكليفاً مباشراً ، فنقل آدم الصورة للذرية ، وهذه الصورة الأصلية هي التي تضم حقائق الإيمان التي كانت لآدم ، وحين يبعث الله رسولاً جديداً ، فهو لا ينشئ عقيدة جديدة ، بل يحيي ما كان موجوداً وانطمر ، وحين يطم الفساد يبعث الله الرسول ، فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما كلف آدم التكليف الأول طلب منه أن ينقل هذا التكليف إلى ذريته ، ولو أن الإنسان أخذ تكاليف الدين كما أخذ مقومات الحياة ممن سبقه لظل الإيمان مسألة رتيبة في البشر .

إننا نأخذ الأشياء التي أورثها لنا أجدادنا وتنفعنا في أمور الدنيا نحتفظ بها ونحرص عليها ، فلماذا لم نأخذ الدين منهم ؟ لأن الدين يحجر على حرية الحركة ويضعها في إطارها

الصحيح . والإِنسان يريد أن ينفلت من تقييد حرية الحركة ، وحين يقول ربنا مرة إنه : " أرسل " الرسل ، ومرة أخرى إنه قد بعثهم ، فهذا يدل على أنه لم يجيء بشيء جديد ، ولكنه جاء بشيء كان المفروض أن يظل فيكم كما ظلت فيكم الأشياء التي ورّثها لكم أسلافكم وتنتفعون بها ؛ مثال ذلك : نحن ننتفع برغيف الخبز وننتفع بخياطة الإِبرة فلماذا انتفعنا بهذه الأشياء المادية ونسينا الأشياء المنهجية ؟ لأن الأشياء المادية قد تعين الإِنسان على شهواته ، أما قيم الدين فهي تحارب الشهوات . ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ . . . ﴾ [الأعراف : 103]

والآيات – كما نعلم – جمع آية ، وهي الأمر العجيب الذي يقف العقل عنده مشدوهاً .

(23/281)

وتُطلق الآيات ثلاث إطلاقات ؛ فهي تطلق على الآيات القرآنية لأنها عجيبة أسلوبيًّا معبرة عن كل كمال يوجد في الوجود إلى أن تقوم الساعة ، وكل قارئ لها يأخذ منها على قدر ذهنه وقدر فهمه . والآيات الكونية موجودة في خلق الأرض والسماء وغير ذلك ، وكذلك تطلق الآيات على المعجزات الدالة على صدق الأنبياء . والبعث يقتضي مبعوثاً وهو موسى ، ويقتضي باعثاً وهو الله ، ومبعوثاً إليهم . وهم قوم فرعون ، ومبعوثاً به وهو المنهج

.

والآيات التي بعث الله بها موسى هي أدلة صدق النبوة ، وهي أيضاً الكلمات المعبرة عن المنهج ليشاهدها ويسمع لها فرعون وملؤه ، والملأ – كما عرفنا من قبل – هم القوم الذين يملأون العيون هيبة ، فلا يقال للناس الذين لا يلتفت إليهم أحد إنهم ملأ ، أو هم الأناس الذين يملأون صدور المجالس ، أي الأشراف والسادة . ولماذا حدد الحق هنا أن موسى قد بعث لفرعون وملئه فقط ؟ لأن الباقين من أتباعهم تكون هدايتهم سهلة إن اهتدى الكبار ، والغالب والعادة أن الذي يقف أمام منهج الخير هم المنتفعون بالشر ، وهم القادة أو من حولهم ، ولا يرغبون في منهج الخير لأنه يصادم أغراضهم ، وأهواءهم ، ولذلك يحاربونه ، أما بقية العامة فهم المغلوبون على أمرهم ، وساعة يرون أن واحداً قد جاء ووقف في وجه الذين عضوهم بمظالمهم وعضوهم بطغيانهم ، تصبح قلوبهم مع هذا المنقذ ! ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ . . . ﴾ [الأعراف : 103]

وإن كانت الآيات هي الكلمات المؤدية للمنهج الموجودة في التوراة ، أو كانت الآيات هي المعجزات التي تدل على صدق موسى فقد كان ذلك يقتضي إيمانهم . ونعلم أن القرآن قد عدد الآيات المعجزات التي أرسلها الحق مع موسى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . ﴾ [الإِسراء : 101]

ومن هذه الآيات العصا ، واليد يدخلها في الجيب أو تحت جناحه وإبطه وتخرج بيضاء من غير سوء أو علة ، وأخذ آل فرعون بالسنين ، وكلمة " سنين " تأتي للجدب الشديد الذي يستمر لفترة من الزمن بحيث يلفت الناس إلى حدثٍ في زمان ، ولذلك نقول : كانت سنة عصيبة ؛ لأن السنة عضة من الأحداث ، تهدم ترف الحياة ، ثم تأتي لهم بما يهدم مقومات الحياة ، وأولها الطعام والشراب فيصيبهم بنقص الثمرات ، وهو الجدب والقحط ، وسمي الجدب سنة ، وجمعه سنين ، لأنه شيء يؤرخ به ، فماذا كان استقبال فرعون وملئه للآيات التي مع موسى عليه السلام ؟ يقول الحق : ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ .

وهل كانت الآيات أداة للظلم أو ظلموا بسببها لأنهم رفضوها كمنهج حياتي ؟ . لقد ظلموا بها لأنهم رفضوا اتباع المنهج الحق ، وظلوا على فسادهم ، والمفسدون – كما نعلم – هم الذين يعمدون إلى الصالح في ذاته فيفسدونه ، برغم أن المطلوب من الإِنسان أن يستقبل الوجود استقبال من يرى أن هناك أشياء فوق اختياراته ومراداته ، وأشياء باختياره ومراداته ، فإذا نظر الإِنسان في الأشياء التي بها مقومات الحياة ، مما لا يدخل في اختياره يجدها على منتهى الاستقامة .

إننا نجد الإِنسان لا يتحكم في حركة الشمس أو حركة القمر ، أو النجوم أو الريح أو المطر ، فهذه الكائنات مستقيمة كما يريدها الله ، ولا يأتي الفساد إلا في الأمر الذي للإِنسان

مدخل فيه ، والناس لا تشكو من أزمة هواء – على سبيل المثال – لأنه لا دخل في حركة الهواء لأحد ، لكنهم شَكَوْا من أزمة طعام لأن للبشر فيه دخلاً ، ونجد شكواهم من أزمة المياه أقل ؛ لأن مدخل الإِنسان على الماء قليل .

(25/281)

إنه سبحانه وتعالى يجعل الأمر الذي يدير حركتك الوقودية لك فيه بعض من الدخل ، فيجعل من جسمك – على سبيل المثال – مخزناً للدهون ليعطيك لحظة الجوع ما كنزته فيه من طاقة . ومن العجيب أن الدهون هذه هي مادة واحدة وساعة نحتاج إلى التغذية منها تتحول المادة الواحدة إلى المواد الأخرى التي نحتاج إليها .

تحتاج مثلا إلى زلال ، فيتحول الدهن إلى زلال ، تحتاج إلى كربون ، يعطي لك الدهن الكربون ، تحتاج إلى فوسفور يعطيك فوسفوراً ، تحتاج إلى مغنسيوم يعطيك الدهن المغنسيوم ، وهكذا فإذا كنا نصبر على الطعام بقدر المخزون في أجسامنا ، ونصبر على الماء أيضاً بقدر المخزون في هذه الأجساد ، فنحن لا نصبر على الهواء لأن التنفس شهيق وزفير ، ولو أن إنساناً ملك الهواء يعطيك إياه لحظة الرضا ، ويمنعه عنك لحظة الغضب ، لمت قبل أن يرضى عنك ، لكن إياه منع عنك الماء فترة فقد يحن قلب عدوك أو يأتي لك أحد بالماء أو

قد تسعى أنت بحيلة ما لتصل إليه .

إذن فالأمر الذي لا دخل للإنسان فيه نجد على منتهى الاستقامة ، ولا يأتي الفساد إلا من الأمر الذي للإنسان فيه دخل . ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ [الأعراف : 103]

أي أن آخر الأمر سيعاقب الله المفسدين .

وأراد سبحانه أن يَذْكُر سلسلة القصة لا من بدء سلسلتها ، بل يبدأ من نهايتها ، فسبحانه لا يدرس لنا التاريخ ، ولكن يضع أمامنا العظة ، وللقطة التي يريدها في هذا السياق ، ولذلك لم يتكلم سبحانه في هذه السورة عن ميلاد موسى وكيف أوحى لأمه أن تلقيه في البحر ، ولم ترد حادث ذهابه إلى مدين ومقابلته لسيدنا شعيب ، لكنه هنا يتكلم سبحانه عن مهمة سيدنا موسى مع فرعون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(26/281)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ (103) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : إنما سمي موسى لأنه ألقي بين ماء وشجر ، فالماء بالقبطية : مو ، والشجر : سى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان فرعون فارسياً من أهل اصطخر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن لهيعة . إن فرعون كان من أبناء مصر .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن المنكدر قال : عاش فرعون ثلاثمائة سنة ، منها مائتان وعشرون سنة لم ير فيها ما يقذي عينيه ، ودعاه موسى ثمانين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طلحة . أن فرعون كان قبطياً ولد زنا ، طوله سبعة أشبار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : كان فرعون علجاً من همدان .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : قال موسى عليه السلام : يا رب أمهلت فرعون أربعمائة سنة وهو يقول : أنا ربكم الأعلى ، ويكذب بآلائك ، ويجحد رسلك . فأوحى الله إليه : أنه كان حسن الخلق ، سهل الحجاب ، فأحببت أن أكافئه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : أول من خضب بالسواد فرعون .

وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم بن مقسم الهذلي قال : مكث فرعون أربعمائة سنة لم يصدع له رأس .

وأخرج عن أبي الأشرس قال : مكث فرعون أربعمائة سنة ، الشباب يغدو فيه ويروح .

وأخرج الخطيب عن الحكم بن عتيبة قال : أول من خضب بالسواد فرعون حيث قال له موسى : إن أنت آمنت بالله سألته أن يرد عليك شبابك ، فذكر ذلك لهامان فخضبه هامان بالسواد . فقال له موسى : ميعادك ثلاثة أيام . فلما كانت ثلاثة أيام فصل خضابه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان يغلق دون فرعون ثمانون باباً ، فما يأتي موسى باباً إلا انفتح له ، ولا يكلم أحداً حتى يقوم بين يديه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(27/281)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَظَلَمُوا بها " يجوز أن يضمن " ظَلَمُوا " معنى " كَفَرُوا " فيتعدَّى بالباء كتعديته ويؤيده ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] ، ويجوز أن تكون " الباء " سببيّة والمفعول محذوف تقديره : فظلموا أَنْفُسَهُم وظلموا النَّاسَ بمعنى صدوهم عن الإيمان بسبب الآيات .

والظُّلْمُ : وضع الشَّيءِ في غير موضعه فظلمهم : وضع الكُفْرِ موضع الإيمان .

قوله : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ﴾ "كَيْفَ" خبر لـ "كان" مقدَّمٌ عليها واجب التَّقديم ؛ لأنَّ له صدر الكلام ، و"عَاقِبَة" اسمها وهذه الجملة الاستفهامية في محلّ نصب على إسْقَاطِ حرف الجرّ إذ التقديرُ : فانظر إلى كذا ، والمعنى : فانْظُرْ بعين عقلك كيف فعلنا بالمفسدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 245 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) ﴾

لما انقرضت أيامُهم ، وتَقَاصَرَ عن بساط الإجابة إقْدامُهم بعث موسى نبيَّه ، وضمَّ إليه هارون صفيَّه ، فقُوبِلا بالتكذيب والجحود ، فسلك بهم مسلك إخوانهم في التعذيب والتبعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 554.555 ﴾

(28/281)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير عطفاً على ﴿ فظلموا بها ﴾ : ووضعها موسى مواضعها ، عبر عنه بقوله : ﴿ وقال موسى يا فرعون ﴾ خاطبه بما يعجبه امتثالاً لأمر الله تعالى له أن يلين في خطابه ، وذلك لأن فرعون لقب مدح لمن ملك مصر .

ولما أتاهم عليه السلام وهم عارفون بأمانته وصدقه وعظم مكانته ومكارم أخلاقه وشريف عنصره وعظيم مخبره ، وفرعون أعظمهم معرفة به لأنه ربي في حجره ، كان هذا حالاً مقتضياً لأن يلقي إليهم الكلام غير مؤكد ، لكن لما كان الإرسال من الله أمراً عظيماً جداً ، وكان المقصود به تخلية سبيل بني إسرائيل ، وكان فرعون ضنيناً بذلك ، أكده بعض التأكيد فقال : ﴿ إني رسول ﴾ ثم بين مرسله بقوله : ﴿ من رب العالمين ﴾ أي المحسن إليهم أجمعين – وأنتم منهم – بإيجادهم وتربيتهم ، فهو تنبيه لمن سمعه على أن فرعون مربوب مقهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 78 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه كان يقال لملوك مصر : الفراعنة ، كما يقال لملوك فارس : الأكاسرة ، فكأنه قال : يا

ملك مصر ، وكان اسمه قابوس ، وقيل : الوليد بن مصعب بن الريان .

قوله : ﴿ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه إشارة إلى ما يدل على وجود الإله تعالى .

فإن قوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يدل على أن العالم موصوف بصفات لأجلها افتقر إلى رب يربيه ، وإله يوجده ويخلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 155 ﴾ .

بتصرف يسير .

(29/281)

وقال أبو حيان :

﴿ وقال موسى يا فرعون من ربّ العالمين ﴾

هذه محاورة من موسى عليه السلام لفرعون وخطاب له بأحسن ما يدعى به وأحبّها إليه إذ كان من ملك مصر يقال له فرعون كنمرود في يونان ، وقيصر في الروم ، وكسرى في فارس ، والنجاشي في الحبشة وعلى هذا لا يكون فرعون وأمثاله علماً شخصيّاً بل يكون علم جنس كأسامة وثعالة ولما كان فرعون قد ادعى الرّبوبية فاتحه موسى بقوله : ﴿ إني رسول من ربّ العالمين ﴾ لينبهه على الوصف الذي ادعاه وأنه فيه مبطل لا محق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(30/281)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتفصيل ما أجمل فيما قبله .

﴿ يا فرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ ﴾ أي إليكم كما يشعر به ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ ﴾ [الأعراف : 105] أو إليك كما يشعر به ﴿ فأرسل ﴾ [الأعراف : 105] أي إليكم كما يشعر به قد جئتكم أو إليك كما يشعر به فأرسل ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ أي سيدهم ومالك أمرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(31/281)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) ﴾

عُطف قول موسى بالواو ، ولم يفصل عمّا قبله ، مع أن جملة هذا القول بمنزلة البيان لجملة ﴿ بعثنا من بعدهم موسى ﴾ [الأعراف : 103] ، لأنه لما كان قوله : ﴿ بآياتنا ﴾ [

الأعراف : 103] حالاً من موسى فقد فهم أن المقصود تنظير حال الذين أرسل إليهم موسى بحال الأمم التي مضى الإخبار عنها في المكابرة على التكذيب ، مع ظهور آيات الصدق ، ليتم بذلك تشابه حال الماضين مع حال الحاضرين المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم فجُعلت حكايةُ محاورة موسى مع فرعون وملئه خَبَراً مستقلاً لأنه لم يُحك فيه قوله المقارن لإظهار الآية بل ذكرت الآية من قبلُ ، بخلاف ما حكي في القصص التي قبلَها فإن حكاية أقوال الرسل كانت قبل ذكر الآية ، ولأن القصة هنا قد حكي جميعها باختصار بجُمَل ﴿ بَعَثْنَا ﴾ [الأعراف : 103] ، ﴿ فظلموا ﴾ [الأعراف : 103] ، ﴿ فانظر ﴾ [الأعراف : 103] ، فصارت جملة : ﴿ قال ﴾ تفصيلاً لبعض ما تقدم ، فلا تكون مفصولة لأن الفصل إنما يكون بين جملتين ، لا بين جملة وبين عدة جمل أخرى .

والظاهر أن خطاب موسى فرعونَ بقوله : ﴿ يا فرعون ﴾ خطاب إكرام لأنه ناداه بالاسم الدال على الملك والسلطان بحسب متعارف أمته فليس هو بترفع عليه لأن الله تعالى قال له ولهارون ﴿ فقولا له قولاً ليّناً ﴾ [طه : 44] ، والظاهر أيضاً أن قول موسى هذا هو أول ما خاطب به فرعون كما دلت عليه سورة طه .

وصوغ حكاية كلام موسى بصيغة التأكيد بحرف (إن) لأن المخاطب مظنة الإنكار أو التردد القوي في صحة الخبر .

واختيار صفة ﴿ رب العالمين ﴾ في الإعلام بالمرسِل إبطال لاعتقاد فرعون أنه رب مصر وأهلها فإنه قال لهم : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] فلما وصف موسى مُرْسلَه بأنه رب العالمين شمل فرعون وأهل مملكته فتبطل دعوى فرعون أنه إلاه مصر بطريق اللزوم ، ودخل في ذلك جميع البلاد والعباد الذين لم يكن فرعون يدعي أنه إلهم مثل الفرس والأشوريين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(33/281)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) ﴾

ويشرح لنا القرآن أمر بلاغ موسى لفرعون وقومه بان الله واحد أحد وهو رب العالمين ، وكان قوم فرعون يعتقدون بوجود إله للسماء وآخر للأرض ، لذلك يبلغهم موسى بأن الإله واحد : ﴿ قَالَ رَبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء : 24] ونجد موسى يعدد كلمة الربوبية في آيات أخرى ؛ ليأتي بالمظهر الذي دُسَّت فيه دسيسة الربوبية لفرعون ، وكانوا يعتقدون أن للسماء إلهاً ، وللأرض إلهاً آخر ، فقال موسى : إنني

أتكلم عن الإله الواحد الذي هو رب السماء والأرض معاً فلا إله إلا الله وحده . وكانوا يعتقدون أن للشرق إلهاً ، وللغرب إلهاً ، فأبلغهم موسى بأنه إله واحد ، وكانوا يعتقدون أن للأحياء ألهاً ورباً ، وللأموات إلهاً ورباً ، فقال لهم موسى : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأولين ﴾ [الشعراء : 26]

ويبلغ هنا موسى فرعونَ وقومَه : ﴿ . . . إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ [الأعراف : 104]

وما دام موسى رسولا من رب العالمين ، فهو لا يقول إلا الحق ، لذلك يتابع الحق على لسان موسى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(34/281)

قوله تعالى ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما خلفه مما يدعيه من الربوبية دالاً على تسويته ببقية العالمين : ناطقهم وصامتهم ، وكان لذلك بعيداً من الإذعان لهذا الكلام ، أتبعه قوله على وجه التأكيد مستأنفاً بيان ما يلزم للرسول : ﴿ حقيق ﴾ أي بالغ في الحقية ، وهي الثبات الذي لا يمكن زواله ﴿ على أن لا أقول على الله ﴾ أي الذي له جميع الكمال ، ولا عظمة لسواه ولا جلال ﴿ إلا الحق ﴾ أي الثابت الذي لا تمكن المماراة فيه اصلاً لما يصدقه من المعجزات ، وحاصل العبارة ومآلها : حق على قولي الذي أطلقه على الله أن لا يكون إلا الحق أي غير الحق ، ولذلك عبر بالاسم الأعظم الجامع لجميع الصفات ، وقراءة نافع بتشديد ياء الإضافة في ﴿ على ﴾ بمعنى هذا سواء ، لأن من حق عليه شيء حق على كلامه .

ولما كان الحال إذ ذاك يقتضي توقع إقامة موسى عليه السلام البينة على صحة رسالته كان كأنه قيل : ما دليل صدقك ؟ فقال مفتتحاً بحرف التوقع والتحقيق : ﴿ قد جئتكم ﴾ أي كلكم ، لا أخص أحداً منكم ﴿ ببينة ﴾ دليلاً على رسالتي وقولي الحق ﴿ من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بكل نعمة ترونها لديكم من خلقكم ورزقكم وكف الأمم عن انتزاع هذا الملك منكم وإهلاككم ، وتلك البينة هي المعجزة ، فكرر البيان في هذا الكلام على أن فرعون ليس كما يدّعي لأنه مربوب ، لا فرق بينه وبين بقية العالمين في ذلك .

ولما كان من المعلوم أن مثله في تمام عقله وشرف خلائقه لا يدّعي في تلك المجامع إلا حقاً مع ما نبه عليه من البيان على تفرد الله بالإلهية كما تفرد بالإحسان ، كان كأنه أظهر البينة التي

أقلها كفهم عن إهلاكهم .

فأتبع ذلك طلب النتيجة إعلاماً بغاية ما يريد منهم بقوله مسبباً عن مجرد هذا الإخبار الذي كان قد أوقع مضمونه : ﴿ فأرسل ﴾ أي يا فرعون ﴿ معي بني إسرائيل ﴾ أي فسبب إقامتي الدليل على صحة ما قلته أن أمُر بما جئت له – وهو إرسالهم معي – أمر من صار له سلطان بإقامة البينة لنذهب كلنا إلى بيت المقدس موطن آبائنا التي أقسم الله لهم أن يورثها أبناءهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 79 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ حَقِيقٌ عَلَىَّ أَنْ لآ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحق ﴾

المعنى أن الرسول لا يقول إلا الحق ، فصار نظم الكلام .

كأنه قال : أنا رسول الله ، ورسول الله لا يقول إلا الحق ، ينتج أني لا أقول إلا الحق ، ولما كانت المقدمة الأولى خفية ، وكانت المقدمة الثانية جلية ظاهرة ، ذكر ما يدل على صحة المقدمة الأولى ، وهو قوله : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وهي المعجزة الظاهرة القاهرة .

ولما قرر رسالة نفسه فرع عليه تبليغ الحكم ، وهو قوله : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ولما سمع فرعون هذا الكلام قال : ﴿ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ ﴾ واعلم أن دليل موسى عليه السلام كان مبنياً على مقدمات : إحداها : أن لهذا العالم إلهاً قادراً عالماً حكيماً .

والثانية : أنه أرسله إليهم بدليل أنه أظهر المعجز على وفق دعواه ، ومتى كان الأمر كذلك ، وجب أن يكون رسولاً حقاً .

والثالثة : أنه متى كان الأمر كذلك كان كل ما يبلغه من الله إليهم ، فهو حق وصدق .

ثم إن فرعون ما نازعه في شيء من هذه المقدمات إلا في طلب المعجزة ، وهذا يوهم أنه كان مساعداً على صحة سائر المقدمات ، وقد ذكرنا في سورة طه أن العلماء اختلفوا في أن فرعون هل كان عارفاً بربه أم لا ؟ ولمجيب أن يجيب ، فيقول : إن ظهور المعجزة يدل أولاً على وجود الإله القادر المختار ، وثانياً : على أن الإله جعله قائماً مقام تصديق ذلك الرسول ، فلعل فرعون كان جاهلاً بوجود الإله القادر المختار ، وطلب منه إظهار تلك البينة حتى أنه إن أظهرها وأتى بها كان ذلك دليلاً على وجود الإله أولاً ، وعلى صحة نبوته ثانياً ، وعلى هذا التقدير : لا يلزم من اقتصار فرعون على طلب البينة ، كونه مقراً بوجود الإله الفاعل المختار .

فائدة :

قرأ نافع ﴿ حقيق عَلَيَّ ﴾ مشدد الياء والباقون بسكون الياء والتخفيف .

أما قراءة نافع ﴿ فحقيق ﴾ يجوز أن يكون بمعنى فاعل .

قال الليث : حق الشيء معناه وجب ، ويحق عليك أن تفعل كذا ، وحقيق علي أن أفعله ، بمعنى فاعل .

والمعنى : واجب علي ترك القول على الله إلا بالحق ، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول ، وضع فعيل في موضع مفعول .

تقول العرب : حق علي أن أفعل كذا وإني لمحقوق على أن أفعل خيراً ، أي حق علي ذلك بمعنى استحق .

إذا عرفت هذا فنقول : حجة نافع في تشديد الياء أن حق يتعدى بعلي .

(36/281)

قال تعالى : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ [الصافات : 31] وقال : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا القول ﴾ [الإسراء : 16] فحقيق يجوز أن يكون موصولاً بحرف على من هذا الوجه ، وأيضاً فإن قوله : ﴿ حَقِيقٌ ﴾ بمعنى واجب ، فكما أن وجب يتعدى بعلي ، كذلك

حقيق إن أريد به وجب ، يتعدى بعلي .

وأما قراءة العامة ﴿ حَقِيقٌ عَلَىَّ ﴾ بسكون الياء .

ففيه وجوه : الأول : أن العرب تجعل الباء في موضع "علي" تقول : رميت على القوس وبالقوس ، وجئت على حال حسنة ، وبحال حسنة .

قال الأخفش : وهذا كما قال : ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف : 86] فكما وقعت الباء في قوله : ﴿ بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ موضع "علي" كذلك وقعت كلمة "علي" موقع الباء في قوله : ﴿ حَقِيقٌ عَلَىَّ أَنْ لَا أَقُولَ ﴾ يؤكد هذا الوجه قراءة عبد الله ﴿ حَقِيقٌ بِأَنَّ لَا أَقُولَ ﴾ وعلى هذه القراءة فالتقدير : أنا حقيق بأن لا أقول ، وعلى قراءة نافع يرتفع بالابتداء ، وخبره ﴿ أَن لَا أَقُولَ ﴾ الثاني : أن الحق هو الثابت الدائم ، والحقيق مبالغة فيه ، وكان المعنى : أنا ثابت مستمر على أن لا أقول إلا الحق .

الثالث : الحقيق ههنا بمعنى المحقوق ، وهو من قولك : حققت الرجل إذا ما تحققته وعرفته على يقين ، ولفظة ﴿ عَلَىَّ ﴾ ههنا هي التي تقرن بالأوصاف اللازمة الأصلية ، كقوله تعالى : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ [الروم : 30] وتقول : جاءت فلان على هيئته وعادته ، وعرفته وتحققته على كذا وكذا من الصفات ، فمعنى الآية : أني لم أعرف ولم أتحقق إلا على قول الحق .

والله أعلم .

أما قوله : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إسرائيل ﴾ أي أطلق عنهم وخلهم ، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقة ، مثل ضرب اللبن ونقل التراب ، فعند هذا الكلام قال فرعون : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 155.156 ﴾ . بتصرف يسير .

(37/281)

وقال السمرقندى :

قال موسى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَىَّ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحق ﴾ قرأ نافع حقيق علي بالتشديد .

وقرأ الباقون بتخفيف على .

فمن قرأ بالتخفيف فمعناه واجب علي أن لا أقول ، أي : واجب أن أترك القول على الله إلا الحق .

ومن قرأ بالتشديد معناه : واجب علي ترك القول على الله إلا الحق .

أي لا أقول على الله إلا الحق فلما كذبوه قال : إني لا أقول بغير حجة وبرهان ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني : قد جئتكم بعلامة لنبوتي ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إسراءيل ﴾ ولا

تستعبدهم ، لأن فرعون كان قد استعبد بني إسرائيل واتخذهم في الأعمال سخرة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ في ﴿ حَقِيقٌ ﴾ وجهان

:

أحدهما : حريص ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : واجب ، مأخوذ من وجوب الحق .

وفي قوله : ﴿ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ وجهان :

أحدهما : إلا الصدق .

والثاني : إلا ما فرضه الله عليّ من الرسالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2

صـ ﴾

(38/281)

وقال ابن عطية :

وقرأ نافع وحده ﴿ عليّ ﴾ بإضافة " على " إليه ، وقرأ الباقون " على " سكون الياء ،

قال الفارسي : معنى هذه القراءة أن " على " وضعت موضع الباء ، كأنه قال حقيق بأن لا أقول على الله الحق كما وضعت الباء موضع " على " في قوله ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ [الأعراف : 86] فيتوصل إلى المعنى بهذه ، وبهذه وكما تجيء " على " أيضاً بمعنى عن ، ومنه قول الشاعر في صفة قوسه :

أرمي عليها وهي فرع أجمع . . . وهي ثلاث أذرع وإصبع

قال القاضي أبو محمد : و ﴿ حقيق على ﴾ هذا معناه جدير وخليق ، وقال الطبري : قال قوم : ﴿ حقيق ﴾ معناه حريص فلذلك وصلت ب ﴿ على ﴾ ، وفي هذا القول بعد ، وقال قوم : ﴿ حقيق ﴾ صفة لرسول تم عندها الكلام ، وعلى خبر مقدم و ﴿ أن لا أقول ﴾ ابتداء تقدم خبره ، وإعراب ﴿ أن ﴾ على قراءة من سكن الياء خفض ، وعلى قراءة من فتحها مشددة رفع ، وقال الكسائي في قراءة عبد الله " حقيق بأن لا أقول " ، وقال أبو عمرو في قراءة عبد الله : " حقيق أن أقول " وبه قرأ الأعمش ، وهذه المخاطبة إذا تأملت غاية في التلطف ونهاية في القول اللين الذي أمر عليه السلام به .

وقوله ﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم ﴾ الآية ، البينة هنا إشارة إلى جميع آياته وهي على المعجزة هنا أدل ، وهذا من موسى عرض نبوته ومن فرعون استدعاء خرق العادة الدالة على الصدق .

وظاهر الآية وغيرها أن موسى عليه السلام لم تنبن شريعته إلا على بني إسرائيل فقط ، ولم يدع فرعون وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل ، وذكره لعله يخشى أو يزكى ويوحد كما يذكر كل كافر ، إذ كل نبي داع إلى التوحيد وإن لم يكن آخذاً به ومقاتلاً عليه ، وأما إن دعاه إلى أن يؤمن ويلتزم جميع الشرع فلم يرد هذا نصاً ، والأمر محتمل ، وبالجملة فيظهر فرق ما بين بني إسرائيل وبين فرعون والقبط ، ألا ترى أن بقية القبط وهم الأكثر لم يرجع إليهم موسى أبداً ولا عارضهم وكان القبط مثل عبدة البقر وغيرهم وإنما احتاج إلى محاورة فرعون لتملكه على بني إسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(40/281)

وقال أبو حيان :

ولما كان قوله ﴿ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ أردفها بما يدلّ على صحتها وهو قوله ﴿ قد جئتكم ﴾ ولما قرر رسالته فرع عليها تبليغ الحكم وهو قوله ﴿ فأرسل ﴾ ولم ينازعه فرعون في هذه السورة في شيء مما ذكره موسى إلا أنه طلب المعجزة ودلّ ذلك على موافقته لموسى وأنّ الرسالة ممكنة لإمكان المعجزة إذ لم يدفع إمكانها بل قال :

﴿ إن كنت جئت بآية ﴾ ويأتي الكلام على هذا الطلب من فرعون للمعجزة ، وقرأ نافع ﴿ عليّ أن لا أقول ﴾ بتشديد الياء جعل ﴿ علي ﴾ داخلة على ياء المتكلم ومعنى ﴿ حقيق ﴾ جدير وخليق وارتفاعه على أنه صفة لرسول أو خبر بعد خبر و ﴿ أن لا أقول ﴾ الأحسن فيه إن يكون فاعلاً بحقيق كأنه قيل يحقّ على كذا ويجب ويجوز أن يكون ﴿ أن لا أقول ﴾ مبتدأ و ﴿ حقيق ﴾ خبره ، وقال قوم : تمّ الكلام عند قوله ﴿ حقيق ﴾ و ﴿ على أن لا أقول ﴾ مبتدأ وخبره ، وقرأ باقي السبعة على بجرها ﴿ أن لا أقول ﴾ أي ﴿ حقيق ﴾ على قول الحق ، فقال قوم : ضمن ﴿ حقيق ﴾ معنى حريص ، وقال أبو الحسن والفرّاء والفارسي : على بمعنى الباء كما أنّ الباء بمعنى على في قوله ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ أي على كل صراط فكأنه قيل : ﴿ حقيق ﴾ بأن لا أقول كما تقول فلان حقيق بهذا الأمر وخليق به ويشهد لهذا التوجيه قراة أبيّ بأن لا أقول وضع مكان على الباء ، قال الأخفش : وليس ذلك بالمطرد لو قلت ذهبت على زيد تريد بزيد لم يجز ، وقال الزمخشري : وفي المشهورة إشكال ولا يخلو من وجوه ، أحدها : أن يكون مما يقلب من الكلام لا من الإلباس كقوله :

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر . . .

ومعناه وتشقى الضياطرة بالرماح انتهى ، هذا الوجه وأصحابنا يخصُّون القلب بالشعر ولا يجيزونه في فصيح الكلام فينبغي أن ينزه القراءة عنه ، وعلى هذا يصير معنى هذه القراءة معنى قراءة نافع ، قال الزمخشري : والثاني أن ما لزمك لزمته فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحقّ أي لازماً له ، قال الزمخشري : والثالث أن يضمن ﴿ حقيق ﴾ معنى حريص تضمين هيجني معنى ذكرني في بيت الكتاب انتهى يعني بالكتاب كتاب سيبويه والبيت :

إذا تغنى الحمام الورق هيجني . . .

ولو تسليت عنها أم عمار

قال الزمخشري : والرابع وهو الأوجه وإلا دخل في نكت القرآن أن يغرق موسى عليه السلام في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام لا سيما وقد روى أنّ عدوّ الله فرعون قال لما قال ﴿ إني رسول من رب العالمين ﴾ كذبت فيقول أنا حقيق على قول الحقّ أي واجب على قول الحق أنْ أكون أنا قائلة والقائم به ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به انتهى ولا يتّضح هذا الوجه إلا إن عنى أنه يكون ﴿ على أن لا أقول ﴾ صفة كما تقول أنا على قول الحقّ أي طريقي وعادتي قول الحق ، وقال ابن مقسم ﴿ حقيق ﴾ من نعت الرسول أي رسول حقيق من ربّ العالمين أرسلت على أن لا أقول على الله إلا الحق وهذا معنى صحيح واضح وقد

غفل أكثر المفسرين من أرباب اللغة عن تعليق ﴿ على ﴾ برسول ولم يخطر لهم تعليقه إلا بقوله ﴿ حقيق ﴾ انتهى .

(42/281)

وكلامه فيه تناقض في الظاهر لأنه قدّر أولاً العامل في ﴿ على ﴾ ﴿ أرسلت ﴾ ، وقال آخر : إنهم غفلوا عن تعليق ﴿ على ﴾ برسول فأما هذا الآخر فلا يجوز على مذهب البصريين لأنّ رسولاً قد وصف قبل أن يأخذ معموله وذلك لا يجوز وأما التقدير الأوّل وهو إضمار أرسلت ويفسره لفظ رسول فهو تقدير سائغ وتناول كلام ابن مقسم أخيراً في قوله عن تعليق على برسول أي بما دلّ عليه رسول ، وقرأ عبد الله والأعمش حقيق أن لا أقول بإسقاط على فاحتمل أن يكون على إضمار على كقراءة من قرأ بها واحتمل أن يكون على إضمار الباء كقراءة أبيّ وعلى الاحتمالين يكون التعلّق بحقيق .

ولما ذكر أنه رسول من عند الله وأنه لا يقول على الله إلا الحق أخذ يذكر المعجزة والخارق الذي يدلّ على صدق رسالته والخطاب في ﴿ جئتكم ﴾ لفرعون وملائه الحاضرين معه ومعنى ﴿ بينة ﴾ بآية بينة واضحة الدلالة على ما أذكره والبينة قيل : التسع الآيات المذكورة في قوله ﴿ في تسع آيات إلى فرعون وقومه ﴾ ، قال بعض العلماء وسياق الآية

يقتضي أن البينة هي العصا واليد البيضاء بدليل ما بعده من قوله ﴿ فألقى عصاه ﴾ الآية ، وقال ابن عباس والأكثرون هي العصا وفي قوله ﴿ من ربّكم ﴾ تعريض أن فرعون ليس ربّاً لهم بل ربهم هو الذي جاء موسى بالبينة من عنده ﴿ فأرسل ﴾ أي فخل والإرسال ضد الإمساك ﴿ معي بني إسرائيل ﴾ أي حتى يذهبوا إلى أوطانهم ومولد آبائهم الأرض المقدسة وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي وانقرض الأسباط غلب فرعون على نسلهم واستعبدهم في الأعمال الشاقة وكانوا يؤدّون إليه الجزاء فاستنقذهم الله بموسى عليه السلام وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر واليوم الذي دخل فيه موسى أربعمائة عام والظاهر أن موسى لم يطلب من فرعون في هذه الآية إلا إرسال بني إسرائيل معه وفي غير هذه الآية دعاؤه إياه إلى الإقرار بربوبية الله تعالى وتوحيده قال تعالى

(43/281)

﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ وكل نبي داع إلى توحيد الله تعالى ، وقال تعالى حكاية عن فرعون ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ فهذا ونظائره دليل على أنه طلب منه الإيمان خلافاً لمن قال إنّ موسى لم يدعه إلى الإيمان ولا إلى

التزام شرعه وليس بنو إسرائيل من قوم فرعون والقبط ألا ترى أن بقية القبط وهم الأكثر لم يرجع إليهم موسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(44/281)

وقال أبو السعود :

﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَن لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحق ﴾

جوابٌ عما ينساق إليه الذهنُ من حكاية ظلمِهم بالآيات من تكذيبه إياه عليه الصلاة والسلام في دعوى الرسالةِ وكان أصلُه حقيقٌ على أن لا أقول الخ ، كما هو قراءة نافع فقلب للأمن من الإلباس كما في قول من قال :

(45/281)

وتشقى الرماحُ بالضياطرة الحُمُر . . . أو لأن ما لزِمك فقد لزِمتَه ، أو للإغراق في الوصف بالصدق ، والمعنى واجبٌ عليّ القولُ الحقُّ أن أكون أنا قائلُه لا يَرضَى إلا بمثلي ناطقاً به ، أو ضُمّن حقيقٌ معنى حريص ، أو وُضِعَ على موضعَ الباءِ لإفادة التمكنِ كقولهم : رميتُ على

القوس وجئتُ على حال حسنةٍ ، ويؤيده قراءة أبي بالباء وقرىء حقيق أن لا أقول وقوله تعالى : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله من كونه رسولاً من رب العالمين وكونِه حقيقاً بقول الحقِّ ولم يكن هذا القول منه عليه الصلاة والسلام وما بعده من جواب فرعون إثرَ ما ذكر هاهنا بل بعد ما جرى بينهما من المحاورة المحكيةِ بقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ الآيات ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ الآيات ، وقد طُوي هاهنا ذكرُه للإيجاز ، ومِنْ متعلقة إما بجئتُكم على أنها لابتداء الغايةِ مجازاً وإما بمحذوف وقع صفةً لبينة مفيدةً لفخامتها الإضافية المؤكدةِ لفخامتها الذاتية المستفادةِ من التنوين التفخيمي ، وإضافةُ اسمِ الرب إلى المخاطبين بعد إضافتِه فيما قبله إلى العالمين لتأكيد وجوبِ الإيمان بها ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِى إسراءيل ﴾ أي فخلِّهم حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسةِ التي هي وطنُ آبائِهم وكان قد استعبدهم بعد انقراضِ الأسباطِ يستعملهم ويكلفهم الأفاعيلَ الشاقة فأنقذهم الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام وكان بين اليوم الذي دخل يوسفُ مصرَ واليومِ الذي دخله موسى عليهما السلام أربعُمائة عام ، والفاءُ لترتيب الإرسالِ أو الأمرِ به على ما قبله من رسالته عليه السلام ومجيئِه بالبينة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(46/281)

وقال الآلوسى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَن لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحق ﴾

جواب لتكذيبه عليه السلام المدلول عليه بقوله سبحانه : ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ [الأعراف : 103] ، وحقيق صفة ﴿ رسول ﴾ [الأعراف : 104] أو خبر بعد خبر .

وقيل : خبر مبتدأ محذوف أي أنا حقيق وهو بمعنى جدير و ﴿ على ﴾ بمعنى الباء كما قال الفراء أو بمعنى حريص و ﴿ على ﴾ على ظاهرها ، قال أبو عبيدة : أو بمعنى واجب ، واستشكل بأن قول الحق هو الواجب على موسى عليه السلام لا العكس والكلام ظاهر فيه ، وأجيب بأن أصله حقيق على بتشديد الياء كما في قراءة نافع .

ومجاهد ﴿ أَن لا أَقُولَ ﴾ الخ فقلب لأمن الالتباس كما في قول خراش بن زهير :

كذبتم وبيت الله حتى تعالجوا . . .

قوادم حرب لا تلين ولا تمرى

وتلحق خيل لا هوادة بينها . . .

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

وضعف بأن القلب سواء كان قلب الألفاظ بالتقديم والتأخير كخرق الثوب المسمار أم قلب المعنى فقط كما هنا إنما يفصح إذا تضمن نكتة كما في البيت ، وهي في الإشارة إلى

كثرة الطعن حتى شقيت الرماح بهم لتكسرها بسبب ذلك ، وقد أفصح عن هذا المتنبي بقوله :

والسيف يشقى كما تشقى الضلوع به . . .

وللسيوف كما للناس آجال

وبأن بين الواجب ومن يجب عليه ملازمة فعبر عن لزومه للواجب بوجوبه على الواجب كم استفاض العكس ، وليس هو من الكناية الإيمائية كقول البحتري :

أو ما رأيت الجود ألقى رحله . . .

في أل طلحة ثم لم يتحول

وقول ابن هانىء :

فما جازه جود ولا حل دونه . . .

ولكن يسير الجود حيث يسير

(47/281)

بل هو تجوز فيه مبالغة حسنة ، وبأن ذلك من الإغراق في الوصف بالصدق بأن يكون قد جعل قول الحق بمنزلة رجل يجب عليه شيء ثم جعل نفسه أي قابليته لقول الحق وقيامه به

بمنزلة الواجب على قول الحق فيكون استعارة مكنية وتخييلية ، والمعنى أنا واجب على الحق أن يسعى في أن أكون قائله والناطق به فكيف يتصور مني الكذب ، واعترضه القطب الرازي وغيره بأنه إنما يتم لو كان هو حقيقاً على قول الحق وليس كذلك بل على قوله الحق ، وجعل قوله الحق بحيث يجب عليه أن يسعى في أن يكون قائله لا معنى له .

وأجيب بأن مبني ذلك على أن المصدر المؤول لا بد من إضافته إلى ما كان مرفوعاً به وليس بمسلم فإنه قد يقطع النظر عن ذلك .

وقد صرح بعض النحاة بأن قد يكون نكرة نحو ﴿ وَمَا كَانَ هذا القرءان أَن يَفْتَرِى ﴾ [يونس : 37] أي افتراء ، وههنا قد قطع النظر فيه عن الفاعل إذ المعنى حقيق على قول الحق وهو محصل مجموع الكلام فلا إشكال ، وذكر ابن مقسم في توجيه الآية على قراءة الجمهور وادعى أنه الأولى أن ﴿ عَلَى أَن لا أَقُولَ ﴾ متعلق برسول إن قلنا بجواز إعمال الصفة إذا وصفت وإن لم نقل به وهو المشهور فهو متعلق بفعل يدل عليه أي أرسلت على أن لا أقول الخ ، والأولى عندي كون علي بمعنى الباء ، ويؤيده قراءة أبي بأن لا أقول .

(48/281)

وقرأ عبد الله ﴿ أَن لا أَقُولَ ﴾ بتقدير الجار وهو على أو الباء ، وقد تقدم يقدر على بياء مشددة ، وقوله سبحانه : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ استئناف مقرر لما قبله ، ولم يكن هذا وما بعده من جواب فرعون إثر ما ذكر ههنا بل بعد ما جرى بينهما من المحاورات التي قصها الله تعالى في غير ما موضع ، وقد طوى ذكرها هنا للإيجاز و ﴿ مِنْ ﴾ متعلقة إما بجئتكم على أنها لابتداء الغاية مجازاً وإما بمحذوف وقع صفة لبينة مفيدة لفخامتها الإضافية مؤكدة لخامتها الذاتية المستفادة من التنوين التفخيمي كما مر غير مرة ، وإضافة اسم الرب إلى ضمير المخاطبين بعد إضافته فيما قبل إلى العالمين لتأكيد وجوب الايمان بها ، وذكر الاسم الجليل الجامع في بيان كونه جديراً بقول الحق عليه سبحانه تهويلاً لأمر الافتراء عليه تعالى شأنه مع الإشارة إلى التعليل بما ليس وراءه غاية ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِى إسرائيل ﴾ أي خلهم حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم ، وكان عدو الله تعالى والقبط قد استبعدوهم بعد إنقراض الأسباط يستعملونهم ويكلفونهم الأفاعيل الشاقة كالبناء وحمل الماء فانقذهم الله تعالى بموسى عليه السلام ، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف عليه السلام مصر واليوم الذي دخل فيه موسى عليه السلام على ما روى عن وهب أربعمائة سنة ، واستعمال الإرسال بما أشير إليه على ما يظهر من كلام الراغب حقيقة ، وقيل : إنه استعارة من إرسال الطير من القفص تمثيلية أو تبعية ، ولا يخفى أنه

ساقط عن وكر القبول ، والفاء لترتيب الإرسال أو الأمر به على ما قبله من رسالته عليه السلام ومجيئه بالبينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 9 صـ ﴾

(49/281)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ حقيق عَليّ ﴾ قرأه نافع بالياء في آخر (علي) فهي ياء المتكلم دخل عليها حرف (على) وتعدية حقيق بحرف (على) معروفة .

قال تعالى : ﴿ فحق علينا قول ربنا ﴾ [الصافات : 31] ، ولأن حقيق بمعنى واجب فتعديته بحرف على واضحة ، و ﴿ حقيقٌ ﴾ خبر ثان عن ﴿ إني ﴾ ، فليس في ضمير المتكلم من قوله : (علي) على قراءة نافع التفات ، بخلاف ما لو جعل قوله : ﴿ حقيق ﴾ صفة ل ﴿ رسول ﴾ فحينئذٍ يكون مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الغائب ، فيقول : حقيق عليه ، فيكون العدول إلى التكلم التفاتاً ، وفاعل ﴿ حقيق ﴾ هو المصدر المأخوذ من قوله : ﴿ أنْ لا أقولَ ﴾ أي : حقيق علي عدم قولي على الله غيرَ الحق .

وحقيق فعيل بمعنى فاعل ، وهو مشتق من (حَق) بمعنى وجب وثبت أي : متعين وواجب علي قول الحق على الله ، و (على) الأولى للاستعلاء المجازي و (على) الثانية

بمعنى عن ، وقرأ الجمهور (علىَ) بألف بعد اللام ، وهي (على) الجارة .

ففي تعلق (على) ومجرورها الظاهر بـ ﴿ حقيق ﴾ تأويلٌ بوجوه أحسنها قول الفراء ، وأبي علي الفارسي : أن (على) هنا بمعنى الباء وأن ﴿ حقيق ﴾ فعيل بمعنى مفعول : أي محقوق بأن لا أقول على الله إلاّ الحق ، أي : مجعول قولُ الحق حقّاً علي ، كقَول الأعشى :

"

لَمَحْقُوقَةٌ أَنْ تَسْتَجيبِي لقَوْلِهِ "

أي محقوقة بأن تستجيبي ، وقول سعيد بن زيد "ولوْ أنّ أُحُداً انْقضّ لما صنعتم بعُثْمانَ لكان محقوقاً بأن ينقضّ" .

ومنها ما قال صاحب "الكشاف" "والأوْجهُ الأدْخلُ في نُكت القرآن أن يُغْرِقَ موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام فيقول : أنا حقيق على قولِ الحق ، أي : أنا واجب على قول الحق أن أكون أنا قائله والقائمَ به" .

قال شارحوه : فالمعنى لو كان قول الحق شخصاً عاقلاً لكنتُ أنا واجباً عليه .

(50/281)

أن لا يصْدُرَ إلاّ عنّي وأن أكون قائله ، وهو على هذا استعارة بالكناية : شُبه قول الحق بالعقلاء الذين يختارون مواردهم ومصادرهم .

ورُمز إلى المشبه به بما هو من رَوادفه ، وهو كون ما يناسبه متعيناً عليه .

ومنها ما قيل : ضمن ﴿ حقيق ﴾ معنى حريص فعُدّي بعلى إشارة إلى ذلك التضمين وأحسن من هذا أن يضمن ﴿ حقيق ﴾ معنى مكين وتكون (على) استعارة للاستعلاء المجازي .

وجملة ﴿ قد جئتمكم ببينة ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأن مقام الإنكار مما يثير سؤال سائل أن يقول هذه دعوى غريبة تحتاج إلى بينة .

والبينة : الحجة .

وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ قل إني على بينة من ربي ﴾ في سورة [الأنعام : 57] .

والحجة هنا يجوز أن يكون المراد بها البراهين العقلية على صدق ما جاء به موسى من التوحيد والهُدى ، ويجوز أن تكون المعجزة الدالةَ على صدق الرسول .

فعلى الوجه الأول تكون الباء في قوله : ﴿ ببينة ﴾ لتعدية فعل المجيء ، وعلى الوجه الثاني تكون الباء للملابسة ، والمراد بالملابسة ملابسة التمكن من إظهار المعجزة التي أظهرها الله له كما في سورة [طه : 17] ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ ويحتمل المعنى

الأعم الشامل للنوعين على ما يحتمله كلام موسى المترجم عنه هنا .

والفاء في قوله فأرْسلْ ﴾ لتفريع طلب تسريح بني إسرائيل على تحقق الرسالة عن رب العالمين ، والاستعداد لإظهار البينة على ذلك ، وقد بنى موسى كلامه على ما يثق به من صدق دعوته مع الاستعداد للتبيين على ذلك الصدق بالبراهين أو المعجزة إن طلبها فرعون لأن شأن الرسل أن لا يبتدئوا بإظهار المعجزات صوناً لمقام الرسالة عن تعريضه للتكذيب ، كما بيناه عند قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليُؤمنن بها ﴾ الآيات في سورة [الأنعام : 109] .

(51/281)

والإرسال : الإطلاق والتخلية ، كقولهم : أرسلها العراك ، وهو هنا مجاز لغوي في الإذن لبني إسرائيل بالخروج ، المطلوب من فرعون .

وتقييده بـ ﴿ معي ﴾ لأن المقصود من إخراجهم من مصر أن يكونوا مع الرسول ليرشدهم ويدبر شؤونهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(52/281)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) ﴾

فأي هذه الأمور هو الذي يحتاج إلى بينة ، هل البلاغ بأنه رسول من رب العالمين ؟ إن هذا القول يدلنا على أن موسى اختلف مع فرعون أولاً في أن موسى رسول ، وأن للعالمين رباً واحداً ، وأنه لا يبلغ إلا بالحق ، هذه – إذن – ثلاث قضايا خلافية بين موسى وفرعون ، ولكن فرعون لم يختلف مع موسى إلا في قضية واحدة هي : هل هو رسول بلغ عن الله بالقول الحق ؟ فماذا طلب منه ؟ طلب الدليل على أنه رسول من رب العالمين . وهذا يوضح أن فرعون يعلم أن العالم له رب أعلى .

كذلك فإن فرعون لم يقف مع موسى في مسألة أن للعالمين ربًّا ، وأن هذا الرب لا يستطيع كل إنسان أن يفهم مراده منه فلابد أن يرسل رسولاً ، بل وقف فرعون في مسألة : هل موسى رسول مبلغ عن الله أولا ؟

ولذلك يقول موسى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الحق قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف : 105]

كأن مهمة موسى عند فرعون أن يخلص بني إسرائيل . ونعرف أن قصة بني إسرائيل ناشئة من أيام نبي الله يعقوب وابنه يوسف حين كاد الإخوة لأخيهم يوسف ، وتشاوروا في أمر قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في غيابة الجب ، لقد جاء الحق بقصة بني إسرائيل على مراحل لنتدرج بالانفعال معها . فمراحل الانفعال النفسي أمام من تكره تأخذ صورتين اثنتين : صورة تدل على تصعيد الرحمة في قلبك ، وصورة تدل على تصعيد الشر في قلبك ، مثال ذلك : لنفترض أن لك خصماً وصنع فيك مكيدة ، وتحكي أنت لإخوانك ما فعله هذا الخصم ، وكيف أنك تريد الانتقام منه فتقول : أريد أن انتقم منه بضربه صفعتين ، ثم تصعد الشر فتقول : أنا أريد أن أقتله بالرصاص ، هذا شأن الشرير ، أما الخيّر فيقول : أنا لا أريد أن أقتله أو أصفعه أو أشتمه وأسبّه فهذا تصعيد في الخير . إذن . يختلف تصعيد الانتقام أو السماح حسب طاقة الخير أو الشر التي في النفس . وهكذا نجد إخوة يوسف وهو يكيدون له ، فقالوا : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ . . . ﴾ [يوسف : 8]

هم يعترفون أنهم قوة وعصبة ، ويحسدون يوسف وأخاه على محبة الأب لهما ، ويعترضون

على ذلك ، ويظهرون البينة على أن يوسف وأخاه أحب إلى الأب منهم ، وذكر القرآن هذه البينة لنعرف أهميتها ، حتى لا يغفل أحد عنها . لقد كان قلب نبي الله يعقوب مع يوسف وأخيه لصغرهما وضعفهما ، بينما بقية أبنائه كبار أقوياء أشداء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى وضع في قلب الأبوة والأمومة من الرحمة على قدر ضعف الوليد الصغير . فالصغير هو من يحتاج إلى رعاية وعناية ، ويكون قلب الأم والأب مع الابن المريض أو الغائب .

ولذلك حينما سئلت امرأة حكيمة : من أحب بنيك إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

(54/281)

إذن فقول إخوة يوسف : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ . هو بينة ضدهم . وكان المنطق يقتضى أن يعرفوا أنهم ما داموا عصبة فلا بد أن يكون قلب أبيهم مع يوسف وأخيه فكلاهما كان صغيراً ويحتاج إلى رعاية ، وبطبيعة تكوين أبناء يعقوب كأسباط وذرّية أنبياء ، نجدهم يصعدون الخير لا الشر ، فقد بدأوا بإعلان رغبة القتل ، ثم استبدلوا بها الطرح أرضاً بأن يلقوه في أرض بعيدة نائية ليستريحوا منه ويخلو لهم وجه أبيهم ، ثم استبدلوا بها إلقاءه في غياهب الجب ؛ بدأوا بالقتل في لحظة عنفوان الغضب ثم تنازلوا عن القتل بالطرح أرضاً ،

أي أن يتركوه في مكان يكون فيه عرضة لأن يضل ، ثم تنازلوا عن ذلك واكتفوا بإلقائه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ، فهل كانوا يريدون أن يضروه ، أو كانوا يفكرون في نجاته ؟ . إذن فهذا تصعيد للخير .

وتوالت الأحداث مع سيدنا يوسف واستقر معه بنو إسرائيل في مصر وكثرت أعدادهم . وعندما نستقرئ التاريخ ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ملوك مصر ، خص بعضهم باسم فرعون ، وخص بعضهم باسم ملك ، فهناك فرعون وهناك ملك . فإذا ما نظرت إلى القديم نجد أن الحق يقول : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ [الفجر : 10] هكذا نجد الحق يسمى حاكم مصر " فرعون " وفي أيام سيدنا موسى أيضاً يسميه الحق فرعون . لكن في أيام يوسف عليه السلام لم يسمه فرعون ، بل سمَّاه ملكاً : ﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ . . . ﴾ [يوسف : 50]

(55/281)

وبعد أن اكتشف العالم الفرنسي شامبليون – حجر رشيد – عرفنا أن الفترة التي دخل فيها سيدنا يوسف مصر ، لم يكن الفراعنة هم الذين يحكمون مصر ، بل كان الحكام هم ملوك الهكسوس الرعاة ، وطمر القرآن هذه الحقيقة التاريخية حين سمى حكام مصر قبل

يوسف فراعين ، وفي الفترة التي جاء فيها سيدنا يوسف سماهم " الملوك " ، وهؤلاء هم من أغاروا على مصر وحكموها وساعدهم بنو إسرائيل وخدموهم ، وقاموا على مصالحهم ، وبعد أن طرد المصريون الهكسوس التفت الفراعنة بالشّر إلى من أعان الهكسوس ؛ فبدأوا في استذلال بني إسرائيل لمساعدتهم الهكسوس إبّان حكمهم مصر . وأراد الله أن يخلصهم بواسطة موسى عليه السلام ، ولذلك يقول الحق على لسان موسى : ﴿ وَقَالَ موسى يا فرعون إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى الله إِلاَّ الحق قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف : 104-105] وكأن موسى يريد أن يخلص بني إسرائيل ، أما مسألة الألوهية وربوبية فرعون فقد جاءت عرضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(56/281)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " حَقِيقٌ " أي واجب " عَلَى أَنْ لا أَقُولُ " .

قرأ العامة " على أَنْ " بـ " عَلَى " التي هي حرف جر داخلة على أن وما في حيّزها .

ونافع قرأ " عليّ " بـ " عَلَى " التي هي حرف جرّ داخلة على ياء المتكلّم .

فأما قراءة العامة ففيها سِتَّةُ أَوْجُهٍ ، ذكر الزَّمخشريُّ منها أربعة أوجه :

قال رحمه الله : " وفي المشهورةِ [إشكال] ، ولا يخلو من وجوده :

أحدها : أن تكون مما قلب من الكلامِ كقوله : [الطويل]

2535 - . . . . . .

وتَشْقَى الرِّمَاحُ بالضَّيَاطِرَةِ الحُمْرِ

معناه : وتشقى الضياطرة بالرِّمَاحِ .

قال أبو حيَّان : " وأصحابنا يخصُّون القلب بالضَّرُورةِ ، فينبغي أن يُنزَّه القرآن عنه " .

وللنَّاس فيه ثلاثةُ مذاهب : الجواز مطلقاً ، [المنع مطلقاً] ، التَّفصيل : بين أن يفيد معنىً بديعاً فيجوزُ ، أو لا فيمتنع ، وقد تقدَّم إيضاحه ، وسيأتي منه أمثلة أخر في القرآن العظيم .

وعلى هذا الوجه تصيرُ هذه القراءة كَقِرَاءةِ نافع في المعنى ، إذ الأصلُ : قول الحق حقيق عليَّ ، فقلب اللفظ فصار : " أنَّ حقيق على قول الحقِّ " .

قال : " والثاني : أن ما لزمك فقد لزمته ، فلمَّا كان قول الحقِّ حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحقِّ أي لازماً له " .

والثالث : أن يضمَّنَ حقيق معنى حريص كما ضمت " هيجّني " معنى ذكْرني في البيتِ

المذكور في كتاب سيبويه وهو قوله : [البسيط]

2536 - إذَا تَغَنَّى الحَمَامُ الوُرْقُ هَيَّجَنِي . . .

وَلَوْ تَسَلَّيْتُ عَنْهَا أُمَّ عَمَّارِ

الرابع : أن تكون " عَلَى " بمعنى " الباء " ، وبهذا الوجه قال أبو الحسن والفراء والفارسيُّ ، قالوا : إنَّ " على " بمعنى الباء كما أن الباء بمعنى " على " في قوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ [الأعراف : 86] أي : على كلٍّ .

(57/281)

وقال الفرَّاءُ : العرب تقول : رَمَيْتُ على القوس وبالقوس وجئتُ على حالٍ حسنة وبحال حسنة ، وتؤيده قراءة أبيّ والأعمش " حقيق بأن لا أقول " إلاَّ أنَّ الأخفش قال : " وليس ذلك بالمطَّرد لو قلت : " ذهبتُ على زيْدٍ " تريد : " بزيدٍ " لم يجز " ، وأيضاً فلأن مذهب البصريِّين عدم التجوُّزِ في الحُرُوفِ .

الخامس : - وهو الأوجه والأدخل في نكت القرآن - أن يغرق موسى - عليه الصلاة والسلام - [في وصف نفسه] بالصِّدْق في ذلك المقام لا سيما وقد رُوِيَ أنَّ فرعون - لعنه الله - لَمَّا قال موسى : إنِّي رسول من رب العالمين قال له : كذبت فيقول : أنا حقيقٌ على قول

الحقِّ أي : واجب عليَّ قول الحقِّ أن أكون أنا قائله والقائم به ، ولا يَرْضى إلاَّ بمثلي ناطقاً به .

قال أبو حيَّان : ولا يصحُّ هذا الوجه إلاَّ إن عنى أنه يكون " أن لا أقُول " صفة له كما تقول : أنَا على قول الحقِّ أي : طريقتي وعادتي قول الحقّ .

السادس : أن تكون " على " متعلقة بـ " رَسُول " .

قال ابن مقسم : حقيقٌ من نعت " رَسُول " أي رسول حقيق من ربِّ العالمين أرْسِلْتُ على ألاَّ أقولَ على الله إلا الحقَّ ، وهذا معنى صحيح واضحٌ ، وقد غفل أكثرُ المفسرين من أرباب اللُّغَة عن تعليق " على " بـ " رسول " ، ولم يخطر لهم تعليقه إلاَّ بـ " حقيق " .

قال أبو حيَّان : وكلامه فيه تَنَاقضٌ في الظَّاهِرِ ؛ لأنَّهُ قدَّر أولاً العامل في " عَلَى " " أرسلت " وقال أخيراً : " لأنهم غفلوا عن تَعْليق " على " بـ " رسول " ، فأمَّا هذا الأخير فلا يجوزُ عند البصريين ؛ لأنَّ رسولاً قد وُصِف قبل أن يأخذ معموله ، وذلك لا يَجُوزُ ، وأمَّا تعليقه بـ " أرسلت " مقدَّراً لدلالةِ لفظ " رَسُوله " عليه فهو تقديرٌ سائغ .

ويتأوَّل كلامه أنَّه أراد بقوله تُعَلَّقُ " على " بـ " رسول " أنه لمَّا كان دالاًّ عليه صحَّ نسبة التَّعلق له .

(58/281)

قال شهابُ الدّين : " وقال أبو شامَةَ بعد ما ذكر هذا الوجه عن ابن مقسم : والأوْجهُ الأربعةُ التي للزمخشريّ ولكن هذه وجوهٌ متعسّفةٌ ، وليس المعنى إلاَّ على ما ذكرته أوّلاً ، يعني وجه ابن مقسم ، وهذا فيه الإشكال الذي ذكره الشيخ يعني أبا حيَّان يعني من إعمال اسم الفاعل أو الجاري مجراه وهو موصوفٌ " .

وأمَّا قراءة نافع فواضحةٌ وفيها ثلاثةُ أوجُهٍ :

أحدها : أن يكون الكلامُ قد تم عند قوله : " حقيق " ، و" عليَّ " خبر مقدَّمٌ ، " ألاَّ أقُولَ " مبتدأ مؤخر ، كأنَّهُ قيل : عليَّ عدم قول غير الحقّ أي : فلا أقُولُ إلا الحقَّ .

الثاني : أن يكون " حَقِيقٌ " خبراً مقدماً ، و" ألاَّ أقولَ " مبتدأ على ما تقدَّم بيانه .

الثالث : " أن لا أقول " فاعلٌ بـ " حقيقٌ " كأنَّهُ قيل : يحقُّ ويجبُ أن لا أقول ، وهذا أغربُ الوُجُوهِ لوضُوحِهِ لفظاً ومعنى ، وعلى الوجهين الأخيرين تتعلَّق " عليَّ " بـ " حقيقٌ " لأنَّك تقول : " حقَّ عليهِ كذا " قال تعالى : ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ [الأحقاف : 18] .

وعلى الوجْهِ الأوَّلِ يتعلَّق بمحذوف على ما تقرر .

وأمّا رفع " حقيقٌ " فقد تقدَّم أنَّهُ يجوز أن يكون خَبَراً مقدَّماً ، ويجوز أن يكون صفةً لـ " رَسُول " ، وعلى هذا فيضعف أن يكون " مِنْ رب " صفةً لئلا يلزم تقديم الصفة غير الصّريحَة [على الصَّريحة] ، فينبغي أن يكون متعلّقاً بنفس " رَسُول " ، وتكون " مِنْ "

لابتداء الغاية مجازاً .

ويجوز أن يكون خبراً ثانياً .

ويجوز أن يكون مبتدأ وما بعده الخبر على قراءة من شددَّ الياء ، وسوَّغَ الابتداء بالنكِرَة حينئذٍ تعلُّق الجارِّ بها .

فقد تحصَّل في رفعه أربعة أوجُهٍ ، وهل هو بمعنى فاعل ، أو بمعنى مفعول ؟ الظَّاهِرُ أَنَّهُ يحتمل الأمرين مُطْلَقاً ، أعني على قراءة نَافِعٍ وقراءة غيره .

(59/281)

وقال الوَاحِدِيُّ نَاقِلاً عن غيره : " إنَّهُ مع قراءةِ نافع محتمل للأمرين ، ومع قراءة العامَّةِ بمعنى مفعول فإنَّهُ قال : " وحقيقق على هذا القراءةِ – يعني قراءة نَافِعٍ – يجوز أن يكون بمعنى فاعل " .

قال شمرٌ : " تقولُ العربُ : حقَّ عليَّ أن أفعل كذا " .

وقال الليثُ : " حقَّ الشَّيء معناه وجب ، ويحقُّ عليك أن تفعله ، وحقيق عليَّ أنْ أفعله ، فهذا بمعنى فاعلٍ " ثم قال : وقال اللَّيْثُ : وحقيقٌ بمعنى مفعول ، وعلى هذا تَقُولُ : فلان محقوقٌ عليه أن يفعل .

قال العشى : [الطويل]

2537 - لَمَحْقُوقَةٌ أَنْ تَسْتَجِيبِي لِصَوْتِهِ . . .

وَأَنْ تَعْلَمِي أَنَّ المُعَانَ مُوَفَّقُ

وقال جريرٌ : [البسيط]

2538 - . . . . . .

قَصِّرْ فَإِنَّكَ بالتَّقْصِيرِ مَحْقُوقُ

ثم قال : " وحقيقٌ على هذه القراءة - يعني قراءة العامَّة - بمعنى محقوق " انتهى .

[وقرأ أُبَيٌّ " بأن لا أقُولَ " وهذه تقوي أنَّ " على " بمعنى الباء] .

وقرأ عبدُ الله والأعمشُ " لاّ أقُولَ " دون حرف جرّ ، فاحتمل أن يكون ذلك الجارّ " على " كما هو قراءة العامَّةِ ، وأن يكون الجارُّ الباء كقراءة أبيّ المتقدمة .

والحقُّ هو الثابت الدَّائِمُ ، والحقيق مبالغة فيه .

قوله : " إلاَّ الحَقَّ " هذا استثناء مفرَّغٌ ، و " الحقُّ " يجوزُ أن يكون مفعولاً به ، لأَنَّهُ يتضمن معنى جملة ، وأن يكون منصوباً على المصدر أي : القول الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 246 . 249 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) ﴾

الرجوعُ إلى دعاء فرعون إلى الله بعد سماع كلام الله بلا واسطة صعبٌ شديد ، ولكنه لمَّا وَرَدَ الأمرُ قابله بحسن القبول ، فلما ترك اختيار نفسه أيده الحق – سبحانه – بنور التأييد حتى شَاهَدَ فرعونَ محواً في التقدير فقال : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ ﴾ فإذا لم يصح له أن يقول على الخلق ؛ فالخلق محوٌ فيما هو الوجود الأزلي فأيُّ سلطانٍ لآثار التفرقة في حقائق الجمع ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 555 ﴾

(60/281)

قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

وفي جعل ذلك نتيجة الإرسال إليه تنبيه على أن رسالته مقصورة على قومه ، فكأنه قيل : فماذا قال فرعون في جواب هذا الأمر الواضح ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ معرضاً عنه معمياً له خوفاً من غائلته عند من يعرف موسى عليه السلام حق المعرفة معبراً بأداة الشك إيقافاً لهم

: ﴿ إن كنت جئت بآية ﴾ أي علامة على صحة رسالتك ﴿ فأت بها ﴾ فأوهم أنه لم يفهم إلا أن المراد أنه سيقيمها من غير أن يكون في كلامه السابق دلالة على صدقه ، وأكد الإبهام والشك بقوله : ﴿ إن كنت ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ من الصادقين ﴾ أي في عداد أهل الصدق العريقين فيه لتصح دعواك عندي وتثبت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 79 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : أن لقائل أن يقول : كيف قال له ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾ بعد قوله : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ ﴾ .

وجوابه : إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فاتني بها وأحضرها عندي ، ليصح دعواك ويثبت صدقك .

والبحث الثاني : أن قوله : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ ﴾ جزاء وقع بين شرطين ، فكيف حكمه ؟ وجوابه أن نظيره قوله : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيداً .

وههنا المؤخر في اللفظ يكون متقدماً في المعنى ، وقد سبق تقرير هذا المعنى فيما تقدم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 156 . 157 ﴾

(61/281)

وقال أبو حيان :

﴿ قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾

لما عرض موسى عليه السلام رسالته على فرعون وذكر الدليل على صدقه وهو مجيئه بالبينة والخارق المعجز استدعى فرعون منه خرق العادة الدالّ على الصدق وهذا الاستدعاء يحتمل أن يكون على سبيل الاختبار وتحويزه ذلك ويحتمل أن يكون على سبيل التعجيز لما تقرّر في ذهن فرعون أن موسى لا يقدر على الإتيان ببينة والمعنى إن كنت جئت بآية من ربك فاحضرها عندي لتصحّ دعواك ويثبت صدقك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الكلامُ كأنه قيل : فماذا قال فرعونُ له عليه السلام حين قال له ما قال ؟ فقيل : قال : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ﴾ أي من

عند مَنْ أرسلك كما تدعيه ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾ أي فأحضِرْها حتى تُثبت بها رسالتَك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعواك ، فإن كونَك من جملة المعروفين بالصدق يقتضي إظهارَ الآيةِ لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(62/281)

وقال أبو السعود :

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فما قال فرعون ؟ فقيل : قال :

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ ﴾ من عند من أرسلك كما تدعيه ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾ أي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك ، فالمغايرة بين الشرط والجزاء مما لا غبار عليه ، ولعل الأمر غني عن التزام ذلك لحصوله بما لا أظنه يخفي عليك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعواك فإن كونك من جملة لمعروفين بالصدق يقتضي إظهار الآية لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(63/281)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) ﴾

وقول فرعون : ﴿ إن كنت جئت برية فأت بها ﴾ مُتعين لأن يكون معناه : إن كنت جئت بمعجزة ، فإن أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجزة ، وأكثر موارد البينة مراد فيه الحجة ، فالمراد بالبينة في قول موسى ﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم ﴾ الحجة على إثبات الإلهية وعلى حقية ما جاء به من إرشاد لقومه ، فكان فرعون غير مقتنع ببرهان العقل أو قاصراً عن النظر فيه فانتقل إلى طلب خارق العادة ، فالمعنى : إن كنت جئتنا متمكناً من إظهار المعجزات ، لأن فرعون قال ذلك قبل أن يظهر موسى عليه السلام معجزته ، فالباء في قوله : ﴿ بآية ﴾ للمعية التقديرية ، أي : متمكناً من آية ، أو الباء للملابسة ، والملابسة معناها واسع ، أي : لك تمكين من إظهار آية .

وقوله : ﴿ فأت بها ﴾ استعمل الإتيان في الإظهار مجازاً مرسلاً ، فالباء في قوله : ﴿ بها ﴾ لتعدية فعل الإتيان ، وبذلك يتضح ارتباط الجزاء بالشرط ، لأن الإتيان بالآية المذكورة في الجزاء هو غير المجيء بالآية المذكورة في الشرط ، أي : إن كنت جئت متمكناً من إظهار الآية فأظهر هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(64/281)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) ﴾

وهكذا يواجه فرعون موسى سائلاً إياه أن يُظهر الآية إن كان من الصادقين ، إذن ففرعون يعتقد أن لله آيات تثبت صدق الرسول بدليل أنه قال له : هاتها إن كنت من الصادقين .

ويكشف موسى عليه السلام الآية : ﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(65/281)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

من المعلوم أن مجرَّد الدعوى لا حجة فيه ، ولكن إذا ظهر برهانٌ لم يبق غيرُ الانقياد لِمَا هو

الحق ، فَمَنْ استسلم (. . . .) ، ومَنْ جَحَدَ الحقائق بعد لوح البيان سقط سقوطاً لا ينتعش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 555 ﴾

(66/281)

قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعي :

ولما ساق هذا الطلب مساقاً دالاً على أنه شاك في أمره ، أخبر تعالى أنه فاجأه بإظهار الآية دالاًّ على ذلك بالفاء المسببة المعقبة من غير مهلة فقال عن فعل موسى عليه السلام :

﴿ فألقى عصاه ﴾ وعن فعله هو سبحانه ﴿ فإذا هي ﴾ أي العصا ﴿ ثعبان مبين ﴾ أي ظاهر في كبره وسرعة حركته بحيث إنه لشدة ظهوره كأنه ينادي الناس فيظهر لهم أمره ، وهو موضح لصدق من تسبب عن فعله في جميع مقالته ؛ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان ثعباناً أشعر فاغراً فاه ، بين لحييه ثمانون ذراعاً ، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فوثب من سريره هارباً وأحدث ،

وحمل على الناس فانهزموا وصاحوا فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً ، قتل بعضهم بعضاً ، وصاح فرعون : يا موسى خذه وأنا أومن بك فأخذه فعاد عصاً .

ثم قال : هل معك آية أخرى ؟ قال : نعم ﴿ ونزع يده ﴾ أي أخرجها من جيبه بعد أن أراه إياها محترقة أدماً كما كانت وهو عنده ﴿ فإذا هي بيضاء ﴾ ونبه على ثبات بياضها وزيادة إعجابه بقوله : ﴿ للناظرين ﴾ قال أبو حيان : أي للنظارة ، وفي ذكر ذلك تنبيه على عظم بياضها لأنه لا يعرض العجب لهم إلا إذا كان بياضها خارجاً عن العادة ، وقال ابن عباس : صارت نوراً ساطعاً يضيء ما بين السماء والأرض ، له لمعان مثل لمعان البرق فخروا على وجوههم ، وما أعجب أمر هذين الخارقين العظيمين : أحدهما في نفسه وذلك اليد البيضاء ، والآخر في غير نفسه وهى العصا التي يمسكها بيده ، وجمع بذينك تبديل الذوات من الخشبية إلى الحيوانية ، وتبديل الأعراض من السمرة إلى البياض الساطع ، فكانا دالين على جواز الأمرين – انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 80 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) ﴾

اعلم أن فرعون لما طالب موسى عليه السلام بإقامة البينة على صحة نبوته بين الله تعالى أن

معجزته كانت قلب العصا ثعباناً ، وإظهار اليد البيضاء ، والكلام في هذه الآية يقع على وجوه : الأول : أن جماعة الطبيعيين ينكرون إمكان انقلاب العصا ثعباناً .

وقالوا : الدليل على امتناعه أن تجويز انقلاب العصا ثعباناً يوجب ارتفاع الوثوق عن العلوم الضرورية وذلك باطل ، وما يفضي إلى الباطل فهو باطل .

(67/281)

إنما قلنا : إن تجويزه يوجب ارتفاع الوثوق على العلوم الضرورية ، وذلك لأنا لو جوزنا أن يتولد الثعبان العظيم من العصا الصغيرة لجوزنا أيضاً أن يتولد الإنسان الشاب القوي عن التبنة الواحدة والحية الواحدة من الشعير ، ولو جوز ذلك لجوزناه في هذا الإنسان الذي نشاهده الآن أنه إنما حدث الآن دفعة واحدة لا من الأبوين ، ولجوزنا في زيد الذي نشاهده الآن أنه ليس هو زيد الذي شاهدناه بالأمس ، بل هو شخص آخر حدث الآن دفعة واحدة ، ومعلوم أن من فتح على نفسه أبواب هذه التجويزات فإن جمهور العقلاء يحكمون عليه بالخبل والعته والجنون ، ولأن لو جوزنا ذلك لجوزنا أن يقال : إن الجبال انقلبت ذهباً ومياه البحار انقلبت دماً ، ولجوزنا في التراب الذي كان في مزبلة البيت أنه انقلب دقيقاً ، وفي الدقيق الذي كان في البيت أنه نقلب تراباً وتجويز أمثال هذه الأشياء مما يبطل العلوم

الضرورية ويوجب دخول الإنسان في السفسطة ، وذلك باطل قطعاً فما يفضي إليه كان أيضاً باطلاً .

فإن قال قائل : تجويز أمثال هذه الأشياء مختص بزمان دعوة الأنبياء ، وهذا لزمان ليس كذلك فقد حصل الأمان في هذا الزمان عن تجويز هذه الأحوال .

فالجواب عنه من وجوه : الأول : أن هذا التجويز إذا كان قائماً في الجملة كان تخصيص هذا التجويز بزمان دون زمان مما لا يعرف إلا بدليل غامض فكان يلزم أن يكون الجاهل بذلك الدليل الغامض جاهلاً باختصاص ذلك التجويز بذلك الزمان المعين فكان يلزم من جمهور العقلاء الذين لا يعرفون ذلك الدليل الغامض أن يجوزوا كل ما ذكرناه من الجهات وأن لا يكونوا قاطعين بامتناع وقوعها ، وحيث نراهم قاطعين بامتناع وقوعها علمنا أن ما ذكرتموه فاسد .

(68/281)

والثاني : أنا لو جوزنا أمثال هذه الأحوال في زمان دعوة النبوة فإنه يبطل أيضاً به القول بصحة النبوة ، فإنه إذا جاز أن تنقلب العصا ثعباناً ، جاز في الشخص الذي شاهدناه أنه ليس هو الشخص الأول ، بل الله أعدم الشخص الأول دفعة واحدة ، وأوجد شخصاً آخر

يساويه في جميع الصفات .

وعلى هذا التقدير فلا يمكننا أن نعلم أن هذا الذي نراه الآن هو الذي رأيناه بالأمس وحينئذ يلزم وقوع الشك في الذين رأوا موسى وعيسى ومحمداً عليهم السلام أن ذلك الشخص هل هو الذي رأوه بالأمس أم لا ؟ ومعلوم أن تجويزه يوجب القدح في النبوة والرسالة .

والثالث : وهو أن هذا الزمان وإن لم لكن زمان جواز المعجزات إلا أنه زمان جواز الكرامات عندكم فيلزمكم تجويزه ، فهذا جملة الكلام في هذا المقام .

واعلم أن القول بتجويز انقلاب العادات عن مجاريها صعب مشكل ، والعقلاء اضطربوا فيه وحصل لأهل العلم فيه ثلاثة أقوال :

القول الأول : قول من يجوز ذلك على الإطلاق وهو قول أصحابنا ، وذلك لأنهم جوزوا تولد الإنسان وسائر أنواع الحيوان والنبات دفعة واحدة من غير سابقة مادة ولا مدة ولا أصل ولا تربية وجوزوا في الجوهر الفرد أن يكون حياً عالماً قادراً عاقلاً قاهراً من غير حصول بنية ولا مزاج ولا رطوبة ولا تركيب ، وجوزوا في الأعمى الذي يكون بالأندلس أن يبصر في ظلمة الليل البقعة التي تكون بأقصى المشرق ، مع أن الإنسان الذي يكون سليم البصر لا يرى الشمس الطالعة في ضياء النهار ، فهذا هو قول أصحابنا .

والقول الثاني : قول الفلاسفة الطبيعيين وهو أن ذلك ممتنع على الإطلاق ، وزعموا أنه لا

يجوز حدوث هذه الأشياء ودخولها في الوجود إلا على هذا الوجه المخصوص والطريق المعين .

(69/281)

وقالوا : وبهذا الطريق دفعنا عن أنفسنا التزام الجهالات التي ذكرناها والمحالات التي شرحناها ، واعلم أنهم وإن زعموا أن ذلك غير لازم لهم ، إلا أنهم في الحقيقة يلزمهم ذلك لزوماً لا دافع له ، وتقريره أن هذه الحوادث التي تحدث في عالمنا هذا إما أن تحدث لا لمؤثر أو لمؤثر ، وعلى التقديرين : فالقول الذي ذكرناه لازم أما على القول بأنها تحدث لا عن مؤثر ، فهذا القول باطل في صريح العقل ، إلا أن مع تجويزه فالإلزام المذكور لازم لأنا إذا جوزنا حدوث الأشياء لا عن مؤثر ولا عن موجد ، فكيف يكون الأمان من تجويز حدوث إنسان لا عن الأبوين ، ومن تجويز انقلاب الجبل ذهباً والبحر دماً ؟ فإن تجويز حدوث بعض الأشياء لا عن مؤثر ليس أبعد عند العقل من تجويز حدوث سائر الأشياء لا عن مؤثر ، فثبت على هذا التقدير أن الإلزام المذكور لازم .

أما على التقدير الثاني وهو إثبات مؤثر ومدبر لهذا العالم فذلك المؤثر إما أن يكون موجباً بالذات وأما أن يكون فاعلاً بالاختيار .

أما على التقدير الأول فالإلزامات المذكورة لازمة ، وتقريره : أنه إذا كان مؤثراً ومرجحه موجباً بالذات وجب الجزم بأن اختصاص كل وقت معين بالحادث المعين الذي حدث فيه إنما كان لأجل أنه بحسب اختلاف الأشكال الفلكية تختلف حوادث هذا العالم إذ لو لم يعتبر هذا المعنى لامتنع أن تكون العلة القديمة الدائمة سبباً لحدوث المعلول الحادث المتغير .

وإذا ثبت هذا فنقول : كيف الأمان من أن يحدث في الفلك شكل غريب يقتضي حدوث إنسان دفعة واحدة لا عن الأبوين وانتقال مادة الجبل من الصورة الجبلية إلى الصورة الذهبية أو للصورة الحيوانية ؟ وحينئذ تعود جميع الإلزامات المذكورة .

(70/281)

وأما على التقدير الثاني وهو أن يكون مؤثر العالم ومرجحه فاعلاً مختاراً ، فلا شك أن جميع الأشياء المذكورة محتملة لأنه لا يمتنع أن يقال إن ذلك الفاعل المختار يخلق بإرادته إنساناً دفعة واحدة لا عن الأبوين وانتقال مادة الجبل ذهباً والبحر دماً ، فثبت أن الأشياء التي ألزموها علينا واردة على جميع التقديرات وعلى جميع الفرق وأنه لا دافع لها ألبتة .

والقول الثالث : وهو قول المعتزلة فإنهم يجوزون انخراق العادات وانقلابها عن مجاريها في بعض الصور دون بعض ، فأكثر شيوخهم يجوزون حدوث الإنسان دفعة واحدة لا عن

الأبوين ، ويجوزون انقلاب الماء ناراً وبالعكس ، ويجوزون حدوث الزرع لا عن سابقة بذر .

ثم قالوا إنه لا يجوز أن يكون الجوهر الفرد موصوفاً بالعلم والقدرة والحياة ، بل صحة هذه الأشياء مشروطة بحصول بنية مخصوصة ومزاج مخصوص ، وزعموا أن عند كون الحاسة سليمة وكون المرئي حاضراً وعدم القرب القريب والبعد البعيد يجب حصول الإدراك وعند فقدان أحد هذه الشروط يمتنع حصول الإدراك ، وبالجملة فالمعتزلة في بعض الصور لا يعتبرون مجاري العادات ويزعمون أن انقلابها ممكن وانخراقها جائز ، وفي سائر الصور يزعمون أنها واجبة ويمتنع زوالها وانقلابها ، وليس لهم بين الناس قانون مضبوط ولا ضابط معلوم ، فلا جرم كان قولهم أدخل الأقاويل في الفساد .

(71/281)

إذا عرفت هذه التفاصيل فنقول : ذوات الأجسام متماثلة في تمام الماهية وكل ما صح على الشيء صح على مثله ، فوجب أن يصح على كل جسم ما صح على غيره ، فإذا صح على بعض الأجسام صفة من الصفات وجب أن يصح على كلها مثل تلك الصفة ، وإذا كان كذلك كان جسم العصا قابلاً للصفات التي باعتبارها تصير ثعباناً ، وإذا كان كذلك

كان انقلاب العصا ثعباناً أمراً ممكناً لذاته ، وثبت أنه تعالى قادر على جميع الممكنات ، فلزم القطع بكونه تعالى قادراً على قلب العصا ثعباناً ، وذلك هو المطلوب ، وهذا الدليل موقوف على إثبات مقدمات ثلاث : إثبات أن الأجسام متماثلة في تمام الذات ، وإثبات أن حكم الشيء حكم مثله ، وإثبات أنه تعالى قادر على كل الممكنات ومتى قامت الدلالة على صحة هذه المقدمات الثلاثة فقد حصل المطلوب التام والله أعلم .

قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ أي العصا وهي مؤنثة ، والثعبان الحية الضخمة الذكر في قول جميع أهل اللغة .

فأما مقدارها فغير مذكور في القرآن ، ونقل عن المفسرين في صفتها أشياء ، فعن ابن عباس : إنها ملأت ثمانين ذراعاً ثم شدت على فرعون لتبتلعه فوثب فرعون عن سريره هارباً وأحدث ، وانهزم الناس ومات منهم خمسة وعشرون ألفاً .

وقيل : كان بين لحييها أربعون ذراعاً ووضع لحيها الأسفل على الأرض ، والأعلى على سور القصر ، وصاح فرعون يا موسى خذها فأنا أومن بك ، فلما أخذها موسى عادت عصا كما كانت ، وفي وصف ذلك الثعبان بكونه مبيناً وجوه : الأول : تمييز ذلك عما جاءت به السحرة من التمويه الذي يلتبس على من لا يعرف سببه ، وبذلك تتميز معجزات الأنبياء من الحيل والتمويهات .

والثاني : في المراد أنهم شاهدوا كونه حية لم يشتبه الأمر عليهم فيه .

الثالث : المراد أن ذلك الثعبان أبان قول موسى عليه السلام عن قول المدعي الكاذب .

(72/281)

وأما قوله : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ فالنزع في اللغة عبارة عن إخراج الشيء عن مكانه فقوله : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أي أخرجها من جيبه أو من جناحه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ وقوله : ﴿ واضمم يَدَكَ إِلى جَنَاحِكَ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ قال ابن عباس : وكان لها نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض .

واعلم أنه لما كان البياض كالعيب بين الله تعالى في غير هذه الآية أنه كان من غير سوء .

فإن قيل : بم يتعلق قوله : ﴿ للناظرين ﴾ .

قلنا : يتعلق بقوله : ﴿ بَيْضَاء ﴾ والمعنى : فإذا هي بيضاء للنظارة ، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب .

وبقي ههنا مباحث : فأولها : أن انقلاب العصا ثعباناً ، من كم وجه يدل على المعجز ؟

والثاني : أن هذا المعجز كان أعظم أم اليد البيضاء ؟ وقد استقصينا الكلام في هذين

المطلوبين في سورة طه .

والثالث : أن المعجز الواحد كان كافياً ، فالجمع بينهما كان عبثاً .

وجوابه : أن كثرة الدلائل توجب القوة في اليقين وزوال الشك ، ومن الملحدين من قال : المراد بالثعبان وباليد البيضاء شيء واحد ، وهو أن حجة موسى عليه السلام كانت قوية ظاهرة قاهرة ، فتلك الحجة من حيث إنها أبطلت أقوال المخالفين ، وأظهرت فسادها ، كانت كالثعبان العظيم الذي يتلقف حجج المبطلين ، ومن حيث كانت ظاهرة في نفسها ، وصفت باليد البيضاء ، كما يقال في العرف : لفلان يد بيضاء في العلم الفلاني .

أي قوة كاملة ، ومرتبة ظاهرة .

واعلم أن حمل هذين المعجزين على هذا الوجه يجري مجرى دفع التواتر وتكذيب الله ورسوله .

ولما بينا أن انقلاب العصا حية أمر ممكن في نفسه ، فأي حامل يحملنا على المصير إلى هذا التأويل ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 157 . 160 ﴾

(73/281)

وقال السمرقندى :

﴿ فَأَلْقَىٰ ﴾ موسى ﴿ عصاه ﴾ يعني : ألقى موسى عصاه من يده ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وهي أعظم الحيات ، ويقال الثعبان الحية الذكر الصفراء الشقراء ويقال صارت حية من أعظم الحيات رأسها مع شرف قصر فرعون ، ففتحت فاها نحو فرعون ، وكان فرعون على سريره فوثب فرعون عن سريره ، وهرب منها ، وهرب الناس ، وصاحوا إلى موسى ، ونادى فرعون يا موسى خذها عني فأخذها ، فإذا هي عصا بيضاء بيده كما كانت ، وجعل الناس يضحكون مما يصنع موسى .

ومعنى قوله : ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : أنها حية تسعى لا لبس فيها .

فقال له فرعون : هل معك غير هذا ؟ فقال : نعم ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ يعني : أخرج يده أخرجها من جيبه كما قال في آية أخرى ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سواء فِي تِسْعِ ءايات إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ [النمل : 12] يعني : من غير برص ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ يعني : لها شعاع غلب على نور الشمس .

ومعنى قوله : ﴿ للناظرين ﴾ يعني : يتعجب ويتحير منها الناظرون .

ويقال : إن البياض من غير برص .

لأن الناس يكرهون النظر إلى الأبرص ، فأخبر أن ذلك بياض ينظرون إليه من غير سوء .

ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها فصارت كما كانت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(74/281)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فألقى عصاه ﴾ الآية ،

روي أن موسى عليه السلام قلق به وبمحاورته فرعون فقال لأعوانه خذوه فألقى موسى العصا فصارت ثعباناً وهمت بفرعون فهرب منها ، وقال السدي : إنه أحدث وقال يا موسى كفه عني فكفه ، وقال نحوه سعيد بن جبير .

و" إذا " ظرف مكان في هذا الموضع عند المبرد من حيث كانت خبراً عن جثة ، والصحيح الذي عليه الناس أنها ظرف زمان في كل موضع ، ويقال : إن الثعبان وضع أسفل لحييه في الأرض وأعلاها في شرفات القصر ، والثعبان الحية الذكر ، وهو أهول وأجرأ ، قاله الضحاك ، وقال قتادة صارت حية أشعر ذكراً ، وقال ابن عباس : غرزت ذنبها في الأرض ورفعت صدرها إلى فرعون ، وقوله ﴿ مبين ﴾ معناه لا تخييل فيه بل هو بين أنه حقيقة ، وهو من أبان بمعنى بان أو من بان بمعنى سلب عن أجزائه ، وقوله ﴿ ونزع يده ﴾ ، معناه

من جيبه أو كمه حسب الخلاف في ذلك ، وقوله ﴿ فإذا هي بيضاء ﴾ قال مجاهد كاللبن أو أشد بياضاً ، وروي أنها كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تأتلق ، وكان موسى عليه السلام ذا دم أحمر إلى السواد ، ثم كان يرد يده فترجع إلى لون بدنه .

قال القاضي أبو محمد : وهاتان الآيتان عرضهما موسى عليه السلام للمعارضة ودعا إلى الله بهما ، وخرق العادة بهما وتحدى الناس إلى الدين بهما ، فإذا جعلنا التحدي الدعاء إلى الدين مطلقاً فبهما تحدى ، وإذا جعلنا التحدي الدعاء بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتنفرد حينئذ العصا بذلك لأن المعارضة والعجز فيها وقعا .

قال القاضي أبو محمد : ويقال التحدي هو الدعاء إلى الإتيان بمثل المعجزة ، فهذا نحو ثالث وعليه يكون تحدي موسى بالآيتين جميعاً لأن الظاهر من أمره أنه عرضهما للنظر معاً وإن كان لم ينص على الدعاء إلى الإتيان بمثلها ، وروي عن فرقد السبخي أن فم الحية كان ينفتح أربعين ذراعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(75/281)

وقال أبو حيان :

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾

بدأ بالعصا دون سائر المعجزات لأنها معجزة تحتوي على معجزات كثيرة قالوا منها أنه ضرب بها باب فرعون ففزع من قرعها فشاب رأسه فخضب بالسواد فهو أول من خضب بالسواد وانقلابها ثعباناً وانقلاب خشبة لحماً ودماً قائماً به الحياة من أعظم الإعجاز ويحصل من انقلابها ثعباناً من التهويل ما لا يحصل في غيره وضربه بها الحجر فينفجر عيوناً وضربه بها فتنبت قاله ابن عباس ومحاربته بها اللصوص والسباع القاصدة غنمه واشتعالها في الليل كاشتعال الشمعة وصيرورتها كالرشا لينزح بها الماء من البئر العميقة وتلقفها الحبال والعصيّ التي للسحرة وإبطالها لما صنعوه من كيدهم وسحرهم والإلقاء حقيقة هو في الاجرام ومجاز في المعاني نحو ألقى المسألة .

قال ابن عباس والسدّي : صارت العصا حية عظيمة شعراء فاغرة فاها ما بين لحييها ثمانون ذراعاً ، وقيل : أربعون ذكره مكي عن فرقد واضعة أحد لحييها بالأرض والآخر على سور القصر وذكروا من اضطراب فرعون وفزعه وهربه ووعده موسى بالإيمان إن عادت إلى حالها وكثرة من مات من قوم فرعون فزعاً أشياء لم تتعرّض إليها الآية ولا تثبت في حديث صحيح فالله أعلم بها ومعنى ﴿ مبين ﴾ ظاهر لا تخييل فيه بل هو ثعبان حقيقة ، قال ابن عطية ﴿ وإذا ﴾ ظرف مكان في هذا الموضع عند المبرّد من حيث كانت خبراً عن جثة والصحيح الذي عليه شيوخنا أنها ظرف مكان كما قاله المبرد وهو المنسوب إلى سيبويه وقوله من حيث كانت خبراً عن جثة ليست في هذا المكان خبراً عن جثة بل خبر

هي قوله ﴿ ثعبان ﴾ ولو قلت ﴿ فإذا هي ﴾ لم يكن كلاماً وينبغي أن يحمل كلامه من حيث كانت خبراً عن جثة على مثل خرجت فإذا السبع على تأويل من جعلها ظرف مكان وما ذكره من أن الصحيح الذي عليه الناس أنها ظرف زمان هو مذهب الرّياشي ونسب أيضاً إلى سيبويه ومذهب الكوفيين أن إذا الفجائية حرف لا اسم .

(76/281)

﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أي جذب ﴿ يده ﴾ قيل من جيبه وهو الظاهر لقوله ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج ﴾ ، وقيل من كمّه و ﴿ للناظرين ﴾ أي للنظار وفي ذكر ذلك تنبيه على عظم بياضها لأنه لا يعرض لها للنظار إلا إذا كان بياضها عجيباً خارجاً عن العادة يجتمع الناس إليه كما يجتمع النظّار للعجائب ، قال مجاهد : ﴿ بيضاء ﴾ كاللبن أو أشدّ بياضاً ، وروي أنها كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس ثم يردّها فترجع إلى لون موسى وكان آدم عليه السلام شديد الأدمة ، وقال ابن عباس صارت نوراً ساطعاً يضيء له ما بين السماء والأرض له لمعان مثل لمعان البرق فخرّوا على وجوههم ، وقال الكلبي : بلغنا أن موسى عليه السلام قال يا فرعون ما هذه بيدي قال : هي عصا فألقاها موسى فإذا هي ثعبان ، وروي أن فرعون رأى يد موسى فقال لفرعون ما هذه فقال : يدك

ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غلب شعاعها شعاع الشمس وما أعجب أمر هذين الخارقين أحدهما في نفسه وذلك اليد البيضاء ، والأخر في غير نفسه وهي العصا وجمع بذينك تبدّل الذرات وتبدل الاعراض فكانا دالين على جواز الأمرين وإنهما كلاهما ممكن الوقوع ، قال أبو محمد بن عطية : هاتان الآيتان عرضهما موسى عليه السلام للمعارضة ودعا إلى الله بهما وخرق العادة بهما وتحدّى الناس إلى الدين بهما فإذا جعلنا التحدّي الدّعاء إلى الدين مطلقاً فبهما تحدى وإذا جعلنا التحدّي الدعاء بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتنفرد حينئذ العصا بذلك لأنّ المعارضة والمعجز فيها وقعا ويقال : التحدّي هو الدعاء ألى الإتيان بمثل المعجزة فهذه نحو ثالث وعليه يكون تحدّي موسى بالآيتين جميعاً لأنّ الظاهر من أمره أنه عرضهما معاً وإن كان لم ينص على الدعاء إلى الإتيان بمثلهما انتهى ، وهو كلام فيه تثبيج . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(77/281)

وقال أبو السعود :

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾

أي ظاهرٌ أمرُه لا يُشك في كونه ثعباناً وهو الحيةُ العظيمةُ ، وإيثارُ الجملةِ الاسميةِ للدِلالة على كمال سرعةِ الانقلاب وثباتِ وصفِ الثُعبانية فيها كأنها في الأصل كذلك . وروي أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعَرَ فاغراً فاه بين لَحْيَيهِ ثمانون ذراعاً وَضع لَحيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سور القصرِ ، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث فانهزم الناسُ مزدحمين فمات منهم خمسةٌ وعشرون ألفاً فصاح فرعونُ : يا موسى أنشُدك بالذي أرسلك خُذْه وأنا أؤمن بك وأرسلُ معك بني إسرائيلَ فأخذه فعاد عصا ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أي من جيبه أو من تحت إبطِه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ أي بيضاءُ بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة يجتمع عليه النَّظارةُ تعجباً من أمرها ، وذلك ما يروى أنه أرى فرعونَ يدَه وقال : ما هذه ؟ فقال : يدُك ، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرّعةُ صوفٍ ونزعها فإذا هي بيضاءُ بياضاً نورانياً غلب شعاعُه شعاعَ الشمس وكان عليه السلام آدمَ شديدَ الأدَمةِ ، وقيل : بيضاء للناظرين لا أنها كانت بيضاءَ في جبِلّتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(78/281)

وقال الآلوسى :

﴿ فألقى عَصَاهُ ﴾ وكانت كما روى ابن المنذر .

وابن أبي حاتم من عوسج .

وروى عن علي كرم الله تعالى وجهه أنها كانت من لوز .

وأخرج عبد بن حميد .

وأبو الشيخ عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أنها عصا آدم عليه السلام أعطاها لموسى ملك حين توجه إلى مدين فكانت تضيء له بالليل ويضرب بها الأرض بالنهار فيخرج له رزقه ويهش بها على غنمه ، والمشهور أنها كانت من آس الجنة وكانت لآدم عليه السلام ثم وصلت إلى شعيب فأعطاه إياها ، وجاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن اسمها مأشا ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴾ أي حية ضخمة طويلة .

وعن الفراء أن الثعبان هو الذكر العظيم من الحيات .

وقال آخرون : إنه الحية مطلقاً .

وفي "مجمع البيان" أنه مشتق من ثعب الماء إذا انفجر ، فكأنه سمي بذلك لأنه يجري كعنق الماء إذا انفجر ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر أمره لا يشك في كونه ثعباناً ؛ فهو إشارة إلى أن الصيرورة حقيقية لا تخييلية ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على كمال سرعة الانقلاب وثبات وصف الثعبانية فيها كأنها في الأصل كذلك ، وروى عن ابن عباس .

والسدي أنه عليه السلام لما ألقاها صارت حية صفراء شعراء فاغرة فاها بين لحييا ثمانون ذراعاً وارتفعت من الأرض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الأسفل في الأرض ولحيها الأعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب عن سريره هارباً وأحدث ، وفي بعض الروايات أنه أحدث في ذلك اليوم أربعمائة مرة ، وفي أخرى أنه استمر معه داء البطن حتى غرق ، وقيل : إنها أخذت قبة فرعون بين أنيابها وأنها حملت على الناس فانهزموا مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً ، فصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك أن تأخذها وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل ، فأخذها فعادت عصا كما كانت ، وعن معمر أنها كانت في العظم كالمدينة ، وقيل : كان طولها ثمانين ذراعاً ، وعن وهب بن منبه أن بين لحييها اثني عشر ذراعاً ، وعلى جميع الروايات لا تعارض بين ماهنا وقوله سبحانه : ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ [النمل : 10] بناء على أن الجان هي الحية الصغيرة لما قالوا : إن القصة غير واحدة ، أو أن المقصود من ذلك تشبيهاً في خفة الحركة بالجان لا بيان جثتها ، أو لما قيل : إنها انقلبت جاناً وصارت ثعباناً فحكيت الحالتان في آيتين ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك .

والآية من أقوى أدلة جواز انقلاب الشيء عن حقيقته كالنحاس إلى الذهب ، إذ لو كان ذلك تخييلاً لبطل الإعجاز ، ولم يكن لذكر مبين معنى مبين ، وارتكاب غير الظاهر غير ظاهر ، ويدل لذلك أيضاً أنه لا مانع في القدرة من توجه الأمر التكويني إلى ما ذكر وتخصيص الإرادة له ، والقول بأن قلب الحقائق محالوالقدرة لا تتعلق به فلا يكون النحاس ذهباً رصاص مموه ، والحق جواز الانقلاب إما بمعنى أنه تعالى يخلق بدل النحاس ذهباً على ما هو رأي المحققين ، أو بأن يسلب عن أجزاء النحاس الوصفي الذي صار به نحاساً ويخلقفيه الوصف الذي يصير به ذهباً على ما هو رأي بعض المتكلمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات ، والمحال إنما هو انقلابه ذهباً مع كونه نحاساً لامتناع كون الشيء في الزمن الواحد نحاساً وذهباً ، وعلى أحد هذين الاعتبارين توكأ أئمة التفسير في أمر العصا .

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أي أخرجها من جيبه لقوله تعالى : ﴿ ادخل يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ [النمل : 12] أو من تحت أبطه لقوله سبحانه : ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ [طه : 22] والجمع بينهما ممكن في زمان واحد ، وكانت اليد اليمنى كما صرح به في بعض الآثار ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ أي بيضاء بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة يجتمع عليه

النظار .

فقد روى أنه أضاء له ما بين السماء السماء والأرض ، وجاء في رواية أنه أرى فرعون يده ، وقال عليه السلام : ما هذه ؟ فقال : يدك .

(81/281)

ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعه صوف ونزعها فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غلب شعاعه شعاع الشمس ، وقيل : المعنى بيضاء لأجل النظار لا أنها بيضاء في أصل خلقتها لأنه عليه السلام كان آدم شديد الأدمة ، فقد أخرج البخاري عن ابن عمر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما موسى فآدم جثيم سبط كأنه من رجال الزط " وعنى عليه الصلاة والسلام بالزنط جنساً من السودان والهنود ، ونص البعض على أن ذلك البياض إنما كان في الكف وإطلاق اليد عليها حقيقة .

وفي "القاموس" الكيد الكف أو من أطراف الأصابع إلى الكف ، وأصلها يدي بدليل جمعها على أيدي ولم ترد اليد عند الإضافة لما تقرر في محله ، وجاء في كلامهم يد بالتشديد وهو لغة فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(82/281)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) ﴾

والإلقاء : الرمي على الأرض أو في الماء أو نحو ذلك ، أي : فرمى عصاه من يده .

و(إذا) للمفاجأة وهي حدوث الحادث عن غير ترقب .

والثعبان : حية عظيمة ، و ﴿ مبين ﴾ اسم فاعل من أبان القاصر المرادف لبان ، أي ظهر ، أي : الظاهر الذي لا شك فيه ولا تخيل .

ونزع : أزال اتصال شيء عن شيء ، ومنه نزع ثوبه ، والمعنى هنا أنه أخرج يده من جيب قميصه بعد أن أدخلها في جيبه كما في سورة النمل وسورة القصص فلما أخرجها صارت بيضاء ، أي بياضاً من النور .

وقد دل على هذا البياض قوله : ﴿ للناظرين ﴾ ، أي بياضاً يراه الناظرون رؤية تعجب من بياضها .

فالمقصود من ذكر قوله : ﴿ للناظرين ﴾ تتميم معنى البياض .

واللام في قوله : ﴿ للناظرين ﴾ لم يعرج المفسرون على بيان معناها وموقعها سوى أن صاحب "الكشاف" قال : "يتعلق للناظرين ببيضاء" دون أن يبين نوع التعلق ولا معنى اللام ، وسكت عليه "شراحه" والبيضاوي ، وظاهر قوله يتعلق أنه ظرف لغو تعلق ببيضاء

فلعله لما في بيضاء من معنى الفعل كأنه قيل : ابيضّت للناظرين كما يتعلق المجرور بالمشتق فتعين أن يكون معنى اللام هو ما سماه ابن مالك بمعنى التعدية وهو يريد به تعدية خاصة (لا مطلقَ التعدية أي تعدية الفعل القاصر إلى ما لا يتعدى له بأصل وضعه لأن ذلك حاصل في جميع حروف الجر ، فلا شك أنه أراد تعدية خاصة لم يبين حقيقتها .

وقد مثل لها في "شرح الكافية" بقوله تعالى : ﴿ فهب لي من لدنك ولياً ﴾ [مريم : 5] وجعل في "شرح التسهيل" هذا المثال مثالاً لمعنى شبه الملك ، واختار ابن هشام أن يمثل للتعدية بنحو ما أضرب زيداً لعمرو .

(83/281)

ولم يفصحوا عن هذه التعدية الخاصة باللام ، ويظهر لي أنها عمل لفظي محض ، أي لا يفيد معنى جزئياً كمعاني الحروف ، فتحصّل أنهم في ارتباك في تحقيق معنى التعدية ، وعندي أن قوله تعالى : ﴿ بيضاء للناظرين ﴾ أحسن ما يمثل به لكون اللام للتعدية وأن نفسر هذا المعنى بأنه تقريب المتعلّق بكسر اللام لمتعلّق بفتح اللام تقريباً لا يجعله في معنى المفعول به .

وإن شئت إرجاع معنى التعدية إلى أصل من المعاني المشهورة للام ، فالظاهر أنها من فروع معنى شبه الملك كما اقتضاه جعل ابن مالك المثال الذي مثل به للتعدية مثالاً لشبه الملك .

وأقرب من ذلك أن تكون اللام بمعنى (عند) ويكون مفاد قوله تعالى : ﴿ بيضاء للناظرين ﴾ أنها بيضاء بياضاً مستقراً في أنظار الناظرين ويكون الظرف مستقراً يجعل حالاً من ضمير يده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(84/281)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) ﴾

وهذا الإلقاء كان له سابق تجربة أخرى حينما خرج مع أهله من مدين ورأى ناراً وبعد ذلك قال لأهله : ﴿ امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً . . . ﴾ [طه : 10]

ثم سمع خطاباً : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 17-18]

وحين يقال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ ، كان يكفي أن يقول في الجواب : عصاي ، ولا داعي أن يقول : " هي " ولا داعي أن يشرح ويقول : إنه يتوكأ عليها وأن له فيها مآرب أخرى ؛ لأن الحق لم يسأله ماذا تفعل بعصاك ، إذن فجواب موسى قد جاوز في الخطاب قدر المطلوب ، ويظن البعض أنه كان من الواجب أن يعطي الجواب على قدر السؤال . لكن

من يقول ذلك ينسى أنه لا يوجد من يزهد في الأنس بخطاب الله . وحين قال موسى عليه السلام : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي . . . ﴾ [طه : 18]

ولقد شعر موسى عليه السلام واستدرك هيبة المخاطب فكان تهافته على الخطاب حبًّا لأنسه في الله ، لكنه حين شعر أنه قارب أن يتجاوز قال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرى ﴾

كان من الممكن أن يقول استعمالات كثيرة للعصا . إذن فللعصا أكثر من إلقاء ، إلقاء الدربة والتمرين على لقاء فرعون حين أمره الحق : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ [طه : 19-20]

فماذا حدث ؟ قال له الله : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى ﴾ [طه : 21]

فساعة خاف ، دل على أن ما حدث للعصا ليس من قبيل السحر ؛ لأن الساحر حين يلقي عصاه أو حبله يرى ذلك عصا أو حبلاً ، بينما يرى ذلك غيرُه حية ، ولذلك يقول الحق عن السحرة : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس . . . ﴾ [الأعراف : 116]

(85/281)

وهذا يدل على أن حقيقة الشيء في السحر تظل كما هي في نظر الساحر ، لكن موسى أوجس في نفسه خيفة ، فهذا يدل على أن العصا انتقلت من طبيعتها الخشبية وصارت حية .

وكان من الممكن أن تورق العصا وتخضر على الرغم من أنها كانت غصناً يابساً . ولو حدث ذلك فسيكون معجزة أيضاً ، ولكن نقلها الله نقلتين : نقلها من الجمادية ، وتعدى بها مرحلة النباتية إلى مرحلة الحيوانية .

وكأن الحق العليم أزلاً يرد على من أراد اللغط في مسألة إلقاء العصا ، وقد ظن بعض الجاهلين أن ذلك تكرار في الكلام في قصة واحدة . ولم يلحظوا أن جهة الإلقاء للعصا كانت منفكة ، ففي القرآن ثلاثة إلقاءات للعصا : إلقاء التدريب حينما اصطفى الله موسى رسولاً وأعلمه بذلك في طور سيناء : ﴿ إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ فاعبدني . . . ﴾ [طه : 14]

وبعد ذلك قال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ . . . ﴾ [طه : 17-18]

وإلقاء التدريب على المهمة هدفه طمأنة موسى ، حتى إذا ما باشرها أمام فرعون باشرها وهو على يقين أن العصا ستستجيب له فتنقلب حية بمجرد إلقائها ، ولو أن الله قال له خبراً " إذا ذهبت إلى فرعون فألق العصا فستنقلب حية " ، فقد لا يطمئن قلبه إلى هذا الأمر .

فأراد الله أن يدربه عليها تدريباً واقعيًّا ، ليعلم أن العصا ستستجيب له حين يلقيها فتنقلب حية ، وكان ذلك أول إلقاء لها ، أما الإلقاء الثاني فكان ساعة أن جاء لفرعون للإعلام بمهمته أنه رسول رب العالمين ، وإعلامه بالبينة ، وهو ما نحن بصدده الآن في هذه الآية التي نتكلم بخواطرنا الإيمانية فيها .

ثم هناك إلقاء ثالث وهو إلقاء التحدي للسحرة ، ولأن لكل إلقاء موقعاً فلا تقل أبداً : أن ذلك تكرار . وإنما هو تأسيس لتعدد المواقف والملابسات ، فلكل موقف ما يتطلبه ، فلا تغني لقطة هنا عن لقطة هناك . ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : 107]

(86/281)

ومرّة يقول عن العصا : ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ .

ويقول المشككون في كلام الله من المستشرقين : كيف يقول مرة إنها ثعبان مبين . ثم مرة أخرى يقول : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ ، ومرة ثالثة يقول : ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ . ونقول : إن هناك فارقاً بين مختلفات تتناقض ، ومختلفات تتكامل ، فهي ثعبان مرة ، وهي حية مرة ثانية ، وهي جان ؛ لأن الثعبان هو الطويل الخفيف الحركة ، والحية هي الكتلة المخيفة

بشكلها وهي متجمعة ، والجان هو الحية المرعبة الشكل . فكأنها تمثلت في كل مرة بمثال يرعب من يراه ، وكل مرة لها شكل ؛ فهي مرة ثعبان ، ومرة حية ، وثالثة جان ، أو تكون ثعباناً عند من يخيفه الثعبان ، وتكون حية عند من تخيفه الحية ، وتكون جاناً عند من يخيفه الجان ، ولذلك تجد أن إشاعة الإِبهام هو عين البيان للمبهم .

ومثال ذلك إبهام الحق لأمر الموت ، فلا يحكمه سن ، ولا يحكمه سبب ، ولا يحكمه زمان ، وفي هذا إبهام لزمانه وإبهام لسببه مما يجعله بياناً شائعاً تستقبله بأي سبب في أي زمان أو في أي مكان ، وهكذا يأتي الإِبهام هنا لكي يعطينا الصور المتكاملة ، وقال بعض المستشرقين : إن المسلمين يستقبلون القرآن بالرهبة وبالانبهار . ولا يحركون عقولهم لكي يروا المتناقضات فيه ، لكن غير المسلم إن قرأ القرآن يتبين فيه أشياء مختلفة كثيرة ، قالوا بالنص : " أنتم تعلمون بقضايا اللغة أن التشبيه إنما يأتي لتُلْحِق مجهولاً بمعلوم " ، فيقال : أنت تعرف فلاناً ، فتقول : لا والله لا أعرفه . فيقول لك : هو شكل فلان ؛ في الطول ، وفي العرض ، وفي الشكل ، إذن فقد ألحق مجهولاً بمعلوم ليُوضحه . فكيف يلحق القرآن مجهولاً بمجهول ، إن هذا لا يعطي صورة مثلما تكلم القرآن عن شجرة الزقوم فقال : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين ﴾ [الصافات : 64-65]

فكيف توجد شجرة في الجحيم ، إنها أشياء متناقضة ؛ لأن الشجرة فيها خضرة ، وتحتاج إلى ري ، ومائية ، والجحيم نار وجفاف ، ثم إن الشيطان غير معلوم الصورة للبشر ، وشجرة الزقوم غير معلومة لأنها ستأتي في الآخرة ، فكيف يُشَبِّه الله مجهولاً بمجهول .

واستخدم المستشرقون ذلك كدليل على أن المسلمين يأخذون القرآن بانبهار ولا يبحثون فيه ، ونرد عليهم : أنتم لا تعلمون لغة العرب كملكة ، بل عرفتموها صناعة ، ولم تتفهموا حقيقة أن القرآن جاء على لغة العرب . وقد تخيلت لغة العرب أشياء رأت فيها البشاعة والقبح ؛ كأن قالوا : " ومسنونة زرق كأنياب أغوال " ، والغول كائن غير موجود ، لكنهم تخيلوا الغول المخيف وأن له أنياباً . . . إلخ .

إذن التشبيه قد يكون للأمر المُتَخَيَّل في أذهان الناس ، والأصل في التشبيه أن يلحق مجهولاً لِيُعلم ، وشجرة الزقوم لا نعرفها ، ورءوس الشياطين لم نرها ، وهكذا ألحق الله مجهولاً بمجهول ، ولماذا لم يأت بها في صورة معلومة ؟ . لأنه – سبحانه – يريد أن يشيع البيان ، ويعمم الفائدة ويربيها ؛ لأن الإِخافة تتطلب مخيفاً ، والمخيف يختلف باختلاف الرائين ، فقد يوجد شيء يخيفك ، ولكنه لا يخيف غيرك ، وقد تستقبح أنت شيئاً ، ولكن غيرك لا يستقبحه ، ولذلك ضربنا – سابقاً – مثلاً . وقلنا : لو أننا أحضرنا من كبار رسامي

الكاريكاتور في العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان تخيلوا الشيطان وارسموه ، أيتفقون على شكل واحد فيه ؟ لا ؛ لأن كل رسام سيرسم من وحي ما يخيفه هو .

(88/281)

ولقد قال الله في صورة : شجرة الزقوم ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين ﴾ ؛ ليتخيل كل سامع ما يخيفه من صورة الشيطان ، فتكون الفائدة عامة من التخويف من تلك الشجرة . لكنه لو قالها بصورة واحدة لأخاف قوماً ولم يخف الآخرين . ومثال ذلك أمر عصا موسى ، فهي مرة ثعبان ، ومرة جان ، ومرة حية ، وكلها صور لشيء واحد مخيف ، ويقول الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ يوضح الفجائية التي أذهلت فرعون ، فقد تحولت العصا إلى ثعبان ضخم في لمح البصر بمجرد إلقائها ، ومن فوائد تدريب سيدنا موسى على إلقاء العصا في طور سيناء أن موسى لن تأخذه المفاجأة حين يلقيها أمام فرعون ، بل ستأخذ المفاجأة فرعون . كأن التدريب أولاً لإقناع موسى وضمان عدم خوفه في لحظة التنفيذ ، وقد خاف منها موسى لحظة التدريب ؛ لأن العصا صارت ثعباناً وحيَّة حقيقية ، ولو كانت من نوع السحر لظلت عصا في عين الساحر ولا يخاف منها ، إذن خوفه منها إبَّان التدريب دليل

على أنها انقلبت حقيقة ، ولا تخيلاً ، وتلك هي مخالفة المعجزة للسحر ، فالمعجزة حقيقة والسحر تخييل ، وهذا هو الذي سيجعل السحرة يخرون ساجدين لأنهم قد ذهلوا مما حدث . ﴿ فَألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : 107]

و" مبين " أي بيّن ، وواضحة ملامحه المخيفة التي لا تخفى على أحد ، ويقدم موسى عليه السلام الآية الثانية ، فيقول : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا . . . ﴾

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) ﴾

(89/281)

وهذه آية معجزة أخرى . وقوله : " ونزع " تعني إخراج اليد بعسر ، كأن هناك شيئاً يقاوم إخراج اليد ؛ لأنه لو كان إخراج اليد سهلاً ، لما قال الحق : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ لأنَّ النزع يدل على أن شيئاً يقاوم ، ومثال ذلك قوله الحق : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ . . . ﴾ [آل عمران : 26]

لأن نزع الملك ليس مسألة سهلة ؛ ففي الغالب يحاول صاحب الملك التشبث بملكه ، لكن الحق ينزعه من هذا الملك . كذلك قوله : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ ، وهذا يدل على أن يده لها وضع ، ونزع يده وإخراجها بشدة له وضع آخر ، كأنها كانت في مكان حريص عليها . إذن

ففيه لقطة بينت الإدخال ، ولقطة بينت النزع ، وهما عمليتان اثنتان . وقال سبحانه في آية ثانية : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء . . . ﴾ [النمل : 12]

و" الجيب " هو مكان دخول الرأس من الثوب ، وإن كنا نسمي " الجيب " في أيامنا مطلق شيء نجعله وعاء لما نحب ، وكان الأصل أن الإنسان حين يريد أن يحتفظ بشيء ، يضعه في مكان أمامه وتحت يده ، ثم صنع الناس الجيوب في الملابس ، فسميت الجيوب جيوباً لهذا .

والحق قال في موضع آخر : ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء آيَةً أخرى ﴾ [طه : 22]

(90/281)

إذن ففيه إدخال وإخراج ، وكل آية جاءت بلقطة من اللقطات ؛ فآية أوضحت دخول اليد في الجيب ، وأخرى أوضحت ضم اليد إلى الجناح ، وثالثة أوضحت نزع اليد ، وهذه لقطات متعددة ، تكوّن كلها الصورة الكاملة ؛ لنفهم أن القصص في القرآن غير مكرَّر ، فالتكرير قد يكون في الجملة . لكن كل تكرير له لقطة تأسيسية ، وحين نستعرضه تتبين أركان القصة كاملة . فكل هذه اللقطات تجمّع لنا القصة . وقلنا قبل ذلك : إن الصراع بين

فرعون وموسى لا ينشأ إلا عن عداوة ، وحتى يحتدم الصراع لابد أن تكون العداوة متبادلة ، فلو كان واحد عدوًّا والثاني لا يشعر بالعداوة فلن يكون لديه لدد خصومة ، وقد يتسامح مع خصمه ويأخذ أمر الخلاف هينا ويسامحه وتنفض المسألة . لكن الذي يجعل العداوة تستعر ، ويشتد ويعلو لهيبها أن تكون متبادلة . وتأتي لنا لقطة في القرآن تثبت لنا العداوة من فرعون لموسى ، ولقطة أخرى تثبت العداوة من موسى لفرعون ، فالحق يقول : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ . . . ﴾ [طه : 39]

هذه تثبت العداوة من فرعون لموسى : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا . . . ﴾ [القصص : 8]

وهذه تثبت لأن موسى عدوٌّ لهم . وكلتا اللقطتين يُكمل بعضها بعضاً لتعطينا الصورة كاملة .

والحق هنا يقول : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الأعراف : 108]

ونعرف أن موسى كان أسمر اللون ، لذلك يكون البياض في يده مخالفاً لبقية لون بشرته ، ويده صارت بيضاء بحيث يراها الناس يلفتهم ضوؤها ويجذب أنظارهم ، وهي ليست بيضاء ذلك البياض الذي يأتي في سُمرة نتيجة البرص ، لا ؛ لأن الحق قال في آية أخرى : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سواء . . . ﴾ [طه : 22]

وكل لقطة كما ترى تأتي لتؤكد وتكمل الصورة . إذن فقوله : ﴿ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ يدل على أن ضوءها لامع وضئ ، يلفت نظر الناس جميعاً إليها ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان لها بريق ولمعان وسطوع ، وقوله : ﴿ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ يؤكد أن هذا البياض ليس مرضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(92/281)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾

" فإذَا " فجائية وقد تقدَّم أنَّ فيها مذاهبَ ثلاثةً :

ظرف مكان ، أو زمان ، أو حرف .

وقال ابن عطية هنا : " وإذَا ظرف مكان في هذا الموضع عند المبرِّد من حيثُ كانت خبراً عن جثة ، والصَّحيحُ الذي عليه النَّاسُ أنَّها ظَرْفُ زَمَانٍ في كلِّ مَوْضِعٍ " .

قال شهابُ الدِّين : " والمشهورُ عند النَّاسِ قول المبردِ ، وهو مذهب سيبويه " .

وأمَّا كونها زماناً فهو مَذْهَبُ الرِّيَاشي ، وعُزِيَ لسيبويه أيضاً .

وقوله : " من حيث كانت خبراً عن جثَّة " ليست هي هنا خبراً عن جُثَّة ، بل الخبرُ عن " هي " لفظ " ثُعْبَان " لا لَفْظ " إذا " .

والثُّعْبَانُ هو ذَكَرُ الحيَّاتِ العظيم ، واشتقاقُه من ثَعَبْتُ المكان أي : فجَّرْتُه بالمَاءِ ، شُبِّه في انسيابه بأنْسِيَابِ الماء ، يقال : ثَعَبْتُ الماءَ فجَّرْتُه فانْثَعَبَ .

ومنه مَثْعَبُ المطر ، وفي الحديث : " جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجَرْحُهُ يَثْعَبُ دماً " .

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ)

النّزع في اللُّغَةِ عبارة عن إخراج الشَّيء عن مكانه ، فقوله : " نَزَعَ يَدَهُ " أي أخرجها من جَيْبِهِ ومن جناحه ، بدليل قوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [النمل : 12] ، وقوله : ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ [طه : 22] .

قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ ﴾ قال ابن عباس : " كان لها نور ساطع يضيء بين السَّماء والأرض " ، واعلم أنَّهُ لمَّا كان البياض كالعيب بيَّن تعالى في غير هذه الآية أنَّهُ كان من غير سوء .

قوله : " للنَّاظرينَ " متعلق بمحذوف لأنَّهُ صفة لـ " بيضاء " وقال الزَّمخشريُّ : " فإن قلت : بم تعلق للناظرين ؟ قلت : يتعلَّقُ بـ " بيضاء " والمعنى : فإذا هي بيضاء للنَّظارة ، ولا تكون بيضاء للنَّظَّارةِ إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجاً عن العادةِ ، يجتمعُ النَّاس للنَّظر إليه ، كما يجتمع النَّظَّارة للعجائب " .

وهذا الذي ذكره الزمخشريُّ تفسير معنى لا تفسير إعراب ، وكيف يريدُ تفسير الإعراب ؟ وإنَّما أراد التعلُّق المعنويَّ لا الصّناعي ، كقولهم : هذا الكلامُ يتعلق بهذا الكلام .

أي إنَّهُ من تتمَّةِ المعنى له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 250 . 251 ﴾ . باختصار يسير .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) ﴾

إنما أظهر له المعجزةَ مِنْ عَصَاه لطولِ مقارنته إياها ، فالإنسانُ إلى ما أَلِفَه أَسْكَنُ بقلبه . فلمَّا رأى ما ظهر في العصا من الانقلاب أخذ موسى عليه السلام في الفرار لتحققه بأن ذلك من قهر الحقائق ، وفي هذا إشارة إلى أنَّ السكونَ إلى شيءٍ غِرَّةٌ وغفلةٌ ايش ما كان ، فإنَّ تقلب العبد في قَبْضِ القدرة ، وهو في أَسْرِ التقلُّب ، وليس للطمع في السكون مساغٌ بحال .

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) ﴾

العصا – وإنْ كانت معه من زمنٍ – فَيَدُه أخصُّ به لأنها عضو له ، فكاشَفَه أولاً بِرَسْمٍ مِنْ رسْمِه ثم أشهده من ذاته في ذاته ما عَرَفَ أنه أوْلى به منه ، فلما رأى انقلابَ وصفٍ في يده عَلِمَ أنه ليس بشيء من أمره بيده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 556.555 ﴾

(94/281)

قوله تعالى ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعي :

ولما أتى بالبيان وأقام واضح البرهان ، اقتضى الحال السؤال عما أبرزوه من المقال في جوابه فقال : ﴿ قال الملأ ﴾ أي الأكابر ﴿ من قوم فرعون ﴾ ما تلقفوه من فرعون واحداً بعد واحد ، يلقيه أكبرهم إلى أصغرهم ﴿ إن هذا لساحر ﴾ أي فهذا الذي رأيتموه أيها الناس من تخييله ما لا حقيقة له ، فلا تبادروا إلى متابعته .

ولما كان ذلك خارجاً عما ألفوه السحرة قالوا : ﴿ عليم ﴾ أي بما هم فيه ، بالغ في علمه إلى

حد عظيم ، فذلك جاء ما رأيتم منه فوق العادة ، فكأن فرعون قال ذلك أبتداء – كما في سورة الشورى – فتلقفوه منه وبادروا إلى قوله ، يقوله بعضكم لبعض إعلاماً بأنهم على غاية الطواعية له خوفاً على رئاستهم تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ [الزخرف : 54] واختير هنا إسناده إليهم ، لأن السياق للاستدلال على فسق الأكثر ، وأما هناك فالسياق لأنه إن أراد سبحانه انزل آية خضعوا لها كما خضع فرعون عند رؤية ما رأى من موسى عليه السلام حتى رضي لنفسه بأن يخاطب عبيده – على ما يزعم – بما يقتضي أن يكون لهم عليه أمر ، فلذا كان إسناد القول إليه أحسن ، لأن النصرة في مقارعة الرأس أظهر ، وخضوع عنقه أضخم وأكبر .

ولما خيلوهم حتى أوقفوهم عما فهموا عنهم من المبادرة إلى المتابعة بادعاء أنه ساحر ؛ نفروهم من ذلك وخوفوهم بأنه يريد أن يحكم فيهم قومه الذين كانوا عبيداً لهم ويزيحوهم من ديارهم التي هي لأشباحهم مثل أشباحهم لأرواحهم بقوله : ﴿ يريد أن يخرجكم ﴾ أي أيها القبط ﴿ من أرضكم ﴾ أي هذه التي أثلها لكم آباؤكم وبها قوامكم ؛ ولما كان السياق لبيان فسقهم ، أسقط قولهم في الموضع الآخر ﴿ بسحره ﴾ إفهاماً لعجلتهم في إبرام الأمر في ضره إشارة إلى تغاليهم في الفسق بعلمهم أنه محق وليس بساحر .

ولما كان المقصود بهذا الكلام استعطاف المخاطبين ، استعطفوهم بعد أن أوقفوهم ، ثم خوفوهم بما سببوا عن الخطاب السابق من قولهم : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أي تقولون في هذه المشورة أيها السادة ليمتثل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 80 . 81 ﴾

فصل

قال الفخر :

ولما ذكر الله تعالى أن موسى عليه السلام أظهر هذين النوعين من المعجزات .

حكى عن قوم فرعون أنهم قالوا : ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ وذلك لأن السحر كان غالباً في ذلك الزمان ، ولا شك أن مراتب السحرة كانت متفاضلة متفاوتة ، ولا شك أنه يحصل فيهم من يكون غاية في ذلك العلم ونهاية فيه فالقوم زعموا أن موسى عليه السلام لكونه في النهاية من علم السحر ، أتى بتلك الصفة ، ثم ذكروا أنه إنما أتى بذلك السحر لكونه طالباً للملك والرياسة .

فإن قيل : قوله : ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾

حكاه الله تعالى في سورة الشعراء أنه قاله فرعون لقومه ، وحكى ههنا أن قوم فرعون قالوه ، فكيف الجمع بينهما ؟ وجوابه من وجهين : الأول : لا يمتنع أنه قد قاله هو وقالوه هم ، فحكى الله تعالى قوله ثم ، وقولهم ههنا .

والثاني : لعل فرعون قاله ابتداء فتلقنه الملأ منه فقالوه لغيره أو قالوه عنه لسائر الناس على طريق التبليغ ، فإن الملوك إذا رأوا رأياً ذكروه للخاصة وهم يذكرونه للعامة ، فكذا ههنا .

وأما قوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فقد ذكر الزجاج فيه ثلاثة أوجه : الأول : أن كلام الملأ من قوم فرعون تم عند قوله : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ ﴾ ثم عند هذا الكلام قال فرعون مجيباً لهم : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ واحتجوا على صحة هذا القول بوجهين :

أحدهما : أن قوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ خطاب للجمع لا للواحد ، فيجب أن يكون هذا كلام فرعون للقوم .

أما لو جعلناه كلام القوم مع فرعون لكانوا قد خاطبوه بخطاب الواحد لا بخطاب الجمع .

(96/281)

وأجيب عنه : بأنه يجوز أن يكونوا خاطبوه بخطاب الجمع تفخيماً لشأنه ، لأن العظيم إنما يكنى عنه بكناية الجمع كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9] ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾ [نوح : 1] ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] .

والحجة الثانية : أنه تعالى لما ذكر قوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ قال بعده : ﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ ﴾ ولا شك أن هذا كلام القوم ، وجعله جواباً عن قولهم : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فوجب أن

يكون القائل لقوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ غير الذي قالوا أرجه ، وذلك يدل على أن قوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ كلام لغير الملأ من قوم فرعون .

وأجيب عنه : بأنه لا يبعد أن القوم قالوا : ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ ثم قالوا لفرعون ولأكابر خدمه ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ثم أتبعوه بقولهم : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ فإن الخدم والأتباع يفوضون الأمر والنهي إلى المخدوم والمتبوع أولاً ، ثم يذكرون ما حضر في خواطرهم من المصلحة .

والقول الثاني : أن قوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ من بقية كلام القوم ، واحتجوا عليه بوجهين :

الأول : أنه منسوق على كلام القوم من غير فاصل ، فوجب أن يكون ذلك من بقية كلامهم .

والثاني : أن الرتبة معتبرة في الأمر ، فوجب أن يكون قوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ خطاباً من الأدنى مع الأعلى ، وذلك يوجب أن يكون هذا من بقية كلام فرعون معه .

وأجيب عن هذا الثاني : بأن الرئيس المخدوم قد يقول للجمع الحاضر عنده من رهطه ورعيته ماذا تأمرون ؟ ويكون غرضه منه تطييب قلوبهم وإدخال السرور في صدورهم وأن يظهر من نفسه كونه معظماً لهم ومعتقداً فيهم ، ثم إن القائلين بأن هذا من بقية كلام قوم فرعون ذكروا وجهين : أحدهما : أن المخاطب بهذا الخطاب هو فرعون وحده ، فإنه يقال للرئيس المطاع ما ترون في هذه الواقعة ؛ أي ما ترى أنت وحدك ، والمقصود أنك وحدك قائم مقام الجماعة .

والغرض منه التنبيه على كماله ورفعة شأنه وحاله .

والثاني : أن يكون المخاطب بهذا الخطاب هو فرعون وأكابر دولته وعظماء حضرته ، لأنهم هم المستقلون بالأمر والنهي ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 160 . 161 ﴾

(97/281)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ يعني : الأشراف والرؤساء .

قال مقاتل : إن فرعون قال بهذه المقالة فصدقه قومه كما قال في سورة الشعراء : ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء : 34] يعني : حاذق بالسحر .

ثم قال لقومه : ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ تصديقاً لقوله : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ بسحره يعني : من أرض مصر .

فقال لهم فرعون : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ يعني : أي فماذا تشيرون في أمره ؟ ويقال : إن بعضهم قال لبعض فماذا تأمرون ؟ أي ماذا ترون في أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) ﴾

الساحر كان عندهم في ذلك الزمن أعلى المراتب وأعظم الرجال ، ولكن وصفهم موسى بذلك مع مدافعتهم له عن النبوة ذم عظيم وحط ، وذلك قصدوا إذ لم يمكنهم أكثر ، وقولهم ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ يعنون بأنه يحكم فيكم بنقل رعيتكم في بني إسرائيل فيفضي ذلك إلى خراب دياركم إذا ذهب الخدمة والعمرة ، وأيضاً فلا محالة أنهم خافوا أن يقاتلهم وجالت ظنونهم كل مجال ، وقال النقاش : كانوا يأخذون من بني إسرائيل خرجاً كالجزية فرأوا أن ملكهم يذهب بزوال ذلك ، وقوله ﴿ فماذا تأمرون ﴾ الظاهر أنه من كلام الملأ بعضهم إلى بعض ، وقيل هو من كلام فرعون لهم ، وروى كردم عن نافع " تأمرونِ " بكسر النون ، وكذلك في الشعراء و" في " استفهام و" ذا " بمعنى الذي فهما ابتداء وخبر ، وفي ﴿ تأمرون ﴾ ضمير عائد على الذي تقديره تأمرون به ويجوز أن تجعل ﴿ ماذا ﴾ بمنزلة اسم واحد في موضع نصب ب ﴿ تأمرون ﴾ ولا يضمر فيه على هذا ، قال الطبري : والسحر مأخوذ من سحر المطر الأرض إذا جادها حتى يقلب نباتها ويقلعه من أصوله

فهو يسحرها سحراً والأرض مسحورة .

قال القاضي أبو محمد : وإنما سحر المطر الطين إذا أفسده حتى لا يمكن فيه عمل ، والسحر الآخذة التي تأخذ العين حتى ترى الأمر غير ما هو ، وربما سحر الذهن ، ومنه قول ذي الرمة : [الوافر]

وساحرة السراب من الموامي . . . يرقص في نواشزها الأروم

أراد أنه يخيل نفسه ماء للعيون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(99/281)

وقال أبو حيان :

﴿ قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحر عليم ﴾ .

وفي الشعراء ﴿ قال للملإ حوله إنّ هذا لساحر عليم ﴾ والجمع بينهما أن فرعون وهم قالوا هذا الكلام فحكى هنا قولهم وهناك قوله أو قاله ابتداء فتلقفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما تفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصّة ثم تبلغه الخاصة العامة والدليل عليه أنهم أجابوه في قوله ﴿ أرجه ﴾ وكان السحر إذ ذاك في أعلى المراتب فلما رأوا انقلاب العصا ثعباناً والأدماء

بيضاء وأنكروا النبوة ودافعوه عنها قصدوا ذمه بوصفه بالسحر وحطّ قدره إذ لم يمكنهم في ظهور ما ظهر على يده نسبة شيء إليه غير السحر وبالغوا في وصفه بأن قالوا : ﴿ عليم ﴾ أي بالغ الغاية في علم السّحر وخدعه وخيالاته وفنونه وأكثر استعمال لفظ هذا إذا كان من كلام الكفار في التنقص والاستغراب كما قال

﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ ﴿ إنّ هذان لساحران ﴾ ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ يعدلون عن لفظ اسم ذلك الشيء إلى لفظ الإشارة وأكدّوا نسبة السحر إليه بدخول إن واللام .

من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية .

قال البغوي : هي الفرما يعلمونهم السحر كما يعلمون الصبيان في المكتب فعلموهم سحراً كثيراً وواعد فرعون موسى موعداً ثم دعاهم وسألهم فقال : ماذا صنعتم قالوا علمناهم من السحر ما لا يقاومهم به أهل الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به ، وقرأ الأخوان بكل سحّار هنا وفي يونس والباقون ﴿ ساحر ﴾ وفي الشعراء أجمعوا على سحار وتناسب سحار ﴿ عليم ﴾ لكونهما من ألفاظ المبالغة ولما كان قد تقدّم ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ ناسب هنا أن يقابل بقوله ﴿ بكل ساحر عليم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾

أي الأشرافُ منهم وهم أصحابُ مشورتِه ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ أي مبالغٌ في علم السحر ماهرٌ فيه ، قالوه تصديقاً لفرعون وتقريراً لكلامه فإن هذا القولَ بعينه مَعْزيٌّ في سورة الشعراء إليه .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أي من أرض مصرَ ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ بفتح النون وما في ماذا في محل النصب على أنه مفعول ثان لتأمرون بحذف الجار ، والأولُ محذوف والتقديرُ بأي شيء تأمرونني ، وهذا من كلام فرعونَ كما في قوله تعالى : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ أي فإذا كان كذلك فماذا تشيرون عليّ في أمره ؟ وقيل : قاله الملأ بطريق التبليغِ إلى العامة فقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ على الأول وهو الأظهرُ حكايةً لكلام الملأ الذين شاورهم فرعونُ وعلى الثاني لكلام العامة الذين خاطبهم الملأ ويأباه أن الخطابَ لفرعون وأن المشاورةَ ليست وظائفَهم أي أخِّرْه وأخاه ، وعدمُ التعرض

لذكره لظهور كونِه معه حسبما تنادي به الآياتُ الأُخَرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(101/281)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ ﴾

أي الأشراف منهم وهم أهل مشورته ورؤساء دولته .

﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ أي مبالغ في علم السحر ماهر فيه .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أي من أرض مصر ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي تشيرون في أمره كما فسره بذلك ابن عباس ، فهو من الأمر بمعنى المشاورة ، يقال : آمرته فآمرني أي شاورته فأشار على ، وقيل من الأمر المعهود ، و ﴿ مَاذَا ﴾ في محل نصب على أنه مفعول لتأمرون بحذف الجار ، أي بأي شيء تأمرون ، وقيل : ﴿ مَا ﴾ خبر مقدم و ﴿ ذَا ﴾ اسم موصول مبتدأ مؤخر ، أي ما الذي تأمرون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(102/281)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) ﴾

جرت جملة : ﴿ قال الملأ ﴾ على طريقة الفصل لأنها جرت في طريق المحاورة الجارية بين موسى وبين فرعون وملئه فإنه حوار واحد .

وتقدم الكلام على الملإِ آنفاً في القصص الماضية ، فملأ قوم فرعون هم سادتهم وهم أهل مجلس فرعون ومشورته ، وقد كانت دعوة موسى أول الأمر قاصرة على فرعون في مجلسه فلم يكن بمرأى ومسمع من العامة لأن الله تعالى قال في آية أخرى ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ [طه : 43] وقال في هذه الآية : ﴿ إلى فرعون وملائه ﴾ [الأعراف : 103] وإنما أشهرت دعوته في المرة الآتية بعد اجتماع السحرة .

وإنما قالوا هذا الكلام على وجه الشورى مع فرعون واستنباط الاعتذار لأنفسهم عن قيام حجة موسى في وجوههم فاعتلوا لأنفسهم بعضهم لبعض بأن موسى إنما هو ساحر عليم بالسحر أظهر لهم ما لا عهد لهم بمثله من أعمال السحرة ، وهذا القول قد أعرب عن رأي جميع أهل مجلس فرعون ، ففرعون كان مشاركاً لهم في هذا لأن القرآن حكى عن فرعون في غير هذه السورة أنه قال للملإ حوله ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ ، وهذه المعذرة قد انتحلوها وتواطأوا عليها تبعوا فيها ملكهم أو تبعهم فيها ، فكل واحد من أهل ذلك المجلس

قد وطَّن نفسه على هذا الاعتذار ولذلك فالخطاب في قوله : ﴿ يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ خطاب بعضهم لبعض وهو حاصل من طوائف ذلك الملأ لطوائفَ يرددونه بينهم ويقوله بعضهم لبعض .

ووجه استفادتهم أن موسى يريد إخراجهم من أرضهم ، إما أنهم قاسوا ذلك عن قول موسى ﴿ فأرسل معى بني إسرائيل ﴾ [الأعراف : 105] بقاعدة ما جاز على المثل يجوز على المماثل ، يعنون أنه ما أظهر إخراج بني إسرائيل إلاْ ذريعة لإخراج كل من يؤمن به ليتخذهم تبعاً ويقيم بهم ملكاً خارجَ مصر .

فزعموا أن تلك مكيدة من موسى لثلم ملك فرعون .

(103/281)

وإما أن يكون ملأ فرعون محتوياً على رجال من بني إسرائيل كانوا مقربين عند فرعون ومن أهل الرأي في المملكة ، فهم المقصود بالخطاب ، أي : يريد إخراج قومكم من أرضكم التي استوطنتموها أربعة قرون وصارت لكم موطناً كما هي للمصريين ، ومقصدهم من ذلك تذكيرهم بحب وطنهم ، وتقريبهم من أنفسهم ، وإنساؤهم ما كانوا يلقون من اضطهاد القبط واستذلالهم ، شعوراً منهم بحراجة الموقف .

وإما إنهم علموا أنه إذا شاع في الأمة ظهور حجة موسى وعَجْز فرعون وملئه أدخل ذلك فتنة في عامة الأمة فآمنوا بموسى وأصبح هو الملك على مصر فأخرج فرعونَ وملأه منها .

ويجوز أن يكون الملأ خاطبوا بذلك فرعون .

فجرَتْ ضمائر الخطاب في قوله : ﴿ أن يخرجكم من أرضكم ﴾ على صيغة الجمع تعظيماً للملك كما في قوله تعالى : ﴿ قال رب ارجعون ﴾ [المؤمنون : 99] وهذا استعمال مطرد .

والأمر حقيقته طلبُ الفعل ، فمعنى ﴿ فماذا تأمرون ﴾ ماذا تطلبون أن نفعل ، وقال جماعة من أهل اللغة : غلب استعمال الأمر في الطلب الصادر من العلي إلى من دونه فإذا التزم هذا كان إطلاقه هنا على وجه التلطف مع المخاطبين ، وأياً ما كان فالمقصود منه الطلب على وجه الإفتاء والاشتوار لأن أمرهم لا يتعين العمل به ، فإذا كان المخاطب فرعون على ما تقدم ، كان مراداً من الأمر الطلب الذي يجب امتثاله كما قال ملأ بلقيس : ﴿ فانظُري ماذا تأمرين ﴾ [النمل : 33] .

والساحر فاعل السحر ، وتقدم الكلام على السحر عند قوله تعالى : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ في سورة البقرة (102) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) ﴾

عرفنا أن الملأ هم القوم الذين يتصدرون المجالس ، ويملأونها أو الذين يملأون العيون هيبة ، والقلوب مهابة وهم هنا المقربون من فرعون . وكأنهم يملكون فكرة وعلما عن السحر .

وفي سورة الشعراء جاء القول الحق : ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء : 34]

إذن فهذه رواية جاءت بالقول من الملأ ، والآية الأخرى جاءت بالقول على لسان فرعون ، وليس في هذا أدنى تناقض ، ومن الجائز أن يقول فرعون : إنه ساحر ، وأيضاً أن يقول الملأ : إنه ساحر . وتتوارد الخواطر في أمر معلوم متفق عليه . وقد حدث مثل هذا في القرآن حينما نزلت آيات في خلق الإنسان وتطوره بأن كان علقة فمضغة إلخ فقال كاتب الوحي بصوت مسموع : ﴿ . . . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14]

عن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربي في أربع : نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ الآية قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ .

" وعن زيد بن ثابت الأنصاري قال : أملى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية

: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ . . . خَلْقاً آخَرَ ﴾ فقال معاذ : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : مِمّ تضحك يا رسول الله ؟ فقال : " بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين " .

لقد جاءت الخواطر في الحالة المهيجة لأحاسيس الإيمان لحظة نزول الوحي بمراحل خلق الإنسان .

(105/281)

فما الذي يمنع من توارد الخواطر فيجيء الخاطر عند فرعون وعند الملأ فيقول ويقولون ؟ أو يكون فرعون قد قالها وعلى عادة الأتباع والأذناب إذا قال سيدهم شيئاً كرروه . ﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 109]

ولم يصفوا فعل سيدنا موسى بأنه ساحر فقط بل بالغوا في ذلك وقالوا : إنه ساحر عليم .

وأضافوا ما جاء على ألسنتهم بالقرآن في هذه السورة .

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) ﴾

إنها نكبة جاءت لفرعون الذي يدعي الألوهية ، ونكبة لمن حوله من هؤلاء الذين يوافقونه ، فكيف يواجهها حتى يظل في هيئته وهيبته ؛ قال عن موسى : إنه ساحر ، لكي يصرف

الناس الذين رأوا معجزات موسى عن الإيمان والاقتناع به ، وأنه رسول رب العالمين ، وبعد ذلك يهيج فرعون وطنيتهم ويهيج ويثير غيرتهم ويحرك انتماءهم إلى مكانهم فقال : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

(106/281)

اتهموا موسى عليه السلام بأنه يريد أن يخرج الناس بسحره من أرضهم ، وهذا القول من فرعون ومن معه له هدف هو تهييج الناس وإثارتهم ؛ لأن فرعون اقنع الناس أنه إله . وها هي ذي الألوهية تكاد تنهدم في لحظة ، فقال عن موسى إنه ساحر ، وبين قوم لهم إلف بالسحر ، وقوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ على لسان الملأ من قوم فرعون تدل على أن القائل للعبارة أدنى من المقول لهم ، فالمفروض أن فرعون هو صاحب الأمر على الجميع ، ومجيء القول : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ يدل على أن الذي يأمر في مسائل مثل هذه هو فرعون ، وهذا يشعر بأن فرعون قد أدرك أن مكانته قد انحطت وأنه نزل عن كبريائه وغطرسته . أو أن يكون ذلك من فرعون تطييباً لقلوب من حوله ، وأنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة ، فكيف تشاور الناس يا فرعون وأنت قد غرست في الناس أنك إله ؟ وهل يشاور الإله مألوهاً ؟ .

إن قولك هذا يحمل الخيبة فيك لأنك تدعي الألوهية ثم تريد أن تستعين بأمر المألوه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(107/281)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَمَاذَا تَأْمُرُونَ "

قد تقدَّم الكلامُ على " ماذا " ، والجمهور على " تَأْمُرُونَ " بفتح النُّونِ ، وروى كردم عن نافعٍ كسرها ، وعلى كلتا القراءتين يجوز أن تكون " ماذا " كلمة اسماً واحداً في محلِّ نصب على أَنَّهُ مفعولٌ ثانٍ لـ " تَأْمُرُون " بعد حذف الياء ، ويكون المفعول الأوَّل لـ " تَأْمُرُونَ " محذوفاً ، وهو ياء المتكلم والتقديرُ : بأي شْيءٍ تأمرونني .

وعلى قراءة نافع لا تَقُول إنَّ المفعول الأوَّلَ محذوف ، بل هو في قوَّةِ المَنْطُوق به ؛ لأنَّ الكسرة دالة عليه ، فهذا الحَذْفُ غير الحذف في قراءة الجماعة .

ويجوزُ أن تكون " ما " استفهاماً في محل رفع بالابتداء ، و " ذا " موصول ، وصلته العائد منصوب المحل غير معدى إليه بالباء فتقديرُهُ : فما الذي تأمرونيه .

وقدّره ابن عطية " تَأْمُرُونِي بِهِ " ، وردَّ عليه أبو حيَّان بأنَّهُ يلزم من ذلك حذف العائد المجرور بحرف لم يجر الموصول بمثله ، ثم اعتذر عنه بأنَّه أراد التقدير الأصلي ، ثم اتّسع فيه بأن حذف الحرف ، فاتّصل الضَّميرُ بالفعل .

وهذه الجملة هل هي من كلام المَلأ ، ويكونُون قد خاطبوا فِرعَوْنَ بذلك وحده تعظيماً له كما يُخاطب الملوك بصِيغَةِ الجمع ، أو يكونون قالوه له ولأصحابه أو يكون من كلام فرعون على إضمار قول أي : فقال لهم فرعون فماذا تَأْمُرون ويكون كلام الملأ قد تم عند قوله : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ ويؤكد كونها من كلام فرعون قوله تعالى : ﴿ قالوا أَرْجِهْ ﴾ [الأعراف : 111] .

(108/281)

وهل " تَأْمُرُونَ " من الأمر المعهود أو من الأمر الذي بمعنى المشاورة ؟ والثاني منقول عن ابن عباس .

وقال الزمخشريُّ : " هو من أَمَرْتُه فأمرني بكذا أي : شاورته فأشار عليَّ برأي " . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 252 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) ﴾

إذا أراد اللهَ هوان عبدٍ لا يزيد الحقَّ حُجَّةً إلا ويزيد لذلك المُبْطِل فيه شبهةً ؛ فكلَّما زاد موسى – عليه السلام – في إظهار المعجزات ازدادوا حيرةً في التأويلات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 556 ﴾

(109/281)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : فعلى أيّ شيء استقر رأيهم ؟ فقيل : على تاخير الأمر إلى حشر السحرة للمعارضة ، أخبر تعالى ، دلالة على أن أصل قول الملأ منه ، أنهم أقبلوا عليه مخاطبين له ملفتين من أبلغهم عنه تعظيماً له مسندين الأمر إليه بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي الملأ

لفرعون بعد ما استقر في أذهانهم ما نصبوه إليه من الإرادة ﴿ أرجه ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ وأخاه ﴾ أي أخرهما تنفيساً لنا من هذا الخناق إلى وقت ما حتى ننظر في أمرهما ﴿ وأرسل في المدائن ﴾ أي من ملك مصر ﴿ حاشرين ﴾ يحشرون لك السحرة ويجمعونهم من كل فج عميق ، والحشر : الجمع بكره ﴿ يأتوك بكل ﴾ ولما كانت دلالة السياق على رغب فرعون أقل مما في الشعراء لما اقتضاه الحال في كل منهما ، قرأ الجمهور : ﴿ ساحر عليم ﴾ أي بالغ العلم في السحر ، وفي قراءة حمزه والكسائي ﴿ سحار ﴾ زيادة مبالغة أيضاً لما رأوا من قلق فرعون في الجملة ، وهذا يدل على أن السحرة كانوا في ذلك الزمان عندهم في غاية الكثرة ، ويدل على أن في طبع الناس المعارضة ، فمهما أمكنت بطلت دعوى النبوة ، وإذا تعذرت صحت الدعوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 82.81 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع والكسائي ﴿ أَرْجِهْ ﴾ بغير همز وكسر الهاء والإشباع ، وقرأ عاصم وحمزة ﴿ أَرْجِهْ ﴾ بغير الهمز وسكون الهاء .

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمر ﴿ وأرجئه ﴾ بالهمز وضم الهاء ، ثم أن ابن كثير أشبع الهاء على أصله والباقون لا يشبعون .

قال الواحدي : رحمه الله ﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ ﴾ مهموز وغير مهموز لغتان يقال أرجأت الأمر وأرجيته إذا أخرته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ ﴾ [التوبة : 106] ﴿ ترجي مَن تَشَاء ﴾ [الأحزاب : 51] قرىء في الآيتين باللغتين ، وأما قراءة عاصم وحمزة بغير الهمز ، وسكون الهاء فقال الفراء : هي لغة العرب يقفون على الهاء المكني عنها في الوصل إذا تحرك ما قبلها وأنشد .

(110/281)

فيصلح اليوم ويفسده غداً . . قال وكذلك يفعلون بهاء التأنيث فيقولون : هذه طلحة قد أقبلت ، وأنشد .

لما رأى أن لا دعه ولا شبع . . ثم قال الواحدي : ولا وجه لهذا عند البصريين في القياس .

وقال الزجاج : هذا شعر لا نعرف قائله ، ولو قاله شاعر مذكور لقيل له أخطأت .

المسألة الثانية :

في تفسير قوله : ﴿ أَرْجِهْ ﴾ قولان : الأول : الإرجاء التأخير فقوله : ﴿ أَرْجِهْ ﴾ أي

أخره .

ومعنى أخره : أي أخر أمره ولا تعجل في أمره بحكم ، فتصير عجلتك حجة عليك ، والمقصود أنهم حاولوا معارضة معجزته بسحرهم ، ليكون ذلك أقوى في إبطال قول موسى عليه السلام .

والقول الثاني : وهو قول الكلبي وقتادة ﴿ أَرْجِهْ ﴾ احبسه .

قال المحققون هذا القول ضعيف لوجهين : الأول : أن الإرجاء في اللغة هو التأخير لا الحبس ، والثاني : أن فرعون ما كان قادراً على حبس موسى بعد ما شاهد حال العصا .

أما قوله : ﴿ وَأَرْسِلْ فِى المدائن حاشرين ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

هذه الآية تدل على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان وإلا لم يصح قوله : ﴿ وَأَرْسِلْ فِى المدائن حاشرين يَأْتُوكَ بِكُلّ ساحر عَلِيمٍ ﴾ ويدل على أن في طباع الخلق معرفة المعارفة ، وإنها إذا أمكنت فلا نبوة ، وإذا تعذرت فقد صحت النبوة ، وأما بيان أن السحر ما هو وهل له حقيقة أم لا بل هو محض التمويه ، فقد سبق الاستقصاء فيه ، في سورة البقرة .

المسألة الثانية :

نقل الواحدي عن أبي القاسم الزجاجي : أنه قال اختلف أصحابنا في المدينة على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنها فعيلة لأنها مأخوذة من قولهم مدن بالمكان يمدن مدونا إذا أقام به ، وهذا القائل يستدل بإطباق القراء على همز المدائن ، وهي فعائل كصحائف وصحيفة وسفائن وسفينة والياء إذا كانت زائدة في الواحد همزت في الجمع كقبائل وقبيلة ، وإذا كانت من نفس الكلمة لم تهمز في الجمع نحو معايش ومعيشة .

(111/281)

والقول الثاني : أنها مفعلة ، وعلى هذا الوجه ، فمعنى المدينة المملوكة من دانه يدينه ، فقولنا مدينة من دان ، مثل معيشة من عاش ، وجمعها مداين على مفاعل .

كمعايش ، غير مهموز ، ويكون اسماً لمكان والأرض التي دانهم السلطان فيها أي ساسهم وقهرهم .

والقول الثالث : قال المبرد مدينة أصلها مديونة من دانه إذا قهره وساسه ، فاستثقلوا حركة الضمة على الياء فسكنوها ونقلوا حركتها إلى ما قبلها ، واجتمع ساكنان الواو المزيدة التي هي واو المفعول ، والياء التي هي من نفس الكلمة ، فحذفت الواو لأنها زائدة ، وحذف الزائد أولى من حذف الحرف الأصلي ، ثم كسروا الدال لتسلم الياء ، فلا تنقلب واواً لانضمام ما قبلها فيختلط ذوات الواو بذوات الياء ، وهكذا القول في المبيع والمخيط

والمكيل ، ثم قال الواحدي : والصحيح أنها فعيلة لاجتماع القراء على همز المدائن .

المسألة الثالثة :

﴿ وَأَرْسِلْ فِى المدائن حاشرين ﴾

يريد وأرسل في مدائن صعيد مصر رجالاً يحشروا إليك ما فيها من السحرة .

قال ابن عباس : وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد ، ونقل القاضي عن ابن عباس ، أنهم كانوا سبعين ساحراً سوى رئيسهم ، وكان الذي يعلمهم رجلاً مجوسياً من أهل نينوى بلدة يونس عليه السلام ، وهي قرية بالموصل .

وأقول هذا النقل مشكل ، لأن المجوس أتباع زرادشت ، وزرادشت إنما جاء بعد مجيء موسى عليه السلام .

أما قوله : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحر عَلِيمٍ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي بكل سحار ، والباقون بكل ساحر ، فمن قرأ سحار فحجته أنه قد وصف بعليم ، ووصفه به يدل على تناهيه فيه وحذقه به ، فحسن لذلك أن يذكر بالاسم الدال على المبالغة في السحر ، ومن قرأ ساحر فحجته قوله : ﴿ وَأُلْقِىَ السحرة ﴾ [الأعراف : 120] ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السحرة ﴾ [الشعراء : 40] والسحرة جمع ساحر مثل كتبه وكاتب وفجرة وفاجر .

واحتجوا أيضاً بقوله : ﴿ سَحَرُواْ أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف : 116] واسم الفاعل من سحروا ساحر .

المسألة الثانية :

الباء في قوله : ﴿ بِكُلّ ساحر ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى مع ، ويحتمل أن تكون باء التعدية والله أعلم .

المسألة الثالثة :

هذه الآية تدل على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان ، وهذا يدل على صحة ما يقوله المتكلمون ، من أنه تعالى يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالباً على أهل ذلك الزمان فلما كان السحر غالباً على أهل زمان موسى عليه السلام كانت معجزته شبيهة بالسحر وإن كان مخالفاً للسحر في الحقيقة ، ولما كان الطب غالباً على أهل زمان عيسى عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب ، ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان محمد عليه الصلاة والسلام لا جرم كانت معجزته من جنس الفصاحة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 161.163 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾

يعني : احبسهما ولا تقتلهما .

وأصله في اللغة التأخير أي أخر أمرهما حتى تجتمع السحرة فيغلبوهما .

فإنك إن قتلتهما قبل أن يظهر حالهما يظن الناس أنهما صادقان .

فإذا تبين كذبهما عند الناس فاقتلهما حينئذٍ .

فذلك قوله : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ ﴾ أي : ابعث ﴿ فِى المدائن حاشرين ﴾ يعني : الشرط يحشرون الناس إليكم أي : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحر عَلِيمٍ ﴾ أي : حاذق بالسحر

قرأ ابن كثير أرجئهو بالهمزة والواو بعد الهاء .

وقرأ الكسائي أرجهي إلا أنه بكسر الهاء ولا يتبع الياء .

وقرأ أبو عمر وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر في إحدى الروايتين أرجئه بالهمز بغير مد والضمة .

وهذه اللغات كلها مروية عن العرب .

وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر والكسائي بكل سَحَّار عليم على وجه المبالغة في السحر .

وقرأ الباقون بكل ساحر وهكذا في يونس واتفقوا في الشعراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ أَرْجِه وَأَخَاهُ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : معناه أخِّرْهُ ، قاله ابن عباس والحسن .

والثاني : أحبسه ، قاله قتادة والكلبي .

﴿ وَأَرْسِلْ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ قال ابن عباس : هم أصحاب الشُرَط وهو قول الجماعة أرسلهم في حشر السحرة وكانوا اثنين وسبعين رجلاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(114/281)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) ﴾

ثم أشار الملأ على فرعون بأن يؤخر موسى وهارون ويدع النظر في أمرهما ويجمع السحرة من كل مكان حتى تكون غلبة موسى بحجة واضحة معلومة بينة ، وقرأ ابن كثير " أرجئهو " بواو بعد الهاء المضمومة وبالهمز قبل الهاء ، وقرأ أبو عمرو " أرجئه " بالهمز ، دون واو بعدها وقرأ نافع وحده في رواية قالون : " أرجهِ " بكسر الهاء ، ويحتمل أن يكون المعنى : أخره فسهل الهمزة ، ويحتمل من الرجا بمعنى أطعمه ورجه قاله المبرد ، وقرأ ورش عن نافع : " أرجهِي " بياء بعد كسرة الهاء ، وقرأ ابن عامر : " أرجئهِ " بكسر الهاء وبهمزة قبلها ، قال الفارسي وهذا غلط وقرأ عاصم والكسائي " أرجهُ " بضم الهاء دون همز ، وروى أبان عن عاصم : " أرجهْ " بسكون الهاء وهي لغة تقف على هاء الكناية إذا تحرك ما قبلها ، ومنه قول الشاعر : [منظور بن حبة الأسدي]

أنحى عليَّ الدهرُ رجلاً ويدا . . . يقسم لا أصلحَ إلا أفسدا

فيصلح اليوم ويفسد غداً .

وقال الآخر :

لما رأى أن لا دعة ولا شبع . . . مال إلى أرطاة حقق فاضطجع

وحكى النقاش أنه لم يكن يجالس فرعون ولد غية وإنما كانوا أشرافاً ولذلك أشاروا

بالإرجاء ولم يشيروا بالقتل وقالوا : إن قتلته دخلت على الناس شبهة ولكن اغلبه بالحجة ، و﴿ المدائن ﴾ جمع مدينة وزنها فعيلة من مدن أو مفعلة من دان يدين وعلى هذا يهمز مدائن أو لا يهمز ، و﴿ حاشرين ﴾ معناه جامعين ، قال المفسرون : وهم الشرط ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر " بكل ساحر " وقرأ حمزة والكسائي : " بكل سحار " على بناء المبالغة وكذلك في سورة يونس ، وأجمعوا على " سحار " في سورة الشعراء ، وقال قتادة : معنى الإرجاء الذي أشاروا إليه السجن والحبس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(115/281)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) ﴾

والمعنى أخِّرْ أمرَهما وأصدِرْهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبرَ شأنهما ، وقرىء أرجِئْه وأرجِهِ من أرْجَأَه وأرْجاه ﴿ وَأَرْسِلْ فِى المدائن حاشرين ﴾ قيل : هي مدائنُ صعيدِ مصرَ وكان رؤساءُ السحرةِ ومَهَرتُهم بأقصى مدائنِ الصعيد . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم كانوا سبعين ساحراً أخذوا السحرَ من رجلين مجوسيين من

أهل نينَوى مدينةِ يونسَ عليه السلام بالمَوْصِل ، ورُد ذلك بأن المجوسيةَ ظهرت بزرادَشْت وهو إنما جاء بعد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ أي ماهرٍ في السحر ، وقرىء بكل سحّار عليم ، والجملةُ جوابُ الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(116/281)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) ﴾

أي أخر أمرهما وأصدرهما عنك ولا تعجل في أمرهما حتى ترى رأيك فيهما ، وقيل : احبسهما ، واعترض بأنه لم يثبت منه الحبس .

وأجيب بأن الأمر به لا يوجب وقوعه ؛ وقيل عليه أيضاً : إنه لم يكن قادراً على الحبس بعد أن رأى ما رأى ، وقوله : ﴿ لاجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ [الشعراء : 29] في الشعراء كان قبل هذا ، وأجيب بأن القائلين لعلهم لم يعلموا ذلك منه ، وقال أبو منصور : الأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر وهو الهم بقتله ، فقالوا : أخره ليتبين حاله للناس ، وليس بلازم كما لا يخف ؛ وأصل أرجه أرجئه بهمزة ساكنة وهاء مضمونة دون واو ثم

حذفت الهمزة وسكنت الهاء لتشبيه المنفصل بالمتصل ، وجعل جه وكابل في إسكان وسطه ، وبذلك قرأ أبو عمرو .

وأبو بكر .

ويعقوب على أنه من أرجات ، وكذلك قراءة ابن كثير .

وهشام .

وابن عامر ﴿ أرجئهو ﴾ بهمزة ساكنة وهاء متصلة بواو الاشباع .

وقرأ نافع في رواية ورش .

وإسماعيل .

والكسائي ﴿ أرجهي ﴾ بهاء مكسورة بعدها ياء من أرجيت ، وفي رواية قالون ﴿ إن أَرْجِهْ ﴾ بحذف الياء للاكتفاء عنها بالكسرة ، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان ﴿ أرجئه ﴾ بالهمزة وكسر الهاء ، وقد ذكر بعضهم أن ضم الهاء وكسرها والهمز وعدمه لغتان مشهورتان ، وهل هما ماذتان أو الياء بدل من الهمزة كتوضأت وتوضيت ؟ قولان ، وطعن في القراءة على رواية ابن ذكوان ، فقال الحوفي : إنها ليست بجيدة ، وقال الفارسي : إن ضم الهاء مع الهمزة لا يجوز غيره وكسرها غلط لأن الهاء لا تكسر إلا بعد ياء ساكنة أو كسرة ، وأجيب كما قال الشهاب عنه بوجهين : أحدهما : أن الهمزة ساكنة والحرف الساكن حاجز غير حصين فكأن الهاء وليت الجيم المكسورة فلذا كسرت ، والثاني : أن الهمزة

عرضة للتغيير كثيراً بالحذف وإبدالها ياء إذا سكنت بعد كسرة فكأنها وليست ياء ساكنة فلذا كسرت .

(117/281)

وأورد على ذلك أو شامة أن الهمزة تعد حاجزاً وأن الهمزة لو كانت ياء كان المختار الضم نظراً لأصلها وليس بشيء بعد أن قالوا : إن القراءة متواترة وما ذكر لغة ثابتة عن العرب ، هذا واستشكل الجمع بين ما هنا وما في الشعراء فإن فيها ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء : 34 ، 35] وهو صريح في أن ﴿ إِنَّ هذا لساحر ﴾ إلى ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف : 109 ، 110] كلام فرعون وما هنا صريح في نسبة قول ذلك للملا والقصة واحدة فكيف يختلف القائل في الموضعين وهل هذا إلا منافاة ؟ وأجيب بأنه لا منافاة لاحتمالين . الأول : أن هذا الكلام قاله فرعون والملأ من قومه فهو كوقع الحافر على الحافر فنقل في الشعراء كلامه وهنا كلامهم ، والثاني : أن هذا الكلام قاله فرعون ابتداء ثم قاله الملأ إما بطريق الحكاية لأولادهم وغيرهم وإما بطريق التبليغ لسائر الناس فما في الشعراء كلام فرعون ابتداء وما هنا كلام الملا نقلاً عنه .

واختار الزمخشري أن ما هنا هو قول الملأ نقلاً عن فرعون بطريق التبليغ لا غير لأن القوم لما سمعوه خاطبوا فرعون بقولهم : أرجه الخ ، ولو كان ذلك كلام الملأ ابتداء لكان المطابق أن يجيبوهم بارجئوا ، ولا سبيل إلى أنه كان نقلاً بطريق الحكاية لأنه حينئذ لم يكن مؤامرة ومشاورة مع القوم فلم يتجه جوابهم أصلاً ، فتعين أن يكون بطريق التبليغ فلذا خاطبوه بالجواب .

بقي أن يقال هذا الجواب بالتأخير في الشعراء كلام الملأ لفرعون وههنا كلام سائر القوم . لكن لا منافاة لجواز تطابق الجوابين .

(118/281)

وقول شيخ الإسلام : إن كون ذلك جواب العامة يأباه أن الخطاب لفرعون وأن المشاورة ليست من وظائفهم ليس بشيء ، لأن الأمر العظيم الذي تصيب تبعته أهل البلد يشاور فيه الملك الحازم عوامهم وخواصهم ، وقد يجمعهم لذلك ويقول لهم : ماذا ترون فهذا أمر لا يصيبني وحدي ورب رأي حسن عند من لم يظن به على أن في ذلك جمعاً لقلوبهم عليه وعلى الاحتفال بشأنه ، وقد شاهدنا أن الحوادث العظام يلتفت فيها إلى العوام ، وأمر موسى عليه السلام كان من أعظم الحوادث عند فرعون بعد أن شاهد منه ما شاهد ثك

أنهم اختلفوا في قوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف : 110] فقيل : إنه من تتمة كلام الملأ ، واستظهره غير واحد لأنه مسوق مع كلامهم من غير فاصل ، فالأنسب أن يكون من بقية كلامهم ، وقال الفراء .

والجبائي : إن كلام الملا قد تم عند قوله سبحانه : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ [الأعراف : 110] ثم قال فرعون : فماذا تأمرون قالوا : أرجه ، وحينئذ يحتمل كما قال القطب أن يكون كلام الملأ مع فرعون وخطاب الجمع في يخرجكم إما لتفخيم شأنه أو لاعتباره مع خدمه وأعوانه .

ويحتمل أن يكون مع قوم فرعون والمشاورة منه .

ثم قال : وإنما التزموا هذا التعسف ليكون مطابقاً لما في الشعراء في أن قوله : ﴿ مَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ من كلام فرعون وقوله : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ كلام الملأ .

لكن ما ارتفعت المخالفة بالمرة لأن قوله : ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم ﴾ [الأعراف : 109 ، 110] كلام فرعون للملأ .

وفي هذه السورة على ما وجهوه كلام الملأ لفرعون ، ولعلهم يحملونه على أنه قال لهم مرة وقالوه له أخرى انتهى .

ويمكن أن يقال : إن الملأ لما رأوا من موسى عليه السلام ما رأوا قال بعضهم لبعض : إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تشيرون وما تستحسنون في أمره ؟ ولما رآهم فرعون أنهم مهتمون من ذلك قال لهم تنشيطاً لهم وتصويباً لما هم عليه قبل أن يجيب بعضهم بعضاً بما عنده مثل ما قالوه فيما بينهم فالتفتوا إليه وقالوا : أرجه وأخاه ، فحكى سبحانه هنا مشاورة بعضهم لبعض وعرض ما عندهم على فرعون أول وهلة قبل ذكره فيما بينهم ، وحكى في "الشعراء" كلامه لهم ومشاورته إياهم التي هي طبق مشاورة بعضهم بعضاً المحكية هنا وجوابهم له بعد تلك المشاورة ، وعلى هذا لا يدخل العوام في الشورى ، ويكون ههنا أبلغ في ذم الملأ فليتدبر والله تعالى أعلم بأسرار كلامه ﴿ وَأَرْسِلْ فِى المدائن ﴾ أي البلاد جمع مدينة ، وهي من مدن بالمكان كنصر إذا أقام به ، ولكون الياء زائدة كما قال غير واحد تقلب همزة في الجمع ، وأريد بها مطلق المدائن ، وقيل : مدائن صعيد مصر ﴿ حاشرين ﴾ أي رجالاً يجمعون السحرة ، وفسره بعضهم بالشرط وهم أعوان الولاة لأنهم يجعلون لهم علامة ، ويقال للواحد شرطي بسكون الراء نسبة للشرطة ، وحكى في "القاموس" فتحها أيضاً ، وفي الأساس أنه خطأ لأنه نسبة إلى الشرط الذي هو جمع ، ونصب الوصف على أنه صفة لمحذوف ومفعوله محذوف أيضاً كما أشير إليه ، وقد نص على ذلك الأجهوري .

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

أي ماهر في السحر والفعل مجزوم في جواب الطلب .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ سَحَّارٍ ﴾ وجاء فيه الامالة وعدمها وهو صيغة مبالغة ؛ وفسره بعضهم بأنه الذي يديم السحر والساحر من أن يكون قد سحر في وقت دون وقت ، وقيل : الساحر : هو المبتدىء في صناعة السحر والسحار هو المنتهى الذي يتعلن منه ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(120/281)

وقال القاسمى :

﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي : أخر أمرهما وأصدرهما عنك ، حتى ترى رأيك فيهما ، وتدبر شأنهما ، لئلا تنسب إلى الظلم الصريح .

قال أبو منصور : والأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر ، وهو الهم بقتله ، فقالوا أخره ليتبين حاله للناس .

وأصل : ﴿ أَرْجِهْ ﴾ أرجئه ، كما قرئ كذلك : من (أرجات) .

﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ ﴾ أي : مدائن الصعيد من نواحي مصر ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ أي : من يحشر لك السحرة ويجمعهم .

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ ﴾ وقرء (سحّار) ﴿ عَلِيمٍ ﴾ أي : ماهر في باب السحر ، ليعارضوا موسى ما أراهم من البينات .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على عظيم معجزة لموسى ، وتدل على جهل فرعون وقومه ، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يقدر عليه غير الله تعالى ، حتى نسبوه إلى السحر . وتدل على أن عادة البشر ، أن من رأى أمراً عظيماً أن يعارضه ، فلذلك دعا فرعون بالسحرة ، فدل على أن العرب لو قدروا على مثل القرآن ، لعارضوه .

وتدل على أن الطريق في المعجزات ، المعارضة بإتيان مثله ، ولذلك قال تعالى في القرآن : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ ، ولذلك لم يتكلف فرعون وقومه غير المعارضة وإيقاع الشبه .

وتدل أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال ، لذلك قالوا : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُم ﴾ فيدل على أن من أقوى الدواعي إلى ترك الدين المحافظة على الرياسة والمال والجاه ، كما هو عادة الناس في هذا الزمن . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 165.166 ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ قالوا أرجه ﴾ جواب القوم المستشَارين ، فتجريدها من حرف العطف لجريانها في طريق المحاورة ، أي : فأجاب بعض الملأ بإبداء رأي لفرعون فيما يتعين عليه اتخاذه .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ قالوا أرجه ﴾ بدلاً من جملة : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ بإعادة فعل القول وهو العامل في المبدل منه إذا كان فرعون هو المقصود بقولهم : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ .

وفعل ﴿ أرجه ﴾ أمر من الإرجاء وهو التأخير .

قرأه نافع ، وعاصم ، والكسائي وأبو جعفر ﴿ أرجه ﴾ بجيم ثم هاء وأصله (أرجئه) بهمزة بعد الجيم فسُهلت الهمزة تخفيفاً ، فصارت ياء ساكنة ، وعوملت معاملة حرف العلة في حالة الأمر ، وقرأه الباقون بالهمز ساكناً على الأصل ولهم في حركات هاء الغيبة وإشباعها وجوه مقررة في علم القراءات .

والمعنى : أخّرْ المجادلة مع موسى إلى إحضار السحرة الذين يدافعون سحره ، وحكى القرآن ذكر الأخ هنا للإشارة إلى أنه طوي ذكره في أول القصة ، وقد ذكر في غير هذه القصة ابتداء .

وعدي فعل الإرسال (بفي) دون (إلى) لأن الفعل هنا غير مقصود تعديته إلى المرسل إليهم بل المقصود منه المرسَلون خاصة .

وهو المفعول الأول .

إذ المعنى : وأرسل حاشرين في المدائن يأتوك بالسّحرة ، فعُلم أنهم مرسلون للبحث والجلب .

لا للإبلاغ وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا فيهم رسولاً منهم ﴾ في سورة المؤمنين (32) ، قال في ﴿ الكشاف ﴾ هنالك : "لمْ يُعَد الفعل بفي مثلَ ما يُعدى بإلى ، ولكن الأمة جعلت موضعاً للإرسال كما قال رؤبة:

أرسلتَ فيها مُصْعَبا ذَا إقحام . . .

وقد جاء (بَعَثَ) على ذلك في قوله : ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ [الفرقان : 51] ، وقد تقدم آنفاً قريب منه عند قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي ﴾ [الأعراف : 94] .

(122/281)

والمَدائن : جمع مدينة ، وهي بوزن فعيلة ، مشتقة من مَدَن بالمكان إذا أقام ولعل (مَدَن) هو المشتق من المدينة لا العكس ، وأيّاً ما كان فالأظهر أن ميم مدينة أصلية ولذلك جمعت على مدائن بالهمزة كما قالوا (صَحَائف) جمع صحيفة .

ولو كانت مَفْعَلة من دانه لقالوا في الجمع مداين بالياء مثل معايش .

ومداين مصر في ذلك الزمن كثيرة وسنذكر بعضها عند قوله تعالى : ﴿ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ﴾

في سورة الشعراء (53) .

قيل أرادوا مدائن الصعيد وكانت مقر العلماء بالسحر .

والحاشرون الذين يحشرون الناس ويجمعونهم .

والشأن أن يكون ملأ فرعون عقلاءَ أهلَ سياسة ، فعلموا أن أمر دعوة موسى لا يكاد يخفى .

وأن فرعون إنْ سجنه أو عاند ، تحقق الناس أن حجة موسى غلبت ، فصار ذلك ذريعة للشك في دين فرعون ، فرأوا أن يلاينوا موسى ، وطمعوا أن يوجد في سحَرة مصر من يدافع آيات موسى ، فتكون الحجة عليه ظاهرة للناس .

وجَزْم ﴿ يأتوك ﴾ على جواب الأمر للدلالة على شدة اتصال السببية بين الإرسال والإتيان ، فالتقدير : إنْ تُرْسل يأتُوك ، وقد قيل : في مثله إنه مجزوم بلام الأمر محْذوفة ، على

أن الجملة بدل من ﴿ أرسلْ ﴾ بدلَ اشتمال .

أي : أرسلهم آمراً لهم فليأتوك بكل ساحر عليم ، وهذا الاستعمال كثير في كلام العرب مع فعل القول نحو : ﴿ قل لعباديَ الذين آمنوا يُقيموا الصلاة ﴾ [إبراهيم : 31] فكذلك ما كان فيه معنى القول كما هنا .

و(كل) مستعمل في معنى الكثرة ، أي : بجمع عظيم من السحرة يشبه أن يكون جميع ذلك النوع .

وقرأ الجمهور : ﴿ بكل ساحر ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : ﴿ بكل سَحّار ﴾ ، على المبالغة في معرفة السحر ، فيكون وصف ﴿ عليم ﴾ تأكيداً لمعنى المبالغة لأن وصف ﴿ عليم ﴾ الذي هو من أمثلة المبالغة للدلالة على قوة المعرفة بالسحر ، وحذف متعلق ﴿ عليم ﴾ لأنه صار بمنزلة أفعال السجايا .

والمقام يدل على أن المراد قوة علم السحر له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(123/281)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) ﴾

و﴿ أَرْجِهْ ﴾ أي أَخّره مثل قوله الحق : ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ . . . ﴾ [التوبة : 106] .

أي أنهم مؤخرون للحكم عليهم وهم الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو فخلفوا وأرجئ أمرهم حتى نزل فيهم قوله سبحانه : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ إلخ الآية .

وقولهم : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ [الأعراف : 111]

وهكذا كان طلب الإرجاء لأن المسألة أخطر من أن يُتَصَرَّف فيها تصرفاً سريعاً بل تحتاج إلى أن يؤخَّر الرأي فيها حتى يجتمع الملأ ، ويرى الجميع كيفية مواجهتها ، فهي مسألة ليست هينة لأن فيها نقض ألوهية فرعون ، وفي هذا دك لسلطان الفرعون وإنهاء لانتفاعهم هم من هذا السلطان . فإذا كان قد قال لهم : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

فكأنه كان يطلب منهم الرأي فوراً ، لكنهم قالوا إن المسألة تحتاج إلى تمهل وبطء ، وأول درجات البطء والتمهل أن يُستدعى القوم الذين يفهمون في السحر . فما دمنا نقول عن موسى : إنه ساحر ، فلنواجهه بما عندنا من سحر : وقبول فرعون لهذه المشورة هدم لألوهيته ؛ لأنه يدعي أنه إله ويستعين بمألوه هم السحرة ، والسحرة أتباع له . وقوله الحق كان على ألسنتهم : ﴿ وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ ﴾ [الأعراف : 111]

يدل على أن السحر كان منتشراً ، ومنبثقاً في المدائن وقد أتبع سبحانه هذا القول على لسان الملأ بقوله : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

(124/281)

ولأن المستشرقين يريدون أن يشككونا في القرآن قالوا : ولماذا قال في سورة الشعراء : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ . وكان هؤلاء المستشرقين يريدون أن يفرقوا بين ﴿ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ و ﴿ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ ؛ ولأنهم لا يعرفون اللغة لم يلتفتوا إلى أن " سحّار " تفيد المبالغة من جهتين . فكلمة " ساحر " تعني أنه يعمل بالسحر ، و " سحّار " تعني أنه يبالغ في إتقان السحر ، والمبالغات دائماً تأتي لضخامة الحدث ، أو تأتي لتكرر الحدث . ف " سحّار " تعني أن سحره قوي جدًّا ، أو يسحر في كل حالة ، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر ، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً . ومادام القائلون متعددين . . فواحد يقول : ساحر ، وآخر يقول : سحَّار وهكذا . والقرآن يغطي كل اللقطات . ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف : 111-112]

و" حاشرين " تعني مَن يحشر لك السحرة ويجمعهم لا بإرادتهم ولكن بقوة فرعون وبطش جنده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(125/281)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن مجاهد . انه كان يقرأ ﴿ حقيق عليّ أن لا أقول ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ فألقى عصاه ﴾ قال : ذكر لنا أن تلك العصا عصا آدم ، اعطاه اياها ملك حين توجه إلى مدين ، فكانت تضيء له بالليل

ويضرب بها الأرض بالنهار ، فيخرج له رزقه ويهش بها على غنمه ، قال الله عز وجل ﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ قال : حية تكاد تساوره .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن المنهال قال : ارتفعت الحية في السماء ميلاً ، فأقبلت إلى فرعون فجعلت تقول : يا موسى مرني بما شئت . وجعل فرعون يقول : يا موسى أسألك بالذي أرسلك قال : وأخذه بطنه .

(126/281)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لقد دخل موسى على فرعون وعليه زرمانقة من صوف ما تجاوز مرفقه ، فاستؤذن على فرعون فقال : ادخلوه . فدخل فقال : إن ألهي أرسلني إليك . فقال للقوم حوله : ما علمت لكم من إله غيري خذوه . قال إني قد جئتك بآية ﴿ قال فائت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه ﴾ فصارت ثعباناً ما بين لحييه ما بين السقف إلى الأرض ، وأدخل يده في جيبه فأخرجها مثل البرق تلتمع الأبصار فخروا على وجوههم ، وأخذ موسى عصاه ثم خرج ليس أحد من الناس إلا يفر منه ، فلما أفاق وذهب عن فرعون الروع قال للملأ حوله : ماذا تأمرون ؟ قالوا : أرجئه وأخاه لا تأتنا به ولا يقربنا ، وأرسل في المدائن حاشرين ، وكانت السحرة يخشون من فرعون ، فلما أسرع إليهم

قالوا : قد احتاج إليكم إلهكم قال : إن هذا فعل كذا وكذا . قالوا : إن هذا ساحر يسحر ، أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : ساحر يسحر الناس ولا يسحر الساحر الساحر ؟ قال : نعم وإنكم إذاً لمن المقربين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحكم قال : كانت عصا موسى من عوسج ، ولم يسخر العوسج لأحد بعده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : عصا موسى اسمها ماشا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مسلم قال : عصا موسى هي الدابة يعني دابة الأرض .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ قال : الحية الذكر .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق معمر عن قتادة في قوله ﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ قال : تحوّلت حية عظيمة . قال معمر ، قال غيره : مثل المدينة .

وأخرج أبو الشيخ عن الكلبي قال : حية صفراء ذكر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب ابن منبه قال : كان بين لحيي الثعبان الذي من عصا موسى إثنا عشر ذراعاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن فرقد السبخي قال : كان فرعون إذا كانت له حاجة ذهبت به السحرة مسيرة خمسين فرسخاً ، فإذا قضى حاجته جاءوا به ، حتى كان يوم عصا موسى فإنها فتحت فاها فكان ما بين لحييها أربعين ذراعاً ، فأحدث يومئذ أربعين مرة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ قال : الذكر من الحيات فاتحة فمها واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذعر منها ووثب فأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك ، وصاح : يا موسى خذها وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل . فأخذها موسى فصارت عصا .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد ﴿ ونزع يده ﴾ قال : الكف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ يريد أن يخرجكم ﴾ قال : يستخرجكم من أرضكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ ارجئه ﴾ قال : أخِّره .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قالوا ﴿ ارجئه وأخاه ﴾ قالف احبسه

وأخاه.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ وأرسل في المدائن حاشرين ﴾ قال: الشرط. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(128/281)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل:

قوله تعالى: " قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم وجاء السحرة فرعون " وقال فى الشعراء: "قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم فجمع السحرة".

فى هذا أربع سؤالات: أولها قوله تعالى فى الأعراف: "قال الملأ من قوم فرعون" وفى الشعراء: "قال للملإ من حوله" والثانى قوله فى الشعراء: "بسحره" ولم يثبت ذلك فى

الأعراف ، والثالث قوله فى الأعراف : "وأرسل " وفى الشعراء : "وابعث " ولارابع قوله فى الأعراف عقب قوله : "يأتوك بكل ساحر عليم " .

"وجاء السحرة فرعون " وأعقب فى السعراء قوله : "يأتوك بكل سحار عليم فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين " وبعد ذلك قيل : "فلما جاء السحرة " .

والجواب عن الأول أنه لا توقف فى أن موسى عليه السلام خاطب فرعون وملأه وأنه أمر بخطابهم وإليهم أرسل قال تعالى : "ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرون وملئه " وإنه لما دعاهم لتصديقه والإيمان به جاوب فرعون وجاوب ملأه بقول فرعون : "إن هذا لساحر عليم " إنما قاله لملئه ولمن حضره ثم قال ذلك ملؤه لحاضريهم وبعضهم لبعض وإذا وضح أن ذلك القول صدر من فرعون وقاله أيضا ملؤه بقى السؤال عن جه اختصاص كل سورة بما خصت به ؟

والجواب أنه لما تقدم فى سورة الأعراف قوله تعالى : " ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه " فوقع ذكر الملأ مبعوثا إليهم مع فرعون ناسب ذلك أن يذكروا فى الجواب حتى يكون فى قوة أن لو قيل : بعث إليهم وخوطبوا فقالوا ولم يكن ليناسب "بعث إليهم " فقال : فرعون .

ولما تقدم فى سورة الشعراء قوله : "فأتيا فرعون " ثم جرى ما بعد المحاورة ومراجعة الكلام بين موسى عليه السلام ، وفرعون ولم يقع الملأ هنا ناسب ذلك قوله "قال فرعون " لأنه الذى راجع وخوطب فجاء كل على ما يناسب .

فإن قيل : فقد قيل فى الأعراف : "إلى فرعون وملئه " فقد فرعون فهو أعمد من الملأ لأنهم أتباعه وآله فلم لم يبن الجواب على ذلك فيقال "قال فرعون " فالجواب أنه لو قيل : قال فرعون لبقى التشوف إلى تعريفهم قول الملأ وهم قد بعث إليهم وخوطبوا ولابد من تعرف جوابهم وبه يحصل تعرف جوابه هو لأنه اله وتابعوه إنما يتكلمون غالبا بما يريد ويصدر عنه ويبدأ به وقد تبين ذلك فى سورة الشعراء وان فرعون خاطبهم وذلك فى قوله تعالى : " قال للملإ حوله " فجاوبوا فحصل من جوابهم جوابه ولو جاوب هو وسكت ملؤه لأمكن أن يكونوا قد استوضحوا الحق وخالفوا فرعون كما جرى للسحرة وقد كانوا ناصرين لفرعون ومن معه فجاء جواب الملأ منصوصا وحصل منه جواب متبوعهم ولم يكن ليحصل من جوابه على انفراده وحصلت مناسبة ما تقدم من قوله : "إلى فرعون وملئه " .

فإن قلت ورد فى الشعراء جواب فرعون دون جواب ملئه ؟ .

فالجواب : أنه قد جاوبوا بعد وذلك أنه لما خاطب فرعون ملأه الأقربين وألقى إليهم ما اعتقده بضلاله فى أمر بنى الله موسى عليه السلام ، واستشارتهم بقوله : "فماذا تامرون

"وجاوبوه بموافقته العائدة على جميعهم بالخسران المبين بين ذلك قوله تعالى مخبرا عنهم : "قال للملإ حوله " وهذا يوضح أن جوابهم فى الأعراف مبنى على استطلاع ما عنده وسماع ذلك منه كما وضح منه كما وضح هنا ، ثم روعى تناسب النظم والتقابل كما تقدم .

فقد تبين أن الوارد فى سورة الأعراف ليناسب ما تقدم فى سورة الشعراء بوجه : "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " .

(130/281)

والجواب عن السؤال الثانى : أن زيادة "بسحره " فى الشعراء لأنه من قول فرعون طاغية موسى عليه السلام وهو أحنق عليه من الملأ بجمعهم وأعظمهم بغضا له وكراهة لما جاء به موسى فأكد بقوله "بسحره " طمعا فى صغوهم لقوله والثبات على مذهبه الشنيع ومرتكبه ورجاء أن يعتقد الملأ من قومه أن آية موسى عليه السلام سحر لا توقف فيها فلم يقنع بقوله لملئه : أنه لساحر عليم وأنه يريد إخراجهم من أرضهم حتى سجل على ذلك وأكده طمعا فى قبول باطله بقوله "بسحره " ولا لم يكن حال الملإ من قومه كحاله فيما ذكر اكتفوا بقولهم لرسولهم وبعضهم لبعض : "إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من

أرضكم " فهذا قول الملإ والذى ثبت فى الشعراء قول فرعون وزيادة "بسحره " لتبين حال الملإ من حال فرعون المتولى كبير الأمور والتناسب بين وكل فى السورتين وارد على ما يجب وقد وضح أن العكس غير مناسب والله أعلم .

(131/281)

ويشهد أن زيادة "بسحره " من فرعون لزيادة حنقه تكرر ذلك من قوله فى سورة طه : "قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى " فأما بعد فى هذه السورة من قوله سبحانه مخبرا عن الملإ : "قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما " فإنما قالوه بعد تنازع وتعارض فيما بينهم وفرعون فى جملتهم يدل على هذا ما تقدم من قوله تعالى : " فتول فرعون فجمع كيده ثم أتى " وقوله : "فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى " وإنما أسروا نجواهم – بعد تنازعهم فى أعمال المكيدة – فيما حل بهم وفرعون مرجح لرأيهم وأبلغهم احتيالا وكيدا فيما تشاورا فيه فلم يمكنهم فى هذا المجتمع الا القول بما رآه بعد تنازعهم عليه فقالوه بتوقيف منه وهو حاضرهم حال تنازعهم وقولهم لموسى عليه السلام فإذا هو القائل لا الملأ وان الوارد فى الأعراف فقول الملإ إذ لا يقتضى قوله : "قال الملأ من قوم فرعون " أن فرعون هو القائل وان كان كذلك بل الظاهر السابق من هذه العبارة

أنه قول الملإ منفردين عن فرعون والتناسب اللفظى هو المطلوب وقد تبين .

والجواب عن السؤال الثالث وهو ورود "وأرسل " فى سورة الأعراف وفى الشعراء "وابعث " فالجواب عنه مبنى على الترتيب الذى استقر عليه المصحف فنقول : "إن أرسل أخص فى باب الارسال من البعث إذ لا يقال أرسل الا فيما كان توجيها فيه معنى الانتقال حقيقة أو مجازا أما بعث فأوسع فإنه يقع بمعنى الارسال وبمعنى الإحياء ومنه البعث الأخراوى ففيه اشترك فلما كان الارسال أخص وقع الاخبار به أولا ثم وقع ثانيا بالبعث تنوعيا للعبارة وعلى الترتيب فى موضع اللفظ المطرد من القرآن ولا يمكن على ما تقرر من ذلك العكس ونظير هذا مما تقدم تبع واتبع ويذبحون ويقتلون وقد مر بيانه والإطراد واضح شاهد فى هذا .

(132/281)

والجواب عن السؤال الرابع وهو ورود قوله تعالى : " وجاء السحرة فرعون " فى الأعراف عقب قوله : "يأتوك بكل ساحر عليم " وتأخير الإخبار بمجيئهم فى الشعراء وورود : "فجمع السحرة . . . "الآيات المذكورة فاصلة بين ما اتصل فى الأعراف ؟ فاعلم أولا أن كلا من العبارتين لابد منهما فى تحصيل المطلوب إذ جمعهم لا يعطى بهذه العبارة أنهم جاؤوا

فرعون ولا مجيئهم فرعون يحصل منه المعنى الحاصل من قوله : "فجمع السحرة لميقات يوم معلوم " فلابد من العبارتين اجتمع مجموع ذلك فى الشعراء ولم يذكر فى الأعراف جمع السحرة وما بعده فيبقى السؤال عن وجه اختصاص كل من السورتين بما ورد فيهما ؟ واختصاص الشعراء بالاستيفاء والجواب عن ذلك أن قوله تعالى : " فجمع السحرة لميقات يوم معلوم " إلى ما اتصل بهذا مما يتضمن معناه فيه إطناب يناسب ما تقدم من ذلك فى محاورة موسى عليه السلام ومكالمته فرعون من لدن قوله تعالى : " وإذ ينادى ربك موسى "الى هذه الآية ولم يقع فى قصصه عليه السلام فى السورة الوارد فيها قصصه من الإطالة فى مراجعة فرعون مثل الوارد هنا فناسبه ما أعقب به مما لم يقع الإخبار فى الأعراف ولما كان الوارد قبل آية الأعراف مبنيا على الإيجاز ويحصل المراد بأوجز كلام ، ناسبه إيجاز الآية المذكورة وورد كل من ذلك على ما يجب ويناسب ولا يحسن فيه العكس والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 214.217 ﴾

(133/281)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ قالوا أَرْجِهْ ﴾

في هذه الكلمة هنا وفي " الشُّعراءِ " [36] ست قراءات في المشهور المتواتر ، ولا التفات إلى مَنْ أنكر بعضها ولا لمن أنكر على روايها .

وضبط ذلك أنْ يقال : ثلاث مع الهَمْزِ وثلاث مع عدمه .

فأمّا الثَّلاثُ التي مع الهمزة فأولُها قراءة ابن كثير ، وهشام عن ابن عامر : أرجِئْهو بهمزة ساكنة ، وهاء متصلة بواو .

والثانية : قراءة أبي عَمْرو : أرْجِئْهُ كما تقدَّم إلا أنَّه لم يصلها بواو .

الثالثة : قراءة ابن ذكوان عن ابن عامر : أرْجِئْهِ بهمزة ساكنة وهاء مكسورة من غير صفة .

وأمّا الثَّلاثُ التي بلا همة فأوَّلها : قراءة الأخوين : " أرْجِهْ " بكسر الجيم وسكون الهاء وصلاً ووقفاً .

الثانية : قراءة الكسائيِّ ، وورشٍ عن نافعٍ : " أرْجِهِي " بهاء متصلة بياء .

الثالثة : قراءة قالون بهاء مكسورة دون ياء .

فأمّا ضمُّ الهاء وكسرها فقد عُرف مما تقدَّم .

وأمَّا الهمزُ وعدمه فلغتان مشهورتان يقال : أرْجَأته وأرْجَيْتُه أي : أخَّرته ، وقد قرئ قوله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ ﴾ [الأحزاب : 51] بالهَمْزِ وعدمه ، وهذا كقولهم : تَوَضَّأتُ

وتَوَضَّيْتُ ، وهل هما مادتان أصليتان أم المبدل فرع الهمز ؟ احتمالان .

وقد طعن قَوْمٌ على قراءة ابن ذكوان فقال الفارسي : " ضم الهاء مع الهمزة لا يجوز [غيره] ، ورواية ابن ذُكْوَان عن ابن عامر غلطٌ " .

وقال ابنُ مُجَاهدٍ : " وهذا لا يجوزُ ؛ لأنَّ الهَاءَ لا تكسَرُ إلاَّ بعد كسرة أو ياء ساكنة " .

وقال الحُوفِيُّ : " ومن القرَّاء مَنْ يكسر مع الهَمْزِ وليس بجيِّد " .

وقال أبو البقاءِ : " ويُقْرأ بكسر الهاء مع الهمز وهو ضعيف ؛ لأنَّ الهمزة حرف صحيحٌ ساكنٌ ، فليس قبل الهاء ما يقتضي الكسر " .

وقد اعتذر النَّاس عن هذه القراءة على سبيل التنازل بوجهين :

أحدهما : أن الهَمْزَة ساكنةٌ والسَّاكن حاجزٌ غير حصين ، وله شواهدٌ [مذكورة في موضعها] ، فكأنَّ الهاء وليست الجيم المكسورة فلذلك كُسِرت .

[الثاني : أن الهمزة كثيراً ما يطرأ عيلها التغيير وهي هنا في معرض أن تبدل ياء ساكنة لسكونها بعد كسره فكأنها وليت ياء ساكنة فلذلك كسرت] .

وقد اعترض أبو شَامَةَ على هذين الجوابين بثلاثةِ أوجه :

الأولُ : أنَّ الهمز حاجز معتدٌّ به بإجماع في ﴿ أَنبِئْهُم ﴾ [البقرة : 33] ، ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ [القمر : 28] والحكم واحد في ضمير الجمع والمفرد فيما يرجع إلى الكَسْرِ والضمّ .

الثالث : أنَّ الهمز لو قلب يَاءٌ لكان الوَجْه المختارُ ضمّ الهاء مع صريح الياءِ نظراً إلى أنَّ

أصلها همزة ، فما الظنُّ بمَنْ يكسر الهاء مع صريح الهَمزةِ ، وسيأتي تحقيق ذلك في باب وقفِ حمزةَ وهشام ، فضمُّ الهَاء مع الهمزةِ هو الوَجْهُ .

(134/281)

وقد استضعف أبو البقاءِ قراءة ابن كثير وهشام فإنَّهُ قال : " وَأَرْجِئْهُ " يقرأ بالهمزة وضمِّ الهاء من غير إشابع وهو الجيّد ، وبالإشباع وهو ضَعِيفٌ ؛ لأنَّ الهاء خفيَّة ، فكأنَّ الواو التي بعدها تتلو الهمزة ، وهو قريبٌ من الجمع بين السَّاكنين ومن هاهنا ضَعُف قولهم : " عليهمي مال " بالإشْبَاع .

قال شهابُ الدِّينِ : " وهذا التَّضْعيف ليس بشيء ؛ لأنَّها لغة ثابتة عن العَرَبِ ، أعني إشباع حركة الهاء بعد ساكن مطلقاً ، وقد تقدَّم أنَّ هذا أصل لابن كثير ليس مختصاً بهذه اللَّفْظَةِ ، بل قاعدته كلُّ هاء كناية بعد ساكن أنْ تُشْبع حركتها حتى تتولَّد منها حرف مدّ نحو : " منهو ، وعنهو ، وأرجِئْهو " إلاَّ قبل ساكن فإن المدَّ يُحذفُ لالتقاء الساكنين إلاَّ في موضع واحد رواه عنه البَزِّيُّ وهو ﴿ عَنْهُ تلهى ﴾ [عبس : 10] بتشديد التَّاءِ ، ولذلك استضعف الزَّجَّاج قراءة الأخوين قال بعد ما أنشد قول الشَّاعر : [الرجز]

2539 - لَمَّا رَأى أنْ لا دَعُهُ وَلاَ شِبَعْ . . .

مَالَ إِلَى أَرْطَاةِ حِقْفٍ فَالطَجَعْ

" هذا شعرٌ لا يعرف قائله ولا هو بِشَيءٍ ، ولو قاله شاعر مذكور لقيل له : أخطأت ؛ لأنَّ الشَّاعر يجوز أن يخطئ مذهب لا يُعَرَّج عليه " .

قال شهابُ الدِّين : " وقد تقدَّم أنَّ تسكين هاء الكناية لغة ثابتة ، وتقدَّم شواهدها ، فلا حاجةَ إلى الإعادة " .

قوله : " وَأَخَاهُ " الأحسنُ أن يكون نسقاً على الهاء في " أَرْجِهْ " ويضعف نصله على المعيَّة لإمكان النَّسق من غير ضعف لَفْظي ولا معنوي .

قال عطاءٌ : " معنى أَرْجِهْ أي أخّره " .

وقيل : احبسه وأخاه ، وهو قول قتادة والكَلْبِي ، وهذا ضعيف لوجهين :

أحدهما : أنَّ الإرجاء في اللُّغَةِ هو التَّأخير لا الحبس .

والثاني : أنَّ فرعونَ ما كان قادراً على حبس موسى بعد أنْ شاهد العصا فأشاروا عليه بتأخير أمره وترك التَّعَرُّضِ إليه بالقتل .

(135/281)

قوله : ﴿ وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ ﴾ .

" فِي المَدَائِنِ " متعلق بـ " أرْسِلُ " ، و" حَاشِرِينَ " مفعول به ، ومفعول " حَاشِرِين " محذوفة أي : حاشرين السَّحَرة ، بدليل ما بعده .

و" المَدائِنُ " جمع مَدينَةٍ ، وفيها ثلاثُة أقوال :

أصحها : أنَّ وزنها فعيلة فميمها أصلية وياؤها زائدة مشتقة من مَدُنَ يَمْدُنُ مدوناً أي قام ، واستدلَّ لهذا القول بإطْبَاقِ القراء على همز مدائن كصحيفة وصحائف ، وسفينة وسفائن ، والياء إذا كانت زائدة في الواحد همزت في الجمع كقبائل وقبيلة ، وإذا كانت من نفس الكلمةِ لم تهمز نحو : معايش ومعيشة ، [ولو كانت مفعلة لم تهمز نحو : مَعِيشَةِ ومعايش ولأنَّهُم جمعوها أيضاً على مُدنٍ كقولهم سفينةٍ وسُفُنٍ وصُحُفٍ] .

قال أبو حيَّان : " ويقطعُ بأنَّها فعيلة جمعهم لها على فعل قالوا : مدن كما قالوا صُحْفٌ في صحيفة " .

قال شهابُ الدِّين : " قد قال الزجاجي : المدن في الحقيقةِ جمع المدين ، لأنَّ المدينة لا تُجْمَعُ على مُدُن ولكن على مدائن ومثل هذا سفن كأنهم جمعوا سفينة على سفين ثم جمعوه على سفن " ولا أدري ما حمله على جعل مدن جمع مدين ، ومدين جمع مدينة مع اطِّراد فُعُل على فَعِيلَةٍ لا بمعنى مفعولة ، اللهم إلا أن يكون قد لحظ في مدينة أنَّها فعيلة بمعنى مفعولة ؛ لأنَّ معنى المدينةِ أن يمدن فيها أي يقام ، ويُؤيِّدُ هذا ما سيأتي أنَّ مدينة وزنها في الأصْلِ

مديونة عند بعضهم .

القول الثاني : أن وزنها مفعلة من دَانَهُ يَدِينُهُ أي ساسه يَسُوسُهُ ، فمعنى مدينة أي مَمْلُوكَة ومسوسة أي مَسُوسٌ أهلها من دانهم ملكهم إذا سَاسَهُم ، وكان ينبغي أن يجمع على مداين بصريح الياء كمعايشَ في مشهور لُغَةِ العَرَبِ .

الثالث : أن وزنها مفعولة ، وهو مَذْهَبُ المبرّدِ قال : " هي من دَانَهُ يَدينُهُ إذا ملكه

(136/281)

وَقَهَرَهُ ، وإذا كان أصلها مديونة فاستثقلُوا حركة الضَّمَّة على الياء فسكنوها ، ونقلوا حركتها إلى ما قبلها ، فاجتمع ساكنان : الواو والمزيدة الَّتي هي واو المفعول ، والياء التي هي من نفس الكلمة ، فحذفت الواو ؛ لأَنَّها زائدة ، وحذف الزَّائد أولى من حذف الحرف الأصلي ، ثم كَسَرُوا الدَّال لتسليم الياء ، فلا تنقلب واواً لانضمام ما قبلها ، فتختلط ذوات الواو بذوات الياءِ ، وهكذا تقولُ في المبيع والمخيط والمكيل فلاَ ينقلب واواً لانضمام ما قبلها ذوات الواو ، والخلاف جارٍ في المحذوف ، هل هو الياء الأصليّة ؟ أو الواو الزائدة ؟ الأوَّلُ قول الأخْفَشِ ، والثَّاني قول المَازني ، وهو مذهب جماهير النُّحَاةِ .

فصل في تعريف " المدينة "

المدينةُ معروفةٌ ، وهي البُقعةُ المسورة المستولي عليها ملك وأرادَ مدائن صعيدِ مِصْرَ ، أي : أرسل إلى هذه المدائن رجالاً يحشرون إليك من فيها من السَّحرةِ ، وكان رؤساء السَّحرةِ بأقْصَى مدائن الصَّعيدِ .

ونقل القاضي عن ابن عباس أنَّهُم كانوا سَبْعِينَ سَاحِراً سوى رئيسهم ، وكان الذي يعلمهم رجلي مَجُوسِيِّيْنِ من أهْلِ " نينوى " بلدة يونس – عليه الصَّلاة والسَّلام – ، وهي قرية بالموصل .

قال ابن الخطيب : " وهذا النَّفْلُ مشكل ؛ لأنَّ المَجُوسَ أتباع زرادشت ، وزرادشت إنَّما جاء بعد مُوسى – عليه الصَّلاة والسَّلام – .

قرأ الأخوان هنا وفي سورة " يونس " [79] " سحّار " والباقون " ساحر " ، فسحَّارٌ للمبالغة وساحر يحتملها ، ولا خلاف في التي في " الشُّعراء " أنها سحَّارٌ مثال مبالغة .

واختلفوا في السَّاحر والسحَّار : فقيل : السَّاحر الذي يعلم السِّحْرَ ولا يعلم ، والسحَّارُ الذي يعلم .

وقيل : السَّاحِرُ من يكون سحره في وقت دون وقت ، والسحَّارُ من يديم السحر .

(137/281)

و " الباء " في قوله : " بِكلّ " يحتمل أن تكون باء التَّعدية ويحتمل أن تكون بمعنى مع . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 252.256 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112) ﴾

تَوهَّمَ الناسُ أنهم بالتأخير ، وتقديم التدبير ، وبذل الجهد والتشمير يُغَيِّرون شيئاً من التقدير بالتقديم أو بالتأخير ، ولم يعلموا أن القضاءَ غالِبٌ ، وأنَّ الحكمَ سابقٌ ، وعند حلول الحكم فلا سلطانَ للعلم والفهم ، والتسرع والحِلْم . . كلا ، بل هو الله الواحد القهار العلاَّم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 556 ﴾

(138/281)

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : فأخر أمرهما وأرسل كما قالوا ، فجمعوا من وجدوه منهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ ولما تشوف السامع إلى خبرهم ، قال مجيباً له استئنافاً : ﴿ قالوا ﴾ أي لفرعون عندما حضروا بين يديه متوثقين لنفع أنفسهم مفهمين له أنهم غالبون ، لا مانع لهم من ذلك إلا عدم إنصافهم ، سائقين للكلام في قراءة الجماعة مساق الاستفهام أدباً معه في طلب الإكرام : ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ وأكدوا طلباً لإخراج الوعد على حال التكذيب ﴿ إن كنا نحن ﴾ أي خاصة ﴿ الغالبين ﴾ ومن أخبر أراد الاستفهام وهم نافع وابن كثير وحفص عن عاصم ﴿ قال ﴾ أي فرعون ﴿ نعم ﴾ أي لكم أجر مؤكد الخبر به ، وزاد بيان التأكيد بما زادهم به رغبة في قوله : ﴿ وإنكم ﴾ أي زيادة على ذلك ﴿ لمن المقربين ﴾ أي عندي في الحضرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 82 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَاء السحرة فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع ، وابن كثير ، وحفص ، عن عاصم ، ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ بكسر الألف على الخبر والباقون على الاستفهام ، ثم اختلفوا ، فقرأ أبو عمرو بهمزة ممدودة على أصله والباقون بهمزتين قال الواحدي رحمه الله : الاستفهام أحسن في هذا الموضع ، لأنهم أرادوا أن يعلموا هل لهم أجر أم لا ؟ ويقطعون على أن لهم الأجر ويقوي ذلك إجماعهم في سورة الشعراء على الهمز للاستفهام وحجة نافع وابن كثير على أنهما أرادا همزة الاستفهام ، ولكنهما حذفا ذلك من اللفظ وقد تحذف همزة الاستفهام من اللفظ ، وإن كانت باقية في المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ [الشعراء : 22] فإنه يذهب كثير من الناس إلى أن معناه أو تلك بالاستفهام ، وكما في قوله : ﴿ هذا ربّى ﴾ [الأنعام : 78] والتقدير أهذا ربي وقيل : أيضاً المراد أن السحرة أثبتوا لأنفسهم أجراً عظيماً ، لأنهم قالوا : لا بد لنا من أجر ، والتنكير للتعظيم كقول العرب : إن له لإبلاً ، وإن له لغنماً ، يقصدون الكثرة .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول : هلا قيل : ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا) .

وجوابه : هو على تقدير : سائل سأل : ما قالوا إذ جاؤه .

فأجيب بقوله : ﴿ قالوا أئن لنا لأجراً ﴾ أي جعلا على الغلبة .

فإن قيل : قوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ معطوف ، وما المعطوف عليه ؟

وجوابه : أنه معطوف على محذوف ، سد مسده حرف الإيجاب ، كأنه قال إيجاباً لقولهم :

إن لنا لأجراً ، نعم إن لكم لأجراً ، وإنكم لمن المقربين .

أراد أني لا أقتصر بكم على الثواب ، بل أزيدكم عليه ، وتلك الزيادة إني أجعلكم من المقربين عندي .

قال المتكلمون : وهذا يدل على أن الثواب إنما يعظم موقعه إذا كان مقروناً بالتعظيم ، والدليل عليه أن فرعون لما وعدهم بالأجر قرن به ما يدل على التعظيم ، وهو حصول القربة .

المسألة الثالثة :

الآية تدل على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبداً ذليلاً مهيناً عاجزاً ، وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة في دفع موسى عليه السلام ، وتدل أيضاً على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان ، وإلا لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال من فرعون ، لأنهم لو قدروا على قلب الأعيان ، فلم لم يقبلوا التراب ذهباً ، ولم لم ينقلوا ملك فرعون إلى أنفسهم ولم لم يجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساء الدنيا ، والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدقائق ، وأن لا يغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 163 . 164 ﴾

(139/281)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَاء السحرة فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا ﴾

يعني : قالوا لفرعون أتعطينا جعلاً ومالاً ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ لموسى ﴿ قَالَ ﴾ لهم فرعون ﴿ نِعْمَ ﴾ لكم الجعل ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ يعني : لكم المنزلة به سوى العطية يعني : إنكم تكونون أول من يدخل علي بالسلام قرأ أبو عمرو آينَّ لنا لأجْراً بمد الألف .

وقرأ عاصم في رواية حفص إن بهمزة واحدة بغير ياء وقرأ الباقون بهمزتين وقرأ ابن كثير ونافع إِنَّ لَنَا بهمزة واحدة بغير ياء .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي أإن لنا بهمزتين فلما اجتمع السحرة وغدوا للخروج يوماً وأعلن الناس بخروجهم ليجتمعوا عند سحرهم كما قال في آية أخرى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ [طه : 59] أي : يوم عيد كان لهم ويقال : يوم النيروز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(140/281)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وجاء السحرة ﴾ الآية ،

هنا محذوفات يقتضيها ظاهر الكلام وهي أنه بعث إلى السحرة وأمرهم بالمجيء ، وقال ابن عباس أنه بعث غلماناً فعلموا بالفرما وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية حفص " إن لنا لأجرا " على جهة الخبر ، وقرأوا في الشعراء ﴿ أن لنا ﴾ ممدودة مفتوحة الألف غير عاصم فإنه لا يمدها ، قال أبو علي ويجوز أن تكون على جهة الاستفهام وحذف ألفها ، وقد قيل ذلك في قوله ﴿ أن عبدت بني إسرائيل ﴾ [الشعراء : 22] ومنه قول الشاعر : [حضرمي بن عامر] .

أفرح أن أرزأ الكرام . . . وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي هنا وفي الشعراء " آإن " بألف الاستفهام قبل " إن " وقرأت فرقة " أئن " دون مد ، وقرأ أبو عمرو هنا وفي الشعراء " أئن " ، والأجر هنا الأجرة فاقترحوها إن غلبوا فأنعم فرعون لهم بها وزادهم المنزلة والجاه ، ومعناه المقربين مني ، وروي أن السحرة الذين جاءوا إلى فرعون كانوا خمسة عشر ألفاً قاله ابن إسحاق ، وقال ابن جريج كانوا تسعمائة ، وذكر النقاش أنهم كانوا اثنين وسبعين رجلاً ، وقال عكرمة : كانوا سبعين ألفاً قال محمد بن المنكدر كانوا ثمانين ألفاً ، وقال السدي مائتي ألف ونيفاً .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الأقوال ليس لها سند يوقف عنده ، وقال كعب الأحبار :

اثني عشر ألفاً ، وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل مع كل رجل حبل وعصا ، وقال أبو ثمامة : كانوا سبعة عشر ألفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(141/281)

وقال أبو حيان :

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾

في الكلام حذف يقتضيه المعنى وتقديره فأرسل حاشرين وجمعوا السحرة وأمرهم بالمجيء واضطرب الناقلون للأخبار في عددهم اضطراباً متناقضاً يعجب العاقل من تسطيره في الكتب فمن قائل تسعمائة ألف ساحر وقائل سبعين ساحراً فما بينهما من الأعداد المعينة المتناقضة ﴿ وجاء ﴾ قالوا : بغير حرف عطف لأنه على تقدير جواب سائل سأل ما قالوه إذ جاء قالوا ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ أي جعلاً ، وقال الحوفي ﴿ وقالوا ﴾ في موضع الحال من السحرة والعامل ﴿ جاء ﴾ ، وقرأ الحرميان وحفص ﴿ إن ﴾ على وجه الخبر واشتراط الأجر وإيجابه على تقدير الغلبة ولا يريدون مطلق الأجر بل المعنى لأجراً عظيماً ولهذا قال الزمخشري : والتنكير للتعظيم كقول العرب إن له لإبلاً وإن له لغنماً يقصدون الكثرة وجوّز أبو علي أن تكون ﴿ إن ﴾ استفهاماً حذفت منه الهمزة كقراءة

الباقين الذين أثبتوها وهم الأخوان وابن عامر وأبو بكر وأبو عمرو فمنهم من حققهما ومنهم من سهل الثانية ومنهم من أدخل بينهما ألفاً والخلاف في كتب القراءات وفي خطاب السحرة بذلك لفرعون دليل على استطالتهم عليه باحتياجه إليهم وبما يحصل للعالم بالشيء من الترفع على من يحتاج إليه وعلى من لا يعلم مثل علمه و ﴿ نحن ﴾ إما تأكيد للضمير وإما فصل وجواب الشرط محذوف ، وقال الحوفي في جوابه ما تقدم .

(142/281)

﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ أي نعم إن لكم لأجراً ﴿ وإنكم ﴾ فعطف هذه الجملة على الجملة المحذوفة بعد ﴿ نعم ﴾ التي هي نائبة عنها والمعنى لمن المقربين مني أي لا أقتصر لكم على الجعل والثواب على غلبة موسى بل أزيدكم أن تكونوا من المقربين فتحوزون إلى الأجر الكرامة والرّفعة والجاه والمنزلة والمثاب إنما يتهنى ويغتبط به إذا حاز إلى ذلك الإكرام ، وفي مبادرة فرعون لهم بالوعد والتقريب منه دليل على شدّة اضطراره لهم وإنهم كانوا عالمين بأنه عاجز ولذلك احتاج إلى السحرة في دفع موسى عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(143/281)

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَاء السحرة فِرْعَوْنَ ﴾

بعد ما أرسل إليهم الحاشرين وإنما لم يصرِّح به حسبما في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِى المدائن حاشرين ﴾ للإيذان بمسارعة فرعونَ إلى الإرسال ومبادرةِ الحاشرين والسحرة إلى الامتثال .

﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ منوطٌ بسؤال نشأ من مجيء السحرةِ كأنه قيل : فماذا قالوا له عند مجيئِهم إياه ؟ فقيل : قالوا مدْلين بما عندهم واثقين بغلبتهم : ﴿ إِنَّ لَنَا لاجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ بطريق الإخبارِ بثبوت الأجرِ وإيجابِه كأنهم قالوا : لا بد لنا من أجر عظيم حينئذ ، أو بطريق الاستفهامِ التقريري بحذف الهمزة وقرىء بإثباتها ، وقولُهم : (إن كنا) لمجرد تعيينِ مناطِ ثبوتِ الأجرِ لا لترددهم في الغلبة ، وتوسيطُ الضميرِ وتحليةُ الخبر باللام للقصر أي إن كنا نحن الغالبين لا موسى ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ عطف على محذوف سد مسدَّه حرفُ الإيجابِ كأنه قال : إن لكم لأجراً وإنكم مع ذلك لمن المقربين للمبالغة في الترغيب . روي أنه قال لهم : تكونون أولَ من يدخُل مجلسي وآخِرَ من يخرُج منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَاء السحرة فِرْعَوْنَ ﴾

بعد ما أرسل إليهم الحاشرين وإنما لم يصرح به للإيذان بمسارعة فرعون بالإرسال ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال .

واختلف في عدتهم .

فعن كعب أنهم إثنا عشر ألفاً ، وعن ابن إسحاق خمسة عشر ألفاً ، وعن أبي ثمامة سبعة عشر ألفاً ، وفي رواية تسعة عشر ألفاً ؛ وعن السدي بضعة وثلاثون ألفاً ، وعن أبي بزة أنهم سبعون ألفاً ، وعن محمد بن كعب ثمانون ألفاً .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جرير قال : السحرة ثلثمائة من قومه وثلمائة من العريش ويشكون في ثلثمائة من الاسكندرية .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا سبعين ساحراً وقد أخذوا السحر من رجلين مجوسيين من أهل نينوى مدينة يونس عليه السلام ، وروى نحو ذلك عن الكلبي ، والظاهر عدم صحته لأن المجوسية ظهرت زمن زرادشت على المشهور ، وهو إنما جاء بعد موسى

عليه السلام ، واسم رئيسهم كما قال مقاتل : شمعون وقال ابن جريج : هو يوحنا ، وقال ابن الجوزي نقلاً عن علماء السير : أن رؤساءهم سابور وعازور وحطحط ومصفى ﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف بياني ولذا لم يعطف كأنه قيل : فماذا قالوا له عند مجيئهم إياه ؟ فقيل : قالوا الخ ، وهذا أولى مما قيل إنه حال من فاعل جاءوا أي جاءوا قائلين ﴿ إِنَّ لَنَا لاجْرًا ﴾ أي عوضاً وجزاء عظيماً .

﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ والمقصود من الإخبار إيجاب الأجر واشتراطه كأنهم قالوا : بشرط أن تجعل لنا أجراً إن غلبنا ، ويحتمل أن يكون الكلام على حذف أداة الاستفهام وهو مطرد ، ويؤيد ذلك أنه قرأ ابن عامر وغيره ﴿ أئن ﴾ بإثبات الهمزة وتوافق القراءتين أولى من تخالفهما ؛ ومن هنا رجح الواحدي هذا الاحتمال ، وذكر الشرط لمجرد تعيين مناط ثبوت الأجر لا لترددهم في الغلبة ، وقيل : له ، وتوسيط الضمير وتحلية الخبر باللام للقصر ، أي كنا نحن الغالبين لا موسى عليه السلام .

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إن لكم لأجراً .

﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ عطف على مقدر هو عين الكلام السابق الدال عليه حرف الإيجاب ، ويسمى مثل هذا عطف التلقين ، ومن قال إنه معطوف على السابق أراد ما ذكرنا ، والمعنى إن لكن لأجراً وإنكم مع ذلك لمن المقربين ، أي إني لا أقتصر لكم على العطاء وحده وأن لكم معه ما هو أعظم منه وهو التقريب والتعظيم لأن من أعطى شيئاً إنما يتهنأ به ويغتبط إذا نال معه الكرامة والرفعة ، وفي ذلك من المبالغة في الترغيب والتحريض ما لا يخفى ، وروى عن الكلبي أنه قال لهم : تكونون أول من يدخل مجلسي وآخر من يخرج عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(146/281)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) ﴾

عطفت جملة ﴿ وجاء السحرة ﴾ على جملة : ﴿ قالوا أرجه وأخاه وأرْسلْ في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ [الأعراف : 111 ، 112] وفي الكلام إيجاز حذف .

والتقدير : قالوا أرجه وأخاه وأرسل الخ ، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين فحشروا وجاء السحرة من المدائن فحضروا عند فرعون .

فالتعريف في قوله : ﴿ السحرة ﴾ تعريف العهد .

أي السحرة المذكورون ، وكان حضور السحرة عند فرعون في اليوم الذي عينه موسى للقاء السحرة وهو المذكور في سورة طه .

وجملة : ﴿ قالوا إن لنا لأجراً ﴾ استئناف بياني بتقدير سؤال من يسأل : ماذا صدر من السحرة حين مثُلوا بين يدي فرعون ؟ .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وحفص ، وأبو جعفر ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ ابتداء بحرف (إن) دون همزة استفهام ، وقرأه الباقون بهمزة استفهام قبل (إن) .

وعلى القراءتين فالمعنى على الاستفهام ، كما هو ظاهر الجواب بـ ﴿ نعم ﴾ ، وهمزة الاستفهام محذوفة تخفيفاً على القراءة الأولى ، ويجوز أن يكون المعنى عليها أيضاً على الخبرية لأنهم وثقوا بحصول الأجر لهم ، حتى صيروه في حيز المخبر به عن فرعون ، ويكون جواب فرعون بـ ﴿ نعم ﴾ تقريراً لما أخبروا به عنه .

وتنكير ﴿ أجراً ﴾ تنكير تعظيم بقرينة مقام المَلِك وعظم العمل ، وضمير ﴿ نحن ﴾ تأكيد لضمير ﴿ كنا ﴾ إشعاراً بجدارتهم بالغلَب ، وثقتهم بأنهم أعلم الناس بالسحر ، فأكدوا ضميرهم لزيادة تقرير مدلوله ، وليس هو بضمير فصل إذ لا يقصد إرادة القصر ، لأن

إخبارهم عن أنفسهم بالغالبين يغني عن القصر ، إذ يتعين أن المغلوب في زعمهم هو موسى عليه السلام .

(147/281)

وقول فرعون ﴿ نعم ﴾ إجابة عما استفهموا ، أو تقرير لما توسموا : على الاحتمالين المذكورين في قوله : ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ آنفاً ، فحرف (نعم) يقرر مضمون الكلام الذي يجاب به ، فهو تصديق بعد الخبر ، وإعلام بعد الاستفهام ، بحصول الجانب المستفهم عنه ، والمعنيان محتملان هنا على قراءة نافع ومن وافقه ، وأما على قراءة غيرهم فيتعين المعنى الثاني .

وعُطف جملة : ﴿ إنكم لمن المقربين ﴾ على ما تضمنه حرف الجواب إذ التقدير : نعم لكم أجر وإنكم لمن المقربين ، وليس هو من عطف التلقين : لأن التلقين إنما يعتبر في كلامين من متكلميْن لا من متكلم واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(148/281)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) ﴾

وقوله : ﴿ وَجَآءَ السحرة فِرْعَوْنَ ﴾ يدل على بطش الآمر ، أي أنه ساعة قال الكلمة هُرع الجند بسرعة ليجمعوا السحرة . وقد ولغ بعض المستشرقين في هذه اللقطة أيضاً فتساءلوا : ولماذا جاء بقول مختلف في سورة أخرى حين قال : ﴿ إِنَّ لَنَا لأَجْراً . . . ﴾ [الشعراء : 41]

لقد جاء بها بهمزة الاستفهام ، وفي سورة الأعراف جاء من غير همزة الاستفهام ، وهذه آية قرآنية ، وتلك آية قرآنية . وأصحاب هذا القول يتناسون أن كل ساحر من سحرة فرعون قد انفعل انفعالاً أدى به مطلوبه ؛ فالذي يستفهم من فرعون قال : " أإن " ، والشجاع قال لفرعون : ﴿ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً ﴾ . وفي القضية الاستفهامية لا يتحتم الأجر لأنه من الجائز أن يرد الفرعون قائلا : أنْ لا أجر لكم ، ولكن في القضية الخبرية " إن لنا لأجراً " اي أن بعض السحرة قد حكموا بضرورة وجود الأجر ، وقد غطى القرآن هذا الاستفهام ، وهذا الخبر .

وتأتي إجابة فرعون على طلب السحرة للأجر : ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين . . . ﴾ و" نعم " حرف جواب قائمة مقام جملة هي : لكم أجر ، وأضاف أيضاً : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ .

وهذا دليل على أنه ينافقهم أو يبالغ في مجاملتهم ؛ لأنه يحتاج إليهم أشد الحاجة . وهكذا نجد ألوهية فرعون قد خارت أمام المألوهين السحرة . وقوله : ﴿ لَمِنَ المقربين ﴾ هذه تدل على فساد الحكم ؛ لأنه مادام حاكماً فعليه أن يكون كل المحكومين بالنسبة إليه سواء . لكن إذا ما كان هناك مقربون فالدائرة الأولى منهم تنهب على قدر قربها ، والدائرة الثانية تنهب أيضاً ، وكذلك الثالثة والرابعة فتجد كل الدوائر تمارس فسادها مادام الناس مصنفين عند الحاكم .

(149/281)

ولذلك كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما جلس الصحابة يستمعون إليه كان يسوّي الناس جميعاً في نظره حتى يظن كل إنسان أنه أولى بنظر رسول الله ، ولا يدنى أحداً أو يقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع بأنه مقرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(150/281)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى فى سورة الأعراف : "وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين " وفى الشعراء : "فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين " فيسأل عن زيادة "إذا " فى سورة الشعراء وسقوطها فى سورة الأعراف ؟ وتحرير الأعراف فى قوله : "وجاء السحرة فرعون قالوا " بخلاف الوارد فى سورة الشعراء من قوله : "فلما جاء السحرة فرعون قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا " ؟

(151/281)

والجواب عن الأول : أن "إذا " تقع جوابا وجزاء والمعنى فى السورتين مقصود به الجزاء فوقع الاكتفاء فى الأعراف بقوله تعالى "نعم "والمعنى : نعم لكم ما أردتم من الأجر وزيادة التقريب والحظوة ولا شك ان المعنى : إن غلبتم فلكم ذلك فالمعنى على ذلك ثم ورد فى سورة الشعراء مفصحا بالأداة المحرزة له وهى "إذا " ليناسب بزيادتها ما مضت عليه – أى هذه السورة – من الاستيفاء والإطناب كما تقدم وناسب سقوطها فى الأعراف

مقصود الإيجاز فى هذه القصة وقد مر هذا وعلى ذلك جرى الوارد من قوله فى الأعراف : "وجاء السحرة فرعون قالوا " ويجرى فى مثل هذا كثيرا عطفه بالفاء مناسبا لما يقصد فى الكلام من الارتباط أو بالواو تحكيما للاشتراك كقوله[بياض فى كل النسخ] ونظير الآية فى سقوط حرف التشريك : "وجاؤوا أباهم عشاءا يبكون قالوا يأبانا " ومجرى الإعراب فى الآية أن يكون قوله "قالوا " مقدرا لاستئناف كأن قد قال قائل : لما قال : " وجاء السحرة فرعون "قيل فما فعلوا أو ما قالوا فجووب بهذا المقدر بقوله : "قالوا أئن لنا لأجرا " وهذا الضرب كثير فصيح وموجود حيث يقصد بالإجاز كهذه الآية وأما الوارد فى الشعراء من قوله : "فلما جاء السحرة قالوا " فوارد على مالا يحتاج فيه إلى تقدير وعلى ما هو الأصل فى تركيب مثله من الكلام ومناسب للاطناب المبنى عليه ما قبل الآية وكل على ما يجب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 217.218 ﴾

(152/281)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في قوله : ﴿ إِنَّ لَنَا لأَجْراً ﴾ وجهان :

أظهرهما : أَنَّهَا لا محلَّ لها من الإعْرَاب ؛ لأَنَّها استئناف جواب لسؤال مقدر ، ولذلك لم تعطف بالفاء على ما قبلها .

قال الزمخشريُّ : فإن قلت : هلا قيل : " وجاءَ السَّحرةُ فرعون فقالوا " .

قلت : هو على تقدير سائل سأل : ما قالوا إذ جاءوه ؟ فأجيب بقوله قالوا : " أإن لنا لأراً " وهذا قد سبقه إليه الواحديُّ إلاَّ أنه قال : " ولم يقل " فقالوا " لأنَّ المعنى لما جاءوا قالوا " فلم يصحَّ دخول الفاء على هذه الوَجْهِ .

والوجه الثاني : أَنَّهَا في محلِّ نَصْبٍ على الحال من فاعل " جاءُوا " قاله الحوفي .

وقرأ نَافِعٌ وابن كثير وحفصٌ عن عاصم " إنَّ " بهمزة واحدة بكسر الألف على الخبر والباقُونَ بهمزتين على الاستفهام .

وهم على أصولهم من التحقيق والتسهيل وإدخال ألفٍ بينهما وعدمه .

فقراءة الحَرَمِيِّيْن على الإخبار ، وجوَّز الفارسيُّ أن تكون على نيَّةِ الاستفهامِ يدلُّ عليه قراءة البقاين .

قال الواحديُّ : الاستفهام أحْسَنُ في هذا الموضع ؛ لأَنَّهُم أرادوا أن يعلموا هل لهم أجر أم لا ، ولا يقطعون على أن لهم الأجر ، ويقوي ذلك إجماعهم في سورة " الشعراء " على الاستفهام .

وحجَّةُ نافع وابن كثير أَنَّهُما أرادا همزة الاستفهام ، ولكنهما حذفا ذلك من اللَّفْظِ ، وإن كانت باقية في المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ [الشعراء : 2] وقول الشاعر : [المنسرح]

2540 - أَفْرَحُ أَنْ أَرْزَأَ الكِرَامَ وَأَنْ . . . . . .

وقول الآخر : [الطويل]

2541 - . . . . . .

وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ

وكقوله : ﴿ هذا رَبِّي ﴾ [الأنعام : 76] التقدير : أهذا ربي ؟ وقد تقدَّم تحقيق هذا ، وأَنَّهُ مذهب أبي الحسن ونكر " أجراً " للتعظيم .

قال الزَّمخشريُّ : " كقول العربِ : إنَّ له لإبلاً وإن له لغنماً يقصدون الكثرة " .

قوله : " إنْ كُنَّا " شرط جوابه محذوفٌ للدِّلالة عليه عند الجمهور ، أو ما تقدَّم عند من يجيز تقديم جواب الشَّرْط عليه .

و " نَحْنُ " يجوز فيه أن يكون تأكيداً للضَّمير المرفوع ، وأن يكون فصلاً فلا محل له عند

البصريين ، ومحله الرَّفع عند الكسائيِّ ، والنَّصب عند الفرَّاء .

فإن قيل : قوله : ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾ معطوف على ماذا ؟

فالجوابُ أنَّهُ معطوف على محذوف ، وهو الجملة التي نابت " نعم " عنها في الجاوب إذا التقديرُ : قال : نعم إنَّ لكم لأجراً وإنكم لمن المقربين ، أي : إني لا أقصركم على الثَّواب ، بل أزيدكم عليه بأن أجعلكم من المقرّبين عندي .

قال المتكلمون : " وهذا يدلُّ على أنَّ الثواب إنَّما يَعظم موقعه إذا كان مقروناً بالتعظيم " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 257.258 ﴾

(154/281)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فرغوا من محاورته ، تشوف السامع إلى قولهم لموسى عليه السلام ، فاستأنف قوله جواباً : ﴿ قالوا ﴾ بادئين باسمه ﴿ يا موسى ﴾ مخيرين له أدباً معه كما هي عادة عقلاء الأخصام قبل وقوع الخصام في سياق مفهم أن قصدهم الإلقاء أولاً ، وذلك قولهم : ﴿ إما

أن تلقي ﴾ أي أنت أولاً ما تريد أن تلقيه للمغالبة في إظهار صحة دعواك ﴿ وإما أن نكون نحن ﴾ أي خاصة ﴿ الملقين ﴾ أي لما معنا أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 82 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الفراء والكسائي : في باب "أما وإما" إذا كنت آمراً أو ناهياً أو مخبراً فهي مفتوحة وإذا كانت مشترطاً أو شاكاً أو مخيراً فهي مكسورة تقول في المفتوحة أما الله فاعبدوه وأما الخمر فلا تشربوها وأما زيد فقد خرج .

(155/281)

وأما النوع الثاني : فتقول : إذا كنت مشترطاً ، إما تعطين زيداً فإنه يشكرك ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحرب فَشَرِّدْ ﴾ [الأنفال : 57] وتقول في الشك لا أدري من قام إما

زيد وإما عمرو ، وتقول في التخيير ، لي بالكوفة دار فإما أن أسكنها ، وإما أن أبيعها والفرق بين ، أما إذا أتت للشك وبين أو ، أنك إذا قلت جاءت زيد أو عمرو فقد يجوز أن تكون قد بنيت كلامك على اليقين ثم أدركك الشك فقلت أو عمرو فصار الشك فيهما جميعاً فأول الإسمين في "أو" يجوز أن يكون بحيث يحسن السكوت عليه ثم يعرض الشك فتستدرك بالاسم الآخر ، ألا ترى أنك تقول : قام أخوك وتسكت ، ثم تشك فتقول : أو أبوك ، وإذا ذكرت إما فإنما تبني كلامك من أول الأمر على الشك وليس يجوز أن تقول ضربت إما عبد الله وتسكت وأما دخول ﴿ أَن ﴾ في قوله : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ ﴾ وسقوطها من قوله : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 106] فقال الفراء : أدخل ﴿ أَن ﴾ في ﴿ إِمَّا ﴾ في هذه الآية لأنها في موضع أمر بالاختيار وهي في موضع نصب ، كقول القائل : اختر ذا أو ذا ، كأنهم قالوا اختر أن تلقي أو نلقي وقوله : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ ليس فيه أمر بالتخيير .

ألا ترى أن الأمر لا يصلح ههنا ، فلذلك لم يكن فيه "أن" والله أعلم .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ ﴾ يريد عصاه ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ أي ما معنا من الحبال والعصي فمفعول الإلقاء محذوف وفي الآية دقيقة أخرى وهي أن القوم راعوا حسن الأدب حيث قدموا موسى عليه السلام في الذكر وقال أهل التصوف إنهم لما راعوا هذا الأدب لا

جرم رزقهم الله تعالى الإيمان ببركة رعاية هذا الأدب ثم ذكروا ما يدل على رغبتهم في أن يكون ابتداء الإلقاء من جانبهم وهو قولهم : ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ لأنهم ذكروا الضمير المتصل وأكدوه بالضمير المنفصل وجعلوا الخبر معرفة لا نكرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 164.165 ﴾

(156/281)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي ﴾ الآية ،

﴿ أن ﴾ في قوله ﴿ إما أن ﴾ في موضع نصب أي إما أن تفعل الإلقاء ، ويحتمل أن تكون في موضع رفع أي إما هو الإلقاء ، وخير السحرة موسى في أن يتقدم في الإلقاء أو يتأخر . قال القاضي أبو محمد : وهذا فعل المدل الواثق بنفسه ، والظاهر أن التقدم في التخيلات والمخارق والحج ، لأن بدليتهما تمضي بالنفس ، فليظهر الله أمر نبوة موسى قوى نفسه ويقينه ووثق بالحق فأعطاهم التقدم فنشطوا وسروا حتى أظهر الله الحق وأبطل سعيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(157/281)

وقال أبو حيان :

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ .

قال الزمخشري تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال والمتصارعين قبل أن يأخذوا في الصراع انتهى .

وقال القرطبي تأدّبوا مع موسى عليه السلام بقولهم ﴿ إما أن تلقى ﴾ فكان ذلك سبب إيمانهم والذي يظهر أنّ تخييرهم إياه ليس من باب الأدب بل ذلك من باب الإدلال لما يعلمونه من السحر وإيهام الغلبة والثقة بأنفسهم وعدم الاكتراث والابتهال بأمر موسى كما قال الفرّاء لسيبويه حين جمع الرشيد بين سيبويه والكسائي أتسأل فأجيب أم أبتدىء وتجيب فهذا جاء التخيير فيه على سبيل الإدلال بنفسه والملاءة بما عنده وعدم الاكتراث بمناظرته والوثوق بأنه هو الغالب ، قال الزمخشري : وقولهم ﴿ وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر وإقحام الفصل انتهى ، وأجازوا في ﴿ أن تلقي ﴾ وفي ﴿ أن نكون ﴾ النصب أي اختر وافعل إما إلقاءك وإما أمرك الإلقاء أي البداءة به أو إما أمرنا الإلقاء فيكون خبر مبتدأ محذوف ودخلت ﴿ أن ﴾ لأنه لا يكون الفعل وحده مفعولاً ولا مبتدأ بخلاف قوله ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذّبهم وإما يتوب عليهم ﴾ فالفعل بعد ﴿ أما ﴾ هنا خبر

ثان لقوله ﴿ وآخرون ﴾ أو صفة فليس من مواضع أن ومفعول ﴿ تلقي ﴾ محذوف أي إما أن تلقي عصاك وكذلك مفعول ﴿ الملقين ﴾ أي الملقين العصى والحبال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(158/281)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ كما مر كأنه قيل : فماذا فعلوا بعد ذلك ؟ فقيل : قالوا متصدّين لشأنهم مخاطِبين لموسى عليه السلام : ﴿ يا موسى إِمَّا أَن تُلْقِىَ ﴾ ما تلقي أولاً ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ أي لما نُلقي أولاً ، أو الفاعلين للإلقاء أولاً ، خيّروه عليه السلام بالبدء بالإلقاءِ مراعاةً للأدب وإظهاراً للجلادة وأنه لا يختلف حالُهم بالتقديم والتأخير ، ولكن كانت رغبتُهم في التقديم كما ينبىء عنه تغييرُهم للنظم بتعريف الخبر ، وتوسيطُ ضميرِ الفصل وتأكيدِ الضمير المتصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف كنظيره السابق ﴿ يا موسى إِمَّا أَن تُلْقِىَ ﴾ ما تلقى أولا ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ لما نلقى أولا أو الفاعلين للإلقاء أولا خيروه عليه السلام بالبدء بالإلقاء مراعاة للأدب ولذلك كما قيل من الله تعالى عليهم بما منّ ، أو إظهاراً للجلادة وأنه لا يختلف عليهم الحال بالتقديم والتأخير ، ولكن كانت رغبتهم في التقديم كما ينبى عنه تغييرهم للنظر بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل وتوكيد الضمير المستتر ، والظاهر أنه وقع في المحكى كذلك بما يرادفه ، وقول الجلال السيوطي : إن الضمير المنفصل إما أن يكون فصلاً أو تأكيداً ولا يمكن الجمع بينهما لأنه على الأول لا محل له من الإعراب وعلى الثاني له محل كالمؤكد وهم كما لا يخفى .

وفرق الطيبي بين كون الضمير فصلاً وبين كونه توكيداً بأن التوكيد يرفع التجوز عن المسند إليه فيلزم التخصيص من تعريف الخبر ، أي نحن نلقى البتة لا غيرنا ، والفصل يخصص الإلقاء بهم لتخصيص المسند إليه فيعرى عن التوكيد ، وتحقيق ذلك يطلب من محله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(159/281)

وقال ابن عاشور :

وفصلت جملة : ﴿ قالوا يا موسى ﴾ لوقوعها في طريقة المحاورة بينهم وبين فرعون وموسى ، لأن هؤلاء هم أهل الكلام في ذلك المجمع .

و ﴿ إمّا ﴾ حرف يدل على الترديد بين أحد شيئين أو أشياء ، ولا عمل له ولا هو معمول ، وما بعده يكون معمولاً للعامل الذي في الكلام .

ويَكون (إما) بمنزلة جزء كلمة مثل أل المعرفة ، كقول تأبط شراً :

هُمَا خُطّتَا إما إسارٍ ومنّةٍ . . .

وإمّا دَمٍ والموتُ بالحر أجدر

وقوله : ﴿ أنْ تُلْقي وقوله : أن نكون نحن الملقين ﴾ يجوز كونهما في موضع رفع بالابتداء والخبر محذوف ، أي إما إلقاؤك مقدم وإما كوننا ملقين مقدم ، وقد دل على الخبر المقام لأنهم جاءوا لإلقاء آلات سحرهم ، وزعموا أن موسى مثلهم .

(160/281)

وفي "الكشاف" في سورة طه ، جَعَل ﴿ إما أن تلقي ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا ، ولما كان الواقع لا يخلو عن أحد هذين الأمرين لم يكن المقصود بالخبر

الفائدة لأنها ضرورية ، فلا يحسن الإخبار بها مثل : السماء فوقنا ، فتعين أن يكون الكلام مستعملاً في معنى غير الإخبار ، وذلك هو التخيير أي : إما أن تبتدىء بإلقاء آلات سحرك وإما أن نبتدىء ، فاختر أنت أحد مرين ومن هنا جاز جَعل المصدرين المنسبكين في محل نصب بفعل تخيير محذوف ، كما قدره الفراء وجوزه في "الكشاف" في سورة طه ، أي : اختر أن تلقي أو كوننا الملقين ، أي : في الأولية ، ابتدأ السحرة موسى بالتخيير في التقدم إظهاراً لثقتهم بمقدرتهم وإنهم الغالبون ، سواء ابتدأ السحرة موسى بالأعمال أم كانوا هم المبتدئين ، ووجه دلالة التخيير على ذلك أن التقدم في التخييلات والشعوذة أنجح للبادىء لأن بديهتها تمضي في النفوس وتستقر فيها ، فتكون النفوس أشد تأثراً بها من تأثرها بما يأتي بعدها ، ولعلهم مع ذلك أرادوا أن يسبروا مقدار ثقة موسى بمعرفته مما يبدو منه من استواء الأمرين عنده أو من الحرص على أن يكون هو المقدم ، فإن لاستضعاف النفس تأثيراً عظيماً في استرهابها وإبطال حيلتها ، وقد جاءوا في جانبهم بكلام يسترهب موسى ويهول شأنهم في نفسه ، إذ اعتنوا بما يدل على ذواتهم بزيادة تقرير الدلالة في نفس السامع المعبر عنها في حكاية كلامهم بتأكيد الضمير في قوله : ﴿ وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ .

(161/281)

وبذلك تعلم أن المقام لا يصلح لاحتمال أنهم دلوا على رغبتهم في أن يُلقوا سحرهم قبل موسى ، لأن ذلك ينافي إظهار استواء الأمرين عندهم ، خلافاً لما في "الكشاف" وغيره ، ولذلك كان في جواب موسى إياهم بقوله : ﴿ أَلْقُوا ﴾ استخفافٌ بأمرهم إذ مكّنهم من مباداة إظهار تخييلاتهم وسحرهم ، لأن الله قوّى نفس موسى بذلك الجواب لتكون غلبته عليهم بعد أن كانوا هم المبتدئين أوقعَ حجةٍ وأقطع معذرة ، وبهذا يظهر أن ليس في أمر موسى عليه السلام إياهم بالتقدم ما يقتضي تسويغ معارضة دعوة الحق لأن القوم كانوا معروفين بالكفر بما جاء به موسى فليس في معارضتهم إياه تجديد كفر ، ولأنهم جاءوا مصممين على معارضته فليس الإذن لهم تسويغاً ، ولكنهم خيروه في التقدم أو يتقدموا فاختار أن يتقدموا لحكمة إلهية تزيد المعجزة ظهوراً ، ولأن في تقديمه إياهم إبلاغاً في إقامة الحجة عليهم ، ولعل الله ألقى في نفسه ذلك ، وفي هذا دليل على جواز الابتداء بتقرير الشبهة للذي يثق بأنه سيدفعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(162/281)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) ﴾

ونلحظ أنهم لم يؤكدوا لموسى رغبتهم في أن يلقي هو أولا عصاه . ولكنهم أكدوا رغبتهم في أن يكونوا هم أول الملقين . فجاءوا بضمير الفصل وهو (نحن) الذي يفيد التأكيد .

ونعلم أن مَن يعقِّب ويكون عمله تاليا لمن سبقه ، فإن فعله هو الذي سيترتب عليه الحكم .

ولابد أن يكون قوي الحجة . هم يريدون أم يكونوا هم المعقبين ، وأن موسى الذي يبدأ ، لكن عزتهم تفرض عليهم أن يبدأوا هم أولاً ؛ لذلك جاءوا بالعبارة التي تحمل المعنيين : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ [الأعراف : 115]

فعلم موسى أنهم حريصون ، على أن يبدأوا هم بالإلقاء فأتوا بكلمة (نحن) . وفكر موسى أن من صالحه أن يلقوا هم أولاً ؛ لأن عصاه ستلقف وتبتلع ما يلقون ؛ لذلك يأتي قوله سبحانه : ﴿ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سحروا أَعْيُنَ النَّاسِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(163/281)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قالوا يا موسى إما ان تلقى وإما أن نكون نحن الملقين " وفى طه : "قالوا يا

موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى " وهنا سؤالان : أحدهما أن كلام السحرة وتخييرهم فى الإلقاء على ظاهر السياق كان فى موطن واحد فما وجه الاختلاف ما ورد فى السورتين ؟ والثانى ما وجه اختصاص كل من السورتين بما ورد فيها ؟

والجواب عن الأول : أن لا يلزم من الآية أن كلام السحرة هذا كان فى موطن واحد بل لعله كان فى موطنين أو لعله قد تكرر منهم وإن كان فى موطن واحد أو لعل بعضهم قال هذا وقال بعضهم هذا أو لعل المعنى الذى حكى عنهم تعطيه العبارتان وهذا أقرب شئ لما بين اللغات من اختلاف المقاصد عند المواضع الأولى أو قصد الإلهام على الخلاف فى ذلك ومع هذه الإمكانات يسقط الاعتراض رأسا .

والجواب عن السؤال الثانى : أن كل واحدة من الآيتين جرت على وفق فواصل تلك السورة ورؤس آياتها فالعكس لا يناسب بوجه فوجب اختصاص كل سورة بما ورد فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 218 ﴾

(164/281)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾ : إمَّا هنا للتخيير ، ويطلق عليها حرف عطف مجازاً .

قال المفسرُون : " تأدَّبوا مع موسى – عليه السلام – فكان ذلك سبب إيمانهم " .

قال الفرَّاءُ والكسائِيُّ في باب " أمّا " : و" إمّا " إذا كنت آمراً أو ناهياً أو مخبراً فهي مفتوحة ، وإذا كنت مشترطاً أو شاكّاً أو مخيراً فهي مكسورةٌ ، تقول في المفتوحة : إمّا اللَّه فأعْبُدْه ، وأما الخمرُ فلا تَشْرَبها وأما زيد فقد خَرَجَ ، فإن كنت مشترطاً فتقول : إمّا تعطينَّ زيداً فإنه يشكرك قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحرب فَشَرِّدْ بهم ﴾ [الأنفال : 57] ، وتقولُ في الشَّكّ : لا أدري من قام إما زيد وإما عمرو ، وتقولُ في التَّخْيير : لي في الكوفة دارٌ إما أن أسْكُنَهَا وإمَّا أن أبيعها .

والفرق بين " إمّا " إذا كانت للشكّ وبين " أو " أنك إذا قلت : " جاءني زَيْدٌ أو عمرو " فقد يجوزُ أن تكون قد بنيت كلامك على اليقينِ ثم أدركك الشّك فقلت : أو عمرو ، فصار الشك فيهما ، فأوَّلُ الاسمين في " أو " يجوز أن يحسن السكوت عليه ، ثم يعرض الشك فتستدرك بالاسم الآخر ؛ ألا ترى أنَّكَ تَقُولُ : قام أخُوكَ وتسكت ثم تشكُّ فتقول : أو أبوك .

(165/281)

وإذا ذكرت " إمّا " فإنما تبني كلامك من أول الأمر على الشك ، فلا يجوز أن تقول : ضربت إمَّا عبد الله وتسكت .

وفي محل : ﴿ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : النصب بفعلٍ مقدَّر أي : افعل إمَّا إلقاءك وإما إلقاءنا ، كذا قدّره أبو حيَّان ، وفيه نظر ؛ لأَنَّهُ لا يَفْعَلُ إلقاءهم فينبغي أن يُقَدِّر فعلاً لائقاً بذلك وهو اختر أي : اختر إمَّا إلقاءك وإمّا إلقاءنا .

وقدره مكي وأبو البقاءِ فقالا : " إمَا أن تَفْعَلَ الإلقاء " .

قال مَكِّيٌّ : كقوله : [البسيط]

2542 - قَالُوا : الرُّكُوبَ فَقُلْنَا : تِلْكَ عَادَتُنَا . . . . . .

بنصب " الركوب " إلا أَنَّهُ جعل النَّصْبَ مذهب الكوفيين .

الثاني : الرفع على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : أَمْرُكَ إمَّا إلقاؤك وإما إلقاؤُنا .

الثالث : أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره إمَّا لقاؤك مبدوءٌ به ، وإمَّا إلقاؤنا مبدوءٌ به .

فإن قيل : كيف دخلت " أن " في قوله : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾ وسقطت من قوله : ﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 106] .

فالجواب قال الفراء : دخول " أن " في " إما " في هذه الآية لأنها في موضع الأمر بالاختيار ، وهي في موضع نصب كقولك : اختر ذا أو ذا ، كأَنَّهُم قالوا : اختر أن تلقي أو نلقي ، وفي آية

التَّوْبَةِ ليس فيها أمر بالتخيير ؛ ألا ترى أنَّ الأمر لا يَصْلُحُ ها هنا فلذلك لم يكن فيه " أن "

وقال غيره : " إنَّما أتى هنا بـ " أن " المصدرية قبل الفعل بخلاف قوله تعالى

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 106] .

(166/281)

لأن " أن " وما بعدها هنا : إمّا مفعول به أو مبتدأ ، والمفعولُ به والمبتدأ لا يكونان فعلاً صريحاً ، بل لا بُدَّ أن ينضمَّ إليه حرفٌ مصدري يجعله في تأويل اسمٍ ، وأما آية التَّوبةِ فالفعلُ بعد " إمّا " خبر ثان لـ " آخرُونَ " ، وإمَّا صفة له ، والخبرُ والصِّفةُ يقعان جملة فعلية من غير حرف مصدري .

وحذف مفعولُ الإلقَاءِ للعلم به والتقدير : إمَّا أن تُلْقي حبالَكَ وعِصِيَّك – لأَنَّهُم كانوا يَعْتَقِدُونَ أن يفعل كفعلهم – أو نلقي حبالنا وعصِيَّنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 258.260 ﴾ . باختصار .

(167/281)

قوله تعالى ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما فهم موسى عليه السلام مرادهم مما عبر هذا النظم عن حقيقة معناه من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر وإقحام الفصل ، وكان واثقاً من الله تعالى بما وعده به جارياً مع مراده ، لا فرق بين أن يتقدم أو يتأخر ؛ أجابهم إلى سؤالهم .

وهو أوقع في ازدراء شأنهم ، فاستأنف سبحانه الخبر عنه بقوله : ﴿ قال ألقوا ﴾ أي أنتم أيها السحرة ما تريدون إلقاءه ، وهو أمر تعجيز .

ولما أذن لهم بادروا إلى ذلك كما أفهمه العطف بالفاء في قوله : ﴿ فلما ألقوا ﴾ أي ما أعدوه للسحر ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ أي عن صحة إدراكها حتى خيلوا إليها ما لا على بعض ، وبعثوا جماعة ينادون : أيها الناس احذروا ﴿ واسترهبوهم ﴾ أي وأوجدوا رهبتهم إيجاد راغب فيها طالب لها غاية الطلب .

ولما قيل ذلك ، كان ربما ظن أنهم خافوا مما لا يخاف من مثله ، فقال تعالى مبيناً أنهم معذورون في خوفهم : ﴿ وجاءو بسحر عظيم ﴾ قال صاحب كتاب الزينة : والسحر على وجوه كثيرة ، منه الأخذ بالعين ، ومنه ما يفرق به بين المرء وزوجه ، ومنه غير ذلك ،

وأصله مأخوذ من التعلل بالباطل وقلب الأمر عن وجهه كما ذكرنا من لغة العرب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 82 . 83 ﴾

فصل

قال الفخر :

واعلم أن القوم لما راعوا الأدب أولاً وأظهروا ما يدل عى رغبتهم في الابتداء بالإلقاء قال موسى عليه السلام : ألقوا ما أنتم ملقون وفيه سؤال : وهو أن إلقاءهم حبالهم وعصيهم معارضة للمعجزة بالسحر وذلك كفر والأمر بالكفر كفر ، وحيث كان كذلك فكيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول ألقوا ؟

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾

واحتج به القائلون بأن السحر محض التمويه .

قال القاضي : لو كان السحر حقاً ، لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم ؟ فثبت أن المراد أنهم تخيلوا أحوالاً عجيبة مع أن الأمر في الحقيقة ما كان على وفق ما تخيلوه .

قال الواحدي : بل المراد سحروا أعين الناس ، أي قلبوها عن صحة أدراكها بسبب تلك التمويهات ، وقيل إنهم أتوا بالحبال والعصي ولطخوا تلك الحبال بالزئبق ، وجعلوا الزئبق في دواخل تلك العصي ، فلما أثر تسخين الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض وكانت كثيرة جداً ، فالناس تخيلوا أنها تتحرك وتلتوي باختيارها وقدرتها .

وأما قوله : ﴿ واسترهبوهم ﴾ فالمعنى : أن العوام خافوا من حركات تلك الحبال والعصي .

قال المبرد : ﴿ استرهبوهم ﴾ أرهبوهم ، والسين زائدة .

قال الزجاج : استدعوا رهبة الناس حتى رهبهم الناس ، وذلك بأن بعثوا جماعة ينادون عند إلقاء ذلك : أيها الناس احذروا ، فهذا هو الاسترهاب .

(168/281)

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه خيل إلى موسى عليه السلام أن حبالهم وعصيهم حيات مثل عصا موسى ، فأوحى الله عز وجل إليه ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ قال المحققون : إن هذا غير جائز ، لأنه عليه السلام لما كان نبياً من عند الله تعالى كان على ثقة ويقين من أن القوم لم يغالبوه ، وهو عالم بأن ما أتوا به على وجه المعارضة فهو من باب السحر والباطل ، ومع هذا الجزم فإنه يمتنع حصول الخوف .

فإن قيل : أليس أنه تعالى قال : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ [طه : 67] .

قلنا : ليس في الآية أن هذه الخيفة إنما حصلت لأجل هذا السبب ، بل لعله عليه السلام خاف من وقوع التأخير في ظهور حجة موسى عليه السلام على سحرهم .

ثم إنه تعالى قال في صفة سحرهم : ﴿ وَجَاءو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ روي أن السحرة قالوا قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء ، فإنه لا طاقة لنا به .

وروي أنهم كانوا ثمانين ألفاً .

وقيل : سبعين ألفاً .

وقيل : بضعة وثلاثين ألفاً .

واختلفت الروايات ، فمن مقل ومن مكثر ، وليس في الآية ما يدل على المقدار والكيفية والعدد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 165.166 ﴾

(169/281)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى ﴿ أَلْقَوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ ﴾ يعني : السحرة ألقوا الحبال والعصي ﴿ سَحَرُواْ أَعْيُنَ الناس ﴾ أي أخذوا أعينهم بالسحر ﴿ واسترهبوهم ﴾ يعني : طلبوا رهبتهم حتى رهبهم الناس .

قال الكلبي : كانت السحرة سبعين فألقوا سبعين عصا وسبعين حبلاً .

وقال بعضهم : كانوا اثنين وسبعين حبلاً .

وروى أسباط عن السدي قال : قال ابن عباس كانوا بضعاً وثلاثين ألفاً .

وقال محمد بن إسحاق : كانوا ألف رجل وخمسمائة رجل ومع كل واحد منهم عصا : وقد كانوا خاطوا الحبال وجعلوها مموهة بالرصاص وحشوها بالزئبق حتى إذا ألقوها تحركت كأنها حيات ، لأن الزئبق لا يستقر في مكان واحد ، فلما طلعت عليه الشمس صارت شبيهاً بالحيات فنظر موسى فإذا الوادي قد امتلأ بالحيات ، فدخل فيه الخوف ، ونظر الناس إلى ذلك فخافوا من كثرة الحيات .

فذلك قوله : ﴿ واسترهبوهم ﴾ يعني : أفزعوهم وأخافوهم ﴿ وَجَاءو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني : بسحر تام .

ويقال : ﴿ وَجَاءو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني : بقول عظيم حيث قالوا ﴿ فَأَلْقَوْاْ حبالهم وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ [الشعراء : 44] ويقال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ حيث قالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾

نص في أن لهم فعلاً ما زائداً على ما يحدثونه من التزيق والآثار في العصا وسائر الأجسام

التي يصرفون فيها صناعتهم ﴿ واسترهبوهم ﴾ بمعنى أرهبوهم أي فزعوهم فكأن فعلهم اقتضى واستدعى الرهبة من الناس ، ووصف الله سحرهم بالعظم ، ومعنى ذلك من كثرته ، وروي أنهم جلبوا ثلاثمائة وستين بعيراً موقرة بالحبال والعصي فلما ألقوها تحركت وملأت الوادي يركب بعضها بعضاً ، فاستهول الناس ذلك واسترهبوهم ، قال الزجاج : قيل إنهم جعلوا فيها الزئبق فكانت لا تستقر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(170/281)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ أَلْقُوْاْ ﴾ غيرَ مبالٍ بأمرهم أي ألقوا ما تُلقُون ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ ﴾ ما ألقَوْا ﴿ سَحَرُواْ أَعْيُنَ الناس ﴾ بأن خيّلوا إليهم ما لا حقيقةَ له ﴿ واسترهبوهم ﴾ أي بالغوا في إرهابهم ﴿ وَجَاءو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ في بابه . روي أنهم ألقَوا حِبالاً غلاظاً وخشَباً طِوالاً كأنها حياتٌ ملأت الواديَ ورِكبَ بعضُها بعضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام وثوقاً بشأنه وتحقيراً لهم وعدم مبالاة بهم ﴿ أَلْقَوْاْ ﴾ أنتم ما تلقون أو لا ، وبما ذكرنا يعلم جواب ما يقال : إن إلقاءهم معارضة للمعجزة بالسحر وهي كفر والأمر به مثله فكيف أمرهم وهو هو ؟ وحاصل الجواب أنه عليه السلام علم أنهم لا بد وأن يفعلوا ذلك ، وإنما وقع التخيير في التقديم والتأخير كما صرح به في قوله سبحانه في آية أخرى : ﴿ أَوَّلَ مَنْ أَلقى ﴾ [طه : 65] فجوز لهم التقديم لا لإباحة فعلهم بل لتحقيرهم ، وليس هناك دلالة على الرضا بتلك المعارضة ، وقد يقال أيضاً : إنه عليه السلام إنما أذن لهم ليبطل سحرهم فهو إبطال للكفرة بالآخرة وتحقيق لمعجزته عليه السلام ، وعلى هذا يحمل ما جاء في بعض الآثار من أنهم لما قالوا ما قالوا سمع موسى عليه السلام منادياً يقول ؛ بل ألقوا أنتم يا أولياء الله تعالى فأوجس في نفسه خيفة من ذلك حتى أمر عليه السلام ، وسيجيء إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ ﴾ ما القوا وكانمع كل واحد منهم حبل وعصا ﴿ سَحَرُواْ أَعْيُنَ الناس ﴾ بأن خيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه ، ولذا لم يقل سبحانه سحروا الناس فالآية على حد قوله جل شأنه : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه : 66] ﴿ واسترهبوهم ﴾ أي أرهبوهم إرهاباً شديداً

كأنهم طلبوا إرهابهم ﴿ وَجَاءو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ في بابه ، يروى أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً .

(171/281)

وفي بعض الآثار أن الأرض كان سعتها ميلاً في ميل وقد امتلأت من الحيات والأفاعي ، ويقال : إنهم طلوا تلك الحبال بالزئبق ولونوها وجعلوا داخل العصى زئبقاً أيضاً وألقوها على الأرض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس أنها حيات .

واستدل بالآية من قال كالمعتزلة إن السحر لا حقيقة له وإنما هو مجرد تخييل ، وفيه أنهم إن أرادوا أن ما وقع في القصة من السحر كان كذلك فمسلم والآية تدل عليه وإن أرادوا أن كل سحر تخييل فممنوع والآية لا تدل عليه ، والذي ذهب إليه جمهور أهل السنة أن السحر أقسام وأن منه ما لا حقيقة له ومنه ما له حقيقة كما يشهد بذلك سحر اللعين لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسحر يهود خيبر ابن عمر رضي الله تعالى عنهما حين ذهب ليخرص تمرهم .

وذكروا أنه قد يصل السحر إلى حد المشيء على الماء والطيران في الهواء ونحو ذلك ،

وترتب ذلك عليه كترتب الشبع على الأكل والري على الشرب والإحراق على النار ، والفاعل الحقيقي في كل ذلك هو الله تعالى .

نعم قال القرطبي : أجمع المسلمون على أنه ليس من السحر ما يفعل الله تعالى عنده إنزال الجراد والقمر والضفادع وفلق الحجر وقلب العصا وإحياء الموتى وانطاق العجماء وأمثال ذلك من آيات الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ومن أنكر حقيقته استدل بلزوم الالتباس بالمعجزة ، وتعقب بأن الفرق مثل الصبح ظاهر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(172/281)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [116] .

﴿ قَالَ ﴾ أي : موسى لهم : ﴿ أَلْقُوْاْ ﴾ أي : ما أنتم ملقون ، وإنما سوغ لهم التقدم ازدراءاً لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، وثقةً بما كان بصدده من التأييد الإلهي ، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً .

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أي : خيلوا لها ما ليس في الواقع : ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أي : وخوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر ، كما في الآية الأخرى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ﴿ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : في باب السحر ، أو في عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد عصاه ، فصارت العصي ثعابين .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآيات على أن القوم أتوا بما في وسعهم من التمويه ، وكان الزمان زمان سحر ، والغالب عليهم الإشتغال به ، فأتى موسى عليه السلام من جنس ما هم فيه ، وما لم يقدر عليه أحد ، ليعلموا أنه معجز وليس بسحر . وهكذا ينبغي في المعجزات أن تكون من جنس ما هو شائع في القوم ، ويتعذر عليهم مثله . وكان الطب هو الغالب في زمن عيسى ، فجاء بإحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وليس في وسع طبيب . وكان الغالب في زمن نبينا عليه السلام الفصاحة والخطب والشعر ، فجاء القرآن وتحداهم به . وتدل على أنهم بالحيل جعلوا الحبال والعصي متحركة حتى أوهموا أنها أحياء ، ولكن لما وقف على أصل ما فعلوه وعُلم ، وكان مثله مقدوراً لكل من تعاطى صناعتهم ، عُلم أنه شعبذة . ولهذا تتفارق المعجزة والشعبذة ، أنه يوقف على أصلها ، ويمكن إتيان مثلها ،

ويخفى أمرها ، بخلاف المعجزة .

ثم قال : وتدل على اعتراف فرعون بالذل والضعف ، حيث استغاث بهم وبمهنتهم لدفع مكروه . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 167.168 ﴾

(173/281)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾

(قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)

هُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ - بِكَسْرِ الْعَيْنِ - وَأَهْلُ الْكِتَابِ يَضْبُطُونَ اسْمَ وَالِدِهِ بِالْمِيمِ فِي آخِرِهِ (عَمْرَامُ) وَبِفَتْحِ أَوَّلِهِ ، وَجَمِيعُ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ تَتَصَرَّفُ

فِي نَقْلِ الْأَسْمَاءِ مِنْ لُغَاتِ غَيْرِهَا إِلَى لُغَتِهَا ، وَمَعْنَى كَلِمَةِ (مُوسَى) الْمِنْتَاشُ مِنَ الْمَاءِ ؛ أَيْ : الَّذِي أُنْقِذَ مِنْهُ ، وَرَوَى أَبُو الشَّيْخِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّمَا سُمِّيَ " مُوسَى " ؛ لِأَنَّهُ أُلْقِيَ بَيْنَ مَاءٍ وَشَجَرٍ ،

فَالْمَاءُ بِالْقِبْطِيَّةِ " مُو " وَالشَّجَرُ " سَى " وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّهُ وَضَعَتْهُ بَعْدَ وِلَادَتِهِ فِي تَابُوتٍ (صُنْدُوقٍ) أَقْفَلَتْهُ إِقْفَالًا مُحْكَمًا ، وَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ (بَحْرِ النِّيلِ) خَوْفًا مِنْ فِرْعَوْنَ وَحُكُومَتِهِ

أَنْ يَعْلَمُوا بِهِ فَيَقْتُلُوهُ ؛ إِذْ كَانُوا يَذْبَحُونَ ذُكُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ وِلَادَتِهِمْ ، وَيَتْرُكُونَ إِنَاثَهُمْ ، وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ : قُصِّيهِ ؛ أَيْ : تَتَبَّعِيهِ ؛ لِتَعْلَمَ أَيْنَ يَنْتَهِي ؟ وَمَنْ يَلْتَقِطُهُ ؟ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهَا أَمْرُهُ ، فَمَا زَالَتْ أُخْتُهُ تُرَاقِبُ التَّابُوتَ عَلَى ضِفَافِ الْيَمِّ حَتَّى رَأَتْ آلَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ يَلْتَقِطُونَهُ إِلَى آخِرِ مَا قَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ خَبَرِهِ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ .

(174/281)

وَقَدْ ذُكِرَتْ قِصَّتُهُ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ مَكِّيَّةٍ بَيْنَ مُطَوَّلَةٍ وَمُخْتَصَرَةٍ أَوَّلُهَا هَذِهِ السُّورَةُ (الْأَعْرَافُ) فَهِيَ أَوَّلُ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ فِي تَرْتِيبِ الْمُصْحَفِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا قِصَّتُهُ ، وَمِثْلُهَا فِي اسْتِقْصَاءِ قِصَّتِهِ طَهَ وَيَلِيهَا سَائِرُ الطَّوَاسِينِ الثَّلَاثَةِ (الشُّعَرَاءِ وَالنَّمْلِ وَالْقَصَصِ) وَقَدْ ذُكِرَ بَعْضُ الْعِبَرِ مِنْ قِصَّتِهِ فِي سُوَرٍ أُخْرَى كَيُونُسَ وَهُودٍ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَذُكِرَ اسْمُهُ فِي سُوَرٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِهَا بِالِاخْتِصَارِ وَلَا سِيَّمَا الْمَكِّيَّةِ ، وَتَكَرَّرَ ذِكْرُهُ فِي خِطَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْمَدَنِيَّةِ ، وَذُكِرَ فِي غَيْرِهَا مِنَ الطُّولِ وَالْمِئِينَ وَالْمُفَصَّلِ حَتَّى زَادَ ذِكْرُ اسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى 130 مَرَّةً فَلَمْ يُذْكَرْ فِيهِ نَبِيٌّ وَلَا مَلِكٌ كَمَا ذُكِرَ اسْمُهُ .

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ قِصَّتَهُ أَشْبَهُ قَصَصِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِقِصَّةِ خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ أُوتِيَ شَرِيعَةً دِينِيَّةً دُنْيَوِيَّةً ، وَكَوَّنَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ أُمَّةً

عَظِيمَةً ذَاتَ مِلْكٍ وَمَدَنِيَّةٍ ، وَسَنُبَيِّنُ مَا فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ حُكْمِ التَّكْرَارِ ، وَاخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِي مَوَاضِعِهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(175/281)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ هَذِهِ الْقِصَّةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ مَا قَبْلَهَا مِنَ الْقَصَصِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلَى قَوْلِهِ : وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا الْقِصَّةَ ، فَهِيَ نَوْعٌ وَهُنَّ نَوْعٌ آخَرُ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ أَنَّ تِلْكَ الْقَصَصَ مُتَشَابِهَةٌ فِي تَكْذِيبِ الْأَقْوَامِ فِيهَا لِرُسُلِهِمْ وَمُعَانَدَتِهِمْ إيَّاهُمْ وَإِيذَائِهِمْ لَهُمْ ، وَفِي عَاقِبَةِ ذَلِكَ بِإِهْلَاكِ اللَّهِ تَعَالَى إيَّاهُمْ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ ، وَلِذَلِكَ عَطَفَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ عَلَى الْأُولَى بِدُونِ إعَادَةِ ذِكْرِ الْإِرْسَالِ

لِلْإِيذَانِ بِأَنَّهَا نَوْعٌ وَاحِدٌ ، فَقَالَ : وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا وَلُوطًا وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا وَقَدْ أَعَادَ فِي قِصَّةِ مُوسَى ذِكْرَ الْإِرْسَالِ لِلتَّفْرِقَةِ ، وَلَكِنْ بِلَفْظِ الْبَعْثِ ، وَهُوَ أَخَصُّ وَأَبْلَغُ مِنْ لَفْظِ الْإِرْسَالِ ؛ لِأَنَّهُ يُفِيدُ مَعْنَى الْإِثَارَةِ وَالْإِزْعَاجِ إلَى الشَّيْءِ الْمُهِمِّ ، وَلَمْ يُذْكَرْ فِي الْقُرْآنِ إلَّا فِي بَعْثِ الْمَوْتَى ، وَفِي الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ ؛ أَيْ : بَعْثُ عِدَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَفِي بَعْثَةِ نَبِيِّنَا وَمُوسَى خَاصَّةً ، وَكَذَا فِي بَعْثِ نُقَبَاءِ بَنِي إسْرَائِيلَ ، وَبَعْثِ مَنِ

انْتَقَمَ مِنْهُمْ وَعَذَّبَهُمْ وَسَبَاهُمْ حِينَ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ ، فَالتَّعْبِيرُ بِلَفْظِ الْبَعْثِ هُنَا يُؤَكِّدُ مَا أَفَادَتْهُ إعَادَةُ الْعَامِلِ مِنَ التَّفْرِقَةِ

(176/281)

بَيْنَ نَوْعَيِ الْإِرْسَالِ ، أَعْنِي أَنَّ لَفْظَهُ الْخَاصَّ مُؤَكِّدٌ لِمَعْنَاهُ الْعَامِّ ، كَمَا يُؤَكِّدُهَا عَطْفُ هَذِهِ الْقِصَّةِ عَلَى أُولَئِكَ بِـ " ثُمَّ " الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْفَصْلِ وَالتَّرَاخِي إمَّا فِي الزَّمَانِ ، وَإِمَّا فِي النَّوْعِ أَوِ الرُّتْبَةِ ، وَالْأَخِيرُ هُوَ الْمُرَادُ هُنَا ، وَبَيَانُهُ أَنَّ هَذَا الْإِرْسَالَ وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ وَأَعْقَبَهُ فِي قَوْمِ مُوسَى مُخَالِفٌ لِجُمْلَةِ مَا قَبْلَهُ مُخَالَفَةَ تَضَادٍّ ، فَقَدْ أُنْقِذَتْ بِهِ أُمَّةٌ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ تَعْبِيدُ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ لَهَا وَسَوْمُهُمْ إيَّاهَا أَنْوَاعَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ ، وَاهْتَدَتْ إلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ وَإِقَامَةِ شَرْعِهِ ، فَأَعْطَاهَا فِي الدُّنْيَا مُلْكًا عَظِيمًا ، وَجَعَلَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَ وَمُلُوكًا ، وَأَعَدَّ بِذَلِكَ الْمُهْتَدِينَ مِنْهَا لِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ فَأَيْنَ هَذَا الْإِرْسَالُ مِنْ ذَلِكَ الْإِرْسَالِ ، الَّذِي أَعْقَبَ أَقْوَامَ أُولَئِكَ الرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ ، وَفِي الْآخِرَةِ مَا هُوَ أَشَدُّ وَأَبْقَى مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ ؟ وَقَدْ يَظْهَرُ لِلتَّرَاخِي الزَّمَانِيِّ وَجْهٌ بِاعْتِبَارِ كَوْنِ الْعَطْفِ عَلَى قِصَّةِ نُوحٍ ؛ فَإِنَّ مَا عُطِفَ عَلَيْهَا مِنْ قَصَصِ مَنْ بَعْدَهُ قَدْ جُعِلَ تَابِعًا وَمُتَمِّمًا لَهَا بِعَدَمِ إعَادَةِ الْعَامِلِ " أَرْسَلْنَا " كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا ، وَإِلَّا فَإِنَّ شُعَيْبًا ، وَهُوَ آخِرُ أُولَئِكَ الرُّسُلِ كَانَ فِي زَمَنِ

مُوسَى وَهُوَ حَمُوهُ ، وَقَدْ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى وَهُوَ لَدَيْهِ مَعَ زَوْجِهِ وَأَوْلَادِهِ فِي سَيْنَاءَ ، وَأَرْسَلَهُ مِنْهَا إِلَى

(177/281)

فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ لِإِنْقَاذِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ حُكْمِهِ وَظُلْمِهِ ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ كُلَّهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ إِرْسَالَ نُوحٍ فِي سُورَةِ يُونُسَ وَقَفَّى عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ (10 : 74) إِلَخْ ، وَقَالَ بَعْدَ هَذَا : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ (10 : 75) وَمِنَ الْمَعْلُومِ عَقْلًا وَاسْتِنْبَاطًا أَنَّ التَّرَاخِيَ بَيْنَ بَعْثَةِ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الرُّسُلِ زَمَانِيٌّ ؛ إِذْ كَانَ بَعْدَ تَنَاسُلِ الَّذِينَ نَجَوْا مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ ، وَتَكَاثُرِهِمْ وَصَيْرُورَتِهِمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ، وَهَذَا الْإِجْمَالُ فِي سُورَةِ يُونُسَ فِي الرُّسُلِ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي سَبَقَهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَهَا أَوْ هُوَ أَعَمُّ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ الْأُمَمَ قَدْ كَثُرَتْ بَيْنَ نُوحٍ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا (16 : 36) وَقَالَ لِخَاتَمِ رُسُلِهِ : مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (40 : 78) وَقَدْ بَيَّنَّا حِكْمَةَ تَخْصِيصِ مَنْ ذُكِرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْهُمْ بِالذِّكْرِ ، وَكَذَا مَنْ ذُكِرَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا .

(178/281)

وَالْمَعْنَى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ أُولَئِكَ الرُّسُلِ مُوسَى بِآيَاتِنَا الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنَّا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، أَمَّا " فِرْعَوْنُ " فَهُوَ لَقَبُ مُلُوكِ مِصْرَ الْقُدَمَاءِ ، كَلَقَبِ " قَيْصَرَ " لِمُلُوكِ الرُّومِ ، وَ " كِسْرَى " لِمُلُوكِ الْفُرْسِ الْأَوَّلِينَ ، وَ " الشَّاهْ " لِمُلُوكِ الْإِيرَانِيِّينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَكَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَى فِرْعَوْنَ لَقَبَ الْمَلِكِ أَيْضًا ، وَاخْتُلِفَ فِي اشْتِقَاقِ كَلِمَةِ فِرْعَوْنَ وَمَعْنَاهُ ، وَفِي اسْمِ فِرْعَوْنَ مُوسَى وَزَمَنِهِ ، وَلَيْسَ فِي الْآثَارِ الْمِصْرِيَّةِ مَا يُبَيِّنُ هَذَا ، وَأَمَّا مَلَؤُهُ فَهُمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِ وَرِجَالُ دَوْلَتِهِ ، وَلَمْ يَقُلْ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ وَرِجَالَ الدَّوْلَةِ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَعْبِدِينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَبِيَدِهِمْ أَمْرُهُمْ ، وَلَيْسَ لِسَائِرِ الْمِصْرِيِّينَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا

(179/281)

مُسْتَعْبَدِينَ أَيْضًا ، وَلَكِنَّ الظُّلْمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْغُرَبَاءِ كَانَ أَشَدَّ ، وَإِنَّمَا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى ؛ لِإِنْقَاذِ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَرِجَالِ دَوْلَتِهِ ، وَإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ فِي بِلَادِ أَجْدَادِهِمْ ، وَلَوْ آمَنَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ لَآمَنَ سَائِرُ قَوْمِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا تَبَعًا لَهُمْ بَلْ كَانَ هَذَا شَأْنَ جَمِيعِ الْأَقْوَامِ مَعَ مُلُوكِهِمُ الْمُسْتَبِدِّينَ الْجَائِرِينَ ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ لَا

يُؤْمِنُونَ بِمُوسَى ، وَأَنَّ قَوْمَهُ تَبَعٌ لَهُ لَا اخْتِيَارَ لَهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ مُقَلِّدُونَ ، وَلِذَلِكَ قَتَلَ السَّحَرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى ، وَإِنَّمَا آمَنُوا ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عُلَمَاءَ ، مُسْتَقِلِّي الْعَقْلِ ، أَصْحَابَ فَهْمٍ وَرَأْيٍ ، وَكَانَ السِّحْرُ مِنْ عُلُومِهِمْ وَفُنُونِهِمُ الصِّنَاعِيَّةِ الَّتِي تُتَلَقَّى بِالتَّعْلِيمِ ، وَلَيْسَ كَالْآيَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى فَإِنَّهَا مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إلَّا اللَّهُ تَعَالَى .

(180/281)

وَقَدْ أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى الْحُجَّةَ بِآيَاتِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا أَيْ : فَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَقَوْمَهُمْ بِالْكُفْرِ بِهَا كِبْرًا وَجُحُودًا ، فَكَانَ عَلَيْهِمْ إثْمُ ذَلِكَ ، وَإِثْمُ قَوْمِهِمُ الَّذِينَ حُرِمُوا مِنَ الْإِيمَانِ بِاتِّبَاعِهِمْ لَهُمْ ، كَمَا كَانَ يَكُونُ لَهُمْ مِثْلُ أُجُورِهِمْ لَوْ آمَنُوا بِالتَّبَعِ لَهُمْ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مُرْسَلًا إلَى قَوْمِهِ بَنِي إسْرَائِيلَ بِالذَّاتِ ، وَإِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِالتَّبَعِ ، وَلَكَ أَنْ تَقُولَ : إنَّ الْإِرْسَالَ إلَى بَنِي إسْرَائِيلَ مَقْصِدٌ ، وَإِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَسِيلَةٌ ، وَقَدْ عُدِّيَ الظُّلْمُ فِي الْجُمْلَةِ بِالْبَاءِ لِتَضْمِينِهِ مَعْنَى الْكُفْرِ فَصَارَ جَامِعًا لِلْمَعْنَيَيْنِ ، وَلَا يَصِحُّ تَفْسِيرُهُ بِأَحَدِهِمَا إذْ لَوْ أُرِيدَ أَحَدُهُمَا لَعَبَّرَ بِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلتَّضْمِينِ فَائِدَةٌ ، وَقِيلَ : إنَّ الْبَاءَ فِي قَوْلِهِ : فَظَلَمُوا بِهَا لِلسَّبَبِيَّةِ ؛ أَيْ : فَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَقَوْمَهُمْ ؛ بِسَبَبِ هَذِهِ الْآيَاتِ ظُلْمًا جَدِيدًا

،

وَهُوَ مَا تَرَتَّبَ عَلَى الْجُحُودِ مِنَ الْعَذَابِ بِالطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالدَّمِ ثُمَّ بِالْغَرَقِ كَمَا سَيَجِيءُ فِي مَحَلِّهِ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ وَأَبْلَغُ ، عَلَى أَنَّهُ لَا تَنَافِي بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى .

(181/281)

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أَيْ : فَانْظُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ ، أَوْ أَيُّهَا السَّامِعُ ، وَالتَّالِي بِعَيْنِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ ، كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ بِالظُّلْمِ وَاسْتِعْبَادِ الْبَشَرِ حِينَ جَحَدُوا آيَاتِ اللهِ ، وَظَلَمُوا بِهَا عَمَلًا بِمُقْتَضَى فَسَادِهِمْ ، وَهَذَا تَشْوِيقٌ لِتَوْجِيهِ النَّظَرِ لِمَا سَيَقُصُّهُ تَعَالَى مِنْ عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ إِذْ نَصَرَ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُوسَى عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ شَعْبٍ مُسْتَضْعَفٍ مُسْتَعْبَدٍ لَهُمْ ، وَهُمْ أَعْظَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ دَوْلَةً وَصَوْلَةً وَقُوَّةً ، نَصَرَهُ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا بِإِبْطَالِ سِحْرِهِمْ ، وَإِقْنَاعِ عُلَمَائِهِمْ وَسَحَرَتِهِمْ بِصِحَّةِ رِسَالَتِهِ ، وَكَوْنِ آيَاتِهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، ثُمَّ نَصَرَهُ بِإِرْسَالِ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ عَلَى الْبِلَادِ ثُمَّ بِإِنْقَاذِ قَوْمِهِ وَإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ مَلَئِهِ وَجُنُودِهِ ، وَهَذِهِ عِبْرَةٌ ظَاهِرَةٌ ، وَحُجَّةٌ قَائِمَةٌ مُدَّةَ الدَّهْرِ ، عَلَى الْقَائِلِينَ إِنَّمَا الْغَلَبُ لِلْقُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ عَلَى الْحَقِّ ، وَلَا سِيَّمَا الْمَغْرُورِينَ بِعَظَمَةِ دُوَلٍ أُورُبَّةَ الظَّالِمَةِ لِمَنِ اسْتَضْعَفَتْهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْقِ ، وَعَلَى أُولَئِكَ الْبَاغِينَ بِالْأَوْلَى ، فَأَوْلَى لَهُمْ أَوْلَى ، ثُمَّ أَوْلَى لَهُمْ أَوْلَى .

بَعْدَ هَذَا التَّشْوِيقِ وَالتَّنْبِيهِ قَصَّ تَعَالَى عَلَيْنَا مَا كَانَ مِنْ مَبْدَأِ أَمْرِ أُولَئِكَ الْمُفْسِدِينَ الَّذِي انْتَهَى

(182/281)

إِلَى تِلْكَ الْعَاقِبَةِ ، فَقَالَ : وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَبْدَأُ بِمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْمَبَاحِثِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْقِرَاءَاتِ وَنُكَتِ الْبَلَاغَةِ ؛ لِتَفْهَمَ عِبَارَتَهَا كَمَا يَجِبُ ، وَيَكُونُ سِيَاقُ الْقِصَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ مُتَّصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَفِيهَا بَحْثَانِ دَقِيقَانِ : أَحَدُهُمَا : بَدْءُ الْقِصَّةِ بِالْعَطْفِ ، وَكَوْنُهُ بِالْوَاوِ ، وَالثَّانِي : قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ .

لَمْ أَرَ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى وَجْهِ بَدْءِ الْآيَةِ بِالْعَطْفِ ، وَبَيَانِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ ، وَالتَّفْرِقَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مِثْلِهَا مِنْ سِيَاقِ الْقِصَّةِ فِي سُورَةِ طَهَ ، إِذْ قَالَ بَعْدَ أَمْرِ مُوسَى بِالذَّهَابِ مَعَ أَخِيهِ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَتَبْلِيغِهِ الدَّعْوَةَ مُبَيِّنًا كَيْفَ كَانَ امْتِثَالُهَا لِلْأَمْرِ : إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (20 : 48) فَجَاءَ بِهِ مَفْصُولًا عَلَى وَجْهِ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ غَيْرَ مَوْصُولٍ بِالْوَاوِ وَلَا بِأَوْ وَلَا بِالْفَاءِ ، وَمِثْلُهُ فِي الْفَصْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْقَصَصِ الَّتِي قَبْلَ قِصَّةِ مُوسَى مِنْ

هَذِهِ السُّورَةِ : وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَكَذَا مَا بَعْدَهُ مِنْ قِصَّةِ صَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ ، وَلَمْ يَقُلْ :

(183/281)

" فَقَالَ " أَوْ " قَالَ " لَكِنَّهُ عَطَفَ تَبْلِيغَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَهَا بِالْفَاءِ : لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ الْآيَةَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا الْوَصْلِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْفَصْلِ فِي قِصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(184/281)

وَالْحَاصِلُ : أَنَّ لَدَيْنَا هُنَا عَطْفًا بِالْفَاءِ فِي قِصَّةِ نُوحٍ ، وَعَطْفًا بِالْوَاوِ فِي قِصَّةِ مُوسَى ، وَفَصْلًا بَيَانِيًّا فِي الْقَصَصِ الَّتِي بَيْنَهُمَا يُشْبِهُ الْفَصْلَ فِي قِصَّةِ مُوسَى فِي سُوَرٍ أُخْرَى ، وَلَهُ نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَعَطْفُ التَّبْلِيغِ فِيهِ عَلَى الْإِرْسَالِ بِالْفَاءِ ؛ لِإِفَادَةِ التَّعْقِيبِ وَعَدَمِ جَوَازِ تَأْخِيرِ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ ، وَأَمَّا الْفَصْلُ فِي الْقَصَصِ بَعْدَهُ ؛ فَلِأَنَّهُ لَمَّا صَارَ هَذَا مَعْلُومًا وَكَانَ مَا جَرَى مِنْ أَمْرِ قَوْمِ نُوحٍ عِبْرَةً لِقَوْمِ هُودٍ ، وَكَانَا مَعًا عِبْرَةً لِقَوْمِ صَالِحٍ وَهَلُمَّ جَرًّا ، حَسُنَ فِي

كُلِّ قِصَّةٍ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ عَلَى أَنَّهُ جَوَابٌ لِسُؤَالٍ مُقَدَّرٍ ، كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ فِي كُلٍّ مِنْهَا : مَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ هَذَا النَّبِيِّ مَعَ قَوْمِهِ ؟ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَأَمَّا الْأَخِيرُ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ فَوَجْهُ الْعَطْفِ فِيهِ ، وَكَوْنُهُ بِالْوَاوِ هُوَ أَنَّهُ قَدْ قَفَى فِي قِصَّةِ مُوسَى هُنَا عَلَى ذِكْرِ إِرْسَالِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِذِكْرِ نَتِيجَةِ هَذَا الْإِرْسَالِ وَعَاقِبَتِهِ بِالْإِجْمَالِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : فَظَلَمُوا بِهَا إِلَخْ ، وَبُدِئَتِ الْقِصَّةُ بَعْدَهُ بِتَفْصِيلِ ذَلِكَ الْإِجْمَالِ وَمُقَدِّمَاتِ تِلْكَ النَّتِيجَةِ ، فَكَانَ الْمُنَاسِبُ أَنْ يَعْطِفَ عَلَيْهَا لَا أَنْ يَسْتَأْنِفَ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا لِمَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنَ الِاشْتِرَاكِ بَيْنَ الْمُقَدِّمَاتِ وَالنَّتِيجَةِ ، أَوْ بَيْنَ التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ ، وَأَنْ يَكُونَ الْعَطْفُ بِالْوَاوِ لَا بِالْفَاءِ ؛ لِأَنَّ الْفَاءَ تَدُلُّ عَلَى التَّعْقِيبِ وَالتَّرْتِيبِ ،

(185/281)

وَهُوَ لَا يَصِحُّ هُنَا ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ الْمُقَدِّمَاتُ مُتَأَخِّرَةً عَنِ النَّتِيجَةِ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ بِالْبَدَاهَةِ ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْعَطْفُ بِالْوَاوِ ، وَهَذِهِ دِقَّةٌ فِي الْبَلَاغَةِ لَا يَهْتَدِي إِلَى مِثْلِهَا إِلَّا غَوَّاصُو بَحْرِ الْبَيَانِ ، وَلَا يَكَادُونَ

يَجِدُونَ فَوَائِدَهَا إِلَّا فِي أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ ، وَأَعْجَبُ لِلْإِمَامِ الزَّمَخْشَرِيِّ كَيْفَ غَفَلَ عَنْهَا إِذْ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِلْمَسْأَلَةِ مِنْ أَصْلِهَا .

وَحِكْمَةُ بدْءِ الْقِصَّةِ بذِكْرِ نَتِيجَتِهَا ، وَالْعِبْرَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْهَا وَهِيَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنْ تَكُونَ مُتَّصِلَةً بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ الْعِبْرَةِ فِي الْقَصَصِ الَّتِي قَبْلَهَا ، مِنْ حَيْثُ إِهْلَاكُ مُعَانِدِي الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جُحُودًا وَاسْتِكْبَارًا ، وَقَدْ ذُكِرَتْ هَذِهِ الْعِبْرَةُ بَعْدَ جُمْلَةِ تِلْكَ الْقَصَصِ لِتَشَابُهِهَا مَبْدَأً وَغَايَةً كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقِصَّةُ مُوسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طَوِيلَةٌ فَهِيَ تُسَاوِيهَا فِي هَذَا مِنْ حَيْثُ رِسَالَتُهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَطْ ، وَفِيهَا عِبَرٌ أُخْرَى فِيمَا تَشَابَهَ بِهِ أَمْرُ خَاتَمِ الرُّسُلِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ حَيْثُ إِرْسَالُهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَإِرْسَالُ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ إِلَى الْعَرَبِ وَسَائِرِ الْبَشَرِ ، وَتَوْفِيقُ اللهِ قَوْمَهُمَا لِلْإِيمَانِ وَنَشْرِ شَرِيعَتِهِمَا فِيمَنْ أُرْسِلَا إِلَيْهِمْ ، إِلَى آخِرِ

(186/281)

مَا بَيَّنَّاهُ آنِفًا فِي نُكْتَةِ عَطْفِهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا بِـ " ثُمَّ " ، وَنُكْتَةِ التَّعْبِيرِ بِـ " بَعَثْنَا " وَلِذَلِكَ ذَكَرَ أَوَاخِرَهَا تَبْشِيرَ مُوسَى وَكَذَا عِيسَى بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْخَاتَمِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

(187/281)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إلَّا الْحَقَّ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ فَقَدْ جَاءَ عَلَى غَيْرِ الْمَشْهُورِ عَنِ الْعَرَبِ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ إذْ يَقُولُونَ : أَنْتَ حَقِيقٌ كَذَا ، وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِأَنْ تَفْعَلَ كَذَا ، كَمَا يَقُولُونَ : أَنْتَ جَدِيرٌ بِهِ وَخَلِيقٌ بِهِ ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْهُمْ اسْتِعْمَالُهُ بِـ " عَلَى " وَلَكِنْ وَرَدَ فِي كَلَامِهِمْ اسْتِعْمَالُ " عَلَى " بِمَعْنَى الْبَاءِ كَقَوْلِهِمْ : ارْكَبْ عَلَى اسْمِ اللهِ ، وَهُوَ الَّذِي اعْتَمَدَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي الْمُغْنِي فِي تَخْرِيجِ الْآيَةِ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَعْنَى السَّابِعِ مِنْ مَعَانِي " عَلَى " الْجَارَّةِ ، وَأَيَّدَهُ بِقِرَاءَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - حَقِيقٌ بِأَنْ لَا أَقُولَ وَمِثْلُهَا قِرَاءَةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - حَقِيقٌ أَنْ لَا أَقُولَ . . . ؛ لِأَنَّ الْمُتَبَادَرَ أَنَّ الْجَارَّ الْمَحْذُوفَ مِنْ أَنَّ هُوَ الْبَاءُ ، وَحَذْفُ الْجَارِ مِنْ " أَنْ " الْخَفِيفَةِ وَ " أَنَّ " الْمُشَدَّدَةِ قِيَاسِيٌّ مَعْرُوفٌ ، وَقَدْ سَبَقَهُ إلَى هَذَا الِاخْتِيَارِ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي الْجُمْلَةِ عَنْ بَعْضِهِمْ : مَعْنَاهُ حَقِيقٌ بِأَلَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إلَّا الْحَقَّ ؛ أَيْ : جَدِيرٌ بِذَلِكَ وَحَرِيٌّ بِهِ ، قَالُوا : وَ " الْبَاءُ " وَ " عَلَى " يَتَعَاقَبَانِ ، يُقَالُ : رُمِيتُ بِالْقَوْسِ ، وَعَلَى الْقَوْسِ ، وَجَاءَ عَلَى حَالٍ حَسَنَةٍ ، وَبِحَالٍ حَسَنَةٍ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : مَعْنَاهُ حَرِيصٌ عَلَى أَلَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إلَّا الْحَقَّ ا هـ ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْقَوْلِ الثَّانِي أَنَّ حَقِيقًا قَدْ ضُمِّنَ

مَعْنَى الْحِرْصِ ، وَهُوَ مَنْقُولٌ عَنِ الْفَرَّاءِ النَّحْوِيِّ الْمُفَسِّرِ الْمَشْهُورِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ التَّضْمِينَ جَمَعَ بَيْنَ الْمَعْنَى الْأَصْلِي لِلْكَلِمَةِ وَالْمَعْنَى الَّذِي أَفَادَتْهُ التَّعْدِيَةُ ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنَ الْعِبَارَةِ : إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ وَجَدِيرٌ بِأَلَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ، وَحَرِيصٌ عَلَى ذَلِكَ فَلَنْ أُخِلَّ بِهِ ، وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّهُ قَلْبُ الْحَقِيقَةِ إِلَى الْمَجَازِ أَوْ مِنْ بَابِ الْإِغْرَاقِ فِي وَصْفِ مُوسَى نَفْسَهُ بِالصِّدْقِ حَتَّى جُعِلَ قَوْلُ الْحَقِّ كَأَنَّهُ يَسْعَى لِيَكُونَ هُوَ قَائِلَهُ وَالْقَائِمَ بِهِ ، وَلَا يَرْضَى أَنْ يَنْطِقَ بِهِ غَيْرُهُ ، فَلَا يُخَوَّلُ مِنْ تَكَلُّفٍ ، وَإِنْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْأَخِيرِ : إِنَّهُ هُوَ الْأَوْجَهُ الْأَدْخَلُ فِي نُكَتِ الْقُرْآنِ .

وَقَرَأَ نَافِعٌ : حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ أَيْ : وَاجِبٌ وَحَقٌّ عَلَى أَلَّا أُخْبِرَ عَنْهُ تَعَالَى إِلَّا بِمَا هُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ لِمَا أَعْلَمُ مِنْ عِزِّ جَلَالِهِ وَعَظِيمِ شَأْنِهِ ، كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ ، إِذَا عُلِمَ هَذَا فَنَقُولُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ :

بَلَّغَ مُوسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِرْعَوْنَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ - أَيْ : سَيِّدُهُمْ

وَمَالِكُهُمْ وَمُدَبِّرُ جَمِيعِ أُمُورِهِمْ - وَأَنَّهُ بِمُقْتَضَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ لَا يَقُولُ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ رَسُولًا يَكْذِبُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، فَهُوَ حَقِيقٌ بِالصِّدْقِ ، وَالْتِزَامِ الْحَقِّ فِي التَّبْلِيغِ عَنْ رَبِّهِ ، وَمَعْصُومٌ مِنَ الْكَذِبِ وَالْخَطَأِ فِيهِ ، وَشَدِيدُ الْحِرْصِ عَلَيْهِ بِمَالِهِ مِنَ الْكَسْبِ وَالِاخْتِيَارِ ، فَاشْتَمَلَ كَلَامُهُ عَلَى عَقِيدَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَهِيَ أَنَّ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ رَبًّا وَاحِدًا ، وَعَقِيدَةَ الرِّسَالَةِ الْمُؤَيَّدَةَ مِنْهُ تَعَالَى بِالْعِصْمَةِ فِي التَّبْلِيغِ وَالْهِدَايَةِ ، وَقَدْ نَاقَشَهُ فِرْعَوْنُ الْبَحْثَ فِي وَحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي سُورَةِ " الشُّعَرَاءِ " فَوَصَفَهُ مُوسَى بِمَا يَلِيقُ بِهِ تَعَالَى ، وَيُوَضِّحُ الْمَعْنَى الْمُرَادَ فِي أَجْوِبَةِ عِدَّةِ أَسْئِلَةٍ أَوْرَدَهَا عَلَيْهِ ، وَقَدْ سَأَلَهُ هُوَ وَهَارُونَ عَنْ رَبِّهِمَا فِي سِيَاقِ سُورَةِ طَهَ ، وَجَاءَ فِيمَا حَكَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا فِيهَا ذِكْرَ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَكَانَ قُدَمَاءُ الْمِصْرِيِّينَ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِالرَّبِّ الْإِلَهِ الْغَيْبِيِّ ، وَلَكِنَّهُمْ شَابُوا الْعَقِيدَتَيْنِ بِنَزَغَاتِ الشِّرْكِ وَبَعْضِ الْخُرَافَاتِ النَّاشِئَةِ عَنْهُ .

(190/281)

فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ مُوسَى قَدْ بَلَّغَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ أُصُولَ الْإِيمَانِ الثَّلَاثَةَ : التَّوْحِيدَ ، وَالرِّسَالَةَ ، وَالْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ ، وَفِي كُلِّ سِيَاقٍ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى الْمُكَرَّرَةِ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ فَوَائِدُ فِي ذَلِكَ

وَفِي غَيْرِهِ لَا تُوجَدُ فِي الْأُخْرَى ، وَأَبْسَطُهَا وَأَوْسَعُهَا بَيَانًا هَذِهِ السُّورَةُ (الْأَعْرَافُ) وَطَهَ وَالشُّعَرَاءُ وَالْقَصَصُ ، وَإِنَّمَا التَّكْرَارُ لِجُمْلَةِ الْقِصَّةِ لَا التَّفْصِيلُ لَهَا كَمَا سَيَأْتِي .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَيَّدَهُ بِبَيِّنَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِي دَعْوَاهُ وَتَبْلِيغِهِ عَنْهُ ، وَرَتَّبَ عَلَيْهِ مَا هُوَ مَقْصُودٌ لَهُ بِالذَّاتِ أَوْ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ فَقَالَ حِكَايَةً عَنْهُ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيْ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ عَظِيمَةِ الشَّأْنِ ، ظَاهِرَةِ الْحُجَّةِ فِي بَيَانِ الْحَقِّ ، فَتَنْكِيرُ الْبَيِّنَةِ لِلتَّفْخِيمِ ، وَالتَّصْرِيحُ بِكَوْنِ هَذِهِ الْبَيِّنَةِ الْمُعْجِزَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ نَصٌّ عَلَى أَنَّهُمْ مَرْبُوبُونَ ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ لَيْسَ رَبًّا وَلَا إِلَهًا ، وَعَلَى أَنَّهَا - أَيِ : الْبَيِّنَةُ - لَيْسَتْ مِنْ كَسْبِ مُوسَى ، وَلَا مِمَّا يَسْتَقِلُّ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَبَنَى عَلَى هَذَا قَوْلَهُ : فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيْ : بِأَنْ تُطْلِقَهُمْ مِنْ أَسْرِكَ ، وَتُعْتِقَهُمْ مِنْ رِقِّ قَهْرِكَ ، لِيَذْهَبُوا مَعِي إِلَى دَارٍ غَيْرِ دِيَارِكَ ، وَيَعْبُدُوا فِيهَا رَبَّهُمْ وَرَبَّكَ ، وَبِمَ أَجَابَ فِرْعَوْنُ ؟

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ أَيْ : قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ

كُنْتَ جِئْتَ مَصْحُوبًا وَمُؤَيَّدًا بِآيَةٍ مِنْ عِنْدِ مَنْ أَرْسَلَكَ كَمَا تَدَّعِي - الشَّرْطُ بِـ " إِنْ " يَدُلُّ عَلَى الشَّكِّ فِي مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ أَوِ الْجَزْمِ بِنَفْيِهَا - فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

فَأْتِنِي بِهَا بِأَنْ تُظْهِرَهَا لَدَيَّ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ الْمُلْتَزِمِينَ لِقَوْلِ الْحَقِّ ، وَهَذَا شَكٌّ آخَرُ فِي صِدْقِهِ ، بَعْدَ الشَّكِّ فِي مَجِيئِهِ بِالْآيَةِ .

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ أَيْ : فَلَمْ يَلْبَثْ مُوسَى أَنْ أَلْقَى عَصَاهُ الَّتِي كَانَتْ بِيَمِينِهِ أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ - وَهُوَ الذَّكَرُ الْعَظِيمُ مِنَ الْحَيَّاتِ - مُبِينٌ ؛ أَيْ : ظَاهِرٌ بَيِّنٌ لَا خَفَاءَ فِي كَوْنِهِ ثُعْبَانًا حَقِيقِيًّا يَسْعَى وَيَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ ، تَرَاهُ الْأَعْيُنُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْحَرَهَا سَاحِرٌ فَيُخَيَّلَ إِلَيْهَا أَنَّهَا تَسْعَى - كَمَا سَيَأْتِي مِنْ أَعْمَالِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ - وَنَزَعَ يَدَهُ ؛ أَيْ : أَخْرَجَهَا مِنْ جَيْبِ قَمِيصِهِ بَعْدَ أَنْ وَضَعَهَا فِيهِ بَعْدَ إِلْقَاءِ الْعَصَا فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ نَاصِعَةُ الْبَيَاضِ تَتَلَأْلَأُ لِلنَّاظِرِينَ إِلَيْهِ ، وَهُمْ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ أَوْ لِكُلِّ مَنْ يَنْظُرُهُ ، وَالنَّظَّارَةُ هُمُ الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ عَادَةً لِرُؤْيَةِ الْأُمُورِ الْغَرِيبَةِ ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْضَهَا فِي طَهَ وَالنَّمْلِ وَالْقَصَصِ بِأَنَّهُ : مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أَيْ : مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ كَالْبَرَصِ .

(192/281)

وَفِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ رِوَايَاتٌ فِي صِفَةِ الثُّعْبَانِ الَّذِينَ تَحَوَّلَتْ إِلَيْهِ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَفِي تَأْثِيرِهِ لَدَى فِرْعَوْنَ مَا هِيَ إِلَّا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا يَصِحُّ لَهَا سَنَدٌ ، وَلَا يُوثَقُ مِنْهَا بِشَيْءٍ ، وَمِنْهَا قَوْلُ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ : إِنَّ الْعَصَا لَمَّا صَارَتْ ثُعْبَانًا حَمَلَتْ عَلَى

النَّاسِ فَانْهَزَمُوا مِنْهَا فَمَاتَ مِنْهَا خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَقَامَ فِرْعَوْنُ مُنْهَزِمًا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِيهِ غَرَابَةٌ فِي سِيَاقِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ا هـ .

(193/281)

وَقَدِ اقْتَصَرْتُ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ لِأَقُولَ : إِنَّنِي أُرَجِّحُ تَضْعِيفَ عَمْرِو بْنِ عَلِيٍّ الْفَلَّاسِ لِوَهْبٍ عَلَى تَوْثِيقِ الْجُمْهُورِ لَهُ ، بَلْ أَنَا أَسْوَأُ فِيهِ ظَنًّا عَلَى مَا رُوِيَ مِنْ كَثْرَةِ عِبَادَتِهِ ، وَيَغْلِبُ عَلَى ظَنِّي أَنَّهُ كَانَ لَهُ ضِلْعٌ مَعَ قَوْمِهِ الْفُرْسِ الَّذِينَ كَانُوا يَكِيدُونَ لِلْإِسْلَامِ وَلِلْعَرَبِ ، وَيَدُسُّونَ لَهُمْ مِنْ بَابِ الرِّوَايَةِ ، وَمِنْ طَرِيقِ التَّشَيُّعِ ، فَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ وَالِدَهُ مُنَبِّهًا فَارِسِيٌّ أَخْرَجَهُ كِسْرَى إِلَى الْيَمَنِ فَأَسْلَمَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَنَّ ابْنَهُ وَهْبًا كَانَ يَخْتَلِفُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى بِلَادِهِ بَعْدَ فَتْحِهَا ، وَهُنَا مَوْضِعٌ لِشُبْهَةٍ فِي الْغَرَائِبِ الْمَرْوِيَّةِ عَنْهُ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ - وَمِثْلُهُ عِنْدِي (كَعْبُ الْأَحْبَارِ) الْإِسْرَائِيلِيُّ - كِلَاهُمَا كَانَ تَابِعِيًّا كَثِيرَ الرِّوَايَةِ لِلْغَرَائِبِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ لَهَا أَصْلٌ مَنْقُولٌ وَلَا مَعْقُولٌ ، وَقَوْمُهُمَا كَانَا يَكِيدُونَ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي فَتَحَتْ بِلَادَهُ الْفُرْسَ ، وَأَجْلَتِ الْيَهُودَ مِنَ الْحِجَازِ ، فَقَاتِلُ الْخَلِيفَةِ الثَّانِي فَارِسِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ جَمْعِيَّةٍ سِرِّيَّةٍ لِقَوْمِهِ ، وَقَتَلَةُ الْخَلِيفَةِ الثَّالِثِ كَانُوا مَفْتُونِينَ

بِدَسَائِسِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَبَأٍ الْيَهُودِيِّ ، وَإِلَى جَمْعِيَّةِ السَّبَئِيِّينَ وَجَمْعِيَّاتِ الْفُرْسِ تَرْجِعُ جَمِيعُ الْفِتَنِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَأَكَاذِيبِ الرِّوَايَةِ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ .

(194/281)

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ

. فَصْلٌ فِي حَقِيقَةِ السِّحْرِ وَأَنْوَاعِهِ

(195/281)

كَانَ السِّحْرُ فَنًّا مِنْ فُنُونِ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ يَتَعَلَّمُونَهُ فِي مَدَارِسِهِمُ الْعَالِيَةِ مَعَ سَائِرِ عُلُومِ الْكَوْنِ ، وَكَانَ كَذَلِكَ عِنْدَ أَقْرَانِهِمْ مِنَ الْبَابِلِيِّينَ وَكَذَا الْهُنُودُ وَغَيْرُهُمْ ، وَلَا يَزَالُ يُؤْثَرُ عَنِ الْوَثَنِيِّينَ مِنْهُمْ أَعْمَالٌ سِحْرِيَّةٌ غَرِيبَةٌ اهْتَدَى عُلَمَاءُ الْإِنْكِلِيزِ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْإِفْرِنْجِ إِلَى تَعْلِيلِ بَعْضِهَا أَوْ كَشْفِ حَقِيقَتِهِ ، وَلَا يَزَالُونَ يَجْهَلُونَ تَعْلِيلَ بَعْضٍ ، وَالْمَعْنَى الْجَامِعُ لِلسِّحْرِ أَنَّهُ أَعْمَالٌ غَرِيبَةٌ مِنَ التَّلْبِيسِ وَالْحِيَلِ تَخْفَى حَقِيقَتُهَا عَلَى جَمَاهِيرِ النَّاسِ ؛ لِجَهْلِهِمْ بِأَسْبَابِهَا ، فَمَتَى عُرِفَ سَبَبُ شَيْءٍ مِنْهَا بَطَلَ إِطْلَاقُ اسْمِ السِّحْرِ عَلَيْهِ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ الْأَقْوَامُ الْجَاهِلُونَ يَعُدُّونَ

آيَاتِ الرُّسُلِ الْكَوْنِيَّةَ الَّتِي يُؤَيِّدُهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ ، يَجْعَلُونَ هَذَا مَانِعًا مِنْ دَلَالَتِهَا عَلَى صِدْقِهِمْ وَتَأْيِيدِ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ ؛ لِأَنَّ السِّحْرَ صَنْعَةٌ تُتَلَقَّى بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّمْرِينِ ، فَيُمْكِنُ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَكُونَ سَاحِرًا إِذَا أُتِيحَ لَهُ مَنْ يُعَلِّمُهُ السِّحْرَ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ أَنَّ السِّحْرَ لَا يَرُوجُ إِلَّا بَيْنَ الْجَاهِلِينَ ، وَلَهُ الْمَكَانَةُ الْمَهِيبَةُ الْمُخِيفَةُ بَيْنَ أَعْرَاقِ الْقَبَائِلِ فِي الْهَمَجِيَّةِ وَلَا يَكَادُ يُوجَدُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَنْتَشِرُ فِيهَا الْعِلْمُ وَالْعِرْفَانُ ، بَلْ يُسَمَّى أَهْلُهُ بِأَسْمَاءٍ أُخْرَى كَالْمُشَعْوِذِينَ وَالْمُحْتَالِينَ وَالدَّجَّالِينَ .

(196/281)

وَقَدْ سَبَقَ لَنَا بَيَانُ حَقِيقَةِ السِّحْرِ فِي قِصَّةِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مِنْ جُزْءِ التَّفْسِيرِ الْأَوَّلِ ، وَفِي بَعْضِ مُجَلَّدَاتِ الْمَنَارِ ، وَخُلَاصَتُهُ أَنَّهُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ : (النَّوْعُ الْأَوَّلُ) : مَا يَعْمَلُ بِالْأَسْبَابِ الطَّبِيعَةِ مِنْ خَوَاصِّ الْمَادَّةِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْعَامِلِ الْمَجْهُولَةِ عِنْدَ مَنْ يَسْحَرُهُمْ بِهَا ، وَمِنْهَا الزِّئْبَقُ الَّذِي قِيلَ : إِنَّ سَحَرَةَ فِرْعَوْنَ وَضَعُوهُ فِي حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ كَمَا سَيَأْتِي ،

وَلَوْ شَاءَ عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ وَالْكِيمْيَاءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنْ يُجْلُوا أَنْفُسَهُمْ سَحَرَةً فِي بِلَادِ أَوَاسِطِ إِفْرِيقِيَّةَ الْهَمَجِيَّةِ وَأَمْثَالِهَا مِنَ الْبِلَادِ الْجَاهِلَةِ الَّتِي يَرُوجُ فِيهَا السِّحْرُ الْعَتِيقُ لَأَرَوْهُمْ مِنْ عَجَائِبِ الْكَهْرَبَاءِ ، وَغَيْرِهَا مَا يُخْضِعُونَهُمْ بِهِ لِعِبَادَتِهِمْ لَوِ ادَّعَوُا الْأُلُوهِيَّةَ فِيهِمْ ، دَعْ دَعْوَى

النُّبُوَّةِ أَوِ الْوِلَايَةِ ، وَقَدِ اجْتَمَعَ السَّحَرَةُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى بَعْضِ السُّيَّاحِ الْغَرْبِيِّينَ لِيُرْهِبُوهُمْ بِسِحْرِهِمْ ، وَكَانُوا فِي مَكَانٍ بَارِدٍ ، وَالْفَصْلُ شِتَاءٌ فَأَخَذَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ السُّيَّاحِ قِطْعَةً مِنَ الْجَلِيدِ وَجَعَلَهَا بِشَكْلِ عَدَسِيٍّ بِقَدْرِ مَا يُرَى مِنْ قُرْصِ الشَّمْسِ ، وَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِالسِّحْرِ ، وَإِنِّي أَقْدِرُ بِهِ أَنْ أَجْعَلَ فِي يَدِي شَمْسًا كَشَمْسِ السَّمَاءِ ثُمَّ وَجَّهَ عَدَسَتَيْهِ إِلَى الشَّمْسِ

(197/281)

عِنْدَ بُزُوغِهَا ، وَاكْتِمَالِ ضَوْئِهَا فَصَارَتْ بِانْعِكَاسِ النُّورِ بِهَا كَالشَّمْسِ لَمْ يَسْتَطِعِ السَّحَرَةُ أَنْ يُثَبِّتُوا نَظَرَهُمْ إِلَيْهَا فَخَضَعُوا لَهُ وَلِمَنْ مَعَهُ ، وَكَفُّوا شَرَّهُمْ عَنْهُمْ خَوْفًا مِنْهُمْ .

(النَّوْعُ الثَّانِي) : الشَّعْوَذَةُ الَّتِي مَدَارُ الْبَرَاعَةِ فِيهَا عَلَى خِفَّةِ الْيَدَيْنِ فِي إِخْفَاءِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ ، وَإِظْهَارِ بَعْضٍ ، وَإِرَاءَةِ بَعْضِهَا بِغَيْرِ صُوَرِهَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ وَغَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْحَضَارَةِ بِكَثْرَةِ الْمُكْتَسِبِينَ بِهَا مِنَ الْوَطَنِيِّينَ وَالْغُرَبَاءِ ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ يُسَمِّيهَا سِحْرًا .

(النَّوْعُ الثَّالِثُ) : مَا مَدَارُهُ عَلَى تَأْثِيرِ الْأَنْفُسِ ذَوَاتِ الْإِرَادَةِ الْقَوِيَّةِ فِي الْأَنْفُسِ الضَّعِيفَةِ ذَاتِ الْأَمْزِجَةِ الْعَصِبِيَّةِ الْقَابِلَةِ لِلْأَوْهَامِ وَالِانْفِعَالَاتِ الَّتِي تُسَمَّى فِي عُرْفِ عُلَمَاءِ هَذَا الْعَصْرِ

بِالْهِسْتِيرِيَةِ ، وَهَذَا النَّوْعُ هُوَ الَّذِي قِيلَ : إِنَّ أَصْحَابَهُ يَسْتَعِينُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِأَرْوَاحِ الشَّيَاطِينِ ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْأَوْفَاقَ وَالطَّلْسَمَاتِ لِلْحُبِّ وَالْبُغْضِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَمَنْ يَقُولُ : إِنَّ لِلْحُرُوفِ خَوَاصًّا وَتَأْثِيرَاتٍ ذَاتِيَّةً يَخْرُجُ عَمَلُ الْأَوْفَاقِ وَالنَّشَرَاتِ ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ السِّحْرِ ، وَمِنْ هَذَا النَّوْعِ مَا اسْتُحْدِثَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ التَّنْوِيمِ الْمِغْنَاطِيسِيِّ ، وَأَخْبَارُهُ مَشْهُورَةٌ .

(198/281)

وَمِمَّا سَبَقَ لَنَا بَيَانُهُ فِي هَذَا الْبَابِ تَخْطِئَةُ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ : إِنَّ السِّحْرَ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ الَّذِي هُوَ الْجِنْسُ الْجَامِعُ لِمُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَفَاتَهُمْ أَنَّ السِّحْرَ صِنَاعَةٌ تُتَلَقَّى بِالتَّعْلِيمِ ، كَمَا ثَبَتَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، وَبِالِاخْتِبَارِ الَّذِي لَمْ يَبْقَ فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَوْنِ فِي هَذَا الْعَصْرِ .

وَلِعُلَمَائِنَا كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي السِّحْرِ بَعْضُهُ أَوْهَامٌ ، وَإِنَّنَا نَنْقُلُ هُنَا كَلَامَ بَعْضِ كِبَارِ مُحَقِّقِي الْمُفَسِّرِينَ فِيهِ ، وَمَنْ أَخْصَرِهِ وَأَفْيَدِهِ قَوْلُ ابْنِ فَارِسٍ : هُوَ إِخْرَاجُ الْبَاطِلِ فِي صُورَةِ الْحَقِّ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي مُفْرَدَاتِهِ لِغَرِيبِ الْقُرْآنِ مَا نَصُّهُ : تَعْرِيفُ السِّحْرِ وَمَأْخَذُهُ مِنَ اللُّغَةِ :

السَّحْرُ : طَرَفُ الْحُلْقُومِ وَالرِّئَةِ ، وَقِيلَ : انْتَفَخَ سَحْرُهُ ، وَبَعِيرٌ سَحْرٌ : عَظِيمُ السَّحْرِ ، وَالسُّحَارَةُ (بِالضَّمِّ) : مَا يُنْزَعُ مِنَ السَّحْرِ عِنْدَ الذَّبْحِ فَيَرْمِي بِهِ ، وَجَعَلَ بِنَاءَهُ بِنَاءَ النِّفَايَةِ وَالسِّقَاطَةِ ، وَقِيلَ : مِنْهُ اشْتُقَّ السِّحْرُ ، وَهُوَ إِصَابَةُ السِّحْرِ ، وَالسِّحْرُ يُقَالُ عَلَى مَعَانٍ . (الْأَوَّلُ) : خِدَاعٌ وَتَخْيِيلَاتٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا نَحْوَ مَا يَفْعَلُهُ الْمُشَعْبِذُ بِصَرْفِ الْأَبْصَارِ عَمَّا يَفْعَلُهُ لِخِفَّةِ يَدِهِ ، وَمَا يَفْعَلُهُ النَّمَّامُ بِقَوْلٍ مُزَخْرَفٍ عَائِقٍ لِلْأَسْمَاعِ ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ (7 : 116) وَقَالَ : يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ (20 : 66)

(199/281)

وَبِهَذَا النَّظَرِ سَمُّوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَاحِرًا فَقَالُوا : يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ (43 : 49) .

(وَالثَّانِي) : اسْتِجْلَابُ مُعَاوَنَةِ الشَّيَاطِينِ بِضَرْبٍ مِنَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (26 : 221 ، 222) وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (2 : 102) .

(وَالثَّالِثُ) مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْأَغْتَامُ ، وَهُوَ اسْمٌ لِفِعْلٍ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ قُوَّتِهِ يُغَيِّرُ الصُّوَرَ وَالطَّبَائِعَ ، فَيَجْعَلُ الْإِنْسَانَ حِمَارًا ، وَلَا حَقِيقَةَ لِذَلِكَ عِنْدَ الْمُحَصِّلِينَ ، وَقَدْ تُصُوِّرَ مِنَ السِّحْرِ تَارَةً

حُسْنُهُ فَقِيلَ : " إنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا " وَتَارَةً دِقَّةُ فِعْلِهِ حَتَّى قَالَتِ الْأَطِبَّاءُ : الطَّبِيعَةُ سَاحِرَةٌ وَسَمَّوا الْغِذَاءَ سِحْرًا مِنْ حَيْثُ إنَّهُ يَدُقُّ وَيَلْطُفُ تَأْثِيرُهُ ا هـ .

(200/281)

وَقَدْ عَقَدَ الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ عَلَى الرَّازِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْجَصَّاصِ مِنْ أَئِمَّةِ الْحَنَفِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ بَابًا خَاصًّا مِنْ تَفْسِيرِهِ الْجَلِيلِ (أَحْكَامِ الْقُرْآنِ) لِبَيَانِ مَعْنَى السِّحْرِ ، وَحُكْمِ السَّاحِرِ عِنْدَ كَلَامِهِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (2 : 102) قَالَ فِي أَوَّلِهِ : " الْوَاجِبُ أَنْ نُقَدِّمَ الْقَوْلَ فِي السِّحْرِ لِخَفَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَضْلًا عَنِ الْعَامَّةِ ، ثُمَّ نُعْقِبَهُ بِالْكَلَامِ فِي حُكْمِهِ فِي مُقْتَضَى الْآيَةِ فِي الْمَعَانِي وَالْأَحْكَامِ فَنَقُولُ :

إنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ يَذْكُرُونَ أَنَّ أَصْلَهُ فِي اللُّغَةِ لِمَا لَطُفَ وَخَفِيَ سَبَبُهُ ، وَالسَّحْرُ عِنْدَهُمْ بِالْفَتْحِ هُوَ الْغِذَاءُ لِخَفَائِهِ وَلُطْفِ مَجَارِيهِ ، قَالَ لَبِيدٌ :

أَرَانَا مَوْضِعَيْنِ لِأَمْرِ غَيْبٍ . . . وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

" قِيلَ فِيهِ وَجْهَانِ : نُعَلَّلُ وَنُخْدَعُ كَالْمَسْحُورِ الْمَخْدُوعِ - وَالْآخَرُ : نُغَذَّى ، وَأَيُّ الْوَجْهَيْنِ

كَانَ فَمَعْنَاهُ الْخَفَاءُ ، وَقَالَ آخَرُ :

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّنَا . . . عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسَحَّرِ

(201/281)

" وَهَذَا الْبَيْتُ يَحْتَمِلُ مِنَ الْمَعْنَى مَا احْتَمَلَهُ الْأَوَّلُ ، وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنَّهُ أَرَادَ بِالسَّحْرِ أَنَّهُ ذُو سَحْرٍ ، وَالسَّحْرُ : الرِّئَةُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُلْقُومِ ، وَهَذَا يَرْجِعُ إلَى مَعْنَى الْخَفَاءِ أَيْضًا ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ : تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : إنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (26 : 185) يَعْنِي مِنَ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يُطْعَمُ وَيُسْقَى ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَمَا أَنْتَ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (26 : 186) وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (25 : 75) وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ ذُو سِحْرٍ مِثْلُنَا ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ السِّحْرَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ لِضَعْفِ هَذِهِ الْأَجْسَامِ وَلِطَافَتِهَا وَرِقَّتِهَا ، وَبِهَا مَعَ ذَلِكَ قِوَامُ الْإِنْسَانِ - فَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَهُوَ

ضَعِيفٌ مُحْتَاجٌ - وَهَذَا هُوَ مَعْنَى السِّحْرِ فِي اللُّغَةِ ، ثُمَّ نُقِلَ هَذَا الِاسْمُ إلَى كُلِّ أَمْرٍ خَفِيَ سَبَبُهُ ، وَتُخُيِّلَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ ، وَيَجْرِي مَجْرَى التَّمْوِيهِ وَالْخِدَاعِ ، وَمَتَى أُطْلِقَ وَلَمْ يُقَيَّدْ

أَفَادَ ذَمَّ فَاعِلِهِ ، وَقَدْ أُجْرِيَ مُقَيَّدًا فِيمَا يُمْتَدَحُ وَيُحْمَدُ ، كَمَا رُوِيَ : " إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا "

.

(202/281)

وَهَاهُنَا ذَكَرَ الْجَصَّاصُ رِوَايَتَهُ لِهَذَا الْحَدَثِ ، وَهُوَ فِي الصَّحِيحِ وَأَطَالَ الْكَلَامَ عَلَيْهِ فِي زُهَاءِ وَرَقَةٍ كَبِيرَةٍ ذَكَرَ فِي أَثْنَائِهِ سِحْرَ سَحَرَةِ مُوسَى لِأَعْيُنِ النَّاسِ ، وَتَخَيُّلَهُمْ أَنَّ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ تَسْعَى ، وَلَمْ تَكُنْ تَسْعَى ، وَذَكَرَ مَا قِيلَ مِنْ حِيلَتِهِمْ فِي ذَلِكَ بِوَضْعِ الزِّئْبَقِ فِيهَا وَتَحْرِيكِ النَّارِ الْخَفِيَّةِ لِلزِّئْبَقِ فَكَانَ سَبَبَ حَرَكَتِهَا ، وَسَيَأْتِي نَقْلُ ذَلِكَ عَنْهُ قَرِيبًا ، ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةً تَارِيخِيَّةً فِي أَصْلِ السِّحْرِ بِبَابِلَ ، وَقَفَى عَلَيْهَا بِبَيَانِ أَنْوَاعِهِ فَقَالَ : كَلَامُ الْجَصَّاصِ فِي السِّحْرِ وَأَنْوَاعِهِ .

" وَإِذْ قَدْ بَيَّنَّا أَصْلَ السِّحْرِ فِي اللُّغَةِ ، وَحُكْمَهُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ فَلْنَقُلْ فِي مَعْنَاهُ فِي التَّعَارُفِ وَالضُّرُوبِ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا هَذَا الِاسْمُ ، وَمَا يَقْصِدُ بِهِ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْ مُنْتَحِلِيهِ ، وَالْغَرَضُ الَّذِي يَجْرِي إِلَيْهِ مُدَّعُوهُ ، فَنَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ : إِنَّ ذَلِكَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْحَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ

(203/281)

(فَمِنْهَا سِحْرُ أَهْلِ بَابِلَ) الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ (2 : 102) وَكَانُوا قَوْمًا صَابِئِينَ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَيُسَمُّونَهَا آلِهَةً ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ حَوَادِثَ الْعَالَمِ كُلَّهَا مِنْ أَفْعَالِهَا ، وَهُمْ مُعَطِّلَةٌ لَا يَعْتَرِفُونَ بِالصَّانِعِ الْوَاحِدِ الْمُبْدِعِ لِلْكَوَاكِبِ وَجَمِيعِ أَجْرَامِ الْعَالَمِ ، وَهُمُ الَّذِينَ بَعَثَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَحَاجَّهُمْ بِالْحِجَاجِ الَّذِي بَهَرَهُمْ بِهِ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمْ بِهِ الْحُجَّةَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يُمْكِنْهُمْ دَفْعَهُ ، ثُمَّ أَلْقَوْهُ فِي النَّارِ فَجَعَلَهَا اللهُ بَرْدًا وَسَلَامًا ، ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْهِجْرَةِ إِلَى الشَّامِ ، وَكَانَ أَهْلُ بَابِلَ وَإِقْلِيمِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَالرُّومِ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ إِلَى أَيَّامِ بِيُورَاسِبَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ الضَّحَّاكَ ، وَأَنَّ أَفْرِيدُونَ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ دَنْبَاوَنْدَ اسْتَجَاشَ عَلَيْهِ بِلَادُهُ ، وَكَاتَبَ سَائِرَ مَنْ يُطِيعُهُ ، وَلَهُ قَصَصٌ طَوِيلَةٌ حَتَّى أَزَالَ مُلْكَهُ وَأَسَرَهُ ، وَجُهَّالُ الْعَامَّةِ وَالنِّسَاءِ عِنْدَنَا يَزْعُمُونَ أَنَّ أَفْرِيدُونَ حَبَسَ بِيُورَاسِبَ فِي جَبَلِ دَنْبَاوَنْدَ الْعَالِي عَلَى الْجِبَالِ ، وَأَنَّهُ حَيٌّ هُنَاكَ مُقَيَّدٌ ، وَأَنَّ السَّحَرَةَ يَأْتُونَهُ هُنَاكَ فَيَأْخُذُونَ عَنْهُ السِّحْرَ ، وَأَنَّهُ سَيَخْرُجُ فَيَغْلِبُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الدَّجَّالُ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَحَذَّرَنَاهُ ، وَأَحْسَبُهُمْ أَخَذُوا ذَلِكَ عَنِ الْمَجُوسِ ، وَصَارَتْ مَمْلَكَةُ إِقْلِيمِ بَابِلَ لِلْفُرْسِ ، فَانْتَقَلَ بَعْضُ مُلُوكِهِمْ إِلَيْهَا فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ فَاسْتَوْطَنُوهَا ، وَلَمْ يَكُونُوا عَبَدَةَ أَوْثَانٍ ، بَلْ كَانُوا مُوَحِّدِينَ مُقِرِّينَ بِاللهِ وَحْدَهُ ، إِلَّا أَنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُعَظِّمُونَ الْعَنَاصِرَ الْأَرْبَعَةَ : الْمَاءَ ، وَالنَّارَ ، وَالْأَرْضَ ، وَالْهَوَاءَ ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ مَنَافِعِ الْخَلْقِ ، وَأَنَّ بِهَا قِوَامَ الْحَيَوَانِ ، وَإِنَّمَا حَدَثَتِ الْمَجُوسِيَّةُ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي زَمَانِ كَشْتَاسِبَ حِينَ دَعَاهُ زَرَادُشْتُ فَاسْتَجَابَ لَهُ عَلَى شَرَائِطَ يَطُولُ شَرْحُهَا ، وَإِنَّمَا غَرَضُنَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْإِبَانَةُ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ سَحَرَةُ بَابِلَ ، وَلَمَّا ظَهَرَ الْفُرْسُ عَلَى هَذِهِ الْإِقْلِيمِ كَانَتْ

تَتَدَيَّنُ بِقَتْلِ السَّحَرَةِ وَإِبَادَتِهَا ، وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ فِيهِمْ مِنْ دِينِهِمْ بَعْدَ حُدُوثِ الْمَجُوسِيَّةِ فِيهِمْ وَقَبْلَهُ إِلَى أَنْ زَالَ عَنْهُمُ الْمُلْكُ .

" وَكَانَتْ عُلُومُ أَهْلِ بَابِلَ قَبْلَ ظُهُورِ الْفُرْسِ عَلَيْهِمُ الْحِيَلَ وَالنِّيرَنْجَبَاتِ وَأَحْكَامَ النُّجُومِ ،

(205/281)

وَكَانُوا يَعْبُدُونَ أَوْثَانًا قَدْ عَلِمُوهَا عَلَى أَسْمَاءِ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ ، وَجَعَلُوا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا هَيْكَلًا فِيهِ صَنَمُهُ ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهَا بِضُرُوبٍ مِنَ الْأَفْعَالِ عَلَى حَسَبِ اعْتِقَادَاتِهِمْ مِنْ مُوَافَقَةِ

ذَلِكَ الْكَوْكَبِ الَّذِي يَطْلُبُونَ مِنْهُ بِزَعْمِهِمْ فِعْلَ الْخَيْرِ أَوْ شَرٍّ ، فَمَنْ أَرَادَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ بِزَعْمِهِ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِمَا يُوَافِقُ الْمُشْتَرَى مِنَ الدَّخَنِ وَالرُّقَى وَالْعُقَدِ وَالنَّفْثِ عَلَيْهَا ، وَمَنْ طَلَبَ شَيْئًا مِنَ الشَّرِّ وَالْحَرْبِ وَالْمَوْتِ وَالْبَوَارِ لِغَيْرِهِ تَقَرَّبَ بِزَعْمِهِ إِلَى زُحَلَ بِمَا يُوَافِقُهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَنْ أَرَادَ الْبَرْقَ وَالْحَرْقَ وَالطَّاعُونَ تَقَرَّبَ بِزَعْمِهِ إِلَى الْمِرِّيخِ بِمَا يُوَافِقُهُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ ذَبْحِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَجَمِيعُ تِلْكَ الرُّقَى بِالنَّبَطِيَّةِ تَشْتَمِلُ عَلَى تَعْظِيمِ تِلْكَ الْكَوَاكِبِ إِلَى مَا يُرِيدُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَمَحَبَّةٍ وَبُغْضٍ فَيُعْطِيهِمْ مَا شَاءُوا مِنْ ذَلِكَ ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ يَفْعَلُونَ مَا شَاءُوا فِي غَيْرِهِمْ مِنْ غَيْرِ مُمَاسَّةٍ وَلَا مُلَامَسَةٍ سِوَى مَا قَدَّمُوهُ مِنَ الْقُرُبَاتِ لِلْكَوْكَبِ الَّذِي طَلَبُوا ذَلِكَ مِنْهُ ، فَمِنَ الْعَامَّةِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَقْلِبُ الْإِنْسَانَ حِمَارًا أَوْ كَلْبًا ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَعَادَهُ ، وَيَرْكَبُ الْبَيْضَةَ وَالْمِكْنَسَةَ وَالْخَابِيَةَ وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ يَمْضِي مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْهِنْدِ وَإِلَى مَا شَاءَ مِنَ الْبُلْدَانِ ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ لَيْلَتِهِ .

(206/281)

" وَكَانَتْ عَوَامُّهُمْ تَعْتَقِدُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ ، وَكُلُّ مَا دَعَا إِلَى تَعْظِيمِهَا اعْتَقَدُوهُ ، وَكَانَتِ السَّحَرَةُ تَحْتَالُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ بِحِيَلٍ تُمَوِّهُ بِهَا عَلَى الْعَامَّةِ إِلَى اعْتِقَادِ صِحَّتِهِ ، بِأَنْ يَزْعُمَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفُذُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ أَحَدٌ ، وَلَا يَبْلُغُ مَا يُرِيدُ إِلَّا مَنِ اعْتَقَدَ صِحَّةَ

قَوْلِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ فِيمَا يَقُولُونَ .

" وَلَمْ تَكُنْ مُلُوكُهُمْ تَعْتَرِضُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ، بَلْ كَانَتِ السَّحَرَةُ عِنْدَهَا بِالْمَحَلِّ الْأَجَلِّ لِمَا كَانَ لَهَا فِي نُفُوسِ الْعَامَّةِ مِنْ مَحَلِّ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ ؛ وَلِأَنَّ الْمُلُوكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ تَعْتَقِدُ مَا تَدَّعِيهِ السَّحَرَةُ لِلْكَوَاكِبِ ، إلَى أَنْ زَالَتْ تِلْكَ الْمَمَالِكُ ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ فِي زَمَنِ فِرْعَوْنَ كَانُوا يَتَبَارُونَ بِالْعِلْمِ وَالسِّحْرِ وَالْحِيَلِ وَالْمَخَارِقِ ؛ وَلِذَلِكَ بَعَثَ إلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعَصَا وَالْآيَاتِ الَّتِي عَلِمَتِ السَّحَرَةُ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ السِّحْرِ فِي شَيْءٍ ، وَأَنَّهَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَمَّا زَالَتْ تِلْكَ الْمَمَالِكُ ، وَكَانَ مَنْ مَلَكَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَطْلُبُونَهُمْ وَيَتَقَرَّبُونَ إلَى اللَّهِ

تَعَالَى بِقَتْلِهِمْ ، كَانُوا يَدْعُونَ عَوَامَّ النَّاسِ وَجُهَّالَهُمْ سِرًّا كَمَا يَفْعَلُهُ السَّاعَةَ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَدَّعِي ذَلِكَ مَعَ النِّسَاءِ وَالْأَحْدَاثِ الْأَغْمَارِ وَالْجُهَّالِ الْحَشْوِ .

(207/281)

وَكَانُوا يَدْعُونَ مَنْ يَعْمَلُونَ لَهُ ذَلِكَ إلَى تَصْدِيقِ قَوْلِهِمْ وَالِاعْتِرَافِ بِصِحَّتِهِ ، وَالْمُصَدِّقُ لَهُمْ بِذَلِكَ يَكْفُرُ مِنْ وُجُوهٍ : (أَحَدُهُمَا) : التَّصْدِيقُ بِوُجُوبِ تَعْظِيمِ الْكَوَاكِبِ وَتَسْمِيَتِهَا آلِهَةً . (وَالثَّانِي) : اعْتِرَافُهُ بِأَنَّ الْكَوَاكِبَ تَقْدِرُ عَلَى ضَرِّهِ وَنَفْعِهِ .

(وَالثَّالِثُ) : أَنَّ السَّحَرَةَ تَقْدِرُ عَلَى

مِثْلِ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَبَعَثَ اللَّهُ إلَيْهِمْ مَلَكَيْنِ يُبَيِّنَانِ لِلنَّاسِ حَقِيقَةَ مَا يَدَّعُونَ ، وَيُبْطِلَانِ مَا يَذْكُرُونَ ، وَيَكْشِفَانِ لَهُمْ مَا بِهِ يُمَوِّهُونَ ، وَيُخْبِرَانِهِمْ بِمَعَانِي تِلْكَ الرُّقَى ، وَأَنَّهَا شِرْكٌ وَكُفْرٌ ، بِحِيَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَتَوَصَّلُونَ بِهَا إلَى التَّمْوِيهِ عَلَى الْعَامَّةِ ، وَيُظْهِرَانِ لَهُمْ حَقَائِقَهَا ، وَيَنْهَيَانِهِمْ عَنْ قَبُولِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا ، بِقَوْلِهِمَا لَهُمْ : إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ (2 : 102) فَهَذَا أَصْلُ سِحْرِ بَابِلَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ سَائِرَ وُجُوهِ السِّحْرِ وَالْحِيَلِ الَّتِي نَذْكُرُهَا ، وَيُمَوِّهُونَ بِهَا عَلَى الْعَامَّةِ ، وَيَعْزُونَهَا إلَى فِعْلِ الْكَوَاكِبِ ؛ لِئَلَّا يَبْحَثَ عَنْهَا وَيُسَلِّمَهَا لَهُمْ .

(208/281)

" فَمِنْ ضُرُوبِ السِّحْرِ كَثِيرٌ مِنَ التَّخَيُّلَاتِ الَّتِي مَظْهَرُهَا عَلَى خِلَافِ حَقَائِقِهَا ، فَمِنْهَا مَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ بِجَرَيَانِ الْعَادَةِ بِهَا وَظُهُورِهَا ، وَمِنْهَا مَا يَخْفَى وَيَلْطُفُ وَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهُ وَمَعْنَى بَاطِنِهِ إلَّا مَنْ تَعَاطَى مَعْرِفَةَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ كُلَّ عِلْمٍ لَا بُدَّ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى جَلِيٍّ وَخَفِيٍّ وَظَاهِرٍ وَغَامِضٍ ، فَالْجَلِيُّ مِنْهُ يَعْرِفُهُ كُلُّ مَنْ رَآهُ وَسَمِعَهُ مِنَ الْعُقَلَاءِ ، وَالْغَامِضُ الْخَفِيُّ لَا يَعْرِفُهُ إلَّا أَهْلُهُ ، وَمَنْ تَعَاطَى مَعْرِفَتَهُ وَتَكَلَّفَ فِعْلَهُ وَالْبَحْثَ عَنْهُ ، وَذَلِكَ نَحْوُ مَا يَتَخَيَّلُ رَاكِبُ السَّفِينَةِ إذَا سَارَتْ فِي النَّهْرِ فَيَرَى أَنَّ الشَّطَّ بِمَا عَلَيْهِ مِنَ النَّخْلِ وَالْبُنْيَانِ سَائِرٌ مَعَهُ ،

وَكَمَا يَرَى الْقَمَرَ فِي مَهَبِّ الشَّمَالِ يَسِيرُ لِلْغَيْمِ فِي مَهَبِّ الْجَنُوبِ ، وَكَدَوَرَانِ الدَّوَّامَةِ فِيهَا الشَّامَةُ فَيَرَاهَا كَالطَّوْقِ الْمُسْتَدِيرِ فِي أَرْجَائِهَا ، وَكَذَلِكَ يَرَى هَذَا فِي الرَّحَى إِذَا كَانَتْ سَرِيعَةَ الدَّوَرَانِ ، وَكَالْعُودِ فِي طَرَفِهِ الْجَمْرَةُ إِذَا أَدَارَهُ مُدِيرُهُ رَأَى تِلْكَ النَّارَ الَّتِي فِي طَرَفِهِ كَالطَّوْقِ الْمُسْتَدِيرِ ، وَكَالْعِنَبَةِ الَّتِي يَرَاهَا فِي قَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ كَالْخَوْخَةِ وَالْإِجَّاصَةِ عَظْمًا ، وَكَالشَّخْصِ الصَّغِيرِ يَرَاهُ فِي الضَّبَابِ عَظِيمًا جَسِيمًا ، وَكَبُخَارِ الْأَرْضِ الَّذِي يُرِيكَ قُرْصَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا عَظِيمًا فَإِذَا فَارَقَتْهُ وَارْتَفَعَتْ صَغُرَتْ ، وَكَمَا يُرَى الْمَرْئِيُّ فِي الْمَاءِ مُنْكَسِرًا أَوْ مُعْوَجًّا ، وَكَمَا يُرَى

(209/281)

الْخَاتَمُ إِذَا قَرَّبْتَهُ مِنْ عَيْنِكَ فِي سَعَةِ حَلْقَةِ السُّوَارِ ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَخَيَّلُ عَلَى غَيْرِ حَقَائِقِهَا فَيَعْرِفُهَا عَامَّةُ النَّاسِ .

" وَمِنْهَا مَا يَلْطُفُ فَلَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ تَعَاطَاهُ وَتَأَمَّلَهُ كَخَيْطِ السُّحَارَةِ الَّذِي يَخْرُجُ مَرَّةً أَحْمَرَ وَمَرَّةً أَصْفَرَ وَمَرَّةً أَسْوَدَ ، وَمِنْ لَطِيفِ ذَلِكَ وَدَقِيقِهِ مَا يَفْعَلُهُ الْمُشَعْوِذُونَ مِنْ جِهَةِ الْحَرَكَاتِ وَإِظْهَارِ التَّخَيُّلَاتِ الَّتِي تَخْرُجُ عَلَى غَيْرِ حَقَائِقِهَا حَتَّى يُرِيَانِ عَصْفُورًا مَعَهُ أَنَّهُ قَدْ ذَبَحَهُ ثُمَّ يُرِيكَهُ ، وَقَدْ طَارَ بَعْدَ ذَبْحِهِ وَإِبَانَةِ رَأْسِهِ وَذَلِكَ لِخِفَّةِ حَرَكَتِهِ ، وَالْمَذْبُوحُ غَيْرُ الَّذِي طَارَ ؛

لِأَنَّهُ يَكُونُ مَعَهُ اثْنَانِ قَدْ خَبَّأَ أَحَدَهُمَا وَأَظْهَرَ الْآخَرَ ، وَيُخَبَّأُ لِخِفَّةِ الْحَرَكَةِ الْمَذْبُوحُ ، وَيُظْهَرُ الَّذِي نَظِيرُهُ ، وَيُظْهَرُ أَنَّهُ قَدْ ذَبَحَ إِنْسَانًا ، وَأَنَّهُ قَدْ بَلَعَ سَيْفًا مَعَهُ ، وَأَدْخَلَهُ فِي جَوْفِهِ ، وَلَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ حَقِيقَةٌ .

" وَمِنْ نَحْوِ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُهُ أَصْحَابُ الْحَرَكَاتِ لِلصُّوَرِ الْمَعْمُولَةِ مِنْ صُفْرٍ أَوْ غَيْرِهِ فَيَرَى فَارِسَيْنِ يَقْتَتِلَانِ فَيَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ ، وَيَنْصَرِفُ بِحِيَلٍ قَدْ أُعِدَّتْ لِذَلِكَ ، وَكَفَارِسٍ مِنْ صُفْرٍ عَلَى فَرَسٍ فِي يَدِهِ بُوقٌ كُلَّمَا مَضَتْ سَاعَةٌ مِنَ النَّهَارِ ضَرَبَ بِالْبُوقِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ وَلَا يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ .

(210/281)

" وَقَدْ ذَكَرَ الْكَلْبِيُّ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْجُنْدِ خَرَجَ بِبَعْضِ نَوَاحِي الشَّامِ مُتَصَيِّدًا ، وَمَعَهُ كَلْبٌ لَهُ وَغُلَامٌ فَرَأَى ثَعْلَبًا فَأَغْرَى بِهِ الْكَلْبَ ، فَدَخَلَ الثَّعْلَبُ ثُقْبًا فِي تَلٍّ هُنَاكَ ، وَدَخَلَ الْكَلْبُ خَلْفَهُ فَلَمْ يَخْرُجْ فَأَمَرَ الْغُلَامَ أَنْ يَدْخُلَ فَدَخَلَ ، وَانْتَظَرَهُ صَاحِبُهُ فَلَمْ يَخْرُجْ فَوَقَفَ مُتَهَيِّئًا لِلدُّخُولِ ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَأَخْبَرَهُ بِشَأْنِ الثَّعْلَبِ وَالْكَلْبِ وَالْغُلَامِ ، وَأَنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَمْ يَخْرُجْ ، وَأَنَّهُ مُتَأَهِّبٌ لِلدُّخُولِ ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ إِلَى هُنَاكَ فَمَضَيَا إِلَى سِرْبٍ طَوِيلٍ حَتَّى أَفْضَى بِهِمَا إِلَى بَيْتٍ قَدْ فُتِحَ لَهُ ضَوْءٌ مِنْ مَوْضِعٍ يَنْزِلُ إِلَيْهِ بِمِرْقَاتَيْنِ فَوَقَفَ بِهِ عَلَى الْمِرْقَاةِ

الْأُولَى حَتَّى أَضَاءَ الْبَيْتَ حِينًا ثُمَّ قَالَ لَهُ : انْظُرْ ، فَنَظَرَ فَإِذَا الْكَلْبُ وَالْغُلَامُ وَالثَّعْلَبُ قَتْلَى ، وَإِذَا فِي صَدْرِ الْبَيْتِ رَجُلٌ وَاقِفٌ مُقَنَّعٌ فِي الْحَدِيدِ ، وَفِي يَدِهِ سَيْفٌ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَتَرَى هَذَا ؟ لَوْ دَخَلَ إِلَيْهِ

(211/281)

هَذَا الْمَدْخَلَ أَلْفُ رَجُلٍ لَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ ، فَقَالَ : وَكَيْفَ ؟ قَالَ : لِأَنَّهُ قَدْ رُتِّبَ وَهُنْدِمَ عَلَى هَيْئَةٍ ، مَتَى وَضَعَ الْإِنْسَانُ رِجْلَهُ عَلَى الْمِرْقَاةِ الثَّانِيَةِ لِلنُّزُولِ تَقَدَّمَ الرَّجُلُ الْمَعْمُولُ فِي الصَّدْرِ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ الَّذِي فِي يَدِهِ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَنْزِلَ إِلَيْهِ ، فَإِنْ وَصَلْتَ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ لَمْ يَتَحَرَّكْ ، فَاسْتَأْجَرَ الْجُنْدِيُّ أُجَرَاءَ وَصُنَّاعًا حَتَّى حَفَرُوا سِرْدَابًا مِنْ خَلْفِ التَّلِّ فَأَفْضَوْا إِلَيْهِ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ ، وَإِذَا رَجُلٌ مَعْمُولٌ مِنْ صُفْرٍ أَوْ غَيْرِهِ قَدْ أُلْبِسَ السِّلَاحَ وَأُعْطِيَ السَّيْفَ ، فَقَلَعَهُ ، وَرَأَى بَابًا آخَرَ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ فَفَتَحَهُ فَإِذَا هُوَ قَبْرٌ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ مَيِّتٍ عَلَى سَرِيرٍ هُنَاكَ ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا .

" وَمِنْهَا الصُّوَرُ الَّتِي يُصَوِّرُهَا مُصَوِّرُو الرُّومِ وَالْهِنْدِ حَتَّى لَا يُفَرِّقَ النَّاظِرُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَهَا ، وَمَنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ عِلْمٌ أَنَّهَا صُورَةٌ لَا يَشُكُّ فِي أَنَّهَا إِنْسَانٌ ، وَحَتَّى تُصَوِّرَهَا ضَاحِكَةً أَوْ بَاكِيَةً ، وَحَتَّى يُفَرِّقَ فِيهَا بَيْنَ الضَّحِكِ مِنَ الْخَجَلِ وَالسُّرُورِ ، وَضَحِكِ الشَّامِتِ .

" فَهَذِهِ الْوُجُوهُ مِنْ لَطِيفِ أُمُورِ التَّخَايِيلِ وَخَفِيهَا ، وَمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ مِنْ جَلِيِّهَا ، وَكَانَ سِحْرُ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي بَيَّنَّا مِنْ حِيَلِهِمْ فِي الْعِصِيِّ وَالْحِبَالِ ، وَالَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ بَابِلَ فِي الْقَدِيمِ وَسِحْرِهِمْ ، وَوُجُوهُ حِيَلِهِمْ بَعْضُهُ سَمِعْنَاهُ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِذَلِكَ ، وَبَعْضُهُ وَجَدْنَاهُ فِي كُتُبٍ قَدْ نُقِلَتْ حَدِيثًا مِنَ النَّبَطِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، مِنْهَا كِتَابٌ فِي ذِكْرِ سِحْرِهِمْ وَأَصْنَافِهِ وَوُجُوهِهِ ، وَكُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْأَصْلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ قُرْبَانَاتِ الْكَوَاكِبِ وَتَعْظِيمِهَا ، وَخُرَافَاتٍ مَعَهَا لَا تُسَاوِي ذِكْرَهَا ، وَلَا فَائِدَةَ فِيهَا .

(وَضَرْبٌ آخَرَ) مِنَ السِّحْرِ ، وَهُوَ مَا يَدَّعُونَهُ مِنْ حَدِيثِ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ وَطَاعَتِهِمْ لَهُمْ بِالرُّقَى وَالْعَزَائِمِ ، وَيَتَوَصَّلُونَ إِلَى مَا يُرِيدُونَ مِنْ ذَلِكَ بِتَقْدِمَةِ أُمُورٍ ، وَمُوَاطَأَةِ قَوْمٍ قَدْ أَعَدُّوهُمْ لِذَلِكَ ، وَعَلَى ذَلِكَ كَانَ يَجْرِي أَمْرُ الْكُهَّانِ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَتْ أَكْثَرُ مَخَارِيقِ الْحَلَّاجِ مِنْ بَابِ الْمُوَاطَآتِ ، وَلَوْلَا أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَا يَحْتَمِلُ

اسْتِقْصَاءَ ذَلِكَ لَذَكَرْتُ مِنْهَا مَا يُوقَفُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَخَارِيقِ أَمْثَالِهِ وَضَرَرِ أَصْحَابِ الْعَزَائِمِ ، وَفِتْنَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ غَيْرُ يَسِيرٍ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ عَلَى النَّاسِ مِنْ بَابِ أَنَّ الْجِنَّ إِنَّمَا تُطِيعُهُمْ بِالرُّقَى الَّتِي هِيَ أَسْمَاءُ اللهِ تَعَالَى فَإِنَّهُمْ يُجِيبُونَ بِذَلِكَ مَنْ شَاءُوا ، وَيُخْرِجُونَ الْجِنَّ لِمَنْ شَاءُوا ، فَتُصَدِّقُهُمُ الْعَامَّةُ عَلَى اغْتِرَارٍ بِمَا يُظْهِرُونَ مِنَ انْقِيَادِ الْجِنِّ لَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى الَّتِي كَانَتْ تُطِيعُ بِهَا سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَأَنَّهُمْ يُخْبِرُونَهُمْ بِالْخَبَايَا ، وَبِالسَّرَقِ .

" وَقَدْ كَانَ الْمُعْتَضِدُ بِاللهِ مَعَ جَلَالَتِهِ وَشَهَامَتِهِ وَوُفُورِ عَقْلِهِ اغْتَرَّ بِقَوْلِ هَؤُلَاءِ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ أَصْحَابُ التَّوَارِيخِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَظْهَرُ فِي دَارِهِ الَّتِي كَانَ يَخْلُو فِيهَا بِنِسَائِهِ وَأَهْلِهِ شَخْصٌ فِي يَدِهِ سَيْفٌ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَأَكْثَرُهُ وَقْتَ الظُّهْرِ ، فَإِذَا طُلِبَ لَمْ يُوجَدْ ، وَلَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُوقَفْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ مَعَ كَثْرَةِ التَّفْتِيشِ ، وَقَدْ رَآهُ هُوَ بِعَيْنِهِ

(214/281)

مِرَارًا ، فَأَهَمَّتْهُ نَفْسُهُ ، وَدَعَا بِالْمُعَزِّمِينَ فَحَضَرَا وَأَحْضَرُوا مَعَهُمْ رِجَالًا وَنِسَاءً وَزَعَمُوا أَنَّ فِيهِمْ مَجَانِينَ وَأَصِحَّاءَ ، فَأَمَرَ بَعْضُ رُؤَسَائِهِمْ بِالْعَزِيمَةِ فَعَزَمَ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ زَعَمَ أَنَّهُ كَانَ صَحِيحًا فَجُنَّ وَتَخَبَّطَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ هَذَا غَايَةُ الْحِذْقِ بِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ إِذْ

أَطَاعَتْهُ الْجِنُّ فِي تَخْبِيطِ الصَّحِيحِ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْمُعَزِّمُ بِمُوَاطَأَةٍ مِنْهُ لِذَلِكَ الصَّحِيحِ عَلَى أَنَّهُ مَتَى عَزَمَ عَلَيْهِ جَنَّنَ نَفْسَهُ وَخَبَطَ ، فَجَازَ ذَلِكَ عَلَى الْمُعْتَضِدِ فَقَامَتْ نَفْسُهُ مِنْهُ وَكَرِهَهُ ، إلَّا أَنَّهُ سَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرِ الشَّخْصِ الَّذِي يَظْهَرُ فِي دَارِهِ فَمَخْرَقُوا عَلَيْهِ بِأَشْيَاءَ عَلَّقُوا قَلْبَهُ بِهَا مِنْ غَيْرِ تَحْصِيلٍ لِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ ؛ فَأَمَرَهُ بِالِانْصِرَافِ ، وَأَمَرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْ حَضَرَ بِخَمْسَةِ دَرَاهِمَ ، ثُمَّ تَحَرَّزَ الْمُعْتَضِدُ بِغَايَةِ مَا أَمْكَنَهُ ، وَأَمَرَ بِالِاسْتِيثَاقِ مِنْ سُورِ الدَّارِ حَيْثُ لَا يُمْكِنُ فِيهِ حِيلَةٌ مِنْ تَسَلُّقٍ وَنَحْوِهِ ، وَبُطِحَتْ فِي أَعْلَى السُّورِ خِرَابٌ لِئَلَّا يُحْتَالَ بِإِلْقَاءِ الْمَعَالِيقِ الَّتِي يَحْتَالُ بِهَا اللُّصُوصُ .

(215/281)

" ثُمَّ لَمْ يُوقَفْ لِذَلِكَ الشَّخْصِ عَلَى خَبَرٍ إلَّا ظُهُورُهُ لَهُ الْوَقْتَ بَعْدَ الْوَقْتِ إلَى أَنْ تُوُفِّيَ الْمُعْتَضِدُ ، وَهَذِهِ الْخَوَابِي الْمَبْطُوحَةُ عَلَى السُّورِ ، وَقَدْ رَأَيْتُهَا عَلَى سُورِ الثُّرَيَّا الَّتِي بَنَاهَا الْمُعْتَضِدُ فَسَأَلْتُ صَدِيقًا لِي كَانَ قَدْ حَجَبَ لِلْمُقْتَدِرِ بِاللَّهِ عَنْ أَمْرِ ذَلِكَ الشَّخْصِ ، وَهَلْ تَبَيَّنَ أَمْرُهُ ؟ فَذَكَرَ لِي أَنَّهُ لَمْ يُوقَفْ عَلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْأَمْرِ إلَّا فِي أَيَّامِ الْمُقْتَدِرِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ كَانَ خَادِمًا أَبْيَضَ يُسَمَّى (يَقَقَ) وَكَانَ يَمِيلُ إلَى بَعْضِ الْجَوَارِي اللَّاتِي فِي دَاخِلِ دُورِ الْحَرِيمِ ، وَكَانَ قَدِ اتَّخَذَ لِحًى عَلَى أَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَكَانَ إذَا لَبِسَ بَعْضَ تِلْكَ اللِّحَى لَا

يَشُكُّ مَنْ رَآهُ أَنَّهَا لِحْيَتُهُ ، وَكَانَ يَلْبَسُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُهُ لِحْيَةً مِنْهَا ، وَيَظْهَرُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ وَفِي يَدِهِ سَيْفٌ أَوْ غَيْرُهُ مِنَ السِّلَاحِ حَيْثُ يَقَعُ نَظَرُ الْمُعْتَضِدُ ، فَإِذَا طُلِبَ دَخَلَ بَيْنَ الشَّجَرِ الَّذِي فِي الْبُسْتَانِ أَوْ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَمَرَّاتِ أَوِ الْعَطَفَاتِ ، فَإِذَا غَابَ عَنْ أَبْصَارِ طَالِبِيهِ نَزَعَ اللِّحْيَةَ جَعَلَهَا فِي كُمِّهِ أَوْ حُزَّتِهِ ، وَيَبْقَى السِّلَاحُ مَعَهُ كَأَنَّهُ بَعْضُ الْخَدَمِ الطَّالِبِينَ لِلشَّخْصِ ، وَلَا يَرْتَابُونَ بِهِ ، وَيَسْأَلُونَهُ : هَلْ رَأَيْتَ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ أَحَدًا ، فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَاهُ صَارَ إِلَيْهَا ؟ فَيَقُولُ : مَا رَأَيْتُ أَحَدًا ، وَكَانَ إِذَا وَقَعَ مِثْلُ هَذَا الْفَزَعِ فِي الدَّارِ خَرَجَتِ الْجَوَارِي مِنْ دَاخِلِ الدُّورِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ فَيَرَى هُوَ تِلْكَ

(216/281)

الْجَارِيَةَ وَيُخَاطِبُهَا بِمَا يُرِيدُ ، وَإِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ مُشَاهَدَةَ الْجَارِيَةِ وَكَلَامَهَا ، لَمْ يَزَلْ هَذَا دَأْبُهُ إِلَى أَيَّامِ الْمُقْتَدِرِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْبُلْدَانِ ، وَصَارَ إِلَى طَرْطُوسَ ، وَأَقَامَ بِهَا إِلَى أَنْ مَاتَ وَتَحَدَّثَتِ الْجَارِيَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحَدِيثِهِ ، وَوُقِفَ عَلَى احْتِيَالِهِ ، فَهَذَا خَادِمٌ قَدِ احْتَالَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِيلَةِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَهْتَدِ لَهَا أَحَدٌ مِنْ شِدَّةِ عِنَايَةِ الْمُعْتَضِدِ بِهَا ، وَأَعْيَاهُ مَعْرِفَتُهَا وَالْوُقُوفُ عَلَيْهَا ، وَلَمْ تَكُنْ صِنَاعَتُهُ الْحِيَلَ وَالْمَخَارِيقَ فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ قَدْ جَعَلَ هَذَا صِنَاعَةً وَمَعَاشًا ؟

(وَضَرْبٌ آخَرُ مِنَ السِّحْرِ) وَهُوَ السَّعْيُ بِالنَّمِيمَةِ وَالْوِشَايَةِ بِهَا وَالْبَلَاغَاتِ وَالْإِفْسَادِ وَالتَّضْرِيبِ مِنْ وُجُوهٍ خَفِيَّةٍ لَطِيفَةٍ ، وَذَلِكَ عَامٌّ شَائِعٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ امْرَأَةً أَرَادَتْ إِفْسَادَ مَا بَيْنَ زَوْجَيْنِ ، فَسَارَتْ إِلَى الزَّوْجَةِ فَقَالَتْ لَهَا : إِنَّ زَوْجَكِ مُعْرِضٌ عَنْكِ وَقَدْ سُحِرَ ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ عَنْكِ ، وَسَأَسْحَرُهُ لَكِ حَتَّى لَا يُرِيدَ غَيْرَكِ ، وَلَا يَنْظُرَ إِلَى سِوَاكِ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ تَأْخُذِي مِنْ شَعْرِ حَلْقِهِ بِالْمُوسَى ثَلَاثَ شَعَرَاتٍ إِذَا نَامَ وَتُعْطِينِيهَا فَإِنَّ بِهَا يَتِمُّ

(217/281)

الْأَمْرُ ، فَاغْتَرَّتِ الْمَرْأَةُ بِقَوْلِهَا وَصَدَّقَتْهَا ، ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَتْ لَهُ : إِنَّ امْرَأَتَكَ قَدْ عَلِقَتْ رَجُلًا ، وَقَدْ عَزَمَتْ عَلَى قَتْلِكَ ، وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهَا فَأَشْفَقْتُ عَلَيْكَ ، وَلَزِمَنِي نُصْحُكَ فَتَيَقَّظْ وَلَا تَغْتَرَّ ، فَإِنَّهَا عَزَمَتْ عَلَى ذَلِكَ بِالْمُوسَى ، وَسَتَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهَا فَمَا فِي أَمْرِهَا شَكٌّ ، فَتَنَاوَمَ الرَّجُلُ فِي بَيْتِهِ ، فَلَمَّا ظَنَّتِ امْرَأَتُهُ أَنَّهُ قَدْ نَامَ عَمَدَتْ إِلَى مُوسَى حَادٍّ ، وَأَهْوَتْ بِهِ لِتَحْلِقَ مِنْ حَلْقِهِ ثَلَاثَ شَعَرَاتٍ ، فَفَتَحَ الرَّجُلُ عَيْنَهُ فَرَآهَا ، وَقَدْ أَهْوَتْ بِالْمُوسَى إِلَى حَلْقِهِ فَلَمْ يَشُكَّ فِي أَنَّهَا أَرَادَتْ قَتْلَهُ ، فَقَامَ إِلَيْهَا فَقَتَلَهَا وَقُتِلَ ، وَهَذَا كَثِيرٌ لَا يُحْصَى .

(وَضَرْبٌ آخَرُ مِنَ السِّحْرِ) وَهُوَ الِاحْتِيَالُ فِي إطْعَامِهِ بَعْضَ الْأَدْوِيَةِ الْمُبَلِّدَةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْعَقْلِ وَالدُّخْنِ الْمُسْدِرَةِ السَّكْرَةَ ، نَحْوَ دِمَاغِ الْحِمَارِ إذَا طَعِمَهُ إنْسَانٌ تَبَلَّدَ عَقْلُهُ ، وَقَلَّتْ فِطْنَتُهُ مَعَ أَدْوِيَةٍ كَثِيرَةٍ هِيَ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِ الطِّبِّ ، وَيَتَوَصَّلُونَ إلَى أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي طَعَامٍ حَتَّى يَأْكُلَهُ فَتَذْهَبَ فِطْنَتُهُ ، وَيَجُوزُ عَلَيْهِ أَشْيَاءُ مِمَّا لَوْ كَانَ تَامَّ الْفِطْنَةِ لَأَنْكَرَهَا ، فَيَقُولُ النَّاسُ : إنَّهُ مَسْحُورٌ .

(218/281)

" وَحِكْمَةٌ كَافِيَةٌ تُبَيِّنُ لَكَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ " مَخَارِيقُ وَحِيَلٌ لِمَا يَدَّعُونَ لَهَا أَنَّ السَّاحِرَ وَالْمُعَزِّمَ لَوْ قَدَرَا عَلَى مَا يَدَّعِيَانِهِ مِنَ النَّفْعِ وَالضُّرِّ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي يَدَّعُونَ ، وَأَمْكَنَهُمَا الطَّيَرَانُ وَالْعِلْمُ بِالْغُيُوبِ وَأَخْبَارِ الْبُلْدَانِ النَّائِيَةِ وَالْخَبِيئَاتِ وَالسَّرَقِ ، وَالْإِضْرَارُ بِالنَّاسِ مِنْ غَيْرِ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا لَقَدَرُوا عَلَى إزَالَةِ الْمَمَالِكِ ، وَاسْتِخْرَاجِ الْكُنُوزِ ، وَالْغَلَبَةِ عَلَى الْبُلْدَانِ بِقَتْلِ الْمُلُوكِ بِحَيْثُ لَا يَبْدَؤُهُمْ مَكْرُوهٌ ، وَلَمَا مَسَّهُمُ السُّوءُ ، وَلَامْتَنَعُوا مِمَّنْ قَصَدَهُمْ بِمَكْرُوهٍ ، وَلَاسْتَغْنَوْا عَنِ الطَّلَبِ لِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ . فَإِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ، وَكَانَ الْمُدَّعُونَ لِذَلِكَ أَسْوَأَ النَّاسِ حَالًا ، وَأَكْثَرَهُمْ طَمَعًا وَاخْتِيَالًا وَتَوَاصُلًا لِأَخْذِ دَرَاهِمِ النَّاسِ ، وَأَظْهَرَهُمْ فَقْرًا وَإِمْلَاقًا . عَلِمْتَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

" وَرُؤَسَاءُ الْحَشْوِ وَالْجُهَّالُ مِنَ الْعَامَّةِ مِنْ أَسْرَعِ النَّاسِ إِلَى التَّصْدِيقِ لِدَعْوَةِ السَّحَرَةِ وَالْمُعَزِّمِينَ ، وَأَشَدِّهِمْ نَكِيرًا عَلَى مَنْ جَحَدَهَا ، وَيَرْوُونَ فِي ذَلِكَ أَخْبَارًا مُفْتَعَلَةً مُتَخَرَّصَةً يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا ، كَالْحَدِيثِ الَّذِي يَرْوُونَ أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ عَائِشَةَ قَالَتْ : إِنِّي سَاحِرَةٌ فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ ؟ فَقَالَتْ : وَمَا سِحْرُكِ ؟ قَالَتْ : سِرْتُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي فِيهِ هَارُوتُ وَمَارُوتُ بِبَابِلَ لِطَلَبِ السِّحْرِ ، فَقَالَا لِي : يَا أَمَةَ اللَّهِ لَا تَخْتَارِي عَذَابَ الْآخِرَةِ بِأَمْرِ الدُّنْيَا ، فَأَبَيْتُ ، فَقَالَا لِي : اذْهَبِي فَبُولِي عَلَى ذَلِكَ الرَّمَادِ ، فَذَهَبْتُ لِأَبُولَ عَلَيْهِ فَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي فَقُلْتُ : لَا فَعَلْتُ ، وَجِئْتُ إِلَيْهِمَا فَقُلْتُ : قَدْ فَعَلْتُ ، فَقَالَا : مَا رَأَيْتِ ؟ فَقُلْتُ : مَا رَأَيْتُ شَيْئًا ، فَقَالَا : مَا فَعَلْتِ ، اذْهَبِي فَبُولِي عَلَيْهِ ، فَذَهَبْتُ وَفَعَلْتُ ، فَرَأَيْتُ كَأَنَّ فَارِسًا قَدْ خَرَجَ مِنْ فَرْجِي مُقَنَّعًا بِالْحَدِيدِ حَتَّى صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ ، فَأَخْبَرْتُهُمَا فَقَالَا : ذَلِكَ إِيمَانُكِ خَرَجَ عَنْكِ وَقَدْ أَحْسَنْتُ السِّحْرَ ، فَقُلْتُ : وَمَا هُوَ ؟ فَقَالَا : لَا تُرِيدِينَ شَيْئًا فَتُصَوِّرِينَهُ فِي وَهْمِكِ إِلَّا كَانَ ، فَصَوَّرْتُ فِي نَفْسِي حَبًّا مِنْ حِنْطَةٍ فَإِذَا أَنَا بِالْحَبِّ ، فَقُلْتُ لَهُ : انْزَرِعْ ، فَانْزَرَعَ وَخَرَجَ مِنْ سَاعَتِهِ سُنْبُلًا ، فَقُلْتُ لَهُ : انْطَحِنْ وَانْخَبِزْ إِلَى آخِرِ الْأَمْرِ حَتَّى صَارَ خُبْزًا ، وَإِلَى كُنْتُ لَا أُصَوِّرُ فِي نَفْسِي شَيْئًا إِلَّا كَانَ ، فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ : لَيْسَتْ لَكِ تَوْبَةٌ .

" فَيَرْوِي الْقُصَّاصُ وَالْمُحَدِّثُونَ الْجُهَّالُ مِثْلَ هَذَا لِلْعَامَّةِ فَتُصَدِّقُهُ وَتَسْتَعِيدُهُ وَتَسْأَلُ بَعْضُهُمْ أَنْ يُحَدِّثَهَا بِحَدِيثِ سَاحِرَةِ ابْنِ هُبَيْرَةَ فَيَقُولُ لَهَا : إنَّ ابْنَ هُبَيْرَةَ أَخَذَ سَاحِرَةً فَأَقَرَّتْ لَهُ بِالسِّحْرِ فَدَعَا الْفُقَهَاءَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ حُكْمِهَا فَقَالُوا : الْقَتْلُ ، فَقَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ : لَسْتُ أَقْتُلُهَا إلَّا تَغْرِيقًا ، قَالَ : فَأَخَذَ رَحَى الْبِزْرِ فَشَدَّهَا فِي رِجْلِهَا ، وَقَذَفَهَا فِي الْفُرَاتِ فَقَامَتْ فَوْقَ الْمَاءِ مَعَ الْحَجَرِ تَنْحَدِرُ مَعَ الْمَاءِ فَخَافَا أَنْ تَفُوتَهُمْ ، فَقَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ : مَنْ يُمْسِكُهَا وَلَهُ كَذَا وَكَذَا ؟ فَرَغِبَ رَجُلٌ مِنَ السَّحَرَةِ كَانَ حَاضِرًا فِيمَا بَذَلَهُ ، فَقَالَ : أَعْطُونِي قَدَحَ زُجَاجٍ فِيهِ مَاءٌ ، فَجَاءُوهُ بِهِ فَقَعَدَ عَلَى الْقَدَحِ ، وَمَضَى إلَى الْحَجَرِ فَشَقَّ الْحَجَرَ بِالْقَدَحِ فَتَقَطَّعَ الْحَجَرُ قِطْعَةً قِطْعَةً فَغَرِقَتِ السَّاحِرَةُ – فَيُصَدِّقُونَهُ ، وَمَنْ صَدَّقَ هَذَا فَلَيْسَ يَعْرِفُ النُّبُوَّةَ وَلَا يَأْمَنُ أَنْ تَكُونَ مُعْجِزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ هَذَا النَّوْعِ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا سَحَرَةً ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (20 : 69) .

وَقَدْ أَجَازُوا مِنْ فِعْلِ السَّاحِرِ مَا هُوَ أَطَمُّ مِنْ هَذَا وَأَفْظَعُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سُحِرَ ، وَأَنَّ السِّحْرَ عَمِلَ فِيهِ حَتَّى قَالَ فِيهِ : " إِنَّهُ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي أَقُولُ الشَّيْءَ وَأَفْعَلُهُ ، وَلَمْ أَقُلْهُ وَلَمْ أَفْعَلْهُ " وَأَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً سَحَرَتْهُ فِي جُفِّ طَلْعَةٍ وَمِشْطٍ وَمُشَاقَةٍ حَتَّى أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهَا سَحَرَتْهُ فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ، وَهُوَ تَحْتَ رَاعُوفَةِ الْبِئْرِ فَاسْتُخْرِجَ ، وَزَالَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَلِكَ الْعَارِضُ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُكَذِّبًا لِلْكُفَّارِ فِيمَا ادَّعَوْهُ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (25 : 8) وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ مِنْ وَضْعِ الْمُلْحِدِينَ تَلَعُّبًا بِالْحَشْوِ وَالطَّغَامِ ، وَاسْتِجْرَارًا لَهُمْ إلَى الْقَوْلِ بِإِبْطَالِ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالْقَدْحِ فِيهَا ، وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَفِعْلِ السَّحَرَةِ ، وَأَنَّ جَمِيعَهُ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ . وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَجْمَعُ بَيْنَ تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَإِثْبَاتِ مُعْجِزَاتِهِمْ ، وَبَيْنَ التَّصْدِيقِ بِمِثْلِ هَذَا مِنْ فِعْلِ السَّحَرَةِ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (20 : 69) فَصَدَّقَ هَؤُلَاءِ مَنْ كَذَّبَهُ اللَّهُ وَأَخْبَرَ

(222/281)

بِبُطْلَانِ دَعْوَاهُ وَانْتِحَالِهِ . وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ الْيَهُودِيَّةُ بِجَهْلِهَا فَعَلَتْ ذَلِكَ ظَنًّا مِنْهَا بِأَنَّ ذَلِكَ يَعْمَلُ فِي الْأَجْسَادِ ، وَقَصَدَتْ بِهِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى مَوْضِعِ سِرِّهَا ، وَأَظْهَرَ جَهْلَهَا فِيمَا ارْتَكَبَتْ وَظَنَّتْ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ ، لَا أَنَّ ذَلِكَ ضَرَّهُ ، وَخَلَطَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَلَمْ يَقُلْ كُلُّ الرُّوَاةِ : إِنَّهُ اخْتَلَطَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَإِنَّمَا هَذَا اللَّفْظُ زِيدَ فِي الْحَدِيثِ ، وَلَا أَصْلَ لَهُ .

" وَالْفَرْقُ بَيْنَ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَبَيْنَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ وُجُوهِ التَّخْيِيلَاتِ ، أَنَّ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هِيَ عَلَى حَقَائِقِهَا وَبَوَاطِنِهَا كَظَهَائِرِهَا ، وَكُلَّمَا تَأَمَّلْتَهَا ازْدَدْتَ بَصِيرَةً فِي صِحَّتِهَا ، وَلَوْ جَهِدَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى مُضَاهَاتِهَا وَمُقَابَلَتِهَا بِأَمْثَالِهَا ظَهَرَ عَجْزُهُمْ ، وَمَخَارِيقُ السَّحَرَةِ وَتَخْيِيلَاتُهُمْ إِنَّمَا هِيَ ضَرْبٌ مِنَ الْحِيلَةِ وَالتَّلَطُّفِ ؛ لِإِظْهَارِ أُمُورٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا ، وَمَا يَظْهَرُ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهَا ، يُعْرَفُ ذَلِكَ بِالتَّأَمُّلِ وَالْبَحْثِ ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَتَعَلَّمَ ذَلِكَ بَلَغَ فِيهِ مَبْلَغَ غَيْرِهِ ، وَيَأْتِي بِمِثْلِ مَا أَظْهَرَهُ سَوَاءً " ا هـ .

(223/281)

هَذَا جُلُّ مَا قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ الْجَصَّاصُ فِي مَعْنَى السِّحْرِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَعَقَدَ بَعْدَهُ بَابًا فِي ذِكْرِ قَوْلِ الْفُقَهَاءِ فِيهِ ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ مِنْ حُكْمِهِ ، وَمَا يَجْرِي عَلَى مُدَّعِي ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ

. وَمِنْهَا الْقَتْلُ كُفْرًا فِي بَعْضِ أَنْوَاعِهِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلشِّرْكِ وَالْمُسْتَلْزِمَةِ لِلرَّيْبِ فِي مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ يُثْبِتُونَ مَا أَنْكَرَهُ مِنْ تَأْثِيرِ الْجِنِّ ، وَاسْتِخْدَامِ بَعْضِ النَّاسِ لَهُمْ ، وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَنْ يَتَوَسَّلُ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ بِالْجِنِّ عَلَى بَعْضِ الْأَعْمَالِ السِّحْرِيَّةِ بِمَا هُوَ كُفْرٌ قَطْعًا ، كَرَابِطِ بَعْضِ الْقُرْآنِ عَلَى السَّوْأَتَيْنِ كَمَا عَلِمْتُ مِنْ بَعْضِ الْمُخْتَبِرِينَ لِهَؤُلَاءِ الدَّجَّالِينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ بِكِتَابَةِ الْعَزَائِمِ وَالْحُجُبِ لِلْحُبِّ وَالْبُغْضِ وَالْحَبَلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَالْمَفَاسِدُ فِي ذَلِكَ كَبِيرَةٌ جِدًّا ، وَقَدْ ذَكَرْنَا بَعْضَهَا فِي تَفْسِيرِ : إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (7 : 27) .

عَوْدٌ إِلَى تَفْسِيرِ الْآيَاتِ

(224/281)

لَمَّا أَظْهَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آيَةَ اللهِ تَعَالَى فِي مَجْلِسِ فِرْعَوْنَ : قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَيْ : أَشْرَافُ قَوْمِهِ وَأَرْكَانُ الدَّوْلَةِ مِنْهُمْ : إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ أَيْ : رَاسِخٌ فِي الْعِلْمِ - كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ صِيغَةُ عَلِيمٍ : يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ أَيْ : قَدْ وَجَّهَ إِرَادَتَهُ لِسَلْبِ مُلْكِكُمْ مِنْكُمْ ، وَإِخْرَاجِكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ بِأَنْ يَسْتَمِيلَ بِهِ الشَّعْبَ الْمِصْرِيَّ ، فَيَتْبَعَهُ فَيَنْتَزِعَ

مِنْكُمُ الْمُلْكَ ، وَيَسْتَبِدَّ بِهِ دُونَكُمْ ، وَيَلِي ذَلِكَ إِخْرَاجُ الْمَلِكِ وَعُظَمَاءِ رِجَالِهِ مِنَ الْبِلَادِ لِئَلَّا يُنَاوِئُوهُ لِاسْتِعَادَةِ الْمُلْكِ مِنْهُ ، كَمَا فَعَلَ مُتَغَلِّبَةُ التُّرْكِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بَعْدَ إِسْقَاطِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، فَإِنَّهُمْ أَخْرَجُوا جَمِيعَ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ السُّلْطَانِيَّةِ مِنَ الْبِلَادِ التُّرْكِيَّةِ الَّتِي بَقِيَتْ لَهُمْ .

وَفِي مَعْنَى الْقَوْلِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَرِجَالِ دَوْلَتِهِ مَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ مِنْ مُرَاجَعَتِهِمْ لِمُوسَى وَأَخِيهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ : قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (10 : 78) .

(225/281)

وَمَا قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ هَذَا الْقَوْلَ إِلَّا تَبَعًا لِقَوْلِهِ هُوَ ، الَّذِي حَكَاهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (26 : 34 ، 35) أَيْ : رَدَّدُوا قَوْلَهُ ، وَصَارَ يُلْقِيهِ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، كَدَأْبِ النَّاسِ فِي نَقْلِ كَلَامِ مُلُوكِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ وَتَرْدِيدِهِ إِظْهَارًا لِلْمُوَافَقَةِ عَلَيْهِ وَتَعْمِيمًا لِتَبْلِيغِهِ ، وَإِنَّمَا لَمْ يُصَرِّحُوا بِكَلِمَةِ " بِسِحْرِهِ " كَمَا صَرَّحَ هُوَ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا دُونَهُ خَوْفًا وَانْزِعَاجًا ، وَأَقَلَّ مِنْهُ حِرْصًا عَلَى الطَّعْنِ فِي دَعْوَةِ مُوسَى ،

وَلَكِنْ ذَكَرَهَا السَّحَرَةُ فِي تَنَاجِيهِمْ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهُوَ أَجْدَرُ بِذِكْرِهَا فَحَكَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ

بِقَوْلِهِ مِنْ سُورَةِ طَهَ : فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (20 : 62 - 64) .

وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِ فِرْعَوْنَ لَهُمْ ، وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ : فَمَاذَا تَأْمُرُونَ لَيْسَ هُوَ الْمُقَابِلَ لِلنَّهْيِ ، بَلْ هُوَ بِمَعْنَى الْإِدْلَاءِ بِالرَّأْيِ فِي الشُّورَى ، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْأَسَاسِ : وَتَآمَرَ الْقَوْمُ وَائْتَمَرُوا ، مِثْلُ تَشَاوَرُوا وَاشْتَوَرُوا . وَمُرْنِي بِمَعْنَى أَشِرْ عَلَيَّ . قَالَ بَعْضُ فُتَّاكِهِمْ :

(226/281)

أَلَمْ تَرَ أَنِّي لَا أَقُولُ لِصَاحِبٍ إِذَا قَالَ مُرْنِي - أَنْتَ مَا شِئْتَ فَافْعَلِ وَلَكِنَّنِي أَفْرِي لَهُ فَأُرِيحُهُ بِبَزْلَاءَ تُنْجِيهِ مِنَ الشَّكِّ فَيْصَلِ

وَقَالَ فِي مَادَّةِ (ب ز ل) وَمِنَ الْمَجَازِ : بَزَلَ الْأَمْرَ وَالرَّأْيَ : اسْتَحْكَمَ ، وَأَمْرٌ بَازِلٌ ، وَتَقُولُ : خَطْبٌ بَازِلٌ ، لَا يَكْفِيهِ إِلَّا رَأْيٌ قَارِحٌ ، وَإِنَّهُ لَذُو بَزْلَاءَ ؛ أَيْ : ذُو صُرَيْمَةٍ مُحْكَمَةٍ ، وَهُوَ نَهَّاضٌ بِبَزْلَاءَ ؛ أَيْ : بِخُطَّةٍ عَظِيمَةٍ قَالَ :

إِنِّي إِذَا شَغَلَتْ قَوْمًا فُرُوجُهُمْ . . . رَحْبُ الْمَسَالِكِ نَهَّاضٌ بِبَزْلَاءَ

(أَقُولُ) : وَمَعْنَى بَيْتَيِ الْفَاتِكِ أَنَّ صَاحِبَهُ إِذَا اسْتَشَارَهُ فَقَالَ لَهُ : مُرْنِي - أَيْ أَشِرْ عَلَيَّ - لَا

يَقُولُ لَهُ : افْعَلْ مَا تَشَاءُ إِعْرَاضًا عَنْ نُصْحِهِ أَوْ عَجْزًا مِنْهُ ، بَلْ يَفْرِي ؛ أَيْ : يَقْطَعُ لَهُ الرَّأْيَ الْمُحْكَمَ بِخُطَّةٍ بَزْلَاءَ ؛ أَيْ : قَوِيمَةٍ مُحْكَمَةٍ ، تُخْرِجُهُ مِنَ الشَّكِّ وَالتَّرَدُّدِ ، وَتَكُونُ فَيْصَلًا ؛ أَيْ : فَاصِلَةً بَيْنَ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ ، وَالْبَزْلَاءُ وُبُزُولُ الْأَمْرِ وَالرَّأْيِ مَأْخُوذٌ مِنْ بُزُولِ نَابِ الْبَعِيرِ ، وَهُوَ أَنْ يَنْشَقَّ وَيَخْرُجَ عِنْدَ دُخُولِهِ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ فَهُوَ بَازِلٌ ، وَلِذَلِكَ أَطْلَقُوا لَقَبَ الْبَازِلِ عَلَى الرَّجُلِ الْقَوِيِّ الْمُحْكَمِ التَّجْرِبَةِ .

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ أَيْ : قَالَ الْمَلَأُ لِفِرْعَوْنَ

(227/281)

حِينَ اسْتَشَارَهُمْ بِقَوْلِهِ : فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ؟ أَرْجِهْ ؛ أَيْ : أَرْجِئْ وَأَخِّرْ أَمْرَهُ وَأَمْرَ أَخِيهِ ، وَلَا تَفْصِلْ فِيهِ بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَأَرْسِلْ فِي مَدَائِنِ مُلْكِكَ رِجَالًا أَوْ جَمَاعَاتٍ مِنَ الشُّرْطَةِ وَالْجُنْدِ حَاشِرِينَ ؛ أَيْ : جَامِعِينَ سَائِقِينَ لِلسَّحَرَةِ مِنْهَا - فَالْحَشْرُ : الْجَمْعُ وَالسَّوْقُ - وَإِنَّمَا يُوجَدُ السَّحَرَةُ فِي الْمَدَائِنِ الْجَامِعَةِ الْآهِلَةِ بِدُورِ الْعِلْمِ وَالصِّنَاعَةِ ، فَإِنْ تُرْسِلْهُمْ : يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ بِفُنُونِ السِّحْرِ مَاهِرٍ فِيهَا ، وَهُمْ يَكْشِفُونَ لَكَ كُنْهَ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى فَلَا يَفْتَتِنُ بِهِ أَحَدٌ .

قَرَأَ الْجُمْهُورُ (سَاحِرٍ) بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ ، وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ هُنَا ، وَفِي يُونُسَ (سَحَّارٍ)

بِصِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ لَهُ ، وَجَاءَ ذَلِكَ بِالْإِمَالَةِ وَعَدِمَهَا ، وَبِهَا قَرَأَ الْجَمِيعُ فِي الشُّعَرَاءِ ، وَرَسْمُهَا فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ وَاحِدٌ هَكَذَا (سحر) لِيَحْتَمِلَ الْقِرَاءَتَيْنِ ، وَوَجْهُهُمَا أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا طَلَبَ كُلَّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فِي مَدَائِنِ الْبِلَادِ خَصَّ بِالذِّكْرِ الْمَهَرَةَ الْمُتَمَرِّنِينَ فِي السِّحْرِ الْمُكْثِرِينَ مِنْهُ - أَوْ أَنَّ بَعْضَ

(228/281)

مَلَئِهِ طَلَبَ هَؤُلَاءِ فَقَطْ ؛ لِأَنَّهُمْ أَجْدَرُ بِإِتْيَانِ مُوسَى بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ ، كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ فِي سُورَةِ طَهَ : قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ (20 : 57 ، 58) وَطَلَبَ آخَرُونَ حَشْرَ جَمِيعِ السَّحَرَةِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ لَعَلَّهُ يُوجَدُ عِنْدَ بَعْضِ الْمُقْتَصِدِينَ أَوِ الْمُقِلِّينَ مِنَ السِّحْرِ مَا لَا يُوجَدُ عِنْدَ الْمُكْثِرِينَ مِنْهُ - فَبَيَّنَتِ الْقِرَاءَتَانِ كُلَّ مَا قِيلَ مَعَ الْإِيجَازِ الْبَلِيغِ .

(229/281)

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ أَيْ : وَجَاءَ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةُ الَّذِينَ حَشَرَهُمْ لَهُ أَعْوَانُهُ وَشُرْطَتُهُ ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْكِتَابُ الْحَكِيمُ وَلَا الرَّسُولُ الْمَعْصُومُ عَدَدَهُمْ ؛ إِذْ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ ، وَكُلُّ مَا رُوِيَ فِيهِمْ مِنْ أَنَّهُمْ عَشَرَاتُ الْأُلُوفِ فَهُوَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا عِنْدَنَا ، وَلَا فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لِفِرْعَوْنَ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا عَظِيمًا يُكَافِئُ مَا يُطْلَبُ مِنَّا مِنَ الْعَمَلِ الْعَظِيمِ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ لِمُوسَى ، ذُكِرَ قَوْلُهُمْ هُنَا بِأُسْلُوبِ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ كَأَنَّهُ جَوَابُ سَائِلٍ مَاذَا قَالُوا ؟ وَجَاءَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ بِصِيغَةِ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ : فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ (26 : 41) وَهُوَ تَفَنُّنٌ فِي الْعِبَارَةِ ، قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَحَفْصٌ ، عَنْ عَاصِمٍ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا بِهَمْزَةٍ وَاحِدَةٍ ، قِيلَ : إِنَّهُ عَلَى الْإِخْبَارِ الدَّالِّ عَلَى إِيجَابِ الْأَجْرِ ، وَكَوْنِهِ لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ عَلَى حَذْفِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ الَّذِي يَكْثُرُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَهُوَ الْمُتَبَادَرُ وَالْمُخْتَارُ لِيُوَافِقَ

قِرَاءَةَ ابْنِ عَامِرٍ بِإِثْبَاتِهَا هُنَا وَهُوَ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ .

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ أَيْ : قَالَ فِرْعَوْنُ مُجِيبًا لَهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا : نَعَمْ ؛ إِنَّ لَكُمْ لَأَجْرًا عَظِيمًا وَإِنَّكُمْ مَعَ ذَلِكَ الْأَجْرِ الْمَالِيِّ وَالْمَادِّيِّ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ جَانِبِنَا السَّامِي ، فَيَجْتَمِعُ لَكُمُ الْمَالُ وَالْجَاهُ ، وَذَلِكَ مُنْتَهَى الدُّنْيَا وَمَجْدِهَا ، أَكَّدَ لَهُمْ نَيْلَ مَا طَلَبُوهُ مِنْهُ ، وَمَا زَادَهُمْ عَلَيْهِ تَأْكِيدًا بَعْدَ تَأْكِيدٍ ؛ لِاهْتِمَامِهِ بِهَذَا الْأَمْرِ ، وَخَوْفِهِمْ مِنْ عَاقِبَتِهِ ، فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ لَهُمْ : نَعَمْ ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا ؛ لَأَفَادَ إِجَابَةَ طَلَبِهِمْ ، وَلَوْ قَالَ فِي مِنْحَةِ الْقُرْبَى : وَتَكُونُونَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، لَكَفَى ، وَلَكِنَّهُ عَبَّرَ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ الْمُؤَكَّدَةِ بِـ (إِنَّ) وَبِتَحْلِيَةِ الْخَبَرِ بِاللَّامِ ، وَبِعَطْفِ التَّلْقِينِ ؛ أَيْ عَطْفِ : " وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ " عَلَى

الْجُمْلَةِ الْمُقَدَّرَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا حَرْفُ الْإِيجَابِ " نَعَمْ " وَهِيَ " إِنَّ لَكُمْ لَأَجْرًا " الْحَالَةُ وَهِيَ كَوْنُكُمْ أَنْتُمُ الْغَالِبِينَ دُونَ مُوسَى لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (26 : 42) وَحَذْفُهَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَالَهَا مَرَّةً دُونَ أُخْرَى فَأَفَادَ أَنَّهُ كَرَّرَ لَهُمُ الْإِجَابَةَ وَالْوَعْدَ وَذَلِكَ تَأْكِيدٌ آخَرُ .

(231/281)

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ كَنَظَائِرِهِ ؛ أَيْ : قَالَ السَّحَرَةُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ وَعَدَهُمْ فِرْعَوْنُ مَا وَعَدَهُمْ : إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ مَا عِنْدَكَ

أَوَّلًا ، وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ لِمَا عِنْدَنَا مِنْ دُونِكَ ، أَمَّا تَخْيِيرُهُمْ إِيَّاهُ فَلِثِقَتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَاعْتِدَادِهِمْ بِسِحْرِهِمْ ، وَإِرْهَابًا لَهُ ، وَإِظْهَارًا لِعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِهِ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْمُتَأَخِّرَ يَكُونُ أَبْصَرَ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ بَعْدَ وُقُوفِهِ عَلَى مُنْتَهَى شَوْطِ خَصْمِهِ ، وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ عِلَّةَ التَّخْيِيرِ مُرَاعَاةُ الْأَدَبِ لَا وَجْهَ لَهُ أَلْبَتَّةَ ، بَلْ مَقَامُهُمْ بِحَضْرَةِ مَلِكِهِمُ الَّذِي يَدَّعِي الْأُلُوهِيَّةَ وَالرُّبُوبِيَّةَ فِيهِمْ ، وَمَا طَلَبُوهُ مِنْهُ ، وَمَا وَعَدَهُمْ إِيَّاهُ - كُلُّهُ يَقْتَضِي أَنْ يَحْتَقِرُوا خَصْمَهُ لَا أَنْ يَتَأَدَّبُوا مَعَهُ كَمَا يَتَأَدَّبُ أَهْلُ الصِّنَاعَةِ الْوَاحِدَةِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ إِذَا تَلَاقَوْا لِلْمُبَارَاةِ ، وَهُوَ مَا وَجَّهَ الزَّمَخْشَرِيُّ بِهِ التَّعْلِيلَ ، وَمَا قَالَهُ الْبَيْضَاوِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ أَنَّ عِلَّتَهُ إِظْهَارُ التَّجَلُّدِ فَضَعِيفٌ ، إِذْ لَمْ يَرَوْا مِنْ مُوسَى شَيْئًا بِأَعْيُنِهِمْ يَقْتَضِيهِ ، وَإِنَّمَا سَمِعُوا أَنَّهُ أَلْقَى عَصَاهُ بِحَضْرَةِ فِرْعَوْنَ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا فَاسْتَعَدُّوا لِمُقَابَلَتِهِ بِعِصِيٍّ وَحِبَالٍ كَثِيرَةٍ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ وَإِلَى كُلِّ نَاظِرٍ أَنَّهَا ثَعَابِينُ تَسْعَى فَيُبْطِلُونَ سِحْرَهُ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ كَمَا قَالَ مَلِكُهُمْ : فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ

(232/281)

مِثْلِهِ (20 : 58) .

وَذَهَبَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَمَنْ تَبِعَهُ إِلَى أَنَّ هَذَا التَّغْيِيرَ عَنْ إِلْقَائِهِمْ يَدُلُّ عَلَى رَغْبَتِهِمْ فِي الْبَدْءِ بِمَا يُنْبِئُ عَنْهُ تَغْيِيرُهُمْ لِلنَّظْمِ بِتَعْرِيفِ الْخَبَرِ وَتَوْسِيطِ ضَمِيرِ الْفَصْلِ " نَحْنُ " وَتَوْكِيدِ الضَّمِيرِ

الْمُسْتَتِر بِهِ ، وَفِي سُورَةِ طَهَ : إمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (20 : 65) وَفِيهِ مِنَ التَّوْكِيدِ مَا يَدُلُّ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي الْأَوَّلِيَّةِ الَّتِي صَرَّحُوا بِذِكْرِهَا هُنَا فَلَا فَرْقَ بَيْنَ التَّعْبِيرَيْنِ فِي الْمَعْنَى ، فَلَا بَأْسَ حِينَئِذٍ بِجَعْلِ الِاخْتِلَافِ اللَّفْظِيِّ فِي الْحِكَايَةِ عَنْهُمْ لِمُرَاعَاةِ الْفَوَاصِلِ ، وَقَدِ اخْتَلَفَ فِيهِ عَلَى أَقْوَالٍ " ثَالِثُهَا " وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمُعْتَمَدُ : أَنَّهُ جَائِزٌ وَوَاقِعٌ فِيمَا لَا يَخِلُّ بِأَدَاءِ الْمَعْنَى ، وَلَا يُنَافِي الْبَلَاغَةَ الْعُلْيَا ، فَكَيْفَ إذَا كَانَ مَزِيدَ تَفَنُّنٍ قَدْ يَصِلُ إلَى حَدِّ الْإِعْجَازِ فِيهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ تَأْدِيَةَ دَقَائِقِ الْمَعْنَى مُكَرَّرَةً بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي مُنْتَهَى الْعُسْرِ ، وَكَثِيرًا

(233/281)

مَا يَكُونُ مُتَعَذِّرًا ، فَلَوْ لَمْ يُؤَكِّدِ الضَّمِيرُ الْمُتَّصِلُ هَا هُنَا بِالضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلِ " نَحْنُ " لَمَا أَفَادَ مَعْنَى الرَّغْبَةِ فِي أَوَّلِيَّةِ الْإِلْقَاءِ الْمُصَرَّحِ بِهِ فِي سُورَةِ طَهَ ، وَبِذَلِكَ عُلِمَ أَنَّ مُرَاعَاةَ الْفَاصِلَتَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ هُوَ الَّذِي وَحَّدَ بَيْنَهُمَا بِجَعْلِ كُلٍّ مِنْهُمَا دَالًّا عَلَى رَغْبَةِ السَّحَرَةِ فِي التَّقَدُّمِ وَالْأَوَّلِيَّةِ ، فَأَيُّ خَطِيبٍ أَوْ كَاتِبٍ يَقْدِرُ عَلَى إفَادَةِ هَذَا الْمَعْنَى بِأُسْلُوبَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي اللَّفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ بِهِ ، وَأَيُّ مُتَرْجِمٍ تُرْكِيٍّ أَوْ إفْرِنْجِيٍّ يَفْقَهُ هَذَا وَيُؤَدِّيهِ فِي تَرْجَمَتِهِ لِلْقُرْآنِ ؟

(234/281)

قَالَ أَلْقُوا وَفِي سُورَةِ طَهَ : قَالَ بَلْ أَلْقُوا (20 : 66) وَهُوَ أَدَلُّ عَلَى رَغْبَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سَبْقِهِمْ لِلْإِلْقَاءِ ، وَلَعَلَّهُ نَطَقَ أَوَّلًا بِمَا فِيهِ الْإِضْرَابُ فَقَالَ : بَلْ أَلْقُوا أَنْتُمْ مِنْ دُونِي ثُمَّ أَعَادَ كَلِمَةً (أَلْقُوا) وَحْدَهَا ؛ لِتَأْكِيدِ رَغْبَتِهِ ، وَالْإِيذَانِ بِعَدَمِ مُبَالَاتِهِ ، وَفِي سُورَتَيْ يُونُسَ وَالشُّعَرَاءِ : قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ، فَأَظْهَرَ اسْمَ مُوسَى الَّذِي أَضْمَرَهُ هُنَا ، وَفِي سُورَةِ طَهَ ؛ لِأَنَّهُ جَوَابٌ لِخِطَابِهِمْ إِيَّاهُ بِاسْمِهِ بِالتَّخْيِيرِ ، فَالْمَقَامُ فِيهَا مَقَامُ الْإِضْمَارِ حَتْمًا ، وَأَمَّا إِظْهَارُهُ فِي سُورَتَيْ يُونُسَ وَالشُّعَرَاءِ فَسَبَبُهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمَا ذِكْرٌ لِنِدَاءِ السَّحَرَةِ إِيَّاهُ وَتَخْيِيرِهِمْ لَهُ ، فَأَوَّلُ آيَةِ يُونُسَ : فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا (10 : 80) وَقَبْلَهَا طَلَبُ فِرْعَوْنَ لِلسَّحَرَةِ ، وَمَجِيئُهُمْ وَسُؤَالُهُمْ إِيَّاهُ الْأَجْرَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ، وَإِجَابَتُهُ إِيَّاهُمْ ، فَهِيَ أَوْلَى مِنْ آيَةِ يُونُسَ بِمَا ذَكَرَ ، وَأَمَّا زِيَادَةُ مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَإِنَّهَا فَائِدَةٌ نَافِلَةٌ ذَاتُ شَأْنٍ تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ مُبَالَاتِهِ بِمَا يُلْقُونَ مَهْمَا عَظُمَ أَمْرُهُ وَكَانَ مَجْهُولًا عِنْدَهُ ، وَهِيَ لَا تُنَافِي عَدَمَ ذِكْرِهَا فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمَا .

(235/281)

وَقَدْ قِيلَ : كَيْفَ أَمَرَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِلْقَاءِ مَا عِنْدَهُمْ وَهُوَ مِنَ السِّحْرِ الْمُنْكَرِ ؟ وَأُجِيبَ بِأَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِفِعْلِ السِّحْرِ ابْتِدَاءً ، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِأَنْ يَتَقَدَّمُوهُ فِيمَا جَاءُوا لِأَجْلِهِ وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ ، وَأَرَادَ التَّوَسُّلَ بِهِ إِلَى إِظْهَارِ بُطْلَانِ السِّحْرِ لَا إِثْبَاتِهِ ، وَإِلَى بِنَاءِ ثُبُوتِ الْحَقِّ عَلَى بُطْلَانِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّ وَسِيلَةٌ لِإِبْطَالِهِ إِلَّا ذَلِكَ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِهِ فِيمَا حَكَاهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي سُورَةِ يُونُسَ : قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (10 : 81 ، 82) وَمِثْلُهُ تَوَسُّلُ إِبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِمَا إِلَى إِظْهَارِ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ لِعَبَدَةِ الْكَوَاكِبِ مِنْ قَوْمِهِ لَمَّا رَأَى كُلًّا مِنَ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي (6 : 77) ثُمَّ تَعَقَّبَهُ بِمَا يَدُلُّ

عَلَى كَوْنِهِ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ رَبًّا ، وَإِسْمَاعُهُ إِيَّاهُمْ بَعْدَ إِبْطَالِ رُبُوبِيَّتِهَا ، كُلُّهَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ بِقَوْلِهِ : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (6 : 79) .

(236/281)

فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ أَيْ : فَلَمَّا أَلْقَوْا مَا أَلْقَوْا مِنْ حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ كَمَا فِي سُورَتَيِ الشُّعَرَاءِ وَطَهَ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ الْحَاضِرِينَ ، وَمِنْهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَفِي سُورَةِ طَهَ : فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (20 : 66) وَاسْتَرْهَبُوهُمْ أَيْ : أَوْقَعُوا فِي قُلُوبِهِمُ الرَّهْبَ وَالْخَوْفَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (20 : 67 ، 68) وَأَصْلُ الِاسْتِرْهَابِ مُحَاوَلَةُ الْإِرْهَابِ وَطَلَبُ وُقُوعِهِ بِأَسْبَابِهِ ، وَقَدْ قَصَدُوا ذَلِكَ فَحَصَلَ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ أَيْ : مَظْهَرُهُ كَبِيرٌ ، وَتَأْثِيرُهُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ عَظِيمٌ . قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ ؛ خَيَّلُوا إِلَى الْأَبْصَارِ أَنَّ مَا فَعَلُوهُ لَهُ حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مُجَرَّدَ صَنْعَةٍ وَخَيَالٍ . ثُمَّ ذُكِرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُمْ أَلْقَوْا حِبَالًا غِلَاظًا وَخَشَبًا طِوَالًا " قَالَ " فَأَقْبَلَتْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ، ثُمَّ ذُكِرَ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّ السَّحَرَةَ كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَاحِرٍ ، وَأَنَّ الْحَيَّاتِ الَّتِي أَظْهَرُوهَا بِخَيَالِ سِحْرِهِمْ كَانَتْ كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ قَدْ مَلَأَتِ الْوَادِي ، وَعَنِ السُّدِّيِّ أَنَّ السَّحَرَةَ كَانُوا بِضْعًا وَثَلَاثِينَ أَلْفًا ، وَعَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي بَزَّةَ 70 أَلْفًا ، وَذَكَرَ غَيْرُهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُبَالَغَةِ

وَالتَّهْوِيلِ ، وَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي خَبَرٍ مَرْفُوعٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الْبَاطِلَةِ الْمَرْوِيَّةِ عَنِ الْيَهُودِ كَمَا تَقَدَّمَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي تَوْرَاتِهِمْ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَإِنَّمَا جَاءَ فِي الْفَصْلِ السَّابِعِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ مِنْهَا أَنَّ فِرْعَوْنَ دَعَا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ " فَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذَلِكَ : طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتِ الْعِصِيُّ ثُعَابِينَ ، وَلَكِنْ عَصَا هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَّهُمْ " .

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ سِرَّ صِنَاعَتِهِمْ فِي ذَلِكَ بِمَا أَرَاهُ اسْتِنْبَاطًا عِلْمِيًّا لَا نَقْلًا تَارِيخِيًّا ، قَالَ الْإِمَامُ الْجَصَّاصُ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ يَعْنِي مَوَّهُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ تَسْعَى . وَقَالَ : يُخَيَّلُ إلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَخْبَرَ أَنَّ مَا ظَنُّوهُ سَعْيًا مِنْهَا لَمْ يَكُنْ سَعْيًا ، وَإِنَّمَا كَانَ تَخَيُّلًا ، وَقَدْ قِيلَ : إنَّهَا كَانَتْ عِصِيًّا مُجَوَّفَةً قَدْ مُلِئَتْ زِئْبَقًا ، وَكَذَلِكَ الْحِبَالُ كَانَتْ مَعْمُولَةً مِنْ أُدْمٍ ؛ أَيْ : جِلْدٍ ، مَحْشُوَّةً زِئْبَقًا ، وَقَدْ حَفَرُوا قَبْلَ ذَلِكَ تَحْتَ الْمَوَاضِعِ أَسْرَابًا ، وَجَعَلُوا أَزْوَاجًا مَلَئُوهَا نَارًا فَلَمَّا طُرِحَتْ عَلَيْهِ ، وَحَمِيَ الزِّئْبَقُ حَرَّكَهَا ؛

لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الزِّئْبَقِ إِذَا أَصَابَتْهُ النَّارُ أَنْ يَطِيرَ ، فَأَخْبَرَ اللهُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مُمَوَّهًا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِضَرْبٍ مِنَ الْحُلِيِّ : مَسْحُورٌ ؛ أَيْ : مُمَوَّهٌ عَلَى مَنْ رَآهُ مَسْحُورًا بِهِ ا هـ .

فَعَلَى هَذَا يَكُونُ سِحْرُهُمْ لِأَعْيُنِ النَّاسِ عِبَارَةً عَنْ هَذِهِ الْحِيلَةِ الصِّنَاعِيَّةِ إِذَا صَحَّ خَبَرُهَا ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى كَإِطْلَاقِ أَبْخِرَةٍ أَثَّرَتْ فِي الْأَعْيُنِ فَجَعَلَتْهَا تُبْصِرُ ذَلِكَ أَوْ يَجْعَلُ الْعِصِيَّ وَالْحِبَالَ عَلَى صُورَةِ الْحَيَّاتِ ، وَتَحْرِيكَهَا بِمُحَرِّكَاتٍ خَفِيَّةٍ سَرِيعَةٍ لَا تُدْرِكُهَا أَبْصَارُ النَّاظِرِينَ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ مِنَ الصِّنَاعَاتِ وَتُسَمَّى السِّيمِيَاءَ . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 9 صـ 33 . 58 ﴾

(239/281)

وقال ابن عاشور :

قوله ﴿ فلما ألقوا ﴾

عطف على محذوف للإيجاز ، والتقدير : فأَلْقَوا .

لأن قوله : ﴿ فلما ألقوا ﴾ يؤذن بهذا المحذوف ، وحذف مفعول ﴿ أَلقَوا ﴾ لظهوره ، أي : ألقوا آلات سحرهم .

ومعنى ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ : جعلوها متأثرة بالسحر بما ألقَوا من التخييلات والشعوذة .

وتعدية فعل ﴿ سحروا ﴾ إلى ﴿ أعين ﴾ مجاز عقلي لأن الأعين آلة إيصال التخييلات إلى الإدراك ، وهم إنما سحروا العقول ، ولذلك لو قيل : سحروا الناسَ لأفاد ذلك ، ولكن تفوت نكتة التنبيه على أن السحر إنما هو تخيلات مرئية ، ومثل هذه الزيادة زيادة الأعين في قول الأعشى :

كذَلكَ فافْعَلْ ما حيَيتَ إذا شَتَوْا . . .

وَأَقْدِم إذَا مَا أَعْيُنُ النّاس تَفرقَ

أي إذا ما الناس تفرَق فرَقا يحصل من رؤية الأخطار المخيفة .

والاسترهاب : طلب الرهب أي الخَوْف .

وذلك أنهم عززوا تخيلات السحر بأمور أخرى تثير خوف الناظرين ، لتزداد تمكن التخيلات من قلوبهم ، وتلك الأمور أقوال وأفعال توهم أن سيقع شيء مُخيف كأن يقولوا للناس : خُذوا حذركم وحاذروا ، ولا تقتربوا ، وسيقع شيء عظيم ، وسيحضر كبير السحرة ، ونحو ذلك من التمويهات ، والخزعبلات ، والصياح ، والتعجيب .

ولك أن تجعل السين والتاء في ﴿ واسترهبوهم ﴾ للتأكيد ، أي : أرهبوهم رهَبا شديداً ، كما يقال استكبر واستجاب .

وقد بينت في تفسير قوله تعالى : ﴿ يعلّمون الناس السحر ﴾ من سورة البقرة (102)

أن مبنى السحر على التخييل والتخويف .

ووصف السحر بالعظيم لأنه من أعظم ما يفعله السحرة إذ كان مجموعاً مما تفرق بين سحرة المملكة من الخصائص المستورة بالتوهيم الخفية أسبابها عن العامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(240/281)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) ﴾

هم – إذن – سحروا أعين الناس ، والسحر – كما نعلم – لطف حيلة يأتي بأعجوبة تشبه المعجزة . وكأنها تخرق القانون ، وهو غير الحيلة التي يقوم بها الحواة ؛ لأن الحواة يقومون بخفة حركة ، وخفة يد ، ليعموا الأمر على الناس . لكن " السحر " شيء آخر ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق كل جنس بقانون ؛ خلق الإنس بقانون ، وخلق الجن بقانون ، وخلق الملائكة بقانونها : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ . . . ﴾ [المدثر : 31]

وكل قانون له خصائصه ومميزاته التي تناسب عنصر تكوينه ، فالإِنسان – مثلاً – لأنه مخلوق من الطين له من الكثافة ما يمنعه من التسلل من خلال جدار ؛ لأنك لو كنت تجلس وهناك تفاحة وراء الجدار الذي تجلس بجواره فلن يتعدى ريحها ولا طعمها إلى فمك ؛ لأن الجدار يحول بينك وبين ذلك ، لكن لو كانت هناك جذوة من نار بجانب الجدار الذي تستند عليه لكان من الممكن أن يتعدى أثرها لك ؛ لأن النار إشعاعات تنفذ من الأشياء ، ولأن الجن مخلوق من نار ، لذلك نجد له هذه الخاصية . ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 27]

(241/281)

فإذا كان الجن له قانون والإِنس له قانون ، فهل القانون هو الذي يسيطر ؟ لا ، بل رب القانون هو الذي يسيطر لأنه جل وعلا فوق القانون . فيأتي الله للإِنس ويُعَلّم واحداً منهم بعضاً من أسرار كونه ليستذل الجن لخدمته ، برغم ما للجن من خفة حركة ، فسبحانه يوضح : لا تظن أيها الجن أنك قد أخذت خصوصيتك من العنصر الذي يكونك لأن هناك القادر الأعلى وهو المعنصر لك ولغيرك ، بدليل أن الإِنسان وهو من عنصر آخر يتحكم فيك بعد أن علمه الله بعضاً من أسرار كونه . ولننتبه دائماً أن العلم بأسرار تسخير الجن هو من

ابتلاءات الحق للخلق ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ . . . ﴾ [البقرة : 102]

فكأن هاروت وماروت وهما يعلّمان الإِنسان كيف يمارس السحر ، ينصحان الإِنسان الذي يرغب في أن يتعلم السحر أولاً ، ويوضحان له أنهما فتنة أي ابتلاء واختبار ويقولان له : ﴿ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ ، مما يدل على أن كل من يتعلم السحر ؛ إن قال لك : إني سأستعمله في الخير فهو كاذب ؛ لأنه يقول ذلك ساعة صفاء نفسه تجاه الخلق ، لكن ماذا إن غافله إنسان من أي ناحية وغلبه على بعض أمره وهو يملك بعضاً من أسرار السحر ؟ هل يقدر على نفسه ؟ لقد قال إنه أمين وقت التحمل ، لكن هل يظل أميناً وقت الأداء ؟ إن من يتعلم السحر قد يستخدمه في الانتقام من غيره ، وبذلك يضيع تكافؤ الفرص ، ونعلم أن تكافؤ الفرص هو الذي يحمي الناس ، ويعطي بعضهم الأمن من بعض ، ويُلزم كل إنسان حدّه .

(242/281)

فإذا أخذ إنسان سلاحاً ليس عند غيره فقد يستخدمه ضد من لا يملك مثله ، والإِنسي الذي يأخذ سلاح استخدام الجن إنما يأخذ سلاحاً لا يملكه أخوه الإِنسي ، وبذلك يكون قد أخذ فرصة أقوى من غيره وفي هذا ابتلاء ؛ لأن الإِنسان قد ينجح فيه وقد يخفق فلا

يظفر بما يطلبه ، وقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ يدل على أنهما علما طبائع البشر في أنهم حين يأخذون فرصة أعلى قد يُضْمَنون وقت صفاء نفوسهم ، ولكنهم لا يُضْمَنون يوم تعكير نفوسهم . ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله . . . ﴾ [البقرة : 102]

ما دام الحق هو الذي أعطاهم هذه القدرة فهو سبحانه القادر على أن يسلبها منهم ، مثلما يمنح الله سبحانه وتعالى القدرة لإنسان ليكون غنيًّا وقادراً على شراء سلاح ناري ، وأن يتدرب على إطلاق النار ، فهذا الرجل ساعة يغضب قد يتصور أن يحل خلافه مع غيره أو ينهي غضبه مع أي إنسان آخر بإطلاق الرصاص عليه . لكن لو لم يكن معه " مسدس " فقد ينتهي غضبه بكلمة طيبة يسمعها ، إذن فساعة ما يمنع الله أمراً فهو يريد أن يرحم ؛ لذلك يقول : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ .

(243/281)

وفي هذا تحذير لمن يتعلم مثل هذا الأمر ، ويريد سبحانه أن يحمي خلقه من هذه المسألة ، فلو أنك تتبعت هؤلاء لاستذلوك واستنزفوك ، ويتركك الله لهم لأنك اعتقدت فيهم ، أما إن قلت " اللهم إنك قد أقدرت بعض خلقك على السحر والشر ، ولكنك احتفظت لنفسك

بإذن الضر ، فإني أعوذ بما احتفظت به مما أقدرت عليه ، بحق قولك : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ ، ويكفي أن نعلم أنه سبحانه قد قال : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ . هنا لن يمكنهم الله منك ، إنما إن استجبت وسرت معهم ، فهم يستنزفونك ، وأراد الله أن يفضح هذه العملية فقال على ألسنة السحرة الذين استدعاهم فرعون : ﴿ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً . . . ﴾ [الشعراء : 41 ﴾

وكأنهم يعترفون بالنقص فيهم ، فعلى الرغم من ادعائهم القدرة على فعل المعجزات إلا أنهم عاجزون عن الكسب الذي يوفي حاجاتهم ؛ لذلك طلبوا الأجر من فرعون ، وهذا حال الذين يشتغلون بالسحر والشعوذة . هم يدعون القدرة ويعانون الفاقة والعوز . هكذا حكم الحق بضيق رزق من يعمل بالسحر ، ويفضحهم الحق دائماً ، وللعاقل أن يقول : ما داموا يَدّعُون الفلاح فليفلحوا في إصلاح أحوالهم . وما دام الساحر يدعي أنه يعرف أماكن الكنوز المخبوءة فلماذا لا يعرف كنوزاً في الأرض التي ليست مملوكة لأحد ويأخذها لنفسه ؟ هذا إن افترضنا أن الساحر أمين للغاية ولا يريد أن يأخذ من خزائن الناس .

ولذلك تجد كل العاملين بالسحر والشعوذة يموتون فقراء ، بشعي الهيئة ؛ مصابين في الذرية ؛ لأن الكائن منهم استغل فرصة لا توجد لكل واحدٍ من جنسه البشري ، وذلك للإضرار بالناس .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ [الجن : 6]

(244/281)

وهنا يقرر الحق أنهم سيعيشون في إرهاق وتعب . ولذلك يتحدد موقفنا من السحر بأننا لا ننكره مثلما ينكره آخرون . فقد قال بعض من العلماء : إن السحرة جاءوا بعصيّ وضعوا فيها زئبقاً ، وعند وجود الزئبق تحت أشعة الشمس تعطي له حرارة فتتلوى العصى ، لكن نحن لا ننكر السحر ، كما لا ننكر الجن لأنه لا يفوتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن عفريتا من الجن تفلّت عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ اغفِرلِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ﴾ " .

فما دام الحق قد قال : إنه خلق خلقاً لا تدركهم بإحساسك ، فنحن نقر بما أبلغنا به الحق ؛ لأن وجود الشيء أمر وإدراك وجوده أمر آخر ، وكل مخلوق له قانونه ، فالعفريت من الجن قال لسيدنا سليمان عن عرش بلقيس : ﴿ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ . . . ﴾ [

النمل : 39]

وكأن الجن يطلب زمناً ما ، فقد يجلس سليمان في مقامه معهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثا ، لكن الذي عنده علم من الكتاب يقول : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . . ﴾ [النمل : 40]

ولابد أن يكون طرفه قد ارتد في أقل من ثانية بعد أن قال ذلك ، ولهذا نجد القرآن يورد ما حدث على الفور فيقول : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ .

مما يدل على أن الله قد خلق الأجناس ، وخلق لكل جنس قانوناً ، وقد يكون هناك قانون أقوى من قانون آخر ، لكن صاحب القانون مخلوق لذلك لا يحتفظ به ؛ لأن خالق القانون يبطله ، ويسلط أدنى على من هو أعلى منه . ولندقق في التعبير القرآني : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ .

(245/281)

ونحن أمام أشياء هي العصى والحبال . وجمع من البشر ينظر . ونفهم من قوله الحق : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ أن السحر يَنْصَبُّ على الرائي له ، لكن المرئي يظل على حالته ، فالعصى هي هي ، والحبال هي هي ، والذي يتغير هو رؤية الرائي . ولذلك قال سبحانه

في آية ثانية : ﴿ . . . يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه : 66]

إذن فالسحر لا يقلب الحقيقة ، بل تظل الحقيقة هي هي ويراها الساحر على طبيعتها .

لكن الناس هي التي ترى الحقيقة مختلفة . إذن فالسحرة قد قاموا بعملهم وهو : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم ﴾ .

واسترهبوهم أي أدخلوا الرهبة في نفوس الناس من هذه العملية ، وظن السحرة أن موسى سيخاف مثل بقية الناس المسحورين ، ونسوا أن موسى لن ينخدع بسحرهم ؛ لأنه باصطفاء الله له وتأييده بالمعجزة صار منفذاً لقانون الذي أرسله فجعل عصاه حية ، وصاحب القانون هو الذي يتحكم . وهم قد جاءوا بسحر عظيم ، وهو أمر منطقي ؛ لأن العملية هي مباراة كبرى يترتب عليها هدم ألوهية فرعون أو بقاء ألوهيته ، لذلك لا بد أن يأتوا بآخر وأعظم ما عندهم من السحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(246/281)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ واسترهبوهم ﴾ يجوز أن يكون استفعل فيه بمعنى أفعل أي : أرهبوهم ، وهو قريب من قولهم : قرّ واستقرّ ، وعظّم واستَعْظَمَ وهذا رأي المبرّدِ .

ويجوز أن تكون السين على بابها ، أي استدعوا رهبة النَّاس منهم ، وهو رأي الزجاج.

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 261 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) ﴾

ظنوا أنهم يَغلِبُون بما يسحرون ، ولم يعلموا أن تأثير القدرة فيهم أغلب من تأثير سحرهم ، وأنه لا يرد عنهم ما زوَّرُوه في أنفسهم من فنون مكرهم فكادوا وكِيدَ لهم ، فهو كما قيل :

ورماني بأسهم صائباتٍ . . . وتعمدته بسهم فطاشا

فَبَيْنَا هم في توهّم أنَّ الغلبة لهم فُتِحَ عليهم – من مكامن القدرة – جيشٌ ، فوجدوا أنفسهم – في فتح القدرة – مقهورين بسيف المشيئة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 557 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثمانون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثاني والثمانون بعد المائتين

من الآية ﴿ 117 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 126 ﴾ من نفس السورة

(4/282)

قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تناهى الأمر واشتد التشوف إلى ما صنع موسى عليه السلام ، قال معلماً عنه عطفاً على ﴿ وجاءو ﴾ : ﴿ وأوحينا ﴾ أي مظهرين لعظمتنا على رؤوس الأشهاد بما لا يقدر أحد أن يضاهيه ﴿ إلى موسى أن ألق عصاك ﴾ أي فألقاها ﴿ فإذا هي ﴾ من حين إلقائه لها ﴿ تلقف ﴾ أي تلتقم التقاماً حقيقياً شديداً سريعاً جداً بما دل عليه حذف التاء ، ودل على كثرة ما صنعوا بقوله : ﴿ ما يأفكون ﴾ أي يجددون حين إلقائهم في تزويره وقلبه عن وجهه ، فابتلعت ما كان ملء الوادي من العصيّ والحبال ، ثم أخذها موسى عليه السلام فإذا هي كما كانت لم يزد شيء من مقدارها على ما كانت عليه ، وفي هذا السياق

المعلم بتثبت موسى السلام بعد عظيم ما رأى من سحرهم إلى الإيحاء إليه بيان لأدبه عليه السلام في ذلك المقام الضنك وسكونه تحت المقاربة مع مرسله سبحانه إلى بروز أوامره الشريفة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 83 ﴾

فصل

قال الفخر:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد من هذا الوحي حقيقة الوحي.

وروى الواحدي عن ابن عباس: أنه قال: يريد وألهمنا موسى أن أَلْقِ عَصَاكَ.

ثم قال: ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

فيه حذف وإضمار والتقدير ﴿ فألقاها فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾.

المسألة الثانية:

قرأ حفص عن عاصم ﴿ تَلْقَفْ ﴾ ساكنة اللام خفيف القاف، والباقون بتشديد القاف مفتوحة اللام.

وروي عن ابن كثير ﴿ تَلْقَفْ ﴾ بتشديد القاف.

وعلى هذا الخلاف في طه والشعراء.

أما من خفف فقال ابن السكيت : اللقف مصدر لقفت الشيء ألقفه لقفاً إذا أخذته ، فأكلته أو ابتلعته ، ورجل لقف سريع الأخذ ، وقال اللحياني : ومثله ثقف يثقف ثقاً وثقيف كلقيف بين الثقافة واللقافة ، وأما القراءة بالتشديد فهو من تلقف يتلقف ، وأما قراءة بن كثير فأصلها تتلقف أدغم إحدى التاءين في الأخرى .

المسألة الثالثة :

قال المفسرون : لما ألقى موسى العصا صارت حية عظيمة حتى سدت الأفق ثم فتحت فكها فكان ما بين فكيها ثمانين ذراعاً وابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم ، فلما أخذها موسى صارت عصا كما كانت من غير تفاوت في الحجم والمقدار أصلاً .

واعلم أن هذا مما يدل على وجود الإله القادر المختار وعلى المعجز العظيم لموسى عليه السلام ، وذلك لأن ذلك الثعبان العظيم لما ابتلعت تلك الحبال والعصي مع كثرتها ثم صارت عصا كما كانت فهذا يدل على أنه تعالى أعدم أجسام تلك الحبال والعصي ، أو على أنه تعالى فرق بين تلك الأجزاء وجعلها ذرات غير محسوسة وأذهبها في الهواء بحيث لا يحس بذهابها وتفرقها وعلى كلا التقديرين ، فلا يقدر على هذه الحالة أحد إلا الله

سبحانه وتعالى .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ فيه وجهان :

الأول : معنى الإفك في اللغة قلب الشيء عن وجهه ، ومنه قيل للكذب إفك لأنه مقلوب عن وجهه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ يريد يكذبون ، والمعنى : أن العصا تلقف ما يأفكونه أي يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزورونه وعلى هذ التقدير فلفظة ﴿ مَا ﴾ موصوله والثاني : أن يكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، والتقدير : فإذا هي تلقف إفكهم تسمية للمأفوك بالإفك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 166 .

167 ﴾

(6/282)

وقال السمرقندى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾

يعني : اطرح عصاك إلى الأرض فألقى عصاه من يده فصارت حية أعظم من جميع حياتهم

﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ يعني : تلتقم وتأكل جميع ما جاؤوا به من الكذب والسحر .

قرأ عاصم في رواية حفص تَلْقَفْ بجزم اللام والتخفيف .

وقرأ الباقون بنصب اللام وتشديد القاف ، ومعناهما واحد .

ثم إن الحية قصدت إلى فرعون ، فنادى موسى فأخذها ، فإذا هي عصا على حالها فنظرت السحرة فإذا حبالهم وعصيهم قد ذهبت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾

قال ابن عباس : العصا أول آيات موسى وكانت من آس الجنة ، طولها عشرة أذرع بطول موسى ، قصد باب فرعون فألقى عليه الفزع ، فشاب فخضب بالسواد استحياء من قومه ، فكان فرعون أول من خضب بسواد .

﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ معنى تلقف هو سرعة التناول إلا أن المراد هنا سرعة ابتلاعه بالفم . قال أبو حاتم : وهي في بعض القراءات تلقم بالميم والتشديد ، قال الشاعر :

أَنْتَ عَصَا مُوسَى الَّتِي لَمْ تَزَلْ . . . تَلْقَمُ مَا يَأْفِكُهُ السَّاحِرُ

وفي قوله : ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ وجهان :

أحدهما : معناه يقلبون ، ومنه المؤتفكات أي المنقلبات ، قاله ابن عيسى .

والثاني : معناه يكذبون لأن الإفك هو الكذب ، قاله مجاهد .

فإن قيل : فلم أمر موسى السحرة أن يلقو وذلك منهم كفر ولا يجوز أن يأمر به نبي ؟

قيل عن ذلك جوابان .

أحدهما : أن مضمون أمره إن كنتم محقين فألقوا .

والثاني : القول على ما يصح ويجوز لا على ما يفسد ويستحيل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(7/282)

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) ﴾

﴿ أن ﴾ في موضع نصب ب ﴿ أوحينا ﴾ أي بأن ألق ، ويحتمل أن تكون مفسرة بمعنى أي فلا يكون لها موضع من الإعراب ، وروي أن موسى لما كان يوم الجمع خرج متكئاً على عصاه ويده في يد أخيه وقد صف له السحرة في عدد عظيم حسبما ذكر ، فلما ألقوا واسترهبوا أوحى الله إليه ، فألقى فإذا هي ثعبان مبين ، فعظم حتى كان كالجبل ، وقيل إنه

طال حتى جاز النيل ، وقيل كان الجمع بالإسكندرية وطال حتى جاز مدينة البحيرة ، وقيل كان الجمع بمصر وإنه طال حتى جاز بذنبه بحر القلزم .

(8/282)

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول بعيد من الصواب مفرط الإغراق لا ينبغي أن يلتفت إليه ، وروي أن السحرة لما ألقوا وألقى موسى عصاه جعلوا يرقون وجعلت حبالهم وعصيهم تعظم وجعلت عصى موسى تعظم حتى سدت الأفق وابتلعت الكل ورجعت بعد ذلك عصا فعندها آمن السحرة ، وروي أن عصا موسى كانت عصا آدم عليهما السلام وكانت من الجنة ، وقيل كانت من العين الذي في وسط ورق الريحان ، وقيل كانت غصناً من الخبيز أو قيل كانت لها شعبتان وقيل كانت عصا الأنبياء مختزنة عند شعيب فلما استرعى موسى قال له اذهب فخذ عصا فذهب إلى البيت فطارت هذه إلى يده فأمره شعيب بردها وأخذ غيرها ففعل فطارت هي إلى يده فأخبر بذلك شعيباً وتركها له ، وقال ابن عباس : إن ملكاً من الملائكة دفع العصا إلى موسى في طريق مدين ، و ﴿ تلقف ﴾ معناه تبتلع وتزدرد ، و ﴿ ما يأفكون ﴾ معناه : ما صوروا فيه إفكهم وكذبهم ، وقرأ جمهور الناس " تلقف " ، وقرأ عاصم في رواية حفص " تلْقَف " بسكون اللام وفتح القاف ، وقرأ

ابن كثير في بعض ما روي عنه " هي تلقف " بتشديد التاء على إدغام التاء من تتلقف ، وهذه القراءة لا تترتب إلا في الوصول ، وأما في الابتداء في الفعل فلا يمكن ، وقرأ سعيد بن جبير " تلقم " بالميم أي تبتلع كاللقمة ، وروي أن الثعبان استوفى تلك الحبال والعصي أكلاً وأعدمها الله عز وجل ، ومد موسى يده إلى فمه فعاد عصا كما كان ، فعلم السحرة حينئذ أن ذلك ليس من عند البشر فخروا سجداً مؤمنين بالله ورسوله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(9/282)

وقال أبو حيان :

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق بعصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ .

الظاهر أنه وحيُ إعلام كما روي أن جبريل عليه السلام أتاه وقال له أنّ الحق يأمرك أن تلقى عصاك وكونه وحي إعلام فيه تثبيت للجأش وتبشير بالنصر ، وقال قوم : هو وحي إلهام ألقى ذلك في روعه وأن يحتمل أن تكون المفسّرة وأن تكون الناصبة أي بأن ألق ، وفي الكلام حذف قبل الجملة الفجائية أي فألقاها ﴿ فإذا هي تلقف ﴾ وتكون الجملة الفجائية إخباراً بما ترتب على الإلقاء ولا يكون موحى بها في الذكر ومن يذهب إلى أنّ الفاء في نحو

خرجت فإذا الأسد زائدة يحتمل على قوله أن تكون هذه الجملة موحى بها في الذكر إلا أنه يقدر المحذوف بعدها أي فألقاها فلقفته ، وقرأ حفص ﴿ تلقف ﴾ بسكون اللام من لقف ، وقرأ باقي السبعة ﴿ تلقف ﴾ مضارع لقف حذفت إحدى تاءيه إذ الأصل تتلقف ، وقرأ البزي بإدغام المضارعة في التاء في الأصل ، وقرأ ابن جبير تلقم بالميم أي تبلع كاللقمة ﴿ وما ﴾ موصولة أي ما يأفكونه أي يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزورونه قالوا أو مصدرية أي تلقف إفكهم تسمية للمفعول بالمصدر .

(10/282)

روي أن موسى عليه السلام لما كان يوم الجمع خرج متوكئاً على عصاه ويده في يد أخيه وقد صفّ له السحرة في عدد عظيم فلما ألقوا واسترهبوا أوحى الله إليه فألقى فإذا هي ثعبان عظيم حتى كان كالجبل ، وقيل : طال حتى جاز النيل ، وقيل : طال حتى جاز بذنبه بحر القلزم ، وقيل كان الجمع باسكندرية وطال حتى جاز مدينة البحيرة ، وروي أنهم جعلوا يرقون وحبالهم وعصيهم تعظم وعصا موسى تعظم حتى سدّت الأفق وابتلعت الكل ورجعت بعد عصا وأعدم الله العصيّ والحبال ومدّ موسى يده في الثعبان فعاد عصا كما كان فعلم السحرة حينئذ أن ذلك ليس من عند البشر فخروا سجّداً مؤمنين بالله ورسوله

، قال الزمخشري : أعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة أو فرقها أجزاء لطيفة وقالت السّحرة لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(11/282)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾

الفاءُ فصيحة أي فألقاها فصارت حيةً فإذا هي الآية وإنما حُذف للإشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعةِ الانقلاب كأن لقْفَها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء ، وصيغةُ المضارعِ لاستحضار صورةِ اللقْفِ الهائلةِ والإفك الصّرْفِ والقلب عن الوجه المعتاد ، وما موصولةٌ أو موصوفةٌ والعائدُ محذوفٌ أي ما يأفِكونه ويزوّرونه ، أو مصدريةٌ وهي مع الفعل بمعنى المفعول . روي أنها لما تلقّفت مِلءَ الوادي من الخشب والحِبال ورفعها موسى فرجعت عصاً كما كانت وأَعدم الله تعالى بقدرته الباهرةِ تلك الأجرامَ العظامَ أو فرّقها أجزاءً لطيفةً قالت السحرة : لو كان هذا سحراً لبقِيَتْ حبالُنا وعِصِيُّنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى ﴾

بواسطة الملك كما هو الظاهر ﴿ إن ألقى عَصَاكَ ﴾ التي علمت من أمرها ما علمت و ﴿ إن ﴾ تفسيرية لتقدم ما فيه معنى القول دون حروفه ، وجوز أن تكون مصدرية فالمصدر مفعول الإيماء ، والفاء في قوله سبحانه :

﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ فصيحة أي فألقاها فصارت حية فإذا هي الخ ، وإنما حذف للإيذان بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب كأن لقفها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الغريبة ، واللقف كاللقفان التناول بسرعة ، وفسره الحسن هنا بالسرط والبلع ، والإفك صرف الشيء وقلبه عن الوجه المعتاد ويطلق على الكذب وبذلك فسره ابن عباس .

ومجاهد لكونه مقلوباً عن وجهه واشتهر ذلك فهي حتى صار حقيقة ، و ﴿ مَا ﴾ موصولة أو موصوفة والعائد محذوف أي ما يأفكونه ويكذبونه أو مصدرية وهي مع الفعل بمعنى المفعول أي المأفوك لأنه المتلقف ، وقرأ الجمهور ﴿ تَلْقَفْ ﴾ بالتشديد وحذف إحدى التاءين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(12/282)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) ﴾

جملة : ﴿ وأوحينا ﴾ معطوفة على جمل ﴿ سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ [الأعراف : 116] ، فهي في حيز جواب لمّا ، أي : لمّا أَلْقَوا سَحَروا ، وأوحينا إلى موسى أن الق لهم عصاك .

و﴿ أن ﴾ تفسيرية لفعل ﴿ أوحينا ﴾ ، والفاء للتعقيب الدال على سرعة مفاجأة شروعها في التلقف بمجرد إلقائها ، وقد دل السياق على جملتين محذوفتين ، إذ التقدير : فألقاها فدبّت فيها الحياة وانقلبت ثعباناً فإذا هي تلقف ، دل على الجملة الأولى الأمر بالإلقاء ، وعلى الجملة الثانية التلقف لأنه من شأن الحيوان ، والعصا إذا دبت فيها الحياة صارت ثعباناً بدون تبديل شكل .

والتلقف : مبَالغة في اللقف وهو الابتلاع والازدراد .

و﴿ ما ﴾ موصولة والعائد محذوف أي : ما يأفكونه .

والإفك : الصرف عن الشيء ويسمى الزور إفكاً ، والكذب المصنوعُ إفكاً ، لأن فيه صرفاً عن الحق وإخفاء للواقع ، فلا يسمى إفكاً إلاّ الكذبُ المصطنع المموه ، وإنما جعل السحر إفكاً لأن ما يظْهَر منه مخالف للواقع فشبه بالخبر الكاذب .

وقرأ الجمهور ﴿ تَلَقَّفَ ﴾ بقاف مشددة ، وأصله تتلقف ، أي تبالغ وتتكلف اللقف ما استطاعت ، وقرأ حفص عن عاصم : بسكون اللام وتخفيف القاف على صيغة المجرد .

والتعبير بصيغة المضارع في قوله : ﴿ تَلقف ﴾ و ﴿ يأفكون ﴾ للدلالة على التجديد والتكرير ، مع استحضار الصورة العجيبة ، أي : فإذا هي يتجدد تلقفها لِما يتجدد ويتكرر من إفكهم .

وتسمية سحرهم إفكاً دليل على أن السحر لا معمول له وأنه مجرد تخييلات وتمويهات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(13/282)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) ﴾

ولماذا احتاجت هذه المسألة إلى وحي جديد خصوصاً أنه قد سبق أن تم تدريب موسى على إلقاء العصا ؟ . ونقول : فيه فرق بين التعليم للإعداد لما يكون ، والتنفيذ ساعة يكون ، فساعة يأتي أمر التنفيذ يجيء الحق بأمر جديد ، فربما يكون قد دخل على بشرية موسى شيء من السحر العظيم ، والاسترهاب ، هذا ونعلم أن قصة موسى عليه السلام فيها

عجائب كثيرة . فقد كان فرعون يقتل الذكران ، ويستحي النساء ، وأراد ربنا ألا يُقتل موسى فقال سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . ﴾ [القصص : 7]

وقوله سبحانه : ﴿ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ يدل على أن العملية المخوفة لم تأت بعد ، بل ستأتي لاحقاً . وهات أيّة امرأة وقل لها : إن كنت خائفة على ابنك من أمر ما فارميه في البحر . من المؤكد أنها لن تصدقك ، بل ستسخر منك ؛ لأنها ستتساءل : كيف أنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ . وهذا هو الأمر الطبيعي ، لكن نحن هنا أمام وارد من الله إلى خلق الله ، ووارد الله لا يصادمه شك . إذن فالخاطر والإلهام إذا جاء من الله لا يزاحمهما شيء قط . ولا يطلب الإنسان عليه دليلاً لأن نفسه قد اطمأنت إليه ؛ لذلك ألقت أم موسى برضيعها في البحر .

ويقدّر الله أنها أم فيقول : ﴿ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ . . . ﴾ [القصص : 7]

ولن يرده إليها فقط ، بل سيوكل إليه أمراً جللاً . ﴿ . . . وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ [القصص : 7]

وكأن الحق سبحانه يوضح لأم موسى أن ابنها لن يعيش من أجلها فقط ، بل إن له مهمة أخرى في الحياة فسيكون رسولاً من الله . فإذا لم تكن السماء ستحافظ عليه لأجل خاطر الأم وعواطفها ، فإن السماء ستحفظه لأن له مهمة أساسية ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ . ونلحظ أن الحق هنا لم يأت بسيرة التابوت لكنه في آية ثانية يقول : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ [طه : 38-39]

ولم يقل في هذه الآية : ﴿ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي ﴾ ؛ لأنه أوضح لها ما سوف يحدث من إلقاء اليم له بالساحل . وقوله في الأولى : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ . هو إعداد للحدث قبل أن يجيء ، وفي هذه الآية : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلى أُمِّكَ مَا يوحى . . . ﴾ إلخ تجد اللقطات سريعة متتابعة لتعبر عن التصرف لحظة الخطر . لكن في الآية الأولى : ﴿ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ نجد البطء والهدوء والرتابة ؛ لأنها تحكي عن الإعداد . لما يكون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعطي كل جنس قانوناً ، وكل قانون يجب أن يُحترم في نطاقه ، لأن تكافؤ الفرص بين الأجناس هو الذي يريده الله . وحينما أراد سبحانه وتعالى أن يبين لنا هذه المسألة أوضح أن على المؤمن أن ينظر إلى المعطيات من وراء التكاليف ، وفي آية

الدَّين – على سبيل المثال – نجد الحق يوصي المقترض " المدين " – وهو الضعيف – أن يكتب الدَّين ، ويعطي بذلك إقراراً للدائن وهو القوي القادر فيقول سبحانه :

﴿ وَلاَ تسأموا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ . . . ﴾ [البقرة : 282]

(15/282)

والمسألة هنا في ظاهر الأمر أنه يحمي الدائن ونقوده ، لكن علينا أن ننتبه إلى أنه يحمي المدين من نفسه ؛ لأن الدَّين إن لم يكن موثقاً فالمدين لن يبذل الجهد الكافي للسداد ، وباجتهاد المدين نفيد الوجود بطاقة فاعلة . ولكن إن لم نوثق الدَّين ، وتكاسل المدين عن العمل والسداد فقد تشيع الفوضى في المجتمع ويرفض كل إنسان أن يقرض أحداً ما يحتاج إليه . وبذلك تفسد الأمور الاقتصادية .

إذن فسبحانه حين يأمر بتوثيق الدَّين ، وإن كان في ظاهر الأمر حماية للدائن . لكنّه في باطن الأمر يحمي سبحانه المدين ، لأن هناك فرقاً بين ساعة التحمل للحكم ، وساعة أداء الحكم .

مثال ذلك حين يأتيك إنسان قائلاً : أنا عندي ألف جنيه وخائف أن يضيع مني فخذه أمانة عندك إلى أن أحتاج إليه ، وبذلك يكون هذا الإنسان قد استودعك أمانة ولا يوجد إيصال

أو شهود ، والأمر مردود إلى أمانة المودَع عنده إن شاء أنكر ، وإن شاء أقر . ونجد من يقول لهذا الإنسان : هات ما عندك . يقول ذلك وفي ذمته ونيته أن صاحب الألف جنيه حين يأتي ليطلبه يعطيه له ، إنه يَعِدُ ذلك ساعة التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، فقد تأتي له ظروف صعبة ساعة الأداء فيتعلل بالحجج ليبعد صاحب المال عنه .

إذن هناك فرق بين حالة واستعداد حامل الأمانة ساعة الأداء لهذه الأمانة . والمؤمن الحق هو من يتذكر ساعة التحمل والأداء معاً ، إنّ بعض الناس يرفض الأمانة ليزيل عن نفسه عبء الأداء .

والذي يتعلم شيئاً يناقض ناموس وجوده كتعلم السحر نقول له : احذر أن تُبتلى وتُفتن ، بل ابتعد واحفظ نفسك ولا تستعمل ذلك ، واحذر أن تقول أنا سأستعمل ما تعلمته من سحر في الخير ، ومن يأتي لي وهو في أزمة سوف أحلها له بالسحر . ونقول : لهذا الإنسان : أنت تتكلم عن وقت التحمل ، ولكنك لا تتكلم عن وقت الأداء .

(16/282)

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف : 117]

والإِفك هو قلب الشيء على وجهه ، ومنه الكذب . وعلمنا من قبل أن كل شيء له نسبة كلامية وله نسبة واقعية ، فإذا قلت مثلاً " محمد مجتهد " فهذه نسبة كلامية ، لكن أيوجد واحد في الواقع اسمه محمد وموثوق في اجتهاده ؟ . إن كان الأمر كذلك فقد وافقت النسبة الكلامية النسبة الواقعية ، ويكون الكلام هو الصدق ، أما الكذب فهو أن تقول " محمد مجتهد " ولا يوجد إنسان اسمه محمد ، وإن كان موجوداً فهو غير مجتهد ، ويكون الكلام كذباً لأن النسبة الكلامية خالفت النسبة الواقعية ، وحين يكذب أحد فهو يقلب المسألة ونسمى ذلك كذباً ، وشدة الكذب تسمى إفكاً .

أو الكذب ألا يكون هناك تطابق ، وإن لم تكن تعلم ، والإِفك أن تتعمد الكذب ، وهذا أيضاً افتراء . ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا ﴾ وهي تعبر عن الفجائية حيث ابتلعت عصا موسى – بعد أن صارت حية – ما أتى السحرة وجاءوا به من الكذب والإِفك وسحروا به أعين الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(17/282)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

يجوز في " أن " : أن تكُون المفسّرة لمعنى الإيحَاءِ .

ويجوز أنْ تكون مصدريّةً ؛ فتكونُ هي ، وما بعدها مفعول الإيحَاءِ .

قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ قرأ العامَّةُ : " تَلَقَّفُ " بتشديد القافِ ، من " تَلَقَّفَ " والأصلُ : " تَتَلَقَّفُ " بتاءيْنِ ، فحذفت إحداهُمَا ، إمَّا الأولى ، وإمَّا الثانية وقد تقدَّم ذلك في نحو ﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 152] .

والبزّيُّ : على أَلها في إدغامِهَا فيما بعدها ، فيقرأُ : " فإذا هي تَّلَقَّفُ " بتشديد التاء أيضاً ، وقد تقدم تحقيقه عند قوله : ﴿ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الخبيث ﴾ [البقرة : 267] .

وقرأ حفصٌ " تَلْقَفُ " بتخفيف القافِ من " لَقِفَ " كـ " عَلِمَ يَعْلَمُ " ، ورَكِب يَرْكَبُ " .

يقال : لَقِفْتُ الشَّيءَ أَلْقَفُهُ لَقْفاً ، ولَقَفَاناً ، وتَلقفتُهُ أَتلقَّفُهُ تَلَقُّفاً : إذا أخَذْتهُ بِسُرعةٍ ، فأَكَلْتَهُ أو ابْتَلَعْتَهُ .

وفي التفسير : أنها ابتلعَتْ جميع ما صَنَعُوه ، وأنشدُوا على : لَقِفَ يَلْقَفُ ، كـ " عَلِمَ يَعْلَمُ "

قول الشَّاعِر : [السريع]

2543 - وأنتَ عَصَا مُوسَى الَّتي لَم تَزَلْ . . .

تَلْقَفُ مَا يَصْنَعُهُ السَّاحِرُ

ويُقَالُ : رَجُلٌ ثقفٌ لقفٌ ، وثَقِيفٌ لَقِيفٌ ، بَيِّن الثَّقافة واللَّقَافة .

ويُقَالُ : لَقِفَ ولَقِمَ بمعنى واحدٍ ، قاله أبو عُبيدٍ .

ويقالُ : تَلْقَفُ ، وتَلْقَمُ ، وتَلْهَمُ : بمعنىً واحدٍ .

والفَاءُ في " فإذَا هِيَ " يجوزُ أن تكُون العاطفة ، ولا بُدَّ من حَذْفِ جملةٍ قَبْلَهَا ليترتَّبَ ما بعد الفاءِ عليها ، والتقديرُ : " فألْقَاهَا فإذا هِيَ " .

وَمَنْ جوَّز أن تكون الفاءُ زائدةً في نحو : " خَرَجْتُ فإذا الأسَدُ حَاضِرٌ " جوَّز زيادتها هُنَا .

وعلى هذا فتكونُ هذه الجملةُ قد أوحيت إلى موسى كالَّتي قَبْلَهَا .

وأمَّا على الأوَّل - أعني كون الفاءِ عاطفةً - فالجملةُ غير موحى بها إليه .

قوله : " مَا يَأفكونَ " يجوزُ في " ما " أن تكون بمعنى " الذي " والعائدُ محذوفٌ ، أي : الذي يأفِكُونهُ .

ويجوز أن تكُون " ما " مصدرية ، " والمصدر " حينئذٍ واقعٌ موقعَ المفعُولِ به ، وهذا لا حَاجةَ إلَيْهِ .

(18/282)

وذلك قولُهُ : ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يَجُوز أن تكون " ما " بمعنى " الذين " ، فيكونُ المعنى : بَطَلَ الحبالُ والعِصيُّ الذي عملوا به السِّحر : أي : زَالَ ، وذهب بِفُقْدانِهَا ، وأن تكون مصدرية ، أي : وبطل الذي كانوا يعملونه ، أو عملهم .

وهذا المصدرُ يجوزُ أن يكون على بابه .

وأن يكون واقعاً موقع المفعول به .

بخلاف " مَا يَأفكُون " فإنَّ يتعيَّنُ أن يكُونُ واقعاً موقع المفعُول به ليصحَّ المعنى ؛ إذ اللَّقْفُ يستدعي عَيْناً يصحُّ تسلُّطُه عليها .

ومعنى الإفكِ في اللُّغةِ : قلبُ الشَّيءِ عن وجْهِهِ ، ومنه قِيلَ للكذبِ إفْكٌ ، لأَنَّهُ مقلْوبٌ عن وجهه .

قال ابنُ عبَّاس : " مَا يَأفِكُونَ " يُريدُ : يَكْذِبُونَ ، والمعنى : أنَّ العصا تلقَفُ ما يأفِكُونَهُ ، أي : يَقْلِبُونَهُ عن الحَقِّ إلى البَاطِلِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 262 .

263 ﴾

(19/282)

قوله تعالى ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122) ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علم أن ما صنعوه إنما هم خيال ، وما صنعه موسى عليه السلام أثبت من الجبال ، سبب معقباً قوله : ﴿ فوقع الحق ﴾ أي الذي لا شيء أثبت منه ، فالواقع يطابقه لأن باطن الأمر مطابق لما ظهر منه من ابتلاعها لأمتعتهم فالإخبار عنه صدق ، وفيه تنبيه على أن فعلهم إنما هو خيال بالنسبة إلى ظاهر الأمر ، وأما في الباطن والواقع فلا حقيقة له ، فالإخبار عن تحرك ما ألقوه كذب .

ولما أخبر عن ثبات الحق ، أتبعه زوال الباطل فقال : ﴿ وبطل ﴾ بحيث عدم أصلاً ورأساً ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ فدل بكان والمضارع على أنهم – مع بطلان ما عملوا – نسوا علمهم بحيث إنه أسند عليهم باب العمل بعد أن كان لهم به ملكة كملكة ما هو كالجبلة – والله أعلم ؛ ثم سبب عن هذا قوله : ﴿ فغلبوا هنالك ﴾ أي عند هذا الأمر العظيم العالي الرتبه ﴿ وانقلبوا ﴾ أي جزاء على قلبهم لتلك الحقائق عن وجوهها حال كونهم ﴿ صاغرين ﴾ أي بعد أن كانوا – عند أنفسهم ومن يقول بقولهم وهو الأغلب – عالين ،

ولا ذل ولا صغار أعظم في حق المبطل من ظهور بطلان قوله على وجه لا يكون فيه حيلة .

ولما كان الأدب وذل النفس لا يأتي إلا بخير ، لأنه اللائق بالعبيد ، قاد كثيراً منهم إلى السعادة الأبدية ، فلذلك قال : ﴿ وألقي السحرة ﴾ أي ألقاهم ملقى الخوف من الله والشوق إلى الخضوع بين يديه والذل لديه حين عرفوا أن ما فعله موسى عليه السلام أمر سماوي ، صدق الله تعالى به موسى عليه السلام في أنه رسوله ، ولم يتأخروا بعد ذلك أصلاً حتى كأنهم خروا من غير اختيار ﴿ ساجدين ﴾ شكراً لله تعالى وانسلاخاً عن الكفر ودليلاً على أقصى غايات الخضوع ، فعل الله ذلك بهم حتى تبهر به فرعون وملأه وتحير عقولهم .

ولما كانوا بمعرض التشوف العظيم إلى معرفة قولهم بعد فعلهم ، أخبر عن ذلك سبحانه بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي حال إلقائهم للسجود ﴿ آمنّا ﴾ أي كلنا ﴿ برب العالمين ﴾ أي الذي خلق فرعون ومن قبله وما يعيشون به ؛ ثم خصوا من هداهم الله على أيديهما تصريحاً بالمراد وتشريفاً لهما فقالوا : ﴿ رب موسى ﴾ ثم أزالوا الشبهة بجذافيرها – لأن فرعون ربما ادعى بتربية موسى عليه السلام أنه المراد – بقولهم : ﴿ وهارون ﴾ وفي الآية دليل على أن ظهور الآية موجب للإيمان عند من ظهرت له ، ولو أن الرسول غير مرسل إليه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 83.84 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ قال مجاهد والحسن : ظهر .

(20/282)

وقال الفراء : فتبين الحق من السحر .

قال أهل المعاني : الوقوع : ظهور الشيء بوجوده نازلاً إلى مستقره ، وسبب هذا الظهور أن السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ولم تفقد ، فلما فقدت ثبت أن ذلك إنما حصل بخلق الله سبحانه وتعالى وتقديره ، لا لأجل السحر ، فهذا هو الذي لأجله تميز المعجز عن السحر .

قال القاضي قوله : ﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ يفيد قوة الثبوت والظهور بحيث لا يصح فيه البطلان كما لا يصح في الواقع أن يصير لا واقعاً .

فإن قيل : قوله : ﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ يدل على قوة هذا الظهور ، فكان قوله : ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ تكريراً من غير فائدة !

قلنا : المراد أن مع ثبوت هذا الحق زالت الأعيان التي أفكوها وهي تلك الحبال والعصي ، فعند ذلك ظهرت الغلبة ، فلهذا قال تعالى : ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ ﴾ لأنه لا غلبة أظهر من ذلك

﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ لأنه لا ذل ولا صغار أعظم في حق المبطل من ظهور بطلان قوله وحجته ، على وجه لا يمكن فيه حيلة ولا شبهة أصلاً قال الواحدي : لفظة ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يجوز أن تكون بمعنى "الذي" فيكون المعنى بطل الحبال والعصي الذي عملوا به السحر أي زال وذهب بفقدانها ويجوز أن تكون بمعنى المصدر كأنه قيل بطل عملهم ، والله أعلم .

﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال المفسرون : إن تلك الحبال والعصي كانت حمل ثلثمائة بعير ، فلما ابتلعها ثعبان موسى عليه السلام وصارت عصا كما كانت قال بعض السحرة لبعض هذا خارج عن السحر ، بل هو أمر إلهي ، فاستدلوا به على أن موسى عليه السلام نبي صادق من عند الله تعالى ، قال المتكلمون : وهذه الآية من أعظم الدلائل على فضيلة العلم ، وذلك لأن أولئك الأقوام

كانوا عالمين بحقيقة السحر واقفين على منتهاه ، فلما كانوا كذلك ووجدوا معجزة موسى عليه السلام خارجة عن حد السحر ، علموا أنه من المعجزات الإلهية ، لا من جنس التمويهات البشرية ولو أنهم ما كانوا كاملين في علم السحر لما قدروا على ذلك الاستدلال ، لأنهم كانوا يقولون : لعله أكمل منا في علم السحر ، فقدر على ما عجزنا عنه ، فثبت أنهم كانوا كاملين في علم السحر .

فلأجل كمالهم في ذلك العلم انتقلوا من الكفر إلى الإيمان .

فإذا كان حال علم السحر كذلك ، فما ظنك بكمال حال الإنسان في علم التوحيد .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بقوله تعالى : ﴿ وَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ قالوا : دلت هذه الآية على أن غيرهم ألقاهم ساجدين ، وما ذاك إلا الله رب العالمين فهذا يدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى .

قال مقاتل : ألقاهم الله تعالى ساجدين .

وقال المعتزلة : الجواب عنه من وجوه : الأول : أنهم لما شاهدوا الآيات العظيمة والمعجزات القاهرة لم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين ؛ فصار كأن ملقياً ألقاهم .

الثاني : قال الأخفش : من سرعة ما سجدوا صاروا كأنهم ألقاهم غيرهم لأنهم لم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين .

الثالث : أنه ليس في الآية أنه ألقاهم ملق إلى السجود ، إلا أنا نقول : إن ذلك الملقي هو أنفسهم .

والجواب : أن خالق تلك الداعية في قلوبهم هو الله تعالى ، وإلا لافتقروا في خلق تلك الداعية الجازمة إلى داعية أخرى ولزم التسلسل وهو محال .

ثم إن أصل تلك القدرة مع تلك الداعية الجازمة تصير موجبة للفعل .

(22/282)

وخالق ذلك الموجب هو الله تعالى فكان ذلك الفعل والأثر مسنداً إلى الله تعالى ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى ذكر أولاً أنهم صاروا ساجدين ، ثم ذكر بعده أنهم قالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ فما الفائدة فيه مع أن الأيمان يجب أن يكون متقدماً على السجود ؟ وجوابه من وجوه : الأول : أنهم لما ظفروا بالمعرفة سجدوا لله تعالى في الحال ، وجعلوا ذلك السجود شكراً لله تعالى على الفوز بالمعرفة والإيمان ، وعلامة أيضاً على انقلابهم من الكفر إلى الإيمان ، وإظهار الخضوع والتذلل لله تعالى فكأنهم جعلوا ذلك السجود الواحد علامة على

هذه الأمور الثلاثة على سبيل الجمع .

الوجه الثاني : لا يبعد أنهم عند الذهاب إلى السجود قالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل والوجه الصحيح هو الأول .

المسألة الرابعة :

احتج أهل التعليم بهذه الآية فقالوا : الدليل على أن معرفة الله لا تحصل إلا بقول النبي أن أولئك السحرة لما قالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ لم يتم إيمانهم فلما قالوا : ﴿ رَبِّ موسى وهارون ﴾ تم إيمانهم وذلك يدل على قولنا .

وأجاب العلماء عنه : بأنهم لما قالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ قال لهم فرعون إياي تعنون فلما قالوا : ﴿ رَبِّ موسى ﴾ قال إياي تعنون لأني أنا الذي ربيت موسى فلما قالوا : ﴿ وهارون ﴾ زالت الشبهة ، وعرف الكل أنهم كفروا بفرعون وآمنوا بإله السماء ، وقيل إنما خصهما بالذكر بعد دخولهما في جملة العالمين لأن التقدير آمنا برب العالمين ، وهو الذي دعا إلى الإيمان به موسى وهرون .

وقيل : خصهما بالذكر تفضيلاً وتشريفاً كقوله : ﴿ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 167 . 169 ﴾

(23/282)

وقال السمرقندى :

﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ أي استبان الحق وظهر أنه ليس بسحر ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من السحر أي : ذهب وهلك واضمحل ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ ﴾ أي وغَلَب موسى السحرة عند ذلك ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ يعني : رجعوا ذليلين .

قالوا : لو كان هذا سحراً فأين صارت حبالنا وعصينا .

ولو كانت سحراً لبقيت حبالنا وعصينا وهذا من الله تعالى وليس بسحر .

فآمنوا بموسى .

قوله تعالى : ﴿ وَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ يعني : خروا ساجدين لله تعالى .

قال الأخفش : من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا .

ويقال : وفّقهم الله تعالى للسجود ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بِرَبّ العالمين ﴾ فقال لهم فرعون : إياي تعنون .

فأراد أن يلبس على قومه فقالوا : ﴿ رَبّ موسى وهارون ﴾ فقدم فرعون لما سألهم ، لأن بعض الناس كانوا يظنون عند مقالتهم رب العالمين أنهم أرادوا به فرعون .

فلما سألهم فرعون وقالوا : برب موسى وهارون ، ظهر عند جميع الناس أنهم لم يريدوا به فرعون ، وإنما أرادوا به الإيمان بموسى وبرب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1

صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ أي ظهر الحق ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وفي الحق الذي ظهر فيه قولان :

أحدهما : ظهرت عصا موسى على حبال السحرة .

والثاني : ظهرت نبوة موسى على ربوبية فرعون .

قوله عز وجل : ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ في سجودهم قولان :

أحدهما : أنهم سجدوا لموسى تسليماً له وإيماناً به .

والثاني : أنهم سجدوا لله إقراراً بربوبيته ، لأنهم ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ .

وفي سجودهم قولان :

أحدهما : أن الله ألهمهم ذلك لطفاً بهم .

والثاني : أن موسى وهارون سجدا شكراً لله عند ظهور الحق على الباطل فاقتدوا بهما في السجود لله طاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(24/282)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فوقع الحق ﴾ الآية ،

" وقع " معناه نزل ووجد ، و ﴿ الحق ﴾ يريد به سطوع البرهان وظهور الإعجاز واستمر التحدي إلى الدين على جميع العالم ، و ﴿ ما كانوا يعلمون ﴾ لفظ يعم سحر السحرة وسعي فرعون وشيعته .

والضمير في قوله ﴿ فغلبوا ﴾ عائد على " جميعهم " من سحرة وسعي فرعون وشيعته ، وفي قوله ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ إن قدرنا انقلاب الجمع قبل إيمان السحرة فهم في الضمير وإن قدرناه بعد إيمانهم فليسوا في الضمير ولا لحقهم صغار يصفهم الله به لأنهم آمنوا واستشهدوا رضي الله عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ وألقي السحرة ساجدين ﴾ الآيات ، لما رأى السحرة من عظيم القدرة وما تيقنوا به نبوة موسى آمنوا بقلوبهم وانضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفزع من قدرة الله تعالى فخروا سجداً لله تعالى متطارحين وآمنوا نطقاً بألسنتهم ، وتبينهم الرب بذكر موسى وهارون زوال عن ربوبية فرعون وما كان يتوهم فيه الجهال من أنه رب الناس ، وهارون أخو موسى أسن منه بثلاث سنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ

﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فوقع الحقّ وبطل ما كانوا يعملون ﴾

قال ابن عباس والحسن ظهر واستبان ، وقال أرباب المعاني الوقوع ظهور الشيء بوجوده نازلاً إلى مستقره ، قال القاضي : فوقع الحقّ يفيد قوة الظهور والثبوت بحيث لا يصحّ فيه البطلان كما لا يصح في الواقع أن يصير إلا واقعاً ومع ثبوت الحقّ بطلب وزالت تلك الأعيان التي أتوا بها وهي الحبال والعصي ، قال الزمخشري : ومن بدع التفاسير فوقع في قلوبهم أي فأثر فيها من قولهم فاس وقيع أي مجرد انتهى ، و ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ يعم سحر السحرة وسعى فرعون وشيعته .

﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ أي غلب جميعهم في مكان اجتماعهم أو ذلك الوقت ﴿ وانقلبوا ﴾ أذلاّء وذلك أنّ الانقلاب إن كان قبل إيمان السحرة فهم شركاؤهم في ضمير ﴿ انقلبوا ﴾ وإن كان بعد الإيمان فليسوا داخلين في الضمير ولا لحقّهم صغار يصفهم الله به لأنهم آمنوا واستشهدوا وهذا إذا كان الانقلاب حقيقة أما إذا لوحظ فيه معنى الصيرورة فالضمير في ﴿ وانقلبوا ﴾ شامل للسحرة وغيرهم ولذلك فسّره

الزمخشري بقوله وصاروا أذلاّء بهوتين .

﴿ وألقى السحرة ساجدين ﴾ لما كان الضمير قبل مشتركاً جرد المؤمنون وأفردوا بالذكر والمعنى خرُّوا سجداً كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم ، وقيل : لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا وسجودهم كان لله تعالى لما رأوا من قدرة الله تعالى فتيقنوا نبوّة موسى عليه السلام واستعظموا هذا النوع من قدرة الله تعالى ، وقيل : ألقاهم الله سجداً سبب لهم من الهدى ما وقعوا به ساجدين ، وقيل سجدوا موافقة لموسى وهارون فإنهم سجدا لله شكراً على وقوع الحقّ فوافقوهما إذ عرفوا الحقّ فكأنما ألقياهم ، قال قتادة : كانوا أول النهار كفاراً سحرة وفي آخره شهداء بررة ، وقال الحسن : تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا وهؤلاء كفار نشؤوا في الكفر بذلوا أنفسهم لله تعالى .

(26/282)

﴿ قَالوا آمنّا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ أي ساجدين قائلين فقالوا في موضع الحال من الضمير في ﴿ ساجدين ﴾ أو من السحرة وعلى التقديرين فهم ملتبسون بالسجود لله شكراً على المعرفة والإيمان والقول المنبىء عن التصديق الذي محله القلوب ولما كان السجود أعظم القرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد بادروا به متلبسين بالقول

الذي لا بد منه عند القادر عليه إذ الدخول في الإيمان إنما يدل عليه القول وقالوا رب العالمين وفاقاً لقول موسى إني رسول من ربّ العالمين ولما كان قد يوهم هذا اللفظ غير الله تعالى كقول فرعون أنا ربكم الأعلى نصّوا بالبدل على أنّ ربّ العالمين ﴿ ربّ موسى وهارون ﴾ وأنهم فارقوا فرعون وكفروا بربوبيته والظاهر أن قائل ذلك جميع السحرة ، وقيل : بل قاله رؤساؤهم وسمى ابن إسحاق منهم الرؤساء فقال هم سابور وعازور وخطخط ومصفى وحكاه ابن ماكولا أيضاً ، وقال مقاتل : أكبرهم شمعون وبدأوا بموسى قبل هارون وإن كان أكبر سناً من موسى قيل بثلاث سنين لأنّ موسى هو الذي ناظر فرعون وظهرت المعجزتان في يده وعصاه ولأن قوله ﴿ وهارون ﴾ فاصلة وجاء في طه ﴿ رب هارون وموسى ﴾ لأنّ موسى فيها فاصلة ويحتمل وقوع كل منهما مرتّباً من طائفة وطائفة فنسب فعل بعض إلى المجموع في سورة وبعض إلى المجموع في شورة أخرى ، قال المتكلمون : وفي الآية دلالة على فضيلة العلم لأنهم لما كانوا كاملين في علم السحر علموا أنّ ما جاء به موسى حقّ خارج عن جنس السحر ولولا العلم لتوهّموا أنه سحر وأنه أسحر منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(27/282)

وقال أبو السعود :

﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ أي فثبت لظهور أمره ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ظهر بطلانُ ما كانوا مستمرِّين على عمله ﴿ فَغُلِبُواْ ﴾ أي فرعونُ وقومُه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في مجلسهم ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ أي صاروا أذلاًّ مبهوتين أو رجَعوا إلى المدينة أذلاًّ مقهورين ، والأولُ هو الظاهرُ لقوله تعالى : ﴿ وَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ فإن ذلك كان بمحضر من فرعون قطعاً أي خروا سجداً كأنما ألقاهم مُلْقٍ لشدة خرورِهم كيف لا وقد بهرهم الحقُّ واضْطَرَّهم إلى ذلك .

﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وهارون ﴾ أبدلوا الثانيَ من الأول لئلا يُتوهم أن مرادَهم فرعون . عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما آمنت السحرةُ اتبع موسى من بني إسرائيلَ ستُّمائةِ ألف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) ﴾

﴿ فَوَقَعَ ﴾ أي ظهر وتبين كما قال الحسن .

ومجاهد .

والفراء ﴿ الحق ﴾ وهو أمر موسى عليه السلام ، وفسر بعضهم وقع بثبت على أنه قد استعير الوقع للثبوت والحصول أو للثبات والدوام لأنه في مقابل بطل والباطل زائل ، وفائدة

الاستعارة كما قيل : الدلالة على التأثير لأن الوقع يستعمل في الأجسام ، وقيل : المراد من وقع الحق صيرورة العصا حية في الحقيقة وليس بشيء ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ظهر بطلان ما كانوا مستمرين على عمله ﴿ فَغُلِبُواْ ﴾ أي فرعون وقومه .

﴿ فَغُلِبُواْ ﴾ أي فرعون وقومه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المجمع العظيم ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ أي صاروا أذلاء أو رجعوا إلى المدينة كذلك فالانقلاب إما مجاز عن الصيرورة والمناسبة ظاهرة أو بمعنى الرجوع فصاغرين حال ورجح الأول بقوله سبحانه :

(28/282)

﴿ وَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ لأن ذلك كان بمحضر من فرعون قطعاً ، وجوز رجوع ضمير غلبوا ﴿ وانقلبوا ﴾ [الأعراف : 119] على الاحتمال الأول إلى السحرة أيضاً ، وتعقب بأنهم لا ذلة لهم ؛ والحمل على الخوف من فرعون أو على ما قبل الإيمان لا يخفى ما فيه ، والمراد من ﴿ ألقى السحرة ﴾ الخ أنهم خروا ساجدين ، وعبر بذلك دونه تنبيهاً على أن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود بحيث لم يبق لهم تمالك فكأن أحداً دفعهم وألقاهم أو أن الله تعالى ألهمهم ذلك وحملهم عليه فالملقى هو الله تعالى بالهامه لهم حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى عليه السلام وينقلب الأمر عليه ، ويحتمل أن

يكون الكلام جارياً مجرى التمثيل مبالغة في سرعة خرورهم وشدته وإليه يشير كلام الأخفش ، وجوز أن يكون التعبير بذلك مشاكلة لما معه من الإلقاء إلا أنه دون ما تقدم ، يروى أن الاجتماع القوم كان بالإسكندرية وأنه بلغ ذنب الحية من وراء البحر وأنها فتحت فاها ثمانين ذراعاً فابتلعت متا صنعوا واحداً بعد واحد وقصدت الناس ففزعوا ووقع الزحام فمات منهم لذلك خمسة وعشرون ألفاً ثم أخذها موسى عليه السلام فعادت في يده عصا كما كانت وأعدم الله تعالى بقدرته تلك الأجرام العظام ، ويحتمل أنه سبحانه فرقها أجزاء لطيفة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه من أمر السماء وليس من السحر في شيء فعند ذلك خروا سجداً ، والمتبادر من السجود حقيقته ولا يبعد أنهم كانوا عالمين بكيفيته ، وقيل : إن موسى وهرون عليهما السلام سجداً شكراً لله تعالى على ظهور الحق فاقتدوا بهما وسجدوا معهما ، وحمل السجود على الخضوع أي أنهم خضعوا لما رأوا ما رأوا خلاف الظاهر الذي نطقت به الآثار من غير داع إلى ارتكابه .

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف .

(29/282)

وجوز أبو البقاء كونه حالاً من ضمير ﴿ انقلبوا ﴾ [الأعراف : 119] وليس بشيء ، وقيل : هو حال من ﴿ السحرة ﴾ [الأعراف : 120] أو من ضميرهم المستتر في ﴿ ساجدين ﴾ [الأعراف : 120] أي أنهم ألقوا ساجدين حال كونهم قائلين ﴿ ءامَنَّا بِرَبّ العالمين ﴾ أي مالك أمرهم والمتصرف فيهم .

﴿ رَبّ موسى وهارون ﴾

بدل مما قبل وإنما أبدلوا لئلا يتوهم أنهم أرادوا فرعون ولم يقتصروا على موسى عليه السلام إذ ربما يبقى للتوهم رائحة لأنه كان ربي موسى عليه السلام في صغره ، ولذا قدم هرون في محل آخر لأنه أدخل في دفع التوهم أو لأجل الفاصلة أو لأنه أكبر سناً منه ، وقدم موسى هنا لشرفه أو للفاصلة ، وأما كون الفواصل في كلام الله تعالى لا في كلامهم فقد قيل : إنه لا يضر ، وروى أنهم لما قالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِين ﴾ [الأعراف : 121] قال فرعون : أنا رب العالمين فقالوا رداً عليه : رب موسى وهرون ، وإضافة الرب إليهما كإضافته إلى العالمين ، وقيل : إن تلك الإضافة على معنى الاعتقاد أن الرب الذي يعتقد ربوبيته موسى وهرون ويكون عدم صدقه على فرعون بزعمه أيضاً ظاهراً جداً إلا أن ذلك خلاف الظاهر من الإضافة ، ويعلم مما قدمنا سر تقديم السجود على هذا القول .

وقال الخازن في ذلك : إن الله تعالى لما قذف في قلوبهم الإيمان خروا سجداً لله تعالى على ما هداهم إليه وألهمهم من الإيمان ثم أظهروا بذلك إيمانهم ، وقيل : إنهم بادروا إلى السجود

تعظيماً لشأنه تعالى لما رأوا من عظيم قدرته ثم إنهم أظهروا الإيمان ، ومن جعل الجملة حالا قال بالمقارنة فافهم ، وأول من بادر بالإيمان كما وري عن ابن إسحاق الرؤساء الأربعة الذيت ذكرهم ابن الجوزي ثم اتبعتهم السحرة جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(30/282)

وقال ابن عاشور :

قوله ﴿ فوقع الحق ﴾ تفريع على ﴿ تلقّف ما يأفكون ﴾ .

والوقوع حقيقته سقوط الشيء من أعلى إلى الأرض ، ومنه : وقَع الطائر ، إذا نَزَل إلى الأرض ، واستعير الوقوع لظهور أمر رفيع القدر ، لأن ظهوره كان بتأييد الهي فشبه بشيء نزل من علو ، وقد يطلق الوقوع على الحصول لأن الشيء الحاصل يشبه النازل على الأرض ، وهي استعارة شائعة قال تعالى : ﴿ وإن الدين لَواقع ﴾ [الذاريات : 6] أي : حاصل وكائن ، والمعنى فظهر الحق وحصل .

ولعل في اختيار لفظ (وقع) ، هنا دون (نزل) مراعاة لفعل الإلقاء لأن الشيء الملقَى يقع على الأرض فكانَ وقوع العصا على الأرض وظهور الحق مقترنين .

و﴿ الحق ﴾ : هو الأمر الثابت الموافق للبرهان ، وضده الباطل ، والحق هنا أريد به صدق موسى وصحة معجزته وكون ما فعلته العصا هو من صنع الله تعالى ، وأَثَرِ قدرته .

و﴿ بطل ﴾ : حقيقته اضمحل .

والمراد : اضمحلال المقصود منه وانتفاء أَثَرٍ مزعوم لشيء يقال : بطَل سعيه ، أي : لم يأت بفائدة ، ويقال : بطَل عمله ، أي : ذهب ضياعاً وخُسر بلا أجر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ويُبْطِلُ الباطلَ ﴾ [الأنفال : 8] أي : يزيل مفعوله وما قصدوه منه ، فالباطل هو الذي لا فائدة فيه ، أو لا خير فيه ، ومنه سمي ضد الحق باطلاً لأنه شيء لا يحصل منه الأثر المرجو ، وهو القبول لدى العقول المستقيمة .

وشاع هذا الإطلاق حتى صار الباطل كالاسم الجامد ، مدلوله هو ضد الحق ، ويطلق الباطل اسمَ فاعل من بطَل ، فيساوي المصدر في اللفظ ، ويتعين المراد منهما بالقرينة ، فصوغ فعل بطل يكون مشتقاً من المصدر وهو البطلان ، وقد يكون مشتقاً من الاسم وهو الباطل .

(31/282)

فمعنى ﴿ بطل ﴾ حينئذٍ وُصف بأنه باطل مثل فَهِد وأسد ، ويصح تفسيره هنا بالمعنيين ، فعلى الأول يكون المعنى : وانتفت حينئذٍ آثار ما كانوا يعملون ، وعلى الثاني يكون المعنى : واتصف ما يعملون بأنه باطل ، وعلى هذا الوجه يتعين أن يكون المراد من الفعل معنى الظهور لا الحدوث ، لأن كون ما يعملونه باطلاً وصف ثابت له من قبلِ أن يُلقيَ موسى عصاه ، ولكن عند إلقاء العصا ظهر كونه باطلاً ، ويبعّد هذا أن استعمال صيغة الفعل في معنى ظهور حدثه لا في معنى وجوده وحدوثه ، خلافُ الأصل فلا يصار إليه بلا دَاع .

وأما من فسر ﴿ بطل ﴾ بمعنى : العدم .

وفسر ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ بحبال السحرة وعصيهم ففي تفسيره نبُو عن الاستعمال ، وعن المقام .

وزيادة قوله : ﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ بعد قوله : ﴿ فوقع الحق ﴾ تقرير لمضمون جملة ﴿ فوقع الحق ﴾ لتسجيل ذم عملهم ، ونداءٌ بخيبتهم ، تأنيساً للمسلمين وتهديداً للمشركين وللكافرين أمثالها .

و ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ هو السحر ، أي : بطلت تخيلات الناس أن عصي السحرة وحبالهم تسعى كالحيات ، ولم يعبّر عنه بالسحر إشارة إلى أنه كان سحراً عجيباً تكلفوا له وأَتوا بمنتهى ما يعرفونه .

وقد عطف عليه جملة ﴿ فغُلبوا ﴾ بالفاء لحصول المغلوبية إثر تلقف العصا لإفكهم .

و﴿ هنالك ﴾ اسم إشارة المكان أي غلبوا في ذلك المكان فأفاد بداهة مغلوبيتهم وظهورها لكل حاضر .

والانقلاب : مطاوع قَلَبَ والقلب تغيير الحال وتبدله ، والأكثر أن يكون تغييراً من الحال المعتادة إلى حال غريبة .

ويطلق الانقلاب شائعاً على الرجوع إلى المكان الذي يخرج منه ولأن الراجع قد عكس حال خروجه .

وانقلب من الأفعال التي تجيء بمعنى (صار) وهو المراد هنا أي : صاروا صاغرين .

واختيار لفظ ﴿ انقلبوا ﴾ دون (رَجعُوا) أو (صاروا) لمناسبته للفظ غُلبوا في الصيغة ، ولما يشعر به أصل اشتقاقه من الرجوع إلى حال أدون ، فكان لفظ (انقلبوا) أدخل في الفصاحة .

(32/282)

والصّغَار : المذلة ، وتلك المذلة هي مذلة ظهور عجزهم ، ومذلة خيبة رجائهم ما أملوه من الأجر والقرب عند فرعون .

﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾

عَطْف على ﴿ فغُلبوا وانقَلبوا ﴾ [الأعراف : 119] ، فهو في حيز فاء التعقيب ، أي : حصل ذلك كله عقب تلقف العصا ما يأفكون ، أي : بدون مهلة ، وتعقيب كل شيء بحسبه ، فسجود السحرة متأخر عن مصيرهم صاغرين ، ولكنه متأخر بزمن قليل وهو زمن انقداح الدليل على صدق موسى في نفوسهم ، فإنهم كانوا أعلم الناس بالسحر فلا يخفى عليهم ما هو خارج عن الأعمال السحرية ، ولذلك لما رأوا تلقف عصا موسى لحبالهم وعصيهم جزموا بأن ذلك خارج عن طوق الساحر ، فعلموا أنه تأييد من الله لموسى وأيقنوا أن ما دعاهم إليه موسى حق ، فلذلك سجدوا ، وكان هذا خاصاً بهم دون بقية الحاضرين ، فلذلك جيء بالاسم الظاهر دون الضمير لئلا يلتبس بالضمير الذي قبله الذي هو شامل للسحرة وغيرهم .

والإلقاء : مستعمل في سرعة الهُوِي إلى الأرض ، أي : لم يتمالكوا أن سجدوا بدون تريث ولا تردد .

وبُني فعل الإلقاء للمجهول لظهور الفاعل ، وهو أنفسُهم ، والتقدير : وألقَوْا أنفسهم على الأرض .

و﴿ ساجدين ﴾ حال ، والسجود هيئة خاصة لإلقاء المرء نفسه على الأرض يقصد منها الإفراط في التعظيم ، وسجودهم كان لله الذي عرفوه حينئذٍ بظهور معجزة موسى عليه السلام والداعي إليه بعنوان كونه رب العالمين .

وجملة : ﴿ قالوا ﴾ بدل اشتمال من جملة : ﴿ ألقي السحرة ﴾ لأن الهوي للسجود اشتمل على ذلك القول ، وهم قصدوا من قولهم ذلك الإعلان بإيمانهم بالله لئلا يظن الناس أنهم سجدوا لفرعون ، إذ كانت عادة القبط السجود لفرعون ، ولذلك وصفوا الله بأنه رب العالمين بالعنوان الذي دَعا به موسى عليه السلام ، ولعلهم لم يكونوا يعرفون اسماً علماً لله تعالى ، إذ لم يكن لله اسم عندهم ، وقد عُلم بذلك أنهم كفروا بالإهية فرعون .

(33/282)

وزادوا هذا القصد بياناً بالإبدال من ﴿ رب العالمين ﴾ قولّهم ﴿ رب موسى وهارون ﴾ لئلا يُتوهم المبالغة في وصف فرعون بأنه رب جميع العالمين ، وتعين في تعريف البدل طريق تعريف الإضافة لأنها أخصر طريق ، وأوضحه هنا ، لاسيما إذا لم يكونوا يعرفون اسماً علماً على الذات العلية .

وهذا ما يقتضيه تعليم الله اسمه لموسى حين كلمه فقال : ﴿ إنني أنا الله ﴾ في سورة طه (14) .

وفي سفر الخروج ﴿ وقال الله لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل (يهوه) إله آبائكم ﴾ الخ الإصحاح الثالث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

وقوله : ﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ أي صار الحق النظري واقعاً ملموساً ؛ لأن هناك فارقاً بين كلام نظريًّا وكلام يؤيده الواقع ، والوقوع عادة يكون من أعلى بحيث يراه ويعرفه كل من يراه .

وقوله سبحانه : ﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ أي ثبت الحق ، فبعد أن كان كلاماً خبريًّا يصح أن يصدَّق ويصح أن يُكَذب . صار بصدقه واقعاً . ﴿ فَوَقَعَ الحق وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

.

والذي بطل هو ما كانوا يعملون من السحر . إن الحق جعل الصدق موسى واقعاً مشهوداً . وبذلك غُلب السحرة .

ويقول الحق : ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وانقلبوا صَاغِرِينَ ﴾

ولم يغلب السحرة فقط ، بل غلب أيضاً فرعون وجماعته ، وعاش كل من هو ضد موسى في صَغَار ، صغار للمستدعِي وصغار للمستدعَى . لذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وانقلبوا صَاغِرِينَ ﴾ أي أذلاء .

ويقول الحق بعد ذلك : ﴿ وَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ ﴾

ولم يقل الحق : وسجد السحرة ، ولكنه قال : " ألقى "مما يدل على أن خرورهم للسجود ليس برأيهم ، لكنه عملية انبهارية مما حصل أمامهم ، كأن شيئاً آخر ألقاهم ساجدين ، وهو الانبهار بالحق . فالساحر منهم كان يعتقد أنه هو الذي يسحر ، ثم يفاجأ مجموع السحرة أن موسى حين ألقى عصاه رأوها حية بالفعل فعرفوا أن المسألة ليست سحراً ، وحينما ألقوا عصيهم وحبالهم التي جاءوا بها من كل المدائن ، قيل إنها حُملت على سبعين بعيراً وشاهدوا كيف أن العصا التي صارت حية أو ثعباناً لقفت كل هذا وابتلعته ! وحجم العصا هو حجم العصا مهما طالت ، وهكذا تيقن أن هذا لا يمكن أن يكون من فعل ساحر ، وانظر إلى الاستجابة منهم لمَّا رأوا : ﴿ قالوا آمَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾

(35/282)

وهل هم سجدوا بعد الإِيمان ؟ أم آمنوا بعد السجود ؟ النص هنا يظهر منه أنهم آمنوا بعد السجود ، ولكن كان الأمر يقتضي ألا يسجد أحد إلا لأنه آمن ، لكن نحن نعرف أن الإِيمان عمل قلبي ، والسجود عمل عضلي وسلوك عملي ، فكل منهم آمن بقلبه فسجد .

وهناك فرق بين أن يؤمنوا فيسجدوا ثم يعلنوا إيمانهم ؛ فيقولوا : آمنا برب العالمين ؛ لذلك نحن لا نرتب السجود على إيمان ، بل نرتب السجود مع القول بالإِيمان وبإعلان الإِيمان ؛ لأن

إعلان الإِيمان شيء ، والإِيمان شيء آخر ، فكأنهم آمنوا فخروا ساجدين وبعد هذا قاموا بإعلان الإِيمان ، وكأن الناس سألوهم : ما الذي جرى لكم ؟ فقالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ .

إذن فمن يحاول أن يستدرك على النص فعليه أن ينتبه إلى أن إخبارهم عن الإِيمان يعني وجود الإِيمان أولاً ، والسحرة قد آمنوا فسجدوا ، فاستغرب منهم الناس هذا السجود ، وهنا قال السحرة : لا تستغربوا ولا تتعجبوا فنحن قد آمنا برب العالمين . ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ [الأعراف : 121]

وقيل في بعض التفاسير : إن فرعون قال : أنا رب العالمين . لكن السحرة لم يتركوا قوله هذا فأعلنوا أن رب العالمين هو : ﴿ رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ . وقال فرعون : لقد ربيت أنا موسى ، فقالوا : لكنك لم ترب هارون .

ولذلك أوضح الحق هنا أن رب العالمين هو : ﴿ رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾

ولأن السحرة أعلنوها واضحة بالإِيمان برب العالمين رب موسى وهارون ، وكان لابد أن يغضب فرعون ، فيأتي القرآن بما جاء على لسانه : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ . . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(36/282)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَغَلِبُوا هُنالِكَ " يجوزُ أن يكون مكاناً ، أي : غُلِبُوا في المكانِ الذي وقع فيه سحرهم ، وهذا هو الظَّاهِرُ .

وقيل : يجوزُ أن يكون زماناً ، وهذا ليس أصْلُهُ ، وقد أثبت لَهُ بعضهم هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابتلي المؤمنون ﴾ [الأحزاب : 11] .

ويقول الآخر : [الكامل]

2544 - . . . . . .

فَهُنَاكَ يَعْتَرِفُونَ أَيْنَ المَفْزَعُ ؟

ولا حُجَّةَ فيهما ، لأنَّ المكانَ فيهما واضحٌ .

قوله : " وانقلبُوا صاغرينَ " أي : ذليلين مقهورين .

وصاغرين حالٌ من فاعل انقلبُوا والضميرُ في انقلبُوا يجوزُ أن يعودَ على قوم فرعون وعلى السَّحرةِ ، إذا جعلنا الانقلابِ قبل إيمان السحرةِ ، أو جعلنا انقلبُوا بمعنى : صاروا ، كما فسَّره الزمخشريُّ ، أي : صاروا أذلاَّءَ مبهوتين مُتَحَيِّرين .

ويجوز أن يعودَ عليهم دُونَ السَّحرةِ إذا كان ذلك بعد إيمانهم ، ولم يجعلْ انْقلبُوا بمعنى :

صاروا : لأنَّ اللالا يَصِفُهُم بالصَّغَارِ بعد إيمانهم .

قوله : ﴿ وَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ ﴾ .

قال مقاتل : " أَلْقاهُمُ اللَّهُ " .

وقيل : ألهمهم اللَّهُ أنْ يسجدُوا فَسَجَدُوا .

قال الأخفشُ : من سرعة ما سَجدُوا كأَنَّهم ألقوا .

ف " ساجدين " حال من السَّحرة ، وكذلك قالوا أي ألقوا ساجدين قائلين ذلك ، ويجوزُ أن يكُون حالاً من الضَّمير المستتر في ساجدينَ .

وعلى كلا القولين هُمْ متلبّسُون بالسُّجُودِ للَّهِ تعالى .

ويجوزُ أن يكون مستأنفاً لا محلَّ له ، وجعله أبُو البقاءِ حالاً من فاعل " انْقَلَبُوا " ، فإنَّهُ قال : " يجوزُ أن يكُون حالاً ، أي : فانْقَلَبُوا صاغرين " .

قالوا وهذا ليس بجيّد للفصل بقوله " وَأَلقى السَّحرةُ " .

قوله : ﴿ قالوا آمَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ .

(37/282)

قال المفسّرونَ : لما قالوا : ﴿ قالوا آمَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ قال فِرعونُ : إيّايَ تعنُون ؛ فقالوا : ﴿ رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ ، ف : " ربِّ مُوسَى " يجوز أن يكون نعتاً لـ : " ربِّ العالمينَ " ، وأن يكون بدلاً ، وأنْ يكون عطف بيان .

وفائدُ ذلك : نَفْيُ تَوَهُّم من يتوهَّمُ أنَّ رب العالمينَ قد يطلق على غير اللَّه تعالى ، لقول فرعونَ ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] وقدَّمُوا " مُوسَى " في الذِّكْرِ على " هَارُونَ " وإن كان هارون أسَنَّ منه ، لكبره في في الرُّتْبَةِ ، أو لأَنَّهُ وقع فاصِلة هنا .

ولذلك قال في سورة طه : ﴿ بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ﴾ [طه : 70] لوقوع " موسى " فاصلةً ، أو تكون كل طائفة منهم قالت إحدى المقالتين ، فنسبَ فعل البعض إلى المجمُوعِ في سورةٍ ، وفعل بعضهم الآخر إلى المجمُوعِ في أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 264 . 265 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122) ﴾

مَوَّهُوا بسحرهم أنهم غَلَبُوا ، فَأَدْخَل الله – سبحانه – على تمويهاتهم قهرَ الحق ، وطاشت

تلك الحِيَلُ ، وخاب منهم الأمل ، وجذب الحقُّ – سبحانه – أسرارهم على الوهلة فأصبحوا في صدر العداوة ، وكانوا – في التحقيق – من أهل الود . فسبحان مَنْ يُبْرِز العدوَّ في نعت الولي ؛ ثم يقلب الكتابَ ويُظْهِرُ الوليَّ في نعت العدو ، ثم يأبى الحلُ إلا حصولَ المَقْضِيِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 557.558 ﴾

(38/282)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى ﴾ أي من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب أي ثم أرسلنا موسى بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل .

وقيل : الضمير في ﴿ مّن بَعْدِهِمْ ﴾ راجع إلى الأمم السابقة ، أي من بعد إهلاكهم ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وملئه ﴾ فرعون هو لقب لكل من يملك أرض مصر بعد العمالقة .

وملأ فرعون : أشراف قومه ، وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم ، لأن من عداهم كالأتباع لهم .

قوله : ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي كفروا بها .

وأطلق الظلم على الكفر ، لكون كفرهم بالآيات التي جاء بها موسى كان كفراً متبالغاً ، لوجود ما يوجب الإيمان من المعجزات العظيمة التي جاءهم بها .

والمراد بالآيات هنا : هي الآيات التسع .

أو معنى : ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ ظلموا الناس بسببها لما صدّوهم عن الإيمان بها ، أو ظلموا أنفسهم بسببها ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ أي المكذبين بالآيات الكافرين بها ، وجعلهم مفسدين ، لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد .

قوله : ﴿ وَقَالَ موسى يافرعون إِنِّى رَسُولٌ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ أخبره بأنه مرسل من الله إليه ، وجعل ذلك عنواناً لكلامه معه ، لأن من كان مرسلاً من جهة من هو رب العالمين أجمعين ، فهو حقيق بالقبول لما جاء به ، كما يقول من أرسله الملك في حاجة إلى رعيته : أنا رسول الملك إليكم ، ثم يحكي ما أرسل به فإن في ذلك من تربية المهابة ، وإدخال الروعة ، مالا يقادر قدره .

قوله : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَن لا أَقُولَ عَلَى الله إِلاَّ الحق ﴾ قرىء " حقيق عليّ أن لا أقول " أي واجب عليّ ، ولازم لي ، أن لا أقول فيما أبلغكم عن الله إلا القول الحق ، وقرىء ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَن لا أَقُولَ ﴾ بدون ضمير في " على " ؛ قيل : في توجيهه إن " على " معنى الباء ، أي حقيق بأن لا أقول .

ويؤيده قراءة أبيّ والأعمش ، فإنهما قرآ "حقيق بأن لا أقول" .

وقيل : إن ﴿ حَقِيقٌ ﴾ مضمن معنى حريص .

وقيل : إنه لما كان لازماً للحق ، كان الحق لازماً له .

فقول الحق حقيق عليه ، وهو حقيق على قول الحق .

وقيل إنه أغرق في وصف نفسه في ذلك المقام ، حتى جعل نفسه حقيقة على قول الحق ، كأنه وجب على الحق أن يكون موسى هو قائله .

وقرأ عبد الله بن مسعود "حقيق أن لا أقول" بإسقاط "على" ، ومعناها واضح .

ثم قال بعد هذا ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي بما يتبين به صدقي ، وأني رسول من رب العالمين .

وقد طوى هنا ذكر ما دار بينهما من المحاورة ، كما في موضع آخر أنه قال فرعون :

﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ [طه : 49] .

ثم قال بعد جواب موسى ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء : 23] الآيات الحاكية لما دار بينهما .

قوله : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِى إسراءيل ﴾ أمره بأن يدع بني إسرائيل يذهبون معه ، ويرجعون

إلى أوطانهم ، وهي الأرض المقدّسة .

وقد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فلما قال ذلك ﴿ قَالَ ﴾ له فرعون ﴿ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ﴾ من عند الله كما تزعم ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾ حتى نشاهدها ، وننظر فيها ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في هذه الدعوى التي جئت بها .

قوله : ﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي وضعها على الأرض فانقلبت ثعباناً ، أي حية عظيمة من ذكور الحيات .

ومعنى ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أن كونها حية في تلك الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فيه .

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أي أخرجها وأظهرها من جيبه ، أو من تحت إبطه ، وفي التنزيل : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ [النمل : 12] .

قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ أي فإذا يده التي أخرجها بيضاء تتلألأ نوراً ، يظهر لكل مبصر .

(40/282)

﴿ قَالَ الملأ ﴾ أي الأشراف ﴿ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ ﴾ لما شاهدوا انقلاب العصى حية ، ومصير يده بيضاء من غير سوء ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي موسى ﴿ لساحر عَلِيمٌ ﴾ أي كثير العلم بالسحر .

ولا تنافي بين نسبة هذا القول إلى الملأ هنا ، وإلى فرعون في سورة الشعراء ، فكلهم قد قالوه ، فكان ذلك مصححاً لنسبته إليهم تارة وإليه أخرى .

وجملة : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ وصف ﴿ لساحر ﴾ .

والأرض المنسوبة إليهم هي أرض مصر .

وهذا من كلام الملأ .

وأما ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فقيل : هو من كلام فرعون ، قال للملأ لما قالوا بما تقدّم ، أي بأي شيء تأمرونني .

وقيل : هو من كلام الملأ ، أي قالوا لفرعون ، فبأي شيء تأمرنا ، وخاطبوه بما تخاطب به الجماعة تعظيماً له ، كما يخاطب الرؤساء أتباعهم .

و " ما " في موضع نصب بالفعل الذي بعدها .

ويجوز أن تكون " ذا " بمعنى الذي ، كما ذكره النحاة في ماذا صنعت ، وكون هذا من كلام فرعون هو الأولى ، بدليل ما بعده ، وهو : ﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ قال الملأ جواباً لكلام فرعون ، حيث استشارهم وطلب ما عندهم من الرأي : ﴿ أرجه ﴾ ، أي أخره

وأخاه .

يقال أرجأته وأرجيته : أخرته .

قرأ عاصم والكسائي وحمزة وأهل المدينة "أرجه" بغير همز .

وقرأ الباقون بالهمز .

وقرأ أهل الكوفة إلا الكسائي " أرجه " بسكون الهاء .

قال الفراء : هي لغة للعرب يقفون على الهاء في الوصل ، وأنكر ذلك البصريون .

وقيل معنى ﴿ أرجه ﴾ احبسه .

وقيل هو من رجا يرجو ، أي أطمعه ودعه يرجوك ، حكاه النحاس عن محمد بن يزيد المبرد

﴿ وَأَرْسِلْ فِى المدائن حاشرين ﴾ أي أرسل جماعة حاشرين في المدائن التي فيها السحرة ، و ﴿ حاشرين ﴾ مفعول ﴿ أرسل ﴾ .

وقيل : هو منصوب على الحال .

و ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ جواب الأمر ، أي يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ أي بكل ماهر في السحر ، كثير العلم بصناعته .

قرأ أهل الكوفة إلا عاصم "سحار" .

وقرأ من عداهم ﴿ ساحر ﴾ .

قوله : ﴿ وَجَاء السحرة فِرْعَوْنَ ﴾ في الكلام طيّ ، أي فبعث في المدائن حاشرين ، وجاء السحرة فرعون .

قوله : ﴿ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا ﴾ أي فلما جاءوا فرعون قالوا له إن لنا لأجراً ، والجملة استئنافية جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : أيّ شيء قالوا له لما جاءوه ؟ والأجر الجائزة والجعل ، ألزموا فرعون أن يجعل لهم جُعلاً ، إن غلبوا موسى بسحرهم .

قرأ نافع ، وابن كثير ﴿ إن لنا ﴾ على الإخبار .

وقرأ الباقون "أئن لنا" على الاستفهام .

استفهموا فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة ، ومعنى الاستفهام التقرير .

وأما على القراءة الأولى ، فكأنهم قاطعون بالجعل ، وأنه لابدّ لهم منه ، فأجابهم فرعون بقوله : ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ أي إن تلكم لأجراً ، وإنكم مع هذا الأجر المطلوب منكم لمن المقرّبين لدينا .

قوله : ﴿ قَالُواْ يا موسى إِمَا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فما قالوا لموسى بعد أن قال لهم فرعون ﴿ نعم وإنكم لمن المقرّبين ﴾ .

والمعنى : أنهم خيروا موسى بين أن يبتدىء بإلقاء ما يلقيه عليهم ، أو يبتدئوه هم بذلك تأدّباً معه ، وثقة من أنفسهم بأنهم غالبون ، وإن تأخروا ، و " أن " في موضع نصب ، قاله الكسائي والفراء ، أي إما أن تفعل الإلقاء أو نفعله نحن .

فأجابهم موسى بقوله : ﴿ أَلْقُوْاْ ﴾ اختار أن يكونوا المتقدّمين عليه بإلقاء ما يلقونه غير مبال بهم ، ولا هائب لما جاءوا به .

قال الفراء : في الكلام حذف .

المعنى : قال لهم موسى إنكم لم تغلبوا ربكم ، ولن تبطلوا آياته .

وقيل هو تهديد ، أي ابتدئوا بالإلقاء فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح .

(42/282)

والموجب لهذين التأويلين عند من قال بهما أنه لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ ﴾ أي حبالهم وعصيهم ﴿ سَحَرُواْ أَعْيُنَ الناس ﴾ أي قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها بما جاءوا به من التمويه والتخييل الذي يفعله المشعوذون وأهل الخفة ﴿ واسترهبوهم ﴾ أي أدخلوا الرهبة في قلوبهم إدخالاً شديداً ﴿ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ في أعين الناظرين لما جاءوا به ، وإن كان لا حقيقة له في الواقع .

قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أمره الله سبحانه ، عند أن جاء السحرة بما جاءوا به من السحر ، أن يلقي عصاه ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ أي العصا ﴿ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ قرأ حفص ﴿ تَلْقَفْ ﴾ بإسكان اللام ، وتخفيف القاف من لقف يلقف .

وقرأ الباقون بفتح اللام ، وتشديد القاف من تلقف يتلقف ، يقال لقفت الشيء وتلقفته : إذا أخذته أو بلعته .

قال أبو حاتم : وبلغني في بعض القراءات " تلقم " بالميم والتشديد ، قال الشاعر :

أنت عصا موسى التي لم تزل . . . تلقم ما يأفكه الساحر

(43/282)

و"ما" في ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ مصدرية أو موصولة ، أي إفكهم أو ما يأفكونه ، سماه إفكاً ، لأنه لا حقيقة له في الواقع ، بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة ﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ أي ظهر وتبين لما جاء به موسى ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من سحرهم ، أي تبين بطلانه ﴿ فَغُلِبُواْ ﴾ أي السحرة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في الموقف الذي أظهروا فيه سحرهم ﴿ وانقلبوا ﴾ من ذلك الموقف ﴿ صاغرين ﴾ أذلاء مقهورين ﴿ وَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ أي خروا ساجدين ، كأنما ألقاهم ملق على هيئة السجود ، أو لم يتمالكوا مما رأوا ، فكأنهم

ألقوا أنفسهم ، وجملة ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بِرَبِّ العالمين رَبِّ موسى وهارون ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ماذا قالوا عند سجودهم أوفي سجودهم ؟ وإنما قالوا هذه المقالة وصرّحوا بأنهم آمنوا بربّ العالمين ، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا : ﴿ ربّ موسى وهارون ﴾ لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرّين بإلهيته ، أن السجود له .

وقد أخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا موسى ﴾ قال : إنما سمي موسى ، لأنه ألقى بين ماء وشجر ، فالماء بالقبطية : مو والشجر : سي .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد أن فرعون كان فارسياً من أهل إصطخر .

وأخرج أيضاً عن ابن لهيعة ، أنه كان من أبناء مصر .

وأخرج أيضاً وأبو الشيخ ، عن محمد بن المنكدر قال : عاش فرعون ثلثمائة سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عليّ بن أبي طلحة ، أن فرعون كان قبطياً ولد زنا طوله سبعة أشبار .

وأخرج أيضاً عن الحسن قال : كان علجاً من همذان .

وأخرج أبو الشيخ ، عن إبراهيم بن مقسم الهذلي ، قال : مكث فرعون أربعمائة سنة لم يصدع له رأس .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ فألقى عَصَاهُ ﴾ قال : ذكر لنا أن تلك العصا عصا آدم ، أعطاه إياها ملك حين توجه إلى مدين ، فكانت تضيء بالليل ، ويضرب بها الأرض بالنهار ، فتخرج له رزقه ويهشّ بها على غنمه ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ قال : حية تكاد تساوره .

وأخرج ابن أبي حاتم ، على ابن عباس ، قال : لقد دخل موسى على فرعون وعليه زرمانقة من صوف ما تجاوز مرفقيه ، فاستأذن على فرعون فقال : أدخلوه ، فدخل فقال : إن إلهي أرسلني إليك ، فقال للقوم حوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] ، خذوه .

قال إني قد جئتك بآية ، قال : فائت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه ، فصارت ثعباناً بين لحييه ، ما بين السقف إلى الأرض ، وأدخل يده في جيبه ، فأخرجها مثل البرق تلتمع الأبصار ، فخروا على وجوههم ، وأخذ موسى عصاه ثم خرج ، ليس أحد من الناس إلا نفر منه .

فلما أفاق وذهب عن فرعون الروع قال للملأ حوله : ماذا تأمروني ؟ ﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاه ﴾ ولا تأتنا به ولا يقربنا ﴿ وَأَرْسِلْ فِى المدائن حاشرين ﴾ وكانت السحرة يخشون من فرعون ، فلما أرسل إليهم قالوا : قد احتاج إليكم إلهكم ؟ قال : إن هذا فعل كذا وكذا .

قالوا : إن هذا ساحر سحر ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه ، قال : عصى موسى اسمها ماشا .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ من طرق ، عنه ، في قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ قال : الحية الذكر .

(45/282)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ قال : الذكر من الحيات ، فاتحة فمها ، واضعة لحيها الأسفل في الأرض ، والأعلى على سور القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذُعِر منها ووثب فأحدث ، ولم يكن يحدث قبل ذلك ، فصاح يا موسى خذها وأنا أؤمن بربك وأرسل معك بني إسرائيل ، فأخذها موسى فصارت عصا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ أَرْجِهْ ﴾ قال : أخره .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة ، قال : احبسه وأخاه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس من طرق في قوله : ﴿ وَأَرْسِلْ فِى المدائن حاشرين ﴾ قال : الشُّرَط .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، في قوله : ﴿ وَجَاء السحرة ﴾ قال : كانوا سبعين رجلاً أصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء .

وقد اختلفت كلمة السلف في عددهم ؛ فقيل : كانوا سبعين كما قال ابن عباس .

وقيل كانوا اثني عشر .

وقيل : خمسة عشر ألفاً .

وقيل : سبعة عشر ألفاً .

وقيل : تسعة عشر ألفاً .

وقيل : ثلاثين ألفاً .

وقيل : سبعين ألفاً .

وقيل : ثمانين ألفاً .

وقيل ثلثمائة ألف .

وقيل تسعمائة ألف .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا ﴾ أي

عطاء .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ ﴾ قال : ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً ، فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ قال : ألقى موسى عصاه فأكلت كل حية لهم ، فلما رأوا ذلك سجدوا .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، نحوه .

(46/282)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن المنذر عن مجاهد ، في قوله : ﴿ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ قال : ما يكذبون .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن الحسن في قوله : ﴿ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ قال : تسترط حبالهم وعصيهم .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن مسعود ، وناس من الصحابة قال : التقى موسى وأمير السحرة ، فقال له موسى : أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي ؟ وتشهد أن ما جئت به

حق ؟ فقال الساحر : لآتينّ غداً بسحر لا يغلبه سحر .

فو الله لئن غلبتني لأمننّ بك ، ولأشهدنّ أنه حق ، وفرعون ينظر إليهما وهو قول فرعون ﴿ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى المدينة ﴾ [الأعراف : 123] .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الأوزاعي قال : لما خرّ السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(47/282)

قوله تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعى :

ولما صرحوا بالذي آمنوا به تصريحاً منع فرعون أن يدلس معه بما يخيل به على قومه ، شرع في تهديدهم على وجه يمكر فيه بقومه ويلبس عليهم إيقافاً لهم عن المبادرة إلى الإيمان - كما بادر السحرة - إلى وقت ما ، فاستأنف الخبر عنه سبحانه بقوله مصرحاً باسمه غير

مضمر له كما في في غير هذه السورة لأن مقصود السورة الإنذار ، وهو أحسن الناس بالمناداة عليه في ذلك المقام ، وقصته مسوقة لبيان فسق الأكثر ، وهو أفسق أهل ذلك العصر : ﴿ قال فرعون ﴾ منكراً عليهم موبخاً لهم بقوله : ﴿ آمنتم ﴾ أي صدقتم ﴿ به ﴾ أي بموسى تصديقاً آمنه من رجوعكم عنه ، ومن أخبر أراد الاستفهام ، وأوهم فرعون من فهم عنهم من القبط إرادة الإيمان لأجل ما رأوا من دلائل صدق موسى عليه السلام واقتداء بالسحرة بقوله : ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ ليوقفهم من خطر المخالفة له بما رجاهم فيه من إذنه ، فلما ظن أنهم وقفوا خيلهم بما يذهب عنهم ذلك الخاطر أصلاً ورأساً بقوله مؤكداً نفياً لما على قوله من لواتح الكذب : ﴿ إن هذا لمكر ﴾ أي عظيم جداً ، وطول الكلام تبييناً لما أرادوا وتنسية لخاطر الإيمان فقال : ﴿ مكرتموه في المدينة ﴾ أي على ميعاد بينكم وبين موسى ، وحيلة احتلتموها قبل اجتماعكم ، وليس إيمانكم لأن صدقه ظهر لكم ؛ ثم علل بما يتعلق به فكرهم وتشوش قلوبهم فقال : ﴿ لتخرجوا ﴾ أي أنتم وموسى عليه السلام ﴿ منها أهلها ﴾ وتسكنوها أنتم وبنو إسرائيل .

(48/282)

ولما استتب له ما أراد من دقيق المكر ، شرع في تهديدهم بما يمنع غيرهم وربما ردهم ، فقال مسبباً عن ذلك : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ما أفعل بكم من عذاب لا يحتمل ، ثم فسر ما أجمل من هذا الوعيد بقوله : ﴿ لأقطعن أيديكم ﴾ أي اليمنى مثلاً ﴿ وأرجلكم ﴾ أي اليسرى ، ولذلك فسره بقوله : ﴿ من خلاف ﴾ أي يخالف الطرف – الذي تقطع منه اليد – الطرف الذي تقطع منه الرجل .

ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار ، فذكر فيها ما وقع لموسى عليه السلام والسحرة على وجه يهول ذكر ما كان من أمر فرعون على وجه يقرب من ذلك ، فعبر بحرف التراخي لأن فيه – مع الإطناب الذي يكون شاغلاً لأصحابه عما أدهشهم مما رأوه – تعظيماً لأمر الصلب .

فيكون أرهب للسحرة ولمن تزلزل بهم من قومه فقال : ﴿ ثم لأصلبنكم ﴾ أي أعلقنكم ممدودة أيديكم لتصيروا على هيئة الصليب ، أو حتى يتقاطر صليبكم وهو الدهن الذي فيكم ﴿ أجمعين ﴾ أي لا أترك منكم أحداً لأجعلكم نكالاً لغيركم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 84 . 85 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا

أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ أَمِنتُمْ ﴾ بهمزة واحدة على لفظ الخبر وكذلك في طه والشعراء وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي ﴿ أَأَمِنتُمْ ﴾ بهمزتين في جميع القرآن وقرأ الباقون بهمزة واحدة ممدودة في جميع على الاستفهام .

قال الفراء : أما قراءة حفص ﴿ أَمِنتُمْ ﴾ بلفظ الخبر من غير مد ، فالوجه فيها أنه يخبرهم بإيمانهم على وجه التقريع لهم والإنكار عليهم ، وأما القراءة بالهمزتين فأصله ﴿ أَأَمِنتُمْ ﴾ على وزن أفعلتم .

المسألة الثانية :

اعلم أن فرعون لما رأى أن أعلم الناس بالسحر أقر بنبوة موسى عليه السلام عند اجتماع الخلق العظيم خاف أن يصير ذلك حجة قوية عند قومه على صحة نبوة موسى عليه

السلام فألقى في الحال نوعين من الشبهة إلى إسماع العوام ، لتصير تلك الشبهة مانعة للقوم من اعتقاد صحة نبوة موسى عليه السلام .

فالشبهة الأولى : قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى المدينة ﴾ والمعنى : أن إيمان هؤلاء بموسى عليه السلام ليس لقوة الدليل ، بل لأجل أنهم تواطئوا مع موسى أنه إذا كان كذا وكذا فنحن نؤمن بك ونقر بنبوتك ، فهذا الإيمان إنما حصل بهذا الطريق .

والشبهة الثانية : أن غرض موسى والسحرة فيما تواطئوا عليه إخراج القوم من المدينة وإبطال ملكهم ، ومعلوم عند جميع العقلاء أن مفارقة الوطن والنعمة المألوفة من أصعب الأمور فجمع فرعون اللعين بين الشبهتين اللتين لا يوجد أقوى منهما في هذا الباب .

وروى محمد بن جرير عن السدي في حديث عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم : أن موسى وأمير السحرة التقيا فقال موسى عليه السلام : أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به الحق ؟ قال الساحر : لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر ، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك ، وفرعون ينظر إليهما ويسمع قولهما ، فهذا هو قول فرعون ﴿ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ ﴾ واعلم أن هذا يحتمل أنه كان قد حصل ، ويحتمل أيضاً أن فرعون ألقى هذا الكلام في البين ، ليصير صارفاً للعوام عن التصديق بنبوة موسى عليه السلام .

قال القاضي : وقوله : ﴿ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ ﴾ دليل على مناقضة فرعون في ادعاء الإلهية

، لأنه لو كان إلهاً لما جاز أن يأذن لهم في أن يؤمنوا به مع أنه يدعوهم إلى إلهية غيره ، ثم قال : وذلك من خذلان الله تعالى الذي يظهر على المبطلين .

(50/282)

أما قوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لا شبهة في أنه ابتداء وعيد ، ثم إنه لم يقتصر على هذا الوعيد المجمل ، بل فسره فقال : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لاَصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقطع اليد والرجل من خلاف معروف المعنى ، وهو أن يقطعهما من جهتين مختلفتين ، أما من اليد اليمنى والرجل اليسرى ، أو من اليد اليسرى والرجل اليمنى ، وأما الصلب فمعروف فتوعدهم بهذين الأمرين العظيمين ، واختلفوا في أنه هل وقع ذلك منه ؟ وليس في الآية ما يدل على أحد الأمرين .

واحتج بعضهم على وقوعه بوجوه :

الأول : أنه تعالى حكى عن الملأ من قوم فرعون أنهم قالوا له : ﴿ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ [الأعراف : 127] ولو أنه ترك أولئك السحرة وقومه أحياء وما قتلهم ، لذكرهم أيضاً ولحذرهم عن الإفساد الحاصل من جهتهم .

ويمكن أن يجاب عنه بأنهم دخلوا تحت قومه فلا وجه لإفرادهم بالذكر .

والثاني : أن قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ يدل على أنه كان قد نزل بهم بلاء شديد عظيم ، حتى طلبوا من الله تعالى أن يصبرهم عليه .

ويمكن أن يجاب عنه بأنهم طلبوا من الله تعالى الصبر على الإيمان وعدم الالتفات إلى وعيده .

الثالث : ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه فعل ذلك وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وهذا هو الأظهر مبالغة منه في تحذير القوم عن قبول دين موسى عليه السلام .

وقال آخرون : إنه لم يقع من فرعون ذلك ، بل استجاب الله تعالى لهم الدعاء في قولهم : ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ لأنهم سألوه تعالى أن يكون توفيهم من جهته لا بهذا القتل والقطع وهذا الاستدلال قريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 169 .

﴿ 170

(51/282)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُمْ بِهِ ﴾ يعني : صدقتم بموسى ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ يعني : قبل أن آمركم بالإيمان بموسى .

قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر آمنتم .

وقرأ الباقون بغير مد بهمزتين ومعناهما واحد ويكون استفهاماً .

إلا عاصم في رواية حفص قرأ آمنتم بهمزة واحدة بغير مد على وجه الخبر .

﴿ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى المدينة ﴾ يعني : صنعاً صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في المدينة ﴿ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ يعني : إنكم أردتم أن تخرجوا الناس من مصر بسحركم .

ثم قال لهم : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : تعلمون ماذا أفعل بكم ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ يعني : اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ على شاطىء نهر مصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(52/282)

وقال ابن عطية :

وقول فرعون ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ دليل على وهن أمره لأنه إنما جعل ذنبهم مفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط ، وقرأ عاصم في رواية حفص عنه في كل القرآن " آمنتم " على الخبر ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر " آمنتم " بهمزة ومدة على الاستفهام وكذلك في

طه والشعراء ، وقرأ حمزة والكسائي في الثلاثة المواضيع " آآمنتم " بهمزتين الثانية ممدودة ، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم ، وقرأ ابن كثير في رواية أبي الأخريط عنه " وآمنتم " وهي على ألف الاستفهام إلا أنه سهلها واواً فأجرى المنفصل مجرى المتصل في قولهم تودة في تؤدة ، وقرأ قنبل عن القواس " وآمنتم " وهي على القراءة بالهمزتين " آآمنتم " إلا أنه سهل ألف الاستفهام واواً وترك ألف أفعلتم على ما هي عليه ، والضمير في ﴿ به ﴾ يحتمل أن يعود على اسم الله تعالى ، ويحتمل أن يعود على موسى عليه السلام ، وعنفهم فرعون على الإيمان قبل إذنه ثم ألزمهم أن هذا كان على اتفاق منهم ، وروي في ذلك عن ابن عباس وابن مسعود : أن موسى اجتمع مع رئيس السحرة واسمه شمعون فقال له موسى : أرأيت إن غلبتكم أتؤمنون بي فقال له نعم ، فعلم بذلك فرعون ، فلذلك قال ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة ﴾ .

ثم قال للسحرة ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم ﴾ الآية ، فرجع فرعون في مقالته هذه إلى الخذلان والغشم وعادة ملوك السوء إذا غولبوا ، وقرأ حميد المكي وابن محصن ومجاهد " لأَقْطَعن " بفتح الهمزة والطاء وإسكان القاف ، " ولأَصْلُبن " بفتح الهمزة وإسكان الصاد وضم اللام ، وروي بكسرها ، و ﴿ من خلاف ﴾ معناه يمنى ويسرى .

قال القاضي أبو محمد : والظاهر من هذه الآيات أن فرعون توعد وليس في القرآن نص على أنه أنفذ ذلك وأوقعه ، ولكنه روي أنه صلب بعضهم وقطع ، قال ابن عباس : فرعون أول من صلب وقطع من خلاف ، وقال ابن عباس وغيره فيهم : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء ، وأما التوعد فلجميعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(54/282)

وقال أبو حيان :

﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ﴾

قرأ حفص ﴿ أمنتم ﴾ على الخبر في كل القرآن أي فعلتم هذا الفعل الشنيع وبّخهم بذلك وقرعهم ، وقرأ العربيان ونافع والبزي بهمزة استفهام ومدة بعدها مطولة في تقدير ألفين إلا ورشاً فإنه يسهل الثانية ولم يدخل أحد ألفاً بين المحققة والملينة وكذلك في طه والشعراء ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر فيهن بالاستفهام وحققا الهمزة وبعدها ألف وقرأ قنبل هنا بإبدال همزة الاستفهام واواً الضمة نون فرعون وتحقيق الهمزة بعدها أو تسهيلها أو إبدالها أو إسكانها أربعة أوجه وقرأ في طه مثل حفص وفي الشعراء مثل البزي هذا الاستفهام

معناه الإنكار والاستبعاد والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على الله تعالى لقولهم ﴿ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ ، وقيل يحتمل أن يعود على موسى وفي طه والشعراء يعود في قوله له على موسى لقوله ﴿ إنه لكبيركم ﴾ ، وقيل آمنت به وآمنت له واحد في قوله ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ دليل على وهن أمره لأنه إنما جعل ذنبهم بمفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط.

﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ أي صنيعكم هذا الحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء وتواطأتم على ذلك لغرض لكم وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوا بني إسرائيل قال هذا تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان روي عن ابن مسعود وابن عباس أن موسى عليه السلام اجتمع مع رئيس السحرة شمعون فقال له موسى أرأيت إن غلبتكم أتؤمنون بي فقال له نعم فعلم بذلك فرعون فقال ما قال انتهى ، ولما خاف فرعون أن يكون إيمان السحرة حجة قومه ألقى في الحال نوعين من الشبه أحدهما إنّ هذا تواطؤ منهم لا أنّ ما جاء به حق والثاني ﴿ إن ذلك طلب منهم للملك ﴾ .

(55/282)

﴿ فسوف تعلمون ﴾ تهديد ووعيد ومفعول ﴿ تعلمون ﴾ محذوف أي ما يحلّ بكم أبهم في متعلق ﴿ تعلمون ﴾ ثم عين ما يفعل بهم فقال مقسماً : ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ لما ظهرت الحجة عاد إلى عادة ملوك السوء إذا غلبوا من تعذيب من ناوأهم وإن كان محقّاً ومعنى ﴿ من خلاف ﴾ أي يد يمنى ورجل يسرى والعكس ، قيل هو أول من فعل هذا ، وقيل المعنى من أجل الخلاف الذي ظهر منكم والصلب التعليق على الخشب وهذا التوعد الذي توعده فرعون السحرة ليس في القرآن نص على أنه أنفذه وأوقعه بهم ولكن روي في القصص أنه قطع بعضاً وصلب بعضاً وتقدم قول قتادة ، وروي عن ابن عباس أنهم أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء ، وقرأ مجاهد وحميد المكي وابن محيصن ﴿ لأقطعن ﴾ مضارع قطع الثلاثي و ﴿ لأصلبنكم ﴾ مضارع صلب الثلاثي بضم لام ﴿ لأصلبنكم ﴾ وروي بكسرها وجاء هنا ﴿ ثم ﴾ وفي السورتين ﴿ ولأصلبنكم ﴾ بالواو فدل على أن الواو أريد بها معنى ثم من كون الصلب بعد القطع والتعدية قد يكون معها مهلة وقد لا يكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(56/282)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾

منكِراً على السحرة موبّخاً لهم على ما فعلوه : ﴿ آمَنْتُم بِهِ ﴾ بهمزة واحدة إما على الإخبار المحضِ المتضمّنِ للتوبيخ أو على الاستفهام التوبيخيّ بحذف الهمزة كما مر في إن لنا لأجراً ، وقد قرىء بتحقيق الهمزتين معاً بتحقيق الأولى وتسهيلِ الثانية بيْنَ بيْن أي آمنتم بالله تعالى ﴿ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي بغير أن آذنَ لكم كما في قوله تعالى : ﴿ لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لكلمات رَبّى لَنَفِدَ ﴾ لا أن الإذنَ منه ممكنٌ في ذلك ﴿ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ ﴾ يعني أن ما صنعتموه ليس مما اقتضى الحالُ صدورَه عنكم لقوة الدليلِ وظهور المعجزة بل هو حيلةٌ احتملتموها مع مواطأة موسى ﴿ فِى المدينة ﴾ يعني مصرَ قبل أن تخرجوا إلى الميعاد . روي أن موسى عليه الصلاة والسلام وأميرَ السحرةِ التقيا فقال له موسى : أرأيتَك إن غلبتُك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئتُ به الحقُّ ، فقال الساحرُ : والله لئن غلبتَني لأومننَّ بك وفرعونُ يسمعهما ، وهو الذي نشأ عنه هذا القول ﴿ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أي القِبْطَ وتخلُصَ هي لك ولبني إسرائيلَ ، وهاتان شبهتان ألقاهما إلى أسماع عوامِّ القِبطِ عند معاينتهم لارتفاع أعلامِ المعجزة ومشاهدتِهم لخضوع أعناقِ السحرةِ لها وعدم تمالُكِهم من أن يؤمنوا بها ليمنعهم بهما عن الإيمان بنبوة موسى عليه الصلاة والسلام بإراءة أن إيمانَ السحرةِ مبنيٌّ على المواضعة بينهم وبين موسى وأن غرضَهم بذلك إخراجُ القوم من المدينة

وإبطالُ مُلْكِهم ، ومعلومٌ أن مفارقةَ الأوطانِ المألوفةِ والنعمةِ المعروفةِ مما لا يُطاق به فجمع اللعينُ بين الشبهتين تثبيتاً للقِبطِ على ما هم عليه وتهييجاً لعداوتهم له عليه الصلاة والسلام ثم عقبهما بالوعيد ليُريَهم أن له قوةً وقدرةً على المدافعة فقال : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة ما فعلتم ، وهذا وعيدٌ ساقه بطريق الإجمالِ للتهويل ثم عقبه بالتفصيل

(57/282)

فقال : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ أي من كل شقَ طرَفاً ﴿ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ تفصيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم . وقيل : هو أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى لقُطّاع الطريق تعظيماً لجُرمهم ولذلك سماه الله تعالى محاربةً لله ورسوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(58/282)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ منكراً على السحرة موبخاً لهم على ما فعلوه ﴿ ءامَنْتُمْ بِهِ ﴾ أي برب

موسى وهرون أو بالله تعالى لدلالة ذلك عليه أو بموسى عليه السلام قيل لقوله تعالى في آية أخرى : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ [طه : 71] فإن الضمير فيها له عليه السلام لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ [طه : 71] الخ ، والمقصود من الجملة الخبرية التوبيخ لأن الخبر إذا لم يقصد به فائدته ولا لازمها تولد منه بحسب المقام ما يناسبه ، وهنا لما خاطبهم الجبار بما فعلوا مخبراً لهم بذلك مع ظهور عدم قصد إفادة أحد الأمرين والمقام هو المقام أفاد التوبيخ والتقريع ، ويجوز أن تقدر فيه الهمزة بناء على اطراد ذلكوالاستفهام للانكار بمعنى أنه لا ينبغي ذلك ، ويؤيد ذلك قراءة حمزة .

والكسائي .

وأبي بكر عن عاصم .

وروح عن يعقوب ﴿ أَءَمِنتُمْ ﴾ بهمزتين محققتين وتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين مما قرىء به أيضاً .

﴿ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي قبل أن آملاكم أنا بذلك وهو على حد قوله تعالى : ﴿ لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات ربّى ﴾ [الكهف : 109] لا أن الاذن منه في ذلك وأصل آذن أأذن بهمزتين الأولى للتكلم ، والثانية من صلب الكلمة قلبت الفا لوقوعها ساكنة بعده مة ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الصنيع ﴿ لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ ﴾ لحليلة احتلتموها أنتم وموسى وليس مما اقتضى الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة ، وهذا تمويه منه على القبط يريهم

أنهم ما غلبوا ولا انقطعت حجتهم ، قيل : وكذا قوله : ﴿ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : 321] ﴿ فِى المدينة ﴾ أي في مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد .

أخرج ابن جرير .

(59/282)

وأبو الشيخ عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة فقال له موسى : أرأيتك أن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق فقال الساحر : لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر فوالله لئن غلبتني لأمنن بك ولأشهدن أنك حق وفرعون ينظر إليهم وهو الذي نشأ عنه هذا القول ﴿ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أي القبط وتخلص لكم ولبني إسرائيل ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ما فعلتم ، وهذا وعيد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال :

﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ أي من كل جانب عضواً مغايراً للآخر كاليد من جانب والرجل من آخر ، والجار في موضع الحال أي مختلفة ، والقول بأن (من) تعليلية متعلقة بالفعل أي لأجل خلافكم بعيد ﴿ ثُمَّ لاَصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم ، والتصليب مأخوذ من الصلب وهو الشد على خشبة أو غيرها وشاع في تعليق

الشخص بنحو حبل في عنقه ليموت وهو المتعارف اليوم ، ورأيت في بعض الكتب أن الصلب الذي عناه الجبار هو شد الشخص من تحت الإبطين وتعليقه حتى يهلك ، وهو كقطع الأيدي والأرجل أول من سنه فرعون على ما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وشرعه الله تعالى لقطاع الطريق تعظيماً لجرمهم ، ولهذا سماه سبحانه محاربة لله ولرسوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(60/282)

وقال ابن عاشور :

وفصلت جملة : ﴿ قال فرعون ﴾ لوقوعها في طريق المحاورة .

وقوله : ﴿ آآمنتم ﴾ قرأه الجمهور بصيغة الاستفهام بهمزتين فمنهم من حققها ، وهم : حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وروْح عن يعقوب ، وخلفٌ ، ومنهم من سهل الثانية مَدّة ، فصار بعد الهمزة الأولى مدتان ، وهؤلاء هم : نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وقرأه حفص عن عاصم بهمزة واحدة فيجوز أن يكون إخباراً ، ويجوز أن تكون همزة الاستفهام محذوفة وما ذلك ببدع .

والاستفهام للإنكار والتهديد مجازاً مرسلاً مركباً ، والإخبار مستعمل كذلك أيضاً لظهور

أنه لا يقصد حقيقة الاستفهام ولا حقيقة الإخبار لأن المخاطبين صرحُوا بذلك وعلموه ،

والضمير المجرور بالباء عائد إلى موسى ، أي : آمنتم بما قاله ، أو إلى رب موسى .

وجملة : ﴿ إن هذا لمكر ﴾ الخ . . .

خبر مراد به لازم الفائدة أي : قد علمتُ مرادكم لأن المخاطَب لا يخبَر بشيء صَدر منه ،

كقول عنترة:

إنْ كنتِ أزمعتِ الفراق فإنما . . .

زُمّتْ ركابُكم بليل مظلم

أي : إن كنت أخفيتِ عني عزمك على الفراق فقد علمتُ أنكم شددتُم رحالكم بليل

لترحلوا خفية .

وقوله : ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُم ﴾ ترق في موجب التوبيخ ، أي لم يكفكم أنكم آمنتم بغيري

حتى فعلتم ذلك عن غير استئذان ، وَفصْلها عما قبلها لأنها تعداد للتوبيخ .

والمكر تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ في سورة آل عمران (54) ،

وتقدم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ أفأمنوا مَكر الله ﴾ [الأعراف : 99] والضمير

المنصوب في ﴿ مكرتموه ﴾ ضمير المصدر المؤكّد لفعله .

و ﴿ في ﴾ ظرفية مجازية : جعل مكرهم كأنه موضوع في المدينة كما يوضع العنصر المفسد ، أي : أردتم إضرار أهلها ، وليست ظرفية حقيقية لأنها لا جدوى لها إذ معلوم لكل أحد أن مكرهم وقع في تلك المدينة ، وفسره في "الكشاف" بأنهم دبروه في المدينة حين كانوا بها قبل الحضور إلى الصحراء التي وقعت فيها المحاورة ، وقد تبين أن المراد بالظرفية ما ذكرناه بالتعليل الذي بعدها في قوله : ﴿ لتخرجوا منها أهلها ﴾ والمراد هنا بعض أهلها ، وهم بنو إسرائيل ، لأن موسى جاء طلباً لإخراج بني إسرائيل كما تقدم .

وقول فرعون هذا يحتمل أنه قاله موافقاً لظنه على سبيل التهمة لهم لأنه لم يكن له علم بدقائق علم السحر حتى يفرق بينه وبين المعجزة الخارقة للعادة ، فظن أنها مكيدة دبرها موسى مع السحرة ، وأنه لكونه أعلمهم أو معلمهم أمرهم فائتمروا بأمره ، كما في الآية الأخرى ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ [طه : 71] .

ويحتمل أنه قاله تمويهاً وبهتاناً ليصرف الناس عن اتباع السحرة ، وعن التأثر بغلبة موسى إياهم فيدخل عليهم شكاً في دلالة الغلبة واعتراف السحرة بها ، وأن ذلك مواطاة بين الغالب والمغلوب لغاية مقصودة ، وهو موافق في قوله هذا ، لما كان أشار به .

الملأ من قومه حين قالوا : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ [الشعراء : 35]

وأيا ما كان فعزمه على تعذيبهم مصير إلى الظلم والغشم لأنه ما كان يحق له أن يأخذهم

بالتهمة ، بله أن يعاقبهم على المصير إلى الحجة ، ولكنه لما أعجزته الحجة صار إلى الجبروت .

وَفرع على الإنكار والتوبيخ الوعيدَ بقوله : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ، وحذف مفعول ﴿ تعلمون ﴾ لقصد الإجمال في الوعيد لإدخال الرعب ، ثم بيّنه بجملة ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ .

ووقوع الجمع معرفاً بالإضافة يكسبه العموم فيعم كل يدَ وكل رجْل من أيدي وأرجل السحرة .

(62/282)

و ﴿ منْ ﴾ في قوله : ﴿ من خلاف ﴾ ابتدائية لبيان موضع القطع بالنسبة إلى العضو الثاني ، وقد تقدم بيان نظيرها عند قوله تعالى : ﴿ أو تُقطّعُ أيْدِيهمْ وَأرْجُلُهمْ من خلاف ﴾ في سورة المائدة (33) .

فالمعنى : أنه يقطع من كل ساحر يداً ورجلاً متخالفتي الجهة غير متقابلتيها ، أي : إنْ قطعَ يدَه اليمنى قطعَ رجله اليسرى والعكس ، وإنما لم يقطع القوائم الأربع لأن المقصود بقاء الشخص متمكناً من المشي متوكئاً على عود تحت اليد من جهة الرجل المقطوعة .

ودلت ثُم ﴾ على الارتقاء في الوعيد بالثلب ، والمعروف أن الصلب أن يقتل المرء مشدوداً على خشبة ، وتقدم في قوله : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾ في سورة النساء (157) ، وعلى هذا يكون توعّدهم بنوعين من العذاب .

والوعيد موجّه إلى جماعتهم فعلم أنه جعلهم فريقين : فريق يعذب بالقطع من خلاف ، وفريق يعذب بالصلب والقتل ، فعلى هذا ليس المعنى على أنه يصلبهم بعد أن يقطعهم ، إذ لا فائدة في تقييد القطع بكونه من خلاف حينئذٍ ويحتمل أن يراد بالصلب : الصلب دون قتل ، فيكون أراد صلبهم بعد القطع ليجعلهم نكالاً ينذعر بهم الناس ، كيلا يُقدم أحد على عصيان أمره من بعد ، فتكون (ثم) دالة على الترتيب والمهلة ، ولعل المهلة قصد منها مدة كيّ واندمال موضع القطع ، وهذا هو المناسب لظاهر قوله : ﴿ أجمعين ﴾ المفيد أن الصلب ينالهم كلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(63/282)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾

وكأن فرعون مازال يحاول تأكيد سلطانه ، ونعلم أن بني إسرائيل اختلطوا بالناس في مصر ،

ومنهم من تعلم السحر . ولذلك اتهم فرعون السحرة بأنهم قد اتفقوا مع موسى على هذه المسألة .

لقد كان فرعون في مأزق ويريد أن يخرج منه ؛ لأن الناس جميعاً قد شاهدوا المسألة ، وهو لا يريدهم أن يتشككوا في ألوهيته ، فينهدم الصرح الذي أقامه على الأكاذيب ؛ لذلك قال السحرة : إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة . . أي أنكم اتفقتم مع موسى ، وسيأتي ويقول : اتهاماً لموسى : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر . . . ﴾ [طه : 71]

ونتيجة لهذا المكر المتوهم بين بني إسرائيل وموسى يتوعدهم فرعون : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ . . . ﴾

والوعيد – كما نراه – قاسٍ وفظيع ، فتقطيع الأيدي والأرجل ثم الصلب كلها أمور تخيف ، فماذا يكون الرد ممن يتلقون هذا الوعيد ، وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ؟ إنهم يقولون : ﴿ قالوا إِنَّآ إِلى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(64/282)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كانت السحرة سبعين رجلاً أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء . وفي لفظ : كانوا سحرة في أول النهار وشهداء آخر النهار حين قتلوا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن كعب قال : كان سحرة فرعون اثني عشر ألفاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن إسحق قال : جمع له خمسة عشر ألف ساحر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي ثمامة قال : سحرة فرعون سبعة عشر الفاً . وفي لفظ تسعة عشر ألفاً .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي قال : كان السحرة بضعة وثلاثين ألفاً ليس منهم رجل إلا معه حبل أو عصا ، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن القاسم بن أبي بزة قال : سحرة فرعون كانوا سبعين ألف ساحر ، فألقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا حتى جعل موسى يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوحى الله إليه : يا موسى ألقِ عصاك . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان فاغر فاه فابتلع حبالهم وعصيهم ، فألقى السحرة عند ذلك سجداً فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال : كانت السحرة الذين توفاهم الله مسلمين ثمانين ألفاً .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج قال : السحرة ثلاثمائة من قرم ، ثلاثمائة من العريش ، ويشكون في ثلاثمائة من الاسكندرية .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ قالوا إنَّ لنا لأجراً ﴾ أي ائن لنا لعطاء وفضيلة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ فلما ألقوا ﴾ قال : ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً ، فأقبلت تخيل إليه من سحرهم أنها تسعى .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾ قال : أوحى الله إلى موسى أن ألق ما في يمينك ، فألقى عصاه فأكلت كل حية ، فلما رأوا ذلك سجدوا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾ فألقى عصاه فتحولت حية ، فأكلت سحرهم كله وعصيهم وحبالهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ تلقف ما يأفكون ﴾ قال : يكذبون .

(66/282)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ تلقف ما يأفكون ﴾ قال : تسترط حبالهم وعصيهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر لنا أن السحرة قالوا حين اجتمعوا : إن يك ما

جاء به سحراً فلن يغلب ، وإن يك من الله فسترون . فلما ألقى عصاه أكلت ما افكوا من سحرهم وعادت كما كانت علموا أنه من الله ، فألقوا عند ذلك ساجدين قالوا : آمنا برب العالمين .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : التقى موسى وأمير السحرة ، فقال له موسى ، أرأيتك إن غلبتك اتؤمن بي ، وتشهد أن ما جئت به حق ؟ قال الساحر : لآتينَّ غداً بسحر لا يغلبه سحر ، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنك حق وفرعون ينظر إليهم ، وهو قول فرعون : إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة إذ التقيتما لتظاهر أفتخرجا منها أهلها ؟ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ فوقع الحق ﴾ قال : ظهر ﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ قال : ذهب الإفك الذي كانوا يعملون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ وألقى السحرة ساجدين ﴾ قال : رأوا منازلهم تبنى لهم وهم في سجودهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي قال : لما خرَّ السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة ﴾

إذ التقيتما لتظاهرا فتخرجا منها أهلها ﴿ لأقطعن أيديكم . . . ﴾ الآية : قال قتلهم وقطعهم كما قال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن إسحق قال : كان من رؤوس السحرة الذين جمع فرعون لموسى فيها بلغني سابور ، وعاذور ، وحطحط ، ومصفى . أربعة هم الذين آمنوا حين رأوا ما رأوا من سلطان الله ، فآمنت معهم السحرة جميعاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان أول من صلب فرعون ، وهو أول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف .

(67/282)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : لما ألقوا ما في أيديهم من السحر ، ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، فتحت فَماً لها مثل الرحى فوضعت مشفرها على الأرض ورفعت المشفر الآخر فاستوعبت كل شيء ألقوه من حبالهم وعصيهم ، ثم جاء إليها فأخذها فصارت عصا كما كانت ، فخرت بنو إسرائيل سجداً وقالوا : آمنا برب موسى وهارون قال ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ الآية . قال : فكان أول من قطع من خلاف وأول من صلب في الأرض فرعون .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ قال : يداً من ههنا ورجلاً من ههنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أنهم كانوا أول النهار سحرة وآخره شهداء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(68/282)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم " وقال فى طه والشعراء : "قال آمنتم له قبل أن آذن لكم " .

هنا سؤالان : أحدهما ظهور اسم فرعون فى آية الأعراف وإضماره فى السورتين والثانى قوله فى الأعراف : "آمنتم به "بجر موسى عليه السلام بالباء وقوله فى طه والشعراء : " آمنتم له " بجر الضمير باللام والمقصود واحد .

والجواب عن الأول : أنه لما تقدم فى الأعراف قوله : "قال الملأ من قوم فرعون " فعرفت هذه الآية أنهم كانوا المتولين للجريمة من تكذيب الآية ورد ما جاء به موسى عليه السلام ولم يجر

هنا ذكر لفرعون ولا فيما تلى الآية ويتلوها من المحاورة والمراجعة بين الملإ وأتباعهم إلى قوله : "رب موسى وهارون " فلما لم يقع إفصاح باسمه فى هذه الجملة مع أنه هو القائل على كل حال : "آمنتم به " إخبارا أو استفهاما إنكاريا ناسب هذا أن يفصح باسمه ليرتفع الالتباس وهو امكان أن يكون القائل "آمنتم به " غير فرعون وان بعد ذلك ولو لم يكن لبس البته فإن كونه لم يجر له ذكر مما يقتضى أن ذمر .

(69/282)

ولما تقدم فى سورة طه أمر موسى عليه السلام بإرساله إلى فرعون فى قوله تعالى : " اذهب إلى فرعون أنه طغى "وقوله لموسى وهارون : "اذهبا إلى فرعون إنه طغى " ثم كرر ذلك ثم وقع بعد ذلك سؤال فرعون لهما فى قوله : "فمن ربكما يا موسى " ثم فى قوله : "فما بال القرون الأولى " ثم أن الله تعالى أخبر عنه بقوله : "ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى " ثم أخبر أيضا عنه بقوله : "قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى " ثم قال تعالى : "فتول فرعون فجمع كيده ثم أتى " فتكرر ذكر فرعون واسمه ظاهرا ومضمرا ولم يجر لملئه ذكر مفصح به ظاهر البته ولا مضمر سوى الجارى مضمرا فى قوله : "فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا " إلى ما بعد هذا من غير إظهار البته فلتكرر اسم فرعون كثيرا

ظاهرا ومضمرا وارتفاع اللبس البتة حسن إتيانه مضمرا فى قوله : "قال آمنتم له " إذ ليس الوارد هنا كالوارد فى الأعراف للافتراق من حيث ذكرنا وكذا جرى فى سورة الشعراء من ترداد ذكر فرعون فى محاورته من أول السورة إلى الآية ولم يجر ذكر ملئه الا مقولا لهم فى قوله : "قال للملإ حوله " فناسب ما ذكر إظهار اسم فرعون فى قوله : "آمنتم له " .

والجواب عن السؤال الثانى : أن الباء فى قوله : "آمنتم به " واللام فى "آمنتم له " محتاج إلى كل واحدة منهما من حيث أن التصديق والانقياد معنيان يحتاج إليهما والباء تحرز التصديق واللام تحرز الانقياد والاذعان فبدئ بالباء المعطية معنى التصديق وهى أخص بالمقصود من اللام فاقتضى الترتيب تقديمها ثم أعقب فى السورتين بعد باللام حتى كأن قد قيل لهم أصدقتموه منقادين له فى دعائه إياكم إلى الإيمان بما جاء من عند الله فحصل المقصود على أكمل ما يمكن والله أعلم .

قوله تعالى : "فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف " وفى سورة الشعراء : "فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف " وفى سورة طه : "فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف "

(70/282)

للسائل أن يسأل عن زيادة اللام فى قوله فى الشعراء "فلسوف" وسقوطها فى الأعراف ؟ وعن سقوط حرف التسويف واللام فى طه جملة ؟ فهذان سؤالان .

والجواب عن الأول منهما : أن زيادة اللام فى الشعراء مناسب لما تضمنته من الاستيفاء الجارى فى هذه القصة وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك وذلك أن هذه اللام مقربة من زمان الحال وتحقيق الوقوع ولم يكن تقدم فى الأعراف ولا فى طه ما يحرز هذا المعنى فاستوفته هذه السورة ليناسب ذلك استيفائها لما كان بين موسى عليه السلام وفرعون وهذا مع ما تعطيه من التأكيد وما سوى هذا المعنى فى هذه الآية فلا فرق بين آية الأعراف وآية الشعراء إلى قوله : "من خلاف" .

واما سقوط حرف التسويف فى طه واللام – وهو جواب السؤال الثانى – فللعوض منهما وذلك العوض هو اللام والنون الشديدة المؤكدة فوله "ولتعلمن" مع أن معنى التسويف قد قدم بمراعاة الترتيب وإذا روعى ذلك وجد تدريج زيادة التأكيد على ترتيب السور فالوعيد الواقع فى آية طه آكد من الذى فى آية الأعراف والذى فى الشعراء آكد من الوارد فى طه وان استوضحت ذلك فهمت وجه تخصيص كل من السور الثلاث بما خصت به .

قوله تعالى : " ثم لأصلبنكم أجمعين "وفى طه والشعراء "ولأصلبنكم "بالواو والمتوعد به واحد فى الموضعين فيسأل لم لم يكن العطف فيهما بحرف واحد ؟ والواو أنسب إذ التوعد بقوله : "لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم " لم يقصد فيه تراخ فى الزمان

ولا مهلة فبابه أن يأتى بالواو أو بالفاء إن قصد رعى التعقيب فللسائل أن يقول : لم عدل فى الأعراف إلى ثم .

(71/282)

والجواب أن ثم للتباين والتراهى فى الزمان ويعبر النحويون عن ذلك بالمهلة وتكون للتباين فى الصفات والأحكام وغير ذلك مما يحمل به ما بعدها على ما قبلها من غير قصد مهلة زمانية بل ليعلم موقع ما يعطف بها وحاله وأنه لو انفرد لكان كافيا فيما قصد به ومنه قوله تعالى : " فتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر "وقوله تعالى : "فلا اقتحم العقبة " ثم عطف بعد قوله : "ثم كان من الذين آمنوا "وقوله تعالى : "وعمل صالحا ثم اهتدى " ولم يقصد فى شئ من هذا ترتيب زمانى بل تعظيم الحال فيما عطف وموقعه وما كنته وتحريك النفوس لاعتباره ولما تقدم فى الأعراف تهويل الواقع من فعل السحرة وموقعه من نفوس الحاضرين ولذلك أنس سبحانه نبيه موسى عليه السلام بقوله : "لا تخف إنك أنت الأعلى "ووقع التعبير غما ذكرنا بقوله : "واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم "فناسبه رعيا لفظيا وتقابلا نظميا تهويل ما توعدهم به فرعون فعطف بثم لتحرز ما قصد فرعون من تعظيم موقع ما توعدهم به ثانيا فى قوله : "لأصلبنكم "عليهم وأيضا فإن فرعون وملأه حين رأوا ما جاءت به

السحرة ووقع منهم موقعا أطمعهم وتعلق به رجاؤهم ثم لما وقع ما أبطله وأوضح كيدهم فيه وباطلهم الخيالى وجد الملأ لذلك واستشعر فرعون ما حل به وبملئه فهول فى توعدهم ومقاله تجلدا وتصبرا أو تعزية لنفسه عما نزل به فأرعد وأبرق فى تهويله ما توعد به السحرة فقال : "ثم لأصلبنكم " فقد تناسب المتقابلان لفظا ومعنى ولما ضم الواقع فى سورة الشعراء لم يحتج إلى هذا الرعى فعطف بالواو ولم يكن على ما تقرر ليمكن العكس والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 219. 221 ﴾

(72/282)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " آمنتم "

اختلف القرَّاءُ في هذا الحرف هنا ، وفي طه وفي الشعراءِ ، فبعضهم جرى على منوالٍ واحد ، وبعضهم قرأ في موضع بشيءٍ لم يقرأ بِهِ في غيره ، وهم في ذلك على أربع مراتب .

الأولى : قراءة الأخوينِ ، وأبي بكر عن عاصمٍ بتحقيق الهمزتين في السُّور الثَّلاثِ من غير إدخال ألف بينهما ، وهو استفهام إنكارٍ ، وأمَّا الألفُ الثَّالثة فالكلُّ يَقْرءُونَهَا كذلك ، لأنَّهَا

فاءُ الكلمة ، أبدلتْ لسكونها بعد همزة مفتوحة ، وذلك أنَّ أصْلَ هذه الكلمةِ أَأَمْنْتم بثلاثِ همزاتٍ : الأولى للاستفهام ، والثَّانيةُ همزة " أفْعَلَ " ، والثَّالثةُ فاء الكلمة ، فالثَّالثة يجبُ قبلها ألفاً ، لما تقدم أوَّل الكتاب ، وأمَّا الأولى فمُحَقَّقه ليس إلاَّ ، وأمَّا الثَّانيةُ فهي الَّتي فيها الخلاف بالنِّسبة إلى التَّحقيقِ والتَّسْهيلِ .

الثانية : قراءة حفص وهي " منتم " بهمزة واحدة بعدها الألفُ المشار إليها في جميع القرآن ، وهذه القراءةُ تحتمل الخبرَ المَحْضَ المتضمِّنَ للتَّوبيخ ، وتحتمل الاستفهامَ المشارَ إليه ، ولكنه حُذِفَ لفهم المعنى ، ولقراءة الباقين .

الثالثة : قراءة نافعٍ وابن عمروٍ وابن عامر والبزِّي عن ابن كثير وهي تحقيقُ الأولى ، وتسهيلُ الثانية بين بين ، والألف المذكورة ، وهو استفهام إنكاري ، كما تقدم .

الرابعة : قراءةُ قنبلٍ عن ابنِ كثير ، وهي التَّفرقةُ بين السُّور الثَّلاثِ .

(73/282)

وذلك أنَّهُ قرأ في هذه السُّورة حال الابتداء بـ " آآمنتم " بهمزتين ، أولاهما محققة والثَّأنية مُسَهَّلة بَيْنَ بَيْنَ وألف بعدها كقراءة البزِّي ، وحال الوصل يقرأ : " قَالَ فِرْعَوْنُ وآمَنْتُم " بإبدال الأولى واواً ، وتسهيل الثَّانية بين بين وألف بعدها ، وذلك أنَّ الهمزة إذا كانت

مفتوحةً بعد ضمَّةٍ جاز إبدالُهَا واواً سواء أكانت الضَّمَّةُ والهمزةُ في كلمةٍ واحدةٍ نحو : مُرْجَؤونَ ، و ﴿ يُؤَاخِذُكُمُ ﴾ [البقرة : 225] ومُؤجّلاً أم في كلمتين كهذه الآيةِ ، وقد فعل ذلك أيضاً في سورة الملك في قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ النشور أَأَمِنتُمْ ﴾ [الملك : 15 – 16] فأبدلَ الهمزةَ الأولى واواً ، لانضمام ما قَبْلَهَا حال الوصل ، وأمَّا في الابتداءِ فيخففها لزوال الموجبِ لقلبها ، إلاَّ أنَّه ليس في سورة الملكِ ثلاثُ همزاتٍ ، وسيأتي إن شاء اللَّهُ تعالى في موضعه .

وقرأ في سورة طه كقراءة حفص : أعني بهمزة واحدة بعدها ألف ، وفي سورة الشعراء كقراءة رفيقه الزّيّ ، فإنَّهُ ليس قبلها ضمة ؛ فيبدلها واواً في حال الوصل .

ولم يُدخلْ أحدٌ من القراء مدّاً بين الهمزتين هنا سواءً في ذلك من حقَّق أو سهَّل ، لئلاَّ يجتمع أربعُ متشابهاتٍ ، والضميرُ في " به " عائدٌ على اللَّهِ تعالى لقوله : ﴿ قالوا آمَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ ويجوزُ أن يعود على موسى ، وأمَّا الذي في سورة طه والشعراء في قوله ﴿ آمَنتُمْ بِهِ ﴾ فالضَّميرُ لموسَى لقوله ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ .

قوله : " فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ "

حُذِفَ مفعولُ العلم ، للعلم به ، أي : تعلمون ما يحلُّ بكم ، وهذا وعيدٌ مجمل ، ثُمَّ فَسَّرَ هذا المُبْهَمَ بقوله : " لأَقَطِّعَنَّ " جاء به في جملةٍ قَسَمِيّةٍ ؛ تأكيداً لِمَا يَفْعَله .

وقرأ مجاهدُ بنُ جبر ، وحميد المكي ، وابنُ مُحَيْصن :

" لأقْطعَنَّ " مخففاً من " قَطَعَ " الثلاثي ، وكذا لأصْلُبَنّكُم من " صَلَبَ " الثلاثي .

(74/282)

رُوي بضم اللام وكسرها ، وهما لغتان في المضارع ، يُقال : صَلَبَهُ يَصْلُبُهُ ويَصْلِبُهُ .

قوله : " مِنْ خلافٍ " يُحتمل أن يكون المعنى : على أنَّهُ يقطع من كُلِ شقَّ طرفاً ، فيقطع اليدَ اليمنى ، والرِّجل اليسرى ، وكذا هو في التفسير ، فيكونُ الجارُّ والمجرور في محلِّ نصبٍ على الحال ، كأنَّهُ قال : مُختلفةً ، يُحْتمل أن يكون المعنى : لأقَطِّعَنَّ لأجْلِ مخالفتكم إيَّاي فتكون " مِنْ " تعليليةً وتتعلَّق على هذا بنفس الفعل ، وهو بعيدٌ .

و " أجْمَعِينَ " تأكيدُ أتى به دون كلّ وإن كان الأكثرُ سبقهُ بـ " كلّ " وجيء هنا بـ " ثُمَّ " ، وفي : طه والشعراء بالواو ، لأن الواو صالحةٌ للمُهْلة ، فلا تَنَافِيَ بين الآيات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 266 . 268 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا

أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) ﴾

خاطبَهم معتقداً أنهم هم الذين كانوا ، وهم يعلمون أن تلك الأسرار قد خرجت عن رِقِّ الأشكال ، وأن قلوبهم طهرت عن توهم التفرقة ، وأن شمسَ العرفان طلعت في سماءِ أسرارهم ، فأشهدوا الحقَّ بنظر صحيح ، ولم يبقَ لتخويفات النفس فيهم سلطان ، ولا لشيء من العلل بينهم مساغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 558 ﴾

(75/282)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعي :

ولما كان حالاً يشوق النفوس إلى جوابهم ، استأنفه بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي أجمعون ، لم يرتع منهم إنسان ولا تزلزل عما منحه الله به من رتبة الإيمان ﴿ إنا إلى ربنا ﴾ أي الذي ما زال يحسن إلينا بنعمه الظاهرة والباطنة حتى جعل آخر ذلك أعظم النعم ، لا إلى غيره

﴿ منقلبون ﴾ أي بالموت انقلاباً ثابتاً لا انفكاك لنا عنه إن صلبتنا أو تركتنا ، لا طمع لنا في البقاء في الدنيا ، فنحن لا نبالي – بعد علمنا بأنا على حالة السعداء – بالموت على أيّ حالة كان ، أو المراد أنا ننقلب إذا قتلتنا إلى من يحسن إلينا بما منه الانتقام منك ، ولذلك اتبعوه بقولهم : ﴿ وما تنقم ﴾ أي تنكر ﴿ منا ﴾ أي فعلك ذلك بنا وتعيب علينا ﴿ إلا أن آمنا ﴾ أي إلا ما هو أصل المفاخر كلها وهو الإيمان ﴿ بآيات ربنا ﴾ أي التي عظمت بكونها صادرة عنه ولم يزل محسناً إلينا فوجب علينا شكره ﴿ لما ﴾ أي حين ﴿ جاءتنا ﴾ لم نتأخر عن معرفة الصدق المصدَّق ، وهذا يوجب الإكرام لا الانتقام ؛ ثم آذنوه بأنهم مقدمون على كل ما عساه أن يفعل به فقالوا : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا القادر على خلاصنا ﴿ أفرغ ﴾ أي صب صباً غامراً ﴿ علينا ﴾ أي فيما تهددنا به هذا الذي قويته علينا ﴿ صبراً ﴾ أي كثيراً تغمرنا به كما يغمر الماء من يفرغ عليه حتى لا يروعنا ما يخوفنا به ﴿ وتوفنا ﴾ أي اقبض أرواحنا وافية حال كوننا ﴿ مسلمين ﴾ أي عريقين في الانقياد بالظاهر والباطن بدلائل الحق ، والظاهر أن الله تعالى أجابهم فيما سألوه تلويحاً بذكر الرب فلم يقدره عليهم لقوله تعالى ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35] ولم يات في خبر يعتمد أنه قتلهم ، وسيأتي في آخر الحديد ، عن تاريخ ابن عبد الحكم ما هو صريح في خلاصهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 85 .

﴿ 86 ﴾

فصل

قال الفخر :

(76/282)

ثم حكى تعالى عن القوم ما لا يجوز أن يقع من المؤمن عند هذا الوعيد أحسن منه ، وهو قولهم لفرعون : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ ءامَنَّا بِـَٔايات رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا ﴾ فبينوا أن الذي كان منهم لا يوجب الوعيد ولا إنزال النقمة بهم ، بل يقتضي خلاف ذلك ، وهو أن يتأسى بهم في الإقرار بالحق والاحتراز عن الباطل عند ظهور الحجة والدليل .

يقال : نقمت أنقم إذا بالغت في كراهية الشيء ، وقد مر عند قوله : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا ﴾ [المائدة : 59] قال ابن عباس : يريد ما أتينا بذنب تعذبنا عليه إلا أن آمنا بآيات ربنا .

والمراد : ما أتى به موسى عليه السلام من المعجزات القاهرة التي لا يقدر على مثلها إلا الله تعالى .

ثم قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ معنى الإفراغ في اللغة الصب .

يقال : درهم مفرغ إذا كان مصبوباً في قالبه وليس بمضروب ، وأصله من إفراغ الإناء وهو

صب ما فيه حتى يخلو الإناء وهو من الفراغ ، فاستعمل في الصبر على التشبيه بحال إفراغ الإناء .

قال مجاهد : المعنى صب علينا الصبر عند الصلب والقطع ، وفي الآية فوائد :

الفائدة الأولى : ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أكمل من قوله : أنزل علينا صبراً ، لأنا ذكرنا أن إفراغ الإناء هو صب ما فيه بالكلية ، فكأنهم طلبوا من الله كل الصبر لا بعضه .

والفائدة الثانية : أن قوله ﴿ صَبْراً ﴾ مذكور بصيغة التنكير ، وذلك يدل على الكمال والتمام ، أي صبراً كاملاً تاماً كقوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ [البقرة : 96] أي على حياة كاملة تامة .

والفائدة الثالثة : إن ذلك الصبر من قبلهم ومن أعمالهم ، ثم إنهم طلبوه من الله تعالى ، وذلك يدل على أن فعل العبد لا يحصل إلا بتخليق الله وقضائه .

قال القاضي : إنما سألوه تعالى الألطاف التي تدعوهم إلى الثبات والصبر ، وذلك معلوم في الأدعية .

(77/282)

والجواب : هذا عدول عن الظاهر ، ثم الدليل يأباه ، وذلك لأن الفعل لا يحصل إلا عند حصول الداعية الجازمة وحصولها ليس إلا من قبل الله عز وجل ، فيكون الكل من الله تعالى .

وأما قوله : ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ فمعناه توفنا على الدين الحق الذي جاء به موسى عليه السلام وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

احتج أصحابنا على أن الإيمان والإسلام لا يحصل إلا بخلق الله تعالى ، ووجه الاستدلال به ظاهر .

والمعتزلة يحملونه على فعل الألطاف والكلام عليه معلوم مما سبق .

المسألة الثانية :

احتج القاضي بهذه الآية على أن الإيمان والإسلام واحد .

فقال إنهم قالوا أولاً ﴿ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ ثم قالوا ثانياً : ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ فوجب أن يكون هذا الإسلام هو ذاك الإيمان ، وذلك يدل على أن أحدهما هو الآخر . والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 170 . 171 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

أي : لا نبالي من عقوبتك وفعلك فإن مرجعنا إلى الله تعالى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا ﴾ يعني : وما تعيب علينا ، وما تنكر منا إلا إيماننا بالله تعالى .

ويقال : وما نقمتك علينا ولم يكن منا ذنب ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا لَمَّا جَاءتْنَا ﴾ يعني : لما ظهر عندنا أنه حق .

ثم سألوا الله تعالى الصبر على ما يصيبهم لكي لا يرجعوا عن دينهم فقالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ يعني : أنزل علينا صبراً عند القطع والصلب ، ومعناه : ارزقنا الصبر وثبت قلوبنا حتى لا نرجع كفاراً ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ على دين موسى .

وروي عن عبيد الله بن عمير أنه قال : كانت السحرة أول النهار كفاراً فجرة ، وآخر النهار شهداء بررة .

وقال بعض الحكماء : إن سحرة فرعون كانوا كفروا خمسين سنة فغفر لهم بإقرار واحد وبسجدة فكيف بالذي أقر وسجد خمسين سنة كيف لا يرجو رحمته ومغفرته ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾

هذا تسليم من مؤمني السحرة ، واتكال على الله ، وثقة بما عنده .

وقرأ جمهور الناس " تنقِم " بكسر القاف ، وقرأ أبو حيوة وأبو البرهسم وابن أبي عبلة والحسن بن أبي الحسن " تنقَم " بفتحها وهم لغتان ، قال أبو حاتم : الوجه في القراءة كسر القاف ، وكل العلماء أنشد بيت ابن الرقيات : ما نقَموا من بني أمية ، بفتح القاف ومعناه وما تعد علينا وتؤاخذنا به ؟ وقولهم ﴿ أفرغ علينا صبراً ﴾ معناه عمنا كما يعم الماء من أفرغ عليه ، وهي هنا مستعارة ، وقال ابن عباس : لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل ، وحكى المنقاش عن مقاتل أنه قال : مكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عاماً أو نحوه يريهم الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(79/282)

وقال أبو حيان :

﴿ قالوا إنا إلى ربّنا منقلبون ﴾

هذا تسليم واتّكال على الله تعالى وثقه بما عنده والمعنى أنا نرجع إلى ثواب ربنا يوم الجزاء

على ما نلقاه من الشدائد أو أنا ننقلب إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك ومن لقائك أو أنا ميتون منقلبون إلى الله فلا نبالي بالموت إذ لا تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بدّ لنا منه فالانقلاب الأول يكون المراد به يوم الجزاء وهذان الانقلابان المراد بهما في الدنيا ويبعد أن يراد بقوله ﴿ وأنّا ﴾ ضمير أنفسهم وفرعون أي ننقلب إلى الله جميعاً فيحكم بيننا لقوله ﴿ وما تنقم منا ﴾ فإنّ هذا الضمير يخصُّ مؤمني السحرة والأولى اتحاد الضمائر والذي أجاز هذا الوجه هو الزمخشري : وفي قولهم ﴿ إلى ربنا ﴾ تبرؤ من فرعون ومن ربوبيته وفي الشعراء لا ضير لأن هذه السورة اختصرت فيها القصة واتسعت في الشعراء ذكر فيها أحوال فرعون من أوّلها إلى آخرها فبدأ بقوله ﴿ ألم نربّك فِينَا وليداً ﴾ وختم بقوله ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ فوقع فيها زوائد لم تقع في هذه السورة ولا في طه قاله الكرماني .

(80/282)

﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بِآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ قال الضحاك : وما تطعن علينا ، وقال غيره : وما تكره منا ، وقال الزمخشري : وما تعيب منا ، وقال ابن عطية : وما تعد علينا ذنباً وتؤاخذنا به وعلى هذه التأويلات يكون قوله ﴿ إلا أن آمنا ﴾ في موضع المفعول ويكون من الاستثناء المفرّغ من المفعول وجاء هذا التركيب في القرآن كقوله ﴿ قل يا أهل

الكتاب هل تنقمون منا ﴾ ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا ﴾ وهذا الفعل في لسان العرب يتعدّى بعلى تقول نقمت على الرجل أنقم إذا غلب عليه والذي يظهر من تعديته بمن أنّ المعنى وما تنقم منا أي ما تنال منا كقوله فينتقم الله منه أي يناله بمكروه ويكون فعل وافتعل فيه بمعنى واحد كقدر واقتدر وعلى هذا يكون قوله ﴿ إلا أن آمنا ﴾ مفعولاً من أجله واستثناء مفرّغاً أي ما تنال منا وتعذّبنا لشيء من الأشياء إلا لأن آمنا بآيات ربنا وعلى هذا المعنى يدل تفسير عطاء ، قال عطاء : أي ما لنا عندك ذنب تعذّبنا عليه إلا أنّا آمنا ، والآيات المعجزات التي أتى بها موسى عليه السلام ومن جعل لما ظرفاً جعل العامل فيها ﴿ أنّ آمنا ﴾ ومن جعلها حرفاً جعل جوابها محذوفاً لدلالة ما قبله عليه أي لما جاءتنا آمنا وفي كلامهم هذا تكذيب لفرعون في ادعائه الرّبوبية وانسلاخ منهم عن اعتقادهم ذلك فيه والإيمان بالله هو أصل المفاخر والمناقب وهذا الاستثناء شبيه بقوله :

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم . . .

بهنّ فلول من قراع الكتائب

وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو اليسر هاشم وابن أبي عبلة ﴿ وما تنقم ﴾ بفتح القاف مضارع نقم بكسرها وهما لغتان والأفصح قراءة الجمهور .

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين ﴾ لما أوعدهم بالقطع والصلب سألوا الله تعالى أن يرزقهم الصبر على ما يحلّ بهم إن حل وليس في هذا السؤال ما يدل على وقوع هذا الموعد بهم خلافاً لمن قال يدلّ على ذلك ولا في قوله وتوفّنا مسلمين دليل على أنه لم يحلَّ بهم الموعود خلافاً لمن قال يدلّ على ذلك لأنهم سألوا الله أن يكون توفيهم من جهته لا بهذا القطع والقتل وتقدّم الكلام على جملة ﴿ ربّنا أفرغ علينا صبراً ﴾ سألوا الموت على الإسلام وهو الانقياد إلى دين الله وما أمر به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(82/282)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للجواب عن سؤال ينساق إليه الذهنُ كأنه قيل : فماذا قال السحرةُ عندما سمِعوا وعيدَ فرعونَ ؟ هل تأثروا به أو تصلبوا فيما هم فيه من الدين ؟ فقيل : قالوا ثابتين على ما أحدثوا من الإيمان : ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أي بالموت لا محالة فسواءٌ كان ذلك من قِبَلك أو لا فلا نبالي بوعيدك أو إنا إلى رحمة ربنا وثوابِه منقلبون

إن فعلتَ بنا ذلك كأنهم استطابوه شَغَفاً على لقاء الله تعالى أو إنا جميعاً إلى ربنا منقلبون فيحكم بيننا وبينك .

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا ﴾ أي وما تُنكر وتَعيب منا ﴿ إِلاَّ أَنْ ءامَنَّا بِئايات رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ وهو خيرُ الأعمال وأصلُ المفاخر ليس مما يتأتى لنا العدولُ عنه طلباً لمرضاتك ثم أعرضوا عن مخاطبته إظهاراً لما في قلوبهم من العزيمة على ما قالوا وتقريراً له ففزِعوا إلى الله عز وجل وقالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي أفِضْ علينا من الصبر ما يغمُرنا كما يغمرُ الماءُ أو صُبّ علينا ما يُطَهّرنا من أوضار الأوزار وأدناسِ الآثام وهو الصبرُ على وعيد فرعون ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ ثابتين على ما رزقنا من الإسلام غيرَ مفتونين من الوعيد . قيل : فَعل بهم ما أوعدهم به وقيل : لم يقدر عليه لقوله تعالى : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(83/282)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف بياني ﴿ إِنَّا إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أي إلى رحمته سبحانه وثوابه

عائدون إن فعلت بنا ذلك فيا حبذاه .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أن السحرة حين خروا سجداً رأوا منازلهم تبنى لهم ، وأخرج عن الأوزاعي أنهم رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها ، ويحتمل أنهم أرادوا إنا ولا بد ميتون فلا ضير فيما تتوعدنا به والأجل محتوم لا يتأخر عن وقته :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره . . .

تعددت الأسباب والموت واحد

ويحتمل أيضاً أن المعنى إنا جميعاً ننقلب إلى الله تعالى فيحكم بيننا :

إلى ديان يوم الدين نمضي . . .

وعند الله تجتمع الخصوم

وضمير الجمع على الأول للسحرة فقط ، وعلى الثالث لهم ولفرعون ، وعلى الثاني يحتمل الأمرين .

﴿ وَمَا تَنقِمُ ﴾ أي ما تكره ، وجاء في الماضي نقم ونقم على وزن ضرب وعلم ﴿ مِنَّا ﴾ معشر من آمن :

﴿ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا ﴾ وذلك أصل المفاخر وأعظم المحاسن ، والاستثناء مفرغ ، والمصدر في موضع المفعول به ، والكلام على حد قوله :

ولا عيب فيهم غير أن ضيوفهم . . .

تعاب بنسيان الأحبة والوطن

وقيل : إن ﴿ تَنقِمُ ﴾ مضارب نقم بمعنى عاقب ، يقال : نقم نقماً وتنقاما وانتقم إذا عاقبه ، وإلى هذا يشير ما روى عن عطاء ، وعليه فيكون ﴿ مِنَّا إِلاَّ ﴾ في موضع المفعول له ، والمراد على التقديرين حسن طمع فرعون في نجع تهديده إياهم ، ويحتمل أن يكون على الثاني تحقيقاً لما أشاروا إليه أولاً من الرحمة والثواب .

(84/282)

ثم أعرضوا عن خاطبته وفزعوا والتجأوا إليه سبحانه وقالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي أفض علينا صبراً يغمرنا كما يفرغ الماء ، أو صب علينا ما يطهرنا من الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون ، ﴿ فأفرغ ﴾ على الأول استعارة تبعية تصريحية و ﴿ مَعِىَ صَبْراً ﴾ قرينتها ، والمراد هب لنا صبراً تاماً كثيراً ، وعلى الثاني كيون ﴿ صَبْراً ﴾ استعارة أصلية مكنية و ﴿ أَفْرِغْ ﴾ تخييلية ، وقيل : الكلام على الأول كالكلام على الثاني إلا أن الجامع هناك الغمر وههنا التطهير ، وليس بذاك وأن جل قائله ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أي ثابتين على ما رزقتنا من الإسلام غير مفتونين من الوعيد .

عن ابن عباس .

والكلبي .

والسدي أنه فعل بهم ما أوعدهم به ، وقيل : لم يقدر عليه لقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35] .

وأجاب الأولون عن ذلك بأن المراد الغلبة بالحجة أو في عاقبة الأمر ونهايته وهذا لا ينافي قتل البعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(85/282)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾

أَيْ : أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ بِأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَقَدْ جَاءَ وَقْتُهَا ، فَأَلْقَاهَا كَمَا أُمِرَ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْتُونَ بِهِ مِنَ الْإِفْكِ ، ذَكَرَ هُنَا وَفِي سُورَةِ طَهَ أَمْرَهُ لِمُوسَى بِالْإِلْقَاءِ ، وَفِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ أَنَّهُ فَعَلَ الْإِلْقَاءَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْأَمْرَ فَحَذَفَ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ مَا أَثْبَتَ مُقَابِلَهُ فِي الْأُخْرَى ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ الِاحْتِبَاكِ فِي السُّوَرِ وَالْإِيجَازِ الْمُؤَدِّي لِلْمَعَانِي الْمُتَعَدِّدَةِ بِأَخْصَرِ عِبَارَةٍ ، قَرَأَ حَفْصٌ " تَلْقَفُ " بِالتَّخْفِيفِ مِنَ الثُّلَاثِي ، وَالْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ وَأَصْلُهُ " تَتَلَقَّفُ " ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى لَقْفِ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ .

مَا مَعْنَى لَقِفَ الْعَصَا لِلْإِفْكِ ؟ الْإِفْكُ - بِالْكَسْرِ - : اسْمٌ لِمَا يُؤْفَكُ ؛ أَيْ : يُصْرَفُ وَيُحَوَّلُ عَنْ شَيْءٍ إلَى غَيْرِهِ ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي التَّلْبِيسِ وَالشَّرِّ وَقَلْبِ الْحَقَائِقِ ، وَبِالْفَتْحِ : مَصْدَرُ أَفَكَ بِالْفَتْحِ "كَجَلَسَ وَضَرَبَ" وَيُقَالُ : أَفِكَ بِالْكَسْرِ "كَتَعِبَ" قَالَ فِي الْأَسَاسِ : أَفِكَهُ عَنْ رَأْيِهِ : صَرَفَهُ ، وَفُلَانٌ مَأْفُوكٌ عَنِ الْخَيْرِ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْإِفْكُ كُلُّ مَصْرُوفٍ عَنْ وَجْهِهِ الَّذِي يَحِقُّ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلرِّيَاحِ الْعَادِلَةِ عَنِ الْمَهَابِّ : مُؤْتَفِكَةٌ ، قَالَ تَعَالَى : وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (69 : 9) وَقَالَ تَعَالَى : وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53 : 53) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (9 : 30) أَيْ : يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي الِاعْتِقَادِ إلَى الْبَاطِلِ ، وَعَنِ الصِّدْقِ فِي الْمَقَالِ إلَى الْكَذِبِ ، وَعَنِ الْجَمِيلِ فِي الْفِعْلِ إلَى الْقَبِيحِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (51 :9) ، أَنَّى يُؤْفَكُونَ ، وَقَوْلُهُ : أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا (46 : 22) فَاسْتَعْمَلُوا الْإِفْكَ فِي ذَلِكَ لَمَّا اعْتَقَدُوا أَنَّ ذَلِكَ صَرْفٌ عَنِ الْحَقِّ إلَى الْبَاطِلِ - فَاسْتَعْمَلَ ذَلِكَ فِي الْكَذِبِ لَمَّا قُلْنَا اهـ . وَيُعْلَمُ مِنْهُ وَمِنْ سَائِرِ اسْتِعْمَالِ الْمَادَّةِ فِي الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ أَنَّ

الْإِفْكَ يَكُونُ بِالْقَوْلِ ، وَمِنْهُ الْكَذِبُ ، وَمَا يُؤَدِّي الْمُرَادُ مِنَ الْكَذِبِ كَالْإِبْهَامِ وَالتَّدْلِيسِ وَالتَّجَوُّزَاتِ وَالْكِنَايَاتِ وَالْمَعَارِيضِ الَّتِي تُوهِمُ السَّامِعَ أَوِ الْقَارِئَ لَهَا مَا يُخَالِفُ الْحَقَّ ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْفِعْلِ كَعَمَلِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ .

وَأَمَّا لَقْفُ الشَّيْءِ وَتَلَقُّفُهُ - بِالتَّشْدِيدِ - فَهُوَ تَنَاوُلُهُ بِحِذْقٍ وَسُرْعَةٍ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

كُرَةٌ حُذِفَتْ بِصَوَالِجَةٍ . . . فَتَلَقَّفَهَا رَجُلٌ رَجُلُ

(88/282)

قَالَ الرَّاغِبُ : لَقِفْتُ الشَّيْءَ أَلْقَفُهُ " أَيْ مِنْ بَابِ عَلِمَ " وَتَلَقَّفْتُهُ تَنَاوَلْتُهُ بِالْحِذْقِ ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ تَنَاوَلَهُ بِالْفَمِ أَوِ الْيَدِ قَالَ : فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ا هـ . وَمِنْ مَجَازِهِ تَلَقُّفُ الْعِلْمِ أَيْ : تَلَقِّيهِ بِسُرْعَةٍ وَحِذْقٍ ، وَ (مَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : مَا يَأْفِكُونَ إِمَّا مَوْصُولَةٌ وَإِمَّا مَصْدَرِيَّةٌ ، وَعَلَى الْأَوَّلِ يَتَخَرَّجُ مَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ وَالْحَسَنِ وَالسُّدِّيِّ مِنْ كَوْنِ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْتَقَمَتْ حِبَالَ السَّحَرَةِ وَعِصِيَّهُمْ وَاسْتَرَطَتْهَا ؛ أَيِ : ابْتَلَعَتْهَا فَهُوَ مِمَّا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ ، وَالرَّاجِحُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَنِ الْيَهُودِ لِمَا عَلِمْتَ آنِفًا مِنْ نَصِّ سِفْرِ الْخُرُوجِ فِيهِ ، وَيُنَافِيهِ كَوْنُهَا مَصْدَرِيَّةً إِذِ الْمَعْنَى عَلَيْهِ أَنَّهَا تَنَاوَلَتْ عَمَلَهُمْ هَذَا ، فَأَتَتْ عَلَيْهِ بِمَا أَظْهَرَتْ مِنْ بُطْلَانِهِ

وَحَقِيقَةِ الْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ بِسُرْعَةٍ ، فَإِنْ كَانَ إِفْكُهُمْ عِبَارَةً عَنْ تَأْثِيرٍ أَحْدَثُوهُ فِي الْعَيْنِ ، فَلَقْفُهَا إِيَّاهُ عِبَارَةٌ عَنْ إِزَالَتِهِ وَإِبْطَالِهِ وَرُؤْيَةِ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ عَلَى حَقِيقَتِهَا - وَإِنْ كَانَ تَحْرِيكًا لَهَا بِمُحَرِّكَاتٍ خَفِيَّةٍ سَرِيعَةٍ ، فَكَذَلِكَ - وَإِنْ كَانَ قَدْ حَصَلَ بِجَعْلِهَا مُجَوَّفَةً مَحْشُوَّةً بِالزِّئْبَقِ وَتَحْرِيكِهِ إِيَّاهَا بِفِعْلِ الْحَرَارَةِ ، سَوَاءٌ كَانَتْ نَارًا أُعِدَّتْ لَهَا أَوِ الشَّمْسَ حِينَ أَصَابَتْهَا ، فَلَقْفُهَا لِذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِعَمَلٍ مِنَ الْحَيَّةِ أَخْرَجَتْ بِهِ الزِّئْبَقَ مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ فَانْكَشَفَتْ بِهِ

(89/282)

الْحِيلَةُ ، قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ بْنُ عَرَبِيٍّ مَا مَعْنَاهُ أَوْ مُحَصِّلُهُ عَلَى مَا تَذَكَّرُ أَنَّ إِبْطَالَهَا لِسِحْرِ السَّحَرَةِ أَنَّهُ تَرَتَّبَ عَلَى إِلْقَائِهَا أَنْ رَأَى النَّاسُ تِلْكَ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ عَلَى أَصْلِهَا ، وَلَوِ ابْتَلَعَتْهَا لَبَقِيَ الْأَمْرُ مُلْتَبِسًا عَلَى النَّاسِ ؛ إِذْ قُصَارَاهُ أَنَّ كُلًّا مِنَ السَّحَرَةِ وَمُوسَى قَدْ أَظْهَرَ أَمْرًا غَرِيبًا ، وَلَكِنَّ أَحَدَ الْغَرِيبَيْنِ كَانَ أَقْوَى مِنَ الْآخَرِ فَأَخْفَاهُ عَلَى وَجْهٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ وَلَا مَفْهُومٍ ، وَهَذَا لَا يُنَافِي كَوْنَهُمَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ ، وَلَكِنْ زَوَالُ غِشَاوَةِ السِّحْرِ وَتَخْيِيلِهِ حَتَّى رَأَى النَّاسُ أَنَّ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ الَّتِي أَلْقَاهَا

السَّحَرَةُ لَيْسَتْ إِلَّا حِبَالًا وَعِصِيًّا لَا تَسْعَى وَلَا تَتَحَرَّكُ ، وَأَنَّ عَصَا مُوسَى لَمْ تَزَلْ حَيَّةً تَسْعَى

- هُوَ الَّذِي مَازَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَعُرِفَتْ بِهِ الْآيَةُ الْإِلَهِيَّةُ ، وَالْحِيلَةُ الصِّنَاعِيَّةُ ، وَكُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّ عَصَا مُوسَى أَزَالَتْ هَذَا التَّخَيُّلَ بِسُرْعَةٍ ، وَهُوَ مَعْنَى اللَّقْفِ ، وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُ بِمَاذَا كَانَ لَهَا هَذَا التَّأْثِيرُ ؛ لِأَنَّهَا آيَةٌ إِلَهِيَّةٌ حَقِيقَةً لَا أَمْرٌ صِنَاعِيٌّ حَتَّى نَعْرِفَ صِفَتَهُ وَحَقِيقَتَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَظْهَرُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مِنْهُ فِي ابْتِلَاعِ الْعَصَا لِلْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ إِذَا فُسِّرَتْ أَلْفَاظُهُ بِمَعَانِيهَا الْحَقِيقَةِ ، فَالَّذِي بَطَلَ كَانَ عَمَلًا عَمِلُوهُ ، وَكَيْدًا

(90/282)

كَادُوهُ ، وَلَيْسَ شَيْئًا مَادِّيًّا أَوْجَدُوهُ ، كَمَا عُلِمَ مِنْ سُورَةِ طَهَ وَسُورَةِ يُونُسَ ؛ أَيْ : فَثَبَتَ الْحَقُّ وَفَسَدَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الْحِيَلِ وَالتَّخْيِيلِ وَذَهَبَ تَأْثِيرُهُ .

(91/282)

فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ أَيْ : فَغُلِبَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ فِي ذَلِكَ الْمَجْمَعِ الْعَظِيمِ الَّذِي كَانَ فِي عِيدٍ لَهُمْ وَيَوْمِ زِينَةٍ مِنْ مَوَاسِمِهِمْ ، ضَرَبَهُ مُوسَى مُوعِدًا لَهُمْ بِسُؤَالِهِمْ كَمَا بَيَّنَ فِي سُورَةِ طَهَ : قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (20 : 59) لِتَكُونَ الْفَضِيحَةُ

ظَاهِرَةً مُبَيِّنَةً لِجَمَاهِيرِ النَّاسِ ، وَلَمْ يَقُلْ فَغَلَبَهُمْ مُوسَى ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِكَسْبِهِ وَصُنْعِهِ . وَانْقَلَبُوا ؛ أَيْ : عَادُوا مِنْ ذَلِكَ الْمَجْمَعِ صَاغِرِينَ أَذِلَّةً بِمَا رُزِئُوا بِهِ مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْخَيْبَةِ ، أَوْ صَارُوا صَاغِرِينَ ، وَإِنَّمَا خَصَّ هَذَا بِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، وَكَانَ الْمُتَبَادَرُ أَنْ يَكُونَ لِلسَّحَرَةِ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ ، وَلِفِرْعَوْنَ بِالتَّبَعِ أَوْ لِلْجَمِيعِ عَلَى سَوَاءٍ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ مَا كَانَ مِنْ عَاقِبَةِ السَّحَرَةِ بِقَوْلِهِ : وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ فَسَّرَهُ الْكَشَّافُ بِقَوْلِهِ : وَخَرُّوا سُجَّدًا كَأَنَّمَا أُلْقَاهُمْ مُلْقٍ ؛ لِشِدَّةِ خَرُورِهِمْ ، وَقِيلَ : لَمْ يَتَمَالَكُوا مِمَّا رَأَوْا فَكَأَنَّهُمْ أُلْقُوا ا هـ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ ظُهُورَ بُطْلَانِ سِحْرِهِمْ ، وَإِدْرَاكَهُمْ فَجْأَةً لِحَقِيقَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَعِلْمَهُمْ بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى لَا صُنْعَ فِيهَا لِمَخْلُوقٍ قَدْ مَلَأَتْ عُقُولَهُمْ يَقِينًا وَقُلُوبَهُمْ إِيمَانًا فَكَانَ هَذَا الْيَقِينُ فِي الْإِيمَانِ الْبُرْهَانِيِّ الْكَامِلِ ، وَالْوِجْدَانِيِّ الْحَاكِمِ عَلَى الْأَعْضَاءِ وَالْجَوَارِحِ هُوَ الَّذِي أَلْقَاهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ سُجَّدًا لِلَّهِ رَبِّ

(92/282)

الْعَالَمِينَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَدْنَى مَكَانٍ لِفِرْعَوْنَ وَعَظَمَتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ الزَّائِلَةِ ، وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ ظَهَرَ لَهُمْ صَغَارُهُ أَمَامَ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَفِي آيَةِ سُورَةِ طَهَ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (20 : 70) فَالْفَاءُ

تَدُلُّ عَلَى التَّعْقِيبِ ، وَمِثْلُهَا فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ .

(فَإِنْ قِيلَ) : وَلِمَ قَالَ هُنَا " وَأُلْقِيَ " وَلَمْ يَقُلْ " فَأُلْقِيَ " لِيَدُلَّ عَلَى التَّعْقِيبِ أَيْضًا ؟

(فَالْجَوَابُ) أَنَّ " أُلْقِيَ " هُنَا عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : فَغُلِبُوا فَهُوَ يُشَارِكُهُ بِمَا تُفِيدُهُ فَاؤُهُ مِنْ مَعْنَى التَّعْقِيبِ ، وَكَوْنِهِ مِثْلَهُ أَثَرًا لِبُطْلَانِ سِحْرِ السَّحَرَةِ ، وَوُقُوعِ الْحَقِّ بِثُبُوتِ آيَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَوْ عَطَفَ عَلَيْهِ بِالْفَاءِ لَدَلَّ عَلَى كَوْنِ السُّجُودِ أَثَرًا لِلْغَلَبِ وَالصَّغَارِ لَا لِظُهُورِ الْحَقِّ ، وَبُطْلَانِ كَيْدِ السِّحْرِ ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُنَافِيًا لِمَا فِي سُورَتَيْ طَهَ وَالشُّعَرَاءِ .

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ الْجُمْلَةُ إِمَّا بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ ، وَإِمَّا حَالٌ مِنَ السَّحَرَةِ ؛ أَيْ : حَالَ كَوْنِهِمْ قَائِلِينَ فِي سُجُودِهِمْ آمَنَّا ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ .

(93/282)

(فَإِنْ قِيلَ) : وَلِمَ لَمْ يَذْكُرْ فِي سُورَةِ طَهَ إِيمَانَهُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ وَلِمَ أَخَّرَ فِيهَا اسْمَ مُوسَى ، وَقَدَّمَ اسْمَ هَارُونَ ؟ (فَالْجَوَابُ) عَنْهُمَا أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ مُرَاعَاةُ فَوَاصِلِ السُّوَرِ بِمَا لَا يُعَارِضُ غَيْرَهُ مِمَّا وَرَدَ فِي غَيْرِهَا ، وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ نَزَلَ قَبْلَهَا ، فَالْإِيمَانُ بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى هُوَ الْإِيمَانُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ لِأَنَّهُمَا قَالَا لِفِرْعَوْنَ : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (26 : 16) وَقَدْ بَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ الْقُرْآنَ

لَيْسَ كِتَابَ تَارِيخٍ تُدَوَّنُ فِيهِ الْقَصَصُ بِحِكَايَتِهَا كُلِّهَا كَمَا وَقَعَتْ ، وَيَذْكُرُ كُلَّ مَا قِيلَ فِيهَا بِنَصِّهِ أَوْ بِتَرْجَمَتِهِ الْحَرْفِيَّةِ - وَإِنَّمَا هُوَ كِتَابُ هِدَايَةٍ وَمَوْعِظَةٍ ، فَهُوَ يَذْكُرُ مِنَ الْقَصَصِ مَا يَثْبُتُ بِهِ الْإِيمَانُ ، وَيَتَزَكَّى الْوِجْدَانُ ، وَتَحْصُلُ الْعِبْرَةُ ، وَتُؤَثِّرُ الْمَوْعِظَةُ ، وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنْ تَكْرَارِ الْمَعَانِي مَعَ التَّفَنُّنِ فِي الْأُسْلُوبِ وَالتَّنْوِيعِ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ وَفَوَاصِلِ الْآيِ ، وَتَوْزِيعِ الْفَوَائِدِ وَتَفْرِيقِهَا ، بِحَيْثُ يُوجَدُ فِي كُلِّ قِصَّةٍ مَا لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِهَا .

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

(94/282)

بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ إِيمَانِ السَّحَرَةِ كَانَ أَوَّلُ مَا يَخْطُرُ فِي الْبَالِ ، وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ السُّؤَالُ ، مَا فَعَلَ فِرْعَوْنُ وَمَا قَالَ ؟ وَهَاكَ الْبَيَانُ : قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ قَرَأَ حَفْصٌ : آمَنْتُمْ بِصِيغَةِ الْخَبَرِ ، وَيُحْتَمَلُ فِيهِ تَقْدِيرُ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ ، فَهُوَ قِيَاسِيٌّ يُعْتَمَدُ فِي فَهْمِهِ عَلَى صِفَةِ الْأَدَاءِ ، وَجَرْسِ الصَّوْتِ فِيهِ ، وَبِذَلِكَ يُوَافِقُ سَائِرَ الْقُرَّاءِ فِي الْمَعْنَى فَهُوَ عِنْدَهُمُ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ تَوْبِيخِيٌّ ، أَثْبَتَ هَمْزَتَهُ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ ، عَنْ عَاصِمٍ ، وَرَوْحٌ ، عَنْ يَعْقُوبَ ، وَرُوِيَ فِي إِثْبَاتِهَا تَحْقِيقُ الْهَمْزَتَيْنِ بِالنُّطْقِ بِهِمَا ، وَتَحْقِيقُ الْأُولَى وَتَسْهِيلُ الثَّانِيَةِ

بَيْنَ بَيْنَ ، وَقُرِئَ بِذَلِكَ فِي أَمْثَالِهَا ، وَالْمَعْنَى أَآمَنْتُمْ بِمُوسَى أَوْ بِرَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ وَآمُرَكُمْ بِذَلِكَ ؟ وَفِي سُورَةِ طَهَ : قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ (20 : 71) وَالضَّمِيرُ فِيهِ لِمُوسَى قَطْعًا ؛ لِأَنَّ تَعْدِيَةَ الْإِيمَانِ بِاللَّامِ تَضْمِينٌ يُفِيدُ مَعْنَى الِاتِّبَاعِ وَالْخُضُوعِ الْمَعْنِيِّ ، وَآمَنْتُمْ بِهِ مُتَّبِعِينَ لَهُ إذْعَانًا لِرِسَالَتِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ وَلِذَلِكَ يَتَعَيَّنُ اسْتِعْمَالُ هَذَا التَّضْمِينِ فِي الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ وَالِاتِّبَاعِ لَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ : أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (23 : 47) وَقَدِ اقْتَبَسَ الْمَعَرِّي هَذَا الِاسْتِدْلَالَ فِي قَوْلِهِ :

(95/282)

أَعُبَّادُ الْمَسِيحِ يَخَافُ صَحْبِي . . . وَنَحْنُ عَبِيدُ مَنْ خَلَقَ الْمَسِيحَا

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (26 : 111) وَقَوْلُهُ حِكَايَةً عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ : وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (17 : 90) وَلَيْسَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ إخْوَةِ يُوسُفَ : وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا (12 : 17) بَلْ هَذِهِ لَامُ التَّقْوِيَةِ ؛ أَيْ : وَمَا أَنْتَ بِمُصَدِّقٍ لَنَا ، وَقَدْ بَيَّنَ فِرْعَوْنُ عِلَّةَ إيمَانِهِمْ بِمَا ظَنَّهُ أَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَقِدَهُ قَوْمُهُ فِيهِمْ ، فَقَالَ مُوَاصِلًا تَهْدِيدَهُ :

إنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا أَيْ : إنَّ هَذَا الصَّنِيعَ الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ

أَنْتُمْ وَمُوسَى وَهَارُونُ بِالتَّوَاطُؤِ وَالِاتِّفَاقِ لَيْسَ إِلَّا مَكْرًا مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ بِمَا أَظْهَرْتُمْ مِنَ الْمُعَارَضَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْغَلَبِ عَلَيْهِ مَعَ إِسْرَارِ اتِّبَاعِهِ بَعْدَ ادِّعَاءِ ظُهُورِ حُجَّتِهِ زَادَ فِي سُورَةِ طَهَ : إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي

عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ (20 : 71) فَأَجْمَعْتُمْ كَيْدَكُمْ لَنَا فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ ؛ لِأَجْلِ أَنْ تُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا الْمِصْرِيِّينَ بِسِحْرِكُمْ - وَهُوَ مَا كَانَ اتَّهَمَ بِهِ مُوسَى وَحْدَهُ - وَيَكُونُ لَكُمْ فِيهَا مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا هُوَ لَنَا الْآنَ مِنَ الْمُلْكِ وَالْكِبْرِيَاءِ ، كَمَا حَكَاهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ .

(96/282)

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَا يَحِلُّ بِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ جَزَاءً عَلَى هَذَا الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ ، وَبَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ أَيْ : أُقْسِمُ لَأُقَطِّعَنَّ كَذَا وَكَذَا فِي عِقَابِكُمْ وَالتَّنْكِيلِ بِكُمْ ، وَهُوَ قَطْعُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خِلَافٍ ، كَأَنْ يَقْطَعَ الْيَدَ الْيُمْنَى وَالرِّجْلَ الْيُسْرَى أَوِ الْعَكْسُ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الْمُشَوَّهَةِ لِتَكُونُوا عِبْرَةً لِمَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِالْكَيْدِ لَنَا ، أَوْ بِالْخُرُوجِ عَنْ سُلْطَانِنَا وَالتَّرَفُّعِ عَنِ الْخُضُوعِ لِعَظَمَتِنَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأَلْفَاظِ فِي الْعِقَابِ الَّذِي هَدَّدَ بِهِ الْبُغَاةَ مِنْ سُورَةِ

الْمَائِدَةِ ، وَمِنَ الْمَعْقُولِ مَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ كَوْنِ اتِّهَامِ فِرْعَوْنَ لِلسَّحَرَةِ بِالْمَكْرِ وَالْكَيْدِ لَهُ وَلِلْمِصْرِيِّينَ ، وَبِتَوَاطُئِهِمْ مَعَ مُوسَى لِلْإِدَالَةِ مِنْهُمْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ - إِنَّمَا كَانَ تَمْوِيهًا عَلَى قَوْمِهِ الْمِصْرِيِّينَ لِئَلَّا يَتَّبِعُوا السَّحَرَةَ فِي الْإِيمَانِ ، وَيَقَعَ مَا خَافَهُ وَقَدَّرَهُ ، وَاتَّهَمَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَهُوَ عَلَى عُتُوِّهِ عَلَى الْخَلْقِ وَعُلُوِّهِ فِي الْأَرْضِ ، قَدْ خَافَ عَاقِبَةَ إِيمَانِ الشَّعْبِ ، وَافْتَقَرَ عَلَى ادِّعَائِهِ الرُّبُوبِيَّةَ إِلَى إِيهَامِهِمْ بِأَنَّهُ لَا يَنْتَقِمُ مِنَ السَّحَرَةِ إِلَّا حُبًّا فِيهِمْ ، وَدِفَاعًا عَنْهُمْ ، وَاسْتِبْقَاءً لِاسْتِقْلَالِهِمْ فِي وَطَنِهِمْ ، وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ كُلُّ

(97/282)

مَلِكٍ ، وَكُلُّ رَئِيسٍ مُسْتَبِدٍّ فِي شَعْبٍ يَخَافُ أَنْ يَنْتَقِضَ عَلَيْهِ بِاجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِ عَلَى زَعِيمٍ آخَرَ بِدَعْوَةٍ دِينِيَّةٍ أَوْ سِيَاسِيَّةٍ ، وَمَا مِنْ شَعْبٍ عَرَفَ نَفْسَهُ وَحُقُوقَهُ وَتَعَارَفَ بَعْضُ أَفْرَادِهِ ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى صَوْنِ هَذِهِ الْحُقُوقِ إِلَّا وَتَعَذَّرَ اسْتِبْدَادُ الْأَفْرَادِ فِيهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا جَبَّارِينَ

.

مَبَاحِثُ لُغَوِيَّةٌ بَيَانِيَّةٌ فِيمَا اخْتَلَفَ فِيهِ التَّعْبِيرُ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى فِي السُّورَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ

وَمِنْ مَبَاحِثِ الْمُقَابَلَةِ وَالتَّطَيُّرِ بَيْنَ سِيَاقِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الْقِصَّةِ ، وَسِيَاقِ غَيْرِهَا أَنَّهُ زَادَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ اللَّامَ فِي حَرْفِ التَّسْوِيفِ فَقَالَ : فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (26 : 49) وَلَمْ يَذْكُرْ

هَذَا التَّسْوِيفَ فِي سُورَةِ طَهَ ، قَالَ الْإِسْكَافِيُّ فِي هَذِهِ اللَّامِ : إِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى تَقْرِيبِ مَا خَوَّفَهُمْ بِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَوْجُودٌ ، وَقَالَ : " وَاللَّامُ لِلْحَالِ ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَوْفَ الَّتِي لِلِاسْتِقْبَالِ إِنَّمَا هُوَ تَحْقِيقُ الْفِعْلِ وَإِدْنَاؤُهُ

(98/282)

مِنَ الْوُقُوعِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (16 : 124) فَجَمَعَ بَيْنَ اللَّامِ وَبَيْنَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا قَالَهُ تَعَالَى : وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ (16 : 77) وَقَدْ بَيَّنَّا فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ أَكْثَرَ اقْتِصَاصًا لِأَحْوَالِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَعْثِهِ وَابْتِدَاءِ أَمْرِهِ ، وَانْتِهَاءِ حَالِهِ مَعَ عَدُوِّهِ ، فَجُمِعَتْ لَفْظُ الْوَعِيدِ الْمُبْهَمُ مَعَ اللَّفْظِ الْمُقَرَّبِ لَهُ الْمُحَقَّقِ وُقُوعُهُ إِلَى اللَّفْظِ الْمُفْصِحِ لِمَعْنَاهُ ، ثُمَّ وَقَعَ الِاقْتِصَارُ فِي السُّورَةِ الَّتِي لَمْ يَقْصِدْ بِهَا مِنَ اقْتِصَاصِ الْحَالِ مَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ عَلَى نَقْصِ مَا فِي مَوْضِعِ الْبَسْطِ وَالشَّرْحِ ، وَهُوَ التَّعْرِيضُ بِالْوَعِيدِ مَعَ الْإِفْصَاحِ بِهِ .

(99/282)

(قَالَ) : " فَأَمَّا فِي سُورَةِ طَهَ فَإِنَّهُ اقْتَصَرَ فِيهَا عَلَى التَّصْرِيحِ بِمَا أَوْعَدَهُمْ بِهِ وَتَرَكَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وَقَالَ : فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ . . . (20 : 71) إلَّا أَنَّهُ جَاءَ بَدَلَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا يُعَادِلُهَا ، وَيُقَارِبُ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ الَّتِي هِيَ مِثْلُهَا فِي اقْتِصَاصِ أَحْوَالِهِ مِنَ ابْتِدَائِهَا إلَى حِينِ انْتِهَائِهَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ : وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (20 : 71) فَاللَّامُ وَالنُّونُ فِي " لَتَعْلَمُنَّ " لِإِدْنَاءِ الْفِعْلِ وَتَوْكِيدِهِ ، كَمَا أَتَى بِاللَّامِ فِي الشُّعَرَاءِ : فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (26 : 49) لِإِدْنَاءِ الْفِعْلِ وَتَقْرِيبِهِ ، فَقَدْ تَجَاوَزَ مَا فِي السُّورَتَيْنِ الْمَقْصُودَ فِيهِمَا إلَى اقْتِصَاصِ الْحَالَيْنِ مِنْ إعْلَاءِ الْحَقِّ وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ " ا هـ .

(100/282)

أَقُولُ : مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذِهِ اللَّامَ لَامُ الِابْتِدَاءِ ، وَأَنَّ فَائِدَتَهَا الْأُولَى الْمُتَّفَقَ عَلَيْهَا تَوْكِيدُ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ ، وَقَدْ سَكَتَ الْإِسْكَافِيُّ عَنِ التَّعْلِيلِ بِهَا عَلَى ظُهُورِهَا ، وَعَدَمِ خَفَاءِ شَيْءٍ مِنْ شَوَاهِدِهَا ، وَاقْتَصَرَ عَلَى تَوْجِيهِ مَا ذَكَرُوا لِهَذِهِ اللَّامِ مِنْ مَعْنَى الْحَالِ ؛ إذْ قَالُوا : إنَّ الْفَائِدَةَ الثَّانِيَةَ لَهَا تَخْلِيصُ مَعْنَى الْمُضَارِعِ لِلْحَالِ ، نَقَلَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي الْمُغْنِي ، وَقَالَ : إنَّ ابْنَ مَالِكٍ اعْتَرَضَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (16 : 124) وَبِقَوْلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُ : إنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ (12 : 13) فَإِنَّ الذَّهَابَ كَانَ

مُسْتَقْبَلًا فَلَوْ كَانَ الْحُزْنُ حَالًا لَزِمَ تَقَدُّمُ الْفِعْلِ فِي الْوُجُودِ عَلَى فَاعِلِهِ مَعَ أَنَّهُ أَثَرُهُ (قَالَ) : وَالْجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْحُكْمَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، فَنَزَلَ مَنْزِلَةَ الْحَاضِرِ الْمُشَاهَدِ - وَأَنَّ التَّقْدِيرَ فِي الثَّانِي ؛ قَصَدَ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ، وَالْقَصْدُ : حَالٌ ، ا هـ .

(101/282)

وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ تَعْبِيرَ الْإِسْكَافِيِّ فِي هَذِهِ الْفَائِدَةِ أَوْسَعُ مِنَ التَّعْبِيرِ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ هِشَامٍ وَغَيْرُهُ وَأَبْعَدُ عَنِ الْإِشْكَالِ ، فَقَدْ قَالَ هُوَ : إنَّ مَعْنَى الْحَالِ فِيهَا عِبَارَةٌ عَنْ تَحْقِيقِ الْفِعْلِ وَإِدْنَائِهِ مِنَ الْوُقُوعِ ، وَهُوَ يَصْدُقُ بِجَعْلِ الْمُضَارِعِ لِلْحَالِ حَقِيقَةً أَوْ بِجَعْلِ مَعْنَى الِاسْتِقْبَالِ فِيهِ قَرِيبًا جِدًّا حَتَّى كَأَنَّهُ حَالٌ ، وَلَا يَرُدُّ عَلَى هَذَا مَا

يَرُدُّ عَلَى قَوْلِهِمْ : تَخْلِيصُ مَعْنَى الْمُضَارِعِ لِلْحَالِ ، وَجَوَابُهُمْ عَنِ الْآيَتَيْنِ يَظْهَرُ فِي تَعْبِيرِهِمْ كَمَا يَظْهَرُ فِي تَعْبِيرِهِ هُوَ بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ مَا .

ثُمَّ إنَّهُ لَا بُدَّ فِي صِدْقِ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ : (فَلَسَوْفَ) مِنْ كَوْنِ فِرْعَوْنَ ذَكَرَ فِي وَعِيدِهِمُ الْمُسْتَقْبَلَ أَنَّهُ قَرِيبٌ ، وَأَنَّهُ قَطْعِيٌّ لَا مَرَدَّ لَهُ ، سَوَاءٌ قَالَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِيضَاحِ أَوْ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِدْرَاكِ ، وَرُبَّ جُمْلَةٍ أَوْ جُمَلٍ طَوِيلَةٍ تُؤَدَّى فِي الْقُرْآنِ بِجُمْلَةٍ قَصِيرَةٍ أَوْ كَلِمَةٍ أَوْ حَرْفٍ فِي كَلِمَةٍ كَاللَّامِ هُنَا ، وَهَذَا مِنْ دَقَائِقِ إيجَازِ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ إعْجَازِهِ اللَّفْظِيَّةِ فِي

غَيْرِ الْأُسْلُوبِ وَالنَّظْمِ ، وَكُلُّهَا دُونَ إِعْجَازِهِ فِي بَيَانِ حَقَائِقِ الشَّرْعِ وَالْعِلْمِ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤَدِّيَ هَذِهِ الدَّقَائِقَ بِالتَّرْجَمَةِ ؟ وَمِثْلُهُ فِي هَذَا مَا سَبَقَ ، وَمَا يَأْتِي مِنْ تَتِمَّةِ هَذِهِ الْمَبَاحِثِ .

(102/282)

(وَمِنْهَا) - أَيْ : مَبَاحِثُ الْمُقَابَلَةِ وَالتَّنْظِيرِ بَيْنَ السُّوَرِ - أَنَّهُ قَالَ هُنَا : ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ وَقَالَ فِي (طَهَ : 71) وَ(الشُّعَرَاءِ : 49) وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْعَاطِفَيْنِ فَإِنَّ الْعَطْفَ بِالْوَاوِ مُطْلَقٌ يَصْدُقُ بِالتَّعْقِيبِ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ " الْفَاءُ " بِالتَّرَاخِي الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ " ثُمَّ " وَلَيْسَ مُقَيَّدًا بِأَحَدِهِمَا ، وَغَايَتُهُ أَنَّهُ أَفَادَ بِـ " ثُمَّ " مَعْنًى خَاصًّا ، وَهُوَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّرَاخِي فِي الزَّمَنِ أَوِ الرُّتْبَةِ ، وَكِلَاهُمَا جَائِزٌ هُنَا فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَفَادَ بِقَوْلِهِ : (فَلَسَوْفَ) (26 : 49) وَقَوْلِهِ : (فَلَأُقَطِّعَنَّ) (20 : 71) أَنَّ الْوَعِيدَ سَيُنَفَّذُ حَالًا فِي الْمَجْلِسِ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خِلَافٍ - أَفَادَ بِقَوْلِهِ : ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ (7 : 124) أَنَّ التَّصْلِيبَ نَوْعٌ آخَرُ ، وَمَرْتَبَةٌ ثَانِيَةٌ مِنَ التَّنْكِيلِ بِهِمْ ، أَوْ سَيَتَأَخَّرُ عَنِ التَّقْطِيعِ فِي الزَّمَنِ بِأَنْ يَظَلُّوا بَعْدَهُ مَطْرُوحِينَ عَلَى الْأَرْضِ إِهَانَةً لَهُمْ ، ثُمَّ يُعَلَّقُونَ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ ، وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ، وَكَوْنُ

التَّصْلِيبِ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ فَائِدَةٌ أُخْرَى زَادَهَا فِي سُورَةِ طَهَ ، وَتَخْصِيصُهَا بِهَا مُنَاسِبٌ لِنَظْمِهَا ، وَلَعَلَّكَ تُدْرِكُ ذَلِكَ بِالذَّوْقِ كَمَا تُدْرِكُ بِهِ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ بُحُورِ الشِّعْرِ .

(103/282)

وَأَوْرَدْنَا هَذَا الْبَحْثَ الْفَنِّيَّ وَأَمْثَالَهُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ عَلَى اجْتِنَابِنَا لِلِاصْطِلَاحَاتِ الْفَنِّيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ فِي الْغَالِبِ لِثَلَاثَةِ أَسْبَابٍ : (1) أَنَّ هَذِهِ الْمَسَائِلَ مِمَّا يَقَعُ فِيهِ الِاشْتِبَاهُ ، وَلَمْ نَرَ لَهَا بَيَانًا فِي التَّفَاسِيرِ الْمُتَدَاوَلَةِ حَتَّى الَّتِي تَمْتَازُ بِالْعِنَايَةِ بِمِثْلِهَا .

(2) بَيَانُ مَا فِيهَا مِنَ الدِّقَّةِ فِي تَحْدِيدِ الْمَعَانِي ، وَغَرَائِبِ الْإِيجَازِ وَالِاتِّفَاقِ فِي مَظِنَّةِ الِاخْتِلَافِ ، وَهُوَ الْمَعْهُودُ فِي كُلِّ مَوْضُوعٍ طَوِيلٍ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (4 : 82) إِذْ لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَةِ بَشَرٍ أَنْ يَحْكِيَ قِصَّةً كَقِصَّةِ مُوسَى

بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ بِمِثْلِ هَذَا التَّحْدِيدِ لِلْمَعَانِي مَعَ

(104/282)

سَلَامَتِهَا كُلِّهَا مِنَ التَّعَارُضِ وَالتَّنَاقُضِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَنْوَاعِ الِاخْتِلَافِ ، وَإِنْ كَتَبَ ذَلِكَ كِتَابَةً ، وَقَابَلَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ مُنَقِّحًا لَهُ وَمُصَحِّحًا ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ يَرْتَجِلُ الْكَلَامَ ارْتِجَالًا فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتْلُو الْقُرْآنَ كَالْمُرْتَجِلِ لَهُ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَتَلَقَّاهُ فَيُؤَدِّيهِ كَمَا تَلَقَّاهُ ، فَيَعْجَلُ بِهِ خَائِفًا أَنْ يَنْسَى مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى لُقِّنَ فِيهِ نَبَأَ عِصْمَتِهِ مِنْ نِسْيَانِ شَيْءٍ مِنْهُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى كَفَلَ حِفْظَهُ : سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (87 : 6) لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (75 : 16 ، 17) وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ (20 : 114) وَتِلْكَ ضُرُوبٌ مِنْ إِعْجَازِهِ اللَّفْظِيِّ ، وَلِضُرُوبِ إِعْجَازِهِ الْمَعْنَوِيِّ أَكْبَرُ .

(3) إِثْبَاتُ عَجْزِ الْبَشَرِ عَنْ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ بِلُغَةٍ أُخْرَى تُؤَدِّي مَعَانِيهِ كُلَّهَا ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُتَعَذَّرِ أَدَاؤُهَا بِمِثْلِهَا مِنْ لُغَتِهَا ، فَتَرْجَمَتُهَا بِلُغَةٍ أُخْرَى أَوْلَى .

(105/282)

وَقَدْ تَصَدَّى بَعْضُ الْمَغْرُورِينَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ لِتَرْجَمَتِهِ بِاللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ الْفَقِيرَةِ الْمُلَفَّقَةِ مِنْ عِدَّةِ لُغَاتٍ لِأَجْلِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ الْمَلَاحِدَةُ مِنْ زُعَمَاءِ التُّرْكِ عَلَى مَا يَبْتَغُونَ مِنْ سَلِّ الشَّعْبِ التُّرْكِيِّ مِنَ الْإِسْلَامِ بِأَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى الِاسْتِغْنَاءِ بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ

مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (26 : 195) كَمَا ثَبَتَ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ .

فَإِنِ انْخَدَعَ هَذَا الشَّعْبُ الْمُسْلِمُ بِهَذَا ، سَهُلَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ أَنْ يَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهَا فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ ، ثُمَّ أَنْ يَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ آثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ؛ فَإِنَّهَا فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ ، ثُمَّ أَنْ يَحُولُوا بَيْنَهُ وَمَا كَتَبَهُ أَئِمَّةُ الْعُلَمَاءِ فِي التَّفْسِيرِ ، وَشَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَمَا اسْتُنْبِطَ مِنْهَا فِي أُمُورِ الدِّينِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْآدَابِ وَأَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ ، وَبَعْدَ هَذَا يَتَحَكَّمُونَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ بِمَا شَاءُوا ، وَيُورِدُونَ الشُّبُهَاتِ عَلَى الْإِسْلَامِ الْمُشَوَّهِ الْمَأْخُوذِ مِنْ تَرْجَمَتِهِمُ الْقَابِلَةِ لِذَلِكَ – وَحِينَئِذٍ يَتِمُّ لَهُمْ مَا يُرِيدُونَ مِنْ جَعْلِ التُّرْكِ أُمَّةً لَا دِينِيَّةً ، وَلَكِنْ لَنْ يَتِمَّ لَهُمْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، فَالشَّعْبُ التُّرْكِيُّ رَاسِخٌ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمَتَى عَرَفَ كَيْدَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ الْمُضِلِّينَ فَإِنَّهُ يَنْبِذُهُمْ نَبْذَ النَّوَاةِ .

(106/282)

تَتِمَّةُ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ

وَهَاهُنَا يَرِدُ سُؤَالٌ : مَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ السَّحَرَةِ عِنْدَمَا سَمِعُوا هَذَا التَّهْدِيدَ وَالْوَعِيدَ ، وَبِمَ أَجَابُوا ذَلِكَ الْجَبَّارَ الْعَنِيدَ ؟ وَجَوَابُهُ هُنَا : قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ

عَنَوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا أَنْفُسَهُمْ وَحْدَهَا ، وَأَرَادُوا أَنَّهُمْ

لَا يُبَالُونَ مَا يَكُونُ مِنْ قَضَائِهِ فِيهِمْ وَقَتْلِهِ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ رَاجِعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ ، رَاجُونَ مَغْفِرَتَهُ

وَرَحْمَتَهُ بِهِمْ ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ تَعْجِيلُ قَتْلِهِمْ سَبَبًا لِقُرْبِ لِقَائِهِ ، وَالتَّمَتُّعِ بِحُسْنِ جَزَائِهِ .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ عَنَوْا أَنْفُسَهُمْ وَفِرْعَوْنَ جَمِيعًا ، وَأَرَادُوا : إِنَّنَا وَإِيَّاكَ سَنَنْقَلِبُ إِلَى رَبِّنَا

، فَلَئِنْ قَتَلْتَنَا فَمَا أَنْتَ بِخَالِدٍ بَعْدَنَا ، وَسَيَحْكُمُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَلِهِ بَيْنَكَ وَبَيْنَنَا

وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِكَذِبِهِ فِي دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ ، وَتَصْرِيحٌ وَإِيثَارُ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ

الشَّهَوَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَفِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ

لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (26 : 50 ، 51) وَهُوَ يُؤَيِّدُ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ ، وَلَا يُنَافِي

الثَّانِي ؛ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ الْأَوَّلَ .

(107/282)

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا قَالَ الرَّاغِبُ : نَقِمْتُ الشَّيْءَ وَنَقَمْتُهُ أَيْ – مِنْ

بَابَيْ فَرِحَ وَضَرَبَ – إِذَا أَنْكَرْتُهُ إِمَّا بِاللِّسَانِ وَإِمَّا بِالْعُقُوبَةِ ، قَالَ تَعَالَى : وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ

أَغْنَاهُمُ اللَّهُ (9 : 74) ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ (85 : 8) هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا (5 :

59) الْآيَةَ . وَالنِّقْمَةُ : الْعُقُوبَةُ ، قَالَ : فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ (7 : 136) إِلَخْ

. وَتَفْسِيرُهُ هَذَا لِـ " نَقَمَ " أَدَقُّ وَأَشْمَلُ مِنْ قَوْلِ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي الْأَسَاسِ : وَنَقِمْتُ مِنْهُ كَذَا : أَنْكَرْتُهُ وَعِبْتُهُ . فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا الْقَوْلِيَّ مِنْهُ ، وَقَدِ اسْتَشْهَدَ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا (85 : 8) وَهُوَ فِي أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ ، وَكَانَ النَّقْمُ مِنْهُمْ بِالْفِعْلِ لَا بِالْقَوْلِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَنْسَى وَلَا يَغْفُلُ . وَمَا ذَكَرَهُ السَّحَرَةُ مِنْ نَقْمِ فِرْعَوْنَ مِنْهُمْ كَانَ بِالْقَوْلِ ، وَهُوَ الِاسْتِنْكَارُ التَّوْبِيخِيُّ لِإِيمَانِهِمْ ، وَالتُّهْمَةُ فِيهِ وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ نَفَّذَ الْوَعِيدَ بِالِانْتِقَامِ بِالْفِعْلِ ، وَاسْتَنْبَطَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ : أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (28 : 35) أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى تَنْفِيذِ الْوَعِيدِ فِيهِمْ ، وَأُجِيبَ عَنْ هَذَا بِأَنَّ الْمُرَادَ الْغَلَبَةُ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، وَفِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ وَنِهَايَتِهِ ، وَإِلَّا لَمْ يُقْتَلْ أَحَدٌ مِنْ أَتْبَاعِ

(108/282)

الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَهُوَ صَرِيحُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّهُ بَيَانٌ لِنَتِيجَتِهَا ، وَوَجْهُ الْعِبْرَةِ فِيهَا : فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ يَعْنِي فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ شُعَيْبٍ فِي قِصَّتِهِ الَّتِي مَرَّتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَيْضًا : وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَقَوْلِهِ قَبْلَهُ فِي قِصَّةِ لُوطٍ

مِنْهَا : فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي مُكَذِّبِي الرُّسُلِ عَامَّةً بَعْدَ ذِكْرِ تَكْذِيبِ قَوْمِ خَاتَمِ الرُّسُلِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ :

(109/282)

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (10 : 39) وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِمَنِ اتَّبَعَ مُوسَى وَهَارُونَ قَوْمُهُمَا خَاصَّةً ، وَهُمُ الَّذِينَ بَشَّرَهُمْ مُوسَى بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ بَعْدَ وَعِيدِ فِرْعَوْنَ لَهُمْ عَقِبَ خَبَرِ السَّحَرَةِ ، وَهُوَ مَا تَرَاهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا ، وَهَذِهِ الْعَاقِبَةُ قَدْ بَيَّنَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ : فَأَخَذْنَاهُ يَعْنِي فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (28 : 40) ، وَقَدْ خَتَمَ تَعَالَى مَا قَصَّهُ هُنَا مِنْ كَلَامِ السَّحَرَةِ بِهَذَا الدُّعَاءِ فَنَذْكُرُهُ تَالِينَ دَاعِينَ : رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ أَيْ : رَبَّنَا هَبْ لَنَا صَبْرًا وَاسِعًا تُفِيضُهُ وَتُفْرِغُهُ عَلَيْنَا إفْرَاغًا بِتَثْبِيتِكَ إيَّانَا عَلَى الْإِيمَانِ ، وَتَأْيِيدِنَا بِرُوحِكَ فِيهِ كَمَا يُفْرَغُ الْمَاءُ مِنَ الْقِرَبِ ، حَتَّى لَا يَبْقَى فِي قُلُوبِنَا شَيْءٌ مِنْ خَوْفِ غَيْرِكَ ، وَلَا مِنَ الرَّجَاءِ فِيمَا سِوَى فَضْلِكَ وَنَوَالِكَ . وَتَوَفَّنَا إلَيْكَ حَالَ كَوْنِنَا مُسْلِمِينَ لَكَ مُذْعِنِينَ لِأَمْرِكَ وَنَهْيِكَ ، مُسْتَسْلِمِينَ لِقَضَائِكَ ، غَيْرَ مَفْتُونِينَ بِتَهْدِيدِ

فِرْعَوْنَ ، وَغَيْرِ مُطِيعِينَ لَهُ فِي قَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ . جَمَعُوا بِدُعَائِهِمْ هَذَا بَيْنَ كَمَالِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ

.

(110/282)

يَدُلُّ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي طَلَبِ كَمَالِ الصَّبْرِ - تَنْكِيرُهُ وَالتَّعْبِيرُ عَنْ إِيتَائِهِ بِالْإِفْرَاغِ ، وَهُوَ صَبُّ الْمَاءِ الْكَثِيرِ مِنَ الدَّلْوِ وَنَحْوِهِ ، وَأَمَّا تَصْوِيرُنَا لِحُصُولِ ذَلِكَ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ فَمَأْخَذُهُ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجَارِبِ : أَنَّ الصَّبْرَ مِنْ صِفَاتِ النَّفْسِ ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ قُوَّةٍ فِيهَا عَلَى احْتِمَالِ الْآلَامِ وَالْمَكَارِهِ بِغَيْرِ تَبَرُّمٍ وَلَا حَرَجٍ يَحْمِلُهَا عَلَى مَا لَا يَنْبَغِي مِنْ تَرْكِ الْحَقِّ أَوِ اجْتِرَاحِ الْبَاطِلِ ، وَلَا شَيْءَ كَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ ، وَالرَّجَاءُ فِيهِ يُقَوِّي هَذِهِ الصِّفَةَ فِي النَّفْسِ ، وَمَأْخَذُهُ مِنَ النَّقْلِ آيَاتٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي بَيَانِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَوَجَبَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ : الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (29 : 59) وَقَوْلُهُ فِيهِمْ : وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (103 : 3) وَمِمَّا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ قَوْلُهُ : فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (3 : 175) .

(111/282)

وَلَدَيْنَا مِنْ نُقُولِ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ مَا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ ، وَقَدْ صَرَّحَ الَّذِينَ كَتَبُوا أَخْبَارَ الْحُرُوبِ الْأَخِيرَةِ بِعِلَلِهَا وَفَلْسَفَتِهَا : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْ جَمِيعِ الْمِلَلِ أَعْظَمُ شَجَاعَةً ، وَأَشَدُّ صَبْرًا عَلَى مَشَاقِّ الْحَرْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ ؛ وَلِذَلِكَ يَحْرِصُ أَوْسَعُ النَّاسِ عِلْمًا بِسُنَنِ الْخَلْقِ ، وَأَشَدُّهُمْ عِنَايَةً بِفُنُونِ الْحَرْبِ – كَالشَّعْبِ الْأَلْمَانِيِّ – عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى الدِّينِ فِي جَيْشِهِمْ ، وَلِلْبِرِنْسِ بِسْمَارْكَ مُؤَسِّسِ وَحْدَتِهِمْ ،

وَوَزِيرِهِمِ الْأَعْظَمِ بَلْ أَكْبَرُ سَاسَةِ أُورُبَّةَ – كَلِمَةٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَثْبَتْنَاهَا فِي الْمُجَلَّدِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمَنَارِ مِنْ تَرْجَمَةِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ كِتَابِ (وَقَائِعِ بِسْمَارْكَ وَمُذَكِّرَاتِهِ) الَّتِي نَشَرَهَا كَاتِمُ سِرِّهِ مِسْيُو بُوش بَعْدَ مَوْتِهِ نَكْتَفِي مِنْهَا هُنَا بِقَوْلِهِ :

" جَلَسَ الْبِرِنْسُ بِسْمَارْكُ عَلَى مَائِدَةِ الطَّعَامِ فَرَأَى بُقْعَةً مِنَ الدُّهْنِ عَلَى غِطَاءِ الْمَائِدَةِ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : كَمَا تَنْتَشِرُ هَذِهِ الْبُقْعَةُ فِي النَّسِيجِ شَيْئًا فَشَيْئًا كَذَلِكَ يَنْفُذُ الشُّعُورُ بِاسْتِحْسَانِ الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنِ الْوَطَنِ فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِ الشَّعْبِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ أَمَلٌ فِي الْجَزَاءِ وَالْمُكَافَأَةِ (أَيْ فِي الدُّنْيَا) ذَلِكَ لِمَا اسْتَكَنَّ فِي الضَّمَائِرِ مِنْ بَقَايَا الْإِيمَانِ – ذَلِكَ لِمَا يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أَنَّ وَاحِدًا مُهَيْمِنًا يَرَاهُ وَهُوَ يُجَالِدُ وَيَمُوتُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَائِدُهُ يَرَاهُ .

فَقَالَ بَعْضُ الْمُرْتَابِينَ : أَتَظُنُّ سَعَادَتَكُمْ أَنَّ الْعَسَاكِرَ يُلَاحِظُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ تِلْكَ الْمُلَاحَظَةَ ؟ فَأَجَابَهُ الْبِرِنْسُ : لَيْسَ هَذَا مِنْ قَبِيلِ الْمُلَاحَظَاتِ ، وَإِنَّمَا هُوَ شُعُورٌ وَوِجْدَانٌ ، هُوَ بَوَادِرُ تَسْبِقُ الْفِكْرَ ، هُوَ مَيْلٌ فِي النَّفْسِ وَهَوًى فِيهَا ، كَأَنَّهُ غَرِيزَةٌ لَهَا ؛ وَلَوْ لَاحَظُوا لَفَقَدُوا ذَلِكَ الْمَيْلَ ، وَأَضَلُّوا ذَلِكَ الْوِجْدَانَ ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي لَا أَفْهَمُ كَيْفَ يَعِيشُ قَوْمٌ ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ لَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِتَأْدِيَةِ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَاجِبَاتِ ؟ أَوْ كَيْفَ يَحْمِلُونَ غَيْرَهُمْ عَلَى أَدَاءِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ

إِيمَانٌ بِدِينٍ جَاءَ بِهِ وَحْيٌ سَمَاوِيٌّ ، وَاعْتِقَادٌ بِإِلَهٍ يُحِبُّ الْخَيْرَ ، وَحَاكِمٍ يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْفَصْلُ فِي الْأَعْمَالِ فِي حَيَاةٍ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ؟ " .

ثُمَّ أَطَالَ فِي ذَلِكَ بِأُسْلُوبٍ آخَرَ صَرَّحَ فِيهِ بِأَنَّهُ لَوْلَا عَقِيدَتُهُ الدِّينِيَّةُ لَمَا خَدَمَ سُلْطَانَهُ وَعَاهِلَهُ (الْإِمْبِرَاطُورَ) سَاعَةً مِنَ الزَّمَانِ إِلَى آخِرِ مَا قَالَهُ فَيُرَاجَعُ فِي مَحَلِّهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار جـ 9 صـ 59. 69 ﴾

(113/282)

وقال ابن عاشور :

وفصلت جملة ﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ لوقوعها في سياق المحاورة .

والانقلابُ : الرجوع وقد تقدم قريباً .

وهذا جواب عن وعيد فرعون بأنه وعيد لا يضيرهم ، لأنهم يعلمون أنهم صائرون إلى الله رب الجميع ، وقد جاء هذا الجواب موجزاً إيجازاً بديعاً لأنه يتضمن أنهم يرجون ثواب الله على ما ينالهم من عذاب فرعون ، ويرجون منه مغفرة ذنوبهم ، ويرجون العقابَ لفرعون على ذلك ، وإذا كان المراد بالصلب القتل وكان المراد تهديد جميع المؤمنين ، كان قولهم : ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ تشوقاً إلى حلول ذلك بهم محبة للقاء الله تعالى ، فإن الله تعالى لما هداهم إلى الإيمان أكسبهم محبة لقائه ، ثم بينوا أن عقاب فرعون لا غضاضة عليهم منه ، لأنه لم يكن عن جناية تَصمهم بل كان على الإيمان بآيات لما ظهرت لهم .

أي : فإنك لا تعرف لنا سبباً يوجب العقوبة غير ذلك .

والنّقْم : بسكون القاف وبفتحها ، الإنكار على الفعل ، وكراهة صدوره وحقد على فاعله ، ويكون باللسان وبالعمل ، وفعله من باب ضرب وتعب ، والأول أفصح ولذلك قرأه الجميع ﴿ ومَا تنقمُ ﴾ بكسر القاف .

والاستثناء في قولهم : ﴿ إلاّ أن آمنا بآيات ربنا ﴾ متصل ، لأن الإيمان ينقمه فرعون عليهم ، فليس في الكلام تأكيد الشيء بما يشبه ضده .

وجملة ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ من تمام كلامهم ، وهي انتقال من خطابهم فرعون إلى التوجه إلى دعاء الله تعالى ، ولذلك فصلت عن الجملة التي قبلها .

ومعنى قوله : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ اجعل لنا طاقة لتحمل ما توعدنا به فرعون .

(114/282)

ولما كان ذلك الوعيد مما لا تطيقه النفوس سألوا الله أن يجعل لنفوسهم صبراً قوياً ، يفوق المتعارف ، فشبه الصبر بماء تشبيه المعقول بالمحسوس ، على طريقة الاستعارة المكنية ، وشبه خلقُه في نفوسهم بإفراغ الماء من الإناء على طريقة التخييلية ، فإن الإفراغ صّب جميع ما في الإناء ، والمقصود من ذلك الكناية عن قوة الصبر لأن إفراغ الإناء يستلزم أنه لم يبق فيه شيء مما حواه ، فاشتملت هذه الجملة على مكنية وتخييلية وكناية .

وتقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ في سورة البقرة (250) .

ودعوا لأنفسهم بالوفاة على الإسلام إيذاناً بأنهم غير راغبين في الحياة ، ولا مبالين بوعيد فرعون ، وأن همتهم لا ترجو إلاّ النجاة في الآخرة ، والفوزَ بما عند الله ، وقد انخذل بذلك فرعون ، وذهب وعيده باطلاً ، ولعله لم يحقق ما توعدهم به لأن الله أكرمهم فنجاهم من خزي الدنيا كما نجاهم من عذاب الآخرة .

والقرآن لم يتعرض هنا ، ولا في سورة الشعراء ، ولا في سورة طه ، للإخبار عن وقوع ما توعدهم به فرعون لأن غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة وهو تأييد الله موسى وهداية السحرة وتصلبهم في إيمانهم بعد تعرضهم للوعيد بنفوس مطمئنّة .

وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث كما قال في سورة النازعات (26) : ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ فاختلاف المفسرين في البحث عن تحقيق وعيد فرعون زيادة في تفسير الآية .

والظاهر أن فرعون أفحم لما رأى قلة مبالاتهم بوعيده فلم يُرد جواباً .

وذكرُهم الإسلام في دعائهم يدل على أن الله ألهمهم حقيقته التي كان عليها النبيّون والصديقون من عهد إبراهيم عليه السلام .

(115/282)

والظاهر أن كلمة مسلمين ﴾ تعبير القرآن عن دعائهم بأن يتوفاهم الله على حالة الصديقين ، وهي التي يجمعُ لفظُ الإسلام تفصيلها ، وقد تقدم شرح معنى كون الإسلام وهو دين الأنبياء عند قوله : ﴿ فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ في سورة البقرة (132) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) ﴾

إنك قد عجلت لنا الخير لأننا سنكون في جوار ربنا ، فأنت بطيشك وحماقتك قد أسديت لنا معروفاً وخيراً من حيث لا تدري . ويزيدون في تقريع فرعون بما يجيء في القرآن على ألسنتهم : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا . . . ﴾

ما الذي تكرهه منا لأن " تنقم " تعني تكره ، وقولهم لفرعون : أليس الذي تكرهه منا أنَّا آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ؟ وهل الإيمان بآيات الإله حين تجيء مما يُكره ؟ ! ! ويسمون ذلك في اللغة تأكيد المدح بما يشبه الذم ؛ كأن يقول إنسان : ماذا تكره فيّ ؟ أصدقي ؟ أمانتي ؟ أجودي ؟ أعلمي ؟

كأنه يعدد أشياء يعرف كل الناس واقعاً أنها لا تُكره ، لكن الخطأ في مقاييس من يكره الصواب ، فهي أمور لا تستحق أن تُكره أو تعاب أو تُذَم . لقد تيقنوا أن لقاء الله على الإيمان هو الخير وكلهم يفضل جوار الله على جوار فرعون . وهذا الذي يعتبره فرعون عقاباً إنما يثبت خيبته حتى في توقع العقوبة ؛ لأنه لو لم يهددهم بهذه الميتة فهم سيموتون

ليرجعوا إلى الله ، وهذا أمر مقطوع به ، وكل مخلوق مصيره أن ينقلب إلى الله ، وكأنهم أبطلوا وعيد فرعون حين قال لهم : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : 124]

ثم يتجهون إلى ربهم وخالقهم فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

و" الإفراغ " أن ينصب شيء على شيء ليغمره ، وكأنهم يقولون : أعطنا يا رب كل الصبر ، وهم يحتاجون إلى الصبر لأن فرعون قد توعدهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم . ولذلك قال بعض العارفين بالله : عجبي لسحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة سحرة وكانوا آخر النهار شهداء بررة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(117/282)

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : انظر من سبقت له العناية ، هؤلاء السحرة جاؤوا يُحادون الله فأمسوا أولياء الله ، فكم من خصوص تخرج من اللصوص ، وانظر أيضاً صبرهم وثباتهم على دينهم ، وعدم مبالاتهم بعدوهم ، هكذا ينبغي أن يكون مَن مراده مولاه ، لا يلتفت إلى شيء سواه ،

وعند هذه التصرفات يفتضح المُدّعُون ويثبت الصادقون ، عند الامتحان يعز المرء أو يُهان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المديد حـ 2 صـ 248﴾

(118/282)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قالوا إنا إلى ربنا منقلبون " وفى الشعراء : "قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون " للسائل أن يسأل عن زيادة قوله : "لا ضير "فى سورة الشعراء ولم يرد ذلك فى الأعراف ؟ والجواب عنه أن قوله "لا ضير " مقابل به ما تقدم من قوله : "وقالوا بعزة فرعون "لما اعتقدوه أولا أن له عزة ونسبوها إليه فظنوا أنه يقدر على ما يريده ويستبد بفعله ثم لما وضح لهم الحق ورجعوا عن اعتقادهم وظنوا وعلموا أن القدرة والعزة لله سبحانه وسلموا لخالقهم ولم يبالوا بفرعون وملئه فقالوا "لاضير " أى لا ضرر ولا خوف من فرعون إذ العزة له وحده ولما لم يقع من قولهم فى الأعراف أولا مثل الواقع هنا لم يجيئوا فى الجواب بما جاؤوا هنا فافترق الموضعان وجاء كل على ما يجب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 222.221﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ جَوَّزُوا في هذا الضَّمير وجهين ، أحدهما : أَنَّهُ يَخُصُّ السَّحرةَ ، لقوله بعد ذلك ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ ﴾ فإنَّ الضَّميرَ في مِنَّا يَخُصُّهُمْ .

وجَوَّزُوا أن يعود عليهم ، وعلى فرعون ، أي : إنَّا – نحن وأنت – ننقلب إلى اللَّهِ ، فيُجازي كلاًّ بعمله ، وهذا وإن كان هو الواقعَ إلاَّ أَنَّهُ ليس من هذا اللَّفظِ .

قوله وَمَا تَنقِمُ قد تقدَّم في المائدةِ أنَّ فيه لغتين وكيفية تعدّيه بـ " مِنْ " وأَنَّهُ على التَّضمين .

وقوله : ﴿ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا ﴾ يجوز أن يكون في محلِّ نصبٍ مفعولاً به ، أي : ما تَعِيبُ علينا إلاَّ إيماننا ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله ، أي : ما تنال مِنَّا وتعذّبنا لشيءٍ من الأشياء إلاَّ لإيماننا وعلى كلا القولين فهو استثناءٌ مفرغ .

قوله " لَمَّا جَاءَتْنَا " يجوز أن تكون ظرفيةً كما هو رأي الفارس ، وأحد قولي سيبويه ، والعامِلُ فيها على هذا آمَنَّا أي : آمنَّا حين مجيء الآيات ، وأن تكون حرف وجوب لوجوب ، وعلى هذا فلا بدَّ لها من جواب وهو محذوف تقديره : لما جاءتنا آمّنا بها من غير

توقّف .

قوله : " لَمَّا جَآءَتْنَا " معنى الإفراغ في اللَّغَةِ : الصَّبُّ .

وأصله من إفراغ الإناء وهو صب ما فيه بالكليّة ، فكأَنَّهُمْ طلبوا من اللَّه كلَّ الصَّبْرِ لا بعضه .

ونكَّرُوا " الصَّبْر " وذلك يدلُّ على الكمالِ والتَّمَامِ ، أي : صبراً كَاملاً تاماً ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حَيَاةٍ ﴾ [البقرة : 96] أي : على حياة كاملة تامَّةٍ .

وقوله : ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أي : توفنا على الدِّين الحقِّ الذي جاء بِهِ موسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 268 . 269 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) ﴾

لَمَّا كان مصيرهم إلى الله سَهُلَ عليهم ما لقوا في مَسيرهم إلى الله .

﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126) ﴾

لما عَمِلُوا لله ، وأوذوا في الله ، صدقوا القصد إلى الله ، وطلبوا المعونة من قِبَلِ الله ، كذا

سُنّةُ مَنْ كان الله أن يكون كلُّه على الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 558 ﴾

(120/282)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) ﴾

مِنْ بَعْدِهِمْ الضمير للرسل في قوله وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ أو للأمم فَظَلَمُوا فكفروا بآياتنا . أجرى الظلم مجرى الكفر لأنهما من واد واحد إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ أو فظلموا الناس بسببها حين او عدوهم وصدّوهم عنها ، وآذوا من آمن بها ، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً ، فلذلك قيل : فظلموا بها ، أى كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه ، وهو موضع الإيمان . يقال لملوك مصر : الفراعنة ، كما يقال لملوك فارس الأكاسرة ، فكأنه قال :

يا ملك مصر وكان اسمه قابوس . وقيل : الوليد بن مصعب بن الريان حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ

عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ فيه أربع قراآت ، المشهورة : وحقيق عليّ أن لا أقول «1» ، وهي قراءة نافع وحقيق أن لا أقول

---

(1) . قال محمود : «فيه أربع قراآت ، المشهورة : وحقيق عليّ أن لا أقول . . . الخ» قال أحمد : القلب يستعمل في اللغة على وجهين ، أحدهما : قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله :

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

وكقوله :

قد صرح السر عن كتمان وابتذلت وضع المحاجن بالمهرية الدقن

فالحقيقة أن الضياطرة تشقى بالرماح ، والمهرية تبتذل بالمحاجن ، فعدل عن ذلك تنبيهاً على أن الرماح قد تنفصل وتنقصف في أجوافهم ، فعبر عن ذلك بالشقاء ، وأن المحاجن كثيرا ما ترفع وتوضع وتستعمل في ضرب المهرية ، وربما تمزقت عن ذلك فجعل ذلك ابتذالا لها ، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيراً في أمثال قوله :

والسيف يشقى كما تشقى الضلوع به وللسيوف كما للناس آجال

والمراد بشقاء السيف : انقطاعه في أضلاع المضروب ، كما صرح بذلك في قوله :

طوال الردينيات يقصفها دمى وبيض السريجيات يقطعها لحمى

الوجه الثاني : قلب معرى عن هذا المعنى البليغ ، ولذلك لا يستفصح ، كقولهم : خرق

الثوب المسمار وأشباهه ، وعلى الوجه الأول الأفصح جاءت الآية على هذه القراءة ، وهو الوجه الرابع من وجوه الزمخشري ، وفي طيه من المبالغة ما نبهت عليه . وأما الوجه الثاني وهو «أن ما لزمك فقد لزمته» ففيه نظر من حيث أن اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر ، ولزوم موسى عليه السلام لقول الحق من هذا النمط ، وأما الوجه الثالث فلا يلائم بين القراءتين ، وقد ذكر لها وجه خامس : وهو أن يكون «على» بمعنى الباء ، ونقل «رميت على القوس» بمعنى رميت بالقوس ، وهو وجه حسن ملائم ، والله أعلم . ويشهد له قراءة أبي : حقيق بأن لا أقول .

(121/282)

وهي قراءة عبد الله وحقيق بأن لا أقول وهي قراءة أبيّ وفي المشهورة إشكال ، ولا تخلو من وجوه ، أحدها : أن تكون مما يقلب من الكلام لأمن الإلباس ، كقوله :

وَتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضَّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ «1»

ومعناه : وتشقى الضياطرة بالرماح ، وحقيق عليّ أن لا أقول ، وهي قراءة نافع . والثاني : أنّ ما لزمك فقد لزمته ، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق ، أي لازماً له .

والثالث : أن يضمن حَقِيقٌ معنى حريص ، كما ضمن «هيجنى» معنى ذكرني في بيت الكتاب .

والرابع – وهو الأوجه – الأدخل في نكت القرآن : أن يعرق موسى «2» في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام لا سيما وقد روى أنّ عدو اللّه فرعون قال له – لما قال إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ

---

(1) كذبتم وبيت اللّه حين تعالجوا قوادم حرب لا تلين ولا نمرى

نزلت بخيل لا هوادة بينها وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

لخداش بن زهير ، يقول لقومه : كذبتم وحق بيت اللّه : في دعواكم إمكان الصلح ، وهذا يعلم ضمنا من قوله «حين تعالجوا ، أو استعار الكذب للخطأ في الظن أو الرأى ، أى أخطأتم في ممارستكم الجماعات القادمات الحرب لأجل الصلح . ويشبه أن يكون قوله «تعالجوا» محرفا ، وأصله بالصاد والحاء بدل العين والجيم ، وعلى كل فحذف نونه للوزن أو للتخفيف ، و«لا تلين» صفة قوادم . وأمرت الناقة : در لبنها ، شبه الرضاء بالصلح بأمر الناقة . على طريق التصريح ، ثم نفاه وبين ذلك بقوله «نزلت بخيل» أى في أصحاب خيل . ويحتمل أن الخيل مجاز عن الفرسان ، أو كناية عنهم . وروى «و تلحق خيل» فهو عطف على «لا تلين» أى : وتسرع خيل منها . والهوادة :

الصلح والبقية من القوم يرجى بها صلاحهم ، والمعنى أنهم لا يرجى صلحهم . وتشقى :

أى تتعب الرماح بسبب الضياطرة ، وهو من باب القلب لا من اللبس . والمعنى : وتشقى الضياطرة بالرماح. والضيطر : الضخم الجبان .

وقياس جمعه ضياطير ، إلا أنه عوض الهاء من الياء . والحمر عند العرب : كناية عن العجم ، لأنها تصف الحسن بالأخضر ، والقبيح بالأحمر . والمعنى : تتعب ضياطرتهم من حمل رماحهم . ويجوز أن المراد من طعن رماحنا .

ويحتمل أن لا قلب ، وأنه بالغ في ضخمهم ، حتى كأن الرماح تتعب من طعنهم ، لكن الأول هو المنقول .

والمعنى : لا تصالحوهم بل نحاربهم .

(2) . قوله «أن يعرق موسى» لعله : يغرق بالمعجمة . وفي الصحاح . أغرق النازع في القوس ، أى استوفى مدها . (ع)

(122/282)

كذبت ، فيقول : أنا حقيق على قول الحق أى واجب علىّ قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به ، ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ فخلهم حتى يذهبوا معى راجعين إلى الأرض المقدّسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم ، وذلك أن يوسف عليه

السلام لما توفى وانقرضت الأسباط ، غلب فرعون نسلهم واستعبدهم ، فأنقذهم اللّه بموسى عليه السلام ، وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام

[سورة الأعراف (7) : الآيات 106 إلى 107]

قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (107)

فإن قلت : كيف قال له فَأْتِ بِها بعد قوله إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ؟ قلت : معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأتنى بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك ثُعْبانٌ مُبِينٌ ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان . وروى أنه كان ثعبانا ذكراً أشعر فاغراً فاه «1» بين لحييه ثمانون ذراعا ، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب ، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك ، وهرب الناس وصاحوا ، وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً ، ودخل فرعون البيت وصاح : يا موسى ، خذه وأنا أو من بك وأرسل معك بنى إسرائيل ، فأخذه موسى فعاد عصى . فإن قلت : بم يتعلق لِلنَّاظِرِينَ ؟ قلت يتعلق ببيضاء . والمعنى : فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجا عن العادة ، يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة

للعجائب ، وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال : ما هذه ؟

قال : يدك ، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها ، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانيا غلب شعاعها شعاع الشمس ، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 109 إلى 112]

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (110) قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (112)

---

(1) . قوله «فاغراً فاه» أى فاتحا فاه . (ع)

إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ أى عالم بالسحر ماهر فيه ، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه ، حتى خيل إليهم العصى حية ، والآدم أبيض . فإن قلت قد عزى هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء ، وأنه قاله للملإ وعزى ها هنا إليهم . قلت : قد قاله هو وقالوه هم ، فحكى قوله ثم وقولهم ها هنا . أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ ، فقالوه لأعقابهم . أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ ، كما يفعل الملوك ، يرى الواحد منهم الرأى فيكلم به من يليه

من الخاصة ، ثم تبلغه الخاصة العامة . والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ وقرئ سحار ، أى يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة . أو بخير منه .

وكانت هذه مؤامرة مع القبط . وقولهم فَما ذا تَأْمُرُونَ من أمرته فأمرنى بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأى . وقيل : فما ذا تأمرون ؟ من كلام فرعون ، قاله للملإ لما قالوا له : إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم ، كأنه قيل : فما ذا تأمرون ؟ قالوا : أرجئه وأخاه ، ومعنى أرجئه وأخاه أخرهما وأصدرهما عنك ، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما . وقيل : احبسهما .

وقرئ : أرجئه ، بالهمزة . وأرجه ، من أرجأه وأرجاه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 113 إلى 114]

وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (113) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)

فإن قلت : هلا قيل : وجاء السحرة فرعون فقالوا ؟ قلت : هو على تقدير سائل سأل : ما قالوا إذ جاءوه ؟ فأجيب بقوله قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً أى جعلا على الغلبة : وقرئ : إن لنا لأجراً ، على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه : كأنهم قالوا : لا بد لنا من أجر ، والتنكير للتعظيم ، كقول العرب : إنّ له لإبلا ، وإنّ له لغنما ، يقصدون الكثرة . فإن قلت :

وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ما الذي عطف عليه؟ قلت: هو معطوف على محذوف سدّ مسدّه حرف الإيجاب، كأنه قال إيجابا لقولهم: إن لنا لأجراً: نعم إن لكم لأجراً، وإنكم لمن المقرّبين، أراد: إنى لأقتصر بكم على الثواب وحده، وإنّ لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب، وهو التقريب والتعظيم، لأنّ المثاب إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة.

وروى أنه قال لهم: تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج. وروى أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض، إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به. وروى أنهم كانوا ثمانين ألفاً. وقيل: سبعين ألفاً وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً. واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر. وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى. وقيل: قال فرعون: لا نغالب موسى إلا بما هو منه، يعنى السحر.

(124/282)

[سورة الأعراف (7): الآيات 115 إلى 122]

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا

أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (119)

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (120) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (122)

تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين ، قبل أن يتخاوضوا في الجدال ، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع . وقولهم وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر ، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل ، وقد سوّغ لهم موسى ما تراغبوا فيه ازدراء لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي ، وأنّ المعجزة لن يغلبها سحر أبداً سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ أروها بالحيل والشعوذة «1» وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه ، كقوله تعالى يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى . روى أنهم ألقوا حبالا غلاظاً وخشبا طوالا ، فإذا هي أمثال الحيات ، قد ملأت الأرض وركب بعضها بعضا وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وأرهبوهم إرهابا شديداً ، كأنهم استدعوا رهبتهم بِسِحْرٍ عَظِيمٍ في باب السحر . روى أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة . قيل : جعلوا فيها الزئبق ما يَأْفِكُونَ ما موصولة

(1) . قال محمود : «معناه أروها بالحيل والشعوذة . . . الخ» قال أحمد : معتقد المعتزلة إنكار وجود السحر والشياطين والجن في خبط طويل لهم . ومعتقد أهل السنة إقرارها الظواهر على ما هي عليه ، لأن العقل لا يحيل وجود ذلك .

وقد ورد السمع بوقوعه ، فوجب الإقرار بوجوده ، ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء ، ويستدق فيتولج في الكوة الضيقة ، ولا يمنع أن يفعل اللّه عند إرشاد الساحر ما يستأثر الاقتدار عليه ، وذلك واقع بقدرة اللّه تعالى عند إرشاد الساحر . هذا هو الحق والمعتقد الصدق ، وإنما أجريت هذا الفصل لأن كلام الزمخشري لا يخلو من رمز إلى إنكاره ، إلا أن هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن التصريح بالدفاع وكشف القناع ، ولا يدعه التصميم على اعتقاد المعتزلة من التنفيس عما في نفسه ، فيسميه شعوذة وحيلة . وبالقطع يعلم أن الشعوذة لا تعلم في يد ابن عمر رضى اللّه عنه حتى بكوعها ، ولا تؤثر في سيد البشر حتى يخيل اليه أنه يأتى نساءه وهو لا يأتيهن .

وقد ورد ذلك وأمثاله مستفيضا واقعا ، فالعمدة أن كل واقع فبقدرة اللّه تعالى ، فلا يمتنع أن يوقع تعالى بقدرته عند إرشاد الساحر أعاجيب يضل بها من يشاء ويهدى من يشاء ، واللّه الموفق .

أو مصدرية ، بمعنى : ما يأفكونه أي يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوّرونه . أو إفكهم ، تسمية للمأفوك بالإفك ، روى أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصى كما كانت ، وأعدم اللّه بقدرته تلك الأجرام العظيمة أو فرّقها أجزاء لطيفة قالت للسحرة : لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا فَوَقَعَ الْحَقُّ فحصل وثبت . ومن بدع التفاسير : فوقع قلوبهم ، أى فأثر فيها من قولهم . قاس وقيع وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ وصاروا أذلاء مبهوتين وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ وخرّوا سجدا : كأنما ألقاهم ملق لشدّة خرورهم . وقيل : لم يتمالكوا مما رأوا ، فكأنهم ألقوا . وعن قتادة : كانوا أول النهار كفاراً سحرة ، وفي آخره شهداء بررة . وعن الحسن . تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا ، وهؤلاء كفار نشأوا في الكفر ، بذلوا أنفسهم للّه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 123 إلى 124]

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124)

آمَنْتُمْ بِهِ على الإخبار ، أى فعلتم هذا الفعل الشنيع ، توبيخا لهم وتقريعاً . وقرئ : آآمنتم ، بحرف الاستفهام ، ومعناه الإنكار والاستبعاد إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ

إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم ، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بنى إسرائيل ، وكان هذا الكلام من فرعون تمويها على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان .

وروى أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر : أتؤمن بى إن غلبتك ؟ قال لآتين بسحر لا يغلبه سحر .

وإن غلبتني لأومنن بك ، وفرعون يسمع ، فلذلك قال ما قال فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وعيد أجمله ثم فصله بقوله لَأُقَطِّعَنَّ وقرئ لأقطعن بالتخفيف ، وكذلك ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ مِنْ خِلافٍ من كل شق طرفا . وقيل : إن أوّل من قطع من خلاف وصلب لفرعون .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 125 إلى 126]

قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (125) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (126)

إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ

فيه أوجه ، أن يريدوا : إنا لا نبالى بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك ومن لقائك . أو ننقلب إلى اللّه يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد

القطع والصلب ، أو إنا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى اللّه فيحكم بيننا . أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى اللّه ، فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات اللّه ، أرادوا : وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها ، وهو الإيمان . ومنه قوله :

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم «1»

أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا ، حتى يفيض علينا ويغمرنا ، كما يفرغ الماء فراغا . وعن بعض السلف : إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنوباً ثم يقول : قد مازحتك ، أى يغمره بالحياء والخجل . أو صب علينا ما يطهرنا من أوضار الآثام ، وهو الصبر على ما توعدنا به فرعون ، لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ ثابتين على الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 136 . 142 ﴾

---

(1) على عرفات للطعان عوابس بهن كلوم بين دام وجالب

إذا استنزلوا للطعن عنهن أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

النابغة الذبياني يصف فرسانا على أفراس عارقات صابرات عوابس كوالح ، فيهن جروح

رطبة بالدم ، وأخر يابسة ، عليها جلبة ، أى قشرة . وإذا التحم القتال واقتضى الحال نزولهم عن الخيل ، أسرعوا نازلين عنهن بائعين أعمارهم ، كاسراع الجمال المصاعب ، جمع مصعب . تقول : أصعبت الجمل إذا تركته عن العمل حتى صار صعبا شديدا . والفلول انثلامات في حد السيف . والقراع : المضاربة . والكتائب : الجماعات ، والبيت من استتباع المدح بما يشبه الذم ، أى إن كانت فلول السيف من ذلك عيباً ، فأثبته ، وهي ليست عيبا فلا عيب فيهم قط ، وهو مبالغة في المدح .

(127/282)

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم ﴾

أي من بعد قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ﴿ موسى بِآيَاتِنَآ ﴾ بحجّتنا وأدلّتنا ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ ﴾ فجحدوا وكفروا ﴿ بِهَا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ وكيف فعلنا بهم ﴿ وَقَالَ موسى ﴾ لمّا دخل على فرعون واسمه قابوس في قول أهل الكتاب .

قال وهب : كان اسمه الوليد بن مصعب بن الريان وكان من القبط وعَمّرَ أكثر من أربعمائة

عام وقال موسى : ﴿ يا فرعون إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ إليك فقال فرعون كذبت فقال موسى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى الله إِلاَّ الحق ﴾ يعني أنا [خليق] بأن لا أقول على الله إلاّ الحق ، فعلى بمعنى الباء ، كما يقال : رميت بالقوس على القوس وجاءني على حال حسنة وبحالة حسنة يدل عليه ، [قول الفراء] والأعمش : حقيق بأن لا أقول .

وقال أبو عبيدة : معناه حريص على أن لا أقول على الله إلاّ الحق ، وقرأ شيبة ونافع : حقيق على تشديد الياء يعني حق واجب عليَّ ترك القول على الله عزّ وجلّ إلاّ الحق .

﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني العصا وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت عليّ بن مهدي الطبري يقول : إنّه تعريض يقول : لحقيق مصرف الخطاب و ﴿ حَقِيقٌ ﴾ [فعيل] من الحق يكون بمعنى القائل ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بني إِسْرَائِيلَ ﴾ أي اطلق عنهم وخلهم يرجعون إلى الأرض المقدسة .

قال وهب : وكان سبب استعباد فرعون بني إسرائيل أنّ فرعون حاجّ [موسى] وكان [أشد من] فرعون يوسف [. . . . .] في يوسف [وانقرضت] الأسباط عليهم فرعون فاستعبدهم فأنقذهم الله بموسى .

(128/282)

قال : وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخل موسى رسولاً أربعمائة عام ﴿ قَالَ ﴾ فرعون مجيباً لموسى ﴿ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين * فألقى عَصَاهُ ﴾ من يده ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قال ابن عباس والسدي : كانت [عظيمة ذكراً] من الحيات ، إذا فتحت فاها صار شدقها ثمانين وقد ملأت ما بين سماطي فرعون واضعة لحييها ذراعاً واضع لحية الأسفل في الأرض الأعلى على سور القصر ، حتى رأى بعض من كان خارج مدينة مصر رأسها .

ثمّ توجهت نحو فرعون لتبتلعه فوثب فرعون من سريره وهرب منها فأحدث ولم يكن حدث قبل ذلك وهرب الناس وصاحوا وحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً ، ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى خذها وأنا مؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت .

ثمّ قال له فرعون : هل معك آية أُخرى ، قال : نعم ، فأدخل يده في جيبه ثمّ نزعها فأخرجها بيضاء مثل الثلج لها شعاع غلب على نور الشمس ، وكان موسى أدم ثمّ أدخلها جيبه فصارت يداً كما كانت .

﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ يعنون أنّه يأخذ بأعين الناس بخداعه إيّاهم حتّى تخيّل إليهم العصا حيّة والأدم أبيض [يري الشيء] بخلاف ما هو به ، كما قيل سحر المطر الأرض إذا جاءها فقطع نباتها من أصلها وقلب الأرض على البطن فهو

يسحرها سحراً والأرض مسحورة فشبه سحر الساحر به لتخيله إلى من سحره أنّه يري الشيء بخلاف ما هو به ، ومنه قول بني الرمة في صفة السراب :

وساحرة العيون من المواميِ . . . ترقص في نواشزها الأروم

(129/282)

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ ﴾ [من القبط] ﴿ مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ مصر ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ هذا من قول فرعون للملأ ولم يذكر فرعون فيه كقوله ﴿ الآن حَصْحَصَ الحق ﴾ [يوسف : 51] ﴿ أَنَا رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين * ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ [يوسف : 51-52] هذا من كلام يوسف ولم يذكر ﴿ قالوا أَرْجِهْ ﴾ أحبسه ﴿ وَأَخَاهُ ﴾ هارون ولا تقتلهما ولا يؤمن بهما ، وقال عطاء : احبسه وهذا أعجب إليّ لأنّه قد علم أنه لا يقدر على حبسه بعد ما رأى الآيات من العصا واليد .

﴿ وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ ﴾ يعني الشرطة وكانت له مدائن فيها السحرة عدة للأشياء إذا [حزّ به أمر] أرسل .

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ قرأها أهل الكوفة على التكثير وقرأ العامّة كل ساحر . والفرق بين الساحر والسحّار أن الساحر الذي لا يعلم والسحار الذي يعلم ولا يعلم . وقال

المؤرخ : الساحر من سحره في وقت دون وقت ، والسحار من قديم السحر .

قال : فإن غلبهم موسى صدقناه على ذلك وعلمت أنه ساحر .

قال ابن عباس وابن إسحاق والسدي : قال فرعون لمّا رأى من سلطان الله في العصا ما رأى : إنا لا نغالب موسى إلاّ بمَنْ هو مثله فأخذ غلمان بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها الفرقاء يعلّمونهم السحر كما يعلّم الصبيان الكتابة في المكتب فعلّموهم سحراً كثيراً وواعد فرعون موسى موعداً ، فبعث فرعون إلى السحرة فجاء بهم ومعهم معلمهم فقال له ماذا صنعت ؟ قال : قد علمتهم سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلاّ أن يكون أمر من السماء فإنّه لا طاقة لهم به ، ثم بعث فرعون الشرطي في [مملكته] فلم يترك في سلطانه ساحراً إلاّ أتى به واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون .

فقال مقاتل : كان السحرة اثنين وسبعين ساحراً اثنان فيهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بني إسرائيل .

(130/282)

وقال الكلبي : كانوا سبعين ساحراً غير رئيسهم وكان الذين يعلّمونهم السحر رجلين مجوسيين من أهل نينوى ، وقال كعب : كانوا اثني عشر ألفاً . قال السدي : كانوا بضعة

وثلاثين . عكرمة : سبعين ألفاً ، ابن المنكدر : ثمانين ألفاً فاختار منهم سبعة آلاف ليس منهم إلا ساحر ماهر ثم اختار منهم سبعمائة ثم اختار منهم سبعين من كبرائهم وعلمائهم ، وقاله ابن جريج ، فلمّا أجتمع السحرة ﴿ قالوا ﴾ لفرعون ﴿ إِنَّ لَنَا لأَجْراً ﴾ أي جعلاً وثواباً .

﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين * قَالَ ﴾ فرعون ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ في المنزلة عندي . قال الكلبي : أوّل مَنْ يدخل عليّ وآخر مَنْ يخرج ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني السحرة .

﴿ يا موسى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ بعصيّنا [وحبالنا] .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَلْقَوْاْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم ﴾ أي أرعبوهم وأفزعوهم ﴿ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ وذلك أنّهم ألقوا حبالاً وعظاماً وخشباً طوالاً فإذا هي حيّات كالجبال قد ملأت الوادي [يأكل] بعضهم بعضاً .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فألقاها ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ تبتلع ، ومَنْ قرأ تلقف ساكنة اللام خفيفة القاف فهو من لقف يلقف ، ودليله قراءة سعيد بن جبير : تلقم من لقم يلقم .

﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ يُكذّبون ، وقيل : يقلبون ويزوّرون على الناس فأكلت سحرهم كله فقالت السحرة : لو كان هذا سحراً لبقت حبالنا وعصينا . فذلك قوله : ﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ أي ظهر .

قال النضير بن شميل : فوقع الحق أي فزعهم وصدّعهم [كوقع الميقعة] ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من السحر ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ ﴾ وبطل ما كانوا يعملون ﴿ وانقلبوا صَاغِرِينَ ﴾ ذليلين ومقهورين .

(131/282)

﴿ وَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ ﴾ لله حيث عرفوا أنّ ذلك أمر سماوي وليس سحراً ، وقيل : ألهمهم الله ذلك ، وقال الأخفش : من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا ﴿ قالوا آمَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ فقال فرعون : إياي تعنون فقالوا ﴿ رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ .

قال عطاء : فكان رئيس السحرة بأقصى مدائن مصر وكانا أخوين فلمّا جاءهما رسول فرعون قالا لأُمّهما [دلّينا] على قبر أبينا فدلتهما عليه فأتياه فصاحا باسمه فأجابهما فقالا : إن الملك وجه إلينا رسولاً أن نقدم عليه ، لأنّه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح ولهما [عزّ ومنعة] وقد ضاق الملك ذرعاً من عزّهما ، ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لهما [شيء] تبلغ الحديد والحجر والخشب . فأجابهما أبوهما : انظرا إذا هما ناما فإنّ قدرتما أن تسلا العصا فسلاّها فإنّ الساحر لا يعمل سحره إذا نام ، وإن عملت العصا وهما نائمان فذلك أمر ربّ العالمين ، ولا طاقة لكما به ولا الملك ولا جميع أهل الدنيا ،

فأتاهما في خفية وهما نائمان ليأخذا العصا فقصدتهما العصا قاله مقاتل .

قال موسى للساحر الأكبر : تؤمن بيّ إن غلبتك فقال لآتينَ بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتني لأؤمنن بك وفرعون ينظر ﴿ قَالَ ﴾ لهم فرعون حين آمنوا ﴿ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ ﴾ صنيع وخديعة ﴿ مَّكَرْتُمُوهُ ﴾ صنعتموه أنتم وموسى ﴿ فِي المدينة ﴾ في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع .

﴿ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ بسحركم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما أفعل بكم .

﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ وهو أن يقطع من شق طرفا قال سعيد بن جبير : أوّل مَنْ قطع من خلاف فرعون ﴿ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ على شاطئ نهر مصر ﴿ قالوا ﴾ يعني السحرة لفرعون ﴿ إِنَّآ إِلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ راجعون في الآخرة ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ ﴾ قرأ العامّة بكسر القاف .

(132/282)

وقرأ الحسن وابن (المحيصن) بفتح القاف وهما لغتان نقَم ينقَم ونقم ينقِم .

قال الشاعر :

وما نقموا من بني أميّة إلا . . . أنّهم يحلمون إن غضبوا

وقال الضحاك وغيره : يعني وما يطعن علينا . قال عطاء : ما لنا عندك من ذنب وما ارتكبنا منك مكروهاً تعذّبنا عليه ﴿ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ ثمّ [فزعوا] إلى الله عز وجل فقالوا ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ ﴾ اصبب ﴿ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ أُصبب علينا الصبر عند القطع والصلب حتّى لا نرجع كفاراً ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ واقبضنا إليك على دين موسى ، فكانوا أول النهار كفاراً سحرة وآخره شهداء بررة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(133/282)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ يعني : الأنبياء المذكورين .

قوله تعالى : ﴿ فظلموا بها ﴾ قال ابن عباس : فكذَّبوا بها .

وقال غيره : فجحدوا بها .

قوله تعالى : ﴿ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ "على" بمعنى الباء قال الفراء : العرب تجعل الباء في موضع "على" ؛ تقول : رميت بالقوس ، وعلى القوس ، وجئت بحال حسنة ، وعلى حال حسنة .

وقال أبو عبيدة : "حقيق" بمعنى : حريص .

وقرأ نافع ، وأبان عن عاصم : "حقيق عليَّ" بتشديد الياء وفتحها ، على الاضافة .

والمعنى : واجب عليَّ .

قوله تعالى : ﴿ قد جئتكم ببينة ﴾ قال ابن عباس : يعني : العصا .

﴿ فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ أي : أطلق عنهم ؛ وكان قد استخدمهم في الأعمال الشاقة .

﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ قال أبو عبيدة : أي : حية ظاهرة .

قال الفراء : الثعبان أعظم الحيات ، وهو الذكر .

وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس : الثعبان : الحية الذكر .

قوله تعالى : ﴿ ونزع يده ﴾ قال ابن عباس : أدخل يده في جيبه ، ثم أخرجها ، فإذا هي تبرق مثل البرق ، لها شعاع غلب نور الشمس ، فخرَّوا على وجوههم ؛ ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت .

قال مجاهد : بيضاء من غير برص .

قوله تعالى : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ قال ابن عباس : ما الذي تشيرون به عليَّ ؟ وهذا يدل على أنه من قول فرعون ، وأن كلام الملأ انقطع عند قوله : ﴿ من أرضكم ﴾ .

قال الزجاج : يجوز أن يكون من قول الملأِ ، كأنهم خاطبوا فرعون ومن يخصه ، أو خاطبوه

وحده ، لأنه قد يقال للرئيس المطاع : ماذا ترون ؟ .

قوله تعالى : ﴿ أَرْجِئْهُ ﴾ قرأ ابن كثير "أرجهؤ" مهموز بواو بعد الهاء في اللفظ .

وقرأ أبو عمرو مثله ، غير أنه يضم الهاء ضمة ، من غير أن يبلغ بها الواو ؛ وكانا يهمزان ﴿ مُرجَؤن ﴾ [التوبة : 106] و ﴿ ترجىء ﴾ [الأحزاب : 51] .

وقرأ قالون والمسيّبي عن نافع "أرجهِ" بكسر الهاء ، ولا يبلغ بها الياء ، ولا يهمز .

(134/282)

وروى عنه ورش : "أرجهي" يصلها بياء ، ولا يهمز بين الجيم والهاء .

وكذلك قال إسماعيل بن جعفر عن نافع ؛ وهي قراءة الكسائي .

وقرأ حمزة : "أرجهْ" ساكنة الهاء غير مهموز ، وكذلك قرأ عاصم في غير رواية المفضل ، وقد روى عنه المفضل كسر الهاء من غير إشباع ولا همز ، وهي قراءة أبي جعفر ، وكذلك اختلافهم في سورة [الشعراء : 36] .

قال ابن قتيبة : أرِّجْهُ : أخّره ؛ وقد يهمز ، يقال : أرجأت الشيء ، وأرجيته .

ومنه قوله : ﴿ ترجي من تشاء منهن ﴾ [الأحزاب : 51] .

قال الفراء : بنو أسد تقول : أرجيت الأمر ، بغير همز ، وكذلك عامة قيس ؛ وبعض بني تميم

يقولون : أرجأت الأمر ، بالهمز ، والقراء مولَعون بهمزها ، وترك الهمز أجود .

قوله تعالى : ﴿ وأرسل في المدائن ﴾ يعني : مدائن مصر ، ﴿ حاشرين ﴾ أي : من يحشر السحرة إليك ويجمعهم .

وقال ابن عباس : هم الشرط .

قوله تعالى : ﴿ يأتوك بكل ساحر ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابو عمرو ، وعاصم وابن عامر : ﴿ ساحرٍ ﴾ ، وفي [يونس : 97] ﴿ بكل ساحرٍ ﴾ ؛ وقرأ حمزة ، والكسائي : "سحّارٍ" في الموضعين ؛ ولا خلاف في [الشعراء : 37] ﴿ سحّارٍ ﴾ قوله تعالى : ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحفص عن عاصم : ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ مكسورة الألف على الخبر ، وفي [الشعراء : 41] ﴿ آينَّ ﴾ ممدودة مفتوحة الألف ، غير أن حفصا روى عن عاصم في [الشعراء : 41] ﴿ أإن ﴾ بهمزتين .

وقرأ أبو عمرو : ﴿ آين لنا ﴾ ممدودة في السورتين .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : بهمزتين في الموضعين .

قال أبو علي : الاستفهام أشبه بهذا الموضع ، لأنهم لم يقطعوا على أن لهم الأجر ، وإنما استفهموا عنه .

قوله تعالى : ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾ أي : ولكم مع الأجر المنزلة الرفيعة عندي .

قوله تعالى : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ قال أبو عبيدة : عَشَّوْا أعين الناس وأخذوها .

﴿ واسترهبوهم ﴾ أي : خوَّفوهم .

(135/282)

وقال الزجاج : استَدعَوا رهبتهم حتى رهبهم الناس .

قوله تعالى : ﴿ فإذا هي تلقَّفُ ﴾ وقرأ عاصم : ﴿ تلقف ﴾ ساكنة اللام خفيفة القاف هاهنا وفي [طه : 69] ، و [الشعراء : 45] .

وروى البزّيّ ، وابن فُلَيح عن ابن كثير : ﴿ تلقف ﴾ بتشديد التاء قال الفراء : يقال : لقفْتُ الشيء ، فأنا ألقَفُه لَقفاً ولَقَفاناً ؛ والمعنى : تبتلع .

قوله تعالى : ﴿ ما يأفكون ﴾ أي : يكذبون ، لأنهم زعموا أنها حيّات .

قوله تعالى : ﴿ فوقع الحق ﴾ قال ابن عباس : استبان .

﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ من السحر .

الإشارة إلى قصتهم

اختلفوا في عدد السحرة على ثلاثة عشر قولاً .

أحدها : اثنان وسبعون ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : اثنان وسبعون ألفاً ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال مقاتل .

والثالث : سبعون ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والرابع : اثنا عشر ألفا ، قاله كعب .

والخامس : سبعون ألفاً ، قاله عطاء ، وكذلك قال وهب في رواية ، ألا أنه قال : فاختار منهم سبعة آلاف .

والسادس : سبعمائة ، وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب أنه قال : كان عدد السحرة الذين عارضوا موسى سبعين ألفاً متخيَّرين من سبعمائة ألف ، ثم إن فرعون اختار من السبعين الألف سبعمائة .

والسابع : خمسة وعشرون ألفاً ، قاله الحسن .

والثامن : تسعمائة ، قاله عكرمة .

والتاسع : ثمانون ألفاً ، قاله محمد بن المنكدر .

والعاشر : بضعة وثلاثون ألفاً ، قاله السدي .

والحادي عشر : خمسة عشر ألفاً ، قاله ابن اسحاق .

والثاني عشر : تسعة عشر ألفاً ، رواه أبو سليمان الدمشقي .

والثالث عشر : أربع مائة ، حكاه الثعلبي .

فأما أسماء رؤسائهم ، فقال ابن اسحاق : رؤوس السحرة ساتور ، وعاذور ، وحُطحُط ،

ومُصَفَّى ، وهم الذين آمنوا ، كذا حكاه ابن ماكولا .

ورأيت عن غير ابن اسحاق : سابوراً ، وعازوراً .

وقال مقاتل : اسم أكبرهم شمعون .

(136/282)

قال ابن عباس : ألقوا حبالاً غلاظاً ، وخشباً طُوالا ، فكانت ميلاً في ميل ، فألقى موسى عصاه ، فإذا هي أعظم من حبالهم وعصيهم ، قد سدت الأفق ، ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً ، فابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيّهم ، وجعلت تأكل جميع ما قدرت عليه من صخرة أو شجرة ، والناس ينظرون ، وفرعون يضحك تجلُّداً ، فأقبلت الحيَّة نحو فرعون ، فصاح : يا موسى ، يا موسى ، فأخذها موسى ، وعرفت السحرة أن هذا من السماء ، وليس هذا بسحر ، فخرُّوا سُجَّداً ، وقالوا : آمنا برب العالمين ، فقال فرعون : إياي تعنون ، فقالوا : ربَّ موسى وهارون ، فأصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء .

وقال وهب بن منبه : لما صارت ثعباناً حملت على الناس فانهزموا منها ، فقتل بعضهم بعضاً ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً .

وقال السدي : لقي موسى أمير السحرة ، فقال : أرأيت إن غلبتك غدا ، أتؤمن بي ؟ فقال

الساحر : لآتين غدا بسحر لا يغلبه السحر ، فوالله لئن غلبتني لأومننَّ بك .

فإن قيل : كيف جاز أن يأمرهم موسى بالإلقاء ، وفعل السحر كفر ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن مضمون أمره : إن كنتم محقين فألقوا .

والثاني : ألقوا على ما يصح ، لا على ما يفسد ويستحيل ، ذكرهما الماوردي .

والثالث : إنما أمرهم بالإلقاء لتكون معجزته أظهر ، لأنهم إذا ألقوا ، ألقى عصاه فابتلعت ذلك ، ذكره الواحدي .

فإن قيل : كيف قال : ﴿ وأُلقي السحرة ساجدين ﴾ وإنما سجدوا باختيارهم ؟

فالجواب : أنه لما زالت كل شبهة بما أظهر الله تعالى من أمره ، اضطرهم عظيم ما عاينوا إلى مبادرة السجود ، فصاروا مفعولين في الإلقاء تصحيحاً وتعظيماً لشأن ما رأوا من الآيات ، ذكره ابن الأنباري .

قال ابن عباس : لما آمنت السحرة ، اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ آمنتم به ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو : "ءآمنتم به" بهمزة ومدة على الاستفهام .

(137/282)

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "آآمنتم به" فاستفهموا بهمزتين ، الثانية ممدودة .

وقرأ حفص عن عاصم : "آمنتم به" على الخبر .

وروى ابن الإخريط عن ابن كثير : "قال فرعون وأمنتم به" فقلب همزة الاستفهام واواً ، وجعل الثانية مليّنة بين بين .

وروى قنبل عن القواس مثل رواية ابن الإخريط ، غير أنه كان يهمز بعد الواو .

وقال أبو علي : همز بعد الواو لأن هذه الواو منقلبة عن همزة الاستفهام ، وبعد همزة الاستفهام همزة ﴿ أَفَعَلْتُم ﴾ فحققها ولم يخففها .

قوله تعالى : ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه ﴾ قال ابن السائب : لصنيع صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر فتخرجوا منها أهلها ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة ما صنعتم ، ﴿ لأقطعنَّ أيديَكم أرجلَكم من خلاف ﴾ وهو قطع اليد اليمنى ، والرجل اليسرى .

قال ابن عباس : أول من فعل ذلك ، وأول من صلب ، فرعونُ .

قوله تعالى : ﴿ وما تنقم منا ﴾ أي : وما تكره منا شيئاً ، ولا تعطن علينا إلا لأنا آمنا .

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ قال مجاهد : على القطع والصلب حتى لا نرجع كفاراً ﴾

وتوفَّنا مسلمين ﴾ أي : مخلصين : على دين موسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(138/282)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم ﴾

أي من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

﴿ موسى ﴾ أي موسى بن عمران .

﴿ بِآيَاتِنَآ ﴾ أي بمعجزاتنا .

﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي كفروا ولم يصدقوا بالآيات .

والظلم : وضع الشيء في غير موضعه .

قوله تعالى : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ أي آخر أمرهم .

﴿ حَقِيقٌ عَلَى ﴾ أي واجب .

ومن قرأ "على ألاَّ" فالمعنى حريص على ألا أقول .

وفي قراءة عبد الله "حقِيق ألا أقول" بإسقاط "على" .

وقيل : "على" بمعنى الباء ، أي حقيق بألا أقول .

وكذا في قراءة أُبيّ والأعمش "بألا أقول" .

كما تقول : رميت بالقوس وعلى القوس .

ف "حقِيقٌ" على هذا بمعنى محقوق ومعنى "فَأَرْسِلْ معي بَنِي إسْرائِيلَ" أي خلّهم .

وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة .

﴿ فألقى عَصَاهُ ﴾ يستعمل في الأجسام والمعاني .

وقد تقدّم .

والثعبان : الحية الضخم الذكر ، وهو أعظم الحيات .

﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي حية لا لبس فيها .

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أي أخرجها وأظهرها .

قيل : من جيبه أو من جناحه ؛ كما في التنزيل ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ [النمل : 12] أي من غير بَرَص .

وكان موسى أسمر شديد السّمرة ، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأوّل .

قال ابن عباس : كان لِيَدِهِ نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض .

وقيل : كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تَلُوح .

فإذا ردّها عادت إلى مثل سائر بدنه .

ومعنى ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي بالسحر .

﴿ مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أي من مُلْكِكم معاشِرَ القبط ، بتقديمه بني إسرائيل عليكم .

﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي قال فرعون : فماذا تأمرون .

وقيل : هو من قول الملأ ؛ أي قالوا لفرعون وحده : فماذا تأمرون .

كما يخاطب الجبّارون والرؤساء : ما تَرَوْن في كذا .

ويجوز أن يكون قالوا له ولأصحابه .

و"ما" في موضع رفع ، على أن "ذا" بمعنى الذي .

(139/282)

وفي موضع نصب ، على أن "ما" و "ذا" شيء واحد .

﴿ قالوا أَرْجِهْ ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم والكسائيّ بغير همز ؛ إلاّ أنّ وَرْشاً والكسائيّ أَشْبعا كسرة الهاء .

وقرأ أبو عمرو بهمزة ساكنة والهاء مضمومة .

وهما لغتان ؛ يقال : أرجأته وأرجيته ، أي أخرته .

وكذلك قرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصِن وهشام ؛ إلا أنهم أشبعوا ضَمّة الهاء .

وقرأ سائر أهلِ الكوفة "أرجِهْ" بإسكان الهاء .

قال الفرّاء : هي لغة للعرب ، يقفون على الهاء المكنّى عنها في الوصل إذا تحرّك ما قبلها ، وكذا هذه طلحةُ قد أقبلت .

وأنكر البصريون هذا .

قال قتادة : معنى "أرْجِهِ" احبسه .

وقال ابن عباس : أخرّه .

وقيل : "أرجِه" مأخوذ من رجا يرجو ؛ أي أطْمِعه ودَعْه يرجو ؛ حكاه النحاس عن محمد بن يزيد .

وكسرُ الهاء على الاتباع .

ويجوز ضَمّها على الأصل .

وإسكانها لَحْنٌ لا يجوز إلا في شذوذ من الشعر .

﴿ وَأَخَاهُ ﴾ عطف على الهاء .

﴿ حَاشِرِينَ ﴾ نصب على الحال .

﴿ يَأْتُوكَ ﴾ جزم ؛ لأنه جواب الأمر ولذلك حذفت منه النون .

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً "بِكُلِّ سَحَّارٍ" وقرأ سائر الناس "ساحِرٍ" وهما متقاربان ؛ إلا أنّ فَعّالاً أشدّ مبالغة .

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ السحرة فِرْعَوْنَ ﴾ وحُذف ذِكر الإرسال لعلم السامع .

قال ابن عبد الحكم : كانوا اثني عشر نَقِيباً ، مع كل نَقِيب عشرون عَرِيفا ، تحت يدي كل عريف ألفُ ساحرٍ .

وكان رئيسهم شمعون في قول مقاتل بن سليمان .

وقال ابن جُرِيج : كانوا تسعمائة من العريش والفيوم والإسكندرية أثلاثا .

وقال ابن إسحاق : كانوا خمسة عشر ألف ساحر ؛ وروي عن وهب .

وقيل : كانوا اثني عشر ألفاً .

، وقال ابن المنكدر ثمانين ألفاً .

وقيل : أربعة عشر ألفاً .

وقيل : كانوا ثلاثمائة ألف ساحر من الرِّيف ، وثلاثمائة ألف ساحر من الصعيد ، وثلاثمائة ألف ساحر من الفيُّوم وما والاها .

وقيل : كانوا سبعين رجلاً .

وقيل : ثلاثة وسبعين ؛ فالله أعلم .

(140/282)

وكان معهم فيما رُوي حِبالٌ وعِصِيّ يحملها ثلاثمائة بعير .

فالتقمت الحية ذلك كله .

قال ابن عباس والسُّدّي : كانت إذا فتحت فَاهَا صار شِدْقُها ثمانين ذراعاً ؛ واضعة فكَّها الأسفل على الأرض ، وفكّها الأعلى على سُور القصر .

وقيل : كان سعة فمها أربعين ذراعاً ؛ والله أعلم .

فقصدت فرعون لتبتلعه ، فوثب من سريره فهرب منها واستغاث بموسى ؛ فأخذها فإذا هي عصاً كما كانت .

قال وهب : مات من خوف العَصَا خمسة وعشرون ألفاً .

﴿ قالوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً ﴾ أي جائزة ومالاً .

ولم يقل فقالوا بالفاء ؛ لأنه أراد لما جاءوا قالوا : وقرىء "إِنَّ لَنَا" على الخبر .

وهي قراءة نافع وابن كثير .

ألزموا فرعونَ أن يجعل لهم مالاً إن غَلَبوا ؛ فقال لهم فرعون : ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾

أي لمن أهل المنزلة الرفيعة لدينا ، فزادهم على ما طلبوا .

وقيل : إنهم إنما قطعوا ذلك لأنفسهم في حكمهم إن غلبوا .

أي قالوا : يجب لنا الأجر إن غلبنا .

وقرأ الباقون بالاستفهام على جهة الاستخبار .

استخبروا فرعون : هل يجعل لهم أجراً إن غلبوا أولا ؛ فلم يقطعوا على فرعون بذلك : إنما استخبروه هل يفعل ذلك ؛ فقال لهم "نعم" لكم الأجر والقُرْب إن غلَبَتم .

تأدّبوا مع موسى عليه السلام فكان ذلك سبب إيمانهم .

و"أن" في موضع نصب عند الكسائي والفراء ، على معنى إما أن تفعل الإلقاء .

ومثلهُ قول الشاعر :

قالوا الرُّكوبَ فقلنا تلك عادتنا . . .

﴿ قَالَ أَلْقُوْاْ ﴾ قال الفراء : في الكلام حذف .

والمعنى : قال لهم موسى إنكم لن تغلبوا ربكم ولن تُبطلوا آياته .

وهذا من معجز القرآن الذي لا يأتي مثله في كلام الناس ، ولا يقدرون عليه .

يأتي اللفظ اليسير بجمع المعاني الكثيرة .

وقيل : هو تهديد .

أي ابتدئوا بالإلقاء ، فسترون ما يحلّ بكم من الافتضاح ؛ إذ لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر .

وقيل : أمرهم بذلك ليبيّن كذبهم وتمويههم .

﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ ﴾ أي الحبال والعِصِيّ .

﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ أي خَيّلوا لهم وقلبوها عن صحة إدراكها ، بما يُتخيّل من التمويه الذي جرى مجرى الشعوذة وخفة اليد ؛ كما تقدم في "البقرة" بيانه .

ومعنى ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أي عندهم ؛ لأنه كان كثيراً وليس بعظيم على الحقيقة .

قال ابن زيد كان الاجتماع بالإسكندرية فبلغ ذنَب الحيّة وراء البحيرة .

وقال غيره : وفتحت فَاهَا فجعلت تلقف أي تلتقم ما ألقوا من حبالهم وعِصيّهم .

وقيل : كان ما ألقوا حبالاً من أَدَم فيها زئبق فتحركت وقالوا هذه حيّات .

وقرأ حَفْص "تَلْقف" بإسكان اللام والتخفيف .

جعله مستقبل لَقِف يَلْقَف .

قال النحاس : ويجوز على هذه القراءة "تِلْقَف" لأنه من لَقِف .

وقرأ الباقون بالتشديد وفتح اللام ، وجعلوه مستقبل تَلقّف ؛ فهي تَتَلَقّف .

يقال : لَقِفت الشيء وتلقفته إذا أخذته أو بَلَعته .

تَلْقَف وتَلْقَم وتَلْهَم بمعنىً واحد .

قال أبو حاتم : وبلغني في بعض القراءات "تَلَقّم" بالميم والتشديد .

قال الشاعر :

أنت عَصَا موسى التي لم تزلْ . . .

تَلْقَمُ ما يأْفِكُه الساحرُ

ويروى : تلقف .

﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي ما يكذبون ، لأنهم جاؤوا بحبال وجعلوا فيها زئبقاً حتى تحركت .

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ قال مجاهد : فظهر الحق .

﴿ وانقلبوا صَاغِرِينَ ﴾ نصب على الحال .

والفعل منه صَغِرَ يَصْغَر صَغَراً وصِغَراً وصَغاراً .

أي انقلب قوم فرعونَ وفرعونُ معهم أذِلاّء مَقْهُورين مغلوبين .

فأما السحرة فقد آمنوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ ﴾ إنكار منه عليهم .

﴿ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي المدينة لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أي جرت بينكم وبينه مُواطأة في هذا لتستولوا على مصر ، أي كان هذا منكم في مدينة مصر قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد لهم .

قال ابن عباس : كان فرعون أوّلَ من صَلبَ ، وقَطَعَ الأيدي والأرجل من خلافٍ ، الرجل اليمنى واليد اليسرى ، واليد اليمنى والرجل اليسرى ، عن الحسن .

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ قرأ الحسن بفتح القاف .

قال الأخفش هي لغة يقال : نَقِمت الأمر ونقمته أنكرته ، أي لست تكره منا سوى أن آمنا بالله وهو الحق .

﴿ لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ آياته وبيناته .

﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ الإفراغ الصَّبّ ، أي اصببه علينا عند القطع والصلب .

﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ فقيل : إن فرعون أخذ السحرة وقطعهم على شاطىء النهر ، وإنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(143/282)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾

(144/282)

يعني ثم بعثنا من بعد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ﴿ موسى بآياتنا ﴾ يعني بحججنا وأدلتنا الدالة على صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك من الآيات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ قيل إن كل من ملك مصر كان يسمى فرعون في ذلك الزمان مثل ما كان يسمى ملك الفرس كسرى وملك الروم قيصر وملك الحبشة النجاشي وكان اسم فرعون الذي أرسل إليه موسى عليه الصلاة والسلام الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط والملأ إشراف قومه وإنما خصوا بالذكر لأنه إذا آمن الأشراف آمن الأتباع ﴿ فظلموا بها ﴾ يعني : فجحدوا بها لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وكانت هذه الآيات معجزات ظاهرة قاهرة فكفروا بها ووضعوا الكفر موضع الإيمان ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي : انظر يا محمد بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ﴾ يعني أن موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على فرعون دعاه إلى الله تعالى وإلى الإيمان به وقال له إني رسول الله أي مرسل إليك وإلى قومك من رب العالمين يعني أن الله الذي خلق السموات والأرض وخلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم هو الذي أرسلني إليك ﴿ حقيق ﴾ أي واجب ﴿ على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ يعني إني رسول والرسول لا يقول على الله إلا الحق في وصفه

وتنزيهه وتوحيده وأنه لا إله غيره ﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم ﴾ يعني ببرهان على صدقي فيما أدعي من الرسالة والمراد ببينته معجزته وهي العصا واليد البيضاء ثم إن موسى عليه الصلاة والسلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم فقال موسى ﴿ فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ يعني خلِّ عنهم وأطلقه من أسرك وكان فرعون قد استعبد بني إسرائيل واستعملهم في الأعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ﴿ قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إن كنت من

الصادقين ﴾ يعني أن فرعون قال لموسى عليه الصلاة والسلام بعد تبليغ الرسالة : إن كنت جئت من عند من أرسلك ببينة تدل على صدقك فأتني بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك فيما قلت ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ أي بيِّن ، ولا ثعبان الذكر من الحيات وصفه هنا بأنه ثعبان والثعبان من الحيات العظيم الضخم ووصفه في آية أخرى بأنه جان والجان الحية الصغيرة والجامع بين هذين الوصفين أنها كانت في عظم الجثة كالثعبان العظيم وفي خفة الحركة كالحية الصغيرة وهي الجان .

قال ابن عباس والسدي : إن موسى لما ألقي العصا صارت حية عظيمة صفراء شعراء

فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعاً وارتفعت من الأرض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة ليحها الأسفل في الأرض ولحيها الأعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون فتأخذه فوثب فرعون عن سريره هارباً وأحدث وقيل إنه أحدث في ذلك اليوم أربعمائة مرة ، وقيل : إنها أخذت قبة فرعون بين أنيابها وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا وقتل بعضهم بعضاً فمات منهم في ذلك اليوم خمسة وعشرون ألفاً ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى أنشدك بالذي أرسلك أن تأخذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل فعادت في يده عصا كما كانت وفي كون الثعبان مبيناً وجوه :

الأول : أنه تميز وتبين ذلك عما عملته السحرة من التمويه والتلبيس وبذلك تتميز معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على تمويه السحرة وتخليهم .

الوجه الثاني : أنهم شاهدوا العصا انقلبت حية ولم يشتبه ذلك عليهم فذلك قال ثعبان مبين أي بيِّن .

الوجه الثالث : إن ذلك الثعبان لما كان معجزة لموسى عليه الصلاة والسلام كان من أعظم الآيات التي أبانت صدق قول موسى عليه الصلاة والسلام في أنه رسول من رب العالمين .

(146/282)

وقوله تعالى : ﴿ ونزع يده ﴾ النزع في اللغة عبارة عن إخراج الشيء عن مكانه والمعنى أنه أخرج يده من جيبه أو من تحت جناحه ﴿ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ قال ابن عباس وغيره : أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص ، وقيل : إن موسى عليه الصلاة والسلام أدخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه وقيل أخرج يده من تحت إبطه فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس وكان موسى عليه الصلاة والسلام آدم اللون ثم ردها إلى جيبه فأخرجها فإذا هي كما كانت ولما كان البياض المفرط عيباً في الجسد وهو البرص قال الله تعالى في آية أخرى ﴿ بيضاء من غير سوء ﴾ يعني من غير برص والمعنى فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة يُتعجب منه .

(فصل في بيان المعجزة وكونها دليلاً على صدق الرسل)

(147/282)

اعلم ان الله تبارك وتعالى كان قادراً على خلق المعرفة والإيمان في قلوب عباده ابتداء من غير واسطة ولكن أرسل إليهم رسلاً تعرفهم معالم دينه وجميع تكليفاته وذلك الرسول واسطة بين الله عز وجل وبين عباده يبلغهم كلامه ويعرفهم أحكامه وجائز أن تكون تلك

الواسطة من غير البشر كالملائكة من الأنبياء وجائز إلى أن تكون الواسطة من جنس البشر كالأنبياء مع أممهم ولا مانع لهذا من جهة العقل وإذا جاز هذا في دليل العقل وقد جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات دلت على صدقهم فوجب تصديقهم في جميع ما أتوا به لأن المعجز مع التهدي من النبي قائم مقام قول الله عز وجل صدق عبدي فأطيعوه واتبعوه ولأن معجزة النبي شاهد على صدقه فيما يقوله وسميت المعجزة معجزة لأن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها وهي على ضربين : فضرب منها هو على نوع قدرة البشر ولكن عجزوا عنه فعجزهم عنه دلَّ على أنه من فعل الله ودل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم كتمنّي الموت في قوله ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ فلما صرفوا عن تمنيه مع قدرتهم عليه علم أنه من عند الله ودل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم الضرب الثاني ما هو خارج عن قدرة البشر كإحياء الموتى وقلب العصا حية وإخراج ناقة من صخرة وكلام الشجر والجماد الحيوان ونبع الماء من بين الأصابع وغير ذلك من المعجزات التي عجز البشر عن مثلها فإذا أتى النبي بشيء من تلك المعجزات الخارقة للعادات علم أن ذلك من عند الله وأن الله عز وجل هو الذي أظهر ذلك المعجز على يد نبيه ليكون حجة له على صدقه فيما يخبر به عن الله عز وجل وقد ثبت بدليل العقل والبرهان القاطع أن الله تعالى قادر على خلق الأشياء وإبداعها من غير أصل سبق لها وإخراجها من العدم إلى الوجود وأنه قادر على قلب الأعيان وخوارق العادات والله تعالى أعلم .

قوله عز وجل : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا ﴾ يعني موسى ﴿ لَساحر عليم ﴾ يعني أنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيل لهم أن العصا صارت حية ويرى الشيء بخلاف ما هو عليه كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون ، وإنما قالوا ذلك لأن السحر كان هو الغالب في ذلك الزمان فلما أتى بما يعجز عنه غيره قالوا إن هذا لساحر عليم .

فإن قلت : قد أخبر الله تعالى في هذه السورة أن هذا الكلام من قوم الملأ لفرعون وقال في سورة الشعراء قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم فكيف الجمع بينهما .

قلت : لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولاً ثم إنهم قالوه بعد فأخبر الله تعالى عنهم هنا وأخبر عن فرعون في سورة الشعراء ، وقيل : يحتمل أن فرعون قال هذا القول ، ثم إن الملأ من قومه وم خاصته سمعوه منه ثم إنهم بلغوه إلى العامة فأخبر الله عز وجل هنا عن الملأ وأخبر هناك عن فرعون .

وقوله : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ يعني يريد موسى أن يخرجكم أيها القبط من أرض مصر ﴿ فماذا تأمرون ﴾ يعني : فأي شيء تشيرون أن نفعل به وقيل إن قوله فماذا تأمرون من قول الملأ لأن كلام فرعون تم عند قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم فقال الملأ مجيبين لفرعون فماذا تأمرون وإنما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك في التعظيم والتفخيم والمعنى فما ترون أن نفعل به والقول الأول أصح لسياق الآية التي بعدها وهو قوله تعالى : ﴿ قالوا أرجه وأخاه ﴾ يعني أخرِّ أمرهما ولا تعجل فيه فتصير عجلتك عليك لا لك والإرجاء في اللغة هو التأخير لا الحبس ولأن فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد أن رأى من أمر العصا ما رأى ﴿ وأرسل في المدائن ﴾ جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان أي أقام به يعني مدائن صعيد مصر ﴿ حاشرين ﴾ يعني رجالاً يحشرون إليك السحرة من جميع مدائن الصعيد والمعنى أنهم قالوا لفرعون أرسل إلى هذه المدائن رجالاً من أعوانك وهو الشرَط يحشرون إليك من فيها من السحرة وكان الرؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فإن غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وإن غلبوه أنه ساحر فذلك قوله ﴿ يأتوك ﴾ يعني الشرط ﴿ بكل ساحر ﴾ وقرئ سحار والفرق بين الساحر والسحار أن الساحر هو المبتدئ في صناعة السحر فيتعلم ولا يعلم والسحار هو الماهر الذي يتعلم منه السحر وقيل الساحر من يكون سحره وقتاً دون وقت والسحار الذي يدوم سحره ويعمل في كل وقت ﴿ عليم ﴾ يعني ماهر بصناعة السحر وقال ابن عباس رضي الله

عنهما وابن إسحاق والسدي : إن فرعون لما رأى من سلطان الله وقدرته في العصا قال إنا لا نقاتل موسى إلا بمن هو أشد منه سحراً فاتخذ غلماناً من بني إسرائيل وبعث بهم إلى مدينة يقال لها الغوصاء يعلمونهم السحر فعلموهم سحراً كبيراً وواعد فرعون موسى موعداً ثم بعث إلى السحرة فجاؤوا ومعهم معلمهم فقال فرعون للمعلم ماذا صنعت قال قد علمتهم سحراً لا يطيقه سحر أهل الأرض

(150/282)

إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك ساحراً إلا أتى به واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فقال مقاتل : كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بني إسرائيل وقال الكلبي : كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب الأحبار : كانوا اثني عشر ألفاً ، ومحمد بن إسحاق : كانوا خمسة عشر ألفاً ، وقال عكرمة : كانوا سبعين ألفاً وقال محمد بن المنكدر : كانوا ثمانين ألفاً وقال السدي : كانوا بضعاً وثمانين ألفاً ، ويقال : رئيس القوم شمعون ، وقيل : يوحنا .

(151/282)

قوله تعالى : ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ يعني لما اجتمعوا وجاؤوا إلى فرعون ﴿ قالوا إن لنا لأجراً ﴾ يعني جعلاً وعطاء تكرمنا به ﴿ إن كنا نحن الغالبين ﴾ يعني لموسى قال الإمام فخر الدين الرازي : ولقائل أن يقول كان حق الكلام أن يقول وجاء السحرة فرعون فقالوا بالفاء وجوابه هو على تقدير سائل سأل ما قالوا إذا جاؤوا فأجيب بقوله قالوا أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين يعني لموسى ﴿ قال نعم ﴾ يعني : قال لهم فرعون لكم الأجر والعطاء ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾ يعني ولكم المنزلة الرفيعة عندي مع الأجر والمعنى أن فرعون قال للسحرة إني لا أقتصر معكم على الأجر بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة إني أجعلكم من المقربين عندي ، قال الكلبي : تكونوا أول من يدخل عليّ وآخر من يخرج من عندي ﴿ قالوا ﴾ يعني السحرة ﴿ يا موسى إما أن تلقي ﴾ يعني عصاك ﴿ وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ يعني عصيّنا وحبالنا في هذه الآية دقيقة لطيفة وهي أن السحرة راعوا مع موسى عليه الصلاة والسلام حسن الأدب حيث قدموه على أنفسهم في الإلقاء لا جرم أن الله عز وجل عوضهم حيث تأدبوا مع نبيه موسى صلى الله عليه وسلم أن منَّ عليهم بالإيمان والهداية ولما راعوا الأدب أولاً وأظهروا ما يدل على رغبتهم في ذلك ﴿ قال ﴾ يعني قال لهم موسى ﴿ ألقوا ﴾ يعني أنتم فقدمهم على نفسه في الإلقاء .

فإن قلت كيف جاز لموسى أن يأمر بالإلقاء وقد علم انه سحر وفعل السحر غير جائز ؟

قلت : ذكر العلماء رحمهم الله تعالى في أجوبة أحدها أن معناه إن كنتم محقين في فعلكم فألقوا وإلا فلا تلقوا .

الجواب الثاني : إنما أمرهم بالإلقاء لتظهر معجزته لأنهم إذا لم يلقوا حبالهم وعصيهم لم تظهر معجزة موسى في عصاه .

(152/282)

الجواب الثالث : أن موسى علم أنهم لا بد أن يلقوا تلك الحبال والعصي وإنما وقع التخيير في التقديم والتأخير فأذن لهم في التقديم لتظهر معجزته أيضاً بغلبهم لأنه لو ألقى أولاً لم يكن له غلب وظهور عليهم فلهذا المعنى أمرهم بالإلقاء أولاً ﴿ فلما ألقوا ﴾ يعني حبالهم وعصيهم ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ يعني صرفوا أعين الناس عن إدراك حقيقة ما فعلوا من التمويه والتخييل وهذا هو السحر وهذا هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي هي فعل الله وذلك لأن السحر قلب الأعين وصرفها عن إدراك ذلك الشيء والمعجزة قلب نفس الشيء عن حقيقته كقلب عصا موسى عليه الصلاة والسلام حية تسعى ﴿ واسترهبوهم ﴾ يعني أرهبوهم وأفزعوهم بما فعلوه من السحر وهذا قوله تعالى : ﴿ وجاؤوا ﴾ يعني السحرة ﴿ بسحر عظيم ﴾

وذلك انهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً ، ويقال : إنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً فغذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً ، ويقال : إنهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصي زئبقاً أيضاً وألقوها على الأرض فلما أثر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس أنها حيات .

(153/282)

ويقال : إن الأرض كانت سعتها ميلاً فصارت كلها حيات وأفاعي ففزع الناس من ذلك وأوجس في نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه الصلاة والسلام لأجل سحرهم لأنه عليه الصلاة والسلام كان على يقين وثقة الله تعالى أنهم لن يغلبوه وهو غالبهم وكان عالماً بأن كل ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى من ذلك بل كان خوفه عليه الصلاة والسلام لأجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوا من أمر تلك الحيات فخاف موسى عليه الصلاة والسلام أن يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس في نفسه خيفة موسى .

قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألقِ عصاك ﴾ يعني فألقاها ﴿ فإذا هي تلقف ﴾ يعني تبتلع ﴿ ما يأفكون ﴾ يعني ما يكذب فيه السحرة لأن أصل الإفك قلب الشيء عن غير وجهه ومنه قيل للكذاب أفّاك لأنه يقلب الكلام عن وجه الصحيح إلى الباطل .

قال المفسرون : أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن لا تخف وألق عصاك فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق .

قال ابن زيد : كان اجتماعهم بالإسكندرية فيقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً فإذا هي تلقف يعني تبتلع كل شيء أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحداً واحداً حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع الزحام بينهم فمات من ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفاً ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت في يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه من أمر السماء وليس بسحر وعرفوا أن ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجَّداً وقالوا : آمنا برب العالمين .

(154/282)

قوله تعالى : ﴿ فوقع الحق ﴾ يعني فظهر الحق الذي جاء به موسى ﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ يعني من السحر وذلك أن السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا فلما نفدت وتلاشت في عصا موسى علموا أن ذلك من أمر الله وقدرته ﴿ فغلبوا هنالك ﴾ يعني فعند ذلك غلب فرعون وسحرته وجموعه ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ يعني ورجعوا ذليلين مقهورين ﴿ وألقى السحرة ساجدين ﴾ يعني أن السحرة لما عاينوا من عظيم قدرة الله تعالى ما ليس في قدرتهم مقابلته وعلموا أنه ليس بسحر خروا لله ساجدين وذلك أن الله عز وجل ألهمهم معرفته والإيمان به ﴿ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ فقال فرعون إياي تعنون فقالوا بل ﴿ رب موسى وهارون ﴾ قال مقاتل : قال موسى لكبير السحرة تؤمن بي إن غلبتك فقال لآتينّ بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتني لأومنن بك ، وقيل : إن الحبال والعاصي التي كانت مع السحرة كانت حمل ثلاثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها قال بعضهم لبعض هذا أمر خارج عن حد السحر وما هو إلا من أمر السماء فآمنوا به وصدقوه .

فإن قلت كان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الإيمان .

قلت : لما قذف الله عز وجل في قلوبهم الإيمان والمعرفة خروا سجداً لله تعالى شكراً على هدايتهم إليه وعلى ما ألهمهم الله من الإيمان بالله وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك إيمانهم .

وقيل : لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه في أمر العصا وأنه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر وزالت كل شبهة كانت في قلوبهم بادروا إلى السجود لله تعظيماً لشأنه لما رأوا من عظيم قدرته ثم إنهم أظهروا الإيمان باللسان .

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر فخّروا سجّداً وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

(155/282)

قوله عز وجل : ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ﴾ يعني فرعون للسحرة آمنتم بموسى وصدقتموه قبل أن آمركم به وآذن لكم فيه ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة ﴾ يعني إن هذا الصنع الذي صنعتموه أنتم وموسى في مدينة مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع وذلك أن فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون أن موسى وكبير السحرة قد تواطآ عليه وعلى أهل مصر وهو قوله ﴿ لتخرجوا منها أهلها ﴾ وتستولوا عليها أنتم ﴿ فسوف تعلمون ﴾ فيه وعيد وتهديد يعني : فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد فقال ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ وهو أن تقطع إحدى اليدين وإحدى الرجلين فيخالف بينهما في القطع ﴿ ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ يعني على

شاطئ نيل مصر .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل فرعون ﴿ قالوا ﴾ يعني مجيبين لفرعون حين وعدهم بالقتل ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ إنا إلى ربنا راجعون وإليه صائرون في الآخرة .

﴿ وما تنقم منا ﴾ وما تكره منا وما تطعن علينا وقال عطاء : معناه وما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه ﴿ إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ ثم فزعوا إلى الله تعالى وسألوه الصبر على تعذيب فرعون إياهم فقالوا ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أي اصبب علينا صبراً كاملاً تاماً ولهذا أتى بلفظ التنكير يعني صبراً وأي صبر عظيم ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ يعني واقبضنا على دين الإسلام وهو دين خليلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء .

قال الكلبي : إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم غير أنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى : ﴿ لا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(156/282)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126) ﴾

التفسير : القصة السابعة من قصص هذه السورة قصة موسى عليه السلام . وقد ذكر في هذه القصة من البسط والتفصيل ما لم يذكر في غيرها لأن جهل قومه أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام ولهذا كانت معجزاته أقوى من معجزات متقدميه من الأنبياء . والضمير في قوله ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ يعود إلى الرسل أو إلى الأمم المذكورين ، في قوله ﴿ بآياتنا ﴾ دلالة على كثرة معجزاته وأن النبي لا بد له من آية ومعجزة بها يمتاز عن المتنبي . ﴿ فظلموا بها ﴾ أي بتلك الآيات والمراد كفرهم بها لأن وضع الإنكار في موضع الإقرار وإيراد الكفر بدل الإيمان وضع للشيء في غير موضعه ، أو تظلموا الناس بسببها حين أوعدوهم

وصدوهم عنها وأذوا من آمن بها . ﴿ وانظر ﴾ أيها المعتبر المستبصر بعين بصيرتك ﴿ كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ كيف فعلنا بهم ؟ وهذه قصة إجمالية ثم شرع في تفصيلها وذلك قوله ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ﴾ أي إله قادر عليم حكيم . وفيه أن العالم موصوف بصفات لأجلها افتقر إلى رب يربيه ﴿ حقيق على أن لا أقول ﴾ من قرأ بالتشديد في ﴿ عليّ ﴾ و ﴿ حقيق ﴾ إما بمعنى فاعل أي واجب عليّ ترك القول على الله إلا بالحق ، أو بمعنى مفعول أي حق عليّ ذلك . تقول العرب إني لمحقوق علي أن أفعل خيراً . وأما قراءة العامة ﴿ حقيق علي أن لا أقول ﴾ مرسلة الياء ففيه وجوه أحدها : أن يكون " علي " بمعنى " الباء " كقولهم جئت على حال حسنة وبحال حسنة ، قال الأخفش : وهذا كما قال ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ [الأعراف : 86] أي على كل صراط ويؤكد هذا الوجه قراءة أبيّ ﴿ حقيق بأن لا أقول ﴾ أي أنا خليق بذلك : وثانيها : أن الحق هو الدائم الثابت والحقيق مبالغة فيه ، وكل ما لزمك فقد لزمته فكأن المعنى أنا ثابت مستمر على أن لا أقول إلا الحق . ثالثها : أن يضمن حقيق معنى حريص . ورابعها : أن يكون من القلب الذي يشجع عليه أمن الإلباس فيؤل المعنى إلى قراءة نافع . وخامسها : أن يكون

(158/282)

إغراقاً في الوصف ومبالغة بالصدق والمراد أنا حقيق على قول الحق أي واجب عليّ أن أكون أنا قائله والقائم به ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به . وسادسها : أن يكون على هذه هي التي تقرن بالأوصاف اللازمة الأصلية كقوله تعالى ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ [الروم : 30] ويقال : جاءني فلان على هيئته وعلى عادته وعرفته وتحققته على كذا وكذا من الصفات . فمعنى الآية لم أتحقق إلا على قول الحق . ولما كان ظهور المعجزة على وفق الدعوى دالاً على وجود الإله القادر المختار وعلى تصديق الرسول جميعاً قال ﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم ﴾ أي بمعجزة قاهرة باهرة منه .

(159/282)

ثم فرع عليه تبليغ الحكم وهو قوله ﴿ فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ أي أطلقهم وخل سبيلهم حتى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم . وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي وانقرضت الأسباط غلب فرعون نسلهم

واستعبدهم واستخدمهم في الأعمال الشاقة ﴿ قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾ فيه سؤالان : أحدهما لفظي وهو أن القائل : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيداً . وثانيهما : أن قوله ﴿ إن كنت جئت بآية ﴾ وقوله ﴿ فأت بها ﴾ كلاهما واحد في المعنى فكيف يفيد تعليق أحدهما بالآخر ؟ وجوابه المنع إذ المراد إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأحضرها لتصح دعواك . ثم إن فرعون لما طالب موسى عليه السلام بإقامة البينة الدالة على وجود الرب وعلى صحة نبوته قلب العصا ثعباناً وأظهر اليد البيضاء وذلك قوله سبحانه ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ ومعنى كون الثعبان مبيناً أن أمره ظاهر لا يشك في أنه ثعبان ليس مما جاءت به السحرة من التمويهات وإنما هو من قبيل المعجزات . أو المراد أنه أبان قول موسى عن قول المدعي الكاذب والثعبان في اللغة الحية الضخم الذكر . روي أنه كان أشقر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً وضع لحيه الأسفل على الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب واخذه البطن يومئذ أربعمائة مرة وكان لم ير منه الحدث قبل ذلك . وهرب الناس وصاحوا وحمل على الناس فانهزموا ومات منهم خمسة وعشرون ألفاً ، ودخل فرعون البيت وصاحوا يا موسى خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل ، فأخذه موسى فعاد عصاً . والنزع في اللغة القلع والإخراج أن أخرجها من جيبه أو من جناحه بدليل قوله في موضع آخر ﴿

وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء ﴾ [النمل : 12] روي أنه أرى فرعون يده وقال : ما هذه ؟ فقال : يدك . ثم أدخلها في جيبه وعليه مدرعة صوف ثم نزعها فإذا هي

(160/282)

بيضاء بياضاً نورانياً غلب شعاعها الشمس ، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة وقوله ﴿ للناظرين ﴾ يتعلق ببيضاء فإنها لا تكون بيضاء للناظرين إلا إذا كان بياضها عجيباً خراجاً عن العادة اجتمع الناس للنظر إليه كما يجتمعون للعجائب . واعلم أن القول بجواز انقلاب العادات عن مجاريها مقام صعب مشكل ولهذا اضطربت أقوال العلماء فيه ؛ فالأشاعرة جوّزوا ذلك على الإطلاق بناء على القول بالفاعل المختار فجوّزوا في الإنسان وسائر أنواع الحيوان أن يتولد دفعة واحدة من غير سابقة مادة ومدة ، وجوّزوا في الجوهر الفرد أن يكون حياً عالماً قادراً قاهراً من غير حصول بنية ولا مزاج ، وجوّزوا في الأعمى الذي بالأندلس أن يبصر في ظلمة الليل البقة التي تكون بأقصى المشرق وفي سليم البصر أن لا يرى الشمس في كبد السماء من غير حائل .

(161/282)

والمعتزلة جوّزوا انخراق العادات في بعض الصور دون بعض من غير ضابط ولا قانون اللهم إلا أن يحال على الشرع ، والطبيعيون المتفلسفون أنكروا ذلك على الإطلاق وزعموا أنه لا يجوز حدوث الأشياء ودخولها في الوجود إلا على هذا الوجه المخصوص والطريق المعين والإلزام فتح باب الجهالات فإنه إذا جاز أن تنقلب العصا ثعباناً جاز في الشخص الذي شاهدناه كموسى وعيسى ومحمد مثلاً أنه ليس هو الشخص الأوّل وهذا يوجب القدح في النبوّة والرسالة . فإن زعم زاعم أن هذه الأمور تختص بزمان دعوة الأنبياء . قلنا : المخصص في ذلك الزمان لا يعرف إلا بدليل غامض ، وكل من لا يقف على ذلك الدليل يقع في تيه الإشكال والضلال مع أن زمان جواز الكرامات لا ينقرض عندكم أبداً فلا ينقضي التجويز سرمداً . هذا وإنما جمع بين العصا واليد مع أن المعجز الواحد كافٍ لأن كثرة الدلائل توجب مزيد اليقين . قال بعض المتحذلقين : هما شيء واحد والمراد أن حجة موسى كانت قوية ظاهرة فمن حيث إن الحجة أبطلت أقوال المخالفين كانت كالثعبان الذي يلقف ما يأفكون ، ومن حيث إنها كانت ظاهرة في نفسها وصفت باليد البيضاء كما يقال لفلان يد بيضاء في الأمر الفلاني أي قوّة كاملة ومرتبة ظاهرة . والتحقيق أن انقلاب العصا وغير ذلك أمور ممكنة في ذواتها لأن الأجسام متماثلة في الجسمية فكل ما صح على شيء صح على مثله والله سبحانه قادر على كل الممكنات ، فكل ما ثبت وقوعه بالتواتر وجب

قبوله من غير تأويل ودفع ، ثم أن السحر كان غالباً في ذلك الزمان وكانت السحرة متفاوتين في ذلك ، فزعم أتباع فرعون أن موسى عليه السلام كان لكونه في النهاية من علم السحر أتى بتلك الصفة وأنه كان يطلب بذلك الملك والرياسة وذلك قوله سبحانه ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ ولا ينافي هذا ما حكاه الله تعالى في سورة الشعراء أنه قال ذلك فرعون ، فإنه يحتمل صدور هذا القول في تلك الحالة منه

(162/282)

ومنهم أو لعل فرعون قاله ابتداء فتلقفه الملأ فقالوه لغيرهم ، أو قالوا عنه لسائر الناس على طريق التبليغ فأن الملوك إذا رأوا رأياً ذكروه للخاصة وهم يذكرونه للعامة . والأظهر أن قوله ﴿ فماذا تأمرون ﴾ من كلام فرعون إما لأن الأمر لا يجوز أن يكون من الأدنى للأعلى ، أو لأنه من قولهم أمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي ولهذا قال الملأ في جوابه ﴿ أرجه وأخاه ﴾ أي أخر أمره وأمر أخيه ولا تعجل بقضاء في شأنهما فتصير عجلتك حجة عليك .

(163/282)

قال الجوهري : أرجأت الأمر وأخرته يهمز ولا يهمز . وعن الكلبي وقتادة أن المعنى أحسبه ، وزيف بأنه خلاف اللغة إلا أن يقال حبس المرء نوع من التأخير في أمره وبأن فرعون ما كان يظن أنه قادر على حبس موسى بعد مشاهدة حال العصا . ﴿ وأرسل في المدائن حاشرين ﴾ أي جامعين جمع مدينة وهي فعيلة من مدن بالمكان يمدن مدوناً إذا أقم به ، ولهذا أطبق القراء على همز ﴿ مدائن ﴾ لأنه كصحائف . وقيل : إنها مفعلة من دنت أي ملكت وكأن هذا القائل لا يهمز مدائن . وقال المبرد : أصلها مديونة من دانه إذا قهره وساسه ، فُعِلَ بها ما فعل بنحو " مبيع " في " مبيوع " وليس المراد مدائن الأرض كلها ولكن المقصود مدائن صعيد مصر . وقال ابن عباس : وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد ﴿ يأتوك بكلّ سحار ﴾ الباء بمعنى " مع " أو للتعدية . قيل : كانوا سبعين ساحراً سوى رئيسهم . وقيل : بضعة وثلاثين ألفاً . وقيل : سبعين ألفاً . وقيل ثمانين ألفاً وقيل : كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى قرية بقرب الموصل . وضعف بأن المجوس من أتباع زرادشت وهو إنما جاء بعد موسى . وفي الآية دلالة على كثرة السحرة في ذلك الزمان ولهذا كانت معجزة موسى شبيهة بالسحر وإن كانت مخالفة في الحقيقة كما أن الطب لما كان غالباً على أهل زمن عيسى كانت معجزته من جنس ذلك كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وكانت الفصاحة والبلاغة غالبة في عصر نبينا صلى الله عليه وسلم فلا

جرم كانت معجزته العظمى وهي القرآن من جنس الفصاحة ، وتحقيق السحر وسائر ما يتعلق به قد رمر في سورة البقرة فليتذكر ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا ﴾ لم يقل فقالوا بناء للكلام على سؤال مقدر كأن سائلاً سأل ما قالوا إذ جاءوه ؟ فأجيب ﴿ قالوا إن لنا لأجراً ﴾ أي جعلاً على الغلبة والتنكير للتعظيم كقول العرب إن له لإبلاً وإن له لغنماً يقصدون الكثرة ﴿ قال نعم ﴾ أي إن لكم أجراً ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾ أراد إني لا أقتصر لكم على الثواب بل

(164/282)

لكم مع ذلك ما يقل معه الثواب وهو التقريب والتكريم لأن الثواب إنما يهنأ إذا كان مقروناً بالتعظيم . روي أنه قال لهم تكونون أوّل من يدخل وآخر من يخرج . وروي أنه دعا برؤساء السحرة فقال لهم : ما صنعتم ؟ قالوا قد عملنا سحراً لا يطيقة سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به . وفي الآية إشارة إلى أن أهل السحر ليسوا قادرين على قلب الأعيان وإلا قلبوا الحجر ذهباً بل قلبوا ملك فرعون إلى أنفسهم ولم يطلبوا منه الأجر ، فعلى العاقل أن لا يغترّ بأكاذيبهم ومزخرفاتهم .

(165/282)

ثم إن السحرة راعوا حسن الأدب فخيروا موسى أوّلاً وقدموه في الذكر ثانياً حيث قالوا ﴿ يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ كما هو دأب المتناظرين والمتصارعين ، مع أن في قولهم ﴿ وإما أن نكون نحن ﴾ بالأمر أليق منه بالخبر . وبدليل قوله ﴿ والله مع الصابرين ﴾ وفيه ترغيب في الثبات على الجهاد . فمعنى الآية إذن أن يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى يغلبوا مائتين ، ثم الصبر لا يحصل إلا بكونه شديد الأعضاء قوياً جلداً شجاعاً غير جبان ولا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، وعند حصول هذه الأمور كان يجب الواحد أن يثبت للعشرة لما سبق من وعد النصر في قوله ﴿ حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] وإنما كرر النسبة مرتين لأن السرايا التي كان يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينقص عددها على العشرين وما كانت تزيد على المائة فورد على وفق الواقعة ، وإما في الكرة الثانية فإنما كررت النسبة للطباق ولكيون فيه بشارة وإشارة إلى أن عدد عسكر الإسلام سيؤول من العشرات والمئات إلى الألوف والله أعلم بمراده . ثم بين السبب في الغلبة فقال ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ [الأنفال : 65] أي بسبب أن الكفار قوم جهلة لا يعرفون معاداً وقد انحصرت السعادة عندهم في هذه الحياة العاجلة . وأيضاً إنهم يعولون على قوتهم وشوكتهم والمسلمون يتوكلون على ربهم ويستغيثونه ويتوقعون منه إنجاز ما وعد من النصر والتأييد ،

ووجه آخر هو أن أهل العلم والمعرفة يكون لهم في أعين الناس هيبة وحشمة ويكونون في أنفسهم أقوياء أشداء لما تجلى عليهم من أنوار المعرفة والبصيرة يعرف ذلك أصحاب العلوم وأرباب المعارف بخلاف الجهلة الذين لا بصيرة لهم ولا نور . قال عطاء : عن ابن عباس لما نزل التكليف الأول ضج المهاجرون وقالوا : يا رب نحن جياع وعدوّنا شباع ونحن في غربة وعدونا في أهليهم . وقال الأنصار . شغلنا بعدوّنا وواسينا إخواننا . وعن

(166/282)

ابن جريج كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث حمزة في ثلاثين راكباً قبل بدر فلقي أبا جهل في ثلثمائة راكب وأردوا قتالهم فمنعهم حمزة . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أنيس إلى خالد بن صفوان وكان في جماعة وابتدر عبد الله فقال : يا رسول الله صفه لي فقال : إنك إذا رأيته ذكرت الشيطان ووجدت لذلك قشعريرة . وبلغني أنه جمع لي فأخرج إليه وأقتله ، فلما خرجت تعمية للمأفوك بالإفك . قال المفسرون : لما ألقى موسى العصا صارت حية عظيمة حتى سدت الأفق ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً وابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم ، فلما أخذها موسى صارت عصاً كما كانت من غير تفاوت في الحجم والمقدار

أصلاً ، فلعل الله سبحانه أعدم بقدرته تلك الأجرام العظيمة أو فرقها أجزاء لطيفة ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ فوقع الحق ﴾ .

(167/282)

قال مجاهد والحسن : ظهر ، وقال الفراء : فتبين الحق من السحر . وقيل : الوقوع ظهور الشيء ووجوده نازلاً إلى مستقره . وسبب هذا الظهور أن السحرة قالوا : لو كان ما صنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ولم تفقد ، ولما فقدت ثبت أن ذلك بخلق الله وتقديره وبهذا تميز المعجزة عن السحر . وقال القاضي : معناه قوة الظهور بحيث لا يصح فيه نقيضه كما لا يصح في الواقع أن يصير لا واقعاً . ومع ثبوت هذا الحق زالت الأعيان التي أفكوها وهي تلك الحبال والعصي وذلك قول ﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ أي الذي عملوه أو عملهم ﴿ فغلبوا هنالك ﴾ أي حين التحدي ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ لأنه لا ذل ولا صغار أعظم من حق المبطل من دحوض حجته . روي أن تلك الحبال والعصي كانت حمل ثلثمائة بعير ، فلما ابتلعها ثعبان موسى وصارت عصاً كما كانت قال بعض السحرة لبعض : هذا خارج عن حد السحر وإنما هو أمر إلهي . قال المحققون : إنهم لأجل كمالهم في علم السحر ميزوا السحر عن غيره فانتقلوا ببركة ذلك من الكفر إلى الإيمان ، فما ظنك بالإنسان

الكامل في علم التوحيد والشريعة والحكمة . وفي قوله ﴿ وألقي السحرة ساجدين ﴾ دليل على أن ملقياً ألقاهم وما ذاك إلا الله سبحانه الموجد للدواعي والقدر . وقال الأخفش . من سرعة ما سجدوا صاروا كأنهم ألقاهم غيرهم لأنهم لم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين . قال بعض العلماء : الإيمان مقدم على السجود فكيف نقل عنهم أنهم سجدوا ثم قالوا آمنا برب العالمين ؟ وأجيب بأنه لا يبعد أنهم عند الذهاب إلى السجود قالوا ذلك ، أو أنهم لما ظفروا بالمعرفة سجدوا لله في الحال شكراً على الفوز بذلك وإظهاراً للخشوع والتذلل وإقراراً باللسان بعد التصديق بالجنان . قال المفسرون : لما قالوا آمنا برب العالمين قال فرعون : إياي يعنون . فلما قالوا ﴿ رب موسى ﴾ قال : إياي يعنون لأني أنا الذي ربيته فلما زادوا ﴿ هارون ﴾ زالت الشبهة وعرف الكل أنهم آمنوا بإله السماء وكفروا بفرعون . وقيل :

(168/282)

أفردا بالذكر من جملة العالمين ليعلم أن الداعي إلى إيمانهم هو موسى . وقيل : خصا بالذكر تعظيماً وتشريفاً . ثم إن فرعون لما رأى أن أعلم الناس بالحسر أقر بنبوّة موسى بمحضر جمع عظيم خاف أن يصير ذلك حجة عليه عند قومه فألقى في الحال شبهة في البين بعد ما أنكر

عليهم إيمانهم . أما الإنكار فذلك قوله ﴿ آمنتم له ﴾ من لم يزد حرف الاستفهام فعلى أنه إخبار توبيخاً أي فعلتم هذا الفعل الشنيع ، ومن قرأ بحرف الاستفهام فمعناه الاستبعاد والإنكار . وفي قوله قبل ﴿ أن آذن لكم ﴾ دلالة على مناقضة فرعون من ادعائه الإلهية لأنه لو كان إلهاً لما جاز أن يأذن لهم في أن يؤمنوا بغيره وهذا من جملة الخذلان والدحوض الذي يظهر على المبطلين .

(169/282)

وأما الشبهة فقوله ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ أي هذه حيلة احتلتموها أنتم وموسى أو تواطأتم عليها لغرض لكم وهو أن تخرجوا القبط وتسكنوا بني إسرائيل . وروي محمد بن جرير عن السدي في حديث عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم أن موسى وأمير السحرة التقيا فقال له موسى : أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق ؟ فقال الساحر : لآتين غداً بحسر لا يغلبه سحر وإن غلبتني لأومنن بك ، وفرعون ينظر إليهما ويسمع فلذلك زعم التواطؤ ﴿ فسوف تعلمون ﴾ وعيد إجمالي وتفصيله ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ أي كل من شق طرفاً ﴿ ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ واختلف المفسرون هل وقع ذلك منه أم

لا . فمن قائل إنه لم يقع لأنهم سألوا ربهم أن يتوفاهم من جهته لا بهذا القتل والقطع ، ومن قائل وقع وهو الأظهر وعليه الأكثر ومنهم ابن عباس لأنه حكى عن الملأ أنهم قالوا لفرعون ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ﴾ [الأعراف : 127] ولو أنه ترك أولئك السحرة لذكورهم أيضاً وحذروه إياهم ، لأنهم قالوا ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ والصبر لا يطلب إلا عند نزول البلاء وقد يجاب عن الأول بأنهم داخلون تحت قوله ﴿ وقومه ﴾ وعن الثاني بأنهم طلبوا الصبر على الإيمان والثبات عليه وعدم الالتفات إلى وعيده . وعن قتادة : كانوا أوّل النهار كفاراً سحرة وفي آخره شهداء بررة ، ثم حكى عن القوم أنهم قالوا عند الوعيد ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أي نحن لا نبالي بالموت لأنا ننقلب إلى لقاء ربنا ونخلص منك ، أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصلب أو إنا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون يرجع إلى الله فيحكم بيننا ، أو إنا لا محالة ميتون فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه ﴿ وما تنقم منا ﴾ قال ابن عباس : ما أتينا بذنب تعذبنا عليه وما تعب منا ﴿ إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ وهي المعجزات الظاهرة التي لا

يقدر على مثلها إلا الله تعالى وهذا من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . بهن فلول من قراع الكتائب

ثم لما لجأوا إلى الدعاء كما هو دأب الصديقين عند نزول البلاء فقالوا ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أفض علينا سجال الثبات على متابعة الدين أو على ما توعدونا به فرعون ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ ثابتين على الدين الذي جاء به موسى وأخبروا عن إيمانهم أوّلاً وسألوا التوفي على الإسلام ثانياً .

فيمكن أن يستدل بالآية على أن الإيمان والإسلام واحد ، واحتجت الأشاعرة بالآية على أن الإيمان والإسلام بخلق الله تعالى وإلا لم يطلبوا ذلك منه ، والمعتزلة يحملون أمثال ذلك على منح الألطاف . واعلم أن مبني القصة في هذه السورة على الاختصار وفي الشعراء على التطويل فلهذا قيل هناك ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ ، ﴿ وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ ، ﴿ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ ، ﴿ فسوف تعلمون ﴾ وفي كل ذلك زيادة وأما قوله ههنا ﴿ وأرسل في المدائن ﴾ وهناك ﴿ وابعث ﴾ فلأن الإرسال يفيد معنى البعث مع العلو فخص هذه السورة بذلك ليعلم أنّ المخاطب به فرعون دون غيره . وإنما قال ههنا ﴿ آمنتم به ﴾ وفي طه والشعراء ﴿ آمنتم له ﴾ باللام لأن ضمير ﴿ به ﴾ في هذه يعود إلى رب العالمين ، وفي السورتين إلى موسى ، وقيل آمنت به وآمنت له واحد . وقال ههنا ﴿ ثم لأصلبنكم ﴾ وفي السورتين ﴿ لأصلبنكم ﴾ لأنه

لما أفاد الترتيب كان العطف المطلق كافياً وكثر من متشابهات هذه السور الثلاث يعود إلى رعاية الفواصل فتنبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 295 . 302 ﴾

(171/282)

وقال الخطيب الشربيني :

﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾

أي : الرسل المذكورين وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام أو الأمم المهلكين ﴿ موسى ﴾ عليه السلام ﴿ بآياتنا ﴾ أي : بحجتنا الدالة على صدقه كاليد والعصا ﴿ إلى فرعون ﴾ هو علم جنس لملوك مصر ككسرى لملوك فارس وقيصر لملوك الروم والنجاشي لملوك الحبشة ، وكان اسم فرعون موسى : قابوس ، وقيل : الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط ﴿ وملائه ﴾ أي : عظماء قومه وخصهم بالذكر لأنهم إذا أذعنوا أذعن من دونهم فكأنهم المقصودون والإرسال إليهم إرسال إلى الكل ﴿ فظلموا ﴾ أي : كفروا ﴿ بها ﴾ أي : بسبب رؤيتها خوفاً على رياستهم ومملكتهم الفانية أن تخرج من أيديهم ﴿ فانظر ﴾ أيها المخاطب بعين البصيرة ﴿ كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي : آخر أمرهم أي : كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم .

﴿ وقال موسى ﴾ لما دخل على فرعون ﴿ يا فرعون ﴾ خاطبه بما يعجبه امتثالاً لأمر الله تعالى له أن يلين في خطابه وذلك لأن فرعون كان لقب مدح لمن ملك مصر ﴿ إني رسول ﴾ أي : مرسل إليك وإلى قومك ثم بين مرسله بقوله تعالى : ﴿ من ربّ العالمين ﴾ أي : الإله الذي خلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم ، وقوله تعالى:

﴿ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ جواب لتكذيب فرعون إياه في دعوى الرسالة وإنما لم يذكره لدلالة قوله تعالى : ﴿ فظلموا بها ﴾ (الأعراف ،)

(172/282)

والحق هو الثابت الدائم والحقيق . مبالغة فيه وكأن المعنى : أنا ثابت مستمرّ على أن لا أقول على الله إلا الحق قرأ نافع عليّ بالتشديد فحقيق مبتدأ خبره أن وما بعدها والباقون بالسكون وعلى هذا تكون على بمعنى الباء أو يضمن حقيق معنى حريص وأن لا مقطوعة في الرسم أي : النون من لام الألف ﴿ قد جئتكم ببينة ﴾ أي : معجزة ﴿ من ربكم ﴾ على صدقي فيما أدعي من الرسالة وهي العصا واليد البيضاء ثم إن موسى عليه السلام لما فرّغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم قوله : ﴿ فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ أي : فخلهم حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدّسة التي هي وطن آبائهم وكان قد استعبدهم

واستخدمهم في الأعمال الشاقة من ضرب اللبن ونقل التراب ونحوهما ﴿ قال ﴾ فرعون لعنه الله مجيباً لموسى عليه السلام ﴿ إن كنت جئت بآية ﴾ أي : علامة على صحة رسالتك ﴿ فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾ أي : في عداد أهل الصدق العريقين فيه لتصح دعواك عندي وتثبت .

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ﴾ أي : العصا ﴿ ثعبان مبين ﴾ أي : ظاهر أمره لا شك فيه أنه ثعبان ، والثعبان الذكر العظيم من الحيات .

فإن قيل : أليس قال الله تعالى في موضع : ﴿ كأنها جان ﴾ (النمل ،)

والجان الحية الصغيرة ؟

أجيب : بأنها كانت كالجان في الخفة والحركة وهي في جثتها حية عظيمة . روي أنه لما ألقاها صارت حية عظيمة صفراء شقراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعاً وارتفعت عن الأرض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هارباً وأحدث قيل : أخذته البطن في ذلك اليوم أربعمائة مرّة وقد قيل : إنه كان يأكل الموز حتى لا يتغوّط وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ومات منهم خمسة وعشرون ألفاً ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى أنشدك الله الذي أرسلك أن تأخذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ثم قال : هل معك آية أخرى قال : نعم .

﴿ ونزع يده ﴾ أي : أخرجها من جيبه ، وقيل : من تحت إبطه بعد أن أراه إياها محترقة أدماً كما كانت وهي عنده ﴿ فإذا هي بيضاء ﴾ نورانية ﴿ للناظرين ﴾ لها شعاع غلب شعاع الشمس قال ابن عباس : كان لها نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض له لمعان مثل لمعان البرق فخرّوا على وجوههم ثم ردّها إلى جيبه فإذا هي كما كانت ولما كان البياض المفرط عيباً في الجسد وهو البرص قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ من غير سوء ﴾ (طه ،)

أي : من غير برص .

فإن قيل : بم يتعلق قوله تعالى : ﴿ للناظرين ﴾ ؟

أجيب : بأنه يتعلق بقوله تعالى : ﴿ بيضاء ﴾ والمعنى : فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب .

فإن قيل : أحد هذين الأمرين إمّا العصا وإمّا اليد كان كافياً فما فائدة الجمع بينهما ؟

أجيب : بأنّ كثرة الدلائل توجب القوّة في اليقين وزوال الشك وقول بعض الملحدين : المراد

بالثعبان وباليد البيضاء شيء واحد وهو أنّ حجة موسى عليه السلام كانت قوية ظاهرة قاهرة من حيث أنها أبطلت أقوال المخالفين وأظهرت فسادها كانت كالثعبان العظيم الذي يتلقف حجج المبطلين ومن أنها كانت ظاهرة في نفسها وصفت باليد البيضاء كما يقال في العرف : لفلان يد بيضاء في العلم الفلاني أي : قوة كاملة ومرتبة ظاهرة مردود إذ حمل هاتين المعجزتين على هذا الوجه يجري مجرى دفع التواتر وتكذيب الله ورسوله ولما أتى بالبيان وأقام واضح البرهان .

﴿ قال الملأ ﴾ أي : الأكابر ﴿ من قوم فرعون إنّ هذا ﴾ أي : موسى ﴿ لساحر عليم ﴾ أي : عالم بالسحر ماهر فيه قد أخذ بأعين الناس ويريهم الشيء بخلاف ما هو عليه حتى يخيل إليهم أنّ العصا صارت حية وأنّ الآدم أبيض كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وإنما قالوا ذلك لأن السحر كان هو الغالب في ذلك الزمان .

(174/282)

فإن قيل : قد أخبر الله تعالى في هذه السورة أن هذا الكلام من قول الملأ لفرعون وقال في سورة الشعراء وقال أي : فرعون للملأ حوله : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ (الشعراء ،) فكيف الجمع بينهما ؟

أجيب : عن ذلك بجوابين : الأوّل : لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولاً ثم إنهم قالوه بعده فأخبر الله عنهم هنا وأخبر عن فرعون في سورة الشعراء . الثاني : أن فرعون قال هذا القول ثم إن الملأ من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم إنهم بلغوه إلى العامّة فأخبر الله تعالى هنا عن الملأ وأخبر هناك عن فرعون ﴿ يريد ﴾ أي : موسى ﴿ أن يخرجكم ﴾ أيها القبط ﴿ من أرضكم ﴾ أي : أرض مصر ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أي : أيّ شيء تشيرون أن نفعل به فقوله : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ من قول فرعون وإن لم يذكر ، وقيل : من قول الملأ وتمّ كلام فرعون عند قوله:

﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ فقال الملأ مجيبين له : فماذا تأمرون وإنما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك في التعظيم والتفخيم ، والمعنى : فما تأمرون أن نفعل به والقول الأوّل أصح لسياق الآية التي بعدها وهي قوله تعالى : ﴿ قالوا أرجئه ﴾ أي : موسى ﴿ وأخاه ﴾ هارون عليهما السلام أي : أخر أمرهما ولا تعجل فيه حتى ننظر في أمرهما والإرجاء في اللغة التأخير وقيل : الحبس أي : احبسه وأخاه ورد بأن فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد ما رأى من أمر العصا ما رأى . ٧

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بهمزة ساكنة والباقون بغير همز ﴿ وأرسل في المدائن ﴾ جمع مدينة واشتاقها من مدن بالمكان أي : أقام به أي : مدائن صعيد مصر ﴿ حاشرين ﴾ أي : أرسل رجالاً من أعوانك وهم الشرط بضم الشين وفتح الراء طائفة

من أعوان الولاة يحشرون إليك السحرة من جميع مدائن الصعيد ، وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فإن غلبهم موسى صدّقناه واتبعناه وإن غلبوه علمنا أنه ساحر فذلك قوله تعالى:

(175/282)

﴿ يأتوك ﴾ أي : الشرط ﴿ بكل ساحر عليم ﴾ أي : ماهر بصناعته والباء يحتمل أن تكون بمعنى مع ويحتمل أن تكون باء التعدية ، وقرأ حمزة والكسائي بتشديد الحاء مفتوحة وألف بعدها ولا ألف قبلها والباقون بتخفيف الحاء مكسورة وألف قبلها ولا ألف بعدها ولم يختلفوا في سورة الشعراء أنه سحار ، قيل : الساحر الذي يعلم السحر ولا يعلم والسحار من يديم السحر ، روي أنّ فرعون لما رأى من سلطان الله وقدرته في العصا ما رأى قال : إنا لا نقاتل موسى إلا بمن هو أقوى منه فاتخذ غلماناً من بني إسرائيل وبعث بهم إلى مدينة يقال لها : الفرما يعلمونهم السحر فعلموهم سحراً كثيراً وواعد فرعون موسى موعداً ثم بعث السحرة الذين أرسلهم فجاؤوا ومعلمهم معهم فقال فرعون للمعلم : ما صنعت ؟ فقال : علمتهم سحراً لا تطيقه أهل الأرض إلا أن يأتي أمر من السماء فإنهم لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحر إلا أتي به وهذا يدل على

أنّ السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان وهو يدل على صحة ما يقوله المتكلمون وهو أنه تعالى يجعل معجزة كل نبيّ من جنس ما كان غالباً على أهل ذلك الزمان لما كان السحر غالباً على أهل زمان موسى كانت معجزته شبيهة بالسحر وإن كانت مخالفة للسحر في الحقيقة ، ولما كان الطب غالباً على أهل زمان عيسى عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب ، ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان محمد صلى الله عليه وسلم كانت معجزته من جنس الفصاحة . واختلفوا في عدد السحرة الذي جمعهم فرعون فمن مقل ومن مكثر وليس في الآية ما يدل على المقدار والكيفية والعدد ولذلك اختلف في عددهم ، فقال مقاتل : كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط وهما رؤساء القوم وسبعون من بني إسرائيل ، وقال الكلبي : كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى بلدة يونس عليه السلام وكانوا سبعين غير رئيسهم ، وقال كعب الأحبار : كانوا اثني عشر ألفاً ، وقال محمد بن إسحاق : كانوا خمسة عشر

(176/282)

ألفاً ، وقال عكرمة : كانوا سبعين ألف ، وقال ابن المنكدر : كانوا ثمانين ألفاً ، وقال مقاتل : كان رئيس السحرة شمعون ، وقال ابن جريج : كان رئيسهم يوحنا .

﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ أي : بعدما أرسل الشرط في طلبهم ﴿ قالوا أئن لنا لأجراً ﴾ أي : جعلاً وعطاءً تكرمنا به ﴿ إن كنا نحن الغالبين ﴾ لموسى .

فإن قيل : هلا قيل : فقالوا بالفاء ؟

أجيب : بأنه على تقدير : سائل سأل ما قالوا إذا جاؤوا ؟ فأجيب : بقوله : ﴿ أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ وقرأ ابن كثير وحفص بهمزة مكسورة ونون مشدّدة بعدها على الخبر والباقون بهمزتين وسهل الثانية أبو عمرو وأدخل ألفاً بينهما والباقون بتحقيقهما وأدخل بينهما ألفاً هشام والباقون بغير ألف بينهما .

﴿ قال ﴾ لهم فرعون ﴿ نعم ﴾ أي : لكم الأجر والعطاء وقرأ الكسائي بكسر العين والباقون بالفتح وقوله تعالى : ﴿ وإنكم لمن المقرّبين ﴾ عطف على محذوف سدّ مسدّ الجواب كأنه قيل : جواباً لقولهم : ﴿ أئن لنا لأجراً ﴾ إنّ لكم أجراً وإنكم لمن المقربين أراد إني لا أقتصر لكم على الثواب بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة أني أجعلكم من المقرّبين عندي ، قال الكلبيّ : تكونون أوّل من يدخل وآخر من يخرج من عندي الآية تدل على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبداً ذليلاً مهيناً عاجزاً وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة في دفع موسى وتدل أيضاً على أنّ كل السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان وإلا لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال من فرعون لأنهم لو قدروا على قلب الأعيان لقلبوا التراب

ذهباً ولنقلوا ملك فرعون إلى أنفسهم ولجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساء الدنيا والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدقائق وأن لا يغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب .

(177/282)

﴿ قالوا ﴾ أي : السحرة ﴿ يا موسى إمّا أن تلقى ﴾ أي : عصاك ﴿ وإمّا أن نكون نحن الملقين ﴾ أي : عصينا وحبالنا فراعوا مع موسى عليه السلام حسن الأدب حيث قدموه على أنفسهم في الإلقاء فعوضهم الله تعالى حيث تأدّبوا مع نبيه عليه السلام أن منّ عليهم بالإيمان والهداية ولما راعوا الأدب أوّلاً وأظهروا ما يدل على رغبتهم .

﴿ قال ﴾ لهم موسى ﴿ اتقوا ﴾ أنتم فقدّمهم على نفسه في الإلقاء .

فإن قيل : كيف جاز لنبيّ الله تعالى موسى عليه السلام أن يأمر بالإلقاء وقد علم أنه سحر وفعل السحر حرام أو كفر ؟

(178/282)

أجيب : عن ذلك بأجوبة : أحدها : إنّ معناه إن كنتم محقين في فعلكم فألقوا وإلا فلا تلقوا ، الثاني : أنّ القوم إنما جاؤوا لإلقاء تلك الحبال والعصيّ وعلم موسى عليه السلام أنه لا بدّ وأن يفعلوا ذلك ووقع التحير في التقديم والتأخير فعند ذلك أذن لهم في التقديم ازدراء لشأنهم وقلة مبالاته بهم وثقته بما وعده الله تعالى من التأييد والتقوية وأنّ المعجزة لا يغلبها سحر أبداً ، الثالث : أنه عليه السلام كان يريد إبطال ما أتوا به من السحر وإبطاله ما كان يمكن إلا بتقديمهم فأذن لهم في الإتيان بذلك السحر ليمكنه الإقدام على إبطاله فلهذا المعنى أمرهم بالإلقاء أولاً ﴿ لما ألقوا ﴾ حبالهم وعصيهم ﴿ سحروا ﴾ أي : صرفوا ﴿ أعين الناس ﴾ عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل وهذا هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذي هو فعل الله تعالى وذلك لأنّ السحر ليس فيه قلب الأعيان وإنما فيه صرف أعين الناس عن إدراك ذلك الشيء بسبب التمويهات والمعجزة قلب ذلك الشيء حقيقة كقلب عصا موسى عليه السلام فإذا هي حية تسعى ﴿ واسترهبوهم ﴾ أي : أرهبوهم والسين زائدة قاله المبرد ، وقال الزجاج : استدعوا رهبة الناس حتى رهبهم الناس وذلك بأن بعثوا جماعة ينادون عند إلقاء ذلك أيها الناس احذروا فهذا هو الاسترهاب ﴿ وجاؤوا ﴾ أي : السحرة ﴿ بسحر عظيم ﴾ .

روي أنّ السحرة قالوا : قد عملنا سحراً لا تطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به وذلك أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً فإذا هي حيات تسعى كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً ويقال : إنهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصى زئبقاً ليضيء وألقوها على الأرض فلما أثر حرّ الشمس فيها تحرّكت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس أنها حيات تتحرّك وتلتوي باختيارها ، ويقال : إن الأرض كان سعتها ميلاً في ميل فصارت كلها حيات وأفاعي ففزع الناس من ذلك وأوجس في نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه السلام لأجل سحرهم لأنه كان على ثقة ويقين من الله تعالى أنهم لم يغلبوه وهو غالبهم وكان عالماً بأنّ ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخيل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى عليه السلام وإنما كان خوفه لأجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوه من أمر تلك الحيات فخاف موسى عليه السلام أن يتفرّقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس في نفسة خيفة موسى .

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾ فألقاها فصارت حية عظيمة قد سدّت الأفق قال ابن زيد : كان اجتماعهم بالاسكندرية وقال : بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت

فاهاً ثمانين ذراعاً ﴿ فإذا هي تلقف ﴾ بحذف إحدى التاءين من الأصل أي : تبتلع ﴿ ما يأفكون ﴾ أي : ما يزوّرونه من الإفك وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه .

(180/282)

روي أنها ابتلعت كل ما أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحداً واحداً حتى ابتلعت الكل ثم أقبلت على الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع الزحام عليهم فمات منهم بسبب ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفاً ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت في يده عصا كما كانت أوّل مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه أمر من السماء وليس بسحر وعرفوا أنّ ذلك ليس في قدرة البشر وقوّتهم فعند ذلك خروا سجداً وقالوا : آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى : ﴿ فوقع الحق ﴾ أي : فظهر الحق الذي جاء به موسى ﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ أي : من السحر وذلك أنّ السحرة قالوا : لو كان ما صنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا فلما فقدت وتلاشت في عصا موسى علموا أنّ ذلك من أمر الله تعالى وقدرته وقرأ حفص : تلقف بسكون اللام وتخفيف القاف والباقون بفتح اللام وتشديد القاف وشدّد التاء البزيّ .

﴿ فغلبوا ﴾ أي : فرعون وجموعه ﴿ هنالك ﴾ أي : عند ذلك الأمر العظيم العالي الرتبة

﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ أي : رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين ﴿ وألقي السحرة ساجدين ﴾ أي : أنّ الله تعالى ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى وينقلب الأمر عليه ، قال الأخفش : من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا .

قال فرعون : إياي تعنون قالوا : لا بل .

﴿ رب موسى ﴾ فقال : إياي تعنون لأني أنا الذي ربيت موسى فلما قالوا :

﴿ وهارون ﴾ زالت الشبهة وعرف الكل أنهم كفروا بفرعون وآمنوا بإله السماء قال مقاتل : قال موسى لكبير السحرة : أتؤمن بي إن غلبتك فقال : لآتينّ بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتني لأومننّ بك وفرعون ينظر إليهما ويسمع كلامهما فهذا قوله : ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة ﴾ ويقال : إنّ الحبال والعصيّ التي كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى عليه السلام كلها قال بعضهم لبعض : هذا أمر خارج عن هذا السحر وما هو إلا من أمر السماء فآمنوا وصدّقوا .

(181/282)

فإن قيل : كان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الإيمان ؟

أجيب : بأنّ الله تعالى لما قذف في قلوبهم الإيمان والمعرفة خرّوا سجداً لله تعالى شكراً

على ما هداهم إليه وألهمهم من الإيمان بالله تعالى وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك إيمانهم قال قتادة : كانوا أوّل النهار كفاراً سحرة وفي آخره شهداء بررة ، وعن الحسن : نرى من ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا وهؤلاء الكفار نشؤوا في الكفر بذلوا أنفسهم لله تعالى .

﴿ قال فرعون ﴾ للسحرة منكراً عليهم موبخاً لهم بقوله : ﴿ آمنتم ﴾ أي : صدقتم ﴿ به ﴾ أي : بموسى أو بالله تعالى والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ .

فائدة : هنا ثلاث همزات جميع القراء بإبدال الثالثة ألفاً وحقق الثانية شعبة وحمزة والكسائي وسهلها نافع وابن كثير وأبو عمر وابن عامر وأمّا حفص فإنه أسقط الأولى وأبدلها قنبل في الوصل واواً ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ أي : قبل أن آمركم بذلك وآذن لكم فيه ﴿ إنّ هذا لمكر مكرتموه ﴾ أي : إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى ﴿ في المدينة ﴾ أي : مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع ، وذلك أنّ فرعون رأى موسى يحدّث كبير السحرة فظن فرعون أن موسى وكبير السحرة قد تواطؤوا عليه وعلى أهل مصر ليستولوا على مصر كما قال : ﴿ لتخرجوا منها أهلها ﴾ أي : القبط وتخلص لكم ولبني إسرائيل وقوله تعالى : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ فيه وعيد وتهديد أي : فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد بقوله:

﴿ لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ أي : يخالف الطرف الذي تقطع منه اليد الطرف الذي تقطع منه الرجل ، قال الكلبي : لأقطعنّ أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى ﴿ ثم لأصلبنكم ﴾ أي : أعاقبكم ممددة أيديكم لتصير على هيئة الصليب أو حتى يتقاطر صليبكم وهو الدهن الذي فيكم ﴿ أجمعين ﴾ أي : لا أترك منكم أحداً تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم قال ابن عباس : أوّل من صلب وقطع الأيدي والأرجل فرعون أي : إنه أوّل من سنّ ذلك فشرعه الله تعالى للقطاع تعظيماً لجرمهم ولذلك سماه محاربة الله ورسوله ولكن على التعاقب لفرط رحمته .

﴿ قالوا ﴾ أي : السحرة مجيبين لفرعون حين وعدهم بما ذكر ﴿ إنا إلى ربنا ﴾ بعد موتنا على أيّ وجه كان ﴿ منقلبون ﴾ أي : راجعون إليه في الآخرة .

﴿ وما تنقم ﴾ أي : تنكر ﴿ منا ﴾ أي : في فعلك ذلك بنا وتعيب علينا ﴿ إلا أن آمنا ﴾ أي : إلا ما هو أصل المفاخر كلها وهو الإيمان ﴿ بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ لم نتأخر عن معرفة الصدق وهذا موجب الإكرام لا الإنتقام ثم فزعوا إلى الله تعالى فقالوا : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ عندما توعدهم فرعون به أي : اصبب علينا صبراً كاملاً تاماً ولهذا أتى بلفظ التنكير أي : صبراً وأيّ صبر عظيم ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ أي : واقبضنا على دين الإسلام وهو دين خليلك عليه السلام قال ابن عباس : كانوا في أوّل النهار سحرة وفي آخر

النهار شهداء ، قال الطيبيّ : إنّ فرعون قطع أيديهم وأرجلم وصلبهم ، وقال غيره : إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى : ﴿ بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ (القصص ،) .

(183/282)

تنبيه : في الآية فوائد الأولى قولهم : ﴿ أفرغ علينا صبراً ﴾ أكمل من قولهم أنزل علينا صبراً لأن إفراغ الإناء هو صب ما فيه بالكلية فكأنهم طلبوا من الله تعالى كل الصبر لا بعضه ، الثانية : إنّ قولهم صبراً مذكور بصيغة التنكير وذلك يدل على تمام الكمال أي : صبراً تاماً كاملاً ، الثالثة : إن ذكر الصبر من قبلهم ومن أعمالهم ثم إنهم طلبوه من الله تعالى وذلك يدل على أنّ فعل العبد لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى وقضائه ، الرابعة : احتج القاضي بهذه الآية على أنّ الإيمان والإسلام واحد فقال : إنهم قالوا أوّلاً : آمنا بآيات ربنا ، ثم قالوا ثانياً : وتوفنا مسلمين فوجب أن يكون ذلك الإيمان هو ذلك الإسلام وذلك يدل على أنّ أحدهما هو الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 230 . 238 ﴾

(184/282)

وقال السعدى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ .

إلى آخر قصته .

أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم ، الإمام العظيم ، والرسول الكريم ، إلى قوم عتاة جبابرة ، وهم فرعون وملؤه ، من أشرافهم وكبرائهم ، فأراهم من آيات اللّه العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ بأن لم ينقادوا لحقها الذي من لم ينقد له فهو ظالم ، بل استكبروا عنها . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ كيف أهلكهم اللّه ، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة ، بئس الرفد المرفود ، وهذا مجمل فصله بقوله:

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان .

﴿ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: إني رسول من مرسل عظيم ، وهو رب العالمين ، الشامل للعالم العلوي والسفلي ، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية ، التي من جملتها أنه لا يتركهم سدى ، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه ، ويدعي أنه أرسله ولم يرسله .

فإذا كان هذا شأنه ، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته ، فحقيق علي أن لا أكذب عليه ، ولا أقول عليه إلا الحق . فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة ، وأخذني أخذ عزيز مقتدر .

فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه ، خصوصا وقد جاءهم ببينة من اللّه واضحة على صحة ما جاء به من الحق ، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته ، ولها مقصودان عظيمان . إيمانهم به ، واتباعهم له ، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضله اللّه على العالمين ، أولاد الأنبياء ، وسلسلة يعقوب عليه السلام ، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم .

فقال له فرعون: ﴿ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

﴿ فَأَلْقَى ﴾ موسى ﴿ عَصَاهُ ﴾ في الأرض ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ أي: حية ظاهرة تسعى ، وهم يشاهدونها .

(185/282)

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ من غير سوء ، فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه ، وأنه رسول رب العالمين ، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم .

فلهذا ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات ، ولم يؤمنوا ، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: ماهر في سحره .

ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول ، بأنه ﴿ يُرِيدُ ﴾ موسى بفعله هذا ﴿ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أي: يريد أن يجليكم عن أوطانكم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى ، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم ، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه ، وإلا دخل في عقول أكثر الناس .

فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي: احبسهما وأمهلهما ، وابعث في المدائن أناسا يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار عليم ، أي: يجيئون بالسحرة المهرة ، ليقابلوا ما جاء به موسى ، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى .

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ .

وقال هنا: ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا فـ ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ ؟

فـ ﴿ قَالَ ﴾ فرعون: ﴿ نَعَمْ ﴾ لكم أجر ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب ، وعلو المنزلة عنده ، ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى .

فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿ قَالُوا ﴾ على وجه التألي وعدم المبالاة بما جاء به موسى: ﴿ يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ ما معك ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ .

فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿ أَلْقُوا ﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى .

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ حبالهم وعصيهم ، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى ، فـ ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ لم يوجد له نظير من السحر .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فَأَلْقَاهَا ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ حية تسعى ، فـ ﴿ تَلْقَفُ ﴾ جميع ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي: يكذبون به ويموهون .

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ أي: تبين وظهر ، واستعلن في ذلك المجمع ، ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

.

﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ ﴾ أي: في ذلك المقام ﴿ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم ، وتلاشى سحرهم ، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله .

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر ، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ، ما لا يعرفه غيرهم ، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات اللّه لا يدان لأحد بها .

﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾

أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات .

فـ ﴿ قَالَ ﴾ لَهُمْ ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ متهددا على الإيمان: ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ كان الخبيث حاكما مستبدا على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ وقال هنا: ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ عليَّ.

ثم موه على قومه وقال: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تتغلبوا له، فيظهر فتتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال، أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا، وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما أحل بكم من العقوبة.

﴿ لأَقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض ، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين ، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى .

﴿ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ في جذوع النخل ، لتختزوا بزعمه ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد ، بل كلكم سيذوق هذا العذاب .

فقال السحرة ، الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك ، فاللّه خير وأبقى ، فاقض ما أنت قاض .

(188/282)

﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا ﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا ؟ فليس لنا ذنب ﴿ إِلا أَنْ آمَنَّا ﴾ بـ[آيَاتِ] ربنا [لما جاءتنا] فإن كان هذا ذنبا يعاب عليه ، ويستحق صاحبه العقوبة ، فهو ذنبنا .

ثم دعوا اللّه أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ ﴾ أي: أفض ﴿ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي: عظيما ، كما يدل عليه التنكير ، لأن هذه محنة عظيمة ، تؤدي إلى ذهاب النفس ، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير ، ليثبت الفؤاد ، ويطمئن المؤمن على إيمانه ، ويزول

عنه الانزعاج الكثير .

﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أي: منقادين لأمرك ، متبعين لرسولك ، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه ، وأن اللّه تعالى ثبتهم على الإيمان .

هذا وفرعون وملؤه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا عن آيات اللّه ، وجحدوا بها ظلما وعلوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 299 . 300 ﴾

(189/282)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِآَيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126) ﴾

يتضمن هذا الدرس قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون وملئه . من حلقة مواجهتهم بربوبية الله للعالمين ، إلى حلقة إغراقهم أجمعين . وما بين هذه وتلك من المباراة مع السحرة .

وغلبة الحق على الباطل . وإيمان السحرة برب العالمين رب موسى وهارون . وتوعد فرعون لهم بالعذاب والتقتيل والتنكيل . واستعلان الحق في نفوسهم على هذا التوعد وانتصار العقيدة في قلوبهم على حب الحياة . ثم ما تلا ذلك من التنكيل ببني إسرائيل . وأخذ الله لفرعون وملئه بالسنين ونقص من الثمرات . ثم أخذهم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وهم يستغيثون بموسى في كل مرة أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب . حتى إذا رفع عنهم عادوا لما كانوا فيه ؛ وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات . حتى حقت عليهم كلمة الله في النهاية فأغرقوا في اليم بتكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عن حكمة ابتلائه – وفق السنة الجارية في أخذ المكذبين بالضراء والسراء قبل أخذهم بالدمار والهلاك – ثم إعطاء الخلافة في الأرض لقوم موسى جزاء على صبرهم واجتيازهم ابتلاء الشدة . . لتعقبها فتنة الرخاء . .

وقد اخترنا أن نجعل هذا القطاع من القصة درساً ؛ ونجعل القطاع الآخر الخاص بقصة موسى – عليه السلام – مع قومه بعد ذلك درساً يليه لاختلاف طبيعة القطاعين ، واختلاف مجالهما كذلك . .

والقصة تبدأ هنا بمجمل عن بدئها ونهايتها ، يوحي بالغرض الذي جاءت من أجله في سياق هذه السورة :

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ . .

فيصرح النص بالغرض من سياقة القصة في هذا الموضع . . إنه النظر إلى عاقبة المفسدين . . وبعد ذلك الإجمال الموحي بالغاية ، تعرض الحلقات التي تفي بهذه الغاية ، وتصورها تفصيلاً .

والقصة تقطع إلى مشاهد حية ، تموج بالحركة وبالحوار ، وتزخر بالانفعالات والسمات ، وتتخللها التوجيهات إلى مواضع العبرة في السياق ، وتكشف عن طبيعة المعركة بين الدعوة إلى " رب العالمين " وبين الطواغيت المتسلطة على عباد الله ، المدعية للربوبية من دون الله ، كما تتجلى روعة العقيدة حين تستعلن ، فلا تخشى سلطان الطواغيت ، ولا تحفل التهديد والوعيد الشديد . .

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ . .

بعد تلك القرى وما حل بها وبالمكذبين من أهلها ، كانت بعثة موسى . . والسياق يعرض القصة من حلقة مواجهة فرعون وملئه بالرسالة ، ثم يعجل بالكشف عن خلاصة استقبالهم لها . كما يعجل بالإشارة إلى العاقبة التي انتهوا إليها . لقد ظلموا بهذه الآيات –

أي كفروا وجحدوا – والتعبير القرآني يكثر من ذكر كلمة " الظلم " وكلمة " الفسق " في موضع كلمة " الكفر " أو كلمة " الشرك " .

(191/282)

وهذه من تلك المواضع التي يكثر ورودها في التعبير القرآني . ذلك أن الشرك أو الكفر هو أقبح الظلم ، كما أنه كذلك هو أشنع الفسق . . والذين يكفرون أو يشركون يظلمون الحقيقة الكبرى – حقيقة الألوهية وحقيقة التوحيد – ويظلمون أنفسهم بإيرادها موارد الهلكة في الدنيا والآخرة . ويظلمون الناس بإخراجهم من العبودية لله الواحد إلى العبودية للطواغيت المتعددة والأرباب المتفرقة . . وليس بعد ذلك ظلم . . ومن ثم فالكفر هو الظلم " والكافرون هم الظالمون " كما يقول التعبير القرآني الكريم . . وكذلك الذي يكفر أو يشرك إنما يفسق ويخرج عن طريق الله وصراطه المستقيم إلى السبل التي لا تؤدي إليه – سبحانه – إنما تؤدي إلى الجحيم !

ولقد ظلم فرعون وملؤه بآيات الله : أي كفروا بها وجحدوا .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ . .

وهذه العاقبة ستجيء في السياق عن قريب . . أما الآن فننظر كذلك في مدلول كلمة : ﴿

المفسدين ﴾ وهي مرادف لكلمة " الكافرين " أو " الظالمين " في هذا الموضع . . إنهم ظلموا بآيات الله : أي كفروا بها وجحدوا فانظر كيف كان عاقبة ﴿ المفسدين ﴾ هؤلاء .

(192/282)

إنهم مفسدون لأنهم " ظلموا " – أي " كفروا وجحدوا " . . ذلك أن الكفر هو أشنع الفساد . وأشنع الإفساد . . إن الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله الواحد ، والعبودية لإله واحد . . وإن الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبودية لله في حياة الناس . . إن العبودية لله وحده معناها أن يكون للناس سيد واحد ، يتوجهون إليه بالعبادة وبالعبودية كذلك ، ويخضعون لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة ، وشهوات البشر الصغيرة ! . . إن الفساد يصيب تصورات الناس كما يصيب حياتهم الاجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد – من دون الله – وما صلحت الأرض ب

قط ولا استقامت حياة الناس إلا أيام أن كانت عبوديتهم لله وحده – عقيدة وعبادة وشريعة – وما تحرر " الإنسان " قط إلا في ظلال الربوبية الواحدة . . ومن ثم يقول الله

سبحانه عن فرعون وملئه :

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ . .

وكل طاغوت يُخضع العباد لشريعة من عنده ، وينبذ شريعة الله ، هو من ﴿ المفسدين ﴾ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون !

وافتتاح القصة على ذلك النحو هو طريقة من طرق العرض القرآنية للقصص . وهذه الطريقة هي المناسبة هنا لسياق السورة ، وللمحور الذي تدور حوله . لأنها تعجل بالعاقبة منذ اللحظة الأولى – تحقيقاً للهدف من سياقتها – ثم تأخذ في التفصيل بعد الإجمال ، فنرى كيف سارت الأحداث إلى نهايتها .

فما الذي كان بين موسى وفرعون وملئه ؟

هنا يبدأ المشهد الأول بينهما :

﴿ وقال موسى : يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق .

(193/282)

قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل . قال : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون ؟ قالوا : أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ . .

إنه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والكفر . . مشهد اللقاء الأول بين الدعوة إلى ﴿ رب العالمين ﴾ وبين الطاغوت الذي يدعي ويزاول الربوبية من دون رب العالمين !

﴿ وقال موسى : يا فرعون ، إني رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق . قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ . .

﴿ يا فرعون ﴾ . . لم يقل له : يا مولاي ! كما يقول الذين لا يعرفون من هو المولى الحق ! ولكن ناداه بلقبه في أدب واعتزاز . ناداه ليقرر له حقيقة أمره ، كما يقرر له أضخم حقائق الوجود :

﴿ إني رسول من رب العالمين ﴾ . .

لقد جاء موسى – عليه السلام – بهذه الحقيقة التي جاء بها كل رسول قبله . حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعاً . . ألوهية واحدة وعبودية شاملة . . لا كما يقول الخابطون في الظلام من " علماء الأديان " ومن يتبعهم في زعمهم عن " تطور العقيدة " إطلاقاً ، وبدون استثناء لما جاء به الرسل من ربهم أجمعين ! . . إن العقيدة التي جاء بها الرسل جميعاً عقيدة واحدة ثابتة ؛ تقرر ألوهية واحدة للعوالم جميعها . ولا تتطور من الآلهة المتعددة ، إلى التثنية ، إلى الوحدانية في نهاية المطاف . . فأما جاهليات البشر – حين ينحرفون عن العقيدة الربانية – فلا حد لتخبطها بين الطواطم والأرواح والآلهة المتعددة والعبادات الشمسية والتثنية والتوحيد المشوب برواسب الوثنية . . وسائر أنواع العقائد الجاهلية . . ولا يجوز الخلط بين العقائد السماوية التي جاءت كلها بالتوحيد الصحيح ، الذي يقرر إلهاً واحداً للعالمين ؛ وتلك التخبطات المنحرفة عن دين الله الصحيح .

ولقد واجه موسى – عليه السلام – فرعون وملأه بهذه الحقيقة الواحدة ، التي واجه بها كل نبي – قبله أو بعده – عقائد الجاهلية الفاسدة . . واجهه بها وهو يعلم أنها تعني الثورة على فرعون وملئه ودولته ونظام حكمه . . إن ربوبية الله للعالمين تعني – أول ما تعني – إبطال شرعية كل حكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأمره ؛ وتنحية كل طاغوت عن تعبيد الناس له – من دون الله – بإخضاعهم لشرعه هو وأمره . . واجهه بهذه الحقيقة

الهائلة بوصفه رسولاً من رب العالمين . . ملزماً ومأخوذاً بقول الحق على ربه الذي أرسله .

﴿ حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ﴾ . .

فما كان الرسول الذي يعلم حقيقة الله ، ليقول عليه إلا الحق ، وهو يعلم قدره ؛ ويجد حقيقته – سبحانه – في نفسه .

.

﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم ﴾ . .

تدلكم على صدق قولي : إني رسول من رب العالمين .

(195/282)

وباسم تلك الحقيقة الكبيرة . . حقيقة الربوبية الشاملة للعالمين . . طلب موسى من فرعون أن يطلق معه بني إسرائيل . .

إن بني إسرائيل عبيد لله وحده ؛ فما ينبغي أن يعبدهم فرعون لنفسه ! إن الإنسان لا يخدم سيدين ، ولا يعبد إلهين . فمن كان عبداً لله ، فما يمكن أن يكون عبداً لسواه . وإذ كان فرعون إنما يعبد بني إسرائيل لهواه ؛ فقد أعلن له موسى أن رب العالمين هو الله . وإعلان هذه الحقيقة ينهي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بني إسرائيل !

إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان . تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله . تحريره من شرع البشر ، ومن هوى البشر ، ومن تقاليد البشر ، ومن حكم البشر .

وإعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله ؛ ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس . . والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صنع البشر – أي لربوبية غير ربوبية الله – واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون ! إنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله ، وقانونهم غير شريعة الله . إنما هم في دين حاكمهم ذاك . في دين الملك لا في دين الله !

وعلى هذه الحقيقة أُمر موسى – عليه السلام – أن يبني طلبه من فرعون إطلاق بني إسرائيل :

﴿ يا فرعون إني رسول من رب العالمين ﴾ . . . ﴿ فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ . . .

مقدمة ونتيجة . . تتلازمان ولا تفترقان . .

ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان . إعلان ربوبية الله للعالمين . . لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم ملك فرعون . وقلب نظام حكمه ، وإنكار شرعيته ، وكشف عدوانه وطغيانه . . ولكن كان أمام فرعون وملئه فرصة أن يظهروا موسى بمظهر

الكاذب الذي يزعم أنه رسول من رب العالمين بلا بينة ولا دليل :

﴿ قال : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾ . .

(196/282)

ذلك أنه إذا اتضح أن هذا الداعية إلى ربوبية رب العالمين كاذب في دعواه ؛ سقطت دعوته ، وهان أمره ؛ ولم يعد لهذه الدعوة الخطيرة من خطر – وصاحبها دعيّ لا بينة عنده ولا دليل !

ولكن موسى يجيب :

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ . .

إنها المفاجأة ! إن العصا تنقلب ثعباناً لا شك في ثعبانيته . . ﴿ مبين ﴾ . . وكما قيل في سورة أخرى : ﴿ فإذا هي حية تسعى ﴾ ثم إن يده السمراء – وقد كان موسى عليه السلام " آدم " أي مائلاً إلى السمرة – يخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء ، بيضاء ليست عن مرض ، ولكنها المعجزة ، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء !

هذه هي البينة والآية على الدعوى التي جاء بها موسى .

. إني رسول من رب العالمين .

ولكن هل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوى الخطيرة ؟ هل يستسلمون لربوبية رب العالمين ؟ وعلام إذن يقوم عرش فرعون وتاجه وملكه وحكمه ؟ وعلام يقوم الملأ من قومه ومراكزهم التي هي من عطاء فرعون ورسمه وحكمه ؟

علام يقوم هذا كله إن كان الله هو ﴿ رب العالمين ﴾ ؟

إنه إن كان الله هو ﴿ رب العالمين ﴾ فلا حكم إلا لشريعة الله ، ولا طاعة إلا لأمر الله . .

فأين يذهب شرع فرعون وأمره إذن ، وهو لا يقوم على شريعة الله ولا يرتكن إلى أمره ؟ . .

إن الناس لا يكون لهم ﴿ رب ﴾ آخر يعبدهم لحكمه وشرعه وأمره ، إن كان الله هو ربهم . . إنما يخضع الناس لشرع فرعون وأمره حين يكون ربهم هو فرعون . فالحاكم – بأمره وشرعه – هو رب الناس . وهم في دينه أياً كان !

كلا ! إن الطاغوت لا يستسلم هكذا من قريب . ولا يسلم ببطلان حكمه وعدم شرعية سلطانه بمثل هذه السهولة !

وفرعون وملؤه لا يخطئون فهم مدلول هذه الحقيقة الهائلة التي يعلنها موسى . بل إنهم ليعلنونها صريحة . ولكن مع تحويل الأنظار عن دلالتها الخطيرة ، باتهام موسى بأنه ساحر عليم :

﴿ قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟ ﴾ . .

إنهم يصرحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة . إنها الخروج من الأرض . . إنها ذهاب السلطان . . إنها إبطال شرعية الحكم . . أو . . محاولة قلب نظام الحكم ! . . بالتعبير العصري الحديث !

إن الأرض لله . والعباد لله . فإذا ردت الحاكمية في أرض لله ، فقد خرج منها الطغاة ، الحاكمون بغير شرع الله ! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم . وخرج منها الملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى ، فيعبدون الناس لهذه الأرباب !

هكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة . . وكذلك يدركها الطواغيت في كل مرة . . لقد قال الرجل العربي – بفطرته وسليقته – حين سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله : " هذا أمر تكرهه الملوك ! " . وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته : " إذن تحاربك العرب والعجم " . . لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته . كان يفهم أن شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أم عجماً ! كانت لشهادة أن لا إله إلا الله جديتها

في حسن هؤلاء العرب ، لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً . فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد ، ولا في أرض واحدة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، مع الحكم بغير شرع الله ! فيكون هناك آلهة مع الله ! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم " مسلمين " .

. ذلك الفهم الباهت التافه الهزيل !

وهكذا قال الملأ من قوم فرعون ، يتشاورون مع فرعون :

﴿ إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟ ﴾ . .

واستقر رأيهم على أمر :

﴿ قالوا : أرجه وأخاه ، وأرسل في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ . .

(198/282)

وكانت أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد . وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر . ففي الوثنيات كلها تقريباً يقترن الدين بالسحر ؛ ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة ! وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها " علماء الأديان ! " فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة ! ويقول الملحدون منهم : إن الدين سيبطل كما

بطل السحر ! وإن العلم سينهي عهد الدين كما أنهى عهد السحر ! . . إلى آخر هذا الخبط الذي يسمونه : " العلم " !

وقد استقر رأي الملأ من قوم فرعون ، على أن يرجئ فرعون موسى إلى موعد . وأن يرسل في أنحاء البلاد من يجمع له كبار السحرة . ذلك ليواجهوا " سحر موسى " – بزعمهم – بسحر مثله .

وعلى كل ما عرف من طغيان فرعون ، فقد كان في تصرفه هذا أقل طغياناً من طواغيت كثيرة في القرن العشرين ؛ في مواجهة دعوة الدعاة إلى ربوبية رب العالمين ! وتهديد السلطان الباطل بهذه الدعوة الخطيرة !

ويطوي السياق القرآني إجراء فرعون وملئه في جمع السحرة من المدائن ؛ ويسدل الستار على المشهد الأول ، ليرفعه على المشهد التالي . . وذلك من بدائع العرض القرآني للقصص ، كأنه واقع منظور ، لا حكاية تروى !

﴿ وجاء السحرة فرعون ، قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ، وإنكم لمن المقربين ﴾ . .

إنهم محترفون . . . يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة ! والأجر هو هدف الاحتراف في هذا وذاك ! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هي وظيفة المحترفين من رجال الدين ! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله ، وإفراده – سبحانه – بالحاكمية

؛ وقام سلطان الطاغوت مقام شريعة الله ، احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين ، وكافأهم على الاحتراف ، وتبادل وإياهم الصفقة : هم يقرون سلطانه باسم الدين ! وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين !

(199/282)

ولقد أكد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم ، ووعدهم مع الأجر القربى منه ، زيادة في الإغراء ، وتشجيعاً على بذل غاية الجهد . . وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والبراعة والتضليل ؛ إنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة القاهرة ، التي لا يقف لها الساحرون ولا المتجبرون !

ولقد اطمأن السحرة على الأجر ، واشرأبت أعناقهم إلى القربى من فرعون ، واستعدوا للحلبة . . ثم ها هم أولاء يتوجهون إلى موسى – عليه السلام – بالتحدي .

. ثم يكون من أمرهم ما قسم الله لهم من الخير الذي لم يكونوا يحتسبون ، ومن الأجر الذي لم يكونوا يتوقعون :

﴿ قالوا : يا موسى ، إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين . . قال : ألقوا ﴾ . .

ويبدو التحدي واضحاً في تخييرهم لموسى . وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على

الغلبة . . وفي الجانب الآخر تتجلى ثقة موسى – عليه السلام – واستهانته بالتحدي : ﴿ قال ألقوا ﴾ . . فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة ، وتلقي ظل الثقة الكامنة وراءها في نفس موسى . على طريقة القرآن الكريم في إلقاء الظلال ، بالكلمة المفردة في كثير من الأحايين .

ولكن السياق يفاجئنا بما فوجئ به موسى – عليه السلام – وبينما نحن في ظلال الاستهانة وعدم المبالاة ، إذا بنا أمام مظهر السحر البارع ، الذي يرهب ويخيف :

﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم ﴾ . .

وحسبنا أن يقرر القرآن أنه سحر عظيم ، لندرك أي سحر كان . وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا ﴿ أعين الناس ﴾ وأثاروا الرهبة في قلوبهم : ﴿ واسترهبوهم ﴾ لنتصور أي سحر كان . ولفظ " استرهب " ذاته لفظ مصور . فهم استجاشوا إحساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسراً . ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآني الآخر في سورة طه ، أن موسى عليه السلام قد أوجس في نفسه خيفة لنتصور حقيقة ما كان !

(200/282)

ولكن مفاجأة أخرى تطالع فرعون وملأه ، وتطالع السحرة الكهنة ، وتطالع جماهير الناس في الساحة الكبرى التي شهدت ذلك السحر العظيم :

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ، فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين ﴾ . .

إنه الباطل ينتفش ، ويسحر العيون ، ويسترهب القلوب ، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب ، وأنه جارف ، وأنه مُحيق ! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثىء كالفقاعة ، وينكمش كالقنفذ ، وينطفئ كشعلة الهشيم ! وإذا الحق راجح الوزن ، ثابت القواعد ، عميق الجذور . . والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال ، وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل : ﴿ فوقع الحق ﴾ . . وثبت ، واستقر . . وذهب ما عداه فلم يعد له وجود : ﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ . . وغلب الباطل والمبطلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون :

﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ . .

ولكن المفاجأة لم تختم بعد . والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة أخرى . . مفاجأة كبرى . .

﴿ وألقي السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ . .

إنها صولة الحق في الضمائر . ونور الحق في المشاعر ، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين . . إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم ، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه .

وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبشر ، أم من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر . والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له ، لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة ، ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور .

. ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق ، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين . .

(201/282)

ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر ؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ؛ ولا كيف تلمسها حرارة اليقين . فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب – وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقبلها كيف يشاء – . . ومن ثم فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذي لم يدرك دبيبه في القلوب ولم يتابع خطاه في النفوس ؛ ولم يفطن إلى مداخله في شعاب الضمائر . . ثم هزته المفاجأة الخطيرة التي تزلزل العرش من تحته : مفاجأة استسلام السحرة – وهم من كهنة المعابد – لرب العالمين . رب موسى وهارون . بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين ! . . والعرش والسلطان هما كل شيء في حياة

الطواغيت . . وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تحرج في سبيل المحافظة على الطاغوت :

﴿ قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم ! إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها . فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ . .

هكذا . . ﴿ آمنتم به قبل أن آذن لكم ! ﴾ . . كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق – وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها – أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم – وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً – أو يستأذنوه في أن تشرق أرواحهم – وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها . أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق . أو أن يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار . أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين !

ولكن الطاغوت جاهل غبي مطموس ؛ وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور !

ثم إنه الفزع على العرش المهدد والسلطان المهزوز :

﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ . .

وفي نص آخر : ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ والمسألة واضحة المعالم . . إنها دعوة موسى إلى " رب العالمين " . . هي التي تزعج وتخيف . . إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين . وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شريعته . وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يشرعون للناس ما يشاءون ، ويعبدون الناس لما يشرعون ! . . إنهما منهجان لا يجتمعان . . أو هما دينان لا يجتمعان . . أو هما ربان لا يجتمعان . . وفرعون كان يعرف وملؤه كانوا يعرفون . . ولقد فزعوا للدعوة من موسى وهارون إلى رب العالمين . فأولى أن يفزعوا الآن وقد ألقي السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارونَ والسحرة من كهنة الديانة الوثنية التي تؤله فرعون ، وتمكنه من رقاب الناس باسم الدين !

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشي الفظيع :

﴿ فسوف تعلمون .

لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ . .

إنه التعذيب والتشويه والتنكيل . . وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق ، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان . . وعدة الباطل في وجه الحق الصريح . .

ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان ؛ تستعلي على قوة الأرض ، وتستهين ببأس الطغاة ؛ وتنتصر فيها العقيدة على الحياة ، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار

الخلود المقيم . إنها لا تقف لتسأل : ماذا ستأخذ وماذا ستدع ؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات ؟ . . لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك ، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق . .

﴿ قالوا : إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً ، وتوفنا مسلمين ﴾ . .

إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع . كما أنه لا يخضع أو يخنع . الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها ، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره :

(203/282)

﴿ قالوا : إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ . .

والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت . . وأنها معركة العقيدة في الصميم . . لا يداهن ولا يناور . . ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة ، لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة :

﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ . .

والذي يعرف أين يتجه في المعركة ، وإلى من يتجه ؛ لا يطلب من خصمه السلامة والعافية ، إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام :

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ . .

ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان ، وأمام الوعي ، وأمام الاطمئنان . . يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب ! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام . فإذا هي مستعصية عليه ، لأنها من أمر الله ، لا يملك أمرها إلا الله . . وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله ؟ وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله ؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان !

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية . هذا الذي كان بين فرعون وملئه ، والمؤمنين من السحرة . . السابقين . .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية . بانتصار العقيدة على الحياة . وانتصار العزيمة على الألم . وانتصار " الإنسان " على " الشيطان " !

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية . بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية . فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة . والاستهانة بالقوة المادية التي

تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب.

(204/282)

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية! فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتمنى بالقرب من السلطان.. هي ذاتها التي تستعلي على فرعون؛ وتستهين بالتهديد والوعيد، وتُقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب. وما تغير في حياتها شيء، ولا تغير من حولها شيء - في عالم المادة - إنما وقعت اللمسة الخفية التي تسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى. وتجمع الذرة التائهة إلى المحور الثابت، وتصل الفرد الفاني بقوة الأزل والأبد.. وقعت اللمسة التي تحوّل الإبرة، فيلتقط القلب إيقاعات القدرة، ويتسمع الضمير أصداء الهداية، وتتلقى البصيرة إشراقات النور.. وقعت اللمسة التي لا تنتظر أي تغيير في الواقع المادي؛ ولكنها هي تغير الواقع المادي؛ وترفع "الإنسان" في عالم الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمح إليها الخيال! ويذهب التهديد.. ويتلاشى الوعيد.. ويمضي الإيمان في طريقه. لا يتلفت، ولا يتردد، ولا يحيد!

ويسدل السياق القرآني الستار على المشهد عند هذا الحد ولا يزيد . . إن روعة الموقف تبلغ ذروتها ؛ وتنتهي إلى غايتها . وعندئذ يتلاقى الجمال الفني في العرض ؛ مع الهدف النفسي للقصة ، على طريقة القرآن في مخاطبة الوجدان الإيماني بلغة الجمال الفني ، في تناسق لا يبلغه إلا القرآن .

ولكننا نحن في هذه الظلال ينبغي أن نقف وقفة قصيرة أمام هذا المشهد الباهر الأخاذ . . .

(205/282)

---

* نقف ابتداء أمام إدراك فرعون وملئه أن إيمان السحرة برب العالمين ، رب موسى وهارون ، يمثل خطراً على نظام ملكهم وحكمهم ؛ لتعارض القاعدة التي يقوم عليها هذا الإيمان ، مع القاعدة التي يقوم عليها ذلك السلطان . . وقد عرضنا لهذا الأمر من قبل . . ونريد أن نقرر هذه الحقيقة ونؤكدها . . إنه لا يجتمع في قلب واحد ، ولا في بلد واحد ، ولا في نظام حكم واحد ، أن يكون الله رب العالمين ، وأن يكون السلطان في حياة الناس لعبد من العبيد ، يباشره بتشريع من عنده وقوانين . . فهذا دين وذلك دين . .

* ونقف بعد ذلك أمام إدراك السحرة – بعد أن أشرق نور الإيمان في قلوبهم ، وجعل لهم

فرقاناً في تصورهم – أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هي معركة العقيدة ؛ وأنه لا ينقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين .

فهذا الإيمان على هذا النحو يهدد عرش فرعون وملكه وسلطانه ؛ ويهدد مراكز الملأ من قومه وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون . . أو بتعبير آخر مرادف : من ربوبية فرعون ، ويهدد القيم التي يقوم عليها المجتمع الوثني كله . . وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضروري لكل من يتصدى للدعوة إلى ربوبية الله وحده . فهو وحده الذي أهل هؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه في سبيله . . إنهم يقدمون على الموت مستهينين ليقينهم بأنهم هم المؤمنون برب العالمين ؛ وأن عدوهم على دين غير دينهم ؛ لأنه بمزاولته للسلطان وتعبيد الناس لأمره ينكر ربوبية رب العالمين .

. فهو إذن من الكافرين . . وما يمكن أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين – على ما ينتظرهم فيها من التعذيب والتنكيل – إلا بمثل هذا اليقين بشقيه : أنهم هم المؤمنون ، وأن أعداءهم هم الكافرون ، وأنهم إنما يحاربونهم على الدين ، ولا ينقمون منهم إلا الدين .

(206/282)

*ونقف بعد ذلك أمام الروعة الباهرة لانتصار العقيدة على الحياة . وانتصار العزيمة على الألم . وانتصار " الإنسان " على الشيطان . وهو مشهد بالغ الروعة . . نعترف أننا نعجز عن القول فيه . فندعه كما صوره النص القرآني الكريم !

ثم نعود إلى سياق القصة القرآني . . حيث يرفع الستار عن مشهد رابع جديد . . إنه مشهد التآمر والتناجي بالإثم والتحريض . بعد الهزيمة والخذلان في معركة الإيمان والطغيان . مشهد الملأ من قوم فرعون يكبر عليهم أن يذهب موسى ناجياً والذين آمنوا معه – وما آمن له إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم . كما جاء في موضع آخر من القرآن – فإذا الملأ يتناجون بالشر والإثم ، وهم يهيجون فرعون على موسى ومن معه ؛ ويخوفونه عاقبة التهاون في أمرهم ؛ من ضياع الهيبة والسلطان ؛ باستشراء العقيدة الجديدة ، في ربوبية الله للعالمين . فإذا هو هائج مائج ، مهدد متوعد ، مستعز بالقوة الغاشمة التي بين يديه ، وبالسلطان المادي الذي يرتكن إليه ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1343 . 1353 ﴾

(207/282)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ فظلموا بها ﴾ بأن جعلوها سحراً فوضعوها في غير موضعها ﴿ عاقبة المفسدين ﴾ الذين أفسدوا الاستعداد الفطري بالركون إلى الدنيا ولذاتها ﴿ حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ لأن قائم بحقائق الجميع فانٍ على الخلق وآثار التفرقة ﴿ فإذا هي ثعبان ﴾ لأنه أضاف العصا إلى نفسه في قوله ﴿ هي عصاي ﴾ [طه : 18] ويعلم منه أن كل شيء أضفته إلى نفسك وجعلته محل حاجاتك فإنه ثعبان يبتلعك ولهذا قيل ﴿ ألقها يا موسى ﴾ [طه : 19] ﴿ فإذا هي بيضاء ﴾ فيه أن الأيدي قبل تعلقها بالأشياء كانت بيضاء نقية نورانية روحانية وأن اليد لموسى كانت روحانية في جميع الأوقات ولكن ما كانت نورانيتها منظورة للناظرين إلا بإظهار الله تعالى في بعض الأوقات خرقاً للعادات على يده الجسمانية ﴿ يريد أن يخرجكم ﴾ لا شك أن موسى أراد أن يخرجهم من أرضهم ولكن من أرض بشريتهم إلى نور الروحانية . ﴿ قالوا أرجه وأخاه ﴾ توهموا أن التأخير وحسن التدبير يغير شيئاً من التقدير ، ولم يعلموا أن عند حلول الحكم لا سلطان للعلم والفهم . ﴿ أئن لنا لأجر ﴾ لم يعلموا أن أجرهم في المغلوبية لا في الغالبية ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ أجرى الله تعالى هذا على لسان فرعون حقاً وصدقاً فصاروا مقربين عند الله ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي ﴾ أكرموا موسى بالتقديم

والاستئذان فأكرمهم الله تعالى بالسجود والإيمان ﴿ بسحر عظيم ﴾ أي عظيم في الإثم كما قال ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ وعظمة إثم السحر لمعارضة المعجزة ﴿ فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ فيه أن عصا الذكر إذا ألقيتها عند إلقاء سحر سحرة صفات النفس تبتلع بفم لا النفي جميع ما سحروا به أعين الناس ﴿ فوقع الحق ﴾ بإثبات لا إله إلا الله ﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ من تزيين زخارف الدنيا في العيون ﴿ فغلبوا ﴾ أي سحرة صفات النفس إذا تنوّرت بنور الذكر ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ ذليلين تحت أوامر الشرع ونواهيه ﴿ وألقى السحرة ساجدين ﴾ أي

(208/282)

صارت صفات النفس بعد التمرد منقادة للعبودية .

﴿ رب موسى ﴾ الروح ﴿ وهارون ﴾ القلب . واعلم أن صفات النفس إذا تنوّرت بنور الذكر يتبدل كفرها بالإيمان ولكن النفس بذاتها لا تؤمن ولا تتبدل اللهم إلا عند غرقها في بحر الواردات والمواهب الربانية كحال فرعون وإيمانه عند الغرق . وفي القصة دلالة على أنه تعالى قد يبرز العدوّ في صورة الولي مثل بلعام وبالعكس كالسحرة ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ هذا من جملة جهل فرعون ، ظن أن الإيمان بإذنه ولم يعلم أن الإيمان بإذن الله ﴿ لمكر

مكرتموه ﴾ في موافقة موسى الروح في مدينة القالب ﴿ لتخرجوا منها أهلها ﴾ هو اللذات والشهوات البدنية ﴿ لأقطعن ﴾ بسكين التسويل عن الأعمال الصالحة ﴿ ثم لأصلبنكم في جذوع ﴾ تعلقات الدنيا وزخارفها والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 302. 303 ﴾

(209/282)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثمانون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/283)

الجزء الثالث والثمانون بعد المائتين

من الآية ﴿ 127 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 133 ﴾ من نفس السورة

(4/283)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قنع فرعون في ذلك الوقت الذي بهرت قومه تلك المعجزة الظاهرة بالانفصال على هذا

الوجه الذي لم يدع فيه حيلة إلا خيل بها ، وخلص موسى عليه السلام بقومه متمكناً منهم بعض التمكن ، وكان السياق لبيان أن أكثر الخلق فاسق ، أخبر تعالى بما قال قوم فرعون بعدما رأوا من المعجز القاهر دليلاً على ذلك ، فقال عاطفاً على ﴿ وألقي السحرة ساجدين ﴾ وما بعده ، أو على قول فرعون : ﴿ وقال الملأ ﴾ أي الأشراف ﴿ من قوم فرعون ﴾ أي ظانين أن فرعون متمكن مما يريد بموسى عليه السلام من الأذى منكرين لما وصل إليه الحال من أمر موسى عليه السلام حين فعل ما فعل وآمن به السحرة ، وما عمل فرعون شيئاً ، لا قتله ولا حبسه ، لأنه كان لا يقدر على ذلك ولا يعترف به لقومه ﴿ أتذر موسى وقومه ﴾ .

ولما كان ما كان في أول مجلس من إيمان السحرة جديراً بأن يجر إليه أمثاله ، سموه فساداً وجعلوه مقصوداً لفرعون إحماء له واستغضاباً فقالوا : ﴿ ليفسدوا ﴾ أي يوقعوا الفساد وهو تغيير الدين ﴿ في الأرض ﴾ أي التي هي الأرض كلها ، وهي أرضنا هذه ، أو الأرض كلها ، لكون مثل هذا الفعل جديراً برد أهل الأرض كلهم عن عقائدهم ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قيل : كان أمر قومه أن يعبدوا الأصنام تقرباً إليه ، وقال الإمام : الأقرب أنه كان دهرياً منكراً لوجود الصانع ، وكان يقول : مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب ، وأنه المخدوم في العالم للخلق أو لتلك الطائفة والمربي لهم ؛ ثم قال : وإذا كان مذهبه ذلك لم يبعد

أن يقال : إنه كان قد اتخذ أصناماً على صور الكواكب ويعبدها على ما هو دين عبدة الكواكب انتهى .

(5/283)

ولذلك قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] ، - هكذا قيل ، وهو ظاهر عبارة التوارة الآتية في آية القمل ، ولكن إرادته غير ملائمة لهذه المعادلة ، بل الظاهر أنه كان سمى أمراءة آلهة ، وسمى لكل أمير قوماً يتألهونه أي يطيعونه ، فإنه نقل عنهم أنهم كانوا يسمون الحاكم بل والكبير إلهاً كما سيأتي عن عبارة التوارة ، فحيث وقعت الموازنة بين موسى عليه السلام وقومه وبين فرعون وقومه ، عبر بالآلهة تعظيماً لجانبه بالإشارة إلى أنه إله أي حاكم معبود ، ليس وراءه منتهى وملؤه كلهم آلهة أي حكام دونه ، وموسى عليه السلام ليس بإله ولا في قومه إله بل هم محكوم عليهم فهم ضعفاء فكيف يتركون ! وحيث نفي الإلهية عن غيره فبالنظر إلى خطابه للملأ ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] وحيث حشر الرعية ناداهم بقوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] وكأن ذلك كان يطلق على الحاكم مجازاً ، فجعلوه حقيقة وصاروا يفعلون ما يختص به الآلهة من التحليل والتحريم كما قال تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [

التوبة : 31] فكفروا بادعاء الربوبية بمعنى العبودية ، ونفي المعبود الحق بدليل آية ﴿ ما عملت ﴾ ، والحاصل أنهم عيروه بالرضى بأن يكون رئيساً على القبط وموسى عليه السلام رئيساً على بني إسرائيل فيكونوا بهذه المتاركة أكفاء للقبط .

ولما أعجزه الله سبحانه أن يفعل أكثر مما كان يعمل قبل مجيء موسى عليه السلام لما يراد به من الاستدراج إلى الهلاك ، أخبر عنه سبحانه بما يفهم ذلك فقال مستأنفاً : ﴿ قال ﴾ أي فرعون ﴿ سنقتل ﴾ أي تقتيلاً كثيراً ﴿ أبناءهم ﴾ أي كما كنا نفعل ﴿ ونستحيي نساءهم ﴾ أي نبقيهم أحياء إذلالاً لهم وأمناً من غائلتهم في المستقبل ﴿ وإنا فوقهم ﴾ أي الآن ﴿ قاهرون ﴾ ولا أثر لغلبة موسى لنا في هذه المناظر لئلا تتوهم العامة أنه المولود الذي تحدث المنجمون والكهنة بذهاب ملكهم على يده فيثبطهم ذلك عن الطاعة ، موهماً بهذا أن تركه لأذى موسى عليه السلام لعدم التفاته ؟ إليه ، لايعجزه شيء عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 86 . 87 ﴾

(6/283)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سنقتل ﴾ بالتخفيف : ابن كثير وأبو جعفر ونافع ﴿ يورّثها ﴾ بالتشديد : الخزاز عن هبيرة ﴿ كلمات ربك ﴾ على الجمع : يزيد في رواية ﴿ يعرشون ﴾ بضم الراء حيث كان : ابن عامر وأبو بكر وحماد : الباقون : بالكسر ﴿ يعكفون ﴾ بكسر الكاف : حمزة وخلف . الباقون : بالضم ﴿ أنجاكم ﴾ ابن عامر . الآخرون ﴿ أنجيناكم ﴾ على الحكاية ﴿ يقتلون ﴾ بالتخفيف : نافع .

الوقوف : ﴿ وآلهتك ﴾ ط ﴿ نساءهم ﴾ ج للابتداء والعطف واتحاد القائل ﴿ قاهرون ﴾ ه و ﴿ اصبروا ﴾ ج لما قلنا ﴿ من عباده ﴾ ط ﴿ للمتقين ﴾ ه ﴿ ما جئتنا ﴾ ط ﴿ تعلمون ﴾ ه ﴿ يذكرون ﴾ ه ﴿ لنا هذه ﴾ ج لبيان تباين الإضافتين على التناقض ﴿ ومن معه ﴾ ج ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ بها مؤمنين ﴾ ه ﴿ مجرمين ﴾ ه ﴿ بما عهد عندك ﴾ ج لأن جواب « لئن » منتظر مع اتحاد القائل ﴿ بني إسرائيل ﴾ ج لأن جواب « لما » منتظر مع دخول الفاء فيه ﴿ ينكثون ﴾ ه ﴿ غافلين ﴾ ه ﴿ باركنا فيها ﴾ ط للعدول عن الحكاية وكذلك ﴿ بما صبروا ﴾ ط لعكسه . ﴿ يعرشون ﴾ ه ﴿ يعكفون ﴾ ه ﴿ أصنام لهم ﴾ ج لاتحاد القائل بلا عطف ﴿ آلهة ﴾ ط ﴿ تجهلون ﴾ ه ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ سوء العذاب ﴾ ج لاحتمال كون ما بعده مستأنفاً أو حالاً ﴿ نساءكم ﴾ ط ﴿ عظيم ﴾ ه والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 304 . 305 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرض فرعون لموسى ولا أخذه ولا حبسه ، بل خلى سبيله فقال قومه له : ﴿ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ .

واعلم أن فرعون كان كلما رأى موسى خافه أشد الخوف ، فلهذا السبب لم يتعرض له إلا أن قومه لم يعرفوا ذلك ، فحملوه على أخذه وحبسه .

وقوله : ﴿ لِيُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ أي يفسدوا على الناس دينهم الذي كانوا عليه ، وإذا أفسدوا عليهم أديانهم توسلوا بذلك إلى أخذ الملك .

أما قوله : ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ فالقراءة المشهورة فيه ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ بالنصب .

وذكر صاحب "الكشاف" : فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن يكون قوله : ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ عطفاً على قوله : ﴿ لِيُفْسِدُواْ ﴾ لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم ، كان ذلك مؤدياً إلى تركه وترك آلهته ، فكأنه تركهم لذلك .

وثانيها : أنه جواب للاستفهام بالواو ، وكما يجاب بالفاء مثل قول الحطيئة :

ألم أكُ جاركم ويكون بيني . . وبينكم المودة والآخاءُ ؟

والتقدير : أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض فيذرك وآلهتك .

قال الزجاج : والمعنى أيكون منك أن تذر موسى وأن يذرك موسى ؟ وثالثها : النصب بإضمار أن تقديره : أتذر موسى وقومه ليفسدوا وأن يذرك وآلهتك ؟ قال صاحب "الكشاف" : وقرىء ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ أَتَذَرُ ﴾ بمعنى أتذره ويذرك ؟ أي انطلق له ، وذلك يكون مستأنفاً أو حالاً على معنى أتذره هو يذرك وإلهتك ؟ وقرأ الحسن ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ بالجزم ، وقرأ أنس ﴿ ونذرك ﴾ بالنون والنصب ، أي يصرفنا عن عبادتك فنذرها .

وأما قوله : ﴿ وَءَالِهَتَكَ ﴾ قال أبو بكر الأنباري : كان ابن عمر ينكر قراءة العامة ، ويقرأ إلاهتك أي عبادتك ، ويقول إن فرعون كان يعبد ولا يعبد ، قال ابن عباس : أما قراءة العامة ﴿ وَءَالِهَتَكَ ﴾ فالمراد جمع إله ، وعلى هذا التقدير : فقد اختلفوا فيه .

فقيل إن فرعون كان قد وضع لقومه أصناماً صغاراً ، وأمرهم بعبادتها .

(8/283)

وقال : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ ورب هذه الأصنام ، فذلك قوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾

وقال الحسن : كان فرعون يعبد الأصنام .

وأقول : الذي يخطر ببالي إن فرعون إن قلنا : إنه ما كان كامل العقل لم يجز في حكمة الله تعالى إرسال الرسول إليه ، وإن كان عاقلاً لم يجز أن يعتقد في نفسه كونه خالقاً للسموات والأرض ، ولم يجز في الجمع العظيم من العقلاء أن يعتقدوا فيه ذلك لأن فساده معلوم بضرورة العقل .

بل الأقرب أن يقال إنه كان دهرياً ينكر وجود الصانع ، وكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب ، وأما المجدي في هذا العلم للخلق ، ولتلك الطائفة والمربي لهم فهو نفسه ، فقوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ أي مربيكم والمنعم عليكم والمطعم لكم .

وقوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنَ إله غَيْرِى ﴾ [القصص : 38] أي لا أعلم لكم أحداً يجب عليكم عبادته إلا أنا ، وإذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن يقال إنه كان قد اتخذ أصناماً على صور الكواكب ، ويعبدها ويتقرب إليها على ما هو دين عبدة الكواكب وعلى هذا التقدير : فلا امتناع في حمل قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ على ظاهره ، فهذا ما عندي في هذا الباب ، والله أعلم .

واعلم أن على جميع الوجوه والاحتمالات فالقوم أرادوا بذكر هذا الكلام حمل فرعون على أخذ موسى عليه السلام ، وحبسه ، وإنزال أنواع العذاب به ، فعند هذا لم يذكر فرعون ما

هو حقيقة الحال وهو كونه خائفاً من موسى عليه السلام .

ولكنه قال : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن كثير ﴿ سَنُقَتِّلُ ﴾ بفتح النون والتخفيف ، والباقون بضم النون والتشديد على التكثير .

يعني أبناء بني إسرائيل ومن آمن بموسى عليه السلام .

(9/283)

المسألة الثانية :

أن موسى عليه السلام إنما يمكنه الإفساد بواسطة الرهط والشيعة فنحن نسعى في تقليل رهطه وشيعته ، وذلك بأن نقتل أبناء بني إسرائيل ونستحيي نساءهم .

ثم بين أنه قادر على ذلك بقوله : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ والمقصود منه ترك موسى وقومه ، لا من عجز وخوف ، ولو أراد به البطش لقدر عليه ، كأنه يوهم قومه أنه إنما لم يحبسه ولم يمنعه لعدم التفاته إليه ولعدم خوفه منه .

واختلف المفسرون ، فمنهم من قال : كان يفعل ذلك كما فعله ابتداء عند ولادة موسى ،

ومنهم من قال بل منع منه واتفق المفسرون على أن هذا التهديد وقع في غير الزمان الأول ثم حكى تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ وهذا يدل على أن الذي قاله الملأ لفرعون ، والذي قال فرعون لهم قد عرفه موسى عليه السلام ووصل إليه ، فعند ذلك قال لقومه ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 171.173 ﴾

(10/283)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾

يعني : إن السحرة قد آمنوا به فلو تركتهما يؤمن بهما جميع أهل مصر ، فيفسدوا في الأرض يعني : موسى وقومه ويغيروا عليك دينك في أرض مصر ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ وذلك أن فرعون كان قد جعل لقومه أصناماً يعبدونها ، وكان يقول لهم هؤلاء أربابكم الصغار ، وأنا ربكم الأعلى .

فذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ يعني : يدعك ويدع أصنامك التي أمرت بعبادتها .

وروي عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ يعني : عبادتك وتعبدك .

قال ابن عباس : كان فرعون يُعْبد ولا يَعْبُد .

ويقال : معنى قوله : ﴿ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ يعني : يغلبوا عليكم ، ويقتلون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم كما فعلتم بهم كما قال في آية أُخرى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذرونى أَقْتُلْ موسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إنى أَخَافُ أَن يُبَدّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأرض الفساد ﴾ [غافر : 26] فقال لهم فرعون : ﴿ سَنُقَتّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءهُمْ ﴾ لأنهم قد كانوا تركوا قتل الأبناء ، فأمرهم أن يرجعوا إلى ذلك الفعل .

قرأ ابن كثير ونافع ﴿ سَنُقَتّلُ أَبْنَاءهُمْ ﴾ بجزم القاف والتخفيف .

وقرأ الباقون بالتشديد على معنى التكثير والمبالغة في القتل .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون ﴾ أي : مسلطون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(11/283)

وقال الثعلبي :

﴿ وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ ﴾ أتدع ﴿ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ ﴾ كي يفسدوا عليك ملكك عبيدك ﴿ فِي الأرض ﴾ في أرض مصر ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ يعني وليذرك .

وروى سليمان التيمي عن أنس بن مالك أنّه قرأ ويذرك بالرفع والنون ، [أخبروا] عن أنفسهم أنهم يتركون عبادته إن ترك موسى حياً فيصرفهم عنّا .

وقرأ الحسن (ويذرك) بالرفع على تقدير المبتدأ ، أي وهو يذرك ، ﴿ آلِهَتَكَ ﴾ فلا نعبدك ولا نعبدها . قال ابن عباس : كان لفرعون بقرة يعبدها وكانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها ، ولذلك أخرج السامري لهم عجلاً .

وروى عمرو عن الحسين قال : كان لفرعون حنانة معلقة في نحره يعبدها ويسجد عليها كأنّه صنم كان عابده يحن إليه .

وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال : كان فرعون يصنع لقومه أصناماً صغاراً ويأمرهم بعبادتها ويقول لهم : أنا رب هذه الأصنام ، وذلك قوله ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] .

قال أبو عبيد : وبلغني عن الحسن أنه قيل له : هل كان فرعون يعبد شيئاً ؟ قال : نعم كان يعبد تيساً .

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وبكر بن عبد الله [الشعبي] والضحاك وابن أبي إسحاق :

إلهتك بكسر الألف أي [إلهك] فلا يعبدك كما تعبد . قالوا : لأن فرعون كان يُعبد ولا يَعبد .

وقيل أراد بالآلهة الشمس وكانوا يعبدونها .

قال [عيينة] بن [شهاب] :

تروحنا من الأعيان عصراً . . . فأمحلنا الآلهة أن تؤوبا

بمعنى الشمس ﴿ قَالَ ﴾ يعني فرعون سنقتل أبنائهم بالتشديد على التكثير . وقرأ أهل الحجاز بالتخفيف ﴿ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ غالبون .

(12/283)

قال ابن عباس : كان فرعون يقتل بني إسرائيل في العام الذي قيل له إنّه يولد مولود يذهب بملكك فلم يزل يقتلهم حتّى أتاهم موسى (عليه السلام) بالرسالة فلما كان من أمر موسى ما كان أمر بإعادة عليهم القتل فشكت بنو إسرائيل إلى موسى (عليه السلام) فعند ذلك ﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأرض للَّهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(13/283)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ . . . ﴾ الآية : ﴿ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾

فيهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه أشرافهم .

والثاني : رؤساؤهم .

والثالث : أنهم الرهط والنفر الذين آمنوا معهم .

والفرق بين الرهط والنفر من وجهين :

أحدهما : كثرة الرهط وقلة النفر .

والثاني : قوة الرهط وضعف النفر ، وفي تسميتهم بالملأ وجهان :

أحدهما : أنهم مليئون بما يراد منهم .

والثاني : لأنهم تملأ النفوس هيبتهم .

وفيه وجه ثالث : لأنهم يملأون صدور المجالس .

فإن قيل : فما وجه إقدامهم على الإنكار على فرعون مع عبادتهم له ؟ قيل : لأنهم رأوا منه خلاف عادته وعادة الملوك في السطوة بمن أظهر العناد وخالف ، وكان ذلك من لطف الله بموسى .

وفي قوله : ﴿ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ وجهان :

أحدهما : ليفسدوا فيها بعبادة غيرك والدعاء إلى خلاف دينك .

والثاني : ليفسدوا فيها بالغلبة عليها وأخذ قومه منها .

ثم قالوا : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ فإن قيل : فما وجه قولهم ذلك له وهم قد صدقوه على قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات : 24] . قيل الجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه كان يعبد الأصنام وكان قومه يعبدونه ، قاله الحسن .

والثاني : أنه كان يعبد ما يستحسن من البقر ولذلك أخرج السامري عجلاً جسداً له خوار وقال هذا إلهكم وإله موسى ، وكان معبوداً في قومه ، قاله السدي .

والثالث : أنها كنت أصناماً يعبدها قومه تقرباً إليه ، قاله الزجاج .

وقرأ ابن عباس ﴿ وَيَذَرَكَ وَإِلاَهَتَكَ ﴾ أي وعبادتك .

قال الحسن : وكان فرعون يَعبُد ويُعبَد . وعلى هذه القراءة يسقط السؤال . وذكر ابن قتيبة في هذه القراءة تأويلاً ثانياً ؛ أن الإلاهة الشمس ، والعرب تسمي الشمس الإلاهة واستشهد بقول الأعشى :

وَلَمْ أَذْكُرِ الرُّعْبَ حَتَّى انْتَقَلْتُ . . . قُبَيْلَ الإِلاَهَةِ مِنْهَا قَرِيباً

يعني الشمس ، فيكون تأويل الآية : ويذرك والشمس حتى تعبد فعلى هذا يكون السؤال متوجهاً عنه ما تقدم .

﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ وإنما عدل عن قتل موسى إلى قتل الأبناء لأنه علم أنه لا يقدر عل قتل موسى إما لقوته وإما تصوره أنه مصروف عن قتله ، فعدل إلى قتل الأبناء ليستأصل قوم موسى من بني إسرائيل فيضعف عن فرعون ﴿ وَنَسْتَحِيي نِسَاءَهُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن نفتش أرحامهن فننظر ما فيهن من الولد ، مأخوذ من الحياء وهو اسم من أسماء الفرج ، حكاه ابن بحر .

والثاني : الأظهر أن معناه : نستبقيهن أحياء لضعفهن عن المنازعة وعجزهن عن المحاربة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(15/283)

وقال ابن عطية :

وقوله ملأ فرعون ﴿ أتذر موسى وقومه ﴾ مقالة تتضمن إغراء فرعون بموسى وقومه

وتحريضه على قتلهم أو تغيير ما بهم حتى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون ، ومعنى ﴿ أتذر موسى ﴾ : أتترك ، وقرأ جمهور الناس " ويذرَك " بفتح الراء ، ونصبه على معنيين : أحدهما أن يقدر " وأن يذرك " فهي واو الصرف فكأنهم قالوا أتذره ، وأن يذرك أي أتتركه وتركك ، والمعنى الآخر أن يعطف على قوله ﴿ ليفسدوا ﴾ وقرأ نعيم بن ميسرة والحسن بخلاف عنه " ويذرُك " بالرفع عطفاً على قولهم ﴿ أتذر ﴾ ، وقرأ الأشهب العقيلي " ويذرْك " بإسكان الراء وهذا على لتحقيق من يذرك ، وقرأ أنس بن مالك " وينذرُك " بالنون ورفع الفعل على معنى توعد منهم أو على معنى إخبار أن الأمر يؤول إلى هذا ، وقرأ أبي بن كعب وعبد الله " في الأرض " وقد تركوك أن يعبدوك " وآلهتك " قال أبو حاتم وقرأ الأعمش " وقد تركك وآلهتك " ، وقرأ السبعة وجمهور من العلماء " وآلهتك " على الجمع .

قال القاضي أبو محمد : وهذا على ما روي أن فرعون كان في زمنه للناس آلهة من بقر وأصنام وغير ذلك ، وكان فرعون قد شرع ذلك وجعل نفسه الإله الأعلى ، فقوله على هذا أنا ربكم الأعلى ، إنما هو بمناسبة بينه وبين سواه من المعبودات .

وقيل : إن فرعون كان يعبد حجراً كان يعلقه في صدره كياقوتة أو نحوها ، قال الحسن : كان لفرعون حنانة معلقة في نحره يعبدها ويسجد لها ، وقال سليمان التيمي : بلغني أنه كان يعبد البقر ، ذكره أبو حاتم وقرأ ابن عباس وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وأنس بن مالك وجماعة وغيرهم ، ﴿ وآلهتك ﴾ أي وعبادتك والتذلل لك ، وزعمت هذه الفرقة : أن

فرعون لم يبح عبادة شيء سواه وأنه في قوله الأعلى إنما أراد : و" يقتّلون " بالتشديد وخففهما جميعاً نافع وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي : " يقتّلون " و" سنقتّل " بالتشديد على المبالغة ، والمعنى سنستمر على ما كنا عليه من تعذيبهم وقطعهم .

وقوله تعالى : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ يريد في المنزلة والتمكن من الدنيا ، و ﴿ قاهرون ﴾ يقتضي تحقير أمرهم أي هم أقل من أن يهتم بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(16/283)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أتذر موسى وقومه ﴾

هذا إغراء من الملأ لفرعون .

وفيما أرادوا بالفساد في الأرض قولان .

أحدهما : قتل أبناء القبط ، واستحياء نسائهم ، كما فعلوا ببني اسرائيل ، قاله مقاتل .

والثاني : دعاؤهم الناس إلى مخالفة فرعون وترك عبادته .

قوله تعالى : ﴿ ويذرَكَ ﴾ جمهور القراء على نصب الراء ؛ وقرأ الحسن برفعها .

قال الزجاج : من نصب "ويذرَكَ" نصبه على جواب الاستفهام بالواو ؛ والمعنى : أيكون منك أن تذر موسى وأن يذرك ؟ ومن رفعه جعله مستأنفاً ، فيكون المعنى : أتذر موسى وقومه ، وهو يذرك وآلهتك ؟ والأجود أن يكون معطوفاً على "أتذر" فيكون المعنى : أتذر موسى ، وأَيذَرَكَ موسى ؟ أي أتطلق له هذا ؟ .

قوله تعالى : ﴿ وآلهتك ﴾ قال ابن عباس : كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً صغاراً ، وأمرهم بعبادتها ، وقال أنا ربكم ورب هذه الأصنام ، فذلك قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] .

وقال غيره : كان قومه يعبدون تلك الأصنام تقرباً إليه .

وقال الحسن : كان يعبد تيساً في السر .

وقيل : كان يعبد البقر سراً .

وقيل : كان يجعل في عنقه شيئاً يعبده .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وأبو العالية ، وابن محيصن : "والإِهتك" بكسر الهمزة وقصرها وفتح اللام وبألف بعدها .

قال الزجاج : المعنى : ويذرك وربوبيتك .

وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : الإِلاهة : العبادة ؛ فالمعنى : ويذرك وعبادة الناس إياك ، قال ابن قتيبة : من قرأ : ﴿ وإِلاهتك ﴾ أراد ويذرك والشمس التي تعبد ، وقد كان في العرب قوم يعبدون الشمس ويسمونها آلهةً .

قال الأعشى :

فَمَا أَذْكُرُ الرَّهْبَ حتَّى انْقَلَبْتُ . . .

قُبَيْلَ الإِلهَةِ مِنْها قَرِيْبا

يعني : الشمس .

والرهب : ناقته .

(17/283)

يقول : اشتغلت بهذه المرأة عن ناقتي إلى هذا الوقت .

قوله تعالى : ﴿ سَنُقَتِّلُ أبناءَهم ﴾ قرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ سنقتّل ﴾ و ﴿ يقتّلون ابناءكم ﴾ [الأعراف : 141] بالتشديد ، وخففهما نافع .

وقرأ ابن كثير : ﴿ سَنَقْتُلُ ﴾ خفيفة ، ﴿ ويقتِّلون ﴾ مشددة ، وإنما عدل عن قتل

موسى إلى قتل الأبناء لعلمه أنه لا يقدر عليه .

﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ أي : عالون بالملك والسلطان .

فشكا بنو إسرائيل إعادة القتل على أبنائهم ، فقال موسى : ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(18/283)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأرض ﴾

أي بإيقاع الفرقة وتشتيت الشَّمل .

﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ بنصب الراء جواب الاستفهام ، والواو نائبة عن الفاء .

﴿ وَآلِهَتَكَ ﴾ قال الحسن : كان فرعون يعبد الإصنام ، فكان يَعْبُد ويُعْبَد .

قال سليمان التِيميُّ : بلغني أن فرعون كان يعبد البقر .

قال التِيميّ : فقلت للحسن هل كان فرعون يعبد شيئاً ؟ قال نعم ، إنه كان يعبد شيئاً كان قد جعله في عنقه .

وقيل : معنى "وآلهتك" أي وطاعتك ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ ﴾ [التوبة : 31] إنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم ؛ فصار تمثيلاً .

وقرأ نُعيم بن ميسرة "وَيَذَرُكَ" بالرفع على تقدير وهو يَذرُكَ .

وقرأ الأشهب العقيليّ "وَيَذرْك" مجزوماً مخفف يذرُك لثقل الضمة .

وقرأ أنس ابن مالك "ونذرُك" بالرفع والنون .

أخبروا عن أنفسهم أنهم يتركون عبادته إن ترك موسى حيّاً .

وقرأ عليّ بن أبي طالب وابن عباس والضحّاك "وإلاَهتك" ومعناه وعبادتك .

وعلى هذه القراءة كان يُعْبَد ولا يَعْبُد ، أي ويترك عبادته لك .

قال أبو بكر الأنباريّ : فَمن مذهب أصحاب هذه القراءة أن فرعون لما قال : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] و ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] نفى أن يكون له رب وإلاهة .

فقيل له : ويذرك وإلاهتك ؛ بمعنى ويتركك وعبادة الناس لك .

وقراءة العامة "وَآلِهَتَكَ" كما تقدّم وهي مبنية على أن فرعون ادعى الرُّبوبيّة في ظاهر أمره وكان يعلم أنه مَرْبُوب .

ودليل هذا قولُه عند حضور الحمام ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ ﴾ [يونس : 90] فلم يقبل هذا القول منه لما أتى به بعد إغلاق باب التوبة .

وكان قبل هذه الحال له إله يعبده سراً دون رب العالمين جل وعز ؛ قاله الحسن وغيره .

وفي حرف أَبيّ "أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك" .

وقيل : والإهتك" قيل : كان يعبد بقرة ، وكان إذا استحسن بقرة أمر بعبادتها ، وقال : أنا ربكم ورب هذه .

ولهذا قال : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً ﴾ [طاه : 18] .

ذكره ابن عباس والسُّدّي .

قال الزجاج : كان له أصنام صغار يعبدها قومُه تقرباً إليه فنُسبت إليه ؛ ولهذا قال : "أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى" .

قال إسماعيل بن إسحاق : قول فرعون : "أنا ربُّكُم الأعلى" .

يدل على أنهم كانوا يعبدون شيئاً غيره .

وقد قيل : إن المراد بالإلاهة على قراءة ابن عباس البقرة التي كان يعبدها .

وقيل : أرادوا بها الشمس وكانوا يعبدونها .

قال الشاعر :

وأعْجَلْنَا الإلاهة أن تَؤُبَا . . .

ثم آنس قومه فقال : "سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ" بالتخفيف ، قراءة نافع وابن كثير .

والباقون بالتشديد على التكثير .

﴿ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ ﴾ أي لا تخافوا جانبهم .

﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ آنسهم بهذا الكلام .

ولم يقل سنقتل موسى لعلمه أنه لا يقدر عليه .

وعن سعيد بن جُبير قال : كان فرعون قد مُلىء من موسى رُعْباً ؛ فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(20/283)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى ﴾

يعني وقال جماعة من أشراف قوم فرعون لفرعون أتدع موسى ﴿ وقومه ﴾ من بني إسرائيل ﴿ ليفسدوا في الأرض ﴾ يعني أرض مصر وأراد بالإفساد فيها أنهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قوله ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ يعني وتذره ليذرك ويذر آلهتك فلا يعبدك

ولا يعبدها .

قال ابن عباس : كان لفرعون بقرة كان يعبدها وكان إذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامري عجلاً .

وقال السدي : كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناماً وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم أنا ربكم ورب هذه الأصنام وذلك قوله أنا ربكم الأعلى والأولى أن يقال إن فرعون كان دهرياً منكر الوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هي الكواكب فاتخذ أصناماً على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول في نفسه إنه هو المطاع والمخدوم في الأرض فلهذا قال أنا ربكم الأعلى وقرأ ابن مسعود وابن عباس والشعبي والضحاك ويذرك وإلهتك بكسر الألف ومعناه ويذرك وعبادتك فلا يعبدك لأن فرعون كان يعبد ولا يعبد وقيل أراد بالآلهة الشمس والكواكب لأنه كان يعبدها قال الشاعر :

تروحنا من اللعباء قصراً . . .

وأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا

أراد بالإلاهة الشمس ﴿ قال ﴾ يعني فرعون مجيباً لقومه حين قالوا له أتذر موسى وقومه ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ يعني نتركهن أحياء .

وذلك أن قوم فرعون لما أرادوا إغراء فرعون على قتل موسى وقومه أوجس موسى إنزال

العذاب بقومه ولم يقدر فرعون أن يفعل بموسى شيئاً مما أرادوا به لقوة موسى عليه السلام بما معه من المعجزات فعدل إلى قومه فقال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم .

(21/283)

وقال ابن عباس : كان قد ترك القتل في بني إسرائيل بعد ما ولد موسى فلما جاءهم موسى بالرسالة وكان من أمره ما كان قال فرعون : أعيدوا عليهم القتل فأعادوا القتل على بني إسرائيل ، والمعنى أن فرعون قال إنما يتقوى موسى بقومه فنحن نسعى في تقليل عدد قومه بالقتل لتقلَّ شوكته ، ثم بين فرعون أنه قادر على ذلك بقوله ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ يعني بالغلبة والقدرة عليهم ولما نزل ببني إسرائيل ما نزل شكوا إلى موسى ما نزل بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(22/283)

وقال أبو حيان :

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقَومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ .

قال ابن عباس : لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل ، قال مقاتل : ومكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عاماً أو نحوه يريهم الآيات وتضمن قول ﴿ الملأ ﴾ إغراء فرعون بموسى وقومه وتحريضه على قتلهم وتعذيبهم حتى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون ويعني بقومه من اتبعه من بني إسرائيل فيكون الاستفهام على هذا استفهام إنكار وتعجّب ، وقيل : هو استخبار والغرض به أن يعلموا ما في قلب فرعون من موسى ومن آمن به ، قال مقاتل : والإفساد هو خوف أن يقتلوا أبناء القبط ويستحيوا نساءهم على سبيل المقاصّة منهم كما فعلوا هي ببني إسرائيل ، وقيل الإفساد دعاؤهم الناس إلى مخالفة فرعون وترك عبادته .

(23/283)

وقرأ الجمهور ﴿ ويذرك ﴾ بالياء وفتح الراء عطفاً على ﴿ ليفسدوا ﴾ أي للإفساد ولتركك وترك آلهتك وكان التّرك هو لذلك وبدؤوا أوّلاً بالعلة العامة وهي الإفساد ثم اتبعوه بالخاصة ليدلّوا على أن ذلك الترك من فرعون لموسى وقومه هو أيضاً يؤول إلى شيء يختصّ بفرعون قدحوا بذلك زند تغيظه على موسى وقومه ليكون ذلك أبقى عليهم إذ هم الأشراف وبترك موسى وقومه بمصر يذهب ملكهم وشرفهم ، ويجوز أن يكون النصب

على جواب الاستفهام والمعنى أنى يكون الجمع بين تركك موسى وقومه للإفساد وبين تركهم إياك وعبادة آلهتك أي إنّ هذا مما لا يمكن وقوعه ، وقرأ نعيم بن ميسرة والحسن بخلاف عنه ﴿ ويذرك ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ أتذر ﴾ بمعنى أتذره ويذرك أي أتطلق له ذلك أو على الاستئناف أو على الحال على تقدير وهو يذرك ، وقرأ الأشهب العقيلي والحسن بخلاف عنه ﴿ ويذرك ﴾ بالجزم عطفاً على التوهّم كأنه توهم النطق يفسدوا جزماً على جواب الاستفهام كما قال ﴿ فأصدّق وأكن من الصالحين ﴾ أو على التخفيف من ﴿ ويذرك ﴾ ، وقرأ أنس بن مالك ونذرك بالنون ورفع الراء توعدوه بتركه وترك آلهته أو على معنى الإخبار أي إنّ الأمر يؤول إلى هذا ، وقرأ أبيّ وعبد الله ﴿ ف الأرض ﴾ وقد تركوك أن يعبدوك ﴿ وآلهتك ﴾ ، وقرأ الأعمش وقد تركك وآلهتك .

(24/283)

وقرأ الجمهور ﴿ وآلهتك ﴾ على الجمع والظاهر أنّ فرعون كان له آلهة يعبدها ، وقال سليمان التيمي : بلغني أنه كان يعبد البقر ، وقيل : كان يعبد حجراً يعلقه في صدره كياقوتة أو نحوها ، وقيل : الإضافة هي على معنى أنه شرع لهم عبادة آلهة من بقر وأصنام وغير ذلك وجعل نفسه الإله الأعلى فقوله على هذا ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ إنما هو بمناسبة بينه

وبين سواه من المعبودات ، قيل : كانوا قبطاً يعبدون الكواكب ويزعمون أنها تستجيب دعاء من دعاها وفرعون كان يدعي أن الشمس استجابت له وملَّكته عليهم ، وقرأ ابن مسعود وعليّ وابن عباس وأنس وجماعة غيرهم وإلهتك وفسروا ذلك بأمرين أحدهما أنّ المعنى وعبادتك فيكون إذ ذاك مصدراً ، قال ابن عباس : كان فرعون يعبد ولا يعبد ، والثاني أن المعنى ومعبودك وهي الشمس التي كان يعبدها والشمس تمسى إلهة علماً عليها ممنوعة الصرف .

﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحيِي نساءهم وإنّا فوقهم قَاهرون ﴾ وإنما لم يعاجل موسى وقومه بالقتال لأنه كان مليء من موسى رعباً والمعنى أنه قال سعيد عليهم ما كنا فعلنا بهم قبل من قتل أبنائهم ليقل رهطه الذين يقع الإفساد بواسطتهم والفوقية هنا بالمنزلة والتمكّن في الدنيا و ﴿ قَاهرون ﴾ يقتضي تحقيرهم أي قاهرون لهم قهراً قلّ من أن نهتم به فنحن على ما كنا عليه من الغلبة أو أنّ غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا ولئلا يتوهم العامة أن المولود الذي تحدّث المنجمون عنه والكهنة بذهاب ملكنا على يده فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه وإنه منتظر بعد وشدّد ﴿ سنقتل ﴾ ويقتلون الكوفيون والعربيان وخففهما نافع وخفف ابن كثير ﴿ سنقتل ﴾ وشدد ويقتلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ ﴾

مخاطِبين له بعد ما شاهدوا من أمر موسى عليه السلام ﴿ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ أي في أرض مصرَ بتغيير الناسِ عليك وصرفِهم عن متابعتك ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ عطفٌ على يُفسدوا ، أو جوابُ الاستفهام بالواو كما في قول الحطيئة :

ألم أكُ جارَكم ويكونَ بيني . . . وبينكم المودةُ والإخاءُ

أي أيكونُ منك تركُ موسى ويكونَ تركُه إياك ؟ وقرىء بالرفع عطفاً على أتذرُ أو استئنافاً أو حالاً ، وقرىء بالسكون كأنه قيل : يفسدوا ويذرْك كقوله تعالى : ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ ﴿ وَءَالِهَتَكَ ﴾ ومعبوداتِك ، قيل : إنه كان يعبد الكواكبَ وقيل : صنع لقومه أصناماً وأمرهم بأن يعبُدوها تقرباً إليه ولذلك قال : أنا ربكم الأعلى ، وقرىء وإلهتك أي عبادتَك ﴿ قَالَ ﴾ مجيباً لهم ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءهُمْ ﴾ كما كنا نفعل بهم ذلك من قبلُ ليُعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبةِ ولا يُتَوَهّم أنه المولودُ الذي حكم المنجمون والكهنةُ بذهاب مُلكِنا على يديه وقرىء سنقتل بالتخفيف ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون ﴾ كما كنا لم يتغير حالُنا أصلاً وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ ﴾

مخاطبين له بعد ما شاهدوا من أمر موسى عليه السلام ما شاهدوا .

﴿ أَتَذَرُ موسى ﴾ أي أتتركه ﴿ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ أي في أرض مصر .

والمراد بالإفساد ما يشمل الديني والدنيوي ، ومفعول الفعل محذوف للتعميم أو أنه منزل منزلة اللازم أو يقدر يفسدوا الناس بدعوتهم إلى دينهم والخروج عليك .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما آمنت السحرة أتبع موسى عليه السلام ستمائة ألف من بني إسرائيل ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ عطف على يفسدوا المنصوب بأن ، أو منصوب على جواب الاستفهام كما ينصب بعد الفاء ، وعلى ذلك قول الحطيئة :

ألم أك جارك ويكون بيني . . .

وبينكم المودة والأخاء

والمعنى كيف يكون الجمع بين تركك موسى عليه السلام وقومه مفسدين في الأرض وتركهم إياك الخ أي لا يمكن وقوع ذلك .

وقرأ الحسن .

ونعيم بن ميسرة بالرفع على أنه عطف على (تذر) أو استئناف أو حال بحذف المبتدأ ، أي وهو يذرك لأن الجملة المضارعية لا تقترن بالواو على الفصيح ، والجملة على تقدير الاستئناف معترضة مؤكدة لمعنى ما سبق ، أي تذره وعادته وتركك ، ولا بد من تقدير هو على ما قال الطيبي كما في احتمال الحال ليدل على الدوام ، وعلى تقدير الحالية تكون مقررة لجهة الإشكال .

وعن الأشهب أنه قرأ بسكون الراء ، وخرج ذلك ابن جنى على أنه تركت الضمة للتخفيف كما في قراءة أبي عمرو ﴿ يَأْمُرُكُمْ ﴾ [البقرة : 67] بإسكان الراء استقلالاً للضمة عند توالي الحركات ، واختاره أبو البقاء ، وقيل : إنه عطف على ما تقدم بحسب المعنى ، ويقال له في غير القرآن عطف التوهم ، كأنه ، قيل : يفسدوا ويذرك كقوله تعالى : ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ [المنافقين : 10]

﴿ وَءَالِهَتَكَ ﴾ أي معبوداتك .

(27/283)

يروى أنه كان يعبد الكواكب فهي آلهته وكان يعتقد أنها المربية للعالم السفلى مطلقاً وهو رب النوع الإنساني ، وعن السدي أن فرعون كان قد اتخذ لقومه أصناماً وأمرهم بأن يعبدوها تقرباً إليه ، ولذلك قال : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ [النازعات : 24] وقيل : إنه كانت له بقرة يعبدها وكان إذا رأى بقرة حسنة أمر قومه بعبادتها ، ولذلك أخرج السامري لبني إسرائيل عجلاً وهو رواية ضعيفة عن ابن عباس ، وقال سليمان التيمي : بلغني أنه كان يجعل في عنقه شيئاً يعبده ، وأمر الجمع عليه يحتاج إلى عناية وقرأ ابن مسعود .

والضحاك .

ومجاهد .

والشعبي و ﴿ إلهتك ﴾ كعبادتك لفظاً ومعنى فهو مصدر .

وأخرج غير واحد عن ابن باس أنه كان ينكر قراءة الجمع بالجمع ويقرأ بالمصدر ويقول : إن فرعون كان يعبد ولا يعبد ، ألا ترى قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ [القصص : 38] ومن هنا قال بعضهم : الأقرب أنه كان دهرياً منكراً للصانع ، وقيل : الآلهة اسم للشمس وكان يعبدها ؛ وأنشد أبو علي :

وأعجلنا الآلهة أن تؤبا . . .

﴿ قَالَ ﴾ مجيباً لهم ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءهُمْ ﴾ كما كنا نفعل بهم ذلك من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم

المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده .

وقرأ ابن كثير .

ونافع (سنقتل) بالتخفيف والتضعيف كما في موتت الإبل .

(28/283)

﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون ﴾ أي غالبون كما كنا لم يتغير حالنا وهم مقهورون تحت أيدينا ، وكان فرعون قد انقطع طمعه عن قتل موسى عليه السلام فلم يعد الملأ بقتله لما رأى من علو أمره وعظم شأنه وكأنه لذلك لم يعد بقتل قومه أيضاً ، والظاهر على ما قيل : إن هذا من فرعون بيان لأنهم لا يقدرون على أن يفسدوا في الأرض وإيذان بعدم المبالاة بهم وأن أمرهم فيما بعد كأمرهم فيما قبل وأن قتلهم عبث لا ثمرة فيه ، وذكر الطيبي أنه من الأسلوب الحكيم وإن صدر من الأحمق ، وأن الجملة الاسمية كالتذليل لما قبلها فافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(29/283)

وقال الشيخ المراغى :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾

المعنى الجملي

يخبر سبحانه عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروه لموسى وقومه من الأذى والبغض وما كان من تأثير جوابه فى موسى وقومه لقد نصح موسى قومه ودار بينهم حوار قصه اللّه علينا فى تلكم الآيات .

الإيضاح

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟) أي وقال الأشراف من قوم فرعون لفرعون : أ تترك موسى وقومه أحرارا آمنين فتكون عاقبتهم أن يفسدوا عليك قومك بإدخالهم فى دينهم ، أو بجعلهم تحت سلطانهم ورياستهم ويتركك مع آلهتك فلا يعبدوك ولا يعبدوها فيظهر لأهل مصر عجزك وعجزها ولا يغيبنّ عنك إيمان السحرة فقد يكون مقدمة لما بعده .

والتاريخ المصري المستمدّ من العاديات المصرية يدل على أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس ويسمونها (رع) وفرعون عندهم سليل الشمس وابنها .

(قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ) أي قال فرعون مجيبا للملأ : سنقتّل أبناء قومه تقتيلا كلما تناسلوا ونستبقى نساءهم أحياء كما كنا نفعل قبل ولادته حتى ينقرضوا

ويعلموا أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة .

(وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ) أي وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان ، قاهرون لهم كما كنا من قبل ، فلا يقدرون على أذانا ولا الإفساد فى أرضنا ولا الخروج من عبوديتنا ، وقد جاء فى سورة المؤمن « وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 9 صـ 37 ﴾

(30/283)

وقال فى التفسير المنير :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾

الْمَلَأُ كما تقدّم : السّادة والأشراف . أَتَذَرُ أتترك . لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بالدّعوة إلى مخالفتك . وَيَذَرَكَ يتركك . وَآلِهَتَكَ كان صنع لهم أصناما صغارا يعبدونها ، وقال :

(31/283)

أنا ربّكم وربّها ، ولذا قال : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى . والواو في قوله وَيَذَرَكَ : قيل : إنّها حالية ، أي أتذروه وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك ؟ وقيل : هي عاطفة ، أي أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك .

سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ المولودين . وَنَسْتَحْيِي نستبقي . نِساءَهُمْ أحياء كما فعلنا بهم من قبل .

وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ قادرون ، ففعلوا بهم ذلك ، فشكا بنو إسرائيل . يُورِثُها يعطيها .

وَالْعاقِبَةُ المصير المحمود . لِلْمُتَّقِينَ اللّه .

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل السّابع من قصّة موسى مع فرعون ، يخبر فيه اللّه تعالى عن تمالؤ فرعون وملئه على موسى وقومه ، وما أضمروه لهم من الأذى والبغضاء ، بعد إيمان السّحرة بموسى وانضمامهم له على مشهد من الجموع الغفيرة .

والمعنى : وقال أشراف قوم فرعون لفرعون : أتترك موسى وقومه أحرارا ، فيتمكّنوا من إفساد رعيّتك ، بإدخالهم في دينهم ، أو جعلهم تحت سلطانهم وقيادتهم ، ويدعوهم إلى عبادة ربّهم دونك ، ويتركك مع آلهتك فلا يعبدونك ولا يعبدونها كما قررت ؟ ! ومن المعروف في التّاريخ المصري القديم أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها (الشمس) ويسمّونها (رع) وفرعون عندهم سليل الشّمس وابنها .

قال الحسن البصري : كان فرعون يعبد الأصنام ، فكان يعبد ويعبد . قال التّيمي : كان

يعبد شيئًا كان قد جعله في عنقه . فأجابهم فرعون : سنقتّل أبناء بني إسرائيل تقتيلا ، ونستبقي نساءهم أحياء ، كما كنّا نفعل من قبل ، فلا يتكاثرون حتى ينقرضوا ، وإنّا مستعلون عليهم ، قاهرون لهم ، فلا يقدرون على أذانا ولا الإفساد في أرضنا ، ولا الخروج من سلطاننا .

وفي موقف آخر همّ فرعون بقتل موسى كما جاء في قوله تعالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ

[غافر 40/ 26] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير المنير حـ 9 صـ 52. 53 ﴾

(32/283)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾

جملة : ﴿ وقال الملأ ﴾ عطف على جملة : ﴿ قال فرعون آمنتم به ﴾ [الأعراف : 123] أو على حملة ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾ [الأعراف : 109] .

وإنما عطفت ولم تفصل لأنها خارجة عن المحاورة التي بين فرعون ومن آمن من قومه بموسى وآياته ، لأن أولئك لم يعرجوا على ذكر ملأ فرعون ، بل هي محاورة بين ملإ فرعون وبينه في وقت غير وقت المحاورة التي جرت بين فرعون والسحرة ، فإنهم لمّا رأوا قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون ، ورأوا قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون ، ورأوا نهوض حجتهم على فرعون وإفحامَه .

وأنه لم يَحرْ جَوَاباً .

راموا إيقاظ ذهنه ، وإسعارَ حميته ، فجاءوا بهذا الكلام المثير لغضب فرعون ، ولعلهم رأوا منه تأثراً بمعجزة موسى وموعظة الذين آمنوا من قومه وتوقعوا عدوله عن تحقيق وعيده ، فهذه الجملة معترضة بين ما قبلها وبين جملة : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله ﴾ .

والاستفهام في قوله : ﴿ أتذر موسى ﴾ مستعمل في الإغراء بإهلاك موسى وقومه والإنكار على الإبطاء بإتلافهم ، وموسى مفعول ﴿ تذر ﴾ أي تتركه متصرفاً ولا تأخذ على يده .

والكلام على فعل ﴿ تذر ﴾ تقدم في قوله : ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ﴾ في الأنعام (70) .

وقوم موسى هم من آمن به ، وأولئك هم بنوا إسرائيل كلهم ومَن آمن من القبط .

واللام في قوله : ليفسدوا ﴾ لام التعليل وهو مبالغة في الإنكار إذ جعلوا ترك موسى وقومه معللاً بالفساد ، وهذه اللام تسمى لام العاقبة ، وليست العاقبة معنى من معاني اللام حقيقة ولكنها مجاز : شُبه الحاصل عقب الفعل لا محالة بالغرض الذي يفعل الفعل لتحصيله ، واستعير لذلك المعنى حرفُ اللام عوَضاً عن فاء التعقيب كما في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [القصص : 8] .

والإفساد عندهم هو إبطال أصول ديانتهم وما ينشأ عن ذلك من تفريق الجماعة وحث بني إسرائيل على الحرية ، ومغادرة أرض الاستعباد .

و ﴿ الأرض ﴾ مملكة فرعون وهي قطر مصر .

وقوله : ﴿ ويذرَك ﴾ عطف على ﴿ ليفسدوا ﴾ فهو داخلي التعليل المجازي ، لأنّ هذا حاصل في بقائهم دون شك ، ومعنى تركهم فرعون ، تركهم تأليهه وتعظيمه ، ومعنى ترك آلهته نبذُهم عبادتَها ونهيُهم الناس عن عبادتها .

والآلهة جمع إله ، ووزنه أفعلة ، وكان القبط مشركين يعبدون آلهة متنوعة من الكواكب والعناصر وصوروا لها صوراً عديدة مختلفة باختلاف العصور والأقطار ، أشهرها (فتاح

) وهو أعظمها عندهم وكان يُعبد بمدينة (مَنْفيس) ، ومنها (رع) وهو الشمس وتتفرع عنه آلهة باعتبار أوقات شعاع الشمس ، ومنها (ازيريس) و (إزيس) و (هوروس) وهذا عندهم ثالوث مجموع من أب وأم وابن ، ومنها (توت) وهو القمر وكان عندهم رب الحكمة ، ومنها (أمُون رع) فهذه الأصنام المشهورة عندهم وهي أصل إضلال عقولهم . وكانت لهم أصنام فرعية صغرى عديدة مثل العجل (إيبيس) ومثل الجعران وهو الجُعل .

(34/283)

وكان أعظم هذه الأصنام هو الذي ينتسب فرعونُ إلى بُنوتهِ وخدمته ، وكان فرعون معدوداً ابنَ الآلهة وقد حلت فيه الإلهية على نحو عقيدة الحلول ، ففرعون هو المنفذ للدين ، وكان يعد إله مصر ، وكانت طاعته طاعة للآلهة كما حكى الله تعالى عنه : ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] ﴿ ما علمْتُ لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] .

وتوعُد فرعون موسى وقومه بالاستئصال بقتل الأبناء والمراد الرجال بقرينة مقابلته بالنساء ، والضمير المضاف إليه عائد على موسى وقومه ، فالإضافة على معنى (من) التبعيضية .

وقرأ نافع وابن كثير ، وأبو جعفر : ﴿ سنقتل ﴾ بفتح النون وسكون القاف وضم التاء وقرأه البقية بضم النون وفتح القاف وتشديد التاء للمبالغة في القتل مبالغة كثرة واستيعاب .

والاستحياء : مبالغة في الإحياء ، فالسين والتاء فيه للمبالغة ، وإخباره ملأه باستحياء النساء تتميم لا أثر له في إجابة مقترح ملئه ، لأنهم اقترحوا عليه أن لا يُبقي موسى وقومه فأجابهم بما عزم عليه في هذا الشأن ، والغرض من استبقاء النساء أن يتخذوهن سراري وخدماً .

وجملة : ﴿ وإنّا فوقهم قاهرون ﴾ اعتذار من فرعون للملإ من قومه عن إبطائه باستئصال موسى وقومه ، أي : هم لا يقدرون أن يفسدوا في البلاد ولا أن يخرجوا عن طاعتي والقاهر : الغالب بإذلال .

و ﴿ فوقهم ﴾ مستعمل مجازاً في التمكن من الشيء وكلمة ﴿ فوقهم ﴾ مستعارة لاستطاعة قهرهم لأن الاعتلاء على الشيء أقوى أحوال التمكن من قهره ، فهي تمثيلية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(35/283)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾

وهكذا نعرف أن المقربين من فرعون هم أول من خافوا على سلطانهم ، ويدل هذا القول أيضاً على أن فرعون لم يتعرض لموسى بأي أذى ؛ لأنه ما زال يعيش في رهبة اليقين وصولة الحق مما جعله متوجساً وخائفاً من موسى ؛ لأن فرعون أول من يعلم أن مسألة ألوهيته كذب كلها ، ويعلم جيداً أن موسى على حق ، لكن إعلان انهزامه أمام الجمع ليس أمراً سهلاً على النفس البشرية ، وسأل الملأ من قوم فرعون الذين اهتز أمامهم سلطانه ومكانته ، قالوا : لفرعون : أتترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ؟ . أو فيما يبدو أن موسى وهارون تركا المكان بعد أن انتهيا من أمر السحرة ، ولم يقبض عليهما فرعون ؛ لذلك تساءل الملأ من قوم فرعون : ﴿ وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأرض وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ [الأعراف : 127]

و " يذرك " أي يدعك ويتركك ، وكان فرعون يعتقد أن هناك آلهة علويين وآلهة سفليين ، وهو رب العالم السفلي كله . لذلك قالوا : ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ . وهناك قراءة أخرى " ويذرك إلاهتك أي عبادتك " . أي يتركك أنت ويترك عبادتك . ويقول فرعون : ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ ﴾ .

وحتى تلك اللحظة لم يتعرض فرعون لموسى ، ولا يزال خوفه من موسى يمنعه من الاقتراب أو الدنو أو الاتصال به ولو بكلمة ، إنه يأخذ الحذر من أن يقدم على شيء ضد موسى ، فيفاجئه موسى مفاجأة ثانية . ويقال إن الثعبان الذي ظهر ساعة ألقى موسى عصاه فتح شدقيه واتجه إلى فرعون ، فقال : كف عني وأومن بما جئت به . وهو أمر محتمل ؛ لأن فرعون حتى هذه اللحظة لم يجرؤ على الاقتراب من موسى ، وجاء بخبر قتل الأبناء وسبيْ النساء ولم يأت بسيرة موسى . ﴿ . . . سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف : 127]

والقوي حين يملك القدرة على الضعيف لا يشد الخناق عليه شدًّا ليفتك به ؛ لأنه يعرف ضعفه ، ويستطيع أن يناله في أي وقت ، لكن لو كان الخصم أمامك قويًّا فأنت ترهبه بالقوة حتى يخضع لك . وهنا يقول فرعون : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ .

إن فرعون يؤكد لقومه أنهم مسيطرون وغالبون ، ولن يستطيع قوم موسى أن يفلتوا منهم . ويؤكد فرعون : سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ؛ لأن الأبناء هم العدة ، والنساء عادة شأنهن مبني على الحجاب ، وعلى الستر ، وفي إبقاء المرأة وقتل الرجل إذلال للرجال ؛ لأن التعب سيكون من نصيب النساء . ولذلك كان العرب حين يغيرون على عدو ، يصحبون نساءهم لتزيد الحمية ولا يخور ولا يجبن واحد وتراه زوجه أو أخته أو ابنته وهو على هذا

الحال ، وكذلك كان العرب يخافون الانهزام حتى لا يمسك العدو نساءهم ويأخذهن سبايا

.

(37/283)

وهنا يؤكد فرعون إصراره على إذلال قوم موسى بأن يعيد قتل الأبناء ، وأن يستحيي النساء ، وكان الفرعون يفعل مثل ذلك الأمر من قبل ، والسبب في ذلك أن بني إسرائيل كانوا يساعدون ملوك الهكسوس ، وبعد أن طرد الفراعنة الهكسوس ، اتجهوا إلى إيذاء بني إسرائيل الذين كانوا في صف الهكسوس ، ومن بقي من بني إسرائيل تعرض لتقتيل الأبناء ، لكن الحق أنقذ موسى حين أوحى لأمه أن تلقيه في اليم ليربيه فرعون . وها هو ذا فرعون يعيد الكرة مرة أخرى بالأمر بتقتيل الأبناء وسبي النساء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(38/283)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس . أنه كان يقرأ ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قال : عبادتك ، وقال : إنما فرعون يُعبد ولا يَعبد .

وأخرج ابن الأنباري عن الضحاك . مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس " ويذرك وآلهتك " قال : يترك عبادتك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قال : وعبادتك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك . أنه قال : كيف تقرأون هذه الآية ﴿ ويذرك ﴾ قالوا : ويذرك وآلهتك . فقال الضحاك : إنما هي آلهتك أي عبادتك ، ألا ترى أنه يقول أنا ربكم الأعلى ؟

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قال : قال ابن عباس ليس يعنون الأصنام ، إنما يعنون بآلهتك تعظيمك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قال : ليس يعنون به الأصنام إنما يعنون تعظيمه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سليمان التيمي قال : قرأت على بكر بن عبد الله ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قال بكر : أتعرف هذا في العربيه ؟ فقلت : نعم . فجاء الحسن فاستقرأني بكر ، فقرأتها كذلك فقال الحسن ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ فقلت للحسن : أو كان يعبد شيا ؟ قال : أي والله ان كان ليعبد . قال سليمان التيمي : بلغني أنه كان يحمل في عنقه شيئاً يعبده قال : وبلغني أيضاً عن ابن عباس أنه كان يعبد البقر .

(39/283)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قال : كان فرعون له آلهة يعبدها سراً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بن إسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(40/283)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وَيَذَرَكَ " العامةُ " وَيَذَرَكَ " بالغيبةِ ، ونصب الرَّاءِ ، وفي النَّصْبِ وجهان :

أظهرهما : أَنَّهُ عطف على " لِيُفْسِدُوا " والثاني : أَنَّهُ منصوبٌ على جواب الاستفهام كما يُنْصب في جوابه بعد الفاء ؛ كقول الحُطيئةِ : [الوافر]

2545 - أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ ويكُونَ بَيْنِي . . .

وَبَيْنَكُمُ المَوَدَّةُ والإِخَاءُ ؟

والمعنى : كيف يكون الجمعُ بين تَرْكِكَ موسى وقومه مفسدين ، وبين تركهم إيَّاك وعبادةِ آلهتك ، أي : لا يمكن وقوعُ ذلك .

وقرأ الحسنُ في رواية عنه ونعيمُ بن ميسرة " وَيَذَرُكَ " برفع الرَّاء ، وفيها ثلاثة أوُجه :

أظهرها : أَنَّه عطف نسق على " أتذر " أي : أتطلق له ذلك .

الثاني : أنه استئناف أي ، إخبار بذلك .

الثالث : أَنَّهُ حالٌ ، ولا بدَّ من إضمارِ مبتدأ ، أي : وهو يَذَرُكَ .

وقرأ الحسنُ أيضاً والأشهبُ العُقَيْلِيُّ " وَيَذَرْكُ " بالجزم ، وفيه وجهان :

أحدهما : أَنَّه جزم على التَّوهُّم ، كأنه توهَّم جزم "يُفْسِدُوا " في جواب الاستِفْهَامِ وعطف عليه بالجزمِ ، كقوله : ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ [المنافقون : 10] بجزم "أَكُنْ" .

والثاني : أَنَّهَا تخفيفٌ كقراءة أبي عمرو ﴿ يَنصُرْكُمُ ﴾ [آل عمران : 160] وبابه .

وقرأ أنس بن مالك " ونَذَرُكَ " بنون الجماعة ورفع الرَّاءِ ، تَوَعَّدُوهُ بذلك ، أو أنَّ الأمْرَ يؤولُ إلى ذلك فيكونُ خبراً محضاً .

وقرأ عبد الله والاعمش بما يخالف السَّوادَ ، فلا حاجة إلى ذكره .

وقرأ العامةُ " آلِهَتَكَ " بالجمع .

رُوِيَ أنه كان يعبدُ آلهةً متعددة كالبَقَرِ ، ولذلك أخرجَ السَّامري لهم عجلاً ، ورُوي أَنَّهُ كان يعبدُ الحِجارةَ والكواكب ، أو آلهَتَه التي شَرَعَ عبادَتَها لهم وجعل نَفْسَهُ الإله الأعلى في قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] .

وقرأ علي بنُ أبي طالب ، وابنُ مسعود ، وابن عبَّاسٍ ، وأنسٌ وجماعة كثيرةٌ " وإلاهتكَ " ، وفيها وجهان :

أحدهما : أنَّ " الإلاهَةَ " اسمٌ للمعبود ، ويكونُ المرادُ بها معبودَ فرعون ، وهي الشَّمْسُ .

رُوِيَ أَنَّهُ كان يعبُد الشَّمْسَ ، والشَّمْسُ تُسَمَّى " الإِهَةً " ، عَلَماً عليها ، ولذلك مُنِعَت الصَّرف ، للعمليَّة والتأنيث ؛ قال الشَّاعرُ : [الوافر]

2546 - تَرَوَّحْنَا مِنَ اللَّغْباءِ عَصْراً . . .

فأَعْجَلْنَا الإِلَهَةَ أَنْ تَئُوبَا

والثاني : أنَّ الإلاهة مصدرٌ بمعنى العبادة ، أي وتذرُ عبادتك ، لأنَّ قومه كانوا يعبدونه . ونقل ابنُ الأَنْباري عن ابن عبَّاسٍ أَنَّهُ كان يُنكر قراءة العامَّة ، ويقرأ " وإلاهتك " ، وكان يقول : إنَّ فرعون كان يُعْبَدُ ولا يَعْبُدُ .

(42/283)

قال ابنُ الخطيبِ : والذي يخطر ببالي أنَّ فرعون إن قلنا : إنَّه ما كان كامل العقل لم يَجُزْ في حكم اللَّهِ تعالى إرسال الرسول إليه ، وإن كان عَاقِلاً لم يَجُز أنْ يعتقدَ في نفسه كونه خالقاً للسَّمواتِ والأرضِ ، ولم يجز في الجمع العظيم من العقلاء أن يعتقدوا فيه ذلك ، لأنَّ فسادهُ معلوم بالضَّرُورةِ ، بل الأقربُ ان يقال : إنَّهُ كان دَهْرياً مُنكراً لوجود الصَّانِع ، وكان يقُولُ : مُدبِّرُ هذا العالم السُّفْلي هو الكواكِبُ ، وأنا المخدوم في العالمِ للخلق ، والمُربي لهم فهو نفسه .

فقوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] أي : مُربيكم والمنعم عليكم والمطعم لكم .

وقوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] أي : لا أعلم لكم أحداً يجب عليكم عبادته إلاَّ أنا ، وإذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن يقال إنَّهُ كان قد اتخذ أصناماً على صور الكواكب يعبدها ، ويتقرب إليها على ما هو دين عبدة الكواكب ، وعلى هذا فلا امتناع في حمل قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ على ظاهره .

قوله : " قَالَ سَنُقَتِّلُ " قرأ نافعٌ وابْنُ كثير بالتخَّفيفِ سنقتل والباقون بالتضعيف لتعدُّد المحالّ .

وسيأتي أنَّ الجماعة قَرَءُوا "يُقَتِّلُونَ أبناءكم " بالتضعيف إلاَّ نافعاً فيخفف .

فتخلص من ذلك انَّ نافعاً يقرأ الفعلين بالتخفيف ، وابن كثير يُخَفف " سنَقْتُل " ويثقل " يُقَتِّلُونَ " ، والباقون يثقِّلونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 269 . 271 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) ﴾

لما استزادوا من فرعون في التمكين من موسى وقومه استنكف أن يقر بعجزه ، ويعترف بقصور قدرته ، فتوعد موسى وقومَه بما عكس الله عليه تدبيره ، وغلب عليه تقديره .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 559 ﴾

(43/283)

قوله تعالى ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا أمراً يزيد من قلق بني إسرائيل لما شموا من رائحة الفرج ، استأنف سبحانه الخبر عما ثبتهم به موسى عليه السلام قائلاً : ﴿ قال موسى لقومه ﴾ أي بني إسرائيل الذين فيهم قوة وقيام فيما يريدون من الأمور لو اجتمعت قلوبهم ﴿ استعينوا ﴾ أي ألصقوا طلب العون ﴿ بالله ﴾ الذي لا أعظم منه بما يرضيه من العبادة ﴿ واصبروا ﴾ ثم علل ذلك بأنه فعال لما يريد ، ولا اعتراض عليه ولا مفر من حكمه فقال : ﴿ إن الأرض ﴾ أي كلها مصر وغيرها ﴿ لله ﴾ أي الذي لا أمر لأحد معه ، كرره تذكيراً بالعظمة وتصريحاً وتبركاً ؛ ثم

استأنف قوله : ﴿ يورثها من يشاء من عباده ﴾ .

ولما أخبر أن نسبة الكل إليه واحدة ، أخبر بما يرفع بعضهم على بعض فقال :

﴿ والعاقبة ﴾ أي والحال أن آخر الأمر وإن حصل بلاء ﴿ للمتقين ﴾ أي الذين يقون أنفسهم سخط الله بعمل ما يرضيه فلا عبرة بما ترون في العاجل فإنه قد يكون استدراجاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 87 . 88 ﴾

(44/283)

فصل

قال الفخر :

﴿ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأَرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

فههنا أمرهم بشيئين وبشرهم بشيئين .

أما الذان أمر موسى عليه السلام بهما ؛ فالأول : الاستعانة بالله تعالى .

والثاني : الصبر على بلاء الله .

وإنما أمرهم أولاً بالاستعانة بالله وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله تعالى انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء ، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه

إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره .

واستعداده بمشاهدة قضاء الله ، خفف عليه أنواع البلاء ، وأما الذان بشر بهما ؛ فالأول : قوله : ﴿ إِنَّ الأَرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهذا إطماع من موسى عليه السلام قومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه ، وذلك معنى الإرث ، وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف .

والثاني : قوله : ﴿ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فقيل : المراد أمر الآخرة فقط ، وقيل : المراد أمر الدنيا فقط وهو : الفتح ، والظفر ، والنصر على الأعداء ، وقيل المراد مجموع الأمرين ، وقوله : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 173 ﴾

(45/283)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله ﴾

يعني : سلوا الله التوفيق ﴿ واصبروا ﴾ يعني : اصبروا على أذاهم حتى يأتيكم الفرج ﴿ إِنَّ الأَرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يعني : أرض مصر ينزلها من يشاء من عباده

ويقال الجنة قرأ عاصم في رواية حفص بالتشديد .

وقرأ الباقون بالتخفيف .

وهما لغتان ورّث وأوْرَث بمعنى واحد .

ثم قال : ﴿ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي الذين يعملون في طاعة الله تعالى على نور من الله مخافة عقاب الله ورجاء ثواب الله تعالى ، أي آخر الأمر لهم .

وروي في الخبر أن مسيلمة الكذاب كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد .

فإن الأرض بيني وبينكم نصفان إلا أن العرب قوم يظلمون الناس فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مِنْ مُحَمَّد رَسُولِ الله إلى مُسَيْلِمَةَ الكَذَّاب .

أمَّا بَعْدُ فَإنَّ الأرْضَ لله يُورِثُها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا إنَّ الأرض للَّهِ ﴾ .

يعني أرض مصر ﴿ يُورِثُهَا ﴾ يُعطيها ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وقرأ الحسن يورثها بالتشديد والاختيار والتخفيف لقوله تعالى وأورثنا الأرض ﴿ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني النصر والظفر ، وقيل : السعادة والشهادة ، وقيل : الجنّة .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : لما آمنت السحرة اتّبع موسى ست مائة ألف من بني إسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(46/283)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَومِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه أمرهم بذلك تسلية لهم من وعيد فرعون كما يقول من نالته شدة : استعنت بالله .

والثاني : أنه موعد منه بأن الله سيعينهم على فرعون إن استعانوا به .

ثم قال : ﴿ وَاصْبِرُواْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : واصبروا على ما أنتم فيه من الشدة طمعاً في ثواب الله .

والثاني : أنه أمرهم بالصبر انتظاراً لنصر الله .

﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه قال ذلك تسلية لقومه في أن الدنيا لا تبقي على أحد فتبقي على فرعون لأنها تنتقل من قوم إلى قوم .

والثاني : أنه أشعرهم بذلك أن الله يورثهم أرض فرعون .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يريد في الآخرة بالثواب .

والثاني : في الدنيا بالنصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾

لما قال فرعون سنقتل أبناءهم وتوعدهم قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل يثبتهم ويعدهم عند الله ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ وظاهر هذا الكلام كله وعد بغيب فكأن قوته تقتضي أنه من عند الله وليس في اللفظ شيء من ذلك و ﴿ الأرض ﴾ أرض الدنيا وهو الأظهر ، وقيل المراد هنا أرض الجنة ، وأما في الثانية فأرض الدنيا لا غير ، وقرأت فرقة " يورَثها " بفتح الراء ، وقرأ السبعة " يوْرِثها " ساكنة الواو خفيفة الراء مكسورة ، وروى حفص عن عاصم وهي قراءة الحسن " يورّثها " بتشديد الراء على المبالغة ، والصبر في هذه الآية يعم الانتظار الذي هو عبادة والصبر في المناجزات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

ولما بلغ قوم موسى من فرعون هذا قال لهم موسى : ﴿ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأَرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ ﴾ أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر .

﴿ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي الجنة لمن اتقى وعاقبة كل شيء .

آخره .

ولكنها إذا أطلقت فقيل : العاقبة لفلان فُهِم منه في العُرْف الخير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قال موسى لقومه ﴾ يعني لما شكوا إليه ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ يعني استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء فإن الله هو الكافي لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم ﴿ إن الأرض لله ﴾ يعني أرض مصر وإن كانت الأرض كلها لله تعالى ﴿ يورثها من يشاء من عباده ﴾ وهذا إطماع من موسى لبني إسرائيل أن يهلك فرعون وقومه ويملك بني إسرائيل أرضهم وبلادهم بعد إهلاكهم وهو قوله تعالى : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ يعني أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم ، وقيل أراد

الجنة يعني إن عاقبة المتقين الصابرين الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(48/283)

وقال أبو حيان :

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾

لما توعّدهم فرعون جزعوا وتضجّروا فسكنهم موسى عليه السلام وأمرهم بالاستعانة بالله وبالصبر وسلاهم ووعدهم النصر وذكرهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم .

﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ﴾ .

أي أرض مصر وأل فيه للعهد وهي ﴿ الأرض ﴾ التي كانوا فيها ، وقيل : ﴿ الأرض ﴾ أرض الدّنيا فهي على العموم ، وقيل : المراد أرض الجنة لقوله ﴿ وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء ﴾ وتعدّى ﴿ استعينوا ﴾ هنا بالباء وفي ﴿ وإياك نستعين ﴾ بنفسه وجاء اللهم إنا نستعينك .

﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ قيل : النصر والظفر ، وقيل : الدار الآخرة ، وقيل : السعادة

والشهادة ، وقيل : الجنة ، وقال الزمخشري : الخاتمة المحمودة ﴿ للمتقين ﴾ منهم ومن القبط وإنّ المشيئة متناولة لهم انتهى ، وقرأت فرقة ﴿ يورثها ﴾ بفتح الراء ، وقرأ الحسن ﴿ يورثها ﴾ بتشديد الراء على المبالغة ورويت عن حفص ، وقرأ ابن مسعود وأبيّ ﴿ والعاقبة ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ إن الأرض ﴾ وفي وعد موسى تبشير لقومه بالنصر وحسن الخاتمة ونتيجة طلب الإعانة توريث الأرض لهم ونتيجة الصبر العاقبة المحمودة والنصر على من عاداهم فلذلك كان الأمر بشيئين ينتج عنهما شيئان .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الذي قبلها ؟ قلت : هي جملة مبتدأة مستأنفة وأما ﴿ وقال الملأ ﴾ فمعطوفة على ما سبقها من قوله ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(49/283)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ﴾

تسليةً لهم وعِدةً بحسن العاقبة حين سمعوا قولَ فرعون وتضجّروا منه ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ على ما سمعتم من أقاويله الباطلة ﴿ إِنَّ الأرض للَّهِ ﴾ أي أرضَ مصرَ أو

جنسَ الأرض وهي داخلةٌ فيها دخولاً أولياً ﴿ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين أنتم منهم وفيه إيذانٌ بأن الاستعانةَ بالله تعالى والصبرَ من باب التقوى وقرىء والعاقبةَ بالنصب عطفاً على اسم إن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ﴾

تسلية لهم حين تضجروا مما سمعوا بأسلوب حكيم ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ على ما سمعتم من الأقاويل الباطلة ﴿ إِنَّ الأرض للَّهِ ﴾ أي أرض مصر أو الأرض مطلقاً وهي داخلة فيها دخولاً أولياً ﴿ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين أنتم منهم ، وحاصله أنه ليس الأمر كما قال فرعون : ﴿ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون ﴾ [الأعراف : 127] فإن القهر والغلبة لمن صبر واستعان بالله ولمن وعده الله تعالى توريث الأرض وأنا ذلكم الموعود الذي وعدكم الله تعالى النصرة به وقهر الأعداء وتوريث أرضهم ، وقوله : ﴿ والعاقبة ﴾ الخ تقرير لما سبق .

وقرأ أبي .

وابن مسعود ﴿ والعاقبة ﴾ بالنصب عطفاً على اسم أن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ ﴾ أي : على أذاهم : ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا ﴾ أي : يعطيها : ﴿ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم .

وكان تعالى وعد موسى بأنه سيطرد المصريين من أرضهم ، ويهلكهم وينجي قومه من عذاب آل فرعون لهم .

تنبيه :

قال الجمشي : تدل الآيات على أن قوم فرعون لما عجزوا عن موسى في آياته ، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى ، وأوهموه أن تركه فساد في الأرض ، وأنه عند ذلك أوعده . وذلك من أدل الدليل على نبوة موسى ، لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح في معجزته ، ولهذا قال مشايخنا : إن العرب لما عدوا عن معارضة القرآن ، التي في إيرادها إبطال أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى القتال ، الذي لا يفيد ذلك ، دل على عجزهم .

وهكذا حال كل ضال مبتدع ، إذا أعيته الحجة ، عدل إلى التهديد والوعيد ، وتدل على

أن عند الخوف من الظلمة يجب الفزع إلى الله تعالى ، والإستعانة به والصبر .

ولا مفزع إلا في هذين : وهو الإنقطاع إلى الله تعالى بطلب المعونة في الدفع ، واللطف له في الصبر . وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى ، وهي اتقاء الكبائر والمعاصي .

انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 171.172 ﴾

(51/283)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ قال موسى لقومه ﴾

واقعة جواباً لقول قومه ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ [الأعراف : 125] إلى آخرها الذي أجابوا به عن وعيد فرعون ، فكان موسى معدوداً في المحاورة ، ولذلك نزل كلامه الذي خاطب به قومه منزلة جواب منه لفرعون ، لأنه في قوة التصريح بقلة الاكتراث بالوعيد ، وبدفع ذلك بالتوكل على الله .

والتوكل هو جُماع قوله : ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ وقد عبر عن ذلك بلفظ التوكل في قوله : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ في سورة يونس (84) ، فإن حقيقة التوكل أنه طلب نصر الله وتأييده في الأمر الذي يُرغب حصوله

، وذلك داخل في الاستعانة وهو يستلزم الصبر على الضر لاعتقاد أنه زائل بإذن الله .

وخاطب موسى قومه بذلك تطميناً لقلوبهم ، وتعليماً لهم بنصر الله إياهم لأنه علم لأنه بوحي الله إليه .

وجملة : ﴿ إن الأرض لله ﴾ تذييل وتعليل للأمر بالاستعانة بالله والصبر ، أي : افعلوا ذلك لأن حكم الظلم لا يدوم ، ولأجل هذا المعنى فصلت الجملة .

وقوله : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ﴾ كناية عن ترقب زوال استعباد فرعون إياهم ، قصد منها صرف اليأس عن أنفسهم الناشىء عن مشاهدة قوة فرعون وسلطانه ، بأن الله الذي خوله ذلك السلطان قادر على نزعه منه لأن ملك الأرض كلها لله فهو الذي يقدر لمن يشاء ملك شيء منها وهو الذي يقدر نزعه .

فالمراد من الأرض هنا الدنيا لأنه أليق بالتذييل وأقوى في التعليل ، فهذا إيماء إلى أنهم خارجون من مصر وسيملكون أرضاً أخرى .

وجملة : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ تذييل ، فيجوز أن تكون الواو اعتراضية ، أي : عاطفة على ما في قوله : ﴿ إن الأرض لله ﴾ من معنى التعليل ، فيكون هذا تعليلاً ثانياً للأمر بالاستعانة والصبر ، وبهذا الاعتبار أوثر العطف بالواو على فصل الجملة مع أن مقتضى التذييل أن تكون مفصولة .

والعاقبة حقيقتها نهاية أمر من الأمور وآخره ، كقوله تعالى : ﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار ﴾ [الحشر : 17] ، وقد تقدم ذكرها عند قوله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ في أول سورة الأنعام (11) ، فإذا عُرِفَت العاقبة باللام كان المراد منها انتهاء أمر الشيء بأحسن من أوله ولعل التعريف فيها من قبيل العلم بالغلبة .

وذلك لأن كل أحد يود أن يكون آخرُ أحواله خيراً من أولها ؛ لكراهة مفارقة الملائم ، أو للرغبة في زوال المنافر ، فلذلك أطلقت العاقبة معرَفة على انتهاء الحال بما يسر ويلائم ، كما قال تعالى : ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ [طه : 132] .

وفي حديث أبي سفيان قول هرقل : "وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة" فلا تطلق المعرفة على عاقبة السوء .

فالمراد بالعاقبة هنا عاقبة أمورهم في الحياة الدنيا ليناسب قوله ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ﴾ وتشمل عاقبة الخير في الآخرة لأنها أهم ما يلاحظه المؤمنون .

والمتقون : المؤمنون العاملون .

وجيء في جملتي : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ بلفظين عامين ، وهما : من يشاء من عباده والمتقين ، لتكون الجملتان تذييلاً للكلام وليحرص

السامعون على أن يكونوا من المتقين .

وقد علم من قوله : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ أن من يشاء الله أن يورثهم الأرض هم المتقون إذا كان في الناس متقون وغيرهم ، وأن تمليك الأرض لغيرهم إمّا عارض وإمّا لاستواء أهل الأرض في عدم التقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(53/283)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

ويقرر موسى الحقيقة الواضحة وهي أن الأرض ليست لفرعون ، والعاقبة لا تكون إلاَّ للمتقين . وكأنه بهذا القول يريد أن يردهم إلى حكم التاريخ حيث تكون العاقبة دائماً للمتقين ، فإن قال لفرعون : وإنا فوقهم قاهرون ، مستعلون غالبون مسلطون مسيطرون ، فإن موسى يرد على ذلك : أنا أستعين بمن هو أقوى منك . إن موسى عليه السلام يأمر بأن يستعينوا بالله ، ويصبروا على ما ينالهم من بطش فرعون وظلمه .

ولأن قوم موسى كانوا من المستضعفين ، فإن الله وعدهم أن يؤمّنهم في الأرض ويمكن لهم

فيها وهذا إخبار من الله وإخبار الله حقائق . ولكن ماذا كان موقف قوم موسى منه بعد هذا النصر العظيم لموسى ، والنصر لهم ؟ . نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ قالوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(54/283)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : "يُورِثهَا "

في محلِّ نصب على الحَالِ ، وفي صاحبها وجهان :

أحدهما : الجلالة ، أي هي له حال كونه مُورِثاً لها من يشاؤه .

والثاني : أنَّه الضَّميرُ المستترُ في الجَارِّ أي : إنَّ الأرضَ مستقرة للَّهِ حال كونها مُورَّثَةً من الله لمن يشاءُ ، ويجوز أن يكون "يُورِثُهَا " خبراً ثانياً ، وأنْ يكون خبراً وحده ، و"لِلَّهِ " هو الحالُ ، و" مَن يشاءُ " مفعولٌ ثاني ويجوز أن تكون جملةً مستأنفة .

وقرأ الحسنُ ، ورُويت عن حفص "يُورِّثُهَا " بالتشديد على المبالغة ، وقرئ "يُورَثها " بفتح

الراء مبنياً للمفعول ، والقائم مقام الفاعل هو : " مَن يَشَاءُ " .

والألفُ واللاَّم في " الأرض " يجوزُ أن تكون للعهدِ ، وهي أرضُ مصر كما تقدَّم ، أو للجنس ، وقرأ ابن مسعود بنصب " العَاقِبَة " نسقاً على الأرض و " للمتَّقينَ " خبرُها ، فيكون قد عطف الاسم على الاسم ، والخبر على الخبر فهو مِنْ عطف الجمل .

فصل

قال الزمخشريُّ : فإن قلت : لِمَ أخليَتْ هذه الجملة من الواو وأدخلتْ على الَّتي قبلها ؟ .

قلت : هي جملةٌ مبتدأةٌ مستأنفةٌ ، وأمَّا : " وقَالَ الملأ " فهي معطوفة على ما سبقها من قوله : ﴿ وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ ﴾ .

والمرادُ من قوله : " والعاقِبَةُ " أي النَّصْرُ والظفر ، وقيل : الجَنَّةُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 272 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) ﴾

أحالهم على الله فإن رجوعَه إليه ، فقال لهم : إن رجوعي – عند تحيري في أموري – إلى

ربي ، فليكن رجوعُكم إليه ، وتوكُّلُكم عليه ، وتَعَرَّضوا لنفحات يُسْرِه ، فإنه حَكَمَ لأهل الصبر بجميل العُقبى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 559 ﴾

(55/283)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تشوف السامع إلى ما كان من جوابهم ، أشار تعالى أن قلقهم كان وصل إلى حد لا صبر معه بقوله مستأنفاً : ﴿ قالوا ﴾ ولما كان الموجع هو الأذى ، لا كونه من معين ، بنوا للمفعول قولهم : ﴿ أوذينا ﴾ أي بالقتل والاستعباد .

ولما كان أذاهم غير مستغرق للزمان ، أثبتوا الجارّ فقالوا : ﴿ من قبل أن تأتينا ﴾ أي كما تعلم ﴿ ومن بعد ما جئتنا ﴾ أي فما الذي أفادنا مجيئك ﴿ قال ﴾ مسلياً لهم وداعياً ومرجياً بما رمز إليه من قبل ﴿ عسى ربكم ﴾ أي الذي أحسن إلى آبائكم بما تعرفون وإليكم بإرسالي إليكم ﴿ أن يهلك عدوكم ﴾ فلا يهولنكم ما ترون ﴿ ويستخلفكم ﴾ أي

ويوجد خلافتكم لهم متمكنين ، لا يحكم عليكم غيركم ﴿ في الأرض ﴾ أي جنسها إن كنتم متقين ؛ ثم سبب عن الاستخلاف قوله مذكراً لهم محذراً من سطواته سبحانه : ﴿ فينظر ﴾ أي وأنتم خلفاء متمكنون ﴿ كيف تعملون ﴾ أي يعاملكم معاملة المختبر وهو في الأزل أعلم بما تعملون منكم بعد إيقاعكم للأعمال ، ولكنه يفعل ذلك لتقوم الحجة عليكم على مجاري عاداتكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 88 ﴾

(56/283)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوم موسى عليه السلام ، لما سمعوا ما ذكره فرعون من التهديد والوعيد خافوا وفزعوا ، وقالوا قد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا وذلك ، لأن بني إسرائيل كانوا قبل مجيء موسى عليه السلام مستضعفين في يد فرعون اللعين ، فكان يأخذ منهم الجزية ويستعملهم في الأعمال الشاقة ويمنعهم من الترفه والتنعم ويقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ، فلما بعث الله تعالى موسى عليه السلام قوي رجاؤهم في زوال تلك المضار والمتاعب ، فلما سمعوا أن فرعون أعاد التهديد مرة ثانية عظم خوفهم وحزنهم ، فقالوا هذا الكلام .

فإن قيل : أليس هذا القول يدل على أنهم كرهوا مجيء موسى عليه السلام وذلك يوجب كفرهم ؟

والجواب : أن موسى عليه السلام لما جاء ، وعدهم بزوال تلك المضار فظنوا أنها تزول على الفور .

فلما رأوا أنها ما زالت ، رجعوا إليه في معرفة كيفية ذلك الوعد فبين موسى عليه السلام أن الوعد بإزالتها لا يوجب الوعد بإزالتها في الحال ، وبين لهم أنه تعالى سينجز لهم ذلك الوعد في الوقت الذي قدره له ، والحاصل أن هذا ما كان بنفرة عن مجيء موسى عليه السلام بالرسالة ، بل استكشافاً لكيفية ذلك الوعد والله أعلم .

واعلم أن القوم لما ذكروا ذلك قال موسى عليه السلام : ﴿ عسى ربُّكُمْ ﴾ قال سيبويه : ﴿ عَسَى ﴾ طمع وإشفاق .

قال الزجاج : وما يطمع الله تعالى فيه فهو واجب .

ولقائل أن يقول : هذا ضعيف لأن لفظ ﴿ عَسَى ﴾ ههنا ليس كلام الله تعالى بل هو حكاية عن كلام موسى عليه السلام ، إلا أنا نقول مثل هذا الكلام إذا صدر عن رسول ظهرت حجة نبوته عليه الصلاة والسلام بالمعجزات الباهرة أفاد قوة النفس وأزال ما خامرها من الانكسار والضعف فقوى موسى عليه السلام قلوبهم بهذا القول وحقق

عندهم الوعد ليتمسكوا بالصبر ويتركوا الجزع المذموم ثم بين بقوله : ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ما يجري مجرى الحث لهم على التمسك بطاعة الله تعالى .

(57/283)

واعلم أن النظر قد يراد به النظر الذي يفيد العلم .

وهو على الله محال ، وقد يراد به تقليب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته .

وهو أيضاً على الله محال ، وقد يراد به الانتظار .

وهو أيضاً على الله محال ، وقد يراد به الرؤية ، ويجب حمل اللفظ ههنا عليها .

قال الزجاج : أي يرى ذلك بوقوع ذلك منكم لأن الله تعالى لا يجازيهم على ما يعلمه منهم ، وإنما يجازيهم على ما يقع منهم .

فإن قيل : إذا حملتم هذا النظر على الرؤية لزم الإشكال ، لأن الفاء في قوله : ﴿ فَيَنظُرَ ﴾ للتعقيب فيلزم أن تكون رؤية الله تعالى لتلك الأعمال متأخرة عن حصول تلك الأعمال ، وذلك يوجب حدوث صفة الله تعالى .

قلنا : تعلق رؤية الله تعالى بذلك الشيء نسبة حادثة والنسب والإضافات لا وجود لها في

الأعيان فلم يلزم حدوث الصفة الحقيقية في ذات الله تعالى . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 173.174 ﴾

(58/283)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾

يعني : إن قوم موسى قالوا لموسى : إنهم قد عذبوا قبل أن تأتينا بالرسالة ﴿ وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ لأن قوم فرعون كانوا يكلفون بني إسرائيل من العمل ما لا يطيقون ، وكان آل فرعون لا يعرفون شيئاً من الأعمال ، وكان بنو إسرائيل حذاقاً في الأشياء والأعمال ، فكانوا يأمرونهم بالعمل ولا يعطونهم الأجر .

﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ يعني : فرعون وقومه ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأرض ﴾ أي : يجعلكم سكاناً في أرض مصر من بعد هلاكهم يعني : من بعد هلاك فرعون وقومه ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : يبتليكم بالنعمة كما ابتلاكم بالشدة ، فيظهر عملكم في حال اليسر والشدة ، لأنه قد وعد لهم بقوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِى الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ [القصص :

5] .

ويقال : فينظر كيف تعملون من بعده يعني : من بعد انطلاق موسى إلى الجبل فعبدوا العجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قالوا ﴾ يعني قوم موسى ﴿ أُوذِينَا ﴾ بقتل الأبناء واستخدام النساء والتسخير . ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا ﴾ بالرسالة ﴿ وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ بالرسالة وإعادة القتل والتعذيب وأخذ الأموال والأتعاب في العمل .

قال وهب : كانوا أصنافاً في أعمال فرعون فأما ذوو القوة منهم فيسلخون السوابي من الجبال وقد [. . . . .] أعناقهم وعواتقهم وأيديهم ودبرت ظهورهم من قطع ذلك وقتله .

وطائفة أُخرى قد [قرحوا] من ثقل الحجارة وسير [الليل] له ، وطائفة يلبنون اللبن ويطنبون الأجر ، وطائفة نجارون وحدادون ، والضعفاء بينهم عليهم الخراج ضريبة يودون كانت ضربت عليه الشمس ، قيل : وإن يردى ضريبته غلت يده إلى عنقه شهراً ، وأما النساء فيقرن اختان وينسجنه فقال موسى (عليه السلام) لهم ﴿ عسى رَّبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ فرعون ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ ويسكنكم مصر من بعدهم بالتسخير والاستعباد وهم بنو إسرائيل ﴿ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ يعني مصر والشام ﴿ التي

بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالماء والأشجار والثمار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ

﴾

(59/283)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾

فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن الأذى من قبل ومن بعد أخذ الجزية . قاله الحسن .

والثاني : أن الأذى من قبل : تسخيرهم بني إسرائيل في أعمالهم لنصف النهار وإرسالهم في بقيته ليكسبوا لأنفسهم . والأذى من بعد : تسخيرهم في جميع النهار بلا طعام ولا شراب ، قاله جويبر .

والثالث : أن الأذى الذي كان من قبل : الاستعباد وقتل الأبناء ، والذي كان من بَعد : الوعيد بتجديد ذلك عليهم ، حكاه ابن عيسى .

والرابع : أن الأذى الذي كان من قبل أنهم كانوا يضربون اللبن ويعطيهم التبن ، والأذى من بعد أن صاروا يضربون اللبن ويجعل عليهم التبن ، قاله الكلبي ، وفي قولهم : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا

وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ قولان :

أحدهما : من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعد ما جئتنا بها ، قاله ابن عباس .

والثاني : من قبل أن تأتينا بعهد الله إليك أنه يخلصنا ومن بعد ما جئتنا به . وفي هذا القول منهم وجهان :

أحدهما : أنه شكوى ما أصابهم من فرعون واستعانة بموسى .

والثاني : أنهم قالوه استبطاء لوعد موسى ، حكاه ابن عيسى .

﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ ﴿ عَسَى ﴾ في اللغة طمع وإشفاق . قال الحسن عسى من الله واجبة ، وقال الزجاج : ﴿ عَسَى ﴾ من الله يقين .

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ في قوله : ﴿ فَيَنظُرَ ﴾ وجهان :

أحدهما : فيرى .

والثاني : فيعلم وفي قول موسى ذلك لقومة أمران :

أحدهما : الوعد بالنصر والاستخلاف في الأرض .

والثاني : التحذير من الفساد فيها لأن الله تعالى ينظر كيف يعملون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقولهم : ﴿ من قبل أن تأتينا ﴾

يعنون به الذبح الذي كان فالمدة التي كان فرعون يتخوف فيها أن يولد المولود الذي يخرب ملكه ، والذي من بعد مجئيه يعنون به وعيد فرعون وسائر ما كان خلال تلك المدة من الإخافة لهم ، وقال السدي وابن عباس رضي الله عنه : إنما قالت بنو إسرائيل هذه المقالة حين اتبعهم فرعون واضطرهم إلى البحر فضاقت صدورهم ورأوا بحراً أمامهم وعدواً كثيفاً وراءهم فقالوا هذه المقالة .

قال القاضي أبو محمد : وبالجملة هو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل من اضطرابهم على أنبيائهم وقلة يقينهم وصبرهم على الدين واستعطاف موسى لهم بقوله : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ ووعده لهم بالاستخلاف في الأرض يدل على أنه يستدعي نفوساً نافرة ، ويقوي هذا الظن في بني إسرائيل سلوكهم هذه السبيل في غير قصة ، وحكى النقاش أنهم قالوا ذلك بمصر حين كلفهم فرعون من العمل ما لا يطيقون ، وروي أنه كان يكلفهم عمل الطوب ويمنعهم التبن ليشق عليهم عمله ، وقوله تعالى : ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ تنبيه وحض على الاستقامة ، وإن قدر هذا الوعد أنه من عند الله فيتخرج عليه قول الحسن بن أبي الحسن : ﴿ عسى ﴾ من الله واجبة ، وقد استخلفوا في مصر في زمن داود

وسليمان ، وقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(61/283)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ في هذا الأذى ستة أقوال .

أحدها : أن الأذى الأول والثاني أخذ الجزية ، قاله الحسن .

والثاني : أن الأول : ذبح الأبناء ، والثاني : إدراك فرعون يوم طلبهم ، قاله السدي .

والثالث : أن الأول أنهم كانوا يسخَّرون في الأعمال إلى نصف النهار ، ويرسَلون في بقيته يكتسبون ، والثاني تسخيرهم جميع النهار بلا طعام ولا شراب ، قاله جويبر .

والرابع : أن الأول تسخيرهم في ضرب اللَّبِن ، وكانوا يعطونهم التبن الذي يخلطونه في الطين ؛ والثاني : أنهم كلِّفوا ضرب اللَّبِن وجعل التبن عليهم ، قاله ابن السائب .

والخامس : أن الأول : قتل الأبناء واستحياء البنات ، والثاني : تكليف فرعون إياهم مالا يطيقونه ، قاله مقاتل .

والسادس : أن الأول : استخدامهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم ، والثاني : إعادة ذلك العذاب .

وفي قوله : ﴿ من قبل أن تأتينا ﴾ قولان .

أحدهما : تأتينا بالرسالة ، ومن بعد ما جئنا بها ، قاله ابن عباس .

والثاني : تأتينا بعهد الله أنه سيخلِّصنا ، ومن بعد ما جئتنا به ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ قال الزجاج : عسى : طمع وإشفاق ، إلا أن ما يُطمِع الله فيه فهو واجب .

قوله تعالى : ﴿ ويستخلفكم في الأرض ﴾ في هذا الاستخلاف قولان .

أحدهما : أنه استخلاف من فرعون وقومه .

والثاني : استخلاف عن الله تعالى ، لأن المؤمنين خلفاء الله في أرضه .

وفي الأرض قولان .

أحدهما : أرض مصر ، قاله ابن عباس .

والثاني : أرض الشام ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ قال الزجاج : أي : يراه بوقوعه منكم ، لأنه إنما يجازيهم على ما وقع منهم ، لا على ما علم أنه سيقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قالوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا ﴾

أي في ابتداء ولادتك بقتل الأبناء واسترقاق النساء .

﴿ وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي والآن أُعِيد علينا ذلك ؛ يعنون الوعيد الذي كان من فرعون .

وقيل : الأذى من قبلُ تسخيرهم لبني إسرائيل في أعمالهم إلى نصف النهار ، وإرسالهم بقيته ليكتسبوا لأنفسهم .

والأذى من بعدُ : تسخيرُهم جميع النهار كله بلا طعام ولا شراب ؛ قاله جُوَيْبر .

وقال الحسن : الأذى من قبلُ ومن بعدُ واحد ، وهو أخذ الجزية .

﴿ قَالَ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرض ﴾ "عسى" من الله واجب ؛ جدّد لهم الوعد وحقّقه .

وقد استخلفوا في مصر في زمان داود وسليمان عليهما السلام ، وفَتَحُوا بيت المقدس مع يُوشَع بن نون ؛ كما تقدّم .

ورُوي أنهم قالوا ذلك حين خرج بهم موسى وتبعهم فرعون فكان وراءهم والبحر أمامهم ، فحقّق الله الوعيد بأن غرّق فرعون وقومه وأنجاهم .

﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ تقدّم نظائره .

أي يرى ذلك العمل الذي يجب به الجزاء ؛ لأن الله لا يجازيهم على ما يعلمه منهم ، إنما يجازيهم على ما يقع منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(63/283)

وقال الخازن :

﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾

قال ابن عباس : لما آمنت السحرة تبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل والمعنى أن بني إسرائيل لام سمعوا ما قاله فرعون ووعدهم به من القتل مرة ثانية قالوا لموسى قد أوذينا من قبل أن تأتينا يعني بالرسالة وذلك أن بني إسرائيل كانوا مستضعفين في يد فرعون وقومه وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة إلى نصف النهار فلما جاء موسى بالرسالة وجرى ما جرى شدد فرعون في استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار وأعاد القتل عليهم فقالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يعني بالرسالة وظاهر هذا الكلام يوهم أن بني

إسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر .

والجواب عن هذا الإيهام أن موسى كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا أن ذلك يكون على الفور فلما رأوا أنه قد زادت الشدة عليهم قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه ﴿ قال ﴾ موسى مجيباً لهم ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿ ويستخلفكم في الأرض ﴾ يعني ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ يعني فيرى ربكم كيف تعملون من بعدهم .

قال الزجاج : فيرى وقوع ذلك منهم لأن الله تعالى لا يجازيهم بما يعلمه منهم وإنما يجازيهم على ما يقع منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(64/283)

وقال أبو حيان :

﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾

أي بابتلائنا بذبح أبنائنا مخافة ما كان يتوقع فرعون من هلاك ملكه على يد المولود الذي يولد منا ﴿ من قبل أن تأتينا ﴾ ، قال الزمخشري : من قبل مولد موسى إلى أن استنبأ ﴿ ومن

بعد ما جئتنا ﴾ إعادة ذلك عليهم قاله ابن عباس وزاد الزمخشري : وما كانوا يستعبدون ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن ويمسّون به من العذاب انتهى ، وقال ابن عطية : والذي من بعد مجيئه يعنون به وعيد فرعون وسائر ما كان خلال تلك المدة من الإخافة لهم ، وقال الحسن : بأخذ الجزية منهم قبل بعث موسى إليهم وبعد بعثه ما زاد على ذلك ، وقال الكلبي : كانوا يضربون له اللبن ويعطيهم التّبن فلما جاء موسى غرمهم التبن وكان النساء يغزلن له الكتان وينسجنه ، وقال جرير : استسخرهم من قبل إتيان موسى في أوّل النهار إلى نصف النهار فما جاء موسى استسخرهم النهار كله بلا طعام ولا شراب ، وقال علي بن عيسى ﴿ من قبل ﴾ بالاستعباد وقتل الأولاد ﴿ ومن بعد ﴾ بالتهديد والإبعاد ، وروي مثله عن عكرمة ، وقيل من ﴿ قبل أن تأتينا ﴾ بعهد الله بالخلاص ﴿ ومن بعد ما جئتنا ﴾ به قالوه في معرض الشكوى من فرعون واستعانة عليه بموسى ، وقال ابن عباس والسدّي : قالوا ذلك حين اتبعهم واضطرّهم إلى البحر فضاقت صدورهم ورأوا بحراً أمامهم وعدوّاً كثيفاً وراءهم لما أسرى بهم موسى حتى هجموا على البحر التفتوا فإذا هم برهج دواب فرعون فقالوا هذه المقالة وقالوا هذا البحر أمامنا وهذا فرعون وراءنا قد رهقنا بمن معه انتهى .

وهذا القول فيه بعد وسياق الآيات يدلّ على الترتيب وقد جاء بعد هذه ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ ، قال ابن عطية : وهو كلام يجري على المعهود من بني إسرائيل من اضطرابهم على أنبيائهم وقلة يقينهم وصبرهم على الدّين انتهى ، قيل ولا يدلّ قولهم ذلك على كراهة مجيء موسى لأن ذلك يؤدي إلى الكفر وإنما قالوه لأنه كان وعدهم بزوال المضار فظنوا أنها نزول على الفور فقولهم ذلك استعطاف لا نفرة .

(66/283)

﴿ قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ هذا رجاء من نبي الله موسى عليه السلام ومثله من الأنبياء يقوي قلوب أتباعهم فيصبرون إلى وقوع متعلق الرّجاء ولا تنافي بين هذا الرجاء وبين قوله ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ من حيث إن الرجاء غير مقطوع بحصول متعلّقة والأخبار بأنّ العاقبة للمتقين واقع لا محالة لأن العاقبة إن كانت في الآخرة فظاهر جدّاً عدم التنافي وإن كانت في الدنيا فليس فيها تصريح بعاقبة هؤلاء القوم المخصوصين فسلك موسى طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء ، وقال التبريزي يحتمل أن يكون قد أوحى بذلك إلى موسى فعسى للتحقيق أو لم يوح فيكون

على الترجي منه ، قال الزمخشري : تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر ، وقال ابن عطية واستعطاف موسى لهم بقوله ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ ووعده لهم بالاستخلاف في الأرض يدلّ على أنه يستدعي نفوساً نافرة ويقوي هذا الظن في جهة بني إسرائيل وسلوكهم هذا السبيل في غير قصة والأرض هنا أرض مصر قاله ابن عباس وقد حقّق الله هذا الرجاء بوقوع متعلقة فأغرق فرعون وملكهم مصر ومات داود وسليمان ، وقيل : أرض الشام فقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع وملكوا الشام ومات داود وسليمان ومعنى ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ أي في استخلافكم من الإصلاح والإفساد وهي جملة تجري مجرى البعث والتحريض على طاعة الله تعالى وفي الحديث " أن الدنيا حلوة خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون "

(67/283)

، وقال الزمخشري : فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم انتهى ، وفيه تلويح الاعتزال ودخل عمرو بن عبيد وهو أحد كبار المعتزلة وزهادهم على المنصور ثاني خلفاء بني العباس قبل الخلافة وعلى

مائدته رغيف أو رغيفان وطلب زيادة لعمرو فلم توجد فقرأ عمرو هذه الآية ، ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال قد بقي ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(68/283)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ ﴾ أي بنو إسرائيلَ ﴿ أُوذِينَا ﴾ أي من جهة فرعونَ ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ أي بالرسالة ، يعنون بذلك قتلَ أبنائِهم قبل مولدِ موسى عليه الصلاة والسلام وبعدَه ﴿ وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي رسولاً ، يعنون به ما توعدهم به من إعادة قتلِ الأبناءِ وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجَوْر والظلمِ والعذاب ، وأما ما كانوا يُستعبَدون به ويُمتهنون فيه من أنواع الخَدَم والمِهَن كما قيل فليس مما يلحقهم بواسطته عليه السلام فليس لذكره كثيرُ ملابسة بالمقام ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام لما رأى شدةَ جزَعِهم مما شاهدوه مسلياً لهم بالتصريح بما لوّح به في قوله : إن الأرض لله ، الخ ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ الذي فعل بكم ما فعل وتوعّدكم بإعادته ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأرض ﴾ أي يجعلَكم خلفاءَ في أرض مصرَ ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

أحسناً أم قبيحاً فيجازيَكم حسبما يظهر منكم من الأعمال ، وفيه تأكيدٌ للتسلية وتحقيقٌ للأمر . قيل : لعل الإتيانَ بفعل الطمع لعدم الجزمِ منه عليه السلام بأنهم هم المستخلَفون بأعيانهم أو أولادُهم ، فقد روي أن مصرَ إنما فتحت في زمن داودَ عليه السلام ولا يساعده قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ فإن المتبادرَ استخلافُ أنفسِ المستضعفين لا استخلافُ أولادِهم ، وإنما مجيءُ فعلِ الطمعِ للجري على سنن الكبرياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(69/283)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ أي قوم موسى له عليه السلام ﴿ أُوذِينَا ﴾ من جهة فرعون ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ بالرسالة يعنون بذلك قتل الجبار أولادهم قبل مولده .

وبعده إذ قيل له : يولد لبني إسرائيل غلام يسلبك ملكك ويكون هلاكك على يديه ﴿ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي رسولاً يعنون به ما توعدهم به من إعادة قتل الأبناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجور والعذاب ، وقيل : إن نفس ذلك الإيعاد إيذاء

، وقيل : جعل إيعاده بمنزلة فعله لكونه جباراً .

وقيل : أرادوا الإيذاء بقتل الأبناء قبل مولد موسى عليه السلام وبعد مولده ، وقيل : المراد ما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن ، وتعقب بأن ذلك ليس مما يلحقهم بواسطة موسى عليه السلام فليس لذكره كثير ملاءمة بالمقام ، والظاهر أنه لا فرق بين الإتيان والمجيء وإن الجمع بينهما للتفنن والبعد عن التكرار اللفظي فإن الطباع مجبولة على معاداة المعادات ، ولذلك جيء بأن المصدرية أولاً وبما أختها ثانياً .

وذكر الجلال اليوطي في الفرق بينهما أن الإتيان يستعمل في المعاني والأزمان والمجيء في الجواهر والأعيان وهو غير ظاهر هنا إلا أن يتكلف ، ونقل عن الراغب في الفرق بينهما أن الإتيان هو المجيء بسهولة فهو أخص من مطلق المجيء وهو كسابقه هنا أيضاً ، وهذا منهم جار مجري التحزن لعدم الاكتفاء بما كنى لهمعليه السلام لفرط ما عراهم وفظاعة ما اعتراهم ، والمقام يقتضي الإطناب فإن شأن الحزين الشاكي إطالة الكلام رجاء أن يطفىء بذلك بعض الأوام ، وقيل : هو استبطاء منهم لما وعدهم عليه السلام أن النجاة والظفر والأول أولى فقوله تعالى : ﴿ قَالَ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ الذي فعل بكم ما فعل وتوعدكم بما توعد .

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ ﴾ أي يجعلكم خلفاء ﴿ فِى الأرض ﴾ أي أرض مصر تريح بما كنى عنه وتوكيد للتسلية على إبلغ وجه ، وفيه إدماج معنى من عادي أولياء الله تعالى فقد بارزه بالمحاربة وحق له الدمار والخسار .

وعسى في مثله قطع في إنجاز الموعود والفوز بالمطلوب ، ونص غير واحد على التعبير به للجري على سنن الكرماء .

وقيل : تأدباً مع الله تعالى وإن كان الأمر مجزوماً به بوحي وإعلام منه سبحانه وتعالى ، وقيل : إن ذلك لعدم الجزم منه عليه السلام بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم ، فقد روى أن مصر إنما فتحت في زمن داود عليه السلام .

وتعقب بأنه لا يساعده قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ [الأعراف : 137] فإن المتبادر استخلاف المستضعفين أنفسهم لا استخلاف أولادهم ، والمجاز خلاف الأصل .

نعم المشهور أن بني إسرائيل بعد أن خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر لم يرجعوا إليها في حياته ، وفي قوله سبحانه : ﴿ فَيَنظُرَ ﴾ أي يرى أو يعلم ﴿ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أحسناً أم قبيحاً فيجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال إرشاد لهم إلى الشكر وتحذير لهم عن

الوقوع في مهاوي الكفر ، وقيل : فيه إشارة إلى ما وقع منهم بعد ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(71/283)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾

خَافَ مَلَأُ فِرْعَوْنَ عَاقِبَةَ تَرْكِهِ لِمُوسَى حُرًّا مُطْلَقًا فِي مِصْرَ ، فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِمَا قَالُوهُ لَهُ ، وَمَا أَجَابَهُمْ بِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ جَوَابِهِ فِي مُوسَى وَقَوْمِهِ مِنْ نُصْحِهِ لَهُمْ ، وَمَا دَارَ بَيْنَ مُوسَى وَبَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ فَقَالَ :

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ أَيْ : قَالُوا لَهُ : أَتَتْرُكُ مُوسَى وَقَوْمَهُ أَحْرَارًا آمِنِينَ لِتَكُونَ عَاقِبَتُهُمْ أَنْ يُفْسِدُوا قَوْمَكَ عَلَيْكَ فِي أَرْضِ مِصْرَ بِإِدْخَالِهِمْ فِي دِينِهِمْ ، أَوْ جَعْلِهِمْ تَحْتَ سُلْطَتِهِمْ وَرِيَاسَتِهِمْ ، وَيَتْرُكَكَ مَعَ آلِهَتِكَ كَالشَّيْءِ اللَّقَا ، فَيَظْهَرُ لِلْمِصْرِيِّينَ عَجْزُكَ وَعَجْزُهَا ، وَقَدْ رَأَيْتُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ إِيمَانِ السَّحَرَةِ - إِذِ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَانَ بَعْدَ قِصَّةِ السَّحَرَةِ - وَسَيَأْتِي مَا فِيهِ ، وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِتَرْكِهِ وَآلِهَتِهِ : عَدَمُ عِبَادَتِهِ وَعِبَادَتِهَا ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ :

(وَإِلَاهَتَكَ) أَيْ : عِبَادَتَكَ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ مِنَ التَّارِيخِ الْمُسْتَمَدِّ مِنَ الْعَادِيَاتِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ أَنَّهُ كَانَ

(72/283)

لِلْمِصْرِيِّينَ آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا الشَّمْسُ ، وَاسْمُهَا فِي لُغَتِهِمْ (رَعْ) وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ فِي لَقَبِ فِرْعَوْنَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ سَلِيلُ الشَّمْسِ وَابْنُهَا ، وَسَنَنْقُلُ بَعْدَ جَوَابِهِ لَهُمْ أَثَرًا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، وَيُذْكَرُ فِيهِ بَعْضُ هَذِهِ الْآلِهَةِ .

قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ أَيْ : قَالَ مُجِيبًا لِلْمَلَأِ : سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَ قَوْمِهِ تَقْتِيلًا مَا تَنَاسَلُوا – فَتَعْبِيرُهُ بِالتَّقْتِيلِ يَدُلُّ عَلَى التَّكْثِيرِ وَالتَّدْرِيجِ – وَنَسْتَبْقِي نِسَاءَهُمْ أَحْيَاءً كَمَا كُنَّا نَفْعَلُ مِنْ قَبْلِ وِلَادَتِهِ حَتَّى يَنْقَرِضُوا وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ وَإِنَّا مُسْتَعْلُونَ عَلَيْهِمْ بِالْغَلَبَةِ وَالسُّلْطَانِ ، قَاهِرُونَ لَهُمْ كَمَا كُنَّا مِنْ قَبْلُ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ إِفْسَادًا فِي أَرْضِنَا ، وَلَا خُرُوجًا مِنْ حَظِيرَةِ تَعْبِيدِنَا ، وَفِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِ : وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (40 : 26) وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ لَدَيْهِ مَنْ يُدَافِعُ عَنْ مُوسَى مِمَّنْ آمَنَ بِهِ سِرًّا ، وَمِمَّنْ كَانَ يُحِبُّهُ ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي (20 : 39) وَفِيهِ تَصْرِيحٌ بِمَا كَانَ لَهُ فِي أَنْفُسِ

الْمِصْرِيِّينَ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالِاحْتِرَامِ . وَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى لَنَا دِفَاعَ وَاحِدٍ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ فَقَالَ : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (40 : 28) .

وَالْمُرَجَّحُ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ الْوَاقِفِينَ عَلَى الْعَادِيَاتِ الْمِصْرِيَّةِ أَنَّ فِرْعَوْنَ مُوسَى هُوَ الْمَلِكُ (مِنْفَتَاحُ) وَكَانَ يُلَقَّبُ بِسَلِيلِ الْإِلَهِ (رَعْ) وَقَدْ جَاءَ فِي آخِرِ الْأَثَرِ الْمِصْرِيِّ الْوَحِيدِ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ (وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِرَقْمِ 34025 الْمَحْفُوظِ فِي مَتْحَفِ مِصْرَ) أَنَّ مِصْرَ هِيَ السَّلِيلَةُ الْوَحِيدَةُ لِلْمَعْبُودِ (رَعْ) مُنْذُ وُجُودِ الْآلِهَةِ وَأَنَّ " مِنْفَتَاحَ " سَلِيلَةٌ أَيْضًا ، وَهُوَ الْجَالِسُ عَلَى سُدَّةِ الْمَعْبُودِ " شُو " وَأَنَّ الْإِلَهَ " رَعْ " الْتَفَتَ إِلَى مِصْرَ فَوَلَدَ " مِنْفَتَاحَ " مَلِكَ مِصْرَ ، وَشَيْءٌ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُنَاضِلًا عَنْهَا فَتَخْنَعَ لَهُ الْوُلَاةُ ، وَلَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنَ الْبَدْوِ رَأْسَهُ ، فَخَضَعَ لَهُ الْقَيْرَوَانِيُّونَ وَالْحَيْثِيُّونَ وَالْكَنْعَانِيُّونَ وَعَسْقَلَانُ وَجِزَالُ وَيَنْعِمَامُ .

وَفِيهِ : وَانْفَكَّ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ فَلَا بَزْرَ لَهُمْ ، وَأَصْبَحَتْ فَلَسْطِينُ خَلِيَّةً لِمِصْرَ وَالْأَرَاضِي كُلُّهَا مَضْمُومَةٌ فِي حِفْظِهِ ، وَكُلُّ اسْمٍ وَعَفَهُ " أَضْعَفَهُ وَأَذَلَّهُ " الصَّيْدَنُ لَقَبُ (مِنْفِتَاحَ) سَلِيلِ الشَّمْسِ مُعْطَى الْمَعِيشَةِ كُلَّ نَهَارٍ مِثْلَ الشَّمْسِ ا هـ ، وَمَا ذُكِرَ لَا يُنَافِي ادِّعَاءَهُ الِانْفِرَادَ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ الْعُلْيَا بَعْدُ . وَقَوْلُهُ : فَلَا بَزْرَ لَهُمْ ، هُوَ بِمَعْنَى قَوْلِنَا : انْقَطَعَ دَابِرُهُمْ ، يُسْتَعْمَلُ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَفِي الْمَجَازِ مِنْ بَابِ الْمُبَالَغَةِ أَوْ بِالنَّظَرِ إِلَى الْمَآلِ .

وَمِنَ الْبَدِيهِيِّ أَنْ يَخَافَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هَذَا الْوَعِيدَ ، وَأَنْ يُطَمْئِنَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ مَا بَيَّنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ أَيْ : اطْلُبُوا مَعُونَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَأْيِيدَهُ لَكُمْ عَلَى مَا سَمِعْتُمْ مِنَ الْوَعِيدِ وَاصْبِرُوا ، وَلَا تَجْزَعُوا ، فَإِنْ سَأَلْتُمْ لِمَاذَا وَإِلَى مَتَى ؟ أَقُلْ لَكُمْ : إِنَّ الْأَرْضَ - جِنْسَهَا ، أَوِ الْأَرْضَ الَّتِي وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ إِيَّاهَا ، وَهِيَ فَلَسْطِينُ - لِلَّهِ تَعَالَى الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لَا لِفِرْعَوْنَ ، فَهِيَ بِحَسَبِ سُنَّتِهِ تَعَالَى دُوَلٌ ، وَالْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ الَّتِي يَنْتَهِي

إِلَيْهَا التَّنَازُعُ بَيْنَ الْأُمَمِ لِلْمُتَّقِينَ ، أَيِ : الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللهَ بِمُرَاعَاةِ سُنَنِهِ فِي أَسْبَابِ إِرْثِ الْأَرْضِ كَالِاتِّحَادِ ، وَجَمْعِ الْكَلِمَةِ ، وَالِاعْتِصَامِ بِالْحَقِّ ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هَدَى إِلَيْهِ وَحْيُهُ ، وَأَيَّدَتْهُ التَّجَارِبُ ، وَمُرَادُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْعَاقِبَةَ سَتَكُونُ لَكُمْ بِإِرْثِ الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ لَهُ تَعَالَى بِإِقَامَةِ شَرْعِهِ ، وَالسَّيْرِ عَلَى سُنَّتِهِ فِي نِظَامِ خَلْقِهِ ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَتَوَهَّمُونَ وَيَتَوَهَّمُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ بَقَاءِ الْقَوِيِّ عَلَى قُوَّتِهِ ، وَالضَّعِيفِ عَلَى ضَعْفِهِ ، أَوْ أَنَّ الْآلِهَةَ الْبَاطِلَةَ ضَمِنَتْ لِفِرْعَوْنَ بَقَاءَ مُلْكِهِ ، عَلَى عَظَمَتِهِ وَجَبَرُوتِهِ وَظُلْمِهِ .

(76/283)

مَاذَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ وَصِيَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ ؟ وَهَلْ فَهِمُوهَا وَقَدَّرُوهَا قَدْرَهَا ؟ وَبِمَ أَجَابُوهُ ؟ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا يَعْنُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ إِرْسَالِهِ لِإِنْقَاذِهِمْ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ شَيْئًا ، فَهُوَ يُؤْذِيهِمْ وَيَظْلِمُهُمْ بَعْدَ إِرْسَالِهِ كَمَا كَانَ يُؤْذِيهِمْ مِنْ قَبْلِهِ أَوْ أَشَدُّ ، وَهَذَا الْإِيذَاءُ مُبَيَّنٌ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، فَفِيهِ أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ لَمَّا طَلَبَا مِنْ فِرْعَوْنَ إِطْلَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِكَيْ يَعْبُدُوا رَبَّهُمْ لَهُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَيَذْبَحُوا لَهُ ، قَالَ لَهُمَا : لِمَاذَا تُعَطِّلَانِ الشَّعْبَ عَنْ أَعْمَالِهِ ؟ وَأَمَرَ فِرْعَوْنُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ

مُسَخِّرِي الشَّعْبَ وَمُدَبِّرِيهِ أَنْ يَمْتَنِعُوا مِنْ إِعْطَائِهِ التِّبْنَ الَّذِي كَانُوا يُعْطُونَهُ إِيَّاهُ لِيَعْمَلَ بِهِ اللَّبَنَ (الطُّوبَ النَّيِّ) الَّذِي كَانَ مَفْرُوضًا عَلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ ، وَأَنْ يُكَلِّفُوهُ جَمْعَ التِّبْنِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَا يَنْقُصُوا مِنْ عَدَدِ اللَّبَنِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهِمْ شَيْئًا ، فَتَفَرَّقَ الشَّعْبُ فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ ؛ لِيَجْمَعُوا جُذَامَهُ عِوَضَ التِّبْنِ ، فَعَجَزُوا عَنْ تَمَامِ الْمِقْدَارِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّبَنِ ، وَالْمُسَخَّرُونَ يُلِحُّونَ عَلَيْهِمْ : أَكْمِلُوا فَرِيضَةَ كُلِّ يَوْمٍ كَمَا كَانَتْ عِنْدَمَا كُنْتُمْ تُعْطُونَ التِّبْنَ ، فَجَاءَ مُدَبِّرُو بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ وَلَّاهُمْ عَلَيْهِمُ الْمُسَخَّرُونَ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ ، وَاسْتَغَاثُوا فِرْعَوْنَ نَفْسَهُ

(77/283)

قَائِلِينَ : لِمَاذَا تَصْنَعُ (15) بِعَبِيدِكَ هَكَذَا ؟ (16) إِنَّهُ لَا يُعْطَى لِعَبِيدِكَ تِبْنٌ ، وَهُمْ يَقُولُونَ لَنَا : اعْمَلُوا لَبِنًا ، وَهَا أَنَّ عَبِيدَكَ يُضْرَبُونَ وَشَعْبَكَ يُعَامَلُونَ كَمُذْنِبِينَ (17) قَالَ : إِنَّمَا أَنْتُمْ مُتَرَفِّهُونَ ، وَلِذَلِكَ تَقُولُونَ نَمْضِي وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ (18) وَالْآنَ فَامْضُوا اعْمَلُوا ، وَتِبْنٌ لَا يُعْطَى لَكُمْ ، وَمِقْدَارُ اللَّبَنِ تُقَدِّمُونَهُ (19) فَرَأَى مُدَبِّرُو بَنِي إِسْرَائِيلَ نُفُوسَهُمْ فِي شَقَاءٍ .

إِذْ قِيلَ : لَا تَنْقُصُوا

مِنْ لَبِنِكُمْ شَيْئًا بَلْ فَرِيضَةَ كُلِّ يَوْمٍ فِي يَوْمِهَا (20) وَصَادَفُوا مُوسَى وَهَارُونَ وَهُمَا وَاقِفَانِ

لِلقَائِهِمْ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ عِنْدِ فِرْعَوْنَ (21) فَقَالُوا لَهُمَا : يَنْظُرُ الرَّبُّ وَيَحْكُمُ عَلَيْكُمَا كَمَا أَفْسَدْتُمَا أَمْرَنَا عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَعِنْدَ عَبِيدِهِ ، وَجَعَلْتُمَا فِي أَيْدِيهِمْ سَيْفًا لِيَقْتُلُونَا " انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .

قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ أَيْ : قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ الْمَرْجُوَّ مِنْ فَضْلِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمُ الَّذِي سَخَّرَكُمْ وَآذَاكُمْ بِظُلْمِهِ ، وَيَجْعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمْ إِيَّاهَا ، وَيَمْنَعَكُمْ فِرْعَوْنُ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْهَا ، فَيَنْظُرَ سُبْحَانَهُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ بَعْدَ اسْتِخْلَافِهِ إِيَّاكُمْ فِيهَا ؛ هَلْ تَشْكُرُونَ النِّعْمَةَ أَمْ تَكْفُرُونَ ؟ وَهَلْ تُصْلِحُونَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تُفْسِدُونَ ؟ لِيُجَازِيَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمَا تَعْمَلُونَ .

(78/283)

وَقَدْ عَبَّرَ بِـ " عَسَى " وَلَمْ يَقْطَعْ بِالْوَعْدِ لِئَلَّا يَتَّكِلُوا وَيَتْرُكُوا مَا يَجِبُ مِنَ الْعَمَلِ ، أَوْ لِئَلَّا يُكَذِّبُوهُ لِضَعْفِ أَنْفُسِهِمْ بِمَا طَالَ عَلَيْهِمْ مِنَ الذُّلِّ وَالِاسْتِخْذَاءِ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَاسْتِعْظَامِهِمْ لِمُلْكِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَفِي التَّوْرَاةِ مَا يُؤَيِّدُ هَذَا وَمَا قَبْلَهُ .

جَاءَ فِي آخِرِ الْفَصْلِ الْخَامِسِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ بَعْدَ مَا نَقَلْنَاهُ آنِفًا مَا نَصُّهُ : (22) فَرَجَعَ

مُوسَى إِلَى الرَّبِّ ، وَقَالَ يَا رَبِّ : لِمَاذَا ابْتَلَيْتَ هَؤُلَاءِ الشَّعْبَ لِمَاذَا بَعَثْتَنِي ؟ (23) فَإِنِّي مُنْذُ دَخَلْتُ عَلَى فِرْعَوْنَ ؛ لِأَتَكَلَّمَ بِاسْمِكَ إِلَى هَؤُلَاءِ الشَّعْبِ وَأَنْتَ لَمْ تُنْقِذْ شَعْبَكَ " .

(79/283)

وَفِي أَوَّلِ الْفَصْلِ السَّادِسِ مِنْهُ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : " الْآنَ تَرَى مَا أَصْنَعُ بِفِرْعَوْنَ ، إِنَّهُ بِيَدٍ قَدِيرَةٍ سَيُطْلِقُهُمْ ، وَبِيَدٍ قَدِيرَةٍ سَيَطْرُدُهُمْ مِنْ أَرْضِهِ " – وَأَعْلَمَهُ بِأَنَّهُ أَعْطَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ عَهْدًا بِأَنْ يُعْطِيَهُمْ أَرْضَ كَنْعَانَ ، وَأَنَّهُ سَمِعَ أَنِينَ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اسْتَعْبَدَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ فَذَكَرَ عَهْدَهُ – ثُمَّ قَالَ : (6) لِذَلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : أَنَا الرَّبُّ لِأُخْرِجَكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ ، وَأُخَلِّصَكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ ، وَأَفْدِيَكُمْ بِذِرَاعٍ مَبْسُوطَةٍ ، وَأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ ، (7) وَأَتَّخِذَكُمْ لِي شَعْبًا ، وَأَكُونَ لَكُمْ إِلَهًا ، وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمُ الْمُخْرِجُ لَكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ (8) وَسَأُدْخِلُكُمُ الْأَرْضَ الَّتِي رَفَعْتُ يَدِي مُقْسِمًا أَنْ أُعْطِيَهَا لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فَأُعْطِيَهَا لَكُمْ مِيرَاثًا ، أَنَا الرَّبُّ (9) فَكَلَّمَ مُوسَى بِذَلِكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَسْمَعُوا لِمُوسَى لِضِيقِ أَرْوَاحِهِمْ وَعُبُودِيَّتِهِمُ الشَّاقَّةِ " انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .

وَهُوَ مِنْ تَرْجَمَةِ الْيَسُوعِيِّينَ

كَالَّذِي قَبْلَهُ ، وَيَلِيهِ عَوْدَةُ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ ، وَمُطَالَبَتُهُ بِإِخْرَاجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَامْتِنَاعِهِ ، وَإِظْهَارِ الرَّبِّ الْآيَاتِ لَهُ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى كَمَا يَأْتِي مُجْمَلًا فِي الْآيَاتِ التَّالِيَةِ .

(80/283)

(فَإِنْ قِيلَ) : ظَاهِرُ تَرْتِيبِ الْآيَاتِ هُنَا يُفِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْمُرَاجَعَةَ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ مِنْ جِهَةٍ ، وَبَيْنَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَقَعَتْ بَعْدَ قِصَّةِ السَّحَرَةِ ، وَسِيَاقُ التَّوْرَاةِ صَرِيحٌ فِي وُقُوعِهَا قَبْلَهَا ، وَبَعْدَ تَبْلِيغِ أَصْلِ الدَّعْوَةِ - فَهَلْ يَجِبُ أَنْ نَقُولَ : إِنَّ ظَاهِرَ السِّيَاقِ هُنَا غَيْرُ مُرَادٍ ، وَهُوَ مَعْطُوفٌ بِالْوَاوِ الَّتِي لَا تَدُلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ - أَعْنِي قَوْلَهُ : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ

إلَخْ ؛ لِيُوَافِقَ التَّوْرَاةَ ، وَتَتِمَّ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَى رِسَالَةِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا لَا اطِّلَاعَ لَهُ عَلَى التَّوْرَاةِ وَلَا غَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا غَيْرِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْهُ إلَّا بِوَحْيِ اللَّهِ إلَيْهِ ؟ كَمَا قَالَ لَهُ تَعَالَى عَقِبَ قِصَّةِ نُوحٍ : مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا (11 : 49) وَمَا فِي مَعْنَاهُ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ ؟

(81/283)

(قُلْنَا) : إِنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ هَذَا الْجَمْعِ ، وَلَا تَتَوَقَّفُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى حُجَجٍ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا النَّوْعِ وَمِنْ غَيْرِهِ تَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ وَحْيًا مِنَ اللهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهِ مُحَمَّدٌ الْأُمِّيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا غَيْرُهُ مِنَ الْقَارِئِينَ الْكَاتِبِينَ أَيْضًا ، وَهُوَ عَلَى كَوْنِهِ كَمَا قَالَ مُصَدِّقًا لِكَوْنِ تِلْكَ الْكُتُبِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى - أَيْ : فِي الْأَصْلِ ، قَدْ قَالَ أَيْضًا : إِنَّ أَهْلَ التَّوْرَاةِ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْهَا ، وَنَسُوا حَظًّا وَنَصِيبًا آخَرَ ، وَأَنَّهُمْ حَرَّفُوا بَعْضَ مَا عِنْدَهُمْ مِنْهَا ، وَأَنَّهُ هُوَ - أَيِ : الْقُرْآنُ ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهَا ، فَمَا أَقَرَّهُ مِنْهَا فَهُوَ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ، وَمَا صَحَّحَهُ بِإِيرَادِهِ مُخَالِفًا لِمَا عِنْدَهُمْ فَهُوَ الصَّحِيحُ ، سَوَاءٌ كَانَ بِإِيرَادِهِ مُخَالِفًا لِمَا فِيهَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ ، كَكَوْنِ مُوسَى هُوَ الَّذِي أَلْقَى الْعَصَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ ، وَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ لَا هَارُونَ كَمَا فِي التَّوْرَاةِ ، أَوْ دَلَّتْ قَوَاعِدُهُ أَوْ نُصُوصُهُ عَلَى امْتِنَاعِهِ كَمَا جَاءَ فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ الثَّامِنِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ مِنْ أَنَّ الرَّبَّ جَعَلَ مُوسَى إِلَهًا لِفِرْعَوْنَ ، وَيَكُونُ أَخُوهُ هَارُونَ نَبِيَّهُ ! ! فَأُصُولُ الْقُرْآنِ وَكَذَا التَّوْرَاةِ الَّتِي كَتَبَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ فُقِدَتْ ، وَأَنَّ عَزْرَا الْكَاتِبَ هُوَ الَّذِي كَتَبَ الْأَسْفَارَ الْمُقَدَّسَةَ بَعْدَ السَّبْيِ الْبَابِلِيِّ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ ، وَهُوَ الَّذِي اسْتَبْدَلَ

الْحُرُوفَ الْكِلْدَانِيَّةِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ ، عَلَى أَنَّ مَا كَتَبَهُ عَزْرَا قَدْ فُقِدَ أَيْضًا ، وَلَكِنَّ جَمِيعَ نُسَخِ التَّوْرَاةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْعَالَمِ مُسْتَمَدَّةٌ مِمَّا كَتَبَهُ ، وَفِيهَا تَحْرِيفٌ كَثِيرٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَصْلِ ، وَيُسَمُّونَهُ مُشْكِلَاتٍ يَتَكَلَّفُونَ الْأَجْوِبَةَ عَنْهَا . وَقَدْ بَيَّنَّا نُمُوذَجًا مِنْهَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْهَا أَنَّ الْفَصْلَ الْأَخِيرَ مِنْ سِفْرِ التَّثْنِيَةِ ، وَهُوَ الْأَخِيرُ مِنَ التَّوْرَاةِ قَدْ ذُكِرَ فِيهِ وَفَاةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقُمْ بَعْدَهُ نَبِيٌّ مِثْلُهُ ، وَالْمُرَجَّحُ عِنْدَهُمْ أَنَّ يَشُوعَ هُوَ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ ذِكْرَ يَشُوعَ .

(83/283)

وَمِمَّا يُوَضِّحُ مُعْجِزَةَ الْقُرْآنِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ التَّوْرَاةِ وَيُؤَكِّدُهَا خَطَأُ الْمُفَسِّرِينَ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ بَعْضِهِ ، وَتَعْيِينِ الْمُرَادِ مِنْهُ ؛ لِعَدَمِ اطِّلَاعِهِمْ عَلَى مَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْهَا ، وَمِنْ سَائِرِ كُتُبِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ التَّوَارِيخِ وَالْعَادِيَاتِ الْمُتَسْخْرَجَةِ مِنْ آثَارِ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ ، وَإِنَّمَا كَانَ جُلُّ مَا يَعْرِفُونَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا سَمِعُوهُ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، وَمَا كُلُّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بِحَفِيظٍ عَلِيمٍ ، وَلَا بِصَادِقٍ أَمِينٍ . ثُمَّ مَا أَخَذُوهُ عَنْ كُتُبٍ تَارِيخِيَّةٍ غَيْرِ مَوْثُوقٍ بِهَا ، فَكَانَ أَكْثَرُ مَا كَتَبُوهُ فِي التَّفْسِيرِ مِنْهَا مُشَوَّهًا لَهُ ، وَحُجَّةً

لِأَهْلِ الْكِتَابِ عَلَيْنَا - فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالَ عُلَمَائِنَا فِي أَخْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ انْتِشَارِ الْعُلُومِ فِي الْإِسْلَامِ ، فَكَيْفَ حَالُ أَهْلِ مَكَّةَ عِنْدَ ظُهُورِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كِتَابٌ يُقْرَأُ ، وَلَا أَحَدٌ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ ، قِيلَ : إِلَّا سِتَّةَ نَفَرٍ مِنَ التُّجَّارِ كَانُوا مِمَّنْ يُقَالُ فِيهِمُ الْيَوْمَ "يَفُكُّونَ الْخَطَّ" فَأَنَّى لِمَنْ كَانَ أَبْعَدَهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَعْرِفَ هَذِهِ الدَّقَائِقَ الْمُفَصَّلَةَ السَّالِمَةَ مِنَ الشَّوَائِبِ الَّتِي لَا يُصَدِّقُهَا الْعَقْلُ ، أَوْ لَا تَتَّفِقُ مَعَ تَوْحِيدِ الْأَنْبِيَاءِ وَفَضَائِلِهِمْ لَوْلَا مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 9 صـ 69.74 ﴾

(84/283)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾

﴿ قالوا ﴾ حكاية جواب قوم موسى إياه ، فلذلك فصلت جملة القول على طريقة المحاورة ، وهذا الخبر مستعمل في الشكاية واستثارتهم موسى ليدعو ربه أن يفرج كربهم .

والإيذاء : الإصابة بالأذى ، والأذى ما يؤلم ويحزن من قول أو فعل ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ لن يضروكم إلاّ أذى ﴾ في سورة آل عمران (111) ، وقوله : ﴿ فصبروا

على ما كُذبوا وأوذوا ﴾ في سورة الأنعام (34) ، وهو يكون ضعيفاً وقوياً ، ومرادهم هنا القوي منه ، وهو ما لحقهم من الاستعباد وتكليفهم الأعمال الشاقة عليهم في خدمة فرعون وما توعدهم به فرعون بعد بعثة موسى من القطع والصلب وقتل الأبناء ، وكأنهم أرادوا التعريض بنفاد صبرهم وأن الأذى الذي مسهم بعد بعثة موسى لم يكن بداية الأذى ، بل جاء بعد طول مدة في الأذى ، فلذلك جمعوا في كلامهم ما لحقهم قبل بعثة موسى .

وقد توهم بعض المفسرين أن هذا امتعاض منهم مما لحقهم بسبب موسى وبواسطته مستنداً إلى أن قتل الذكور منهم كان قبل مجيء موسى بسبب توقع ولادة موسى ، وكان الوعيد بمثله بعد مجيئه بسبب دعوته ، وليس ذلك بمتجه لأنه لو كان هو المراد لما كان للتعبير بقوله : ﴿ من قبل أن تأتينا ﴾ موقع ، والإتيان والمجيء مترادفان ، فذكر المجيء بعد الإتيان ليس لاختلاف المعنى ، ولكنه للتفنن وكراهية إعادة اللفظ .

والإتيان والمجيء مدلولهما واحد ، وهو بعثة موسى بالرسالة ، فجعل الفعل المعبّر عنه حين عُلق به (قبل) بصيغة المضارع المقترن بـ (أن) الدالة على الاستقبال والمصدرية لمناسبة لفظ (قبل) لأن ما يضاف إلى (قبل) مستقبل بالنسبة لمدلولها ، وجُعل حين علق به (بعد) بصيغة الماضي المقترن بحرف (مّا) المصدرية لأن (ما) المصدرية لا تفيد الاستقبال ليناسب لفظ (بعد) لأن مضاف كلمة (بعد) ماض بالنسبة لمدلولها .

فأجابهم موسى بتقريب أن يكونوا هم الذين يرثون مُلك الأرض والذين تكون لهم العاقبة .

وجاء بفعل الرجاء دون الجزم تأدباً مع الله تعالى ، وإقصاء للاتكال على أعمالهم ليزدادوا من التقوى والتعرض إلى رضى الله تعالى ونصره .

فقوله : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ ناظر إلى قوله : ﴿ إن الأرض لله ﴾ [الأعراف : 128] وقوله : ﴿ ويَسْتخلفَكم في الأرض ﴾ ناظر إلى قوله ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف : 128] .

والمراد بالعدو ، فرعون وحزبه ، فوصفُ عدو يوصف به الجمع قال تعالى : ﴿ هم العدو ﴾ [المنافقون : 4] .

والمراد بالاستخلاف : الاستخلاف عن الله في مُلك الأرض .

والاستخلاف إقامة الخليفة ، فالسين والتاء لتأكيد الفعل مثل استجاب له ، أي جعلهم أحراراً غالبين ومؤسسين ملكاً في الأرض المقدسة .

ومعنى ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ التحذير من أن يعملوا ما لا يرضي الله تعالى ، والتحريض على الاستكثار من الطاعة ليستحقوا وصف المتقين ، تذكيراً لهم بأنه عليم بما يعملونه .

فالنظر مستعمل في العلم بالمرئيات ، والمقصود بما ﴿ تعملون ﴾ عملهم مع الناس في

سياسة ما استخلفوا فيه ، وهو كله من الأمور التي تشاهد إذ لا دخل للنيات والضمائر في السياسة وتدبير الممالك ، إلاّ بمقدار ما تدفع إليه النيات الصالحة من الأعمال المناسبة لها ، فإذا صدرت الأعمال صالحة كما يرضي الله ، وما أوصى به ، حصل المقصود ، ولا يضرها ما تكنه نفس العامل .

و(كيف) يجوز كونها استفهاماً فهي معلّقة لفعل (ينظرُ) عن المفعول ، فالتقدير فينظر جواب السؤال بـ ﴿ كيف تعملون ﴾ ، ويجوز كونها مجردة عن معنى الاستفهام دالة على مجرد الكيفية ، فهي مفعول به ل ﴿ ينظرَ ﴾ كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ في سورة آل عمران (6) ، وقوله تعالى : ﴿ انظُر كيف نبين لهم الآيات ﴾ في سورة المائدة (75) وقد تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(86/283)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

لقد قالوا لموسى : من قبل أن تأتينا أوذينا بأن قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ، وبعد أن جئت ها نحن أولاء نتلقى الإِيذاء . كأن مجيئك لم يصنع لنا شيئاً . إذن هم نظروا للابتلاءات التي يجريها الله على خلقه ، ولم ينظروا إلى المنة والمنحة والعطاء وإلى آلاء الانتصار ، وإلى أن فرعون قد حشد كل السحرة ، وبعد ذلك هزمهم موسى ، وكان يجب أن يكون تنبيها لهم لقدر عطاءات الله ، هم يحسبون أيام البلاء ، ولم يحسبوا أيام الرخاء . وقوله : ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ يدل على أنهم سوف يخونون العهود ، ويفعلون الأشياء التي لا تتناسب مع هذه المقدمات . وفي الإِسلام نجد عمرو بن عبيد وقد دخل على المنصور قبل أن يكون أميراً للمؤمنين ، وكان أمامه رغيف أو رغيفان ، فقال : التمسوا رغيفاً لابن عبيد . فرد عليه العامل : لا نجد . فلما ولي الخلافة وعاش في ثراء الملك ونعمته دخل عليه ابن عبيد وقال : لقد صدق معكم الحق يا أمير المؤمنين في قوله : ﴿ . . . عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرض فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 129]

وقد قال موسى لقومه بعد أن عايروه بعدم قدرته على رد العذاب عنهم . وهكذا استقبل قوم موسى أول هزيمة لفرعون أمام موسى ، وقالوا له : أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا ، أي بالتذبيح ، واستحياء النساء ، وقتل الأبناء ، فكأن مجيئك لم يفدنا شيئاً لأننا

مقيمون على العذاب الذي كنا نُسامه . فلا حاجة لنا بك ، ولا ضرورة في أن تكون موجوداً ؛ بدليل أن الذي حدث بعدك هو الذي حدث قبلك .

(87/283)

ولم يلتفتوا إلى أن الإِيذاء من قبل ومن بعد لا ينشأ إلا من عدو ، فكأن موسى يرد عليهم بأن أسباب الإِيذاء ستنتهي ، وأن الله سيهلك عدوكم الذي آذاكم من قبل ويؤذيكم من بعد . ولن يقتصر الأمر على هذه النعمة ؛ بل يزيدكم بأن يستخلفكم في الأرض ، ويعطيكم ملكهم ويعطيكم أرضهم . وكأن هنا أمرين : الأمر الأول سلبي : وهو إهلاك العدو ، والأمر الثاني إيجابي : وهو استخلافكم في الأرض وهذا أمر لكم ، ووعد من الله بأن تكون لكم السيادة والملك وعليكم أن تنتبهوا إلى أن نعمة الله عليكم بإهلاك عدوكم ، وباستخلافكم في الأرض لن تترك هكذا ، بل أنا رقيب عليكم أنظر ماذا تفعلون ، هل تستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإِيمان واليقين والارتباط بالله ، أو تكفرون بهذه النعمة ؟

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى ﴿ عسى ﴾ فهي كلمة – كما يقول علماء اللغة – تدل على الرجاء ، ومعنى الرجاء أن ما بعدها يكون مرجو الحصول .

وهناك فرق بين التمني وبين الرجاء . فالتمني أن تتطلب أمراً مستحيلاً أو يكون في الحصول

عليه عسر ، ولكنك تريد – فقط – بالتمني إشعار حبك له ، فأنت إذا قلت : ليت الشباب يعود ، فهذا أمر لا يكون ، ولكنك تعلن حبك لمرحلة الشباب .

وقصارى ما يعطيه أن يعلمنا أنك تحب هذا المتمنَّي . لكن هل يتحقق أو لا يتحقق . . فهذه ليست واردة .

(88/283)

لكن " الرجاء " شيء محبوب يوشك أن يقع . وهكذا نعرف أن الرجاء أقوى من التمني . وأداة التمني " ليت " وأداة الرجاء " عسى " . وحين يكون بعد " عسى " ما يُرْجَى فلذلك مراحل تتفاوت بقوة أسباب الرجاء في الوقوع . فأنا مثلاً إذا قلت : عسى أن أكرمك فهذا أمر يعود إليّ أنا ، لأنَّ إكرامي لك يقتضي بقائي ، وعدم تغير نفسي من ناحيتك ، فمن الجائز أن تتغير نفسي قبل أن أكرمك ولا يقع إكرامي لك . هذا هو الرجاء من صاحب الأغيار ، ومادمت صاحب أغيار فقد لا أقدر على الإكرام ، أو أقدر ولكني لم أعد أحب هذا الأمر فقد انصرفت نفسي عنه ، وهذا يفسد الرجاء ويقلل الأمل في حصوله . فإذا قلت لإنسان : عسى الله أن يكرمك فلان وهو مساويه ، فهذا أمر مستبعد قليلاً ؛ لأن من يقول ذلك لا يملك أن يقوم فلان بإكرام المساوي له ، لأنه صاحب أغيار .

لكن إذا قلت : عسى الله أن يكرمك فهذه أقوى ، لأن ربنا لا يعجزه شيء عن إكرام إنسان . وهل يقبل الله أن يجيب رجاءك ؟ هذه مسألة تحتاج إلى وقفة ، فسبحانه من ناحية القوة له مطلق القدرة فلا شيء يعطله أو يستعصي أو يتأبى عليه . فإذا ما قال الحق عن نفسه : ﴿ عسى رَبُّكُمْ ﴾ فقد انتهت المسألة وتقرر الوعد وتحقق ، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق . إذن مراحل الرجاء هي : عسى أن أكرمك ، وعسى أن يكرمك زيد ، وعسى الله أن يكرمك ، وأقوى ألوان الرجاء أن بعد الحق بالإِكرام أو بالرحمة . ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 129]

والكلام كما نراه هو من موسى ، ولا يقدر على هذه المسألة إلا الله ، فما موقع هذا من تحقيق الرجاء ؟ . نعلم أن موسى رسول أرسله الله لهداية الخلق ، وأرسله مؤيداً بالمعجزة ، فإذا كان الرسول المؤيد بالمعجزة قد أمره الله أن يبلغهم ذلك ، فيكون الرجاء منه مقبولاً : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ .

(89/283)

ومرة تكون إزالة الشيء الضار نعمة بمفردها ، أما أن يهلك الله عدوي ويعطيني الحق مكانة عدوي العالية فهذه نعمة إيجاب ، تكون بعد نعمة سلب . ومثل هذا ما سوف يحدث يوم

القيامة ؛ لأن الحق يقول : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ . . . ﴾ [آل عمران : 185]

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة ، فما بالك بمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ .

لقد نال نعمتين . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ . وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هي : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرض ﴾ .

لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون ؟ . هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عباداً صالحين ، أو تجحدونها وتكفرونها ؟ فالإنسان ظلوم كفار .

وكلمة " ينظر " إذا جاءت على الإنسان فُهِم المراد منها أي يراك بناظره . وإذا أُسندت لله فالأمر مختلف ، فتعالى الله أن تكون له حدقة عين مثل عيوننا . لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره ؛ لأنه هو – سبحانه – عالمه قبل أن يقع . ونعلم أن هناك فارقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق ، وبين الحكم على المخلوق بعمل المخلوق .

مثال ذلك نجد الأستاذ في مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه .

وعميد الكلية يقول له : ما رأيك ؟ فيقول فلان تلميذ يستحق النجاح بتقدير مرتفع والثاني لابد أن يرسب . الأستاذ يقول هذا الحكم بناء عن علمه بحال كل طالب . لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناء على تقديره دون امتحان فالطالب الذي رسب قد يقول لأستاذه : أنت شططت في الحكم ؛ ولو مكنتني من الامتحان لنجحت . وحين يقرر

العميد امتحان الطالب ، ويؤدي الامتحان بالفعل ، ولكنه يرسب . هنا يتأكد للعميد أن الحكم برسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إخفاق الطالب في الامتحان .

(90/283)

إن الله سبحانه حين يقول : ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ . هو سبحانه لا ينظرها ليعلمها – حاشا الله – فهو عالمها ، ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه . ولكن يريد أن يحكم على خلقه بفعل خلقه ، وسبحانه عالم أزلاً بكل من يهدي ومن يضل . ولذلك خلق الجنة وخلق النار لتسع كل منهما كل الخلق ، ولم يخلق أماكن في الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط ، وكذلك لم يخلق أماكن في النار لا تسع فقط أهل النار ، بل يمكنها أن تسع كل الخق ، ولم يحكم بعلمه في هذه المسألة ، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء ما دام هناك اختيار للإنسان ، فعلى فرض أنكم جميعاً آمنتم فلكم كلكم أماكن في الجنة . وعلى فرض أنكم – والعياذ بالله – كفرتم فلكم أماكن في النار ، وسبحانه لن ينشئ شيئاً جديداً ، بل أعد كل شيء وانتهى الأمر .

وحين يأتي أهل الجنة ليدخلوا الجنة ، وأهل النار ليدخلوا النار سوف يكون لأهل الجنة مقاعد أخرى كانت مخصصة لمن دخلوا النار . ويعلن لأهل الجنة : أورثتموها وخذوها

أنتم : ﴿ ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا . . . ﴾ [الأعراف : 43]

وهي ميراث من الذين كانت معدة لهم ولم يقوموا بالعمل المؤهل لامتلاكها . فإياك أن تفهم أن نظر الله إلى خلقه ليعلم منه شيئاً . لا . أَنَّه العليم أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب . . . ﴾ [الحديد : 25]

وسبحانه يعلم أزلاً ويتحقق بسلوك الناس علمهم بأفعالهم واقعاً ، وعلم الواقع هو الذي يكون حجة على الخلق . وهنا في الآية التي نحن بصددها ثلاثة أشياء : أن يهلك سبحانه عدوكم ، وأن يستخلفكم في الأرض ، فينظر كيف تعملون . ونحقق فيما تحقق منهما .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(91/283)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ قال : من قبل ارسال الله إياك ومن بعده .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه في الآية قال : قالت بنو إسرائيل لموسى : كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن تأتينا ، فلما جئت كلفنا اللبن مع التبن أيضاً ، فقال موسى : أي رب أهلك فرعون حتى متى تبقيه . فأوحى الله إليهم : إنهم لم يعملوا الذنب الذي اهلكهم به .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ قال : أما قبل أن يبعث حزاً لعدو الله فرعون حاز أنه يولد في هذا العام غلام يسلبك ملكك . قال : فتتبع أولادهم في ذلك العام بذبح الذكور منهم ثم ذبحهم أيضاً بعد ما جاءهم موسى ، وهذا قول بني إسرائيل يشكون إلى موسى . فقال لهم موسى ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن بنا أهل البيت يفتح ويختم ، فلا بد أن تقع دولة لبني هاشم فانظروا فيمن تكونوا من بن هاشم ، وفيهم نزلت ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعلمون ﴾ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ .

قال سيبويه : " عَسَى " طمع وإشفاق .

قال الزَّجَّاجُ : وما يطمع اللَّه فيه فهو واجب .

ولقائل أن يقول : هذا ضعيف ؛ لأنَّ لفظ " عسى ههنا ليس كلام اللَّه بل هو حكاية عن كلام موسى ، ويُجاب بأنَّ هذا الكلامِ إذا صدر عن الرسول الذي ظهرت نبوته بالمعجزات أفاد قوة اليقين فَقَوَّى موسى – عليه الصَّلاة والسَّلام – قلوبهم بهذا القولِ وحقَّق عندهم الوعدَ ليصبروا ويتركوا الجزع المذموم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 273 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) ﴾

خفي عليهم شهودُ الحقيقة ، وغُشِيَ على أبصارهم حتى قالوا توالت علينا البلايا ؛ ففي حالك بلاء ، وقَبْلكَ شقاء . . فما الفضل ؟ فأجابهم موسى – عليه السلام – بما علق

رجاءهم بكشف البلاء فقال : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ فوقفهم على الانتظار . ومن شهد ببصر الأسراء شهد تصاريف الأقدار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 559 ﴾

(93/283)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) ﴾

قوله : ﴿ آمَنتُمْ بِهِ ﴾ قرىء بحذف الهمزة على الإخبار وبإثباتها .

أنكر على السحرة فرعون إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم بذلك ، ثم قال بعد الإنكار عليهم ، مبيناً لما هو الحامل لهم على ذلك في زعمه ﴿ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى المدينة ﴾ أي حيلة احتلتموها أنتم وموسى عن مواطأة بينكم سابقة ﴿ لِتُخْرِجُواْ ﴾ من مدينة مصر ﴿ أَهْلِهَا ﴾ من القبط ، وتستولوا عليها وتسكنوا فيها أنتم وبنو إسرائيل .

ومعنى ﴿ فِى المدينة ﴾ أن هذه الحيلة والمواطأة كانت بينكم ، وأنتم بالمدينة ، مدينة

مصر ، قبل أن تبرزوا أنتم وموسى إلى هذه الصحراء .

ثم هدّدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة صنعكم هذا ، وسوء مغبته ، ثم لم يكتف بهذا الوعيد المجمل ، بل فصّله فقال : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ أي الرجل اليمنى واليد اليسرى ، أو الرجل اليسرى واليد اليمنى ، ثم لم يكتف عدوّ الله بهذا ، بل جاوزه إلى غيره فقال : ﴿ ثُمَّ لاَصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ في جذوع النخل ، أي أجعلكم عليها مصلوبين زيادة تنكيل بهم ، وإفراطاً في تعذيبهم ، وجملة ﴿ قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ استئنافية جواب سؤال كما تقدّم ، ومعناه : إنك وإن فعلت بنا هذا الفعل ، فبْعَدْه يومُ الجزاء سيجازيك الله بصنعك ، ويحسن إلينا بما أصابنا في ذاته ، فتوعدوه بعذاب الله في الآخرة ، لما توعدهم بعذاب الدنيا ، ويحتمل أن يكون المعنى : ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ بالموت ، أي لا بدّ لنا من الموت ، ولا يضرّنا كونه بسبب منك .

قوله : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا ﴾ قرأ الحسن بفتح القاف .

(94/283)

قال الأخفش : هي لغة ، وقرأ الباقون بكسرها .

يقال نقمت الأمر أنكرته ، أي لست تعيب علينا وتنكر منا ﴿ إِلاَّ أَنْ ءامَنَّا بِأَيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا

جَآءَتْنَا ﴾ مع أن هذا هو الشرف العظيم والخير الكامل ، ومثله لا يكون موضعاً للعيب ومكاناً للإنكار ، بل هو حقيق بالثناء الحسن والاستحسان البالغ ، ثم تركوا خطابه وقطعوا الكلام معه والتفتوا إلى خطاب الجناب العليّ ، مفوّضين الأمر إليه ، طالبين منه عزّ وجلّ أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ الإفراغ : الصبّ ، أي اصببه علينا حتى يفيض ويغمرنا .

طلبوا أبلغ أنواع الصبر ، استعداداً منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدوّ الله ، وتوطيناً لأنفسهم على التصلب في الحق ، وثبوت القدم على الإيمان ، ثم قالوا : ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أي توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام ، غير محرّفين ، ولا مبدّلين ، ولا مفتونين .

ولقد كان ما هم عليه من السحر ، والمهارة في علمه ، مع كونه شرّاً محضاً ، سبباً للفوز بالسعادة ، لأنهم علموا أن هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر ، وأنه من فعل الله سبحانه ، فوصلوا بالشرّ إلى الخير ، ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون ، ما حصل منهم من الإذعان والاعتراف والإيمان ، وإذا كانت المهارة في علم الشرّ قد تأتي بمثل هذه الفائدة ، فما بالك بالمهارة في علم الخير ، اللهم انفعنا بما علمتنا ، وثبت أقدامنا على الحق ، وأفرغ علينا سجال الصبر ، وتوفنا مسلمين .

قوله : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ ﴾ ؟ هذا

الاستفهام منهم للإنكار عليه ، أي أتتركه وقومه ليفسدوا في الأرض بإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل ؟ والمراد بالأرض هنا : أرض مصر .

(95/283)

قوله : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ قرأ نعيم بن ميسرة "ويذرك" بالرفع على تقدير مبتدأ ، أي وهو يذرك ، أو على العطف على ﴿ أَتَذَرُ موسى ﴾ أي أتذره ويذرك .

وقرأ الأشهب العقيلي " وَيَذَرَكَ " بالجزم ، إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة ، أو على ما قيل في ﴿ وَأَكُن مّنَ الصالحين ﴾ [المنافقون : 10] في توجيه الجزم .

وقرأ أنس بن مالك "ونذرك" بالنون والرفع ، ومعناه : أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سيذرونه وآلهته .

وقرأ الباقون ﴿ ويذرك ﴾ بالنصب بأن مقدّرة على أنه جواب الاستفهام ، والواو نائبة عن الفاء ، أو عطفاً على ﴿ يفسدوا ﴾ أي ليفسدوا ، وليذرك ، لأنهم على الفساد في زعمهم ، وهو يؤدّي إلى ترك فرعون وآلهته .

واختلف المفسرون في معنى : ﴿ وَءَالِهَتَكَ ﴾ لكون فرعون كان يدّعي الربوبية كما في قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مّنْ إله غَيْرِى ﴾ [القصص : 38] .

وقوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ ﴾ [النازعات : 24] فقيل معنى و ﴿ آلهتك ﴾ وطاعتك .

وقيل معناه : وعبادتك .

ويؤيده قراءة علي ، وابن عباس ، والضحاك "وإلهتك" ، وفي حرف أبي "أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك" وقيل : إنه كان يعبد بقرة ، وقيل : كان يعبد النجوم .

وقيل : كان له أصنام يعبدها قومه تقرّباً إليه ، فنسبت إليه ، ولهذا قال ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] قاله الزجاج .

وقيل : كان يعبد الشمس .

فقال فرعون مجيباً لهم ، ومثبتاً لقلوبهم على الكفر ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ ﴾ .

قرأ نافع وابن كثير "سنقتل" بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، أي سنقتل الأبناء ، ونستحيي النساء ، أي نتركهنّ في الحياة .

ولم يقل سنقتل موسى ، لأنه يعلم .

أنه لا يقدر عليه ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون ﴾ أي مستعلون عليهم بالقهر والغلبة ، أو هم تحت قهرنا وبين أيدينا .

ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه .

وجملة ﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، لما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة ، ثم أخبرهم ﴿ أَنَّ الأرض ﴾ يعني : أرض مصر ﴿ للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أو جنس الأرض ، وهو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه ، وأن الله سيورثهم أرضهم وديارهم .

ثم بشّرهم بأن العاقبة للمتقين ، أي العاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة للمتقين من عباده ، وهم موسى ومن معه .

وعاقبة كل شيء آخره .

وقرىء "والعاقبة" بالنصب عطفاً على الأرض .

وجملة ﴿ قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كالتي قبلها ، أي أوذينا من قبل أن تأتينا رسولاً ، وذلك بقتل فرعون أبناءنا عند مولدك لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده ﴿ وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ رسولاً بقتل أبنائنا الآن .

وقيل : المعنى أوذينا من قبل أن تأتينا باستعمالنا في الأعمال الشاقة بغير جعل ﴿ ومن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ بما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا .

وقيل : إن الأذى من قبل ومن بعد واحد ، وهو قبض الجزية منهم .

وجملة ﴿ قَالَ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ مستأنفة كالتي قبلها ، وعدهم بإهلاك الله لعدوّهم ، وهو فرعون وقومه .

قوله : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأرض ﴾ هو تصريح بما رمز إليه سابقاً من أن الأرض لله .

وقد حقّق الله رجاءه ، وملكوا مصر في زمان داود وسليمان ، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع ابن نون ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق وأنجاهم ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال بعد أن يمنّ عليكم بإهلاك عدوّكم ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأرض ﴾ فيجازيكم بما عملتم فيه من خير وشرّ .

(97/283)

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السدي في قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى المدينة ﴾ إذا التقيتما لتظاهرا فتخرجا منها أهلها ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ﴾ الآية ، قال : فقتلهم وقطعهم كما قال .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : كان أوّل من صلب فرعون ، وهو أوّل من قطع الأيدي والأرجل من خلاف .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ مّنْ خلاف ﴾ قال : يداً من ها هنا ،

ورجلاً من ها هنا .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ قال : من قبل إرسال الله إياك ومن بعده .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن وهب بن منبه ، في الآية قال : قالت بنو إسرائيل لموسى كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن تأتينا .

فلما جئت كلفنا اللبن مع التبن أيضاً ، فقال موسى : أي ربّ أهلك فرعون ، حتى متى تبقيه ؟ فأوحى الله إليهم إنهم لم يعملوا الذنب الذي أهلكهم به .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة في الآية قال : حزا لعدوّ الله حاز أنه يولد في العام غلام يسلب ملكك ، قال : فتتبع أولادهم في ذلك العام بذبح الذكر منهم ، ثم ذبحهم أيضاً بعد ما جاءهم موسى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : إن بنا أهل البيت يفتح ويختم ، ولا بدّ أن تقع دولة لبني هاشم فانظروا فيمن تكون من بني هاشم ؟ وفيهم نزلت : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرض فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ وينبغي أن ينظر في صحة هذا عن ابن عباس ، فالآية نازلة في بني إسرائيل ، لا في بني هاشم ، واقعة في هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى وفرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة : 1 - ﴿ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة ﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباقٌ وكذلك بين لفظ ﴿ الضرآء والسرآء ﴾ .

2 - ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء ﴾ شبّه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول فهو من باب الاستعارة أي وسعنا عليهم الخير من جميع الأطراف .

3 - ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ تكررت الجملة والغرض منها الإنذار ويسمى هذا في علم البلاغة الإطناب ومثلها ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله ﴾ قال أبو السعود : تكريرٌ للنكير لزيادة التقرير ، ومكرُ الله استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب .

4 - ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ أكد الجملة بإن واللام لإزالة الشك من نفوس السحرة ويسمى هذا النوع من أضرب الخبر إنكارياً .

5 - ﴿ فَوَقَعَ الحق ﴾ فيه استعارة استعير الوقع للثبوت والحصول والله أعلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 465.466 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما رجاهم موسى عليه السلام بذلك ، أخبر سبحانه أنه فعل ما أخبرهم به ، فذكر مقدماته فقال : ﴿ ولقد ﴾ أي قال لهم ما قال والحال أنا وعزتنا قد ﴿ أخذنا ﴾ أي قهرنا ﴿ آل فرعون ﴾ ولينّا عريكتهم وسهلنا شكيمتهم ﴿ بالسنين ﴾ أي بالقحط والجوع ، فإن السنة يطلق بالغلبة على ذلك كما تطلق على العام ؛ ولما كانت السنة تطلق على نقص الحبوب ، صرح بالثمار فقال ، ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ أي بالعاهات إن كان الماء كثيراً ، أو السنة للبادية والنقص للحاضرة ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجو ناظره أن يتذكر في نفسه ولو بأدنى وجوه التذكر - بما أشار إليه الإدغام ، فإن الضر يزيل الشماخة التي هي مظنة الوقوف مع الحظوظ ويوجب للإنسان الرقة فيقول : هذا إنما

حصل لي بسبب تكذيبي لهذا الرسول وعبادتي من لا يكشف السوء عن نفسه ولا غيره .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 88 ﴾

(100/283)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ [الأعراف : 129] لا جرم بدأ ههنا بذكر ما أنزله بفرعون وبقومه من المحن حالاً بعد حال ، إلى أن وصل الأمر إلى الهلاك تنبيهاً للمكلفين على الزجر عن الكفر والتمسك بتكذيب الرسل ، خوفاً من نزول هذه المحن بهم .

فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

السنين جميع السنة قال أبو علي الفارسي : السنة على معنيين : أحدهما : يراد بها الحول والعام والآخر يراد بها الجدب وهو خلاف الخصب فمما أريد به الجدب هذه الآية وقوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف " وقول عمر رضي الله

عنه : إنا لا نقع في عام السنة ، فلما كانت السنة يعني بها الجدب ، اشتقوا منها كما يشتق من الجدب .

ويقال : أسنتوا ، كما يقال أجدبوا .

قال الشاعر :

ورجال مكة مسنتون عجاف . . قال أبو زيد : بعض العرب تقول ، هذه سنين ورأيت سنيناً ، فتعرب النون .

ونحوه .

قال الفراء : ومنه قول الشاعر :

دعاني من نجد فإن سنينه . . لعبن بنا وشيبننا مردا

قال الزجاج : السنين في كلام العرب الجدوب ، يقال مستهم السنة ومعناه : جدب السنة .

وشدة السنة .

إذا عرفت هذا فنقول : قال المفسرون : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين ﴾ يريد الجوع والقحط عاماً بعد عام ، فالسنون لأهل البوادي ﴿ وَنَقْصٍ مّن الثمرات ﴾ لأهل القرى .

ثم قال تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ظاهر الآية أنه تعالى إنما أنزل عليهم هذه المضار لأجل أن يرجعوا عن طريقة التمرد والعناد إلى الانقياد والعبودية ، وذلك لأن أحوال الشدة ترقق القلب وترغب فيما عند الله ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِى البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 67] وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : 51] .

المسألة الثانية :

قال القاضي : هذه الآية تدل على أنه تعالى فعل ذلك إرادة منه أن يتذكروا ، لا أن يقيموا على ما هم عليه من الكفر .

أجاب الواحدي عنه : بأنه قد جاء لفظ الابتلاء والاختبار في القرآن ، لا بمعنى أنه تعالى يمتحنهم ، لأن ذلك على الله تعالى محال ، بل بمعنى أنه تعالى عاملهم معاملة تشبه الابتلاء والامتحان ، فكذا ههنا والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 175 ﴾

(102/283)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : يعني بالجوع ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثاني : أن معنى السنين الجدوب ، قاله الحسن .

والعرب تقول : أخذتهم السنة إذا قحطوا وأجدبوا .

وقال الفراء : المراد بالسنين الجدب والقحط عاماً بعد عام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ الآية

أخبر أنه أخذ آل فرعون في تلك المدة التي كان موسى يدعوهم فيها بالسنين وهو الجدوب والقحوط ، وهذه سيرة الله في الأمم ، وكذلك فعل بقريش والسنة في كلام العرب : القحط ومنه قول ليلى والناس مسنتون ، وسنة وعضة وما جرى مجراها من الأسماء المنقوصة تجمع بالواو والنون ليس على جهة جمع السلامة لكن على جهة العوض مما نقص ، وكذلك أرض توهموا فيها نقص هاء التأنيث لأنه كان حقها أن تكون أرضه ، وأما حرة وأحرون فلأن التضعيف أبداً . يعتل فتوهموه مثل النقص ، وكسر السين من سنون وسنين وزيادة

الألف في أحرين دليل على أنه ليس بجمع سلامة .

وقوله تعالى : ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ روي أن النخلة كانت لا تحمل إلا ثمرة واحدة ، وقال نحوه رجاء بن حيوة ، وأراد الله عز وجل أن ينيبوا ويزدجروا عما هم عليه من الكفر ، إذ أحوال الشدة ترق القلوب وترغب فيما عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(103/283)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾

قال أبو عبيدة : مجازُه : ابتليناهم بالجدوب .

وآل فرعون : أهل دينه وقومه .

وقال مقاتل : هم أهل مصر .

قال الفراء : "بالسنين" أي : بالقحط والجدوب عاماً بعد عام .

وقال الزجاج : السنون في كلام العرب : الجدوب ، يقال : مستهم السَّنة ، ومعناه : جدب السَّنة ، وشدة السَّنة .

وإنما أخذهم بالضراء ، لأن أحوال الشدة ، تُرِقُ القلوب ، وتُرغِّب فيما عند الله وفي الرجوع اليه ، قال قتادة : أما السنون ، فكانت في بواديهم ومواشيهم ، وأما نقص الثمرات ، فكان في أمصارهم وقراهم .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يبس لهم كل شيء ، وذهبت مواشيهم ، حتى يبس نيل مصر ، فاجتمعوا إلى فرعون فقالوا له : إن كنت رباً كما تزعم فاملأ لنا نيل مصر ، فقال : غُدْوة يصبِّحكم الماء ، فلما خرجوا من عنده ، قال : أيَّ شيء صنعت ؟ أنا أقدر أن أجيء بالماء في نيل مصر غدوة أصبح ، فيكذِّبوني ؟ ! فلما كان جوف الليل ، اغتسل ، ثم لبس مِدرعة من صوف ، ثم خرج حافياً حتى اتى بطن نيل مصر فقام في بطنه ، فقال : اللهم إنك تعلم أني أعلم أنك تقدر أن تملأ نيل مصر ماء ، فاملأه ، فما علم إلا بخرير الماء لما أراد الله به من الهلكة .

قلت : وهذا الحديث بعيد الصحة ، لأن الرجل كان دهرياً لا يثبت إلهاً ، ولو صح ، كان إقراره بذلك كاقرار ابليس ، وتبقى مخالفته عناداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(104/283)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بالسنين ﴾

يعني الجدوب .

وهذا معروف في اللغة ؛ يقال : أصابتهم سَنَة ، أي جَدب .

وتقديره جَدْبُ سنة .

وفي الحديث : " اللَّهُمَّ اجعلها عليهم سِنين كسِني يوسفَ " ومن العرب من يُعرب النون في السنين ؛ وأنشد الفراء :

أرَى مَرّ السنينِ أخَذْنَ مِنّي . . .

كما أخَذَ السِّرار من الهلال

قال النحاس : وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون ؛ ولكن أنشد في هذا مالا يجوز غيره ، وهو قوله :

وقد جَاوَزْتُ رأسَ الأربعينِ . . .

وحكى الفراء عن بني عامر أنهم يقولون : أقمتُ عنده سِنِيناً يا هذا ؛ مصروفاً .

قال : وبنو تميم لا يصرفون ويقولون : مضت له سنينُ يا هذا .

وسنينُ جمع سنة ، والسنة هنا بمعنى الجدب لا بمعنى الحَوْل .

ومنه أسْنَتَ القوم أي أجدبوا .

قال عبد الله بن الزِّبَعْرى :

عَمْرُو العُلاَ هَشَمَ الثَّرِيد لقومه . . .

ورجالُ مكةَ مُسنِتُون عِجافُ

﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي ليتعظوا وترِق قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾

يعني بالقحط والجدب .

تقول العرب : مستهم السنة بمعنى أخذهم الجدب في السنة ويقال أسنتوا كما يقال أجدبوا

قال الشاعر :

ورجال مكة مسنتون عجاف . . .

ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) " اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف " ومعنى الآية : ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ يعني وإتلاف الغلات بالآفات .

قال قتادة أما السنون فلأهل البوادي وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار ﴿ لعلهم يذكرون

﴿ يعين لعلهم يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله من الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(105/283)

وقال أبو حيان :

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾

الأخذ التناول باليد ومعناه هنا الابتلاء في المدّة التي كان أقام بينهم موسى يدعوهم إلى الله ومعنى بالسنين بالقحوط والجدوب والسنة تطلق على الحول وتطلق على الجدب ضد الخصب وبهذا المعنى تكون من الأسماء الغالبة كالنجم والدّبران وقد اشتقوا منها بهذا المعنى فقالوا أسنت القوم إذا أجدبوا ومنه قوله :

ورجال مكة مسنتوون عجاف . . .

وقال حاتم :

فإنا نهين المال من غير ضنّة . . .

ولا يستكينا في السنين ضريرها

وفي سنين لغتان أشهرهما إعرابها بالواو ورفعاً والياء جرّاً ونصباً وقد تكلف النحاة علة

لكونها جمعت هذا الجمع والأخرى جعل الإعراب في النون والتزام الياء في الأحوال الثلاثة نقلها أبو زيد والفراء ، وقال الفراء : هي في هذه اللغة مصروفة عند بني عامر وغير مصروفة عند غيرهم والكلام على ذلك أمعن في كتب النحو وكان هذا الجدب سبع سنين ، قال ابن عباس وقتادة : أما السّنون فكانت لباديتهم ومواشيهم وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم وهذه سيرة الله في الأمم يبتليها بالنقم ليزدجروا ويتذكروا بذلك ما كانوا فيه من النعم فإنّ الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب والرجوع إلى طلب لطف الله وإحسانه وكذا فعل بقريش حين دعا عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف وروي أنه يبس لهم كل شيء حتى نيل مصر ونقصوا من الثمرات حتى كانت النخلة تحمل الثمرة الواحدة ومعنى ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ رجاء لتذكرهم وتنبههم على أن ذلك الابتلاء إنما هو لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله فيزدجروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(106/283)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين ﴾

شروعٌ في تفصيل مبادي الهلاكِ الموعودِ وإيذانٌ بأنه تعالى لم يُمهِلْهم بعد ذلك ولم يكونوا في خفْضٍ ودَعَةٍ بل رُتّبت أسبابُ هلاكِهم فتحولوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذابُ الاستئصالِ ، وتصديرُ الجملة بالقسم لإظهار الاعتناءِ بمضمونها ، والسنونَ جمعُ سنة والمرادُ بها عامُ القحطِ وفيها لغتانِ أشهرُهما إجراؤها مُجرى المذكرِ السالمِ فيرفع بالواو ويُنصَب ويُجرُّ بالياء ويحذف نونُه بالإضافة . واللغةُ الثانية إجراءُ الإعراب على النون ولكن مع الياء خاصةً إما بإثبات تنوينها أو بحذفه . قال الفراء : هي في هذه اللغةِ مصروفةٌ عند بني عامرٍ وغيرُ مصروفةٍ عند بني تميم ، ووجهُ حذف التنوينِ التخفيفُ وحينئذ لا يُحذف النونُ للإضافة وعلى ذلك جاء قوله الشاعر :

دعانيَ من نجدٍ فإن سنينَه . . . لِعِبْنَ بنا شيباً وشيَّبْننا مُرْدا

وجاء الحديث : " اللهم اجعلْها عليهم سنينَ كسِني يوسُفَ " ، وسنينَ كسنينِ يوسف باللغتين ﴿ وَنَقْصٍ مّن الثمرات ﴾ بإصابة العاهات . عن كعبٍ يأتي على الناس زمانٌ لا تحمل النخلةُ إلا ثمرةً ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أما السنونَ فكانت لباديتهم وأهلِ ماشيتِهم وأما نقصُ الثمرات فكان في أمصارهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ كي يتذكروا ويتعظوا بذلك ويقفوا على أن ذلك لأجل معاصيهم وينزجروا عما هم عليه من العُتوّ والعناد . قال الزجاج : إن أحوالَ الشدةِ ترقّقُ القلوب وترغّب فيما عند الله عز وجل وفي الرجوع إليه تعالى ، ألا يُرى إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ وقد

مر تحقيقُ القول في لعل وفي محلها في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ في أوائل سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(107/283)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين ﴾

شروع في تفصيل مبادي الهلاك الموعود به وإيذان بأنهم لم يمهلوا حتى تحولوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال ، وتصديق الجملة بالقسم لإظهار الاعتناء بمضمونها ، والمراد بآل فرعون أتباعه من القبط ، وإضافة الآل إليه وهو لا يضاف إلا إلى الإشراف لما فيه من الشرف الدنيوي الظاهر وإن كان في نفس الأمر خسيساً ، وعن الخطيب أن المراد فرعون وإله ، والسنسن جمع سنة والمراد بها عام القحط وقد غلبت في ذلك حتى صارت كالعلم له لكثرة ما يذكر ويؤرخ به ولا كذلك العام الخصب ، ولامها واو أو هاء ، وقد اشتقوا منها فقالوا : أسنت القوم إذا قحطوا ، وقلوبا اللام تاء ليفرقوا بين ذلك وقولهم أسنى القوم إذا لبثوا في موضع سنة ، قال المازني : وهو شاذ لا يقاس عليه ، وقال الفراء : توهموا أن الهاء أصلية إذ وجدوها أصلية فقلبوها تاء وجاء أصابتنا سنية حمراء

أي جدب شديد فالتصغير للتعظيم وإجراء الجمع مجرى سائر الجموع السالمة المعربة بالحروف هو اللغة المشهورة واللغة الأخرى إجراء الإعراب على النون لكن مع الياء خاصة فيسلك فيه مسلك حين في الإعراب بالحركات الثلاث مع التوين عند بني عامر وبنو تميم لا ينونون تخفيفاً وحينئذ لا تحذف النون للإضافة وعلى ذلك جاء قول الشاعر :

دعاني من نجد فإن سنينه . . .

لعبن بنا شيباً وشيبننا مرداً

(108/283)

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف عليه السلام " وهو على اللغة المشهورة ﴿ وَنَقْصٍ مّن الثمرات ﴾ بكثرة عاهات الثمار وخروج اليسير منها حتى لا تحمل النخلة كما روى عن رجاء بن حيوة إلا بسرة واحدة وكان الحقط على ما أخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة في باديتهم وأهل ماشيتهم والنقص في أمصارهم وقراهم ، وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : لما أخذ الله تعالى آل فرعون بالسنين يبس كل شيء لهم وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر فاجتمعوا إلى فرعون وقالوا له : إن كنت كما تزعم فائتنا في

نيل مصر بماء فقال : غدوة يصبحكم الماء فلما خرجوا من عنده قال أي شيء صنعت ؟ أنا لا أقدر على ذلك فغداً يكذبونني ، فلما كان جوف الليل قال واغتسل ولبس مدرعة صوف ثم خرج حافياً حتى أتى النيل فقام في بطنه فقال : اللهم إنك تعلم أني أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ماء فما علم إلا بخرير الماء يقبل فخرج وأقبل النيل مترعاً بالماء لما أراد الله تعالى بهم من الهلكة ، وهذا إن صح يدل على أن الرجل لم يكن دهرياً نافياً للصانع كما يقال البعض ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي لكي يتعظوا فيتركوا ما هم عليه أو لكي يذكروا الله تعالى فيتضرعوا له ويلتجئوا إليه رغبة فيما عنده ، وقيل : لكي يتذكروا أن فرعون لو كان إلهاً لدفع ذلك الضر .

وعن الزجاج أنهم إنما أخذوا بالضراء لأن أحوال الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله تعالى ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : 51] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(109/283)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

هذا انتقال إلى ذكر المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومه ، وجعلها آيات لموسى ، ليلجىء فرعون إلى الإذن لبني إسرائيل بالخروج ، وقد وقعت تلك الآيات بعد المعجزة الكبرى التي أظهرها الله لموسى في مجمع السحرة ، ويظهر أن فرعون أغضى عن تحقيق وعيده إبقاء على بني إسرائيل ، لأنهم كانوا يقومون بالأشغال العظيمة لفرعون .

ويُؤخذ من التوراة أن موسى بقي في قومه مدة يعيد محاولة فرعون أن يطلق بني إسرائيل ، وفرعون يَعد ويُخلف ، ولم تضبط التوراة مدة مقام موسى كذلك ، وظاهرها أن المدة لم تطُل ، وليس قوله تعالى : ﴿ بالسنين ﴾ دليلاً على أنها طالت أعواماً لأن السنين هنا جمع سنة بمعنى الجدْب لا بمعنى الزمن المقدر من الدهر .

فالسنة في كلام العرب إذا عرفت باللام يراد بها سنة الجدب ، والقحط ، وهي حينئذٍ علم جنس بالغلبة ، ومن ثَم اشتقوا منها : أسْنَت القومُ ، إذا أصابهم الجدب والقحط ، فالسنين في الآية مراد بها القحوط وجمعها باعتبار كثرة مواقعها أي : أصابهم القحط في جميع الأرضين والبلدان ، فالمعنى : ولقد أخذناهم بالقحوط العامة في كل أرض .

والأَخْذُ : هنا مجاز في القهر والغلبة ، كقوله : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [البقرة : 255] .

ويصح أن يكون هنا مجازاً في الإصابة بالشدائد ، لأن حقيقة الأخذ : تناول الشيء باليد ، وتعددت إطلاقاته ، فأطلق كناية عن الملك .

وأطلق استعارة للقهر والغلبة ، وللإهلاك .

وقد تقدمت معانيه متفرقة في السور الماضية .

وجملة ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ في موضع التعليل لجملة ﴿ ولقد أخذنا ﴾ فلذلك فصلت .

ونقص الثمرات قلة إنتاجها قلة غير معتادة لهم .

فتنوين ﴿ نقص ﴾ للتكثير ولذلك نكر (نقص) ولم يضف إلى (الثمرات) لئلا تفوت الدلالة على الكثرة .

(110/283)

فالسنون تنتاب المزارع والحقول ، ونقص الثمرات ينتاب الجنات .

و(لعل) للرجاء ، أي مرجوا تذكرهم ، لأن المصائب والأضرار المقارنة لتذكير موسى إياهم بربهم ، وتسريح عبيده ، من شأنها أن يكون أصحابها مرجواً منهم أن يتذكروا بأن ذلك عقاب على إعراضهم وعلى عدم تذكرهم ، لأن الله نصب العلامات للاهتداء إلى الخفيات كما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبيء ﴾ في هذه السورة (94) ، فشأن أهل الألباب أن يتذكروا ، فإذا لم يتذكروا ، فقد خيبوا ظن من يظن بهم ذلك مثل موسى وهارون ، أما الله تعالى فهو يعلم أنهم لا يتذكرون ولكنه أراد الإملاء لهم ، وقطع

عذرهم ، وذلك لا ينافي ما يدل عليه (لعل) من الرجاء لأن دلالتها على الراجي والمرجو منه دلالة عرفية ، وقد تقدم الكلام على وقوع (لعل) في كلام الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ في سورة البقرة (21) .

وفي هذه الآية تنبيه للأمة للنظر فيما يحيط بها من دلائل غضب الله فإن سلب النعمة للمنعم عليهم تنبيه لهم على استحقاقهم إعراض الله تعالى عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(111/283)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

وهكذا نرى أن الإهلاك لم يحدث دفعة واحدة ، بل على مراحل لعلهم إذا أصابتهم شدة يضرعون إلى الله .

نحن نعلم أن السنة هي العام . . أي من مدة إلى نهاية مدة مثلها ، لكنها تطلق – أيضاً – على الجدب والقحط . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في دعائه على قومه :

" اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف "

أي أن ينزل بهم سبحانه بعضاً من الجدب ليتأدبوا قليلاً .

ويقال : " أسنت القوم " أي أصابهم قحط وجدب . إذن فالسنة المراد منها هنا القحط والجدب .

ولماذا سماها سنة ؟ لأن نعم الله متوالية كثيرة ، وابتلاءاته لخلقه بالشرِّ قليلة في الكون ، وسبحانه ينعم عليهم مدة طويلة ثم يبتليهم في لحظة ، فإذا ما ابتلاهم في وقت يؤرخ به ، ويقال حدث الابتلاء سنة كذا فيقال : سنة الجراد ، سنة حريق القاهرة ، وهكذا نجد الناس تؤرخ بالأحداث المفجعة ؛ لأن الأحداث السارة عادة تكون أكثر من الأحداث السيئة . ولذلك قلنا إن الذي يعد أيام البلاء عليه أن يقارنها بأيام الرخاء ، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى أيام السنة التي عاشها ، إن جاء له يوم بلاء حزن نقل له : وكم مرة عشت ونعمت بالرخاء ؟ ونجد أن أيام الرخاء هي أكثر من أيام البلاء : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّنَ الثمرات ﴾ .

(112/283)

وعرفنا أن السنين – كما قلنا – تعني الجدب والقحط ، أما قوله سبحانه : ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الثمرات ﴾ فهو يدل على أن بعضاً من الثمار كان موجوداً ، أو كان الجدب والقحط في البادية ، أما " نقص الثمرات " فكان في الحضر ، ويقال : إن النخلة الواحدة في الحضر كانت لا تطرح في السنة إلا بلحة واحدة . ولماذا هذه البلحة ؟ لأن أسباب رحمته سبحانه يجب أن تبقى في خلقه ، ولو أن النخل كله لم يطرح ولا بلحة واحدة لانقطع نسل النخيل ؛ لذلك يُبقي الله أسباب رحمته لنا .

إننا نرى في واقعنا مهما حاولوا أن يستزرعوا فواكهه بدون بذور بواسطة التقدم العلمي المعاصر ، نجد ثمرة وقد شذت وفيها بذرة ، لماذا ؟ يقال لنا لاستبقاء النوع ، فلو خرجت كل الثمار بلا بذور ثم أكلناها جميعها فكيف نزرع محصولاً جديداً ؟ ولذلك قلنا من قبل إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بالخلق في استبقائه للنعم ومقومات الحياة لم يجعل الثمار حلوة تستساغ إلا بعد أن تَنْضج بذرتها ، فأنت حين تفتح البطيخة إن كان بذرها أبيض تجد طعمها لا يستساغ وترميها . لكن حين يسودَّ بذرها ويكون صالحاً لأن تعيد زراعته ، هنا تكون ثمرة البطيخة ناضجة وحلوة الطعم . وبذلك يوضح لك الحق أن الثمار لن تصير مقبولة ومستساغة إلا بعد أن تنضج بذرتها لتكون صالحة لاستنباتها من جديد ، وفي هذا استبقاء للرحمة ، وحتى مع العاصين نجده سبحانه يستبقي الرحمة معهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّن الثمرات لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 130]

(113/283)

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يعني أن على الإِنسان أن يتذكر أنه الخليفة في الأرض وأنه غير أصيل في الكون حتى يظل العالم مستقيماً . لكن الذي يفسد العالم أن الإِنسان حينما تستجيب له أسباب الحياة ، وسننها الكونية ويحرث ويبذر ويطلع الزرع ، ويشعل النار ويستخرج المياه من الآبار ينسى أن كل ذلك " أسباب " ولا يتذكر المُسبِّب إلا حينما تمتنع عليه الأسباب .

والمثال في حياتنا اليومية أن الإِنسان منا إذا جاء ليفتح صنبور المياه في البيت فلم يجد ماءً فيتجه أول ما يتجه إلى محبس المياه الذي يتحكم في مياه المنزل ويرى هل به خلل أو سدد ، وإن وجده سليماً ، يبحث هل أنبوبة وماسورة المياه الرئيسية مكسورة أو لا ؟ وإن كانت ماسورة المياه سليمة فهو يبحث عن الخلل في آلة رفع المياه ، ويظل يبحث في الأسباب الكثيرة ، وقديماً لم تكن المياه تأتي إلا من الآبار وعندما لا يوجد في البئر ماء يقول العبد : يا رب اسقني . والحضارة الآن أبعدتنا بالأسباب عن المسبِّب .

والحق قد أخذ قوم فرعون بالسنين ونقص الثمرات لينفض أيديهم من أسبابها ، فإذا نفضت اليد من الأسباب لم يبق إلا أن يلتفتوا إلى المسبّب ويقولون : " يا رب " ويقول القرآن عن الإنسان : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً . . . ﴾ [يونس : 12]

إذن فالإنسان يذكر المسبّب حين تمتنع عنه الأسباب ، لأنها مقومات الحياة ، فإذا امتنعت مقومات الحياة يقول الإنسان : يا رب ، وهكذا كان ابتلاء الله لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات ليذكروا خالقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(114/283)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ قال : السنون الجوع .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن

مجاهد في قوله ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ قال الجوائح ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ دون ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ قال : أخذهم الله بالسنين بالجوع عاماً فعاماً ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ فأما السنون فكان ذلك في باديتهم وأهل مواشيهم ، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم وقراهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن رجاء بن حيوة في قوله ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ قال : حتى لا تحمل النخلة إلا بسرة واحدة .

وأخرج الحكيم والترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شيء لهم ، وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر ، واجتمعوا إلى فرعون فقالوا له : إن كنت كما تزعم فأتنا في نيل مصر بماء . قال : غدوة يصبحكم الماء . فلما خرجوا من عنده قال : أي شيء صنعت . . . ! انا أقدر على أن أجري في نيل مصر ماء ، غدوة أصبح فيكذبونني . فلما كان في جوف الليل قام واغتسل ولبس مدرعة صوف ، ثم خرج حافياً حتى أتى نيل مصر فقام في بطنه فقال : اللهم إنك تعلم أني أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فأملاه ، فما علم إلا بخرير الماء يقبل ، فخرج

وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(115/283)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ ﴾

" السِّنِينَ " : جمعُ سنة ، وفيها لغتان أشهرهما : إجْرَاؤُهُ مُجرَى المُذكر السَّالم فيُرفع بالواو ويُنْصَبُ ويُجَرُّ بالياء ، وتُحْذَفُ نُونُه للإضافة .

قال النُّحَاةُ : إنَّمَا جرى ذلك المجرى جَبْراً لما فاته من لامة المحذوفةِ ، وسيأتي في لامه كلامٌ ،

واللغة الثانيةُ : أن يُجْعَلَ الإعرابُ على النُّون ولكن مع الياء خاصَّةً .

نقل هذه اللُّغة أبو زيد والفراءُ .

ثم لك فيها لغتان : إحدهما : ثبوتُ تنوينها .

والثانية : عدمهُ .

قال الفرَّاءُ : هي في هذه اللُّغة مصروفة عند بني عامر ، وغير مصروفة عند بني تميم ،

ووجه حذف التنوين التَّخفيف ، وحينئذ لا تُحْذَفُ النُّون للإضافة وعلى ذلك جاء قوله :

[الطويل]

2547 - دَعَانِي مِنْ نَجْدٍ فإنَّ سِنِينَهُ . . .

لَعِبْنَ بِنَا شيباً وشَيَّبْنَنَا مُرْدَا

(116/283)

وجاء في الحديث : " اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عليهم سنينَ كَسِنِي يُوسُفَ " " وسِنيناً كسِنِينِ يُوسفُ " باللُّغتين ، وفي لام سَنَةٍ لغتان ، أحدهما : أنَّهَا واو لقولهم : سنوات وسَانَيْتُ ، وسُنَيَّةٌ . الثانية : أنَّها هاء لقولهم : سانَهْتُ وسَنَهَات وسُنَيْهَة ، وليس هذا الحكمُ المذكور أعني : جريانه مجرى جمع المذكر أو إعرابه بالحركات مقتصراً على لفظ " سِنِينَ " بل هو جارٍ في كلِّ اسم ثلاثي مؤنث حُذِفَتْ لامُهُ ، وعُوِّضَ منها تَاءُ التَّأنيثِ ، ولم يُجْمَع جمع تكسير نحو : ثُبَةٍ وثُبين ، وقُلة ، وقُلينَ .

فصل

قال شهابُ الدِّين : " وتَحرَّزْتُ بقولي : حُذِفَتْ لامُه مِمَّا حُذِفَتْ فاؤه ، نحو : لِدة وعِدَة . وبقولي ولم يُجْمع جمع تكسير من ظُبَةٍ وظُبّى ، وقد شَذَّ قولهم : لِدُونَ في المحذوف الفاء ،

وظِبُونَ في المكسَّر .

2548 - يَرَى الرَّاءُونَ بالشَّفَرَاتِ مِنْهَا . . .

وقُودَ أبِي حُبَاحِبَ والظُّبِينَا

واعلم أنَّ هذا النَّوعَ إذَا جَرَى مَجْرَى الزيدينَ فإنْ كان مكسورَ الفاء سَلِمَتْ ، ولم تُغَيَّر نحو : مائة ومئين ، وفئة وفئين ، وإنْ كان مفتوحها كُسِرَتْ نحو : سنين ، وقد نُقِلَ فَتْحُها وهو قليلٌ جدّاً ، وإن كان مضمومَهَا جاز في جمعها الوجهان : أعني السَّلامة ، والكسر نحو : ثُبين وقُلين .

قال أبو عَلِي : السَّنة على معنيين : أحدهما : يراد بها العام .

والثاني : يراد بها الجدْب .

وقد غلبت السَّنَةُ على زمانِ الجدْبِ ، والعام على زمان الخصب حتى صَارَا كالعلم بالغلبة ولذلك أشتقُّوا من لفظ السَّنَةِ فقالوا : أسْنَتَ القَوْمُ .

قال : [الكامل]

2549 - عَمْرُوا الذي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ . . .

ورِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

وقال حاتم الطائِيُّ : [الطويل]

2550 - فإنَّا نُهينُ المَالَ مِنْ غَيْرِ ضِنَّةٍ . . .

وَلاَ يَشْتَكِينَا فِي السِّنِينَ ضَرِيرُهَا

(117/283)

ويُؤيِّدُ ذلك في سورة يوسف [الآية 47] : " ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ﴾ ثم قال : ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ [يوسف : 48] فهذا في الجدب .

وقال : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ الناس ﴾ [يوسف : 49] .

وقوله : " مِنَ الثَّمَرَاتِ " متعلّق بـ " نَقْصٍ " .

قال قتادةُ : أمَّا السنُونَ فلأهل البوادي ، وأمَّا نقص الثَّمراتِ فلأهل الأمصار .

" لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ " يتَّعظون ، وذلك لأنَّ الشدة ترقق القلوب ، وترغب فيما عند اللَّهِ .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : 51] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 274.276 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) ﴾

شدَّد عليهم وطأة القدرة بعد ما ضاعف لديهم أسباب النعمة ، فلا الوطأة أصلحتهم شِدَّتُها ولا النعمة نبهتهم كثرتها ، لا بل إنْ مَسَّهم يُسْرٌ لاحظوه بعين الاستحقاق ، وإن مَسَّهُم عُسْرٌ حملوه على التَّطَيُّرِ بموسى – عليه السلام – بمقتضى الاغترار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 559 ﴾

(118/283)

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لم يتذكروا ولا لانوا ، سبب عن أخذهم قوله معرفاً بغباوتهم معبراً في الخير بأداة التحقيق إشارة إلى أنه أغلب من الشر ، حثاً على الشكر : ﴿ فإذا ﴾ أي فما تسبب عن ذلك إلا أنهم كانوا إذا ﴿ جاءتهم الحسنة ﴾ أي الحالة الكاملة التي يحبونها من الخصب وغيره ، وعرفها بعد تحقيقها إشارة إلى إكمالها ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي نحن حقيقون بها ، ودل على أن الخير أكثر من غيره بقوله بأداة الشك مع التنكير : ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي

حالة يكرهونها .

ولما كانت افصابة بالسيئات تخصهم ولا يلحق بني إسرائيل منها شيء ، فكان إظهارهم للتطير بهم ظاهراً في ردهم عليهم وتكذيبهم فيه ، أشار سبحانه بإدغام التاء إلى أنهم كانوا إنما يدسونه إلى من يمكنهم اختداعه من الجهلة والأغبياء على وجه الحلية والخفاء ، بخلاف ما في يس فقال : ﴿ يطيروا ﴾ أي يتشاءموا ﴿ بموسى ومن معه ﴾ أي بأن يقولوا : ما حصل لنا هذا السوء إلا بشؤمهم ، وهو تفعل من الطير ، وهو تعمد قصد الطير لأن يطير للتفاؤل به خير أو شر ، وأصله أن العرب كانوا إذا مر الطائر من ميامنهم إلى جهة مياسرهم قالوا : بارح ، أي مشؤوم ، من البرح وهو الشدة ، فإذا طار من جهة اليسار إلى جهة اليمين عدوه مباركاً ، قالوا : من لي بالسانح بعد البارح ، أي بالمبارك بعد المشؤوم ، وعرف أن المراد هنا التشاؤم لاقترانه بالسيئة .

ولما كذبوا في الموضعين ، قال مستأنفاً على وجه التأكيد : ﴿ ألا إنما طائرهم ﴾ أي قدرهم الذي سبق في الأزل من الخير والشر فلا يزداد ولا ينقص ﴿ عند الله ﴾ أي الملك الذي لا أمر لغيره وقد قدر كل شيء ، فلا يقدر على المجيء به غيره أصلاً ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي لا علم لهم أصلاً فهم لا يهتدون إلى ما ينفعهم ويظنون أن للعباد مدخلاً في ذلك ، فلذلك تراهم يضيفون الأشياء إلى أسباب يتوهمونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 89 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى أنهم عند نزول تلك المحن عليهم يقدمون على ما يزيد في كفرهم ومعصيتهم فقال : ﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الحسنة قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ قال ابن عباس : يريد بالحسنة العشب والخصب والثمار والمواشي والسعة في الرزق والعافية والسلامة ﴿ قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ أي نحن مستحقون على العادة التي جرت من كثرة نعمنا وسعة أرزاقنا ، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروه عليه ويقوموا بحق النعمة فيه .

وقوله : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ يريد القحط والجدب والمرض والضر والبلاء ﴿ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ﴾ أي يتشاءموا به .

ويقولوا إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه ، والتطير التشاؤم في قول جميع المفسرين وقوله : ﴿ يَطَّيَّرُواْ ﴾ هو في الأصل يتطيروا ، أدغمت التاء في الطاء ، لأنهما من مكان واحد من طرف اللسان وأصول الثنايا وقوله : ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله ﴾ في الطائر قولان :

القول الأول : قال ابن عباس : يريد شؤمهم عند الله تعالى أي من قبل الله أي إنما جاءهم الشر بقضاء الله وحكمه ، فالطائر ههنا الشؤم .

ومثله قوله تعالى في قصة ثمود : ﴿ قَالُواْ اطيرنا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ الله ﴾ قال الفراء : وقد تشاءمت اليهود بالنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقالوا غلت أسعارنا وقلت أمطارنا مذ أتانا ، قال الأزهري : وقيل للشؤم طائر وطير وطيرة ، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها ، والتطير ببارحها ، ونعيق غربانها ، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها ، فسموا الشؤم طيراً وطائراً وطيرة لتشاؤمهم بها .

ثم أعلم الله تعالى على لسان رسوله أن طيرتهم باطلة ، فقال : ﴿ لا طيرة ولا هام ﴾ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتفاءل ، ولا يتطير .

(120/283)

وأصل الفأل الكلمة الحسنة ، وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد ، فأثبت النبي صلى الله عليه وسلم الفأل وأبطل الطيرة قال محمد الرازي رحمه الله : ولا بد من ذكر فرق بين البابين .

والأقرب أن يقال : إن الأرواح الإنسانية أصفى وأقوى من الأرواح البهيمية والطيرية .

فالكلمة التي تجري على لسان الإنسان يمكن الاستدلال بها بخلاف طيران الطير ، وحركات البهائم ، فإن أرواحها ضعيفة ، فلا يمكن الاستدلال بها على شيء من الأحوال .

القول الثاني : في تفسير الطائر قال أبو عبيدة : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي حظهم . وهو ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إنما طائرهم ما قضي عليهم وقدر لهم والعرب تقول : أطرت المال وطيرته بين القوم فطار لكل منهم سهمه .

أي حصل له ذلك السهم .

واعلم أن على كلا القولين ، المعنى : أن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله تعالى وبتقديره ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الكل من الله تعالى ، وذلك لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة ويقطونها عن قضاء الله تعالى وتقديره ، والحق أن الكل من الله ، لأن كل موجود ، فهو إما واجب الوجود لذاته أو ممكن لذاته ، والواجب واحد وما سواه ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذته ، وبهذا الطريق يكون الكل من الله فإسنادها إلى غير الله يكون جهلاً بكمال الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 175.176 ﴾

(121/283)

وقال السمرقندى :

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الحسنة ﴾

يعني : الخير والخصب والرخاء ﴿ قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ يعني : نحن أهل لهذه الحسنة وأحق بها ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ يعني : القحط والبلاء والشدة ﴿ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ﴾ وأصله يتطيروا فأدغمت التاء في الطاء .

كقوله : ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي يتشاءمون بموسى ومن معه على دينه .

قال الله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله ﴾ يعني : إن الذي أصابهم من عند الله وبفعلهم .

ويقال : إنما الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة لا ما ينالهم في الدنيا ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه من الله تعالى ولا يعلمون ما عليهم في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَعَهُ ﴾

في الحسنة والسيئة هنا وجهان :

أحدهما : أن الحسنة الخصب ، السيئة القحط .

والثاني : أن الحسنة الأمن ، والسيئة ، الخوف .

﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أي كانت حالنا في أوطاننا وقبل اتباعنا لك ، جهلاً منهم بأن الله تعالى هو المولى لها .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ أي يتشاءَمون بموسى ويقولون هذا من اتباعنا إياك وطاعتنا لك ، على ما كانت العرب تزجر الطير فتتشاءم بالبارح وهو الذي يأتي من جهة الشمال ، وتتبرك بالسانح وهو الذي يأتي من جهة اليمين ، ثم قال رداً لقولهم .

﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي طائر البركة وطائر الشؤم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(122/283)

وقال ابن عطية :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾

كان القصد في إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أن ينيبوا ويرجعوا فإذا بهم قد ضلوا وجعلوها تشاؤماً بموسى فكانوا إذا اتفق لهم اتفاق حسن في غلات ونحوها قالوا هذا لنا

وبسببنا وعلى الحقيقة لنا ، وإذا نالهم ضر قالوا هذا بسبب موسى وشؤمه ، قاله مجاهد وغيره ، وقرأ جمهور الناس بالياء وشد الطاء والياء الأخيرة " يطّيروا " ، وقرأ عيسى بن عمرو وطلحة بن مصرف بالتاء وتخفيف الطاء " تطيروا " ، وقرأ مجاهد " تشاءموا بموسى " بالتاء من فوق وبلفظ الشؤم .

وقوله تعالى : ﴿ ألا إنما طائرهم ﴾ معناه حظهم ونصيبهم ، قاله ابن عباس وهو مأخوذ من زجر الطير فسمي ما عند الله من القدر للإنسان طائراً لما كان الإنسان يعتقد أن كل ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر ، فهي لفظة مستعارة ، وقرأ جمهور الناس " طائرهم " ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " طيرهم " . وقال ﴿ أكثرهم ﴾ وجميعهم لا يعلم إما لأن القليل علم كالرجل المؤمن وآسية امرأت فرعون وإما أن يراد الجميع وتجوز في العبارة لأجل الإمكان ، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله ﴿ طائرهم ﴾ لجميع العالم ويجيء تخصيص الأكثر على ظاهره ، ويحتمل أن يريد ولكن أكثرهم ليس قريباً أن يعلم لانغمارهم في الجهل ، وعلى هذا فيهم قليل معد لأن يعلم لو وفقه الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(123/283)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾

وهي : الغيث والخصب وسعة الرزق والسلامة ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي : نحن مستحقوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق ، ولم يعلموا أنه من الله فيشكُروا عليه .

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ وهي القحط والجدب والبلاء ﴿ يطَّيروا بموسى ومن معه ﴾ أي : يتشاءموا بهم .

وكانت العرب تزجر الطير ، فتتشاءم بالبارح ، وهو الذي يأتي من جهة الشمال ، وتتبرك بالسانح ، وهو الذي يأتي من جهة اليمين .

قوله تعالى : ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ قال أبو عبيدة : "ألا" تنبيه وتوكيد ومجاز .

﴿ طائرهم ﴾ حظهم ونصيبهم وقال ابن عباس : ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أي : إن الذي أصابهم من الله .

وقال الزجاج : المعنى : ألا إن الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وُعدوا به في الآخرة ، لا ما ينالهم في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(124/283)

وقال القرطبى :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾

فيه مسألتان :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الحسنة ﴾ أي الخِصْب والسَّعة .

﴿ قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ أي أعْطيناها باستحقاق .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي قَحْط ومرض ، وهي المسألة :

الثانية ﴿ يَطَّيَّرُواْ بموسى ﴾ أي يتشاءموا به .

نظيره ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء : 78] .

والأصل "يتطيروا" أدغمت التاء في الطاء .

وقرأ طلحة : "تطيّروا" على أنه فعل ماض .

والأصل في هذا من الطِّيرةِ وزَجْر الطَّير ، ثم كثُرَ استعمالهم حتى قيل لكل من تشاءم : تَطَيَّر .

وكانت العرب تتيمّن بالسّانح : وهو الذي يأتي من ناحية اليمين .

وتتشاءم بالبارح ؛ وهو الذي يأتي من ناحية الشّمال .

وكانوا يتطيرون أيضاً بصوت الغراب ؛ ويتأوّلونه البَيْن .

وكانوا يستدِلون بمجاوبات الطيور بعضِها بعضاً على أُمور ، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك .

وهكذا الظِّباء إذا مضت سانحة أو بارحة ، ويقولون إذا بَرَحت : "مَنْ لي بالسّانح بعد البارح" .

إلا أنّ أقوى ما عندهم كان يقع في جميع الطير ؛ فسمَّوْا الجميع تَطَيُّراً من هذا الوجه .

وتطيّر الأعاجمُ إذا رأُوا صبيّاً يذهب به إلى المُعَلِّم بالغداة ، ويتيمَّنون برؤية صبيّ يرجع من عند المعلم إلى بيته ، ويتشاءمون برؤية السَّقاء على ظهره قِربة مملوءةٌ مشدودة ، ويتيمّنون برؤية فارغ السِّقاء مفتوحة قربته ؛ ويتشاءمون بالحَمّال المثقّل بالحِمْل ، والدابة المُوقرة ، ويتيمنون بالحَمّال الذي وضع حِمله ، وبالدابة يُحَطّ عنها ثِقْلُها .

(125/283)

فجاء الإسلام بالنَّهْي عن التّطيّر والتشاؤم بما يُسمع من صوتِ طائرٍ ما كان ، وعلى أيّ حال كان ؛ فقال عليه السلام : " أَقِرُّوا الطير على مَكِناتها " وذلك إن كثيراً من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير في وكْرها فنفّرها ؛ فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته ، وهذا هو السانح عندهم .

وإن أخذت ذات الشمال رجع ، وهذا هو البارح عندهم .

فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن هذا بقوله : " أَقِرُّوا الطير على مكناتها " هكذا في الحديث .

وأهل العربية يقولون : "وُكُناتها" قال امرؤ القيس :

وقد أغْتَدِي والطّيْر في وُكناتها . . .

والوُكْنة : اسم لكلّ وكْر وعُشّ .

والوكن : موضع الطائر الذي يبيض فيه ويُفْرِخ ، وهو الخرق في الحيطان والشجر .

ويقال : وَكَن الطائر يَكِن وكُوناً إذا حضن بيضه .

وكان أيضاً من العرب من لا يرى التطيّر شيئاً ، ويمدحون من كذّب به .

قال المُرَقَّش :

ولقد غَدَوْتُ وكنتُ لا . . .

أغدُو على وَاقٍ وحاتم

فإذا الأشائِمُ كالأيا . . .

مِنِ والأيامِنُ كالأشائم

وقال عكرمة : كنت عند ابن عباس فمرّ طائر يصيح ؛ فقال رجل من القوم : خير ، خير .

فقال ابن عباس : ما عند هذا لا خير ولا شر .

قال علماؤنا : وأما أقوال الطير فلا تعلّق لها بما يجعل دلالة عليه ، ولا لها علم بكائن فضلاً عن مستقبل فتُخبِر به ، ولا في الناس من يعلم منطق الطير ؛ إلا ما كان الله تعالى خصّ به سليمان صلى الله عليه وسلم من ذلك ، فالتحق التطيّر بجملة الباطل .

والله أعلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : " ليس مِنّا من تحلّم أو تكهّن أو ردّه عن سفره تطيّر " وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الطِّيَرة شرك ثلاثاً وما مِنا إلاّ ولكِنّ الله يذهبه بالتوكّل " وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " "من رجّعته الطِّيرة عن حاجته فقد أشرك" .

(126/283)

قيل : وما كفارة ذلك يا رسول الله ؟ قال : "أن يقول أحدهم اللَّهُمّ لا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ ولا خَيْرَ إلاَّ خَيْرُكَ ولا إله غيرُك ثم يمضي لحاجته" " وفي خبر آخر : " "إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللَّهُمّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بك" .

ثم يذهب متوكّلاً على الله ؛ فإن الله يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك ، وكفاه الله تعالى ما يُهِمّه " وقد تقدم في "المائدة" الفرق بين الفأل والطيرة .

﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ وقرأ الحسن "طَيْرُهم" جمع طائر .

أي ما قُدّر لهم وعليهم .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما لحِقهم من القَحط والشدائد إنما هو من عند الله عز وجل بذنوبهم لا من عند موسى وقومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(127/283)

وقال الخازن :

ثم بين الله تعالى أنهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً فقال تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ يعني الغيث والخصب والسعة والعافية والسلامة من الآفات ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي نحن مستحقون لها ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الأرزاق وصحة الأبدان ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على إنعامه ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ يعني القحط والجدب والمرض والبلاء ورأوا ما يكرهون في أنفسهم ﴿ يطيروا ﴾ يعني يتشاءموا وأصله يتطيروا والتطير التشاؤم في قول جميع المفسرين ﴿ بموسى ومن معه ﴾ يعني أنهم قالوا ما أصابنا بلاء إلا حين رأيناهم وما ذلك

إلا بشؤم موسى وقومه .

قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر : كان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين وسنة لم يروا مكروهاً قط ولو كان حصل له في تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ يعني أن نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله قال ابن عباس طائرهم ما قضي لهم وقدر عليهم من عند الله وفي رواية عنه شؤمهم عند الله تعالى ومعناه أنه إنما جاءهم بكفرهم بالله وقيل الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يعني أن ما أصابهم من الله تعالى وإنما قال تعالى وإنما قال أكثرهم لا يعلمون لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى القضاء والقدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(128/283)

وقال أبو حيان :

﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قَالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾

ابتلوا بالجدب ونقص الثمرات رجاء التذكير فلم يقع المرجو وصاروا إذا أخصبوا وصحّوا

قالوا : نحن أحقاء بذلك وإذا أصابهم ما يسوءهم تشاءموا بموسى وزعموا أن ذلك بسببه واللام في ﴿ لنا ﴾ قيل للاستحقاق كما تقول السّرج للفرس وتشاؤمهم بموسى ومن معه معناه أنه لولا كونهم فينا لم يصبنا كما قال الكفار للرسول عليه السلام هذه من عندك في قوله ﴿ وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ وأتى الشرط بإذا في مجيء الحسنة وهي لما تيقن وجوده لأنّ إحسان الله هو المعهود الواسع العام لخلقه بحيث أنّ إحسانه لخلقه عام حتى في حال الابتلاء وأتى الشرط بأن في إصابة السيئة وهي للممكن إبراز أن إصابة السيئة مما قد يقع وقد لا يقع وجهه رحمة الله أوسع ، قال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف قيل ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ بإذا وتعريف الحسنة ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ بأن وتنكير السيئة (قلت) : لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا يسير منها ومنه قول بعضهم وقد عددت أيام البلاء فهلا عددت أيام الرجاء انتهى ، وقرأ عيسى بن عمرو طلحة بن مصرّف تطيروا بالتاء وتخفيف الطاء فعلاً ماضياً وهو جواب ﴿ وإن تصبهم ﴾ وهذا عند سيبويه مخصوص بالشعر أعني أن يكون فعل الشرط مضارعاً وفعل الجزاء ماضي اللفظ نحو قول الشاعر :

من يكدني بسيىء كنت منه . . .

كالشجى بين حلقه والوريد

وبعض النحويين يجوزه في الكلام وما روي من أن مجاهداً قرأ تشاءموا مكان ﴿ تطيروا ﴾ فينبغي أن يحمل ذلك على التفسير لا على أنه قرآن لمخالفته سواد المصحف .

(129/283)

﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ قال ابن عباس ﴿ طائرهم ﴾ ما يصيبهم أي ما طار لهم في القدر مما هم لا قوة وهو مأخوذ من زجر الطير سمى ما عند الله من القدر للإنسان طائراً لما كان يعتقد أن كل ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر فهي لفظة مستعارة قاله ابن عطية ، وقال الزمخشري : أي سبب خيرهم وشرّهم عند الله تعالى وهو حكمه ومشيئته والله تعالى هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة وليس شؤم أحدهم ولا يمنه بسبب فيه كقوله تعالى ﴿ قل كل من عند الله ﴾ ويجوز أن يكون معناه ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده يجري عليهم ما يسوءهم لأجله ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله تعالى في قوله ﴿ النار يعرضون عليها ﴾ الآية ولا طائر أشأم من هذا ، وقرأ الحسن ألا إنما طيرهم وحكم بنفي العلم عن أكثرهم لأنّ القليل منهم علم كمؤمن آل فرعون وآسية امرأة فرعون ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن كون الضمير في ﴿ طائرهم ﴾ لضمير العالم ويجيء تخصيص الأكثر على ظاهره ويحتمل أن يريد و ﴿

لكن أكثرهم ﴾ ليس قريباً أن يعلم لانغمارهم في الجهل وعلى هذا فيهم قليل معدّ لأن يعلم لو وفقه الله انتهى ، وهما احتمالان بعيدان وأبعد منه قوله وإمّا أن يراد الجمع وتجوّز في العبارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(130/283)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الحسنة ﴾ الخ ،

بيانٌ لعدم تذكّرِهم وتماديهم في الغي أي فإذا جاءتهم السعةُ والخِصْبُ وغيرُهما من الخيرات ﴿ قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ أي لأجلنا واستحقاقِنا لها ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيّئَةٌ ﴾ أي جدْبٌ وبلاء ﴿ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ﴾ أي يتشاءموا بهم ويقولوا : ما أصابتنا إلا بشؤمهم وهذا كما ترى شاهدٌ بكمال قساوةِ قلوبِهم ونهايةِ جهلِهم وغباوتِهم فإن الشدائدَ ترقّقُ القلوبَ وتُلين العرائكَ لا سيما بعد مشاهدةِ الآياتِ وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيءٌ منها بل ازدادوا عتوّاً وعِناداً ، وتعريفُ الحسنةِ وذِكرُها بأداة التحقيقِ للإيذان بكثرة وقوعِها وتعلقِ الإرادةِ بها بالذات كما أن تنكيرَ السيئةِ وإيرادَها بحرف الشكّ للإشعار بنُدرة وقوعِها وعدم تعلّقِ الإرادةِ بها إلا بالعَرَض وقوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله ﴾

استئنافٌ مَسوقٌ من قِبَله تعالى لرد مقالِتهم الباطلةِ وتحقيقِ الحقّ في ذلك ، وتصديرُه بكلمة التنبيهِ لإبراز كمالِ العنايةِ بمضمونه ، أي ليس سببُ خيرِهم إلا عنده تعالى وهو حكمُه ومشيئتُه المتضمنةُ للحِكَم والمصالحِ ، أو ليس شؤمِهم وهو أعمالُهم السيئةُ إلا عنده تعالى أي مكتوبةٌ لديه فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم لا ما عداها ، وقرىء إنما طَيرُهم وهو اسمٌ جمعُ طائرٍ وقيل : جمعٌ له ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون مما حُكي عنهم ، وإسنادُ عدمِ العلمِ إلى أكثرهم للإشعار بأن بعضَهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشرّ من جهة الله تعالى أو يعلمون أن ما أصابهم من المصائب والبلايا ليس إلا بما كسبتْ أيديهم ولكن لا يعلمون بمقتضاه عِناداً واستكباراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(131/283)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الحسنة ﴾ الخ

بيان لعدم تذكرهم وتماديهم في الغي ، والمراد بالحسنة كما يفهمه ظاهر كلام البعض الخصب والرخاء ، وفسرها مجاهد بالرخاء والعافية وبعضهم بأعم من ذلك أي إذا جاءهم ما

يستحسنونه ﴿ قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ أي إنا مستحقوها بيمن الذات ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي ضيقة وجدب أو جدب ومرض أو عقوبة وبلاء ﴿ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ﴾ أي يتشاءموا بهم ويقولوا : ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم ، وأصل إطلاق التطير على التشاؤم على ما قال الأزهري إن العرب كانت تزجر الطير فتتشاءم بالبارح وتتيمم بالسانح .

وفي المثل من إلى بالسانح بعد البارح ، قال أبو عبيد : سأل يونس رؤبة وأنا شاهد عن السانح والبارح فقال : السانح ما ولاك ميامنه والبارح ما ولاك مياسره ، وقيل : البارح ما يأتي من جهة الشمال والسانح ما يأتي من جهة اليمين وأنشدوا :

زجرت لها طير الشمال فإن يكن . . .

هواك الذي تهوى يصبك اجتنابها

ثم إنهم سموا الشؤم طيراً وطائراً والتساؤم تطيراً ، وقد يطلقون الطائر على الحظ والنصيب خيراً أو شراً حتى قيل : إن أصل التطير تفريق الما لو تطييره بين القوم فيطير لكل أحد نصيبه من خير أو شر ثم غلب في الشر .

وفي الآية إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل التماسك لا سيما بعد مشاهدة الآيات وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيء منها بل ازدادوا عتواً وعناداً ، وتعريف الحسنة وذكرها بأداة التحقيق كما قال غير واحد لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات لأن العناية الإلهية اقتضت سبق الرحمة وعموم

النعمة قبل حصول الأعمال ، وتنكير السيئة وذكرها بأداة الشك لندورها وعدم تعلق الإرادة بإحداثها إلا بالتبع فإن النقمة بمقتضى تلك العناية إنما تستحق بالأعمال .

(132/283)

والزمخشري بين الحسنة بالخصب والرخاء ثم قال في تعليل ما ذكر : لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها .

وقال "صاحب الكشف" : ذلك إشارة إلى أن التعريف للعهد الخارجي التقريري بدليل أنه ذكر في مقابلة قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذنَا آلَ فِرْعَوْنَ بالسنين ﴾ [الأعراف : 130]

وقوله : لأن الجنس الخ أي جنس الخصب والرخاء وفيه مبالغة أي إنه لكثرة الوقوع كأن الجنس كله واجب الوقوع ، ولهذا لا يزال يتكاثر حتى يستغرق الجنس .

وقوله : وإما السيئة الخ في مقابلة ذلك دليل بين على إرادة هذا المعنى فلا تخالف بين كلاميه ولم يرد بالجنس العهد الذهني وهذا مراد صاحب المفتاح وبه يندفع ما توهمه صاحب الإيضاح انتهى .

وفيه تعريض بشيخه الطيبي حيث حمل الجنس على العهد الذهني وقال ما قال والبحث طويل الذيل فليطلب من شروح المفتاح وشرح التلخيص للعلامة الثاني وحواشيه ، وقوله

سبحانه وتعالى : ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ ﴾ استئناف مسوق من قبله تعالى لرد مقالتهم الباطلة وتحقيق للحق في ذلك وتصديره بكلمة التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمونه أي ليس شؤمهم إلا عند الله أي من قبله وحكمه كما قال ابن عباس ، وقال الزجاج : المعنى ليس الشؤم الذي يلحقهم إلا الذي وعدوا به من العقاب عنده لا ما ينالهم في الدنيا ، وقال الحسن : المعنى إلا إن ما تشاءموا محفوظ عليهم حتى يجازيهم الله تعالى به يوم القيامة ، وفسر بعضهم الطائر هنا بالحظ أي إنما حظهم وما طار إليهم من القضاء والقدر بسبب شؤمهم عند الله ، وقرأ الحسن ﴿ إِنَّمَا ﴾ وهو اسم جمع طائر على الصحيح لأنه على أوزان المفردان ، وقال الأخفش هو جمع له ، وروى عن قطرب أن الطير يكون واحداً وجمعاً وكذا الطائر ، وأنشد ابن الأعرابي :

كأنه تهتان يوم ماطر . . .

على رؤوس كرؤوس الطائر

(133/283)

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلم ولكن لا يعمل بمقتضى علمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(134/283)

وقال ابن عاشور :

والفاء في قوله : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ لتفريع هذا الخبر على جملة ﴿ أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ أي : فكان حالهم إذا جاءتهم الحسنة الخ . . .

والمعنى : فلم يتذكروا ولكنهم زادوا كفراً وغروراً .

والمجيء : الحصول والإصابة ، وإنما عبر في جانب الحسنة بالمجيء لأن حصولها مرغوب ، فهي بحيث تُترقب كما يُترقَب الجائي ، وعبر في جانب السيئة بالإصابة لأنها تحصل فجأة من غير رغبة ولا ترقب .

وجيء في جانب الحسنة بإذا الشرطية لأن الغالب في (إذا) الدلالة على اليقين بوقوع الشرط أو ما يقرب من اليقين كقولك : إذا طلعت الشمس فعلتُ كذا ، ولذلك غلب أن يكون فعل الشرط مع (إذا) فعلاً ماضياً لكون الماضي أقرب إلى اليقين في الحصول من

المستقبل ، كما في الآية ، فالحسنات أي : النعم كثيرة الحصول تنتابهم متوالية من صحة وخصب ورخاء ورفاهية .

وجيء في جانب السيئة بحرف (إنْ) لأن الغالب أن تدل (إنْ) على التردد في وقوع الشرط ، أو على الشك ، ولكون الشيء النادر الحصول غير مجزوم بوقوعه ، ومشكوكاً فيه ، جيء في شرط إصابة السيئة بحرف (إنْ) لندرة وقوع السيئات أي : المكروهات عليهم ، بالنسبة إلى الحسنات ، أي : النعم ، وفي ذلك تعريض بأن نعم الله كانت متكاثرة لديهم وأنهم كانوا معرضين عن الشكر ، وتعريض بأن إصابتهم بالسيئات نادرة وهم يعدون السيئات من جراء موسى ومن آمن معه ، فهم في كلتا الحالتين بين كافرين بالنعمة وظالمين لموسى ومن معه ، ولهذين الاعتبارين عُرفت الحسنة تعريف الجنس المعروف في علم المعاني بالعهد الذهني ، أي : جاءتهم الحسنات ، لأن هذا الجنس محبوب مألوف كثير الحصول لديهم ، ونكرت ﴿ سيئة ﴾ لندرة وقوعها عليهم ، ولأنها شيء غير مألوف حلوله بهم ، أي : وإن تصبهم آية سيئة ، كذا في "الكشاف" و"المفتاح" .

(135/283)

واعْلم أن التفرقة بين تعريف الجنس والتنكير من لطائف الاستعمال البَلاغي ، كما أشرنا إليه في قوله تعالى : ﴿ الحمد لله ﴾ في سورة الفاتحة (2) ، وأما من جهة مُفاد اللفظ ، فالمعرف بلام الجنس والمنكرة سواء ، فلا تظن أن اللام للعهد لحسنة معهودة ووقوع المعرف بلام الجنس والنكرة في سياق الشرط ، في هذه الآية يعم كل حسنة وكل سيئة .

والحسنة والسيئة هنا مراد بهما الحالة الحسنة والحالة السيئة .

واللام في قوله ﴿ لنا ﴾ هذه لام الاستحقاق أي : هذه الحسنة حق لنا ، لأنهم بغرورهم يحسبون أنهم أحرياء بالنعم ، أي : فلا يرون تلك الحسنة فضلاً من الله ونعمة .

﴿ ويَطَّيَّرُوا ﴾ أصله يتَطيروا ، وهو تَفَعّلُ ، مشتق من اسم الطَيْرِ ، كأنهم صاغوه على وزن التفعّل لما فيه من تكلف معرفة حظ المرء بدلالة حركات الطير ، أو هو مطاوعة سمي بها ما يحصل من الانفعال من إثر طيران الطير .

وكان العرب إذا خرجوا في سفر لحاجة ، نظروا إلى ما يلاقيهم أول سيرهم من طائر ، فكانوا يزعمون أن في مروره علامات يُمن وعلامات تِشُؤم ، فالذي في طيرانه علامة يُمنٍ في إصطلاحهم يسمونه السانح ، وهو الذي ينهض فيطير من جهة اليمين للسائر والذي علامته الشؤم هو البَارح وهو الذي يمر على اليسار ، وإذا وجد السائر طيراً جاثماً آثاره لينظر أي جهة يطير ، وتسمى تلك الإثارة زجراً ، فمن الطير ميمون ومنه مشؤوم والعرب يدْعُون للمسافر بقولهم "على الطائر الميمون" ، ثم غلب استعمال لفظ التطير في معنى التشاؤم

خاصة ، يقال الطيرة أيضاً ، كما في الحديث

" لا طيرة وإنما الطيرَة على من تطيّر " أي : الشؤم يقع على من يتشاءم ، جعل الله ذلك عقوبة له في الدنيا لسوء ظنه بالله ، وإنما غلب لفظ الطيرة على التشاؤم لأن للأثر الحاصل من دلالة الطيران على الشؤم دلالة أشد على النفس ، لأن توقع الضر أدخل في النفوس من رجاء النفع .

(136/283)

والمراد به في الآية أنهم يتشاءمون بموسى ومن معه فاستعمل التطير في التشاؤم بدون دلالة من الطير ، لأن قوم فرعون لم يكونوا ممن يزجر الطير فيما علمنا من أحوال تاريخهم ، ولكنهم زعموا أن دعوة موسى فيهم كانت سبب مصائب حلت بهم ، فعبر عن ذلك بالتطير على طريقة التعبير العربي .

والتشاؤم : هو عد الشيء مشؤوماً ، أي : يكون وجوده .

سبباً في وجود ما يُحزن ويضر ، فمعنى ﴿ يَطَّيَّرُوا بموسى ﴾ يحسبون حلول ذلك بهم مسبباً عن وجود موسى ومن آمن به وذلك أن آل فرعون كانوا متعلقين بضلال دينهم ، وكانوا يحسبون أنهم إذا حافظوا على إتباعه كانوا في سعادة عيش ، فحسبوا وجود من

يخالف دينهم بينهم سبباً في حلول المصائب والإضرار بهم فتشاءموا بهم ، ولم يعلموا أن سبب المصائب هو كفرهم وإعراضهم ، لأن حلول المصائب بهم يلزم أن يكون مسبباً عن أسباب فيهم لا في غيرهم .

وهذا من العَماية في الضلالة فيبقون منصرفين عن معرفة الأسباب الحقيقية ، ولذلك كان التطير من شعار أهل الشرك لأنه مبني على نسبة المسببات لغير أسبابها ، وذلك من مخترعات الذين وضعوا لهم ديانة الشرك وأوهامها .

في الحديث " الطيرة شرك " وتأويله أنها : من بقايا دين الشرك ، ويقع بعد فعل التطير باء ، وهي باء السببية تدخل على موجب التطير ، وقد يقال أيضاً : تطير من كذا .

وعطفُ ﴿ ومن معه ﴾ ، أي : من آمنوا به ، لأن قوم فرعون يعدون موجب شُؤم موسى هو ما جاء به من الدين لأنه لا يُرضي آلهتهم ودينهم ، ولولا دينُه لم يكن مشؤوماً كما قال ثمود ﴿ قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ﴾ [هود : 62] .

و ﴿ ألا ﴾ حرف استفتاح يفيد الاهتمام بالخبر الوارد بعده .

تعليماً للأمة ، وتعريضاً بمشركي العرب .

والطائر : اسم للطير الذي يُثار ليتيمن به أو يتشاءَم ، واستعير هنا للسبب الحق لحلول المصائب بهم بعلاقة المشاكلة لقوله : ﴿ يطيروا ﴾ فشبه السبب الحق ، وهو ما استحقوا به العذاب من غضب الله بالطائر .

و ﴿ عند ﴾ مستعملة في التصرف مجازاً لأن الشيء المتصرف فيه كالمستقر في مكان ، أي : سبب شؤمهم مقدر من الله ، وهذا كما وقع في الحديث : " ولا طيْرَ إلا طَيْرُك " فعبر عما قدره الله للناس "بطير" مشاكلة لقوله : "ولا طَيْر" ومن فسر الطائر بالحظ فقد أبعد عن السياق .

والقصر المستفاد من ﴿ إنما ﴾ إضافي أي : سوء حالهم عقابٌ من الله ، لا من عند موسى ومن معه ، فلا ينافي أن المؤمنين يعلمون أن سبب حلول المصائب بأهل الشرك المعاندين للرسل ، هو شركهم وتكذيبهم الرسل : يعلمون ذلك بأخبار الرسل ، أو بصدق الفراسة وحسن الاستدلال ، كما قال أبو سفيان ليلة الفتح لما هداه الله "لقد علمتُ أن لو كان معه إله آخر لَقد أغنَى عني شيئاً" .

فأما المشركون وأضرابهم من أهل العقائد الضالة ، فيسندون صدور الضرر والنفع إلى أشياء تقارن حصول ضر ونفع ، فيتوهمون تلك المقارنة تسبباً ، ولذلك تراهم يتطلبون معرفة حصول الخير والشر من غير أسبابها ، ومن ذلك الاستقسام بالأزلام كما تقدم في سورة العقود .

وجملة ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ معترضة ولذلك فصلت ، والاستدراك المستفاد من ﴿ لكّن ﴾ عما يوهمه الاهتمام بالخبر الذي قبله لقرنه بأداة الاستفتاح ، واشتماله على صيغة القصر : من كون شأنه أن لا يجهله العقلاء ، فاستدرك بأن أكثر أولئك لا يعلمون .

فالضمير في قوله : ﴿ أكثرهم ﴾ عائد إلى الذين ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ وإنما نفي العلم عن أكثرهم تنبيهاً على أن قليلاً منهم يعلمون خلاف ذلك ولكنهم يشايعون مقالة الأكثرين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(138/283)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾

والحسنة إذا أطلقت فهي الأمر الذي يأتي من ورائه الخير . ولكن الحسنة مرة تكون لك ، ومرة تُطْلَب منك ، فالحسنة التي لك في ذاتك أولاً أن تكون في عافية وسلام ، ثم الحسنة في مقومات الذات ومقومات الحياة ، وهي في النبات ، والحيوان ، والخصب والثروة .

والحسنة المطلوبة منك هي أيضاً لك . فسبحانه يطلب منك عمل شيء يورِّثك في الآخرة

حسنة ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . . ﴾ [الأنعام : 160]

وهذه هي الحسنة التي تعطي الإنسان خيراً فيما بعد . إذن فالحسنة التي في ذاتك من عافية وسلامة أو في مقومات الذات من ثمرات وحيوانات وخصب وأعشاب وثراء فكلها موقوتة بزمن موقوت هو الدنيا . والحسنة الثانية غير محدودة لأن زمنها غير محدود . فأي الحسنات أرجح وأفضل بالنسبة للإنسان ؟ . إنها حسنة الآخرة .

وقوله الحق : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الحسنة ﴾ أي جاء لهم قدر من الخصب والثمار وغير ذلك من الرزق يقولون : " لنا هذه " أي أننا نستحقها ؛ فواحد يقول : أنا أستحقها لأنني رتبت لها وأتقنت الزراعة والحصاد مثلما قال قارون : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على علم عندي . . . ﴾ [القصص : 78]

(139/283)

وأجرى عليه الحق التجربة ، فما دام يدعي أنه جاء بالمال على علم من عنده فليجعل العلم الذي عنده يحافظ له على المال أو يحافظ له على ذاته . وهم قالوا عن الحسنات التي يهبها الله لهم : " قالوا لنا هذه " أي نستحقها ، لأننا قدمنا مقدمات تعطينا هذه النتائج .

وجرت العادة قديماً بأن يفيض النيل كل سنة يغمر الأرض ، ثم يبذرون الحب وينتظرون الثمار . فإن جاءت لهم سيئة مثل أخذهم الله لهم بالسنين ينسبون ذلك لموسى . ﴿ . . وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 131]

فإذا ما جاءتهم سيئة يطَّيَّرون أي يتشاءمون لأن الطيرة هي التشاؤم ، وضده التفاؤل ، ويقال : " فلان طائره نحس " ، و " فلان طائره يمن وسعد " . وقديماً حينما كانوا يريدون طلب مسألة ما ، يأتون بطير ويضعه صاحب المسألة على يده ويزجره ويثيره ، فإن طار يميناً فهذا فأل حسن ، وإن طار يساراً فهذا فأل سيئ ، والحق هنا يوضح : لا تظلموا موسى ، لأن شؤمكم أو حظكم السيئ ليس من موسى ؛ لأن موسى لا يملك في كون الله شيئاً ، وإنما المالك للكون هو رب موسى . وكأن الحق يريدهم أيضاً ألا يفتنوا في موسى إن صنع شيئاً يأتي لهم بخير ، وهنا يقول لهم لا تتطيروا بموسى ، لأن طائركم من عند الله .

ولأن أحداث الحياة صنفان : حدث لك فيه مدخل ، مثل التلميذ الذي لم يذاكر ويرسب ، أو إنسان لا يحسن قيادة سيارته فقادها فعطبت به أو أصاب أحداً إصابة خطيرة ، وهنا لا غريم لهذا الإنسان ، بل هو غريم نفسه .

وهناك شيء يقع عليك ، واسمه حدث قهري ، فالإِنسان في الأحداث بين أمرين اثنين : إما مصيبة دخلت عليه من ذات نفسه لتقصيره في شيء . وإمَّا أحداث قدرية تنزل بالإِنسان ونقول إنها من عند الله لحكمة لا يعرفها الإِنسان ؛ لأن الإِنسان ينظر إلى سطحيات الأشياء ، وإلى عاجل الأمر فيها ، ولكنه لا ينظر إلى عاقبة الأمر . ولهذا تحدث له بعض من الأحداث ليس له فيها مدخل .

مثال ذلك : أن يكون للإِنسان ابن نجيب وذكي وترتيبه دائماً من العشرة الأوئل ، ثم جاء في ليلة الامتحان أو في يوم الامتحان وأصابه صداع جعله لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة الامتحان ورسب ، وهذه مصيبة ليس له مدخل فيها .

وعادة ما يحزن الناس من مثل هذه المصائب لكن المؤمن يقول : إن الولد لم يقصر ، وهذا أمر جاء من الله ، وسبحانه منزه عن العبث ، بل حكيم ولابد أن له حكمة في مثل هذه الأمور . وبعد مدة تتبين الحكمة ، فلو كان الولد قد نجح لأصابته عين الحسود . وحدث له ما يكره ، فكأن الله يصنع له تميمة يحميه بها من الحسد . وقديماً حين كانوا يصنعون للطفل الجميل " فاسوخة " ، ولا يهتمون بنظافته ولا بملابسه ، لماذا ؟ يقال حتى لا تتجه إليه عين العائن الحاسد .

وأقول : وما الذي يدرك أن الله سبحانه وتعالى صنع الحادث الطارئ ليرد عنه العين ،

ويُسكت الناس عنه ؟ وما الذي يدريك أن الله أراد له أن يرسب هذا العام لأنه لم يكن يستطيع الحصول على المجموع الذي يدخله الكلية التي يريدها ، ثم يستذكر في العام التالي وتكون المذاكرة سهلة بالنسبة له ، ونقول له : احمد ربك على أنك لم تنجح في العام السابق وأن الله أراد بك خيراً . . لتبذل جهداً وتنجح وتنال المجموع الذي أردته لنفسك .

(141/283)

إذن فالمقادير التي تجري على الناس بدون دخل لهم فيها ، فلله فيها حكمة ، وهنا يقال : ﴿ طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، أما إن كان للإنسان دخل فيما يجري له فيقال : طائرك من عندك أنت وشؤمك من نفسك وعصيانك . ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 131]

ألم يتطير اليهود في المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قالوا : قلت الأمطار وارتفعت الأسعار من شؤم مجيء هذا الرجل ، ولم يتفهموا حكم الله . لقد كانوا سادة في الجزيرة ؛ لأنهم أهل علم بالكتاب وسيطروا على حركة السوق التجارية ، وتعاملوا في الربا وتجارة السلاح وكان عندهم الحصون ، والأسلحة ، وأراد الله أن يشغلهم بأخذ شيء من

أسبابهم ويهد كيانهم ليلفتهم إلى أنهم خرجوا عن المنهج إلى أن هناك رسولاً قد جاء بعودة إلى المنهج .

وقوله الحق : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يفيد أن هناك قلة تعلم . فما موقف هذه القلة ، ولماذا لم يرفضوا موقف الكثرة ؟ . كان موقفهم هو الصمت خوفاً من الطغيان ؛ لأن الطاغية أجبرهم وقهرهم وجعلهم يسكتون ولا يعترضون على باطل ، ونرى في حياتنا كثيراً من الناس يعلمون الزور ويعلمون الطغيان ولكنهم لا يتكلمون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(142/283)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ قال : العافية والرخاء ﴿ قالوا لنا هذه ﴾

ونحن أحق بها ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ قال : بلاء وعقوبة ﴿ يطيروا بموسى ﴾ قال : يتشاءموا به .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ ألا إنما طائرهم ﴾ قال مصائبهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ قال : الأمر من قبل الله .

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ يقول : الأمر من قبل الله ، ما أصابكم من أمر الله فمن الله بما كسبت أيديكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(143/283)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ عيسى بنُ عُمَرَ : وطلحةُ بنُ مصرف " تَطَيَّروا " بتاءٍ من فوق على أَنَّهُ فعلٌ ماضٍ وهو عند سيبويه وأتباعه ضرورةٌ .

إذ لا يقعُ فعل الشَّرْطِ مضارعاً ، والجزاء ماضياً إلاَّ ضرورةً ، كقوله : [الخفيف]

2551 - مَنْ يَكِدْنِي بِسَيِّىءٍ كُنْتُ مِنْهُ . . .

كالشَّجَى بَيْنَ حَلْقِهِ والوريدِ

وقوله : [البسيط]

2552 - إن يَسْمَعُوا سُبَّةً طَارُوا بِهَا فَرحاً . . .

مِنّي وما يَسْمَعُوا مِنْ صالحٍ دَفَنُوا

وقد تقدَّم الخلافُ في ذلك .

والتَّطير : التَّشاؤُم ، وأصلُهُ ، أن يُفَرَّق المالُ ويطير بين القوم فيطير لِكُلِّ أحدٍ حظَّه ، ثمَّ أطلق على الحَظِّ ، والنَّصيب السَّيِّىء بالغَلَبَةِ .

وأنشدوا للبيد : [الوافر]

2553 - تَطِيرُ عدائِدُ الأشْرَاكِ شَفْعاً . . .

وَوِتْراً والزَّعَامَةُ لِلْغُلامِ

الأشْرَاكَ جمع شِرْكٍ ، وهو النَّصيب .

أي : طار المال المقسوم شَفْعاً للذَّكر ، وَوِتْراً للأنثى والزَّعامةَ : أي : الرِّئاسة للذكر ، فهذا معناه : تَفَرَّق ، وصار لكُل أحد نصيبُه ، وليس من الشُّؤمِ في شيءٍ ، ثم غلبَ على ما ذكرناه .

قوله : ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أي حَظُّهم ، وما طار لهم في القضاء والقدر ، أو

شؤمهم أي : سبب شؤمهم عند الله ، وهو ما ينزله بهم .

قال ابن عباس : يريد شؤمهم عند الله ، وهو ما ينزله بهم .

قال ابن عباس : يريد شُؤمَهُمْ عند الله ، أي من قِبَل الله ، أي : إنما جاءهم الشَّرُّ بقضاءِ الله وحُكْمِهِ .

قال الفَرَّاءُ : وقد تَشَاءَمَت اليهود بالنبي – عليه السلام – بـ " المدينة " ، فقالوا : غَلَتْ أسْعَارُنَا ، وقَلَّتْ أمطارنا مذ أتانا ، وكثرت أمواتنا .

ثم أعلم الله على لسان رسوله – عليه السلام – أن طيرتَهُمْ باطلة ، فقال : " لا طيرة ولا هامة " – وكان النبي عليه السلام يَتفَاءَلُ ولا يَتَطَيَّرُ .

(144/283)

وأصل الفَأْلِ : الكلمة الحسنة ، وكانت العرُب مذهبها في الفَأْلِ والطِّيرةِ واحداً ، فأثبت النبي صلى الله عليه وسلم الفَأْلَ ، وأبطل الطِّيرةَ .

والفَرْقُ بينهما أن الأرْوَاحَ الإنسانية أقوى وأصْفَى من الأرواح البهيمية والطيرية ، فالكلمة التي تَجْري على لسان الإنسان يمكن الاسْتِدْلالُ بها ؛ بخلاف طيرانِ الطير ، وحَرَكَاتِ البهائم ، فإن أرْوَاحَهَا ضعيفة ، فلا يمكن الاستدلالُ بها على شيء من الأحوال ، ثم قال

تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [أي] : أن الكل من الله تعالى ؛ لأن أكثر الخَلْقِ يُضِيفُونَ الحوادث إلى الاسبابِ المحسوسة ، ويقطعونها عن قضاءِ الله وقَدجره ، والحق أن الكل من الله ؛ لأن كل موجود إما واجب لذاته ، أو ممكن لذاته ، والواجبِ لذاتِهِ واحد ، وما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الوَاجِبِ لذاته ، فكان الكل من الله – تعالى – ، فإسنادها إلى غير الله يكون جَهْلاً بكمال الله تعالى .

قال الأزهريُّ : قيل للشُّؤم طائر وطير ، لأنَّ العرب كانت إذ خرجت وطار الطَّائِرُ ذات اليسار تشَاءَمُوا بها ، فَسَموا الشؤمَ طيراً وطَائِراً لتشاؤمهم بها .

قال القُرْطُبِيُّ : وأصل هذا من الطِّيرةِ وزجر الطَّيْرِ ، ثمّ كَثُر استعمالهم حتَّى قيل لِكُلِّ مَنْ تشاءم : تَطَيَّر .

وكانت العربُ تَتَيَمَّن بالسَّانِحِ : وهو الذي يأتي من ناحية اليَمينِ وتتشاءهم بالبَارِحِ : وهو الذي يأتي من ناحية الشّمَالِ .

وكانوا يَتَطَيَّرُون أيضاً بِصَوْتِ الغراب ويتأوَّلُونَهُ البَيْن ، ويستدلُّونَ بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور ، وبأصواتها في غير أوقاتها المَعْهُودَة على مثل ذلك .

(145/283)

ويتطيّر الأعاجم إذَا رَأَوْ صَبيّاً يُذْهَب به إلى المُعَلّم بالغَدَاةِ ، وَيَتيمَّنُون برؤية صبيٍّ يرجع من عند المعلم إلى بيته ، وَيَتَشَاءَمُونَ برؤية السَّقَّاء على ظهره قِرْبَةٌ مملوءةٌ مشدودة ، ويتيمَّنُونَ برؤية فارغ السِّقاءِ مفتوحة ، ويتشاءَمُونَ برؤية الحَمَّالِ المُثْقَل بالْحِمْلِ والدَّابَة الموقرة ، وَيَتَيَّمنُونَ بالحَمَّال الذي وضع حمله ، وبالدَّابة الَّتي وضع عنها .

فَجَاء الإسْلامُ بالنَّهْيِ عن التَّطيُّرِ ، والتَّشَاؤُم بما يُسمع من صوت طائر ما كان ، وعلى أيّ حال كان ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : " أقرُّوا الطَّيْرَ عَلَى مُكنَاتِهَا " وذلك أن كثيراً من أهل الجاهليةِ كان إذا أراد الحَاجَةَ ذهب إلى الطَّير في وَكْرها فنفَّرها فإذا أخذت يميناً مضى إلى حاجته ، وهَذَا هو السَّانِحُ عندهم ، وإن أخذت شمالاً رجع وهذا هو البَارِحُ عندهم ، فنهى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عن هذا بقوله " أقِرُّوا الطَّيْرَ على مُكنَاتِهَا " هكذا في الحديث .

وأهل العربيَّة يقولون : " وكناتِهَا " ، والوكْنَةُ : اسمٌ لكلِّ وَكْرٍ وعشٍّ .

والوَكْنُ : اسمٌ للموضع الذي يبيض فيه الطَّائِرُ ويُفرخُ ، وهُوا الخَرْقُ في الحِيطَانِ والشَّجرِ .

ويقال : وَكَنَ الطائرُ يَكِنُ وَكْناً ووكُوناً : دخل في الوَكْنِ ، ووكن بَيْضَهُ ، وعليه : حضنه ، وكان أيضاً من العرب من لا يرى التَّطيُّرَ شيئاً نقله القرطبيُّ .

وروى عبد اللَّهِ بنُ عمرو بن العاصِ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " مَنْ رَجَّعَتْهُ الطِّيرةُ عن حَاجَتِه فَقَدْ أشْرَكَ " .

قيل : وما كفارةُ ذلك يا رسُول اللَّهِ .

قال : " أنْ يقُول أحدُكم : اللَّهُمَّ لا طَيْرَ إلاَّ طَيْرُكَ ، ولا خَيْرَ إلاَّ خَيْرُكَ ، ولاَ إله غَيرُك ، ثُمَّ يمضي إلى حاجته " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 277 . 279 ﴾ .

(146/283)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ .

الكفورُ لا يرى فضل المنعم ؛ فيلاحظ الإحسان بعين الاستحقاق ، ثم إذا اتصل بشيء مما يكرهه تجنَّى وحمل الأمر على ما يتمنَّى :

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعة . . . ملَّ الوصال وقال كان وكانا

إن الكريم إذا حبَاكَ بودّه . . . سَتَر القبيح وأظهر الإحسانا

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

المتفرد بالإيجاد هو الواحد ولكن بصائرهم مسدودة ، وعقولهم عن شهود الحقيقة

مصدودة ، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 560 ﴾

(147/283)

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا الذي قالوه يدل على سوء المزاج وجلافة الطباع بما لا يقبل العلاج ، أتبعه ما هو شر منه ، وهو أنهم جزموا بأنه كلما أتاهم شيء في المستقبل قابلوه بالكفر فقال :

﴿ وقالوا مهما ﴾ هي مركبة من " ما " مرتين : الأولى الشرطية والثانية تأكيد .

قلبت ألف الأولى هاء استثقالاً ، قيل : مه هي الصوت الذي يكون للكف وما الشرطية ، أي كف عنك ما أنت فيه .

ثم استأنفوا " ما " ﴿ تأتنا به ﴾ أي في أيّ وقت وعلى أيّ حالة كان ؛ ثم بينوا المأتي به بقولهم : ﴿ من آية ﴾ أي علامة على صدقك ، وهذا على زعمه ، ولذلك عللوه بقولهم : ﴿ لتسحرنا ﴾ أي لتخيل على عقولنا ﴿ بها ﴾ وتلفتنا عما نحن عليه إلى ما تريد فنحن

نسميها سحراً وأنت تسميها آية ؛ ثم أجابوا الشرط بقولهم : ﴿ فما نحن ﴾ أي كلنا ﴿ لك ﴾ أي خاصة ﴿ بمؤمنين ﴾ أي من أن نكذبك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 89 ﴾

(148/283)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى حكى عنهم في الآية الأولى أنهم لجهلهم أسندوا حوادث هذا العالم لا إلى قضاء الله تعالى وقدره ، فحكى عنهم في هذه الآية نوعاً آخر من أنواع الجهالة والضلالة ، وهو أنهم لم يميزوا بين المعجزات وبين السحر ، وجعلوا جملة الآيات مثل انقلاب العصا حية من باب السحر منهم .

وقالوا لموسى : إنا لا نقبل شيئاً منها ألبتة .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في كلمة ﴿ مَهْمَا ﴾ قولان : الأول : أن أصلها "ماما" الأولى هي "ما" الجزاء ، والثانية هي

التي تزاد توكيداً للجزاء ، كما تزاد في سائر حروف الجزاء ، كقولهم : إما ومما وكيفما قال الله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ [الأنفال : 59] وهو كقولك : إن تثقفنهم ، ثم أبدلوا من ألف "ما" الأولى "ها" كراهة لتكرار اللفظ ، فصار "مهما" هذا قول الخليل والبصريين .

والثاني : وهو قول الكسائي الأصل "مه" التي بمعنى الكف ، أي أكفف دخلت على "ما" التي للجزاء كأنهم قالوا أكفف ما تأتنا به من آية فهو كذا وكذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 177 ﴾

(149/283)

وقال السمرقندى :

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن ءَايَةٍ ﴾

يقول : متى ما تأتنا .

ويقال : كلما تأتينا .

وروي عن الخليل أنه قال : مهما تأتنا أصلها الشرطية أدخلت معها ما الزائدة كقوله متى ما تأتني آتك .

وما زائدة فكأنه قال : ما تأتنا به فأبدلوا الهاء من الألف ، وهكذا قال الزجاج .

﴿ بِهِ مِن ءَايَةٍ ﴾ يعني : بشيء من آية ﴿ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ يعني : لتأخذ أعيننا بها ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : بمصدقين بأنك مبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب موسى عند ذلك فدعا عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

و ﴿ مهما ﴾ أصلها عند الخليل " ما ما " فبدلت الألف الأولى هاء ، وقال سيبويه : هي " مه ما " خلطتا وهي حرف واحد ، وقال غيره : معناه " مه وما " جزاء ذكره الزجّاج ، وهذه الآية تتضمن طغيانهم وعتوهم وقطعهم على أنفسهم بالكفر البحت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقالوا مهما ﴾

قال الزجاج : زعم النحويون أن أصل ﴿ مهما ﴾ ماما ، ولكن أبدل من الألف الأولى الهاء ليختلف اللفظ ، ف "ما" الأولى هي : "ما" الجزاء ، و"ما" الثانية ، هي : التي تزاد تأكيداً للجزاء ، ودليل النحويين على ذلك : أنه ليس شيء من حروف الجزاء إلا و"ما" تزاد ، فيه قال الله تعالى : ﴿ فإما تثقفنهم ﴾ [الأنفال : 57] كقولك : إن تثقفنهم ، وقال : ﴿ وإما تعرضنَّ عنهم ﴾ [الإسراء : 28] وتكون "ما" الثانية للشرط والجزاء ، والتفسير الأول : هو الكلام ، وعليه استعمال الناس .

قال ابن الأنباري : فعلى قول من قال : إن معنى "مه" الكف ، يحسن الوقف على "مه" ، والاختيار أن لا يوقف عليها دون "ما" لأنها في المصحف حرف واحد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(150/283)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ ﴾

أي قال قوم فرعون لموسى "مهما" .

قال الخليل : الأصل ما ، ما ؛ الأُولى للشرط ، والثانية زائدة توكيد للجزاء ؛ كما تزاد في سائر الحروف ، مثل إمّا وحيثما وأينما وكيفما .

فكرِهوا حرفين لفظهما واحد ؛ فأبدلوا من الألف الأُولى هاء فقالوا مهما .

وقال الكسائيّ : أصله مَهْ ؛ أي اكفف ، ما تأتنا به من آية .

وقيل : هي كلمة مفردة ، يجازى بها ليُجزم ما بعدها على تقدير إنْ .

والجواب ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ لِّتَسْحَرَنَا ﴾ لتصرفنا عما نحن عليه .

وقد مضى في "البقرة" بيان هذه اللفظة .

قيل : بقي موسى في القبط بعد إلقاء السحرة سُجَّداً عشرين سنة يريهم الآيات إلى أن أغرق الله فرعون ، فكان هذا قولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ﴾ يعني قوم فرعون وهم القبط لموسى عليه السلام ﴿ مهما تأتنا به من آية ﴾ يعني من عند ربك فهي عندنا سحر وهو قولهم ﴿ لتسحرنا بها ﴾ يعني لتصرفنا عما نحن عليه من الدين ﴿ فما نحن لك بمؤمنين ﴾ يعني بمصدّقين وكان موسى رجلاً حديداً مستجاب الدعوة فدعا عليهم فاستجاب الله دعاءه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(151/283)

وقال أبو حيان :

﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ الضمير في ﴿ وقالوا ﴾ عائد على آل فرعون لم يزدهم الأخذ بالجذوب ونقص الثمرات إلا طغياناً وتشدّداً في كفرهم وتكذيبهم ولم يكتفوا بنسبة ما يصيبهم من السيئات إلا أن ذلك بسبب موسى ومن

معه حتى واجهوه بهذا القول الدالّ على أنه لو أتى بما أتى من الآيات فإنهم لا يؤمنون بها وأتوا بمهما التي تقتضي العموم ثم فسّروا بآية على سبيل الاستهزاء في تسميتهم ذلك آية كما قالوا في قوله

﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ وتسميه لها بآية أي على زعمك ولذلك علّلوا الإتيان بقولهم ﴿ لتسحرنا بها ﴾ وبالغوا في انتفاء الإيمان بأن صدّروا الجملة بنحن وأدخلوا الباء في ﴿ بمؤمنين ﴾ أي أنّ إيماننا لك لا يكون أبداً ﴿ ومهما ﴾ مرتفع بالابتداء أو منتصب بإضمار فعل يفسره فعل الشرط فيكون من باب الاشتغال أي أيّ شيء يحضر تأتنا به والمضير في ﴿ تحرك به ﴾ عائد على ﴿ مهما ﴾ وفي ﴿ بها ﴾ عائد أيضاً على معنى مهما لأنّ المراد به أية آية كما عاد على ما في قوله ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ ، وكما قال زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة . . .

وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

(152/283)

فأنث على المعنى ، قال الزمخشري : وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرّفها من لا يد له في علم العربية فيضعها غير موضعها ويحسب مهما بمعنى متى ما ويقول مهما جئتني أعطيتك وهذا من وضعه وليس من كلام واضع العربية في شيء ثم يذهب فيفسر مهما تأتنا به من آية بمعنى الوقت فيلحد في آيات الله تعالى وهو لا يشعر وهذا وأمثاله مما يجوب الجثو بين يدي الناظر في كتاب سيبويه انتهى ، وهذا الذي أنكره الزمخشري من أن مهما لا تأتي ظرف زمان وقد ذهب إليه ابن مالك ذكره في التسهيل وغيره من تصانيفه إلا أنه لم يقصر مدلولها على أنها ظرف زمان بل قال وقد ترد ما ومهما ظرفي زمان وقال في أرجوزته الطويلة المسماة بالشافية الكافية :

وقد أتت مهما وما ظرفين في . . .

شواهد من يعتضد بها كفى

(153/283)

وقال في شرح هذا البيت جميع النحويين يجعلون ما ومهما مثل من في لزوم التجرّد عن الظرف مع أنّ استعمالها ظرفين ثابت في استعمال الفصحاء من العرب وأنشد أبياتاً عن العرب زعم منها أنّ ما ومهما ظرفا زمان وكفانا الرّد عليه فيها ابنه الشيخ بدر الدين محمد

وقد تأوّلنا نحن بعضها وذكرنا ذلك في كتاب التكميل لشرح التسهيل من تأليفنا وكفاه ردّاً نقله عن جميع النحويين خلاف ما قاله لكن من يعاني علماً يحتاج إلى مثوله بين يدي الشيوخ وأما من فسّر مهما في الآية بأنها ظرف زمان فهو كما قال الزمخشري ملحد في آيات الله وأما قول الزمخشري وهذا وأمثاله إلى آخر كلامه فهو يدلّ على أنه جثا بين يدي الناظر في كتاب سيبويه وذلك صحيح رحل من خوارزم في شيبته إلى مكة شرفها الله تعالى لقراءة كتاب سيبويه على رجل من أصحابنا من أهل جزيرة الأندلس كان مجاوراً بمكة وهو الشيخ الإمام العلاّمة المشاور أبو بكر عبد الله بن طلحة بن محمد بن عبد الله الأندلسي من أهل بابرة من بلاد جزيرة الأندلس فقرأ عليه الزمخشري جميع كتاب سيبويه وأخبره به قراءة عن الإمام الحافظ أبي علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني قال قرأته على أبي مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن سراج القرطبي قال قرأته على أبي القاسم بن الإفليلي عن أبي عبد الله محمد بن عاصم العاصمي عن الرباحي بسنده ، وللزمخشري قصيد يمدح به سيبويه وكتابه وهذا يدلّ على أنه ناظر في كتاب سيبويه بخلاف ما كان يعتقد فيه بعض أصحابنا من أنه إنما نظر في نتف من كلام أبي علي الفارسي وابن جني وقد صنف أبو الحجاج يوسف بن معزوز كتاباً في الردّ على الزمخشري في كتاب المفصل والتنبيه على أغلاطه التي خالف فيها إمام الصناعة أبا بشر عمرو بن عثمان سيبويه رحم الله جميعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ شروعٌ في بيان بعضٍ آخَرَ مما أُخذ به آلُ فرعونَ من فنون العذاب التي هي في أنفسها آياتٌ بيناتٌ . وعدمُ ارعوائِهم مع ذلك عما كانوا عليه من الكفر والعناد أي قالوا بعد ما أرادوا ما أرادوا من شأن العصا والسنينَ ونقصِ الثمرات : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ ﴾ كلمةُ مهما تستعمل للشرط والجزاءِ وأصلُها ما الجزائية ضُمت إليها ما المزيدةُ للتأكيد كما ضُمّت إلى أين وإن في ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ ﴾ ﴿ أَمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ خلا أن أَلِفَ الأولى قُلبت هاءً حذَراً من تكرير المتجانسين . هذا هو الرأيُ السديدُ ، وقيل : مه كلمةٌ يصوّتُ بها الناهي ضُمّت إليها ما الشرطيةُ ومحلُّها الرفعُ بالابتداء أو النصبُ بفعل يفسره ما بعدها ، أي أيَّ شيءٍ تظهره لدينا وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ بيانٌ لهما ، وتسميتُهم إياها آيةً لمجاراتهم على رأي موسى عليه السلام واستهزائِهم بها وللإشعار بأن عنوانَ كونِها آيةً لا يؤثر فيهم وقوله تعالى : ﴿ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ إظهارٌ لكمال الطغيانِ والغلوّ فيه وتسميةِ الإرشادِ إلى الحق بالسحر وتسكيرِ الأبصار ، والضميران المجروران راجعان إلى مهما وتذكيرُ الأولِ لمراعاة جانب اللفظِ لإبهامه ، وتأنيثُ الثاني للمحافظة على جانب المعنى لتبيينه بآية كما

في قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدّقين لك ومؤمنين لنبوتك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(155/283)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَقَالُواْ ﴾ شروع في بيان بعض آخر مما أخذوا به من فنون العذاب التي هي في أنفسها آيات بينات وعدم إرعوائهم عما هم عليه من الكفر والعناد أي قالوا بعد ما رأوا ما رأوا من العصا والسنين ونقص الثمرات ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ ﴾ كلمة مهما مما اختلف فيها فقيل هي كلمة برأسها موضوعة لزيادة التعميم .

وقيل : هي مركبة من مه اسم فعل للكف إما باق على معناه أو مجرد عنه وما الشرطية .

وقال الخليل : أصلها ما ما على أن الأولى شرطية والثانية إبهامية متصلة بها لزيادة التعميم فقلبت ألف ما الأولى هاء فراراً من بشاعة التكرار ، وأسلم الأقوال كما قال غير واحد القول بالبساطة .

وفي حاشية التسهيل لابن هشام ينبغي لمن قال بالبساطة أن يكتب مهما بالياء ولمن قال أصلها ماما أن يكتبها بالألف ، وفي "الشرح" وكذا إذا قيل أصلها مه ما .

وتعقب ذلك الشمني بأن القائلين بالأصلين المذكورين متفقون على أن مهما أصل آخر فما ينبغي في كتب آخرها على القول الأولى ينبغي على القول الثاني ، وفيه نظر .

وهي اسم شرط لا حرف على الصحيح ، ومحلها الرفع هنا على الابتداء وخبرها إما الشرط أو الجزاء أو هما على الخلاف أو النصب على أنها مفعول به لفعل يفسره ما بعد أي أي شيء تحضره لدينا تأتنا به ، ومن الناس من جوز مجيئها في محل نصب على الظرفية ، وشدد الزمخشري الإنكار عليه في "الكشاف" ، وذكر ابن المنير أنه غير القائل بظرفيتها كلام الخليل أو شبهها بمتى ما ، وخالف ابن مالك في ذلك وقال : إنه مسموع عن العرب كقوله :

وإنك مهما تعط بطنك سؤهل . . .

وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

(156/283)

ويوافقه كما قال الشهاب استعمال المنطقيين لها بمعنى كلما وجعلها سور الكلية فإنها تفيد العموم كما صرحوا به وليس من مخترعاتهم كما توهم ، وأنت تعلم أن كونها هنا ظرفاً مما لا ينبغي الإقدام عليه بوجه لإباء قوله تعالى : ﴿ مّنْ ءايَةٍ ﴾ عنه لأنه بيان لمهما وليس بزمان ، وتسميتهم إياها آية من باب المجاراة لموسى عليه السلام والاستهزاء بها مع الإشعار بأن هذا العنوان لا يؤثر فيهم وألا فهم ينكرون كونها آية في نفس الأمر ويزعمون أنها سحر كما ينبىء عنه قولهم ﴿ لّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ والضميران المجروران راجعان إلى مهما ، وتذكير الأول لرعاية جانب اللفظ لإبهامه ، وتأنيث الثاني للمحافظة على جانب المعنى لأنه إنما رجع إليه بعد ما بين بآية ، وادعى ابن هشام أن الأولى عود الضمير الثاني إلى آية ، ولعله راعى القرب والذاهب إلى الأول راعى أن ﴿ ءايَةً ﴾ مسوقة للبيان فالأولى رجوع الضمير على المفسر المقصود بالذات وإن كان المآل واحداً أي لتسحر بتلك الآية أعيننا وتشبه علينا ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدقين لك ومؤمنين بنبوتك أصلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(157/283)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

جملة : ﴿ وقالوا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ [الأعراف : 130] الآية ، فهم قابلوا المصائب التي أصابهم الله بها ليذكّروا ، بازدياد الغرور فأيسوا من التذكر بها ، وعاندوا موسى حين تحداهم بها فقالوا : مَهْما تأتنا به من أعمال سحرك العجيبة فما نحن لك بمؤمنين ، أي : فلا تتعب نفسك في السحر .

و ﴿ مهما ﴾ اسم مضمن معنى الشرط ، لأن أصله (ما) الموصولة أو النكرة الدالة على العموم ، فركّبت معها (ما) لتصييرها شرطية كما ركبت (ما) مع (أي) و (متى) و (أينَ) فصارت أسماء شرط ، وجعلت الألف الأولى هاء اسْتثقالاً لتكرير المتجانسين ، ولقرب الهاء من الألف فصارت مهما ، ومعناها : شيء ما ، وهي مبهمة فيؤتى بعدها بمن التبْيينية ، أي : إن تأتنا بشيء من الآيات فما نحن لك بمؤمنين .

و ﴿ مهما ﴾ في محل رفع بالابتداء ، والتقدير : أيما شيء تأتينا به ، وخبره الشرط وجوابه ، ويجوز كونها في محل نصب لفعل محذوف يدل عليه ﴿ تأتنا به ﴾ المذكور . والتقدير : أي شيء تُحضرنا تأتينا به .

وذُكّر ضمير ﴿ به ﴾ رعياً للفظ ﴿ مهما ﴾ الذي هو في معنى أي شيء ، وأنّث ضمير ﴿ بها ﴾ رعياً لوقوعه بعد بيان ﴿ مهما ﴾ باسم مؤنث هو ﴿ آية ﴾ .

و﴿ من آية ﴾ بيان لإبهام ﴿ مهما ﴾ .

والآية : العلامة الدالة ، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتا أولئك أصحاب النار ﴾ في سورة البقرة (39) ، وفي قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ في سورة الأنعام (37) .

(158/283)

وسموا ما جاء به موسى آية باعتبار الغرض الذي تحداهم به موسى حين الإتيان بها ، لأن موسى يأتيهم بها استدلالاً على صدق رسالته ، وهم لا يعدونها آية ولكنهم جارَوْا موسى في التسمية بقرينة قولهم لتسحرنا بها ﴾ ، وفي ذلك استهزاء كما حكى الله عن مشركي أهل مكة وقالوا : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر : 6] بقرينة قولهم : إنك لمجنون .

وجملة ﴿ فما نحن لك بمؤمنين ﴾ مفيدة المبالغة في القطع بانتفاء إيمانهم بموسى لأنهم جاءوا في كلامهم بما حوته الجملة الاسمية التي حَكَتْهُ من الدلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامه .

وبما تفيده الباء من توكيد النفي ، وما يفيده تقديم متعلق مؤمنين من اهتمامهم بموسى في تعليق الإيمان به المنفي باسمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(159/283)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

أي وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام : أي شيء تأتينا به من المعجزات لتصرفنا عما نحن فلن نؤمن لك ، وسموا ما جاء به موسى " آية " استهزاء منهم وسخرية . وكل هذه مقدمات تبرز الإهلاك الذي قال الله فيه : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 129]

وأعلنوا أن ما جاء به موسى هو سحر على الرغم من أنهم رأوا السحرة الذين برعوا في السحر وعرفوا طرائقه وبذّوا فيه سواهم قد خروا ساجدين وآمنوا ، كيف يحدث هذا والسحرة كلهم جُمِعوا إلى وقت معلوم ؟ وشهد كل الناس التجربة الواقعية التي ابتلعت فيها عصا موسى كل سحر السحرة فآمنوا وسجدوا ، فكيف يتأتى لمن لا يعرفون السحر أن يتهموا موسى بالسحر ؟ وكيف يظنون أن ما يأتي به من آيات الله هو لون من السحر ؟ .

إنهم يقولون كلمة " مهما " وهي تدل على استمرارية العناد في نفوسهم مثلما يقول واحد لآخر : لقد صممت على ألا أقبل كلامك ، فيكرر الرجل : انتظر لتسمع حجتي الثانية فقد تقنعك ، فيقول : مهما تأتني من حجج فلن أسمع لك ، وهذا يعني استمرارية العناد والجحود والتمرد ويقدمون حيثيات هذا الجحود فيقولون : ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 132]

وإذا كانوا يظنون أن آيات الله التي مع موسى من السحر ، فهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ . لو كانت المسألة سحراً لسحركم وانتهى الأمر . وقلنا قديماً في الرد على الذين قالوا : إن محمداً يسحر ليؤمنوا به ، قلنا إذا كان هو قد سحر الناس ليؤمنوا به ، فلماذا لم يسحركم لتؤمنوا وتنفض المسألة ؟ إن بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئاً من أمر السحر .

(160/283)

وأنت ساعة تسمع كلمة " مهما " تعرف أن هناك شرطاً ، وله جواب ، ويقول العلماء : إن أصلها " مه " أي كُفّ عن أن تأتينا بأية آية فلن نصدقك . وهذا يعني أن هناك إصرار وعناداً على عدم الإيمان .

ويبين الحق عقابه لهم على ذلك : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد . . . ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(161/283)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ .

" مَهْمَا " اسمُ شرطٍ يجزم فعلين كـ " إنْ " هذا قولُ جمهور النُّحَاةِ ، وقد تأتي للاستفهام وهو قليلٌ جداً .

كقوله : [الرجز]

2554 - مَهْمَا لِيَ اللَّيْلَةَ مَهْمَا لِيَهُ ؟ . . .

أَوْدَى بِنَعْلَيَّ وسِرْبَالِيَهْ

يريد : ما لي الليلة ما لي ؟ والهاءُ للسَّكت .

وزعم بعض النُّحاة أنَّ الجازمةَ تأتي ظرف زمان ؛ وأنشد : [الطويل]

2555 - وإنَّكَ مَهْمَا تُعْطِ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ . . .

وَفَرْجَكَ نَالا مُنْتَهَى الذَّمِّ أَجْمَعَا

وقول الآخر : [الكامل]

2556 - عَوَّدْتَ قَوْمَكَ أَنَّ كُلَّ مُبَرَّزٍ . . .

مَهْمَا يُعَوَّدْ شِيمَةً يَتَعَوَّدِ

وقول الآخر : [الكامل]

2557 - نُبِّئْتُ أَنَّ أَبَا شُتَيْمٍ يَدَّعِي . . .

مَهْمَا يَعِشْ يَسْمَعْ بِمَا لَمْ يَسْمَعِ

قال : ف " مَهْمَا " هنا ظرف زمان ، والجمهور على خلافه ، وما ذكره متأوّل ، بل بعضُهُ لا يظهر فيه للظَّرفية معنى ، وشنَّع الزمخشري على القائل بذلك .

فقال : وهذه الكلمة في عداد الكلمات الَّتي يُحَرِّفُهَا مَنْ لا يدّ له في علم العربية ، فيضعها في غير موضعها ويحسب " مَهْمَا " بمعنى " متى ما " .

ويقولُ : مَهْمَا جئتني أعطيتك ، وهذا من كلامِهِ ، وليس من واضع العربية ، ثم يذهبُ فيفسّر : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ ﴾ [الأعراف : 132] بمعنى الوقت ، فَيُلْحد في آيات اللَّهِ ، وهو لا يشعر ، وهذا وأمثاله مِمَّا يُوجب الجُثُوَّ بين يدي النَّاظر في كتاب سيبويه .

قال شهابُ الدّين : هو معذورٌ في كونها بمعنى الوقت ، فإن ذلك قولٌ ضعيفٌ ، لم يَقُلْ به إلاَّ الطَّائفة الشَّاذَّةُ .

وقد قال جمال الدّين بْنُ مالكٍ : جميع النَّحويين يقول إنَّ " مَهْمَا " و " مَا " مثل " مَنْ " في لزوم التَّجرُّدِ عن الظَّرف ، مع أنَّ استعمالها ظرفين ثابتٌ في أشعار فصحاء العرب .

(162/283)

وأنشد بعض الأبياتِ المتقدمة

وكفى بقوله جميع النَّحويين دليلاً على ضَعْف القول بظرفيتهما .

وهي اسمٌ لا حرفٌ ، بدليل عَوْد الضَّمير عليها ، ولا يعودُ الضَّمير على حرف ؛ لقوله : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ ﴾ فالهاءُ في " بِهِ " تعود على " مَهْمَا " وشَذَّ السُّهيليُّ فزعم أنَّهم قد تأتي حرفاً .

واختلف النَّحويون في " مَهْمَا " هل هي بسيطة أو مركبة ؟ والقَائِلُونَ بتركيبها اختلفوا :

فمنهم مَنْ قال : هي مركبة مِنْ " مَا مَا " كُرِّرَتْ " ما " الشَّرطيَّة توكيداً ، فاستثقل توالي لفظين فأُبدِلَت ألف " ما " الأولى هاء .

وقيل : زيدت " ما " على " ما " الشَّرطية ، كما يُزَادُ على " إنْ " " ما " في قوله : " فَإِمَّا يَأتينّكُم " .

فَعُمِلَ العمل المذكور للثقل الحاصل ، وهذا قولُ الخليل وأتباعه من أهل البصرة .

وقال قَوْمٌ : هي مركبة من مَهْ التي هي اسم فعلٍ بمعنى الزَّجْر ، و" مَا " الشَّرطيَّة ثم رُكِّبت الكلمتان فصارا شَيْئاً واحداً .

وقال بعضهم : لا تركيب فيها هنا ، بل كأَنَّهُم قالوا له مَهْ ، ثم قالوا ﴿ مَا تَأْتِنَا بِهِ ﴾ ويُعْزَى هذان الاحتمالان للكسائيِّ .

قال شهابُ الدِّين : " وهذا ليس بشيءٍ ؛ لأنَّ ذلك قد يأتي في موضع لا زَجْرَ فيه ، ولأنَّ كتابتها متصلة ينفي كون كلٍّ منهما كلمةً مستقلة " .

وقال قومٌ : إنَّهَا مركَّبةً من " مَهْ " بمعنى اكفف و" مَن الشَّرطيَّةِ " ؛ بدليل قول الشاعر : [الطويل]

2558 - أماوِيَّ مَهْمَنْ يَسْتَمِعْ في صديقِهِ . . .

أقَاوِيلَ هذا النَّاسِ مَاوِيَّ يَنْدَمِ

فأُبْدِلَتْ نونُ " مَنْ " ألفاً كما تبدل النُّونُ الخفيفة بعد فتحة ، والتَّنوين ألفاً ، وهذا ليس بشيء بل " مَهْ " على بابها من كونها بمعنى : اكْفُفْ ، ثم قال : مَنْ يستمعُ .

(163/283)

وقال قوم : بل هي مركَّبة مِنْ " مَنْ " و" مَا " فأبدلت نونُ " مَنْ " هاءً ، كما أبدلوا من ألف " ما " الأولى هاءً ، وذلك لمؤاخاة مَنْ ما في أشياء ، وإن افترقَا في شيء واحد ، ذكره مكيٌّ .

ومَحَلُّهَا نصبٌ أو رفعٌ ، فالرَّفعُ على الابتداء وما بعده الخبر ، وفيه الخلافُ المشهورُ هل الخبرُ فعلُ الشَّرْط أو فعلُ الجزاء أو هما معاً ؟ والنَّصْبُ من وجهين :

أظهرهما : على الاشتغال ويُقَدَّرُ الفعلُ متأخراً عن اسم الشَّرْطِ ، والتقديرُ : مَهْمَا تُحْضِر تَأْتِنَا ، ف " تَأْتِنَا " مُفَسِّرة لـ تُحَضر ، لأَنَّهُ من معناه .

والثاني : النصبُ على الظرفية عند مَنْ يَرَى ذلك ، وقد تقدَّم الرَّدُّ على هذا القول ، والضَّميرانِ من قوله بِهِ و" بِهَا " عائدان على " مَهْمَا " ، عاد الأوَّلُ على اللَّفظ ، والثاني المعنى ، فإنَّ معناها الآية المذكورة ، ومثله قول زُهَيْرٍ : [الطويل]

2559 - وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِىءٍ مِنْ خَلِيقَةٍ . . .

وإنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

ومثله : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة : 106] فأعَادَ الضَّمير على " ما " مؤنثاً ، لأَنَّهَا بمعنى الآية .

وقوله : " فَمَا نَحْنُ " يجوز أن تكون " ما " حجازيةً أو تميميةً والباءُ زائدةٌ على كلا القولين ، والجملةُ جوابُ الشَّرْطِ فمحلّها جزم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 281.279 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) ﴾

جعلوا الإصرارَ على الاستكبار شعارَهم ، وهتكوا بألسنتهم - في العتوِّ - أستارهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 560 ﴾

(164/283)

قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بارزوا بهذه العظمية ، استحقوا النكال فسبب عن ذلك قوله : ﴿ فأرسلنا عليهم ﴾ أي عذاباً لهم - لما يفهمه حرف الاستعلاء ﴿ الطوفان ﴾ أي الرعد والبرق والنار مع المطر والبرد الكُبار الذي يقتل البقر فما دونها ، والظلمة والريح الشديدة التي عمت أرضهم وطافت بها ؛ ولما كان ذلك ربما أخصبت به الأرض ، أخبر أنه أرسل ما يفسد ذلك فقال :

﴿ والجراد ﴾ .

ولما كان الجراد ربما طار وقد أبقى شيئاً ، أخبر بما يستمر لأزقاً في الأرض حتى لا يدع بها شيئاً فقال : ﴿ والقمل ﴾ قال في القاموس : القمل كالسكر : صغار الذر والدبى الذي لا أجنحة له – وهو أصغر الجراد أو شيء صغير بجناح أحمر ، وشيء يشبه الحلم خبيث الرائحة أو دواب صغار كالقردان يعني القراد .

وقال البخاري في بني إسرائيل من صحيحه : القمل : الحمنان يشبه صغار الحلم .

ولما ربما كان عندهم شيء مخزوناً لم يصل إليه ذلك ، أخبر بما يسقط نفسه في الأكل فيفسده أو ينقصه فقال : ﴿ والضفادع ﴾ فإنها عمت جميع أماكنهم ، وكانت تتساقط في أطعمتهم ، وربما وثبت إلى أفواههم حين يفتحونها للأكل .

ولم تم ما يضر بالماكل ، أتبعه ما أفسد المشرب فقال : ﴿ والدم ﴾ فإن مياههم انقلبت كلها دماً منتناً ، وعم الدم الشجر والحجارة وجميع الأرض في حق القبط ، وأما بنو إسرائيل فسالمون من جميع ذلك .

ولما ذكر تعالى هذه الآيات العظيمة ، نبه على عظمتها بذكر حالها فقال : ﴿ آيات ﴾ أي علامات على صدقه عظميات ﴿ مفصلات ﴾ أي يتبع بعضها بعضاً ، وبين كل واحدة وأختها حين يختبرون فيه مع أن مغايرة كل واحدة لأختها في غاية الظهور ، وكذا العلم بأنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره .

ولما كانت حقيقة بان يتسبب عنها الإيمان عند سلامة القلب ، سبب عنها قوله : ﴿ فاستكبروا ﴾ مبيناً أن الذي منعهم من الإيمان مرض القلب بالكبر والطغيان ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي في جبلتهم قطع ما ينبغي وصله مع قوتهم على ما يحاولونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 90 . 91 ﴾

(165/283)

فصل

قال الفخر :

قال ابن عباس : إن القوم لما قالوا لموسى : مهما أتيتنا بآية من ربك ، فهي عندنا من باب السحر ، ونحن لا نؤمن بها ألبتة ، وكان موسى عليه السلام رجلاً حديداً ، فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله له ، فأرسل عليهم الطوفان الدائم ليلاً ونهاراً سبتاً إلى سبت ، حتى كان الرجل منهم لا يرى شمساً ولا قمراً ولا يستطيع الخروج من داره وجاءهم الغرق ، فصرخوا إلى فرعون واستغاثوا به ، فأرسل إلى موسى عليه السلام وقال : اكشف عنا العذاب فقد صارت مصر بحراً واحداً ، فإن كشفت هذا العذاب آمنا بك ، فأزال الله عنهم المطر وأرسل الرياح فجففت الأرض ، وخرج من النبات ما لم يروا مثله قط .

فقالوا : هذا الذي جزعنا منه خير لنا لكنا لم نشعر .

فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل فنكثوا العهد ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل النبات وعظم الأمر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس ، ووقع بعضها على بعض في الأرض ذراعاً ، فأكلت النبات ، فصرخ أهل مصر ، فدعا موسى عليه السلام فأرسل الله تعالى ريحاً فاحتملت الجراد فألقته في البحر ، فنظر أهل مصر إلى أن بقية من كلئهم وزرعهم تكفيهم .

فقالوا : هذا الذي بقي يكفينا ولا نؤمن بك .

(166/283)

فأرسل الله بعد ذلك عليهم القمل ، سبتاً إلى سبت ، فلم يبق في أرضهم عود أخضر إلا أكلته ، فصاحوا وسأل موسى عليه السلام ربه ، فأرسل الله عليها ريحاً حارة فأحرقتها ، واحتملتها الريح فألقتها في البحر ، فلم يؤمنوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع بعد ذلك فخرج من البحر مثل الليل الدامس ووقع في الثياب والأطعمة ، فكان الرجل منهم يسقط وعلى رأسه ذراع من الضفادع ، فصرخوا إلى موسى عليه السلام ، وحلفوا بإلهه لئن رفعت عنا هذا العذاب لنؤمنن بك ، فدعا الله تعالى فأمات الضفادع ، وأرسل عليها المطر فاحتملها

إلى البحر ، ثم أظهروا الكفر والفساد ، فأرسل الله عليهم الدم فجرت أنهارهم دماً فلم يقدروا على الماء العذب ، وبنو إسرائيل يجدون الماء العذب الطيب حتى بلغ منهم الجهد ، فصرخوا وركب فرعون وأشراف قومه إلى أنهار بني إسرائيل فجعل يدخل الرجل منهم النهر فإذا اغترف صار في يده دماً ومكثوا سبعة أيام في ذل لا يشربون إلا الدم .

فقال فرعون :

﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز ﴾ [الأعراف : 134] إلى آخر الآية ، فهذا هو القول المرضي عند أكثر المفسرين ، وقد وقع في أكثرها اختلافات .

أما الطوفان ، فقال الزجاج : الطوفان من كل شيء ما كان كثيراً محيطاً مطبقاً بالقوم كلهم ، كالغرق الذي يشمل المدن الكثيرة ، فإنه يقال له طوفان ، وكذلك القتل الذريع طوفان ، والموت الجارف طوفان .

وقال الأخفش : هو فعلان من الطوف ، لأنه يطوف بالشيء حتى يعم .

قال : وواحده في القياس طوفانه .

وقال المبرد : الطوفان مصدر مثل "الرجحان والنقصان" فلا حاجة إلى أن يطلب له واحداً .

إذا عرفت هدا فنقول : الأكثرون على أن هذا الطوفان هو المطر الكثير على ما رويناه عن ابن عباس ، وقد روى عطاء عنه أنه قال : الطوفان هو الموت ، وروى الواحدي رحمه الله بإسناده خبراً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الطوفان هو الموت " وهذا القول مشكل لأنهم لو أميتوا لم يكن لإرسال سائر أنواع العذاب عليهم فائدة ، بل لو صح هذا الخبر لوجب حمل لفظ الموت على حصول أسباب الموت ، مثل المطر الشديد والسيل العظيم وغيرهما ، وأما الجراد ، فهو معروف والواحدة جرادة ، ونبت مجرود قد أكل الجراد ورقه . وقال اللحياني : أرض جردة ومجرودة قد لحسها الجراد ، وإذا أصاب الجراد الزرع قيل جرد الزرع وأصل هذا كله من الجرد ، وهو أخذك الشيء عن الشيء على سبيل النحت والسحق ، ومنه يقال للثوب الذي قد ذهب وبره جرد وأرض جردة لا نبات فيها ، وأما القمل ، فقد اختلفوا فيه .

فقيل هو الدبى الصغار الذي لا أجنحة له ، وهي بنات الجراد ، وعن سعيد بن جبير كان إلى جنبهم كثيب أعفر فضربه موسى عليه السلام بعصاه فصار قملاً .

فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ، ولزم جلودهم كأنه الجدري ، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم ، فقالوا : قد تيقنا الآن أنك ساحر عليم .

وعزة فرعون لا نؤمن بك أبداً ، وقرأ الحسن ﴿ والقمل ﴾ بفتح القاف ، وسكون الميم .

يريد القمل المعروف .

وأما الدم فما ذكرناه .

ونقل صاحب "الكشاف" أنه قيل : سلط الله عليهم الرعاف .

وروي أن موسى عليه السلام مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات .

وأما قوله تعالى : ﴿ ءايات مّفَصَّلاَتٍ ﴾ ففيه وجوه : أحدها : ﴿ مّفَصَّلاَتٍ ﴾ أي مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره ، وثانيها : ﴿ مّفَصَّلاَتٍ ﴾ أي فصل بين بعضها وبعض بزمان يمتحن فيه أحوالهم وينظر أيقبلون الحجة ؟ والدليل : أو يستمرون على الخلاف والتقليد .

(168/283)

قال المفسرون : كان العذاب يبقى عليهم من السبت إلى السبت ، وبين العذاب إلى العذاب شهر ، فهذا معنى قوله : ﴿ ءايات مّفَصَّلاَتٍ ﴾ قال الزجاج : وقوله : ﴿ ءايات ﴾ منصوبة على الحال .

وقوله : ﴿ فاستكبروا ﴾ يريد عن عبادة الله ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ مصرين على الجرم والذنب .

ونقل أيضاً أن هذه الأنواع المذكورة من العذاب كانت عند وقوعها مختصة بقوم فرعون ، وكان بنو إسرائيل منها في أمان وفراغ ، ولا شك أن كل واحد منها فهو في نفسه معجز ، واختصاصه بالقبطي دون الإسرائيلي معجز آخر .

فإن قال قائل لما علم الله تعالى من حال أولئك الأقوام أنهم لا يؤمنون بتلك المعجزات ، فما الفائدة في تواليها وإظهار الكثير منها ؟ وأيضاً فقوم محمد صلى الله عليه وسلم طلبوا المعجزات فما أجيبوا فما الفرق .

والجواب : أما على قول أصحابنا فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأما على قول المعتزلة في رعاية الصلاح ، فلعله علم من قوم موسى أن بعضهم كان يؤمن عند ظهور تلك المعجزات الزائدة ، وعلم من قوم محمد صلى الله عليه وسلم أن أحداً منهم لا يزداد بعد ظهور تلك المعجزات الظاهرة إلا كفراً وعناداً ، فظهر الفرق والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 177.178 ﴾

(169/283)

وقال السمرقندى :

قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان ﴾

وهو المطر الدائم من السبت إلى السبت حتى خربت بنيانهم وانقطعت السبل وكادت أن تصير مصر بحراً واحداً ، فخافوا الغرق ، فاستغاثوا بموسى ، فأرسلوا إليه اكشف عنا العذاب نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل .

فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم المطر ، وأرسل الله عليهم الريح فجففت الأرض فخرج من النبات شيء لم يروا مثله بمصر قط .

قالوا : هذا الذي جزعنا منه خير لنا ولكنا لم نشعر به .

فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل .

فنقضوا العهد ، وعصوا ربهم ، فمكثوا شهراً ، فدعا عليهم موسى فأرسل الله تعالى عليهم الجراد مثل الليل ، فكانوا لا يرون الأرض ، ولا السماء من كثرتها ، فأكل كل شيء أنبتته الأرض .

فاستغاثوا بموسى ﴿ وَقَالُواْ يا أيه الساحر ادعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 49] يعني : يا أيها العالم سل لنا ربك ليكشف عنا العذاب ، ونؤمن بك ، ونرسل معك بني إسرائيل .

فدعا موسى ربه ، فأرسل الله تعالى ريحاً فاحتملت الجراد وألقته في البحر فلم يبق في أرض

مصر جرادة واحدة .

فقال لهم فرعون : انظروا هل بقي شيء ؟ فنظروا فإذا هو قد بقي لهم بقية من كلئهم وزرعهم ما يكفيهم عامهم ذلك .

قالوا : قد بقي لنا ما فيه بلغتنا هذه السنة .

فقالوا : يا موسى لا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل فمكثوا شهراً ثم دعا عليهم فأرسل الله تعالى عليهم القُمَّل .

قال قتادة : القمل أولاد الجرادة التي لا تطير وهكذا قال السدي .

وذكر عن أبي عبيدة أنه قال : القمل عند العرب الحمنان وهو ضرب من القردان فلم يبق من الأرض عود أخضر إلا أكلته .

(170/283)

فأتاهم منه مثل السيل على وجه الأرض ، فأكل كل شيء في أرض مصر من نبات الأرض أو ثمر فصاحوا إلى موسى ، واستغاثوا به ، وقالوا : ادع لنا ربك هذه المرة يكشف عنا العذاب ونحن نطيعك ونعطيك عهداً وموثقاً لنؤمنن بك ، ولنرسلن معك بني إسرائيل .

فدعا موسى ربه فأرسل الله تعالى ريحاً حارة فأحرقته فلم يبق منه شيء ، وحملته الريح ،

فألقته في البحر ، فقال لهم موسى : أرسلوا معي بني إسرائيل ؟ فقالوا له : قد ذهبت الأنزال كلها فأيش تفعل بعد هذا ؟ فعلى أي شيء نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل ؟ اذهب فما استطعت أن تضر بنا فافعل .

فمكثوا شهراً فدعا الله تعالى عليهم موسى ، فأرسل الله تعالى عليهم آية وهي الضفادع ، فخرجوا من البحر ، مثل الليل الدامس ، فغشوا أهل مصر ، ودخلوا البيوت ، ووقفوا على ثيابهم ، وسررهم ، وفرشهم ، وكان الرجل منهم يستيقظ بالليل فيجد فراشه وقد امتلأ من الضفادع ، فكان الرجل يكلم صاحبه في الطريق يجعل فمه في أذنه ليسمع كلامه من كثرة نعيق الضفادع .

فضاق الأمر عليهم فصاحوا إلى موسى فقالوا يا موسى : لئن رفعت عنا هذه الضفادع لنؤمنن بك ولنرسلن معك بني إسرائيل .

فدعا لهم موسى ربه فأذهب الله تعالى عنهم الضفادع .

فقال لهم موسى : أرسلوا معي بني إسرائيل فقالوا : نعم اخرج بهم ولا تخرج معهم بشيء من مواشيهم وأموالهم .

فقال لهم موسى : إن الله أمرني أن أخرج بهم ولا أخلف من أموالهم ومواشيهم شيئاً .

فقالوا : والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل .

فمكثوا شهراً ، فدعا عليهم ، فأرسل الله تعالى عليهم الدم ، فجرت أنهارهم دماء ، فلم

يكونوا يقدرون على الماء العذب ولا غيره ، وبنو إسرائيل في الماء العذب .

وكلما دخل رجل من آل فرعون ليستقي من أنهار بني إسرائيل .

صار الماء دماً من بين يديه ، ومن خلفه .

فركب فرعون وأشراف أصحابه حتى أتوا أنهار بني إسرائيل فإذا هي عذبة صافية .

(171/283)

فجعل فرعون يدخل الرجل منهم ، فإذا دخل واغترف صار الماء في يده دماً .

فمكثوا كذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم فمات كثير منهم في ذلك .

فاستغاثوا بموسى فقال فرعون : اقسم بإلهك يا موسى لئن كشفت عنا الرجز ، لنؤمننّ بك ، ولنرسلن معك بني إسرائيل .

فدعا موسى ربه فأذهب الله تعالى عنهم الدم ، وعذب ماؤهم وصفي .

فعادوا إلى كفرهم فذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ءايات مّفَصَّلاَتٍ ﴾ يعني : متتابعات قال الحسن وسعيد بن جبير وغيرهما قالوا : مما كانوا يعافون بين كل آيتين شهراً فإذا جاءت الآية ، قامت عليهم سبعاً من السبت إلى السبت .

وروي عن مجاهد أنه قال : الطوفان المطر الكثير وقوله آيات صارت نصباً للحال .

وقوله تعالى : ﴿ فاستكبروا ﴾ يعني : تعظّموا عن الإيمان ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ يعني : أقاموا على كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(172/283)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ . . . ﴾

أما الطوفان ففيه ستة أقاويل :

أحدها : أنه الغرق بالماء الزائد ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الطاعون ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه الموت ، قاله عطاء . وروت عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الطُّوفَانُ الْمَوْتُ " .

والرابع : أنه أمر من الله طاف بهم ، وهو مروي أيضاً عن ابن عباس .

والخامس : أنه كثرة المطر والريح ، واستدل قائل ذلك بقول الحسن بن عرفطة :

غَيَّرَ الْجِدَّةَ مِنْ عِرْفَانِهِ . . . خُرُقُ الرِّيحِ وَطُوفَانُ الْمَطَرِ

والسادس : أنه عذاب من السماء ، واستدل قائل ذلك بقول أبي النجم :

وَمَرَّ طُوفَانٌ فِبتُّ شَهْراً . . . فَرْداً شَآبِيبَ وَشَهْراً مدراً

﴿ وَالْقُمَّلَ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أنه الدَبَى وهو صغار الجراد لا أجنحة له .

والثاني : أنه السوس الذي في الحنطة قاله ابن عباس .

والثالث : البراغيث ، قاله ابن زيد .

والرابع : القردان ، قاله أبو عبيدة .

والخامس : هو دواب سود صغار ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، وشاهده قول الأعشى .

قَوْماً تُعَالِجُ قُمَّلاً أَبْنَاؤهُمْ . . . وَسَلاَسِلاً أُجُداً وَبَاباً مُؤْصَداً

وواحد القمل قملة .

وأما الضفادع فواحدها ضفدع وهو مشهور . وقيل إنه كان يوجد في فراشهم وآنيتهم ، ويدخل في ثيابهم فيشتد أذاه لهم .

وأما الدم ففيه قولان :

أحدهما : أن ماء شربهم كان يصير دماً عبيطاً ، فكان إذا غرف القبطي من الماء صار دماً وإذا غرف الإسرائيلي كان ماء .

والثاني : أنه رعاف كان يصيبهم ، قاله زيد بن أسلم .

﴿ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : مبينات لنبوة موسى .

والثاني : مفصل بعضها عن بعض لأن هذه الآيات لم تجتمع في وقت واحد بل كانت تأتي شهراً بعد شهر فيكون في تفرقتها مع الإنذار إعذار ، وكان بين كل آيتين شهر .

﴿ فَاسْتَكْبَرُواْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن الانزجار بالآيات .

والثاني : عن الإيمان بموسى .

﴿ وَكَانُواْ قَوماً مُجْرِمِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كافرين .

والثاني : متعدّين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ الآية ،

قال الأخفش ﴿ الطوفان ﴾ جمع طوفانة وهذه عقوبات وأنواع من العذاب بعثها الله عليهم ليزدجروا وينيبوا ، و ﴿ الطوفان ﴾ مصدر من قولك طاف يطوف فهو عام في كل شيء يطوف إلا أن استعمال العرب له كثر في الماء والمطر الشديد ، ومنه قول الشاعر : [الرمل]

غير الجدة من عرفانه . . . خرق الريح وطوفان المطر

ومنه قول أبي النجم : [الرجز]

ومد طوفان فبث مددا . . . شهراً شآبيب وشهراً بردا

(175/283)

وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك : إن ﴿ الطوفان ﴾ في هذه الآية المطر الشديد أصابهم وتوالى عليهم حتى هدم بيوتهم وضيق عليهم ، وقيل طم فيض النيل عليهم وروي في كيفيته قصص كثير ، وقالت عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن ﴿ الطوفان ﴾

المراد في هذه الآية هو الموت ، وقال ابن عباس في بعض ما روي عنه هو مصدر معمى عني به شيء أطافه الله بهم ، و﴿ الجراد ﴾ معروف ، قال الأخفش هو جمع جرادة للمذكر والمؤنث فإن أردت الفصل قلت رأيت جرادة ذكراً ، وروي : أن الله عز وجل لما والى عليهم المطر غرقت أرضهم وامتنعوا الزراعة قالوا يا موسى ادع في كشف هذا عنا نحن نؤمن ، فدعا فدفعه الله عنهم فأنبتت الأرض إنباتاً حسناً فطغوا وقالوا ما نود أنا لم نمطر وما هذا الإحسان من الله إلينا ، فبعث الله حينئذ الجراد فأكل جميع ما أنبتت الأرض ، وروى ابن وهب عن مالك أنه روي أنه أكل أبوابهم وأكل الحديد والمسامير وضيق عليهم غاية التضييق وترك الله من نباتهم ما يقوم به الرمق فقالوا لموسى ادع في كشف الجراد ونحن نؤمن ، فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم ورأوا أن ما أقام رمقهم قد كفاهم ، فبعث الله عليهم القمل وهي الدبى صغار الجراد الذي يثبت ولا يطير قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وقيل هو الحمثان وهو صغار القردان وقيل هو البراغيث وقال ابن عباس ﴿ القمل ﴾ السوس الذي يخرج من الحنطة ، وقيل ﴿ القمل ﴾ الزرع إنه حيوان صغير جداً أسود وإنه بأرض مصر حتى الآن ، قال حبيب بن أبي ثابت : ﴿ القمل ﴾ الجعلان ، وقرأ الحسن " القَمْل " بفتح القاف وسكون الميم فهي على هذا بينة القمل المعروف ، وروي أن موسى مشى بعصاه إلى كثيب أهيل فضربه فانتشر كله قملاً في مصر ، ثم إنهم قالوا ادع في كشف هذا فدعا ورجعوا إلى طغيانهم وكفرهم ، وبعث الله عليهم الضفادع فكانت تدخل في فرشهم

وبين ثيابهم وإذا هم الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه ، قال ابن جبير : كان الرجل يجلس إلى دفنه في

(176/283)

الضفادع ، وقال ابن عباس : كانت الضفادع برية فلما أرسلت على آل فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف أنفسها في القدور وهي تغلي فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء .

فقالوا ادع في كشف هذا فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم وعتوهم فبعث الله عليهم الدم فرجع ماؤهم الذي يستقونه ويحصل عندهم دماً ، فروي أن الرجل منهم كان يستقي من البئر فإذا ارتفع إليه الدلو عاد دماً ، وروي أنه كان يستقي القبطي والإسرائيلي بإناء واحد فإذا خرج الماء كان الذي يلي القبطي دماً والذي يلي الإسرائيلي ماء إلى نحو هذا وشبهه من العذاب بالدم المنقلب عن الماء ، هذا قول جماعة المتأولين ، وقال زيد بن أسلم : إنما سلط الله عليهم الرعاف فهذا معنى قوله والدم .

وقوله تعالى : ﴿ آيات مفصلات ﴾ التفصيل أصله في الأجرام إزالة الاتصال ، فهو تفريق شيئين ، فإذا استعمل في المعاني فيراد أنه فرق بينها وأزيل اشتراكها وإشكالها ، فيجيء

من ذلك بيانها وقالت فرقة من المفسرين : ﴿ مفصلات ﴾ يراد به مفرقات بالزمن ، والمعنى أنه كان العذاب يرتفع ثم يبقون مدة شهر ، وقيل ثمانية أيام ثم يرد الآخر ، فالمراد أن هذه الأنواع من العذاب لم تجيء جملة ولا متصلة ، ثم وصفهم الله عز وجل بالاستكبار عن الآيات والإيمان ، وأنهم كان لهم اجترام على الله تعالى وعلى عباده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(177/283)

وقال ابن الجوزى :

وفي الطوفان ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الماء .

قال ابن عباس : أُرسل عليهم مطر دائم الليلَ والنهارَ ثمانية أيام ، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير ، وقتادة ، والضحاك ، وأبو مالك ، ومقاتل ، واختاره الفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه الموت ، روته عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه قال مجاهد ، وعطاء ، ووهب بن منبه ، وابن كثير .

والثالث : أنه الطاعون ، نقل عن مجاهد ، ووهب أيضاً .

وفي القمَّل سبعة أقوال .

أحدها : أنه السوس الذي يقع في الحنطة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقال به .

والثاني : أنه الدَّبى ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعطاء .

وقال قتادة : القمَّل : أولاد الجراد .

وقال ابن فارس : الدَّبى : الجراد إذا تحرك قبل أن تنبت أجنحته .

والثالث : أنه دواب سود صغار ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير .

وقيل : هذه الدواب : هي السوس .

والرابع : أنه الجعلان ، قاله حبيب بن أبي ثابت .

والخامس : أنه القمل ، ذكره عطاء الخراساني ، وزيد بن أسلم .

والسادس : أنه البراغيث ، حكاه ابن زيد .

والسابع : أنه الحَمنان ، واحدتها : حَمنانة ، وهي ضرب من القِردان ، قاله أبو عبيدة .

وقرأ الحسن ، وعكرمة ، وابن يعمر : "القُمْل" برفع القاف وسكون الميم .

وفي الدم قولان .

أحدهما : أن ماءهم صار دماً ، قاله الجمهور .

والثاني : أنه رعاف أصابهم ، قاله زيد بن اسلم .

الإِشارة إلى شرح القصة

قال ابن عباس : جاءهم الطوفان ، فكان الرجل لا يقدر ان يخرج إلى ضيعته ، حتى خافوا الغرق ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشفه عنا ، ونؤمن بك ، ونرسل معك بني إسرائيل ؛ فدعا لهم ، فكشفه الله عنهم ، وأنبت لهم شيئاً لم ينبته قبل ذلك ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل ما أنبتت الأرض ، فقالوا : ادع لنا ربك ، فدعا ، فكشف الله عنهم ، فأحرزوا زروعهم في البيوت ، فأرسل الله عليهم القُمَّل ، فكان الرجل يخرج بطحين عشرة أجربة إلى الرحى ، فلا يرى منها ثلاثة أقفزة ، فسألوه ، فدعا لهم ، فكُشف عنهم ، فلم يؤمنوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع ، ولم يكن شيء أشد منها ، كانت تجيء إلى القدور وهي تغلي وتفور ، فتلقي أنفسها فيها ، فتفسد طعامهم وتطفىء نيرانهم ، وكانت الضفادع برِّية ، فأورثها الله تعالى برد الماء والثرى إلى يوم القيامة ، فسألوه ، فدعا لهم ، فلم يؤمنوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فجرت أنهارهم وقُلُبهم دماً ، فلم يقدروا على الماء العذب ، وبنو إسرائيل في الماء العذب ، فإذا دخل الرجل منهم يستقي من أنهار بني اسرائيل صار ما دخل فيه دماً ، والماء من بين يديه ومن خلفه صافٍ عذبٌ لا يقدر عليه ، فقال فرعون : أقسم بالهي يا موسى لئن كشفتَ عنا الرجز لنؤمننَّ لك ، ولنرسلن معك بني

إسرائيل ، فدعا موسى ، فذهب الدم ، وَعَذُبَ ماؤهم ، فقالوا : والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ آيات مفصَّلات ﴾ قال ابن قتيبة : بين الآية والآية فصل .

قال المفسرون : كانت الآية تمكث من السبت إلى السبت ، ثم يبقون عقيب رفعها شهراً في عافية ، ثم تأتي الآية الأخرى .

قال وهب بن منبه : بين كل آيتين أربعون يوماً .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : مكث موسى في آل فرعون بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات ، الجراد والقمّل والضفادع والدم .

وفي قوله : ﴿ فاستكبروا ﴾ قولان .

أحدهما : عن الإيمان .

والثاني : عن الانزجار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(179/283)

وقال القرطبى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأُولى روى إسرائيل عن سِمَاك عن نَوْف الشاميّ قال : مكث موسى صلى الله عليه وسلم في آل فرعون بعد ما غلب السحرةَ أربعين عاماً .

وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن مِنجاب : عشرين سنة ، يريهم الآيات : الجراد والقُمَّل والضفادع والدّم .

الثانية قوله تعالى : ﴿ الطوفان ﴾ أي المطر الشديد حتى عامُوا فيه .

وقال مجاهد وعطاء : الطوفان الموت قال الأخفش : واحدته طوفانة .

وقيل : هو مصدر كالرُّجْحَان والنُّقْصان ؛ فلا يطلب له واحد .

قال النحاس : الطوفان في اللغة ما كان مُهْلِكاً من موت أو سَيْل ؛ أي ما يطيف بهم فيهلكهم .

وقال السُّدّي : ولم يُصِب بني إسرائيل قطرةٌ من ماء ، بل دخل بيوتَ القبط حتى قاموا في الماء إلى تَراقِيهم ، ودام عليهم سبعةَ أيام .

وقيل : أربعين يوماً .

فقالوا : ادع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك ؛ فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا .

فأنبت الله لهم في تلك السنة ما لم يُنبته قبل ذلك من الكلأ والزرع .

فقالوا : كان ذلك الماء نعمة ؛ فبعث الله عليهم الجراد وهو الحيوان المعروف ، جمع جرادة

في المذكر والمؤنث .

فإن أردت الفصل نعتَّ فقلت رأيت جرادة ذكراً فأكل زروعهم وثمارهم حتى أنها كانت تأكل السقوف والأبواب حتى تنهدِم ديارهم .

ولم يدخل دُور بني إسرائيل منها شيء .

الثالثة واختلف العلماء في قتل الجراد إذا حَلّ بأرض فأفسد ؛ فقيل : لا يقتل .

وقال أهل الفقه كلهم : يُقتل .

احتج الأوّلون بأنه خَلْق عظيم من خلق الله يأكل من رزق الله ولا يَجْرِي عليه القلم .

(180/283)

وبما روي : " لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظمُ " واحتج الجمهور بأن في تركها فساد الأموال ، وقد رخص النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله ؛ فالجراد إذا أرادت فساد الأموال كانت أولى أن يجوز قتلها .

ألا ترى أنهم قد اتفقوا على أنه يجوز قتل الحية والعقرب ؟ لأنهما يؤذيان الناس فكذلك الجراد .

روى ابن ماجه عن جابر وأنس بن مالك " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا على

الجراد قال : "اللَّهُمّ أهلك كباره واقتل صغاره وأفسده بيضه واقطع دابره وخُذْ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء" .

قال رجل : يا رسول الله ، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ قال : "إن الجراد نَثَرة الحوت في البحر" " .

الرابعة ثبت في صحيح مسلم " عن عبد الله بن أبي أَوْفَى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه " ولم يختلف العلماء في أكله على الجملة ، وأنه إذا أخذ حيّاً وقطعت رأسه أنه حلال باتفاق .

وأنّ ذلك يتنزل منه منزلة الذكاة فيه .

وإنما اختلفوا هل يحتاج إلى سبب يموت به إذا صِيد أم لا ؛ فعامّتهم على أنه لا يحتاج إلى ذلك ، ويؤكل كيفما مات .

وحكمه عندهم حكم الحِيتان ، وإليه ذهب ابن نافع ومُطَرِّف وذهب مالك إلى أنه لا بُدّ له من سبب يموت به ؛ كقطع رؤوسه أو أرجله أو أجنحته إذا مات من ذلك ، أو يُسْلق أو يطرح في النار ؛ لأنه عنده من حيوان البر فَمَيْتَتُه محرّمة .

وكان اللّيث يكره أكل ميت الجراد ، إلا ما أخذ حيّاً ثم مات فإن أخذه ذكاة .

وإليه ذهب سعيد بن المُسَيِّب .

وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أحِلّ لنا ميتتان الحُوت والجراد ودمان الكَبِد والطِّحال " وقال ابن ماجه : حدّثنا أحمد بن مَنيع حدّثنا سفيان بن عُيينة عن أبي سعيد سمع أنس بن مالك يقول : كُنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم يتهادَيْن الجراد على الأطباق .

ذكره ابن المنذر أيضاً .

الخامسة روى محمد بن المُنْكَدِر عن جابر بن عبد الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى خلق ألف أُمّة ستمائة منها في البحر وأربعمائة في البر وإن أوّل هلاك هذه الأُمم الجراد فإذا هلكت الجراد تتابعت الأُمم مثل نظام السِّلك إذا انقطع " ذكره الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأُصول) وقال : وإنما صار الجراد أوّل هذه الأُمم هلاكاً لأنه خُلق من الطينة التي فَضَلت من طينة آدم .

وإنما تهلك الأُمم لهلاك الآدميّين لأنها مسخّرة لهم .

رجعنا إلى قصة القبط فعاهدوا موسى أن يؤمنوا لو كُشف عنهم الجراد ، فدعا فكشف وكان قد بَقِيَ من زروعهم شيء فقالوا : يكفينا ما بَقِيَ ؛ ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم القُمّل ، وهو صغار الدَّبَى ؛ قاله قَتادة .

والدَّبَى : الجراد قبل أن يطير ، الواحد دَبَاة .

وأرض مَدْبِيّة إذا أكل الدَّبَى نباتها .

وقال ابن عباس : القُمّل السُّوس الذي في الحِنطة .

وقال ابن زيد : البراغيث .

وقال الحسن : دوابّ سود صغار .

وقال أبو عبيدة : الحَمْنَان ، وهو ضرب من القُرَاد ، واحدها حَمْنانة .

فأكلت دوابَّهم وزروعهم ، ولزمت جلودهم كأنها الجُدَرِيّ عليهم ، ومنعهم النومَ والقرار .

وقال حبيب بن (أبي) ثابت : القُمّل الجِعلان .

والقُمّل عند أهل اللغة ضرب من القِردان .

قال أبو الحسن الأعرابِيّ العدويّ : القُمّل دواب صغار من جنس القردان ؛ إلا أنها أصغر منها ، واحدتها قُمّلة .

(182/283)

قال النحاس : وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير ؛ لأنه يجوز أن تكون هذه الأشياء كلّها أرسلت عليهم ، وهي أنها كلها تجتمع في أنها تؤذيهم .

وذكر بعض المفسرين أنه كان "بعَيْن شمس" كَثِيب من رمل فضربه موسى بعصاه فصار

قَمّلاً .

وواحد القَمْل قَمْلة .

وقيل : القُمَّلُ القَمْلُ ، قاله عطاء الخُراسانيّ .

وفي قراءة الحسن "والقَمْل" بفتح القاف وإسكان الميم .

فتضرّعوا فلما كُشف عنهم لم يؤمنوا ؛ فأرسل الله عليهم الضفادع ، جمع ضِفْدِع وهي المعروفة التي تكون في الماء ، وفيه مسألة واحدة وهي أن النهي ورد عن قتلها ؛ أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد صحيح .

أخرجه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن عبد الرزاق وابن ماجه عن محمد بن يحيى النيسابوريّ الذُّهْليّ عن أبي هريرة قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الصُّرَد والضِّفْدع والنّملة والهُدهد " وخرج النسائِيّ عن عبد الرحمن بن عثمان : " أن طبيباً ذكر ضِفْدعاً في دواء عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن قتله " صححه أبو محمد عبد الحق .

وعن أبي هريرة قال : الصُّرَد أوّل طير صام .

ولَمّا خرج إبراهيم عليه السلام من الشأم إلى الحرم في بناء البيت كانت السَّكِينة معه والصرد ؛ فكان الصُّرد دليلَه إلى الموضع ، والسّكِينة مقداره .

فلما صار إلى البقعة وقعت السَّكِينة على موضع البيت ونادت : ابن يا إبراهيم على مقدار

ظِلّي ؛ فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتل الصَرد لأنه كان دليل إبراهيم على البيت ، وعن الضفدع لأنها كان تصبّ الماء على نار إبراهيم .

ولَمّا تسلّطت على فرعون جاءت فأخذت الأمكنة كلها ، فلما صارت إلى التَّنُّور وَثَبَتْ فيها وهي نار تسعر ، طاعة لله .

فجعل الله نِقيقها تسبيحاً .

يقال : إنها أكثر الدواب تسبيحاً .

قال عبد الله بن عمرو : لا تقتلوا الضّفدع فإن نقيقه الذي تسمعون تسبيح .

(183/283)

فرُوي أنها ملأت فرشَهم وأوعيتهم وطعامهم وشرابهم ؛ فكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، وإذا تكلّم وثب الضّفدع في فيه .

فشكَوْا إلى موسى وقالوا : نتوب ؛ فكشف الله عنهم ذلك فعادوا إلى كفرهم ؛ فأرسل الله عليهم الدّم فسال النيل (عليهم) دَماً .

وكان الإسرائيليّ يغترف منه الماء ، والقبطيُّ الدّمَ .

وكان الإسرائيلي يَصُبّ الماء في فم القبطي فيصير دَماً ، والقبطيُّ يصب الدّم في فم

الإسرائيلي فيصير ماء زلالاً .

﴿ آيَاتٍ مّفَصَّلَاتٍ ﴾ أي مبيَّنات ظاهرات ؛ عن مجاهد .

قال الزجاج : "آيات مفصّلات" نصب على الحال .

ويروى أنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام .

وقيل : أربعون يوماً .

وقيل : شهر ؛ فلهذا قال "مفصلات" .

﴿ فاستكبروا ﴾ أي ترفّعوا عن الإيمان بالله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(184/283)

وقال الخازن :

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق : دخل كلام بعضهم في بعض قالوا لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوباً أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عليهم الآيات فأخذهم أولاً بالسنين وهو بالقحط ونقص الثمرات وأراهم

قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال : يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا وإن قومه قد نقضوا العهد رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء فأرسل الله عليهم المطر من السماء وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مختلفة مشتبكة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء في بيوت إسرائيل شيء وركد الماء على أرضهم فلم يقدروا على التحرك ولم يعلموا شيئاً ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت .

وقال مجاهد وعطاء : الطوفان الموت .

وقال وهب : الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن .

وقال أبو قلابة : الطوفان الجدري وهم أول من عذبوا به ثم بقي في الأرض .

وقال مقاتل : الطوفان الماء طفا فوق حروثهم .

(185/283)

وفي رواية ابن عباس أن الطوفان أمر من الله طاف بهم فعند ذلك قالوا يا موسى ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا المطر ونحن نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا موسى ربه فرفع

عنهم الطوفان وأنبت الله لهم تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وأخصبت بلادهم فقالوا ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا فلم يؤمنوا وأقاموا شهراً في عافية فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وورق الشجرة وأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة وأكل مسامير الحديد التي في الأبواب وغيرها وابتلي الجراد بالجوع فكان لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بني إسرائيل من ذلك شيء فعجوا وضجوا وقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك وأعطوه عهد الله وميثاقه بذلك فدعاء موسى ربه فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت وفي الخبر " مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم " ويقال إن موسى عليه السلام خرج إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق فرجع الجراد من حيث جاء وكان قد بقي من زروعهم وثمارهم بقية فقالوا قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركي ديننا فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وعادوا إلى أعمالهم الخبيثة أقاموا شهراً في عافية ثم بعث الله عليهم القمل واختلفوا فيه فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن القمل هو السوس الذي يخرج من الحنطة .

وقال مجاهد وقتادة والسدي والكلبي : القمل الدبي وهو صغار الجراد الذي لا أجنحة له .

وقال الحسن : يقرأ بفتح القاف وسكون الميم .

قال أصحاب الأخبار أمر الله موسى عليه السلام أن يمشي إلى كثيب رملي أعفر بقرية من

قرى مصر تسمى عين شمس فمشى إلى ذلك الكثيب فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع ما بقي من حروثهم وزروعهم وثمارهم فأكلها كلها ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه فإذا أكل أحدهم طعاماً امتلأ قملاً .

(186/283)

قال سعيد بن المسيب : القمل السوس الذي يخرج من الحبوب وكان الرجل منهم يخرج بعشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذت أشعارهم وأبصارهم وحواجبهم وأشفار عيونهم ولزم فدعا موسى فرفع الله عنهم القمل بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فمكثوا بعد ذلك ورجعوا إلى أخبث ما كانوا عليه من الأعمال الخبيثة وقالوا ما كنا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر من اليوم يجعل الرمل دواباً فدعا موسى عليهم ما أقاموا شهراً في عافية فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد إناء ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل منهم يجلس في الضفادع فتبلغ إلى حلقه فإذا أراد أن يتكلم يثب الضفدع فيدخل في فيه وكانت تثب في قدورهم فتفسد طعامهم عليهم وتطفئ نيرانهم وكان أحدهم إذا اضطجع ركبته الضفادع حتى تكون عليه ركاماً فلا يستطيع أن ينقلب

إلى شقه الآخر وإذا أراد أن يأكل سبقه الضفدع إلى فيه ولا يعجن أحدهم عجيناً إلا امتلأ ضفادع فلقوا من ذلك بلاء شديداً .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله على آل فرعون وسمعت وأطاعت وجعلت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلي على النار وفي التنانير وهي تفور أثابها الله بحسن طاعتها برد الماء فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى ما يلقونه من الضفادع وقالوا هذه المرة نتوب ولا نعود فأخذ موسى عليه السلام عليهم العهود والمواثيق ثم دعا الله فكشف عنهم الضفدع بعد ما أقامت عليهم سبعاً من السبت إلى السبت فأقاموا شهراً في عافية ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم فدعا عليهم موسى عليه الصلاة ولسلام فأرسل الله الدم فسال النيل عليهم دماً عبيطاً وصارت مياههم كلها دماً وكل ما يستقون من الآبار والأنهار يجدونها دماً عبيطاً فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا : ليس لنا شراب إلا الدم ، فقال : سحركم .

(187/283)

فقالوا : من أين يسحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا دماً عبيطاً .

فكان فرعون يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء

وما يلي القبطي دماً ويفرغان الجرة فيها الماء فيخرج للقبطي دم وللإسرائيلي ماء حتى أن المرأة من آل فرعون تأتي إلى المرأة من بني إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول لها اسقني من مائك فتصب لها في قربتها فيصير في الإناء ماء حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجيه في فمي فتفعل ذلك فيصير دماً ثم إن فرعون اعتراه العطش حتى أنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها دماً فمكثوا على ذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم.

وقال زيد بن أسلم: إن الدم الذي سلط الله عليهم كان الرعاف فأتوا موسى (صلى الله عليه وسلم) وشكوا إليه ما يلقوه وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنحن نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا موسى ربه فكشف عنهم ذلك فلم يؤمنوا فذلك قوله تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ﴾ يعني يتبع بعضها بعضاً وتفصيلها أن كل عذاب كان يقوم عليهم أسبوعاً وبين كل عذابين مدة شهر ﴿ فاستكبروا ﴾ يعني عن الإيمان فلم يؤمنوا ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ يعني آل فرعون. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(188/283)

وقال أبو حيان :

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾

قال الأخفش الطوفان جمع طوفانة عند البصريين وهو عند الكوفيين مصدر كالرجحان ، وحكى أبو زيد في مصدر طاف طوفاً وطوافاً ولم يحك طوفاناً وعلى تقدير كونه مصدراً فلا يراد به هنا المصدر ، قال ابن عباس هو الماء المغرق ، وقال قتادة والضحاك وابن جبير وأبو مالك ومقاتل هو المطر أرسل عليهم دائماً الليل والنهار ثمانية أيام واختاره الفراء وابن قتيبة ، وقيل ذلك مع ظلمة شديدة لا يرون شمساً ولا قمراً ولا يقدر أحد أن يخرج من داره .

وقيل أمطروا حتى كادوا يهلكون وبيوت القبط وبني إسرائيل مشتبكة فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا فيه إلى تراقيهم فمن جلس غرق ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرّف ودام عليهم سبعة أيام ، وقيل طم فيض النيل عليهم حتى ملأ الأرض سهلاً وجبلاً .

وقال ابن عطية : هو عام في كل شيء يطوف إلا أن استعمال العرب له أكثر في الماء والمطر الشديد .

ومنه قول الشاعر :

غير الجدّة من عرفانه . . .

خرق الرّيح وطوفان المطر

ومد طوفان مبيد مددا . . .

شهراً شآبيب وشهراً بردا

وقال مجاهد وعطاء ووهب وابن كثير هو هنا الموت الجارف وروته عائشة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولو صحّ وجب المصير إليه ونقل عن مجاهد ووهب أنه الطاعون بلغة اليمن ، وقال أبو قلابة هو الجدري وهو أول عذاب وقع فيهم فبقي في الأرض .

(189/283)

وقيل هو عذاب نزل من السماء فطاف بهم ، وروي عن ابن عباس أنه معمى عنى به شيء أطافه الله بهم فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعا فرفع عنهم فما آمنوا فنبت لهم في تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد مثله فأقاموا شهراً فبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكلت عامة زرعهم وثمارهم ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة فكشف عنهم سبعة أيام وخرج موسى عليه السلام إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق

والمغرب فرجع الجراد إلى النواحي التي جئن منها وقالوا ما نحن بتاركي ديننا فأقاموا شهراً وسلّط عليهم القمل ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعطاء : هو الدّبا وهو صغار الجراد قبل أن تنبت له أجنحة ولا يطير ، وقال ابن جبير عن ابن عباس : هو السّوس الذي يقع في الحنطة ، وقال الحسن وابن جبير : دواب سود صغار ، وقال حبيب بن أبي : ثابت هو الجعلان ، وقال أبو عبيدة : هو الحمنان وهو ضرب من القردان ، وقال عطاء الخراساني وزيد بن أسلم : هو القمل المعروف وهو لغة فيه ويؤيده قراءة الحسن بفتح القاف وسكون الميم ، وقيل هو البراغيث حكاه ابن زيد وروي أنّ موسى مشى إلى كثيب أهيل فضربه بعصاه فانتشر كله قملاً بمصر فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض وكان يدخل بين جلد القبطيّ وقميصه ويمتلىء الطعام ليلاً ويطحن أحدهم عشرة أجربة فلا يرد منها إلا يسيراً وسعى في أبشارهم وشعورهم وأهداب عيونهم ولزمت جلودهم فضجوا وفزعوا إلى موسى عليه السلام فرفع عنهم فقالوا قد تحققنا الآن أنك ساحر وعزّة فرعون لا نصدقك أبداً ، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع فملأت آنيتهم وأطعماتهم ومضاجعهم ورمت بأنفسها في القدور وهي تغلي وفي التنانير وهي تفور وإذا تكلم أحدهم وثبت إلى فيه ، قال ابن جبير : وكان أحدهم يجلس في الضفادع إلى ذقنه فقالوا لموسى ارحمنا هذه المرة ونحن نتوب التوبة

النصوح ولا نعود فأخذ عليهم العهود فكشف عنهم فنقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم ، قال الجمهور : صار ماؤهم دماً حتى أنّ الإسرائيلي ليضع الماء في القبطي فيصير في فيه دماً وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك فكان يمصّ الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها الطيّب ملحاً أجاجاً ، وقال سعيد بن المسيب : سال عليهم النيل دماً ، وقال زيد بن أسلم : الدّم هو الرعاف سلطه الله عليهم .

ومعنى تفصيل الآيات تبيينها وإزالة أشكالها والتفصيل في الإجرام هو التفريق وفي المعاني يراد به أنه فرق بينها فاستبانت وامتاز بعضها من بعض فلا يشكل على العاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم ، وقال ابن قتيبة سماها ﴿ مفصلات ﴾ لأن بين الآية والآية فصلاً من الزمان ، قيل كانت الآية تمكث من السبت إلى السبت ثم يبقون عقيب رفعها شهراً في عافية ، وقيل ثمانية أيام ثم تأتي الآية الأخرى ، وقال وهب : كان بين كل آيتين أربعون يوماً ، وقال نوف البكالي مكث موسى عليه السلام في آل فرعون بعد إيمان السحرة عشرين سنة يريهم الآيات وحكمة التفصيل بالزمان أنه يمتحن فيه أحوالهم أيفون بما عاهدوا أم ينكثون فتقوم عليهم الحجة وانتصب ﴿ آيات مفصلات ﴾ على الحال والذي دلّت عليه الآية أنه أرسل عليهم ما ذكر فيها وأما كيفية الإرسال ومكث ما أرسل عليهم من الأزمان والهيئات فمرجعه إلى النّقل عن الأخبار الإسرائيليات إذ لم

يثبت من ذلك في الحديث النبوي شيء ومع إرسال جنس الآيات استكبروا عن الإيمان وعن قبول أمر الله تعالى ، ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ إخبار منه تعالى عنهم باجترامهم على الله وعلى عباده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(191/283)

وقال أبو السعود :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ﴾ عقوبةً لجرائمهم لا سيما لقولهم هذا ﴿ الطوفان ﴾ أي الماءَ الذي طاف بهم وغشِيَ أماكنَهم وحروثَهم من مطر أو سَيل ، وقيل : هو الجُدَريّ . وقيل : المَوَتان . وقيل : الطاعون ﴿ والجراد والقمل ﴾ قيل : هو كبارُ القردان وقيل : أولادُ الجراد قبل نباتِ أجنحتِها ﴿ والضفادع والدم ﴾ رُوي أنهم مُطروا ثمانيةَ أيام في ظلمة شديدةٍ لا يستطيع أن يخرُجَ أحدٌ من بيته ودخل الماءُ بيوتَهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيلَ منه قطرةٌ وهي في خلال بيوتِهم وفاض الماءُ على أرضهم وركدَ فمنعَهم من الحرْث والتصرّف ودام ذلك سبعةَ أيام فقالوا له عليه الصلاة والسلام : ادعُ لنا ربك يكشفْ عنا ونحن نؤمنُ بك فدعا فكُشف عنهم فنبت من العشب والكلأ ما لم يُعهَدْ قبله ، ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم الجرادَ فأكل زروعَهم وثمارَهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابَهم

ففزِعوا إليه عليه الصلاة والسلام لما ذكر فخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرقِ والمغربِ فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا فسلط الله تعالى عليهم القُمّلَ فأكل ما أبقته الجرادُ وكان يقع في أطعمتهم ويدخُل بين ثيابهم وجلودِهم فيمُصّها ففزِعوا إليه ثالثاً فرفع عنهم فقالوا : قد تحققنا الآن أنك ساحرٌ ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوبٌ ولا طعام إلا وجدت فيه وكانت تمتلىء منها مضاجعُهم وتثب إلى قدروهم وهي تغلي وإلى أفواههم عند التكلم ففزعوا إليه رابعاً وتضرعوا فأخذ عليهم العُهود فدعا فكشف الله عنهم فنقضوا العهدَ فأرسل الله عليهم الدمَ فصارت مياههم دماءً حتى كان يجتمع القِبطيُّ والإسرائيليُّ على إناء فيكون ما يليه دماً وما يلي الإسرائيليّ ماءً على حاله ويمص من فم الإسرائيليِّ فيصير دماً في فيه ، وقيل : سلط الله عليهم الرُّعاف ﴿ ءايات ﴾ حال من المنصوبات المذكورة ﴿ مّفَصَّلَاتٍ ﴾ مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات

(192/283)

الله تعالى ونقمته وقيل : مفرقات بعضها من بعض لامتحان أحوالهم وكان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها أسبوعاً وقيل : إنه عليه السلام لبث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل ﴿ فاستكبروا ﴾ أي عن الإيمان بها ﴿

وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(193/283)

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ﴾ عقوبة لجرائمهم لا سيما قولهم هذا ﴿ الطوفان ﴾ أي ما طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل فهو اسم جنس من الطواف ، وقيل : إنه في الأصل مصدر كنقصان ، وهو اسم لكل شيء حادث يحيط بالجهات ويعم كالماء الكثير والقتل الذريع والموت الجار ، وقد اشتهر في طوفان الماء وجاء تفسيره هنا بذلك في عدة روايات عن ابن عباس ، وجاء عن عطاء .

وما هد تفسيره بالموت ، وأخرج ذلك ابن جرير وغيره عن عائشة رضي الله تعالى عنها مرفوعاً ، وعن وهب بن منبه أنه الطاعون بلغة اليمن وعن أبي قلابة أنه الجدري ، وهم أول من عذبوا به ، وهذا القولان ينجران إلى الخبر المرفوع ﴿ والجراد ﴾ هو المعروف واحده جرادة سمي لجرده ما على الأرض ، وهو جنود الله تعالى يسلطه على من يشاء من عباده ، وأخرج أبو داود .

وابن ماجه .

والطبراني وغيرهم عن أبي زهير النميري مرفوعاً النهي عن مقاتلته معللاً بما ذكر ، وذكر البيهقي أن ذلك إن صح مراد به إذا لم يتعرض لإفساد المزارع فإذا تعرض له جاز دفعه بما يقع به الدفع من القتال والقتل أو أريد بها لإشارة إلى تعذر مقاومته بذلك ، وأخرج أبو داود ومن معه عن سليمان قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجراد فقال " أكثر جنود الله تعالى لا آكله ولا أحرمه " وزعم أنه مخلوق من ذنوب ابن آدم مؤول ﴿ والقمل ﴾ بضم القاف وتشديد الميم قيل : هو الدبي وهو الصغار من الجراد ولا يسمى جراداً إلا بعد نبات أجنحته ، وروى ذلك عن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة والسدي ، وقيل هو القدران جمع القراد المعروف ، وقيل : صغار الذر ، وعن حبيب بن أبي ثابت أنها الجعلان ، وعن ابن زيد قال : زعم بعض الناس أنها البراغيث ، وعن سعيد بن جبير أنها السوس وهي الدابة التي تكون في الحنطة وغيرها ، ويسمى قملاً بفتح فسكون وبذلك قرأ الحسن ﴿ والضفادع ﴾ جمع ضفدع كزبرج .

وجعفر .

وجندب ودرهم وهذا أقل أو مردود الدابة المائية المعروفة ﴿ والدم ﴾ معروف وتشديد داله لغة .

وروى أن موسى عليه السلام لما رأى من فرعون وقومه العناد والإصرار دعا وقال : يا رب إن فرعون علا في الأرض وإن قومه قد نقضوا العهد رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فأرسل الله تعالى عليهم المطر ثمانية أيام في ظلمة شديدة لم يستطع أحد لها أن يخرج من بيته فدخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منه قطرة وكانت مشتبكة في بيوتهم وفاض الماء على أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والتصرف ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يشكف عنا ذلك ونحن نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فنبت من العشب والكلأ ما لم يعهد مثله قبله ، فقالوا : ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا فلم يؤمنوا .

(195/283)

فبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم وأمتعتهم حتى أكل مسامير الحديد التي في الأبواب ولم يصب بني إسرائيل من ذلك شيء ، فعجوا وضجوا إلى موسى عليه السلام ، وقالوا له كما قالوا أولاً فخرج عليه السلام إلى الصحراء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع إلى النواحي التي جاء منها ، وقيل : جاءت ريح فألقته في البحر فلم يؤمنوا ، فسلط الله تعالى عليهم القمل فأكل ما أبقى الجراد وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصه وإذا أراد أن يأكل طعاماً امتلأ قملاً ، وقال ابن المسيب : ابتلوا بالسوس فكان الرجل منهم يخرج بعشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد إلا بثلاث أقفزة منها وأخذ حواجبهم وأشفار عيونهم وسائر شعورهم وفعل في جلودهم ما يفعله الجدري ومنعهم النوم والقرار ففزعوا إلى موسى عليه السلام فرفع عنهم ، فقالوا : قد تحققنا الآن أنك ساحر ، فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع فامتلأت بيوتهم وأفنيتهم وأمتعتهم وآنيتهم منها فلا يكشف أحد إنا إلا وجدها فيه ، وكان الرجل يجلس في الضفادع فتبلغ إلى حلقه فإذا أراد أن يتكلم يثب الضفدع فيدخل في فيه ؛ وكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم طعامهم وتطفىء نيرانهم ، وإذا اضطجع أحدهم ركبته حتى تكون عليه ركاماً فلا يستطيع أن ينقلب وإذا أراد أن يأكل سبقته إلى فيه ولا يعجن عجيناً إلا امتلأ منها ففزعوا إليه عليه السلام وتضرعوا فأخذ عليهم العهود والمواثيق ودعا فكشف الله تعالى عنهم ذلك فنقضوا العهد ، فأرسل الله تعالى عليهم الدم فسال النيل عليهم دماً عبيطاً وصارت

مياههم دماء فكان فرعون يجمع بين القبطي والإسرائيلي في إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً ويقومان إلى الجرة فيها الماء فيخرج للقبطي دم وللإسرائيلي ماء حتى إن المرأة من آل فرعون تأتي المرأة من بني إسرائيل فتقول لها استقيني ماء فتصب لها من قربتها فيصير في الإناء دماً حتى كانت تقول :

(196/283)

اجعليه في فيك ثم مجيه في فيّ فتفعل ذلك فيصير دماً .

وقال ابن ابن أسلم : إن الدم الذي سلط عليهم كان الرعاف ﴿ ءايات ﴾ حال من الأشياء المتقدمة .

﴿ مّفَصَّلَاتٍ ﴾ مبينات لا يشك عاقل أنها آيات إلهية لا سحر كما يزعمون ، أو مميزاً بعضها من بعض منفصلة بالزمان لامتحان أحوالهم وكان بين كل اثنين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها شهراً كما أخرج ذلك ابن المنذر عن ابن عباس ، وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : كانت الآيات التسع في تسع سنين في كل سنة آية ، وأخرج أحمد في الزهد وغيره عن نوف الشامي قال : مكث موسى عليه السلام في آل فرعون بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات الجراد والقمل الخ فأبوا أن يسلموا .

وفي رواية أبي الشيخ عن ابن عباس أنه مكث عليه السلام بعد أن غلب أربعين سنة يريهم ما ذكر ، ورأيت في مسامرات الشيخ ابن العربي قدس سره أن موسى عليه السلام مكث ينذر آل فرعون ستة عشر شهراً إلى أن أغرقوا فأدخلوا ناراً ولم ينتفعوا بما رأوا من الآيات

﴿ فاستكبروا ﴾ عن الإيمان بها .

﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(197/283)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ﴾ .

روي أن القوم لما عالجهم موسى بالآيات الأربع العصا واليد والسنين ونقص الثمرات فكفروا ودعا وكان حديداً فقال يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا وإن قومه نقضوا عهدك فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم عبرة فأرسل الله عليهم عقوبة لجرائمهم ﴿ الطُوفَانَ ﴾ أي الماء الذي طاف بهم وأحاط وغشى أماكنهم وحرثهم من مطر أو سيل ﴿ وَالْجَرَادَ ﴾ في التفسير الفارسي (ملخ رنده) .

وفي "حياة الحيوان" : الجراد البري إذا خرج من بيضته يقال له : الدباء فإذا بدت فيه الألوان واصفرت الذكور واسودت الإناث يسمى جراداً حينئذٍ وفي الحديث : "لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم" وهذا إن صح أراد به إذا لم يتعرض لإفساد الزرع فإن تعرض له جاز دفعه بالقتل وغيره ، ووقعت بين يدي النبي عليه السلام ، جرادة فإذا مكتوب على جناحيها بالعبرانية نحن جند الله الأكبر ولنا تسع وتسعون بيضة ، ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا وما فيها فقال النبي عليه السلام : "اللهم أهلك الجراد اقتل كبارها وأمت صغارها وأفسد بيضها وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معايشهم إنك سميع الدعاء" فجاء جبرائيل عليه السلام فقال : إنه قد استجيب لك في بعضه .

وعن حسن بن علي : كنا على مائدة نأكل أنا وأخي محمد بن الحنفية وبنو عمي عبد الله وقثم والفضل بن العباس فوقعت جرادة على المائدة فأخذها عبد الله ، وقال لي ما مكتوب على هذه ؟ فقلت سألت أبي أمير المؤمنين عن ذلك فقال سألت عنه رسول الله فقال مكتوب عليها أنا الله لا إله إلا أنا رب الجراد ورازقها وإن شئت بعثتها رزقاً لقوم وإن شئت بعثتها بلاء على قوم فقال عبد الله هذا من العلم المكنون" وليس في الحيوان أكثر فساداً لما يقتاته الإنسان من الجراد .

وأجمع المسلمون على إباحة أكله ، قال الأربعة : يحل أكله سواء مات حتف أنفه أو بذكاة أو باصطياد مجوس أو مسلم قطع منه شيء أو لا والدليل على عموم حله قوله عليه السلام : "أحلت لنا ميتتان ودمان الكبد والطحال والسمك والجراد" وإذا تبخر إنسان بالجراد البري نفعه من عسر البول .

وقال ابن سينا : إذا أخذ منها اثنا عشر ونزعت رؤوسها وأطرافها وجعل معها قليل آس يابس وشرب للاستسقاء نفعه .

وأما الجراد البحري فهو من أنواع الصدف كثير بساحل البحر ببلاد المغرب ويأكلونها كثيراً مشوياً ومطبوخاً ولحمها نافع للجذام .

﴿ وَالْقُمَّلَ ﴾ في التفسير الفارسي (ملخ ياده) وقيل : هو كبار القردان وهو جمع قراد يقال له بالتركي "كنه" مسلط على البعير وفي الأمثال أسمع من قراد وذلك أنه يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم فيتحرك لها وقيل : هو السوس الذي يخرج من الحنطة وقيل : إنه شيء يقع في الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهي غضة قبل أن تقوى فيطول الزرع ولا سنبل له وقرأ الحسن والقمل بفتح القاف وسكون الميم يريد به القمل المعروف الذي يقع في بدن الإنسان وثوبه وإذا ألقيت القملة حية أورثت النسيان .

قال الجاحظ : وفي الحديث : "أكل الحامض ، وسؤر الفار ، ونبذ القمل يورث النسيان"

وإذا أردت أن تعلم هل المرأة حامل بذكر أو أنثى فخذ قملة واحلب عليها من لبنها في كف إنسان فإن خرجت من اللبن فهي جارية وإن لم تخرج فهو ذكر وإن حبس على إنسان بوله فخذ قملة من قمل بدنه واجعلها في إحليله فإنه يبول من وقته ، والقمل المعروف يتولد من العرق والوسخ إذا أصاب ثوباً أو ريشاً أو شعراً حتى يصير المكان عفناً .

(199/283)

قال الجاحظ : وربما كان للإنسان قمل الطباع وإن تنطف وتعطر وبدل الثياب كما عرض لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام حين استأذنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم في لباس الحرير فأذن لهما فيه ولولا أنهما كانا في حد ضرورة لما أذن لهما لما في ذلك من التشديد فيجوز لبس الثوب الحرير لدفع القمل لأنه لا يقمل بالخاصية .

قال في "أنوار المشارق" : والأصح أن الرخصة لا تختص بالسفر انتهى .

وفي "الواقعات المحمودية" : أن القمل يكون من البرودة ولذلك يكثر في الشتاء ولا يكون في الصيف .

قال السيوطي : ولم يقع على ثيابه عليه السلام ذباب قط ولا أذاه القمل .

﴿ وَالضَّفَادِعَ ﴾ جمع ضفدع مثل خنصر وهو الأشهر الصحيح من حيث اللغة والأنثى

ضفدعة وناس يقولون بفتح الدال كدرهم ، وأنكره الخليل حيث قال : ليس في الكلام فعلل إلا أربعة أحرف درهم وهجدم وهبلع وبلعم وهو اسم والضفادع أنواع كثيرة ويكون من سفاد وغير سفاد فالذي من سفاد يبيض في البر ويعيش في الماء والذي من غير سفاد يتولد في المياه القائمة الضعيفة الجري ومن العفونات وغب الأمطار الغزيرة حتى يظن أنه يقع من السحاب لكثرة ما يرى منه على الأسطحة عقيب المطر والريح وليس ذلك عن ذكر وأنثى ، وإنما الله تعالى يخلقه في تلك الساعة من طباع تلك التربة وهي من الحيوانات التي لا عظام لها وفيها ما ينق وفيها مالا ينق والذي ينق منها يخرج صوته من قرب أذنه وتوصف بحدة السمع إذا تركت النقيق وكانت خارج الماء ، وإذا أرادت أن لا تنق أدخلت فكها الأسفل في الماء ومتى دخل الماء في فيها لا تنق وما أظرف قول بعض الشعراء وقد عوتب في كلامه :

قالت الضفدع قولاً

فسرته الحمكاء

في فمي ماء وهل

ينطق من في فيه ماء قال سفيان : يقال إنه ليس شيء أكثر ذكراً منه .

قال الزمخشري : تقول في نقيقها سبحان الملك القدوس .

روي أن داود عليه السلام قال : لأسبحن الله الليلة تسبيحاً ما سبحه أحد من خلقه فنادته ضفدع من ساقية في داره يا داود أتفخر على الله تعالى بتسبيحك وإن لي لسبعين سنة ما جفّ لي لسان من ذكر الله وإن لي لعشر ليال ما طعمت خضراء ولا شربت ماء اشتغالاً بكلمتين ، قال : ما هما قالت يا مسبحاً بكل لسان ومذكوراً بكل مكان ، فقال داود في نفسه : وما عسى أن أكون أبلغ من هذا .

وعن أنس "لا تقتلوا الضفادع فإنها مرت بنار إبراهيم عليه السلام فحملت في أفواهها الماء وكانت ترشه على النار" .

وقال ابن سينا : إذا كثرت الضفادع في سنة وزادت على العادة يقع الوباء عقيبه .

وفي "الواقعات المحمودية" : تعبير الضفدع أنه نقصان خفي فإنه يذكر أنه كان في الأصل كيالاً فلأجل نقصانه في الكيل أدخل فيه ، ومن خواصه أنه إذا أخذت امرأة ضفدع الماء وفتحت فاه وبصقت فيه ثلاث مرات ورمته إلى الماء فإنها لا تحبل ودمه إذا طلي به الموضع الذي نتف شعره لم ينبت أبداً ، وشحم الضفادع الإجامية إذا وضع على الأسنان قلعها من غير وجع .

قال القزويني : ولقد كنت بالموصل ولنا صاحب في بستان بنى مجلساً وبركة فتولدت فيها الضفادع وتأذى سكان المكان بنقيقها وعجزوا عن إبطاله حتى جاء رجل وقال اجعلوا

طشتاً على وجه الماء مقلوباً ففعلوا فلم يسمعوا لها نقيقاً بعد ذلك .

﴿ وَالدَّمَ ﴾ .

(201/283)

روي إنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يستطيع أن يخرج واحد من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم وهي جمع ترقوة وهي العظم الذي بين ثغرة النحر ، والعاتق وهو موضع الرداء من المنكب ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منه قطرة مع أنها كانت مختلطة ببيوت القبط فاض الماء على أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والتصرف ودام سبعة أيام ، فقالوا له عليه السلام : ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعا فكشف عنهم فنبت من العشب والكلاء ما لم يعهد مثله فقالوا هذا كنا نتمناه وما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصباً ، فلا والله لا نؤمن بك يا موسى فنقضوا العهد وأقاموا على كفرهم شهراً فبعث الله عليهم الجراد بحيث وقع على الأرض بعضه على بعض ذراعاً فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منه شيء ففزعوا إليه عليه السلام كما ذكر فخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع إلى النواحي التي جاء منها بعد أن أقام في أرضهم سبعة أيام فلم يبق جرادة واحدة ثم نظروا

فإذا في بعض المواضع من نواحي مصر بقية كلاء وزرع فقالوا هذا يكيفنا بقية عامنا هذا فلا والله لا نؤمن بك فسلط الله عليهم القمل فمكث في أرضهم سبعة أيام فلم يبق لهم عوداً أخضر ولحس جميع ما في أراضيهم مما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين ثيابهم وجلودهم فيمصها وينهشهم ويأكل شعورهم وحواجبهم وأشفار عيونهم ومنعهم النوم والقرار وظهر بهم منه الجدري .

(202/283)

قال الحدادي في "تفسيره" : هم أول من عذبوا بالجدري وبقي في الناس إلى الآن ثم فزعوا إليه عليه السلام ثالثاً فرفع عنهم فقالوا قد تحققنا الآن أنك ساحر قالوا وما عسى ربك أن يفعل بنا وقد أهلك كل شيء من نبات أرضنا فعلى أي شيء نؤمن بك اذهب فما استطعت أن تفعل فافعله ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم ، وهي تغلي وإلى أفواههم عند التكلم وكان بعضهم لا يسمع كلام بعض من كثرة صراخ الضفادع ، وكانوا إذا قتلوا واحداً منها خافوا ما حول محله حتى لا يستطيعون الجلوس فيه ففزعوا إليه رابعاً وتضرعوا فأخذ عليهم العهود فدعا فكشف الله عنهم بريح عظيمة نبذتها في البحر فنقضوا العهد ،

فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم وآبارها وأنهارها دماً أحمر عبيطاً ، حتى كان يجتمع القبطي والإسرائيلي على إناء فيكون ما يليه دماً وما يلي الإسرائيلي ماء على حاله ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً فيه .

ثم إن فرعون أجهده العطش وكانوا يأتونه بأوراق الأشجار الرطبة فيمصها فتصير دماً عبيطاً أو أجاجاً وكانوا لا يأكلون ولا يشربون سبعة أيام إلا الدم فقال فرعون أقسم بإلهك يا موسى لئن كشفت عنا هذا الدم لنؤمنن لك فدعا فعذب ماؤهم فعادوا لكفرهم إلى أن كان من أمر الغرق ما كان ﴿ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ حال من مفعول أرسلنا أي أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات وعلامات مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات الله ونقمته ، وقيل معنى مفصلات مفرقات ومنفصلات بأن فصل بعضها عن بعض بزمان لامتحان أحوالهم هل يعتبرون أو يستمرون على المخالفة والعناد وما كان بين كل اثنتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها أسبوعاً .

﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أي : تعظموا عن الإيمان بها .

﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 282.286 ﴾

(203/283)

وقال القاسمي :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾

أي : على آل فرعون ، وأما قوم موسى فلطف تعالى بهم ، فلم ينلهم ولا محالهم سوء من الطوفان ولا غيره .

والطوفان لغة هو المطر الغالب ، ويطلق على كل حادثة تطيف بالإِنْسَانْ وتحيط به ، فعم الطوفان الصحراء ، وأتلف عشبها ، كسر شجرها ، تواصلت الرعود والبروق ، ونيران الصواعق في جميع أرض مصر ﴿ وَالْجَرَادَ ﴾ فأكل جميع عشب أرض مصر والثمر ، مما تركه الطوفان ، حتى لم يبق شيء من ثمرة ولا خضرة في الشجرة ، ولا عشب في الصحراء ﴿ وَالْقُمَّلَ ﴾ فعم أرض مصر ، وكان على الناس والبهائم ، وهو بضم وتشديد كسُكَّر صغار الذر ، أو شيء صغير بجناح أحمر ، أو دواب صغار من جنس القردان ، أو الدبي الذي لا أجنحة له ، وهو الجراد الصغار .

قال أبو البقاء : القمّل ، يقرأ بالتشديد والتخفيف مع فتح القاف وسكون الميم . قيل : هما لغتان .

قيل : هما القمل المعروف في الثياب ونحوها ، والمشدد يكون في الطعام . انتهى .

وردّ ابن سيده ، وتبعه المجد في " القاموس " القول بأن المراد به قمل الناس .

﴿ وَالضَّفَادِعَ ﴾ فصعدت من الأنهار والخلج والمناقع ، وغطت أرض مصر ﴿ وَالدَّمَ

﴿ فصارت مياه مصر جميعها دماً عبيطاً ، ومات السمك فيها ، وأنتنت الأنهار ، ولم يستطع المصريون أن يشربوا منها شيئاً .

﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ ﴾ أي : مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته ، أو مفرقات بعضها إثر بعض . وآيات حال من المنصوبات قبل .

﴿ فَاسْتَكْبَرُواْ ﴾ أي : عن الإيمان ، فلم يؤمنوا لموسى ، ويرسلوا معه بني إسرائيل : ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ أي : عاصين كافرين .

(204/283)

قال الجشمي : تدل الآية على عناد القوم ، وإصرارهم على الكفر وجهلهم ، حيث عاهدوا في كل آية يأتي بها على صدقه وإثبات العهد ، أنهم لا يؤمنون بها وليس هذه عادة من غرضه الحق .

وتدل على ذم من يرى الآيات ولا يتفكر فيها ، وتدل على وجوب التدبر في الآيات . انتهى .

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 173.174 ﴾

(205/283)

وقال ابن عاشور :

والفاء في قوله : ﴿ فأرسلنا ﴾ لتفريع إصابتهم بهذه المصائب على عتوهم وعنادهم .

والإرسال : حقيقته توجيه رسول أو رسالة فيعدى إلى المفعول الثاني (بإلى) ويضمّن معنى الإرسال من فوق ، فيعدى إلى المفعول الثاني (بعَلى) ، قال تعالى : ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ [الفيل : 3] ، ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ [الذاريات : 41] فحرف (على) دل على أن جملة أرسلنا مفرعة تفريع العقاب لا تفريع زيادة الآيات .

والطوفان : السَيْح الغالب من الماء الذي يغمر جهات كثيرة ويطغى على المنازل والمزارع ، قيل هو مشتق من الطواف لأن الماء يطوف بالمنازل ، أي : تتكرر جريته حولها ، ولم يدخل الطوفان الأرض التي كان بها بنو إسرائيل وهي أرض (جاسان) .

والجراد : الحشرة الطائرة من فصيلة الصرصر والخنافس له أجنحة ستة ذات ألوان صفر وحمر تنتشر عند طيرانه ، يكون جنوداً كثيرة يسمى الجند منها رِجْلا .

وهو مهلك للزرع والشجر ، يأكل الورق والسنبل ووَرَق الشجر وقشره ، فهو من أسباب القحط .

أصاب أرض قوم فرعون ولم يصب أرض بني إسرائيل .

والقُمّلُ : بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة في القراءات المشهورة اسم نوع من القراد عظيم يسمى الحُمْنان بضم الحاء المهملة وميم ساكنة ونونين واحدته حمنانة وهو يمتص دم الإنسان (وهو غير القَمْل بفتح القاف وسكون الميم الذي هو من الحشرات الدقيقة التي تكون في شعر الرأس وفي جلد الجسد يتكون من تعفن الجلد لوسخه ودسومته ومن تعفن جلد الرأس كثيراً) ، أصاب القبط جند كثير من الحمنان عسر الاحتراز عنه ولعله أصاب مواشيَهم .

(206/283)

والضفادع : جمع ضَفْدَع وهو حيوان يمشي على أرجل أربع ويسحب بطنه على الأرض ويسبح في المياه ، ويكون في الغدران ومناقع المياه ، صوته مثل القراقر يسمى نقيقاً ، أصابهم جند كثير منه يقع في طعامهم يرتمي إلى القدور ، ويقع في العيون والأسقية وفي البيوت فيفسد ما يقع فيه وتطؤه أرْجُل الناس فتتقذر به البيوت ، وقد سلمت منه بلاد (جاسان) منزل بني إسرائيل .

والدم معروف ، قيل : أصابهم رعاف متفش فيهم ، وقيل : صارت مياه القبط كالدم في اللون ، كما في التوراة ، ولعل ذلك من حدوث دود أحمر في الماء فشبه الماء بالدم ، وسلمت

مياه (جاسان) قرية بني إسرائيل .

وسمى الله هاته ﴿ آيات ﴾ لأنها دلائل على صدق موسى لاقترانها بالتحدي ، ولأنها دلائل على غضب الله عليهم لتظافرها عليهم حين صمموا الكفر والعناد .

وانتصب ﴿ آيات ﴾ على الحال من الطوفان وما عطف عليه ، و ﴿ مفصّلات ﴾ اسم مفعول من فصّل المضاعف الدال على قوة الفصل .

والفصل حقيقته التفرقة بين الشيئين بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر ، ويستعار الفصل لإزالة اللبس والاختلاط في المعاني ف ﴿ مفصلات ﴾ وصف ل ﴿ آيات ﴾ ، فيكون مراداً منه معنى الفصل المجازي وهو إزالة اللبس ، لأن ذلك هو الأنسب بالآيات والدلائل ، أي : هي آيات لا شبهة في كونها كذلك لمن نَظر نَظر اعتبار .

وقيل : المراد أنها مفصول بعضها عن بعض في الزمان ، أي لم تحدث كلها في وقت واحد ، بل حدث بعضها بعد بعض ، وعلى هذا فصيغة التفعيل للدلالة على تراخي المدة بين الواحدة والأخرى ، ويجيء على هذا أن العذاب كان أشد وأطول زمناً كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وما نريهم من آية إلاّ هي أكبر من أختها ﴾ [الزخرف : 48] ، قيل : كان بين الآية منها والأخرى مدة شهر أو مدة ثمانية أيام ، وكانت تدوم الواحدة منها مدة ثمانية أيام وأكثر ، وعلى هذا الوجه فالأنسب أن يجعل ﴿ مفصلات ﴾ حالاً ثانية من الطوفان والجراد ، وأن لا يجعل صفة ﴿ آيات ﴾ .

والفاء في قوله : ﴿ فاستكبروا ﴾ للتفريع والترتب ، أي : فتفرع على إرسال الطوفان وما بعده استكبارهم ، كما تفرع على أخذهم بالسنين غرورُهم بأن ذلك من شؤم موسى ومن معه ، فعُلم أن من طبع تفكيرهم فسادَ الوضع ، وهو انتزاع المدلولات من أضداد أدلتها ، وذلك دليل على انغماسهم في الضلالة والخذلان ، وبعدهم عن السعادة والتوفيق ، فلا يزالون مورطين في وحل الشقاوة .

فالاستكبار : شدة التكبر كما دلت عليه السين والتاء ، أي : عدَ أنفسهم كبراء ، أي تعاظمهم عن التصديق بموسى وإبطال دينهم إذ أعرضوا عن التصديق بتلك الآيات المفصلات .

وجملة : ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فاستكبروا ﴾ ، فالمعنى : فاستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات وأجرموا ، وإنما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم ، وتمكنه منهم ، ورسوخه فيهم من قبل حدوث الاستكبار ، وفي ذلك تنبيه على أن وصف الإجرام الراسخ فيهم هو علة للاستكبار الصادر منهم ، ف (كان) دالةٌ على استمرار الخبر وهو وصف الإجرام .

والإجرام : فعل الجرم وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ في هذه السورة (40) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(208/283)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾

وكلمة " الطوفان " يراد بها طغيان ماء ، والماء – كما نعلم – هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للدمار حتى لا تفهم أن المسائل بذاتيتها ، بل بتوجيهات القادر عليها ، وعندما ننظر إلى الطوفان الذي أغرق من قبل قوم نوح ، ولم ينج أحد إلا من ركب مع نوح في السفينة ؛ وهنا مع قوم موسى لا توجد سفينة ، لأن الله يريد أن يؤكد لهم العقاب على طغيانهم .

وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون ومعهم بنو إسرائيل لدرجة أن الواحد منهم كانت المياه تبلغ التراقي فيبقى واقفاً لأنه لو جلس يموت ، ويظل هكذا ، وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام ، لا يعرفون فيها الليل من النهار ويرون أمامهم بيوت بني إسرائيل لا تلمسها المياه ، وهذه معجزة واضحة ، لقد عمّ الطوفان وأراد الحق أن ينجي بني إسرائيل منه دون حيلة منهم حتى لا يقال آية كونية جاءت على هيئة طوفان وانتهت المسألة ، لكن الطوفان جاء

لبيوتهم ولم يلمس بني إسرائيل .

وقال الرواة : إن الطوفان دخل على فرعون حتى صرخ واستنجد بموسى ، وقال له : كف عنا هذا ونؤمن بما جئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان . لكنهم عادوا إلى الكفر .

وجعل الله من آياته لمحات ، وإشارات ، بدأت بالطوفان ، وحين يوضح ربنا : أنا عذبت بالطوفان قوم نوح ، وقوم فرعون ، فهو يعطينا ملامح تشعرنا بصدق القضية ، فيهبط السيل في أي بلد ويهدم الديار ويغرق الزرع والحيوانات ، لنرى صورة كونية ، وكذلك الجراد يرسله الله على فترات فيهبط في أي وقت من الأوقات ، ونقيم الحملات لمكافحته ، وهذا دليل على صدق الأشياء التي حكى الله عنها ، فلو لم يوجد جراد ولا طوفان لكنا عرضة ألا نصدق . وابتلاهم الله بالقمل كذلك .

(209/283)

﴿ والقمل ﴾ هو غير القَمْل . فالقَمْل هو الآفة التي تصيب الإنسان في بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القُمَّل فقيل هو السوس الذي يصيب الحبوب ، ومفردها قُمَّلَة ، وقيل هو ما نسميه بالقراد ، وقيل هو الحشرات التي تهلك النبات والحرث ، وحين نراه نفزع

ونبحث عن تخليص الزرع منه باليد والمبيدات ، وكل ذلك من تنبيهات الحق للخلق ، وهي مجرد تنبيه وإرشاد ولَفْتٌ للالتفات إلى الحق .

وكذلك يرسل الله عليهم ﴿ والضفادع ﴾ ، وعندما يضع أي إنسان منهم يده في شيء يجد فيها الضفادع ؛ فإناء الطعام يرفع عنه الغطاء فترى فيه الضفادع ، والمياه التي يشربها يجد فيها الضفادع ! ! وإن فتح فمه تدخل ضفدعة في الفم ! ! . فهي آية ومعجزة ، وكذلك ﴿ والدم ﴾ ، فكان كل شيء ينقلب لهم دماً .

ويقال : إن امرأة من قوم فرعون أرادت أن تشرب ماء ، فذهبت إلى امرأة من بني إسرائيل وقالت لها : خذي الماء في فمك ومُجيه في فمي ، كأنها تريد أن تحتال على ربنا وتأخذ مياها من غير دم ، فينتقل من فم الإسرائيلية وهو ماء ، فإذا ما دخل فم المرأة التي هي من قوم فرعون صار دماً .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مّفَصَّلاَتٍ . . . ﴾ [الأعراف : 133]

وقوله سبحانه : ﴿ مُّفَصَّلاَتٍ ﴾ أي لم يأت بها جل وعلا كلها مجتمعة مع بعضها البعض لتفزعهم دفعة واحدة وتختبرهم أيعلنون الإيمان أم لا ؟ بل جاء سبحانه بكل آية مُفصلة عن الآخرى ؛ فلا توجد آية مع آية أخرى في وقت واحد ، أو جاء بها علامات واضحات فيها

مواعظ وعبر ، مما يدل على موالاة الإِنذارات للرغبة في أن يَذّكروا ، وأن يرتدعوا ، فلو اذكروا وارتدعوا من آية واحدة يكف عنهم سبحانه البأس .

(210/283)

وأرسل سبحانه الآيات وهي : طوفان ، جراد ، قمل ، ضفادع ، دم ، هذه آيات خمس في هذه آيات خمس في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، ومن قبل قال الحق إنه أخذهم بالسنين ، وكذلك نقص الثمرات ، فأصبحت الآيات سبعاً ، ومن قبل كانت عصا موسى التي كانت تلقف ما صنعه السحرة فصارت ثماني آيات ، وكذلك " اليد البيضاء " التي أراها موسى لفرعون وملئه فيصبح العدد تسع آيات ، إذن فالآيات بترتيبها هي : العصا ، واليد ، والأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والآيات المفصلات . . هي عجائب ؛ كل منها عجيبة يسلطها الله على مَن يريد إذلاله ، ويبتلي الله بها نوعا من الناس ولا يبتلي بها قوما آخرين . فماذا كان موقفهم من الآيات العجائب ؟ نجد الحق يذيل الآية : ﴿ فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ . إنهم لم يؤمنوا ،

بل تكبروا وأجرموا في حق أنفسهم وقطعوا ما بينهم وبين الإِيمان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(211/283)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الطوفان : الموت " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عطاء قال ﴿ الطوفان ﴾ الموت .

وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال ﴿ الطوفان ﴾ الموت على كل حال .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال ﴿ الطوفان ﴾ الغرق .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال ﴿ الطوفان ﴾ أن يمطروا دائماً بالليل

والنهار ثمانية أيام ، والقمل الجراد الذي ليس له أجنحة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ الطوفان ﴾ أمر من آمر ربك ، ثم قرأ ﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ [القلم : 9] .

(212/283)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أرسل الله على قوم فرعون الطوفان وهو المطر فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر ، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فأنبت الله لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والكلأ ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه عليهم ، فلما رأوه عرفوا أنه لا يبقي الزرع قالوا مثل ذلك ، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد ، فداسوه وأحرزوه في البيوت فقالوا : قد أحرزنا ، فأرسل الله عليهم القمل : وهو السوس الذي يخرج من الحنطة ، فكان الرجل يخرج بالحنطة عشرة أجربة إلى الرحا فلا يرد منها بثلاثة أقفزة ، فقالوا مثل ذلك ، فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل ، فبينا موسى عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع من نهر فقال : يا فرعون ما تلقى أنت وقومك من هذا الضفدع ؟ فقال : وما عسى أن يكون عند هذا الضفدع ؟ فما أمسوا حتى كان الرجل

يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، وما منهم من أحد يتكلم إلا وثب ضفدع في فيه ، وما من شيء من آنيتهم إلا وهي ممتلئة من الضفادع . فقالوا مثل ذلك ، فكشف عنهم فلم يفوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت أنهارهم دماً ، وصارت آبارهم دماً ، فشكوا إلى فرعون ذلك فقال : ويحكم قد سحركم ؟ ! فقالوا : ليس نجد من مائنا شيئاً في اناء ولا بئر ولا نهر إلا ونجده طعم الدم العبيط . فقال فرعون : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنهم الدم فلم يفوا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ وهو المطر حتى خافوا الهلاك ، فأتوا موسى فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر ، فانا نؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم المطر ، فأنبت الله به حرثهم وأخصبت بلادهم ، فقالوا : ما نحب أنا لم نمطر ولن نترك إلهنا ونؤمن بك ، ولن نرسل معك بني إسرائيل .

(213/283)

فأرسل الله عليهم الجراد فأسرع في فساد زروعهم وثمارهم ، قالوا : يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الجراد ، فانا سنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل . فدعا ربه فكشف

عنهم الجراد ، وكان قد بقي من زرعهم ومعائشهم بقايا ، فقالوا : قد بقي لنا ما هو كافينا فلن نؤمن لك ، ولن نرسل معك بني إسرائيل . فأرسل الله عليهم القمل وهو الدبا فتتبع ما كان ترك الجراد ، فجزعوا وخشوا الهلاك فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا الدبا فإنا سنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم الدبا فقالوا : ما نحن لك بمؤمنين ، ولا مرسلين معك بني إسرائيل . فأرسل عليهم الضفادع فملأ بيوتهم منها ، ولقوا منها أذى شديداً لم يلقوا مثله فيما كان قبله ، كانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم طعامهم وتطفىء نيرانهم ، قالوا : يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الضفادع فقد لقينا منها بلاء وأذى ، فانا سنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل . فدعا ربه فكشف عنهم الضفادع ، فقالوا : لا نؤمن لك ، ولا نرسل معك بني إسرائيل . فأرسل الله عليهم الدم فجعلوا لا يأكلون إلا الدم ولا يشربون إلا الدم ، قالوا يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الدم ، فانا سنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل . فدعا ربه فكشف عنهم الدم ، فقالوا : يا موسى لن نؤمن لك ولن نرسل معك بني إسرائيل . فكانت آيات مفصلات بعضها أثر بعض لتكون لله الحجة عليهم ، فأخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم في اليم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ قال : الماء والطاعون والجراد . قال : تأكل مسامير رتجهم : يعني أبوابهم وثيابهم ، والقمل الدبا ، والضفادع تسقط على فرشهم وفي

أطعمتهم ، والدم يكون في ثيابهم ومائهم وطعامهم .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء قال : بلغني أن الجراد لما سلط على بني إسرائيل أكل أبوابهم حتى أكل مساميرهم .

(214/283)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الجراد نترة من حوت في البحر .

وأخرج العقيلي في كتاب الضعفاء وأبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الجراد ؟ فقال : إن مريم سألت الله أن يطعمها لحماً لا دم فيه فاطعمها الجراد " .

وأخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن أبي أمامة الباهلي

" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن مريم بنت عمران سألت ربها أن يطعمها لحماً لا دم فيه فاطعمها الجراد ، فقالت : اللهم اعشه بغير رضاع ، وتابع بينه بغير شياع يعني الصون قال الذهبي : اسناده أنظف من الأول " .

وأخرج البيهقي في سننه عن زينب ربيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن نبياً من الأنبياء سأل الله لحم طير لا ذكاة له ، فرزقه الله الحيتان والجراد .

وأخرج أبو داود وابن ماجة وأبو الشيخ في العظمة والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن سلمان قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجراد ؟ فقال " أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه " " .

وأخرج أبو بكر البرقي في معرفة الصحابة والطبراني وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي زهير النميري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقاتلوا الجراد فإنه جند من جند الله الأعظم " قال البيهقي : هذا إن صح أراد به إذا لم يتعرض لإِفساد المزارع ، فإذا تعرض له جاز دفعه بما يقع به الدفع من القتال والقتل ، أو أراد تعذر مقاومته بالقتال والقتل .

وأخرج البيهقي من طريق الفضيل بن عياض عن مغيرة عن ابراهيم عن عبد الله قال : وقعت جرادة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : الا نقتلها يا رسول الله ؟ فقال " من قتل جرادة فكأنما قتل غوريا " قال البيهقي : هذا ضعيف بجهالة بعض رواته ، وانقطاع ما بين إبراهيم وابن مسعود .

(215/283)

وأخرج الحاكم في تاريخه والبيهقي بسند فيه مجهول عن ابن عمر قال : وقعت جرادة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحتملها فإذا مكتوب في جناحها بالعبرانية : لا يعني جنيني ولا يشبع آكلي ، نحن جند الله الأكبر لنا تسع وتسعون بيضة ، ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم " اللهم أهلك الجراد اقتل كبارها ، وأمت صغارها ، وأفسد بيضها ، وسدَّ أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معايشهم إنك سميع الدعاء ، فجاءه جبريل فقال : إنه قد استجيب لك في بعض " قال البيهقي : هذا حديث منكر .

وأخرج الطبراني وإسمعيل بن عبد الغافر الفارسي في الأربعين والبيهقي عن الحسين بن علي قال : "كنا على مائدة أنا ، وأخي محمد بن الحنفية ، وبني عمي عبد الله بن عباس ، وقثم ، والفضل ، فوقعت جرادة فأخذها عبد الله بن عباس ، فقال للحسين : تعلم ما مكتوب على جناح الجرادة ؟ فقال : سألت أبي فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي " على جناح الجرادة مكتوب : إني أنا لا الله لا إله إلا أنا رب الجرادة ورازقها ، إذا شئت بعثتها رزقاً لقوم ، وإن شئت على قوم بلاء . فقال ابن عباس : هذا والله من مكنون العلم " " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عكرمة قال : قال لي ابن عباس : مكتوب على الجرادة بالسريانية : إني أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، الجراد جند من جندي أسلطه

على من أشاء من عبادي .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن المسيب قال : لما خلق الله آدم فضَّل من طينته شيء فخلق من الجراد .

وأخرج عن سعيد بن أبي الحسن . مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال ﴿ الطوفان ﴾ المطر ﴿ والجراد ﴾ هذا الجراد . ﴿ والقمل ﴾ الدابة التي تكون في الحنطة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صخر قال : القمل : الجراد الذي لا يطير .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : القمل : هو القمل .

(216/283)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد قال : زعم بعض الناس في القمل أنها البراغيث .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن حبيب بن أبي ثابت قال : القمل : الجعلان .

وأخرج الطستي عن ابن عباس . أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ والقمل والضفادع ﴾ قال : القمل : الدبا . والضفادع : هي هذه . قال : وهل تعرف

العرب ذلك ؟ قال نعم ، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول :

يبادرون النحل من أنها . . . كأنهم في الشرف القمل

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال : القمل : الجنادب بنات الجراد .

وأخرج أبو الشيخ عن عفيف عن رجل من أهل الشام قال : القمل : البراغيث .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برية ، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف نفسها في القدر وهي تغلي ، وفي التنانير وهي تفور ، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لم يكن شيء أشد على آل فرعون من الضفادع ، كانت تأتي القدور وهي تغلي فتلقي أنفسها فيها ، فأورثها الله برد الماء والثرى إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : لا تقتلوا الضفادع فانها لما أرسلت على آل فرعون انطلق ضفدع منها فوقع في تنور فيه نار ، طلبت بذلك مرضاة الله فأبدلهن الله أبرد شيء نعلمه الماء ، وجعل نعيقهن التسبيح .

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي . أن طبيباً ذكر ضفدعاً في دواء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : سالت النيل دماً فكان الاسرائيلي يستقي ماء طيباً ويستقي الفرعوني دماً ، ويشتركان في اناء واحد فيكون ما يلي الاسرائيلي ماء طيباً وما يلي الفرعوني دماً .

(217/283)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : أرسل الله عليهم الدم فكانوا لا يغترفون من مائهم إلا دماً أحمر ، حتى لقد ذكر لنا أن فرعون كان يجمع بين الرجلين على الاناء الواحد القبطي والإِسرائيلي ، فيكون ما يلي الإِسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ والدم ﴾ قال : سلط الله عليهم الرعاف .

وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن نوف الشامي قال : مكث موسى في آل فرعون بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات ، الجراد والقمل والضفادع والدم فيأبون أن يسلموا .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : مكث موسى في آل فرعون بعد ما غلب السحرة

أربعين سنة يريهم الآيات ، الجراد والقمل والضفاع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ آيات مفصلات ﴾ قال : كانت آيات مفصلات بعضها على أثر بعض ليكون لله الحجة عليهم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ آيات مفصلات ﴾ قال : يتبع بعضها بعضاً ، تمكث فيهم سبتاً إلى سبت ثم ترفع عنهم شهراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كان بين كل آيتين من هذه الآيات ثلاثون يوماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : كانت الآيات التسع في تسع سنين ، في كل سنة آية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(218/283)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾

" الطُّوفَان " جمع : طُوفَانة ، أي : هو اسمُ جنس كـ : قمح وقمحة ، وشعير وشعيرة .

وقيل : هو مصدرٌ كالنُّقْصَان والرُّجْحان ، وهذا قول المُبَرِّدِ في آخرين والأوّلُ قول

الأَخْفَشِ .

وقال : هو " فُعْلان " من الطَّواف ، لأَنَّه يطوفُ حتَّى يَعُمَّ الأرضَ ، وواحدته في القياس " طُوفَانَة " ؛ وأنشد : [الرمل]

2560 - غَيَّرَ الجِدَّةَ مِنْ آيَاتِهَا . . .

خُرُقُ الرِّيحِ وطُوفَانُ المَطَرْ

والطُّوفان : المَاءُ الكثير ، قاله اللَّيْثُ ؛ وأنشد للعجّاج : [الرجز]

2561 - وعَمَّ طُوفانُ الظَّلامِ الأَثْأَبَا . . .

شَبَّهَ ظلامَ اللَّيلِ بالماءِ الذي يَغْشَى الأمكِنة . . .

وقال أَبو النَّجْمِ : [الرجز]

2562 - وَمَدَّ طُوفانٌ مُبيدٌ مَدَدَا . . .

شَهْراً شَآبيبَ وشَهْراً بَرَدَا

وقيل : الطُّوفان من كُلِّ شيءٍ : ما كان كثيراً مُحيطاً مُطْبقاً بالجماعة من كُلِّ جهة كالمَاءِ الكثيرِ ، والقَتْلِ الذَّريع ، والمَوْتِ الجارفِ ، قاله الزَّجَّاجُ .

وقد فَسَّرَهُ النَّبي صلى الله عليه وسلم بالموتِ تارةً ، وبأمرٍ من اللَّهِ أخرى ، وتلا قوله : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القلم : 19] وهذ المادَّةُ وإن كانت قد تَقدَّمَتْ في "

طَائِفَة " إلاَّ أنَّ لهذه البنية خصوصيةً بهذه المعاني المذكورة .

والجَرَادُ معروف ، وهو جَمْعُ : جَرَادةٍ ، الذَّكَرُ والأُنْثَى فيه سواء .

(219/283)

يقال : جَرَادَةٌ ذَكَرٌ وجَرَادة أُنْثى ، كـ : نَمْلَة ، وحمامة .

قال أهلُ اللُّغَةِ : وهو مشتقٌّ من " الجَرْدِ " .

قالوا : والاشتقاقُ في أسماءِ الأجْنَاس قليلٌ جداً .

يقال : أرْضٌ جَرْدَاء ، أي : مَلْسَاء وثَوْبٌ جَرْدٌ ، إذا ذَهَبَ زئبره .

والقُمَّلُ : قيل : هي القِرْدَان ، وقيل : دوابٌّ تشبهها أصْغَرَ مِنْهَا .

وقال سعيدُ بن جبير : هو السُّوسُ الذي يخرج من الحِنْطة .

وقال ابْنُ السِّكِّيت ، إنَّه شيء يقع في الزَّرع ليس بجرادٍ ؛ فيأكل السُّنبلة ، وهي غضة قبل أن تقوى ، وحينئذٍ يطولُ الزَّرعُ ولا سنبل له .

وقيل : إنَّهَا الحمنان الواحدة : حَمْنَانَة ، نوع من القِرْدَان .

وقال سعيدُ بنُ جبيرٍ : كان إلى جنبهم كثيب أعفر بقرية من قُرَى مصر تدعى " بعين شمس " فذهب موسى إلى ذلك الكثيب فضربه بعصاهُ فانْهَالَ عليهم القُمَّل ، وعلى هذا هو القَمْل

المعروف الذي يكون في بدن الإنسان وثيابه ، ويؤيد هذا قراءة الحسن " والقَمْل " بفتح القاف وسكون الميم ، فيكونُ فيه لغتان : القُمَّل "كقراءة العامةِ و" القَمْل "كقراءة الحسن البصري .

وقيل : القملُ البراغيث ، وقيل : الجعلان .

والضفَادعُ : جمع ضِفْدَع ، بزنة دِرْهَم ، ويجوز كسر دَالِهِ فتصير بزنة " زِبْرِج " وقدْ تُبْدَلُ عَيءنُ جمعه ياء ، كقوله : [الرجز]

2563 - وَمَنْهَلٍ لَيْسَ لَهُ حَوَازِقُ . . .

ولِضَفَادِي جَمّهِ نَقَانِقُ

وشَذَّ جمعُهُ على : ضِفْدَعَات ، والضِّفْدَعُ : مؤنَّث ، وليس بمذكر ، فعلى هذا يُفَرَّقْ بين مذكّره ومؤنثه بالوصفِ .

فيقال : ضِفْدَع ذكر وضفدع أنثى ، كما قلنا ذلك في المتلبّس بتاء التأنيث ، نحو حمامة ، وجرادة ، ونملة .

قوله : " آياتٍ مفصّلات " .

آياتٍ منصوبة على الحال من تلك الأشياءِ المتقدّمة أي أرْسَلْنَا عليهم هذه الأشياءَ حال كونها علاماتٍ مميزاً بعضها من بعض ، ومُفَصَّلاتٍ فيها وجهان :

أحدهما : مُفَصَّلات أي : مُبينات لا يشكلُ على عاقل أنَّهَا من آيات اللَّهِ التي لا يقدر عليها غيره .

وقي : مُفَصّلات أي : فَصَّلَ بعضها من بعض بزمانٍ يمتحن فيه أحوالهم هل يقبلون الحُجَّة ، أو يستمرون على المُخالفةِ ؟ فاسْتَكْبَرُوا عن عبادة اللَّهِ ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 283.286 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133) ﴾

جَنَّسَ عليهم العقوباتِ لَمَّا نوَّعُوا وجَنَّسوا فنونَ المخالفات ، فلا إلى التكفير عادوا ، ولا إلى التطهير تصدوا ، وعوقبوا بصَرْفِ قلوبهم عن شهود الحقائق وذلك أبلغُ مما اتصل بظواهرهم من فنون البلايا . . . . ونعوذُ بالله من السقوط عن عين الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 560.561 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والثمانون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والثمانون بعد المائتين

من الآية ﴿ 134 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 137 ﴾ من نفس السورة

(4/284)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا في الحقيقة نقضاً لما أخذه الله على العباد بعهد العقل ، أتبعه نقضاً حقيقياً ، فقال مبيناً لحالهم عند كل آية ، ولعله عبر بما يشملها ولم ينص على التكرار لأن ذلك كاف فيما ذكر من النقض والفسق : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز ﴾ يعني العذاب المفصل الموجب للاضطراب ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك ﴾ أي المحسن إليك ، ولم يسمحوا كبراً وشماخة أن يعرفوا به ليقولوا : ربنا ﴿ بما عهد عندك ﴾ أي من النبوة التي منها هذا البر الذي تراه يصنعه بك ؛ ثم أكدوا العهد بقولهم استئنافاً أو تعليلاً : ﴿ لئن كشفت عنا الرجز ﴾ أي

العذاب الذي اضطربت قلوبنا وجميع أحولنا له ﴿ لنؤمنن لك ﴾ أي لنجعلنك آمناً من التكذيب بإيقاع التصديق ، ويكون ذلك خالصاً لأجلك وخاصاً بك ﴿ ولنرسلن معك ﴾ أي في صحبتك ، لا نجس أحداً منكم عن الآخر ﴿ بني إسرائيل ﴾ أي كما سألت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 91 ﴾

(5/284)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنا ذكرنا معنى الرجز عند قوله : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزًا مّنَ السماء ﴾ [البقرة : 59] في سورة البقرة وهو اسم للعذاب ، ثم إنهم اختلفوا في المراد بهذا الرجز فقال بعضهم : إنه عبارة عن الأنواع الخمسة المذكورة من العذاب الذي كان نازلاً بهم .

وقال سعيد بن جبير ﴿ الرجز ﴾ معناه : الطاعون وهو العذاب الذي أصابهم فمات به من القبط سبعون ألف إنسان في يوم واحد ، فتركوا غير مدفونين ، واعلم أن القول الأول أقوى لأن لفظ ﴿ الرجز ﴾ لفظ مفرد محلي بالألف واللام فينصرف إلى المعهود السابق ، وههنا المعهود السابق هو الأنواع الخمسة التي تقدم ذكرها ، وأما غيرها فمشكوك فيه ،

فحمل اللفظ على المعلوم أولى من حمله على المشكوك فيه .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى بين ما كانوا عليه من المناقضة القبيحة ، لأنهم تارة يكذبون موسى عليه السلام ، وأخرى عند الشدائد يفزعون إليه نزع الأمة إلى نبيها ويسألونه أن يسأل ربه رفع ذلك العذاب عنهم ، وذلك يقتضي أنهم سلموا إليه كونه نبياً مجاب الدعوة ، ثم بعد زوال تلك الشدائد يعودون إلى تكذيبه والطعن فيه ، وأنه إنما يصل إلى مطالبة بسحره ، فمن هذا الوجه يظهر أنهم يناقضون أنفسهم في هذه الأقاويل .

وأما قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : ما في قوله : ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ مصدرية والمعنى : بعهده عندك وهو النبوة ، وفي هذه الباء وجهان :

الوجه الأول : أنها متعلقة بقوله : ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ والتقدير ﴿ ادعُ لَنَا ﴾ متوسلاً إليه بعهده عندك .

(6/284)

والوجه الثاني : في هذه الباء أن تكون قسماً وجوابها قوله : ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ أي أقسمنا بعهد الله عندك ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى

إسرائيل ﴾ كانوا قد أخذوا بني إسرائيل بالكد الشديد فوعدوا موسى عليه السلام على دعائه بكشف العذاب عنهم الإيمان به والتخلية عن بني إسرائيل وإرسالهم معه يذهب بهم أين شاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 179 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز ﴾ يعني : وجب عليهم العذاب وحل بهم ﴿ قَالُواْ يا موسى ادع لَنَا رَبَّكَ ﴾ يعني : سل لنا ربك ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي : بما أمرك ربك أن تدعو الله ويقال : بالعهد الذي سأل ربك ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز ﴾ أي : رفعت عنا العذاب ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ يعني : لنصدقنك ﴿ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إسراءيل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(7/284)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيهِمُ الرِّجْزُ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه العذاب ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

والثاني : هو الطاعون أصابهم فمات به من القبط سبعون ألف إنسان ، قاله سعيد بن جبير .

﴿ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : بما تقدم إليك به أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك .

والثاني : ما هداك به أن تفعله في قومك ، قاله السدي .

والثالث : أن ذلك منهم على معنى القسم كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعو لهم .

﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ هذا قول قوم فرعون ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : لنصدقنك يا موسى أنك نبي .

والثاني : لنؤمنن بك يا الله أنك إله واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(8/284)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ب ﴾

﴿ الرجز ﴾ العذاب ، والظاهر من الآية أن المراد بالرجز ها هنا العذاب المتقدم الذكر من

الطوفان والجراد وغيره ، وقال قوم من المفسرين : الإشارة هنا بالرجز إنما هي إلى طاعون أنزله فيهم مات منهم في ليلة واحدة سبعون ألف قبطي ، وروي في ذلك أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل بأن يذبحوا كبشاً ويضمخوا أبوابهم بالدم ليكون ذلك فرقاً بينهم وبين القبط في نزول العذاب .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وهذه الأخبار وما شاكلها إنما تؤخذ من كتب بني إسرائيل فلذلك ضعفت ، وقولهم : ﴿ بما عهد ﴾ يريدون بذمامك وما تتك إليه فهي تعم جميع الوسائل بين الله وبين موسى من طاعة من موسى ونعمة من الله تبارك وتعالى ، ويحتمل أن يكون ذلك منهم على جهة القسم على موسى ، ويحتمل أن يكون المعنى ادع لنا ربك ماتّاً إليه بما عهد إليك ، ويحتمل إن كان شعر أن بين الله تعالى وبين موسى في أمرهم عهد ما أن تكون الإشارة إليه ، والأول أعم وألزم ، والآخر يحتاج إلى رواية وقولهم : ﴿ لئن كشفت ﴾ أي بدعائك ﴿ لنؤمنن ولنرسلن ﴾ قسم وجوابه ، وهذا عهد من فرعون وملئه الذين إليهم الحل والعقد ، ولهم ضمير الجمع في قوله ﴿ لنؤمنن ﴾ ، وألفاظ هذه الآية تعطي الفرق بين القبط وبين بني إسرائيل في رسالة موسى ، لأنه لو كان إيمانهم به على أحد إيمان بني إسرائيل لما أرسلوا بني إسرائيل ولا فارقوا دينهم ، بل كانوا يشاركون فيه بني إسرائيل ، وروي أنه لما انكشف العذاب قال فرعون لموسى اذهب ببني إسرائيل حيث شئت فخالفه بعض ملئه فرجع فنكث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز ﴾

أي : نزل بهم العذاب .

وفي هذا العذاب قولان .

أحدهما : أنه طاعون أهلك منهم سبعين ألفاً ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

والثاني : أنه العذاب الذي سلَّطه الله عليهم من الجراد والقُمَّل وغير ذلك ، قاله ابن زيد .

قال الزجاج : "الرجز" : العذاب ، أو العمل الذي يؤدي إلى العذاب .

ومعنى الرجز في العذاب : أنه المقلقل لشدته قلقلة شديدة متتابعة .

وأصل الرجز في اللغة : تتابع الحركات ، فمن ذلك قولهم : ناقة رجزاء ، إذا كانت ترتعد قوائمها عند قيامها .

ومنه رجز الشعر ، لأنه أقصر أبيات الشعر ، والانتقالُ من بيت إلى بيت ، سريعٌ ، نحو قوله :

يَا لَيْتَنِي فِيْهَا جَذَعْ . . .

أَخُبُّ فيها وَأَضَعْ

وزعم الخليل أن الرَّجَز ليس بشعر ، وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث .

قوله تعالى : ﴿ بما عهد عندك ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن معناه : بما أوصاك أن تدعوه به .

والثاني : بما تقدم به إليك أن تدعوه فيجيبك .

والثالث : بما عهد عندك في كشف العذاب عمن آمن .

والرابع : أن ذلك منهم على معنى القسم ، كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعو لهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز ﴾ أي العذاب .

وقرىء بضم الراء ، لغتان .

قال ابن جبير : كان طاعوناً مات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفاً .

وقيل : المراد بالرجز ما تقدم ذكره من الآيات .

﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ "ما" بمعنى الذي ، أي بما استودعك من العلم ، أو بما اختصك به فنبّأك .

وقيل : هذا قَسَم ، أي بعهده عندك إلاّ ما دعوت لنا ؛ ف "ما" صلة .

﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز ﴾ أي بدعائك لإلهك حتى يكشف عنا .

﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ أي نصدّقك بما جئت به .

﴿ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ وكانوا يستخدمونهم ؛ على ما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(10/284)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز ﴾

يعني لما نزل بهم العذاب الذي ذكره في الآية المتقدمة هو الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات منهم في يوم واحد سبعون ألفاً فأمسوا وهم لا يتدافنون (ق) .

عن أبي أسامة بن زيد قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " الطاعون رجز أرسل على طائفة من بين إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه "

وقوله تعالى : ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ يعني بما أوصاك وقيل بما عهد عندك من إجابة دعوتك ﴿ لئن كشفت عنا الرجز ﴾ يعني العذاب الذي وقع بنا

﴿ لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ﴾ حتى يذهبوا حيث شاؤوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(11/284)

وقال أبو حيان :

﴿ ولما وقع عليهم الرّجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلنّ معك بني إسرائيل ﴾

الظاهر أنّ الرجز هنا هو ما كان أرسل عليهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم فإن كان أريد الظاهر كان سؤالهم موسى بعد وقوع جميعها لا بعد وقوع نوع منها ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ ولما وقع عليهم ﴾ نوع من ﴿ الرجز ﴾ فيكون سؤالهم قد تخلّل بين نوع ونوع ومعنى ﴿ وقع عليهم ﴾ نزل عليهم وثبت وقال قوم : ﴿ الرجز ﴾ الطاعون نزل بهم مات منهم في ليلة سبعون ألف قبطي وفي قولهم ﴿ ادع لنا ربك ﴾ وإضافة الرب إلى موسى عدم إقرار بأنه ربهم حيث لم يقولوا ادعُ لنا ربنا ومعنى ﴿ بما عهد عندك ﴾ بما اختصك به فنبأك أو بما وصّاك أن تدعو به ليجيبك كما أجابك في الآيات أو بما استودعك من العلم والظاهر تعلق ﴿ بما عاهد ﴾ بأدع لنا ربك ومتعلق الدعاء محذوف تقديره ﴿

ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ في كشف هذا الرّجز ﴿ ولئن كشفت ﴾ جواب لقسم محذوف في موضع الحال من قالوا أي قالوا ذلك مقسمين ﴿ لئن كشفت ﴾ أو لقسم محذوف معطوف أي وأقسموا لئن كشفت وجوز الزمخشري وابن عطية وغيرهما أن تكون الباء في ﴿ بما عهد عندك ﴾ باء القسم أي قالوا ﴿ ادعُ لنا ربّك بما عهد عندك ﴾ في كشف الرجز مقسمين ﴿ بما عهد عندك لئن كشفت ﴾ أو وأقسموا ﴿ بما عهد عندك لئن كشفت ﴾ والمعنى ﴿ لئن كشفت ﴾ بدعائك وفي قولهم ﴿ لنؤمنن لك ﴾ دلالة على أنه طلب منهم الإيمان كما أنه طلب منهم إرسال بني إسرائيل وقدّموا الإيمان لأنه المقصود الأعظم الناشىء منه الطواعية وفي إسناد الكشف إلى موسى حيدة عن إسناده إلى الله تعالى لعدم إقرارهم بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(12/284)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز ﴾

أي العذاب المذكور على التفصيل فاللامُ للجنس المنتظمِ لكل واحدةٍ من الآيات المفصلة ، أي كلما وقع عليهم عقوبةٌ من تلك العقوبات قالوا في كل مرة ﴿ قَالُواْ يا موسى ادعُ لَنَا رَبَّكَ

بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي بعهده عندك وهو النبوةُ أو بالذي عهِد إليك أن تدعوَه فيجيبَك كما أجابك في آياتك ، وهو صلةٌ لادْعُ أو حالٌ من الضمير فيه ، بمعنى ادعُ الله متوسلاً إليه بما عهد عندك ، أو متعلقٌ بمحذوف دل عليه التماسُهم ، مثل أُسعِفْنا إلى ما نطلب بحق ما عندك أو قسم أجيب بقوله تعالى : ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز ﴾ الذي وقع علينا ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إسراءيل ﴾ أي أقسَمْنا بعهد الله عندك لئن كشفت الخ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز ﴾

أي العذاب المذكور على التفصيل كما روي عن الحسن .

وقتادة .

ومجاهد ؛ و﴿ لَّمَّا ﴾ لا تنافي التفصيل والتكرير كما لا يخفى .

وعن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه أنه أصابهم ثلج أحمر لم يروه قبل فهلك منهم كثير ، وعن ابن جبير أنه الطاعون ، وقد ورد إطلاقه عليه في حديث أسامة بن زيد المرفوع " وهو الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه " وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أمر موسى عليه السلام بني إسرائيل فقال : ليذبح كل منكم كبشاً

ثم ليخضب كفه في دمه ثم ليضرب على بابه ففعلوا ، فقال القبط لهم : لم تجعلوا هذا الدم على أبوابكم ؟ قالوا : إن الله تعالى يريد أن يرسل عليكم عذاباً فنسلم وتهلكون ، قال القبط : فما يعرفكم الله تعالى إلا بهذه العلامة ؟ قالوا : هكذا أمرنا نبينا ، فأصبحوا وقد طعن من قوم فرعون سبعون ألفاً فأمسوا وهم لا يتدافنون ، والمعنى على الأول أنهم كلما وقع عليهم عقوبة من العقوبات المذكورة .

(13/284)

﴿ قَالُواْ يَا موسى ﴾ في كل مرة على القول بأن المراد بالرجز غير ما تقدم أنه لما وقع عليهم الثلج المهلك أو الطاعون الجارف قالوا ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ أي بعهده سبحانه عندك وهو النبوة كما قال أبو مسلم فما مصدرية ، وسميت النبوة عهداً كما قال العلامة الثاني : لأن الله تعالى عهد إكرام الأنبياء عليهم السلام بها وعهدوا إليه تحمل أعبائها ، أو لأن لها حقوقاً تحفظ كما تحفظ العهود ، أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور منه جل وعلا أو بالذي عهد إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك ، ﴿ فَمَا ﴾ موصولة والجار والمجرور صلة لأدع أو حال من الضمير فيه ، يعني ادع الله تعالى متوسلاً بما عهد عندك ، ويحتمل أن تكون الباء للقسم الاستعطافي كما يقال : بحياتك افعل كذا ، فالمراد استعطافه

عليه السلام لأن يدعو ، وأن تكون للقسم الحقيقي وجوابه ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز ﴾ الذي وقع علينا ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إسرائيل ﴾ أي أقسمنا بعهد الله تعالى عندك ﴿ لَئِن كَشَفْتَ ﴾ الخ ، وخلاصة ما ذكروه في الباء هنا أنها إما للإلصاق أو للسببية أو للقسم بقسميه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(14/284)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾

الرجز العذاب فالتعريف باللام هنا للعهد أي العذاب المذكور وهو ما في قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ إلى قوله ﴿ آيات مفصّلات ﴾ [الأعراف : 133] والرجز من أسماء الطاعون ، وقد تقدم عند قولهم تعالى : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾ في سورة البقرة (59) ، فيجوز أن يراد بالرجز الطاعون أي أصابهم طاعون ألجأهم إلى التضرع بموسى عليه السلام ، فطُوي ذكره للإيجاز ، فالتقدير : وأرسلنا عليهم الرجز ولما وقع عليهم الخ . . .

وإنما لم يذكر الرجز في عداد الآيات التي في قوله : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ [

الأعراف : 133] الآية تخصيصاً له بالذكر لأن له نبأ عجيباً فإنه كان ملجئَهم إلى الاعتراف بآيات موسى ووجود ربه تعالى .

وهذا الطاعون هو المَوَتانُ الذي حكي في الإصحاح الحادي عشر من سفر الخروج "هكذا يقول الرب إني أخرج نحوَ نصف الليل في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعونَ الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلْف الرحى وكل بكر بهيمة ثم قالت في الإصحاح الثاني عشر فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر فقام فرعون ليلاً هو وعبيدُه وجميع المصريين فدعَا موسى وهارونَ لَيْلاً وقال قوموا اخرجوا أنتم وبنو إسرائيل جميعاً واذهبوا اعبدوا ربكم واذهبوا وباركوني" الخ . . .

قيل مات سبعون ألف رجل في ذلك اليوم من القبط خاصة ، ولم يصب بني إسرائيل منه شيء .

وليس قولهم : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ بإيمان بالله ورسالة موسى ، ولكنهم كانوا مشركين وكانوا يجوزون تعدد الآلهة واختصاص بعض الأمم وبعض الأقطار بآلهة لهم ، فهم قد خامرهم من كثرة ما رأوا من آيات موسى أن يكون لموسى رب له تصرف وقدرة .

(15/284)

وأنه أصابهم بالمصائب لأنهم أضروا عبيده ، فسألوا موسى أن يكف عنهم ربه ويكون جزاؤه الإذن لبني إسرائيل بالخروج من مصر ليعبدوا ربهم ، كما حكت التوراة في الإصحاح الثاني عشر عن فرعون ، "فقال قوموا اخرجوا أنتم وبنو إسرائيل جميعاً واذهبوا اعبدوا ربكم" وقد كان عبدة الأرباب الكثيرين يجوز أن تغلب بعض الأرباب على بعض مثل ما يحدث بين الملوك كما تدل عليه أساطير (الميثولوجيا) اليونانية ، وقصة الياذة (هُومَيْروس) ، فبدَا لفرعون أن وَجْه الفصْل مع بني إسرائيل أن يعبدوا ربهم في أرض غير أرض مصر التي لها أرباب أخر ولذلك قال ﴿ ربك ﴾ ولم يقل ربنا .

وحذف متعلق فعل الدعاء لظهور المراد ، أي ادع لنا ربك بأن يكف عنا ، كما دل عليه قوله بعدُ ﴿ لئن كشفت عنا الرجز ﴾ ووقع في التوراة في الإصحاح الثاني عشر قول فرعون لموسى وهارون (واذهبوا وباركوني أيضاً) .

وقد انبرم حال موسى على فرعون فلم يدر أهو رسول من إله غير آلهة القبط فلذلك قال له ﴿ بما عهد عندك ﴾ ، أي : بما عرفك وأودع عندك من الأسرار ، وهذه عبارة متحير في الأمر ملتبسة عليه الأدلة .

والباء في ﴿ بما عهد عندك ﴾ لتعدية فعل الدعاء .

و(ما) موصولة مبهمة ، أي ادعه بما علمك ربك من وسائل إجابة دعائك عند ربك ، وهذا يقتضي أنهم جوزوا أن يكون موسى مبعوثاً من رب له بناء على تجويزهم تعدد

الآلهة .

وجملة ﴿ لَئن كشفتَ عنا الرجز ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأن طلبهم من موسى الدعاء بكشف الرجز عنهم مع سابقيّة كفرهم به يثير سؤال موسى أن يقول : فما الجزاء على ذلك .

واللام موطئة للقسم ، وجملة : ﴿ لنؤمنّن ﴾ جواب القسم .

(16/284)

ووعدُهم بالإيمان لموسى وعد بالإيمان بأنه صادق في أنه مرسل من رب بني إسرائيل ليخرجهم من أرض مصر ، وليس وعداً باتباع الدين الذي جاء به موسى عليه السلام ، لأنهم مكذبون به في ذلك وزاعمون أنه ساحر يريد إخراج الناس من أرضهم ولذلك جاء فعل الإيمان متعلقاً بموسى لا باسم الله ، وقد جاء هذا الوعد على حسب ظنهم أن الرب الذي يدعو إليه موسى هو رب خاص به وبقومه ، كما دل عليه قوله : ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ وقد وضحوا مرادهم بقولهم : ﴿ ولنرسلن معك بني إسرائيل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(17/284)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾

هم إذن بعد أن استكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، وتوالت عليهم الأحداث ، والرجز هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب ، وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب . إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسل من رب ، وهم قد فهموا أن الرجز الذي عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب . وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، لأنه لو كانت ربوبية فرعون في عقيدتهم لذهبوا إليه ولم يذهبوا إلى عدوهم موسى ليسألوه أن يدعو لهم الله . ومن هنا نأخذ أكثر من قضية عقدية هي أولاً : أن ألوهية فرعون باطلة ، وثانياً : أن موسى مقبولُ الدعاء عند ربه ، وثالثاً : أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب فسيستمر هذا العذاب ، وكل هذه مقدمات تعطي الإيمان بالله . ﴿ . . قَالُواْ يا موسى ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ [الأعراف : 134]

أي ادع ربّك بما أعطاك الله من العهد أن ينصرك لأنك رسوله المؤيَّد بمعجزاته وهو لن يتخلى عنك . ادع الله أن يرفع عنا العذاب والله لئن رفعت وكشفت عنا ما نحن فيه من العذاب لنؤمنن بك ولنصدقن ما جئت به ولنرسلن ونطلقن معك بني إسرائيل ، وقد كانوا

يستخدمونهم في أحط وأرذل الأعمال ، ولكنهم في كل مرة بعد أن يكشف الحق عنهم العذاب يعودون إلى نقض العهد بدليل قوله سبحانه عنهم : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(18/284)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ .

يجوزُ في هذه الباء وجهان :

أظهرهما : أن تتعلَّق بـ " ادْعُ أي : ادْعُهُ بالدُّعاء الذي علَّمك أن تدعوه به .

والثاني : أنَّها باء القسم .

قال الزمخشريُّ : والباء إمَّا تتعلَّق بـ " ادْع " على وجهين :

أحدهما : اسْعِفْنَا إلى ما نطلب إليك من الدُّعاء بحق ما عندك من عهد الله ، وكرامته إيَّاك بالنُّبُوَّةِ أو ادع الله لنا مُتَوَسِّلاً إليه بعهده عندك ، وإمَّا أن يكون قَسَماً مُجَاباً بـ " لَنُؤمِنَنَّ " أي : " أقْسَمْنَا بِعَهْدِ اللَّهِ عندك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 286 .

﴿ 287

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) ﴾

لم يقولوا ادع لنا ربَّنا ، بل ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ فهم ما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلا بعداً وأجنبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 561 ﴾

(19/284)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

ودل على قرب الإجابة بالفاء في قوله : ﴿ فلما كشفنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ عنهم الرجز ﴾ كرره تصريحاً وتهويلاً ، ومددنا الكشف ﴿ إلى أجل ﴾ أي حد من الزمان ﴿ هم بالغوه ﴾ أي في علمنا ﴿ إذا هم ﴾ أي بضمائرهم التي تجري ظواهرهم على حسبها

﴿ ينكثون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 91 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بالغوه ﴾ المعنى أنا ما أزلنا عنهم العذاب مطلقاً ، وما كشفنا عنهم الرجز في جميع الوقائع ، بل إنما أزلنا عنهم العذاب إلى أجل معين ، وعند ذلك الأجل لا نزيل عنهم العذاب بل نهلكهم به وقوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ هو جواب لما يعني فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث وبادروه ولم يؤخروه كما كشفنا عنهم نكثوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 179 ﴾

(20/284)

وقال ابن عطية :

وأخبر الله عز وجل أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم الذي أعطوه موسى . و ﴿ إذا ﴾ هاهنا للمفاجأة ، و ﴿ إلى ﴾ متعلقة ب ﴿ كشفنا ﴾ و " الأجل " يراد به غاية كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك والموت . وهذا اللازم من اللفظ كما تقول أخذت كذا إلى وقت وأنت لا تريد وقتاً بعينه ، وقال يحيى بن سلام " الأجل " هنا الغرق .

قال القاضي أبو محمد : وإنما هذا القول لأنه رأى جمهور هذه الطائفة قد اتفق أن هلكت غرقاً فاعتقد أن الإشارة هنا بالأجل إنما هي إلى الغرق ، وهذا ليس بلازم لأنه لا بد أنه مات منهم قبل الغرق عالم وهم ممن أخر وكشف عنهم العذاب إلى أجل بلغه ، ودخل في هذه الآية فأين الغرق من هؤلاء ؟ وأين هو ممن بقي بمصر ولم يغرق ؟ وذكر بعض الناس أن معنى الكلام فلما كشفنا عنهم الرجز المؤجل إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ، ومحصول هذا التأويل أن العذاب كان مؤجلاً ، والمعنى الأول أفصح لأنه تضمن توعداً ما وقرأ أبوالبرهسم وأبو حيوة : " ينكِثون " بكسر الكاف ، والنكث نقض ما أبرم ، ويستعمل في الأجسام وفي المعاني ، وقرأ ابن محيصن ومجاهد وابن جبير " الرُّجز " بضم الراء في جميع القرآن ، قال أبو حاتم : إلا أن ابن محيصن كسر حرفين " رجز الشيطان " " والرجز فاهجر " .

قال القاضي أبو محمد : رآهما بمعنى آخر بمثابة الرجز والنتن الذي يجب التطهر منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(21/284)

وقال الخازن :

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز ﴾ يعني بدعوة موسى ﴿ إلى أجل هم بالغوه ﴾ يعني إلى الوقت الذي أجل لهم وهو وقت إهلاكهم بالغرق في اليم ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ يعني إذا هم ينقضون العهد الذي التزموه فلم يفوا به .

واعلم أن ما ذكره الله تعالى في هذه الآيات هي معجزات في الحقيقة دالة على صدق موسى ووجه ذلك أن العذاب كان مختصاً بآل فرعون دون بني إسرائيل فاختصاصه بالقبطي دون الإسرائيلي معجز وكون بني إسرائيل في أمان منه وعافية وقوم فرعون في شدة وعذاب وبلاء مع اتحاد المساكن معجز أيضاً .

فإن اعترض معترض وقال إن الله تعالى علم من حال آل فرعون أنهم لا يؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة في تواليها عليهم وإظهار الكثير منها .

فالجواب على مذهب أهل السنة إن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يُسأل عما يفعل وأما على قول المعتزلة في رعاية المصلحة فلعله تعالى علم من قوم فرعون أن بعضهم كان يؤمن بتوالي تلك المعجزات وظهورها فلهذا السبب والاها عليهم والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(22/284)

وقال أبو حيان :

(23/284)

﴿ فلما كشفنا عنهم الرّجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ في الكلام حذف دل عليه المعنى وهو فدعا موسى فكشف عنهم الرجز وأسند تعالى الكشف إليه لأنه هو الكاشف حقيقة فلما كان من قولهم أسندوه إلى موسى وهو إسناد مجازي ولما كان إخباراً من الله أسنده تعالى إليه لأنه إسناد حقيقي ولما كان الرجز من جملة أخرى غير مقولة لهم حسن إظهاره دون ضميره وكان جائزاً أن يكون التركيب في غير القرآن ﴿ فلما كشفنا عنهم ﴾ ومعنى ﴿ إلى أجل هم بالغوه ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه لا محالة فيعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدّم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله قاله الزمخشري ، وقال ابن عطية : يريد به غاية كل واحد منهم بما يخصّه من الهلاك والموت هذا اللازم من اللفظ كما تقول أخرت كذا إلى وقت كذا وأنت لا تريد وقتاً بعينه ، وقال يحيى بن سلام : الأجل ها هنا الغرق قال وإنما قال هذا القول لأنه رأى جمهور هذه الطائفة قد اتفق أن هلكت غرقاً فاعتقد أنّ الإشارة ها هنا إنما هي في الغرق وهذا ليس بلازم لأنه لا بد أنه

مات منهم قبل الغرق عالم ومنهم من أخر وكشف العذاب عنهم إلى أجل بلغه انتهى وفي التحرير إلى أجل إلى انقضاء مدة إمهالهم وهي المدة المضروبة لإيمانهم ، وقيل : الغرق ، وقيل : الموت وإذا فسر الأجل بالموت أو بالغرق فلا يصحّ كشف العذاب إلى ذلك الوقت أي وقت حصول الموت أو الغرق لأنه قد تخلل بين الكشف والغرق أو الموت زمان وهو زمان النكث فينبغي أن يكون التقدير على هذا إلى أقرب أجل هم بالغوه أما إذا كان الأجل هو المدة المضروبة لإيمانهم وإرسالهم بني إسرائيل فلا يحتاج إلى حذف مضاف و ﴿ إلى أجل ﴾ قالوا متعلق ﴿ بكشفنا ﴾ ولا يمكن حمله على التعلق به لأن ما دخلت عليه لما ترتب جوابه على ابتداء وقوعه والغاية تنافي التعليق على ابتداء الوقوع فلا بدّ من تعقل الابتداء والاستمرار حتى تتحقق الغاية ولذلك لا تصحّ الغاية في الفعل عن المتطاول لا تقول

(24/284)

لما قتلت زيداً إلى يوم الخميس جرى كذا ولا لما وثبت إلى يوم الجمعة اتفق كذا وجعل بعضهم ﴿ إلى أجل ﴾ من تمام الرجز أي الرّجز كائناً إلى أجل والمعنى أنّ العذاب كان مؤجلاً ويقوي هذا التأويل كون جواب لما جاء بإذا الفجائية أي فلما كشفنا عنهم العذاب المقرر عليهم إلى أجل فاجأوا بالنكث وعلى معنى تعيينه الكشف بالأجل المبلوغ لا تتأتى

المفاجأة إلى على تأويل الكشف بالاستمرار المغيا ، فتكون المفاجأة بالنكث إذ ذاك ممكنة ، وقال الزمخشري : ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ جواب لما يغيا فلما كشفا عنهم فاجأوا النكث وبادروه ولم يؤخّروه ولكن لما كشف عنهم نكثوا انتهى ، ولا يمكن التغيية مع ظاهر هذا التقدير وهم بالغوه جملة في موضع الصفة لأجل وهي أفخم من الوصف بالمفرد لتكرر الضمير فليس في حسن التركيب كالمفرد لو قيل في غير القرآن إلى أجل بالغيه ومجيء إذا الفجائية جواباً للما مما يدل على أن لما حرف وجوب لوجوب كما يقول سيبويه لا ظرف كما زعم بعضهم لافتقاره إلى عامل فيه والكلام تام لا يحتمل إضماراً ولا يعمل ما بعد إذا الفجائية فيما قبلها ، وقرأ أبو هاشم وأبو حيوة ﴿ ينكثون ﴾ بكسر الكاف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(25/284)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بالغوه ﴾

أي إلى حد من الزمان هم واصلون إليه ولا بد فمعذبون فيه أو مهلكون ، وهو وقت الغرق كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أو الموت كما روي عن الحسن ، والمراد

أنجيناهم من العذاب إلى ذلك الوقت ، ومن هنا صح تعلق الغاية بالكشف ، ولا حاجة إلى جعل الجار والمجرور متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من الرجز خلافاً لزاعمه .

وقيل : المراد بالأجل ما عينوه لإيمانهم ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ أي ينقضون العهد ، وأصل النكث فل طاقات الصوف المغزول ليغزل ثانياً فاستعير لنقض العهد بعد إبرامه ، وجواب ﴿ لما ﴾ فعل مقدر يؤذن به إذا الفجائية لا الجملة المقترنة بها ، وإن قيل به فتساهل ، أي فلما كشفنا عنهم ذلك فاجأوا بالنكث من غير توقف وتأمل كذا قيل ، وعليه فكلا الاسمين أعني لما وإذا معمول لذلك الفعل على أن الأول ظرفه ، والثاني مفعوله قاله العلامة ، والداعي لذلك المحافظة على ما ذهبوا إليه من أن ما يلي كلمة لما من الفعلين يجب أن يكون ماضياً لفظاً أو معنى ، إلا أن مقتضى ما ذكروا من أن إذ وإذا المفاجأة في موضع المفعول به للفعل المتضمنين هما إياه أن يكون التقدير فاجأوا زمان النكث أو مكانه .

وقد يقال أيضاً : تقدير الفعل تكلف مستغنى عنه إذ قد صرحوا بأن لما تجاب بإذا المفاجأة الداخلة على الجملة الاسمية ، نعم هم يذكرون ما يوهم التقدير وليس به بل هو بيان حاصل المعنى وتفسير له فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(26/284)

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز ﴾ دالة على أن موسى دعا الله برفع الطاعون فارتفع وقد جاء ذلك صريحاً في التوراة ، وحُذف هنا للإيجاز .

وقوله : ﴿ إلى أجل هم بالغوه ﴾ متعلق بـ ﴿ كشفنا ﴾ باعتبار كون كشف الرجز إزالة للموتان الذي سببه الطاعون ، فإزالة الموتان مغياة إلى أجل هم بالغون إليه وهو الأجل الذي قدره الله لهلاكهم فالغاية منظور فيها إلى فعل الكشف لا إلى مفعوله ، وهو الرجْز .

وجملة : ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ جواب (لما) ، و (إذا) رابطة للجواب لوقوع جواب الشرط جملة أسمية ، فلما كان (إذا) حرفاً يدل على معنى المفاجأة كان فيه معنى الفعل كأنه قيل فاجأوا بالنكث ، أي : بادروا به ولم يؤخروه .

وهذا وصف لهم بإضمار الكفر بموسى وإضمار النكث لليمين .

والنكث حقيقته نقض المفتول من حبل أو غَزْل ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ﴾ [النحل : 92] واستعير النكث لعدم الوفاء بالعهد ، كما استعير الحبل للعهد في قوله تعالى : ﴿ إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ [آل عمران : 112] ففي قوله : ﴿ ينكثون ﴾ استعارة تبعية .

وهذا النكث هو أن فرعون بعد أن أذن لبني إسرائيل بالخروج وخرجوا من أرض (جاسان) ليلاً قال لفرعون بعضُ خاصته : مَاذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا فندم

فرعون وجهز جيشاً للالتحاق ببني إسرائيل ليردوهم إلى منازلهم كما هو في الإصحاح الربع عشر من سفر الخروج. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(27/284)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾

فكأن لهم مع كل آية نقضاً للعهد ، وانظر الفرق بين العبارتين : بين قوله الحق : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ وبين قوله السابق : ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز ﴾ ، فمن إذن يكتشف الرجز ؟ إن الكشف هنا منسوب إلى الله ، وكل كشف للرجز له مدة يعرفها الحق ، فهو القائل : ﴿ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ .

والنكث هو نقض العهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(28/284)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) ﴾

أخرج ابن مردويه عن عائشة " عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ﴿ الرجز ﴾ العذاب " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أمر موسى بني إسرائيل فقال : ليذبح كل رجل منكم كبشاً ، ثم ليخضب كفه في دمه ، ثم ليضرب على بابه . فقالت القبط لبني إسرائيل : لم تجعلون هذا الدم على بابكم ؟ قالوا : إن الله يرسل عليكم عذاباً فنسلم وتهلكون . قال القبط : فما يعرفكم الله إلا بهذه العلامات ؟ قالوا : هكذا أمرنا نبينا . فأصبحوا وقد طعن من قوم فرعون سبعون ألفاً ، فأمسوا وهم لا يتدافنون . فقال فرعون عند ذلك ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ﴾ والرجز : الطاعون . فدعا ربه فكشفه عنهم ، فكان أوفاهم كلهم فرعون قال : اذهب ببني إسرائيل حيث شئت .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : ألقى الله الطاعون على آل فرعون فشغلهم

بذلك حتى خرج موسى ، فقال موسى لبني إسرائيل : اجعلوا أكفكم في الطين والرماد ، ثم ضعوه على أبوابكم كما يجتنبكم ملك الموت . قال فرعون : أما يموت من عبيدنا أحد ؟ قالوا : لا . قال : أليس هذا عجباً أنا نؤخذ ولا يؤخذون . . . !

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ لئن كشفت عنا الرجز ﴾ قال : الطاعون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة قال ﴿ الرجز ﴾ العذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ إلى أجل هم بالغوه ﴾ قال : الغرق .

(29/284)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ فلما كشفنا عن الرجز ﴾ قال : العذاب ﴿ إلى أجل هم بالغوه ﴾ قال : عدد مسمى معهم من أيامهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ قال : ما أعطوا من العهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(30/284)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وقوله : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى ﴾ .

أي : العذاب .

إلى أجلٍ فيه وجهان : أحدهما : أن يتعلَّقَ بـ "كَشَفْنَا وهو المشهور ، وعليه إشكال وهو أنَّ ما دخَلَتْ عليه " لَمَّا " يترتَّبُ جوابُهُ على ابتداء وقوعه ، والغايةُ تنافي التعليق على ابتداء الوقوع ، فلا بُدَّ من تعقُّل الابتداء والاستمرار حتَّى تتَحقَّقَ الغاية ، ولذلك لا تقعُ الغاية في الفعل غير المتطاول .

لا يُقالُ : لمَّا قتلتُ زيداً إلى يوم الخميس جَرضى كَذَا ، ولا لمَّا وثبت إلى يوم الجمة اتَّفق كذا ، وقد يُجَابُ بأنَّ المرادَ بالأجَل هنا : وقتُ إيمانهم ، وإرسالهم بني إسرائيل معه ، ويكون المرادُ بالكشفِ : استمرارَ رفع الرِّجْزِ .

كأنه قيل : فَلَمَّا تمادَى كَشَفْنَا عنهم إلى أجل ، وأمَّا مَنْ فَسَّرَ " الأجَلَ " بالمَوْتِ أو بالغَرَقِ فيحتاج إلى حَذْفِ مضاف تقديرُهُ : فَلَمَّا كَشَفْنَا عنهم الرجزَ إلى أجل قُرْب أجل هم بالغوه ، وإنَّما احتاج إلى ذلك ، لأنَّ بين موتهم أو غرقهم حصل منهم نكثٌ ، فكيف يُتَصَوَّرُ أن يكون النَّكْثُ منهم بعد موتهم ، أو غرقهم ؟

والثاني : أَنَّهُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ على أَنَّهُ حال من " الرِّجز " أي : فَلَمَّا كَشَفْنَا عنهم الرجزَ كَائِناً إلى أجل ، والمعنى : أنَّ العذابَ كان مُؤجَّلاً .

قال أبو حيَّان : ويُقَوِّي هذا التأويل كَونُ جواب " لَمَّا " جاء بـ " إذا " الفجائية أي : فَلَمَّا كَشَفْنَا عنهم العذابَ المقرَّر عليهم إلى أجلٍ فاجؤوا بالنَّكْثِ ، وعلى معنى تَغْيِيَتِهِ الكشفَ بالأجَل المبلوغ لا تتأتى المفاجأة إلاَّ على تأويل الكشفِ بالاستمرار المُغيَّا فيمكن المفاجأة بالنَّكْث إذْ ذاك ممكن .

قوله : " هم بَالِغُوهُ " في محلِّ جرٍ صفة لـ " أجَلٍ " والوصف بهذه الجملةِ أبلغُ من وصفِهِ بالمفرد ، لتكررِ الضَّمير المؤذن بالتَّفخيم .

وقوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ هذه " إذَا " الفُجَائيَّةِ ، وتقدَّم الكلامُ عليها قريباً : و " هُمْ " مبتدأ ، و " ينكُثُونَ " خبره ، و " إذَا " جوابُ " لَمَّا " كما تقدَّم بالتَّأويلِ المذكور .

قال الزمخشريُّ : ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ جواب " لَمَّا " يعني : فلمَّا كشفنا عنهم العذاب فاجؤوا بالنّكث وبَادَرُوهُ ولَمْ يؤخِّروه ، ولكن لَمَّا كَشَفَ عنهم نَكَثُوا .

قال أبو حيان : " ولا يمكن التَّغْيية مع ظاهرِ هذا التقدير " .

انتهى .

يعني فلا بُدَّ من تأويل الكشْفِ بالاستمرار ، كما تقدَّم ، حتَّى يَصِحَّ ذلك .

وهذه الآية تَرُدُّ مذهبَ مَنْ يَدَّعي في " لَمَّا " أنَّهَا ظَرْفٌ ، إذْ لا بُدَّ لَهَا حينئذٍ من عامل ، وما بعد " إذَا " لا يعمل فيما قبلها ، كما تحرَّر في موضعه .

وقرأ أبو حَيْوَةَ وأبو هشام " يَنْكِثُون " بكسر الكاف ، والجمهور على الضَّمِّ ، وهما لغتان في المضارع .

والنَّكْثُ : النَّقْضُ ، وأصله : مِنْ نَكْثِ الصُّوف المغزولِ لِيُغْزل ثانياً ، وذلك المنكوث : نِكْثٌ كـ : ذِبْح ، ورِعْي .

والجمعُ : أنكاث ، فاستعير لنقض العهد بعد إحكامه وإبرامه كما في خيوط الأكسية إذا نُكِثَتْ بعد ما أُبْرِمَتْ ، وهذا مِنْ أحسن الاستعارات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 287 . 288 ﴾

(32/284)

قوله تعالى ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر أنهم فاجؤوا النكث وكرروه ، سبب عنه قوله : ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أي انتقاماً ليس كذلك الذي كنا نؤذيهم به ، بل انتقام إهلاك عبرة لوصولهم بعد كشف جميع الشبه إلى محض العناد ؛ ثم فسره بقوله : ﴿ فأغرقناهم ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ في اليم ﴾ أي في البحر الذي يقصد لمنافعة ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة بما عرف من صحة نسبتها إلينا ، ودل سبحانه على أنهم كذبوا بغير شبهة عرضت لهم بل عناداً بقوله : ﴿ وكانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ عنها غافلين ﴾ أي يكون حالهم بعدها كحالهم قبلها ، فكأنها لم تأتهم أصلاً فاستحقوا الأخذ لوقوع العلم بأن الآيات لا تفيدهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 91 ﴾

(33/284)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المعنى أنه تعالى ، لما كشف عنهم العذاب من قبل مرات وكرات ولم يمتنعوا عن

كفرهم وجهلهم ، ثم بلغوا الأجل المؤقت انتقم منهم بأن أهلكهم بالغرق ، والانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب ، واليم البحر ، قال صاحب "الكشاف" : اليم البحر الذي لا يدرك قعره ، وقيل : هو لجة البحر ومعظم مائه ، واشتقاقه من التيمم ، لأن المستقين به يقصدونه وبين تعالى بقوله : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبوا بِآيَاتِنَا ﴾ أن ذلك الانتقام هو لذلك التكذيب .

وقوله : ﴿ وَكَانُواْ عَنهَا غافلين ﴾ اختلفوا في الكناية في عنها فقيل أنها عائدة إلى النقمة التي دل عليها قوله : ﴿ انتقمنا ﴾ والمعنى وكانوا عن النقمة قبل حلولها غافلين ، وقيل الكناية عائدة إلى الآيات وهو اختيار الزجاج .

قال : لأنهم كانوا لا يعتبرون بالآيات التي تنزل بهم .

فإن قيل : الغفلة ليست من فعل الإنسان ولا تحصل باختياره فكيف جاء الوعيد على الغفلة .

قلنا : المراد بالغفلة هنا الإعراض عن الآيات وعدم الالتفات إليها ، فهم أعرضوا عنها حتى صاروا كالغافلين عنها .

فإن قيل : أليس قد ضموا إلى التكذيب والغفلة معاصي كثيرة ؟ فكيف يكون الانتقام لهذين دون غيرهما .

قلنا : ليس في الآية بيان أنه تعالى انتقم منهم لهذين معاً دلالة على نفي ما عداه ، والآية تدل

على أن الواجب في الآيات النظر فيها ، ولذلك ذمهم بأن غفلوا عنها ، وذلك يدل على أن التقليد طريق مذموم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 180 ﴾

(34/284)

وقال السمرقندى :

﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ فأغرقناهم فِي اليم ﴾

يعني في البحر بلسان العبرانية .

وذلك أن الله تعالى أمر موسى بأن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ليلاً ، فاستعارت نسوة بني إسرائيل من نساء آل فرعون حليهن وثيابهن ، وقلن : إن لنا خروجاً فخرج موسى ببني إسرائيل في أول الليل وهم ستمائة ألف من رجل وامرأة وصبي .

فذكر ذلك لفرعون .

فتهيأ للخروج إليهم فلما كان وقت الصبح ركب فرعون ومعه ألف ألف رجل ، ومائتا ألف رجل ، فأدركهم حين طلعت الشمس وانتهى موسى إلى البحر ؛ فضرب البحر فانفلق له اثنا عشر طريقاً .

وكانت بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً .

فعبر كل سبط في طريق ، وأقبل فرعون ومن معه حتى انتهوا إلى حيث عبر موسى ، فدخلوا تلك الطريق في طلبهم فلما دخل آخرهم وهمّ أولهم أن يخرج ، أمر الله تعالى أن ينطبق عليهم فغرقهم .

فذلك قوله تعالى : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ فأغرقناهم فِي اليم بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ يعني : الآيات التسع وهي اليد والعصا والسنون ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غافلين ﴾ يعني : معرضين .

فلم يتفكروا ولم يعتبروا بها حتى رجع موسى ببني إسرائيل ، فسكنوا أرض مصر فذلك قوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(35/284)

وقال ابن عطية :

و ﴿ اليم ﴾ البحر ، ومنه قول ذي الرمة :

ذوية ودجا ليل كأنهما . . . يم تراطن في حافاته الروم

والباء في قوله : ﴿ بأنهم ﴾ باء التسبيب ، ووصف الكفار بالغفلة وهم قد كذبوا وردوا في صدر الآيات من حيث غفلوا عما تتضمنه الآيات من الهدى والنجاة فعن ذلك غفلوا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم ﴾

قال أبو سليمان الدمشقي : انتصرنا منهم باحلال نقمتنا بهم ، وتلك النقمة تغريقنا إياهم في اليم .

قال ابن قتيبة : اليم : البحر بالسريانية .

قوله تعالى : ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ فيه قولان .

أحدهما : عن الآيات ، وغفلتهم : تركهم الاعتبار بها .

والثاني : عن النقمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ يعني كافأناهم عقوبة لهم سوء صنيعهم .

وأصل الانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب ﴿ فأغرقناهم في اليم ﴾ والمعنى أنه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم فلما بلغوا الأجل الذي أجل لهم انتقم منهم بأن أهلكهم بالغرق فذلك قوله فأغرقناهم في اليم يعني البحر واليم الذي لا يدرك قعره وقيل هو لجة جر البحر ومعظم مائه .

قال الزهري : اليم معروف لفظه سريانية عربتها العرب ويقع اسم على البحر الملح والبحر

العذب ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فاقذفيه في اليم ﴾ والمراد به نيل مصر وهو عذب ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ يعني أهلكناهم وأغرقناهم بسبب أنهم كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق نبينا ﴿ وكانوا عنها ﴾ يعني عن آياتنا ﴿ غافلين ﴾ يعني معرضين وقيل كانوا على حلول النقمة بهم غافلين .

ولما كان الإعراض عن الآيات وعدم الالتفات إليها كالغفلة عنها سموا غافلين تجوزاً لأن الغفلة ليست من فعل الإنسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(36/284)

وقال أبو حيان :

﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾

أي أحللنا بهم النقمة وهي ضدّ النعمة فإن كان الانتقام هو الإغراق فتكون الفاء تفسيرية وذلك على رأي من أثبت هذا المعنى للفاء وإلا كان المعنى فأردنا الانتقام منهم والباء في ﴿ بِأنهم ﴾ سببية والآيات هي المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام والظاهر عود الضمير في ﴿ عنها ﴾ إلى الآيات أي غفلوا عما تضمنته الآيات من الهدى والنجاة وما فكروا فيها وتلك الغفلة هي سبب التكذيب ، وقيل يعود الضمير على النقمة

الدالّ عليها ﴿ فانتقمنا ﴾ أي كانوا عن النقمة وحلولها بهم غافلين والغفلة في القول الأول عنى به الإعراض عن الشيء لأنّ الغفلة عنه والتكذيب لا يجتمعان من حيث أن الغفلة تستدعي عدم الشعور بالشيء والتكذيب به يستدعي معرفته ولأنه لو أريد صفة الغفلة لكانوا معذورين لأنّ تلك ليست باختيار العبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ أي فأردنا أن ننتقم منهم لما أسلفوا من المعاصي والجرائم ، فإن قوله تعالى : ﴿ فأغرقناهم ﴾ عينُ الانتقام منهم فلا يصح دخولُ الفاء بينهم ويجوز أن يكون المرادُ مطلقَ الانتقام منهم والفاءُ تفسيرية كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ ﴾ الخ ﴿ فِي اليم ﴾ في البحر الذي لا يُدرك قعرُه وقيل : في لُجّته ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِين ﴾ تعليلٌ للإغراق أي كان إغراقُهم بسبب تكذيبِهم بآياتِ الله تعالى وإعراضِهم عنها وعدمِ تفكرِهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية ، والفاءُ وإن دلت على ترتب الإغراقِ على ما قبله من النكْثِ لكنه صرّح بالتعليل إيذاناً بأن مدارَ جميعِ ذلك تكذيبُ آياتِ الله تعالى والإعراضُ عنها ليكون ذلك مَزْجرةً للسامعين عن تكذيب الآياتِ الظاهرةِ على يد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم والإعراضِ عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فانتقمنا منْهُمْ ﴾ أي فأردنا الانتقام منهم ، وأول بذلك ليتفرع عليه قوله سبحانه : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ وإلا فالإغراق عين الانتقام فلا يصح تفريعه عليه .

وجوز أن تكون الفاء تفسيرية وقد أثبتها البعض كما في قوله تعالى : ﴿ ونادى نوح ربه فقال رب ﴾ [هود : 45] الخ وحينئذٍ لا حاجة إلى التأويل ﴿ في اليم ﴾ أي البحر كما روي عن ابن عباس .

والسدي رضي الله تعالى عنهم ، ويقع على ما كان ملحاً زعافاً وعلى النهر الكبير العذب الماء ولا يكسر ولا يجمع جمع السلامة ، وقال الليث : هو البحر الذي لا يدرك قعره ، وقيل : هو لجة البحر وهو عربي في المشهور .

وقال ابن قتيبة : إنه سرياني واصله كما قيل إلى ما ترى والقول بأنه اسم للبحر الذي غرق فيه فرعون غريق في يم الضعف ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ تعليل للإغراق يعني أن سبب الإغراق وما استوجبوا به ذلك العقاب هو التكذيب بالآيات العظام وهو الذي اقتضى تعلق إرادة الله تعالى به تعلقاً تنجيزياً وهذا لا ينافي تفريع الإرادة على النكث لأن التكذيب

هو العلة الأخيرة والسبب القريب ولا مانع من تعدد الأسباب وترتب بعضها على بعض قاله الشهاب ونور الحق ساطع منه ، وقال شيخ الإسلام : الفاء وإن دلت على ترتب الإغراق على ما قبله من النكث لكنه صرح بالتعليل إيذاناً بأن مدار جميع ذلك تكذيب آيات الله تعالى وما عطف عليه ليكون ذلك مزجرة للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى ، وفيه مناقشة لا تخفى .

(38/284)

﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ الضمير المجرور للآيات ، والغفلة مجاز عن عدم الذكر والمبالاة أي بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم مبالاتهم بها وتفكرهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية وإلا فالمكذب بأمر لا يكون غافلاً عنه للتنافي بين الأمرين ، وفي ذلك إشارة إلى أن من شاهد مثلها لا ينبغي له أن يكذب بها مع علمه بها ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الضمير للنقمة وأريد بها الغرق كما يدل عليه ما قبله ، وعليه فيجوز أن تكون الجملة حالية بتقدير قد ، ولا مجاز في الغفلة حينئذٍ والأول أولى كما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(39/284)

وقال القاسمي :

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾

أي : البحر ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أي : كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم ، وعدم تفكرهم ومبالاتهم بها . وقد روي أن فرعون ، بعد أن أبصر ما أبصر من الضربات الربانية على مصر ، أذن لموسى وقومه أن يخرجوا من مصر ، ليقيموا عبادة الله تعالى حيث شاؤوا ، فارتحل بنو إسرائيل على عجلٍ ليلاً ، وساروا بكل ما معهم من غنم وبقر ومواشٍ ، من عين شمس إلى سُكُّوت ، وسلكوا طريق برية البحر الأحمر ، ولما سمع فرعون بارتحالهم ، ندم على ما فعل ، من إطلاقهم من خدمته ، فجمع جيشه ومراكبه الحربية ، ولحقهم فأدركهم ، وكانوا قد وصلوا إلى شاطئ البحر الأحمر . حينئذ خاف الإسرائيليون ، وأخذوا يتذمرون على موسى ، فقال لهم : لا تخافوا ، إن الله معنا ، ثم أمر تعالى موسى ، فمد يده إلى البحر الأحمر ، فانشق ماؤه ، وصار فيه طريق واسعة ، وأرسل الله ريحاً شرقية شديدة ، فيبس قعره ، فعبر فيه الإسرائيليون ، والماء عن يمينهم وشمالهم ، فتبعهم فرعون وجنوده وتوسطوا البحر ، فمد موسى يده ، بإذن الله ، على البحر ، فارتد ماؤه سريعاً ، وغمر فرعون وجنوده ومراكبه ، فغرقوا جميعاً ، ثم طفت جيفهم على وجه الماء ، وانقذفت إلى الساحل ، فشاهدها

الإسرائيليون عياناً .

هذا ملخص ما روي هنا .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية أنه تعالى أهلكهم بعد أن أزاح العلة بالآيات ، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة وجزاء على فعلهم ، وتدل على قبح الإعتراض على آيات الله ، وتدل على وجوب النظر ، وتدل على أن النكث فعلهم ، والإعراض ، فلذلك عاقبهم عليهما . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 175.176 ﴾

(40/284)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾

هذا محل العبرة من القصة ، فهو مفرع عليها تفريع النتيجة على المقدمات والفذلكة على القصة ، فإنه بعد أن وصف عناد فرعون وَمَلَئِهِ وتكذيبَهم رسالة موسى واقتراحهم على موسى أن يجيء بآية ومشاهدتهم آية انقلاب العصا ثعباناً ، وتغيير لون يده ، ورميَهم موسى بالسحر ، وسوء المقصد ، ومعارضة السحرة معجزة موسى وتغلب موسى عليهم ،

وكيف أخذ الله آل فرعون بمصائِب جعلها آيات على صدق موسى ، وكيف كابروا وعاندوا ، حتى أُلجِئوا إلى أن وعدوا موسى بالإيمان وتسريح بني إسرائيل معه وعاهدوه على ذلك ، فلما كشف عنهم الرجز نكثوا ، فأخبر الله بأن ذلك ترتب عليه استئصال المستكبرين المعاندين ، وتحريرُ المؤمنين الذين كانوا مستضعفين .

وذلك محل العبرة ، فلذلك كان الموقع في عطفه لفاء الترتيب والتسبب ، وقد اتبع في هذا الختام الأسلوبُ التي اختتمت به القصص التي قبل هذا .

والانتقام افتعال ، وهو العقوبة الشديدة الشبيهة بالنّقْم .

وهو غضب الحنق على ذنْبِ اعتداء على المنتقمِ ينكر ويَكْرَه فاعلَه .

وأصل صيغة الافتعال أن تكون لمطاوعة فَعَل المتعدي بحيث يكون فاعل المطاوعة هو مفعول الفعل المجرد ، ولم يسمع أن قالوا نَقَمَه فانتقم .

أي أحفظه وأغضبه فعاقب ، فهذه المطاوعة أميت فعلها المجردُ ، وعدوه إلى المعاقب بمن الابتدائية للدلالة على أنه منشأ العقوبة وسببها وأنه مستوجبها ، وتقدم الكلام على المجرد من هذا الفعل عند قوله تعالى آنفاً : ﴿ وما تَنقم منا إلاّ أن آمنا بآيات ربنا ﴾ [الأعراف : 126] .

وكان إغراقهم انتقاماً من الله لذاته لأنهم جحدوا انفراد الله بالإلاهية ، أو جحدوا إلاهيته

أصلاً ، وانتقاماً أيضاً لبني إسرائيل لأن فرعون وقومه ظلموا بني إسرائيل وأذلوهم واستعبدوهم باطلاً .

(41/284)

والإغراقُ : الإلقاء في الماء المستبحر الذي يغمر المُلْقَى فلا يترك له تنفساً ، وهو بيان للانتقام وتفصيل لمجمله ، فالفاء في قوله : ﴿ فأغرقناهم ﴾ للترتيب الذكري ، وهو عطف مفصّل على مجمل كما في قوله تعالى : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتُلوا أنفسكم ﴾ [البقرة : 54] .

وحَمَل صاحب "الكشاف" الفعل المعطوف عليه هنا على معنى العزم فيكون المعنى : فأرْدنا الانتقام منهم فأغرقناهم ، وقد تقدم تحقيقه عند قوله تعالى : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ في سورة البقرة (54) .

واليمّ : البحر والنهر العظيم ، قيل هو كلمة عربية .

وهو صنيع الكشاف ﴾ إذ جعله مشتقاً من التيمم لأنه يُقصد للمنتفعين به ، وقال بعضْ اللغويين : هو معرب عن السريانية وأصله فيها (يَمّا) وقال شَيْدَلَةُ : هو من القبطية ، وقال ابن الجوزي : هو من العبرية ، ولعله موجود في هذه اللغات .

ولعل أصله عربي وأخذته لغات أخرى ساميّة من العربية والمراد به هنا بحر القُلْزُم ،

المسمى في التوراة بحر سُوف ، وهو البحر الأحمر .

وقد أطلق (اليم) على نهر النيل في قوله تعالى : ﴿ أن اقذفيه في التابوت فاقْذفيه في اليَمّ ﴾ [طه : 39] وقوله:

﴿ فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليمّ ﴾ [القصص : 7] ، فالتعريف في قوله : ﴿ اليَمّ ﴾ هنا تعريف العهد الذهني عند علماء المعاني المعروف بتعريف الجنس عند النحاة إذ ليس في العبرة اهتمام ببحر مخصوص ولكن بفرد من هذا النوع .

وقد أغرق فرعون وجنده في البحر الأحمر حين لحق بني إسرائيل يريد صدهم عن الخروج من أرض مصر ، وتقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة البقرة وسيأتي تفصيله عند قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق ﴾ في سورة يونس (90) .

والباء في بأنهم ﴾ للسببية ، أي : أغرقناهم جزاء على تكذيبهم بالآيات .

(42/284)

والغفلة ذهول الذهن عن تذكر شيء ، وتقدمت في قوله تعالى : ﴿ وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ في سورة الأنعام (156) ، وأريد بها التغافل عن عمد وهو الإعراض عن التفكر في الآيات ، وإباية النظر في دلالتها على صدق موسى ، فإطلاق الغفلة على هذا

مجاز ، وهذا تعريض بمشركي العرب في إعراضهم عن التفكر في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ودلالة معجزة القرآن ، فلذلك أعيد التصريح بتسبب الإعراض في غرقهم مع استفادته من التفريع بالفاء في قوله : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ﴾ تنبيهاً للسامعين للانتقال من القصة إلى العبرة .

وقد صيغ الإخبار عن إعراضهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على أن هذا الإعراض ثابت لهم ، وراسخ فيهم ، وأنه هو علة التكذيب المصوغ خبرُه بصيغة الجملة الفعلية لإفادة تجدده عند تجدد الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(43/284)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾

ويوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب في ذواتهم ، وفي مقومات حياتهم ، وفي معكرات صفوهم لم يبق إلا أن يهلكوا ؛ لأنه لا فائدة منهم ؛ لذلك جاء الأمر بإغراقهم ، لا عن جبروت قدرة ، بل عن عدالة تقدير ؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم .

ويلاحظ هنا أن أهم ما في القضية وهو الإغراق قد ذكر على هيئة الإيجاز ، وهو الحادث

الذي جاء في سورة أخرى بالتفصيل ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بعبادي إِنَّكُم مّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء : 52]

ولم يأت الحق هنا بتفاصيل قصة الإغراق ؛ لأن كل آية في القرآن تعالج موقفاً ، وتعالج لقطة من اللقطات ؛ لأن القصة تأتي بإجمال في موضع وبإطناب في موضع آخر ، وهنا يأتي موقف الإغراق بإجمال : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليم ﴾ .

وكلمة ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ لها قصة طويلة معروفة ومعروضة عرضاً آخر في سورة أخرى ، فحين خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر خرج وراءهم فرعون ، وحين رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بمنطق الأحداث : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ . مدركون من فرعون وقومه لأن أمامهم البحر وليس عندهم وسيلة لركوب البحر . لكن موسى المرسل من الله علم أن الله لن يخذله ؛ لأنه يريد أن يتم نعمة الهداية على يديه ، كان موسى عليه السلام ممتلئاً باليقين والثقة لذلك قال بملء فيه : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62]

(44/284)

هو يقول : "كلا" أي لن يدركوكم لا بأسبابه ، بل أسباب من أرسله بدليل أنه جاء بحيثيتها معها وقال : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ . لقد تكلم بمنطق المؤمن الذي أوى إلى ركن

شديد ، وأن المسائل لا يمكن أن تنتهي عند هذا الوضع ؛ لأنه لم يؤد المهمة بكاملها ، لذلك قال : "كلا" يملء فيه ، مع أن الأسباب مقطوع بها . فالبحر أمامهم والعدو من خلفهم ، وأتبع ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ بالحفظ والنصرة . . أي أن الأسباب التي سبق أن أرسلها معي الله فوق نطاق أسباب البشر ، فالعصا سبق أن نصره الله بها على السحرة ، وهي العصا نفسها التي أوحى له سبحانه باستعمالها في هذه الحالة العصيبة قائلاً له : ﴿ اضرب بِّعَصَاكَ البحر . . . ﴾ [الشعراء : 63]

ونعرف أن البحر وعاء للماء ، وأول قانون للماء هو السيولة التي تعينه على الاستطراق ، ولو لم يكن الماء سائلاً ، وبه جمود وغلظة لصار قطعاً غير متساوية ، ولكن الذي يعينه على الاستطراق هو حالة السيولة ، ولذلك حين نريد أن نضبط دقة استواء أي سطح نلجأ إلى ميزان الماء .

وقال الحق سبحانه لموسى عليه السلام : ﴿ اضرب بِّعَصَاكَ البحر ﴾ [الشعراء : 63]

وحين ضرب موسى بعصاه البحر امتنع عن الماء قانون السيولة وفقد قانون الاستطراق ، ويصور الله هذا الأمر لنا تصويراً دقيقاً فيقول : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ .

(45/284)

أي صار كل جزء منه كالطود وهو الجبل ، ونجد في الجبل الصلابة ، وهكذا فقد الماء السيولة وصار كل فرق كالجبل الواقف ، ولا يقدر على ذلك إلا الخالق ، لأن السيولة والاستطراق سنة كونية ، والذي خلق هذه السنة الكونية هو الذي يستطيع أن يبطلها .

وحين سار موسى وقومه في اليابس ، وقطع الجميع الطريق الموجود في البحر سار خلفهم فرعون وجنوده وأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود إلى السيولة وإلى الاستطراق حتى لا يتبعه فرعون وجنوده ، وهذا تفكير بشري أيضاً ، ويأتي لموسى أمر من الله : ﴿ واترك البحر رَهْواً . . . ﴾ [الدخان : 24]

أي اترك البحر ساكناً على هيئته التي هو عليها ليدخله فرعون وقومه ، إنه سبحانه لا يريد للماء أن يعود إلى السيولة والاستطراق حتى يُغري الطريق اليابس فرعون وقومه فيأتوا وراءكم ليلحقوا بكم ، فإذا ما دخلوا واستوعبهم اليابس ؛ أعدنا سيولة الماء واستطراقه فيغرقون ؛ ليثبت الحق أنه ينجي ويهلك بالشيء الواحد ، وكل ذلك يجمله الحق هنا في قوله : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليم ﴾ . و " اليم " هو المكان الذي يوجد به مياه عميقة ، ويطلق مرة على المالح ، ومرة على العذب ، فمثلاً في قصة أم موسى ، يقول الحق : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . ﴾ [القصص : 7]

وكان المقصود باليم هناك النيل ، لكن المقصود به هنا في سورة الأعراف هو البحر . ويأتي سبب الإغراق في قوله : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ .

(46/284)

كيف إذن يعذبهم ويغرقهم نتيجة الغفلة ، ونعلم أن الغفلة ليس لها حساب ؟ بدليل أن الصائم قد يغفل ويأكل ويصح صيامه . ويقال إن ربنا أعطى له وجبة تغذيه بالطعام وحسب له الصيام لأنه غافل . لكن هنا يختلف أمر الغفلة ؛ فالمراد ب " غافلين " هنا أنهم قد كانوا قد كذبوا بآيات الله ثم أعرضوا إعراضاً لا يكون إلا عن غافل عن الله وعن منهجه ، ولو أنهم كانوا عباداً مستحضرين لمنهج الله لما صح أن يغفلوا ، وهذا القول يحقق ما سبق ان قاله سبحانه : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 129] ثم يأتي بعد ذلك القول الذي يحقق ما سبق أن قاله سبحانه : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 129] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(47/284)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ " هذه الفاءُ سببيَّة ، أيْ : تَسَبَّب عن النَّكْثِ الانتقامُ ثم إن أريد بالانتقام نَفْسُ الإغْراق ، فالفاءُ الثَّانية مُفَسِّرةٌ عند مَنْ يُثْبِتُ لها ذلك وإلاَّ كان التقدير : فَأَرَدْنَا الانتقام ، والانتقام في اللُّغَةِ : سلب النعمة بالعذابِ .

و " في اليمِّ " متعلق بـ " أغْرَقْنَاهُم " ، واليَمّ : البحر ، والمشهور أنَّهُ عربيّ .

قال ذو الرُّمَّة : [البسيط]

2564 - دَاوِيَّة ودُجَى لَيْلٍ كأَنَّهُمَا . . .

يَمٌّ تراضَنَ في حَافَاتِهَا الرُّومُ

وقال ابْنُ قتيبةَ : أنَّه البَحْرُ بالسُّرياِنيَّةِ .

وقيل : بالعبرانيَّة .

والمشهور أنه لا يتقيَّد ببحر خاص قال الزمخشري : اليَمّ : البحرُ الذي لا يُدْرَكُ قعره .

وقيل : هو لُجَّة البحر ومعظم مائه .

وقال الهرويُّ - في " غريبيه " - : واليَمُّ : البَحْرُ الذي يقالُ له : إسَافٌ وفيه غَرِقَ فرعونُ .

وهذا ليس بجيد ، لقوله تعالى : ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي اليم ﴾ [القصص : 7] والمرادُ : نيلُ مِصْرَ ،

وهو غيرُ الذي غَرِق فيه فرعون .

فصل

قيل : واشتقاقه من التيمم ، وهو القصد ، لأنَّ النَّاسَ يقصدونه .

قوله : " بِأَنَّهُمْ " الباء للسببيّة ، أي : أغْرَقْنَاهم بسببِ تكذيبهم بآيَاتِنَا ، وكونهم عَنْهَا غافلين ، أي : غَافِلِينَ عن آياتنا ، فالضَّمِيرُ في عَنْهَا يعودُ على الآيات ، وهذا هو الظَّاهِرُ .

وبه قال الزَّجَّاجُ وغيره .

وقيل : يجوزُ أن يعود على النِّقْمَةِ المدلولِ عليها بـ " انتَقَمْنَا " ويُعْزَى هذا لابن عباس ، وكأن القائل بذلك تَخَيَّلَ انَّ الغفلةَ عن الآيات عُذْرٌ لَهُم من حيثُ إنَّ الغفلة ليست من كسب الإنسان .

وقال الجمهور : إنَّهم تَعَاطَوْا أسبابَ الغَفْلَة ، فَذَمُّوا عليها ، كما يُذَمُّ الناسى على نِسْيَانه لتعاطيه أسبابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 288 . 289 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136) ﴾

أبرزوا العهد ثم نقضوه ، وقدموا العهد ثم رفضوه ، وكما قيل :

إذا ارعوى عاد إلى جهله . . . كذي الضنى عاد إلى نكسه

والشيخُ لا يترك أخلاقَه . . . حتى يُوارى في ثرى رمسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 561 ﴾

(48/284)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) ﴾

المراد بآل فرعون هنا قومه ، والمراد بالسنين الجدب .

وهذا معروف عند أهل اللغة .

يقولون أصابتهم سنة : أي جدب سنة ، وفي الحديث : " اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف " ، وأكثر العرب يعربون السنين إعراب جمع المذكر السالم .

ومن العرب من يعربه إعراب المفرد ، ويجري الحركات على النون ، وأنشد الفراء :

أرى مرّ السنين أخذن مني . . . كما أخذ السرار من الهلال

بكسر النون من السنين .

قال النحاس : وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون .

أقول : قد ورد ما لا احتمال فيه وهو قول الشاعر :

وماذا تزدري الأقوام مني . . . وقد جاوزت حدّ الأربعين

وبعده :

أخو الخمسين مجتمع أشدي . . . وتجدبني مداورة السنين

فإن الأبيات قبله وبعده مكسورة .

وأوّل هذه الأبيات :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا . . . متى أضع العمامة تعرفوني

وحكى الفراء عن بني عامر أنهم يقولون : أقمت عنده سنيناً مصروفاً .

قال : وبنو تميم لا يصرفونه .

ويقال أسنت القوم ، أي أجدبوا ، ومنه قول ابن الزبعري :

ورجال مكة مسنتون عجاف . . . ﴿ وَنَقْصٍ مّن الثمرات ﴾ بسبب عدم نزول المطر ، وكثرة العاهات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيتعظون ويرجعون عن غوايتهم .

قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الحسنة قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ أي الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر ، وصلاح الثمرات ، ورخاء الأسعار ﴿ قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ أي أعطيناها باستحقاق ، وهي مختصة بنا ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيّئَةٌ ﴾ أي خصلة سيئة من الجدب والقحط ، وكثرة

الأمراض ونحوها من البلاء ﴿ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ﴾ أي يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين به ، والأصل يتطيروا أدغمت التاء في الطاء ، وقرأ طلحة " تطيروا " على أنه فعل ماض .

(49/284)

وقد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور والحيوانات ، ثم استعمل بعد ذلك في كل من تشاءم بشيء .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ اوإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء : 78]

قيل : ووجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع ، ووجه تنكير السيئة ندرة وقوعها .

قوله : ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله ﴾ أي سبب خيرهم وشرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط ، هو من عند الله ، ليس بسبب موسى ومن معه .

وكان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه .

ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذي يجري بقدر الله وحكمته ومشيئته ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ بهذا ، بل ينسبون الخير والشر إلى غير الله جهلاً منهم .

وقرأ الحسن "طيرهم" .

قوله : ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ قال الخليل :

أصل ﴿ مهما ﴾ : "ما" الشرطية زيدت عليه "ما" التي للتوكيد ، كما تزاد في سائر

الحروف مثل : حيثما وأينما وكيفما ومتى ما .

ولكنهم كرهوا اجتماع المثلين فأبدلوا ألف الأولى هاء .

وقال الكسائي : أصله : مه ، أي اكفف ما تأتينا به من آية ، وزيدت عليها "ما" الشرطية .

وقيل : وهي كلمة مفردة يجازى بها .

ومحل ﴿ مهما ﴾ الرفع على الابتداء ، أو النصب بفعل يفسره ما بعدها .

و ﴿ من آية ﴾ لبيان ﴿ مهما ﴾ ، وسموها آية استهزاء بموسى كما يفيده ما بعده .

وهو ﴿ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ أي لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله السحرة بسحرهم .

والضمير في "به" عائد إلى ﴿ مهما ﴾ ، والضمير في ﴿ بها ﴾ عائد إلى ﴿ آية ﴾ ؛

وقيل : إنهما جميعاً عائدان إلى ﴿ مهما ﴾ ، وتذكير الأوّل باعتبار اللفظ ، وتأنيث الثاني

باعتبار المعنى ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب الشرط ، أي فما نحن لك بمصدّقين .

(50/284)

أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشيء مما يجيء به من الآيات التي هي في زعمهم من السحر ، فعند ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عزّ وجلّ المبينة بقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان ﴾ وهو المطر الشديد .

قال الأخفش : واحده طوفانة ، وقيل : هو مصدر كالرجحان والنقصان فلا واحد له .

وقيل الطوفان : الموت .

وقال النحاس : الطوفان في اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سيل ، أي ما يطيف بهم فيهلكهم .

والجراد هو الحيوان المعروف .

أرسله الله لأكل زروعهم فأكلها .

والقمل قيل : هي الدباء .

والدباء : الجراد قبل أن تطير ، وقيل : هي السوس ، وقيل : البراغيث ، وقيل : دواب سود صغار ، وقيل : ضرب من القردان ، وقيل : الجعلان .

قال النحاس : يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم .

وقرأ الحسن "القمل" بفتح القاف وإسكان الميم .

وقرأ الباقون بضم القاف وفتح الميم مشددة .

وقد فسّر عطاء الخراساني "القمل" بالقمل ﴿ والضفادع ﴾ جمع ضفدع ، وهو الحيوان

المعروف الذي يكون في الماء .

﴿ والدم ﴾ روي أنه سال النيل عليهم دماً .

وقيل : هو الرعاف .

قوله : ﴿ آيَاتٍ مّفَصَّلاَت ﴾ أي مبينات .

قال الزجاج : هو منصوب على الحال .

والمعنى : أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات بينات ظاهرات ﴿ فاستكبروا ﴾ أي ترفعوا عن الإيمان بالله ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ لا يهتدون إلى حق ، ولا ينزعون عن باطل .

قوله : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز ﴾ أي العذاب بهذه الأمور التي أرسلها الله عليهم .

وقرىء بضم الراء وهما لغتان .

وقيل : كان هذا الرجز طاعوناً مات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفاً .

﴿ قَالُواْ يا موسى ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي بما استودعك من العلم ، أو بما اختصك به من النبوّة ، أو بما عهد إليك أن تدعو به فيجيبك .

(51/284)

والباء متعلقة ب ﴿ ادع ﴾ على معنى : أسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله ، أو ادع لنا متوسلاً إليه بعهده عندك .

وقيل : إن الباء للقسم ، وجوابه لنؤمنن ، أي أقسمنا بعهد الله عندك ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ على أن جواب الشرط سدّ مسدّ جواب القسم ، وعلى أن الباء ليست للقسم ، تكون اللام في ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز ﴾ جواب قسم محذوف .

و ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ ﴾ جواب الشرط سادّ مسدّ جواب القسم ﴿ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إسراءيل ﴾ معطوف على لنؤمننّ .

وقد كانوا حابسين لبني إسرائيل عندهم ، يمتهنونهم في الأعمال ، فوعدوه بإرسالهم معه .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بالغوه ﴾ أي رفعنا عنهم العذاب عند أن رجعوا إلى موسى وسألوه بما سألوه ، لكن لا رفعاً مطلقاً ، بل رفعاً مقيداً بغاية هي الأجل المضروب لإهلاكهم بالغرق .

وجواب " لما " ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ أي ينقضون ما عقدوه على أنفسهم ، و " إذا " هي الفجائية ، أي فاجؤوا النكث وبادروه .

﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ أي أردنا الانتقام منهم لما نكثوا بسبب ما تقدّم لهم من الذنوب المتعددة ﴿ فأغرقناهم فِي اليم ﴾ أي في البحر .

قيل : هو الذي لا يدرك قعره .

وقيل هو لجته وأوسطه .

وجملة ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ تعليل للإغراق ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غافلين ﴾ معطوف على كذبوا ، أي كانوا غافلين عن النقمة المدلول عليها بانتقمنا ، أو عن الآيات التي لم يؤمنوا بها ، بل كذبوا بها ، وكانوا في تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها .

والثاني أولى لأن الجملتين تعليل للإغراق .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن مسعود ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين ﴾ قال : السنين الجوع .

(52/284)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد قال : السنين الجوائح ﴿ وَنَقْصٍ مّن الثمرات ﴾ دون ذلك .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شيء لهم ، وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر ، واجتمعوا إلى فرعون ، فقالوا : إن كنت كما تزعم فائتنا في نيل مصر بماء ، قال : غدوة يصبحكم الماء ، فلما خرجوا من عنده قال : أي شيء صنعت إن لم أقدر على أن أجري

في نيل مصر ماء غدوة كذبوني .

فلما كان جوف الليل قام فاغتسل ، ولبس مدرعة صوف ، ثم خرج حافياً حتى أتى نيل مصر فقال : اللهم إنك تعلم ، أني أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ماء .

فما علم إلا بجزر الماء يقبل ، فخرج وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الحسنة ﴾ قال : العافية والرخاء ﴿ قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ نحن أحق بها ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ قال : بلاء وعقوبة ﴿ يَطَّيَّرُواْ بموسى ﴾ قال : يتشاءموا به .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله ﴾ قال : الأمر من قبل الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الطوفان الموت " قال ابن كثير : هو حديث غريب .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : الطوفان الغرق .

وأخرج هؤلاء عن مجاهد قال : الطوفان الموت على كل حال .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : الطوفان : مطروا دائماً بالليل

والنهار ثمانية أيام .

والقمل : الجراد الذي له أجنحة .

(53/284)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه ، قال : الطوفان أمر من أمر ربك ، ثم قرأ : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القلم : 19] .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد قال : الطوفان الماء ، والطاعون والجراد .

قال يأكل مسامير رُتُجهم : يعني أبوابهم وثيابهم ، والقمل : الدباء .

والضفادع ، تسقط على فرشهم وفي أطعمتهم ، والدم : يكون في ثيابهم ومائهم وطعامهم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس قال : القمل الدباء .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : كانت الضفادع بريّة ، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت ، فجعلت تقذف نفسها في القدر وهي تغلي ، وفي التنانير وهي تفور .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، قال : سال النيل دماً ، فكان الإسرائيلي يستقي ماء طيباً ، ويستقي الفرعوني دماً ، ويشتركان في إناء واحد ، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء طيباً وما يلي الفرعوني دماً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن زيد بن أسلم ، في قوله : ﴿ والدم ﴾ قال : سلط الله عليهم الرعاف .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : مكث موسى في آل فرعون بعد ما غلب السحرة أربعين سنة ، يريهم الآيات ، والجراد ، والقمل والضفادع .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه في قوله : ﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ﴾ قال : كانت آيات مفصلات يتبع بعضها بعضاً ليكون لله الحجة عليهم .

وأخرج ابن المنذر ، عنه ، قال : يتبع بعضها بعضاً تمكث فيهم سبتاً إلى سبت ، ثم ترفع عنهم شهراً .

وأخرج ابن مردويه ، عن عائشة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الرجز : العذاب "

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : الرجز الطاعون .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إلى أَجَلٍ هُم بالغوه ﴾ قال : الغرق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، من طرق ، عن ابن عباس قال : اليم البحر .

وأخرج أيضاً عن السديّ مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(55/284)

قوله تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر عن إهلاكهم ، عطف عليه ما صنع ببني إسرائيل فقال : ﴿ وأورثنا ﴾ أي بعد إهلاكهم بما لنا من العظمة ﴿ القوم ﴾ ولما اشار بهذه العبارة - التي معناها أنه كانت فيهم قوة وكثرة وشدة عزم على ما يحاولونه ويقومون به - إلى أنه هو الذي أذلهم لا فرعون ، أتبعه

ما يدل عليه فقال : ﴿ الذين كانوا يستضعفون ﴾ أي يطلب ضعفهم ويوجد بالشوكة واجتماع الكلمة بحاكم قد تمكنت عظمته في القلوب

(56/284)

التي الوهم غالب عليها ، وهم بنو إسرائيل ﴿ مشارق الأرض ﴾ أي الكاملة لبركاتها ﴿ ومغاربها ﴾ أي أرض الشام من الفرات إلى بحر سوف : الموضع الذي خرجوا منه من البحر وغرق فيه فرعون وآله - كما مضى نقله في المائدة عن التوارة ، يعني حكمنا بإيراثهم ذلك وأنجزناه لأبناء الذين خرجوا من مصر بعد إهلاكهم في التيه ؛ ثم وصفها تغبطاً بها بقوله : ﴿ التي باركنا فيها ﴾ أي في أرضها بالمياه والأشجار والثمار والخصب ، وفي أرزاقها بالكثرة والطيب ، وفي رجالها بالعلم والنبوة وفي طباعهم بالاستقامة ، وفي عزائمهم بالنجدة والشجاعة والمكارم ، وفي جميع أحوالهم بأنه لا يبغيهم ظالم إلا عوجل بالنقمة ﴿ وتمت ﴾ أي وجدت صحتها لوجود مضمونها في عالم الشهادة وظهوره من ستور الغيب ﴿ كلمت ربك ﴾ أي المحسن إليك بإنزال هذه الأنباء على هذه الوجوه المفيدة مع إعجازها لغاية العلم والحكمة ﴿ الحسنى ﴾ مستعلية ﴿ على بني إسرائيل ﴾ أي التي هي أحسن الكلام وهي وعده سبحانه لهم بالخلاص من العبودية وإيراثهم مساكن آبائهم

كما كانوا يسمعون من أسلافهم ، وإذا استعلت عليهم منعت أعداءهم من الوصول إليهم ﴿ بما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم على الاستعباد وذبح الأولاد وما حصل بعد ذلك من طويل الأنكاد ﴿ ودمرنا ﴾ أي أهلكنا إهلاكاً عظمياً جعل يدمره كالرماد ، لا خير فيه أصلاً ﴿ ما كان يصنع ﴾ أي صنعاً بغاية الإقبال عليه حتى كأنهم خلقوا لهم ﴿ فرعون وقومه ﴾ أي من الصنائع الهائلة المعجبة لكل من يراها أو يسمع بها مع أنهم قد مرنوا

(57/284)

عليها فصارت أسهل شيء عندهم ﴿ وما كانوا ﴾ أي بما هو كالجبلة والطبع ﴿ يعرشون ﴾ أي من الجنان والقصور العالية الأركان ، وكفى بهذه الآية حاثة على الصبر وضامنة على كل حائز للأجر بالتفريج عن المظلوم ونصره وإهلاك الظلوم وقهره .

(58/284)

شرح ما يحتاج إلى شرحه هنا من التوراة الموجودة الآن بين أظهر اليهود ، قال مترجماً في الأصحاح الثالث من السفر الثاني ما نصه : وقال الرب لموسى في مدين : انطلق راجعاً إلى

مصر لأن الرجال الذين كانوا يطلبون نفسك قد هلكوا جميعاً ، فانطلق موسى بامرأته وبينه وحملهم على حماره وأخذ بيده عصا الرب ، وقال الرب لموسى : انظر كل آية أجريتها على يدك فاصنعها أمام فرعون وأنا أقسي قلبه فلا يرسل الشعب وقل لفرعون : هكذا يقول الرب : ابني بكري إسرائيل ، أرسل ليعبدني ، فإن أبيت أن ترسل ابني فإني أقتل ابنك بكري ، فلما صار موسى في الطريق في المبيت لقيه ملاك الرب فأخذت صفورا حجراً من حجارة المروة فحشت غرلة ابنها وأخذت برجليه – وفي نسخة السبعين : ووقعت عند رجليه – وقالت : إن اليوم عرس الدم – تعني الختان ، فقال الرب لهارون : اخرج فتلق أخاك في القفر ، فخرج فلقيه في جبل الله في حوريب فعانقه وقبله ، فأخبر موسى هارون بجميع قول الرب الذي أرسله فيه وما أمره من الآيات ، وانطلق موسى وهارون ، فجمع أشياخ بني إسرائيل ، فقص عليهم جميع ما قال الرب لموسى ، وحرج جرائح وآيات قدام الشعب – وفي نسخة السبعين : فجمعا مشايخ بني إسرائيل وتكلم هارون بجميع الكلام الذي كلم الله به موسى وعمل الآيات قدام الشعب – فآمن الشعب وسمعوا أن الرب قد ذكر بني إسرائيل وأبصر إلى خضوعهم ، وجثا الشعب وسجدوا للرب ، ومن بعد هذه الآيات والخطوب دخل موسى وهارون وقالا لفرعون : هكذا يقول الله رب إسرائيل : أرسل شعبي يحجون إلى القفر – وفي نسخة السبعين : ليعبدوني في البرية – عوض : يحجون إلى القفر ، فقال فرعون : ومن هو الرب حتى أطيعه ؟ لا أعرف الرب ولا أرسل بني

إسرائيل ، وقالا له : الرب إله العبرانيين اعتلن لنا ، فننطلق مسيرة ثلاثة أيام القفر ونذبح الذبائح لله ربنا لكيلا ينزل بنا الحزن والوباء – وفي نسخة السبعين : لئلا يفاجئنا موت أو قتل – قال فرعون : ما

(59/284)

بالكما تبطلان الشعب من أعمالهم ؟ فأمر فرعون ولاة الشعب وكتبتهم وقال لهم : لا تعودوا أن تعطوا الشعب تبناً لضرب اللبن كما كنتم تعطونهم ، بل هم ينطلقون فيجمعون لأنفسهم التبن ، وخذوهم بحساب اللبن على ما كنتم تأخذونهم به أمس وأول من أمس – ونسخة السبعين : في كل يوم لا تنقصوهم شيئاً من عملهم لأنهم بطروا لذلك يصيحون فيقولون : ننطلق فنذبح للرب إلهنا – فليشتد العمل على الرجال – ونسخة السبعين – فليتضاعف عمل هؤلاء القوم – حتى يهتموا به ولا يهتموا بكلام الباطل ، فخرج ولاة الشعب وكتبتهم بما قال فرعون ، فتفرق الشعب في جميع أرض مصر في جميع التبن ، وجعل ولاتهم يلحون عليهم ويقولون : ارفعوا إلينا العمل كما كنتم ترفعون من قبل حيث كنتم تعطون التبن ، فزادت كتبة بني إسرائيل وعوقبوا من الذين ولوهم عليهم وقالوا : لم لم ترفعوا إلينا حساب اللبن كما كنتم ترفعون ، فأتى كتبة بني إسرائيل فشكوا إلى فرعون وقالوا : ما

بال عبيدك يصنع بهم هذا الصنيع ؟ فقال فرعون : أنتم قوم بطرون ، تقولون : ننطلق لنذبح لربنا ، فسار – أي الكتبة – في بني إسرائيل وقالوا لهم : لا تنقصوا من لبنكم شيئاً ، بل ارفعوا إلينا كما كنتم ترفعون كل يوم ، فلقوا موسى وهارون وهما واقفان أمامهم – وفي نسخة السبعين : وهما يجيئان نحوهم إذ خرجوا من بين يدي فرعون – فقالوا لهما : الله يحكم بيننا وبينكما لأنكما حرضتما علينا فرعون وعبيده حتى ضيق علينا بأن يضع السلاح فينا فيقتلنا ، فرجع موسى إلى الرب وقال : يارب ! لم أسأت بشعبك وأضررت به ؟ لأني ساعة أن أتيت فرعون فذكرت اسمك أساء بهذا الشعب وشق عليهم وأنت تخلص شعبك ، فقال الرب لموسى : الآن ترى ما أصنع بفرعون لأنه سيرسلهم – وفي نسخة السبعين : وسوف ترى ما أصنع بفرعون وكيف يرسلهم بيد منيعة وبذراع عظيمة يخرجهم من أرض مصر ! أنا الرب الذي اعتلنت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وسميت بإله المواعيد ولم أعلمهم اسم الرب – وفي

(60/284)

نسخة السبعين : واسمي الرب فلم أظهره لهم – وأثبت عهدي أيضاً ووعدتهم أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي سكنوها ؛ وقد سمعت ضجيج بني إسرائيل من تعبد أهل

مصر ، وأنجيكم من أعمالهم واخلصكم بيد منيعة وذراع عالية وبأحكام عظيمة ، وأختصكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً ، وتعرفون أني أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من تعبد المصريين وأقبل بكم إلى الأرض التي رفعت يدي لأعطيها آباءكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأجعلها لكم ميراثاً إلى الدهر ، أنا الرب ! فقال موسى لبني إسرائيل هذه الأقاويل فلم يسمعوا من موسى ولم يطيعوه من شدة حزنهم واستيقاد نفوسهم من الكد الشديد ، وكلم الرب موسى وقال له : انطلق إلى فرعون ملك مصر وقل له فيرسل بني إسرائيل – من أرض مصر ، فقال موسى للرب : إن بني إسرائيل لا يسمعوني ولا يطيعوني ، وأنا أرتّ المنطق ثقيل اللسان فكيف يطيعني فرعون ويسمع مني ! فقال الرب لموسى : انظر ، إني قد جعلتك إلهاً لفرعون ، وهارون أخوك يكون نبياً عليك ، أنت تقضي جميع ما آمرك به ، وهارون أخوك يقول لفرعون – وفي نسخة السبعين : وهارون أخوك يكون لك نبياً وأنت تتكلم بجميع ما آمرك به وهارون أخوك يكلم فرعون – ليرسل بني إسرائيل من أرضه وأنا أقسي قلب فرعون فأكثر آياتي وعجائبي بأرض مصر ، فلا يطيعكما فرعون ولا يسمع منكما فأمد يدي على مصر وأخرج جميع جنودي وشعبي بني إسرائيل من أرض مصر بالأحكام العظام ، فيعرف أهل مصر أني أنا الرب ، فصنع موسى وهارون كما أمرهما الرب وانتهيا إلى أمره ، وكان قد أتى على موسى ثمانون سنة ، وكان ابن ثلاث وثمانين سنة إذ كلما فرعون ، فقال الرب لموسى وهارون ، إن قال لكما فرعون : أظهرا لي آية وجريحة ، قل لهارون : خذ

عصاك وألقها بين يدي فرعون فتكون تنيناً عظيماً ، فأتى موسى وهارون إلى فرعون فصنعا كما أمرهما الرب ، فألقى عصاه – وفي نسخة السبعين : فألقى هارون عصاه – بين يدي فرعون وأمام أمرائه – وفي نسخة السبعين :

(61/284)

وعبيده – فصارت تنيناً عظيماً ، فدعا فرعون بالحكماء والسحرة ، فصنع سحرة مصر أيضاً بسحرهم كذلك ، فألقى كل امرىء منهم عصاه فصارت تنيناً فابتلعت عصا هارون عصيهم ، فقسا قلب فرعون وأبى أن يرسلهم كما قال الرب ، وقال الرب لموسى : إن قلب فرعون قد قسا وأبى أن يرسل الشعب ، انطلق إلى فرعون بالغداة ، هوذا يخرج ليغتسل على شاطىء البحر ، وخذ العصا التي تحولت في يدك ثعباناً وقل : وإن الرب إله العبرانيين أرسلني إليك ، يقول لك : أرسل شعبي حتى يعبدني في البرية لأنك حتى الآن لا تسمع ولا تطيع ، هكذا يقول الرب : بهذا تعلم أني أنا الرب ، هأنذا أضرب ماء النهر بعصاي فيصير دماً ، وتموت الحيتان التي في النهر وينتن – وفي نسخة السبعين : ولا يقدر أهل مصر أن يشربوا الماء من هذا النهر – وقال الرب لموسى : مر هارون أن يأخذ عصاه ، وارفع يدك على ماء المصريين على أنهارهم وعلى غدرانهم وعلى آجامهم وعلى دواليب مياههم –

وفي نسخة السبعين : وقال الرب لموسى : قل لهارون : خذ عصاك ومد يدك على ماء مصر وعلى أنهارها وآجامها ونقارها وعلى كل مائها المستنقع – فيتحول دماً ، فيصير الدم في جميع أهل مصر في الأرض والخسب والحجارة ، فصنع موسى وهارون كما أمرهما الرب ، فرفع هارون العصا التي في يده فضرب بها ماء النهر وفرعون وعبيده ينظرون ، فتحول ماء النهر فصار دماً ، وماتت الحيتان التي بالنهر ، ففسد ماء النهر وأنتن ، ولم يقدر أهل مصر على شرب الماء من الدم ، فصار الدم في جميع أرض مصر وقسا قلب فرعون فلم يطعهما كالذي قال الرب ، فانصرف فرعون فدخل منزله ولم يفكر في شيء من ذلك وتهاون به ، وكملت سبعة أيام من بعد ما ضرب الرب النهر ، وقال الرب لموسى : انطلق إلى فرعون وقل له : هكذا يقول الرب : أرسل شعبي حتى يعبدوني ، فإن أبيت أن ترسله فإني أضرب جميع حدودك بالضفادع فتدب الضفادع فتصعد فتدخل إلى بيتك وقيطونك وفي مبيتك وعلى مضجعك وأسرتك في بيوت

(62/284)

عبيدك وشعبك ومخادعك وبيوت طعامك ، وتدب الضفادع عليك وعلى جميع شعبك ، وقال الرب لموسى : قل لهارون أخيك أن مد يدك بعصاك على الأنهار وعلى الدواليب

وعلى الآجام فأصعد الضفادع على أرض مصر ، فرفع هارون يده على مياه المصريين فأصعد الضفادع فغشيت أرض مصر ، فدعا فرعون موسى وهارون وقال لهما : صليا بين يدي الرب فتنصرف الضفادع عني وعن شعبي حتى أرسل الشعب فيذبحوا بين يدي الرب ، فقال موسى لفرعون : سل وقتاً أصلي عليك فيه وعلى عبيدك وشعبك فتنصرف الضفادع عنك وعن بيتك – وفي نسخة السبعين : عنك وعن قومك وعن بيوتك – فقال له غداً فقال له موسى : سيكون كما سألت فتعلم أنه لا إله غير إلهنا ، فيصرف الضفادع عنك وعن بيتك – وفي نسخة السبعين : بيوتك وعن عبيدك وعن شعبك ما خلا الضفادع التي في النهر – فخرج موسى وهارون من بين يدي فرعون ، فصلى موسى بين يدي الرب فاستجاب الرب لموسى ، فماتت الضفادع في الدور والبيوت والرياض فجمعوها أنابير أنابير فأصلّت الأرض وأجنت – وفي نسخة السبعين : فجمعوها صبباً صبباً فأنتنت الأض – فرأى فرعون الفرج والراحة وجفا قلبه فلم يطعهما كالذي قال الرب ، فقال الرب لموسى : مر هارون فيرفع عصاه ليضرب ثرى الأرض فيكون القمل في جميع أرض مصر ، ففعل ذلك فدب القمل في الناس والبهائم وصار جميع ثرى الأرض قملاً في جميع أرض مصر ، فصنع مثل ذلك السحرة بسحرهم فلم يقدروا أن يصرفوا القمل في الناس والبهائم ، فقالت السحرة لفرعون : إن هذا فعل رب العالمين ، فقسا قلب فرعون ولم يطعهما كما قال الرب ، فقال الرب لموسى : أدلج باكراً وقف بين يدي فرعون ، وهو ذا يخرج

يغتسل – وفي نسخة السبعين : فإنه يخرج إلى الماء – فقل له : هكذا يقول الرب : أرسل شعبي فيعبدوني ، فإن أنت أبيت فهأنذا مرسل – وفي نسخة السبعين : فإني مرسل – عليك وعلى شعبك وعلى أهل بيتك هوام وحشرة من كل جنس فتمتلىء – وفي نسخة : ذباب الكلب فتمتلىء – بيوت

(63/284)

المصريين من الهوام والحشرة مثل ثرى الأرض التي هم عليها ، وأميز في ذلك اليوم أرض جاسان التي يسكنها شعبي ، فلا يكون فيها من الهوام والحشرة شيء لتعلم أني أنا الرب ، وأميز بين شعبي وشعبك ، وتكون هذه الآية غداً ، وفعل الرب كذلك وأنزل الهوام على بيت – وفي نسخة : بيوت – فرعون وعبيده وعلى جميع أرض مصر ، ففسدت الأرض بالهوام ، فدعا فرعون موسى وهارون وقال لهما : انطلقوا فاذبحوا الذبائح لله ربكم في هذه الأرض ، فقال موسى : لا يحسن بنا أن نفعل ذلك لأنا إنما نذبح للرب إلهنا من نجاسة المصريين وبدعهم ، فإن نحن ذبحنا أمام آلهة المصريين رجمونا ، بل ننطلق مسيرة ثلاثة أيام في القفر فنذبح هنالك للرب إلهنا على ما يأمرنا ويقول لنا ، فقال فرعون : أنا أرسلكم فتذبحوا الذبائح للرب إلهكم في البرية ، ولكن لا تنطلقوا فتتوانوا ، بل صلوا عليّ أيضاً – وفي نسخة

السبعين : ولكن لاتبعدوا وصلوا عليّ أيضاً إلى ربكم – فقال موسى لفرعون : هأنذا أخرج من بين يديك فأصلي بين يدي الرب ، فيصرف الهوام والحشرة عن فرعون وعن عبيده وعن شعبه غداً ، ولكن لا يعود فرعون أن يكذب في قوله ويأبى أن يرسل الشعب ليذبحوا الذبائح ، فخرج موسى من بين يدي فرعون وصلى بين يدي الرب ، فقبل الرب صلاة موسى وصرف الهوام فلم يوجد منها ولا واحد ، فقسا قلب فرعون بعد هذا أيضاً ولم يرسل الشعب ، فقال الرب لموسى : انطلق إلى فرعون وقل له : هكذا يقول الرب إله العبرانيين : أرسل شعبي حتى يعبدوني ، فإن أبيت أن ترسله – وفي نسخة السبعين : وتمسكت به ، فإن يد الرب تضرب ماشيتك التي في القفر من الخيول والحمير والبقر والغنم ، فيقع فيها الوباء العظيم الصعب الشديد ، ويميز الرب بين دواب بني إسرائيل وبين بهائم أهل مصر ، فلا يموت من بهائم آل إسرائيل ولا واحد ، ووقت الرب وقتاً ليكمل فيه هذا القول على الأرض ، فأكمل الرب هذا الأمر من غد ذلك اليوم ، فماتت جميع بهائم المصريين

ولم يمت من دواب بني إسرائيل ولا واحد ، وأرسل فرعون فإذا أنه لم يمت من دواب بني إسرائيل ولا دابة ، فقسا قلب فرعون بعد هذا أيضاً فأبى أن يرسل الشعب ، فقال الرب

لموسى وهارون : خذا في حقيبتكما من رماد الأتون فيذره موسى إزاء السماء نحو فرعون ، فيكون العجاج في أرض مصر ، فيضرب الناس والبهائم جميعاً قروح ناتية رخوة في أرض مصر كلها ، فأخذا رماد الأخدود ووقفا بين يدي فرعون فذره موسى نحو السماء أمام فرعون فظهرت قروح ناتية رخوة ، فاستعلت في الناس والبهائم ، فلم يقدر السحرة على الوقوف بين يدي موسى من كثرة القروح التي ظهرت في السحرة وفي جميع أهل مصر ، فقسى الرب قلب فرعون فلم يسمع لهما ولم يطعهما كالذي قال الرب لموسى ، فقال الرب لموسى : أدلج باكراً وقف بين يدي فرعون وقل له : هكذا يقول الرب إله العبرانيين : أرسل شعبي فيعبدوني وإلا فأنا مرسل في هذا الوقت ضربتي على قلبك وعلى عبيدك وعلى شعبك لتعلم أنه لا إله غيري على الأرض كلها ، لأني مجمع من الآن أن أمد يدي فأضربك وشعبك بالوباء ، وتبيد عن جديد الأرض ، وإنما بغيتك بهذا الأمر لأظهر لك عزي وقدري ولينادي باسمي في الأرض كلها ، وأنت حتى الآن تتمسك بالشعب وتأبى أن ترسله ، وغداً في هذا الوقت أهبط البرد العظيم الشديد ما لم يكن – وفي نسخة السبعين : الذي لم يكن مثله – بمصر منذ اليوم الذي أسست فيه قواعدها إلى يوم الناس هذا ، والآن أرسل فأدخل جميع دوابك وكل مالك في الحقل لأن كل بهيمة أو إنسان يلقى في الحقل ولا يدخل البيت يهبط عليهم البرد فيموتون ، وكل من خاف كلمة الله من عبيد فرعون نقل عبيده وبهائمه إلى البيوت ، والذي لم يفكر في كلمة الله وتهاون بها ترك دوابه وعبيده في

الحقل ، وقال الرب لموسى : ارفع يدك إلى السماء يهبط البرد على جميع أرض مصر على الناس والبهائم وجميع الحقول – وفي نسخة السبعين : على الناس والدواب وجميع نبات الصحراء – فرفع موسى عصاه نحو

(65/284)

السماء فأرجفهم الرب بالرعد والبرد ، وجعلت النار تضطرم على الأرض ، فأهبط الرب البرد وكان البرد يهبط والنار تضطرم في البرد ، وكان شديداً عظيماً ، ولم يكن مثله في جميع أرض مصر منذ اليوم الذي سكنها بنو البشر ، فضرب البرد جميع أرض مصر لكل من كان في الحقل من الناس والبهائم ، وأهلك الرب جميع عشب الحقل وحطم جميع أشجار الغياض ، فأما أرض جاسان التي كانت آل إسرائيل يسكنونها فلم يهبط عليها البرد ، فأرسل فرعون فدعا موسى وهارون فقال لهما : قد خطئت في هذه المرة أيضاً ، والرب بار وأنا وشعبي منافقون – وفي نسخة السبعين : إني قد أخطأت والرب بار وأنا وشعبي فجار – فصليا بين يدي الرب فإنه ذو إمهال وأناة فيصرف عنا الرجفة والرعد والبرد فأرسلكم فلا تعودوا أن تتأخروا – وفي نسخة السبعين : وأنا أرسلكم ولا أعود أن أوخركم – فقال

موسى لفرعون : إذا ما خرجت من القرية أبسط يدي للرب فيصرف عنكم صوت الرعد والرجفة ، ولا يعود البرد يهبط أيضاً لكي تعلم أن الأرض وما عليها لله .

(66/284)

وأنا أعلم أنك وعبيدك إلى الآن لم ترهبوا الله ولم تخافوا عقابه ، وقد هلك الكتان والشعير - وفي نسخة السبعين : وضرب البرد الشعير والكتان - لأن الشعير كان قد بدأ أن يسبل ، والكتان قد بدأ أن يبزر ، فأما زرع الحنطة والكثيب فلم يهلك لأنه كان متأخراً ، فلما جاء موسى من القرية من بين يدي فرعون بسط - وفي نسخة السبعين : فأما زرع الحنطة والذرة فإنه لم يضرهما لأنهما كانا لقسا ، وخرج موسى من عند فرعون خارج المدينة فبسط - يديه بين يدي الله نحو السماء فصرف عنهم الرعد والبرد ، وانقطع المطر عن الأرض ، فرأى فرعون أن القطر والبرد والرعد قد انقطع وسكن فعاد وخطأ وقسا قلب فرعون وعبيده - وفي نسخة السبعين : وقسا قلبه وقلب عبيده وجفا - ولم يرسل بني إسرائيل كرسالة الرب - وفي نسخة السبعين : على ما تكلم به الرب على يد موسى - فقال الرب لموسى : انطلق إلى فرعون لأني أنا الذي أقسي قلبه وقلوب عبيده ، فأظهر هذه الآيات لتجر بنيك وبني بنيك بما صنعت بأهل مصر من الآيات الكثيرة التي أظهرت ، فيعلموا أني أنا الرب ،

فأتى موسى وهارون إلى فرعون وقالا له : هكذا يقول الرب إله العبرانيين : حتى متى تأبى أن تخافني وترهبني ! أرسل شعبي ليعبدوني ، فإن أبيت أن ترسل شعبي فهأنذا محدر على جميع تخومك الجراد – وفي نسخة السبعين : فإني أجلب عليك غداً هذا الوقت جراداً عظيماً على جميع حدودك – فيغطي عين الأرض فلا يقدر إنسان على النظر إلى الأرض ، فمهما أبقى لكم البرد أكله ، ويأكل جميع الشجر التي تنبت لكم في الحقل ، ويمتلىء منه بيوتك وبيوت عبيدك وبيوت جميع المصريين ما لم ير مثله آباؤك وأجدادك من اليوم الذي أسست الأرض إلى يوم الناس هذا ، ورجعا من بين يدي فرعون فقال فرعون لعبيده : حتى متى يكون لنا هذه العثرة ! يرسل القوم فيعبدون – وفي نسخة السبعين : فقال عبيد فرعون لفرعون : حتى متى يكون لنا هذا البلاء ! أرسل القوم فيعبدوا – الرب إلههم أما تعلم

(67/284)

– وفي نسخة السبعين : أو ما علمت – أن مصر قد خربت ، فردوا موسى وهارون إلى فرعون فقال لهم : انطلقوا فاعبدوا بين يدي الرب إلهكم ، ولكم من منكم ينطلق ؟ فقال له موسى : إنا ننطلق بشباننا وشيوخنا وبنينا وبناتنا وبغنمنا وبقرنا ، لأنه عيد لنا للرب ، فقال لهما : ليكن كما قلتما ، والله يصحبكما إذا ما أرسلتكم وحشمكم ، لعله أن يعرض

لكم في الطريق آفة ، ولكن ليس هكذا ، انطلقوا الآن معاشر الرجال ! اعبدوا بين يدي الرب لأنكم إنما تطلبون بذلك الراحة ، فأخرجوهما من بين يدي فرعون ، فقال الرب لموسى : ارفع يدك على أرض مصر فيأتي الجراد فيصعد على أرض مصر فيأكل عشب الحقل وجميع ما نجا من البرد ، فرفع موسى عصاه على ارض مصر ، فأهبَّ الرب على الأرض ريح السموم جميع ذلك اليوم – وفي نسخة السبعين : والرب جلب ريحاً قبلية على الأرض نهار ذلك اليوم – وتلك الليلة ، فلما كان بالغداة احتملت ريح السموم الجراد ، فصعد الجراد – وفي نسخة السبعين أخذت الريح القبلية الجراد وأصعدته – على جميع أرض مصر ، فسقط على جميع تخوم أرض المصريين ، وكان منيعاً عظيماً جداً ، ولم يكن مثل ذلك الجراد فيما خلا ولا يكون مثله فيما بعده ، فغطى جميع عين الأرض فأظلمت الأرض ، وأكل جميع عشب الحقل وجميع الشجر التي نجت من البرد ، ولم يبق في الشجر غصن ولا ورق ولا في الحقل عشب في جميع أرض مصر ، فاستعجل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما : قد خطئت بين يدي الله إلهكما ، والآن اعفوا عن ذنبي وجهلي هذه المرة ، وصليا بين يدي الرب إلهكم فيصرف عني هذه الآفة والموت ، فخرج موسى من بين يدي فرعون وصلى بين يدي الرب ، فعاد الرب بريح السموم عاصفاً فاحتملت الجراد فقذفت به في بحر سوف – وفي نسخة السبعين : فغير الرب تلك الريح بريح من البحر شديدة

فأخذت الجراد وألقته في البحر الأحمر – ولم يبق في جميع تخوم المصريين شيء من الجراد ، فقسى الرب قلب فرعون فلم يرسل بني إسرائيل ،

(68/284)

فقال الرب لموسى : ارفع يدك إلى السماء فليكن الدجى والحنادس على جميع أرض مصر فتذلهم الظلمة ، فرفع موسى يده إلى السماء فكانت الظلمة والدجى – وفي نسخة السبعين : فصارت ظلمة وزوبعة – على جميع أرض مصر ، ولم ير المرء منهم صاحبه ثلاثة أيام ، فأما جميع بني إسرائيل فكان لهم الضياء والنور في مساكنهم ، فدعا فرعون موسى فقال له : انطلقوا فاعبدوا بين يدي الرب إلهكم ، فأما بقركم وغنمكم فدعوها هاهنا ، وأما حاشيتكم فانطلقوا بها معكم ، فقال موسى لفرعون : وأنت أيضاً تعطينا من الذبائح فنذبح لله ربنا ، وبهائمنا أيضاً تنطلق بها معنا ، ولا يبقى منها هاهنا ظلف على الأرض لأنا إنما نأخذ من مالنا لنذبح بين يدي الرب إلهنا ، ولسنا نعلم بماذا نعبد الله إذا بلغنا هناك ، فقسى الرب قلب فرعون وأبى أن يرسلهم ، فقال فرعون لموسى : اخرج من بين يدي واحذر أن تتراءى لي أيضاً لأن اليوم الذي تتراءى لي بين يديّ تموت فيه ، قال له موسى : ما أحسن قولك ! لست بعائد أن أرى وجهك ، قال الرب لموسى : إني أعود أيضاً فانزل

بفرعون والمصريين ضربة واحدة ، وعند ذلك أرسلكم من هاهنا ، فإذا أرسلتكم فاخرجوا كلكم ، وأمر الشعب وقال لهم : ليستعر المرء منكم من صاحبه والمرأة من جارتها حلي ذهب وفضة – وفي نسخة السبعين : آنية الفضة وآنية الذهب – والكسوة ، وجعل الرب للشعب في قلوب المصريين محبة ورحمة ، وموسى كانت له هيبة وكرامة عظيمة في جميع أرض مصر – وفي نسخة السبعين : عند المصريين وعند فرعون وعند جميع عبيده – فقال موسى : هكذا يقول الرب : إني خارج نصف الليل فأجوز في أرض مصر فأتوفى جميع أبكار مصر بكر فرعون الجالس على منبره إلى بكر الأمة التي في بيت الرجل ، وتموت جميع أبكار البهائم فتسمع الولولة العظيمة والصراخ والأنين الفظيع ما لم يسمع مثله أيضاً – وفي نسخة السبعين : ولا يعود أيضاً أن يكون مثلها – فأما آل إسرائيل فلا يصاب منهم ولا الناس ولا البهائم

(69/284)

ولا الكلب بلسانه – وفي نسخة السبعين : ولا يعوي من جميع بني إسرائيل كلب بلسانه – ليعلموا أن الرب ميز بين المصريين وآل إسرائيل ، فهبط جميع عبيدك هؤلاء فيسجدون لي ويقولون : اخرج أنت وجميع الشعب معك ، وعند ذلك أخرج ، فخرج موسى من بين يدي

فرعون بغضب شديد ، فقال الرب لموسى : إن فرعون لا يطيعكما ، ذلك أني مكثر آياتي وعجائبي بأرض مصر ، وإن موسى وهارون جرحا هذه الجرائح وأظهرا هذه الآيات كلها بين يدي فرعون ، فقسى الرب – وفي نسخة السبعين : وأقسى الرب – قلب فرعون فلم يرسل بني إسرائيل عن أرضه ، وقال الرب لموسى وهارون بأرض مصر : هذا الشهر – أي نيسان – يكون لكم رأس الشهور ، ويكون هذا أول شهور السنة ، قل لجميع جماعة بني إسرائيل في عشر من هذا الشهر فليأخذ الرجل منهم حملاً – وفي نسخة السبعين : خروفاً – لبيته وحملاً لآل أبيه ، وإن كان آل البيت قليلاً لا يحتاجون إلى حمل فليشرك هو وجاره القريب إلى بيته على عدة الناس ، وعدوا كل امرىء منهم على قدر أكله من الحمل ، حملاً بلا عيب فيه ذكراً بيناً ، يكون الحمل حويلاً من الخراف والجدي وتأخذونه ، ويكون محفوظاً لكم حتى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ، ويذبحه كل جماعة من كنيسة بني إسرائيل أصيلاً ، ويأخذون من دمه ويضعونه على القائمين والعتبة من البيت الذي تأكلون فيه ، أي علامة – للملائكة الذين يؤمرون بقتل أبكار المصريين ، وتأكلون اللحم في هذه الليلة مشوياً بفطير ، ولا تأكلوا منه نيئاً ولا مطبوخاً بالماء ، ولا تبقوا منه شيئاً لغد ، ولا تكسروا منه عظماً ، وما فضل منه إلى غد فأحرقوه بالنار ، وكلوه وأنتم قيام وقد شددتم أو ساطكم ونعالكم في أرجلكم وعصيكم في أيديكم وكلوه بعجلة ، فإنه فصح للرب ، وأنا فإني أعبر في أرض مصر في هذه الليلة وأضرب كل بكر بأرض مصر من الناس والبهائم ،

وأعمل نقمة من جميع آلهة المصريين ، أنا الرب ! ويكون لكم هذا اليوم ذكراً وتعيدونه عيداً للرب

(70/284)

لدهوركم إلى الأبد وتعيدونه سبعة أيام ، وتأكلون فطيراً وتعزلون الخمير من بيوتكم من أول يوم ، وكل من يأكل خميراً فإن تلك النفس تبيد من إسرائيل من اليوم الأول إلى اليوم السابع ، وكل عمل يعمل فلا تعملوه فيها ، واحفظوا هذه الوصية ، ففي هذا اليوم خرج عسكركم من مصر ، فاجعلوا هذا اليوم لدهوركم سنة ، فإذا بدأ اليوم الرابع عشر من الشهر الأول من العشيّ كلوا فطيراً إلى يوم إحدى وعشرين من الشهر إلى العشاء ، ولا يوجد خمير في بيوتكم سبعة أيام ، وكل من يأكل مخمراً فإن تلك النفس تبيد من جماعة بني إسرائيل من الملة والذمة ومن سكان الأرض ، ما كان خميراً فلا تأكلوه وكلوا فطيراً في جميع مساكنكم ، فدعا موسى جميع أشياخ بني إسرائيل وقال لهم : عجلوا فخذوا غنماً لقبائلكم واذبحوا الفصح وخذوا حزمة من ريحان الأدبان واغمسوها بدم الحمل ورشوا على معاقم أبوابكم ومعاضدها – وفي نسخة السبعين : على العتبة وكلا القائمين – من الدم الذي في الإناء ، ولا يخرج أحد منكم من باب بيته إلى غدوة – وفي نسخة السبعين : إلى الصباح –

فتحفظون هذه السنة والوصية أنتم وبنوكم إلى الأبد ، وإذا دخلتم الأرض التي يعطيكم الرب كما وعدكم فاحفظوا هذا العمل ، وإذا سأل بنوكم فقالوا لكم : ما هذا الفعل ؟ فقولوا لهم : هذه ذبيحة فصح الرب إذ أفصح على بيوت بني إسرائيل بمصر إذ قتل المصريين وخلص بيوتنا ، فركع الشعب كله ساجداً لله وانطلق بنو إسرائيل فصنعوا كما أمر الله موسى وهارون ، وفي بيوت بني إسرائيل فلما كان عند نصف الليل قتل الرب أبكار أرض مصر – وفي نسخة السبعين : كل بكر بأرض مصر – من بكر فرعون الجالس على منبره – وفي نسخة السبعين : على كرسيه – وحتى بكر السبي المحبوس في السجن وجميع أبكار البهائم فوثب فرعون في تلك الليلة هو وجميع عبيده وكل أرض مصر – وفي نسخة السبعين : وجميع المصريين – وكانت ولولة عظيمة في جميع أرض مصر لأنه لم يوجد بيت لم يكن فيه ميت

(71/284)

، فدعا فرعون بوسى وهارون في تلك الليلة وقال لهما : انهضا فاخرجا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل أيضاً وانطلقوا فاعبدوا بين يدي الرب كقولكما ، وسوقوا غنمكم وبقركم أيضاً كما قلتما ، وانطلقوا وصلوا عليّ أيضاً وادعوا لي ، فألح المصريون على الشعب

ليخرجوهم عن الأرض مسرعين لأنهم قالوا : إنا جميعاً سنموت ، فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ، والبارد من فطيرهم مشدوداً في عمائمهم ملقى أعناقهم ، وصنع بنو إسرائيل كما أمرهم موسى ، واستعاروا من المصريين حلي ذهب وفضة وكسوة – وفي نسخة السبعين : آنية الفضة والذهب والكسوة – وجعل الرب للشعب في أعين المصريين محبة ورحمة فأعاروهم ، فحربوا المصريين ، وظعن بنو إسرائيل من رعمسيس – وعلى حاشية نسخة السبعين أنها عين شمس – يطلبون ساخوت ستمائة ألف رجل سوى الحشم والعيال ، وصعد معهم من الغرباء أيضاً من كل خلط ومن البقر والغنم والماشية كثيراً جداً ، فاختبزوا العجين الذي أخرجوه معهم من مصر رغفاً – وفي نسخة السبعين : فرانيّ – فطيراً لم يختبزوه – وفي نسخة السبعين : لم يختمر – وذلك لأن المصريين أخرجوهم فلم يقدروا أن يلبثوا ، ولم يتزودوا زاداً للطريق أيضاً ، وكان مسكن بني إسرائيل في أرض مصر أربعمائة وثلاثين سنة ، في هذا اليوم خرج جميع جنود الرب من أرض مصر – وفي نسخة السبعين : ليلاً – كان الرب وقت في سابق علمه حفظ تلك الليلة التي خرجوا فيها من مصر ، وكانت هذه الليلة محفوظة معروفة لدى الرب لهلاك أبكار مصر ولإخراج جميع بني إسرائيل ليكون ذكر ذلك في جميع أحقابهم وخلوفهم ، وقال الرب لموسى وهارون : هذه سنة الفصح ، لا يأكل منه غريب ، وكل عبد لرجل اشتراه إذا ختنه عند ذلك فأطعمه الفصح ، والأجير والساكن فلا يأكل منه ، في بيت واحد فليؤكل – وفي نسخة السبعين :

وكل عبد لرجل اشتراه فليختتن ثم يأكل منه ، الملجىء والأجير لا يأكلان منه ، وليؤكل في بيت واحد – ولا تخرجوا من اللحم خارجاً

(72/284)

من البيت شيئاً ولا تكسروا فيه عظماً ، وإذا سكن معكم غريب فختن كل ذكر في بيته عند ذلك فليقترب – وفي نسخة السبعين ، وليختن منهم كل ذكر ثم يدنون – من بعد ذلك إلى أكل الفصح ، وليكن عند ذلك بمنزلة أهل الأرض ، ولا يأكل منه أغرل ، ولتكن سنة واحدة لأهل الأرض والغرباء الذين يسكنون معكم ، وصنع جميع بني إسرائيل كما أمر موسى وهارون ، وفي هذا اليوم أخرج الرب بني إسرائيل من أرض مصر وجميع جنودهم ، وقال الرب لموسى : طهر لي كل ذكر ذكر ويفتح كل رحم من بني إسرائيل من الناس والبهائم يكونون لي ، فقال موسى للشعب : اذكروا هذا اليوم الذي خرجتم فيه من مصر من العبودية والرق ، لأن الرب أخرجكم من هاهنا بيد منيعة – إلى آخر ما مضى في سورة البقرة ؛ ثم ذكر في الخامس علة الفصح فقال : احفظوا شهر البهار فاعملوا فصحاً لله ربكم لأنه إنما أخرجكم من أرض مصر في شهر البهار ليلاً ، فاذبحوا فصحاً لله ربكم من البقر والغنم في الموضع الذي يختار الله ربكم ، فلا تأكلوا فيه خميراً بل كلوا فطيراً سبعة أيام خبزاً يدل على

التواضع لأنه إنما خرجتم من أرض مصر بعجلة لتذكروا اليوم الذي أخرجتم فيه من مصر كل أيام حياتكم ، ولا يرى الخمير في حدودكم سبعة أيام ، ولا يحل لكم أن تأكلوا الفصح في قرية من القرى التى يعطيكم الله ربكم ، ولكن في الموضع الذي يختار الله ربكم أن يصير فيه اسمه ففيه اذبحوا الفصح ، ويذبح عند غروب الشمس في الوقت الذي خرجتم من أرض مصر ، ثم قال : وأحصوا سبعة سوابيع من بعد عيد الفصح ، ثم اعملوا عيد السوابيع وائتوا بخواص غلاتكم للرب ، كما بارك لكم الله ربكم في الموضع الذي يختار الرب أن تصيروا اسمه فيه واذكروا أنكم كنتم عبيداً بأرض مصر ، فاحفظوا هذه السنن كلها واعملوا بها ، واعملوا عيد المظال سبعة أيام إذا ما دخلتم بيادركم وخزنتم معاصركم ليبارك الله ربكم في جميع غلاتكم وفي كل عمل أيديكم ، وتكونوا فرحين ، ويروى ذكركم أمام

(73/284)

الله ربكم في الموضع الذي يختار ثلاث مرات في السنة : عيد الفطر وعيد السوابيع وعيد المظال – انتهى .

وفيه مما لا يجوز إطلاقه في شرعنا إضافة – الابن في قوله : ابني بكري ، وهو مؤوّل بأنه

يكرمه إكرام الولد ، وإطلاق الإله على غير الله سبحانه مراد به الحاكم ، ولا يجوز هذا الإطلاق عندنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 91.103 ﴾

(74/284)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن موسى عليه السلام كان قد ذكر لبني إسرائيل قوله : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأرض ﴾ [الأعراف : 129] فههنا لما بين تعالى إهلاك القوم بالغرق على وجه العقوبة ، بين ما فعله بالمؤمنين من الخيرات ، وهو أنه تعالى أورثهم أرضهم وديارهم فقال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ والمراد من ذلك الاستضعاف أنه كان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ويأخذ منهم الجزية ويستعملهم في الأعمال الشاقة ، واختلفوا في معنى مشارق الأرض ومغاربها ، فبعضهم حمله على مشارق أرض الشام .

ومصر ومغاربها ، لأنها هي التي كانت تحت تصرف فرعون لعنه الله وأيضاً قوله : ﴿ التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ المراد باركنا فيها بالخصب وسعة الأرزاق وذلك لا يليق إلا بأرض الشام .

والقول الثاني : المراد جملة الأرض وذلك لأنه خرج من جملة بني إسرائيل داود وسليمان قد ملك الأرض ، وهذا يدل على أن الأرض ههنا اسم الجنس .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الحسنى على بَنِى إِسْرءيلَ ﴾ قيل المراد من ﴿ كَلِمَةُ ربك ﴾ قوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِى الأرض ﴾ [القصص : 5] إلى قوله : ﴿ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ [القصص : 6] والحسنى تأنيث الأحسن صفة للكلمة ، ومعنى تمت على بني إسرائيل ، مضت عليهم واستمرت ، من قولهم تم عليك الأمر إذا مضى عليك .

وقيل : معنى تمام الكلمة الحسنى إنجاز الوعد الذي تقدم بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض ، وإنما كان الإنجاز تماماً للكلام لأن الوعد بالشيء يبقى كالشيء المعلق .

(75/284)

فإذا حصل الموعود به فقد تم لك الوعد وكمل وقوله : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي إنما حصل ذلك التمام بسبب صبرهم ، وحسبك به حاثاً على الصبر ، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه ، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن الله له الفرج ، وقرأ عاصم في رواية ﴿ وَتَمَّتْ كلمات رَبّكَ الحسنى ﴾ ونظيره ﴿ مِنْ ءايات رَبّهِ الكبرى ﴾ [النجم : 18]

وقوله : ﴿ وَدَمَّرْنَا ﴾ قال الليث : الدمار الهلاك التام .

يقال : دمر القوم يدمرون دماراً أي هلكوا ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ قال ابن عباس يريد الصانع ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ قال الزجاج : يقال عرش يعرش ويعرش إذا بني ، قيل : وما كانوا يعرشون من الجنات ، ومنه قوله تعالى : ﴿ جنات معروشات ﴾ [الأنعام : 141] وقيل : ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء ، كصرح هامان وفرعون .

وقرىء يعرشون بالكسر والضم ، وذكر اليزيدي أن الكسر أفصح ، قال صاحب "الكشاف" : وبلغني أنه قرأ بعض الناس ﴿ يغرسون ﴾ من غرس الأشجار وما أحسبه إلا تصحيفاً منه ، وهذا آخر ما ذكره الله تعالى من قصة فرعون وقومه وتكذيبهم بآيات الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 180 . 181 ﴾

(76/284)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾

يعني : بني إسرائيل ﴿ الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ﴾ أي : الأرض المقدسة

﴿ ومغاربها ﴾ يعني : الأردن وفلسطين .

ويقال : مشارق الأرض يعني : الشام ومغاربها ﴿ التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعني بالبركة الماء والثمار الكثيرة ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الحسنى ﴾ يقول : وجبت نصرة ربك بالإحسان ﴿ على بَنِى إسراءيل ﴾ قال مجاهد : هو ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم في الأرض .

وقال مقاتل : يعني : بالكلمة التي ذكرها في سورة القصص ﴿ أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ [القصص : 5] وقال الكلبي : وتمت كلمة ربك يعني : نعمة ربك الحسنى .

يعني : أنهم يجزون الحسنى الجنة ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ ولم يدخلوا في دين فرعون .

ويقال : وتمت كلمة ربك أي : ما وعدهم الله من إهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض .

ثم قال : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ يعني : أهلكنا ما كان يعمل فرعون ، وأبطلنا كيده ومكره .

﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ يعني : أهلكنا ما كانوا يبنون من البيوت والكروم .

وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ يَعْرِشُونَ ﴾ بضم الراء .

وقرأ الباقون بالكسر ومعناهما واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يستقلون .

والثاني : يستذلون وهم بنو إسرائيل .

﴿ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يريد الشرق والغرب ، قاله ابن عيسى .

والثاني : أرض الشام ومصر ، قاله الحسن .

والثالث : أرض الشام وحدها شرقها وغربها ، قاله قتادة .

﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بالخصب .

والثاني : بكثرة الأنهار والأشجار والثمار .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أن تمام كلمة الحسنى ما وعدهم من هلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض بقوله : ﴿ عَسَى رَبُّكُم أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُم وَيَسْتَخْلِفَكُم ﴾ وسماها الحسنى لأنه وعد بما يحبون .

والثاني : هو قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : 5 ، 6] .

وفي قوله : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ وجهان :

أحدهما : بما صبروا على أذى فرعون .

والثاني : بما صبروا على طاعة الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(78/284)

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾

قوله : ﴿ الذين كانوا يستضعفون ﴾ كناية عن بني إسرائيل لاستعباد فرعون لهم وغلبته عليهم ، وقوله : ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما : يريد أرض الشام ، وقال أبو جعفر النحاس : وقيل يراد أرض مصر وهو قول الحسن في كتاب النقاش ، وقالت فرقة : يريد الأرض كلها .

(79/284)

قال القاضي أبو محمد : وهذا يتجه إما على المجاز لأنه ملكهم بلاداً كثيرة ، وإما على الحقيقة في أنه ملك ذريتهم وهو سليمان بن داود ولكن الذي يليق بمعنى الآية وروي فيها هو أنه ملك أبناء المستضعفين بأعيانهم مشارق الأرض ومغاربها لا سيما بوصفه الأرض بأنها التي بارك فيها ولا يتصف بهذه الصفة وينفرد بها أكثر من غيرها إلا أرض الشام لما بها من الماء والشجر والنعم والفوائد ، وحكى الطبري عن قائل لم يسمه وذكر الزهراوي أنه الفراء : أن ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ نصب على الظرف أي يستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن قوله : ﴿ التي باركنا فيها ﴾ معمول ل ﴿ أورثنا ﴾ ، وضعفه الطبري ، وكذلك هو قول غير متجه ، و ﴿ التي ﴾ في موضع خفض نعت ل ﴿ الأرض ﴾ ، ويجوز أن يكون في موضع نصب نعت لمشارق ومغارب ، وقوله : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ أي ما سبق لهم في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه ، قاله مجاهد ، وقال المهدوي : وهي قوله ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ [القصص : 5] وقيل هي قوله : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ [الأعراف : 129] ، وروي عن أبي عمرو "كلمات" و ﴿ يعرشون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد معناه يبنون وعرش البيت سقفه والعرش البناء والتنضيد وقال الحسن هي في الكروم وما أشبهها وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم

بكسر الراء ، وقرأ الباقون : ابن عامر وعاصم فيما روي عنه والحسن وأبو رجاء ورجاء ومجاهد بضمها ، وكذلك في سورة النحل وهما لغتان ، وقرأ ابن أبي عبلة "يُعَرَّشون ويُعَكِّفون " بضم الياء فيهما وفتحة العين مشددة الراء والكاف مكسورتين .

(80/284)

قال القاضي أبو محمد : ورأيت للحسن البصري أنه احتج بقوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ إلى آخر الآية ، على أنه لا ينبغي أن يخرج على ملوك السوء وإنما ينبغي أن يصبر عليهم ، فإن الله تعالى يدمرهم ، ورأيت لغيره أنه قال : إذا قابل الناس البلاء بمثله وكلهم الله إليه ، وإذا قابلوه بالصبر وانتظار الفرج أتى الله بالفرج ، وروي هذا القول أيضاً عن الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(81/284)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأورثنا القوم ﴾

يعني بني إسرائيل .

﴿ الذين كانوا يُستَضعفون ﴾ أي : يُستَذلون بذبح الأبناء ، واستخدام النساء ، وتسخير الرجال .

﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مشارق الشام ومغاربها ، قاله الحسن .

والثاني : مشارق أرض الشام ومصر .

والثالث : أنه على إطلاقه في شرق الأرض وغربها .

قوله تعالى : ﴿ التي باركنا فيها ﴾ قال ابن عباس : بالماء والشجر .

قوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ وهي وعد الله لبني إسرائيل باهلاك عدوهم ، واستخلافهم في الأرض ، وذلك في قوله : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ [القصص : 5] وقد بَيَّنا علة تسمية ذلك كلِّه في [آل عمران : 146] .

قوله تعالى : ﴿ بما صبروا ﴾ فيه قولان .

أحدهما : على طاعة الله تعالى .

والثاني : على أذى فرعون .

قوله تعالى : ﴿ ودمَّرنا ﴾ أي : أهلكنا ﴿ ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ من العمارات والمزارع ، والدمار : الهلاك .

﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ أي : يبنون .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : ﴿ يعرِشون ﴾ بكسر الراء هاهنا وفي [النحل : 68] .

وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : بضم الراء فيهما .

وقرأ ابن أبي عبلة : "يُعرِّشون" بالتشديد .

قال الزجاج : يقال : عَرَشَ يَعْرِشُ ويَعْرُشُ : إذا بنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(82/284)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾ يريد بني إسرائيل .

﴿ الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ أي يُسْتَذَلُّون بالخدمة .

﴿ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا ﴾ زعم الكِسائي والفرّاء أن الأصل "في مشارق الأرض ومغاربها" ثم حُذِفَ "في" فنصب .

والظاهر أنهم وَرِثوا أرض القبط .

فهما نصبٌ على المفعول الصريح ؛ يقال : ورِثت المال وأورثته المال ؛ فلما تعدّى الفعل بالهمزة نصب مفعولين .

والأرض هي أرض الشأم ومصر .

ومشارقها ومغاربها جهاتُ الشرق والغرب بها ؛ فالأرض مخصوصة ، عن الحسن وقَتادة وغيرهما .

وقيل : أراد جميع الأرض ؛ لأنّ مِن بني إسرائيل داود وسليمان وقد ملكا الأرض .

﴿ التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أي بإخراج الزروع والثمار والأنهار .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيلَ ﴾ هي قوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ [القصص : 5] .

﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي بصبرهم على أذى فرعون ، وعلى أمر الله بعد أن آمنوا بموسى .

﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ يقال : عَرَش يَعْرِش إذا بَنَى .

قال ابن عباس ومجاهد : أي ما كانوا يبنون من القصور وغيرها .

وقال الحسن : هو تعريش الكَرْم .

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم "يَعْرُشون" بضم الراء .

قال الكسائيّ : هي لغة تميم .

وقرأ إبراهيم بن أبي عَبْلَة "يُعرِّشون" بتشديد الراء وضم الياء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(83/284)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾

يعني ومكنّا القوم الذين كانوا يقهرون ويغلبون على أنفسهم وهو أن فرعون وقومه كانوا قد تسلطوا على بني إسرائيل فقتلوا أبناءهم واستخدموهم فصيروهم مستضعفين تحت أيديهم ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ يعني أرض الشام ومصر وأراد بمشارقها ومغاربها جميع جهاتها ونواحيها .

وقيل : أراد بمشارق الأرض ومغاربها الأرض المقدسة وهو بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب .

وقيل : أراد جميع جهات الأرض وهو اختيار الزجاج قال : لأن داود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما كانا من بني إسرائيل وقد ملكا الأرض .

وقوله : ﴿ التي باركنا فيها ﴾ يدل على أنها الأرض المقدسة يعني باركنا فيها بالثمار

والأشجار والزروع والخصب والسعة ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل ﴾ يعني وتمت كلمة الله وهي وعدهم بالنصر على عدوهم والتمكين في الأرض من بعدهم وقيل كلمة الله هي قوله ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ الآية والحسنى صفة للكلمة وهي تأنيث الأحسن وتمامها إنجاز ما وعدهم به من تمكينهم في الأرض وإهلاك عدوهم ﴿ بما صبروا ﴾ يعني إنما حصل لهم ذلك التمام وهو ما أنعم الله تعالى بهم عليهم من إنجاز وعده لهم بسبب صبرهم على دينه وأذى فرعون لهم ﴿ ودمرنا ﴾ يعني وأهلكنا والدمار الهلاك باستئصال ﴿ ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ في أرض مصر من العمارات والبينان ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ يعني يسقفون من ذلك البنيان وقال مجاهد : ما كانوا يبنون من البيوت والقصور .

وقال الحسن : وما كانوا يعرشون من الثمار والأعناب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(84/284)

وقال أبو حيان :

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾

لما قال موسى عليه السلام ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴾ كان كما ترجى موسى فأغرق أعداءهم في اليم واستخلف بني إسرائيل في الأرض ﴿ والذين كانوا يستضعفون ﴾ هم بنو إسرائيل كان فرعون يستعبدهم ويستخدمهم والاستضعاف طلب الضعيف بالقهر كثر استعماله حتى قيل استضعفه أي وجده ضعيفاً ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ قالت فرقة : هي الأرض كلها ، قال ابن عطية ذلك على سبيل المجاز لأنه تعالى ملكهم بلاداً كثيرة وأما على الحقيقة فإنه ملك ذريّتهم وهو سليمان بن داود ، وقال الحسن أيضاً : ﴿ مشارق الأرض ﴾ الشام ﴿ ومغاربها ﴾ ديار مصر ملكهم الله إياها بإهلاك الفراعنة والعمالقة وقاله الزمخشري قال : وتصرفوا فيها كيف شاؤوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية ، وقال الحسن أيضاً وقتادة وغيرهما : هي أرض الشام ، وفي كتاب النقاش عن الحسن : أرض مصر والبركة فيها بالماء والشجر قاله ابن عباس وذيله غيره فقال بالخصب والأنهار وكثرة الأشجار وطيب الثمار ، وقيل : البركة بإقدام الأنبياء وكثرة مقامهم بها ودفنهم فيها وهذا يتخرج على من قال أرض الشام ، وقيل : ﴿ باركنا ﴾ جعلنا الخير فيها دائماً ثابتاً وهذا يشير إلى أنها مصر .

وقال الليث هي مصر بارك الله فيها بما يحدث عن نيلها من الخيرات وكثرة الحبوب والثمرات وعن عمر رضي الله عنه أن نيل مصر سيّد الأنهار في حديث طويل وروي أنه كانت الجنات بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في البرين جميعاً ما بين أسوان إلى رشيد وكانت

الأشجار متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، وقال أبو بصرة الغفاري : مصر خزائن الأرض كلها ، ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام

(85/284)

﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ ويروي أن عيسى عليه السلام أقام بها اثنتي عشرة سنة وذلك أن الله أوحى إلى مريم أن الحقي بمصر وأرضها وذكر أنها الرّبوة التي قال تعالى : ﴿ وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ وقال ابن عمر : البركات عشر ففي مصر تسع وفي الأرض كلها واحدة ، وانتصاب مشارق على أنه مفعول ثان لأورثنا و ﴿ التي باركنا ﴾ نعت لمشارق الأرض ومغاربها وقول الفرّاء إنّ انتصاب ﴿ مشارق ﴾ والمعطوف عليها على الظرفية والعامل فيهما هو ﴿ يستضعفون ﴾ و ﴿ التى باركنا ﴾ هو المفعول الثاني أي الأرض التي باركنا فيها تكلف وخروج عن الظاهر بغير دليل ومن أجاز أن تكون ﴿ التي ﴾ نعتاً للأرض فقوله ضعيف للفصل بالعطف بين المنعوت ونعته .

﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ .

أي مضت واستمرت من قولهم تمّ على الأمر إذا مضى عليه ، قال مجاهد : المعنى ما سبق لهم في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه ، وقال المهدوي وتبعه

الزمخشري : الكلمة قوله تعالى ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ - إلى قوله - ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾ وقيل : هي قوله ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ الآية ، وقيل : الكلمة النعمة والحسنى تأنيث الأحسن وهي صفة للكلمة وكانت الحسنى لأنها وعد بمحبوب قاله الكرماني والمعنى على من بقي من مؤمني بني إسرائيل ﴿ بما صبروا ﴾ أي بصبرهم ، وقرأ الحسن كلمات على الجمع ورويت عن عاصم وأبي عمرو ، قال الزمخشري : ونظيره ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ انتهى ، يعني نظير وصف الجمع بالمفرد المؤنث ولا يتعيّن ما قاله من أن الكبرى نعت لآيات ربه إذ يحتمل أن يكون مفعولاً لقوله رأى أيّ الآية الكبرى فيكون في الأصل نعتاً لمفرد مؤنث لا يجمع وهو أبلغ في الوصف .

(86/284)

﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ أي خربنا قصورهم وأبنيتهم بالهلاك والتدمير الإهلاك وإخراب الأبنية ، وقيل : ما كان يصنع من التدبير في أمر موسى عليه السلام وإخماد كلمته .

وقيل : المراد إهلاك أهل القصور والمواضع المنيعة وإذا هلك الساكن هلك المسكون ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ أي يرفعون من الأبنية المشيدة كصرح هامان وغيره ، وقال الحسن :

المراد عرش الكروم ومنه ﴿ وجنات معروشات ﴾ ، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بضم الراء وباقي السبعة والحسن ومجاهد وأبو رجاء بكسر الراء هنا وفي النحل وهي لغة الحجاز ، وقال اليزيدي : هي أفصح ، وقرأ ابن أبي عبلة يعرشون بضم الياء وفتح العين وتشديد الراء وانتزع الحسن من هذه الآية أنه ينبغي أنه لا يخرج على ملوك السماء وإنما ينبغي أن نصبر لهم وعليهم فإنّ الله يدمّرهم ، وروي عنه وعن غيره إذا قابل الناس البلاء بمثله وكلهم الله إليه وإذا قابلوه بالصبر وانتظار الفرج أتى الفرج ، قال الزمخشري : وبلغني أنه قرأ بعض الناس يغرسون من غرس الأشجار وما أحسبه إلا تصحيفاً وهذا آخر ما اقتصّ الله تعالى من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعارضته ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مملكة فرعون ، واستعباده ، ومعاينتهم الآيات العظام ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر ، وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصف ظلوم كفار جهول كفور إلاّ من عصمه الله تعالى

﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ وليسلي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(87/284)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾

أي بالاستبعاد وذبحِ الأبناءِ ، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدِلالة على استمرار الاستضعافِ وتجدّدِه وهم بنو إسرائيلَ ذُكروا بهذا العُنوانِ إظهاراً لكمال لُطفِه تعالى بهم وعظيمِ إحسانِه إليهم في رفعهم من حضيض المذلةِ إلى أوْج العزة ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ أي جانبيها الشرقيَّ والغربيَّ حيث ملَكها بنو إسرائيلَ بعد الفراعنةِ والعمالقةِ وتصرّفوا في أكنافها الشرقيةِ والغربية كيف شاؤوا ، وقوله تعالى : ﴿ التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أي بالخِصْب وسَعةِ الأرزاقِ ، صفةٌ للمشارق والمغارب ، وقيل : للأرض وفيه ضعفٌ للفصل بين الصفةِ والموصوفِ بالمعطوف كما في قولك : قام أم هند وأبوها العاقلةُ ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الحسنى ﴾ وهي وعدُه تعالى إياهم بالنصر والتمكين كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِى الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ وقرىء كلماتُ لتعدد المواعيدِ ومعنى تمت مضَت واستمرت ﴿ على بَنِى إِسْرءيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي بسبب صبرِهم على الشدائد التي كابدوها من جهة فرعونَ وقمِه ﴿ وَدَمَّرْنَا ﴾ أي خرّبنا وأهلكنا ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ من العِمارات والقصورِ أي ودمرنا الذي كان فرعونُ يصنعه على أن فرعونَ اسمُ كان ويصنع خبرٌ مقدمٌ

والجملة الكونيةُ صلةُ ما والعائدُ محذوفٌ ، وقيل : اسمُ كان ضميرٌ عائدٌ إلى ما الموصولةِ ويصنع مُسندٌ إلى فرعون والجملة خبرُ كان والعائدُ محذوف أيضاً والتقدير ودمرنا الذي كان هو يصنعُه فرعونُ الخ ، وقيل : كان زائدةٌ وما مصدريةٌ والتقديرُ ما يصنع فرعون الخ ، وقيل : كان زائدةٌ كما ذكر وما موصولةٌ اسميةٌ والعائد محذوف تقديره ودمرنا الذي يصنعه فرعون الخ أي صُنعَه ، والعدولُ إلى صيغة المضارعِ على هذين القولين لاستحضار الصورة ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ من الجنات أو ما كانوا

يرفعونه من البُنيان كصرح هامانَ وقرىء يعرُشون بضم الراءِ والكسرُ أفصح وهذا آخِرُ قصةِ فرعونَ وقومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(88/284)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾

بالاستعباد وذبح الأبناء ، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده ، والمراد بهم بنو إسرائيل ، وذكروا بهذا العنوان إظهار الكمال اللطف بهم وعظم الإحسان إليهم حيث رفعوا من حضيض المذلة إلى أوج العزة ، ولعل فيه

إشارة إلى إن الله سبحانه عند القلوب المنكسرة .

ونصب القوم على أنه مفعول أول لأورثنا والمفعول الثاني قوله سبحانه :

﴿ مشارق الأرض وَمَغَارِبَهَا ﴾ أي جميع جهاتها ونواحيها ، والمراد بها على ما روي عن الحسن .

وقتادة .

وزيد بن أسلم أرض الشام ، وذكر محي السنة البغوي أنها أرض الشام ومصر ، وفي رواية أنها أرض مصر التي كانت بأيدي المستضعفين ، وإلى ذلك ذهب الجبائي ، ورواه أبو الشيخ عن الليث بن سعد ، أي أورثنا المستضعفين أرض مستضعفيهم وملكهم ، ومعنى توريثهم إياها على القول بأنهم لم يدخلوها بعد أن خرجوا منها مع موسى عليه السلام إدخالها تحت ملكهم وعدم وجود مانع لهم عن التصرف فيها أو تمكين أولادهم فيها وذلك في زمن داود وسليمان عليهما السلام ، ولا يخفى أنه خلاف المتبادر كما مرت الإشارة إليه .

(89/284)

على أن أرض مصر بعد أن فتحت في زمن داود عليه السلام لم يكن لبني إسرائيل تمكن فيها واستقرار وإنما كان ملك وتصرف وكان التمكن في الأرض المقدسة ، والسوق على ما قيل

يقتضي ذكر ما تمكنوا فيه لا ما ملكوه ، وأقول قد يقال : المراد بالأرض هنا وفيما تقدم من قوله سبحانه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴾ [الأعراف : 129] الأرض المقدسة التي طلب موسى عليه السلام من فرعون بني إسرائيل ليذهب بهم إليها فإنها موطن آبائهم فيكون موسى عليه السلام قد وعدهم هلاك عدوهم المانع لهم من الذهاب إليها وجعل الله تعالى إياهم خلفاء فيها بعد آبائهم وأسلافهم أو بعد من هي في يده إذ ذاك من العمالقة ثم أخبر سبحانه هنا أن الوعد قد نجز وقد أهلكنا أعداء أولئك الموعودين وأورثناهم الأرض التي منعوهم عنها ومكناهم فيها وفي حصول بغية موسى عليه السلام وما ألطف توريث الأبناء مساكن الآباء ﴿ التي باركنا فيهَا ﴾ بالخصب وسعة الأرزاق أو بذلك وبكونها مساكن الأنبياء عليهم السلام والصالحين وذلك ظاهر على تقدير أن يراد بمشارق الأرض ومغاربها الشام ونواحيها .

فقد أخرج ابن أبي شيبة عن أبي أيوب الأنصاري قال ليهاجرن الرعد والبرق والبركات إلى الشام .

وأخرج ابن عساكر عن ضمرة بن ربيعة قال : سمعت أنه لم يبعث نبي إلا من الشام فإن لم يكن منها أبى به إليها ، وأخرج أحمد عن عبد الله بن خوالة الأزدي أنه قال : " يا رسول الله خر لي بلداً أكون فيه قال عليك بالشام فإنه خيرة الله تعالى من أرضه يجتبي إليه خيرته من عباده "

وأخرج ابن عساكر عن واثلة بن الأسقع قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليكم بالشام فإنها صفوة بلاد الله تعالى يسكنها خيرته من عباده" ، وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه مؤمن إلا لحق بالشام " وجاء من حديث أحمد . والترمذي . والطبراني . وابن حبان . والحاكم أيضاً وصححه عن زيد بن ثابت .

أنه صلى الله عليه وسلم قال : طوبى للشام فقيل له : ولم ؟ قال : " إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها " والأحاديث في فضل الشام كثيرة وقد جمعها غير واحد إلا أن في الكثير منها مقالاً وسبب الوضع كان قوياً ، وهو اسم لأحد الأقاليم العرفية ، وفي "القاموس" أنها بلاد عن مشأمة القبلة وسميت بذلك لأن قوماً من بني كنعان تشاءموا إليها أي تياسروا أو سمى بسام بن نوح فإنه بالشين بالسريانية أو لأن أرضها شامات بيض وحمر وسود وعلى هذا لا تهمز .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الأغبش وكان قد أدرك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عما بورك من الشام أين مبلغ حده ؟ فقال : أول حدوده عريش مصر والحد الآخر

طرف الثنية والحد الآخر الفرات والحد الآخر جعل فيه قبر هود النبي عليه السلام ، وليس المراد بها ما هو متعارف الناس اليوم أعني دمشق نعم هي داخلة فيها ، وقد تكلمنا على حدودها بأبسط من هذا في حواشينا على "شرح مختصر السمرقندية" لابن عصام ، وقد ولع الناس في دمشق مدحاً وذماً فقال بعضهم :

تجنب دمشق ولا تأتها . . .

وإن شاقك الجامع الجامع

فسوق الفسوق بها نافق . . .

وفجر الفجور بها طالع

وقال آخر :

دمشق غدت جنة للورى . . .

زها وصفا العيش في ظلها

وفيها لدى النفس ما تشتهي . . .

ولا عيب فيها سوى أهلها

وقال آخر ف الشام ولعله عنى متعارف الناس :

قيل لي ما يقول في الشام حبر . . .

شام من بارق الهنا ما شامه

قلت ماذا أقول في وصف أرض . . .

هي في وجنة المحاسن شامه

(91/284)

وأنا أقول إذا صح الحديث فهو مذهبي ونعوذ بالله تعالى من اتباع الهوى ، والموصول صفة المشارق والمغارب ، وقيل : صفة الأرض وضعفه أبو البقاء بأن فيه العطف على الموصوف قبل الصفة وهو نظير قولك : قام أم هند وأبوها العاقلة ، وجوز أن يكون المفعول الثاني لأورثنا أي الأرض التي فعلى هذا يكون نصب المشارق وما عطف عليه بيستضعفون على معنى يستضعفون فيها وأن يكون المشارق منصوبة بيستضعفون والتي صفة كما في الوجه الأول والمفعول الثاني لأورثنا محذوف أي الأرض أو الملك ، ولا يخفى بعده وأن المتبادر هو الأول .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى عَلَى بَنِي إِسْرَآءِيلَ ﴾ أي مضت عليهم واستمرت من قولهم : مضى على الأمر إذا استمر ، والمراد من الكلمة وعده تعالى لهم بالنصر والتمكين على لسان نبيهم عليه السلام وهو قوله السابق ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ [الأعراف : 129] الخ ، وذهب غير واحد إلى أنه الوعد الذي يؤذن به قوله سبحانه : ﴿ ونريد أن

نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ [القصص : 5] ، وقيل : المراد بها علمه تعالى الأزلي ، والمعنى مضى واستمر عليهم ما كان مقدراً من إهلاك عدوهم وتوريهم الأرض ، و﴿ الحسنى ﴾ تأنيث الأحسن صفة للكلمة ووصفت بذلك لما فيها من الوعد بما يحبون ويستحسنون ، وعن الحسن أنه أريد بالكلمة عدته سبحانه وتعالى لهم بالجنة ولا يخفى أنه يأباه السابق والسياق ، والتفت من التكلم إلى الخطاب في قوله سبحانه : ﴿ ربك ﴾ على ما قال الطيبي لأن ما قبله من القصص كان غير معلوم له صلى الله عليه وسلم .

وأما كون جل شأنه منجزاً لما وعد ومجرياً لما قضى وقدر فهو معلوم له عليه الصلاة والسلام ، وذكر في "الكشف" أنه ادمج في هذا الالتفات أنه ستتم كلمة ربك في شأنك أيضاً .

(92/284)

وقرأ عاصم في رواية ﴿ كلمات ﴾ بالجمع لأنها مواعيد ، والوصف بالحسنى لتأويله بالجماعة ، وقد ذكروا أنه يجوز وصف كل جمع بمفرد مؤنث إلا أن الشائع في مثله التأنيث بالتاء ؛ وقد يؤنث بالألف كما في قوله سبحانه : ﴿ مآرب أخرى ﴾ [طه : 18] ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه وحسبك

بهذا حاثاً على الصبر ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله تعالى إليه ومن قابله بالصبر ضمن الله تعالى له الفرج.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن الحسن قال: لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم بشيء صبروا ودعوا الله تعالى لم يلبثوا أن يرفع الله تعالى ذلك عنهم ولكنهم يفزعون إلى السيف فيوكلون إليه ثم تلي هذه الآية، وفي رواية أخرى عنه قال: ما أوتيت بنو إسرائيل ما أوتيت إلا بصبرهم وما فزعت هذه الأمة إلى السيف قط فجاءت بخير.

وأقول قد شاهدنا الناس سنة الألف والمائتين والثمان والأربعين قد فزعوا إلى السيف فما أغناهم شيئاً ولا تم لهم مراد ولا حمد منهم أمر، بل وقعوا في حرة رحيله، ووادي خدبات، وأم حبوكر، ورموا لعمر الله بثالثة الأثافي، وقص من جناح عزهم القدامى والخوافي ولم يعلموا أن عيش المضر حلوه مر مقر وأن الفرج إنما يصطاد بشباك الصبر.

وما أحسن قول الحسن:

عجبت ممن خف كيف خف . . .

وقد سمع قوله سبحانه: وتلا الآية، ويعلم منها أن التحزن لا ينافي الصبر لأن الله سبحانه وصف بني إسرائيل به مع قولهم السابق لموسى عليه السلام

﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ [الأعراف : 129] ﴿ وَدَمَّرْنَا ﴾ أي خربنا وأهلكنا ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ ﴾ في أرض مصر من العمارات والقصور أي دمرنا الذي كان هو ويصنعه فرعون على أن ﴿ ما ﴾ موصولة واسم كان ضمير راجع إليها وجملة يصنع فرعون من الفعل والفاعل خبر كان والجملة صلة الموصول والعائد إليه محذوف ، وجوز أن يكون فرعون اسم كان ويصنع خبر مقدم والجملة الكونية صلة ما والعائد محذوف أيضاً .

وتعقبه أبو البقاء بأن يصنع يصلح أن يعمل في فرعون فلا يقدر تأخيره كما لا يقدر تأخير الفعل في قولك : قام زيد وفيه غفلة عن الفرق بين المثال وما نحن فيه وهو مثل الصبح ظاهر وقيل : ﴿ ما ﴾ مصدرية وكان سيف خطيب والتقدير ما يصنع فرعون الخ ، وقيل : كان كما ذكر وما موصولة اسمية والعائد محذوف والتقدير ودمرنا الذي يصنعه فرعون الخ أي صنعه ، والعدول إلى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار الصورة ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ من الجنات أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان ، وإلى الأول يشير كلام الحسن وإلى الثاني كلام مجاهد .

وقرأ ابن عامر .

وأبو بكر هنا وفي النحل ﴿ يعرشون ﴾ [النحل : 68] بضم الراء والباقون بالكسر وهما

لغتان فصيحتان والكسر على ما ذكر اليزيدي .

وأبو عبيدة أفصح ، وقرىء في الشواذ ﴿ يغرسون ﴾ من غرس الأشجار .

وفي "الكشاف" أنها تصحيف وليس به .

(94/284)

هذا ومن باب الإشارة في الآيات : ما وجدته لبعض أرباب التأويل من العارفين أن العصا إشارة إلى نفسه التي يتوكأ عليها أي يعتمد في الحركات والأفعال الحيوانية ويهش بها على غنم القوة البهيمية السليمة ورق الملكات الفاضلة والعادات الحميدة من شجرة الفكر وكانت لتقدسها مقنادة لأوامره مرتدعة عن أفعالها الحيوانية إلا بإذنه كالعصا وإذا أرسلها عند الاحتجاج على الخصوم صارت كالثعبان تلقف ما يأفكون من الأكاذيب ويظهرون من حبال الشبهات وعصا المغالطات فيغلبهم ويقهرهم .

وأن نزع اليد إشارة إلى إظهار القدرة الباهرة الساطعة منها أنوار الحق .

وجعل بعضهم فرعون إشارة إلى النفس الأمارة وقومه إشارة إلى صفاتها وكذا السحرة وموسى إشارة إلى الروح وقومه بنو إسرائيل العقل والقلب والسر وعلى هذا القياس .

وأول النيسابوري الطوفان بالعلم الكثير والجراد بالواردات والقمل بالإلهامات والضفادع

بالخواطر والدم بأصناف المجاهدات والرياضات وهو كما ترى .

وقد ذكر غير واحد أن السحر كان غالباً في زمن موسى عليه السلام فلهذا كانت معجزته ما كانت ، والطب ما كان غالباً في زمن عيسى عليه السلام فلهذا كانت معجزته من جنس الطب ؛ والفصاحة كانت غالباً في زمن نبينا صلى الله عليه وسلم والتفاخر بها أشهر من (قفا نبك) فلهذا كانت معجزته القرآن ، وإنما كانت معجزة كل نبي من جنس ما غلب على زمانه ليكون ذلك أدعى إلى إجابة دعواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(95/284)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

صُدِّرَتِ الْجُمْلَةُ بِالْقَسَمِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ لَامُهُ ؛ لِتَأْكِيدِ مَضْمُونِهَا وَتَعْظِيمِ شَأْنِهِ ، وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ مِنْ أَظْهَرِ آيَاتِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى تَأْيِيدِ رُسُلِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْإِدَالَةِ لِلْمَظْلُومِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ الظَّالِمِينَ ، وَقَدْ كَثُرَ اسْتِعْمَالُ مَادَّةِ " الْأَخْذِ " فِي الْعَذَابِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذْ أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (11 : 102) فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (54 : 42) فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (73 : 16) يَعْنِي

فِرْعَوْنَ مُوسَى فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (69 : 10) وَآلُ فِرْعَوْنَ : قَوْمُهُ ، كَمَا أَطْلَقَهُ الْمُفَسِّرُونَ ، أَوْ خَاصَّتُهُ وَأَعْوَانُهُ فِي أُمُورِ الدَّوْلَةِ ، وَهُمُ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَثُرَ ذِكْرُهُمْ فِي قِصَّتِهِ ، وَوَجْهُهُ أَنَّهُمْ هُمُ الْمُذْنِبُونَ الْمُعَانِدُونَ لِمُوسَى ، وَإِنَّمَا وُقُوعُ الْعَذَابِ عَلَى غَيْرِهِمْ بِالتَّبَعِ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُوَافِقِينَ وَمُقِرِّينَ لَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً (8 : 25) وَهَذِهِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ الْعَامَّةِ ، وَسَيَأْتِي تَوْجِيهُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ .

(96/284)

وَأَصْلُ اللُّغَةِ أَنَّ آلَ الرَّجُلِ أَهْلُ بَيْتِهِ وَأَقَارِبُهُ الَّذِينَ يُضَافُونَ إِلَى اسْمِهِ ، وَهُوَ لَا يُضَافُ إِلَّا إِلَى أَعْلَامِ شُرَفَاءِ قَوْمِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى أَهْلِ الِاخْتِصَاصِ بِهِمْ أَوْ وَجَمِيعِ أَتْبَاعِهِمْ ، وَمِنْ هُنَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّ آلَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُطْلَقُ عَلَى جَمِيعِ أَتْبَاعِهِ ، وَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ عَلَى آلِ النَّبِيِّ فِي التَّشَهُّدِ وَغَيْرِهِ .

قَالَ الرَّاغِبُ : الْآلُ

(97/284)

قِيلَ : مَقْلُوبٌ عَنِ الْأَهْلِ ، وَيُصَغَّرُ عَلَى أُهَيْلٍ إِلَّا أَنَّهُ خُصَّ بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَعْلَامِ النَّاطِقِينَ دُونَ النَّكِرَاتِ ، وَدُونَ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ . يُقَالُ : آلُ فُلَانٍ ، وَلَا يُقَالُ : آلُ رَجُلٍ ، وَلَا آلُ زَمَانٍ كَذَا أَوْ مَوْضِعٍ كَذَا ، وَلَا يُقَالُ : آلُ الْخَيَّاطِ ، بَلْ يُضَافُ إِلَى الْأَشْرَفِ الْأَفْضَلِ ، يُقَالُ : آلُ اللَّهِ وَآلُ السُّلْطَانِ ، وَالْأَهْلُ يُضَافُ إِلَى الْكُلِّ ، يُقَالُ : أَهْلُ اللَّهِ وَأَهْلُ الْخَيَّاطِ ، كَمَا يُقَالُ : أَهْلُ زَمَنِ كَذَا وَبَلَدِ كَذَا . وَقِيلَ : هُوَ فِي الْأَصْلِ اسْمُ الشَّخْصِ ، وَيُصَغَّرُ أُوَيْلًا ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيمَنْ يَخْتَصُّ بِالْإِنْسَانِ اخْتِصَاصًا ذَاتِيًّا إِمَّا بِقَرَابَةٍ قَرِيبَةٍ أَوْ بِمُوَالَاةٍ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ (3 : 33) وَقَالَ : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ 40 : 46) قِيلَ : وَآلُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَقَارِبُهُ ، وَقِيلَ : الْمُخْتَصُّونَ بِهِ مِنْ حَيْثُ الْعِلْمُ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الدِّينِ ضَرْبَانِ : ضَرْبٌ مُتَخَصِّصٌ بِالْعِلْمِ الْمُتْقَنِ وَالْعَمَلِ الْمُحْكَمِ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : آلُ النَّبِيِّ وَأُمَّتُهُ ، وَضَرْبٌ يَخْتَصُّونَ بِالْعِلْمِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْلِيدِ ، وَيُقَالُ لَهُمْ : أُمَّةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلَا يُقَالُ لَهُمْ : آلُهُ ، فَكُلُّ آلٍ لِلنَّبِيِّ أُمَّةٌ لَهُ ، وَلَيْسَ كُلُّ أُمَّةٍ لَهُ آلَهُ . وَقِيلَ لِجَعْفَرٍ الصَّادِقِ - رَضِيَ اللَّهُ

(98/284)

عَنْهُ. : النَّاسُ يَقُولُونَ : الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ آلُ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ : كَذَبُوا وَصَدَقُوا ، فَقِيلَ : مَا مَعْنَى ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : كَذَبُوا فِي أَنَّ الْأُمَّةَ كَافَّتُهُمْ آلُهُ ، وَصَدَقُوا فِي أَنَّهُمْ إذَا قَامُوا بِشَرَائِطِ شَرِيعَتِهِ آلُهُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ (40 : 28) أَيْ : مِنَ الْمُخْتَصِّينَ بِهِ وَبِشَرِيعَتِهِ وَجَعَلَهُ مِنْهُمْ مَنْ حَيْثُ النَّسَبُ أَوِ الْمَسْكَنُ ، أَوْ مِنْ حَيْثُ تَقْدِيرُ الْقَوْمِ أَنَّهُ عَلَى شَرِيعَتِهِمْ ا هـ .

(99/284)

بَعْدَ هَذَا نَقُولُ : إنَّ آلَ فِرْعَوْنَ أُطْلِقَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ خَاصَّةً فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَهُمْ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ مُحْتَمِلٍ لِغَيْرِهِمْ ، فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا (28 : 8) وَالثَّانِي قَوْلُهُ : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ (40 : 28) وَأُطْلِقَ كَثِيرًا بِمَعْنَى مَلَئِهِ ، وَخَاصَّةً أَتْبَاعُهُ أَوْ جُمْلَتُهُمْ كَقَوْلِهِ : وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ (2 : 50) أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (40 : 46) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ (2 : 49) وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (40 : 45) وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (54 : 41) كَذَلِكَ كَثُرَ ذِكْرُ مَلَأِ فِرْعَوْنَ فِي إرْسَالِ مُوسَى إلَيْهِمْ ، وَمَا دَارَ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَبَيْنَ الْمَلَأِ ، وَهُمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِ وَرِجَالُ دَوْلَتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَلَوْلَا أَنْ وَرَدَ ذِكْرُ قَوْمِهِ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ لَحَمَلْنَا

الْآلَ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا ، وَفِي أَمْثَالِهَا عَلَيْهِمْ دُونَ سَائِرِ قَوْمِهِ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ قِصَّةِ مُوسَى مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (26 : 10 ، 11) وَقَالَ فِي سُورَةِ الدُّخَانِ : وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (44 : 17) إلَخْ . وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ عَامَّةَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ يَنَالُهُمْ مِنْ عَذَابِ الْأَخْذِ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ مَا لَا يَنَالُ فِرْعَوْنَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَخَاصَّةً مَلَئِهِ

(100/284)

، فَالْمُرَادُ بِآلِهِ قَوْمُهُ ، وَهُمْ أَهْلُ مِصْرَ فِي عَهْدِهِ ، وَهُمْ مُؤَاخَذُونَ بِظُلْمِهِ وَطُغْيَانِهِ ؛ لِأَنَّ قُوَّتَهُ الْمَالِيَّةَ وَالْجُنْدِيَّةَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ أَحْرَارًا وَكَرَّمَهُمْ بِالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ الَّتِي تَكْرَهُ الظُّلْمَ وَالطُّغْيَانَ بِالْغَرِيزَةِ ، فَكَانَ حَقًّا عَلَيْهِمْ أَلَّا يَقْبَلُوا اسْتِعْبَادَهُ لَهُمْ ، وَجَعْلَهُمْ آلَةً لِطُغْيَانِهِ وَإِرْضَاءِ كِبْرِيَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ بَعْثَةِ مُوسَى وَوُصُولِ دَعْوَتِهِ إلَيْهِمْ وَرُؤْيَتِهِمْ ، لَمَّا أَيَّدَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ .

وَأَمَّا السِّنُونَ فَهِيَ جَمْعُ سَنَةٍ ، وَهِيَ بِمَعْنَى الْحَوْلِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ مَا اسْتُعْمِلَ فِي الْحَوْلِ الَّذِي فِيهِ الْجَدْبُ ، كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ وَغَيْرُهُ ؛ أَيْ : إلَّا إذَا ذُكِرَتْ فِي مَقَامِ الْعَدَدِ وَالْإِحْصَاءِ ، وَالْأَخْذُ بِالسِّنِينَ صَرِيحٌ فِي إرَادَةِ الْعِقَابِ بِالْجَدْبِ وَالضِّيقِ ، وَيُؤَيِّدُهُ نَقْصُ الثَّمَرَاتِ ، وَهَلْ

يَدْخُلُ نَقْصُ الثَّمَرَاتِ فِي عُمُومِ الْمُرَادِ مِنَ السِّنِينَ ، أَمْ هِيَ خَاصَّةٌ بِنَقْصِ الْغِلَالِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْأَقْوَاتِ دُونَ الْفَاكِهَةِ الَّتِي لَا

تَكْفِي الْقُوتَ ، وَإِنْ كَانَ مِنْهَا النَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ ؟ وَجْهَانِ : وَنَقْصُ الثَّمَرَاتِ نَصٌّ عَلَى شِدَّةِ الضِّيقِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَهَذَا إِجْمَالٌ يُفَسِّرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ (7 : 133) وَمَا هُوَ بِبَعِيدٍ .

(101/284)

وَجُمْلَةُ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى أَخَذَ آلَ فِرْعَوْنَ بِالْجَدْبِ وَضِيقِ الْمَعِيشَةِ ؛ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ضَعْفَهُمْ أَمَامَ قُوَّةِ اللهِ وَعَجْزَ مَلِكِهِمُ الْجَبَّارِ الْمُتَغَطْرِسِ وَعَجْزَ آلِهَتِهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ إِذَا تَذَكَّرُوا اعْتَبَرُوا وَاتَّعَظُوا فَرَجَعُوا عَنْ ظُلْمِهِمْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَجَابُوا دَعْوَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَإِنَّ الشَّدَائِدَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُرَقِّقَ الْقُلُوبَ ، وَتُهَذِّبَ الطِّبَاعَ ، وَتُوَجِّهَ الْأَنْفُسَ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالتَّضَرُّعِ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ الَّتِي اتُّخِذَتْ فِي الْأَصْلِ وَسَائِلَ إِلَيْهِ وَشُفَعَاءَ عِنْدَهُ ، ثُمَّ صَارَ يُنْسَى فِي وَقْتِ الرَّخَاءِ ؛ لِأَنَّهُ غَيْبٌ لَا يُرَى ، وَتُذْكَرُ هِيَ ؛ لِأَنَّهَا مُشَاهَدَةٌ مُجَانِسَةٌ لِعَابِدِيهَا ، بَلْ هِيَ أَوْ أَكْثَرُهَا دُونَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ ، فَإِذَا بَلَغَ الشِّرْكُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَنْسُوا اللهَ تَعَالَى حَتَّى فِي أَوْقَاتِ الشَّدَائِدِ فَذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ .

كَذَلِكَ كَانَ دَأْبُ آلِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ إِنْذَارِ مُوسَى إِيَّاهُمْ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ مِنْ خِصْبٍ وَرَخَاءٍ وَهُوَ الْغَالِبُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ دُونَ غَيْرِنَا ، وَنَحْنُ الْمُسْتَحِقُّونَ لَهَا بِمَا لَنَا مِنَ التَّفَوُّقِ عَلَى النَّاسِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَيْ : وَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ أَصَابَتْهُمْ سَيِّئَةٌ - أَيْ : حَالَةٌ تَسُوؤُهُمْ كَجَدْبٍ أَوْ جَائِحَةٍ أَوْ مُصِيبَةٍ أُخْرَى فِي الْأَبْدَانِ أَوِ الْأَرْزَاقِ - تَشَاءَمُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَخِيهِ هَارُونَ أَوْ جَمِيعِ قَوْمِهِ ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا أُصِيبُوا بِشُؤْمِهِ وَشُؤْمِهِمْ ، وَيَغْفُلُونَ عَنْ سَيِّئَاتِ أَنْفُسِهِمْ وَظُلْمِهِمْ لِقَوْمِ مُوسَى ؛ لِأَنَّ هَذَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْحُقُوقِ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْإِفْرِنْجِ فِي ظُلْمِهِمْ لِمَنْ يَسْتَضْعِفُونَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْقِ .

أَصْلُ "يَطَّيَّرُوا" يَتَطَيَّرُوا فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الطَّاءِ ، وَسَبَبُ اسْتِعْمَالِ التَّطَيُّرِ بِمَعْنَى التَّشَاؤُمِ : أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَوَقَّعُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِمَّا تَرَاهُ مِنْ حَرَكَةِ الطَّيْرِ ، حَتَّى إِنَّهَا تَزْجُرُهَا إِذَا

لَمْ تَمُرَّ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا ، فَإِذَا طَارَتْ مِنْ جِهَةِ الْيَمِينِ تَيَمَّنَتْ ؛ أَيْ : رَجَتْ وُقُوعَ الْيَمِينِ وَالْبَرَكَةِ وَالْخَيْرِ ، وَإِذَا طَارَتْ مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ تَشَاءَمَتْ ، وَتَوَقَّعَتِ الشَّرَّ وَالْمُصِيبَةَ ،

وَيُسَمَّى الطَّائِرُ الْأَوَّلُ السَّانِحَ ، وَالْآخَرُ الْبَارِحَ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ سَمُّوا الشُّؤْمَ طَيْرًا وَطَائِرًا ، وَالتَّشَاؤُمَ تَطَيُّرًا ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي رَدِّ خُرَافَتِهِمْ :

(103/284)

أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ابْتَدَأَ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ بِأَدَاةِ الِافْتِتَاحِ (أَلَا) لِلِاهْتِمَامِ بِهِ ؛ إِذِ الْمُرَادُ بِهَا تَوْجِيهُ ذِهْنِ الْقَارِئِ لِمَا يُلْقَى بَعْدَهَا حَتَّى لَا يَفُوتَهُ شَيْءٌ مِنْهُ ، أَيْ : أَلَا فَلْيَعْلَمُوا أَنَّ الشُّؤْمَ الَّذِي نَسَبُوهُ إِلَى مُوسَى ، وَعَدُّوهُ مِنْ آثَارِ وُجُودِهِ فِيهِمْ هُوَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى لَا عِنْدَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، فَهُوَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا مِنْ حَسَنَةٍ وَسَيِّئَةٍ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ وَضَعَ لِنِظَامِ الْكَوْنِ سُنَنًا تَكُونُ فِيهَا الْمُسَبَّبَاتُ عَلَى قَدْرِ الْأَسْبَابِ ، وَلِكُلٍّ مِنْهَا حِكَمٌ ، فَبِمُقْتَضَى هَذِهِ السُّنَنِ وَالْأَقْدَارِ يَنْزِلُ الْبَلَاءُ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ امْتِحَانٌ وَاخْتِبَارٌ لَهُمْ بِمَا يَسُوؤُهُمْ لِيَتُوبُوا وَيَرْجِعُوا عَنْ ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَطُغْيَانِهِمْ وَإِسْرَافِهِمْ فِي كُلِّ أُمُورِهِمْ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ حِكَمَ التَّصَرُّفِ الرَّبَّانِيِّ فِي الْخَلْقِ ، وَلَا أَسْبَابَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ الصُّورِيَّةَ وَلَا الْمَعْنَوِيَّةَ ، وَكَوْنَ كُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى وَتَدْبِيرِهِ .

(104/284)

وَفِي الْآيَةِ مِنْ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ أَنَّهُ عَبَّرَ عَنْ مَجِيءِ الْحَسَنَةِ بِـ " إِذَا " الدَّالَّةِ عَلَى تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ ، وَعَرَّفَهَا لِإِفَادَةِ أَنَّهَا الْأَصْلُ الثَّابِتُ بِغَلَبَةِ رَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ عَلَى سُخْطِهِ وَعِقَابِهِ ، وَعَبَّرَ بِإِصَابَةِ السَّيِّئَةِ بِـ " إِنَّ " الَّتِي هِيَ أَدَاةُ الشَّكِّ - أَيْ : إِنَّ شَرْطَهَا إِمَّا مَشْكُوكٌ فِي وُقُوعِهِ ، وَإِمَّا مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ الْمَشْكُوكِ فِيهِ لِنُدْرَتِهِ أَوْ لِسَبَبٍ آخَرَ - وَذَكَرَ السَّيِّئَةَ ؛ لِإِفَادَةِ أَنَّ وُقُوعَهَا قَلِيلٌ وَخِلَافُ الْأَصْلِ الْغَالِبِ ، وَأَفَادَ بِالتَّعْبِيرَيْنِ أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَتَرَبَّوْا بِالْحَسَنَاتِ وَلَا بِالسَّيِّئَاتِ ، وَأَنَّ الْحَسَنَةَ عَلَى عَظَمَتِهَا وَكَثْرَتِهَا مَا زَادَتْهُمْ إِلَّا غُرُورًا بِحَالِهِمْ ، وَتَمَادِيًا فِي ظُلْمِهِمْ ، وَإِصْرَارًا عَلَى بَغْيِهِمْ ، وَأَنَّ السَّيِّئَةَ لَمْ تُفِدْهُمْ عِظَةً وَلَا عِبْرَةً ، وَلَمْ تُحْدِثْ لَهُمْ تَوْبَةً ، وَهَاكَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ :

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ قُلْنَا : إِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَتَرَبَّوْا بِالْحَسَنَاتِ وَلَا بِالسَّيِّئَاتِ ، وَلَمْ يُذْعِنُوا لِمَا أَيَّدَ اللهُ بِهِ تَعَالَى مُوسَى مِنَ الْآيَاتِ ، بَلْ أَصَرُّوا بَعْدَ إِيمَانِ كِبَارِ السَّحَرَةِ عَلَى عَدِّ آيَتَيْ مُوسَى مِنَ السِّحْرِ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ

(مَهْمَا) اسْمُ شَرْطٍ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّكَ إِنْ تَجِئْنَا بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْآيَاتِ الَّتِي تَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى أَحَقِّيَّةِ دَعْوَتِكَ ؛ لِأَجْلِ أَنْ تَسْحَرَنَا بِهَا ؛ أَيْ : تَصْرِفَنَا بِهَا - بِدِقَّةٍ وَلُطْفٍ فِي التَّأْثِيرِ - عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ دِينِنَا ، وَمِنْ تَسْخِيرِنَا لِقَوْمِكَ فِي خِدْمَتِنَا ، وَضَرْبِ اللَّبِنِ لِمَبَانِينَا - فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُصَدِّقِينَ ، وَلَا لِرِسَالَتِكَ بِمُتَّبِعِينَ .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ أَيْ : فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْمَصَائِبَ وَالنَّكَبَاتِ ، حَالَ كَوْنِهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ عَلَى صِدْقِ رِسَالَةِ عَبْدِنَا مُوسَى بِأَنْ تَوَعَّدَهُمْ بِهَا قَبْلَ وُقُوعِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَفْصِيلًا لَا إِجْمَالًا ؛ لِتَكُونَ دَلَالَتُهَا عَلَى صِدْقِهِ وَاضِحَةً لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ بِأَنَّهَا وَقَعَتْ بِأَسْبَابٍ لَهَا لَا دَخْلَ لِرِسَالَتِهِ فِيهَا - فَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ اسْتِكْبَارًا ، مَعَ اعْتِقَادِ صِحَّةِ رِسَالَتِهِ ، وَصِدْقِ دَعْوَتِهِ بَاطِنًا ، وَكَانُوا قَوْمًا رَاسِخِينَ فِي الْإِجْرَامِ وَالذُّنُوبِ مُصِرِّينَ عَلَيْهَا فَلَا يَهُونُ عَلَيْهِمْ تَرْكُهَا .

جَاءَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ - أَوْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَعْطَى مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَقَدْ عَدَّ هُنَا مِنْهَا خَمْسًا ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى غَيْرِ هَذَا التَّرْتِيبِ ، وَهُوَ غَيْرُ مُرَادٍ ، وَعَطْفُ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ بِالْوَاوِ لَا يَقْتَضِيهِ .

فَأَمَّا الطُّوفَانُ فَمَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ : مَا طَافَ بِالشَّيْءِ وَغَشِيَهُ ، وَغَلَبَ فِي طُوفَانِ الْمَاءِ ، سَوَاءٌ كَانَ مِنَ السَّمَاءِ أَوِ الْأَرْضِ ، وَكَذَا كُلُّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِكَثْرَةٍ تَغْشَى الْأَرْضَ . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَاتٍ كَثِيرَةٍ : الْأَمْطَارُ الْمُغْرِقَةُ الْمُتْلِفَةُ لِلزَّرْعِ وَالثِّمَارِ ، وَبِهِ قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةٌ أُخْرَى : هُوَ كَثْرَةُ الْمَوْتِ ، وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : الطُّوفَانُ : الْمَاءُ وَالطَّاعُونُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا ابْنُ هِشَامٍ الرِّفَاعِيُّ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ هَيْمَانَ : حَدَّثَنَا الْمِنْهَالُ بْنُ خَلِيفَةَ ، عَنِ الْحَجَّاجِ ، عَنِ الْحَكَمِ بْنِ مِينَا ، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " الطُّوفَانُ الْمَوْتُ " وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ هَيْمَانَ بِهِ ، وَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ طَافَ بِهِمْ ثُمَّ قَرَأَ : فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (68 : 19) ا هـ .

أَقُولُ : أَمَّا حَدِيثُ عَائِشَةَ الْمَرْفُوعُ فَهُوَ ضَعِيفٌ لَا يَثْبُتُ بِمِثْلِهِ قَوْلٌ مُخَالِفٌ لِلْمُتَبَادَرِ مِنَ اللُّغَةِ - فَيَحْيَى بْنُ هَيْمَانَ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِ هُوَ الْكُوفِيُّ الْعِجْلِيُّ كَانَ

مِنَ الْعُبَّادِ ضَعَّفَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَقَالَ : حَدَّثَ عَنِ الثَّوْرِيِّ بِعَجَائِبَ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : إِنَّهُ كَانَ صَدُوقًا لَا يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ ، وَلَكِنَّهُ كَثِيرُ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ ، وَقَدْ أُصِيبَ بِالْفَالِجِ فَتَغَيَّرَ حِفْظُهُ ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ ، وَالْمِنْهَالُ بْنُ خَلِيفَةَ الْعِجْلِيُّ الْكُوفِيُّ الَّذِي رَوَى عَنْهُ ؛ ضَعَّفَهُ ابْنُ مَعِينٍ وَغَيْرُهُمَا ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : حَدِيثُهُ مُنْكَرٌ . وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ : كَانَ يَنْفَرِدُ بِالْمَنَاكِيرِ عَنِ الْمَشَاهِيرِ فَلَا يَجُوزُ الِاحْتِجَاجُ بِهِ ، وَهَذَا طَعْنٌ مُبِينٌ .

(108/284)

السَّبَبُ فَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى تَوْثِيقِ الْبَزَّارِ لَهُ ، وَكَذَلِكَ الْحَجَّاجُ وَهُوَ ابْنُ أَرْطَاةَ الْكُوفِيُّ الْقَاضِي مُدَلِّسٌ ضَعِيفٌ لَا يُحْتَجُّ بِهِ ، وَأَوْلَى الْآثَارِ بِالْقَبُولِ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ الْأَوَّلُ الْمُوَافِقُ الْمُتَبَادَرَ مِنَ اللُّغَةِ ؛ أَيْ : طُوفَانُ الْمَطَرِ ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَمِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَأَوْلَاهَا بِالْقَبُولِ مَا لَا يُخَالِفُ الْقُرْآنَ مِنْ أَسْفَارِ التَّوْرَاةِ نَفْسِهَا ، وَهُوَ مَا نَنْقُلُهُ عَنْهَا : جَاءَ فِي الْفَصْلِ التَّاسِعِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ : (13) ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : بَكِّرْ فِي الْغَدَاةِ ، وَقِفْ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ ، وَقُلْ لَهُ : " كَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي (14) فَإِنِّي فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ مُنْزِلٌ جَمِيعَ ضَرَبَاتِي عَلَى قَلْبِكَ ، وَعَلَى عَبِيدِكَ وَشَعْبِكَ ؛ لِكَيْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلِي فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ ،

وَأَنَا (15) الْآنَ أَمُدُّ يَدِي وَأَضْرِبُكَ أَنْتَ وَشَعْبَكَ بِالْوَبَاءِ فَتَضْمَحِلُّ مِنَ الْأَرْضِ (16) غَيْرَ أَنِّي لِهَذَا أُبْقِيكَ؛ لِكَيْ أُرِيَكَ قُوَّتِي؛ وَلِكَيْ يُخْبَرَ بِاسْمِي فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ، (17) وَأَنْتَ لَمْ تَزَلْ مُقَاوِمًا لِشَعْبِي (18) هَا أَنَا (؟) مُمْطِرٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنْ غَدٍ بَرَدًا عَظِيمًا جِدًّا لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ فِي مِصْرَ مُنْذُ يَوْمِ أُسِّسَتْ إِلَى الْآنِ" ثُمَّ ذَكَرَ وُقُوعَ الْبَرَدِ مَعَ نَارٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَوَصَفَ عَظَمَتَهُ وَشُمُولَهُ لِجَمِيعِ بِلَادِ مِصْرَ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ طَلَبَ مُوسَى وَهَارُونَ، وَاعْتَرَفَ لَهُمَا بِخَطِئِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُمَا أَنْ يَشْفَعَا إِلَى الرَّبِّ لِيَكُفَّ

(109/284)

هَذِهِ النَّكْبَةَ عَنْ مِصْرَ، وَوَعَدَهُمَا بِإِطْلَاقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَالَ فِي خِتَامِ ذَلِكَ:

(33) فَخَرَجَ مُوسَى مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ، وَبَسَطَ يَدَيْهِ إِلَى الرَّبِّ فَكَفَّتِ الرُّعُودُ وَالْبَرَدُ، وَلَمْ يَعُدِ الْمَطَرُ يَهْطِلُ عَلَى الْأَرْضِ" ا هـ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْمَطَرَ عِنْدَ الْوَعِيدِ، بَلْ ذَكَرَهُ هُنَا عِنْدَ كَفِّ النَّكْبَةِ.

وَأَمَّا الْجَرَادُ فَهُوَ مَعْرُوفٌ، وَقَدْ ذُكِرَ فِي التَّوْرَاةِ بَعْدَ الطُّوفَانِ، فَفِيهَا بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ فِرْعَوْنَ قَسَا قَلْبُهُ فَلَمْ يُطْلِقْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَخْبَرَ الرَّبُّ مُوسَى - كَمَا فِي الْفَصْلِ الْعَاشِرِ - "بِأَنَّهُ قَسَا قَلْبُهُ وَقُلُوبُ عَبِيدِهِ لِيُرِيَهُمْ آيَاتِهِ، وَلِكَيْ يَقُصَّ مُوسَى عَلَى ابْنِهِ وَابْنِ ابْنِهِ (كَذَا) مَا فَعَلَ

بِالْمِصْرِيِّينَ ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يُنْذِرَهُ بِإِرْسَالِ الْجَرَادِ عَلَيْهِمْ فَيَأْكُلَ مَا سَلِمَ مِنَ النَّبَاتِ وَالشَّجَرِ فَلَمْ يُحْسِهِ الْبَرْدُ ، وَيَمْلَأَ بُيُوتَهُ وَبُيُوتَ عَبِيدِهِ ، وَسَائِرَ بُيُوتِ الْمِصْرِيِّينَ فَفَعَلَ - فَرَضِيَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَذْهَبَ الرِّجَالُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ لِيَعْبُدُوا رَبَّهُمْ دُونَ النِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ وَالْمَوَاشِي ، فَمَدَّ مُوسَى عَصَاهُ بِأَمْرِ الرَّبِّ

(110/284)

عَلَى أَرْضِ مِصْرَ (15) فَأَرْسَلَ الرَّبُّ رِيحًا شَرْقِيَّةً سَاقَتِ الْجَرَادَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ فَغَطَّى جَمِيعَ وَجْهِ الْأَرْضِ حَتَّى أَظْلَمَتِ الْأَرْضُ ، وَأَكَلَ جَمِيعَ عُشْبِهَا ، وَجَمِيعَ مَا تَرَكَهُ الْبَرْدُ مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنَ الْخُضْرَةِ فِي الشَّجَرِ ، وَلَا فِي عُشْبِ الصَّحْرَاءِ فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ " وَفِيهِ أَنَّ فِرْعَوْنَ اسْتَدْعَى مُوسَى وَهَارُونَ ، وَاعْتَرَفَ لَهُمَا بِخَطِئِهِ ، وَطَلَبَ مِنْهُمَا الصَّفْحَ وَالشَّفَاعَةَ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِهِمَا أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ هَذِهِ التَّهْلُكَةَ فَفَعَلَا ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ رِيحًا غَرِبِيَّةً فَحَمَلَتِ الْجَرَادَ كُلَّهُ فَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وَأَمَّا الْقُمَّلُ - بِضَمِّ الْقَافِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ الْمَفْتُوحَةِ - فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : هُوَ السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحِنْطَةِ ، وَعَنْهُ أَنَّهُ الدَّبَى ، وَهُوَ الْجَرَادُ الصِّغَارُ الَّذِي لَا أَجْنِحَةَ لَهُ ، وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ ، وَعَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ دَوَابٌّ سُودٌ صِغَارٌ ، وَعَنِ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّهَا دَابَّةٌ تُشْبِهُ الْقَمْلَ تَأْكُلُ الْإِبِلَ ،

وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ الْبَصْرِيِّينَ أَنَّ الْقُمَّلَ عِنْدَ الْعَرَبِ الْحَمْنَانُ وَاحِدَتُهَا حَمْنَانَةٌ ، وَهِيَ صِغَارُ الْقِرْدَانِ - ذَكَرَ هَذَا كُلَّهُ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَجَزَمَ الرَّاغِبُ بِأَنَّ الْقُمَّلَ صِغَارُ الذُّبَابِ ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَا فِي التَّوْرَاةِ ، فَفِيهَا أَنَّ الْبَعُوضَ وَالذِّبَّانَ كَانَ مِنَ الضَّرَبَاتِ الْعَشْرِ الَّتِي ضَرَبَ الرَّبُّ بِهَا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ ؛ لِيُرْسِلُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ مُوسَى ،

(111/284)

فَفِي الْفَصْلِ الثَّامِنِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ : أَنَّ مُوسَى أَنْذَرَ فِرْعَوْنَ أَنَّ الذِّبَّانَ سَيَدْخُلُ بُيُوتَهُ وَبُيُوتَ عَبِيدِهِ وَسَائِرِ قَوْمِهِ فَيُفْسِدُهَا ، وَلَا يَدْخُلُ فِي بُيُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُقِيمِينَ فِي أَرْضِ جَاسَّانَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ ، وَفَسَدَتِ الْأَرْضُ مِنْ تَأْثِيرِ الذِّبَّانِ .

وَأَمَّا الضَّفَادِعُ فَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ لَا خِلَافَ فِيهَا ، وَفِي أَوَّلِ الْفَصْلِ الثَّامِنِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ " (1) وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى ادْخُلْ عَلَى فِرْعَوْنَ وَقُلْ لَهُ : كَذَا قَالَ الرَّبُّ أَطْلِقْ شَعْبِي ؛ لِيَعْبُدُونِي (2) وَإِنْ أَبَيْتَ أَنْ تُطْلِقَهُمْ فَهَا أَنَا (ذَا) ضَارِبٌ جَمِيعَ تُخُومِكَ بِالضَّفَادِعِ (3) فَيَفِيضُ النَّهْرُ ضَفَادِعَ فَتَصْعَدُ وَتَنْتَشِرُ فِي بَيْتِكَ ، وَفِي مَخْدَعِ فِرَاشِكَ ، وَعَلَى سَرِيرِكَ ، وَفِي بُيُوتِ عَبِيدِكَ وَشَعْبِكَ ، وَفِي تَنَانِيرِكَ وَمَعَاجِنِكَ " إِلَخْ . وَكَذَلِكَ كَانَ ، وَلَكِنْ فِيهَا أَنَّ السَّحَرَةَ فَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ ، وَأَصْعَدُوا الضَّفَادِعَ ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ طَلَبَ مِنْ مُوسَى أَنْ يَشْفَعَ لَهُ

عِنْدَ رَبِّهِ بِرَفْعِ الضَّفَادِعِ فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ قَالَ : (13) فَفَعَلَ الرَّبُّ كَمَا قَالَ مُوسَى ، وَمَاتَتِ الضَّفَادِعُ مِنَ الْبُيُوتِ (؟) وَالْأَقْبِيَةِ وَالْحُقُولِ (14) فَجَمَعُوهَا أَكْوَامًا ، وَأَنْتَنَتِ الْأَرْضُ مِنْهَا ."

(112/284)

وَأَمَّا الدَّمُ ، فَفَسَّرَهُ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ بِالرُّعَافِ ، وَأَكْثَرُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ أَنَّهُ دَمٌ كَانَ فِي مِيَاهِ الْمِصْرِيِّينَ ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ ، وَهُوَ فِيهَا أَوَّلُ الضَّرَبَاتِ الْعَشْرِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ بَعْدَ انْقِلَابِ الْعَصَا ثُعْبَانًا . فَفِي الْفَصْلِ السَّابِعِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ " أَنَّ الرَّبَّ أَمَرَ مُوسَى أَنْ يُنْذِرَ فِرْعَوْنَ ذَلِكَ فَفَعَلَ (19) ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى قُلْ لِهَارُونَ : خُذْ عَصَاكَ ، وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى مِيَاهِ الْمِصْرِيِّينَ وَأَنْهَارِهِمْ وَخُلُجِهِمْ وَمَنَاقِعِهِمْ وَسَائِرِ مَجَامِعِ مِيَاهِهِمْ ، فَتَصِيرَ دَمًا ، وَيَكُونُ دَمًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ ، وَفِي الْخَشَبِ وَفِي الْحِجَارَةِ " وَفِيهِ أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ فَعَلَا ذَلِكَ ، وَأَنَّ سَمَكَ

النَّهْرِ مَاتَ ، وَأَنْتَنَ النَّهْرُ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْمِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْهُ ، وَفِيهِ أَنَّ سَحَرَةَ مِصْرَ فَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ (؟ ؟) وَأَنَّ الدَّمَ دَامَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ .

(113/284)

هَذِهِ الْخَمْسُ جُمْلَةُ مَا ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ مِنَ الْآيَاتِ التِّسْعِ الَّتِي أَيَّدَ بِهَا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْمُبَالَغَاتِ الَّتِي فِي التَّوْرَاةِ فَلَا هُوَ يَنْفِيهَا وَلَا يُؤَيِّدُهَا ، وَمُقْتَضَى أُصُولِ الْإِسْلَامِ الْوَقْفُ فِيهَا إِلَّا مَا دَلَّ دَلِيلٌ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى نَفْيِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَفِيهَا أَنَّ مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ أَوِ الضَّرَبَاتِ (الْبَعُوضَ) وَذَلِكَ أَنَّ هَارُونَ ضَرَبَ بِأَمْرِ الرَّبِّ تُرَابَ الْأَرْضِ " فَكَانَ الْبَعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ ، وَكُلُّ تُرَابِ الْأَرْضِ (؟) صَارَ بَعُوضًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ " كَذَا فِي (8 : 17 خر) وَفِيهَا أَنَّ السَّحَرَةَ فَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ ! (وَمِنْهَا الْوَبَاءُ) وَقَعَ عَلَى دَوَابِّ الْمِصْرِيِّينَ وَأَنْعَامِهِمْ فَمَاتَتْ كُلُّهَا مِنْ دُونِ مَوَاشِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَمُتْ مِنْهَا شَيْءٌ (وَمِنْهَا الْبُثُورُ وَالْقُرُوحُ الْمُنْتَفِخَةُ) أَصَابَتِ النَّاسَ وَالْبَهَائِمَ – وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتِ الْبَهَائِمُ بَعْدَ

(114/284)

أَنْ مَاتَتْ بِأَسْرِهَا ؟ – (وَمِنْهَا الظَّلَامُ) غَشَى جَمِيعَ الْمِصْرِيِّينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَانَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ فِيهَا يَتَمَتَّعُونَ بِالنُّورِ وَحْدَهُمْ ، (وَمِنْهَا إِمَاتَةُ جَمِيعِ أَبْكَارِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ) وَهِيَ الضَّرْبَةُ الْعَاشِرَةُ فَفِيهَا " وَقَالَ مُوسَى : كَذَا قَالَ الرَّبُّ إِنِّي نَحْوَ نِصْفِ اللَّيْلِ أَجْتَازُ فِي وَسَطِ مِصْرَ فَيَمُوتُ كُلُّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بِكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى عَرْشِهِ إِلَى بِكْرِ الْأَمَةِ الَّتِي

وَرَاءَ الرَّحَى ، وَجَمِيعِ أَبْكَارِ الْبَهَائِمِ (مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ بَعْدَ أَنْ مَاتَتْ مُنْذُ أَيَّامٍ ؟) وَيَكُونُ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ (11 : 4 - 6 خر) .

(115/284)

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ بَعْدَ بَيَانِ تِلْكَ الْآيَاتِ ذَكَرَ مَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِهَا وَتَأْوِيلِهَا مَعْطُوفًا عَلَيْهَا فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ فِي الْأَسَاسِ : ارْتَجَزَ الرَّعْدُ إِذَا تَدَاوَكَ صَوْتُهُ كَارْتِجَازِ الرَّجَزِ . . وَالْبَحْرُ يَرْتَجِزُ بِآذِيهِ ، أَيْ مَوْجِهِ . . فَمَادَّةُ الرِّجْزِ تَدُلُّ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ عَلَى الِاضْطِرَابِ

(116/284)

كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ ، وَهُوَ يَكُونُ فِي النَّفْسِ كَمَا يَكُونُ فِي الْأَجْسَامِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ : وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ (8 : 11) أَيْ : وَسْوَسَتَهُ لَهُمْ بِأَنْ يَأْخُذَهُمُ الْعَطَشُ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الصَّبْرَ عَلَى الْقِتَالِ ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الصَّوْتِ ، وَمِنْهُ الرَّجَزُ فِي الشِّعْرِ سُمِّيَ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اضْطِرَابِ الصَّوْتِ فِي إِنْشَادِهِ ، وَقَدْ سُمِّيَ عَذَابُ قَوْمِ لُوطٍ رِجْزًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ : إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (29 : 34) وَفِي سُورَتَيْ سَبَأٍ وَالْجَاثِيَةِ إِنْذَارٌ لِلْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ ، وَفُسِّرَ الرِّجْزُ هُنَا بِالْعَذَابِ ، وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ ، وَفِيهِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ عَنْ عَائِشَةَ عِنْدَ ابْنِ مَرْدَوَيْهِ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الطَّاعُونُ ، وَكَأَنَّهُمَا أَخَذَاهُ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ مَرْفُوعًا " الطَّاعُونُ رِجْزٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ - أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ - فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدِمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْهُ بِهَذَا اللَّفْظِ وَأَلْفَاظٍ أُخْرَى بِمَعْنَاهُ ، مِنْهَا : " الطَّاعُونُ آيَةُ الرِّجْزِ ابْتَلَى اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ أُنَاسًا مِنْ عِبَادِهِ " إِلَخْ ، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ : " هُوَ عَذَابٌ أَوْ رِجْزٌ أَرْسَلَهُ اللَّهُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي

(117/284)

إِسْرَائِيلَ أَوْ نَاسٍ كَانُوا قَبْلَكُمْ " إِلَخْ ، وَأَوَّلَهُ فِي بَعْضِهَا : " إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ " إِلَخْ ، وَوَجْهُهُ فِي اللُّغَةِ أَنَّ الطَّاعُونَ مِنَ الْأَوْبِئَةِ الَّتِي تَضْطَرِبُ لَهَا الْقُلُوبُ لِشِدَّةِ فَتْكِهَا ، وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ تَفْسِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ إِلَى قَوْلِهِ : فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (2 : 58 ، 59) وَهُوَ يَصْدُقُ بِطَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقَدْ نَزَلَ الطَّاعُونُ بِهِمْ كَغَيْرِهِمْ مِرَارًا ، وَلَا يُوجَدُ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الطَّاعُونَ هُوَ الْمُرَادُ بِالرِّجْزِ فِي الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا ، وَضَرْبَةُ الْقُرُوحِ الْمَذْكُورَةِ فِي التَّوْرَاةِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الطَّاعُونَ ، وَمَوْتُ الْأَبْكَارِ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِالطَّاعُونِ أَيْضًا .

(118/284)

وَالْمُتَبَادَرُ مِنْ عِبَارَةِ الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الرِّجْزِ جِنْسُهُ ، وَهُوَ كُلُّ عَذَابٍ تَضْطَرِبُ لَهُ الْقُلُوبُ أَوْ يَضْطَرِبُ لَهُ النَّاسُ فِي شُئُونِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ ، وَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ نِقْمَةٍ وَجَائِحَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَوْمِ فِرْعَوْنَ كَالْخَمْسِ الْمُبَيَّنَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ ، وَفِي التَّوْرَاةِ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ يَقُولُ لِمُوسَى عِنْدَ نُزُولِ كُلٍّ مِنْهَا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ، وَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنَّا هَذِهِ ، وَيَعِدُهُ بِأَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ لِيَعْبُدُوا رَبَّهُمْ ، وَيَذْبَحُوا لَهُ ثُمَّ يَنْكُثُ ، فَإِذَا أُرِيدَ بِالرِّجْزِ أَفْرَادُهُ

وَافَقَ التَّوْرَاةَ فِي أَنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنْ مُوسَى عِنْدَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهَا أَنْ يَدْعُو رَبَّهُ بِكَشْفِهَا عَنْهُمْ ، وَلَفْظُ " لَمَّا " لَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْمُفَسِّرُونَ الَّذِينَ قَالُوا بِهَذَا ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ جُمْلَتُهُ ، وَمَجْمُوعُ أَفْرَادِهِ أَوْ فَرْدٍ آخَرَ غَيْرَ مَا تَقَدَّمَ ، فَالْمُتَبَادَرُ أَنْ يَكُونَ طَلَبُ كَشْفِهِ قَدْ وَقَعَ مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ وَيُرَجِّحُهُ التَّعْبِيرُ عَنْ نَكْثِهِمْ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ (يَنْكُثُونَ) فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ .

(119/284)

وَمَعْنَى النَّظْمِ الْكَرِيمِ : وَلَمَّا وَقَعَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ذَلِكَ الْعَذَابُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ فَاضْطَرَبُوا اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الْبِئْرِ الْبَعِيدَةِ الْقَعْرِ ، وَحَاصُوا حَيْصَةَ الْحُمُرِ فَوَقَعُوا فِي حَيْصَ بَيْصَ - وَهُوَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَسْمِيَةُ ذَلِكَ الْعَذَابِ بِالرِّجْزِ - قَالُوا عِنْدَ نُزُولِ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ بِهِمْ : يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ، وَاسْأَلْهُ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ مِنْ أَمْرِ إِرْسَالِكَ إِلَيْنَا ؛ لِإِنْقَاذِ قَوْمِكَ ؛ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ، فَالنُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ عَهْدٌ مِنَ الرَّبِّ تَعَالَى لِمَنِ اخْتَصَّهُ بِذَلِكَ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (2 : 124) أَوِ ادْعُهُ بِالَّذِي عَهِدَ بِهِ إِلَيْكَ أَنْ تَدْعُوهُ بِهِ

فَيُعْطِيكَ الْآيَاتِ وَيَسْتَجِيبُ لَكَ الدُّعَاءُ - أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا هَذَا الرِّجْزَ ، وَنَحْنُ نُقْسِمُ لَكَ لَئِنْ كَشَفْتَهُ عَنَّا لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . قَالَ تَعَالَى :

(120/284)

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ أَيْ : فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ ، وَمُنْتَهُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنْهَا - وَهُوَ عَوْدُ الْحَالِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ - أَوْ فِي مَجْمُوعِهَا ، وَهُوَ الْغَرَقُ الَّذِي هَلَكُوا فِيهِ ، إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ عَهْدَهُمْ ، وَيَحْنَثُونَ فِي قَسَمِهِمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ؛ أَيْ : فَاجَئُوا بِالنَّكْثِ ، وَبَادَرُوا إِلَى الْحِنْثِ ، بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا رَيْثٍ ، وَأَصْلُ النَّكْثِ فِي اللُّغَةِ نَقْضُ مَا غُزِلَ أَوْ مَا فُتِلَ مِنَ الْحِبَالِ ؛ لِيَعُودَ أَنْكَاثًا وَطَاقَاتٍ مِنَ الْخُيُوطِ كَمَا كَانَ ، وَالْأَنْكَاثُ مَا نُقِضَ مِنَ الْغَزْلِ لِيُغْزَلَ ثَانِيَةً : وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا (16 : 92) .

(121/284)

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ أَيْ : فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ عِنْدَ بُلُوغِ الْأَجَلِ الْمَضْرُوبِ لَهُمْ بِأَنْ أَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ - وَهُوَ الْبَحْرُ فِي اللُّغَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْمُوَافِقَةِ لِلْعَرَبِيَّةِ فِي الْأُلُوفِ مِنْ مُفْرَدَاتِهَا " وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى النِّيلِ وَغَيْرِهِ - وَالْفَاءُ الدَّاخِلَةُ عَلَى انْتَقَمْنَا تَفْسِيرِيَّةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ (11 : 45) وَعَلَّلَ هَذَا الِانْتِقَامَ كَمَا عَلَّلَ أَمْثَالَهُ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَتَكَرَّرَ هَذَا اللَّفْظُ فِي قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا ، وَإِنْ لَمْ يُؤْتَ بَعْضُهُمْ غَيْرَ آيَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ تَكْذِيبَ الْوَاحِدَةِ كَتَكْذِيبِ الْكَثِيرِ ، وَيَقْتَضِيهِ بِاتِّحَادِ الْعِلَّةِ ، كَمَا أَنَّ تَكْذِيبَ أَحَدِ الرُّسُلِ كَتَكْذِيبِ الْجَمِيعِ إذَا كَانَ بَعْدَ ظُهُورِ آيَتِهِ ، وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَى دَعْوَتِهِ . وَكَذَلِكَ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ كَوْنُ الْغَفْلَةِ عَنِ الْحَقِّ وَدَلَائِلِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكُفَّارِ ، وَأَمَّا جَمْعُ الْآيَاتِ هُنَا فَلِأَنَّهَا مُتَعَدِّدَةٌ ، وَأَمَّا عَطْفُ الِانْتِقَامِ بِالْفَاءِ فَلَيْسَ

(122/284)

تَعْلِيلًا آخَرَ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعْقِيبٌ عَلَى كَوْنِهِ وَقَعَ بَعْدَ التَّكْذِيبِ بِتِلْكَ الْآيَاتِ كُلِّهَا ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْعَذَابِ ثُمَّ يُكَذِّبُونَ ، حَتَّى إذَا انْقَضَى الْأَجَلُ الْمَضْرُوبُ لَهُمُ انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ؛ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِهَا كُلِّهَا ، وَكَانُوا غَافِلِينَ عَمَّا تَقْتَضِيهِ

وَتَسْتَلْزِمُهُ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، إذْ كَانَتْ فِي نَظَرِ أَكْثَرِهِمْ مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ وَالصِّنَاعَةِ ، وَكَانُوا قَدْ بَلَغُوا فِيهِمَا الْغَايَةَ ؛ وَلِذَلِكَ كَانُوا يُكَابِرُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي كُلِّ آيَةٍ ، وَيُحَاوِلُونَ أَنْ يَأْتِيَ سَحَرَتُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ بِمِثْلِهَا ، وَيَحْمِلُونَ عَجْزَهُمْ عَلَى تَفَوُّقِ مُوسَى عَلَيْهِمْ فِيهَا ، وَيُعَدُّونَ إسْنَادَهُ كُلَّ شَيْءٍ إلَى رَبِّهِ مِنْ قَبِيلِ إسْنَادِهِمُ الْأُمُورَ إلَى آلِهَتِهِمُ الْبَاطِلَةِ بِحَسَبِ التَّقَالِيدِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ حُكَمَاؤُهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَإِنَّمَا يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا لِأَجْلِ خُضُوعِ عَامَّةِ الشَّعْبِ لَهَا ، وَأَمَّا مَنْ ظَهَرَتْ لَهُمْ دَلَالَةُ آيَاتِ مُوسَى عَلَى الْحَقِّ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ جَهْرًا كَكِبَارِ السَّحَرَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ فَكَتَمَ إيمَانَهُ كَالَّذِي عَارَضَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فِي قَتْلِ مُوسَى بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ - كَمَا فِي سُورَةِ غَافِرٍ ، وَذَكَرْنَاهُ فِي هَذَا السِّيَاقِ - وَمِنْهُمْ مَنْ جَحَدَ بِهَا لِمَحْضِ الْعُلُوِّ وَالْكِبْرِيَاءِ ، كَفِرْعَوْنَ وَأَكَابِرِ الْوُزَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ .

(123/284)

وَمِنَ الْعِبْرَةِ فِي مُجَارَاةِ الْحُكُومَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ لِلْعَوَامِّ عَلَى خُرَافَاتِهِمْ أَنَّ حُكُومَاتِ هَذَا الْعَصْرِ تُوَافِقُ الْعَامَّةَ عَلَى كُلِّ مَا يَعُدُّونَهُ مِنَ الدِّينِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ . كَمَا تَفْعَلُ الْحُكُومَةُ الْمِصْرِيَّةُ فِي بَعْضِ الِاحْتِفَالَاتِ الْمَوْسِمِيَّةِ الْمُبْتَدَعَةِ فِي الْإِسْلَامِ كَالْمَوَالِدِ بِالتَّبَعِ لِجُمْهُورِ الشَّعْبِ مِنْ كِبَارِ عُلَمَائِهِ إلَى أَجْهَلِ عَوَامِّهِ ، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَاصِي الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا الْمَعْلُومَةِ مِنَ

الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ الَّتِي يُعَدُّ مُسْتَحِلُّهَا مُرْتَدًّا عَنِ الْإِسْلَامِ بِاتِّفَاقِ الْمَذَاهِبِ ، وَالْجُمْهُورُ غَافِلُونَ عَنْ ضَرَرِ هَذِهِ الْبِدْعَةِ الَّتِي جُعِلَتْ مِنْ قَبِيلِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ بِالِاحْتِفَالِ بِهَا ، وَشَدِّ الرِّحَالِ إِلَيْهَا ، وَإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ الْعَظِيمَةِ فِي سَبِيلِهَا ، وَتَعْطِيلِ كُبْرَى شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ ؛ وَهِيَ الصَّلَاةُ ، وَإِبْطَالِ دُرُوسِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ مِنَ الْمَسَاجِدِ الَّتِي فِيهَا لِأَجْلِهَا ، كَالْمَسْجِدِ الْأَحْمَدِيِّ فِي طَنْطَا ، وَالْمَسْجِدِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ فِي دُسُوقَ ، وَأَنَّ أَكْبَرَ ضَرَرِهَا تَشْوِيهُ الْإِسْلَامِ فِي نَظَرِ الْعُقَلَاءِ مِنْ أُولِي الْعُلُومِ الِاسْتِقْلَالِيَّةِ حَتَّى كَثُرَ فِيهِمُ الْمُرْتَدُّونَ عَنْهُ ، وَصَدُّ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ

(124/284)

الْإِسْلَامِ ؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا عُرْفُ الْأُمَمِ أَنَّ دِينَ كُلِّ قَوْمٍ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّعَبُّدَاتِ وَالشَّعَائِرِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ مِنَّا إِقْنَاعُ بَعْضِ مُسْتَقِلِّي الْفِكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ بِحَقِّيَّةِ دِينِ الْإِسْلَامِ الْمُقَرَّرِ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ وَالسُّنَّةِ السُّنِّيَّةِ ، وَتَنَزُّهِهِ عَنْ هَذِهِ الْبِدَعِ فَاقْتَنَعُوا بِأَنَّ مَا قَرَّرْنَاهُ لَهُمْ حَقٌّ ، وَلَمْ يَقْتَنِعُوا بِأَنَّهُ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ نَقَلْتُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ فُضَلَاءِ الْإِنْجِلِيزِ مِنْهُمْ أَنَّهُ قَالَ لِي : إِنْ كَانَ الْإِسْلَامُ مَا ذَكَرْتَ فَأَنَا مُسْلِمٌ ، وَكَانَ نَعُومُ بِك شُقَيْرِ الْمُؤَرِّخُ السُّورِيُّ يَقُولُ لِي : اكْتُبْ عَقِيدَتَكَ ، وَأَنَا أَمْضِي عَلَيْهَا بِخَطِّي أَنَّهَا عَقِيدَتِي .

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى عَاقِبَةَ تِلْكَ الْآيَاتِ وَتَأْوِيلَهَا فِي الْمِصْرِيِّينَ ، عَطَفَ عَلَيْهِ بَيَانَ عَاقِبَتِهَا وَتَأْوِيلَهَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْجَامِعَةِ الْبَلِيغَةِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(125/284)

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا تَعَدَّدَ فِي الْقُرْآنِ التَّعْبِيرُ عَنِ اسْتِخْلَافِ اللَّهِ قَوْمًا فِي أَرْضِ قَوْمٍ بِالْإِيرَاثِ ، أَيْ وَأَعْطَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ فِي مِصْرَ بِمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ جَمِيعَ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا بِالْخِصْبِ وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ ، مَشَارِقُهَا مِنْ حُدُودِ الشَّامِ وَمَغَارِبُهَا مِنْ حُدُودِ مِصْرَ تَحْقِيقًا لِوَعْدِنَا وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (28 : 5 ، 6)

رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَقَتَادَةَ أَنَّهُمَا قَالَا فِي تَفْسِيرِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا : هِيَ أَرْضُ الشَّامِ ، وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ : هِيَ قُرَى الشَّامِ ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَوْذَبٍ : فَلَسْطِينُ ، وَعَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ بَارَكَ فِي الشَّامِ مِنَ الْفُرَاتِ إِلَى الْعَرِيشِ ، وَيُؤَيِّدُ

هَذِهِ الرِّوَايَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي إِبْرَاهِيمَ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (21 : 71) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (21 : 81) وَقَوْلُهُ

عَزَّ وَجَلَّ : سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ (17 : 1) .

(126/284)

وَرُوِيَ عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّهَا أَرْضُ مِصْرَ الَّتِي كَانَ فِيهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَأَطْلَقَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ الْقَوْلَ بِأَنَّهَا أَرْضُ مِصْرَ وَفَلَسْطِينَ جَمِيعًا ، وَرُبَّمَا يَتَرَاءَى أَنَّ إِرَادَةَ أَرْضِ مِصْرَ هِيَ الظَّاهِرُ الْمُتَبَادَرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (26 : 57 ، 59) وَقَوْلُهُ فِيهِمْ مِنْ سُورَةِ الدُّخَانِ : كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (44 : 25 – 28) لِأَنَّ فِرْعَوْنَ خَرَجَ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَلَأِ وَالْجُنْدِ مِنْ مِصْرَ وَتَرَكُوا

(127/284)

مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ، إِلَى الْغَرَقِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْجَحِيمِ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْوَصْفَ أَظْهَرُ فِي بِلَادِ الشَّامِ ذَاتِ الْجَنَّاتِ الْكَثِيرَةِ ، وَالْعُيُونِ الْجَارِيَةِ ، وَمَعْنَى إِخْرَاجِ الْمِصْرِيِّينَ مِنْهَا إِزَالَةُ سِيَادَتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ عَنْهَا ، وَحِرْمَانِهِمْ مِنَ التَّفَكُّهِ بِنَعِيمِهَا ، فَقَدْ كَانَتْ بِلَادُ فَلَسْطِينَ إِلَى الشَّامِ تَابِعَةً لِمِصْرَ ، وَكَانَ مِنْ عَادَةِ فَرَاعِنَةِ مِصْرَ كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُسْتَعْمِرَةِ أَنْ يُقِيمُوا فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا حُكَّامًا وَجُنُودًا لِئَلَّا تَنْتَقِضَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَسْكُنَهَا كَثِيرُونَ مِنْهُمْ يَتَمَتَّعُونَ بِخَيْرَاتِهَا ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ جُمْلَةً مِنَ الْأَثَرِ الْمِصْرِيِّ الْقَدِيمِ الْوَحِيدِ الَّذِي وُجِدَ فِيهِ ذِكْرٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ تَنْطِقُ بِأَنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ كَانَتْ تَابِعَةً لِمِصْرَ .

عَلَى أَنَّهُ وُجِدَ فِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ الْقَدِيمَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ بَعْضُ مُفَسِّرِينَا مِنْ أَنَّ مُوسَى اسْتَوْلَى عَلَى مِصْرَ ، وَتَمَتَّعَ هُوَ وَقَوْمُهُ بِالسِّيَادَةِ فِيهَا طَائِفَةً مِنَ الزَّمَنِ ، نَذْكُرُهُ لِلِاعْتِبَارِ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ صِدْقُ الْآيَاتِ غَيْرَ مَقْصُورٍ عَلَى صِحَّةِ مَضْمُونِهِ ، وَهُوَ مَا جَاءَ فِي حَاشِيَةٍ لِأَحَدِ مَبَاحِثِ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدَ تَوْفِيقِ صِدْقِي (رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى) فِي كُتُبِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ ، وَعَقَائِدِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَهَذَا نَصُّهُ (كَمَا فِي ص446 ، 447 مِنْ مُجَلَّدِ الْمَنَارِ السَّادِسَ عَشَرَ) :

(128/284)

" جَاءَ فِي كِتَابِ (الْأُصُولِ الْبَشَرِيَّةِ) صَفْحَةِ 88 لِمُؤَلِّفِهِ لِينْجَ أَنَّ يُوسِيفُوسَ الْمُؤَرِّخَ الْيَهُودِيَّ الشَّهِيرَ نَقَلَ عَنْ (مَانِيثُونَ) هَذِهِ الرِّوَايَةَ الْمِصْرِيَّةَ الْقَدِيمَةَ الَّتِي مُلَخَّصُهَا " أَنَّ مُوسَى بَعْدَ أَنْ هَزَمَ فِرْعَوْنَ مِصْرَ – الَّذِي فَرَّ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ – حَكَمَ مِصْرَ 13 سَنَةً ، وَبَعْدَ ذَلِكَ عَادَ إِلَى فِرْعَوْنَ هُوَ وَابْنُهُ ، وَمَعَهُمَا جَيْشٌ عَظِيمٌ فَقَهَرُوهُ وَأَخْرَجُوهُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ " وَجَاءَ فِي قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ

(129/284)

لِبُوسْتَ مُجَلَّدِ 1ص410 أَنَّ هِيرُودُوتَسَ الْمُؤَرِّخَ الْيُونَانِيَّ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ قَالَ : " إِنَّ ابْنَ سِيسُوسِتَرْسَ ضُرِبَ بِالْعَمَى مُدَّةَ عَشْرِ سِنِينَ ؛ لِأَنَّهُ رَمَى رُمْحَهُ فِي النَّهْرِ ، وَقَدِ ارْتَفَعَتْ أَمْوَاجُهُ وَقْتَ فَيْضِهِ ؛ بِسَبَبِ نَوْءٍ شَدِيدٍ إِلَى عُلُوٍّ غَيْرِ اعْتِيَادِيٍّ " ا هـ ، وَيَقُولُ الْمُؤَرِّخُونَ : إِنَّ ابْنَ سِيسُوسِتَرْسَ هَذَا (وَهُوَ مِنْفِتَاحُ الثَّانِي) هُوَ فِرْعَوْنُ الْخُرُوجِ ، وَيَتَّخِذُونَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ إِشَارَةً إِلَى غَرَقِهِ فِي زَمَنِ مُوسَى ، لَكِنْ يَرَى الْقَارِئُ مِنْهَا أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ

إِشَارَةً إِلَى الْغَرَقِ لَكَانَ الْغَرَقُ فِي النِّيلِ ، وَمِنَ الرِّوَايَةِ الْأُولَى يُعْلَمُ أَنَّ مُوسَى حَكَمَ بَعْدَ فِرْعَوْنَ 13 سَنَةً فِي مِصْرَ ، وَهَاتَانِ الرِّوَايَتَانِ هُمَا مِنْ أَقْدَمِ الرِّوَايَاتِ الْمِصْرِيَّةِ وَأَصَحِّهَا ، وَرُبَّمَا كَانَتَا الْوَحِيدَتَيْنِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَلَعَلَّ الْمِصْرِيِّينَ اسْتَغَاثُوا بِمَمْلَكَةِ الْحَبَشَةِ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ جَيْشًا فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى بِالْخُرُوجِ حِينَئِذٍ مِنْ مِصْرَ ، وَتَرْكِهَا لِأَهْلِهَا ، وَعَلَيْهِ يَجُوزُ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ كَتَمُوا خَبَرَ غَرَقِ مَلِكِهِمْ ، وَاسْتَبْدَلُوا بِهِ دَعْوَى تَقَهْقُرِهِ إِلَى الْحَبَشَةِ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ هُوَ الَّذِي عَادَ بَعْدَ ذَلِكَ

وَأَخْرَجَ مُوسَى بِالْقُوَّةِ ؛ سِتْرًا لِخِزْيِهِمْ وَخِذْلَانِهِمْ ، وَإِرْضَاءً لِمُلُوكِهِمْ وَأَسَرَ (جَمْعَ أُسُرِه بِالضَّمِّ) هَؤُلَاءِ الْمُلُوكُ ، وَرُبَّمَا أَنَّهُ لَوْلَا عِظَمُ هَذِهِ الْحَادِثَةِ وَشُهْرَتُهَا بَيْنَهُمْ لَأَنْكَرُوهَا بِالْمَرَّةِ .

(130/284)

" وَمِنْ ذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْخُرُوجَ لَمْ يَكُنْ عَقِبَ غَرَقِ الْمِصْرِيِّينَ مُبَاشَرَةً كَمَا يُفْهَمُ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَلَمْ يَكُنِ السَّبَبُ فِيهِ هَذِهِ الْحَادِثَةَ الَّتِي غَرَقَ فِيهَا فِرْعَوْنُ وَجَيْشُهُ بَلْ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ بِبَعْضِ سِنِينَ . "

وَيَرَى الْمُطَّلِعُ عَلَى الْقُرْآنِ الشَّرِيفِ أَنَّ هَاتَيْنِ الرِّوَايَتَيْنِ صَادِقَتَانِ فِي مَسْأَلَةِ غَرَقِ فِرْعَوْنَ فِي النِّيلِ ، وَمَسْأَلَةِ حُكْمِ مُوسَى فِي مِصْرَ 13 سَنَةً ، وَأَمَّا الْغَرَقُ فِي النِّيلِ فَيُفْهَمُ مِنْ قَوْلِ الْقُرْآنِ

مَثَلًا فِي سُورَةِ طَهَ : إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ (20 : 38 ، 39) ثُمَّ قَوْلِهِ فِي آخِرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ : فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ فَالْمُتَبَادَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ غَرِقَ فِي نَفْسِ الْيَمِّ الَّذِي أُلْقِيَ فِيهِ مُوسَى وَهُوَ النِّيلُ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ أَيْضًا مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (28 : 7) ثُمَّ قَوْلُهُ فِيهَا بَعْدُ : فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ (28 : 40) .

(131/284)

" وَأَمَّا مَسْأَلَةُ حُكْمِ مُوسَى فِي مِصْرَ ، وَالتَّمَتُّعِ بِهَا هُوَ وَقَوْمُهُ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ بَعْدَ الْغَرَقِ فَهُوَ أَيْضًا الْمُتَبَادَرُ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَأَرَادَ أَيْ : فِرْعَوْنُ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ إِلَى قَوْلِهِ : وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ (17 : 103 ، 104) وَقَوْلِهِ : فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (26 : 57 - 59) وَيَجُوزُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ أُعْطِيَتْ لِمُوسَى فِي الطُّورِ قَبْلَ تَرْكِهِ حُكْمَ مِصْرَ .

" وَفِي زَمَنِ مُوسَى أَعْطَى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ - بَدَلًا عَنْ مِصْرَ الَّتِي أَمَرَهُمْ بِتَرْكِهَا - الْمَمَالِكَ الَّتِي فِي شَرْقِ الْأُرْدُنِ كَمَا فِي كُتُبِهِمْ ، وَفِي زَمَنِ يَشُوعَ أَعْطَاهُمْ كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَّا بَعْضَ

أَجْزَاءٍ مِنْهَا (يش 13 : 1) وَهَذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي أُعْطِيَتْ لَهُمْ هِيَ مِنْ أَخْصَبِ أَرَاضِي الْعَالَمِ وَأَحْسَنِهَا ، وَهِيَ الْمُسَمَّاةُ عِنْدَهُمْ بِأَرْضِ الْمَوْعِدِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا وُعِدُوا بِهَا مِنْ قَبْلُ .

" فَأَنَّى لِمُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عِلْمُ مَا بَيَّنَّاهُ مِنْ ذَلِكَ التَّارِيخِ ، وَهُوَ أَجْنَبِيٌّ عَنْهُ وَعَنْ قَوْمِهِ ؟ وَمُغَايِرٌ لِلتَّوْرَاةِ ، وَمُخَالِفٌ لِمَا يَعْتَقِدُهُ جَمِيعُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ ، وَلَكِنَّهُ مُوَافِقٌ لِأَقْدَمِ الرِّوَايَاتِ الْمِصْرِيَّةِ وَأَصَحِّهَا الَّتِي لَا يَعْرِفُهَا – حَتَّى الْآنَ – إِلَّا وَاسِعُو الِاطِّلَاعِ مِنْ مُحَقِّقِي الْمُؤَرِّخِينَ ؟

(132/284)

" وَأَمَّا مَانِيثُو Manetho الْمَذْكُورُ هُنَا الَّذِي وَافَقَتْ رِوَايَتُهُ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الشَّرِيفِ ، فَكَانَ كَاهِنًا لِمَعْبَدٍ مِنْ أَقْدَمِ الْمَعَابِدِ وَأَشْهَرِهَا ، وَقَدْ كَتَبَ تَارِيخَ مِصْرَ بِأَمْرِ بَطْلَيْمُوسَ فِيلَادَلْفُوسَ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ قَبْلَ الْمَسِيحِ ، وَكَانَ مِنْ أَدَقِّ مُؤَرِّخِي الْقُدَمَاءِ وَأَصْدَقِهِمْ ، وَقَدْ أَخَذَ بِأَوْثَقِ الْمَصَادِرِ

وَأَصَحِّهَا فِي كِتَابَةِ تَارِيخِهِ ، إِلَّا أَنَّ هَذَا التَّارِيخَ فُقِدَ مَعَ مَا فُقِدَ فِي حَرِيقِ مَكْتَبَةِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ سِوَى مُقْتَطَفَاتٍ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ الْيُونَانِيَّةِ ، وَقَدْ أَيَّدَ أَكْثَرُ هَذِهِ الْمُقْتَطَفَاتِ مَا اكْتُشِفَ حَدِيثًا مِنَ الْآثَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَالْمَكْتُوبَاتِ الْعَتِيقَةِ مَعَ أَنَّ آبَاءَ

النَّصْرَانِيَّةِ كِيُوسِيبْيُوس حَرَّفُوا كَعَادَتِهِمْ كَثِيرًا مِمَّا نَقَلُوهُ مِنْهَا لِتُطَابِقَ نُصُوصَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ كَمَا ذَكَرَهُ الْعَلَّامَةُ لِينْجُ فِي كِتَابِهِ "الْأُصُولِ الْبَشَرِيَّةِ" ص11 مِنْهُ ا هـ .

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا تَمَامُ الشَّيْءِ : وُصُولُهُ إِلَى آخِرِ حَدِّهِ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ : وَعْدُهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِإِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ ، وَاسْتِخْلَافِهِمْ فِي الْأَرْضِ . فِي مَجَازِ الْأَسَاسِ ، وَتَمَّ عَلَى أَمْرٍ : مَضَى عَلَيْهِ ، وَتَمَّ عَلَى أَمْرِكَ ، وَتَمَّ

(133/284)

إِلَى مَقْصِدِكَ ، وَالْمَعْنَى : نَفَذَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ ، وَمَضَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ تَامَّةً كَامِلَةً ؛ بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ عَلَى الشَّدَائِدِ الَّتِي كَابَدُوهَا مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِذْ كَانَ وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ بِمَا وَعَدَهُمْ مَقْرُونًا بِأَمْرِهِمْ بِالصَّبْرِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ ، وَالتَّقْوَى لَهُ كَمَا أَمَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبْلِيغًا عَنْهُ تَعَالَى . رَاجِعْ : قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا الْآيَةَ ، مِنْ هَذَا السِّيَاقِ ، وَإِذْ كَانَ قَدْ تَمَّ وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ بِذَلِكَ ثُمَّ سَلَبَهُمُ اللَّهُ تِلْكَ الْأَرْضَ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ مُقْتَضَى الْوَعْدِ أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَّ ، وَنَفَذَ صِدْقًا وَعَدْلًا .

(134/284)

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ التَّدْمِيرُ : إِدْخَالُ الْهَلَاكِ عَلَى السَّالِمِ وَالْخَرَابِ عَلَى الْعَامِرِ ، الْعَرْشُ : رَفْعُ الْمَبَانِي وَالسَّقَائِفِ لِلنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ الْمُتَسَلِّقِ كَعَرَائِشِ الْعِنَبِ ، وَمِنْهُ عَرْشُ الْمَلِكِ ، وَالْمُرَادُ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ أَوَّلًا ، وَبِالذَّاتِ مَا لَهُ تَعَلُّقٌ بِظُلْمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَيْدِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَالْأَوَّلُ كَالْمَبَانِي الَّتِي كَانُوا يَبْنُونَهَا لِلْمِصْرِيِّينَ أَوْ يَصْنَعُونَ اللَّبِنَ لَهَا ، وَمِنْهَا الصَّرْحُ الَّذِي أُمِرَ هَامَانُ بِبِنَائِهِ ؛ لِيَرْقَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ فَيَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَالثَّانِي : كَالْمَكَايِدِ السِّحْرِيَّةِ وَالصِّنَاعِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَصْنَعُهَا السَّحَرَةُ ؛ لِإِبْطَالِ آيَاتِهِ أَوِ التَّشْكِيكِ فِيهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ (20 : 69) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (40 : 36 ، 37) وَالتَّبَابُ بِمَعْنَى الدَّمَارِ .

(135/284)

وَأَمَّا أَسْبَابُ هَذَا التَّدْمِيرِ لِذَلِكَ الصُّنْعِ وَالْعُرُوشِ فَأَوَّلُهَا : الْآيَاتُ الَّتِي أَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَغَيْرِهَا - ، وَتُسَمَّى فِي التَّوْرَاةِ الضَّرَبَاتِ ، وَفِيهَا

مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي ضَرَرِهَا وَتَخْرِيبِهَا مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ ، وَذَكَرْنَا بَعْضَهُ - وَيَلِيهَا : إِنْجَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَحِرْمَانُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنَ اسْتِعْبَادِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَثَالِثُهَا : هَلَاكُ مَنْ غَرِقَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ، وَحِرْمَانُ الْبِلَادِ وَسَائِرِ الْأُمَّةِ مِنْ ثَمَرَاتِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعُمْرَانِ ، هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْهَا ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى

بِذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَقَدْ أَنْذَرَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كُلَّ ذَلِكَ لِيَتَّقُوا سُوءَ عَاقِبَتِهِ فَكَذَّبُوا بِالْآيَاتِ ، وَأَصَرُّوا عَلَى الْجُحُودِ وَالْإِعْنَاتِ .

وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ وَجْهَيْنِ : الْوَجْهُ الْأَوَّلُ : أَنْ يَتَفَكَّرَ تَالِي الْقُرْآنِ فِي تَأْثِيرِ الْإِيمَانِ وَالْوَحْيِ فِي مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ؛ إِذْ تَصَدَّيَا لِأَعْظَمِ مَلِكٍ فِي أَعْظَمِ دَوْلَةٍ فِي الْأَرْضِ ، قَاهِرَةٍ لِقَوْمِهِمَا ، وَمُعَبِّدَةٍ لَهُمْ فِي خِدْمَتِهَا مُنْذُ قُرُونٍ كَثِيرَةٍ ، فَدَعَوَاهُ إِلَى الرُّجُوعِ عَنِ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ ، وَتَعْبِيدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَنْذَرَاهُ وَهَدَّدَاهُ ، وَمَا زَالَا يُكَافِحَانِهِ بِالْحُجَجِ وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ حَتَّى أَظْفَرَهُمَا اللهُ تَعَالَى بِهِ ، وَأَنْقَذَا قَوْمَهُمَا مِنْ ظُلْمِهِ وَظُلْمِ قَوْمِهِ .

(136/284)

فَجَدِيرٌ بِالْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ تَعَالَى وَرُسُلِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنَ التَّفَكُّرِ فِي هَذَا إِلَى التَّفَكُّرِ فِي وَعْدِ اللهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ ، كَمَا وَعَدَ الْمُرْسَلِينَ إِذَا هُمْ قَامُوا بِمَا أَمَرَهُمْ تَعَالَى بِهِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَأَلَّا يَسْتَعْظِمُوا فِي هَذِهِ السَّبِيلِ قُوَّةَ الدَّوْلَةِ الظَّالِمَةِ لَهُمْ ، فَإِنَّ قُوَّةَ الْحَقِّ الَّتِي نَصَرَهَا اللهُ تَعَالَى بِرَجُلٍ أَوْ رَجُلَيْنِ عَلَى أَعْظَمِ الدُّوَلِ لَا تُغْلَبُ إِذَا نَصَرْنَاهَا ، وَنَحْنُ مِئَاتُ الْمَلَايِينِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ (47 : 7) وَيَقُولُ : وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (30 : 47)

(137/284)

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ تَجَدَّدَ عِنْدَنَا فِي هَذَا الزَّمَانِ أَمْرٌ عَظِيمٌ يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَهُوَ مُحَاوَلَةُ الْيَهُودِ انْتِزَاعَهَا مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا الْعَرَبِ ، وَتَنَازُعُ الْفَرِيقَيْنِ فِي التَّعَارُضِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ وَعْدِ اللهِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا بِهَذِهِ الْأَرْضِ ، وَمَا أَنْجَزَهُ لِكُلٍّ مِنْهُمَا ، وَمَنَ الْمُسْتَحِقِّ لَهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ ، فَلْيَتَأَمَّلِ الْمُعْتَبِرُ فِي وَعْدِ اللهِ تَعَالَى بِهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ وَعْدِهِ بِهَا وَبِغَيْرِهَا لِلْعَرَبِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ عَلَى لِسَانِ خَاتَمِ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَآلِهِمُ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ ، وَلَعْنَتُهُ وَخِزْيُهُ عَلَى الْفَاسِدِينَ

الْمُفْسِدِينَ الْمُضِرِّينَ . فَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ تَعَالَى وَعْدَهُ لِلْفَرِيقَيْنِ عِنْدَمَا كَانُوا مُتَّقِينَ ، وَأَخْطَأَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ فِي عَصْرِ رَسُولِهِمْ فَأَدَّبَهُمِ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا هُوَ مَنْصُوصٌ فِي الْكِتَابِ الْمُبِينِ .

(138/284)

أَرَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَخْرَجَهُمْ مُوسَى مِنْ مِصْرَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ تِلْكَ الْأَرْضُ ، بِغَيْرِ عَمَلٍ مِنْهُمْ وَلَا سَعْيٍ ، فَامْتَنَعُوا مِنْ قِتَالِ مَنْ فِيهَا مِنَ الْجَبَّارِينَ ، قَالُوا لِمُوسَى : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (5 : 24) فَحَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا عَرَضَ الْغُرُورُ لِبَعْضِ بَنِي إِسْمَاعِيلَ فِي عَصْرِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ بِمَا كَانَ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ مَعَ قِلَّةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ وَالزَّادِ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ كَمَا وُعِدُوا ، وَإِنْ قَصَّرُوا فِيمَا أُمِرُوا ، فَلَمَّا أُصِيبُوا بِهِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ تَعَجَّبُوا وَاسْتَفْهَمُوا ، فَأَجَابَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا عَلِمُوا بِهِ أَنَّ وَعْدَهُ الْمُطْلَقَ فِي قَوْلِهِ : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي (58 : 21) وَقَوْلُهُ :

وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (30 : 47) مُقَيَّدٌ بِمَا فِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى كَقَوْلِهِ : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ (47 : 7) وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (8 : 46) أَجَابَهُمْ

بِقَوْلِهِ : أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ (3 : 165) إِلَى آخِرِ مَا فَصَّلْنَا فِي تَفْسِيرِهَا مَعَ سِيَاقِهَا مِنَ الْجُزْءِ الرَّابِعِ .

(139/284)

نَعَمْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْجَزَ وَعْدَهُ الْأَوَّلَ لِإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِجَعْلِ هَذِهِ الْأَرْضِ لِذُرِّيَّتِهِ ، فَجَعَلَهَا أَوَّلًا لِلْمُتَّقِينَ مِنْ آلِ إِسْحَاقَ ، ثُمَّ نَزَعَهَا مِنْهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، ثُمَّ أَعْطَاهَا لِلْمُتَّقِينَ مِنْ آلِ إِسْمَاعِيلَ ، ثُمَّ انْتَزَعَ السُّلْطَانَ عَلَيْهَا مِنْهُمْ أَيْضًا بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَتَجَدَّدَ التَّنَازُعُ فِي رَقَبَتِهَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ – بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَبَنِي إِسْمَاعِيلَ – بِإِغْرَاءِ الْإِنْكِلِيزِ ، الَّذِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا ، وَأَوْقَعُوا الشِّقَاقَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا ، وَهُمْ أَحْذَقُ الْخَلْقِ فِي ضَرْبِ الشُّعُوبِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ ، وَسَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ فِي الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ ، فَلَا يَغْتَرَّنَّ قَوْمُنَا بِالْأَوْهَامِ ، وَلَا يَتَّكِلَنَّ عَلَى الْمُتَّجِرِينَ بِالْأَقْوَامِ ، وَلَا يَنْخَدِعَنَّ بَعْدُ بِشَقَاشِقِ الْكَلَامِ ، وَلَا يَنُوطَنَّ الزَّعَامَةَ بِأَصْحَابِ الْأَنْسَابِ الْفَاقِدِينَ لِلْعِلْمِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَسَائِرِ الْأَسْبَابِ ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ ثَبَتَتْ مُوَالَاتُهُمْ لِأَعْدَاءِ الْبِلَادِ ، وَسَالِبِي اسْتِقْلَالِهَا ، وَوَاضِعِي الْخُطَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ لِانْتِزَاعِ رَقَبَتِهَا مِنْ أَهْلِهَا ، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ

بِالِانْقِرَاضِ مِنْهَا بِتَعَذُّرِ الْحَيَاةِ عَلَيْهِمْ فِيهَا ، لَا بِالْإِبْعَادِ الْقَسْرِيِّ عَنْهَا ، بِأَنْ يَكُونَ شَأْنُهُمْ فِي هَذَا كَسُكَّانِ أَمْرِيكَا قَبْلَ اسْتِعْمَارِ الْإِنْكِلِيزِ وَغَيْرِهِمْ لَهَا .

(140/284)

وَلَا مُنْجَاةَ لِعَرَبِ فَلَسْطِينَ مِنْ هَذَا الْخَطَرِ الْعَظِيمِ الْآتِي مِنْ قِبَلِ شَعْبَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا أَشَدُّ شُعُوبِ الْأَرْضِ قُوَّةً وَثَرْوَةً وَدَهَاءً وَكَيْدًا ، وَعِلْمًا وَصَبْرًا وَجَلَدًا ، إلَّا بِاتِّحَادِهِمْ مَعَ سَائِرِ الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الِاسْتِبْسَالِ ، وَالِاسْتِقْلَالِ فِي الدِّفَاعِ الْحَقِيقِيِّ عَنْ أُمَّتِهِمْ وَبِلَادِهِمْ ، وَمَعَ سَائِرِ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الدِّفَاعِ الْمَعْنَوِيِّ عَنِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا اسْتِقْلَالَ لَهُمَا ، وَلَا أَمْنَ عَلَيْهِمَا ، مَعَ إحَاطَةِ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْأَجْنَبِيَّةِ بِهِمَا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَخْطُوا خَطْوَةً وَاحِدَةً فِي طَرِيقِ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَلْ خَطَوْا خَطْوَتَيْنِ وَاسِعَتَيْنِ فِي سَبِيلِ الشِّقَاقِ ، وَالتَّفَرُّقِ بَيْنَ الْإِمَارَاتِ الْمُسَلَّحَةِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، نَفَّرُوا بِهِمَا أَكْبَرَ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْهُمْ .

(الْأُولَى) : مُوَالَاةُ صَاحِبِ الْحِجَازِ الَّذِي أَعَانَ الْإِنْكِلِيزَ عَلَى فَتْحِ بِلَادِهِمْ ثُمَّ

(141/284)

كَانَ هُوَ وَأَوْلَادُهُ مُثَبِّتًا لِأَقْدَامِهِمْ فِيمَا جَاوَرَهَا ، وَحَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَائِرِهَا ، بِأَنْ أَقَرُّوهُ عَلَى انْتِحَالِهِ لِنَفْسِهِ مِلْكَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَعَلَى سَعْيِهِ لِإِخْضَاعِ تِلْكَ الْإِمَارَاتِ لِحُكْمِهِ بِالِاتِّكَالِ عَلَى قُوَّةِ الْغَاصِبِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، فَلَوْلَا وُجُودُ أَحَدِ أَوْلَادِهِ (عَبْدِ اللهِ) فِي شَرْقِ الْأُرْدُنِّ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ الْغَاصِبَةِ لِفَلَسْطِينَ ، وَالْمُنْتَزِعَةِ لِلسِّيَادَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْهَا ؛ لَأَمْكَنَ أَنْ يَتَّحِدَ عَرَبُهَا مَعَ عَرَبِ نَجْدٍ الْأَقْوِيَاءِ عَلَى إِنْقَاذِهَا ، وَكَذَا مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ الَّذِينَ سَمَّى الْإِنْكِلِيزُ وَلَدَهُ (فَيْصَلًا) مَلِكًا عَلَيْهِمْ ، بَلْ لَوْلَا افْتِتَانُهُ هُوَ بِمَا فَتَنُوهُ بِهِ مِنْ تَسْمِيَتِهِ مَلِكًا لِلْعَرَبِ ، وَخَلِيفَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَمَا ثَبَتَتْ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ قَدَمٌ لِلْمُسْتَعْمِرِينَ .

(وَالثَّانِيَةُ) : مُبَايَعَةُ جُمْهُورٍ كَبِيرٍ مِنْهُمْ لَهُ بِالْخِلَافَةِ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا – لَوْ صَحَّتْ كَمَا يَدَّعِي وَيَدَّعُونَ لَهُ – أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى تِلْكَ الْإِمَارَاتِ شَرْعًا أَنْ تَخْضَعَ لِحُكْمِهِ وَإِلَّا وَجَبَ قِتَالُهَا ، وَإِخْضَاعُهَا بِالْقُوَّةِ ، وَهَلْ كَانَ فِي مَقْدُورِهِمْ سَعْيٌ إِلَى شِقَاقٍ ، وَتَفَرُّقٍ شَرٍّ مِنْ هَذَا ؟ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَّحِدِينَ فَانْقَسَمُوا ، وَصَارُوا أَحْزَابًا مُتَنَازِعَةً ، فَنَسْأَلُهُ تَعَالَى تَغْيِيرَ الْحَالِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ، وَحُسْنَ الْعَاقِبَةِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 9 صـ 74 . 91 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ .

عطف على ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ [الأعراف : 136] .

والمعنى : فأخذناهم بالعقاب الذي استحقوه وجازيّنا بني إسرائيل بنعمة عظيمة .

وتقدم ءانفاً الكلام على معنى ﴿ أوْرثنا ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ أوَلم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ [الأعراف : 100] والمراد هنا تمليك بني إسرائيل جميع الأرض المقدسة بعد أهلها من الأمم التي كانت تملكها من الكنعانيين وغيرهم .

وقد قيل إن فرعون كان له سلطان على بلاد الشام ، ولا حاجة إلى هذا إذ ليس في الآية تعيين الموروث عنه .

والقومُ الذين كانوا يُستْضعفون هم بنو إسرائيل كما وقع في الآية الأخرى : ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ [الشعراء : 59] ، وعدل عن تعريفهم بطريق الإضافة إلى تعريفهم بطريق الموصولية لنكتتين : أولاهما : الإيماء إلى علة الخبر ، أي أن الله ملَّكهم الأرض وجعلهم أمة حاكمة جزاء لهم على ما صبروا على الاستعباد ، غيرة من الله على عبيده .

الثانية : التعريض ببشارة المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم بأنهم ستكون لهم عاقبة السلطان كما كانت لبني إسرائيل ، جزاء على صبرهم على الأذى في الله ، ونذارةُ

المشركين بزوال سلطان دينهم .

ومعنى يُستضعفون : يستعْبَدون ويهانون ، فالسين والتاء للحسبان مثل استنجب ، أو للمبالغة كما في استجاب .

والمشارق والمغارب جُمع باعتبار تعدد الجهات ، لأن الجهة أمر نسبي تتعد بتعدد الأمكنة المفروضة ، والمراد بهما إحاطة الأمكنة .

و ﴿ الأرض ﴾ أرض الشام وهي الأرض المقدسة وهي تبتدىء من السواحل الشرقية الشمالية للبحر الأحمر وتنتهي إلى سواحل بحر الروم وهو البحر المتوسط وإلى حدود العراق وحدود بلاد العرب وحدود بلاد الترك .

(143/284)

و ﴿ التي باركنا فيها ﴾ صفة للأرض أو لمشارقها ومَغاربها ؛ لأن ما صدقيْهما متحدان ، أي قدرنا لها البركة ، وقد مضى الكلام على البركة عند قوله تعالى : ﴿ لَفَتَحْنا عليهم بركات في هذه السورة (96) .

أي أعضناهم عن أرض مصر التي أخرجوا منها أرضاً هي خير من أرض مصر .

عطف على جملة : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ الخ . . .

والمقصود من هذا الخبر هو قوله : ﴿ بما صبروا ﴾ تنويهاً بفضيلة الصبر وحسن عاقبته ، وبذلك الاعتبار عطفت هذه الجملة على التي قبلها ، وإلاّ فإن كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل تشمل إيراثهم الأرض التي بارك الله فيها ، فتتنزل من جملة : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ إلى آخرها منزلة التذييل الذي لا يعطف ، فكان مقتضى العطف هو قوله ﴿ بما صبروا ﴾ .

وكلمة : هي القول ، وهو هنا يُحتمل أن يكون المراد به اللفظ الذي وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى في قوله : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴾ [الأعراف : 129] أو على لسان إبراهيم وهي وعد تمليكهم الأرض المقدسة ، فتمام الكلمة تحقق وعدها ، شُبّه تحققها بالشيء إذا استوفى أجزاءه ، ويحتمل أنها كلمة الله في علمه وقدَره وهي أرادة الله إطلاقهم من استعباد القبط وإرادته تمليكهم الأرض المقدسة كقوله:

﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ [النساء : 171] .

وتمام الكلمة بهذا المعنى ظهور تعلقها التنجيزي في الخارج على نحو قول موسى ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ [المائدة : 21] وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً ﴾ في سورة الأنعام (115) .

و﴿ الحسنى ﴾ : صفة ل ﴿ كلمة ﴾ وهي صفة تشريف كما يقال : الأسماء الحسنى ،

أي كلمة ربك المنزهة عن الخُلف ، ويحتمل أن يكون المراد حسنَها لبني إسرائيل ، وإن كانت سيئة على فرعون وقومه ، لأن العدل حسَن وإن كان فيه إضرار بالمحكوم عليه .

(144/284)

والخطاب في قوله : ﴿ ربك ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم أدمج في ذكر القصة إشارة إلى أن الذي حقق نصر موسى وأمته على عدوهم هو ربك فسينصرك وأمتك على عدوكم ؛ لأنه ذلك الرب الذي نصر المؤمنين السابقين ، وتلك سنتُه وصنعه ، وليس في الخطاب التفات من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف المراد من الضمائر .

وعدي فعل التمام (بعلى) للإشارة إلى تضمين ﴿ تمت ﴾ معنى الإنعام ، أو معنى حقت .

وباء ﴿ بما صبروا ﴾ للسببية ، و (ما) مصدرية أي بصبرهم على الأذى في ذات الإله وفي ذلك تنبيه على فائدة الصبر وأن الصابر صائر إلى النصر وتحقيق الأمل .

والتدمير : التخريب الشديد وهو مصدر دمّر الشيء إذا جعله دامراً للتعدية متصرف من الدمار بفتح الدال وهو مصدر قاصر ، يقال دَمَر القومُ بفتح الميم يدمُرون بضم الميم دَمارا ، إذا هلكوا جميعاً ، فهم دامرون .

والظاهر أن إطلاق التدمير على إهلاك المصنوع مجازي علاقته الإطلاق لأن الظاهر أن التدمير حقيقته إهلاك الإنسان .

و﴿ ما كان يصنع فرعون ﴾ : ما شاده من المصانع ، وإسناد الصنع إليه مجاز عقلي لأنه الآمر بالصنع ، وأما إسناده إلى قوم فرعون فهو على الحقيقة العقلية بالنسبة إلى القوم لا بالنسبة إلى كل فرد على وجه التغليب .

و﴿ يَعْرِشون ﴾ ينشئون من الجنات ذات العرايش .

(145/284)

والعريش : ما يُرفع من دوالي الكروم ، ويطلق أيضاً على النخلات العديدة تربّى في أصل واحد ، ولعل جنات القبط كانت كذلك كما تشهد به بعض الصور المرسومة على هياكلهم نقشاً ودهناً ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ﴾ في سورة الأنعام (141) وفعله عَرَش من بابي ضرَب ونصَرَ وبالأول قرأ الجمهور ، وقرأ بالثاني ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ، وذلك أن الله خرب ديار فرعون وقومه المذكورين ، ودمر جناتهم بما ظلموا بالإهمال ، أو بالزلزال ، أو على أيديهم جيوش أعدائهم الذين ملكوا مصر بعدهم ، ويجوز أن يكون يعرشون ﴾ بمعنى يرفعون أي يشيدون

من البناء مثل مباني الأهرام والهياكل وهو المناسب لفعل ﴿ دمرنا ﴾ ، شبه البناء المرفوع بالعرش .

ويجوز أن يكون يعرشون استعارة لقوة الملك والدولة ويكون دمرنا ترشيحاً للاستعارة .

وفعل ﴿ كان ﴾ في الصلتين دال على أن ذلك دأبه وهجيرَاه ، أي ما عني به من الصنائع والجنات .

وصيغة المضارع في الخبرين عن (كان) للدلالة على التجدد والتكرر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(146/284)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾

أي صارت مصر والشام تحت إمرة بني إسرائيل ، وهي الأرض التي باركها الله ، بالخصب ، وبالنماء ، بالزروع ، بالثمار ، بالحيوانات ، وبكل شيء من مقومات الحياة ، وترف الحياة :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي استمرت عليهم الكلمة وتم وعد الله الصادق بالتمكين لبني

إسرائيل في الأرض ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملت النعمة ؛ لأن الله أهلك عدوهم وأورثهم الأرض ، وتحققت كلمته سبحانه التي جاءت على لسان موسى : ﴿ . . . وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرض فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 129]

هكذا تمت كلمة الله بقوله سبحانه : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا ﴾ [الأعراف : 137]

ونعلم أن كلمة ﴿ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا ﴾ تقال بالنسبيات ؛ فليس هناك مكان اسمه مشرق وآخر اسمه مغرب ، لكن هذه اتجاهات نسبية ؛ فيقال هذا مشرق بالنسبة لمكان ما ، وكذلك يقال له " مغرب " بالنسبة لمكان آخر . وحين ينتقل الإنسان إلى مكان آخر يوجد مشرق آخر ومغرب آخر . وعلى سبيل المثال نجد من يسكن في الهند واليابان يعلمون أن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة لهم مغرب ، ومن يسكنون أوروبا يعرفون أن الشرق الأوسط بالنسبة لهم مشرق .

وقلنا من قبل : إن الحق حين جاء " بالمشرق والمغرب " بصيغة الجمع كما هنا فذلك إنما يدل على أن لكل مكان مشرقاً ، ولكل مكان مغرباً ؛ فإذا غربت الشمس في مكان فهي تشرق في مكان آخر . وفي رمضان نجد الشمس تغرب في القاهرة قبل الإسكندرية بدقائق .

ونعلم أن سبب هذه الدورة إنما هو ليبقى ذكر الله بكل مطلوبات الله في كل أوقات الله ، مثال ذلك حين نصلى نحن صلاة الفجر نجد أناساً يصلون في اللحظة نفسها صلاة الظهر ، ونجد آخرين يصلون صلاة العصر ، وقوماً غيرهم يصلون صلاة المغرب ، وغيرهم يصلي صلاة العشاء . وبذلك تحقق إرادة الله في أن هناك عبادة في كل وقت وفي كل لحظة ، فحين يؤذن مسلم قائلاً " الله أكبر " لينادي لصلاة الفجر ، هناك مسلم آخر يقول : " الله أكبر " منادِّيًا لصلاة الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ، وهذا هو الاختلاف في المطالع أراد به سبحانه أن يظل اسمه مذكوراً على كل لسان في كل مكان لتعلو " الله أكبر ، الله أكبر " في كل مكان .

وأنت إذا حسبت الزمن بأقل من الثانية تجد أن كون الله لا يخلو من " لا إله إلا الله " أبداً : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى ﴾ . ونعلم أن كلمة " الحسنى " وصف للمؤنث ، و " كلمة " مؤنثة ، والكلمة هي قوله الحق : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ [القصص : 5]

لقد قال الحق القصة بإيجاز ، وهذه هي التي قالها ربنا وهي كلمة " الحسنى " لأنه سبحانه لم يعط لهم نعمة معاصرة لنعمة العدو ، بل نعمة على أنقاض العدو ، فهي نعمة تضم إهلاك عدوهم ، ثم أعطاهم بعد ذلك أن جعلهم أئمة وهداة وورثهم الأرض : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ

رَبِّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ .

وهم بالفعل قد صبروا على الإيذاء الذي نالوه وذكره سبحانه من قبل حين قال : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 49]

وجاء عقاب الله لقوم فرعون : ﴿ . . . وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : 137]

(148/284)

والتدمير هو أن تدرك شيئاً وتخربه ، وقد ظل ما فعله الله بقوم فرعون باقيًا في الآثار التي تدلك على عظمة ما فعلوا ، وتجد العلماء في كل يوم يكتشفون تحت الأرض آثاراً كثيرة .

ومن العجيب أن كل كشوف الآثار تكون تحت الأرض ، ولا يوجد كشف أثري جاء من فوق الأرض أبداً .

وكلمة " دمرنا " تدل على أن الأشياء المدمرة كانت عالية الارتفاع ثم جاءت عوامل التعرية لتغطيها ، ويبقى الله شواهد منها لتعطينا نوع ما عمّروا ؛ كالأهرام مثلاً . وكل يوم نكتشف آثاراً جديدة موجودة تحت الأرض مثلما اكتشفنا مدينة طيبة في وادي الملوك ، وكانت مغطاة بالتراب بفعل عوامل التعرية التي تنقل الرمال من مكان إلى مكان . وأنت إن غبت

عن بيتك شهراً ومع أنك تغلق الأبواب والشبابيك قبل السفر ؛ ثم تعود فتجد التراب يغطي جميع المنزل والأثاث ؛ كل ذلك بفعل عوامل التعرية التي تنفذ من أدق الفتحات ، ولذلك لو نظرت إلى القرى القديمة قبل أن تنشأ عمليات الرصف التي تثبت الأرض نجد طرقات القرية التي تقود إلى البيوت ترتفع مع الزمن شيئاً فشيئاً وكل بيت تنزل به قليلاً ، وكل فترة يردمون أرضية البيوت لتعلو ، وكل ذلك من عوامل التعرية التي تزيد من ارتفاع أرضية الشوارع . وكل آثار الدنيا لا تكتشف إلا بالتنقيب ، إذن فكلمة " دمرنا " لها سند . والحق يقول عن أبنية فرعون : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ [الفجر : 10]

(149/284)

ونجد الهرم مثلاً كشاهد على قوة البناء ، وإلى الآن لم يكتشف أحد كيف تم بناء الهرم . وكيف تتماسك صخوره دون مادة كالأسمنت مثلاً ، بل يقال : إن بناء الهرم قد تم بأسلوب تفريغ الهواء ، ولا أحد يعرف كيف نقل المصريون الصخرة التي على قمة الهرم . إذن فقد كانوا على علم واسع . وإذا ما نظرنا إلى هذا العلم عمارة وآثاراً وتحنيطاً لجثث القدماء ، إذا نظرت إلى كل هذا وعلمت أن القائمين به كانوا من الكهنة المنسوبين للدين ، لتأكدنا أن أسرار هذه المسائل كلها كانت عند رجال الدين ، وأصل الدين من السماء ، وإن كان قد

حُرِّف . وهذا يؤكد لنا أن الحق هو الذي هدى الناس من أول الخلق إلى واسع العلم . ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : 137]

و" يعرشون " أي يقيمون جنات معروشات ، وقلنا من قبل : إن الزروع مرة تكون على سطح الأرض وليس لها ساق ومرة يكون لها ساق ، وثالثة يكون لها ساق لينة فيصنعون له عريشة أو كما نسميه نحن التكعيبة لتحمله وتحمل ثمرهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(150/284)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا

يَعْرِشُونَ (137) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن الضحاك في الآية قال : فانتقم الله منهم بعد ذلك فأغرقهم في اليم .

وأخرج ابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال ﴿ اليم ﴾ البحر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال ﴿ اليم ﴾ هو البحر .

قوله تعالى ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن الحسن في قوله ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ قال : هي أرض الشام .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن قتادة في قوله ﴿ مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ قال : هي أرض الشام .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الله بن شوذب في قوله ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ قال : فلسطين .

وأخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ التي باركنا فيها ﴾ قال : قرى الشام .

وأخرج ابن عساكر عن كعب الأحبار قال : إن الله تعالى بارك في الشام من الفرات إلى العريش .

وأخرج ابن عساكر عن أبي الأغبش ، وكان قد أدرك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم " أنه سئل عن البركة التي بورك في الشام أين مبلغ حده ؟ قال : أول حدوده عريش مصر ، والحد الآخر طرف التنية ، والحد الآخر الفرات ، والحد الآخر جعل فيه قبر هود النبي عليه السلام " .

(151/284)

وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن أبي سفيان قال : إن ربك قال لإِبراهيم عليه السلام : أعمر من العريش إلى الفرات الأرض المباركة ، وكان أول من اختتن وقرى الضيف .

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه قال : دمشق بناها غلام إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج إبراهيم من النار ، وكان اسم الغلام دمشق فسماها على اسمه ، وكان إبراهيم جعله على كل شيء له ، وسكنها الروم بعد ذلك بزمان .

وأخرج ابن عساكر عن أبي عبد الملك الجزري قال : إذا كانت الدنيا في بلاء وقحط كان الشام في رخاء وعافية ، وإذا كان الشام في بلاء وقحط كانت فسلطين في رخاء وعافية ، وإذا كانت فلسطين في بلاء وقحط كان بين المقدس في رخاء وعافية ، وقال : الشام مباركة

، وفلسطين مقدسة ، وبيت المقدس قدس ألف مرة .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال : قلت لأبي سلام الأسود ما نقلك من حمص إلى دمشق ؟ قال : بلغني أن البركة تضعف بها ضعفين .

وأخرج ابن عساكر عن مكحول . أنه سأل رجلاً أين تسكن ؟ قال : الغوطة .

قال له مكحول : ما يمنعك أن تسكن دمشق ؟ فإن البركة فيها مضعفة .

وأخرج ابن عساكر عن كعب قال : مكتوب في التوراة أن الشام كنز الله عز وجل من أرضه بها كنز الله من عباده ، يعني بها قبور الأنبياء إبراهيم وإسحق ويعقوب .

وأخرج ابن عساكر عن ثابت بن معبد قال : قال الله تعالى : يا شام أنت خيرتي من بلدي أسكنك خيرتي من عبادي .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي والروياني في مسنده وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه عن زيد بن ثابت قال : كنا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال " طوبى للشام . قيل له : ولم ؟ قال : أن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليهم " .

(152/284)

وأخرج البزار والطبراني بسند حسن عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إنكم ستجندون أجناداً ، جنداً بالشام ومصر والعراق واليمن . قلنا : فَخِرْ لنا يا رسول الله . قال : عليكم بالشام فإن الله قد تكفل لي بالشام " .

وأخرج البزار والطبراني بسند ضعيف عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إنكم ستجندون أجناداً . فقال رجل : يا رسول الله خِرْ لي . فقال : عليك بالشام فإنها صفوة الله من بلاده فيها خيرة الله من عباده ، فمن رغب عن ذلك فليلحق بنجدة فإن الله تكفل لي بالشام وأهله " .

وأخرج أحمد وابن عساكر عن عبد الله بن حوالة الأزدي . أنه قال : يا رسول الله خرْ لي بلداً أكون فيه . فقال " عليك بالشام ان الله يقول : يا شام أنت صفوتي من بلادي أدخل فيك خيرتي من عبادي . ولفظ أحمد . فإنه خيرة الله من أرضه يجتبي إليه خيرته من عباده ، فإن أبيتم فعليكم بيمنكم فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله " .

وأخرج ابن عساكر عن وائلة بن الأسقع " سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول : عليكم بالشام فانها صفوة بلاد الله يسكنها خيرته من عباده ، فمن أبى فليلحق بيمنه ويسق من غدره ، فإن الله تكفل لي بالشام وأهله " .

وأخرج أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن حوالة الأزدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إنكم ستجندون أجناداً بالشام ، وجنداً بالعراق ، وجنداً

باليمن . فقال الحوالي : خر لي يا رسول الله . قال : عليكم بالشام ، فمن أبى فليلحق بيمنه وليسق من غدره ، فإن الله تكفل لي بالشام وأهله " .

وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو قال : يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه مؤمن إلا لحق بالشام .

وأخرج ابن عساكر عن عون بن عبد الله بن عتبة قال : قرأت فيما أنزل الله على بعض الأنبياء : إن الله يقول : الشام كنانتي ، فإذا غضبت على قوم رميتهم منها بسهم .

(153/284)

وأخرج ابن عساكر والطبراني عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم " ستفتح على أمتي من بعدي الشام وشيكاً ، فإذا فتحها فاحتلها فأهل الشام مرابطون إلى منتهى الجزيرة ، فمن احتل ساحلاً من تلك السواحل فهو في جهاد ، ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو في رباط " .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وصححه وابن ماجة وابن عساكر عن قرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم ، لا تزال طائفة من أمتي منصورين على الناس لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة " .

وأخرج ابن عساكر عن ضمرة بن ربيعة قال : سمعت أنه لم يبعث نبي إلا من الشام ، فإن لم يكن منها أسريَ به إليها .

وأخرج الحافظ وأبو بكر النجاد في جزء التراجم عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بينا أنا نائم رأيت عمود الإِسلام احتمل من تحت رأسي ، فظننت أنه مذهوب به ، فاتبعته بصري فعمد به إلى الشام ، ألا فإن الإِيمان حين تقع الفتن بالشام " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الشام أرض المحشر والمنشر " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي أيوب الأنصاري قال : ليهاجرن الرعد والبرق والبركان إلى الشام .

وأخرج ابن أبي شيبة عن القاسم بن عبد الرحمن قال : مد الفرات على عهد عبد الله ، فكره الناس ذلك فقال : يا أيها الناس لا تكرهوا مده فإنه يوشك أن يلتمس فيه طست من ماء فلا يوجد ، وذلك حيث يرجع كل ماء إلى عنصره ، فيكون الماء وبقية المؤمنين يومئذٍ بالشام .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : أحب البلاد إلى الله الشام ، وأحب الشام إليه القدس ، وأحب القدس إليه جبل نابلس ، ليأتين على الناس زمان يتماسحونه كالحبال بينهم .

وأخرج الطبراني وابن عساكر عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " دخل إبليس العراق فقضى منها حاجته ، ثم دخل الشام فطردوه حتى بلغ بيسان ، ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط عبقرية " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال : دخل الشيطان بالمشرق فقضى قضاءه ، ثم خرج يريد الأرض المقدسة الشام فمنع ، فخرج على ساق حتى جاء المغرب فباض بيضه وبسط بها عبقرية .

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه قال : إني لأجد تردد الشام في الكتب ، حتى كأنه ليس الله حاجة إلا بالشام .

وأخرج أحمد وابن عساكر عن ابن عمر

" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا . قالوا : وفي نجدنا . وفي لفظ : وفي مشرقنا . قال : هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان . زاد ابن عساكر في رواية : وبها تسعة اعشار الشر " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر وقال : قال رسول الله صلى عليه وسلم " الخير عشرة أعشار تسعة بالشام وواحد في سائر البلدان ، والشر عشرة اعشار واحد بالشام وتسعة في سائر البلدان ، وإذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم " .

وأخرج الطبراني وابن عساكر عن عبد الله بن مسعود قال : قسم الله الخير فجعله عشرة أعشار ، فجعل تسعة اعشاره بالشام وبقيته في سائر الأرضين ، وقسم الشر فجعله عشرة أعشار ، فجعل تسعة اعشاره بالشام وبقيته في سائر الأرضين .

وأخرج ابن عساكر عن كعب الأحبار قال : نجد هذه الأرض في كتاب الله تعالى على صفة النسر فالرأس الشام ، والجناحان المشرق والمغرب ، والذنب اليمن ، فلا يزال الناس بخير ما بقي الرأس ، فإذا نزع الرأس هلك الناس ، والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان لا تبقى جزيرة من جزائر العرب إلا وفيهم مقنب خيل من الشام يقاتلونهم على الإِسلام لولاهم لكفروا .

وأخرج ابن عساكر عن إياس بن معاوية قال : مثلت الدنيا على طائر فمصر والبصرة والجناحان ، والجزيرة الجؤجؤ ، والشام الرأس ، واليمن الذنب .

(155/284)

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه قال : رأس الأرض الشام .

وأخرج ابن عساكر عن كعب قال : إني لاجد في كتاب الله المنزل : إن خراب الأرض قبل الشام بأربعين عاماً .

وأخرج ابن عساكر عن بجير بن سعد قال : تقيم الشام بعد خراب الأرض أربعين عاماً .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ستخرج نار من حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس . قلنا يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام " .

وأخرج ابن عساكر عن كعب قال : يوشك أن تخرج نار من اليمن تسوق الناس إلى الشام ، تغدوا معهم إذا غدوا ، وتقيل معهم إذا قالوا ، وتروح معهم إذا راحوا ، فإذا سمعتم بها فاخرجوا إلى الشام .

وأخرج تمام في فوائده وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي ، فاتبعته بصري فإذا هو نور ساطع فعمد به إلى الشام ، ألا وان الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام " .

وأخرج أبو الشيخ عن الليث بن سعد في قوله ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ قال : هي مصر ، وهي مباركة في كتاب الله .

وأخرج ابن عبد الحكم في تاريخ مصر ومحمد بن الربيع الجيزي في مسند الصحابة الذين دخلوا مصر عن عبد الله بن عمرو قال : مصر أطيب أرض الله تراباً وأبعده خراباً ، ولن يزال فيها بركة ما دام في شيء من الأرضين بركة .

وأخرج ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمرو قال : من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى

مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها .

وأخرج ابن عبد الحكم عن كعب الأحبار قال : من أراد أن ينظر شبه الجنة فلينظر إلى أرض مصر إذا أزهرت .

وأخرج ابن عبد الحكم عن ابن لهيعة قال : كان عمرو بن العاصي يقول : ولاية مصر جامعة لعدل الخلافة .

(156/284)

وأخرج ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاصي . . . . قال : خلقت الدنيا على خمس صور على صورة الطير برأسه وصدره وجناحيه وذنبه ، فالرأس مكة والمدينة واليمن ، والصدر الشام ومصر ، والجناح الأيمن العراق ، والجناح الأيسر السند والهند ، والذنب من ذات الحمام إلى مغرب الشمس ، وشر ما في الطير الذنب .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن نوف قال : إن الدنيا مثلت على طير فإذا انقطع جناحاه وقع ، وإن جناحي الأرض مصر والبصرة ، فإذا خربا ذهبت الدنيا .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ قال : ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم

في الأرض وما ورثهم منها .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب عن موسى بن علي عن أبيه قال : كانت بنو إسرائيل بالربع من آل فرعون ووليهم فرعون أربعمائة وأربعين سنة ، فاضعف الله ذلك لبني اسرائيل فولاهم ثمانمائة عام وثمانين عاماً . قال : وإن كان الرجل ليعمر ألف سنة في القرون الأولى ، وما يحتلم حتى يبلغ عشرين ومائة سنة .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : لو أن الناس إذ ابتلوا من سلطانهم بشيء صبروا ودعوا الله لم يلبثوا أن يرفع الله ذلك عنهم ، ولكنهم يفزعون إلى السيف فيوكلون إليه ، والله ما جاؤوا بيوم خير قط ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الحسن في الآية قال : ما أوتيت بنو اسرائيل ما أوتيت إلا بصبرهم ، وما فزعت هذه الأمة إلى السيف قط فجاءت بخير .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال : إذا جاء أمر لا كفاء لك به فاصبر وانتظر الفرج من الله .

(157/284)

وأخرج أحمد عن بيان بن حكيم قال : جاء رجل إلى أبي الدرداء فشكا إليه جاراً له قال : اصبر فإن الله سيجيرك منه ، فما لبث أن أتى معاوية فحباه وأعطاه ، فأتى أبا الدرداء فذكر ذلك له قال : إن ذلك لك منه جزاء .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ قال : إن الله تعالى لا يملي للكافر إلا قليلاً حتى يوبقه بعمله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ قال : يبنون .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ قال : يبنون البيوت والمساكن ما بلغت ، وكان عنبهم غير معروش . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(158/284)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وَأَوْرَثْنَا " يتعدى لاثنين ، لأَنَّه قبل النَّقلِ بالهمزة متعدٍّ لواحد نحو : وَرِثْتُ أبي ،

فبالنَّقْلِ اكتسب آخَرَ .

فأولهما : القومَ والَّذينَ وصلتُه في محل نصب نعتاً له .

وأما المفعولُ الثَّانِي ففيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أظهرها : أنَّهُ " مشارِقَ الأرضِ ومغَاربَهَا " .

وفي قوله : ﴿ التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ على هذا وجهان : أحدهما : أنَّه نعتٌ لـ : مشارق ومغارب .

والثاني : أنَّهُ نعتٌ للأرض ، وفيه ضعفٌ من حيث الفصلُ بالمعطوف بَيْنَ الصفةِ والموصوفِ .

وهو نظيرُ قولك : قام غلامُ هندٍ وزيدٌ العاقلةِ .

وقال أبو البقاءِ هنا : وفيه ضعفٌ ؛ لأنَّ فيه العطفَ على الموصوفِ قبل الصِّفَةِ .

وهذا سبْقُ لسان أو قلم ، لأنَّ العطفَ ليس على الموصُوفِ ، بل على ما أضيف إلى الموصوف .

والثاني من الأوجه الثلاثة : أن المفعول الثاني هو : ﴿ التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أي : أورثناهم الأرض التي باركنا فيها .

وفي قوله تعالى : ﴿ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا ﴾ وجهان : أحدهما : هو منصوبٌ على الظَّرف بـ " يُسْتَضْعَفُونَ " .

والثاني : أنَّ تقديره : يُسْتَضْعَفُون في مشارق الأرض ومغاربها فلمَّا حُذِفَ الحرفُ وصل الفعلُ بنفسه ؛ فنصب ، هكذا قال أبو البقاءِ .

(159/284)

قال شهابُ الدِّين : ولا أدري كيف يكونان وجهَيْن ، فإنَّ القول بالظَّرفية هو عينُ القولِ بكونه على تقدير في ، لأنَّ كلَّ ظرف مقدَّرٌ بـ " في " فكيف يجعل شيئاً واحد شيئَين ؟

الوجه الثالث : أنَّ المفعول الثَّاني محذوفٌ ، تقديره : أورثناهم الأرضَ ، أو الملكَ ، أو نحوه ويُسْتَضْعَفُونَ يجوز أن يكون على بابه من الطَّلبِ ، أي : يُطلب منهم الضَّعْفَ مجازاً وأن يكون استفعل بمعنى : وَجَدَهُ ذَا كَذَا ، والمُرَادُ بالأَرْضِ : أَرَضُ الشَّام .

وقيل : أرض مصر ، لأنها أرض القبط .

وقيل : مصر والشَّام ، ومشارقها ، ومغاربها جهات المشرق ، والمغرب ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بإخراج الزَّرع ، والثِّمار ، والأنهار .

وقيل : المرادُ جملة الأرض ؛ لأنَّه خرج من بني إسرائيل داود وسليمان وقد ملكا الأَرْضَ .

قوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى ﴾ .

قرأ الحسنُ ورُويت عن أبي عمرو وعاصم كَلِمَات بالجمع .

قال الزمخشر] : ونظيره : ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى ﴾ [النجم : 18] .

يعني في كون الجمع وُصِفَ بمُفْرِدٍ .

قال أبو حيَّان : ولا يتعيَّن في الكُبْرَى ما ذكر لجواز أن يكون التقدير : لَقَدْ رَأى الآية الكُبْرَى ، فهو وصفُ مُفْرِدٍ لا جمعٍ ، وهو أبلغُ .

قال شهابُ الدِّين : في بعض الأماكن يتعيَّنُ ما ذكره الزمخشريُّ نحو ﴿ مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 18] وهذه الآية ، فلذلك اختار فيها ما يتعيَّن في غيرها والمرادُ بالكلمةِ الحسنى : قوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض ﴾ [القصص : 5] إلى قوله : ﴿ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ [القصص : 6] والحُسْنَى : تأنيثُ الأحسنِ صفة للكلمة .

وقيل : معنى تمام الكلمةِ : إنجاز الوعْدِ الذي تقدَّم بغهلاك عدوهم .

ومعنى : " تَمَّتْ " أي : مَضَتْ واستمرَّتْ من قولهم : تَمَّ عليه الأمر إذَا مَضَى عليه .

(160/284)

قوله بمَا صَبَرُوا متعلّق بـ " تَمَّتْ " والبَاءُ للسببيَّةِ و " مَا " مصدريةٌ ، أي : بسبب صبرهم ومتعلَّقُ الصَّبرِ محذوفٌ أي : على أذَى فرعون وقومه .

قوله : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ ﴾ .

يجوزُ ههنا أوجه : أحدها : أن يكون فِرْعَونُ اسم كان ، ويَصْنَعُ خبرٌ مقدم ، والجملةُ الكونِيَّة صلةُ " ما " والعائد محذوف ، والتقديرُ ودَمَّرنا الذي كان فرعون يَصْنَعُهُ ، واستضعف أبُو البقاءِ هذا الوجه .

فقال : لأنَّ يَصْنَعُ يَصْلُحُ أن يعمل في فِرْعَوْن فلا يُقَدَّر تأخيره ، كما لا يُقدَّر تأخيرُ الفعل في قولك : قام زيدُ .

يعني : أنَّ قولك : " قَامَ زَيْدٌ " يجب أن يكونَ من باب الفِعْلِ والفاعل ، ولا يجوز أن يُدَّعى فيه أنَّ " قام " فعلٌ وفاعلٌ ، والجملةُ خبرٌ مقدمٌ ، وزيد : مبتدأ مؤخَّرٌ لأجل اللَّبس بباب الفاعل ، فكذا هنا ؛ لأنَّ يَصْنَعُ يَصحُّ أن يتسلَّطَ على فِرْعَوْنَ فيرفعهُ فاعلاً فلا يُدَّعَى فيه التقديم ، وقد سبقه إلى هذا مكيٌّ .

وقال : ويلزم من يجيز هذا أن يُجيزَ : يقومُ زيدٌ ، على الابتداء والخبر ، والتَّقديم والتَّأخير ، ولَمْ يُجزْهُ أحَدٌ .

وقد تقدَّمت هذه المسألةُ وما فيها ، وأنَّهُ هل يجوز أن يكون من باب التَّنازع أم لا ؟ وهذا الذي ذكراه وإن كان مُتَخَيَّلاً في بادئ الرأي ، فإنه كل باب الابتداء ، والخبر ، ولكن الجَواب عن ذلك : أنَّ المانع في " قَامَ زيدٌ " هو اللَّبس ، وهو مفقودٌ هَهُنَا .

الثاني : أنَّ اسمَ "كان " ضميرٌ عائدٌ على " مَا " الموصولة ، ويَصْنَعُ مسندٌ لـ " فِرْعَوْن " والجُملةُ خبر "كان " والعائدُ محذوف أيضاً ، والتَّقديرُ : ودمَّرْنَا الذي كان هو يصنعه

فرعون .

الثالث : أن تكون "كان " زائدةً و" مَا " مصدرية والتقديرُ : ودمَّرْنَا ما يصنع فرعون .

أي : صُنْعَهُ ، ذكره أبُو البقاءِ .

(161/284)

قال شهابُ الدِّين : وينبغي أن يجيءَ هذا الوجهُ أيضاً ، وإن كانت " مَا " موصولة اسمية ، على أنَّ العائدَ محذوفٌ تقديرُهُ : ودَمَّرْنَا الذي يصنعه فرعون .

الرابع : أن " ما " مصدرية أيضاً و"كان " لَيْسَتْ زائدةً بن ناقصة ، واسمُهَا ضميرُ الأمر والشَّأن ، والجملةُ من قوله يَصْنعُ فرعَونُ خبرُ "كان " فهي مفسِّرة لضمير .

وقال أبُو البقاءِ هنا : وقيل : ليست "كان " زائدةً ، ولكن "كان النَّاقِصَة لا يُفْصَل بها بين " ما " وبين صلتها ، وقد تقدَّم ذلك في قوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : 10] وعلى هذا القول تحتاج "كان " إلى اسم .

ويضعُف أن يكون اسمُها ضمير الشَّأنِ ؛ لأَّ الجُلة التي بعدها صلةُ " ما " فلا تَصْلُح للتَّفسير ، فلا يحصُل بها الإيضاحُ ، وتمامُ الاسم ، والمفسِّر يجبُ أن يكون مستقلاً ، فتدعو الحَاجَةُ إلى أن يجعل " فرعون " اسم "كان " وفي : "يَصْنَعُ " ضمير يعود عليه .

قال شهابُ الدِّين بعد فرض كونها ناقصةً : يلزم أن تكون الجملة من قوله : يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ خبراً لـ "كان" ويمتنع أن تكون صلةً لـ "ما" .

وقوله : فتدعُوا الحاجةُ أي : ذلك الوجُه الذي بدأت به ، واستضعفه ، وهو الذي احتاج إليه في هذا المكان فراراً من جعل الاسم ضمير الشَّأن ، لمَّا تخيَّلهُ مانعاً ، والتَّدميرُ : الإهلاكُ .

قال الليث : الدَّمَارُ : الهَلاك التَّام يقال : دَمَرَ القومُ يَدمُرُونَ دماراً : أي : هلكوا وهو مُتَعَدٍّ بنفسه ، فأمَّا قوله : ﴿ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [محمد : 10] بمفعولُه محذوفٌ ، أي : خَرَّب عليهم منازلهم وبُيُوتَهم .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ أي : في أرض مصر من العمارات .

قوله : "يَعْرِشُونَ" قرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم هنا وفي النَّحل ﴿ يَعرُشُونَ ﴾ بضم الرَّاءِ .

(162/284)

والباقون بالكسر فيهما ، وهما لغتانِ : "عَرَشَ الكرمَ يَعْرِشُهُ ويَعْرُشُهُ .

والكَسْرُ لغة الحِجَازِ .

قال اليَزِيديُّ : وهي أفصحُ .

وقال مُجاهدٌ : ما كانُوا يبنون من القصور والبيوت .

وقُرِئ شاذّاً بالغين المعجمةِ والسّين المهملة ، من غَرْس الأشجَار .

وقال الزمخشري وبلغني أنه قرأ بعض الناس يعرشون من عرش وما أظُنّه إلاّ تصحيفاً .

وقرأ ابن أبي عبْلَةَ يُعَرِّشُونَ بضمِّ الياء وفتحِ العين ، وكسرِ الرَّاءِ مشدَّدَةً على المُبالغة والتَّكثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 289 . 292 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137) ﴾

مَنْ صبر على مقاساة الذُّلِّ في الله وضع الله على رأسه قلنسوة العرفان ، فهو العزيز سبحانه ، لا يُشْمِتُ بأوليائه أعداءهم ، ولا يضيع من جميل عهده جزاءَهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 561 ﴾

فصل

قال البيضاوى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ بتغيير الناس عليك ودعوتهم إلى مخالفتك . ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ عطف على يفسدوا ، أو جواب الاستفهام بالواو كقول الحطيئة :

أَلَمْ أَكُ جَارَكُم وَيَكُونُ بَيْنِي . . . وَبَيْنَكُمُ المَوَدَّةُ وَالإِخَاءُ

على معنى أيكون منك ترك موسى ويكون منه تركه إياك . وقرىء بالرفع على أنه عطف على أتذر أو استئناف أو حال . وقرىء بالسكون كأنه قيل : يفسدوا ويذرك كقوله تعالى : ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ ﴿ وَءَالِهَتَكَ ﴾ معبوداتك قيل كان يعبد الكواكب . وقيل صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه ولذلك قال : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ وقرىء "إلاهتك" أي عبادتك . ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءهُمْ ﴾ كما كنا نفعل من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده . وقرأ ابن كثير ونافع " سنقتل " بالتخفيف . ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون ﴾ غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا .

﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا ﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه

تسكيناً لهم . ﴿ إِنَّ الأرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ تسلية لهم وتقرير للأمر بالاستعانة بالله والتثبت في الأمر . ﴿ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وعد لهم بالنصرة وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له . وقرىء و﴿ العاقبة ﴾ بالنصب عطف على اسم إن واللام في ﴿ الأرض ﴾ تحتمل العهد والجنس .

(164/284)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي بنو إسرائيل . ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿ وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ بإعادته . ﴿ قَالَ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأرض ﴾ تصريحاً لما كنى عنه أولاً لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك ، ولعله أتى بفعل الطمع لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم . وقد روي أن مصر إنما فتح لهم في زمن داود عليه السلام . ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فيرى ما تعملون من شكر وكفران وطاعة وعصيان فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين ﴾ بالجدوب لقلة الأمطار والمياه ، والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به ، ثم اشتق منها فقيل أسنت القوم إذا قحطوا . ﴿ وَنَقْصٍ مّن الثمرات ﴾ بكثرة العاهات . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ لكي يتنبهوا

على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم فيتعظوا ، أو ترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله ويرغبوا فيما عنده .

(165/284)

﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الحسنة ﴾ من الخصب والسعة . ﴿ قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ لأجلنا ونحن مستحقوها . ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ جدب وبلاء . ﴿ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ﴾ يتشاءموا بهم ويقولوا : ما أصابتنا إلا بشؤمهم ، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة ، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل التماسك سيما بعد مشاهدة الآيات ، وهم لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي ، وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها ، وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات ونكر السيئة ، وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع . ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله ﴾ أي سبب خيرهم وشرهم عنده وهو حكمته ومشيئته ، أو سبب شؤمهم عند الله وهو أعمالهم المكتوبة عنده ، فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم . وقرىء "إنما طيرهم" وهو اسم الجمع وقيل هو جمع . ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى أو من شؤم أعمالهم .

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا ﴾ أصلها ما الشرطية ضمت إليها ما المزيدة للتأكيد ، ثم قلبت ألفها هاء استثقالاً للتكرير . وقيل مركبة من مه الذي يصوت به الكاف وما الجزائية ومحلها الرفع على الابتداء أو النصب بفعل يفسره . ﴿ تَأْتِنَا بِهِ ﴾ أي أيما شيء تحضرنا تأتنا به . ﴿ مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ بيان لمهما ، وإنما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا : ﴿ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا ، والضمير في به وبها لمهما ذكره قبل التبيين باعتبار اللفظ وأنثه بعده باعتبار المعنى .

(166/284)

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان ﴾ ماء طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل . وقيل الجدري . وقيل الموتان . وقيل الطاعون . ﴿ والجراد والقمل ﴾ قيل هو كبار القردان ، وقيل أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها . ﴿ والضفادع والدم ﴾ روي : أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته ، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم ، وكانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة ، وركد على أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها ، ودام ذلك عليهم أسبوعاً فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك ، فدعا الله فكشف عنهم ونبت لهم من

الكلأ والزرع ما لم يعهد مثله ولم يؤمنوا ، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زروعهم وثمارهم ، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب ففزعوا إليه ثانياً فدعا وخرج إلى الصحراء ، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا ، فسلط الله عليهم القمل فأكل ما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصها ، ففزعوا إليه فرفع عنهم فقالوا : قد تحققنا الآن أنك ساحر ، ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه ، وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي ، وأفواههم عند التكلم ففزعوا إليه وتضرعوا ، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم ثم نقضوا العهود ، ثم أرسل عليهم الدم فصارت مياههم دماً حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء ، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه . وقيل سلط الله عليهم الرعاف . ﴿ ءايات ﴾ نصب على الحال . ﴿ مّفَصَّلَاتٍ ﴾ مبينات لا تشكل على عاقل أنها آيات الله ونقمته عليهم ، أو مفصلات لامتحان أحوالهم إذ كان بين كل اثنتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة أسبوعاً ، وقيل إن موسى لبث فيهم بعد ما غلب

السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل . ﴿ فاستكبروا ﴾ عن الإيمان . ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز ﴾ يعني العذاب المفصل ، أو الطاعون الذي أرسله الله عليهم بعد ذلك . ﴿ قَالُواْ يَا موسى ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ بعهده عندك وهو النبوة ، أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك ، وهو صلة لادع أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عنك ، أو متعلق بفعل محذوف دل عليه التماسهم مثل اسعفنا إلى ما نطلب منك بحق ما عهد عندك أو قسم مجاب بقوله : ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إسراءيل ﴾ أي أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ولنرسلن .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بالغوه ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون فيه أو مهلكون ، وهو وقت الغرق أو الموت . وقيل إلى أجل عينوه لإيمانهم . ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ جواب لما أي فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث من غير تأمل وتوقف فيه .

﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ فأردنا الانتقام منهم . ﴿ فأغرقناهم فِي اليم ﴾ أي البحر الذي لا يدرك قعره . وقيل لجته . ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أي كان إغراقهم

بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها . وقيل الضمير للنقمة المدلول عليها بقوله : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ .

(168/284)

﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ بالاستبعاد وذبح الأبناء من مستضعفيهم . ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ يعني أرض الشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها . ﴿ التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالخصب وسعة العيش . ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ الحسنى على بَنِى إِسْرءيلَ ﴾ ومضت عليهم واتصلت بالانجاز عدته إياهم بالنصرة والتمكين وهو قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ وقرىء "كلمات ربك" لتعدد المواعيد ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بسبب صبرهم على الشدائد . ﴿ وَدَمَّرْنَا ﴾ وخربنا . ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ من القصور والعمارات . ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ من الجنات أو ما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان وقرأ ابن عامر وأبو بكر هنا وفي "النحل" ﴿ يَعْرِشُونَ ﴾ بالضم . وهذا آخر قصة فرعون وقومه . انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 49 . 54 ﴾

(169/284)

وقال الخطيب الشربينى :

اعلم أنّ فرعون بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرّض لموسى لأنه كان كلما رأى موسى عليه السلام خافه أشدّ الخوف فلهذا السبب لم يتعرّض له إلا أن القوم لم يعرفوا ذلك فقالوا له : ﴿ أتذر موسى وقومه ﴾ كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى:

﴿ وقال الملأ ﴾ أي : الأشراف ﴿ من قوم فرعون ﴾ له ﴿ أتذر ﴾ أي : تترك ﴿ موسى وقومه ﴾ من بني إسرائيل ﴿ ليفسدوا في الأرض ﴾ أي : أرض مصر وأراد بالفساد فيها أنهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قولهم : ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ أي : معبوداتك أي : فلا يعبدك ولا يعبدها ، قال ابن عباس : كان لفرعون بقرة حسنة يعبدها وكان إذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامري عجلاً ، وقال السدي : كان فرعون اتخذ لقومه أصناماً وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم : أنا ربكم ورب هذه الأصنام وذلك قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .

فإن قيل : إنّ فرعون إن لم يكن كامل العقل لم يجز في حكمة الله تعالى إرسال الرسل إليه وإن كان عاقلاً لم يجز أن يعتقد في نفسه كونه خالق السموات والأرض لأنّ فساد معلوم بالضرورة ؟

أجيب : بأن الأقرب أن يكون دهرياً منكر الوجود الصانع وكان يقول : مدبر هذا السفلي هو الكواكب واتخذ أصناماً على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول في نفسه : إنه المطاع المخدوم في الأرض ولهذا قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ﴿ قال ﴾ فرعون مجيباً لملئه حين قالوا له : أتذر موسى وقومه ﴿ سنقتل أبناءهم ﴾ أي : المولودين ﴿ ونستحيي نساءهم ﴾ أي : نتركهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم إنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكك على يديه . وقرأ نافع وابن كثير بفتح النون وسكون القاف وضم التاء مخففة والباقون بضم النون وفتح القاف وكسر التاء مشدّدة ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ أي : غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا ولا أثر لغلبة موسى لنا في هذه المناظرة فأعادوا عليهم القتل فشكت بنو إسرائيل لموسى فأمرهم بالصبر كما قال تعالى:

﴿ قال موسى لقومه ﴾ أي : بني إسرائيل ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ أي : استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء فإن الله تعالى هو الكافي لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم ﴿ إنّ الأرض ﴾ أي : أرض مصر وإن كانت

الأرض كلها تعالى لأنّ الكلام فيها ﴿ يورثها من يشاء من عباده ﴾ وفي هذا تسلية لهم وتقريراً للأمر بالاستعانة بالله عز وجل والتثبت في الأمر وقوله تعالى : ﴿ والعاقبة ﴾ أي : المحمودة ﴿ للمتقين ﴾ لأنّ الله تعالى وعدهم بالنصر وتذكير لما وعدهم به من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له ولما سمع بنو إسرائيل ما قال فرعون من توعده لهم بالقتل مرّة ثانية .

(171/284)

﴿ قالوا ﴾ لموسى ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ﴾ أي : بالرسالة وذلك إن بني إسرائيل كانوا مستضعفين في يد فرعون وقومه وكان يأخذ منهم الجزية وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة إلى نصف النهار ويمنعهم من الترفه والتنعم ويقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم فلما جاء موسى بالرسالة وجرى له ما جرى شدد فرعون في استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار بلا أجر وأراد أن يعيد القتل عليهم فقالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ﴿ ومن بعد ما جئتنا ﴾ أي : بالرسالة .

فإن قيل : ظاهر هذا الكلام يوهم أن بني إسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر أجيب : عن هذا الإيهام بأنّ موسى عليه السلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من

الشدّة والمشقة فظنوا أنّ ذلك يكون على الفور فلما رأوا أنّ المشقة قد زادت عليهم قالوا ذلك أي : فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام مجيباً لهم : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ﴾ أي : فرعون وقومه ﴿ ويستخلفكم في الأرض ﴾ أي : يجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم ، قال البيضاوي : ولعله أتى بفعل الطمع أي : بعسى لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم .

وقد روي أنّ مصر إنما فتح لهم في زمن داود عليه السلام ثم سبب عن الاستخلاف قوله تعالى مذكراً لهم محذراً من سطواته تعالى : ﴿ فينظر ﴾ أي : وأنتم خلفاء متمكنون ﴿ كيف تعملون ﴾ أي : يعاملكم معاملة المختبر وهو في الأزل أعلم بما تعملون منكم بعد إيقاعكم للأعمال ولكنه يفعل ذلك لتقوم الحجة عليكم على مجاري عاداته .

روي عن عمرو بن عبيد أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان فطلب زيادة لعمرو فلم يجد فقرأ عمرو هذه الآية ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال : قد بقي فينظر كيف تعملون .

(172/284)

﴿ ولقد أخدنا آل فرعون ﴾ أي : فرعون وقومه ﴿ بالسنين ﴾ أي : بالقحط والجوع سنة بعد سنة فإنّ السنة تطلق بالغلبة على ذلك كما تطلق على العام ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "اللهمّ اجعلها عليهم كسني يوسف" ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ أي : بالعاهات ، قال قتادة : أمّا السنين فلأهل البوادي وأمّا نقص الثمرات فلأهل الأمصار ، وعن كعب يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ أي : يتعظون فيؤمنون ويرجعون عما هم عليه من الكفر والمعاصي لأنّ الشدّة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله تعالى من الخيرات والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه ﴾ (الإسراء ،)

وقوله تعالى : ﴿ وإذا مسه الشرّ فذو دعاء عريض ﴾ (فصلت ،)

وقال سعيد بن جبير : عاش فرعون أربعمائة سنة لم ير مكروهاً في نفسه ثلثمائة وعشرين سنة ولو أصابه في تلك المدّة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية ثم بين سبحانه وتعالى أنهم عند نزول تلك المحن عليهم يقدمون على ما يزيد في كفرهم ومعصيتهم فقال:

﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ قال ابن عباس : العشب والخصب والثمار والمواشي والسعة في الرزق والعافية والسلامة ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي : نحن مستحقوه على العادة التي جرت من كثرة نعمتنا وسعة أرزاقنا ولم يعلموا أنه من الله تعالى فيشكروه على أنعامه ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي : قحط وجدب ومرض وبلاء ورأوا ما يكرهونه في أنفسهم ﴿ يطيروا ﴾ يتشاءموا وأصله يتطيروا ﴿ بموسى ومن معه ﴾ من المؤمنين ، ويقولون : ما أصابنا إلا بشؤمهم وهذا إغراق في وصفهم في الغباوة والقساوة فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل التماسك سيما بعد مشاهدة الآيات وهي لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتوّاً وانتهاكاً في البغي وإنما عرّف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بأحداثها بالذات ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد إلا بالتبع ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أي : سبب خيرهم وشرهم عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته أو سبب شؤمهم عند الله تعالى وهو أعمالهم المكتوبة عنده فإنها التي ساقت إليهم ما يسوءهم ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي : إنّ ما يصيبهم من الله تعالى وذلك لأنّ أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وتقديره : والحق أنّ الكل من الله تعالى لأنّ كل موجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته والواجب لذاته واحد وما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته وبهذا الطريق يكون الكل من الله تعالى فإسناده إلى غير الله تعالى يكون

جهلاً بكمال الله تعالى . H

﴿ وقالوا ﴾ أي : فرعون وقومه القبط لموسى عليه السلام ﴿ مهما تأتنا به ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من آية ﴾ أي : من عند ربك بيان لمهما وإنما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا : ﴿ لتسحرنا بها ﴾ أي : لتصرفنا عما نحن عليه من الدين ﴿ فما نحن لك بمؤمنين ﴾ أي : بمصدّقين .

(174/284)

تنبيه : اختلف في أصل مهما فقيل : أصلها ما ما الأولى ما الشرطية والثانية ما الزائدة ضمت إليها للتأكيد ثم قلبت ألفها هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين فصارت مهما هذا قول الخليل والبصريين ، وقيل : أصلها مه التي بمعنى اكفف وما الجزائية كأنهم قالوا : اكفف ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فهو كذا وكذا هذا قول الكسائي فهي مركبة على هذين القولين والمعتمد الذي جرى عليه ابن هشام وغيره أنها بسيطة لأنّ دعوى التركيب لم يقم عليها دليل ووزنها فعلى وألفها للإلحاق أو للتأنيث والضميران في به وبها راجعان لمهما إلا أن أحدهما ذكر باعتبار اللفظ والثاني أنث باعتبار المعنى لأنه في معنى الآية ونحوه قول زهير:

*ومهما يكن عند امرىء من خليقة ** وإذ خالها تخفى على الناس تعلم*

قال في الكشاف : وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرّفها من لا يد له في علم العربية فيضعها في غير موضعها ويحسب أنها بمعنى متى ما ويقول : مهما جئتني أعطيتك قال ابن عباس : إنّ القوم لما قالوا مهما تأتنا به من آية من ربك فهي عندنا من باب السحر ونحن لا نؤمن بها البتة وكان موسى عليه السلام رجلاً حديداً فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله تعالى له فقال تعالى:

(175/284)

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ وقال سعيد بن جبير : لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوباً أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادي على الشر فتابع الله تعالى عليهم الآيات فأخذهم أوّلاً بالسنين وهو القحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال : يا رب إنّ عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا وإنّ قومه قد نقضوا العهد فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله تعالى عليهم الطوفان وهو الماء فأرسل الله تعالى المطر من السماء وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء في بيوت بني إسرائيل

شيء وركب ذلك الماء على أرضهم فلم يقدروا أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت حتى كان الرجل منهم لا يرى شمساً ولا قمراً ولا يستطيع الخروج من داره فصرخوا إلى فرعون واستغاثوا به فأرسل إلى موسى عليه السلام فقال : اكشف عنا العذاب فقد صار بحراً واحداً فإن كشف هذا العذاب آمنا بك فأزال الله تعالى عنهم المطر وأرسل الرياح فجففت الأرض وخرج من النبات ما لم ير مثله قط فقالوا : هذا الذي جزعنا منه خير لنا لكنا لم نشعر فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل ، وقيل : المراد بالطوفان الجدري وهو بضم الجيم وفتح الدال وبفتحهما قروح في البدن تنفط وتنضح ، وقيل : هو الموتان وهو بضم الميم موت في الماشية ، وقيل : هو الطاعون فنكثوا العهد ﴿ و ﴾ لم يؤمنوا وأقاموا شهراً في عافية فأرسل الله تعالى عليهم ﴿ الجراد ﴾ فأكل النبات والثمار وأرواق الشجر حتى كان يأكل الأبواب وسقوف البيوت ومسامير الأبواب من الحديد وابتلي الجراد بالجوع فكانت لا تشبع ولم يصب بني إسرائيل شيء من ذلك وعظم الأمر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس ووقع بعضها على بعض في الأرض

(176/284)

ذراعاً

فضجوا من ذلك وقالوا : يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك فأعطوه عهد الله وميثاقه فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ، وفي الخبر مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم ، ويقال : إنّ موسى عليه السلام برز إلى الفضاء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من حيث جاءت ، وقيل : أرسل الله تعالى ريحاً فاحتمل الجراد فألقاه في البحر وكان قد

(177/284)

بقي من زرعهم وغلاتهم بقية فقالوا : قد بقي لنا ما يكفينا فما نحن بتاركي ديننا ﴿ و ﴾ لم يؤمنوا وأقاموا أشهراً في عافية وعادوا إلى أعمالهم الخبيثة فأرسل الله تعالى عليهم ﴿ القمل ﴾ واختلفوا في القمل ، فعن ابن عباس أنه السوس الذي يخرج من الحنطة ، وعن قتادة أنه أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها . وعن عكرمة أنه الحمنان وهو ضرب من القراد ، وعن عطاء القمل المعروف فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه ، وكان أحدهم يأكل طعاماً فيمتلىء قملاً ، وكان أحدهم

يخرج عشرة أجربة إلى الرحا فلا يردّ منها إلا شيئاً يسير ، وعن سعيد بن جبير كان إلى جنبهم كثيب أعفر فضربه به موسى عليه السلام بعصاه فصار قملاً فأخذت أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدري ومنعهم النوم والقرار فصاحوا وصرخوا هم وفرعون إلى موسى عليه السلام وقال : إنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى فرفع الله القمل عنهم بعد ما أقام عليه سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا : ما كنا أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم جعل الرمل دواب ﴿ و ﴾ لم يؤمنوا فدعا موسى عليه السلام عليهم بعد ما أقاموا شهراً في عافية فأرسل الله تعالى عليهم ﴿ الضفادع ﴾ فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحدهم عن ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس في الضفادع إلى رقبته ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه وكان يثب في قدورهم فيفسد عليهم طعامهم ويطفىء نيرانهم وكان أحدهم يضطجع فيركبه الضفدع فيكون عليه ركاماً حتى لا يستطيع أن ينصرف إلى شقه الآخر ويفتح فاه إلى أكلة فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه ولا يعجن عجيناً ولا يفتح قدراً إلا امتلأت ضفادع ، وعن ابن عباس أنّ الضفادع كانت برّية فلما أرسلها الله تعالى إلى آل فرعون سمعت فأطاعت فجعلت تلقي نفسها في القدور وهي تغلي وفي التنانير

وهي تفور فأثابها الله تعالى بحسن طاعتها برد الماء فلقوا منها أذى شديداً فشكوا إلى موسى عليه السلام وقالوا : ارحمنا هذه المرّة فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بأن أماتها وأرسل الله المطر والريح فاحتملها إلى البحر بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ثم نكثوا العهد ﴿ و ﴾ لم يؤمنوا وعادوا لكفرهم وأعمالهم الخبيثة فدعا عليهم موسى بعد ما أقاموا شهراً في عافية فأرسل الله تعالى عليهم ﴿ الدم ﴾ فصارت مياههم كلها دماً فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه ماء عبيطاً أحمر فشكوا إلى فرعون وقالوا : ليس لنا شراب ، فقال : إنه سحركم ، فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا دماً عبيطاً وكان فرعون لعنه الله تعالى يجمع بين القبطيّ والإسرائيليّ على الإناء الواحدة فيكون ما يلي الإسرائيليّ ماء وما يلي القبطيّ دماً ويقومان إلى الجرّة فيها الماء فيخرج للإسرائيلي ماء وللقبطيّ دم حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتي للمرأة من بني إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول : اسقيني من مائك فتصبّ لها من قربتها فيعود في الإناء دماً حتى كانت تقول : اجعليه في فيك ثم مجيه في فيّ فتأخذ في فيها ماء وإذا مجته في فيها صار دماً واعترى فرعون العطش حتى أنه كان ليضطرّ إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها دماً فمكثوا على ذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم فأتوا موسى وشكوا إليه ما يلقونه

وقالوا : ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا موسى عليه السلام ربه فكشف عنهم ، وقيل : الدم الذي سلط عليهم هو الرعاف ، وقوله تعالى : ﴿ آيات ﴾ نصب على الحال ﴿ مفصلات ﴾ أي : مبينات لا تشكل على عاقل إنها آيات الله تعالى ونقمته عليهم أو مفصلات لامتحان أحوالهم إذ كان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة أسبوعاً كما مرّت الإشارة إلى

(179/284)

ذلك وقيل : إنّ

موسى عليه السلام لبث فيهم بعد ما غلب السحرة وآمنوا به عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل ﴿ فاستكبروا ﴾ عن الإيمان فلم يؤمنوا ﴿ وكانوا ﴾ أي : فرعون وقومه ﴿ قوماً مجرمين ﴾ أي : كافرين .

﴿ ولما وقع عليهم الرجز ﴾ أي : نزل بهم العذاب وهو ما ذكره الله تعالى من الطوفان وما بعده ، وقال سعيد بن جبير : الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدّمت فنزل بهم الطاعون فمات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفاً وتركوا غير مدفونين ، قال الإمام الرازي : والقول الأوّل أقوى لأنّ لفظ الرجز مفرد محلى بالألف واللام

فينصرف إلى المعهود السابق وههنا المعهود السابق هو الأنواع الخمسة التي تقدّم ذكرها وأمّا غيرها فمشكوك فيه فحمل اللفظ على المعلوم أولى من حمله على المشكوك فيه ، وعن أسامة بن زيد : الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل وعلى من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك ﴾ ولم يقولوا ربنا كبراً وعتواً ﴿ بما عهد عندك ﴾ أي : بعهده عندك وهو النبوة وسميت عهداً لأن الله تعالى عهد أن يكرم النبيّ وهو عهد أن يستقل بأعبائها أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك به في آياتك والباء إمّا أن تتعلق بقوله : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ على وجهين : أحدهما : أسعفنا إلى ما نطلب منك من الدعاء لك بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهده عندك وإمّا أن يكون قسماً مجاباً بقوله تعالى : ﴿ لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك ﴾ أي : أقسمنا بعهد الله تعالى عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك ﴿ ولنرسلنّ معك بني إسرائيل ﴾ أي : لنصدّقنك بما جئت به ولنخلين بني إسرائيل ليذهبوا حيث شاؤوا .

(180/284)

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز ﴾ أي : بدعاء موسى عليه السلام ﴿ إلى أجل هم بالغوه ﴾ أي : إلى حدّ من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدّم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله وهو وقت إهلاكهم بالغرق في اليمّ وقوله تعالى : ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ جواب لما أي : فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث من غير توقف وتأمّل فيه .

فإن قيل : إنّ الله تعالى علم من حال هؤلاء أنهم لا يؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة في تواليها عليهم وإظهار الكثير منها ؟

أجيب : بأنّ الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل قال تعالى:

﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أي : كافأناهم على سوء صنيعهم وأصل الانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب لأنه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرّات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم وبلغوا الأجل الذي أجل لهم انتقم منهم بأن أهلكهم كما قال تعالى : ﴿ فأغرقناهم في اليمّ ﴾ أي : في البحر الذي لا يدرك قعره ، وقيل : هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم لأنّ المنتفعين به يقصدونه قال الأزهريّ : ويقع اليمّ على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فاقذفيه في اليمّ ﴾ (طه ،)

والمراد نيل مصر وهو عذب ، وإغراقهم ﴿ بأنهم ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وصدق رسولنا ﴿ وكانوا عنها ﴾ أي : الآيات ﴿ غافلين ﴾ أي : لا يتدبرونها ، وقيل : الضمير في عنها يرجع للنقمة التي دل عليها قوله تعالى : ﴿ انتقمنا ﴾

أي : وكانوا عن النقمة قبل حلولها غافلين .

فإن قيل : الغفلة ليست من فعل الإنسان ولا تحصل باختياره فكيف جاء الوعيد على الغفلة أجيب : بأنّ المراد بالغفلة هنا الإعراض عن الآيات وعدم الالتفات إليها فهم أعرضوا عنها حتى صاروا كالغافلين عنها .

فإن قيل : أليس قد ضموا إلى التكذيب والغفلة معاصي كثيرة فكيف يكون الانتقام بهذين دون غيرهما ؟

(181/284)

أجيب : بأنه ليس في بيان أنه تعالى انتقم منهم بهذين دلالة على نفي ما عداهما . قال الرازي : والآية تدل على أنّ الواجب في الآيات النظر فيها فلذلك ذمّهم بأنهم غفلوا عنها وذلك يدل على أنّ التقليد طريق مذموم ولما بين تعالى إهلاك القوم بالغرق على وجه العقوبة بين تعالى ما فعله بالمؤمنين من الخيرات وهو أنه تعالى أورثهم أرضهم وديارهم فقال تعالى:

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ أي : بالاستعباد وذبح الأبناء وأخذ الجزية والأعمال الشاقة وهم بنو إسرائيل ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ أي : أرض الشأم وهي من الفرات إلى بحر سرف الموضع الذي خرجوا منه من البحر وغرق فيه فرعون وآله كما

نقله البقاعي في المائدة عن التوراة ، وقيل : المراد جملة الأرض لأنه خرج من جملة بني إسرائيل داود وسليمان عليهما السلام وقد ملكا الأرض ويدل للأوّل قوله تعالى : ﴿ التي باركنا فيها ﴾ أي : بالخصب وسعة الأرزاق وذلك لا يليق إلا بأرض الشأم ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل ﴾ أي : مضت عليهم واستمرّت من قولهم تم عليه الأمر إذا قضي وهي قوله تعالى : ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ (القصص ،)

الخ . . والحسنى تأنيث الأحسن صفة للكلمة ومعنى تمت عليهم إنجاز الوعيد الذي تقدّ بإهلاك عدوّهم واستخلافهم في الأرض وإنما كان الإنجاز تماماً للكلام لأنّ الوعد بالشيء يبقى كالشيء المعلق فإذا حصل الموعود به فقد تمّ ذلك الوعد وكمل .

(182/284)

فائدة : رسمت كلمة بالتاء المجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ووقف الباقون بالتاء وإنما حصل لهم ما ذكر ﴿ بما صبروا ﴾ أي : بسبب صبرهم وحسبك بها حاثاً على الصبر ودالاً على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله تعالى إليه ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن الله تعالى له الفرج ﴿ ودمّرنا ﴾ أي : أهلكنا ، قال

الليث : الدمار الهلاك التامّ ﴿ ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ في أرض مصر من القصور والعمارات ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ أي : من الجنان وما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بالجرّ وهذا آخر ما قص الله تعالى من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير جـ 2 صـ 238.247 ﴾

(183/284)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والثمانون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/285)

الجزء الخامس والثمانون بعد المائتين

من الآية ﴿ 138 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 142 ﴾ من نفس السورة

(4/285)

قوله تعالى ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضى ما أراهم سبحانه من الأفعال الهائلة التي استخلصهم بها من ذلك الجبار ، شرع يذكر ما قابلوه به من الجهل به سبحانه وما قابلهم به من الحلم ، ثم ما أحل بهم بعد طول المهلة من ضرب الذلة والمسخ بصورة القردة ، فقال عاطفاً على قوله ﴿ فأغرقناهم في اليم ﴾ أو قوله ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ : ﴿ وجاوزنا ﴾ أي قطعنا بما لنا من العظمة - وساقه على طريق المفاعلة تعظيماً له ، روي أن جوازهم كان يوم عاشوراء ، وأن موسى عليه السلام صامه شكراً لله تعالى على إنجائهم وإهلاك عدوهم ﴿ ببني إسرائيل ﴾ بعد الآيات التي شاهدوها

(5/285)

﴿ البحر ﴾ وإنما جعلته معطوفاً على أول القصة لأن هذه القصص كلها بيان لأن في الناس السيىء الجوهر الذي لا يغنيه الآيات كما مضى عند قوله : ﴿ والبلد الطيب ﴾ [الأعراف : 58] وبيان قوله ﴿ أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾ [الأعراف : 94] إلى آخرها ، ويدل على ذلك - مع ما ابتدئت به القصص - ختمها بقوله ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ [الأعراف : 176] وقوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ [الأعراف : 179] وحسن موقعها بعد قوله : ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى ﴾ [الأعراف : 137] لأنه لما

قيل ﴿ بما صبروا ﴾ تشوفت النفس إلى فعلهم حال الرخاء هل شكروا ؟ فبين أن كثيراً منهم كفروا تصديقاً لقوله ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ [الأعراف : 102] وما شاكله ، وما أحسن تعقيب ذلك - بقوله : ﴿ فأتوا ﴾ أي مروا - بفاء التعقيب ﴿ على قوم ﴾ أي ذوي قوة ، قيل : كانوا من لخم ﴿ يعكفون ﴾ أي يدورون ويتحلقون ملازمين مواظبين ﴿ على أصنام لهم ﴾ أي لا قوة فيها ولا نفع ، فهم في عكوفهم عليها مثل في الغباوة ، وقيل : إنها كانت تماثيل بقر ، وكان ذلك أول أمر العجل .

(6/285)

ولما أخبر سبحانه بذلك ، علم السامع أنهم بين أمرين : إما شكر وإما كفر ، فتشوف إلى ما كان منهم ، فأجاب سبحانه سؤاله بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي لم يلبث ذكرهم لما أراهم سبحانه من عظمته وشكرهم لما أفاض عليهم من نعمته إلا ريثما أمنوا من عدوهم بمجاوزتهم البحر وإغراقهم فيه حتى طلبوا إلهاً غيره بقولهم : ﴿ يا موسى ﴾ سموه كما ترى باسمه جفاء وغلظة اعتماداً على ما عمهم من بره وحلمه غير متأدبين بما بهرهم من جلالة حظه من الله وقسمه ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ أي شيئاً نراه ونطوف به تقيداً بالوهم ﴿ كما لهم

آلهة ﴾ وهذا منهم قول من لا يعد الإله – الذي فعل معهم هذه الأفاعيل – شيئاً ، ولا يستحضره بوجه .

(7/285)

ولما كان هذا منهم عظيماً ، استأنف جواب من تشوف إلى قول موسى عليه السلام لهم ما هم بقوله : ﴿ قال إنكم قوم ﴾ أي ذوو قيام في شهوات النفوس ، وقال : ﴿ تجهلون ﴾ مضارعاً إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة ، لا ينتقلون عنه في ماض ولا مستقبل ، واعلم أنه لا تكرير في هذه القصص فإن كل سياق منها لأمر لم يسبق مثله فالمقصود من قصة موسى عليه السلام وفرعون – عليه اللعنة والملام – هذا الاستدلال الوجودي على قوله ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ [الأعراف : 102] ومن هنا تعلم أن سياق قصة بني إسرائيل بعد الخلاص من عدوهم لبيان إسراعهم في الكفر ونقضهم للعهود ، واستمر سبحانه في هذا الاستدلال إلى آخر السورة ، وما أنسب ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم ﴾ [الأعراف : 172] الآية ، لقوله ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ [الأعراف : 102] وذكر في أول التي تليها تنازعهم في الأنفال تحذيراً لهم من أن يكونوا من الأكثر المذمومين في هذه ، هذا بخلاف المقصود من سياق قصص بني إسرائيل في البقرة فإنه هناك للاستجلاب

للإيمان بالتذكير بالنعم ، لأن ذلك في سياق خطابة سبحانه لجميع الناس بقوله : ﴿ اعبدوا ربكم الذي خلقكم ﴾ [البقرة : 21] ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ [البقرة : 28] وما شاكله من الاستعطاف بتعداد النعم ودفع النقم - والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 103 . 104 ﴾

(8/285)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين أنواع نعمه على بني إسرائيل بأن أهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم أتبع ذلك بالنعمة العظمى ، وهي أن جاوز بهم البحر مع السلامة ، ولما بين تعالى في سائر السور كيف سيرهم في البحر مع السلامة ، وذلك بأن فلق البحر عند ضرب موسى البحر بالعصا وجعله يبساً بين أن بني إسرائيل لما شاهدوا قوماً يعكفون على عبادة أصنامهم ، جهلوا وارتدوا وقالوا : لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، ولا شك أن القوم لما شاهدوا المعجزات الباهرة التي أظهرها الله تعالى لموسى على فرعون ، ثم شاهدوا أنه تعالى أهلك فرعون وجنوده ، وخص بني إسرائيل بأنواع السلامة والكرامة ثم إنهم بعد هذه

المواقف والمقامات يذكرون هذا الكلام الفاسد الباطل كانوا في نهاية الجهل وغاية الخلاف .

أما قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إسرائيل البحر ﴾ يقال : جاوز الوادي .

إذا قطعه وخلفه وراءه وجاوز بغيره ، عبر به وقرىء ﴿ جوزنا ﴾ بمعنى : أجزنا .

يقال : أجاز المكان وجوزه بمعنى : جازه ﴿ فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ قال الزجاج : يواظبون عليها ويلازمونها .

يقال : لكل من لزم شيئاً وواظب عليه ، عكف يعكف ويعكف ، ومن هذا قيل لملازم المسجد متعكف .

وقال قتادة : كان أولئك القوم من لخم ، وكانوا نزولاً بالريف .

قال ابن جريج : كانت تلك الأصنام تماثيل بقر وذلك أول بيان قصة العجل .

(9/285)

ثم حكى تعالى عنهم أنهم ﴿ قَالُواْ يا موسى اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ واعلم أن من المستحيل أن يقول العاقل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة وخالقاً ومدبراً ، لأن الذي يحصل بجعل موسى وتقديره : لا يمكن أن يكون خالقاً للعالم ومدبراً له ، ومن شك في ذلك لم يكن كامل العقل والأقرب أنهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يعين لهم أصناماً وتماثيل

يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى ، وهذا القول هو الذي حكاه الله تعالى عن عبدة الأوثان حيث قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] .

إذا عرفت هذا فلقائل أن يقول : لم كان هذا القول كفراً ؟ فنقول : أجمع كل الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى كفر ، سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلهاً للعالم ، أو اعتقدوا فيه أن عبادته تقربهم إلى الله تعالى لأن العبادة نهاية التعظيم ، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام والإكرام .

فإن قيل : فهذا القول صدر من كل بني إسرائيل أو من بعضهم ؟

قلنا : بل من بعضهم ، لأنه كان مع موسى عليه السلام السبعون المختارون وكان فيهم من يرتفع عن مثل هذا السؤال الباطل .

ثم إنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه أجابهم فقال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وتقرير هذا الجهل ما ذكر أن العبادة غاية التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام ، وهي بخلق الجسم والحياة والشهوة والقدرة والعقل ، وخلق الأشياء المنتفع بها ، والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن لا تليق العبادة إلا به .

فإن قالوا : إذا كان مرادهم بعبادة تلك الأصنام التقرب بها إلى تعظيم الله تعالى ، فما الوجه في قبح هذه العبادة ؟

قلنا : فعلى هذا التقدير : لم يتخذوها آلهة أصلاً وإنما جعلوها كالقبلة ، وذلك ينافي قولهم ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ واعلم أن ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ يجوز أن تكون مصدرية أي كما ثبت لهم آلهة ، ويجوز أن تكون موصولة ، وفي قولهم : ﴿ لَهُمْ ﴾ ضمير يعود إليه ، و ﴿ ءالِهَةً ﴾ بدل من ذلك الضمير تقديره : كالذي هو لهم آلهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 181.182 ﴾

(11/285)

وقال السمرقندى :

﴿ وجاوزنا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ البحر فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾

يقول : مروا على قوم يعني : يعبدون الأصنام ويقومون على عبادتها ، وكل من يلازم شيئاً ويواظب عليه يقال : عكفه .

ولهذا سمي الملازم للمسجد معتكفاً ﴿ قَالُواْ يَا موسى اجعل لَّنَا إلها ﴾ قال الجهال من بني إسرائيل لموسى ﴿ اجعل لَّنَا إلها ﴾ نعبده ﴿ كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ يعبدونها ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ يعني : تكلمتم بغير علم وعقل ، وجهلتم الأمر . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَجَاوَزْنَا ﴾ قطعنا ﴿ ببني إِسْرَآئِيلَ البحر ﴾ بعد الآيات التي رأوها والعير التي عاينوها .

قال الكلبي : عبر بهم موسى يوم عاشوا بعد هلاك فرعون وقومه وصام يومئذ شكراً لله عزّ وجلّ ﴿ فَأَتَوْاْ ﴾ فمرّوا ﴿ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ ﴾ يصلّون ، قرأ حمزة والكسائي يعكفون بكسر الكاف والباقون بالضم وهما لغتان ﴿ على أَصْنَامٍ ﴾ أوثان ﴿ لَّهُمْ ﴾ أوثان لهم كانوا يعبدونها من دون الله عزّ وجلّ .

قال ابن جريج : كانت تماثيل بقر وذلك أوّل [شأن] العجل .

قال قتادة : كانوا أُولئك القوم من لخم وكانوا هؤلاء بالرمة ، وقيل : كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى بقتالهم فقالت بنو إسرائيل له عندما رأوا ذلك ﴿ قَالُواْ يا موسى اجعل لَّنَآ إلها ﴾ تمثالاً نعبده ﴿ كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ ﴾ موسى ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ عظمة الله ونعمته وحرمته .

وروى معمر عن الزهري " عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حنين فمررنا بشجرة خضراء عظيمة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفّار ذات أنواط . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر هذا كما قالت

بنو إسرائيل لموسى (عليه السلام) اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة والذي نفسي بيده [لتركبنّ سنن] مَنْ كان قبلكم " .

وروي عنه (عليه السلام) أنه قال : " لا تقوم الساعة حتّى تأخذ أُمّتي أخذ الأُمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما قالت فارس والروم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(12/285)

وقال ابن عطية :

قرأ جمهور الناس " وجاوزنا " وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " وجوزنا " ذكره أبو حاتم والمهدوي ، والمعنى قطعناه بهم وجزعناه وهذه الآية ابتداء خبر عنهم ، قال النقاش : جاوزوا البحر يوم عاشوراء ، وأعطي موسى التوراة يوم النحر القابل بين الأمرين أحد عشر شهراً ، وروي أن قطعهم كان من ضفة البحر إلى ضفة المناوحة الأولى وروي أنه قطع من الضفة إلى موضع آخر منها .

قال القاضي أبو محمد : فإما أن يكون ذلك بوحي من الله وأمر لينفذ أمره في فرعون وقومه وهذا هو الظاهر ، وإما بحسب اجتهاد موسى في التخلص بأن يكون بين وضعين أو عار

وحايلات ، ووقع في كتاب النقاش أنه نيل مصر .

قال القاضي أبو محمد : وهذا خطأ لا تساعده رواية ولا يحتمله لفظ إلا على تحامل ، وإنما هو بحر القلزوم و" القوم " المشار إليهم في الآية العرب ، قيل هم الكنعانيون ، وقال قتادة وقال أبو عمروان الجوني : هم قومن من لخم وجذام ، والقوم في كلام العرب الرجال خاصة ، ومنه قول زهير :

ولا أدري وسوف إخال أدري . . . أقوم آل حصن أم نساء

ومنه قوله عز وجل : ﴿ لا يسخر قوم من قوم . . . . ولا نساء من نساء ﴾ [الحجرات : 11] وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر " يعكُفون " بضم الكاف ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو في رواية عبد الوارث عنه " يعكِفون " بكسرها وهما لغتان والعكوف : الملازمة بالشخص لأمر ما والإكباب عليه ، ومنه الاعتكاف في المساجد ومنه قول الراجز " [الرجز]

عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُون الفَنْزَجَا . . . و" الأصنام " في هذه الآية قبل كانت بقراً على الحقيقة ، وقال ابن جريج : كانت تماثيل بقر من حجارة وعيدان ونحوه وذلك كان أول فتنة العجل .

(13/285)

قال القاضي أبو محمد : والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يتقرب به إلى الله ، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى : اجعل لنا صنماً نفرده بالعبادة ونكفر بربك ، فعرفهم موسى أن هذا جهل منهم إذ سألوا أمراً حراماً فيه الإشراك في العبادة ومنه يتطرق إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله عز وجل ، وعلى هذا الذي قلت يقع التشابه الذي قصه النبي صلى الله عليه وسلم في قول أبي واقد الليثي له في غزوة حنين إذ مروا على دوح سدرة خضراء عظيمة : اجعل لنا يا رسول الله ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، وكانت ذات أنواط سرحة لبعض المشركين يعلقون بها أسلحتهم ولها يوم يجتمعون إليها فيه ، فأراد أبو واقد وغيره أن يشرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها ذريعة إلى عبادة تلك السرحة ، فأنكره وقال : " الله أكبر قلتم والله كما قالت بنو إسرائيل ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ لتتبعن سنن من قبلكم " .

قال القاضي أبو محمد : ولم يقصد أبو واقد بمقالته فساداً ، وقال بعض الناس كان ذلك من بني إسرائيل كفراً ولفظة الإله تقتضي ذلك ، وهذا محتمل ، وما ذكرته أولاً أصح عندي والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يعكفون ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، ويعقوب : "يَعْكُفُون" بضم الكاف .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، والمفضل : بكسر الكاف وقرأ ابن أبي عبلة : بضم الياء وتشديد الكاف .

قال الزجاج : ومعنى ﴿ يعكفون على أصنام لهم ﴾ : يواظبون عليها ويلازمونها ، يقال : لكل من لزم شيئاً وواظب عليه : عَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ .

قال قتادة : كان أولئك القوم نزولاً بالرقة ، وكانوا من لخم .

وقال غيره : كانت أصنامهم تماثيل البقر .

وهذا إخبار عن عظيم جهلهم حيث توهموا جواز عبادة غير الله بعدما رأوا الآيات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَآئِيلَ البحر فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾

قرأ حمزة والكِسائيّ بكسر الكاف ، والباقون بضمها .

يقال : عَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ بمعنى أقام على الشيء ولزمه .

والمصدر منهما على فُعول .

قال قتادة : كان أُولئك القوم من لَخْم ، وكانوا نزولاً بالرِّقّة .

وقيل : كانت أصنامهم تماثيل بقر ؛ ولهذا أخرج لهم السامِرِيّ عجلاً .

﴿ قَالُواْ يا موسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ نظيره " قول جُهّال الأعْراب وقد رأُوا شجرة خضراء للكفار تُسَمَّى ذاتَ أَنْوَاط يعظّمونها في كل سنة يوماً : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتُ أَنْوَاط .

فقال عليه الصلاة والسلام : "الله أكبر .

قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى ﴿ اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ لتركَبُنّ سنَن مَن قبلكم حَذْوَ القُذّة بالقُذّة حتى إنهم لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه" " وكان هذا في مَخْرَجه إلى حُنَين ، على ما يأتي بيانه في "براءة" إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(15/285)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾

يعني وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد إهلاك فرعون وقومه وإغراقهم فيه يقال جاز الوادي وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره .

وقال الكلبي عبر موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكراً لله تعالى : ﴿ فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾ يعني فمر بنو إسرائيل بعد مجاوزة البحر على قوم يعكفون أي يقيمون ويواظبون على أصنام لهم يعني تماثيل لهم كانوا يعبدونها من دون الله .

قال ابن جريج : كانت تلك الأصنام تماثيل بقر وذلك أول شان العجل .

وقال قتادة : كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولاً بالرقة يعني بالرقة ساحل البحر وقيل كان أولئك الأقوام من الكنعانيين الذين أمر موسى بقتالهم ﴿ قالوا ﴾ يعني قال بنو إسرائيل لموسى لما رأوا ذلك التمثال ﴿ يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ يعني كما لهم أصنام يعبدونها ويعظمونها فاجعل لنا أنت إلهاً نعبده ونعظمه .

قال البغوي رحمه الله : ولم يكن ذلك شكاً من بني إسرائيل في وحدانية الله تعالى وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر الديانة وكان ذلك لشدة جهلهم وقال غيره هذا يدل على غاية جهل بني إسرائيل وذلك أنهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله تعالى بعد ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وهي الآيات التي توالت على قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى في البحر بكفرهم

وعبادتهم غير الله تعالى فحملهم جهلهم على أن قالوا لنبيهم موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فرد عليهم موسى بقوله ﴿ قال إنكم قوم تجهلون ﴾ يعني تجهلون عظمة الله تعالى وأنه لا يستحق أن يعبد سواه لأنه هو الذي أنجاكم من فرعون وقومه فأغرقهم في البحر وأنجاكم منه .

(16/285)

عن أبي واقد الليثي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما خرج إلى غزوة حنين مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل إلهاً كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنن مَن كان قبلكم " أخرجه الترمذي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(17/285)

وقال أبو حيان :

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾

لما بين أنواع نعمه تعالى على بني إسرائيل بإهلاك عدوّهم اتبع بالنعمة العظمى من إراءتهم هذه الآية العظيمة وقطعهم البحر مع السلامة والبحر بحر القلزم ، وأخطأ من قال إنه نيل مصر ومعنى ﴿ جاوزنا ﴾ قطعنا بهم البحر يقال جاوز الوادي إذا قطعه والباء للتعدية يقال جاوز الوادي إذا قطعه ، وجاوز بغيره البحر عبر به فكأنه قال وجزنا ببني إسرائيل أي أجزناهم البحر وفاعل بمعنى فعل المجرد يقال جاوز وجاز بمعنى واحد ، وقرأ الحسن وابراهيم وأبو رجاء ويعقوب وجوزنا وهو مما جاء فيه فعل بمعنى فعل المجرد نحو قدّر وقدر وليس التضعيف للتعدية روي أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله فرعون وقومه فصاموا شكراً لله وأعطى موسى التوراة يوم النحر فبيّن الأمرين أحد عشر شهراً .

﴿ فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾ قال قتادة وأبو عمرو الجوني : هم من لخم وجذام كانوا يسكنون الرّيف ، وقيل : كانوا نزولاً بالرقة رقة مصر وهي قرية بريف مصر تعرف بساحل البحر يتوصل منها إلى الفيّوم ، وقيل : هم الكنعانيون الذين أمر موسى بقتالهم ومعنى ﴿ فأتوا ﴾ فمروا يقال أتت عليه سنون ، ومعنى ﴿ يعكفون ﴾ يقيمون ويواظبون على عبادة أصنام ، وقرأ الأخوان وأبو عمر وفي رواية عبد الوارث بكسر

الكاف وباقي السبعة بضمها وهما فصيحتان والأصنام قيل : بقر حقيقة .

وقال ابن جريج كانت تماثيل بقر من حجارة وعيدان ونحوه وذلك كان أول فتنة العجل .

(18/285)

﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ الظاهر أن طلب مثل هذا كفر وارتداد وعناد جروا في ذلك على عادتهم في تعنتهم على أنبيائهم وطلبهم ما لا ينبغي وقد تقدّم من كلامهم ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ وغير ذلك مما هو كفر ، وقال ابن عطية : الظاهر أنهم استحسنوا ما رأوا من آلهة أولئك القوم فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يتقرّب به إلى الله تعالى وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ نفرده بالعبادة انتهى وفي الحديث مروا في غزوة حنين على روح سدرة خضراء عظيمة فقيل يا رسول الله إجعل لنا ذات أنواط وكانت ذات أنواط سرحة لبعض المشركين يعلقون بها أسحلتهم ولها يوم يجتمعون إليها فأراد قائل ذلك أن يشرع الرسول ذلك في الإسلام ورأى الرسول عليه السلام ذلك ذريعة إلى عبادة تلك السرحة فأنكره وقال

(19/285)

" الله أكبر قلتم والله كما قال بنو إسرائيل " ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ خالقاً مدبراً لأن الذي يجعله موسى لا يمكن أن يجعله خالقاً للعالم ومدبّراً فالأقرب أنهم طلبوا أن يعين لهم تماثيل وصوراً يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى وقد حكى عن عبادة الأوثان قولهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وأجمع كلّ الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله كفر سواء اعتقد كونه إلهاً للعالم أو أن عبادته تقرب إلى الله انتهى ، ويظهر أن ذلك لم يصدر من جميعهم فإنه كان فيهم السبعون المختارون ومن لا يصدر منه هذا السؤال الباطل لكنه نسب ذلك إلى بني إسرائيل لما وقع من بعضهم على عادة العرب في ذلك وما في ﴿ كما ﴾ قال الزمخشري كافة للكاف ولذلك وقعت الجملة بعدها وقال غيره موصولة حرفية أي كما ثبت لهم آلهة فتكون قد حذف صلتها على حدّ ما قال ابن مالك في أنه إذا حذفت صلة ما فلا بد من إبقاء معمولها كقولهم لا أكلمك ما إن في السماء نجماً أي ما ثبت أن في السماء نجماً ويكون ﴿ آلهة ﴾ فاعلاً يثبت المحذوفة ، وقيل : موصولة اسمية ولهم صلتها والضمير عائد عليها مستكن في المجرور والتقدير كالذي لهم وآلهة بدل من ذلك الضمير المستكنّ .

﴿ قال إنكم قوم تجهلون ﴾ تعجب موسى عليه السلام من قولهم على أثر ما رأوا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ووصفهم بالجهل المطلق وأكده بأن لأنه لا جهل أعظم

من هذه المقالة ولا أشنع وأتى بلفظ ﴿ تجهلون ﴾ ولم يقل جهلتم إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماض ولا مستقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(20/285)

وقال أبو السعود :

قوله عز وجل : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إسراءيل البحر ﴾

شروعٌ في قصة بني إسرائيلَ وشرحِ ما أحدثوه من الأمور الشنيعةِ بعد أن أنقذهم الله عز وجل من مَلَكة فرعون ومنّ عليهم من النعم العظامِ الموجبةِ للشكر وأراهم من الآيات الكبارِ ما تخِرّ له شمُّ الجبال تسليةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفُلوا عن محاسبة أنفسِهم ومراقبةِ أحوالِهم . وجاوز بمعنى جاز ، وقرىء جوّزنا بالتشديد وهو أيضاً بمعنى جاز فعُدّي بالباء أي قطعنا بهم البحر . روي أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراءَ بعد ما أهلك الله تعالى فرعون فصاموه شكراً لله عز وجل ﴿ فَأَتَوْاْ ﴾ أي مروا ﴿ على قَوْمٍ ﴾ قيل : كانوا من لَخْمٍ ، وقيل : من العمالقة الكنعانيين الذين أُمر موسى عليه السلام بقتالهم ﴿ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ أي

يواظبون على عبادتها ويلازمونها ، وقرىء بكسر الكاف ، قال ابن جريج : كانت أصنامُهم تماثيلَ بقرٍ وهو أولُ شأنِ العجل ﴿ قَالُواْ ﴾ عندما شاهدوا أحوالَهم ﴿ يا موسى اجعل لَّنَا إلها ﴾ مثالاً نعبُده ﴿ كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ الكافُ متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً لإلها وما موصولة ولهم صلتها وآلهة بدل من وما والتقدير اجعل لنا إلها كائناً كالذي استقر هو لهم ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ تعجب (عليه السلام) من قولهم هذا إثرَ ما شاهدوا من الآية الكبرى والمعجزةِ العُظمى فوصفهم بالجهل المطلقِ إذ لا جهل أعظمُ مما ظهر منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(21/285)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البحر ﴾

شروع بعد انتهاء قصة فرعون في قصة بني إسرائيل وشرح ما أحدثوه بعد أن من الله تعالى عليهم بما من واراهم من الآيات ما أراهم تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه من اليهود بالمدينة فإنهم جروا معه على دأب أسلافهم مع أخيه موسى عليه السلام وإيقاظاً للمؤمنين أن لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة نعم الله تعالى عليهم فإن بني إسرائيل وقعوا

فيما وقعا لغفلتهم عما من الله تعالى به عليهم ، وجاوز بمعنى جاز وقرىء ﴿ جوزنا ﴾ بالتشديد وهو أيضاً بمعنى جاز فعدى بالباء أي قطعنا البحر بهم ، والمراد بالبحر بحر القلزم .

وفي "مجمع البيان" أنه نيل مصر وهو كما في "البحر" خطأ ، وعن الكلبي أن موسى عليه السلام عبر بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصاموه شكراً لله تعالى ﴿ فَأَتَوْا ﴾ أي مروا بعد المجاوزة .

﴿ عَلَى قَوْمٍ ﴾ قال قتادة : كانوا من لخم اسم قبيلة ينسبون كما صححه ابن عبد البر إلى لخم بن عدي بن عمرو بن سبا ، وقيل : كانوا من العمالقة الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم .

﴿ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ أي يواظبون على عبادتها ويلازمونها ، وكانت كما أخرج ابن المنذر .

وغيره عن ابن جريج تماثيل بقر من نحاس ، وهو أول شأن العجل ، وقيل : كانت من حجارة ، وقيل : كان بقراً حقيقة وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ يعكفون ﴾ بكسر الكاف ﴿ قَالُوا ﴾ عندما شاهدوا ذلك ﴿ يَا مُوسَى اجعل لَنَا إِلَهاً ﴾ مثالاً نعبده ﴿ كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لإلها

و﴿ ما ﴾ موصولة و﴿ لهم ﴾ صلتها و﴿ آلهة ﴾ بدل من الضمير المستتر فيه ، والتقدير اجعل لنا إلها كائناً كالذي استقر هو لهم .

(22/285)

وجوز أبو البقاء أن تكون ما كافة للكاف ، ولذا وقع بعدها الجملة الإسمية وأن تكون مصدرية ، ولهم متعلق بفعل أي كما ثبت لهم ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ تعجب عليه السلام من قولهم هذا بعد ما شاهدوه من الآية الكبرى والبينة العظمى فوصفهم بالجهل على أتم وجه حيث لم يذكر له متعلقاً ومفعولاً لتنزيله منزلة اللازم أو لأن حذفه يدل على عمومه أي تجهلون كل شيء فدخل فيه الجهل بالربوبية بالطريق الأولى ، وأكد ذلك بأن ، وتوسيط قوم وجعل ما هو المقصود بالأخبار وصفاً له ليكون كما قال العلامة كالمتحقق المعلوم وهذه كما ذكر الشهاب نكتة سرية في الخبر الموطىء لادعاء أن الخبر لظهور أمره وقيام الدليل عليه كأنه معلوم متحقق فيفيد تأكيده وتقريره ولولاه لم يكن لتوسيط الموصوف وجه من البلاغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(23/285)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾

لما تمت العبرة بقصة بعث موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه ، وكيف نصره الله على عدوه ، ونصر قومه بني إسرائيل ، وأهلك عدوهم كشأن سنة الله في نصر الحق على الباطل ، استرسل الكلام إلى وصف تكوين أمة بني إسرائيل وما يحق أن يعتبرَ به من الأحوال العارضة لهم في خلال ذلك مما فيه طمأنينةُ نفوس المؤمنين الصالحين في صالح أعمالهم ، وتحذيرهم مما يرمي بهم إلى غضب الله فيما يحقرون من المخالفات ، لما في ذلك كله من التشابه في تدبير الله تعالى أمور عبيده ، وسنته في تأييد رسله وأتباعهم ، وإيقاظ نفوس الأمة إلى مراقبة خواطرهم ومحاسبة نفوسهم في شكر النعمة ودحض الكفران .

والمجاوزة : البعد عن المكان عقب المرور فيه ، يقال : جَاوز بمعنى جاز ، كما يقال : عَالى بمعنى علا ، وفعله متعد إلى واحد بنفسه وإلى المفعول الثاني بالباء فإذا قلت : جُزتُ به ، فأصل معناه أنك جزته مصاحباً في الجواز به للمجرور بالباء ، ثم استعيرت الباء للتعدية يقال : جُزت به الطريق إذا سهلت له ذلك وإن لم تسر معه ، فهو بمعنى أجزته ، كما قالوا : ذَهبت به بمعنى أذهبته ، فمعنى قوله هنا : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾ قدرنا لهم جَوازه ويسرّناه لهم .

والبحر هو بحر القُلْزُم المعروف اليوم بالبحر الأحمر وهو المراد باليمّ في الآية السابقة ، فالتعريف للعهد الحضوري ، أي البحر المذكور كما هو شأن المعرفة إذا أعيدت معرفة ، واختلاف اللفظ تفنن ، وتجنباً للإعادة ، والمعنى : أنهم قطعوا البحر وخرجوا على شاطئه الشرقي .

و﴿ أتوا على قوم ﴾ معناه أَتَوْا قوماً ، ولما ضمن ﴿ أَتَوْا ﴾ معنى مروا عدي بعلى ، لأنهم لم يقصدوا الإقامة في القوم ، ولكنهم أُلْفَوهم في طريقهم .

(24/285)

والقوم هم الكنعانيون ويقال لهم عند العرب العمالقةُ ويعرفون عند متأخري المؤرخين بالفنيقيين .

والأصنام كانت صُورَ البقر ، وقد كان البقر يعبد عند الكنعانيين ، أي الفنيقيين باسم (بَعل) ، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ في سورة البقرة (51) .

والعُكوف : الملازمة بنية العبادة ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ﴾ في سورة البقرة (187) ، وتعدية العكوف بحرف (على) لما

فيه من معنى النزول وتمكنه كقوله : ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين ﴾ [طه : 91] .

وقرئ ﴿ يعكفون ﴾ بضم الكاف للجمهور ، وبكسرها لحمزة والكسائي ، وخَلف ، وهما لغتان في مضارع عَكَف .

واختير طريق التنكير في أصنام ووصفُه بأنها لهم ، أي القوم دون طريق الإضافة ليتوسل بالتنكير إلى إرادة تحقير الأصنام وأنها مجهولة ، لأن التنكير يستلزم خفاء المعرفة .

وإنما وصفت الأصنام بأنها لهم ولم يُقتصر على قوله : ﴿ أصنام ﴾ قال ابن عرفة التونسي : "عادتهم يجيبون بأنه زيادة تشنيع بهم وتنبيه على جهلهم وغوايتهم في أنهم يعبدون ما هو ملك لهم فيجعلون مملوكهم إلاههم" .

وفُصلت جملة ﴿ قالوا ﴾ ، فلم تعطف بالفاء : لأنها لما كانت افتتاح محاور ، وكان شأن المحاورة أن تكون جملها مفصولة شاع فصلها ، ولو عطفت بالفاء لجاز أيضاً .

(25/285)

ونداؤهم موسى وهو معهم مستعمل في طلب الإصغاء لما يقولونه ، إظهاراً لرغبتهم فيما سيطلبون ، وسموا الصنم إلاهاً لجهلهم فهم يحْسبون أن اتخاذ الصنم يُجدي صاحبه ، كما لو كان إلاهُه معَه ، وهذا يدل على أن بني إسرائيل قد انخلعوا في مدة إقامتهم بمصر عن

عقيدة التوحيد وحنيفية إبراهيم ويعقوب التي وصى بها في قوله : ﴿ فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة : 132] لأنهم لما كانوا في حال ذل واستعباد ذهب علمهم وتاريخ مجدهم واندمجوا في ديانة الغالبين لهم فلم تبق لهم ميزة تميزهم إلاّ أنهم خدمة وعبيد .

والتشبيه في قوله : ﴿ كما لَهم آلهة ﴾ أرادوا به حَض موسى على إجابة سؤالهم ، وابتهاجاً بما رأوا من حال القوم الذين حَلّوا بين ظهرانيهم وكفَى بالأمة خسّةَ عقول أن تعُد القبيح حسناً ، وأن تتخذ المظاهر المزّينة قدوة لها ، وأن تنخلع عن كمالها في اتباع نقائص غيرها .

و﴿ ما ﴾ يجوز أن تكون صلة وتوكيداً كافة عمل حرف التشبيه ، ولذلك صار كاف التشبيه داخلاً على جملة لا على مفرد ، وهي جملة من خبر ومبتدأ ، ويجوز أن تكون (ما) مصدرية غير زمانية ، والجملة بعدها في تأويل مصدر ، والتقدير كوجود آلهة لهم ، وإن كان الغالب أن (ما) المصدرية لا تدخل إلاّ على الفعل نحو قوله تعالى : ﴿ ودوا ما عنِتّم ﴾ [آل عمران : 118] فيتعين تقدير فعل يتعلق به المجرور في قوله : ﴿ لهم ﴾ أو يكتفَى بالاستقرار الذي يقتضيه وقوع الخبر جازا ومجروراً ، كقول نهْشَل بن جرير التميمي :

كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

وفصلت جملة ﴿ قال إنكم قوم تجهلون ﴾ لوقوعها في جواب المحاورة ، أي : أجاب موسى

كلامهم ، وكان جوابه بعنف وغلظة بقوله : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ لأن ذلك هو المناسب لحالهم .

(26/285)

والجهل : انتفاء العلم أو تصور الشيء على خلاف حقيقته ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ في سورة النساء (17) ، والمراد جهلهم بمفاسد عبادة الأصنام ، وكانَ وصف موسى إياهم بالجهالة مؤكداً لما دلت عليه الجملة الاسمية من كون الجهالة صفة ثابتة فيهم وراسخة من نفوسهم ، ولولا ذلك لكان لهم في باديء النظر زاجر عن مثل هذا السؤال ، فالخبر مستعمل في معنييه : الصريح والكناية ، مكنى به عن التعجب من فداحة جهلهم .

وفي الإتيان بلفظ قوم ﴾ وجعل ما هو مقصود بالإخبار وصفاً لقوم ، تنبيه على أن وصفهم بالجهالة كالمتحقق المعلوم الداخل في تقويم قوميتهم ، وفي الحكم بالجهالة على القوم كلهم تأكيد للتعجب من حال جهالتهم وعمومها فيهم بحيث لا يوجد فيهم من يشذ عن هذا الوصف مع كثرتهم ، ولأجل هذه الغرابة أكد الحكم (بإن) لأن شأنه أن يتردد في ثبوته السامعُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾

لقد قالوا ذلك وهم مازالوا مغمورين في نعم الله إنجاء من عدو ، واستخلافاً في الأرض ، ومع ذلك بمجرد أن طلعوا إلى البر ورأوا جماعة يعبدون صنماً طالبوا موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه . لقد حسدوا من يجهلون قيمة الإيمان ويعكفون على عبادة الأصنام ، ويعكف تعني أن يقيم إقامة لازمة ، ومنه الاعتكاف في المسجد ، أي الانقطاع عن حركة الحياة خارج المسجد إلى عبادة الله في بيته . ﴿ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يا موسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . . . ﴾ [الأعراف : 138]

وهذا القول من قوم موسى هو قمة الغباء ، كأن الإله بالنسبة لهم مجهول على رغم أنه قد أسبغ عليهم من النعم الكثير ، وهذه أول خيبة ، وهم يريدون أن يكون الإله مجعولاً برغم أن الإله بكمالاته وطلاقة قدرته جاعل ، ولكن عقيلتهم لم تستوعب النعم الغامرة وقلوبهم مغلقة لم يعمها الإيمان . وقالوا : اجعل لنا إلهاً ! وأرادوا أن ينحت لهم الأصنام ، وقد يقول واحد منهم : رأس الإله كبيرة قليلاً صغّرها بعض الشيء ، وأنفه غير مستقيمة فلنعد لها

بالإِزميل ، وقولهم : ﴿ اجعل لَّنَا آلِهًا ﴾ . وهذا ما يجعلنا نفهم أن عقولهم لم تستوعب حقيقة الإِيمان ؛ لذلك يقول لهم موسى : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ .

(28/285)

ولم يقل لهم : " لا تعلمون " بل قال : " تجهلون " لأن هناك فارقاً بين عدم العلم بالشيء ، وبين الجهل بالشيء ، فعدم العلم يعني أن الذهن قد يكون خالياً من أي قضية ، أما " الجهل " فهو يعني أن تعلم مناقضاً للقضية ، إذن فهناك قضية يعتقدها الجاهل ولكنها غير واقعية . أما الذي لا يعلم فليس في باله قضية ، وحين تأتي له القضية يقتنع بها ، ولا يحتاج ذلك إلى عملية عقلية واحدة مثل الأمي مثلاً الذي لا يعلم ، لأن ذهنه خال من قضية ، أما الذي يعلم قضية مخالفة فهو يحتاج من الرسول إلى عمليتين عقليتين : الأولى أن يخرج ما في نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطي له القضية الجديدة ، إن الذي يخرج ما في نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطي له القضية الجديدة ، إن الذي يرهق العالم هم الجهلاء لا الأميون ، لأن الأمي حين تعطي له المعلومة فليس عنده ما يناقضها . لكن الجاهل عنده ما يناقضها ويخالف الواقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(29/285)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ خَرِبٍ لَدَخَلْتُمُوهُ ﴾ .

وَثَبَتَ أَنَّهُ ﴿ قَالَ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ لِأَصْحَابِهِ ، وَقَدْ قَالُوا لَهُ : اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ .

فَقَالَ : هَذَا ، كَمَا قَالَ مَنْ قَبْلَكُمْ : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ ؛ ﴾ فَحَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتِّبَاعَ الْبِدَعِ ، وَأَمَرَ بِإِحْيَاءِ السُّنَنِ ، وَحَثَّ عَلَى الِاقْتِدَاءِ ، وَعَنْ هَذَا قُلْنَا : إنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ زَادَا فِي صِيَامِهِمْ بِعِلَّةٍ رَأَوْهَا ، وَجَعَلُوهُ أَكْثَرَ مِنْ الْعَدَدِ الْمَعْرُوفِ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُثْمَانَ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ رَجَعَ إلَى بَلَدِهِ بَعْدَ أَنْ حَضَرَ مَعَهُ الْمَوْسِمَ فَصَلَّى مَعَهُ الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا هَذَا ؟ فَقَالَ : رَأَيْت أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ يَفْعَلُهُ ، فَكَانَ عُثْمَانُ يُتِمُّ فِي السَّفَرِ ؛ لِأَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ مُفْسِدًا لِعَقَائِدِ الْعَامَّةِ ، فَرَأَى حِفْظَ ذَلِكَ بِتَرْكِ يَسِيرٍ مِنْ السُّنَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَأَى قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْجَفَاءِ أَنْ يَصُومُوا ثَانِيَ عِيدِ الْفِطْرِ سِتَّةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَاتٍ إتْمَامًا لِرَمَضَانَ ، لِمَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَسِتًّا مِنْ شَوَّالٍ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ ﴾ خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ .

وَهَذِهِ الْأَيَّامُ مَتَى صِيمَتْ مُتَّصِلَةً كَانَ احْتِذَاءً لِفِعْلِ النَّصَارَى ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُرِدْ هَذَا ، إنَّمَا أَرَادَ أَنَّ مَنْ صَامَ رَمَضَانَ فَهُوَ بِعَشَرَةِ أَشْهُرٍ ، وَمَنْ صَامَ سِتَّةَ أَيَّامٍ فَهِيَ بِشَهْرَيْنِ " وَذَلِكَ الدَّهْرُ .

وَلَوْ كَانَتْ مِنْ غَيْرِ شَوَّالٍ لَكَانَ الْحُكْمُ فِيهَا كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذِكْرِ شَوَّالٍ لَا عَلَى طَرِيقِ التَّعْيِينِ ؛ لِوُجُوبِ مُسَاوَاةِ غَيْرِهَا لَهَا فِي ذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرَ شَوَّالَ عَلَى مَعْنَى التَّمْثِيلِ ، وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ النَّظَرِ فَاعْلَمُوهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَآئِيلَ ﴾ كقوله : ﴿ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر ﴾ [البقرة : 50] من كونِ الباء يجوز أنْ تكون للتَّعدية ، وأن تكون للحاليَّة ، كقوله : [الوافر]

2565 - . . . . . .

تَدُوسُ بِنَا الجَمَاجِمَ والتَّرِيبَا

وقد تقدَّم .

و" جاوز " بمعنى : جاز ، ف " فاعل " بمعنى " فَعَل " .

وقرأ الحسنُ ، وإبراهيم ، وأبو رجاء ويعقوب جَوَّزْنَا بالتَّشْديدِ وهو أيضاً بمعنى " فَعَلَ " المجردِ كقَدَرَ وقَدَّر .

قوله : يَعْكُفُونَ صفة لـ " قَوْم " .

وقرأ الأخوان " يَعْكِفُونَ " بكسر الكاف ، وتروى عن ابي عمرو أيضاً ، والباقون بالضمِّ ، وهما لغتان في المضارع كـ " يَعْرِشُون " .

وقد تقدَّم معنى " العكوف " واشتقاقه في البقرة .

قال قتادة : كان أولئك القومُ من لَخْم ، وكانُوا نُزولاً بالرَّقَّةِ .

وقال ابنُ جريج : كانت تلك الأصْنَام تماثيل بقر ، وذلك أول شأن قصة العِجْلِ .

قوله : ﴿ كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾

الكافُ في محلِّ نصب صفة بـ " إلهاً " ، أي : إلهاً مماثلاً لإلههم .

وفي " ما " ثلاثةُ أوجه :

أحدها : موصولةٌ حرفية ، أي : تتأوَّلُ بمصدرٍ ، وعلى هذا فصلتُهَا محذوفة ، وإذا حُذِفَتْ صلة " ما " المصدريَّة ، فلا بدَّ من إبقاء معمولِ صلتها ، كقولهم : لا أُكلِّمكَ ما أنَّ حِرَاءَ مَكَانَهُ ، أي : ما ثَبَتَ أنَّ حِرَاءَ مكانه ، وكذا هنا تقديره : كما ثبت لهم آلهة ، ف " آلهة " فاعل " ثبت " المقدر ، أي : كما أنَّ " أنَّ " المفتوحةَ في المثالِ المتقدم فاعل " ثبت " المقدر .

وقال أبو البقاءِ – هذا الوجه – ليس بجيد " والجملة بعدها صلةٌ لها ، وحسَّن لك أنَّ الظرف مقدَّرٌ بالفعل " .

فصل

قال شهابُ الدِّينِ : كلامُهُ على ظاهِره ليس بجيِّد ؛ لأنَّ " ما " المصدريةَ لا تُوصَلُ بالجملة الاسمية على المشهور ، وعلى رأي مَنْ يُجَوِّز ذلك ، فيشترط فيها غَالِباً أن تُفْهِم الوقت كقوله : [الكامل]

2566 – وَاصِلْ خَلِيلَكَ ما التَّواصُلُ مُمْكِنٌ . . .

فلأَنْتَ أَوْ هُوَ عَنْ قَرِيبٍ ذَاهِبُ

ولكنَّ المراد أنَّ الجارَّ مقدَّرُ بالفعل ، وحينئذٍ تؤولُ إلى جملةٍ فعليّة ، أي : كما استقرَّ لهم آلهةٌ .

(32/285)

الثاني : أن تكون " ما " كافَّةً لكاف التَّشبيه عن العمل ، فإنَّهَا حرفُ جر ، وهذا كما تُكَفُّ رُبَّ فيليها الجملُ الاسميَّة ، والفعليَّة ، ولكن ليس ذلك على سبيل الوجوب ، بل يجوزُ في الكافِ وفي " رُبَّ " مع " ما " الزَّائدة بعدهما وجهان : العَمَلُ والإهمالُ ، وعلى ذلك قول الشَّاعر : [الطويل]

2567 - وَنَنْصُرُ مَوْلانَا ونَعْلَمُ أَنَّهُ . . .

كَمَا النَّاس مَجْرُومٌ عَلَيْهِ وجَارِمُ

وقول الآخر : [الخفيف]

2568 - رُبَّمَا الجَامِلُ المؤبَّلُ فِيهِمْ . . .

وعَنَاجِيحُ بَيْنَهُنَّ المِهَارُ

وروي برفع " النَّاس ، والجامل " وجرِّهما ، هذا إذا أمكن الإعمالُ ، إمَّا إذَا لم يمكن تَعَيَّنَ أن تكونَ كافَّةً كهذه الآية ، إذا قيل : بأن " ما " زائدة .

الثالثُ : أن تكون " ما " بمعنى " الذي " ، و" لَهُمْ " صلتها ، وفيه حينئذٍ ضميرٌ مرفوعٌ مستتر ، و" آلهة " بدلٌ من ذلك الضَّمير ، والتَّقديرُ : كالذي استقرَّ هو لهم آلهة .

وقال أبو البقاءِ - في هذا الوجه - : والعَائِدُ محذوفٌ ، و" آلهة " بدلٌ منه ، تقديره : كالَّذِي هُوَ لهُم وتَسْميتُهُ هذا حَذْفاً تَسَامحٌ ، لأنَّ ضمائرَ الرفع إذا كانت فاعلةً لا تُوسف بالحذف ، بل بالاستتار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 292. 294 ﴾ .

باختصار .

(33/285)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما استفيد من كلامه لهم غاية الإنكار عليهم ، علل هذا الإنكار بقوله : ﴿ إن هؤلاء ﴾ أي القوم ﴿ متبر ما هم فيه ﴾ أي مكسر مفتت مهلك على وجه المبالغة ، وإذا فسد الظرف فسد المظروف ، وإليه الإشارة بجعل " هؤلاء " اسماً لإن ، وإيلائه خبر الجمله الواقعه خبراً مقدماً على مبتدئه .

ولما كان الشيء قد يهلك في الدنيا أو في الاخرة – وهو حق ، أعملهم بأن هذا الهلاك إنما هو الهلاك عند الله أعلم من كونه في الدنيا أو في الآخرة لبطلان ما هم فيه ، فقال معبراً بالاسمية إشارة إلى أنه الآن كذلك ، وإن رئي بخلافه : ﴿ وباطل ﴾ أي مضمحل زائل ﴿ ما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يعملون ﴾ أي مواظبين عليه من الأصنام والعكوف وجميع أعمالهم لأجله ، لا وزن لشيء منها أصلاً ولا اعتبار ، و – فيه إشارة إلى أن العبادة لا تنبغي إلا للباقي الذي لا يجوز عليه التغير ، فإذا كان كذلك كان العمل له أيضاً ثابتاً باقياً لا يجوز عليه البطلان ، وفي تعقيبها لتدمير آل فرعون إشارة إلى موجب ذلك ، وأن كل من كان على مثل حالهم من عبادة غير الله كانت عاقبته الدمار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 104.105 ﴾

(34/285)

فصل

قال الفخر :

ثم حكى تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال : ﴿ إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾

قال الليث : التبار الهلاك .

يقال : تبر الشيء يتبر تباراً والتتبير الإهلاك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ ويقال للذهب المنكسر المتفتت : التبر فقوله : ﴿ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ أي مهلك مدمر ، وقوله : ﴿ وباطل مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قيل : البطلان عدم الشيء ، إما بعدم ذاته أو بعدم فائدته ومقصوده ، والمراد من بطلان عملهم : أنه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا دفع ضرر ، وتحقيق القول في هذا الباب أن المقصود من العبادة أن تصير المواظبة على تلك الأعمال سبباً لاستحكام ذكر الله تعالى في القلب حتى تصير تلك الروح سعيدة بحصول تلك المعرفة فيها .

فإذا اشتغل الإنسان بعبادة غير الله تعالى ، تعلق قلبه بغير الله ويصير ذلك التعلق سبباً لإعراض القلب عن ذكر الله تعالى ؛ وإذا ظهر هذا التحقيق ظهر أن الاشتغال بعبادة غير الله متبر وباطل ، وضائع وسعى في تحصيل ضد هذا الشيء ونقيضه ، لأنا بينا أن المقصود من العبادة رسوخ معرفة الله تعالى في القلب ، والاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفة الله عن القلب ، فكان هذا ضداً للغرض ونقيضاً للمطلوب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 182.183 ﴾

(35/285)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ يعني : مهلك مفسد ما هم فيه من عبادة الأصنام ﴿ وباطل ﴾ يعني : ضلال ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ والتبار : الهلاك .

كقوله تعالى : ﴿ رَّبِّ اغفر لِى ولوالدى وِلَمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِناً وِلْلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَاراً ﴾ [نوح : 28] أي : هلاكاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾

في ﴿ متبر ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : باطل ، قاله الكلبي .

والثاني : ضلال ، حكاه أبو اليسع .

والثالث : مهلك ، ومنه التبر ، الذهب . وفي تسميته بذلك قولان :

أحدهما : لأن موسى يهلكه .

والثاني : لكسره ، وكل إناء مكسور متبّر قاله الزجاج . وقال الضحاك هي كلمة نبطية لما ذكرنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

أعلمهم موسى عن الله عز وجل بفساد حال اولئك القوم ليزول ما استحسنوه من حالهم فقال ﴿ إن هؤلاء ﴾ إشارة إلى أولئك القوم ﴿ متبر ﴾ أي مهلك مدمر ردي العاقبة ، قاله السدي وابن زيد ، والتبار الهلاك وسوى العقبى وإناء متبر أي مكسور وكسارته تبر ومنه تبر الذهب لأنه كسارة ، وقوله : ﴿ ما هم فيه ﴾ لفظ يعم جميع حالهم ﴿ وباطل ﴾ معناه فاسد ذاهب مضمحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(36/285)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ إن هؤلاء متبرٍ ما هم فيه ﴾

أي مهلك والتتبير الإهلاك ﴿ وباطل ما كانوا يعلمون ﴾ البطلان عبارة عن عدم الشيء إما بعدم ذاته أو بعدم فائده ونفعه والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا يدفع عنهم ضراً لأنه عمل لغير الله تعالى فكان باطلاً لا نفع فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إن هؤلاء متبرّ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾

الإشارة بهؤلاء إلى العاكفين على عبادة الأصنام ومعنى متبرّ مهلك مدمر مكسر وأصله الكسر ، وقال الكلبي : مبطل ، وقال أبو اليسع : مضلل ، وقال السدّي وابن زيد : مدمر رديء سيىء العاقبة وما هم فيه يعمّ جميع أحوالهم وبطل عملهم هو اضمحلاله بحيث لا ينتفع به وإن كان مقصوداً به التقرّب إلى الله تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ قال الزمخشري : وفي إيقاع ﴿ هؤلاء ﴾ إسماً لإن وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها واسم لعباده بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتة وأنه لهم ضربة لازم ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض لهم فيما أحبوا انتهى ولا يتعيّن ما قاله من أنه قد جزم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لأنّ لأن الأحسن في إعراب مثل هذا أن يكون خبر ﴿ إن ﴾ ﴿ متبر ﴾ وما بعده مرفوع على أنه مفعول لم يسمِّ فاعله وكذلك ما ﴿ كانوا ﴾ هو فاعل بقوله ﴿ وباطل ﴾ فيكون إذ ذاك قد أخبر عن اسم إنّ بمفرد لا جملة وهو نظير أن زيداً مضروب غلامه فالأحسن في الإعراب أن يكون غلامه مرفوعاً على أنه لم يسمّ فاعله ومضروب خبر أن والوجه الآخر وهو أن كون مبتدأ ومضروب خبره جائز مرجوح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(37/285)

وقال أبو السعود :

قوله : ﴿ إِنَّ هَؤُلَآءِ ﴾ يعني القومَ الذين يعبدون تلك التماثيلَ ﴿ مُتَبَّرٌ ﴾ أي مُدمّرٌ مكسَّرٌ ﴿ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ أي من الدين الباطلِ أي يُتبرّ الله تعالى ويهدِم دينَهم الذي هم عليه عن قريب ويحطّم أصنامَهم ويتركها رُضاضاً ، وإنما جيء بالجملة الاسميةِ للدلالةِ على التحقق ﴿ وباطل ﴾ أي مضمحلٌّ بالكلية ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من عبادتها وإن كان قصدُهم بذلك التقريبَ إلى الله تعالى فإنه كفرٌ محضٌ ، وليس هذا كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ كما تُوهم فإن المرادَ به أعمالُ البرِّ التي عمِلوها في الجاهلية فإنها في أنفسها حسناتٌ لو قارنت الإيمانَ لاستتبعت أجورَها وإنما بطَلت لمقارنتها الكفرَ ، وفي إيقاع (هؤلاءِ) اسماً لإن وتقديمِ الخبر من الجملة الواقعةِ خبراً لها وسْمٌ لعبدة الأصنامِ بأنهم هم المُعرَّضون للتبار وأنه لا يعدوهم ألبتةَ وأنه لهم ضربةُ لازبٍ ليحذّرهم عاقبةَ ما طلبوا ويُبغِضَ إليهم ما أحبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ أي القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام ﴿ مُتَبَّرٌ ﴾ أي مدمر مهلك كما قال ابن عباس ﴿ مَا هُمْ فيه ﴾ من الدين يعني يدمر الله تعالى دينهم الذي هم عليه على يدي ويهلك أصنامهم ويجعلها فتاتاً ﴿ وباطل ﴾ أي مضمحل بالكلية ، وهو أبلغ من

حمله على خلاف الحق ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ما استمروا على عمله من عبادتها وإن قصدوا بذلك التقرب إلى الله تعالى وأن المراد أن ذلك لا ينفعهم أصلاف ، وحمل ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ على الأصنام لأنها معمولة لهم خلاف الظاهر جداً ، والجملة تعليل لإثبات الجهل المؤكد للقوم ، وفي إيقاع اسم ازشارة كما في "الكشف" أن اسم الإشارة بعد إفادة الإحضار وأكمل التمييز يفيد أنهم أحقاء بما أخبر عنه به بواسطة ما تقدم من العكوف ، والتقديم يؤذن بأن حال ما هم فيه ليست غير التبار وحال عملهم ليست إلا البطلان فهم لا يعدونهما فهماً لهم ضربة لازب .

وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ ما هم فيه ﴾ فاعل متبر لاعتماده على المسند إليه وهو في نفسه مساً ولاحتمال أن يكون ما هم فيه مبتدأ ومتبر خبر له أو ارجح منه إلا أن المقام كما قال القطب وغيره اقتضى ذلك فليفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(38/285)

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [139] .

﴿ إِنَّ هَؤُلاء ﴾ يعني عَبْدة تلك التماثيل ﴿ مُتَبَّرٌ ﴾ أي : مهلك .

﴿ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ أي : من الشرك ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : عبادة الأصنام ، وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى ، فإنه كفر محض .

قال الرازي : أجمع كل الأنبياء ، عليهم السلام ، على أن عبادة غير الله تعالى كفر ، سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلهاً للعالم ، أو اعتقد أن عبادته تقرب إلى الله تعالى ، لأن العبادة نهاية التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يصدر منه غاية الإنعام ، وهي بخلق الجسم والحياة والشهوة والقدرة والعقل وخلق الأشياء المنتفع بها .

والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن لا تليق العبادة إلا به . انتهى .

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غزوة حنين مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فقالوا : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ والذي نفسي بيده ! لتركبن سنن من كان قبلكم > - أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن جرير وغيرهم - .

وقال الإمام أبو بكر الطرطوشي المالكي : انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ، فيعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ، ويضربون بها المسامير والخرق ، فهي ذات أنواط ، فاقطعوها .

(39/285)

وقال الحافظ أبو شامة الشافعي الدمشقي في كتاب " البدع والحوادث " : وقد عم الإبتلاء بتزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه ، مع تضييعهم فرائض الله وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم ، فيعظمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم ، وقضاء حوائجهم ، وبالنذر لها ، هي من بين عيون وشجر وحائط وحجر .

ثم شرح شجرة مخصوصة فقال : ما أشبهها بذات أنواط ، التي في الحديث .

وروى ابن وضاح في كتابه قال : سمعت عيسى بن يونس يقول : أمر عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم فقطعت ، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة . ولهذا البحث تتمة مهمة في " إغاثة اللهفان " لابن القيم . فلتنظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 178.179 ﴾

(40/285)

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ إن هؤلاء متبّرٌ ما هم فيه ﴾ بمعنى التعليل لمضمون جملة ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ فلذلك فصلت عنها وقد أكدت وجعلت اسمية لمثل الأغراض التي ذكرت في أختها ، وقد عُرّف المسند إليه بالإشارة لتمييزهم بتلك الحالة التي هم متلبسون بها أكمل تمييز ، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما يَرِد بعد اسم الإشارة من الأوصاف وهي كونهم متّبرا أمرهم وباطلاً عملهم ، وقُدم المسند وهو ﴿ متَبّر ﴾ على المسند إليه وهو ﴿ ما هم فيه ﴾ ليفيد تخصيصه بالمسند إليه أي : هم المعرضون للتّبار وأنه لا يعدوهم البتة ، وأنه لهم ضربة لازب ، ولا يصح أن يجعل ﴿ متَبر ﴾ مسنداً إليه لأن المقصود بالإخبار هو ما هم فيه .

والمتَبّر : المدمّر ، والتّبَار بفتح التاء الهلاك ﴿ ولا تزد الظالمين إلاّ تباراً ﴾ [نوح : 28] . يقال نَبَر الشيء كضرب وتعب وقتل وتَبّره تضعيف للتعدية ، أي أهلكه والتتبير مستعار هنا لفساد الحال ، فيبقى اسم المفعول على حقيقته في أنه وصف للموصوف به في زمن الحال .

ويجوز أن يكون التتبير مستعاراً لسوء العاقبة ، شبه حالهم المزخرفُ ظاهرهُ بحال الشيء البهيج الآيل إلى الدمار والكَسْر فيكون اسم المفعول مجازاً في الاستقبال ، أي صائِر إلى السوء .

و﴿ ما هم فيه ﴾ هو حالهم ، وهو عبادة الأصنام وما تقتضيه من الضلالات والسيئات ولذلك اختير في تعريفها طريق الموصولية لأن الصلة تحيط بأحوالهم التي لا يحيط بها المتكلم ولا المخاطبون .

والظرفية مجازية مستعارة للملابسة ، تشبيهاً للتلبس باحتواء الظرف على المظروف .

والباطل اسم لضد الحق فالإخبار به كالإخبار بالمصدر يفيد مبالغة في بطلانه لأن المقام مقام التوبيخ والمبالغة في الإنكار ، وقد تقدم آنفاً معنى الباطل عند قوله تعالى : ﴿ فوقع الحَقُّ وبَطَل ما كانوا يعملون ﴾ [الأعراف : 118] .

(41/285)

وفي تقديم المسند ، وهو ﴿ باطل ﴾ على المسند إليه وهو ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ ما في نظيره من قوله : ﴿ متبر ما هم فيه ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(42/285)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) ﴾

و﴿ مُتَبَّرٌ ﴾ أي هالك ومدمر ، وهنا يوضح لهم موسى أن هؤلاء الجماعة التي تعبد الأصنام ؛ وهم وأصنامهم هالكون ، وما يعملون هو باطل لأن قضايا الكون إن أردتم أن تعرفوا حقيقتها ، فلابد لها من ثبوت ، والحق ثابت لا يتغير أبداً لأن له واقعاً يُستقرأ ، ومثال ذلك إذا حصلت حادثة بالفعل أمامنا جميعاً ، ثم طلب من كل واحد على انفراد أن يقول ما رآه فلن نختلف في الوصف لأننا نستوحي واقعاً ، لكن إن كانت القضية غير واقعية فكل واحد سيقولها بشكل مختلف ، ولذلك نجد من لباقة القضاء أن القاضي يحاور الشهود محاورات ليتبيّن ما يثبتون عليه وما يتضاربون فيه . وإن كان الشهود يستوحون حقيقة واقعية ، فلن يختلفوا في روايتهم ، ولكنهم يختلفون حين لا يتأكد أحدهم من الواقعة أو أن تكون غير حقيقية .

والمثل العربي يقول : " إن كنت كذوباً فكن ذكوراً " أي إن كذبت – والعياذ بالله – وقلت قولاً غير صادق فعليك أن تتذكر كذبتك ، وأنت لن تتذكرها لأنها أمر متخيّل وليس أمراً ثابتاً . وقد يجوز أن يأخذ غير الواقع زهوة ولمعاناً فنقول : إياك أن تغتر بهذه الزهوة لأن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق

والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ [الرعد : 17]

(43/285)

لقد شبه سبحانه الباطل بالزبد وهو ما يعلو السائل أو الماء من الرغوة والقش والمخلفات التي تعوم على سطح المياه إنه يتلاشى ويذهب ، أما ما ينفع الناس فيبقى . ونحن نختبر المعادن لنعرف هل هي مغشوشة أو لا . . ونعرضها على النار ، فيطفوا ما فيها من مادة غير أصيلة وما فيها من شوائب ، ويبقى في القاع المعدن الأصيل .

وهنا يقول الحق على لسان موسى : ﴿ إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 139]

والأحداث إما فعل أو قول ، والقول : عملية اللسان ، والفعل : لبقية الجوارح ، وكل الأحداث ناشئة عن قول أو عن فعل ، والقول والفعل معاً هما " عمل " . ولذلك يقول الحق : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2]

إذن فالعمل يشمل القول ، ويشمل الفعل .

وقوله الحق : ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إن الأصنام التي كانوا يصنعونها ويعبدونها ،

كانت تقوم على أقوال وأفعال ، كأن يقولوا : يا هبلٍ ، يا لات ، يا عزّى ، ويناجون هذه الأصنام ويطلبون منها أن تحقق لهم بعضاً من الأعمال وكانوا يقفون أمامها صاغرين أذلاء ، إذن فقد صدر منهم قول وفعل يضمهما معاً العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(44/285)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾ قال : على لخم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني في قوله ﴿ فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾ قال : هم لخم وجذام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾ قال : تماثيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر ، فلذلك كان أول شأن العجل لتكون لله عليهم حجة فينتقم منهم بعد ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ قال : يا سبحان الله . . . ! قوم أنجاهم الله من العبودية ، وأقطعهم البحر ، وأهلك عدوهم ، وأراهم الآيات العظام ، ثم سألوا الشرك صراحية .

(45/285)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حنين ، فمررنا بسدرة فقلت : يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه

عن جده قال : " غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح ونحن ألف ونيف ، ففتح الله له مكة وحنينا ، حتى إذا كنا بين حنين والطائف مررنا بشجرةٍ دنوا عظيمة سدرة كان يناط بها السلام فسميت ذات أنواط ، وكانت تُعبد من دون الله ، فلما رآها رسول الله صلى عليه وسلم صرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها ، فقال له رجل يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله صلى عليه وسلم " إنها السنن قلتم . والذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل ﴿ اجعل لنا آلهاً كما لهم آلهة ﴾ " " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ متبر ﴾ قال : خسران .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ متبر ﴾ قال : هالك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ﴾ قال : المتبر المخسر ، وقال المتبر والباطل سواء كله واحد كهيئة غفور رحيم ، والعرب تقول : إنه البائس المتبر ، وإنه البائس المخسر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(46/285)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله ﴿ إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ ﴾ .

هؤلاءِ إشارةٌ لِمَنْ عَكَفُوا على الأصنام ، ومُتَبَّرٌ فيه وجهان : أحدهما : أن يكون خبراً لـ " إنَّ " و " مَا " موصولةٌ بمعنى " الَّذي " وهُمْ فِيهِ جملةٌ اسميةٌ صلةٌ وعائده ، وهذا الموصولُ مرفوعٌ باسم المفعول فتكون قد أخْبَرْتَ بمفرد رفعت به سَبَبّاً .

والثاني : أن يكون الموصولُ مبتدأ ، ومُتَبَّرٌ خبره قُدِّم عليه ، والجملةُ خبرٌ لـ " إنَّ " .

قال الزمخشريُّ : وفي إيقاع " هؤلاء " اسماً لـ " إنَّ " ، وتقديمُ خبر المبتدأ من الجملة الواقعةِ خبراً لها وسمٌ لعبدة الأصنام بأنَّهم هم المُعَرَّضُونَ للتَّبَار ، وأنَّهُ لا يَعْدُوهُم أُلْبَّتَة ، وأنَّهُ لهم ضربةُ لازم ، ليحذِّرهم عاقبة ما طلبوا ، ويبغض إليهم ما أحَبُّوا .

قال أبو حيَّان : " ولا يتعيَّنُ ما قاله من تقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لـ " إنَّ " ، لأنَّ الأحْسَنَ في إعراب مثل هذا أن يكونُ مُتَبَّرٌ خبراً " إنَّ " وما بعده مرفوعٌ " فذكر ما قرَّرْتُهُ ، ونظَّره بقولك : " إنَّ زَيْداً مضروبٌ غلامُهُ " .

قال : فالأحْسَنُ أن يكون " غلامه " مرفوعاً بـ " مضروب " ، ثم ذكر الوجه [الثاني] وهو أن يكون " مُتَبَّرٌ " خبراً مقدماً من الجملة ، وجعله مرجوحاً .

وهو كما قال ، لأنَّ الأصلَ في الأخبارِ أن تكون مفردةً ، فما أمكن فيها ذلك لا يُعْدل عنه ،

إلا أنَّ الزمخشريَّ لم يذكر ذلك على سبيل التَّعيين ، بل على أحد الوجهين وقد يكونُ هذا عنده أرجحَ من جهة ما ذكر من المعنى ، وإذا دار الأمر بين مُرَجِّح لفظيّ ، ومُرَجِّح معنويٍّ فاعتبارُ المعنويِّ أولى ، ولا أظُنُّ حَمَلَ الزمخشري على ذلك إلا ما ذكرت .

وقوله ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ كقوله ﴿ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ من جواز الوجهين وما ذُكِر فيهما .

والتَّتْبيرُ : التَّكسير ، والتَّحطيم .

والبطلان قيل : عدم الشَّيءِ إمَّا بعد ذاته ، وإما بعدم فائدته ومقصوده . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 294 . 295 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) ﴾

لم تَخْلُصْ في قلوبهم حقائقُ التوحيد فتاقت نفوسهم إلى عبادة غير الله ، حتى قالوا لنبيِّهم موسى – عليه السلام – : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . وكذا صفة من لم يتحرر قلبُه من إثبات الأشغال والأعلال ، ومن المساكنة إلى الأشكال والأمثال .

ويقال مَنْ ابتغى بالصنم أن يكون معبودَه متى يُتَوَّهم في وصفِه أَنْ يُخلِصَ إلى اللهِ قصودَه ؟ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 562 ﴾

(47/285)

قوله تعالى ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا استدلالاً على أن مثل هذه الأصنام التي مروا عليها لا تصلح لأن تعبد ، كان ذلك غير كاف لهم لما – تقرر من جهلهم ، فربما ظنوا أن غيرها مما سوى الله تجوز عبادته ، فكأنه قيل : هذا لا يكفي جواباً لمثل هؤلاء فهل قال لهم غير ذلك ؟ فقيل : نعم ! ﴿ قال ﴾ منكراً معجباً ﴿ أغير الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ، فهو المستحق للعبادة ﴿ أبغيكم ﴾ أي أطلب لكم ﴿ إلهاً ﴾ فأنكر أن يتأله غيره ، وحصر الأمر فيه ثم بينه بقوله : ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه هو وحده ﴿ فضلكم ﴾ دون غيركم ممن هو في زمانكم أو قبله ﴿ على العالمين ﴾ أي لو لم يكن لوجوب اختصاصهم له بالعبادة سبب سوى

اختصاصه لهم بالتفصيل على سائر عباده الذين بلغهم علمهم ممن هو أقوى منهم حالاً وأكثر عدداً وأموالاً لكان كافياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 105 ﴾

(48/285)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنهم لما قالوا له : ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ فهو عليه السلام ذكر في الجواب وجوهاً : أولها : أنه حكم عليهم بالجهل فقال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وثانيها : أنه قال : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ أي سبب للخسران والهلاك .

وثالثها : أنه قال : ﴿ وباطل مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي هذا العمل الشاق لا يفيدهم نفعاً في الدنيا والدين .

ورابعها : ما ذكره في هذه الآية من التعجب منهم على وجه يوجب الإنكار والتوبيخ فقال : ﴿ أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ إلها وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ﴾ والمعنى : أن الإله ليس شيئاً يطلب ويلتمس ويتخذ ، بل الإله هو الله الذي يكون قادراً على الإنعام بالإيجاد وإعطاء الحياة

وجميع النعم ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ﴾ فهذا الموجود هو الإله الذي يجب على الخلق عبادته ، فكيف يجوز العدول عن عبادته إلى عبادة غيره .

قال الواحدي رحمه الله : يقال : بغيت فلاناً شيئاً وبغيت له .

قال تعالى : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ [التوبة : 47] أي يبغون لكم ، وفي انتصاب قوله : ﴿ إلها ﴾ وجهان : أحدهما : الحال كأنه قيل : أطلب لكم غير الله معبوداً ، ونصب ﴿ غَيْرِ ﴾ في هذا الوجه على المفعول به .

الثاني : أن ينصب ﴿ إلها ﴾ على المفعول به ﴿ وَغَيْر ﴾ على الحال المقدمة التي لو تأخرت كانت صفة كما تقول : أبغيكم إلها غير الله .

وقوله : ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ﴾ فيه قولان : الأول : المراد أنه تعالى فضلهم على عالمي زمانهم .

(49/285)

الثاني : أنه تعالى خصهم بتلك الآيات القاهرة ولم يحصل مثلها لأحد من العالمين ، وإن كان غيرهم فضلهم بسائر الخصال ، ومثاله : رجل تعلم علماً واحداً وآخر تعلم علوماً كثيرة سوى ذلك العلم ، فصاحب العلم الواحد مفضل على صاحب العلوم الكثيرة بذلك

الواحد ، إلا أن صاحب العلوم الكثيرة مفضل على صاحب العلم الواحد في الحقيقة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 183 ﴾

(50/285)

وقال السمرقندى :

ثم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إلها ﴾ يعني : أسوى الله آمركم أن تعبدوا وتتخذوا إلها ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ﴾ يعني : على عالمي زمانكم .

يعني : أنه قد أحسن إليكم فلا تعرفون إحسانه ، وتطلبون عبادة غيره .

وهم الذين كانوا أجابوا السامري حين دعاهم إلى عبادة العجل بعد انطلاق موسى إلى الجبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ قال أغير الله ﴾ الآية ،

أمر الله موسى عليه السلام أن يوقفهم ويقررهم على هذه المقالة ، ويحتمل أن يكون القول من تلقائه عليه السلام ، ﴿ أبغيكم ﴾ معناه : أطلب لكم ، من بغيت الشيء إذا طلبته ، و ﴿ غير ﴾ منصوبة بفعل مضمر هذا هو الظاهر ويحتمل أن ينتصب على الحال كأن

تقدير الكلام : قال أبغيكم إلهاً غير الله فهي في مكان الصفة فلما قدمت نصبت على الحال ، و﴿ العالمين ﴾ لفظ عام يراد به تخصيص عالم زمانهم ، لأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل منهم بإجماع ، ولقوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ [آل عمران : 110] اللهم إلا أن يراد بالفضل كثرة الأنبياء منهم فإنهم فضلوا في ذلك على العالمين بالإطلاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(51/285)

وقال الخازن :

﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهاً ﴾

لما قال بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً لنا إلهاً كما لهم آلهة حكم عليهم بالجهالة وقال مجيباً لهم على سبيل العجب والإنكار عليهم أغير الله أبغيكم إلهاً يعني أطلب لكم وأبغي لكم إلهاً ﴿ وهو فضّلكم على العالمين ﴾ والمعنى أن الإله ليس هو شيئاً يطلب ويلتمس ويتخير بل الإله هو الذي فضلكم على العالمين لأنه القادر على الإنعام والإفضال فهو هذا الذي يستحق أن يعبد ويطاع لا عبادة غيره ومعنى قوله فضلكم على العالمين يعني على عالمي زمانكم وقيل فضلهم بما خصهم به من الآيات الباهرة التي لم تحصل لغيرهم وإن كان

غيرهم أفضل منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾

ما أحسن ما خاطبهم موسى عليه السلام بدأهم أولاً بنسبتهم إلى الجهل ثم ثانياً أخبرهم بأن عبّاد الأصنام ليسوا على شيء بل مآل أمرهم إلى الهلاك وبطلان العمل وثالثاً أنكر وتعجب أن يقع هو عليه السلام في أن يبغي لهم غير الله إلهاً أي ﴿ أغير ﴾ المستحق للعبادة والألوهية أطلب لكم معبوداً وهو الذي شرفكم واختصكم بالنعم التي لم يعطها من سلف من الأمم لا غيره فكيف أبغي لكم إلهاً غيره ومعنى ﴿ على العالمين ﴾ على عالمي زمانهم أو بكثرة الأنبياء فيهم ، قال ابن القشيري : بإهلاك عدوهم وبما خصّهم من الآيات وانتصب ﴿ غير ﴾ مفعولاً بأبغيكم أي أبغي لكم غير الله ، ﴿ وإلهاً ﴾ تمييز عن ﴿ غير ﴾ أو حال أو على الحال ﴿ وإلهاً ﴾ المفعول والتقدير أبغي لكم إلهاً غير الله فكان غير صفة فلما تقدم انتصب حالاً ، وقال ابن عطية : وغير منصوبة بفعل مضمر هذا هو الظاهر ويحتمل أن ينتصب على الحال انتهى ، ولا يظهر نصبه بفعل مضمر لأن أبغي مفرّغ له أو لقوله إلهاً فإن تخيّل أنه منصوب بأبغي مضمرة يفسرها هذا الظاهر فلا يصحّ لأنّ الجملة المفسرة لا رابط فيها لا من ضمير ولا من ملابس يربطها بغير فلو كان التركيب أغير الله

أبغيكموه لصحّ ويحتمل وهو فضلكم أن يكون حالاً وأن كون مستأنفاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(52/285)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً ﴾

شروعٌ في بيانِ شؤونِ الله تعالى الموجبةِ لتخصيص العبادةِ به تعالى بعد بيانِ أن ما طلبوا عبادتَه مما لا يمكن طلبُه أصلاً لكونه هالكاً باطلاً ، ولذلك وسّط بينهما قال مع كونِ كلَ منهما كلامَ موسى عليه الصلاة والسلام ، والاستفهامُ للإنكار والتعجب والتوبيخِ وإدخالُ الهمزةِ على غير للإيذان بأن المنكرَ هو كونُ المبْغيِّ غيرَه تعالى لما أنه لاختصاص الإنكار بغيره تعالى دون إنكارِ الاختصاصِ بغيره تعالى ، وانتصابُ غير على أنه مفعولُ أبغي بحذف اللام أي أبغي لكم أي أطلب لكم غيرَ الله تعالى ، وإلها تمييزٌ أو حال أو على الحالية من إلها وهو المفعولُ لأبغي على أن الأصل أبغي لكم إلها غيرَ الله فغيرَ الله صفةٌ لإلها فلما قُدّمت صفةُ النكرةِ انتصبت حالاً ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ﴾ أي والحالُ أنه تعالى خصكم بنعمٍ لم يُعطِها غيرَكم ، وفيه تنبيهٌ على ما صنعوا من سوء المعاملةِ حيث قابلوا تخصيصَ الله

تعالى إياهم من بين أمثالِهم بما لم يستحقوه تفضلاً بأن عمَدوا إلى أخسّ شيءٍ من مخلوقاته فجعلوه شريكاً له تعالى . تباً لهم ولما يعبدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(53/285)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً ﴾

قيل : هذا هو الجواب وما تقدم مقدمة وتمهيد له ، ولعله لذلك أعيد لفظ له : وقال شيخ الإسلام : هو شروع ف بيان شؤون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به سبحانه بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلاً لكونه هالكاً باطلاً أصلاً ولذلك وسط بينهما قال مع كون كل منهما كلام موسى عليه السلام ، وقال الشهاب : أعيد لفظ ﴿ قال ﴾ مع اتحاد ما بين القائلين لأن هذا دليل خطابي بتفضيلهم على العالمين ، ولم يستدل بالتمانع العقلي لأنهم عوام انتهى ، وفي إقامة برهان التمانع على الوثنية القائلين ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] والمجيبين إذا سئلوا من خلق السموات والأرض بخلقهن الله خفاء ، والظاهر إقامته على التنويه كما لا يخفى ، والاستفهام للإنكار وانتصاب

﴿ غير ﴾ على أنه مفعول أبغيكم وهو على الحذف والإيصال ، والأصل أبغى لكم ، وعلى ذلك يخرج كلام الجوهري وإن كان ظاهره أن الفعل متعد لمفعولين والهاء تمييز ، وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولاً به لأبغي وغير صفة له قدمت فصارت حالاً ، وأياً ما كان فالمقصود هنا اختصاص الإنكار بغيره تعالى دون إنكار الاختصاص ، والمعنى أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ﴾ أي عالمي زمانكم أو جميع العالمين ، وعليه يكون المراد تفضيلهم بتلك الآيات لا مطلقاً حتى يلزم تفضيلهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأما الأنبياء والملائكة عليهم السلام فلا يدخلون في المفضل عليهم بوجه بل هم خارجون عن ذلك بقرينة عقلية ، والجملة حالية مقررة لوجه الإنكار ، أي والحال أنه تعالى خص التفضيل بكم فأعطاكم نعماً لم يعطها غيركم ، وفيه تنبيه على ما صنعوا من سوء المعاملة والمقابلة حيث قابلوا التفضل بالتفضيل والاختصاص بأن قصدوا أن يشركوا به أخس مخلوقاته ؛ وهذا الاختصاص مأخوذ من معنى الكلام وإلا فليس فيه ما يفيد ذلك ، وتقديم

(54/285)

الضمير على الخبر لا يفيده وإن كان اختصاصاً آخر على ما قيل ، أي هو المخصوص بأنه فضلكم على من سواكم ، وجوز أبو البقاء كون الجملة مستأنفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(55/285)

وقال ابن عاشور :

وإعادة لفظ ﴿ قال ﴾ مستأنفاً في حكاية تكملة جواب موسى بقوله تعالى : ﴿ قال أغير الله أبغيكم ﴾ تقدم توجيه نظيره عند قوله تعالى : ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ إلى قوله ﴿ قال فيها تحيون ﴾ من هذه السورة (24 ، 25) .

والذي يظهر أنه يعاد في حكاية الأقوال إذا طال المقول ، أو لأنه انتقال من غرض التوبيخ على سؤالهم إلى غرض التذكير بنعمة الله عليهم ، وأن شكر النعمة يقتضي زجرهم عن محاولة عبادة غير المنعم ، وهو من الارتقاء في الاستدلال على طريقة التسليم الجدَلي ، أي : لو لم تكن تلك الآلهة باطلاً لكان في اشتغالكم بعبادتها والإعراض عن الإله الذي أنعم عليكم كفران للنعمة ونداء على الحماقة وتنزه عن أن يُشاركهم في حماقتهم .

والاستفهام بقوله : ﴿ أغير الله أبغيكم إلاهاً ﴾ للإنكار والتعجب من طلبهم أن يجعل لهم

إلاهاً غير الله ، وقد أوليَ المستفهم عنه الهمزة للدلالة على أن محل الإنكار هو اتخاذ غير الله إلاهاً ، فتقديم المفعول الثاني للاختصاص ، للمبالغة في الإنكار أي : اختصاص الإنكار ببغي غير الله إلاهاً .

وهمزة ﴿ أبغيكم ﴾ همزة المتكلم للفعل المضارع ، وهو مضارع بغَى بمعنى طلب ، ومصدره البَغاء بضم الباء .

وفعله يتعدى إلى مفعول واحد ، ومفعوله هو ﴿ غيرَ الله ﴾ لأنه هو الذي ينكر موسى أن يكون يبغيه لقومه .

وتعديته إلى ضمير المخاطبين على طريقة الحذف والإيصال ، وأصل الكلام : أبغي لكم و ﴿ إلاهاً ﴾ تمييز ل ﴿ غير ﴾ .

وجملة : ﴿ وهو فضلكم على العالمين ﴾ في موضع الحال ، وحين كان عاملها محَل إنكار باعتبار معموله ، كانت الحال أيضاً داخلة في حيز الإنكار ، ومقررة لجهته .

وظاهر صوغ الكلام على هذا الأسلوب أن تفضيلهم على العالمين كان معلوماً عندهم لأن ذلك هو المناسب للإنكار ، ويحتمل أنه أراد إعلامهم بذلك وأنه أمر محقق .

(56/285)

ومجيء المسند فعلياً : ليفيد تقديم المسند إليه عليه تخصيصه بذلك الخبر الفعلي أي : وهو فضلكم ، لم تفضلكم الأصنام ، فكان الإنكار عليهم تحميقاً لهم في أنهم مغمورون في نعمة الله ويطلبون عبادة ما لا يُنعم .

والمرادُ بالعالمين : أممُ عصرهم ، وتفضيلهم عليهم بأنهم ذرية رسول وأنبياءَ ، وبأن منهم رسلاً وأنبياء ، وبأن الله هداهم إلى التوحيد والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبطوا فيه ، وبأنه جعلهم أحراراً بعد أن كانوا عبيداً ، وساقهم إلى امتلاك أرض مباركة وأيدهم بنصره وآياته ، وبعث فيهم رسولاً ليقيم لهم الشريعة .

وهذه الفضائِل لم تجتمع لأمة غيرهم يومئذٍ ، ومن جملة العالمين هؤلاء القوم الذين أتوا عليهم ، وذلك كناية عن إنكار طلبهم اتخاذَ أصنام مثلهم ، لأن شأن الفاضل أن لا يقلد المفضول ، لأن اقتباس أحوال الغير يتضمن اعترافاً بأنه أرجح رأياً وأحسن حالاً ، في تلك الناحية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(57/285)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140) ﴾

هم حينما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال لهم أولاً : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، وبعد ذلك رجع إلى الدليل على أن هذا طلب جهل ، وأن الذين يعبدون الأصنام من دون الله إنما يفعلون باطلاً ؛ فقال : ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ أَغَيْرَ الله ﴾ أي أن الإله الذي عرفتم بالتجربة العملية أنه فضلكم على العالمين ورأيتم ما صنع بعدوكم الذي استذلكم وسامكم سوء العذاب ، إنه قد أهلكه ودمره ، هل يمكن أن تطلبوا ربًّا غيره ؟

وقوله : ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ ﴾ أي أأطلب لكم إلهاً غيره ؟ وفي سؤاله هذا استنكار لأنه يتبعه بتفضيل الله لهم على العالم ، ثم أراد أن يذكرهم بقمة التفضيل لهم فيقول سبحانه على لسان موسى : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَونَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(58/285)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أَغَيْرَ اللَّهِ "

الهمزةُ للإنكار ، والتَّوبيخِ ، وفي نَصْبِ غير وجهان : أحدهما : أنَّه مفعولٌ به لـ " أَبْغِيكُمْ " على حذفِ اللاَّمِ ، تقديره : أبغي لكم غير اللَّهِ ، أي : أطلُبُ لكم فَلَمَّا حذف الحرف ، وصل الفعل بنفسه ، وهو غيرُ منقاص ، وفي إلهاً على هذا وجهان : أظهرهما : أنَّهُ تمييز لـ " غير " ، والثاني : أنَّهُ حالٌ ، ذكره أبو حيان وفيه نظر .

والثاني : من وجهي " غير " : أنَّهُ منصوب على الحال من إلهاً وإلهاً هو المفعول به لـ " أبْغِيكُمْ " على ما تقرَّرَ صفةُ النَّكرةِ عليها نُصِبتْ حالاً .

وقال ابنُ عطيَّة : و" غير " منصوبة بفعل مضمر ، وهذا هو الظَّاهِرُ ، ويجوزُ أن يكون حالاً .

وهذا الذي ذكره من إضمار الفعل لا حاجةَ إليه فإن أرَادَ أنَّهُ على الاشتغال فلا يَصِحُّ ؛ لأنَّ شرطهُ أن يعمل المفسِّر في ضميرِ الأوَّل ، أو سببه .

قوله : " أَبْغِيكُمْ " قال الواحديُّ .

يقال : بَغَيْتُ فلاناً شيئاً وبغيتُ له .

قال تعالى : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ [التوبة : 47] أي : يبغون لكم .

والمعنى : أطلبُ لكم غير اللَّه معبوداً .

قوله : ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ ﴾

يجوز أنْ يكون في محلِّ نصبٍ على الحال ، إمَّا من اللَّهِ وإمَّا من المخاطبين ، لأنَّ الجملةَ مشتملةٌ على كلٍّ مِنْ ضَميريْهِمَا ، ويجوزُ ألاّ يكونَ لها محلٌّ ، لاستئنافها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 295.296 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140) ﴾

ذكَّرهم انفرادَه – سبحانه – بإنشائهم وإبداعهم ، وأنه هو الإله المتفرد بالإيجاد ، ونَبَّهَهُم أيضاً على عظيم نعمته عليهم ، وأنه ليس حقُّ إتمام النعمة عليهم مقابلتَهم إياها بالتولِّي لغيره والعبادةِ لِمَنْ سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 562 ﴾

(59/285)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أثبت أن الإلهية لا تصلح لغيره ، وأن غيره لم يكن يقدر على تفضيلهم ، وكان المقام للعظمة ، وكان كأنه قيل إيذاناً بغلظ أكبادهم وقله فطنتهم وسوء مقابلتهم للمنعم : اذكروا ذلك ، أي تفضيله لكم باصطفاء آبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وما تقدم له عندهم وعند أولادهم من النعم لا سيما يوسف عليه السلام الذي حكمه في جميع الأرض التي استذلكم أهلها ؛ عطف عليه إشارة إليه قوله التفاتاً إلى مظهر العظمة تذكيراً بعظمة مدخوله : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكروا إذ ﴿ أنجيناكم ﴾ أي على ما نحن عليه من العظمة التي أنتم لها عارفون ، ولها في - كل وقت في تلك الآيات مشاهدون ﴿ من آل فرعون ﴾ وما أفضنا عليكم بعد الإنجاء من النعم الجسام وأريناكم من الآيات العظام تعرفوا أنا فضلناكم على جميع الأنام ، ثم استأنف بيان ما أنجاهم منه بقوله : ﴿ يسومونكم ﴾ أي ينزلون بكم دائماً ﴿ سوء العذاب ﴾ .

ولما كان السياق - كما مضى - لبيان إسراعهم في الكفر وشدة علوتهم في قوتهم وجلافتهم ، وكان مقصود السورة إنذار المعرضين وتحذيرهم من القوارع التي أحلها بالماضين ، بين سوء العذاب عادلاً في بيانه عن التذبيح - لأنه لا يكون عند الانذباح ، وهو في الأصل لمطلق الشق - إلى التعبير بالقتل لأنه أدل على الإماتة وأهز ، لأنه قد يكون على هيئة شديدة بشعة كالتقطيع والنخس والخبط وغير ذلك مع أنه لا بد فيه من تفويت ذلك فقال :

﴿ يقتلون ﴾ أي تقتيلاً كثيراً - ﴿ أبناءكم ﴾ ودل على حقيقة القتل بقوله :

﴿ ويستحيون ﴾ .

(60/285)

ولما كان المعنى أنهم لا يعرضون للإناث صغاراً ولا كباراً ، وكان إنكار ما يكون إبقاء النساء بلا رجال لما يخشى من الضياع والعار ، وكان مظنة العار أكبر - عبر عنهن بقولة : ﴿ نساءكم ﴾ وتنبيهاً على أن قتل الأبناء إنما هو للخوف من صيرورتهم رجالاً لئلا يسلبهم واحد منهم أعلمهم به كهانهم ملكهم ؛ وأشار إلى شدة ذلك بقوله : ﴿ وفي ذلكم ﴾ أي الأمر الصعب المهول ﴿ بلاء ﴾ أي اختبار لكم ولهم ﴿ من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم في حالي الشدة والرخاء ، فأنه أخفى عنهم الذي قصدوا القتل لأجله ، وأنقذكم به بعد أن رباه عند الذي هو مجتهد في ذبحه ﴿ عظيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 105.106 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذه الآية مفسرة في سورة البقرة ، والفائدة في ذكرها في هذا الموضع أنه ، تعالى هو

الذي أنعم عليكم بهذه النعمة العظيمة ، فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غير الله تعالى والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 184 ﴾

(61/285)

وقال السمرقندى :

ثم ذكر النعم فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أنجيناكم ﴾ من آل فرعون يعني : اذكروا حين أنجاكم الله من آل فرعون : وقرأ ابن عامر وإِذْ أَنْجَاكُمْ يعني : اذكروا حين أنجاكم الله ﴿ مّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ ﴾ وقرأ الباقون ﴿ وَإِذْ أنجيناكم ﴾ ومعناه مثل ذلك ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب ﴾ يعني : يعذبونكم بأشد العذاب ﴿ يُقَتّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾ يعني : يستخدمون نساءكم ﴿ وَفِى ذلكم بَلاء مّن رَّبّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي : الإنجاء نعمة من ربكم عظيمة .

ويقال : في قتل الأبناء واستخدام النساء بلية من ربكم عظيمة .

قرأ نافع ﴿ يُقَتّلُونَ أَبْنَاءكُمْ ﴾ بنصب الياء مع التخفيف .

وقرأ الباقون بضم الياء وكسر التاء مع التشديد .

يُقَتِّلُونَ على معنى التكثير .

وقرأ حمزة والكسائي يَعْكِفُونَ بكسر الكاف وقرأ الباقون بالضم يَعْكُفُونَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ قرأ أهل المدينة أنجيناكم ، وقرأ أهل الشام وإذ أنجاكم وكذلك في مصاحفهم بغير نون .

﴿ مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ .

قرأ نافع : (يقتلون) خفيفة من القتل على القليل ، وقرأ الباقون التشديد على الكثير من القتل ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(62/285)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾

قال هذا يذكر بالنعمة .

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذابِ ﴾ أي أشد العذاب .

﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ أي يقتلون أبناءكم صغاراً ويستحيون نساءكم للاسترقاق والاستخدام كباراً .

﴿ وَفِي ذَلِكُم بَلاَءٌ مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن ما فعله فرعون بكم من قتل الأبناء واسترقاق النساء بلاء عليكم عظيم ، قاله الكلبي .

والثاني : أنه ابتلاء لكم واختبار عظيم ، قاله الأخفش .

والثالث : أن في خلاصكم من ذلك بلاء عظيم ، أي نعمة عظيمة ، قاله ابن قتيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(63/285)

وقال ابن عطية :

ثم عدد عليهم في هذه الآية النعم التي يجب من أجلها أن لا يكفروا به ولا يرغبوا عبادة غيره وقرأت فرقة " نجيناكم " ، وقرأ جمهور الناس : " أنجيناكم " وقد تقدم ، وروي عن ابن عباس " وإذا أنجاكم " أي أنجاكم الله وكذلك هي في مصاحف أهل الشام ، و ﴿ يسومونكم ﴾ معناه يحملونكم ويكلفونكم ، تقول سامه خطة خسف ، ونحو هذا ،

ومساومة البيع ينظر إلى هذا وأن كل واحد من المتساومين يكلف صاحبه إرادته ، ثم فسر ﴿ سوء العذاب ﴾ بقوله : ﴿ يقتلون ويستحيون ﴾ ، و﴿ بلاء ﴾ في هذا الموضع معناه اختبار وامتحان ، وقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى سوء العذاب ، ويحتمل أن يشير به إلى التنجية فكأنه قال وفي تنجيتكم امتحان لكم واختبار هل يكون منكم وفاء بحسب النعمة .

قال القاضي أبو محمد : والتأويل الأول أظهر ، وقالت فرقة : هذه الآية خاطب بها موسى من حضره من بني إسرائيل ، وقال الطبري : بل خوطب بهذه الآية من كان على عهد محمد صلى الله عليه وسلم تقريعاً لهم بما فعل بأوائلهم وبما جازوا به .

قال القاضي أبو محمد : والأول أظهر وأبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَ أَنجيناكم ﴾ تذكيرٌ لهم من جهته سبحانه بنعمة الإنجاءِ من ملَكة فرعون وقرىء نجّينا كم من التنجية ، وقرىء أنجاكم فيكون مَسوقاً من جهة موسى عليه الصلاة والسلام أي واذكروا وقت إنجائِنا إياكم ﴿ مّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ ﴾ من ملَكتهم لا بمجرد تخليصِكم من أيديهم وهم على حالهم في المَكِنة والقدرة بل بإهلاكهم بالكلية وقوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب ﴾ من سامه خسفاً أي أولاه إياه أو كلفه إياه ، وهو إما استئنافٌ لبيان ما

أنجاهم منه أو حالٌ من المخاطَبين أو من آل فرعون أو منهما معاً لاشتماله على ضميريهما وقوله تعالى : ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾ بدلٌ من يسومونكم مُبين أو مفسّرٌ له ﴿ وَفِى ذلكم ﴾ الإنجاءِ أو سوءِ العذاب ﴿ بَلاءٌ ﴾ أي نعمةٌ أو محنة ﴿ مّن رَّبِّكُمْ ﴾ من مالك أمرِكم فإن النعمةَ والنقِمةَ كلتاهما منه سبحانه وتعالى ﴿ عظِيمٌ ﴾ لا يقادَر قدرُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(64/285)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ أنجيناكم مّنْ ءالِ فِرْعَونَ ﴾

بإهلاكهم وتخليصكم منهم ، وإذ إما مفعول به لاذكروا محذوفاً بناءً على القول بأنها تخرج عن الظرفية أي اذكروا ذلك الوقت ويكون ذلك كناية عن ذكر ما فيه وإما ظرف لمفعول اذكروا المحذوف أي اذكروا صنيعنا معكم في ذلك الوقت ، وهو تذكير من جهته تعالى بنعمته العظيمة وقرىء ﴿ نجيناكم ﴾ من التنجية ، وقرأ ابن عامر ﴿ أَنجَاكُمْ ﴾ فيكون من مقول موسى عليه السلام ، وقال بعضهم : إنه على قراءة الجمهور أيضاً كذلك على أن ضمير أنجنا لموسى وأخيه عليهما السلام أولهما ولمن معهما أوله وحده عليه السلام مشيراً

بالتعظيم إلى تعظيم أمر الإنجاء وهو خلاف الظاهر ، وقيل : إنه من كلام الله تعالى تتميماً لكلام موسى عليه السلام كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً ﴾ [طه : 53] بعد قوله سبحانه : ﴿ الذى جَعَل لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ [طه : 53] وهو كالتفسير لقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ ﴾ [الأعراف : 140] .

وقوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ العذاب ﴾ أي يولونكم ذلك ويكلفونكم إياه إما استئناف بياني ، كأنه قيل : ما فعل بهم أو مم أنجوا ؟ فأجيب بما ذكر ، وإما حال من ضمير المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما معاً لاشتماله على ضميرهما .

وقوله عز اسمه : ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾ بدل من يسومونكم مبين له ، ويحتمل الاستئناف أيضاً ﴿ وَفِى ذلكم ﴾ الإنجاء أو سوء العذاب ﴿ بَلاء ﴾ نعمة أو محنة ، وقيل : المراد به ما يشملهما ﴿ مّن رَّبّكُمْ ﴾ أي مالك أموركم ﴿ عظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره .

(65/285)

وفي الآية التفات على بعض ما تقدم ، ثم إن هذا الطلب لم يكن كما قال محيي السنة البغوي عن شك منهم بوحدانية الله تعالى وإنما كان غرضهم إلهاً يعظمونه ويتقربون بتعظيمه إلى الله

تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة وكان ذلك لشدة جهلهم كما أذنت به الآيات ، وقيل : إن غرضهم عبادة الصنم حقيقة فيكون ذلك ردة منهم ، وأياً ما كان فالقائل بعضهم لا كلهم ، وقد اتفق في هذه الأمة نحو ذلك فقد أخرج الترمذي وغيره عن أبي واقد الليثي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في غزوة حنين فمر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم ويعكفون حولها يقال لها ذات أنواط فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "سبحان الله" وفي رواية "الله أكبر" هذا كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف : 138] والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم " وأخرج الطبراني وغيره من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده

(66/285)

" قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح ونحن ألف ونيف ففتح الله تعالى مكة وحنيناً حتى إذا كنا بين حنين والطائف في أرض فيها سدرة عظيمة كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط فكانت تعبد من دون الله فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم صرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها فقال له رجل : يا رسول الله اجعل

لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها السنن قلتم والذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف : 138] " وفي هذا الخبر تصريح بأن القائل رجل واحد ، ولعل ذلك كان عن جهل يعذر به ولا كون به كافراً وإلا لأمره صلى الله عليه وسلم بتجديد الإسلام ولم ينقل ذلك فيما وقفت عليه ، والناس اليوم قد اتخذوا من قبيل ذات الأنواط شيئاً كثيراً لا يحيط به نطاق الحصر ، والآمر بالمعروف أعز من بيض الأنوق والامتثال بفرض الأمر منوط بالعيوق والأمر لله الواحد القهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(67/285)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾

قِصَّةُ مُوسَى مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

هَذِهِ الْآيَاتُ وَمَا بَعْدَهَا شُرُوعٌ فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قِصَّتِهِ مَعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ عَلَى أَكْمَلِ وُجُوهِ الْعِبْرَةِ مَعَ السَّلَامَةِ مِنْ لَغْوِ الْقَصَصِ وَالتَّارِيخِ .

قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ جَازَ الشَّيْءَ ، وَجَاوَزَهُ وَتَجَاوَزَهُ : عَدَّاهُ وَانْتَقَلَ عَنْهُ ، وَالْعُكُوفُ عَلَى

(68/285)

الشَّيْءِ : الْإِقْبَالُ عَلَيْهِ ، وَمُلَازَمَتُهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ ، وَمِنْهُ الْعُكُوفُ وَالِاعْتِكَافُ فِي الْمَسْجِدِ ، وَهُوَ مُلَازَمَتُهُ لِأَجْلِ الْعِبَادَةِ . قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (يَعْكِفُونَ) بِكَسْرِ الْكَافِ مِنْ بَابِ جَلَسَ يَجْلِسُ ، وَالْبَاقُونَ بِضَمِّهَا مِنْ بَابِ قَعَدَ يَقْعُدُ ، وَالْأَصْنَامُ : جَمْعُ صَنَمٍ ، وَهُوَ مَا يُصْنَعُ مِنَ الْخَشَبِ أَوِ الْحَجَرِ أَوِ الْمَعْدِنِ مِثَالًا لِشَيْءٍ حَقِيقِيٍّ أَوْ خَيَالِيٍّ أَوْ مُذَكِّرًا بِهِ لِيُعَظَّمَ تَعْظِيمَ الْعِبَادَةِ ، وَاتَّخَذَ بَعْضُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ صَنَمًا مِنْ عَجْوَةِ التَّمْرِ فَعَبَدُوهُ ثُمَّ جَاعُوا فَأَكَلُوهُ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التِّمْثَالِ : أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِثَالًا لِشَيْءٍ ، وَأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِلْعِبَادَةِ ، وَحِينَئِذٍ يُسَمَّى صَنَمًا ، وَقَدْ يَكُونُ لِلزِّينَةِ كَالَّذِي نَرَاهُ عَلَى جُدْرَانِ بَعْضِ الْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ أَوْ أَبْوَابِهَا أَوْ فِي حَدَائِقِهَا ، وَقَدْ يَكُونُ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ غَيْرِ الدِّينِيِّ كَالتَّمَاثِيلِ الَّتِي تُنْصَبُ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ ، وَكِبَارِ عُلَمَاءِ الدُّنْيَا أَوِ الْقُوَّادِ وَالزُّعَمَاءِ ؛ لِلتَّذْكِيرِ بِتَارِيخِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ ، وَيَكْثُرُ هَذَا فِي بِلَادِ الْإِفْرِنْجِ ، وَقَلَّدَهُمْ بَعْضُ بِلَادِ الشَّرْقِ كَمِصْرَ ، فَنَصَبَتْ حُكُومَتُهَا تَمَاثِيلَ لِبَعْضِ أُمَرَاءِ بَيْتِ الْمُلْكِ الْحَاضِرِ ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ رِجَالِهِمْ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ

هَذَا التَّعْظِيمِ السِّيَاسِيِّ أَوِ الْعِلْمِيِّ ، وَبَيْنَ تَعْظِيمِ الْعِبَادَةِ : أَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الْأَوَّلِ إِمَّا رِفْعَةُ شَأْنِ الدَّوْلَةِ ،

(69/285)

وَتَمْكِينُ سُلْطَانِهَا عَلَى أَنْفُسِ الْأُمَّةِ بِمُشَاهِدَةِ صُوَرِ مُلُوكِهَا ، وَكُبَرَاءِ رِجَالِهَا وَتَمَاثِيلِهِمْ ، وَهُوَ قَصْدٌ سِيَاسِيٌّ صَحِيحٌ عِنْدَ أَهْلِهِ - وَإِمَّا بَعْثُ شُعُورِ حُبِّ الْعِلْمِ ، وَالِاقْتِدَاءِ بِالْعُلَمَاءِ وَالْأُدَبَاءِ وَالزُّعَمَاءِ الَّذِينَ نَفَعُوا أُمَّتَهُمْ ، عَسَى أَنْ يُوجَدَ فِي الْمُسْتَعِدِّينَ مَنْ يَكُونُ مِثْلَهُمْ أَوْ خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَهُوَ قَصْدٌ اجْتِمَاعِيٌّ صَحِيحٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ التَّرْبِيَةِ ، وَأَمَّا تَعْظِيمُ الْعِبَادَةِ فَالْغَرَضُ مِنْهُ التَّقَرُّبُ مِنَ الْمَعْبُودِ ، وَطَلَبُ ثَوَابِهِ بِدَفْعِ ضَرَرٍ أَوْ جَلْبِ مَنْفَعَةٍ مِنْ طَرِيقِ الْغَيْبِ لَا الْكَسْبِ ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ الْعَامَّةِ ، فَتَعْظِيمُ الشَّيْءِ الَّذِي يُعْتَقَدُ أَنَّ لَهُ سُلْطَةً غَيْبِيَّةً أَوْ تَعْظِيمُ مَا يُذْكَرُ بِهِ مِنْ صُورَةٍ أَوْ تِمْثَالٍ أَوْ قَبْرٍ أَوْ ثَوْبٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ آثَارِهِ ؛ لِأَجْلِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ ، وَقَصْدِ الِانْتِفَاعِ بِهِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي لَا تُنَالُ بِالْأَسْبَابِ الْعَامَّةِ - ، وَهِيَ مَا لَا يُطْلَبُ إِلَّا مِنَ اللهِ تَعَالَى ، أَوْ لِأَجْلِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِجَاهِهِ - كُلُّ ذَلِكَ عِبَادَةٌ ظَاهِرَةٌ ، فَإِنْ قَصَدَ الْمُعَظِّمُ لِذَلِكَ الشَّيْءِ ، أَوْ لِمَا يُذْكَرُ بِهِ الِانْتِفَاعَ بِهِ نَفْسِهِ بِمَا ذَكَرَ مِنَ التَّعْظِيمِ بِالْقَوْلِ

كَالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ أَوْ بِالْفِعْلِ كَالطَّوَافِ بِتِمْثَالِهِ أَوْ قَبْرِهِ ، وَتَقْبِيلِهِ وَالتَّمَرُّغِ بِأَرْضِهِ - كَانَتِ الْعِبَادَةُ خَالِصَةً

(70/285)

لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَإِنْ قَصَدَ التَّقَرُّبَ بِهِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى لِيَحْمِلَهُ بِجَاهِهِ عَلَى إعْطَائِهِ مَا يُرِيدُ كَانَتِ الْعِبَادَةُ لَهُ ، وَلِلَّهِ تَعَالَى بِالِاشْتِرَاكِ ، وَهَذَا مِنْ مَظَاهِرِ الشِّرْكِ الْجَلِيِّ الَّتِي لَا يُخْرِجُهَا تَغْيِيرُ التَّسْمِيَةِ عَنْ كَوْنِهَا كُفْرًا أَوْ شِرْكًا .

اسْتِطْرَادٌ فِقْهِيٌّ

حَظَرَ الشَّرْعُ الْإِسْلَامِيُّ نَصْبَ التَّمَاثِيلِ ؛ لِأَنَّهَا إمَّا شِرْكٌ أَوْ ذَرِيعَةٌ إلَيْهِ ، أَوْ تَشَبُّهٌ بِأَهْلِهِ ، وَهِيَ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ فِي التَّدَلِّي ، فَأَغْلَظُهَا أَوَّلُهَا ، وَأَخَفُّهَا ثَالِثُهَا . وَلِلتَّشَبُّهِ دَرَجَاتٌ فِي الْحَظْرِ أَشَدُّهَا مَا كَانَ فِي أُمُورِ الدِّينِ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ كُفْرًا ، وَأَهْوَنُهَا مَا كَانَ فِي الْعَادَاتِ وَأُمُورِ الدُّنْيَا

(71/285)

فَنَجْتَنِبُ مِنْهُ مَا لَنَا غِنًى عَنْهُ ، وَمَا كَانَ نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ بِنَفْسِهِ لَا نَأْخُذُهُ بِقَصْدِ التَّشَبُّهِ فَقَطْ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إلَّا مِنْ تَعْظِيمِ الْمُتَشَبِّهِ لِغَيْرِ أَهْلِ مِلَّتِهِ ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ أَوْ يَسْتَلْزِمُ احْتِقَارَهَا أَوِ احْتِقَارَهُمْ وَالشُّعُورَ بِأَنَّهُمْ دُونَهُمْ ، وَأَمَّا اقْتِبَاسُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفُنُونِ وَالصِّنَاعَاتِ النَّافِعَةِ ؛ لِأَجْلِ مَنْفَعَتِهَا بِقَدْرِهَا فَلَيْسَ مِنَ التَّشَبُّهِ ، وَلَا مِنْ تَفْضِيلِ الْمُقْتَبِسِ مِنْهُمْ عَلَى أَهْلِ مِلَّتِهِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ لَيْسَتْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ ، وَلَا اقْتُبِسَتْ لِأَجْلِ التَّعْظِيمِ بَلْ لِفَائِدَتِهَا ، وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْفَائِدَةُ مِمَّا تَعْتَزُّ بِهِ مِلَّةُ الْمُقْتَبِسِ الْمُسْتَفِيدِ وَأَهْلُهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ أَخْذُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَمَلَ الْخَنْدَقِ عَنِ الْفُرْسِ ؛ إذْ أَخْبَرَهُ سَلْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْهُمْ بِذَلِكَ ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْأَخْذُ وَاجِبًا شَرْعًا ، وَمِنْهُ أَخْذُنَا لِفُنُونِ الْحَرْبِ وَصِنَاعَتِهَا وَآلَاتِهَا عَنِ الْإِفْرِنْجِ ؛ إذْ أَتْقَنُوهَا قَبْلَنَا ، فَهُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ بِلَا نِزَاعٍ ، فَالْأُمَّةُ الْحَيَّةُ تَقْتَبِسُ كُلَّ شَيْءٍ نَافِعٍ يُغَذِّي حَيَاتَهَا ، وَيَزِيدُهَا قُوَّةً وَعِزَّةً ، وَتَتَّقِي فِي ذَلِكَ كُلَّ مَا فِيهِ ضَعْفٌ لَهَا فِي مُقَوِّمَاتِهَا أَوْ مُشَخِّصَاتِهَا ، وَلَا سِيَّمَا إذَا كَانَ فِيهِ تَفْضِيلٌ لِخُصُومِهَا أَوْ غَيْرِهِمْ عَلَيْهَا ، وَقَدْ فَطِنَ الْيَابَانُ لِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ فَحَافَظُوا عَلَى شُئُونِهِمُ الْمِلِّيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ عِنْدَ اقْتِبَاسِهِمْ لِعُلُومِ

(72/285)

الْفِرنْجَةِ وَفُنُونِهَا ، فَصَارُوا مِثْلَهُمْ فِي ثُلُثِ قَرْنٍ ، وَغَفَلَ عَنْهُ التُّرْكُ وَالْمِصْرِيُّونَ فَأَضَاعُوا مِنْ مُلْكِهِمْ .

وَلَيْسَ فِي نَصْبِ التَّمَاثِيلِ فَائِدَةٌ وَمَنْفَعَةٌ ذَاتُ بَالٍ لَا تَحْصُلُ بِغَيْرِهَا تُبِيحُ لِلْمُسْلِمِينَ تَقْلِيدَ الْوَثَنِيِّينَ وَالنَّصَارَى فِيهَا ، وَلَوْ فِي جَعْلِهَا لِغَيْرِ رِجَالِ الدِّينِ بُعْدًا عَنْ شُبْهَةِ عِبَادَتِهَا ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَأْمَنُ هَذَا وَقَدْ عُبِدَتْ قُبُورُ الْأَوْلِيَاءِ ، وَأَئِمَّةِ آلِ الْبَيْتِ ، كَمَا عَبَدَ غُلَاةُ الشِّيعَةِ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ أَشْخَاصًا مِنْهُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ، وَنَرَى الشِّيعَةَ الْمُعْتَدِلِينَ الَّذِينَ اسْتَبَاحُوا نَصْبَ التَّمَاثِيلِ غَيْرِ الدِّينِيَّةِ قَدِ اتَّخَذَ بَعْضُهُمْ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ تِمْثَالًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فِي بِلَادِ إِيرَانَ كَمَا نَقَلَتْ صُحُفُ الْأَخْبَارِ عَنْهُمْ ، وَأَمَّا الصُّوَرُ فَلَهَا فَوَائِدُ فِي الْحَرْبِ ، وَحِفْظِ الْأَمْنِ ، وَتَحْقِيقِ مَعَانِي اللُّغَةِ ، وَكَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ ، وَلَا سِيَّمَا

(73/285)

الطِّبُّ وَالتَّشْرِيحُ . . . فَلَا يَحْظُرُ مِنْهَا مَا لَيْسَ عِبَادَةً ، وَلَا تَشَبُّهًا بِعَبَدَةِ الْأَصْنَامِ بِدَلِيلِ مَا ثَبَتَ فِي السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهَتْكِ الْقِرَامِ (السِّتَارِ) الَّذِي نَصَبَتْهُ (عَائِشَةُ) فِي حُجْرَتِهَا ؛ إِذْ كَانَ عَلَى هَيْئَةِ الصُّوَرِ وَالتَّمَاثِيلِ الْمَعْبُودَةِ ، فَلَمَّا جَعَلَتْ مِنْهُ وِسَادَةً كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْتَعْمِلُهَا وَفِيهَا الصُّوَرُ ؛ إِذْ كَانَ الِاتِّكَاءُ وَالنَّوْمُ

عَلَيْهَا امْتِهَانًا لَا تَعْظِيمًا ، وَلَا يُشْبِهُ التَّعْظِيمَ الْوَثَنِيَّ . وَقَدْ حَقَّقْنَا هَذَا الْبَحْثَ بِبَيَانِ مَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَأَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي فَتَاوَى الْمَنَارِ مِرَارًا .

عَوْدٌ إِلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ :

مَعْنَى النَّظْمِ الْكَرِيمِ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ أَنَّهُمْ تَجَاوَزُوهُ بِعِنَايَتِهِ سُبْحَانَهُ ، وَتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُمْ بِفَلْقِ الْبَحْرِ ، وَتَيْسِيرِ الْأَمْرِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ بِذَاتِهِ فَجَاوَزَهُ مُصَاحِبًا لَهُمْ ، أَوِ الْمَعْنَى : أَنَّنَا أَيَّدْنَاهُمْ بِبَعْضِ مَلَائِكَتِنَا ، فَجَاوَزَ بِهِمُ الْبَحْرُ بِأَمْرِنَا ، فَمِنَ الْمَعْهُودِ فِي اللُّغَةِ

(74/285)

أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الْمُلُوكِ ، وَرُؤَسَاءِ الْقُوَّادِ مَا يُنَفِّذُهُ بَعْضُ أَتْبَاعِهِمْ بِأَمْرِهِمْ ، وَمَا يَقَعُ بِجَاهِهِمْ وَقُوَّةِ سُلْطَانِهِمْ ، وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ . فَفَرْقُ الْبَحْرِ بِهِمْ كَانَ بِعِنَايَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ .

وَفِي آخِرِ الْفَصْلِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ ذَكَرَ خَبَرَ ارْتِحَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ : " (20) وَكَانَ الرَّبُّ يَسِيرُ أَمَامَهُمْ نَهَارًا فِي عَمُودٍ مِنْ غَمَامٍ ؛ لِيَهْدِيَهُمُ الطَّرِيقَ ، وَلَيْلًا فِي عَمُودٍ مِنْ نَارٍ ؛ لِيُضِيءَ لَهُمْ لِيَسِيرُوا نَهَارًا وَلَيْلًا (21) لَمْ يَبْرَحْ عَمُودَ الْغَمَامِ نَهَارًا أَوْ عَمُودَ النَّارِ لَيْلًا مِنْ أَمَامِ الشَّعْبِ " ثُمَّ جَاءَ فِي الْفَصْلِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْهُ بَعْدَ ذِكْرِ اتِّبَاعِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (19) فَانْتَقَلَ مَلَاكُ اللهِ السَّائِرُ أَمَامَ عَسْكَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَصَارَ وَرَاءَهُمْ وَانْتَقَلَ

عَمُودُ الْغَمَامِ مِنْ أَمَامِهِمْ فَوَقَفَ (20) وَرَاءَهُمْ وَدَخَلَ بَيْنَ عَسْكَرِ الْمِصْرِيِّينَ وَعَسْكَرِ إِسْرَائِيلَ ؛ فَكَانَ مِنْ هُنَا غَمَامًا مُظْلِمًا ، وَكَانَ مِنْ هُنَاكَ يُنِيرُ اللَّيْلَ فَلَمْ يَقْتَرِبْ أَحَدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ طُولَ اللَّيْلِ " .

(75/285)

هَذَا بَعْضُ مَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ مِمَّا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ بِالْبَاءِ هُنَا لِلْمُصَاحَبَةِ كَقَوْلِكَ : سَافَرْتُ بِهِ وَجِئْتُ بِهِ ، وَإِسْنَادُ الْمَسِيرِ فِي عَمُودِ الْغَمَامِ إِلَى الرَّبِّ مَجَازِيٌّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ (2 : 210) (فَأَتَوْا) عَقِبَ تَجَاوُزِهِمْ إِيَّاهُ ، وَدُخُولِهِمْ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ مِنَ الْبَرِّ الْأَسْيَوِي عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ يَعْبُدُونَهَا ، فَمَاذَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ إِذْ رَأَوْهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى كَالْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ أَنْقَذَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ ، وَأَرَاهُمْ آيَاتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ فِيهِمْ ؟ هَلِ اسْتَهْجَنُوا شِرْكَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ كَمَا هُوَ

(76/285)

الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ ؟ وَالْمَعْقُولُ مِمَّنْ رَأَى مَا رَأَوْا مِنْ سُوءِ مَصِيرِ الْمُشْرِكِينَ ، وَحُسْنِ عَاقِبَةِ الْمُوَحِّدِينَ ؟ الْجَوَابُ : أَنَّهُمْ لَمْ يُنْكِرُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَلَا بِقُلُوبِهِمْ ، بَلْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةً حَنِينًا مِنْهُمْ إِلَى مَا أَلِفُوا فِي مِصْرَ مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةِ الْمِصْرِيِّينَ وَتَمَاثِيلِهَا وَأَنْصَابِهَا وَقُبُورِهَا ، فَعَلِمَ بِهَذَا الطَّلَبِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فَهِمُوا التَّوْحِيدَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى كَمَا فَهِمَهُ مَنْ آمَنَ مِنْ سَحَرَةِ الْمِصْرِيِّينَ ؛ لِأَنَّ السَّحَرَةَ كَانُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ فَأَمْكَنَهُمُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهُ ، وَبَيْنَ السِّحْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِنَاعَاتِ الْبَشَرِ وَعُلُومِهِمْ ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ فَكَانُوا مِنَ الْعَامَّةِ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ بَلَّدَ الذُّلُّ أَفْهَامَهُمْ ، وَإِنَّمَا اتَّبَعُوا مُوسَى لِإِنْقَاذِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ وَتَعْبِيدِهِ لَهُمْ ، لَا لِفَهْمِهِمْ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ بِالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ إِنَّهُمْ بَعْضُ الْقَوْمِ لَا جَمِيعُهُمْ ، فَالتَّوْحِيدُ الْمَحْضُ الْخَالِصُ مِنْ شَوَائِبِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ هُوَ غَايَةُ مَا يَرْتَقِي إِلَيْهِ عِرْفَانُ الْبَشَرِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (51 : 56) عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ " اللَّامَ " لِلْغَايَةِ ، وَهُوَ لَا يَقْتَضِي حُصُولَهُ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ ، وَلَوْ عَقَلَ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُنْهَ التَّوْحِيدِ لِمَا وَقَعَ مِنْ

تَبَرُّمِهِمْ بِالتَّكَالِيفِ ، وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى مُوسَى ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مَا قَصَّهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ ، وَفِي التَّوْرَاةِ الَّتِي لَدَيْهِمْ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ وَالتَّفْصِيلِ لَهُ مَا هُوَ مِنْ مُوَاطِنِ الْعَجَبِ ، وَقَدِ ابْتَلَاهُمُ اللهُ تَعَالَى وَرَبَّاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، وَحَرَّمَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ، حَتَّى انْقَرَضَ ذَلِكَ الْجِيلُ الَّذِي نَشَأَ فِي حِجْرِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَشَبَّ أَوِ اكْتَهَلَ أَوْ شَاخَ ، فِي ذُلِّ الْعُبُودِيَّةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا نَمُوذَجًا لِذَلِكَ فِي طَوَائِفَ مِنْ أُمَّتِنَا وُلِدُوا فِي مَهْدِ الظُّلْمِ ، وَشَبُّوا فِي حِجْرِ النِّفَاقِ وَالْفِسْقِ ، فَسَنَحَتْ لِأَعْلَمِهِمْ بِشُؤُونِ الِاجْتِمَاعِ وَالْعُمْرَانِ فُرَصٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، كَانَ يُرْجَى أَنْ يُحَرِّرُوا فِيهَا أَنْفُسَهُمْ مِنْ رِقِّهَا السِّيَاسِيِّ وَيَسْتَقِلُّوا بِأَمْرِهِمْ فَأَضَاعُوهَا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَكَانَ هَذَا مِنْ عِبَرِ التَّارِيخِ الَّتِي تُثْبِتُ أَنَّ فَلَاحَ الْأُمَمِ بِأَخْلَاقِهَا وَعَقَائِدِهَا ، وَأَنَّ الْعِلْمَ النَّاقِصَ شَرٌّ مِنَ الْجَهْلِ الْمُطْلَقِ ، وَأَنَّ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ فِي الرَّجُلِ أَوِ الشَّعْبِ الْفَاسِدِ الْأَخْلَاقِ كَالسَّيْفِ فِي يَدِ الْمَجْنُونِ رُبَّمَا جَنَى بِهِ عَلَى صَدِيقِهِ أَوْ عَلَى نَفْسِهِ ، وَرُبَّمَا نَصَرَ بِهِ عَدُوَّهُ .

(78/285)

وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا كِتَابُ اللهِ تَعَالَى وَلَا رَسُولُهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَتَى عَلَيْهِمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَقِبَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ

الَّذِينَ كَانُوا يُقِيمُونَ بِقُرْبِ حُدُودِ مِصْرَ ، رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُمْ مِنْ عَرَبِ لَخْمٍ ، وَعَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ : لَخْمٌ وَجُذَامٌ ، وَعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّ أَصْنَامَهُمْ كَانَتْ

(79/285)

تَمَاثِيلَ بَقَرٍ مِنْ نُحَاسٍ ، فَلَمَّا كَانَ عِجْلُ السَّامِرِيِّ شُبِّهَ لَهُمْ أَنَّهُ مِنْ تِلْكَ الْبَقَرِ فَذَاكَ كَانَ أَوَّلَ شَأْنِ الْعِجْلِ ؛ لِتَكُونَ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ فَيَنْتَقِمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ (أَقُولُ) : وَلَمْ يَكُنِ ابْنُ جُرَيْجٍ يَعْلَمُ أَنَّ قُدَمَاءَ الْمِصْرِيِّينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ عِجْلًا اسْمُهُ (أَبِيسُ) ، وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعْبُدُونَهُ مَعَهُمْ كَغَيْرِهِ مِنْ مَعْبُودَاتِهِمْ ، وَيَرَوْنَ تَمَاثِيلَهُ مَنْصُوبَةً فِي مَعَابِدِهِمْ ، وَأَنَّ السَّامِرِيَّ لَمْ يَصْنَعْ لَهُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا لِمَا كَانَ مِنْ إِلْفِهِمْ لِعِبَادَتِهِ ، وَتَأَثُّرِ أَعْصَابِهِمْ بِمَا وَرِثُوا مِنْ مَظَاهِرِ رَوْعَتِهِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ (2 : 93) وَالْمُرَادُ عِجْلُ السَّامِرِيِّ ، وَقَدْ عَلَّلَ إِشْرَابَهُمْ إِيَّاهُ فِي قُلُوبِهِمْ بِمَا كَانَ مِنْ كُفْرِهِمُ السَّابِقِ ؛ أَيْ : بِالْوِرَاثَةِ الْمُتَغَلْغِلَةِ فِي النَّفْسِ بِطُولِ الزَّمَانِ ، وَتَعَاقُبِ الْأَجْيَالِ ، فَذَلِكَ الَّذِي يَطُولُ تَأْثِيرُهُ فِي الْأَعْقَابِ وَالْأَنْسَالِ . أَلَمْ تَرَ إِلَى مَا اسْتَحْدَثَهُ بَعْضُ الْمُبْتَدِعَةِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَقَلَّدَهُمْ فِيهِ بَعْضُ الْمُلُوكِ مِنَ الْمَنْسُوبِينَ إِلَى السُّنَّةِ : مِنْ تَشْيِيدِ الْقُبُورِ ، وَتَزْيِينِهَا بِالْعَمَائِمِ وَالسُّتُورِ ، وَبِنَاءِ الْقِبَابِ

فَوْقَهَا ، وَاتِّخَاذِهَا مَسَاجِدَ يُصَلَّى إِلَيْهَا أَوْ لَدَيْهَا ، وَإِيقَادِ السُّرُجِ وَالشُّمُوعِ عَلَيْهَا ، أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ لَهَا مَكَانَةً دِينِيَّةً كَبِيرَةً فِي قُلُوبِ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى صَارَتْ عِنْدَهُمْ مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ

(80/285)

، بِحَيْثُ يَعُدُّونَ مَنْ رَوَى لَهُمُ الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ فِي لَعْنِ اللهِ وَرَسُولِهِ لِمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مُبْتَدِعًا فِيهِ أَوْ مَارِقًا مِنْهُ ، وَيَنْبِزُونَهُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ بِلَقَبِ " وَهَّابِيٍّ " إِذْ كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْحَنَابِلَةِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ سُمِّيَتِ الْوَهَّابِيَّةَ قَدْ عَمَدُوا إِلَى إِزَالَةِ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ بِأَيْدِيهِمْ ، لَمَّا لَمْ يُؤَثِّرْ فِي إِزَالَتِهَا إِنْكَارُ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ الْمُصْلِحِينَ لَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَأَقْلَامِهِمْ ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ

(81/285)

بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ يَعْنِي الْإِنْكَارَ بِالْقَلْبِ وَحْدَهُ ، وَلَوْ مَعَ الْعَجْزِ عَمَّا فَوْقَهُ ، وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، إِذَا عَلِمْنَا هَذَا الشَّأْنَ مِنْ شُئُونِ الضَّعْفِ الْبَشَرِيِّ فَلَا

نَعْجَبُ أَنْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ حَدِيثِي الْعَهْدِ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْإِسْلَامِ ، مِثْلُ مَا طَلَبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بِمَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ مَظَاهِرِ الْوَثَنِيَّةِ فِي قُلُوبِهِمْ . رَوَى أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ ، وَأَكْثَرُ مُصَنِّفِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ : " خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قِبَلَ حُنَيْنٍ فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اجْعَلْ لَنَا هَذِهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ ، كَمَا لِلْكُفَّارِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ " وَرَوَى نَحْوَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالطَّبَرَانِيُّ ،

(82/285)

عَنْ كَثِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْفٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ مَرْفُوعًا ، وَذَكَرَ أَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي طَلَبُوا فِيهِ ذَلِكَ بَيْنَ حُنَيْنٍ وَالطَّائِفِ ، وَالْعِبْرَةُ فِي هَذَا أَنَّ لِلْمُسْلِمِينَ الْآنَ ذَوَاتِ أَنْوَاطٍ فِي بِلَادٍ كَثِيرَةٍ كَشَجَرَةِ " السِّتِّ الْمُنْدِرَةِ " وَشَجَرَةِ الْحَنَفِيِّ بِمِصْرَ ، وَنَحْوٌ مِنْ ذَلِكَ مَا اتَّخَذُوهُ مِنَ الْقُبُورِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ وَالْآبَارِ يَعْكُفُونَ عَلَيْهَا ، وَيَطُوفُونَ حَوْلَهَا ، وَيُقَبِّلُونَهَا وَيَتَمَرَّغُونَ بِأَعْتَابِهَا ، وَيَتَمَسَّحُونَ بِهَا خَاضِعِينَ ضَارِعِينَ ، خَاشِعِينَ دَاعِينَ رَاجِينَ شِفَاءَ الْأَدْوَاءِ ، وَالِانْتِقَامَ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، وَالْغِنَى وَالثَّرَاءَ ، وَحَبَلَ الْعَقِيمِ ، وَرَدَّ الضَّالَّةِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ النَّفْعِ وَكَشْفِ الضُّرِّ ، خِلَافٌ لِنُصُوصِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهَا تُسَمَّى فِي اللُّغَةِ

الْعَرَبِيَّةِ آلِهَةً ، وَأَنَّ جُلَّ مَا يَأْتُونَهُ عِنْدَهَا يُسَمَّى عِبَادَةً ، وَأَنَّهُ شِرْكٌ جَلِيٌّ لَا يُغْفَرُ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شِرْكِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ إلَّا الِاخْتِلَافُ فِي التَّسْمِيَةِ ، فَأُولَئِكَ كَانُوا يُسَمُّونَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْمَائِهَا ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ اللُّغَةِ ، وَهَؤُلَاءِ تَحَامَوْا إطْلَاقَ لَفْظِ الْإِلَهِ وَالْمَعْبُودِ وَالْعِبَادَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، وَاسْتَبَاحُوا غَيْرَهَا مِنَ الْأَلْفَاظِ كَالْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ وَالْوَسِيلَةِ وَالتَّوَسُّلِ ، وَهِيَ مُشْتَرَكَةٌ أَيْضًا ، وَلَكِنَّهَا اسْتُعْمِلَتْ فِي الْإِسْلَامِ بِغَيْرِ الْمَعَانِي الَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،

(83/285)

كَأَنَّ اللَّهَ تَعَبَّدَ النَّاسَ بِإِطْلَاقِ الْأَلْفَاظِ دُونَ حَقَائِقِ الْمَعَانِي ، وَحَقِيقَةُ مَعْنَى الْعِبَادَةِ ، وَفِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَذَا فِي غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ : يَشْمَلُ كُلَّ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ يُوَجَّهُ إلَى مُعَظَّمٍ يُرْجَى نَفْعُهُ أَوْ يُخْشَى ضَرُّهُ وَحْدَهُ - وَهَذَا تَوْحِيدٌ لَهُ - أَوْ يُرْجَى وَيُخَافُ بِالتَّأْثِيرِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى - وَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ - بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجَاءُ فِيهِ أَوِ الْخَوْفُ مِنْهُ لِأَمْرٍ غَيْبِيٍّ خَارِجٍ عَنِ الْأُمُورِ الْكَسْبِيَّةِ ، وَالْأَسْبَابِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَقَدْ سَبَقَ شَرْحُ هَذَا آنِفًا وَقَبْلَهُ مِرَارًا ، وَيَظُنُّ أَهْلُ الْعِلْمِ بِكُتُبِ الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ الَّذِينَ لَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى مِلَلِ الْوَثَنِيِّينَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَغَيْرَهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي يَتَبَرَّكُونَ بِهَا لِذَاتِهَا ، وَأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا تَضُرُّ وَتَنْفَعُ بِقُدْرَتِهَا

وَإِرَادَتِهَا ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُمْ

يَتَوَسَّلُونَ بِهَا إِلَى الْخَالِقِ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ ، وَقَدْ سَمِعْتُ

هَذَا مِنْ بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ فِي الْهِنْدِ .

مَاذَا كَانَ جَوَابُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ وَصَفَهُمْ بِالْجَهْلِ الْمُطْلَقِ غَيْرِ

مُتَعَلِّقٍ بِشَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى طَرِيقَتِنَا وَطَرِيقَةِ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَالْخَصَّافِ : يَشْمَلُ كُلَّ مَا يَصْلُحُ لَهُ

مِنَ الْجَهْلِ الَّذِي هُوَ فَقْدُ الْعِلْمِ ، وَالْجَهْلِ الَّذِي هُوَ سَفَهُ النَّفْسِ وَطَيْشُ الْعَقْلِ ، وَأَهَمُّهُ

الْمُنَاسِبُ لِلْمَقَامِ جَهْلُ التَّوْحِيدِ ، وَمَا يَجِبُ مِنْ إِفْرَادِ الرَّبِّ

(84/285)

تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ ، وَلَا التَّقَيُّدِ بِمَظْهَرٍ مِنَ الْمَظَاهِرِ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ مَعَهُ ، وَلَا سِيَّمَا

مَظْهَرُ الْأَصْنَامِ وَالتَّمَاثِيلِ لِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي اغْتَرَّ الْجَاهِلُونَ مِنْ قَبْلُ بِنَفْعِهَا أَوِ الْخَوْفِ

مِنْ ضَرَرِهَا ، فَالْأَوَّلُ كَالْكَوَاكِبِ وَالنِّيلِ وَالْعِجْلِ أَبِيسَ ، وَالثَّانِي كَالثُّعْبَانِ ، ثُمَّ جَهْلُ مَا كَرَّمَ

اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْبَشَرَ فَجَعَلَهُمْ أَهْلًا لِمَعْرِفَتِهِ وَدُعَائِهِ وَمُنَاجَاتِهِ كِفَاحًا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ ؛

فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، وَهُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي يُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ ، وَيُقْصَدُ وَحْدَهُ ،

وَلِذَلِكَ قَالَ إِمَامَا الْمُوَحِّدِينَ ، إِبْرَاهِيمُ وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ : إِنِّي وَجَّهْتُ

وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (6 : 79) وَأَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ (3 : 20) .

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْجَهْلِ هُوَ الَّذِي قَالَ تَعَالَى فِيهِ : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (2 : 130) وَإِسْنَادُ الْجَهْلِ إِلَى الْقَوْمِ أَبْلَغُ مِنْ إِسْنَادِهِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ ؛ لِأَنَّهُ حَكَمَ عَلَى جَمَاعَتِهِمْ بِمَا هُوَ كَالْمُتَحَقَّقِ الْمَعْرُوفِ مِنْ حَالِهِمْ ، الَّذِي هُوَ عِلَّةٌ لِمَقَالِهِمْ ، يَدْخُلُ فِيهِ الَّذِينَ سَأَلُوهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ دُخُولًا أَوَّلِيًّا .

(85/285)

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَّرَهُمْ بِسُوءِ حَالِهِمْ مِنْ جَهْلِهِمْ وَسَفَاهَةِ أَنْفُسِهِمْ ، بَيَّنَ لَهُمْ فَسَادَ مَا طَلَبُوهُ فِي نَفْسِهِ عَسَى أَنْ تَسْتَعِدَّ عُقُولُهُمْ لِفَهْمِهِ ، وَاسْتِبَانَةِ قُبْحِهِ ، فَقَالَ بِأُسْلُوبِ الِاسْتِئْنَافِ الْمُفِيدِ لِلتَّعْلِيلِ وَالدَّلِيلِ : إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ التَّبَارُ وَالتَّبْرُ : الْإِهْلَاكُ وَالتَّدْمِيرُ ، وَالتَّتْبِيرُ : الْهَلَاكُ . يُقَالُ : تَبِرَ الشَّيْءُ مِنْ بَابِي تَعِبَ وَنَصَرَ ، وَتَبَّرَهُ - بِالتَّشْدِيدِ : أَهْلَكَهُ وَدَمَّرَهُ ؛ أَيْ : إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَعْكُفُونَ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَامِ مَقْضِيٌّ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ بِالتَّبَارِ بِمَا سَيَظْهَرُ مِنَ التَّوْحِيدِ الْحَقِّ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ ، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ ، وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ؛ أَيْ : هَالِكٌ وَزَائِلٌ لَا بَقَاءَ لَهُ ، فَإِنَّمَا بَقَاءُ الْبَاطِلِ فِي

تَرْكِ الْحَقِّ لَهُ أَوْ بُعْدِهِ عَنْهُ ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ الْبِشَارَةَ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِزَوَالِ الْوَثَنِيَّةِ مِنْ تِلْكَ الْأَرْضِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ .

قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : إِنَّ طَلَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْآلِهَةِ لَمْ يَكُنْ عَنْ شَكٍّ مِنْهُمْ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُمْ إِلَهًا يُعَظِّمُونَهُ ، وَيَتَقَرَّبُونَ بِتَعْظِيمِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّ بِالدِّيَانَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ جَهْلَهُمْ كَمَا آذَنَتْ بِهِ الْآيَاتُ .

(86/285)

وَقَالَ الرَّازِيُّ : اعْلَمْ أَنَّ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَقُولَ الْعَاقِلُ لِمُوسَى : اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةً وَخَالِقًا مُدَبِّرًا ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَحْصُلُ بِجَعْلِ مُوسَى وَتَدْبِيرِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا لِلْعَالَمِ وَمُدَبِّرًا لَهُ ، وَمَنْ شَكَّ فِي ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ كَامِلَ الْعَقْلِ ،

وَالْأَقْرَبُ أَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْ مُوسَى أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ أَصْنَامًا وَتَمَاثِيلَ يَتَقَرَّبُونَ بِعِبَادَتِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ حَيْثُ قَالُوا : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (39 : 3) إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ : لِمَ كَانَ هَذَا الْقَوْلُ كُفْرًا ؟ فَنَقُولُ : أَجْمَعَ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى كُفْرٌ ، سَوَاءٌ اعْتَقَدُوا فِي ذَلِكَ

كَوْنَهُ إلَهًا لِلْعَالَمِ أَوِ اعْتَقَدُوا فِيهِ أَنَّ عِبَادَتَهُ تُقَرِّبُهُمْ إلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّ الْعَادَةَ نِهَايَةُ التَّعْظِيمِ ، وَنِهَايَةُ التَّعْظِيمِ لَا تَلِيقُ إلَّا بِمَنْ يَصْدُرُ عَنْهُ نِهَايَةُ الْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ .

(87/285)

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَنْ جَزَمَ بِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ صَدَرَ عَنْ بَعْضِهِمْ لَا كُلِّهِمْ ، وَأَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَتَرَفَّعُ عَنْهُ مَا نَصُّهُ : ثُمَّ إنَّهُ تَعَالَى حَكَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَجَابَهُمْ فَقَالَ : إنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ وَتَقْرِيرُ هَذَا الْجَهْلِ مَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ غَايَةُ التَّعْظِيمِ ، فَلَا تَلِيقُ إلَّا بِمَنْ يَصْدُرُ عَنْهُ غَايَةُ الْإِنْعَامِ ، وَهِيَ بِخَلْقِ الْجِسْمِ وَالْحَيَاةِ وَالشَّهْوَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعَقْلِ وَخَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُنْتَفَعِ بِهَا ، وَالْقَادِرُ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَيْسَ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، فَوَجَبَ أَلَّا تَلِيقَ الْعِبَادَةُ إلَّا بِهِ (فَإِنْ قَالُوا) إذَا كَانَ مُرَادُهُمْ بِعِبَادَةِ تِلْكَ الْأَصْنَامِ التَّقَرُّبَ بِهَا إلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى فَمَا الْوَجْهُ فِي قُبْحِ هَذِهِ الْعِبَادَةِ ؟ (قُلْنَا) : فَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ لَمْ يَتَّخِذُوهَا آلِهَةً أَصْلًا وَإِنَّمَا جَعَلُوهَا كَالْقِبْلَةِ ، وَذَلِكَ يُنَافِي قَوْلَهُمْ : اجْعَلْ لَنَا إلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ اهـ .

(88/285)

أَقُولُ : مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَقَعَ أَمَامَ النُّظَّارِ فِي عِلْمِ الْعَقَائِدِ عَلَى طَرِيقَةِ الْفَلْسَفَةِ وَالْكَلَامِ فِي مِثْلِ هَذَا الْخَطَأِ أَسْئِلَتُهُ وَأَجْوِبَتُهُ وَالتَّنَاقُضُ فِي كَلَامِهِ ، وَمَنْشَأُ هَذَا الْخَطَأِ الْغَفْلَةُ عَنْ مَدْلُولِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَاسْتِعْمَالُهَا بِلَوَازِمِ مَعْنَاهَا الْعُرْفِيَّةِ كَلَفْظِ " الْإِلَهِ " فَإِنَّ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ الْمَعْبُودُ مُطْلَقًا لَا الْخَالِقُ وَلَا الْمُدَبِّرُ لِأَمْرِ الْعَالَمِ كُلِّهِ وَلَا بَعْضِهِ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ سَمَّوْا أَصْنَامَهُمْ وَغَيْرَهَا مِنْ مَعْبُودَاتِهِمْ آلِهَةً ، يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّاتَ أَوِ الْعُزَّى أَوْ هُبَلَا خَلَقَ شَيْئًا مِنَ الْعَالَمِ أَوْ يُدَبِّرُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِهِ ، وَإِنَّمَا تَدْبِيرُ أُمُورِ الْعَالَمِ يَدْخُلُ فِي مَعْنَى لَفْظِ الرَّبِّ ، وَالشَّوَاهِدُ عَلَى هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ نَاطِقَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمُدَبِّرَ أُمُورِهِمَا هُوَ اللهُ تَعَالَى ، وَإِنَّ آلِهَتَهُمْ لَيْسَ لَهَا مِنْ أَمْرِ الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ شَيْءٌ ، وَإِنَّ شِرْكَهُمْ لِأَجْلِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ تَعَالَى ، وَابْتِغَاءِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ بِعِبَادَةِ مَا عَبَدُوهُ ، وَلِذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ فِي طَوَافِهِ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ،

إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ ،

(89/285)

تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ ، وَلِذَلِكَ يَحْتَجُّ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ فِي مَوَاضِعَ بِأَنَّ غَيْرَ الْخَالِقِ الْمُدَبِّرِ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا يُعْبَدُ مُطْلَقًا ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ الْمُحَقِّقِينَ : إِنَّهُ يَحْتَجُّ بِمَا يَعْتَرِفُونَ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ

الرُّبُوبِيَّةِ ، عَلَى مَا يُنْكِرُونَ مِنْ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَإِذْ كُنَّا بَيَّنَّا هَذَا مِرَارًا بِالشَّوَاهِدِ نَكْتَفِي بِهَذَا التَّذْكِيرِ هُنَا .

(90/285)

ثُمَّ إِنْ عِبَارَةَ طُلَّابِ الْأَصْنَامِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ تُنْقَلْ إِلَيْنَا بِنَصِّهَا فِي لُغَتِهِمْ ، فَنَبْحَثُ فِيهَا أَخْطَأَ أَمْ صَوَابٌ ، وَإِنَّمَا حَكَاهَا اللَّهُ تَعَالَى لَنَا بِلُغَةِ كِتَابِهِ فَمَعْنَاهَا صَحِيحٌ قَطْعًا ، فَإِنَّ الْإِلَهَ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ هُوَ الْمَعْبُودُ بِالذَّاتِ أَوْ بِالْوَاسِطَةِ ، وَإِنْ كَانَ مَصْنُوعًا ، وَإِنَّمَا جَهَّلَهُمْ مُوسَى بِطَلَبِ عِبَادَةِ أَحَدٍ مَعَ اللَّهِ لَا بِتَسْمِيَةِ مَا طَلَبُوا مِنْهُ صَنْعَهُ إِلَهًا ، فَإِنَّهُ هُوَ سَمَّى الْمَعْبُودَ الْمَصْنُوعَ إِلَهًا أَيْضًا فِي قَوْلِهِ لِلسَّامِرِيِّ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ طه وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنَحْرِقَنَّهُ (20 : 97) الْآيَةَ . وَإِنَّمَا كَانَ عِجْلُ السَّامِرِيِّ مِنْ صُنْعِهِ ، وَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمِنْ بَعْدِهِمْ كَانَتْ أَصْنَامُهُمْ مَجْعُولَةً مَصْنُوعَةً مُتَّخَذَةً مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ كَالْحَجَرِ وَالْخَشَبِ وَالْمَعْدِنِ . أَنَسِيَ إِمَامُ النُّظَّارِ وَصَاحِبُ التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَسْمِيَةِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ لِأَصْنَامِهِمْ بِالْآلِهَةِ ؟ أَمْ نَسِيَ مَا حَكَاهُ اللَّهُ مِنْ حُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (37 : 95 ، 96) وَمِنْ مُحَاجَّتِهِ إِيَّاهُمْ بِقَوْلِهِ : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا

تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ

(91/285)

يَفْعَلُونَ (26 : 69 - 74) وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ الرَّازِيُّ مِنْ أَظْهَرِ هَفَوَاتِهِ الْكَثِيرَةِ بُطْلَانًا ؛ وَسَبَبُهُ امْتِلَاءُ دِمَاغِهِ - عَفَا اللَّهُ عَنْهُ - بِنَظَرِيَّاتِ الْكَلَامِ ، وَجَدَلِ الِاصْطِلَاحَاتِ الْحَادِثَةِ ، وَغَفْلَتِهِ عَنْ مَعْنَى الْإِلَهِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ ، وَمِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةِ فِيهِ : وَمِنْهَا قَوْلُهُ : قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ أَيْ : قَالَ لَهُمْ مُوسَى : أَأَطْلُبُ لَكُمْ مَعْبُودًا غَيْرَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكُلِّ شَيْءٍ ، وَالْحَالُ أَنَّهُ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ، بِمَا جَدَّدَ فِيكُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ وَهِدَايَةِ الدِّينِ ، عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَسُنَّةِ الْمُرْسَلِينَ ، فَمَاذَا تَبْغُونَ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ مَعَهُ أَوْ مِنْ دُونِهِ ؟ ! وَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ لِلْإِنْكَارِ الْمُشَرَّبِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ ، وَإِنَّمَا هُوَ إِنْكَارُ ابْتِغَاءِ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ الْمُسْتَحِقِّ وَحْدَهُ لِلْعِبَادَةِ ، لَا إِنْكَارَ تَسْمِيَةِ الْمَعْبُودِ الْمَصْنُوعِ إِلَهًا ، وَ " أَبْغِي " يَنْصِبُ مَفْعُولَيْنِ بِنَفْسِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ

(9 : 47) .

(92/285)

بَدَأَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جَوَابَهُ لِقَوْمِهِ بِإِثْبَاتِ جَهْلِهِمْ بِرَبِّهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ ، وَثَنَّى بِبَيَانِ فَسَادِ مَا طَلَبُوهُ ، وَكَوْنِهِ عُرْضَةً لِلتَّبَارِ وَالزَّوَالِ ، وَبَاطِلًا فِي نَفْسِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَلَا الطَّالِبُ عَلَى عِلْمٍ وَعَقْلٍ فِيمَا طَلَبَ ، وَلَا الْمَطْلُوبُ مِمَّا يَصِحُّ أَنْ يُطْلَبَ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (22 : 73) فَهَذَا مُلَخَّصُ مَعْنَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ .

(93/285)

ثُمَّ انْتَقَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إلَى الْمَطْلُوبِ مِنْهُ جَعْلُ الْإِلَهِ لَهُمْ ، وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْمَطْلُوبِ لِأَجْلِهِ هَذَا الْجَعْلُ – وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى – وَمُوسَى عَلَى الْحَقِّ ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْحَقُّ وَالَّذِي يُحِقُّ الْحَقَّ ، وَبَيْنَ هَذَيْنِ الْحَقَّيْنِ وَذَيْنِك الْبَاطِلَيْنِ غَايَةُ الْمُبَايَنَةِ ، فَلِذَلِكَ كَانَ هَذَا جَوَابًا مُسْتَقِلًّا مُبَايِنًا لِمَا قَبْلَهُ ، بِحَيْثُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْطِفَ عَلَيْهِ عَطْفًا ، وَلَا أَنْ يَعُدَّ مَعَهُ عَدًّا ، وَلِهَذَا أَعَادَ فِيهِ كَلِمَةَ (قَالَ) كَمَا سَنُبَيِّنُهُ ، وَقَدْ قَدَّمَ فِيهِ ذِكْرَ الْأَهَمِّ الْأَفْضَلِ الْمَقْصُودِ بِالذَّاتِ مِنْ هَذَيْنِ الْحَقَّيْنِ ، فَقَالَ : أَغَيْرَ اللَّهِ فَغَيْرُ اللَّهِ أَعَمُّ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُحْدَثَاتِ ، فَهُوَ يَشْمَلُ أَخَسَّ

الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْجَزَهَا عَنِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ كَالْأَصْنَامِ ، وَيَشْمَلُ أَفْضَلَهَا وَأَكْمَلَهَا كَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، لِيُثْبِتَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مَخْلُوقٌ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ مَعَ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنْ عَلَا قَدْرُهُ ، وَعَظُمَ أَمْرُهُ ، وَأَنَّ تَجْهِيلَهُمْ بِمَا طَلَبُوا لَا لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ كَالْأَصْنَامِ خَسِيسٌ وَبَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ ، وَعُرْضَةٌ لِلتَّبَارِ فَلَا فَائِدَةَ فِيهِ لِغَيْرِهِ - لَا لِهَذَا فَقَطْ - بَلْ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى أَلْبَتَّةَ ، مَهْمَا يَكُنْ غَيْرُهُ مُكَرَّمًا عِنْدَهُ ، وَمُفَضَّلًا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ ، عَلَى أَنَّ طَلَبَ عِبَادَةِ الْأَخَسِّ دَلِيلٌ عَلَى مُنْتَهَى الْخِسَّةِ وَالْجَهْلِ ، إِذْ لَا شُبْهَةَ تُوهِمُ قُدْرَتَهُ

(94/285)

عَلَى الْإِثَابَةِ أَوِ التَّقْرِيبِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَشُبْهَةِ مَنْ عَبَدُوا الْمَلَائِكَةَ وَبَعْضَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ بِكَرَامَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ يُقَرِّبُونَ إِلَيْهِ مَنْ قَصُرَ بِهِ إِيمَانُهُ وَعَمَلُهُ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ ، مَعَ إِصْرَارِهِ عَلَى خُبْثِهِ وَرِجْسِهِ ، جَاهِلِينَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُشْرِكِينَ وَالْفَاسِقِينَ أَنْ يَتُوبُوا ؛ أَيْ : يَرْجِعُوا إِلَيْهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ مِنْ عِبَادِهِ الْمُكَرَّمِينَ ، وَأَنْ يَدْعُوهُ وَحْدَهُ كَدُعَائِهِمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَأَنْ يَخُصُّوهُ مِثْلَهُمْ بِالْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ ، وَذَلِكَ مَا فَرَضَهُ عَلَيْنَا فِي صَلَاتِنَا بِقَوْلِهِ : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (1 : 5) .

وَبَعْدَ أَنْ قَدَّمَ الْمَقْصُودَ بِالذَّاتِ مِنَ الْإِنْكَارِ ، وَهُوَ جَعْلُ غَيْرِ اللهِ إِلَهًا ذَكَرَ مَنْ أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ

الْوَاسِطَةَ فِي هَذَا الْجَعْلِ ، الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْجَهْلُ ، وَهُوَ نَفْسُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ : أَبْغِيكُمْ إِلَهًا لِيُعَلِّمَهُمْ أَنَّ طَلَبَ هَذَا الْأَمْرِ الْإِمْرِ

(95/285)

وَالشَّيْءِ الْإِدِّ ، وَالْمُنْكَرِ الْفَظِيعِ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَهْلٌ بِقِيمَتِهِ ، وَبِمَعْنَى رِسَالَتِهِ ، وَبِمَا رَأَوْهُ مِنْ جِهَادِهِ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ وَلَا قُوَّةٍ لَهُ فِي شَخْصِ أَخِيهِ وَلَا فِي شَخْصِهِ ، بَلْ بِالِاتِّكَالِ عَلَى حَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ ، وَلَوْلَا إِرَادَةُ إِنْكَارِ الْأَمْرَيْنِ مَعًا : طَلَبُ إِلَهٍ مَعَ اللهِ ، وَكَوْنُهُ بِجَعْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ – لَقَالَ : أَغَيْرَ اللهِ تَبْغُونَ إِلَهًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ (13 : 83) .

ثُمَّ أَيَّدَ هَذَا الْإِنْكَارَ بِمَا يَعْرِفُونَ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى فِيهِمْ ، وَهُوَ تَفْضِيلُهُمْ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِمْ ، فَقَدْ كَانَ أَرْقَى النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُوَّةِ وَالْحَضَارَةِ وَسَعَةِ الْمُلْكِ ، وَمِنَ السِّيَادَةِ عَلَى بَعْضِ الشُّعُوبِ ، وَقَدْ فَضَّلَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمْ بِرِسَالَةِ مُوسَى وَهَارُونَ مِنْهُمْ ، وَتَجْدِيدِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فِيهِمْ ، وَإِيتَائِهِمَا مِنَ الْآيَاتِ

(96/285)

مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَأَثَرُهُ فِي السِّيَاقِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ تَفْضِيلُهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ مُطْلَقًا بِكَثْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْهُمْ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ ؛ لِأَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا عَرَفُوا ، فَيَبْعُدُ أَنْ يُرَادَ بِهِ تَفْضِيلُهُمْ عَلَى الْقُرُونِ الْأُوَلِ ، وَأَقْوَامِ رُسُلِهِمْ وَعَلَى مَنْ سَيَأْتِي بَعْدَهُمْ ، وَحَالُ كُلٍّ مِنْهُمَا مَجْهُولٌ عِنْدَهُ وَعِنْدَهُمْ ، فَقَدْ سَأَلَ فِرْعَوْنُ مُوسَى عَنِ الْقُرُونِ الْأُولَى فَقَالَ : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي (20 : 52) وَالْقُرُونُ الْآخِرَةُ بِذَلِكَ أَوْلَى ، وَأَنْتَ إِذَا قُلْتَ لِغَنِيٍّ أَوْ عَالِمٍ إِنَّكَ أَغْنَى أَوْ أَعْلَمُ النَّاسِ ، أَوْ لِمَلِكٍ : إِنَّكَ أَقْوَى الْمُلُوكِ ، أَوْ فِي شَعْبٍ إِنَّهُ أَرْقَى الشُّعُوبِ - فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَفْهَمُ مِنْ مِثْلِ هَذَا تَفْضِيلَ مَنْ ذُكِرَ عَلَى غَيْرِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ ، وَأَهْلُ الْحَضَارَةِ فِي زَمَانِنَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْأَجْيَالَ الْآتِيَةَ سَيَكُونُونَ خَيْرًا مِنْ هَذَا الْجِيلِ ، وَكَانَ مُوسَى يَعْلَمُ أَنَّ هِدَايَةَ الدِّينِ سَتَرْتَقِي إِلَى أَنْ تَكْمُلَ بِرِسَالَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَلَكِنَّهُ أُوتِيَ هَذَا الْعِلْمَ بِمَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ فِي التَّوْرَاةِ ، وَلَمْ يَكُنْ نَزَلَ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ طَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُ مَا ذَكَرَ .

(97/285)

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِتَفْضِيلِهِمْ عَلَى الْعَالَمِينَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ عَطَفَ عَلَيْهِ أَعْظَمَ مَظَاهِرِهِ الْحَدِيثَةِ الْعَهْدِ بِقَوْلِهِ : وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَائَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ) عَلَى أَنَّهُ مِنْ مَقُولِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – قَطْعًا وَالْبَاقُونَ (أَنْجَيْنَاكُمْ) وَذَكَرُوا فِيهِ احْتِمَالَيْنِ : أَحَدُهُمَا وَهُوَ الْأَظْهَرُ وَالْمُتَبَادَرُ أَنْ يَكُونَ مُسْنَدًا إِلَى اللهِ – تَعَالَى – مُتَمِّمًا لِكَلَامِ مُوسَى ، وَمُبَيِّنًا الْمُرَادَ مِنْهُ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ عَنِ الْحِكَايَةِ عَنْهُ ، وَلِهَذَا الِالْتِفَاتُ نَظَائِرُ فِي التَّنْزِيلِ وَفِي كَلَامِ بُلَغَاءِ الْعَرَبِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ – تَعَالَى – فِي قِصَّةِ مُوسَى مِنْ سُورَةِ طه : الَّذِي جَعَلَ

(98/285)

لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (20 : 53) إِلَخْ ، فَأَوَّلُ الْآيَةِ مِنْ قَوْلِ مُوسَى فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ ، وَقَوْلُهُ : (فَأَخْرَجْنَا) الْتِفَاتٌ عَنِ الْحِكَايَةِ ، وَانْتِقَالٌ إِلَى كَلَامِهِ – تَعَالَى – عَنْ نَفْسِهِ خَاطَبَ بِهِ مَنْ أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ هَذَا الْوَحْيَ مِنْ خَلْقِهِ ، تَنْبِيهًا لَهُمْ بِتَلْوِينِ الْكَلَامِ ، وَبِمَا فِي مُخَاطَبَةِ الرَّبِّ لَهُمْ كِفَاحًا مِنَ التَّأْثِيرِ الْخَاصِّ إِلَى كَوْنِهِ هُوَ الْمُسْدِي لِهَذَا الْإِنْعَامِ ، وَاقْتَصَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهَذِهِ الْقِرَاءَةِ مَنْ كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- فَأَفَادَتْ قِرَاءَةُ ابْنُ عَامِرٍ أَنَّ مُوسَى قَالَهَا لِقَوْمِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَأَفَادَتْ قِرَاءَةُ الْآخَرِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَكَّرَ بِهَا قَوْمَ مُوسَى فِي زَمَنِهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَهَذِهِ فَائِدَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ وَهِيَ مِنْ إِعْجَازِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ .

(الثَّانِي) أَنَّ قِرَاءَةَ الِالْتِفَاتِ مِنْ جُمْلَةِ الْحِكَايَةِ عَنْ مُوسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَسْنَدَ الْإِنْجَاءَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - مَعَ حَذْفِ الْقَوْلِ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنَ الْقَرِينَةِ أَوْ بِدُونِهِ أَوْ إِلَى نَفْسِهِ وَحْدَهُ أَوْ مَعَ أَخِيهِ ، لِلْإِشَارَةِ إِلَى جَعْلِهِ - تَعَالَى - هَذَا الْإِنْجَاءَ بِسَبَبِ رِسَالَتِهِمَا وَتَأْيِيدِهِ - تَعَالَى - لَهُمَا بِتِلْكَ الْآيَاتِ .

(99/285)

وَالْمَعْنَى : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْجَاكُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - بِفَضْلِهِ ، أَوْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ بِإِرْسَالِهِ - تَعَالَى - إِيَّانَا لِأَجْلِ ذَلِكَ ، وَبِمَا أَيَّدْنَا بِهِ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، حَالَ كَوْنِهِمْ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، بِجَعْلِكُمْ عَبِيدًا مُسَخَّرِينَ لِخِدْمَتِهِمْ كَالْبَهَائِمِ فَلَا يَعُدُّونَكُمْ مِنْهُمْ ، وَخَصَّ بِالذِّكْرِ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ شَرَّ أَنْوَاعِهِ بِقَوْلِهِ "يُقَتِّلُونَ" مَا يُولَدُ لَكُمْ مِنَ الذُّكُورِ ، وَيَسْتَبْقُونَ نِسَاءَكُمْ بِتَرْكِ الْإِنَاثِ لَكُمْ لِتَزْدَادُوا ضَعْفًا بِكَثْرَتِهِنَّ - وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ - وَفِي ذَلِكُمُ الْعَذَابِ وَالْإِنْجَاءِ مِنْهُ بِفَضْلِ الرَّبِّ الْوَاحِدِ عَلَيْكُمْ ، وَتَفْضِيلِهِ إِيَّاكُمْ عَلَى أُولَئِكَ الْغَالِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَعَلَى غَيْرِكُمْ

كَسُكَّانِ الْبِلَادِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي سَتَرِثُونَهَا بَلَاءٌ عَظِيمٌ ؛ أَيْ : اخْتِبَارٌ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمُ الْمُنْفَرِدِ بِتَرْبِيَتِكُمْ ، وَتَدْبِيرِ أُمُورِكُمْ لَيْسَ وَرَاءَهُ بَلَاءٌ وَاخْتِبَارٌ ، فَإِنَّ أَجْدَرَ النَّاسِ بِالِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْ أَحْدَاثِ الزَّمَانِ مَنْ يُعْطَى النِّعْمَةَ بَعْدَ النِّقْمَةِ ، وَأَحَقَّ النَّاسِ بِمَعْرِفَةِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ – تَعَالَى – وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ مَنْ يَرَى مِنْ آيَاتِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَفِي الْآفَاقِ مَا يُوقِنُ بِهِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ شَرِكَةٌ فِيهِ ؛ أَيْ : فَكَيْفَ تَطْلُبُونَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ مِمَّنْ رَأَيْتُمْ هَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى يَدِهِ – وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا أَقَلُّ تَأْثِيرٍ – أَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ إِلَهًا مِنْ أَخَسِّ الْمَخْلُوقَاتِ تَجْعَلُونَهُ

(100/285)

وَاسِطَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ – تَعَالَى – ، وَهُوَ قَدْ فَضَّلَكُمْ عَلَيْهَا وَعَلَى عَابِدِيهَا وَمَنْ هُمْ أَرْقَى مِنْهُمْ ؟ ! .

وَقَدْ غَفَلَ الشِّهَابُ الْخَفَاجِيُّ عَنْ كَوْنِ تَفْضِيلِهِمْ عَلَى الْعَالَمِينَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ الْمُؤَيَّدَةِ بِتِلْكَ الْآيَاتِ ، فَزَعَمَ أَنَّ الِاحْتِجَاجَ بِهِ خِطَابِيٌّ ، لَا بُرْهَانٌ عَقْلِيٌّ ، وَاعْتَذَرَ عَنْ عَدَمِ احْتِجَاجِ مُوسَى بِبُرْهَانِ التَّمَانُعِ بِأَنَّهُمْ مِنَ الْعَوَامِّ ، وَهُوَ لَا يُنْكِرُ أَنَّ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ ، وَإِنِ اخْتَلَفَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي دَلَالَتِهَا ، هَلْ هِيَ عَقْلِيَّةٌ أَوْ وَضْعِيَّةٌ ؟ وَغَفَلَ أَيْضًا عَنْ كَوْنِ بُرْهَانِ التَّمَانُعِ إِنَّمَا يُحْتَجُّ بِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ الْعِبَادَةِ

فَقَطْ ، وَقَدْ تَعَقَّبَهُ فِي هَذَا الْآلُوسِيُّ فَقَالَ : وَفِي إِقَامَةِ بُرهَانِ التَّمَانُعِ عَلَى الْوَثَنِيِّينَ الْقَائِلِينَ : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى (39 : 3) وَالْمُجِيبِينَ إِذَا سُئِلُوا : مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ يَخْلُقُهُنَّ اللهُ خَفَاءً ، وَالظَّاهِرُ إِقَامَتُهُ عَلَى الْوَثَنِيَّةِ كَمَا لَا يَخْفَى ا هـ .

(101/285)

وَوَجْهُهُ أَنَّ الْوَثَنِيَّةَ يَقُولُونَ بِوُجُودِ رَبَّيْنِ إِلَهَيْنِ اشْتَرَكَا فِي خَلْقِ الْعَالَمِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِهِ ، أَحَدُهُمَا رَبُّ النُّورِ وَالْخَيْرِ ، وَالثَّانِي رَبُّ الظُّلْمَةِ وَالشَّرِّ ، وَيُحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْعَالَمِ خَالِقَانِ مُدَبِّرَانِ أَوْ أَكْثَرُ ؛ لَامْتَنَعَ أَنْ يُوجَدَ فِيهِ نِظَامٌ يَصْلُحُ بِهِ أَمْرُهُ إِذَا فُرِضَ جَوَازُ وُجُودِهِ ؛ لِأَنَّ تَعَدُّدَ الْمُدَبِّرِينَ لِأَمْرِ الشَّيْءِ كَتَعَدُّدِ الْخَالِقِينَ يَقْتَضِي تَعَدُّدَ الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا التَّدْبِيرُ وَالْخَلْقُ وَالتَّقْدِيرُ ، وَتَعَدُّدُهَا يَقْتَضِي التَّغَايُرَ وَالِاخْتِلَافَ فِيهَا ، وَإِلَّا فَلَا تَعَدُّدَ ، وَهَذَا الِاخْتِلَافُ يَقْتَضِي التَّعَارُضَ فِي مُتَعَلَّقَاتِهَا بِأَنْ يَتَعَلَّقَ بَعْضُهَا بِغَيْرِ مَا تَعَلَّقَ بِهِ الْآخَرُ مِنْ ضِدٍّ وَنَقِيضٍ ، وَأَيُّ فَسَادٍ فِي النِّظَامِ ، وَمُوجِبٍ لِلِاخْتِلَالِ أَشَدُّ مِنْ هَذَا ؟ وَإِنَّمَا قُلْنَا : إِذَا جَازَ وُجُودُهُ ؛ لِأَنَّ الْإِشَارَةَ إِلَى الْبُرْهَانِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا (21 : 22) قَدْ بُنِيَ عَلَى أَنَّ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ مَوْجُودَتَانِ وَالنِّظَامَ فِيهِمَا مُشَاهَدٌ بِالْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَكَمَا يَمْتَنِعُ اسْتِقَامَةُ النِّظَامِ

وَصَلَاحُ التَّدْبِيرِ الصَّادِرِ عَنْ عُلُومٍ وَإِرَادَاتِ قُدَرٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَعَارِضَةٍ ، كَذَلِكَ يَمْتَنِعُ صُدُورُ الْكَوْنِ نَفْسُهُ عَنْهَا بِالْأَوْلَى .

(102/285)

وَفِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ الْأَخِيرَةِ مِنْ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ أَنَّهُ أُعِيدَ لَفْظُ " قَالَ " فِي أَوَّلِهَا لِمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ مِنْ أَنَّ هَذَا جَوَابٌ مُسْتَقِلٌّ لَا يَشْتَرِكُ مَعَ مَا قَبْلَهُ فَيُعْطَفُ عَلَيْهِ ، وَلَا هُوَ مَعَهُ مِنْ قَبِيلِ سَرْدِ الصِّفَاتِ أَوِ الْأَعْدَادِ الَّتِي يُطْلَبُ فِيهَا الْفَصْلُ أَيْ : كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ (9 : 112) إلَخْ . وَقَوْلُهُمْ : الْأَوَّلُ كَذَا - الثَّانِي كَذَا إلَخْ ، فَلَمْ يَبْقَ إلَّا إعَادَةُ " قَالَ " لِامْتِنَاعِ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ كِلَيْهِمَا بِدُونِهِمَا ، وَأَنْ تَكُونَ " قَالَ " مَفْصُولَةً لَا مَعْطُوفَةً لِإِفَادَةِ هَذَا الِاسْتِقْلَالِ فِي الْجَوَابِ ؛ إذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ عَطْفِ الْقَوْلِ وَعَطْفِ الْجُمْلَةِ الِاسْتِفْهَامِيَّةِ بِدُونِهِ فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَقْتَضِي الِاشْتِرَاكَ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ كَمَا

حَقَّقَهُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ .

(103/285)

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ فِي أَسَالِيبِ هَذِهِ اللُّغَةِ يَشْعُرُ بِأَنَّ الْبَدْءَ بِهَذَا الِاسْتِفْهَامِ هُنَا بِدُونِ " قَالَ " غَيْرُ مُسْتَعْذَبٍ وَلَا مُسْتَسَاغٍ ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ سَبَبَ هَذَا وَنُكْتَتَهُ - بَحَثَ طُلَّابُ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ فِي التَّفْسِيرِ عَنْ نُكْتَةِ هَذِهِ الْإِعَادَةِ فَلَمَحَ بَعْضُهُمْ مَا قَرَّرْنَاهُ وَلَمْ يَتَبَيَّنْهُ وَاضِحًا لِيُبَيِّنَهُ . قَالَ الْآلُوسِيُّ : قِيلَ هَذَا هُوَ الْجَوَابُ ، وَمَا قَبْلَهُ تَمْهِيدٌ لَهُ ؛ وَلَعَلَّهُ لِذَلِكَ أُعِيدَ لَفْظُ (قَالَ) ا هـ . فَنَقَلَ هَذِهِ النُّكْتَةَ بِصِيغَةِ التَّمْرِيضِ " قِيلَ " إِذْ كَانَتْ أَخْفَى عِنْدَهُ مِنْهَا عِنْدَ صَاحِبِهَا الَّذِي قَالَ : وَلَعَلَّهُ . . . فَلَمْ يَجْزِمْ - ثُمَّ نَقَلَ عَنْ أَبِي السُّعُودِ قَوْلَهُ فِي هَذَا الْجَوَابِ : هُوَ شُرُوعٌ فِي بَيَانِ شُئُونِ اللَّهِ - تَعَالَى - الْمُوجِبَةِ لِتَخْصِيصِ الْعِبَادَةِ بِهِ سُبْحَانَهُ بَعْدَ بَيَانِ أَنَّ مَا طَلَبُوا عِبَادَتَهُ مِمَّا لَا يُمْكِنُ طَلَبُهُ أَصْلًا ، لِكَوْنِهِ هَالِكًا بَاطِلًا أَصْلًا ، وَلِذَلِكَ وَسَّطَ بَيْنَهُمَا " قَالَ " مَعَ كَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا كَلَامَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ا هـ . ثُمَّ نَقَلَ تَعْلِيلًا آخَرَ لِلشِّهَابِ وَهُوَ : أُعِيدَ لَفْظُ " قَالَ " مَعَ اتِّحَادِ مَا بَيْنَ الْقَائِلِينَ (؟) لِأَنَّ هَذَا دَلِيلٌ خِطَابِيٌّ بِتَفْضِيلِهِمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَلَمْ يَسْتَدِلَّ بِالتَّمَانُعِ الْعَقْلِيِّ لِأَنَّهُمْ عَوَامُّ . انْتَهَى .

(104/285)

وَأَقُولُ : إِنَّ الْعِبَارَةَ الْأُولَى أَصَحُّ وَأَسْلَمُ مِنْ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ الْمُعْتَرِضَيْنِ عَلَى أَنَّهُمَا مَبْنِيَّانِ عَلَى لَمْحِ مَا لَمَحَ صَاحِبُهَا ، إِذْ لَوْ سَلَّمَ لِلْأَوَّلِ أَنَّ الْآيَةَ فِي بَيَانِ شُئُونِ اللهِ إِلَخْ . وَلِلثَّانِي أَنَّهَا دَلِيلٌ خِطَابِيٌّ لَا بُرْهَانِيٌّ ، لَمَّا كَانَ هَذَا وَلَا ذَاكَ مُقْتَضِيًا لِإِعَادَةِ فِعْلِ الْقَوْلِ لِذَاتِهِ ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِمَوْقِعِهِ ، وَامْتِنَاعِ كُلٍّ مِنْ فَصْلِهِ بِدُونِ الْقَوْلِ ، وَوَصْلِهِ بِالْعَطْفِ عَلَى مَا قَبْلَهُ كَمَا عُلِمَ مِمَّا بَيَّنَّاهُ ، وَالْحَمْدُ لِمُلْهِمِ الصَّوَابِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا بُطْلَانَ قَوْلِ الشَّبَابِ آنِفًا ، وَضَعْفِ قَوْلِ أَبِي السُّعُودِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 9 صـ 91. 103 ﴾

(105/285)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

من تتمة كلام موسى عليه السلام كما يقتضيه السياق ، ويعضده قراءة ابن عامر : ﴿ واذ أنجاكم ﴾ والمعنى : أأبتغي لكم إلاهاً غير الله في حال أنه فضلكم على العالمين ، وفي زمان أنجاكم فيه من آل فرعون بواسطتي ، فابتغاء إلاه غيره كفران لنعمته ، فضمير المتكلم المشارك يعود إلى الله وموسى ، ومعاده يدل عليه قوله : ﴿ أغير الله أبغيكم إلاهاً ﴾ [الأعراف : 140] .

ويجوز أن يكون هذا امْتناناً من الله اعترضه بين القصة وعدَةِ موسى عليه السلام انتقالاً من الخبر والعبرة إلى النعمة والمنة ، فيكون الضمير ضَمير تعظيم ، وقرأ الجمهور : ﴿ أنجيناكم ﴾ بنون المتكلم المشارك ، وقرأه ابن عامر : ﴿ وإذ أنجاكم ﴾ على إعادة الضمير إلى الله في قوله : ﴿ أغير الله أبغيكم إلاهاً ﴾ [الأعراف : 140] ، وكذلك هو مرسوم في مصحف الشام فيكون من كلام موسى وبمجموع القراءتين يحصُل المعنيان .

و ﴿ إذ ﴾ اسم زمان ، وهو مفعول به لفعل محذوف تقديره : واذكروا .

واختار الطبري وجماعة أن يكون قوله : ﴿ وإذ أنجيناكم ﴾ خطاباً لليهود الموجودين في زمن محمد صلى الله عليه وسلم فيكون ابتداء خطاب افتتح بكلمة (إذ) ، والتعريض بتذكير المشركين من العرب قد انتهى عند قوله : ﴿ وهو فضلكم على العالمين ﴾ [الأعراف : 140] وسورة الأعراف مكية ولم يكن في المكي من القرآن هو مجادلة مع اليهود .

وقوله : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ إلى آخر الآية تقدم تفسير مشابهتها في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(106/285)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

وإذا سمعت " إذ " فافهم ان معناها ظرف زمان يريد الحق أن نتذكر ما حدث فيه ، و " إذ " يعني جيداً ولا يغيب عن بالكم حين أنجاكم الله من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب وأفظعه وأشده .

ويقول بعدها مبيناً ومفسراً ذلك العذاب : ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ .

ونلحظ أنه لم يأت بالعطف هنا ، فلم يقل : يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . مما يدل على أنه جاء بقمة سوء العذاب ؛ لأن الاحتقار ، والتسخير هما جزء من العذاب . لكن قمة العذاب هي تقتيل الأبناء ، واستحياء النساء .

وفي آية ثانية يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 49]

أي أنهم تعرضوا للتقتيل ، وتعرضوا للتذبيح ، وفي آية ثالثة يقول : ﴿ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 6]

لقد جاء ب " الواو " هنا للعطف . لأن المتكلم هنا مختلف ، فقد يكون المتكلم الله ، وسبحانه يمتن بقمة النعم . لكن : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذكروا ﴾ ، فموسى يمتن بكل النعم التي ساقها الله إلى بني إسرائيل صغيرة وكبيرة .

ويذيل الحق الآية الكريمة : ﴿ وَفِي ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

هو بلاء شديد الإِيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر في الهم والحزن على من يستبقي من النساء لاستباحة أعراضهن وامتهانهن في الخدمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(107/285)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم ﴾ .

قرأ العامة مسنداً إلى المُعَظِّم ، وابْنُ عامر أَنْجَاكُمْ مسنداً .

إلى ضمير اللَّهِ تعالى جرياً على قوله : " وَهُوَ فَضَّلَكُمْ " ، وقرئ : " نَجَّيْنَاكُمْ " مُشِدّداً ، و[قد] تقدَّم الخلافُ في تشديد " يقتلون " وتخفيفها قبل هذه الآية ، وتقدَّم في البقرة إعراب هذه الآية وتفسيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 296 . 297 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) ﴾

ما ازداد موسى – عليه السلام – في تعديد إنعام الله عليهم ، وتنبيهم على عظيم آلائه إلا ازدادوا جحداً ، وبُعداً بالقلوب – عن محل العرفان – على بُعْد ، وهذه أمارة من بلاه – سبحانه – في السابق بالقطع والرد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 562 ﴾

(108/285)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾

وَيَذَرَكَ عطف على لِيُفْسِدُوا لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم ، وكان ذلك مؤدّيا إلى ما دعوه فساداً وإلى تركه وترك آلهته ، فكأنه تركهم لذلك . أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجاب بالفاء ، نحو قول الحطيئة :

ألم أك جاركم ويكون بيني وبينكم المودّة والإخاء «1»

والنصب بإضمار «أن» تقديره : أيكون منك ترك موسى ، ويكون تركه إياك وآلهتك .

وقرئ :

ويذرك وآلهتك بالرفع عطفا على أتذر موسى ، بمعنى : أتذره وأ يذرك ، يعنى : تطلق له ذلك .

أو يكون مستأنفا أو حالا على معنى : أتذره وهو يذرك وآلهتك . وقرأ الحسن : ويذرك بالجزم ،

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 578 فراجعه إن شئت ا ه مصححه

كأنه قيل : يفسدوا ، كما قرئ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ كأنه قيل : أصدّق . وقرأ أنس رضى اللّه عنه : ونذرك ، بالنون والنصب ، أى يصرفنا عن عبادتك فنذرها . وقرئ : ويذرك وإلاهتك ، أى عبادتك . وروى أنهم قالوا له ذلك ، لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس ، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك ، وقيل : صنع فرعون لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ،

ويقولون : ليقربونا إلى اللّه زلفى ، ولذلك قال : أنا ربكم الأعلى سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ يعنى سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء ، ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر ، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا ، وأن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا ، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده ، فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه ، وأنه منتظر بعد .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 128 إلى 129]

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ قال لهم ذلك - حين قال فرعون : سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا - يسكنهم ويسلبهم ، ويعدهم النصرة عليهم ، ويذكر لهم ما وعد اللّه بنى إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم . فإن قلت : لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على التي قبلها ؟ قلت : هي جملة مبتدأة مستأنفة . وأمّا وَقالَ الْمَلَأُ فمعطوفة على ما سبقها من قوله قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وقوله إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة ، كقوله وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر لأنها من جنس الأرض ، كما قال ضمرة : إنما المرء بأصغريه ، فأراد بالمرء

الجنس ، وغرضه أن يتناوله تناولا أوليا وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط ، وأن المشيئة متناولة لهم . وقرأ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ بالنصب : أبيّ وابن مسعود ، عطفا على الأرض .

أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبئ ، وإعادته عليهم بعد ذلك ، وما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع

(110/285)

الخدم والمهن ويمسون به من العذاب عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل . وكشف عنه ، وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم . وعن عمرو بن عبيد رحمه اللّه أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان ، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد ، فقرأ عمرو هذه الآية ، ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال : قد بقي فينظر كيف تعملون .

[سورة الأعراف (7) : آية 130]

وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130)

بِالسِّنِينَ بسنى القحط . و«السنة» من الأسماء الغالبة كالدابة والنجم ونحو ذلك ، وقد اشتقوا منها فقالوا : أسنت القوم ، بمعنى أقحطوا . وقال ابن عباس رضى اللّه عنه : أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم . وأمّا نقص الثمرات فكان في أمصارهم . وعن كعب : يأتى على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر «1» وتكذيبهم لآيات اللّه ، ولأن الناس في حال الشدّة أضرع خدودا وألين أعطافا وأرق أفئدة .

وقيل : عاش فرعون أربعمائة سنة ولم ير مكروها في ثلاثمائة وعشرين سنة ، ولو أصابه في تلك المدّة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية .

[سورة الأعراف (7) : آية 131]

فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (131)

فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ من الخصب والرخاء قالُوا لَنا هذِهِ أى هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل في النعمة والرفاهية ، واللام مثلها في قولك . الجل للفرس وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ من ضيقة وجدب يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ يتطيروا بهم ويتشاءموا ويقولوا : هذه بشؤمهم ، ولولا مكانهم لما أصابتنا ، كما قالت الكفرة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

هذه من عندك . فإن قلت : كيف . قيل : فإذا جاءتهم الحسنة بإذا وتعريف الحسنة «2» ، وإن تصبهم

---

(1) . قال محمود : «معنى لعلهم يذكرون : يتنبهون لأن ذلك كان لاصرارهم . . . الخ» قال أحمد : دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة . وأما دعوى اختصاصها بهم حتى لا يشركهم فيها أحد فدل عليه تقدير الخبر الذي هو لنا ، وقد علمت طريقة المصنف في إسناده الحصر من تقديم ما حقه أن يؤخر كالمفعول والخبر ونحوه .

(2) . عاد كلامه . قال : فان قلت : «كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة . . . الخ» قال أحمد : وقد ورد : إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ فلم يراع فرق ما بينهما ، ولعل بين سياق الآيتين اختلافا أوجب في كل واحد منهما ما ذكر فيه .

(111/285)

سيئة بإنّ وتنكير السيئة ؟ قلت : لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه . وأمّا السيئة فلا تقع إلا في الندرة ، ولا يقع إلا شيء منها . ومنه قول بعضهم : قد عددت أيام البلاء ، فهل عددت أيام الرخاء طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أي سبب خيرهم وشرهم عند اللّه ،

وهو حكمه ومشيئته ، والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة ، وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه ، كقوله تعالى قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ويجوز أن يكون معناه : ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجرى عليهم ما يسوءهم لأجله ، ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها الآية . ولا طائر أشأم من هذا . وقرأ الحسن : إنما طيركم عند الله ، وهو اسم لجمع طائر غير تكسير ، ونظيره : التجر ، والركب . وعند أبى الحسن :

هو تكسير .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 132 إلى 133]

وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (133)

مَهْما هي «ما» المضمنة معنى الجزاء «1» ، ضمت إليها «ما» المزيدة المؤكدة للجزاء في

---

(1) . قال محمود : «مهما هي «ما» المضمنة معنى الجزاء ضمت إليها «ما» المزيدة المؤكدة للجزاء . . . الخ» قال أحمد :

والذي عده أولا من كلام سيبويه ، وسنذكره : قال سيبويه : وسألت الخليل عن مهما فقال : هي «ما» أدخلت معها «ما» ، بلغو بمنزلتها مع متى ، إذا قلت : متى ما تأتنى حدثتك .

انتهى كلام سيبويه . وكأن هذا القائل – والله أعلم – اغتر بتشبيه الخليل لها بمتى ما ، فظنها في معناها . وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما في لحاقها زائدة مؤكدة للأولى بما اللاحقة لمتى . عاد كلام سيبويه قال : ولكنهم استقبحوا تكرير لفظ واحد ، فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى انتهى نقله عن الخليل . قال سيبويه : ويجوز أن تكون كذا ضمت اليها ما انتهى كلامه . قال أحمد : ومعنى تشبيه سيبويه لها بإذما أن الجزاء بجملة الكلمة لا بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل . والذي يحقق ذلك أن سيبويه قال أول هذا الباب : وأما «حيث» و«إذ» فلا يجازى بهما حتى بضم اليهما ما ، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما وكأنما ، وليست ما فيهما بلغو ، ولكن كل واحدة منهما مع ما بمنزلة حرف واحد ، فانظر قوله : وليست ما فيهما بلغو ، يعنى ليست زائدة مؤكدة ، ولكن لها حظ في اقتضاء الجزاء حتى لا يفيده إلا اجتماع جزئى الكلمة ويبقى وراء ذلك نظر في أن سيبويه هل أراد أن «ما» ضمت إلى «مه» التي هي الصوت ، أو إلى «ما» الجزائية .

والظاهر من مراده أن انضمامها إلى الصوت ، لأنها لو كانت منضمة إلى «ما» الجزائية ، لكانت مستقلة بافادة الجزاء قبل انضمام «ما» إليها ، ولا تكون مثل إذا وحيث ، ولا يكون تنظير سيبويه مطابقا . وهذا الذي فهمه ابن طاهر وتبعه فيه تلميذه ابن خروف . وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيبويه ، ورد قول ابن بابشاذ أن هذا المذهب للخليل خاصة ، وقد تواطأ ابن بابشاذ والزمخشري على نفى هذا المذهب عن سيبويه ، وإعزائه

إلى غيره .

وأظهر ما قوى به مذهب الخليل – والله أعلم – أن هذه الكلمة استعملت في الاستفهام حسب استعمالها في الجزاء وأنشدوا :

مهما لي الليلة مهما ليه أودى بنعلي وسر ماليه

أراد : مالى الليلة ، ولا إشكال هاهنا أنها «ما» الاستفهامية كررت تأكيداً ، كما يقولون : لالا ، ونعم نعم ، ثم استكره تكرار اللفظ بعينه ، فقلبت ألف الأولى هاء . وقد جاء قلب الاستفهامية وإن لم يكن تكرار ، فهو معه أجدر . وإذا وضح أن «مهما» الواقعة في الاستفهام أصلها «ما» مكررة ، كان ذلك أوضح دليل على أن الواقعة في الجزاء كذلك ، والاستشهاد بالنظائر أمين حجج العربية ، والله أعلم . وأما رد الزمخشري على من زعم أنها بمعنى «متى ما» فرد صحيح ، والآية أصدق شاهد على رده ، فان الضمير المجرور فيها عائد إلى مهما حتما ، وقد اتصل به مفسراً له قوله مِنْ آيَةٍ دل على أن الضمير واقع على الآية ، فلزم وقوع «مهما» عليها ضرورة إيجاد المرجع في المضمر ومظهره ، فذهاب هذا القائل إلى إيقاع «مهما» على الوقت زاعما أنها بمعنى «متى ما» ذهاب عن الصواب .

وعذر الزمخشري واضح في الرد على تسجيله وإغلاظ النكير عليه ، وتفويق سهام التشنيع إليه . فتأمل هذا الفصل ، ففيه إنارة للسبيل ، وشفاء للغليل ، والله الموفق .

قولك : متى ما تخرج أخرج ، أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ، فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ إلا أنّ الألف قلبت هاء استثقالا لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصري ، ومن الناس من زعم أن «مه» هي الصوت الذي يصوت به الكاف ، و«ما» للجزاء ، كأنه قيل : كف ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فإن قلت : ما محل مهما ؟ قلت : الرفع بمعنى : أيما شيء تأتنا به . أو النصب ، بمعنى : أيما شيء تحضرنا «1» تأتنا به . ومن آية : تبيين لمهما . والضميران في بِهِ وبِها راجعان إلى مهما ، إلا أنّ أحدهما ذكر على اللفظ ، والثاني أنث على المعنى ، لأنه في معنى الآية . ونحوه قول زهير :

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على النّاس تعلم «2»

وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية ، فيضعها غير موضعها ، ويحسب مهما بمعنى متى ما ، ويقول مهما جئتني أعطيتك ، وهذا من وضعه ، وليس من كلام واضع العربية في شيء ، ثم يذهب فيفسر مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ بمعنى الوقت ، فيلحد في آيات اللّه وهو لا يشعر ، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثوّ بين يدي الناظر في كتاب سيبويه . فإن قلت : كيف سموها آية ، ثم قالوا لتسحرنا بها ؟ قلت : ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية ، وإنما سموها اعتباراً لتسمية موسى ، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي الطُّوفانَ ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل . قيل : طغى الماء فوق حروثهم ،

وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة ، لا يرون

---

(1) . قوله «أيما شيء تحضرنا» لعله تحضر فقط . (ع)

(2) . لزهير بن أبى سلمى من معلقته . ومهما : اسم شرط بمعنى أى شيء على المختار ، فلذلك يعود عليه الضمير ، ثم إن كان المراد به مؤنثا كما هنا ، فتارة يعود عليه الضمير مذكراً باعتبار اللفظ كما في قوله «يكن» وتارة مؤنثا باعتبار المعنى كما في قوله «وإن خالها» ولم يجعل هذا عائداً على الخليقة ، لأن «مهما» هو المحدث عنه ، و«من خليقة» بيان له . ولما بين بالمؤنث حسن تأنيث ضميره بعد بيانه . يقول : أى طبيعة وسجية تكون في الإنسان تعلم الناس بأماراتها ، وإن ظنها خافية عليهم .

(113/285)

شمساً ولا قمراً ، ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره . وقيل أرسل اللّه عليهم السماء حتى كادوا يهلكون ، وبيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة ، فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ، فمن جلس غرق ، ولم تدخل بيوت بنى إسرائيل قطرة ، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف ، ودام عليهم سبعة أيام . وعن أبى قلابة :

الطوفان الجدري ، وهو أوّل عذاب وقع فيهم ، فبقى في الأرض . وقيل : هو الموتان «1»

وقيل :

الطاعون ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك ، فدعا فرفع عنهم ، فما آمنوا ، فنبت لهم تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد بمثله ، فأقاموا شهراً ، فبعث اللّه عليهم الجراد فأكلت عامة زروعهم وثمارهم ، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل منها شيء ، ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة ، فكشف عنهم بعد سبعة أيام : خرج موسى عليه السلام إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب ، فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها ، فقالوا : ما نحن بتاركي ديننا ، فأقاموا شهراً ، فسلط اللّه عليهم القمل وهو الحنان في قول أبى عبيدة كبار القردان . وقيل : الدبا وهو أولاد الجراد . قيل :

نبات أجنحتها . وقيل : البراغيث . وعن سعيد بن جبير : السوس ، فأكل ما أبقاه الجراد ، ولحس الأرض ، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه ، وكان يأكل أحدهم طعاماً فيمتلئ قملا ، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا يسيرا . وعن سعيد ابن جبير . أنه كان إلى جنبهم كثيب أعفر ، فضربه به موسى بعصاه فصار قملا ، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ، ولزم جلودهم كأنه الجدري ، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم ، فقالوا : قد تحققنا الآن أنك

ساحر ، وعزة فرعون لا نصدقك أبدا ، فأرسل اللّه عليهم بعد شهر الضفادع ، فدخلت بيوتهم وامتلأت منها آنيتهم وأطعمتهم ، ولا يكشف أحد شيئا من ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع ، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه ، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد ، وكانت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلى ، وفي التنانير وهي تفور ، فشكوا إلى موسى وقالوا : ارحمنا هذه المرة ، فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود ، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف اللّه عنهم ، ثم نقضوا العهد ، فأرسل اللّه عليهم الدم فصارت مياههم دماً ، فشكوا إلى فرعون فقال : إنه سحركم فكان يجمع بين القبطي والاسرائيلى على إناء واحد ، فيكون ما يلي الإسرائيلى ماء

---

(1) . قوله «و قيل هو الموتان» في الصحاح : الموتان - بالضم : موت يقع في الماشية . وفيه أيضا : الطاعون الموت الوحى من الوباء . وفيه . الوحي ، على فعيل : السريع . (ع) [.....]

وما يلي القبطي دماً ، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطي الدم وللإسرائيلى الماء ، حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية : اجعلي الماء في فيك ثم مجيه في فىّ ، فيصير الماء في فيها دماً .

وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك ، فكان يمص الأشجار الرطبة ، فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً أجاجا . وعن سعيد بن المسيب : سال عليهم النيل دما . وقيل : سلط اللّه عليهم الرعاف وروى أنّ موسى عليه السلام مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات ، وروى أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال : يا رب ، إنّ عبدك هذا قد علا في الأرض فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة ، ولقومي عظة ، ولمن بعدي آية . فحينئذ بعث اللّه عليهم الطوفان ، ثم الجراد ، ثم ما بعده من النقم . وقرأ الحسن : والقمل ، بفتح القاف وسكون الميم ، يريد القمل المعروف آياتٍ مُفَصَّلاتٍ نصب على الحال . ومعنى مفصلات : مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات اللّه التي لا يقدر عليها غيره ، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم . أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم ، وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم ، أم ينكثون إلزاماً للحجة عليهم ؟

[سورة الأعراف (7) : الآيات 134 إلى 136]

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ

لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (136)

بما عَهِدَ عِنْدَكَ ما مصدرية. والمعنى بعهده عندك وهو النبوّة والباء إمّا أن تتعلق بقوله ادْعُ لَنا رَبَّكَ على وجهين: أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد اللّه وكرامته بالنبوّة. أو ادع اللّه لنا متوسلا إليه بعهده عندك. وإمّا أن يكون قسما مجاباً بلنؤمنن، أى أقسمنا بعهد اللّه عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إلى حدّ من الزمن هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ جواب لما، يعنى: فلما كشفناه عنهم فاجئوا النكث وبادروا لم يؤخروه ولكن كما كشف عنهم نكثوا فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فأردنا الانتقام منهم فَأَغْرَقْناهُمْ. واليهم: البحر الذي لا يدرك قعره. وقيل: هو لجة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم، لأن المستنفعين به يقصدونه بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها.

(115/285)

[سورة الأعراف (7) : آية 137]

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ (137)

الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ هو بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه . والأرض : أرض مصر والشام ، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، وتصرفوا كيف شاءوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية بارَكْنا فِيها بالخصب وسعة الأرزاق كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى قوله وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ إلى قوله ما كانُوا يَحْذَرُونَ والحسنى : تأنيث الأحسن صفة للكلمة . ومعنى تمت على بنى إسرائيل : مضت عليهم واستمرت من قولك : تمَّ على الأمر إذا مضى عليه بِما صَبَرُوا بسبب صبرهم ، وحسبك به حاثاً على الصبر ، ودالا على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله اللّه إليه ، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن اللّه له الفرج . وعن الحسن : عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله . وتلا الآية .

ومعنى خف : طاش جزعا وقلة صبر ، ولم يرزن رزانة أولى الصبر . وقرأ عاصم في رواية : وتمت كلمات ربك الحسنى . ونظيره مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى . ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ما كانوا يعملون ويسوّون من العمارات وبناء القصور وَما كانُوا يَعْرِشُونَ من الجنات هُوَ الَّذِي

أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء . كصرح هامان وغيره .

وقرئ : يعرشون ، بالكسر والضم . وذكر اليزيدي أن الكسر أفصح . وبلغني أنه قرأ بعض الناس . يغرسون ، من غرس الأشجار . وما أحسبه إلا تصحيفا منه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 138 إلى 140]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (139) قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (140)

وهذا آخر ما اختصّ اللّه من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات اللّه وظلمهم ومعاصيهم ثم أتبعه اقتصاص نبأ بنى إسرائيل وما أحدثوه - بعد إنقاذهم من ملكة فرعون واستعباده ، ومعاينتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر - من عبادة البقر وطلب رؤية اللّه جهرة ، وغير ذلك

من أنواع الكفر والمعاصي ، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه ظلوم كفار جهول كنود ، إلا من عصمه اللّه وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ وليسلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مما رأى من بنى إسرائيل بالمدينة . وروى أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك اللّه تعالى فرعون وقومه ، فصاموه شكراً للّه تعالى فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ فمرّوا عليهم يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ يواظبون على عبادتها ويلازمونها . قال ابن جريج : كانت تماثيل بقر : وذلك أوّل شأن العجل وقيل : كانوا قوماً من لخم . وقيل : كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم وقرئ : وجوّزنا ، بمعنى أجزنا . يقال : أجاز المكان وجوزه وجاوزه بمعنى جازه ، كقولك :

أعلاه وعلاه وعالاه . وقرئ : يعكفون ، بضم الكاف وكسرها اجْعَلْ لَنا إِلهاً صنما نعكف عليه كَما لَهُمْ آلِهَةٌ أصنام يعكفون عليها . «وما» كافة للكاف ، ولذلك وقعت الجملة بعدها وعن على رضى اللّه عنه أنّ يهوديا قال له : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجفّ ماؤه . فقال : قلتم اجعل لنا إلها قبل أن تجفّ أقدامكم إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى ، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده ، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع إِنَّ هؤُلاءِ يعنى عبدة تلك التماثيل مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ مدمّر مكسر ما هم فيه ، من قولهم إناء متبر ، إذا كان فضاضا «1» . ويقال لكسار الذهب : التبر ، أى يتبر اللّه ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدىّ ، ويحطم أصنامهم هذه ويتركها رضاضاً

وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به وإن كان في زعمهم تقربا إلى اللّه كما قال تعالى وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً وفي إيقاع هؤُلاءِ اسما لإن ، وتقديم خبر المبتدإ من الجملة الواقعة خبراً لها وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار ، وأنه لا يعدوهم البتة ، وأنه لهم ضربة لازب ، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً ، وهو فعل بكم ما فعل دون غيره ، من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحداً غيركم ، لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره . ومعنى الهمزة : الإنكار والتعجب من طلبتهم - مع كونهم مغمورين في نعمة اللّه - عبادة غير اللّه .

[سورة الأعراف (7) : آية 141]

وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يبغونكم شدّة العذاب ، من سام السلعة إذا طلبها . فإن قلت : ما محل

---

(1) . قوله «فضاضا» أى فتاتا كالرضاض . أفاده الصحاح . (ع)

يسومونكم ؟ قلت : هو استئناف لا محلّ له . ويجوز أن يكون حالا من المخاطبين أو من آل فرعون .

وذِلكُمْ اشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب . والبلاء : النعمة أو المحنة . وقرئ : يقتلون . بالتخفيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 142 . 151 ﴾

(118/285)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) ﴾

التفسير : ثم أن فرعون بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرض لموسى ولا أخذه ولا حبسه لأنه كان كلما يرى موسى يخافه أشدّ الخوف إلا أن قومه لم يعرفوا ذلك فحملوه على أخذه

وحبسه فقالوا ﴿ أنذر موسى ﴾ أتتركه ﴿ وقومه ليفسدوا في الأرض ﴾ أي يغيروا على الناس دينهم الذي كانوا عليه فيتوسلوا بذلك إلى أخذ الملك . وقوله ﴿ ويذرك ﴾ عطف على ﴿ ليفسدوا ﴾ ، وقوله ﴿ وآلهتك ﴾ مفعول معه . والمراد أنه إذا تكرهم ولم يمنعهم كان ذلك مؤدياً إلى تركه مع آلهته فقط ، ويحتمل أن يكون منصوباً على أنه جواب الاستفهام والمعنى : أيكون منك أن تذر موسى ويكون من موسى أن يذرك وآلهتك . قال كثير من المفسرين : إن فرعون كان قد وضع لقومه أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتهم وسمى نفسه الرب الأعلى . وقال الحسن : كان فرعون يعبد الأصنام ووجه بأنه لعله كان اتخذ أصناماً على صور الكواكب على أن الكواكب مدبرات العالم السفلي . وأما المجدي في هذا العالم للخلق المربي لهم فهو نفسه ولذلك قال أنا ربكم الأعلى أي أنا مربيكم والمنعم عليكم والمطعم لكم ، وكل ذلك بناء على أنه كان دهرياً ينكر وجود الصانع . ثم إن فرعون أوهم قومه أنه إنما لم يحبسه ولم يمنعه لعدم التفاته إليه لا للخوف منه فقال ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ فكأنه قال : إن موسى إنما يمكنه الإفساد بواسطة الرهط والشيعة فنحن نسعى في تقليل رهطه وشيعته ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ أي سنعيد عليهم ما كنا محناهم به قبل من قتل الأبناء ليعلموا أما على ما كنا عليه من الغلبة ، ولئلا يتوهم العامة أنه المولود الموعود من قبل الكهنة ولكنه منتظر بعده ﴿ قال موسى ﴾ لما وصله ما جرى بين فرعون وملته ﴿ لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ ولا ريب أن الصبر نتيجة الاستعانة

بالله فإن من علم أنه لا مدبر للعالم إلا الله تعالى انشرح قلبه بنور المعرفة وعلم أن الكل بقضاء الله وقدره فيسهل عليه ما يصل إليه ، ثم لما أمرهم بشيئين بشرهم بآخرين

(119/285)

فقال ﴿ إن الأرض ﴾ يعني أرض مصر أو جنس الأرض فيتناول مصر بالتبعية ﴿ لله يورثها من يشاء من عباده ﴾ ويعني بالتوريث جعل الشيء للخلف بعد السلف ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ والخاتمة الحميدة لمن هو بصدد التقوى منكم ومن القبط .

(120/285)

وهذا من كلام المنصف وإلا فمعلوم أن القبط لا تقوى لهم ، أو المراد أن كل من اتقى الله وخافه فالله الغني الكريم يعينه في الدنيا والآخرة . ثم إنهم خافوا وفزعوا من تهديد فرعون فشكوا إلى موسى مستعجلين النصر و ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ يعنون قتل أبنائهم قبل مولده إلى حين نبوته ثم إعادة ذلك عليهم في قوله ﴿ سنقتل ﴾ إلى غير ذلك من أنواع المحن والمهن . فعند ذلك قال لهم موسى مصرحاً بما رمز إليهم من

البشارة قبل ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴾ أرض مصر ولا ريب أن في ﴿ عسى ﴾ طمعاً وإشفاقاً ومثل هذا الكلام إذا صدر عن النبي المؤيد بالمعجزات القاهرة الناظر بنور الحق أفاد قوة اليقين وأزال ما خامره من الضعف . ثم قال ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ قال الزجاج : أي يرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبحه شكره وكفره لوقوع ذلك منكم لأن الله تعالى لا يجازيهم على ما يعلمه منهم قديماً وإنما يجازيهم على ما يقع منهم حديثاً فتتعلق الرؤية الأزلية به . عن عمرو بن عبيد أنه دخل على المنصور قبل الخلافة . وعلى مائدته رغيف أو رغيفان . فطلب زيادة لعمرو فلم يكن فقرأ عمرو هذه الآية . ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال قد بقي ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ . و ﴿ وكيف ﴾ نصب ب ﴿ تعملون ﴾ لا ب ﴿ ينظر ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما يتقدمه . ثم حكى سبحانه ما نزل بفرعون وآله من المحن والبلايا بشؤم التكذيب والتمرد فقال ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ أي بسني القحط . فالسنة من الأسماء الغالبة غلبت على القحط كالدابة والنجم ، وقد يراد بها في غير هذا الموضع الحول والعام . قال أبو زيد والفراء : بعض العرب يقول هذه سنين ورأيت سنيناً فيعرب النون ومنه قول الشاعر :

دعاني من نجد فإن سنينه . . . لعبن بنا شيباً وشيبننا مرداً .

والسنون من الجموع المصححة الشاذة .

عن ابن عباس : السنون لأهل البوادي وأصحاب المواشي ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ لأهل الأمصار . وفائدة توسيط من أن يعلم أن كل الثمرات لم تنقص وإنما نقص بعضها ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ فيتنبهوا ويرجعوا إلى الانقياد والطاعة فإن مس الضر مما يلين الأعطاف ويرق القلوب . قيل : عاش فرعون أربعمائة سنة لم ير مكروهاً في ثلثمائة وعشرين سنة وأصابه في تلك المدة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية . قال القاضي : في الآية دلالة على أنه تعالى أراد منهم أن يتذكروا لا أن يقيموا على ما هم عليه من الكفر . وأجيب بأنه يعاملهم معاملة المختبر ولا اختبار في الحقيقة ولا يرعوي عن الكفر والطغيان إلا من شاء وأراد ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ فلهذا حكى عن فرعون وقومه ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ قال ابن عباس : أي العشب والخصب والمواشي والثمار وسعة الرزق والعافية والسلامة ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي نحن مخصوصون بذلك ولم نزل في الرفاهية والنعمة وهكذا عادة الزمان فينا ولم يعلموا أنها من الله فيشكروه عليها ويقوموا بحق نعمته ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أضداد ما ذكرنا ﴿ يطيروا ﴾ يتشاءموا بموسى ومن معه . وأصله يتطيروا فأدغم التاء في الطاء لقرب مخرجهما وإنما عرفت الحسنة وخصت ب ﴾

إذا ﴾ ونكرت السيئة وقرنت ب ﴿ أن ﴾ لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته وشموله وأما السيئة فوقوعها نادر مشكوك فيه ولهذا قيل لقد عددت أيام البلاء فهل عددت أيام الرخاء ؟ ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ قال الأزهري : يقال للشؤم طائر وطيرة . وعن ابن عباس : طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم ومنه قول العرب طار له سهم كذا أي حصل ووقع ذلك في حظه . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتفاءل ولا يتطير لأن الفأل الكلمة الحسنة والتطير عيافة الطير . قال الإمام فخر الدين الرازي : وذلك لأن الأرواح الإنسانية أقوى وأصفى من الأرواح البهيمية فيمكن الاستدلال بالأول على بعض الخفيات بخلاف الثاني . ومعنى الآية

(122/285)

أن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله وبتقديره ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن الكل رهين بمشيئته وتقديره فيقولون هذا بيمن فلان أو بشؤمه . وقد تشاءمت اليهود بالنبي صلى الله عليه وسلم وآله في المدينة فقالوا : غلت أسعارنا وقلت أمطارنا مذ أتانا . قال في الكشاف : ويجوز أن يكون معناه ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله ويعاقبون له بعد موتهم ، وكما حكى عنهم أنهم لجهلهم

أسندوا حوادث هذا العالم لا إلى قضاء الله وقدره كذلك حكى عنهم أنهم لجهلهم وسفههم لم يميزوا بين المعجزات والسحر قالوا لنبيهم ﴿ مهما تأتنا به ﴾ الآية وفي " مهما " قولان : فعن البصريين أن أصلها ما الشرطية زيدت عليها " ما " المؤكدة الإبهاميه ثم كرهوا التكرار فجعلوا الألف من الأولى هاء .

(123/285)

وعن الكسائي أن " مه " بمعنى " أكفف " و " ما " للشرط كأنه قيل : كف ما تأتنا به . ومحل " مهما " الرفع بمعنى أيما شيء تأتنا به أو النصب بمعنى أي شيء تحضرنا تأتنا به . ﴿ ومن آية ﴾ بيان لمهما والضمير في " به " وكذا في " بها " يعود إلى " مهما " لأن البيان كالزيادة فلا يعود إليه شيء ما أمكن العود إلى المبين إلا أن الضمير ذكّر تارة حملاً على اللفظ وأنّث أخرى حملاً على المعنى . وسموها آية تهكماً إذ لو قالوا ذلك اعتقاداً لم يردفوها بقولهم ﴿ لتسحرنا بها ﴾ وبقولهم ﴿ فما نحن لك بمؤمنين ﴾ قال ابن عباس : إن القوم لما قالوا ما قالوا وكان موسى رجلاً حديداً دعا عليهم فأرسل الله عليهم الطوفان . قيل : هو الجدري وهو أوّل عذاب وقع فيهم فبقي في الأرض . وقيل : هو الموتان . وقيل : الطاعون . والأصح أنه المطر وأصله ما طاف وغلب من مطر أو سيل ، أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا

يهلكون وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك . فدعا فرفع عنهم فما آمنوا فنبت لهم تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد بمثله وزعموا أن هذا الذي جزعوا منه هو خير لهم ولم يشعروا به فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامة زروعهم وثمارهم ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب والسقوف والثياب ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة فأرسل الله تعالى ريحاً فاحتملت الجراد فألقته في البحر . وقيل : خرج موسى إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها فقالوا : ما نحن بتاركي ديننا . فأقاموا شهراً فسلط الله عليهم القمل وهو الحمنان كبار القردان . وعن أبي عبيدة وقيل : الدبى وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها . وقيل : البراغيث . وقرأ الحسن العمل بعم وسكون الميم يريد القمل المعروف . وعن

(124/285)

سعيد بن جبير هو السوس فأكل كل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه وكان يأكل أحدهم طعاماً ممتلئاً قملاً . وعن سعيد بن جبير

كان إلى جنبهم كثيب أعفر فضربه بعصاه فصار قملاً فأخذ في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدري فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فأخذ عليهم العهود فرفع عنهم فقالوا : قد تحققنا الآن أنك ساحر ، وعزة فرعون لا نصدقك أبداً . فأرسل الله عليهم الضفادع بعد شهر فدخلت بيوتهم وامتلأت منها آنيتهم وأطعمتهم ، وكان أحدهم إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه وكان يمتلىء منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد ، وكانت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلي .

فشكوا إلى موسى فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم ، ثم نقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماً ، وكان يجتمع القبطي

والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً . وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك وكان يمص الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً أجاجاً . وقيل : الدم الرعاف سلطه الله عليهم . وقوله ﴿ آيات مفصلات ﴾ نصب على الحال من المذكورات ومعناها ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها معجزات أو فصل بين بعضها وبعض بزمان يمتحن فيه أحوالهم وينظر أيوفون بالعهد أم ينكثون كما روي أن موسى عليه السلام مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات . ولا شك أن كل واحدة من هذه معجزة في نفسها واختصاصها بالقبطي دون

الإسرائيلي معجزة أخرى ﴿ واستكبروا ﴾ عن العبادة والطاعة ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ مصرين على الذنب والجرم .

(125/285)

ثم فصل استكبارهم وإجرامهم فقال ﴿ ولما وقع عليهم الرجز ﴾ أي الأنواع الخمسة المذكورة من العذاب . وعن سعيد بن جبير أنه الطاعون وهو العذاب السادس الذي كان أصابهم فمات من القبط سبعون ألف إنسان في يوم واحد فتركوا غير مدفونين ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أي بعهده عندك وهو النبوة ف ﴿ ما ﴾ مصدرية والباء يتعلق ب ﴿ ادع ﴾ تعلق القلم بالكتبة في قولك : كتبت بالقلم أي ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهده عندك . أو تعلق المقسم عليه بالفعل فتكون باء الاستعطاف أي أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد وكرامته بالنبوة . ووجه آخر وهو أن يكون قسماً مجاباً ب ﴿ لنؤمنن ﴾ فيكون متعلقاً بالأقسام أي أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل أي نخليهم وشأنهم فتذهب بهم حيث شئت ﴿ فلما كشفنا عنهم ﴾ العذاب لا مطلقاً ولا في جميع الوقائع بل ﴿ إلى أجل هم بالغوه ﴾ لا محالة ومعذبون فيه ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ جواب " لما " أي لما كشفنا عنهم

فاجأوا النكث وبادروه فانتقمنا منهم سلبنا النعمة عنهم بالعذاب ﴿ فأغرقناهم في اليم ﴾ وهو البحر الذي لا يدرك قعره . وقيل : هو لجة البحر ومعظم مائة سمي باليم لأن المنتفعين به يتيممونه أن يقصدونه ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ أي كان إغراقهم بسبب التكذيب ﴿ و ﴾ بأنهم ﴿ كانوا عنها ﴾ أي عن الآيات وقيل عن النقمة بدلالة انتقمنا أي وكانوا عن النقمة قبل حلولها ﴿ غافلين ﴾ أي معرضين غير متفكرين فإن نفس الغفلة ليس باختيار الإنسان حتى يترتب الوعيد عليها . ثم بين ما فعله بالمحقين بعد إهلاك المبطلين فقال ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ بقتل الأبناء واستحياء النساء والاستخدام في الأعمال الشاقة ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ يعني أرض مصر والشام لأنها هي التي كانت تحت تصرف فرعون .

(126/285)

وقوله ﴿ التي باركنا فيها ﴾ أي بالخصب وسعة الأرزاق وذلك لا يليق إلا بأرض الشام . وقيل : المراد جملة الأرض لأنه خرج من بني إسرائيل من ملك جملتها كداود وسليمان ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ تأنيث الأحسن صفة للكلمة . قيل : يريد بالكلمة قوله في سورة القصص ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ﴾ [

القصص : 5] إلى تمام الآيتين . ومعى ﴿ تمت ﴾ مضت واستمرت من قولك تم على الأمر إذا مضى عليه . وقيل : معنى تمام الكلمة الحسنى إنجاز الوعد الذي تقدم بإهلاك عدوّهم واستخلافهم في الأرض ، لأن الوعد بالشيء جعله كالمعلق فإذا حصل الموعود صار تاماً كاملاً ﴿ بما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم . وفيه أن الصبر عنوان الظفر وضمين بالنصر والفرج ﴿ ودمرنا ﴾ أي أهلكنا والدمار والهلاك ﴿ ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ قال ابن عباس : يريد المصانع . وقال غيره : يعني العمارات وبناء القصور . ولعله على العموم فيتناول المعاني والأعيان وما كانوا يعرشون من الجنات كقوله ﴿ هو الذي أنشأ جنات معروشات ﴾ [الأنعام : 141] وقيل : وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره ، وههنا تمت قصة فرعون والقبط . ثم ذكر ما جرى على بني إسرائيل بعد ذلك فقال ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾ روي أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله فرعون وقومه فصاموه شكراً لله ﴿ فأتوا على قوم ﴾ أي فمروا بقوم ﴿ يعكفون ﴾ يواظبون ﴿ على ﴾ عبادة ﴿ أصنام لهم ﴾ قال ابن جريج : كانت تماثيل بقر وذلك أوّل شأن العجل . وقيل : كانوا قوماً من لخم نزلوا بالرقة عن قتادة وقيل : كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى بقتالهم ﴿ قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ ما كافة للكاف عن العمل ولهذا دخلت على الجملة . وكأنهم طلبوا

من موسى أن يعين لهم أصناماً وتماثيل يتقربون بعباداتها إلى الله تعالى كقول الكفرة ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3]

(127/285)

فتوجه الذم عليهم لأن العبادة نهاية التعظيم سواء اعتقد في المعبود أنه إله واعتقد أنه مقرب من الله ، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام وكأن هذا القول لم يصدر من مشاهير بني إسرائيل وعظمائهم كالسبعين المختارين ، ولكنه صدر عن عوامهم وجهلتهم ولهذا ﴿ قال ﴾ لهم موسى ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآيات العظمى فوصفهم بالجهل المطلق المؤكد . وعن علي رضي الله عنه أن يهودياً قال له : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه ، فقال علي : اختلفنا عنه لا فيه . ثم قال : قلتم اجعل لنا إلهاً ولما تجف أقدامكم ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني عبدة تلك التماثيل ﴿ متبر ﴾ أي مكسر مهلك ﴿ ما هم فيه ﴾ من قولهم إنا متبر إذا كان فضاضاً والتبار الهلاك .

(128/285)

﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ أي يتبر الله أصنامهم ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي فيصير إلى الزوال والاضمحلال . وفي إيقاع ﴿ هؤلاء ﴾ اسماً ل ﴿ أن ﴾ وفي تقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لأن إشارة إلى أن عبدة الأصنام ليسوا على شيء ألبتة وأن مصيرهم إلى النار لا محالة . ﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهاً ﴾ انتصب " غير " على الحال المقدمة التي لو تأخرت كانت صفة كما تقول : أبغيكم ألهاً غير الله . وانتصب ﴿ إلهاً ﴾ على المفعول به . قال الواحدي : يقال بغيت فلاناً شيئاً وبغيته له قال تعالى ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ [التوبة : 47] والمعنى أغير المستحق للعبادة أطلب معبوداً ﴿ وهو فضلكم على العالمين ﴾ خصكم بالنعم الجسام دون أبناء زمانكم . ومعنى الهمزة الإنكار والتعجب مما اقترحوه مع كونهم مغمورين في نعم الله ، فإن الإله ليس شيئاً يطلب ويجعل بل الإله هو الموجود بنفسه القادر على الإيجاد والإعدام والإكرام والإنعام . والآية الباقية قد مر تفسيرها في البقرة ، والفائدة في إعادتها ههنا التعجب والتعجيب ممن اشتغل بعبادة غير هذا المنعم . وإنما قيل ههنا ﴿ تقتلون ﴾ دون ﴿ يذبحون ﴾ لتناسب قوله ﴿ سنقتل أبناءهم ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 305.310 ﴾

(129/285)

وقال البيضاوى :

قوله : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إسراءيل البحر ﴾

وَمَا بعده ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن مَنَّ الله عليهم بالنعم الجسام ، وأراهم من الآيات العظام تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما رأى منهم ، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم . روي : أن موسى عليه الصلاة والسلام عبر بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصاموه شكراً . ﴿ فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ ﴾ فمروا عليهم . ﴿ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ يقيمون على عبادتها ، قيل كانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل ، والقوم كانوا من العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم . وقيل من لخم ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ يعكفون ﴾ بالكسر . ﴿ قَالُواْ يَا موسى اجعل لَّنَا إلها ﴾ مثالاً نعبده . ﴿ كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ يعبدونها ، وما كافة للكاف . ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وصفهم بالجهل المطلق وأكده لبعد ما صدر عنهم بعد ما رأوا من الآيات الكبرى عن العقل .

﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ إشارة إلى القوم . ﴿ مُتَبَّرٌ ﴾ مكسر مدمر . ﴿ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ يعني أن الله يهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها رضاضاً ﴿ وباطل ﴾ مضمحل . ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من عبادتها وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى ، وإنما بالغ في هذا الكلام بإيقاع ﴿ هَؤُلاء ﴾ اسم ﴿ إن ﴾ والإخبار عما هم فيه بالتبار وعما

فعلوا بالبطلان ، وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبراً لأن للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة ، وأن الإحباط الكلي لازب لما مضى عنهم تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا .

(130/285)

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً ﴾ أطلب لكم معبوداً . ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ﴾ والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم ، وفيه تنبيه على سوء معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله إياهم من أمثالهم لما لم يستحقوه تفضلاً بأن قصدوا أن يشركوا به أخس شيء من مخلوقاته .

﴿ وَإِذْ أَنجيناكم مِّنْ ءالِ فِرْعَونَ ﴾ واذكروا صنيعه معكم في هذا الوقت . وقرأ ابن عامر "أنجاكم" . ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب ﴾ استئناف لبيان ما أنجاهم منه ، أو حال من المخاطبين ، أو من آل فرعون أو منهما . ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾ بدل منه مبين . ﴿ وَفِى ذلكم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وفي الإنجاء أو العذاب نعمة أو محنة عظيمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 54.56 ﴾

(131/285)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾ يعني : بني إسرائيل ﴿ الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ أي يذلون ويمتهون بالخدمة لفرعون وقومه ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ منصوبان بأورثنا .

وقال الكسائي والفراء : إن الأصل في مشارق الأرض ومغاربها ، جهات مغربها ، ثم حذفت في فنصبا .

والأوّل أظهر ، لأنه يقال أورثته المال .

والأرض هي مصر والشام ، ومشارقها جهات مشرقها .

ومغاربها ، وهي التي كانت لفرعون وقومه من القبط .

وقيل : المراد جميع الأرض ؛ لأن داود وسليمان من بني إسرائيل ، وقد ملكا الأرض .

قوله : ﴿ التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ صفة للمشارق والمغارب .

وقيل : صفة الأرض .

والمباركة فيها إخراج الزرع والثمار منها على أتمّ ما يكون ، وأنفع ما يتفق .

قوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ الحسنى ﴾ أي مضت واستمرت على التمام ، والكلمة هي : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِى الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ [القصص : 5] ، وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر بالأعداء والاستيلاء على

أملاكهم.

و﴿ الحسنى ﴾ صفة للكلمة.

وهي تأنيث الأحسن.

وتمام هذه الكلمة ﴿ على بَنِى إسراءيل ﴾ بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه.

قوله: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ التدمير الإهلاك، أي أهلكنا بالخراب ما كانوا يصنعونه من العمارات ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ قرأ ابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم "يعرشُون" بضم الراء.

قال الكسائي: هي لغة تميم.

وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة "يُعَرّشون" بتشديد الراء وضم حرف المضارعة.

وقرأ الباقون بكسر الراء مخففة، أي ما كانوا يعرشونه من الجنات، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات معروشات وَغَيْرَ معروشات ﴾ [الأنعام: 141] وقيل: معنى يعرشون يبنون، يقال عرش يعرش أي بنى يبني.

(132/285)

قوله : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إسراءيل البحر ﴾ هذا شروع في بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه .

ومعنى جاوزنا ببني إسرائيل البحر : جزناه بهم وقطعناه .

وقرىء "جوزنا" بالتشديد ، وهو بمعنى قراءة الجمهور ﴿ فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ قرأ حمزة والكسائي "يعكفون" بكسر الكاف ، وقرأ الباقون بضمها .

يقال عكف يعكف ، ويعكف بمعنى أقام على الشيء ولزمه ، والمصدر منها عكوف .

قيل : هؤلاء القوم الذين آتاهم بنو إسرائيل هم من لخم كانوا نازلين بالرقة ، كانت أصنامهم تماثيل بقر .

وقيل : كانوا من الكنعانيين ﴿ قَالُواْ ﴾ أي بنو إسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل ﴿ يا موسى اجعل لَّنَا إلها ﴾ أي صنماً نعبده كائناً كالذي لهؤلاء القوم ، فالكاف متعلق بمحذوف وقع صفة ل ﴿ إلهاً ﴾ ، فأجاب عليهم موسى ، و ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وصفهم بالجهل ، لأنهم قد شاهدوا من آيات الله ما يزجر من له أدنى علم عن طلب عبادة غير الله .

ولكن هؤلاء القوم ، أعني بني إسرائيل ، أشد خلق الله عناداً وجهلاً وتلوّناً .

وقد سلف في سورة البقرة بيان ما جرى منهم من ذلك .

ثم قال لهم موسى ﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ يعني القوم العاكفين على الأصنام ﴿ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾

التبار : الهلاك .

وكل إناء منكسر فهو متبر ، أي أن هؤلاء هالك ما هم فيه مدمّر مكسر .

والذي هم فيه هو : عبادة الأصنام .

أخبرهم بأن هذا الدين الذي هؤلاء القوم عليه هالك مدمّر لا يتمّ منه شيء .

قوله : ﴿ وباطل مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبادتهم للأصنام .

(133/285)

قال في الكشاف : وفي إيقاع ﴿ هؤلاء ﴾ اسماً لإن ، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها ، وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرّضون للتبار ، وأنه لا يعدوهم ألبتة ، وأنه لهم ضربة لازب ، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ، ويبغض إليهم ما أحبوا .

قوله : ﴿ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلها ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أي كيف أطلب لكم غير الله إلها تعبدونه ، وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفي البعض منه ؟ والمعنى : أن هذا الذي طلبتم لا يكون أبداً .

وإدخال الهمزة على ﴿ غير ﴾ للإشعار بأن المنكر هو كون المبتغى غيره سبحانه إلها ، و

﴿ غير ﴾ مفعول للفعل الذي بعده .

و﴿ إلها ﴾ تمييز أو حال .

وجملة : ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : والحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم بما أنعم به عليكم من إهلاك عدوكم ، واستخلافكم في الأرض ، وإخراجكم من الذلّ والهوان إلى العزّ والرفعة ، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره ؟

قوله : ﴿ وَإِذْ أنجيناكم مّنْ ءالِ فِرْعَونَ ﴾ أي : واذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون ، بعد أن كانوا مالكين لكم ، يستعبدونكم فيما يريدونه منكم ، ويمتهنونكم بأنواع الامتهانات .

هذا على أن هذا الكلام محكيّ عن موسى .

وأما إذا كان في حكم الخطاب لليهود الموجودين في عصر محمد ، فهو بمعنى : اذكروا إذ أنجينا أسلافكم من آل فرعون .

وجملة : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب ﴾ في محل نصب على الحال ، أي أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب ﴾ .

ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه .

وجملة : ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾ مفسرة للجملة التي قبلها ، أو بدل منها ، وقد سبق بيان ذلك .

والإشارة بقوله : ﴿ وَفِى ذلكم ﴾ إلى العذاب : أي في هذا العذاب ، الذي كنتم فيه ﴿ بَلاء ﴾ عليكم ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وقيل : الإشارة إلى الإنجاء ، والبلاء النعمة ، والأوّل أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن في قوله : ﴿ مشارق الأرض ومغاربها التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ قال : الشام .

وأخرج هؤلاء عن قتادة مثله .

وأخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم نحوه .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عبد الله بن شوذب ، قال : هي فلسطين .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل الشام أحاديث ليس هذا موضع ذكرها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الحسنى ﴾ قال : ظهور قوم موسى

على فرعون وتمكين الله لهم في الأرض وما ورثهم منها .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ قال : يبنون .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ فَأَتَوْا على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ قال : لخم وجذام .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي عمران الجوني مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن جريج ، في الآية قال : تماثيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر .

فذلك كان أوّل شأن العجل ليكون لله عليهم الحجة ، فينتقم منهم بعد ذلك .

(135/285)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حنين فمررنا بسدرة ، فقلت : يا رسول الله اجعل

لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ، ويعكفون حولها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم " وأخرج نحوه ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جدّه مرفوعاً ، وكثير ضعيف جدّاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ مُتَبَّرٌ ﴾ قال : خسران .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، قال : هلاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(136/285)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون ﴾ من الهوى والغضب والكبر لفرعون النفس ﴿ أتذر موسى ﴾ الروح ﴿ وقومه ﴾ من القلب والسر والعقل ﴿ ليفسدوا ﴾ في أرض

البشرية ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ من الدنيا والشيطان والطبع ﴿ قال ﴾ فرعون النفس ﴿ سنقتل أبناءهم ﴾ يعني أعمالهم الصالحة نبطلها بالرياء والعجب ﴿ ونستحيي نساءهم ﴾ أي الصفات التي عنها يتولد الأعمال ﴿ وأنا فوقهم قاهرون ﴾ بالمكر والخديعة والحيلة ﴿ قال موسى ﴾ الروح ﴿ لقومه ﴾ هم القلب والعقل والسر ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ على جهاد النفس ومخالفتها ومتابعة الحق ﴿ إن الأرض لله ﴾ أي أرض البشرية ﴿ يورثها من يشاء من عباده ﴾ يورث أرض بشرية السعداء الروح وصفاته فتتصف بصفاته ، ويورث أرض بشرية الأشقياء النفس وصفاتها فتتصف بصفاتها ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ يعني عاقبة الخير والسعادة للأتقياء السعداء بصفاتها . ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ﴾ بالواردات الروحانية قبل البلوغ ، كنا نتأذى من أوصاف البشرية ومعاملاتها ﴿ ن بعد ما جئتنا ﴾ بالواردات والإلهامات الروحانية بعد البلوغ نتأذى من دواعي البشرية ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ النفس وصفاتها وفيه إشارة إلى أن الواردات الروحانية لا تكفي لإفناء النفس وصفاتها ولا بد في ذلك من تجلي صفات الربوبية ﴿ إذا جاءتهم الحسنة ﴾ الكفور لا يرى فضل المنعم .

وكذا الملول إذا أراد قطيعة . . . مل الوصال وقال كان وكانا .

(137/285)

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ لأن بصائرهم مسدودة وعقولهم عن شهود الحق مصدودة ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ العلم الكثير ﴿ والجراد ﴾ الواردات ﴿ والقمل ﴾ الإلهامات ﴿ والضفادع ﴾ الخواطر ﴿ والدم ﴾ أصناف المجاهدات والرياضيات ﴿ مفصلات ﴾ وقتاً بعد وقت وحيناً غب حين ﴿ فاستكبروا ﴾ عن قبولها والعمل بها ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ في الأزل ، فلهذا لم تفدهم الوسائط والأسباب ﴿ ولما وقع عليهم الرجز ﴾ وهو عذاب القطيعة ﴿ فأغرقناهم ﴾ في يم الدنيا وشهواتها ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ أي يرفعون بالتجبر والتكبر أنفسهم .

يقال عرش الطائر إذا ارتفع بجناحيه على من تحته ﴿ وجاوزنا ﴾ بصفات القلب من بحر الدنيا وخلصناهم من فرعون النفس فوصلوا إلى صفات الروح . ﴿ يعكفون على أصنام لهم ﴾ من المعاني المعقولة والمعارف الروحانية فاستحسنوها وأرادوا العكوف على عتبة عالم الأرواح ﴿ قال لهم موسى ﴾ الوارد الرباني عند ركونهم إلى الروحانيات ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ يعني صفات الروح ﴿ متبر ما هم فيه ﴾ من الركون والعكوف على استحلاء المعاني المعقولة ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ في غير طلب الحق والوصول إلى المعارف الربانية ﴿ وهو فضلكم على العالمين ﴾ من الحيوان والجن والملك بفضيلة العبور

من الجسمانيات والروحانيات إلى الوصول إلى المعارف والحقائق الإلهية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 311 ﴾

(138/285)

قوله تعالى ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكرهم بنعمة إنجاء الأبدان ، أتبعها التذكير بأكبر منها إذ كانت لحفظ الأديان وصيانة جوهرة الإيمان بما نصب لهم من الشرع في التوراة ، فقال معجباً من حالهم إذ كان في الإنعام عليهم بنصب الشرع الهادي لهم من الضلال واختصاص نبيهم بمزيد القرب بالمناجاة ، وهم في اتخاذ إله سواه ، لا نفع فيه أصلاً ، ولا يرضى قلب أو عقل أن يعبده ، عاطفاً له على ما سبق تعجيبه به منهم في قوله : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل ﴾ [الأعراف : 138]

﴿ وواعدنا ﴾ أي على ما لنا من باهر العظمة ﴿ موسى ثلاثين ﴾ أي مناجاة ثلاثين ﴿ ليلة ﴾ أي عقبها ﴿ وأتممناها ﴾ أي المواعدة ﴿ بعشر ﴾ أي ليال ، وذلك لأنه لما

مضت ثلاثون ليلة ، وهو شهر ذي العقدة فيما قيل ، وكان موسى عليه السلام قد صامها ليلها ونهارها ، أدرك من فمه خلوفاً فاستاك ، فأعلمه الله أنه قد أفسد ريح فمه ، وأمره بصيام عشرة أيام أخرى و – هي عشر ذي الحجة ليرجع ما أزاله من ذلك ، وذلك لأن موسى عليه السلام كان وعد بني إسرائيل – وهو بمصر – أنه إذا أهلك سبحانه عدوهم ، أتاهم بكتاب من عنده فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما أهلك الله عدوهم سأل موسى عليه السلام الكتاب ، فأمره بصوم ثلاثين يوماً ثم أمره بالعشر .

(139/285)

ولما كان من الممكن أن يكون الثلاثون هي النهاية ، وتكون مفصلة إلى عشرين ثم عشر ، أزال هذا الاحتمال – بقوله : ﴿ فتم ميقات ربه ﴾ أي الذي قدره في الأزل لأن يناجيه بعده – بالفاء ﴿ أربعين ﴾ ولما كانت العشر غير صريحة في الليالي ، قال : ﴿ ليلة ﴾ فانتفى أن تكون ساعات مثلاً ، وعبر بالميقات لأنه ما قدر فيه عمل من الأعمال ، وأما الوقت فزمان الشيء سواء كان مقدراً أم لا ، وعبر بالرب إشارة إلى اللطف به والعطف عليه والرحمة له ، والميقات هو الأربعون – قاله الفارسي في الحجة ، وقدر انتصاب أربعين ب " معدوداً هذا العدد " كما تقول : تم القوم عشرين ، أي معدودين هذا العدد وأجمل

سبحانه الأربعين في البقرة لأن المراد بذلك السياق تذكيرهم بالنعم الجسام والمتّ إليهم بالإحسان والإكرام ، ليكون ذلك أدعى إلى رجوعهم إلى الإيمان وأمكن في نزوعهم عن الكفران بدليل ما سبق قصتهم من قوله : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ [البقرة : 21] ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ [البقرة : 28] وما اكتنفها أولاً وآخراً من قوله : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ [البقرة : 40] الآيتين المبدوء بها والمختوم بها ، وفصل هنا الأربعين إلى ثلاثين وعشر ، لأن المراد بهذا السياق – كما تقدم – بيان كفرهم ومرودهم على خزيهم ومكرهم وأنه لم ينفعهم سؤال المعجزات ، ولا أغنى عنهم شيئاً تواتر النعم والآيات ، كما كان ذلك في قصص الأمم الخالية والقرون الماضية ممن ذكر في هذه الصورة استدلالاً – كما تقدم – على أن المفسد أكثر من المصلح – إلى غير ذلك مما أجمل في قوله تعالى :

(140/285)

﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها ﴾ [الأعراف : 94] إلى آخره ، وتسلية لهذا النبي الكريم وترهيباً لقومه لما وقع لهم من العقاب الأليم ، والفصل بين الساقين يدق إلا عن أولي البصائر – والله أعلم ، فيكون المراد بتفصيل الأربعين هنا بيان أن إبطاء موسى

عليه السلام عما علموه من المعياد إنما كان لعشرة أيام ، فارتكبوا فيها هذه الجريمة التي هي أعظم الجرائم ، وأشار تعالى إلى عظيم جرأتهم وعراقتهم في السفه بقوله عاطفاً على ﴿ واعدنا ﴾ : ﴿ وقال موسى ﴾ أي لما واعدناه ﴿ لأخيه ﴾ ثم بينه تصريحاً باسمه فقال : ﴿ هارون اخلفني ﴾ أي كن خليفتي فيهم تفعل ما كنت أفعل ، وأكد الارتسام بما يجده له بقوله : ﴿ في قومي ﴾ وأشار إلى حثه على الاجتهاد بقوله : ﴿ وأصلح ﴾ أي كن على ما أنت عليه من إيقاع الإصلاح.

ولما كان عالماً بأنه مبرأ من السوء غير أن عنده ليناً قال : ﴿ ولا تتبع ﴾ أي تكلف نفسك غير ما طبعت عليه بأن تتبع ﴿ سبيل المفسدين ﴾ أي استصلاحاً لهم وخوفاً من تنفيرهم ، فاختلفوا عن الطريق كما تفرس فيهم موسى عليه السلام ولم يذكروا عاقبة فلا هم خافوا بطش من بطش بمن كان يسومهم سوء العذاب ، ولا هم سمعوا لأخيه في الصلاح ، ولا هم انتظروا عشرة أيام ، فلا أخف منهم أحلاماً ولا أشد على المعاصي إقداماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 106.108 ﴾

(141/285)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ أرني أنظر ﴾ بسكون الراء وفتح الياء : ابن الفليح وزمعة والخزاعي عن البزي . الباقون : بكسر الراء وسكون الياء . ﴿ دكاء ﴾ بالمد : حمزة وعلي وخلف . ﴿ إني اصطفيتك ﴾ بفتح ياء المتكلم : ابن كثير وأبو عمرو ﴿ برسالتي ﴾ على التوحيد : أبو جعفر ونافع وابن كثير . الباقون : ﴿ برسالاتي ﴾ ﴿ آياتي الذين ﴾ مرسلة الياء : ابن عامر وحمزة . ﴿ الرشد ﴾ بفتحتين : حمزة وعلي وخلف . الباقون : بضم الراء وسكون الشين . ﴿ من حليهم ﴾ بفتح الحاء وسكون اللام : يعقوب ﴿ حليهم ﴾ بالكسرات وتشديد الياء : حمزة وعلي . الباقون : مثله ولكن بضم الحاء . ﴿ ترحمنا ربنا وتغفر لنا ﴾ بالخطاب والنداء : حمزة وعلي وخلف والمفضل . الباقون : على الغيبة ورفع ﴿ ربنا ﴾ على الفاعلية ﴿ بعدي أعجلتم ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . ﴿ قال ابن أم ﴾ بكسر الميم : ابن عامر وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير حفص والمفضل . الباقون : بفتحها ومثله ﴿ يا ابن أم ﴾ [الآية : 94] في طه .

(142/285)

الوقوف : ﴿ أربعين ليلة ﴾ ج للعطف مع اختلاف القائل ﴿ المفسدين ﴾ ه ﴿ ربه ﴾ لا لأن ما بعده جواب ﴿ إليك ﴾ ط ﴿ فسوف تراني ﴾ ج ﴿ صعقا ﴾ ط ﴿ المؤمنين ﴾ ه ﴿ الشاكرين ﴾ ه ﴿ الشاكرين ﴾ ه ﴿ لكل شيء ﴾ ج للعدول مع فاء التعقيب ﴿ بأحسنها ﴾ ج ﴿ الفاسقين ﴾ ه ﴿ بغير الحق ﴾ ج ﴿ بها ﴾ ج لابتداء شرط آخر ولبيان تعارض الأحوال مع العطف ﴿ سبيلاً ﴾ ج ﴿ ذلك سبيلاً ﴾ ه ﴿ غافلين ﴾ ه ﴿ أعمالهم ﴾ ط ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ خوار ﴾ ط ﴿ سبيلاً ﴾ ه لئلا تصير الجملة صفة السبيل فإن الهاء ضمير العجل ﴿ ظالمين ﴾ ه ﴿ ضلوا ﴾ ج لأن ما بعده جواب . ﴿ الخاسرين ﴾ ه ﴿ أسفاً ﴾ ج لما ﴿ بعدي ﴾ ج للابتداء بالاستفهام مع اتحاد القائل ﴿ أمر ربكم ﴾ ج لأن قوله ﴿ وألقى ﴾ معطوف على قوله ﴿ قال بئسما ﴾ وقد اعترض بينهما استفهام ﴿ إليه ﴾ ط ﴿ يقتلونني ﴾ ط ز صلى والوصل أولى لأن الفاء للجواب أي إذا هم هموا بقتلي فلا تشمتهم بضربي . ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ في رحمتك ﴾ ز صلى الأولى أن يوصل لأن الواو للحال تحسيناً للدعاء بالثناء ﴿ الراحمين ﴾ ه ﴿ الدنيا ﴾ ط ﴿ المفترين ﴾ ه ﴿ وآمنوا ﴾ ج لظاهر إن والوجه الوصل لأن ما بعده خبر والعائد محذوف والتقدير : إن ربك من بعد توبتهم لغفور لهم . ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ الألواح ﴾ ج صلى لاحتمال ما بعده الحال ﴿ يرهبون ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 312.313 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو : ﴿ وَعَدْنَا ﴾ بغير ألف ، والباقون ﴿ واعدنا ﴾ بالألف على المفاعلة ، وقد مر بيان هذه القراءة في سورة البقرة .

المسألة الثانية :

اعلم أنه روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر : أن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فهذه الآية في بيان كيفية نزول التوراة ، واعلم أنه تعالى قال في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ واعدنا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وذكر تفصيل تلك الأربعين في هذه الآية .

فإن قيل : وما الحكمة ههنا في ذكر الثلاثين ثم إتمامها بعشر ؟ وأيضاً فقوله : ﴿ فَتَمَّ ميقات رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ كلام عار عن الفائدة ، لأن كل أحد يعلم أن الثلاثين مع العشر يكون أربعين .

قلنا : أما الجواب عن السؤال الأول فهو من وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى أمر موسى عليه السلام بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأوحى الله تعالى إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لهذا السبب .

والوجه الثاني : في فائدة هذا التفضيل أن الله أمره أن يصوم ثلاثين يوماً وأن يعمل فيها ما يقربه إلى الله تعالى ، ثم أنزلت التوراة عليه في العشر البواقي ، وكلمه أيضاً فيه .

فهذا هو الفائدة في تفصيل الأربعين إلى الثلاثين وإلى العشرة .

(144/285)

والوجه الثالث : ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني في سورة طه ما دل على أن موسى عليه السلام بادر إلى ميقات ربه قبل قومه ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ

يا موسى موسى قَالَ هُمْ أُوْلاء على أَثَرِى ﴾ فجائز أن يكون موسى أتى الطور عند تمام الثلاثين ، فلما أعلمه الله تعالى خبر قومه مع السامري ، رجع إلى قومه قبل تمام ما وعده الله تعالى ، ثم عاد إلى الميقات في عشرة أخرى ، فتم أربعون ليلة .

والوجه الرابع : قال بعضهم لا يمتنع أن يكون الوعد الأول حضره موسى عليه السلام وحده ، والوعد الثاني حضر المختارون معه ليسمعوا كلام الله تعالى ، فصار الوعد مختلفاً لاختلاف حال الحاضرين والله أعلم .

والجواب عن السؤال الثاني : أنه تعالى إنما قال : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ إزالة التوهم أن ذلك العشر من الثلاثين لأنه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين ، كأنه كان عشرين ، ثم أتمه بعشر ، فصار ثلاثين ، فأزال هذا الإيهام .

أما قوله تعالى : ﴿ فَتَمَّ ميقات رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : الفرق بين الميقات وبين الوقت ، أن الميقات ما قدر فيه عمل من الأعمال ، والوقت وقت للشيء قدرة مقدر أولاً .

والبحث الثاني : قوله : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ نصب على الحال أي تم بالغاً هذا العدد .

وأما قوله : ﴿ وَقَالَ موسى لأخيه هارون ﴾ فقوله : ﴿ هارون ﴾ عطف بيان لأخيه وقرىء بالضم على النداء ﴿ اخلفنى فِى قَوْمِى ﴾ كن خليفتي فيهم ﴿ وَأَصْلِحَ ﴾ وكن مصلحاً أو ﴿ وَأَصْلِحَ ﴾ ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل ومن دعاك منهم إلى

الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه .

فإن قيل : إن هرون كان شريك موسى عليه السلام في النبوة ، فكيف جعله خليفة لنفسه ، فإن شريك الإنسان أعلى حالاً من خليفته ورد الإنسان من المنصب الأعلى إلى الأدون يكون إهانة .

قلنا الأمر وإن كان كما ذكرتم ، إلا أنه كان موسى عليه السلام هو الأصل في تلك النبوة .

(145/285)

فإن قيل : لما كان هارون نبياً والنبي لا يفعل إلا الإصلاح ، فكيف وصاه بالإصلاح .

قلنا : المقصود من هذا الأمر التأكيد كقوله : ﴿ ولكن لّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : 260] والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 184.185 ﴾

(146/285)

وقال السمرقندى :

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً ﴾

قرأ أبو عمرو وَوَعَدْنَا بغير ألف ، والباقون بالألف ومعناهما واحد .

﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ يعني : ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة .

ويقال : ثلاثين من ذي الحجة وعشر من المحرم .

والمناجاة في يوم عاشوراء .

وكانت المواعدة ثلاثين يوماً وأمر بأن يصوم ثلاثين يوماً ، فلما صام ثلاثين يوماً ، أنكر خلوف فمه فاستاك بعود خرنوب وقيل : بورقة موز ، فقالت له الملائكة : كنا نجد من فيك ريح المسك فأفسدته بالسواك فأمر بأن يصوم عشراً أخر ، فصارت الجملة أربعين يوماً .

كما قال في آية أخرى ﴿ وَإِذْ واعدنا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتخذتم العجل مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظالمون ﴾ [البقرة : 51] يعني : صارت في الجملة أربعين ولكن مرة ثلاثين يوماً ، ومرة عشرة .

﴿ فَتَمَّ ميقات رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ يعني : ميعاد ربه أربعين ليلة .

يعني : ميعاد ربه .

﴿ وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هارون اخلفنى ﴾ يعني : قال له قبل انطلاقه إلى الجبل : اخلفني

﴿ فِى قَوْمِى ﴾ أي كن خليفتي على قومي ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ يعني : مرهم بالصلاح .

ويقال : وأصلح بينهم .

ويقال : ارفق لهم ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ أي ولا تتبع سبيل أي طريق العاصين ،

ولا ترضى به .

واتّبع سبيل المطيعين .

وقال بعض الحكماء : من ها هنا ترك قومه عبادة الله وعبدوا العجل ، لأنه سلمهم إلى هارون ولم يسلمهم إلى ربهم .

ولهذا لم يستخلف النبي بعده .

وسلم أمر أمته إلى الله تعالى .

فاختار الله لأمته أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فأصلح بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(147/285)

وقال الثعلبى :

﴿ وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً ﴾ ذا القعدة ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ من ذي الحجّة ﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وقال عند انطلاقه لأخيه هارون ﴿ اخلفني ﴾ كن خليفتي ﴿ فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾ وأصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ ولا تسلك طريق العاصين ولا تكن مرناً للظالمين ، وذلك أن موسى وعد بني

إسرائيل وهم بمصر إذا أهلك الله عدوّهم واستنقذهم من أيديهم أتاهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون ، فلما فعل الله ذلك بهم سأل موسى ربه الكتاب فأمره الله عز وجل صوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما تمت ثلاثون ليلة أنكر خلوق فمه فتسوك بعود [ضرنوب] فقالت له الملائكة : كنّا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك .

وقال أبو العالية : إنّه أكل من لحاء الشجرة فأمره الله عزّ وجلّ بصوم عشرة أيام من ذي الحجّة . وقال : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ، فكان فتنتهم في العشر التي زادها الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(148/285)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾

فيها قولان :

أحدهما : أن الثلاثين ليلة شهرٌ أمر بصيامه ، والعشر بعدها أجل لمناجاة ربه .

والثاني : أن الأربعين كلها أجل لمناجاة ربه ، أجل في الأول ثلاثين ليلة ثم زيدت عشراً بعدها . وقد قيل إنه ذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، حكي ذلك عن مجاهد ، وابن

جريج ، ومسروق .

﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ يعني أن اجتماع الأجلين تمام أربعين ليلة ، ليدل بذلك على أن العشر هي ليال وليست ساعات .

فإن قيل : فمعلوم أن العشر مع الثلاثين مستكملة أربعين ، فما معنى قوله : ﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيلَةً ﴾ .

فعن ذلك ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه تأكيد في الذرك فلم يمتنع .

والثاني : كان وعده إلى الجبل الذي كلمه فيه .

والثالث : لينفي تمام الثلاثين بالعشر أن يكون من جملة الثلاثين لأن تمام الشيء بعض منه .

فإن قيل : فلم زاد في أجل وعده بعد الثلاثين عشراً جعلها أجلاً ثانياً فأخر بها موعده ؟

قيل عن ذلك جوابان :

أحدهما : أن قومه تأخروا عنه في الأجل الأول فزاده الله لتأخرهم عنه أجلاً ثانياً ليحضروا .

والثاني : لأن قومه عبدوا العجل بعده فزاده الله أجلاً ثانياً عقوبة لهم .

ويحتمل جواباً ثالثاً : أن الله فعل ذلك به اختباراً لقومه ليتميز به المؤمن من المنافق ويعرف به المتيقن من المرتاب .

والفرق بين الميقات والوقت وإن كانا من جنس واحد أن الميقات ما قدر لعمل ، والوقت قد لا يتقدر لعمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(149/285)

وقال ابن عطية :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

قرأ أبو عمرو وأبيّ بن كعب وأبو رجاء وأبو جعفر وشيبة " ووعدنا " وقد تقدم في البقرة ، وأخبر الله تعالى موسى عليه السلام أن يتهيأ لمناجاته ﴿ ثلاثين ليلة ﴾ ثم زاده في الأجل بعد ذلك عشر ليال ، فذكر أن " موسى " عليه السلام أعلم بني إسرائيل بمغيبه " ثلاثين ليلة " فلما زاده العشر في حال مغيبه دون أن تعلم بنو إسرائيل ذلك وجست نفوسهم للزيادة على ما أخبرهم به ، فقال لهم السامري : إن " موسى " قد هلك وليس براجع وأضلهم بالعجل فاتبعوه ، قاله كله ابن جريج ، وقيل : بل أخبرهم بمغيبه ﴿ أربعين ﴾ وكذلك أعلمه الله تعالى وهو المراد بهذه الآية ، قاله الحسن ، وهو مثل قوله ﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾ [البقرة : 196] وأنهم عدوا الأيام والليالي

فلما تم " أربعون " من الدهر قالوا قد أخلف " موسى " فضلوا ، قال مجاهد إن " الثلاثين " هي شهر ذي القعدة وإن " العشر " هي " عشر " ذي الحجة ، وقاله ابن عباس ومسروق .

(150/285)

وروي أن " الثلاثين " إنما وعد بأن يصومها ويتهيأ فيها للمناجاة ويستعد وأن مدة المناجاة هي " العشر " ، وقيل بل مدة المناجاة " الأربعون " ، وإقبال " موسى " على الأمر والتزامه يحسن لفظ المواعدة ، وحيث ورد أن المواعدة أربعون ليلة فذلك إخبار بجملة الأمر هو في هذه الآية إخبار بتفصيله كيف وقع ، و ﴿ أربعين ﴾ في هذه الآية وما بعدها في موضع الحال ، ويصح أن تكون ﴿ أربعين ﴾ ظرفاً من حيث هي عدد أزمنة ، وفي مصحف أبي بن كعب " وتممناها " بغير ألف وتشديد الميم ، وذكر الزجاج عن بعضه قال : لما صام ثلاثين يوماً أنكر خلوف فماه فاستاك بعود خروب فقالت الملائكة : إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فزيدت عليه عشر ليال ، و ﴿ ثلاثين ﴾ نصب على تقدير أجلناه " ثلاثين " وليست منتصبه على الظرف لأن المواعدة لم تقع في " الثلاثين " ، ثم ردد الأمر بقوله ﴿ فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ قيل ليبين أن " العشر " لم تكن ساعات وبالجملة فتأكيد وإيضاح .

وقوله تعالى : ﴿ وقال موسى لأخيه ﴾ . . . . الآية ، المعنى : وقال موسى حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها ، و ﴿ اخلفني ﴾ معناه كن خليفتي وهذا استخلاف في حياة كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أو موته لا يقتضي أنه متمادٍ بعد وفاة فينحل على هذا ما تعلق به الإمامية في قولهم إن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف علياً بقوله أنت مني كهارون من " موسى " وقال موسى ﴿ اخلفني ﴾ فيترتب على هذا أن علياً خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ذكرناه يحل هذا القياس ، وأمره في هذه الآية بالإصلاح ثم من الطرق الأخر في أن لا يتبع سبيل مفسد ، قال ابن جريج : كان من الإصلاح أن يزجر السامري ويغير عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(151/285)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾

المعنى : وعدناه انقضاء الثلاثين ليلة .

قال ابن عباس : قال موسى لقومه : إن ربي وعدني ثلاثين ليلة ، فلما فصل إلى ربه زاده عشراً ، فكانت فتنتهم في ذلك العشر .

فإن قيل : لم زيد هذا العشر ؟ فالجواب : أن ابن عباس قال : صام تلك الثلاثين ليلهن ونهارهن ، فلما انسلخ الشهر ، كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم ، فتناول شيئاً من نبات الأرض فمضغه ، فأوحى الله تعالى إليه : لا كلمتك حتى يعود فوك على ما كان عليه ، أما علمت أن رائحة فم الصائم أحب إليَّ من ريح المسك ؟ وأمره بصيام عشرة أيام .

وقال أبو العالية : مكث موسى على الطور أربعين ليلة .

فبلغَنا أنه لم يُحدث حتى هبط منه .

فإن قيل : ما معنى ﴿ فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ وقد عُلم ذلك عند انضمام العشر إلى الثلاثين ؟ ! .

فالجواب من وجوه : أحدها : أنه للتأكيد .

والثاني : ليدل أن العشر ، ليالٍ ، لا ساعات .

والثالث : لينفي تمام الثلاثين بالعشر أن تكون من جملة الثلاثين ، لأنه يجوز أن يسبق إلى الوهم أنها كانت عشرين ليلة فأُتمت بعشر وقد بينا في سورة [البقرة : 51] لماذا كان هذا الوعد .

قوله تعالى : ﴿ وأصلحْ ﴾ قال ابن عباس : مُرهُم بالإصلاح .

وقال مقاتل : ارفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً ﴾ ذكر أن مما كرّم (الله) به موسى صلى الله عليه وسلم هذا .

فكان وعده المناجاة إكراماً له .

﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومسروق رضي الله عنهم : هي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة .

أمره أن يصوم الشهر وينفرد فيه بالعبادة ؛ فلما صامه أنكر خُلُوف فَمِه فاستاك .

قيل : بعود خَرْنُوب ؛ فقالت الملائكة : إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسِّواك .

فزيد عليه عشرُ ليال من ذي الحجة .

وقيل : إن الله تعالى أوحى إليه لما استاك : "يا موسى لا أكلمك حتى يعود فُوك إلى ما كان عليه قبلُ ، أما علمت أن رائحة الصائم أحبّ إليّ من ريح المسك" .

وأمره بصيام عشرة أيام .

وكان كلام الله تعالى لموسى صلى الله عليه وسلم غداة النحر حين فدى إسماعيل من الذبح ، وأكمل لمحمد صلى الله عليه وسلم الحج .

وحذفت الهاء من عشر لأن المعدود مؤنث .

والفائدة في قوله : ﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وقد علم أن ثلاثين وعشرة أربعون ، لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها ؛ فبين أن العشر سوى الثلاثين .

فإن قيل : فقد قال في البقرة أربعين وقال هنا ثلاثين ؛ فيكون ذلك من البداء .

قيل : ليس كذلك ؛ فقد قال : "وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ" والأربعون ، والثلاثون والعشرة قول واحد ليس بمختلف .

وإنما قال القولين على تفصيل وتأليف ؛ قال أربعين في قولٍ مؤلف ، وقال ثلاثين ، يعني شهراً متتابعاً وعشراً .

وكل ذلك أربعون ؛ كما قال الشاعر :

عشر وأربع . . .

. . .

يعني أربع عشرة ، ليلة البدر .

وهذا جائز في كلام العرب .

الثانية قال علماؤنا : دلّت هذه الآية على أن ضَرْب الأجل للمواعَدة سُنَّة ماضية ، ومعنى قديم أسسه الله تعالى في القضايا ، وحكم به للأمم ، وعرّفهم به مقادير التأنِّي في الأعمال .

وأوّل أجل ضربه الله تعالى الأيام الستة التي خلق فيها جميع المخلوقات ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : 38] .

وقد بينا معناه فيما تقدّم في هذه السورة من قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف : 54] .

قال ابن العربيّ : فإذا ضُرِب الأجلُ لمعنىً يحاول فيه تحصيلُ المؤجّل فجاء الأجل ولم يتيّسر زيد فيه تبصرةً ومعذرةً .

وقد بيّن الله تعالى ذلك لموسى عليه السلام فضرب له أجلاً ثلاثين ثم زاده عشراً تتمة أربعين .

وأبطأ موسى عليه السلام في هذه العشر على قومه ؛ فما عقلوا جواز التأنِّي والتأخر حتى قالوا : إن موسى ضَلَّ أو نَسيَ .

ونكثوا عهده وبدّلوا بعده ، وعبدوا إلهاً غير الله .

قال ابن عباس : إن موسى قال لقومه : إنّ ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه ، وأخلف فيكم هارون ، فلما فَصَل موسى إلى ربه زاده الله عشراً ؛ فكانت فتنتهم في العشر الذي زاده الله بما فعلوه من عبادة العجل ؛ على ما يأتي بيانه .

ثم الزيادة التي تكون على الأجل تكون مقدّرة ؛ كما أن الأجل مقدر .

ولا يكون إلا باجتهاد من الحاكم بعد النظر إلى المعاني المتعلقة بالأمر : من وقت وحال وعمل ، فيكون مثل ثلث المدة السالفة ؛ كما أجل الله لموسى .

فإن رأى الحاكم أن يجمع له الأصل في الأجل والزيادة في مدّة واحدة جاز ، ولكن لا بدّ من التربّص بعدها لما يطرأ من العذر على البشر ، قاله ابن العربيّ .

روى البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعْذَر الله إلى امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة " .

(154/285)

قلت : وهذا أيضاً أصلٌ لإعذار الحُكّام إلى المحكوم عليه مرة بعد أخرى .

وكان هذا لُطْفاً بالخلق ، ولينفذ القيَّام عليهم بالحق .

يقال : أعْذَر في الأمر أي بالغ فيه ؛ أي أعذر غاية الإعذار الذي لا إعذار بعده .

وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم لتتم حجته عليهم ، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

وقال : ﴿ وَجَاءَكُمُ النذير ﴾ [فاطر : 37] قيل : هم الرسل .

ابن عباس : هو الشيب .

فإنه يأتي في سنّ الاكتهال ، فهو علامة لمفارقة سنّ الصِّبا .

وجعل الستين غاية الإعذار لأن الستين قريب من معترك العبّاد ، وهو سنّ الإنابة والخشوع والاستسلام لله ، وترقب المنية ولقاء الله ؛ ففيه إعذار بعد إعذار .

الأوّل بالنبيّ عليه السلام ، والثاني بالشيب ؛ وذلك عند كمال الأربعين ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ [الأحقاف : 15] .

فذكر عز وجل أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها .

قال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا ، وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة ؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس .

الثالثة ودلت الآية أيضاً على أن التاريخ يكون بالليالي دون الأيام ؛ لقوله تعالى : ﴿ ثَلاَثِينَ لَيْلَةً ﴾ لأن الليالي أوائل الشهور .

وبها كانت الصحابة رضي الله عنهم تخبر عن الأيام ؛ حتى روي عنها أنها كانت تقول :

صمنا خمساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والعجم تخالف في ذلك ، فتحسب بالأيام لأن معوّلها على الشمس .

ابن العربيّ : وحساب الشمس للمنافع ، وحساب القمر للمناسك ؛ ولهذا قال : "وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً" .

فيقال : أرّخت تاريخاً .

وورّخت توريخاً ؛ لغتان .

(155/285)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾ المعنى : وقال موسى حين أراد المضِيّ للمناجاة والمغيب فيها لأخيه هارون : كن خليفتي ؛ فدلّ على النيابة .

وفي صحيح مسلم " عن سعد بن أبي وقّاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعليّ حين خلّفه في بعض مغازيه : "أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي" "

فاستدل بهذا الروافضُ والإمامية وسائر فِرَقِ الشّيعة على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

استخلف علياً على جميع الأمّة ؛ حتى كفر الصحابة الإمامية قبحهم الله لأنهم عندهم تركوا العمل الذي هو النص على استخلاف عليّ واستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم .

ومنهم من كفر عَلِيّاً إذ لم يقم بطلب حقه .

وهؤلاء لا شك في كفرهم وكفر من تبعهم على مقالتهم ، ولم يعلموا أن هذا استخلاف في حياةٍ كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكَّل أو بموته ، لا يقتضي أنه متمادٍ بعد وفاته ؛ فينْحَلّ على هذا ما تعلق به الإمامية وغيرهم .

وقد استخلف النبيّ صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أمِّ مكتوم وغيره ، ولم يلزم من ذلك استخلافه دائماً بالاتفاق .

على أنه قد كان هارون شُرِّك مع موسى في أصل الرسالة ، فلا يكون لهم فيه على ما راموه دِلالة .

والله الموفق للهداية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ أمرٌ بالإصلاح .

قال ابن جريج : كان من الإصلاح أن يزجر السامريّ ويغيِّر عليه .

وقيل : أي ارفق بهم ، وأصلح أمرهم ، وأصلح نفسك ؛ أي كن مصلحاً .

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ أي لا تسلك سبيل العاصين ، ولا تكن عوناً للظالمين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾

يعني وواعدنا موسى لمناجاتنا ثلاثين ليلة وهي ذو القعدة ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ يعني عشر ذي الحجة وهذا قول ابن عباس ومجاهد .

قال المفسرون إن موسى وعد بني إسرائيل إذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون فما أهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه أن ينزل عليه الكتاب الذي وعد به بني إسائيل فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً فصامها فلما تمت أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب وقيل بل أكل من ورق الشجر فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله أن يصوم عشر ذي الحجة وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك فكانت فتنة بني إسرائيل في تلك العشر التي زادها الله لموسى وقيل إن الله تعالى أمر موسى أن يصوم ثلاثين يوماً ويعمل فيها ما يتقرب به إلى الله ثم كلمه وأعطاه الألواح في العشر التي زادها فلهذا قال : وتممناها بعشر وهذا التفصيل الذي ذكره هنا هو تفصيل ما أجمله في سورة البقرة وهو قوله تعالى :

﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ فذكره هناك على الإجمال وذكره هنا على التفصيل .

وقوله تعالى : ﴿ فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ يعني فتم الوقت الذي قدره الله لصوم موسى وعبادته أربعين ليلة لأن الميقات هو الوقت الذي قدر أن يعمل فيه عمل من الأعمال ولهذا قيل مواقيت الحج ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي ﴾ يعني كن أنت خليفتي فيهم من بعدي حتى أرجع إليك ﴿ وأصلح ﴾ يعني وأصلح أمور بني إسرائيل واحملهم على عبادة الله تعالى .

(157/285)

وقال ابن عباس : يريد الرفق بهم والإحسان إليهم ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ يعني ولا تسلك طريق المفسدين في الأرض ولا تطعهم والمقصود من هذا الأمر التأكيد لأن هارون لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين فهو كقوله ولكن ليطمئن قلبي وكقولك للقاعد اقعد بمعنى دُم على ما أنت عليه من القعود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(158/285)

وقال أبو حيان :

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة ﴾

روي أنّ موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه تعالى الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك ، فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك ، وقيل أوحى الله إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك فأمره أن يزيد عليه عشرة أيام من ذي الحجة لذلك ، وقيل أمره الله بأن يصوم ثلاثين يوماً وأن يعمل فيها بما يقربه من الله تعالى ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها وأجمل ذكر الأربعين في البقرة وفصل هنا .

(159/285)

وقال الكلبي : لما قطع موسى البحر ببني إسرائيل وغرق فرعون قالت بنو إسرائيل لموسى : ائتنا بكتاب من ربنا كما وعدتنا وزعمت أنك تأتينا به إلى شهر فاختار موسى من قومه

سبعين رجلاً لينطلقوا معه فلما تجهّزوا قال الله تعالى لموسى أخبر قومك أنك لن تأتيهم أربعين ليلة وذلك حين أتمت بعشر فلما خرج موسى بالسبعين أمرهم أن ينتظروه أسفل الجبل وصعد موسى الجبل وكلمه الله أربعين يوماً وأربعين ليلة وكتب له الألواح ثم إنّ بني إسرائيل عدوا عشرين ليلة وعشرين يوماً وقالوا قد أخلفنا موسى الوعد وجعل لهم السّامري العجل فعبدوه ، وقيل زيدت العشر بعد الشهر للمناجاة ، وقيل : التفت في طريقه فزيدها ، وقيل : زيدت عقوبة لقومه على عبادة العجل ، وقيل : أعلم موسى بمغيبه ثلاثين ليلة فلما زاده العشر في مغيبه لم يعلموا بذلك ووجست نفوسهم للزيادة على ما أخبرهم فقال السامري هلك موسى وليس براجع وأضلّهم بالعجل فاتبعوه ، قاله ابن جريج وفائدة التفصيل قالوا : إنّ الثلاثين للتهيؤ للمناجاة والعشر لإنزال التوراة وتكليمه ، وقال أبو مسلم : بادر إلى ميقات ربه قبل قومه لقوله ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾ الآية فجائز أن يكون أتى الطور عند تمام الثلاثية فلما أعلم بخبر قومه مع السامري رجع إلى قومه قبل تمام مدة الوعد ثم عاد إلى الميقات في عشر أخر ، قيل : لا يمتنع أن يكون وعدان أول حضره موسى وثان حضره المختارون ليسمعوا كلام الله فاختلف الوعد لاختلاف الحاضرين والثلاثون هي شهر ذي القعدة والعشر من ذي الحجة قاله ابن عباس ومسروق ومجاهد وتقدّم الخلاف في قراءة ووعدنا وقالوا انتصب ﴿ ثلاثين ﴾ على أنه مفعول ثان على حذف مضاف فقدره أبو البقاء إتيان ثلاثين أو تمام ثلاثين ، وقال ابن عطية ﴿ وثلاثين ﴾

نصب على تقدير جلناه أو مناجاة ثلاثين وليست منتصبة على الظرف والهاء في ﴿ وأتممناها ﴾ عائدة على المواعدة المفهومة من ﴿ واعدنا ﴾ ، وقال الحوفي الهاء والألف

(160/285)

نصب باتممناها وهما راجعتان إلى ﴿ ثلاثين ﴾ ولا يظهر لأنّ الثلاثين لم تكن ناقصة فتممت بعشر وحذف مميز عشر أي عشر ليال لدلالة ما قبله عليه وفي مصحف أبي وتممناها مشدّداً والميقات ما وقت له من الوقت وضربه له وجاء بلفظ ربه ولم يأتِ على ﴿ واعدنا ﴾ فكان يكون للتركيب فتمّ ميقاتنا لأن لفظ ﴿ ربه ﴾ دالّ على أنه مصلحة وناظر في أمره ومالكه والمتصرف فيه ، قيل : والفرق بين الميقات والوقت أنّ الميقات ما قدر فيه عمل من الأعمال والوقت وقت الشيء وانتصب ﴿ أربعين ﴾ على الحال قاله الزمخشري ، الحال فيه فقال أتى بتم بالغاً هذا العدد فعلى هذا لا يكون الحال ﴿ أربعين ﴾ بل الحال هذا المحذوف فينا في قوله وأربعين ليلة نصب على الحال وقال ابن عطية أيضاً ويصح أن يكون ﴿ أربعين ﴾ ظرفاً من حيث هي عدد أزمنة ، وقيل ﴿ وبلغ أربعين ﴾ مفعول به بتمّ لأن معناه بلغ والذي يظهر أنه تمييز محول من الفاعل وأصله فتم أربعون ميقات ربه أي كملت ثم أسند التمام لميقات وانتصب أربعون على التمييز والذي يظهر أن هذه

الجملة تأكيد وإيضاح ، وقيل : فائدتها إزالة توهم العشر من الثلاثين لأنه يحتمل إتمامها بعشر من الثلاثين ، وقيل : إزالة توهم أن تكون عشر ساعات أي أتممناها بعشر ساعات .

(161/285)

﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ وقرء شاذاً ﴿ هارون ﴾ بالضم على النداء أي يا هارون أمره حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها أن يكون خليفته في قومه وأن يصلح في نفسه أو ما يجب أن يصلح من أمر قومه ونهاه أن يتبع سبيل من أفسد وفي النهي دليل على وجود المفسدين ولذلك نهاه عن اتباع سبيلهم وأمره إياه بالصلاح ونهيه عن اتباع سبيل المفسدين هو على سبيل التأكيد لا لتوهّم أنه يقع منه خلاف الإصلاح واتباع تلك السبيل لأن منصب النبوّة منزّه عن ذلك ومعنى ﴿ اخلفني ﴾ استبد بالأمر وذلك في حياته إذ راح إلى مناجاة ربه وليس المعنى أنك تكون خليفتي بعد موتي ألا ترى أن هارون عليه السلام مات قبل موسى عليهما السلام ، وليس في قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعليّ " أنت مني كهارون من موسى " دليل على أنه خليفته بعد موته إذ لم يكن هارون خليفة بعد موت موسى وإنما استخلف الرسول عليّاً على أهل بيته إذ سافر الرسول عليه السلام في بعض مغازيه كما استخلف ابن أم مكتوم

على المدينة فلم يكن في ذلك دليل على أنه يكون خليفة بعد موت الرسول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(162/285)

وقال أبو السعود :

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً ﴾

روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيلَ وهم بمصرَ إن أهلك الله عدوَّهم أتاهم بكتاب فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعونُ سأل موسى عليه السلام ربه الكتابَ فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهرُ ذي القَعدة فلما أتمّ الثلاثين أنكر خُلوفَ فيه فتسوّك فقالت الملائكةُ : كنا نشم من فيك رائحةَ المسك فأفسدته بالسواك ، وقيل : أوحى الله تعالى إليه أما علمتَ أن ريحَ فمِ الصائمِ أطيبُ عندي من ريح المِسْك فأمره الله تعالى بأن يزيد عليها عشرةَ أيامٍ من ذي الحِجّة لذلك ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ والتعبير عنها بالليالي لأنها غُرَرُ الشهور ، وقيل : أمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يوماً وأن يعمل فيها بما يقرّبه من الله تعالى ثم أنزلت عليه التوراةُ في العشر وكلم فيها وقد أُجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة وفُصِّل هاهنا وواعدنا بمعنى وعدْنا وقد قرىء كذلك وقيل :

الصيغةُ على بابها بناءً على تنزيل قَبول موسى عليه السلام منزلةَ الوعدِ ، وثلاثين مفعولٌ ثانٍ لواعدنا بحذف المضافِ أي إتمامَ ثلاثين ليلةً ﴿ فَتَمَّ ميقات ربِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أي بإلغاء أربعين ليلة ﴿ وَقَالَ موسى لِاخِيهِ هارون ﴾ حين توجه إلى المناجاة حسبما أُمر به ﴿ اخلفنى ﴾ أي كن خليفتي ﴿ فِى قَوْمِى ﴾ وراقِبْهم فيما يأتون وما يذرون ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح من أمورهم أو كن مصلحاً ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ أي لا تتبع مَنْ سلك الإفسادَ ولا تُطِعْ من دعاك إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(163/285)

وقال الآلوسى :

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً ﴾

روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب فأمره أن يصوم ثلاثين وهو شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله تعالى أن يزيد

عليها عشرة أيام من ذي الحجة .

وأخرج الديلمي عن ابن عباس يرفعه لما أتى موسى عليه السلام ربه عز وجل وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام ليلهن ونهارهن كره أن يكلم ربه سبحانه وريح فمه ريح فم الصائم فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذي كان قال : أي رب كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح ، قال : أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ؟ ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني ففعل موسى عليه السلام الذي أمره ربه وذلك أمره ربه وذلك قوله سبحانه : ﴿ فَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ والتعبير عنها بالليالي كما قيل لأنها غرر الشهور .

وقيل : إنه عليه السلام أمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوماً وأن يعمل فيها بما يقربه من الله تعالى ثم أنزلت عليه التوراة وكلم فيها ، وقد أجمل ذكر الأربعين في البقرة وفصل هنا ، ﴿ وواعدنا ﴾ بمعنى وعدنا ، وبذلك قرأ أبو عمرو .

ويعقوب ، ويجوز أن تكون الصيغة على بابها بناء على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد ، وقد تقدم تحقيقه .

و ﴿ ثلاثين ﴾ كما قال أبو البقاء مفعول ثان لواعدنا بحذف المضاف أي إتمام ثلاثين ليلة أو اتيانها ﴿ فَتَمَّ ميقات ربِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ من قبيل الفذلكة لما تقدم ، وكأن النكتة في ذلك أن اتمام الثلاثين بعشر يحتمل المعنى المتبادر وهو ضم عشرة إلى ثلاثين لتصير بذلك أربعين ، ويحتمل أنها كانت عشرين فتمت بعشرة ثلاثين كما يقال أتممت العشرة بدرهمين على معنى أنها لولا الدرهمان لم تصر عشرة فلدفع توهم الاحتمال الثاني جيء بذلك ، وقيل : إن الإتمام بعشر مطلق يحتمل أن يكون تعيينها بتعيين الله تعالى أو بإرادة موسى عليه السلام فجيء بما ذكر ليفيد أن المراد الأول ، وقيل : جيء به رمزاً إلى أنه لم يقع في تلك العشر ما يوجب الجبر ، والميقات بمعنى الوقت ، وفرق جمع بينهما بأن الوقت مطلق والميقات وقت قدر فيه عمل من الأعمال ومنه مواقيت الحج ، ونصب ﴿ أَرْبَعِينَ ﴾ قيل : على الحالية أي بالغاً أربعين ، ورده أبو حيان بأنه على هذا يكون معمولاً للحال المحذوف لا حالاً ، وأجيب بأن النحويين يطلقون الحكم الذي للعامل لمعموله القائم مقامه فيقولون في زيد في الدار إن الجار والمجرور خبر مع أن الخبر إنما هو متعلقة .

وتعقب بأن الذي ذكره النحاة في الظرف دون غيره فالأحسن أنه حال بتقدير معدوداً ، وفيه أن دعوى تخصيص الذكر في الظرف خلاف الواقع كما لا يخفى على المتتبع ، وأن ما زعمه أحسن مما تقدم يرد عليه ما يرد عليه ، وقيل : إنه تمييز ، وقيل : إنه مفعول به بتضمين ﴿ تم ﴾ معنى بلغ ، وقيل : إن تم من الأفعال الناقصة وهذا خبره وهو خبر غريب ، وقيل

: إنه منصوب على الظرفية .

وأورد عليه أنه كيف تكون الأربعين ظرفاً للتمام والتمام إنما هو بآخرها إلا أن يتجوز فيه .

(165/285)

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ حين توجه إلى المناجاة حسبما أمر به ﴿ لأَخِيهِ هارون ﴾ اسم أعجمي عبراني لم يقع في كلام العرب بطريق الاصالة ، ويكتب بدون الف ، وهو هنا بفتح النون على أنه مجرور بدلاً من أخيه أو بياناً له ، أو منصوب مفعولاً به لمقدر أعني أعني وقرىء شاذا بالضم على أنه خبر مبتدأ محذوف هو هو أو منادي حذف منه حرف النداء أي يا هرون ﴿ اخلفنى ﴾ أي كن خليفتي ﴿ فِى قَوْمِى ﴾ وراقبهم فيما يأتون وما يذرون ، واستخلافه عليه السلام لأخيه مع أنه عليه السلام كان نبياً مرسلاً مثله قيل : لأن الرياسة كانت له دونه ، واجتماع الرياسة مع الرسالة والنبوة ليس أمراً لازماً كما يرشد إلى ذلك سبر قصص أنبياء بني اسرائيل ، وذكر الشيخ الأكبر قدس سره في فتوحاته أن هارون ذكر له أن نبي بحكم الأصالة ورسول بحكم التبعية فلعل هذا الاستخلاف من آثار تلك التبعية ، وقيل : إن هذا كما يقول أحد المأمورين بمصلحة للآخر إذا أراد الذهاب لأمر : كن عوضا عني على معنى أبذل غاية وسعك ونهاية جهدك بحيث يكون فعلك فعل شخصين

﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ما يحتاج إلى الاصلاح من أمور دينهم ، أو كن مصلحا على أنه منزل منزلة اللازم من غير تقدير مفعول .

وعن ابن عباس أنه يريد الرفق بهم والإحسان إليهم ، وقيل : المراد احملهم على الطاعة والصلاح ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ أي ولا تتبع سبيل من سلك الافساد بدعوة وبدونها ، وهذا من باب التوكيد كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(166/285)

وقال القاسمى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [142] .

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

روي أن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر ، نزلوا في برّية طور سيناء ، وكانت مدة خروجهم إلى أن نزلوا شهراً ونصفاً . ولما نزلوا تلقاء الجبل ، صعد موسى إليه

وسمع كلامه تعالى وأوامره ووصاياه . . . ثم انحدر موسى إلى قومه ، وأعلمهم بما أمروا به ، وصاروا يشاهدون على الجبل ضباباً ، وصوت رعود ، وبروقاً ، ثم أمر تعالى موسى أن يصعد إلى الجبل ليؤتيه الشرائع التي كتبها على قومه ، فصعد موسى الجبل ، وكان مغطى بالغمام ، فدخل موسى في وسط الغمام وأقام في الجبل أربعين يوماً ، لم يأكل ولم يشرب ، لما أُمد من القوة الروحانية ، والتجليات القدسية ، وأُوتي في برهتها الألواح التي كتبت فيها شرائعهم ، ولما رجع إلى قومه ، كان على وجهه أشعة نور مدهشة ، فخافوا من الدنو منه ، فجعل على وجهه برقعاً ، فكان إذا صعد الجبل للمناجاة ، رفعه ، وإذا أتاهم وضعه . والله أعلم .

﴿ وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ ﴾ أي : حين توجه للمناجاة ، ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ أي : كن خليفتي فيهم : ﴿ وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : لا تتبع من سلك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه .

تنبيه :

(167/285)

قال الجشمي : تدل الآية على أنه استخلف هارون عند خروجه لما رأى أنهم أشد طاعة له ، وأكثر قبولاً منه ، ومخاطبات موسى عليه السلام لهارون وجوابه له كقوله : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ ، كل ذلك كالدال على أن موسى كان يختص بنوع من الولاية وإن اشتركا في النبوة .

والظاهر أنه استخلفه إلى أن يرجع لأنه المعقول من الإستخلاف عند الغيبة .

وتدل على أنه يجوز أن ينهاه عن شيء يعلم أنه لا يفعله ، ويأمره بما يعلم أن سيفعله ، عظة له واعتباراً لغيره ، وتأكيداً ومصلحة للجميع . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 180 . 181 ﴾

(168/285)

وقال ابن عاشور :

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

عَوْد إلى بقية حوادث بني إسرائيل ، بعد مجاوزتهم البَحر ، فالجملة عطف على جملة : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾ [الأعراف : 138] .

وقد تقدم الكلام على معنى المواعدة في نظير هذه الآية في سورة البقرة ، وقرأ أبو عمرو :

وَوَعَدْنَا .

وحذف الموعود به اعتماداً على القرينة في قوله : ﴿ ثلاثين ليلة ﴾ الخ ، و ﴿ ثلاثين ﴾ منصوب على النيابة عن الظرف ، لأن تمييزه ظرف للمواعد به وهو الحضور لتلقي الشريعة ، ودل عليه ﴿ واعدنا ﴾ لأن المواعدة للقاء فالعامل ﴿ واعدنا ﴾ باعتبار المقدر ، أي حضوراً مدة ثلاثين ليلة .

وقد جعل الله مدة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيراً عليه ، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقاً ورغبة في مناجاة الله وعبادته ، زاده الله من هذا الفضل عشر ليال ، فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة ، وقد ذكر بعض المفسرين قصة في سبب زيادة عشر ليال ، لم تصح ، ولم يزده على أربعين ليلة : إما لأنه قد بلغ أقصى ما تحتمله قوته البشرية فباعَدهُ الله من أن تعرض له السّآمة في عبادة ربه ، وذلك يُجنّب عنه المتقون بَله الأنبياء ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " عليكم من الأعمال بما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا " وإما لأن زيادة مغيبه عن قومه تفضي إلى أضرار ، كما قيل : إنهم عبدوا العجل في العشر الليالي الأخيرة من الأربعين ليلة ، وسميت زيادةُ الليالي العشر إتماماً إشارة إلى أن الله تعالى أراد أن تكون مناجاة موسى أربعين ليلة ، ولكنه لما أمره بها أمره بها مفرقة ، إما لحكمة الاستيناس ، وإما لتكون تلك العشر عبادة أخرى فيتكرر الثواب ، والمراد الليالي بأيامها فاقتصر على الليالي ؛ لأن المواعدة كانت لأجل الانقطاع للعبادة وتلقي المناجاة .

والنفس في الليل أكثر تجرداً للكمالات النفسانية ، والأحوال المَلَكية ، منها في النهار ، إذ قد اعتادت النفوس بحسب أصل التكوين الاستيناسُ بنور الشمس والنشاط به للشغل ، فلا يفارقها في النهار الاشتغال بالدنيا ولو بالتفكر وبمشاهدة الموجودات ، وذلك ينحّط في الليل والظلمة ، وتنعكس تفكرات النفس إلى دَاخلها ، ولذلك لم تزل الشريعة تحرض على قيام الليل وعلى الابتهال فيه إلى الله تعالى ، قال : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ [السجدة : 16] الآية ، وقال : ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ ، وفي الحديث : " ينزل ربّنا كل ليلة إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الأخير فيقول هل من مستغفر فأغفر له ، هل من داع فأستجيب له " ولم يزل الشغل في السهر من شعار الحكماء والمرتاضين لأن السهر يلطف سلطان القوة الحيوانية كما يلطفها الصوم قال في "هياكل النور" "النّفوسُ الناطقة من عالم الملكوت ، وإنما شغَلها عن عالَمها القوى البدنية ومشاغَلتُها فإذا قويتْ النفس بالفضائل الرُوحانية وضعُف سلطان القُوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر تتخلص أحياناً إلى عالم القُدس وتتصل بربها وتتلقى منه المعارف" .

على أن الغالب في الكلام العربي التوقيتُ بالليالي ، ويُريدون أنها بأيامها ، لأن الأشهر العربية

تُبتدأ بالليالي إذ هي منوطة بظهور الأهلة .

وقوله ﴿ فَتَم ميقاتُ ربه أربعينَ ليلة ﴾ فذلكةُ الحساب كما في قوله : ﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلكَ عشرة كاملة ﴾ [البقرة : 196] ، فالفاء للتفريع .

(170/285)

والتمام الذي في قوله : ﴿ فتم ميقات ربه ﴾ مستعمل في معنى النماء والتفوق فكان ميقاتاً أكمل وأفضل كقوله تعالى : ﴿ تماماً على الذي أحسنَ ﴾ [الأنعام : 154] إلى قوله : ﴿ وأتممت عليكم نعمتي ﴾ [المائدة : 3] إشارة إلى أن زيادة العشر كانت لحكمة عظيمة تكون مدة الثلاثين بدونها غير بالغة أقصى الكمال ، وأن الله قدر المناجاة أربعين ليلة ، ولكنه أبرز الأمر لموسى مفرقاً وتيسيراً عليه ، ليكون إقبالُه على إتمام الأربعين باشتياق وقوة .

وانتصب ﴿ أربعين ﴾ على الحال بتأويل : بالغاً أربعين .

والميقات قيل : مرادف للوقت ، وقيل هو وقت قدّر فيه عمل مّا ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ في سورة البقرة (189) .

وإضافته إلى ﴿ ربه ﴾ للتشريف ، وللتعريض بتحميق بعض قومه حين تأخر مغيب

موسى عنهم في المناجاة بعد الثلاثين ، فزعموا أن موسى هلَك في الجبَل كما رواه ابن جُريج ، ويشهد لبعضه كلام التوراة في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج .

أي : قال موسى لأخيه عند العزم على الصعود إلى الجبل للمناجاة فإنه صعد وحدَه ومعه غلامُهُ يُوشعُ بنُ نَون .

ومعنى ﴿ اخلُفني ﴾ كُنْ خلَفاً عني وخليفة ، وهو الذي يتولى عمل غيره عند فقده فتنتهي تلك الخلافة عند حضور المستخلَف ، فالخلافة وكالة ، وفعْلُ خَلَف مشتق من الخَلْف بسكون اللام وهو ضد الإمام ، لأن الخليفة يقوم بعمل مَن خَلَفَه عند مغيبه ، والغائِب يَجعل مكانَه وراءَه .

(171/285)

وقد جمع له في وصيته ملاك السياسة بقوله : ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ فإن سياسة الأمة تدور حول مِحور الإصلاح ، وهو جعل الشيء صالحاً ، فجميعُ تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة ، وذلك بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره ، فإن عادت بالصلاح عليه وبضده على غيره لم تعتبر صلاحاً ، ولا تلبث أن تؤول فساداً على مَن لاحت عنده صلاحاً ، ثم إذا تردد فعلٌ بين كونه خيراً من جهة وشراً

من جهة أخرى وجب اعتبار أقوى حالتيه فاعتُبر بها إن تعذر العدول عنه إلى غيره مما هو أوفرُ صلاحاً ، وإن استوى جهتاه ألغي إن أمكنَ إلغاؤُه وإلاّ تخيّر ، وهذا أمر لهارون جامع لما يتعين عليه عمله من أعماله في سياسة الأمة .

وقوله : ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ تحذير من الفساد بأبلغ صيغة لأنها جامعة بين نَهي والنهي عن فعل تنصرف صيغته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه وبينَ تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين .

والإتباع أصله المشي على حلف ماش ، وهو هنا مستعار للمشاركة في عمل المفسد ، فإن الطريق مستعار للعمل المؤدي إلى الفساد والمفسِد من كان الفساد صفتَه ، فلما تعلق النهي بسلوك طريق المفسدين كان تحذيراً من كل ما يستروح منه مآل إلى فساد ، لأن المفسدين قد يعملون عملاً لا فساد فيه ، فنُهي عن المشاركة في عمل من عُرف بالفساد ، لأن صدوره عن المعروف بالفساد ، كافٍ في توقع إفضائه إلى فساد .

ففي هذا النهي سد ذريعة الفساد ، وسَد ذرائع الفساد من أصول الإسلام ، وقد عني بها مالك بن أنس وكررها في كتابه واشتهرت هذه القاعدة في أصول مذهبه .

فلا جرم أن كان قوله تعالى : ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ جامعاً للنهي عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد ، وعمل المفسد وإن لم يكن مما اعتاده ، وتجنبُ الاقتراب من المفسد ومخالطته .

وقد أجرى الله على لسان رسوله موسى ، أو أعلمه ، ما يقتضي أن في رعية هارون مفسدين ، وإنه يوشك إن سلكوا سبيل الفساد أن يسايرهم عليه لما يعلم في نفس هارون من اللين في سياسته ، والاحتياط من حدوث العصيان في قومه ، كما حكى الله عنه في قوله : ﴿ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتُلونني ﴾ [الأعراف : 150] وقوله : ﴿ إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ﴾ [طه : 94] .

فليست جملة : ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ مجرد تأكيد لمضمون جملة ﴿ وأصلح ﴾ تأكيداً للشيء بنفي ضده مثل قوله : ﴿ أموات غير أحياء ﴾ [النحل : 21] لأنها لو كان ذلك هو المقصَد منها لجُرّدت من حرف العطف ، ولاقتصر على النهي عن الإفساد فقيل : وأصلح لا تفسد ، نعم يحصل من معانيها ما فيه تأكيد لمضمون جملة : ﴿ وأصلح ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

وعلمنا من قبل في مسألة الأعداد أن هناك أسلوبين : الأسلوب الأول إجمالي ، والثاني تفصيلي ؛ فمرة يتفق التفصيل مع الإجمال ، وبذلك لا توجد شبهة أو إشكال ، وسبحانه في سورة البقرة يقول : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . . ﴾ [البقرة : 51] جاء بها هناك بالإجمال . لكنه شاء هنا في سورة الأعراف ألا يأتي بها مرة واحدة مجملة . بل فصلها بثلاثين ليلة ثم أتمّها الحق بعشر أخر لمهمة سنعرفها فيما بعد ، ليكون الميقات قد تم أربعين ليلة ، وإذا جاء العدد مجملاً مرة ، ومفصلاً مرة ، واتفق الإجمال مع التفصيل فلا إشكال . لكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فعادة يُحْمَل التفصيل على الإجمال ، لأن المفصَّل يمكن أن يتداخل ليصير إلى الإجمال .

وضربنا من قبل المثل في خلق السماء والأرض في ستة أيام ، وكل آيات الخلق تأتي بخبر الستة أيام وهي مجملة . لكنه شاء سبحانه في موضع آخر بالقرآن أن يقول : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الأَرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : 9-10]

وظاهر الأمر هنا أن المهمة قد اكتمل أمرها وخلقها في ستة أيام ، لكنه قال جل وعلا

بعدها : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ . . ﴾ [فصلت : 11-12]

(174/285)

وهنا في موقف أيام خلق الدنيا نجد إجمالاً وتفصيلاً ، والتفصيل يصل في ظاهر الأمر بأيام الخلق إلى ثمانية ، والإجمال يحكي أنها ستة أيام فقط .

فهل هي ستة أيام أم ثمانية أيام ؟ نقول : إنها ستة أيام لأننا نستطيع أن ندخل المفصل بعضه في بعضه ، فإذا قلت : سافرت من مصر إلى طنطا في ساعتين ، وإلى الإسكندرية في ثلاث ساعات ، فمعنى هذا القول أن الساعتين دخلتا في الثلاث الساعات : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ .

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أن تحدث عملية إنجاء بني إسرائيل أنه – سبحانه – سينزل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خلق الله لتسير حركة حياتهم عليه ، لكن ما إن ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل ، في مدة الثلاثين يوماً ولم يشأ الله أن يرسل موسى بعد الثلاثين يوماً بل أتمها بعشر آخر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ؛ لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يعنفه ويشتد عليه ويأخذ بلحيته يجره إليه إذ كيف

سمح لبني إسرائيل أن يعبدوا العجل . وفي ذلك يقول الحق على لسان هارون : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

[طه : 94]

فكأن العشرة أيام زادوا عن الثلاثين يوماً ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة في سورة البقرة

.

وهنا يقول الحق في سورة الأعراف : ﴿ وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142]

و" اخلفني " أي كن خليفة لي فيهم إلى أن أرجع وذلك فيما هو مختص بموسى من الرسالة فاستخلاف موسى لهارون ليس تكليفاً لهارون بامتداد إرسال الله لموسى وهارون ، فأسلوب تقديم موسى وهارون أنفسهما لفرعون جاء بضمير التثنية التي تجمع بين موسى وهارون : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ . . . ﴾ [طه : 47]

لأن كلاًّ منهما رسول ، وقول الحق : ﴿ وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ ﴾ فيه التحنن ، أي أنني لي بك صلة قبل أن تكون شريكاً لي في الرسالة فأنا أخ لك وأنت أخ لي ، ومن حقي عليك أن تسمع كلامي وتخلفني . فالأخوة مقرونة بأنك شريك معي في الرسالة إذن نجد أن موسى قد قدم حيثية الأخوة والمشاركة في الرسالة . وأكد موسى عليه السلام بكلمة " قومي " أنهم أعزاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذي يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نهيّا فاعلموا أن موسى هو أول من يطبقه على نفسه .

وقيل كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابد أن يكون الإعداد بطهر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليذهب رائحة فمه ، فأوضح الحق سبحانه له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك . وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل عليّ بريح المسك فزد عشرة أيام ؛ حتى تأتي كذلك . وقال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ، لأن الثلاثين يوماً هي الأيام التي عبد فيها القوم بعد موسى العجل ، فكان ولابد أن تكون هناك فترة من الفترات ؛ حتى يميز الله الخبيث من الطيب .

﴿ وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142]

وهنا أمر ونهى " أصلح " هي أمر ، و " لا تتبع " هي نهي ، ونعرف أن كل تكاليف الحق سبحانه وتعالى محصورة في " افعل كذا " ، و " لا تفعل كذا " ، ولا يقول الحق للمكلَّفين : " افعلوا كذا " إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، وإن قال لهم : " لا تفعلوا " فلابد أن يكونوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، ولذلك أوضحنا من قبل ان الله ركز كل التكاليف في مسألة آدم وحواء في الجنة فقال : ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ ، وكان هذا هو الأمر . وقال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ ، وهذا نهي : ﴿ وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ .

وكلمة " أصلح " تستلزم أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده ، وإن شاء الله يزيد فيه صلاحاً فليفعل .

وقوله : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ لأنه قول موجه لنبي وهو هارون ، لا يتأتى منه الإفساد ، ولكنَّ موسى أعلمه أنه ستقوم فتنة بعد قليل ، فكأن موسى قد ألهم أنه سيحدث إفساد ، فقصارى ما يطلبه من أخيه هارون ألاَّ يتبع سبيل المفسدين ، ولذلك سيقول هارون بعد ذلك مبرراً تركه بني إسرائيل على عبادة العجل بعد أن بذل غاية جهده في منعهم وإنذارهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه . ﴿ . . . إِنِّي خَشِيتُ

أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه : 94] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(177/285)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ضَرْبُ الْأَجَلِ لِلْمَوَاعِيدِ سُنَّةٌ مَاضِيَةٌ وَمَعْنًى قَدِيمٌ أَسَّسَهُ اللَّهُ فِي الْقَضَايَا وَحَكَمَ بِهِ لِلْأُمَمِ ، وَعَرَّفَهُمْ بِهِ مَقَادِيرَ التَّأَنِّي فِي الْأَعْمَالِ ، وَإِنَّ أَوَّلَ أَجَلٍ ضَرَبَهُ الْأَيَّامَ السِّتَّةَ الَّتِي مَدَّهَا لِجَمِيعِ الْخَلِيقَةِ فِيهَا ، وَقَدْ كَانَ قَادِرًا فِي أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ لَهُمْ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ لِشَيْءٍ إذَا أَرَادَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونَ ؛ بَيْدَ أَنَّهُ أَرَادَ تَعْلِيمَ الْخَلْقِ التَّأَنِّي وَتَقْسِيمَ الْأَوْقَاتِ عَلَى أَعْيَانِ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ لِيَكُونَ لِكُلِّ عَمَلٍ وَقْتٌ .

وَقَدْ أَشْبَعْنَا الْقَوْلَ فِيهِ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : إذَا ضَرَبَ الْأَجَلَ لِمَعْنًى يُحَاوِلُ فِيهِ تَحْصِيلَ الْمُؤَجَّلِ لِأَجَلِهِ ، فَجَاءَ الْأَجَلُ ، وَلَمْ يَتَيَسَّرْ زِيدَ فِيهِ تَبْصِرَةً وَمَعْذِرَةً ؛ وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَرَبَ لَهُ أَجَلًا ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ، فَخَرَجَ لِوَعْدِ رَبِّهِ ، فَزَادَ اللَّهُ عَشْرًا تَتِمَّةَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَأَبْطَأَ مُوسَى فِي هَذِهِ الْعَشْرِ عَلَى قَوْمِهِ ، فَمَا عَقَلُوا جَوَازَ التَّأَخُّرِ لِعُذْرٍ حَتَّى قَالُوا : إنَّ مُوسَى ضَلَّ أَوْ نَسِيَ ، وَنَكَثُوا عَهْدَهُ ، وَبَدَّلُوا بَعْدَهُ ، وَعَبَدُوا إلَهًا غَيْرَ اللَّهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : الزِّيَادَةُ الَّتِي لَا تَكُونُ عَلَى الْأَجَلِ غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ ، كَمَا أَنَّ الْأَجَلَ غَيْرُ مُقَدَّرٍ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِاجْتِهَادِ الْحَاكِمِ بَعْدَ النَّظَرِ إلَى الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَمْرِ ؟ مِنْ وَقْتٍ وَحَالٍ وَعَمَلٍ ، فَيَكُونُ الْأَجَلُ بِحَسَبِ ذَلِكَ ؛ فَإِذَا قَدَّرَ الزِّيَادَةَ بِاجْتِهَادِهِ ، فَيُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ تَكُونَ [الزِّيَادَةُ] مِثْلَ ثُلُثِ الْمُدَّةِ السَّالِفَةِ ، كَمَا أَجَّلَ اللَّهُ لِمُوسَى فِي الزِّيَادَةِ ثُلُثَ مَا ضَرَبَهُ لَهُ مِنْ الْمُدَّةِ .

وَإِنْ رَأَى الْحَاكِمُ أَنْ يَجْمَعَ لَهُ الْأَصْلَ فِي الْأَجَلِ وَالزِّيَادَةِ فِي مُدَّةٍ وَاحِدَةٍ جَازَ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ التَّرَبُّصِ بَعْدَهَا لِمَا يَطْرَأُ مِنْ الْعُذْرِ عَلَى الْبَشَرِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : التَّارِيخُ إنَّمَا يَكُونُ بِاللَّيَالِي دُونَ الْأَيَّامِ ؛ لِأَنَّ اللَّيَالِيَ أَوَائِلُ الشُّهُورِ ، وَبِهَا كَانَتْ الصَّحَابَةُ تُخْبِرُ عَنْ الْأَيَّامِ ، حَتَّى رُوِيَ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ ﴿ : صُمْنَا خَمْسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

وَالْعَجَمُ تُخَالِفُنَا ذَلِكَ فَتَحْسِبُ بِالْأَيَّامِ ؛ لِأَنَّ مُعَوَّلَهَا عَلَى الشَّمْسِ ، وَحِسَابُ الشَّمْسِ لِلْمَنَافِعِ ، وَحِسَابُ الْقَمَرِ لِلْمَنَاسِكِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : اتَّفَقَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعِينَ لَيْلَةً هِيَ ذُو الْقَعْدَةِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ، وَكَانَ كَلَامُ اللَّهِ لِمُوسَى غَدَاةَ يَوْمِ النَّحْرِ حِينَ فَدَى إسْمَاعِيلَ مِنْ الذَّبْحِ ، وَأَكْمَلَ لِمُحَمَّدٍ الْحَجَّ ، وَجَعَلَ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ .

وَهَذَا إنْ ثَبَتَ مِنْ طَرِيقِ الْخَبَرِ فَلَا بَأْسَ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ثَابِتٍ فَالْأَيَّامُ الْعَشْرُ ذَاتُ فَضْلٍ يُبَيَّنُ فِي مَوْضِعِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : الْوَقْتُ مَعْنًى غَيْرُ مُقَدَّرٍ ، وَالْمِيقَاتُ : هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يُقَدَّرُ بِعَمَلٍ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ قال : ذو القعده ، وعشر من ذي الحجة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سليمان التيمي قال : زعم حضرمي أن الثلاثين ليلة التي وعد موسى ذو القعدة ، والعشر التي تمم الله بها الأربعين ليلة عشر ذي الحجة .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : ما من عمل في أيام من السنة أفضل منه في العشر من ذي الحجة ، وهي العشر التي أتمها الله لموسى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ يعني ذا القعده وعشراً من ذي الحجة ، خلف موسى أصحابه واستخلف عليهم هرون ، فمكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة في الألواح ، فقربه الرب نجياً وكلمه وسمع صريف القلم ، وبلغنا أنه لم يحدث في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾ قال : ذو القعدة ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ قال : عشر ذي الحجة .

(181/285)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ قال : إن موسى قال لقومه : إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلف هرون فيكم ، فلما فصل موسى إلى ربه زاده الله عشراً ، فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله ، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري أبصر جبريل ، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب فقال حين مضى ثلاثون ليلة : يا بني إسرائيل إن معكم حلياً من حلى آل فرعون وهو حرام عليكم فهاتوا ما عندكم فنحرقها ، فأتوه بما عندهم من حليهم ، فأوقد ناراً ثم ألقى الحلى في النار ، فلما ذاب الحلى ألقى تلك القبضة من التراب في النار فصار عجلاً جسداً له خوار ، فخار خورة واحدة لم يثن فقال السامري : إن موسى ذهب يطلب ربكم وهذا إله موسى ، فذلك قوله ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾ [طه : 88] يقول : انطلق يطلب ربه فضل عنه وهو هذا ، فقال الله تبارك وتعالى لموسى وهو يناجيه ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ [طه :

85 - 86] قال يعني حزيناً .

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب قال : قال الرب تبارك وتعالى لموسى عليه السلام " مرْ قومك أن ينيبوا إلي ويدعوني في العشر يعني عشر ذي الحجة فإذا كان اليوم العاشر فليخرجوا إليَّ أُغْفِرْ لهم " قال وهب : اليوم الذي طلبته اليهود فأخطأوه ، وليس عدد أصوب من عدد العرب .

وأخرج الديلمي عن ابن عباس رفعه " لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يوماً وقد صام ليلهن ونهارهن ، فكره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربه : لم أفطرت وهو أعلم بالذي كان قال : أي رب كرهت أن أكلمك إلا وفي طيب الريح . قال : أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ، ارجع فصم عشرة أيام ثم إيتني . ففعل موسى الذي أمره ربه فلما كلم الله موسى قال له ما قال .

(182/285)

أما قوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه ، فقال له موسى : يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به ؟ قال : يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ، ولي قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك ، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا : يا موسى صف لنا كلام الرحمن . فقال : لا تستطيعونه ، ألم تروا إلى أصوات الصواعق الذي يقبل في أحلى حلاوة سمعتموه ، فذاك قريب منه وليس به " .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عطاء بن السائب قال : كان لموسى عليه السلام قبة طولها ستمائة ذراع ، يناجي فيها ربه عز وجل .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن كعب قال : لما كلم الله موسى قال : يا رب أهكذا كلامك ؟ قال : يا موسى إنما أكلمك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسنة كلها ، ولو كلمتك بكنه كلامي لم تك شيئاً .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن كعب قال : لما كلم الله موسى كلمه بالألسنة كلها قبل كلامه يعني كلام موسى فجعل يقول : يا رب لا أفهم حتى كلمه آخر الألسنة بلسانه بمثل صوته ، فقال : يا رب هكذا كلامك ؟ قال : لا ، لو سمعت كلامي أي على وجهه لم تك شيئاً . قال يا رب هل في خلقك شيء شبه كلامك ؟ قال : لا ، وأقرب خلقي شبهاً بكلامي أشد ما سمع الناس من الصواعق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي قال : قيل لموسى عليه السلام ما شبهت كلام ربك مما خلق ؟ فقال موسى : الرعد الساكن .

(183/285)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية قال : إنما كلم الله موسى بقدر ما يطيق من كلامه ، ولو تكلم بكلامه كله لم يطقه شيء ، فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور رب العالمين .

وأخرج الديلمي عن أبي هريرة رفعه ، لما خرج أخي موسى إلى مناجاة ربه كلمه ألف كلمة ومائتي كلمة ، فأول ما كلمه بالبربرية أن قال : يا موسى ونفسي معبراً : أي أنا الله الأكبر .

قال موسى : يا رب أعطيت الدنيا لأعدائك ومنعتها أولياءك فما الحكمة في ذلك ؟

فأوحى الله إليه : أعطيتها أعدائي ليتمرغوا ، ومنعتها أوليائي ليتضرعوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عجلان قال : كلم الله موسى بالألسنة كلها ، وكان فيما كلمه لسان البربر فقال كلمنه بالبربرية : أنا الله الكبير .

وأخرج سعيد بن منصور وابي المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يوم كلم الله موسى كان عليه جبة

صوف ، وكساء صوف ، وسراويل صوف ، وكمه صوف ، ونعلان من جلد حمار غير ذكي " .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معاوية قال : لما كلم موسى ربه عز وجل مكث أربعين يوماً لا يراه أحد إلا مات من نور رب العالمين .

وأخرج أبو الشيخ عن عروة بن رويم قال : كان موسى لم يأت النساء منذ كلمه ربه ، وكان قد ألبس على وجهه بوقع فكاق لا ينظر إليه أحد إلا مات فكشف لها عن وجهه ، فأخذتها من غشيته مثل شعاع الشمس ، فوضعت يدها على وجهها وخرت لله ساجدة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه قال : كلم الله موسى من ألف مقام ، فكان كلما كلمه رأى النور على وجهه ثلاثة أيام قال : وما قرب موسى امرأة مذ كلمه ربه .

(184/285)

وأخرج ابن المنذر عن عروة بن رويم اللخمي قال : قالت امرأة موسى لموسى : إني أيم منك مذ أربعين سنة فأمتعني بنظرة . فرفع البرقع عن وجهه فغشى وجهه نور التمع بصرها ،

فقالت ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة . قال : على أن لا تزوّجي بعدي وأن لا تأكلي إلا من عمل يديك . قال : فكانت تتبع الحصادين ، فإذا رأوا ذلك تخاطوا لها ، فإذا أحست بذلك تجاوزته .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وأبو خيثمة في كتاب العلم والبيهقي عن ابن عباس قال : قال موسى عليه السلام حين كلم ربه : أي رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لي ذكراً . قال : أي عبادك أحكم ؟ قال : الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس . قال رب أي عبادك أغنى ؟ قال : الراضي بما أعطيته .

وأخرج أحمد في الزهد والبيهقي عن الحسن .

أن موسى عليه السلام سأل ربه جماعاً من الخير فقال : أصحب الناس بما تحب أن تصحب به .

(185/285)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبيهقي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن الله تبارك وتعالى ناجى موسى عليه السلام بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام ، فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم لما وقع في

مسامعه من كلام الرب عز وجل ، فكان فيما ناجاه إن قال : يا موسى إنه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ، ولم يتقرب إليّ المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ، ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي . فقال موسى : يا رب ويا إله البرية كلها ، ويا مالك يوم الدين ، ويا ذا الجلال والإِكرام ، ماذا أعددت لهم ؟ وماذا جزيتهم ؟ قال : أما الزاهدون في الدنيا فإني أبيحهم جنتي حتى يتبوّأوا فيها حيث شاؤوا ، وأما الورعون عما حرمت عليهم فإذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه إلا الورعون فأني أستحييهم ، وأجلهم ، وأكرمهم ، وأدخلهم الجنة بغير حساب ، وأما الباكون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركهم في أحد " .

وأخرج أبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " قال موسى : يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به . قال : قل يا موسى لا إله إلا الله . قال : يا رب كل عبادك يقول هذا . . . ! قال : قل لا إله إلا الله . قال : لا إله إلا أنت يا رب ، إنما أريد شيئاً تخصني به . قال يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله " .

(186/285)

وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء عن عطاء بن يسار قال : قال موسى عليه السلام : يا رب من أهلك الذين هم أهلك الذين تظلهم في ظل عرشك ؟ قال : هم البريئة أيديهم ، الطاهرة قلوبهم ، الذين يتحابون بجلالي ، الذين إذا ذكرت ذكروا بي ، وذا ذكروا ذكرت بذكرهم ، الذين يسبغون الوضوء في المكاره ، وينيبون إلى ذكري كما تنيب النسور إلى وكورها ، ويكلفون بحبي كما يكلف الصبي بحب الناس ، ويغضبون لمحارمي إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حزب .

وأخرج أحمد عن عمر أن القصير قال : قال موسى بن عمران : أي رب أين أبغيك ؟ قال : ابغني عند المنكسرة قلوبهم ، إني أدنو منهم كل يوم باعاً ولولا ذلك انهدموا .

وأخرج ابن المبارك وأحمد عن عمار بن ياسر . أن موسى عليه السلام قال : يا رب حدثني بأحب الناس إليك قال : ولم .

. . ؟ قال : لأحبه لحبك أياه . فقال : عبد في أقصى الأرض سمع به عبد آخر في أقصى الأرض لا يعرفه ، فإن أصابته مصيبة فكأنما أصابته ، وإن شاكته شوكة فكأنما شاكته ما ذاك إلا لي ، فذلك أحب خلقي إلي . قال : يا رب خلقت خلقاً تدخلهم النار أو تعذبهم ؟ فأوحى الله إليه : كلهم خلقي ، ثم قال : ازرع زرعاً . فزرعه . فقال : اسقه فسقاه ، ثم قال : قم عليه فقام عليه فحصده ورفعه ، فقال : ما فعل زرعك يا موسى ؟ قال : فرغت منه

ورفعته : قال : ما تركت منه شيئاً ؟ قال : ما لا خير فيه . قال : كذلك أنا لا أعذب إلا من لا خير فيه .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن موسى عليه السلام قال : يا رب أخبرني بأكرم خلقك عليك . قال : الذي يسرع إلى هواي إسراع النسر إلى هواه ، والذي يكلف بعبادي الصالحين كما يكلف الصبي بالناس ، والذي يغضب إذا انتهكت محارمي غضب النمر لنفسه ، فإن النمر إذا غضب لم يبال أَقَلَّ الناس أم كثروا . وأخرجه ابن أبي شيبة عن عروه موقوفاً " .

(187/285)

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال : سأل موسى عليه السلام ربه عزَّ وجل فقال : أي عبادك أغنى ؟ قال : الذي يقنع بما يؤتى . قال : فأي عبادك أحكم ؟ قال : الذي يحكم للناس بما يحكم لنفسه قال : فأي عبادك أعلم ؟ قال : أخشاهم .

وأخرج أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنة وأبو نعيم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن موسى عليه السلام كان يمشي ذات يوم في الطريق ، فناداه الجبار عز وجل : يا موسى ، فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً . . . ! ثم ناداه الثانية : يا موسى بن

عمران فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً وارتعدت فرائصه ثم نودي الثالثه يا موسى بن عمران إنني أنا الله لا إله إلا أنا فقال : لبيك لبيك ، فخر لله تعالى ساجداً فقال : ارفع رأسك يا موسى بن عمران ، فرفع رأسه فقال : يا موسى إن أحببت أن تسكن في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي كن لليتيم كالأب الرحيم ، وكن للأرملة كالزوج العطوف ، يا موسى بي عمران أرحم ترحم ، يا موسى كما تدين تدان ، يا موسى نبي بني إسرائيل أنه من لقيني وهو جاحد صلى الله عليه وسلم أدخلته النار . فقال : ومن أحمد ؟ فقال : يا موسى وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منه ، كتبت اسمه مع اسمي في العرش قبل أن أخلق السموات والأرض والشمس والقمر بألفي سنة ، وعزتي وجلالي إن الجنة محرمة على جميع خلقي حتى يدخلها محمد وأمته . قال موسى ، ومن أمة أحمد ؟ قال : أمته الْحَمَّادون يحمدون صعوداً وهبوطاً وعلى كل حال ، يشدون أوساطهم ويطهرون أطرافهم ، صائمون بالنهار رهبان بالليل ، أقبل منهم اليسير وأدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله . قال : إجعلني نبي تلك الأمة . قال : نبيها منها . قال : إجعلني من أمة ذلك النبي . قال : استقدمت واستأخر يا موسى ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال " .

(188/285)

وأخرج أبو نعيم عن وهب قال : قال موسى عليه السلام إلهي ما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه ؟ قال : يا موسى أظله يوم القيامة بظل عرشي ، وأجعله في كنفي . قال : يا رب أي عبادك أشقى ؟ قال : من لا تنفعه موعظة ، ولا يذكرني إذا خلا .

وأخرج أبو نعيم عن كعب قال : قال موسى : يا رب ما جزاء من آوى يتيماً حتى يستغني أو كفل أرملة ؟ قال : أسكنه جنتي وأظله يوم لا ظل إلا ظلي .

وأخرج ابن شاهين في الترغيب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال موسى عليه السلام : يا رب ما لمن عزى الثكلى ؟ قال : أظله بظلي يوم لا ظل إلا ظلي .

وأخرج آدم بن أبي أياس في كتاب العلم عن عبد الله بن مسعود قال : لما قرب موسى نجياً أبصر في ظل العرش رجلاً فغبطه بمكانه ، فسأل عنه فلم يخبر باسمه وأخبر بعمله ، فقال له : هذا رجل كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، بر بالوالدين لا يمشي بالنميمة . فقال الله : يا موسى ما جئت تطلب ؟ قال جئت أطلب الهدى يا رب . قال : قد وجدت يا موسى . قال : رب أغفر لي ما مضى من ذنوبي وما غبر وما بين ذلك وما أنت أعلم به مني ، وأعوذ بك من وسوسة نفسي وسوء عملي . فقيل له : قد كفيت يا موسى . قال : رب أي العمل أحب إليك أن أعمله ؟ قال : اذكرني يا موسى . قال : رب أي عبادك أتقى ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني . قال رب أي عبادك أغنى ؟ قال الذي يقنع بما يؤتى قال : رب أي عبادك أفضل ؟ قال : الذي يقض بالحق ولا يتبع الهوى قال : رب أي عبادك

أعلم ؟ قال : الذي يطلب علم الناس إلى علمه لعله يسمع كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى . قال : رب أي عبادك أحب إليك عملاً ؟ قال : الذي لا يكذب لسانه ، ولا يزني فرجه ، ولا يفجر قلبه . قال : رب ثم أي على أثر هذا ؟ قال : قلب مؤمن في خلق حسن قال : رب أي عبادك أبغض إليك ؟ قال : قلب كافر في خلق سيِّىء . قال : رب ثم أي عمل أثر هذا ؟ قال جيفة بالليل بطال بالنهار .

(189/285)

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الجلد . أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام : إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك ، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً ، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك وراء قلبك ، وإذا قمت بين يدي فقم مقام العبد الحقير الذليل ، وذمَّ نفسك فهي أولى بالذم ، وناجني حين تناجيني بقلب وجل ولسان صادق .

وأخرج أحمد عن قسي رجل من أهل الكتاب قال : إن الله أوحى إلى موسى عليه السلام : يا موسى إن جاءك الموت وأنت على غير وضوء فلا تلومن إلا نفسك . قال : وأوحى إليه أن الله تبارك وتعالى يدفع بالصدقة سبعين باباً من السوء ، مثل الغرق والحرق والسرق وذات الجنب . قال : وقال له : والنار ؟ قال : والنار .

وأخرج أحمد عن كعب الأحبار قال : أوحى الله إلى موسى : أن عَلِّم الخير وتعلمه فأني منوّر لمعلم الخير ومتعلمه في قبورهم حتى لا يستوحشوا لمكانهم .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة قال : لما ارتقى موسى طور سينا رأى الجبار في أصبعه خاتماً قال : يا موسى ما هذا ؟ وهو أعلم به قال : شيء من حلي الرجال يا رب . قال فهل عليه شيء من أسمائي مكتوب أو كلامي ؟ قال : لا . قال : فاكتب عليه ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ [الرعد : 38] .

وأخرج الحكيم الترمذي عن عطاء قال : قال موسى عليه السلام : يا رب أيتمت الصبي من أبويه وتدعه هكذا ؟ قال : يا موسى : أما ترضى بي كافلاً . !

وأخرج ابن المبارك عن عطاء قال : قال موسى : يا رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : أعلمهم بي .

وأخرج أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية عن وهب قال : قال موسى : يا رب إنهم سيسألنني كيف كان بدؤك ؟ قال : فأخبرهم إني أنا الكائن قبل كل شيء ، والمكوّن لكل شيء ، والكائن بعد كل شيء .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الجلد . أن موسى عليه السلام سأل ربه قال : أي رب أنزل عليَّ آية محكمة أسير بها في عبادك . فأوحى إليه : يا موسى أن أذهب فما أحببت أن يأتيه عبادي إليك فأته إليهم .

وأخرج أحمد عن قتادة . أن موسى عليه السلام قال : أي رب أي شيء وضعت في الأرض أقل ؟ قال : العدل أقل ما وضعت في الأرض .

وأخرج أحمد عن عمرو بن قيس قال : قال موسى عليه السلام : يا رب أي الناس أتقى ؟ قال : الذي يذكر ولا ينسى . قال : فأي الناس أعلم ؟ قال : الذي يأخذ من علم الناس إلى علمه .

وأخرج أحمد وأبو نعيم عن وهب بن منبه قال : قال موسى عليه السلام : يا رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : من أذكر برؤيته .

قال : أي رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذين يعودون المرضى ، ويعزون الثكلى ، ويشيعون الهلكى .

وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : لما قيل للجبال أنه يريد أن يتجلى تطاولت الجبال كلها وتواضع الجبل تجلى له .

وأخرج البيهقي في الشعب من طريق أحمد بن أبي الحواري عن أبي سليمان قال : إن الله اطلع في قلوب الآدميين فلم يجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصه

بالكلام لتواضعه . قال . وقال غير أبي سليمان : أوحى الله إلى الجبال : إني مكلم عليك عبداً من عبيدي . فتطاولت الجبال ليكلمه عليها وتواضع الطور . قال إن قدر شيء كان ، قال : فكلمه عليه لتواضعه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن العلاء بن كثيِر قال : إن الله تعالى قال : يا موسى أتدري لم كلمتك ؟ قال : لا يا رب قال : لأني لم أخلق خلقاً تواضع لي تواضعك .

وأخرج أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية عن نوف البكالي قال : أوحى الله إلى الجبال إني نازل على جبل منكم ، قال : فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور فإنه تواضع . قال : أرضى بما قسم لي فكان الأمر عليه . وفي لفظ إن قدر لي شيء فسيأتيني ، فأوحى الله : إني سأنزل عليك بتواضعك لي ورضاك بقدرتي .

(191/285)

وأخرج الخطيب في تاريخه عن أبي خالد الأحمق قال : لما كلم الله تعالى موسى عرض إبليس على الجبل ، فإذا جبريل قد وافاه فقال : أخّر يا لعين ايش تعمل ههنا ؟ ! قال : جئت أتوقع من موسى ما توقعت من أبيه . فقال له جبريل : أخر يا لعين . ثم قعد جبريل يبكي حيال موسى ، فأنطق الله الجبة فقالت : يا جبريل ايش هذا البكاء ؟ قال : إني في

القرب من الله ، وإني لأشتهي أن اسمع كلام الله كما يسمعه موسى . قالت الجبة : يا جبريل أنا جبة موسى ، وأنا على جلد موسى ، أنا أقرب إلى موسى أو أنت ، يا جبريل أنا لا أسمع ما تسمعه أنت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(192/285)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ ﴾

تقدَّم الخلافُ في " وَعَدْنَا " و " وَاعَدْنَا " وأنَّ الظَّرْفَ بعد مفعول ثاني على حذفِ مضافٍ ، ولا يجوزُ أن يكون ظرفاً لِفسادِ المعنى في البقرة فكذا هنا ، أي : وَعَدْنَاهُ تمامَ ثلاثين ، أو إتيانها ، أو مناجاتها .

قوله : ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ في هذا الضمير قولان : أحدهما : أنَّهُ يعود على المُواعدةِ المفهومةِ من وَاعَدْنَا أي : وأتممنا مواعدته بعشر .

الثاني : أنَّهُ يعود على ثلاثين قاله الحوفي .

قال أبو حيَّان : ولا يظهر ؛ لأنَّ الثلاثين لم تكن ناقصةً فتتمَّ بعشر ، وحُذِف تمييز عشر لدلالة

الكلام عليه أي : وأَتْمَمْنَاهَا بعَشْرٍ ليالٍ ، وفي مصحف أبي وَتَمَّمْنَاهَا بالتَّضعيف ، عَدَّاهُ بالتَّضْعِيفِ .

قوله : ﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ ﴾ الفَرْقُ بين الميقاتِ ، والوَقْتِ ، أن الميقاتَ : ما قُدِّرَ فيه عملٌ من الأعمال ، والوقت : وقت الشَّيءِ من غير تقدير عملٍ ، أو تقريره .

وفي نصب " أَرْبَعِينَ " أربعة أوجُهٍ :

أحدها : أَنَّهُ حال .

قال الزَّمخشريُّ : " وأَرْبَعِينَ " نصب على الحَالِ : أي تَمَّ بالغاً هذا العدد .

قال أبو حيان فعلى هذا لا يكون الحال " أربعين " ، بل الحالُ هذا المحذوف فينافي قوله .

قال شهابُ الدِّين : لا تنافي فيه ، لأنَّ النُّحاةَ لم يزالوا ينسبون الحكم للمعمول الباقي بعد حذفِ عامله المنوب عنه ، وله شواهد منها : زيد في الدَّارِ ، أو عندك .

فيقولون : الجارُّ والظَّرْفُ خبر ، والخبرُ في الحقيقة : إنَّمَا هو المحذوفُ المقدَّرُ العاملُ فيهما ، وكذا يقولون : جاء زيدٌ بثيابه ، ف " بثيابه " حال ، والحال إنَّمَا هو العاملُ فيه إلى غير ذلك وقدَّرَهُ الفارسي بـ " معدوداً .

قال : كقولك : تَمَّ القوم عشرين رجلاً ، أي : معدودين هذا العدد وهو تقديرٌ حسنٌ .

الثاني : أَنَّهُ ينتصبُ أَرْبَعِينَ على المفعولِ به .

قال أبو البقاءِ : " لأنَّ معناه بلغ ، فهو كقولهم : بَلَغَتْ أَرْضُكَ جريبين " أي : بتضمين " تَمَّ "

معنى "بَلَغَ" .

الثالث : أَنَّهُ منصوبٌ على الظَّرف .

قال ابْنُ عطيَّة : " ويصحُّ أن يكون أربعين ظرفاً من حيث هي عددُ أزمنة " ، وفي هذا نظرٌ ، كيف يكون ظرفاً للتَّمام ، والتَّمامُ إنما هو بآخر جزء من تلك الأزمنة ؟ إلا بتجوّزٍ بعيد ، وهو أنَّ كلَّ جزءٍ من أجزاء الوقت سواء كان أولاً أم آخراً إذا نقص ذهب التَّمامُ .

(193/285)

الرابع : أن يَنْتَصِبَ على التَّمييز

قال أبو حيَّان : والأصل : فَتَمَّ أربعون ميقاتُ ربّه ، ثمَّ أسند التَّمامَ إلى ميقات وانتصب أربعون على التَّمييز .

فهو منقولٌ من الفاعليَّة ، يعني فيكون كقوله : ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ [مريم : 4]

وهذا الذي قاله وجعلهُ هو الذي يظهر يشكل بما ذكره هو في الرَّدِّ على الحُوفيِّ ؛ حيثُ قال هناك " إنَّ الثلاثين لم تكن ناقصةً ، فَتتمَّ " لذلك ينبغي أن يقال هنا : إن الأربعين لم تكن ناقصة فتتم فكيف يُقدِّر : فتَمَّ أربعُون ميقاتُ ربِّهِ ؟ فإن أجاب هنا بجوابٍ ، فَهُوَ جوابٌ هناكِ لِمَنِ اعترضَ عليه .

وقوله : ﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

في هذه الجملة قولان :

أظهرهما : أنَّهَا للتأكيد ، لأنَّ قوله قبل ذلك : " وأَتْمَمْنَاهَا بعشْرٍ " فُهِمَ أنَّها أربعون ليلةً .

وقيل : بل هي للتَّأسيس ، لاحتمالِ أن يتوهَّم مُتوهِّمٌ بعشر ساعات ، أو غير ذلك ، وهو بعيدٌ .

وقوله ربِّهِ ولم يقل : مِيقَاتُنَا جَرْياً على " واعَدْنَا " لِمَا في إظهار هذا الاسمِ الشَّريف من الاعترافِ بربوبية اللَّه له وإصلاحه له .

فصل

روي أنَّ موسى – عليه الصَّلاةُ والسَّلام – وعد بني إسرائيل وهو بمصر : إن أهلك اللَّه عدوَّهم ؛ أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلمَّا هلك فرعونُ سأل موسى ربه الكتاب فهذه الآيةُ في بيان كيفية نزول التَّوراةِ .

قوله : ﴿ وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني ﴾

الجمهور على فتح نون هَارُونَ وفيه ثلاثة أوجه :

الأول : أنه مجرورٌ بدلاً من أخيهِ .

الثاني : أنَّه عطفُ بيان له .

الثالث : أنه منصوبٌ بإضمار : أعني ، وقُرِئ شاذاً بالضَّمِّ ، وفيه وجهان :

أحدهما : أَنَّهُ مُنَادَى حُذِفَ منه حرفُ النِّداءِ ، أي : يا هارونُ كقوله : ﴿ يُوسُفُ ﴾ [يوسف : 29] .

والثاني : أَنَّهُ خبر مبتدأ محذوف ، أي : هُو هارونُ .

(194/285)

وهذا في المعنى كالوجهِ الذي تقدَّم من أنه منصوبٌ بإضمار : أعني ، فإنَّ كليهما قطع .

وقال أبو البقاء : " ولو قُرِىءَ بالرَّفْعِ " وذكرهما ، وكأَنَّهُ لم يَطَّلِعْ على أنها قراءة .

قال : " ومن دعاك منهم إلى الفَسَادِ ؛ فلا تتبعه ، ولا تطعه " وقال اخْلُفْني أي : كن خليفتي في قومي وأَصْلِحْ وكُنْ مصلحاً ، أو وَأَصْلِحْ ما يجبُ أن يُصْلَحَ من أمور بني إسرائيل .

﴿ وَقَالَ موسى ﴾ عند انطلاقه إلى المناجاة لأَخِيهِ هارُونَ .

فإن قيل : إن هارون كان شريك موسى - عليهما الصَّلاة والسَّلام - في النبوَّةِ ، فكيف جعله خليفة لنفسه ؛ فإن شريك الإنسانِ أعلى حالاً من خليفته وَرد الإنسان من منصبه الأعلى إلى الأدْنَى يكون إهانة له .

فالجوابُ : أن الأَمْرَ ، وإن كان كما ذكرتم ، إلاَّ أَنَّ مُوسى - عليه الصَّلاة والسَّلام - كان هو الأصل في تلك النبوَّةِ .

فإن قيل : لما كان هارُون نبيّاً ، والنَّبيُّ لا يفعلُ إلاَّ الأصلح فكيف وصَّاهُ بالإصلاح؟

فالجوابُ : أنَّ المقصودَ من هذا الأمْرِ : التَّأكيدُ كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : 260] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 297 . 300 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

عِدَةُ الأحباب عزيزة ، فإذا حصلت المواعدة بين الأحباب ، فهي عذبة حلوة كيفما كانت ،

وفي هذا المعنى أنشدوا :

أمطلينا وسَوِّفِي . . . وعِدِينا ولا تَفِي

(195/285)

ويقال عَلَّلَ الحقُّ – سبحانه – موسى بالوعد الذي وعده بأن يُسْمِعَه مرةً أخرى كلامَه ،

وذلك أنه في المرة الأولى ابتلاه بالإسماع من غير وعد ، فلا انتظار ولا توقع ولا أمل ، فأخذ

سماعُ الخطاب بمجامع قلب موسى – عليه السلام – فعلَّق قلبه بالميقات المعلوم ليكون تأميله تعليلاً له ، ثم إن وعد الحقِّ لا يكون إلا صدقاً ، فاطمأن قلبُ موسى – عليه السلام – للميعاد ، ثم لمَّا مضت ثلاثون ليلة أتى كما سَلَفَ الوعد فزاد له عشراً في الموعد . والمطل في الإنجاز غير محبوب إلا في سُنَّةِ الأحباب ، فإن المطل عندهم أشهى من الإنجاز ، وفي قريب من هذا المعنى أنشدوا :

أقيمي لعمرك لا تهجرينا . . . ومَنِّينا المنى ، ثم امطلينا

عِدينا موعداً ما شِئْتِ إنَّا . . . نحبُّ وإنْ مطلت تواعدينا

فإما تنجزي وعدكِ أو فإنا . . . نعيش نؤمل فيك حينا

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

كان هارون – عليه السلام – حمولاً بحسن الخُلُق ؛ لمَّا كان المرورُ إلى فرعونَ استصحب موسى – عليه السلام – هارونَ ، فقال الله – سبحانه – : ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى ﴾ [طه : 32] بعد ما قال : ﴿ وَأَخِى هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾ [القصص : 34] . ولمَّا كان المرور إلى سماع الخطاب أفرده عن نفسه ، فقال : و ﴿ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾ وهذا غاية لحَمْلِ من هارون ونهاية التصبر والرضاء ، فلم يَقُلْ : لا أقيم في قومك . ولم يقل : هلاَّ تحملني مع نفسك كما استصحبتني حال المرور إلى فرعون ؟ بل صبر ورضي بما لزم ،

وهذه من شديدات بلاء الأحباب ، وفي قريب منه أنشدوا :

قال لي من أحب والبين قد . . . حلَّ وفاقاً لزفرتي وشهيقي

ما تُرى في الطريق تصنع بعدي . . . قلت : أبكي عليك طول الطريق

(196/285)

ثم إن موسى لما رجع من سماع الخطاب ، فرأى من قومه ما رأى من عبادة العِجْل أخذ برأس أخيه يجره إليه حتى استلطفه هارون – عليه السلام – في الخطاب ، فقال : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى ﴾ [طه : 94] .

ويقال لو قال هارون – عليه السلام : إن لم تعوضني عما فاتني من الصحبة فلا تعاتبني فيما لم أذنب فيه بحال ذرةً ولا حبَّةً . . لكان موضع هذه القالة .

ويقال الذنبُ كان من بني إسرائيل ، والعتاب جرى مع هارون ، وكذا الحديث والقصة ، فما كلُّ مَنْ عصى وجنى استوجب العتابَ ، فالعتابُ ممنوعُ عن الأجانب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 563.564 ﴾

(197/285)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثمانون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/286)

الجزء السادس والثمانون بعد المائتين

من الآية ﴿ 143 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 143 ﴾ نفس الآية

(4/286)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه مواعدته واحتياطه في إصلاح قومه ، شرح أمره حال المواعدة وحالهم بعد غيبته فقال : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ أي عند أول الوقت الذي قدرناه للمناجاة ؛ ولما كان مقام الجلال مهولاً لا يستطاع وعي الكلام معه ، التفت إلى مقام الإكرام فقال : ﴿ وكلمه ﴾ أي من غير واسطه ﴿ ربه ﴾ أي المحسن إليه بأنواع الإحسان المتفضل على قومه بأنواع الامتنان ، والذي سمعه موسى عليه السلام عند أهل السنة من الأشاعرة هو

الصفة الأزلية من غير صوت ولا حرف ، ولا بعد في ذلك كما لا بعد رؤية ذاته سبحانه وهي ليست بجسم ولا عرض لا جوهر ، وليس كمثله شيء ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه سبحانه كلمه في جميع الميقات وكتب له الألواح ، وقيل : إنما كلمه في أول الأربعين ، والأول أولى .

ولما كلمه بصفة الربوبية الناظر إلى العطف واللطف ، وكانت الرؤية جائزة ، اشتاق إلى الرؤية شوقاً لم يتمالك معه لما استحلاه من لذاذة الخطاب فسألها لعمله أنها جائزة ﴿ قال ﴾ مسقطاً الأداة كعادة أهل القرب – ﴿ رب أرني ﴾ أي ذاتك الأقداس بأن ترفع عني الحجاب فتجعلني متمكناً من النظر ، وهو معنى قول الحبر ابن عباس : أعطني وحقق أنها رؤية العين بقوله في جواب الأمر – ﴿ أنظر ﴾ أي أصوب تحديق العين وأشار إلى عظمته سبحانه وعلو شأنه علو العظمة لا المسافة – بالتعدية بحرف النهاية بعد أن أشار بحذف أداة النداء إلى غاية القرب بالإحسان – فقال : ﴿ إليك ﴾ أي فأراك .

(5/286)

ولما كان سبحانه قد قضى أنه عليه السلام لا يراه في الدنيا ﴿ قال ﴾ نافياً المقصود ، وهو الرؤية لا مقدمتها ، وهو النظر الذي هو التحديق بالعين ﴿ لن تراني ﴾ ودل سبحانه بهذه

العبارة على جواز رؤيته حيث لو يقل : لن أرى ، أو لن يراني أحد ؛ ثم زاد ذلك بياناً بتعليقه بممكن فقال : ﴿ ولكن انظر إلى الجبل ﴾ إشارة جبل بعهده ، وهو أعظم جبل هناك ، وزاد في الإشارة إلى الرؤية بالتعبير بأداة الشك وإتباعها بأمر ممكن فقال – : ﴿ فإن استقر مكانه ﴾ أي وجد قراره وجوداً تاماً ، وأشار إلى بعد الرؤية أيضاً وجلالة المطلوب منها بقوله : ﴿ فسوف تراني ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ فلما تجلى ربه ﴾ أي المحسن إليه بكل عطاء ومنع وبين بتعبيره باللام أنه تجلى قربه وخصوصيته ، ولو عبر بعلى مثلاً لكان أمر آخر فقال – : ﴿ للجبل ﴾ أي بأن كشف للجبل عما شاء من حجب عظمته ﴿ جعله دكاً ﴾ أي مدكوكاً ، والدك والدق أخوان ﴿ وخر ﴾ أي وقع ﴿ موسى صعقاً ﴾ أي مغشياً عليه مع صوت هائل ، فعلم أن معنى الاستدراك أنك لن تثبت لرؤيتي في هذه الدار ولا تعرف ذلك الآن ، ولكنك تعرفه بمثال أريكه وهو الجبل ، فإن الفاني – كما نقل عن الإمام مالك – لا ينبغي له أن يرى الباقي – ﴿ فلما أفاق ﴾ أي من غشيته ﴿ قال سبحانك ﴾ أي تنزيهاً لك عن أن أطلب منك ما لم تأذن فيه ﴿ تبت إليك ﴾ أي من ذلك ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ أي مبادر غاية المبادرة إلى الإيمان بكل ما أخبرت به كل ما تضمنته هذه الآيات ، فتعبيره بالإيمان في غاية المناسبة لعدم الرؤية لأن شرط الإيمان أن يكون بالغيب ، فقد ورد في نبينا (صلى الله عليه وسلم) آيتان : إحداهما يمكن أن تشير إلى الرؤية بالتعبير بالمسلمين دون المؤمنين في قوله ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ [المائدة : 163

] والثانية تومي إلى عدمها وهي ﴿ آمن الرسول ﴾ [البقرة : 285] إلى قوله : ﴿ كل آمن بالله ﴾ [البقرة : 285] - والله أعلم - ، وكل هذا تبكيت على قومه وتبكيت لهم في عبادتهم العجل وردع لهم

عن ذلك ، وتنبيه لهم على أن الإلهية مقرونة بالعظمة والكبر بعيدة جداً عن ذوي الأجسام لما يعلم سبحانه من أنهم سيكررون عبادة الأصنام ، فأثبت للإله الحق الكلام والتردي عن الرؤية بحجاب الكبر والعظمة واندكاك الجبل عند تجليه ونصب الشرع الهادي إلى أقوم سبيل تعريضاً بالعجل ، وإلى ذلك يرشد قوله تعالى : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ﴾ الآية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 108 . 109 ﴾

(6/286)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في سؤال موسى ربه الرؤية

ومن الإسرائيليات ما يذكره بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ

مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف الآية 143" فقد ذكر الثعلبي ، والبغوي ، وغيرهما عن وهب بن منبه ، وابن إسحاق قالا :

"لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب ، والصواعق ، والظلمة ، والرعد ، والبرق وأحاطت بالجبل الذي عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب ، وأمر الله ملائكة السماوات أن يعترضوا على موسى ، فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران1 البقر ، ينبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد ، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية : أن اهبطوا على موسى ، فاعترضوا عليه ، فهبطوا عليه أمثال الأسود ، لهم لجب بالتسبيح والتقديس ، ففزع العبد الضعيف ابن عمران مما رأى ، وسمع ، واقشعرت كل شعرة في رأسه وجسده ، ثم قال : لقد ندمت على مسألتي ، فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه ؟

فقال له خير الملائكة2 ورأسهم : يا موسى اصبر لما سألت ، فقليل من كثير

---

1 جمع ثور ، وهذا من سوء أدب بني إسرائيل مع الملائكة .

2 هو جبريل عليه السلام .

ما رأيت ، ثم أمر ملائكة السماء الثالثة : أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه ، فهبطوا أمثال النسور ، لهم قصف ورجف ، ولجب شديد ، وأفواههم تنبع بالتسبيح ، والتقديس كجلب الجيش العظيم ، ألوانهم كلهب النار ، ففزع موسى ، واشتد فزعه ، وأيس من الحياة ، فقال له خير الملائكة : مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه . ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة : أن اهبطوا ، فاعترضوا على موسى بن عمران ، فهبطوا عليه لا يشبههم شيء من الذين مروا به قبلهم ، ألوانهم كلهب النار ، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض ، أصواتهم عالية بالتقديس ، والتسبيح ، لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به من قبلهم ، فاصطكت ركبتاه ، وارتعد قلبه ، واشتد بكاؤه ، فقال له خير الملائكة ورأسهم : يا ابن عمران : اصبر لما سألت ، فقليل من كثير ما رأيت .

ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة : أن اهبطوا ، فاعترضوا على موسى ، فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان ، فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره ، لم ير مثلهم ، ولم يسمع مثل أصواتهم ، فامتلأ جوفه خوفا ، واشتد حزنه ، وكثر بكاؤه ، فقال له خير الملائكة ورأسهم : يا ابن عمران مكانك ، حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه .

ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة : أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه ، فهبطوا عليه في يد كل ملك منهم مثل النخلة الطويلة نارا أشد ضوءا من الشمس ، ولباسهم كلهب

النار ، إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قلبهم من ملائكة السماوات كلهم ، يقولون بشدة أصواتهم : سبوح قدوس ، رب الملائكة والروح ، رب العزة أبدا لا يموت ، وفي رأس كل ملك منهم أربعة أوجه ، فلما رآهم موسى رفع صوته ، يسبح معهم حين سبحوا ، وهو يبكي ويقول : رب اذكرني ولا تنس عبدك ، لا أدري أأنفلت مما أنا فيه أم لا ؟ إن خرجت احترقت ، وإن مكثت مت ، فقال له كبير الملائكة ورأسهم : قد أوشكت 1 يا ابن عمران أن يشتد خوفك ، وينخلع قلبك ، فاصبر للذي سألت .

---

(1) لا أدري كيف يتفق هذا وما ذكر من قبل من شدة خوفه وفزعه في المرات الخمس وهذا من أمارات التهافت .

(8/286)

ثم أمر الله أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة ، فلما بدا نور العرش ، انفرج الجبل من عظمة الرب جلا جلاله ، ورفعت ملائكة السماوات أصواتهم جميعا ، يقولون : سبحان الملك القدوس ، رب العزة أبدا لا يموت ، بشدة أصواتهم ، فارتج الجبل ، واندكت كل شجرة كانت فيه ، وخر العبد الضعيف موسى صعقا على وجهه ، ليس معه روحه ، فأرسل الله برحمته الروح ، فتغشاه ، وقلب عليه الحجر الذي كان عليه موسى ، وجعله

كهيئة القبة ؛ لئلا يحترق موسى 1 فأقام موسى يسبح الله ، ويقول : آمنت بك ربي ، وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا ، من نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه ، فما أعظمك وأعظم ملائكتك ، أنت رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، ولا يعدلك شيء ، ولا يقوم لك شيء ، ربِّ تُبْتُ إليك ، الحمد لله لا شريك لك ، ما أعظمك ، وما أجللك رب العالمين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ ، وبعد أن ذكر الأقوال الكثيرة فيما تبدى من نور الله ، قال : ووقع في بعض التفاسير : طارت لعظمته ستة أجبل ، وقعت ثلاثة بالمدينة : أحد ، وورقان ورضوى ، ووقعت ثلاثة بمكة : ثور ، وثبير ، وحراء 2 .

وهذه المرويات وأمثالها مما لا نشك أنها من إسرائيليات بني إسرائيل ، وكذبهم على الله ، وعلى الأنبياء ، وعلى الملائكة ، فلا تلقِ إليها بالًا ، وليس تفسير الآية في حاجة إلى هذه المرويات ، والآية ظاهرة واضحة ، وليس فيها ما يدل على امتناع رؤية الله في الآخرة كما دل على ذلك القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة المتواترة ، وغاية ما تدل عليه امتناع الرؤية البصرية في الدنيا ؛ لأن العين الفانية لا تقدر أن ترى الذات الباقية .

ومن ذلك أيضا : ما ذكره الثعلبي ، والبغوي ، والزمخشري في تفاسيرهم عند قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ أي : مغشيا عليه ، وليس المراد ميتا كما قال قتادة .

فقد قال البغوي : في بعض الكتب : إن ملائكة السماوات أتوا موسى وهو مغشي عليه ، فجعلوا يركلونه بأرجلهم ، ويقولون : يا ابن النساء الحيض ، أطمعت في رؤية

1 وهذا تهافت آخر وأمارة من أمارات الاختلاق ، أليس الله بقادر على حمايته من غير الروح ، والحجر ؟ .

2 تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير ج3 من ص 547- 550 .

(9/286)

رب العزة ؟1 ! ! وذكر مثل هذا الزمخشري في تفسيره ، وقد نقلها ؛ لأنها تساعده على إثبات مذهبه الفاسد وجماعته ، وهو استحالة رؤية الله في الدنيا ، والآخرة .

وهذا وأمثاله مما لا نشك أنه من الإسرائيليات المكذوبة ، وموقف بني إسرائيل من موسى ، ومن جميع أنبياء الله معروف ، فهم يحاولون تنقيصهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وقد تنبه إلى هذا الإمام أحمد بن المنير صاحب "الانتصاف من صاحب الكشاف" ، فقال : وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عونا وظهرا على المعتقد الفاسد ، والوجه التورّك بالغلط على ناقلها ، وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى الكليم بالوكز بالرجل ، والغمص في الخطاب2 .

ويرحم الله الإمام الآلوسي حيث قال في تفسيره : "ونقل بعض القصاصين ، أن الملائكة كانت تمر عليه حينئذ ، فيلكزونه بأرجلهم ، ويقولون : يا ابن النساء الحيض ، أطمعت في

رؤية ربك ؟ وهو كلام ساقط لا يُعوَّل عليه بوجه ؛ فإن الملائكة عليهم السلام مما يجب تبرئتهم من إهانة الكليم بالوكز بالرجل ، والغمص في الخطاب3 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 198 . 201 ﴾

---

1 المرجع السابق ص 551 .

2 تفسير الكشاف عند تفسير قوله : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ .

3 تفسير الآلوسي ج 9 ص 46 ط . منير .

(10/286)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾

اعلم أنه تعالى بين الفائدة التي لأجلها حضر موسى عليه السلام الميقات وهي أن كلمه ربه ، وفي الآية مسائل شريفة عالية من العلوم الإلهية .

المسألة الأولى :

دلت الآية على أنه تعالى كلم موسى عليه السلام والناس مختلفون في كلام الله تعالى فمنهم من قال : كلامه عبارة عن الحروف المؤلفة المنتظمة ، ومنهم من قال : كلامه صفة حقيقة مغايرة للحروف والأصوات .

أما القائلون بالقول الأول فالعقلاء المحصلون ، اتفقوا على أنه يجب كونه حادثاً كائناً بعد أن لم يكن .

وزعمت الحنابلة والحشوية أن الكلام المركب من الحروف والأصوات قديم ، وهذا القول أخس من أن يلتفت العاقل إليه ، وذلك أني قلت يوماً إنه تعالى إما أن يتكلم بهذه الحروف على الجمع أو على التعاقب والتوالي ، والأول : باطل لأن هذه الكلمات المسموعة المفهومة إنما تكون مفهومة إذا كانت حروفها متوالية فأما إذا كانت حروفها توجد دفعة واحدة فذاك لا يكون مفيداً ألبتة ، والثاني : يوجب كونها حادثة ، لأن الحروف إذا كانت متوالية فعند مجيء الثاني ينقضي الأول ، فالأول حادث لأن كل ما ثبت عدمه امتنع قدمه ، والثاني حادث ، لأن كل ما كان وجود متأخراً عن وجوده غيره فهو حادث ، فثبت أنه بتقدير أن يكون كلام الله تعالى عبارة عن مجرد الحروف والأصوات محدث .

إذا ثبت هذا فنقول للناس ههنا مذهبان : الأول : أن محل تلك الحروف والأصوات الحادثة هو ذات الله تعالى ، وهو قول الكرامية .

الثاني : أن محلها جسم مباين لذات الله تعالى كالشجرة وغير ، وهو قول المعتزلة .

أما القول الثاني : وهو أن كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات ، فهذا قول أكثر أهل السنة والجماعة .

(11/286)

وتلك الصفة قديمة أزلية .

والقائلون بهذا القول اختلفوا في الشيء الذي سمعه موسى عليه السلام .

فقالت الأشعرية : إن موسى عليه السلام سمع تلك الصفة الحقيقية الأزلية قالوا : وكما لا يتعذر رؤية ذاته ، مع أن ذاته ليست جسماً ولا عرضاً ، فكذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه لا يكون حرفاً ولا صوتاً .

وقال أبو منصور الماتريدي : الذي سمعه موسى عليه السلام أصوات مقطعة وحروف مؤلفة قائمة بالشجرة ، فأما الصفة الأزلية التي ليست بحرف ولا صوت فذاك ما سمعه موسى عليه السلام ألبتة ، فهذا تفصيل مذاهب الناس في سماع كلام الله تعالى .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أنه تعالى كلم موسى وحده أو كلمه مع أقوام آخرين وظاهر الآية يدل على الأول .

لأن قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ يدل على تخصيص موسى عليه السلام بهذا التشريف

والتخصيص بالذكر يداً على نفي الحكم عما عداه ، وقال القاضي : بل السبعون المختارون للميقات سمعوا أيضاً كلام الله تعالى .

قال : لأن الغرض بإحضارهم أن يخبروا قوم موسى عليه السلام عما يجري هناك ، وهذا المقصود لا يتم إلا عند سماع الكلام وأيضاً فإن تكليم الله تعالى موسى عليه السلام على هذا الوجه معجز ، وقد تقدمت نبوة موسى عليه السلام لا بد من ظهور هذا المعنى لغيره .

المسألة الثالثة :

قال أصحابنا هذه الآية تدل على أنه سبحانه يجوز أن يرى وتقريره من أربعة أوجه .

الأول : أن الآية دالة على أن موسى عليه السلام سأل الرؤية ، ولا شك أن موسى عليه السلام يكون عارفاً بما يجب ويجوز ويمتنع على الله تعالى ، فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها ، وحيث سألها ؛ علمنا أن الرؤية جائزة على الله تعالى .

(12/286)

قال القاضي : الذي قاله المحصلون من العلماء في ذلك أقوال أربعة : أحدها : ما قاله الحسن وغيره : أن موسى عليه السلام ما عرف أن الرؤية غير جائزة على الله تعالى ، قال ومع الجهل بهذا المعنى قد يكون المرء عارفاً بربه وبعدله وتوحيده ، فلم يبعد أن يكون العلم بامتناع

الرؤية وجوازها موقوفاً على السمع .

وثانيها : أن موسى عليه السلام سأل الرؤية على لسان قومه ، فقد كانوا جاهلين بذلك يكررون المسألة عليه يقولون : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : 55] فسأل موسى الرؤية لا لنفسه ، فلما ورد المنع ظهر أن ذلك لا سبيل إليه ، وهذه طريقة أبي علي وأبي هاشم .

وثالثها : أن موسى عليه السلام سأل ربه من عنده معرفة باهرة باضطرار وأهل هذا التأويل مختلفون ، فمنهم من يقول سأل ربه المعرفة الضرورية .

ومنهم من يقول : بل سأله إظهار الآيات الباهرة التي عندها تزول الخواطر والوساوس عن معرفته ، وإن كانت من فعله ، كما نقوله في معرفة أهل الآخرة ، وهو الذي اختاره أبو القاسم الكعبي .

ورابعها : المقصود من هذا السؤال أن يذكر تعالى من الدلائل السمعية ما يدل على امتناع رؤيته حتى يتأكد الدليل العقلي بالدليل السمعي .

وتعاضد الدلائل أمر مطلوب للعقلاء ، وهو الذي ذكره أو بكر الأصم فهذا مجموع أقوال المعتزلة في تأويل هذه الآية .

قال أصحابنا أما الوجه الأول ، فضعيف ويدل عليه وجوه : الأول : إجماع العقلاء على أن موسى عليه السلام ما كان في العلم بالله أقل منزلة ومرتبة من أراذل المعتزلة ، فلما كان كلهم

عالمين بامتناع الرؤية على الله تعالى وفرضنا أن موسى عليه السلام لم يعرف ذلك ، كانت معرفته بالله أقل درجة من معرفة كل واحد من أراذل المعتزلة ، وذلك باطل بإجماع المسلمين .

الثاني : أن المعتزلة يدعون العلم الضروري ، بأن كل ما كان مرئياً ، فإنه يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل .

(13/286)

فإما أن يقال إن موسى عليه السلام حصل له هذا العلم أو لم يحصل له هذا العلم .

فإن كان الأول كان تجويزه لكونه تعالى مرئياً ، يوجب تجويز كونه تعالى حاصلاً في الحيز والجهة ، وتجويز هذا المعنى على الله تعالى يوجب الكفر عند المعتزلة ، فيلزمهم كون موسى عليه السلام كافراً ، وذلك لا يقوله عاقل .

وإن كان الثاني فنقول : لما كان العلم بأن كل مرئي يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل علماً بديهياً ضرورياً ، ثم فرضنا أن هذا العلم ما كان حاصلاً لموسى عليه السلام ، لزم أن يقال إن موسى عليه السلام لم يحصل فيه جميع العلوم الضرورية ، ومن كان كذلك فهو مجنون ، فيلزمهم الحكم بأنه عليه السلام ، ما كان كامل العقل بل كان مجنوناً وذلك كفر بإجماع الأمة

، فثبت أن القول بأن موسى عليه السلام ، ما كان عالماً بامتناع الرؤية مع فرض أنه تعالى ممتنع الرؤية يوجب أحد هذين القسمين الباطلين ، فكان القول به باطلاً والله أعلم .

وأما التأويل الثاني : وهو أنه عليه السلام إنما سأل الرؤية لقومه لا لنفسه ، فهو أيضاً فاسد ويدل عليه وجوه : الأول : أنه لو كان الأمر كذلك لقال موسى : أرهم ينظروا إليك ، ولقال الله تعالى : لن يروني ، فلما لم يكن كذلك ، بطل هذا التأويل .

والثاني : أنه لو كان هذا السؤال طلباً للمحال ، لمنعهم عنه كما أنهم لما قالوا : ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] منعهم عنه بقوله : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : 138] والثالث : أنه كان يجب على موسى إقامة الدلائل القاطعة على أنه تعالى لا تجوز رؤيته ، وأن يمنع قومه بتلك الدلائل عن هذا السؤال ، فأما أن لا يذكر شيئاً من تلك الدلائل ألبتة ، مع أن ذكرها كان فرضاً مضيقاً ، كان هذا نسبة لترك الواجب إلى موسى عليه السلام ، وأنه لا يجوز .

والرابع : أن أولئك الأقوام الذين طلبوا الرؤية ، إما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى عليه السلام .

(14/286)

أو ما آمنوا بها ، فإن كان الأول كفاهم في الامتناع عن ذلك السؤال الباطل ، مجرد قول موسى عليه السلام ، فلا حاجة إلى هذا السؤال الذي ذكره موسى عليه السلام ، وإن كان الثاني لم ينتفعوا بهذا الجواب لأنهم يقولون له لا نسلم أن الله منع من الرؤية ، بل هذا قول افتريته على الله تعالى ، فثبت أن على كلا التقديرين لا فائدة للقوم في قول موسى عليه السلام ﴿ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ .

وأما التأويل الثالث : فبعيد أيضاً ويدل عليه وجوه : الأول : أن على هذا التقدير يكون معنى الآية أرني أمراً أنظر إلى أمرك ، ثم حذف المفعول والمضاف ، إلا أن سياق الآية يدل على بطلان هذا ، وهو قوله : ﴿ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِى ﴾ [الأعراف : 143] فسوف تراني ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ ولا يجوز أن يحمل جميع هذا على حذف المضاف .

الثاني : أنه تعالى أراه من الآية ما لا غاية بعدها كالعصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وإظلال الجبل ، فكيف يمكن بعد هذه الأحوال طلب آية ظاهرة قاهرة .

والثالث : أنه عليه السلام كان يتكلم مع الله بلا واسطة .

ففي هذه الحالة كيف يليق به أن يقول : أظهر لي آية قاهرة ظاهرة تدل على أنك موجود ؟ ومعلوم أن هذا الكلام في غاية الفساد .

الرابع : أنه لو كان المطلوب آية تدل على وجوده ، لأعطاه تلك الآية كما أعطاه سائر الآيات

ولكان لا معنى لمنعه عن ذلك ، فثبت أن هذا القول فاسد .

وأما التأويل الرابع وهو أن يقال : المقصود منه إظهار آية سمعية تقوي ما دل العقل عليه ، فهو أيضاً بعيد ، لأنه لو كان المراد ذلك ، لكان الواجب أن يقول : أريد يا إلهي أن يقوى امتناع رؤيتك بوجوه زائدة على ما ظهر في العقل ، وحيث لم يقل ذلك بل طلب الرؤية .

علمنا أن هذه التأويلات بأسرها فاسدة .

(15/286)

الحجة الثانية : من الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على أنه تعالى جائز الرؤية وذلك لأنه تعالى لو كان مستحيل الرؤية لقال : لا أرى ألا ترى أنه لو كان في يد رجل حجر فقال له إنسان ناولني هذا لآكله ، فإنه يقول له هذا لا يؤكل ، ولا يقول له لا تأكل .

ولو كان في يده بدل الحجر تفاحة ، لقال له : لا تأكلها أي هذا مما يؤكل ، ولكنك لا تأكله .

فلما قال تعالى : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ ولم يقل لا أرى ، علمنا أن هذا يدل على أنه تعالى في ذاته جائز الرؤية .

الحجة الثالثة : من الوجوه المستنبطة من هذه الآية ، أنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز ، والمعلق على الجائز جائز ، فيلزم كون الرؤية في نفسها جائزة .

إنما قلنا : إنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز ، لأنه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ واستقرار الجبل أمر جائز الوجود في نفسه .

فثبت أنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز الوجود في نفسه .

إذا ثبت هذا وجب أن تكون رؤيته جائزة الوجود في نفسها ، لأنه لما كان ذلك الشرط أمراً جائز الوجود ، لم يلزم من فرض وقوعه محال ، فبتقدير حصول ذلك الشرط ، إما أن يترتب عليه الجزاء الذي هو حصول الرؤية أو لا يترتب ، فإن ترتب عليه حصول الرؤية لزم القطع بكون الرؤية جائزة الحصول ، وإن لم يترتب عليه حصول الرؤية قدح هذا في صحة قوله ، إنه متى حصل ذلك الشرط حصلت الرؤية ، وذلك باطل .

فإن قيل : إنه تعالى علق حصول الرؤية على استقرار الجبل حال حركته ، واستقرار الجبل حال حركته محال .

(16/286)

فثبت أن حصول الرؤية معلق على شرط ممتنع الحصول ، لا على شرط جائز الحصول ، فلم يلزم صحة ما قلتموه ؟ والدليل على أن الشرط هو استقرار الجبل حال حركته أن الجبل إما

أن يقال : إنه حال ما جعل استقراره شرطاً لحصول الرؤية كان ساكناً أو متحركاً ، فإن كان الأول ، لزم حصول الرؤية بمقتضى الاشتراط ، وحيث لم تحصل علمنا أن الجبل في ذلك الوقت ما كان مستقراً ، ولما لم يكن مستقراً كان متحركاً .

فثبت أن الجبل حال ما جعل استقراره شرطاً لحصول الرؤية ، كان متحركاً لا ساكناً .

فثبت أن الشرط هو كون الجبل مستقراً حال كونه ساكناً فثبت أن الشرط الذي علق الله تعالى على حصوله حصول الرؤية ، هو كون الجبل مستقراً حال كونه متحركاً ، وأنه شرط محال .

والجواب : هو أن اعتبار حال الجبل من حيث هو مغاير لاعتبار حاله من حيث أنه متحرك أو ساكن ، وكونه ممتنع الخلو عن الحركة والسكون لا يمنع اعتبار حاله من حيث أنه متحرك أو ساكن ألا ترى أن الشيء لو أخذته بشرط كونه موجوداً كان واجب الوجود ، ولو أخذته بشرط كونه معدوماً كان واجب العدم ، فلو أخذته من حيث هو هو مع قطع النظر عن كونه موجوداً أو كونه معدوماً كان ممكن الوجود فكذا ههنا الذي جعل شرطاً في اللفظ هو استقرار الجبل ، وهذا القدر ممكن الوجود فثبت أن القدر الذي جعل شرطاً أمر ممكن الوجود جائز الحصول ، وهذا القدر يكفي لبناء المطلوب عليه والله أعلم .

الحجة الرابعة : من الوجوه المستنبطة من هذه الآية في إثبات جواز الرؤية قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّا ﴾ وهذا التجلي هو الرؤية ، ويدل عليه وجهان : الأول

: إن العلم بالشيء يجلي لذلك الشيء ، وإبصار الشيء أيضاً يجلي لذلك الشيء .

إلا أن الإبصار في كونه مجلياً أكمل من العلم به وحمل اللفظ على المفهوم الأكمل أولى .

(17/286)

الثاني : أن المقصود من ذكر هذه الآية تقرير أن الإنسان لا يطيق رؤية الله تعالى بدليل أن الجبل مع عظمته لما رأى الله تعالى اندك وتفرقت أجزاؤه ولولا أن المراد من التجلي ما ذكرناه وإلا لم يحصل هذا المقصود .

فثبت أن قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّا ﴾ هو أن الجبل لما رأى الله تعالى اندكت أجزاؤه ، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أنه تعالى جائز الرؤية أقصى ما في الباب أن يقال : الجبل جماد والجماد يمتنع أن يرى شيئاً ، إلا أنا نقول : لا يمتنع أن يقال : إنه تعالى خلق في ذات الجبل الحياة والعقل والفهم ، ثم خلق فيه رؤية متعلقة بذات الله تعالى ، والدليل عليه أنه تعالى قال : ﴿ ياجبال أَوِّبِى مَعَهُ والطير ﴾ [سبأ : 10] وكونه مخاطباً بهذا الخطاب مشروط بحصول الحياة والعقل فيه فكذا ههنا ، فثبت بهذه الوجوه الأربعة دلالة هذه الآية على أنه تعالى جائز الرؤية .

أمنا المعتزلة فقالوا : إنه ثبت بالدلائل العقلية والسمعية أنه تعالى تمتنع رؤيته فوجب صرف

هذه الظواهر إلى التأويلات .

أما دلائلهم العقلية فقد بينا في الكتب العقلية ضعفها وسقوطها ، فلا حاجة هنا إلى ذكرها .

وأما دلائلهم السمعية فأقوى ما لهم في هذا الباب التمسك بقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] قد سبق في سورة الأنعام ما في هذه الآية من المباحث الدقيقة واللطائف العميقة .

واعلم أن القوم تمسكوا بهذه الآية على عدم الرؤية من وجوه : الأول : التمسك بقوله تعالى : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ وتقرير الاستدلال أن يقال : إن هذه الآية تدل على أن موسى عليه السلام لا يرى الله ألبتة لا في الدنيا ولا في القيامة ، ومتى ثبت هذا ثبت أن أحداً لا يراه ألبتة ومتى ثبت هذا ثبت أنه تعالى يمتنع أن يرى ، فهذه مقدمات ثلاثة .

أما المقدمة الأولى : فتقريرها من وجوه : الأول : ما نقل عن أهل اللغة أن كلمة "لن" للتأبيد .

(18/286)

قال الواحدي رحمه الله : هذه دعوى باطلة على أهل اللغة ، وليس يشهد بصحته كتاب معتبر ، ولا نقل صحيح .

وقال أصحابنا : الدليل على فساده قوله تعالى في صفة اليهود ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [البقرة : 95] مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة .

والثاني : أن قوله : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ يتناول الأوقات كلها بدليل صحة استثناء أي وقت أريد من هذه الكلمة ، ومقتضى الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل تحت اللفظ وهذا أيضاً ضعيف ، لأن تأثير الاستثناء في صرف الصحة لا في صرف الوجوب على ما هو مقرر في أصول الفقه .

الثالث : أن قوله لن أفعل كذا ، يفيد تأكيد النفي ، ومعناه أن فعله ينافي حالته كقوله تعالى : ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ [الحج : 73] وهذا يدل على أن الرؤية منافية للإلهية ، والجواب : أن ﴿ لَنْ ﴾ لتأكيد نفي ما وقع السؤال عنه ، والسؤال إنما وقع عن تحصيل الرؤية في الحال .

فكان قوله : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ نفياً لذلك المطلوب ، فأما أن يفيد النفي الدائم فلا .

فهذه جملة الكلام في تقرير هذه المسألة .

أما المقدمة الثانية : فقالوا : القائل اثنان : قائل يقول : إن المؤمنين يرون الله وموسى أيضاً يراه ، وقائل ينفي الرؤية عن الكل ، أما القول بإثباته لغير موسى ونفيه عن موسى فهو قول خارق للإجماع وهو باطل .

وأما المقدمة الثالثة : فهي أن كل من نفى الوقوع نفى الصحة ، فالقول بثبوت الصحة مع نفي

الوقوع قول على خلاف الإجماع وهو باطل .

واعلم أن بناء هذه الدلالة على صحة المقدمة الأولى ، فلما ثبت ضعفها سقط هذا الاستدلال بالكلية .

الحجة الثانية للقوم : أنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه خر صعقاً ، ولو كانت الرؤية جائزة .

فلم خر عند سؤالها صعقاً ؟

(19/286)

والحجة الثالثة : أنه عليه السلام لما أفاق قال سبحانك ، وهذه الكلمة للتنزيه ، فوجب أن يكون المراد منه تنزيه الله تعالى عما تقدم ذكره ، والذي تقدم ذكره هو رؤية الله تعالى ، فكان قوله : ﴿ سبحانك ﴾ تنزيهاً له عن الرؤية فثبت بهذا أن نفي الرؤية تنزيه الله تعالى وتنزيه الله إنما يكون عن النقائص والآفات ، فوجب كون الرؤية من النقائص والآفات ، وذلك على الله محال .

فثبت أن الرؤية على الله ممتنعة .

والحجة الرابعة : قوله تعالى حكاية عن موسى لما أفاق أنه قال : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ ولولا أن

طلب الرؤية ذنب لما تاب منه ، ولولا أنه ذنب ينافي صحة الإسلام لما قال : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ .

واعلم أن أصحابنا قالوا : الرؤية كانت جائزة ، إلا أنه عليه السلام سألها بغير الإذن وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، فكانت التوبة توبة عن هذا المعنى لا عما ذكروه ، فهذا جملة الكلام في هذه الآية .

والله أعلم بالصواب .

المسألة الرابعة :

في البحث عن هذه الآية .

نقل عن ابن عباس أنه قال : جاء موسى عليه السلام ومعه السبعون وصعد موسى الجبل وبقي السبعون في أسفل الجبل ، وكلم الله موسى وكتب له في الألواح كتاباً وقربه نجياً ، فلما سمع موسى صرير القلم عظم شوقه ، فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : ثاني مفعولي ﴿ أَرِنِى ﴾ محذوف ، أي ﴿ أَرِنِى ﴾ نفسك ﴿ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ وفي لفظ الآية سؤالات :

السؤال الأول : النظر : إما أن يكون عبارة عن الرؤية أو عن مقدمتها وهي تقليب الحدقة السليمة إلى جانب المرئي التماساً لرؤيته ، وعلى التقدير الأول : يكون المعنى أرني حتى أراك ، وهذا فاسد ، وعلى التقدير الثاني : يكون المعنى أرني حتى أقلب الحدقة إلى

جانبك وهذا فاسد لوجهين : أحدهما : أنه يقتضي إثبات الجهة لله تعالى .

والثاني : أن تقليب الحدقة إلى جهة المرئي مقدمة للرؤية فجعله كالنتيجة عن الرؤية وذلك فاسد .

(20/286)

والجواب : أن قوله : ﴿ أَرِنِى ﴾ معناه اجعلني متمكناً من رؤيتك حتى أنظر إليك وأراك .

السؤال الثاني : كيف قال : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ ولم يقل لن تنظر إلي ، حتى يكون مطابقاً لقوله : ﴿ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ .

والجواب : أن النظر لما كان مقدمة للرؤية كان المقصود هو الرؤية لا النظر الذي لا رؤية معه .

والسؤال الثالث : كيف اتصل الاستدراك في قوله : ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ بما قبله ؟

والجواب : المقصود منه تعظيم أمر الرؤية وأن أحداً لا يقوى على رؤية الله تعالى إلا إذا قواه الله تعالى بمعونته وتأييده ، ألا ترى أنه لما ظهر أثر التجلي والرؤية للجبل اندك وتفرق ، فهذا من هذا الوجه يدل على تعظيم أمر الرؤية .

أما قوله : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ فقال الزجاج : ﴿ تجلى ﴾ أي ظهر وبان ، ومنه يقال جلوت العروس إذا أبرزتها ، وجلوت المرآة والسيف إذا أزلت ما عليهما من الصدأ ، وقوله

: ﴿ جَعَلَهُ دَكّا ﴾ قال الزجاج : يجوز ﴿ دَكّاً ﴾ بالتنوين و ﴿ دَكَّاء ﴾ بغير تنوين أي جعله مدقوقاً مع الأرض يقال : دككت الشيء إذا دققته أدكه دكاً ، والدكاء والدكاوات : الروابي التي تكون مع الأرض ناشزة .

فعلى هذا ، الدك مصدر ، والدكاء اسم .

ثم روى الواحدي بإسناده عن الأخفش في قوله : ﴿ جَعَلَهُ دَكّا ﴾ أنه قال : دكه دكاً مصدر مؤكد ، ويجوز جعله ذا دك .

قال ومن قرأ ﴿ دَكَّاء ﴾ ممدوداً أراد جعله دكاء أي أرضاً مرتفعة ، وهو موافق لما روي عن ابن عباس أنه قال : جعله تراباً .

وقوله : ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقًا ﴾ قال الليث : الصعق مثل الغشي يأخذ الإنسان ، والصعقة الغشية .

يقال : صعق الرجل وصعق ، فمن قال صعق فهو صعق .

ومن قال صعق فهو مصعوق .

ويقال أيضاً : صعق إذا مات ، ومنه قوله تعالى :

﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ [الزمر : 68] فسروه بالموت .

ومنه قوله : ﴿ يَوْمَهُمُ الذى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ أي يموتون .

قال صاحب "الكشاف" : صعق أصله من الصاعقة ، ويقال لها : الصاقعة من صقعه إذا ضربه على رأسه .

إذا عرفت هذا فنقول : فسر ابن عباس قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقًا ﴾ بالغشي ، وفسره قتادة بالموت ، والأول أقوى ، لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ قال الزجاج : ولا يكاد يقال للميت : قد أفاق من موته ، ولكن يقال للذي يغشى عليه : أنه أفاق من غشيه ، لأن الله تعالى قال في الذين ماتوا : ﴿ ثُمَّ بعثناكم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة : 56] .

أما قوله : ﴿ قَالَ سبحانك ﴾ أي تنزيهاً لك عن أن يسألك غيرك شيئاً بغير إذنك ، ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ وفيه وجهان : الأول : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من سؤال الرؤية في الدنيا . الثاني : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من سؤال الرؤية بغير إذنك ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ بأنك لا ترى في الدنيا ، أو يقال : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ بأنه لا يجوز السؤال منك إلا بإذنك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 186 . 191 ﴾

(22/286)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا ﴾

يعني : لميعادنا لتمام أربعين يوماً .

ويقال : لميقاتنا أي للوقت الذي وقّتنا له .

﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ فسمع موسى كلام الله تعالى بغير وحي ، فاشتاق إلى رؤيته ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ انظر صار جزماً لأنه جواب الأمر ﴿ قَالَ ﴾ له ربه : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ يعني : إنك لن تراني في الدنيا ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ يعني : انظر إلى أعظم جبل بمدين ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ يعني : سوف تقدر أن تراني إن استقر الجبل مكانه .

معناه : كما أن الجبل لا يستقر لرؤيتي فإنك لن تطيق رؤيتي ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ قال الضحاك : ألقى عليه من نوره فاضطرب الجبل من هيبته يعني : من رهبة الله تعالى .

وقال القتبي : تجلى ربه للجبل أي ظهر وأظهر من أمره ما شاء .

يقال : جلوت المرأة والسيف إذا أبرزته من الصدأ وكشف عنه .

وجلوت العروس إذا أبرزتها .

﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ أي : جبل زبير ﴿ جَعَلَهُ دَكّا ﴾ قرأ حمزة والكسائي جعله دكاء بالهمز يعني : جعله أرضاً دكاء .

وقرأ الباقون دَكّاً بالتنوين يعني : دَكَّه دَكّاً .

قال بعضهم : صار الجبل قطعاً ، فصار على ثمان قطع .

فوقع ثلاث بمكة وثلاث بالمدينة واثنان بالشام .

ويقال : صار ستة فرق .

ويقال : صار أربع فرق .

ويقال : صار كله رملاً عالجاً أي ليناً .

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : جعله دكاً أي تراباً ، وقال القتبي : جعله دكاً أي ألصقه بالأرض .

ويقال : ناقة دكاء إذا لم يكن لها سنام أي تراباً .

وروي عن وهب بن منبه أنه قال : لما سأل موسى النظر إلى ربه أمر الله الضباب والصواعق والظلمات والرعد والبرق فهبطن حتى أحطن بالجبل ، وأمر الله تعالى ملائكة السموات فهبطوا ، وارتعدت فرائص موسى وتغير لونه .

(23/286)

فقال له جبريل : اصبر لما سألت ربك ، فإنما رأيت قليلاً من كثير فلما غشي الجبل النور ، خمد كل شيء ، وانقطعت أصوات الملائكة وانهار الجبل من خشية الله تعالى .

حتى صار دكاً .

قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقًا ﴾ قال مقاتل : يعني ميتاً .

كقوله عز وجل : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات ﴾ يعني : مات .

ويقال : وخر موسى صعقاً أي مغشياً عليه ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ من غشيانه قال مقاتل : رد الله حياته إليه ﴿ قَالَ سبحانك ﴾ أي تنزيهاً لك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من قولي ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ .

روى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : قد كان قبله من المؤمنين .

ولكن يقول أول من آمن بأنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة .

وقال مقاتل : أول المؤمنين بأنك لا تُرى في الدنيا .

وقال القتبي : أراد به في زمانه كقوله : ﴿ يا بنى إسراءيل اذكروا نِعْمَتِى التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [البقرة : 47] ويقال : معناه تبت إليك بأن لا أسألك بعد هذا سؤالاً محالاً .

فاعترف أنه طلب شيئاً في غير حينه وأوانه ووقته .

وقال الزجاج : قد قال موسى : ﴿ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أرني أمراً عظيماً لا يرى مثله في

الدنيا مما لا تحتمل عليه نفسي ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ أي : أمر ربه قال : وهذا خطأ .

ولكن لما سمع كلامه قال يا رب : إنّي سمعت كلامك وأحب أن أراك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(24/286)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا ﴾

أي الوقت سأله أن يكلمه فيه والميقات مفعال من الوقت كالميعاد والبلاد انقلبت الواو ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها .

قال المفسّرون : إنّ موسى (عليه السلام) تطهّر وطهّر ثيابه لميعاد ربه فلما أتى بطور سيناء ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ وناجاه وأدناه حتّى سمع حروف القلم فاستجلى كلامه واشتاق [إلى رؤيته] وطمع فيها ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : أعطني أنظر إليك ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ وليس بشراً [لا] يطيق النظر إليّ في الدنيا ، من نظر إليّ مات ، فقال له : سمعت كلامك واشتقت إلى النظر إليك [فلئن] أنظر إليك وأموت

أحب إليّ من أن أعيش ولا أراك فقال الله تعالى ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ فهو أعظم جبل بمدين يُقال له : زبير فلمّا سمعت الجبال ذلك تعاظمت رجاء أن يتجلّى منها الله لها وجعل زبير يتواضع من تبيان فلمّا رأى الله تعالى تواضعه رفعه من بينهما وخصّه بالتجلّي .

(25/286)

قال السدي : لمّا كلّم الله موسى خاض الخبيث إبليس في الأرض حتّى خرج بين قدمي موسى فوسوس إليه وقال : إن مكلمك الشيطان فعند ذلك سأل الرؤية فقال الله تعالى : لن تراني [. . . . .] تعلّقت [. . . . .] الرؤية بهذه الآية ، ولا دليل لهم فيها لأنّ (لن) ههنا لا توجب التأبيد وإنما هي للتوقيت لقوله تعالى حكاية عن اليهود ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ ﴾ [البقرة : 95] يعني الموت ثمّ حكى عنهم أنهم يقولون لمالك ﴿ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : 77] . و ﴿ ياليتها كَانَتِ القاضية ﴾ [الحاقة : 27] يعني الموت ، وقال سبحانه ﴿ لَن تَنَالُواْ البر ﴾ [آل عمران : 92] يعني الجنّة ﴿ حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] وقد يدخل الجنّة مَنْ لا يُنفق ممّا [علمت] فمعنى الآية لن تراني في الدنيا وإنما تراني في العقبى .

قال عبد العزيز بن يحيى : قوله ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ جواب قول موسى (أرني أنظر إليك) ولا

تقع على الآخرة ، لأن موسى لم يقل أرني أنظر إليك في الآخرة إنما سأله الرؤية في الدنيا فأُجيب عما سأل ولا حجّة فيه لمَنْ أنكر الرؤية .

وقيل : معنى ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ أي لا تقدر أن تراني ، وقيل : معناه لن تراني بعين فانية وإنما تراني بعين باقية ، وقيل : لن تراني قبل محمد وأُمته وإنما تراني بعد محمد وأُمته ، وقيل : معناه لن تراني بالسؤال والدعاء وإنما تراني بالنوال والعطاء إنّه لو أعطاه إياه بسؤاله لكانت الرؤية مكافأة السؤال ، ويجوز أن يكون فعله مكافأة فعل عبده ولا يجوز أن يكون هو مكافأة فعل عبده .

وقيل : معناه لن تراني بالعين التي رأيت بها عدوي وذلك أنّ الشيطان تراءى له فوسوس إليه ، فقال الله تعالى : يا موسى أما تعلم أنّ رؤية الخبيث والله لا يجتمعان في حال واحد ومكان واحد وزمان واحد .

(26/286)

وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت عليّ بن مهدي الطبري يقول : لو كان سؤال موسى مستحيلاً لما أقدم عليه نبي الله موسى (عليه السلام) مع علمه ومعرفته بالله عن اسمه كما لم تجز أن يسأله لنفسه صاحبة ولا ولداً .

وقال الله عزّ وجلّ : ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ واستقراره بكونه وثباته .

قال المتكلّمون من أهل الشام : لما علق الله [الرؤية باستقراره] دلّ على جواز الرؤية لأن استقراره غير محال فدلّ على أن ما [علق] عليه من كون الرؤية غير محال أيضاً ألا ترى أن دخول الكفار الجنّة لما كان مستحيلاً علقه بشيء مستحيل . وهو قوله ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط ﴾ [الأعراف : 40] .

وقال أهل الحكمة والاشارة : إن الكليم لما أراد الخروج إلى الميقات جعل بين قومه وبين ربه واسطة يقول لأخيه هارون : ﴿ اخلفني فِي قَوْمِي ﴾ فلما سأل الرؤية جعل الله تعالى بينه وبينها واسطة وهو الجبل لقوله تعالى ﴿ لَن تَرَانِي ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ فقال : وكأنّه يقول إن لم أصلح لخلافتك دون أخيك فأنت أيضاً لأنه لم ترونني دون استقرار الجبل ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ .

قال وهب : لما سأل موسى الرؤية أرسل إليه الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الذي عليه موسى فأمر الله ملائكة السماوات أن يعترضوا على موسى أربعة فراسخ من كل ناحية فمرت به ملائكة سماء الدنيا كثير ، إن البقر تتبع أفواههم بالتقديس والتسبيح بأصوات عظيمة كأصوات الرعد الشديد ، ثمّ أمر الله ملائكة سماء الثانية أن اهبطوا على موسى فهبطوا عليه مثل الأسد لهم لجبّ بالتسبيح والتقديس ففزع

العبد الضعيف ابن عمران مما رأى وسمع واقشعر كل شعرة في رأسه وجسده .

ثمّ قال : ندمت على مسألتي فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه ؟

(27/286)

فقال له حبر الملائكة ورأسهم : يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثمّ هبطت ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تتبع بالتسبيح بالتقديس كجلب الجيش العظيم ولهب النار .

ثمّ هبطت عليه ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شيء من الذين مروا به قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به من قبلهم .

ثمّ هبطت عليهم ملائكة السماء الخامسة سبعة ألوان فلم يستطيع أن يتبعهم طرفه ولم يرَ مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفاً واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له حبر الملائكة ورأسهم : يا بن عمران مكانك حتّى ترى ما لا تصبر عليه ثمّ أمر الله تعالى ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدي أراد أن يراني فاعترفوا عليه فهبطوا عليه في يد كل ملك مثل النخلة العظيمة الطويلة نار أشد ضوءاً من الشمس ولباسهم كلهيب النار ، إذا

سبحوا وقدّسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السماوات كلهم يقولون بشدة أصواتهم : سبوح قدوس رب العزّة أبداً لا يموت ، في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه ، فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم حين سبحوا وهو يبكي ويقول : رب اذكرني ولا تنسَ عبدك لا أدري أنقلب مما أنا فيه أم لا ؟ إن خرجت أُحرقت وإن مكثت متّ ، فقال له رأس الملائكة ورئيسهم : قد أوشكت يا بن عمران أن يمتلىء جوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي جلست .

(28/286)

ثمّ أمر الله تعالى أن يحمل عرشه في ملائكة السماء السابعة وقال : أروه ، فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة الرب ورفعت ملائكة السماوات أصواتهم جميعاً فارتج الجبل واندكت كل شجرة كانت فيه ﴿ وَخَرَّ ﴾ العبد الضعيف ﴿ موسى صَعِقاً ﴾ على وجهه ليس معه روحه فقلب الله الحجر الذي كان عليه موسى وجعله كالمعدة كهيئة القبّة لئلاّ يحترق موسى ، فأرسل الله تعالى إليه روح الحياة فقام موسى يسبح الله تعالى ويقول : آمنت بأنك ربّي وصدقت بأنه لا يراك أحد فيحيا . ومن نظر الى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، لا يعدلك شيء ولا

يقوم لك شيء رب تبت إليك الحمد لله لا شريك لك رب العالمين .

وقال السدي : حفّت حول الجبل بالملائكة وحفّت حول الملائكة بنار وحفّ حول النار بالملائكة وحفّ حول الملائكة بنار ثمّ تجلّى ربّك للجبل .

وقال ابن عباس : ظهر نور ربّه للجبل جبل زبير ، وقال الضحاك [أخرج] الله تعالى له من نور الحجب مثل منخر الثور .

وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار : ما تجلّى من عظمة الله للجبل إلاّ مثل سمّ الخياط ، يعني صار دكّاً .

وقال السدي : ما تجلّى منه إلاّ قدر الخنصر . يدلّ عليه ما روى عن ثابت عن أنس " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قرأ هذه الآية فقال : هكذا ، ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل " .

وقال سفيان : ساخ الجبل في الأرض حتّى وقع في البحر فهو يذهب معه .

وقال أبو بكر الهذلي : انقعر فدخل تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة .

وقال عطيّة العوفي : جعله دكّاً أي رملاً هائلاً ، وقال الكلبي : جعله دكاً أي كسراً جبالاً صغيراً . قال الحسن : جعله دكّاً أي ذاهباً أصلاً . وقال مسروق : صار صغيراً [كالرابية] .

الحسن : أوحى الله تعالى إلى الجبل هل تطيق رؤيتي فغار الجبل وساخ في الأرض وموسى ينظر حتّى ذهب أجمع .

(29/286)

وقال قطرب : فلمّا تجلّى ربّه أي : أمر ربّه للجبل كقوله . ﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف : 82] .

وقال المبرد : معناه فلمّا تجلّى ربّه آية للجبل جعله فعلاً متعدّياً [كالتخلّص والتبدّل والتوعد] .

وقال أبو بكر محمد بن عمر الورّاق : حكي لي عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالى أظهر من [وراء] سبعين ألف حجاب ضوءاً قدر الدرهم فجعل الجبل دكاً .

وقال أبو بكر : فَعَذُب إذ ذاك كل ماء وأفاق كل مجنون وبرأ كل مريض . وزالت الأشواك عن الأشجار وخصبت الأرض وأزهرت وخمدت نيران المجوس . وخرت الأصنام لوجهها ﴿ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ مستوياً بالأرض . وقال ابن عباس : جعله تراباً .

عن معونة بن قرّة عن أنس بن مالك قال : " قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ : طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة : أحد

وورقان ، ورضوى . ووقع ثلاثة بمكّة ثور وثبيرة وحراء " .

واختلفت القراءة في هذا الحرف ، وقرأ عاصم ﴿ دَكّاً ﴾ بالقصر والتنوين . والتي في الكهف بالمد ، وقرأ غيره من أهل الكوفة وحمير (دكاء) ممدودة غير مجراه في التنوين .

وقرأ الباقون مقصورة الرفع منونة . وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد ، فمن قصره فمعناه جعله مدكوكاً . والدك والدق بمعنى واحد لأن الكاف والقاف يتعاقبات ، لقولهم : كلام رقيق وركيك ، ويجوز أن يكون معناه : دكه الله دكاً أي فتّه الله أغباراً لقوله ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرض دَكّاً ﴾ [الفجر : 21] وقوله ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة : 14] .

قال حميد :

يدك أركان الجبال هزمه . . . تخطر بالبيض الرقاق بهمه

ومن مده فهو من قول العرب ناقة دكاء إذا لم يكن لها سنام . وحينئذ يكون معناه : جعله أيضاً دكاء ، أي مستوية لا شيء فيها ، لأن الجبل مذكر ، هذا قول أهل الكوفة .

(30/286)

وقال نحاة البصرة : معناه فجعله مثل دكّاً وحذف مثل فأجرى مجرى ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] قال الأخفش : من مدّ قال في الجمع : دكاوات ، وذلك مثل حمراوات وحمرة ، ومن قال : أرض دك ، قال في الجمع : دكوك ، ﴿ وَخَرَّ ﴾ أي وقع ﴿ موسى صَعِقاً ﴾ قال ابن عباس : فغشي عليه ، وقال قتادة : ميّتاً .

وقال الكلبي : خرّ موسى صعقاً يوم الخميس يوم عرفة وأعطى التوراة يوم الجمعة [يوم النحر] .

وقال الواقدي : لما خرَّ موسى صعقاً قالت ملائكة السماوات : ما لابن عمران وسؤاله الرؤية ؟ !

وفي بعض الكتب أنّ ملائكة السماوات أتوا موسى وهو مغشي عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون : يا بن النساء الحيض أطمعت في رؤية ربّ العزّة .

﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ من صعقته وعقله عرف أنّه قد فعل أمراً لا [ينبغي فعله] ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من سؤالي الرؤية ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ بأنك لا تُرى في الدنيا [قال السدي] ومجاهد : وأنا أوّل مَنْ آمن بك من بني إسرائيل .

وسمعت أبا القاسم الحبيبي قال : سمعت أبا القاسم النصر آبادي يحكي عن الجنيد [أنه قال :] جئت إليك من الأسباط في شيء لا تعقله نيتي ، فأنا أوّل المؤمنين بأنّك لا تُرى في الدنيا لأن أول من سألك الرؤية [. . . . .] .

قال ابن عباس : لمّا سار موسى إلى طور سيناء للميقات قال له ربه : ما تبتغي ؟ قال : جئت أبتغي الهدي . قال قد وجدته يا موسى ، فقال موسى : يارب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني . قال : أي عبادك أقصى ؟ قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى . قال : أي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه فيسمع الكلمة تهديه إلى الهُدى ويرد سنن ردىء .

(31/286)

وقال عبد الله بن مسعود : لمّا قرب الله موسى بطور سيناء رأى عبداً في ظلّ العرش جالساً فقال : [ما هذا] ، قال : هذا عبد لا يحسد الناس على ما أتاهم الله من فضله وبرّ بوالديه ولا يمشي بالنميمة .

فقال موسى : يارب اغفر لي ما مضى من ذنبي وما مضى وما بين ذلك وما أنت أعلم به مني ، أعوذ بك من وسوسة نفسي وأعوذ بك من شر عملي . فقال : قد كفيت ذلك يا موسى ، قال : يا رب أي العمل أحب إليك أن أعمل به ؟ قال : تذكرني ولا تنساني ، قال : أي عبادك خير عملاً ؟ قال : مَنْ لا يُكذّب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه [وهو ذو خلق

حسن] ، قال : فأي عبادك شر عملاً ؟ قال : فاجر في خلق سيء [جيفة ليل] بطال النهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(32/286)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ الآية ،

في سؤال موسى ذلك لربه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ليرد عليه من جواب الله ما يحتج به على قومه حين قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : 55] مع علم موسى بأنه لا يجوز أن يراه في الدنيا .

والثاني : أنه كان يعلم ذلك باستدلال فأحب أن يعلمه ضرورة .

والثالث : أنه جوّز ذلك وظنه وأن رؤيته في الدنيا ممكنة ، قاله الحسن ، والربيع ، والسدي .

فأجابه الله بأن ﴿ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ .

ثم أظهر في الجواب ما يعلم به استحالة مسألته فقال : ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ لأن الجبل إذا لم يستقر لرؤيته فالإنسان بذلك أولى .

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ معنى تجلى ظهر مأخوذ من جلاء العروس إذا ظهرت ، ومن

جلاء المرآة إذا أضاءت .

وفي تجليه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه ظهر بآياته التي أحدثها في الجبل لحاضري الجبل .

والثاني : أنه أظهر للجبل من ملكوته ما تدكدك به ، لأن الدنيا لا تقوم لما يبرز من ملكوت السماء .

والثالث : أنه أبرز قدر الخنصر من العرش .

والرابع : ظهر أمره للجبل .

﴿ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : يعني مستوياً بالأرض ، مأخوذ من قولهم ناقة دكاء إذا لم يكن لها سنام ، قاله ابن قتيبة وابن عيسى .

والثاني : أنه ساخ في الأرض ، قاله الحسن وسفيان .

والثالث : أنه صار تراباً ، قاله ابن عباس .

والرابع : أنه صار قطعاً .

قال مقاتل : وكان أعظم جبل بمدين تقطع ست قطع تفرقت في الأرض ، صار منها بمكة ثلاثة أجبل : ثبير وغار ثور وحراء . وبالمدينة ثلاثة أجبل : رضوى وأحد وورقان . والله أعلم .

﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : ميتاً ، قاله قتادة .

والثاني : مغشياً عليه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ابن زيد .

(33/286)

قال ابن عباس : أخذته الغشية الخميس من يوم عرفة وأفاق عشية الجمعة وفيه نزلت عليه التوراة وهو يوم النحر العاشر من ذي الحجة ، وفيها عشر آيات أنزلها الله في القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في ثماني عشرة من سورة بني إسرائيل .

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه تاب من الإقدام على المسألة قبل الإذن فيها .

والثاني : أنه تاب من اعتقاده جواز رؤيته في الدنيا .

والثالث : أنه قال ذلك على جهة التسبيح وعادة المؤمنين عند ظهور الآيات . الدالة على عظيم قدرته .

﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أول المؤمنين بأنه لا يراك شيء من خلقك ، قاله ابن عباس ، والحسن :

والثاني : وأنا أول المؤمنين من قومي باستعظام سؤال الرؤية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(34/286)

وقال ابن عطية :

ثم أخبر الله تعالى عن " موسى " عليه السلام أنه لما جاء إلى الموضع الذي حد له وفي الوقت الذي عين له وكلمه ربه قال تمنياً منه أي ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ أرِني ﴾ بكسر الراء ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿ أرْني ﴾ بسكون الراء ، والمعنى في قوله ﴿ كلمه ﴾ أي خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديم الذي هو صفة ذات ، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : أدنى الله تعالى " موسى " حتى سمع صريف الأقلام في اللوح ، وكلام الله عز وجل لا يشبه شيئاً من الكلام الذي للمخلوقين ولا في جهة من الجهات وما هو موجود لا كالموجودات ، ومعلوم لا كالمعلومات ، كذلك كلامه لا يشبه الكلام الذي فيه علامات الحدوث ، والواو عاطفة ﴿ كلمه ﴾ على ﴿ جاء ﴾ ، ويحتمل أن تكون واو الحال والأول أبين ، وقال وهب بن منبه كلم الله " موسى " في ألف مقام كان يرى نور على وجهه ثلاثة أيام إثر كل مقام ، وما قرب " موسى " النساء منذ " كلمة " الله تعالى ،

وجواب ﴿ لما ﴾ في قوله ﴿ قال ﴾ ، والمعنى أنه لما "كلمه" وخصه بهذه المرتبة طمحت همته إلى رتبة الرؤية وتشويق إلى ذلك ، فسأل ربه أن يريد نفسه ، قاله السدي وأبو بكر الهذلي ، وقال الربيع : قربناه نجياً حتى سمع صريف الأقلام ، ورؤية الله عز وجل عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلاً ، لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته ، قالوا لأن الرؤية للشيء لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود ، إلا أن الشريعة قررت رؤية الله تعالى في الآخرة نصاً ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع ، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه محالاً وإنما سأل جائزاً .

(35/286)

وقوله تعالى : ﴿ لن تراني ولكن انظر إلى الجبل ﴾ الآية ليس بجواب من سأل محالاً ، وقد قال تعالى لنوح ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ [هود : 46] فلو سأل "موسى" محالاً لكان في الكلام زجر ما وتبيين ، وقوله عز وجل : ﴿ لن تراني ﴾ نص من الله تعالى على منعه الرؤية في الدنيا ، و ﴿ لن ﴾ تنفي الفعل المستقبل ولو بقينا مع هذا النفي بمجردة لقضينا أنه لا يراه "موسى" أبداً ولا في الآخرة لكن ورد من جهة أخرى بالحديث المتواتر أن أهل الإيمان يرون الله تعالى يوم القيامة ، فموسى

عليه السلام أحرى برؤيته ، وقال مجاهد وغيره : إن الله عز وجل قال لموسى لن تراني ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد فإن استقر وأطاق الصبر لهيبتي فستمكنك أنت رؤيتي .

قال القاضي أبو محمد : فعلى هذا إنما جعل الله له الجبل مثالاً وقالت فرقة : إنما المعنى سأتبدى لك على الجبل فإن استقر لعظمتي فسوف تراني ، وروي في كيفية وقوف " موسى " وانتظاره الرؤية قصص طويل اختصرته لبعده وكثرة مواضع الاعتراض فيه .

قوله عز وجل :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾

(36/286)

قال المتأولون المتكلمون كالقاضي ابن الباقلاني وغيره : إن الله عز وجل خلق للجبل حياة وحساً وإدراكاً يرى به ، ثم تجلى له أي ظهر وبدا سلطانه فاندك الجبل لشدة المطلع فلما

رأى موسى ما بالجبل صعق ، وهذا المعنى هو المروي عن ابن عباس ، وأسند الطبري عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ قال : فوضع الإبهام قريباً عن خنصره قال فساخ الجبل ، فقال حميد لثابت : تقول هذا ؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد ، وقال : يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقوله أنس ، وأكتمه أنا ؟ وقالت فرقة : المعنى فلما تجلى الله للجبل بقدرته وسلطانه اندك الجبل .

(37/286)

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل يتمسك به المعتزلة تمسكاً شديداً لقولهم إن رؤية الله عز وجل غير جائزة ، وقائله من أهل السنة إنما يقوله مع اعتقاده جواز الرؤية ولكنه يقول إنه أليق بألفاظ الآية من أن تحمل الآية أن الجبل خلق له إدراك وحياة ، وقال الزّجاج : من قال إن التقدير فلما تجلى أمر ربه فقد أخطأ ولا يعرف أهل اللغة ذلك ، ورد أبو علي في الإغفال عليه ، والدك الانسحاق والتفتت ، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم وابن مسعود وأنس بن مالك والحسن وأبو جعفر وشيبة ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم وابن عامر " دكاً " ، وقرأ حمزة والكسائي وابن عباس والربيع بن خثيم وغيرهم " دكاء " على وزن

حمراء ، والدكاء الناقة التي لا سنام لها ، فالمعنى جعله أرضاً دكاء تشبيهاً بالناقة ، فروي أنه ذهب الجبل بجملته ، وقيل ذهب أعلاه وبقي أكثره ، وروي أن الجبل تفتت وانسحق حتى صار غباراً تذروه الرياح ، وقال سفيان : روي أنه ساخ في الأرض وأفضى إلى البحر الذي تحت الأرضين ، قال ابن الكلبي فهو يهوي فيه إلى يوم القيامة ، وروي أنه انكسر ست فرق فوقعت منه ثلاث بمكة ثبير وغار ثور وحراء ، وثلاث بالمدينة أحد وورقان ورضوى ، قاله النقاش ، وقال أبو بكر الهذلي : ساخ في الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة ، و ﴿ صعقاً ﴾ معناه مغشياً عليه كحال من تصيبه الصعقة وهي الصيحة المفرطة ، قال الخليل : وهي الوقع الشديد من صوت الرعد قاله ابن زيد وجماعة من المفسرين ، وقال قتادة : كان موتاً ، قال الزجّاج : وهو ضعيف ، ولفظة ﴿ أفاق ﴾ تقتضي غير هذا ، وقوله ﴿ سبحانك ﴾ أي تنزيهاً لك كذا فسره النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ تبت إليك ﴾ معناه من أن أسألك الرؤية في الدنيا وأنت لا تبيحها .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل عندي أنه لفظ قاله عليه السلام لشدة هول ما اطلع ولم يعن به التوبة من شيء معين ولكنه لفظ يصلح لذلك المقام .

(38/286)

قال القاضي أبو محمد : والذي يتحرز منه أهل السنة أن تكون توبة من سؤال المحال كما زعمت المعتزلة ، وقرأ نافع ﴿ وأنا ﴾ بإثبات الألف في الإدراج ، قال الزهراوي والأولى حذفها في الإدراج وإثباتها لغة شاذة خارجة عن القياس ، وقوله ﴿ أول ﴾ إما أن يريد من قومه بني إسرائيل ، وهو قول ابن عباس ومجاهد أو من أهل زمانه ان كان الكفر قد طبق الآفاق وإما أن يريد أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا ، قاله أبو العالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(39/286)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾

قال الزجاج : أي : للوقت الذي وقَّتنا له .

﴿ وكلَّمه ربُّه ﴾ أسمعه كلامه ، ولم يكن فيما بينه وبين الله عز وجل فيما سمع أحد .

﴿ قال رب أرني أنظر إليك ﴾ أي : أرني نفسك .

قوله تعالى : ﴿ قال لن تراني ﴾ تعلق بهذا نُفاة الرؤية وقالوا : "لن" لنفي الأبد ، وذلك غلط ، لأنها قد وردت وليس المراد بها الأبد في قوله : ﴿ ولن يتمنَّوه أبداً بما قدمت أيديهم

﴾ [البقرة : 95] ثم أخبر عنهم بتمنّيه في النار بقوله : ﴿ يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ [الزخرف : 77] ولأن ابن عباس قال في تفسيرها : لن تراني في الدنيا .

وقال غيره : هذا جواب لقول موسى : "أرني" ولم يُرد : أرني في الآخرة ، وإنما أراد في الدنيا ، فأُجيب عما سأل .

وقال بعضهم : لن تراني بسؤالك .

وفي هذه الآية دلالة على جواز الرؤية ، لأن موسى مع علمه بالله تعالى ، سألها ، ولو كانت مما يستحيل لما جاز لموسى أن يسألها ، ولا يجوز أن يجهل موسى مثل ذلك ، لأن معرفة الأنبياء بالله ليس فيها نقص ، ولأن الله تعالى لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية ، ولو استحالت عليه لقال : "لا أُرى" ، ألا ترى أن نوحا لما قال : ﴿ إن ابني من أهلي ﴾ [هود : 45] أنكر عليه بقوله : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ [هود : 46] .

ومما يدل على جواز الرؤية أنه علَّقها باستقرار الجبل ، وذلك جائز غير مستحيل ، فدل على أنها جائزة ، ألا ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحال علَّقه بمستحيل فقال : ﴿ حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط ﴾ [الأعراف : 40] .

قوله تعالى : ﴿ فإن استقر مكانه ﴾ أي : ثبت ولم يتضعضع .

قوله تعالى : ﴿ فلما تجلَّى ربُّه ﴾ قال الزجاج : ظهر ، وبان .

﴿ جعله دكّاً ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: "دكاً" منونة مقصورة هاهنا وفي [الكهف: 98].

(40/286)

وقرأ عاصم: "دكّاً" ها هنا منوّنة مقصورة، وفي [الكهف: 98]: "دكاء" ممدودة غير منونة.

وقرأ حمزة، والكسائي: "دكاء" ممدودة غير منونة في الموضعين.

قال أبو عبيدة: ﴿ جعله دكّاً ﴾ أي: مندكّاً، والدَّك: المستوي؛ والمعنى: مستوياً مع وجه الأرض، يقال: ناقة دكَّاء، أي: ذاهبة السنام مستوٍ ظهرها.

قال ابن قتيبة: كأن سنامها دُكَّ، أي: التصق، قال: ويقال: إن أصل دككتُ: دققت، فأبدلت القاف كافاً لتقارب المخرجين.

وقال أنس بن مالك في قوله: "جعله دكاً": ساخ الجبل.

قال ابن عباس: واسم الجبل: زبير، وهو أعظم جبل بمدين، وإن الجبال تطاولت ليتجلَّى لها، وتواضع زبير فتجلى له.

قوله تعالى: ﴿ وخرَّ موسى صعقاً ﴾ فيه قولان.

أحدهما : مغشياً عليه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد .

والثاني : ميتاً ، قاله قتادة ، ومقاتل .

والأول أصح ، لقوله : ﴿ فلما أفاق ﴾ وذلك لا يقال للميت .

وقيل : بقي في غشيته يوماً وليلة .

قوله تعالى : ﴿ سبحانك تبت إليك ﴾ فيما تاب منه ثلاثة أقوال .

أحدها : سؤاله الرؤية ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : من الإقدام على المسألة قبل الإذن فيها .

والثالث : اعتقاد جواز رؤيته في الدنيا .

وفي قوله : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ قولان .

أحدهما : أنك لن تُرى في الدنيا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أول المؤمنين من بني إسرائيل ، رواه عكرمة عن ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(41/286)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا ﴾

أي في الوقت الموعود .

﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أي أسمعه كلامه من غير واسطة .

﴿ قَالَ رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ سأل النظر إليه ؛ واشتاق إلى رؤيته لما أسمعه كلامه .

ف ﴿ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ أي في الدنيا .

ولا يجوز الحَمْل على أنه أراد : أرني آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك ؛ لأنه قال "إِلَيْكَ" و "قَالَ لَنْ تَرَانِي" .

ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل ، كما أعطاه سائر الآيات .

وقد كان لموسى عليه السلام فيها مَقْنَع عن طلب آية أخرى ؛ فبطل هذا التأويل .

﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ ضرب له مثالاً مما هو أقوى من بِنْيته وأثبت .

أي فإن ثبت الجبل وسكن فسوف تراني ، وإن لم يسكن فإنك لا تطيق رؤيتي ، كما أن الجبل لا يطيق رؤيتي .

وذكر القاضي عِياض عن القاضي أبي بكر بن الطّيب ما معناه : أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خَرَّ صَعِقاً .

وأن الجبل رأى ربّه فصار دكًّا بإدراكٍ خلقه الله له .

واستنبط ذلك من قوله : ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ وتجلى معناه ظهر ؛ من قولك : جَلَوْت العروس أي أبرزتها .

وجَلَوْت السيف أبرزته من الصّدإ ؛ جِلاءً فيهما .

وتجلى الشيء انكشف .

وقيل : تجلى أمره وقدرته ؛ قاله قُطْرُب وغيره .

وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة "دَكّاً" ؛ يدل على صحتها ﴿ دُكَّتِ الأرض دَكّاً ﴾ [الفجر : 21] وأن الجبل مذكّر .

وقرأ أهل الكوفة "دَكَّاءَ" أي جعله مثل أرض دكاء ، وهي الناتئة لا تبلغ أن تكون جبلاً .

والمذكّر أدَكّ ، وجمع دَكَّاء دكّاوات ودُكٌّ ؛ مثل حَمْراوات وحُمْرٌ .

قال الكسائي : الدّكّ من الجبال : العِراض ، واحدها أدَكّ .

(42/286)

غيره : والدَّكّاوات جمع دَكّاء : رَوَابٍ من طين ليست بالغِلاظ .

والدَّكْداكُ كذلك من الرمل : ما التبد بالأرض فلم يرتفع .

وناقة دَكّاء لا سَنام لها .

وفي التفسير : فساخ الجبل في الأرض ، فهو يذهب فيها حتى الآن .

وقال ابن عباس : جعله تراباً .

عَطِيّة العَوْفي : رملاً هائلاً .

﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ أي مغشيّاً عليه ؛ عن ابن عباس والحسن وقتادة .

وقيل : ميتاً ؛ يقال صَعِق الرجل فهو صَعِق .

وصُعق فهو مصعوق .

وقال قتادة والكلبيّ : خَرّ موسى صعِقاً يوم الخميس يوم عَرَفة ، وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر .

﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال مجاهد : من مسألة الرؤية في الدنيا .

وقيل : سأل من غير استئذان ؛ فلذلك تاب .

وقيل : قاله على جهة الإنابة إلى الله والخشوع له عند ظهور الآيات .

وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية ؛ فإن الأنبياء معصومون .

وأيضاً عند أهل السنة والجماعة الرؤيةُ جائزةٌ .

وعند المبتدعة سأل لأجل القوم ليبيّن لهم أنها غير جائزة .

وهذا لا يقتضي التوبة .

فقيل : أي تبت إليك من قتل القبطي ؛ ذكره القُشَيْرِي .

وقد مضى في "الأنعام" بيان أن الرؤية جائزة .

قال عليّ بن مهدِيّ الطبريّ : لو كان سؤال موسى مستحيلاً ما أقدم عليه مع معرفته بالله ؛

كما لم يجز أن يقول له يا رب ألك صاحبة وولد .

وسيأتي في "القيامة" مذهب المعتزلة والرد عليهم ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ قيل : مِن قومي .

وقيل : من بني إسرائيل في هذا العصر .

وقيل : بأنك لا ترى في الدنيا لوعدك السابق في ذلك .

(43/286)

وفي الحديث الصحيح من حديث أبي هريرة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تُخَيِّروا بين الأنبياء فإن الناس يَصعَقون يوم القيامة فأرفع رأسي فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أصعق فيمن صعق فأفاق قبلي أو حُوسب بصفته الأولى

" أو قال " كفته صعقته الأولى " وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن كعب قال : إن الله تبارك وتعالى قسم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى صلى الله وسلم عليهما ؛ فكلمه موسى مرتين ، ورآه محمد صلى الله عليه وسلم مرتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(44/286)

وقال السمعانى :

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾

يعني الوقت الذي وقت له على ما بينا كلمه ربه وفي القصة أن الله – تعالى – لما استحضره بجانب الطور و أنزل ظلمة على سبعة فراسخ وطرد عنه الشيطان ونحى عنه الملكين وكلمه حتى أسمعه وأفهمه وفي القصة كان جبريل معه فلم يسمع ما كلمه ربه

قال رب أرني أنظر إليك قال الزجاج فيه حذف وتقديره أرني نفسك أنظر إليك فإن قال قائل كيف سأل الرؤية وقد علم أن الله عز وجل لا يرى في الدنيا قال الحسن هاج به الشوق فسأل الرؤية وقيل سأل الرؤية ظنا منه أنه يجوز أن يرى في الدنيا

قال لن تراني يستدل من ينفي الرؤية بهذه الكلمة وليس لهم فيها مستدل وذلك لأنه لم يقل إني

لا أرى متى يكون حجة لهم ولأنه لم ينسبه إلى الجهل في سؤال الرؤية كما نسب إليه قومه بقولهم اجعل لنا إلها كما لهم آلهة لما لم يجز ذلك وأما معنى قوله لن تراني يعني في الحال أو في الدنيا

ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني معناه اجعل الجبل بيني وبينك فإنه أقوى منك فإن استقر مكانه فسوف تراني وفي هذا دليل على أنه يجوز أن يرى لأنه لم يعلق الرؤية بما يستحيل وجوده لأن استقرار الجبل مع تجليه له غير مستحيل بأن يجعل له قوة الاستقرار مع التجلي

﴿ فلما تجلى ربه للجبل ﴾

أن ظهر للجبل قيل إنه جعل للجبل بصرا وخلق فيه حياة ثم تجلى له فتذكرك على نفسه وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن النبي أنه قال إن الله – تعالى – تجلى للجبل بقدر أنملة الخنصر ثم وضع ثابت إبهامه على أنملة خنصره فقيل له أتقول بهذا فقال يقول به أنس ورسول الله

(45/286)

﴿ وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين 143 قال يا موسى أقول به أنا وضرب في صدر القائل وفي بعض الروايات أنه تجلى للجبل بقدر جناح بعوضة أو أقل

جعله دكا قال ابن عباس صار ترابا وقال الحسن وسفيان ساخ في الأرض وفي بعض التفاسير أنه صار ستة أجبل ثلاثة بمكة وذلك ثور وثبير وحراء وثلاثة بالمدينة رضوى وأحد وورقان وقيل انقلع الجبل من أصله ووقع في البحر فهو يذهب فيه إلى يوم القيامة وأما من حيث اللغة قال الزجاج معنى قوله جعله دكا أي مدكوكا مدقوقا وقرأ حمزة والكسائي جعله دكاء ممدودا يقال أرض دكاء إذا كان فيها ناتئ ومواضع مرتفعة كالقلال والدكاوات الرواسي من الأرض ومعناه أنه جعله كالأرض المرتفعة وخرج من كونه جبلا وقوله وخر موسى صعقا قال قتادة أي ميتا وكان قد مات تلك الساعة وقال الحسن وابن عباس خر مغشيا عليه وهذا أليق بالنظم لأنه قال فلما أفاق قال سبحانك وهذا التنزيه تبت إليك يعني من سؤال الرؤية قبل الإذن وأنا أول المؤمنين يعني أنا أول المؤمنين بأن من يراك متجليا في الدنيا لا يستقر مكانه وقيل معناه أنا أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير السمعانى حـ 2 صـ 212.213 ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾

يعني للوقت الذي وقتنا له أن يأتي فيه لمناجاتنا وهو قوله ﴿ وكلمه ربه ﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الله كلم موسى واختلف الناس في كلام الله تعالى فقال الزمخشري كلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في الألواح هذا كلامه وهذا مذهب المعتزلة ولا شك في بطلانه وفساده لأن الشجرة أو ذلك الجرم لا يقول

﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهبت الحنابلة ومن وافقهم إلى أن كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وأنه قديم وذهب جمهور المتكلمين إلى أن كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات وتلك الصفة قديمة أزلية والقائلون بهذا القول قالوا إن موسى سمع تلك الصفة الأزلية الحقيقية وقالوا كما أنه لا يبعد رؤية ذاته وليس جسماً ولا عرضاً كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه ليس بصوت ولا حرف ومذهب أهل السنة وجمهور العلماء من السلف والخلف إن الله تعالى متكلم بكلام قديم وسكتوا عن الخوض في تأويله وحقيقته .

قال أهل التفسير والأخبار : لما جاء موسى لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه وصام ثم أتى طور سيناء وفي القصة أن الله تعالى أنزل ظلة تغشت الجبل على أربع فراسخ من كل ناحية وطرد عنه الشطيان وهو أم الأرض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياماً في الهواء ورأى العرش بارزاً وأدنى ربه حتى سمع صريف الأقلام على الألواح وكلمه الله تبارك وتعالى وناجاه وأسمعه وكلامه وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلم الله تعالى به موسى فاستحلى كلام ربه واشتاق إلى رؤيته ﴿ قال رب أرني أنظر إليك ﴾ قال الزجاج : فيه اختصار تقديره أرني نفسك أنظر إليك وقال ابن عباس معناه أعطني أنظر إليك إنما سأل موسى الرؤية مع علمه بأن الله تعالى لا يرى في الدنيا لما هاج به من الشوق وفاض عليه من أنواع الجلال حتى استغرق في بحر المحبة فعند ذلك سأل الرؤية وقيل إنما سأل الرؤية ظناً منه بأنه تعالى يرى في الدنيا فتعالى الله عن ذلك ﴿ قال لن تراني ﴾ يعني ليس لبشر أن يراني في الدنيا ولا يطيق النظر اليّ في الدنيا من نظر إليّ في الدنيا مات فقال موسى : إلهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إليّ من أن أعيش ولا أراك .

وقال السدي : لما كلم الله تعالى موسى غاص عدو لله إبليس الخبيث في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى فوسوس إليه أن مكلمك شيطان عند ذلك سأل موسى ربه الرؤية فقال ﴿ ربي أرني أنظر إليك ﴾ قال الله تبارك وتعالى لموسى ﴿ لن تراني ﴾ .

(فصل)

(48/286)

وقد تمسك من نفي الرؤية من أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وهو قوله تعالى : ﴿ لن تراني ﴾ قالوا لن تكون للتأبيد والدوام ولا حجة لهم في ذلك ولا دليل ولا يشهد لهم في ذلك كتاب ولا سنة وما قالوه في أن لن تكون للتأبيد خطأ بين ودعوى على أهل اللغة إذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل أهل اللغة والعربية ولم يقل به أحد منهم ويدل على صحة ذلك قوله تعالى في صفة اليهود ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ وقوله ﴿ يا ليتها كانت القاضية ﴾ فإن قالوا إن لن معناها تأكيد النفي كلا التي تنفي المستقبل قلنا إن صح هذا التأويل فيكون معنى لن تراني محمولاً على الدنيا أي لن تراني في الدنيا جمعاً بين دلائل الكتاب والسنة فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيمة في

الدار الآخرة وأيضاً فإن موسى كان عارفاً بالله تعالى وبما يجب ويجوز ويمتنع على الله وفي الآية دليل على أنه سأل الرؤية فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها موسى فحيث سألها علمنا أن الرؤية جائزة على الله تعالى وأيضاً فإن الله علق رؤيته على أمر جائز والمعلق على الجائز جائز فيلزم من ذلك كون الرؤية في نفسها جائزة وإنما قلنا ذلك لأنه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل وهو قوله تعالى : ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ﴾ وهو أمر جائز الوجود في نفسه وإذا كان كذلك ثبت أن رؤيته جائزة الوجود لأن استقرار الجبل غير مستحيل عند التجلي إذا جعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق بما لا يستحيل لا يكون محالاً والله أعلم بمراده .

(49/286)

قال وهب ومحمد بن إسحاق : لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب والرياح والصواعق والرعد والبرق والظلمة حتى أحاطت بالجبل الذي عليه موسى أربع فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى أهل السموات أن يعترضوا على موسى فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقرة تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد فقال موسى : رب إني كنت عن هذا غنياً ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء

الثانية أن أهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه مثل الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف موسى بن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في رأسه وبدنه ثم قال : لقد ندمت على مسألتي فهل ينجيني مما أنا فيه شيء فقال له خير الملائكة ورئيسهم : يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن أهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس لهم جلب كجلب الجيش العظيم أوالنهم كلهب النار ففزع موسى واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له خير الملائكة ورئيسهم : مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا صبر لك عليه ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لا يشبههم شيء من الذين مروا قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وأرعد قلبه واشتد بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم : يا ابن عمران اصبر لما سألت فقيل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفاً واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم : يا ابن عمران مكانك حتى ترى ما لا تصير عليه

ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهطبوا عليه وفي يد كل واحد منهم مثل النخلة العظيمة الطويلة نار أشد ضوءاً من الشمس ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من الملائكة كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبداً لا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول : رب اذكرني ولا تنس عبدك فلا أدري أأنفلت مما أنا فيه أم لا إن خرجت احترقت وإن أقمت مت فقال له كبير الملائكة ورئيسهم : قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سألت ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدأ العرش انصدع الجبل من عظمة الرب سبحانه وتعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعاً يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبداً لا يموت فارتج الجبل لشدة أصواتهم واندك واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى صعقاً على وجهه ليس معه روحه فأرسل الله تعالى برحمته الروح فتغشته وقلب عليه الحجر الذي كان جلس عليه موسى فصار عيله كهيئة القبة لئلا يحترق موسى وأقامت الروح عليه مثل اللامة فلما أفاق موسى قام يسبح ويقول آمنت بك

وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا ومن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت رب الأرباب وملك الملوك والإله العظيم لا يعدلك شيء ولا يقوم لك شيء رب تبت إليك الحمد لك لا شريك لك ما أعظمك وما أجلّك يا رب العالمين فذلك قوله تعالى : ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ قال ابن عباس : ظهر نور ربه للجبل فصار تراباً واسم الجبل زبير .

وقال الضحاك أظهر الله من نور الحجب مثل منخر الثور .

وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ما تجلى للجبل من الله تعالى إلا مثل سم الخياط حتى صار دكاً .

(51/286)

وقال السدي ما تجلى إلا قدر الخنصر يدل عليه ما روى ثابت عن أنس أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرأ هذه الآية وقال هكذا ووضع الإبهام على الفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل ذكره البغوي هكذا بغير سند وأخرجه الترمذي أيضاً عن أنس أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرأ هذه الآية ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ قال حماد هكذا وأمسك بطرف إبهامه على أنملة أصبعه اليمنى فساخ الجبل وخرّ موسى عليه

السلام صعقاً .

وقال الترمذي حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة ويروى عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم فجعل الجبل دكاً يعني مستوياً بالأرض وقال ابن عباس : جعله تراباً وقال سفيان ساخ الجبل حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه وقال عطية العوفي صار رملاً هائلاً وقال الكلبي جعله دكاً يعني كسراً جبالاً صغاراً وقيل إنه صار لعظمة الله تعالى ستة أجبل فوقع ثلاثة بالمدينة وهي : أحد وورقان ورضى ووقع ثلاثة بمكة وهي : ثور وثبر وحراء وقوله تعالى : ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ قال ابن عباس والحسن يعني مغشياً عليه .

وقال قتادة يعني ميتاً والأول أصح لقوله ﴿ فلما أفاق ﴾ والميت لا إفاقة له إنما يقال أفاق من غشيته قال الكلبي صعق موسى يوم الخميس وهو يوم عرفة وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر .

(52/286)

وقال الواقدي : لما خر موسى صعقاً قالت ملائكة السموات : ما لا بن عمران وسؤال الرؤية وفي بعض الكتب أن ملائكة السموات أتوا موسى وهو في غشيته فجعلوا يركلونه

ويقولون يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة فلما أفاق يعني من غشيته ورجع علقه إليه وعرف أنه سأل أمراً عظيماً لا ينبغي له ﴿ قال سبحانك ﴾ يعني تنزيهاً لك من النقائص كلها ﴿ تبت إليك ﴾ يعني من مسألتي الرؤية بغير إذنك وقيل من سؤال الرؤية في الدنيا وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد (صلى الله عليه وسلم) فمنعها قال سبحانك تبت إليك يعني من سؤال ما ليس لي وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت إليك يعني من هذا السؤال وحسنات الأبرار سيئآت المقربين ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ يعني بأنك لا ترى في الدنيا وقيل أنا أول المؤمنين يعني من بني إسرائيل بقي في الآية سؤالات : الأول أن الرؤية عين النظر فكيف قال أرني أنظر إليك وعلى هذا يكون التقدير أرني حتى أراك ؟ والجواب عنه : أن معنى قوله أرني اجعلني متمكن من رؤيتك حتى أنظر إليك وأراك .

السؤال الثاني كيف قال لن تراني ولم يقل لن تنظر إليّ حتى يكون مطابقاً لقوله ﴿ أنظر إليك ﴾ ؟ والجواب : أن النظر لما كان مقدما الرؤية كان المقصود هو الرؤية لا النظر الذي لا رؤية معه .

السؤال الثالث : كيف استدرك وكيف اتصل الاستدراك من قوله : ﴿ ولكن انظر إلى الجبل ﴾ بما قبله ؟ والجواب أن المقصود منه تعظيم أمر الرؤية وأن أحداً لا يقوى على رؤيته تعالى إلا من قواه الله تعالى بمعونته وتأييده ألا ترى أنه لما ظهر أصل التجلي للجبل اندك

وتقطع فهذا هو المراد من هذا الاستدراك لأنه يدل على تعظيم أمر الرؤية والله أعلم بمراده .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(53/286)

وقال الثعالبى :

المعنى في قوله : ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ : أنه خلق لَهُ إدراكاً سَمِعَ به الكلام القائِمَ بالذاتِ القديمِ الذي هو صفةُ ذاتٍ ، وكلامُ اللَّه سبحانه لا يشبه كلامَ المخلوقين ، وليسَ في جهة مِنَ الجهاتِ ، وكما هو موجودٌ لا كالموجودات ، ومعلومٌ لا كالمعلومات ؛ كذلك كلامه لا يُشْبِهُ الكلامَ الذي فيه علاماتُ الحدوثِ ، وجَوابُ «لَمَّا» في قوله : ﴿ قَالَ ﴾ ، والمعنى أَنَّه لَمَّا كلَّمه اللَّه عزَّ وجلَّ ، وخصَّه بهذه المرتبة ، طَمَحَتْ همته إلى رُتْبة الرؤْية ، وتشوَّق إلى ذلك ، فسأل ربَّه الرؤية ، ورؤيةُ اللَّه عز وجلَّ عند أهل السنة جائزةٌ عقْلاً ؛ لأنه من حيثُ هو موجودٌ تصحُّ رؤيته ؛ قالوا : لأن الرؤية للشَّيْءِ لا تتعلَّق بصفةٍ مِنْ صفاته أَكْثَرَ من الوُجُود ، فموسى عليه السلام لم يسأَلْ ربَّه محالاً ، وإنما سأله جائزاً ، وقوله سبحانه : ﴿ لَن تَرَانِي ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ . . . ﴾ الآية : ليس بجواب مَنْ سأل محَالاً ، و«لَنْ» تنفي الفَعْلَ المستقبَلَ ، ولو بقينا مع هذا النفْي بمجرَّده ، لقضينا أنه لا يَرَاهُ موسى أبداً ، ولا في الآخرة ، لكنْ ورد من

جهة أخرى بالحديثِ المتواتر ؛ أنَّ أهل الإيمانِ يَرَوْنَ اللَّه يوم القيامة ، فموسى عليه السلام أحرَى برؤيته ، قُلْتُ : وأيضاً قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 ، 23] فهو نصٌّ في الرؤية بيَّنه صلى الله عليه وسلم ؛ ففي «الترمذي» عن ابن عمر ، قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم " إِنَّ أدنى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إلى جنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرُرِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَأَكْرَمُهُمْ على اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إلى وَجْهِهِ غُدْوَةً وعَشِيَّةً " ، ثم قرأ رسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 ، 23] ،

(54/286)

قال أبو عيسى : وقد روي هذا الحديثُ مِنْ غير وجه مرفوعاً ، وموقوفاً . انتهى .

قال مجاهد وغيره : إن اللَّه عز وجل قال له : يا موسى ، لن تراني ، ولكنّ سأتجلَّى للجَبَل ، وهو أقوى منك ، وأَشَدُّ ؛ فإن استقر وأطاقَ الصبْرَ لهيبتي ، فسَتُمْكِنُكَ أَنْتَ رؤيتي .

قال *ع* : فعلى هذا إنما جعل اللَّه الجَبَل مثالاً ، قلتُ : وقول *ع* : ولو بَقِينَا مَعَ هذا النفْي بمجرَّده ، لَقَضَيْنَا أَنَّه لا يراه موسَى أبداً ولا في الآخرة ، قولٌ مرجوحٌ لم يتفطَّن له رحمه اللَّه ، والحقُّ الذي لا شَكَّ فيه أَنَّ «لن» لا تقتضي النفْيَ المؤبَّد .

قال بدْرُ الدين أبو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مالِكٍ في شرح التَّسْهيل : «ولَنْ» كغيرها من حروفِ النفي في جواز كون استقبال المنفيِّ بها منقَطعاً عنْدَ حَدٍّ وغَيْرَ منقطعٍ ، وذكر الزمخشريُّ في أُنْمُوذجِهِ ؛ أَنَّ «لَنْ» لتأبيدِ النفْي ، وحاملُهُ على ذلك اعتقادُهُ أنَّ اللَّه تعالى لا يُرَى ، وهو اعتقادٌ باطلٌ ؛ لصحَّةِ ثبوتِ الرؤية عن رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم ؛ واستدل على عدم اختصاصها بالتأبيد بمجيء استقبال المنْفِيِّ بها مُغيًّا إلى غايةٍ ينتهي بانتهائها ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عاكفين حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ [طه : 91] ، وهو واضح . انتهى ، ونحوه لابْنِ هشامٍ ، ولفظه : ولا تفيدُ «لَنْ» توكيدَ المنفيِّ ؛ خلافاً للزمخشريِّ في «كشافه» ، ولا تأْبيدَهُ ، خلافاً له في «أنموذجه» ، وكلاهما دعوى بلا دليلٍ ؛ قيل : ولو كانَتْ للتأبيدِ ، لم يقيد منفيُّها ب «اليوْم» في ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ [مريم : 26] ولكان ذكْرُهُ «الأَبدَ» في ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [البقرة : 95] تَكْراراً ، والأصل عدمه . انتهى من «المغني» .

وقوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ : التجلِّي : هو الظهورُ منْ غير تشبيهٍ ولا تكييفٍ ، وقوله : ﴿ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ ، المعنى : جعله أرضاً دكًّا ، يقال : ناقةٌ دَكَّاء ، أَيْ : لا سنامَ لها ، ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ ، أي : مغشيًّا عليه ، قاله جماعة من المفسِّرين .

قال * ص * : ﴿ وَخَرَّ ﴾ معناه سقَطَ ، وقوله : ﴿ سبحانك ﴾ ، أي : تنزيهاً لك ؛

كذا فسَّره النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ ، معناه : منْ أن أسألك الرُّؤْية في الدنيا ، وأنْتَ لا تبيحها فيها .

(55/286)

قال *ع* : ويحتمل عنْدي أنه لفظ قاله عليه السلام ؛ لشدَّة هَوْل المَطْلَعَ ، ولم يعن التَّوْبَة مِنْ شيء معيَّن ، ولكنَّه لفظٌ لائقٌ بذلك المقامِ ، والذي يتحرَّز منه أَهْلُ السنة أنْ تكون تَوْبَةً من سؤال المُحَال ؛ كما زعَمَتِ المعتزلةُ ، وقوله : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ ، أي : مِنْ قومه ؛ قاله ابن عباس وغيره ، أَو مِنْ أَهْلِ زمانه ؛ إنْ كان الكُفْر قد طَبَّق الأرض ، أو أولُ المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا ؛ قاله أبو العالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(56/286)

وقال أبو حيان :

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾

أي للوقت الذي ضربه له أي لتمام الأربعين كما تقول أتيته لعشر خلون من الشهر ومعنى اللام

الاختصاص والجمهور على أنه وحده خصّ بالتكليم إذ جاء للميقات ، وقال القاضي : سمع هو والسبعون كلام الله ، قال ابن عطية : خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديمة الذي هو صفة ذات ، وقال ابن عباس وابن جبير : أدنى الله تعالى موسى حتى سمع صريف الأقلام في اللوح المحفوظ وقال الزمخشري : ﴿ وكلمه ربه ﴾ من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أنْ يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه محفوظاً في اللوح وروي أن موسى كان يسمع الكلام في كل جهة ، وعن ابن عباس كلمة أربعين يوماً وأربعين ليلة وكتب له الألواح ، وقيل : إنما كلمة في أول الأربعين انتهى ، وقال وهب كلمه في ألف مقام وعلى أثر كل مقام يرى نور على وجهه ثلاثة أيام ولم يقرب النساء مذ كلّمه الله وقد أوردوا هنا الخلاف الذي في كلام الله وهو مذكور ودلائل المختلفين مذكور في كتب أصول الدين وكلّمه معطوف على جاء ، وقيل حال وعدل عن قوله وكلمناه إلى قوله ﴿ وكلّمه ﴾ ربه للمعنى الذي عدل إلى قوله ﴿ فتم ميقات ربه ﴾ و ﴿ فلما تجلّى ربه ﴾ .

﴿ قال ربّ أرني أنظر إليك ﴾ .

قال السدّي وأبو بكر الهذلي : لما كلمه وخصّه بهذه المرتبة طمحت همته إلى رتبة الرؤية وتشوّف إلى ذلك فسأل ربه أن يريه نفسه .

قال الزجاج : شوّقه الكلام فعيل صبره فحمله على سؤال الرؤية ، وقال الرّبيع : لم يعهد إليه في الرؤية فظن أن السؤال في هذا الوقت جائز ، وقال السدي : غار الشيطان في الأرض فخرج بين يديه فقال إنما يكلمك شيطان فسأل الرؤية ولو لم تجز الرؤية ما سألها ؟ قال ابن عطية : ورؤية الله عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلاً لأنه من حيث هو موجود تصحّ رؤيته وقررت الشريعة رؤية الله في الآخرة ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر الشرع فموسى عليه السلام لم يسأل محالاً وإنما سأل جائزاً وقوله ﴿ لن تراني ولكن انظر إلى الجبل ﴾ الآية ليس بجواب من سأل محالاً وقد قال تعالى لنوح عليه السلام : ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ فلو سأل موسى محالاً لكان في الجواب زجر ما وتيئيس ، وقال الكرماني وغيره : في الكلام محذوف تقديره لن تراني في الدنيا ، وقيل لن تقدر أن تراني ، وقيل لن تراني بسؤالك ، وقيل لن تراني ولكن ستراني حين أتجلى للجبل .

(58/286)

قال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف طلب موسى عليه السلام ذلك وهو من أعلم الناس بالله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز وبتعاليه عن الصفة التي هي إدراك ببعض

الحواس وذلك إنما يصحّ فيما كان في جهة وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة ومنع المجبرة إحالته في العقول غير لازم لأنه ليس بأول مكابرتهم وارتكابهم وكيف يكون طالبه وقد قال حين أخذتهم الرّجفة الذين قَالُوا ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ إلى قوله ﴿ تضل بها من تشاء ﴾ فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالاً ، (قلت) : ما كان طلبه الرؤية إلا ليسكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبرأ من فعلهم وليلقمهم الحجة وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبّههم على الحق فلجّوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا لا بدّ ولن نؤمن لك حتى نراه فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك وهو قوله لن تراني ليتيقنوا وينزاح عنهم ما كان داخلهم من الشبهة فلذلك قال ﴿ ربّ أرني أنظر إليك ﴾ (فإن قلت) : فهلا قال أرهم ينظرون إليك (قلت) : لأنّ الله سبحانه إنما كلم موسى وهم يسمعون فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه كما أسمعه كلامه فسمعوه معه إرادة مبنية على قياس فاسد فلذلك قال موسى ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ ولأنه إذا زجر عما طلب وأنكر عليه مع نبوته واختصاصه وزلفته عند الله وقيل له لن يكون ذلك كان غيره أولى بالإنكار ولأن الرسول إمام أمته فكان ما يخاطب به أو يخاطب راجعاً إليهم وقوله أنظر إليك وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم دليل على أنه ترجمة على مقترحهم وحكاية لقولهم وجلّ صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه مقابلاً بحاسة

النظر فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبي الهذيل والشيخين وجميع المسلمين ، وثاني مفعول ﴿ أرني ﴾ محذوف أي أرني نفسك اجعلني

(59/286)

متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك انتهى .

﴿ قال لن ترانى ﴾ .

قال ابن عطية نصّ على منعه الرؤية في الدنيا ولن تنفي المستقبل فلو بقينا على هذا النفي بمجرّده لتضمن أنّ موسى لا يراه أبداً ولا في الآخرة لكن ورد من جهة أخرى الحديث المتواتر أن أهل الإيمان يرون الله تعالى يوم القيامة فموسى عليه السلام أحرى برؤيته ، قال الزمخشري : (فإن قلت) : ما معنى ﴿ لن ﴾ ، (قلت) : تأكيد النفي الذي تعطيه لا وذلك أن لا تنفي المستقبل تقول لا أفعل غداً فإذا أكدت نفيها قلت لن أفعل غداً والمعنى أن فعله ينافي حال كقوله ﴿ لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ وقوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ نفي للرؤية فيما يستقبل ولن تراني تأكيد وبيان (فإن قلت) : كيف قال لن تراني ولم يقل لن تنظر إليّ لقوله ﴿ أنظر إليك ﴾ ، (قلت) : لما قال ﴿ أرنى ﴾ بمعنى اجعلني متمكناً من

الرؤية التي هي الإدراك علم أنّ الطلبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه فقيل لن تراني ولم يقل لن تنظر إليّ .

﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ﴾ قال مجاهد وغيره : ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشدّ فإن استقرّ وأطاق الصبر لهيبتي فسيمكنك أنت رؤيتي ، قال ابن عطية : فعلى هذا إنما جعل الله له الجبل مثالاً ، وقالت فرقة : إنما المعنى سأبتدىء لك على الجبل فإن استقرّ لعظمتي فسوف تراني انتهى ، وتعليق الرؤية على تقدير الاستقرار مؤذن بعدمها إن لم يستقر ونبّه بذلك على أنّ الجبل مع شدته وصلابته إذا لم يستقر فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقرّ وهذا تسكين لقلب موسى وتخفيف عنه من ثقل أعباء المنع .

(60/286)

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف اتصل الاستدراك في قوله تعالى ﴿ ولكن انظر إلى الجبل ﴾ بما قبله ، (قلت) : تصل به على معنى أنّ النظر إليّ محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلب الرؤية لأجلهم كيف أفعل به

وكيف أجعله دكّاً بسبب طلبك للرؤية لتستعظم ما أقدمت عيه بما أريك من عظيم أثره كأنه عز وعلا حقّق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله تعالى

(61/286)

﴿ وتخرّ الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً ﴾ ﴿ فإن استقر مكانه ﴾ كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً في جهانه ﴿ فسوف تراني ﴾ تعريض لوجود الرؤية لوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حتى يدكّه دكّاً ويسوّيه بالأرض وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وأولاد على أسلوب عجيب ونظم بديع ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك ثم كيف ثنّى بالوعيد بالرّجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية أعني قوله ﴿ فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى ﴾ انتهى وهو على طريقة المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى ، ولهم في ذلك أقاويل أربعة : أحدها : ما رووا عن الحسن وغيره أن موسى ما عرف أن الرؤية غير جائزة وهو عارف بعدله وبربه وبتوحيده فلم يبعد أن يكون العلم بامتناع الرؤية وجوازها موقوفاً على السماع ورد ذلك وبأنه يلزم أن تكون معرفته بالله أقل درجة من معرفة أرذال المعتزلة وذلك باطل بالإجماع ، الثاني : قال الجبائي وابنه أبو هاشم : سأل الرؤية على لسان قومه فقد كانوا مكثرين للمسألة عنها لا لنفسه فلما

منع ظهر أن لا سبيل إليها وردّ بأنه لو كان كذلك لقال أرهم ينظروا إليك ولقيل لن تروني وأيضاً لو كان محالاً لمنعهم عنه كما منعهم عن جعل الآلهة لهم بقوله ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ ، وقال الكعبي سأله الآيات الباهرة التي عندها تزول الخواطر والوساوس عن معرفته كما تقول في معرفة أهل الآخرة ، وردّ ذلك بأنه يقتضي حذف مضاف وسياق الكلام يأبى ذلك فقد أراه من الآيات ما لا غاية بعدها كالعصا وغيرها ، وقال الأصمّ المقصود أن يذكر من الدلائل السمعية ما يدل على امتناع الرؤية حتى يتأكد الدليل العقلي بالدليل السمعي وأل في ﴿ الجبل ﴾ للعهد وهو أعظم جبل بمدين يقال له ارربين قال ابن عباس تطاولت الجبال للتجلي وتواضع ارربين فتجلّى له .

(62/286)

﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً ﴾ ترتب على التجلي أمران أحدهما تفتت الجبل وتفرّق أجزائه ، والثاني خرور موسى مغشياً عليه .

قاله ابن زيد وجماعة المفسرين ، وقال السدّي ميتاً ويبعده لفظه أفاق والتجلّي بمعنى الظّهور الجسماني مستحيل على الله تعالى ، قال ابن عباس وقوم لما وقع نوره عليه تدكدك ، وقال المبرد : المعنى ظهر للجبل من ملكوت الله ما يدكدك به ، وقيل ظهر جزء من العرش

للجبل فتصرّع من هيبته ، وقيل : ظهر أمره تعالى ، وقيل : ﴿ تجلّى ﴾ لأهل الجبل يريد موسى والسبعين الذين معه ، وقال الضحاك : أظهر الله من نور الحجب مثل منخر الثور ، وقال عبد الله بن سلام : وكعب الأحبار ما تجلى من عظمة الله للجبل إلا مثل سم الخياط ، وقال الزمخشري : فلما ظهر له اقتداره وتصدّى له أمره وإرادته انتهى ، وقال المتأولون المتكلمون كالقاضي أبي بكر بن الطيب وغيره : إن الله خلق للجبل حياة وحسّاً وإدراكاً يرى به ثم تجلى له أي ظهر وبدا فاندك الجبل لشدة المطلع فلما رأى موسى ما بالجبل صعق وهذا المعنى مروي عن ابن عباس ، والظاهر نسبة التجلي إليه تعالى على ما يليق به من غير انتقال ولا وصف يدلّ على الجسمية ، قال ابن عباس صار تراباً .

(63/286)

وقال مقاتل قطعاً متفرقة ، وقيل صار ستة أجبل ثلاثة بالمدينة أحد وورقان ورضوى ، وثلاثة بمكة ثور وثبير وحراء ، رواه أنس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقيل ذهب أعلاه وبقي أسفله ، وقيل صار غباراً تذروه الرياح ، وقال سفيان : روى أنه انساح في الأرض وأفضى إلى البحر الذي تحت الأرضين ، قال ابن الكلبي : فهو يهوي فيه إلى يوم القيامة ، وقال الجمهور ﴿ دكّاً ﴾ أي مدكوكاً أو ذا دك وقرأ حمزة والكسائي دكاء على

وزن حمراء والدكاء الناقة التي لا سنام لها والمعنى جعله أرضاً دكاء تشبيهاً بالناقة الدكاء ، وقال الربيع بن خيثم : ابسط يدك دكاء أي مدّها مستوية ، وقال الزمخشري والدكاء اسم للرابية الناشرة من الأرض كالدكة انتهى ، وهذا يناسب قول من قال إنه لم يذهب بجملته وإنما ذهب أعلاه وبقي أكثر ، وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ دكّاً ﴾ أي قطعاً جمع دكاء نحو غز جمع غزاء ، وانتصب على أنه مفعول ثان لجعله ويضعف قول الأخفش إن نصبه من باب قعدت جلوساً ﴿ وصعقاً ﴾ حال مقارنة ، ويقال صعقة فصعق وهو من الأفعال التي تعذّب بالحركة نحو شتر الله عينه فشترت ، والظاهر أن موسى والجبل لم يطيقا رؤية الله تعالى حين تجلى فلذلك اندكّ الجبل وصعق موسى عليه السلام ، وحكى عياض بن موسى عن القاضي أبي بكر بن الطيّب : أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خرّ صعقاً وأن الجبل رأى ربه فلذلك صار دكًّا بإدراك كلفة الله له وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن كعب قال إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى (صلى الله عليه وسلم) فكلم موسى مرتين ورآه محمد (صلى الله عليه وسلم) مرتين وذكر المفسرون من رؤيته ملائكة السموات السبع وحملة العرش وهيئاتهم وإعدادهم ما الله أعلم بصحته .

﴿ فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك ﴾ .

أي من مسألة الرؤية في الدنيا قاله مجاهد أو من سؤالها قبل الاستئذان أو عن صغائري حكاه الكرماني ، أو قال ذاك على سبيل الإنابة إلى الله تعالى والرجوع إليه عند ظهور الآيات على ما جرت به عادة المؤمن عند رؤية العظائم وليست توبة عن شيء معين أشار إليه ابن عطية ، وقال الزمخشري ﴿ قال سبحانك ﴾ أنزّهك عن ما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها ﴿ تبت إليك ﴾ من طلب الرؤية ، (فإن قلت) : فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته فمم تاب ، (قلت) : عن إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن كان لغرض صحيح على لسانه من غير إذن فيه من الله تعالى فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية وكيف أرجف الجبل بطالبيها وجعله دكّاً وكيف أصعقهم ولم يخل كليمه من نفيان ذلك مبالغة في إعظام الأمر وكيف سبّح ربه ملتجئاً إليه وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال ﴿ أنا أوّل المؤمنين ﴾ ، ثم تعجب من المتسمين بالإسلام بالمتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ولا يغرّنك تستّرهم بالبلكفة فإنه من منصوبات أشياخهم والقول ما قاله بعض العدلية فيهم :

لجماعة سموا هواهم سنة . . .

وجماعة حمر لعمري مؤكفه

قد شبّهوه بخلقه وتخوّفوا . . .

شنع الورى فتستّروا بالبلكفه

وهو تفسير على طريقة المعتزلة وسبّ لأهل السنة والجماعة على عادته وقد نظم بعض علماء السنة على وزن هذين البيتين وبحرهما أنشدنا الأستاذ العلامة أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير بغرناطة إجازة إن لم يكن سماعاً ونقلته من خطّه ، قال أنشدنا القاضي الأديب العالم أبو الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السكوني بقراءتي عليه عن أخيه القاضي أبي بكر من نظمه :

شبهت جهلاً صدر أمة أحمد . . .

وذوي البصائر بالحمير المؤكفه

وزعمت أن قد شبّهوا معبودهم . . .

وتخوّفوا فتستروا بالبلكفه

ورميتهم عن نبعة سويتها . . .

رمْي الوليد غدا يمزق مصحفه

وجب الخسار عليك فانظر منصفا . . .

(65/286)

في آية الأعراف فهي المنصفه

أترى الكليم أتى بجهل ما أتى . . .

وأتى شيوخك ما أتوا عن معرفه

وبآية الأعراف ويك خذلتم . . .

فوقفتم دون المراقي المزلفه

لو صحّ في الإسلام عقدك لم تقل . . .

بالمذهب المهجور من نفي الصفه

إن الوجوه إليه ناظرة بذا . . .

جاء الكتاب فقلتم هذا السّفه

فالنقي مختص بدار بعدها . . .

لك لا أبا لك موعداً لن تخلفه

وأنشدنا قاضي القضاة أبو القاسم عبد الرحمن بن قاضي القضاة أبي محمد بن عبد الوهاب بن خلف العلامي بالقاهرة لنفسه :

قالوا يريد ولا يكون مراده . . .

عدلوا ولكن عن طريق المعرفه

﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : من مؤمني بني إسرائيل ، وقيل : من أهل

زمانه إن كان الكفر قد طبق الآفاق ، وقال أبو العالية بأنك لا ترى في الدنيا ، وقال الزمخشري : بأنك لست بمرئيّ ولا مدرك بشيء من الحواس ، وقال أيضاً بعظمتك وجلالك وأن شيئاً لا يقوم لبطشك وبأسك انتهى ، وتفسيره الأول على طريقة المعتزلة وقد ذكر متكلمو أهل السنة دلائل على رؤية الله تعالى سمعية وعقلية يوقف عليها وعلى حجج الخصوم في كتب أصول الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(66/286)

وقال ابن كثير :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) ﴾

يخبر تعالى عن موسى ، عليه السلام ، أنه لما جاء لميقات الله تعالى ، وحصل له التكليم من الله [تعالى] سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴾ وقد أشكل حرف "لن" هاهنا على كثير من العلماء ؛ لأنها موضوعة لنفي التأبيد ، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة . وهذا أضعف الأقوال ؛ لأنه قد

تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ [القيامة: 22، 23].

وقوله تعالى إخبارًا عن الكفار: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: 15]

وقيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا، جمعا بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة.

وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ وقد تقدم ذلك في الأنعام [الآية: 103].

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: "يا موسى، إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده"؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾

قال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية : حدثنا أحمد بن سُهَيْل الواسطي ، حدثنا قُرَّة بن عيسى ، حدثنا الأعمش ، عن رجل ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لما تجلى ربه للجبل ، أشار بإصبعه فجعله دكًا" وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه السبابة

هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم ، ثم قال

حدثني المثنى ، حدثنا حجَّاج بن مِنْهال ، حدثنا حَمَّاد ، عن لَيْث ، عن أنس ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : "هكذا بإصبعه – ووضع النبي صلى الله عليه وسلم إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر – فساخ الجبل"

هكذا وقع في هذه الرواية "حماد بن سلمة ، عن ليث ، عن أنس" . والمشهور : "حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس" ، كما قال ابن جرير :

حدثني المثنى ، حدثنا هُدْبَة بن خالد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : وضع الإبهام قريبًا من طرف خنصره ، قال : فساخ الجبل – قال حميد لثابت : تقول هذا ؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد ، وقال : يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقوله أنس وأنا أكتمه ؟

وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده : حدثنا أبو المثنى ، معاذ بن معاذ العنبري ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا ثابت البناني ، عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ [جَعَلَهُ دَكًّا] ﴾ قال : قال هكذا - يعني أنه خرج طرف الخنصر - قال أحمد : أرانا معاذ ، فقال له حميد الطويل : ما تريد إلى هذا يا أبا محمد ؟ قال : فضرب صدره ضربة شديدة وقال : من أنت يا حميد ؟ ! وما أنت يا حميد ؟ ! يحدثني به أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فتقول أنت : ما تريد إليه ؟ !

(68/286)

وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق ، عن معاذ بن معاذ به . وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، عن سليمان بن حرب ، عن حماد [بن سلمة] به (1) ثم قال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث حماد .

وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق ، عن حماد بن سلمة ، به . وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه (2)

ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال ، عن محمد بن علي بن سُوَيْد ، عن أبي القاسم

البغوي ، عن هدبة بن خالد ، عن حماد بن سلمة ، فذكره وقال : هذا إسناد صحيح لا علة فيه .

وقد رواه داود بن المحبر ، عن شعبة ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعًا [وهذا ليس بشيء ، لأن داود ابن المحبر كذاب ورواه الحافظان أبو القاسم الطبراني وأبو بكر] بنحوه (3)

وأسنده ابن مردويه من طريقين ، عن سعيد بن أبي عَرُوبَة ، عن قتادة ، عن أنس مرفوعا (4) بنحوه ، وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيْلِماني ، عن أبيه ، عن ابن عمر مرفوعا ، ولا يصح أيضًا .

وقال السُّدِّي ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس في قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ قال : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : ترابا ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ قال : مغشيًا عليه . رواه ابن جرير .

وقال قتادة : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ قال : ميتًا .

وقال سفيان الثوري : ساخ الجبل في الأرض ، حتى وقع في البحر فهو يذهب معه (10)

وقال سُنَيْد ، عن حجاج بن محمد الأعور ، عن أبي بكر الهذلي : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ انقعر فدخل تحت الأرض ، فلا يظهر إلى يوم القيامة .

وجاء في بعض الأخبار أنه ساخ في الأرض ، فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة ، رواه ابن مردويه .

---

(1) المسند (125/3) وسنن الترمذي برقم (3074) ورواه ابن خزيمة في التوحيد برقم (113) من طريق معاذ بن جبل به .

(2) المستدرك (320/2) ورواه ابن خزيمة في التوحيد برقم (114) وابن الأعرابي في معجمه برقم (405) من طريق عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة به .

(3) ورواه ابن منده في الرد على الجهمية برقم (59) من طريق شعبة به .

(4) ورواه ابن عدي في الكامل (350/1) من طريق أيوب بن خوط عن قتادة عن أنس مرفوعا وأيوب بن خوط متروك الحديث .

(69/286)

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمر بن شَبَّة ، حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكناني ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، عن معاوية بن عبد الله ، عن الجلد بن أيوب ، عن معاوية بن قُرَّة ، عن أنس بن مالك ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لما تجلى الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل ، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة ، بالمدينة : أحد ، وورقان ، ورضوى . ووقع بمكة : حراء ، وثَبِير ، وثور" .

وهذا حديث غريب ، بل منكر (1)

وقال ابن أبي حاتم : ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج ، حدثنا الهَيْثَم بن خارجة ، حدثنا عثمان بن حُصَين بن عَلاق ، عن عُرْوة بن رُوَيم قال : كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صُمًا مُلْسا ، فلما تجلى الله لموسى على الطور دك وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور ، صار مثل دك من الدكاك . وقال بعضهم : ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أي : فتته .

---

(2) ورواه ابن الأعرابي في معجمه (2/166) والمحاملي في أماليه (1/172/1) كما في السلسة الضعيفة للشيخ ناصر الألباني برقم (162) والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (441/10) كلهم من طريق عبد العزيز بن عمران عن معاوية بن عبد الله به .

قال الخطيب : "هذا الحديث غريب جدا لم أكتبه إلا بهذا الإسناد" وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (120/1) وقال : "قال ابن حبان : موضوع ، وعبد العزيز متروك يروى المناكير عن المشاهير" .

(70/286)

وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقا ، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل فدك على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل ، فخر صعقًا .

وقال عكرمة : ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : نظر الله إلى الجبل ، فصار صحراء ترابًا .

وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء ، واختارها ابن جرير ، وقد ورد فيها حديث مرفوع ، رواه بن مردويه .

والمعروف أن "الصَّعْق" هو الغشي هاهنا ، كما فسره ابن عباس وغيره ، لا كما فسره قتادة بالموت ، وإن كان ذلك صحيحًا في اللغة ، كقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشي ، وهي قوله : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ والإفاقة إنما تكون من غشي .

﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد من الدنيا إلا مات .

وقوله : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال مجاهد : أن أسألك الرؤية .

(71/286)

﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : من بني إسرائيل . واختاره ابن جرير .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنه لا يراك أحد . وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ، ولكن يقول : أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة .

وهذا قول حسن له اتجاه . وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هاهنا أثرًا طويلا فيه غرائب وعجائب ، عن محمد بن إسحاق بن يسار [رحمه الله] وكأنه تلقاه من الإسرائيليات والله [تعالى] أعلم .

وقوله : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ فيه أبو سعيد وأبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فأما حديث أبي سعيد ، فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا ، فقال :

حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن يحيى المازني ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه ، فقال : يا محمد ، إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي . قال : "ادعوه" فدعوه ، قال : "لم لطمت وجهه ؟" قال : يا رسول الله ، إني مررت باليهودي فسمعته يقول : والذي اصطفى موسى على البشر .

قال : قلت : وعلى محمد ؟ فأخذتني غضبة فلطمته ، قال : "لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم

العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور" .

وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه ، ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه ، وأبو داود في كتاب "السنة" من سننه من طرق ، عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني ، عن أبيه ، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري ، به (1)

وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده :

---

(1) صحيح البخاري برقم (4638 ، 2412 ، 6917 ، 3398 ، 7427 ، 6518) وصحيح مسلم برقم (2374) وسنن أبي داود برقم (4668) .

(72/286)

حدثنا أبو كامل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : استب رجلان : رجل من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمدًا على العالمين . وقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه ، فأتى اليهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله فأخبره ، فدعاه رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، فاعترف بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تخيروني على موسى ؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى ممسكاً بجانب العرش ، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي ، أم كان ممن استثناه الله ، عز وجل" . أخرجاه في الصحيحين ، من حديث

الزهري ، به (1)

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا ، رحمه الله : أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه (2) ولكن تقدم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار ، وهذا هو أصح وأصرح ، والله أعلم .

والكلام في قوله ، عليه السلام : "لا تخيروني على موسى" ، كالكلام على قوله : "لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى" ، قيل : من باب التواضع . وقيل : قبل أن يعلم بذلك . وقيل : نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب . وقيل : على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي ، والله أعلم .

---

(1) المسند (264/2) وصحيح البخاري برقم (3408 ، 2411) وصحيح مسلم برقم (2373) .

(2) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (443/6) : "وأما كون اللاطم في هذه القصة الصديق فهو مصرح به فيما أخرجه سفيان بن عيينة في جامعة وابن أبي الدنيا في "كتاب

البعث" من طريقه عن عمرو بن دينار ، عن عطاء وابن جدعان ، عن سعيد بن المسيب قال : كان بين رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبين رجل من اليهود كلام في شيء فقال عمرو بن دينار : هو أبو بكر الصديق" .

(73/286)

وقوله : "فإن الناس يصعقون يوم القيامة" ، الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة ، يحصل أمر يصعقون منه ، والله أعلم به . وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، وتجلى للخلائق الملك الديان ، كما صعق موسى من تجلي الرب ، عز وجل ، ولهذا قال ، عليه السلام : "فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور" ؟ وقد روى القاضي عياض في أوائل كتابه "الشفاء" بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق : حدثنا قتادة ، حدثنا الحسن ، عن قتادة ، عن يحيى بن وثاب ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لما تجلى الله لموسى ، عليه السلام ، كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء ، مسيرة عشرة فراسخ" (1) ثم قال : "ولا يبعد على هذا أن يختص نبيا بما ذكرناه من هذا الباب ، بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى . انتهى ما قاله ، وكأنه صحح هذا الحديث ، وفي صحته نظر ، ولا يخلو رجال إسناده من

مجاهيل لا يعرفون ، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله ، حتى ينتهي إلى منتهاه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 468 . 473 ﴾

---

(1) الشفا (165/1) .

(74/286)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا ﴾ لوقتنا الذي وقتناه ، واللامُ للاختصاص ، أي اختَصَّ مجيئُه بميقاتنا ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ من غير واسطةٍ كما يكلم الملائكة عليهم السلام ، وفيما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك من كل جهةٍ تنبيهٌ على أن سماعَ كلامِه عز وجل ليس من جنس سماعِ كلام المحدّثين ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أي أرني ذاتَك بأن تمكِّنَني من رؤيتك أو تتجلى لي فأنظرَ إليك وأراك . هو دليلٌ على أن رؤيتَه تعالى جائزةٌ في الجملة لما أن طلبَ المستحيلِ مستحيلٌ من الأنبياء لا سيما ما يقتضي الجهلَ بشؤون الله تعالى ولذلك رده بقوله : لن تراني دون لن أرى ولن أُرِيَك ولن تنظُرَ إليّ تنبيهاً على أنه قاصرٌ عن رؤيته لتوقفها على معد في الرائي ولم يوجد فيه ذلك بعدُ ، وجعلُ السؤالِ لتبكيت قومِه الذين قالوا : أرنا الله جهرةً خطأٌ إذ لو كانت الرؤيةُ ممتنعةً لوجب أن يُجهِّلَهم ويُزيحَ شبهتَهم

كما فعل ذلك حين قالوا : ﴿ اجعل لَّنَا إلها ﴾ وأن لا يتبعَ سبيلَهم كما قال لأخيه : ولا تتبعْ سبيلَ المفسدين ، والاستدلالُ بالجواب على استحالتها أشدُّ خطأً إذ لا يدل الإخبارُ بعدم رؤيته إياه على أنه لا يراه أبداً وأنه لا يراه غيرُه أصلاً فضلاً عن أن يدل على استحالتها دعوى الضرورةِ مكابرة أو جهل لحقيقة الرؤية .

(75/286)

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل : فماذا قال ربُّ العزة حين قال موسى عليه السلام ما قال ؟ فقيل : قال : ﴿ لَن تَرَانِى ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ استدراكٌ لبيان أنه لا يُطيق بها ، وفي تعليقها باستقرار الجبلِ أيضاً دليلٌ على الجواز ضرورةَ أن المعلَّق بالممكن ممكنٌ والجبلُ قيل : هو جبل أردن ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ أي ظهرت له عظمتُه وتصدّى له اقتدارُه وأمرُه وقيل : أُعطي الجبلُ حياةً ورؤيةً حتى رآه ﴿ جَعَلَهُ دَكّا ﴾ مدكوكاً مُفتّتاً ، والدكُّ والدقُّ أخوَان كالشك والشق وقرىء دكاً أي أرضاً مستويةً ومنه ناقةٌ دكاءُ للتي لا سنامَ لها ، وقرىء دُكاً جمعُ دكّاءَ أي قطعاً ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقًا ﴾ مغشياً عليه من هول ما رآه ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ الإفاقةُ رجوعُ العقلِ والفهم إلى الإنسان بعد ذهابِهما بسبب من الأسباب ﴿ قَالَ ﴾

تعظيماً لما شاهده ﴿ سبحانك ﴾ أي تنزيهاً لك من أن أسألك شيئاً بغير إذن منك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أي من الجراءة والإقدامِ على السؤال بغير إذن ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ أي بعظمتك وجلالِك وقيل : أولُ من آمن بأنك لا تُرى في الدنيا وقيل : بأنه لا يجوز السؤال بغير إذن منك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(76/286)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا ﴾

أي لوقتنا الذي وقتناه أي لتمام الأربعين ، واللام للاختصاص كما في قوله سبحانه : ﴿ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] وهي بمعنى عند عند بعض النحويين ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ من غير واسطة بحرف وصوت ومع هذا لا يشبه كلام املخلوقين ولا محذور في ذلك كما أوضحناه في الفائدة الرابعة ، وإلى ما ذكر ذهب السلف الصالح ، وقد أخرج البزار .

وابن أبي حاتم .

وأبو نعيم في الحلية .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر قال : قال " رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما

كلم الله تعالى موسى يوم الطهور كملة بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه فقال له موسى : يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به ؟ قال يا موسى : أنا كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا : يا موسى صف لنا كلام الرحمن ، فقال : لا تستطيعونه ألم تروا إلى صوت الصواعق الذي يقبل في أحلى حلاوة سمعتوه فذاك قريب منه وليس به " .

وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

(77/286)

والحاكم وصححه عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية قال : "إنما كلم الله تعالى موسى بقدر ما يطيق من كلامه ولو تكلم بكلامه كله لم يطقه شيء" وأخرج جماعة عن كعب قال : "لما كلم الله تعالى موسى كلمه بالألسنة كلها فجعل يقول : يا رب لا أفهم حتى كلمه آخر الألسنة بلسان بمثل صوته" الخبر ، وأخرجوا عن ابن كعب القرظي أنه قال : قيل لموسى عليه السلام ما شبهت كلام ربك مما خلق ؟ فقال عليه السلام : بالرعد الساكن ، وأخرج الديلمي عن أبي هريرة مرفوعاً لما خرج أخي موسى إلى مناجاة ربه كلمه ألف كلمة ومائتي

كلمة فأول ما كلمه بالبربرية ، ونقل عن الأشعري أن موسى عليه السلام إنما سمع الكلام النفسي القائم بذات الله تعالى ولم يكن ما سمعه مختصاً بجهة من الجهات ، وجمله على السماع بالفعل مشكل مع الأخبار الدالة على خلافه ؛ والظاهر أن ذلك إن صح نقله فهو قول رجع عنه إلى مذهب السلف الذي أبان عن اعتقاده له في الإبانة ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى ﴾ أي ذاتك أو نفسك فالمفعول الثاني محذوف لأنه معلوم ، ولم يصرح به تأدبا ﴿ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ مجزوم في جواب الدعاء ، واستشكل بأن الرؤية مسببة عن النظر متأخرة عنه كما يريك ذلك النظر إلى قولهم : نظرت إليه فرأيته ، ووجهه أن النظر تقليب الحدقة نحو الشيء التماساً لرؤيته والرؤية الإدراك بالباصرة بعد التلقيب وحينئذ كيف يجعل النظر جواباً لطلب الرؤية مسبباً عنه وهو عكس القضية .

(78/286)

وأجيب بأن المراد بالاراءة ليس إيجاد الرؤية بل التمكن منها مطلقاً أو بالتجلي والظهور وهو مقدم على النظر وسبب له ، ففي الكلام ذكر الملزوم وإرادة اللازم أي مكنى من رؤيتك أو تجل لي فانظر إليك وأراك ﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قال رب العزة حين قال موسى عليه السلام ذلك ، فقيل : قال : ﴿ لَنْ ﴾ أي لا قابلية لك لرؤيتي

وأنت على ما أنت عليه ، وهو نفي للإراءة المطلوبة على أتم وجه ﴿ تَرَانِى ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ إستدراك لبيان أنه عليه السلام لا يطيق الرؤية ، والمراد من الجبل طور سيناء كما ورد في غير ما خبر ، وفي تفسير الخازن وغيره أن اسمه زبير بزاي مفتوحة وباء موحدة مكسورة وراء مهملة بوزن أمير ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ ولم يفتته التجلي ﴿ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ إذا تجليت لك ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ أي ظهر له على الوجه اللائق بجنابه تعالى بعد جعله مدركاً لذلك ﴿ جَعَلَهُ دَكّا ﴾ أي مدكوكاً متفتتاً ، والدك والدق أخوان كالشك والشق .

وقال سيخنا الكوراني : إن الجبل مندرج في الأشياء التي تسبح بحمد الله بنص ﴿ وَإِن مّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] المحمول على ظاهره عند التحقيق المستلزم لكونه حياً مدركاً حياة وإدراكاً لائقين بعالمه ونشأته ، وقيل : هذا مثل لظهور اقتداره سبحانه وتعلق إرادته بما فعل بالجبل لا أن ثم تجليا وهو نظير ما قرر في قوله تعالى : ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] من أن المراد أن ما قضاه سبحانه وأراد كونه يدخل تحت الوجود من غير توقف لا أن ثمة قولا .

وتعقبه صاحب الفوائد بأن هذا المعنى غير مفهوم من الآية لأن تجلي مطاوع جليته أي أظهرته يقال : جليته فتجلى أي أظهرته فظهر ولا يقدر تجلي اقتداره لأنه خلاف الأصل ، على أن هذا الحمل بعيد عن المقصود بمراحل .

وأخرج أحمد .

وعبد بن حميد .

والترمذي والحاكم وصححاه .

(79/286)

والبيهقي وغيرهم من طرق عن أنس بن مالك " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ ﴾ الخ قال هكذا وأشار باصبعيه ووضع طرف إبهامه على أنملة الخنصر وفي لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل " وعن ابن عباس أنه قال ما تجلى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فجعله تراباً ، وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التي يسلك فيها طريق التسليم وهو أسلم وأحكم أو التأويل بما يليق بجلال ذاته تعالى .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ دَكَّاء ﴾ بالمد أي أرضا مستوية ، ومنه قولهم ناقة دكاء للتي لم يرتفع سنامها .

وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ دَكّاً ﴾ بضم الدال والتنوين جمع دكاء كحمر وحمراء أي قطعا دكا فهو صفة جمع ، وفي شرح التسهيل لأبي حيات أنه أجرى مجرى الأسماء فاجرى على

المذكر ﴿ وَخَرَّ موسى ﴾ أي سقط من هول ما رأى ، وفرق بعضهم بين السقوط والخرور بأن الأول مطلق والثاني سقوط له صوت كالخرير ﴿ صَعِقًا ﴾ أي صاعقا وصائحا من الصعقة ، والمراد أنه سقط مغشياً عليه عند ابن عباس .

والحسن رضي الله تعالى عنهم .

وميتا عند قتادة .

(80/286)

روي أنه بقي كذلك مقدار جمعة ، وعن ابن عباس أنه عليه السلام أخذته الغشية عشية يوم الخميس يوم عرفة إلى عشية يوم الجمعة ، ونقل بعض القصاصين أن الملائكة كانت تمر عليه حينئذ فيلكزونه بارجلهم ويقولون يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة وهو كلام ساقط لا يعول عليه بوجه ، فإن الملائكة عليهم السلام مما يجب تبرئتهم من إهانة الكليم بالوكز بالرجل والغضب في الخطاب ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ بأن عاد إلى ما كان عليه قبل وذلك بعود الروح إليه على ما قال قتادة أو بعود الفهم والحس على ما قال غيره ، والمشهور أن الإفاقة رجوع العقل والفهم إلى الإنسان بعد ذهابهما عنه بسبب من الأسباب ، ولا يقال للميت إذا عادت إليه روحه أفاق وإنما يقال ذلك للمغشى عليه ولهذا اختار الأكثرون ما

قاله الحبر ﴿ قَالَ ﴾ تعظيماً لأمر الله سبحانه ﴿ سبحانك ﴾ أي تنزيهاً لك من مشابهة خلقك في شيء ، أو من أن يثبت أحد لرؤيتك على ما كان عليه قبلها ، أو من أن أسألك شيئاً بغير اذن منك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من الاقدام على السؤال بغير أذن ، وقيل : من رؤية وجودي والميل مع ارادتي ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ بعظمتك وجلالك أو بأنه لا يراك أحد في هذه النشأة فيثبت على ما قيل ، وأراد كما قال الكوراني أنه أول المؤمنين بذلك عن ذوق مسبوق بعين اليقين في نظره ، وقيل : أراد أول المؤمنين بأنه لا يجوز السؤال بغير إذن منك .

واستدل أهل السنة المجوزون لرؤيته سبحانه بهذه الآية على جوازها في الجملة ، واستدل بها المعتزلة النفاة على خلاف ذلك وقامت الحرب بينهما على ساق ، وخلاصة الكلام في ذلك أن أهل السنة قالوا : إن الآية تدل على إمكان الرؤية من وجهين .

(81/286)

الأول أن موسى عليه السلام سألها بقوله : ﴿ رَبِّ أَرِنِى ﴾ الخ ، ولو كانت مستحيلة فإن كان موسى عليه السلام عالماً بالاستحالة فالعاقل فضلاً عن النبي مطلقاً فضلاً عمن هو من أولي العزم لا يسأل المحال ولا يطلبه ، وإن لم يكن عالماً بذلك لزم أن يكون آحاد المعتزلة ومن حصل طرفا من علومهم أعلم بالله تعالى وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبي الصفى ،

والقول بذلك غاية الجهل والرعونة ، وحيث بطل القول بالاستحالة تعين القول بالجواز ، والثاني أن فيها تعليق الرؤية على استقرار الجبل وهو ممكن في نفسه وما علق على الممكن ممكن .

واعترض الخصوم الوجه الأول بوجوه .

الأول أنا لا نسلم أن موسى عليه السلام سأل الرؤية وإنما سأل العلم الضروري به تعالى إلا أنه عبر عنه بالرؤسة مجازاً لما بينهما من التلازم ، والتعبير بأحد المتلازمين عن الآخر شائع في كلامهم ، وإلى هذا ذهب أبو الهذيل بن العلاف وتابعه عليه الجبائي وأكثر البصريين .

(82/286)

الثاني أنا سلمنا أنه لم يسأل العلم بل سأل الرؤية حقيقة لكنا نقول : إنه سأل رؤية علم من أعلام الساعة بطريق حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فمعنى ﴿ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أرني أنظر إلى علم من أعلامك الدالة على الساعة ، وإلى هذا ذهب الكعبي والبغداديون ، الثالث أنا سلمنا أنه سأل رؤية الله تعالى نفسه حقيقة ولكن لم يكن ذلك لنفسه عليه السلام بل لدفع قومه القائلين ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153] وإنما أضاف الرؤية إليه دونهم ليكون منعه أبلغ في دفعهم وردعهم عما سألوه تنبيهاً بالأعلى على

الأدنى ، وإلى هذا ذهب الجاحظ ومتبعوه ، الرابع أنا سلمنا أنه سأل لنفسه لكن لا نسلم أن ذلك ينافي العلم بالإحالة إذ المقصود من سؤالها إنما هو أن يعلم الإحالة بطريق سمعي مضاف إلى ما عنده من الدليل العقلي لقصد التأكيد ، وذلك جائز كما يدل عليه طلب إبراهيم عليه السلام إراءة كيفية إحياء الموتى ، وقوله : ﴿ ولكن لّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : 260] وإلى ذلك ذهب أبو بكر الأصم ، الخامس أنا سلمنا أن سؤال الرؤية ينافي العلم بالإحالة لكنا نلتزم القول بعدم العلم وهو غير قادح في نبوته عليه السلام فإن النبوة لا تتوقف على العلم بجميع العقائد الحقة أو جميع ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز بل ما يتوقف عليه الغرض من البعثة والدعوة إلى الله تعالى وهو وحدانيته وتكليف عباده بالأوامر والنواهي تحريضاً لهم على النعم المقيم ، وليس امتناع الرؤية من هذا القبيل ، ويؤيد ذلك أنه سأل وقوع الرؤية في الدنيا وهي غير واقعة عندنا وعندكم ، ونسب هذا القول إلى الحسن منا وهو غريب منه .

(83/286)

السادس أنا سلمنا العلم بالإحالة لكن لا نسلم امتناع السؤال وإنما يمتنع أن لو كان محرماً في شرعه لم لا يجوز أن لا يكون محرماً ؟ ، السابع أنا سلمنا الحرمة لكن لا نسلم أن ذلك كبيرة لم لا يجوز أن يكون صغيرة وهي غير ممتنعة على الأنبياء عليهم السلام ؟ .

(84/286)

وتكلموا على الوجه الثاني من وجهين : الأول أنا لا نسلم أنه علق الرؤية على أمر ممكن لأن التعليق لم يكن على استقرار الجبل حال سكونه وإلا لوجدت الرؤية ضرورة وجود الشرط لأن الجبل حال سكونه كان مستقراً بل على استقراره حال حركته وهو محال لذاته ، والثاني أنا وإن سلمنا أن استقرار الجبل ممكن لكن لا نسلم أن المعلق بالممكن ممكن فإنه يصح أن يقال : إن انعدم المعلوم انعدم العلة ، والعلة قد تكون ممتنعة العدم مع إمكان المعلول في نفسه كالصفات بالنسبة إلى الذات عند المتكلمين ، والعقل الأول بالنسبة إليه تعالى عند الحكماء ، فيجوز أن تكون الرؤية الممتنعة متعلقة بالاستقرار الممكن ، والسر في جواز ذلك أن الارتباط بين المعلق والمعلق عليه إنما هو بحسب الوقوع بمعنى أنه إن وقع عدم المعلول وقع عدم العلة ، والممكن الذاتي قد يكون ممتنع الوقوع كالممتنع الذاتي فيجوز التعليق بينهما وليس الارتباط بينهما بحسب الإمكان حتى يلزم من إمكان المعلق عليه إمكان المعلق ، ثم

إنا وإن سلمنا دلالة ما ذكرتموه من الوجهين على جواز الرؤية فهو معارض بما يدل على عدم الجواز فإن ﴿ لَنْ ﴾ في الآية لتأبيد النفي وتأكيده وأيضاً قول موسى عليه السلام : (تبت إليك) دليل كونه مخطئاً في سؤاله ولو كانت الرؤية جائزة لما كان مخطئاً ، والزمخشري عامله الله تعالى بعدله زعم أن الآية أبلغ دليل على عدم إمكان الرؤية ، وذكر في كشافه ما ذكر وقال : ثم أعجب من المتسمين بالإسلام المسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة فإنه من منصوبات أشياخهم ، والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

وجماعة سموا هواهم سنة . . .

لجماعة حمر لعمري موكفه

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا . . .

شنع الورى فتستروا بالبلكفه

(85/286)

وأجيب عن قولهم : إنه عليه السلام إنما سأل العلم الضروري بأنه لو كانت الرؤية بمعنى العلم الضروري لكان النظر المذكور بعد أيضاً بمعناه وليس كذلك ، فإن النظر الموصول بإلى

نص في الرؤية لا يحتمل سواه فلا يترك للاحتمال .

وفي شرح المواقف أن طلب العلم الضروري لمن يخاطبه ويناجيه غير معقول ، وأورد عليه أن المراد هو العلم بهويته الخاصة ، والخطاب لا يقتضي إلا العلم بوجه كمن يخاطبنا من وراء الجدار ، والمراد بالعلم بالهوية الخاصة انكشاف هويته تعالى على وجه جزئي بحيث لا يمكن عند العقل صدقه على كثيرين كما في المرئى بحاسة البصر ، ولا شك في كونه ممكناً في حقه تعالى لأنه قادر على أن يخلق في البعد علماً ضرورياً بهويته الخاصة على الوجه الجزئي بدون استعمال الباصرة كما يخلق بعده ، وفي عدم لزومه الخطاب فإنه إنما يقتضي العلم بالمخاطب بأمور كلية يمكن صدقها على كثيرين عند العقل وإن كانت في الخارج منحصرة في شخص واحد فهو من قبيل التعقل ، وبهذا التحرير يعلم رصانة الإيراد ودفع ما أورد عليه ، ويظهر منه ركاكة ما قاله الآمدي .

من أن حمل الرؤية على العلم يلزم منه أن يكون موسى عليه السلام غير عالم بربه لئلا يلزم تحصيل الحاصل ، ونسبة ذلك إلى الكليم من أعظم الجهالات لأنا نقول العلم بالهوية الخاصة على ما ذكرنا ليس من ضروريات النبوّة ولا المكالمة كما لا يخفى .

نعم يأبى هذا الحمل التعدية كما علمت ويبعده الجواب بلن تراني ولكن انظر الخ كما هو ظاهر وإن تكلف له الزمخشري بما تمجه الاسماع .

وقيل : إنه لو ساغ هذا التأويل لساغ مثله في ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153]

لتساوي الدلالة وهو ممتنع بالإجماع وجهرة لا يزيد على كون النظر موصولاً بإلى .

وأجيب عن قولهم : إنما سأله أن يريه علماً من أعلام الساعة بأنه لا يستقيم لثلاثة أوجه .

أحدها : أنه خلاف الظاهر من غير دليل .

(86/286)

ثانيها : أنه أجيب بلن تراني وهو إن كان محمولاً على نفي ما وقع السؤال عنه من رؤية بعض الآيات فهو خلف فإنه قد أراه سبحانه أعظم الآيات وهو تدكدك الجبل ، وإن كان محمولاً على نفي الرؤية لزمن أن لا يكون الجواب مطابقاً للسؤال .

ثالثها : أن قوله سبحانه : ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ إن كان محمولاً على رؤية الآية فهو محال لأن الآية ليست في استقرار الجبل بل في تدكدكه ، وإن كان محمولاً على الرؤية لا يكون مرتبطاً بالسؤال ، فإذن لا ينبغي حمل ما في الآية على رؤية الآية ، وعن قولهم : إن الرؤية وقعت لدفع قومه بأن ذلك خلاف الظاهر من غير دليل ، وكون الدليل أخد الصعقة ليس بشيء .

(87/286)

وأيضاً كان يجب عليه السلام أن يبادر إلى ردعهم وزجرهم عن طلب ما لا يليق بجلال الله تعالى كما قال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : 138] عند قولهم : ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] وقولهم : إن المقصود ضم الدليل السمعي إلى العقلي ليس بشيء إذ ذلك كان يمكن بطلب إظهار الدليل السمعي له من غير أن يطلب الرؤية مع إحالتها ، وقصته تقدم الكلام فيها ، وما ذكروه في الوجه الخامس ظاهر رده من تقرير الوجه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما أهل السنة ، وحاصله أنه يلزمهم أن يكون الكليم عليه السلام دون آحاد المعتزلة علماً ودون من حصل طرفاً من الكلام في معرفة ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز ، وهذه كلمة حمقاء وطريقة عوجاء لا يسلكها أحد من العقلاء ، فإن كون الأنبياء عليهم السلام أعلم ممن عداهم بذاته تعالى وصفاته العلا مما لا ينبغي أن ينتطح فيه كبشان ، وكون الرؤية في الدنيا غير واقعة عند الفريقين إن أريد به أنها غير ممكنة الوقوع فهو أول المسألة وإن أريد أنها ممكنة لكنها لا تقع لأحد فلا نسلم أنه أجمع على ذلك الفريقان ، أما المعتزلة فلأنهم لا يقولون بإمكانها ، وأما أهل السنة فلأن كثيراً منهم ذهب إلى أنها وقعت لنبينا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وهو قول ابن عباس . وأنس وغيرهما ، وقول عائشة رضي الله تعالى عنها : من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله سبحانه الفرية مدفوع أو مؤول بأن المراد من زعم أن

محمداً صلى الله عليه وسلم في نوره الذي هو نوره أعني النور الشعشعاني الذي يذهب بالأبصار ، وهو المسار إليه في حديث

" لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره " فقد أعظم الفرية ، ومن هذا يعلم ما في احتمال إرادة عدم الوقوع مع قطع النظر عن الإمكان وعدمه .

(88/286)

وقولهم : إنه يجوز أن لا يكون ذلك الطلب محرماً في شرعه فلا يمتنع يرد عليه أن دليل الحرمة ظاهر ، فإن طلب المحال لو لم يكن حراماً في شرعه عليه السلام لما بلغ في التشنيع على قومه حين طلبوا ما طلبوا على أنا لو سلمنا أنه ليس بحرام يقال : إنه لا فائدة فيه وما كان كذلك فمنصب النبوة منزه عنه ، ومن هذا يعلم ما في قولهم الأخير .

(89/286)

وأجيب عن قولهم : إن المعلق عليه هو استقرار الجبل حال حركته بأنهم إن أرادوا أن الشرط هو الاستقرار حال وجود الحركة مع الحركة فهو زيادة اضمار وترك لظاهر اللفظ

من غير دليل فلا يصح ، وإن أرادوا أن الشرط هو الاستقرار في الحالة التي وجدت فيها الحركة بدلاً عن الحركة فلا يخفى جوازه ، فكيف يدعى أنه محال لذاته ؟ ، وبعضهم قال في الرد : إن المعلق عليه استقرار الجبل بعد النظر بدليل الفاء ، وحين تعلقت إرادة الله تعالى بعدم استقراه عقيب النظر استحال استقراره وإن كان بالغير فعدل عن القول بالمحال بالذات إلى القول بالمحال بالغير لأن الغرض يتم به أيضاً ، وتعقبه السالكوتي وغيره بأنه ليس بشيء لأن استقرار الجبل حين تعلق إرادته تعالى بعدم استقراره أيضاً ممكن بأن يقع بدله الاستقرار إنما المحال استقراره مع تعلق إرادته سبحانه بعدم الاستقرار ، ولبعض فضلاء الروم ههنا كلام نقله الشهاب لا تغرنك قعقعته فإن الظواهر لا تترك لمجرد الاحتمال المرجوح ، وأجيب عن قولهم لا نسلن أن المعلق بالممكن ممكن الخ بأن المراد بالممكن المعلق عليه الممكن الصرف والخالي عن الامتناع مطلقاً ، ولا شك أن إمكان المعلول فيما امتنع عدم علته ليس كذلك بل التعليق بينهما إنما هو بحسب الامتناع بالغير فإن استلزام عدم الصفات وعدم العقل الأول عدم الواجب من حيث إن وجود كل منهما واجب وعدمه ممتنع بوجود الواجب ، وأما بالنظر إلى ذاته مع قطع النظر عن الأمور الخارجة فلا استلزام بخلاف استقرار الجبل فإنه ممكن صرف غير ممتنع لا بالذات ولا بالعرض كما لا يخفى ، على أن بعضهم نظر في صحة المثال لغة وإن كان فيه ما فيه ، وما قيل : إنه ليس المقصود في الآية بيان جواز الرؤية وعدم جوازها إذ هو غير مسؤول عنه بل المقصود إنما هو بيان عدم

وقوعها وعدم الشرط مكتفل بذلك كلام لا طائل تحته ، إذ الجواز وعدم الجواز من مستتبعات التعليق بإجماع جهابذة الفريقين ، وما ذكروه في

(90/286)

المعارضة من أن ﴿ لَنْ ﴾ تفيد تأبيد النفي غير مسلم ، ولو سلم فيحتمل أن ذلك بالنسبة إلى الدنيا كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [البقرة : 95] فإن إفادة التأبيد فيه أظهر ، وقد حملوه على ذلك أيضا لأنهم يتمنونه في الآخرة للتخلص من العقوبة ، ومما يهدي إلى هذا أن الرؤية المطلوبة إنما هي الرؤية في الدنيا وحق الجواب أن يطابق السؤال ، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن أن نفي الرؤية مقيد لا مطلق فليتبع بيانه عليه الصلاة والسلام ، فقد أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول .

وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ رَبِّ أَرِنِى ﴾ الخ فقال : قال الله تعالى يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تفرق وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم " وهذا ظاهر في أن مطلوب موسى عليه السلام كان الرؤية في الدنيا مع بقائه على حالته التي هو

عليها حين السؤال من غير أن يعقبها صعق لأن قوله عز وجل : إنه لن يراني حي الخ لا ينفي إلا الرؤية في الدنيا مع الحياة لا الرؤية مطلقاً ، فمعنى ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ في الآية لن تراني وأنت باق على هذه الحالة لا لن تراني في الدنيا مطلقاً فضلاً عن أن يكون المعنى لن تراني مطلقاً لا في الآخرة .

(91/286)

نعم إن هذا الحديث مخصص بما صح مرفوعاً وموقوفاً أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة الإسراء مع عدم الصعق ، ولعل الحكمة في اختصاصه صلى الله عليه وسلم بذلك أن نشأته عليه الصلاة والسلام أكمل نشأة وأعدلها صورة ومعنى لجامعيته صلى الله عليه وسلم للحقائق على وجه الاعتدال وهي فيه متجاذبة ومقتضى ذلك الثبات بإذن الله تعالى ومع ذلك فلم يقع له التجلي إلا في دار البقاء فاجتمع مقتضى الموطن مع مقتضى كمال اعتدال النشأة ، وقد يقال أيضاً على سبيل التنزل : لو سلمنا دلالة لن على التأبيد مطلقاً لكان غاية ذلك انتفاء وقوع الرؤية ولا يلزم منه انتفاء الجواز ، والمعتزلة يزعمون ذلك وقولهم : قوله عليه السلام ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ يدل على كونه مخطئاً ليس بشيء لأن التوبة قد تطلق بمعنى الرجوع وأن لم يتقدمها ذنب ، وعلى هذا فلا يبعد أن يكون المراد من تبت إليك أي

رجعت إليك عن طلب الرؤية .

وذكر ابن المنير أن تسبيح موسى عليه السلام لما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وأما التوبة في حق الأنبياء عليهم السلام فلا يلزم أن تكون عن ذنب لأن منزلتهم العلية تصان عن كل ما يحط عن مرتبة الكمال ، وكان عليه عليه السلام نظراً إلى علو شأنه أن يتوقف في سؤال الرؤية على الاذن فحيث سأل من غير إذن كان تاركاً الأولى بالنسبة إليه ، وقد ورد " حسنات الأبرار سيئات المقربين " وذكر الإمام الرازي نحو ذلك .

(92/286)

وقال الآمدي : إن التوبة وان كانت تستعدي سابقية الذنب إلا أنه ليس هناك ما يدل قطعاً على أن الذنب في سؤاله بل جاز أن تكون التوبة عما تقدم قبل السؤال مما يعده هو عليه السلام ذنباً والداعي لذلك ما رأى من الأهوال العظيمة من تدكدك الجبل على ما هو عادة المؤمنين الصلحاء من تجديد التوبة عما سلف إذا رأوا آية وأمراً مهولا ، وذكر أن قوله عليه السلام : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ ليس المراد منه ابتداء الإيمان في تلك الحالة بل المراد به إضافة الأولية إليه لا إلى الإيمان ، ولعل المراد من ذلك الإخبار الاستعطاف لقبول توبته عليه

السلام عما هو ذنب عنده ، وأراد بالمؤمنين قومه على ما روي عن مجاهد ، وما يشير إليه كلام الزمخشري من أن الآية أبلغ دليل على عدم إمكان الرؤية لا يخفى ما فيه على من أحاط خبرا بما ذكرناه ، ومن المحققين من استند في دلالة الآية على إمكانها بغير ما تقدم أيضاً ، وهو أنه تعالى أحال انتفاء الرؤية على عجز الرائي وضعفه عنها حيث قال له : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ ولو كانت رؤيته تعالى غير جائزة لكان الجواب لست بمرئي ، ألا ترى لو قال : أرني أنظر إلى صورتك ومكانك لم يحسن في الجواب أن يقال لن ترى صورتي ولا مكاني بل الحسن لست بذي صورة ولا مكان .

(93/286)

وقال بعضهم بعد أن بين كون الآية دليلاً على أن الرؤية جائزة في الجملة ببعض ما تقدم : ولذلك رده سبحانه بقوله : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ دون لن أرى ولن أريك ولن تنظر إلى تنبيها على أنه عليه السلامقاصر عن رؤيته تعالى لتوقفها على معد في الرائي ولم يوجد فيه بعد ، وذلك لأن لن أرى يدل على امتناع الرؤية مطلقاً ولن أريك يقتضي أن المانع من جهته تعالى ، وليس في لن تنظر تنبيه على المقصود لأن النظر لا يتوقف على معد وإنما المتوقف عليه الرؤية والإدراك ، وعلل النيسابوري عدم كون الجواب لن تنظر إلى المناسب لأنظر إليك بأن

موسى عليه السلام لم يطلب النظر المطلق وإنما طلب النظر الذي معه الإدراك بدليل أرني .

وانتصر بعضهم للمعتزلة بأن لهم أن يقولوا : إن طلب الإراءة متضمن لطلب رفع الموانع من الرؤية وإيجاد ما تتوقف هي عليه لأن معنى ذلك مكنى من الرؤية والتمكين إنما يتم بما ذكر من الرفع والإيجاد ، وكان الظاهر في رد هذا الطلب لن أمكنك من رؤيتي لكن عدل عنه إلى لن تراني إشارة إلى استحالة الرؤية وعدم وقوعها بوجه من الوجوه ، كأنه قيل : إن رؤيتك لي أمر محال في نفسه وتمكيني إنما يكون من الممكن ، ولو لم يكن المراد ذلك بل كان المراد أنك لا قابلية لك لرؤيتي لكان لموسى عليه السلام أن يقول يا رب أنا أعلم عدم القابلية لكني سألتك التمكين وهو متضمن لسؤال إيجادها لأنها مما تتوقف الرؤية عليه ، فعلى هذا لا يكون الجواب مفيداً لموسى عليه السلام ولا مقنعاً له بخلافه على الأول ، فيكون حينئذ هو المتعين .

فإن قيل : القابلية وعدم القابلية من توابع الاستعداد وعدم الاستعداد وهما غير مجعولين ، قلنا : هذا على ما فيه من الكلام العريض والنزاع الطويل مستلزم لمطلوبنا من امتناع الرؤية كما لا يخفى على من له أدنى استعداد لفهم الحقائق .

(94/286)

وأجيب بأن طلب التمكين من شيء إنما يتضمن طلب رفع الموانع التي في جانب المطلوب منه فقط على ما هو الظاهر لا مطلقاً بحيث يشمل ما كان في جانب المطلوب منه وما كان في جانب الطالب ، ويرشد إلى ذلك أن قولك : لم يمكني زيد من قتل عمرو مثلاً ظاهر في أنه حال بينك وبين قتله مع تهيئك له وارتفاع الموانع التي من قبلك عنه ، فكأن موسى عليه السلام لما كلمه ربه هاج به الشوق إلى الرؤية كما قال الحسن : لأن دو الله إبليس غاص في الأرض حتى خرج من بين قدميه فوسوس إليه إن مكلمك شيطان فعند ذلك سألها كما قال السدي : وأعوذ بالله من اعتقاده فذهل عن نفسه وما فيها من الموانع فلم يخطر بباله إلا طلب رفع الموانع عنها من قبل الرب سبحانه فنبهه جل شأنه بقوله : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ على وجود المانع فيه عن الرؤية وهو الضعف عن تحملها وأراه ضعف من هو أقوى منه عن ذلك بدك الجبل عند تجليه له ، ففائدة الاستدراك على هذا أن يتحقق عنده عليه السلام أنه أضعف من أن يقوم لتجلي الرؤية ، وهو على ما هو عليه ، ويمكن أن تكون التوبة منه عليه السلام بعد أن أفاق من هذه الغفلة ، وحينئذ لا شك أن الجواب ب ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ الخ مفيد مقنع .

هذا وذكر بعض المحققين أن حاصل الكلام في هذا المقام أن موسى عليه السلام كان عالماً بإمكان الرؤية ووقوعها في الدنيا لمن شاء الله تعالى من عباده عقلاً ؛ والشروط التي تذكر لها ليست شروطاً عقلية وإنما هي شروط عادية ولم يكن عالماً بعدم الوقوع مع عدم تغير

الحال حتى سمع ذلك من الرب المتعال ، وليس في عدم العلم بما ذكر نقص في مرتبته عليه السلام لأنه من الأمور الموقوفة على السمع ، والجهل بالأمور السمعية لا يعد نقصاً ، فقد صح أن أعلم الخلق على الإطلاق نبينا صلى الله عليه وسلم سئل عن أشياء فقال : سأسأل جبريل عليه السلام ، وأن جبريل عليه السلام سئل فقال : سأسأل رب العزة ، وقد قالت الملائكة :

(95/286)

﴿ سبحانك لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة : 32] وأن الآية لا تصلح دليلاً على امتناع الرؤية على ما يقوله المعتزلة بل دلالتها على إمكانها في الجملة أظهر وأظهر ، بل هي ظاهرة في ذلك دون ما يقوله الخصوم ، وما رواه أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في تفسير ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ : إنه لا يكون ذلك أبداً لا حجة لهم فيه لأنه غير واف بمطلوبهم ، مع أن التأبيد فيه بالنسبة إلى عدم تغير الحال كما يدل عليه الخبر المروي عنه سابقاً ، وكذا ما رواه عنه أبو الشيخ إذ فيه : يا موسى إنه لا يراني أحد فيحيا قال موسى : رب إن أراك ثم أموت أحب إليَّ من أن لا أراك ثم أحيا ، وما ذكره الزمخشري عن الأشياخ أنهم قالوا : إنه تعالى يرى بلا كيف هو المشهور .

ونقل المناوي أن الكمال بن الهمام سئل عما رواه الدارقطني وغيره عن أنس من قوله صلى الله عليه وسلم : " رأيت ربي في أحسن صورة " بناء على حمل الرؤية على الرؤية في اليقظة فأجاب بأن هذا حجاب الصورة انتهى ، وهو التجلي الصوري الشائع عند الصوفية ، ومنه عندهم تجلي الله تعالى في الشجرة لموسى عليه السلام ، وتجليه جل وعلا للخلق يوم يكشف عن ساق ، وهو سبحانه وإن تجلى بالصورة لكنه غير متقيد بها والله من ورائهم محيط ، والرؤية التي طلبها موسى عليه السلام غير هذه الرؤية ، وذكر بعضهم أن موسى كان يرى الله تعالى إلا أنه لم يعلم أن ما رآه هو هو وعلى هذا الطرز يحمل ما جاء في بعض الروايات المطعون بها ، رأيت ربي في صورة شاب ، وفي بعضها زيادة له نعلان من ذهب ، ومن الناس من حمل الرؤية في رواية الدارقطني على الرؤية المنامية ، وظاهر كلام السيوطي أن الكيفية فيها لا تضر وهو الذي سمعته من المشايخ قدس الله تعالى أسرارهم ، والمسألة خلافية ، وإذا صح ما قاله المشايخ وأفهمه كلام السيوطي فأنا ولله تعالى الحمد قد رأيت ربي مناماً ثلاث مرات وكانت المرة الثالثة في السنة السادسة والأربعين والمائتين والألف بعد الهجرة ، رأيته جل شأنه وله من النور ما له متوجهاً جهة المشرق فكلمني بكلمات

أنسيتها حين استيقظت ، ورأيت مرة في منام طويل كأني في الجنة بين يديه تعالى وبيني وبينه ستر حبيك بلؤلؤ مختلف ألوانه فأمر سبحانه أن يذهب بي إلى مقام عيسى عليه السلام ثم إلى مقام محمد صلى الله عليه وسلم فذهب بي إليهما فرأيت ما رأيت ولله تعالى الفضل والمنة .

ومنهم من حمل الصورة على ما به التميز والمراد بها ذاته تعالى المخصوصة المنزهة عن مماثلة ما عداه من الأشياء البالغة إلى أقصى مراتب الكمال ، وما ذكره من البيتين لبعض العدلية فهو في ذلك عثيثة تقرم جلداً أملساً والقول ما قاله تاج الدين السبكي فيهم :

عجباً لقوم ظالمين تلقبوا . . .

(97/286)

بالعدل ما فيهم لعمري معرفة

قد جاءهم من حيث لا يدرونه . . .

تعطيل ذات الله مع نفي الصفة

وتلقبوا عدلية قلنا نعم . . .

عدلوا بربهم فحسبهم سفه

وقال ابن المنير :

وجماعة كفروا برؤية ربهم . . .

هذا ووعد الله ما لن يخلفه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل . . .

عدلوا بربهم فحسبوهم سفه

وتنعتوا الناجين كلا إنهم . . .

إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه

وبعد هذا كله نقول : إن الناس قد اختلفوا في أن موسى عليه السلام هل رأى ربه بعد هذا الطلب أم لا ، فذهب أكثر الجماعة إلى أنه عليه السلام لم يره لا قبل الصعق ولا بعد .

وقال الشيخ الأكبر قدس سره : إنه رآه بعد الصعق وكان الصعق موتاً ، وذكر قدس سره أنه سأل موسى عن ذلك فأجابه بما ذكر ، والآية عندي غير ظاهر في ذلك ، وإلى الرؤية بعد الصعق ذهب القطب الرازي في تقرير كلام للزمخشري ، إلا أن ذلك على احتمال أن تفسر بالانكشاف التام الذي لا يحصل إلا إلا إذا كانت النفس فانية مقطوعة النظر عن وجودها فضلاً عن وجود الغير فإنه قال : إن موسى عليه السلام لما طلب هذه المرتبة من الانكشاف وعبر عن نفسه (بأنا) دل على أن نظره كان باقياً على نفسهوهي لا تكون كذلك إلا متعلقة بالعلائق الجسمانية مشوبة بالشوائب المادية لا جرم منع عنه هذه المرتبة

وأشير إلى أن منعها إنما كان لأجل بقاء أنا وأنت في قوله : أرني ولن تراني ، ثم لما لم يرد حرمانه عن حصول هذه المرتبة مع استعداده وتأهله لها علم طريق المعرفة بقوله سبحانه : ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ فإن الجبل مع عدم تعلقه لما لم يطق نظرة من نظرات التجلي فموسى عليه السلام مع تعلقه كيف يطيق ذلك فلما أدرك الرمز خر صعقاً مغشياً عليه متجرداً عن العلائق فانياً عن نفسه فحصل له المطلوب فلما أفاق علم أن طلبه الرؤية في تلك الحالة التي كان عليها كان سوء أدب فتاب عنه .

(98/286)

وذهب الشيخ إبراهيم الكوراني إلى أنه عليه السلام رأى ربه سبحانه حقيقة قبل الصعق فصعق لذلك كما دك الجبل للتجلي ، وأيده بما أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" لا تجلى الله تعالى لموسى عليه السلام كان يبصر دبب النملة على الصفا في الليلة الظلماء من مسيرة عشرة فراسخ ، وبما أخرجه عن أبي معشر أنه قال : مكث موسى عليه السلام أربعين ليلة لا ينظر إليه أحد إلا مات من نور رب العالمين " وجمع بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى أعطى موسى الكلام وأعطاني الرؤية وفضلني بالمقام المحمود

والحوض المورود " بأن الرؤية التي أعطاها لنبينا صلى الله عليه وسلم هي الرؤية مع الثبات والبقاء من غير صعق كما أن الكلام الذي أعطاه موسى كذلك بخلاف رؤية موسى عليه السلام فإنها لم تجمع له مع البقاء .

وعلى هذا فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام في حديث الدجال "إنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت هو أن أحداً لا يراه في الدنيا مع البقاء ولا يجمع له في الدنيا بينهما ، وفسر الآية بما لا يخلو عن خفاء .

(99/286)

والذاهبون إلى عدم الرؤية مطلقاً يجيبون عما ذكره من حديث أبي هريرة وخبر أبي معشر بأن الثاني ليس فيه أكثر من إثبات سطوع نور الله تعالى على وجه موسى عليه السلام وليس في ذلك إثبات الرؤية لجواز أن يشرق نور منه تعالى على وجهه عليه السلام من غير رؤية فإنه لا تلازم بني الرؤية وأشراق النور وبأن الأول ليس نصاً في ثبوت الرؤية المطلوبة له عليه السلام لأنها كما قال غير واحد عبارة عن التجلي الذاتي ولله تعالى تجليات شتى غير ذلك فلعل التجلي الذي أشار إليه الحديث على تقدير صحة واحد منها ، وقد يقطع بذلك فإنه سبحانه تجلى عليه عليه السلام بكلامه واصطفائه وقربه منه على الوجه الخاص

اللائق به تعالى ، ولا يبعد أن يكون هذا سبباً لذلك الإبصار ، وهذا أولى مما قيل : إن اللام في لموسى للتعليل ومتعلق تجلي محذوف أي لما تجلى الله تعالى للجبل لأجل إرشاد موسى كان عليه السلام يبصر بسبب أشراق بعض أنوار تعالى عليه حين التجلي للجبل ما يبصر : تضوع مسكاً بطن نعمان إذ مشت . . .

به زينب في نسوة خفرات

فالحق الذي لا ينبغي المحيص عنه أن موسى عليه السلام لم يحصل له ما سأل في هذا الميقات ، والذي أقطع به أنه نال مقام قرب النوافل والفرائض الذي يذكره الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم بالمعنى الذي يذكرونه كيفما كان ، وحاشا لله من أن أفضل أحداً من أولياء هذه الأمة وأن كانوا هم هم على أحد من أنبياء بني إسرائيل فضلاً عن رسلهم مطلقاً فضلاً عن أولي العزم منهم وقد ذكر بعض العارفين من باب الإشارة في هذه الآيات : أن الله تعالى واعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلة للتخلص من حجاب الأفعال والصفات والذات كل عشرة للتخلص من حجاب ، واختيرت العشرة لأنها عدد كامل كما تقدم الكلام عليه عند قوله سبحانه :

﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة : 196] ، لكن بقيت منه بقية ما خلص عنها ، واستعمال السواك في الثلاثين الذي نطقت به بعض الآثار إشارة إلى ذلك فضم إلى الثلاثين عشرة أخرى للتخلص من تلك البقية ، وجاء أنه عليه السلام أمر بأن يتقرب إليه سبحانه بما يتقرب به في ثلاثين ، وأنزلت عليه التوراة في العشرة التي ضمت إليها لتكمل أربعين ، وهو إشارة إلى أنه بلغ الشهود الذاتي التام في الثلاثين بالسلوك إلى الله تعالى ولم يبق منه شيء بل فنى بالكلية وفي العشرة الرابعة كان سلوكه في الله تعالى حتى رزق البقاء بعد الفناء بالإفاقة ، قالوا : وعلى هذا ينبغي أن يكون سؤال الرؤية في الثلاثين والإفاقة بعدها ، وكان التكليم في مقام تجلي الصفات وكان السؤال عن إفراط شوق منه عليه السلام إلى شهود الذات في مقام فناء الصفات مع وجود البقية ، و ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ إشارة إلى استحالة الإثنينية وبقاء الأنية في مقام المشاهدة ، وهذا معنى قول من قال : رأيت ربي بعين ربي ، وقوله سبحانه : ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ إشارة إلى جبل الوجود ، أي انظر إلى جبل وجودك ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ وهو من باب التعليق بالمحال عنده ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أي متلاشياً لا وجود له ﴿ وَخَرَّ موسى ﴾ عن درجة الوجود ﴿ صَعِقًا ﴾ أي فانياً ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ بالوجود الموهوب الحقاني ﴿ قَالَ سبحانك ﴾ أن تكون مرئياً لغيرك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ عن ذنب البقية ، أو رجعت إليك بحسب العلم والمشاهدة إذ ليس في الوجود سواك ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ بحسب الرتبة ، أي أنا في الصف الأول من

صفوف مراتب الأرواح الذي هو مقام أهل الوحدة ، وقد يقال : إن موسى إشارة إلى موسى الروح ارتاض أربعين ليلة لتظهر منه ينابيع الحكمة وقال لأخيه هرون القلب ﴿ اخلفنى فِى قَوْمِى ﴾ من الأوصاف البشرية ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ذات بينهم

(101/286)

على وفق الشريعة وقانون الطريقة ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] من القوى الطبيعية ، ولما حصل الروح على بساط القرب بعد هاتيك الرياضة وتتابعت عليه في روضات الأنس كاسات المحبة غرد بلبل لسانه في قفص فم وجوده فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ فقال له : هيهات ذاك وأين الثريا من يد المتناول ؟ أنت بعد في بعد الإثنينية وحجاب جبل الأنانية فإن أردت ذلك فخل نفسك وائتني :

وجانب جناب الولص هيهات لم يكن . . .

وها أنت حي أن تكن صادقاً

مت هو الحب إن لم تقض لم تقض مأربا . . .

من الحب فاختر ذاك أو خل خلتي

فهان عليه الفناء في جانب رؤية المحبوب ولم يعز لديه كل شيء إذ رأى عزة المطلوب ونادى :

فقلت لها : روحي لديك وقبضها . . .

إليك ومن لي أن تكون بقبضتي

وما أنا بالشاني الوفاة على الهوى . . .

وشأني الوفا تابي سواه سجيتي

فبذل وجوده وأعطى موجوده فتجلى ربه لجبل أنانيته ثم من عليه برؤيته وكان ما كان

وأشرقت الأرض بنور ربها وطفىء المصباح إذ طلع الصباح وصدح هزار الأنس في رياض

القدس بنغم :

ولقد خلوت مع الحبيبة وبيننا . . .

سر أرق من النسيم إذا سرى

وأباح طرفي نظرة أملتها . . .

فغدوت معروفاً وكنت منكراً

فدهشت بين جماله وجلاله . . .

وغدا لسان الحال عني مخبرا

هذا والكلام في الرؤية طويل ، وقد تكفل علم الكلام بتحقيق ذلك على الوجه الأكمل ،

والذي علينا إنما هو كشف القناع عما يتعلق بالآية ، والذي نظنه أنا قد أدينا الواجب ،

ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد ، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 9 صـ ﴾

(102/286)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [143] .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ أي : حضر الجبل لوقتنا الذي وقتنا له وحددنا .

﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أي : خاطبه من غير واسطة ملك ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي

وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ أي : لن تطيق رؤيتي ، لأن هذه البنية الآدمية في هذه النشأة الدنيوية ، ولا طاقة لها بذلك ، لعدم استعدادها له ، بل ما هو أكبر جرماً ، وأشد خلقاً وصلابة – وهو الجبل – لا يثبت لذلك ، بل يندك ، ولذا قال تعالى : ﴿ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ أي : الذي هو أقوى منك .

﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ ﴾ أي : ثبت مكانه ، حين أتجلى له ، ولم يتزلزل : ﴿ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ ، أي : تثبت لرؤيتي إذا تجليت عليك ، وإلا فلا طاقة .

وفيه من التلطيف بموسى والتكريم له ، والتنزل القدسي ما لا يخفى .

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ أي : ظهر له وبان – قاله الزجاج – .

﴿ جَعَلَهُ ﴾ أي : التجلي : ﴿ دَكّاً ﴾ أي : مفتتاً ، فلم يستقر مكانه . فنبه تعالى على أن الجبل ، مع شدته وصلابته ، إذا لم يستقر ، فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر ، وفيه تسكين لفؤاد موسى ، بأن المانع من الإنكشاف الإشفاق عليه ، وأما أن المانع محالية الرؤية ، فليس في القرآن إشارة إليه .

﴿ وَخَرَّ ﴾ أي : وقع : ﴿ موسَى صَعِقاً ﴾ أي : مغشياً عليه من هول ما رأى .

(103/286)

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أي : من الإقدام على سؤالي الرؤية ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بأنه لا يستقر لرؤيتك أحد في هذه النشأة .

قال في " الإنتصاف " : إنما سبح موسى عليه السلام لما تبين له من أن العمل قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا ، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف في خبره

الحق وقوله الصدق ، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم ، سبح الله ، وقدس علمه وخبره عن الخلف .

وأما التوبة في حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب ، لأن منصبهم الجليل ينبغي أن يكون منزهاً مبرأً من كل ما ينحط به ، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل .

وقد ورد : سيئات المقربين ، حسنات الأبرار .

تنبيه :

قالا متكلمون : دلت الآية على جواز رؤيته تعالى من وجهين :

الأول : أن سؤال موسى عليه السلام الرؤية يدل على إمكانها ، لأن العاقل ، وفضلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يطلب المحال ، ولا مجال للقول بجهل موسى عليه السلام بالإستحالة ، فإن الجاهل بما لا يجوز على الله ، لا يصلح للنبوة ، إذ الغرض من النبوة هداية الخلق إلى العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة ، ولا ريب في نبوة موسى عيه السلام ، وأنه من أولي العزم .

الثاني : أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل ، وهو أمر ممكن في نفسه والمعلق على الممكن ممكن ، لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به ، والمحال لا يثبت على شيء من التقادير الممكنة .

وأما زعم المعتزلة أن الرؤية مجاز عن العلم الضروري ، فمعنى قوله : ﴿ أَرِنِي ﴾ أي :

اجعلني عالماً بك علماً ضرورياً خلاف ظاهر . فإن النظر الموصول بإلى نص في الرؤية البصرية فلا يترك بالإحتمال ، مع أن طلب العلم الضروري لمن يخاطبه ويناجيه غير معقول .

(104/286)

وكذا زعمهم أن موسى عليه السلام ، كان سألها لقومه حيث قالوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ، فسأل ليعلموا امتناعها ، فإنه خلاف الظاهر ، وتكلف يذهب رونق النظم ، فترده ألفاظ الآية . وقد ثبت وقوع رؤيته تعالى في الآخرة ، بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فلقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، وأما السنة فلا تحصى أحاديثها ولكن إذا أصيب أحد بداء المكابرة في الحق الصراح ، عسر إقناعه مهما قوي الدليل وعظمت الحجة .

قال في " فتح البيان " : رؤيته تعالى في الآخرة ، ثبتت بها الأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة ، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة . ومنهج الحق واضح ، ولكن الإعتقاد لمذهب نشأ الإِنْسَانُ عليه ، وأدرك عليه أباه ، وأهل بلده ، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع في التعصب .

والمتعصب ، وإن كان بصره صحيحاً ، فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق ، غفلة منه ، وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم ، وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع ، فإنه صار بها باب الحق مرتجاً ، وطريق الإنصاف مستوعرة ، والأمر لله سبحانه والهداية :

~يأبى الفتى إلا اتّباعَ الهوى ومَنْهَجُ الحقّ له واضِحُ

انتهى .

وهذا تعريض بالمعتزلة ، وفي مقدمتهم الزمخشري ، وقد انتقل ـ عفا الله عنه ـ أخيراً إلى هجاء أهل السنة بما أنشده :

~لجماعة سموا هواهم سنة وجماعة حمر لعمري موكفه

~قد شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وتَخَوَّفُوا شُنْعَ الورى فَتَسَتَّرُوا بِالْبَلْكَفَهْ

والبلكفة نحتٌ ، كالبسملة ، أي : بقولهم : بَلا كَيْفَ .

(105/286)

قال في " الانتصاف " : ولولا الإستنان بحسان بن ثابت الأنصاري ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاعره ، والمنافح عنه ، وروح القدس معه ، لقلنا لهؤلاء المتلقبين بالعدلية وبالناجين سلاماً ، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعداءه ، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعداءهم ، فنقول :

~وجماعةٌ كفروا برؤية ربِّهم حقاً ووعدُ الله ما لن يُخلفَهْ

~وتلقَّبوا عدليَّة قلنا : أجل عدلوا بربهم فحسبهمو سفَهْ

~وتلقَّبوا الناجين كلاَّ إنهم إن لم يكونوا في لظى فَعلَى شفَهْ

وقال أبو حيان في الرد عليه :

~شبهت جهلاً صدر أمة أحمدٍ وذوي البصائر بالحمير المُوكَفَهْ

~وجب الخسار عليك فانظر منصفاً في آية الأعراف فهي المنصفهْ

~أتُرى الكليم أتى بجهلٍ ما أتى وأتى شيوخك ما أتوا عن معرفهْ

~إن الوجوه إليه ناظرةٌ بذا جاء الكتاب فقلتم : هذا سفهْ

~نطق الكتاب وأنت تنطق بالهوى فهوى الهوى بك في المهاوي المتلفهْ

وقال العلامة الجاربردي :

~عجباً لقوم ظالمين تستَّروا بالعدل ما فيهم لعمري معرفهْ

~قد جاءهم من حيث لا يدرونه تعطيل ذات الله مع نفي الصِّفَةْ

وقد ساق السبكي في " طبقاته " في ترجمة الجاربردي عدة قصائد ومقاطيع في الرد عليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 181.184 ﴾

(106/286)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾

جُعل مجيءُ موسى في الوقت المعين أمراً حاصلاً غير محتاج للإخبار عنه ، للعلم بأن موسى لا يتأخر ولا يترك ذلك ، وجُعل تكليمُ الله إياه في خلال ذلك الميقات أيضاً حاصلاً غير محتاج للإخبار عن حلوله ، لظهور أن المواعدة المتضمنة للملاقاة تتضمن الكلام ، لأن ملاقاة الله بالمعنى الحقيقي غير مُمكنة ، فليس يحصل من شؤون المواعدة إلاّ الكلام الصادر عن إرادة الله وقدرته ، فلذلك كله جُعل مجيء موسى للميقات وتكليم الله إياه شرطاً لحرف (لمّا) لأنه كالمعلوم ، وجعل الإخبار متعلقاً بما بعد ذلك ، وهو اعتبار بعظمة الله وجلاله ، فكان الكلام ضرباً من الإيجاز بحذف الخبر عن جملتين اسغناء عنهما بأنهما جعلتا شرطاً للمّا .

ويجوز أن تجعل الواو في قوله : ﴿ وكلّمه ربه ﴾ زائدة في جواب ﴿ لمّا ﴾ كما قاله الأكثر في قول امرىء القيس:

فلمّا أجَزْنَا ساحةَ الحي وانتحى . . .

بنا بطْنُ خبت ذي حقاف عقنقل

أن جواب ﴿ لَما ﴾ هو قوله وانتحى ، وجوزوه في قوله تعالى : ﴿ فلمّا أسلما وتَلّه للجبين وناديناه أن يا إبراهيم ﴾ [الصافات : 103 ، 104] الآية ، أن يكون ﴿ وناديناه ﴾ هو جواب (لَما) فيصير التقدير : لما جاء موسى لميقاتنا كَلّمه ربه ، فيكون إيجازاً بحذف جملة واحدة ، ولا يستفاد من معنى إنشاء التكليم الطمع في الرؤية إلاّ من لازم المواعدة .

(107/286)

واللام في قوله : ﴿ لميقاتنا ﴾ صنفٌ من لام الاختصاص ، كما سماها في "الكشاف" ومثلها بقولهم : أتيته لعشر خلَون من الشهر ، يعني أنه اختصاص مّا ، وجعلها ابن هشام بمعنى عند ، وجعل ذلك من معاني اللام وهو أظهر ، والمعنى : فلما جاء موسى مجيئاً خاصاً بالميقات أي : حاصلاً عنده لا تأخير فيه ، كقوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : 78] وفي الحديث سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي

الأعمال أفضل فقال : " الصلاة لوقتها " أي عند وقتها ومنه ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ [الطلاق : 1] .

ويجوز جعل اللام للأجل والعلة ، أي جاء لأجل ميقاتنا ، وذلك لما قدمناه من تضمن الميقات معنى الملاقاة والمناجاة ، أي جاء لأجل مناجاتنا .

والمجيء : انتقاله من بين قومه إلى جبل سينا المعيّن فيه مكانُ المناجاة .

والتكليم حقيقته النطق بالألفاظ المفيدة معانيَ بحسب وضع مصطلح عليه ، وهذه الحقيقة مستحيلة على الله تعالى لأنها من أعراض الحوادث ، فتعين أن يكون إسناد التكليم إلى الله مجازاً مستعملاً في الدلالة على مُراد الله تعالى بألفاظ من لغة المخاطَب به بكيفية يوقن المخاطَب به أن ذلك الكلام من أثر قدرة الله على وَفْق الإرادة ووَفْقِ العلم ، وهو تعلق تنجيزي بطريق غير معتاد ، فيجوز أن يخلق الله الكلام في شيء حادث سمعه موسى كما رُوي أن الله خلق الكلام في الشجرة التي كان موسى حذوها ، وذلك أول كُلام كلّمه الله موسى في أرض مَدين في جبل (حوريب) ، ويجوز أن يخلق الله الكلام من خِلال السحاب وذلك الكلام الواقع في طُور سينا ، وهو المراد هنا ، وهو المذكور في الإصحاح 19 من سفر الخروج .

(108/286)

والكلام بهذه الكيفية كان يسمعه موسى حين يكون بعيداً عن الناس في المناجاة أو نحوها ، وهو أحد الأحوال الثلاثة التي يكلم الله بها أنبياءه كما في قوله تعالى : ﴿ وما كانَ لِبَشَرٍ أن يكلمه الله إلاّ وحيا ﴾ الآية في سورة الشورى (51) ، وهو حادث لا محالة ونسبته إلى الله أنه صادر بكيفية غير معتادة لا تكون إلاّ بإرادة الله أن يخالف به المعتاد تشريفاً له ، وهو المعبر عنه بقوله : ﴿ أوْ منْ وراء حجاب ﴾ [الشورى : 51] ، وقد كلم الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وأحسب الأحاديث القدسية كلها أو معظمها مما كلم الله به محمداً صلى الله عليه وسلم وأما إرسال الله جبريل بكلام إلى أحد أنبيائه ، فهي كيفية أخرى ، وذلك بإلقاء الكلام في نفس المَلَك الذي يبلغه إلى النبي ، والقرآنُ كله من هذا النوع ، وقد كان الوحي إلى موسى بواسطة المَلَك في أحوال كثيرة وهو الذي يعبر عنه في التوراة بقولها : قال الله لموسى .

وقوله : ﴿ قال رب أرني ﴾ هو جواب ﴿ لَمّا ﴾ على الأظهر ، فإنْ قدرنا الواو في قوله : ﴿ وكلمهُ ﴾ زائدة في جواب لما كان قوله : ﴿ قال ﴾ واقعاً في طريق المحاورة فلذلك فُصل .

وسؤالُ موسى رؤية الله تعالى تطلّع إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهي ، لأنه لما كانت المواعدة تتضمن الملاقاة .

وكانت الملاقاة تعتمد رؤية الذات وسماع الحديث ، وحصل لموسى أحد ركني الملاقاة وهو التكليم ، أطمعه ذلك في الركن الثاني وهو المشاهدة ، وممّا يؤذن بأن التكليم هو الذي أطمع موسى في حصول الرؤية جعْلُ جملة ﴿ وكلمه ربه ﴾ شرطاً لحرف (لمّا) لأن (لمّا) تدل على شدة الارتباط بين شرطها وجوابها ، فلذلك يكثر أن يكون علة في حصول جوابها كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ﴾ في هذه السورة (22) ، هذا على جعل ﴿ وكَلمه ﴾ عطفاً على شرط لمّا ، وليسَ جوابَ لما ، ولا نشك في أنه سأل رؤية تليق بذات الله تعالى ، وهي مثل الرؤية الموعود بها في الآخرة ، فكان موسى يحسب أن مثلِها ممكن في الدنيا حتى أعلمه الله بأن ذلك غير واقع في الدنيا ، ولا يمتنع على نبي عدمُ العلم بتفاصيل الشؤون الإلهية قبل أن يُعلمها الله إياه ، وقد قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وقُل رب زدني علماً ﴾ [طه : 114] ، ولذلك كان أئمة أهل السنة محقين في الاستدلال بسؤال موسى رؤية الله على إمكانها بكيفية تليق بصفات الإلاهية لا نعلم كنهها وهو معنى قولهم : "بلا كيف" .

وكانَ المعتزلةُ غير محقين في استدلالهم بذلك على استحالتها بكل صفة .

وقد يؤول الخلاف بين الفريقين إلى اللفظ ، فإن الفريقين متفقان على استحالة إحاطة الإدراك بذات الله واستحالة التحَيز ، وأهل السنة قاطعون بأنها رؤية لا تنافي صفات الله تعالى ، وأما ما تبجح به الزمخشري في "الكشاف" فذلك من عُدوان تعصبه على مخالفيه على عادته ، وما كان ينبغي لعلماء طريقتنا التنازلُ لمهاجاته بمثل ما هاجاهم به ، ولكنه قال فأَوْجَب .

(110/286)

وأعلم أن سؤال موسى رؤية الله تعالى طلبٌ على حقيقته كما يؤذن به سياق الآية وليس هو السؤالَ الذي سأله بنوا اسرائيل المحكي في سورة البقرة (55) بقوله : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ وما تمحل به في "الكشاف" من أنه هو ذلك السؤال تكلفٌ لا داعي له .

ومفعول ﴿ أرني ﴾ محذوف لدلالة الضمير المجرور عليه في قوله : ﴿ إليك ﴾ .

وفصل قوله : ﴿ قالَ لنْ تراني ﴾ لأنه واقع في طريق المحاورة .

و﴿ لَن ﴾ يستعمل لتأبيد النفي ولتأكيد النفي في المستقبل ، وهما متقاربان ، وإنما يتعلق ذلك كله بهذه الحياة المعبر عنها بالأبد ، فنفت (لن) رؤية موسى ربّه نفياً لا طمع بعده

للسائِل في الإلحاح والمراجعة بحيث يَعلم أن طلبته متعذرة الحصول ، فلا دلالة في هذا النفي على استمراره في الدار الآخرة .

والاستدراك المستفاد من ﴿ لكن ﴾ لرفع توهم المخاطَب الاقتصارَ على نفي الرؤية بدون تعليل ولا إقناع ، أو أن يتوهم أن هذا المنع لغضب على السائِل ومنقصة فيه ، فلذلك يعلم من حرف الاستدراك أن بعض ما يتوهمه سيُرفع ، وذلك أنه أمره بالنظر إلى الجبل الذي هو فيه هل يثبت في مكانه ، وهذا يعلم منه أن الجبل سيتوجه إليه شيءٌ من شأن الجلال الإلهي ، وأن قوة الجبل لا تستقر عند ذلك التوجه العظيم ، فيعلم موسى أنه أحرى بتضاؤل قواه الفانية لو تجلى له شيء من سُبُحات الله تعالى .

وعلق الشرط بحرف (إنْ) لأن الغالب استعمالها في مقام ندرة وقوع الشرط أو التعريض بتعَذره ، ولما كان استقرار الجبل في مكانه معلوماً لله انتفاؤه ، صح تعليق الأمر المرادِ تعذرُ وقوعُه عليه بقطع النظر عن دليل الانتفاء ، فلذلك لم يكن في هذا التعليق حجَة لأهل السنة على المعتزلة تقتضي أن رؤية الله تعالى جائزة عليه تعالى ، خلافاً لما اعتاد كثيرٌ من علمائنا من الاحتجاج بذلك .

(111/286)

وقوله : ﴿ فسوف تراني ﴾ ليس بوعد بالرؤية على الفرض لأن سُبق قوله : ﴿ لن تراني ﴾ أزال طماعية السائل الرؤية ، ولكنه إيذان بأن المقصود من نظرِه إلى الجبل أن يرى رأي اليقين عجزَ القوة البشرية عن رؤية الله تعالى بالأحرى ، من عدم ثبات قوة الجبل ، فصارت قوة الكلام : أن الجبل لا يستقر مكانه من التجلي الذي يحصل عليه فلست أنت بالذي تراني ، لأنك لا تستطيع ذلك ، فمنزلة الشرط هنا منزلة الشرط الامتناعي الحاصل بحرف (لو) بدلالة قرينة السابِق .

والتجلي حقيقة الظهور وإزالة الحجاب ، وهو هنا مجاز ، ولعله أريد به إزالة الحوائِل المعتادة التي جعلها الله حجاباً بين الموجودات الأرضية وبين قوى الجبروت التي استأثر الله تعالى بتصريفها على مقاديرَ مضبوطة ومتدرجة في عوالم مترتبة ترتيباً يعلمه الله .

وتقريبُه للإفهام شبيه بما اصطلح عليه الحكماء في ترتيب العقول العشرة ، وتلك القوى تنسب إلى الله تعالى لكونها آثاراً لقدرته بدون واسطة ، فإذا أزال الله الحجاب المعتاد بين شيء من الأجسام الأرضية وبين شيء من تلك القوى المؤثرة تأثيراً خارقاً للعادة اتصلت القوة بالجسم اتصالاً تظهرُ له آثار مناسبة لنوع تلك القوة ، فتلك الإزالة هي التي استعير لها التجلي المسندُ إلى الله تعالى تقريباً للإفهام ، فلما اتصلت قوة ربانية بالجبل تُماثل اتصال الرؤية اندّك الجبل ، ومما يقرب هذا المعنى ، ما رواه الترمذي وغيره ، من طرق عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى : ﴿ فلما تجلى ربه ﴾ فوضع إبهامه قريباً

من طرف خنصره يُقلل مقدار التجلي .

وصَعِق موسى من اندكاك الجبل فعلم موسى أنه لو توجه ذلك التجلي إليه لانتثر جسمه فُضاضاً .

(112/286)

وقرأ الجمهور ﴿ دكّاً ﴾ بالتنوين والدك مصدر وهو والدق مترادفان ، وهو الهدّ وتفرق الأجزاء كقوله ﴿ وتَخِر الجبال هدّاً ﴾ [مريم : 90] ، وقد أخبر عن الجبل بأنه جعل دكاً للمبالغة ، والمراد أنه مدكوك أي : مدقوق مهدوم .

وقرأ الكسائي ، وحمزة ، وخلف ﴿ دكّاء ﴾ بمد بعد الكاف وتشديد الكاف والدكاء الناقة التي لا سنام لها ، فهو تشبيه بليغ أي كالدكاء أي ذهبت قُنته ، والظاهر أن ذلك الذي اندك منه لم يرجع ولعل آثار ذلك الدك ظاهرة فيه إلى الآن .

والخرور السقوط على الأرض .

والصعق : وصف بمعنى المصعوق ، ومعناه المغشي عليه من صيحة ونحوها ، مشتق من اسم الصاعقة وهي القطعة النارية التي تبلغ إلى الأرض من كهرباء البرق ، فإذا أصابت جسماً أحرقته ، وإذا أصابت الحيوان من قريب أماتته ، أو من بعيد غُشي عليه من

رائحتها ، وسُمي خويلدُ بن نُفَيْل الصِعقَ عَلماً عليه بالغلبة ، وإنما رجحنا أن الوصف والمصدر مشتقان من اسم الصاعقة دون أن نجعل الصاعقة مشتقاً من الصعق ؛ لأن أئمة اللغة قالوا : إن الصعْق الغشيُ من صيحة ونحوها ، ولكن توسعوا في إطلاق هذا الوصف على من غشي عليه بسبب هدة أو رجَة ، وإن لم يكن ذلك من الصاعقة .

والإفاقة : رجوع الإدراك بعد زواله بغشْي ، أو نوم ، أو سُكر ، أو تخبط جنون .

و﴿ سبحانك ﴾ مصدر جاء عوضاً عن فعله أي أسبحك ، وهو هنا إنشاء ثناء على الله وتنزيه عما لا يليق به ، لمناسبة سؤاله منه مَا تبين له أنه لا يليق به سؤالهُ دون استيذانه وتحققِ إمكانه كما قال تعالى لنوح : ﴿ فلا تسألني ما ليس لك به علم ﴾ في سورة هود (46) .

وقوله : تبت إليك ﴾ إنشاء لتوبة من العود إلى مثل ذلك دون إذن من الله ، وهذا كقول نوح عليه السلام:

﴿ رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ﴾ [هود : 47] وصيغة الماضي من قوله : ﴿ تُبت ﴾ مستعملة في الإنشاء فهي مستعملة في زمن الحال مثل صيغ العقود في قولهم بعْتُ وزَوّجْتُ .

مبالغة في تحقق العقد .

وقوله : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ أطلق ﴿ الأول ﴾ على المُبادر إلى الإيمان ، وإطلاق الأول على المبادر مجاز شائع مساو للحقيقة ، والمرادُ به هنا وفي نظائره الكناية عن قوة إيمانه ، حتى أنه يبادر إليه حين تردد غيره فيه ، فهو للمبالغة ، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ في سورة البقرة (41) ، وقوله : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ في سورة الأنعام (163) .

والمراد بالمؤمنين من كان الإيمان وصفهم ولقبَهم ، أي الإيمان بالله وصفاته كما يليق به فالإيمان مستعمل في معناه اللقبي ، ولذلك شُبه الوصف بأفعال السجايا فلم يذكر له متعلّق ، ومن ذهب من المفسرين يقدر له متعلّقاً فقد خرج عن نهج المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(114/286)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ

إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾

والميقات هو الوقت الذي يعد لعمل من الأعمال . ونسميه وقت العمل . وغلب على أشياء في الإِسلام ، كمواقيت الحج . ونحن نعلم أن كل عمل وحدث يتطلب أمرين يُظْرَف فيهما ، أي يكونان ظرفاً له ؛ فلابد له من مكان يحدث فيه ، ومن زمان يحدث فيه كذلك ، واسمهما ظرف الزمان ، وظرف المكان . إلا أن ظرف الزمان غير قار أي غير ثابت ؛ فقد يأتي الصبح ويذهب ويأتي بعده ، الظهر ، والعصر والمغرب والعشاء . لكن ظرف المكان قار وثابت .

والمواقيت – إذن – إما أن يتحكم فيها الزمان ، وإما أن يتحكم فيها المكان ، وإما أن يتحكم فيها المكان والزمان معاً . فإذا أخذنا المواقيت على أنها زمن كل فعل نجد فريضة " الصوم " لها زمن محدد وهو رمضان . فالذي يتحكم في الصوم هو الزمن ، فيكون ويحدث في أي مكان . وكذلك صيام عرفة يتحكم فيه أيضاً الزمان لأنه صيام يوم عرفة ، ومن يجلس في أي مكان يصوم يوم عرفة ولكنه غير مطلوب من الحاج . ولكن الوقوف بعرفة يتحكم فيه المكان والزمان معاً . والإِحرام بالحج أو العمرة يتحكم فيه المكان وهو ما يسمى بالميقات المكاني ولكل أهل جهة ميقاتهم المكاني الذي يطلب منهم ألاَّ يمروا عليه إلاَّ وهم محرمون . فمرة يتحكم الزمان ، ومرة يتحكم المكان ، وثالثة يتحكمان معاً .

وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة .

وهل جاء موسى للميقات أو جاء في الميقات ؟ لقد جاء في الميقات ، واللام تأتي بمعنى " عند " . ونعلم أن " اللام " تأتي بمعنى " عند " كثيراً في القرآن ، مثل قوله : ﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ اليل . . . ﴾ [الإِسراء : 78]

(115/286)

أي أقم الصلاة عند دلوك الشمس أي عند زوالها عن وسط وكبد السماء إلى غسق الليل . ومن الدلوك إلى الغسق نجد صلاة الفجر ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وهذه أربعة فروض ، وبقي الفرض الخامس وهو الفجر ، وقال فيه الحق : ﴿ . . . وَقُرْآنَ الفجر إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [الإِسراء : 78]

ولماذا بدأ بدلوك الشمس ؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح ؟ . إن الإسراء والمعراج كانا ليلاً ، ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرضت الصلاة في المعراج ، فكانت أول فريضة هي الظهر ، وكأن الحق يعني خذ الغاية وخذ البداية ، وكانت البداية هي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبقي الفجر ، وجاء فيه : ﴿ وَقُرْآنَ الفجر إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً ﴾ .

ثم يخص الله رسوله بالتهجد وهو قيام الليل إنه فرض على رسول الله دون غيره ، فإنه

بالنسبة لسائر الأمة تطوع . ﴿ وَمِنَ اليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ [الإسراء : 79]

ومن يتشبه برسول الله فله الثواب الجزيل والأجر العظيم ولكن هذا الأمر مرجعه إلى اختيار المسلم : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ .

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث ، وقوله سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ هو قول يدل على أن كلاماً حصل من الله لموسى فكيف يحدث ذلك وسبحانه قد قال في مسألة الكلام بالنسبة للبشر كلاماً عاماً : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ . . . ﴾ [الشورى : 51]

(116/286)

وفي هذا نفي أن يكلم الله البشر . إلا بالوسائل الثلاث : الوحي أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، والوحي بالنسبة للأنبياء يكون بإلقاء المعنى في قلب النبي دفعة ، مع العلم اليقيني بأن ذلك من الله عز وجل ، وقد يراد بالوحي الإلهامات ؛ مثل الوحي إلى أم موسى ، والوحي إلى الحواريين ، وكذلك إلى الملائكة ، وقد يراد بالوحي : التسخير ؛ كالوحي للأرض ، والنحل .

وبعد ذلك . . ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ أي أن يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً ، ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ هو جبريل عليه السلام . والقرآن لم ينزل إلا بطريقة واحدة ، بواسطة نزول جبريل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما نزل القرآن بالإلهام ، وما نزل القرآن من وراء حجاب بل نزل بواسطة رسول من الله وهو جبريل وله علامات .

وهنا في كلام موسى نقول إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب وهنا نمسك عن الخوض فيما وراء ذلك لأنه غيب لم يكشف لنا عنه ونترك الأمر فيه الله .

وقد سبق أن قلنا : إن صفات الله لا يوجد مثلها في البشر . فليس وجود الإنسان كوجود الله ، وليس غنى الإنسان كغنى الله ، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام الله ، لأن كل شيء يخص الله إنما نأخذه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى تميز لموسى ، ولذلك يقول الحق : ﴿ إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي . . . ﴾ [الأعراف : 144]

ويجب أن نأخذ كل وصف يوجد في البشر ، ويوجد مثله . في وصف الله مثل " استوى " ، و " جلس " و " وجه " ، و " يد " نأخذ كل ذلك في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . ﴿ وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ . . . ﴾ [الأعراف : 143]

وحينما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، حصل من موسى استشراق اصطفائي ، وكأنه قال لنفسه : مادام قد كلمني فقد أقدر أن أراه ؛ لأن استطابة الأنس تمد للنفس سبل الأمل في الامتداد في الأشياء مثلما قال موسى من قبل رداً على سؤال الله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17]

كان الجواب يكفي أن يقول : " عصا " لكنه قال : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي . . . ﴾ [طه : 18]

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ما تفعل بها ؟ وأراد بالكلام أن يطيل الأنس بربه ، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة رداً على سؤال .

ولله المثل الأعلى – نجد الإنسان منا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويطيل الكلام معه إيناساً له . وحين وجد موسى أن الله يكلمه استشرفت نفسه أن يراه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ .

لم يقل موسى : أرني ذاتك . بل قال : ﴿ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إن أراه الله ، فهذا أمر بمشيئة الحق وقدم موسى الطلب معلقاً بمشيئة الله وإرادته ؛ لأنه يعلم أنه غير معد لاستقبال رؤية الله ؛ لأن تكوينه لا يقوى على ذلك ، وحتى في الوحي والكلام لم يكلم ربنا الناس مباشرة ، بل لابد أن يصطفى من

الملائكة رسلاً ، ثم تكون مرحلة ثانية أن يصطفى من البشر رسلاً ، ويبلغ الرسل الناس كلام الله ؛ لأن الصفات الكمالية العليا الخالقة لا يمكن أن يستوعبها المخلوق .

(118/286)

ضربنا المثل من قبل – ولله المثل الأعلى – بصناعات البشر ، وأن الإِنسان حين ينام ليلاً ، قد يستيقظ لأي شيء ، فإذا كانت الدنيا ظلاماً قد يحطم الأشياء التي هي أقل منه أو تحطمه الأشياء التي هي أكثر صلابه منه ؛ وإن اصطدم بشيء صغير فقد يكسره ، وإن اصطدم بدولاب أو حائط فقد ينكسر الإِنسان . ولذلك ترك الإِنسان في البيت شيئاً من النور الضئيل ؛ ليستفيد من سكون الليل وظلمته ، فيضع ما نسميه " الوناسة " قوة شمعتين أو خمس شمعات ، ولا يقدر أن يركبها على قوة التيار الموجود في المنزل ؛ لأنها تفسد فوراً ، لذلك يأتي لها بمحول يأخذ من القوي ويعطي الضعيف .

إذن إذا كانت صناعة البشر نجد فيها الضعيف الذي لا يأخذ من القوي إلا بواسطة ، فمن باب أولى أنه لا يمكن أن يتلقى خلق الله عن الله إلا بواسطة . وكانت الواسطة من البشر اصطفاء ومن الملائكة اصطفاء ، فليس كل ذلك صالحاً لهذه المسألة ، فمصطفى من الملائكة يعطي مصطفى من البشر .

وبعد ذلك يعطي المصطفى من البشر للبشر . كذلك الرؤية وسيظهر ذلك لنا حينما يعطي الله الدليل على أنه خلقكم لا على هيئة أن تروه الآن ، ولكن حين تبرزون في الآخرة وتعدون إعدادا آخر ، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

ولا يستوي الناس في ذلك ؛ لأن المؤمن هو من ينال شرف النظر إلى الله ، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق . يقول تعالى في شأن الكفار : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فلا يستوي المؤمن والكافر في هذه الحالة ، فما دام الكافر محجوبا فالمؤمن غير محجوب ويرى ربَّه . وقال موسى : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ .

قال الحق : ﴿ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ .

(119/286)

وفي اللغة نجد أن " لن " تأتي تأبيدية ، أي تؤبد المستقبل أي لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها . فهل معنى ذلك أن قول الحق : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ أن موسى لن يرى الله في الدنيا ولا في الآخرة ؟ . ونقول : ومن قال إن زمن الآخرة هو زمن الدنيا ؟ إن هذه لها زمن وتلك لها زمن آخر : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [

إبراهيم : 48]

إذن فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر ، يكفي أن أهل الجنة سيأكلون ولن تكون لهم فضلات ، إنه خلق جديد . إن مجيء " لن " في قوله الحق : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ تأبيدها إضافي ، أي بالنسبة للدنيا ، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية ، وأضاف سبحانه : ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً . . . ﴾ [الأعراف : 143]

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح : لن تراني ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتي انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة ، والقوة ، والثبات ، والتماسك ؛ فإن استقر مكانه ، يمكنك أن تراني . إن الجبل بحكم الواقع ، وبحكم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من الإنسان ، وأصلب منه وأشد ، ولما تجلّى ربه للجبل اندك . والدكُّ هو الضغط على شيء من أعلى ليسوّي بشيء أسفل منه . والحق هو القائل : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً ﴾ [الفجر : 21]

(120/286)

وهنا في موقف موسى وحواره مع الله يتأكد لنا أن الله تجلى على خلق من خلقه ، ولكن أيقدر المتجلَّي عليه على هذا التجلي أم لا يقدر ؟ . إن أقدره الله فهو يقدر ، أما إن لم يقدره الله فلن يقدر . والجبل هو الأصلب ، فلما تجلى له ربه اندك ، إذن فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلي أو لا يقوى ؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلي لله بدليل أن الأقوى منه لم يقو . وبعد ذلك أراد الله أن يلفتنا لفتة تصاعدية . ويبين لنا أن موسى قد صعق لرؤية المتجلَّى عليه فكيف لو رأى المتجلِّي ؟ ! ! ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ . ويقال : خر الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، ويقول الحق في آية قرآنية : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً . . . ﴾ [ص : 24]

والحق يخبرنا هنا : ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ ، وصعقه تُطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عن الإغماءة الطويلة . وصعقة الوفاة يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ . . . فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68]

إذن النفخة الأولى لصعق وموت الجميع ، ثم تأتي النفخة الثانية للبعث . وهنا يقول الحق : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ .

وهذا يدل على أن الصعقة ليست هي الصعقة المميتة ، وأفاق سيدنا موسى من الصعقة ، وانتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة لله . وكما نقول : " فلان فاق لنفسه " وهنا " أفاق " موسى على حاجتين اثنتين ، أفاق من الغشية التي حصلت له من الصعقة ، وكأنَّه تساءل : لماذا انصعقت ؟ لقد انصعق لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ ، وساعة تسمع كلمة " سبحانك " اعرف أنَّه يراد بها التنزيه لله من الحدث الذي نحن بصدده وهو رؤيته – تعالى – أي تنزيها لك يا رب أن يراك مخلوقك ؛ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئي ، ومعنى : " رأيت الشيء " أي أن عين البشر قد قدرت على الشيء ، ولو أننا نحن المخلوقين رأينا الله بقانون الضوء ، فهذا يعني أن أبصارنا تقدر على ربنا وهذا لا يمكن أبداً ؛ لأن المقدور لا ينقلب قادراً ، والقادر لا ينقلب مقدوراً . ﴿ . . فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمؤمنين ﴾ [الأعراف : 143]

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليات المخالفة لنواميس الكون ، وأنَّ ربنا فقد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلمه الله ، فلماذا يُصعد المسألة ويطلب الرؤية ؟ ولماذا لم يترك الأمور للفيوضات التي يعطيها الله له ويتنعم بفيض جود لا ببذل مجهود ؟ .

ويقرر موسى ويقول : ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمؤمنين ﴾ ، أي بأنّ ذاتك – سبحانك – لا يقدر مخلوق

أن يراها ويدركها . لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته وقال : ﴿ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ وكأنه قد فهم ما أوضحه الحق له : لا تلتفت إلى ما منعتك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك : ﴿ قَالَ يا موسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(122/286)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ قال رب أرني ﴾ يقول : أعطني أنظر إليك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ قال رب أرني أنظر إليك ﴾ قال : لما سمع الكلام طمع في الرؤية .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾ قال الله له : يا موسى إنك لن تراني . قال : يقول ليس تراني . قال : لا يكون ذلك أبداً يا موسى إنه لا يراني أحد فيحيا . فقال موسى : رب أن أراك ثم أموت أحبُ إليَّ من أن لا أراك ثم أحيا . فقال الله لموسى : يا موسى أنظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد ﴿ فإن استقر مكانه ﴾ يقول : فإن ثبت مكانه لم يتضعضع ولم ينهد لبعض ما يرى عظمى ﴿ فسوف تراني ﴾ أنت لضعفك وذلتك ، وإن الجبل تضعضع وأنهد بقوّته وشدته وعظمه فأنت أضعف وأذل .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾ قال " قال الله عز وجل : يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده ، ولا رطب إلا تفرق ، وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم " .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإنه أكبر منك وأشد خلقاً . قال ﴿ فلما تجلى ربه للجبل ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل يندك على أوّله ، فلما رأى موسى ما يصنع الجبل خرَّ موسى صعقاً .

وأخرج أبو مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما أوحى الله إلى موسى بن عمران : إني مكلمك على جبل طور سيناء ، صار من مقام موسى إلى جبل طور سيناء أربعة فراسخ في أربعة فراسخ ، رعد وبرق وصواعق فكانت ليلة قر ، فجاء موسى حتى وقف بين يدي صخرة جبل صور سيناء ، فإذا هو بشجرة خضراء ، الماء يقطر منها وتكاد النار تلفح من جوفها ، فوقف متعجباً فنودي من جوف الشجرة : يا ميشا . فوقف موسى مستمعاً للصوت . . . ؟ ! فقال موسى : من هذا الصوت العبراني يكلمني ؟ ! فقال الله له : يا موسى إني لست بعبراني ، إني أنا الله رب العالمين . فكلم الله موسى في ذلك المقام بسبعين لغة ، ليس منها لغة إلا وهي مخالفة للغة الأخرى ، وكتب له التوراة في ذلك المقام ، فقال موسى : إلهي أرني أنظر إليك . قال : يا موسى إنه لا يراني أحد إلا مات . فقال موسى : إلهي أرني إليك وأموت فأجاب موسى جبل طور سيناء : يا موسى بن عمران لقد سألت أمراً عظيماً ، لقد ارتعدت السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن ، وزالت الجبال واضطربت البحار لعظم ما سألت يا ابن عمران . فقال موسى وأعاد الكلام : رب أرني أنظر إليك . فقال : يا موسى أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فإنك تراني ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً ﴾ مقدار جمعة ، فلما أفاق موسى مسح التراب عن وجهه وهو يقول ﴿ سبحانك تبت إليك

وأنا أول المؤمنين ﴾ فكان موسى بعد مقامه لا يراه أحد إلا مات ، واتخذ موسى على وجهه البرقع فجعل يكلم الناس بقفاه ، فبينا موسى ذات يوم في الصحراء فإذا هو بثلاثة نفر يحفرون قبراً حتى انتهوا إلى الضريح ، فجاء موسى حتى أشرف عليهم فقال لهم : لمن تحفرون هذا القبر ؟ قالوا له : الرجل كأنه أنت أو مثلك أو في طولك أو نحوك . فلو نزلت فقدرنا عليك هذا الضريح . فنزل موسى فتمدد في الضريح ، فأمر الله الأرض فانطبقت عليه " .

(124/286)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في كتاب الرؤية من طرق عن أنس بن مالك . أن النبي صلى الله عليه وسلم " قرأ هذه الآية ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ قال " هكذا ، وأشار بأصبعيه ووضع طرف إبهامه على أنملة الخنصر . وفي لفظ : على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل ﴿ وخرّ موسى صعقاً ﴾ وفي لفظ : فساخ الجبل في الأرض فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة " " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه من طريق ثابت عن أنس " عن النبي صلى الله عليه وسلم في

قوله ﴿ فلما تجلى ربه للجبل ﴾ قال " أظهر مقدار هذا ، ووضع الإِبهام على خنصر الأصبع الصغرى ، فقال حميد : يا أبا محمد ما تريد إلى هذا ؟ فضرب في صدره وقال : من أنت يا حميد ، وما أنت يا حميد ؟ ! يحدثني أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول أنت ؟ ما تريد إلى هذا ؟ " " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الجبل الذي أمر الله ينظر إليه : الطور .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الرؤية عن ابن عباس ﴿ فلما تجلى ربه للجبل ﴾ قال : ما تجلى إلا قدر الخنصر ﴿ جعله دكاً ﴾ قال : تراباً ﴿ وخرّ موسى صعقاً ﴾ قال : مغشياً عليه .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لما تجلى الله لموسى كان يبصر دبيب النملة على الصفا في الليلة الظلماء من مسيرة عشرة فراسخ " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس بن مالك . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لما تجلى الله للجبل طارت لعظمته ستة أجبل ، فوقعت ثلاثة بالمدينة ، أحد ، وورقان ، ورضوى . وبمكة حراء ، وثبير ، وثور " .

(125/286)

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لما تجلى الله لموسى تطايرت سبعة جبال . ففي الحجاز منها خمسة وفي اليمن إثنان ، وفي الحجاز أحد ، وثبير وحراء ، وثور ، وورقان ، وفي اليمن حصور ، وصير " .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ قال : اسمع موسى قال له : إني أنا الله قال : وذاك عشية عرفة ، وكان الجبل بالموقف فانقطع على سبع قطع : قطعة سقطت بين يديه وهو الذي يقوم الإِمام عنده في الموقف يوم عرفة ، وبالمدينة ثلاثة طيبة ، وأحد ، ورضوى ، وطور سيناء بالشام . وإنما سمي الطور : لأنه طار في الهواء إلى الشام .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله " ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ قال " أخرج خنصره " " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاء ﴾ مثقلة ممدودة " .

وأخرج ابن مردويه والحاكم وصححه عن أنس " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ دكاً ﴾ منوّنة ولم يمده " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فلما تجلى ربه للجبل طارت لعظمته ستة أجبل ، فوقعن بالمدينة : أحد ، وورقان

، ورضوى ، ووقع بمكة ثور ، وثبير ، وحراء " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس . أن موسى لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه ، فسأله فقال ﴿ لن تراني ولكن انظر إلى الجبل ﴾ قال : فحف حول الجبل بالملائكة ، وحف حول الملائكة بنار ، وحف حول النار بملائكة ، وحف حولهم بنار ، ثم تجلى ربك للجبل تجلى منه مثل الخنصر ، فجعل الجبل دكاً وخر موسى صعقاً ، فلم يزل صعقاً ما شاء الله ، ثم إنه أفاق فقال ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ يعني أوّل المؤمنين من بني إسرائيل .

(126/286)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ فلما تجلى ربه للجبل ﴾ قال : كشف بعض الحجب .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة أنه كان يقرأ هذا الحرف ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ قال : كان حجراً أصم ، فلما تجلى له صار تلاً تراباً دكاً من الدكوات .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن سفيان في قوله ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ قال : ساخ الجبل إلى الأرض حتى وقع البحر فهو يذهب بعد .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي معشر قال : مكث موسى أربعين ليلة لا ينظر إليه أحد إلا مات من نور رب العالمين ، ومصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ قال : تراباً .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عروة بن رويم قال : كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صماً ملساً ليس فيها كهوف ولا شقوق ، فلما تجلى الله لموسى على الطور صار الطور دكاً ، وتفطرت الجبال فصارت فيها هذه الكهوف والشقوق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش في قوله ﴿ دكاً ﴾ قال : الأرض المستوية .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ جعله دكاً ﴾ قال : دك بعضه بعضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ قال : غشي عليه إلا أن روحه في جسده ﴿ فلما أفاق قال ﴾ لعظم ما رأى ﴿ سبحانك ﴾ تنزيهاً لله من أن يراه ﴿ تبت إليك ﴾ رجعت عن الأمر الذي كنت عليه ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ يقول : أول المصدقين الآن لا يراك أحد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وأنا أوّل المؤمنين ﴾ يقول : أنا أول من يؤمن أنه لا يراك شيء من خلقك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وخر

موسى صعقاً ﴾ أي ميتاً ﴾ فلما أفاق ﴾ قال : ردَّ الله عليه روحه ونفسه ﴾ قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المومنين ﴾ أنه لن تراك نفس فتحيا وإليها يفزع كل عالم .

(127/286)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴾ تبت إليك ﴾ قال : من سؤالي إياك الرؤية ﴾ وأنا أول المؤمنين ﴾ قال : أول قومي إيماناً .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي العالية في قوله ﴾ وأنا أوّل المؤمنين ﴾ قال : قد كان إذن قبله مؤمنون ولكن يقول : أنا أول من آمن بأنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزِيَ بصعقة الطور " . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(128/286)

ومن فوائد الشيخ المراغى فى الآيتين السابقتين :

﴿ وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

تفسير المفردات

الميقات : الوقت الذي يقرر فيه عمل من الأعمال كمواقيت الحج ، اخلفني : أي كن خليفتى ، وجلا الشيء والأمر وانجلى وتجلى وجلّاه فتجلى : إذا انكشف ووضح بعد خفاء فى نفسه أو على مجتليه وطالبه ، والدكّ : الدق ، والخرّ والخرور : السقوط من علو ، والانكباب على الأرض كما قال « يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً » وصعقا أي صاعقا صائحا مغشيا عليه ، وأفاق : أي رجع إليه عقله وفهمه بعد ذهابهما بالغشيان . والاصطفاء : اختيار صفوة الشيء أي خالصه الذي لا شائبة فيه ، بقوة أي بجد وعزيمة وحزم .

المعنى الجملي

(129/286)

بعد أن ذكر عز اسمه ما أنعم به على بنى إسرائيل من النجاة من العبودية ومن جعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه اللّه لها من العبادات والأحكام - ذكر هنا بدء

وحي الشريعة لموسى عليه السلام ممتنّا عليهم بما حصل لهم من الهداية بتكليم موسى وإعطائه التوراة ، وفيها تفاصيل شرعهم وبيان ما يقرّبهم من ربهم من الأحكام

وقد روى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر ، إن أهلك اللّه عدوهم أتاهم بكتاب من عند اللّه فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب وهو التوراة .

الإيضاح

(وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) أي ضرب اللّه تعالى موعدا لموسى لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة ثلاثين ليلة ، قيل هى شهر ذى القعدة وأتم الثلاثين ليلة بعشر ليال فتم الموعد بذلك أربعين ليلة صعد جبل سيناء فى أوله وهبط فى آخره ، وروى عن أبي العالية أنه قال فى بيان زمان الموعد : يعنى ذا القعدة وعشرا من ذى الحجة فمكث على الطور ليلة وأنزل عليه التوراة فى الألواح فقرّبه الرب نجيّا ، وكلمه وسمع صريف القلم .

(130/286)

وجاء فى التوراة من سفر الخروج (وقال الرب لموسى : اصعد إلىّ إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم ، فقام موسى ويشوع خادمه ، وصعد موسى إلى جبل اللّه تعالى . وأما الشيوخ فقال لهم اجلسوا هاهنا ، وهوذا هارون وحور معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما ، فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل ، وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب وكان ينظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل ، ودخل موسى فى وسط السحاب وصعد إلى الجبل ، وكان موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة) .

وفى الفصل الرابع والثلاثين ما نصه (وقال الرب لموسى : اكتب لنفسك هذه الكلمات ، قطعت عهدا معك ومع بنى إسرائيل وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر) .

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) أي وقال موسى حين أراد الذهاب لميقات ربه لأخيه هرون وكان الأكبر منه سنا :

كن خليفتى فى قومى وراقبهم فيما يأتون وما يذرون ، وكانت الرياسة فيهم لموسى وكان هرون وزيره ونصيره بسؤاله لربه « وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي » وأصلح ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم ، ولا تتبع سبيل

من سلك الإفساد فى الأرض ، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم فى أعمالهم ومساعدتهم عليها ومعاشرتهم والإقامة معهم حال اقتراف الإفساد .

(131/286)

(وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) أي ولما جاء موسى للميقات الذي وقّت له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه من وراء حجاب بغير واسطة ملك استشرفت نفسه للجمع بين فضيلتى الكلام والرؤية فقال : رب أرنى ذاتك المقدسة واجعل لى من القوة على حمل تجليك ما أقدر به على النظر إليك وكمال المعرفة بك .

(قالَ لَنْ تَرانِي) أي قال له : إنك لا ترانى الآن ولا فيما يستقبل من الزمان ، إذ ليس لبشر أن يطيق النظر إلىّ فى الدنيا .

ثم أتى بما هو كالعلة لذلك (ليخفف عن موسى شدة وطأة الرد بإعلامه ما لم يكن يعلم من سننه) وهو أن شيئا فى الكون لا يقوى على رؤيته كما

جاء فى حديث أبى موسى الذي رواه مسلم وهو قوله صلى اللّه عليه وسلم « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه (أنواره) ما انتهى إليه بصره من خلقه »

فقال :

(وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي) أي فإن ثبت لدى التجلي وبقي مستقرا فى مكانه فسوف ترانى إذ هو مشارك لك فى مادة هذا العالم الفاني ، وإذا كان الجبل فى قوته وثباته لا يستطيع أن يثبت ويستقر لأن مادته غير مستعدة لقوة تجلى خالقه وخالق كل شىء - فاعلم أنك لن ترانى أيضا وأنت مشارك له فى كونك مخلوقا من هذه المادة وخاضعا للسنن الربانية فى ضعف استعدادها وقبولها للفناء .

(132/286)

وروى عن ابن عباس أنه قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى : « أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » قال له يا موسى إنك « لَنْ تَرانِي » يقول : ليس ترانى ، لا يكون ذلك أبدا ، يا موسى إنه لن يرانى أحد فيحيا ، قال موسى : رب أن أراك ثم أموت أحبّ إلىّ من ألا أراك ثم أحيا ، فقال اللّه يا موسى انظر إلى الجبل الطويل العظيم الشديد « فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ » يقول فإن ثبت مكانه لم يتضعضع ولم ينهدّ لبعض ما يرى من عظمى « فَسَوْفَ تَرانِي » أنت لضعفك وذلتك ، وإن الجبل تضعضع وانهدّ بقوته وشدته وعظمته فأنت أضعف وأذل .

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً) أي فلما تجلى ربه للجبل أقل التجلي وأدناه انهد وهبط وصار كالأرض المدكوكة أو الناقة الدكاء ، وسقط موسى على وجهه

مغشيا عليه كمن أخذته الصاعقة ، والتجلي إنما كان للجبل دونه فما بالك لو كان له .

روى أنه ساخ : أي غاص فى الأرض : أي أنه رجّ بالتجلى رجا ، بست به حجارته بسا ، وساخ فى الأرض كله أو بعضه فى أثناء ذلك حين صار ربوة دكاء وكان كالرمل المتلبد .

(فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) أي فلما أفاق من غشيه قال سبحانك : أي تنزيها لك وتقديسا عما لا ينبغى فى شأنك مما سألت .

وأكثر المفسرين يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من اللّه تعالى فتاب ورجع عما طلب .

قال مجاهد : « تُبْتُ إِلَيْكَ » أن أسألك الرؤية : « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » أي من بنى إسرائيل ، وفى رواية عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد .

(133/286)

والخلاصة – إن موسى لما نال فضيلة التكليم بلا واسطة فسمع من عالم الغيب ما لم يسمع من قبل تاقت نفسه أن يمنحه الرب شرف رؤيته فطلب ذلك منه وهو يعلم أنه ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته التي منها كلامه ، ولكن اللّه تبارك وتعالى قال له : « لَنْ تَرانِي » ولكى يخفف عليه ألم الرد أراه بعينه من تجليه للجبل ما فهم منه أن المانع من جهته لا

من جانب الفيض الإلهى ، حينئذ نزه اللّه وسبحه وتاب إليه من هذا الطلب ، فبشره بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه وأمره أن يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين له كما قال : (قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 9 صـ 55 . 58 ﴾

(134/286)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا ﴾

اللام في لِمِيقَاتِنَا للاختصاص ، وكذا في قوله تعالى ﴿ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] ، وليست بمعنى عند .

قوله : ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ ، هذه الفائدة التي لأجلها حضر موسى - عليه الصَّلاة والسَّلام - الميقات واختلفُوا في أَنَّهُ تعالى كلَّمَ مُوسَى وحدَه ، أو مع أقوام آخرين .

قوله : " أرِني " مفعولُه الثَّانِي محذوفٌ ، تقديره : أرني نَفسكَ ، أو ذاتكَ المقدَّسةَ ، وإنَّما حذفهُ مبالغةً في الأدب ، حيثُ لم يواجِهْهُ بالتَّصريح بالمفعول ، وأصل " أرِني " " أرْإِني "

فنُقِلَتْ حركةُ الهمزة ، وقد تقدَّم تَحْرِيرُه .

قوله : " لَن تَرَانِي " قد تقدَّم أنَّ " لَنْ " لا يلزم مِنْ نَفْيِهَا التَّأبيدُ ، وإن كان بعضُهم فهم ذلك ، حتى إنَّ ابن عطيَّة قال " فلو بَقِينَا على هذا النَّفي المجرَّد لتضمن أنَّ موسى لا يراه أبداً ، ولا في الآخرة لكن ورد من جهةٍ أخرى في الحدث المتواتر أنَّ أهلَ الجنَّةِ يَرَوْنَهُ " .

قال شهابُ الدِّينِ : " وعلى تقدير أنّ " لَنْ " ليست مقتضيةً للتَّأبيد ، فكلامُ ابْنِ عطيَّة وغيره مِمَّنْ يقولُ : إنَّ نفيِ المستقبل بعدها يَعُمُّ جميع الأزمنة المستقبلة – صحيح ، لكن لِمَدْرَكٍ آخَرَ ، وهو أنَّ الفعلَ نكرةٌ ، والنكرةُ في سياق النَّفي تَعُمُّ ، وللبحث فيه مجال " .

(135/286)

والدليل على أنَّ " لَنْ " لا تقتضي التَّأبيد قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ﴾ [البقرة : 95] أخبر عن اليهود ، ثم أخبر عنهم أنهم يتمنون الموت في الآخرة يقولون : ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : 77] ﴿ ياليتها كَانَتِ القاضية ﴾ [الحاقة : 27] .

فإن قيل : كيف قال : " لَن تَرَانِي " ولم يقل : لن تنظر إليَّ ، حتَّى يُطابق قوله أنظرْ إليكَ ؟

فالجوابُ أنَّ النَّظَرَ لَمَّا كان مقدمة للرُّؤية كان المقصودُ هو الرُّؤيةُ لا النَّظرُ الذي لا رؤية معه .

والاستدراكُ في قوله : ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ واضح ، فإن قلت : كيف اتصل

الاستدراك في قوله : ﴿ ولكن انظر إلى الجبل ﴾ فالجوابُ : المقصودُ من تعظيمُ أمر الرُّؤيةِ ، وأنَّ أحَداً لا يقوى على رؤية الله تعالى إلاَّ إذَا قواه الله بمعونته وتأييده ؛ ألا ترى أنَّهُ لما ظهر أثر التَّجلي والرُّؤية للجبل اندكّ ؛ فدل ذلك على تعظيم أمر الرُّؤيةِ .

فصل

وقال الزمخشريُّ : فإن قلت : كيف اتَّصل الاستدراكُ في قوله : ولكِن انظرْ .

قلت : اتَّصَلَ به على معنى أنَّ النَّظر إليَّ محالٌ فلا تطلبه ، ولكن اطلب نظراً آخر ، وهو أن تنظر إلى الجبل .

وهذا على رأيه من أنَّ الرُّؤية محالٌ مطلقاً في الدُّنيا ، والآخرة .

قوله : ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ : عَلَّقَ الرُّؤية على استقرار الجبل ، واسترقار الجبل على التَّجلي غير مستحيل إذا جعل الله له تلك القوة ، والمعلق بما لا يستحيل لا يكون محالاً .

قوله ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ :

قال الزَّجَّاجُ : " تَجَلَّى " أي : " ظهر وبان " .

ومنه يقالُ : جلوتُ العروس إذا أبْرَزْتهَا ، وجلوتُ السَّيف والمرآة : إذا أزلت ما عليهما من الصَّدَأ .

وهذا البجل أعظم جبل بمدين يقال له : زبير .

قال ابن عباس : ظهر نُور ربِّهِ للجبل .

(136/286)

قوله : " جَعَلَهُ دَكّاً " قرأ الأخوان " دَكَّاءَ " بالمدِّ ، غير منوَّن ، على وزن " حمراء " والباقون بالقصر والتَّنوين ، فقراءةُ الأخوين تحتمل وجهين :

أحدهما : أنَّها مأخوذةٌ من قولهم : " ناقةٌ دَكَّاء " أي : منبسطة السَّنَام ، غير مرتفعة ، والمعنى جعله مستوياً .

وإما من قولهم : أرض دكاء للناشزة روي أنَّهُ لم يذهب كله ، بل ذهب أعلاه .

وأمَّا قراءةُ الجماعة ف " الدَّكُّ " مصدر واقع موقع المفعول به بمعنى المدكوك ، أي : مَدْكوكاً ، أو من دكَّ ، أو على حذف مضاف أي ذا دَكّ ، والمعنى : جلعه مدقوقاً والدَّكّ والدَّقّ واحد ، وهو تفتيت الشيء وَسَحْقُهُ .

وقيل : تسويته بالأرض .

في انتصابه على القراءتين وجهان ، أشهرهما : أنَّهُ مفعولٌ ثان لـ " جَعَلَ " بمعنى : صَيَّرَ .

والثاني – وهو رأي الأخفش – : أنَّهُ مصدرٌ على المعنى ، إذ التقدير : دَكَّهُ دَكّاً ، وأما على

القراءة الأولى فهو مفعول فقط أي صيره مثل ناقة دكاء أو الأرض دكاً .

وقرأ ابنُ وثَّاب دُكّاً بضم الدَّالِ والقصر ، وهو جمع دَكَّاء بالمد ، ك : حُمْر في حمراء ، وغُرّ في غَرَّاء أي : جعله قِطَعاً .

قال الكلبي : كسراً جبالاً صغاراً .

ووقع في بعض التَّفاسير أنَّه تكسر سِتَّة أجْبُلٍ ، ووقعت ثلاثة بالمدينة : أحد ، وودقان ، ورضوى ، ووقعت ثلاثة بمكة : ثور ، وثبير ، وحِرَاء .

قوله : ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ .

الخُرورُ : السُّقُوط كذا أطلعه أبو حيَّان وقيَّدَهُ الرَّاغب بسقوطٍ يُسمع له خريرٌ ، والخريرُ يقال لصوت الماءِ والريحِ .

ويقال كذلك لما يَسْقُطُ من علوٍّ وصَعِقاً حالٌ مقارنةٌ .

قال اللَّيْثُ : الصَّعْقُ مثل الغَشْي يأخذُ الإنسانَ والصَّعْقَةُ الغشي .

يقال : صُعِقَ الرَّجُلُ يُصْعَقُ ، فهو مصعوق .

قال ابنُ عبَّاس : مَغْشياً عليه .

وقال قتادةُ : ميتاً .

يقال : صَعِقَ إذا مات ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض ﴾ [الزمر : 68]

فسَّرُوه بالموتِ .

وقال : ﴿ يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ [الطور : 45] أي : يموتون .

قال الزمخشريُّ : " صعق أصله من الصَّاعقة " .

والقولُ الأوَّلُ أولى ؛ لقوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ .

قال الزَّجَّاجُ : " ولا يقال للميتِ : قد أفاق من موته ، وقال تعالى في الذين ماتوا ثم أحيوا :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : 56] .

قوله : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ الإفاقة : رجوعُ الفهم والعقل إلى الإنسان بعد جنونٍ أو سُكرٍ ومنه

إفاقة المريض ، وهي رجوعُ قوته ، وإفاقةُ الحلب ، وهي رجوع الدّرّ إلى الضَّرع .

يُقال : اسْتَفِقْ ناقَتَكَ أي : اتركها حتَّى يعود لَبَنُها ، والفُواق : ما بين حَلْبَتَي الحالب .

وسيأتي بيانه [ص15] إن شاء الله تعالى .

قوله سُبْحَانَكَ أي : تنزيهاً لك من أن أسألك شيئاً بغير إذنك تُبْتُ إليكَ من سؤال الرُّؤية في

الدُّنيا ، أو من سؤال الرُّؤية بغير إذنك .

﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ بأنك لا تُرَى في الدنيا ، أو بأنَّه لا يجوز السُّؤال منك إلاَّ بإذنك .

وقيل : أوَّلُ المؤمنين من قومي .

وقيل : من بني إسرائيل في هذا العصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 304.300 ﴾ . باختصار .

(138/286)

فصل فى منزلة اللحظ

قال ابن القيم :

فصل ومن ذلك منزلة اللحظ

قال شيخ الإسلام باب اللحظ قال الله . تعالى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني قلت يريد والله أعلم بالاستشهاد بالآية أن الله سبحانه أراد أن يري موسى من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار لا تثبت لرؤيته ومشاهدته عيانا لصيرورة الجبل دكا عند تجلي ربه سبحانه أدنى تجل كما رواه ابن جرير في تفسيره من حديث حماد بن سلمة أخبرنا ثابت عن أنس عن النبي صلى اله عليه وسلم " فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا " قال حماد هكذا ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن فقال حميد لثابت أتحدث بمثلي هذا فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث به وأنا لا أحدث به رواه الحاكم في صحيحه وقال هو على شرط مسلم

وهو كما قال والمقصود أن الشيخ استشهد بهذه الآية في باب اللحظ لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينظر إلى الجبل حين تجلى له ربه فرأى أثر التجلي في الجبل دكا فخر موسى صعقا قال الشيخ اللحظ لمح مسترق الصواب قراءة هذه الكلمة على الصفة بالتخفيف فوصف اللمح بأنه مسترق كما يقال سارقته النظر وهو لمح بخفية بحيث لا يشعر به الملموح ولهذا الاستراق أسباب منها تعظيم الملموح وإجلاله فالناظر يسارقه النظر ولا يحد نظره إليه إجلالا له كما كان أصحاب النبي صلى اله عليه وسلم لا يحدون النظر إليه إجلالا له وقال عمرو بن العاص لم أكن أملأ عيني منه .

(139/286)

إجلالا له ولو سئلت أن أصفه لكم لما قدرت لأني لم أكن أملأ عيني منه ومنها خوف اللامح سطوته ومنها محبته ومنها الحياء منه ومنها ضعف القوة الباصرة عن التحديق فيه وهذا السبب هو السبب الغالب في هذا الباب ويجوز أن تقرأ بكسر الراء وتشديد القاف أي نظرا يسترق صاحبه أي يأسر قلبه ويجعله رقيقا أي عبدا مملوكا للمنظور إليه لما شاهد من جماله وكماله فاسترق قلبه فلم يكن بينه وبين رقة له إلا مجرد وقوع لحظه عليه فهكذا صاحب هذه الحال إذا لاحظ بقلبه جلال الربوبية وكمال الرب سبحانه وكمال نعوته

ومواقع لطفه وفضله وبره وإحسانه استرق قلبه له وصارت له عبودية خاصة قال وهو في هذا الباب على ثلاث درجات الدرجة الأولى ملاحظة الفضل سبقا وهي تقطع طريق السؤال إلا ما استحقته الربوبية من إظهار التذلل لها وتنبت السرور إلا ما يشوبه من حذر المكر وتبعث على الشكر إلا ما قام به الحق عز وجل من حق الصفة الشيخ عادته في كل باب أن يقول وهو على ثلاث درجات وقال ههنا وهو في هذا الباب على ثلاث درجات فعين هذا الباب هنا دون غيره من الأبواب لأن اللحظ مشترك بين لحظ البصر ولحظ البصيرة والشيخ إنما أراد ههنا هذا الثاني دون الأول فإن كلامه فيه خاصة وهو لما صدر بالآية والأمر بالنظر فيها إنما توجه إلى الأمر بنظر العين استدرك كلامه وقال اللحظ الذي نشير إليه في هذا الباب ليس هو لحظ العين والله أعلم قوله ملاحظة الفضل سبقا الفضل هو العطاء الإلهي والسبق هو ما سبق له بالتقدير قبل خروجه إلى الدنيا كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ وقال ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ

(140/286)

كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وهذا الكلام يفسر على معنيين أحدهما أن العبد إذا رأى ما قدره الله له قد سبق به تقديره فهو واصل إليه لا

محالة ولا بد أن يناله سكن جأشه واطمأن قلبه ووطن نفسه وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وأنه ما يفتح الله له وللناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده فإذا تيقن ذلك وذاق طعم الإيمان به قطع ذلك عليه طريق الطلب من ربه لأن ما سبق له به القدر كائن واصل لا محالة ثم استدرك الشيخ أن العبد لا بد له من سؤال ربه والطلب منه فقال إلا ما استحقته الربوبية من إظهار التذلل لها أي لا يعتقد أن سؤاله وطلبه يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يحذره فإن القدر السابق قد استقر بوصول المقدور إليه سأله أو لم يسأله يسأله ولاكن يكون سؤاله على وجه التذلل وإظهار فقر العبودية وذلها بين يدي عز الربوبية فإن الرب سبحانه يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه لأن وصول بره وإحسانه إليه موقوف على سؤاله بل هو المتفضل به ابتداء بلا سبب من العبد ولا توسط سؤاله وطلبه بل قدر له ذلك الفضل بلا سبب من العبد ثم أمره بسؤاله والطلب منه إظهارا لمرتبة العبودية والفقر والحاجة واعترافا بعز الربوبية وكمال غنى الرب وتفرده بالفضل والإحسان وأن العبد لا غنى له عن فضله طرفة عين فيأتي بالطلب والسؤال إتيان من يعلم أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئا ولكن ربه تعالى يحب أن يسأل ويرغب إليه ويطلب منه كما قال تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ وقال ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِه ﴾ وقال ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي

(141/286)

لَوْلا دُعَاؤُكُمْ ﴾

وقال ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ وقال ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ وقال النبي صلى اله عليه وسلم" ليسأل أحدكم ربه كل شيء حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر "وقال" من لم يسأل الله يغضب عليه " وروى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي صلى اله عليه وسلم قال " سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل من فضله وما سئل الله شيئا أحب إليه من العافية "وقال" إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لنفحاته واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم" وقال" ما من داع يدعو الله بدعوة إلا آتاه بها أحد ثلاث إما أن يعجل له حاجته وإما أن يعطيه من الخير مثلها وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها قالوا إذا نكثر يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فالله أكثر" وقال" ليس شيء أكرم على الله من الدعاء " وقال تعالى في الحديث القدسي فيما رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم" يا عبادي كلكم جائع إلا من

أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم" وقال "وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم " وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إني لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه وفي هذا يقول القائل

لو لم ترد بذل ما أرجو وأطلبه . . . من جود كفك ما عودتني الطلبا

والله سبحانه وتعالى يحب تذلل عبيده بين يديه وسؤالهم إياه وطلبهم حوائجهم منه وشكواهم إليه وعياذهم به منه وفرارهم منه إليه كما قيل .

قالوا أتشكوا إليه . . . ما ليس يخفى عليه

فقلت ربي يرضى . . . ذل العبيد لديه

(142/286)

وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا عبد الوهاب عن إسحاق عن مطرف بن عبد الله قال تذاكرت ما جماع الخير فإذا الخير كثير الصيام والصلاة وإذا هو في يد الله تعالى وإذا أنت لا

تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك فإذا جماع الخير الدعاء وفي هذا المقام غلط طائفتان من الناس طائفة ظنت أن القدر السابق يجعل الدعاء عديم الفائدة قالوا فإن المطلوب إن كان قد قدر فلا بد من وصوله دعا العبد أو لم يدع وإن لم يكن قد قدر فلا سبيل إلى حصوله دعا أو لم يدع ولما رأوا الكتاب والسنة والآثار قد تظاهرت بالدعاء وفضله والحث عليه وطلبه قالوا هو عبودية محضة لا تأثير له في المطلوب البتة وإنما تعبدنا به الله وله أن يتعبد عباده بما شاء كيف شاء والطائفة الثانية ظنت أن بنفس الدعاء والطلب ينال المطلوب وأنه موجب لحصوله حتى كأنه سبب مستقل وربما انضاف إلى ذلك شهودهم أن هذا السبب منهم وبهم وأنهم هم الذين فعلوه وأن نفوسهم هي التي فعلته وأحدثته وإن علموا أن الله خالق أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم وإراداتهم فربما غاب عنهم شهود كون ذلك بالله ومن الله لا بهم ولا منهم وأنه هو الذي حركهم للدعاء وقذفه في قلب العبد واجراه على لسانه فهاتان الطائفتان غالطتان أقبح غلط وهما محجوبتان عن الله فالأولى محجوبة عن رؤية حكمته في الأسباب ونصبها لإقامة العبودية وتعلق الشرع والقدر بها فحجابها كثيف عن معرفة حكمة الله سبحانه وتعالى في شرعه وأمره وقدره .

(143/286)

والثانية محجوبة عن رؤية مننه وفضله وتفرده بالربوبية والتدبير وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا حول للعبد ولا قوة له بل ولا للعالم أجمع إلا به سبحانه وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ومشيئته وقول الطائفة الأولى إن المطلوب إن قدر لا بد من حصوله وإنه إن لم يقدر فلا مطمع في حصوله جوابه أن يقال بقي قسم ثالث لم تذكروه وهو انه قدر بسببه فإن وجد سببه وجد ما رتب عليه وإن لم يوجد سببه لم يوجد ومن أسباب المطلوب الدعاء والطلب اللذين إذا وجدا ما رتب عليهما كما أن أسباب الولد الجماع ومن أسباب الزرع البذر ونحو ذلك وهذا القسم الثالث هو الحق ويقال للطائفة الثانية لا موجب إلا مشيئة الله تعالى وليس ههنا سبب مستقل غيرها فهو الذي جعل السبب سببا وهو الذي رتب على السبب حصول المسبب ولو شاء لأوجده بغير ذلك السبب وإذا شاء منع سببية السبب وقطع عنه اقتضاء أثره وإذا شاء أقام له مانعا يمنعه عن اقتضاء أثره مع بقاء قوته فيه وإذا شاء رتب عليه ضد مقتضاه وموجبه فالأسباب طوع مشيئته سبحانه وقدرته وتحت تصرفه وتدبيره يقلبها كيف شاء فهذا أحد المعنيين في كلامه والمعنى الثاني أن من لاحظ بعين قلبه ما سبق له من ربه من جزيل الفضل والإحسان والبر من غير معاوضة ولا سبب من العبد أصلا فإنه سبقت له تلك السابقة وهو في العدم لم يكن شيئا البتة شغلته تلك الملاحظة بطلب الله ومحبته وإرادته عن الطلب منه وقطعت عليه طريق السؤال اشتغالا بذكره وشكره ومطالعة منته عن مسألته لا لأن مسألته والطلب منه نقص بل لأنه في هذه الحال لا

يتسع للأمرين بل استغراقه في شهود المنة وسبق الفضل قطع عليه طريق الطلب والسؤال وهذا لا يكون مقاما لازما له لا يفارقه بل هذا حكمه في هذه الحال والله أعلم .

فصل قوله وينبت السرور إلا ما يشوبه من حذر المكر يعني أن .

(144/286)

هذا اللحظ من العبد ينبت له السرور إذا علم أن فضل ربه قد سبق له بذلك قبل أن يخلقه مع علمه به وبأحواله وتقصيره على التفصيل ولم يمنعه علمه به أن يقدر له ذلك الفضل والإحسان فهو أعلم به إذ أنشأه من الأرض وإذ هو جنين في بطن أمه ومع ذلك فقدر له من الفضل والجود ما قدره بدون سبب منه بل مع علمه بأنه يأتي من الأسباب ما يقتضي قطع ذلك ومنعه عنه فإذا شاهد العبد ذلك اشتد سروره بربه وبمواقع فضله وإحسانه وهذا فرح محمود غير مذموم قال الله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ففضله الإسلام والإيمان ورحمته العلم والقرآن وهو يحب من عبده أن يفرح بذلك ويسر به بل يحب من عبده أن يفرح بالحسنة إذا عملها وأن يسر بها وهو في الحقيقة فرح بفضل الله حيث وفقه الله لها وأعانه عليها ويسرها له ففي الحقيقة إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته ومن أعظم مقامات الإيمان الفرح بالله والسرور به فيفرح به إذ هو عبده ومحبه

ويفرح به سبحانه ربا وإلها ومنعما ومربيا أشد من فرح العبد بسيده المخلوق المشفق عليه القادر على مايريده العبد ويطلبه منه المتنوع في الإحسان إليه والذب عنه وسيأتي عن قريب إن شاء الله تمام هذا المعنى في باب السرور قوله إلا ما يشوبه من حذر المكر أي يمازجه فإن السرور والفرح يبسط النفس وينسيها وينسبها عيوبها وآفاتها ونقائصها إذ لو شهدت ذلك وأبصرته لشغلها ذلك عن الفرح.

(145/286)

وأيضا فإن الفرح بالنعمة قد ينسيه المنعم فيشتغل بالخلعة التي خلعها عليه عنه فيطفح عليه السرور حتى يغيب بنعمته عنه وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للفم ولله كم ها هنا من مسترد منه ما وهب له عزة وحكمة وربما كان ذلك رحمة به إذ لو استمر على تلك الولاية لخيف عليه من الطغيان كما قال تعالى كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى فإذا كان هذا غنى بالحطام الفاني فكيف بالغنى بما هو أعلى من ذلك وأكثر فصاحب هذا إن لم يصحبه حذر المكر خيف عليه أن يسلبه وينحط عنه والمكر الذي يخاف عليه منه أن يغيب الله سبحانه عنه شهود أوليته في ذلك ومنته وفضله وأنه محض منته عليه وأنه به وحده ومنه وحده فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ وقوله ﴿ إِنَّ

الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّه ﴾ وقوله ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وقوله ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ وقوله ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ وأمثال ذلك فيغيبه عن شهود ذلك ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه فيحيله على نفسه التي لها الفقر بالذات ويحجبه عن الحوالة على المليء الوفي الذي له الغنى التام كله بالذات فهذا من أعظم أسباب المكر والله المستعان ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر وقد خافه خيار خلقه وصفوته من عباده قال شعيب وقد قال له قومه ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى

(146/286)

اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ

بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ إلى قوله ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فرد الأمر إلى مشيئة الله تعالى وعلمه أدبا مع الله ومعرفة بحق الربوبية ووقوفا مع حد العبودية وكذلك قال إبراهيم لقومه وقد خوفوه بآلهتهم فقال ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل

شيء علما فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه وقد قال تعالى أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وقد اختلف السلف هل يكره أن يقول العبد في دعائه اللهم لا تؤمني مكرك فكان بعض السلف يدعو بذلك ومراده لا تخذلني حتى آمن مكرك ولا أخافه وكرهه مطرف بن عبد الله بن الشخير وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب عن إسحاق عن مطرف أنه كان يكره أن يقول اللهم لا تنسني ذكرك ولا تؤمني مكرك ولكن أقول اللهم لا تنسني ذكرك وأعوذ بك أن آمن مكرك حتى تكون أنت تؤمنني وبالجملة فمن أحيل على نفسه فقد مكر به قال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا الصلت بن طريف المعولي حدثنا غيلان بن جرير عن مطرف قال وجدت هذا الإنسان ملقى بين الله عز وجل وبين الشيطان فإن يعلم الله تعالى في قلبه خيرا جبذه إليه وإن لم يعلم فيه خيرا وكله إلى نفسه ومن وكله إلى نفسه فقد هلك وقال جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن مطرف قال لو أخرج قلبي فجعل في يدي هذه في اليسار وجيء بالخير فجعل في هذه اليمنى ثم قربت من الأخرى ما استطعت أن أولج في قلبي شيئا حتى يكون الله عز وجل يضعه ومما يدل على أن الفرح من أسباب المكر ما لم يقارنه خوف قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا

(147/286)

بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ وقال قوم قارون له ﴿ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ فالفرح متى كان بالله وبما من الله به مقارنا للخوف والحذر لم يضر صاحبه ومتى خلا عن ذلك ضره ولا بد قوله ويبعث على الشكر إلا ما قام به الحق عز وجل من حق الصفة هذا الكلام يحتمل معنيين أحدهما أن يريد أن هذه الملاحظة تبعثه على الشكر لله في السراء والضراء في كل حين إلا ما عجزت قدرته عن شكره فإن الحق سبحانه هو الذي يقوم به لنفسه بحق كماله المقدس وكمال صفاته ونعوته فتلك الملاحظة تبسط للعبد الشكر الذي يعجز عنه ولا يقدر أن يقوم به فإن شكر العبد لربه نعمة من الله أنعم بها عليه فهي تستدعي شكرا آخر عليها وذلك الشكر نعمة أيضا فيستدعي شكرا ثالثا وهلم جرا فلا سبل إلى القيام بشكر الرب على الحقيقة ولا يشكره على الحقيقة سواه فإنه هو المنعم بالنعمة وبشكرها فهو الشكور لنفسه وإن سمى عبده شكورا فمدحة الشكر في الحقيقة راجعة إليه وموقوفة عليه فهو الشاكر لنفسه بما أنعم على عبده فما شكره في الحقيقة سواه مع كون العبد عبدا والرب ربا فهذا أحد المعنيين في كلامه المعنى الثاني أن هذا اللحظ يبسطه للشكر الذي هو وصفه وفعله لا الشكر الذي هو صفة الرب جل جلاله وفعله فإنه سمى نفسه بالشكور كما قال تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾ وقال أهل الجنة ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ فهذا الشكر الذي هو وصفه سبحانه لا يقوم

إلا به ولا يبعث العبد على الملاحظة المذكورة إلا على وجه واحد وهو أنه إذا لاحظ سبق الفضل منه سبحانه علم أنه فعل ذلك لمحبته للشكر فإنه تعالى يحب أن يشكر كما قال موسى " يا رب هلا ساويت بين عبادك فقال إني أحب أن اشكر " .

(148/286)

كان يحب الشكر فهو أولى أن يتصف به كما أنه سبحانه وتر يحب الوتر جميل يحب الجمال محسن يحب المحسنين صبور يحب الصابرين عفو يحب العفو قوى والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف فكذلك هو شكور يحب الشاكرين فملاحظة العبد سبق الفضل تشهده صفة الشكر وتبعثه على القيام بفعل الشكر والله أعلم .

فصل قال الدرجة الثانية ملاحظة نور الكشف وهي تسبل لباس التولي .

وتذيق طعم التجلي وتعصم من عوار التسلي هذه الدرجة أتم مما قبلها فإن تلك الدرجة ملاحظة ما سبق بنور العلم وهذه ملاحظة كشف بحال قد استولى على قلبه حتى شغله عن الخلق فأسبل عليه لباس توليه الله وحده وتوليه عما سواه ونور الكشف عندهم هو مبدأ الشهود وهو نور تجلى معاني الأسماء الحسنى على القلب فتضيء به ظلمة القلب ويرتفع به حجاب الكشف ولا تلتفت إلى غير هذا فتزل قدم بعد ثبوتها فإنك تجد في كلام

بعضهم تجلي الذات يقتضي كذا وكذا وتجلي الصفات يقتضي كذا وكذا وتجلي الأفعال يقتضي كذا وكذا والقوم عنايتهم بالألفاظ فيتوهم المتوهم أنهم يريدون تجلي حقيقة الذات والصفات والأفعال للعيان فيقع من يقع منهم في الشطحات والطامات والصادقون العارفون برآء من ذلك .

(149/286)

وإنما يشيرون إلى كمال المعرفة وارتفاع حجب الغفلة والشك والإعراض واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو شهود السوى بالكلية فلا يشهد القلب سوى معروفه وينظرون هذا بطلوع الشمس فإنها إذا طلعت انطمس نور الكواكب ولم تعدم الكواكب وإنما غطى عليها نور الشمس فلم يظهر لها وجود وهي في الواقع موجودة في أماكنها وهكذا نور المعرفة إذا استولى على القلب قوى سلطانها وزالت الموانع والحجب عن القلب ولا ينكر هذا إلا من ليس من أهله ولا يعتقد أن الذات المقدسة والأوصاف برزت وتجلت للعبد كما تجلى سبحانه سبحانه للطور وكما يتجلى يوم القيامة للناس إلا غالط فاقد للعلم وكثيرا ما يقع الغلط من التجاوز من نور العبادات والرياضة والذكر إلى نور الذات والصفات فإن العبادة الصحيحة والرياضة الشرعية والذكر المتواطىء عليه القلب واللسان يوجب نورا على

قدر قوته وضعفه وربما قوى ذلك النور حتى يشاهد بالعيان فيغلط فيه ضعيف العلم والتمييز بين خصائص الربوبية ومقتضيات العبودية فيظنه نور الذات وهيهات ثم هيهات نور الذات لا يقوم له شيء ولو كشف سبحانه وتعالى الحجاب عنه لتدكدك العالم كله كما تدكدك الجبل وساخ لما ظهر له القدر اليسير من التجلي وفي الصحيح عنه" إن الله سبحانه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل .

(150/286)

النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه أحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" فالإسلام له نور والإيمان له نور أقوى منه والإحسان له نور أقوى منهما فإذا اجتمع الإسلام والإيمان والإحسان وزالت الحجب الشاغلة عن الله تعالى امتلأ القلب والجوارح بذلك النور لا بالنور الذي هو صفة الرب تعالى فإن صفاته لا تحل في شيء من مخلوقاته كما أن مخلوقاته لا تحل فيه فالخالق سبحانه بائن عن المخلوق بذاته وصفاته فلا اتحاد ولا حلول ولا ممازجة تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا قوله ويعصم من عوار التسلي العوار العيب والتسلي السلوة عن المحبوب الذي لا حياة للقلب ولا نعيم إلا بحبه والقرب منه والأنس بذكره فإن سلو القلب وغفلته عن ذكره هو من أعظم العيوب فهذه الملاحظة إذا صدقت

عصمت صاحبها عن عيب سلوته عن مطلوبه ومراده فإنه في هذه الدرجة مستغرق في شهود الأسماء والصفات وقد استولى على قلبه نور الإيمان بها ومعرفتها ودوام ذكرها ومع هذا فباب السلوة عليه مسدود وطريقها عليه مقطوع والمحب يمكنه التسلي قبل ان يشاهد جمال محبوبه ويستغرق في شهود كماله ويغيب به عن غيره فإذا وصل إلى هذه الحال كان كما قيل

مرت بأرجاء الخيال طيوفه . . . فبكب على رسم السلو الدارس

فصل قال الدرجة الثالثةملاحطة عين الجمع وهي توقظ لاستهانةالمجاهد .

ات والتخلص من رعونة المعارضات وتفيد مطالعة البدايات هذه الدرجة عنده أرفع مما قبلها فإن ما قبلها مطالعة كشف الأنوار تشير إلى نوع كسب واختيار وهذه مطالعة تجذب القلب من التفرق في أودية الإرادات وشعاب الأحوال والمقامات إلى ما استولى عليه من عين الجمع .

(151/286)

الناظر إلى الواحد الفرد الأول الذي ليس قبله شيء الآخر الذي ليس بعده شيء الظاهر الذي ليس فوقه شيء الباطن الذي ليس دونه شيء سبق كل شيء بأوليته وبقي بعد كل

شيء بآخريته وعلا فوق كل شيء بظهوره وأحاط بكل شيء ببطونه فالنظر بهذه العين يوقظ قلبه لاستهانته بالمجاهدات ومعنى ذلك أن السالك في مبدأ أمره له شرة وفي طلبه حدة تحمله على أنواع المجاهدات وترميه عليها لشدة طلبه ففتوره نائم واجتهاده يقظان فإذا وصل إلى هذه الدرجة استهان بالمجاهدات الشاقة في جنب ما حصل له من مقام الجمع على الله واستراح من كدها فإن ساعة من ساعات الجمع على الله أنفع وأجدى عليه من القيام بكثير من المجاهدات البدنية التي لم يرضها الله عليه فإذا جمع همه وقلبه كله على الله وزال كل مفرق ومشتت كانت هذه هي ساعات عمره في الحقيقة فتعوض بها عما كان يقاسيه من كد المجاهدات وتعبها وهذا موضع غلط فيه طائفتان من الناس إحداهما غلت فيه حتى قدمته على الفرائض والسنن ورأت نزولها عنه إلى القيام بالأوامر انحطاطا من الأعلى إلى الأدنى حتى قيل لبعض من زعم أنه ذاق ذلك قم إلى الصلاة فقال

يطالب بالأوراد من كان غافلا . . . فكيف بقلب كل أوقاته

ورد وقال آخر

لا تسيب واردك لوردك . . . وهؤلاء بين كافر وناقص فمن

لم ير القيام بالفرائض إذا حصلت له الجمعية فهو كافر منسلخ من الدين ومن عطل لها مصلحة راجحة كالسنن الرواتب والعلم النافع والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنفع العظيم المتعدي فهو ناقص .

(152/286)

والطائفة الثانية لا تعبأ بالجمعية ولا تعمل عليها ولعلها لا تدري ما مسماها ولا حقيقتها وطريقة الأقوياء أهل الاستقامة القيام بالجمعية بالجمعة في التفرقة ما أمكن فيقوم أحدهم بالعبادات ونفع الخلق والإحسان إليهم مع جمعيته على الله فإن ضعف عن اجتماع الأمرين وضاق عن ذلك قام بالفرائض ونزل عن الجمعية ولم يلتفت إليها إداء كان لا يقدر على تحصيلها إلا بتعطيل الفرض فإن ربه سبحانه يريد منه إداء فرائضه ونفسه تريد الجمعية لما فيها من الراحة واللذة والتخلص من ألم التفرقة وشعثها فالفرائض حق ربه والجمعية حظه هو.

(153/286)

فالعبودية الصحيحة توجب عليه تقديم أحد الأمرين على الآخر فإذا جاء إلى النوافل وتعارض عنده الأمران فمنهم من يرجح الجمعية ومنهم من يرجح النوافل ومنهم من يؤثر هذا في وقت وهذا في وقت والتحقيق إن شاء الله أن تلك النوافل إن كانت مصلحتها أرجح من

الجمعية ولا تعوضه الجمعية عنها اشتغل بها ولو فاتت الجمعية كالدعوة إلى الله وتعليم العلم النافع وقيام وسط الليل والذكر أول الليل وآخره وقراءة القرآن بالتدبر ونفل الجهاد والإحسان إلى المضطر وإغاثة الملهوف ونحو ذلك فهذا كله مصلحته أرجح من مصلحة الجمعية وإن كانت مصلحته دون الجمعية كصلاة الضحى وزيارة الإخوان والغسل لحضور الجنائز وعيادة المرضى وإجابة الدعوات وزيارة القدس وضيافة الإخوان ونحو ذلك فهذا فيه تفصيل فإن قويت جمعيته فظهر تأثيرها فيه فهي أولى له وأنفع من ذلك وإن ضعفت الجمعية وقوي أخلاصه في هذه الأعمال فهي أنفع له وأفضل من الجمعية والمعول عليه في ذلك كله إيثار أحب الأمرين إلى الرب تعالى وذلك يعرف بنفع العمل وثمرته من زيادة الإيمان به وترتب الغايات الحميدة عليه وكثرة مواظبة الرسول وشدة اعتنائه به وكثرة الوصية به وإخباره أن الله يحب فاعله ويباهي به الملائكة ونحو ذلك ونكتة المسألة وحرفها أن الصادق في طلبه يؤثر مرضاة ربه على حظه فإن كان رضى الله في القيام بذلك العمل وحظه في الجمعية خلى الجمعية تذهب وقام بما فيه رضى الله ومتى علم الله من قلبه أن تردده وتوقفه ليعلم أي الأمرين أحب إلى الله وأرضى له أنشأ له من ذلك التوقف والتردد حالة شريفة فاضلة حتى لو قدم المفضول لظنه أنه الأحب إلى الله ردت تلك النية والإرادة عليه ما ذهب عليه وفاته من زيادة العمل الآخر وبالله التوفيق .

(154/286)

وفي كلامه معنى آخر وهو أن صاحب المجاهدات مسافر بعزمه وهمته إلى الله فإذا لاحظ عين الجمع وهي الوحدانية التي شهود عينها هو انكشاف حقيقتها للقلب كان بمنزلة مسافر جاد في سيره وقد وصل إلى المنزل وقرت عينه بالوصول وسكنت نفسه كما قيل

فألقت عصاها واستقر بها النوى . . . كما قر عينا بالإياب المسافر

ولكن هذا الموضع مورد الصديق الموحد والزنديق الملحد فالزنديق يقول الاشتغال بالسير بعد الوصول عيب لا فائدة فيه والوصول عنده هو ملاحظة عين الجمع فإذا استغرق في هذا الشهود وفنى به عن كل ما سواه ظن أن ذلك هو الغاية المطلوبة بالأوراد والعبادات وقد حصلت له الغاية فرأى قيامه بها أولى به وأنفع له من الاشتغال بالوسيلة فالعبادات البدنية عنده وسيلة لغاية وقد حصلت فلا معنى للاشتغال بالوسيلة بعدها كما يقول كثير من الناس إن العلم وسيلة إلى العمل فإذا اشتغلت بالغاية لم تحتج إلى الوسيلة وقد اشتد نكير السلف من أهل الاستقامة من الشيوخ على هذه الفرقة وحذروا منهم وجعلوا أهل الكبائر وأصحاب الشهوات خيرا منهم وأرجى عاقبة وأما الصديق الموحد فإذا وصل إلى هناك صارت أعماله القلبية والروحية أعظم من أعماله البدنية ولم يسقط من أعماله شيئًا ولكنه استراح من كد المجاهدات بملاحظة عين الجمع وصار بمنزلة مسافر طلب ملكا عظيما رحيما جوادا فجد في السفر إليه خشية أن يقتطع دونه فلما وصل إليه ووقع بصره

عليه بقي له سير آخر في مرضاته ومحابه فالأول كان سيرا إليه وهذا سير في محابه ومراضيه فهذا أقرب ما يقال في كلام الشيخ وأمثاله في ذلك .

(155/286)

وبعد فالعبد وإن لاحظ عين الجمع ولم يغب عنها فهو سائر إلى الله ولا ينقطع سيره إليه ما دام في قيد الحياة ولا يصل العبد ما دام حيا إلى الله وصولا يستغنى به عن السير إليه البتة وهذا عين المحال بل يشتد سيره إلى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده وأسمائه وصفاته ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق اجتهادا وقياما بالأعمال ومحافظة عليها إلى أن توفاه الله وهو أعظم ما كان اجتهادا وقياما بوظائف العبودية فلو اتى العبد بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير إلى الله وكان بعد في طريق الطلب والإرادة وتقسيم السائرين إلى الله إلى طالب وسائر وواصل أو إلى مريد ومراد تقسيم فيه مساهلة لا تقسيم حقيقي فإن الطلب والسلوك والإرادة لو فارق العبد لانقطع عن الله بالكلية ولكن هذا التقسيم باعتبار تنقل العبد في أحوال سيره وإلا فإرادة العبد المراد وطلبه وسيره أشد من إرادة غيره وطلبه وسيره وأيضا فإنه مراد أولا حيث أقيم في مقام الطلب وجذب إلى السير فكل مريد مراد وكل واصل وسالك وطالب لا يفارقه طلبه ولا سيره وإن تنوعت طرق

السير بحسب اختلاف حال العبد فمن السالكين من يكون سيره ببدنه وجوارحه أغلب عليه من سيره بقلبه وروحه ومنهم من سيره بقلبه أغلب عليه أعني قوة سيره وحدته ومنهم وهم الكمل الأقوياء من يعطي كل مرتبة حقها فيسير إلى الله ببدنه وجوارحه وقلبه وروحه وقد أخبر الله سبحانه عن صفوة أوليائه بأنهم دائما في مقام الإرادة له فقال .

(156/286)

تعالى ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ فالعبد أخص أوصافه وأعلى مقاماته أن يكون مريدا صادق الإرادة عبدا في إرادته بحيث يكون مراده تبعا لمراد ربه الديني منه ليس له إرادة في سواه وقد يحمل كلام الشيخ على معنى آخر وهو أن يكون معنى قوله إن ملاحظة عين الجمع توقظ الاستهانة بالمجاهدات أنه يوقظه من نوم الاستهانة بالمجاهدات وتكون اللام للتعليل أي يوقظه من سنة التقصير لاستهانته بالمجاهدات وهذا معنى صحيح في نفسه فإن العبد كلما كان إلى الله أقرب كان جهاده في الله أعظم قال الله تعالى ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ وتأمل أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فإنهم كانوا كلما ترقوا من القرب في مقام عظم جهادهم

واجتهادهم لا كما ظنه بعض الملاحدة المنتسبين إلى الطريق حيث قال القرب الحقيقي تنقل العبد من الأحوال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة ويريح الجسد والجوارح من كد العمل وهؤلاء أعظم كفرا وإلحادا حيث عطلوا العبودية وظنوا أنهم استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة التي هي من أماني النفس وخدع الشيطان وكأن قائلهم إنما عنى نفسه وذوى مذهبه بقوله

رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم . . . وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

فهم في السرى لم يبرحوا من . . . مكانهم وما ظعنوا في السير عنه كلوا

وقد صرح أهل الاستقامة وأئمة الطريق بكفر هؤلاء فأخرجوهم من الإسلام وقالوا لو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة أي ما دام قادرا عليه .

(157/286)

وهؤلاء يظنون أنهم يستغنون بهذه الحقيقة عن ظاهر الشريعة وأجمعت هذه الطائفة على أن هذا كفر وإلحاد وصرحوا بأن كل حقيقة لا تتبعها شريعة فهي كفر قال سرى السقطي من ادعى باطن حقيقة ينقضها ظاهر حكم فهو غالط وقال سيد الطائفة الجنيد بن محمد

علمنا هذا مشتبه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إبراهيم بن محمد النصرابادي أصل هذا المذهب ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع والتمسك بالأئمة والاقتداء بالسلف وترك ما أحدثه الآخرون والمقام على ما سلك الأولون وسئل إسماعيل بن نجيد ما الذي لا بد للعبد منه فقال ملازمة العبودية على السنة ودوام المراقبة وسئل ما التصوف فقال الصبر تحت الأمر والنهي وقال احمد بن أبي الحواري من عمل بلا اتباع سنة فباطل عمله وقال الشبلي يوما ومد يده إلى ثوبه لولا أنه عارية لمزقته فقيل له رؤيتك في تلك الغلبة ثيابك وأنها عارية فقال نعم أرباب الحقائق محفوظ عليهم في كل الأوقات الشريعة وقال أبو يزيد البسطامي لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود والشريعة وقال عبد الله الخياط الناس قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مع ما يقع في قلوبهم فجاء النبي صلى اله عليه وسلم فردهم من القلب إلى الدين والشريعة ولما حضرت أبا عثمان الحيرى الوفاة مزق ابنه أبو بكر .

(158/286)

قميصه ففتح أبو عثمان عينيه وقال يا بني خلاف السنة في الظاهر من رياء باطن في القلب ومن كلام ابن عثمان هذا أسلم الطرق من الاغترار طريق السلف ولزوم الشريعة وقال عبد الله بن مبارك لا يظهر على أحد شيء من نور الإيمان إلا باتباع السنة ومجانبة البدعة وكل موضع ترى فيه اجتهادا ظاهرا بلا نور فاعلم أن ثم بدعة خفية وقال سهل بن عبد الله الزم السواد على البياض حدثنا وأخبرنا إن أردت أن تفلح ولقد كان سادات الطائفة أشد ما كانوا اجتهادا في آخر أعمارهم قال القشيري سمعت أبا علي الدقاق يقول رؤى في يد الجنيد سبحة فقيل له أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة فقال طريق وصلت به إلى ربي تبارك وتعالى لا أفارقه أبدا وقال إسماعيل بن نجيد كان الجنيد يجيء كل يوم إلى السوق فيفتح باب حانوته فيدخله ويسبل الستر ويصلي أربعمائة ركعة ثم يرجع إلى بيته ودخل عليه ابن عطاء وهو في النزع فسلم عليه فلم يرد عليه ثم رد عليه بعد ساعة فقال اعذرني فإني كنت في وردي ثم حول وجهه إلى القبلة وكبر ومات وقال أبو سعيد بن الأعرابي سمعت أبا بكر العطار يقول حضرت أبا القاسم الجنيد أنا وجماعة من أصحابنا فكان قاعدا يصلي ويثني رجله إذا أراد أن يسجد فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه فثقلت عليه حركتها وكانتا قد تورمتا فقال له بعض أصحابه ما هذا يا أبا القاسم فقال هذه نعم الله الله أكبر فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الجريري يا أبا القاسم لو اضطجعت فقال يا أبا محمد هذا .

وقت يؤخذ فيه الله أكبر فلم يزل ذلك حاله حتى مات ودخل عليه شاب وهو في مرضه الذي مات فيه وقد تورم وجهه وبين يديه مخدة يصلي إليها فقال وفي هذه الساعة لا تترك الصلاة فلما سلم دعاه وقال شيء وصلت به إلى الله فلا أدعه ومات بعد ساعة رحمة الله عليه وقال أبو محمد الجريري كنت واقفا على رأس الجنيد في وقت وفاته وكان يوم جمعة ويوم نيروز وهو يقرأ القرآن فقلت له يا أبا القاسم ارفق بنفسك فقال يا أبا محمد أرأيت أحدا أحوج إليه مني في مثل هذا الوقت وهو ذا تطوى صحيفتي وقال أبو بكر العطوي كنت عند الجنيد حين مات فختم القرآن ثم ابتدأ في ختمة أخرى فقرأ من البقرة سبعين آية ثم مات وقال محمد بن إبراهيم رأيت الجنيد في النوم فقلت ما فعل الله بك فقال طاحت تلك الإشارات وغابت تلك العبارات وفنيت تلك العلوم ونفدت تلك الرسوم وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسحار وتذاكروا بين يديه أهل المعرفة وما استهانوا به من الأوراد والعبادات بعد ما وصلوا إليه فقال الجنيد العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك وقال الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول واتبع سنته ولزم طريقته فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه وقال من ظن أنه يصل ببذل المجهود فمتعن

ومن ظن أنه يصل بغير بذل المجهود فمتمن وقال أبو نعيم سمعت أبي يقول سمعت أحمد بن جعفر بن هانىء يقول سألت الجنيد ما علامة الإيمان فقال علامته طاعة من آمنت به والعمل بما يحبه ويرضاه وترك التشاغل عنه بما ينقضي ويزول .

(160/286)

فرحمة الله على أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه ما أتبعه لسنة الرسول وما وما أقفاه لطريقة أصحابه وهذا باب يطول تتبعه جدا يدلك على أن أهل الاستقامة في نهاياتهم أشد اجتهادا منهم في بداياتهم بل كان اجتهادهم في البداية في عمل مخصوص فصار اجتهادهم في النهاية الطاعة المطلقة وصارت إرادتهم دائرة معها فتضعف الاجتهاد في المعنى المعين لأنه كان مقسوما بينه وبين غيره ولا تصغ الى قول ملحد قاطع للطريق في قالب عارف يقول إن منزلة القرب تنقل العبد من الأعمال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة وتحمل على الاستهانة بالطاعات الظاهرة وتريحه من كد القيام بها .

فصل قوله وتخلص من رعونة المعارضات يريد أن هذه الملاحظة تخلص .

العبد من رعونة معارضة حكم الله الديني والكوني الذي لم يأمر بمعارضته فيستسلم للحكمين فإن ملاحظة عين الجمع تشهده أن الحكمين صدرا عن عزيز حكيم فلا يعارض

حكمه برأي ولا عقل ولا ذوق ولا خاطر وأيضا فتخلص قلبه من معارضات السوى للأمر فإن الأمر يعارض بالشهوة والخبر يعارض بالشك والشبهة فملاحظة عين الجمع تخلص قلبه من هاتين المعارضتين وهذا هو القلب السليم الذي لا يفلح إلا من لقي الله به هذا تفسير أهل الحق والاستقامة وأما أهل الإلحاد فقالوا المراد بالمعارضات ههنا الإنكار على الخلق فيما يبدو منهم من أحكام البشرية لأن المشاهد لعين الجمع يعلم أن مراد الله من الخلق ما هم عليه فإذا علم ذلك بحقيقة الشهود كانت المعارضات والإنكار عليهم من رعونات الأنفس المحجوبة .

(161/286)

وقال قدوتهم في ذلك العارف لا ينكر منكرا لاستبصاره بسر الله في القدر وهذا عين الاتحاد والإلحاد والانسلاخ من الدين بالكلية وقد أعاذ الله شيخ الإسلام من ذلك وإذا كان الملحد يحمل كلام الله ورسوله ما لا يحتمله فما الظن بكلام مخلوق مثله فيقال إنما بعث الله رسله وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها فبهذا أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وانقسمت الدار إلى دار سعادة للمنكرين ودار شقاوة للمنكر عليهم فالطعن في ذلك طعن في الرسل والكتب والتخلص من ذلك انحلال من ربقة

الدين ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام حتى لقوا الله تعالى وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم وأخبر النبي صلى اله عليه وسلم "أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبة خردل" وبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد المبالغة حتى قال" إن الناس إذا تركوه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " وأخبر أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار ويوجب تسلط الأشرار وأخبر أن تركه يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه ويحل لعنه الله كما لعن الله بني إسرائيل على تركه فكيف يكون الإنكار من رعونات النفوس وهو مقصود الشريعة وهل الجهاد إلا على أنواع الإنكار وهو جهاد باليد وجهاد أهل العلم إنكار باللسان وأما قوله إن المشاهد أن مراد الله من الخلائق ما هم عليه فيقال له الرب تعالى له مرادان كوني وديني فهب أن مراده الكوني منهم ما هم عليه فمراده الديني الأمري الشرعي هو الإنكار على أصحاب المراد الكوني فإذا عطلت مراده الديني لم تكن واقفا مع مراده الديني الذي يحبه .

(162/286)

ويرضاه ولا ينفعك وقوفك مع مراده الكوني الذي قدره وقضاه إذ لو نفعك ذلك لم يكن للشرائع معنى البتة ولا للحدود والزواجر ولا للعقوبات الدنيوية ولا للأخذ على أيدي

الظلمة والفجار وكف عدوانهم وفجورهم فإن العارف عندك يشهد أن مراد الله منهم هو ذلك وفي هذا فساد الدنيا قبل الأديان فهذا المذهب الخبيث لا يصلح عليه دنيا ولا دين ولكنه رعونة نفس قد أخلدت إلى الإلحاد وكفرت بدين رب العباد واتخذت تعطيل الشرائع دينا ومقاما ووساوس الشيطان مسامرة وإلهاما وجعلت أقدار الرب تعالى مبطلة لما بعث به رسله ومعطلة لما أنزل به كتبه وجعلوا هذا الإلحاد غاية المعارف الألهية وأشرف المقامات العلية ودعوا إلى ذلك النفوس المبطلة الجاهلة بالله ودينه فلبوا دعوتهم مسرعين واستخف الداعي منهم قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين وأما قوله إن الإنكار من معارضات النفوس المحجوبة فلعمر الله إنهم لفي حجاب منيع من هذا الكفر والإلحاد ولكنهم يشرفون على أهله وهم في ضلالتهم يعمهون وفي كفرهم يترددون ولأتباع الرسل يحاربون وإلى خلاف طريقهم يدعون وبغير هداهم يهتدون وعن صراطهم المستقيم ناكبون ولما جاءا به يعارضون ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا

إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فصل قوله وتفيد مطالعة البدايات يحتمل كلامه أمرين أحدهما أن .

ملاحظة عين الجمع تفيد صاحبها مطالعة السوابق التي ابتدأه الله بها فتفيده ملاحظة عين الجمع نظرة إلى أولية الرب تعالى في كل شيء ويحتمل أن يريد بالبدايات بدايات سلوكه وحدة طلبه فإنه في حال سلوكه لا يلتفت إلى ما وراءه لشدة شغله بما بين يديه وغلبة أحكام الهمة عليه فلا يتفرغ لمطالعة بداياته فإذا لاحظ عين الجمع قطع السلوك الأول وبقى له سلوك ثان فتفرغ حينئذ إلى مطالعة بداياته ووجد اشتياقا منه إليها كما قال الجنيد واشوقاه إلى أوقات البداية يعني لذة أوقات البداية وجمع الهمة على الطلب والسير إلى الله فإنه كان مجموع الهمة على السير والطلب فلما لاحظ عين الجمع فنيت رسومه وهو لا يمكنه الفناء عن بشريته وأحكام طبيعته فتقاصت طباعه ما فيها فلزمته الكلف فارتاح إلى أوقات البدايات لما كان فيها من لذة الإعراض عن الخلق واجتماع الهمة ومر أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه على رجل وهو يبكي من خشية الله فقال هكذا كنا حتى قست قلوبنا وقد أخبر النبي صلى اله عليه وسلم " إن لكل عامل شرة ولك شرة فترة " فالطالب

الجاد لا بد أن تعرض له فترة فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد ولما فتر الوحي عن النبي صلى اله عليه وسلم "كان يغدو إلى شواهق الجبال .

(164/286)

ليلقى نفسه فيبدو له جبريل عليه السلام فيقول له إنك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسكن لذلك جأشه وتطمئن نفسه " فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد ولم تخرجه من فرض ولم تدخله في محرم رجى له أن يعود خيرا مما كان قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه إن لهذه القلوب إقبالا وإدبارا فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل وإن أدبرت فألزموها الفرائض وفي هذه الفترات والغيوم والحجب التي تعرض للسالكين من الحكم ما لا يعلم تفصيله إلا الله وبها يتبين الصادق من الكاذب فالكاذب ينقلب على عقبيه ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه 3والصادق ينتظر الفرج ولا ييأس من روح الله ويلقى نفسه بالباب طريحا ذليلا مسكينا مستكينا كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه البتة ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له لا بسبب من العبد وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب لكن ليس هو منك بل هو الذي من عليك به وجردك منك وأخلاك عنك وهو الذي يحول بين المرء وقلبه فإذا رأيته قد أقامك

في هذا المقام فاعلم أنه يريد أن يرحمك ويملأ إناءك فإن وضعت القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلب مضيع فسل ربه ومن هو بين أصابعه أن يرده عليك ويجمع شملك به ولقد أحسن القائل

إذا ما وضعت القلب في غير موضع . . . بغير إناء فهو قلب مضيع . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 100. 126 ﴾

(165/286)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ .

جاء موسى مجيء المشتاقين مجيء المهيَّمين ، جاء موسى بلا موسى ، جاء موسى ولم يَبْقَ من موسى شيءٌ لموسى . آلافُ الرجال قطعوا مسافاتٍ طويلة فلم يذكرهم أحد ، وهذا موسى خطا خطواتٍ فإلى القيامة يقرأ الصبيان : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى ﴾ .

ويقال لَمَّا جاء موسى لميقات باسطِ الحقّ – سبحانه – سقط بسماع الخطاب ، فلم يتمالك حتى قال : ﴿ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ، فإنَّ غَلَبَاتِ الوجد عليه استنطقته بطلب كمال الوصلة من الشهود ، وكذا قالوا :

وأبرحُ ما يكونُ الشوقُ يوماً . . . إذا دَنَتْ الخيامُ من الخيام

ويقال صار موسى – عليه السلام – عند سماع الخطاب بعين السُّكْر فنطق ما نطق ، والسكران لا يُؤخذ بقوله ، ألا ترى أنه ليس في نص الكتاب معه عتاب بحرف ؟

ويقال أخذته عِزَّةُ السَّمَاعِ فخرج لسانه عن طاعته جرياً على مقتضى ما صحبه مِنَ الأَرْيَحِيَّةِ وبَسْطِ الوصلة .

ويقال جمع موسى – عليه السلام – كلماتٍ كثيرةً يتكلم بها في تلك الحالة ؛ فإن في القصص أنه كان يتحمل في أيام الوعد كلمات الحق ، ويقول لمعارفه : ألكم حاجة إلى الله ؟ ألكم كلام معه ؟ فإني أريد أن أمضي إلى مناجاته .

ثم إنه لما جاء وسمع الخطاب لم يذكر – مما دبَّره في نفسه ، وتحمله من قومه ، وجمعه في قلبه – شيئاً لا حرفاً ، بل نطق بما صار في الوقت غالباً على قلبه ، فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ وفي معناه أنشدوا :

فيا ليلَكم من حاجةٍ لي مهمة . . . إذا جئتُكم ليلى فلم أدرِ ما هِيَا

ويقال أشدُّ الخَلْقِ شوقاً إلى الحبيب أقربُهم من الحبيب ؛ هذا موسى عليه السلام ، وكان عريق الوصلة ، واقفاً في محل المناجاة ، محدقة به سجوفُ التولي ، غالبة عليه بوادِهُ الوجود ، ثم في عين ذلك كان يقول : ﴿ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ كأنه غائب عن الحقيقة . ولكن ما ازداد القومُ شَرْباً إلا ازدادوا عطشاً ، ولا ازدادوا تيماً إلا ازدادوا شوقاً ، لأنه لا سبيل إلى الوصلة إلا بالكمال ، والحقُّ – سبحانه – يصونُ أسرار أصفيائه عن مداخلة الملال .

ويقال نطق موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال ﴿ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ولا أقلَّ من نظرة – والعبد قتيل هذه القصة – فقوبل بالردِّ ، وقيل له : ﴿ لَنْ تَرَانِى ﴾ وكذا قهر الأحباب ولذا قال قائلهم :

جَوْرُ الهوى أحسن من عَدْلِه . . . وبخله أظرف من بذله

ويقال لَمَّا صرَّح بسؤال الرؤية ، وجهر صريحاً رُدَّ صريحاً فقيل له : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ ، ولما قال نبيُّنا – صلى الله عليه وسلم – بِسِرِّه في هذا الباب ، وأشار إلى السماء منتظراً الرد والجواب من حيث الرمز نزل قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة : 144] فردَّه إلى شهود الجهات والأطلال إشارة إلى أنه أعزُّ من أن يطمح إلى شهوده – اليوم – طَرْفٌ ، بل الألحاظ مصروفة موقوفة – اليومَ – على الأغيار .

ويقال لما سَمَتْ هِمَّتُه إلى أسنى المطالب – وهي الرؤية – قوبل " بِلَنْ ، ولَمَّا رجعَ إلى الخَلْق وقال للخضر ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : 66] ، قال الخضر : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف : 67] فقابله بلن ، فصار الردُّ موقوفاً على موسى – عليه السلام من الحق ومن الخَلْق ، ليكون موسى بلا موسى ، ويكون موسى صافياً عن كل نصيب لموسى من موسى ، وفي قريب منه أنشدوا :

(167/286)

(. . . . .) نحنُ أهلُ منازلٍ . . . أبداً غرابُ البيْن فينا ينعق

ويقال طلب موسى الرؤية وهو بوصف التفرقة فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ فأجيب بلن لأن عين الجمع أتم من عين الفَرْق . فزع موسى حتى خَرَّ صعقاً ، والجبل صار دَكَّاً . ثم الروْح بعد وقوع الصعقة على القالب مكاشفته بما هو حقائق الأحدية ، ويكون الحقُّ – بعد امتحاء معالم موسى – خيراً لموسى من بقاء موسى لموسى ، فعلى الحقيقة : شهود الحقائق بالحقِّ أتمُّ من بقاء الخلق بالخلق ، كذا قال قائلهم :

ولوجهها من وجهها قمرٌ . . . ولعينها من عينها كحل

ويقال البلاء الذي ورد على موسى بقوله : ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ ﴿ فَلَمَّا

تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أتمُّ وأعظم منه قولُه : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ لأن ذلك صريحٌ في الرد ، وفي اليأس راحة . لكنَّه لما قال فسوف أطْمِعُه فيما مُنعِه فلما اشتد موقُفه جعل الجبل دكاً ، وكان قادراً على إمساك الجَبَل ، لكنه قهر الأحباب الذي به جَرَتْ سُنَّتُهم .

ويقال في قوله : ﴿ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ ﴾ بلاءٌ شديد لموسى لأنه نُفِيَ عن رؤية مقصوده ومُنِيَ برؤية الجبل ، ولو أذِنَ أَنْ يُغمِضَ جفنَه فلا ينظر إلى شيء بعد ما بقي عن مراده من رؤيته لكان الأمرُ أسهلَ عليه ، ولكنه قال له : ﴿ لَن تَرَانِى وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ ﴾ .

ثم أشدُّ من ذلك أنه أعطى الجبل التَّجليَ ؛ فالجبل رآه وموسى لم يَرَه ، ثم أَمَرَ موسى بالنظر إلى الجبل الذي قدم عليه في هذا السؤال ، وهذا – والله – لصعبٌ شديد ! ! ولكن موسى لم ينازع ، ولم يقل أنا أريد النظر إليك فإذا لم أرَكَ لا أنظر إلى غيرك بل قال : لا أرفع بصري عما أمرتني بأن أنظر إليه ، وفي معناه أنشدوا :

أريدُ وصالَه ويريد هجري . . . فأترك ما أريد لما يريد

(168/286)

ويقال بل الحق سبحانه أراد بقوله : ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ ﴾ تداركه قلبُ موسى – عليه السلام – حيث لم يترك على صريح الرد بل علله برفق كما قيل :

فذريني أفني قليلاً قليلاً . . . ويقال لما رُدَّ موسى إلى حال الصحو وأفاق رجع إلى رأس الأمر فقال : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ يعني إن لم تكن الرؤية هي غاية المرتبة فلا أقل من التوبة ، فَقَبِلَه – تعالى – لسمو همته إلى الرتبة العلية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ .

هذه إناخة بعقوة العبودية ، وشرط الإنصاف ألا تبرحَ محلّ الخدمة وإنْ حيل بينك وبين وجود القربة ؛ لأن القربةَ حظُّ نفسك ، والخدمةَ حقُّ ربك وهي تتم بألا تكون بحظ نفسك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 564. 567 ﴾

(169/286)

" فصل فى مبحث الرؤية "

الكاتب : الأستاذ محمد أحمد الوزير

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلاله وكماله ، لا شئ يعجزه ، يفعل ما يشاء ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، أول بلا ابتداء آخر بلا انتهاء له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وأشهد أن لا اله إلا الله الأحد الصمد ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، أرسله رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً

منيراً .

أما بعد :

مسألة الرؤية .

فإن الله سبحانه وتعالى يقول: " وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة " وقال صلى الله عليه وأله وسلم : (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته وفي رواية لا تضارون في رؤيته) ، وقد دلت النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة على إثبات الرؤية للمؤمنين يوم القيامة لربهم ، جل وعلا ، زيادة في إكرامهم ، وإيضاحا لعلو قدرهم ، وتمام نعيمهم .

دوافع البحث:

وقد سألني بعض الأخوة ، عن الأدلة في مسألة الرؤية ؛ لأنه كثر فيها المقال ، ودار عليها السؤال ، لما تبنى نشرها بين العوام بعض الطوائف الإسلامية ، فأجبته إلى ذلك لأنه قد عم بها البلوى ، وعظم منها الشكوى ، وزاد البلبال ، حتى أنهم زعموا أن لا أدلة فيها ، ولا حجج تدل عليها ، فعزمت حينها على كتابة بحث وجيز ، أذكر فيه الأدلة الواردة في الكتاب والسنة .

الكتابات في هذا الموضوع:

ولست أول من كتب في هذا المسألة ، فقد أثرى بحثها أئمة العلم ، فلم يتركوا فيها شاذة ولا

فاذة إلا وتكلموا عنها ، وعلى سبيل المثال :

1.الرؤية للإمام الدارقطني .

2.شرح أصول اعتقاد أهل السنة للإمام اللالكائي .

3.حادي الأرواح للإمام ابن القيم .

4.العواصم والقواصم للإمام الكبير محمد بن إبراهيم الوزير وغير ذلك .

الجديد في البحث:

والشيء الذي أضفته في البحث هذا هو التالي:

1.اجتنبت الكلام المنطقي والنقاش الفلسفي .

(170/286)

2.اعتمدت نصوص الكتاب والسنة .

3.اعتمدت فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين للنصوص .

4.لم أتكلم عن دلالات النصوص ، وأورد المناقشة لكي يسهل فهم البحث لدى العامة .

5.لم أتكلم فيه بسعة لكي يكون صغيرا حتى يسهل اقتناؤه وقراءته ونشره إلا لما لابد منه .

المبحث الأول

الأدلة من القرآن والسنة على إثبات الرؤية وأقوال السلف .

إن مسألة الرؤية من المسائل العقدية المهمة ، وتواردت على إثباتها نصوص كثيرة لا تعد ولا تحصى وإن شاء الله تعالى سأذكرها لك أخي القارئ ، مع كلام العلماء ، فتظهر للجاهل الحجة وتقام على المتعلم المحجة وسأقسم البحث إلى ثلاثة مطالب .

المطلب الأول:

أدلة الكتاب الظاهرة في الرؤية:

لقد تكلم الله سبحانه عن مسألة الرؤية في كتابه بالتفصيل ، وأورد فيه من الحجج والإيضاح ما لا يلتبس على عاقل ولا يغيب فهمه عن جاهل ، إلا لمن لم يكن له قلب أو كان عن التنزيل غافل ، أو أصيب بداء التعصب أو عمى التقليد الجامد وإليك أخي العزيز أدلة الكتاب الكريم في ذلك فأقول:

الدليل الأول: قال تعالى " وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة " (سورة القيامة الآية: 22) .

(171/286)

معنى قوله إلى ربها ناظرة أنها رائية ترى الله عز وجل ولا يجوز أن يكون معناه إلى ثواب ربها ناظرة لأن ثواب الله غير الله وإنما قال الله عز وجل إلى ربها ولم يقل إلى غير ربها ناظرة والقرآن على ظاهره وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجة . ألا ترى أنه لما قال فاذكروني أذكركم واشكروا لي لم يجز أن يقال أراد ملائكتي ورسلي ثم نقول إن جاز لكم أن تدعوا هذا في قوله إلى ربها ناظرة جاز لغيركم أن يدعيه في قوله لا تدركه الأبصار فيقول أراد بها لا تدرك غيره ولم يرد أنها لا تدركه الأبصار وإذا لم يجز ذلك لم يجز هذا ولا حجة لهم في قوله لا تدركه الأبصار فإنما أراد به لا تدركه أبصار المؤمنين في الدنيا دون الآخرة ولا تدركه أبصار الكافرين مطلقا كما قال كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون فلما عاقب الكفار بحجبهم عن رؤيته دل على أنه يثيب المؤمنين برفع الحجاب لهم عن أعينهم حتى يروه ولما قال في وجوه المؤمنين وجوه يومئذ فقيدها بيوم القيامة ووصفها فقال ناضرة ثم أثبت لها الرؤية فقال إلى ربها ناظرة علمنا أن الآية الأخرى في نفيها عنهم في الدنيا دون الآخرة وفي نفيها عن الوجوه الباسرة دون الوجوه الناضرة جمعا بين الآيتين حملا للمطلق من الكلام على المقيد منه وقال القرطبي في تفسيره:

"ناظرة" من النظر أي تنظر إلى ربها ؛ على هذا جمهور العلماء .

o وفي الباب حديث صهيب خرجه مسلم وقد مضى في (سورة) "يونس" عند قوله تعالى: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " (يونس: 26) . وكان ابن عمر يقول: أكرم أهل

الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ؛ ثم تلا هذه الآية: " وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة " وروى يزيد النحوي عن عكرمة قال: تنظر إلى ربها نظرا . وكان الحسن يقول: نضرت وجوههم ونظروا إلى ربهم .

(172/286)

---

o وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جل وعز إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن) .

وروى جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوسا ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر) متفق عليه .

o وخرجه أيضا أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح . وخرج أبو داود عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه ؟ قال ابن معاذ : مخليا به يوم القيامة ؟ قال: (نعم يا أبا رزين) قال: وما آية ذلك في خلقه ؟ قال: (يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر) قال ابن معاذ : ليلة البدر مخليا به . قلنا : بلى . قال: (فالله أعظم) (قال ابن معاذ قال) : (فإنما هو خلق من خلق الله – يعني القمر – فالله أجل وأعظم) .

وفي كتاب النسائي عن صهيب قال: (فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر ، ولا أقر لأعينهم) .

وفي التفسير لأبي إسحاق الثعلبي عن الزبير عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يتجلى ربنا عز وجل حتى ينظروا إلى وجهه ، فيخرون له سجدا ، فيقول ارفعوا رؤوسكم فليس هذا بيوم عبادة)

الدليل الثاني:قال تعالى: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون " (الآية: 26سورة يونس) .

قال القرطبي في تفسيره:

(173/286)

قوله تعالى: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " روي من حديث أنس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: "وزيادة" قال: (للذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهي الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم) وهو قول أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في رواية . وحذيفة وعبادة بن الصامت وكعب بن عجرة وأبي موسى وصهيب وابن عباس في رواية ، وهو قول جماعة من التابعين ، .

وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) وفي رواية ثم تلا " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " .

وخرجه النسائي أيضا عن صهيب قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه الآية " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم موعدا عند الله يريد أن ينجزكموه قالوا ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويجرنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر ولا أقر لأعينهم) .

وخرج الترمذي الحكيم أبو عبد الله رحمه الله: عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادتين في كتاب الله ؛ في قول " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال: (النظر إلى وجه الرحمن) .

وقال عبد الرحمن بن سابط: الحسنى البشرى ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم ؛ قال الله تعالى: " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " (القيامة: 22 - 23) .

وفي الدر المنثور:

أخرج الطيالسي وهناد وأحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والدارقطني في الرؤية وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن صهيب رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه . فيقولون: وما هو ، ألم تثقل موازيننا ، وتبيض وجوهنا ، وتدخلنا الجنة ، وتزحزحنا عن النار ؟ وقال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم" .

وأخرج الدارقطني وابن مردويه عن صهيب رضي الله عنه في الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الزيادة: النظر إلى وجه الله" .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني في الرؤية وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادي: يا أهل الجنة – بصوت يسمعه أولهم وآخرهم – إن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن" .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي في كتاب الرؤية عن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " للذين أحسنوا الحسنى

وزيادة " قال: الزيادة: النظر إلى وجه الرحمن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني وابن مردويه واللالكائي والبيهقي في كتاب الرؤية عن أبي بن كعب رضي الله عنه "أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال: الذين أحسنوا أهل التوحيد ، والحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله" .

(175/286)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال "أحسنوا شهادة أن لا إله إلا الله ، والحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى الله" .

وأخرج أبو الشيخ وابن منده في الرد على الجهمية والدارقطني في الرؤية وابن مردويه واللالكائي والخطيب وابن النجار عن أنس رضي الله عنه "أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " فقال: للذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهي الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم" .

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن أنس رضي الله عنه قال "قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال: ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدود ولا صفة معلومة" .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من كبر على سيف البحر تكبيرة رافعا بها صوته لا يلتمس بها رياء ولا سمعة كتب الله له رضوانه الأكبر ، ومن كتب له رضوانه الأكبر جمع بينه وبين محمد وإبراهيم عليهما السلام في داره ، ينظرون إلى ربهم في جنة عدن كما ينظر أهل الدنيا إلى الشمس والقمر في يوم لا غيم فيه ولا سحابة ، وذلك قوله " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " فالحسنى لا إله إلا الله ، والزيادة الجنة والنظر إلى الرب" .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطني وابن منده في الرد على الجهمية وابن مردويه واللالكائي والآجري والبيهقي كلاهما في الرؤية عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قوله " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال: الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله .

وأخرج ابن مردويه من طريق الحرث عن علي رضي الله عنه في قوله " للذين أحسنوا الحسنى " قال: يعني الجنة ، والزيادة يعني النظر إلى الله تعالى .

(176/286)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والدارقطني واللالكائي والآجري والبيهقي عن حذيفة رضي الله عنه في الآية قال: والزيادة النظر إلى وجه ربهم .

وأخرج هناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والدارقطني واللالكائي والبيهقي عن أبي موسى الأشعري في الآية قال: الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه ربه .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما " للذين أحسنوا الحسنى " قال: قول لا إله إلا الله ، والحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق علي عن ابن عباس رضي الله عنهما " للذين أحسنوا " قال: الذين شهدوا أن لا إله إلا الله ، الحسنى: الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم واللالكائي عن ابن مسعود رضي الله عنه في الآية قال: أما الحسنى فالجنة ، وأما الزيادة فالنظر إلى وجه الله ، وأما القتر فالسواد .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الرؤية من طريق الحكم بن عتيبة عن علي رضي الله عنه في الآية قال: الزيادة غرفة من لؤلؤة

واحدة لها أربعة أبواب غرفها وأبوابها من لؤلؤة واحدة .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه " للذين أحسنوا " قال: شهادة أن لا إله إلا الله " الحسنى " قال: الجنة " وزيادة " قال: النظر إلى وجه الله .

وأخرج ابن جرير والدارقطني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه في قوله: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة أعطوا منها ما شاؤوا ، ثم يقال لهم: إنه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه ، فيتجلى الله تعالى لهم فيصغر ما أعطوا عند ذلك ، ثم تلا " للذين أحسنوا الحسنى " قال: الجنة " والزيادة " نظرهم إلى ربهم عز وجل .

(177/286)

وأخرج ابن جرير والدارقطني عن عامر بن سعد البجلي رضي الله عنه في قوله: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال: النظر إلى وجه الله .

وأخرج الدارقطني عن السدي رضي الله عنه في قوله: " للذين أحسنوا الحسنى " قال: الجنة " وزيادة " قال: النظر إلى وجه الرب عز وجل .

وأخرج الدارقطني عن الضحاك رضي الله عنه قال: الزيادة النظر إلى وجه الله .

وأخرج ابن جرير والدارقطني عن عبد الرحمن بن سابط قال: الزيادة النظر إلى وجه الله عز

وجل .

وأخرج ابن جرير والدارقطني عن أبي إسحق السبيعي رضي الله عنه في قوله: " للذين أحسنوا الحسنى " قال: الجنة " وزيادة " قال: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل .

وأخرج ابن جرير والدارقطني عن قتادة رضي الله عنه قال: ينادي المنادي يوم القيامة إن الله وعد الحسنى وهي الجنة ، فأما الزيادة فهي النظر إلى وجه الرحمن . قال: فيتجلى لهم حتى ينظروا إليه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال: هو مثل قوله " ولدينا مزيد " (ق الآية 35) يقول: يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله ، وقال: " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " (الأنعام الآية 160) .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: " للذين أحسنوا الحسنى " قال: مثلها . قال " وزيادة " قال: مغفرة ورضوان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علقمة بن قيس رضي الله عنه في الآية قال: الزيادة العشر " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " (الأنعام الآية 160) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في الآية قال: الزيادة الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية قال: الزيادة ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في الرؤية عن سفيان رضي الله عنه قال: ليس في تفسير القرآن اختلاف إنما هو كلام جامع يراد به هذا وهذا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: " ولا يرهق وجوههم " قال: لا يغشاهم " قتر " قال: سواد الوجوه .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء رضي الله عنه في الآية قال: القتر سواد الوجه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله " ولا يرهق وجوههم قتر " قال: خزي .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم " ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة " قال: بعد نظرهم إلى الله عز وجل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والدارقطني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه في قوله " ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة " قال: بعد نظرهم إلى ربهم .

وفي نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني:

310- (الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمان) .

قال في شرح المواهب جاء مرفوعاً من حديث (1) أبي موسى (2) وكعب بن عجرة (3) وابن عمر (4) وأبي بن كعب (5) وأنس (6) وأبي هريرة وجاء موقوفاً على الصديق وحذيفة وابن عباس وابن مسعود وجاء عن جماعة من التابعين كما بسطه في البدور وقال قال البيهقي هذا تفسير قد استفاض واشتهر فيما بين الصحابة والتابعين ومثله لا يقال إلا بتوقيف وقال يحيى بن معين عندي سبعة عشر حديثاً كلها صحاح وزاد عليه في البدور اثنين وساق ألفاظ الجميع عازياً لمخرجيهم وقال أنها بلغت مبلغ التواتر عندنا معاشر أهل الحديث اهـ .

الدليل الثالث: " يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد " (سورة ق . الآية: 30 - 35) .

تفسير القرطبي:

(179/286)

وقال أنس وجابر: المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف . وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " (يونس: 26) قال: الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم .

وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام ، قالا: أخبرنا المسعودي عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كثيب من كافور أبيض فيكونون منه في القرب .

قال ابن المبارك: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا . وقال يحيى بن سلام: لمسارعتهم إلى الجمع في الدنيا ، وزاد (فيحدث الله لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك) . قال يحيى: وسمعت غير المسعودي يزيد فيه قوله تعالى: " ولدينا مزيد " .

وفي الدر المنثور:

أخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي في البعث والنشور عن أنس في قوله " ولدينا مزيد " قال: يتجلى لهم الرب عز وجل .

(180/286)

وأخرج الشافعي في الأم وابن أبي شيبة والبزار وأبو يعلى وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر والطبراني في الأوسط وابن مردويه والآجري في الشريعة والبيهقي في الرؤية وأبو نصر السجزي في الإبانة من طرق جيدة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتاني جبريل وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء ، فقلت: ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك ، فالناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، وفيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له ، وهو عندنا يوم المزيد ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا جبريل وما يوم المزيد ؟ قال: إن ربك اتخذ في الفردوس واديا أفيح فيه كثب من مسك ، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من الملائكة وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين ، وتحف تلك المنابر بكراسي من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد عليها الشهداء والصديقون ، ثم جاء أهل الجنة فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب ، فيتجلى لهم تبارك وتعالى حتى ينظروا إلى وجهه ، ويقول الله: أنا ربكم قد صدقتكم وعدي فسلوني أعطكم ، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك ، فيقول: قد رضيت عنكم فسلوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم ، فيقول: لكم ما تمنيتم " ولدي مزيد " فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير ، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة" .

وأخرج ابن جرير عن أنس رضي الله عنه قال:

وفيه (ثم ناداهم الرب عز وجل من وراء الحجب: مرحبا بعبادي وزواري وجيراني ووفدي ، أكلوا وشربوا وفكهوا وكسوا وطيبوا ، وعزتي لأتجلين لهم حتى ينظروا إلي .

فذلك انتهاء العطاء وفضل المزيد .

فتجلى لهم الرب ثم قال: السلام عليكم عبادي أنظروا إلي ، فقد رضيت عنكم) .

المطلب الثاني:

الدلالة على الرؤية بالمفهوم من القرآن .

(181/286)

قال تعالى: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون " (سورة المطففين الآية: 14 – 17) .

قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة ، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة ، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون . وقال جل ثناؤه: " وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة " (القيامة: 22) فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه .

وأعلم أن الكفار محجوبون عنه قال مالك بن أنس في هذه الآية: لما حجب أعداءه فلم يروه

تجلى لأوليائه حتى رأوه .

وقال الشافعي: لما حجب قوما بالسخط ، دل على أن قوما يرونه بالرضا . ثم قال: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا .

وقال الحسين بن الفضل: لما حجبهم في الدنيا عن نور توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته .

قال الإمام الطبري:

وعن الحسن في قوله: "كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " قال: يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية ، أو كلاما هذا معناه .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء القوم أنهم عن رؤيته محجوبون . ويحتمل أن يكون مرادا به الحجاب عن كرامته ، وأن يكون مرادا به الحجاب عن ذلك كله ، ولا دلالة في الآية تدل على أنه مراد بذلك الحجاب عن معنى منه دون معنى ، ولا خبر به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قامت حجته . فالصواب أن يقال: هم محجوبون عن رؤيته ، وعن كرامته ، إذ كان الخبر عاما ، لا دلالة على خصوصه .

وقال "كلا ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " فهذا دليل على أن المؤمنين يرون الله .

(182/286)

وقال حنبل بن إسحاق: سمعت أبا عبد الله يقول: قالت الجهمية: إن الله لا يرى في الآخرة، وقال الله عز وجل: "كلا، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون" فلا يكون هذا إلا إن الله عز وجل يرى، وقال "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة" فهذا النظر إلى الله ولأحاديث التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إنكم ترون ربكم" صحيحة، وأسانيدها غير مدفوعة، والقرآن شاهد: أن الله يرى في الآخرة.

وقال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل ـ وقد ذكر عنده شيء في الرؤية ـ فغضب وقال: من قال: إن الله لا يرى، فهو كافر.

وقال عباس الدوري: سمعت أبا عبيد القاسم بن سلام يقول ـ وذكر عنده هذه الأحاديث في الرؤية ـ فقال: هذه عندنا حق، نقلها الناس بعضهم عن بعض.

وقال عبد الله بن وهب: قال مالك بن أنس: الناس ينظرون إلى الله يوم القيامة بأعينهم.

وقال المزني: سمعت ابن هرم القرشي يقول: سمعت الشافعي يقول في قول الله عز وجل: "كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون" قال: فلما حجهم في السخط كان في هذا دليل على أنهم يرونه في الرضا قال: فقال له أبو النجم القزويني: يا أبا إبراهيم به تقول؟ قال: نعم، وبه أدين الله، فقام إليه عصام، فقبل رأسه، وقال: يا سيد الشافعيين، اليوم بيضت وجوهنا، ذكره الحاكم في مناقب الشافعي.

المطلب الثالث: ما استدل به المانع للرؤية

من القرآن وفيه دليل عليه .

الدليل الأول: قال تعالى " ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين " . الآية: من سورة الأعراف رقم (143) .

قال ابن القيم في حادي الأرواح :و بيان الدلالة من هذه الآية على إثبات الرؤية من وجوه عديدة:

أحدها أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه .

(183/286)

الوجه الثاني ان الله سبحانه وتعالى لم ينكر عليه سؤاله .

الوجه الثالث أنه اجابه بقوله لن ترني ولم يقل لا تراني ولا إني لست بمرئي ولا تجوز رؤيتي والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تامله وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يرى .

الوجه الرابع أن الله سبحانه ووتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقرا مكانه وليس هذا بممتنع في مقدوره بل هو ممكن وقد علق به الرؤية ولو كانت محالة في ذاتها لم يعلقها بالممكن

في ذاته ولو كانت الرؤية محالة لكان ذلك نظير أن يقول إن استقر الجبل فسوف آكل واشرب وأنام فالأمران عندكم سواء .

الوجه الخامس قوله سبحانه وتعالى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى فإنه إذا جاز ان يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب عليه فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامتهم ويريهم نفسه .

الوجه السادس أن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه منه إليه وخاطبه وناجاه وناداه ومن جاز عليه التكلم والتكليم وان يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز

قال القرطبي في تفسيره :

قوله تعالى: " قال لن تراني " أي في الدنيا . ولا يجوز الحمل على أنه أراد: أرني آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك ؛ لأنه قال "إليك" و" قال لن تراني " . ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل ، كما أعطاه سائر الآيات .

ثم قال: " فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا " وتجلى معناه ظهر ؛ من قولك: جلوت العروس أي أبرزتها . وجلوت السيف أبرزته من الصدأ ؛ جلاء فيهما . وتجلى الشيء انكشف . وعند أهل السنة والجماعة الرؤية جائزة . وعند المبتدعة سأل لأجل القوم ليبين لهم أنها غير جائزة ، وهذا لا يقتضي التوبة .

قال علي بن مهدي الطبري: لو كان سؤال موسى مستحيلا ما أقدم عليه مع معرفته بالله ؛

كما لم يجز أن يقول له يا رب ألك صاحبة وولد .

وفي تفسير الجلالين:

(184/286)

قال لن تراني) أي لا تقدر على رؤيتي ، والتعبير به دون لن أُرى يفيد إمكان رؤيته تعالى

الدليل الثاني: " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير " (سورة الأنعام . الآية: 103) .

قال القرطبي :

الآية: 103 " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير "

قوله تعالى: " لا تدركه الأبصار " بين سبحانه أنه منزه عن سمات الحدوث ، ومنها الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد ، كما تدرك سائر المخلوقات ، والرؤية ثابتة .

وقال الزجاج: أي لا يبلغ كنه حقيقته ؛ كما تقول: أدركت كذا وكذا ؛ لأنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم الأحاديث في الرؤية يوم القيامة . وقال ابن عباس: " لا تدركه الأبصار " في الدنيا ، ويراه المؤمنون في الآخرة ؛ لإخبار الله بها في قوله: " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " (القيامة: 22 – 23) . وقال السدي وهو أحسن ما قيل لدلالة التنزيل

والأخبار الواردة برؤية الله في الجنة .

قال في الدر المنثور :

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عكرمة عن ابن عباس قال "إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه . فقال له رجل عند ذلك: أليس قال الله " لا تدركه الأبصار " فقال له عكرمة ألست ترى السماء ؟ قال: بلى قال: فكلها ترى" .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة " لا تدركه الأبصار " قال: هو أجل من ذلك وأعظم أن تدركه الأبصار .

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في كتاب الرؤية عن الحسن في قوله " لا تدركه الأبصار " قال: في الدنيا . وقال الحسن: يراه أهل الجنة في الجنة ، يقول الله " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " (القيامة الآية 22) قال: ينظرون إلى وجه الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إسماعيل بن علية في قوله " لا تدركه الأبصار " قال: هذا في الدنيا .

(185/286)

(لا تدركه الأبصار) أي لا تراه وهذا مخصوص() لرؤية المؤمنين له في الآخرة لقوله تعالى " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " وحديث الشيخين "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر" وقيل المراد لا تحيط به .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة "أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، هل ترى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تضارون في القمر ليلة البدر قالوا : لا ، يا رسول الله ، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها حجاب ؟ قالوا : يا رسول الله . قال فإنكم ترونه كذلك" .

وفي الصحيحين مثله من حديث أبي سعيد .

وعن جرير بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: <إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته> مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وفي الطبري:

عن ابن عباس ، قوله: " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " يقول: لا يحيط بصر أحد بالملك .

حدثنا أبو كريب ، قال: ثنا عمرو بن حماد ، قال: ثنا أسباط ، عن سماك بن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال: " ولقد رآه نزلة أخرى " قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى

ربه بقلبه ، فقال له رجل عند ذلك: أليس " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " (الأنعام: 103) ؟ قال له عكرمة: أليس ترى السماء ؟ قال: بلى ، أفكلها ترى ؟ .

وحدثني سعد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال: ثنا خالد بن عبد الرحمن قال: ثنا أبو عرفجة ، عن عطية العوفي في قوله: " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناضرة " قال: هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، وبصره محيط بهم ، فذلك قوله: " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " .

المبحث الثاني:

الأحاديث الواردة في إثبات الرؤية:

ذكر العلامة الكبير: الهادي بن إبراهيم الوزير في نهاية التنويه إلى إزهاق التمويه قول أمير المؤمنين: علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لابن عباس رضي الله عنهما :

(186/286)

لما بعثه للاحتجاج على الخوارج(لا تخاصمهم بالقرآن ، فإن القرآن حمال ذو وجوه ، تقول ويقولون ، ولكن خاصمهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصا) والخصومة التي كانت بين حبر الأمة ابن عباس وبين الخوارج ، إنما هي في أصول الدين ومع هذا فقد اعتبر أمير

المؤمنين الاحتجاج بها وأرشد ابن عباس إليها وبناءً على هذا الأصل المقرر من سيد العترة النبوية ، فإليك الأدلة الواضحة ، من نصوص السنة المطهرة على صاحبها أزكى الصلاة والتسليم .

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة مطالب .

المطلب الأول:

ما ثبت عن علي كرم الله وجهه ، وآل البيت من القول بالرؤية:

وبدأت أولا بما جاء عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله عنه وعن أهل بيته الأكرمين في هذه المسألة ، إقامة في الحجة ، وبيانا للأمة ، وتبرئة للذمة .

1 . وعن علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يزور أهل الجنة الرب تبارك وتعالى في كل جمعة ، وذكر ما يعطون ، قال ثم يقول الله تعالى: اكشفوا حجابا ، فيكشف حجاب ، ثم حجاب ، ثم يتجلى لهم تبارك وتعالى عن وجهه فكأنهم لم يروا نعمة قبل ذلك ، وهو قوله تعالى: " ولدينا مزيد " . أخرجه يعقوب بن سفيان واللالكائي .

2 . وعن علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: " ولدينا مزيد " قال: يتجلى لهم الرب عز وجل . أخرجه الدار قطني في الرؤية .

وقد أخرج هذا الروايات (الجامع الكافي) لمحمد بن علي العلوي وهو من أكبر كتب الزيدية

المعتمدة ، وذكر الإمام الكبير/ محمد بن إبراهيم الوزير في العواصم والقواصم أنه ورد عن علي القول بالرؤية من أربع طرق ، وكذا عن بعض متقدمي الزيدية وهذا كافٍ في إثبات بطلان الإجماع المدعى من نفي الرؤية عن أهل البيت الكرام ، كيف وقد خالف سيد العترة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه كما ترى ؟

(187/286)

أما ما ذكره العلامة/ مجد الدين المؤيدي في لوامع الأنوار من أنه مدسوس فيه ما ليس منه ، ومدخول على أهل البيت ما لم يقولوه ، فإنه يؤيد ما أثبته ابن الوزير من وجود إثبات الرؤية في (الجامع الكافي) ، ويحتاج السيد مجد الدين في إثبات الدس إلى برهان على ذلك ، أما مجرد الدعوى فيقدر عليها كل أحد ، ويحتاج إلى إثبات من سبقه إلى هذا القول بذلك من أهل البيت الاماجد ، ومن المتكلم فيه في رجال الأسانيد التي ذكرها ؟ ومن قال ذلك قبله من أئمة الزيدية ؟ ، وما ذكره من أن الدليل على ذلك أن الأمام الذهبي مدح صاحب (الجامع الكافي) بقوله : ثقة ثبت حافظ جمع فقه أهل العراق ، فدليل لا يلتفت إليه ، وحجة يستغرب منها العاقل ، فماذا كان يريد السيد مجد الدين ؟ أيريد أن يقدح فيه حتى يكون عنده ثقة ؟ وكيف يصنع الذهبي رحمه الله ؟ إن جرح قالوا عدو لأل البيت وإن مدح

تكلموا فيه كذلك ، أهذه منهجية علمية يتعامل بها أهل العلم والفقه ؟ وأو لا يخشى العلامة/ مجد الدين أن يشككك في كتب آل البيت بالدس فيها ، وأنها غير موثوق بها ، فيكون ذلك سبيلا لردها وعدم اعتمادها ، فيكون حاله كالمستجير من الرمضاء بالنار ، يريد أن ينفي ما في ما ورد في (الجامع الكافي) فيسبب التشكيك فيه ، أولا يلاحظ أنه تناقض فقد روى بعد ذلك أربع طرق له إلى (الجامع الكافي) ، كلها عن أئمة الزيدية الثقات الأثبات ؟ فمن أين جاء الدس ؟ أولا يلزم ذلك جرحا في رجال السند الذي ذكره ؟ فينتبه إلى هذا فإنه أمر خطير ، وجدير بعلماء الزيدية أن ينبهوا إلى خطأ هذا العمل ولو كان من غير مجد الدين ، لاتهم صاحبه بالعداء لآل البيت ، لتشكيكه في كتبهم .

المطلب الثاني:

ما ورد من رؤية الله كالقمر .

وأفردت أحاديث الرؤية لله وأنها كالقمر لا تضام أو لا تضار لأنها صريحة في إثبات المسألة ، إقامة للحجة ، ولأنها نص في محل النزاع ، وبلغت حد التواتر .

(188/286)

3 . عن حديث أبي هريرة أن ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال رسول الله هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله قال هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا قال فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة . . .) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

4 . عن أبي سعيد الخدري أن ناسا في زمن رسول الله قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال ما تضارون في رؤيته تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . . .) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

5 . جرير بن عبد الله ففي الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عنه قال كنا جلوسا مع النبي فنظر إلى القمر ليلة اربع عشرة فقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا ثم قرا قوله فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

6 . عن أبي بكر بن عمارة بن رويبة عن أبيه قال نظر النبي إلى القمر ليلة البدر فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضارون في رؤيته فان استطعتم إلا تغلبوا على صلاة

قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا . أخرجه أبن بطة في الإبانة .

المطلب الثالث:

ما جاء في التجلي والنظر .

وإليك أخي العزيز ، بقية الأدلة الواردة في هذه المسألة ، وهي صريحة جدا في إثبات الرؤية

.

7 . عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل . . . ويقول الله عز وجل ارفع رأسك يا محمد وقل يسمع واشفع تشفع قال فيرفع رأسه فإذا نظر إلى ربه عز وجل) . وأخرجه أحمد .

(189/286)

---

8 . عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) وفي رواية ثم تلا "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" وأخرجه مسلم في صحيحه وأخرج النسائي نحوه .

9 . وخرج الترمذي الحكيم أبو عبد الله رحمه الله: عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادتين في كتاب الله ؛ في قول "للذين أحسوا الحسنى وزيادة" قال: (النظر إلى وجه الرحمن) .

10 . وعن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة ، شاخصة أبصارهم ، ينتظرون فصل القضاء" . قال: "وينزل الله عز وجل في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ، ثم ينادي مناد : أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم . . . قال: "فيتمثل الرب تبارك وتعالى فيأتيهم فيقول: ما لكم لا تنطلقون كانطلاق الناس ؟ فيقولون: إن لنا لإلهاً ما رأيناه ، فيقول: هل تعرفونه إن رأيتموه ؟ فيقولون: إن بيننا وبينه علامة إذا رأيناها عرفناها ، قال: فيقول: ما هي ؟ فتقول: يكشف عن ساقه" . قال: "فعند ذلك يكشف عن ساقه فيخر كل من كان نظره ، . . .) رواه كله الطبراني من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة . قاله في مجمع الزوائد .

11 . وعن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى

ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن" . أخرجه البخاري ومسلم .

(190/286)

---

12 . عن عدي بن حاتم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما منكم أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه حجاب يحجبه ولا ترجمان يترجم له ، فيقول: ألم أوتك مالا ؟ فيقول: بلى . فيقول: ألم أرسل إليك رسولا ؟ فيقول: بلى . فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا النار ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار ، فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة" . أخرجه البخاري ومسلم .

13 . وعن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان"

رواه البزار وفيه عبد العزيز بن أبان وهو متروك .

14 . عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا . فذكر الحديث . وفيه: ثم أشفع فيحد لي حداً . فأخرجهم من النار ، وأدخلوهم الجنة . ثم أعود ، فأقع

ساجداً ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال لي ، ارفع رأسك يا محمد ، قل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فارفع رأسي . . .) . وقد جاء عنه من طريق آخر عن أنس أنظر تفسير قوله (ولدينا مزيد) . متفق عليه .

15 . وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتاني جبريل . . . فإذا كان يوم القيامة هبط من عليين على كرسيه ، ثم حف الكرسي بمنابر من ذهب مكللة بالجوهر ، ثم يجيء النبيون حتى يجلسوا عليها ، وينزل أهل الغرف حتى يجلسوا على ذلك الكثيب ، ثم يتجلى لهم ربهم تبارك وتعالى ثم يقول: سلوني أعطكم ، فيسألونه الرضا فيقول: رضاي أحلكم داري وأنا لكم كريم ، متى تسألوني أعطكم ، . . . . .) . وأخرجه بن جرير في التفسير 175/26 والبزار في المسند والآجري في الشريعة .

(191/286)

وأخرج الدارقطني عن أنس مرفوعا (وفيه . . . . وليسوا إلى شيء أشوق منهم إلى ويوم الجمعة لينظروا إلى ربهم ، وليزيدهم من مزيد فضله وكرامته" . قال أنس: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيني وبينه أحد .) .

16 . وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللّهِ يُسْأَلُ عَنِ الْوُرُودِ . فَقَالَ: نَجِيءُ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كَذَا وَكَذَا انْظُرْ أَيْ ذَلِكَ فَوْقَ النّاسِ . قَالَ فَتُدْعَى الأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ . الأَوّلُ فَالأَوّلُ . ثُمّ يَأْتِينَا رَبّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ ؟ فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبّنَا . فَيَقُولُ: أَنَا رَبّكُمْ . فَيَقُولُونَ: حَتّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ . فَيَتَجَلّى لَهُمْ يَضْحَكُ . . . .)أخرجه مسلم وعبد الرزاق نحوه وكذا الدار قطني .

17 . وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"تُحشر الناس فينادي مناد : أليس عدلاً مني أن أولي كل قوم ما كانوا يعبدون ؟ ثم ترفع لهم آلهتهم فيتبعونها ، حتى لا يبقى أحد غير هذه الأمة ، فيقال لهم: ما لكم ؟ قالوا : لا نرى إلهنا الذي كنا نعبد ، فيتجلى لهم تبارك وتعالى" .

فقيل لأبي بردة: والله لسمعت أبا موسى يذكر هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: والله الذي لا إله غيره ، ثلاث مرات .

رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه فرات بن السائب وهو ضعيف قاله الهيثمي في المجمع .

18 . عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ما منكم من احد إلا سيخلوا الله به يوم القيامة ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان) . اعتقاد أهل السنة ج: 3 ص: 494

وأخرجه ابن خزيمة في التوحيد بسند صحيح .

19 . عن أبي رزين قال قلت يا رسول الله أنرى ربنا يوم القيامة قال نعم قال وما آية ذلك في خلقه قال أليس كلكم ينظر إلى القمر ليلة البدر وإنما هو خلق من خلق الله الله أعظم وأجل

(192/286)

أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والطبراني وابن أبي عاصم .

20 . عن بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام يرى أقصاه كما يراه أدناه وإن أرفعهم منزلة لمن ينظر في وجه الله تعالى كل يوم مرتين) في اعتقاد أهل السنة ج: 3 ص:484 وأخرجه أحمد والترمذي والآجري .

21 . عن عمار رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق احييني ما علمت الحياة لي خيرا وتوفني إذا كانت لي الوفاة خيرا اللهم وأسألك كلمة الحلم في الغضب والرضا وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفذ وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة

مضلة) أخرجه أحمد والنسائي وابن أبي شيبة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم .

22 . وعن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمه دعاء وأمره أن يتعاهد أهله به كل صباح (. . . .وفي اللهم أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة نظر في وجهك وشوقا إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . . .) اخرجه أحمد والحاكم وصححه .

23 . عن ابن حلبس عن ام الدرداء أن فضالة بن عبيد كان يدعو يقول: (اللهم أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وزعم أنها دعوات كان يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة والطبراني في الكبير والأوسط قال الهيثمي : رجاله ثقات .

(193/286)

---

24 . عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا فإن اشكل عليكم منه شيء فاعلموا أنه أعور وأن ربكم ليس بأعور وإنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا) أخرجه أحمد بسند حسن وابن أبي

عاصم والآجري والدارمي في (الرد على بشر المريسي .

25 . عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له لجابر يا جابر إلا أبشرك قال بلى بشرك الله بخير قال شعرت أن الله أحيا أباك فاقعده بين يديه فقال تمن علي عبدي ما شئت أعطكه قال يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فاقاتل مع نبيك فاقتل فيك مرة أخرى قال انه قد سلف مني انك إليها لا ترجع .

26 . أخرجه الحاكم وصححه ، وهو في المسند من حديث جابر .

وللترمذي فيه سياق أتم من هذا عن جابر قال لما قتل عبد الله بن عمرو ابن حزام يوم أحد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جابر إلا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك قال بلى قال ما كلم الله عز وجل أحدا إلا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحا فقال يا عبدي تمن علي أعطك قال يا رب تحييني فاقتل فيك ثانية قال انه سبق مني انهم إليها لا يرجعون قال يا رب فابلغ من ورائي فانزل الله عز وجل هذه الآية ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا الآية قال الترمذي هذا حديث حسن غريب قلت وإسناده صحيح ورواه الحاكم في صحيحه .

27 . وعن سلمان الفارسي قال يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون يا نبي الله إن الله فتح بك وختم بك وغفر لك قم فاشفع لنا إلى ربك فيقول نعم أنا صاحبكم فيخرج يحوش الناس حتى ينتهي إلى باب الجنة فيأخذ بحلقة الباب فيقرع فيقال من هذا فيقال محمد قال

فيفتح له فيجيء حتى يقوم بين يدي الله فيستأذن في السجود فيؤذن له

. . . الحديث . أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والإمام الذهبي في السير بإسناد

صحيح .

(194/286)

---

28 . عن أبي وائل عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وأله وسلم أتاني جبريل فإذا في كفه مرآة كأصفى المرايا وحسنها . . . . . قال فيجتمعون - أي أهل الجنة - على كلمة واحدة رب وجهك أرنا ننظر إليه قال فيكشف الله تبارك وتعالى تلك الحجب ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره لولا انه قضى عليهم أن لا يحترقوا إلا احترقوا مما غشيهم من نوره قال ثم يقال ارجعوا إلى منازلكم قال فيرجعون إلى منازلهم يزاد النور وأمكن ويزاد وأمكن حتى يرجعوا إلى صورهم التي كانوا عليها قال فيقول لهم أزواجهم لقد خرجتم من عندنا على صورة ورجعتم على غيرها قال فيقولون ذلك بأن الله تبارك وتعالى تجلى لنا فنظرنا منه إلى ما خفينا به عليكم قال فلهم في كل سبعة أيام الضعف على ما كانوا فيه قال وذلك قوله عز وجل " فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون "

. أخرجه البزار وقد روي موقوفا عن حذيفة بسند صحيح أخرجه ابن أبي عاصم

والآجري وابن خزيمة في التوحيد قال الحاكم : وتفسير الصحابي عندنا له حكم الرفع .

29 . عن أبي نضرة قال خطبنا ابن عباس فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نبي إلا وله دعوة تعجلها في الدنيا وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فآتي باب الجنة فآخذ بحلقة الباب فاقرع الباب فيقال من أنت فأقول أنا محمد فآتي ربي وهو على كرسيه أو على سريره فيتجلى لي ربي فاخر له ساجدا) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد وأحمد والدارمي في الرد على بشر المريسي .

30 . وعن ابن عباس عن النبي قال إن اهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى في كل يوم جمعة في رمال الكافور وأقربهم منه مجلسا أسرعهم إليه يوم الجمعة وابكرهم غدوا)أخرجه الآجري في الشريعة .

(195/286)

---

31 . عن عبد الله بن عمرو :(خلق الله الملائكة لعبادته أصنافا فان منهم لملائكة قياما صافين من يوم خلقهم إلى يوم القيامة وملائكة ركوعا خشوعا من يوم خلقهم إلى يوم القيامة وملائكة سجودا منذ خلقهم إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة وتجلى لهم تعالى ونظروا إلى وجهه الكريم قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك)أخرجه البيهقي في الرؤية وابن

عساكر .

32 . عن أبي بن كعب عن النبي في قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة قال النظر إلى وجه الله عز وجل) أخرجه الطبري والدارقطني وغيرهما .

33 . عن كعب بن عجرة عن النبي في قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة قال الزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى) أخرجه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات قاله الهيثمي في المجمع .

34 . عن أبي الدرداء أن فضالة يعني ابن عبيد كان يقول اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة) أخرجه الطبراني في الكبير وأبن أبي عاصم في السنة بإسناد صحيح .

35 . عن عبادة بن الصامت عن النبي انه قال قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا إن مسيح الدجال رجل قصير أفحج جعد اعور مطموس العين ليست بناتئة ولا جحراء فإن التبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور وإنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا) أخرجه أحمد بسند حسن .

36 . عباد بن منصور قال سمعت عدي بن ارطاة يخطب على المنبر بالمدائن فجعل يعظ حتى بكى . . . . وفيه قال : ولقد سمعت فلانا ـ نسي عباد اسمه ـ ما بيني وبين رسول الله غيره فقال أن رسول الله قال إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافتة ما منهم ملك تقطر دمعته من عينه إلا وقعت ملكا يسبح الله تعالى قال وملائكة سجود منذ خلق الله السماوات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة وصفوف لم ينصرفوا عن مصافهم ولا ينصرفون إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة وتجلى لهم ربهم فنظروا إليه قالوا سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك أن نعبدك) أخرجه الخطيب البغدادي في التاريخ وأبو الشيخ في العظمة وقال ابن كثير : إسناده لا بأس به .

المبحث الثالث:

كلام الصحابة والتابعين والأئمة في الرؤية .

إنه مما لا شك فيه ، أن الصحابة فمن بعدهم ، من التابعين والأئمة المتبوعين ، خير من فهم القرآن والسنة ، لأنها أنزلت عليهم ، وإلا لزم منه عدم البلاغ منه صلى الله عليه وسلم ، خاصة إذا علمنا أنهم لم يصابوا بداء المنطق والفلسفة ، ولذا فإني سأقسم البحث إلى ثلاثة مطالب :

المطلب الأول:

ما جاء عن الصحابة في ذلك :

1 . عن عامر بن سعد قرأ أبو بكر الصديق للذين احسنوا الحسنى وزيادة فقالوا ما الزيادة يا خليفة رسول الله قال النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى) أخرجه الطبري وابن أبي عاصم والآجري وعبد الله بن أحمد في السنة واللالكائي .

2 . عن عمارة ابن عبيد قال سمعت عليا يقول من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى في جنته) أخرجه أبو حاتم واللالكائي .

3 . وعن حذيفة قال الزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى .

(197/286)

---

4 . عن عبد الله بن عكيم قال سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذا المسجد مسجد الكوفة يبدأ باليمين قبل أن يحدثنا فقال والله ما منكم من إنسان إلا أن ربه سيخلو به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر . . .) أخرجه الطبراني في الكبير واللالكائي من طريق أبي عوانة وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة والطبراني من طريق شريك به .

5 . قيل لابن عباس كل من دخل الجنة يرى الله عز وجل قال نعم) أخرجه الآجري في الشريعة وابن أبي حاتم .

6 . عن ميمون بن أبي حمزة قال كنت جالسا عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف فقال له شقيق بن سلمة يا أبا عفيف إلا تحدثنا عن معاذ بن جبل قال بلى سمعته يقول يحشر الناس يوم القيامة في صعيد واحد فينادي أين المتقون فيقومون في كنف واحد من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر قلت من المتقون قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان واخلصوا لله في العبادة فيمرون إلى الجنة)

أخرجه اللالكائي .

7 . عن أبي النصر أن أبا هريرة كان يقول لن تروا ربكم حتى تذوقوا الموت) أخرجه اللالكائي .

8 . عن ابن عمر قال إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى ملكه ألفي عام يرى أدناه كما يرى أقصاه وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر إلى وجه الله في كل يوم مرتين) أخرجه اللالكائي .

9 . عن أبي موسى الاشعري انه كان يحدث الناس فشخصوا بأبصارهم فقال ما صرف أبصاركم عني قالوا الهلال قال فكيف بكم إذا رأيتم وجه الله جهرة)أخرجه الآجري في الشريعة وعبد الله في السنة واللالكائي .

10 . عن جابر قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأديم عليهم بالكرامة جاءتهم خيول من ياقوت احمر لا تبول ولا تروث لها أجنحة فيقعدون عليها ثم يأتون الجبار فإذا تجلى لهم خروا له سجدا فيقول يا أهل الجنة ارفعوا رؤوسكم فقد رضيت عنكم لا سخط بعده

أخرجه الآجري في الشريعة .

وأنظر ما روي عن الصحابة في تفسير قوله (وزيادة) و(لدينا مزيد) .

(198/286)

قال الطبري فتحصل في الباب ممن روى عن رسول الله من الصحابة حديث الرؤية ثلاث وعشرون نفسا منهم علي وأبو هريرة وأبو سعيد وجرير وأبو موسى وصهيب وجابر وابن عباس وانس وعمار بن ياسر وأبي ابن كعب وابن مسعود وزيد بن ثابت وحذيفة بن اليمان وعبادة بن الصامت وعدي بن حاتم وأبو رزين العقيلي وكعب بن عجرة وفضالة بن عبيد وبريدة بن الحصيب ورجل من أصحاب النبي .

قال:يحيى بن معين عندي سبعة عشر حديثا في الرؤية كلها صحاح .

وقال البيهقي روينا في إثبات الرؤية عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي موسى وغيرهم ولم يرو عن أحد منهم نفيها ولو كانوا فيها مختلفين لنقل اختلافهم في ذلك إلينا فلما نقلت رؤية الله سبحانه وتعالى بالأبصار في الآخرة عنهم ولم ينقل عنهم في ذلك اختلاف كما نقل عنهم فيها اختلاف في الدنيا علمنا انهم كانوا على القول برؤية الله بالأبصار في الآخرة متفقين .

المطلب الثاني:

ما روي عن التابعين في الرؤية :

إليك ما روي في مسألة الرؤية عن التابعين الذين أخذوا عن الصحابة الكرام ، الذين هم عصابة الإسلام ، ومن خير القرون كما جاء في الحديث (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . . .) :

1 . قال سعيد بن المسيب الزيادة النظر إلى وجه الله رواه مالك عن يحيى عنه .

2 . وقال الحسن الزيادة النظر إلى وجه الله رواه ابن ابي حاتم عنه .

3 . وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى الزيادة النظر الى وجه الله تعالى رواه حماد بن زيد عن ثابت عنه .

4 . وقاله عامر بن سعد البجلي ذكره سفيان عن أبي إسحاق عنه وقاله عبد الرحمن ابن سابط رواه جرير بن ليث عنه وقاله عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك وكعب .

(199/286)

---

5 . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أما بعد فاني أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته والتمسك بأمره والمعاهدة على ما حملك الله من دينه واستحفظك من كتابه فإن

بتقوى الله نجا أولياء الله من سخطه وبها رافقوا أنبياءه وبها نضرت وجوههم ونظروا إلى خالقهم وهي عصمة في الدنيا ومن الفتن ومن كرب يوم القيامة .

6 . وقال الحسن لو علم العابدون في الدنيا انهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا .

7 . وقال الأعمش وسعيد بن جبير: أن اشرف أهل الجنة لمن ينظر إلى الله تبارك وتعالى غدوة وعشية .

8 . وقال كعب: ما نظر الله سبحانه إلى الجنة قط إلا قال طيبي لأهلك فزادت ضعفا على ما كانت حتى يأتيها أهلها وما من يوم كان لهم عيد في الدنيا إلا ويخرجون في مقداره في رياض الجنة فيبرز لهم الرب تبارك وتعالى فينظرون إليه وتسفى عليهم الريح المسك ولا يسألون الرب تعالى شيئا إلا أعطاهم حتى يرجعوا وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفا ثم يرجعون إلى أزواجهم وقد ازددن مثل ذلك .

9 . وقال هشام بن حسان: أن الله سبحانه وتعالى يتجلى لأهل الجنة فإذا رآه أهل الجنة نسوا نعيم الجنة .

10 . وقال طاووس: أصحاب المراء والمقاييس لا يزال بهم المراء والمقاييس حتى يجحدوا الرؤية ويخالفوا أهل السنة .

11 . وقال شريك عن أبي إسحاق السبيعي الزيادة النظر إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى .

12 . وقال حماد بن زيد عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى :انه تلى هذه الآية للذين احسنوا الحسنى وزيادة قال إذا دخل أهل الجنة الجنة أعطوا فيها ما سألوا وما شاؤا فيقول الله عز وجل لهم انه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه فتجلى لهم ربهم فلا يكون ما أعطوه عند ذلك بشيء فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه ربهم عز وجل ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى .

(200/286)

---

13 . وقال علي بن المديني سألت عبد الله بن المبارك عن قوله تعالى فمن كانا يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا قال عبد الله :من أراد النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى خالقه فليعمل عملا صالحا ولا يخبر به أحدا .

14 . وقال نعيم بن حماد سمعت ابن المبارك يقول: ما حجب الله عز وجل أحدا عنه إلا عذبه ثم قرأ كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون قال بالرؤية ذكره ابن أبي الدنيا عن يعقوب عن إسحاق عن نعيم .

15 . وقال عباد بن العوام قدم علينا شريك بن عبد الله منذ خمسين سنة فقلت له يا أبا عبد الله أن عندنا قوما من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث أن الله ينزل إلى السماء الدنيا

وأن أهل الجنة يرون ربهم فحدثني بنحو عشرة أحاديث في هذا وقال: أما نحن قد أخذنا ديننا هذا عن التابعين عن أصحاب رسول الله فهم عمن اخذوا .

16 . وقال عقبة بن قبيصة أتينا أبا نعيم يوما فنزل إلينا من الدرجة التي في داره فجلس وسطها كأنه مغضب فقال حدثنا سفيان ابن سعيد ومنذر الثوري وزهير بن معاوية وحدثنا حسن بن صالح بن حي وحدثنا شريك بن عبد الله النخعي هؤلاء أبناء المهاجرين يحدثوننا عن رسول الله أن الله تبارك وتعالى يرى في الآخرة حتى جاء ابن يهودي صباغ يزعم أن الله تعالى لا يرى يعني بشر المريسي .

وكذا وأنظر ما روي عن التابعين في تفسير قوله (وزيادة) و(لدينا مزيد) .

المطلب الثالث:

ما روي عن الأئمة المتبوعين في الرؤية:

إليك أخي الكريم ، ما ورد عن الأئمة المتبوعين ، في مسألة الرؤية ، الذين شهدت لهم الأمة بالعدالة والعلم ، والمعرفة بالدين ، والذين أجمعت الأمة على أنهم بلغوا رتبة الاجتهاد :

1 . قال مالك بن انس الناس ينظرون إلى ربهم عز وجل يوم القيامة بأعينهم وقال الحارث بن مسكين حدثنا أشهب قال سئل مالك بن انس عن قوله عز وجل " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " أتنظر إلى الله عز وجل قال نعم فقلت إن أقواما يقولون تنظر ما عنده قال بل تنظر إليه نظرا وقد قال موسى يا رب ارني انظر إليك قال لن تراني وقال الله تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون .

وذكر الطبري وغيره انه قيل لمالك بن انس انهم يزعمون أن الله لا يرى فقال مالك السيف السيف .

2 . ذكر قول ابن الماجشون قال أبو حاتم الرازي قال أبو صالح كاتب الليث أملى على ابن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون وسألته عما جحدت الجهمية فقال لم يزل يملي الشيطان حتى جحدوا قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة فقالوا لا يراه أحد يوم القيامة فجحدوا والله افضل كرامة الله التي اكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه ونضرته إياهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر فورب السماء والأرض ليجعلن رؤيته يوم القيامة للمخلصين له ثوابا لينضر بها وجههم دون المجرمين وتفلح بها حجتهم على الجاحدين وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا يرونه كما زعموا أنه لا يرى ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب اليم .

3 . ذكر قول الليث بن سعد قال ابن أبي حاتم حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث حدثنا

الهيثم بن خارجة قال سمعت الوليد بن مسلم يقول سالت الاوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن انس والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي فيها الرؤية فقالوا تمر بلا كيف .

4 . قول سفيان بن عيينة ذكر الطبري وغيره عنه انه قال من لم يقل أن القران كلام الله وأن الله يرى في الجنة فهو جهمي وذكر عنه ابن أبي حاتم انه قال يصلي خلف الجهمي والجهمي الذي يقول لا يرى ربه يوم القيامة .

5 . قول جرير بن عبد الحميد ذكر ابن أبي حاتم عنه انه ذكر حديث ابن سابط في الزيادة إنها النظر إلى وجه الله فأنكره رجل فصاح به وأخرجه من مجلسه .

(202/286)

---

6 . قول عبد الله بن المبارك ذكر عبد الرحمن بن أبي حاتم عنه إن رجلا من الجهمية قال له يا أبا عبد الرحمن خدارا بان جهان جون ببيند ومعناه كيف يرى الله يوم القيامة فقال بالعين .

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا يعقوب بن إسحاق قال سمعت نعيم بن حماد يقول سمعت بن المبارك يقول ما حجب الله عنه أحدا إلا عذبه ثم قرأ كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون قال ابن المبارك بالرؤية .

7 . قول وكيع بن الجراح ذكر ابن أبي حاتم عنه أنه قال يراه تبارك وتعالى المؤمنون في الجنة ولا يراه إلا المؤمنون .

8 . قول قتيبة بن سعيد ذكر ابن أبي حاتم عنه قال قول الأئمة المأخوذ في الإسلام والسنة والإيمان بالرؤية والتصديق بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله في الرؤية .

9 . قول أبي عبيد القاسم بن سلام ذكر ابن بطة وغيره عنه انه إذا ذكرت عنده هذه الأحاديث التي في الرؤية فقال هي عندنا حق ورواها الثقات عن الثقات إلى أن صارت إلينا إلا أنا إذا قيل لنا فسروها لنا قلنا لا نفسر منها شيئا ولكن نمضيها كما جاءت .

10 . قول اسود بن سالم شيخ الإمام احمد قال المروزي حدثنا عبد الوهاب الوراق قال سألت اسود بن سالم عن أحاديث الرؤية فقال: احلف عليها بالطلاق وبالمشي إنها حق .

11 . قول محمد ابن إدريس الشافعي قد تقدم رواية الربيع عنه: انه قال في قوله تعالى: " كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " لما حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على ان اولياءه يرونه في الرضا قال الربيع فقلب يا ابا عبد الله ونقول به قال نعم وبه ابن الله ولو لم يوقن محمد بن ادريس انه يرى الله عز وجل لما عبده وقال ابن بطة حدثنا ابن الانباري حدثنا أبو القاسم الأنماطي صاحب المزني قال قال الشافعي رحمه الله "كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " دلالة على إن أولياء الله يرونه يوم القيامة بأبصارهم ووجوههم .

12 . قول إمام السنة احمد بن حنبل قال إسحاق بن منصور قلت لأحمد أليس ربنا تبارك وتعالى يراه أهل الجنة أليس تقول بهذه الأحاديث قال احمد صحيح قال ابن منصور وقال إسحاق بن راهويه صحيح ولا يدعه إلا كل مبتدع أو ضعيف الرأي .

13 . وقال الفضل بن زياد سمعت أبا عبد الله وقيل له تقول بالرؤية فقال من لم يقل بالرؤية فهو جهمي قال سمعت أبا عبد الله وبلغه عن رجل انه قال إن الله لا يرى في الآخرة فغضب غضبا شديدا ثم قال من قال إن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر عليه لعنة الله وغضبه من كان من الناس أليس يقول الله عز وجل " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " وقال " كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " .

14 . وقال أبو داود سمعت احمد وذكر له عن رجل شيء في الرؤية فغضب وقال من قال إن الله لا يرى فهو كافر .

15 . وقال إسحاق بن ابراهيم بن هانئ سمعت ابا عبد الله يقول من لم يؤمن بالرؤية فهو جهمي والجهمي كافر وقال يوسف بن موسى بن محمد القطان قيل لأبي عبد الله أهل الجنة ينظرون إلى ربهم تبارك وتعالى ويكلمونه ويكلمهم قال نعم ينظر اليهم وينظرون اليه ويكلمهم ويكلمونه كيف شاؤوا إذا شاءوا قال حنبل ابن اسحاق سمعت ابا عبد الله يقول القوم يرجعون إلى التعطيل في اقوالهم ينكرون الرؤرية والاثار كلها وما ظننتم على هذا حتى

سمعت مقالاتهم ومن زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا فقد كفر ورد على الله قوله قال ابو عبد الله فنحن نؤمن بهذه الاحاديث ونقرها ونمرها كما جاءت .

(204/286)

---

16 . وقال الاثرم سمعت ابا عبد الله يقول فأما من يقول ان الله لا يرى في الاخرة فهو جهمي قال ابو عبد الله وإنما تكلم من تكلم في رؤية الدنيا وقال حنبل سمعت ابا عبد الله يقول ادركنا الناس وما ينكرون من هذه الاحاديث شيئا احاديث الرؤية وكانوا يحدثون بها على الجملة يمرونها على حالها غير منكرين لذلك ولا مرتابين وقال ابو عبد الله قال الله تعالى وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا وكلم الله موسى من وراء حجاب فقال رب ارني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فاخبر الله عز وجل ان موسى يراه في الآخرة وقال كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ولا يكون حجاب إلا لرؤية اخبر الله سبحانه وتعالى إن شاء الله ومن اراد ان يراه والكفار لا يرونه قال حنبل وسمعت ابا عبد الله يقول قال الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة والاحاديث التي تروى في النظر إلى الله تعالى حديث جابر بن عبد الله وغيره وتنظرون إلى ربكم احاديث صحاح وقال للذين احسنوا الحسنى وزيادة النظر

إلى وجه الله تعالى قال حنبل قلت لأبي عبد الله في احاديث الرؤية فقال هذه صحاح نؤمن بها ونقر بها وكلما روى عن النبي اسناده جيد اقررنا به قال ابو عبد الله إذا لم نقر بما جاء عن النبي ودفعناه ورددنا على الله امره قال الله عز وجل وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا قول اسحاق بن راهويه ذكر الحاكم وشيخ الاسلام وغيرهما عنه ان عبد الله بن طاهر امير خراسان سأله فقال يا ابا يعقوب هذه الاحاديث التي يروونها في النزول والرؤية ما هن فقال رواها من روى الطهارة والغسل والصلاة والاحكام وذكر اشياء فان يكونوا في هذه عدولا وإلا فقد ارتفعت الاحكام وبطل الشرع فقال شفاك الله كما شفيتني أو كما قال قول جميع أهل الايمان .

(205/286)

---

17 . قول المزني ذكر الطبري في السنة عن إبراهيم عن أبي داود المصري قال كنا عند نعيم بن حماد جلوسا فقال نعيم للمزني ما تقول في القرآن فقال أقول انه كلام الله فقال غير مخلوق فقال غير مخلوق قال وتقول أن الله يرى يوم القيامة قال نعم فلما افترق الناس قام إليه المزني فقال يا أبا عبد الله شهرتني على رؤوس الناس فقال إن الناس قد اكثروا فيك فأردت أن أبرئ .

حكم الأئمة في منكري الرؤية

وقال ابراهيم بن زياد الصائغ سمعت احمد بن حنبل يقول: الرؤية من كذب بها فهو زنديق .

قال حنبل وسمعت أبا عبد الله (أي: أحمد بن حنبل) يقول: من زعم ان الله لا يرى في الآخرة فهو جهمي فقد كفر ورد على الله وعلى الرسول .

وقال أبو داود وسمعت احمد بن حنبل وقيل له في رجل يحدث بحديث عن رجل عن أبي العطوف إن الله لا يرى في الآخرة فقال لعن الله من يحدث بهذا الحديث اليوم ثم قال أخزى الله هذا .

وقال أبو بكر المرزوي قيل لأبي عبد الله تعرف عن يزيد بن هارون عن أبي العطوف عن أبي الزبير عن جابر إن استقر الجبل فسوف تراني وإن لم يستقر فلا تراني في الدنيا ولا في الآخرة فغضب أبو عبد الله غضبا شديدا حتى تبين في وجهه وكان قاعدا والناس حوله فأخذ نعله وانتعل وقال أخزى الله هذا لا ينبغي ان يكتب ودفع ان يكون يزيد بن هارون رواه أو حدث به وقال هذا جهمي كافر خالف ما قال الله عز وجل " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " وقال "كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " أخزى الله هذا الخبيث قال أبو عبد الله ومن زعم ان الله لا يرى في الآخرة فقد كفر .

وقال ابو طالب قال ابو عبد الله قول الله عز وجل: " هل ينظرون ألا إن يأتيهم الله في ظل من الغمام والملائكة " " وجاء ربك والملك صفا صفا " فمن قال إن الله لا يرى فقد كفر .

قال أبو عبد الله نؤمن بها ونعلم أنها حق أحاديث الرؤية ونؤمن بأن الله يرى نرى ربنا يوم القيامة لا نشك فيه ولا نرتاب قال وسمعت أبا عبد الله يقول: ومن زعم أن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر بالله وكذب بالقرآن ورد على الله أمره يستتاب فإن تاب وإلا قتل

روى ابن أبي حاتم عن الأوزاعي أنه قال إني لأرجو أن يحجب الله عز وجل جهما وأصحابه عن افضل ثوابه الذي وعده الله عز وجل أولياءه حين يقول وجوه يومئذ ناضرة إلى بها ناظرة فجحد جهم وأصحابه افضل ثوابه الذي وعده الله أولياءه .

خلاصة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم

وعن الصحابة والتابعين في رؤية

المؤمنين الرب عز وجل

يوم القيامة .

وروي ذلك من الصحابة

عن أبي بكر وعلي بن أبي طالب وابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي موسى وابن عباس وابن عمر وأبي أمامة ومعاوية وأبي هريرة وجابر وحذيفة وأنس بن مالك وعمار بن ياسر

وزيد بن ثابت وفضالة بن عبيد ورجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن التابعين

سعيد بن المسيب وطاووس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وكعب قالأحبار وأبو العالية والحسن وعبد الرحمن بن أبي ليلى وقتادة وعبد الرحمن بن سابط وأبي إسحاق السبيعي والربيع بن أنس وإبراهيم ويزيد بن أبي مالك وعبد الواحد بن يزيد النصري والضحاك بن مزاحم وعبد العزيز بن عمر الزاهد وابن الربيع السايح وأبي سنان .

ومن الفقهاء

(207/286)

مالك بن انس والليث بن سعد والأوزاعي وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وشريك بن عبد الله النخعي وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وخارجة بن مصعب وجرير بن عبد الحميد وعبد الله بن المبارك ووكيع ويزيد بن هارون ومحمد بن إدريس الشافعي وأبي نعيم الفضل بن دكين وسليمان بن حرب وأبو النضر هاشم بن القاسم وعبد الله بن وهب المصري وعلي بن الحسن بن شقيق وهشام بن عبيد الله الرازي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وأبو عبيد وأبو ثور وأحمد بن صالح المصري

ونعيم بن حماد المروزي وأبو إبراهيم المزني ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن جرير الطبري وابن خزيمة وعبد الرحمن بن أبي حاتم .

المبحث الرابع

أصول مقررة للرد على نفاة الرؤية .

وقد ذكر أئمة الأصول والتفسير قواعد مقررة ، متفق عليها بين الأمة ، يستطيع المستوعب لها الرد على نفاة الرؤية ، وقد ذكرتها في ثلاثة مطالب :

المطلب الأول:

الأصل في فهم النص الأخذ بالظاهر .

ذكر علماء أصول الفقه في دلالات الألفاظ ، أن النص إذا دل على معنى ظاهر ، متبادر من اللفظ أنه لا يجوز العدول عن الأخذ بظاهره إلا بقرينة فقول الله تعالى: " وجوه يومئذ ناضرة . . . إلى ربها ناظرة " لا يجوز أن يقال منتظرة أو ناظرة إلى ثواب ربها ولا غير ذلك لماذا ؟ لأنه عدول عن ظاهر الآية بدون قرينة ، ولا يصح أن يكون العقل هنا قرينة صارفة عن الأخذ بالظاهر ، لأنه لا مجال له في معرفة الغيبيات ، إنما تعرف من النص القرآني أو اللفظ النبوي .

تأمل في تفسير الإمام اللالكائي قال: معنى قوله إلى ربها ناظرة أنها رائية ترى الله عز وجل ولا يجوز أن يكون معناه إلى ثواب ربها ناظرة لأن ثواب الله غير الله وإنما قال الله عز وجل إلى

ربها ولم يقل إلى غير ربها ناظرة والقرآن على ظاهره وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجة ألا ترى

(208/286)

أنه لما قال فاذكروني أذكركم واشكروا لي لم يجز أن يقال أراد ملائكتي ورسلي ثم نقول إن جاز لكم أن تدعوا هذا في قوله إلى ربها ناظرة جاز لغيركم أن يدعيه في قوله لا تدركه الأبصار فيقول أراد بها لا تدرك غيره ولم يرد أنها لا تدركه الأبصار وإذا لم يجز ذلك لم يجز هذا . وهكذا يقال في سائر النصوص الظاهرة من القرآن والسنة .

المطلب الثاني:

الأصل حمل الكلام على الحقيقة .

إذا استخدمت العرب معنى فيما وضعوه له كقوله(إلى ربها ناظرة) فإن النظر هنا يحمل على الحقيقة ولا يجوز العدول عنه إلى(منتظرة أو غيرها) إلا بقرينة صارفة إلى المعنى المجازي ، هذا على من يقول بوجود المجاز في لغة العرب ، ولا قرينة هنا ، ولا تصح دلالة العقل لما قلناه في الكلام السابق ، وهذا على جهة المثال .

وينبغي هنا أن يتنبه لمسألة وهي أنه إذا جاء لفظ يدل على الحقيقة في نص ، وجاء ذلك

اللفظ في نص آخر يدل على المعنى المجازي ، فأنه لا يُعدل اللفظ من دلالته على الحقيقة إلى المجاز لمجرد أنه جاء مجازاً في نص آخر ، فمثلا : " وجوة . . . إلى ربها ناظرة " في الآية هي اسم فاعل من الفعل (نظر) وقد جاء (ناظر) في قوله تعالى على لسان بلقيس " فناظرة بما يرجع المرسلون " بمعنى منتظرة على قول عند أهل التفسير ، ومجرد أن (ناظرة) جاءت بمعنى (منتظرة) لا يُجوز صرفها إلى الانتظار بدون قرينة ، فأين القرينة هنا ؟ والعقل لا مجال له في الغيب ،

وعلى ذلك فقس في سائر دلائل النصوص في القرآن والسنة .

المطلب الثالث:

التواتر حجة قاطعة .

قال الإمام النووي في شرح مسلم 15/3 :

(209/286)

اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلا وأجمعوا أيضا على وقوعها في الآخرة وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين . . . وقال: وقد تظاهرت أدله الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات

رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين ورواها نحو عشرين صحابيا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآيات القرآن فيها مشهورة .

قال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد : إن المؤمنين لم يختلفوا أن المؤمنين يرون خالقهم يوم المعاد ومن أنكر ذلك فليس بمؤمن عند المؤمنين .

والأحاديث النبوية في ذلك نصوص متواترة في محل النزاع ولذا قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء بعد الكلام على مسألة الرؤية10 / 455:

قلنا وللكل موقف بين يدي الله تعالى ، يا سبحان الله أحاديث رؤية الله في الآخرة متواترة والقرآن مصدق لها ، فأين الإنصاف ؟

أخي القارئ العزيز ، الأحاديث كما رأيت ، قد جاءت من ست وثلاثين طريقاً عن ثلاثين صحابياً وما جاء هكذا فإنه يسمى متواتر عند أهل مصطلح الحديث وأصول الفقه باتفاق وهو حجة قاطعة في المسألة لا يجوز مخالفته عند جميع أهل الإسلام .

فهل تترك هذا النصوص الجلية لقول فلان أو علان كائنا من كان ؟

المطلب الرابع:

من أعلى درجات التفسير .

إن من مهام النبي صلى الله عليه وسلم وتمام بلاغه ، بيانه للقرآن ، وهو من أعلى درجات التفسير لأن الله تعالى قال(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) وهذا أمر مقرر عند

من لديه أدنى درجات العلم لا ينكره أحد .

وأنت ترى أخي الحبيب ، أنه قد ثبت بالتواتر عنه صلى الله عليه وأله وسلم القول بالرؤية عن ست وثلاثين صحابيا فهل يا ترى يمتري بعد هذا ذو لب .

خاتمة البحث .

وقبل أن أنتهي من البحث أود أن أقول أمور وهي:

1.أخي الحبيب إذا تأملت في كلام النفاة للرؤية فستجده هذا مش معقول ؟

(210/286)

يلزم من إثبات أن يكون جسماً ، والله ليس بجسم . . . .الخ .

فالجواب :

يقال له: الذي لم يسعه عقلك الضيق ، قد وسعه عقول خير القرون ، الصحابة والتابعين وأتباع التابعين والأئمة المتبوعين ، فماذا يعني عقلك القاصر ؟

ولم يفهموا من إثبات الرؤية الجسم ، إلا أن تقول أنه لا عقول لهم .

وهل أنت أعلم بمراد الله أم الله أعلم ؟

وهل أنت أفهم أم رسول الله أفهم ؟ وكذا يقال في فهم الصحابة فمن بعدهم .

ومن أين جئت بلفظ الجسم ؟ وأن معناه أنه ذات له أجزاء ، مع أنه في اللغة البدن كما قال الجوهري في الصحاح وغيره ؟

ومن قال أن إثبات الرؤية يلزم منه أن الله مخلوق ؟ أو جسم كما تزعم ؟

2ـ من كان له أدنى معرفة ، بعلوم المنطق والفلسفة ، مع معرفته بعلوم الشريعة ، يتأكد أن هذا المصطلحات المذكورة ، فيها حق وباطل ، وقد نهينا عن ذلك ، في قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا . . . " لأن في (راعنا) معنى باطل ، وإن كان عند العرب له معنى صحيح ، وكذلك لفظة (الجسم) لما تضمنت معنى آخر لا تعرفه العرب ، فلا يجوز أن يفسر القرآن بها ، لأنها تضمنت معنى باطلا .

3ـ لو كان علم الفلسفة والمنطق ، يهدي إلى الحق ؛ لهدى اليونان الذي أصلوه ، ورتبوا قواعده ، ونظموا مسائله .

4ـ لو كان علم الفلسفة والمنطق ضرورياً ، لمعرفة أصول الدين ومسائل العقائد ، لكان من الواجب على النبي صلى الله عليه وأله وسلم أن يعلم أمته ذلك ، ولو لم يفعل لأدى إلى القول بأن الدين غير كامل ، كيف وقد قال الله تعالى:

" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا " ؟

5ـ هل يقال أن القرون الأولى الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، لم يعرفوا أصول الدين لأنهم يجهلون علم المنطق والفلسفة أو أنه لم يصل إليهم ؟

فاتق الله يا أخا الإسلام ، وسر على نهج النبي صلى الله عليه وسلم وأله الأطهار ، وصحابة الكرام ، إن كنت تريد النجاة والفلاح ، فبهداهم اقتد ، وعلى نهجهم امض ، " وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) " إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد " .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم

على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين والله أعلم

"

(1)قال الإمام اللالكائي في شرح الاعتقاد (1 / 122)

"أي : أن لفظة (لا تدركه . .) لو لم نحملها على الإحاطة وحملناها على الرؤية وأنه يدل عمومها على عدم الرؤية في الدنيا والآخرة لكان الواجب جمعا بين الأدلة تخصيصها بقوله تعالى:(وجوه . . . .إلى ربها ناظرة) فيكون المعنى : لا تدركه الأبصار في الدنيا وقوله تعالى(وجوه . . . . . .إلى ربها ناظرة) تدل على الرؤية في الآخرة وعموم (لا تدركه) في عدم الرؤية في الآخرة قد عارضه خصوص قوله تعالى (وجوه . . . . . .إلى ربها ناظرة)

وإذا تعارض خاص وعام فإنه يقضى بالخاص على العام وعندها لا تدل آية (لا تدركه) على عدم الرؤية يوم القيامة ، قال الطبري: وصح أن قوله لا تدركه الأبصار على الخصوص لا على العموم وأن معناه لا تدركه الأبصار في الدنيا وهو يدرك الأبصار في الدنيا والآخرة إذ كان الله قد استثنى ما استثنى منه بقوله وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ مقال للأستاذ محمد أحمد الوزير ﴾

(212/286)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثمانون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/287)

الجزء السابع والثمانون بعد المائتين

من الآية ﴿ 144 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 145 ﴾ من نفس السورة

(4/287)

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما منعه الرؤية بعد طلبه إياها ، وقابل ذلك بمحاسن الأفعال والأقوال ، تشوف السامع إلى ما قوبل به من الإكرام ، فاستأنف سبحانه الإخبار بما منحه به تسلية له عما منعه وأمراً بشكره بقوله : ﴿ قال يا موسى ﴾ مذكراً له نعمه في سياق دال على عظيم قدرها وإيجاب شكرها مسقطاً عنه مظهر العظمة تأنيساً له ورفقاً به - ﴿ إني اصطفيتك ﴾ أي اخترتك اختياراً بالغاً كما يختار ما يصفى من الشيء عن كل دنس ﴿ على الناس ﴾ أي الذين في زمانك ﴿ رسالاتي ﴾ أي الآيات المستكثرة التي أظهرتها وأظهرها على يديك من أسفار التوارة وغيرها ﴿ وبكلامي ﴾ أي من غير واسطة وكأنه أعاد حرف الجر للتنبيه على ذلك ، كما اصطفى محمداً (صلى الله عليه وسلم) على الناس عامة في كل زمان برسالته العامة وبكلامه المعجز وبتكليمه من غير واسطة في السماء التي قدست دائماً ونزهت عن التدنيس بمعصية .

ولما كان ذلك مقتضياً لغاية الإقبال والنشاط ، سبب عنه قوله : ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ آي مخصصاً لك به ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ أي العريقين في صفة الشكر المجبولين عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 109.110 ﴾

(5/287)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾

اعلم أن موسى عليه السلام لما طلب الرؤية ومنعه الله منها ، عدد الله عليه وجوه نعمه العظيمة التي له عليه ، وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له إن كنت قد منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا ، فلا يضيق صدرك بسبب منع الرؤية ، وانظر إلى سائر أنواع النعم التي خصصتك بها واشتغل بشكرها .

والمقصود تسلية موسى عليه السلام عن منع الرؤية ، وهذا أيضاً أحد ما يدل على أن الرؤيا جائزة على الله تعالى ، إذ لو كانت ممتنعة في نفسها لما كان إلى ذكر هذا القدر حاجة .

واعلم أن الاصطفاء استخلاص الصفوة فقوله : ﴿ اصطفيتك ﴾ أي اتخذتك صفوة على الناس قال ابن عباس : يريد فضلتك على الناس ، ولما ذكر أنه تعالى اصطفاه ذكر الأمر الذي به حصل هذا الاصطفاء فقال : ﴿ برسالاتي وبكلامي ﴾ قرأ ابن كثير ونافع ﴿ برسالتي ﴾ على الواحد والباقون ﴿ برسالاتي ﴾ على الجمع ، وذلك أنه تعالى أوحى إليه مرة بعد أخرى ، ومن قرأ ﴿ برسالتي ﴾ فلأن الرسالة تجري مجرى المصدر ، فيجوز إفرادها في موضع الجمع ، وإنما قال : ﴿ اصطفيتك عَلَى الناس ﴾ ولم يقل على الخلق ، لأن الملائكة قد تسمع كلام الله من غير واسطة كما سمعه موسى عليه السلام .

فإن قيل : كيف اصطفاه على الناس برسالاته مع أن كثيراً من الناس قد ساواه في الرسالة ؟

قلنا : إنه تعالى بين أنه خصه من دون الناس بمجموع الأمرين ، وهو الرسالة مع الكلام بغير واسطة ، وهذا المجموع ما حصل لغيره ، فثبت أنه إنما حصل التخصيص ههنا لأنه سمع ذلك الكلام بغير واسطة ، وإنما كان الكلام بغير واسطة سبباً لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر ، لأن من سمع كلام الملك العظيم من فلق فيه كان أعلى حالاً وأشرف مرتبة ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب ، ولما ذكر هذين النوعين من النعمة العظيمة .

(6/287)

قال : ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ يعني فخذ هذه النعمة ، ولا يضيق قلبك بسبب منعك الرؤية ، واشتغل بشكر الفوز بهذه النعمة والاشتغال بشكرها إنما يكون بالقيام بلوازمها علماً وعملاً والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 192 ﴾

(7/287)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا موسى إِنِّى اصطفيتك عَلَى الناس برسالاتي ﴾ يعني : بنبوتي .

قرأ ابن كثير ونافع برسَالَتِي .

وقرأ الباقون برسَالاتي بلفظ الجماعة ومعناهما واحد أي : اختصصتك بالنبوة .

﴿ وبكلامي ﴾ أي بتكلمي معك من غير وحي ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ ﴾ أي : اعمل بما أعطيتك ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ لما أعطيتك .

وقال القتبي : قوله ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ أراد به في زمانه كقوله ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [البقرة : 47] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(8/287)

وقال الثعلبى :

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ أعطيتك ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ لله سبحانه على نعمه .

أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أحمد بن حمدون الفراتي . أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن

بكير الرازي ، حدثنا الحسن بن عليّ بن يحيى بن سلام الإمام ، حدثنا أحمد بن حسان بن موسى البلخي . حدثنا أبو عاصم إسماعيل بن عطاء بن قيس [الأموي] عن أبي حازم المدني عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لما أعطى الله تعالى موسى الألواح فنظر فيه قال : يا رب لقد أكرمتني بكرامة لم تكرمها أحداً قبلي قال : يا موسى إنّي اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، بجد ومحافظة وموت على حب محمد صلى الله عليه وسلم .

قال موسى : يا رب ومن محمد ؟ قال : أحمد النبي الذي أُثبت اسمه على عرشي من قبل أن أخلق السماوات بألفي عام ، إنّه نبيي وصفيي وحبيبي وخيرتي من خلقي وهو أحب إلي من جميع خلقي وجميع ملائكتي .

قال موسى : يا رب إن كان محمد أحب إليك من جميع خلقك فهل خلقت أمته أكرم عليك من أمتي ؟ قال : يا موسى إنّ فضل أُمة محمد على سائر الخلق كفضلي على جميع خلقي .

قال : يا رب ليتني رأيتهم ، قال : يا موسى إنّك لن تراهم ، لو أردت أن تسمع كلامهم أسمعتك ، قال : يا رب فإني أُريد أن أسمع كلامهم ، قال الله تعالى : يا أُمة أحمد ، فأجبنا كلنا من أصلاب آبائنا وأرحام أُمهاتنا لبيك اللهم لبيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك . قال الله تعالى : يا أُمة أحمد إن رحمتي سبقت غضبي وعفوي سبق حسابي قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني وقد غفرت لكم قبل أن

تعصوني . من جاءني يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبدي ورسولي دخل الجنّة ولو كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر . وهذا قوله عزّ وجلّ " .

(9/287)

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي ﴾ إلى قوله ﴿ الشاهدين ﴾ [القصص : 44] ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص : 46] .

قال الثعلبي : وأخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عليّ بن نصير المزكى ، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج حدّثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا رشد بن سعيد عن سعيد بن عبد الرحمن المعافري عن أبيه أن كعب الأحبار رأى حبر اليهود يبكي قال : ما يبكيك ؟

قال : ذكرت بعض الأُمور .

فقال له كعب : أنشدك الله لئن أخبرتك ما أبكاك تصدقني ؟

قال : نعم .

قال : أنشدك الله تجد في [الكتاب] المنزل أنّ موسى (عليه السلام) نظر في التوراة فقال : إني أجد أُمة خير أُمم أُخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله

والرسول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتّى يقاتلوا الأعور الدجال ، فقال موسى : ربّ اجعلهم أُمّتي ، قال : هم أُمّة محمد يا موسى ، قال الحبر : نعم .

قال : أنشدك الله تجد في كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر في التوراة فقال : رب إني أجد أُمةً يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم ، وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار غير أن موسى كان يجمع صدقات بني إسرائيل فلا يجد عبداً مملوكاً ولا أمةً إلاّ اشتراه ثمّ أعتقه من تلك الصدقات فما فضل حفر له بئر عميقة القعر فألقاه فيها ثمّ دفنه كيلا يرجعوا فيه ، وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون والمشفوع لهم .

قال موسى : اجعلهم أُمّتي ؟ قال : هي أُمة أحمد يا موسى . قال الحبر : نعم .

(10/287)

قال كعب : أنشدك الله تجد في كتاب الله المنزل أنّ موسى (عليه السلام) نظر في التوراة ، فقال : إني أجد أُمة إذا أشرف أحدهم على نشر كبر الله وإذا هبط وادياً حمد الله ، الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيث ما كانوا ، يتطهرون من الجنابة ، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء ، غير محجلون من آثار الوضوء ، فاجعلهم أُمتي ؟ قال : هي أُمة أحمد يا موسى ، قال الحبر : نعم .

قال كعب : أنشدك الله تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال : ربِ إني أجد أُمةً إذا همَّ أحدهم بحسنة لم يعملها كتبت له حسنة مثلها ، وإن عملها ضعف عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، فإذا هَمّ بسيئة ولم يعملها لم يكتب عليه وإن عملها كتبت سيئة مثلها .

قال : اجعلهم أُمتي ؟ قال : هي أُمة أحمد يا موسى ، قال الحبر : نعم .

قال كعب : أنشدك الله تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة وقال : ربِ إنّي أجد أُمّة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيناهم ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد منهم أحداً إلاّ مرحوماً . اجعلهم أُمّتي ؟ قال : هي أُمة أحمد يا موسى ، قال الحبر : نعم .

قال كعب : أنشدك الله تجد في كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر في التوراة قال : ربِ إنّي أجد في التوراة أُمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنّة ، يصفون في صلواتهم صفوف الملائكة أصواتهم [في مساجدهم] كدوي النحل ، لا يدخل النار منهم أحدٌ أبداً إلا من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء الشجر ، قال موسى : فاجعلهم أُمتي ؟ قال : هي أمة أحمد يا موسى . قال الحبر : نعم .

(11/287)

فلما عجب موسى من الخير الذي أعطى الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم قال : يا ليتني من أصحاب محمد فأوحى الله عزّ وجلّ ثلاث آيات يرضيه بها هي ﴿ يا موسى إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس ﴾ إلى قوله ﴿ دَارَ الفاسقين ﴾ ﴿ وَمِن قَوْمِ موسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ قال : فرضي موسى كل الرضا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(12/287)

وقال ابن عطية :

ثم إن الله تعالى قرر موسى على آلائه عنده على جهة الإخبار وقنعه بها وأمره بالشكر عليها وكأنه قال ولا تتعدها إلى غيرها ، و" اصطفى " أصله اصتفى وهو افتعل من صفا يصفو انقلبت التاء طاء لمكان الصاد ، ومعناه تخيرتك وخصصتك ، ولا تستعمل إلا في الخير والمتن ، لا يقال اصطفاه لشر ، وقوله ﴿ على الناس ﴾ عام والظاهر من الشريعة أن موسى مخصص بالكلام وإن كان قد روي في تكليم الله غيره أشياء بما يشاء من أعظمها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن آدم فقال هو نبي مكلَّم .

قال القاضي أبو محمد : إلا أن ذلك قد تأول أنه كان في الجنة فيتحفظ على هذا تخصيص موسى ، ويصح أن يكون قوله ﴿ على الناس ﴾ عموماً مطلقاً في مجموع الدرجتين الرسالة والكلام . وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم وابن عامر " برسالاتي " على الجمع إذ الذي أرسل به ضروب ، وقرأ ابن كثير ونافع " برسالتي " على الإفراد الذي يراد به الجمع وتحل الرسالة هاهنا محل المصدر الذي هو الإرسال ، وقرأ جمهور الناس و" بكلامي " ، وقرأ أبو رجاء " برسالتي وبكلمتي " ، وقرأ الأعمش " برسالاتي وبكلمي " ، وحكى عنه المهدوي " وتكليمي " على وزن تفعيلي ، وقوله ﴿ فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ تأديب وتقنيع وحمل على جادة السلامة ومثال لكل أحد في حاله ، فإن جميع النعم من عنده بمقدار وكل الأمور بمرأى من الله ومسمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(13/287)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إني اصطفيتك ﴾

فتح ياء "إني" ابن كثير ، وأبو عمرو .

وقرأ ابن كثير، ونافع: "برسالتي".

قال الزجاج: المعنى: اتخذتك صفوة على الناس برسالاتي وبكلامي، ولو كان إنما سمع كلام غير الله لما قال: "برسالاتي وبكلامي" لأن الملائكة تنزل إلى الأنبياء بكلام الله. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا موسى إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ﴾

الاصطفاء: الاجتباء؛ أي فضّلتك.

ولم يقل على الخلق؛ لأن من هذا الاصطفاء أنه كلمه وقد كلم الملائكة، وأرسله وأرسل غيره.

فالمراد "على النَّاسِ" المرسل إليهم.

وقرأ "بِرسالتي" على الإفراد نافع وابن كثير.

والباقون بالجمع.

والرسالة مصدر، فيجوز إفرادها.

ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسالة فاختلفت أنواعها، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه؛ كما قال: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ [لقمان: 19].

فجمع لاختلاف أجناس الأصوات واختلاف المصوّتين.

ووحد في قوله "لَصوْتُ" لما أراد به جنساً واحداً من الأصوات .

ودلّ هذا على أن قومه لم يشاركه في التكليم ولا واحد من السبعين ؛ كما بيناه في "البقرة" .

قوله تعالى : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ إشارة إلى القناعة ؛ أي اقنع بما أعطيتك .

﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ أي من المظهرين لإحساني إليك وفضلي عليك ؛ يقال : دابة شَكُور إذا ظهر عليها من السِّمن فوق ما تُعْطَى من العَلَف .

والشاكر معرّض للمزيد كما قال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] .

ويروى أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلمه الله تعالى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(14/287)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ يعني قال الله تعالى لموسى يا موسى إني اخترتك واتخذتك صفوة .

الاصطفاء الاستخلاص من الصفوة والاجتباء والمعنى إني فضلتك واجتبيتك على الناس

وفي هذا تسلية لموسى عن منع الرؤية حين طلبها لأن الله تعالى عدد عليه نعمه التي أنعم بها

عليه وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له إن كنت منعت من الرؤية التي طلبت فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيقن صدرك بسبب منع الرؤية وانظر إلى سائر أنواع النعم التي خصصتك بها وبه الاصطفاء على الناس برسالاتي وبكلامي يعني من غير واسطة لأن غيره من الرسل منع كلام الله تعالى إلا بواسطة الملك .

فإن قلت كيف قال اصطفيتك على الناس برسالاتي مع أن كثيراً من الأنبياء قد ساواه في الرسالة قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال جوابين .

(15/287)

أحدهما : ذكره البغوي فقال لما لم تكون الرسالة عن العموم في حق الناس كافة استقام قوله ﴿ اصطفيتك على الناس ﴾ وإن شاركه فيها غيره كما يقول الرجل للرجل خصصتك بمشورتي وإن كان قد شاور غيره إذا لم تكن المشورة على العموم فيكون مستقيماً وفي هذا الجواب نظر لأن من جملة من اصطفاه الله برسالته محمداً (صلى الله عليه وسلم) وهو أفضل من موصى فلا يستقيم هذا الجواب الجواب الثاني ذكره الإمام فخر الدين الرازي فقال : إن الله تعالى بين أنه خصه بمجموع أمرين وهما الرسالة مع الكلام بغير واسطة وهذا المجموع ما حصل لغيره فثبت أنه إنما حصل التخصيص ها هنا لأنه سمع ذلك الكلام بغير

واسطة وإنما كان الجواب بغير واسطة سبباً لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر لأن من سمع كلام الملك العظيم من فيه كان أعلى وأشرف ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب وهذا الجواب فيه نظر أيضاً لأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) اصطفاه برسالته وكلمه ليلة المعراج بغير واسطة وفرض عليه وعلى أمته الصلوات وخاطبه بيا محمد يدل عليه قوله ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ورفعه إلى حيث سمع صريف الأقلام وهذا كله يدل على مزيد الفضل والشرف على موسى وغيره من الأنبياء فلا يستقيم هذا الجواب أيضاً والذي يعتمد في هذا الجواب عن هذا السؤال أن الله اصطفى موسى برسالته وبكلامه على الناس الذين كانوا في زمانه وذلك أنه لم يكن في ذلك الوقت أعلى منصباً ولا أشرف ولا أفضل منه وهو صاحب الشريعة الظاهرة وعليه نزلت التوراة فدل ذلك عليه أنه اصطفاه على ناس زمكانه كما اصطفى قومه على عالمي زمانهم وهو قوله تعالى :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴾ قال المفسرون : يعني على عالمي زمانهم .

(16/287)

وقوله تعالى : ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ يعني ما فضلتك وأكرمتك به ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ يعني على إنعامي عليك وفي القصة أن موسى كان بعد ما كلمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لما غشي وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة قال ذلك لك إن لم تتزوجي بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(17/287)

وقال أبو حيان :

﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾

لما طلب موسى عليه السلام الرؤية ومنعها عدَّد عليه تعالى وجوه نعمه العظيمة عليه وأمره أن يشتغل بشكرها وهذه تسلية منه تعالى له والاصطفاء تقدّم شرحه وعلى الناس لفظ عام ومعناه الخصوص أي على أهل زمانك أو يبقى على عمومه ويعني في مجموع الدّرجتين الرسالة والكلام قاله ابن عطية وينبغي أن يحمل ذلك على وقوع الكلام في الأرض إذ ثبت أن

آدم نبي مكلم وتؤوّل على أن ذلك في الجنة ورسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ويظهر من حديث الإسراء أنه كلمه الله تعالى ويدلّ قوله ﴿ وبكلامي ﴾ على أنه سمع الكلام من الله لا من غيره لأن الملائكة تنزل على الرسل بكلام الله وقدّم ﴿ برسالاتي ﴾ وعلي ﴿ وبكلامي ﴾ لأن الرسالة أسبق في الزمان أو لأنه انتقل من شريف إلى أشرف ، وقرأ الحرميان برسالتي على الإفراد وهو مراد به المصدر أي بإرسالي أو يكون على حذف مضاف أي بتبليغ رسالتي لأن مدلول الرسالة غير مدلول المصدر ، وقرأ باقي السبعة بالجمع لأنّ الذي أرسل به ضروب وأنواع ، وقرأ الجمهور ﴿ وبكلامي ﴾ فاحتمل أن يكون مصدراً أي وبتكليمي أو يكون على حذف مضاف أي وبسماع كلامي ، وقرأ أبو رجاء برسالتي وبكلمي جمع كلمة أي وبسماع كلمي ، وقرأ الأعمش برسالاتي وتكلمي ، وحكى عنه المهدوي وتكليمي على وزن تفعيلي وأمره تعالى أن يأخذ ما آتاه من النبوّة لأنّ في الأمر بالأخذ مزيد تأكيد وحصول أجر بالامتثال والمعني خذ ما آتيتك باجتهاد في تبليغه وجدّ في النفع به ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ على ما آتيناك وفي ذلك إشارة إلى القنع والرضا بما أعطاه الله والشكر عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(18/287)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ يَا موسى ﴾

استئنافٌ مَسوقٌ لتسليته عليه الصلاة والسلام من عدم الإجابةِ إلى سؤال الرؤيةِ كأنه قيل : إن منعتُك الرؤيةَ فقد أعطيتك من النعم العظامِ ما لم أعْطِ أحداً من العالمين فاغتنِمْها وثابرْ على شكرها ﴿ إِنِى اصطفيتك ﴾ أي اخترتُك واتخذتُك صفوةً وآثرتُك ﴿ عَلَى الناس ﴾ أي المعاصِرين لك . وهارونُ وإن كان نبياً كان مأموراً باتباعه وما كان كَليماً ولا صاحبَ شرعٍ ﴿ برسالاتي ﴾ أي بأسفار التوراةِ وقرىء برسالتي ﴿ وبكلامي ﴾ وبتكليمي أياك بغير واسطة ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ ﴾ من شرف النبوةِ والحكمة ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ على ما أُعطيت من جلائل النعمِ ، قيل : كان سؤالُ الرؤيةِ يوم عرفةَ وإعطاءُ التوراةِ يومَ النحر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾

﴿ قَالَ يَا موسى ﴾ استئناف مسوق لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤاله على ما اقتضته الحكمة كأنه قيل : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه وثابر على شكره ﴿ إِنِى اصطفيتك ﴾ أي اخترتك وهو افتعال من الصفوة بمعنى الخيار والتأكد للاعتناء بشأن الخبر ﴿ عَلَى الناس ﴾ الموجودين في زمانك

وهذا كما فضل قومه على عالمي زمانهم في قوله سبحانه : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نِعْمَتِى التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [البقرة : 47] ﴿ برسالاتي ﴾ أي بأسفار التوراة .

وقرأ أهل الحجاز .

وروح برسالتي ﴿ وبكلامي ﴾ أي بتكليمي إياك بغير واسطة .

(19/287)

أو الكلام على حذف مضاف أي بإسماع كلامي والمراد فضلتك بمجموع هذين الأمرين فلا يرد هارون عليه السلام لأنه لم يكن كليماً على أن رسالته كانت تبعية أيضاً وكان مأموراً باتباع موسى عليه السلام وكذلك لا يرد السبعون الذين كانوا معه عليه السلام في هذا الميقات في قول لأنهم وإن سمعوا الخطاب إلا أنهم ليس لهم من الرسالة شيء على أن المقصود بالتكليم الموجه إليه الخطاب هو موسى موسى عليه السلام دونهم وبتخصيص الناس بما علمت خرج النبي صلى الله عليه وسلم فلا يرد أن مجموع الرسالة والتكليم بغير واسطة وجد له عليه الصلاة والسلام أيضاً على الصحيح ، على علي إنا لو قلنا بأن التكليم بغير واسطة مخصوص به عليه السلام من بين الأنبياء صلى الله عليه وسلم لا يلزم

منه تفضيله من كل الوجوه على غيره كنبينا عليه الصلاة والسلام فقد يوجد في الفاضل ما لا يوجد في الأفضل وإنما كان الكلام بلا واسطة سبباً للشرف بناء على العرف الظاهر وقد قالوا شتان بين من اتخذه الملك لنفسه حبيباً وقربه إليه بلطفه تقريباً وبين من ضرب له الحجاب والحجاب وحال بينه وبين المقصود بواب ونواب ، على أن من ذاق طعم المحبة ولو بطرف اللسان يعلم ما في تكليم المحبوب بغير واسطة من اللطف العظيم والبر الجسيم ، وكلامه جل شأنه لموسى عليه السلام في ذلك الميقات كثير على ما دلت عليه الآثار ، وقد سبق لك ما يدل على كميته من حديث أبي هريرة .

(20/287)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والبيهقي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى شأنه ناجى موسى عليه السلام بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام فلما سمع كلام الآدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل فكان فيما ناجاه أن قال : يا موسى إنه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ولم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي فقال موسى : يا رب وإله البرية كلها ويا مالك يوم الدين ويا ذا الجلال

والإكرام ماذا أعددت لهم وماذا جزيتهم ؟ قال : أما الزاهدون في الدنيا فإني أبيحهم جنتي حتى يتبوأوا فيها حيث شاءوا وأما الورعون عما حرمت عليهم فإذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه إلا الورعون فإنى أجلهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب ، وأما الباكون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركهم فيه أحد " .

وأخرج آدم بن أبي إياس في كتاب العلم عن ابن مسعود قال : لما قرب الله تعالى موسى نجياً أبصر في ظل العرض رجلاً فغبطه بمكانه فسأله عنه فلم يخبره باسمه وأخبره بعلمه فقال له : هذا رجل كان لا يحسد الناس على ما أتاهم الله تعالى من فضله ، براً بالوالدين ، لا يمشي بالنميمة ثم قال الله تعالى : يا موسى ما جئت تطلب ؟ قال : جئت أطلب الهدي يا رب .

قال : قد وجدت يا موسى .

فقال : رب اغفر لي ما مضى من ذنوبي وما غبر وما بين ذلك وما أنت أعلم به مني وأعوذ بك من وسوسة نفسي وسوء عملي فقيل له : قد كفيت يا موسى .

قال : يا رب أي العمل أحب إليك أن أعمله ؟ قال : اذكرني يا موسى .

قال رب : أي عبادك أتقى ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني .

قال رب : أي عبادك أغنى ؟ قال : الذي يقنع بما يؤتى .

قال رب : أي عبادك أفضل ؟ قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى .

قال : رب أي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يطلب علم الناس إلى علمه لعله يسمع كلمة تدله على هدي أو ترده عن ردي .

قال : رب أي عبادك أحب إليك عملاً ؟ قال : الذي لا يكذب لسانه ، ولا يزني فرجه ، ولا يفجر قلبه .

قال : رب ثم أي على أثر هذا ؟ قال : قلب مؤمن في خلق حسن .

قال رب : أي عبادك أبغض إليك ؟ قال : قلب كافر في خلق سيء .

قال : رب ثم أي على أثر هذا ؟ قال : جيفة بالليل بطال بالنهار ، وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات .

وأبو يعلى .

وابن حبان .

والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال موسى : يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به ؟ قال : قل يا موسى لا إله إلا الله .

قال : يا رب كل عبادك يقول هذا .

قال : قل لا إله إلا الله .

قال : لا إله إلا أنت يا رب .

إنما أريد شيئاً تخصني به .

قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله .

وأخرج الحيكم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة قال : لما ارتقى موسى طور سينا رأى الجبار في أصبعه خاتماً فقال له : هل مكتوب عليه شيء من أسمائي أو كلامي ؟ قال : لا .

قال فاكتب عليه ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ [الرعد : 38] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن العلاء بن كثير قال : إن الله تعالى قال : يا موسى أتدري لم كلمتك ؟ قال : لا يا رب قال : لأني لم أخلق خلقاً تواضع لي تواضعك .

وللقصاص أخبار كثيرة موضوعة في أسئلة موسى عليه السلام ربه وأجوبته جل شأنه له لا ينبغي لمسلم التصديق بها ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ ﴾ أي أعطيتك من شرف الاصطفاء ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ أي معدوداً في عدادهم بأن يكون لك مساهمة كاملة فيهم ، وحاصله كن بليغ الشكر فإن ما أنعمت به عليك من أجل النعم .

أخرج ابن أبي شيبة عن كعب أنه قال قال موسى عليه السلام : يا رب دلني على عمل إذا عملته كان شكراً لك فيما اصطنعت إلي ، قال : يا موسى قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

قال : فكان موسى أراد من العمل ما هو أنهك لجسمه مما أمر به فقال له : يا موسى لو أن السموات السبع الخبر وهو في معنى ما في خبر أبي سعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 9 صـ ﴾

(23/287)

وقال ابن عاشور :

وفُصلت جملة : ﴿ قال يا موسى ﴾ لوقوع القول في طريق المحاورة والمجاوبة ، والنداءُ للتأنيس وإزالة الرّوع .

وتأكيد الخبر في قوله : ﴿ إني اصطفيك ﴾ للاهتمام به إذ ليس محلاً للإنكار .

والاصطفاء افتعال مبالغة في الاصفاء وهو مشتق من الصّفْو ، وهو الخلوص مما يكدر ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً ﴾ في سورة آل عمران (33)

وضمن اصطفيتك معنى الإيثار والتفضيل فعُدي بعَلَى .

والمراد بالناس : جميع الناس ، أي الموجودين في زمنه ، فالاستغراق في ﴿ الناس ﴾ عرفي أي هو مفضل على الناس يومئذٍ لأنه رسول ، ولتفضيله بمزية الكلام ، وقد يقال إن موسى أفضل جميع الناس الذين مضَوا يومئذٍ ، وعلى الاحتمالين : فهو أفضل من أخيه هارون ، لأن موسى أرسل بشريعة عظيمة ، وكلمه الله ، وهارون أرسله الله معاوناً لموسى ولم يكلمه الله ، ولذلك قال : ﴿ برسالتي وبكلامي ﴾ وما ورد في الحديث من النهي عن التفضيل بين الأنبياء محمول على التفضيل الذي لا يستند لدليل صريح ، أو على جعل التفضيل بين الأنبياء شُغلاً للناس في نواديهم بدون مقتض معتبر للخوض في ذلك .

وهذا امتنان من الله وتعريف .

ثم فرع على ذلك قوله : ﴿ فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ والأول تفريع على الإرسال وَالتكليم .

والثاني تفريع على الامتنان ، وما صْدقُ ﴿ ما آتيتك ﴾ قيل هو الشريعة والرسالة ، فالإيتاء مجاز أطلق على التعليم والإرشاد ، والأخذ مجاز في التلقي والحفظ ، والأظهر أن يكون ﴿ ما آتيتك ﴾ إعطاءَ الألواح بقرينة قوله : ﴿ وكتبنا له في الألواح ﴾ [الأعراف : 145] وقد فُسر بذلك ، فالإيتاء حقيقة ، والأخذ كذلك ، وهذا أليق بنظم الكلام مع

قوله : ﴿ فخذها بقوة ﴾ [الأعراف : 145] ويحصل به أخذ الرسالة والكلام وزيادة .

(24/287)

والإخبار عن ﴿ كُن ﴾ بقوله : ﴿ من الشاكرين ﴾ أبلغُ من أن يقال كُن شاكراً كما تقدم في قوله : ﴿ قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ﴾ في سورة الأنعام (56) .

وقرأ نافع : وابن كثير ، وأبو جعفر ، وروْح عن يعقوب : برسالتي ﴾ ، بصيغة الإفراد وقرأ البقية ﴿ برسالاتي ﴾ بصيغة الجمع ، وهو على تأويله بتعدد التكاليف والإرشاد التي أرسل بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(25/287)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144) ﴾

والاصطفاء هو استخلاص الصفوة ، وقوله : ﴿ اصطفيتك عَلَى الناس ﴾ تعبير فيه دقة الأداء لأنه لو قال اصطفيتك فقط ، ولم يقل على الناس ، فقد يُفهم الاصطفاء على الملائكة أيضاً . ولكن الاصطفاء هنا محدد في دائرة الاصطفاء البشري : ﴿ إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ﴾ . ولقائل أن يقول : إن الحق اصطفى غيره أيضاً من الرسل ، والحق هو القائل : ﴿ إِنَّ الله اصطفى ءَادَمَ وَنُوحاً . . . ﴾ [آل عمران : 33]

ونقول : هناك فرق بين اصطفاء رسالة منفردة ، وبين اصطفاء في رسالة ومعها شيء زائد ، وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – فإذا جئت كمدرس لتلاميذ وأعطيت واحداً منهم هدية عبارة عن قلم كمكافأة ، ثم أعطيت الثاني قلماً وزجاجة حبر ، أنت بذلك اصطفيت التلميذ الأول بهدية القلم ، واصطفيت الآخر باجتماع قلم وزجاجة حبر في هدية واحدة . والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل بالإضافة إلى شرف الكلام : ﴿ اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ﴾ .

وعرفنا من قبل أن " رسالاتي " هي في مجموعها رسالة واحدة ، ولكن الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمرت جزئياتها ثلاثاً وعشرين سنة في النزول ، فكأن كل نجم رسالة ، أو كل باب من أبواب الخير رسالة ، فهي رسالات متعددة ، أو أن رسالته جمعت رسالات السابقين : ﴿ قَالَ يا موسى إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ [الأعراف : 144]

أي لا تنظر إلى ما منعتك ، بل اذكر أني اصطفيتك وكلمتك وعليك أن تشكر لي هذا .

ولذلك يجب على الإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله فيه أن ينظر دائماً إلى ما بقي له من النعم . لا إلى ما سلب عنه من النعم . ولذلك نجد المؤمن المتفاءل ينظر إلى الكوب الذي نصفه مملوء بالماء فيقول : الحمد لله نصف الكوب ملآن . أما المتشائم فيقول : إن نصف الكوب فارغ ، وبرغم أن كُلاًّ منهما يقرر الحقيقة إلا أن المؤمن المتفائل نظر إلى ما بقي من نعم الله .

إننا نجد ابن جعفر حين ذهب للخليفة الأموي في دمشق وجرحت رجله في أثناء السير من المدينة إلى دمشق ، ولم تكن هناك عناية طبية فتقيحت ، وحين أحضروا له الأطباء وقرروا قطع رجله ، قال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً أي دواء تخدير يجعله لا يحس بالألم ، فقال : لا ، فإني لا أريد أن أغفل عن ربي لحظة عين ، فلما قطعوها أخذوها ليدفنوها ، فقال هاتوها . فأحضروها له وأمسك بها وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو فقد عافيت في أعضاء .

هذه نظرة المؤمن الذي لا ينظر إلى ما أُخذ منه بل ينظر إلى ما بقي له . وكذلك كان توجيه

الحق لموسى عليه السلام ، فقد أوضح له : لا تنظر إلى أني منعتك الرؤية ، لا ، بل انظر الاصطفاء وشرف الكلمة إلى الخالق واشكر ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(27/287)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ قال يا موسى إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس ﴾ .

الاصطفاء : استخلاص الصَّفْوَةِ أي : اخترتك واتَّخذتك صفوة على النَّاس .

قال ابنُ عبَّاسٍ : " فَضَّتْتُكَ على النَّاسِ " .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو إِنِّيَ بفتح الياء ، وكذلك ﴿ أَخِي اشدد ﴾ [طه : 30 ، 31] .

قوله برسالاتي أي : بسبب .

وقرأ الحرميَّان : برِسالتِي بالإفراد ، والمُرادُ به المصدر ، أي : بإرْسَالي إيَّاك ، ويجوز أن يكون على حذفِ مضاف ، أي : بتبليغ رسالتي .

والرِّسالةُ : نَفْسُ الشَّيء المرسل به إلى الغير .

وقرأ الباقون بالجمع اعتباراً بالأنواعِ ، وقد تقدَّم ذلك في المائدةِ والأنعام .

قال القرطبيُّ : ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسالةِ فاختلف أنواعها ، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه ؛ كقوله : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ [لقمان : 19] واختلاف المصوتين ، ووحَّدَ في قوله : لصوتُ لما أراد به جنساً واحداً من الأصوات .

قوله : " وَبِكلامي " هي قراءة العامَّةِ ، فيحتمل أن يُرادَ به المصدرُ ، أي : بتكليمي إيَّاكَ ، كقوله : ﴿ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] وقوله : [الطويل]

2569 - . . . . . .

تُكَلِّمِني فيها شِفَاءٌ لِمَا بِيَا

أي : بتكليمي إيَّاهَا ، ويحتمل أن يراد به التَّوراة ، وما أوحاه إليه من قولهم للقرآن " كلام الله " تسميةً للشيء بالمصدر .

وقدَّم الرِّسالةَ على الكلام ؛ لأنَّها أسبق ، أو ليترقَّى إلى الأشرفِ ، وكرَّر حرف الجرِّ ، تنبيهاً على مغايرة الاصطفاء .

(28/287)

وقرأ الأعمش : " بِرِسَالاتِي وبِكلِمِي " جمع "كلمة" وروى عنه المهدويُّ أيضاً " وتكليمي " على وزن التَّفعيل ، وهي تؤيِّدُ أنَّ الكلامَ مصدرٌ .

وقرأ أبو رجاء " برِسالتِي " بالإفراد و" بِكَلِمي " بالجمع ، أي : وبسمَاع كلمي .

وقوله : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ أي : اقْنَعْ بما أعيتك .

﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ ، أي : المظهرين لإحسانِي إليك ، وفضلي عليك .

يقال : دَابَّةٌ شكورٌ ، إذا ظهر عليها من السّمن فوق ما تُعْطَى من العَلَف ، والشَّاكِرُ متعرض للمزيد ؛ كما قال تعالى : (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ) [إبراهيم : 7] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 304 . 305 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144) ﴾

هذا الخطاب لِتَدَارُكِ قلب موسى – عليه السلام – بكل هذا الرِّفق ، كأنه قال : يا موسى ، إني منعتُكَ عن شيء واحد وهو الرؤية ، ولكني خصصتُك بكثيرٍ من الفضائل ؛ اصطفيتُك بالرسالة ، وأكرمتُك بشرف الحالة ، فاشكرْ هذه الجملة ، واعرفْ هذه النعمة ، وكنْ من الشاكرين ، ولا تتعرضْ لمقام الشكوى ، وفي معناه أنشدوا :

إنْ أعرضوا فهم الذين تَعَطَّفُوا . . . وإنْ جَنَوْا فاصبرْ لهم إن أخلفوا

وفي قوله سبحانه : ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ إشارة لطيفة كأنه قال : لا تكن من الشاكين ، أي إنْ منعتُكَ عن سُؤْلِك ، ولم أعْطِك مطلوبَك فلا تَشْكُنِي إذا انصرفتَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 568 ﴾

(29/287)

قوله تعالى ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضى ما أنسه سبحانه به لفت الكلام – في الإخبار لنا عن عظيم ما آتاه – لي مظهر العظمة ، فقال مفصلاً لتلك الرسالة ومبيناً بعض ما كان من الكلام ﴿ وكتبنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ له في الألواح ﴾ عرفها لعظمتها تنبيهاً على أنها لجلالة ما اختصت به كأنها المختصة بهذا الاسم ، وأعظم من هذا جعل قلب النبي الأمي لوحاً قابلاً لما يلقى إليه جامعاً لعلوم الأولين والآخرين ﴿ من كل شيء ﴾ أي يحتاجه بنو إسرائيل ، وذلك هو

العشر الآيات التي نسبتها إلى التوارة نسبة الفاتحة إلى القران ، ففيها أصوال الدين وأصول الأحكام والتذكير بالنعم والأمر بالزهد والورع ولزوم محاسن الأعمال والبعد عن مساويها ، ولذا قال مبدلاً : ﴿ موعظة وتفصيلاً ﴾ أي على وجازتها بما كانت سبباً ﴿ لكل شيء ﴾ أي لأنها – مع كونها أمهات وجوامع – مفصلة ترجع إليها بحور العلم وتنشق منها ينابيعها .

ولما كان هذا هكذا ، تسبب عنه حتماً قوله تعالى التفاتاً إلى خطاب موسى عليه السلام بخطاب التأنيس إشارة إلى أن التزام التكاليف صعب : ﴿ فخذها ﴾ أي الألواح ﴿ بقوة ﴾ أي بجد وعزيمة في العلم والعمل ﴿ وأمر قومك ﴾ أي الأقوياء على محاولة ما يراد ﴿ يأخذوا بأحسنها ﴾ كأنه سبحانه أطلق لموسى عليه السلام الأخذ بكل ما فيها لما عنده من الملكة الحاجزة له عن شيء من المجاوزة ، ولذلك قال له ﴿ بقوة ﴾ وقيدهم بالأحسن ليكون الحسن جداً مانعاً لهم من الوصول إلى القبيح ، وذلك كالاقتصاص والعفو والانتصار والصبر .

(30/287)

ولما كان كأنه قيل : وهل يترك الأحسن أحد ؟ فقيل : نعم ، الفاسق يتركه ، بل ويتجاوز الحسن إلى القبيح ، بل وإلى أقبح القبيح ، ومن تركه أهلكته وإن جل آله وعظمت جنوده وأمواله ، قال كالتعليل لذلك : ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ أي الذين يخرجون عن أوامري إلى ما أنهاهم عنه فأنصركم عليهم وأمكنكم بفسقهم من رقابهم وأموالهم من الكنعانيين والحاثانيين وغيرهم من سكان الأراضي المقدسة لتعلموا أن من أغضبني وترك أمري أمكنت منه ، وإنما ذكر الدار لئلا تغرهم منعتها إذا استقروا بها فيظنوا أن لا غالب لهم فيها بوعورة أرضها وشهوق جبالها وإحكام أسوارها ، وإذا تأملت ما سيأتي في شرح هذه الآيات من التوراة لاح لك هذا المعنى ، وكذا ما ذكر من التوراة عند قوله في المائدة ﴿ قل هو أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ﴾ [المائدة : 60] وفي هذه الجملة المختصرة بشارة بإتمام الوعد بنصرتهم عليهم بطاعتهم ونذارة على تقدير معصيتهم ، فكأنه قيل : إن أخذوا بالأحسن أريتهم دار الفاسقين ، وأتممت عليهم النعمة ما داموا على الشكر ، وإن لم يأخذوا أهلكتهم كما أهلك الفاسقين من بين أيديهم ، فحذرهم لئلا يفعلوا أفعالهم إذا استقرت بهم الدار ، وزالت عنهم الأكدار ، ويؤيد كون المراد القدس لا مصر قراءة من قرأ : سأورثكم – من الإرث ، لأنها هي المقصودة بإخراجهم من مصر وبعث موسى عليه السلام ، ولا ينفي ذلك احتمال مصر أيضاً – والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 110 . 111 ﴾

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في ألواح التوراة :

ومن الإسرائيليات : ما ذكره الثعلبي والبغوي ، والزمخشري ، والقرطبي والآلوسي وغيرهم ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ "الأعراف : 145" فقد ذكر في الألواح : مم هي ؟ وما عددها ؟ أقوالا كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين وعن كعب ، ووهب ، من أهل الكتاب الذين أسلموا مما يشير إلى منبع هذه الروايات ، وأنها من إسرائيليات بني إسرائيل ، وفيها من المرويات ما يخالف المعقول .

والمنقول ، وإليك ما ذكره البغوي في هذا ، قال :

قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَه ﴾ : يعني لموسى ، ﴿ فِي الْأَلْوَاح ﴾ : قال ابن عباس : يريد ألواح التوراة ، وفي الحديث : "كانت من سدر الجنة ، طول اللوح اثنا عشر ذراعا" . وجاء في الحديث : "خلق آدم بيده ، وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده" 1 .

وقال الحسن : كانت الألواح من خشب ، وقال الكلبي : كانت من زبرجدة خضراء .

وقال سعيد بن جبير ، كانت من ياقوت أحمر ، وقال الربيع : كانت الألواح من برد 2 .

وقال ابن جريج : كانت من زمد ، أمر الله جبريل حتى جاء بها من عدن ، وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر ، واستمد من نهر النور ! !

وقال وهب : أمر الله بقطع الألواح من صخرة صماء ، لينها الله له ، فقطعها بيده ، ثم شققها بيده ، وسمع موسى صرير القلم بالكلمات العشر ، وكان ذلك في أول يوم من ذي القعدة ، وكانت الألواح عشرة أذرع ، على طول موسى ! !

وقال مقاتل ووهب : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ ﴾ كنقش الخاتم .

وقال الربيع بن أنس : نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير ، يقرأ الجزء منه في سنة ، لم يقرأها إلا أربعة نفر : موسى ، ويوشع ، وعزير ، وعيسى 3 .

فكل هذه الروايات المتضاربة التي يرد بعضها بعضا مما نحيل أن يكون مرجعها المعصوم صلى الله عليه وسلم وإنما هي من إسرائيليات بني إسرائيل ، حملها عنهم بعض الصحابة

والتابعين .

---

1 لم يخرج البغوي كما هي عادته الحديثين ولم يبرز سندهما ، وقد ذكر الآلوسي أن الحديث الأول رواه ابن أبي حاتم ، واختار القول به إن صح السند إليه ، وأما الحديث الثاني فقال : إنه مروي عن علي ، وعن ابن عمر ، وعن غيرهما من التابعين "تفسير الآلوسي ج 7 ص 57" .

2 الظاهر أنها بضم الباء وسكون الراء : الثوب المختط ، وإلا فلو كانت من بَرَد بفتح الباء والراء حبات الثلج فكيف يكتب عليها ؟

3 لا أدري كيف يقبل عقل أنها حمل سبعين بعيرا ، وإذا لم يقرأها إلا أربعة فلماذا أنزلها الله ؟

(33/287)

بحسن نية ، وليس تفسير الآية متوقفا على كل هذا الذي رووه ، والذي يجب أن نؤمن به ، أن الله أنزل الألواح على موسى ، وفيها التوراة1 ، أما هذه الألواح مم صنعت ؟ وما طولها وما عرضها ؟ وكيف كتبت ؟ فهذا لا يجب علينا الإيمان به ، والأَوْلى عدم البحث فيه ؛ لأن البحث فيه لا يؤدي إلى فائدة ، ولا يوصل إلى غاية ،

ومن ذلك : ما يذكره بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ فقد جعلوا التوراة مشتملة على كل ما كان وكل ما يكون ، وهذا مما لا يعقل ، ولا يصدق ، فمن ذلك : ما ذكره الإمام الآلوسي في تفسيره قال : وما أخرجه الطبراني ، والبيهقي في "الدلائل" عن محمد بن يزيد الثقفي ، قال : اصطحب قيس بن خرشة ، وكعب الأحبار حتى إذا بلغا صفين ، وقف كعب ، ثم نظر ساعة ، ثم قال : ليهراقن بهذه البقعة من دماء المسلمين شيء لا يراق ببقعة من الأرض مثله .

فقال قيس : ما يدريك ؟ فإن هذا من الغيب الذي استأثر الله تعالى به ؟ ! ! فقال كعب : ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله تعالى على موسى ، ما يكون منه ، وما يخرج منه إلى يوم القيامة ! !

وهو من المبالغات التي روي أمثالها عن كعب ولا نصدق ذلك ، ولعلها من الكذب الذي لاحظه عليه الصحابي الداهية معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه على ما أسلفنا سابقا ، ولا يعقل قط أن يكون في التوراة كل أحداث الدنيا إلى يوم القيامة .

والمحققون من المفسرين سلفا وخلفا على أن المراد أن فيها تفصيلا لكل شيء ، مما يحتاجون إليه في الحلال والحرام ، والمحاسن والقبائح مما يلائم شريعة موسى وعصره ، وإلا فقد جاء القرآن الكريم بأحكام وآداب ، وأخلاق لا توجد في التوراة قط .

وقد ساق الإمام الآلوسي هذا الخبر ؛ للاستدلال به لمن يقول : إن كل شيء عام ،

1 وقيل : إن الألواح أعطيها موسى قبل التوراة والصحيح الأول .

(34/287)

وكأنه استشعر بُعده فقال عقبه : "ولعل ذكر ذلك من باب الرمز ، كما ندعيه في القرآن1" . وإني لأقول للآلوسي ومن لف لفه : إن هذا مردود وغير مقبول ، ونحن لا نسلم بأن في القرآن رموزا ، وإشارات لأحداث ، وإن قاله البعض ، والحق أحق أن يتبع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 201.204 ﴾

1 تفسير الآلوسي ج 7 ص 56 ، 57ط ، منير .

(35/287)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أنه خص موسى -عليه السلام- بالرسالة ذكر في هذه الآية تفصيل تلك الرسالة فقال : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الالواح ﴾ نقل صاحب "الكشاف" عن بعضهم : أن موسى خر صعقاً يوم عرفة .

وأعطاه الله تعالى التوراة يوم النحر ، وذكروا في عدد الألواح ، وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح .

وقيل : سبعة .

وقيل إنها كانت من زمردة جاء بها جبريل عليه السلام .

وقيل من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء .

وقال الحسن : كانت من خشب نزلت من السماء .

وقال وهب : كانت من صخرة صماء لينها الله لموسى عليه السلام ، وأما كيفية الكتابة .

فقال ابن جريج كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور .

واعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح ، وعلى كيفية تلك الكتابة ، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوي ، وجب القول به وإلا وجب السكوت عنه .

وأما قوله : ﴿ من كل شيء ﴾ فلا شبهة فيه أنه ليس على العموم ، بل المراد من كل ما يحتاج إليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام والمحاسن والمقابح .

وأما قوله : ﴿ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ فهو كالبيان للجملة التي قدمها بقوله : ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وذلك لأنه تعالى قسمه إلى ضربين : أحدهما : ﴿ مَّوْعِظَةً ﴾ والآخر ﴿ تَفْصِيلاً ﴾ لما يجب أن يعلم من الأحكام ، فيدخل في الموعظة كل ما ذكره الله تعالى من الأمور التي توجب الرغبة في الطاعة والنفرة عن المعصية ، وذلك بذكر الوعد والوعيد ، ولما قرر ذلك أولاً أتبعه بشرح أقسام الأحكام وتفصيل الحلال والحرام ، فقال : ﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ولما شرح ذلك ، قال لموسى : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أي بعزيمة قوية ونية صادقة ، ثم أمره الله تعالى أن يأمر قومه بأن يأخذوا بأحسنها ، وظاهر ذلك أن بين التكليفين فرقاً ، ليكون في هذا التفصيل فائدة ، ولذلك قال بعض المفسرين : إن التكليف كان على موسى عليه السلام أشد ، لأنه تعالى لم يرخص له ما رخص لغيره ، وقال بعضهم : بل خصه من حيث كلفه البلاغ والأداء .

وإن كان مشاركاً لقومه فيما عداه ، وفي قوله : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ .

سؤال : وهو أنه تعالى لما تعبد بكل ما في التوراة وجب كون الكل مأموراً به ، وظاهر قوله ﴿ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ يقتضي أن فيه ما ليس بأحسن ، وإنه لا يجوز لهم الأخذ به ، وذلك متناقض وذكر العلماء في الجواب عنه وجوهاً : الأول : أن تلك التكاليف منها ما هو حسن ومنها ما هو أحسن ، كالقصاص ، والعفو ، والانتصار ، والصبر ، أي فمرهم أن

يحملوا أنفسهم على الأخذ بما هو أدخل في الحسن ، وأكثر للثواب كقوله :

﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم ﴾ [الزمر : 55] وقوله : ﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 18] .

فإن قالوا : فلما أمر الله تعالى بالأخذ بالأحسن ، فقد منع من الأخذ بذلك الحسن ، وذلك يقدح في كونه حسناً فنقول يحمل أمر الله تعالى بالأخذ بالأحسن على الندب حتى يزول هذا التناقض .

(37/287)

الوجه الثاني : في الجواب قال قطرب ﴿ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي بحسنها وكلها حسن لقوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : 45] وقول الفرزدق :

بيتاً دعائمهُ أعز وأطول . . الوجه الثالث : قال بعضهم : الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح ، وأحسن هذه الثلاثة الواجبات والمندوبات .

وأما قوله : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ ففيه وجهان : الأول : أن المراد التهديد والوعيد على مخالفة أمر الله تعالى ، وعلى هذا التقدير : فيه وجهان : الأول : قال ابن عباس والحسن ومجاهد دار الفاسقين هي جهنم ، أي فليكن ذكر جهنم حاضراً في خاطركم

لتحذروا أن تكونوا منهم .

والثاني : قال قتادة : سأدخلكم الشام وأريكم منازل الكافرين الذين كانوا متوطنين فيها من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها وما صاروا إليه من النكال .

وقال الكلبي : ﴿ دَارَ الفاسقين ﴾ هي المساكن التي كانوا يمرون عليها إذا سافروا ، من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله تعالى .

والقول الثاني : أن المراد الوعد والبشارة بأنه تعالى سيورثهم أرض أعدائهم وديارهم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 14 صـ 193 . 194 ﴾

(38/287)

وقال السمرقندى :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ ﴾

روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أعطى الله تعالى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء وموعظة .

قال : التوراة مكتوبة .

ويقال : طول الألواح عشرة أذرع ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً ﴾ من الجهل ﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ

شَيْءٍ ﴾ يعني : تبياناً لكل شيء من الحلال والحرام .

قال الفقيه رحمه الله تعالى : حدثنا الفقيه أبو جعفر قال : حدثنا إسحاق بن عبد الرحمن القاري قال : حدثنا أبو بكر بن أبي العوام .

(39/287)

قال : حدثنا أبي قال : حدثنا يحيى بن سابق عن خيثمة بن خليفة عن ربيعة عن أبي جعفر عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كَانَ فِيمَا أَعْطَى اللهُ مُوسَى فِي الأَلْوَاحِ عَشَرَةَ أَبْوَابٍ : يا مُوسَى لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ، فَقَدْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لَتَلْفَحَنَّ وُجُوهَ المُشْرِكِينَ النَّارُ ، وَاشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ، أَقِكَ المَتَالِفَ ، وَأُنْسِيءُ لَكَ فِي عُمُرِكَ ، وَأُحْيِيكَ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَأَقْلِبُكَ إِلَى خَيْرٍ مِنْهَا ، وَلا تَقْتُلِ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمْتُهَا إِلاَّ بِالحَقِّ ، فَتَضِيقَ عَلَيْكَ الأَرْضُ بِرُحْبِهَا ، وَالسَّمَاءُ بِأَقْطَارِهَا ، وَتَبُوءَ بِسَخَطِي وَنَارِي ، وَلا تَحْلِفْ بِاسْمِي كَاذِباً فَإِنِّي لا أُطَهِّرُ وَلا أُزَكِّي مَنْ لَمْ يُنَزِّهْنِي ، وَلَمْ يُعَظِّمْ أَسْمَائِي ، وَلا تَحْسُدِ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنَّ الحَاسِدَ عَدُوٌّ لِنِعْمَتِي ، رَادٌّ لِقَضَائِي ، سَاخِطٌ لِقِسْمَتِي ، الَّتِي أَقْسِمُ بَيْنَ عِبَادِي ، وَلا تَشْهَدْ بِمَا لَمْ يَقَعْ بِسَمْعِكَ ، وَيَحْفَظْ قَلْبُكَ ، فَإِنِّي لَوَاقِفٌ أَهْلَ الشَّهَادَاتِ عَلَى شَهَادَاتِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، ثُمَّ أَسْأَلُهُمْ عَنْهَا سُؤَالاً حَثِيثاً ، وَلا

تَزْنِ ، وَلاَ تَسْرِقْ ، فَأَحْجُبَ عَنْكَ وَجْهِي ، وَأُغْلِقَ عَنْكَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ ، وَأَحْبِبْ لِلنَّاسِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ .

ولا تُذَكِّ لِغَيْرِي ، فَإِنِّي لا أَقْبَلُ مِنَ القُرْبَانِ إِلاَّ ما ذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمِي ، وَكَانَ خَالِصاً لِوَجْهِي ، وَتَفَرَّغْ لِي يَوْمَ السَّبْتِ وَجَمِيعُ أَهْلِ بَيْتِكَ " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " جُعِلَ يَوْمُ السَّبْتِ لِمُوسَى عِيداً وَاخْتَارَ لَنَا يَوْمَ الجُمُعَةِ فَجَعَلَها لنا عِيداً "

(40/287)

قوله تعالى : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ يعني : اعمل بما أمرك الله بجد ومواظبة عليها ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي يعملون بما فيها من الحلال والحرام .

ويقال : امرهم بالخير وانههم عن الشر : يعني : اعملوا بالخير وامتنعوا عن الشر .

ويقال : اعملوا بأحسن الوجوه وهو أنه لو يكافىء ظالمه وينتقم منه جاز ، ولو تجاوز كان أحسن وقال الكلبي : كان موسى عليه السلام أشد عبادةً من قومه .

فأمر بما لم يؤمروا به .

يعني : أمر بأن يعمل بالمواظبة ، وأمر قومه بأن يأخذوا بأحسن الفعل .

ثم قال : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ قال مقاتل : يعني : سنة أهل مصر يعني : هلاكهم

حين قذفهم البحر فأراهم سنة الفاسقين في التقديم .

ويقال : جهنم هي دارُ الكافرين .

ويقال : إذا سافروا أراهم منازل عاد وثمود .

وقال مجاهد : مصيرهم في الآخر إلى النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(41/287)

وقال الثعلبى :

قوله تعالى ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ ﴾ يعني لموسى ﴿ فِي الأَلواح ﴾ .

قال الربيع بن أنس : كانت ألواح موسى (عليه السلام) من برد ، وقال ابن جريج : كانت من زمرّد أمر الله تعالى جبرئيل حتّى جاء بها من عدن يكتبها بالقلم الذي كتب به [الذكر فاستمد] من بحر النور فكتب له الألواح .

وقال الكلبي : كانت الألواح زبرجداً خضراء وياقوتة حمراء كتب الله فيها ثماني عشرة آية من بني إسرائيل وهي عشر آيات في التوراة . قال وهب : أمره الله تعالى بقطع الألواح من صخرة صماء ليّنها الله له فقطعها بيده ثمّ شقها بإصابعه وسمع موسى صرير القلم بالكلمات العشر ، وكان ذلك أول يوم من ذي القعدة وكانت الألواح عشرة على طول موسى

(عليه السلام) .

وقال مقاتل وكعب ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ ﴾ كنقش الخاتم وكتب فيها : إني أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بي شيئاً من أهل السماء ولا من أهل الأرض فإنّ كل ذلك خلقي ولا تقطعوا السبل ولا تحلفوا باسمي كاذباً فإن مَنْ حلف باسمي كاذباً فلا أُزكّيه ولا تقتلوا ولا تزنوا ولا تعقّوا الوالدين .

وقال الربيع بن أنس : نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير ، يقرأ منها الجزء في سنة لم يقرأها إلاّ أربعة نفر : موسى يوشع وعزير وعيسى (عليهم السلام) ، وقال : هذه الآية ألف آية يعني قوله ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً ﴾ وتبياناً ﴿ لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأمر والنهي الحلال والحرام والحدود والأحكام .

(42/287)

﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ قال مقاتل : بجد ومواظبة . قال الضحاك : بطاعة ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ قال ابن عباس في رواية الكلبي : بأحسن ما أُمروا [في] الأرض فيحلوا حلالها ويحرموا حرامها ، وكان موسى أشد عداوة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به .

وقال ابن كيسان وابن جرير : أحسنها الفرائض لأنه قد كان فيها أمر ونهي ، فأمرهم الله

تعالى أن يعملوا بما أمرهم به ويتركوا ما نهاهم عنه فالعمل بالمأمور به أحسن من العمل بالمنهي عنه .

وقيل : معناه أخذوا بها وأحسن عمله . وقال قطرب : يأخذوا بأحسنها أي بحسنها و [كلّها حسن] كقوله ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : 45] وقال الحسين بن الفضل : معنى قوله (أحسنها) أن يتخيل للكلمة معنيين أو ثلاثة فيصرفوا إلى الشبهة بالحق . وقيل : كان فيها فرائض لا مبرّك لها وفضائل مندوباً إليها والأفضل أن يجمع بين الفرائض و [الفضائل] .

﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ قال أهل المعاني : هذا كقول القائل لمن يخاطبه سأُريك غداً إلى بصير [فيه قال] مَنْ يخالف أمري على وجه الوعيد والتهديد .

وقال مجاهد : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ قال : مصيرهم في الآخرة . قال الحسن : جهنم ، وقال قتادة وغيره : سأُدخلكم النار فأُريكم منازل الكافرين الذين هم سكانها من الجبابرة والعمالقة .

وقال عطيّة العوفي : معناه سأُريكم دار فرعون وقومه وهي مصر يدلّ عليه .

قرأ ابن عباس وقسامة بن زهير : سأُورّثكم دار الفاسقين . وقال الكلبي : دار الفاسقين ما مرّوا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا . وقال ابن كيسان : ساريكم دار الفاسقين ما يصير قرارهم في [الأرض] .

وقال ابن زيد : يعني سنن الأوّلين ، وقيل : الدار الهلاك وجمعه أدوار .

وذلك أن الله تعالى لمّا أغرق فرعون أوحى إلى البحر أن يقذف أجسادهم إلى الساحل

ففعل فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم هلاك الفاسقين .

وقال يمان : يعني مسكن فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(43/287)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ . . . ﴾ الآية

في ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ ﴾ قولان :

أحدهما : فرضنا ، كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة : 183] أي

فرض .

والثاني : أنه كتابة خط بالقلم في ألواح أنزلها الله عليه .

واختلفوا في الألواح من أي شيء كانت على أربعة أقاويل :

أحدها : أنها كانت من زمرد أخضر ، قاله مجاهد .

والثاني : أنها كانت من ياقوت ، قاله ابن جبير .

والثالث : أنها كانت من زبرجد ، قاله أبو العالية .

والرابع : قاله الحسن كانت الألواح من خشب ، واللوح مأخوذ من أن المعاني تلوح بالكتابة فيه .

وفي قوله : ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ قولان :

أحدهما : من كل شيء يحتاج إليه في دينه من الحلال والحرام والمباح والمحظور والواجب وغير الواجب .

والثاني : كتب له التوراة فيها من كل شيء من الحكم والعبر .

وفي قوله : ﴿ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً . . . ﴾ تأويلان :

أحدهما : أن الموعظة النواهي ، والتفصيل : الأوامر ، وهو معنى قول الكلبي .

والثاني : الموعظة : الزواجر ، والتفصيل : الأحكام ، وهو معنى قول مقاتل .

قال : وكانت سبعة ألواح .

﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : بجد واجتهاد قاله السدي .

والثاني : بطاعة ، قاله الربيع بن أنس .

والثالث : بصحة عزيمة ، قاله علي بن عيسى .

والرابع : بشكر ، قاله جويبر .

﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ لم يقل ذلك لأن فيها غير حسن ، وفيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن أحسنها : المفروضات ، وغير الأحسن : المباحات .

والثاني : أنه الناسخ دون المنسوخ .

والثالث : أن فعل ما أمر به أحسن من ترك ما نهي عنه لأن العمل أثقل من الترك وإن كان طاعة .

﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الفَاسِقِينَ ﴾ فيها أربعة أقاويل :

أحدها : هي جهنم ، قاله الحسن ، ومجاهد .

(44/287)

والثاني : هي منازل من هلك بالتكذيب من عاد وثمود والقرون الخالية ، لتعتبروا بها وبما صاروا إليه من النكال ، قاله قتادة .

والثالث : أنها منازل سكان الشام الجبابرة والعمالقة .

والرابع : أنها دار فرعون وهي مصر .

وقرأ قسامة بن زهير ﴿ سَأُوْرِثُكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وكتبنا له في الألواح ﴾ الآية ،

الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على موسى عليه السلام ، والألف واللام في ﴿ الألواح ﴾ عوض من الضمير الذي يقدر وصله بين الألواح وموسى عليه السلام ، تقديره في ألواحه ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات : 41] مأواه وقيل : كانت الألواح اثنين ، وقيل أيضاً من برد ، وقال الحسن من خشب ، وقوله ﴿ من كل شيء ﴾ لفظه عموم والمراد به كل شيء ينفع في معنى الشرع ويحتاج إليه في المصلحة ، وقوله ﴿ لكل شيء ﴾ مثله ، قال ابن جبير : ما أمروا به ونهوا عنه ، وقاله مجاهد : وقال السدي : الحلال والحرام . وقوله ﴿ بقوة ﴾ معناه بجد وصبر عليها واحتمال لمؤنها قاله ابن عباس والسدي ، وقال الربيع بن أنس ﴿ بقوة ﴾ هنا بطاعة ، وقال ابن عباس أمر موسى أن يأخذ بأشد مما أمر به قومه ، و" خذ " أصله أؤخذ حذفت الهمزة التي هي فاء الفعل على غير قياس فاستغني عن الأول ، وقوله ﴿ بأحسنها ﴾ يحتمل معنيين أحدهما التفضيل كأنه قال : إذا اعترض فيها مباحان فيأخذون الأحسن منهما كالعفو والقصاص ، والصبر

والانتصار .

قال القاضي أبو محمد : هذا على القول إن أفعل في التفضيل لا يقال إلا لما لهما اشتراك في المفضل فيه وأما على القول الآخر فقد يراد بالأحسن المأمور به بالإضافة للمنهي عنه لأنه أحسن منه ، وكذلك الناسخ بالإضافة إلى المنسوخ ونحو هذا ، وذهب إلى هذا المعنى الطبري .

(46/287)

قال القاضي أبو محمد : ويؤيد هذا التأويل أنه تدخل فيه الفرائض وهي لا تدخل في التأويل الأول ، وقد يمكن أن يتصور اشتراك في حسن من المأمور به والمنهي عنه ولو بحسب الملاذ وشهوات النفس الأمارة ، والمعنى الآخر الذي يحتمله قوله : ﴿ بأحسنها ﴾ أن يريد بأحسن وصف الشريعة بجملتها ، فكأنه قال : قد جعلنا لكم شريعة هي أحسن كما تقول : الله أكبر دون مقايسة ثم قال : فمرهم يأخذوا بأحسنها الذي شرعناه لهم ، وفي هذا التأويل اعتراضات ، وقرأ جمهور الناس ﴿ سأوريكم ﴾ ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " سأوريكم " قال أبو الفتح ظاهر هذه القراءة مردود وهو أبو سعيد المأثور فصاحته فوجهها

أن المراد أريكم ثم أشبعت ضمة الهزة ومطلب حتى نشأت عنها واو ، ويحسن احتمال الواو في هذا الموضع أنه موضع وعيد وإغلاظ فمكن الصوت فيه .

(47/287)

وقرأ قسامة بن زهير " سأورثكم " قاله أبو حاتم ، ونسبها المهدوي إلى ابن عباس ، وثبتت الواو في خط المصحف فلذلك أشكل هذا الاختلاف مع أنا لا نتأول إلا أنها مرويات فأما من قرأها " سأوريكم " فالمعنى عنده سأعرض عليكم وأجعلكم تخشون لتعتبروا حال دار الفاسقين ، والرؤية هنا رؤية العين إلا أن المعنى يتضمن الوعد للمؤمنين والوعيد للفاسقين ويدل على أنها ررية العين تعدى فعلها وقد عدي الهمزة إلى مفعولين فهو مقدر أي مدمرة أو خربة مسعرة على قول من قال : هي جهنم ، قيل له : ولا يجوز حذف هذا المفعول والاقتصار دونه أنها داخله على الابتداء والخبر ولو جوز لكان على قبح في اللسان لا يليق بكتاب الله عز وجل ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومقاتل وقتادة في كتاب النقاش ﴿ دار الفاسقين ﴾ مصر والمراد آل فرعون ، وقال قتادة أيضاً : " دار الفاسقين " الشام والمراد العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم ، وقال مجاهد والحسن : " دار الفاسقين " جهنم والمراد الكفرة بموسى عامة ، وقال النقاش عن الكلبي : ﴿ دار الفاسقين

﴿ دور ثمود وعاد والأمم الخالية : أي سنقصها عليكم فترونها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(48/287)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء ﴾

في ماهية الألواح سبعة أقوال .

أحدها : أنها زبرجد ، قاله ابن عباس .

والثاني : ياقوت ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : زمرُّد أخضر ، قاله مجاهد .

والرابع : بَرَد ، قاله أبو العالية .

والخامس : خشب ، قاله الحسن .

والسادس : صخر ، قاله وهب بن منبه .

والسابع : زمرد وياقوت ، قاله مقاتل .

وفي عددها أربعة أقوال .

أحدها : سبعة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : لوحان ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء .

قال : وإنما سماها الله تعالى ألواحاً ، على مذهب العرب في إيقاع الجمع على التثنية ، كقوله : ﴿ وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ [الأنبياء : 78] يريد : داود وسليمان ، وقوله : ﴿ فقد صغت قلوبُكما ﴾ [التحريم : 4] .

والثالث : عشرة ، قاله وهب .

والرابع : تسعة ، قاله مقاتل .

وفي قوله : ﴿ من كل شيء ﴾ قولان .

أحدهما : من كل شيء يحتاج إليه في دينه من الحلال والحرام والواجب وغيره .

والثاني : من الحِكَم والعِبَر .

قوله تعالى : ﴿ موعظة ﴾ أي : نهياً عن الجهل .

﴿ وتفصيلاً ﴾ أي : تبييناً لكل شيء من الأمر والنهي والحدود والأحكام .

قوله تعالى : ﴿ فخذها بقوة ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بجدٍّ وحزم ، قاله ابن عباس .

والثاني : بطاعة ، قاله أبو العالية .

والثالث : بشكر ، قاله جويبر .

قوله تعالى : ﴿ وأمْر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ إن قيل : كأن فيها ما ليس بحسن ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن المعنى : يأخذوا بحسنها ، وكلها حَسَن ، قاله قطرب .

وقال ابن الأنباري : ناب "أحسن" عن "حسن" كما قال الفرزدق :

إِنَّ الذي سَمَكَ السَّمَاءَ بنى لَنَا . . .
بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وأَطْوَلُ

أي : عزيزة طويلة .

وقال غيره : "الأحسن" ها هنا صلة ، والمعنى : يأخذوا بها .

والثاني : أن بعض ما فيها أحسن من بعض .

ثم في ذلك خمسة أقوال .

(49/287)

أحدها : أنهم أُمروا فيها بالخير ونُهوا عن الشر ، فَفِعْلُ الخير هو الأحسن .

والثاني : أنها اشتملت على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض ، كالقصاص والعفو والانتصار والصبر ، فأُمِروا أن يأخذوا بالأحسن ، ذكر القولين الزجاج .

فعلى هذا القول ، يكون المعنى : انهم يتبعون العزائم والفضائل ، وعلى الذي قبله ، يكون المعنى : أنهم يتبعون الموصوف بالحسن وهو الطاعة ، ويجتنبون الموصوف بالقبح وهو المعصية .

والثالث : أحسنها : الفرائض والنوافل ، وأدونها في الحسن : المباح .

والرابع : أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة ، فتصرف إلى الاشبه بالحق .

والخامس : أن أحسنها : الجمع بين الفرائض والنوافل .

قوله تعالى : ﴿ سأُرِيكم دار الفاسقين ﴾ فيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها جهنم ، قاله الحسن ، ومجاهد .

والثاني : انها دار فرعون وقومه ، وهي مصر ، قاله عطية العوفي .

والثالث : أنها منازل من هلك من الجبابرة والعمالقة ، يريهم إياها عند دخولهم الشام ، قاله قتادة .

والرابع : أنها مصارع الفاسقين ، قاله السدي .

ومعنى الكلام : سأُرِيكم عاقبة من خالف أمري ، وهذا تهديد للمخالف ، وتحذير للموافق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(50/287)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾

يريد التوراة .

وروي في الخبر أنه قبض عليه جبريلُ عليه السلام بجناحه فمر به في العُلاَ حتى أدناه حتى سَمِع صَرِيف القلم حين كتب الله له الألواح ؛ ذكره الترمذيّ الحكيم .

وقال مجاهد : كانت الألواح من زُمُرُّدَة خضراء .

ابن جُبير : من ياقوتة حمراء .

أبو العالية : من زَبَرْجَد .

الحسن : من خشب ؛ نزلت من السماء .

وقيل : من صخرة صمّاء ، لَيّنها الله لموسى عليه السلام فقطعها بيده ثم شقها بأصابعه ؛ فأطاعته كالحديد لداود .

قال مقاتل : أي كتبنا له في الألواح كنقش الخاتم .

ربيع بن أنس : نزلت التوراة وهي سبعون وِقْر بعير .

وأضاف الكتابة إلى نفسه على جهة التشريف ؛ إذ هي مكتوبة بأمره كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر .

واستُمدّ من نهر النور .

وقيل : هي كتابة أظهرها الله وخلقها في الألواح .

وأصل اللّوح : لَوْح (بفتح اللام) ؛ قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 22] .

فكأن اللوح تلوح فيه المعاني .

ويروى أنها لوحان ، وجاء بالجمع لأن الاثنين جمع .

ويقال : رجل عظيم الألواح إذا كان كبير عظم اليدين والرجلين .

ابن عباس : وتكسرت الألواح حين ألقاها فرفعت إلا سُدْسَها .

وقيل : بقي سُبُعُها ورفعت سِتّة أسباعها .

فكان في الذي رفع تفصيل كل شيء ، وفي الذي بقي الهدى والرحمة .

وأسند أبو نعيم الحافظ عن عمرو بن دينار قال : بلغني أن موسى بن عمران نبيّ الله صلى الله عليه وسلم صام أربعين ليلة ؛ فلما ألقى الألواح تكسرت فصام مثلها فردّت إليه .

ومعنى "مِنْ كُلِّ شَيْءٍ" مما يحتاج إليه في دينه من الأحكام وتبيين الحلال والحرام ؛ عن الثَّوْرِيّ وغيره .

وقيل : هو لفظ يُذكر تفخيماً ولا يراد به التعميم ؛ تقول : دخلت السوق فاشتريت كل شيء .

وعند فلان كل شيء .

و﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف : 25] .

(51/287)

﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] .

وقد تقدّم .

﴿ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي لكل شيء أمروا به من الأحكام ؛ فإنه لم يكن عندهم اجتهاد ، وإنما خص بذلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ في الكلام حذف ، أي فقلنا له : خذها بقوة ؛ أي بجدّ ونشاط .

نظيره ﴿ خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ وقد تقدّم .

﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهي ، ويتدبروا الأمثال والمواعظ .

نظيره ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الزمر : 55] .

وقال : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 18] .

والعَفْوُ أحسنُ من الاقتصاص .

والصبر أحسن من الانتصار .

وقيل : أحسنها الفرائض والنوافل ، وأدْوَنُها المباح .

﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ قال الكلبي : "دَارَ الْفَاسِقِينَ" ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود ، والقرون التي أهلكوا .

وقيل : هي جهنم ؛ عن الحسن ومجاهد .

أي فلتكن منكم على ذُكْر ، فاحْذَرُوا أن تكونوا منها .

وقيل : أراد بها مصر ؛ أي سأريكم ديار القبط ومساكن فرعون خالية عنهم ؛ عن ابن جُبير .

قتادة : المعنى سأريكم منازل الكفار التي سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها ؛ يعني الشأم .

وهذان القولان يدل عليهما ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾ [الأعراف : 137] الآية .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض ﴾ [القصص : 5] الآية ، وقد تقدّم .

وقرأ ابن عباس وقَسَامة بن زهير "سأورّثكم" من ورّث .

وهذا ظاهر .

وقيل : الدار الهلاك ، وجمعه أدوار .

وذلك أن الله تعالى لما أغرق فرعون أوحى إلى البحر أن اقذف بأجسادهم إلى الساحل ،

قال : ففعل : فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم هلاك الفاسقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(52/287)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وكتبنا في الألواح ﴾

قال ابن عباس : يريد ألواح التوراة والمعنى وكتبنا لموسى في ألواح التوراة قال البغوي وفي الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح إثنا عشر ذراعاً وجاء في الحديث خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده .

وقال الحسن : كانت الألواح من خشب .

وقال الكبي من زبرجدة خضراء .

وقال سعيد بن جبير من ياقوته حمراء .

وقال ابن جريج من زمرد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى جاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور .

وقال الربيع بن أنس : كانت الألواح من زبرجد وقال وهب : أمره الله بقطع ألواح من سخرة

صماء لينها له فقطها بيده ثم شقها بأصبعه وسمع موسى صرير الأقلام بالكلمات العشر وكان ذلك في أول يوم من ذي الحجة كان طول الألواح عشرة أذرع على طول موسى وقيل إن موسى خر صعقاً يوم عرفه فأعطاه الله تعالى التوراة يوم النحر وهذا أقرب إلى الصحيح عنه أنها لوحان واختاره الفراء قال وإنما جمعت على عدة العرب في إطلاق الجمع على الإثنين وقال وهب كانت عشرة ألواح.

وقال مقاتل: كانت تسعة.

وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي وقر سبعين بعيراً يقرأ لجزء منها في سنة ولم يقرأها إلا أربعة نفر موسى ويوشع بن نون وعزيز وعيسى عليهم الصلاة والسلام والمراد بقوله لم يقرأها يعني لم يحفظها ويقرأها عن ظهر قلبه إلا هؤلاء الأربعة.

(53/287)

وقال الحسن: هذه الآية في التوراة بألف آية يعني قوله وكتبنا له في الألواح ﴿ من كل شيء ﴾ يعني يحتاج إليه من أمر ونهي ﴿ موعظة ﴾ يعني نهياً عن الجهل وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته ﴿ وتفصيلاً لكل شيء ﴾ يعني وتبييناً لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام مما يحتاج إليه في أمور الدين وروى الطبري

بسنده عن وهب بن منبه قال : كتب له يعني في التوراة لا تشرك بي شيئاً من أهل السماء ولا من أهل الأرض فإن كل ذلك خلقي ولا تحلف باسمي كاذباً فإن من حلف باسمي كاذباً فلا أزكيه ووقر والديك .

(54/287)

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن كعب الأحبار أن موسى عليه الصلاة والسيلام نظر في التوراة فقال : إني أجد أمة خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال رب اجعلهم أمتي قال هي أمة محمد يا موسى فقال رب إني لأجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال : رب إني أجد في التوراة أمة يأكلون كفارتهم وصدقاتهم وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال : يا رب إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبّر الله وإذا هبط وادياً حمد الله الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غر محجلون من آثار

الوضوء فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال : يا رب إني أجد أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعلمها كتب له حسنة بمثلها وإن عملها كتبت بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال : يا رب إني أجد مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحداً منهم إلا مرحوماً فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال : رب إني أجد أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصفون في صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل لا يدخل النار أحد منهم أبداً إلا من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء من البحر فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد فلما عجب موسى من الخير الذي أعطاه الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) وأمته قال يا ليتني من أصحاب محمد فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن

(55/287)

﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ - إلى قوله - ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ قال فرضي موسى كل الرضا .

وقوله تعالى : ﴿ فخذها بقوة ﴾ يعني وقلنا لموسى إذا كتبنا له في الألواح من كل شيء خذها بجد واجتهاد .

وقيل معناه فخذها بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة لأن من أخذ شيئاً بضعف نية أداه إلى الفتور ﴿ وأمر قومك يأخذون بأحسنها ﴾ قال ابن عباس : يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويعلموا بمحكمها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى أشد عبادة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به وقيل ظاهر قوله ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ يدل على أن بين التكليفين فرقا ليكون في هذا الفصل فائدة وهي أن التكليف كان على موسى أشد لأنه تعالى لم يرخص له ما رخص لغيره من قومه .

فإن قلت ظاهر قوله تعالى : ﴿ يأخذوا بأحسنها ﴾ يدل على أن فيها ما ليس بحسن وذلك لم يقل به أحد فما معنى قوله ﴿ يأخذوا بأحسنها ﴾ ؟ قلت إن التكليف كله حسن وبعضه أحسن كالقصاص حسن ولكن العفو أحسن وكالانتصار حسن والصبر أحسن منه فأمروا أن يأخذوا بالشد على أنفسهم ليكون ذلك أعظم من الثواب فهو كقوله ﴿ اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ وكقوله ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ وقيل إن الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والأحسن الأخذ بالأشد والأشق على النفس وقيل معناه بأحسنها بحسنها وكلها حسن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(56/287)

قوله تعالى : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾

قال مجاهد : يعني مصيركم في الآخرة وقال الحسن وعطاء يريد جهنم يحذركم أن تكونوا مثلهم .

وقال قتادة : سأدخلكم الشام فأريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا الله تعالى لتعتبروا بها .

وقال عطية العوفي يعني دار فرعون وقومه وهي مصر .

وقال السدي : يعني منازل الكفار وقال الكلبي هي منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا فكانوا يمرون عليها إذا سافروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(57/287)

وقال أبو حيان :

﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء ﴾

قيل : إنّ موسى عليه السلام صعق يوم الجمعة يوم عرفة وأفاق فيه وأعطى التوراة يوم النحر وظاهر قوله ﴿ وكتبنا ﴾ نسبة الكتابة إليه .

(58/287)

فقيل كتب بيده وأهل السماء يسمعون صرير القلم في اللوح ، وقيل : أظهرها وخلقها في الألواح ، وقيل : أمر القلم أن يخطَّ لموسى في الألواح ، وقيل : كتبها جبريل عليه السلام بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النّور ففي هذين القولين أسند ذلك إلى نفسه تشريف إذ ذاك صادر عن أمره ، وقيل : معنى ﴿ كتبنا ﴾ فرضنا كقوله تعالى ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ والضمير في ﴿ له ﴾ عائد على موسى ﴿ والألواح ﴾ جمع قلة وأل فيها لتعريف الماهيّة فإن كان هو الذي قطعها وشققها فتكون أل فيها للعهد ، وقال ابن عطية : عوض من الضمير الذي يقدر وصلة بين الألواح وموسى عليه السلام تقديره في ألواحه وهذا كقوله تعالى ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ أي مأواه انتهى وكون أل عوضاً من الضمير ليس مذهب البصريين ولا يتعين أن يكون عوضاً من الضمير وليس ذلك كقوله ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ لأنّ الجملة خبر عن من فاحتاجت الجملة إلى رابط ، فقال الكوفيون : أل عوض من الضمير كأنه قيل مأواه ، وقال البصريون : الرابط محذوف أي هي المأوى له وظاهر

الألواح الجمع ، فقيل كانت سبعة وروى ذلك عن ابن عباس ، وقيل ثمانية ذكره الكرماني ، وقيل : تسعة قاله مقاتل : وقيل : عشرة قاله وهب بن منبه ، وقيل اثنان وروي عن ابن عباس أيضاً واختاره الفرّاء ، وهذا ضعيف لأنّ الدلالة بالجمع على اثنين قياساً له شرط مذكور في النحو هو مفقود هنا ، وقال الربيع بن أنس : نزلت التوراة وهي وقر سبعين بعيراً يقرأ الجزء منها في سنة ولم يقرأها سوى أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى ، وقد اختلفوا من أي شيء هي فعن ابن عباس وأبي العالية زبرجد ، وعن ابن جبير من ياقوت أحمر ، وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد من زمرد أخضر ، وعن أبي العالية أيضاً من برد ، وعن مقاتل من زمرد وياقوت ، وعن الحسن من خشب طولها عشرة أذرع ، وعن وهب من صخرة صماء أمر بقطعها ولانت له فقطعها بيده وشققها بأصابعه ، وقيل : من نور حكاه الكرماني ،

(59/287)

والمعنى من كل شيء محتاج إليه في شريعتهم .

﴿ موعظة ﴾ للازدجار والاعتبار ﴿ وتفصيلاً لكل شيء ﴾ من التكاليف الحلال والحرام والأمر والنهي والقصص والعقائد والإخبار والمغيبات ، وقال ابن جبير ومجاهد :

لكل شيء مما أمروا به ونهوا عنه ، وقال السدّي الحلال والحرام ، وقال مقاتل كان مكتوباً في الألواح إني أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بي شيئاً ولا تقطعوا السبل ولا تحلفوا باسمي كاذبين فإن من حلف باسمي كاذباً فلا أزكيه ولا تقتلوا ولا تزنوا ولا تعقوا الوالدين والظاهر أن مفعول ﴿ كتبنا ﴾ أي كتبنا فيها ﴿ موعظة ﴾ ﴿ من كل شيء ﴾ ﴿ وتفصيلاً لكل شيء ﴾ قاله الحوفي قال نصب ﴿ موعظة ﴾ بكتبنا ﴿ وتفصيلاً ﴾ عطف على ﴿ موعظة ﴾ ﴿ لكل شيء ﴾ متعلق بتفصيلاً انتهى ، وقال الزمخشري : ﴿ من كل شيء ﴾ في محل النصب مفعول ﴿ وكتبنا ﴾ ﴿ وموعظة ﴾ ، ﴿ وتفصيلاً ﴾ بدل منه والمعنى كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل يحتاجون إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام انتهى ، ويحتمل عندي وجه ثالث وهو أن يكون مفعول ﴿ كتبنا ﴾ موضع المجرور كما تقول أكلت من الرّغيف ، و ﴿ من ﴾ للتبعيض أي كتبنا له أشياء من كل شيء وانتصب ﴿ موعظة وتفصيلاً ﴾ على المفعول من أجله أي كتبنا له تلك الأشياء للاتعاظ والتفصيل لأحكامهم .

(60/287)

﴿ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين ﴾ أي فقلنا خذها عطفاً على ﴿ كتبنا ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ فخذها ﴾ بدلاً من قوله ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ ، والضمير في ﴿ فخذها ﴾ عائد على ما على معنى ما لا على لفظها وأما إذا كان على إضمار فقلنا فيكون عائداً على ﴿ الألواح ﴾ أي الألواح أو على ﴿ كل شيء ﴾ لأنه في معنى الأشياء أو على التوراة أو على الرسالات وهذه احتمالات مقوّلة أظهرها الأول ، ومعنى ﴿ بقوة ﴾ قال ابن عباس بجدّ واجتهاد فعل أولي العزم ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس : بطاعة ، وقال جويبر : بشكر ، وقال ابن عيسى : بعزيمة وقوة قلب لأنه إذا أخذها بضعف النية أدّاه إلى الفتور ، وهذا القول راجع لقول ابن عباس : أمر موسى أن يأخذ بأشد مما أمر به قومه وقوله ﴿ بِأحسنها ﴾ ظاهره أنه أفعل التفضيل وفيها الحسن والأحسن كالقصاص والعفو والانتصار والصبر ، وقيل : أحسنها الفرائض والنوافل وحسنها المباح ، وقيل : أحسنها الناسخ وحسنها المنسوخ ولا يتصور أن يكون المنسوخ حسناً إلا باعتبار ما كان عليه قبل النسخ أما بعد النسخ فلا يوصف بأنه حسن لأنه ليس مشروعاً ، وقيل الأحسن المأمور به دون المنهي عنه ، قال الزمخشري : على قوله الصيف أحرّ من الشتاء انتهى ، وذلك على تخيّل أن في الشتاء حرّاً ويمكن الاشتراك فيهما في الحسن بالنسبة إلى الملاذ وشهوات النفس فيكون المأمور به أحسن من حيث الامتثال وترتب الثواب عليه ويكون المنهي عنه حسناً باعتبار الملاذ والشهوة فيكون بينهما قدر مشترك في

الحسن وإن اختلف متعلقه ، وقيل أحسنها هو أشبه ما تحتمله الكلمة من المعاني إذا كان لها احتمالات فتحمل على أولاها بالحق وأقربها إليه ، وقيل أحسن هنا ليست أفعل التفضيل بل المعنى بحسنها كما قال :

بيتاً دعائمه أعز وأطول . . .

(61/287)

أي عزيزة طويلة قاله قطرب وابن الأنباري فعلى هذا أمروا بأن يأخذوا بحسنها وهو ما يترتب عليه الثواب دون المناهي التي يترتب على فعلها العقاب ، وقيل أحسن هنا صلة والمعنى يأخذوا بها وهذا ضعيف لأنّ الأسماء لا تزاد وانجزم ﴿ يأخذوا ﴾ على جواب الأمر وينبغي تأويل ﴿ وأمر قومك ﴾ لأنه لا يلزم من أمر قومه بأخذ أحسنها أن ﴿ يأخذوا بِأحسنها ﴾ فلا ينتظم منه شرط وجزاء ﴿ وبأحسنها ﴾ متعلّق بيأخذوا وذلك على إعمال الثاني لأن ﴿ يأخذوا بِأحسنها ﴾ مقتضى لقوله ﴿ وأمر ﴾ ولقوله ﴿ يأخذوا ﴾ مجزوماً على إضمار لام الأمر أي ليأخذوا لأنّ معنى ﴿ وأمر قومك ﴾ قل لقومك وذلك على مذهب الكسائي ومفعول ﴿ يأخذوا ﴾ محذوف لفهم المعنى أي ﴿ يأخذوا ﴾ أنفسهم ﴿ بِأحسنها ﴾ ويحتمل أن تكون الباء زائدة أي يأخذوا أحسنها

كقوله لا يقرأن بالسور ، والوجه الأوّل أحسن وانظر إلى اختلاف متعلق الأمرين أمر موسى بأخذ جميعها ، فقيل : ﴿ فخذها بقوة ﴾ وأكّد الأخذ بقوله ﴿ بقوة ﴾ وأمروا هم أن ﴿ يأخذوا بِأحسنها ﴾ ولم يؤكد ليعلم أن رتبة النبوة أشقّ في التكليف من رتبة التابع ولذلك فرض على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قيام الليل وغير ذلك من التكاليف المختصة به والإراءة هنا من رؤية العين ولذلك تعدَّت إلى اثنين و ﴿ دار الفاسقين ﴾ مصر قاله عليّ وقتادة ومقاتل وعطية العوفي والفاسقون فرعون وقومه .

(62/287)

قال الزمخشري كيف أقفرت منهم ودمّروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكّل بكم مثل نكالهم انتهى ، وقيل المعنى : سأريكم مصارع الكفار وذلك أنه لما أغرق فرعون وقومه أوحى إلى البحر أن اقذف أجسادهم إلى الساحل ففعل فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم مصارع الفاسقين ، وقال الكلبي : ما مرّوا عليه إذا سافروا من مصارع عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا ، وقال قتادة أيضاً الشام والمراد العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم ، وقال مجاهد والحسن : ﴿ دار الفاسقين ﴾ جهنم والمراد الكفرة بموسى وغيره ، وقال ابن زيد : ﴿ سأريكم ﴾ من رؤية القلب أي سأعلمكم سير الأولين وما حلّ بهم من النكال ،

وقيل ﴿ دار الفاسقين ﴾ أي ما دار إليه أمرهم وهذا لا يدرك إلا بالأخبار التي يحدّث عنها العلم وهذا قريب من قول ابن زيد ، وقال ابن عطية : ولو كان من رؤية القلب لتعدّى بالهمزة إلى ثلاثة ولو قال قائل المفعول الثالث يتضمنه المعنى فهو مقدّر أي مدمرة أو خربة أو مسعرة على قول من قال إنها جهنم قيل له : لا يجوز حذف هذا المفعول ولا الاقتصاد دونه لأنها داخلة على الابتداء والخبر ولو جوز لكان على قبح في اللسان لا يليق بكتاب الله تعالى انتهى ، وحذف المفعول الثالث في باب أعلم لدلالة المعنى عليه جائز فيجوز في جواب هل أعلمت زيداً عمراً منطلقاً أعلمت زيداً عمراً ويحذف منطلقاً لدلالة الكلام السابق عليه وأما تعليله لأنها داخلة على الابتداء والخبر لا يدل على المنع لأن خبر المبتدأ يجوز حذفه اختصاراً والثاني والثالث في بام أعلم يجوز حذف كل واحد منهما اختصاراً وفي قوله لأنها أي ﴿ سأريكم ﴾ داخلة على المبتدأ والخبر فيه تجوز ويعني أنها قبل النقل بالهمزة فكانت داخلة على المبتدأ والخبر ، وقرأ الحسن : ﴿ سأوريكم ﴾ بواو ساكنة بعد الهمزة على ما يقتضيه رسم المصحف ووجّهت هذه القراءة بوجهين ، أحدهما : ما ذكره أبو الفتح وهو أنه أشبع الضمة ومطّلها فنشأ عنها

الواو قال : ويحسن احتمال الواو في هذا الموضع أنه موضع وعيد وإغلاظ فمكن الصوت فيه انتهى ، فيكون كقوله أدنو فانظر رأى فانظر ، وهذا التوجيه ضعيف لأن الإشباع بابه ضرورة الشعر ، والثاني : ما ذكره الزمخشري قال وقرأ الحسن ﴿ سأوريكم ﴾ وهي لغة فاشية بالحجاز يقال : أورني كذا وأوريته فوجهه أن يكون من أوريت الزند كأن المعنى بينه لي وأثره لأستبينه انتهى ، وهي أيضاً في لغة أهل الأندلس كأنهم تلقفوها من لغة الحجاز وبقيت في لسانهم إلى الآن وينبغي أن ينظر في تحقق هذه اللغة أهي في لغة الحجاز أم لا ، وقرأ ابن عباس وقسامة بن زهير سأورثكم ، قال الزمخشري وهي قراءة حسنة يصححها قوله تعالى ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(64/287)

وقال أبو السعود :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾

أي مما يحتاجون إليه من أمور دينهم ﴿ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ بدلٌ من الجارّ والمجرور أي كتبنا له كلَّ شيءٍ من المواعظ وتفصيلِ الأحكام ، واختُلف في عدد الألواحِ

وفي جوهرها ومقدارِها فقيل : إنها كانت عشَرَةَ ألواحٍ وقيل : سبعةً وقيل : لوحين وأنها كانت من زُمُرُّذَةٍ جاء بها جبريلُ عليه السلام وقيل : من زَبَرْجَدةٍ خضراءَ أو ياقوتةٍ حمراءَ . وقيل : أمر الله تعالى موسى بقطعها من صخرة صمّاءَ ليّنها له فقطعها بيده وشققها بأصابعه . وعن الحسن رضي الله عنه كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراةُ وأن طولَها كان عشَرَةَ أذرُع . وقيل : أُنزلت التوراةُ وهي سبعون وِقْرَ بعيرٍ يقرأ الجزءُ منه في سنة لم يقرأها إلا أربعةُ نفرٍ : موسى ويوشعُ وعُزيرٌ وعيسى عليهم السلام . وعن مقاتل رضي الله عنه كُتب في الألواح إني أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركِوا بي شيئاً ولا تقطعوا السبيلَ ولا تزْنوا ولا تعقُّوا الوالدين ﴿ فَخُذْهَا ﴾ على إضمار قولٍ معطوف على كتبنا أي فقلنا خذها ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجدَ وعزيمة وقيل : هو بدلٌ من قوله تعالى : ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ ﴾ والضميرُ للألواح أو لكل شيءٍ لأنه بمعنى الأشياء أو للرسالة أو للتوراة .

(65/287)

﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي بأحسنِ ما فيها كالعفو والصبر لا الإضافة إلى الاقتصاص والانتصار على طريقة الندب والحثّ على اختيار الأفضل كما في قوله تعالى : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مّن رَّبّكُمْ ﴾ أو بواجباتها فإنها أحسنُ من المباح ، وقيل

: المعنى يأخذوا بها ، و (أحسن) صلةٌ . قال قُطرُب : أي بحسَنها وكلُّها حسنٌ كقوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ وقيل : هو أن تُحمل الكلمةُ المحتملةُ لمعنيين أو لمعان على أشبه محتمَلاتِها بالحق وأقربِها إلى الصواب ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى قومه عليه الصلاة والسلام بطريق الالتفاتِ حملاً لهم على الجد في الامتثال بنا أُمروا به ، إما على نهج الوعيدِ والترهيب على أن المرادَ بدار الفاسقين أرضَ مصرَ وديارُ عادٍ وثمودَ وأضرابِهم فإن رؤيتها وهي خاليةٌ عن أهلها خاويةٌ على عروشها موجبةٌ للاعتبار والانزجارِ عن مثل أعمالِ أهلِها كيلا يحلَّ بهم ما حل بأولئك وإما على نهج الوعدِ والترغيبِ على أن المرادَ بدار الفاسقين إما أرضُ مصرَ خاصةً أو مع أرض الجبابرةِ والعمالقةِ بالشام فإنها أيضاً مما أتيح لبني إسرائيلَ وكُتب لهم حسبما ينطِق به قولُه عز وجل : ﴿ العالمين يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ومعنى الإراءةِ الإدخالُ بطريق الإيراثِ ، ويؤيده قراءةُ مَنْ قرأ سأُورثكم بالثاء المثلثة كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ وقرىء سأُوريكم ولعله من أوريْتُ الزندَ أي سأبيِّنُها بكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(66/287)

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾

يحتاجون إليه من الحلال والحرام والمحاسن والقبائح على ما قال الرازي وغيره ، وما أخرجه الطبراني .

والبيهقي في الدلائل عن محمد بن يزيد الثقفي قال : اصطحب قيس بن خرشة وكعب الأحبار حتى إذا بلغا صفين وقف كعب ثم نظر ساعة ثم قال : ليهراقن بهذه البقعة من دماء المسلمين شيء لا يهراق ببقعة من الأرض مثله فقال قيل : ما يدريك فإن هذا من الغيب الذي استأثر الله تعالى به ؟ فقال كعب : ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله تعالى على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة ظاهر في أن كل شيء أعم مما ذكر ، ولعل ذكر ذلك من باب الرمز كما ندعيه في القرآن ﴿ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ بدل من الجار والمجرور ، أي كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام ، وإلى هذا ذهب غير واحد من المعربين ، وهو مشعر بأن ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة لا تبعيضية ، وفي زيادتها في الإثبات كلام ، قيل : ولم تجعل إبتدائية حالاً من موعظة وموعظة مفعول به لأنه ليس له كبير معنى ، ولم تجعل موعظة مفعول له وإن استوفى شرائطه لأن الظاهر عطف تفصيلاً عن موعظة ، وظاهر أنه لا معنى لقولك كتبنا له من كل شيء لتفصيل كل شيء ، وأما جعله عطفاً على محل الجار والمجرور فبعيد من جهة اللفظ والمعنى .

والطيبي اختار هذا العطف وأن ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية وموعظة وحدها بدل ، والمعنى كتبنا بعض كل شيء في الألواح من نحو السور والآيات وغيرهما موعظة وكتبنا فيها تفصيل كل شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرا ونحو ذلك ، وفي ذلك اختصاص الإجمال والتفصيل بالموعظة للإيذان بأن الاهتمام بهذا أشد والعناية بها أتم ، ولكونها كذلك كثر مدح النبي صلى الله عليه وسلم بالبشير النذير ، وإشعار بأن الموعظة مما يجب أن يرجع إليه في كل أمر يذكر به ، ألا يرى إلى أن أكثر الفواصل التنزيلية والردود على هذا النمط نحو ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 65] ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 80] وإلى سورة الرحمن كيف أعيد فيها ما أعيد وذلك ليستأنف السامع به ادكاراً واتعاظاً ويجدد تنبيهاً واستيقاظاً ، وأنت تعلم أن البعد الذي أشرنا إليه باق على حاله ، وقوله سبحانه : ﴿ لّكُلّ شَىْءٍ ﴾ إما متعلق بما عنده أو بمحذوف كما قال السمين وقع صفة له ، واختلف في عدد الألواح وفي جوهرها ومقدارها وكاتبها فقيل كانت عشرة ألواح ، وقيل : سبعة ، وقيل : لوحين ، قال الزجاج : ويجوز أن يقال في اللغة للوحين ألواح وأنها كانت من زمرد أخضر ، أمر الرب تعالى جبريل عليه السلام فجاء بها من عدم ، وروى ذلك عن مجاهد ،

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريرج قال : أخبرت أن الألواح كانت من زبرجد ، وعن سعيد بن جبير قال : كانوا يقولون إنها كانت من ياقوتة وأنا أقول : إنها كانت من زمرد ، وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(68/287)

" الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعاً " وعن الحسن أنها كانت من خشب نزلت من السماء ، وأن طول كل عشرة أذرع ، وقيل : أمر الله تعالى موسى عليه السلام بقطعها من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده وسقفها بأصابعه ولا يخفى أن أمثال هذا يحتاج إلى النقل الصحيح وإلا فالسكوت أولى إذ ليس في الآية ما يدل عليه ، والمختار عندي أنها من خشب السدر إن صح السند إلى سلسلة الذهب ، والمشهور عن ابن جريج أن كاتبها جبريل عليه السلام كتبها بالقلم الذي كتب به الذكر ، والمروي عن علي كرم الله تعالى وجهه . ومجاهد . وعطاء . وعكرمة . وخلق كثير أن الله تعالى كتبها بيده وجاء أنها كتبت وموسى عليه السلام يسمع صريف الأقلام التي كتبت بها وهو المأثور عن الأمير كرم الله تعالى وجهه .

وجاء عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال : خلق الله تعالى آدم بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده ، ثم قال لأشياء كوني فكانت ، وأخرج عبد بن حميد عن وردان بن خالد قال : خلق الله تعالى آدم بيده وخلق جبريل بيده وخلق القلم بيده وخلق عرشه بيده وكتب الكتاب الذي عنده لا يطلع عليه غيره بيده وكتب التوراة بيده وهذا كله من قبيل المتشابه ، وفي بعض الآثار أنها كتبت قبل الميقات وأنزلت على ما قيل وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه في سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر موسى .

ويوشع وعزير .

وعيسى عليهم السلام .

ومما كتب فيها كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أمته وما ادخر لهم عنده وما يسر عليهم في دينهم وما وسع عليهم فيما أحل لهم حتى إنه جاء أن موسى عليه السلام عجب من الخير الذي أعطاه الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته وتمنى أن يكون منهم .

وأخرج ابن مردويه .

وأبو نعيم في الحلية وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كان فيما أعطى الله تعالى موسى في الأرواح يا موسى لا تشرك بي شيئاً فقد حق القول مني لتلفحن وجوه المشركين النار ، وأشكر لي ولوالديك أقك المتألف وأنسئك في عمرك وأحيك حياة طيبة وأقلبك إلى خير منها ، ولا تقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق فتضيق عليه الأرض برحبها والسماء بأقطارها وتبوء بسخطي والنار ، ولا تحلف باسمي كاذباً ولا آثماً فإني لا أطهر ولا أزكى من لم ينزهني ويعظم أسمائي ، ولا تحسد الناس على ما أعطيتهم من فضلي ولا تنفس عليه نعمتي ورزقي فإن الحاسد عدو نعمتي راد لقضائي ساخط لقسمتي التي أقسم بين عبادي ومن يكون كذلك فلست منه وليس مني ، ولا تشهد بما لم يع سمعك ويحفظ عقلك ويعقد قلبك فإني واقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة ثم سائلهم عنها سؤالاً حثيثاً ، ولا تزن ولا تسرق ، ولا تزن بحلية جارك فأحجب عنك وجهي وتغلق عنك أبواب السماء ، وأحب للناس ما تحب لنفسك ، ولا تذبحن لغيري فإني لا أقبل من القربان إلا ما ذكر عليه اسمي وكان خالصاً لوجهي ، وتفرغ لي يوم البست وفرغ لي نفسك وجميع أهل بيتك ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى جعل السبت لموسى عليه السلام عيداً ، واختار لنا الجمعة فجعلها عيداً "

﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أي بجد وحزم قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، والجملة على

إضمار القول عطفاً على كتبنا وحذف القول كثير مطرد ، والداعي لهذا التقدير كما قال العلامة الثاني رعاية المناسبة لكتبنا له لأنه جاء على الغيبة ، ولو كان بدله كتبنا لك لم يحتج إلى تقدير ، وأما حديث عطف الإنشاء على الأخبار فلا ضير فيه لأنه يجوز إذا كان بالفاء .

(70/287)

وقيل : هو بدل من قوله سبحانه : ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ ﴾ [الأعراف : 144] وضعف بأن فيه الفصل بأجنبي وهو جملة كتبنا المعطوفة على جملة ﴿ قَالَ ﴾ [الأعراف : 144] وهو تفكيك للنظم والضمير المنصوب للألواح أو لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء والعموم لا يكفي في عود ضمير الجماعة بدون تأويله بالجمع ، وجوز عوده للتوراة بقرينة السياق ، والقائل بالبدلية جعله عاداً إلى الرسالات ؛ والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من الفاعل أي ملتبساً بقوة ، وجوز أن يكون حالاً من المفعول أي ملتبسة بقوة براهينها ، والأول أوضح ، وأن يكون صفة مفعول مطلق أي أخذاً بقوة .

﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي أحسنها فالباء زائدة كما في قوله :

سود المحاجر لا يقرأن بالسور . . .

ويحتمل أن تكون بالباء أصلية وهو الظاهر ، وحينئذ فهي إما متعلقة بيأخذوا بتضمينه معنى يعملوا أو هو من الأخذ بمعنى السيرة ، ومنه أخذ أخذهم أي سار سيرتهم وتخلق بخلائقهم كما نقول وإما متعلقة بمحذوف وقع حالاً ومفعول يأخذوا محذوف أي أنفسهم كما قيل ، والظاهر أنه مجزوم في جواب الأمر فيحتاج إلى تأويل لأنه لا يلزم من أمرهم أخذهم ، أي إن تأمرهم ويوفقهم الله تعالى يأخذوا ، وقيل : بتقدير لام الأمر فيه بناء على جواز ذلك بعد أمر من القول أو ما هو بمعناه كما هنا ، وإضافة أفعل التفضيل هنا عند غير واحد كإضافته في زيد أحسن الناس وهي على المشهور محضة على معنى اللام ، وقيل : إنها لفظية ويوهم صنيع بعضهم أنها على معنى في وليس به ؛ والمعنى بأحسن الأجزاء التي فيها ، ومعنى أحسنيتها اشتمالها على الأحسن كالصبر فإنه أحسن بالإضافة إلى الانتصار ، أي مرهم يأخذوا بذلك على طريق الندب والحث على الأفضل كقوله تعالى :

(71/287)

﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم ﴾ [الزمر : 55] أو المعنى بأحسن أحكامها والمراد به الواجبات فإنها أحسن من المندوبات والمباحات أو حي والمندوبات على ما قيل فإنها أحسن من المباحات .

وقيل : إن الأحسن بمعنى البالغ في الحسن مطلقاً لا بالإضافة وهو المأمور به ومقابله المنهي عنه ، وإلى هذا يشير كلام الزجاج حيث قال : أمروا بالخير ونهوا عن الشر وعرفوا ما لهم وما عليهم فقيل : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ ﴾ الخ فافعل نظيره في قولهم : الصيف أحر من الشتاء فإنه بمعنى الصيف في حره أبلغ من الشتاء في برده إذ تفضيل حرارة الصيف على حرارة الشتاء غير مرادة بلا شبهة ويقال هنا : المأمور به أبلغ في الحسن من المنهي عنه في القبح . وتفصيل ما في المقام على ما ذكره الدماميني في تعليقه على المصابيح ونقله عنه الشهاب أن لأفعل أربع حالات .

(72/287)

إحداها : وهي الحالة الأصلية أن يدل على ثلاثة أمور : الأول : اتصاف من هو له بالحدث الذي اشتق منه وبهذا كان وصفاً ، الثاني : مشاركة مصحوبة في تلك الصفة ، الثالث : مزية موصوفة على مصحوبة فيها ، وبكل من هذين الأمرين فارق غيره من الصفات ، وثانيتها : أن يخلع عنه ما امتاز به من الصفات ويتجرد للمعنى الوصفي ، وثالثتها : أن تبقى عليه معانيه الثلاثة ولكن يخلع عنه قد المعنى الثاني ويخلفه قيد آخر ، وذلك أن المعنى الثاني وهو الاشتراك كان مقداً بتلك الصفة التي هي المعنى الأول فيصير مقيداً بالزيادة التي

هي المعنى الثالث ، ألا ترى أن المعنى في قولهم العسل أحلى من الخل أن للعسل حلاوة وأن تلك الحلاوة ذات زيادة وأن زيادة حلاوة العسل أكثر من زيادة حموضة الخل ، وقد قال ذلك ابن هشام في حواشي التسهيل وهو بديع جداً ، ورابعتها : أن يخلع عنه المعنى الثاني وهو المشاركة وقيد المعنى الثالث وهو كون الزيادة على مصاحبه فيكون للدلالة على الاتصاف بالحدث وعلى زيادة مطلقة لا مقيدة وذلك في نحو يوسف أحسن إخوته انتهى .

وعدم اشتراك المأمور به والمنهي عنه في الحسن المراد مما لا شبهة فيه وإن كان الحسن مطلقاً كما في "البحر" مشتركاً فإن المأمور به أحسن من حيث الامتثال وترتب الثواب عليه والمنهي عنه حسن باعتبار الملاذ والشهوة .

وقال قطرب كما نقله عنه محيي السنة : المعنى يأخذوا بحسنها وكلها حسن ، وهو ظاهر في حمل أفعل على الحالة الثانية ، وقيل : المعنى يأخذوا بها وأحسن صلة وليس له من القبول عائد .

(73/287)

وقال الجبائي : المراد يأخذوا بالناسخ دون المنسوخ ، وقيل : الأخذ بالأحسن هو أن تحمل الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها للصواب ، ولا ينبغي أن

يحمل الأخذ على الشروع كما في قولك أخذ زيد يتكلم أي شرع في الكلام ، والأحسن على العقائد فيكون المراد أمرهم ليشرعوا بالتحلي بالعقائد الحقة وهي لكونها أصول الدين وموقوفة عليها صحة الأعمال أحسن من غيرها من الفروع وهو متضمن لأمرهم بجميع ما فيها كما لا يخفى فإن أخذ بالمعنى المعنى من أفعال الشروع ليس هذا استعمالها المعهود في كلامهم على أن فيه بعد ما فيه ، ومثل هذا كون ضمير أحسنها عائداً إلى قوة على معنى مرهم يأخذوها بأحسن قوة وعزيمة فكون أمراً منه سبحانه أن يأمرهم بأخذها كما أمره به ربه سبحانه إلا أنه تعالى اكتفى في أمره عن ذكر الأحسن بما أشار إليه التنوين فإن ذلك خلاف المأثور المنساق إلى الفهم مع أنا لم نجد في كلامهم أحسن قوة ومفعول يأخذوا عليه محذوف كما في بعض الاحتمالات السابقة غير أنه فرق ظاهر بين ما هنا وما هناك .

﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ توكيد لأمر القوم بالأخذ بالأحسن وبعث عليه على نهج الوعيد والترهيب بناءً على ما روي عن قتادة .

(74/287)

وعطية العوفي من أن المراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه بمصر ورأى بصرية ، وجوز أن تكون علمية والمفعول الثالث محذوف أي سأريكم إياها خاوية على عروشها لتعتبروا

وتجدوا ولا تهاونوا في امتثال الأمر ولا تعملوا أعمال أهلها ليحل بكم ما حل بهم ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وحسن موقعه قصد المبالغة في الحث وفي وضع الإراءة موضع الاعتبار إقامة السبب مقام المسبب مبالغة أيضاً كقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرض فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾ [النمل : 69] وفي وضع دار الفاسقين موضع أرض مصر الإشعار بالعلية والتنبيه على أن يحترزوا ولا يستنوا بسنتهم من الفسق ، والسين للاستقبال لأن ذلك قبل الرجوع إلى مصر كما في "الكشف" .

وقال الكلبي : المراد بدار الفاسقين منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا ، وعن الحسن .

(75/287)

وعطاء أن المراد بها جهنم ، وأياً ما كان فالكلام على النهج الأول أيضاً ، ويجوز أن يكون على نهج الوعد والترغيب بناءً على ما روي عن قتادة أيضاً من أن المراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة بالشام فإنها مما أبيح لبني إسرائيل وكتب لهم حسبما ينطق به قوله عز وجل : ﴿ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : 21] ومعنى الإراءة الإدخال بطريق الإيراث ، ويؤيده قراءة بعضهم ﴿ سأورثكم ﴾ ، وجوز على هذا أن يراد بالدار مصر ، وفي الكلام على هذه القراءة وإرادة أرض مصر من الدار

تغليب لأن المعنى سأورثك وقومك أرض مصر ، ولا يصح ذلك عليها إذا أريد من الدار أرض الجبابرة بناءً على أن موسى عليه السلام لم يدخلها وإنما دخلها يوشع مع القوم بعد وفاته عليه السلام ، ويصح بناءً على القول بأن موسى عليه السلام دخلها ويوشع على مقدمته ، وجوز اعتبار التغليب على القراءة المشهورة أيضاً ، وقرأ الحسن ﴿ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ﴾ بضم الهمزة وواو ساكنة وراء خفيفة مكسورة وهي لغة فاشية في الحجاز ، والمعنى سأبين لكم ذلك وأنوره على أنه من أوريت الزند ، واختار ابن جني في تخريج هذه القراءة ولعله الأظهر أنها على الإشباع كقوله :

من حيثما سلكوا أدنو فأنظور . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(76/287)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِي بَيَانِ بَدْءِ وَحْيِ الشَّرِيعَةِ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَقَدْ بَدَأَ الْوَحْيُ الْمُطْلَقُ إِلَيْهِ فِي جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ مِنْ سَيْنَاءَ مُنْصَرَفَهُ مِنْ مَدْيَنَ إِلَى مِصْرَ ، وَإِنَّمَا الْمَذْكُورُ هُنَا بَدْءُ وَحْيِ كِتَابِ التَّوْرَاةِ بَعْدَ أَنْ أَنْجَى اللهُ قَوْمَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً

حُرَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ قَادِرَةٌ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا يُشَرِّعُهُ اللهُ لَهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ وَأَحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ ، وَالْأُمَّةُ الْمُسْتَعْبَدَةُ لِلْأَجْنَبِيِّ لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ جَمِيعَ أَحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ شَرِيعَتِنَا الْمُطَهَّرَةِ ، وَأَكْثَرَ أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ لَمْ تُشْرَعْ إِلَّا بَعْدَ الْهِجْرَةِ ؟ وَأَنَّ الصَّلَاةَ الَّتِي هِيَ عِبَادَةٌ بَدَنِيَّةٌ لَمَّا شُرِعَتْ فِي مَكَّةَ كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَآلُهُ وَسَلَّمَ يُصَلِّي هُوَ ، وَمَنْ آمَنَ بِهِ فِي الْبُيُوتِ سِرًّا اتِّقَاءَ أَذَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَمْنَعُونَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَقَدْ صَلَّى فِيهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَرَّةً فَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ بِسَلَا جَزُورٍ – أَيْ : كَرِشِ بَعِيرٍ بِفَرْثِهِ – فَوَضَعُوهُ عَلَيْهِ وَهُوَ

(77/287)

سَاجِدٌ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَفْعَ رَأْسِهِ حَتَّى جَاءَتِ ابْنَتُهُ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ فَأَلْقَتْهُ عَنْ ظَهْرِهِ ؟ وَهَمَّ أَبُو جَهْلٍ مَرَّةً أَنْ يَجْلِسَ عَلَيْهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَكَفَّهُ اللهُ عَنْهُ ؟

قَالَ – تَعَالَى – : وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً هَذَا السِّيَاقُ مَعْطُوفٌ عَلَى السِّيَاقِ الَّذِي قَبْلَهُ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى – : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ الْآيَاتِ ، قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ (وَعَدْنَا) مِنَ الْوَعْدِ وَالْبَاقُونَ (وَاعَدْنَا) مِنَ الْمُوَاعَدَةِ ، فَقِيلَ : إِنَّهَا هُنَا بِمَعْنَى الْوَعْدِ ، وَقِيلَ : إِنَّ فِيهَا صِيغَةَ الْمُفَاعَلَةِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى –

ضَرَبَ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَوْعِدًا لِمُكَالَمَتِهِ ، وَإِعْطَائِهِ الْأَلْوَاحَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى أُصُولِ الشَّرِيعَةِ فَقَبِلَ ذَلِكَ ثُمَّ صَعِدَ جَبَلَ سَيْنَاءَ فِي أَوَّلِ الْمَوْعِدِ ، وَهَبَطَ فِي آخِرِهِ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الِاتِّفَاقِ عَلَى الشَّيْءِ بَيْنَ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ كَالتَّلَاقِي فِي مَكَانٍ

(78/287)

مُعَيَّنٍ أَوْ زَمَانٍ مُعَيَّنٍ ، وَبَيْنَ الْوَعْدِ بِهِ مِنْ وَاحِدٍ لِآخَرَ لَا يُطْلَبُ مِنْهُ شَيْءٌ لِأَجْلِ الْوَفَاءِ ، كَقَوْلِكَ لِآخَرَ : سَأَدْعُو اللَّهَ لَكَ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَثَلًا - فَهَذَا وَعْدٌ مَحْضٌ ، وَذَاكَ يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ بِاعْتِبَارَيْنِ كَعِبَارَةِ الْآيَةِ ، وَالْمِيقَاتُ أَخَصُّ مِنَ الْوَقْتِ ، فَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي قُرِّرَ فِيهِ عَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ كَمَوَاقِيتِ الْحَجِّ . وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) (5 : 51) وَهُوَ إِجْمَالٌ لِمَا فُصِّلَ هُنَا مِنْ قَبْلُ ؛ لِأَنَّ الْأَعْرَافَ مَكِّيَّةٌ وَالْبَقَرَةَ مَدَنِيَّةٌ فَهِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا فِي التَّنْزِيلِ ، وَالْمُرَادُ بِاللَّيْلَةِ مَا يَشْمَلُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فِي عُرْفِ الْعَرَبِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ .

(79/287)

رَوَى ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّ مُوسَى قَالَ لِقَوْمِهِ : إِنَّ رَبِّي وَاعَدَنِي ثَلَاثِينَ لَيْلَةً أَنْ أَلْقَاهُ وَأَخْلِفَ هَارُونَ فِيكُمْ ، فَلَمَّا وَصَلَ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ زَادَهُ اللَّهُ عَشْرًا فَكَانَتْ فِتْنَتُهُمْ فِي الْعَشْرِ الَّتِي زَادَهُ اللَّهُ - وَذَكَرَ قِصَّةَ عِجْلِ السَّامِرِيِّ - وَرَوَى الثَّانِي عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ : وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ يَعْنِي ذَا الْقِعْدَةِ وَعَشْرًا مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ، فَمَكَثَ عَلَى الطُّورِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ التَّوْرَاةُ فِي الْأَلْوَاحِ ، فَقَرَّبَهُ الرَّبُّ نَجِيًّا وَكَلَّمَهُ ، وَسَمِعَ صَرِيفَ الْقَلَمِ ، وَبَلَغَنَا أَنَّهُ لَمْ يُحْدِثْ فِي الْأَرْبَعِينَ لَيْلَةً حَتَّى هَبَطَ مِنَ الطُّورِ ، وَفِي مَعْنَى هَذَا رِوَايَاتٌ أُخْرَى صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ هَذَا الزَّمَنَ ضُرِبَ لِمُنَاجَاةِ مُوسَى رَبَّهُ فِي الْجَبَلِ مُنْقَطِعًا فِيهِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَهُوَ الْحَقُّ الْمُوَافِقُ لِمَا وَرَدَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ قِصَّةِ السَّامِرِيِّ ، وَعِبَادَةِ الْعِجْلِ فِي غَيْبَةِ مُوسَى وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ لِهَارُونَ : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (20 : 91) وَأَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَفَعَهُ - " لَمَّا أَتَى مُوسَى رَبَّهُ ، وَأَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ بَعْدَ الثَّلَاثِينَ يَوْمًا ، وَقَدْ صَامَ لَيْلَهُنَّ وَنَهَارَهُنَّ فَكَرِهَ أَنْ يُكَلِّمَ رَبَّهُ وَرِيحُ فَمِهِ - رِيحُ فَمِ الصَّائِمِ - فَتَنَاوَلَ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَمَضَغَهُ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ : لِمَ أَفْطَرْتَ ؟ وَهُوَ

أَعْلَمُ بِمَا كَانَ قَالَ :

أَيْ رَبِّ ، كَرِهْتُ أَنْ أُكَلِّمَكَ إِلَّا وَفَمِي طَيِّبُ الرَّائِحَةِ ، قَالَ : أَوْ مَا عَلِمْتَ يَا مُوسَى أَنَّ فَمَ الصَّائِمِ عِنْدِي أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ؟ اذْهَبْ فَصُمْ عَشَرَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ ائْتِنِي ، فَفَعَلَ مُوسَى الَّذِي أَمَرَهُ رَبُّهُ " وَهَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفُ السَّنَدِ وَمَتْنُهُ مَعَارِضٌ بِمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ آيَاتِ قِصَّةِ السَّامِرِيِّ وَمِنَ الرِّوَايَاتِ بِمَعْنَاهَا .

وَيَسْتَدِلُّ الصُّوفِيَّةُ بِهَذِهِ الرِّوَايَةِ عَلَى أَيَّامِ خَلْوَتِهِمُ الَّتِي يَصُومُونَ أَيَّامَهَا الْأَرْبَعِينَ لَا يُفْطِرُونَ إِلَّا عَلَى حَبَّاتِ الزَّبِيبِ ، لِمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْوِصَالِ فِي الصِّيَامِ ، وَالْأَوْلَى أَنْ يُسْتَأْنَسَ بِالرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ لِلتَّفَرُّغِ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمُنَاجَاتِهِ بِالصَّلَاةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً ، فَيُجْعَلُ مَقْصِدًا لَا وَسِيلَةً .

(81/287)

وَهَذَا مَا وَرَدَ فِي التَّوْرَاةِ الْحَاضِرَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ (24 : 12 وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى اصْعَدْ إِلَى الْجَبَلِ ، وَكُنْ هُنَاكَ فَأُعْطِيكَ لَوْحَيِ الْحِجَارَةِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْوَصِيَّةِ الَّتِي كَتَبْتُهَا لِتَعْلِيمِهِمْ (13) فَقَامَ مُوسَى وَيَشُوعُ خَادِمُهُ وَصَعِدَ مُوسَى إِلَى جَبَلِ اللَّهِ (14) وَأَمَّا الشُّيُوخُ فَقَالَ لَهُمْ : اجْلِسُوا هَاهُنَا ، وَهُوذَا هَارُونُ وَحُورُ مَعَكُمْ ، فَمَنْ كَانَ صَاحِبُ

دَعْوَى فَلْيَتَقَدَّمْ إِلَيْهِمَا (15) فَصَعِدَ مُوسَى إِلَى الْجَبَلِ فَغَطَّى السَّحَابُ الْجَبَلَ وَحَلَّ مَجْدُ الرَّبِّ عَلَى جَبَلِ سَيْنَاءَ وَغَطَّاهُ السَّحَابُ سِتَّةَ أَيَّامٍ وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ دَعَى مُوسَى مِنْ وَسَطِ السَّحَابِ (17) وَكَانَ مَنْظَرُ مَجْدِ الرَّبِّ كَنَارٍ آكِلَةٍ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ أَمَامَ عُيُونِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَدَخَلَ مُوسَى فِي وَسَطِ السَّحَابِ وَصَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ ، وَكَانَ مُوسَى فِي الْجَبَلِ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً) ا هـ .

وَفِي الْفَصْلِ الرَّابِعِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْهُ مَا نَصُّهُ أَيْضًا (34 : 27 وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى اكْتُبْ لِنَفْسِكَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، قَطَعْتُ عَهْدًا مَعَكَ وَمَعَ إِسْرَائِيلَ (28) وَكَانَ هُنَاكَ عِنْدَ الرَّبِّ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً لَمْ يَأْكُلْ خُبْزًا وَلَمْ يَشْرَبْ مَاءً ، فَكَتَبَ عَلَى اللَّوْحَيْنِ كَلِمَاتِ الْعَهْدِ الْكَلِمَاتِ الْعَشْرَ) ا هـ .

(82/287)

وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ يَعْنِي : أَنَّ مُوسَى لَمَّا أَرَادَ الذَّهَابَ لِمِيقَاتِ رَبِّهِ اسْتَخْلَفَ عَلَيْهِمْ أَخَاهُ الْكَبِيرَ هَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - لِلْحُكْمِ بَيْنَهُمْ وَالْإِصْلَاحِ فِيهِمْ ؛ إِذْ كَانَتِ الرِّيَاسَةُ فِيهِمْ لِمُوسَى ، وَكَانَ هَارُونُ وَزِيرَهُ وَنَصِيرَهُ وَمُسَاعِدَهُ كَمَا سَأَلَ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ : وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ

أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (20 : 29 - 32) وَأَوْصَاهُ بِالْإِصْلَاحِ فِيهِمْ وَفِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَنَهَاهُ عَنِ اتِّبَاعِ سَبِيلِ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَالْإِفْسَادُ أَنْوَاعٌ بَعْضُهَا جَلِيٌّ وَبَعْضُهَا خَفِيٌّ ، وَمِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا وَسِيلَةٌ وَمَقْصِدٌ ، فَمِنْهَا الْحَرَامُ الْبَيِّنُ ، وَمِنْهَا الذَّرَائِعُ الْمُشْتَبِهَاتُ الَّتِي يَخْتَلِفُ فِيهَا الِاجْتِهَادُ ، وَيَأْخُذُ التَّقِيُّ فِيهَا بِالِاحْتِيَاطِ ، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ الْمُفْسِدِينَ يَشْمَلُ مُشَارَكَتَهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَمُسَاعَدَتَهُمْ عَلَيْهَا ، وَمُعَاشَرَتَهُمْ وَالْإِقَامَةَ مَعَهُمْ فِي حَالِ اقْتِرَافِهَا ، وَلَوْ بَعْدَ الْعَجْزِ عَنْ إِرْجَاعِهِمْ عَنْهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَجُوزُ وُقُوعُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَيَصِحُّ

(83/287)

نَهْيُهُمْ عَنْهُ تَحْذِيرًا مِنْ وُقُوعِهِمْ فِيهِ بِضَرْبٍ مِنَ الِاجْتِهَادِ ، كَالَّذِي وَقَعَ الِاخْتِلَافُ فِيهِ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فِي قِصَّةِ عِجْلِ السَّامِرِيِّ الَّذِي حَكَاهُ - تَعَالَى - عَنْهُ فِي سُورَةِ طه بِقَوْلِهِ : قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (20 : 92 - 94) فَالرِّسَالَةُ كَانَتْ لِمُوسَى بِالْأَصَالَةِ ، وَلِهَارُونَ بِالتَّبَعِ ؛ لِيَكُونَ وَزِيرًا لَا رَئِيسًا ، وَمُوسَى هُوَ الَّذِي أُعْطِيَ الشَّرِيعَةَ (التَّوْرَاةَ) وَكَانَ هَارُونُ مُسَاعِدًا لَهُ عَلَى

تَنْفِيذِهَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَمَا كَانَ مُسَاعِدًا لَهُ عَلَى تَبْلِيغِ فِرْعَوْنَ الدَّعْوَةِ ، وَإِنْقَاذِ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

(84/287)

وَقَدْ رَوَى الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لِعَلِيٍّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - " أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ؟ " وَذَلِكَ أَنَّهُ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَبْلَ خُرُوجِهِ . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ تَخْلُفُنِي فِي النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ؟ فَقَالَهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ : أَنَّ عَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : رَضِيتُ رَضِيتُ . وَإِنَّمَا قَالَ فِي النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى تَبُوكَ غَيْرُ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ، وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ مِنْ ضَعِيفٍ وَمَرِيضٍ إِلَّا مَنِ اسْتَأْذَنَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ .

(85/287)

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ فِي شَرْحِهِ لِمُسْلِمٍ : هَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا تَعَلَّقَتْ بِهِ الرَّوَافِضُ وَالْإِمَامِيَّةُ ، وَسَائِرُ فِرَقِ الشِّيعَةِ فِي أَنَّ الْخِلَافَةَ كَانَتْ حَقًّا لِعَلِيٍّ ، وَأَنَّهُ أَوْصَى لَهُ بِهَا ، قَالَ : ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فَكَفَّرَتِ الرَّوَافِضُ سَائِرَ الصَّحَابَةِ فِي تَقْدِيمِهِمْ غَيْرَهُ ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ فَكَفَّرَ عَلِيًّا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُمْ بِطَلَبِ حَقِّهِ ، وَهَؤُلَاءِ أَسْخَفُ مَذْهَبًا ، وَأَفْسَدُ عَقْلًا مِنْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ . . . . . إِلَى آخِرِ مَا قَالَ ، وَقَدْ ذَكَرْتُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ لِأُذَكِّرَ الْقَارِئَ بِأَنَّ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ لَمْ يَقُولَا مَا قَالَا عَنِ اعْتِقَادٍ ، بَلْ كَانُوا مِنْ جَمْعِيَّاتِ الْمَجُوسِ ، وَالسَّبَئِيِّينَ الَّذِينَ يَبْغُونَ الْفِتْنَةَ لِإِبْطَالِ الْإِسْلَامِ ، وَإِزَالَةِ مُلْكِ الْعَرَبِ بِالشِّقَاقِ الدِّينِيِّ ، وَأَمَّا الِاسْتِخْلَافُ فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْتَخْلِفُ عَلَى الْمَدِينَةِ بَعْضَ الصَّحَابَةِ كُلَّمَا خَرَجَ إِلَى غَزْوَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَخْتَارُ أَفْضَلَهُمْ لِذَلِكَ ، وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْمَنْقَبَةِ لِعَلِيٍّ مَا هُوَ فَوْقَ اسْتِخْلَافِهِ ، وَهُوَ جَعْلُهُ أَخًا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا يَتَضَمَّنُ ذَلِكَ اسْتِخْلَافَهُ بَعْدَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَنَّ هَارُونَ مَاتَ قَبْلَ مُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - قَطْعًا .

(86/287)

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ أَيْ : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِلْمِيقَاتِ الَّذِي وَقَّتْنَاهُ لَهُ لِلْكَلَامِ وَإِعْطَاءِ الشَّرِيعَةِ ، وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ -

عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ بِغَيْرِ وَاسِطَةِ الْمَلَكِ اسْتَشْرَفَتْ نَفْسُهُ الزَّكِيَّةُ الْعَالِيَةُ لِلْجَمْعِ بَيْنَ فَضِيلَتَيِ الْكَلَامِ وَالرُّؤْيَةِ فَقَالَ :

رَبِّ أَرِنِي ذَاتَكَ الْمُقَدَّسَةَ بِأَنْ تَجْعَلَ لِي مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى حَمْلِ تَجَلِّيكَ مَا أَقْدِرُ بِهِ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكَ وَرُؤْيَتِكَ ، وَكَمَالِ الْمَعْرِفَةِ بِكَ بِالْقَدْرِ الْمُمْكِنِ ؛ أَيْ : دُونَ مَا هُوَ فَوْقَ إِمْكَانِ الْمَخْلُوقِينَ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالْإِحَاطَةِ الْمَنْفِيِّ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (6 : 103) فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ (ص543 - 547ج7 تَفْسِيرِ ط . الْهَيْئَةِ) .

(87/287)

قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي أَيْ : إِنَّكَ لَا تَرَانِي الْآنَ ، وَلَا فِيمَا تَسْتَقْبِلُ مِنَ الزَّمَانِ ، ثُمَّ اسْتَدْرَكَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَعْلِيلِ النَّفْيِ ، وَيُخَفِّفُ عَنْ مُوسَى شِدَّةَ وَطْأَةِ الرَّدِّ ، بِإِعْلَامِهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ سُنَّتِهِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَقْوَى شَيْءٌ فِي هَذَا الْكَوْنِ عَلَى رُؤْيَتِهِ ، كَمَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى عِنْدَ مُسْلِمٍ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ فَقَالَ : وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ، فَإِنِّي سَأَتَجَلَّى لَهُ فَإِنْ ثَبَتَ لَدَى التَّجَلِّي بَقِيَ

مُسْتَقِرًّا فِي مَكَانِهِ فَسَوْفَ تَرَانِي ، لِمُشَارَكَتِكَ لَهُ فِي مَادَّةِ هَذَا الْعَالَمِ الْفَانِي ، وَإِذَا كَانَ الْجَبَلُ فِي قُوَّتِهِ وَرُسُوخِهِ لَا يَثْبُتُ ، وَلَا يَسْتَقِرُّ لِهَذَا التَّجَلِّي ؛ لِعَدَمِ اسْتِعْدَادِ مَادَّتِهِ لِقُوَّةِ تَجَلِّي خَالِقِهِ وَخَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَرَانِي أَيْضًا ، وَأَنْتَ مُشَارِكٌ لَهُ فِي كَوْنِكَ مَخْلُوقًا مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ ، وَخَاضِعًا لِلسُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي قُوَّتِهَا ، وَضَعْفِ اسْتِعْدَادِهَا وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (4 : 28) وَقَبُولِهَا لِلْفَنَاءِ .

(88/287)

رَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : لَمَّا سَمِعَ الْكَلَامَ طَمِعَ فِي الرُّؤْيَةِ .

وَرَوَى أَبُو الشَّيْخِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : حِينَ قَالَ مُوسَى لِرَبِّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - : أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَهُ يَا مُوسَى إِنَّكَ لَنْ تَرَانِي قَالَ : يَقُولُ لَيْسَ تَرَانِي لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا ، يَا مُوسَى إِنَّهُ لَنْ يَرَانِي أَحَدٌ فَيَحْيَا ، قَالَ مُوسَى : رَبِّ أَنْ أَرَاكَ ثُمَّ أَمُوتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلَّا أَرَاكَ ثُمَّ أَحْيَا فَقَالَ اللَّهُ : يَا مُوسَى انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ الْعَظِيمِ الطَّوِيلِ الشَّدِيدِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ يَقُولُ : فَإِنْ ثَبَتَ مَكَانَهُ لَمْ يَتَضَعْضَعْ ، وَلَمْ يَنْهَدْ لِبَعْضِ مَا يَرَى مِنْ عِظَمِي فَسَوْفَ تَرَانِي أَنْتَ لِضَعْفِكَ وَذِلَّتِكَ ، وَإِنَّ الْجَبَلَ تَضَعْضَعَ ، وَانْهَدَّ بِقُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ وَعِظَمِهِ فَأَنْتَ أَضْعَفُ وَأَذَلُّ اهـ .

فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا يُقَالُ : جَلَا الشَّيْءُ

(89/287)

وَالْأَمْرُ وَانْجَلَى وَتَجَلَّى بِنَفْسِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ وَجَلَّاهُ فَتَجَلَّى - إذَا انْكَشَفَ وَظَهَرَ وَوَضُحَ بَعْدَ خَفَاءٍ فِي نَفْسِهِ ذَاتِيٍّ أَوْ إضَافِيٍّ أَوْ خَفَاءٍ عَلَى مُجْتَلِيهِ وَطَالِبِهِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ التَّجَلِّي وَالظُّهُورُ بِالذَّاتِ ، وَبِغَيْرِ الذَّاتِ مِنْ صِفَةٍ أَوْ فِعْلٍ يَزُولُ بِهِ اللَّبْسُ وَالْخَفَاءُ ، وَفِي صِيغَةِ التَّجَلِّي مَا لَيْسَ فِي صِيغَةِ الْجَلَاءِ ، وَالِانْجِلَاءُ مِنْ مَعْنَى التَّدْرِيجِ وَالْكَثْرَةِ النَّوْعِيَّةِ أَوِ الشَّخْصِيَّةِ . قَالَ - تَعَالَى - : وَاللَّيْلِ إذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إذَا تَجَلَّى (92 : 1 ، 2) فَاللَّيْلُ يَغْشَى النَّهَارَ وَيَسْتُرُهُ ، ثُمَّ يَتَجَلَّى النَّهَارُ وَيَظْهَرُ بِالتَّدْرِيجِ ، وَفِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ لِلرَّبِّ - تَعَالَى - تَجَلِّيَاتٍ مُخْتَلِفَةً كَمَا سَيَأْتِي .

(90/287)

وَالدَّكُّ : الدَّقُّ أَوْ ضَرْبٌ مِنْهُ ، قَالَ فِي الْأَسَاسِ : دَكَكْتُهُ دَقَقْتُهُ ، وَدَكَّ الرَّكِيَّةَ كَبَسَهَا ، وَجَمَلٌ أَدَكُّ وَنَاقَةٌ دَكَّاءُ : لَا سَنَامَ لَهُمَا ، وَانْدَكَّ السَّنَامُ : افْتَرَشَ عَلَى الظَّهْرِ ، وَنَزَلْنَا بِدَكْدَاكٍ : رَمْلٌ مُتَلَبِّدٌ بِالْأَرْضِ اهـ ، وَأَقُولُ : إنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الدَّقِّ وَالدَّكِّ كَمَا يُؤْخَذُ مِنَ الِاسْتِعْمَالِ الْعَامِّ

الْمَوْرُوثِ عَنِ الْعَرَبِ - أَنَّ الدَّقَّ مَا يُخْبَطُ بِهِ الشَّيْءُ لِيَتَفَتَّتَ ، وَيَكُونُ أَجْزَاءً دَقِيقَةً وَمِنْهُ الدَّقِيقُ ، وَكَانَ الْقَمْحُ فِي عُصُورِ الْبَدَاوَةِ الْأُولَى يُدَقُّ بِالْحِجَارَةِ فَيَكُونُ دَقِيقًا ، ثُمَّ اهْتَدَوْا إلَى الْأَرْحِيَةِ الَّتِي تَسْحَقُهُ وَتَطْحَنُهُ ، وَأَمَّا الدَّكُّ فَهُوَ الْهَدْمُ وَالْخَبْطُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الشَّيْءُ الْمَدْكُوكُ مُلَبَّدًا وَمُسْتَوِيًا ، يُقَالُ : أَرْضٌ مَدْكُوكَةٌ ، وَطَرِيقٌ مَدْكُوكَةٌ ، وَدَكَّ الْحُفْرَةَ وَالرَّكِيَّةَ (أَيِ الْبِئْرَ غَيْرَ الْمَطْوِيَّةِ) دَفَنَهَا وَطَمَّهَا ، وَلَا تَزَالُ سَلَائِلُ الْعَرَبِ تَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الْمَادَّةَ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَيُسَمُّونَ مَا يُوضَعُ فِي الْحُفْرَةِ أَوِ الرَّكِيَّةِ مِنَ الْحَصَا وَالْحَصْبَاءِ ؛ لِأَجْلِ تَسْوِيَتِهَا " الدَّكَّةَ " . قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (جَعَلَهُ دَكَّاءَ) بِالْمَدِّ وَالتَّشْدِيدِ غَيْرَ مُنَوَّنٍ ؛ أَيْ : أَرْضًا مُسْتَوِيَةً كَالنَّاقَةِ الَّتِي لَا سَنَامَ لَهَا ، وَالْجُمْهُورُ (جَعَلَهُ دَكًّا) بِالْمَصْدَرِ ؛ أَيْ : مَدْكُوكًا دَكًّا ، وَمِثْلُهُ فِي السَّدِّ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ .

(91/287)

وَالْخُرُورُ وَالْخَرُّ : السُّقُوطُ مِنْ عُلُوٍّ وَالِانْكِبَابُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَمِنْهُ : يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (17 : 107) وَالصَّعِقُ - بِكَسْرِ الْعَيْنِ : صِفَةٌ مِنَ الصَّعَقِ ، وَهُوَ مَا يَكُونُ مِنْ تَأْثِيرِ نُزُولِ نُزُولِ الصَّاعِقَةِ مِنْ مَوْتٍ أَوْ إغْمَاءٍ ثُمَّ تَوَسَّعَ فِيهِ بِإِطْلَاقِهِ عَلَى مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ ، قَالَ الْفَيُّومِيُّ فِي الْمِصْبَاحِ : صَعِقَ صَعَقًا مِنْ بَابِ تَعِبَ : مَاتَ ، وَصَعِقَ : غُشِيَ عَلَيْهِ لِصَوْتٍ سَمِعَهُ ،

وَالصَّعْقَةُ الْأُولَى : النَّفْخَةُ ، وَالصَّاعِقَةُ : النَّازِلَةُ مِنَ الرَّعْدِ ، وَالْجَمْعُ صَوَاعِقُ ، وَلَا تُصِيبُ شَيْئًا إِلَّا دَكَّتْهُ وَأَحْرَقَتْهُ اهـ .

وَأَحْسَنُ مَا وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ لِهَذِهِ الْآيَةِ مُطَابِقًا لِمَتْنِ اللُّغَةِ مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الرُّؤْيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ

(92/287)

قَالَ : مَا تَجَلَّى مِنْهُ إِلَّا قَدْرَ الْخِنْصَرِ جَعَلَهُ دَكًّا قَالَ : تُرَابًا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا قَالَ : مَغْشِيًّا عَلَيْهِ اهـ . وَمَا رَوَاهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ - أَيِ الْجَبَلُ - كَانَ حَجَرًا أَصَمَّ فَلَمَّا تَجَلَّى لَهُ صَارَ تَلًّا تُرَابًا دَكًّا مِنَ الدَّكَاوَاتِ - أَيْ : مُسْتَوِيًا بِالْأَرْضِ - وَلَوْلَا ذَلِكَ لَجَازَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ صَيْرُورَتَهُ تُرَابًا ، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى الدَّكَّاءِ وَالْمَدْكُوكِ لَا يُنَافِي اسْتِقْرَارَ الْجَبَلِ مَكَانَهُ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ وَالْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ أَيْضًا أَنَّهُ سَاخَ ، أَيْ : غَاصَ فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ يَتَّفِقُ مَعَ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ ، أَيْ : أَنَّهُ رُجَّ بِالتَّجَلِّي رَجًّا بُسَّتْ بِهَا حِجَارَتُهُ بَسًّا ، وَسَاخَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُ أَوْ بَعْضُهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ حَتَّى صَارَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ رَبْوَةً دَكَّاءَ كَالرَّمْلِ الْمُتَلَبِّدِ .

وَالْمَعْنَى : فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ أَقَلَّ التَّجَلِّي وَأَدْنَاهُ انْهَدَّ وَهَبَطَ مِنْ شِدَّتِهِ ، وَعَظَمَتِهِ وَصَارَ

كَالْأَرْضِ الْمَدْكُوكَةِ أَوِ النَّاقَةِ الدَّكَّاءِ - وَسَقَطَ مُوسَى عَلَى وَجْهِهِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ كَمَنْ أَخَذَتْهُ الصَّاعِقَةُ ، وَالتَّجَلِّي وَإِنَّمَا كَانَ الْجَبَلُ دُونَهُ ، فَكَيْفَ لَوْ كَانَ لَهُ ؟ !

(93/287)

وَقَدْ رُوِيَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ الْوَاهِيَةِ وَالْمَوْضُوعَةِ غَرَائِبُ وَعَجَائِبُ أَكْثَرُهَا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، أَمْثَلُ الْمَرْفُوعِ مِنْهَا مَا رُوِيَ مِنْ طَرِيقِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ ، عَنْ ثَابِتٍ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : " قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا قَالَ : - وَوَضَعَ الْإِبْهَامَ قَرِيبًا مِنْ طَرَفِ خِنْصَرِهِ - فَسَاخَ الْجَبَلُ " وَفِي لَفْظٍ زِيَادَةُ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَقَالَ حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ لِثَابِتٍ : مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا ؟ فَضَرَبَ صَدْرَهُ - أَيْ صَدْرَ حُمَيْدٍ - وَقَالَ : مَنْ أَنْتَ يَا حُمَيْدُ ؟ يُحَدِّثُنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَقُولُ أَنْتَ : مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا ! " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَالتِّرْمِذِيُّ - وَصَحَّحَهُ - وَأَبْنَاءُ جَرِيرٍ وَالْمُنْذِرُ وَأَبِي حَاتِمٍ وَعَدِيٌّ فِي الْكَامِلِ ، وَأَبُو الشَّيْخِ وَالْحَاكِمُ - وَصَحَّحَهُ - وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الرُّؤْيَةِ ، وَقَدِ انْفَرَدَ بِهِ عِنْدَ مُصَحِّحِيهِ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ وَهُوَ مِنْ رِجَالِ مُسْلِمٍ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ تَغَيَّرَ حِفْظُهُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ ، وَلَهُ طَرِيقَانِ آخَرَانِ عِنْدَ دَاوُدَ بْنِ الْمُحَبَّرِ وَابْنِ مَرْدَوَيْهِ لَا يَصِحَّانِ كَمَا

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَالْمُرَادُ مِنَ التَّمْثِيلِ بِالْإِبْهَامِ وَالْخِنْصَرِ أَنَّ ذَلِكَ أَقَلُّ التَّجَلِّي وَأَدْنَاهُ ، وَسَيَأْتِي مِنَ الصَّحِيحِ مَا يُؤَيِّدُ مَعْنَاهُ .

(94/287)

وَمَنْ أَنْكَرَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ ، وَأَوْهَاهَا مَا رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا " لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِلْجَبَلِ طَارَتْ لِعَظَمَتِهِ سِتَّةُ أَجْبُلٍ فَوَقَعَتْ ثَلَاثَةٌ بِالْمَدِينَةِ وَثَلَاثَةٌ بِمَكَّةَ . . . " وَذَكَرَ أَسْمَاءَهَا ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ بَلْ مُنْكَرٌ . أَقُولُ : وَلَا يَدْخُلُ مِنْ أَلْفَاظِ الْآيَةِ وَلَا مَعْنَاهَا فِي شَيْءٍ .

(95/287)

فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ أَيْ : (فَلَمَّا أَفَاقَ) مُوسَى مِنْ غَشْيِهِ ، وَالتَّعْبِيرُ بِالْإِفَاقَةِ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَالْجُمْهُورِ لِلصَّعِقِ بِالْغَشْيِ ، وَبُطْلَانِ تَفْسِيرِ قَتَادَةَ لَهُ بِالْمَوْتِ ، وَقَالَ بِهِ بَعْضُ شُذَّاذِ الصُّوفِيَّةِ وَادَّعُوا أَنَّهُ رَأَى رَبَّهُ فَمَاتَ ، أَوْ مَاتَ ثُمَّ رَأَى رَبَّهُ ، وَلَوْ مَاتَ لَقَالَ - تَعَالَى - " فَلَمَّا بُعِثَ " إِلَخْ . كَمَا قَالَ فِي السَّبْعِينَ الَّذِينَ

اخْتَارَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ ، وَذَهَبُوا مَعَهُ إِلَى الْجَبَلِ وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُرِيَهُمُ اللهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ فَإِنَّهُ قَالَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (2 : 56) كَمَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَسَيَأْتِي خَبَرُهُمْ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ - قَالَ سُبْحَانَكَ أَيْ : تَنْزِيهًا لَكَ وَتَقْدِيسًا عَمَّا لَا يَنْبَغِي فِي شَأْنِكَ مِمَّا سَأَلْتُكَ أَوْ مِنْ لَوَازِمِهِ - أَوْ كَمَا حَكَى - تَعَالَى - عَنْ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ (11 : 47) وَأَكْثَرُ مُفَسِّرِي أَهْلِ السُّنَّةِ يَجْعَلُونَ وَجْهَ التَّنْزِيهِ وَالتَّوْبَةِ أَنَّهُ سَأَلَ الرُّؤْيَةَ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - ، وَنَفْيُ الْعِلْمِ إِنَّمَا يَصِحُّ عِنْدَهُمْ بِمَعْنَى أَنَّ مَا سَأَلَهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ أَوْ غَيْرُ وَاقِعٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، لَا أَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ فِي نَفْسِهِ ، وَغَيْرُ وَاقِعٍ أَلْبَتَّةَ ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ . وَمَعْنَى التَّوْبَةِ : الرُّجُوعُ ، وَالْمُرَادُ هُنَا الرُّجُوعُ عَمَّا طَلَبَ إِلَى

(96/287)

الْوُقُوفِ مَعَ الرَّبِّ - تَعَالَى - عِنْدَ مُنْتَهَى حُدُودِ الْأَدَبِ . قَالَ مُجَاهِدٌ تُبْتُ إِلَيْكَ أَنْ أَسْأَلَكَ الرُّؤْيَةَ : وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : أَيْ : مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ ، ذَكَرَهُمَا الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ وَقَالَ : وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : قَدْ

كَانَ قَبْلَهُ مُؤْمِنُونَ ، وَلَكِنْ يَقُولُ : أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . قَالَ : وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ لَهُ اتِّجَاهٌ ، وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَاهُنَا أَثَرًا طَوِيلًا فِيهِ غَرَائِبُ وَعَجَائِبُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقِ بْنِ يَسَارٍ ، وَكَأَنَّهُ تَلَقَّاهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ اهـ .

(97/287)

خُلَاصَةُ مَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لَمَّا نَالَ فَضِيلَةَ تَكْلِيمِ اللَّهِ – تَعَالَى – لَهُ بِدُونِ وَاسِطَةٍ فَسَمِعَ مَا لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَهُوَ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي لَا شِبْهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، طَلَبَ مِنَ الرَّبِّ – تَعَالَى – أَنْ يَمْنَحَهُ شَرَفَ رُؤْيَتِهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ حَتْمًا أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي ذَاتِهِ ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ الَّتِي مِنْهَا كَلَامُهُ – عَزَّ وَجَلَّ – ، فَكَمَا أَنَّهُ سَمِعَ كَلَامًا لَيْسَ كَمِثْلِهِ كَلَامٌ بِتَخْصِيصٍ رَبَّانِيٍّ – اسْتَشْرَفَ لِرُؤْيَةِ ذَاتٍ لَيْسَ كَمِثْلِهَا شَيْءٌ مِنَ الذَّوَاتِ ، كَمَا فُهِمَ مِنْ تَرْتِيبِ السُّؤَالِ عَلَى التَّكْلِيمِ ، فَلَمْ يَكُنْ عَقْلُ مُوسَى – وَهُوَ فِي الذُّرْوَةِ الْعُلْيَا مِنَ الْعُقُولِ الْبَشَرِيَّةِ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ

(98/287)

وَالنَّقْلِ – مَانِعًا لَهُ مِنْ هَذَا الطَّلَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ دِينُهُ وَعِلْمُهُ بِاللهِ – تَعَالَى – وَهُمَا فِي الذُّرْوَةِ الْعُلْيَا أَيْضًا – مَانِعَيْنِ لَهُ مِنْهُ ، وَلَكِنَّ اللهَ – تَعَالَى – قَالَ لَهُ : لَنْ تَرَانِي وَلِكَيْ يُخَفِّفَ عَلَيْهِ أَلَمَ الرَّدِّ وَهُوَ كَلِيمُهُ الَّذِي قَالَ لَهُ فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ بِالْوَحْيِ إِلَيْهِ : وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (20 : 41) أَرَاهُ بِعَيْنَيْهِ وَمَجْمُوعِ إِدْرَاكِهِ مِنْ تَجَلِّيهِ لِلْجَبَلِ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ سِوَاهُ أَنَّ الْمَانِعَ مِنْ جِهَتِهِ هُوَ لَا مِنَ الْجُودِ الرَّبَّانِيِّ ، فَنَزَّهَ اللهَ وَسَبَّحَهُ وَتَابَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الطَّلَبِ ، فَبَشَّرَهُ اللهُ – تَعَالَى – بِأَنَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ – أَيْ : بِدُونِ رُؤْيَتِهِ – ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَأْخُذَ مَا أَعْطَاهُ ، وَيَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ لَهُ .

(99/287)

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي الِاصْطِفَاءُ : اخْتِيَارُ صَفْوَةِ الشَّيْءِ ، وَصَفْوُهُ ؛ أَيْ : خَالِصُهُ الَّذِي لَا شَائِبَةَ فِيهِ ، وَمِنْهُ الصَّفِيُّ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَهُوَ مَا يَصْطَفِيهِ الْإِمَامُ أَوِ الْقَائِدُ الْأَكْبَرُ مِنْهَا وَيَخْتَارُهُ لِنَفْسِهِ ، كَاخْتِيَارِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – السَّيْفَ الْمَعْرُوفَ بِذِي الْفَقَارِ مِنْ غَنَائِمِ غَزْوَةِ بَدْرٍ . وَتَعْدِيَةُ الِاصْطِفَاءِ هُنَا بِـ (عَلَى) لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى التَّفْضِيلِ ، فَالْمَعْنَى : إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ مُفَضِّلًا إِيَّاكَ عَلَى النَّاسِ مِنْ أَهْلِ

زَمَانِكَ بِالرِّسَالَةِ ، قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ " بِرِسَالَتِي " وَالْبَاقُونَ " بِرِسَالَاتِي " فَإِفْرَادُهَا بِمَعْنَى الِاسْمِ مِنَ الْإِرْسَالِ ، وَجَمْعُهَا بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ مَا أُرْسِلَ بِهِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْأَحْكَامِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ ، وَقِيلَ بِتَعَدُّدِ أَسْفَارِ التَّوْرَاةِ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّ التَّوْرَاةَ مَا أَوْحَاهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ إِلَى مُوسَى ، وَهُوَ مَوْضُوعُ رِسَالَتِهِ ، وَتَسْمِيَةُ الْأَسْفَارِ الْخَمْسَةِ بِالتَّوْرَاةِ اصْطِلَاحِيَّةٌ ، وَقَدْ يُطْلِقُونَهَا عَلَى جَمِيعِ كُتُبِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ عِيسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاصْطَفَيْتُكَ بِكَلَامِي : أَيْ بِتَكْلِيمِي لَكَ بَعْدَ وَحْيِ الْإِلْهَامِ مِنْ غَيْرِ تَوَسُّطِ مَلَكٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَهُوَ مَا طَلَبَ رَفْعُهُ لِتَحْصِيلِ الرُّؤْيَةِ مَعَ الْكَلَامِ ، وَوَحْيُ اللَّهِ - تَعَالَى - ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ بَيَّنَهَا بِقَوْلِهِ

(100/287)

: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (42 : 51) فَهَذَا النَّوْعُ الْأَوْسَطُ هُوَ الْأَعْلَى ، وَقَدْ أُعْطِيَ لِمُوسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ ، وَقِيلَ بِالْعَكْسِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَا فِيهِ مِنْ وَجْهِ الْخُصُوصِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ (4 : 164) .

فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ أَيْ : فَخُذْ مَا أَعْطَيْتُكَ مِنَ الشَّرِيعَةِ – التَّوْرَاةِ – وَكُنْ مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الشُّكْرِ لِنِعْمَتِي بِهَا عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ ، وَذَلِكَ

بِإِقَامَتِهَا بِقُوَّةٍ وَعَزِيمَةٍ ، وَالْعَمَلِ بِهَا ، وَكَذَا لِسَائِرِ نِعَمِي ، فَإِنَّ حَذْفَ مُتَعَلِّقِ الشُّكْرِ يَدُلُّ عَلَى عُمُومِهِ ، كَمَا أَنَّ صِيغَةَ الصِّفَةِ مِنْهُ تَدُلُّ عَلَى التَّمَكُّنِ مِنْهُ وَالرُّسُوخِ فِيهِ .

(فَصْلٌ)

(فِي اخْتِلَافِ الْمُسْلِمِينَ فِي الرُّؤْيَةِ وَكَلَامِ الرَّبِّ – تَعَالَى – وَتَحْقِيقِ الْحَقِّ فِيهِمَا)

(101/287)

كَانَ جَمَاعَةُ الصَّحَابَةِ – رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ – يَفْهَمُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْثَالَهَا ، وَلَا يَرَوْنَ فِيهَا إِشْكَالًا ، وَهُمْ أَعْلَمُ الْعَرَبِ بِلُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَبِمُرَادِ اللهِ – تَعَالَى – مِنْ آيَاتِهِ فِيهِ ، لِتَلَقِّيهِمْ إِيَّاهَا مِنَ الرَّسُولِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَيْهِ الْمَأْمُورِ فِيهَا بِبَيَانِهَا لِلنَّاسِ ، ثُمَّ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ ، وَدَخَلَ فِيهِ مِنَ الْأَعَاجِمِ مَنْ كَانُوا عَلَى أَدْيَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَصَارُوا يَتَلَقَّوْنَ لُغَتَهُ بِالتَّلَقِّنِ ، وَيَقْتَبِسُونَهَا بِمُعَاشَرَةِ الْعَرَبِ الْخُلَّصِ ثُمَّ بِالتَّعْلِيمِ الْفَنِّيِّ ، ثُمَّ صَارَتِ السَّلَائِلُ الْعَرَبِيَّةُ كَذَلِكَ ثُمَّ حَدَثَتْ فِي الْجَمِيعِ الِاصْطِلَاحَاتُ الْعِلْمِيَّةُ وَالْفَنِّيَّةُ لَمَّا وَضَعُوا مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ كَأُصُولِ الْعَقَائِدِ وَالْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ ، وَاللُّغَوِيَّةِ : كَالنَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَالْبَيَانِ ، وَلَمَّا تَرْجَمُوا مِنْ كُتُبِ عُلُومِ الْأَوَائِلِ ، وَمَا

زَادُوا فِيهَا مِنَ الرِّيَاضِيَّاتِ وَالْعَقْلِيَّاتِ وَالْوِجْدَانِيَّاتِ وَسَائِرِ سُنَنِ الْمَوْجُودَاتِ ، فَامْتَزَجَتْ هَذِهِ الِاصْطِلَاحَاتُ بِلُغَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ ، فَصَارَتْ آلَاتٍ لِفَهْمِهِمَا ، وَسَبَبًا لِلْخَطَأِ فِي تَعْيِينِ بَعْضِ الْمُرَادِ مِنْهُمَا .

(102/287)

ثُمَّ حَدَثَ مَا هُوَ أَدْعَى إِلَى الْخَطَأِ فِي الْفَهْمِ ، وَهُوَ عَصَبِيَّةُ الْمَذَاهِبِ وَالشِّيَعِ الَّتِي فَرَّقَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى مَا جَاءَ فِي التَّفَرُّقِ وَالتَّفْرِيقِ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ ، فَصَارَ كُلُّ مُنْتَمٍ إِلَى شِيعَةٍ وَحِزْبٍ لَا يَنْظُرُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَّا بِالْمِنْظَارِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِمَذْهَبِ الْحِزْبِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، وَمُدَّعِي الِاجْتِهَادِ وَالِاسْتِقْلَالِ ، وَالْبَدَاهَةُ قَاضِيَةٌ بِالتَّضَادِّ بَيْنَ التَّقَيُّدِ بِالْمَذَاهِبِ وَالِاسْتِقْلَالِ الصَّحِيحِ الْمُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِالِاجْتِهَادِ الْمُطْلَقِ .

وَهُنَالِكَ سَبَبٌ آخَرُ ، وَهُوَ حَشْرُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَالرِّوَايَاتِ الْمَوْضُوعَةِ وَالْوَاهِيَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَكُتُبِ السُّنَّةِ ، وَتَقَاصُرِ الْأَكْثَرِينَ عَنْ تَمْحِيصِهَا ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ حَقِّهَا وَبَاطِلِهَا ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ قَدِ اشْتَبَهَ بِالْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ كَمَا بَيَّنَهُ بَعْضُ الْحُفَّاظِ ، وَمِنْهُمُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ .

(103/287)

فَبِهَذِهِ الْأَسْبَابِ أَبْطَلُوا مَزِيَّةَ كِتَابِ اللهِ وَخَاصِّيَّتَهُ فِي رَفْعِ الْخِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ الْمُفْسِدَيْنِ لِأَمْرِ الْمِلَّةِ وَالْأُمَّةِ اتِّبَاعًا لِسُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوهُ هُوَ مَوْضِعُ الْخِلَافِ أَيْضًا ، قَالَ – تَعَالَى – : كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (2 : 213) وَقَالَ – تَعَالَى – : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (4 : 59) .

فَالرَّدُّ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَمَا بَيَّنَهُ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ؛ لِإِزَالَةِ التَّنَازُعِ وَحَسْمِ الْخِلَافِ تَفَادِيًا مِنَ التَّفْرِيقِ وَالتَّفَرُّقِ الْمُنَافِي لِوَحْدَةِ الدِّينِ ، يَتَوَقَّفُ عَلَى جَعْلِ الْكِتَابِ وَبَيَانِ الرَّسُولِ لَهُ فَوْقَ التَّنَازُعِ وَاخْتِلَافِ الْمَذَاهِبِ وَالشِّيَعِ ، وَإِلَّا كَانَ الدَّوَاءُ عَيْنَ الدَّاءِ .

(104/287)

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مَوْضُوعُ اخْتِلَافٍ بَيْنَ الشِّيَعِ وَالْأَحْزَابِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْهُ كَانَ مُرْتَدًّا عَنِ الْإِسْلَامِ – إِنْ كَانَ قَدْ عُدَّ

مِنْ أَهْلِهِ – وَإِنَّمَا الِاخْتِلَافُ فِي فَهْمِهِ ، وَأَمَّا السُّنَّةُ فَاخْتَلَفُوا فِي رِوَايَةِ بَعْضِهَا ، وَفِي فَهْمِ بَعْضٍ ، وَمَنْ صَحَّ عِنْدَهُ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الدِّينِ وَجَبَ الْأَخْذُ بِهِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ الَّتِي يُعْتَدُّ بِإِسْلَامِ أَهْلِهَا ، وَالِاخْتِلَافُ فِي فَهْمِ مَا كَانَ غَيْرَ قَطْعِيِّ الدَّلَالَةِ ضَرُورِيٌّ لَا يَتَنَاوَلُهُ مِثْلُ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (3 : 105) .

(105/287)

وَنُجِيبُ عَنْ هَذَا – أَوَّلًا – بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا كَذَلِكَ فِي كُلِّ ذَلِكَ قَبْلَ الْفِتَنِ وَعَصَبِيَّةِ الْمَذَاهِبِ ، وَأَمَّا بَعْدَهَا فَقَدْ صَرَّحَ بَعْضُ كِبَارِ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ بِأَنَّ الْأَصْلَ عِنْدَهُمْ فِي كُلِّ حُكْمٍ كَلَامُ أَصْحَابِهِمْ ، فَإِنْ وَجَدُوا آيَةً تُخَالِفُهُ (! !) الْتَمَسُوا لَهَا نَاسِخًا ، فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا أَوَّلُوهَا ، وَإِنْ وَجَدُوا حَدِيثًا مُخَالِفًا لَهُ (! !) بَحَثُوا فِي إِسْنَادِهِ ، فَإِنْ وَجَدُوا فِيهِ مَطْعَنًا نَبَذُوهُ ، وَإِلَّا فَعَلُوا فِي التَّفَصِّي مِنْهُ مَا يَفْعَلُونَ فِي التَّفَصِّي مِنَ الْقُرْآنِ (! !) وَقَدْ جَرَى عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ كُلِّ مَذْهَبٍ إِلَّا أَفْرَادًا مِنْ كِبَارِ النُّظَّارِ خَالَفُوا الْمَذْهَبَ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ الْكَلَامِيَّةِ وَالْأُصُولِيَّةِ بِالدَّلِيلِ ، وَبَعْضِ كِبَارِ الْمُحَدِّثِينَ رَجَّحُوا بَعْضَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ عَلَى الْمَذْهَبِ ، وَإِنْ شِئْتَ فَرَاجِعْ بَعْضَ الشَّوَاهِدِ عَلَى رَدِّهِمْ

لَهَا فِي "كِتَابِ إعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ" لِلْمُحَقِّقِ ابْنِ الْقَيِّمِ . وَ - ثَانِيًا - بِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يُكَلِّفُهُمْ أَلَّا يَجْعَلُوا مَا لَيْسَ قَطْعِيَّ الدَّلَالَةِ سَبَبًا لِلتَّفَرُّقِ وَالتَّعَادِي ، وَتَأْلِيفُ الْأَحْزَابِ وَالشِّيَعِ الَّتِي يُلَقِّنُ أَتْبَاعُ كُلٍّ مِنْهَا فَهْمَ رَجُلٍ أَوْ رِجَالٍ يُسَمُّونَهُ مَذْهَبَهُمْ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَعَهُ الرَّدَّ عَلَى مُخَالِفِيهِمْ وَتَفْسِيقِهِمْ أَوْ تَكْفِيرِهِمْ ، وَبِهَذَا كَانَ الِاخْتِلَافُ ضَارًّا وَمُفْسِدًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ أُمُورَ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ

(106/287)

تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (6 : 159) الْآيَةَ . وَلَوْلَاهُ لَمَا كَانَ أُولَئِكَ الْعُلَمَاءُ الْأَعْلَامُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ يَتَنَابَزُونَ بِالْأَلْقَابِ ، وَيَتَبَارُونَ بِالسِّبَابِ ، وَيَتَهَاجَوْنَ بِالْأَشْعَارِ ، كَقَوْلِ الزَّمَخْشَرِيِّ الْمُعْتَزِلِيِّ بَعْدَ تَفْسِيرِهِ لِآيَةِ الْأَعْرَافِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا : ثُمَّ تَعْجَبُ مِنَ الْمُتَسَمِّينَ بِالْإِسْلَامِ ، الْمُتَسَمِّينَ بِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، كَيْفَ اتَّخَذُوا هَذِهِ الْعَظِيمَةَ مَذْهَبًا ؟ وَلَا يَغُرُّنَّكَ تَسَتُّرُهُمْ بِالْبَلْكَفَةِ ، فَإِنَّهُ مِنْ مَنْصُوبَاتِ أَشْيَاخِهِمْ - يَعْنِي بِالْبَلْكَفَةِ قَوْلَهُمْ : إنَّهُ - تَعَالَى - يُرَى بِلَا كَيْفٍ ؛ أَيْ : أَنَّ رُؤْيَتَهُ لَيْسَتْ كَرُؤْيَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِيمَا يَلْزَمُهَا مِنْ كَوْنِ الْمَرْئِيِّ جِسْمًا كَثِيفًا تُحِيطُ بِهِ أَشِعَّةُ الْبَصَرِ - ثُمَّ قَالَ : وَالْقَوْلُ مَا قَالَ بَعْضُ الْعَدْلِيَّةِ فِيهِمْ :

وَجَمَاعَةٌ سَمُّوا هَوَاهُمْ سُنَّةً . . . لِجَمَاعَةٍ حُمُرٍ لَعَمْرِي مُوكَفَةِ

قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا . . . شُنْعَ الْوَرَى فَتَسَتُّرُوا بِالْبَلْكَفَةِ

(107/287)

يَعْنِي بِالْعَدْلِيَّةِ جَمَاعَتَهُ الْمُعْتَزِلَةِ ؛ فَإِنَّهُمْ سَمَّوْا أَنْفُسَهُمْ أَهْلَ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ . فَانْظُرْ إِلَى جَعْلِهِ إِثْبَاتَ الرُّؤْيَةِ الثَّابِتَةِ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهَا مُنَافِيًا لِلِاتِّسَامِ بِالْإِسْلَامِ ، وَالتَّسَمِّي بِأَهْلِ السُّنَّةِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَنْفُونَ التَّشْبِيهَ فِي الرُّؤْيَةِ بِالتَّصْرِيحِ كَمَا يَنْفِيهِ هُوَ ، فَلَوْلَا تَعَصُّبُ الْمَذْهَبِ لَمَا أَلْزَمَهُمْ إِيَّاهُ بِدَلَالَةِ اللُّزُومِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي قَالُوا فِيهَا " لَازِمُ الْمَذْهَبِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ " قِيلَ مُطْلَقًا وَقِيلَ فِيمَا لَمْ يَدُلَّ عَلَى الْتِزَامِ صَاحِبِ الْمَذْهَبِ لَهُ ، وَأَمَّا مَا صَرَّحَ بِنَفْيِهِ فَلَا وَجْهَ لِإِسْنَادِهِ إِلَيْهِ أَلْبَتَّةَ ، وَمَنْ نَسَبَهُ إِلَيْهِ ، وَذَمَّهُ بِهِ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا .

وَلَوْ أَنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ وَشَاعِرَ الْعَدْلِيَّةِ لَمْ يَقُولَا مَا قَالَا مِنَ الطَّعْنِ وَالْهَجْوِ فِي أَهْلِ السُّنَّةِ ، بِأَنِ اكْتَفَى الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَأْوِيلِ أَحَادِيثِ الرُّؤْيَةِ بِمَا أَوَّلَهَا بِهِ مِنْ كَوْنِ الرُّؤْيَةِ فِيهَا عِبَارَةٌ عَنْ كَمَالِ الْمَعْرِفَةِ الْجَلِيَّةِ ، لَمَا جُوزِيَا عَلَى ذَلِكَ بِمِثْلِ ذَنْبِهِمَا أَوْ أَكْثَرَ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ الْمُنِيرِ الْإِسْكَنْدَرِيُّ فِي (الِانْتِصَافِ) حَاشِيَتِهِ عَلَى الْكَشَّافِ :

وَجَمَاعَةٌ كَفَرُوا بِرُؤْيَةِ رَبِّهِمْ . . . حَقًّا وَوَعْدُ اللَّهِ مَا لَنْ يَخْلُفَهُ

وَتَلَقَّبُوا عَدْلِيَّةً قُلْنَا أَجَلْ . . . عَدَلُوا بِرَبِّهِمْ ، فَحَسْبُهُمْ سَفَهْ
وَتَلَقَّبُوا النَّاجِينَ ، كَلَّا إِنَّهُمْ . . . إِنْ لَمْ يَكُونُوا فِي لَظَى فَعَلَى شَفَهْ

(108/287)

وَلِلشَّيْخِ تَاجِ الدِّينِ السُّبْكِيِّ صَاحِبِ (جَمْعِ الْجَوَامِعِ) وَغَيْرِهِ مِثْلُ هَذَا الشِّعْرِ الْمُحْزِنِ ، وَالْبَادِئُ بِالشَّرِّ أَظْلَمُ ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَجُوا عَدْلِيَّةَ الْمُعْتَزِلَةِ بِمِثْلِ مَا هَجَا بِهِ شَاعِرُهُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ كَافَّةً ، هُمْ مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ مِثْلَهُمْ بِالتَّأْوِيلِ ، وَيُشَنِّعُونَ عَلَى إِخْوَانِهِمْ مِنَ الْحَنَابِلَةِ ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ السَّلَفِيِّينَ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ التَّفْوِيضِ كَالنُّصُوصِ فِي عُلُوِّ اللَّهِ - تَعَالَى - عَنْ خَلْقِهِ ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ ، الَّتِي اتَّبَعُوا فِيهَا إِجْمَاعَ السَّلَفِ أَوْ جُمْهُورِهِمُ الْأَعْظَمِ فِي إِمْرَارِهَا ، كَمَا جَاءَتْ مَعَ تَنْزِيهِ الرَّبِّ - تَعَالَى - عَنْ مُشَابَهَةِ الْخَلْقِ وَالتَّحَيُّزِ وَالْحَدِّ وَالْحُلُولِ ؛ لِأَنَّ أَصْلَ

عَقِيدَتِهِمْ أَنَّهُ تَعَالَى مُبَايِنٌ لِخَلْقِهِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (42 : 11) بَلْ أَوَّلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ نَفْسُهُ نُصُوصَ الْمَعِيَّةِ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ (57 : 4) فَخَصَّهُ بِالْعِلْمِ .

(109/287)

فَالْحَقُّ الْوَاقِعُ أَنَّ الْمُخْتَلِفِينَ فِي فَهْمِ النُّصُوصِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الصَّادِقِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَيُعَظِّمُونَهَا ، وَلَكِنْ غَلَبَ عَلَى قَوْمٍ تَرْجِيحُ جَانِبِ التَّنْزِيهِ حَتَّى انْتَهَى بِبَعْضِهِمْ إِلَى التَّعْطِيلِ ، وَجَعَلَ فِي ذَلِكَ حَتَّى وَقَعَ بَعْضُهُمْ فِي التَّشْبِيهِ فِعْلًا ، كَأَنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ خَلَوْا مِنَ الْمَجَازِ وَالْكِنَايَةِ فِي ذَلِكَ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ مَا عَدَا اسْمَ الْجَلَالَةِ مِنْ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ قَدْ وُضِعَ قَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ لِلتَّعْبِيرِ بِهِ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ وَشُئُونِهَا ، فَالْفَرِيقَانِ أَرَادَا تَعْظِيمَ الرَّبِّ - تَعَالَى - ، وَسَدَّ ذَرِيعَةَ الْقَوْلِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ الَّذِي يُرْضِيهِ ، هَؤُلَاءِ خَافُوا التَّعْطِيلَ بِرَدِّ شَيْءٍ مِنَ النُّصُوصِ أَوْ تَحَكُّمِ الْأَهْوَاءِ فِي تَأْوِيلِهَا - وَأُولَئِكَ خَافُوا الْوُقُوعَ فِي تَشْبِيهِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِخَلْقِهِ ، وَسَدِّ ذَرِيعَةِ مَا يُعَدُّ نَقْصًا فِي حَقِّهِ ، فَالنِّيَّةُ كَانَتْ حَسَنَةً مِنَ الْجَانِبَيْنِ كَمَا قَالَ شَيْخُنَا الشَّيْخُ حُسَيْنُ الْجِسْرِ الطَّرَابُلُسِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي دَرْسِهِ عِنْدَ قِرَاءَةِ شَرْحَيِ السَّنُوسِيَّةِ وَالْجَوْهَرَةِ .

(110/287)

وَلَكِنِ الَّذِينَ ضَلُّوا بِالتَّأْوِيلِ وَالتَّعْطِيلِ كَثِيرُونَ حَتَّى خَرَجَتْ بِهِ عِدَّةُ فِرَقٍ مِنَ الْمِلَّةِ بَعْضُهُمْ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَبَعْضُهُمْ بَاطِنًا لَا ظَاهِرًا ، كَالْبَاطِنِيَّةِ الَّذِينَ تَرَكُوا أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ مِنْ صَلَاةٍ

وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَصِيَامٍ ، زَاعِمِينَ أَنَّ لَهَا مَعَانِيَ غَيْرَ مَا عَمِلَ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابُهُ ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَكَغُلَاةِ الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ ذَهَبُوا فِي التَّأْوِيلِ إِلَى مَا وَرَاءَ طَوْرِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَأَسَالِيبِ اللُّغَةِ ، فَادَّعُوا أَنَّهُمْ يَرَوْنَ اللهَ - تَعَالَى - عِيَانًا فِي جَمِيعِ الصُّوَرِ وَيَتَلَقَّوْنَ عَنْهُ كَالْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّ فِيهِمْ مَنْ هُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَعْلَمُ بِاللهِ - تَعَالَى - ، وَمِنْهُمْ مَنِ ادَّعَى رَفْعَ التَّكْلِيفِ عَمَّنْ بَلَغَ مَقَامَاتِهِمْ فِي الْمَعْرِفَةِ ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ غَلَا فِي وُحْدَةِ الْوُجُودِ إِلَى ادِّعَاءِ الرُّبُوبِيَّةِ لِلْبَشَرِ وَالْبَقَرِ ، وَالْحَجَرِ وَالْمَدَرِ ، وَمَا يَسْتَحِي أَوْ يَتَنَزَّهُ قَلَمُ الْمُتَدَيِّنِ الْأَدِيبِ عَنْ ذِكْرِهِ - ، وَإِلَى عَدَمِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ مُوَحِّدٍ وَمُشْرِكٍ ، وَمُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ ، وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ ، وَعَادِلٍ وَجَائِرٍ ، وَطَيِّبٍ وَخَبِيثٍ ، وَلَا بَيْنَ نَافِعٍ وَضَارٍّ ، وَطُهُورٍ وَرِجْسٍ . وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى عَقَائِدِهِمْ أَوْ مَزَاعِمِهِمْ بِالْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ ، بِضُرُوبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ :

عَقَدَ الْخَلَائِقُ فِي الْإِلَهِ عَقَائِدًا . . . وَأَنَا اعْتَقَدْتُ جَمِيعَ مَا اعْتَقَدُوهُ

(111/287)

وَلَمْ يَقَعْ مِنْ فِرْقَةٍ تَأْخُذُ بِظَوَاهِرِ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ، فِي مِثْلِ هَذَا الضَّلَالِ الْبَعِيدِ ، فَهَؤُلَاءِ الظَّاهِرِيَّةُ وَمَنْ يُسَمُّونَهُمْ غُلَاةُ الْحَنَابِلَةِ مِنْ

أَقْوَى الْمُسْلِمِينَ إِيمَانًا ، وَأَصَحِّهِمْ إِسْلَامًا ، وَمَا رَمَوْا بِهِ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ الَّذِي نَفَاهُ النَّصُّ وَالْعَقْلُ ظُلْمٌ ؛ سَبَبُهُ التَّعَصُّبُ الْمَذْهَبِيُّ . فَإِذَا كَانُوا يُثْبِتُونَ لِلرَّبِّ - تَعَالَى - كُلَّ مَا أَثْبَتَهُ

(112/287)

لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ ، وَأَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ فِيمَا صَحَّ مِنْ حَدِيثِهِ ، حَتَّى فِيمَا يُفَوِّضُونَ كُنْهَهُ إِلَيْهِ - تَعَالَى - لِلِاعْتِرَافِ بِأَنَّ عُقُولَهُمْ لَا تُحِيطُ بِهِ ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يُثْبِتُوا لَهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (42 : 11) وَهُوَ مِمَّا يَعْقِلُونَهُ وَلَا يَعْقِلُونَ ضِدَّهُ ؟ كَلَّا إِنْ تَعَصَّبَ أَصْحَابُ النَّظَرِيَّاتِ الْكَلَامِيَّةِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ ، وَمَنْ يَقْرُبُ مِنْهُمْ مِنْ مُتَأَوِّلَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ هُمُ الَّذِينَ افْتَاتُوا عَلَيْهِمْ بِمَا أَلْزَمُوهُمْ إِيَّاهُ مِمَّا نَفَوْهُ مِنْ لَوَازِمِ مَا صَحَّ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ عُلُوِّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ ، وَكَوْنِهِ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ، وَيُحِبُّ وَيُبْغِضُ وَيَضْحَكُ إِلَخْ . مَعَ اسْتِصْحَابِ نَصِّ التَّنْزِيهِ ، فَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يُطْلَقُ عَلَى الْخَلْقِ وَالْخَالِقِ مَعَ انْتِفَاءِ التَّشْبِيهِ ، وَإِنَّمَا ذَنْبُهُمْ عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ نَظَرِيَّاتِ أَفْكَارِهِمْ فِي التَّحَكُّمِ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ النُّصُوصِ ، وَلَمْ يُكَلِّفِ اللَّهُ - تَعَالَى - أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ الْفَلْسَفِيَّةَ الْكَلَامِيَّةَ ، وَإِنَّمَا كَلَّفَهُمُ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ رُسُلُهُ - صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِمْ - وَأَصْلُ الدِّينِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِهِ جَمِيعَ رُسُلِهِ إِلَى خَلْقِهِ هُوَ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ - تَعَالَى - وَحْدَهُ ،

وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَأَنْ يَعْبُدُوهُ بِمَا شَرَّعَهُ لَهُمْ دُونَ غَيْرِهِ ؛ إِذْ لَيْسَ لِغَيْرِهِ أَنْ يُشَرِّعَ شَيْئًا مِنَ

(113/287)

الدِّينِ بِدُونِ إِذْنِهِ . فَاللَّهُ - تَعَالَى - قَدْ شَرَّعَ

الدِّينَ لِجَمِيعِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ ، وَهَذِهِ الْفَلْسَفَةُ الْكَلَامِيَّةُ مِنْ دَقَائِقِ النَّظَرِيَّاتِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِالْغَوْصِ عَلَيْهَا أَفْرَادٌ مَعْدُودُونَ مِنْ أَذْكِيَاءِ الْأُمَمِ فَتَفَرَّقُوا فِيهَا وَاخْتَلَفُوا ؛ لِأَنَّ التَّفَرُّقَ وَالِاخْتِلَافَ مِنْ لَوَازِمِهَا الْبَيِّنَةِ ، فَعَصَوُا اللَّهَ - تَعَالَى - فِي نَهْيِهِ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ فِي الدِّينِ ، فَكَيْفَ يَقُولُ عَاقِلٌ إِنَّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ كُلِّفُوهَا ، وَإِذَا كَانَتْ صِحَّةُ الْإِيمَانِ تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا فَكَمْ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأُمَّةِ كُلِّهَا ؟ وَإِذَا كَانَ الْحَقُّ فِيهَا وَاحِدًا كَمَا يَقُولُونَ فَكَمْ عَدَدُ أَهْلِ الْحَقِّ مِنْهُمْ ؟ وَكَيْفَ السَّبِيلُ لَدَى كُلِّ مَنِ احْتَكَرَ الْحَقَّ فِيهَا لِنَفْسِهِ إِلَى تَلْقِينِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنَ الْأُمَّةِ مَا يَرَاهُ بِحَيْثُ لَا يَقْبَلُ سِوَاهُ ؟ فَإِنْ كَانَ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ ، فَفَهْمُ الدِّينِ مُتَعَذِّرٌ عَلَى أَكْثَرِ الْأُمَّةِ .

(114/287)

وَأَمَّا مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ فِي صَدْرِ الْأُمَّةِ فَكَانَ سَهْلًا وَيَسِيرًا كَمَا وَصَفَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ هَذَا الدِّينَ وَهَذِهِ الْمِلَّةَ ، كَانَ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ يَصِفُونَ اللَّهَ - تَعَالَى - بِجَمِيعِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ لَهُ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَمِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْفَلْسَفَةِ الْكَلَامِيَّةِ الَّتِي لَمْ يُشَرِّعْهَا اللَّهُ - تَعَالَى - ، وَلَا أَنْزَلَ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ؛ وَلِذَلِكَ اسْتَنْكَرَ جَمِيعُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ عِلْمَ الْكَلَامِ وَعَدُّوهُ بِدْعَةً سَيِّئَةً ، وَمَنْ خَاضَ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ ؛ فَلِأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ إبْطَالُ الْبِدَعِ وَإِزَالَةُ الشُّبُهَاتِ الْمُشْكِلَةِ فِي الدِّينِ لَا لِذَاتِهِ ، وَأَرَادُوا بِهِ إزَالَةَ الْخِلَافِ فَزَادَهُمْ خِلَافًا وَافْتِرَاقًا ، حَتَّى صَارَ أَكْثَرُهُمْ يَزْعُمُ أَنَّ الْعَقَائِدَ الصَّحِيحَةَ لَا تُعْرَفُ إلَّا بِهِ ، وَيَحْصُرُهَا كُلُّ فَرِيقٍ فِي مَذْهَبِهِ ، وَلَا سَلَامَةَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ إلَّا بِالرُّجُوعِ فِي الدِّينِ الْمَحْضِ إلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ ، وَفِي أُمُورِ الدُّنْيَا إلَى مَا أَثْبَتَهُ الْعِلْمُ

(115/287)

وَالتَّجَارِبُ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَأَنْ يَنْبِذُوا جَمِيعَ الْأَسْبَابِ وَالْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ مَثَارَ الْخِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ ، وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَلَا يَجْعَلُوا قَوْلَ عَالِمٍ مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَلَا فَهْمِهِ سَبَبًا لِلتَّعَدِّي وَالتَّفَرُّقِ

بَيْنَهُمْ بَلْ يَعُدُّوا كُلَّ مَا لَيْسَ قَطْعِيًّا مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ رَسُولِهِمْ ، وَاجْتِمَاعِ سَلَفِهِمْ مِنَ الِاجْتِهَادِ الَّذِي يُعْذَرُ بِهِ مَنْ قَامَ دَلِيلُهُ عِنْدَهُ وَمَنْ وَثِقَ بِهِ ، وَلَا يَكُونُ حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِي هَذَا فِي مَجَلَّتِنَا (الْمَنَارِ) مِرَارًا . فَبِهَذَا يَزُولُ ضَرَرُ اخْتِلَافِ الْمَذَاهِبِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ ، وَيَتَرَاجَعُ الْجَمِيعُ إلَى وَحْدَةِ الدِّينِ وَأُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ ، فَيَنَالُوا مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا ثُمَّ الْآخِرَةِ مَا شَرَّعَ اللَّهُ لَهُمُ الدِّينَ لِأَجْلِهِ .

بَعْدَ هَذَا التَّمْهِيدِ نَقُولُ : إنْ مَسْأَلَةَ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ كَمَسْأَلَةِ الرُّؤْيَةِ فِيمَا اخْتُلِفَ فِيهِ

(116/287)

مِنْ تَأْوِيلٍ وَتَفْوِيضٍ ، اجْتِنَابًا مِنْ قَوْمٍ لِلتَّعْطِيلِ ، وَمِنْ آخَرِينَ لِلتَّشْبِيهِ ، وَإِنَّمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ إثْبَاتَ الْكَلَامِ وَالتَّكْلِيمِ لِلَّهِ - تَعَالَى - صَرِيحٌ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا ، وَأَمَّا رُؤْيَةُ الرَّبِّ - تَعَالَى - فَرُبَّمَا قِيلَ بَادِيَ الرَّأْيِ إنَّ آيَاتِ النَّفْيِ فِيهَا أَصْرَحُ مِنْ آيَاتِ الْإِثْبَاتِ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : لَنْ تَرَانِي وَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ (6 : 103) فَهُمَا أَصْرَحُ دَلَالَةً عَلَى النَّفْيِ مِنْ دَلَالَةِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (75 : 22 ، 23) عَلَى الْإِثْبَاتِ ، فَإِنَّ اسْتِعْمَالَ النَّظَرِ بِمَعْنَى الِانْتِظَارِ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ ، كَقَوْلِهِ : مَا يَنْظُرُونَ إلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً (36 : 49) وَهَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا تَأْوِيلَهُ

(7 : 53) وَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ (2 : 210)

وَثَبَتَ أَنَّهُ اسْتُعْمِلَ بِهَذَا الْمَعْنَى مُتَعَدِّيًا بِـ " إِلَى " وَلِذَلِكَ جَعَلَ بَعْضُهُمْ وَجْهَ الدَّلَالَةِ فِيهِ عَلَى الْمَعْنَى الْآخَرِ - وَهُوَ تَوْجِيهُ الْبَاصِرَةِ إِلَى مَا تُرَادُ رُؤْيَتُهُ - أَنَّهُ أَسْنَدَ إِلَى الْوُجُوهِ وَلَيْسَ فِيهَا مَا يُصَحِّحُ إِسْنَادُ النَّظَرِ إِلَيْهَا إِلَّا الْعُيُونَ الْبَصَّارَةَ ، وَهُوَ فِي الدِّقَّةِ كَمَا تَرَى ، وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَ فِي فَهْمِهَا الْعُلَمَاءُ قَبْلَ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ ، فَقَدْ رَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ تَفْسِيرَ (نَاظِرَةٌ) بِقَوْلِهِ : تَنْتَظِرُ الثَّوَابَ . قَالَ

(117/287)

الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ : سَنَدُهُ إِلَى مُجَاهِدٍ صَحِيحٌ ، وَالْجُمْهُورُ يَرَوْنَ فَهْمَ مُجَاهِدٍ غَيْرَ صَحِيحٍ ، وَلَكِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ وَالْخَوَارِجَ وَالشِّيعَةَ يَرَوْنَهُ صَحِيحًا ، أَوْ لَيْسَ قَطْعِيَّ الدَّلَالَةِ بِحَيْثُ يُعَدُّ حُجَّةً عَلَى جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ ، وَيَمْتَنِعُ جَعْلُ تَأْوِيلِهِ عُذْرًا لِلْمُخَالِفِينَ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْذُرُ أَصْحَابَهُ فِي اخْتِلَافِ فَهْمِهِمْ لِلنُّصُوصِ ، وَيُقِرُّهُمْ عَلَى مَا كَانَ لِلِاجْتِهَادِ فِيهِ وَجْهٌ وَجِيهٌ ، كَأَخْذِ الْآخَرِينَ بِفَحْوَاهُ وَهُوَ عَدَمُ التَّخَلُّفِ ، فَصَلَّى هَؤُلَاءِ فِي الطَّرِيقِ ، وَأَدْرَكُوا مَعَهُ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي الْمَوْعِدِ ، وَلَمْ يُصَلِّ أُولَئِكَ الْعَصْرَ إِلَّا فِيهَا ، وَكَمَا فَهِمَ بَعْضُهُمْ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ مِنْ آيَةِ الْبَقَرَةِ الَّتِي رَجَّحَتْ إِثْمَهُمَا عَلَى مَنَافِعِهِمَا فَتَرَكُوهُمَا ،

وَلَمْ يَتْرُكْهُمَا مَنْ لَمْ يَفْهَمْ ذَلِكَ وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ إلَّا بَعْدَ نُزُولِ النَّصِّ الْقَطْعِيِّ بِاجْتِنَابِهِمَا .

فَإِذَا مَحَّصْنَا أَسْبَابَ الْخِلَافِ مِنْ جِهَةِ النُّصُوصِ وَحْدَهَا وَجَدْنَا لِكُلٍّ مِنَ النُّفَاةِ لِلرُّؤْيَةِ وَالْمُثْبِتِينَ لَهَا مَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ عُذْرًا عِنْدَ الْآخَرِ بِمَنْعِ جَرِيمَةِ التَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ ، وَجَعْلِ أَهْلِهِ أَحْزَابًا وَشِيَعًا مُتَعَادِيَةً غَيْرَ مُبَالِيَةٍ بِمَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الَّذِي كَادَ يَجْعَلُهُ كَالْكُفْرِ مَا دَامَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَعْلَمُ أَنَّ الْآخَرَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ جَمِيعَ مَا جَاءَ

(118/287)

بِهِ الرَّسُولُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الدِّينِ حَقٌّ ، وَأَنَّ الْخِلَافَ مَحْصُورٌ فِي اخْتِلَافِ الْفَهْمِ .

وَمَا كَفَّرَ بَعْضُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ بَعْضَ مُنْكِرِي الرُّؤْيَةِ وَغُلَاةِ التَّأْوِيلِ لِصِفَاتِ اللهِ – تَعَالَى – وَغَيْرِهَا مِنَ النُّصُوصِ إلَّا لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ زَنَادِقَةٌ لَبِسُوا لِبَاسَ الْإِسْلَامِ لِلْإِفْسَادِ ، وَبَثِّ دَعْوَةِ الْإِلْحَادِ ، وَالتَّجْرِئَةِ عَلَى رَدِّ نُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَلَقَّاهَا الصَّدْرُ الْأَوَّلُ بِالْقَبُولِ ، أَوْ تَحْرِيفِهَا بِالتَّأْوِيلِ عَمَّا فَهِمُوهُ أَوْ عَمَّا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ بِالْعَمَلِ " إذْ كَانُوا قَدْ عَلِمُوا أَنَّ بَعْضَ الْيَهُودِ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَبَأٍ وَبِشْرِ الْمِرِّيسِيِّ وَبَعْضِ الْمَجُوسِ ، وَمِنْ سَلَائِلِهِمْ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ قَدْ بَثُّوا فِي الْمُسْلِمِينَ دَعْوَةَ الْكُفْرِ أَوِ الْبِدَعِ الدَّاعِيَةِ إلَى النِّفَاقِ ، أَوِ الْمُفْضِيَةِ إلَى الشِّقَاقِ ، فَالْإِمَامُ

أَحْمَدُ كَفَّرَ مُنْكِرِي الرُّؤْيَةِ مِنْ هَؤُلَاءِ لِاعْتِقَادِهِ فِيمَا نَرَى أَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ زَنْدَقَةٍ ، لَا لِأَنَّ هَذَا الْإِنْكَارَ نَفْسَهُ زَنْدَقَةٌ ، بِحَيْثُ يَرْتَدُّ الْمُسْلِمُ الْمُؤْمِنُ بِالنُّصُوصِ كُلِّهَا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَعَمَلِهِ إذَا فَهِمَ أَنَّ آيَاتِ نَفْيِ الرُّؤْيَةِ هُوَ الْأَصْلُ الْمُحَكَّمُ الَّذِي يُرَدُّ إلَيْهِ مَا وَرَدَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ فِي إثْبَاتِهَا ؛ إذِ الْأَوَّلُ هُوَ الْمُوَافِقُ لِلْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَهُوَ التَّنْزِيهُ ، دُونَ الْآخَرِ الْمُسْتَلْزِمِ عِنْدَهُ لِلتَّشْبِيهِ الْوَاجِبِ تَأْوِيلُهُ لِلْجَمْعِ بَيْنَ النُّصُوصِ لَا لِرَدِّ شَيْءٍ مِنْهَا .

(119/287)

وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَعْذُرُونَ الْمُتَأَوِّلَ وَكَذَا الْجَاحِدَ لِمَا لَيْسَ مُجْمَعًا عَلَيْهِ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ فَلَا يُكَفِّرُونَهُ بِمُخَالَفَتِهِ لِلظَّوَاهِرِ ، وَلَا يَعُدُّونَ الْبِدْعَةَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مُسْقِطَةً لِلْعَدَالَةِ فِي الرِّوَايَةِ قَالُوا : إلَّا إذَا كَانَ صَاحِبُهَا دَاعِيَةً ؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ إلَى أَمْرٍ دِينِيٍّ لَمْ يُؤْثَرْ عَنِ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ إحْدَاثٌ لِفِتْنَةٍ وَتَفْرِيقٍ بَيْنَ الْمُوَحِّدِينَ كَمَسْأَلَةِ خَلْقِ الْقُرْآنِ ، فَمَا الْقَوْلُ فِي الدَّعْوَةِ إلَى مَا أُثِرَ عَنِ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ خِلَافُهُ كَالرُّؤْيَةِ ؟ ثُمَّ مَا الْقَوْلُ فِي الدَّعْوَةِ إلَى مُخَالَفَةِ النُّصُوصِ الْقَطْعِيَّةِ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ لُغَةً وَلَا شَرْعًا ، وَمُخَالَفَةِ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَهُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ كَدَعَاوَى الْبَاطِنِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ ، وَمِثْلُهَا دَعْوَى الْمَسِيحِيَّةِ الْقَادِيَانِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ الَّتِي يُلَقَّبُ أَهْلُهَا بِالْأَحْمَدِيَّةِ ، أَنَّ رَئِيسَ نِحْلَتِهِمْ (مِيرْزَا غُلَامُ أَحْمَدَ

الْقَادِيَانِيّ) هُوَ الْمَسِيحُ الْمُبَشَّرُ بِعَوْدَتِهِ إِلَى الدُّنْيَا فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ ، وَأَنَّهُ كَانَ يُوحَى إِلَيْهِ ، وَنُسِخَتْ فَرْضِيَّةُ الْجِهَادِ عَلَى لِسَانِهِ ، فَصَارَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لِلْأَجَانِبِ الْمُسْتَعْبِدِينَ لَهُمْ ، السَّالِبِينَ لِاسْتِقْلَالِهِمُ الْمُبْطِلِينَ لِشَرِيعَتِهِمْ ، وَلَا يَجُوزُ لِشَعْبٍ إِسْلَامِيٍّ عِنْدَهُمْ أَنْ يُدَافِعَ بِالْقِتَالِ عَنْ مِلَّتِهِ وَوَطَنِهِ ، وَإِنَّمَا جَعَلَ الْقَادِيَانِيُّ هَذَا مِنْ أُصُولِ

(120/287)

دِينِهِ خِدْمَةً لِلْإِنْكِلِيزِ ، وَلَا يَزَالُ الْبَابُ مَفْتُوحًا عِنْدَ أَتْبَاعِهِ لِمِثْلِ هَذَا بِزَعْمِهِمْ أَنَّ وَحْيَ النُّبُوَّةِ مُتَّصِلٌ فِي خُلَفَائِهِ وَأَتْبَاعِهِ ، فَالْقَوْلُ بِهَذَا خُرُوجٌ مِنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ

لَا تَنْفَعُ مَعَهُ صَلَاةٌ وَلَا زَكَاةٌ وَلَا

حَجٌّ وَلَا صِيَامٌ ، وَمَا أَفْضَى إِلَى هَذَا الضَّلَالِ الْمُبِينِ إِلَّا التَّوَسُّعُ فِي بَابِ التَّأْوِيلِ :

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ كُلًّا مِنْ مُثْبِتِي رُؤْيَةِ الرَّبِّ - تَعَالَى - فِي الْآخِرَةِ وَنُفَاتِهَا قَدِ ادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ النُّصُوصَ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَذْهَبِهِ قَطْعِيَّةٌ ، حَتَّى إِنَّ النَّافِيَ جَعَلَ نُصُوصَ الْإِثْبَاتِ دَالَّةً عَلَى النَّفْيِ ، وَالْمُثْبِتَ جَعَلَ نُصُوصَ النَّفْيِ دَالَّةً عَلَى الْإِثْبَاتِ ، كَقَوْلِ بَعْضِ النُّفَاةِ إِنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ يُفِيدُ الْحَصْرَ بِتَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الْمُتَعَلِّقِ أَيْ تَنْظُرُ إِلَى

رَبِّهَا وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ ، كَقَوْلِهِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (42 : 53) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (53 : 42) أَيْ : لَا إِلَى سِوَاهُ ، وَلَمَّا كَانَ عَدَمُ نَظَرِهِمْ إِلَى غَيْرِ رَبِّهَا مَمْنُوعٌ عَقْلًا وَنَقْلًا وَجَبَ حَمْلُ النَّظَرِ عَلَى مَعْنَاهُ الْآخَرِ وَهُوَ الِانْتِظَارُ ، بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تَنْتَظِرُ الْخَيْرَ مِنْ غَيْرِهِ (رَاجِعِ الْكَشَّافَ) .

(121/287)

وَيُقَابِلُ هَذَا مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ الِاسْتِدْلَالُ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ (6 : 103) عَلَى رُؤْيَتِهِ - تَعَالَى - مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْإِدْرَاكَ مَعْنَاهُ الْإِحَاطَةُ ، وَإِدْرَاكُ الْأَبْصَارِ إِنَّمَا إِحَاطَتُهَا بِالْمَرْئِيِّ ، فَنَفْيُ الْإِدْرَاكِ يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتُ رُؤْيَةِ الْإِدْرَاكِ فِيهَا ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ الَّتِي تَرَاهُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ الَّتِي يَرَاهَا ، وَيُحِيطُ بِهَا . وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (20 : 110) أَيْ : هُوَ يُحِيطُ بِهِمْ عِلْمًا ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (85 : 20) وَهُمْ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ؛ لِأَنَّ إِحَاطَةَ الْمُحَاطِ بِهِ بِالْمُحِيطِ مُحَالٌ ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ أَصْلِ الْعِلْمِ بِهِ لَا نَفْيُهُ ، كَآيَةِ نَفْيِ إِدْرَاكِ الْأَبْصَارِ ، وَكُلٌّ مِنْهَا جَارٍ عَلَى قَاعِدَةٍ مَعْرُوفَةٍ فِي اللُّغَةِ ، وَهِيَ أَنَّ نَفْيَ

الْمُقَيَّدِ يُقْصَدُ بِهِ إلَى الْقَيْدِ ، وَأَنَّ نَفْيَ وَصْفٍ خَاصٍّ لِمَعْنًى عَامٍّ يَسْتَلْزِمُ إثْبَاتَ ذَلِكَ الْعَامِّ ، كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ لَا يَشْبَعُ - فَإِنَّهُ إثْبَاتٌ لِلْأَكْلِ وَنَفْيٌ لِلشِّبَعِ .

(122/287)

هَذَا تَوْجِيهٌ لِهَذَا الِاسْتِدْلَالِ فَتَحَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِهِ عَلَيْنَا ، وَقَدْ رَأَيْنَا لِلشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّينِ بْنِ تَيْمِيَّةَ تَوْجِيهًا آخَرَ ، مُلَخَّصُهُ : أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - ذَكَرَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي مَقَامِ التَّمَدُّحِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَدْحُ بِالْأَوْصَافِ الثُّبُوتِيَّةِ لَا بِالْعَدَمِ الْمَحْضِ ، وَمَا تَمَدَّحَ - تَعَالَى - بِأَمْرٍ سَلْبِيٍّ أَوْ عَدَمِيٍّ إلَّا إذَا تَضَمَّنَ مَعْنًى ثُبُوتِيًّا ، كَنَفْيِ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ الْمُتَضَمِّنِ لِكَمَالِ الْقَيُّومِيَّةِ ، وَنَفْيِ الْمَوْتِ الْمُتَضَمِّنِ لِكَمَالِ الْحَيَاةِ ، وَنَفْيِ الشَّرِيكِ وَالظَّهِيرِ الْمُتَضَمِّنِ لِكَمَالِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ ، وَنَفْيِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ الْمُتَضَمِّنِ لِكَمَالِ تَوْحِيدِهِ وَغِنَاهُ عَنْ خَلْقِهِ ، وَنَفْيِ الْمِثْلِ الْمُتَضَمِّنِ لِكَمَالِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ . . . قَالَ : فَكَذَلِكَ نَفْيُ إدْرَاكِ الْأَبْصَارِ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يُرَى بِحَالٍ ؛ لِأَنَّ هَذَا يُشَارِكُهُ فِيهِ الْعَدَمُ الْمَحْضُ ، وَالرَّبُّ - جَلَّ جَلَالُهُ - يَتَعَالَى أَنْ يَتَمَدَّحَ بِمَا يُشَارِكُهُ فِيهِ الْعَدَمُ الْمَحْضُ ، فَالْمَعْنَى إذَنْ أَنَّهُ يُرَى

وَلَا يُدْرَكُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ - كَنَظَائِرِهِ - فَقَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ عَظَمَتِهِ ، وَأَنَّهُ أَكْبَرُ

(123/287)

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ لِعَظَمَتِهِ لَا يُدْرَكُ بِحَيْثُ يُحَاطُ بِهِ ، فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ هُوَ الْإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ وَهُوَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرُّؤْيَةِ . ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى لُغَةً بِمَا نَسْتَغْنِي عَنْ ذِكْرِهِ بِمَا أَوْرَدْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، فَقَدْ حَقَّقْنَا الْمَعْنَى اللُّغَوِيَّ لِلْإِدْرَاكِ ، وَأَلْمَمْنَا بِمَسْأَلَةِ الْخِلَافِ فِي الرُّؤْيَةِ ، وَوَعَدْنَا بِتَفْصِيلِ الْكَلَامِ فِيهَا عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الْأَعْرَافِ الَّتِي نَحْنُ فِي صَدَدِ تَفْسِيرِهَا الْآنَ .

(وَجَوَابُنَا) عَمَّا ذُكِرَ أَنَّ هَذِهِ الدَّقَائِقَ اللُّغَوِيَّةَ مِمَّا يَخْفَى عَلَى أَكْثَرِ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ ، وَكَذَا أَهْلُ السَّلِيقَةِ أَيْضًا ، وَلِذَلِكَ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهَا ، فَكَيْفَ يُقَالُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا : إِنَّهُ نَصٌّ قَطْعِيٌّ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ؟

(124/287)

وَغَرَضُنَا مِنْ هَذَا التَّطْوِيلِ بِبَيَانِ حُجَجِ كُلِّ فَرِيقٍ إِقْنَاعُ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ فِي الدِّينِ وَالْإِخْلَاصِ فِي جَمْعِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ ، مِنَ الْمُسْتَقِلِّينَ فِي الْفَهْمِ وَالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ حَتَّى الْمَوْلُودِينَ فِي مُهُودِ

الْمَذَاهِبِ ، وَالنَّاشِئِينَ فِي حُجُورِ الْأَحْزَابِ وَالشِّيَعِ ، أَنْ يَجْتَهِدُوا فِي التَّوْفِيقِ وَالتَّأْلِيفِ ، وَمَنْعِ جَعْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَأَمْثَالِهَا مِنْ أَسْبَابِ التَّفْرِيقِ ، فَضْلًا عَنْ جَعْلِهَا مِنْ أَسْبَابِ التَّكْفِيرِ أَوِ التَّفْسِيقِ ، وَلْيَعْذُرْنَا مَنْ يَرَانَا نُخَالِفُ فَهْمَهُ أَوْ مَذْهَبَهُ فِي تَرْجِيحِنَا لِلْمَأْثُورِ عَنْ جُمْهُورِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِيهَا ، وَفِي جَمِيعِ أُمُورِ الدِّينِ ثُمَّ لْيَعْذُرْنَا إِخْوَانُنَا السَّلَفِيُّونَ فِي تَقْرِيبِ مَذْهَبِ السَّلَفِ إِلَى الْعُقُولِ الَّتِي لَا يُرْجَى أَنْ تَهْتَدِيَ بِهِ وَتَأْخُذَهُ بِالْقَبُولِ إِلَّا بِإِثْبَاتِهِ بِمَا أَلِفَتْ مِنْ طُرُقِ الِاسْتِدْلَالِ وَإِيضَاحِهِ بِمَا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهَا مِنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا تَحْقِيقُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مَعًا بِفَتْوَى نُشِرَتْ فِي ص 282 - 288 مِنَ الْمُجَلَّدِ التَّاسِعَ عَشَرَ مِنَ الْمَنَارِ ، فَيَحْسُنُ أَنْ تُضَافَ إِلَى هَذَا الْبَحْثِ ، وَأَنْ يُلَخَّصَ الْمَوْضُوعُ فِي قَضَايَا مَعْدُودَةٍ تَكُونُ أَضْبَطَ لَهُ وَأَجْمَعَ لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ تَكْرَارٌ فَإِنَّ التَّكْرَارَ فِي إِيضَاحِ الْحَقَائِقِ ضَرُورِيٌّ .

(125/287)

وَإِنَّنَا نُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ قَضَايَا جَامِعَةً فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَمَا وَرَدَ فِيهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَأَقْوَالِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِيهَا .

قَضَايَا جَامِعَةٌ فِي مَسْأَلَةِ الرُّؤْيَةِ : (1) إِنَّ إِثْبَاتَ رُؤْيَةِ الرَّبِّ - تَعَالَى - فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ

الْمُخَالَفَةِ لِهَذِهِ الدَّارِ فِي شُئُونِهَا وَشُئُونِ أَهْلِهَا وَسُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِيهِمَا بِالْقُيُودِ الَّتِي قَيَّدَهَا بِهَا الْمُثْبِتُونَ لَهَا مِنْ تَنْزِيهِهِ - تَعَالَى - عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ - لَيْسَ مِنَ الْمُحَالَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الثَّابِتَةِ بِالضَّرُورَةِ ، وَإِلَّا لَمَا وَقَعَ فِيهَا خِلَافٌ أَلْبَتَّةَ ، وَلَا بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَى الضَّرُورَةِ ، وَإِلَّا لَارْتَفَعَ الْخِلَافُ فِيهَا بَيْنَ حُذَّاقِ النُّظَّارِ عِنْدَ وُصُولِ الْبُرْهَانِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ ، وَلَمْ يَقَعْ هَذَا وَلَا ذَاكَ .

(126/287)

---

(2) إِنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ فِيهَا لَيْسَتْ نُصُوصًا قَطْعِيَّةَ الدَّلَالَةِ فِي الْإِثْبَاتِ وَحْدَهُ وَلَا فِي النَّفْيِ وَحْدَهُ ، وَإِلَّا لَمَا وَقَعَ الْخِلَافُ فِيهَا أَلْبَتَّةَ ، وَقَدْ وَقَعَ هَذَا الْخِلَافُ فِيهَا بَيْنَ قَلِيلٍ مِنَ السَّلَفِ ، وَكَثِيرٍ مِنَ الْخَلَفِ ، فَفَهْمُ عَائِشَةَ لِآيَةِ الْأَنْعَامِ وَمُجَاهِدٍ لِآيَةِ الْقِيَامَةِ مُخَالِفٌ لِرَأْيِ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ - فَعُلِمَ أَنَّهَا غَيْرُ قَطْعِيَّةِ الدَّلَالَةِ بِحَيْثُ لَا يُحْتَمَلُ إِلَّا أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ ؛ فَهِيَ إِذَنْ ظَنِّيَّةٌ ، وَالتَّرْجِيحُ فِيهَا بَيْنَ مَا ظَاهِرُهُ الْإِثْبَاتُ وَمَا ظَاهِرُهُ النَّفْيُ مَحَلُّ الِاجْتِهَادِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ كُلًّا مِنَ الْمُثْبِتِينَ وَالنُّفَاةِ يَعْتَقِدُ صِحَّةَ تَرْجِيحِهِ نَظَرًا وَاسْتِدْلَالًا ، أَوِ اتِّبَاعًا وَتَقْلِيدًا . فَالْمَسْأَلَةُ بَيْنَهُمَا مُشْتَرَكَةُ الْإِلْزَامِ ، فَلَا وَجْهَ لِطَعْنِ أَحَدٍ مِنْهُمَا فِي دِينِ الْآخَرِ ، وَلَا فِي عِلْمِهِ بِهَا .

(3) إِنَّ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِنَ التَّصْرِيحِ فِي إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ مَا لَا يُمْكِنُ الْمِرَاءُ فِيهِ ،

وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَةِ غَيْرُ قَطْعِيٍّ ، وَفِيهَا مَا قَدْ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الرُّؤْيَةِ ، فَيَأْتِي فِيهَا الْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ حَتَّى مِنَ الْمَنْسُوبِينَ مِنْهُمْ إِلَى السُّنَّةِ ، كَالْأَشْعَرِيَّةِ بَيْنَ التَّفْوِيضِ وَالتَّأْوِيلِ ؛ لِأَنَّهَا بِحَسَبِ اصْطِلَاحِهِمْ مِنَ النُّصُوصِ الْمُوهِمَةِ لِلتَّشْبِيهِ ، وَقَدْ قَالَ صَاحِبُ جَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ :

وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيهَا . . . أَوِّلْهُ أَوْ فَوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيهًا

(127/287)

---

(4) إِنَّ جُمْهُورَ السَّلَفِ وَالْحَنَابِلَةِ وَأَكْثَرَ أَهْلِ الْحَدِيثِ يُفَوِّضُونَ فِي جُمْلَةِ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي صِفَاتِ اللهِ – تَعَالَى – وَشُئُونِهِ وَأَفْعَالِهِ ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يُمِرُّونَهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَحَكُّمٍ فِي تَأْوِيلٍ يُخْرِجُهَا عَنْ ظَوَاهِرِ مَعَانِيهَا ، وَيُنَزِّهُونَهُ سُبْحَانَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ فِيمَا أَطْلَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ مِثْلِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى تِلْكَ الصِّفَاتِ وَالشُّئُونِ وَالْأَفْعَالِ ، وَإِنَّ جُمْهُورَ الْخَلَفِ مِنْ سَائِرِ الْفِرَقِ يَتَأَوَّلُونَ مَا عَدَا صِفَاتِ الْمَعَانِي ، كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ حَتَّى الْأَشْعَرِيَّةِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَإِنَّمَا تَرَاهُمْ أَقْرَبُ إِلَى السَّلَفِ فِي الْمَسَائِلِ الْكُبْرَى الَّتِي اخْتَلَفُوا فِيهَا مَعَ الْمُعْتَزِلَةِ كَالْكَلَامِ

الْإِلَهِيِّ ، وَرُؤْيَةِ الرَّبِّ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ، وَقَدْ شَنَّعَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْحَنَابِلَةِ بِأَشَدِّ مَا

يُشَنِّعُونَ بِهِ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ لِاتِّفَاقِهِمْ عَلَى كَوْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ مِنْ كِبَارِ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ يُسِلُّونَهُ مِمَّنْ يُشَنِّعُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَتْبَاعِهِ سَلًّا ، وَيُبَرِّئُونَهُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ فَرْعًا وَأَصْلًا .

(128/287)

---

(5) إِنَّ مِنْ أَصَحِّ الشَّوَاهِدِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي هَذِهِ الْقَضَايَا الْعَامَّةِ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ قَالَتْ : " ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ . قُلْتُ : مَا هُنَّ ؟ قَالَتْ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ - قَالَ مَسْرُوقٌ : وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تُعْجِلِينِي أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (81 : 23) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى

(129/287)

(53 : 13) فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا إِلَّا هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ

مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ . فَقَالَتْ أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (6 : 103) أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (42 : 51) ؟ قَالَتْ : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ ، وَاللهُ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ (5 : 67) قَالَتْ : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ ، وَاللهُ يَقُولُ : قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ (27 : 65) .

(130/287)

فَعَائِشَةُ وَهِيَ مِنْ أَفْصَحِ قُرَيْشٍ تَسْتَدِلُّ بِنَفْيِ الْإِدْرَاكِ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ مَعَ مَا عَلِمَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا ، وَتَسْتَدِلُّ عَلَى نَفْيِهَا أَيْضًا بِقَوْلِهِ – تَعَالَى – : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَقَدْ حَمَلُوا هَذَا وَذَاكَ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّ إِدْرَاكَ الْأَبْصَارِ لِلرَّبِّ – سُبْحَانَهُ – مُحَالٌ فِي الْآخِرَةِ كَالدُّنْيَا ، وَالتَّعْلِيلُ الصَّحِيحُ لِمُثْبِتِي الرُّؤْيَةِ فِي الْآخِرَةِ دُونَ الدُّنْيَا أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَقْوَى خَلْقُهُ الدُّنْيَوِيُّ الْمُعَدُّ لِلْفَنَاءِ ، وَلَا يُطِيقُ رُؤْيَةَ

الرَّبِّ – تَعَالَى – كَمَا تَقَدَّمَ ، وَيُقَوِّيهِ بَعْضُ الشَّوَاهِدِ الْأُخْرَى ، وَفِي بَحْثٍ ذَكَرْنَاهُ فِي الْفَتْوَى

.

(6) وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : " قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ : إنَّ اللَّهَ – عَزَّ وَجَلَّ – لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ،

(131/287)

وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ . حِجَابُهُ النُّورُ – وَفِي رِوَايَةٍ النَّارُ . لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ " وَالْمَعْنَى : أَنَّ النُّورَ الْعَظِيمَ هُوَ الْحِجَابُ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، وَهُوَ بِقُوَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ مُلْتَهِبٌ كَالنَّارِ ؛ وَلِذَلِكَ رَأَى مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْوَحْيِ نَارًا فِي شَجَرَةٍ تَوَجَّهَ هَمُّهُ كُلُّهُ إلَيْهَا فَنُودِيَ بِالْوَحْيِ مِنْ وَرَائِهَا ، وَفِي التَّوْرَاةِ أَنَّ الْجَبَلَ كَانَ فِي وَقْتِ تَكْلِيمِ الرَّبِّ لِمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَإِيتَائِهِ الْأَلْوَاحَ مُغَطًّى بِالسَّحَابِ

"

وَكَانَ مَنْظَرُ مَجْدِ الرَّبِّ كَنَارٍ آكِلَةٍ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ أَمَامَ عُيُونِ بَنِي إِسْرَائِيلَ " خُرُوجٌ (24 : 17) .

(132/287)

وَرَأَى النَّبِيُّ الْخَاتَمُ الْأَعْظَمُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ نُورًا مِنْ غَيْرِ نَارٍ ، وَرُبَّمَا كَانَ هَذَا أَعْلَى ، وَلَكِنَّهُ كَانَ حِجَابًا دُونَ الرُّؤْيَةِ أَيْضًا ، فَقَدْ سَأَلَهُ أَبُو ذَرٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – " هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَالَ : نُورٌ ، أَنَّى أَرَاهُ " وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى " رَأَيْتُ نُورًا " وَمَعْنَاهُمَا مَعًا رَأَيْتُ نُورًا مَنَعَنِي مِنْ رُؤْيَتِهِ لَا أَنَّهُ – تَعَالَى – نُورٌ ، وَأَنَّهُ لِذَلِكَ لَا يُرَى ، وَهَذَا يَتَلَاقَى وَيَتَّفِقُ مَعَ قَوْلِهِ " حِجَابُهُ النُّورُ " وَلِذَلِكَ جَعَلْنَا أَحَادِيثَ النُّورِ شَاهِدًا وَاحِدًا فِي مَوْضُوعِنَا ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ رُؤْيَةِ ذَاتِ اللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – وَامْتِنَاعِهَا ، كَمَا تَمْتَنِعُ رُؤْيَةُ شَيْءٍ تَكُونُ الشَّمْسُ دُونَهُ حِجَابًا لَهُ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي تَنْفُذُ أَشِعَّةُ نُورِ بَصَرِهِ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ وَنَارِهَا إِلَى مَا وَرَاءَهَا فَتُبْصِرُهُ ؟ وَمَا هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي يَرَاهَا عَلَى بُعْدٍ قَدَّرَهُ عُلَمَاءُ الْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ بِأَكْثَرَ مِنْ تِسْعِينَ مِلْيُونَ مِيلٍ ، وَسَائِرُ الشُّمُوسِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي يَرَوْنَهَا بِالْمَنَاظِيرِ الْمُقَرِّبَةِ لِلْأَبْعَادِ ، وَالَّتِي لَا يَرَوْنَهَا إِلَّا بَعْضَ مَا أَفَاضَهُ – تَعَالَى – مِنَ النُّورِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَهُوَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ،

وَسُبُحَاتُ نُورِ وَجْهِهِ أَعْظَمُ وَأَقْوَى وَأَجَلُّ وَأَعْلَى ، فَلَا تُذْكَرُ مَعَهَا أَنْوَارُ الشُّمُوسِ إلَّا مِنْ بَابِ ضَرْبِ الْمَثَلِ الَّذِي وَرَدَ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى (16 : 60) .

(133/287)

وَقَوْلُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ " يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رُؤْيَةَ ذَاتِهِ – عَزَّ وَجَلَّ – رُؤْيَةُ إدْرَاكٍ مِمَّا يَمْتَنِعُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ حَتَّى الْمَلَائِكَةِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى لَا فِي الدُّنْيَا فَقَطْ ؛ لِأَنَّ الْوَجْهَ يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الذَّاتِ وَفَسَّرُوا وَجْهَ اللَّهِ بِذَاتِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ مَا يُوَاجِهُ بِهِ الشَّخْصُ غَيْرَهُ ، وَفِيهِ مَعَارِفُهُ ؛ أَيْ : مَا يُعْرَفُ بِهِ وَيَمْتَازُ عَنْ غَيْرِهِ . وَمَعْنَى الْجُمْلَةِ : أَنَّهُ – تَعَالَى – لَوْ كَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ حِجَابَ النُّورِ الْمَخْلُوقِ الَّذِي هُوَ مُنْتَهَى مَا يَصِلُ إلَيْهِ أَكْمَلُ الْبَشَرِ عِنْدَ ارْتِقَائِهِمْ إلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ بِهِ – عَزَّ وَجَلَّ – وَتَجَلَّى – سُبْحَانَهُ – لِلْخَلْقِ كَافَّةً بِدُونِ هَذَا النُّورِ الَّذِي يَحْجُبُهُمْ عَنْهُ ، لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُهُ مَا انْتَهَى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْهُمْ ؛ أَيْ : لَأَحْرَقَتْهُمْ كُلَّهُمْ فَإِنَّ بَصَرَهُ – تَعَالَى – مُحِيطٌ بِكُلِّ مَوْجُودٍ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ مِنْ سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ ، وَهُوَ ضَرْبُ مَثَلٍ ، خُلَاصَتُهُ : أَنَّ آخِرَ مَا يَصِلُ إلَيْهِ الْعِلْمُ هُوَ اكْتِشَافُ الْحِجَابِ الْأَخِيرِ الَّذِي هُوَ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْمَخْلُوقِ وَالْخَالِقِ ، وَهُوَ النُّورُ الَّذِي هُوَ مُبْتَدَأُ التَّكْوِينِ وَمَصْدَرُ التَّطَوُّرِ وَالتَّلْوِينِ .

قَالَ اللهُ – تَعَالَى – : مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (71 : 13 ، 14) وَخَلْقُ النَّاسِ وَكَذَا سَائِرُ الْمَخْلُوقَاتِ أَطْوَارًا ، قَدْ فُصِّلَ فِي عُلُومِ سُنَنِ اللهِ فِي التَّكْوِينِ ؛ فَفِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى أَطْوَارًا ، وَفِي خَلْقِهِ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ أَطْوَارٌ ، وَفِي التَّكْوِينِ الْأَوَّلِ لِلْأَرْضِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا أَطْوَارٌ ، وَهِيَ بَعْدَ الْمَادَّةِ الَّتِي خَلَقَ مِنْهَا السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ الْمُشَارِ إلَيْهَا بِقَوْلِهِ : أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (21 : 30) وَقَوْلُهُ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (41 : 11) إلَخْ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْمَادَّةَ الْمُعَبَّرَ عَنْهَا أَوِ الْمُشَبَّهَةَ بِالدُّخَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ الْمُشَبَّهَةُ بِالْغَمَامِ الْمُشَابِهِ لِلدُّخَانِ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ (2 : 210) فَهَذَا كَلَامٌ عَنْ إعَادَةِ الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهِيَ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى ، وَذَاكَ كَلَامٌ فِي بَدْئِهِ وَهِيَ النَّشْأَةُ الْأُولَى وَقَدْ قَالَ – تَعَالَى – : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ

بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ (29 : 20) وَقَالَ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ (21 : 104)

(135/287)

إذَا تَذَكَّرْتَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَا يَشْغَلُ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَمُرَاقَبَتِهِ مِنْ أَطْوَارِ الْخَلْقِ وَشُئُونِهِ فَهُوَ حِجَابٌ لَهُ عَنْهُ ، فَالْحُجُبُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ كَثِيرَةٌ ، وَطُوبَى لِمَنْ آمَنَ وَعَرَفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا ، وَأَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ حُجُبٌ دُونَهُ ، وَأَنَّهُ فَوْقَهَا بَائِنٌ مِنْهَا لَا تُشْبِهُهُ وَلَا يُشْبِهُهَا ، فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ قَدْ تَكُونُ مِنْ وَسَائِلِ مَعْرِفَتِهِ وَشُكْرِهِ وَمَحَبَّتِهِ ، وَلَا تَكُونُ حُجُبًا إلَّا دُونَ إدْرَاكِ كُنْهِهِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ حُجُبًا لَهُ دُونَ

(136/287)

الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَسَيَأْتِي الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي شَاهِدٍ آخَرَ ، وَقَدْ رَوَى الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا " سَأَلْتُ جِبْرِيلَ هَلْ تَرَى رَبَّكَ ؟ قَالَ إنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سَبْعِينَ حِجَابًا مِنْ نُورٍ ، وَلَوْ رَأَيْتُ أَدْنَاهَا لَاحْتَرَقْتُ " وَرَوَاهُ عَنْهُ سَمَّوَيْهِ بِلَفْظِ

: " سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَنَارٍ " وَفِي النِّهَايَةِ لِابْنِ الْأَثِيرِ أَنَّ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : " لِلَّهِ دُونَ الْعَرْشِ سَبْعُونَ حِجَابًا لَوْ دَنَوْنَا مِنْ أَحَدِهَا لَأَحْرَقَتْنَا سُبُحَاتُ وَجْهِ رَبِّنَا " وَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ صَحِيحَةُ الْمَعْنَى ، وَإِنْ كَانَتْ ضَعِيفَةَ الْإِسْنَادِ لِمَا يُؤَيِّدُهَا مِنَ الصِّحَاحِ . وَعُلَمَاءُ الْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ يَرَوْنَ بِمَا اكْتَشَفُوهُ بِمَنَاظِيرِهِمِ الْمُكَبِّرَةِ عِيَانًا أَنَّ أَكْثَرَ هَذِهِ النُّجُومِ الَّتِي نَرَاهَا أَوْ مَا عَدَا الدَّرَارِيِّ وَالْأَقْمَارَ مِنْهَا كُلَّهَا شُمُوسٌ ، مِنْهَا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ شَمْسِ عَالَمِنَا هَذَا وَأَبْعَدُ مِنْهَا بِسِنِينَ كَثِيرَةٍ مِنْ سِنِي سَيْرِ النُّورِ الَّذِي يَقْطَعُ بِهِ زُهَاءَ مِائَةِ مِلْيُونِ مِيلٍ فِي أَقَلِّ مِنْ عَشْرِ دَقَائِقَ ، وَالنُّصُوصُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا كُلُّهَا دُونَ الْعَرْشِ .

(137/287)

---

(7) وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ مَرْفُوعًا " جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ " قَالُوا : إِنَّ الرِّدَاءَ هُنَا بِمَعْنَى الْحِجَابِ الَّذِي ذُكِرَ آنِفًا ، وَقَدْ جَعَلُوهُ مِنْ بَابِ الِاسْتِعَارَةِ وَلَا إِشْكَالَ فِي التَّعْبِيرِ ، وَإِنَّمَا الْحَدِيثُ صَرِيحٌ فِي عَدَمِ رُؤْيَةِ الذَّاتِ بِدُونِ حِجَابٍ ، وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي شَرْحِهِ مِنَ الْفَتْحِ نَقْلًا عَنِ الْكِرْمَانِيِّ بَعْدَ عَدِّهِ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ : ظَاهِرُهُ يَقْتَضِي أَنَّ رُؤْيَةَ اللهِ غَيْرُ وَاقِعَةٍ ،

وَأَجَابَ - أَيْ :

الْكِرْمَانِيُّ - بِأَنَّ مَفْهُومَهُ بَيَانُ قُرْبِ النَّظَرِ ؛ إِذْ رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ لَا يَكُونُ مَانِعًا مِنَ الرُّؤْيَةِ ، فَعَبَّرَ عَنْ زَوَالِ الْمَانِعِ عَنِ الْأَبْصَارِ بِإِزَالَةِ الرِّدَاءِ - وَحَاصِلُهُ أَنَّ رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ مَانِعٌ عَنِ الرُّؤْيَةِ ، فَكَأَنَّ فِي الْكَلَامِ حَذْفًا تَقْدِيرُهُ بَعْدَ قَوْلِهِ : " إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ " فَإِنَّهُ يَمُنُّ عَلَيْهِمْ بِرَفْعِهِ . . . إِلَى آخِرِ مَا قَالَهُ - وَفِيهِ مِنَ التَّكَلُّفِ مَا لَا يَنْبَغِي لِحُفَّاظِ السُّنَّةِ الِاعْتِدَادُ بِهِ ، وَهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ مِثْلَهُ ، وَمَا هُوَ أَمْثَلُ مِنْهُ مِنْ تَأْوِيلَاتِهِمْ .

(138/287)

ثُمَّ إِنَّ الْحَافِظَ ابْنَ حَجَرٍ اعْتَمَدَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ جَعْلَ رِدَاءِ الْكِبْرِيَاءِ هَنَا عَيْنَ الْحِجَابِ فِي حَدِيثِ صُهَيْبٍ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ بَعْدَ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى هَذَا ، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ تَفْسِيرَهُ بِهِ - وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمَا أَيْضًا وَهُوَ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، يَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ ؟

قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ - عَزَّ وَجَلَّ - وَفِي رِوَايَةٍ زِيَادَةٌ : تَلَا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ (10 : 26) وَفِيهِ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ

هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - يُرَى بِدُونِ حِجَابٍ ، وَأَنَّ رُؤْيَتَهُ فِي الْمَوْقِفِ وَمُلَاقَاتَهُ كَانَتْ مَعَ الْحِجَابِ ، كَهَذِهِ الْمُلَاقَاةِ فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ عَمَّا يَطْلُبُونَ مِنْ زِيَادَةِ النَّعِيمِ .

(139/287)

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ أَيْضًا : إنَّنَا إذَا قَطَعْنَا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْحِجَابِ رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ الْمَذْكُورِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَأَنَّهُ كَانَ الْمَانِعُ مِنَ النَّظَرِ ، فَلَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ إنَّهُ هُوَ حِجَابُ النُّورِ الْمَانِعُ مِنَ الرُّؤْيَةِ فِي الْأَحَادِيثِ الْأُخْرَى ، وَالنَّظَرُ غَيْرُ الرُّؤْيَةِ ، فَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : إنَّ رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ الَّذِي كَانَ مَانِعًا مِنَ النَّظَرِ يُكْشَفُ فَيَقَعُ النَّظَرُ ، فَيَرَى النَّاظِرُونَ النُّورَ الَّذِي رَآهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَخْبَرَ أَنَّهُ كَانَ الْمَانِعَ مِنْ رُؤْيَةِ الذَّاتِ . وَسَيَأْتِي تَحْرِيرُ هَذَا الْبَحْثِ .

(140/287)

---

(8) وَمِنْهَا مَا وَرَدَ فِي تَجَلِّيهِ - سُبْحَانَهُ - فِي الصُّوَرِ ، وَأَقْوَاهَا وَأَصَحَّهَا حَدِيثَا أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - الطَّوِيلَيْنِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا ، وَمَحَلُّ الشَّاهِدِ فِيهِ أَنَّ نَاسًا قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : " هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ " قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ " فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ : يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقُولُ : مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي صُورَةٍ غَيْرَ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا ، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ . فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ " انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ ، وَيَلِيهِ ذِكْرُ الصِّرَاطِ وَالْجَوَازِ عَلَيْهِ وَالنَّارِ وَالْحِسَابِ إلَخْ . وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَفِي لَفْظِ الْبُخَارِيِّ " هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟ " وَذَكَرَ بَعْدَهَا الْقَمَرَ .

(141/287)

وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ تَشْبِيهُ رُؤْيَةِ الرَّبِّ - تَعَالَى - بِرُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ أَيْضًا ؛ أَيْ : فِي كَوْنِهِ لَا مُضَارَّةَ فِيهِ ، وَلَا فِي التَّزَاحُمِ عَلَيْهِ - لَا تَشْبِيهُ الْمَرْئِيِّ بِالْمَرْئِيِّ - وَفِيهِ ذِكْرُ مَنْ عَبَدَ الْعُزَيْرَ وَالْمَسِيحَ وَدُخُولِ كُلِّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ النَّارَ ، وَيَقُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَهُ : " حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ - تَعَالَى - مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ

(142/287)

فِيهَا قَالَ : فَمَا تَنْتَظِرُونَ ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، قَالُوا : يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ : فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ . فَيَقُولُ : هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ ، وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا " الْحَدِيثَ ، وَفِيهِ أَلْفَاظٌ أُخْرَى فِي الصُّورَةِ ، سَتَأْتِي فِي آخِرِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ .

وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ أَيْضًا ، وَيُخَالِفُهُ لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي بَعْضِ التَّعْبِيرِ ، وَرَوَاهُمَا غَيْرُهُمَا بِأَلْفَاظٍ تُوَافِقُ كُلًّا مِنْهُمَا وَتُخَالِفُهُ بِتَعْبِيرٍ أَوْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ وَالْمَعْنَى الْعَامُّ وَاحِدٌ ، فَمِنْ أَمْثِلَةِ اخْتِلَافِ اللَّفْظِ رِوَايَةُ " فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ " وَهِيَ لَا تُعَارِضُ رِوَايَةَ " فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ " الْمُوَافَقَةُ لِلَفْظِ الْقُرْآنِ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (68 : 42) وَلَكِنَّ تَنْكِيرَ السَّاقِ وَإِسْنَادَ كَشْفِهِ إِلَى الْمَفْعُولِ أَوْسَعُ مَجَالًا لِلتَّأْوِيلِ مِنْ إِضَافَتِهِ إِلَى الرَّبِّ - تَعَالَى - ، وَإِسْنَادِ كَشْفِهِ إِلَيْهِ ، فَهُوَ كَالتَّشْمِيرِ عَنِ السَّاعِدِ مَثَلَانِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لِلْجِدِّ وَالِاهْتِمَامِ وَشِدَّةِ الْخَطْبِ ، وَسَبَبُ الْأَوَّلِ أَنَّ مَنْ يُرِيدُ الْفِرَارَ مِنْ شَيْءٍ مُخَوِّفٍ يَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ لِيَسْهُلَ عَلَيْهِ الْعَدْوُ السَّرِيعُ فَلَا يَتَعَثَّرُ بِثَوْبِهِ ، وَسَبَبُ الثَّانِي أَنَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا بِاتْقَانٍ وَسُرْعَةٍ يُشَمِّرُ عَنْ ذِرَاعَيْهِ حَتَّى لَا يَعُوقَهُ كُمَّاهُ ، وَفِي مَجَازِ الْأَسَاسِ قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقِهَا ، وَكَشَفَ الْأَمْرُ عَنْ سَاقِهِ . قَالَ :

عَجِبْتُ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ إِشْفَاقِهَا

وَمِنْ طِرَادِي الطَّيْرَ عَنْ أَرْزَاقِهَا

فِي سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا

اهـ .

(144/287)

أَقُولُ : فَخَرَّجَ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ الْحَدِيثِ عَلَى هَذَا الِاسْتِعْمَالِ بِمَعْنَى أَنَّ أَمْرَ امْتِحَانِ اللَّهِ – تَعَالَى – لِلنَّاسِ وَالتَّنْزِيلِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ يَنْتَهِي إلَى آخِرِ حَدِّهِ بِتَيْسِيرِهِ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ السُّجُودَ لِلْمُؤْمِنِينَ دُونَ الْمُنَافِقِينَ ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلَى أَنَّ لَفْظَ السَّاقِ وَرَدَ بِمَعْنَى الذَّاتِ وَالنَّفْسِ .

وَاسْتَشْهَدُوا لَهُ بِقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِي حَرْبِ الشُّرَاةِ : " لَا بُدَّ مِنْ قِتَالِهِمْ وَلَوْ تَلِفَتْ سَاقِي " قَالُوا : أَيْ نَفْسِي . وَعَلَيْهِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ كَشْفُ السَّاقِ فِي الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ عِبَارَةً عَنْ كَشْفِ

(145/287)

الْحِجَابِ ، وَيُخَرَّجُ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي تَفْسِيرِ : يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ (68 : 42) قَالَ : عَنِ الْغِطَاءِ فَيَقَعُ مَنْ كَانَ آمَنَ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَيَسْجُدُونَ لَهُ ، وَيُدْعَى الْآخَرُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا آمَنُوا بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا يُبْصِرُونَهُ . وَالْأَوَّلُ أَقْرَبُ إِلَى أَسَالِيبِ اللُّغَةِ ، وَعَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجُمْهُورُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَا رُوِيَ عَنْهُ مِنْ طُرُقٍ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ عَنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ وَجَدِّهِ ، هِيَ أَشَدُّ سَاعَةٍ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يَكْشِفَ اللَّهُ الْأَمْرَ وَتَبْدُوَ الْأَعْمَالُ ، وَقَالَ : هُوَ الْأَمْرُ الشَّدِيدُ الْمُفْظِعُ مِنَ الْهَوْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَسُئِلَ عِكْرِمَةُ عَنِ الْآيَةِ فَقَالَ : إِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا اشْتَدَّ الْقِتَالُ فِيهِمْ وَالْحَرْبُ وَعَظُمَ الْأَمْرُ فِيهِمْ قَالُوا لِشِدَّةِ ذَلِكَ : قَدْ كَشَفَتِ الْحَرْبُ عَنْ سَاقٍ ، فَذَكَرَ اللَّهُ شِدَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَا يَعْرِفُونَ ، وَهَذَا مِنَ التَّفْسِيرِ الْجَلِيِّ ، لَا مِنَ التَّأْوِيلِ الْخَفِيِّ بِالْمَعْنَى الْأُصُولِيِّ ، وَأَمَّا تَأْوِيلُهُ بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ ؛ أَيْ : مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ وَيَتَحَقَّقُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَلَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ إِلَّا إِذَا وَصَلُوا إِلَيْهِ .

(146/287)

وَقَدْ بَيَّنَ الْبَيْضَاوِيُّ أَصْلًا آخَرَ لِكَشْفِ السَّاقِ تَتَّجِهُ بِهِ رِوَايَةُ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ فِي جَعْلِهِ بِمَعْنَى كَشْفِ الْحِجَابِ ، فَنَذْكُرُهُ مَعَ عِبَارَتِهِ فِي الْمَعْنَى الْآخَرِ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ لِحُسْنِ

بَيَانِهِ لَهُ وَهُمَا قَوْلُهُ فِي تَفْسِيرِ : يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ : يَوْمَ يَشْتَدُّ الْأَمْرُ وَيَعْظُمُ الْخَطْبُ .

وَكَشْفُ السَّاقِ مَثَلٌ فِي ذَلِكَ وَأَصْلُهُ تَشْمِيرُ الْمُخَدَّرَاتِ عَنْ سُوقِهِنَّ فِي الْهَرَبِ قَالَ حَاتِمٌ :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا . . . وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا

أَوْ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ أَصْلِ الْأَمْرِ وَحَقِيقَتِهِ بِحَيْثُ يَصِيرُ عِيَانًا ، مُسْتَعَارٌ مِنْ سَاقِ الشَّجَرِ وَسَاقِ الْإِنْسَانِ ، وَتَنْكِيرُهُ لِلتَّهْوِيلِ أَوِ التَّعْظِيمِ ا هـ .

(147/287)

وَمِنْ أَلْفَاظِ الْحَدِيثَيْنِ الَّتِي اضْطَرَبَ فِيهَا الْعُلَمَاءُ مَسْأَلَةُ الْإِتْيَانِ فِي الصُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَإِنْكَارِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ فِي بَعْضِهَا ، وَمَعْرِفَتِهِ فِي بَعْضٍ فَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِهَا وَتَأْوِيلِهَا ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَ النُّجْعَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ قَارَبَ ، قَالَ بَعْضُ الْمُؤَوِّلِينَ : الْمُرَادُ بِإِتْيَانِهِ تَعَالَى رُؤْيَتُهُ - أَقُولُ : وَلَكِنَّ الْإِتْيَانَ كَالرُّؤْيَةِ فِي إِيهَامِ التَّشْبِيهِ ، فَلَمْ يَخُصَّ دُونَهَا بِالتَّأْوِيلِ ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَأْتِي مَلَكٌ بِأَمْرِهِ لِامْتِحَانِهِمْ ، وَلَكِنْ جَاءَ فِي بَعْضِ النُّصُوصِ الْجَمْعُ بَيْنَ إِتْيَانِ الرَّبِّ وَإِتْيَانِ الْمَلَكِ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يُفَسَّرَ الْأَوَّلُ بِالثَّانِي كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ (6 : 158) وَقَوْلِهِ : وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (89 : 22) عَلَى وَجْهٍ ، فَمُخَالَفَةُ ظَاهِرِ

الْحَدِيثِ لِلْهَرَبِ مِنْ إِسْنَادِ الْإِتْيَانِ إِلَى الرَّبِّ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ مَعَ هَذَا - فَالْأَوْلَى قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ : إِنَّهُ إِتْيَانٌ يَلِيقُ بِهِ ، لَا كَإِتْيَانِ الْخَلْقِ .

وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الصُّورَةِ وَأَوَّلُوهَا أَيْضًا ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَمَّا يَقَعُ بِهِ التَّجَلِّي مِنْ حِجَابٍ وَمِنْهُ رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ الَّذِي سَبَقَ الْكَلَامُ فِيهِ ، وَقَدْ وَرَدَ لَفْظُ الصُّورَةِ فِي عِدَّةِ رِوَايَاتٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ لِحَدِيثَيْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ .

(148/287)

(مِنْهَا) كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ " أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا " (وَمِنْهَا) " فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ " (وَمِنْهَا) " فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ " (وَمِنْهَا) " ثُمَّ يَتَبَدَّى اللَّهُ لَنَا فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَيْنَاهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ " وَفِي رِوَايَةِ هِشَامِ بْنِ سَعْدٍ " ثُمَّ نَرْفَعُ رُؤُوسَنَا وَقَدْ عَادَ لَنَا فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَيْنَاهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ . فَنَقُولُ : نَعَمْ أَنْتَ رَبُّنَا " وَفِي رِوَايَةِ الْأَعْمَشِ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ ابْنِ مَنْدَهْ " فَيَتَمَثَّلُ لَهُمْ رَبُّهُمْ " .

(149/287)

ذَكَرَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ مَذْهَبَ السَّلَفِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ وَالصِّفَاتِ ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِهَا وَحَمْلُهَا عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَعَظَمَتِهِ مَعَ التَّنْزِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، ثُمَّ مَذْهَبَ جُمْهُورِ الْمُتَكَلِّمِينَ الْقَائِلِينَ بِالتَّأْوِيلِ ، وَمِنْهُ أَنْ يَجِيئَهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةٍ يُنْكِرُونَهَا لِمَا فِيهَا مِنْ صِفَةِ الْحَدَثِ ، وَلَا تُشْبِهُ صِفَاتِ الْإِلَهِ لِيَمْتَحِنَهُمْ " فَإِذَا قَالَ لَهُمْ هَذَا الْمَلَكُ أَوْ هَذِهِ الصُّورَةُ : أَنَا رَبُّكُمْ - رَأَوْا عَلَيْهِ مِنْ عَلَامَاتِ الْمَخْلُوقِ مَا يُنْكِرُونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ رَبَّهُمْ فَيَسْتَعِيذُونَ بِاللَّهِ مِنْهُ " وَقَالَ فِي شَرْحِ " فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ " : الْمُرَادُ بِالصُّورَةِ هُنَا الصِّفَةُ ، وَمَعْنَاهُ : فَيَتَجَلَّى اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَهُمْ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يَعْلَمُونَهَا وَيَعْرِفُونَهُ بِهَا ، وَإِنَّمَا عَرَفُوهُ بِصِفَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ رُؤْيَةٌ لَهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَبُّهُمْ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا . وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالصُّورَةِ عَنِ الصِّفَةِ لِمُشَابَهَتِهَا إِيَّاهَا وَلِمُجَانَسَةِ الْكَلَامِ فَإِنَّهُ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الصُّورَةِ ا هـ . وَذَكَرَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ تَأْوِيلَاتٍ أُخْرَى عَنِ الْقُرْطُبِيِّ وَالْقَاضِي أَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَابْنِ الْجَوْزِيِّ مِنَ الْحَنَابِلَةِ تَقْرُبُ مِمَّا اعْتَمَدَهُ النَّوَوِيُّ .

وَغَرَضُنَا مِنْ هَذِهِ النُّقُولِ بَيَانُ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ قَدْ أَوَّلُوا بَعْضَ أَحَادِيثِ الرُّؤْيَةِ كَمَا أَوَّلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ وَالشِّيعَةُ ، فَلَا مُقْتَضَى لِلتَّعَادِي وَالتَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ لِأَجْلِ التَّأْوِيلِ ، وَبَعْضُ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ أَعْرَقُ فِي التَّكَلُّفِ مِنْ بَعْضٍ ، وَمَا سَاغَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ لَا يَسُوغُ فِي الْبَعْضِ الْآخَرِ ، وَإِذَا كَانَ الْغَرَضُ مِنَ التَّأْوِيلِ تَقْرِيبَ الْمَعَانِي إِلَى الْأَذْهَانِ حَتَّى لَا يَبْقَى مَجَالٌ وَاسِعٌ لِلتَّشْكِيكِ فِي النُّصُوصِ ، فَإِنَّ الْوَاقِفِينَ عَلَى عُلُومِ هَذَا الْعَصْرِ وَفُنُونِهِ قَدْ يَحْتَاجُونَ إِلَى مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي مَسْأَلَةِ الرُّؤْيَةِ مَا اشْتَدَّتْ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ فِي فَتْوَى الْمَنَارِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا فِي هَذَا الْبَحْثِ وَفِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ مَا فَسَّرْنَا بِهِ الْآيَاتِ الَّتِي سَبَقَتْ فِيهِ ، وَسَنَزِيدُ ذَلِكَ هُنَا ، وَسَنَذْكُرُ الْفَتْوَى بِنَصِّهَا .

(151/287)

---

(9) اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي رُؤْيَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِرَبِّهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بَيْنَ إِثْبَاتٍ وَنَفْيٍ وَوَقْفٍ ، وَاخْتَلَفَ الْمُثْبِتُونَ فِي الرُّؤْيَةِ هَلْ هِيَ بِعَيْنِ الْبَصَرِ أَمْ بِعَيْنِ الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةِ ؟ كَمَا اخْتَلَفُوا فِي الْمِعْرَاجِ نَفْسِهِ هَلْ كَانَ يَقَظَةً أَمْ مَنَامًا ، أَمْ مُشَاهَدَةً رُوحِيَّةً بَيْنَ الْيَقَظَةِ وَالنَّوْمِ

؟ لِاخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فِيهَا ، وَلِمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَعَارِضَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ عَامًّا وَخَاصًّا . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ مَرْفُوعَةٌ صَحِيحَةٌ فِي النَّفْيِ دُونَ الْإِثْبَاتِ كَحَدِيثِ " نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ ؟ " الْمُتَقَدِّمِ فِي النَّفْيِ الْخَاصِّ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَحَدِيثِ " وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا " رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَكَذَا ابْنُ خُزَيْمَةَ ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ .

أَمَّا الصَّحَابَةُ ؛ فَاشْتَهَرَ الْإِثْبَاتُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْهُمْ ، وَرُوِيَ عَنْ أَنَسٍ أَيْضًا ، وَأَخَذَ بِهِ بَعْضُ التَّابِعِينَ وَقَبِلَهُ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ لَا يُدَقِّقُونَ فِي تَمْحِيصِ رِوَايَاتِ الْفَضَائِلِ وَالْمَنَاقِبِ . وَاشْتَهَرَ الْمَنْعُ عَنْ عَائِشَةَ ، وَالرِّوَايَةُ عَنْهَا فِيهِ أَصَحُّ وَأَصْرَحُ ، وَتَقَدَّمَ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْهَا فِيهِ ، وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِهِ أَنَّ مَسْرُوقًا لَمَّا سَأَلَهَا هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ ؟ قَالَتْ لَهُ : لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلْتَ .

(152/287)

وَرُوِيَ النَّفْيُ عَنْ آخَرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُمَا ، وَأَمَّا الْمُحَدِّثُونَ الَّذِينَ عَنُوا بِالتَّعَادُلِ وَالتَّرْجِيحِ وَالْجَمْعِ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ فَمِنْهُمْ مَنْ نَظَرَ فِيهَا ؛ لِإِثْبَاتِ مَا سَبَقَ إلَى اعْتِقَادِهِ ، وَمَالَتْ إلَيْهِ نَفْسُهُ كَالْحَافِظِ ابْنِ خُزَيْمَةَ وَتَبِعَهُ النَّوَوِيُّ ، فَرَجَّحَا رِوَايَةَ

ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى رِوَايَةِ عَائِشَةَ الَّتِي هِيَ أَصَحُّ سَنَدًا وَأَقْوَى دَلِيلًا ، بِحُجَّةِ أَنَّهَا لَمْ تَنْفِ الرُّؤْيَةَ بِحَدِيثٍ مَرْفُوعٍ ، وَلَوْ كَانَ مَعَهَا لَذَكَرَتْهُ ، وَإِنَّمَا اعْتَمَدَتْ عَلَى الِاسْتِنْبَاطِ فَتَأَوَّلَتْ آيَةَ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ (6 : 103) وَآيَةَ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلَّا وَحْيًا (42 : 51) إلَخْ ، وَقَدْ غَفَلَا عَمَّا لَمْ يَجْهَلَا مِنْ حَدِيثِهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ ، وَقَوْلُهَا لِمَسْرُوقٍ لَمَّا احْتَجَّ عَلَيْهَا بِدَلَالَةِ آيَةِ سُورَةِ النَّجْمِ عَلَى رُؤْيَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِرَبِّهِ إنَّهَا أَوَّلُ مَنْ سَأَلَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَتَقَدَّمَ لَفْظُهَا فِي رِوَايَةِ الصَّحِيحَيْنِ ،

وَفِيهِ رِوَايَةٌ أُخْرَى أَصْرَحُ فِي الْمُرَادِ ، وَهِيَ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ بِإِسْنَادِ مُسْلِمٍ قَالَتْ : " أَنَا أَوَّلُ مَنْ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ هَذَا ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَالَ : لَا ؛ إنَّمَا رَأَيْتُ جِبْرِيلَ مُنْهَبِطًا " إلَخْ .

(153/287)

وَمِنْهُمْ مَنْ نَظَرَ فِي الرِّوَايَاتِ لِأَجْلِ التَّمْحِيصِ وَتَحْقِيقِ الْحَقِّ فِيهَا كَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَالْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ ، فَبَيَّنَا أَنَّ الرِّوَايَاتِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بَعْضُهَا مُطْلَقٌ وَبَعْضُهَا مُقَيَّدٌ بِالرُّؤْيَةِ الْقَلْبِيَّةِ لَا الْبَصَرِيَّةِ ، فَإِذَا حَكَّمْتَ فِيهَا قَاعِدَةَ حَمْلِ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ زَالَ التَّعَارُضُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَدِيثِ عَائِشَةَ وَمَا فِي مَعْنَاهُ .

قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ : جَاءَتْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَخْبَارٌ مُطْلَقَةٌ وَأُخْرَى مُقَيَّدَةٌ ، فَيَجِبُ حَمْلُ مُطْلَقِهَا عَلَى مُقَيَّدِهَا ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ .

(154/287)

مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ عَنْهُ " أَتَعْجَبُونَ أَنْ تَكُونَ الْخُلَّةُ لِإِبْرَاهِيمَ وَالْكَلَامُ لِمُوسَى وَالرُّؤْيَةُ لِمُحَمَّدٍ ؟ " وَأَخْرَجَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ بِلَفْظِ " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى إِبْرَاهِيمَ بِالْخُلَّةِ " إِلَخْ . وَأَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ أَرْسَلَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ " هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنْ نَعَمْ " (وَمِنْهَا) مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (53 : 11 – 13) قَالَ : رَأَى رَبَّهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَهُ مِنْ طَرِيقِ عَطَاءٍ عَنْهُ قَالَ : رَآهُ بِقَلْبِهِ وَأَصْرَحُ مِنْهُ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ عَطَاءٍ أَيْضًا قَالَ : لَمْ يَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِعَيْنِهِ إِنَّمَا رَآهُ بِقَلْبِهِ . انْتَهَى مُلَخَّصًا ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – سَمِعَ حَدِيثَ قِسْمَةِ الْكَلَامِ وَالرُّؤْيَةِ بَيْنَ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ فِي عَرَفَةَ ! ! .

(155/287)

فَعُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنَ الْإِثْبَاتِ هُوَ الَّذِي يَصِحُّ فِيهِ مَا قِيلَ خَطَأً فِي نَفْيِ عَائِشَةَ : إِنَّهُ اسْتِنْبَاطٌ مِنْهُ ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ فِيهِ ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا صَحَّ عَنْهُ مِنْ تَقْيِيدِهِ بِالرُّؤْيَةِ الْقَلْبِيَّةِ مُعَارِضٌ مَرْجُوحٌ بِمَا صَحَّ مِنْ تَفْسِيرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِآيَتَيْ سُورَةِ النَّجْمِ ، وَهُوَ أَنَّهُمَا فِي رُؤْيَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِجِبْرِيلَ بِصُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ، عَلَى أَنَّ رِوَايَةَ عِكْرِمَةَ عَنْهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ مِمَّا سَمِعَهُ مِنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ الَّذِي قَالَ فِيهِ مُعَاوِيَةُ : " إِنْ كُنَّا لَنَبْلُو عَلَيْهِ الْكَذِبَ " كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ، وَرِوَايَةُ ابْنِ إِسْحَاقَ لَا يُعْتَدُّ بِهَا فِي هَذَا الْمَقَامِ فَإِنَّهُ مُدَلِّسٌ ، وَهُوَ ثِقَةٌ فِي الْمَغَازِي لَا فِي الْحَدِيثِ ، فَالْإِثْبَاتُ الْمُطْلَقُ عَنْهُ مَرْجُوحٌ رِوَايَةً ، كَمَا هُوَ مَرْجُوحٌ دِرَايَةً .

(156/287)

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : إِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَمْ يَقُلْ إِنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ يَقَظَةً ، وَمَنْ حَكَى عَنْهُ ذَلِكَ فَقَدْ وَهِمَ ، وَهَذِهِ

نُصُوصُهُ مَوْجُودَةٌ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ : مَا نُقِلَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِرَبِّهِ إِنَّمَا يَعْنِي رُؤْيَةَ الْمَنَامِ فَإِنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: نَعَمْ رَآهُ ، فَإِنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ . وَلَمْ يَقُلْ إِنَّهُ رَآهُ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ ، وَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ مَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : وَلَفْظُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ كَلَفْظِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – لَا يَرَاهُ أَحَدٌ بِعَيْنَيْهِ فِي الدُّنْيَا لَا نَبِيٌّ وَلَا غَيْرُهُ ، وَلَمْ يَقَعِ النِّزَاعُ إِلَّا فِي نَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – خَاصَّةً مَعَ أَنَّ الْأَحَادِيثَ الْمَرْفُوعَةَ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهُ رَآهُ ، وَإِنَّمَا رُوِيَ ذَلِكَ بِإِسْنَادٍ مَوْضُوعٍ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَدِيثِ . اهـ .

فَتْوَى الْمَنَارِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا آنِفًا (مِنْ ص282 م19)

(التَّحْقِيقُ فِي مَسْأَلَةِ رُؤْيَةِ الرَّبِّ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –)

(157/287)

إِنَّ مِنْ أُصُولِ الْعَقَائِدِ الْقَطْعِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ نَعِيمَ الْآخِرَةِ قِسْمَانِ : رُوحَانِيٌّ وَجُسْمَانِيٌّ ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ لَا تَنْقَلِبُ حَقِيقَتُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ يَبْقَوْنَ بَشَرًا أُولِي أَرْوَاحٍ وَأَجْسَادٍ ، وَلَكِنَّ الرُّوحَانِيَّةَ تَكُونُ هِيَ الْغَالِبَةَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَكُونُ النَّعِيمُ الرُّوحَانِيُّ عِنْدَهُمْ أَعْلَى مِنَ النَّعِيمِ الْجُسْمَانِيِّ ، وَمِنَ الثَّابِتِ بِالِاخْتِبَارِ وَالتَّجَارِبِ أَنَّ الْعُلَمَاءَ

الرَّاسِخِينَ وَالْحُكَمَاءَ الرَّبَّانِيِّينَ ، وَالْفَلَاسِفَةُ الْمَادِّيُّونَ وَالرُّؤَسَاءُ السِّيَاسِيُّونَ – كُلُّهُمْ يُفَضِّلُونَ اللَّذَّاتِ الْعَقْلِيَّةَ الرُّوحِيَّةَ وَالْحَيَاةَ الْمَعْنَوِيَّةَ ، عَلَى اللَّذَّاتِ الْمَادِّيَّةِ الْجَسَدِيَّةِ ، فَتَرَى أَحَدَهُمْ يَزْهَدُ فِي أَطَايِبِ الطَّعَامِ ، وَكُؤُوسِ الْمُدَامِ ،

وَيَتَجَافَى جَنْبُهُ عَنْ مَضْجَعِهِ ، ذَاهِلًا عَنْ حُقُوقِ حَلِيلَتِهِ ، تَلَذُّذًا بِحَلِّ مُشْكِلَاتِ الْمَسَائِلِ وَاكْتِشَافِ أَسْرَارِ الْكَوْنِ ، أَوْ بِالنَّفْثِ فِي عُقَدِ السِّيَاسَةِ ، وَمَا تَقْتَضِيهِ أَعْبَاءُ الرِّيَاسَةِ .

(158/287)

أَلَا وَإِنَّ أَعْلَى الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرُّوحِيَّةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ، وَالْعِلْمُ بِمَظَاهِرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَالْوُقُوفُ عَلَى سُنَنِهِ وَأَسْرَارِهِ فِيهَا ، وَكَشْفُ الْحُجُبِ عَمَّا أَوْدَعَ فِيهَا مِنَ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ ، وَفِي النِّظَامِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ مِنْ آيَاتِ الْكَمَالِ ، الَّتِي هِيَ مَجْلَى صِفَاتِ بَارِئِهَا ، وَهُوَ مُنْتَهَى الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ وَالْكَمَالِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ .

(159/287)

وَمَا زَالَ أَصْحَابُ الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ يَسْتَدِلُّونَ بِمَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ تِلْكَ السُّنَنِ وَالْآيَاتِ عَلَى كَمَالِ مُبْدِعِهَا وَمُبْدِئِهَا وَمُصَرِّفِهَا ، وَتَتَطَلَّعُ عُيُونُ عُقُولِهِمْ إِلَى كَيْفِيَّةِ صُدُورِ الْوُجُودِ الْمُمْكِنِ الْحَادِثِ (وَهُوَ مَجْمُوعُ هَذِهِ الْعَوَالِمِ الْعُلْوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ) عَنِ الْوُجُودِ الْأَزَلِيِّ الْوَاجِبِ ، وَيَهْتَمُّونَ بِارْتِقَاءِ الْأَسْبَابِ لِلْوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَةِ أَوَّلِ مَوْجُودٍ مُمْكِنٍ مِنْهَا ، وَكَيْفَ ابْتَدَأَتْ سِلْسِلَةُ الْأَسْبَابِ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَحَوُّلِ الْبَسَائِطِ ، وَتَوَلُّدِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ، قَبْلَ وُجُودِ هَذِهِ الْمَرْكَبَاتِ الْمَعْرُوفَةِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؛ طَمَعًا فِي مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ ذَلِكَ الْوُجُودِ الْأَعْلَى عَلَى عَجْزِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِ أَدْنَى هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ السُّفْلَى ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْحُكَمَاءُ فِي إِمْكَانِ وُصُولِ الْعِلْمِ الْبَشَرِيِّ إِلَى حَقِيقَةِ الْوُجُودِ الْأَوَّلِ الْأَزَلِيِّ ، وَكَيْفِيَّةِ صُدُورِ الْمَوْجُودَاتِ الْمُمْكِنَةِ عَنْهُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ بِإِمْكَانِ ذَلِكَ ، وَتَوَقَّعَ حُصُولَهُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بِأَنَّهُ فَوْقَ اسْتِعْدَادِ الْأَنَامِ .

(160/287)

وَالْحَقُّ فِي ذَلِكَ مَا هَدَانَا إِلَيْهِ دِينُ اللهِ الْحَقِّ ، وَهُوَ أَنَّ إِدْرَاكَ أَبْصَارِ الْخَلْقِ لَهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَإِحَاطَةَ عِلْمِهِمْ بِهِ مِنَ الْمُحَالِ الَّذِي لَا مَطْمَعَ فِيهِ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (6 : 103) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ

عِلْمًا (20 : 110) وَلَكِنَّ الْعَجْزَ عَنِ الْإِدْرَاكِ وَالْإِحَاطَةِ ، لَا يَسْتَلْزِمُ الْعَجْزَ عَمَّا دُونَ ذَلِكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ، الَّتِي تَرْتَقِي إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا بِالتَّجَلِّي وَالرُّؤْيَةِ ، فَإِنْ كَانَتْ ظَوَاهِرُ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ مُتَعَارِضَةً ، فَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ الصَّحِيحَةُ الْمُبَيِّنَةُ لَهُ جَلِيلَةٌ وَاضِحَةٌ ، وَإِنَّمَا وَقَعَ الْمِرَاءُ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْمُتَفَلْسِفِينَ وَبَيْنَ عُلَمَاءِ الْآثَارِ

(161/287)

فِي كَلِمَةِ " الرُّؤْيَةِ " فَأَثْبَتَهَا أَهْلُ الْأَثَرِ لِدَلَالَةِ ظَوَاهِرِ الْقُرْآنِ وَنُصُوصِ الْأَحَادِيثِ عَلَيْهَا ، وَمَنَعُوا قِيَاسَ رُؤْيَةِ الْبَارِي - تَعَالَى - عَلَى رُؤْيَةِ الْمَخْلُوقَاتِ ، بِدَعْوَى اسْتِلْزَامِهَا التَّحَيُّزَ وَالْحُدُودَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَقَالُوا : إِنَّنَا لَا نَبْحَثُ فِي كَيْفِيَّةِ ذَاتِهِ وَلَا صِفَاتِهِ تَعَالَى ، فَإِنَّنَا نَجْزِمُ بِأَنَّ لَهُ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَسَمْعًا وَبَصَرًا ، وَلَكِنَّ عِلْمَهُ لَيْسَ نَاشِئًا كَعِلْمِنَا عَنِ انْطِبَاعِ صُوَرِ الْمَعْلُومَاتِ فِي النَّفْسِ ، وَلَا مُكْتَسِبًا لَهُ بِالْحَوَاسِّ أَوِ الْفِكْرِ ، وَكَذَلِكَ قُدْرَتُهُ وَسَائِرُ صِفَاتِهِ ، فَنَحْنُ نَجْمَعُ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِالنُّصُوصِ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَسَائِرِ شُئُونِهِ ، وَبَيْنَ تَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ الْمَمْنُوعَةِ بِدَلَائِلِ النَّقْلِ وَالْعَقْلِ ، كَمَا قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (42 : 11) .

(162/287)

وَنَفَاهَا (بَعْضُ) أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْفَلْسَفَةِ بِنَاءً عَلَى قِيَاسِ الْخَالِقِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَى الْمَخْلُوقِ ، وَدَعْوَى مُنَافَاةِ الرُّؤْيَةِ لِلتَّنْزِيهِ ، الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعَقِيدَةِ وَرُكْنُهَا الرَّكِينِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إنْكَارَ الْحَقِيقَةِ الَّتِي أَثْبَتَهَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ إذَا عَبَّرَ عَنْهَا بِغَيْرِ لَفْظِ الرُّؤْيَةِ ، كَأَنْ يُقَالَ : إنَّ أَعْلَى نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِقَاءُ اللَّهِ - تَعَالَى - بِتَجَلِّيهِ عَلَيْهِمْ تَجَلِّيًا يَحْصُلُ لَهُمْ بِهِ أَعْلَى مَا اسْتَعَدَّتْ لَهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ ، وَإِنَّ أَعْظَمَ عِقَابٍ لِأَهْلِ النَّارِ حَجْبُهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ وَحِرْمَانُهُمْ مِنْ هَذَا التَّجَلِّي وَالْعِرْفَانِ الْخَاصِّ بِدَارِ الْكَرَامَةِ وَالرِّضْوَانِ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْتَنُونَ بِتَأْوِيلِ مِثْلِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي الْمُتَّقِينَ : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ (33 : 44) وَقَوْلُهُ فِي الْكَافِرِينَ : كَلَّا إنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (83 : 15) كَمَا يَعْتَنُونَ بِتَأْوِيلِ قَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (75 : 22 ، 23) بِأَنَّ النَّظَرَ مَعْنَاهُ الِانْتِظَارُ وَالرَّجَاءُ ، وَمَا رَدَّ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْآيَةِ يَطْلُبُ مِنَ الْكَشَّافِ وَالْبَيْضَاوِيِّ وَحَوَاشِيهِمَا وَسَائِرِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ ، وَمِنْ كُتُبِ الْكَلَامِ وَشُرُوحِ الْأَحَادِيثِ .

وَكَمْ بَيْنَ حُذَّاقِ الْجِدَالِ تَنَازُعٌ . . . وَمَا بَيْنَ عُشَّاقِ الْجَمَالِ تَنَازُعُ

(163/287)

وَمِنْ غَرَائِبِ جَدَلِهِمْ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يَسْتَدِلُّ عَلَى مَذْهَبِهِ بِطَلَبِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رُؤْيَةَ رَبِّهِ ،

وَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : لَنْ تَرَانِي . . . الْآيَةَ . فَأَهْلُ السُّنَّةِ يَسْتَدِلُّونَ عَلَى جَوَازِ الرُّؤْيَةِ بِسُؤَالِ الْكَلِيمِ إيَّاهَا ، وَعَدَمُ إنْكَارِ الْبَارِي تَعَالَى عَلَيْهِ هَذَا السُّؤَالَ كَمَا أَنْكَرَ عَلَى نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سُؤَالَهُ نَجَاةَ وَلَدِهِ الْكَافِرِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِهِ الَّذِينَ وَعَدَهُ بِنَجَاتِهِمْ - وَبِتَعْلِيقِ الرُّؤْيَةِ عَلَى جَائِزٍ وَهُوَ اسْتِقْرَارُ الْجَبَلِ ، وَالْمُعْتَزِلَةُ يَسْتَدِلُّونَ بِالْآيَةِ عَلَى عَدَمِ الرُّؤْيَةِ بِعَدَمِ إجَابَةِ الْكَلِيمِ إلَيْهَا ، وَتَعْلِيقِهَا عَلَى مَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ .

(164/287)

وَإِذَا كَانَتِ الْآيَاتُ الَّتِي اسْتَدَلَّ بِهَا كُلُّ فَرِيقٍ لَيْسَتْ نَصًّا قَاطِعًا فِي مَذْهَبِهِ ، فَفِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا مَا هُوَ نَصٌّ قَاطِعٌ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ فِي الرُّؤْيَةِ ، وَتَشْبِيهِهَا بِرُؤْيَةِ الْبَدْرِ وَالشَّمْسِ فِي الْجَلَاءِ وَالظُّهُورِ ، وَكَوْنِهَا لَا مُضَارَّةَ فِيهَا وَلَا تَضَامَّ وَلَا ازْدِحَامَ ، وَفِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَحَدَ عَشَرَ حَدِيثًا فِي ذَلِكَ ، وَجَمَعَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي (حَادِي الْأَرْوَاحِ) مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ فَكَانَ ثَلَاثِينَ حَدِيثًا ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ عِنْدَ إشَارَتِهِ إلَى ذَلِكَ : وَأَكْثَرُهَا جِيَادٌ ، وَزَادَ ابْنُ الْقَيِّمِ مَا وَرَدَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ

فِي ذَلِكَ ، وَحَمْلُهُمْ إِيَّاهُ عَلَى ظَاهِرِهِ مَعَ تَنْزِيهِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَلَكِنَّ بَعْضَ مُثْبِتِي الرُّؤْيَةِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهَا ، فَكَانَ بَعْضُ مَا قَالُوهُ تَأْوِيلًا أَبْعَدَ مِنْ تَأْوِيلِ الْمُنْكِرِينَ .

(165/287)

قَالَ الْحَافِظُ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَفْسِيرِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ مِنْ شَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ مِنَ الْبُخَارِيِّ مَا نَصُّهُ ، وَاخْتَلَفَ مَنْ أَثْبَتَ الرُّؤْيَةَ فِي مَعْنَاهَا ، فَقَالَ قَوْمٌ : يَحْصُلُ لِلرَّائِي الْعِلْمُ بِاللَّهِ - تَعَالَى - بِرُؤْيَةِ الْعَيْنِ كَمَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَرْئِيَّاتِ ، وَهُوَ عَلَى وِفْقِ قَوْلِهِ فِي حَدِيثِ الْبَابِ : "كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ" إِلَّا أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْجِهَةِ وَالْكَيْفِيَّةِ ، وَذَلِكَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الْعِلْمِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالرُّؤْيَةِ الْعِلْمُ ، وَعَبَّرَ عَنْهَا بَعْضُهُمْ بِأَنَّهَا حُصُولُ حَالَةٍ فِي الْإِنْسَانِ نِسْبَتُهَا إِلَى ذَاتِهِ الْمَخْصُوصَةِ ؛ نِسْبَةُ الْأَبْصَارِ إِلَى الْمَرْئِيَّاتِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : رُؤْيَةُ الْمُؤْمِنِ لِلَّهِ نَوْعُ كَشْفٍ وَعِلْمٍ إِلَّا أَنَّهُ أَتَمُّ وَأَوْضَحُ مِنَ الْعِلْمِ ، وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ مِنَ الْأَوَّلِ اهـ .

ثُمَّ ذَكَرَ مَا تَعَقَّبَ بِهِ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالرُّؤْيَةِ الْعِلْمُ ، وَإِنَّمَا قَالَ فِي الْقَوْلِ الْآخَرِ : إِنَّهُ أَقْرَبُ

إِلَى الصَّوَابِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّفْوِيضِ وَعَدَمِ التَّحْدِيدِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي قَالَ بِهِ الْغَزَالِيُّ وَأَوْضَحَهُ فِي كِتَابِ " الْمَحَبَّةِ مِنَ الْإِحْيَاءِ " بِمَا يُعْهَدُ مَنْ قَرَأَ الْإِحْيَاءَ مِنْ بَيَانِهِ وَفَصَاحَتِهِ .

(166/287)

هَذَا وَإِنَّ إِحْصَاءَ مَا وَرَدَ فِي هَذَا الْبَابِ مِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى الرُّؤْيَةِ إِثْبَاتًا وَنَفْيًا مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ ، وَسَرْدَ كَلَامِ الْمُثْبِتِينَ وَالنُّفَاةِ وَبَيَانَ الرَّاجِحِ مِنْهُ وَالْمَرْجُوحِ يَسْتَغْرِقُ عِدَّةَ أَجْزَاءٍ مِنَ الْمَنَارِ ، وَلَنْ يَرْضَى ذَلِكَ مِنَّا أَكْثَرُ الْقُرَّاءِ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ لَيْسَ فِيهَا نَصٌّ قَاطِعٌ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، وَلَكِنَّ بَعْضَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَالْحَسَنَةِ صَرِيحَةٌ فِي ذَلِكَ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، وَالْمَرْفُوعُ مِنْهُ مَرْوِيٌّ عَنْ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ

(167/287)

صَحَابِيًّا ، دَعِ الْمَوْقُوفَ وَالْآثَارَ ، وَلَمْ يَرِدْ فِي مُعَارَضَتِهَا شَيْءٌ أَصْرَحُ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : " قُلْتُ لِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - يَا أُمَّتَاهُ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَبَّهُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ ؟ فَقَالَتْ : لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلْتَ ! أَيْنَ

أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ ، مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذِبَ ، مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذِبَ – وَفِي رِوَايَةٍ : فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ – ثُمَّ قَرَأَتْ : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (6 : 103) وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (42 : 51) وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذِبَ ، ثُمَّ قَرَأَتْ : وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا (31 : 34) وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ – أَيِ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ فَقَدْ كَذِبَ ، ثُمَّ قَرَأَتْ : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (5 : 67) الْآيَةَ ، وَلَكِنْ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ " اهـ .

(168/287)

وَقَدْ ذَكَرَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ أَنَّ عَائِشَةَ لَمْ تَنْفِ وُقُوعَ الرُّؤْيَةِ بِحَدِيثٍ مَرْفُوعٍ وَلَوْ كَانَ مَعَهَا لَذَكَرَتْهُ وَإِنَّمَا اعْتَمَدَتِ الِاسْتِنْبَاطَ عَلَى مَا ذَكَرَتْهُ مِنْ ظَاهِرِ الْآيَةِ وَقَدْ خَالَفَهَا غَيْرُهَا مِنَ الصَّحَابَةِ إِلَخْ ، وَذَكَرَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ تَبَعًا لِابْنِ خُزَيْمَةَ ذَاهِلًا عَمَّا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ الَّذِي شَرَحَهُ ، وَذَكَرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ مَسْرُوقٍ عِنْدَهُ زِيَادَةً عَمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ لَفْظِ الْبُخَارِيِّ وَهِيَ : قَالَ مَسْرُوقٌ " وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ وَقُلْتُ : أَلَمْ يَقُلِ اللهُ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنَّمَا

هُوَ جِبْرِيلُ " إلَخْ .

فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ عَائِشَةَ تَنْفِي دَلَالَةَ سُورَةِ النَّجْمِ عَلَى رُؤْيَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِرَبِّهِ بِالْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ ، وَتَنْفِي جَوَازَ الرُّؤْيَةِ مُطْلَقًا أَوْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالِاسْتِدْلَالِ بِقَوْلِهِ -

(169/287)

تَعَالَى - : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَقَوْلُهُ : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَيُعَارِضُ هَذَا الِاسْتِدْلَالَ أَنَّهُ لَيْسَ نَصًّا فِي النَّفْيِ حَتَّى يُرَجَّحَ عَلَى الْأَحَادِيثِ الصَّرِيحَةِ فِي الرِّوَايَةِ ، وَقَدْ قَالَ بِهَا بَعْضُ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إنَّ عَائِشَةَ لَيْسَتْ أَعْلَمُ عِنْدِنَا مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي أَثْبَتَ الرُّؤْيَةَ لِلنَّبِيِّ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ ، وَفِي هَذَا الْقَوْلِ بَحْثٌ ، فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ اسْتَنْبَطَ إثْبَاتَ الرُّؤْيَةِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْآيَاتِ ، وَقَدِ انْفَرَدَ بِذَلِكَ دُونَ سَائِرِ الصَّحَابَةِ . وَأَمَّا مَنْ رُوِيَ عَنْهُمْ إثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ فِي الْآخِرَةِ فَلَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ يُقَالُ إنَّهُ أَعْلَمُ مِنْ عَائِشَةَ إلَّا وَالِدُهَا الصِّدِّيقُ وَعَلِيٌّ الْمُرْتَضَى وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَقَدْ يُذْكَرُ فِي طَبَقَتِهَا مِنْهُمْ الْعَبَادِلَةُ ، وَلَكِنَّ الْحَدِيثَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فِي هَذَا الْبَابِ ضَعِيفٌ ، وَعَنْ عَلِيٍّ مَوْضُوعٌ ، حَتَّى إنَّ مَا رُوِيَ عَنْهَا نَفْسُهَا فِيهِ أَقْوَى سَنَدًا . وَيَقُولُ النُّفَاةُ : لَوْ رَأَى النَّبِيُّ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَبَّهُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ لَمَا خَفِيَ نَبَأُ ذَلِكَ عَنْ عَائِشَةَ مَعَ مَا عُلِمَ مِنْ حِرْصِهَا عَلَى الْعِلْمِ ، وَسُؤَالِهَا إِيَّاهُ عَنْ آيَةِ النَّجْمِ ،

(170/287)

وَقَدْ يَقُولُ النُّفَاةُ أَيْضًا : لَوْ كَانَتِ الرُّؤْيَةُ فِي الْآخِرَةِ عَقِيدَةً يُطَالِبُ الْمُسْلِمُونَ بِالْإِيمَانِ بِهَا لَمَا جَهِلَتْهَا عَائِشَةُ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَنْهَضُ لِمُعَارَضَةِ إِثْبَاتِ الْمُثْبِتِينَ لَهَا بِالْأَحَادِيثِ الصَّرِيحَةِ ، وَإِنَّمَا قُصَارَاهُ أَنْ يُعَدَّ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْمَسْأَلَةَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ الَّتِي كَانَ يَذْكُرُهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحْيَانًا لِبَعْضِ الْخَوَاصِّ إِذْ لَا يَضُرُّ الْعَامَّةَ جَهْلُهَا ، فَلَمْ يَقْصِدْ أَنْ تَكُونَ عَقِيدَةً يُدْعَى إِلَيْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ .

(171/287)

وَأَحْسَنُ مَا يُجَابُ بِهِ عَنِ اسْتِنْبَاطِ عَائِشَةَ وَأَقْوَاهُ عِنْدَ الْمُثْبِتِينَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهَا تُرِيدُ بِهِ نَفْيَ الرُّؤْيَةِ فِي الدُّنْيَا كَمَا قَالَ بِذَلِكَ الْجُمْهُورُ ، وَلَا تُقَاسُ شُئُونُ الْبَشَرِ فِي الْآخِرَةِ عَلَى شُئُونِهِمْ فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ لِذَلِكَ الْعَالَمِ سُنَنًا وَنَوَامِيسَ تُخَالِفُ سُنَنَ هَذَا الْعَالَمِ وَنَوَامِيسِهِ حَتَّى فِي

الْأُمُورِ الْمَادِّيَّةِ كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ ، فَمَاءُ الْجَنَّةِ غَيْرُ آسِنٍ فَلَا يَتَغَيَّرُ كَمَاءِ الدُّنْيَا بِمَا يُخَالِطُهُ أَوْ يُجَاوِرُهُ فِي مَقَرِّهِ أَوْ جَوِّهِ ، وَخَمْرُهَا لَيْسَ فِيهَا غَوْلٌ يَغْتَالُ الْعَقْلَ ، وَلَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ، وَلَبَنُهَا لَا يَعْتَرِيهِ فَسَادٌ ، وَلَا تُخَالِطُهُ جِنَّةٌ (مَيْكْرُوبَاتٌ) أَمْرَاضٌ ، وَكَذَلِكَ فَاكِهَتُهَا وَثَمَرَاتُهَا هِيَ عَلَى كَوْنِهَا أَعْلَى وَأَشْهَى مِمَّا فِي الدُّنْيَا لَا تَفْسَدُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءَ ، وَكَذَلِكَ أَمْزِجَةُ أَهْلِهَا هِيَ أَصَحُّ وَأَسْلَمُ مِنْ أَمْزِجَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ

(172/287)

وَيَشْرَبُونَ فَيَكُونُ هَضْمُهُمْ بِالتَّبَخُّرِ وَرَشْحِ الْعَرَقِ ، فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ جُشَاءٌ وَرَشْحٌ لَهَا رِيحُ الْمِسْكِ ، وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ عُلَمَاءَ الْعَصْرِ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ فِي كَوْكَبِ الْمِرِّيخِ أَحْيَاءً عُقَلَاءَ كَالْبَشَرِ يَجْزِمُونَ بِأَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا أَكْبَرَ مِنَّا أَجْسَامًا وَأَسْرَعَ مِنَ الْخَيْلِ الْعَادِيَّةِ فِي حَرَكَتِهِمُ الْعَادِيَّةِ ، هَذَا ، وَعَالَمُ الْمِرِّيخِ لَا يُعْرَفُ فِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ الرُّوحَانِيَّةِ الْعَالِيَةِ مِثْلَ مَا وَرَدَ فِي حَيَاةِ الْجَنَّةِ ، وَلَكِنْ مَا ذَكَرَهُ عُلَمَاءُ الْعَصْرِ فِي شَأْنِهِ يُقَرِّبُ تَصَوُّرَ مَا وَرَدَ فِي صِفَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْأَذْهَانِ الْمُقَيَّدَةِ بِالْمَأْلُوفَاتِ ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِنَّمَا يُنْكِرُونَ أَخْبَارَ الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِمَا جَمَدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَأْلُوفَاتِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أُخْبِرُوا بِمَا اكْتَشَفَ مِنْ

أَسْرَارِ الْكَوْنِ فِي هَذَا الْعَصْرِ كَخَوَاصِّ الْكَهْرُبَاءِ وَالرَّادْيُومِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ مَشْهُودًا مَقْطُوعًا بِهِ لَمَا صَدَّقُوهُ . قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي بَيَانِ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْقَائِمِينَ بِأَعْمَالِ الْإِيمَانِ حَقَّ الْقِيَامِ : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (32 : 17)

وَوَضَّحَ ذَلِكَ رَسُولُهُ فِي حَدِيثٍ قُدْسِيٍّ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحِهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ

(173/287)

بَشَرٍ " وَرَوَى أَهْلُ الْكِتَابِ مِثْلَ هَذَا عَنْ سَيِّدِنَا عِيسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِذَا ثَبَتَ لَنَا أَنَّ كُلَّ مَا وَرَدَ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ أَعْلَى وَأَسْمَى مِمَّا فِي الدُّنْيَا حَتَّى الْأَجْسَامِ وَصِفَاتِ النَّاسِ وَغَرَائِزِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَا يُشَارِكُ مَا فِي الدُّنْيَا إلَّا بِالِاسْمِ ، الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِهِ لِضَرُورَةِ تَقْرِيبِ تِلْكَ الْمَعَانِي الْغَيْبِيَّةِ مِنَ الْفَهْمِ ، فَهَلْ يَصِحُّ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ نَعْمِدَ إلَى أَعْلَى مَا هُنَالِكَ مِنَ الشُّئُونِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ فَنُشَبِّهَهُ بِشُئُونِ الدُّنْيَا ؟ فَنَجْعَلَ تَجَلِّيَ الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِأُولَئِكَ الْعِبَادِ الْمُكْرَمِينَ

الَّذِينَ رَقَّاهُمْ وَكَمَّلَهُمْ وَأَهَّلَهُمْ لِكَمَالِ مَعْرِفَتِهِ تَحَيُّزًا وَمُشَابَهَةً لِلْخَلْقِ ؟ وَنَجْعَلَ مَا يَحْصُلُ لَهُمْ

مِنْ ذَلِكَ التَّجَلِّي مِنَ الْعِلْمِ الْأَكْمَلِ وَالْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا الَّتِي تَسْتَغْرِقُ أَرْوَاحَهُمْ وَجَمِيعَ مَشَاعِرِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ إِدْرَاكًا لِكُنْهِ الرَّبِّ – عَزَّ وَجَلَّ – ، وَإِحَاطَةَ عِلْمٍ بِهِ – تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ – ثُمَّ نَعْذِرُ أَنْفُسَنَا عَلَى هَذَا الْجَهْلِ بِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ سُمِّيَ رُؤْيَةً وَمُعَايَنَةً ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الرُّؤْيَةُ هُنَالِكَ كَرُؤْيَتِنَا الَّتِي الَّتِي تَعْهَدُهَا هُنَا ؟ !

سُبْحَانَ اللهِ ! أَيَكُونُ كُلُّ مَا هُنَالِكَ مِنْ أَعْيَانِ الْمَخْلُوقَاتِ وَصِفَاتِهَا وَأَحْوَالِهَا مُخَالِفًا لِمَا لَهُ اسْمُهُ مِنْهَا هُنَا إِلَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِشَأْنِ الْخَالِقِ – عَزَّ وَجَلَّ – ، فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ

(174/287)

يَكُونَ مُشَابِهًا لِشُئُونِ الْمَخْلُوقِينَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ ؟ أَهَذَا هُوَ الْمَذْهَبُ الَّذِي يَدَّعِي أَصْحَابُهُ اتِّبَاعَ الْمَعْقُولِ ، وَيَسْخَرُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بِزَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ جَمَدُوا عَلَى بَعْضِ أَحَادِيثِ الْآحَادِ مِنَ الْمَنْقُولِ ؟ ! وَهُمُ الَّذِينَ قَدْ جَمَدُوا عَلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي اسْتُعْمِلَتْ فِي صِفَاتِ الْبَارِي تَعَالَى وَشُئُونِهِ وَأَخْبَارِ عَالَمِ الْغَيْبِ ، فَتَرَاهُمْ يَصْرِفُونَهَا عَنْ مَعَانِيهَا ، وَيُعَطِّلُونَ مَدْلُولَاتِهَا الْمَقْصُودَةَ ؛ لِتَوَهُّمِهِمْ أَنَّهَا لَا تَكُونُ صَحِيحَةً إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَدْلُولَاتُهَا فِي عَالَمِ الْغَيْبِ كَمَدْلُولَاتِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ . ثُمَّ تَحَكَّمُوا فَأَثْبَتُوا بَعْضَ صِفَاتِ الْبَارِئِ تَعَالَى بِدُونِ تَأْوِيلٍ كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ ، وَهَذَا عَيْنُ التَّشْبِيهِ ،

وَأَوَّلُوا أَكْثَرَهَا كَالْكَلَامِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْغَضَبِ وَالرِّضَاءِ وَالْعُلُوِّ وَالْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ إِلَخْ ، وَهَذَا عَيْنُ التَّعْطِيلِ – وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُثْبِتُونَ لَهُ تَعَالَى كُلَّ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَيُنَزِّهُونَهُ فِيهِ كُلِّهِ عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ ، وَلَا يَرَوْنَ فَرْقًا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالرَّحْمَةِ وَالْكَلَامِ ، فَكُلُّهَا مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لَهُ مَعَ التَّنْزِيهِ – فَعِلْمُهُ لَيْسَ كَعِلْمِ الْبَشَرِ مُنْتَزَعًا مِنْ صُوَرِ الْمَعْلُومَاتِ بِالْحِسِّ أَوِ الْفِكْرِ – ، وَكَلَامُهُ لَيْسَ كَيْفِيَّةً عَرَضِيَّةً يَحْصُلُ بِتَمَوُّجِ الْهَوَاءِ بِتَأْثِيرِ

(175/287)

الصَّوْتِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِّ – وَكَذَلِكَ سَائِرُ صِفَاتِهِ وَشُئُونِهِ تَعَالَى . فَتَجَلِّيهِ لِخَوَاصِّ خَلْقِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ لَيْسَ كَظُهُورِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، وَمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ رُؤْيَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَسَمَاعِ كَلَامِهِ لَا يُشَابِهُ مَا يَكُونُ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ .

وَإِذَا كُنَّا قَدْ عَرَفْنَا بِالْمُشَاهَدَةِ فِي عَالَمِ الْحِسِّ أَنَّ إِيقَادَ مِصْبَاحِ زَيْتِ الزَّيْتُونِ أَوْ زَيْتِ الْبِتْرُولِ لَا يُشْبِهُ إِيقَادَ مِصْبَاحِ الْكَهْرُبَاءِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الثَّانِي مَا يُشْتَرَطُ فِي الْأَوَّلِ – وَنَجْزِمُ بِأَنَّ هَذَا الْفَرْقَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَوَّرَهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْكَهْرُبَاءَ أَلْبَتَّةَ – فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَلَّا نَسْتَغْرِبَ مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ هَذَا الْفَرْقِ بَيْنَ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فِي اخْتِلَافِ الْكَيْفِيَّةِ

لِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَالرُّؤْيَةِ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ حَظٌّ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الدُّنْيَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْأَمْثَالِ ، وَحَسْبُ الْمَحْرُومِ مِنْهَا أَنْ يَنْتَفِعَ بِالْأَمْثَالِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (29 : 43) .

(انْتَهَتِ الْفَتْوَى)

(خُلَاصَةٌ وَتَتِمَّةٌ تَزِيدُ الْمَسْأَلَةَ وُضُوحًا ، وَمَذْهَبَ السَّلَفِ ثُبُوتًا)

(1) الرُّؤْيَةُ لَيْسَتْ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ الْقَطْعِيَّةِ :

(176/287)

قَدْ عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّةِ نَصٌّ أُصُولِيٌّ وَلَا لُغَوِيٌّ مُتَوَاتِرٌ قَطْعِيُّ الرِّوَايَةِ وَالدَّلَالَةِ يَجْعَلُهَا مِنَ الْعَقَائِدِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا الْمَعْلُومَةِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، وَلَيْسَتْ مِمَّا كَانَ يُدْعَى إِلَيْهِ فِي تَبْلِيغِ الدِّينِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ بِحَيْثُ يَكُونُ مَنْ يَجْهَلُهَا أَوْ يُنْكِرُهَا كَافِرًا ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ غَرِيبِ الْعِلْمِ إِلَّا عَلَى الَّذِي يَسْتَنْبِطُهُ مِنَ الْقُرْآنِ كِبَارُ الْعَارِفِينَ ، وَرُبَّمَا كَانَ فِتْنَةً لِمَنْ دُونَهُمْ - وَكَذَلِكَ كَانَ - حَتَّى إِنَّ كِبَارَ النُّظَّارِ وَعُلَمَاءَ الْبَيَانِ قَدِ اخْتَلَفُوا فِي كُلٍّ مِنَ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الْوَارِدَةِ فِيهَا : فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَالْأَعْرَافِ وَالْقِيَامَةِ . فَجَعَلَهَا بَعْضُهُمْ مُثْبَتَةً وَبَعْضُهُمْ نَافِيَةً ، وَالْقَاعِدَةُ فِي دِينِ الرَّحْمَةِ وَالشَّرِيعَةِ السَّمْحَةِ أَنَّ الْحُجَّةَ لَا تَقُومُ عَلَى جَمِيعِ

الْمُكَلَّفِينَ إلَّا فِيمَا كَانَ قَطْعِيَّ الدَّلَالَةِ لُغَةً ، وَأَنَّهُمْ يُعْذَرُونَ بِاخْتِلَافِ الْأَفْهَامِ فِي غَيْرِهِ ، كَمَا عُلِمَ مِنْ وَاقِعَةِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، فَإِنَّ آيَةَ الْبَقَرَةِ تَدُلُّ عَلَى التَّحْرِيمِ بِمُقْتَضَى الْقَاعِدَةِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ ، وَهِيَ تَحْرِيمُ مَا تَغْلِبُ الْمَفْسَدَةُ فِيهِ عَلَى الْمَصْلَحَةِ ، وَيُرَجَّحُ الضَّرَرُ فِيهِ عَلَى النَّفْعِ ، وَقَدْ نَطَقَتِ الْآيَةُ بِهَذَا التَّرْجِيحِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا (2 : 219) وَهُوَ مَا فَهِمَهُ بَعْضُ خَوَاصِّ الصَّحَابَةِ فَتَرَكُوهُمَا ، وَلَمْ يُكَلَّفْ جَمِيعَ

(177/287)

الْمُسْلِمِينَ تَرْكَهُمَا إلَّا بَعْدَ نُزُولِ آيَةِ الْمَائِدَةِ الَّتِي هِيَ نَصٌّ قَطْعِيٌّ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ؛ إذْ نَطَقَتْ بِأَنَّهُمَا رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، وَصَرَّحَتْ بِالْأَمْرِ بِاجْتِنَابِهِ ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْأَمْرِ بِالتَّرْكِ . وَمَا مِنْ مَسْأَلَةٍ ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ بِنَصٍّ غَيْرِ قَطْعِيِّ الدَّلَالَةِ إلَّا وَلِلَّهِ تَعَالَى حِكْمَةٌ فِي عَدَمِ الْقَطْعِ بِهَا ، وَقَدْ بَيَّنَ حُكَمَاءُ الْعُلَمَاءِ حِكْمَةَ ذَلِكَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ بِأَنَّ شِدَّةَ افْتِتَانِ النَّاسِ بِهِمَا كَانَتْ تَقْتَضِي أَنْ يَشُقَّ عَلَى النَّاسِ تَرْكُهُمَا دُفْعَةً وَاحِدَةً حَتَّى يَتَعَذَّرَ عَلَى بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ضِعَافِ الْإِيمَانِ تَرْكُهُمَا ، وَيَتَعَسَّرُ عَلَى بَعْضٍ ، وَيَنْفِرُ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِسْلَامِ ، فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ الرَّبِّ وَرَحْمَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يُحَرِّمَهُمَا بِالتَّدْرِيجِ وَلَا سِيَّمَا الْخَمْرَ ، فَإِنَّهُ أَنْزَلَ آيَةً تَقْتَضِي تَرْكَ الْخَمْرِ فِي عَامَّةِ النَّهَارِ وَنَاشِئَةِ اللَّيْلِ وَهِيَ قَوْلُهُ : لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ

سُكَارَى (4 : 43) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا الْبَلِيغَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ - وَآيَةً يَفْهَمُ مِنْهَا دَقِيقُ الْعِلْمِ قَوِيُّ الْإِيمَانِ التَّحْرِيمَ فَيَتْرُكُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَهِيَ آيَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، ثُمَّ صَرَّحَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِنِينَ بِالِاجْتِنَابِ عَلَى سَبِيلِ الْقَطْعِ .

لَوْلَا غَفْلَةُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ طَعَنَ بَعْضُهُمْ فِي عِلْمِ الْمُخَالِفِ لَهُ فِي مَسْأَلَةِ الرُّؤْيَةِ وَفِي

(178/287)

دِينِهِ عَنْ هَذِهِ الْحِكْمَةِ وَتِلْكَ الْقَاعِدَةِ ، لَعَذَرَ كُلٌّ مِنْهُمُ الْآخَرَ ، وَلَمْ يَجْعَلُوا الْخِلَافَ فِيهَا عَصَبِيَّةً مَذْهَبِيَّةً ، وَلَعَلِمَ الْمُثْبِتُونَ لَهَا مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَوْ أَرَادَ أَنْ تَكُونَ عَقِيدَةً عَامَّةً وَرُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ لَبَيَّنَ

(179/287)

ذَلِكَ فِي آيَةٍ صَرِيحَةٍ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، نَاطِقَةٍ بِأَنَّهُ يُرَى بِالْأَبْصَارِ عِيَانًا بِلَا كَيْفٍ وَلَا إِحَاطَةٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ، وَلَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ عَرَّفَ الْإِيمَانَ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ بَعْدَ قَوْلِهِ : " أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " : وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ

فِي الْآخِرَةِ بِأَبْصَارِهِمْ عِيَانًا بِلَا كَيْفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ ، وَلَأَمَرَ بِتَلْقِينِ هَذَا لِكُلِّ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَتَوَاتَرَ عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابِهِ الْجَرْيُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، وَإِذًا لَمَا وَقَعَ فِيهِ خِلَافٌ ، وَلَمَا اسْتَنْكَرَتْ عَائِشَةُ سُؤَالَ مَسْرُوقٍ إِيَّاهَا عَنْ رُؤْيَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِرَبِّهِ حَتَّى قَفَّ شَعْرُهَا مِنِ اسْتِعْظَامِ ذَلِكَ ، وَلَوْ كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّ الرُّؤْيَةَ تَكُونُ فِي الْآخِرَةِ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ لَمَا اسْتَنْكَرَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ حُصُولَهَا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الدُّنْيَا امْتِيَازًا لَهُ ؛ لِأَنَّ رُوحَهُ فِيهَا أَقْوَى مِنْ أَرْوَاحِ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ فَيُطِيقُ مَا لَا يُطِيقُهُ غَيْرُهُ حَتَّى مُوسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَقَاسَتْ هَذَا الِامْتِيَازَ عَلَى النَّاسِ بِامْتِيَازِهِ - عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ - عَلَيْهِمْ بِالْوَحْيِ وَرُؤْيَةِ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ؛ عَلَى أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ لَا فِي عَالَمِ

(180/287)

الْأَرْضِ .

فَالْحِكْمَةُ الظَّاهِرَةُ لِعَدَمِ النَّصِّ الْقَطْعِيِّ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْمَسْأَلَةِ أَنَّهَا مِمَّا تَتَحَيَّرُ فِيهِ الْعُقُولُ ، وَرُبَّمَا كَانَتْ مِمَّا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي مُقَدِّمَةِ صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ " مَا

أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً " وَعُمُومُ مَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ عَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ " حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ " وَرُوِيَا مَرْفُوعَيْنِ وَلَكِنْ بِسَنَدَيْنِ ضَعِيفَيْنِ - وَالْمُرَادُ بِالْمَعْرِفَةِ فِي الثَّانِي مَا يُقَابِلُ الْمُنْكَرَ ، وَمَا لَا يَعْقِدُ لَا مَا يُقَابِلُ الْجَهْلَ ؛ إِذْ يَكُونُ مِنْ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ ، وَقَدْ زَادَ فِيهِ آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي الْمُسْتَخْرَجِ " وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ " ذَكَرَهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ وَاسْتَشْهَدَ لَهُ بِأَثَرِ ابْنِ مَسْعُودٍ آنِفًا ، وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْمُتَشَابِهَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُذْكَرَ عِنْدَ الْعَامَّةِ ، وَفَسَّرَ مَا لَا يُنْكِرُونَ بِمَا لَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ فَهْمُهُ ، وَلَا يَسْلَمُ قَوْلُهُ هَذَا عَلَى إِطْلَاقِهِ ، فَإِنَّهُ يَجِبُ اسْتِثْنَاءُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْهُ ، إِذْ لَا يَجُوزُ كِتْمَانُهُ عَنْ أَحَدٍ ؛ عَلَى أَنَّهُ كُلُّهُ مِنْ قَبِيلِ آيَاتِ الرُّؤْيَةِ ، لَيْسَ فِيهَا مَثَارٌ لِلْفِتْنَةِ ، مَعَ عَقِيدَةِ التَّنْزِيهِ وَنَفْيِ الْمُمَاثَلَةِ ،

(181/287)

وَقَاعِدَةِ التَّفْوِيضِ الَّتِي جَرَى عَلَيْهَا السَّلَفُ ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ دُونَ اتِّبَاعِ الْمُتَشَابِهِ إِلَّا لِمَنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ ، كَمَا نَصَّ فِي آيَةِ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ . وَهَذَا يُؤَيِّدُ قَوْلَنَا إِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ لَمْ يُكَفِّرْ مُنْكِرِي الرُّؤْيَةِ إِلَّا لِأَنَّهُ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَى الْإِنْكَارِ هُوَ الزَّيْغُ وَالزَّنْدَقَةُ .

ثُمَّ قَالَ الْحَافِظُ : وَمِمَّنْ كَرِهَ التَّحْدِيثَ بِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ أَحْمَدُ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي ظَاهِرُهَا الْخُرُوجُ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَمَالِكٌ فِي أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ ، وَأَبُو يُوسُفَ فِي الْغَرَائِبِ ، وَمِنْ قَبْلِهِمْ

أَبُو هُرَيْرَةَ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْهُ فِي الْجِرَابَيْنِ ، وَأَنَّ الْمُرَادَ (أَيْ : بِالثَّانِي) مَا يَقَعُ مِنَ الْفِتَنِ وَنَحْوُهُ عَنْ حُذَيْفَةَ وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ أَنْكَرَ تَحْدِيثَ أَنَسٍ لِلْحَجَّاجِ بِقِصَّةِ الْعُرَنِيِّينَ ؛ لِأَنَّهُ اتَّخَذَهَا وَسِيلَةً إِلَى مَا كَانَ يَعْتَمِدُهُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ بِتَأْوِيلِهِ الْوَاهِي ، وَضَابِطُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ يُقَوِّي الْبِدْعَةَ ، وَظَاهِرُهُ فِي الْأَصْلِ غَيْرُ مُرَادٍ . فَالْإِمْسَاكُ عَنْهُ عِنْدَ مَنْ يُخْشَى عَلَيْهِ الْأَخْذُ بِظَاهِرِهِ مَطْلُوبٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ اهـ .

(182/287)

(أَقُولُ) : هَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ تَدْخُلُ فِي بَابِ التَّعَارُضِ وَالتَّرْجِيحِ مِنَ الْأُصُولِ ، أَعْنِي التَّعَارُضَ بَيْنَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنْ بَيَانِ الْعِلْمِ ، وَإِظْهَارِ الشَّرْعِ وَمَا حَرَّمَ مِنَ الْكِتْمَانِ فِي قَوْلِهِ : لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ (3 : 187) وَبَيَّنَ مَا حَرَّمَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ وَالْفِتْنَةِ ، وَمَا وَجَبَ مِنْ سَدِّ ذَرَائِعِهَا مِمَّا هُوَ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ ، وَلَمْ أَرَ لِأَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ تَحْقِيقًا لِهَذَا الْبَحْثِ وَلَيْسَ هَذَا مَحَلَّهُ .

(2) الرُّؤْيَةُ فِي الْعَمَلِ النَّوْمِيِّ :

قَدْ ثَبَتَ بِالتَّجْرِبَةِ الْمُكَرَّرَةِ وَالرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّةِ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَفْعَلُونَ فِي حَالِ النَّوْمِ الْمُعَطَّلِ لِجَمِيعِ الْحَوَاسِّ أَعْمَالًا دَقِيقَةً كَالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَتَرْكِيبِ الْأَدْوِيَةِ بِسُرْعَةٍ وَمَهَارَةٍ يَعْجَزُونَ عَنْ مِثْلِهَا فِي الْيَقَظَةِ ، وَقَدْ كَانَ يَخْرُجُ أَحَدُهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِ ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهِ وَهُوَ مُغْمَضُ الْعَيْنَيْنِ ، وَقَدْ يَفْتَحُهُمَا وَلَا يَرَى بِهِمَا إِلَّا مَا تَوَجَّهَتْ إِرَادَتُهُ إِلَيْهِ ، كَبَعْضِ الصَّيَادِلَةِ الَّذِي رَاقَبَهُ طَبِيبٌ عَرَفَ حَالَهُ فَرَآهُ يَقْرَأُ وَصْفَاتِ الْأَطِبَّاءِ وَيُرَكِّبُ مَا جَاءَ فِيهَا ، فَأَلْقَى إِلَيْهِ فِيهَا وَصْفَةَ دَوَاءٍ سَامٍّ يَقْتُلُ شَارِبَهُ فِي الْحَالِ ، فَقَرَأَهَا وَأَعَادَ التَّأَمُّلَ فِيهَا ، وَقَالَ : لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا

(183/287)

غَلَطٌ أَوْ سَبَقُ قَلَمٍ مِنَ الطَّبِيبِ فَأَنَا لَا أُرَكِّبُهُ وَأَلْقَاهَا ، وَرَاقَبَ بَعْضُهُمْ رَجُلًا آخَرَ كَانَ يُخْبَرُ أَنَّ نُقُودَهُ تُسْرَقُ مِنْ صُنْدُوقِهِ الْحَدِيدِيِّ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ، فَبَاتَ عِنْدَهُ فَرَآهُ قَدْ قَامَ مِنْ فِرَاشِهِ بَعْدَ اسْتِغْرَاقِهِ فِي النَّوْمِ ، وَفَتَحَ صُنْدُوقَهُ وَأَخَذَ مِنْهُ بَعْضَ النُّقُودِ وَخَرَجَ بِهَا ، فَتَبِعَهُ حَتَّى جَاءَ مَكَانًا خَرِبًا فَتَسَلَّقَ جِدَارًا مِنْ جُدُرِهِ الْمُتَدَاعِيَةِ ، وَمَشَى عَلَيْهِ بِسُرْعَةٍ ثُمَّ نَزَلَ فِي دَاخِلِهِ وَحَفَرَ فِي الْأَرْضِ حُفْرَةً ، وَوَضَعَ فِيهَا مَا حَمَلَهُ مِنَ النُّقُودِ ، وَعَادَ فَتَسَلَّقَ الْجِدَارَ ، وَمَرَّ عَلَيْهِ مُسْرِعًا وَالْمُرَاقِبُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلَهُ ، وَعَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَأَوَى إِلَى

فِرَاشِهِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ فِي النَّهَارِ عَدَّ الدَّرَاهِمَ ، وَأَخْبَرَ الرَّجُلَ الَّذِي بَاتَ عِنْدَهُ لِيَكْشِفَ لَهُ حَالَ مَنْ يَسْرِقُ صُنْدُوقَهُ بِمَا نَقَصَ مِنْهَا ، فَحَدَّثَهُ هَذَا بِمَا رَآهُ فَعَجِبَ وَأَنْكَرَهُ فَذَهَبَا إِلَى الْمَكَانِ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الرَّجُلُ أَنْ يَتَسَلَّقَ الْجِدَارَ وَيَمْشِيَ عَلَيْهِ مُسْرِعًا كَمَا فَعَلَ وَهُوَ نَائِمٌ ، وَلَكِنَّهُمَا تَكَلَّفَا ذَلِكَ وَتَرَيَّثَا فِيهِ حَتَّى وَصَلَا إِلَى مَكَانِ طَمْرِ النُّقُودِ ، وَبَحَثَا عَنْهَا فَوَجَدَاهَا فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ ، وَرُئِيَ بَعْضُ غِلْمَانِ أُسْرَتِنَا مِرَارًا يَقُومُ مِنَ النَّوْمِ ، وَيَخْرُجُ لِحَاجَتِهِ ثُمَّ يَعُودُ وَهُوَ نَائِمٌ ، وَدَخَلَ الْمَطْبَخَ مَرَّةً فَنَظَّفَ بَعْضَ الْآنِيَةِ فِيهِ ، وَعَادَ إِلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ نَائِمٌ .

(184/287)

وَرُبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ مُؤَيِّدَةً لِمَذْهَبِ مَنْ قَالَ : إِنَّ لِلْإِنْسَانِ نَفْسَيْنِ أَوْ رُوحَيْنِ تُفَارِقُهُ إِحْدَاهُمَا فِي حَالِ النَّوْمِ فَقَطْ وَتُفَارِقُهُ الثِّنْتَانِ مَعًا بِالْمَوْتِ ، وَيَقْرُبُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (39 : 42) .

(3) الرُّؤْيَا وَالْأَحْلَامُ :

الرُّؤْيَا النَّوْمِيَّةُ وَالْأَحْلَامُ مِنْهَا خَوَاطِرُ تَتَمَثَّلُ وَاقِعَةً فِي حَالِ النَّوْمِ ، وَسَبَبُهَا اشْتِغَالُ الْفِكْرِ بِهَا أَوْ أَسْبَابٌ تَعْرِضُ لِلنَّائِمِ فَيَتَخَيَّلُهَا بِنَفْسِهَا أَوْ مَا يُشْبِهُهَا وَاقِعًا ، وَهِيَ أَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ ،

وَمِنْهَا الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ كَرُؤْيَا مَلِكِ مِصْرَ الَّتِي أَوَّلَهَا لَهُ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَأَمْثَالُهَا كَثِيرٌ وَقَعَ مَعَنَا وَمَعَ غَيْرِنَا ، وَثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ ثُبُوتًا لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ بِالرَّغْمِ مِنْ أُنُوفِ الْمُكَابِرِينَ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ بِالتَّجَارِبِ الْقَطْعِيَّةِ ، وَأَعْلَاهُ وَأَكْمَلُهُ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي هِيَ مِنْ مَبَادِئِ الْوَحْيِ ، وَقَدْ وَقَعَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رُؤْيَةُ الرَّبِّ - تَعَالَى - فِي الْمَنَامِ كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَنَسٍ وَظَنَّ

بَعْضُهُمْ أَنَّهُ أَرَادَ بِهَا الْيَقَظَةَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْمَبَاحِثِ ، وَوَقَعَ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ أَيْضًا

.

(4) الرُّؤْيَةُ فِي النَّوْمِ الْمِغْنَاطِيسِيِّ :

(185/287)

النَّوْمُ الْمِغْنَاطِيسِيُّ قَدِ اشْتَهَرَ وَكَثُرَ ، وَهُوَ يَحْصُلُ بِتَنْوِيمٍ صِنَاعِيٍّ يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِقُوَّةِ إِرَادَةِ بَعْضِ النَّاسِ وَتَأْثِيرِهِمْ فِي أَنْفُسِ مَنْ يُنَوِّمُونَهُ أَوْ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَا مَحَلَّ لِبَسْطِهَا هُنَا ، وَالنَّائِمُ بِهِ يَغِيبُ إِدْرَاكُهُ وَشُعُورُهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا عَدَا مُنَوِّمِهِ فَإِنَّ نَفْسَهُ تَكُونُ رَهْنَ تَصَرُّفِهِ فَإِذَا أَمَرَهُ بِشَيْءٍ خَضَعَ لِإِرَادَتِهِ بِقَدْرِ مَا فِي نَفْسِهِ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ ، وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّجَارِبِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ الْمُنَوِّمَ يَسْأَلُ النَّائِمَ عَنْ أَشْيَاءَ غَائِبَةٍ أَوْ مَسْتُورَةٍ : مَا هِيَ وَأَيْنَ هِيَ

؟ فَعِنْدَ سُؤَالِهِ إيَّاهُ عَنْهَا تَتَوَجَّهُ نَفْسُهُ إلَيْهَا فَيَرَاهَا وَيُخْبِرُهُ عَنْهَا فَيَصْدُقُ .

فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَضْرُبٍ أَوْ أَنْوَاعٍ مِنَ الرُّؤْيَةِ لِلشَّيْءِ لَا عَمَلَ لِلْأَعْيُنِ فِيهَا : إلَّا أَنَّ الْعَرَبَ خَصَّتْ مَا يُرَى فِي النَّوْمِ بِاسْمِ الرُّؤْيَا - بِالْأَلِفِ - وَمَا يَقَعُ فِي الْيَقَظَةِ بِاسْمِ الرُّؤْيَةِ ، وَلَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا فِي الْأَفْعَالِ ، وَلَعَلَّهَا لَوْ عَرَفَتِ النَّوْعَ الْأَوَّلَ وَالثَّالِثَ مِمَّا ذَكَرْنَا هُنَا لَسَمَّتْهُ رُؤْيَا أَيْضًا .

(186/287)

رَوَى أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ (17 : 60) قَالَ : هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَلَيْسَتْ رُؤْيَا مَنَامٍ نَقُولُ : وَلَكِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - سَمَّاهَا (رُؤْيَا) لَا " رُؤْيَةً " وَالتَّحْقِيقُ الْمُخْتَارُ أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ كَانَا فِي حَالَةٍ رُوحِيَّةٍ قَوِيَ فِيهَا سُلْطَانُ الرُّوحِ عَلَى سُنَنِ اللَّهِ فِي الْجَسَدِ فَصَارَ خَفِيفًا لَطِيفًا كَالْأَجْسَامِ الَّتِي تَتَمَثَّلُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ، وَتَمَثَّلَ فِيهَا الرُّوحُ لِلسَّيِّدَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ لَا بِالرُّوحِ فَقَطْ كَمَا قِيلَ ، وَلَا فِي الْمَنَامِ كَمَا فِي رِوَايَةِ شَرِيكٍ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ، وَهُوَ يَتَّفِقُ مَعَ قَوْلِ مَنْ قَالُوا إنَّهُمَا بِالرُّوحِ وَالْجَسَدِ ؛ إذْ إطْلَاقُهُمْ لَا يُنَافِي هَذَا الْقَيْدَ - وَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْجَسَدَ الَّذِي

حَلَّتْهُ رُوحُهُ الشَّرِيفَةُ لَيَلْتَئِذٍ غَيْرَ جَسَدِهِ الْمُعْتَادِ ؛ لِيُنَاسِبَ الْعَالَمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ - فَكَيْفَ وَلَا مَانِعَ مِنْ كَوْنِهِ هُوَ بِعَيْنِهِ أَثَّرَتْ فِيهِ الرُّوحُ فَلَطَّفَتْهُ وَجَعَلَتْهُ كَالْأَثِيرِ فِي لُطْفِهِ وَقُوَّتِهِ فِي هَذَا الْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ ، وَبَقِيَ السُّلْطَانُ لِلرُّوحِ ، فَجِبْرِيلُ الَّذِي تَمَثَّلَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِصُورَةِ دِحْيَةَ ، وَلِمَرْيَمَ

(187/287)

بِصُورَةِ شَابٍّ جَمِيلِ الصُّورَةِ هُوَ جِبْرِيلُ الَّذِي رَآهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِصُورَتِهِ سَادًّا الْأُفُقَ الْأَعْلَى ، وَقَالَ - تَعَالَى - فِيهِمَا : فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (53 : 10)

يُوَضِّحُ هَذَا مَا يَأْتِي :

(5) تَشَكُّلُ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَرُؤْيَتُهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ :

قَدْ ثَبَتَ عَنْ أَفْضَلِ الْبَشَرِ وَأَصْدَقِهِمْ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَبَعْضِ أَوْلِيَائِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ وَالْجِنَّ فِي صُوَرٍ لَطِيفَةٍ أَوْ كَثِيفَةٍ ، وَثَبَتَ تَمَثُّلُهُمْ لَهُمْ بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ الْوَحْيِ .

(188/287)

وَقَدْ صَحَّ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ مَلَكَ الْوَحْيِ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَيْهَا إلَّا مَرَّتَيْنِ ، وَقَدْ عُلِمَ بِالْقَطْعِ أَنَّهُ رَآهُ فِي الصُّوَرِ الَّتِي كَانَ يَتَشَكَّلُ فِيهَا مِرَارًا تُعَدُّ بِالْمِئِينَ أَوْ أَكْثَرَ ، وَلَيْسَتْ مَحْصُورَةً فِي عَدَدِ نُزُولِهِ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ وَسُوَرِهِ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ تِلْكَ الصُّوَرِ صُورَةُ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَمِنْهَا صُورَةُ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ الَّذِي سَأَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ إلَخْ ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الصُّوَرِ الْكَثِيفَةِ رَآهُ فِيهِ مَنْ حَضَرَ مَجِيئَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَمِنْهَا صُوَرٌ لَطِيفَةٌ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فِيهَا غَيْرُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الْوَحْيِ الَّذِي رَوَاهُ الشَّيْخَانِ : " وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ " يَشْمَلُ النَّوْعَيْنِ ، وَوَرَدَ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُثِّلَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فِي عُرْضِ الْحَائِطِ فَرَآهُمَا وَلَمْ يَرَهُمَا غَيْرُهُ ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَرَاهُ مِثَالًا لَهُمَا ، وَهَذَا غَيْرُ تَمَثُّلِ الْمَلَكِ لَهُ بِإِرَادَتِهِ وَعَمَلِهِ .

(189/287)

وَقَدْ رَأَى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – غَيْرَ جِبْرِيلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَرَأَى بَعْضَ الشَّيَاطِينِ أَيْضًا مُتَمَثِّلَةً فِي صُوَرٍ ، وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنْ ذَلِكَ بِالرُّؤْيَةِ ، فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّ الرُّؤْيَةَ لِلشَّيْءِ لَا تَقْتَضِي رُؤْيَةَ حَقِيقَتِهِ فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ ، وَإِنْ كَانَ مَخْلُوقًا لَهُ جِنْسٌ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ تَحْتَهَا أَصْنَافٌ وَشُخُوصٌ لَهَا أَمْثَالٌ .

فَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ يُرَى مَخْلُوقًا مِثْلُهُ رُؤْيَةً لَا يُدْرِكُ بِهَا كُنْهَهُ ، وَلَا يُحِيطُ بِحَقِيقَتِهِ وَلَا يُشَارِكُهُ فِيهَا كُلُّ مَنْ لَهُ عَيْنَانِ مِثْلُهُ ، وَهَذَا مِمَّا يُؤْمِنُ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالشِّيعَةُ وَالْأَبَاضِيَّةُ كَغَيْرِهِمْ فَهَلْ يَسْتَنْكِرُ أَنْ تَكُونَ رُؤْيَةُ الرَّبِّ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ بِلَا كَيْفٍ وَلَا مِثَالٍ ، وَعَلَى غَيْرِ الْمَعْهُودِ فِي رُؤْيَةِ بَعْضِنَا لِبَعْضٍ كَمَا اسْتَنْكَرَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالَ شَاعِرُهُمْ :

قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا . . . شُنْعَ الْوَرَى فَتَسَتَّرُوا بِالْبَلْكَفَةِ

أَمْ يَصِحُّ مَعَ هَذَا أَنْ يُصِرَّ بَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْيِيدِ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى بِالْأَبْصَارِ وَأَعْيُنِ الرُّؤُوسِ ، وَاسْتِنْكَارُ تَسْمِيَتِهَا رُؤْيَةً رُوحِيَّةً مَعَ الِاتِّفَاقِ بَيْنَهُمْ عَلَى أَنَّ الْإِدْرَاكَ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ لِلنَّفْسِ لَا لِلْجَسَدِ ، كَمَا تَرَى تَوْضِيحَهُ فِي الْمَسْأَلَةِ التَّالِيَةِ .

(6) الْكَشْفُ وَكَوْنُ الْإِدْرَاكِ لِلنَّفْسِ :

إِنَّ الْعِلْمَ وَالْإِدْرَاكَ فِي الْحَقِيقَةِ لِلرُّوحِ ، وَإِنَّ الْحَوَاسَّ وَالدِّمَاغَ آلَاتٌ حِسِّيَّةٌ لِلْعِلْمِ بِبَعْضِ الْحِسِّيَّاتِ بِحَسَبِ سُنَنِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَقَدْ ثَبَتَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الشَّوَاهِدِ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يَرَى مِنْ وَرَاءِهِ كَمَا يَرَى مِنْ أَمَامِهِ ، وَهِيَ رُؤْيَةٌ رُوحِيَّةٌ غَيْرُ مُقَيَّدَةٍ بِبَصَرِ الْعَيْنَيْنِ وَلَا بِالْمُقَابَلَةِ ، وَثَبَتَ نَحْوٌ مِنْ هَذَا لِبَعْضِ الْمُكَاشِفِينَ بِالرِّوَايَاتِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَى دَرَجَةِ التَّوَاتُرِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْمُكَاشَفَةِ مَا يَقَعُ فِي حَالِ الصِّحَّةِ بِقُوَّةِ تَوْجِيهِ الْإِرَادَةِ إِلَى الشَّيْءِ أَوْ فُجَائِيًّا بِغَيْرِ قَصْدٍ كَمَا وَقَعَ لِمُؤَلِّفِ هَذَا التَّفْسِيرِ فِي صِغَرِهِ ، فَقَدْ رَأَى جَدَّتَهُ لِأُمِّهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ مُسَجًّى فِي بُسْتَانٍ لَهَا تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ جَائِيَةً إِلَيْهِ حَتَّى إِذَا مَا رَآهَا قَدْ وَصَلَتْ إِلَى مَدْخَلِ الْبُسْتَانِ مِنَ الطَّرِيقِ الْعَامِّ نَادَاهَا فَأَجَابَتْهُ ، وَيَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ هَذَا تَخَيُّلًا صَادَفَ الْوَاقِعَ ، وَلَهُ أَمْثَالٌ وَنَظَائِرُ لَوْ لَا هَا لَتَعَيَّنَ الْقَوْلُ بِذَلِكَ – وَقَدْ وَقَعَ لَنَا مِنْهُ مَعَ بَعْضِ النَّاسِ مَا كُنَّا نَحْمِلُهُ عَلَى الْمُصَادَفَةِ لِئَلَّا يَقِيسُوا عَلَيْهِ دَجَلَ الْمُحْتَالِينَ ، وَلِئَلَّا نَقَعَ فِي الْغُرُورِ ، وَلَكِنَّ مَجْمُوعَ مَا نَقَلَهُ الثِّقَاتُ مِنْهُ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، وَمِنْهُ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ بِغَيْرِ رُؤْيَةٍ وَلَا تَخَيُّلٍ ، وَإِنْ كَانَ فِيمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُرَى ، وَلَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ .

(191/287)

وَقَدْ يَقَعُ فِي أَحْوَالٍ مَرَضِيَّةٍ كَالْمَرِيضِ الَّذِي كَانَ يُعَالِجُهُ الطَّبِيبُ شِبْلِي شُمَيِّل بِمِصْرَ ، وَكَانَ يُخْبِرُ بِأَشْيَاءَ غَائِبَةٍ وَبِأُمُورٍ قَبْلَ وُقُوعِهَا فَيَصْدُقُ بِالضَّبْطِ الدَّقِيقِ ، وَمِنَ الْأَوَّلِ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِأَنَّ قَرِيبًا لَهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ دَارِهِ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ يُرِيدُ السَّفَرَ إِلَى مِصْرَ ؛ لِزِيَارَتِهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ رَآهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى مَحَطَّةِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَدَخَلَ الْقِطَارَ ، وَبَعْدَ مُضِيِّ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ وَكُسُورٍ أَخْبَرَ أَنَّهُ نَزَلَ مِنَ الْقِطَارِ فِي مَحَطَّةِ الْقَاهِرَةِ وَخَرَجَ مِنْهَا وَرَكِبَ مَرْكَبَةً لِتَحْمِلَهُ إِلَى الدَّارِ الَّتِي هُوَ فِيهَا ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى الدَّارِ – وَإِذَا بِهِ قَدْ دَخَلَ فِيهَا ، وَكَانَ الطَّبِيبُ شِبْلِي يُنْكِرُ مِثْلَ هَذَا ، وَيُنْكِرُ وُجُودَ أَرْوَاحٍ مُسْتَقِلَّةٍ بِالْوُجُودِ تُلَابِسُ الْأَجْسَادَ وَتُفَارِقُهَا مُدْرِكَةً بِالذَّاتِ – أَيْ : غَيْرَ مُقَيَّدَةٍ فِي إِدْرَاكِهَا بِوُجُودِهَا فِي الْجَسَدِ وَاكْتِسَابِهَا الْعِلْمَ مِنْ حَوَاسِّهِ وَعَصَبِ دِمَاغِهِ – وَقَدْ صَارَ بَعْدَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الَّتِي كَتَبَهَا بِقَلَمِهِ ، وَسَمِعْنَاهَا مِنْ فَمِهِ ، يُشَبِّهُ دِمَاغَ الْإِنْسَانِ بِالْآلَةِ الْكَهْرُبَائِيَّةِ لِلتِّلِغْرَافِ اللَّاسِلْكِيِّ الَّتِي تَتَلَقَّفُ مِنْ كَهْرُبَاءِ الْجَوِّ مَا يُرْسِلُهُ هَذَا التِّلِغْرَافُ مِنْ أَخْبَارِ السُّفُنِ أَوِ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ ، وَلَكِنْ كَانَ مِنْ أَخْبَارِ مَرِيضِهِ بِهِ أَنْ سَيَرْعَفُ أَنْفُهُ فِي سَاعَةِ كَذَا مِنْ نَهَارِ غَدٍ ، وَيَخْرُجُ مِنْ دَمِهِ مَا يَبْلُغُ وَزْنُهُ كَذَا . فَكَانَ كَمَا قَالَ ، وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ

الشَّيْءِ قَبْلَ وُقُوعِهِ لَا يَتَنَاوَلُهُ التَّشْبِيهُ الَّذِي ذَكَرَهُ ، وَهُوَ مِنَ الْغَيْبِ الْإِضَافِيِّ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا مُسْتَعِدَّةً لِإِدْرَاكِهِ قَبْلَ وُقُوعِهِ لَوْلَا مَا يَشْغَلُهَا عَنْهُ مِنْ مَدَارِكِ الْحَوَاسِّ وَالْعُقُولِ وَهُمُومِ الْحَيَاةِ - لَا مِنَ الْغَيْبِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِعِلْمِهِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

أَنْوَاعُ الْمُدْرَكَاتِ وَعَنَاصِرِ الْكَوْنِ وَأَحْوَالِهَا :

إِنَّ مُدْرَكَاتِ الْبَشَرِ الْحِسِّيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ لَا تَتَعَلَّقُ فِي حَالِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِي هَذَا الْكَوْنِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَوْجُودَاتِ ، بَلْ هُنَاكَ حُجَجٌ مِنَ الْوَحْيِ وَالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ تَدُلُّ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ - أَمَّا الْوَحْيُ فَقَدْ ثَبَتَ فِيهِ أَنَّ الْعَالَمَ قِسْمَانِ ، أَوْ أَنَّ الْكَوْنَ قِسْمَانِ : عَالَمُ الْغَيْبِ ، وَعَالَمُ الشَّهَادَةِ .

(193/287)

وَأَمَّا الْعَقْلُ فَمِنْ أَحْكَامِهِ أَنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ لَا يَقْتَضِي عَدَمَ وُجُودِهِ ، وَأَنَّ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَوْنِ مَوْجُودَاتٌ كَثِيرَةٌ لَا نُدْرِكُهَا ، وَلَا تَشْعُرُ بِهَا حَوَاسُّنَا وَمَشَاعِرُنَا ، إِمَّا لِعَدَمِ اسْتِعْدَادِهَا لِإِدْرَاكِهَا أَلْبَتَّةَ - كَمَا أَنَّ بَعْضَهَا لَا يُدْرِكُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْآخَرُ مِنَ الْهَيْئَاتِ وَالْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ مَثَلًا - وَإِمَّا لِضَعْفِ الْحَاسَّةِ فِينَا عَنْ إِدْرَاكِ مَا هُوَ مِنْ مُتَعَلَّقِهَا لِفَقْدِ بَعْضِ

شُرُوطِ إِدْرَاكِهِ ، وَقَدْ دَلَّ الْعَقْلُ عَلَى أَنَّ الْوُجُودَ الْمُمْكِنَ الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي الْجُمْلَةِ يَدُلُّ عَلَى الْوُجُودِ الْوَاجِبِ الَّذِي لَمْ يَدْرِكْ كُنْهَهُ عُقُولُنَا ، بَلْ دَلَّ عَلَى وُجُودٍ آخَرَ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْكَوْنِ بِالْأَثِيرِ .

وَأَمَّا الْعِلْمُ – عِلْمُ التَّجْرِبَةِ وَالْبَحْثُ الْعَمَلِيِّ فِي الْوُجُودِ – فَقَدْ أَثْبَتَ وُجُودَ أَحْيَاءٍ كَثِيرَةِ الْأَنْوَاعِ ذَاتِ تَأْثِيرٍ عَظِيمٍ فِي حَيَاةِ الْأَحْيَاءِ مِنْ نَفْعٍ وَضَرٍّ تُرَى بِالْمَرَايَا الْمُكَبِّرَةِ دُونَ الْبَصَرِ الْمُجَرَّدِ ، وَأَنَّ فِيهِ مَوَادَّ أُخْرَى لَطِيفَةً هِيَ مِنْ أُصُولِ عَنَاصِرِهِ الَّتِي لَمْ يَتِمَّ تَكْوِينُهُ إِلَّا بِهَا ، وَهِيَ لَا تُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ وَلَا بِالْعَقْلِ بَادِئَ بَدْءٍ ، وَإِنَّمَا عُرِفَتْ بِأَعْمَالِ التَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ وَآلَاتِهَا ، وَاسْتُخْدِمَتْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ ، وَهِيَ كَالْعَنَاصِرِ الَّتِي يَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ .

(194/287)

وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّجَارِبِ الْعِلْمِيَّةِ مَا صَارَ الْعِلْمُ بِهِ قَطْعِيًّا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْحِسِّيَّاتِ مِنْ أَنَّ الْجِسْمَ الْجَامِدَ يَتَحَوَّلُ بِالْحَرَارَةِ إِلَى مَائِعٍ كَمَا يَكُونُ الْجَلِيدُ وَالثَّلْجُ مَاءً ، وَأَنَّ الْمَائِعَ يَتَحَوَّلُ بِهَا إِلَى بُخَارٍ ، وَهُوَ مَا نُشَاهِدُهُ كَالدُّخَانِ اللَّطِيفِ يَخْرُجُ مِنَ الْمَاءِ عِنْدَ تَسْخِينِهِ ، وَمِنْ كُلِّ مَائِعٍ فِيهِ مَاءٌ ، وَأَنَّ هَذَا الْبُخَارَ الْمَائِيَّ وَغَيْرَهُ يَتَحَوَّلُ بِشِدَّةِ الْحَرَارَةِ إِلَى مَادَّةٍ لَا تُرَى كَالْهَوَاءِ

وَيُسَمُّونَهَا غَازًا ، وَأَنَّ الْأَجْسَامَ الْجَامِدَةَ كَالذَّهَبِ وَالْقَصْدِيرِ ، وَالْمَائِعَةَ كَالْمَاءِ ، وَالْغَازِيَّةَ كَالْهَوَاءِ مِنْهَا الْبَسِيطُ وَمِنْهَا الْمُرَكَّبُ ، وَأَنَّ

الْبَسَائِطَ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْمُرَكَّبَاتُ مَحْدُودَةٌ تُعَدُّ بِالْعَشَرَاتِ ، وَصَارَ فِي قُدْرَةِ الشَّرِّ أَنْ يُحَلِّلُوا الْمُرَكَّبَ ، وَيُفَرِّقُوا بَسَائِطَهُ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ بِصِنَاعَةِ الْكِيمْيَاءِ وَآلَاتِهَا ، وَأَنْ يُحَوِّلُوا الْجَوَامِدَ مِنْ صِفَتِهَا فَيَجْعَلُوهَا غَازَاتٍ ، وَأَنْ يَجْعَلُوا مِنَ الْغَازَاتِ وَمِنَ السَّائِلَاتِ جَوَامِدَ ، وَهُمْ يَتَّخِذُونَ مِنْهَا أَغْذِيَةً وَأَدْوِيَةً وَسَمُّومًا قَاتِلَةً ، بَلِ اسْتَخْرَجُوا مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الْمِلْحِ ذَهَبًا إِبْرِيزًا .

(195/287)

هَذِهِ الْأَعْمَالُ الَّتِي صَارَتْ مِنْ صَنَائِعِ الْبَشَرِ تُقَرِّبُ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ مَا صَحَّ عَنِ الرُّسُلِ الْمَعْصُومِينَ مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْجِنِّ يَتَشَكَّلُونَ فِي صُوَرٍ كَثِيفَةٍ تُرَى بِالْأَبْصَارِ وَبِصُوَرٍ لَا تُرَى بِالْأَبْصَارِ ؛ أَيْ : أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – أَعْطَى أَرْوَاحَهُمْ قُوَّةً يَتَصَرَّفُونَ بِهَا فِي مَادَّةِ الْكَوْنِ وَفِي

أَنْفُسِهِمْ بِأَعْظَمَ مِنْ تَصَرُّفِ عَالِمِ الْكِيمْيَاءِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ جِنْسِهِ ، فَقَدْ أَعْطَى اللهُ – تَعَالَى – الْوَاحِدَ مِنْهُمْ قُدْرَةً عَلَى تَأْلِيفِ جِسْمٍ لِرُوحِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ إِذَا شَاءَ ، وَحَلِّهِ

وَتَفْرِيقِهِ مَتَى شَاءَ ، وَقَدْ وَضَّحْنَا هَذَا التَّقْرِيبَ مِنْ قَبْلُ ، وَغَرَضُنَا مِنَ التَّذْكِيرِ بِهِ هُنَا إِيضَاحُ مَسْأَلَةِ تَجَلِّي الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الصُّوَرِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُبِ ، وَكَوْنِ رُؤْيَتِهِ لَا تَقْتَضِي تَشْبِيهَهُ بِخَلْقِهِ كَمَا زَعَمَ مَنْ لَمْ يَعْلَمُوا مِنْ أَنْوَاعِ الْإِدْرَاكِ وَالْمُدْرَكَاتِ الْمَخْلُوقَةِ مَا يَقْتَضِي تَشْبِيهَ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ ، وَقَدْ قَالَ – تَعَالَى – : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (17 : 85) .

(8) مَذَاهِبُ الصُّوفِيَّةِ فِي الرُّؤْيَةِ :

(196/287)

الصُّوفِيَّةُ فِرْقَةٌ مِنْ فِرَقِ الْمُسْلِمِينَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْأُصُولِ ، وَهُمْ لَا يُقَلِّدُونَ إِمَامًا وَاحِدًا فِي الْفُرُوعِ ، بَلْ مِنْهُمُ الْمُجْتَهِدُونَ وَمِنْهُمُ الْمُقَلِّدُونَ لِأَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْمَشْهُورَةِ ، وَيَكْثُرُ فِيهِمُ الشَّافِعِيَّةُ ، كَمَا أَنَّ أَكْثَرَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْمُرْجِئَةِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ ، وَقَدْ غَفَلَ مَنْ لَمْ يَعُدَّهُمْ مِنَ الْفِرَقِ الثَّلَاثِ وَالسَّبْعِينَ ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِيمَنْ يُسَمَّوْنَ صُوفِيَّةَ الْحَقَائِقِ ، وَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْفَلَاسِفَةِ الرُّوحِيِّينَ الْإِشْرَاقِيِّينَ ، وَإِلَى قُدَمَاءِ الشِّيعَةِ مِنْهُمْ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْأَثَرِ ، وَجُمْهُورُهُمْ يُجِلُّونَ الصَّحَابَةَ وَلَا سِيَّمَا الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ وَعُلَمَاءَ السَّلَفِ ، وَلَا سِيَّمَا الْعُبَّادَ مِنْهُمْ ، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَدِلُونَ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ كَشَيْخِ الْإِسْلَامِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ الْهَرَوِيِّ صَاحِبِ (مَنَازِلِ السَّائِرِينَ)

وَمِنْهُمُ الْغُلَاةُ الَّذِينَ مَرَقَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ بِنَزَغَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَزَيْغِهِمْ ، وَهُمْ غُلَاةُ الرَّافِضَةِ مِنَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ إِلَى الْبَهَائِيَّةِ وَزُعَمَاؤُهُمْ مِنَ الْفُرْسِ ، وَمِنْهُمُ الْبَكْتَاشِيَّةِ وَقَدْ رَاجَتْ دَعْوَتُهُمْ فِي بِلَادِ التُّرْكِ وَالْأَلْبَانِ ، وَيُقَابِلُهُمْ صُوفِيَّةُ الْأَخْلَاقِ ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ فِي الرُّؤْيَةِ مَا يَقُولُ سَائِرُ

(197/287)

أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَكَذَا الْمُعْتَدِلُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَقَائِقِ ، فَتَرَى أَبَا حَامِدٍ الْغَزَالِيَّ مِنْ عُلَمَائِهِمْ قَدْ فَسَّرَ الرُّؤْيَةَ بِمَا يَنْطَبِقُ عَلَى مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ ، وَشَأْنُ سَائِرِ مُقَلِّدَتِهِمْ كَشَأْنِ سَائِرِ الْمُقَلِّدِينَ لِلْمَذَاهِبِ الْأُخْرَى .

وَأَمَّا صُوفِيَّةُ الْحَقَائِقِ الْمُسْتَقِلُّونَ فَجُمْهُورُ أَهْلِ الْوَحْدَةِ مِنْهُمْ يُدْخِلُونَهَا فِي مَسَائِلِ الْوَحْدَةِ ، فَغُلَاةُ وَحْدَةِ الْوُجُودِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلَّا وُجُودٌ وَاحِدٌ لَهُ مَظَاهِرُ وَمَجَالِي ، فَهُمْ يُثْبِتُونَ الرُّؤْيَةَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَإِلَّا فَالرَّائِيُّ وَالْمَرْئِيُّ وَاحِدٌ عِنْدَهُمْ ، يَعْنُونَ أَنَّ الرَّبَّ عَيْنُ الْعَبْدِ ، وَالْعَبْدَ عَيْنُ الرَّبِّ ، فَاللَّهُ – تَعَالَى – يَرَى نَفْسَهُ بِمَا يَتَجَلَّى فِيهِ مِنْ صُوَرِ عَبِيدِهِ أَوْ مَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، هَذَا تَنَاقُضٌ وَهَذَيَانٌ بَدِيهِيُّ الْبُطْلَانِ ، وَحَسْبُنَا مَا نَنْشُرُهُ فِي الْمَنَارِ مِنْ إِبْطَالِهِ وَتَنَاقُضِهِ لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – ، وَأَمَّا أَصْحَابُ وَحْدَةِ الشُّهُودِ مِنْهُمْ

فَمَذْهَبُهُمْ أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا تَجَلِّيًا غَيْرَ كَامِلٍ ، وَفِي الْآخِرَةِ تَجَلِّيًا كَامِلًا فَيَفْنَى الْعَبْدُ بِهَذَا التَّجَلِّي عَنْ نَفْسِهِ ، وَعَنْ كُلِّ مَا سِوَى رَبِّهِ فَلَا يَرَى غَيْرَهُ ، وَهُوَ يَرَاهُ بِكُلِّ رُوحِهِ الْمُدْرِكَةِ لَا بِعَيْنَيْهِ فَقَطْ ، وَمِنْ كَلَامِ ابْنِ الْفَارِضِ فِيهِ إِذَا مَا بَدَتْ لَيْلَى فَكُلِّي أَعْيُنٌ ، فَإِنَّ الرُّؤْيَةَ بِآلَةِ الْبَاصِرَةِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَرْوَاحِ الْمَحْبُوسَةِ فِي هَيَاكِلِ

(198/287)

الْأَجْسَادِ الْمُقَيَّدَةِ بِسُنَنِ اللَّهِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا ، فَهِيَ كَالْمَحْبُوسِ فِي سِجْنٍ لَهُ نَوَافِذُ وَكُوًى قَلِيلَةٌ يَرَى مِنْهَا بَعْضَ مَا يُحَاذِيهَا دُونَ غَيْرِهِ مِمَّا وَرَاءَ السِّجْنِ ، وَهُمْ يُثْبِتُونَ تَجَلِّيَهِ تَعَالَى فِي الصُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَلَا يَرَوْنَ ذَلِكَ مُحَالًا يَجِبُ تَأْوِيلُهُ ؛ بَلْ يُبْقُونَ الْأَحَادِيثَ فِي ذَلِكَ عَلَى ظَاهِرِهَا كَجُمْهُورِ السَّلَفِ .

وَلِكُلٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ أَقْوَالٌ وَشَوَاهِدُ مُشْتَرِكَةٌ مَعَهَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَيَعْسُرُ التَّزْيِيلُ بَيْنَهُمْ ، وَمِنْهَا اسْتِشْهَادُهُمْ بِالْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فَانْتُقِدَ عَلَيْهِ لِعِلَّةٍ فِي سَنَدِهِ ، وَذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ فِي الْأَرْبَعِينَ ، وَمَحَلُّ الشَّاهِدِ مِنْهُ " وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا " وَمَعْنَاهُ الَّذِي يَتَّفِقُ مَعَ أُسْلُوبِ اللُّغَةِ وَقَوَاعِدِ

الشَّرْعِ كُنْتُ مُتَعَلِّقَ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَسَائِرِ جَوَارِحِهِ ؛ أَيْ : فَلَا تُوَجِّهُ إِرَادَتُهُ هَذِهِ الْجَوَارِحَ إِلَّا إِلَى مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يُرْضِي رَبَّهُ ، وَلَا يَنْسَى مُرَاقَبَتَهُ فِي أَعْمَالِهَا ، وَكُلٌّ مِنَ الْقَائِلِينَ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ وَوَحْدَةِ الشُّهُودِ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى مَذْهَبِهِ ، وَمِنْ شِعْرِهِمْ فِي ذَلِكَ :

أَعَارَتْهُ طَرْفًا رَآهَا بِهِ . . . فَكَانَ الْبَصِيرُ بِهَا طَرْفَهَا

(199/287)

وَلِلشَّيْخِ مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَرَبِيٍّ كَلَامٌ فِي كُلِّ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي الْوَحْدَةِ فِي الْبَابِ الْحَادِي وَالْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ وَهُوَ :

كَلِمَةٌ لِابْنِ عَرَبِيٍّ فِي الرُّؤْيَةِ :

(200/287)

" قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ (6 : 103) وَقَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : لَنْ تَرَانِي وَكُلُّ مَرْئِيٍّ لَا يَرَى الرَّائِيَ - إِذَا رَآهُ - مِنْهُ إِلَّا قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ وَرُتْبَتِهِ فَمَا رَآهُ وَمَا رَأَى إِلَّا نَفْسَهُ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا تَفَاضَلَتِ الرُّؤْيَةُ فِي الرَّائِينَ ، إِذْ لَوْ كَانَ هُوَ الْمَرْئِيُّ مَا

اخْتَلَفُوا ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ هُوَ مَجْلَى رُؤْيَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ ؛ لِذَلِكَ وَصَفُوهُ أَنَّهُ يَتَجَلَّى وَأَنَّهُ يُرَى ، وَلَكِنْ شُغِلَ الرَّائِي بِرُؤْيَتِهِ نَفْسَهُ فِي مَجْلَى الْحَقِّ حَجَبَهُ عَنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ ، فَلِذَلِكَ لَوْ لَمْ تَبْدُ لِلرَّائِي صُورَتُهُ أَوْ صُورَةُ كَوْنٍ مِنَ الْأَكْوَانِ رُبَّمَا كَانَ يَرَاهُ ، فَمَا حَجَبَنَا عَنْهُ إلَّا أَنْفُسُنَا ، فَلَوْ زِلْنَا عَنَّا مَا رَأَيْنَاهُ ؛ لِأَنَّهُ مَا كَانَ يَبْقَى ثَمَّ بِزَوَالِنَا مَنْ يَرَاهُ ؟ وَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَزَلْ فَمَا نَرَى إلَّا أَنْفُسَنَا فِيهِ وَصُوَرَنَا وَقَدَرَنَا وَمَنْزِلَتَنَا ، فَعَلَى كُلِّ حَالٍ مَا رَأَيْنَاهُ ، وَقَدْ نَتَوَسَّعُ فَنَقُولُ : قَدْ رَأَيْنَاهُ وَنُصَدِّقُ ، كَمَا أَنَّهُ لَوْ قُلْنَا ، رَأَيْنَا الْإِنْسَانَ صَدَقْنَا فِي أَنْ نَقُولَ رَأَيْنَا مَنْ مَضَى مِنَ النَّاسِ ، وَمَنْ بَقِيَ وَمَنْ فِي زَمَانِنَا مِنْ كَوْنِهِمْ إنْسَانًا لَا مِنْ حَيْثُ شَخْصِيَّةُ كُلِّ إنْسَانٍ ، وَلَمَّا كَانَ الْعَالَمُ أَجْمَعُهُ وَآحَادُهُ عَلَى صُورَةِ حَقٍّ ، وَرَأَيْنَا الْحَقَّ فَقَدْ رَأَيْنَا وَصَدَقْنَا ، وَإِنْ نَظَرْنَا إلَى عَيْنِ التَّمْيِيزِ فِي عَيْنِ عَيْنٍ لَمْ نَصْدُقْ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

(201/287)

فِي حَدِيثِ الدَّجَّالِ وَدَعْوَاهُ أَنَّهُ إلَهٌ ، فَعَهِدَ إلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّ أَحَدَنَا لَا يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ ؛ لِأَنَّ الْغِطَاءَ لَا يَنْكَشِفُ عَنِ الْبَصَرِ إلَّا بِالْمَوْتِ ، وَالْبَصَرُ مِنَ الْعَبْدِ هَوِيَّةُ الْحَقِّ فَعَيْنُكَ غِطَاءٌ عَلَى بَصَرِ الْحَقِّ ، فَبَصَرُ الْحَقِّ أَدْرَكَ الْحَقَّ وَرَآهُ لَا أَنْتَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (6 : 103) وَلَا أَلْطَفَ

مِنْ هَوِيَّةٍ تَكُونُ عَيْنُ بَصَرِ الْعَبْدِ ، وَبَصَرُ الْعَبْدِ لَا يُدْرِكُ اللهَ ، وَلَيْسَ فِي الْقُوَّةِ أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَ الْبَصَرَيْنِ ، وَالْخَبِيرُ عَلِمَ الذَّوْقَ فَهُوَ الْعَلِيمُ خِبْرَةً أَنَّهُ بَصَرُ الْعَبْدِ فِي بَصَرِ الْعَبْدِ ، وَكَذَا هُوَ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ حَيًّا فَقَدِ اسْتَوَى الْمَيِّتُ وَالْحَيُّ فِي كَوْنِهِ – الْحَقَّ تَعَالَى – بَصَرُهُمَا وَمَا عِنْدَهُمَا شَيْءٌ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَحِلُّ فِي شَيْءٍ ، وَلَا يَحِلُّ فِيهِ شَيْءٌ إِذْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (42 : 11) اهـ . وَقَدْ تَكَلَّمَ عَنِ الْآيَةِ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى وَعَلَى جَمِيعِ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَكَلَامُهُ مُتَعَارِضٌ بَعْضُهُ بِتَأَوُّلٍ بِتَكَلُّفٍ أَوْ بِدُونِ تَكَلُّفٍ .

كَلِمَةٌ فِي النُّورِ وَالْحُجُبِ وَالتَّجَلِّي فِي الصُّوَرِ :

(202/287)

قَالَ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي (مَدَارِجِ السَّالِكِينَ ، شَرْحِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ) لِلْهَرَوِيِّ فِي الْكَلَامِ عَلَى الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ مَنْزِلَةِ (اللَّحْظِ) مَا نَصُّهُ : " وَنُورُ الْكَشْفِ عِنْدَهُمْ هُوَ مَبْدَأُ الشُّهُودِ ، وَهُوَ نُورُ تَجَلِّي مَعَانِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى عَلَى الْقَلْبِ ، فَتُضِيءُ بِهِ ظُلْمَةُ الْقَلْبِ ، وَيَرْتَفِعُ بِهِ حِجَابُ الْكَشْفِ ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى غَيْرِ هَذَا فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ، فَإِنَّكَ تَجِدُ فِي كَلَامِ بَعْضِهِمْ " تَجَلِّي الذَّاتِ يَقْتَضِي كَذَا وَكَذَا ، وَتَجَلِّي الصِّفَاتِ يَقْتَضِي كَذَا وَكَذَا ، وَتَجَلِّي

الْأَفْعَالِ يَقْتَضِي كَذَا وَكَذَا " ، وَالْقَوْمُ عِنَايَتُهُمْ بِالْأَلْفَاظِ ، فَيَتَوَهَّمُ الْمُتَوَهِّمُ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ تَجَلِّيَ حَقِيقَةِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ لِلْعِيَانِ ، فَيَقَعُ مَنْ يَقَعُ مِنْهُمْ فِي الشَّطَحَاتِ وَالطَّامَّاتِ ، وَالصَّادِقُونَ الْعَارِفُونَ بَرَاءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يُشِيرُونَ إِلَى كَمَالِ الْمَعْرِفَةِ ، وَارْتِفَاعِ حُجُبِ الْغَفْلَةِ وَالشَّكِّ وَالْإِعْرَاضِ ، وَاسْتِيلَاءِ سُلْطَانِ الْمَعْرِفَةِ عَلَى الْقَلْبِ بِمَحْوِ شُهُودِ السِّوَى بِالْكُلِّيَّةِ ، فَلَا يَشْهَدُ الْقَلْبُ سِوَى مَعْرُوفِهِ ، وَيَنْظُرُونَ هَذَا بِطُلُوعِ الشَّمْسِ فَإِنَّهَا إِذَا طَلَعَتِ انْطَمَسَ نُورُ الْكَوَاكِبِ ، وَلَمْ تَعْدَمِ الْكَوَاكِبُ ، وَإِنَّمَا غَطَّى عَلَيْهَا نُورُ الشَّمْسِ فَلَمْ يَظْهَرْ لَهَا وُجُودٌ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي أَمَاكِنِهَا ، وَهَكَذَا نَرَى الْمِعْرَفَةَ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْقَلْبِ وَقَوَى سُلْطَانُهَا وَزَالَتِ الْمَوَانِعُ وَالْحُجُبُ عَنِ الْقَلْبِ ، وَلَا يُنْكِرُ هَذَا

(203/287)

إِلَّا مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ، لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ الذَّاتَ الْمُقَدَّسَةَ وَالْأَوْصَافَ بَرَزَتْ وَتَجَلَّتْ لِلْعَبْدِ كَمَا تَجَلَّى سُبْحَانَهُ لِلطُّورِ ، وَكَمَا يَتَجَلَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلنَّاسِ إِلَّا غَالِطٌ فَاقِدٌ لِلْعِلْمِ ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ الْغَلَطُ مِنَ التَّجَاوُزِ مِنْ نُورِ الْعِبَادَاتِ وَالرِّيَاضَةِ وَالذِّكْرِ إِلَى نُورِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ ، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ الصَّحِيحَةَ وَالرِّيَاضَةَ الشَّرْعِيَّةَ وَالذِّكْرَ الْمُتَوَاطِئَ عَلَيْهِ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ يُوجِبُ نُورًا عَلَى قَدْرِ قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ ، وَرُبَّمَا قَوِيَ ذَلِكَ النُّورُ حَتَّى يُشَاهَدَ بِالْعِيَانِ فَيَغْلَطُ فِيهِ ضَعِيفُ الْعِلْمِ

وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَمُقْتَضَيَاتِ الْعُبُودِيَّةِ فَيَظُنُّهُ نُورُ الذَّاتِ ، وَهَيْهَاتَ ثُمَّ هَيْهَاتَ نُورُ الذَّاتِ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ كَشَفَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الْحِجَابَ عَنْهُ لَتَدَكْدَكَ الْعَالَمُ كُلُّهُ كَمَا تَدَكْدَكَ الْجَبَلُ وَسَاخَ لَمَّا ظَهَرَ لَهُ الْقَدْرُ الْيَسِيرُ مِنَ التَّجَلِّي .

"

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، وَيَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ " فَالْإِسْلَامُ لَهُ نُورٌ ، وَالْإِيمَانُ لَهُ نُورٌ أَقْوَى مِنْهُ ، وَالْإِحْسَانُ لَهُ نُورٌ

(204/287)

أَقْوَى مِنْهُ ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ وَالْإِحْسَانُ وَزَالَتِ الْحُجُبُ الشَّاغِلَةُ عَنِ اللَّهِ امْتَلَأَ الْقَلْبُ وَالْجَوَارِحُ بِذَلِكَ النُّورِ ، لَا بِالنُّورِ الَّذِي هُوَ صِفَةُ الرَّبِّ - تَعَالَى - فَإِنَّ صِفَاتَهُ لَا تَحِلُّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، كَمَا أَنَّ مَخْلُوقَاتَهُ لَا تَحِلُّ فِيهِ ، فَالْخَالِقُ بَائِنٌ عَنِ الْمَخْلُوقِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَلَا اتِّحَادَ وَلَا حُلُولَ وَلَا مُمَازَجَةَ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا " اهـ .

أَقُولُ : هَذَا التَّصَوُّفُ الْمُرَافِقُ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا تَصَوُّفُ ابْنِ عَرَبِيٍّ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ نَفْيِ كُلٍّ مِنْهَا

لِلْحُلُولِ ، أَنَّ هَذَا يَقُولُ : إِنَّ الْخَلْقَ وَالْخَالِقَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، وَالشَّيْءُ لَا يَحِلُّ فِي نَفْسِهِ ، وَالْآخَرُ يَقُولُ : إِنَّ النِّسْبَةَ بَيْنَهُمَا الْمُبَايَنَةُ التَّامَّةُ ، وَهَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - .

(205/287)

وَقَالَ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي فَوَائِدِ الذِّكْرِ مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَهُوَ : " إِنَّ الذِّكْرَ نُورٌ لِلذَّاكِرِ فِي الدُّنْيَا ، وَنُورٌ لَهُ فِي قَبْرِهِ ، وَنُورٌ لَهُ فِي مَعَادِهِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ فِي اسْتِنَارَةِ الْقُلُوبِ وَالْقُبُورِ بِمِثْلِ ذِكْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - قَالَ - تَعَالَى - : أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا (6 : 122) فَالْأَوَّلُ هُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي اسْتَنَارَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ ، وَالْآخَرُ هُوَ الْغَافِلُ عَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - الْمُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِهِ وَمَحَبَّتِهِ ، وَالشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ وَالْفَلَاحُ كُلُّ الْفَلَاحِ فِي النُّورِ ، وَالشَّقَاءُ كُلُّ الشَّقَاءِ فِي فَوَاتِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُبَالِغُ فِي سُؤَالِ رَبِّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - حِينَ يَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي لَحْمِهِ وَعِظَامِهِ وَعَصَبِهِ وَشَعْرِهِ وَبَشَرِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَخَلْفِهِ وَأَمَامِهِ حَتَّى يَقُولَ : " وَاجْعَلْنِي نُورًا " فَسَأَلَ رَبَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنْ يَجْعَلَ النُّورَ فِي ذَرَّاتِهِ الظَّاهِرَةِ

وَالْبَاطِنَةِ ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ مُحِيطًا بِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ ذَاتَهُ وَجُمْلَتَهُ نُورًا ، فَدِينُ اللهِ - تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ - نُورٌ ، وَكِتَابُهُ نُورٌ ، وَرَسُولُهُ نُورٌ ، وَدَارُهُ الَّتِي أَعَدَّهَا لِأَوْلِيَائِهِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ ، وَهُوَ - تَبَارَكَ

(206/287)

وَتَعَالَى - نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ النُّورُ ، وَأَشْرَقَتِ الظُّلُمَاتُ لِنُورِ وَجْهِهِ ، وَفِي دُعَاءِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمَ الطَّائِفِ : " أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ

وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ

(207/287)

وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ " وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - " لَيْسَ عِنْدَ رَبِّكُمْ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ ، نُورُ السَّمَاوَاتِ مِنْ وَجْهِهِ " وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِ هَذَا الْأَثَرِ : نُورُ السَّمَاوَاتِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ ، ذَكَرَهُ

عُثْمَانُ الدَّارِمِيُّ ، وَقَدْ قَالَ – تَعَالَى – : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (39 : 69) فَإِذَا جَاءَ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَأَشْرَقَتْ بِنُورِهِ الْأَرْضُ ، وَلَيْسَ إِشْرَاقُهَا لِشَمْسٍ وَلَا قَمَرٍ فَإِنَّ الشَّمْسَ تُكَوَّرُ ، وَالْقَمَرُ يُخْسَفُ وَيَذْهَبُ نُورُهُمَا ، وَحِجَابُهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – النُّورُ . قَالَ أَبُو مُوسَى " قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، وَيَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ " ثُمَّ قَرَأَ : أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا (27 : 8) فَاسْتِنَارَةُ ذَلِكَ الْحِجَابِ بِنُورِ وَجْهِهِ ، وَلَوْلَاهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ وَنُورِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ ، وَلِهَذَا لَمَّا تَجَلَّى – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – لِلْجَبَلِ ، وَكَشَفَ مِنَ الْحِجَابِ شَيْئًا يَسِيرًا سَاخَ الْجَبَلُ فِي الْأَرْضِ وَتَدَكْدَكَ ، وَلَمْ يَقُمْ لِرَبِّهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ قَالَ : ذَلِكَ

(208/287)

اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – إِذَا تَجَلَّى بِنُورِهِ لَمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ ، وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ فَهْمِهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَدَقِيقِ فِطْنَتِهِ ، كَيْفَ وَقَدْ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ التَّأْوِيلَ ،

فَالرَّبُّ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – يَرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْأَبْصَارِ عِيَانًا ، وَلَكِنْ يَسْتَحِيلُ إِدْرَاكُ الْأَبْصَارِ لَهُ ، وَإِنْ رَأَتْهُ فَالْإِدْرَاكُ أَمْرٌ وَرَاءَ الرُّؤْيَةِ ، وَهَذِهِ الشَّمْسُ – وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى – نَرَاهَا وَنُدْرِكُهَا كَمَا هِيَ عَلَيْهِ وَلَا قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ . وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنِ الرُّؤْيَةِ وَأَوْرَدَ عَلَيْهِ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ فَقَالَ أَلَسْتَ تَرَى السَّمَاءَ ؟ قَالَ : بَلَى . قَالَ : أَفَتُدْرِكُهَا ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَاللَّهُ – تَعَالَى – أَعْظَمُ وَأَجَلُّ " ا هـ .

قَدْ أَشَارَ هَذَا الْعَالِمُ الْمُحَقِّقُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الْوَجِيزَةِ مِنْ كَلَامِهِ الطَّوِيلِ فِي مَوْضُوعِهَا إِلَى جُمْلَةِ

(209/287)

مَا وَرَدَ فِي " النُّورِ " مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَقَدْ سَمَّى اللَّهُ – تَعَالَى – نَفْسَهُ نُورًا ، وَوَرَدَ النُّورُ فِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمَأْثُورَةِ ، وَأَسْنَدَ النُّورَ إِلَى اسْمِ الذَّاتِ فِي قَوْلِهِ : اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (24 : 35) وَأَسْنَدَهُ رَسُولُهُ إِلَى وَجْهِهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : " أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ " وَمِثْلُهُ فِي آثَارٍ أُخْرَى وَالْجُمْهُورُ يُفَسِّرُونَ الْوَجْهَ بِالذَّاتِ ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنِ اسْتِعْمَالِ النُّورِ غَيْرَ إِضَافَتِهِ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (39 : 69) وَقَوْلُهُ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ (61 : 8) عَلَى أَنَّ نُورَهُ فِي الْأَخِيرَةِ كِتَابُهُ وَوَحْيُهُ وَكَلَامُهُ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ فِي الْأَظْهَرِ مَا فِيهِ آيَاتُ الْهِدَايَةِ ، فَهُوَ

كَقَوْلِهِ : إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ (5 : 44) وَمِثْلُهُ إِطْلَاقُ اسْمِ النُّورِ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي قَوْلِهِ : قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (5 : 16) عَلَى وَجْهٍ ، وَوَرَدَ مِثْلُ هَذَا فِي كُتُبِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ عِنْدَ النَّصَارَى مَرْوِيًّا عَنِ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَقَوْلِ يُوحَنَّا فِي رِسَالَتِهِ الْأُولَى " (1 : 5) وَهَذِهِ هِيَ الْبُشْرَى الَّتِي سَمِعْنَاهَا مِنْهُ وَنُبَشِّرُكُمْ بِهَا : أَنَّ اللهَ نُورٌ وَلَيْسَ فِيهِ ظُلْمَةٌ أَلْبَتَّةَ " وَأُطْلِقَ النُّورُ عَلَى الْمَسِيحِ نَفْسِهِ فِي مَوْضِعٍ مِنْ إِنْجِيلَيْ لُوقَا وَيُوحَنَّا .

(210/287)

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النُّورَ حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ ، فَالْأَوَّلُ يُرَى بِالْبَصَرِ وَيَرَى بِهِ الْبَصَرُ سَائِرَ الْمُبْصِرَاتِ ، وَالثَّانِي يُدْرَكُ بِالْبَصِيرَةِ وَتَدْرِكُ بِهِ الْبَصِيرَةُ الْحَقَّ وَالْخَيْرَ

(211/287)

وَالصَّلَاحَ ، كَذَلِكَ نُورُ الْآخِرَةِ قِسْمَانِ : حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ ، وَأَمَّا نُورُ اللهِ - تَعَالَى - الَّذِي هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ قَدْ أُضِيفَ إِلَى وَجْهِهِ وَأُسْنِدَ إِلَى ذَاتِهِ فَهُوَ فَوْقَ هَذَا وَذَاكَ لَا يَعْرِفُ كُنْهَهُ

سِوَاهُ – عَزَّ وَجَلَّ – ، وَهُوَ غَيْرُ النُّورِ الَّذِي هُوَ حِجَابُهُ الْمَانِعُ مِنْ رُؤْيَةِ ذَاتِهِ وَإِدْرَاكِ كُنْهِهِ ، وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْمُعْجَبُ بِنَفْسِكَ هَذَا الْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ نُورِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – ، فَإِنَّ هَذَا النُّورَ الْحِسِّيَّ الَّذِي تَرَاهُ بِعَيْنِكَ لَا تُدْرِكُ حَقِيقَتَهُ ، وَلَمْ يُدْرِكْهَا أَحَدٌ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكَ إِلَى الْآنِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَضَعَ لَهُ تَعْرِيفًا يُحَدِّدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ ، وَلَمْ يَكُنِ الْمُتَقَدِّمُونَ يَعْرِفُونَ مِنْهُ إِلَّا مَا يَرَوْنَهُ مِنْ نَارِ الْأَرْضِ وَنَيِّرَاتِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ عَرَفَ الْمُتَأَخِّرُونَ هَذِهِ الْكَهْرُبَاءَ وَالرَّادْيُو ، فَدَخَلَ بِذَلِكَ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ إِذَا قِيلَ : إِنَّهُ فَوْقَ طَوْرِ الْعَقْلِ وَالْفَلْسَفَةِ وَالْعِلْمِ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا الْبَشَرُ قَبْلَهُ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْقَوْلُ مُبَالَغَةً ، وَقَدْ كَانَتِ الصُّوفِيَّةُ تَقُولُ : إِنَّ وَرَاءَ مُدْرَكِ عُقُولِ الْبَشَرِ عُلُومًا صَحِيحَةً مُنْطَبِقَةً عَلَى حَقَائِقَ خَارِجِيَّةٍ لَا مَحْضَ نَظَرِيَّاتٍ فِكْرِيَّةٍ فَيَقُولُ مُدَّعُو الْفَلْسَفَةِ وَالْمَنْطِقِ : إِنَّ هَذِهِ خُرَافَاتٌ خَيَالِيَّةٌ ، قَالَ ابْنُ الْفَارِضِ :

فَثَمَّ وَرَاءَ الْعَقْلِ عِلْمٌ يَدُقُّ عَنْ . . . مَدَارِكِ غَايَاتِ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ

(212/287)

فَأَيُّ عَقْلٍ كَانَ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ يُمْكِنُ لِشَخْصٍ وَاحِدٍ أَنْ يُوقِدَ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْمَصَابِيحِ فِي دَارٍ أَوْ مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، وَأَنْ يُطْفِئَهَا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ؟ وَأَنَّ هَذِهِ الْمَصَابِيحَ تُوقَدُ بِلَا

زَيْتٍ وَلَا نَارٍ ، وَإِنَّمَا تُشْعَلُ بِتَحْرِيكِ هَنَةٍ صَغِيرَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْهَا وَلَكِنَّهَا مُتَّصِلَةٌ . . بِهَا بِسِلْكٍ دَقِيقٍ .

وَأَيُّ عَقْلٍ كَانَ يَتَصَوَّرُ أَنَّ الْبَشَرَ يَتَخَاطَبُونَ وَيَسْمَعُ بَعْضُهُمْ كَلَامَ بَعْضٍ عَلَى بُعْدِ أُلُوفٍ مِنَ الْأَمْيَالِ ؟ وَهَذَا بَعْضُ خَوَاصِّ هَذِهِ الْكَهْرُبَاءِ .

(213/287)

نَعَمْ إِنَّ عُلَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ قَرَّرُوا أَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الْأُمُورِ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ لَا الْمُسْتَحِيلَاتِ ، فَوَرَدَ نَظَائِرُهَا فِي أَخْبَارِ الْآخِرَةِ لَا يَقْتَضِي أَنَّ فِي الدِّينِ شَيْئًا يَرُدُّهُ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ بِالْبُرْهَانِ ، وَلَكِنَّ جَمَاهِيرَ الْكُفَّارِ بِالرُّسُلِ لَمْ تَسْتَطِعْ عُقُولُهُمْ تَصَوُّرَهَا ، وَلَا التَّصْدِيقَ بِهَا - بَلْ نَرَى ضُعَفَاءَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ يَظُنُّونَ فِيمَا نَقَلْنَاهُ آنِفًا مِنْ كِتَابِ الْوَابِلِ الصَّيِّبِ أَنَّهُ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ الَّتِي لَا تَتَّفِقُ مَعَهُمَا إِلَّا بِضَرْبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ - لِأَجْلِ هَذَا عَلَّقْنَا عَلَيْهِ الْحَاشِيَةَ الْوَجِيزَةَ الْمُثَبَّتَةَ مَعَهُ هُنَا عِنْدَ طَبْعِ الْكِتَابِ فِي (مَجْمُوعَةِ الْحَدِيثِ النَّجْدِيَّةِ) لِيَعْلَمُوا أَنَّ مُنْتَهَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ الْكَوْنِ يُؤَيِّدُ مَذْهَبَ السَّلَفِ فِيهَا وَفِي أَمْثَالِهَا ، وَيُبْطِلُ قَاعِدَةَ الْمُتَأَوِّلَةِ فِي جَعْلِ نَظَرِيَّاتِ أَفْكَارِهِمْ وَمَأْلُوفَاتِ عُقُولِهِمْ وَقَضَايَا مَعْلُومَاتِهِمْ

(214/287)

الْكَلَامِيَّةِ الْقَلِيلَةِ أَصْلًا تَرْجِعُ إِلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَوْ بِالتَّأْوِيلِ ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ بَعْضَ الَّذِينَ اطَّلَعُوا عَلَى هَذِهِ الْحَاشِيَةِ فِي مَجْمُوعِ الْحَدِيثِ لَمْ يَفْهَمُوهَا فَاضْطَرَبُوا فِيهَا وَلَهُمُ الْعُذْرُ ، فَإِنَّهَا عَلَى غَرَابَةِ مَوْضُوعِهَا وَجِيزَةٌ لَمْ تُوَضِّحِ الْمَقَامَ لِأَمْثَالِهِمْ كَمَا كَانَ يَجِبُ ، وَلَكِنْ لَهَا فِيمَا سَبَقَ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْمَبَاحِثِ فِي رُؤْيَةِ الرَّبِّ – تَعَالَى – نَظَائِرُ تُغْنِي مَنِ اسْتَحْضَرَهَا عَنِ الْإِيضَاحِ ، وَلَا بَأْسَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ زِيَادَةٍ فِيهِ ، وَإِنَّهُ لَمْ تَخْلُ مِنْ تَكْرَارٍ لِبَعْضِ الْقَضَايَا .

تَقَدَّمَ أَنَّ الْبَشَرَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى الْإِحَاطَةِ بِكُنْهِ شَيْءٍ مِنْ حَقَائِقِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُونَ مِنْهَا ظَوَاهِرَهَا وَبَعْضَ خَوَاصِّهَا ، وَسُنَنَ الْخَالِقِ فِيهَا فَهُمْ أَوْلَى بِالْعَجْزِ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَةِ الْخَالِقِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَإِنَّمَا عَرَفُوهُ سُبْحَانَهُ وَعَرَفُوا صِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ بِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ فِي خَلْقِهِ وَآيَاتِهِ الْكَلَامِيَّةِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى رُسُلِهِ ، فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَعِلْمِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحِمَتِهِ ، فَهُوَ تَعَالَى ظَاهِرٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِدَلَالَتِهِ عَلَيْهِ ، وَبَاطِنٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَجْبِ عَبْدِهِ بِهِ عَنْهُ .

(215/287)

إِنَّ اشْتِغَالَ الْعَبْدِ بِشُئُونِ الْخَلْقِ يَحْجُبُهُ عَنْ مَعْرِفَةِ رَبِّهِ وَعَنْ مُرَاقَبَتِهِ وَعَنْ عِبَادَتِهِ وَعَنْ شُكْرِهِ إِذَا هُوَ اشْتَغَلَ بِهَا لِذَاتِهَا ، وَمَا لَهُ مِنَ اللَّذَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ الْعَاجِلَةِ فِيهَا ، كَمَا أَنَّهَا تَكُونُ آيَاتٌ وَدَلَائِلُ لِمَعْرِفَتِهِ وَوَسَائِلُ لِمُرَاقَبَتِهِ وَبَوَاعِثُ لِعِبَادَتِهِ وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ إِذَا هُوَ نَظَرَ بِهَذِهِ النِّيَّةِ ، وَإِنَّ تَجَلِّيَهُ سُبْحَانَهُ لِلْأَبْرَارِ فِي الْآخِرَةِ يَكُونُ بِقَدْرِ هَذَا ، كَمَا أَنَّ حَجْبَ الْفُجَّارِ عَنْهُ يَكُونُ بِقَدْرِ مُقَابَلَةِ الَّذِي ذُكِرَ قَبْلَهُ جَزَاءً وِفَاقًا فَسِعَةُ الْعِلْمِ بِالْكَوْنِ وَسُنَنِهِ وَنِظَامِهِ وَمَنَافِعِهِ قَدْ تَكُونُ مِنْ أَسْبَابِ سِعَةِ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ وَالْكَمَالِ الَّذِي يُقَرِّبُ مِنْهُ ، وَقَدْ تَكُونُ مِنْ أَسْبَابِ الْجَهْلِ بِاللهِ وَالْبُعْدِ عَنْهُ ، وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ عَرَفُوا فِي هَذَا الْعَصْرِ أَضْعَافَ مَا نُقِلَ عَنِ الْأَوَّلِينَ مِنْ أَسْرَارِ هَذَا الْعَالَمِ

(216/287)

قَدْ نَظَرُوا فِيهِ بِنُورِ اللهِ وَاهْتَدَوْا فِي مَبَاحِثِهِمْ بِهِدَايَةِ وَحْيِهِ لَوَصَلُوا إِلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْكَمَالِ عَلَى أَنَّ ارْتِقَاءَهُمْ فِي الْأَسْبَابِ وَنَجَاحَهُمُ الْمُتَّصِلَ فِي كَشْفِ أَسْرَارِ الْعَالَمِ لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَا بِهِمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ الصَّحِيحَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ الْكَامِلَةِ الَّتِي بَيَّنَهَا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ فِي آخِرِ كُتُبِهِ لِلْبَشَرِ عَلَى لِسَانِ خَاتَمِ رُسُلِهِ لَهُمْ ، كَمَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ : سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ

مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (41 : 53 ، 54) .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ سَيَجِدُونَ فِي حَقَائِقِ الْعُلُومِ الَّتِي يَهْتَدُونَ إِلَيْهَا بِاتِّصَالِ أَبْحَاثِهِمْ

(217/287)

وَتَتَابُعِهَا مِصْدَاقًا لِهَذَا الْكِتَابِ فِيمَا أَخْبَرَ عَنْهُ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ وَلِقَاءِ اللهِ - تَعَالَى - ، وَكُلِّ مَنْ كَفَرَ بِهِ الْمُقَيَّدُونَ بِنَظَرِيَّاتِ عُقُولِهِمُ الْقَاصِرَةِ وَعُلُومِهِمُ النَّاقِصَةِ ، كَالْأَرْوَاحِ ، وَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَتَمَثُّلِهِمْ فِي الصُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَتَجَلِّي الرَّبِّ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِ أَنْفُسِهِمْ ، وَارْتِقَاءِ أَرْوَاحِهِمْ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُبِ الَّتِي كَانَتْ تَحْجُبُهُمْ عَنْهُ ، وَأَنَّ فِيمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ الْيَوْمَ مَا يَقْرُبُ ذَلِكَ مِنَ الْمَدَارِكِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا بَعْضَ الْأَمْثِلَةِ فِي هَذِهِ الْمَبَاحِثِ وَغَيْرِهَا ، وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَشْغَلُ هَؤُلَاءِ الْبَاحِثِينَ فِي هَذَا الْعِلْمِ مَسْأَلَةُ بَدْءِ الْخَلْقِ كَيْفَ كَانَ ، وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ ؟ وَقَدْ سَبَقَ لَهُمْ أَنْ جَزَمُوا بِأَنَّ هَذِهِ الْأَجْرَامَ السَّابِحَةَ فِي مَلَكُوتِ اللهِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ كَانَتْ مَادَّةً وَاحِدَةً سَدِيمِيَّةً تُشْبِهُ الدُّخَانَ فَانْفَتَقَتْ ، وَانْفَصَلَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَكَانَتْ أَجْرَامًا مُتَعَدِّدَةً - وَقَدْ جَاءَهُمْ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَا هُوَ صَرِيحٌ فِي ذَلِكَ قَبْلَ عِلْمِهِمْ بِهِ بِقُرُونٍ وَأَجْيَالٍ كَثِيرَةٍ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ ثُمَّ اهْتَدَوْا فِي هَذَا الْجَبَلِ إِلَى أَنَّ أَصْلَ تِلْكَ الْمَادَّةِ الَّتِي انْفَتَقَ رَتْقُهَا بِمَا ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ

مِنْ عَشَرَاتِ الْعَنَاصِرِ – قَدْ كَانَ مَصْدَرُهَا هَذِهِ الْكَهْرُبَاءَ الَّتِي دَخَلَتْ بِهَا عُلُومُ الْبَشَرِ وَأَعْمَالُهُمْ فِي طَوْرٍ غَرِيبٍ عَجِيبٍ ،

(218/287)

وَلَا تَزَالُ عَجَائِبُهَا كُلَّ يَوْمٍ فِي ازْدِيَادٍ .

وَالْمَسْأَلَةُ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا فِي الْحَاشِيَةِ الَّتِي عَلَّقْنَاهَا عَلَى عِبَارَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ فِي النُّورِ هِيَ مَا ذَكَرَهُ أَخِيرًا مِنْ أَنَّ لِلْكَهْرُبَائِيَّةِ دَقَائِقَ – أَوْ ذَوَاتٍ أَوْ ذُرَيْرَاتٍ أَوْ جَوَاهِرَ فَرْدَةً – مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِهَا سُمُّوهَا (الْإِلِكْتِرُونَاتِ) وَرَجَّحُوا أَنَّهَا هِيَ قِوَامُ كُلِّ جَوَاهِرِ الْمَادَّةِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا بِنَاءُ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ ، وَأَنَّ اهْتِزَازَ هَذِهِ الذَّرَّاتِ أَوِ الْجَوَاهِرِ الْفَرْدَةِ هُوَ سَبَبُ طَيْفِ النُّورِ ، وَأَنَّ لَهُ اهْتِزَازَاتٍ مُخْتَلِفَةً ، وَأَنَّهَا هِيَ مَنْشَأُ تَغَيُّرِ الْعَنَاصِرِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْكِيمْائِيَّةِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ قَرَّرُوا الْقَوْلَ مِنْ قَبْلُ بِأَنَّ حَرَكَةَ الْمَادَّةِ هِيَ سَبَبُ جَمِيعِ التَّغَيُّرَاتِ وَالتَّطَوُّرَاتِ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، إِذْ هِيَ مَنْشَأُ النُّورِ وَالْحَرَارَةِ الَّتِي قُلْنَا إِنَّهَا تُحَوِّلُ الْجَوَامِدَ إِلَى مَائِعَاتٍ وَالْمَائِعَاتِ إِلَى غَازَاتٍ ، فَالظَّاهِرُ مِنْ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْكَهْرُبَاءَ هِيَ الْأَصْلُ لِكُلِّ الْكَائِنَاتِ الَّتِي تُقَدَّرُ مِسَاحَتُهَا بِحَسَبِ بَعْضِ النَّظَرِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ بِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِلْيُونَ سَنَةٍ مِنْ سِنِي النُّورِ ، وَهُوَ يَقْطَعُ فِي الثَّانِيَةِ 186330 مِيلًا فِي أَقْرَبِ تَقْدِيرٍ

وَأَحْدَثِهِ ، وَفِي الدَّقِيقَةِ 7179800 وَفِي السَّاعَةِ

أَيْ : أَرْبَعِمِائَةٍ وَثَلَاثِينَ مِلْيُونَ مِيلٍ

(219/287)

وَسَبْعِمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ مِيلٍ فَكَمْ يَقْطَعُ فِي الْيَوْمِ ، ثُمَّ كَمْ يَكُونُ فِي السَّنَةِ ؟ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (17 ، 58) .

إِنَّ مَا ظَهَرَ مِنْ أَسْرَارِ الْقُوَّةِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ إِلَى الْآنِ يَقْرُبُ مِنَ الْعَقْلِ أَنْ تَكُونَ إِرَادَةُ اللهِ – تَعَالَى – وَحِكْمَتُهُ كَمَا قَالُوا : مَنْشَأُ التَّكْوِينِ وَالتَّطَوُّرِ فِي عَالَمِ الْإِمْكَانِ بِسُرْعَةِ حَرَكَتِهَا وَكَوْنِهَا مَصْدَرُ النُّورِ ، فَارْتِبَاطُ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ بِهَا ، وَانْتِظَامُهُ بِسُنَنِ اللهِ – تَعَالَى – فِيهَا مَعْقُولٌ ، وَأَمَّا تَوَلُّدُ الْعَنَاصِرِ مِنْهَا وَتَجَمُّعُهَا وَصَيْرُورَتُهَا سَدِيمًا كَالدُّخَانِ أَوِ الْغَمَامِ أَوْ بُخَارِ الْمَاءِ فَهُوَ طَوْرٌ ثَانٍ مُتَأَخِّرٌ عَنْ تَوَلُّدِ بَعْضِ عَنَاصِرِ الْمَادَّةِ مِنْ بَعْضٍ وَارْتِقَاءِ ذَلِكَ فِي سِلْسِلَةِ الْأَسْبَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ إِلَى جَوَاهِرِ الْكَهْرُبَائِيَّةِ الْفَرْدَةِ فَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّ الْكَهْرُبَاءَ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ – تَعَالَى – مِنَ الْمَادَّةِ فَإِنَّهَا تَكُونُ آخِرَ حِجَابٍ مَادِيٍّ مِمَّا حَالَ بَيْنَ الْمَادِّيِّينَ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَيَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُؤْيَتِهِ فِي الْآخِرَةِ ، فَإِذَا انْكَشَفَ هَذَا الْحِجَابُ ، وَانْتَهَى بِالْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَنْتَهِي بِالرُّؤْيَةِ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الْمَعْرِفَةِ .

وَلَكِنَّ الْحُجُبَ كَثِيرَةٌ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَكَوْنُ الْكَهْرُبَاءِ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ – تَعَالَى – مِنَ الْمَادَّةِ لَمْ يَبْلُغْ دَرَجَةَ الْعِلْمِ الْقَطْعِيِّ الْآنَ ، فَهِيَ بِاعْتِرَافِهِمْ مُرَكَّبَةٌ ، وَمُنْقَسِمَةٌ إِلَى مُوجَبَةٍ وَسَالِبَةٍ ، وَآثَارُهَا مِنْ إِثَارَةِ الْحَرَكَةِ وَتَوْلِيدِ النُّورِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِنَّمَا تَكُونُ بِاقْتِرَانِ الزَّوْجَيْنِ الْمُوجَبِ وَالسَّالِبِ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِأَمْرِ اللهِ – تَعَالَى – ابْتِدَاءً كَمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِسَبَبٍ مَادِّيٍّ آخَرَ ، أَوْ بِسَبَبٍ رُوحِيٍّ سَابِقٍ عَلَيْهَا فِي الْخَلْقِ وَرُؤْيَتِهِ كِفَاحًا بِدُونِ حِجَابٍ أَلْبَتَّةَ – فَهَذَا مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ الْحَاشِيَةِ مِنَ التَّقْرِيبِ بَيْنَ مَا وَرَدَ مِنَ التَّجَلِّي الْإِلَهِيِّ فِي الْحُجُبِ ، وَمِنْ وَرَاءِ الْحُجُبِ ، وَلَكِنْ كَانَ مِنَ السَّهْوِ جَعَلْنَا إِيَّاهَا عَلَى إِجْمَالِهَا وَإِبْهَامِهَا فِي مَجْمُوعَةِ الْحَدِيثِ النَّجْدِيَّةِ ، وَأَكْثَرُ قُرَّائِهَا لَا إِلْمَامَ لَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْعُلُومِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ الَّتِي يَسْتَغْنُونَ عَنْهَا فِي هَذَا الْمَقَامِ بِقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ وَاعْتِصَامِهِمْ فِيهِ بِهَدْيِ السَّلَفِ ، وَتَكَرُّرَ التَّنْبِيهُ فِيهِمَا عَلَى أَنَّنَا إِنَّمَا نَذْكُرُ أَمْثَالَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ فِي الْمَنَارِ وَفِي تَفْسِيرِهِ لِتَقْرِيبِ مَعَانِي النُّصُوصِ مِنْ عُقُولِ الْمُطَّلِعِينَ عَلَى هَذِهِ الْعُلُومِ مِنْ أَبْنَاءِ هَذَا الْعَصْرِ الْمَفْتُونِينَ بِهَا ، فَإِذَا رَأَى هَؤُلَاءِ أَنَّ أَبْعَدَ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَنْ مَأْلُوفِ الْبَشَرِ مِنْ أَخْبَارِ عَالَمِ الْغَيْبِ يَتَّفِقُ مَعَ أَحْدَثِ مَا قَرَّرَهُ الْعِلْمُ

الْمَبْنِيُّ عَلَى التَّجَارِبِ وَالْبَحْثِ الْعَمَلِيِّ ، فَالْمَرْجُوُّ
أَنْ يَكُونَ أَجْذَبَ لَهُمْ إلَى الْإِيمَانِ ، وَهَذَا يَكْثُرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَمِنْهُ مَا صَارَ حَقَائِقَ وَاقِعَةً ،
وَمِنْهُ مَا قَرُبَ مِنْهَا حَتَّى وَرَدَتِ الْأَنْبَاءُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِالِاهْتِدَاءِ إلَى ضَرْبٍ مِنَ الْعِلَاجِ
بِالْكَهْرُبَائِيَّةِ يُعِيدُ إلَى الشُّيُوخِ قُوَّةَ الشَّبَابِ وَنَضَارَتِهِ ، وَذَلِكَ بِقُرْبِ كَوْنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ شَبَابٌ لَا
يَهْرَمُونَ ، وَسَنُقَرِّبُ مَسْأَلَةَ الرُّؤْيَةِ بِأَوْضَحِ مِثَالٍ فِي بَحْثِ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ ، وَقَدْ صَرَّحْنَا مِرَارًا
بِأَنَّ كُلَّ مَا نُورِدُهُ مِنْ تَقْرِيبٍ وَتَأْلِيفٍ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، وَمِنْ تَفْسِيرٍ أَوْ تَأْوِيلٍ لِرَدِّ شُبُهَاتِ
الزَّائِغِينَ ، فَإِنَّنَا لَا نَخْرُجُ بِهِ عَنْ قَاعِدَتِنَا فِي الْمُعْتَقَدِ الْمُعْتَمَدِ عِنْدَنَا فِي جَمِيعِ أُمُورِ الدِّينِ مِنَ
الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْفَضَائِلِ ، وَهُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ .
وَقَدْ سَبَقَ لَنَا بَحْثٌ مِثْلُ بَحْثِنَا هَذَا عَلَى قَاعِدَتِنَا هَذِهِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : هَلْ
يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ (2 : 210) مِنْ جُزْءِ التَّفْسِيرِ الثَّانِي
، بَعْضُهُ لَنَا وَبَعْضُهُ لِلْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فَيُرَاجَعُ فِي – ص 209 – 213 ج2 ط الْهَيْئَةِ –

(تَنْبِيهٌ) إنَّ إدْخَالَ مَبَاحِثِ عُلُومِ الْكَوْنِ فِي التَّفْسِيرِ هُوَ مِنْ أَهَمِّ أَرْكَانِهِ ، وَالْعَمَلُ بِهُدَى الْقُرْآنِ فِيهِ ، فَهُوَ مَمْلُوءٌ بِذِكْرِ آيَاتِ اللهِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَكَانَ سَلَفُنَا مِنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ وَالْخَلَفِ يَذْكُرُونَ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ أَسْرَارِ الْخَلْقِ وَكَذَا مَا يَتَلَقَّوْنَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتَّى الَّذِينَ لَا يُوثَقُ بِعِلْمِهِمْ وَلَا رِوَايَتِهِمْ ، وَهُوَ مَا يَنْتَقِدُ عَلَيْهِمْ .

" الْكَلِمَةُ الْجَامِعَةُ الْخَاتِمَةُ فِي مَسْأَلَةِ الرُّؤْيَةِ " :

(223/287)

خُلَاصَةُ الْخُلَاصَةِ أَنَّ رُؤْيَةَ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ فِي الْآخِرَةِ حَقٌّ ، وَأَنَّهُمْ أَعْلَى وَأَكْمَلُ التَّعِيمِ الرُّوحَانِيِّ الَّذِي يَرْتَقِي إلَيْهِ الْبَشَرُ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ وَالرِّضْوَانِ ، وَأَنَّهَا أَحَقُّ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (32 : 17) وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الَّذِي رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ " وَأَنَّ هَذَا وَذَاكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ الَّذِي عَبَّرَ بَعْضُهُمْ عَنْهُ بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ اتَّفَقَ عَلَيْهَا جَمِيعُهُمْ وَهِيَ " أَنَّهَا رُؤْيَةٌ بِلَا كَيْفٍ " وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ اضْطِرَابُ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْعُلَمَاءِ فِي

النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي نَفْيِهَا وَإِثْبَاتِهَا ، سَوَاءً مِنْهُمْ أَهْلُ اللُّغَةِ وَأَسَاطِينُ الْبَيَانِ ، وَنُظَّارُ الْفَلْسَفَةِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ ، وَرُوَاةُ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ ،

(224/287)

وَمُرْتَاضُو الصُّوفِيَّةِ وَأُولُو الْكَشْفِ وَالْإِلْهَامِ ، فَلَمْ تَتَّفِقْ طَائِفَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ عَلَى قَوْلٍ فَصْلٍ قَطْعِيٍّ تُقْنِعُ بِهِ بَقِيَّةَ الطَّوَائِفِ بِدَلِيلِهَا اللُّغَوِيِّ أَوِ الْأُصُولِيِّ أَوِ الْعَقْلِيِّ أَوْ فَهْمُ النَّصِّ النَّقْلِيِّ أَوْ تَسْلِيمِ إِلْهَامِهَا الْكَشْفِيِّ ، وَلَكِنْ مَنْ نَظَرَ فِي جَمِيعِ مَا قَالُوهُ نَظَرَ اسْتِقْلَالٍ وَإِنْصَافٍ يَجْزِمُ بِأَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ عَامَّةُ السَّلَفِ مِنْ إِثْبَاتِ كُلِّ مَنْ يَصِحُّ بِهِ النَّقْلُ ، وَتَفْوِيضِ تَأْوِيلِهِ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ وَيُؤَيِّدُهُ الْعِلْمُ وَالْعَقْلُ ، فَهُوَ الْأَسْلَمُ وَالْأَحْكَمُ وَالْأَعْلَمُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

(خُلَاصَةُ الْقَوْلِ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ) .

اضْطَرَبَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ كَمَا اضْطَرَبُوا فِي مَسْأَلَةِ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ صِفَاتِهِ وَشُئُونِهِ فَذَهَبَ الَّذِينَ بَنَوْا قَوَاعِدَ عَقَائِدِهِمْ عَلَى اقْتِضَاءِ التَّنْزِيهِ لِلتَّأْوِيلِ إِلَى أَنَّ الْكَلَامَ مِنْ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ كَالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ (الْمَعْنَى الْمَصْدَرِيِّ) وَلِهَذَا قَالُوا إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ ، وَالْحَقُّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ أَنَّ كَلَامَ اللهِ – تَعَالَى –

صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ كَالْعِلْمِ وَهُوَ مِثْلُهُ لَا يَقْتَضِي التَّشْبِيهَ ، إِذْ مِنَ الْعُلُومِ بِدَلِيلِ النَّقْلِ وَالْعَقْلِ أَنَّ الْخَالِقَ لَا يُشْبِهُ الْمَخْلُوقَ كَمَا

(225/287)

تَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي مَسْأَلَةِ الرُّؤْيَةِ فَلَا نُعِيدُهُ وَالْعَهْدُ بِهِ قَرِيبٌ ، وَإِنَّمَا نَكْتُبُ شَيْئًا نُقَرِّبُ بِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنَ الْأَفْهَامِ ، بَعْدَ تَفْنِيدِ تَقَالِيدِ عِلْمِ الْكَلَامِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ مُتَكَلِّمِي الْأَشْعَرِيَّةِ قَدْ عَقَّدُوهَا تَعْقِيدًا شَدِيدًا بِمَا حَاوَلُوا بِهِ التَّوْفِيقَ بَيْنَ نُصُوصِ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَنَظَرِيَّاتِ الْعَقْلِ بِقَوْلِهِمْ : إِنَّ الْكَلَامَ نَفْسِيٌّ وَلَفْظِيٌّ ، فَالْأَوَّلُ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى ، وَالثَّانِي عِبَارَةٌ عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْقَائِمِ بِالذَّاتِ تُؤَدَّى بِاللَّفْظِ الَّذِي يَحْصُلُ بِالصَّوْتِ وَالْحُرُوفِ الَّتِي تُكْتَبُ بِالْقَلَمِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ وَالْأَلْفَاظِ الَّتِي تُكَيِّفُهَا الْأَصْوَاتُ حَادِثَةٌ مَخْلُوقَةٌ ، قَالُوا : وَإِنَّمَا مَنَعَ السَّلَفُ مِنَ التَّصْرِيحِ بِذَلِكَ ، وَأَنْكَرُوا عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُسَمَّى كَلَامَ اللهِ بِمَعْنَى دَلَالَتِهِ عَلَى صِفَةِ اللهِ الْقَدِيمَةِ ، فَلِهَذَا الِاشْتِرَاكِ يُخْشَى أَنْ يُفْضِيَ الْقَوْلُ بِخَلْقِ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ الْمَلْفُوظَةِ وَالْمَكْتُوبَةِ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ كَلَامَ اللهِ – تَعَالَى – الَّذِي هُوَ صِفَتُهُ الْقَدِيمَةِ مَخْلُوقٌ .

وَهَذِهِ فَلْسَفَةٌ مَرْدُودَةٌ مُخَالِفَةٌ لِمَذْهَبِ السَّلَفِ كَأَمْثَالِهَا مِنْ تَأْوِيلِ سَائِرِ الصِّفَاتِ ، وَهِيَ

غَيْرُ مَعْقُولَةِ الْمَعْنَى أَيْضًا ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَا مَدْلُولَ لَهُ إِلَّا مَعَانِي مُفْرَدَاتِهِ ، وَجُمْلَةُ هَذِهِ الْمَعَانِي مِنْهَا الْقَدِيمُ وَهِيَ مَعَانِي أَسْمَاءِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَصِفَاتُهُ ، وَسَائِرُهَا حَادِثَةٌ ،

(226/287)

وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ ذِكْرُ "كَلَامِ اللَّهِ" فِي مَوَاضِعَ لَا مَدْلُولَ لَهَا إِلَّا مَا يُسَمُّونَهُ هُمُ الْكَلَامَ اللَّفْظِيَّ - كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ (9 : 6) فَالْمُرَادُ بِكَلَامِ اللَّهِ الْقُرْآنُ قَطْعًا ، إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ صِفَةَ اللَّهِ - تَعَالَى - ؛ الْقَائِمَةَ بِذَاتِهِ ، وَقَوْلُهُ فِي الْيَهُودِ : وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ (2 : 75) يَعْنِي التَّوْرَاةَ ، وَقَوْلُهُ فِي الْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ : يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ (48 : 15) يَعْنِي وَعْدَهُ فِي الْقُرْآنِ فِيمَا سَبَقَ فِي السُّورَةِ ، إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُبَدِّلُونَ ، وَأُولَئِكَ يُحَرِّفُونَ صِفَةَ اللَّهِ - تَعَالَى - .

(227/287)

وَقَدِ اغْتَرَّ بِهَذِهِ الْفَلْسَفَةِ الْكَلَامِيَّةِ الْجَمَاهِيرُ الْكَثِيرُونَ لِصُدُورِهَا عَنْ بَعْضِ كِبَارِ النُّظَّارِ ، الَّذِينَ مَلَأَتْ شُهْرَتُهُمُ الْأَقْطَارَ ، فَأَعْجَبَ الْبَاحِثُونَ مِنْهُمْ بِهَا ، وَقَلَّدَهُمُ الْأَكْثَرُونَ فِيهَا ، وَرَجَعَ عَنْهَا أَسَاطِينُ الْمَذْهَبِ بَعْدَ تَمْحِيصِهَا وَمُقَابَلَتِهَا بِأَقْوَالِ السَّلَفِ الْمُؤَيَّدَةِ بِالنُّصُوصِ ، فَأَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُسْتَقِلِّينَ الْمُخْلِصِينَ رَجَعُوا إِلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ فِي أَوَاخِرِ أَعْمَارِهِمْ ، وَلَكِنْ بَقِيَ عَامَّةُ الْأَشْعَرِيَّةِ مُتَّبِعِينَ لِمَا قَرَّرُوهُ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ ، كَدَأْبِ الْجَمَاعَاتِ فِي كُلِّ مَا يَتَّخِذُونَهُ مَذْهَبًا لَهُمْ ، عَلَى أَنَّ الرُّجُوعَ كَانَ فِي الْأَغْلَبِ التَّدْرِيجُ وَالْمَزْجُ بَيْنَ التَّفْوِيضِ وَالتَّأْوِيلِ ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ إِلَّا الْأَفْرَادُ مِنْ أَهْلِ الدَّلِيلِ .

وَقَدْ أَعْجَبَنِي مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ النُّظَّارِ الْمُنِيبِينَ قَوْلُ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ الْجُوَيْنِيِّ وَالِدِ إِمَامِ الْحَرَمَيْنِ فِي رِسَالَةٍ لَهُ فِي نَصِيحَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ رُجُوعِهِ إِلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَأَخَوَاتِهَا الَّتِي يَتَأَوَّلُهَا أَصْحَابُهُ الْأَشَاعِرَةُ لِتَصْرِيحِهِ وَرَدِّهِ عَلَى شُيُوخِهِ قَالَ :

"

(228/287)

إِنِّي كُنْتُ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ مُتَحَيِّرًا فِي ثَلَاثِ مَسَائِلَ : مَسْأَلَةُ الصِّفَاتِ ، وَمَسْأَلَةُ الْفَوْقِيَّةِ ، وَمَسْأَلَةُ الْحَرْفِ وَالصَّوْتِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وَكُنْتُ مُتَحَيِّرًا فِي الْأَقْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ

الْمَوْجُودَةِ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْعَصْرِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مِنْ تَأْوِيلِ الصِّفَاتِ وَتَحْرِيفِهَا ، أَوْ إِمْرَارِهَا وَالْوُقُوفِ فِيهَا ، أَوْ إِثْبَاتِهَا بِلَا تَأْوِيلٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ، فَأَجِدُ النُّصُوصَ فِي كِتَابِ اللهِ - تَعَالَى - وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَاطِقَةً مُنْبِئَةً بِحَقَائِقِ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَكَذَلِكَ فِي إِثْبَاتِ الْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ فِي الْحَرْفِ وَالصَّوْتِ ، ثُمَّ أَجِدُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي كُتُبِهِمْ مِنْهُمْ مَنْ يُؤَوِّلُ الِاسْتِوَاءَ بِالْقَهْرِ وَالِاسْتِيلَاءِ ، وَيُؤَوِّلُ النُّزُولَ بِنُزُولِ الْأَمْرِ ، وَيُؤَوِّلُ الْيَدَيْنِ بِالْقُدْرَتَيْنِ أَوِ النِّعْمَتَيْنِ ، وَيُؤَوِّلُ الْقَدَمَ بِقَدَمِ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَأَمْثَالَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَجِدُهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَجْعَلُونَ كَلَامَ اللهِ - تَعَالَى - مَعْنًى قَائِمًا بِالذَّاتِ بِلَا حَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ ، وَيَجْعَلُونَ هَذِهِ الْحُرُوفَ عِبَارَةً عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْقَائِمِ .

(229/287)

" وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ أَوْ بَعْضِهَا قَوْمٌ لَهُمْ فِي صَدْرِي مَنْزِلَةٌ مِثْلَ طَائِفَةٍ مِنْ فُقَهَاءِ الْأَشْعَرِيَّةِ الشَّافِعِيِّينَ ؛ لِأَنِّي عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللهُ - تَعَالَى - عَنْهُ عَرَفْتُ فَرَائِضَ دِينِي وَأَحْكَامِهِ فَأَجِدُ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الشُّيُوخِ الْأَجِلَّةِ يَذْهَبُونَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَهُمْ شُيُوخِي ، وَلِي فِيهِمُ الِاعْتِقَادُ التَّامُّ لِفَضْلِهِمْ وَعِلْمِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّنِي مَعَ ذَلِكَ أَجِدُ فِي قَلْبِي مِنْ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ حَزَازَاتٍ لَا يَطْمَئِنُّ قَلْبِي إِلَيْهَا ، وَأَجِدُ الْكَدَرَ وَالظُّلْمَةَ مِنْهَا ، وَأَجِدُ ضِيقَ الصَّدْرِ

وَعَدَمَ انْشِرَاحِهِ مَقْرُونًا بِهَا ، فَكُنْتُ كَالْمُتَحَيِّرِ الْمُضْطَرِبِ فِي تَحَيُّرِهِ ، الْمُتَمَلْمِلِ مِنْ قَلْبِهِ فِي تَقَلُّبِهِ وَتَغَيُّرِهِ .

(230/287)

" وَكُنْتُ أَخَافُ مِنْ إِطْلَاقِ الْقَوْلِ بِإِثْبَاتِ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ مُخَالَفَةَ الْحَصْرِ وَالتَّشْبِيهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَإِذَا طَالَعْتُ النُّصُوصَ الْوَارِدَةَ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَجِدُهَا نُصُوصًا تُشِيرُ إِلَى حَقَائِقِ هَذِهِ الْمَعَانِي ، وَأَجِدُ الرَّسُولَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ صَرَّحَ بِهَا مُخْبِرًا عَنْ رَبِّهِ وَاصِفًا لَهُ بِهَا ، وَأَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يَحْضُرُ فِي مَجْلِسِهِ الشَّرِيفِ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ وَالذَّكِيُّ وَالْبَلِيدُ وَالْأَعْرَابِيُّ الْجَافِي ، ثُمَّ لَا أَجِدُ شَيْئًا يَعْقُبُ تِلْكَ النُّصُوصَ الَّتِي كَانَ يَصِفُ رَبَّهُ بِهَا لَا نَصًّا وَلَا ظَاهِرًا مِمَّا يَصْرِفُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا وَيُؤَوِّلُهَا كَمَا تَأَوَّلَهَا هَؤُلَاءِ مِنْ مَشَايِخِي الْفُقَهَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ ، مِثْلَ تَأْوِيلِهِمُ الِاسْتِيلَاءَ بِالِاسْتِوَاءِ ، وَنُزُولَ الْأَمْرِ لِلنُّزُولِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَلَمْ أَجِدْ عَنْهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ كَانَ يُحَذِّرُ النَّاسَ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِهِ فِي صِفَتِهِ لِرَبِّهِ مِنَ الْفَوْقِيَّةِ وَالْيَدَيْنِ وَغَيْرِهَا ، وَلَمْ يَقُلْ عَنْهُ مَقَالَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَانِيَ أُخَرَ بَاطِنَةً غَيْرَ مَا يَظْهَرُ مِنْ مَدْلُولِهَا .

بَعْدَ هَذَا شَرَعَ الْإِمَامُ الْجُوَيْنِيُّ فِي إِيرَادِ النُّصُوصِ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ فِي مَسْأَلَةِ عُلُوِّ الرَّبِّ - تَعَالَى - ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلِبَعْضِ حُفَّاظِ السُّنَّةِ فِيهَا مُصَنَّفَاتٌ خَاصَّةٌ كَابْنِ قُدَامَةَ وَالذَّهَبِيِّ ، وَكِتَابَاهُمَا مَطْبُوعَانِ عِنْدَنَا ، ثُمَّ قَالَ فِي الْمَسْأَلَةِ مِنْ وُجْهَةِ النَّظَرِ الْعِلْمِيَّةِ :

"

وَمَنْ عَرَفَ هَيْئَةَ الْعَالَمِ وَمَرْكَزِهِ مِنْ عِلْمِ الْهَيْئَةِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ إِلَّا جِهَتَا الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ ثُمَّ اعْتَقَدَ بَيْنُونَةَ خَالِقِهِ عَنِ الْعَالَمِ فَمِنْ لَوَازِمِ الْبَيِّنَةِ
أَنْ يَكُونَ فَوْقَهُ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ جِهَاتِ الْعَالَمِ فَوْقٌ ، وَلَيْسَ السُّفْلُ إِلَّا الْمَرْكَزُ وَهُوَ الْوَسَطُ " .
ثُمَّ إِنَّهُ وَضَّحَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي آخِرِ الرِّسَالَةِ ، وَقَالَ قَبْلَ ذَلِكَ وَبَعْدَ بَيَانِ مَسْأَلَةِ صِفَةِ الْعُلُوِّ :

(فَصْلٌ) إذَا عَلِمْنَا ذَلِكَ وَاعْتَقَدْنَاهُ تَخَلَّصْنَا مِنْ شُبَهِ التَّأْوِيلِ وَعَمَاوَةِ التَّعْطِيلِ ، وَحَمَاقَةِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ ، وَأَثْبَتْنَا عُلُوَّ رَبِّنَا سُبْحَانَهُ وَفَوْقِيَّتَهُ وَاسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَالْحَقُّ وَاضِحٌ فِي ذَلِكَ ، وَالصُّدُورُ تَنْشَرِحُ لَهُ ، فَإِنَّهُ التَّحْرِيفُ تَأْبَاهُ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ مِثْلَ تَحْرِيفِ الِاسْتِوَاءِ بِالِاسْتِيلَاءِ وَغَيْرِهِ ، وَالْوُقُوفُ فِي ذَلِكَ جَهْلٌ وَعِيٌّ مَعَ كَوْنِ الرَّبِّ - تَعَالَى - وَصَفَ لَنَا نَفْسَهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ لِنَعْرِفَهُ بِهَا ، فَوُقُوفُنَا عَنْ إثْبَاتِهَا وَنَفْيِهَا عُدُولٌ عَنِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ فِي تَعْرِيفِنَا إيَّاهَا ، فَمَا وَصَفَ لَنَا نَفْسَهُ بِهَا إلَّا لِنُثْبِتَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ لَنَا ، وَلَا نَقِفُ فِي ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ التَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ حَمَاقَةٌ وَجَهَالَةٌ ، فَمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - لِلْإِثْبَاتِ بِلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا وُقُوفٍ فَقَدْ وَقَعَ عَلَى الْأَمْرِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ - تَعَالَى - .

(233/287)

(فَصْلٌ) وَالَّذِي شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لَهُ فِي حَالِ هَؤُلَاءِ الشُّيُوخِ الَّذِينَ أَوَّلُوا الِاسْتِوَاءَ بِالِاسْتِيلَاءِ وَالنُّزُولَ بِنُزُولِ الْأَمْرِ ، وَالْيَدَيْنِ بِالنِّعْمَتَيْنِ وَالْقُدْرَتَيْنِ ، هُوَ عِلْمِي بِأَنَّهُمْ مَا فَهِمُوا فِي صِفَاتِ الرَّبِّ - تَعَالَى - إلَّا مَا يَلِيقُ بِالْمَخْلُوقِينَ ، فَمَا فَهِمُوا عَنِ اللَّهِ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِهِ ، وَلَا نُزُولًا يَلِيقُ بِهِ ، وَلَا يَدَيْنِ تَلِيقُ بِعَظَمَتِهِ بِلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ ، فَلِذَلِكَ حَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَعَطَّلُوا

مَا وَصَفَ اللهُ – تَعَالَى – نَفْسَهُ بِهِ ، وَنَذْكُرُ بَيَانَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ – تَعَالَى – .

" لَا رَيْبَ أَنَّا نَحْنُ وَإِيَّاهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْكَلَامِ لِلَّهِ ، وَنَحْنُ قَطْعًا لَا نَعْقِلُ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا هَذَا الْعَرَضَ الَّذِي يَقُومُ بِأَجْسَامِنَا ، وَكَذَلِكَ لَا نَعْقِلُ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ إِلَّا أَعْرَاضًا تَقُومُ بِجَوَارِحِنَا ، فَكَمَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : حَيَاتُهُ لَيْسَتْ بِعَرَضٍ وَعِلْمُهُ كَذَلِكَ وَبَصَرُهُ ،

كَذَلِكَ هِيَ صِفَاتٌ كَمَا تَلِيقُ بِهِ لَا كَمَا تَلِيقُ بِنَا ، فَكَذَلِكَ نَقُولُ نَحْنُ : حَيَاتُهُ مَعْلُومَةٌ وَلَيْسَتْ مُكَيَّفَةً ، وَعِلْمُهُ مَعْلُومٌ وَلَيْسَ مُكَيَّفًا ، وَكَذَلِكَ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ مَعْلُومَانِ ، وَلَيْسَ جَمِيعُ ذَلِكَ أَعْرَاضًا بَلْ هُوَ كَمَا يَلِيقُ بِهِ .

(234/287)

" وَمِثْلُ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ فَوْقِيَّتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَنُزُولُهُ ، فَفَوْقِيَّتُهُ مَعْلُومَةٌ أَعْنِي ثَابِتَةً كَثُبُوتِ حَقِيقَةِ السَّمْعِ وَحَقِيقَةِ الْبَصَرِ ، فَإِنَّهُمَا مَعْلُومَانِ وَلَا يُكَيَّفَانِ ، كَذَلِكَ فَوْقِيَّتُهُ مَعْلُومَةٌ ثَابِتَةٌ غَيْرُ مُكَيَّفَةٍ كَمَا يَلِيقُ بِهِ ، وَاسْتِوَاؤُهُ عَلَى عَرْشِهِ مَعْلُومٌ غَيْرُ مُكَيَّفٍ بِحَرَكَةٍ أَوِ انْتِقَالٍ يَلِيقُ بِالْمَخْلُوقِ ، بَلْ –

كَمَا يَلِيقُ بِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ – صِفَاتُهُ مَعْلُومَةٌ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ وَالثُّبُوتُ غَيْرُ مَعْقُولَةٍ مِنْ حَيْثُ

التَّكْيِيفُ وَالتَّحْدِيدُ ، فَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بِهَا مُبْصِرًا مِنْ وَجْهٍ أَعْمَى مِنْ وَجْهٍ ، مُبْصِرًا مِنْ حَيْثُ الْإِثْبَاتُ وَالْوُجُودُ ، أَعْمَى مِنْ حَيْثُ التَّكْيِيفُ وَالتَّحْدِيدُ ، وَبِهَذَا يَحْصُلُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ لِمَا وَصَفَ اللهُ – تَعَالَى – نَفْسَهُ بِهِ وَبَيْنَ نَفْيِ التَّحْرِيفِ وَالتَّشْبِيهِ وَالْوُقُوفِ ، وَذَلِكَ هُوَ مُرَادُ الرَّبِّ – تَعَالَى – مِنَّا فِي إِبْرَازِ صِفَاتِهِ لَنَا لِنَعْرِفَهُ بِهَا ، وَنُؤْمِنَ بِحَقَائِقِهَا ، وَنَنْفِيَ عَنْهَا التَّشْبِيهَ ، وَلَا نُعَطِّلَهَا بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ الِاسْتِوَاءِ وَالسَّمْعِ ، وَلَا بَيْنَ النُّزُولِ وَالْبَصَرِ ، الْكُلُّ وَرَدَ فِي النَّصِّ .

(235/287)

" فَإِنْ قَالُوا لَنَا فِي الِاسْتِوَاءِ شَبَّهْتُمْ ، نَقُولُ لَهُمْ فِي السَّمْعِ شَبَّهْتُمْ ، وَوَصَفْتُمْ رَبَّكُمْ بِالْعَرَضِ فَإِنْ قَالُوا لَا عَرَضَ بَلْ كَمَا يَلِيقُ بِهِ ، قُلْنَا فِي الِاسْتِوَاءِ وَالْفَوْقِيَّةِ لَا حَصْرَ بَلْ كَمَا يَلِيقُ بِهِ ، فَجَمِيعُ مَا يُلْزِمُونَنَا بِهِ فِي الِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْيَدِ وَالْوَجْهِ وَالْقَدَمِ وَالضَّحِكِ وَالتَّعَجُّبِ مِنَ التَّشْبِيهِ نُلْزِمُهُمْ بِهِ فِي الْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِلْمِ ، فَكَمَا لَا يَجْعَلُونَهَا هُمْ أَعْرَاضًا كَذَلِكَ نَحْنُ لَا نَجْعَلُهَا جَوَارِحَ وَلَا مَا يُوصَفُ بِهِ الْمَخْلُوقُ ، وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ يَفْهَمُوا فِي الِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْوَجْهِ وَالْيَدِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ، فَيَحْتَاجُوا إِلَى التَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ .

" فَإِنْ فَهِمُوا فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ ذَلِكَ فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَفْهَمُوا فِي الصِّفَاتِ السَّبْعِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ

مِنَ الْأَعْرَاضِ ، فَمَا يَلْزَمُنَا بِهِ فِي تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالْجِسْمِيَّةِ فَنُلْزِمُهُمْ بِهِ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ مِنَ الْعَرَضِيَّةِ ، وَمَا يُنَزِّهُونَ رَبَّهُمْ بِهِ فِي الصِّفَاتِ السَّبْعِ يَنْفُونَ عَنْهُ

(236/287)

عَوَارِضَ الْجِسْمِ فِيهَا ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ نَعْمَلُ فِي تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي يَنْسِبُونَنَا فِيهَا إلَى التَّشْبِيهِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ ، وَمَنْ أَنْصَفَ عَرَفَ مَا قُلْنَا وَاعْتَقَدَهُ ، وَقَبِلَ نَصِيحَتَنَا وَدَانَ لِلَّهِ بِإِثْبَاتِ جَمِيعِ صِفَاتِهِ هَذِهِ وَتِلْكَ ، وَنَفَى عَنْ جَمِيعِهَا التَّشْبِيهَ وَالتَّعْطِيلَ وَالتَّأْوِيلَ وَالْوُقُوفَ ، وَهَذَا مُرَادُ اللَّهِ - تَعَالَى - لَنَا فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَتِلْكَ جَاءَتْ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، فَإِذَا أَثْبَتْنَا تِلْكَ بِلَا تَأْوِيلٍ ، وَحَرَّفْنَا هَذِهِ وَأَوَّلْنَاهَا كُنَّا كَمَنْ آمَنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ ، وَفِي هَذَا بَلَاغٌ وَكِفَايَةٌ إنْ شَاءَ اللَّهُ - تَعَالَى - .

(فَصْلٌ) وَإِذَا ظَهَرَ هَذَا وَبَانَ انْجَلَتِ الثَّلَاثُ الْمَسَائِلُ بِأَسْرِهَا ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الصِّفَاتِ مِنَ النُّزُولِ وَالْيَدِ وَالْوَجْهِ وَأَمْثَالِهَا ، وَمَسْأَلَةُ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ ، وَمَسْأَلَةُ الْحَرْفِ وَالصَّوْتِ ، أَمَّا مَسْأَلَةُ الْعُلُوِّ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا مَا فَتَحَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - ، وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الصِّفَاتِ فَتُسَاقُ مَسَاقَ مَسْأَلَةِ الْعُلُوِّ ، وَلَا نَفْهَمُ مِنْهَا مَا نَفْهَمُ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ بَلْ بِوَصْفِ الرَّبِّ - تَعَالَى - بِهَا كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ : فَيَنْزِلُ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَبِعَظَمَتِهِ ، وَيَدَاهُ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ

وَعَظَمَتِهِ ، وَوَجْهُهُ الْكَرِيمُ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ، فَكَيْفَ نُنْكِرُ الْوَجْهَ الْكَرِيمَ وَنُحَرِّفُ ، وَقَدْ قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي دُعَائِهِ :

"

(237/287)

أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلَى وَجْهِكَ " وَإِذَا ثَبَتَتْ صِفَةُ الْوَجْهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَبِغَيْرِهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالنُّصُوصِ ، فَكَذَلِكَ صِفَةُ الْيَدَيْنِ وَالضَّحِكِ وَالْعَجَبِ ، وَلَا يُفْهَمُ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ إلَّا مَا يَلِيقُ بِاللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – وَبِعَظَمَتِهِ لَا مَا يَلِيقُ بِالْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْأَعْضَاءِ وَالْجَوَارِحِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ تِلْكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

(ثُمَّ قَالَ) : وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الْحَرْفِ وَالصَّوْتِ فَتُسَاقُ هَذَا الْمَسَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ – تَعَالَى – قَدْ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَبِجَمِيعِ حُرُوفِهِ فَقَالَ – تَعَالَى – : الم وَقَالَ : المص وَقَالَ : ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وَكَذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ " فَيُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بُعْدٍ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبٍ " وَفِي الْحَدِيثِ " لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ ، لَامٌ حَرْفٌ ، مِيمٌ حَرْفٌ " فَهَؤُلَاءِ مَا فَهِمُوا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ – تَعَالَى – إلَّا مَا فَهِمُوهُ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ ، فَقَالُوا : إنْ قُلْنَا بِالْحُرُوفِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إلَى الْقَوْلِ بِالْجَوَارِحِ وَاللَّهَوَاتِ ، وَكَذَلِكَ إذَا

قُلْنَا بِالصَّوْتِ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْحَلْقِ وَالْحَنْجَرَةِ ، عَمِلُوا فِي هَذَا مِنَ التَّخَبُّطِ كَمَا عَمِلُوا فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الصِّفَاتِ .

(238/287)

" وَالتَّحْقِيقُ هُوَ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ تَكَلَّمَ بِالْحُرُوفِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ وَالْقَادِرُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَارِحَ ، وَلَا إِلَى لَهَوَاتٍ ، وَكَذَلِكَ لَهُ صَوْتٌ كَمَا يَلِيقُ بِهِ يَسْمَعُ وَلَا يَفْتَقِرُ ذَلِكَ الصَّوْتُ الْمُقَدَّسُ إِلَى الْحَلْقِ وَالْحَنْجَرَةِ : كَلَامُ اللَّهِ - تَعَالَى - يَلِيقُ بِهِ وَصَوْتُهُ كَمَا يَلِيقُ بِهِ ، وَلَا نَنْفِي الْحَرْفَ وَالصَّوْتَ عَنْ كَلَامِهِ سُبْحَانَهُ لِافْتِقَارِهِمَا مِنَّا إِلَى الْجَوَارِحِ وَاللَّهَوَاتِ ، فَإِنَّهُمَا مِنْ جَنَابِ الْحَقِّ تَعَالَى لَا يَفْتَقِرَانِ إِلَى ذَلِكَ ، وَهَذَا يَنْشَرِحُ الصَّدْرُ لَهُ وَيَسْتَرِيحُ الْإِنْسَانُ بِهِ مِنَ التَّعَسُّفِ وَالتَّكَلُّفِ بِقَوْلِهِ : هَذَا عِبَارَةٌ عَنْ ذَلِكَ .

(239/287)

" فَإِنْ قِيلَ : هَذَا الَّذِي يَقْرَؤُهُ الْقَارِئُ هُوَ عَيْنُ قِرَاءَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَعَيْنُ تَكَلُّمِهِ هُوَ ؟ قُلْنَا لَا ؛ بَلِ الْقَارِئُ يُؤَدِّي كَلَامَ اللَّهِ - تَعَالَى - ، وَالْكَلَامُ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ

مُؤَدًّا مُبَلِّغًا ، وَلَفْظُ الْقَارِئِ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ ، وَفِي الْقُرْآنِ لَا يَتَمَيَّزُ اللَّفْظُ الْمُؤَدِّي عَنِ الْكَلَامِ الْمُؤَدَّى عَنْهُ ، وَلِهَذَا مَنَعَ السَّلَفُ عَنْ قَوْلِ " لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ " لِأَنَّهُ لَا يَتَمَيَّزُ ، كَمَا مَنَعُوا عَنْ قَوْلِ " لَفْظِي بِالْقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ " فَإِنَّ لَفْظَ الْعَبْدِ فِي غَيْرِ التِّلَاوَةِ مَخْلُوقٌ ، وَفِي التِّلَاوَةِ مَسْكُوتٌ عَنْهُ كَيْلَا يُؤَدِّيَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ إلَى الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَمَا أَمَرَ السَّلَفُ بِالسُّكُوتِ عَنْهُ ؛ يَجِبُ السُّكُوتُ عَنْهُ ، وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ ا هـ .

(يَقُولُ مُؤَلِّفُ هَذَا التَّفْسِيرِ) : إنَّ لَدَيْنَا فِي تَقْرِيبِ صِفَةِ الْكَلَامِ مِنَ الْأَفْهَامِ قَوْلًا آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّ جَمِيعَ مَا ثَبَتَ فِي النُّصُوصِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَشُئُونِهِ فَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ مُسْتَعَارٌ مِمَّا وَضَعَهُ النَّاسُ فِي اللُّغَةِ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَنَفْهَمُ بِهَذِهِ الْمُرَادَ مِنْ تِلْكَ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَنَعْرِفُ بِدَلِيلَيِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا ، وَأَنَّ النِّسْبَةَ بَيْنَهُمَا الْمُبَايَنَةُ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَقَدْ عَبَّرَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ عَنْ ذَلِكَ تَعْبِيرًا بَلِيغًا فِي قَوْلِهِ مِنْ كِتَابِ الشُّكْرِ مِنَ الْإِحْيَاءِ :

"

(240/287)

إنَّ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي جَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ صِفَةٌ ، عَنْهَا يَصْدُرُ الْخَلْقُ وَالِاخْتِرَاعُ ، وَتِلْكَ الصِّفَةُ أَعْلَى وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ تَلْمَحَهَا عَيْنُ وَاضِعِ اللُّغَةِ حَتَّى يُعَبِّرَ عَنْهَا بِعِبَارَةٍ تَدُلُّ عَلَى كُنْهِ

جَلَالِهَا وَخُصُوصِ حَقِيقَتِهَا ، فَلَمْ تَكُنْ لَهَا فِي الْعَالَمِ عِبَارَةٌ لِعُلُوِّ شَأْنِهَا ، وَانْحِطَاطِ رُتْبَةِ وَاضِعِي اللُّغَاتِ عَنْ أَنْ يَمْتَدَّ طَرْفُ فَهْمِهِمْ إِلَى مَبَادِئِ إِشْرَاقِهَا ،

فَانْخَفَضَتْ عَنْ ذُرْوَتِهَا أَبْصَارُهُمْ كَمَا تَنْخَفِضُ أَبْصَارُ الْخَفَافِيشِ عَنْ نُورِ الشَّمْسِ ، لَا لِغُمُوضٍ فِي نُورِ الشَّمْسِ ، وَلَكِنْ لِضَعْفٍ فِي أَبْصَارِ الْخَفَافِيشِ ، فَاضْطَرَّ الَّذِينَ فُتِحَتْ أَبْصَارُهُمْ لِمُلَاحَظَةِ جَلَالِهَا إِلَى أَنْ يَسْتَعِيرُوا مِنْ عَالَمِ الْمُتَنَاطِقِينَ بِاللُّغَاتِ عِبَارَةً تَفْهَمُ مِنْ مَبَادِئِ حَقَائِقِهَا شَيْئًا ضَعِيفًا جِدًّا ، فَاسْتَعَارُوا لَهَا اسْمَ الْقُدْرَةِ ، فَتَجَاسَرْنَا بِسَبَبِ اسْتِعَارَتِهِمْ عَلَى النُّطْقِ ، فَقُلْنَا : لِلَّهِ تَعَالَى صِفَةٌ هِيَ الْقُدْرَةُ ، عَنْهَا يَصْدُرُ الْخَلْقُ وَالِاخْتِرَاعُ " ثُمَّ ذَكَرَ الْمَشِيئَةَ وَالْمَحَبَّةَ وَالْكَرَاهَةَ وَالرِّضَا وَالْغَضَبَ ، فَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ مَا يُسَمُّونَهُ صِفَاتِ الْمَعَانِي وَمَا يُسَمُّونَهُ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَتَأَوَّلُهَا أَصْحَابُهُ الْأَشْعَرِيَّةُ تَحَكُّمًا مِنْهُمْ .

(241/287)

وَنَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ أَنْفُسِنَا أَنَّ لَنَا كَلَامًا هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِنَا ، وَشَأْنٌ مِنْ شُئُونِنَا تَتَعَلَّقُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ عِلْمُنَا ، وَلَكِنَّ تَعَلُّقَ الْعِلْمِ عِبَارَةٌ عَنِ انْكِشَافِ الْمَعْلُومَاتِ لِلنَّفْسِ ، وَتَعَلُّقَ الْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ كَشْفِهَا وَتَصْوِيرِهَا بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا فِي النَّفْسِ أَوْ لِمَنْ نُرِيدُ كَشْفَهَا لَهُ ، تَقُولُ : حَدَّثَتْنِي نَفْسِي بِكَذَا ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي كَذَا ، وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ يَوْمَ السَّقِيفَةِ ، " وَكُنْتُ زَوَّرْتُ فِي

نَفْسِي مَقَالَةً "يَعْنِي : هَيَّأْتُ فِي نَفْسِي كَلَامًا لِأَقُولَهُ .

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

عِنْدِي حَدِيثٌ أُرِيدُ الْيَوْمَ أَذْكُرُهُ . . . وَأَنْتَ تَعْلَمُ دُونَ النَّاسِ فَحْوَاهُ

(242/287)

وَأَمَّا أَدَاءُ الْكَلَامِ لِمَنْ نُرِيدُ إِعْلَامَهُ بِبَعْضِ مَا نَعْلَمُ فَلَهُ طُرُقٌ أَعَمُّهَا تَعْبِيرُ اللِّسَانِ ، وَيَلِيهِ تَعْبِيرُ الْقَلَمِ ، وَالْأَوَّلُ غَرِيزَةٌ فِي النُّطْقِ خَاصٌّ بِالْبَشَرِ بِمُقْتَضَاهَا تَوَاضَعُوا عَلَى الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى مَعَانِي الْمَعْلُومَاتِ ، فَاتَّسَعَتْ بِقَدْرِ اتِّسَاعِ دَائِرَةِ عُلُومِهِمْ ، وَالثَّانِي صِنَاعَةٌ هَدَاهُمُ اللَّهُ – تَعَالَى – إِلَيْهِمْ بِشُعُورِهِمْ بِالْحَاجَةِ إِلَى إِيصَالِ مَعْلُومَاتِهِمْ إِلَى الْبَعِيدِ عَنْهُمُ الَّذِي لَا يَسْمَعُ كَلَامَهُمُ اللِّسَانِيَّ ، وَإِلَى حِفْظِهَا لِمَنْ يَجِيءُ بَعْدَهُمْ ، وَقَدِ اسْتَحْدَثُوا فِي هَذَا الْعَصْرِ آلَةَ الْخِطَابِ الْبَعِيدِ بِاللِّسَانِ سَمَّوْهَا (التِّلِيفُونَ) وَسَمَّيْنَاهَا (الْمِسَرَّةَ) بِكَسْرِ الْمِيمِ وَتَشْدِيدِ الرَّاءِ – تُوَصِّلُ الْكَلَامَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ ، وَمِنْ بَلَدٍ أَوْ قُطْرٍ إِلَى آخَرَ بِأَسْلَاكٍ كَهْرَبَائِيَّةٍ تَصِلُ بَيْنَ آلَاتِ الْمُتَخَاطِبِينَ ، وَقَدِ اسْتَغْنَوْا أَخِيرًا عَنْ هَذِهِ الْأَسْلَاكِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ ، وَاسْتَحْدَثُوا آلَةً لِحِفْظِ الْأَصْوَاتِ الْكَلَامِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَإِعَادَتِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَلَوْ بَعْدَ مَوْتِ صَاحِبِهَا سَمَّوْهَا (الْفُونُغْرَافَ) وَكَانُوا اسْتَحْدَثُوا قَبْلَ ذَلِكَ آلَةً لِنَقْلِ الْكَلَامِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ فِي

الْبَلَدِ الْوَاحِدِ ، وَفِي الْبِلَادِ

وَالْأَقْطَارِ الْمُخْتَلِفَةِ بِأَسْلَاكٍ كَهْرَبَائِيَّةٍ

مُوَصِّلَةٍ بَيْنَ الْآلَاتِ الْمُؤَدِّيَةِ لِلْكَلَامِ وَالْقَابِلَةِ لَهُ بِمَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْخَطِّ لَا الصَّوْتِ ، وَهِيَ الْآلَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِالتِّلِغْرَافِ .

(243/287)

فَكُلٌّ مِنْ هَذَا وَذَاكَ أَدَاءٌ لِلْكَلَامِ الَّذِي يَقُومُ فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ ، وَيُرِيدُ إِيصَالَهُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَكُلٌّ مِنْهَا يُسَمَّى كَلَامُهُ حَقِيقَةً كَمَا يُعْلَمُ مِنِ اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ الْخُلَّصِ وَالْمُخَضْرَمِينَ وَالْمُوَلَّدِينَ الَّذِينَ تَلَقَّوْا عَنْهُمَا وَمِنْ بَعْدِهِمْ ، وَلِلْأَخْطَلِ الشَّاعِرِ الْمَشْهُورِ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ تَدَاوَلَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ ، وَاسْتَشْهَدُوا بِهِ عَلَى الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ وَالْكَلَامِ اللَّفْظِيِّ ، يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ الْأَوَّلَ عِنْدَهُ هُوَ حَقِيقَةُ مَدْلُولِ الْكَلِمَةِ ، وَأَنَّ الثَّانِيَ مَجَازٌ مُرْسَلٌ وَهُوَ :

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا . . . جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

وَلَيْسَ هَذَا بِحُجَّةٍ لُغَوِيَّةٍ عَلَى مَا ذُكِرَ ، وَقُصَارَى الِاحْتِجَاجِ بِشِعْرِ الشَّاعِرِ أَنَّ اسْتِعْمَالَهُ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ صَحِيحٌ فِي اللُّغَةِ فِي مُفْرَدَاتِهِ وَتَرْكِيبِهِ ، وَذَلِكَ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ رَأْيُهُ فِيهِ صَحِيحًا ، وَلَا أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا يَقُولُهُ حَقًّا فِي الْوَاقِعِ ، وَلَا فِي اعْتِقَادِهِ وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ شِعْرًا

، فَاسْتِعْمَالُ الْعَرَبِ لِمَادَّةِ الْكَلَامِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّفْظَ الْمُرَكَّبَ الدَّالَّ بِالْوَضْعِ عَلَى الْمَعَانِي كَلَامٌ حَقِيقَةٌ ، وَقَدْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي حَقِيقَةِ الْأَسَاسِ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ : سَمِعْتُهُ يَتَكَلَّمُ بِكَذَا ، وَكَلَّمْتُهُ وَكَالَمْتُهُ ، وَكَانَا مُتَصَارِمَيْنِ فَصَارَا يَتَكَالَمَانِ ، وَمُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ ، وَنَطَقَ بِكَلِمَةٍ فَصِيحَةٍ وَبِكَلِمَاتٍ فِصَاحٍ وَبِكَلْمٍ اهـ .

(244/287)

فَلِكَلَامِ الْإِنْسَانِ صِفَةٌ أَوْ مَلَكَةٌ فِي نَفْسِهِ يُنَاجِيهَا بِهَا ، وَيُصَوِّرُ فِيهَا مَا يُنَظِّمُهُ أَوْ يُقَدِّرُهُ وَيُزَوِّرُهُ ؛ لِيُخَاطِبَ بِهِ غَيْرَهُ ، وَصِفَةٌ أَوْ مَلَكَةٌ فِي لِسَانِهِ ، وَصِفَةٌ أَوْ صُورَةٌ فِيمَا يَرْسُمُهُ بِقَلَمِهِ عَلَى الْوَرَقِ ، وَصُورَةٌ أُخْرَى فِيمَا يُحَرِّكُ بِهِ آلَةَ التِّلِغْرَافِ السِّلْكِيِّ أَوْ غَيْرِ السِّلْكِيِّ مُخَاطِبًا لِبَعْضِ النَّاسِ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ ، وَصُورَةٌ أُخْرَى فِي الْهَوَاءِ تَحْدُثُ عِنْدَ النُّطْقِ بِهِ زَمَنًا قَصِيرًا ، وَقِيلَ إِنَّهُ أَطْوَلُ مِمَّا يُظَنُّ ، وَصُورَةٌ أُخْرَى فِيمَا يَنْقُشُهُ الْمَكْرَفُونُ فِي لَوْحِ آلَةِ الْفُونُغْرَافِ تَكُونُ مَحْفُوظَةً فِيهِ إِلَى أَنْ تُعِيدَهُ الْآلَةُ كَمَا أُلْقِيَ فِيهَا صَوْتًا مُؤَلَّفًا مِنَ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمَعَانِي .

وَكَلَامُ كُلِّ أَحَدٍ مَا يُنْشِئُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَيُؤَدِّيهِ إِلَى غَيْرِهِ بِطَرِيقَةٍ مِنَ الطُّرُقِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، وَيُنْقَلُ عَنْ قَلِيلٍ مِنَ الْبَشَرِ أَنَّهُمْ قَدْ يُؤَدُّونَ بَعْضَ كَلَامِهِمُ الَّذِي فِي أَنْفُسِهِمْ إِلَى بَعْضِ الْمُسْتَعِدِّينَ بِقُوَّةِ تَوْجِيهِ الْإِرَادَةِ ، وَأَنَّهُمْ قَدْ يَطَّلِعُونَ عَلَى بَعْضِ

مَا يَجُولُ فِي أَنْفُسِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكَلَامِ ، فَمَنْ لَمْ يَصْدُقْ هَذَا عَنْهُمْ فَلْيُعِدِ الِاعْتِبَارَ بِهِ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ ، وَمَهْمَا تَكُنِ الْوَسِيلَةُ الَّتِي وَصَلَ بِهَا عِلْمُ الْمُنْشِئِ لِلْكَلَامِ إِلَى غَيْرِهِ ، فَإِنَّ غَيْرَهُ يَصِيرُ مِثْلَهُ فِي تَصَوُّرِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَفِي تَصْوِيرِهِ لِغَيْرِهِ بِالْوَسَائِلِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا آنِفًا ، مِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ لَبِيدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – :

(245/287)

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهُ بَاطِلُ . . . وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ

تَأَلَّفَ نَظْمُ هَذَا الْبَيْتِ فِي نَفْسِ لَبِيدٍ بِمُقْتَضَى الصَّنْعَةِ وَالْغَرِيزَةِ الَّتِي بِهَا يُصَوِّرُ الْإِنْسَانُ مَا فِي عِلْمِهِ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ ، وَسَمِعَهُ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ فَنَقَلُوهُ عَنْهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ ثُمَّ بِأَقْلَامِهِمْ ، وَلَا يَزَالُ بَعْضُهُمْ يَرْوِيهِ عَنْ بَعْضٍ ، وَيُمْكِنُهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنْ يَنْقُلُوهُ بِالتِّلِيفُونِ وَالتِّلِغْرَافِ ، وَلَكِنَّهُ فِي أَيِّ صُورَةٍ ظَهَرَ وَبِأَيَّةِ وَسِيلَةٍ ، نَقْلٌ هُوَ مِنْ كَلَامِ لَبِيدٍ قَالَهُ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا ، وَلَيْسَ كَلَامُ أَحَدٍ مِمَّنْ يَنْشُدُهُ الْيَوْمَ بِلِسَانِهِ أَوْ يُرَقِّمُهُ بِقَلَمِهِ أَوْ يُؤَدِّيهِ إِلَى غَيْرِهِ بِالتِّلِغْرَافِ أَوْ غَيْرِهِ .

(246/287)

إذَا تَذَكَّرْتَ هَذَا كُلَّهُ فِي كَلَامِ الْإِنْسَانِ الْمَخْلُوقِ عَلَى ضَعْفِهِ وَنَقْصِهِ ، وَأَنَّ الْكَلَامَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللهُ - تَعَالَى - لِنَفْسِهِ - وَتَذَكَّرْتَ مَعَ هَذَا كَمَالَ الْخَالِقِ وَتَنَزُّهَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ - وَأَنَّهُ كَلَّفَكَ الْإِيمَانَ بِوُجُودِهِ وَبِاتِّصَافِهِ بِجَمِيعِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ تَعْطِيلٍ وَلَا تَشْبِيهٍ - فَأَيُّ عَثْرَةٍ يَعْثُرُ بِهَا عَقْلُكَ إذَا آمَنْتَ بِأَنَّ لِلَّهِ كَلَامًا هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ الثَّابِتَةِ لَهُ أَزَلًا وَأَبَدًا ؛ لِأَنَّهَا مِرْآةُ عِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ الْأَبَدِيِّ ، وَأَنَّهُ بَلَّغَ بَعْضَ رُسُلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَا شَاءَ مِنْ كَلَامِهِ ؛ لِيُوحُوهُ إلَى رُسُلِهِ مِنَ الْبَرِّ ؛ لِيُبَلِّغُوهُ لِأُمَمِهِمْ . كَمَا خَاطَبَ مُوسَى بِمَا شَاءَ مِنْهُ ، وَأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ وَاحِدٌ عَلَى اخْتِلَافِ تَبْلِيغِهِ وَحِفْظِهِ ، فَقِيَامُهُ بِذَاتِ اللهِ - تَعَالَى - غَيْرُ تَمَثُّلِهِ فِي نَفْسِ جِبْرِيلَ ، وَفِي نَفْسِ مُوسَى حِينَ سَمِعَهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَأَدَاءُ جِبْرِيلَ إيَّاهُ وَنُزُولُهُ بِهِ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَلَى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غَيْرُ أَدَاءِ اللهِ - تَعَالَى - إيَّاهُ إلَى جِبْرِيلَ ، وَقِيَامُهُ فِي نَفْسِ الْمَلَكِ غَيْرُ قِيَامِهِ فِي الْبَشَرِ ، كَمَا أَنَّ قِيَامَهُ فِي الْهَوَاءِ عِنْدَ التَّلَفُّظِ بِهِ غَيْرُ قِيَامِهِ فِي لَوْحِ الْفُونُغْرَافِ ، وَكِلَاهُمَا غَيْرُ قِيَامِهِ فِي الصُّحُفِ ، وَكَوْنُهُ عَلَى اخْتِلَافِ صُوَرِهِ ، وَطُرُقِ أَدَائِهِ وَاحِدًا فِي

(247/287)

كَوْنِهِ كَلَامُ اللهِ الْقَدِيمِ الْأَزَلِيِّ ، كَمَا قُلْنَا فِي بَيْتِ لَبِيَدٍ مِنْ كَوْنِ إِنْشَادِنَا لَهُ ، وَكِتَابَتِنَا إِيَّاهُ الْيَوْمَ لَا يُنَافِي كَوْنَهُ كَلَامَ لَبِيَدٍ الْقَدِيمَ

النِّسْبِيَّ غَيْرَ الْأَزَلِيِّ – وَكَلَامُ اللهِ الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ حَقِيقَةٌ أُولَى وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فَلَا حَاجَةَ تَدْعُو الْعَقْلَ إِلَى وَصْفِهِ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ أَوْ حَادِثٌ ؛ لِأَنَّ الْمَخْلُوقِينَ الْمُحْدَثِينَ يَتَنَاقَلُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَأَقْلَامِهِمْ ، وَسَائِرِ آلَاتِهِمُ الْمُحْدَثَةِ ، وَلَا إِلَى التَّقَصِّي مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ ذُو حُرُوفٍ مُرَتَّبَةٍ ، وَلَا بِأَنَّ تَلَقِّيَهُ يُسَمَّى سَمَاعًا ، كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – : حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ (9 : 6) .

إِذَا جَعَلْتَ هَذَا الْبَيَانَ وَسِيلَةً لِفَهْمِ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ إِثْبَاتِ الْكَلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَكَوْنَ مَا أَوْحَاهُ إِلَى رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى مَعَ اجْتِنَابِ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ جَمِيعًا وِفَاقًا لِلسَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَمَعَ التَّقْرِيبِ بِالْمِثَالِ الْمُنَاسِبِ لِحَالِ هَذَا الْعَصْرِ فِي عُلُومِهِ وَفُنُونِهِ فَلَكَ بَعْدَ هَذَا أَنْ تَجْعَلَهُ مِثَالًا يُقَرِّبُ مِنْ عَقْلِكَ مَعْنَى تَجَلِّي الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فِي الصُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْحُجُبِ عَلَى تَنَزُّهِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ تِلْكَ الصُّوَرِ وَالْحُجُبِ .

(248/287)

قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ لِلْكَلَامِ حَقِيقَةً ، وَلَكَ – مَعَ أَمْنِ اللَّبْسِ – أَنْ تَقُولَ صُورَةً ، هِيَ مَظْهَرُ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ ، وَمَبْدَأُ إِظْهَارِ مَا شَاءَ الْعَالِمُ الْمُتَكَلِّمُ أَنْ يَظْهَرَهُ مِنْ عِلْمِهِ لِغَيْرِهِ ، وَأَنَّ لَهُ صُوَرًا

أُخْرَى فِي أَنْفُسِ مَنْ أُلْقِيَ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ مِلْكِيَّةٍ وَبَشَرِيَّةٍ وَصُوَرًا أُخْرَى فِي الْهَوَاءِ ، وَفِي الْخَطِّ عَلَى الْكَاغِدِ ، وَفِي النَّقْشِ عَلَى أَلْوَاحِ الْفُونُغْرَافِ ، وَهَذِهِ الصُّوَرُ عَلَى مَا بَيْنَهَا مِنَ التَّبَايُنِ التَّامِّ مَظَاهِرُ لِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ مَا أَرَادَ الْعَالِمُ الْمُتَكَلِّمُ إِظْهَارَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِكَلَامِهِ كَبَيْتِ لَبِيدٍ الشَّاعِرِ ، وَكَقَوْلِهِ – تَعَالَى – : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (112 : 1 – 4) .

فَمَنْ تَلَقَّى هَذِهِ الصُّورَةَ مِنْ لِسَانِ الْقَارِئِ ، أَوْ مِنَ الصُّورَةِ الَّتِي كُتِبَتْ بِهَا السُّورَةُ بِحُرُوفٍ مِنَ الْخَطِّ الْكُوفِيِّ أَوِ النَّسْخِيِّ أَوِ الْفَارِسِيِّ أَوْ غَيْرِهَا ، عُلِمَ بِهَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَيْنُ مَا عَلِمَهُ جِبْرِيلُ وَمُوسَى وَمُحَمَّدٌ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الرُّسُلِ فِي التَّلَقِّي عَنِ اللَّهِ – تَعَالَى – بِلَا وَاسِطَةٍ ، أَوِ التَّلَقِّي عَنْ جِبْرِيلَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَهُوَ عَيْنُ كَلَامِ اللَّهِ – تَعَالَى – الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَنْ هُوَ الْمُظْهِرُ لِمَعَانِي هَذِهِ السُّوَرِ مِنْ عِلْمِهِ ، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهُ لَا عَمَلَ

وَلَا كَسْبَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُبَلِّغِينَ لَهَا فِي تَأْلِيفِ عِبَارَتِهَا لَا جِبْرِيلَ وَلَا مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ، وَلَا الصَّحَابَةِ الَّذِينَ بَلَّغُوهَا لِلتَّابِعِينَ قَوْلًا وَكِتَابَةً ، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا تَأْوِيلَ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ وَلَا تَعْطِيلَهُ وَلَا حُدُوثَهُ ، وَلَا تَشْبِيهَهُ بِكَلَامِ خَلْقِهِ ، كَمَا أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى لَا يُشْبِهُ عِلْمَ خَلْقِهِ ، وَلَا يَقْتَضِي أَيْضًا أَنْ نَكُونَ قَدْ أَدْرَكْنَا كُنْهَ هَذِهِ الصِّفَةِ بِفَهْمِنَا لِمَا بَلَّغَنَا تَعَالَى إِيَّاهُ مِنْ عِلْمِهِ بِهِ ، كَمَا أَنَّ إِطْلَاعَهُ إِيَّانَا عَلَى مَا عَلِمَهُ فِي الْأَزَلِ وَفِيمَا لَا يَزَالُ مِنْ كَوْنِهِ أَحَدًا صَمَدًا لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوا أَحَدٌ - لَا يَقْتَضِي إِدْرَاكَ كُنْهِ عِلْمِهِ بِذَلِكَ ، بَلْ نَحْنُ لَمْ نُدْرِكْ كُنْهَ كَلَامِنَا فِي أَنْفُسِنَا ، وَلَا فِي الْهَوَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهِ مِمَّا ذُكِرَ آنِفًا .

وَكَذَلِكَ نَقُولُ : إِنَّ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ تَجَلِّي الرَّبِّ - تَعَالَى - فِي الصُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَتَعَرُّفِهِ لِمَنْ شَاءَ بِبَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ لَا يَقْتَضِي حُدُوثَهُ وَلَا مُشَابَهَتَهُ لِلصُّوَرِ وَلَا لِحِجَابِ النُّورِ ، وَلَا لِغَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ وَلَا إِدْرَاكِ كُنْهِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَمَعْرِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ بِبَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ كَمَعْرِفَةِ بَعْضِهِمْ لِكَلَامِهِ بِتَبْلِيغِ اللِّسَانِ دُونَ الْكِتَابَةِ أَوْ بِالْكِتَابَةِ دُونَ اللِّسَانِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ كَمَالٌ لَهُ ، وَإِنَّمَا النَّقْصُ مَا تَخَيَّلَهُ نُفَاةُ الرُّؤْيَةِ وَالصِّفَاتِ مِنْ جَعْلِ الْخَالِقِ تَعَالَى مَعْنًى سَلْبِيًّا .

(251/287)

(تَتِمَّةُ السِّيَاقِ فِي الرُّؤْيَةِ وَالْكَلَامِ)

أَخْبَرَنَا اللَّهُ - تَعَالَى - فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بِأَنَّهُ مَنَعَ مُوسَى رُؤْيَتَهُ - يَعْنِي فِي الدُّنْيَا - وَبَشَّرَهُ بِأَنَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَنَا فِيهَا بِمَا آتَاهُ يَوْمَئِذٍ بِالْإِجْمَالِ فَقَالَ : وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ أَيْ : أَنَّنَا أَعْطَيْنَاهُ أَلْوَاحًا كَتَبْنَا لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْهِدَايَةِ مَوْعِظَةً مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُؤَثِّرَ فِي الْقُلُوبِ تَرْغِيبًا ، وَتَرْهِيبًا وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أُصُولِ التَّشْرِيعِ ، وَهِيَ أُصُولُ الْعَقَائِدِ وَالْآدَابِ ، وَأَحْكَامُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَتَفْصِيلُهَا ، ذَكَرَهَا مَعْدُودَةً مَفْصُولًا بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَإِسْنَادُ الْكِتَابَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى إِمَّا عَلَى

مَعْنَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى وَصُنْعِهِ لَا كَسْبَ لِأَحَدٍ فِيهِ ، وَإِمَّا عَلَى مَعْنَى أَنَّهَا كُتِبَتْ بِأَمْرِهِ وَوَحْيِهِ ، سَوَاءٌ كَانَ الْكَاتِبُ لَهَا مُوسَى أَوِ الْمَلَكُ (- عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -) قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْأَلْوَاحَ كَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى التَّوْرَاةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ كَانَتْ قَبْلَ التَّوْرَاةِ ،

وَالرَّاجِحُ أَنَّهَا كَانَتْ أَوَّلَ مَا أُوتِيَهُ مِنْ وَحْيِ التَّشْرِيعِ فَكَانَتْ أَصْلَ التَّوْرَاةِ الْإِجْمَالِيَّ ، وَكَانَتْ سَائِرُ الْأَحْكَامِ التَّفْصِيلِيَّةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ وَالْعُقُوبَاتِ تَنْزِلُ عَلَيْهِ ،

وَيُخَاطِبُهُ الرَّبُّ تَعَالَى بِهَا فِي أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا كَالْقُرْآنِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي عَدَدِ الْأَلْوَاحِ فَقِيلَ كَانَتْ عَشْرَةً ، وَقِيلَ : سَبْعَةً ، وَقِيلَ : اثْنَيْنِ ، قَالَ الزَّجَّاجُ : يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِي اللُّغَةِ لِلَّوْحَيْنِ أَلْوَاحٌ ، وَهَذَا كُلُّ مَا يَصِحُّ أَنْ يُذْكَرَ مِنْ خِلَافِهِمْ فِيهَا ، وَأَمَّا تِلْكَ الرِّوَايَاتُ الْكَثِيرَةُ فِي جَوْهَرِهَا مِقْدَارُهَا وَطُولُهَا وَعَرْضُهَا وَكِتَابَتُهَا وَمَا كُتِبَ فِيهَا ؛ كُلُّهَا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الْبَاطِلَةِ ، الَّتِي بَثَّهَا فِي الْمُسْلِمِينَ أَمْثَالُ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ فَاغْتَرَّ بِهَا بَعْضُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ إِنْ صَحَّتِ الرِّوَايَاتُ عَنْهُمْ ، وَقَدْ لَخَّصَ السُّيُوطِيُّ مِنْهَا فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ ثَلَاثَ وَرَقَاتٍ - أَيْ : سِتَّ صَفَحَاتٍ - وَاسِعَاتٍ مِنَ الْقِطَعِ الْكَبِيرِ ، وَلَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى دُرَّةً ، وَإِنْ كَانَ مِنْهَا أَنَّ الْأَلْوَاحَ مِنَ الْيَاقُوتِ أَوْ مِنَ الزُّمُرُّدِ أَوْ مِنَ الزَّبَرْجَدِ ، كَمَا أَنَّ مِنْهَا أَنَّهَا مِنَ الْحَجَرِ وَمِنَ الْخَشَبِ ، وَقَدْ تَبِعَ فِي هَذَا عُمْدَتَهُ فِي التَّفْسِيرِ ابْنَ جَرِيرٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ - تَعَالَى - ، وَلَكِنْ ذَكَرَ بَعْضَهَا الْأَلُوسِيُّ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ تَبَعًا لِغَيْرِهِ كَرِوَايَةِ الطَّبَرَانِيِّ وَالْبَيْهَقِيِّ فِي

(253/287)

الدَّلَائِلِ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ الثَّقَفِيِّ ، قَالَ : اصْطَحَبَ قَيْسُ بْنُ خَرَشَةَ وَكَعْبُ الْأَحْبَارِ حَتَّى إِذَا بَلَغَا صِفِّينَ وَقَفَ كَعْبٌ ثُمَّ نَظَرَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : لَيُهْرَاقَنَّ بِهَذِهِ الْبُقْعَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْءٌ لَا يُهْرَاقُ بِبُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلُهُ ، فَقَالَ قَيْسٌ مَا يُدْرِيكَ ؟ فَإِنَّ هَذَا مِنَ

الْغَيْبِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِهِ ، فَقَالَ كَعْبٌ : مَا مِنَ الْأَرْضِ شِبْرٌ إِلَّا مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُوسَى ، مَا يَكُونُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَاسْتَدَلَّ بِهِ الْأَلُوسِيُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ – تَعَالَى – : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى أَوْسَعِ مَا يَحْمِلُهُ اللَّفْظُ مِنَ الْعُمُومِ ، وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مَوْضُوعٌ عَلَى كَعْبٍ ، وَإِنْ كُنْتُ أُخَالِفُ الْجُمْهُورَ فِي مَسْأَلَةِ تَعْدِيلِهِ ، وَتَأَوَّلَ الْأَلُوسِيُّ لَهُ هَذَا الْقَوْلَ الظَّاهِرَ بُطْلَانُهُ بِالْبَدَاهِيَّةِ بِقَوْلِهِ : وَلَعَلَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الرَّمْزِ كَمَا نَدَّعِيهِ فِي الْقُرْآنِ

اهـ .

(254/287)

وَمَا ذَكَرْتُ هَذَا إِلَّا لِلتَّعْجِيبِ مِنْ فِتْنَةِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الْبَاطِلَةِ إِلَى أَيِّ حَدٍّ وَأَيِّ زَمَنٍ وَصَلَ تَأْثِيرُهَا السَّيِّءِ ، حَتَّى إِنَّ هَذَا النَّقَّادَةَ قَدِ اغْتَرَّ بِمِثْلِ هَذَا مِنْهَا ، وَتَأْوِيلُهُ بِمَا هُوَ بَاطِلٌ مِثْلُهُ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَصِحَّ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَعْتَدُّ بِعِلْمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ – تَعَالَى – أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ أَوْ فِي الْأَرْضِ شِبْرٌ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ فِيهِ (أَيِ : الْقُرْآنِ) مَا يَقَعُ فِيهِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا قَالَ مِثْلَ هَذَا بَعْضُ الْمُجَازِفِينَ

وَالْخَيَالِيِّينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْكَشْفِ الَّذِي يَدَّعُونَهُ ، رَاجِعْ تَفْسِيرَ مَا فَرَّطْنَا فِي

الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ (9 : 38) فِي 329 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ .

هَذَا ، وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي التَّوْرَاةِ الْحَاضِرَةِ فِي شَأْنِ الْأَلْوَاحِ فَمِنْهُ مَا جَاءَ فِي سِفْرِ الْخُرُوجِ مِنْ

(255/287)

(23 : 12 وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى اصْعَدْ إِلَى الْجَبَلِ ، وَكُنْ هُنَاكَ فَأُعْطِيَكَ لَوْحَيِ الْحِجَارَةِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْوَصِيَّةِ الَّتِي كَتَبْتُهَا لِتُعَلِّمَهُمُ الْكَلِمَاتِ الْعَشْرَ) وَجَاءَ فِي وَصْفِ اللَّوْحَيْنِ مِنْهُ (32 : 15 ثُمَّ انْثَنَى مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ : لَوْحَانِ مَكْتُوبَانِ عَلَى جَانِبَيْهِمَا ، مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ كَانَا مَكْتُوبَيْنِ وَاللَّوْحَانِ هُمَا صَنْعَةُ اللهِ ، وَالْكِتَابَةُ هِيَ كِتَابَةُ اللهِ مَنْقُوشَةٌ عَلَى اللَّوْحَيْنِ) وَفِيهِ أَنَّ مُوسَى رَمَى بِاللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدَيْهِ عِنْدَمَا رَأَى الْعِجْلَ الَّذِي عَبَدَهُ قَوْمُهُ فِي أَيَّامِ مُنَاجَاتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَفِي أَوَّلِ الْفَصْلِ (34 : 1 ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى أَنْحِتُ لَكَ لَوْحَيْ حَجَرٍ كَالْأَوَّلَيْنِ فَاكْتُبُ عَلَيْهَا الْكَلَامَ الَّذِي كَانَ عَلَى الْحَجَرَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ اللَّذَيْنِ كَسَرْتَهُمَا – فَنَحَتَ لَوْحَيْ حَجَرٍ كَالْأَوَّلَيْنِ ، وَبَكَّرَ مُوسَى فِي الْغَدَاةِ ، وَصَعِدَ إِلَى جَبَلِ سَيْنَاءَ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ ، وَأَخَذَ فِي يَدِهِ لَوْحَيِ الْحَجَرِ) وَيَلِيهِ أَنَّ الرَّبَّ هَبَطَ فِي الْغَمَامِ ، وَوَقَفَ عِنْدَهُ هُنَاكَ وَمَرَّ قُدَّامَهُ وَوَعَدَهُ وَوَصَّاهُ وَأَمَرَهُ بِأَوَامِرَ وَنَهَاهُ عَنْ أُمُورٍ وَيَلِي ذَلِكَ (وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى أَكْتُبْ لَكَ هَذَا الْكَلَامَ لِأَنِّي بِحَسَبِهِ عَقَدْتُ عَهْدًا مَعَكَ وَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ،

وَأَقَامَ هُنَاكَ عِنْدَ الرَّبِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً لَمْ يَأْكُلْ خُبْزًا ، وَلَمْ يَشْرَبْ مَاءً فَكَتَبَ عَلَى اللَّوْحَيْنِ كَلَامَ الْعَهْدِ الْكَلِمَاتِ الْعَشْرَ) - وَهَا هُنَا

(256/287)

يُحْتَمَلُ أَنْ يَرْجِعَ ضَمِيرُ - " فَكَتَبَ " إلَى الرَّبِّ - تَعَالَى - ، وَأَنْ يَرْجِعَ إلَى مُوسَى ، وَلَوْ لَمْ يَرِدْ مَا تَقَدَّمَ عَنْ (32 : 16) لَكَانَ هَذَا مُتَعَيِّنًا بِقَرِينَةِ قَوْلِ الرَّبِّ لَهُ قَبْلَهُ : أَكْتُبُ لَكَ هَذَا الْكَلَامَ ، وَلَهُ نَظَائِرُ ، وَأَمَّا الْوَصَايَا الْعَشْرُ فَقَدْ نَقَلْنَا نَصَّهَا فِي تَفْسِيرِ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ (6 : 154) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ عَقِبَ وَصَايَا الْقُرْآنِ الَّتِي هِيَ أَجْمَعُ وَأَكْمَلُ مِنْهَا .

وَمِنْ هَذَا الَّذِي نَقَلْنَاهُ هُنَا يُعْلَمُ مَا فِي تِلْكَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي أَوْرَدَهَا السُّيُوطِيُّ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِلتَّوْرَاةِ ، إذْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَا كَانَ مِنَ التَّحْرِيفِ اللَّفْظِيِّ فِي التَّوْرَاةِ مِنْ نَقْصٍ وَزِيَادَةٍ وَغَلَطٍ قَدْ كَانَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَهُ إلَّا التَّحْرِيفَ الْمَعْنَوِيَّ - فَمَا فِي تِلْكَ الرِّوَايَاتِ مِنْ تَعْيِينِ جَوْهَرِ الْأَلْوَاحِ وَمِسَاحَتِهَا وَكِتَابَتِهَا ، وَمَا كُتِبَ فِيهَا مِنْ وَصْفِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَغَيْرِهِ مِمَّا يُخَالِفُ هَذِهِ التَّوْرَاةَ

(257/287)

فَهُوَ بَاطِلٌ ، أَرَادَ بِهِ وَاضِعُوهُ أَنْ يَذْكُرَ الْمُسْلِمُونَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِهِمْ مَا يَصُدُّ الْيَهُودَ وَغَيْرَهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، بِأَنَّ دَعْوَتَهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ ، وَلَمْ يَدْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْتُبُونَ كُلَّ مَا يَسْمَعُونَ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْكَيْدِ وَالْمَكْرِ الْيَهُودِيِّ ، وَنَحْمَدُ اللَّهَ أَنَّهُ لَمْ يَرُجْ مِنْهُ عَلَى جَهَابِذَةِ نَقْدِ الْحَدِيثِ إِلَّا الْقَلِيلَ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ فَهُوَ مَقُولُ قَوْلِهِ مُقَدَّرٌ ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ لِمُوسَى ، وَالْخِطَابُ قَبْلَهُ لِلنَّبِيِّ الْخَاتَمِ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَالْمَعْنَى : كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مَا ذُكِرَ وَقُلْنَا لَهُ : خُذْهَا بِقُوَّةٍ - أَوْ وَقُلْنَا لَهُ : هَذِهِ رِسَالَتُنَا أَوْ وَصَايَانَا وَأُصُولُ شَرِيعَتِنَا وَكُلِّيَّاتُهَا فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ؛ أَيْ : حَالُ

كَوْنِكَ مُلْتَبِسًا بِجِدٍّ وَعَزِيمَةٍ وَحَزْمٍ ، أَوْ أَخْذًا بِقُوَّةٍ وَعَزْمٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا تَكْوِينُ شَعْبٍ جَدِيدٍ بِتَرْبِيَةٍ جَدِيدَةٍ شَدِيدَةٍ مُخَالِفَةٍ كُلَّ الْمُخَالَفَةِ لِمَا نَشَأَ عَلَيْهِ مِنَ الذُّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَالْإِنْسِ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ وَمَفَاسِدِهَا ، فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْمُتَوَلِّي تَرْبِيَةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَالْمُرْشِدُ لَهُمْ صَاحِبَ عَزِيمَةٍ قَوِيَّةٍ وَبَأْسٍ شَدِيدٍ وَعَزْمٍ ثَابِتٍ ، فَإِنَّهُ يَعْجِزُ عَنْ سِيَاسَتِهِمْ وَتَرْبِيَتِهِمْ ، وَيَفْشَلُ فِي تَنْفِيذِ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ .

وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا قِيلَ إِنَّ (أَحْسَنَ) هُنَا بِمَعْنَى ذِي الْحُسْنِ التَّامِّ الْكَامِلِ ، وَلَيْسَ فِيهِ مَعْنَى تَفْضِيلِ شَيْءٍ عَلَى آخَرَ ، وَهُوَ مَا يُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِقَوْلِهِمْ : اسْمُ التَّفْضِيلِ عَلَى غَيْرِ بَابِهِ - أَيْ : وَأْمُرْ قَوْمَكَ بِالِاسْتِمْسَاكِ وَالِاعْتِصَامِ بِهَذِهِ الْمَوَاعِظِ وَالْأَحْكَامِ الْمُفَصَّلَةِ فِي الْأَلْوَاحِ الَّتِي هِيَ كَامِلَةُ الْحَسَنِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ عَلَى الْأَصْلِ فِيهِ مِنْ تَفْضِيلِ بَعْضِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ عَلَى بَعْضٍ ، وَمِنْهُ الْحَقِيقِيُّ وَالِاعْتِبَارِيُّ وَالْإِضَافِيُّ ، فَأُصُولُ الْعَقَائِدِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ - تَعَالَى - وَتَوْحِيدُهُ وَتَنْزِيهُهُ أَفْضَلُ وَأَشْرَفُ مِنَ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَلَكِنْ لَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ هُنَا ، قِيلَ : إِلَّا إِذَا أُرِيدَ بِالْأَخْذِ الشُّرُوعُ وَالِابْتِدَاءُ - وَالْأَوَامِرُ أَفْضَلُ مِنَ النَّوَاهِي ، وَيَصِحُّ أَنْ تُرَادَ فِي مِثْلِ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَالنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الصُّوَرِ وَالتَّمَاثِيلِ ، وَكِلَاهُمَا مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي كُتِبَتْ فِي الْأَلْوَاحِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْعِبَادَةِ أَمْرٌ وُجُودِيٌّ يَتَحَلَّى بِهِ الْعَقْلُ ، وَتَتَزَكَّى بِهِ النَّفْسُ ، وَتَرْكُ اتِّخَاذِ الصُّوَرِ وَالتَّمَاثِيلِ أَمْرٌ سَلْبِيٌّ مَحْضٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَثَرًا لِلْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَسَدًّا لِلذَّرِيعَةِ فَلَا قِيمَةَ لَهُ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ إِلَّا لِأَنَّهُ مِنْ ذَرَائِعِ الشِّرْكِ ، وَإِلَّا فَقَدْ يَتْرُكُهُ الْمَرْءُ لِعَدَمِ الدَّاعِيَةِ ، وَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا - وَالْفَرْضُ أَفْضَلُ مِنَ النَّفْلِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي

الْوَصَايَا الْعَشْرِ نَوَافِلُ ، وَيُقَالُ مِثْلُهُ فِي قَوْلِهِمْ :

وَالْعَزِيمَةُ أَفْضَلُ مِنَ الرُّخْصَةِ ، وَمِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ (39 : 55) وَالْمَجَالُ فِيهِ أَوْسَعُ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ أَحْسَنُ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - إِلَى خَلْقِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ بِإِكْمَالِهِ تَعَالَى الدِّينَ بِهِ ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَزَايَاهُ ، وَالْخِطَابُ فِيهِ لِأُمَّةِ الدَّعْوَةِ ؛ أَيْ : لِلنَّاسِ كَافَّةً ، لِأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (39 : 54) ثُمَّ إِنَّ فِيمَا أَنْزَلَهُ فِيهِ الْعَزِيمَةُ وَالرُّخْصَةُ ، وَفِيهِ مِنَ النَّدْبِ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ مُقَابِلِهِ كَالصَّدَقَةِ بِالدَّيْنِ بَدَلَ إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ بِهِ وَهُوَ وَاجِبٌ ، وَكَالْعَفْوِ فِي مُقَابَلَةِ الْقِصَاصِ .

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ مِنْ حِكَايَةِ خِطَابِهِ لِقَوْمِ مُوسَى بِالتَّبَعِ لَهُ ، وَإِذَا وَجَّهَ الْأَمْرَ فِيمَا قَبْلَهُ إِلَيْهِ وَإِلَيْهِمْ ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي مَقُولِ الْقَوْلِ الَّذِي خُوطِبَ بِهِ نَبِيُّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ قِصَّتِهِمْ ، وَالْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافٌ لِبَيَانِ عَاقِبَةِ الَّذِينَ فَسَقُوا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَجَحَدُوا بِآيَاتِهِ فَلَمْ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنْ لَمْ تَأْخُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَتَتَّبِعُوا أَحْسَنَهُ كُنْتُمْ فَاسِقِينَ عَنْ أَمْرِ رَبِّكُمْ ، فَيَحِلُّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِالْفَاسِقِينَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ أَنْجَاكُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ وَنَصَرَكُمْ عَلَيْهِمْ .

وَسَيُرِيكُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ بَعْدَكُمْ مِنَ الْغَرَقِ ، أَوِ الْفَاسِقِينَ مِنْ سُكَّانِ الْبِلَادِ الْمُقَدَّسَةِ وَالْمُبَارَكَةِ الَّتِي وَعَدَكُمْ إِيَّاهَا ، وَسَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ بِطَاعَتِكُمْ لَهُ وَأَخْذِكُمْ مِيثَاقَهُ بِقُوَّةٍ .

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهَا : أَيْ سَتَرَوْنَ عَاقِبَةَ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي كَيْفَ يَصِيرُ إِلَى الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ وَالتَّبَابِ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَإِنَّمَا قَالَ : سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ لِمَنْ يُخَاطِبُهُ : سَأُرِيكَ غَدًا مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ حَالُ مَنْ خَالَفَنِي – عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، ثُمَّ نَقَلَ مَعْنَى ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ – أَيْ : مِنْ أَهْلِ الشَّامِ – وَأُعْطِيكُمْ إِيَّاهَا ، وَقِيلَ : مَنَازِلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ؛ لِأَنَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ انْفِصَالِ مُوسَى وَقَوْمِهِ عَنْ بِلَادِ مِصْرَ ، وَهُوَ خِطَابٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ دُخُولِهِمُ التِّيهَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ اهـ ، وَمِنْ مَبَاحِثِ رَسْمِ الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ أَنَّ كَلِمَةَ (سَأُرِيكُمْ) زِيدَ فِيهَا وَاوٌ قَبْلَ الرَّاءِ لِئَلَّا تُشْتَبَهُ بِـ " سَأَرَاكُمْ " إِذْ كَانُوا يَرْسُمُونَهَا بِالْيَاءِ غَيْرَ مَنْقُوطَةٍ ، فَالْمُرَادُ بِهَا ضَبْطُ الْكَلِمَةِ كَالضَّمَّةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَالْعِبْرَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَذَكَّرَهَا وَيَتَدَبَّرَهَا كُلُّ قَارِئٍ لِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ وُجُوهٍ :

(أَحَدُهَا) أَنَّ الْكِتَابَ الْإِلَهِيَّ يَجِبُ أَخْذُهُ بِقُوَّةٍ وَإِرَادَةٍ وَجِدٍّ وَعَزِيمَةٍ ؛ لِتَنْفِيذِ مَا هَدَى إِلَيْهِ مِنَ الْإِصْلَاحِ ، وَتَكْوِينِ الْأُمَّةِ تَكْوِينًا جَدِيدًا صَالِحًا ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي الرَّسُولِ

(262/287)

الْمُبَلِّغِ لَهُ ، وَالدَّاعِي إِلَيْهِ وَالْمُنَفِّذِ لَهُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ ، لِيَكُونَ لِقَوْمِهِ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ – تَعَالَى – فِي سَائِرِ الِانْقِلَابَاتِ وَالتَّجْدِيدَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهِدَايَةِ الدِّينِ ، وَالدِّينُ أَحْوَجُ إِلَى الْقُوَّةِ وَالْعَزِيمَةِ ؛ لِأَنَّهُ إِصْلَاحٌ لِلظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ جَمِيعًا ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ – تَعَالَى – بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَمَرَ بِهِ رَسُولَهُمْ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ أَخْذِ الْكِتَابِ أَوْ مِيثَاقِ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ ، أَمْرًا مَقْرُونًا بِتَهْدِيدِهِمْ وَتَخْوِيفِهِمْ مِنْ وُقُوعِ جَبَلِ الطُّورِ بِهِمْ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2 : 63 و93) وَسَيَأْتِي مِثْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَعْرَافِ) وَقَدْ أَخَذَ سَلَفُنَا الْقُرْآنَ بِقُوَّةٍ فَسَادُوا بِهِ جَمِيعَ الْأُمَمِ الَّتِي كَانَ لَهَا مِنَ الْقُوَى الْعَدَدِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ وَالنِّظَامِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ وَالصِّنَاعِيَّةِ مَا لَيْسَ لَهُمْ ، وَإِنَّمَا سَادُوا بِالْعَمَلِ بِهِدَايَتِهِ كَمَا أَرَادَ اللَّهُ – تَعَالَى – لَا بِالتَّغَنِّي بِقِرَاءَتِهِ فِي الْمَحَافِلِ ، وَلَا بِالتَّبَرُّكِ الْمَحْضِ بِالْمُصْحَفِ ، كَمَا يَفْعَلُ مُقَلِّدَةُ الْخَلَفِ الصَّالِحِ ، إِنَّ مَنْ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ بِقُوَّةٍ يَكُونُ الْقُرْآنُ حُجَّةً لَهُ فَيَسْعَدُ بِهِ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ لَا يَأْخُذُهُ بِقُوَّةٍ يَكُونُ حُجَّةً عَلَيْهِ فَيَشْقَى بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ ، وَهَجْرِ هِدَايَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ

(263/287)

عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (2 : 26و27) .

(ثَانِيهَا) أَنَّ سَبَبَ تَخْوِيفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ تَبْلِيغِهِمُ الْمِيثَاقَ الْإِلَهِيَّ بِوُقُوعِ الْجَبَلِ بِهِمْ ، وَأَمْرِهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ أَنْ يَأْخُذُوهُ بِقُوَّةٍ ، وَهِيَ أَنَّ أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ الَّتِي أُخِذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقُ بِأَخْذِهَا بِقُوَّةٍ شَاقَّةٍ حَرِجَةٍ ، وَحِكْمَةُ مَا فِيهَا مِنَ الشِّدَّةِ وَالْحَرَجِ أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ مُسْتَذَلِّينَ بِاسْتِعْبَادِ الْمِصْرِيِّينَ لَهُمْ مُنْذُ أَجْيَالٍ كَثِيرَةٍ ، وَكَانَ الْقَوْمُ أَوِ الْأَقْوَامُ الَّذِينَ وُعِدُوا بِأَنْ يَغْلِبُوهُمْ

عَلَى بِلَادِهِمْ جَبَّارِينَ أُولِي قُوَّةٍ وَأُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَكَانَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ – تَعَالَى – فِي الْبَشَرِ أَنْ تَتَرَبَّى أَفْرَادُهُمْ وَشُعُوبُهُمْ بِالشِّدَّةِ وَالِارْتِيَاضِ بِالصَّبْرِ ، وَالْجِهَادِ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ – تَعَالَى – مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – أَنْ يَسِيرَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي طَرِيقِ التِّيهِ وَهُوَ الْجَنُوبِيُّ مِنْ بَرِّيَّةِ سَيْنَاءَ دُونَ الطَّرِيقِ الشَّمَالِيِّ الْقَرِيبِ مِنْ مُدُنِ فِلَسْطِينَ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ طَاقَةً

بِقِتَالِ جَبَّارِي الْكَنْعَانِيِّينَ وَقْتَئِذٍ ، فَكَتَبَ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِمُ التِّيهَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَلَكَ فِي أَثْنَائِهَا الَّذِينَ اسْتَذَلَّهُمُ الْمِصْرِيُّونَ ، وَنَشَأَ مِنْ صِغَارِهِمْ وَمَوَالِيدِهِمْ جِيلٌ جَدِيدٌ تَرَبَّى فِي حَجْرِ الشَّرْعِ الْجَدِيدِ ، وَالتِّيهِ الشَّدِيدِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ

(264/287)

الْمَائِدَةِ (ص 274 - 279 ج6 تَفْسِيرِ ط الْهَيْئَةِ) .

(ثَالِثُهَا) أَنَّ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ قَدْ عَظُمَ مُلْكُهُمْ بِإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِمْ بِقُوَّةٍ ، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْغُرُورُ عَلَى الْعَمَلِ ، وَظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ لِنَسَبِهِمْ وَلَقَبِهِمْ وَهُوَ " شَعْبُ اللَّهِ " فَسَقُوا وَظَلَمُوا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمُ الْبَلَاءَ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْبَابِلِيِّينَ الْأَقْوِيَاءَ ، فَثَلُّوا عَرْشَهُمْ وَتَبَّرُوا مُلْكَهُمْ ، ثُمَّ ثَابُوا إِلَى رُشْدِهِمْ ، فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ ، وَأَعَادَ لَهُمْ بَعْضَ مُلْكِهِمْ وَعِزِّهِمْ ، ثُمَّ ظَلَمُوا وَأَفْسَدُوا فَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ النَّصَارَى فَمَزَّقُوهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، فَظَلُّوا عِدَّةَ قُرُونٍ مُتَّكِلِينَ عَلَى الْمَسِيحِ الْمَوْعُودِ لِيُعِيدَ لَهُمْ مُلْكَهُمْ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، ثُمَّ رَبَّتْهُمُ الشَّدَائِدُ ، وَنَوَّرَهُمُ الْعِلْمُ الْعَصْرِيُّ فَطَفِقُوا يَسْتَعِدُّونَ لِاسْتِعَادَةِ هَذَا الْمُلْكِ بِكُلِّ مَا فِي الْإِمْكَانِ مِنَ الْأَسْبَابِ ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الْمَالُ وَالنِّظَامُ وَالْكَيْدُ وَالدَّهَاءُ مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى التَّقَالِيدِ الدِّينِيَّةِ فِي ذَلِكَ ، حَتَّى انْتَهَى بِهِمُ السَّعْيُ إِلَى

اسْتِخْدَامِ الدَّوْلَةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ بِمَا فَصَّلْنَاهُ فِي بَيَانِ الْعِبْرَةِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (7 : 137) .

(265/287)

(رَابِعُهَا) أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا سُنَنَهُمْ وَسُنَنَ النَّصَارَى شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ فِي الضُّرِّ دُونَ النَّفْعِ كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ - قَدِ اغْتَرُّوا بِدِينِهِمْ كَمَا اغْتَرُّوا ، وَاتَّكَلُوا عَلَى لَقَبِ " الْإِسْلَامِ " وَلَقَبِ " أُمَّةِ خَاتَمِ الرُّسُلِ " - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا يَثُوبُوا إلَى رُشْدِهِمْ ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ سَلَبُوا مُلْكَهُمْ وَعِزَّهُمْ لَمْ يَسُوسُوهُمْ بِشِدَّةٍ مُرِيبَةٍ كَافِيَةٍ ، بَلِ اجْتَهَدُوا فِي إفْسَادِ عَقَائِدِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ ، وَإِيقَاعِ الشِّقَاقِ وَالتَّفْرِيقِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، بَلْ أَفْسَدُوا كَذَلِكَ مَنْ لَمْ يَسْتَوْلُوا عَلَى مُلْكِهِمْ مِنْهُمْ ، بِتَوَلِّيهِمِ التَّرْبِيَةَ وَالتَّعْلِيمَ لِكَثِيرِينَ مِنْهُمْ ، كَانُوا عَوْنًا لَهُمْ عَلَى مَا يُرِيدُونَ مِنْ ثَلِّ عُرُوشِهِمْ ، وَالسِّيَادَةِ عَلَيْهِمْ بِالتَّدْرِيجِ كَالْعُثْمَانِيِّينَ وَالْمِصْرِيِّينَ - كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى - وَلَا يَزَالُ هَؤُلَاءِ الْمُتَفَرْنِجُونَ الْمُخَرِّبُونَ يَجِدُّونَ فِي قَتْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُجَدِّدُونَ ، وَيُفْسِدُونَ عَلَيْهَا أَمْرَهَا ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُصْلِحُونَ أَلَا إنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (2 : 12) . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 9 صـ 104 . 168 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾

عطف على جملة ﴿ قال يا موسى ، إني اصطفيتك على الناس برسالتي ﴾ [الأعراف : 144] إلى آخرها ، لأن فيها : ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ [الأعراف : 144] والذي آتاه هو ألواح الشريعة ، أو هو المقصود من قوله : ﴿ ما آتيتك ﴾ .

والتعريف في الألواح يجوز أن يكون تعريف العهد ، إن كان ﴿ ما آتيتك ﴾ مراداً به الألواح التي أُعطيها موسى في المناجاة ، فساغ أن تعرّف تعريف العهد ، كأنه قيل : فخذ ألواحاً آتيتُكها ، ثم قيل : كتبنا له في الألواح ، وإذا كان ما آتيتك مراداً به الرسالة والكلام كان التعريف في الألواح تعريف الذهني ، أي : وكتبنا له في ألواح معينة من جنس الألواح .

والألواح جمع لَوْحَ بفتح اللام ، وهو قطعة مربعة من الخشب ، وكانوا يكتبون على الألواح ، أو لأنها ألواح معهودة للمسلمين الذين سيقت إليهم تفاصيل القصة (وإن كان سوق مجمل القصة لتهديد المشركين بأن يحل بهم ما حصل بالمكذبين بموسى) .

وتسمية الألواح التي أعطاها الله موسى ألواحاً مجاز بالصورة لأن الألواح التي أعطيها موسى كانت من حجارة ، كما في التوراة في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج ، فتسميتها الألواح ؛ لأنها على صورة الألواح ، والذي بالإصحاح الرابع والثلاثين أن اللوحين كتبت فيهما الوصايا العشر التي ابتدأت بها شريعة موسى ، وكانا لوحين ، كما في التوراة ، فإطلاق الجمع عليها هنا : إما من باب إطلاق صيغة الجمع على المثنى بناء على أن أقل الجمع اثنان ، وإما لأنهما كانا مكتوبين على كلا وجهيهما ، كما يقتضيه الإصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج ، فكانا بمنزلة أربعة ألواح .

(267/287)

وأسندت الكتابة إلى الله تعالى ؛ لأنها كانت مكتوبة نقشاً في الحجر من غير فعل إنسان بل بمحض قدرة الله تعالى ، كما يفهم من الإصحاح الثاني والثلاثين ، كما أسند الكلام إلى الله في قوله : ﴿ وبكلامي ﴾ [الأعراف : 144] .

و(مِنْ) التي في قوله : ﴿ من كل شيء ﴾ تبعيضية متعلقة بـ ﴿ كتبنا ﴾ ومفعول ﴿ كتبنا ﴾ محذوف دل عليه فعل كتبنا أي مكتُوباً ، ويجوز جعل (مِن) اسما بمعنى بعض فيكون منصوباً على المفعول به بكتبنا ، أي كتبنا له بعضاً من كل شيء ، وهذا كقوله تعالى

في سورة النمل (16) ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ وكل شيء عام عموماً عرفياً أي كل شيء تحتاج إليه الأمة في دينها على طريقة قوله تعالى : ﴿ مَا فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام : 138] علئى أحد تأويلين في أن المراد من الكتاب القرآن ، وعلى طريقة قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم ﴾ [المائدة : 3] أي أصوله .

(268/287)

والذي كتب الله لموسى في الألواح هو أصول كليات هامة للشريعة التي أوحى الله بها إلى موسى عليه السلام وهي ما في الإصحاح (20) من سفر الخروج ونصها : أنا الرب إلاهك الذي اخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك ءالهة أخرى أمامي ، لا تصنع تمثالاً منحوتاً ، ولا صورة مّا مما في السماء ، من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبُدْهن لأني أنا الرب إلاهك غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيَّ واصنع إحساناً إلى ألوف من مِحِبّيّ وحافظي وصاياي ، لا تنطق باسم الرب إلاهك باطلاً لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلاً ، اذكر يوم السبت لتقدسه ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلاهك لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك واختك وبهيمتك

ونزيلك الذي داخل أبوابك ؛ لأن في ستة أيام صنع الرب السما والأرض والبحر ، وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه ، أكرم أباك وأمك ؛ لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلاهك ، لا تقتلْ ، لا تزْنِ لا تسرق ، لا تشهد ، على قريبك شهادة زور ، لا تشته بيت قريبك ، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك انتهى انتهى . ا هـ ، واشتهرت عند بني إسرائيل بالوصايا العشر ، وبالكلمات العشر أي لجمل العشر .

وقد فصلت (في) من الإصحاح العشرين إلى نهاية الحادي والثلاثين من سفر الخروج ، ومن جملتها الوصايا العشر التي كلم الله بها موسى في جبل سينا ووقع في الإصحاح الرابع والثلاثين إن الألواح لم تكتب فيها إلاّ الكلمات العشر ، التي بالفقرات السبع عشرة منه ، وقوله هنا ﴿ موعظة وتفصيلاً ﴾ يقتضي الاعتماد على ما في الأصاحيح الثلاثة عشر .

(269/287)

والموعظة اسم مصدر الوعظ وهو نصح بإرشاد مشوب بتحذير من لحاق ضر في العاقبة أو بتحريض على جلب نفع ، مغفول عنه ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ في سورة البقرة (275) ، وقوله : ﴿ فأعرض عنهم

وعظْهم ﴾ في سورة النساء (63) ، وسيجيء قوله : ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ في آخر سورة النحل (125) .

والتفصيل التبيين للمجملات ولعل الموعظة هي الكلمات العشر والتفصيل ما ذكر بعدها من الأحكام في الإصحاحات التي ذكرناها .

وانتصب موعظة ﴾ على الحال من كل شيء ، أو على البدل من (من) إذا كانت اسماً إذا كان ابتداء التفصيل قد عَقِبَ كتابة الألواح بما كلمه الله به في المناجاة مما تضمنه سفر الخروج من الإصحاح الحادي والعشرين إلى الإصحاح الثاني والثلاثين ولما أوحي إليه إثر ذلك .

ولك أن تجعل ﴿ موعظة وتفصيلاً ﴾ حالين من الضمير المرفوع في قوله : ﴿ وكتبنا له ﴾ أي واعظينَ ومفصلين ، فموعظة حال مقارنة وتفصيلاً حال مقدّرة ، وأما جعلهما بدلين من قوله : ﴿ من كل شيء ﴾ فلا يستقيم بالنسبة لقوله : ﴿ وتفصيلاً ﴾ .

وقوله : ﴿ فخذها ﴾ يتعين أن الفاء دالة على شيء من معنى ما خاطب الله به موسى ، ولما لم يقع فيما وَليتْه ما يصلح لأن يتفرع عنه الأمر بأخذها بقوة .

تعين أن يكون قوله : ﴿ فخذها ﴾ بدلاً من قوله : ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ [الأعراف : 144] بدلَ اشتمال لأن الأخذ بقوة يشتمل عليه الأخذ المطلق ، وقد اقتضاه العود ، إلى ما خاطب الله به موسى إثر صعقته إتماماً لذلك الخطاب فأعيد مضمون ما سبق ليتصل ببقيته ، فيكون بمنزلة أن يقول فخذ ما آتيتك بقوة وكن من الشاكرين ، ويكون ما بينهما بمنزلة اعتراض ، ولولا إعادة ﴿ فخذها ﴾ لكان ما بين قوله : ﴿ من الشاكرين ﴾ [الأعراف : 144] وقوله : ﴿ وأمرْ قومك يأخذوا ﴾ اعتراضاً على بابه ولمّا اقتضى المقام هذا الفصلَ ، وإعادة الأمر بالأخذ ، اقتضى حسن ذلك أن يكون في الإعادة زيادة ، فأخر مقيّد الأخذ ، وهو كونه بقوة ، عن التعلق بالأمر الأول ، وعلق بالأمر الثاني الرابط للأمر الأول ، فليس قوله : ﴿ فخذها ﴾ بتأكيد ، وعلى هذا الوجه يكون نظم حكاية الخطاب لموسى على هذا الأسلوب من نظم القرآن .

ويجوز أن يكون في أصل الخطاب المحكي إعادة ما يدل على الأمر بالأخذ لقصد تأكيد هذا الأخذ ، فيكون توكيداً لفظياً ، ويكون تأخيرُ القيد تحسيناً للتوكيد اللفظي ليكون معه زيادة فائدة ، ويكون الاعتراض قد وقع بيْن التوكيد والموكّد وعلى هذا الوجه يكون نظم الخطاب على هذا الأسلوب من نظم الكلام الذي كلّم الله به موسى حكي في القرآن على أسلوبه الصادر به .

والضمير المؤنث في قوله : ﴿ فخذها ﴾ عائِد إلى الألواح باعتبار تقدم ذكرها في قوله :

﴿ وكتبنا له في الألواح ﴾ .

والمقول لموسى هو مرجع الضمير ، وفي هذا الضمير تفسير للإجمال في قوله : ﴿ ما آتيتك ﴾ [الأعراف : 144] وفي هذا ترجْيح كون ما صْدَق ﴿ ما آتيتك ﴾ هو الألواح ، وَمن جَعلوا ما صْدَق ﴿ ما آتيتك ﴾ الرسالةَ والكلامَ جعلوا الفاءَ عاطفة لقول محذوف على جملة ﴿ وكتبنا ﴾ والتقدير عندهم : وكتبنا فقلنا خُذها بقوة ، وما اخترناه أحسن وأوفق بالنظم .

والأخذُ : تناول الشيء ، وهو هنا مجاز في التلقي والحفظ .

(271/287)

والباء في قوله : ﴿ بقوة ﴾ للمصاحبة .

والقوة حقيقتها حالة في الجسم يتأتّى له بها أن يعمل ما يشُق عمله في المعتاد فتكون في الأعضاء الظاهرة مثل قُوة اليدين على الصنع الشديد ، والرجلْين على المشي الطويل ، والعينين على النظر للمرئيات الدقيقة .

وتكون في الأعضاء الباطنة مثل قوة الدماغ على التفكير الذي لا يستطيعه غالب الناس ، وعلى حفظ ما يعجز عن حفظه غالب الناس ومنه قولهم : قوة العقل .

وإطلاق اسم القُوى على العقل وفيما أنشد ثعْلب:

وصاحِبيْن حازماً قَواهما . . .

نَبّهْتُ والرقادُ قدْ علاهما

إلى أمونَيْن فعدّياهما . . .

وسمى الحكماء الحواس الخمس العقلية بالقوى الباطنية وهي الحافظة ، والواهمة ، والمفكرة ، والمخيّلة ، والحسُ المشترك .

فيقال : فرس قوي ، وجمل قوي على الحقيقة ، ويقال : عود قوي ، إذا كان عسير الإنكسار ، وأسّس قوي ، إذا كان لا ينخسف بما يُبنى عليه من جدار ثقيل ، إطلاقاً قريباً من الحقيقة ، وهاته الحالة مقول عليها بالتشكيك لأنها في بعض موصوفاتها أشدُ منها في بعض آخر ، ويظهر تفاوتها في تفاوت ما يستطيع موصوفها أن يعمله من عمل ممّا هي حالة فيه ، ولما كان من لوازم القوة أن قدره صاحبها على عمل ما يريده أشد مما هو المعتاد ، والأعمالُ عليه أيسر ، شاع إطلاقها على الوسائِل التي يستعين بها المرء على تذليل المصاعب مثل السلاح والعتاد ، والمال ، والجاه ، وهو إطلاق كنائي قال تعالى:

﴿ قالوا نحن أولوا قوة ﴾ في سورة النمل (33) .

ولكونها يلزمها الاقتدار على الفعل وُصف الله تعالى باسم القوي أي الكامل القدرة قال تعالى : ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ في سورة الأنفال (52) .

والقوة هنا في قوله : فخذها بقوة ﴾ تمثيل لحالة العزم على العمل بما في الألواح ، بمنتهى الجِد والحِرص دون تأخير ولا تساهل ولا انقطاع عند المشقة ولا ملل ، بحالة القوي الذي لا يستعصي عليه عمل يريده .

(272/287)

ومنه قوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ في سورة مريم (12) .

وهذا الأخذ هو حَظ الرسول وأصحابه المبلغين للشريعة والمنفذين لها ، فالله المشرّع ، والرسولُ المنفذ ، وأصحابه ووُلاةَ الأمور هم أعوان على التنفيذ ، وإنما اقتصر على أمر الرسول بهذا الأخذ لأنه من خصائصه من يقوم مقامه في حضرته وعند مغيبه ، وهُو وُهمْ فيما سوى ذلك كسائر الأمة .

فقوله : وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ تعريج على ما هو حظ عموم الأمة من الشريعة وهو التمسك بها ، فهذا الأخذ مجاز في التمسك والعمل ولذلك عدي بالباء الدالة على اللصوق ، يقال : أخذ بكذا إذا تمسك به وقبض عليه ، كقوله : ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ [الأعراف : 150] وقوله : ﴿ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ [طه : 94] .

ولم يُعد فعل الأخذ بالباء في قوله : ﴿ فخذها ﴾ لأنه مستعمل في معنى التلقي والحفظ

لأنه أهم من الأخذ بمعنى التمسك والعمل ، فإن الأول حظ ولي الأمر والثاني حظ جميع الأمة .

وجزم ﴿ يأخذوا ﴾ جواباً لقوله : ﴿ وأْمُرْ ﴾ تحقيقاً لحصول امتثالهم عندما يأمرهم .

(273/287)

و ﴿ بأحسنها ﴾ وصف مسلوب المفاضلة مقصود به المبالغة في الحُسن ، فإضافتها إلى ضمير الألواح على معنى اللام ، أي : بالأحسن الذي هو لها وهو جميع ما فيها ، لظهور أن ما فيها من الشرائع ليس بينه تفاضل بين أحسن ودون الأحسن ، بل كله مرتبة واحدة فيما عين له ، ولظهور أنهم لا يؤمنون بالأخذ ببعض الشريعة وترك بعضها ، ولأن الشريعة مفصّل فيها مراتب الأعمال ، فلو أن بعض الأعمال كان عندها أفضلَ من بعض ، كالمندوب بالنسبة إلى المباح ، وكالرخصة بالنسبة إلى العزيمة ، كان الترغيب في العمل بالأفضل مذكوراً في الشريعة ، فكان ذلك من جملة الأخذ بها ، فقرائن سلب صيغة التفضيل عن المفاضلة قائمة واضحة ، فلا وجه للتردد في تفسير الأحسن في هذه الآية والتعزب إلى التنظير بتراكيب مصنوعة أو نادرة خارجة عن كلام الفصحاء ، وهذه الآية والتعزب إلى التنظير بتراكيب مصنوعة أو نادرة خارجة عن كلام الفصحاء ، وهذه الآية نظير قوله

تعالى:

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ في سورة الزمر (55) .

والمعنى : وأمُر قومَك يأخذوا بما فيها لحسنها .

كلام موجّه إلى موسى عليه السلام فيجوز أن يكون منفصلاً عن الكلام الذي قبله فيكون استئنافاً ابتدائياً : هو وعد له بدخولهم الأرض الموعودة ، ويجوز أن تكون الجملة متصلة بما قبلها فتكون من تمام جملة ﴿ وأْمرْ قومك يأخذوا باحسنها ﴾ على أنها تحذير من التفريط في شيء مما كُتب له في الألواح .

والمعنى سأبين لكم عقاب الذين لا يأخذون بها .

والدار المكان الذي تسكنه العائِلة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ في سورة القصص (81) والمكان الذي يحله الجماعة من حي أو قبيلة كما قال تعالى : ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ [الأعراف : 91] وقد تقدم .

وتطلق الدار على م ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ [الرعد : 24] ، وقد يراد بها مآل المرء ومصيره ؛ لأنه بمنزلة الدار يأوي إليه في شأنه .

وقد تقدم قريب من هذا عند قوله تعالى : ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ﴾ في سورة الأنعام (135) .

وخوطب بضمير الجمع باعتبار من معه من أصحابه شيوخ بني إسرائيل ، أو باعتبار جماعة قومه فالخطاب شامل لموسى ومن معه .

والإراءة من رأى البصرية ؛ لأنها عديت إلى مفعولين فقط .

وأوثر فعل أريكم ﴾ دون نحو : سأدخلكم ، لأن الله منع معظم القوم الذين كانوا مع موسى من دخول الأرض المقدسة لمّا امتنعوا من قتال الكنعانيين كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ﴾ في سورة المائدة (26) .

وجاء ذلك في التوراة في سفر التثنية الإصحاح الأول : أن الله قال لموسى : ﴿ وأنت لا تدخل إلى هناك ﴾ وفي الإصحاح (34) وصعد موسى إلى الجبل (نبو) فأراه الله جميع الأرض وقال له : هذه الأرض التي أقسمتُ لإبراهيم قائِلاً لِنسلك أُعطيها قد أريتُك إياها بعينيك ولكنك لا تعبُرُ .

ويجوز أن يكون سأريكم خطاباً لقوم موسى ، فيكون فعل أريكم كناية عن الحلول في دار الفاسقين ، والحلول في ديار قوم لا يكون إلاّ الفتح والغلبة ، فالإراءة رمز إلى الوعد بفتح بلاد الفاسقين ، والمراد بالفاسقين المشركون ، فالكلام وعد لموسى وقومه بأن يفتحوا ديار الأمم الحالة بالأرض المقدسة التي وعدهم الله بها ، وهم المذكورون في التوراة في الإصحاح

الثالث والثلاثين من سفر الخروج خطاباً للشعب إحفظ ما أنا موصيك به ها أنا طارد من قدامك الأموريين ، والكنعانيين ، والحثيين ، والفرزيين ، والحويين ، واليبوسيين ، احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصيروا فَخّاً في وسطك بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم فإنك لا تسْجد لإله آخر .

(275/287)

ويؤيده مَا روي عن قتادة أن دار الفاسقين هي دار العمالقة والجبابرة ، وهي الشام ، فمن الخطأ تفسير من فسروا دار الفاسقين بأنها أرض مصر فإنهم قد كانوا بها وخرجوا منها ولم يرجعوا إليها ، ومن البعيد تفسير دار الفاسقين بجهتهم ، وفي الإصحاح 34 من سفر الخروج احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتُدعى وتأكل من ذبيحتهم وتأخذ من بناتهم لبنيك فتزني بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن ، ولا يخفى حسن مناسبة التعبير عن أولئك الأقوام بالفاسقين على هذا الوجه .

وقيل المراد بدار الفاسقين ديار الأمم الخالية مثل ديار ثمود وقوم لوط الذين أهلكهم الله لكفرهم ، أي ستمرون عليهم فترون ديارهم فتتعظون بسوء عاقبتهم لفسقهم ، وفيه بعد

لأن بني إسرائيل لم يمروا مع موسى على هذه البلاد .

والعدول عن تسمية الأمم بأسمائهم إلى التعبير عنهم بوصف الفاسقين ؛ لأنه أدل على تسبب الوصف في المصير الذي صاروا إليه ، ولأنه أجمع وأوجز ، واختيار وصف الفاسقين دون المشركين والظالمين الشائع في التعبير عن الشرك في القرآن ؛ للتنبيه على أن عاقبتهم السوأى تسببت على الشرك وفاسد الأفعال معاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(276/287)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

والكَتْب هو الرقم بقلم على ما يكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أي شيء ،

وعندما يقول ربنا : ﴿ وَكَتَبْنَا ﴾ فالله لم يزاول الكتابة بنفسه ، ولكن أرسله من الملائكة يكتبون بأمر من الحق وهو القائل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ . . . ﴾ [يس : 12]

وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هي بالأمر من الله ، ومرة ينسب الأمر إلى الأعلى ، أو

ينسب إلى المباشر أو إلى الواسطة : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً ﴾ .

ونحن نعرف الألواح ، وكنا نكتب عليها قديماً . وللكتابة على الألواح سبب ، فقديماً كانوا يكتبون على أي شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات ، مثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذي أتاح لنا معرفة تاريخهم . وكان العرب يكتبون على القحف المأخوذ من النخل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جدًّا لديهم ، وصار كل مكتوب يسمونه لوحاً . ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ [الأعراف : 145]

وقوله سبحانه : ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني : من كل شيء تتطلبه خلافة الإنسان في الأرض في الوقت المناسب له ؛ فالرسل تأتي بعقيدة ، لكن قد يأتي تشريع مناسب للفترة الزمنية التي جاء فيها الرسول ، ويضيف الله لرسول آخر يأتي من بعده ، إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج المكتمل إلى قيام الساعة .

(277/287)

لقد أوضح سبحانه أنه كتب في الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة ، والموعظة تعني ألاَّ تنشئ حكماً للسامع ، بل تعظه بتنفيذ ما عُلِم له من قبل ، ولذلك يقال : واعظ وهو الذي لا يُنشئ مسائل جديدة . بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

وقوله الحق سبحانه : ﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أي أن الكلام لم يأت مجملاً ، بل يأتي بالتفصيل ، ويأمر الحق موسى أن يقبل على الموعظة والتفصيلات التي في الألواح بقوة . ولماذا جاء الأمر هنا بأن يأخذها بقوة ؟ لأن الإنسان حين يؤمر أمراً قد يكون الأمر مخالفاً لرتابة ما ألف ، وحين يُنهي نهيا قد يكون هذا النهي مخالفاً لرتابة ما ألف . وبذلك ينزع هذا النهي أو ذلك الأمر الإنسان مما ألف ، ويأخذه ويخرجه عما اعتاد .

إن الإنسان في هذه الحالة يحتاج إلى قوة نفس تتغلب على الشهوة الرتيبة التي تخلقها العادة ، ولذلك فمن يريد أن يقبل على منهج الله فعليه أن يعرف أن المنهج سوف يخرجه مما ألف ، ولابد أن يقبل على المنهج بقوة وعزم ليواجه إلف النفس ، لأن إلف النفس قد يقول للإنسان : لا تفعل ، والمنهج يقول له : " افعل " وعلى المؤمن – إذن – أن يأخذ التكاليف بقوة ، لأن شهوات النفس تحقق متع الدنيا الزائلة ، والمنهج يعطي متعة طويلة الأجل .

إن الشهوة قد تحقق للإنسان لذة على مقدار قدرته واستعداده ، لكن التكليف يعطي للمؤمن نفعاً يتناسب مع طلاقة قدرة الله في النفع . إذن لابد أن تشحن نفسك بما يعطيه الله لك من المنهج ، وإياك ساعة أن ترى المنهج مطالباً لك ببعض من الجهد أن تقول : إن تلك أمور صعبة لأنك لست وحدك في المنهج ، بل معك غيرك . فإذا قال لك : لا تسرق ، إياك أن تقول : أيحدد المنهج حريتي ؟ لا ، لا تنظر إلى أن حظر وتحريم السرقة هو تحديد لحريتك بل هو صيانة لك من أن يعتدي عليك آخرون ؛ فقد قال المنهج للناس كلهم لا تسرقوا منه وأنت الكاسب في هذه الحالة . ويتابع الحق بيان ما في الألواح من قيم فيقول سبحانه : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ .

" أحسن " تفيد أن هناك مرتبة أقل منها وهي " حسن " ؛ فأمرهم الحق أن يتركوا الحسن ويأخذوا بالأحسن ، ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، إذا ما أصابته مصيبة من أحد يعتبره غريماً له ، فإذا ما كان للإنسان غريم تحركت نوازع نفسه إلى عقابه بمثل ما أصابه به .

وهذا ما يبيحه الله في القصاص ، ولكن الله يطلب من المؤمن إن قدر على نفسه أن يعفو ، إذن فالعقوبة بالقصاص أو بغيره ما دامت مشروعة من الله بمثل ما عوقبت فهذه مرتبة الحسن ، لكن إذا تركت نوازع نفسك وعفوت فهذه مرتبة " الأحسن " ، وجاءت هذه الترقيات لأن الحق سبحانه وتعالى خلق في الإنسان عواطف وغرائز ، وللعواطف والغرائز

مهمة في حركة الحياة ، ولكن العواطف لا يمكن أن يسيطر عليها الإِنسان ، ولذلك لا يقنن الله للعاطفة ولكنه سبحانه يقنن للغرائز . كيف ؟ .

(279/287)

نحن نعلم أن " حب الطعام " غريزة ، ولكن يجب ألا يصل حب الطعام إلى مرتبة النهم والشره . وأيضاً " بقاء النوع " أو المتعة الجنسية أوجدها الحق من أجل بقاء النوع . لكن لا يصح أن تتحول إلى درجة الشرود والوقوع في أعراض الناس وانتهاك حرماتهم ، وحب الاستطلاع غريزة ، والذين اكتشفوا الكشوف العلمية جاءت أعمالهم من حب استطلاعهم على أسرار الوجود . لكن لا يصح ولا ينبغي أن يصل حب الاستطلاع إلى التجسس الاستذلالي .

إن للإِنسان غرائز يعليها الشرع ؛ أمّا الحب فهو مسألة عاطفية . فالمشرع ، يقول لك : أحبب من شئت وأبغض من شئت ، ولكن لا تظلم من أبغضته ولا تظلم الناس لحساب من أحببت .

ولنا في رسول الله أسوة حسنة حين قال :

" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين " .

فقال عمر : كيف ؟ .

وكررها رسول الله فعلم عمر – رضي الله عنه – بفطرته أن ذلك أمر تكليفي .

وعرف أن الحب المراد هو الحب العقلي . فيقول المؤمن لنفسه : من أنا لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكل مؤمن يحب رسول الله حبًّا عقليًّا ، وقد يتسامى إلى أن يصير حبًّا عاطفيًّا . والإنسان منا – كما قلنا سابقاً – يحب الدواء بعقله لا بعاطفته لأنه مُرّ ، ولكنه يغضب إن اختفى الدواء من الأسواق ويفرح بمن يأتي له به .

إذن التكليف يتطلب الحب العقلي . ومن أخبار سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عندما مرّ أمامه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له عمر : ازو نفسك عني فأنا لا أحبك ، فرد الرجل بكل جرأة إيمانية : أو عدم حبك لي يمنعني حقًّا من حقوقي ؟ . قال عمر : لا ، قال الرجل : إنما يبكي على الحب النساء .

والحق يقول هنا : ﴿ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ فمثلاً ، حين يُقْتَلُ إنسان فلولي الدم أن يقتص ، لكن الحق يحنن قلب ولي الدم على القاتل فيقول : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف . . . ﴾ [البقرة : 178]

وحين يسمى الحق القاتل أخاً فهو يهدئ من صراع العواطف ويخفف من رغبة الانتقام .

ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43]

ونجده سبحانه يؤكد أن مثل هذا الأمر من " عزم الأمور " لأنه أمر يتطلب الصبر والمغفرة .

ومادام المؤمن قد استطاع أن يصبر وأن يغفر لغريم له ، أفلا يصبر إذا نزلت مصيبة عليه بدون غريم كمرض مفاجئ أو افتقاد حبيب ؟ . من إذن غريمك في المرض ؟ وممن تغضب ، وعلى من تهيج وإلى أين انفعالك ؟ ولذلك يقول لك الحق سبحانه : ﴿ واصبر على مَآ أَصَابَكَ ﴾ أي مما لا غريم لك فيه ، ويوضح لك سبحانه : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ . ونلحظ أن الحق هنا لم يؤكد " باللام " لكنه أكد الأخرى " باللام " ؛ لأن لك غريماً يهيجك ساعة أن تراه ، وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق لسيدنا موسى : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ .

يعني إذا وجدت لهم ذريعة ووسيلة وسبباً إلى شيء ويوجد ما هو أحسن فأمرهم أن يأخذوا بالأحسن ، لماذا ؟ ؛ لأن الإنسان إذا روَّض نفسه وذللها وعودها على الأحسن يكون قد فهم عن الله . ونفرض أن واحداً أساء إليك ويمكنك أن تسيء إليه ، فعليك أن تراعي في ردك للإساءة أن تكون بقدرها مصداقاً لقوله الحق سبحانه : ﴿ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . . ﴾ [النحل : 126]

ولكن من منا يتصف بالدقة في الموازين النفسية حتى يستطيع أن يعرف المثلية بالهوى ؟

فإن كان هناك من صفعك وتريد أن ترد الصفعة ، فمن أين لك أن تقدر حجم الألم الذي في صفعتك له ؟ . لا يمكن لك أن تحدد هذا القدر من الألم ؛ لأن هذه مسألة تتناسب مع القوة .

إذن لماذا تدخل نفسك في متاهات ، ولماذا لا تعفو وينتهي الأمر ؟

(281/287)

وحين يدلك الحق على أن العفو أحسن ، إنما يريد بذلك أن ينهي شراسة النفوس وضغن الصدور . فحين يقتل إنسانٌ إنسانا آخرَ ؛ سيكون هناك قصاص ودم ، ولكن إذا عفا وليّ الدم تكون حياة المعفو عنه هبة من وليّ الدم فيستحي القاتل – بعد ذلك – أن يجعل أية حركة من حركات هذه الحياة ضد وليّ الدم أو من ينسب إلى وليّ الدم ، وحينذاك تنتهي أي ضغينة أو رغبة في الثأر ، ولذلك نجد البلاد التي تحدث فيها الثأرات وتستشري فيها عادة الأخذ بالثأر – مثل صعيد مصر – نجد القاتل إذا ما أخذ كفنه على يده ودخل على وليّ الدم وقال له : أنا جئت إليك . . يعفو عنه وليّ الدم وتفهم العائلة كلها أن حياة المطلوب للثأر صارت هبة من وليّ الدم ، وتصفى الثأرات وتنتهي . ولذلك جاء الأمر من الحق بالأخذ بالأحسن : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ . ومثال آخر على الأخذ

بالأحسن ، قد نجد مديناً غير قادر أن يوفي الدين ، هنا نجد الحق يقول : ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ . . . ﴾ [البقرة : 280]

اقترض الرجل لأنه محتاج ؛ لأن القرض لا يكون إلا عن حاجة ، وهو عكس السؤال الذي يكون عن حاجة أو عن غير حاجة ، ولهذا نجد ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، ولأن المتصدق حين يتصدق بشيء من ماله يكون قد أخرج هذا المال من نفسه ولم يعد يتعلق به . لكن القرض تتعلق به النفس ، فكلما صبر المقرِض مع تعلق نفسه بماله أخذ أجراً ، وهكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

(282/287)

إذن فهناك حَسَن وهناك أحسن ، الحَسَن هو أن تأخذ حقك المشروع ، والأحسن أن تتنازل عنه ، ومن يتنازلون هم الفاهمون عن الله فهماً واسعاً ، ولنا المثل والأسوة في سيدنا الحسن البصري – رضي الله عنه – الذي أحسن لمن أساء إليه فقال كلمته : " ألا نحسن إلى من جعل الله في جانبنا " . ودائماً أضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – هب أن إنساناً عنده أولاد وأساء واحد منهم للآخر . نجد قلب الأب يكون مع من أُسي إليه ، وكذلك الأمر فينا نحن خلق الله . إن أساء واحد من خلق الله إلى واحد آخر من خلق الله

؛ نجد رب الخلق مع من أُسيء إليه ، وعلى من أسيء إليه أن يقول : هذا الإنسان الذي أساء إلي قد جعل ربنا في جانبي ولذلك فهو يستحق أن أحسن إليه . ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 18]

وفي آية ثانية يقول الحق : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾ [الزمر : 55]

ويذيل الحق الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ . ودار الفاسقين هي النار ، وكأن الحق هنا يقول : سأريكم النار ، ونعلم أن كل البشر سيمرون عليها ويرونها ، ولكن المؤمنين سيعبرونها ويردون عليها ويدخلون الجنة . ولقائل أن يقول : ولماذا تأتي سيرة النار هنا ؟ ونقول : جاءت سيرة النار ليرهب ويخيف النفس ويحملها على أن تبتعد عن كل ما أمر يقرب إلى النار . والقول هنا أيضاً لبني إسرائيل الذين نصرهم الحق على قوم فرعون وأخذوا منهم الكنوز والمقام الكريم . وكأن الحق يقول لهم : إن كنتم تحبون أن يكون مآلكم مثل مآل قوم فرعون فافعلوا مثلهم ، وإن كنتم لا تريدون هذا المآل فالتزموا منهج الحق .

إذن فقوله الحق : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ معناه حملهم على ما في الألواح من عظة ، وعلى أن يأخذوه بقوة ، وعلى أن يتبعة أحسن ما أنزل على الله . أو ﴿ دَارَ الفاسقين ﴾ هي المدائن التي دمرّت وخربت بتمرد وكفر وعصيان أهلها وفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل الله بكم مثل نكاله بهم ، وأنتم تمرون عليها في الغدو والرواح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(284/287)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى " الْقَوْلُ فِي الْحَسَنِ وَالْأَحْسَنِ : قَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْحَسَنَ مَا وَافَقَ الشَّرْعَ ، وَالْقَبِيحَ مَا خَالَفَهُ ، وَفِي الشَّرْعِ حَسَنٌ وَأَحْسَنُ ، فَقِيلَ : كُلُّ مَا كَانَ أَرْفَقَ فَهُوَ أَحْسَنُ .

وَقِيلَ : كُلُّ مَا كَانَ أَحْوَطَ لِلْعِبَادَةِ فَهُوَ أَحْسَنُ .

وَالصَّحِيحُ عِنْدِي أَنَّ أَحْسَنَ مَا فِيهَا امْتِثَالُ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابُ النَّوَاهِي .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ ﴿ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَعْرَابِيِّ حِينَ قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ فَقَالَ : أَفْلَحَ إنْ صَدَقَ ، دَخَلَ الْجَنَّةَ إنْ صَدَقَ ﴾ . .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْمُبَاحُ مِنْ جُمْلَةِ الْحَسَنِ فِي الشَّرِيعَةِ بِلَا خِلَافٍ ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي كَوْنِهِ مِنْ الْمَأْمُورَاتِ ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا حَسَّنَهُ الشَّرْعُ وَأَذِنَ فِيهِ .

وَأَمَّا الْمَكْرُوهُ فَلَا خِلَافَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْحَسَنِ ؛ لِأَنَّ الْمُبَاحَ يُمْدَحُ فَاعِلُهُ بِالِاقْتِصَارِ عَلَيْهِ ، وَلَا يُمْدَحُ فَاعِلُ الْمَكْرُوهِ ؛ بَلْ هُوَ دَاخِلٌ فِي السَّرَفِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ .

(285/287)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَدْخُلُ فِي الْأَحْكَامِ إذَا قُلْنَا : إنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا ، فَأَمَّا الشَّافِعِيَّةُ الَّتِي لَا تَرَى ذَلِكَ فَلَمْ تُدْخِلْهَا فِي أَحْكَامِهَا ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا هُنَا مِنْ التَّبَسُّطِ الَّذِي لَا يَحْسُنُ .

وَالَّذِي يُحَقِّقُ ذَلِكَ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ إنَّمَا ذَكَرَهَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ حُسْنِ الِاقْتِدَاءِ وَمِنْ سَيِّئِ الِاجْتِنَابِ ، وَإِذَا مَدَحَ قَوْمًا عَلَى فِعْلٍ فَهُوَ حَثٌّ عَلَيْهِ ، أَوْ ذَمَّهُمْ عَلَى آخَرَ فَهُوَ زَجْرٌ عَنْهُ ،

وَكُلُّهُ يَدْخُلُ لَنَا فِي الِاهْتِدَاءِ بِالِاقْتِدَاءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(286/287)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ابن شودب قال : أوحى الله إلى موسى أتدري لم اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ؟ قال : لا يا رب . قال إنه لم يتواضع لي تواضعك أحد .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : قال موسى : يا رب دلني على عمل إذا عملته كان شكراً لك فيما اصطنعت إلى قال : يا موسى قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . قال : فكان موسى أراد من العمل ما هو أنهك لجسمه مما أمر به ، فقال له : يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعت في كفة

ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن .

قوله تعالى ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : كتبت التوراة بأقلام من ذهب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال : كتب الله الألواح لموسى وهو يسمع صريف الأقلام في الألواح .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة ، كان طول اللوح إثني عشر ذراعاً " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج قال : أخبرت أن الألواح من زبرجد ومن زمرد الجنة ، أمر الرب تعالى جبريل فجاء بها من عدن ، وكتبها بيده بالقلم الذي كتب به الذكر ، واستمد الرب من نهر النور وكتب به الألواح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانوا يقولون : كانت الألواح من ياقوتة ، وانا أقول : إنما كانت من زبرجد وكتابها الذهب ، كتبها الله بيده فسمع أهل السموات صريف

القلم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي العالية قال : كانت ألواح موسى من برد .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : كانت الألواح من زمرد أخضر ، أمر الرب تعالى جبريل فجاء بها من عدن ، فكتب الرب بيده بالقلم الذي كتب به الذكر ، واستمد الرب من نهر النور وكتب به الألواح .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء قال : كتب الله التوراة لموسى بيده وهو مسند ظهره إلى الصخرة يسمع صريف القلم ، في ألواح من زمرد ليس بينه وبينه إلا الحجاب .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : إن الله لم يمس شيئاً إلا ثلاثة : خلق آدم بيده ، وغرس الجنة بيده ، وكتب التوراة بيده .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن حكيم بن جابر قال : أخبرت أن الله تبارك وتعالى لم يمس من خلقه بيده شيئاً إلا ثلاثة : غرس الجنة بيده وجعل ترابها الورس والزعفران وجبالها المسك ، وخلق آدم بيده ، وكتب التوراة لموسى بيده .

وأخرج عبد بن حميد عن وردان بن خالد قال خلق الله آدم بيده ، وخلق جبريل بيده ، وخلق القلم بيده ، وخلق عرشه بيده ، وكتب الكتاب الذي عنده لا يطلع عليه غيره بيده ، وكتب التوراة بيده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أعطيَ موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد ،

فيها تبيان لكل شيء وموعظة ، فلما جاء بها فرأى بن إسرائيل عكوفاً على عبادة العجل ، رمى بالتوراة من يده فتحطمت ، فرفع الله منها ستة أسباع وبقي سبع .

وأخرج عبد بن حميد عن مغيث الشامي قال : بلغني أن الله تعالى لم يخلق بيده إلا ثلاثة أشياء : الجنة غرسها بيده ، وآدم خلقه بيده ، والتوراة كتبها بيده .

(288/287)

وأخرج الطبراني في السنة عن ابن عمر قال : خلق الله آدم بيده ، وخلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده ، ثم قال لسائر الأشياء : كن فكان .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء ﴾ أمروا به ونهوا عنه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ قال : مما أمروا به ونهوا عنه .

وأخرج الحاكم في المستدرك وصححه وضعفه الذهبي عن ابن عباس قال : إن الله يقول في كتابه لموسى ﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾ [الأعراف : 144] . ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء ﴾ قال : فكان يرى أن جميع الأشياء قد أثبتت له كما ترون أنتم علماءكم ، فلما انتهى إلى ساحل البحر لقي العالم فاستنطقه ، فأقر له بفضل علمه ولم

يحسده الحديث .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس . أن موسى لما كربه الموت قال : هذا من أجل آدم قد كان الله جعلنا في دار مثوى لا نموت فخطا آدم انزلنا هنا . فقال الله لموسى : ابعث إليك آدم فتخاصمه ؟ قال : نعم . فلما بعث الله آدم سأله موسى فقال : لولا أنت لم نكن ههنا . فقال له آدم : قد أتاك الله من كل شيء موعظة وتفصيلاً أفلست تعلم أنه ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ [الحديد : 22] قال : موسى بلى فخصمه آدم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان الله عز وجل كتب في الألواح ذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر أمته وما ذخر لهم عنده ، وما يسر عليهم في دينهم وما وسع عليهم فيما أحل لهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران قال : فيما كتب الله لموسى في الألواح : يا موسى لا تحلف بي كاذباً فإني لا أزكي عمل من حلف بي كاذباً .

(289/287)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه في قوله ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء ﴾ قال : كتب له اعبدني ولا تشرك بي شيئاً من أهل السماء ولا من أهل الأرض فإن كل ذلك خلقي ، فإذا أشرك بي غضبت ، وإذا غضبت لعنت ، وإن لعنتي تدرك الرابع من الولد ، وإني إذا أطعت رضيت ، وإذا رضيت باركت والبركة مني تدرك الأمة بعد الأمة ، ولا تحلف باسمي كاذباً فإني لا أزكي من حلف باسمي كاذباً ، ووقر والديك فإنه من وقر والديه مددت له عمره ووهبت له ولداً يبره ، ومن عق والديه قصرت له في عمره ووهب له ولداً يعقه ، واحفظ السبت فإنه آخر يوم فرغت فيه من خلقي ، ولا تزن ، ولا تسرق ، ولا تولّ وجهك عن عدوي ، ولا تزن بامرأة جارك الذي يأمنك ، ولا تغلب جارك على ماله ، ولا تخلفه على امرأته .

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي حرزة القاص ، ان العشر الآيات التي كتب الله تعالى لموسى في الألواح : أن اعبدني ولا تشرك بي شيئاً ، ولا تحلف باسمي كاذباً فإني لا أزكي ولا أطهر من حلف باسمي كاذباً ، واشكر لي ولوالديك أنسألك في أجلك وأقيك المتالف ، ولا تسرق ولا تزن فأحجب عنك نور وجهي ، وتغلق عن دعائك أبواب سماواتي ، ولا تغدر بجليل جارك ، واحب للناس ما تحب لنفسك ، ولا تشهد بما لم يعِ سمعك ويفقه قلبك ، فإني واقف أهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة ثم سائلهم عنها ، ولا تذبح لغيري لا يَصعد إلى من قربان أهل الأرض إلا ما ذكر عليه اسمي .

وأخرج البيهقي عن عطاء قال : بلغني أن فيما أنزل الله على موسى عليه السلام : لا تجالسوا أهل الاهواء فيحدثوا في قلبك ما لم يكن .

(290/287)

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية وابن لال في مكارم الأخلاق عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "كان فيما أعطى الله موسى في الألواح الأول في أول ما كتب عشرة أبواب : يا موسى لا تشرك بي شيئاً فقد حق القول مني لتلفحن وجوه المشركين النار ، واشكر لي ولوالديك أقك المتالف وانسأ في عمرك وأحييك حياة طيبة وأقلبك إلى خير منها ، ولا تقتل النفس التي حرمت إلا بالحق فتضيق عليك الأرض برحبها والسماء باقطارها وتبوء بسخطي والنار ، ولا تحلف باسمي كذباً ولا آثماً فإني لا أطهر ولا أركي من لم ينزهني ويعظم أسمائي ، ولا تحسد الناس على ما أعطيتهم من فضيلي ، ولا تنفس عليهم نعمتي ورزقي فإن الحاسد عدو نعمتي راد لقضائي ساخط لقسمتي التي أقسم بين عبادي ، ومن لم يكن كذلك فلست منه وليس مني ، ولا تشهد بما لم يع سمعك ويحفظ عقلك وتعقد عليه قلبك ، فإني واقف أهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة ثم سائلهم عنها سؤلاً حثيثاً ، ولا تزن ، ولا تسرق ، ولا تزن بحليلة جارك فأحجب عنك

وجهي ، وتغلق عنك أبواب السماء ، وأحبب للناس ما تحب لنفسك ، ولا تذبحن لغيري فإني لا أقبل من القربان إلا ما ذكر عليه اسمي وكان لخالصاً لوجهي ، وتفرغ لي يوم السبت وفرغ لي نفسك وجميع أهل بيتك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل السبت لموسى عيداً ، واختار لنا الجمعة فجعلها لنا عيداً " .

وأخرج أبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال : مما كتب الله لموسى في الألواح لا تتمن مال أخيك ولا أمراة أخيك .

(291/287)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن وهب بن منبه قال : مكتوب في التوراة : شوّقناكم فلم تشتاقوا ، ونُحْنَا لكم فلم تبكوا ، ألا وان لله ملكاً ينادي في السماء كل ليلة : بشر القتَّالين بأن لهم عند الله سيفاً لا ينام وهو نار جهنم ، أبناء الأربعين رزع قد دنا حصاده ، أبناء الخمسين هلموا إلى الحساب لا عذر لكم ، أبناء الستين ماذا قدمتم وماذا أخرتم ، أبناء السبعين ما تنتظرون ألا ليت الخلق لم يخلقوا فإذا خلقوا علموا لما خلقوا ، ألا أتتكم الساعة فخذوا حذركم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : قال موسى : رب إني أجد

في الألواح أمة هم الآخرون السابقون يوم القيامة ، الآخرون في الخلق والسابقون في دخول الجنة فاجعلهم أمتي : قال : تلك أمة أحمد . قال : رب أني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر ويقاتلون فضول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور والكذاب فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في قلوبهم يقرأونها قال قتادة : وكان من قبلكم إنما يقرأون كتابهم نظراً ، فإذا رفعوها لم يحفظوا منها شيئاً ولم يعوه ، وإن الله اعطاكم ايتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم قبلكم ، فالله خصكم بها وكرامة أكرمكم بها قال : فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد .

(292/287)

قال : رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها قال قتادة : وكان من قبلكم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها وإن ردت تركت فأكلتها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم رحمة رحمكم بها وتخفيفاً خفف به عنكم فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب أني أجد في

الألواح أمة إذا همَّ أحدم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتي . قالت تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها فإن عملها كتبت سيئة واحدة فاجعلهم أمتي . قال تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم فاجعلهم أمتي . قال تلك أمة أحمد . قال قتادة : فذكر لنا أن نبي الله موسى نبذ الألواح وقال : اللهم إذاً فاجعلني من أمة أحمد . قال فاعطى اثنتين لم يعطهما ﴿ قال : يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ [الأعراف : 144] قال : فرضي نبي الله ، ثم أعطى الثانية ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : 159] قال : فرضي نبي الله موسى كل الرضا .

(293/287)

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال موسى : يا رب أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي . قال تلك أمة أحمد . قال : رب أجد في الألواح أمة إذا همَّ بالحسنة كتبت له حسنة وإذا عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب أجد في الألواح أمة إذا

هم أحدهم بالسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإذا عملها كتبت سيئة واحدة فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب أجد في الألواح أمة هم المشفعون والمشفع لهم فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال رب أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم يوم القيامة فاجعلهم أمتي . قالت تلك أمة أحمد . قال : رب أجد في الألواح أمة ينصرون على من ناوأهم حتى يقاتلوا الأعور الدجال فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : فانتبذ الألواح من يده وقال : رب فاجعلني من أمة أحمد . فأنزل الله ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : 159] فرضي نبي الله موسى عليه السلام .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : فيما ناجى موسى ربه فيما وهب الله لمحمد وأمته حيث قرأ التوراة وأصاب فيها نعت النبي وأمته قال : يا رب من هذا النبي الذي جعلته وأمته أولاً وآخراً ؟ قال : هذا محمد النبي الأمي العربي الحرمي التهامي من ولد قاذر بن اسمعيل ، جعلته أوّلاً في المحشر ، وجعلته آخراً ختمت به الرسل ، يا موسى ختمت بشريعته الشرائع ، وبكتابه الكتب ، وبسنته السنن ، وبدينه الأديان .

(294/287)

قال : يا رب إنك اصطفيتني وكلمتني ؟ قال : يا موسى إنك صفيّ وهو حبيبي أبعثه يوم القيامة على كوم أجعل حوضه أعرض الحياض وأكثرهم وارداً وأكثرهم تبعاً قال : رب لقد كرمته وشرفته . قال : يا موسى حق لي أن أكرمه وأفضله وأفضل أمته ، لأنهم يؤمنون بي وبرسلي كلهم وكلمتي كلها وبغيبي كله ما كان فيهم شاهداً يعني النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعد موته إلى يوم القيامة . قال : يا رب هذا نعتهم ؟ قال : نعم . قال : يا رب وهبت لهم الجمعة أو لأمتي ؟ قال : بل لهم الجمعة دون أمتك . قال : يا رب إني نظرت في التوراة إلى نعت قوم غير محجلين فمن هم ، أمن بني إسرائيل هم أمن من غيرهم ؟ قال : تلك أمة أحمد الغر المحجلون من آثار الوضوء . قال : يا رب إني وجدت في التوراة قوماً يمرون على الصراط كالبرق والريح فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة قوماً يصلون الصلوات الخمس فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة قوماً يتزرون إلى أنصافهم فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت قوماً يراعون الشمس مناديهم في جوّ السماء فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني وجدت في التوراة قوماً الحسنة منهم بعشرة والسيئة بواحدة فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم شاهرين سيوفهم لا ترد لهم حاجة ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة قوماً إذا أرادوا أمراً استخاروك ثم

ركبوه فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في التوراة نعت قوم يشفع محسنهم في مسيئهم فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم يحجون البيت الحرام لا ينأون عنه أبداً لا يقضون منه وطراً ابداً فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد .

(295/287)

قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم قربانهم دماؤهم فمن هم ؟ قال تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم يقاتلون في سبيلك صفوفاً زحوفاً يفرغ عليهم الصبر افراغاً فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم يذنب أحدهم الذنب فيتوضأ فيغفر له ، ويصلي فتجعل الصلاة له نافلة بلا ذنب فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد .

قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم يشهدون لرسلك بما بلغوا فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم يجعلون الصدقة في بطونهم فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم العنائم لهم حلال وهي محرمة على الأمم فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة

نعت قوم جعلت الأرض لهم طهوراً ومسجداً فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت نعت قوم الرجل منهم خير من ثلاثين ممن كان قبلهم فمن هم ؟ تلك أمة أحمد يا موسى الرجل من الأمم السالفة أعبد من الرجل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بثلاثين ضعفاً ، وهم خير منه بثلاثين ضعفاً بايمانه بالكتب كلها .

(296/287)

قال : يا رب إني وجدت نعت قوم يأوون إلى ذكرك ويتحابون عليه كما تأوي النسور إلى وكورها فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت إذا غضبوا هللوك وإذا تنازعوا سبحوك فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم يغضبون لك كما يغضب النمر الحرب لنفسه فمن هم ؟ قال : تلك أحمد . قال يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم تفتح أبواب السماء لأعمالهم وأرواحهم وتباشر بهم الملائكة فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم تتباشر بهم الأشجار والجبال بمرهم عليها لتسبيحهم لك وتقديسهم لك فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم وهبت لهم الاسترجاع عند المصيبة ، ووهب لهم عند المصيبة الصلاة والرحمة والهدى فمن هم ؟

قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم تصلي عليهم أنت وملائكتك فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم يدخل محسنهم الجنة بغير حساب ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وظالمهم يغفر له فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب فاجعلني منهم . قال : يا موسى أنت منهم وهم منك لأنك على ديني وهم على ديني ، ولكن قد فضلتك برسالاتي وبكلامي فكن من الشاكرين .

قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم يبعثون يوم القيامة قد ملأت صفوفهم ما بين المشرق والمغرب صفوفاً يهوّن عليهم الموقف لا يدرك فضلهم أحد من الأمم فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم تقبضهم على فرشهم وهم شهداء عندك فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم لا يخافون فيك لومة لائم فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد .

(297/287)

قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم أذلة على المؤمنين أعزة على الكفارين فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم صديقهم أفضل

الصديقين فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب لقد كرمته وفضلتهُ . قال : يا موسى هو كذلك نبي وصفي وحبيبي وأمته خير أمة .

قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم محرمة على الأمم الجنة إن يدخلوها حتى يدخلها نبيهم وأمته فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب لبني إسرائيل ما بالهم ؟ قال : يا موسى إن قومك من بني إسرائيل يبدلون دينك من بعدك ، ويغيرون كتابك الذي أنزلت عليك ، وأن أمة محمد لا يغيرون سنته ولا يبطلون الكتاب الذي أنزلت عليه إلى أن تقوم الساعة ، فلذلك بلغتهم سنام كرامتي ، وفضلتهم على الأمم ، وجعلت نبيهم أفضل الأنبياء . أولهم في الحشر ، وأوّلهم في انشقاق الأرض ، وأولهم شافعاً ، وأوّلهم مشفعاً .

قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم حلماء علماء كادوا أن يبلغوا بفقههم حتى يكونوا أنبياء فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا موسى أعطوا العلم الأول والآخر .

قال : يا رب إني وجدت في التوراة قوماً توضع المائدة بين أيديهم فما يرفعونها حتى يغفر لهم فمن هم ؟ قال : أولئك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم يلبس أحدهم الثوب فما ينفضه حتى يغفر لهم فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني وجدت في التوراة نعت قوم إذا استووا على ظهور دوابهم حمدوك فيغفر لهم فمن هم ؟ قال : تلك أمة أحمد ، أوليائي يا موسى الذي انتقم بهم من عبدة النيران والأوثان .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن موسى لما نزلت عليه التوراة وقرأها فوجد فيها ذكر هذه الأمة قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون فاجعلها أمتي . قال تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم فاجعلها أمتي . قال تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونه ظاهراً فاجعلها أمتي . قال تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يأكلون الفيء فاجعلها أمتي . قال تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يجعلون الصدقة في بطونهم يؤجرون عليها فاجعلها أمتي . قال تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، وإن عملها كتبت له عشر حسنات فاجعلها أمتي . قال تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يؤتون العلم الأول والعلم الآخر ، فيقتلون قرون الضلالة والمسيح الدجال فاجعلها أمتي . قال تلك أمة أحمد . قال : يا رب فاجعلني من أمة أحمد ، فاعطي عند ذلك خصلتين ﴿ فقال : يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ قال : قد رضيت يا رب " .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن عبد الرحمن المغافري أن كعب الأحبار رأى حبر اليهود يبكي فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت بعض الأمور فقال له كعب : أنشدك بالله لئن أخبرتك ما أبكاك لتصدقني ؟ قال : نعم . قال : أنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال : رب إني أجد أمة في التوراة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر ، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال ، فقال : موسى رب أجعلهم أمتي . قال : هم أمة أحمد ؟ قال الحبر : نعم . قال كعب : فأنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال : رب إني أجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون ، إذا أرادوا أمراً قال افعله إن شاء الله فاجعلهم أمتي . قال : هم أمة أحمد ؟ قال الحبر : نعم . قال كعب : فأنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال : يا رب إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله ، وإذا هبط وادياً حمد الله ، الصعيد لهم طهور ، والأرض لهم مسجداً حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة ، طهورهم بالصعيد

كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء ، غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي . قال : هم أمة أحمد ؟ قال الحبر نعم .

(300/287)

قال كعب : انشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال : رب إني أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب ، واصطفيتهم ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ [فاطر : 32] ولا أجد أحداً منه إلا مرحوماً فاجعلهم أمتي . قال : هم أمة أحمد ؟ قال الحبر : نعم . قال كعب : أنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال : رب إني أجد في التوراة أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون الوان ثياب أهل الجنة ، يصفّون في صلاتهم كصفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل ، لا يدخل النار منهم أحد إلا من بري من الحسنات مثل ما بري الحجر من ورق الشجر فاجعلهم أمتي . قال هم أمة أحمد ؟ قال الحبر : نعم . فلما عجب موسى من الخير الذي أعطاه الله محمداً وأمته قال : يا ليتني من أمة أحمد ، فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ [الأعراف : 144] الآية فرضي موسى كل الرضا .

وأخرج أبو نعيم عن سعيد بن أبي هلال أن عبد الله بن عمرو قال لكعب : أخبرني عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ؟ قال : أجدهم في كتاب الله : أن أحمد وأمته حمَّادون يحمدون الله على كل خير وشر ، يكبرون الله على كل شرف يسبحون الله في كل منزل ، نداؤهم في جو السماء ، لهم دوي في صلاتهم كدوي النحل على الصخر ، يصفون في الصلاة كصفوف الملائكة ، وصفَّون في القتال كصفوفهم في الصلاة ، وإذا غزوا في سبيل الله كانت الملائكة بين أيديهم ومن خلفهم برماح شداد ، إذا حضروا الصفّ في سبيل الله كان الله عليهم مظلاً كما تظل النسور على وكورها ، لا يتأخرون زحفاً أبداً حتى يحضرهم جبريل عليه السلام .

(301/287)

وأخرج الطبراني والبيهقي في الدلائل عن محمد بن يزيد الثقفي قال : اصطحب قيس بن خرشة وكعب الأحبار ، حتى إذا بلغا صفين وقف كعب ثم نظر ساعة ، ثم قال : ليهراقن بهذه البقعة من دماء المسلمين شيء لا يهراق ببقعة من الأرض مثله ؟ فقال قيس : ما يدريك فإن هذا من الغيب الذي استأثر الله به ؟ ! فقال كعب : ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة الذي أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن خالد الربعي قال : قرأت في كتاب الله المنزل أن عثمان بن عفان رافع يديه إلى الله يقول : يا رب قتلني عبادك المؤمنون .

وأخرج أحمد في الزهد عن خالد الربعي قال : قرأت في التوراة إتق الله يا ابن آدم ، وإذا شبعت فاذكر الجائع .

وأخرج أحمد عن قتادة قال : بلغنا أنه مكتوب في التوراة ابن آدم ارحم ترحم إنه من لا يَرحم لا يُرحم ، كيف ترجو أن ارحمك وأنت لا ترحم عبادي ؟

وأخرج أحمد وأبو نعيم في الحلية عن مالك بن دينار قال : قرأت في التوراة يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي في صلاتك باكياً فإني أنا الله الذي اقترتب لقلبك وبالغيب رأيت نوري .

قال مالك : يعني الحلاوة والسرور الذي يجد المؤمن .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه قال : أربعة أحرف في التوراة مكتوب من لم يشاور يندم ، ومن استغنى استأثر ، والفقر الموت الأحمر وكما تدين تدان .

وأخرج أحمد وأبو نعيم عن خيثمة قال : مكتوب في التوراة ابن آدم تفرغ لعبادتي املأ قلبك غنى وأسدّ فقرك ، وإن لا تفعل املأ قلبك شغلاً ولا أسد فقرك .

وأخرج أحمد في الزهد عن بيان قال : بلغني أن في التوراة مكتوب ابن آدم كسيرة تكفيك ، وخرقة تواريك ، وحجر يأويك " .

وأخرج أحمد عن وهيب المكي قال : بلغني أنه مكتوب في التوراة يا ابن آدم اذكرني إذا

غضبت اذكرك إذا غضبت فلا أمحقك مع من أمحق ، وإذا ظلمت فارض بنصرتي لك فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك .

(302/287)

وأخرج أحمد عن الحسن بن أبي الحسن قال : انتهت بنو اسرائيل إلى موسى عليه السلام فقالوا : إن التوراة تكبر علينا فأنبئنا بجماع من الأمر فيه تخفيف . فاوحى الله إليه : ما سألك قومك ؟ قال : يا رب أنت أعلم . قال : إنما بعثتك لتبلغني عنهم وتبلغهم عني . قال : فإنهم سألوني جماعاً من الأمر فيه تخفيف ، ويزعمون أن التوراة تكبر عليهم فقال الله عز وجل : قل لهم لا تظالموا في المواريث ، ولا يدخلن عليكم عبد بيتاً حتى يستأذن ، وليتوضأ من الطعام ما يتوضأ للصلاة ، فاستخفوها يسيراً ثم إنهم لم يقوموا بها . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك " تقبلوا إلي بستٍ أتقبل لكم بالجنة ، من حدث فلا يكذب ، ومن وعد فلا يخلف ، ومن ائتمن فلا يخون ، احفظوا أيديكم وأبصاركم وفروجكم " .

وأخرج أحمد عن مالك بن دينار قال : قرأت في التوراة من يزدد علماً يزدد وجفاً . وقال : مكتوب في التوراة من كان له جار يعمل بالمعاصي فلم ينهه فهو شريكه .

وأخرج أحمد عن قتادة قال : إن التوراة مكتوباً يا ابن آدم تذكرني وتنساني ، وتدعو إلي

وتفر مني ، وأرزقك وتعبد غيري .

وأخرج عبد الله وابنه عن الوليد بن عمر قال : بلغني أنه مكتوب في التوراة ابن آدم حرك يديك افتح لك باباً من الرزق ، وأطعني فيما آمرك فما أعلمني بما يصلحك .

وأخرج عبد الله عن عقبة بن زينب قال : في التوراة مكتوب لا تتوكل على ابن آدم فإن ابن آدم لليس ولكن توكل على الحي الذي لا يموت ، وفي التوراة مكتوب مات موسى كليم الله فمن ذا الذي لا يموت ؟

وأخرج أحمد عن وهب بن منبه قال : وجدت فيما أنزل الله على موسى أن من أحب الدنيا أبغضه الله ، ومن أبغض الدنيا أحبه الله ، ومن أكرم الدنيا أهانه الله ، ومن أهان الدنيا أكرمه الله .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عروة قال : مكتوب في التوراة ليكن وجهك بسطاً وكلمتك طيبة تكن أحب إلى الناس من الذين يعطونهم العطاء .

(303/287)

وأخرج ابن أبي شيبة عن عروة قال : بلغني أنه مكتوب في التوراة كما تَرحمون تُرحمون .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : والذي فلق البحر لبني إسرائيل في التوراة مكتوب : يا

ابن آدم اتق ربك ، وابرر والديك ، وصل رحمك ، أمدَّ لك في عمرك ، وأيسر لك يسرك ، واصرف عنك عسرك .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كردوس الثعلبي قال : مكتوب في التوراة اتق توقه إنما التوقي في التقوى ، ارحموا ترحموا توبوا يتاب عليكم .

وأخرج الحكيم في نوادر الأصول عن أبي الجوزاء قال : قرأت في التوراة أن سرَّك أن تحيا وتبلغ علم اليقين فاحتمل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا ، فإن من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله .

وأخرج الطبراني في السنة وأبو الشيخ عن كعب قال : لما أراد الله أن يكتب لموسى التوراة قال : يا جبريل ادخل الجنة فائتني بلوحين من شجرة الجنة ، فدخل جبريل فاستقبلته شجرة من شجر الجنة من ياقوت الجنة ، فقطع منها لوحين فتابعته على ما أمره الرحمن تبارك وتعالى ، فأتى بهما الرحمن فأخذهما بيده ، فعاد اللوحان نوراً لما مسّهما الرحمن تبارك وتعالى ، وتحت العرش نهر يجري من نور لا يدري حملة العرش أين يجيء ولا أين يذهب منذ خلق الله الخلق ، فلما استمد منه الرحمن جف فلم يجر ، فلما كتب لموسى التوراة بيده ناول اللوحين موسى ، فلما أخذهما موسى عاداً حجارة ، فلما رجع إلى بني إسرائيل والى هرون وهو مغضب أخذ بلحيته ورأسه يجره إليه فقال له هرون : يا ابن آدم ﴿ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ﴾ [الأعراف : 155] ومع ذلك إني خفت أن آتيك فتقول

: فرقت بين بني إسرائيل ولم تنتظر قولي ، فاستغفر موسى ربه تبارك وتعالى ، واستغفر لأخيه وقد تكسرت الألواح لما ألقاها من يده .

وأخرج أحمد في الزهد عن كعب الأحبار . أن موسى عليه السلام كان يقول في دعائه : اللهم ليّن قلبي بالتوراة ولا تجعل قلبي قاسياً كالحجر .

(304/287)

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : سأل موسى جماعاً من العمل ؟ فقيل له : انظر ما تريد أن يصاحبك به الناس فصاحب الناس به .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ فخذها بقوّة ﴾ قال : بجد وحزم ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ قال : دار الكفار .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ فخذها بقوّة ﴾ قال : بجد ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ قال : أمر موسى أن يأخذوها بأشد مما أمر به قومه .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ فخذها بقوة ﴾ قال : إن الله تعالى يحب أن يؤخذ أمره بقوة وجد .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ فخذها بقوة ﴾ قال :

بطاعة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ فخذها بقوة ﴾ يعني بجد واجتهاد ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ قال : بأحسن ما يجدون منها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ قال مصيرهم في الآخرة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ دار الفاسقين ﴾ قال : منازلهم في الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ قال : جهنم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ قال : رفعت لموسى حتى نظر إليها .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ قال : مصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(305/287)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً ﴾ .

قوله : فِي الأَلْوَاحِ يجوز أن تكون لتعريف الماهيَّةِ ، وأن تكون للعهد ؛ لأَنَّهُ يروى في القصَّة أَنَّهُ هو الذي قطَّعَهَا وشقَّقَهَا .

وقال ابنُ عطيَّة أل عوض من الضمير ، تقديره : في ألواحه ، وهذا كقوله : ﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 41] أي : مأواه .

أمَّا كاون أل عوضاً من الضَّمير فلا يعرفه البصريون .

وأمَّا قوله : ﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ فإنَّا نحتاجُ فيه إلى رابطٍ يَرْبِطُ بين الاسم والخبر ، والكوفيون : يجعلون أل عوضاً من الضمير .

والبصريون : يُقَدِّرُونَهُ ، أي : هي المأوى له ، وأما في هذه الية فلا ضرورة تدعو إلى ذلك .

وفي مفعول "كتبنا " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أَنَّهُ " موعِظَةً " ، أي : كتبنا له مَوْعِظَةً وتفْصِيلاً .

و﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ على هذا فيه وجهان ، أحدهما : متعلِّقٌ بـ "كَتَبْنَا " والثاني : أَنَّهُ متعلِّقٌ بمحذوف ؛ لأَنَّهُ في الأصلِ صفةٌ لـ " مَوْعِظَةً " فلمَّا قُدِّم عليها نُصِبَ حالاً ، و" لِكُلِّ شيءٍ " صفة لـ " تفصيلاً " .

والثاني : أَنَّهُ ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

قال الزمخشريُّ ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في محل نصب مفعول "كَتَبْنَا " ، و" مَوعِظَةً وتفْصِيلاً " بدل منه ، والمعنى : كَتَبْنَا له كُلَّ شيءٍ كان بنو إسرائيل يَحْتَاجُونَ إليه في دينهم من المواعظِ ، وتفصيل الأحكامِ وتفصل الحلالِ والحرامِ .

الثالث : أنَّ المفعول محل المجرور .

وقال أبو حيَّان – بعد ما حكى الوجه الأول عن الحوفي والثَّاني عن الزمخشري – : ويُحْتَمَلُ عندي وجهٌ ثالثٌ ، وهو أن يكونَ مفعولُ "كَتَبْنَا " موضع المجرور ، كما تقولُ : "أكلت من الرغيف " و" مِنْ " للتبعيض ، أي : كتبنا له أشياء من كُلِّ شيء ، وانتصب " مَوْعظَةً وتَفْصِيلاً " على المفعول من أجله ، أي : كتبنا له تلك الأشياءَ للاتِّعاظِ وللتفصيل .

قال شهابُ الدِّينِ : " والظَّاهِرُ أنَّ هذا الوجه هو الذي أراده الزَّمخشري ، فليس وجهاً ثالثاً " .

(306/287)

قوله : " بِقُوَّةٍ " حالٌ : إمَّا من الفاعل ، أي : ملتبساً بقوة ، وإمَّا من المفعول ، أي : ملتبسه بقوة ، أَي : بقوَّةِ دلائلها وبراهينها ، والأول أوضح .

والجملةُ من قوله : " فَخُذْهَا "يُحتمل أن تكون بدلاً من قوله ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ وعاد الضَّميرُ على معنى " ما " لا على لفظها .

ويحتمل أن تكونَ منصوبة بقول مضمر ، ذلك القولُ منسوقٌ على جملة "كَتَبْنَا " والتقدرُ : وكتبنا فقلنا : خُذْهَا ، والضَّميرُ على هذا عائدٌ على الألواحِ أو على التَّوراةِ ، أو على الرِّسالاتِ ، أو على كُلِّ شيءٍ ؛ لأَنَّهُ في معنى الأشياء .

قال القرطبيُّ : " فكأنَّ اللَّوحَ تلوح فيه المعاني .

ويقال : رجل عظيم الألواح إذا كان كبيرَ عظم اليدين ، " والرِّجليْنِ " .

وقوله : ﴿ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ فهو كالبيانِ للجملة التي قدمها بقوله : ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ثم قال : " فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ " أي : بعزيمةٍ قويةٍ ونيَّةٍ صادقةٍ .

قوله : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ .

الظَّاهِرُ أَنَّ يأخُذُوا مَجْزُومٌ جواباً للأمر في قوله وأمْرُ ولا بدَّ من تأويله ، لأَنَّه لا يلزمُ مِنْ أمره إيَّاهم بذلك أن يأخُذُوا ، بدليل عصيانِ بعضهم له في ذلك ، فإنَّ شَرْطَ ذلك انحلال الجملتين إلى شرطٍ وجزاءٍ .

2570 - مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ . . .

إذَا مَا خِفْتَ مِنْ أَمْرٍ تبالاَ

وهو مذهبُ الكسائي .

وابن مالك يرى جوازه إذا كان في جواب "قُلْ"، وهان لم يُذْكَرْ "قُلْ"، ولكن ذُكر شيءٌ بمعناه؛ لأنَّ معنى "وأمُرْ" و"قُلْ" واحد.

قوله: "بِأحْسَانِهَا" يجوز أن يكونَ حالاً كما تقدَّم في: "بِقُوَّةٍ"، وعلى هذا فمفعولُ "يَأخُذُوا" محذوفٌ تقديرُه: يَأخُذُوا أنفسهم، ويجُوز أن تكون الباء زائدة، وأحسنها مفعول به، والتقديرُ: يأخُذُو أحسنها كقوله: [البسيط]

2571 - . . . . . .

(307/287)

سُودُ المَحَاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ

وقد تقدَّم تحقيقه في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة: 195].

و"أحسن" يجوز أن تكون للتَّفضيل على بابها، وأن لا تكون بل بمعنى "حَسَنَة".

كقول الفرزدق: [الكامل]

2572 - إنَّ الذي سَمَكَ السَّماءَ بَنَى لَنَا . . .

بَيْتاً دَعَائِمُهُ أعَزُّ وأطْوَلُ

أي: عزيزةٌ طويلةٌ.

قوله : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾

جَوَّزُوا في الرُّؤية هنا أن تكون بصريَّةً ، وهو الظَّاهِرُ فتتعدَّى لاثنين ، أحدهما : ضمير المخاطبين ، والثاني : دَارَ .

والثاني : أنَّها قلبية ، وهو منقولٌ عن ابن زيد وغيره ، والمعنى : سأعْلِمُكُمْ سَيْرَ الأولين وما حَلَّ بهم من النَّكَالِ : وقيل : " دَارَ الفاسِقِينَ " ما دَارَ إليه أمرهم ، وذلك لا يُعْلم إلا بالإخبار والإعلام .

قال ابنُ عطيَّة – معترضاً على هذا الوجه – : ولَوْ كَانَ من رؤية القلب ، لتعدَّى بالهمزة إلى ثلاثةِ مفاعيل .

ولو قال قائلك المفعولُ الثالثُ يتضمنه المعنى ، فهو مُقَدَّرٌ أي : مذمومة أو خربة أو مُسَعَّرة – على قول من قال : إنَّهَا جهنم – قيل له : لا يَجُوزُ حذفُ هذا المفعولِ ، ولا الاقتصارُ دُونَهُ ، لأنَّهَا داخلةٌ على الابتداءِ والخبرِ ، ولو جُوِّزَ لكان على قبح في اللِّسان ، لا يليق بكتاب الله تعالى .

قال أبو حيان : " وحَذْفُ المفعُول الثَّالث في باب " أعْلَمَ " لدلالة المعنى عليه جائزٌ ، فيجوزُ في جواب : هل أعلمتَ زَيْداً عمراً منطلقاً ؟ أعلمتُ زيداً عمراً ، وتحذف " منطلقاً " لدلالة الكلام السَّابق عليه " .

فصل

قال شهابُ الدِّين : هذا مُسَلَّمٌ ، لكن أَيْنَ الدَّليل عليه في الكلام ، كما في المثال الذي أبرزه الشَّيْخُ ؟

(308/287)

ثم قال : " وأمَّا تَعْليلُهُ بأنَّهَا داخلةٌ على الخَبَرِ لا يدلُّ على المنع ، لأنَّ خبر المبتدأ يجوزُ حَذْفُهُ اختصاراً ، والثانِي ، والثَّالِثُ في باب " أَعْلَمَ " يَجُوزُ حذفُ كُلٍّ منهما اختصاراً " .

قال شهابُ الدِّين : " حذفُ الاختصار لدليلٍ ، ولا دليلَ هَنَا " .

ثم قال : " وفي قوله لأنَّهَا - أي : " سَأريكُمْ " - داخلةٌ على المبتدأ ، والخبر تجوُّزٌ " ويعني أنَّها قبل النَّقْل بالهمزة داخلة على المبتدأ والخبر .

وقرأ الحسن : " سَأوريكُمْ " بواو خالصة بعد الهمزة وفيها تخريجان : أحدهما قاله الزمخشريُّ - : " وهي لغةٌ فاشية بالحجاز يُقَالُ : أَوْرَنِي كَذَا وأَوْرَيْتُهُ ، فوجهه أن يكون من أَوْرَيْتُ الزَّنْدَ ، فإن المعنى : بَيِّنْهُ لي وأَنِرْهُ لأستبينَه " .

والثاني : - ذكره ابنُ جنيٍّ - وهو أنَّهُ على الإشباع ، فيتولَّد منها الواو ، قال " وناسَبَ هذا كونُهُ موضعَ تهديدٍ ووعيدٍ فاحتمل الإتيان بالواو " .

قال شهابُ الدِّين : وهذا كقول الشاعر : [البسيط]

2573 - اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا فِي تَلَفُّتِنَا . . .

يَوْمَ اللِّقَاءِ إلى أَحْبَابِنَا صَوَرُ

وأَنِّي حَيْثُمَا يُثْنِي الهَوَى بَصَرِي . . .

مِنْ حَيْثُمَا سَلَكُوا أَدْنُوا فأَنْظُورُ

لكن الإشباعَ بابُهُ الضَّرُورَةُ عند بعضهم .

وقرأ ابنُ عبَّاسٍ ، وقسامة بن زيد " سأورثُكُمْ " قال الزمخشريُّ : وهي قراءة حسنةٌ ، يصحّحُهَا قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾ [الأعراف : 137] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 305.310 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

وفي الأثر : أن موسى عليه السلام كان يسمع صريرَ القلم ، وفي هذا نوع لطف لأنه إنْ منع منه النظر أو منعه من النظر فقد عله بالأثر .

(309/287)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ .

فيه إشارة إلى أن الأَخْذَ يُشير إلى غاية القرْبِ ، والمراد ها هنا صفاءُ الحال ، لأن قربَ المكانِ لا يَصِحُّ على الله سبحانه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ .

فَرْقٌ بين ما أمر به موسى من الأخذ وبين ما أمره أن يأمر به قومه من الأخذ ، أَخْذُ موسى عليه السلام من الحق على وجهٍ من تحقيق الزلفة وتأكيد الوصلة ، وأَخْذُهُم أخذُ قبولٍ من حيث التزام الطاعة ، وشتان ما هما ! .

قوله : ﴿ بِأَحْسَنِهَا ﴾ بمعنى بِحُسْنِهَا ، ويحتمل أن تكون الهمزة للمبالغة يعني : بأحسنها ألا تعرِّج على تأويل وارجع إلى الأَوْلى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ سَأُورِيكُمْ دَارَ الفَاسِقِينَ ﴾ .

يعني عليها غَبَرَةُ العقوبة ، خاوية على عروشها ، ساقطة على سقوفها ، مُنْهَدٌّ بنيانُها ، عليه قَتَرَةُ العِقاب .

والإشارة من دار الفاسقين إلى النُّفوس المتابعة للشهوات ، والقلوب التي هي معادن المنى وفاسد الخطرات ، فإنَّ الفِسقَ يوجب خرابَ المحل الذي يجري فيه ؛ فمن جرى على نفسه فِسْق خربت نفسه . وآية خراب النفوس انتفاءُ ما كان عليها وفيها من سكان الطاعات ، فكما تتعطل المنازل عن قطانها إذا تداعت للخراب فكذلك إذا خربت النفوس بعمل

المعاصي فتنتفي عنها لوازم الطاعات ومعتادها ، فبعد ما كان العبد يتيسر عليه فعل الطاعات لو ارتكب شيئاً من المحظورات يشق عليه فعل العبادة ، حتى لو خُيِّر بين ركعتي صلاة وبين مقاساة كثيرٍ من المشاق آثر تحمل المشاقِّ على الطاعة . . وعلى هذا النحو ظلمُ القلوب وفسادُها في إيجاب خراب محالها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 568. 569 ﴾

(310/287)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثمانون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/288)

الجزء الثامن والثمانون بعد المائتين

من الآية ﴿ 146 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 149 ﴾ من نفس السورة

(4/288)

قوله تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضى ذلك ، كان كأنه قيل : وكيف يختار عاقل ذلك ؟ فكيف بمن رأى الآيات وشاهد المعجزات ؟ فقال : ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ أي المسموعة والمرئية على عظمتها بما أشارت إليه الإضافة بالصرف عن فهمها واتباعها والقدرة على الطعن فيها بما يؤثر في إبطالها ﴿ الذين يتكبرون ﴾ أي يطلبون الكبر بما ليس لهم ويعملون قواهم فيه ﴿ في الأرض ﴾ أي جنسها الذي أمرت بالتواضع فيه .

ولما كان من رفعه الله بصفة فاضلة فوضع نفسه موضعها ولم يهنها نظراً لما أنعم الله به عليه ومنحه إياه ربما سمى ذلك كبراً ، وربما سمى طلبه لتلك الأخلاق التي توجب رفعته تكبراً ، وليس كذلك وإن وافقه في الصورة ، لمفارقته له في المعنى فإنه صيانة النفس عن الذل ، وهو إنزال النفس دون منزلتها صنعة لا تواضعاً ، والكبر رد الحق واحتقار الناس ، ففي التقييد هنا إشارة خفية لإثبات العزة بالحق والوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الصنعة وقوفاً على شرط العزم المنصوب على متن نار الكبر ؛ قال الإمام السهروردي : ولا يؤيد في ذلك ويثبت عليه إلا أقدام العلماء الراسخين – قال تعالى احترازاً عنه ومدخلاً كل كبر خلا عن الحق الكامل : ﴿ بغير الحق ﴾ أي إنما يختار غير الأحسن من يختاره بقضائي الذي لا يرد وأمري العالي على أمر كل ذي جد فأزين لمن علمت خباثة عنصره ورداءة

جوهره ما أريد حتى يرتكبوا كل قبيحة ويتركوا كل مليحة ، فينصرفون عن الآيات ويعمون عن الدلالات الواضحات .

(5/288)

ولما أخبر بتكبرهم في الحال ، عطف عليه فعلهم في المآل فقال : ﴿ وإن يروا كل آية ﴾ أي مرئية أو مسموعة ﴿ لا يؤمنوا بها ﴾ أي لتكبرهم عن الحق ﴿ وإن يروا سبيل ﴾ أي طريق ﴿ الرشد ﴾ أي الصلاح والصواب الذي هو أهل للسلوك ﴿ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ أي فلا يسلكونه بقصد منهم ونظر وتعمد ، بل إن سلكوه فعن غير قصد ﴿ وإن يروا سبيل الغي ﴾ أي الضلال ﴿ يتخذوه سبيلاً ﴾ أي بغاية الشهوة والتعمد والاعتمال لسلوكه .

ولما كان هذا محل عجب ، أجاب من يسأل عنه بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الصرف العظيم الذي زاد عن مطلق الصرف بالعمى عن الإيمان واتخاذ الرشاد ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة ﴿ وكانوا عنها ﴾ أي خاصة جبلة وطبعاً ﴿ غافلين ﴾ أي كان دأبهم وديدنهم معاملتهم لها بالإعراض عنها حتى كأنها مغفول عنها فهم لذلك يصرون على ما يقع منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 111 .

112 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة قوله : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ [الأعراف : 145] ذكر في هذه الآية ما يعاملهم به فقال : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يمنع عن الإيمان ويصد عنه وذلك ظاهر ، وقالت المعتزلة : لا يمكن حمل الآية على ما ذكرتموه ويدل عليه وجوه :

الوجه الأول : قال الجبائي لا يجوز أن يكون المراد منه أنه تعالى يصرفهم عن الإيمان بآياته لأن قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ ﴾ يتناول المستقبل وقد بين تعالى أنهم كفروا فكذبوا من قبل هذا الصرف ، لأنه تعالى وصفهم بكونهم متكبرين في الأرض بغير الحق وبأنهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ، فثبت أن الآية دالة على أن

الكفر قد حصل لهم في الزمان الماضي ، فهذا يدل على أنه ليس المراد من هذا الصرف الكفر بالله .

الوجه الثاني : أن قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض ﴾ مذكور على وجه العقوبة على التكبر والكفر ، فلو كان المراد من هذا الصرف هو كفرهم ، لكان معناه أنه تعالى خلق فيهم الكفر عقوبة لهم على إقدامهم على الكفر ، ومعلوم أن العقوبة على الكفر بمثل ذلك الفعل المعاقب عليه لا يجوز ، فثبت أنه ليس المراد من هذا الصرف الكفر .

الوجه الثالث : أنه لو صرفهم عن الإيمان وصدهم عنه فكيف يمكن أن يقول مع ذلك ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق : 20] ، ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر : 49] ، ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ [الإسراء : 94 ، الكهف : 55] فثبت أن حمل الآية على هذا الوجه غير ممكن فوجب حملها على وجوه أخرى .

(7/288)

فالوجه الأول : قال الكعبي وأبو مسلم الأصفهاني : إن هذا الكلام تمام لما وعد الله موسى عليه السلام به من إهلاك أعدائه ، ومعنى صرفهم إهلاكهم فلا يقدرون على منع موسى

من تبليغها ولا على منع المؤمنين من الإيمان به ، وهو شبيه بقوله : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : 67] فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى عليه السلام من إيذائه ومنعه من القيام بما يلزمه في تبليغ النبوة والرسالة .

والوجه الثاني : في التأويل ما ذكره الجبائي فقال : سأصرف هؤلاء المتكبرين على نيل ما في آياتي من العز والكرامة المعدين للأنبياء والمؤمنين ، وإنما يصرفهم عن ذلك بواسطة إنزال الذل والإذلال بهم ، وذلك يجري مجرى العقوبة على كفرهم وتكبرهم على الله .

والوجه الثالث : أن من الآيات آيات لا يمكن الانتفاع بها إلا بعد سبق الإيمان .

فإذا كفروا فقد صيروا أنفسهم بحيث لا يمكنهم الانتفاع بتلك الآيات ، فحينئذ يصرفهم الله عنها .

والوجه الرابع : أن الله تعالى إذا علم من حال بعضهم أنه إذا شاهد تلك الآيات فإنه لا يستدل بها بل يستخف بها ولا يقوم بحقها ، فإذا علم الله ذلك منه ، صح من الله تعالى أن يصرفه عنه .

والوجه الخامس : نقل عن الحسن أنه قال : إن من الكفار من يبالغ في كفره وينتهي إلى الحد الذي إذا وصل إليه مات قلبه ، فالمراد من قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ هؤلاء .

فهذا جملة ما قيل في هذا الباب ، وظهر أن هذه الآية ليس فيها دلالة قوية على صحة ما

يقول به في مسألة خلق الأعمال .

والله أعلم .

المسألة الثانية :

معنى يتكبرون : أنهم يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم وهذه الصفة أعني التكبر لا تكون إلا لله تعالى ، لأنه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد فلا جرم يستحق كونه متكبراً ، وقال بعضهم : التكبر : إظهار كبر النفس على غيرها .

(8/288)

وصفة التكبر صفة ذم في جميع العباد ، وصفة مدح في الله جل جلاله ، لأنه يستحق إظهار ذلك على من سواه لأن ذلك في حقه حق .

وفي حق غيره باطل .

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية قوله : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ لأن إظهار الكبر على الغير قد يكون بالحق ، فإن للمحق أن يتكبر على المبطل ، وفي الكلام المشهور التكبر على المتكبر صدقة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ ففيه مباحث :

البحث الأول : قرأ حمزة والكسائي : ﴿ الرشد ﴾ بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين .

وفرق أبو عمرو بينهما فقال : ﴿ الرشد ﴾ بضم الراء الصلاح لقوله تعالى : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً ﴾ [النساء : 6] أي صلاحاً ، و ﴿ الرشد ﴾ بفتحهما الاستقامة في الدين .

قال تعالى : ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ [الكهف : 66] وقال الكسائي هما لغتان بمعنى واحد ، مثل الحزن والحزن ، والسقم والسقم ، وقيل : ﴿ الرشد ﴾ بالضم الاسم ، وبالفتحتين المصدر .

البحث الثاني : ﴿ سَبِيلَ الرشد ﴾ عبارة عن سبيل الهدى والدين الحق والصواب في العلم والعمل و ﴿ سَبِيلَ الغى ﴾ ما يكون مضاداً لذلك ، ثم بيّن تعالى أن هذا الصرف إنما كان لأمرين : أحدهما : كونهم مكذبين بآيات الله .

والثاني : كونهم غافلين عنها ، والمراد أنهم واظبوا على الإعراض عنها حتى صاروا بمنزلة الغافل عنها والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 3 . 5 ﴾

(9/288)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ ﴾

يعني : أصرف قلوب الذين يتكبرون عن الإيمان حتى لا يؤمنوا .

فأخذلهم بكفرهم ولا أوفقهم بتكذيبهم الأنبياء مجازاة لهم .

ويقال : أمنع قلوبهم من التفكر في أمر الدين وفي خلق السموات والأرض الذين يتكبرون .

﴿ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ يعني : يتعظمون عن الإيمان لكي لا يتفكروا في السماء ، ولا يعقلون فيها ، ولا يذكرونها .

ويقال : سأصرف عن النعماء التي أعطيتها المؤمنين يوم القيامة أصرف عنهم تلك النعمة ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ امتنعوا منها كي ﴿ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد ﴾ يعني : طريق الحق الإسلام ﴿ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ يعني : لا يتخذوه ديناً ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغى ﴾ يعني : طريق الضلالة والكفر ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ أي ديناً ويتّبعونه ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ قال مقاتل : أي بآياتنا التسع وقال الكلبي : يعني : بمحمد والقرآن ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غافلين ﴾ يعني : تاركين لها .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ سَبِيلَ الرشد ﴾ بنصب الراء ، والشين ، وقرأ الباقون ﴿ الرشد ﴾ بضم الراء وإسكان الشين وهما لغتان ومعناهما واحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ قال قوم : حكم الآية لأهل مصر خاصة يعني بقوله ﴿ آيَاتِيَ ﴾ يعني الآيات التسع التي أعطاها الله سبحانه موسى (عليه السلام) .

وقال آخرون : هي عامة ، وقال ابن جريج وابن زيد : يعني عن خلق السماوات والأرض وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والبحور والشجر والنبات وغيرها أصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها ، وقال الفراء أي الغرباني : إنّي أمنع قلوبهم عن التفكر في أمري .

وسمعت أبا القاسم الحبيبي قال : سمعت أبا سعيد محمد بن نافع السجزي بهراة يقول : سمعت أبا يزيد حاتم بن محبوب الشامي قال : سمعتُ عبد الجبار بن العلاء العطار قال : سمعت سفيان بن عيينة وسئل عن هذه الآية : أُحرمهم فَهْم القرآن .

سمعت أبا القاسم الحبيبي قال : سمعت أبا جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرازي قال : سمعت العباس بن حمزة قال : سمعت ذا النون المصري يقول : أبى الله أن يكرّم قلوب الظالمين مكتوب حكمة القرآن ﴿ وَإِن يَرَوْا ﴾ يعني هؤلاء المتكبّرين .

قرأ مالك بن دينار فإن يروا بضم الياء أي يفعل بهم ﴿ سَبِيلَ الرشد ﴾ طريق الهدي والسداد ﴿ لاَ يَتَّخِذُوهُ ﴾ لأنفسهم ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغي ﴾ يعني الضلال والهلاك ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ وقرأ مجاهد وحميد وطلحة والأعمش وحمزة ويحيى والكسائي : الرشد ، بفتح الراء والشين وهما لغتان كالسَقَم والسُقم والحَزَن والحُزن والبَخَل البُخل ، وكان أبو عمرو يفرق بينهما فيقول : الرشد بالضم والصلاح في الأمر كقوله : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً ﴾ [النساء : 6] والرشد بفتح بفتحتين الاستقامة في الدين ، وقرأ أبو عبد الرحمن الرشاد بالألف وهو مصدر كالعفاف والصلاح .

﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ لاهين ساهين لا يتفكرون فيها ولا يتعظون بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(11/288)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : سأمنعهم من فهم القرآن ، قاله سفيان بن عيينة .

والثاني : سأجعل جزاءهم على كفرهم ضلالهم عن الاهتداء بما جاء به من الحق .

والثالث : سأصرفهم عن دفع الانتقام عنهم .

وفي ﴿ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ وجهان :

أحدهما : يحقرون الناس ويرون أن لهم عليهم فضلاً .

والثاني : يتكبرون عن الإيمان واتباع الرسول .

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الرشد الإيمان ، والغي : الكفر .

والثاني : أن الرشد الهداية . والغي : الضلال .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : غافلين عن الإيمان .

والثاني : غافلين عن الجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(12/288)

وقال ابن عطية :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض ﴾

المعنى سأمنع وأصد ، وقال سفيان بن عيينة : الآيات هنا كل كتاب منزل .

قال القاضي أبو محمد : فالمعنى عن فهمها وتصديقها ، وقال ابن جريج : الآيات العلامات المنصوبة الدالة على الوحدانية .

قال القاضي أبو محمد : فالمعنى عن النظر فيها والتفكير والاستدلال بها ، واللفظ يعم الوجهين ، والمتكبرون بغير حق في الأرض هم الكفرة ، والمعنى في هذه الآية سأجعل الصرف عن الآيات عقوبة للمتكبرين على تكبرهم ، وقوله ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ حتم من الله عز وجل على الطائفة التي قدر ألا يؤمنوا ، وقراءة الجمهور : " يرَوا " بفتح الياء قرأها ابن كثير وعاصم ونافع وأبو جعفر وشيبة وشبل وابن وثاب وطلحة بن مصرف وسائر السبعة ، وقرأها مضمومة الياء مالك بن دينار ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر " الرشد " ، وقرأ ابن عامر في بعض ما روي عنه وأبو البرهسم " الرُّشد " بضم الراء والشين وقرأ حمزة والكسائي على أن " الرُّشد " بضم الراء وسكون الشين " الرَّشد " بفتحهما الدين ، وأما قراءة ابن عامر بضمهما فأتبعت الضمة الضمة ، وقرأ ابن أبي عبلة " لا يتخذوها وتتخذوها " على تأنيث " السبيل " ، والسبيل تؤنث وتذكر ، وقوله ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الصرف أي صرفنا إياهم وعقوبتنا لهم هي بكفرهم

وتكذيبهم وغفلتهم عن النظر في الآيات والوقوف عند الحجج ، ويحتمل أن يكون ذلك خبر ابتداء تقديره : الأمر ذلك ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بفعل تقديره فعلنا ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(13/288)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾

في هذه الآية قولان .

أحدهما : أنها خاصة لأهل مصر فيما رأوا من الآيات .

والثاني : أنها عامة ، وهو أصح .

وفي الآيات قولان .

أحدهما : أنها آيات الكتب المتلوّة .

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أمنعُهم فهمها .

والثاني : أمنعهم من الإيمان بها .

والثالث : أصرفهم عن الاعتراض عليها بالإبطال .

والثاني : أنها آيات المخلوقات كالسماء والأرض والشمس والقمر وغيرها ، فيكون المعنى : أصرفهم عن التفكر والاعتبار بما خلقتُ .

وفي معنى يتكبَّرون قولان .

أحدهما : يتكبَّرون عن الإيمان واتباع الرسول .

والثاني : يحقِّرون الناس ويرون لهم الفضل عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وإن يروا سبيل الرُّشْدِ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : "سبيل الرشد" بضم الراء خفيفة .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "سبيل الرَّشد" بفتح الراء والشين مثقلة .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأَنَّهم ﴾ قال الزجاج : فعل الله بهم ذلك بأنهم ﴿ كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ أي : كانوا في تركهم الإيمان بها والتدبر لها بمنزلة الغافلين .

ويجوز أن يكون المعنى : وكانوا عن جزائها غافلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(14/288)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾

قال قتادة : سأمنعهم فَهْمَ كتابي .

وقاله سفيان بن عُيينة .

وقيل : سأصرفهم عن الإيمان بها .

وقيل : سأصرفهم عن نفعها ؛ وذلك مجازاة على تكبّرهم .

نظيره : ﴿ فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] .

والآيات على هذه المعجزاتُ أو الكتبُ المنزّلة .

وقيل : خَلقُ السموات والأرض .

أي أصرفهم عن الاعتبار بها .

﴿ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ يَرَوْن أنهم أفضل الخلق .

وهذا ظن باطل ؛ فلهذا قال : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ فَلاَ يتبعون نَبِيّاً ولا يَصْغون إليه لتكبّرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ يعني هؤلاء المتكبرون .

أخبر عنهم أنهم يتركون طريق الرشاد ويتبعون سبيل الغيّ والضلال ؛ أي الكفر يتخذوه دِيناً .

ثم علل فقال : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ أي ذلك الفعل الذي فعلته بهم بتكذيبهم .

﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أي كانوا في تركهم تدبّر الحق كالغافلين .

ويحتمل أن يكونوا غافلين عما يُجازون به ؛ كما يقال : ما أغفل فلان عما يراد به ؛ وقرأ مالك بن دينار "وإن يُروا" بضم الياء في الحرفين ؛ أي يفعل ذلك بهم .

وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة "سَبيل الرُّشْد" بضم الراء وإسكان الشين .

وأهل الكوفة إلا عاصماً "الرَّشَد" بفتح الراء والشين .

قال أبو عبيد : فَرّق أبو عمرو بين الرُّشْد والرَّشَد فقال : الرُّشْد في الصلاح .

والرَّشَد في الدِّين .

قال النحاس : "سيبويه يذهب إلى أن الرُّشْد والرَّشَد مثل السُّخْط والسَّخَط ، وكذا قال الكسائي .

والصحيح عن أبي عمرو غيرُ ما قال أبو عبيد .

(15/288)

قال إسماعيل بن إسحاق : حدّثنا نصر بن عليّ عن أبيه عن أبي عمرو بن العلاء قال : إذا كان الرُّشْد وسطَ الآية فهو مسكَّن ، وإذا كان رأس الآية فهو محرّك .

قال النحاس : يعني برأس الآية نحو ﴿ وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ [الكهف : 10]

فهما عنده لغتان بمعنى واحد ؛ إلا أنه فتح هذا لتتفق الآيات .

ويقال : رَشَد يَرْشُد ، ورَشُد يَرْشد .

وحكى سيبويه رَشِد يَرْشد .

وحقيقة الرشْد والرَّشَد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد .

وهو ضدّ الخيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(16/288)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾

قال ابن عباس يريد الذين يتجبرون على عبادي ويحاربون أوليائي سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها حتى لا يؤمنوا بي عقوبة بحرمان الهداية لعنادهم الحق .

وقال سفيان بن عيينة : سأمنعهم فهم القرآن وقيل معناه سأصرفهم عن التفكير في خلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات والعبر وقيل حكم الآية لأهل مصر خاصة وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى لموسى والأكثرون على أن الآية فيه دليل

لمذهب أهل السنة على أن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويصرف عن آياته ويقبل الحق من يشاء ويوفق بالتفكر في آياته وقبول الحق من يشاء لأنه القادر على ما يشاء ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ ومعنى الذين يتكبرون الذين يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم والتكبر على هذه الصفة لا يكون إلا لله لأنه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد سواه فالتكبر في حق الله صفة مدح وفي حق المخلوقين صفة ذم لأنه تكبر بما ليس له ولا يستحقه وقيل التكبر إظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق جميع العباد وقوله يتكبرون من الكبر لا من التكبر أن يفتعلون التكبر ويرون أنهم أفضل من غيرهم فلذلك قال يتكبرون في الأرض بغير الحق بل بالباطل ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد ﴾ يعني طريق الحق والهدى والسداد والصواب ﴿ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ يعني لا يختاروه لأنفسهم طريقاً يسلكونه إلى الهداية ﴿ وإن يروا سبيل الغي ﴾ يعني طريق الضلال ﴿ يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ يعني ذلك اختاروه لأنفسهم من ترك الرشد واتباع الغي بسبب أنهم كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ يعني عن التفكر فيها والاتعاظ بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(17/288)

وقال أبو حيان :

﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾

لما ذكر ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ ذكر ما يفعل بهم تعالى من صرفه إياهم عن آياته لفسقهم وخروجهم عن طورهم إلى وصف ليس لهم ثم ذكر تعالى من أحوالهم ما استحقّوا به اسم الفسق ، قال ابن جبير سأصرفهم عن الاعتبار والاستدلال بالدلائل والآيات على هذه المعجزات وبدائع المخلوقات ، وقال قتادة : سأصدّهم عن الإعراض والطّعن والتحريف والتبديل والتغيير فالآيات القرآن فإنه مختص بصونه عن ذلك ، وقال سفيان بن عيينة سأمنعهم من تدبرها ونظرها النظر الصحيح المؤدّي إلى الحقّ ، وقال الزجاج : أجعل جزاءهم سأصرفهم عن دفع الانتقام أي إذا أصابتهم عقوبة لم يدفعها عنهم فالآيات على هذا ما حلّ بهم من المثلات التي صاروا بها مثلة وعبرة وعلى هذه الأقوال يكون ﴿ الذين يتكّبرون ﴾ عام أي كل من قام به هذا الوصف ، وقيل : هذا من تمام خطاب موسى ، والآيات هي التسع التي أعطيها والمتكبرون هم فرعون وقومه صرف الله قلوبهم عن الاعتبار بها بما انهمكوا فيه من لذّات الدنيا وأخذ الزمخشري بعض أقوال المفسرين فقال ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ بالطبع على قلوب المتكبّرين وخذلانهم فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم وفيه إنذار المخاطبين من عاقبة

والذين يصرفون عن الآيات لتكبّرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم انتهى ، و﴿ الذين يتكبرون ﴾ عن الإيمان قال ابن عطيّة : هم الكفرة والمعنى في هذه الآية سأجعل الصّرف عن الآيات عقوبة المتكبّرين على تكبّرهم انتهى ، وقيل هم الذين يحتقرون الناس ويرون لهم الفضل عليهم ، وفي الحديث الصحيح إنما الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس ويتعلق بغير الحق بيتكبرون أي بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم وقد يكون التكبّر بالحقّ كتكبّر المحقّ على المبطل لقوله تعالى :

(18/288)

﴿ أعزة على الكافرين ﴾ ويجوز أن يكون في موض الحال فيتعلق بمحذوف أي ملتبسين بغير الحقّ والمعنى غير مستحقّين لأنّ التكبر بالحق لله وحده لأنه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد .

﴿ وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها ﴾ وصفهم هذا الوصف الذّميم وهو التكبّر عن الإيمان حتى لو عرضت عليهم كل آية لم يروها آية فيؤمنوا بها وهذا ختم منه تعالى على الطائفة التي قدر أن لا يؤمنوا .

وقرأ مالك بن دينار : وإن ﴿ يروا ﴾ بضم الياء .

﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾ .

أُراهم الله السبيلين فرأوهما فآثروا الغيّ على الرشد كقوله ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ وقرأ الأخوان ﴿ الرشد ﴾ وباقي السبعة ﴿ الرّشد ﴾ ، وعن ابن عامر في رواية اتباع الشين ضمة الراء وأبو عبد الرحمن الرّشاد وهي مصادر كالسقم والسقم والسقام ، وقال أبو عمرو بن العلاء : ﴿ الرشد ﴾ الصّلاح في النظر وبفتحهما الدين ، وقرأ ابن أبي عبلة لا يتخذوها ويتخذوها على تأنيث السبيل والسبيل تذكر وتؤنث ، قال تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ ولما نفى عنهم الإيمان وهو من أفعال القلب استعار للرّشد والغي سبيلين فذكر أنهم تاركو سبيل الرشد سالكو سبيل الغي وناسب تقديم جملة الشرط المتضمنة سبيل الرشد على مقابلتها لأنها قبلها .

﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ فذكر موجب الإيمان وهو الآيات وترتّب نقيضه عليه وأتبع ذلك بموجب الرشد وترتب نقيضه عليه ثم جاءت الجملة بعدها مصرّحة بسلوكهم سبيل الغي ومؤكدة لمفهوم الجملة الشرطية قبلها لأنه يلزم من ترك سبيل الرّشد سلوك سبيل الغي لأنهما إما هدى أو ضلال فهما نقيضان إذا انتفى أحدهما ثبت الآخر .

﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين ﴾ .

أي ذلك الصرف عن الآيات هو سبب تكذيبهم بها وغفلتهم عن النظر فيها والتفكر في دلالتها والمعنى أنهم استمرّ كذبهم وصار لهم ذلك ديدناً حتى صارت تلك الآيات لا تخطر لهم ببال فحصلت الغفلة عنها والنسيان لها حتى كانوا لا يذكرونها ولا شيئاً منها والظاهر أنّ الصرف سببه التكذيب والغفلة ممن جميعهم ويُحتمل أن الصرف سببه التكذيب ويكون قوله : ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ استئناف إخبار منه تعالى عنهم أي من شأنهم أنهم كانوا غافلين عن الأيات وتدبرها فأورثتهم الغفلة التكذيب بها والظاهر أن ذلك مبتدأ وخبره بأنهم أي ذلك الصرف كائن بأنهم كذبوا وجوّزوا أن يكون منصوباً فقدّره ابن عطية فعلنا ذلك ، وقدّره الزمخشري صرفهم الله ذلك الصّرف بعينه وفي قوله تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكّبرون في الأرض بغير الحقّ ﴾ إشعار بأنّ الصرف سببه هذا التكبّر وفي قوله ﴿ ذلك بأنهم كذبوا ﴾ إعلام بأن ذلك الصّرف سببه التكذيب والجمع بينهما أن التكبر سبب أول نشأ عنه التكذيب فنسبه الصّرف إلى السبب الأول وإلى ما تسبب عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(20/288)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض ﴾

استئنافٌ مَسوقٌ لتحذيرهم عن التكبر الموجبِ لعدم التفكرِ في الآيات التي هي ما كتب في ألواح التوراةِ من المواعظ والأحكامِ أو ما يعمُّها وغيرَها من الآيات التكوينيةِ التي من جملتها ما وعد إراءَته من الفاسقين ومعنى صرفِهم عنها الطبعُ على قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ وتقديمُ الجارّ والمجرور على المفعول الصريحِ لإظهار الاعتناءِ بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر مع أن في المؤخَّرِ نوعَ طُولٍ يُخِل تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظمِ الجليلِ أي سأطبع على قلوب الذين يعدّون أنفسَهم كُبراءَ ويرَوْن لهم على الخلق مزيةً وفضلاً فلا ينتفعون بآياتي التنزيليةِ والتكوينيةِ ولا يغتنمون مغانمَ آثارِها ، فلا تسلُكوا مسلكَهم فتكونوا أمثالَهم ، وقي : المعنى سأصرِفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعونُ في إبطال ما رآه من الآيات فأبى الله تعالى إلا إحقاقَ الحقّ وإزهاقَ الباطل ، وعلى هذا فالأنسبُ أن يُرادَ بدار الفاسقين أرضُ الجبابرةِ والعمالقةِ المشهورين بالفسق والتكبر في الأرض وبإراءتها للمخاطَبين إدخالُهم الشامَ وإسكانُهم في مساكنهم ومنازِلهم حسبما نطَق به قولُه تعالى : ﴿ العالمين يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ويكون قولُه تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي ﴾ الخ ، جواباً عن سؤال مقدر ناشىءٍ من الوعد

بإدخال الشامِ على أن المرادَ بالآيات ما تُلي آنفاً ونظائرُه ، وبصرفهم عنها إزالتُهم عن مَقام معارضتِها وممانعتِها لوقوع أخبارِها وظهور أحكامِها وآثارِها بإهلاكهم على يد موسى عليه الصلاة والسلام حين سار بعد التّيهِ بمن بقيَ من بني إسرائيلَ أو بذرياتهم على اختلاف الروايتين إلى أريحا ويوشعُ بنُ نونٍ في مقدمته ففتحها واستقر بنو إسرائيلَ بالشام

(21/288)

وملكوا مشارقَها ومغاربَها كأنه قيل : كيف يرون دارهم وهم فيها ؟ فقيل : سأُهلِكُهم ، وإنما عدل إلى الصَرْف ليزدادوا ثقةً بالآيات واطمئناناً بها وقوله تعالى : ﴿ بغَيْرِ الحق ﴾ إما صلةٌ للتكبر أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينُهم الباطلُ وظلمُهم المُفْرِطُ أو متعلق بمحذوف هو حالٌ من فاعله أي يتكبرون ملتبسين بغير الحق وقوله تعالى ﴿ وَإِن يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها ﴾ عطفٌ على يتكبرون داخلٌ معه في حُكم الصلةِ والمرادُ بالآية إما المنزلةُ فالمرادُ برؤيتها مشاهدتُها بسماعها أو ما يعمُّها من المعجزات فالمرادُ برؤيتها مطلقُ المشاهَدةِ المنتظمةِ للسماع والإبصار ، أي وإن يشاهِدوا كلَّ آيةٍ من الآيات لا يؤمنوا بها على عموم النفي لا على نفي العُموم أي كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائِهم إياها كما هي وهذا كما ترى يؤيد كونَ الصرفِ بمعنى الطبع وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ عطفٌ على ما قبله داخلٌ في حكمه أي لا يتوجهون إلى الحق ولا يسلُكون سبيله أصلاً لاستيلاء الشيطنةِ عليهم ومطبوعيّتهم على الانحراف والزيغ ، وقرىء بفتحتين وقرىء الرشادِ وثلاثتُها لغات كالسُّقْم والسقام ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ أي يختارونه لأنفسهم مسلَكاً مستمراً لا يكادون يعدِلون عنه لموافقته لأهوائهم الباطلةِ وإفضائه بهم إلى شهواتهم ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من تكبُّرهم وعدمِ إيمانهم بشيء من الآيات وإعراضِهم عن سبيل الرشدِ وإقبالِهم التامّ إلى سبيل الغيِّ ، وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى : ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي حاصلٌ بسبب أنهم ﴿ كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ الدالةِ على بطلان ما اتصفوا به من القبائح وعلى حقية أضدادِها ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غافلين ﴾ لا يتفكرون فيها وإلا لما فعلوا ما فعلوا من الأباطيل ، ويجوز أن يكون إشارةً إلى ما ذُكر من الصرف ولا يمنعُه الإشعارُ

(22/288)

بعلّية ما في حيز الصلةِ كيف لا وقد مر أن ذلك في قوله تعالى :

﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ ﴾ الآية ، يجوز أن يكون إشارةً إلى ضرب الذلةِ والمسكنةِ والبَوْءِ بالغضب العظيمِ مع كون ذلك معللاً بالكفر بآيات الله صريحاً ، وقيل : محلُّ اسمِ الإشارةِ

النصبُ على المصدر ، أي سأصرفهم ذلك الصَّرْفَ بسبب تكذيبِهم بآياتنا وغفلتِهم عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(23/288)

وقال الآلوسى :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض ﴾

استئناف مسوق على ما قال شيخ الإسلام لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي كتبت في ألواح التوراة المتضمنة للمواعظ والأحكام أو ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية التي من جملتها ما وعدوا إراءته من دار الفاسقين ، ومعنى صرفهم عنها منعهم بالطبع على قلوبهم فلا يكادون يتفكرون فها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] أي سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ويرون أن لهم ارتفاعاً ف العالم السفلي ومزية على الخلق فلا ينتفعون بآياتي ولا يغتنمون مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم فتكونوا أمثالهم ، وقيل : هو جواب سؤال مقدر ناشىء من الوعد بإدخال أرض الجبابرة والعمالقة على أن المراد بالآيات ما تلي آنفاً ونظائره وبالصرف عنها إزالة المتكبرين عن مقام

معارضتها وممانعتها لوقوع أخبارها وظهور أحكامها وآثارها بإهلاكهم على يد موسى أو يوشع عليهما السلام ، كأنه قيل : كيف ترى دارهم وهم فيها ؟ فقيل لهم : سأهلكهم ، وإنما عدل إلى الصرف ليزدادوا ثقة بالآيات واطمئناناً بها ؛ وعلى هذين القولين يكون الكلام مع موسى عليه السلام ، والآية متعلقة إما بقوله سبحانه : ﴿ سأوريكم ﴾ [الأعراف : 145] وإما بما تقدمه على الوجه الذي أشير إليه آنفاً ، وجوز الطيبي كونها متصلة بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَرُّ ﴾ [الأعراف : 145] الخ على معنى الأمر كذلك ؛ وأما الإرادة فإني سأصرف عن الأخذ بآياتي أهل الطبع والشقاوة ، وقيل : الكلام مع كافري مكة والآية متصلة بقوله عز شأنه : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ [الأعراف : 100] الآية ، وإيراد قصة موسى عليه السلام وفرعون للاعتبار أي سأصرف المتكبرين عن إبطال الآيات وإن اجتهدوا كما فعل فرعون فعاد عليه فعله بعكس ما أراد ، وقيل : إن الآية على تقدير كون

(24/288)

الكلام مع قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتراض في خلاف ما سيق للاعتبار ومن حق من ساق قصة له أن ينبه على مكانه كلما وجد فرصة التمكن منه ، وتقديم الجار

والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع أن في المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الجليل ، واحتج بالآية بعض أصحابنا على أن الله تعالى قد يمنع عن الإيمان ويصد عنه وهو ظاهر على تقرير أن يراد بالصرف المنع عن الإيمان وليس بمتعين كما علمت ، وقد خاض المعتزلة في تأويلها فأولوها بوجوه ذكرها الطبرسي ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ إما صلة للتكبر على معنى يتكبرون ويتعززون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله أي يتكبرون ملتبسين بغير الحق ومآله يتكبرون غير محقين لأن التكبر بحق ليس إلا لله تعالى كما في الحديث القدسي الذي أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه

" الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النار " .

وقيل : المراد أنهم يتكبرون على من لا يتكبر كالأنباء عليهم السلام لأنه الذي يكون بغير حق ، وأما التكبر على المتكبر فهو بحق لما في الأثر التكبر على المتكبر صدقة ، وأنت تعلم أن هذا صورة تكبر لا تكبر حقيقة فلعل مراد هذا القائل : إن التقييد بما ذكر لإظهار أنهم يتكبرون حقيقة .

(25/288)

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ عطف على يتكبرون داخل معه في حكم الصلة ، والمراد بالآية إما المنزلة فالمراد برؤيتها مشاهدتها والإحساس بها بسماعها أو ما يعمها وغيرها من المعجزات ، فالمراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع والإبصار ، وفسر بعضهم الآيات فيما تقدم بالمنصوبة في الآفاق والأنفس ، والآية هنا بالمنزلة أو المعجزة لئلا يتوهم الدور على ما قيل فليفهم ، وجوز أن يكون عطفاً على سأصرف للتعليل على منوال قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وسليمان عِلْماً وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ ﴾ [النمل : 15] على رأي صاحب المفتاح ، وأياً ما كان فالمراد عموم النفي لا نفي العموم أي كفروا بكل أية آية ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد ﴾ أي طريق الهدى والسداد ﴿ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ أي لا يتوجهون إليه ولا يسلكونه أصلاً لاستيلاء الشيطنة عليهم .

وقرأ حمزة .

(26/288)

والكسائي ﴿ الرشد ﴾ بفتحتين ، وقرىء ﴿ الرشاد ﴾ وثلاثها لغات كالسقم والسقم والسقام ، وفرق أبو عمرو كما قال الجبائي بين الرشد والرشد بأن الرشد بالضم الصلاح في الأمر والرشد بالفتح الاستقامة في الدين ، والمشهور عدم الفرق ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغى

﴿ أي طريق الضلال ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ أي يختارونه لأنفسهم مسلكاً مستمراً لا يكادون يعدلون عنه لموافقته لأهوائهم وإفضائه بهم إلى شهواتهم ﴿ ذلك ﴾ أي المذكور من التكبر وعدم الإيمان بشيء من الآيات وإعراضهم عن سبيل الهدى وإقبالهم التام إلى سبيل الضلال حاصل ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح وعلى حقية أضدادها ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ غير معتدين بها فلا يتفكرون فيها وإلا لما فعلوا ما فعلوا من الأباطيل ، وجوز غير واحد أن يكون ذلك إشارة إلى الصرف ، وما فيه من البحث يدفع بأدنى عناية كما لا يخفى على من مدت إليه العناية أسبابها ، وأياً ما كان فاسم الإشارة مبتدأ والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبراً عنه كما أشرنا إليه .

وقيل : محل اسم الإشارة النصب على المصدر أي سأصرفهم ذلك الصرف بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها ، ولا مانع من كون العامل أصرف المقدم لأن الفاصل ليس بأجنبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(27/288)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

يجوز أن تكون هذه الآية تكملة لما خاطب الله به موسى وقومه ، فتكون جملة ﴿ سأصرف ﴾ الخ بأسهم ، استئنافاً بيانياً ، لأن بني إسرائيل كانوا يهابون أولئك الأقوام ويخْشوْن ، فكأنهم تساءلوا كيف تُرينا دارهم وَتعدُنا بها ، وهلْ لا نهلك قبل الحلول بها ، كما حكى الله عنهم ﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين ﴾ الآية في سورة العقود (22) وقد حكى ذلك في الإصحاح الرابع عشر من سفر العدد ، فاجيبوا بأن الله سيصرف أولئك عن آياته .

والصرف الدفع أي سَأَصُدُّ عن آياتي ، أي عن تعطيلها وإبطالها .

والآيات الشريعة ، ووعد الله أهلها بأن يورثهم أرض الشام ، فيكون المعنى سأتَوَلّى دفعهم عنكم ، ويكون هذا مثل ما ورد في التوراة في الإصحاح الرابع والثلاثين "ها أنا طاردٌ من قُدّامِك الأُموريين الخ" ، فالصرف على هذا الوجه عناية من الله بموسى وقومِه بما يُهيء لهم من أسباب النصر على أولئك الأقوام الأقوياء ، كإلقاء الرعبِ في قلوبهم ، وتشتيت كلمتهم ، وإيجاد الحوادث التي تفت في ساعد عُدتهم أو تكونُ الجملة جواباً لسؤال من يقول : إذا دخلنا أرض العدو فلعلهم يؤمنون بهدينا ، ويتبعون ديننا ، فلا نحتاج إلى قتالهم ، فأجيبوا بأن الله يَصرفهم عن إتباع آياته ؛ لأنهم جُبلوا على التكبر في الأرض ، والإعراضِ عن

الآيات ، فالصرف هنا صرف تكويني في نفوس الأقوام ، وعن الحسن : أن من الكفار من يبالغ في كفره وينتهي إلى حد إذا وصل إليه مَات قلبه .

وفي قَصِّ الله تعالى هذا الكلامَ على محمد صلى الله عليه وسلم تعريض بكفار العرب بأن الله دافِعُهم عن تعطيل آياته ، وبأنه مانع كثيراً منهم عن الإيمان بها لما ذكرناه آنفاً .

(28/288)

ويجوز أن تكون جملة ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ من خطاب الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم رَوى الطبري ذلك عن سفيان بن عيينة ، فتكون الجملة معترضة في أثناء قصة بني إسرائيل بمناسبة قوله : ﴿ سأُريكم دار الفاسقين ﴾ [الأعراف : 145] تعريضاً بأن حال مشركي العرب كحال أولئك الفاسقين ، وتصريحاً بسبب إدامتهم العناد والإعراض عن الإيمان ، فتكون الجملة مستأنفة استينافاً ابتدائياً ، وتأتي في معنى الصرف عن الآيات الوجوه السابقة واقتران فعل ﴿ سأصرف ﴾ بسين الاستقبال القريب تنبهه على أن الله يُعجل ذلك الصرف .

وتقديم المجرور على مفعول ﴿ أصرف ﴾ للاهتمام بالآيات ، ولأن ذكره عقب الفعل المتعلق هو به أحسنُ .

وتعريف المصروفين عن الآيات بطريق الموصولية للإيماء بالصلة إلى علة الصرف .

وهي ما تضمنته الصلات المذكورة ، لأن من صارت تلك الصفات حالات له يَنصره الله ، أو لأنه إذا صار ذلك حاله رين على قلبه ، فصرف قلبه عن إدراك دلالة الآيات وزالت منه الأهلية لذلك الفهم الشريف .

والأوصاف التي تضمنتها الصلات في الآية تنطبق على مشركي أهل مكة أَتمّ الانطباق .

والتكبر الاتصاف بالكبر .

وقد صيغ له الصيغة الدالة على التكلف ، وقد بينا ذلك عند قوله تعالى : ﴿ أَبى واستكبر ﴾ [البقرة : 34] وقوله : ﴿ استكْبرتم ﴾ في سورة البقرة (87) ، والمعنى : أنهم يُعْجبَون بأنفسهم ، ويعُدون أنفسهم عظماءَ فلا يأتمرون لآمر ، ولا ينتصحون لناصح .

وزيادة قوله : في الأرض ﴾ لتفضيح تكبرهم ، والتشهير بهم بأن كبرهم مظروف في الأرض ، أي ليس هو خفياً مقتصراً على أنفسهم ، بل هو مبثوث في الأرض ، أي مبثوث أثره ، فهو تكبر شائع في بقاع الأرض كقوله : ﴿ يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ [يونس : 23] وقوله : ﴿ ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ [البقرة : 27] وقوله : ﴿ ولا تمش في الأرض مَرحاً ﴾ [الإسراء : 37] وقولُ مرة بن عَدّاءَ الفقعسي:

فهلاّ أعدوني لمثلي تفاقَدوا . . .

وفي الأرْض مبثوثٌ شجاعٌ وعقرب

وقوله : ﴿ بغير الحق ﴾ زيادة لتشنيع التكبر بذكر ما هو صفة لازمة له ، وهو مغايرة الحق ، أي : باطل وهي حال لازمة للتكبر ، كاشفة لوصفه ، إذ التكبر لا يكون بحق في جانب الخلق ، وإنما هو وصف لله بحق ؛ لأنه العظيم على كل موجود ، وليس تكبر الله بمقصود أن يحترز عنه هنا حتى يجعل القيد ﴿ بغير الحق ﴾ للاحتراز عنه ، كما في "الكشاف" .

ومن المفسرين من حاول جعل قوله : ﴿ بغير الحق ﴾ قيداً للتكبر ، وجعل من التكبر ما هو حق ، لأن للمحق أن يتكبر على المبطل ، ومنه المقالة الشمهورة "الكِبْر على المتكبر صدقة" وهذه المقالة المستشهد بها جرت على المجاز أو الغلط .

وقوله : ﴿ وإن يَروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ عطف على قوله : ﴿ يتكبرون ﴾ فهو في حكم الصلة ، والقول فيه كالقول في قوله : ﴿ لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ﴾ في سورة يونس (96 ، 97) وكل مستعملة في معنى الكثرة ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولئن أتيتَ الذين أوتوا الكتاب بكل آية ﴾ في سورة البقرة (145) .

والسبيل مستعار لوسيلة الشيء بقرينة إضافته إلى الرشد وإلى الغي .

والرؤية مستعارة للإدراك .

والاتخاذ حقيقته مطاوع أخّذه بالتشديد ، إذا جعله آخذاً ، ثم أطلق على أخذ الشيء ولو لم يعطه إياه غيرُه ، وهوَ هنا مستعار للملازمة ، أي لا يلازمون طريق الرشد ، ويلازمون طريق الغي .

والرشد الصلاح وفعل النافع ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً ﴾ في سورة النساء (6) والمراد به هنا : الشيء الصالح كله من الإيمان والأعمال الصالحة .

والغي الفساد والضلال ، وهو ضد الرشد بهذا المعنى ، كما أن السفه ضد الرشد بمعنى حسن النظر في المال ، فالمعنى : أن يدركوا الشيءَ الصالح لم يعملوا به .

(30/288)

لغلبة الهوى على قلوبهم ، وإن يدركوا الفساد عملوا به لغلبة الهوى ، فالعمل به حمل للنفس على كلفة ، وذلك تأباه الأنفس التي نشأت على متابعة مَرغوبها ، وذلك شأن الناس الذين لم يروّضوا أنفسهم بالهدى الإلهي ، ولا بالحكمة ونصائح الحكماء والعقلاء ، بخلاف الغي ، فإنه ما ظهر في العالم إلاّ من آثار شهوات النفوس ودعواتها التي يزيّن لها الظاهر العاجل ، وتجهل عواقب السوء الآجلة ، كما جاء في الحديث : ﴿ حفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات ﴾ .

والتعبير في الصلات الأربع بالأفعال المضارعة : لإفادة تجدد تلك الأفعال منهم واستمرارهم عليها .

وقرأ الجمهور : ﴿ الرُشد ﴾ بضم فسكون وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف : بفتحتين ، وهما لغتان فيه .

وجملة : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأن توسيمهم بتلك الصلات يثير سؤالاً .

والمشار إليه بذلك ما تضمنه الكلام السابق ، نُزّل منزلة الموجود في الخارج وهو ما تضمنه قوله : ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ إلى آخر الآية ، واستعمل له اسم إشارة المفرد ؛ لتأويل المشار إليه بالمذكور كقوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ [الفرقان : 68] أي من يفعل المذكور ، وهذا الاستعمال كثير في اسم الإشارة ، وألحق به الضمير كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ في سورة البقرة (61) .

والباء السببية أي : كِبْرُهم .

وعدمُ إيمانهم ، واتباعُهم سبيل الغي ، وإعراضُهم عن سبيل الرشد سببه تَكذيبهم بالآيات ، فأفادت الجملة بيان سبب الكبر ، وما عطف عليه من الأوصاف التي هي سبب صرفهم عن الآيات ، فكان ذلك سبب السبب ، وهذا أحسن من إرجاع الإشارة إلى

الصرف المأخوذة من ﴿ سأصرف ﴾ لأن هذا المحمل يجعل التكذيب سبباً ثانياً للصرف ، وجعله سبباً للسبب أرشق .

(31/288)

واجتلبت (أن) الدالة على المصدرية والتوكيد ؛ لتحقيق هذا التسبب وتأكيده ، لأنه محل عرابة .

وجعل المسند فعلاً ماضياً ، لإفادة أن وصف التكذيب قديم راسخ فيهم ، فكان رسوخ ذلك فيهم سبباً في أن خُلق الطبعُ والختمُ على قلوبهم فلا يشعرون بنقائصهم ، ولا يصلحون أنفسهم ، فلا يزالون متكبرين معرضين غاوين .

ومعنى ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ إنهم ابتدأوا بالتكذيب ، ولم ينظروا ، ولم يهتموا بالتأمل في الآيات فداموا على الكبر وما معه ، فصرف الله قلوبهم عن الانتفاع بالآيات ، وليس المراد الإخبار بأنهم حصل منهم التكذيب ، لأن ذلك قد علم من قوله : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ .

والغفلة انصراف العقل والذهن عن تذكر شيء بقصدٍ أو بغير قصد ، وأكثر استعماله في القرآن فيما كان عن قصد بإعراض وتشاغل ، والمذموم منها ما كان عن قصد ، وهو مناط

التكليف والمؤاخذة ، فأما الغفلة عن غير قصد فلا مؤاخذة عليها ، وهي المقصود من قول علماء أصول الفقه : يمتنع تكليف الغافل .

وللتنبيه على أن غفلتهم عن قصد صيغ الإخبار عنهم بصيغة ﴿ كانوا عنها غافلين ﴾ للدلالة على استمرار غفلتهم .

وكونها دأباً لهم ، وإنما تكون كذلك إذا كانوا قد التزموها ، فأما لو كانت عن غير قصد . فإنها قد تعتريهم وقد تفارقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(32/288)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

والآيات جمع آية وهي الأمر العجيب ، وتطلق ثلاث إطلاقات ، فإما أن تكون آية كونية مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف اليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب ﴾ ، وإما أن تكون آية دلالة على صدق الرسول في البلاغ ، وإما أن تكون آية قرآنية فيها حكم من أحكام الله ، وهنا يقول الحق : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق . . . ﴾ [الأعراف : 146]

إذن يوضح سبحانه هنا أنه سيصرف الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق عن أن ينظروا نظر اعتبار في آيات الكون ، أو أن الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق سيبطل كيدهم في أن يتجهوا للحق بالهدم ؛ لأن الواحد من هؤلاء ساعة يرى آية من آيات الله سينظر إليها على أنها سحر ، أو شعوذة ، أو أن يقول عنها إنها ضمن أساطير الأولين .

إذن وجه الصرف أن يسلط الحق عليه من الكبر ما يجعله غير قادر على وزن الآية بالميزان الصحيح لها ، والمتكبر هو من ظن أن غيره أدنى منه وأقل منزلة ، ومقومات الكبر قد تكون قوة ، لكن ألم يرَ المتكبر قويًّا قد ضعف ؟ وقد يكون الثراء من مقومات التكبر ، لكن ألم يرَ المتكبر غنيًّا قد افتقر ؟ أو يكون المتكبر صاحب جاه ، ألم يرَ ذا جاه صار ذليلاً ؟ .

(33/288)

إذن فمن يتكبر ، عليه أن يتكبر بشيء ذاتي لا يُسْلَب منه أبداً . فإذا ما أردت أن تطبق هذا على البشر فلن تجد واحداً يستحق أن يكون متكبراً أبداً ؛ لأنه لا يوجد في الإنسان خاصية ذاتية فيه تلازمه ولا تفارقه أبداً ، بل كلها موهوبة ، ومن الأغيار التي تحدث وقد تزول . فكلها من الله وليست أموراً ذاتية ؛ لأن القوة فيك إن كانت ذاتية فحافظ عليها ، ولن تستطيع . وإن كان الثراء ذاتيًّا فحافظ على غناك أبداً ، ولن تستطيع . وإن كانت

العزة ذاتية فحافظ على عزتك أبداً ولن تستطيع . إذن فمقومات الكبرياء في البشر غير ذاتية .

وقوله سبحانه : ﴿ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحق ﴾ يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك في ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة ، ولذلك فالكبرياء لله وحده . واعلموا أن كل متكبر في الأرض لا يخطر الله بباله ؛ لأنه لو خطر الله بكماله وجلاله في باله لتضاءل ؛ لأن الله يخطر فقط ببال المتواضعين من الناس ، ولذلك نضرب هذا المثل : إننا نجد من حولنا إنساناً هو الرئيس الأعلى ، وهناك رئيس لطائفة ومرؤوس لآخر ، وهناك مرؤوس فقط . والرئيس المرؤوس لا يستطيع أن يجلس مع المرؤوسين له بتكبر ويضع ساقاً على ساق ويعطي أوامر ؛ لأنه قد يلتفت فيجد رئيسه وقد دخل عليه . فلو فعل الرئيس المرؤوس ذلك لضحك منه المرؤوسون له .

فكذلك الناس الذين لا يستحضرون الله في بالهم نجدهم مثار سخرية ، لكن الذين يستحضرون الله الذي له الكبرياء في السموات والأرض لا يتكبرون أبداً .

(34/288)

إنه سبحانه يصرف عن المتكبرين النظر في الآيات الكونية فلا يعتبرون ، ويصرف عنهم تصديق الآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، ويصرف عنهم القدرة على تصديق أحكام القرآن ، ويطبع على قلوبهم ، فما بداخل هذه القلوب من الكفر لا يخرج ، وما في خارج هذه القلوب من الإيمان لا يدخل . وهم برغم حركتهم في الحياة إلا أن الحق يعجزهم عن رؤية آياته في الكون . ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً . . . ﴾ [الأعراف : 146]

وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها ، وحين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً ؛ لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغي يطلق العِنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إلا إذا غفل عن معطيات الإيمان الذي يحرمه من شيء ليعطيه أشياء أثمن ، وهكذا تكون نظرة أهل الكبر سطحية . ونلحظ أن كلمة السبيل تأتي مرة كمذكر كقوله ؛ ﴿ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ ، ومرة تأتي مؤنثة ، فالحق يقول : ﴿ قُلْ هذه سَبِيلِي ﴾ .

وهنا يقول الحق عن الذين يتبعون سبيل الغي من أهل الكبر : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ . وقديماً قلنا إن الغفلة لا توجب الجزاء عليها ؛ لأن الغافل ساهٍ

وناس ، ولكن هؤلاء صدفوا عن الأمر صدوفاً عقليًّا مقصوداً ، لدرجة أنهم لا يعيرون الإيمان أي التفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(35/288)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون ﴾ يقول سأصرفهم عن أن يتفكروا في آياتي .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ قال : عن خلق السموات والأرض والآيات التي فيها ، سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها أو يعتبروا فيها .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سفيان بن عيينة في قوله ﴿ سأصرف

عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أنزع عنهم فهم القرآن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(36/288)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " بِغَيْرِ الحَقِّ " فيه وجهان :

أحدهما : أنَّه متعلِّقٌ بمحذوفٍ على أنَّهُ حالٌ ، أي : يَتَكَبَّرُونَ ملتبسين بغير الحقِّ .

والثاني : أنه متعلِّق بالفعلِ قبله ، أي : يتكبرون بما ليس بحق ، والتَّكَبُّرُ بالحقِّ لا يكونُ إلاَّ لِلَّهِ تعالى خاصَّة .

قال بعضهم : وقد يكون إظْهَارُ الكبرِ على الغَيْرِ بالحقِّ ، فإنَّ للمحقِّ أن يتكبَّرَ على المُبْطِلِ وفي الكلامِ المشهور : التَّكبر على المتكبر صدقةٌ .

قوله : " وإن يَرَوْا الظَّاهرُ أنَّها بصريَّةٌ ، ويجوزُ أن تكون قلبية ، والثَّاني محذوفٌ لِفَهْمِ المعنى : كقول عنترة : [الكامل]

2574 - وَلَقَدْ نَزلْتِ فلا تَظُنِّي غَيْرَهُ . . .

مِنّي بِمنْزِلَةِ المُحَبِّ المُكْرَمِ

أي : فلا تظني غيره واقعاً مني ، وكذا الآية الكريمة ، أي : وإن يَرَوْا هؤلاء المتكبرين كل آية جائية ، أو حادثة .

وقرأ مالك بن دينارٍ " وإن يُرَوْا " مبنياً للمفعول من أري المنقول بهمزة التعدية .

قوله : " سَبِيلَ الرُّشْدِ " قرأ حمزة والكسائي هنا وأبو عمرو في الكهف في قوله : ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ [الكهف : 66] خاصة دون الأولين فيها بفتحتين ، والباقون بضمة وسكون واختلف النَّاسُ فيهما هل هما بمعنى واحد .

فقال الجمهور نعم لغتان في المصدر كالبُخْلِ والبَخَل ، والسُّقْم والسَّقَم ، والحُزْن والحَزَن .

وقال أبو عمرو بن العلاءِ : " الرُّشْدُ – بضمة وسكون – الصَّلاحُ في النَّظر ، وبفتحتين الدِّين " ولذلك أجمع على قوله : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً ﴾ [النساء : 6] بالضمِّ والسُّكْون ، وعلى قوله ﴿ فأولئك تَحَرَّوْا رَشَداً ﴾ [الجن : 14] بفتحتين .

ورُوي عن ابن عامر " الرُّشُد " بضمتين وكأَنَّهُ من باب الإتباع ، كاليُسُر والعُسُر وقرأ السلمي الرَّشَاد بألف فيكون : الرُّشْد والرَّشَد والرَّشَاد كالسُّقْم والسَّقَم والسَّقَام .

وقرأ ابنُ أبي عَبْلَة لا يتَّخِذُوَها ، ويتَّخِذُوها بتأنيث الضَّمير ، لأنَّ السبيل يَجُوزُ تأنيثُها .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هذه سبيلي ﴾ [يوسف : 108] .

والمُرادُ بسَبيل الرُّشْدِ سبيل الهدى والدين ، وسَبيلَ الغَيِّ ضد ذلك .

قوله : " ذَلِكَ " فيه وجهان :

أظهرهما : أنَّهُ مبتدأ ، خبره الجارُّ بعده ، أي : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم .

والثاني : أنَّه في محلِّ نصب ، ثم اختلفَ في ذلك .

فقال الزَّمخشريُّ : " صَرَفَهُمُ اللَّهُ ذلك الصَّرْفَ بعينه " .

فجعله مصدراً .

وقال ابْنُ عطيَّة : فعلنا ذلك فجعله مفعولاً به وعلى الوجهين فالباءُ في بأَنَّهُمْ متعلقةٌ بذلك المحذوف .

قوله : ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ .

في هذه الجملة احتمالان :

أحدهما : أنَّهَا نَسَقٌ على خبر أنَّ ، أي : ذلك بأَنَّهُمْ كذّبوا ، وبأَنَّهُمْ كانوا غافلين عن آياتنا .

(37/288)

والثاني : أنَّها مستأنفةٌ ، أخبر اللَّهُ تعالى عنهم بأنهم من شأنهم الغفلة عن الآيات وتدبرها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 312.314 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ .

سأَحْرُمُ المتكبرين بركاتِ الاتباع حتى لا يقابلوا الآياتِ التي يُكاشَفُون بها بالقبول ، ولا يسمعوا ما يُخَاطَبُون به بسمع الإيمان .

والتكبُّر جحدُ الحق – على لسان العلم ، فَمَنْ جَحَدَ حقائقَ الحقِّ فجحودُه تكبُّره واعتراضُه على التقدير مما يتحقق جحودُه في القلب .

ويقال التكبُّر توهمُ استحقاقِ الحقِّ لك .

ويقال من رأى لنفسه قيمةً في الدنيا والآخرة فهو متكبّر .

ويقال مَنْ ظَنَّ أَنَّ شيئاً منه أو له أو إليه – من النفي والإثبات – إلا على وجه الاكتساب فهو متكبّر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 569.570 ﴾

(38/288)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (147) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر أحوال المتكبرين الذين أداهم كبرهم إلى التكذيب في الدنيا ، ذكر أحوالهم في الآخرة فقال : ﴿ والذين ﴾ أي كذبوا بها والحال أن الذين ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ أي فلم يعتبروا عظمتها ﴿ ولقاء الآخرة ﴾ أي ولقائهم إياها أو لقائهم ما وعدوا به فيها ، اللازم من التكذيب بالآيات الحامل التصديق بها على معالي الأخلاق ﴿ حبطت ﴾ أي فسدت فسقطت ﴿ أعمالهم ﴾ والآية من الاحتباك : إثبات الغفلة أولاً يدل على إرادتها ثانياً ، واللقاء ثانياً يدل على إرادته أولاً .

ولما كان كأنه قيل : لم بطلت ؟ قيل : ﴿ هل يجزون إلا ما ﴾ أي جزاء ما ﴿ كانوا يعملون ﴾ أي بإبطال أعمالهم وإن عملوا كل حسن سوى الإيمان بسبب أنهم أبطلوا الآيات والآخرة بتكذيبهم بها ، أي عدوها باطلة ، والجزاء من جنس العمل ، والحاصل أنهم لما عموا عن الآيات لأنهم لم ينظروا فيها ولا انقادوا مع ما دلت عقولهم عليه من أمرها ، بل سدوا باب الفكر فيها ؛ زادهم الله عمى فختم على مداركهم ، فصارت لا ينتفع بها

فصاروا لا يعون ، وهذه الآيات أعظم زاجر عن التكبر ، فإنها بينت أنه يوجب الكفر والإصرار عليه والوهن في جميع الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 112 ﴾

(39/288)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما لأجله صرف المتكبرين عن آياته بقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بآياتنا وَكَانُواْ عَنْهَا غافلين ﴾ [الأعراف : 146] بين حال أولئك المكذبين ، فقد كان يجوز أن يظن أنهم يختلفون في باب العقاب لأن فيهم من يعمل بعض أعمال البر ، فبين تعالى حال جميعهم سواء كان متكبراً أو متواضعاً أو كان قليل الإحسان ، أو كان كثير الإحسان ، فقال : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا وَلِقَآءِ الأخرة ﴾ يعني بذلك جَحْدهم للميعاد وجرأتهم على المعاصي ، فبين تعالى أن أعمالهم محبطة ، والكلام في حقيقة الإحباط قد تقدم في سورة البقرة على الاستقصاء فلا فائدة في الإعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وفيه حذف والتقدير : هل يجزون إلا بما كانوا يعملون ؟ أو على ما كانوا يعملون .

واحتج أصحابنا بهذه الآية على فساد قول أبي هاشم في أن تارك الواجب يستحق العقاب بمجرد أن لا يفعل الواجب ، وإن لم يصدر منه فعل عند ذلك الواجب قالوا : هذه الآية تدل على أنه لا جزاء إلا على العمل ، وليس ترك الواجب بعمل ، فوجب أن لا يجازي عليه ، فثبت أن الجزاء إنما حصل على فعل ضده .

وأجاب أبو هاشم : بأني لا أسمي ذلك العقاب جزاء فسقط الاستدلال .

وأجاب أصحابنا عن هذا الجواب : بأن الجزاء إنما سمي جزاء لأنه يجزي ويكفي في المنع من النهي ، وفي الحث على المأمور به فإن ترتب العقاب على مجرد ترك الواجب كان ذلك العقاب كافياً في الزجر عن ذلك الترك فكان جزاء ، فثبت أنه لا سبيل إلى الامتناع من تسميته جزاء والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 5 ﴾

(40/288)

وقال السمرقندى :

ثم قال عز وجل : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ أي بمحمد والقرآن ﴿ وَلِقَاء الآخرة ﴾ يعني

: كذبوا بالبعث بعد الموت ﴿ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ يعني : بطلت حسناتهم ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ أي هل يثابون ﴿ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ الآية ،

هذه الآية مؤكدة للتي قبلها وسوقها في جملة المكذب به ، ولقاء الآخرة لفظ يتضمن تهديداً أي هنالك يفتضح لهم حالهم ، و ﴿ حبطت ﴾ معناه سقطت وفسدت وأصل الحبط فيما تقدم صلاحه ولكنه قد يستعمل في الذي كان أول مرة فاسداً إذ مآل العاملين واحد ، وقوله ﴿ هل يجزون ﴾ استفهام بمعنى التقرير أي يستوجبون بسوء فعلهم إلا عقوبة ، وساغ أن يستعمل ﴿ حبطت ﴾ هنا إذ كانت أعمالهم في معتقداتهم جارية في طريق صلاح فكأن الحبط فيها إنما هو بحسب معتقداتهم وأما بحسب ما هي عليه في أنفسها ففاسدة منذ أول أمرها ، ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم أي فساداً لكثرة الأكل بعد الصلاح الذي كان أولاً ، وقرأ ابن عباس وأبو السمال " حبَطت " بفتح الباء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾

يعني ولقاء الدار الآخرة التي فيها الثواب والعقاب ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ يعني بطلت فصارت كأن لم تكن والمعنى أنه قد يكون في الذين يكذبون بآيات الله من يعمل البر والإحسان والخير فبين الله تعالى بهذه الآية أن ذلك ليس ينفعهم من كفرهم وتكذيبهم بآيات الله وإنكارهم الدار الآخرة والبعث ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ يعني هل يجزون في العقبى إلا جزاء العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(42/288)

وقال أبو حيان :

﴿ والذين كذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعلمون ﴾

ذكر تعالى ما يؤول إليه في الآخرة أمر المكذبين فذكر أنه يحبط أعمالهم أي لا يعبأ بها وأصل الحبْط أن يكون فيما تقدم صلاحه فاستعمل الحبوط هنا إذا كانت أعمالهم في معتقداتهم

جارية على طريق صالح فكان الحبط فيها بحسب معتقداتهم إذ المكذّب بالآيات قد يكون له عمل فيه إحسان للناس وصفح وعفو عمن جنى عليه وكلّ ذلك لا يجازى عليه في الآخرة فشمل حبط الأعمال من له عمل برّ ومن عمله من أوّل مرة فاسد ونبّه بلقاء الآخرة على محلّ افتضاحهم وجزائهم وتهديداً لهم ووعيداً بها وأنها كائنة لا محالة وإضافة ﴿ لقاء ﴾ إلى ﴿ الآخرة ﴾ إضافة المصدر إلى المفعول أي ولقائهم الآخرة.

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به أي ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها ومن إضافة المصدر إلى الظرف لأنّ الظرف هو على تقدير في والإضافة عندهم إنما هي على تقدير اللام أو تقدير من على ما بين في علم النحو فإنّ اتسع في العامل جاز أن ينصب الظرف نصب المفعول به وجاز إذ ذاك أن يُضاف مصدره إلى ذلك الظرف المتسع في عامله وأجاز بعض النحويين أن تكون الإضافة على تقدير في كما يفهمه ظاهر كلام الزمخشري، وهو مذهب مردود في علم النحو.

و ﴿ هل يجزون ﴾ استفهام بمعنى التقدير أي يستوجبون بسوء فعلهم العقوبة، قال ابن عطية: والظاهر أنه استفهام بمعنى النفي ولذلك دخلت ﴿ إلا ﴾ والاستفهام الذي هو بمعنى التقرير هو موجب من حيث المعنى فيبعد دخول إلا ولعله لا يجوز. انتهى انتهى. اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا وَلِقَاء الآخرة ﴾

أي وبلقائهم الدارَ الآخرةَ أو لقائهم ما وعده الله تعالى في الآخرة من الجزاء ومحلُّ الموصولِ الرفعُ على الابتداء وقوله تعالى : ﴿ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ خبرُه أي ظهر بُطلانُ أعمالِهم التي كانوا عمِلوها من صلة الأرحامِ وإغاثةِ الملهوفين ونحوِ ذلك ، أو حبطت بعد ما كانت مرجُوَّةَ النفعِ على تقدير إيمانهم بها ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ أي لا يُجزون ﴿ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي الإجزاءَ ما كانوا يعمَلونه من الكفر والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾

أي لقائهم الدار الآخرة على أنه من إضافة المصدر إلى المفعول وحذف الفاعل أو لقائهم ما وعده الله تعالى في الآخرة من الجزاء على أن الإضافة إلى الظرف على التوسع .

والمفعول مقدر كالفاعل ومحل الموصول في الاحتمالين الرفع على الابتداء ، وقوله تعالى : ﴿ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ خبره أي ظهر بطلان أعمالهم التي كانوا عملوها من صلة الأرحام وإغاثة الملهوفين بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير إيمانهم بها ، وحاصله أنهم لا ينتفعون

بأعمالهم وإلا فهي أعراض لا تحبط حقيقة ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ أي لا يجزون يوم القيامة .

﴿ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي إلا جزاء ما استمروا على عمله من الكفر والمعاصي وتقدير هذا المضاف لظهور أن المجزي ليس نفس العمل ، وقيل : إن أعمالهم تظهر في صور ما يجزون به فلا حاجة إلى التقدير ، وهذه الجملة مستأنفة ، وقيل : هي الخبر والجملة السابقة في موضع الحال بإضمار قد ، واحتجت الأشاعرة على ما قيل بهذه الآية على فساد قول أبي هاشم أن تارك الواجب يستحق العقاب وإن لم يصدر عنه فعل الضد لأنها دلت على أنه لا جزاء إلا على عمل وترك الواجب ليس به .

وأجاب أبو هاشم بأني لا أسمي ذلك العقاب جزاء ، ورد بأن الجزاء ما يجزي أي يكفي في المنع عن المنهي عنه والحث على المأمور به والعقاب على ترك الواجب كاف في الزجر عن ذلك الترك فكان جزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(44/288)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

يجوز أن تكون هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ [الأعراف :

146] إلى آخر الآيات على الوجهين السابقين ويجوز أن يكون معطوفة على جملة ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ [الأعراف : 146] ، ويجوز أن تكون تذييلاً معترضاً بين القصتين وتكون الواو اعتراضية ، وأياً ما كان فهي آثارها الإخبار عنهم بأنهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، فإن ذلك لما كان هو الغالب على المتكبرين الجاحدين للآيات ، وكأن لا تخلو جماعة المتكبرين من فريق قليل يتخذ سبيل الرشد عن حلم وحب للمحمدة ، وهم بعض سادة المشركين وعظماؤهم في كل عصر ، كانوا قد يحسب السامع أنْ ستنفعهم أعمالهم ، أزيل هذا التوهم بأن أعمالهم لا تنفعهم مع التكذيب بآيات الله ولقاء الآخرة ، وأشير إلى أن التكذيب هو سبب حبط أعمالهم بتعريفهم بطريق الموصولية ، دون الإضمار ، مع تقدم ذكرهم المقتضي بحسب الظاهر الإضمار فخولف مقتضى الظاهر لذلك .

وإضافة ﴿ ولقاء ﴾ إلى ﴿ الآخرة ﴾ على معنى (في) لأنها إضافة إلى ظرف المكان ، مثلُ ﴿ عقْبى الدار ﴾ [الرعد : 24] أي لقاء الله في الآخرة ، أي لقاء وعده ووعيده .

والحبط فساد الشيء الذي كان صالحاً ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾ في سورة المائدة (5) .

وجملة : ﴿ هل يُجْزَون إلاّ ما كانوا يعملون ﴾ مستأنفة استينافاً بيانياً ، جواباً عن سؤال ينشأ عن قوله : ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ إذ قد يقول سائل : كيف تحبط أعمالهم الصالحة ، فأجيب بأنهم جُوزُوا كما كانوا يعملون ، فإنهم لما كذبوا بآيات الله كانوا قد أحالوا الرسالة والتبليغ عن الله ، فمن أين جاءهم العلم بأن لهم على أعمالهم الصالحة جزاءً حسناً ، لأن ذلك لا يعرف إلاّ بإخبار من الله تعالى ، وهم قد عطلوا طريق الإخبار وهو الرسالة ، ولأن الجزاء إنما يظهر في الآخرة ، وهم قد كذبوا بلقاء الآخرة ، فقد قطعوا الصلة بينهم وبين الجزاء ، فكان حبط أعمالهم الصالحة وفاقاً لاعتقادهم .

والمراد بـ ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ ما كانوا يعتقدون ، فأطلق على التكذيب بالآيات وبلقاء الآخرة فعلُ ﴿ يَعملون ﴾ لأن آثار الاعتقاد تظهر في أقوال المعتقد وأفعاله ، وهي من أعماله .

والاستفهام بـ ﴿ هل ﴾ مُشْرب معنى النفي ، وقد جعل من معاني (هل) النفيُ ، وقد بيناه عند قوله تعالى : ﴿ هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾ في سورة النمل (90) ، فانظره هناك .

﴿ وما كانوا يعملون ﴾ مقدر فيه مضاف ، والتقدير مكافىء ما كانوا يعملون بقرينة قوله : ﴿ يُجزون ﴾ لأن الجزاء لا يكون نفس المجزي عليه ، فإن فعل جَزى يتعدى إلى العوض

المجعول جزاء بنفسه ، ويتعدى إلى العمل المجزي عليه بالباء ، كما قال تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ [الإنسان : 12] ونظير هذه الآية قوله في سورة الأنعام (139) ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(46/288)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

وقد جاء لفظ الآيات هنا أكثر من مرة ، فقد قال الحق : ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ . ويقول أيضاً : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ والذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ .

إذن فالمسألة كلها مناطها في الآيات الكونية للاستدلال على من أوجدها ، والإعجازية للاستدلال على صدق مَنْ أرسل من الرسل ، والقرآنية لأخذ منهج الله لتقويم واستواء حركة الإنسان . ﴿ والذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخرة حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 147]

ويقال : حبط الشيء أي انتفخ وورم من علة أو مرض . أي أنهم في ظاهر الأمر يبدو لهم

أنهم عملوا أعمالا حسنة ولكنها في الواقع أعمال باطلة وفاسدة ، وقد يوجد من عمل عملاً حسناً نافعاً للناس ، ولكن ليس في باله أنه بفعل ذلك إرضاء لله ، بل للشهرة لينتشر ذكره ويذيع صِيتُه ويثني الناس عليه ، أو للجاه والمركز والنفوذ . ولذلك حين " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الشهيد ؟ . قال :

" من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .

لأن الرجل قد يقاتل حمية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع . إذن فهناك من يعمل عملاً ليفتخر به . ويقال مثلاً : إن الكفار هم من اكتشفوا الميكروب وصعدوا إلى الفضاء . ونقول : نعم لقد أخذوا التقدير من الناس لأن الناس كانت في بالهم ، ولن يأخذوا التقدير من الله لأنهم عملوا أعمالهم وليس في بالهم الله . والإنسان يأخذ أجره ممن عمل له ، والله سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم في الدنيا ، لكن حرث الآخرة ليس لهم . ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا . . . ﴾ [الشورى : 20]

(47/288)

فمن زرع وأحسن اختيار البذور ، واختيار التربة وروى بنظام يأتي له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب ، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكن مَن خلق الله ، مؤمناً كان أو كافراً ، عاصيًا أو طائعاً ، لكن عطاء الألوهية يكون في اتباع المنهج ب " افعل ولا تفعل " وهذا خاص بالمؤمنين ، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة في السنن الكونية .

يأخذون حظهم منها ، والكافرون أيضاً يأخذون حظهم منها ، إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب ؛ ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم . وأخذ المكافآت والجوائز وحفلات التكريم . أما جزاء الآخرة فيأخذه من عمل لرب الآخرة ، أما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله فهو سبحانه يقول في حقهم : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23]

وكذلك يقول : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً . . . ﴾ [النور : 39]

فالكافرون مثلهم مثل الظمآن الذي يسير في صحراء ويخيل له أن أمامه ماء ، ويمشي ويمشي فلا يجد ماء .

أما غير الظمآن فلا يهمه إن كان هناك ماء أو لا يوجد ماء ، فالظمآن ساعة يرى السراب يمني نفسه بأن المياه قادمة وأنه سيحصل عليها . ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً . . . ﴾ [النور : 39]

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً ، بل يفاجأ : ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ ﴾ . إنه يفاجأ بأن الإله الذي كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة فيوفيه حسابه ويجزيه على عمله القبيح . إذن فإن عمل الإنسان عملاً فلينتظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس في باله الله فعليه ألاّ يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطي الله لهؤلاء الأجر في قانون نواميس الحياة الكونية ؛ لأن من يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه . ﴿ والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخرة حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 147]

هم إذن كذبوا بآيات الله ، وكذبوا باليوم الآخر ، ولم يعملوا وفق منهج الإيمان ، فلهم جزاء وعقاب من الحق الذي أنزل هذا المنهج ، ولكنّهم أعرضوا عنه وكذبوه .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 103-104] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ والذين كَذَّبُواْ ﴾

في خبره وجهان ، أحدهما : أَنَّهُ الجملةُ من قوله " حَبِطَتْ أعْمالُهُم " و " هل يُجْزَونَ " – خبر ثان ، أو مستأنف والثاني : أنَّ الخبر هَلْ يجزونَ والجملةُ من قوله حَبِطَتْ في محلِّ نصب على الحالِ ، و " قَدْ " مضمرة معه ، عند من يشترط ذلك ، وصاحبُ الحال فاعل كُذَّبُوا .

قوله : ولقاء الآخرةِ فيه وجهان ، أحدهما : أَنَّهُ من باب إضافة المصدر لمفعوله ، والفاعل محذوف ، والتقديرُ : ولقائهم الآخرة .

والثاني : أَنَّهُ من باب إضافة المصدر للظرف يعني : ولقاء ما وعد الله في الآخرة .

ذكرهما الزمخشريُّ .

قال أبو حيَّان : " ولا يُجيز جُلَّةُ النَّحويين الإضافة إلى الظَّرف ، لأنَّ الظَّرف على تقدير " في " ، والإضافةُ عندهم على تقدير اللاَّم ، أو " مِنْ " فإن اتُّسِعَ في العَامِل جازَ أن يُنْصبَ الظرفُ نَصْبَ المفعول ، ويجوزُ إذْ ذاك أن يُضافَ مصدرُه إلى ذلك الظَّرف المُتَّسَع في عامِلِهِ ، وأجازَ بعضُ النَّحويين أن تكون الإضافةُ على تقدر " في " كما يفهِمُ ظاهرُ كلام الزمخشري " .

قوله : ﴿ هَلْ يَجْزَوْنَ ﴾

هذا الاستفهامُ معناه النَّفي ، لذلك دخلت : " إلاَّ " ولو كان معناه التقرير لكان مُوجباً ، فيبعدُ دخول " إلاَّ " أو يمتنع .

وقال الواحديُّ هنا : " لا بد من تقدير محذوفٍ أي : إلا بِمَا كانُوا أو على ما كانُوا ، أو جزاء ما كانوا " وتقريره : أنَّ نفس ما كانوا يعملونه لا يُجْزونَهُ إنَّمَا يُجْزَوْنَ بمقابلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 314 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

تبيَّن بهذا أنه لا يكفي شهودُ الحقِّ حقاً وشهودُ الباطلِ باطلاً بل لا بُدَّ من شهود الحق من وجود التوفيق للحق ، ومنع شهود الباطل من وجود العصمة من اتباع الباطل .

ويقال إنَّ الجاحِدَ للحقِّ – مع تحققه به – أقبحُ حالةً من الجاهل به المُقصِّرِ في تعريفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 570 ﴾

فصل

قال الإمام تاج الدين السبكى فى ترجمة

أحمد بن الحسن الجاربردي ما نصه :

الشيخ الإمام فخر الدين نزيل تبريز

كان فاضلا دينا متفننا مواظبا على الشغل بالعلم وإفادة الطلبة

شرح منهاج البيضاوي في أصول الفقه وتصريف ابن الحاجب وقطعة من الحاوي وله على الكشاف حواش مشهورة وقد أقرأه مرات عديدة بلغنا أنه اجتمع بالقاضي ناصر الدين البيضاوي وأخذ عنه

توفي بتبريز في شهر رمضان سنة ست وأربعين وسبعمائة

أنشدونا عنه

(عجبا لقوم ظالمين تستروا *** بالعدل ما فيهم لعمري معرفه)

(قد جاءهم من حيث لا يدرونه *** تعطيل ذات الله مع نفي الصفه)

وهذان البيتان عارض بهما الزمخشري في قوله

(لجماعة سموا هواهم سنة *** وجماعة حمر لعمري مؤكفه)

(قد شبهوه بخلقه وتخوفوا *** شنع الورى فتستروا بالبلكفه)

وقد عاب أهل السنة بيتي الزمخشري وأكثروا القول في معارضتهما ومن أحسن ما سمعته

في معارضتهما ما أنشدناه شيخنا أبو حيان النحوي في كتابه عن العلامة أبي جعفر بن الزبير بغرناطة إجازة لم يكن سماعا أنشدنا القاضي الأديب أبو الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السكوني بقراءتي عليه عن أخيه أبي بكر من نظمه ثم رأيتها في كتاب أبي علي عمر بن محمد بن خليل المسمى ب التمييز لما أودعه الزمخشري في كتابه من الاعتزال في الكتاب العزيز وقال أجابه عم

والدي وهو يحيى بن أحمد الملقب بخليل بهذه القصيدة ولوالدي فيها تكميل ولي فيها تتميم وتذييل

(شبهت جهلا صدر أمة أحمد *** وذوي البصائر بالحمير المؤكفه)

(وزعمت أن قد شبهوا معبودهم *** وتخوفوا فتستروا بالبلكفه)

(ورميتهم عن نبعة سويتها *** رمي الوليد غدا يمزق مصحفه)

(نطق الكتاب وأنت تنطق بالهوى *** فهوى الهوى بك في المهاوي المتلفه)

(وجب الخسار عليك فانظر منصفا *** في آية الأعراف فهي المنصفه)

(أترى الكليم أتى بجهل ما أتى *** وأتى شيوخك ما أتوا عن معرفه)

(51/288)

(خلق الحجاب فمن وراء حجابه *** سمع الكليم كلامه إذ شرفه)

(خلق الحجاب بخلقه سبحانه *** فتشوقته الأنفس المستشرفه)

(من لا يرى قل كيف يحجب خلقه *** نهنه نهى أشياخك المتكلفه)

(المنع من إدراكه معنى به *** حجب النواظر يا أصبيع زعنفه)

(والمنع مختص بدار بعدها *** لك لا أبا لك موعد لن تخلفه)

(ملك يهدد بالحجاب عباده *** أترى محالا أن يرى بالزخرفه)

(وبآية الأعراف ويك خذلتم *** فوقعتم دون المراقي المزلفه)

(لو كان كالمعلوم عندك لا يرى *** ذهب التمدح في هنات السفسفه)

(عطلت أو أيست يا مغرور إذ *** ضاهيت في الإلحاد أهل الفلسفه)

(إن الوجوه إليه ناظرة بذا *** جاء الكتاب فقلتم هذا سفه)

(لو صح في الإسلام عقدك لم تقل *** بالمذهب المهجور في نفي الصفه)

(ولما نسبت إلى النبوة زلة *** في ص والتحريم فاسمع مصرفه)

(أو ما علمت بأن من آل فقد *** ترك المباح وكف عنه مصرفه)

(لا أنه جعل الحلال محرما *** شرعا فعصمته أبت أن يقرفه)

(فجهلت هذا وانصرفت لظلمة *** أعمت عليك من الطريق تعرفه)

(لم تعرف الفقه الجلي فيكف بالتوحيد *** في تدقيقه أن تعرفه)

قلت أظن من قوله (ولما نسبت إلى النبوة زلة ***) إلى آخرها تتميم أبي علي عمر بن خليل

وقد أكثر الناس في معارضة الزمخشري وهذه الأبيات من أجمع ما قيل

وقال بعضهم

(الله يعلم والعلوم كثيرة *** أي الفريقين اهتدى بالمعرفه)

(ولسوف يعلم كل عبد ما جنى *** يوم الحساب إذا وقفنا موقفه)

(فاذكر بخير أمة لم تعتقد *** إلا الثناء عليه ذاتا أو صفه)

(ودع المراء ولا تطع فيه الهوى *** فالحق في أيدي الرجال المنصفه)

وقال آخر

(وجماعة كفروا برؤية ربهم *** هذا ووعد الله ما لن يخلفه)

(وتلقبوا عدلية قلنا أجل *** عدلوا بربهم فحسبهم سفه)

(وتلقبوا الناجين كلا إنهم *** إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه)

وقال آخر

(لجماعة كفروا برؤية ربهم *** ولقائه حمر لعمرك موكفه)

(فكفاهم علموا بلا كيف فنحن *** نرى فلم ننعتهم بالبلكفه)

(هم عطلوه عن الصفات وعطلوا *** منه الفعال فيالها من منكفه)

(هم نازعوه الخلق حتى أشركوا *** بالله زمرة حاكة وأساكفه)

(هم غلقوا أبواب رحمته التي *** هي لا تزال على المعاصي موقفه)

(ولهم قواعد في العقائد رذلة *** ومذاهب مجهولة مستنكفه)

(يبكي كتاب الله من تأويلهم *** بدموعه المنهلة المستوكفه)

وقلت أنا واقتصرت على بيتين

(لجماعة جاروا وقالوا إنهم *** للعدل أهل ما لهم من معرفه)

(لم يعرفوا الرحمن بل جهلوا ومن *** ذا أعرضوا للجهل عن لمح الصفه)

وقال آخر

(لجماعة رأوا الجماعة سبة *** عمياء تاهوا في المعامي المتلفه)

(والسنة الغراء أضحت عندهم *** مردودة مهجورة مستنكفه)

(عميت بصائرهم كما أبصارهم *** عن رؤية فاستهزءوا بالبلكفه)

(نفوا الصفات عن الإله وأثبتوا *** ذاتا معطلة تعرت عن صفه)

(فتعينت ذات الإله لديهم *** أن لا تكون أو أن تكون مكيفه)

(هم فرقة زعموا الجماعة فرقة *** هذا لعمري بدعة مستأنفه)

(قد حاولوا نكرا لجهل فيهم *** عن غير علم منهم والمعرفه)

(أنى لهم علم بهذا إنهم *** حمر لدى أهل الحقائق مؤكفه)

(برهانه لا شك لولا أنهم *** حمر لكان لهم عقول منصفه)

(شهواتهم غلبت عقولهم لذا *** أبدا ترى أقوالهم مستضعفه)

(فتجمعت آراؤهم في غيهم *** وتفرقت عن رشدهم متحرفه)

(هم أمة تركوا الهداية وامتطوا *** طرق الضلالة والهوى متعسفه)

(ركبوا بحار عماية وغواية *** غرقت مراكبهم بريح معصفه)

(هم زمرة هامت بهم أهواؤهم *** كالهيم في الأرض الفلاة مخلفه)

(عزة أذلهم الإله بعزة *** ثبة ذووا جبورة متغطرفه)

(لعصابة لعبت بهم أهواؤهم *** عمي تناهت في العمى متلهفه)

(فئة لقد جحدوا برؤية ربهم *** وأتوا بأقوال ترد مزيفه)

(53/288)

(هم عصبة قد حكموا آراءهم *** في الدين تلقاها غدت متصرفه)

(هم حرفوا كلم الكتاب وبدلوا المعنى *** فجاء حروفهن محرفه)

(هم صحفوا القرآن في تأويله *** فلذا مصاحفهم تكون مصحفه)

(نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم *** جعلوا أحاديث النبي مضعفه)

(ملأوا صحائفهم بكل قبيحة *** من بدعة شنعاء غير مؤلفه)

(أقولهم ألفاظ زور مالها *** معنى وصوت كالطبول مجوفه)

(الله خالق كل شيء وحده *** سبحانه وبه العباد مكلفه)

(خير وشر ليس يخلق غيره *** إياهما هذي طريق مزلفه)

(لقد اعتزلتم أمة سنية *** فخفيتم يا أمة متخوفه)

(ولقد زعمتم أنكم شركاؤه *** والخالقية لا تزال منصفه)

(فكفرتم بالله ثم نبيه *** فقلوبكم عن دينه متخلفه)

(فلذا افتضحتم في الأنام فأصبحت *** عوراتكم بين الورى متكشفه)

(وأبيتم إلا متابعة الهوى *** وأتيم بدلائل المتفلسفه)

(ولكم عقائد بالهوى معقودة *** والكفر من أهل الهوى متلقفه)

(وبنيتم دارا على مستنقع *** وجعلتموها بالقذاة مسقفه)

(ما عندكم إلا البلادة والقماءة *** والسفاهة والخنا والعجرفه)

(جهلتم موسى كما كذبتم *** خبر الرسول أتت به المستخلفه)

(أنكرتم للأولياء كرامة *** عمتهم خصت بها المتصرفه)

(لله أحباب تكون مصونة *** عما سواه بالجمال مكنفه)

(وهم ضنائن ربهم وعليهم *** بجلاله أرخى ستورا مسجفه)

(أخفاهم بالنور ثم خفاهم *** ووجوههم بجلى السنا متلففه)

(هم جفة حفت بكل جميلة *** من ربهم وبما يقرب متحفه)

(ملأ لقد ملأ الإله صدورهم *** نورا فكانت بالضياء مزخرفه)

(نصحت جيوبهم كما أذيالهم *** أضحت بأمواه الصفاء منظفه)

(لهم عقائد في القلوب صحيحة *** ونفوسهم ملكية متعففه)

(ولهم خلائق بالندى مجبولة *** وعلى الخلائق بالهدى متعطفه)

(ولهم قلوب بالرضا معمورة *** ولهم مكارم بالحوائج مسعفه)

(أجسامهم عما يشين نقية *** ونفوسهم عما يذيم مكفكفه)

(54/288)

(ما استعبدتهم شهوة تدعو إلى الصفراء *** والبيضاء لا والزخرفه)

(كفوا الأكف عن السؤال ولم ترى *** سألة ممدودة متكففه)

(ما شأنهم شرب المدامة لا ولا *** أكل الحرام ولا غرام مهفهفه)

(منعوا النفوس عن الحظوظ فطاوعت *** وتحرجت عن نيلها متوقفه)

(كلفت نفوسهم بما أمرت به *** ألفته حبا فيه لا متكلفه)

(متطلب رتب الكمال ذواتهم *** وصفاهم تعنو لها متلطفه)

(ولهم وظائف من عبادة ربهم *** أضنوا بها أبدانهم كالأوظفه)

(سهرت عيونهم إذا نام الورى *** في فرشهم طول الليالي المسدفه)

(أقدامهم تحت الدجا مصطفة *** وقدودهم كأهلة محقوقفه)

(هجروا الوسائد والموائد والهنا *** قوم بأنواع النعيم مسرعفه)

(تركوا الفضول وقد رضوا بكفافهم *** أنعم بهم من حوزة متقشفه)

(صقلوا مراياهم بمصقلة التقى *** فصفت وصارت للولاية مألفه)

(أتت الولاية وهي خاطبة لهم *** مرتاحة مشغوفة مستعطفه)

(فلهم من الله الكريم كرامة *** وقلوبهم لقبولها مستهدفه)

(أبدانهم طافت بكعبة ربهم *** ونفوسهم بجنابه متطوفه)

(أرواحهم بسعادة مقرونة *** بدوامها مسرورة متألفه)

(أنتم عبيد بطونكم وفروجكم *** ونفوسكم في كل شر مسرفه)

(ما تعرفون سوى القدور وهمكم *** أن تغرفوا منها الطعام بمغرفه)

(فمتى نهضتم للولاية يا بني اللحم *** السمين ويا أسارى الأرغفه)

(أرواحكم مسحورة وعقولكم *** مسلوبة أبصاركم متخطفه)

(وركبتم متن الغواية ثم قد *** قفيتموها بالضلالة مردفه)

(جرتم وقلتم إنكم عدلية *** لا والذي جعل القلوب مصرفه)

(زلت بكم أقدامكم بمزلة *** تهوي إلى درك الشفا متزحلفه)

(صدئت مراياكم فأنى تجتلى *** فيها عرائس بالجمال مشرفه)

(ومتى تكون لكم ولاية ربكم *** وقلوبكم عن طرقها محرورفه)

(ولنا بحمد الله ثم بفضله *** كتب على الحق الصريح مصنفه)

(قد كانت الحسنى لنا وزيادة *** وتقر أعيننا بها المتشوفه)

(55/288)

(أنا نرى يوم القيامة ربنا *** مستشرقين على قصور مشرفه)

(سنراه جهرا لا حجاب وراءنا *** في جنة للمؤمنين معرفه)

(أسماعنا لكلامه أبصارنا *** لجماله مشتقاة متشوفه)

(إنا نرى لا في جهات وجهه *** إنا لنسمع قوله لا من شفه)

(رغما لأنفكم نراه ظاهرا *** كالشمس حقا بالعيون المترفه)

(آذاننا بكلامه كعيوننا *** ترنو إليه في الجنان مشنفه)

(جاء الكتاب بها وجاءت سنة *** من ربنا ومن النبي معرفه)

(ثقلت موازين لنا إذ أصبحت *** أعمالكم يوم الحساب مخففه)

(من لا يريد لقاءه فهو الذي *** في النار يخلد مثل أهل الفلسفه)

(ويذاد عن حوض يروينا إذا *** وردوا القيامة والشفاه مجففه)

(وتعل من عين الحياة نفوسنا *** وشفاهنا تغدو لنا مترشفه)

(تلقى أئمتهم وأمتهم غدا *** تلقى طوائف في الجحيم مكتفه)

(فتراهم يوم اللقا وقلوبهم *** محجوبة عن ربها متأسفه)

(قد جادلونا باللسان فجدلوا *** بالبيض والسمر القناة مثقفه)

(حتى تقصفت الصفاح وأصبحت *** أرماحنا من طعنهم متقصفه)

(فعلى عيونهم سهام فوقت *** وعلى رقابهم سيوف مرهفه)

(صلى الإله على محمد الذي *** أبدى لنا طرق الهدى والمخرفه)

وعلى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ طبقات الشافعية الكبرى حـ 9 صـ 8 . 17 ﴾

(56/288)

وقال الإمام النسفى :

﴿ ولمّا جآء موسى لميقاتنا ﴾

لوقتنا الذي وقتنا له وحددنا .

ومعنى اللام الاختصاص أي اختص مجيئه لميقاتنا ﴿ وكلّمه ربّه ﴾ بلا واسطة ولا كيفية .

وروي أنه كان يسمع الكلام من كل جهة .

وذكر الشيخ في التأويلات أن موسى عليه السلام سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى ، وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمعه صوتاً تولى تخليقه من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق ، وغيره يسمع صوتاً مكتسباً للعباد فيفهم منه كلام الله تعالى ، فلما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه فسأل الرؤية بقوله ﴿ قال ربّ أرني أنظر إليك ﴾ ثاني مفعولي ﴿ أرني ﴾ محذوف أي أرني ذاتك أنظر إليك يعني مكني من رؤيتك بأن تتجلى لي

حتى أراك ﴿ أرني ﴾ مكي .

وبكسر الراء مختلسة : أبو عمرو ، وبكسر الراء مشبعة : غيرهما وهو دليل لأهل السنة على جواز الرؤية ، فإن موسى عليه السلام اعتقد أن الله تعالى يرى حتى سأله واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر ﴿ قال لن تراني ﴾ بالسؤال بعين فانية بل بالعطاء والنوال بعين باقية ، وهو دليل لنا أيضر لأنه لم يقل لن أرى ليكون نفياً للجواز ، ولو لم يكن مرئياً لأخبر به بأنه ليس بمرئي إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه ﴾ بقي على حاله ﴿ فسوف ترياني ﴾ وهو دليل لنا أيضاً لأنه علق الرؤية باستقرار الجبل وهو ممكن ، وتعليق الشيء بما هو ممكن يدل على إمكانه كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه ، والدليل على أنه ممكن قوله ﴿ جعله دكاً ﴾ ولم يقل "اندك" وما أوجده تعالى كان جائزاً أن لا يوجد لو لم يوجده لأنه مختار في فعله ، ولأنه تعالى ما أيأسه عن ذلك ولا عاتبه عليه ولو كان ذلك محالاً لعاتبه كما عاتب نوحاً عليه السلام بقوله :

﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ [هود : 46] حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق .

﴿ فلمّا تجلى ربّه للجبل ﴾ أي ظهر وبان ظهوراً بلا كيف .

(57/288)

قال الشيخ أبو منصور رحمه الله : معنى التجلي للجبل ما قاله الأشعري إنه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية حتى رأى ربه ، وهذا نص في إثبات كونه مرئياً ، وبهذه الوجزة يتبين جهل منكري الرؤية وقولهم بأن موسى عليه السلام كان عالماً بأنه لا يرى ولكن طلب قومه أن يريهم ربه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهره ﴾ [البقرة : 55] فلطلب الرؤية ليبين الله تعالى أنه ليس بمرئي باطل إذ لو كان كما زعموا لقال أرهم ينظروا إليك ثم يقول له : لن يروني .

ولأنها لو لم تكن جائزة لما أخر موسى عليه السلام الرد عليهم بل كان يرد عليهم وقت قرع كلامهم سماعه لما فيه من التقرير على الكفر ، وهو عليه السلام بعث لتغييره لا لتقريره ، ألا ترى أنهم لما قالوا له ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ لم يمهلهم بل رد عليهم من ساعته بقوله ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ ﴿ جعله دكًّا ﴾ مدكوكاً مصدر بمصدر بمعنى المفعول كضرب الأمير والدق والدك أخوان .

﴿ دكاء ﴾ : حمزة وعلي .

أي مستوية بالأرض لا أكمة فيها وناقة دكاء لا سنام لها ﴿ وخرّ موسى صعقاً ﴾ حال أي سقط مغشياً عليه ﴿ فلمّا أفاق ﴾ من صعقته ﴿ قال سبحانك تبت إليك ﴾ من السؤال في الدنيا ﴿ وأنا أوّل المؤمنين ﴾ بعظمتك وجلالك ، وبأنك لا تعطي الرؤية في الدنيا مع جوازها .

وقال الكعبي والأصم : معنى قوله ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ أرني آية أعلمك بها بطريق الضرورة كأني أنظر إليك ﴿ لن تراني ﴾ لن تطيق معرفتي بهذه الصفة ﴿ ولكن انظر إلى الجبل ﴾ فإني أظهر له آية ، فإن ثبت الجبل لتجليها و ﴿ استقر مكانه ﴾ فسوف تثبت لها وتطيقها .

وهذا فاسد لأنه قال ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ ولم يقل "إليها" وقال ﴿ لن تراني ﴾ ولم يقل لن ترى آيتي وكيف يكون معناه لن ترى آيتي وقد أراه أعظم الآيات حيث جعل الجبل دكاً .

(58/288)

﴿ قَالَ يا موسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاس ﴾ اخترتك على أهل زمانك ﴿ برسالتي ﴾ هي أسفار التوراة ﴿ برسالتي ﴾ : حجازي ﴿ وبكلامي ﴾ وبتكليمي إياك ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿ وَكُن مِّنَ الشاكرين ﴾ على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم .

قيل : خر موسى صعقاً يوم عرفة ، وأعطي التوراة يوم النحر .

ولما كان هارون وزيراً وتابعاً لموسى تخصص الاصطفاء بموسى عليه السلام .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألواح ﴾ الألواح التوراة جمع لوح وكانت عشرة ألواح .

وقيل : سبعة وكانت من زمرد .

وقيل : من خشب نزلت من السماء فيها التوراة ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في محل النصب على أنه مفعول ﴿ كتبنا ﴾ ﴿ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ بدل منه والمعنى كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام .

وقيل : أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير لم يقرأها كلها إلا أربعة نفر : موسى ويوشع وعزير وعيسى ﴿ فَخُذْهَا ﴾ فقلنا له خذها عطفاً على ﴿ كتبنا ﴾ والضمير للألواح أو ﴿ لكل شيء ﴾ لأنه في معنى الأشياء ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي فيها ما هو حسن وأحسن كالقصاص والعفو والانتصار والصبر ، فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب كقوله ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ [الزمر : 55]

﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ دَارَ فرعون وقومه وهي مصر ، ومنازل عاد وثمود والقرون المهلكة كيف أقفرت منهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكّل بكم مثل نكالهم أو جهنم ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي ﴾ عن فهمها .

قال ذو النون قدس الله روحه : أبى الله أن يكرم قلوب الباطلين بمكنون حكمة القرآن ﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ يتطاولون على الخلق ويأنفون عن قبول الحق .

وحقيقته التكلف للكبرياء التي اختصت بالباري عزت قدرته ﴿ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ هو حال أي يتكبرون غير محقين لأن التكبر بالحق لله وحده ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ ﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ طريق صلاح الأمر وطريق الهدى.

﴿ الرَّشد ﴾ : حمزة وعلي.

وهما كالسقم والسقم ﴿ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ ﴾ الضلال ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ ومحل ﴿ ذلك ﴾ الرفع أي ذلك الصرف ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بسبب تكذيبهم ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غافلين ﴾ غفلة عناد واعراض لا غفلة سهو وجهل ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخِرَةِ ﴾ هو من إضافة المصدر إلى المفعول به أي ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها ﴿ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ خبر ﴿ والذين ﴾ ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهو تكذيب الأحوال بتكذيب الإرسال. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ2 صـ74.77 ﴾

(60/288)

وقال القاضى البيضاوى :

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً ﴾ ذا القعدة ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب "ووعدنا" . ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ من ذي الحجة . ﴿ فَتَمَّ ميقات رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ بالغاً أربعين . روي : أنه عليه الصلاة والسلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره الله بصوم ثلاثين ، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك ، فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك ، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً . وقيل أمره بأن يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة في العشر وكلمه فيها . ﴿ وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هارون اخلفنى فِى قَوْمِى ﴾ كن خليفتي فيهم . ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحاً . ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ ولا تتبع من سلك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه .

(61/288)

﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا ﴾ لوقتنا الذي وقتناه ، واللام للاختصاص أي اختص مجيئه لميقاتنا . ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ من غير وسيط كما يكلم الملائكة ، وفيما روي : أن موسى

عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين . ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أرني نفسك بأن تمكنني من رؤيتك ، أو تتجلى لي فأنظر إليك وأراك . وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال ، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله ولذلك رده بقوله تعالى : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ دون لن أرى أو لن أريك أو لن تنظر إليَّ ، تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد في الرائي لم يوجد فيه بعد ، وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا : ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل بهم حين قالوا : ﴿ اجعل لَّنَا إلها ﴾ ولا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أن لا يراه أبداً وأن لا يراه غيره أصلاً فضلاً عن أن يدل على استحالتها ودعوى الضرورة فيه مكابرة أو جهالة بحقيقة الرؤية . ﴿ قَالَ لَن تَرَانِى ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيقه ، وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على الجواز ضرورة أن المعلق على الممكن ممكن ، والجبل قيل هو جبل زبير . ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ ظهر له عظمته وتصدى له اقتداره وأمره . وقيل أعطى له حياة ورؤية حتى رآه . ﴿ جَعَلَهُ دَكّا ﴾ مدكوكاً مفتتاً والدك والدق

أخوان كالشك والشق ، وقرأ حمزة والكسائي "دكاء" أي أرضاً مستوية ومنه ناقة دكاء التي لا سنام لها . وقرىء ﴿ دَكّاً ﴾ أي قطعاً جمع

(62/288)

دكاء . ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقًا ﴾ مغشياً عليه من هول ما رأى . ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ ﴾ تعظيماً لما رأى . ﴿ سبحانك تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من الجراءة والإقدام على السؤال من غير إذن . ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ مر تفسيره . وقيل معناه أنا أول من آمن بأنك لا ترى في الدنيا .

﴿ قَالَ يَا موسى إِنّى اصطفيتك ﴾ اخترتك . ﴿ عَلَى الناس ﴾ أي الموجودين في زمانك ، وهارون وإن كان نبياً كان مأموراً باتباعه ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع . ﴿ برسالاتي ﴾ يعني أسفار التوراة وقرأ ابن كثير ونافع "برسالتي" . ﴿ وبكلامي ﴾ وبتكليمي إياك . ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ ﴾ أعطيتك من الرسالة . ﴿ وَكُنْ مّنَ الشاكرين ﴾ على النعمة فيه . روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة ، وإعطاء التوراة كان يوم النحر .

(63/288)

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين . ﴿ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ بدل من الجار والمجرور ، أي وكتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام . واختلف في أن الألواح كانت عشرة أو سبعة ، وكانت من زمرد أو زبرجد ، أو ياقوت أحمر أو صخرة صماء لينها الله لموسى فقطعها بيده وسقفها بأصابعه وكان فيها التوراة أو غيرها . ﴿ فَخُذْهَا ﴾ على إضمار القول عطفاً على كتبنا أو بدل من قوله : ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ ﴾ والهاء للألواح أو لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء أو للرسالات . ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد وعزيمة . ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي بأحسن ما فيها كالصبر والعفو بالإضافة إلى الانتصار ، والاقتصاص على طريقة الندب والحث على الأفضل كقوله تعالى : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مّن رَّبِّكُمْ ﴾ أو بواجباتها فإن الواجب أحسن من غيره ، ويجوز أن يراد بالأحسن البالغ في الحسن مطلقاً لا بالإضافة ، وهو المأمور به كقولهم الصيف أحر من الشتاء . ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها ، أو منازل عاد وثمود وأضرابهم لتعتبروا فلا تفسقوا ، أو دارهم في الآخرة وهي جهنم . وقرىء سأوريكم بمعنى سأبين لكم من أوريت الزند وسأورثكم ، ويؤيده قوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾ ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي ﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس . ﴿ الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ بالطبع على قلوبهم فلا

يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها . وقيل سأصرفهم عن ابطالها وإن اجتهدوا كما فعل فرعون فعاد عليه بإعلائها أو بإهلاكهم . ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ صلة يتكبرون أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل ، أو حال من فاعله . ﴿ وَإِنْ يَرَوا كُلَّ آيَةٍ ﴾ منزلة أو معجزة . ﴿ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ لعنادهم واختلال عقولهم بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد وهو يؤيد الوجه الأول .

(64/288)

﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم . وقرأ حمزة والكسائي " الرَّشَد " بفتحتين وقرىء "الرشاد" وثلاثتها لغات كالسقم والسقم والسقام ، ﴿ وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم للآيات ، ويجوز أن ينصب ذلك على المصدر أي سأصرف ذلك الصرف بسببهما .

﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا وَلِقَاء الآخرة ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة ، أو ما وعد الله في الدار الآخرة . ﴿ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ لا ينتفعون بها . ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إلا جزاء أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 56 ـ 59 ﴾

(65/288)

وقال ابن جزى :

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً ﴾

روي أن الثلاثين هي شهر ذي القعدة والعشر بعدها هي العشر الأول من ذي الحجة ، وذلك تفصيل الأربعين المذكورة في البقرة ﴿ ميقات رَبِّهِ ﴾ أي ما وقت له من الوقت لمناجاته في الطور ﴿ اخلفني ﴾ أي كن خليفتي على بني إسرائيل مدة مغيبي ﴿ قَالَ رَبِّ أرني ﴾ لما سمع موسى كلام الله طمع في رؤيته ، فسألها كما قال الشاعر :

وأفرح ما يكون الشوق يوماً . . . إذا دنت الديار من الديار

(66/288)

واستدلت الأشعرية بذلك على أن رؤية الله جائزة عقلاً ، وأنها لو كانت محالاً لم يسألها موسى ، فإن الأنبياء عليهم السلام يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل ، وتأول الزمخشري طلب موسى للرؤية بوجهين : أحدهما أنه إنما سأل ذلك تبكيتا لمن خرج معه من

بني إسرائيل الذين طلبوا الرؤية ﴿ فقالوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153] ؛ فقال موسى ذلك ليسمعوا الجواب بالمنع فيتأولوا ، والآخر أن معنى أرني أنظر إليك : عرفني نفسك تعريفاً واضحاً جلياً وكلا الوجهين بعيد ، والثاني أبعد وأضعف ، فإنه لو لم يكن المراد الرؤية لم يقل له أنظر إلى الجبل الآية ﴿ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ قال مجاهد وغيره : إن الله قال لموسى لن تراني ، لأنك لا تطيق ذلك ، ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشدّ ، فإن استقر وأطاق الصبر لهيبتي أمكن أن تراني أنت ، وإن لم يطق الجبل فأحرى ألا تطيق أنت ، فعلى هذا إنما جعل الله الجبل مثالاً لموسى ، وقال قوم : المعنى سأتجلى لك على الجبل وهذا ضعيف يبطله قوله : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ فإذا تقرر هذا ، فقوله تعالى : لن تراني نفي للرؤية ، وليس فيه دليل على أنها محال ، فإنه إنما جعل علة النفي عدم إطاقة موسى الرؤية لا استحالتها ، ولو كانت الرؤية مستحيلة ، لكان في الجواب زجر وإغلاظ كما قال الله لنوح : ﴿ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هود : 46] ، فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا لضعف البنية البشرية عن ذلك ، وأما في الآخرة ، فقد صرح بوقوع الرؤية كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينكرها إلا مبتدع ، وبين أهل السنة والمعتزلة في مسألة الرؤية تنازع طويل ، وفي هذه القصة قصص كثيرة تركتها لعدم صحتها ، ولما فيه من الأقوال الفاسدة ﴿ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ أي مدكوكاً فهو مصدر بمعنى مفعول كقولك : ضربت الأمير ، والدك والدق

: أخوان ، وهو التفتت ، وقرئ : دكاء بالمد والهمز أي أرضاً دكا وقيل ذهب أعلى الجبل وبقي أكثره ، وقيل تفتت حتى صار غباراً ، وقيل ساخ في الأرض وأفضى إلى البحر ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ أي مغشياً عليه ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ معناه تبت من سؤال الرؤية في الدنيا وأنا لا أطيقها ﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ أي أول قومه أو أهل زمانه ، أو على وجه المبالغة في السبق إلى الإيمان ﴿ اصطفيتك عَلَى الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ هو عموم يراد به الخصوص ، فإنّ جميع الرسل قد شاركوه في الرسالة ، واختلف هل كلم الله غيره من الرسل أم لا ، والصحيح : أنه كلم نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ تأديباً أي اقنع بما أعطيتك من رسالتي وكلامي ولا تطلب غير ذلك ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألواح ﴾ أي ألواح التوراة وكانت سبعة ، وقيل : عشرة وقيل : اثنان وقيل : كانت من زمردة وقيل : من ياقوت ، وقيل : من خشب ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ عموم يراد به الخصوص فيما يحتاجون إليه في دينهم ، وكذلك ﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، وموضع كل شيء نصب على أنه مفعول كتبنا ، وموعظة بدل منه ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أي بجدّ وعزم ، والضمير للتوراة ﴿ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي فيها ما هو حسن وأحسن منه كالقصاص مع

العفو ، وكذلك سائر المباحات من المندوبات ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ أي دار فرعون وقومه وهو مصر ، ومعنى أريكم كيف اقفرت منهم لما هلكوا ، وقيل : منازل عاد وثمود ومن هلك من الأمم المتقدّمة ليعتبروا بها ، وقيل : جهنم ، وقرأ ابن عباس : سأورثكم بالثاء المثلثة من الوراثة ، وهي على هذا مصدر لقوله وأورثناها بني إسرائيل .

(68/288)

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض ﴾ الآيات : يحتمل هنا أن يراد بها القرآن وغيره من الكتب أو العلامات والبراهين ، والصرف يراد به حدّهم عن فهمها وعن الإيمان بها عقوبة لهم على تكبرهم ، وقيل : الصرف منعهم من إبطالها .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

﴿ وَلِقَآءِ الآخرة ﴾ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به أي : ولقاؤهم الآخرة ، أو من إضافة المصدر إلى الظرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 43 .

45 ﴾

(69/288)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾

نكلمه عند انتهائها بأن يصوم أيامها ، روي أنّ موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك سأل ربه فأمر بصوم ثلاثين وهو شهر ذي القعدة فصامه فلما تمت أنكر خلوف فمه فتسوّك فقالت الملائكة : كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك ، وقيل : أوحى الله تعالى إليه أما علمت أنّ خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فأمره الله تعالى بعشرة أخرى ليكلمه الله بخلوف فمه كما قال تعالى : ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ أي : من ذي الحجة ﴿ فتم ميقات ربه ﴾ أي : وقت وعده بتكليمه إياه ﴿ أربعين ليلة ﴾ وقيل : أمره أن يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة في العشر وكلمه فيها ولقد أجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة وفصلها هنا ، وقرأ أبو عمرو وعدنا بغير ألف قبل العين والباقون بألف .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ مع أن كل أحد يعلم أنّ الثلاثين مع العشر تكون أربعين ؟

أجيب : بأنه تعالى إنما قال : ﴿ أربعين ليلة ﴾ إزالة لتوهم أنّ ذلك العشر من الثلاثين لأنه

يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين كأنه كان عشرين ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين فأزال هذا الإيهام.

تنبيه: الفرق بين الميقات والوقت أنّ الميقات ما قدّر فيه عمل من الأعمال والوقت وقت للشيء قدره مقدّر أم لا وقوله تعالى: ﴿أربعين﴾ نصب على الحال أي: تمّ بالغاً هذا العدد وليلة نصب على التمييز ﴿وقال موسى لأخيه﴾ وقوله: ﴿هرون﴾ عطف بيان لأخيه أي: قال له عند ذهابه إلى الجبل للمناجاة: ﴿اخلفني﴾ أي: كن خيلفتي ﴿في قومي وأصلح﴾ أي: ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحاً ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ أي: ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه.

(70/288)

فإن قيل: إنّ هارون كان شريك موسى عليهما السلام في النبوّة فكيف جعله خليفة لنفسه فإنّ شريك الإنسان أعلى حالاً من خليفته، وردّ الإنسان من منصبه الأعلى إلى الأدون يكون إهانة له؟

أجيب: بأنّ الأمر وإن كان كما ذكر إلا أنّ موسى عليه السلام كان هو الأصل في تلك النبوّة.

فإن قيل : لما كان هارون نبياً والنبيّ لا يفعل إلا الإصلاح فكيف وصى إليه بالإصلاح ؟

أجيب : بأنّ المقصود من هذا الأمر التأكيد كقول الخليل : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ (البقرة ،)

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ أي : للوقت الذي وعدناه للكلام فيه ﴿ وكلمه ربه ﴾ دلت الآية الكريمة على أنه تعالى كلم موسى عليه السلام والناس مختلفون في كلام الله تعالى ، قال الزمخشريّ في كشافه : وكلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح ، اه . وهذا مذهب المعتزلة ولا شك في بطلانه وفساده لأنّ ذلك الجرم كالشجرة لا يقول : أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهب بعض الحنابلة والحشوية إلى أنّ كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وأنه قديم ، قال الإمام الرازي : وهذا القول أخس من أن يلتفت إليه العقل والذي عليه أكثر أهل السنة والجماعة أنّ كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات وأنّ موسى سمع تلك الصفة الحقيقية الأزلية ، قالوا : كما أنه لا يبعد رؤية ذاته مع أنّ ذاته ليست جسماً ولا عرضاً كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أنّ كلامه لا يكون حرفاً ولا صوتاً .

وفيما روي أنّ موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أنّ سماع كلامه تعالى القديم ليس من جنس كلام المحدثين وهل كان سبحانه وتعالى كلم موسى وحده أو مع أقوام آخرين ؟ ظاهر الآية يدل للأوّل لأنّ قوله تعالى : ﴿ وكلمه ربه ﴾ يدل على تخصيص موسى عليه السلام بهذا التشريف والتخصيص بالذكر يدل على نفي الحكم عمن عداه ، وقال القاضي : بل السبعون المختارون سمعوا أيضاً كلام الله تعالى ، قال : لأنّ الغرض بإحضارهم أن يخبروا قوم موسى عليه السلام عما يجري هناك وهذا المقصود لا يتم إلا عند سماع الكل وأيضاً فإنّ تكليم الله تعالى على هذا الوجه معجز وقد تقدّمت نبوّة موسى عليه السلام فلا بدّ من ظهور هذا المعنى لغيره ، ولما سمع عليه السلام كلام ربه اشتاق إلى رؤيته سبحانه وتعالى ﴿ قال رب أرني أنظر إليك ﴾ قال في الكشاف : ثاني مفعولي أرني محذوف أي : أرني نفسك أنظر إليك .

فإن قيل : الرؤية عين النظر فكيف قيل : أرني أنظر إليك ؟

أجيب : بأنّ معنى أرني نفسك اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك وفي هذا دليل على أنّ رؤيته تعالى جائزة في الجملة لأنّ طلب المستحيل من الأنبياء محال خصوصاً ما يقتضي الجهل بالله تعالى ولذلك ردّه بأن ﴿ قال ﴾ له ﴿ لن تراني ﴾ دون لن

أرى ولن أريك ولن تنظر إليّ تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على بعد في الرائي لم يوجد فيه بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين : قالوا : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ (النساء ،)

(72/288)

كما قاله الزمخشري أشدّ خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلم ويزيل شبهتهم كما فعل بهم حين قالوا : اجعل لنا إلهاً والاستدلال بالجواب وهو قوله تعالى : ﴿ لن تراني ﴾ على استحالتها أشدّ خطأ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أنه لا يراه أبداً وأن لا يراه غيره أصلاً فضلاً عن أن يدل على استحالته فإنّ أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة قالوا : لن تكون لتأبيد النفي وهو خطأ لأنها لو كانت للتأبيد لزم التناقض بذكر اليوم في قوله تعالى : ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ (مريم ،)

ولزم التكرار بذكر أبداً في قوله تعالى : ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ (البقرة ،)

ولن تجتمع مع ما هو لانتهاء الغاية نحو قوله تعالى : ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ﴾ (يوسف ،)

وأمّا تأبيد النفي في قوله تعالى : ﴿ لن يخلقوا ذباباً ﴾ (الحج ،)

(73/288)

فلأمر خارجيّ لا من مقتضيات لن ولا تقتضي تأكيد النفي أيضاً خلافاً للزمخشريّ في كشافه بل قولك : لن أقوم ، محتمل لأن تريد به أنك لا تقوم أبداً وأنك لا تقوم في بعض الأزمنة المستقبلة وهو موافق لقولك : لا أقوم ، في عدم إفادة التأكيد وقوله تعالى : ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ﴾ استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيق الرؤية وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على جوازها لأنّ استقرار الجبل عند التجلي ممكن بأن يجعل الله تعالى له قوّة على ذلك والمعلق على الممكن ممكن وتراني في الحرفين الياء ثابتة وقفاً ووصلاً ، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون والباقون بالضم ، قال وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق : لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب والصواعق والرعد والبرق حتى أحاطت بالجبل الذي عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى ملائكة السموات أن يعرضوا على موسى عليه السلام فمرّت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد ثم مرّت به ملائكة السماء الثانية كأمثال الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع مما رأى وسمع واقشعرّت كل شعرة في جسده ورأسه ثم قال : لقد ندمت على مسألتي فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء ؟ فقال له رئيس الملائكة : يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم مرّت به ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور لهم قصف ورجف

ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس كلجب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى عليه السلام واشتدّ فزعه وأيس من الحياة فقال له رأس الملائكة : مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا صبر لك عليه ثم مرّت به ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شيء من الذين مرّوا به ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من الذين مرّوا به قبلهم فاصطكت ركبتاه

(74/288)

وأرعب قلبه واشتد بكاؤه فقال له رأس الملائكة : يا ابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم مرّت به ملائكة السماء الخامسة لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره لم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفاً واشتدّ حزنه وكثر بكاؤه فقال له رأس الملائكة : يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه ثم مرّت به ملائكة السماء السادسة وفي يد كل واحد منهم مثل النخلة الطويلة نور أشدّ ضوأً من الشمس ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدّسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات كلهم يقولون بشدّة أصواتهم : سبوح قدّوس ربّ العزة أبداً لا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول : يا رب

اذكرني ولا تنس عبدك لا أدري أنفلت مما أنا فيه أم لا إن خرجت احترقت وإن مكثت احترقت ، فقال له رأس الملائكة : قد أوشك يا ابن عمران أن يشتدّ خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سألت ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدا نور العرش انصدع نور الجبل من عظمة الله تعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعاً يقولون : سبحان الملك القدّوس رب العزة أبداً لا يموت بشدّة أصواتهم فارتج الجبل واندك وذلك قوله تعالى : ﴿ فلما تجلى ربه ﴾ أي : "أظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر" كما في حديث صححه الحاكم ﴿ للجبل ﴾ أي : جبل زبير بفتح الزاي والإضافة فيه بيانية لقول الجوهري : الزبير اسم للجبل الذي كلم الله تعالى عليه السلام عليه ﴿ جعله دكاً ﴾ أي : مدكوكاً مفتتاً ، وحكي عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم فجعل الجبل دكاً مستوياً بالأرض والدك والدق أخوان ، وقال ابن عباس : جعله تراباً ، وقال سفيان : ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه ، وقال الكلبي : كسر جبالاً صغاراً ، قال البغويّ : ووقع في بعض التفاسير صار لعظمته ستة أجبل وقعت ثلاثة

(75/288)

بالمدينة أحد

وورقان ورضوى ووقعت ثلاثة بمكة ثور وثبير وحرا .

وقرأ حمزة والكسائيّ بألف بعد الكاف وهمزة مفتوحة من غير تنوين وصلاً ووقفاً أي : مستوياً ومنه ناقة دكاء للتي لا سنام لها والباقون بالتنوين بعد الكاف والوقف على ألف التنوين ﴿ وخرّ ﴾ أي : وقع ﴿ موسى صعقاً ﴾ أي : مغشياً عليه من هول ما رأى غشية كالموت ، وروي أنّ الملائكة مرّت عليه وهو مغشيّ عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون له : يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة ﴿ فلما أفاق ﴾ من غشيته ﴿ قال ﴾ تعظيماً لما رأى ﴿ سبحانك ﴾ أي : تنزيهاً لك من النقائص كلها ﴿ تبت إليك ﴾ أي : من الجراءة والإقدام على السؤال بغير إذن ، وقيل : لما كانت الرؤية مختصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعها قال : سبحانك تبت إليك من سؤالي ما ليس لي ، وقيل : لما سأل الرؤية ومنعها قال : تبت إليك من هذا السؤال وحسنات الأبرار سيئات المقرّبين ﴿ وأنا أوّل المؤمنين ﴾ أي : في زماني ، وقيل : أنا أوّل من أمن إنك لا ترى في الدنيا أي : لكل الأنبياء وإلا فالرؤية ثابتة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء على الصحيح وللزمخشري هنا في كشافه على مذهبه الفاسد في عدم الرؤية مطلقاً تأويلات فلتحذر .

(76/288)

﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك ﴾ أي : اخترتك ﴿ على الناس ﴾ أي : الموجودين في زمانك وهارون وإن كان نبياً مرسلاً كان مأموراً باتباعه ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح ياء إني والباقون بالسكون وقوله تعالى : ﴿ برسالاتي ﴾ أي : بأسفار التوراة ، قرأه نافع وابن كثير بغير ألف بعد اللام على التوحيد والباقون بالألف بعد اللام على الجمع ﴿ وبكلامي ﴾ أي : وبتكليمي إياك ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ أي : ما أعطيتك من الرسالة ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ لأنعمي لأنّ موسى عليه السلام لما منع الرؤية عدّد الله تعالى عليه وجوه نعمه العظيمة التي له عليه وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له : إن كنت منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيق صدرك بسبب منع الرؤية وانظر إلى سائر أنواع النعم التي خصصتك بها واشتغل بشكرها والاشتغال بشكرها إنما يكون بالقيام بلوازمها علماً وعملاً والمقصود تسلية موسى عليه السلام عن منع الرؤية قال الإمام الرازي : وهذا أيضاً أحد ما يدل على أنّ الرؤية جائزة على الله تعالى إذ لو كانت ممتنعة في نفسها لما كان إلى ذكر هذا القدر حاجة .

(77/288)

وروي أنّ موسى عليه السلام كان بعد ما كلمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لما غشي وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته : أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرّت ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة ، قال : ذاك إن لم تتزوّجي بعدي لأنّ المرأة لآخر أزواجها ﴿ وكتبنا له ﴾ أي : لموسى ﴿ في الألواح ﴾ أي : ألواح التوراة ، قال البغوي : وفي الحديث : "كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنتا عشرة ذراعاً" وجاء في الحديث : "خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده" والمراد بيده قدرته ، وقيل : كانت من زبرجدة خضراء ، وقيل : من ياقوتة حمراء ، وقيل : من صحرة صماء لينها الله تعالى لموسى فقطعها بيده ، وأمّا كيفية الكتابة فقال ابن جريج : كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور ، وقال وهب : سمع موسى صرير القلم بالكلمات العشر وكان ذلك في أوّل يوم من ذي القعدة ، وقيل : إنّ موسى خرّ صعقاً يوم عرفة وأعطى التوراة يوم النحر وكانت الألواح عشرة على طول موسى ، وقيل : كانت تسعة ، وقيل : سبعة ، وقال مقاتل : وكتبنا له في الألواح كنقش الخاتم ، وقال الربيع بن أنس : نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منها في سنة ولم يقرأها إلا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام أي : لم يحفظها ويقرأها عن ظهر قلب إلا هؤلاء الأربعة ، قال الإمام الرازي : وليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح وعلى كيفية

تلك الكتابة فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قويّ وجب القول به وإلا وجب السكوت عنه .

(78/288)

وأمّا قوله تعالى : ﴿ من كل شيء ﴾ فلا شبهة أنه ليس على العموم بل مما يحتاج إليه موسى عليه السلام وقومه من أمر الدين وقوله تعالى : ﴿ موعظة وتفصيلاً ﴾ أي : تبييناً ﴿ لكل شيء ﴾ بدل من الجار والمجرور قبله أي : كتبنا كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام وقوله تعالى : ﴿ فخذها ﴾ على إضمار القول عطفاً على كتبنا أو بدلاً من قوله : ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ (الأعراف ،)

(79/288)

والهاء للألواح أو لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء أو الرسالة وعن كعب الأحبار أنّ موسى عليه السلام نظر في التوراة فقال : إني أجد أمّة هي خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأوّل والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة

حتى يقاتلوا الأعور الدجال رب اجعلهم أمّتي قال : هي أمّة محمد يا موسى ، قال : يا رب إني أجد أمّة هم الحامدون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا : نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمّتي ، قال : هم أمّة محمد ، قال : يا رب إني أجد أمّة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الأوّلون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجابون والمستجاب لهم الشافعون والمشفعون لهم فاجعلهم أمّتي ، قال : هم أمّة محمد ، قال : يا رب إني أجد أمّة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله وإذا هبط وادياً حمد الله الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غرّ محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمّتي قال : هم أمّة محمد ، قال : يا رب إني أجد أمّة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة مثلها وإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمّتي ، قال : هم أمّة محمد ، قال : يا رب إني أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحداً إلا مرحوماً فاجعلهم أمّتي ، قال : هم أمّة محمد ، قال : يا رب إني أجد أمّة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة

(80/288)

يصطفون في صلاتهم كصفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل لا يدخل النار أحد منهم إلا من برىء من الحسنات مثل ما برىء الحجر من ورق الشجر فاجعلهم أمّتي ، قال : هم أمّة محمد ، فلما عجب موسى من الخير الذي أعطاه الله محمداً وأمته قال : يا ليتني من أصحاب محمد فأوحى الله تعالى إليه ﴿ إني اصطفيتك ﴾ الخ فرضي موسى كل الرضا ، ومعنى ﴿ بقوّة ﴾ أي : بجدّ وعزيمة ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أي : بأحسن ما فيها .

فإن قيل : ظاهر هذا يقتضي أنّ فيها ما ليس بأحسن وأنه لا يجوز لهم الأخذ به وذلك متناقض وأجيب عن ذلك بأجوبة : الأوّل : أنّ تلك التكاليف منها ما هو حسن ومنها ما هو أحسن كالاقتصاد والعفو والانتصار والصبر فمرهم أن يحملوا أنفسهم بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب كقوله تعالى : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ (الزمر ،) وقوله تعالى : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ (الزمر ،)

هذا ما أجاب به في الكشاف وتبعه البيضاوي والإمام الرازي لكن قال التفتازاني : هذا ينافي ما تقرر من أن المكتوب على بني إسرائيل هو القصاص قطعاً والجواب بأنه مثال للحسن والأحسن لا لكونه في التوراة بعيد جداً .

فإن قيل : يلزم عليه أيضاً منع الأخذ بالحسن وذلك يقدح في كونه حسناً . أجيب عن هذا : بأن الأخذ بالحسن الثاني على سبيل الندب فلا يقدح في منع الأخذ بالحسن ، الثاني : أن الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح وأحسن هؤلاء الثلاثة الواجب ، الثالث : أن المراد بالأحسن البالغ في الحسن مطلقاً لا بالإضافة وهو المأمور به كقولهم : الصيف أحر من الشتاء أي : هو في حره أبلغ من الشتاء في برده فكذا هنا المأمور به أبلغ في الحسن من المنهي عنه في القبح ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ أي : دار فرعون وقومه وهي مصر كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل ما نكل بهم ، وقيل : منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله لفسقهم في ممرّكم عليها في أسفاركم ، وقيل : المراد دارهم في الآخرة وهي جهنم .

(82/288)

﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ المنصوبات في الآفاق والأنفس كخلق السموات والأرض وما بينهما ﴿ الذين يتكبرون في الأرض ﴾ أي : أصرفها عنهم بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ، وقال سفيان بن عيينة : سأمنعهم فهم القرآن ، وقوله تعالى : ﴿ بغير

الحق ﴾ صلة يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل فإن إظهار الكبر على الغير قد يكون بالحق فإن للمحق أن يتكبر على المبطل وفي الكلام المشهور : التكبر على المتكبر صدقة ﴿ وإن يروا كل آية ﴾ أي : منزلة أو معجزة ﴿ لا يؤمنوا بها ﴾ أي : لعنادهم وتكبرهم ﴿ وإن يروا سبيل ﴾ أي : طريق ﴿ الرشد ﴾ أي : الهدى الذي جاء من عند الله ﴿ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ أي : طريقاً يسلكونه بقصد منهم ونظر وتعمد بل إن سلكوه فعن غير قصد . وقرأ حمزة والكسائي بفتح الراء والشين والباقون بضمّ الراء وسكون الشين ﴿ وإن يروا سبيل الغيّ ﴾ أي : الضلال ﴿ يتخذوه سبيلاً ﴾ أي : بغاية الشهوة والتعمد والاعتماد لسلوكه ﴿ ذلك ﴾ أي : هذا الصرف العظيم الذي زاد عن مطلق الصرف بالعمى عن الإيمان واتخاذ الرسالة ﴿ بأنهم ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ أي : الدالة على وحدانيتنا ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ أي : كان دأبهم وديدنهم معاملتهم إيانا بالإعراض عنها حتى كأنها مغفول عنها فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم ، وعن الفضيل بن عياض ذكر لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا عظمت أمّتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت عليهم بركة الوحي" .

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ أي : وكذبوا بلقائهم الدار الآخرة التي هي موعد الثواب فهو من إضافة المصدر إلى المفعول به ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى : ولقاء ما وعد الله في الدار الآخرة ﴿ حبطت ﴾ أي : بطلت ﴿ أعمالهم ﴾ أي : ما عملوه في الدنيا من خير كصلة رحم وصدقة فلا ثواب لهم لعدم شرطه ﴿ هل ﴾ أي : ما ﴿ يجزون إلا ﴾ جزاء ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ أي : من التكذيب والمعاصي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 249.256 ﴾

(84/288)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

هذا من جملة ما كرّم الله به موسى عليه السلام وشرفه .

والثلاثين هي ذو القعدة ، والعشر هي عشر ذي الحجة ضرب الله هذه المدّة موعداً لمناجاة موسى ومكالمته .

قيل : وكان التكليم في يوم النحر .

والفائدة في ﴿ فَتَمَّ ميقات ربِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ مع العلم بأن الثلاثين والعشر أربعون ليلاً يتوهم وأن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها ، فبين أن العشر غير الثلاثين ، و ﴿ أربعين ليلة ﴾ منصوب على الحال ، أي فتمّ حال كونه بالغاً أربعين ليلة .

قوله : ﴿ وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هارون اخلفنى فِى قومي ﴾ أي : كن خليفتي فيهم .

قال موسى هذا لما أراد المضيّ إلى المناجاة ﴿ وَأَصْلِح ﴾ أمر بني إسرائيل بحسن سياستهم ، والرفق بهم ، وتفقد أحوالهم ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ أي : لا تسلك سبيل العاصين ، ولا تكن عوناً للظالمين .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، من طرق ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وواعدنا موسى ﴾ الآية ، قال : ذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في الآية ، قال : إن موسى قال لقومه : إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه ، وأخلف هارون فيكم ، فلما فصل موسى إلى ربه ، زاده الله عشراً ، فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله ، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد أبصر جبريل ، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب ، ثم ذكر قصة السامريّ .

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾

اللام في ﴿ لميقاتنا ﴾ للاختصاص ، أي كان مجيئه مختصاً بالميقات المذكور ، بمعنى أنه جاء في الوقت الموعود ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أي أسمعه كلامه من غير واسطة .

قوله : ﴿ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أي ، أرني نفسك أنظر إليك : أي سأله النظر إليه اشتياقاً إلى رؤيته لما أسمعه كلامه .

وسؤال موسى للرؤية يدلّ على أنها جائزة عنده في الجملة .

ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها .

والجواب بقوله : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه ، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا .

وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة ، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة ، ومنهج الحق واضح .

ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه آباءه وأهل بلده ، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع في التعصب ، والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق ، وهو يظنّ أنه

ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق ، غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم .

وما أقلّ المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع فإنه صار بها باب الحقّ مرتجاً ، وطريق الإنصاف مستوعرة ، والأمر لله سبحانه ، والهداية منه :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى . . . ومنهج الحق له واضح

(86/288)

وجملة : ﴿ قَالَ لَن تَرَانِى ﴾ مستأنفة ، لكونها جواباً لسؤال مقدّر ، كأنه قيل : فما قال الله له ؟ والاستدراك بقوله : ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ معناه أنك لا تثبت لرؤيتي ، ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرماً وصلابة وقوّة ، وهو الجبل ، فانظر إليه ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ ولم يتزلزل عند رؤيتي له ﴿ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ وإن ضعف عن ذلك ، فأنت منه أضعف .

فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل .

وقيل : هو من باب التعليق بالمحال .

وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا لما قدّمنا .

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتين المعتزلة والأشعرية .

فالمعتزلة استدلوا بقوله : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ ، وبأمره بأن ينظر إلى الجبل .

والأشعرية قالوا : إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدلّ على أنها جائزة غير ممتنعة .

ولا يخفاك أن الرؤية الأخروية هي بمعزل عن هذا كله .

والخلاف بينهم هو فيها لا في الرؤية في الدنيا ، فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة ، وكلامهم فيها معروف .

قوله : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّا ﴾ تجلى معناه : ظهر ، من قولك جلوت العروس ، أي أبرزتها .

وجلوت السيف : أخلصته من الصدأ ، وتجلى الشيء : انكشف .

والمعنى : فلما ظهر ربه للجبل جعله دكاً .

وقيل المتجلي : هو أمره وقدرته ، قاله قطرب وغيره .

والدك مصدر بمعنى المفعول ، أي جعله مدكوكاً مدقوقاً فصار تراباً ، هذا على قراءة من قرأ ﴿ دكاً ﴾ بالمصدر .

وهم أهل المدينة وأهل البصرة .

وأما على قراءة أهل الكوفة " جَعَلَهُ دَكَّاء " على التأنيث ، والجمع دكاوات ، كحمراء وحمراوات ، وهي اسم للرابية الناشزة من الأرض ، أو للأرض المستوية .

فالمعنى : أن الجبل صار صغيراً كالرابية ، أو أرضاً مستوية .

قال الكسائي الدك : الجبال العراض واحدها أدك .

(87/288)

والدكاوات جمع دكاء ، وهي رواب من طين ليست بالغلاظ ، والدكادك : ما التبد من الأرض فلم يرتفع ، وناقة دكاء : لا سنام لها .

﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقًا ﴾ أي مغشياً عليه مأخوذاً من الصاعقة .

والمعنى : أنه صار حاله لما غشي عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له .

يقال صعق الرجل ، فهو صعق ومصعوق ، إذا أصابته الصاعقة ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ من غشيته ﴿ قَالَ سبحانك ﴾ أي أنزهك تنزيهاً من أن أسأل شيئاً لم تأذن لي به ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ عن العود إلى مثل هذا السؤال .

قال القرطبي : وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية ، فإن الأنبياء معصومون .

وقيل : هي توبة من قتله للقبطي ، ذكره القشيري .

ولا وجه له في مثل هذا المقام ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ بك قبل قومي الموجودين في هذا

العصر المعترفين بعظمتك وجلالك .

وجملة ﴿ قَالَ يَا موسى ﴾ مستأنفة كالتي قبلها ، متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به .

والاصطفاء : الاجتباء والاختيار ، أي اخترتك على الناس المعاصرين لك برسالتي ، كذا قرأ نافع ، وابن كثير ، بالافراد ، وقرأ الباقون بالجمع .

والرسالة مصدر ، والأصل فيه الإفراد .

ومن جمع فكأنه نظر إلى أن الرسالة هي على ضروب ، فجمع لاختلاف الأنواع .

والمراد بالكلام هنا : التكليم .

امتنّ الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام ، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة ، ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه ، أي أعطاه من هذا الشرف الكريم ، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم ، والإكرام الجليل .

قوله : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ من كل شيء أي من كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم ودنياهم .

وهذه الألواح : هي التوراة .

قيل : كانت من زمردة خضراء .

وقيل : من ياقوتة حمراء ، وقيل : من زبرجد ، وقيل : من صخرة صماء .

وقد اختلف في عدد الألواح، وفي مقدار طولها وعرضها .

والألواح: جمع لوح، وسمي لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني .

وأسند الله سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفاً للمكتوب في الألواح، وهي مكتوبة بأمره سبحانه .

وقيل: هي كتابة خلقها الله في الألواح.

و﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في محل نصب على أنه مفعول ﴿ كَتَبْنَا ﴾ و ﴿ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً ﴾ بدل من محل كل شيء، أي موعظة لمن يتعظ بها من بني إسرائيل وغيرهم، وتفصيلاً للأحكام المحتاجة إلى التفصيل ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أي: خذ الألواح بقوّة، أي بجدّ ونشاط.

وقيل الضمير عائد إلى الرسالات، أو إلى كل شيء، أو إلى التوراة.

قيل: وهذا الأمر على إضمار القول، أي فقلنا له خذها .

وقيل: إن ﴿ فَخُذْهَا ﴾ بدل من قوله: ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ ﴾ ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي بأحسن ما فيها بما أجره أكثر من غيره، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ اتبعوا

أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الزمر : 55] ، وقوله : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 18] ، ومن الأحسن الصبر على الغير والعفو عنه ، والعمل بالعزيمة دون الرخصة ، وبالفريضة دون النافلة ، وفعل المأمور به ، وترك المنهيّ عنه .

قوله : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ قيل : هي أرض مصر التي كانت لفرعون وقومه .

وقيل منازل عاد وثمود .

وقيل هي جهنم .

وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها .

وقيل الدار : الهلاك .

والمعنى : سأريكم هلاك الفاسقين .

وقد تقدّم تحقيق معنى الفسق .

قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ قيل : معنى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ ﴾ سأمنعهم فهم كتابي .

وقيل : سأصرفهم عن الإيمان بها .

وقيل : سأصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما في قوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] .

وقيل : سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها .

واختلف في تفسير الآيات ، فقيل هي المعجزات .

وقيل : الكتب المنزلة .

وقيل : هي خلق السموات والأرض ، وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها .

ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك حمل الصرف على جميع المعاني المذكورة .

و﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ إما متعلق بقوله : ﴿ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ أي يتكبرون بما ليس بحق ، أو بمحذوف وقع حالاً ، أي يتكبرون متلبسين بغير الحق .

قوله : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ معطوف على ﴿ يتكبرون ﴾ منتظم معه في حكم الصفة .

والمعنى : سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات .

ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة ، والآيات التكوينية ، والمعجزات ، أي لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت .

وقرأ مالك بن دينار "يروا" بضم الياء في الموضعين .

وجملة : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ معطوفة على ما قبلها داخلة في حكمها .

وكذلك جملة : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ والمعنى : أنهم إذا وجدوا سبيلاً من سبل الرشد تركوه وتجنبوه ، وإن رأوا سبيلاً من سبل الغيّ سلكوه واختاروه لأنفسهم .

قرأ أهل المدينة وأهل البصرة ﴿ الرشد ﴾ بضم الراء وإسكان الشين .

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بفتح الراء والشين .

قال أبو عبيدة : فرق أبو عمرو بين الرشد والرشد فقال : الرُّشد الصلاح والرَّشد في الدين .

قال النحاس : سيبويه يذهب إلى أن الرشد والرشد ، كالسخط والسخط .

قال الكسائي : والصحيح عن أبي عمرو ، وغيره ، ما قال أبو عبيدة .

(90/288)

وأصل الرشد في اللغة : أن يظفر الإنسان بما يريد ، وهو ضدّ الخيبة ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الصرف ، أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم ، أو الإشارة إلى التكبر وعدم الإيمان بالآيات ، وتجنب سبيل الرشد ، وسلوك سبيل الغيّ ، واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره جملة : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أي بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها .

والموصول في ﴿ والذين كَذَّبُواْ بئاياتنا وَلِقَاء الآخرة ﴾ مبتدأ .

وخبره ﴿ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ ، والمراد بلقاء الآخرة لقاء الدار الآخرة : أي لقائهم لها ، أو لقائهم ما وعدوا به فيها على أن الإضافة إلى الظرف ، وحباط الأعمال بطلانها ، أي بطلان ما عملوه مما صورته صورة الطاعة ، كالصدقة والصلة ، وإن كانوا في حال كفرهم لا طاعات لهم .

ويحتمل أن يراد أنها تبطل بعد ما كانت مرجوّة النفع على تقدير إسلامهم ، لما في الحديث الصحيح : " أسلمت على ما أسفلت من خير " ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر بالله ، والتكذيب بآياته ، وتنكب سبيل الحق ، وسلوك سبيل الغيّ .

وقد أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن كعب قال : لما كلم الله موسى قال : يا ربّ أهكذا كلامك ؟ قال : يا موسى إنما أكلمك بقوّة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسن كلها ، ولو كلمتك بكنه كلامي لم تك شيئاً .

وأخرج البزار ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، من حديث جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما كلم الله موسى يوم الطور ، كلمه بغير الكلام الذي كلمه به يوم ناداه ، فقال له موسى : يا ربّ ، أهذا كلامك الذي كلمتني به ؟ قال : يا موسى إنما كلمتك بقوّة عشرة آلاف لسان ، ولي قوّة الألسن كلها ، وأقوى من ذلك .

فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا : يا موسى صف لنا كلام الرحمن ، فقال : لا تستطيعونه ، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقتل ، في أحلا حلاوة سمعتموه ، فذاك قريب منه وليس به " وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية ، قال : إنما كلم الله موسى بقدر ما يطيق من كلامه ، ولو تكلم بكلامه كله لم يطقه شيء ، فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد ، إلا مات من نور ربّ العالمين .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ يقول : أعطني أنظر إليك .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن قتادة ، في الآية ، قال : لما سمع الكلام طمع في الرؤية .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ قال الله : يا موسى إنك لن تراني ، قال يقول : ليس تراني ولا يكون ذلك أبداً ، يا موسى إنه لن يراني أحد فيحيا ، قال موسى ربّ إني أراك ثم أموت ، أحبّ إليّ من أن لا

أراك ثم أحيا ، فقال الله لموسى : يا موسى انظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ يقول : فإن ثبت مكانه لم يتضعضع ، ولم ينهد لبعض ما يرى من عظمتي ﴿ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ أنت لضعفك وذلتك ، وإن الجبل انهدّ بقوّته وشدته وعظمته ، فأنت أضعف وأذلّ .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن عدي في الكامل ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في كتاب الرؤية من طرق ، عن أنس بن مالك : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال هكذا ، وأشار بأصبعيه ووضع إبهامه على أنملة الخنصر .

وفي لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر .

(92/288)

فساخ الجبل ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ وفي لفظ ، فساخ الجبل في الأرض ، فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة ، وهذا الحديث حديث صحيح على شرط مسلم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : الجبل الذي أمره الله أن ينظر إليه الطور .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في كتاب الرؤية ، عن ابن عباس ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ قال : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : تراباً ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقًا ﴾ قال : مغشياً عليه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والديلمي ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما تجلى الله للجبل طارت لعظمته ستة أجبل ، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة بالمدينة : أحد وورقان ورضوى ، وبمكة : حراء وثبير وثور " وأخرج الطبراني في الأوسط ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " لما تجلى الله لموسى ، تطايرت سبعة أجبل ، ففي الحجاز خمسة منها ، وفي اليمن اثنان ، في الحجاز : أحد وثبير وحراء وورقان ، وفي اليمن : حضور وصبر " وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، أن موسى لما كلمه ربه أحبّ أن ينظر إليه فسأله فقال : ﴿ لَن تَرَانِى ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ قال : فحفّ حول الجبل الملائكة ، وحفّ حول الملائكة بنار ، وحف حول النار بملائكة ، وحفّ حولهم بنار ، ثم تجلى ربه للجبل تجلى منه مثل الخنصر ، فجعل الجبل دكاً وخرّ موسى صعقاً ، فلم يزل صعقاً ما شاء الله ، ثم أفاق فقال : سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين من بني إسرائيل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ عن عليّ ابن أبي طالب ، قال : كتب الله الألواح لموسى ، وهو يسمع صريف الأقلام في لوح .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة ، كان طول اللوح اثنى عشر ذراعاً " وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد ابن جبير ، قال كانوا يقولون كانت الألواح من ياقوتة .

وأنا أقول : إنما كانت من زمرّد وكتابها الذهب ، كتبها الله بيده ، فسمع أهل السموات صريف الأقلام .

أقول : رحم الله سعيداً ، ما كان أغناه عن هذا الذي قاله من جهة نفسه ، فمثله لا يقال بالرأي ولا بالحدس ، والذي يغلب به الظن أن كثيراً من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور .

فلهذا اختلفت واضطربت ، فهذا يقول من خشب ، وهذا يقول من ياقوت .

وهذا يقول من زمرّد ، وهذا يقول من زبرجد ، وهذا يقول من برد ، وهذا يقول من حجر .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السدي ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ كل شيء أمروا به ونهوا عنه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، مثله .

وقد اختلف السلف في المكتوب في الألواح اختلافاً كثيراً .

ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافي .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ قال بجدّ وحزم ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ قال : دار الكفار .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ قال : أمر موسى أن يأخذها بأشدّ مما أمر به قومه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن الربيع بن أنس ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ قال : بطاعة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن السدي في قوله : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ يعني : بجدّ واجتهاد ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ قال : بأحسن ما يجدون منها .

(94/288)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ قال : مصيرهم في الآخرة .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، قال : منازلهم في الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن ، قال : جهنم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة ، قال : مصر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السدي ، في قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي ﴾ قال : عن أن يتفكروا في آياتي .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ﴿ عَنْ ءاياتي ﴾ قال : عن خلق السموات والأرض ، والآيات التي فيها ، سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها أو يعتبروا .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن سفيان بن عيينة في الآية قال : أنزع عنهم فهم القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(95/288)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) ﴾

في هذا الدرس تمضي قصة موسى – عليه السلام – في حلقة أخرى . . مع قومه بني إسرائيل ؛ بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم ؛ وأغرق فرعون وملأه ؛ ودمر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون . . إن موسى – عليه السلام – لا يواجه اليوم طاغوت فرعون وملئه ؛ فقد انتهت المعركة مع الطاغوت . . ولكنه يواجه معركة أخرى – لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً – إنه يواجه المعركة مع " النفس البشرية ! " يواجهها مع رواسب الجاهلية في هذه النفس ؛ ويواجهها مع رواسب الذل الذي أفسد طبيعة بني إسرائيل ؛ وملأها بالالتواء من ناحية ؛ وبالقسوة من ناحية ؛ وبالجبن من ناحية ؛ وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية . وتركها مهلهلة بين هذه النزعات جميعاً . . فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً ؛ ومن الحياة في ظل الإرهاب والخوف والتخفي والالتواء لتفادي الأخطار والعذاب ، والحركة في الظلام ، مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء !

ولقد عاش بنو إسرائيل في هذا العذاب طويلاً ؛ عاشوا في ظل الإرهاب ؛ وفي ظل الوثنية الفرعونية كذلك . عاشوا يقتل فرعون أبناءهم ويستحيي نسائهم . فإذا فتر هذا النوع البشع من الإرهاب الوحشي ، عاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال . وفسدت نفوسهم ؛ وفسدت طبيعتهم ؛ والتوت فطرتهم ؛ وانحرفت تصوراتهم ؛ وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب ، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر . . وهما جانبان متلازمان في النفس البشرية حيثما تعرضت طويلاً للإرهاب والطغيان .

لقد كان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ينظر بنور الله ، فيرى حقيقة تركيب النفس البشرية وطبيعتها ؛ وهو يقول لعماله على الأمصار موصياً لهم بالناس : " ولا تضربوا أبشارهم فتذلوهم " . . كان يعلم أن ضرب البشرة يذل الناس . وكان الإسلام في قلبه يريد منه ألا يذل الناس في حكومة الإسلام وفي مملكة الله . فالناس في مملكة الله أعزاء ، ويجب أن يكونوا أعزاء ؛ وألا يضربهم الحكام فيذلوهم ، لأنهم ليسوا عبيداً للحكام . . إنما هم عبيد لله أعزاء على غير الله . .

ولقد ضربت أبشار بني إسرائل في طاغوت الفرعونية حتى ذلوا . بل كان ضرب الأبشار هو أخف ما يتعرضون له من الأذى في فترات الرخاء ! ولقد ضربت أبشار المصريين كذلك حتى ذلوا هم الآخرون واستخفهم فرعون ! ضربت أبشارهم في عهود الطاغوت الفرعوني ؛ ثم ضربت أبشارهم في عهود الطاغوت الروماني . . ولم يستنقذهم من هذا الذل إلا الإسلام ، يوم جاءهم بالحرية فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لرب البشر . . فلما أن ضرب ابن عمرو بن العاص – فاتح مصر وحاكمها المسلم – ظهر ابن قبطي من أهل مصر – لعل سياط الرومان كانت آثارها على ظهره ما تزال – غضب القبطي لسوط

واحد يصيب ابنه – من ابن فاتح مصر وحاكمها – وسافر شهراً على ظهر ناقة ، ليشكو إلى عمر بن الخطاب – الخليفة المسلم – هذا السوط الواحد الذي نال ابنه ! – وكان هو يصبر على السياط منذ سنوات قلائل في عهد الرومان – وكانت هذه هي معجزة البعث الإسلامي لنفوس الأقباط في مصر ، وللنفوس في كل مكان – حتى لمن لم يعتنقوا الإسلام – كانت هذه هي معجزة هذا البعث الذي يستنقذ الأرواح من ركام آلاف السنين من الذل القديم ، فتنتفض هكذا انتفاضة الكرامة التي أطلقها الإسلام في أرواحهم ؛ وما كان غير الإسلام ليطلقها في مثل هذه الأرواح .

(97/288)

عملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعوني هي التي سيواجهها موسى عليه السلام في هذه الحلقة – بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوزه بهم البحر – وسنرى من خلال القصص القرآني هذه النفوس ، وهي تواجه الحرية بكل رواسب الذل ؛ وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية ؛ وتواجه موسى – عليه السلام – بكل الالتواءات والانحرافات والانحلالات والجهالات التي ترسبت فيها على الزمن الطويل !

وسنرى متاعب موسى – عليه السلام – في المحاولة الضخمة التي يحاولها ؛ وثقلة الجبلات

التي أخلدت إلى الأرض طويلاً ، حتى ما تريد أن تنهض من الوحل الذي تمرغت فيه طويلاً ، وقد حسبته الأمر العادي الذي ليس غيره !

وسنرى من خلال متاعب موسى – عليه السلام – متاعب كل صاحب دعوة ، يواجه نفوساً طال عليها الأمد ، وهي تستمرئ حياة الذل تحت قهر الطاغوت – وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها إليها ، ثم طال عليها الأمد ، فبهتت صورتها ، وعادت شكلاً لا روح فيه ؟

إن جهد صاحب الدعوة – في مثل هذه الحال – لهو جهد مضاعف . ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك . . يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات ، وثقلة الطبائع وتفاهة الاهتمامات ؛ ويجب أن يصبر على الانتكاس الذي يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة ، والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة !

ولعل هذا جانب من حكمة الله في عرض قصة بني إسرائيل على الأمة المسلمة ، في هذه الصورة المفصلة المكررة . لترى فيها هذه التجربة . كما قلنا من قبل . ولعل فيها زاداً لأصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل .

(98/288)

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال : أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ؟ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب : يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ . .

إنه المشهد السابع في القصة – مشهد بني إسرائيل بعد تجاوز البحر – ونحن فيه وجهاً لوجه أمام طبيعة القوم المنحرفة المستعصية على التقويم ؛ بما ترسب فيها من ذلك التاريخ القديم .

. إن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون الخسف في ظل الوثنية الجاهلية عند فرعون وملئه ؛ ومنذ أن أنقذهم نبيهم وزعيمهم موسى – عليه السلام – باسم الله الواحد – رب العالمين – الذي أهلك عدوهم ؛ وشق لهم البحر ؛ وأنجاهم من العذاب الوحشي الفظيع الذي كانوا يسامون . . إنهم خارجون للتو واللحظة من مصر ووثنيتها ؛ ولكن ها هم أولاء ما إن يجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وثنيين ، عاكفين على أصنام لهم ، مستغرقين في طقوسهم الوثنية ؛ وإذا هم يطلبون إلى موسى – رسول رب العالمين – الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد ، أن يتخذ لهم وثناً يعبدونه من جديد !

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ !

(99/288)

إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام ! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية . وطبيعة بني إسرائيل – كما عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً أميناً في شتى المناسبات – طبيعة مخلخلة العزيمة ، ضعيفة الروح ، ما تكاد تهتدي حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس . . ذلك إلى غلظ في الكبد ، وتصلب عن الحق ، وقساوة في الحس والشعور ! وها هم أولاء على طبيعتهم تلك ، ها هم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عاماً منذ أن جاءهم موسى – عليه السلام – بالتوحيد – فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عاماً منذ أن واجه فرعون وملأه برسالته إلى يوم الخروج من مصر مجتازاً ببني إسرائيل البحر – بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين !

وهؤلاء كانوا وثنيين ، وباسم هذه الوثنية استذلوهم – حتى إن الملأ من قوم فرعون

ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم : ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ؟ ﴾ . . ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نبيهم : رسول رب العالمين أن يتخذ لهم بنفسه . . آلهة ؟ ولو أنهم هم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة . . ولكنما هي إسرائيل ! . .

ويغضب موسى – عليه السلام – غضبة رسول رب العالمين ، لرب العالمين – يغضب لربه – سبحانه – ويغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه ! فيقول قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب :

﴿ قال : إنكم قوم تجهلون ﴾ . .

ولم يقل تجهلون ماذا ؟ ليكون في إطلاق اللفظ ما يعني الجهل الكامل الشامل .

(100/288)

الجهل من الجهالة ضد المعرفة ، والجهل من الحماقة ضد العقل ! فما ينبعث مثل هذا القول إلا من الجهالة والحمق إلى أبعد الحدود ! ثم ليشير إلى أن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة ؛ وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلى الله الواحد ؛ وأنه ما من علم ولا عقل يقود إلى غير هذا الطريق . .

إن العلم والعقل يواجهان هذا الكون بنواميسه التي تشهد بوجود الخالق المدبر ؛ وبوحدانية هذا الخالق المدبر . فعنصر التقدير والتدبير بارز في هذه النواميس ، وطابع الوحدة ظاهر كذلك فيها وفي آثارها التي يكشفها النظر والتدبر – وفق المنهج الصحيح – وما يغفل عن ذلك كله ، أو يعرض عن ذلك كله ، إلا الحمقى والجهال . ولو ادعوا " العلم " كما يدعيه الكثيرون !

ويمضي موسى – عليه السلام – يكشف لقومه عن سوء المغبة فيما يطلبون ، بالكشف عن سوء عقبى القوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم ، فأرادوا أن يقلدوهم :

﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون ﴾ . .

إن ما هم فيه من شرك ، وعكوف على الآلهة ، وحياة تقوم على هذا الشرك ، وتتعدد فيها الأرباب ، ومن يقوم وراء الأرباب من السدنة والكهنة ، ومن حكام يستمدون سلطانهم من هذا الخليط . . إلى آخر ما يتبع الانحراف عن الألوهية الواحدة من فساد في التصورات وفساد في الحياة . . إن هذا كله هالك باطل ؛ ينتظره ما ينتظر كل باطل من الهلاك والدمار في نهاية المطاف !

ثم ترتفع نغمة الغيرة في كلمات موسى – عليه السلام – على ربه والغضب له – سبحانه – والتعجب من نسيان قومه لنعمة الله عليهم – وهي حاضرة ظاهرة – :

﴿ قال : أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ؟ ﴾ . .

والتفضيل على العالمين – في زمانهم يتجلى في اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين . وليس وراء ذلك فضل ولا منة . فهذا ما لا يعدله فضل ولا منة . كما أنه اختارهم ليورثهم الأرض المقدسة – التي كانت إذا ذاك في أيد مشركة – فكيف بعد هذا كله يطلبون إلى نبيهم أن يطلب لهم إلهاً غير الله ؛ وهم في نعمته وفضله يتقلبون ؟ !

وعلى طريقة القرآن الكريم في وصل ما يحكيه عن أولياء الله بما يحكيه عن الله – سبحانه – يستطرد السياق بخطاب من الله تعالى موصول بكلام موسى – عليه السلام – موجه كذلك لقومه :

﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ . .

وفي مثل هذا الوصل في القرآن الكريم ، بين كلام الله – سبحانه – وما يحكيه من كلام أوليائه ، تكريم أي تكريم لهؤلاء الأولياء لا ريب فيه !

وهذه المنة التي يمتنها الله على بني إسرائيل – في هذا الموضع – كانت حاضرة في أذهانهم وأعصابهم .

ولقد كانت هذه المنة وحدها كفيلة بأن تذكر وتشكر . . والله سبحانه وتعالى يوجه قلوبهم لما في ذلك الابتلاء من عبرة . . ابتلاء العذاب وابتلاء النجاة . الابتلاء بالشدة والابتلاء بالرخاء . .

﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ . .

فما كان شيء في ذلك كله جزافاً بلا تقدير . ولكنه الابتلاء للموعظة وللتذكير . وللتمحيص والتدريب . وللإعذار قبل الأخذ الشديد . إن لم يفلح الابتلاء في استصلاح القلوب !

وينتهي هذا المشهد بين موسى وقومه ، ليبدأ المشهد الثامن الذي يليه . . مشهد تهيؤ موسى – عليه السلام – للقاء ربه العظيم ؛ واستعداده للموقف الهائل بين يديه في هذه الحياة الدنيا ؛ ووصيته لأخيه هارون – عليه السلام – قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم :

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة . . وقال موسى لأخيه هارون : اخلفني في قومي ، وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ . .

(102/288)

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى التي أرسل لها . انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب بين فرعون وملئه ؛ وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة ، وفي طريقهم إلى الأرض المقدسة . . ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى . . مهمة الخلافة في الأرض بدين الله . . ولقد رأينا كيف اشرأبت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ؛ وتخلخلت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى – عليه السلام – ولم يمض إلا القليل ! فلم يكن بد من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم ؛ وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم . . ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله لعبده موسى ليلقاه ويتلقى عنه . وكانت هذه المواعدة إعداداً لموسى لنفسه ، كي يتهيأ في هذه الليالي للموقف الهائل العظيم ، ويستعد لتلقيه .

وكانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة ، أضيفت إليها عشر ، فبلغت عدتها أربعين ليلة ، يروض موسى فيها نفسه على اللقاء الموعود ؛ وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليستغرق في هواتف السماء ؛ ويعتكف فيها عن الخلق ليستغرق فيها في الخالق الجليل ؛ وتصفو روحه وتشف وتستضيء ؛ وتتقوى عزيمته على مواجهة الموقف المرتقب وحمل الرسالة الموعودة . .

وألقى موسى إلى أخيه هارون – قبل مغادرته لقومه واعتزاله واعتكافه – بوصيته تلك :

﴿ وقال موسى لأخيه هارون : اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ . .

ذلك وموسى يعلم أن هارون نبي مرسل من ربه معه . ولكن المسلم للمسلم ناصح .

والنصيحة حق وواجب للمسلم على المسلم . . ثم إن موسى يقدر ثقل التبعة ، وهو

يعرف طبيعة قومه بني إسرائيل ! . . وقد تلقى هارون النصيحة . لم تثقل على نفسه !

فالنصحية إنما تثقل على نفوس الأشرار لأنها تقيدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه ؛ وتثقل

على نفوس المتكبرين الصغار ، الذين يحسون في النصيحة تنقصاً لأقدارهم ! .

(103/288)

إن الصغير هو الذي يبعد عنه يدك التي تمتد لتسانده ؛ ليظهر أنه كبير ! ! !

فأما قصة الليالي الثلاثين وإتمامها بالعشر الليالي فقال عنها ابن كثير في التفسير : " فذكر

تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ؛ قال المفسرون : فصامها موسى – عليه السلام –

وطواها ، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة ، فأمره الله تعالى أن يكمل العشرة أربعين

. . "

ثم يأتي السياق للمشهد التاسع . المشهد الفذ الذي اختص الله به نبيه موسى – عليه

السلام – مشهد الخطاب المباشر بين الجليل – سبحانه – وعبد من عباده . المشهد الذي

تتصل فيه الذرة المحدودة الفانية بالوجود الأزلي الأبدي بلا وساطة ؛ ويطيق الكائن البشري أن يتلقى عن الخالق الأبدي ، وهو بعد على هذه الأرض . . ولا ندري نحن كيف . . لا ندري كيف كان كلام الله – سبحانه – لعبده موسى . ولا ندري بأية حاسة أو جارحة أو أداة تلقى موسى كلمات الله . فتصوير هذا على وجه الحقيقة متعذر علينا نحن البشر المحكومين في تصوراتنا بنصيبنا المحدود من الطاقة المدركة ؛ وبرصيدنا المحدود من التجارب الواقعة . ولكننا نملك بالسر اللطيف المستمد من روح الله الذي في كياننا أن نستروح وأن نستشرف هذا الأفق السامق الوضيء . ثم نقف عند هذا الاستشراف لا نحاول أن نفسده بسؤالنا عن الكيفية ، نريد أَن نتصورها بإدراكنا القريب المحدود !

(104/288)

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : رب أرني أنظر إليك ، قال : لن تراني ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ، وخر موسى صعقاً . فلما أفاق قال : سبحانك ! تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال : يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي . فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ، فخذها بقوة وأمر قومك

يأخذوا بأحسنها . سأريكم دار الفاسقين . سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ ﴾ .

إننا لفي حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الفريد في خيالنا وفي أعصابنا وفي كياننا كله . . في حاجة إلى استحضاره لنستشرف ونحاول الاقتراب من تصوره ؛ ولنشعر بشيء من مشاعر موسى عليه السلام فيه . .

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه ، قال : رب أرني أنظر إليك ﴾ . .

إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه ؛ وروحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق ! فينسى من هو ، وينسى ما هو ، ويطلب ما لا يكون لبشر في هذه الأرض ، وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض .

. يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود . . حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الجازمة :

﴿ قال : لن تراني ﴾ . .

ثم يترفق به الرب العظيم الجليل ، فيعلمه لماذا لن يراه . . إنه لا يطيق . .

﴿ ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني ﴾ . .

والجبل أمكن وأثبت . والجبل مع تمكنه وثباته أقل تأثراً واستجابة من الكيان البشري . .

ومع ذلك فماذا ؟

﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ . .

(105/288)

فكيف كان هذا التجلي ؟ نحن لا نملك أن نصفه ، ولا نملك أن ندركه . . ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله ، حين تشف أرواحنا وتصفو ، وتتجه بكليتها إلى مصدرها . فأما الألفاظ المجردة فلا تملك أن تنقل شيئاً . . لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نصور هذا التجلي . . ونحن أميل إلى اطراح كل الروايات التي وردت في تفسيره ؛ وليس منها رواية عن المعصوم – صلى الله عليه وسلم – والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئاً .

﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ . .

وقد ساخت نتوءاته فبدا مسوًّى بالأرض مدكوكاً . . وأدركت موسى رهبة الموقف ، وسرت في كيانه البشري الضعيف :

﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ .

مغشياً عليه ، غائباً عن وعيه .

﴿ فلما أفاق ﴾ . .

وثاب إلى نفسه ، وأدرك مدى طاقته ، واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله :

﴿ قال : سبحانك ! ﴾ . .

تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك .

﴿ تبت إليك ﴾ . .

عن تجاوزي للمدى في سؤالك !

﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ . .

والرسل دائماً هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله ، وبما ينزله عليهم من كلماته . . وربهم يأمرهم أن يعلنوا هذا ، والقرآن الكريم يحكي عنهم هذا الإعلان في مواضع منه شتى .

وأدركت موسى رحمة الله مرة أخرى ؛ فإذا هو يتلقى منه البشرى . . بشرى الاصطفاء ، مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص . . وكانت رسالته إلى فرعون وملئه من أجل هذا الخلاص :

﴿ قال : يا موسى ، إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ . .

ونفهم من قول الله سبحانه لموسى – عليه السلام – ﴿ اني اصطفيتك على الناس برسالاتي ﴾ . . أن المقصود بالناس الذين اصطفاه عليهم هم أهل زمانه – فالرسل كانوا قبل موسى وبعده – فهو الاصطفاء على جيل من الناس بحكم هذه القرينة . أما الكلام فهو الذي تفرد به موسى – عليه السلام – أما أمر الله تعالى لموسى بأخذ ما آتاه ، والشكر على الاصطفاء والعطاء ، فهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغي أن تقابل به نعمة الله . والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – قدوة للناس ؛ وللناس فيهم أسوة ؛ وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر استزادة من النعمة ؛ وإصلاحاً للقلب ؛ وتحرزاً من البطر ؛ واتصالاً بالله . .

ثم يبين السياق ماذا كان مضمون الرسالة ، وكيف أوتيها موسى :

﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ .

.

وتختلف الروايات والمفسرون في شأن هذه الألواح ؛ ويصفها بعضهم أوصافاً مفصلة – نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير – ولا نجد في هذا كله شيئاً عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنكتفي بالوقوف عند النص القرآني الصادق لا نتعداه . وما تزيد تلك الأوصاف شيئاً أو تنقص من حقيقة هذه الألواح . أما ما هي

وكيف كتبت فلا يعنينا هذا في شيء بما أنه لم يرد عنها من النصوص الصحيحة شيء .

والمهم هو ما في هذه الألواح . إن فيها من كل شيء يختص بموضوع الرسالة وغايتها من بيان الله وشريعته والتوجيهات المطلوبة لإصلاح حال هذه الأمة وطبيعتها التي أفسدها الذل وطول الأمد سواء !

﴿ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ . .

(107/288)

والأمر الإلهي الجليل لموسى – عليه السلام – أن يأخذ الألواح بقوة وعزم ، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم . . هذا الأمر على هذا النحو فضلاً على أنه يشي بضرورة هذا الأسلوب في أخذ هذه الطبيعة الإسرائيلية ، التي أفسدها الذل وطول الأمد ، بالعزم والجد ، لتحمل تكاليف الرسالة والخلافة ، فإنه – كذلك – يوحي بالمنهج الواجب في أخذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها . . إن العقيدة أمر هائل عند الله – سبحانه – وأمر هائل في حساب هذا الكون ، وقدر الله الذي يصرفه ، وأمر هائل في تاريخ " الإنسان " وحياته في هذه الأرض وفي الدار الآخرة كذلك . . والمنهج الذي تشرعه العقيدة في وحدانية الله – سبحانه – وعبودية البشر

لربوبيته وحده ، منهج يغير أسلوب الحياة البشرية بجملتها ، ويقيم هذه الحياة على أسلوب آخر غير الذي تجري عليه في الجاهلية ، حيث تقوم ربوبية غير ربوبية الله سبحانه ، ذات منهج للحياة كلها غير منهج الله الذي ينبثق من تلك العقيدة . .

وأمر له هذه الخطورة عند الله ، وفي حساب الكون ، وفي طبيعة الحياة وفي تاريخ " الإنسان " . . يجب أن يؤخذ بقوة ، وأن تكون له جديته في النفس ، وصراحته وحسمه . ولا ينبغي أن يؤخذ في رخاوة ، ولا في تميع ، ولا في ترخص ، ذلك أنه أمر هائل في ذاته ، فضلاً على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها من طبيعته الرخاوة والتميع والترخص ، أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر . .

وليس معنى هذا – بطبيعة الحال – هو التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض ! فهذا ليس من طبيعة دين الله . . ولكن معناه الجد والهمة والحسم والصراحة . . وهي صفات أخرى ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض !

(108/288)

ولقد كانت طبيعة بني إسرائيل – بصفة خاصة – بعد ما أفسدها طول الذل والعبودية في مصر . تحتاج إلى هذا التوجيه . لذلك نلحظ أن كل الأوامر لبني إسرائيل كانت مصحوبة

بمثل هذا التشديد وهذا التوكيد ، تربية لهذه الطبيعة الرخوة الملتوية المنحرفة الخاوية ، على الاستقامة والجد والوضوح والصراحة .

ومثل طبيعة بني إسرائيل كل طبيعة تعرضت لمثل ما تعرضوا له من طول العبودية والذل ، والخضوع للإرهاب والتعبد للطواغيت ، فبدت عليها أعراض الالتواء والاحتيال ، والأخذ بالأسهل تجنباً للمشقة . . كما هو الملحوظ في واقع كثير من الجماعات البشرية التي نطالعها في زماننا هذا ، والتي تهرب من العقيدة لتهرب من تكاليفها ، وتسير مع القطيع ؛ لأن السير مع القطيع لا يكلفها شيئاً !

وفي مقابل أخذ هذا الأمر بقوة يعد الله موسى وقومه أن يمكن لهم في الأرض ، ويورثهم دار الفاسقين عن دينه :

﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ . .

والأقرب أنها إشارة إلى الأرض المقدسة التي كانت – في ذلك الزمان – في قبضة الوثنيين ، وأنها بشارة لهم بدخولها . . وإن كان بنو إسرائيل لم يدخلوها في عهد موسى – عليه السلام – لأن تربيتهم لم تكن قد استكملت ، وطبيعتهم تلك لم تكن قد قوّمت ، فوقفوا أمام الأرض المقدسة يقولون لنبيهم : ﴿ يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ! ﴾ . . ثم لما ألح عليهم الرجلان المؤمنان فيهم اللذان يخافان الله ، في الدخول والاقتحام ! أجابوا موسى بتوقح الجبان – كالدابة التي

ترفس سائقها !- : قالوا ﴿ إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون ! ﴾ . . مما يصور تلك الطبيعة الخائرة المفككة الملتوية التي كانت تعالجها العقيدة والشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام ، وأمر هذا الأمر الألهي الجليل أن يأخذها بقوة ، وأن يأمر قومه بحمل تكاليفها الشاقة . .

(109/288)

وفي نهاية المشهد والتكليم يجيء بيان لعاقبة الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، ويعرضون عن آيات الله وتوجيهاته ، يتضمن تصويراً دقيقاً لطبيعة هذا الصنف من الناس ، في نصاعة وجمال التصوير القرآني الفريد لأنماط الطبائع ونماذج النفوس :

﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ ﴾ . .

إن الله تعالى يعلن عن مشيئته في شأن أولئك الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه

سبيلاً . . إنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها . . آياته في كتاب الكون المنظور ، وآياته في كتبه المنزلة على رسله . . ذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته سبحانه وكانوا عنها غافلين .

وإن هذا النموذج من الناس ليرتسم من خلال الكلمات القرآنية ، كأنما نراه بسماته وحركاته !

﴿ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ .

وما يتكبر عبد من عبيد الله في أرضه بالحق أبداً . فالكبرياء صفة الله وحده . لا يقبل فيها شريكاً . وحيثما تكبر إنسان في الأرض كان ذلك تكبراً بغير الحق ! وشر التكبر ادعاء حق الربوبية في الأرض على عباد الله ، ومزاولة هذا الحق بالتشريع لهم من دون الله ؛ وتعبيدهم لهذا التشريع الباطل ، ومن هذا التكبر تنشأ سائر ألوان التكبر . فهو أساس الشر كله ومنه ينبعث . ومن ثم تجيء بقية الملامح :

﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾ . .

فهي جبلة تجنح عن سبيل الرشد حيثما رأته ، وتجنح إلى سبيل الغي حيثما لاح لها ؛ كأنما بآلية في تركيبها لا تتخلف ! وهذه هي السمة التي يرسمها التعبير ، ويطبع بها هذا النموذج المتكبر ، الذي قضت مشيئة الله أن يجازيه على التكذيب بآيات الله والغفلة عنها بصرفه عن هذه الآيات أبداً !

وإن الإنسان ليصادف هذا الصنف من الخلق بوصفه هذا وسمته وملامحه ، فيرى كأنما يتجنب الرشد ويتبع الغي دون جهد منه ، ودون تفكير ولا تدبير ! فهو يعمى عن طريق الرشد ويتجنبه ، وينشرح لطريق الغي ويتبعه ! وهو في الوقت ذاته مصروف عن آيات الله لا يراها ولا يتدبرها ولا تلتقط أجهزته إيحاءاتها وإيقاعاتها !

وسبحان الله ! فمن خلال اللمسات السريعة في العبارة القرآنية العجيبة ينتفض هذا النموذج من الخلق شاخصاً بارزاً حتى ليكاد القارئ يصيح لتوه : نعم . نعم . أعرف هذا الصنف من الخلق . . إنه فلان ! ! ! وإنه للمعنيّ الموصوف بهذه الكلمات ! ! !

وما يظلم الله هذا الصنف من الخلق بهذا الجزاء المردي المؤدي إلى الهلاك في الدنيا والآخرة . . إنما هو الجزاء الحق لمن يكذب بآيات الله ويغفل عنها ، ويتكبر في الأرض بغير الحق ، ويتجنب سبيل الرشد حيثما رآه ، ويهرع إلى سبيل الغي حيثما لاح له ! فإنما بعمله جوزي ؛ وبسلوكه أورد موارد الهلاك .

﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ . .

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ . .

وحبوط الأعمال مأخوذ من قولهم : حبطت الناقة . . إذا رعت نباتاً ساماً ، فانتفخ بطنها ثم نفقت . . وهو وصف ملحوظ فيه طبيعة الباطل الذي يصدر من المكذبين بآيات الله ولقاء الآخرة . فهو ينتفخ حتى يظنه الناس من عظمة وقوة ! ثم ينفق كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السام !

وإنه لجزاء كذلك حق أن تحبط وتهلك أعمال الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة . .

ولكن كيف تحبط هذه الأعمال ؟

(111/288)

من ناحية الاعتقاد . . نحن نؤمن بصدق وعيد الله لا محالة ؛ أياً كانت الظواهر التي تخالف هذه العاقبة المحتومة . فحيثما كذب أحد بآيات الله ولقائه في الآخرة حبط عمله وبطل ، وهلك في النهاية وذهب كأن لم يكن .

ومن ناحية النظر . . نحن نجد السبب واضحاً في حياة البشر . . إن الذي يكذب بآيات الله المبثوثة في صفحات هذا الكون المنشور ، أو آياته المصاحبة للرسالات ، أو التي يحملها

الرسل ؛ ويكذب تبعاً لهذا بلقاء الله في اليوم الآخر . . إن هذا الكائن المسيخ روح ضالة شاردة عن طبيعة هذا الكون المؤمن المسلم ونواميسه . . لا تربطه بهذا الكون رابطة . وهو منقطع عن دوافع الحركة الصادقة الموصولة بغاية الوجود واتجاهه . وكل عمل يصدر عن مثل هذا المسخ المقطوع هو عمل حابط ضائع ، ولو بدا أنه قائم وناجح . لأنه لا ينبعث عن البواعث الأصيلة العميقة في بنية هذا الوجود ؛ ولا يتجه إلى الغاية الكبيرة التي يتجه إليها الكون كله . شأنه شأن الجدول الذي ينقطع عن النبع الأول ؛ فمآله إلى الجفاف والضياع في يوم قريب أو بعيد !

والذين لا يرون العلاقة الوثيقة بين تلك القيم الإيمانية وحركة التاريخ الإنساني ؛ والذين يغفلون عن قدر الله الذي يجري بعاقبة الذين يتنكرون لهذه القيم . . هؤلاء إنما هم الغافلون الذين أعلن الله – سبحانه – عن مشيئته في أمرهم ، بصرفهم عن رؤية آياته ، وتدبر سننه . . وقدر الله يتربص بهم وهم عنه غافلون . .

والذين يخدعهم ما يرونه في الأمد القصير المحدود ، من فلاح بعض الذين يغفلون عن تلك القيم الإيمانية ونجاحهم ؛ إنما يخدعهم الانتفاخ الذي يصيب الدابة وقد رعت النبت السام ؛ فيحسبونه شحماً وسمنة وعافية وصحة . . والهلاك يترصدها بعد الانتفاخ والحبوط ! والأمم التي خلت شاهد واقع . ولكن الذين سكنوا مساكنهم من بعدهم ، لا يأخذون

منهم عبرة ، ولا يرون سنة الله التي تعمل ولا تتخلف ؛ وقدر الله الذي يجري ولا يتوقف . .

والله من ورائهم محيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1353 . 1373 ﴾

(112/288)

قوله تعالى ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك كله مما يتعجب الموفق من ارتكابه ، أعقبه تعالى مبيناً ومصوراً ومحققاً لوقوعه ومقرراً قوله عطفاً على ﴿ فأتوا على قوم يعكفون ﴾ [الأعراف : 138] مبيناً لإسراعهم في الكفر : ﴿ واتخذ ﴾ أي بغاية الرغبة ﴿ قوم موسى ﴾ أي باتخاذ السامري ورضاهم ، ولم يعتبروا شيئاً مما أتاهم به من تلك الآيات التي لم ير مثلها ﴿ من بعده ﴾ أي بعد إبطائه عنهم بالعشرة الأيام التي أتممنا بها الأربعين ﴿ من حليهم ﴾ أي التي كانت معهم من مالهم ومما استعاروه من القبط ﴿ عجلاً ﴾ ولما كان العجل اسماً لولد البقر ، بين أنه إنما يشبه صورته فقط ، فقال مبدلاً منه : ﴿ جسداً ﴾ .

ولما كان الإخبار بأنه جسد مفهماً لأنه خال مما يشبه الناشىء عن الروح، قال ﴿ له خوار ﴾ أي صوت كصوت البقر، والمعنى أنه لا أضل ولا أعمى من قوم كان معهم حلي أخذوه ممن كانوا يستعبدونهم ويؤذونهم وهم مع ذلك أكفر الكفرة فكان جديراً بالبغض لكونه من آثار الظالمين الأعداء فاعتقدوا انه بالصوغ صار إلهاً وبالغوا في حبه والعبودية له وهو جسد يرونه ويلمسونه، ونبيهم الذي هداهم الله به واصطفاه لكلامه يسأل رؤية الله فلا يصل إليها .

(113/288)

ولما لم يكن في الكلام نص باتخاذه إلهاً، دل على ذلك بالإنكار عليهم في قوله: ﴿ ألم يروا ﴾ أي الذين اتخذوا إلهاً ﴿ أنه لا يكلمهم ﴾ أي كما كلم الله موسى عليه السلام ﴿ ولا يهديهم سبيلاً ﴾ كما هداهم الله تعالى إلى سبيل النجاة، منها سلوكهم في البحر الذي كان سبباً لإهلاك عدوهم كما كان سبباً لنجاتهم؛ قال أبو حيان: سلب عنه هذين الوصفين دون باقي أوصاف الإلهية لأن انتفاء التكليم يستلزم انتفاء العلم، وانتفاء الهداية إلى سبيل يستلزم انتفاء القدرة، وانتفاء هذين الوصفين يستلزم انتفاء باقي الأوصاف .

ولما كان هذا أمراً عظيماً جداً مستبعد الوقوع ولا سيما من قوم نبيهم بينهم ولا سيما وقد

أراهم من النعم والآيات ما ملأت أنواره الآفاق ، كان جديراً بالتأكيد فقال تعالى :

﴿ اتخذوه ﴾ أي بغاية الجد والنشاط والشهوة ﴿ وكانوا ﴾ أي جلبة وطبعاً مع ما أثبت لهم من الأنوار ﴿ ظالمين ﴾ أي حالهم حال من يمشي في الظلام ، أو أن المقصود أن الظلم وصف لهم لازم ، فلا بدع إذا فعلوا أمثال ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 113.112 ﴾

(114/288)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المراد من هذه الآية قصة اتخاذ السامري العجل ، وفيها مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ حُلِيِّهِمْ ﴾ بكسر الحاء واللام وتشديد الياء للاتباع كدلي .

والباقون : ﴿ حُلِيِّهِمْ ﴾ بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء جمع حلي كثدي وثدي ، وقرأ بعضهم : ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ على التوحيد ، والحلي اسم ما يتحسن به من الذهب والفضة .

المسألة الثانية :

قيل : إن بني إسرائيل كان لهم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلي فاستعاروا حلي القبط لذلك اليوم ، فلما أغرق الله القبط بقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل ، فجمع السامري تلك الحلي وكان رجلاً مطاعاً فيهم ذا قدر وكانوا قد سألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلها يعبدونه ، فصاغ السامري عجلاً .

ثم اختلف الناس ، فقال قوم كان قد أخذ كفاً من تراب حافر فرس جبريل عليه السلام فألقاه في جوف ذلك العجل فانقلب لحماً ودماً وظهر منه الخوار مرة واحدة .

فقال السامري : هذا إلهكم وإله موسى وقال أكثر المفسرين من المعتزلة : إنه كان قد جعل ذلك العجل مجوفاً ووضع في جوفه أنابيب على شكل مخصوص ، وكان قد وضع ذلك التمثال على مهب الرياح ، فكانت الريح تدخل في جوف الأنابيب ويظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل ، وقال آخرون : إنه جعل ذلك التمثال أجوف ، وجعل تحته في الموضع الذي نصب فيه العجل من ينفخ فيه من حيث لا يشعر به الناس فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار .

قال صاحب هذا القول والناس قد يفعلون الآن في هذه التصاوير التي يجرون فيها الماء على سبيل الفوارات ما يشبه ذلك ، فبهذا الطريق وغيره أظهر الصوت من ذلك التمثال ، ثم ألقى إلى الناس أن هذا العجل إلهم وإله موسى .

بقي في لفظ الآية سؤالات :

السؤال الأول : لم قيل : ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيّهِمْ عِجْلاً جَسَداً ﴾ والمتخذ هو السامري وحده ؟ .

(115/288)

والجواب : فيه وجهان : الأول : أن الله نسب الفعل إليهم ، لأن رجلاً منهم باشره كما يقال : بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا ، والقائل والفاعل واحد .

والثاني : أنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به ، فكأنهم اجتمعوا عليه .

السؤال الثاني : لم قال : ﴿ مِنْ حُلِيّهِمْ ﴾ ولم يكن الحلي لهم ، وإنما حصل في أيديهم على سبيل العارية ؟ .

والجواب : أنه تعالى لما أهلك قوم فرعون بقيت تلك الأموال في أيديهم ، وصارت ملكاً لهم كسائر أملاكهم بدليل قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جنات وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان : 25] ، ﴿ وكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 58] ، ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فاكهين * كَذَلِكَ وأورثناها قَوْماً ءاخَرِينَ ﴾ [الدخان : 27 ، 28] .

السؤال الثالث : هؤلاء الذين عبدوا العجل هم كل قوم موسى أو بعضهم ؟ .

والجواب : أن قوله تعالى : ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيّهِمْ عِجْلاً ﴾ يفيد العموم .

قال الحسن : كلهم عبدوا العجل غير هارون .

واحتج عليه بوجهين : الأول : عموم هذه الآية ، والثاني : قول موسى عليه السلام في هذه القصة ﴿ رَبّ اغفر لِى وَلاخِى ﴾ قال خص نفسه وأخاه بالدعاء ، وذلك يدل على أن من كان مغايراً لهما ما كان أهلاً للدعاء ولو بقوا على الإيمان لما كان الأمر كذلك ، وقال آخرون : بل كان قد بقي في بني إسرائيل من ثبت على إيمانه فإن ذلك الكفر إنما وقع في قوم مخصوصين ، والدليل عليه قوله تعالى :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : 181] .

السؤال الرابع : هل انقلب ذلك التمثال لحماً ودماً على ما قاله بعضهم أو بقي ذهباً كما كان قبل ذلك ؟ .

(116/288)

والجواب : الذاهبون إلى الاحتمال الأول احتجوا على صحة قولهم بوجهين : الأول : قوله تعالى : ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ والجسد اسم للجسم الذي يكون من اللحم والدم ، ومنهم من نازع في ذلك وقال بل الجسد اسم لكل جسم كثيف ، سواء كان من اللحم والدم

أو لم يكن كذلك .

والحجة الثانية : أنه تعالى أثبت له خواراً ، وذلك إنما يتأتى في الحيوان .

وأجيب عنه : بأن ذلك الصوت لما أشبه الخوار لم يبعد إطلاق لفظ الخوار عليه ، وقرأ علي رضي الله عنه : (جؤار) بالجيم والهمزة ، من جأر إذا صاح فهذا ما قيل في هذا الباب .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا المذهب والمقالة احتج على فساد كون ذلك العجل إلها بقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتخذوه وَكَانُواْ ظالمين ﴾ وتقرير هذا الدليل أن هذا العجل لا يمكنه أن يكلمهم ولا يمكنه أن يهديهم إلى الصواب والرشد ، وكل من كان كذلك كان إما جماداً وإما حيواناً عاجزاً ، وعلى التقديرين فإنه لا يصلح للإلهية ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن من لا يكون متكلماً ولا هادياً إلى السبيل لم يكن إلها لأن الإله هو الذي له الأمر والنهي ، وذلك لا يحصل إلا إذا كان متكلماً ، فمن لا يكون متكلماً لم يصح منه الأمر والنهي ، والعجل عاجز عن الأمر والنهي فلم يكن إلها .

وقالت المعتزلة : هذه الآية تدل على أن شرط كونه إلها أن يكون هادياً إلى الصدق والصواب ، فمن كان مضلاً عنه وجب أن لا يكون إلها .

فإن قيل : فهذا يوجب أنه لو صح أن يتكلم ويهدي ، يجوز أن يتخذ إلها ، وإلا فإن كان إثبات ذلك كنفيه في أنه لا يجوز أن يتخذ إلهاً فلا فائدة فيما ذكرتم .

والجواب من وجهين : الأول : لا يبعد أن يكون ذلك شرطاً لحصول الإلهية ، فيلزم من عدمه عدم الإلهية وإن كان لا يلزم من حصوله حصول الإلهية .

(117/288)

الثاني : أن كل من قدر على أن يكلمهم وعلى أن يهديهم إلى الخير والشر فهو إله ، والخلق لا يقدرون على الهداية ، إنما يقدرون على وصف الهداية ، فأما على وضع الدلائل ونصبها فلا قادر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

واعلم أنه ختم الآية بقوله : ﴿ وَكَانُواْ ظالمين ﴾ أي كانوا ظالمين لأنفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى واشتغلوا بعبادة العجل ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 6.7 ﴾

(118/288)

وقال السمرقندى :

﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ ﴾

يعني : من بعد انطلاقه إلى الجبل ، وذلك أن موسى عليه السلام لما وعد لقومه ثلاثين يوماً فتأخر عن ذلك ، قال السامري لقوم موسى : إنكم أخذتم الحلي من آل فرعون ، فعاقبكم الله تعالى بتلك الخيانة ، ومنع الله عنا موسى .

فاجمعوا الحلي الذي أخذتم من آل فرعون حتى نحرقها ، فلعل الله تعالى يرد علينا موسى فجمعوا الحلي وكان السامري صائغاً ، فجعل الحلي في النار واتخذ ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ وقد كان رأى جبريل على فرس الحياة ، فكلما وضع الفرس حافره ظهر النبات في موضع حافره .

فأخذ كفاً من أثر حافره من التراب وألقى ذلك التراب في العجل .

فصار العجل من حليهم عجلاً جسداً .

قال الزجاج : الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط .

وروي عن ابن عباس قال صار عجلاً له لحم ودم وله خوار يعني : صوت مثل صوت العجل ولم يسمع منه إلا صوت واحد .

وقال بعضهم : سمع منه صوت ولم يسمع منه إلا مثل صوت العجل .

وقال بعضهم : جعله مشتبكاً فدخل فيه الريح فسمع منه صوت مثل صوت العجل .

فقال لقومه : هذا إلهكم وإله موسى ، فاغترّ به الجهال من بني إسرائيل وعبدوه .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ ﴾ يعني : لا يقدر على أن يكلمهم ﴿ وَلاَ يَهْدِيهِمْ

سَبِيلاً ﴾ يعني : لا يرشدهم طريقاً ﴿ اتخذوه وَكَانُواْ ظالمين ﴾ يعني : كافرين بعبادتهم .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ مِنْ حُلِيّهِمْ ﴾ بكسر الحاء .

وقرأ الباقون ﴿ مِنْ حُلِيّهِمْ ﴾ بضم الحاء .

فمن قرأ بالكسر فهو اسم لما يحسن به من الذهب والفضة .

ومن قرأ بالضم ، فهو جمع الحَلْي ويقال : كلاهما جمع الحَلْي وأصله الضم إلا أن من كسر فلاتباع الكسرة بالكسرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(119/288)

وقال الثعلبى :

﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ ﴾

أي من بعد انطلاقه إلى الجبل ﴿ مِنْ حُلِيّهِمْ ﴾ التي استعاروها من قوم فرعون .

وكانت بنو إسرائيل في القبط بمنزلة أهل الجزية في الإسلام ، وكان لهم يوم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلي فزامن ذلك عيدهم فاستعادوا الحلي للقبط فلما أخرجهم الله من مصر وغرق فرعون بقيت تلك الحلي في أيديهم فاتخذ السامري منها عجلاً وهو ولد البقر ﴿ عِجْلاً جَسَداً ﴾ مجسّد لا روح فيه .

وقال وهب : جسداً لحماً ودماً ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ وهو صوت البقر خار خورة واحدة ثمّ لم تعد . وقال وهب : كان يسمع منه الخوار إلاّ أنّه لا يتحرك . وقرأ عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : خوار بالجيم والهمز وهو الصوت أيضاً واختلفت القراء في قوله [حليهم] ، فقرأ يعقوب بفتح الحاء وجزم اللام وتخفيف الياء على الواحد .

وقرأ حمزة والكسائي : حليّهم بكسر الحاء وتشديد الياء ، الباقون بضم الحاء وهما لغتان مثل [صلى] وجثى وبكى [وعثى] يجوز فيها الكسر والضم ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ يعني الذين عبدوا العجل من دون الله ﴿ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ قال الله ﴿ اتخذوه ﴾ عبدوه واتخذوه إلهاً ﴿ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ كافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(120/288)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾

﴿ اتخذ ﴾ أصله ايتخذ وزنه افتعل من تخذ هذا قول أبي علي الفارسي ، والضمير في ﴿ بعده ﴾ عائد على موسى أي بعد مضيه إلى المناجاة وأضاف الحليّ إلى بني إسرائيل

وإن كان مستعاراً من القبط إذ كانوا قد تملكوه إما بأن نفلوه كما روي وحكى يحيى بن سلام عن الحسن أنه قال : استعار بنو إسرائيل حلي القبط ليوم الزينة فلما أمر موسى أن يسري بهم ليلاً تعذر عليهم رد العواري ، وأيضاً فخشوا أن يفتضح سرهم ، ثم إن الله نفلهم إياه ، ويحتمل أن يضاف الحلي إلى بني إسرائيل من حيث تصرفت أيديهم فيه بعد غزو آل فرعون ، ويروى أن السامري واسمه موسى بن ظفر وينسب إلى قرية تسمى سامرة قال لهارون حين ذهب موسى إلى المناجاة : يا هارون إن بني إسرائيل قد بددوا الحلي الذي استعير من القبط وتصرفوا فيه وانفقوا منه ، فلو جمعته حتى يرى موسى فيه رأيه ، قال : فجمعه هارون فلما اجتمع قال للسامري : أنت أولى الناس بأن يختزن عندك ، فأخذه السامري وكان صائغاً فصاغ منه صورة عجل وهو ولد البقرى ﴿ جسداً ﴾ أي جثة وجماداً وقيل كان جسداً بلا رأس وهذا تعلق بأن الجسد في اللغة ما عدا الرأس وقيل إن الله جعل له لحماً ودماً .

(121/288)

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف لأن الآثار في أن موسى برده بالمبارد تكذب ذلك ، و" الخوار " صوت البقر ، ويروى أن هذا العجل إنما خار مرة واحدة ، وذلك بحيلة

صناعية من السامري أو بسحر تركب له من قبضه القبضة من أثر الرسول ، أو بأن الله أخار العجل لفتن بني إسرائيل ، وقرأت فرقة له " جوار " بالجيم وهو الصياح قال أبو حاتم وشدة الصوت ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو والحسن وأبو جعفر وشيبة " من حُلِيهم " بضم الحاء وكسر اللام ، وهو جمع حلي على مثال ثدي ، وثديّ ، وأصله حلوي قلبت الواو ياء وأدغمت فجاء حلي فكسرت اللام لتناسب الياء ، وقرأ حمزة والكسائي " من حِليهم " بكسر الحاء على ما قدمنا من التعليل ، قال أبو حاتم إلا أنهم كسروا الحاء إتباعاً لكسرة اللام ، قال أبو علي وقوى التغيير الذي دخل على الجمع على هذا التغيير الأخير ، قال ومما يؤكد كسر الفاء في هذا النحو من الجمع قولهم قسيّ ، قال أبو حاتم وقرأ هكذا يحيى بن وثاب وطلحة والأعمش وأصحاب عبد الله ، وقرأ يعقوب الحضرمي " من حَلْيهم " بفتح الحاء وسكون اللام ، فإما أن يكون مفرداً يراد به الجميع وإما أن يكون جمع حلية كتمرة وتمر ومعنى الحلي ما يتجمل به من حجارة وذهب وفضة ، ثم بين الله تعالى سوء فطرهم وقرر فساد اعتقادهم بقوله ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ﴾ الآية ، وذلك أن الصامت الجماد لا يتصف بالإلهية والذي لا يرشد إلى خير ولا يكشف غماً كذلك ، والضمير في ﴿ اتخذوه ﴾ عائد على العجل ، وقوله ﴿ وكانوا ﴾ إخبار لنا عن جميع أحوالهم ماضياً وحالاً ومستقبلاً ، ويحتمل أن تكون الواو واو حال ، وقد مر في البقرة

سبب اتخاذ العجل وبسط تلك الحال بما أغنى عن إعادته هاهنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(122/288)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ ﴾

أي : من بعد انطلاقه إلى الجبل للميقات .

﴿ من حُلِّيِهم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم وابن عامر : "من حُلِيّهم" بضم الحاء .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "حِلِيّهم" بكسر الحاء .

وقرأ يعقوب : بفتحها وسكون اللام وتخفيف الياء .

والحُلِيّ : جمع حَلْيٍ ، مثل : ثَدْي وثُدِيٍّ ، وهو اسم لما يُتحسَّن به من الذهب والفضة .

قال الزجاج : ومن كسر الحاء من "حليهم" أتبع الحاء كسر اللام .

والجسد : هو الذي لا يعقل ولا يميز ، إنما هو بمعنى الجثة فقط .

قال ابن الأنباري : ذِكر الجسد دلالة على عدم الروح منه ، وأن شخصه شخص مثال

وصورة ، غير منضم إليهما روح ولا نفس .

فأما الخُوار : فهو صوت البقرة ، يقال : خَارَتْ البقرة تَخُورُ ، وَجَأَرَتَ تَجْأَرُ ؛ وقد نُقِلَ عن العرب انهم يقولون في مثل صوت الإنسان من البهائم : رَغَا البعير وجَرْجَرَ وهَدَرَ وقَبْقَبَ ، وصَهَلَ الفرس وحَمْحَمَ ، وشَهَقَ الحمار ونَهَقَ ، وشَحَجَ البغل ، وثَغَتْ الشاة ويَعَرَتْ ، وثَأَجَتَ النَّعْجَة ، وبَغَمَ الظبي ونَزَبَ ، وزأَرَ الأسدُ ونَهَتَ ونَأَتَ ، ووَعْوَعَ الذئب ، ونَهَم الفِيْلُ ، وزَقَحَ القِرْدُ ، وَضَبَحَ الثَّعْلَبُ ، وعَوَى الكَلْبُ ونَبَحَ ، ومَاءتِ السِّنّور ، وَصَأَت الفأرة ، ونَغَقَ الغُرَابُ ، معجمة الغين ، وزقأ الدِّيك ، وسَقَعَ وصَفَرَ النسْرُ ، وَهَدَرَ الحمام وَهَدَلَ ، ونَقَضَتِ الضَّفَادِع ونقَّت ، وعَزَفَتِ الجِنَّ .

قال ابن عباس : كان العجل إذا خار سجدوا ، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم .

وفي رواية أبي صالح عنه : أنه خار خورة واحدة ولم يُتبعها مثلها ، وبهذا قال وهب ، ومقاتل .

وكان مجاهد يقول : خواره حفيف الريح فيه ؛ وهذا يدل على أنه لم يكن فيه روح .

وقرأ أبو رزين العقيلي ، وابو مجلز : "له جُوار" بجيم مرفوعة .

(123/288)

قوله تعالى : ﴿ ألم يروا أنه لا يُكلِّمهم ﴾ أي : لا يستطيع كلامهم .

﴿ ولا يهديهم سبيلاً ﴾ أي : لا يبيّن لهم طريقاً إلى حجة .

﴿ اتخذوه ﴾ يعني : اتخذوه إلهاً .

﴿ وكانوا ظالمين ﴾ قال ابن عباس : مشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ

﴾

(124/288)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ ﴾

أي من بعد خروجه إلى الطُّور .

﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأهلِ البصرة .

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً "من حِلِيّهِمْ" بكسر الحاء .

وقرأ يعقوب "من حَلْيِهِم" بفتح الحاء والتخفيف .

قال النحاس : جمع حَلْيٍ حُلِيٌّ وحِلِيٌّ ؛ مثل ثُدْي وثُدِيّ وثِدِيّ .

والأصل "حلُوى" ثم أدغمت الواو في الياء فانكسرت اللام لمجاورتها الياء ، وتكسر الحاء

لكسرة اللام .

وضمها على الأصل .

﴿ عِجْلاً ﴾ مفعول .

﴿ جَسَداً ﴾ نعت أو بدل .

﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ رفع بالابتداء .

يقال : خار يَخُور خُوَاراً إذا صاح .

وكذلك جَأَر يَجْأَر جُؤارا .

ويقال : خَور يَخْوَر خَوَراً إذا جَبُن وضَعُف .

ورُوي في قصص العجل : أن السّامِريّ ، واسمه موسى بن ظفر ، ينسب إلى قرية تدعى سَامِرة .

وُلد عام قَتْل الأبناء ، وأخفته أُمه في كهف جبل فغذّاه جبريل فعرفه لذلك ؛ فأخذ حين عبر البحر على فرس وَدِيق ليتقدّم فرعونَ في البحر قبضةً من أثر حافر الفرس .

وهو معنى قوله ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ [طه : 96] .

وكان موسى وعد قومه ثلاثين يوماً ، فلما أبطأ في العشر الزائد ومضت ثلاثون ليلة قال لبني إسرائيل وكان مطاعاً فيهم : إن معكم حُلِيّاً من حُليّ آل فرعون ، وكان لهم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحُلِيّ فاستعاروا لذلك اليوم ؛ فلما أخرجهم الله من مصر وغرّق

القبط بَقِيَ ذلك الحليّ في أيديهم ، فقال لهم السَّامِرِيّ : إنه حرام عليكم ، فهاتوا ما عندكم فنحرقه .

وقيل : هذا الحليّ ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق ، وأن هارون قال لهم : إن الحُليّ غنيمة ، وهي لا تَحِلّ لكم ؛ فجمعها في حُفْرة حَفَرها فأخذها السّامِرِيّ .

(125/288)

وقيل : استعاروا الحليّ ليلةَ أرادوا الخروج من مصر ، وأوهموا القبط أن لهم عرساً أو مجتمَعاً ، وكان السَّامِرِيّ سمع قولهم ﴿ اجعل لَّنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] .

وكانت تلك الآلهة على مثال البقر ؛ فصاغ لهم عجلاً جسداً ، أي مُصْمَتاً ؛ غير أنهم كانوا يسمعون منه خُواراً .

وقيل : قَلبه الله لحماً ودماً .

وقيل : إنه لما ألقى تلك القبضة من التراب في النار على الحُليّ صار عجلاً له خُوار ؛ فخار خَوْرَة واحدة ولم يُثنّ ثم قال للقوم : ﴿ هاذآ إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ﴾ [طه : 88] .

يقول : نَسيَهَ ها هنا وذهب يطلبه فضلّ عنه فتعالَوْا نعبد هذا العجل .

فقال الله لموسى وهو يناجيه : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامري ﴾ [طه : 85] .

فقال موسى : يا ربّ ، هذا السّامريّ أخرج لهم عجلاً من حِلِيّهم ، فمن جعل له جسداً ؟ يريد اللّحم والدّم ومن جعل له خواراً ؟ فقال الله سبحانه : أنا فقال : وعِزّتك وجلالك ما أضلّهم غيرُك .

قال صدقت يا حكيم الحكماء .

وهو معنى قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف : 155] .

وقال القَفّال : كان السامِريّ احتال بأن جوّف العجل ، وكان قابل به الريح ، حتى جاء من ذلك ما يُحاكي الخُوار ، وأوهمهم أن ذلك إنما صار كذلك لما طرح في الجسد من التراب الذي كان أخذه من تراب قوائم فرس جبريل .

وهذا كلام فيه تهافت ؛ قاله القُشَيْرِيّ .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ ﴾ بيّن أن المعبود يجب أن يتّصف بالكلام .

﴿ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ أي طريقاً إلى حجة .

﴿ اتخذوه ﴾ أي إلهاً .

﴿ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ أي لأنفسهم فيما فعلوا من اتخاذه .

وقيل : وصاروا ظالمين أي مشركين لجعلهم العجل إلهاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(126/288)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده ﴾

يعني من بعد انطلاق موسى إلى الجبل لمناجاة ربه : ﴿ من حليهم ﴾ يعني التي استعاروها من قوم فرعون وذلك أن بني إسرائيل كان لهم عيد فاستعاروا من القبط الحلي ليتزينوا به في عيدهم فبقي عندهم إلى أن أهلك الله فرعون وقومه فبقي الحلي لبني إسرائيل ملكاً لهم فلذلك قال الله تعالى من حليهم فلما أبطأ موسى عليهم جمع السامري ذلك الحلي وكان رجلاً مطاعاً في بني إسرائيل فذلك قال تعالى : واتخذ قوم موسى .

والمتخذ هو واحد فنسب الفعل إلى الكل لأنه كان برضاهم فكأنهم أجمعوا عليه وكان السامري رجلاً صائغاً فصاغ لهم ﴿ عجلاً جسداً ﴾ يعني من ذلك الحلي وهو الذهب والفضة وألقى في ذلك العجل من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فتحول عجلاً جسداً لحماً ودماً ﴿ له خوار ﴾ هو صوت البقر وهذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة

وجمهور أهل التفسير وقيل كان جسداً لا روح فيه وكان يسمع منه صوت وقيل إن ذلك الصوت كان خفيق الريح وذلك أنه جعله مجوفاً ووضع في جوفه أنابيب على وضع مخصوص فإذا هبت الريح دخلت في تلك الأنابيب فيسمع لها صوت كصوت البقر .

والقول الأول : أصح لأنه كان يخور وقيل إنه خار مرة واحدة وقيل إنه كان يخور كثيراً وكلما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رؤوسهم .

قال وهب كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك .

(127/288)

وقال السدي : كان يخور ويمشي ﴿ ألم يروا ﴾ يعني الذين عبدوا العجل وقيل إن بني إسرائيل كلهم عبدوا العجل إلا هارون بدليل قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده ﴾ وهذا يفيد العموم وقيل إن بعضهم عبد العجل وهو الصحيح وأجيب عن قوله واتخذ قوم موسى أنه خرج على الأغلب وكذا قوله ﴿ ألم يروا ﴾ ﴿ أنه ﴾ يعني العجل الذي عبدوه ﴿ لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ يعني أن هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب ولا يهدي إلى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جماداً أو حيواناً ناقصاً عاجزاً وعلى كلا التقديرين لا يصلح لأن يعبد ﴿ اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ يعني لأنفسهم حيث

أعرضوا عن عبادة الله تعالى الذي يضر وينفع واشتغلوا بعبادة العجل الذي لا يضر ولا ينفع ولا يتكلم ولا يهديهم إلى رشد وصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(128/288)

وقال أبو حيان :

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ .

إن كان الاتخاذ بمعنى اتخاذه إلهاً معبوداً فصح نسبته إلى القوم وذكر أنهم كلهم عبدوه غير هارون ولذلك ﴿ قال : ربي اغفر لي ولأخي ﴾ ، وقيل إنما عبده قوم منهم لا جميعهم لقوله : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ﴾ وإن كان بمعنى العمل كقوله ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ أي عملت وصنعت فالمتخذ إنما هو السامري واسمه موسى بن ظفر من قرية تسمى سامرة ونسب ذلك إلى قوم موسى مجازاً كما قالوا بنو تميم قتلوا فلاناً وإنما قتله واحد منهم ولكونهم راضين بذلك ومعنى ﴿ من بعده ﴾ من بعد مضيه للمناجاة و ﴿ من حليّهم ﴾ متعلق باتخذ وبها يتعلق من بعده وإن كانا حرفي جرّ بلفظ واحد وجاز ذلك لاختلاف مدلوليهما لأنّ من الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض وأجاز

أبو البقاء أن يكون ﴿ من حليهم ﴾ في موضع الحال فيتعلق بمحذوف لأنه لو تأخر لكان صفة أي ﴿ عجلاً ﴾ كائناً ﴿ من حليهم ﴾ .

(129/288)

وقرأ الأخوان ﴿ من حليهم ﴾ بكسر الحاء اتباعاً لحركة اللام كما قالوا : عصى ، وهي قراءة أصحاب عبد الله ويحيى بن وثاب وطلحة والأعمش ، وقرأ باقي السبعة والحسن وأبو جعفر وشيبة بضم الحاء وهو جمع حلى نحو ثدي وثدى ووزنه فعول اجتمعت ياء وواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسر ما قبلها لتصحّ الياء ، وقرأ يعقوب ﴿ من حَلْيهم ﴾ بفتح الحاء وسكون اللام وهو مفرد يراد به الجنس أو اسم جنس مفرده حلية كتمر وتمره ، وإضافة الحلى إليهم إما لكونهم ملكوه من ما كان على قوم فرعون حين غرقوا ولفظهم البحر فكان كالغنيمة ولذلك أمر هارون بجمعه حتى ينظر موسى إذا رجع في أمره أو ملكوه إذ كان من أموالهم التي اغتصبها القبط بالجزية التي كانوا وضعوها عليهم فتحيل بنو إسرائيل عل استرجاعها إليهم بالعارية وإما لكونهم لم يملكوه لكن تصرفت أيديهم فيه بالعارية فصحت الإضافة إليهم لأنها تكون بأدنى ملابسة .

روى يحيى بن سلام عن الحسن : أنهم استعاروا الحلي من القبط لعرس ، وقيل : اليوم زينة

ولما هلك فرعون وقومه بقي الحلي معهم وكان حراماً عليهم وأخذ بنو إسرائيل في بيعه وتمحيقه ، فقال السامريّ لهارون : إنه عارية وليس لنا فأمر هارون منادياً بردّ العارية ليرى فيها موسى رأيه إذا جاء فجمعه وأودعه هارون عند السامري وكان صائغاً فصاغ لهم صورة عجل من الحلي ، وقيل : منعهم من ردّ العارية خوفهم أن يطلع القبط على سُراهم إذ كان تعالى أمر موسى أن يسري بهم ، والعجل ولد البقرة القريب الولادة ومعنى ﴿ جسداً ﴾ جثة جماداً ، وقيل : بدناً بلا رأس ذهباً مصمتاً ، وقيل : صنعه مجوفاً ، قال الزمخشري : ﴿ جسداً ﴾ بدناً ذا لحم ودم كسائر الأجساد ، قال الحسن : إنّ السامريّ قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر فقذفه في في العجل فكان عجلاً له خوار انتهى .

(130/288)

وهذا ضعيف أعني كونه لحماً ودماً لأنّ الآثار وردت بأن موسى برده بالمبارد وألقاه في البحر ولا يبرد اللحم بل كان يقتل ويقطع ، وقال ابن الأنباري : ذكر الجسد دلالة على عدم الروح فيه انتهى ، وظاهر قوله ﴿ له خوار ﴾ يدلّ على أنه فيه روح لأنه لا يخور إلا ما فيه روح ، وقيل : لما صنعه أجوف تحيل لتصويته بأن جعل في جوفه أنابيب على شكل

مخصوص وجعله في مهبّ الرياح فتدخل في تلك الأنابيب فيظهر صوت يشبه الخوار ، وقيل : جعل تحته من ينفخ فيه من حيث لا يشعر به فيسمع صوت من جوفه كالخوار ، وقال الكرماني : جعل في بطن العجل بيتاً يفتح ويغلق فإذا أراد أن يخور أدخله غلاماً يخور بعلامة بينهما إذا أراد ، وقيل : يحتمل أن يكون الله أخاره ليفتن بني إسرائيل وخواره ، قيل : مرة واحدة ولم يثنِ رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وقيل : مراراً فإذا خار سجدوا وإذا سكت رفعوا رؤوسهم ، وقاله ابن عباس وأكثر المفسرين ، وقرأ علي وأبو السّمأل وفرقة جؤار : بالجيم والهمز من جأر إذا صاح بشدّة صوت وانتصب ﴿ جسداً ﴾ ، قال الزمخشري على البدل ، وقال الحوفي على النعت وأجازهما أبو البقاء وأن يكون عطف بيان وإنما قال : ﴿ جسداً ﴾ لأنه يمكن أن يتخذ مخطوطاً أو مرقوماً في حائط أو حجر أو غير ذلك كالتماثيل المصوّرة بالرقم والخط والدّهان والنقش فبين تعالى أنه ذو جسد .

(131/288)

﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ ، إن كان اتخذ معناه عمل وصنع فلا بدّ من تقدير محذوف يترتب عليه هذا الإنكار وهو فعبدوه وجعلوه إلهاً لهم وإن كان المحذوف إلهاً أي اتخذوا ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ إلهاً فلا يحتاج إلى حذف جملة ، وهذا

استفهام إنكار حيث عبدوا جماداً أو حيواناً عاجزاً عليه آثار الصّنعة لا يمكن أن يتكلم ولا يهدي وقد ركز في العقول أن من كان بهذه المثابة استحال أن يكون إلهاً وهذا نوع من أنواع البلاغة يسمّى الاحتجاج النظري وبعضهم يسميه المذهب الكلامي والظاهر أن يروا بمعنى يعلموا وسلب تعالى عنه هذين الوصفين دون باقي أوصاف الإلهية لأنّ انتفاء القدرة وانتفاء هذين الوصفين وهما العلم والقدرة يستلزمان باقي الأوصاف فلذلك حضّ هذان الوصفان بانتفائهما .

﴿ اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ أي أقدموا على ما أقدموا عليه من هذا الأمر الشنيع وكانوا واضعين الشيء في غير موضعه أي من شأنهم الظلم فليسوا مبتكرين وضع الشيء في غيره موضعه وليس عبادة العجل بأول ما أحدثوه من المناكر ، قال ابن عطية ويحتمل أن تكون الواو واو الحال انتهى يعني في ﴿ وكانوا ﴾ والوجه الأول أبلغ في الذمّ وهو الإخبار عن وصفهم بالظلم وإنّ شأنهم ذلك فلا يتقيد ظلمهم بهذه الفعلة الفاضحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(132/288)

وقال أبو السعود :

﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ ﴾

أي من بعد ذهابِه إلى الطور ﴿ مِنْ حُلِيّهِمْ ﴾ متعلقٌ باتخذ كالجارِّ الأول لاختلاف معنييهما فإن الأولَ للابتداء والثاني للتبعيض أو للبيان ، أو الثاني متعلقٌ بمحذوف وقع حالاً مما بعده إذ لو تأخر لكان صفةً له وإضافةُ الحُلِيِّ إليهم مع أنها كانت للقِبْط لأدنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها قُبيل الغرقِ فبقِيَتْ في أيديهم . وأما أنهم ملكوها بعد الغرقِ فذلك منوطٌ بتملك بني إسرائيلَ غنائمَ القِبطِ وهم مستأمَنون فيما بينهم فلا يساعده قولُهم : ﴿ حُمّلْنَا أَوْزَاراً مّن زِينَةِ القوم ﴾ والحلي بضم الحاء وكسر اللام جمعُ حَلْيٍ كثَدْيٍ وثُدِيّ وقرىء بكسر الحاء بالإتباع كدِلِيّ وقرىء حَلِيهم على الإفراد وقوله تعالى : ﴿ عِجْلاً ﴾ مفعولُ اتخذ أُخّرِ عن المجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طولٍ يُخِلُّ تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظمِ الكريم ، وقيل : هو متعدَ إلى اثنين بمعنى التصيير والمفعول الثاني محذوفٌ أي إلها وقوله تعالى : ﴿ جَسَداً ﴾ بدلٌ من عجلاً أي جُثةً ذاتَ دمٍ ولحمٍ أو جسداً من ذهب لا روحَ معه وقوله تعالى : ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ أي صوتُ بقر ، وقرىء بالجيم والهمزة وهو الصياح نعتٌ لعجلاً . روي أن السامريَّ لما صاغ العجلَ ألقى في فمه تراباً من أثر فرسِ جبريلَ عليه الصلاة والسلام وقد كان أخذه عنه فلْقِ البحر أو عند توجُّهِه إلى الطور ، فصار حيّاً وقيل : صاغه بنوع من الحيل فيدخُلُ الريحُ

في جوفه فيصوّت ، والأنسبُ بما في سورة طه هو الأولُ وإنما نُسبَ اتخاذُه إليهم وهو فعلُه إما لأنه واحدٌ وإما لأنهم رضُوا به فكأنهم فعلوه وإما لأن المرادَ بالاتخاذ اتخاذُهم إياه إلها لا صنعُه وإحداثُه ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتقريعهم وتشنيعِهم وتركيكِ عقولِهم وتسفيهِهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذي هو اتخاذُه إلها ، أي ألم يرَوا

(133/288)

أنه ليس فيه شيءٌ من أحكام الألوهية حيث لا يكلمهم ﴿ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ بوجه من الوجوه فكيف اتخذوه إلها وقوله تعالى : ﴿ اتخذوه ﴾ أي فعلوا ذلك ﴿ وَكَانُواْ ظالمين ﴾ أي واضعين للأشياء في غير موضعِها فلم يكن هذا أولَ منكرٍ فعلوه ، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ وتكريرٌ اتخذوه لتثنية التشنيعِ وترتيبِ الاعتراض عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(134/288)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ ﴾

أي من بعد ذهابه إلى الجبل مناجاة ربه سبحانه ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ جمع حلي كثدي وثدي وهو ما يتخذ للزينة ويتحلى به من الذهب والفضة ، والجار والمجرور متعلق باتخذ كمن بعده من قبله ولا ضير في ذلك لاختلاف معنى الجارين فإن الأول للابتداء والثاني للتبعيض ، وقيل : للابتداء أيضاً ، وتعلقه بالفعل بعد تعلق الأول به واعتباره معه ، وقيل : الجار الثاني متعلق بمحذوف وقع حالاً مما بعده إذ لو تأخر لكان صفة له ، وإضافة الحلي إلى ضمير القوم لأدنى ملابسة لأنها كانت للقبط فاستعاروها منهم قبيل الغرق فبقيت في أيديهم وقيل : إنها على ما يتبادر منها بناءً على أن القوم ملكوها بعد أن ألقاها البحر على الساحل بعد غرق القبط أو بعد أن استعاروها منهم وهلكوا .

قال الإمام : روي أنه تعالى لما أراد إغراق فرعون وقومه لعلمه أنه لا يؤمن أحد منهم أمر موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يستعيروا حلي القبط ليخرجوا خلفهم لأجل المال أو لتبقى أموالهم في أيديهم .

واستشكل ذلك بكونه أمراً بأخذ مال الغير بغير حق ، وإنما يكون غنيمة بعد الهلاك مع أن الغنائم لم تكن حلالاً لهم لقوله صلى الله عليه وسلم : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي

أحلت لي الغنائم " الحديث على أن ما نقل عن القوم في سورة طه [87] من قولهم : ﴿ حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم ﴾ يقتضي عدم الحل أيضاً .

(135/288)

وأجيب بأن ذلك أن تقول : إنهم لما استعبدوهم بغير حق واستخدموهم وأخذوا أموالهم وقتلوا أولادهم ملكهم الله تعالى أرضهم وما فيها ، فالأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده ، وكان ذلك بوحي من الله تعالى لا على طريق الغنيمة ، ويكون ذلك على خلاف القياس وكم في الشرائع مثله ، والقول المحكي سيأتي إن شاء الله تعالى ما فيه ، وهذه الجملة كما قال الطيبي عطف على قوله سبحانه : ﴿ وواعدنا موسى ﴾ [الأعراف : 142] عطف قصة على قصة .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ حُلِيِّهِمْ ﴾ بكسر الحاء اتباعاً لكسر اللام كدلي وبعض ﴿ حُلِيِّهِمْ ﴾ على الأفراد وقوله سبحانه : ﴿ عِجْلاً ﴾ مفعول اتخذ بمعنى صاغ وعمل ، أخر عن المجرور لما مر آنفاً ، وقيل : إن اتخذ متعد إلى اثنين وهو بمعنى صير والمفعول الثاني محذوف أي إلهاً ، والعجل ولد البقر خاصة وهذا كما يقال لولد الناقة حوار ولولد الفرس مهر ولولد الحمار

جحش ولولد الشاة حمل ولولد العنز جدي ولولد الأسد شبل ولولد الفيل دغفل ولولد الكلب جرو ولولد الظبي خشف ولولد الأروية غفر ولولد الضبع فرعل ولولد الدب ديسم ولولد الخنزير خنوص ولولد الحية حربش ولولد النعام رأل ولولد الدجاجة فروج ولولد الفأر درص ولولد الضب حسل إلى غير ذلك ، والمراد هنا ما هو على صورة العجل .

(136/288)

وقوله تعالى : ﴿ جَسَداً ﴾ بدل من عجلاً أو عطف بيان أو نعت له بتأويل متجسداً ، وفسر ببدن ذي لحم ودم ، قال الراغب : الجسد كالجسم لكنه أخص منه ، وقيل : إنه يقال لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه ، ويقال أيضاً لما له لون والجسم لما لا يبين له لون كالهواء ، ومن هنا على ما قيل قيل للزعفران الجساد ولما أشبع صبغه من الثياب مجسد ، وجاء المجسد أيضاً بمعنى الأحمر ، وبعض فسر الجسد به هنا فقال : أي أحمر من ذهب ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ هو صوت البقر خاصة كالثغار للغنم واليعار للمعز والنبيب للتيس والنباح للكلب والزئير للأسد والعواء والوعوعة للذئب والضباح للثعلب والقباع للخنزير والمؤاء للهرة ، والنهيق والسحيل للحمار والصهيل والضبح والقنع والحنحمة للفرس والرغاء للناقة والصني للفيل والبتغم للظبي والضعيب للأرنب والعرار للظليم والصرصرة للبازي والعقعقة

للصقر والصفير للنسر والهدير للحمام والسجع للقمري والسقسقة للعصفور والنعيق والنعيب للغراب والصقاء والزقاء للديك والقوقاء والنقيقة للدجاجة والفحيح للحية والنقيق للضفدع والصبىء للعقرب والفأرة والصرير للجراد إلى غير ذلك .

وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قرأ ﴿ جؤار ﴾ بجيم مضمومة وهمزة ، وهو الصوت الشديد ، ومثله الصياح والصراخ .

والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبراً مقدماً وخوار مبتدأ ، والجملة في موضع النعت لعجلاً .

روي أن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فصار حياً ، وذكر بعضهم في سر ذلك أن جبريل عليه السلام لكونه الروح الأعظم سرت قوة منه إلى ذلك التراب أثرت ذلك الأثر بإذن الله تعالى لأمر يريده عز وجل ، ولا يلزم من ذلك أن يحيا ما يطؤه بنفسه عليه السلام لأن الأمر مربوط بالإذن وهو إنما يكون بحسب الحكم التي لا يعلمها إلا الحكيم الخبير فتدبر .

(137/288)

وإلى القول بالحياة ذهب كثير من المفسرين ، وأيد بأن الخوار إنما يكون للبقر لا لصورته ، وبأن ما سيأتي إن شاء الله تعالى في سورة طه كالصريح فيما دل عليه الخبر .

وقال جمع من مفسري المعتزلة : إن العجل كان بلا روح وكان السامري قد صاغه مجوفاً ووضع في جوفه أنابيب على شكل مخصوص وجعله في مهب الريح فكانت تدخل في تلك الأنابيب فيسمع لها صوت يشبه خوار العجل ولذلك سمي خواراً .

وما في طه سيأتي إن شاء تعالى الكلام فيه .

واختلف في هذا الخوار فقيل : كان مرة واحدة ، وقيل : كان مرات كثيرة ، وكانوا كلما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رؤوسهم .

وعن السدي أنه كان يخور ويمشي .

وعن وهب نفي الحركة ، والآية ساكتة عن إثباتها ، وليس في الأخبار ما يعول عليه فالتوقف عن إثبات المشي أولى ، وليست هذه المسألة من المهمات ، وإنما نسب الاتخاذ إلى قوم موسى عليه السلام وهو فعل السامري لأنهم رضوا به وكثيراً ما ينسب الفعل إلى قوم مع وقوعه من واحد منهم فيقال : قتل بنو فلان قتيلاً والقاتل واحد منهم ، وقيل : لأن المراد اتخاذهم إياه إلهاً ، فالمعنى صيروه إلهاً وعبدوه ، وحينئذٍ لا تجوز في الكلام لأن العبادة له وقعت منهم جميعاً .

قال الحسن : كلهم عبدوا العجل إلا هارون عليه السلام ، واستثنى آخرون غيره معه ، وعلى القول الأول قيل : لا بد من تقدير فعبدوه ليكون ذلك مصب الإنكار لأن حرمة التصوير حدثت في شرعنا على المشهور ولأن المقصود إنكار عبادته ﴿ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ تقريع لهم وتشنيع على فرط ضلالهم وإخلالهم بالنظر ، أي ألم يروا أنه لا يقدر على ما يقدر عليه آحاد البشر من الكلام وإرشاد السبيل بوجه من الوجوه فكيف عدلوه بخالق الأجسام والقوى والقدر ، وجعله بعضهم تعريضاً بالإله الحق وكلامه الذي لا ينفد وهدايته الواضحة التي لا تجحد ، وقيل : إنه تعريض بالله تعالى وبكلامه مع موسى عليه السلام وهدايته لقومه ﴿ اتخذوه ﴾ تكرار لجميع ما سلف من الاتخاذ على الوجه المخصوص المشتمل على الذم ، وهو من باب الكناية على أسلوب : أن يرى مبصر ويسمع واع . . .

أي أقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر .

﴿ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ اعتراض تذييلي أي إن دأبهم قبل ذلك الظلم ووضع الأشياء في غير موضعها فليس ببدع منهم هذا المنكر العظيم ، وكرر الفعل ليبني عليه ذلك ، وقيل : الجملة في موضع الحال أي اتخذوه في هذه الحالة المستمرة لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ ﴾

أي : من بعد ذهابه إلى الطور ومن لابتداء الغاية ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ﴿ حُلِيِّهِمْ ﴾ جمع حلي كثدي وثدي وهو ما تزين به من الذهب والفضة وإضافة الحلى إليهم مع أنها كانت للقبط لأدنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها حين هموا بالخروج من مصر .

﴿ عِجْلا ﴾ مفعول أول لقوله اتخذ لأنه متعد إلى اثنين بمعنى التصيير والمفعول ثاني محذوف أي صيروه إلهاً والعجل ولد البقر وأبو العجل الثور والجمع العجاجيل والأنثى عجلة سمي عجلاً لاستعجال بني إسرائيل عبادته وكانت مدة عبادتهم له أربعين يوماً فعوقبوا في التيه أربعين سنة فجعل الله تعالى كل سنة في مقابلة يوم .

﴿ جَسَدًا ﴾ بدل من عجلاً أي جثة ذا دم ولحم أو جسداً من ذهب لا روح معه فإن الجسد اسم لجسم له لحم ودم ويطلق على جثة لا روح لها .

﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ أي : صوت البقر .

وذلك أن موسى كان وعد قومه بالانطلاق إلى الجبل ثلاثين يوماً فلما تأخر رجوعه قال لهم السامري رجل من قرية يقال لها سامرة وكان رجلاً مطاعاً من قوم موسى إنكم أخذتم الحلي من آل فرعون فعاقبكم الله بتلك الجناية ومنع موسى عنكم فاجمعوا الحلي حتى أحرقها لعل الله يرد علينا موسى ، أو سألوه إلهاً يعبدونه وقد كان لهم ميل إلى عبادة البقر منذ مروا على العمالقة التي كانوا يعبدون تماثيل البقر وذلك بعد عبور النهر ، وقد مرت قصته فجعل السامر الحلي بعد جمعها في النار وصاغ لهم من ذلك عجلاً لأنه كان صاغاً وألقى في فمه تراباً من أثر فرس جبريل عليه السلام وكان ذلك الفرس فرس الحياة ما وضع حافره في موضع إلا اخضر وكان قد أخذ ذلك التراب عند فلق البحر أو عند توجهه إلى الطور فانقلب ذلك الجسد لحماً ودماً وظهر فيه خوار وحركة ومشي ، فقال السامري : هذا إلهكم وإله موسى فعبدوه إلا أثني عشر ألفاً من ستمائة ألف وقيل إنه جعل ذلك العجل مجوفاً وجعل في جوفه أنابيب على شكل مخصوص وكان وضع ذلك التمثال على مهب الريح كانت الريح تدخل في تلك الأنابيب فظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل فأوهم بني إسرائيل أنه حي يخور فزفنوا حوله أي رقصوا .

نقل القرطبي عن الطرشوشي : أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان يقرؤون شيئاً من القرآن ثم ينشد لهم منشد شيئاً من الشعر يرقصون ويطربون ويضربون بالدف والشنانير هل

الحضور معهم حلال أولا .

قال مذهب الصوفية : بطالة وجهالة وضلالة وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري فلما اتخذوا عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حوله ويتواجدون فهو دين الكفار وعباد العجل وإنما كان يجلس النبي عليه السلام مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد

(141/288)

يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم هذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم من أئمة المسلمين كذا في "حياة الحيوان" .

قال في "نصاب الاحتساب : هل يجوز له الرقص في السماع الجواب لا يجوز ذكر في "الذخيرة" أنه كبيرة ومن أباحه من المشايخ فذلك للذي صارت حركاته كحركات المرتعش وهل يجوز السماع الجواب إن كان السماع سماع القرآن أو الموعظة يجوز وإن كان السماع الغناء فهو حرام ؛ لأن التغني واستماع الغناء حرام ومن أباحه من مشايخ الصوفية فلمن تخلى عن الهوى وتحلى بالتقوى واحتاج إلى ذلك احتياج المريض إلى الدواء .

وله شرائط .

إحداها : أن لا يكون فيهم أمرد .

والثانية : أن لا يكون جمعيتهم إلا من جنسهم ليس فيهم فاسق ولا أهل دنيا ولا امرأة .

والثالثة : أن يكون نية القوال الإخلاص لا أخذ الأجرة والطعام .

والرابعة : أن لا يجتمعوا لأجل طعام أو نظر إلى فتوح والخامسة : لا يقومون إلا مغلوبين .

والسادسة : لا يظهرون الوجد إلا صادقين .

قال الشيخ عمر بن الفارض في القصيدة الموسومة بنظم الدر :

إذ هام شوقاً بالنماغى وهمّ أن

يطير إلى أوطانه الأولية

يسكن بالتحريك وهو بمهده

إذا ناله أيدي المربى بهزة

قال الإمام القاشاني في "شرحه" : إذا هام الولي واضطرب شوقاً إلى مركزه الأصلي ووطنه الأولي بسبب مناغاة المناغي وهم طائر روحه إلى أن يطير إلى عشه ووكره الأولي تهزه أيدي من يربيه في المهد فيسكن بسبب التحريك من قلقه وهمه بالطيران والمقصود من إيراد هذا المعنى أن يشير إلى فائدة الرقص والحركة في السماع وذلك أن روح السامع يهم عند

السماع أن يرجع إلى وطنه المألوف ويفارق النفس والقالب فتحركه يد الحال وتسكنه عما يهم به بسبب التحريك إلى حلول الأجل المعلوم وذلك تقدير العزيز العليم انتهى .

(142/288)

واعلم : أن الرقص والسماع حال المتلون لا حال المتمكن ولذا تاب سيد الطائفة الجنيد البغدادي قدس سره عن السماع في زمانه فمن الناس من هو متواجد ومنهم من هو أهل وجد ومنهم من هو أهل وجود .

فالأول : المبتدىء الذي له انجذاب ضعيف ، والثاني : المتوسط الذي له انجذاب قوي ، والثالث :

المنتهي الذي له انجذاب قوي وهو مستغن عن الدوران الصوري بالدوران المعنوي بخلاف الأولين ولا بد من العشق في القلب والصدق في الحركة حتى يصح الدوران والعلماء وإن اختلفوا في ذلك فمن مثبت ومن ناف لكن الناس متفاوتون والجواز للأهل المستجمع لشرائطه لا لغيره .

قال حضرة الشيخ أفتاده أفندي قدس سره : ليس في طريقتنا رقص ولا في طريق الشيخ الحاج بيرام ولي أيضاً لأن الرقص والأصوات كلها إنما وضع لدفع الخواطر ولا شيء في دفعها

أشد تأثيراً من التوحيد ونبينا عليه الصلاة والسلام لم يلقن إلا التوحيد .

ذكر أن علياً قال يوماً لا أجد لذة العبادة يا رسول الله فلقنه التوحيد ووصاه أن لا يكلم أحداً بما ظهر له من آثار التوحيد فلما امتلأ باطنه من أنوار التوحيد واضطر إلى التكلم جاء إلى بئر فتكلم فيها فنبت منها قصب فأخذه راع وعمل منه المزمار وكان ذلك مبدأ لعلم الموسيقى (1)

---

(1) لا يخلو مثل هذا الكلام من وضع وافتراء . والله أعلم .

(143/288)

وقال وقد يقال أن رجلاً يقال له عبد المؤمن سمع صوت الأفلاك في دورها فأخذ منه العلم الموسيقا ولذلك كان أصله اثني عشر على عدد البروج ولكن صداها على طرز واحد فالإنسان لقابليته ألحق به زيادات كذا في "الواقعات المحمودية" فقد عرفت من هذا البيان أنه ليس في الطريقة الجلوتية بالجيم دور ورقص بل توحيد وذكر قياماً وقعوداً بشرائط وآداب وإنما يفعله الخلوتية بالخاء المعجمة ما يتوارثون من أكابر أهل الله تعالى لكن إنما يقبل منهم ويمدح إذا قارن شرائطه وآدابه كما سبق وإلا يرد ويذم وقد وجدنا في زماننا أكثر المجالس الدورية على خلاف موضوعها فالعاقل يختار الطريق الأسلم ويجتنب عن القيل

والقال وينظر إلى قولهم لكل زمان رجال ولكل رجال مقام وحال .

قال الشيخ أبو العباس : من كان من فقراء هذا الزمان آكلاً لأموال الظلمة مؤثراً للسماع ففيه نزغة يهودية قال الله تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ .

وقال الحاتمي : السماع في هذا الزمان لا يقول به مسلم ولا يقتدى بشيخ يعمل السماع وقد عرفت وشاهدت في هذا الزمان أن المجالس الدورية يحضرها المردان أن الملاح والنساء وحضورهم آفة عظيمة فإنهم والاختلاط بهم والصحبة معهم كالسم القاتل ولا شيء أسرع إهلاكاً للمرء في دينه من صحبتهم فإنهم حبائل الشيطان ونعوذ بالله من المكر بعد الكرم ومن الحور بعد الكور إنه هو الهادي إلى طريق وصاله وكاشف القناء عن ذاته وجماله والمواصل إلى كماله بعد جماله وجلاله وهو الصاحب والرفيق في كل طريق .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ (آيا نديدند وندانستند) ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي : العجل ﴿ لا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ أي : ليس فيه شيء من أحكام الألوهية حيث لا يقدر على كلام ولا أمر ولا نهي ﴿ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا ﴾ أي ولا يرشدهم طريقاً إلى خير ليأتوه ولا إلى شر لينتهوا عنه .

(144/288)

﴿ اتَّخَذُوهُ ﴾ إلهاً ولو كان إلهاً لكلمهم وهداهم لأن الإله لا يهمل عباده قوله اتخذوه تكرير للذم ، أي اتخذوه إلهاً وحسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر ﴿ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أي : واضعين الأشياء في غير موضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح البيان حـ 3 صـ 310.313 ﴾

(145/288)

بحوث مهمة

قال صاحب الأمثل :

وهنا لا بد من الوقوف عند نقاط هامة هي:

1 ـ خمسة أدلة على النّبوة في آية واحدة

لم ترد في آية من آيات القرآن أدلة عديدة على حقانية دعوة الرّسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) كما جاء في هذه الآية . . . فلو أننا أمعنا النظر بدقة في الصفات السبع التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية لنبيه محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) لوجدنا أنّها تحتوي على سبعة أدلة واضحة لإِثبات نبوته:

الأوّل: أنّه "أمّي" لم يدرس ، ولكنّه مع ذلك أتى بكتاب لم يغيّر مصير أهل الحجاز فقط ، بل

كان نقطة تحول هام في التأريخ البشري ، حتى أنّ الذين لم يقبلوا بنبوته لم يشكوا في عظمة كتابه وتعاليمه .

فهل يتفق والحسابات الطبيعية أن يقوم بهذا العمل شخص نشأ في بيئة جاهلية ولم يتتلمذ على أحد ؟

الثّاني: أنّ دلائل نبوته قد وردت بتعابير مختلفة في الكتب السماوية السابقة على نحو توجد علماً لدى المرء بحقانيته . . . . فإنّ البشارات التي جاءت في تلك الكتب لا تنطبق إلاّ عليه(صلى الله عليه وآله وسلم) فقط .

الثّالث: أن محتويات دعوته تنسجم انسجاماً كاملا مع العقل ، لأنّه يدعو إلى المعروف ، والنهي عن المنكر والقبائح ، وهذا الموضوع يتّضح بجلاء بمطالعة تعاليمه .

الرّابع: أنّ محتويات دعوته منسجمة مع الطبع السليم والفطرة السويّة .

الخامس: لو لم يكن من جانب الله لكان عليه أن يقوم بما يضمن مصالحه الخاصّة ، وفي هذه الصورة كان يتعين عليه أن لا يرفع الأغلال والسلاسل عن الناس ، بل عليه أن يبقيهم في حالة الجهل والغفلة لاستغلالهم بنحو أفضل ، في حين أنّنا نجده يحرر الناس من الأغلال الثقيلة .

أغلال الجهل والغفلة عن طريق الدعوة المستمرة إلى العلم والمعرفة .

أغلال الوثنية والخلافة عن طريق الدعوة إلى التوحيد .

أغلال التمييز بكل أنواعه ، والحياة الطبقية بجميع أصنافها ، عن طريق الدعوة إلى الأخوة الدينية والإِسلامية ، والمساواة أمام القانون .

(146/288)

وهكذا سائر الأغلال الأُخرى .

إنّ كل واحد من هذه الدلائل لوحده دليل على حقانية دعوته ، كما أنّ مجموعها دليل أوضح وأقوى .

2 . كيف كان النّبي أُميّاً ؟

هناك احتمالات ثلاثة معروفة حول مفهوم "الأُمّي" كما قلنا سابقاً :

أوّلها : أن معناه : الذي لم يدرس .

الثّاني : أنّ معناه : المولود في أرض مكّة ، والناهض منها .

الثّالث : أنّ معناه الذي قام من بين صفوف الجماهير .

ولكن الرأي الأشهر هو التّفسير الأوّل ، وهو أكثر انسجاماً مع موارد استعمال هذه اللفظة ، ويمكن أن تكون المعاني الثلاثة مرادة برمتها أيضاً ، كما قلنا .

ثمّ إنّه لا نقاش بين المؤرخين بأنّ الرّسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يدرس ، ولم

يكتب شيئاً ، وقد قال القرآن الكريم ـ أيضاً ـ في الآية (48) من سورة العنكبوت حول وضع النّبي قبل البعثة: (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لإرتاب المبطلون) .

وأساساً كان عدد العارفين بالكتابة والقراءة في المحيط الحجازي قليلا جدّاً ، حيث كان الجهل هو الحالة السائدة على الناس بحيث أن هؤلاء العارفين بالكتابة والقراءة كانوا معروفين بأعيانهم وأشخاصهم ، فقد كان عددهم في مكّة من الرجال لا يتجاوز (17) شخصاً ، ومن النساء أمرأة واحدة .

من المسلّم أن النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لو كان قد تعلّم القراءة والكتابة ـ في مثل هذه البيئة ـ لدى أستاذ لشاع ذلك وصار أمراً معروفاً للجميع ، وعلى فرض أنّنا لم نقبل بنبوته ، ولكن كيف يمكنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن ينفي ـ في كتابه ـ بصراحة هذا الموضوع ؟ ألا يعترض عليه الناس ويقولون: إن دراستك وتعلّمك للقراءة والكتابة أمر مسلّم معروف لنا ، فكيف تنفي ذلك ؟

إنّ هذه قرينة واضحة على أُميّة النّبي .

وعلى كل حال ، فإنّ وجود هذه الصفة في النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان تأكيداً على نبوته حتى ينتفي أي احتمال في إرتباطه إلاّ بالله وبعالم ما وراء الطبيعة في صعيد دعوته .

هذا بالنسبة إلى فترة ما قبل النّبوة ، وأمّا بعد البعثة فلم ينقل أحد المورّخين أنّه تلقى القراءة أو الكتابة من أحد ، وعلى هذا بقي (صلى الله عليه وآله وسلم) على أُمّيّته حتى نهاية عمره .

ولكن من الخطأ الكبير أن تتصوّر أنّ عدم التعلّم عند أحد يعني عدم المعرفة بالكتابة والقراءة ، والذين فسّروا "الأُمّية" بعدم المعرفة بالكتابة والقراءة كأنّهم لم يلتفتوا إلى هذا التفاوت .

ولا مانع أبداً من أنّ النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان عارفاً بالقراءة والكتابة بتعليم الله ، ومن دون أن يتتلمذ على يد أحد من البشر ، لأنّ مثل هذه المعرفة هي بلا شك من الكمالات الإِنسانية ، ومكملة لمقام النّبوة .

ويشهد بذلك ما ورد في الأحاديث المروية عن أهل البيت (عليهم السلام) أن نص الرواية ولكنّه لأجل أن لا يبقى أي مجال لأدنى تشكيك في دعوته لم يكن (صلى الله عليه وآله وسلم) يستفيد من هذه المقدرة .

وقول البعض : إنّ القدرة على الكتابة والقراءة لا تعدّ كمالا ، فهما وسيلة للوصول إلى

الكمالات العلميّة ، وليسا بحدّ ذاتها علماً حقيقياً ولا كمالا واقعياً فإن جوابه كامن في نفسه ، لأنّ العلم بطريق الكمال كمال أيضاً .

قد يقال: إنّه نفي في روايتين عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) بصراحة تفسير "الأُمّي" بعدم القراءة والكتابة ، بل بالمنسوب إلى "أم القرى" (مكّة) .

ونقول في الردّ: إنّ إحدى هاتين الروايتين "مرفوعة" حسب اصطلاح علم الحديث فلا قيمة لها من حيث السند ، والرواية الأُخرى منقولة عن "جعفر بن محمّد الصوفي" وهو مجهول .

وأمّا ما تصوَّره البعض من أن الآية الثّانية من سورة الجمعة(يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وآيات أُخرى دليل على أن النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

(148/288)

كان يتلو القرآن على الناس من شيء مكتوب ، فهو خطأ بالغ ، لأنّ التلاوة تطلق على التلاوة من مكتوب على شيء ، كما تطلق على القراءة حفظاً ومن ظهر القلب ، واستعمال لفظة التلاوة في حق الذين يقرأون الأشعار أو الأدعية حفظاً ومن على ظهر القلب كثير .

من مجموع ما قلناه نستنتج:

1 ـ أنّ النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يتلق القراءة والكتابة من أحد حتماً ، وبهذا

تكون إحدى صفاته أنّه لم يدرس عند أستاذ .

2 ـ أنّنا لا نملك أي دليل معتبر على أن النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ أو كتب شيئاً قبل النبوة ، أو بعدها .

3 ـ إنّ هذا الموضوع لا يتنافى مع تعليم الله تعالى القراءة أو الكتابة لنبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

3 ـ البشارات بظهور النّبي في العهدين:

إنّ الشواهد التأريخية القطعية ، وكذا محتويات كتب اليهود والنصارى المقدسة (التوراة والإنجيل) تفيد أن هذه الكتب ليست هي الكتب السماوية التي نزلت على موسى وعيسى (عليهما السلام) وأن يد التحريف قد طالتهما ، بل إنّ بعضها اندرس واندثر ، وأن ما هو موجود الآن باسم الكتب المقدسة بينهم ما هي إلاّ خليط من نسائج الأفكار والأدمغة البشرية وشيء من التعاليم التي نزلت على موسى وعيسى (عليهما السلام) ممّا بقي في أيدي تلامذتهم .

وعلى هذا الأساس لا غرور ولا عجب إذا لم نقف على عبارات صريحة حول البشارة بظهور النّبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ولكن مع هذا فإنّه يلحظ في ثنايا هذه الكتب المحرفة عبارات تتضمّن اشارات معتدّ بها حول ظهور هذا النّبي العظيم ، وقد جمعها ثلّة من علمائنا في كتب

ومؤلفات مستقلة ، أو مقالات تتحدث في هذا المجال . وحيث أن ذكر كل تلك البشائر وما حولها من حديث وكلام ممّا يطول به المقام ، فإنّنا نكتفي بذكر بعض منها على سبيل المثال لا الحصر .

(149/288)

---

1 . جاء في سفر التكوين الإصطلاح 17 العبارة 17 إلى 20 : "وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك ، فقال الله . . . وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه (أي دعاءك في حقه) ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جيداً . اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أُمّة كبيرة" .

2 . "لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجيله حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب" .

والجدير بالإِنتباه أن أحد معاني شيلون . حسب تصريح المستر هاكس في كتاب قاموس الكتاب المقدس . هو الإِرسال ، وهو يوافق كلمة "رسول" أو "رسول الله" .

3 . وفي إنجيل يوحنا الباب 15 العبارة رقم 16 جاء ما يلي : "وأمّا المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلِّمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم" .

4 . وكذا جاء في إنجيل يوحنا ذاته الإصحاح 16 العبارة رقم 7 : "لكنّي أقول لكم الحق :

إنّه خير لكم أن أنطلق . لأنّه إن لَم أنطلق لا يأتيكم المعزّي . ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذاك هو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنّه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية" . (1)

والنقطة الجديرة بالإهتمام أنّه جاءت الكلمة في إنجيل يوحنا باللغة الفارسية

---

1 . كل النصوص المنقولة هنا مقتبسة من كتاب العهد القديم والجديد طباعة وإصدار دار الكتاب المقدس في العالم العربي عام 1979 .

"المسلّي" ولكنّها في الإنجيل العربي طبعة لندن (مطبعة وليام وطس عام 1857) جاء مكانها : "فارقليطا" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 5 صـ 246 . 252 ﴾

(150/288)

وقال القاسمي :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ [148] .

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل ، في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط ،

الذي كانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه عجلاً ، جسداً لا روح فيه ، وقد احتال بإدخال الريح فيه ، حتى صار يسمع له خوار ، أي : صوت كصوت البقر ، وإنما أضاف الصوت إليه ، لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه ، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور ، حيث يقول إخباراً عن نفسه الكريمة : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ .

لطائف :

قال الزمخشري : فإن قلت : لم قيل : ﴿ واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى عِجْلاً ﴾ والمتخذ هو السامري ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن ينسب الفعل إليهم ، لأن رجلاً منهم باشره ، ووُجد فيما بين ظهرانيهم ، كما يقال : بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه ، راضين له ، فكأنهم أجمعوا عليه .

والثاني : أن يراد : واتخذوه إلهاً وعبدوه . فإن قلت : لم قال : ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ ولم يكن الحلي لهم ، إنما كانت عواري في أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة وكونها في أيديهم عواري ، كفى به ملابسة ، على أنهم قد ملكوها بعد المُهلكين ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ ﴾ . انتهى .

قال النسفي : وفيه دليل على أن من حلف أن لا يدخل دار فلان ، فدخل داراً استعارها

يحنث ، وأن الإستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها . انتهى .

والحُليُّ بضم الحاء والتشديد ، جمع حَلْي بفتح فسكون ، كثَدْي وثُدِيّ ، وهو اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ تقريع على فرط ضلالهم وإخلالهم بالنظر ، والمعنى : ألم يروا ، حين اتخذوه إلهاً ، أنه لا يقدر على كلام ، ولا على إرشاد سبيل ، كآحاد البشر ؟ فهو جماد لا ينفع ولا يضر ، فكيف يكون إلهاً ؟

وقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوهُ ﴾ تكرير لتأكيد الذم ، أي : اتخذوه إلهاً وعبدوه ﴿ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ أي : واضعين الأشياء في غير مواضعها ، والجملة إما استئنافية ، أو اعتراض تذييلي للإخبار بأن ذلك دأبهم وعادتهم قبل ذلك ، فلا ينكر هذا منهم . أو حالية ، أي : اتخذوه في هذه الحالة المستقرة لهم .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على صحة الحجاج في الدين ، وأنه تعالى دلهم ، في بطلان اتخاذ العجل إلهاً ، بأنه لا يتكلم ولا يهدي ، وإنما ذكر الكلام لأن الخوار تنفد فيه الحيلة ، ولا تنفد في الكلام .

وتدل على أن إزالة الشبه في الدين واجب ، كما أزالها الله تعالى ، وتدل على أن القوم كانوا جهالاً غير عارفين حقيقة الأشياء ، لذلك عبدوا العجل ، وتدل على أن تلك الحلي كانت

ملكاً لبني إسرائيل ، لذلك قال : ﴿ حُلِّيهِمْ ﴾ ، فإن ثبت أنهم استعاروه ، فيدل على زوال ملكهم ، وانتقال الملك إلى بني إسرائيل ، كما تملك أموال أهل الحرب ، وتدل على أن الاتخاذ فعلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 186.187 ﴾

(151/288)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾

عطف على جملة : ﴿ وواعدنا موسى ﴾ [الأعراف : 142] عطَف قصة على قصة ، فذكر فيما تقدم قصة المناجاة ، وما حصل فيها من الآيات والعبر ، وذكر في هذه الآية ما كان من قوم موسى ، في مدة مغيبه في المناجاة ، من الإشراك .

فقوله : ﴿ من بعده ﴾ أي من بعد مغيبه ، كما هو معلوم من قوله : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ [الأعراف : 143] ومن قوله : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفْني في قومي ﴾ [الأعراف : 142] .

وحَذْفُ المضاف مع "بَعْد" المضافةِ إلى اسم المتحّدث عنه شائع في كلام العرب ، كما تقدم في نظيرها من سورة البقرة .

و(مِن) في مثله للابتداء ، وهو أصل معاني (مِن) وأما (مِن) في قوله : ﴿ من حليّهم ﴾ فهي للتبعيض .

والحُلِّي بضم الحاء وكسر اللام وتشديد المثناة التحتية ، جمع حَلْي ، بفتح الحاء وسكون اللام وتخفيف التحتية ، ووزن هذا الجمع فُعول كما جمع ثدْي ، ويجمع أيضاً على حِلي ، بكسر الحاء مع اللام ، مثل عِصي وقِسي اتباعاً لحركة العين ، وبالأول قرأ جمهور العشرة ، وبالثاني حمزة ، والكسائي ، وقرأ يعقوب حَلْيهم بفتح الحاء وسكون اللام على صيغة الإفراد ، أي اتخذوا من مصوغهم وفي التوراة أنهم اتخذوه من ذهب ، نزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائِهم وبناتهم وبنيهم .

والعجل ولد البقرة قبل أن يصير ثَوْراً ، وذكر في سورة طه أن صانع العجل رجل يقال له السامري ، وفي التوراة أن صانعه هو هارون ، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه الواقع في التوراة بعد موسى ، ولم يكن هارون صائِغاً ، ونسب الاتخاذ إلى قوم موسى كلهم على طريقة المجاز العقلي ، لأنهم الآمرون باتخاذه والحريصون عليه ، وهذا مجاز شائِع في كلام العرب .

ومعنى اتخذوا عِجلاً صورة عِجْل ، وهذا من مجاز الصورة ، وهو شائِع في الكلام .

والجسد الجسم الذي لا روح فيه ، فهو خاص بجسم الحيوان إذا كان بلا روح ، والمراد أنه كجسم العجل في الصورة والمقدار إلاّ أنه ليس بحي وما وَقع في القصص : إنه كان لحماً ودماً ويأكل ويشرب ، فهو من وضع القصاصين ، وكيف والقرآنِ يقول : ﴿ من حُليهم ﴾ ، ويقول : ﴿ له خوار ﴾ ، فلو كان لحماً ودماً لكان ذكره أدخل في التعجيب منه .

والخُوار بالخاء المعجمة صوت البقر ، وقد جعل صانع العجل في باطنه تجْويفاً على تقدير من الضيق مخصوص ، واتخذ له آلة نافخة خفية ، فإذا حركت آلة النفخ انضغط الهواء في باطنه ، وخرج من المضيق ، فكان له صوت كالخوار ، وهذه صنعة كصنعة الصفارة والمزمار ، وكان الكنعانيون يجعلون مثل ذلك لصنعهما المسمى بعْلاً .

و﴿ جسداً ﴾ نعت ل ﴿ عجلاً ﴾ وكذلك ﴿ له خوار ﴾ .

وجملة : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ؛ لبيان فساد نظرهم في اعتقادهم .

والاستفهام للتقرير وللتعجيب من حالهم ، ولذلك جعل الاستفهام عن نفي الرؤية ، لأن نفي الرؤية هو غير الواقع من حالهم في نفس الأمر ، ولكن حالهم يشبه حال من لا يرون عدم تكليمه ، فوقع الاستفهام عنه لعلهم لم يروا ذلك ، مبالغة ، وهو للتعجيب وليس للإنكار ، إذ لا ينكر ما ليس بموجود ، وبهذا يعلم أن معنى كونه في هذا المقام بمنزلة النفي للنفي إنما نشأ

من تنزيل المسؤول عنهم منزلة من لا يرى ، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى:

﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾ في سورة البقرة (243) .

والرؤية بصرية ، لأن عدم تكليم العجل إياهم مشاهد لهم ، لأن عدم الكلام يرى من حال الشيء الذي لا يتكلم ، بانعدام آلة التكلم وهو الفم الصالح للكلام ، وبتكرر دعائهم إياه وهو لا يجيب .

(153/288)

وقد سفه رأي الذين اتخذوا العجل إلاهاً ، بأنهم يشاهدون أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، ووجه الاستدلال بذلك على سفه رأيهم هو أنهم لا شبهة لهم في اتخاذه إلاهاً بأن خصائصه خصائص العجماوات ، فجسمه جسم عجل ، وهو من نوع ليس أرقى أنواع الموجودات المعروفة ، وصوته صوت البقر ، وهو صوت لا يفيد سامعه ، ولا يبين خطاباً ، وليس هو بالذي يهديهم إلى أمر يتبعونه حتى تغني هدايتهم عن كلامه ، فهو من الموجودات المنحطة عنهم ، وهذا كقول إبراهيم ﴿ فاسْألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ [الأنبياء : 63] فماذا رأوا منه مما يستأهل الإلهية ، فضلاً على أن ترتقي بهم إلى الصفات التي يستحقها الإله الحق ، والذين عبدوه أشرف منه حالاً وأهدى ، وليس المقصود من هذا الاستدلال

على الألوهية بالتكليم والهداية ، وإلا للزم إثبات الإلهية لحكماء البشر .

وجملة : ﴿ اتخذوه ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ واتخذ قوم موسى ﴾ فلذلك فصلت ، والغرض من التوكيد في مثل هذا المقام هو التكرير لأجل التعجيب ، كما يقال : نَعمْ اتخذوه ، ولتبنى عليه جملة ﴿ وكانوا ظالمين ﴾ فيظهرَ أنها متعلقة باتخاذ العجل ، وذلك لبعد جملة : ﴿ واتخذ قوم موسى ﴾ بما وليها من الجملة وهذا كقوله : ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ إلى قوله ﴿ فليكتب ﴾ [البقرة : 282] أعيد فليكتب لتُبنى عليه جملة : ﴿ وليُملل الذي عليه الحق ﴾ [البقرة : 282] ، وهذا التكرير يفيد معَ ذلك التوكيدَ وما يترتب على التوكيد .

وجملة : ﴿ وكانوا ظالمين ﴾ في موضع الحال من الضمير المرفوع في قوله : ﴿ اتخذوه ﴾ وهذا كقوله في سورة البقرة (51) ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(154/288)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا

يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) ﴾

وقوله : ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد ذهابه لميقات ربه بعد أن قال لهارون : ﴿ اخلفني فِي قَوْمِي ﴾ .

بعد ذلك اتخذ قوم موسى من حليهم عجلاً جسداً له خُوار ، ونعرف أن الحلي هو ما يُتَزين به من الذهب ، والجواهر والأشياء الثمينة ، وسيد هذه الحلي هو الذهب دائماً ، ونعلم أن الصائغ الماهر يشكل الذهب كما يريد ، وإن انكسر يسهل إصلاحه ، كما أن كسر الذهب بطيء ، ولذلك يقال : إن الذهب كالإنسان الطيب ، كسره بطيء ، واجباره سهل .

وساعة نسمع كلمة " زينة " قد يدخل فيها الماس والزمرد ، والياقوت ، لكن الذهب سيد هذه الحلي . ونعلم أن العالم مهما ارتقى ، فلن يكون هناك رصيد لأمواله إلا الذهب ، ولذلك لم يأت سبحانه بالياقوت ، أو بالجواهر ، أو بالماس . ولذلك إذا أطلقت كلمة " الحلي " فالمراد بها الذهب .

وهذه الزينة هي التي صنع منها موسى السامري تمثال العجل ، وبطبيعة الحال أخذ الحلي الذهبية لأن الماس والجواهر لا يمكن صهرها . لكن من أين جاء قوم موسى بالحلي وقد كانوا مستضعفين ، ومستذلين ؟ لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحلي كسلفة سيردونها من بعد ذلك . ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحلي معهم !

وغرق قوم فرعون وبقيت الحلي مع قوم موسى ، وصنع موسى السامري من ذهب هذه الحلي عجلاً ، والعجل هو الذكر من ولد البقر ، وساعة تسمع قوله : ﴿ عِجْلاً جَسَداً ﴾ أي أنه مُحَجَّم ، أي له حجم واضح . وأخذ أهل التفسير من كلمة " جسداً " أن ذلك العجل هو بدن لا روح له ، مثلما نقول : " فلان هذا مجرد جثة " . أي كأنه جثة بلا روح .

(155/288)

وقوله الحق : ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ ، هذا القول يدل على أن جسدية العجل لم تكن لها حياة ؛ لأنه لو كان جسداً فيه روح لما احتاج إلى أن يقول عجلاً جسداً له خوار ، ولاكتفي بالقول بأنه عجل . لكن قوله سبحانه : ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ دليل على أن الجسدية في العجل لا تعطي له الحياة . وجاء بالوصف في قوله : ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ والخُوار هو صوت البقر . وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أن يتميز عن الآلهة التي كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفيساً ، فصنعه – كما نعرف – من الحلي المسروقة ، وصنعه بطريقة أن هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دبره هبة الهواء ؛ صنعت وأحدثت في جوفه صوتاً يشبه صوت وخوار البقر الذي يخرج من فمه ، وهذه المسألة نراها في الناي وهو أنبوبة من القصب مما يسمى الغاب البلدي وتصنع به ثقوب ، ويعزف عليه العازف ليخرج

منه النغمة التي يريدها .

وحين صنع موسى السامري العجل بهذه الحيلة ، حدث هذا الصوت مشابها لخوار البقر .

وقصة هذا العجل تأتي في سورة طه بوضوح وسنتعرض لها حين نتعرض بخواطرنا الإيمانية لسورة طه بإذن الله : ﴿ . . . عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف : 148]

(156/288)

ولماذا اختار السامري العجل ؟ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأوا قدماء المصريين وهم يعبدون العجل لمزية فيه ، فقد كانوا يرون فيه مظهر قوة ، كما عبد الآخرون الشمس حين رأوا فيها مظهر قوة ، وكذلك من عبدوا القمر ، والنجوم . وقدماء المصريين عبدوا العجل لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه ، وكانوا يستخدمون العجل . حين يريدون حرث الأرض . وكان أَيِدًا ، أي قويًا وشديداً في حرث الأرض وهذا مظهر من مظاهر القوة ، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عجلاً يعبدونه بعد أن أتم عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله ؟ . وهنا أوضح لنا الله أنه جاوز ببني إسرائيل البحر ومروا على قوم يعبدون الأصنام ؛ فقالوا لموسى عليه السلام : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

ويأتي القول من الحق : ﴿ . . . أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف : 148]

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لابد أن يتلقى من المعبود أوامر ، وأن يكون عند المعبود منهج يريد من العبد أن ينفذه ، وأن يأتي المنهج بواسطة رسل يبلغون رسالات الله وكلام الله للبشر . أما الذين يعبدون الشمس – مثلاً – فنسألهم : لماذا تعبدونها ؟ وما المنهج الذي أرسلته الشمس لكم ؟ . إن العبادة هي طاعة العابد للمعبود في " افعل " و " لا تفعل " فهل قالت لكم الشمس " افعلوا " و " لا تفعلوا " ؟ لا ؛ لأنه لا توجد واسطة كلامية تقول لكم المنهج ، وكيف يوجد – إذن – معبود بدون منهج للعابد ؟ وهل قالت : إن من يعبدني سأشرق عليه ، وأعطيه الضوء والحرارة ، ومن لا يعبدني فلن أعطيه شيئاً من ذلك ؟ لم تقل الشمس ذلك فهي تعطي من آمن بها ومن كفر ، ولم ترسل خبراً عن الآخرة وقيام القيامة .

(157/288)

وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضي أمراً ونهيا ، في " افعل " و " لا تفعل " ولم يقل معبود من هؤلاء ما الذي نطيعه وما الذي نعصاه . والأصل في المعبود

أنه يهدي العابد السبيل الموصل إلى خيره في الدنيا وفي الآخرة . لذلك يقول الحق : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ . و ﴿ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ لأنهم أعطوا حقًّا لمن ليس له الحق ، والحق سبحانه أعلى قمة في الحق ، ولذلك قال عن الشرك به : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(158/288)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) ﴾

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً ﴾ قال : حين دفنوها ألقي عليها السامري قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ من حليهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ قال : استعاروا حلياً من آل فرعون ، فجمعه السامري فصاغ

منه عجلاً فجعله الله جسداً لحماً ودماً له خوار .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ قال : يعني له صياح . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت الشاعر وهو يقول :

كان بني معاوية بن بكر . . . إلى الإِسلام ضاحية تخور

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : خار العجل خورة لم يثن ، ألم تر أن الله قال ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ له خوار ﴾ قال : الصوت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(159/288)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ الآية .

أي : من بعد مُضيِّة وذهابه إلى الميقات والجارّان متعلّقان بـ " اتَّخَذَ " ، وجَازَ أن يتعلَّق

بعاملٍ حرفا جَرّ متحدَا اللَّفْظِ ، لاختلافِ مَعْنيْهما لأنَّ الأولى لابتداء الغايةِ ، والثَّانية للتَّبعيضِ ، ويجوزُ أن يكون " مِن حُلِيّهِمْ " متعلِّقاً بمحذوفٍ على أنَّهُ حالٌ من عِجْلاً لأنَّهُ لو تأخَّر عنه لكان صفةً فكان يقال عِجْلاً من حليهم .

وقرأ الأخوان مِنْ حِلِيّهم بكسر الحاء وَوَجْهُهَا الإتباع لكسرة اللاَّم ، وهي قراءة أصحاب عبد الله وطلحة ويحيى بن وثاب والأعمش .

والباقون بضمِّ اللاَّم ، وهي قراءةُ الحسنِ وأبي جعفرٍ وشيبة بن نصاح ، وهو في القراءتين جمع " حَلْيٍ " كـ " طَيٍّ " ، فجمع على " فُعُول " كـ " فَلْس " و " فُلُوس " فأصله ، حُلُويٌّ كثُدِي في " ثُدُوي " ، فاجتمعت الياء والواوُ ، وسبقت إحداهما بالسُّكُون ، فقلبت الواوُ ياء ، وأدغمت ، وكُسرت عين الكلمة ، وإن كانت في الأصل مضمومةً لتصِحَّ الياء ، ثُمَّ لك فيه بعد ذلك وجهانِ : تركُ الفاءِ على ضَمِّهَا ، أو إتباعُها للعين في الكسرة ، وهذا مُطَّردٌ في كل جمعٍ على " فُعُول " من المعتلِّ اللاَّم ، سواء كان الاعتلال بالياء كـ " حُلِيّ " و " ثُدِي " أم بالواو نحو : " عُصِيّ " ، و " دُلِيّ " جمع عَصَا ودَلْو .

وقرأ يعقوبُ " من حَلِيّهم " بفتح الحاءِ وسكون اللاَّمِ ، وهي محتملةٌ لأن يكون " الحَلْي " مفرداً أريد به الجمعُ ، أو اسمُ جنسٍ مفرده " حَلْيَة " على حدِّ قَمْحٍ وقَمْحَةٍ ، و " عِجْلاً " مفعولُ " اتَّخَذَ " و " مِنْ حُلِيّهم " تقدَّم حكمه .

ويجوزُ أن يكون " اتَّخذَ " متعديةً لاثنين بمعنى " صَيَّرَ " فيكون : " مِنْ حُلِيّهم " هو المفعول

الثاني .

وقال أبو البقاءِ : " وهو محذوفٌ ، أي : إلهاً " ولا حاجة إليه .

والحَلْيُ : اسم لما يُحَسَّن به من الذَّهبِ والفضَّةِ .

و" جَسَداً " فيه ثلاثةُ أوجه ، أحدها : أنَّهُ نعتٌ .

الثَّانِي : أنَّهُ عطفُ بيان ، والثالثُ : أنَّهُ بدلٌ قاله الزمخشريُّ ، وهو أحسنُ ؛ لأنَّ الجسد ليس مشتقاً ، فلا يُنْعَتُ به إلا بتأوُّلٍ ، وعطفُ البيان في النكراتِ قليلٌ ، أو ممتنع عند الجمهور ، وإنَّما قال : " جَسَداً " لئلاَّ يُتوهَّمَ أنَّهُ كان مخطوطاً ، أو مرقوماً .

والجسد : الجثة .

وقيل : ذات لحم ودمٍ .

(160/288)

قوله : " لَهُ خُوَارٌ " في محل النَّصْبِ نعتاً لـ " عِجْلاً " ، وهذا يُقَوِّي كون " جَسَداً " نعتاً ؛ لأنه إذا اجتمع نعتٌ وبدلٌ قُدِّمَ النَّعْتُ على البدلِ ، والجمهورُ على خُوَارٌ بخاء معجمة وواو صريحة ، وهو صوتُ البقرِ خاصّةً ، وقد يُسْتَعَارُ للبعير ، والخَوَرُ : الضَّعْفُ ، ومنهُ أرْضٌ خَوَّارةٌ وريح خوار والخورانُ : مجرى الرَّوث ، وصوت البهائم أيضاً .

وقرأ عليٌّ وأبو السَّمَّال : جُؤار بالجيم والهَمْز ، وهو الصَّوت الشديد .

قوله : " أَلَمْ يَرَوْا " إن قلنا : إنَّ اتَّخَذَ متعدية لاثنين ، وإنَّ الثَّاني محذوفٌ ، تقديره : واتَّخَذَ قوم موسى من بعده من حليهم عِجْلاً جَسَداً إلهاً ، فلا حاجة حينئذ إلى ادّعاءِ حذف جملة يتوجَّه عليها هذا الإنكارُ ، وإن قلنا : إنَّها متعدية لواحد بمعنى : صَنَعَ وعَمِلَ أو متعدية لاثنين ، والثاني هو : مِنْ حُلِيِّهِمْ فلا بُدَّ مِنْ حذفِ جملة قبل ذلك ، ليتوَجَّه عليها الإنكار ، والتقدير : يعبدوه ، ويَرَوْا يجوز أن تكونَ العِلْمِية ، وهو الظَّاهرُ وأن تكون البصرية ، وهو بيعدٌ .

قوله : ﴿ اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾

يجُوزُ فيها وجهان :

أظهرهما : أنَّهَا استئنافيةٌ ، أخبر عنهُم بهذا الخبر وأنه دَيْدنهُم وشأنهُم في كلِّ شيء فاتَّخاذُهم العجلَ من جملة ذلك ، ويجوزُ أن تكون حالاً ، أي : وقد كانُوا ، أي : اتَّخَذُوه في هذه الحالِ المستقرَّةِ لهُم وعلى هذا التفسير المتقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 315.318 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ .

لم يُطَهِّر قلوبَهم – في ابتداء أحوالهم – عن توهم الظنون ، ولم يتحققوا بخصائص القِدَمِ وشروط الحدوث ، فعثرت أقدام فكرهم في وهاد المغليط لما سلكوا المسير .

(161/288)

ويقال إن أقواماً رضوا بالعِجْلِ أن يكونَ معبودَهم متى تشم أسرارُهم نسيمَ التوحيد ؟ هيهات لا ! لا ولا مَنْ لاحظ جبريلَ وميكائيلَ والعرشَ أو الثَّرى ، أو الجِنَّ أو الورى . وإنَّ مَنْ لَحِقَه ذلك أو وجد من قبيل ما يقبل نعوت الحدثان ، أو صحَّ في التجويز أن ترتقي إليه صواعد التقدير وشرائط الكيفية فغيرُ صالحٍ لاستحقاق الإلهية .

ويقال شتَّان بين أمة وأمة ! أمة خرج نبيهم عليه السلام من بينهم أربعين يوماً فعبدوا العِجْلَ ، وأمة خرج نبيُّهم – عليه السلام – من بينهم وأَتَى نيف وأربعمائة سنة فمن ذكر بين أيديهم أن الشموس والأقمار أو شيئاً من الرسوم والأطلال تستحق الإلهية أحرقوه بهممهم .

ويقال لا فصلَ بين الجسم والجسد ، فكما لا يصلح أن يكون المعبود جسماً لا يصلح أن يكون متصفاً بما في معناه ، ولا أن يكون له صوت فإن حقيقة الأصوات مُصَاكَّةُ الأجرام الصلبة ، والتوحيد الأزلي ينافي هذه الجملة .

ويقال أَجْهِلْ بقوم آمنوا بأن يكونَ مصنوعُهم معبودَهم ! ولولا قهر الربوبية وأنه تعالى يفعل ما

يشاء – فأَيُّ عقلٍ يُقِرُّ مثل هذا التلبيس ؟ !

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ .

جعل من استحقاقه نعوت الإلهية صحة الخطاب وأن تكون منه الهداية ، وهذا يدل على استحقاق الحق بالنعوت بأن متكلِّمٌ في حقائق آزاله ، وأنه متفرّد بهداية العبد لا هاديَ سواه . وفيه إشارة إلى مخاطبة الحق – سبحانه – وتكليمه مع العبد ، وإنَّ الملوكَ إذا جلَّتْ رتبتهم استنكفوا أن يخاطبوا أحداً بلسانهم حتى قال قائلهم :

وما عَجَبٌ تناسي ذِكْرِ عبدٍ . . . على المولى إذا كَثُرَ العبيدُ

(162/288)

وبخلاف هذا أجرى الحقُّ – سبحانه – سنَّتَه مع عباده المؤمنين ، أما الأعداء فيقول لهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] وأمَّا المؤمنون فقال صلى الله عليه وسلم : " ما منكم إلا يكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان " ، وأنشدوا في معناه .

وما تزدهينا الكبرياءُ عليهمُ . . . إذا كلَّمونا أن نكلمهم مَرَدَّا

قال تعالى : – ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي

وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : 109] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 572.570 ﴾

(163/288)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا في سياق ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ فأنتج أن من كذب على هذه الصفة أهلك ، فانتظر السامع الإخبار بتعجيل هلاكهم ، أخبر بأنه منعهم من ذلك وحرسهم المبادرة بالتوبة ، ولما اشتد من تشوف السامع إليه ، قدمه على سببه وهو رجوع موسى عليه السلام إليهم وإنكاره عليهم ، ولأن السياق في ذكر إسراعهم في الفسق لم يذكر قبول توبتهم كما في البقرة ؛ ولما كان من المعلوم أنهم تبين لهم عن قرب سوء مرتكبهم لكون نبيهم فيهم ، عبر بما أفهم أن التقدير : فسقط في إيديهم ، وعطف عليه قوله سائقاً مساق ما هو معروف : ﴿ ولما سقط ﴾ أي سقطت أسنانهم ﴿ في أيديهم ﴾ بعضها

ندماً سقوطاً كأنه بغير اختيار لما غلب فيه من الوجد والأسف الذي أزال تأملهم ولذلك بناه للمفعول ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا ﴾ أي عن الطريق الواضح ﴿ قالوا ﴾ توبة ورجوعاً إلى الله كما قال أبوهم آدم عليه السلام ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ﴾ أي الذي لم يقطع قط إحسانه عنا فكيف غضبه ويديم إحسانه ﴿ ويغفر لنا ﴾ أي يمحو ذنوبنا عيناً وأثراً لئلا ينتقم منا في المستقبل ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ أي فينتقم من بذنوبنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 113.114 ﴾

(164/288)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنهم اتفقوا على أن المراد من قوله : ﴿ سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ ﴾ أنه اشتد ندمهم على عبادة العجل واختلفوا في الوجه الذي لأجله حسنت هذه الاستعارة .

فالوجه الأول : قال الزجاج : معناه سقط الندم في أيديهم ، أي في قلوبهم كما يقال حصل في يديه مكروه ، وإن كان من المحال حصول المكروه الواقع في اليد ، إلا أنهم أطلقوا على المكروه الواقع في القلب والنفس كونه واقعاً في اليد ، فكذا ههنا .

والوجه الثاني : قال صاحب "الكشاف" : إنما يقال لمن ندم سقط في يده لأن من شأن من اشتد ندمه أن يعض يده غماً ، فيصير ندمه مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

والوجه الثالث : أن السقوط عبارة عن نزول الشيء من أعلى إلى أسفل ، ولهذا قالوا سقط المطر ، ويقال : سقط من يدك شيء وأسقطت المرأة ، فمن أقدم على عمل فهو إنما يقدم عليه لاعتقاده أن ذلك العمل خير وصواب ، وأن ذلك العمل يورثه شرفاً ورفعة ، فإذا بان له أن ذلك العمل كان باطلاً فاسداً فكأنه قد انحط من الأعلى إلى الأسفل وسقط من فوق إلى تحت ، فلهذا السبب يقال للرجل إذا أخطأ : كان ذلك منه سقطة ، شبهوا ذلك بالسقطة على الأرض ، فثبت أن إطلاق لفظ السقوط على الحالة الحاصلة عند الندم جائز مستحسن ، بقي أن يقال : فما الفائدة في ذكر اليد ؟ فنقول : اليد هي الآلة التي بها يقدر الإنسان على الأخذ والضبط والحفظ ، فالنادم كأنه يتدارك الحالة التي لأجلها حصل له الندم ويشتغل بتلافيها ، فكأنه قد سقط في يد نفسه من حيث أن بعد حصول ذلك الندم اشتغل بالتدارك والتلافي .

والوجه الرابع : حكى الواحدي عن بعضهم : أن هذا مأخوذ من السقيط وهو ما يغشى الأرض بالغدوات شبه الثلج .

(165/288)

يقال : منه سقطت الأرض كما يقال : من الثلج ثلجت الأرض وثلجنا أي أصابها الثلج ، ومعنى سقط في يده أي وقع في يده السقيط ، والسقيط يذوب بأدنى حرارة ولا يبقى ، فمن وقع في يده السقيط لم يحصل منه على شيء قط فصار هذا مثلاً لكل من خسر في عاقبته ولم يحصل من سعيه على طائل ، وكانت الندامة آخر أمره .

والوجه الخامس : قال بعض العلماء : النادم إنما يقال له سقط في يده ، لأنه يتحير في أمره ويعجز عن أعماله والآلة الأصلية في الأعمال في أكثر الأمر هي اليد .

والعاجز في حكم الساقط فلما قرن السقوط بالأيدي علم أن السقوط في اليد إنما حصل بسبب العجز التام ويقال في العرف لمن لا يهتدي لما يصنع ، ضلت يده ورجله .

والوجه السادس : إن من عادة النادم أن يطأطىء رأسه ويضعه على يده معتمداً عليه وتارة يضعها تحت ذقنه ، وشطر من وجهه على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه فكانت اليد مسقوط فيها لتمكن السقوط فيها ويكون قوله سقط في أيديهم بمعنى سقط على أيديهم ، كقوله :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] أي عليها ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ أي قد تبينوا ضلالهم تبييناً كأنهم أبصروه بعيونهم قال القاضي : يجب أن يكون المؤخر مقدماً لأن الندم والتحير إنما يقطعان بعد

المعرفة فكأنه تعالى قال : ولما رأوا أنهم قد ضلوا سقط في أيديهم لما نالهم من عظيم الحسرة ، ويمكن أن يقال إنه لا حاجة إلى هذا التقديم والتأخير ، وذلك لأن الإنسان إذا صار شاكاً في أن العمل الذي أقدم عليه هل هو صواب أو خطأ ؟ فقد يندم عليه من حيث أن الإقدام على ما لا يعلم كونه صواباً أو خطأ فاسداً أو باطلاً غير جائز ، فعند ظهور هذه الحالة يحصل الندم ، ثم بعد ذلك يتكامل العلم ويظهر أنه كان خطأ وفاسداً وباطلاً فثبت أن على هذا التقدير لا حاجة إلى التزام التقديم والتأخير .

(166/288)

ثم بين تعالى أنهم عند ظهور هذا الندم وحصول العلم بأن الذي عملوه كان باطلاً أظهروا الانقطاع إلى الله تعالى ف ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ وهذا كلام من اعترف بعظيم ما أقدم عليه وندم على ما صدر منه ورغب إلى ربه في إقالة عثرته ، ثم صدقوا على أنفسهم كونهم من الخاسرين إن لم يغفر الله لهم ، وهذا الندم والاستغفار إنما حصل بعد رجوع موسى عليه السلام إليهم ، وقرىء : (لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا) بالتاء ﴿ وَرَبُّنَا ﴾ بالنصب على النداء ، وهذا كلام التائبين كما قال آدم وحواء

عليهما السلام : ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 9.8 ﴾

(167/288)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ ﴾

يعني : ندموا على ما صنعوا .

يقال : سقط في يده إذا ندم .

وأصله أن الإنسان إذا ندم جعل يده على رأسه .

﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ أي علموا أنهم قد ضلوا عن الهدى ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ لَئِن لَّمْ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة رَبَّنَا بالنصب يعني : يا ربنا .

وقرأ الباقون ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ بالياء وضم الباء على معنى الخبر .

﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ بعد التوبة عطف على قوله ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ يعني : من المغبونين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾

أي ندموا على عبادة العجل وهذا من فصيحات القرآن .

والعرب تقول لكل نادم أو عاجز عن شيء : سقط في يديه وأسقط ، وهما لغتان وأصله من [الاستئسار] وذلك أن يضرب الرجل الرجل أو يصرعه فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره فيكتفه ، والمرمي فيه مسقوط في يد الساقط .

﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ يتب علينا ربنا ﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ ويتجاوز عنا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ بالعقوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(168/288)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فَى أَيْدِيهِمْ ﴾

قرأ جمهور الناس بكسر القاف وضم السين " سُقِطَ في أيديهم " وقرأت فرقة " سَقَطَ " بفتح السين والقاف حكاه الزّجاج ، وقرأ ابن أبي عبلة " أسْقط " وهي لغة حكاها الطبري

بالهمزة المضمومة وسين ساكنة ، والعرب تقول لمن كان ساعياً لوجه أو طالباً غاية ما ، فعرضه ما غلبه وصده عن وجهته وأوقفه موقف العجز عن بغيته وتيقن أنه قد عجز : سقط في يد فلان ، وقال أبو عبيدة : يقال لمن قدم على أمر وعجز عنه سقط في يده .

قال القاضي أبو محمد : والندم عندي عرض يعرض صاحب هذه الحال وقد لا يعرضه فليس الندم بأصل في هذا أما أن أكثر أصحاب هذه الحال يصحبهم الندم وكذلك صحب بني إسرائيل المذكورين في الآية والوجه الذي يصل بين هذه الألفاظ وبين المعنى الذي ذكرناه هو أن السعي أو الصرف أو الدفاع سقط في يد المشار إليه فصار في يده لا يجاوزها ولا يكون له خارجها تأثير وقال الزجاج : المعنى أن الندم سقط في أيديهم ويحتمل أن الخسران والخيبة سقط في أيديهم .

قال القاضي أبو محمد : وعلى هذا كله يلزم أن يكون " سقط " يتعدى فإن " سقط " يتضمن مفعولاً وهو هاهنا المصدر الذي هو الإسقاط كما يقال ذهب بزيد وفي هذا عندي نظر ، وأما قراءة من قرأ " سقَطَ " على بناء الفعل للفاعل أو " أسقط " على التعدية بالهمزة فبين في الاستغناء عن التعدي ويحتمل أن يقال سقط في يديه على معنى التشبيه بالأسير الذي تكتف يداه فكأن صاحب هذه الحال يستأسر ويقع ظهور الغلبة عليه في يده ، أو كأن المراد سقط بالغلب والقهر في يده ، وحدثت عن أبي مروان بن سراج أنه كان يقول : قول العرب سقط ي يديه مما أعياني معناه ، وقال الجرجاني : هذا مما دثر استعماله مثلما دثر

استعمال قوله تعالى : ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ [الكهف : 11] .

قال القاضي أبو محمد : وفي الكلام ضعف والسقاط في كلام العرب كثرة الخطأ والندم عليه

ومنه قول سويد بن أبي كاهل : [الرمل]

(169/288)

كيف يرجون سقاطي بعدما . . . لفع الرأسَ مشيب وصلع

وقول بني إسرائيل ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ﴾ إنما كان بعد رجوع موسى وتغييره عليهم

ورؤيتهم أنهم قد خرجوا عن الدين ووقعوا في الكفر ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن

عامر وعاصم والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة بن نصاح ومجاهد وغيرهم " قالوا لئن لم

يرحمنا ربنا " بالياء في يرحمنا وإسناد الفعل إلى الرب تعالى ، " ويغفر " بالياء ، وقرأ حمزة

والكسائي والشعبي وابن وثاب والجحدري وطلحة بن مصرف والأعمش وأيوب " ترحمنا

ربَّنا " بالتاء في " ترحمنا " ونصب لفظة ربنا على جهة النداء " وتغفر " بالتاء ، من فوق ،

وفي مصحف أبيّ " قالوا ربنا لئن ترحنما وتغفر لنا لنكونن من الخاسرين " . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(170/288)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولما سُقِط في أيديهم ﴾ أي : ندموا .

قال الزجاج : يقال للرجل النادم على ما فعل : المتحسر على ما فرّط .

قد سُقط في يده ، وأُسقط في يده .

وقرأ ابن السميفع ، وأبو عمران الجوني : "سَقَطَ" بفتح السين .

قال الزجاج : والمعنى : ولما سَقَط الندمُ في أيديهم ، يشبِّه ما يحصل في القلب وفي النفس بما يُرى بالعين .

قال المفسرون : هذا الندم منهم إنما كان بعد رجوع موسى .

قوله تعالى : ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر وعاصم : "يرحْمنا ربُّنا" "ويغفرْ لنا" بالياء والرفع .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، "ترحمنا" "وتغفر لنا" بالتاء ، "ربنا" بالنصب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(171/288)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾

أي بعد عوْدِ موسى من المِيقات .

يقال للنادم المتحيّر : قد سقط في يده .

قال الأخفش ؛ يقال سُقط في يده ، وأُسقط .

ومن قال : سَقَطَ في أيديهم على بناء الفاعل ؛ فالمعنى عنده : سَقط الندم ؛ قاله الأزهريّ والنحاس وغيرهما .

والندم يكون في القلب ، ولكنه ذكر اليد لأنه يقال لمن تحصّل على شيء : قد حصل في يده أمر كذا ؛ لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد ؛ قال الله تعالى : ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] .

وأيضاً : الندم وإن حَلّ في القلب فأثره يظهر في البدن ؛ لأن النادم يعضّ يده ؛ ويضرب إحدى يديه على الأُخرى ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ [الكهف : 42] أي ندِم .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان : 27] أي من الندم .

والنادم يضع ذقنه في يده .

وقيل : أصله من الاستئسار ، وهو أن يضرب الرجلُ الرجلَ أو يصرَعه فيرميَ به من يديه

إلى الأرض ليأسره أو يكتفه ؛ فالمرمي مسقوط به في يد الساقط .

﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ أي انقلبوا بمعصية الله .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ أخذوا في الإقرار بالعبودية والاستغفار .

وقرأ حمزة والكسائيّ "لَئن لَمْ ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا" بالتاء على الخطاب .

وفيه معنى الاستغاثة والتضرُّع والابتهال في السؤال والدعاءِ .

"ربَّنا" بالنصب على حذف النداء .

وهو أيضاً أبلغ في الدعاء والخضوع .

فقراءتهما أبلغ في الاستكانة والتضرع ، فهي أوْلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(172/288)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ يعني ولما ندموا على عبادة العجل .

تقول العرب لكل نادم على أمر : سقط في يده وذلك لأن من شأن من اشتد ندمه على أمر

أن يعض يده ثم يضرب على فخذه فتصير يده ساقطة لأن السقوط عبارة عن النزول من أعلى إلى أسفل ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا ﴾ يعني وتيقنوا أنهم على الضلالة في عبادتهم العجل ﴿ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ﴾ يعني يتب علينا ويتجاوز عنا ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ يعني الذين خسروا أنفسهم بوضعهم العبادة في غير موضعها وهذا كلام من اعتراف بعظيم ما أقدر عليه من الذنب وندم على ما صدره منه ورغب إلى الله تعالى في إقالة عثرته واعترافهم على أنفسهم بالخسران إن لم يغفر لهم ربهم ويرحمهم كلام التائب النادم على ما فرط منه وإنما قالوا ذلك لما رجع موسى إليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ2 صـ ﴾

(173/288)

وقال أبو حيان :

﴿ ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلّوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾ .

ذكر بعض النحويين أن قول العرب سقط في يده فعل لا يتصرف فلا يستعمل منه مضارع ولا اسم فاعل ولا مفعول وكان أصله متصرّفاً تقول سقط الشيء إذا وقع من علو فهو في الأصل

متصرّف لازم ، وقال الجرجاني : سقط في يده مما دثر استعماله مثل ما دثر استعمال قوله تعالى : ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ قال ابن عطية : وفي هذا الكلام ضعف والسّقاط في كلام العرب كثرة الخطأ والندم عليه ومنه قول ابن أبي كاهل :

كيف يرجون سقاطي بعدما . . .

بقع الرأس مشيب وصلع

(174/288)

وحكي عن أبي مروان بن سراج أحد أئمة اللغة بالأندلس أنه كان يقول : قول العرب سقط في يده مما أعياني معناه ، وقال أبو عبيدة : يقال لمن ندم على أمر وعجز عنه سقط في يده ، وقال الزجاج : معناه سقط الندم في أيديهم أي في قلوبهم وأنفسهم ، كما يقال حصل في أيديهم مكروه وإن كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ، وقال ابن عطيّة : العرب تقول لمن كان ساعياً لوجه أو طالباً غاية فعرض له ما صده عن وجهه ووقفه موقف العجز وتيقن أنه عاجز سقط في يد فلان وقد يعرض له الندم وقد لا يعرض ، قال : والوجه الذي يصل بين هذه الألفاظ وبين المعنى الذي ذكرناه هو أن السعي أو الصّرف أو الدفاع سقط في يد المشار إليه فصار في يده لا يجاوزها

ولا يكون له في الخارج أثر ، وقال الزمخشري لما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل لأنّ من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعضّ يده غمّاً فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها وسقط مسند إلى ﴿ في أيديهم ﴾ وهو من باب الكناية انتهى ، والصواب وسقط مسند إلى ما ﴿ في أيديهم ﴾ وحكى الواحدي عن بعضهم أنه مأخوذ من السقيط وهو ما يغشى الأرض بالغذوات شبه الثلج يقال : منه سقطت الأرض كما يقال : من الثلج ثلجت الأرض وثلجنا أي أصابنا الثلج ومعنى سقط في يده والسّقيط والسقط يذوب بأدنى حرارة ولا يبقى ومن وقع في يده السّقيط لم يحصل منه على شيء فصار مثلاً لكل من خسر في عاقبته ولم يحصل من بغيته على طائل وكانت الندامة آخر أمره ، وقيل : من عادة النادم أن يطأطىء رأسه ويضع ذقنه على يده معتمداً عليها ويصبر على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه كان اليد مسقوطاً فيها ومعنى ﴿ في ﴾ على أي سقط على يده ومعنى ﴿ في أيديهم ﴾ أي على أيديهم كقوله ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ انتهى .

(175/288)

وكان متعلق سقط قوله في أيديهم لأنّ اليد هي الآلة التي يؤخذ بها ويضبط ﴿ وسقط ﴾ مبني للمفعول والذي أوقع موضع الفاعل هو الجار والمجرور كما تقول : جلس في الدار

وضحك من زيد ، وقيل : سقط تتضمن مفعولاً وهو ها هنا المصدر الذي هو الإسقاط كما يقال : ذهب بزيد انتهى ، وصوابه وهو هنا ضمير المصدر الذي هو السقوط لأنّ سقط ليس مصدره الإسقاط وليس نفس المصدر هو المفعول الذي لم يسمّ فاعله بل هو ضميره وقرأت فرقة منهم ابن السميقع ﴿ سقط في أيديهم ﴾ مبنياً للفاعل .

قال الزمخشري أي وقع الغضّ فيها ، وقال الزجاج : سقط الندم في أيديهم ، قال ابن عطية : ويحتمل أنّ الخسران والخيبة سقط في أيديهم ، وقرأ ابن أبي عبلة : أسقط في أيديهم رباعيّاً مبنياً للمفعول ورأوا أي علموا ﴿ أنهم قد ضلّوا ﴾ .

قال القاضي : يجب أن يكون المؤخر مقدّماً لأنّ الندم والتحسر إنما يقعان بعد المعرفة فكأنه تعالى قال : ولما رأوا أنهم قد ضلوا وسقط في أيديهم لما نالهم من عظيم الحسرة انتهى ، ولا يحتاج إلى هذا التقدير بل يمكن تقدّم النّدم على تبين الضلال لأنّ الإنسان إذا شكّ في العمل الذي أقدم عليه أهو صواب أو خطأ حصل له الندم ثم بعد يتكامل النظر والفكر فيعلم أن ذلك خطأ ، ﴿ قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ﴾ انقطاع إلى الله تعالى واعتراف بعظيم ما أقدموا عليه وهذا كما قال : آدم وحواء ﴿ وإن لم تغفر لنا وترحمنا ﴾ ولما كان هذا الذنب وهو اتخاذ غير الله إلهاً أعظم الذنوب بدأوا بالرحمة التي وسعت كل شيء ومن نتاجها غفران الذنب وأما في قصة آدم فإنه جرت محاورة بينه تعالى وبينهما وعتاب على ما

صدر منهما من أكل ثمر الشجرة بعد نهيه إياهما عن قربانها فضلاً عن أكل ثمرها فبادرا إلى الغفران وأتباه بالرحمة إذ غفران ما وقع العتاب عليه أكد ما يطلب أولاً .

(176/288)

وقرأ الأخوان والشعبي وابن وثاب والجحدري وابن مصرف والأعمش وأيوب بالخطاب في ترحّمنا وتغفر ونداء ربنا ، وقرأ باقي السبعة ومجاهد والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة بن نصاح وغيرهم : ﴿ يرحمنا ربنا ويغفر لنا ﴾ بالياء فيهما ورفع ﴿ ربنا ﴾ وفي مصحف أبيّ قالوا : ربنا لئن ترحمنا وتغفر لنا ، بتقديم المنادى وهو ربّنا ويحتمل أن يكون القولان صدرا منهم جميعهم على التعاقب أو هذا من طائفة وهذا من طائفة فمن غلب عليه الخوف وقوي على المواجهة خاطب مستقيلاً من ذنبه العظيم ومن غلب عليه الحياء أخرج كلامه مخرج المستحيي من الخطاب فأسند الفعل إلى الغائب وفي قولهم : ﴿ ربنا ﴾ استعطاف حسن إذ الربّ هو المالك الناظر في أمر عبيده والمصلح منهم ما فسد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(177/288)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ ﴾

أي ندِموا على ما فعلوا غايةَ الندمِ فإن ذلك كنايةٌ عنه لأن النادمَ المتحسّرَ يعَضُّ يدَه غماً فتصير يدُه مسقوطاً فيها ، وقرىء سقَطَ على البناء للفاعل بمعنى وقع العضُّ فيها فاليدُ حقيقةٌ ، وقال الزجاج : معناه سقَط الندمُ في أنفسهم إما بطريق الاستعارةِ بالكناية أو بطريق التمثيل ﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ باتخاذ العجلِ أي تبيّنوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأَوْه بأعينهم ، وتقديمُ ذكرِ ندمِهم على هذه الرؤيةِ مع كونه متأخراً عنها للمسارعة إلى بيانه والإشعارِ بغاية سُرعتِه كأنه سابقٌ على الرؤية ﴿ قَالُواْ ﴾ والله ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ بإنزال التوبةِ المكفرة ﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ ذنوبَنا بالتجاوز عن خطيئتنا ، وتقديمُ الرحمةِ على المغفرة مع أن التخليةَ حقُّها أن تقدمَ على التحلية إما للمسارعة إلى ما هو المقصودُ الأصليّ وإما لأن المرادَ بالرحمة مطلقُ إرادةِ الخير بهم وهو مبدأٌ لإنزال التوبةِ المكفرة لذنوبهم ، واللامُ في لئن موطئةٌ للقسم كما أشير إليه وفي قوله تعالى : ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ لجواب القسمِ ، وما حُكي عنهم من الندامة والرؤية والقولِ وإن كان بعد ما رجَع موسى عليه الصلاة والسلام إليهم كما ينطِق به الآياتُ الواردة في سورة طه لكن أريد

بتقديمه عليه حكايةُ ما صدر عنهم من القول والفعلِ في موضع واحد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(178/288)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ ﴾

أي ندموا كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وجعله غير واحد كناية عن شدة الندم وغايته لأن النادم إذا اشتد ندمه عض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها ، وأصله سقط فوه أو عضه في يده أي وقع ثم حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول به فصار سقط في يده كقولك : مر بزيد ، وقرأ ابن السميقع سقط بالبناء للفاعل على الأصل ، واليد على ما ذكر حقيقة ، وقال الزجاج : معناه سقط الندم في أنفسهم وجعل القطب ذلك من باب الاستعارة التمثيلية حيث شبه حال الندم في النفس بحال الشيء في اليد في التحقيق والظهور ثم عبر عنه بالسقوط في اليد ولا لطف للاستعارة التصريحية فيه ، وقال الواحدي : إنه يقال لما يحصل وإن لم يكن في اليد وقع في يده وحصل في يده مكروه فيشبه ما يحصل في النفس وفي القلب بما يرى بالعين ، وخصت اليد لأن مباشرة الأمور بها كقوله تعالى : ﴿

ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] أو لأن الندم يظهر أثره بعد حصوله في القلب في اليد لعضها والضرب بها على أختها ونحو ذلك فقد قال سبحانه في النادم : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ [الكهف : 42] ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم ﴾ [الفرقان : 27] ، وقيل : من عادة النادم أن يطأطىء رأسه ويضع ذقنه على يده بحيث لو أزالها سقط على وجهه فكأن اليد مسقوط فيها ، و ﴿ فِى ﴾ بمعنى على ، وقيل : هو من السقاط وهو كثرة الخطأ ، وقيل : من السقيط وهو ما يغشى الأرض بالغدوات شبه الثلج لا ثبات له ، فهو مثل لمن خسر في عاقبته ولم يحصل على طائل من سعيه ، وعد بعضهم سقط من الأفعال التي لا تتصرف كنعم وبئس .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ اسقط ﴾ على أنه رباعي مجهول وهي لغة نقلها الفراء .

والزجاج ، وذكر بعضهم أن هذا التركيب لم يسمع قبل نزول القرآن ، ولم تعرفه العرب ، ولم يوجد في أشعارهم وكلامهم فلذا خفي على الكثير وأخطأوا في استعماله كأبي حاتم .

(179/288)

وأبي نواس ، وهو العالم النحرير ولم يعلموا ذلك ولو علموه لسقط في أيديهم ﴿ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ أي تبينوا ضلالهم باتخاذ العجل وعبادته كأنهم قد أبصروه بعيونهم قيل :

وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخراً عنها للمسارعة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية .

وقال القطب في بيان تأخير تبين الضلال عن الندم مع كونه سابقاً عليه : إن الانتقال من الجزم بالشيء إلى تبين الجزم بالنقيض لا يكون دفعياً في الأغلب بل إلى الشك ثم الظن بالنقيض ثم الجزم به ثم تبينه ، والقوم كانوا جازمين بأن ما هم عليه صواب والندم عليه ربما وقع لهم في حال الشك فيه فقد تأخر تبين الضلال عنه انتهى ، فافهم ولا تغفل ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ بإنزال التوبة المكفرة ﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ بالتجاوز عن خطيئتنا ، وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية قيل : إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم ، واللام في ﴿ لَئِنْ ﴾ موطئة للقسم أي والله لئن الخ ، وفي قوله سبحانه : ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ لجواب القسم كما هو المشهور .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا ﴾ بالتاء الفوقية و ﴿ رَبَّنَا ﴾ بالنصب على النداء ؛ وما حكى عنهم من الندامة والرؤية والقول كان بعد رجوع موسى عليه السلام من الميقات كما ينطق به ما سيأتي إن شاء الله تعالى في طاه ، وقدم ليتصل ما قالوه بما فعلوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [149] .

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : ندموا على عبادة العجل ﴿ وَرَأَوْا ﴾ أي : علموا وأيقنوا : ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ أي : عن الحق والهدى .

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ أي : بقبول توبتنا ﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ أي : ما قدمنا من عبادة العجل ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي : بالعقوبة ، أي : ممن خسروا أعمالهم وأعمارهم

.

لطيفة :

يقال للنادم على ما فعل ، الحسر على ما فرط منه قد سُقِطَ في يده و أُسقط مضمومتين – قاله الزجاج – .

وقال الفراء : يقال سُقط في يده وأسقط ، من الندامة ، و سُقط أكثر وأجود .

وأنكر أبو عَمْرو أُسقط بالألف ، وجوزه الأخفش .

قال الزمخشري : من شأن من اشتد ندمه وحسرته ، أن يعض يده غماً ، فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

وقال الزجاج : معناه : سقط الندم في أيديهم ، أي : في قلوبهم وأنفسهم ، كما يقال : حصل في يده مكروه ، وإن كان محالاً أن يكون في اليد ، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس ، بما يحصل في اليد ، ويرى بالعين . انتهى .

وقال الفارسي : أي : ضربوا أكفهم على أكفهم من الندم ، فإن صح ذلك فهو إذن من السقوط .

(181/288)

وفي " العباب " : هذا نظم لم يسمع به قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ، والأصل فيه نزول الشيء من أعلى إلى أسفل ، ووقوعه على الأرض ، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام سقط ، لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه ، فيسقط ، وذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب ، وأثره يظهر في اليد ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ ﴾ ، ولأن اليد هي الجارحة العظمى فربما يسند إليها ما لم تباشره ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ . انتهى .

وعليه ، فيكون سُقط من السقاط ، وهو كثرة الخطأ كما قال :

~كيف يرجون سِقَاطِي بَعْدَ ما لَفَعَ الرأسَ بياضٌ وَصَلَعْ

وقيل : من عادة النادم أن يطأطئ رأسه ، يضعه على يده ، معتمداً عليه وتارة يضعها تحت ذقنه ، وشطر من وجهه على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه ، فكانت اليد مسقوطاً فيها ، لتمكن السقوط فيها .

ويكون قوله : ﴿ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى سقط على أيديهم ، كقوله : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ ، أي : عليها ، و سُقط عده بعضهم من الأفعال التي لا تتصرف ، كنعم وبئس . وقرئ رباعي مجهول ، وهي لغة نقلها الفراء والزجاج ، كما قدمنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 188.189 ﴾

(182/288)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

انْتَهَى بِالْآيَةِ قَبْلَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فَصْلٌ مِنْ فُصُولِ قِصَّةِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَهَاتَانِ الْآيَتَانِ اسْتِئْنَافٌ مُرَتَّبٌ عَلَى جُمْلَةِ مَا تَقَدَّمَهُ مِنْهَا ، بَيَّنَ اللهُ فِيهِ بِخَاتَمِ رُسُلِهِ فِي الْأُولَى

مِنْهُمَا سُنَنَهُ فِي ضَلَالِ الْبَشَرِ بَعْدَ مَجِيءِ الْبَيِّنَاتِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ قَوْمُ فِرْعَوْنَ مِنَ الْغَابِرِينَ دُخُولًا أَوَّلِيًّا ، وَيَنْطَبِقُ عَلَى رُؤَسَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ الْمُعَانِدِينَ لَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْحَاضِرِينَ ، وَبَيَّنَ فِي الثَّانِيَةِ جَزَاءَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، قَالَ :

(183/288)

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ هَذَا بَيَانٌ لِسُنَّتِهِ تَعَالَى فِي تَكْذِيبِ الْبَشَرِ لِدُعَاةِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ مِنَ الرُّسُلِ وَوَرَثَتِهِمْ ، وَسَبَبُهُ الْأَوَّلُ الْكِبْرُ ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْكِبْرِ أَنْ يَصْرِفَ أَهْلَهُ عَنِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى لِأَجْلِ اتِّبَاعِهِ ، فَهُمْ يَكُونُونَ دَائِمًا مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ الْغَافِلِينَ عَنْهَا ، وَتِلْكَ حَالُ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالزُّعَمَاءِ الضَّالِّينَ كَفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، وَإِنَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ السُّنَّةُ عَامَّةً مِنْ أَخْلَاقِ الْبَشَرِ بِصِيغَةِ الْمُسْتَقْبَلِ ؛ لِإِعْلَامِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِأَنَّ الطَّاغِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ مَشْيَخَةِ قَوْمِهِ لَنْ يَنْظُرُوا فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ بَيَّنَّاهَا مِرَارًا ، وَالدَّالَّةُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ – تَعَالَى – بِمَا أَقَامَتْهُ عَلَيْهَا الْبَرَاهِينُ الْكَثِيرَةُ ، وَلَا فِي غَيْرِهَا مِمَّا أَيَّدَهُ وَيُؤَيِّدُهُ بِهِ مِنْ آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ ، لِتَكَبُّرِهِمْ فِي الْأَرْضِ بِالْبَاطِلِ ، فَوُجْهَةُ نَظَرِهِمْ تَنْحَصِرُ فِي تَفْضِيلِ أَنْفُسِهِمْ عَلَيْهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- بِأَنَّهُمْ سَادَةُ قُرَيْشٍ وَكُبَرَاؤُهَا وَأَغْنِيَاؤُهَا وَأَقْوِيَاؤُهَا ، فَلَا يَلِيقُ بِهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوا مَنْ هُوَ دُونَهُمْ سِنًّا وَقُوَّةً وَثَرْوَةً وَعَصَبِيَّةً ، وَالْمَعْنَى : سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

(184/288)

مِنْ قَوْمِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ ، وَمِنْ غَيْرِهِمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، كَمَا صَرَفْتُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ عَنْ آيَاتِي

الَّتِي آتَيْتُهَا رَسُولِي

مُوسَى - وَالتَّكَبُّرُ صِيغَةُ تَكَلُّفٍ أَوْ تَكَثُّرٍ مِنَ الْكِبْرِ الَّذِي هُوَ غَمْطُ الْحَقِّ بِعَدَمِ الْخُضُوعِ لَهُ وَاحْتِقَارُ النَّاسِ ، فَهُوَ شَأْنُ مَنْ يَرَى أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَخْضَعَ لِحَقٍّ ، أَوْ يُسَاوِيَ نَفْسَهُ بِشَخْصٍ ، وَالْأَصْلُ الْغَالِبُ فِي التَّكَبُّرِ أَنْ يَكُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقَدْ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَتَكَلَّفَ الْإِنْسَانُ إِعْلَاءَ نَفْسِهِ عَلَى غَيْرِهِ أَوْ إِكْثَارَهُ مِنَ الِاسْتِعْلَاءِ عَلَيْهِ بِحَقٍّ كَالتَّرَفُّعِ عَنِ الْمُبْطِلِينَ ، وَإِهَانَةِ الْجَبَّارِينَ ، وَاحْتِقَارِ الْمُحَارِبِينَ ، فَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : بِغَيْرِ الْحَقِّ يَكُونُ عَلَى هَذَا صِلَةً لِلتَّكَبُّرِ ، وَهُوَ قَيْدٌ لَهُ ، وَإِلَّا كَانَ بَيَانًا لِلْوَاقِعِ ، أَوِ الْمَعْنَى : أَنَّهُ يَتَكَبَّرُونَ حَالَةَ كَوْنِهِمْ مُتَلَبِّسِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَيْ مُنْغَمِسِينَ فِي الْبَاطِلِ ، فَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ لَا قِيمَةَ لِلْحَقِّ فِي نَفْسِهِ عِنْدَهُمْ ، فَهُمْ لَا يَطْلُبُونَهُ وَلَا

يَبْحَثُونَ عَنْهُ ، وَقَدْ تَظْهَرُ لَهُمْ آيَاتُهُ وَيَجْحَدُونَهَا وَهُمْ بِهَا مُوقِنُونَ ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى - فِي آلِ فِرْعَوْنَ : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (27 : 14) وَقَالَ فِي طُغَاةِ قُرَيْشٍ : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (6 : 33) .

(185/288)

وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا هَذَا إمَّا عَطْفٌ عَلَى الْجُمْلَةِ (سَأَصْرِفُ) أَيْ : سَأَصْرِفُهُمْ عَنْ آيَاتِي الْمُنَزَّلَةِ وَالْكَوْنِيَّةِ فَيَنْصَرِفُونَ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا - وَإِمَّا عَطْفٌ عَلَى (يَتَكَبَّرُونَ) فَيَكُونُ هُوَ وَمَا بَعْدَهُ بَيَانًا لِصِفَاتِ الْمُتَكَبِّرِينَ وَأَحْوَالِهِمْ ، وَأَوَّلُهَا : أَنَّهُمْ إنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْحَقِّ وَتُثْبِتُ وُجُودَهُ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْآيَاتِ بِتَعَدُّدِ أَنْوَاعِهَا وَأَفْرَادِهَا إنَّمَا تُفِيدُ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلْحَقِّ ، وَلَكِنَّهُ جَاهِلٌ أَوْ شَاكٌّ أَوْ سَيِّءُ الْفَهْمِ ، فَإِذَا خَفِيَتْ عَلَيْهِ دَلَالَةُ بَعْضِهَا فَقَدْ تَظْهَرُ لَهُ دَلَالَةُ غَيْرِهِ ، وَفِي هَذَا إعْلَامٌ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّ الَّذِينَ يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْمِهِ إنَّمَا يَقْصِدُونَ التَّعْجِيزَ ، لَا اسْتِبَانَةَ الْحَقِّ بِالدَّلِيلِ ، فَهُمْ إنْ أُجِيبُوا إلَى طَلَبِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلِهَذَا نَظَائِرُ تَقَدَّمَ بَعْضُهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ مُفَصَّلًا تَفْصِيلًا .

(186/288)

وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا الرُّشْدُ : الصَّلَاحُ وَالِاسْتِقَامَةُ ، وَضِدُّهُ الْغَيُّ ؛ وَهُوَ الْفَسَادُ ، وَفِيهِ ثَلَاثَةُ لُغَاتٍ : ضَمُّ أَوَّلِهِ وَسُكُونُ ثَانِيهِ ، وَبِهِ قَرَأَ الْجُمْهُورُ هُنَا - وَفَتْحُهُمَا ؛ وَبِهَا قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ - وَالرَّشَادُ ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِ - غَافِرٍ - حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (40 : 29) وَمِثْلُهَا السُّقْمُ وَالسَّقَمُ وَالسِّقَامُ - الْمَعْنَى : أَنَّ مِنْ صِفَةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَرَنُوا عَلَى الضَّلَالِ

وَاسْتَمْرَءُوا مَرْعَى الْغَيِّ وَالْفَسَادِ ، أَنْ يَنْفِرُوا مِنَ الْهُدَى وَالرَّشَادِ ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُهُمْ سَبِيلَهُ وَاضِحَةً جَلِيَّةً لَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ ، جَعَلَهَا سَبِيلًا لَهُ بِإِيثَارِهَا وَتَفْضِيلِهَا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَصِلُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الْغَيِّ ؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْلُكُ الْغَيَّ عَلَى جَهْلٍ ، فَإِذَا عَلِمَ بِمَا تَنْتَهِي بِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْفَسَادِ وَرَأَى لِنَفْسِهِ مَخْرَجًا مِنْهَا ، تَرَكَهَا وَاخْتَارَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عَلَيْهَا

.

وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَهَذِهِ الْحَالَةُ شَرٌّ مِمَّا قَبْلَهَا فَإِنَّ هَذِهِ إِيجَابِيَّةٌ وَتِلْكَ

سِلْبِيَّةٌ ، وَبَيْنَهُمَا حَالٌ أُخْرَى وَهِيَ حَالُ مَنْ لَيْسَ فِيهِ مِنْ نُورِ الْبَصِيرَةِ وَزَكَاءِ النَّفْسِ مَا يَحْمِلُهُ عَلَى سُلُوكِ الرُّشْدِ إِذَا رَآهُ لِضَعْفِ هِمَّتِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَكْرَهُ الْغَيَّ وَالْفَسَادَ وَإِذَا لَمْ يَصِلْ مِنِ اعْتِلَالِ الْفِطْرَةِ وَظُلْمَةِ الْبَصِيرَةِ إِلَى تَفْضِيلِهِ عَلَى الرُّشْدِ ، وَإِيثَارِ سَبِيلِهِ وَاخْتِيَارِهَا لِنَفْسِهِ إِذَا رَآهَا ، بِحَيْثُ لَا يَصْرِفُهُ عَنِ الْفَسَادِ إِلَّا جَهْلُ سَبِيلِهِ أَوِ الْعَجْزُ عَنْ سُلُوكِهَا .

فَمَنِ اجْتَمَعَتْ لَهُ هَذِهِ الْأَحْوَالُ أَوِ الصِّفَاتُ ، فَهُوَ الَّذِي أَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، فَلَمْ تَبْقَ لَهُ سَبِيلٌ مِنْ أَسْبَابِ الْحَقِّ وَالرُّشْدِ يَسْلُكُهَا ، وَقَدْ عَلَّلَ ذَلِكَ سُبْحَانَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ :

(188/288)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ يَعْنِي أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - لَمْ يَخْلُقْهُمْ مَطْبُوعِينَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَ طَبْعًا ، وَلَمْ يَجْبُرْهُمْ وَيُكْرِهْهُمْ عَلَيْهِ إِكْرَاهًا ، بَلْ كَانَ ذَلِكَ بِكَسْبِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمْ لِلتَّكْذِيبِ بِآيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى الْحَقِّ ، وَالصُّدُودِ عَنْ سَبِيلِهِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى الرُّشْدِ ، وَكَانُوا غَافِلِينَ عَنْهَا دُونَ أَهْوَائِهِمْ لَا يُعْطُونَهَا حَقَّهَا مِنَ النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ وَالتَّفْكِيرِ وَالتَّدَبُّرِ ، لِاشْتِغَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ بِأَهْوَائِهِمْ وَعُصْبَتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِآبَائِهِمْ ، وَبِذَلِكَ قَطَعُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ طَرِيقَ الْهُدَى ، فَالْغَفْلَةُ هُنَا : هِيَ الْغَفْلَةُ الْمَطْبُوعَةُ الْمَانِعَةُ مِنْ أَسْبَابِ الْعِلْمِ وَالْفِطْنَةِ ، لَا أَيُّ

نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْغَفْلَةِ ، بَلْ هِيَ الْمُبَيَّنَةُ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – مِنْ أَوَاخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

(189/288)

الضَّالُّونَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْغَافِلِينَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ – تَعَالَى – ، وَمَا تَهْدِي إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَى الْبَاقِيَةِ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُ اللَّهُ – تَعَالَى – فِي وَصْفِهِمْ : أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (14 : 3) وَيَقُولُ : قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (4 : 167) إِذْ كَانَ لَهُمْ مِنَ الِانْهِمَاكِ فِيمَا هُمْ فِيهِ وَالْغُرُورِ بِهِ ، وَاحْتِقَارِهِمْ مَا سِوَاهُ مَا يَصُدُّهُمْ عَنْ تَوْجِيهِ عُقُولِهِمْ إِلَى غَيْرِهِ ،

وَمِنْهُمْ مُتَفَرْنِجَةُ الْمُسْلِمِينَ الْجُغْرَافِيِّينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، يَحْتَقِرُونَ هِدَايَةَ الدِّينِ الرُّوحِيَّةِ ، وَلَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ الْعَظِيمِ فِي تَهْذِيبِ النَّفْسِ ، وَحَمْلِهَا عَلَى الْخَيْرِ ، وَصَدِّهَا عَنِ الشُّرُورِ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَإِنَّمَا غَرَّهُمْ وَأَضَلَّهُمْ أَنَّهُمْ فِي عَصْرٍ وَصَلَ فِيهِ الْغَرْبِيُّونَ إِلَى غَايَةٍ بَعِيدَةٍ مِنَ الْفُنُونِ وَالصِّنَاعَاتِ ، كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَنْ عَاشَ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُمْ عَبْدًا لِشَهَوَاتِهِ ، وَمُقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ الْأَفْضَلُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّبِعُوا مُوسَى – عَلَيْهِ

السَّلَامُ – ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَقُوَّتِهَا وَصِنَاعَاتِهَا وَفُنُونِهَا مَا كَانَ عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (59 : 2) .

(190/288)

ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى – : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟ الْآيَاتِ ، فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ بِمَعْنَى الدَّلَائِلِ وَالْبَيِّنَاتِ مِنْ بَرَاهِينَ عَقْلِيَّةٍ نَظَرِيَّةٍ كَانَتْ أَوْ عِلْمِيَّةً أَوْ كَوْنِيَّةً ، كَآيَاتِهِ تَعَالَى فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ ، وَمِنْهَا مُعْجِزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَأَظْهَرُهَا وَأَقْوَاهَا ؛ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، مِنْ حَيْثُ هُوَ دَالٌّ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا ، وَأَمَّا الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادَرُ أَنَّهَا الْآيَاتُ الْمُنَزَّلَةُ مِنْ حَيْثُ اشْتِمَالِهَا عَلَى الْهِدَايَةِ وَالْإِصْلَاحِ بِتَزْكِيَةِ الْأَنْفُسِ مِنْ خُرَافَاتِ الشِّرْكِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ وَمُنْكَرَاتِ الْأَعْمَالِ ، وَاللِّقَاءُ مَصْدَرُ لَقِيَ الشَّيْءَ أَوِ الشَّخْصَ ، وَلَاقَاهُ كَالْمُلَاقَاةِ إذَا صَادَفَهُ أَوْ قَابَلَهُ أَوِ انْتَهَى إلَيْهِ ، يُقَالُ : لَقِيَ زَيْدًا وَلَاقَاهُ وَلَقِيَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (18 : 62) وَمَنْ يُلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ، وَلَقِيَ جَزَاءَهُ ، قَالَ الرَّاغِبُ : وَمُلَاقَاةُ اللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عِبَارَةٌ عَنِ الْقِيَامَةِ

وَعَنِ الْمَصِيرِ إِلَيْهِ قَالَ : وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ (2 : 223) قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ (2 : 249) .

(191/288)

وَالْمَعْنَى : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْمُنَزَّلَةِ بِالْحَقِّ وَالْهُدَى عَلَى رُسُلِنَا فَلَمْ يُؤْمِنُوا لَهُمْ وَلَا اهْتَدَوْا بِهَا ، وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ – عَلَى الْخَيْرِ بِالثَّوَابِ ، وَعَلَى الشَّرِّ بِالْعِقَابِ – فَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، لَا يُجْزَوْنَ هُنَالِكَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ أَعْمَالِهِمُ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ مَعًا أَوِ النَّفْسِيَّةِ فَقَطْ (كَتَرْكِ الْوَاجِبَاتِ) فِي أَرْوَاحِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ مِنْ حَقٍّ وَخَيْرٍ زَكَّاهَا وَأَصْلَحَهَا ، أَوْ مِنْ بَاطِلٍ وَشَرٍّ دَسَّاهَا وَأَفْسَدَهَا – إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ فِي الْجَزَاءِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنَّمَا مَضَتْ سُنَّتُهُ بِجَعْلِ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ أَثَرًا لِلْعَمَلِ مُرَتَّبًا عَلَيْهِ تَرَتُّبَ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ ، كَأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ ، وَقَدْ شَرَحْنَا هَذَا الْمَعْنَى مِرَارًا " تُرَاجَعْ كَلِمَةُ جَزَاءٍ فِي فَهَارِسِ التَّفْسِيرِ " .

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ

يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

(قِصَّةُ اتِّخَاذِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْعِجْلِ)

(192/288)

فِي أَثْنَاءِ مُنَاجَاةِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِرَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي جَبَلِ الطُّورِ ، اتَّخَذَ قَوْمُهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِجْلًا مَصُوغًا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَعَبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ - تَعَالَى - ، لَمَّا كَانَ رُسِخَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ فَخَامَةِ مَظَاهِرِ الْوَثَنِيَّةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ فِي مِصْرَ ، ذُكِرَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ هُنَا مَعْطُوفَةً عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنْ خَبَرِ الْمُنَاجَاةِ وَأَلْوَاحِ الشَّرِيعَةِ لِمَا بَيْنَ السِّيَاقَيْنِ مِنَ الْعَلَاقَةِ وَالِاشْتِرَاكِ فِي الزَّمَنِ ، وَقَالَ - تَعَالَى - : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ الْحُلِيُّ بِالضَّمِّ وَالتَّشْدِيدِ جَمْعُ حَلْيٍ بِالْفَتْحِ وَالتَّخْفِيفِ فَهُوَ كَثُدِيٍّ جَمْعًا لِثَدْيٍ ، وَهَذَا الْحُلِيُّ اسْتَعَارَهُ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ نِسَاءِ الْمِصْرِيِّينَ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ فَمَلَكُوهُ بِإِذْنِ اللَّهِ - تَعَالَى - ، وَالْعِجْلُ وَلَدُ الْبَقَرَةِ سَوَاءٌ كَانَتْ مِنَ الْعِرَابِ أَوِ الْجَوَامِيسِ ، فَهُوَ كَالْحُوَارِ لِوَلَدِ النَّاقَةِ ، وَالْمُهْرِ لِوَلَدِ الْفَرَسِ ، وَالْحَمَلِ لِوَلَدِ الشَّاةِ ، وَالْجَدْيِ لِوَلَدِ الْعَنْزِ ، إِلَخْ ، وَالْجَسَدُ الْجُثَّةُ وَبَدَنُ الْإِنْسَانِ حَقِيقَةً ، وَيُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ مَجَازًا ، وَالْأَحْمَرُ كَالذَّهَبِ وَالزَّعْفَرَانِ وَالدَّمِ الْجَافِّ ، قَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ : الْجَسَدُ جِسْمُ

الْإِنْسَانِ ، وَلَا يُقَالُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَجْسَامِ الْمُتَغَذِّيَةِ ، وَلَا يُقَالُ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ جَسَدٌ مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ ، وَالْجَسَدُ : الْبَدَنُ ، نَقُولُ مِنْهُ تَجَسَّدَ كَمَا تَقُولُ مِنَ الْجِسْمِ تَجَسَّمَ .

(193/288)

ابْنُ سِيدَهْ : وَقَدْ يُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ جَسَدٌ . غَيْرُهُ : وَكُلُّ خَلْقٍ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ مِمَّا يَعْقِلُ فَهُوَ جَسَدٌ . وَكَانَ عِجْلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَسَدًا يَصِيحُ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، وَكَذَا طَبِيعَةُ الْجِنِّ ، قَالَ – عَزَّ وَجَلَّ – : فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ (20 : 88) " جَسَدًا " بَدَلٌ مِنْ عِجْلٍ ؛ لِأَنَّ الْعِجْلَ هُنَا هُوَ الْجَسَدُ ، وَإِنْ شِئْتَ حَمَلْتَهُ عَلَى الْحَذْفِ ؛ أَيْ : ذَا جَسَدٍ ، وَقَوْلُهُ : لَهُ خُوَارٌ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْهَاءُ رَاجِعَةً إِلَى الْعِجْلِ ، وَأَنْ

(194/288)

تَكُونَ رَاجِعَةً إِلَى الْجَسَدِ ، وَجَمْعُهُ أَجْسَادٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ : عِجْلًا جَسَدًا قَالَ : أَحْمَرُ مِنْ ذَهَبٍ ، وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : الْجَسَدُ هُوَ الَّذِي لَا يَعْقِلُ وَلَا يُمَيِّزُ إِنَّمَا مَعْنَى الْجَسَدِ مَعْنَى الْجُثَّةِ فَقَطْ ، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ : وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ

(21 : 8) قَالَ : جَسَدٌ وَاحِدٌ يَعْنِي عَلَى جَمَاعَةٍ ، قَالَ وَمَعْنَاهُ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ ذَوِي أَجْسَادٍ إِلَّا لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ (25 : 7) فَأُعْلِمُوا أَنَّ الرُّسُلَ أَجْمَعِينَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَأَنَّهُمْ يَمُوتُونَ ، الْمُبَرِّدُ وَثَعْلَبٌ : الْعَرَبُ إِذَا جَاءَتْ بَيْنَ كَلَامَيْنِ بِجَحْدَيْنِ كَانَ الْكَلَامُ إِخْبَارًا ، (قَالَا) وَمَعْنَى الْآيَةِ : إِنَّمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لِيَأْكُلُوا ، (قَالَا) وَمِثْلُهُ فِي الْكَلَامِ : مَا سَمِعْتُ مِنْكَ ، وَمَا أَقْبَلُ مِنْكَ مَعْنَاهُ إِنَّمَا سَمِعْتُ مِنْكَ لَا أَقْبَلُ مِنْكَ (قَالَا) : وَإِنْ كَانَ الْجَحْدُ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ كَانَ الْكَلَامُ مَجْحُودًا جَحْدًا حَقِيقِيًّا (قَالَا) وَهُوَ كَقَوْلِكَ : مَا زَيْدٌ بِخَارِجٍ ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : جَعَلَ اللَّيْثُ قَوْلَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ كَالْمَلَائِكَةِ ، (قَالَ) وَهُوَ غَلَطٌ ، وَمَعْنَاهُ الْإِخْبَارُ ، كَمَا قَالَ النَّحْوِيُّونَ : أَيْ جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ (قَالَ) : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَوِي الْأَجْسَادِ

(195/288)

يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ رُوحَانِيُّونَ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ، وَلَيْسُوا جَسَدًا فَإِنَّ ذَوِي الْأَجْسَادِ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ . انْتَهَى ، وَقَوْلُهُمْ : مَعْنَاهُ الْإِخْبَارُ ؛ أَيِ : الْإِثْبَاتُ .

وَالْخُوَارُ : صَوْتُ الْبَقَرِ ، وَهُوَ بِضَمِّ أَوَّلِهِ كَأَمْثَالِهِ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَصْوَاتِ : رُغَاءُ الْإِبِلِ ، وَثُغَاءُ الْغَنَمِ ، وَيُعَارُ الْمَعْزِ ، وَمُوَاءُ الْهِرِّ ، وَنُبَاحُ الْكَلْبِ . . إِلَخْ .

وَعُلِمَ مِنَ الْقِصَّةِ مِنْ سُورَةِ طه أَنَّ السَّامِرِيَّ هُوَ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُمْ مَا حَمَلُوهُ مِنْ أَوْزَارِ زِينَةِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ فَأَلْقَاهَا فِي النَّارِ فَصَاغَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا ؛ أَيْ : تِمْثَالًا لَهُ صُورَةُ الْعِجْلِ وَبَدَنُهُ وَصَوْتُهُ ، وَإِنَّمَا نُسِبَ ذَلِكَ هُنَا إِلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّهُ عَمِلَ رَأْيُ جُمْهُورِهِمُ الَّذِينَ طَلَبُوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ الْعِجْلِ هَلْ صَارَ لَحْمًا وَدَمًا لَهُ خُوَارٌ أَوِ اسْتَمَرَّ عَلَى كَوْنِهِ مَنْ ذَهَبٍ إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْهَوَاءُ فَيُصَوِّتُ كَالْبَقَرِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ اهـ .

(196/288)

رُوِيَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ عَنْ قَتَادَةَ ، وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّهُ خَارَ خَوْرَةً وَاحِدَةً ، وَلَمْ يُثَنِّ ، فَمَنْ قَالَ : إِنَّهُ حَلَّتْ فِيهِ الْحَيَاةُ ؛ عَلَّلُوهُ بِأَنَّ السَّامِرِيَّ رَأَى جِبْرِيلَ حِينَ جَاوَزَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ، وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ نُزُولِهِ عَلَى مُوسَى (- عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -) رَاكِبًا فَرَسًا مَا وَطِئَ بِهَا أَرْضًا إِلَّا حَلَّتْ فِيهَا الْحَيَاةُ وَاخْضَرَّ النَّبَاتُ ، فَأَخَذَ مِنْ أَثَرِهَا قَبْضَةً فَنَبَذَهَا فِي جَوْفِ

تِمْثَالِ الْعِجْلِ فَصَارَ حَيًّا لَهُ خُوَارٌ ، وَفَسَّرُوا بِهَذَا مَا حَكَاهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَنْهُ فِي سُورَةِ طه وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِهَا ، وَلَكِنْ قَالَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ : إِنَّ خُوَارَهُ كَانَ بِتَأْثِيرِ دُخُولِ الرِّيحِ فِي

جَوْفِهِ وَخُرُوجِهَا مِنْ فِيهِ ، كَقَوْلِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَيًّا ، وَالرِّوَايَاتُ فِي حَيَاتِهِ لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَلِذَلِكَ وَقَفَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فَلَمْ يُرَجِّحْ أَحَدَ الْقَوْلَيْنِ عَلَى الْآخَرِ ، وَفِي تَفْسِيرِ الْقِصَّةِ مِنْ سُورَةِ طَه رِوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ خُرَافَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، فِيهَا ضَرْبٌ مِنَ الْكَذِبِ وَالضَّلَالَاتِ ، وَسَنَعُودُ إِلَيْهَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ طَه إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَقَدَّرَ لَنَا الْحَيَاةَ .

(197/288)

قَالَ – تَعَالَى – فِي بَيَانِ ضَلَالَتِهِمْ وَتَقْرِيعِهِمْ عَلَى جَهَالَتِهِمْ : أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ؟ أَيْ : أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ فَاقِدٌ لِمَا يُعْرَفُ بِهِ الْإِلَهُ الْحَقُّ ، وَخَاصَّةً مَا لَهُ مِنْ حَقِّ الْعِبَادَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِمَا يُكَلِّمُ بِهِ مَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ لِرِسَالَتِهِ ، وَيُعَلِّمُهُ مَا يَجِبُ أَنْ يَعْرِفُوهُ مِنْ صِفَاتِهِ وَسَبِيلِ عِبَادَتِهِ كَمَا يُكَلِّمُ رَبُّ الْعَالَمِينَ رَسُولَهُ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَيَهْدِيهِ سَبِيلَ الشَّرِيعَةِ الَّتِي تَتَزَكَّى بِهَا أَنْفُسُهُمْ ، وَتَقُومُ بِهَا مَصَالِحُهُمْ ، فَعُلِمَ بِهَذَا أَنَّ مِنْ شَأْنِ الرَّبِّ الْإِلَهِ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا ، وَأَنْ يُكَلِّمَ عِبَادَهُ ، وَيَهْدِيَهُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ بِاخْتِصَاصِهِ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ وَإِعْدَادِهِ لِسَمَاعِ كَلَامِهِ ، وَتَلَقِّي وَحْيِهِ ، وَتَبْلِيغِ أَحْكَامِهِ ، وَفِي سُورَةِ طَه : أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (20 : 89)

فَالْمُرَادُ بِالْقَوْلِ : هِدَايَةُ الْوَحْيِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ الْإِلَهِ هِدَايَةُ الْإِرْشَادِ

الَّتِي مَرْجِعُهَا صِفَةُ الْكَلَامِ ، وَلَا الضَّرُّ وَالنَّفْعُ اللَّذَيْنِ هُمَا مُتَعَلِّقُ صِفَتَيِ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ ، ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - :

(198/288)

اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ أَيِ : اتَّخَذُوهُ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ ، وَلَا يَهْدِيهِمْ لِمَا فِيهِ رَشَادُهُمْ ، وَلَا يَمْلِكُ دَفْعَ الضُّرِّ عَنْهُمْ ، وَلَا إِسْدَاءَ النَّفْعِ إِلَيْهِمْ ؛ أَيْ : إِنَّهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوهُ عَنْ دَلِيلٍ وَلَا شِبْهِ دَلِيلٍ ، بَلْ عَنْ تَقْلِيدٍ لِمَا رَأَوْا عَلَيْهِ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ " أَبِيسَ " مِنْ قَبْلُ ، وَلِمَا رَأَوْهُ مِنَ الْعَاكِفِينَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ مِنْ بَعْدُ ، وَكَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِهَذَا الِاتِّخَاذِ الْجَهْلِيِّ الَّذِي يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ بِشَيْءٍ .

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ يُقَالُ : سُقِطَ فِي يَدِهِ ، وَأُسْقِطَ فِي يَدِهِ - بِضَمِّ أَوَّلِهِمَا عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ - وَكَذَا بِفَتْحِ أَوَّلِ الثُّلَاثِيِّ عَلَى قِلَّةٍ فِي اللُّغَةِ ،

(199/288)

وَشُذُوذٍ فِي الْقِرَاءَةِ - أَيْ : نَدِمَ ، وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ مَسْقُوطٌ فِي يَدِهِ ، وَسَاقِطٌ فِي يَدِهِ أَيْ : نَادِمٌ - كَمَا فِي الْأَسَاسِ - وَلَكِنَّهُ فَسَّرَهُ فِي الْكَشَّافِ بِشِدَّةِ النَّدَمِ وَالْحَسْرَةِ ، وَجَعَلَهُ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ ، وَفِي اللِّسَانِ : وَسُقِطَ فِي يَدِ الرَّجُلِ : زَلَّ وَأَخْطَأَ ، وَقِيلَ : نَدِمَ ، قَالَ الزَّجَّاجُ : يُقَالُ لِلرَّجُلِ النَّادِمِ عَلَى مَا فَعَلَ الْحَسِرِ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ : قَدْ سُقِطَ فِي يَدِهِ وَأُسْقِطَ وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ قَالَ الْفَارِسِيُّ : ضَرَبُوا بِأَكُفِّهِمْ عَلَى أَكُفِّهِمْ مِنَ النَّدَمِ ، فَإِنْ صَحَّ ذَلِكَ فَهُوَ إِذًا مِنَ السُّقُوطِ ، وَقَدْ قُرِئَ " سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ " كَأَنَّهُ أَضْمَرَ النَّدَمَ ؛ أَيْ : سَقَطَ النَّدَمُ فِي أَيْدِيهِمْ ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَحْصُلُ عَلَى شَيْءٍ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا لَا يَكُونُ فِي الْيَدِ : قَدْ حَصَلَ فِي يَدِهِ مِنْ هَذَا مَكْرُوهٌ ، فَشَبَّهَ مَا يَصِلُ فِي الْقَلْبِ وَفِي النَّفْسِ بِمَا يَحْصُلُ فِي الْيَدِ ، وَيُرَى بِالْعَيْنِ ا هـ . زَادَ الْوَاحِدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : وَخُصَّتِ الْيَدُ ؛ لِأَنَّ مُبَاشَرَةَ الْأُمُورِ بِهَا كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ (22 : 10) أَوْ لِأَنَّ النَّدَمَ يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ حُصُولِهِ فِي الْقَلْبِ فِي الْيَدِ بَعَضِّهَا ، وَالضَّرْبِ بِهَا عَلَى أُخْتِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي النَّادِمِ : فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ (18 : 42) ، وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (25 : 27) وَفِي تَاجِ الْعَرُوسِ ، وَفِي الْعُبَابِ : هَذَا نَظْمٌ لَمْ يُسْمَعْ قَبْلَ الْقُرْآنِ ، وَلَا عَرَفَتْهُ

(200/288)

الْعَرَبُ ، وَالْأَصْلُ فِيهِ نُزُولُ الشَّيْءِ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلَ ، وَوُقُوعُهُ عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ اتَّسَعَ فِيهِ فَقِيلَ لِلْخَطَأِ مِنَ الْكَلَامِ سَقْطٌ ؛ لِأَنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِمَا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فَيَسْقُطُ ، وَذَكَرَ الْيَدَ ؛ لِأَنَّ النَّدَمَ يَحْدُثُ فِي الْقَلْبِ ، وَأَثَرُهُ يَظْهَرُ فِي الْيَدِ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَلِأَنَّ الْيَدَ هِيَ الْجَارِحَةُ الْعُظْمَى ، فَرُبَّمَا يُسْنَدُ إِلَيْهَا مَا لَمْ تُبَاشِرْهُ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ اهـ .

وَالْمَعْنَى : أَنَّهُمْ لَمَّا اشْتَدَّ نَدَمُهُمْ وَحَسْرَتُهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوهُ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا أَيْ : وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ ، أَوْ تَبَيَّنَ لَهُمْ ضَلَالُهُمْ بِهِ ، وَتَحَقَّقَ بِمَا قَالَهُ وَفَعَلَهُ مُوسَى حَتَّى كَأَنَّهُمْ رَأَوْهُ رَأْيَ الْعَيْنِ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا أَيْ : أَقْسَمُوا إِنَّهُ لَا يَسَعُهُمْ بَعْدَ هَذَا الذَّنْبِ إِلَّا رَحْمَةُ رَبِّهِمُ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، قَائِلِينَ : لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا بِقَبُولِ تَوْبَتِنَا وَالتَّجَاوُزِ عَنْ جَرِيمَتِنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا ؛ وَهِيَ الْحُرِّيَّةُ وَالِاسْتِقْلَالُ فِي أَرْضِ الْمَوْعِدِ ، وَلِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ ؛ وَهِيَ دَارُ الْكَرَامَةِ وَالرِّضْوَانِ .

(201/288)

وَقَدْ بَحَثَ بَعْضُ الْغَوَّاصِينَ عَلَى نُكَتِ الْبَلَاغَةِ فِي تَقْدِيمِ النَّدَمِ فِي الذِّكْرِ عَلَى تَبَيُّنِ الضَّلَالَةِ ، مَعَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ فِي الْعَادَةِ أَنْ يَنْدَمَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، فَقَالَ الْقُطْبُ الشِّيرَازِيُّ مَا

مَعْنَاهُ مُوَضِّحًا : إنَّ الِانْتِقَالَ مِنَ الْجَزْمِ بِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ أَوِ الْأَمْرَ حَقٌّ إلَى اسْتِبَانَةِ الْجَزْمِ بِضِدِّهِ أَوْ نَقِيضِهِ لَا يَكُونُ دُفْعَةً وَاحِدَةً فِي الْأَغْلَبِ ، بَلِ الْأَغْلَبُ أَنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنَ الْجَزْمِ بِصِحَّتِهِ أَوْ حَقِيقَتِهِ إلَى الشَّكِّ فِيهَا ثُمَّ إلَى الظَّنِّ بِالضِّدِّ أَوِ النَّقِيضِ ، ثُمَّ إلَى الْجَزْمِ بِهِ ، ثُمَّ إلَى تَبَيُّنِهِ وَالْيَقِينِ فِيهِ الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالرُّؤْيَةِ ، وَالْقَوْمُ كَانُوا جَازِمِينَ بِأَنَّ مَا فَعَلُوهُ صَوَابٌ ، وَالنَّدَمُ عَلَيْهِ رُبَّمَا وَقَعَ لَهُمْ حَالَ الشَّكِّ فِيهِ ، فَيَكُونُ تَبَيُّنُ الضَّلَالِ مُتَأَخِّرًا عَنِ النَّدَمِ ا هـ .

(202/288)

وَأَقُولُ : جَاءَ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ الْمُفَصَّلِ مِنْ سُورَةِ طَه أَنَّهُ لَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ هَارُونُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عِبَادَةَ الْعِجْلِ ، وَذَكَّرَهُمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ الدَّالِّ عَلَى وُجُوبِ تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ لِلرَّبِّ وَحْدَهُ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إلَيْنَا مُوسَى (20 : 91) فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى وَأَنَّبَ هَارُونَ (قَالَ) فِيمَا قَالَهُ لَهُ : يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (20 : 92 ، 93) لَكَ (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) (7 : 142) فَعِنْدَ تَصْرِيحِ مُوسَى بِأَنَّهُمْ ضَلُّوا ، وَرُؤْيَتِهِمْ مَا كَانَ مِنْ غَضَبِهِ وَإِلْقَائِهِ بِالْأَلْوَاحِ حَتَّى تَكَسَّرَتْ ، وَأَخْذِهِ بِرَأْسِ أَخِيهِ هَارُونَ وَلِحْيَتِهِ وَجَرِّهِ إلَيْهِ نَدِمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا ، فَإِنْ كَانَ

هَذَا النَّدَمُ عَنْ تَقْلِيدٍ وَطَاعَةٍ لِمُوسَى لَا عَنْ عِلْمٍ يَقِينِيٍّ بِأَنَّ عَمَلَهُمْ ضَلَالٌ ، فَالرَّاجِحُ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَدْ حَصَلَ بَعْدَ تَحْرِيقِ مُوسَى لِلْعِجْلِ ، وَنَسْفِهِ فِي الْيَمِّ .

(203/288)

فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوَاعِدِ النَّحْوِ أَنَّ الْعَطْفَ بِالْوَاوِ لَا يَقْتَضِي التَّرْتِيبَ ، فَمِنْ قَوَاعِدِ عِلْمِ الْمَعَانِي أَنَّ مَا لَا يَجِبُ التَّرْتِيبُ فِيهِ بِزَمَانٍ وَلَا رُتْبَةٍ أَنْ يُقَدَّمَ فِي سَرْدِهِ وَفِي نَسَقِهِ الْأَهَمُّ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَقْدِيمُ النَّدَمِ هُنَا لِسَبْقِهِ فِي الزَّمَنِ فَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي اسْتِشْعَارِهِمُ اسْتِحْقَاقَ الْعِقَابِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهُمْ عَلَى نَدَمِهِمْ وَتَوْبَتِهِمُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا مَحْوُ الذَّنْبِ وَتَرْكُ الْعِقَابِ ، وَعَلَى كَوْنِهِمْ صَارُوا عَلَى عِلْمٍ يَقِينِيٍّ بِبُطْلَانِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ، وَوُجُوبِ تَخْصِيصِ الرَّبِّ بِالْعِبَادَةِ – قَالُوا ذَلِكَ الْقَوْلَ الدَّالَّ عَلَى أَنَّ مَجْمُوعَ الْأَمْرَيْنِ لَا يَكْفِي لِاسْتِحْقَاقِ الْمَغْفِرَةِ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ – تَعَالَى – ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْعِلْمَ بِالضَّلَالِ وَحْدَهُ لَا يَقْتَضِي الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ إِلَّا إِذَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ ؛ وَهُوَ التَّوْبَةُ ، وَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ – تَعَالَى – بِالْعَمَلِ ، فَإِنَّ الَّذِينَ ضَلُّوا عَلَى عِلْمٍ وَلَمْ يَتُوبُوا ؛ أَشَدُّ النَّاسِ عِقَابًا – فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ تَقْدِيمَ النَّدَمِ أَهَمُّ مِنَ الْعِلْمِ بِالضَّلَالِ ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ نَرَهُ لِأَحَدٍ ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْهُ وَجْهُ تَقْدِيمِ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ عَلَى ذِكْرِ الْمَغْفِرَةِ وَهُوَ

أَنَّهَا سَبَبُهَا ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ لَا يَكْفِيَانِ لِلْمَغْفِرَةِ بِدُونِهَا ، وَلَا غَرْوَ فَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي

(204/288)

هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : " لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ " قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا " إلَى آخِرِ الْحَدِيثِ

وَفِي مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ " لَا يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ وَلَا يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ ، وَلَا أَنَا إِلَّا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ " وَأَمْثَلُ الْأَجْوِبَةِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْحَدِيثِ وَبَيْنَ الْآيَاتِ الْكَثْرَةُ الصَّرِيحَةُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ بِالْعَمَلِ أَنَّ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَإِنَّ عَمَلَ أَيِّ عَامِلٍ لَا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ لِذَاتِهِ ذَلِكَ النَّعِيمَ الْكَامِلَ الدَّائِمَ ، بَلْ لَا يَفِي عَمَلُ أَحَدٍ بِبَعْضِ نِعَمِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ بِالرَّحْمَةِ وَاقْتِسَامَهَا بِالْأَعْمَالِ فَهُوَ لَا يَدْفَعُ التَّعَارُضَ بَيْنَ الْآيَاتِ وَالْحَدِيثِ فَإِنَّ مِنْهَا ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16 : 32) . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير المنار جـ 9 صـ 169 . 177 ﴾

(205/288)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

كان مقتضى الظاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخر قوله : ﴿ ولما سُقط في أيديهم ﴾ الآية ، عن قوله : ﴿ ولما رَجع موسى إلى قومه غضبانَ أسِفاً ﴾ [الأعراف : 150] لأنهم ما سُقط في أيديهم إلاّ بعد أن رجع موسى ورأوا فَرْط غضبه وسمعوا توبيخه أخاه وإيّاهم ، وإنما خولف مقتضى الترتيب تعجيلاً بذكر ما كان لاتخاذهم العجل من عاقبة الندامة وتبين الضلالة ، موعظة للسامعين لكيلا يعجلوا في التحول عن سنتهم ، حتى يتبينوا عواقب ما هم متحولون إليه .

و﴿ سُقط في أيديهم ﴾ مبني للمجهول ، كلمة أجراها القرآن مجرى المثل إذا أُنظمت على إيجاز بديع وكناية واستعارة ، فإن اليد تستعار للقوة والنصرة إذ بها يُضرب بالسيفِ والرمح ، ولذلك حين يَدْعون على أنفسهم بالسوء يقولون : "شَلّتْ من يديّ الأنامل" ، وهي آلةُ القدرة قال تعالى : ﴿ ذَا الأيد ﴾ [ص : 17] ، ويقال : ما لي بذلك يدٌ ، أوْ ما لي بذلك يَدانِ أي لا أستطيعه ، والمرء إذا حصل له شلل في عضد ولم يستطع تحريكه يحسن أن يقال : سَقط في يده ساقط ، أي نزل به نازل .

ولما كان ذكر فاعل السقوط المجهول لا يزيد على كونه مشتقاً من فعله ، ساغ أن يُبنى فعله للمجهول فمعنى "سُقط في يده" سَقط في يده ساقِط فأبطل حركة يده ، إذ المقصود أن حركة يده تعطلت بسبب غير معلوم ، إلاّ بأنه شيء دخل في يده فصيّرها عاجزة عن العمل وذلك كناية عن كونه قد فجأه ما أوجب حيرته في أمره ، كما يقال : فُتَ في ساعده .

وقد استعمل في الآية في معنى الندم وتبيُّن الخطأ لهم ، فهو تمثيل لحالهم بحال من سُقط في يده حين العمل .

(206/288)

فالمعنى أنهم تبين لهم خطأهم وسوء معاملتهم ربهم ونبيهم ، فالندامة هي معنى التركيب كله ، وأما الكناية فهي في بعض أجزاء المركب وهو سقط في اليد ، قال ابن عطية "وحُدثت عن أبي مروان بن سراج" أنه كان يقول قول العرب : سقط في يده مما أعياني معناه ، وقال الزجاج هو نظم لم يُسمع قبل القرآن ، ولم تعرفه العرب .

قلت وهو القول الفصل ، فإني لم أره في شيء من كلامهم قبل القرآن ، فقول ابن سراج : قول العرب سقط في يده ، لعله يريد العرب الذين بعدَ القرآن .

والمعنى لما رجع موسى إليهم وهددهم وأحرق العجل كما ذكر في سورة طه ، وأوجز هنا

إذ من المعلوم أنهم ما سقط في أيديهم ورأوا أنهم ضلوا بعد تصميمهم وتصلبهم في عبادة العجل وقولهم : ﴿ لن نبرح عليه عاكفين ﴾ [طه : 91] ، إلاّ بسبب حادث حدث ينكشف لهم بسببه ضلالهم ، فطيّ ذلك من قبيل الإيجاز ليبنى عليه أن ضلالهم لم يلبث أن انكشف لهم ، ولذلك قرن بهذا حكاية اتخاذهم العجل للمبادرة ببيان انكشاف ضلالهم تنهية لقصة ضلالهم ، وكأنه قيل : فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ثم قيل ولما سقط أيديهم قالوا .

وقولهم : ﴿ لئن لم يرْحمنْا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ توبة وإنابة ، وقد علموا أنهم أخطأوا خطيئة عظيمة ، ولذلك أكدوا التعليق الشرطي بالقسم الذي وطَأْته اللامُ . وقدموا الرحمة على المغفرة ؛ لأنها سببها .

ومجيء خبر كان مقترناً بحرف (مِن) التبعيضية ؛ لأن ذلك أقوى في إثبات الخسارة من لنكونن خاسرين كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين ﴾ [الأنعام : 55] وقرأه الجمهور ﴿ يرحمنا ربنا ويغفر ﴾ بياء الغيبة في أول الفعلين وبرفع ربُّنا ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب في أول الفعلين ونصب ربّنا على النداء ، أي قالوا ذلك كله لأنهم دعوا ربهم وتداولوا ذلك بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير جـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) ﴾

هذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور . لكن الناس الذين امتلكوا قدراً من البصيرة ، أو بقية إيمان قالوا : هذه الحكاية سخيفة ، وما كان لنا أن نفعلها وندموا على ما كان ، ويقال : سُقِط في يده ، وهذه من الدلالات الطبيعية الفطرية التي لا تختلف فيها أمة عن أمة ، بل هي في كل الأجناس ، وفي كل لغة تشير إلى أن الإنسان إذا ما فعل فعلا وحدث له عكس ما يفعل يعض على الأنامل ندماً وغمًّا ، وهذه من الدلالات الفطرية الباقية لنا من الالتقاء الطبعي في المخاطبات ، في كل الأجناس . ويعض الإنسان الأنامل لأنه عمل شيئاً ما كان يصح أن يعمله ، فإذا كان الشيء عظيماً فهو لا يكتفي بالأنملة بل يمسك يده كلها ويعضها . والحق يقول : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ .

و" سُقط في أيديهم " أي جاءت أنيابهم على أيديهم ، كأن الندم بلغ أشده ، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصروا بعيونهم ورأوا أن ذلك باطل وخسران . أي قالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة :

1 - ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الحسنة ﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباقً كما أن بين لفظ ﴿ طَائِرُهُمْ ﴾ و ﴿ يَطَّيَّرُواْ ﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية .

2 - ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ ﴾ عدل عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب ومثله ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ والأصل ما صنعوا وما عرشوا .

3 - ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أتى بلفظ تجهلون ولم يقل : جهلتم إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا مستقبل .

4 - ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الحض على نهج سبيل الصالحين ، والأصل أن يقال : سأريهم .

5 - ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ هذا من باب الكناية فهو كناية عن شدة الندم لأن النادم

يعض على يده غماً .

6 - بين لفظ ﴿ مَشَارِقَ ﴾ و ﴿ مَغَارِبَ ﴾ طباقٌ .

(209/288)

تنبيه : مذهب أهل السنة قاطبة على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنكرت المعتزلة ذلك واستدلوا بالآية الكريمة ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ وليس لهم في هذه الآية متمسك بل هي دليلٌ لأهل السنة والجماعة على إمكان الرؤية ، لأنها لو كانت مُحالاً لم يسألها موسى فإن الأنبياء عليهم السلام يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل ، ولو كانت الرؤية مستحيلة لكان في الجواب زجرٌ وإغلاظ كما قال تعالى لنوح ﴿ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هود : 46] فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا لضعف البنية البشرية عن ذلك قال مجاهد : إن الله قال لموسى : لن تراني ، لأنك لا تطيق ذلك ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد ، فإن استقر وأطاق الصبر لهيبتي أمكن أن تراني أنت ، وإن لم يُطق الجبل فأحرى ألاّ تطيق أنت فعلى هذا جعل الله الجبل مثالاً لموسى ولم يجعل الرؤية مستحيلة على الإطلاق ، وقد صرح بوقوع الرؤية في الآخرة كتابُ الله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 - 23] فلا

ينكرها إلا مبتدع .

فَائِدَة : لما سمع الكليم موسى كلام الله اشتاق إلى رؤيته ، لأن التلذذ بسماع كلام الحبيب يزيد في الشوق إليه والحنين وقد أحسن من قال :

وأفرحُ ما يكونُ الشوقُ يوماً . . . إذا دنتِ الدّيارُ من الديار

لطيفَة : السعادة والشقاوة بيد الله فموسى بن عمران ربّاه فرعون فكان مؤمناً ، وموسى السامري ربّاه جبريل وكان كافراً ، فلم تنفع تربية الأمين لموسى السامري ، ولم تضر تربية اللعين لموسى الكليم عليه السلام ، وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى :

إذا المرءُ لم يُخْلَقْ سعيداً من الأزَل . . . فقدْ خابَ من ربَّى وخابَ المُؤمَّلُ

فموسى الّذي ربّاهُ جبريلُ كافرٌ . . . وموسًى الذي ربّاه فِرْعونُ مُرْسَل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 471.472 ﴾

(210/288)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾

الجارُّ قائم مقام الفاعل .

وقيل القائمُ مقامه ضميرُ المصدر الذي هو السُّقُوط أي سُقِط السقوط في أيديهم ، ونقل أبو حيان عن بعضهم أنه قال : " سقط " تَتضمَّن مَفعُولاً ، وهو ههنا المصدر ، الذي هو الإسقاط كقولك : " ذُهِبَ بزيد " .

قال : وصوابه : وهو هنا ضميرُ المصدر الذي هو السُّقُوط ؛ لأنَّ " سقط " ليس مصدرُهُ الإسقاط ، ولأن القائمَ مقام الفاعل ضميرُ المصدر ، لا المصدر ، ونقل الواحديُّ عن الأزهريِّ أن قولهم : " سُقِط في يده " ؛ كقوله امرئ القيس : [الطويل]

2575 - دَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ في حجراتِهِ . . .

ولكنْ حَدِيثاً ما حَدِيثُ الرَّواحلِ

في كون الفعل مُسْنداً للجار ، كأنه قيل : صَاحَ المنتهبُ في حجراته ، وكذلك المراد سُقِط في يده ، أي : سقط النَّدمُ في يده .

فقوله : أي سقط النَّدم في يده ، تَصْرِيحٌ بأنَّ القائمَ مقام الفاعل حرفُ الجَرّ ، لا ضمير المصدرِ .

ونقل الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ أنه يقال : سقط في يده وأسقط أيضاً ، إلاَّ أنَّ الفرَّاء قال : سَقَطَ - أي الثلاثي - أكثرُ وأجودُ .

وهذه اللَّفظةُ تُسْتعمَلُ في التندُّم والتحير .

وقد اضْطربَتْ أقوالُ أهل اللَّغَةِ في أصلها .

فقال أبو مروان بن سراج اللُّغوي : " قولُ العرب سُقِط في يده مِمَّا أعْيَانِي معناهُ " .

وقال الواحِدي : قَدْ بَانَ مِنْ أقوالِ المُفسّرِينَ وأهْلِ اللُّغةِ أنَّ " سُقِطَ في يدهِ " نَدم ، وأنَّه يُسْتعملُ في صفة النّادم فأمَّا القولُ في أصلِهِ وما حَدَّه فلمْ أرِ لأحَدٍ من أئمةِ اللُّغةِ شَيْئاً أرْتَضِيه إلاَّ ما ذكر الزَّجَّاجي فإنَّه قال : قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى نَدمُوا ، نظمٌ لمْ يُسمع قبلَ القرآن ، ولمْ تعرفهُ العرب ، ولمْ يُوجَدْ ذلك في أشعارِهِم ، ويدُلُّ على صحَّةِ ذلك أنَّ شعراء الإسلام لما سَمِعُوا هذا النَّظْمَ واستعملُوهُ في كلامهم خَفِي عليهم وجهُ الاستعمال ، لأنَّ عادتَهُم لمْ تَجْرِ بِهِ .

فقال أبو نواس : [الرجز]

2576 - ونَشْوَةٌ سُقِطْتُ مِنْهَا فِي يَدِي . . .

وأبُو نواس هو العالمُ النَّحْرِيرُ ، فأخطأ في استعمال هذا اللفظ ، لأنَّ " فُعِلْتُ " لا يُبْنَى إلاَّ من فعل مُتعَدٍّ ، و" سقط " لازمٌ ، لا يتعدَّى إلاَّ بحرفِ الصفة لا يقالُ : " سُقطت " كما لا يُقال : رُغبتُ وغُضِب ، إنَّما يُقَال : رُغِبَ فيَّ ، وغُضِب عَلَيَّ ، وذكر أبُو حاتمٍ : " سُقِط فلان في يده " بمعنى ندم .

وهذا خطأ مثل قول أبي نواس ، ولو كان الأمر كذلك لكان النَّظْم ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ و" سُقِطَ القومُ في أيديهم " .

وقال أبو عُبيدة : "يُقَالُ لِمَنْ على أمْرٍ وعجز عنه : سُقِطَ في يده " .

وقال الواحِدِيُ : " وذِكْرُ اليد ههنا لوجهين أحدهما : أنه يُقال للَّذي يَحْصُلَ وإن كان ذلك مِمَّا لا يكُون في اليد : " قَدْ حصلَ في يده مكروهٌ " يشبه ما يحصُلُ في النَّفس وما يحصُل في القلب بِمَا يُرضى بالعينِ ، وخُصَّت اليدُ بالذِّكْرِ ؛ لأنَّ مباشرةَ الذُّنوب بها .

فاللائمةُ ترجع عليها ، لأنَّهَا هي الجارحةِ العُظْمَى ، فيُسْنَدُ إليها ما لم تُباشِرهُ ، كقوله : ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] وكثيرٌ من الذُّنوب لمْ تُقدّمهُ اليد " .

الوجه الثاني : أنَّ النَّدَمَ حدثٌ يَحْصُلُ في القلب ، وأثرُهُ يَظْهَرُ في اليد ؛ لأنَّ النَّادِمَ بَعَضُّ يدَهُ ، ويضربُ إحْدَى يديْه على الأخرى كقوله : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ [الكهف : 42] فتَقْلِيبُ الكفِّ عبارةٌ عن النَّدم ، وكقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان : 37] فلمَّا كان أثرُ النَّدم يحصُل في اليدِ مِن الوجهِ الذي ذَكَرْنَاه أضيف سقوطُ النَّدم إلى اليَدِ ؛ لأنَّ الذي يَظْهَرُ للعُيُونِ من فِعْلِ النَّادم هو تَقْلِيبُ الكفِّ وعضُّ الأنامل واليدِ كَمَا أنَّ السُّرُور معنى في القلب يسْتَشْعره الإناسنُ ، والذي يظهرُ منه حالة الاهتزاز والحركةِ والضَّحك وما يَجْرِي مجراه .

وقال الزمخشريُّ : " ولمَّا سُقِطَ في أيديهمْ " أي ولمَّا اشتدَّ ندمهم ؛ لأنَّ مِنْ شأن من اشتدَّ ندمُهُ وحَسْرَتُهُ أن يَعَضَّ يدهُ غماً ، فتصير يده مَسْقُوطاً فيها ، لأنَّ فاه قد وقع فيها .

(212/288)

وقيل : مِنْ عادةِ النَّادمِ أن يُطَأْطِئَ رَأسَهُ ، ويضع ذقنه على يده معتمداً عليها ، ويصيرُ على هيئةٍ لو نُزِعت يده لسقط على وجهه ، فكأنَّ اليدَ مَسْقُوطٌ فيها .

ومعنى " في " " على " ، فمعنى " في أيديهم " كقوله : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] .

وقيل : هو مَأخُوذٌ من السَّقاط ، وهو كثرةُ الخَطَأ ، والخَاطِئُ يَنْدَمُ على فعلِهِ .

قال ابنُ أبي كاهل : [الرمل]

2577 - كَيْفَ يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَمَا . . .

لَفَّعَ الرَّأسَ بياضٌ وصَلَعْ

وقيل : هو مأخوذٌ من السَّقيط ، وهو ما يُغَشِّي الأرض من الجَليدِ يُشْبِه الثَّلْج .

يقال منه : سَقَطَت الأرْضُ كما يُقَال : ثلجت ، والسَّقْطُ والسَّقِيط يذُوبُ بأدْنَى حرارةٍ ولا يبقى .

ومنْ وقع في يده السَّقِيط لمْ يَحْصُل من بغيته على طائلٍ .

واعْلَمْ أنَّ " سُقِطَ في يده " عدَّهُ بعضُهم في الأفعال الَّتِي لا تتصرَّف كـ " نِعْمَ وبِئْسَ " .

وقرأ ابْنُ السَّمَيْفَع سقط في أيديهم مبنياً للفاعل وفاعله مَضْمَرٌ ، أي : سَقَطَ النَّدمُ هذا قولُ الزَّجَّاجِ .

وقال الزمخشريُّ : " سَقَطَ العَضُّ " .

وقال ابنُ عطيّة : " سَقَطَ الخسران ، والخيبة " .

وكل هذه أمثلةٌ .

وقرأ ابنُ أبي عبلة : أسْقِط رباعياً مبنياً للمعفول ، وقد تقدَّم أنَّها لغةٌ نقلها الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ .

قوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾

لما ظهر لَهُمْ أنَّ الذي عَمِلُوهُ كان بَاطِلاً ، أظْهَرُوا الانقطاع إلى اللَّهِ تعالى وقالوا : ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ .

قرأ الأخوان " تَرْحَمْنَا " و " تَغْفِر " بالخطاب ، " رَبَّنَا " بالنَّصْب ، وهي قراءةُ الشعبي وابن وثَّاب وابن مصرف والجَحْدريّ والأعمش ، وأيُّوب ، وباقي السبعة بياءِ الغيبةِ فيهما ، " رَبُّنَا " رفعاً ، وهي قراءةُ الحسنِ ، ومُجاهدٍ ، والأعرج وشيْبَةَ وأبي جَعْفَرٍ .

فالنَّصبُ على أَنَّهُ مُنَادى ، وناسَبهُ الخطاب ، والرَّفْعُ على أَنَّه فاعلٌ ، فَيَجُوزُ أَن يكون هذا الكلام صَدَرَ من جمسعهم على التَّعَاقُبِ ، أو هذا من طائفةٍ ، وهذا من طائفةٍ ، فمن غلب عليه الخوفُ ، وقوي على المُواجهةِ ؛ خاطب مستقيلاً من ذنبه ، ومن غلب عليه الحياء أخرج كلامهُ مُخْرج المُسْتَحِي من الخطاب ؛ فأسند الفِعْلَ إلى الغَائِبِ .

قال المُفَسِّرُونَ : وكان هذا النَّدمُ والاستغفارُ منهم بَعْدَ رُجوعِ مُوسى إليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 318 . 321 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) ﴾

حين تحققوا بقبح صنيعهم تجرَّعوا كاساتِ الأسف ندماً ، واعترفوا بأنهم خَسِروا إنْ لم يتداركهم من الله جميل لُطْفِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 572 ﴾

(214/288)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثمانون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والثمانون بعد المائتين

من الآية ﴿ 150 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 154 ﴾ من نفس السورة

(4/289)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر بالسبب في تأخير الانتقام عنهم مع مساواتهم لمن أوقعت بهم النقمة في موجب الانتقام ، أخبر سبحانه بحال موسى عليه السلام معهم عند رجوعه إليهم من الغضب لله والتبكيت لمن خالفه مع ما اشتمل عليه من الرحمة والتواضع فقال : ﴿ ولما رجع موسى ﴾ أي من المناجاة ﴿ إلى قومه غضبان ﴾ أي في حال رجوعه لما أخبره الله تعالى عنهم من عبادة العجل ﴿ أسفاً ﴾ أي شديد الغضب والحزن ﴿ قال بئسما ﴾ أي خلافة

خلافتكم التي ﴿ خلفتموني ﴾ أي قمتم مقامي وفعلتم مقامي وفعلتم خلفي .

ولما كان هذا ربما أوهم أنهم فعلوه من روائه وهو حاضر في طرف العسكر ، قال : ﴿ من بعدي ﴾ أي حيث عبدتم غير الله أيها العبدة ، وحيث لم تكفوهم أيها الموحدون بعد ذهابي إلى الجبل للمواعدة الإلهية وبعد ما سمعتم مني من التوحيد لله تعالى وإفراده عن خلقه بالعبادة ونفي الشركاء عنه ، وقد رأيتم حين كففتكم وزجرتكم عن عبادة غيره حين قلتم ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ ومن حق الخلفاء أن يسيروا سيرة المستخلف ولا يخالفوه في شيء .

(5/289)

ولما كان قد أمرهم ان لا يحدثوا حدثاً حتى يعود إليهم ، أنكر عليهم عدم انتظاره فقال : ﴿ أعجلتم ﴾ قال الصغاني في المجمع : سبقتم ، وقال غيره : عجل عن الأمر - إذا تركه غير تام ، ويضمن معنى سبق ، فالمعنى : سابقين ﴿ أمر ربكم ﴾ أي ميعاد الذي ما زال محسناً إليكم ، أي فعلتم هذا قبل بلوغ أمر الموعد الذي زاد فيه ربي وهو العشرة الأيام برجوعي إليكم إلى حده ، فظننتم أني مت فغيرتم كما غيرت الأمم بعد موت أنبيائها ، قال الإمام أبو عبد القزاز أيضاً : عجلتم : سبقتم ، ومنه تقول : عجلت فلاناً سبقته ، وأسنده

ابن التياني إلى الأصمعي ﴿ وألقى الألواح ﴾ أي التي فيها التوراة غضباً لله وإرهاباً لقومه ، ودل هذا على أن الغضب بلغ منه حداً لم يتمالك معه ، وذلك في الله تعالى ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ أي بشعره ﴿ يجره إليه ﴾ أي بناء على أنه قصر وإعلاماً لهم بأن الغضب من هذا الفعل قد بلغ منه مبلغاً يجل عن الوصف ، لأنه اجتثاث للدين من أصله .

ولما كان هارون عليه السلام غير مقصر في نهيهم ، أخذ في إعلام موسى عليه السلام بذلك مخصصاً الأم وإن كان شقيقه – تذكيراً له بالرحم الموجبه للعطف والرقة ولا سيما وهي مؤمنه وقد قاست فيه المخاوف ، فاستأنف سبحانه الإخبار عن ذلك بقوله : ﴿ قال ابن أم ﴾ وحذف أداة النداء وياء الإضافة لما يقتضيه الحال من الإيجاز ، وفتح الجمهور الميم تشبيهاً له بخمسة عشر وعلى حذف الألف المبدلة من ياء الإضافة ، وكسر الميم ابن عامر وحمزه والكسائي وأبو بكر عن عاصم بتقدير حذف ياء الإضافة تخفيفاً ﴿ إن القوم ﴾ أي عبدة العجل الذين يعرف قيامهم في الأمور التي يريدونها ﴿ استضعفوني ﴾ أي عدوني ضعيفاً وأوجدوا ضعفي بإرهابهم لي ﴿ وكادوا يقتلونني ﴾ أي قاربوا ذلك لإنكاري ما فعلوه فسقط عني الوجوب .

ولما تسبب عن ذلك إطلاقه ، خاف أن يمنعه الغضب من ثبات ذلك في ذهنه وتقرره في قلبه فقال : ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ﴾ أي لا تسرهم بما تفعل بي فأكون ملوماً منهم ومنك ؛ ولما استعطفه بالتذكير بالشماتة التي هي شماتة به أيضاً ، أتبعه ضرراً يخصه فقال

: ﴿ ولا تجعلني ﴾ أي بمؤاخذتك لي ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ أي فتقطعن بعدّك لي معهم وجعلي في زمرتهم عمن أحبه من الصالحين ، وتصلني بمن أبغضه من الفاسدين الذين فعلوا فعل من هو في الظلام ، فوضعوا العبادة في غير موضعها من غير شبهة ولا لبس أصلاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 114.115 ﴾

(6/289)

اللغَة : ﴿ أَسِفاً ﴾ الأسف : شدة الحزن أو الغضب يقال هو أسِفٌ وأسيف ﴿ ابن أُمَّ ﴾ أصلها ابن أمي وهي استعطاف ولين ﴿ تُشْمِتْ ﴾ الشماتة : السرور بما يصيب الإنسان من مكروه وفي الحديث « وأعوذ بك ن شماتة الأعداء » ;لرَّجْفَةُ ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿ هُدْنَآ ﴾ تبنا يقال : هاد يهودُ إذا تاب ورجع فهو هائد قال الشاعر : إني امرؤٌ مما جنيتُ هائد ﴿ إِصْرَهُمْ ﴾ التكاليف الشاقة وأصل الإِصر الثقل الذي يأصر صاحبه عن الحِرَاك ﴿ الأغلال ﴾ جمع غُل وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ﴿ عَزَّرُوهُ ﴾ وقّروه ونصروه ﴿ أَسْبَاطاً ﴾ جمع سبط وهو ولد الولد أو ولد البنت ثم أطلق على كل قبيلة من بني إِسرائيل ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ آذن من الإِيذانُ بمعنى الإِعلام ﴿ يَسُومُهُمْ ﴾ يذيقهم ﴿ خَلَفَ ﴾ بسكون اللام من يخلف غيره بالسوء والشر وأمّا بفتح اللام فهو يخلف

غيره بالخير ومنه قولهم : « جعلك الله خير خلف لخير سلف » . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 473 ﴾

(7/289)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن قوله : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غضبان أَسِفًا ﴾ لا يمنع من أن يكون قد عرف خبرهم من قبل في عبادة العجل ، ولا يوجب ذلك لجواز أن يكون عند الرجوع ومشاهدة أحوالهم صار كذلك ، فلهذا السبب اختلفوا فيه فقال قوم : إنه عند هجومه عليهم عرف ذلك .

وقال أبو مسلم : بل كان عارفاً بذلك من قبل ، وهذا أقرب ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غضبان أَسِفًا ﴾ يدل على أنه حال ما كان

راجعاً كان غضبان أسفاً ، وهو إنما كان راجعاً إلى قومه قبل وصوله إليهم ، فدل هذا على أنه عليه السلام قبل وصوله إليهم كان عالماً بهذه الحالة .

الثاني : أنه تعالى ذكر في سورة طه أنه أخبره بوقوع تلك الواقعة في الميقات .

المسألة الثانية :

في الأسف قولان : الأول : أن الأسف الشديد الغضب ، وهو قول أبي الدرداء وعطاء ، عن ابن عباس واختيار الزجاج .

واحتجوا بقوله : ﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : 55] أي أغضبونا .

والثاني : وهو أيضاً قول ابن عباس والحسن والسدي ، إن الآسف هو الحزين .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن أبا بكر رجل أسيف أي حزين .

قال الواحدي : والقولان متقاربان ، لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب ، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت ، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت .

فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزناً والأخرى غضباً ، فعلى هذا كان موسى غضبان على قومه لأجل عبادتهم العجل ، أسفاً حزيناً ، لأن الله تعالى فتنهم .

وقد كان تعالى قال له : ﴿ إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ [طه : 85] .

أما قوله : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى ﴾ فمعناه بئسما قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي وهذا الخطاب إنما يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه أو لوجوه بني إسرائيل ، وهم : هارون عليه السلام والمؤمنون معه ، ويدل عليه قوله : ﴿ اخلفنى فِى قَوْمِى ﴾ [الأعراف : 142] وعلى التقدير الأول يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله ، وعلى هذا التقدير الثاني ، يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : أين ما يقتضيه "بئس" من الفاعل ، والمخصوص بالذم .

والجواب : الفاعل مضمر يفسره قوله : ﴿ مَا خَلَفْتُمُونِى ﴾ والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم .

السؤال الثاني : أي معنى لقوله : ﴿ مِن بَعْدِى ﴾ بعد قوله : ﴿ خَلَفْتُمُونِى ﴾ .

والجواب : معناه من بعد ما رأيتم مني من توحيد الله تعالى ، ونفي الشركاء عنه وإخلاص العبادة له أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وأمنعهم من عبادة البقر حين قالوا : ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ ومن حق الخلفاء أن يسيروا سيرة المستخلفين .

وأما قوله : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ فمعنى العجلة التقدم بالشيء قبل وقته ، ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة ، لأن معناها عمل الشيء في أول أوقاته .

هكذا قاله الواحدي .

ولقائل أن يقول : لو كانت العجلة مذمومة ، فلم قال موسى عليه السلام : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ [طه : 84] قال ابن عباس : المعنى ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ يعني ميعاد ربكم فلم تصبروا له ؟ وقال الحسن : وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين ، وذلك لأنهم قدروا أنه لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة ، فقد مات .

(9/289)

وقال عطاء : يريد أعجلتم سخط ربكم ؟ وقال الكلبي : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم ، ولما ذكر تعالى أن موسى رجع غضبان ذكر بعده ما كان ذلك الغضب موجباً له ، وهو أمران : الأول : أنه قال : ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ يريد التي فيها التوراة ، ولما كانت تلك الألواح أعظم معاجزه ، ثم أنه ألقاها دل ذلك على شدة الغضب ، لأن المرء لا يقدم على مثل هذا العمل إلا عند حصول الغضب المدهش .

روي أن التوراة كانت سبعة أسباع ، فلما ألقى الألواح تكسرت ، فرفع منها ستة أسباعها وبقي سبع واحد .

وكان فيما رفع تفصيل كل شيء ، وفيما بقي الهدى والرحمة ، وعن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال : " يرحم الله أخي موسى ليس الخبر كالمعاينة لقد أخبره الله تعالى بفتنة قومه فعرف أن ما أخبره به حق وأنه على ذلك متمسك بما في يده "

ولقائل أن يقول : ليس في القرآن إلا أنه ألقى الألواح فأما أنه ألقاها بحيث تكسرت ، فهذا ليس في القرآن وأنه لجراءة عظيمة على كتاب الله ، ومثله لا يليق بالأنبياء عليهم السلام .

والأمر الثاني : من الأمور المتولدة عن ذلك الغضب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ وفي هذا الموضع سؤال لمن يقدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام ذكرناه في سورة طه مع الجواب الصحيح ، وبالجملة فالطاعنون في عصمة الأنبياء يقولون أنه أخذ برأس أخيه يجره إليه على سبيل الإهانة والاستخفاف ، والمثبتون لعصمة الأنبياء قالوا إنه جر رأس أخيه إلى نفسه ليساره ويستكشف منه كيفية تلك الواقعة .

فإن قيل : فلماذا قال ﴿ ابن أُمَّ إِنَّ القوم استضعفونى ﴾ .

(10/289)

قلنا : الجواب عنه أن هرون عليه السلام خاف أن يتوهم جهال بني إسرائيل أن موسى عليه السلام غضبان عليه كما أنه غضبان على عبدة العجل ، فقال له ﴿ ابن أُمَّ إِنَّ القوم

استضعفونى ﴾ وما أطاعوني في ترك عبادة العجل ، وقد نهيتهم ولم يكن معي من الجمع ما أمنعهم بهم عن هذا العمل ، فلا تفعل بي ما تشمت أعدائي به فهم أعداؤك فإن القوم يحملون هذا الفعل الذي تفعله بي على الإهانة لا على الإكرام .

وأما قوله تعالى ﴿ ابن أُمَّ ﴾ فاعلم أنه قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ ابن أُمِّ ﴾ بكسر الميم ، وفي طه مثله على تقدير (أمي) فحذف ياء الإضافة لأن مبنى النداء على الحذف وبقي الكسر على الميم ليدل على الإضافة ، كقوله : ﴿ ياعِبَادِ ﴾ والباقون بفتح الميم في السورتين ، وفيه قولان : أحدهما : أنهما جعلا اسماً واحداً وبنى لكثرة أصطحاب هذين الحرفين فصار بمنزلة اسم واحد نحو حضرموت وخمسة عشر . وثانيهما : أنه على حذف الألف المبدلة من ياء الإضافة ، وأصله يا ابن أما كما قال الشاعر :

يا ابنة عما لا تلومي واهجعي . . وقوله : ﴿ إِنَّ القوم استضعفونى ﴾ أي لم يلتفتوا إلى كلامي وكادوا يقتلونني ، فلا تشمت بي الأعداء يعني أصحاب العجل ولا تجعلني مع القوم الظالمين ، الذين عبدوا العجل أي لا تجعلني شريكاً لهم في عقوبتك لهم على فعلهم ، فعند هذا قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ اغفرلى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 9.11 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ ﴾

يعني : من الجبل ﴿ غضبان أَسِفًا ﴾ يعني : حزيناً .

ويقال : الأسف في اللغة شدة الغضب .

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف : 55] ويقال : أشد الحزن كقوله : ﴿ وتولى عَنْهُمْ وَقَالَ يا أسفا عَلَى يُوسُفَ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 84] ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى ﴾ يعني : بعبادة العجل يعني : بئسما فعلتم في غيبتي ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ يعني : استعجلتم ميعاد ربكم .

ويقال : أعصيتم أمر ربكم .

ويقال : معناه ﴿ أَعَجِلْتُمْ ﴾ بالفعل الذي استوجبتم به عقوبة ربكم ﴿ وَأَلْقَى الألواح ﴾ من يده .

قال الكلبي : انكسرت الألواح وصعد عامة الكلام الذي كان فيها من كلام الله تعالى إلى السماء .

وقال بعضهم : هذا الكلام في ظاهره غير سديد .

لأن الكلام صفة والصفة لا تفارق الموصوف .

فلا يجوز أن يقال : الكلام يصعد ويذهب .

ولكن تأويله أن الألواح لما انكسرت ذهب أثر المكتوب منها وهذا إذا كان غير الأحكام .

وأما الأحكام أيضاً فلا يجوز أن تذهب عنه وإنما أراد بذلك حجة عليهم .

وروي في الخبر : أن الله تعالى أخبر موسى أن قومه عبدوا العجل .

قال موسى : يا رب من اتخذ لهم العجل ؟ قال : السامري .

قال : ومن جعل فيه الروح ؟ قال : أنا .

قال : فأنت فتنت قومي ؟ .

قال له ربه : تركتهم لمرادهم .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ " لما أخبر الله تعالى بأن قومه قد عبدوا العجل لم يلق الألواح .

فلما عاين ألقى الألواح .

ثم قال : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ يعني : أخذ بشعر رأسه ولحيته ﴿ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابن أُمَّ ﴾ يعني : قال له هارون : يا ابن أمي لا تأخذ بلحيتي .

(12/289)

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص : يا ﴿ ابن أُمَّ ﴾ بنصب الميم .

وقرأ الباقون بالكسر .

وهكذا في سورة طه فمن قرأ بالنصب جعله كاسم واحد كأنه يقول يا ابن أماه .

كما يقال : يا ويلتاه ويا حسرتاه .

ومن قرأ بالكسر فهو على معنى الإضافة إلى نفسه .

وكان موسى أخاه لأبيه وأمه .

ولكن ذكر الأم ليرفعه عليه .

﴿ إِنَّ القوم استضعفونى ﴾ يعني : قهروني واستذلوني ﴿ وَكَادُواْ ﴾ يعني : هموا بقتلي ﴿ يَقْتُلُونَنِى فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ الاعداء ﴾ يعني : لا تفرح عليّ أعدائي يعني : الشياطين ويقال : أصحاب العجل ﴿ وَلاَ تَجْعَلْنِى مَعَ القوم الظالمين ﴾ يعني : لا تظنن أني رضيت بما فعلوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(13/289)

وقال الثعلبي :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾

قال أبو الدرداء : الأسف منزلة وراء الغضب أشد منه ، وقال ابن عباس والسدي : [رجع حزيناً من صنيع قومه] قال الحسن بن غضبان : حزيناً ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بعدي ﴾ أي بئس الفعل فعلتم بعد ذهابي ، يقال : منه خلفه بخير أو شر إذا ألاه في أهله أو قومه بعد شخوصه عليهم خيراً أو شراً .

﴿ أَعَجِلْتُمْ ﴾ أسبقتم ﴿ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألواح ﴾ غضباً على قومه حين عبدوا العجل ، وقال قتادة : إنّما ألقاها حين سمع من فضائل أُمّة محمد صلى الله عليه وسلم وفي الألواح : قال : يا رب اجعلني من أُمّة محمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله أخي موسى ما المخبر كالمعاين لقد أخبره الله بفتنة قومه فعرف أنّ ما أخبره الله حق وأنه على ذلك لمتمسّك بمّا في يديه ، فرجع إلى قومه ورآهم فغضب وألقى الألواح " .

قالت الرواة : كانت التوراة سبعة أسباع فلمّا ألقى الألواح تكسرت فوقع منها ستة أسباع وبقي سبع وكان فيها رُقع موسى وفيما بقي الهدى والرحمة ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ أي لحيته وذقنه ﴿ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ وكان هرون أكبر من موسى بثلاث سنين وأحبّ إلى بني إسرائيل من موسى ، لأنه كان لين الغضب ﴿ قَالَ ﴾ هرون عند ذلك يا ﴿ ابن أُمَّ ﴾ قرأ [أهل] الكوفة بكسر الميم هاهنا وفي طه أراد يا بن أُمي فحذف ياء الإضافة ، لأنه مبنى

النداء على الحذف وأبقى الكسرة في الميم لتدل على الاضافة كقوله ﴿ يا عباد ﴾ [الزمر : 10] [الزمر : 16] [الزخرف : 68] يدل عليه ، قراءة ابن السميفع : يا ابن أُمي بإثبات الياء على الأصل ، وقرأ الباقون بفتح الميم فهما على معنى يا ابن اُماه جعل أصله إسماً واحداً وبناه على الفتح كقولهم : حضرموت وخمسة عشر ونحوهما .

(14/289)

﴿ إِنَّ القوم استضعفوني ﴾ باتخاذهم العجل ﴿ وَكَادُواْ ﴾ يعني همّوا وقاربوا ﴿ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ ﴾ بضم التاء وكسر الميم ونصب الأعداء قرأه العامّة وقرأ مالك بن دينار فلا تشمت ﴿ بِيَ الأعدآء ﴾ بفتح التاء والميم الأعداء رفع ﴿ وَلاَ تَجْعَلْنِي ﴾ في [موعدتك] عليّ وعقوبتك لي ﴿ مَعَ القوم الظالمين ﴾ يعني أصحاب العجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(15/289)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾

في الأسف خمسة أقاويل :

أحدها : أنه المتأسف على فوت ما سلف قاله علي بن عيسى .

والثاني : أنه الحزين ، قاله ابن عباس .

والثالث : هو الشديد الغضب ، قاله الأخفش .

والرابع : المغتاظ ، قاله السدي .

والخامس : النادم ، قاله ابن قتيبة .

وفي غضبه وأسفه قولان :

أحدهما : غضبان من قومه على عبادة العجل ؟ أسفاً على ما فاته من مناجاة ربه .

والثاني : غضبان على نفسه في ترك قومه حتى ضلوا ، أسفاً على ما رأى في قومه من ارتكاب المعاصي .

وقال بعض المتصوفة إن غضبه للرجوع عن مناجاة الحق إلى مخاطبة الخلق .

﴿ قَالَ بِئْسَ مَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ﴾ يعني بعباة العجل .

﴿ أَعَجِلْتُم أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني وعد ربكم الذي وعدني به من الأربعين ليلة ، وذلك أنه قَدَّروا أنه قد مات

لَمَّا لم يأت على رأس الثلاثين ليلة ، قاله الحسن ، والسدي .

والثاني : وعد ربكم بالثواب على عبادته حتى عدلتم إلى عبادة غيره ، قاله بعض المتأخرين . والفرق بين العجلة والسرعة أن العجلة : التقدم بالشيء قبل وقته ، والسرعة : عمله في أقل أوقاته .

﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ وفي سبب إلقائها قولان :

أحدهما : غضباً حين رأى عبادة العجل ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه ألقاها لما رأى فيها فضائل غير قومه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ، قال : رب فاجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد ، فاشتد عليه فألقاها ، قاله قتادة .

(16/289)

وكانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى موسى الألواح فتكسرت رفع منها ستة أسباعها وكان فيما رفع تفصيل كل شيء الذي قال الله ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وبقي الهدى والرحمة في السبع الباقي ، وهو الذي قاله الله : ﴿ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ .

وقال ابن عباس : ألقى موسى الألواح فتكسرت ورفعت إلا سدُسها .

﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه أخذ بأذنه .

والثاني : أخذ بجملة رأسه .

فإن قيل : فلم قصده بمثل هذا الهوان ولا ذنب له ؟

فعن ذلك جوابان .

أحدهما : أن هذا الفعل مما قد يتغير حكمه بالعادة فيجوز أن يكون في ذلك الزمان بخلاف ما هو عليه الآن من الهوان .

والثاني : أن ذلك منه كقبض الرجل منا الآن على لحيته وعضه على شفته ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه قال ذلك لأنه كان أخاه لأمه ، قاله الحسن .

والثاني : أنه قال ذلك على عادة العرب استعطافاً بالرحم ، كما قال الشاعر :

يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شقيقَ نَفْسِي . . . أَنْتَ خَلَّيْتَنِي لأَمْرٍ شَدِيدٍ

﴿ فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ ﴾ يعني من خالفه في عبادة العجل لأنهم قد صاروا لمخالفتهم له أعداء .

﴿ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا تغضب عليّ كغضبك عليهم ولست منهم

فأدركته الرقة : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(17/289)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾

يريد رجع من المناجاة ، ويروى : أنه لما قرب من محلة بني إسرائيل سمع أصواتهم فقال : هذه أصوات قوم لاهين ، فلما تحقق عكوفهم على عبادة العجل داخله الغضب والأسف وألقى الألواح ، قاله ابن إسحاق ، وقال الطبري : أخبره الله تعالى قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل فلذلك رجع وهو غاضب ، و" الأسف " قد يكون بمعنى الغضب الشديد ، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن والمعنيان مترتبان هاهنا ، و" ما " المتصلة ب " بئس " مصدرية ، هذا قول الكسائي ، وفيها اختلاف قد تقدم في البقرة ، أي بئس خلافتكم لي من بعدي ، ويقال : خلفه بخير أو بشر إذا فعله بمن ترك من بعده ، ويقال عجل فلان الأمر إذا سبق فيه ، فقوله : ﴿ أعجلتم ﴾ معناه : أسابقتم قضاء ربكم واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدر به ، وقوله تعالى : ﴿ وألقى الألواح ﴾ الآية ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : كان

سبب إلقائه الألواح غضبه على قومه في عبادتهم العجل وغضبه على أخيه في إهمال أمرهم ، وقال قتادة إن صح عنه : بل كان ذلك لما رأى فيها من فضيلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم فرغب أن يكون ذلك لأمته فلما علم أنه لغيرها غضب .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول رديء لا ينبغي أن يوصف موسى عليه السلام به والأول هو الصحيح ، وبالجملة فكان في خلق موسى عليه السلام ضيق وذلك مستقر في غير موضع ، وروي أنها كانت لوحان وجمع إذ التثنية جمع ، وروي أنها كانت وقر سبعين بعيراً يقرأ منها الجزء في سنة .

(18/289)

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف مفرط ، وقاله الربيع بن أنس ، وقال ابن عباس : إن موسى لما ألقاها تكسرت فرفع أكثرها الذي فيه تفصيل كل شيء وبقي الذي في نسخته الهدى والرحمة ، وهو الذي أخذ بعد ذلك ، وقد تقدم القول من أي شيء كانت الألواح ، وأخذه برأس أخيه ولحيته من الخلق المذكور ، هذا ظاهر اللفظ ، وروي أن ذلك إنما كان ليساره فخشي هارون أن يتوهم الناظر إليهما أنه لغضب فلذلك نهاه ورغب إليه .

(19/289)

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، والأول هو الصحيح لقوله ﴿ فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾ [طه : 94] وقوله : ﴿ يا ابن أم ﴾ استلطاف برحم الأم إذ هو ألصق القرابات ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم " ابن أمَّ " بفتح الميم فقال الكوفيون أصله ابن أماه فحذفت تخفيفاً ، وقال سيبويه هما اسمان بنيا على الفتح كاسم واحد كخمسة عشر ونحوها ، وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي " ابن أمِّ " بكسر الميم ، فكأن الأصل ابن أمي فحذفت الياء إما على حد حذفهم من : لا أبال ولا أدر تخفيفاً ، وإما كأنهم جعلوا الأول والآخر اسماً واحداً ثم أضافوا كقولك يا أحد عشر أقبلو ، قاله سيبويه ، وهذا أقيس من الحذف تخفيفاً ، ثم أضافوا ياء المتكلم ، ثم حذفت الياء من أمي على لغة من يقول يا غلام فيحذفها من المنادى ، ولو لم يقدر جعل الأول والآخر اسماً واحداً لما صح حذفها لأن الأم ليست بمناداة ، و﴿ استضعفوني ﴾ : معناه اعتقدوا أني ضعيف ، وقوله : ﴿ كادوا ﴾ معناه قالوا ولم يفعلوا ، وقرأ جمهور الناس " فلا تُشْمِت بي الأعداء " بضم التاء وكسر الميم ونصب الأعداء ، وقرأ مجاهد فيما حكاه أبو حاتم " فلا تَشمَت بي " بفتح التاء من فوق والميم ورفع " الأعداءُ " أي لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله أنت بي ، وقرأ حميد بن قيس " تَشمِت " بتاء مفتوحة وميم مكسورة ورفع " الأعداءُ " حكاها أبو حاتم ، وقرأ مجاهد أيضاً فيما

حكاه أبو الفتح " فلا تَشمَت بي الأعداءَ " بفتح التاء من فوق والميم ونصب الأعداء ، هذا على أن يعدى شمت يشمت ، وقد روي ذلك ، قال أبو الفتح : فلا تشمت بي أنت يا رب ، وجاز هذا كما قال تعالى :

﴿ يستهزئ بهم ﴾ [البقرة : 15] ونحو ذلك ، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلاً نصب به الأعداء كأنه قال : لا تشمت بي الأعداء كقراءة الجماعة .

(20/289)

قال القاضي أبو محمد : وفي كلام أبي الفتح هذا تكلف ، وحكى المهدوي عن ابن محيصن : " تَشِمت " بفتح التاء وكسر الميم ، " الأعداءَ " بالنصب ، والشماتة : فرحة العدو بمصاب عدوه ، وقوله : ﴿ ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ يريد عبدة العجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(21/289)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ غضبان أسِفاً ﴾

في الأسِفِ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الحزين ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي .

والثاني : الجزِع ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه الشديد الغضب ، قاله ابن قتيبة ، والزجاج .

وقال أبو الدرداء : الأسف : منزلة وراء الغضب أشدّ منه .

قوله تعالى : ﴿ قال ﴾ أي لقومه ﴿ بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ فتح ياء "بعديَ" أهل الحجاز ، وأبو عمرو ؛ والمعنى : بئس ما عملتم بعد فراقي من عبادة العجل .

﴿ أعجِلتم أمر ربكم ﴾ قال الفراء : يقال : عَجِلْتُ الأمر والشيء : سبقتُه ، ومنه هذه الآية .

وأعجلته : استحثثته .

قال ابن عباس : أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له ؟ ! قال الحسن : يعنيَ وَعْدَ الأربعين ليلة .

قوله تعالى : ﴿ وألقى الألواح ﴾ التي فيها التوراة .

وفي سبب إلقائه إياها قولان .

أحدهما : أنه الغضب حين رآهم قد عبدوا العجل ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه لما رأى فضائل غير أُمته من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم اشتد عليه ، فألقاها ، قاله قتادة .

وفيه بُعد .

قال ابن عباس : لما رمى بالألواح فتحطمت ، رُفع منها ستة أسباع ، وبقي سُبع .

قوله تعالى : ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ في ما أخذ به من رأسه ثلاثة أقوال .

أحدها : لحيته وذؤابته .

والثاني : شعر رأسه .

والثالث : أُذنه .

وقيل : إنما فعل به ذلك ، لأنه توهم أنه عصى الله بمُقامه بينهم وتركِ اللحوق به ، وتعريفِه ما أحدثوا بعده ليرجع إليهم فيتلافاهم ويردهم إلى الحق ، وذلك قوله : ﴿ ما منعك إذ رأيتهم ضلُّوا .

ألاَّ تتَّبعن ﴾ [طه : 92 ، 93] .

قوله تعالى : ﴿ ابن أُمَّ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم قال : ﴿ ابن أُمَّ ﴾ نصباً .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر .

عن .

(22/289)

عاصم : بكسر الميم ، وكذلك في [طه : 94] قال الزجاج : من فتح الميم ، فلكثرة استعمال هذا الاسم ، ومن كسر ، أضافه إلى نفسه بعد أن جعله اسماً واحداً ، ومن العرب من يقول : "يا ابن أمي" باثبات الياء .

قال الشاعر :

يَا ابْنَ أُمِّي ويَا شُقَيِّقَ نَفْسِي . . .

أنتَ خَلَّفْتَنِي لدهرٍ شديدِ

وقال أبو علي : يحتمل أن يريد من فتح : "يا ابن أم" أُمَّا ، ويحذف الألف ، ومن كسر "ابن أمي" فيحذف الياء .

فإن قيل : لم قال : "يا ابن أمَّ" ولم يقل : "يا ابن أب" ؟ فالجواب : أن ابن عباس قال : كان أخاه لأبيه وأُمه ، وإنما قال له ذلك ليرفِّقه عليه .

قال أبو سليمان الدمشقي : والإنسان عند ذكر الوالدة أرقُّ منه عند ذكر الوالد .

وقيل : كان لأمه دون أبيه ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ إن القوم ﴾ يعني : عبدة العجل .

﴿ استضعفوني ﴾ أي : استذلُّوني .

﴿ فلا تُشمت بيَ الأعداء ﴾ قرأ عبد الله بن عباس ، ومالك بن دينار ، وابن عاصم : "فلا تَشْمَت" بتاء مفتوحة مع فتح الميم ، "الاعداءُ" بالرفع .

وقرأ مجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وأبو رجاء : "فلا تَشْمِتْ" بفتح التاء وكسر الميم ، "الأعداءَ" بالنصب .

وقرأ أبو الجوزاء ، وابن أبي عبلة مثل ذلك ، إلا أنهما رفعا "الأعداء" ويعني بالأعداء : عبدة العجل .

﴿ ولا تجعلني ﴾ في موجدتك وعقوبتك لي ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ وهم عبدة العجل .

فلما تبين له عُذْرُ أخيه ﴿ قال رب اغفر لي ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(23/289)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾

لم ينصرف "غَضْبَانَ" لأن مؤنّثه غَضْبَى ، ولأن الألف والنون فيه بمنزلة ألفي التأنيث في قولك حمراء .

وهو نصب على الحال .

و"أَسِفاً" شديد الغضب .

قال أبو الدَّرداء : الأسف منزلةٌ وراء الغضب أشد من ذلك .

وهو أسِف وأسِيف وأسْفان وأَسُوف .

والأسيف أيضاً الحزِين .

ابن عباس والسُّدِّي : رجع حزيناً من صنيع قومه .

وقال الطبرِيّ : أخبره الله عز وجل قبل رجوعه أنهم قد فُتِنُوا بالعجل ؛ فلذلك رجع وهو غضبان .

ابن العربيّ : وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضباً ، لكنه كان سريع الفَيْئَة ؛ فِتلك بتلك .

قال ابن القاسم : سمعت مالكاً يقول : كان موسى عليه السلام إذا غَضِب طلع الدُّخَان من قَلَنْسُوَته ، ورفع شعرُ بدنه جُبَّتَه .

وذلك أن الغضب جَمْرة تتوقّد في القلب .

ولأجله أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم مَنْ غَضب أن يضطجع .

فإن لم يذهب غضبُه اغتسل : فيُخْمِدها اضطجاعُه ويطفئها اغتساله .

وسُرْعةُ غضبه كان سبباً لصَكّه مَلَكَ الموت ففقأ عينَه .

وقد تقدم في "المائدة" ما للعلماء في هذا .

وقال الترمذِيّ الحكيم : وإنما استجاز موسى عليه السلام ذلك لأنه كليم الله ؛ كأنه رأى أن من اجترأ عليه أو مدّ إليه يدا بأذًى فقد عَظُم الخطب فيه .

ألا ترى أنه احتج عليه فقال : من أين تنزِع روحي ؟ أمن فمِي وقد ناجيت به ربي ! أَمْ مِن سمعي وقد سمعت به كلام ربِّي ! أم مِن يدي وقد قبضت منه الألواح ! أم مِن قدمي وقد قمتُ بين يديه أُكلمه بالطُّور ! أمْ مِن عيني وقد أشرق وجهي لنوره .

فرجع إلى ربّه مُفْحَماً .

(24/289)

وفي مُصَنّف أبي داود عن أبي ذرٍّ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا : " إذا غَضِب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فلْيضطجع " وروي أيضاً

عن أبي وائل القاصّ قال : دخلنا على عروة بن محمد السّعدِيّ فكلمه رجل فأغضبه ؛ فقام ثم رجع وقد توضأ ، فقال : حدّثني أبي عن جدّي عطيّة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الغضب من الشيطان وإنّ الشيطان خُلق من النار وإنما تُطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ " .

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بعدي ﴾ ذمٌّ منه لهم ؛ أي بئس العملُ عمِلتم بعدي .

يقال : خَلَفَه ؛ بما يكره .

ويقال في الخير أيضاً .

يقال منه : خَلَفَه بخير أو بشر في أهله وقومه بعد شخوصه .

﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أي سبقتموه .

والعجلة : التقدّم بالشيء قبل وقته ، وهي مذمومة .

والسرعة : عَمَل الشيء في أوّل أوقاته ، وهي محمودة .

قال يعقوب : يقال عجلت الشيء سبقته .

وأعجلت الرجل استعجلته ، أي حملته على العجلة .

ومعنى "أَمْرَ رَبِّكُمْ" أي ميعاد ربكم ، أي وعد أربعين ليلة .

وقيل : أي تعجّلتم سخط ربكم .

وقيل : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أَمْرٌ من ربكم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ فيه مسألتان :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ أي مما اعتراه من الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل ، وعلى أخيه في إهمال أمرهم ؛ قاله سعيد بن جُبير .

ولهذا قيل : ليس الخبر كالمعاينة .

ولا التفات لما رُوي عن قتادة إن صح عنه ، ولا يصح : أنّ إلقاءه الألواح إنما كان لما رأى فيها من فضيلة أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن ذلك لأُمّته .

وهذا قول رديء لا ينبغي أن يضاف إلى موسى صلى الله عليه وسلم .

وقد تقدّم عن ابن عباس رضي الله عنه أن الألواح تكسّرت ، وأنه رفع منها التفصيل وَبَقِيَ فيها الهدى والرحمة .

(25/289)

الثانية وقد استدل بعض جُهّال المتصوّفة بهذا على جواز رَمْي الثياب إذا اشتد طربُهم على المَغْنَى .

ثم منهم من يرمي بها صِحاحاً ، ومنهم من يَخْرقها ثم يرمي بها .

قال : هؤلاء في غيبة فلا يُلامون ؛ فإن موسى عليه السلام لما غلب عليه الغم بعبادة قومه العجلَ ، رمى الألواح فكسرها ، ولم يدر ما صنع .

قال أبو الفرج الجَوْزِيّ : من يصحّح عن موسى عليه السلام أنه رماها رَمْيَ كاسر ؟ والذي ذُكر في القرآن ألقاها ، فمن أين لنا أنها تكسرت ؟ ثم لو قيل : تكسرت فمن أين لنا أنه قصد كسرها ؟ ثم لو صححنا ذلك عنه قلنا كان في غيبة ، حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخاضه .

ومَن يصحّح لهؤلاء غيبتهم وهم يعرفون المغنى من غيره ، ويحذرون من بئر لو كانت عندهم .

ثم كيف تقاس أحوال الأنبياء على أحوال هؤلاء السفهاء .

وقد سئل ابن عقيل عن تواجدهم وتخريق ثيابهم فقال : خطأ وحرام ؛ وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال .

فقال له قائل : فإنهم لا يعقلون ما يفعلون .

فقال : إن حضروا هذه الأمكنة مع علمهم أن الطَّرب يغلِب عليهم فيزيل عقولهم أثموا بما أدخلوه على أنفسهم من التخريق وغيره مما أفسدوا ، ولا يسقط عنهم خطاب الشرع ؛ لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتجنّب هذا الموضع الذي يُفضِي إلى ذلك .

كما هم منهِيُّون عن شرب المسكر ، كذلك هذا الطَّرَب الذي يسميه أهل التصوف وَجْداً

إن صدقوا أن فيه سُكْرَ طبع ، وإن كذبوا أفسدوا مع الصَّحْو ، فلا سلامة فيه مع الحالين ، وتجنّب مواضع الرِّيَب واجبٌ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ أي بلحيته وذؤابته .

وكان هارون أكبر من موسى صلوات الله وسلامه عليهما بثلاث سنين ، وأحبّ إلى بني إسرائيل من موسى ؛ لأنه كان لَيِّن الغضب .

وللعلماء في أخذ موسى برأس أخيه أربعة تأويلات :

(26/289)

الأوّل أن ذلك كان متعارَفاً عندهم ؛ كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل على لحية أخيه وصاحبه إكراماً وتعظيماً ، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال .

الثاني أن ذلك إنما كان ليُسرّ إليه نزول الألواح عليه ؛ لأنها نزلت عليه في هذه المناجاة وأراد أن يُخفيَها عن بني إسرائيل قبل التوراة .

فقال له هارون : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ؛ لئلا يشتبه سِرارُه على بني إسرائيل بإذلاله .

الثالث إنما فعل ذلك به لأنه وقع في نفسه أن هارون مائلٌ مع بني إسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل .

ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء .

الرابع ضَمّ إليه أخاه ليعلم ما لديه ؛ فكره ذلك هارون لئلا يظن بنو إسرائيل أنه أهانه ؛ فبيّن له أخوه أنهم استضعفوه ، يعني عبَدَة العجل ، وكادوا يقتلونه أي قاربوا .

فلما سمع عذره قال ؛ رب اغفر لي ولأخي ؛ أي اغفر لي ما كان من الغضب الذي ألقيت من أجله الألواح ، ولأخي لأنه ظنّه مقصِّراً في الإنكار عليهم وإن لم يقع منه تقصير ؛ أي اغفر لأخي إن قصّر .

قال الحسن : عبد كلّهم العجل غير هارون ، إذ لو كان ثَمَّ مؤمن غير موسى وهارون لَما اقتصر على قوله : رب اغفر لي ولأخي ، ولدَعَا لذلك المؤمن أيضاً .

وقيل : استغفر لنفسه من فعله بأخيه ، فعل ذلك لمَوْجِدته عليه ، إذ لم يلحق به فيعرّفه ما جرى ليرجع فيتلافاهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يا هرون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ﴾ [طه : 92-93] الآية .

فبيّن هارون أنه إنما أقام خوفاً على نفسه من القتل .

فدلَّت الآية على أن لمن خشي القتل على نفسه عند تغيير المنكر أن يَسْكُت .

وقد تقدّم بيان هذا في "آل عمران" .

ابن العربيّ : وفيها دليل على أن الغضب لا يغيّر الأحكام كما زعم بعض الناس ؛ فإن

موسى عليه السلام لم يغيّر غضبُه شيئاً من أفعاله ، بل اطردت على مجراها من إلقاء لوح وعتابِ أخ وصكّ مَلَك .

(27/289)

المَهْدَوِيّ : لأن غضبه كان لله عز وجل ، وسكوته عن بني إسرائيل خوفاً أن يتحاربوا ويتفرّقوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ابن أُمَّ ﴾ وكان ابن أُمّه وأبيه .

ولكنها كلمةُ لِين وعطف .

قال الزَّجاج : قيل كان هارون أخا موسى لأُمه لا لأبيه .

وقُرِىء بفتح الميم وكسرها ؛ فمن فتح جعل "ابن أُم" اسما واحداً كخمسةَ عشر ؛ فصار كقولك : يا خمسة عشر أقبلوا .

ومن كسر الميم جعله مضافاً إلى ضمير المتكلم ثم حذف ياء الإضافة ؛ لأن مبنى النداء على الحذف ، وأبقى الكسرة في الميم لتدُلّ على الإضافة ؛ كقوله : ﴿ ياعباد ﴾ [الزمر : 10] .

يدلّ عليه قراءة ابن السَّمَيْقَع "يا بنَ أُمّي" بإثبات الياء على الأصل .

وقال الكسائي والفرّاء وأبو عبيد : "يا ابن أُمَّ" بالفتح ، تقديره يا ابن أُمّاه .

وقال البصريون : هذا القول خطأ ؛ لأن الألف خفيفة لا تحذف ولكن جعل الاسمين اسما واحداً .

وقال الأخفش وأبو حاتم : "يا ابن أُمِّ" بالكسر كما تقول : يا غلام غلام أقبل ، وهي لغة شاذّة والقراءة بها بعيدة .

وإنما هذا فيما يكون مضافاً إليك ؛ فأما المضاف إلى مضاف إليك فالوجه أن تقول : يا غلام غلامي ، ويا ابن أخي .

وجوّزوا يا ابن أُمَّ ، يا ابن عمَّ ، لكثرتها في الكلام .

قال الزجاج والنحاس : ولكن لها وجه حسن جيّد ، يجعل الابن مع الأُم ومع العَمّ اسما واحداً ؛ بمنزلة قولك : يا خمسة عشر أقبلوا ، فحذفت الياء كما حذفت من يا غلام ﴿ إِنَّ القوم استضعفوني ﴾ استذلُّوني وعدّوني ضعيفاً .

﴿ وَكَادُواْ ﴾ أي قاربوا .

﴿ يَقْتُلُونَنِي ﴾ بنونين ؛ لأنه فعل مستقبل .

ويجوز الإدغام في غير القرآن .

﴿ فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعداآء ﴾ أي لا تُسرّهم .

والشماتة : السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدِّين والدنيا .

وهي محرّمة مَنْهِيٌّ عنها .

(28/289)

وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تظهر الشماتةَ بأخيك فيعافيه الله ويبتليك " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ منها ويقول : " اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من سوء القضاء ودَرْك الشقاء وشماتة الأعداء " أخرجه البخاريّ وغيره .

وقال الشاعر :

إذا ما الدّهرُ جرّ على أُناسٍ . . .

كَلاكِلَه أناخَ بآخرينا

فقل للشّامتين بنَا أَفِيقوا . . .

سَيَلقَى الشامتون كما لَقِينا

وقرأ مجاهد ومالك بن دِينار "تَشْمَت" بالنصب في التاء وفتح الميم ، "الأعداءُ" بالرفع .

والمعنى : لا تفعل بي ما تشمت من أجله الأعداء ، أي لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله أنت بي .

وعن مجاهد أيضاً "تَشْمَتْ" بالفتح فيهما "الأعداءَ" بالنصب .

قال ابن جِنّي : المعنى فلا تشمت بي أنت يا رب .

وجاز هذا كما قال : ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 15] ونحوه .

ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلاً نصب به الأعداء ؛ كأنه قال : ولا تشمت بي ، الأعداء .

قال أبو عبيد : وحكيت عن حُميد : "فلا تشمِت" بكسر الميم .

قال النحاس : ولا وجه لهذه القراءة ؛ لأنه إن كان من شَمِت وجب أن يقول تشمت .

وإن كان من أشمت وجب أن يقول تشمت وقوله : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين ﴾ قال مجاهد : يعني الذين عبدوا العجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(29/289)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾

يعني لما رجع موسى من مناجاة ربه إلى قومه بني إسرائيل رجع غضبان أسفاً لأن الله تعالى كان قد أخبره أنه قد فتن قومه وأن السامري قد أضلهم فكان موسى في حال رجوعه غضبان أسفاً .

قال أبو الدرداء : الأسف أشد الغضب .

وقال ابن عباس والسدي : الأسف الحزن والأسيف الحزين .

قال الواحدي والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضب وإذا جاءك ما تكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزناً والأخرى غضباً فعلى هذا كان موسى غضبان من قومه لأجل عبادتهم العجل آسفاً حزيناً لأن الله تعالى فتنهم وأن الله تعالى كان قد أعلمه بذلك فحزن لأجل ذلك ﴿ قال ﴾ يعني موسى لقومه ﴿ بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ أي بئس الفعل فعلتم بعد فراقي إياكم هذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل من السامي وأتباعه أو لهارون من بني إسرائيل فعلى الاحتمال الأول في أنه خطاب لعبدة العجل يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله وعلى الاحتمال الثاني وهو أن يكون الخطاب لهارون ومن معه من المؤمنين يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى وقد رأيتم مني الأمر بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له ونفي الشركاء عنه وحمل بني إسرائيل على ذلك ومن حق الخلفاء أن يسروا لسيرة مستخلفهم وقوله ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ معنى العجلة التقدم بالشيء قبل وقته ولذلك صارت مذومة والسرعة غير مذمومة لأن معناها عمل الشيء في أول وقته ولقائل أن يقول لو كانت العجلة مذمومة لم يقل موسى

﴿ عجلت إليك رب لترضى ﴾ ومعنى الآية أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له .

وقال الحسن : أعجلتم وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين وذلك أنه لم يأت على رأس الثلاثين فقد مات وقيل معناه أعجلتم سخط ربكم بعبادة العجل .

(30/289)

وقال الكلبي : معناه أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم ولما ذكر الله تعالى أن موسى رجع إلى قومه غضبان أسفاً ذكر بعده ما أوجبه الغضب فقال تعالى : ﴿ وألقى الألواح ﴾ يعني التي فيها لاتوراة وكان حاملاً لها فألقاها من شدة الغضب قالت الرواة وأصحاب الأخبار : كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباع وبقي سبع واحد رفع منها ما كان من أخبار الغيب وبقي ما فيه المواعظ والأحكام والحلال والحرام ، وروى أن الله تعالى أخبر موسى بفتنة قومه وعرف موسى أن ما أخبره الله سبحانه وتعالى به حق وصدق ومع ذلك لم يلق التوراة من يده فلما رجع إلى قومه وعاين ذلك وشاهده ألقى التوراة وهذا كما قيل ليس الخبر كالمعاينة ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ قيل إنه أخذ بشعر رأسه ولحيته من شدة غضبه وقال ابن الأنباري لما رجع موسى ووجد قومه مقيمين على المعصية أكبر ذلك واستعظمه فأقبل على أخيه

هارون يلومه ومد يده إلى رأسه لشدة موجدته عليه إذا لم يلحق به فيعرفه خبر بني إسرائيل فيرجع ويتلافاهم فأعلمه هارون عليه السلام أنه إنما أقام بين أظهرهم خوفاً على نفسه من القتل وهو قوله تعالى ﴿ قال ﴾ يعني هارون ﴿ ابن أم ﴾ إذ قال هارون لموسى ابن أم وإن كانا لأب وأم ليرققه ويستعطفه عليه ﴿ إن القوم ﴾ يعني الذين عبدوا العجر ﴿ استضعفوني ﴾ أي استذلوني وقهروني ﴿ وكادوا يقتلونني ﴾ أي وقاربوا أهمّوا أن يقتلوني ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ﴾ أصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان إذا سر بمكروه نزل به والمعنى لا تسر الأعداء بما تنال مني من مكروه ﴿ ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ يعني الذين عبدوا العجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(31/289)

وقال أبو حيان :

﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم ﴾ ، ﴿ أي رجع ﴾ من المناجاة يروي أنه لما قرب من محلة بني إسرائيل سمع

أصواتهم فقال هذه أصوات قوم لاهين فلما تحقق عكوفهم على عبادة العجل داخلة الغضب والأسف وألقى الألواح.

(32/289)

وقال الطبري أخبره تعالى قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل فلذلك رجع وهو غاضب ويدلّ على هذا القول قوله ﴿ إنا قَد فتنا قومك من بعدك وأضلّهم السامري ﴾ الآية و ﴿ غضبان ﴾ من صفات المبالغة والغضب غليان القلب بسبب حصول ما يؤلم وذكروا أنه عليه السلام كان من أسرع الناس غضباً وكان سريع الفيئة ، قال ابن القاسم : سمعت مالكاً يقول كان إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته ورفع شعر بدنه جبته و ﴿ أسفاً ﴾ من أسف فهو أسف كما تقول فرق فهو فرْق يدلّ على ثبوت الوصف ولو ذهب به مذهب الزمان لكان على فاعل فيقال : آسف والآسف الحزين قاله ابن عباس والحسن والسدي أو الجزع قاله مجاهد أو المتلهف أو الشديد الغضب قاله الزمخشري وابن عطية قال : وأكثر ما يكون بمعنى الحزين أو المغضب قاله ابن قتيبة أو النادم قاله القتبي أيضاً ، أو متقاربان قاله الواحدي قال : فإذا أتاك ما تكره ممن دونك غضبت أو ممن فوقك حزنت فأغضبه عبادتهم العجل وأحزنه فتنة الله إياهم وكان قد أخبره بذلك بقوله ﴿ إنا قد فتنا قومك من بعدك

﴿ وتقدّم الكلام على ﴿ بئسما ﴾ في أوائل البقرة والخطاب إما للسامري وعباد العجل أي ﴿ بئسما ﴾ قمتم مقامي حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله تعالى وأما لوجوه بني إسرائيل هارون والمؤمنين حيث لم يكفوا من عبد غير الله و﴿ خلفتموني ﴾ يدلّ على البعدية في الزمان والمعنى هنا من بعد ما رأيتم مني توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه وإخلاص العبادة له أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وأكفهم عن ما طمحت إليه أبصارهم من عبادة البقر ومن حق الخلف أن يسير سيرة المستخلف ولا يخالفه ويقال خلفه بخير أو شرّ إذا فعله عن ترك من بعده .

(33/289)

﴿ أعجلتم ﴾ استفهام إنكار قال الزمخشري يقال : عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره ويضمن معنى سبق فيعدّى تعديته ، فيقال : عجلت الأمر والمعنى ﴿ أعجلتم ﴾ عن ﴿ أمر ربكم ﴾ وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ، ولم أرجع إليكم فحدّثتم أنفسكم بموتي فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم ، وروي أن السامري قال لهم أحين أخرج إليهم العجل هذا إلهكم وإله موسى أن موسى لن يرجع وأنه قد مات انتهى .

وقال ابن عطية : معناه أسابقتم قضاء ربكم واستعجلتم إتياني من قبل الوقت الذي قدّرته انتهى ، وقال يعقوب : يقال عجلت الشيء سبقته وأعجلت الرجل استعجلته أي حملته على العجلة انتهى ، وقيل : معناه أعجلتم ميعاد ربكم أربعين ليلة ، وقيل : أعجلتم سخط ربكم ، وقيل : أعجلتم بعبادة العجل ، وقيل : العجلة التقدّم بالشيء في غير وقته ، قيل : وهي مذمومة ويضعفه قوله وعجلت إليك ربّ لترضى والسرعة المبادرة بالشيء في غير وقته وهي محمودة .

﴿ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ﴾ أي ﴿ الألواح ﴾ التوراة وكان حاملاً لها فوضعها بالأرض غضباً على ما فعله قومه من عبادة العجل وحمية لدين الله وكان كما تقدم شديد الغضب وقالوا كان هارون ألين منه خلقاً ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل منه .

(34/289)

وقيل : ألقاها دهشاً لما دهمه من أمرهم ، وعن ابن عباس : أن موسى عليه السلام لما ألقاها تكسرت فرفع أكثرها الذي فيه تفصيل كل شيء وبقي الذي في نسخته الهدى والرحمة وهو الذي أخذ بعد ذلك ، وروى أنه رفع ستة أسباعها وبقي سبع قاله جماعة من المفسرين ، وقال أبو الفرج بن الجوزيّ لا يصحّ أنه رماها رمي كاسر انتهى ، والظاهر أنه

ألقاها من يديه لأنهما كانتا مشغولتين بها وأراد إمساك أخيه وجرّه ولا يتأتى ذلك إلا بفراغ يديه لجرّه وفي قوله ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ﴾ دليل على أنها لم تتكسر ودليل على أنه لم يرفع منها شيء والظاهر أنه أخذ برأسه أي أمسك رأسه جاره إليه ، وقيل : بشعر رأسه ، وقيل : بذوائبه ولحيته ، وقيل : بلحيته ، وقيل : بأذنه ، وقيل : لم يأخذ حقيقة وإنما كان ذلك إشارة فخشي هارون أن يتوّهم الناظر إليهما أنه لغضب فلذلك نهاه ورغب إليه والظاهر أن سبب هذا الأخذ هو غضبه على أخيه وكيف عبدوا العجل وهو قد استخلفه فيهم وأمره بالإصلاح وأن لا يتبع سبيل من أفسد وكيف لم يزجرهم ويكفهم عن ذلك ويدلّ على هذا الظاهر قوله : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ وقوله :

﴿ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾ ، قال الزمخشري : أي بشعر رأسه يجره إليه بذوائبه وذلك لشدة ما ورده عليه من الأمر الذي استفزّه وذهب بفطنته وظنّاً بأخيه أن فرط في الكفّ ، وقيل : ذلك الأخذ والجر كان ليسر إليه أنه نزل عليه الألواح في مناجاته وأراد أن يخفيها عن بني إسرائيل فنهاه هارون لئلا يشتبه سراره على بني إسرائيل بإذلاله وقيل : ضمه ليعلم ما لديه فكره ذلك هارون لئلا يظنوا أهانته وبيّن له أخوه أنهم استضعفوه ، وقيل : كان ذلك على سبيل الإكرام لا على سبيل الإهانة كما تفعل العرب من قبض الرجل على لحية أخيه .

﴿ قال ابنَ أمّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمِت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ ناداه نداء استضعاف وترفق وكان شقيقه وهي عادة العرب تتلطف وتتحنن بذكر الأمّ كما قال :

يا ابن أمي ويا شقيق نفسي . . .

وقال آخر :

يا ابن أمي فدتك نفسي ومالي . . .

وأيضاً فكانت أمهما مؤمنة قالوا : وكان أبوه مقطوعاً عن القرابة بالكفر كما قال تعالى لنوح عليه السلام : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ وأيضاً لما كان حقها أعظم لمقاساتها الشدائد في حمله وتربيته والشفقة عليه ذكره بحقها ، وقرأ الحرميان وأبو عمرو وحفص : ﴿ ابن أمّ ﴾ بفتح الميم ، فقال الكوفيون : أصله يا ابن أماه فحذفت الألف تخفيفاً كما حذفت في يا غلام وأصله يا غلاماً وسقطت هاء السكت لأنه درج فعلى هذا الاسم معرب إذ الألف منقلبة عن ياء المتكلم فهو مضاف إليه ابن ، وقال سيبويه : هما اسمان بنيا على الفتح كاسم واحد كخمسة عشر ونحوه فعلى قوله ليس مضافاً إليه ابن والحركة حركة بناء ، وقرأ باقي

السبعة بكسر الميم فقياس قول الكوفيّين أنه معرب وحذفت ياء المتكلم واجتزىء بالكسرة عنها كما اجتزؤوا بالفتحة عن الألف المنقلبة عن ياء المتكلم ، وقال سيبويه هو مبنيّ أضيف إلى ياء المتكلم كما قالوا يا أحد عشر أقبلوا وحذفت الياء واجتزؤوا بالكسرة عنها كما اجتزؤوا في

(36/289)

﴿ يا قَوم ﴾ ولو كانا باقيين على الإضافة لم يجز حذف الياء لأنّ الاسم ليس بمنادى ولكنه مضاف إليه المنادى فلا يجوز حذف الياء منه ، وقرىء بإثبات ياء الإضافة وأجود اللغات الاجتزاء بالكسرة عن ياء الإضافة ثم قلب الياء ألفاً والكسرة قبلها فتحة ثم حذف التاء وفتح الميم ثم إثبات التاء مفتوحة أو ساكنة وهذه اللغات جائزة في ابنة أمي وفي ابن عمي وابنة عمي ، وقرىء يا ابن أمي بإثبات الياء وابن إمّ بكسر الهمزة والميم ومعمول القول المنادى والجملة بعده المقصود بها تخفيف ما أدرك موسى من الغضب والاستعذار له بأنه لم يقصّر في كفّهم من الوعظ والإنذار وما بلغته طاقته ولكنهم استضعفوه فلم يلتفتوا إلى وعظه بل قاربوا أن يقتلوه ودلّ هذا على أنه بالغ في الإنكار عليهم حتى همّوا بقتله ومعنى ﴿ استضعفوني ﴾ وجدوني فهي بمعنى إلفاء الشيء بمعنى ما صيغ منه أي اعتقدوني

ضعيفاً ، وتقدّم ذلك في قوله ﴿ للذين استضعفوا ﴾ ولما أبدى له ما كان منهم من الاستضعاف له ومقاربة قتلهم إياه سأله ترك ما يسرهم بفعله فقال ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ﴾ أي لا تسرّهم بما تفعل بي فأكون ملوماً منهم ومنك ، وقال الشاعر :

والموت دون شماتة الأعداء . . .

(37/289)

وقرأ ابن محيصن ﴿ تشمت ﴾ بفتح التاء وكسر الميم ونصب ﴿ الأعداء ﴾ ومجاهد كذلك إلا أنه فتح الميم وشمت متعدّية كأشمت وخرّج أبو الفتح قراءة مجاهد على أن تكون لازمة والمعنى فلا تشمت أنت يا ربّ وجاز هذا ، كما قال الله يستهزىء بهم ونحو ذلك ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلاً نصب به الأعداء كقراءة الجماعة انتهى ، وهذا خروج عن الظاهر وتكلّف في الإعراب وقد روي تعدّى شمت لغة فلا يتكلّف أنها لازمة مع نصب الأعداء وأيضاً قوله : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ إنما ذلك على سبيل المقابلة لقولهم ﴿ إنما نحن مستهزءون ﴾ فقال : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ وكقوله ﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾ ولا يجوز ذلك ابتداءً من غير مقابلة وعن مجاهد ﴿ فلا تشمت ﴾ بفتح التاء والميم ورفع ﴿ الأعداء ﴾ ، وعن حميد بن قيس كذلك إلا أنه كسر الميم جعلاه فعلاً لازماً فارتفع به

الأعداء فظاهره أنه نهى الأعداء عن الشماتة به وهو من باب لا أرينك هنا والمراد نهيه أخاه أي لا تحلّ بي مكروهاً فيشمتوا بي وبدأ أوّلاً بسؤال أخيه أن لا يشمت به الأعداء لأنّ ما يوجب الشماتة هو فعل مكروه ظاهر لهم فيشمتوا به فبدأ بالأوكد ثم سأله أن لا يجعله ولا يعتقده واحداً من الظالمين إذ جعله معهم واعتقاده من جملتهم هو فعل قلبي وليس ظاهراً لبني إسرائيل أو يكون المعنى ﴿ ولا تجعلني ﴾ في موجدتك عليّ قريناً لهم مصاحباً لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(38/289)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ ﴾

شروعٌ في بيان ما جرى من موسى عليه السلام بعد رجوعِه من الميقات إثرَ بيانِ ما وقع من قومه بعده ، وقولُه تعالى : ﴿ غضبان أَسِفًا ﴾ حالان من موسى عليه السلام أو الثاني من المستكنّ في غضبانَ والآسِفُ الشديدُ الغضبِ وقيل : الحزين ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى ﴾ أي بئسما فعلتم من بعد غَيْبتي حيث عبدتم العجلَ بعد ما رأيتم فعلي من توحيد الله تعالى ونفيِ الشركاءِ عنه وإخلاصِ العبادةِ له أو من حملكم على ذلك وكفِّكم

عما طمَحَت نحوه أبصارُكم حيث قلتم : اجعلْ لنا إلها كما لهم آلهةٌ ومن حق الخلفاءِ أن يسيروا بسيرة المستخلِفِ فالخطابُ للعبَدَة من السامريِّ وأشياعِه ، أو بئسما قمتم مَقامي ولم ترعوا عهدي حيث لم تكفوا العبَدَةَ عما فعلوا ، فالخطابُ لهارونَ ومن معه من المؤمنين كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا هارون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّواْ أَن لا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ ويجوز أن يكون الخطابُ للكل على أن المرادَ بالخليفة ما يعم الأمرين المذكورين ، وما نكرةٌ موصوفةٌ مفسِّرةٌ لفاعل بئس المستكنِّ فيه والمخصوصُ بالذم محذوفٌ تقديره بئس خلافةً خلفتمونيها من بعدي خلافتُكم ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أي تركتموه غيرَ تام على تضمين عجِلَ معنى سبَق ، يقال : عجِل عن الأمر إذا تركه غيرَ تام أو أعجلتم وعدَ ربِّكم الذي وعدنيه من الأربعين وقدّرتم موتي وغيّرتم بعدي كما غيرت الأممُ بعد أنبيائِهم ﴿ وَأَلْقَى الالواح ﴾ طرحها من شدة الغضبِ وفرطِ الضجر حميةً للدين . روي أن التوراةَ كانت سبعةَ أسباعٍ في سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفعت ستةُ أسباعِها التي كان فيها تفصيلُ كلِّ شيءٍ وبقي سُبعٌ كان فيه المواعظُ والأحكامُ ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ بشعر رأسِه عليهما السلام ﴿ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ حال من (أخذ) ، فعلَه عليه السلام توهما أنه قصّر في كفهم ، وهارونُ

كان أكبرَ منه عليهما السلام بثلاث سنينَ وكان حَمولاً ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيل .

﴿ قَالَ ﴾ أي هارون لموسى عليهما السلام ﴿ ابن أُمَّ ﴾ بحذف حرف النداءِ ، وتخصيصُ الأم بالذكر مع كونهما شقيقين لما أن حقّ الأمِّ أعظمُ وأحقُّ بالمراعاة مع أنها كانت مؤمنةً وقد قاست فيه المخاوفَ والشدائد وقرى بكسر الميم بإسقاط الياءِ تخفيفاً كالمنادى لمضافِ إلى الياء وقراءةُ الفتح لزيادة التخفيف أو لتشبيهه بخمسةَ عشرَ ﴿ إِنَّ القوم استضعفونى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى ﴾ إزاحةً لتوهم التقصيرِ في حقه ، والمعنى بذلتُ جُهدي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي ﴿ فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ الاعداء ﴾ أي فلا تفعلْ بي ما يكون سبباً لشماتتهم بي ﴿ وَلاَ تَجْعَلْنِى مَعَ القوم الظالمين ﴾ أي معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير ، وهذا يؤيد كونَ الخطابِ للكل ، أو لا تعتقد أني واحدٌ من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(40/289)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ ﴾

مما حدث منهم ﴿ أَسَفاً ﴾ أي شديد الغضب كما قال أبو الدرداء . ومحمد القرظي .

وعطاء . والزجاج.

أو حزيناً على ما روي عن ابن عباس .

والحسن .

وقتادة رضي الله تعالى عنهم ، وقال أبو مسلم : الغضب والأسف بمعنى والتكرير

للتأكيد .

وقال الواحدي : هما متقاربان فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت ، فعلى هذا كان موسى عليه السلام غضبان على قومه باتخاذهم العجل حزيناً لأن الله تعالى فتنهم ، وقد أخبره سبحانه بذلك قبل رجوعه ، ونصب الوصفين على أنهما حالان مترادفان أو متداخلان بأن يكون الثاني حالاً من الضمير المستتر في الأول ، وجوز أبو البقاء أن يكون بدلاً من الحال الأولى وهو بدل كل لا بعض كما توهم .

﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ﴾ خطاب إما لعبدة العجل وإما لهارون عليه السلام ومن معه من المؤمنين أي بئسما ما فعلتم بعد غيبتي حيث عبدتم العجل بعد ما رأيتم مني من توحيد الله تعالى ونفى الشركاء عنه سبحانه وإخلاص العبادة له جل جلاله ، أو بئسما

قمتم مقامي حيث لم تراعوا عهدي ولم تكفوا العبدة عما فعلوا بعد ما رأيتم مني من حملهم على التوحيد وكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف : 138] .

(41/289)

وجوز أن يكون على الخطاب للفريقين على أن المراد بالخلافة الخلافة فيما يعم الأمرين اللذين أشير إليهما ولا تكرار في ذكر ﴿ مِن بَعْدِى ﴾ بعد ﴿ خَلَفْتُمُونِى ﴾ لأن المراد من بعد ولايتي وقيامي بما كنت أقوم إذ بعديته على الحقيقة إنما تكون على ما قيل بعد فراقه الدنيا ، وقيل : إن ﴿ مِن بَعْدِى ﴾ تأكيد من باب رأيته بعيني وفائدته تصوير نيابة المستخلف ومزاولة سيرته كما أن هنالك تصوير الرؤية وما يتصل بها ، و ﴿ مَا ﴾ نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس المستكن فيه والمخصوص بالذم محذوف أي بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم ، والذم فيما إذا كان الخطاب لهارون عليه السلام ومن معه من المؤمنين ليس للخلافة نفسها بل لعدم الجري على مقتضاها ، وأما إذا كان للسامري وأشياعه فالأمر ظاهر ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أي أعجلتم عما أمركم به ربكم وهو انتظار موسى عليه السلام حال كونهم حافظين لعهده وما وصاهم به فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ

آخره ولم أرجع إليكم فحدثتم أنفسكم بموتي فغيرتم .

روي أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل ، وقال : إن هذا إلهكم وإله موسى إن موسى لن يرجع وإنه قد مات .

وروي أنهم عدوا عشرين يوماً بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا .

والمعروف تعدي ﴿ عَجَلٍ ﴾ بعن لا بنفسه فيقال : عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره وضمنوه هنا معنى السبق وهو كناية عن الترك فتعدى تعديته ولم يضمن ابتداء معنى الترك لخفاء المناسبة بينهما وعدم حسنها .

وذهب يعقوب إلى أن السبق معنى حقيقي له من غير تضمين ، والأمر واحد الأوامر .

(42/289)

وعن الحسن أن المعنى أعجلتم وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين فالأمر عليه واحد الأمور والمراد بهذه الأربعين على ما ذكره الطيبي غير الأربعين التي أشار الله تعالى إليها بقوله سبحانه : ﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : 142] وسيأتي تتمة الكلام في ذلك قريباً إن شاء الله تعالى .

﴿ وَأَلْقَى الالواح ﴾ أي وضعها على الأرض كالطارح لها ليأخذ برأس أخيه مما عراه من

فرط الغيرة الدينية وكان عليه السلام شديد الغضب لله سبحانه .

فقد أخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم أنه عليه السلام كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً .

وقال القاضي ناصر الدين : أي طرحها من شدة الغضب وفرط الضجرة حمية للدين ، ثم نقل أنه انكسر بعضها حين ألقاها ، واعترض عليه أفضل المتأخرين شيخ مشايخنا صبغة الله أفندي الحيدري بأن الحمية للدين إنما تقتضي احترام كتاب الله تعالى وحمايته أن يلحق به نقص أو هوان بحيث تنكسر ألواحه ثم قال : والصواب أن يقال : إنه عليه السلام لفرط حميته الدينية وشدة غضبه لله تعالى لم يتمالك ولم يتماسك أن وقعت الألواح من يده بدون اختيار فنزل ترك التحفظ منزلة الإلقاء الاختياري فعبر به تغليظاً عليه عليه السلام فإن حسنات الأبرار سيآت المقربين انتهى .

(43/289)

وتعقبه العلامة صالح أفندي الموصلي عليه الرحمة بأنه لا يخفى أن هذا الإيراد إنما نشأ من جعل قول القاضي حمية للدين مفعولاً له لطرحها وهو غير صحيح ، فقد صرح في أوائل تفسيره لسورة طه بأن الفعل الواحد لا يتعدى لعلتين وإنما هو مفعول له لشدة الغضب وفرط

الضجرة على سبيل التنازع ، والتوجيه الذي ذكر للآية هو ما أراده القاضي وتفسيره الإلقاء بالطرح لا ينافي ذلك على ما لا يخفى ا ه ، وأقول أنت تعلم أن كون هذا التوجيه هو ما أراده القاضي غير بين ولا مبين على أن حديث كون التعبير بالإلقاء تغليظاً عليه عليه السلام منحط عن درجة القبول جداً إذ ليس في السباق ولا في السياق ما يقضي بكون المقام عتاب موسى عليه السلام ليفتي بهذا التغليظ نظراً إلى مقامه صلى الله عليه وسلم بل المقام ظاهر في الحط على قومه كما لا يخفى على من له أدنى حظ من رفيع النظر ، والذي يراه هذا الفقير ما أشرنا إليه أولاً .

وحاصله أن موسى عليه السلام لما رأى من قومه ما رأى غضب غضباً شديداً حمية للدين وغيرة من الشرك برب العالمين فعجل في وضع الألواح لتفرغ يده فيأخذ برأس أخيه فعبر عن ذلك الوضع بالإلقاء تفظيعاً لفعل قومه حيث كانت معاينته سبباً لذلك وداعياً إليه مع ما فيه من الإشارة إلى شدة غيرته وفرط حميته وليس في ذلك ما يتوهم منه نوع إهانة لكتاب الله تعالى بوجه من الوجوه ، وانكسار بعض الألواح حصل من فعل مأذون فيه ولم يكن غرض موسى عليه السلام ولا مر بباله ولا ظن ترتبه على ما فعل ، وليس هناك إلا العجلة في الوضع الناشئة من الغيرة لله تعالى ، ولعل ذلك من باب

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ [طه : 84] واختلفت الروايات في مقدار ما تكسر ورفع ، وبعضهم أنكر ذلك حيث أن ظاهر القرآن خلافه .

نعم أخرج أحمد وغيره .

وعبد بن حميد .

والبزار .

وابن أبي حاتم .

وابن حبان .

(44/289)

والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يرحم الله تعالى موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر " فتأمل ولا تغفل ، وما روي عن ابن عباس أن موسى عليه السلام لما ألقى الألواح رفع منها ستة أسباع وبقي سبع ، وكذا ما روي عن غيره نحوه مناف لما روي فيما تقدم من أن التوراة نزلت سبعين وقرا يقرأ الجزء منهفي سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر .

موسى .

ويوشع .

وعزير .

وعيسى عليهم السلام .

وكذا لما يذكر بعد من قوله تعالى : ﴿ أَخَذَ الالواح ﴾ [الأعراف : 154] فإن الظاهر منه العهد .

(45/289)

والجواب بأن الرفع لما فيها من الخط دون الألواح خلاف الظاهر والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ أي بشعر رأس هارون عليه السلام لأنه الذي يؤخذ ويمسك عادة ولا ينافي أخذه بلحيته كما وقع في سورة طه أو أدخل فيه تغليباً ﴿ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ ظناً منه عليه السلام أنه قصر في كفهم ولم يتمالك لشدة غضبه وفرط غيظه أن فعل ذلك وكان هارون أكبر من موسى عليهما السلام بثلاث سنين إلا أن موسى أكبر منه مرتبة وله الرسالة والرياسة استقلالاً وكان هارون وزيراً له وكان عليه السلام حمولاً ليناً جداً ولم يقصد موسى بهذا الأخذ إهانته والاستخفاف به بل اللوم الفعلي على التقصير المظنون بحكم الرياسة وفرط الحمية ، والقول بأنه عليه السلام إنما أخذ رأس أخيه ليساره ويستكشف منه كيفية الواقعة مما يأباه الذوق كما لا يخفى على ذويه ، ومثله القول بأنه إنما

كان لتسكين هارون لما رأى به من الجزع والقلق ، وقال أبو علي الجبائي : إن موسى عليه السلام أجرى أخاه مجرى نفسه فصنع به ما يصنع الإنسان به عند شدة الغضب ، وقال الشيخ المفيد من الشيعة : إن ذلك للتألم من ضلال قومه وإعلامهم على أبلغ وجه عظم ما فعلوه لينزجروا عن مثله ولا يخفى أن الأمر على هذا من قبيل :

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم . . .

فكأنني سبابة المتندم

ولعل ما أشرنا إليه هو الأولى .

(46/289)

وجملة ﴿ يَجُرُّهُ ﴾ في موضع الحال من ضمير موسى أو من رأس أو من أخيه لأن المضاف جزء منه وهو أحد ما يجوز فيه ذلك ، وضعفه أبو البقاء ﴿ قَالَ ﴾ أي هارون مخاطباً لموسى عليه السلام إزاحة لظنه ﴿ ابن أُمَّ ﴾ بحذف حرف النداء لضيق المقام وتخصيص الأم بالمذكر مع كونهما شقيقين على الأصح للترقيق ، وقيل : لأنها قامت بتربيته وقاست في تخليصه المخاوف والشدائد ، وقيل : إن هارون عليه السلام كانت آثار الجمال والرحمة فيه ظاهرة كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هارون نَبِيّاً ﴾ [

مريم : 53] وكان مورده ومصدره ذلك ، ولذا كان يلهج بذكر ما يدل على الرحمة ، ألا ترى كيف تلطق بالقوم لما قدموا على ما قدموا فقال : ﴿ يا قوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن ﴾ [طه : 90] ومن هنا ذكر الأم ونسب إليها لأن الرحمة فيها أتم ولولاها ما قدرت على تربية الولد وتحمل المشاق فيها وهو منزع صوفي كما لا يخفى ، واختلف في اسم أمهما عليهما السلام فقيل : محيانة بنت يصهر بن لاوى ، وقيل : يوحانذ ، وقيل : يارخا ، وقيل : يازخت ، وقيل : غير ذلك ، ومن الناس من زعم أن لاسمها رضي الله تعالى عنها خاصية في فتح الأقفال وله رياضة مخصوصة عند أرباب الطلاسم والحروف وما هي إلا رهبانية ابتدعوها ما أنزل الله تعالى بها من كتاب .

وقرأ ابن عامر .

وحمزة .

والكسائي .

وأبو بكر عن عاصم هنا وفي طه ﴿ ابن أُمَّ ﴾ بالكسر وأصله ابن أمي فحذفت الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفاً كالمنادى المضاف إلى الياء .

(47/289)

وقرأ الباقون بالفتح زيادة في التخفيف أو تشبيهاً بخمسة عشر ﴿ إِنَّ القوم ﴾ الذين فعلوا ما فعلوا ﴿ استضعفونى ﴾ أي استذلوني وقهروني ولم يبالوا بي لقلة أنصاري ﴿ وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى ﴾ وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك ؛ والمراد أني بذلت وسعي في كفهم ولم آل جهداً في منعهم ﴿ فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ الاعداء ﴾ أي فلا تفعل ما يشمتون بي لأجله فإنهم لا يعلمون سر فعلك ، والشماتة سرور العدو بما يصيب المرء من مكروه .

وقرىء ﴿ فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ الاعداء ﴾ بفتح حرف المضارعة وضم الميم ورفع الأعداء حطهم الله تعالى وهو كناية عن ذلك المعنى أيضاً على حد لا أرينك ههنا .

والمراد من الأعداء القوم المذكورون إلا أنه أقيم الظاهر مقام ضميرهم ولا يخفى سره ﴿ وَلاَ تَجْعَلْنِى مَعَ القوم الظالمين ﴾ أي لا تجعلني معدوداً في عدادهم ولا تسلك بي سلوكك بهم في المعاتبة ، أو لا تعتقدني واحداً من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم ، فالجعل مثله في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف : 19] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(48/289)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [150] .

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ أي : شديد الغضب على قومه لعبادتهم العجل ، وحزيناً أي : على ما فاته من مناجاة ربه ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ ﴾ أي : بئسما عملتم خلفي ، أو قمتم مقامي ، وكنتم خلفائي من بعدي والخطاب إما لعبدة العجل ، من السامري وأشياعه ، أو لوجوه بني إسرائيل ، وهم هارون عليه السلام والمؤمنون معه . ويدل عليه قوله : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ ، وعلى التقدير يكون المعنى : بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى .

قال الرازي : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أي : ميعاده الذي وعدنيه من الأربعين ، فلم تصبروا إلى تمامها ، وكانوا استبطأوا نزوله من الجبل ، فتآمروا في صنع وثن يعبدونه ، وينضمون إليه ، وفعلوا ذلك وجعلوا يغنون ويرقصون ويأكلون ويشربون ويلعبون حوله ويقولون : هذا الإله الذي أخرجنا من مصر – عياذاً بالله – .

وقال أبو مسلم : معناه سبقتم أمر الله ، فعبدتم ما لم يأمركم به : ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ أي : طرحها من شدة الغضب ، وفرط الضجرة بين يديه فتكسرت ، وهي ألواح من حجارة كتب فيها الشرائع والوصايا الربانية ، وإنما ألقاها ، عليه السلام ، لما لحقه من فرط الدهش عند رؤيته عكوفهم على العجل ، فإنه عليه السلام لما نزل من الجبل ، ودنا من محلتهم رأى العجل ورقصهم حوله ، اتقد غضبه فألقاها غضباً لله ، وحمية لدينه ، وكان هو في نفسه حديداً ، شديد الغضب ، وكان هارون ألين منه جانباً ، ولذلك كان محبباً إلى قومه .

تنبيه :

قال السيوطي في " الإكليل " : استدل ابن تيمية بقوله تعالى

﴿ وأَلْقَى الأَلواحَ ﴾ على أن من ألقى كتاباً على يده ، إلى الأرض وهو غضبان ، لا يلام .

انتهى . وهو ظاهر .

﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ أي : بشعره ﴿ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ ظناً أن يكون قصر في نهيهم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي ﴾

وقال ههنا : ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ ﴾ قرئ الفتح والكسر .

وأصله يا ابن أمي ، خفف بحذف حرف النداء والياء ، وذكر الأم ليرققه عليه ، وقوله :

﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ إزاحة لتوهم التقصير في حقه .

والمعنى : بذلت وسعي في كفّهم حتى قهروني واستضعفوني ، وقاربوا قتلي ، ﴿ فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء ﴾ أي : بالإساءة إلي . الشماتة سرور الأعداء بما يصيب المرء ﴿ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : في عقوبتك لي ، في عدادهم ، أو لا تعتقد أني منهم ، مع براءتي وعدم تقصيري .

(50/289)

قال الجشمي : تدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط في حال الخوف على النفس ، وفي الحال الذي يعلم أنه لا ينفع ، لذلك قال هارون : ﴿ اسْتَضْعَفُونِي ﴾ . وتدل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود في الدين . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 189 . 191 ﴾

(51/289)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾

جُعل رجوع موسى إلى قومه غضبان كالأمر الذي وقع الإخبار عنه من قبلُ على الأسلوب المبين في قوله : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ [الأعراف : 143] وقوله : ﴿ ولما سُقط في أيديهم ﴾ [الأعراف : 149] .

فرجوع موسى معلوم من تَحقق انقضاء المدة الموعود بها ، وكونُه رجع في حالة غضب مشعر بأن الله أوحى إليه فأعلمه بما صنع قومُه في مغيبه ، وقد صرح بذلك في سورة طه (85) ﴿ قال فإنّا قد فتنّا قومك من بَعدِك وأضلهم السامري ﴾ ف ﴿ غضبان أسِفاً حَالان من موسى ، فهما قيدانِ لرجع ﴾ فعلم أن الغضب والأسف مقارنان للرجوع .

والغَضب تقدم في قوله : ﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ في هذه السورة (71) .

والأَسِف بدون مد ، صيغة مبالغة للآسف بالمد الذي هو اسم فاعل للذي حل به الأسف وهو الحزن الشديد ، أي رجع غضْبان من عصْيان قومه حزيناً على فساد أحوالهم ، وبئسما ضد نِعمّا ، وقد مضى القول عليه في قوله تعالى : ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ في سورة البقرة (93) ، والمعنى بئست خلافة خلفتمونيها خِلاَفتُكم .

وتقدم الكلام على فعل خَلف في قوله : ﴿ اخلُفْني في قومي ﴾ [الأعراف : 142]

قريباً .

وهذا خطاب لهارون ووجوه القوم ، لأنهم خلفاء موسى في قومهم فيكون ﴿ خلفتموني ﴾ مستعملاً في حقيقته ، ويجوز أن يكون الخطاب لجميع القوم ، فأما هارون فلأنه لم يُحسن الخلافة بسياسة الأمة كما كان يسوسها موسى ، وأما القوم فلأنهم عبدوا العجل بعد غيبة موسى ، ومن لوازم الخلافة فعل ما كان يفعله المخلُوف عنه ، فهم لما تركوا ما كان يفعله موسى من عبادة الله وصاروا إلى عبادة العجل فقد انحرفوا عن سيرته فلم يخلفوه في سيرته ، وإطلاق الخلافة على هذا المعنى مجاز فيكون فعل ﴿ خلفتموني ﴾ مستعملاً في حقيقته ومجازه .

(52/289)

وزيادة ﴿ مِن بعدي ﴾ عقب ﴿ خلفتموني ﴾ للتذكير بالبَون الشاسع بين حال الخلف وحال المخلوفَ عنه تصوير لفظاعة ما خلفوه به أي بعد ما سمعتم مني التحذير من الإشراك وزجركم عن تقليد المشركين حين قلتم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، فيكون قيد ﴿ من بعدي ﴾ للكشف وتصوير الحالة كقوله تعالى : ﴿ فخَر عليهم السقُف من فوقِهم ﴾ [النحل : 26] ، ومعلوم أن السقف لا يكون إلاّ من فوق ، ولكنه ذكر لتصوير حالة الخرور

وتهويلها ، ونظيره قوله تعالى ، بعد ذكر نفر من الأنبياء وصفاتهم ، ﴿ فخلف من بعدهم خَلْف ﴾ [الأعراف : 169] أي من بعد أولئك الموصوفين بتلك الصفات .

و"عَجلَ" أكثرَ ما يستعمل قاصراً ، بمعنى فعل العجلة أي السرعة ، وقد يتعدى إلى المعمول "بعن" فيقال : عجلَ عن كذا بمعنى لم يتمّه بعد أن شَرَع فيه ، وضده تَم على الأمر إذا شرع فيه فأتّمه ، ويستعمل عَجِل مضمناً معنى سَبَق فعدّيَ بنفسه على اعتبار هذا المعنى ، وهو استعمال كثير .

ومعنى "عَجِل" هنا يَجوز أن يكون بمعنى لم يُتّمَ ، وتكون تعديته إلى المفعول على نزع الخافض .

(53/289)

والأمرُ يكون بمعنى التكليف وهو ما أمرهم الله به : من المحافظة على الشريعة ، وانتظار رجوعه ، فلم يتموا ذلك واستعجلوا فبدلوا وغيروا ، ويجوز أن يكون بمعنى سَبق أي بادرتم فيكون الأمر بمعنى الشأن أي الغضب والسخط كقوله : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل : 1] وقوله : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ [هود : 40] فالأمر هو الوعيد ، فإن الله حذرهم من عبادة الأصنام وتوعدهم ، فكان الظن بهم إن وقع منهم ذلك

إن يقع بعد طول المدة ، فلما فعلوا ما نُهوا عنه بحدثان عهد النهي ، جُعلوا سابقين له على طريقة الاستعارة : شبهوا في مبادرتهم إلى أسباب الغضب والسخط بسبق السابق المسبوقَ ، وهذا هو المعنى الأوضح ، ويوضحه قوله ، في نظير هذه القصة في سورة طه (86) ، حكاية عن موسى : ﴿ قال يا قوم ألم يَعدْكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ﴾ وقد تعرضت التوراة إلى شيء من هذا المعنى في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج "وقال الله لموسى رأيتُ هذا الشّعْب فإذا هو شعب صلْب الرقبة فالآن اتركني ليحميَ غَضبي عليهم فأفنيهم" .

وإلقاء الألواح رَميُها من يده إلى الأرض ، وقد تقدم بيان الإلقاء آنفاً .

وذلك يؤذن بأنه لما نزل من المناجاة كانت الألواح في يده كما صرح به في التوراة .

ثم إن إلقاءه إياها إنما كان إظهاراً للغضب ، أو أثراً من آثار فوران الغضب لما شاهدهم على تلك الحالة ، وما ذكر القرآن ذلك الإلقاءَ إلاّ للدلالة على هذا المعنى إذ ليس فيه من فوائد العبرة في القصة إلاّ ذلك ، فلا يستقيم قول من فسرها بأن الإلقاء لأجل إشغال يده بجرّ رأس أخيه ، لأن ذكر ذلك لا جرور فيه ، ولأنه لو كان كذلك لعطف ، وأخذ برأس أخيه بالفاء .

وروي أن موسى عليه السلام كان في خلقه ضيق ، وكان شديداً عند الغضب ، ولذلك وكزَ القبطي فقضى عليه ، ولذلك أخذ برأس أخيه يجره إليه ، فهو دليل على فظاعة الفعل الذي شاهده من قومه ، وذلك علامة على الفظاعة ، وتشنيع عليهم ، وليس تأديباً لهم ، لأنه لا يكون تأديبهم بإلقاء ألواح كُتب فيها ما يصلحهم ، لأن ذلك لا يناسب تصرف النبوءة (ولذلك جزمنا بأن إعراض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كتابة الكتاب الذي هَمَّ بكتابته قبيل وفاته لم يكن تأديباً للقوم على اختلافهم عنده ، كما هو ظاهر قول ابن عباس ، بل إنما كان ذلكِ لما رأى من اختلافهم في ذلك ، فرأى أن الأوْلى ترك كتابته ، إذ لم يكن الدين محتاجاً إليه) ووقع في التوراة أن الألواح تكسرت حين ألقاها ، وليس في القرآن ما يدل على ذلك سوى أن التعبير بالإلقاء الذي هو الرمي ، ومَا روي من أن الألواح كانت من حجر ، يقتضي أنها اعتراها انكسار ، ولكن ذلك الانكسار لا يُذهب ما احتوت عليه من الكتابة ، وأما ما روي أنها لما تكسرت ذهب ستة أسباعها ، أو ذهب تفصيلها وبقيت موعظتها ، فهو من وضع القصّاصين والله تعالى يقول:

﴿ ولما سكت عن موسى الغضبُ أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ [الأعراف : 154] .

وأما أخذه برأس أخيه هارون يجره إليه ، أي إمساكه بشعر رأسه ، وذلك يوله ، فذلك

تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدة على عَبدَة العجل ، واقتصاره على تغيير ذلك عليهم بالقول ، وذلك دليل على أنه غير معذور في اجتهاده الذي أفصح عنه بقوله : ﴿ إني خشيت أن تقول فرقْت بين بني إسرائيل ولم تَرْقُب قولي ﴾ [طه : 94] لأن ضعف مستنده جعله بحيث يستحق التأديب ، ولم يكن له عذراً ، وكان موسى هو الرسول لبني إسرائيل ، وما هارون إلاّ من جملة قومه بهذا الاعتبار ، وإنما كان هارون رسولاً مع موسى لفرعون خاصة ، ولذلك لم يسَعْ هارونَ إلاّ الاعتذارُ والاستصفاح منه .

(55/289)

وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه ، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البَعيد ولا يظن بأن موسى عاقب هارون قبل تحقق التقصير .

وفصلت جملةٌ : ﴿ قال ابن أم ﴾ لوقوعها جوابها لحوار مقدر دل عليه قوله ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ لأن الشأن أن ذلك لا يقع إلاّ مع كلام توبيخ ، وهو ما حكي في سورة طه (92 ، 93) بقوله : ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضَلوا ألاَّ تتبعنِ أفعصيت أمري ﴾ على عادة القرآن في توزيع القصة ، واقتصاراً على موقع العبرة ؛ ليخالف أسلوبُ

قصَصه الذي قصد منه الموعظة أساليبَ القصّاصين الذين يقصدون الخبر بكل ما حدث .

و﴿ ابنَ أم ﴾ منادى بحذف حرف النداء ، والنداء بهذا الوصف للترقيق والاستشفاع ، وحذف حرف النداء لإظهار ما صاحب هارون من الرعب والاضطراب ، أو لأن كلامه هذا وقع بعد كلام سبقه فيه حرف النداء وهو المحكي في سورة طه (94) ﴿ قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ﴾ ثم قال ، بعد ذلك ﴿ ابنَ أم إن القوم استضعفوني ﴾ فهما كلامان متعاقبان ، ويظهر أن المحكي هنا هو القول الثاني ، وأن ما في سورة طه هو الذي ابتدأ به هارون ، لأنه كان جواباً عن قول موسى : ﴿ ما منعك إذ رأيتهم ضَلوا أن لا تتبعن ﴾ [طه : 92 ، 93] .

واختيار التعريف بالإضافة ؛ لتضمن المضاف إليه معنى التذكير بصلة الرحم ، لأن إخوة الأم أشد أواصر القرابة ؛ لاشتراك الأخوين في الألف من وقت الصبا والرضاع .

وفتح الميم في ﴿ ابن أم ﴾ قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبي عَمرو ، وحفص عن عاصم ، وهي لغة مشهورة في المنادى المضاف إلى أم أو عَم ، وذلك بحذف ياء المتكلم وتعويض ألف عنها في آخر المنادى ، ثم يحذف ذلك الألف تخفيفاً ، ويجوز بقاء كسرة الميم على الأصل ، وهي لغة مشهورة أيضاً ، وبها قرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وخلفٌ .

وتقدم الكلام على الأم عند قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ في سورة النساء (23) .

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إن ﴾ لتحقيقه لدى موسى ، لأنه بحيث يتردد فيه قبل إخبار المخبر به ، والتأكيدُ يستدعيه قبولُ الخبر للتردد من قِبَل إخبار المخبر به ، وإن كان المخبر لا يُظن به الكذب ، أو لئلا يظن به أنه تَوهم ذلك من حال قومه ، وكانت حالهم دون ذلك .

والسين والتاء في ﴿ استضعفوني ﴾ للحسبان أي حسبوني ضعيفاً لا ناصر لي ، لأنهم تمالؤوا على عبادة العجل ولم يخالفهم إلا هارون في شرذمة قليلة .

وقوله : ﴿ وكادوا يقتلونني ﴾ يدل على أنه عارضهم معارضة شديدة ثم سلّم خشيةَ القتل .

والتفريع في قوله : ﴿ فَلا تُشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ تفريع على تبين عذره في إقرارهم على ذلك ، فطلب من أخيه الكف عن عقابه الذي يَشْمت به الأعداء لأجله ، ويجعله مع عداد الظالمين فطلبُ ذلك كنايةٌ عن طلب الإعراض عن العقاب .

والشماتة : سُرور النفس بما يصيب غيرها من الإضرار ، وإنما تحصل من العداوة والحسد .

وفعلَها قاصر كفرح ، ومصدرها مخالف للقياس ، ويتعدى الفعل إلى المفعول بالباء يقال :

شَمتَ به : أي : كان شامتاً بسببه ، وأشمته به جعله شامتاً به ، وأراد بالأعداء الذين دعوا إلى عبادة العجل ، لأن هارون أنكره عليهم فكرهوه لذلك ، ويجوز أن تكون شماتةُ الأعداء كلمة جرت مجرى المثل في الشيء الذي يُلحق بالمرءِ سوءاً شديداً ، سواء كان للمرء أعداء أو لم يكونوا ، جرياً على غالب العرْف .

ومعنى ﴿ ولا تجعلْني مع القوم الظالمين ﴾ لا تحسبني واحداً منهم ، ف (جعل) بمعنى ظن كقوله تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمان إناثاً ﴾ [الزخرف : 19] .

(57/289)

والقوم الظالمون هم الذين أشركوا بالله عبادة العجل ، ويجوز أن يكون المعنى : ولا تجعلني في العقوبة معهم ، لأن مُوسى قد أمر بقتل الذين عَبدوا العجل ، ف (جعل) على أصلها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(58/289)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾

وكون موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أسِفاً ، يدلنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل . والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسموها : " المواجيد النفسية " ، أي الشيء الذي يجده الإنسان في نفسه ، وقد يعبر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية ، ولذلك تجد فارقاً بين من يحزن ويكبت في نفسه ، وبين من يغضب ، فمن يغضب تنتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر وتندفع يداه ، وهذا اسمه : غضبان . وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين ؛ وقدّم الغضب لأنه رسول له منهجه . ولا يكفي في مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لابد أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح . وقديماً قلنا : إن كل تصور شعوري له ثلاث مراحل : المرحلة الأولى . مرحلة إدراكية ، ثم مرحلة وجدانية في النفس ، ثم مرحلة نزوعيه بالحركة ، وضربنا المثل لذلك بالوردة . فمن يرى الوردة فهذا إدراك ، وله أن يعجب بها ويسر من شكلها ويطمئن لها ويرتاح ، وهذا وجدان . لكن من يمد يده ليقطفها فهذا نزوع حركي . والتشريع للإدراك أو للوجدان لكنه قنن للسلوك . إلا في غض البصر عما حرم الله وذلك رعاية لحرمة الأعراض .

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج . بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية ، ونلحظ بكلمة أَسِف . وهي مبالغة . فهناك فرق بين أَسِف وآسف ، آسف خفيفة قليلاً

، لكن أسِف صيغة مبالغة ، مما يدل على أن الحزن قد اشتد عليه وتمكن منه . ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بعدي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 150]

(59/289)

وقوله سبحانه : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أي استبطأتموني ، وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتساءل موسى : هل ظننتم أنني لن آتي ؟ أو أنني أبطأت عليكم ؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلي أو من أجل إله قادر ؟ . ولذلك قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه : عندما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى :

" من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت " .

وهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتموني أو خفتم أن أكون قد مت . فهل كنتم تعبدونني أو تعبدون ربنا .

﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ ، ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقدر موسى على أخيه : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ وهذا " النزوع الغضبي " الذي جعله يأخذ برأس أخيه ، كأن الأخوة هنا لا نفع لها ، فماذا كان رد الأخ هارون : ؟ ﴿ . . . قَالَ ابن

أُمَّ إِنَّ القوم استضعفوني وكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعداآء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين ﴾ ﴿ الأعراف : 150]

نلحظ أنه قال : " ابن أم " ولم يقل : " ابن أب " لأن أبا موسى وهارون طُوي اسمه في تاريخ النبوات ولم يظهر عنه أي خبر ، والعلم جاءنا عن أمه لأنها هي التي قابلت المشقات في أمر حياته ، لذلك جاء لنا بالقدر المشترك البارز في حياتهما ، ولأن الأمومة مستقر الأرحام ؛ لذلك أنت تجد أخوة من الأم ، وأخوة من الأب فقط ، وأخوة من الأب والأم ، والأخوة من الأب والأم أمرهم معروف .

(60/289)

لكن نجد في أخوة الأم حناناً ظاهراً ، ويقل الحنان بين الأخوة من الأب . وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما – موسى وهارون – وهو أخوة الأم ، وله وجود مستحضر في تاريخهم . أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التي جاءت عن موسى متعلقة بأمه ، لذلك نجد أخاه هارون يكلمه بالأسلوب الذي يحننه : ﴿ قَالَ ابن أُمَّ إِنَّ القوم استضعفوني وكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي ﴾ .

ومادام قد قال : ﴿ وكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي ﴾ فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض

والمقاوم الذي أدى ما عليه إلى درجة أنهم فكروا في قتله ، ويتابع الحق بلسان هارون : ﴿ فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعداآء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين ﴾ .

والشماتة هي إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيفرحهم ، وقوله : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ . . إجمال للرأس في عمومها ، وفي آية أخرى يقول : ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾ .

ولقد صنع موسى ذلك ليسمع العذر من هارون ؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر . قال : إن القوم استغضعفوني لأني وحدي وكادوا يقتلونني ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة في الحياة ؛ حتى أنهم كادوا يقتلونه ، إذن فهو لم يوافقهم على شيء ، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية ، لذلك يذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين ﴾ .

وكأنه يقول : لموسى إنك أن آخذتني هذه المؤاخذة في حالة غضبك ، ربما ظُنَّ بي أنني كنت معهم ، أو سلكت مسلكهم في اتخاذ العجل وعبادته . وأراد الحق سبحانه أن يبين لنا موقف موسى وموقف أخيه ؛ فموقف موسى ظهر حين غضب على أخيه وابن أمه ، وموقف هارون الذي بيّن العلة في أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، ولا يمكن أن يطلب منه فوق هذا ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه كيف يلقي الألواح وفيها المنهج ؟ والأمر الثاني : أنه كيف يأخذ أخاه هذه الأخذة قبل أن يتبين وجه الحق منه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(62/289)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : كَانَ مُوسَى مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ غَضَبًا ؛ لَكِنَّهُ كَانَ سَرِيعَ الْفَيْئَةِ ، فَتِلْكَ بِتِلْكَ .

قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : سَمِعْت مَالِكًا يَقُولُ : كَانَ مُوسَى إذَا غَضِبَ طَلَعَ الدُّخَانُ مِنْ قَلَنْسُوَتِهِ ، وَرَفَعَ شَعْرُ بَدَنِهِ جُبَّتَهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تَتَوَقَّدُ فِي الْقَلْبِ ، وَلِأَجْلِهِ ﴿ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ غَضِبَ أَنْ يَضْطَجِعَ ، فَإِنْ لَمْ يَذْهَبْ غَضَبُهُ فَلْيَغْتَسِلْ ؟ ﴾ فَيُخْمِدُهَا اضْطِجَاعُهُ ، وَيُطْفِئُهَا اغْتِسَالُهُ .

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ وَغَيْرِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إلَى مُوسَى ، فَلَمَّا جَاءَ صَكَّهُ صَكَّةً فَفَقَأَ فِيهَا عَيْنَهُ ، فَرَجَعَ إلَى رَبِّهِ ، فَقَالَ : أَرْسَلْتَنِي إلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ .

فَقَالَ : ارْجِعْ إلَيْهِ ، فَقُلْ لَهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ .

قَالَ : أَيْ رَبِّ ، ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : الْمَوْتُ .

قَالَ : فَالْآنَ ﴾ الْحَدِيثَ .

(63/289)

وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ غَضَبِ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلِذَلِكَ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ عِنْدَ رُؤْيَةِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ، وَمَا أَوْقَعَ الْغَضَبَ هَاهُنَا ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إلَيْهِ .

فَإِنْ قِيلَ : وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : مَا مَعْنَى أَخْذِهِ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ ؟ قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : كَانَ ذَلِكَ فِيمَا مَضَى ثُمَّ نُسِخَ .

الثَّانِي : أَنَّهُ ضَمَّ أَخَاهُ إِلَيْهِ لِيَعْلَمَ مَا لَدَيْهِ ، فَبَيَّنَ لَهُ أَخُوهُ أَنَّهُمْ

اسْتَضْعَفُوهُ ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ ؛ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِمَنْ خَشِيَ الْقَتْلَ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ أَنْ

يَسْكُتَ عَنْهُ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْغَضَبَ لَا يُغَيِّرُ الْأَحْكَامَ ، كَمَا

زَعَمَهُ بَعْضُ النَّاسِ ؛ فَإِنَّ مُوسَى لَمْ يُغَيِّرْ غَضَبُهُ شَيْئًا مِنْ أَفْعَالِهِ ؛ بَلْ اطَّرَدَتْ عَلَى مَجْرَاهَا ،

مِنْ إِلْقَاءِ لَوْحٍ ، وَعِتَابِ أَخٍ ، وَصَكِّ مَلَكٍ ، وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(64/289)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ

رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا

يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طرق ابن عباس في قوله ﴿ أسفاً ﴾ قال : حزيناً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ قال : حزيناً على ما صنع قومه من بعده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ غضبان اسفاً ﴾ قال : حزيناً وفي الزخرف ﴿ فلما آسفونا ﴾ [الزخرف : 55] يقول : اغضبونا . والأسف على وجهين : الغضب والحزن .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ أسفاً ﴾ قال : جزعاً .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : الأسف : منزلة وراء الغضب أشد من ذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب قال : الأسف : الغضب الشديد .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " ايرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر ، أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر ما تكسر " .

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : كان موسى عليه السلام إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لما ألقى موسى الألواح تكسرت ، فرفعت إلا سدسها .

(65/289)

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : كتب الله لموسى في الألواح فيها ﴿ موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ [الأعراف : 145] فلما ألقاها رفع الله منها ستة أسباعها وبقي سبع ، يقول الله ﴿ وفي نسختها هدى ورحمة ﴾ [الأعراف : 154] يقول : فيما بقي منها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أوتي رسول الله صلى عليه وسلم السبع المثاني وهي الطوال وأوتي موسى ستاً ، فلما ألقى الألواح رفعت أثنتان وبقيت أربع .

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع في قوله ﴿ وألقى الألواح ﴾ قال : ذكر أنه رفع من الألواح خمسة أشياء ، وكان لا ينبغي أن يعلمه الناس ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ [لقمان : 34] إلى آخر الآية .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مجاهد وسعيد بن جبير قال : كانت الألواح من زمرد ، فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل وبقي الهدى .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أخبرت أن ألواح موسى كانت تسعة ، فرفع منها

لوحان وبقي سبعة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ قال : مع أصحاب العجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(66/289)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ : هذان حالان من " مُوسَى " عند من يُجيزُ تعدُّد الحال ، وعند من لا يُجيزه يجعل " أسِفاً " حالاً من الضَّميرِ المُسْتَتر في " غَضْبانَ " ، فتكون حالاً مُتداخِلةً ، أو يجعلُها بدلاً من الأولى ، وفيه نظرٌ لعُسْر إدخالِهِ في أقْسَام البدلِ .

وأقربُ ما يقال : إنَّه بدلُ بَعْضٍ من كُل إن فسَّرنا الأسفَ بالشَّديدِ الغضب ، وهو قول أبي الدَّرْدَاء وعطاء عن ابنِ عبَّاس ، واختيار الزَّجَّاجِ ، واحْتَجُّوا بقوله : ﴿ فَلَمَّآ آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : 55] أي : اغْضَبُونَا ، أو بدل اشتمال إن فسَّرناهُ بالحزينِ .

وهو قول ابن عباس والحسن ، والسُّدّي ، ومنه قوله : [المديد]

2578 - غَيْرُ مأسُوفٍ على زَمَنٍ . . .

يَنْقَضِي بالهَمِّ والحَزَنِ

وقالت عائشةُ - ا - : إنَّ أبا بكر رَجُلٌ أَسِيفٌ أي : حَزِينٌ .

قال الواحديُّ : " والقولان مُتقاربانِ ؛ لأنَّ الغضبَ من الحُزْنِ ، والحُزْن من الغَضَبِ " ؛ قال :

[البسيط]

2579 - . . . . . .

فَحُزنُ كُلٍّ أي حُزْنٍ أخُو الغَضَبِ

وقال الأعشى : [الطويل]

(67/289)

2580 - أرَى رَجْلاً مِنْهُمْ أسِيفاً كأنَّمَا . . .

يَضُمُّ إلى كَشْحَيْهِ كَفّاً مُخَضَّبَا

فهذا بمعنى : غَضْبَان ، وحديث عائشة يدلُّ على أنَّهُ : الحزين ، فلمَّا كانا مُتقاربَيْنِ في المعنى صَحَّت البدليَّةُ .

ويقال : رَجُلٌ أَسِفٌ : إذا قُصِد ثُبُوتُ الوَصْفِ واستقراره ، فإن قُصِد بِهِ الزَّمان جَآءَ على فاعل .

قوله : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ :

في " أَمْرَ " وجهان ،

أحدهما : أَنَّهُ منصوبٌ على المفعول بعد إسْقاط الخافض ، وتضمينُ الفعل مَعْنَى ما يتعدَّى بنفسه ، والأصلُ : أعجلْتُمْ عن أمْرِ ربِّكم .

قال الزمخشريُّ : يُقال : عَجِل عن الأمرِ : ذا تركه غير تَامٍّ ، ونقيضه تَمَّ عليه ، وأعجله عنه غيره ، ويُضَمَّن معنى " سَبَقَ " فيتعدَّى تَعْديته .

فيقالُ : عَجِلْتُ الأَمْرَ ، والمعنى : " أعجلتم عَنْ أمر ربكم " .

والثاني : أَنَّهُ مُتَعَدٍّ بِنَفْسِهِ غَيْرَ مضمنٍ معنى آخر ، حكى يَعْقُوب عجلتُ الشَّيء سَبَقْتُهُ ، وأعْجلْتُ الرَّجُلَ : اسْتَعْجَلْتُهُ ، أي : حَمَلْتُهُ على العَجَلَةِ .

قوله : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾

بذُؤابته ولحيتِهِ ، لقوله : ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾ [طه : 94] .

قوله : " يَجُرُّهُ إِلَيْهِ " فيه ثلاثة أوجهٍ :

أحدها : أَنَّ الجُمْلَةَ حالٌ من ضمير مُوسَى المستتر في أخَذَا ، أي : أخَذَهُ جَارًّا إليه .

الثاني : أَنَّها حَالٌ من رَأس قاله أبو البقاءِ ، وفيه نظرٌ لعدم الرَّابط .

والثالث : أنَّها حالٌ من أخِيهِ .

قال أبو البقاءِ : " وهو ضعيفٌ " يعني من حيث إنَّ الحَالَ من المُضافِ إليه يَقِلُّ مجيئُهَا ، أو يمتنعُ عند بعضهم وقد تقدَّم أن بعضهم يُجَوِّزُهُ في صور ، هذه منها وهو كونُ المضافِ جزءاً من المضافِ إليه .

قوله : ﴿ ابْنَ أُمَّ ﴾

قرأ الأخوان ، وأبو بكر ، وابن عامر هُنَا ، وفي طه ، بكسر الميم ، والباقون بفتحها .

فأمَّا الفَتْحِ ففيها مذهبان .

(68/289)

مذهبُ البصريين : أنَّهُمَا بُنيا على الفتح ، لتركيبهما تركيب " خَمْسةَ عَشَرَ " ، فعلى هذا ليس " ابْن " مضافاً لـ " أمّ " ، بل هو مركَّب معها ، فَحَرَكَتُهَا حركةُ بناء .

والثاني : مذهب الكوفيّينَ : وهو أنَّ " ابن " مضاف لـ " أمّ " و " أمّ " مضافة لياءِ المتكلّمِ ، وياء المُتكلّم قد قلبت ألفاً ، كما تُقْلَبُ في المَنَادَى المُضاف إلى ياء المتكلم ، نحو : يَا غلاماً ، ثم حُذفت الألفُ واجتزىءَ عنها بالفَتْحَةِ ، كام يُجْتَزَأ عن الياءِ بالكَسْرَةِ ، فحينئذ حركة " ابْن " حركةُ إعراب ، وهو مضاف لـ " أمَّ " فهي في محلِّ خفض بالإضافة .

وأمَّا قراءة الكسر فعلى رأي البصريين هو كسرُ بناءٍ لأجل ياء المتكلم، بمعنى: أنَّا أضَفْنَا هذا الاسم المركب كلَّه لياء المتكلم، فَكُسِر، فَكُسِرَ آخرُه، ثم اجتُزِىء عن الياء بالكسرةِ، فهو نظير: يا أحَدَ عشرِ، ثم: يا أحد عشر بالحذفِ، ولا جائز أن يكُونَا باقيين على الإضافة إذ لم يَجُزْ حذفُ الياء؛ لأنَّ الاسمَ ليس منادى، ولكنه مضاف إليه المُنادَى، فلم يَجُزْ حَذْفُ الياء منه.

وعلى رأي الكُوفيين يكون الكَسْرُ كسرَ إعراب، وحُذِفَت الياءُ مُجْتَزَأً عنها بالكسرةِ كما اجتُزِىء عن ألفها بالفتحَةِ، وهذان الوجهان يَجْرِيَان، في: "ابن أمّ"، و"ابْنَ عَمّ"، و"ابْنَة أمّ"، و"ابنة عمّ".

فصل

فاعْلَمْ أنَّهُ يجوزُ في هذه الأمثلةِ الأربعةِ خاصةً خَمْسُ لغات:

(69/289)

فُصْحَاهُنَّ: حذفُ الياءِ مجتزأً عنها بالكسرة، ثم قلبُ الياءِ ساكنة أو مفتوحة، وأمَّا غيرُ هذه الأمثلةِ الأربعة ممَّا أُضِيفَ إلى مضاف إلى ياء المتكلّم في النّداء، فإنَّهُ لا يجوز فيه إلاَّ ما يجُوزُ في غير بابِ النّداءِ، لأنَّه ليس منادى، نحوُ: يا غلام أبِي، ويا غلام أمي، وإنَّما جَرَتْ

هذه الأمثلةُ خاصَّةً هذا المَجْرَى ؛ تنزيلاً للكلمتين منزلة كلمةٍ واحدةٍ ، ولكثرة الاستعمالِ .

وقرىء " يا ابْنَ أمِّي " بإثبات الياءِ ساكنةً ؛ ومثله قوله : [الخفيف]

ابْنَ أمِّي ويَا شُقَيِّقَ نَفْسِي . . .

تَ خَلَّيْتَنِي لدَهْرٍ شَدِيدِ

خر : [الخفيف]

يَا ابْنَ أمِّي فَدَتْكَ نَفْسِي ومَالِي . . . . . .

وقرىء أيضاً : "يَا ابْنَ إمْ " بكسر الهمزة والميم وهو إتباعٌ .

ومِنْ قلبِ الياءِ ألفاً قوله : [الرجز]

2583 - يَا ابْنَةَ عَمَّا لا تَلُومِي واهْجَعِي . . .

وقوله : [الرجز]

2584 - كُنْ لِي لا عَلَيَّ يَا ابْنَ عَمَّا . . .

نَدُمْ عَزِيزَيْنِ ونُكْفَ الذَّمَّا

فصل

إنَّما قال : " ابْنَ أمْ " وكان هارون أخاه لأبيه ليرققه ويستعطفه .

وقيل : كان أخاه لأمِّه دون أبيه ، وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين ، وأحبَّ إلى بني

إسرائيل من موسى ؛ لأنه كان لين الغضب .

قوله : ﴿ إِنَّ القوم استضعفوني ﴾ أي لم يلتفتوا إلى كلامي ، يعني : عبدة العجل ﴿ وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعداآء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين ﴾ أي : شريكاً لهم في عقوبتك على فعلهم .

قوله : ﴿ فَلاَ تُشْمِتْ ﴾ العَامَّةُ على ضمِّ التاء ، وسكر الميم ، وهو من " أَشْمَتَ " رباعياً ، الأعداء مفعول به .

وقرأ ابْنُ محيصن " فلا تَشْمِتْ " بفتح التَّاءِ وكسر الميم ، ومجاهدٌ : بفتح التَّاءِ أيضاً وفتح الميم ، " الأَعْدَاءَ " نصب على المفعول به ، وفي هاتين القراءتين تَخْرِيجَان :

(70/289)

أظهرهما : أن " شَمِتَ ، أو شَمَتَ " بكسر الميم أو فتحها مُتَعَدٍّ بنفسه كـ : أَشْمَتَ الرباعي .

يقال : شَمِتَ بي زيدٌ العَدُوَّ ؛ كما يقال : أَشْمَت بي العَدُوَّ .

والثاني : أنَّ تَشْمَتْ مُسْنَدٌ لضمير الباري تعالى أي : فلا تَشْمَتْ يا رب ، وجاز هذا كما جاز : ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 15] ثم أضمر ناصباً للأَعْدَاءِ ، كقراءة

الجماعة ، قاله ابْنُ جنّي .

ولا حاجة إلى هذا التَّكلف ؛ لأنَّ " شَمِتَ " الثلاثيَّ يكون متعدّياً بنفسه ، والإضمار على خلاف الأَصل .

وقال أبو البقاءِ – في هذا التَّخريج – : " فلا تشمت أنت " فجعل الفاعل ضمير " مُوسَى " ، وهو أولى من إسناده إلى ضمير اللَّهِ تعالى ، وأمَّا تَنْظِيرُهُ بقوله ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ فإنَّما جاز ذلك للمقابلة في قوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : 14] ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ ﴾ [آل عمران : 54] ولا يجُوزُ ذلك في غَيْر المقابلة .

وقرأ حميد بنُ قيس " فلا تَشْمِت " كقراءة ابنِ محيصن ، ومجاهد كقراءته فيه أوّلاً ، إلاَّ أنَّهُما رفعا " الأَعْدَاء " على الفاعلية ، جعلا " شَمِتَ لازماً فرفعا به " الأعداء " على الفاعليَّة ، فالنَّهْيُ في اللَّفْظِ للمخاطب والمُرادُ به غيره كقولهم : لا أرَيَنَّكَ ههنا ، أي : لا يكن منك ما يقتضي أن تُشْمِتَ بي الأَعْدَاءَ .

والإشمات والشَّماته : الفَرَحُ بِبَلِيةٍ تنالُ عَدُوَّك ؛ قال : [الكامل]

2585 – . . . . . .

والمَوْتُ دُونَ شَماتَةِ الأَعْدَاء

فصل

قيل : واشتقاقُها من شوامِتِ الدَّابة ، وهي قوائِمُهَا ؛ لأنَّ الشَّماتة تَقْلِبُ قلب الحاسِد في

حالتي الفرَحِ والتَّرحِ كتقلُّب شوامِت الدَّابة .

وتشميت العاطس وتسميته ، بالشّين والسّين الدعاء له بالخير .

قال أبو عبيد : الشّينُ أعْلَى اللُّغتين .

وقال ثَعلبٌ : الأصْلُ فيها السّينُ من السَّمْت ، وهو القصد والهَدْي .

(71/289)

وقيل : معنى تشميت العاطس [بالمعجمة] أنْ يُثَبِّتَهُ اللَّه كما يثبت قوائم الدابة .

وقيل : بل التَّفعيل للسَّلب ، أي : أزال الله الشَّماتة به وبالسّين المهملة ، أي : رَدَّهُ اللَّهُ إلى سَمْتِهِ الأولى ، أي : هيئته ، لأنَّهُ يحصل له انزعاج .

وقال أبو بَكْرٍ : " يقال : شَمَّتَه وشَمَّتَ عليه " وفي الحديث : وشَمَّت عليهما . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 321 . 327 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ .

لو وجد موسى قومه بألف ألف وِفاقٍ لكان متنغّصَ العيش لِمَا مني به من حرمان سماع الخطاب والرد إلى شهود الأغيار . . فكيف وقد وجد قومه قد ضلوا وعبدوا العجل ؟

ولا يُدْرَى أيُّ المحن كانت أشدَّ على موسى :

أَفِقدانُ سماع الخطابِ ؟ أو بقاؤه عن سؤال الرؤية ؟ أو ما شاهد من افتتان بني إسرائيل ، واستيلاء الشهوة على قلوبهم في عبادة العجل ؟ سبحان الله ! ما أَشدَّ بلاءه على أوليائه !

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

إن موسى عليه السلام وإنْ كان سَمِعَ من الله فتَنَ قومه فإنه لما شَاهَدَهُم أَثَّرت فيه المشاهدةُ بما لم يؤثر فيه السماع ، وإنْ عُلِمَ قطعاً أنه تأثر بالسماع إلا أن للمعاينة تأثيراً آخر .

ثم إن موسى لما أخذ برأس أخيه يجره إليه استلطفه هارونُ في الخطاب .

(72/289)

فقال : ﴿ ابْنَ أُمَّ ﴾ [طه : 94] فَذَكَرَ الأُمَّ هنا للاسترفاق والاسترحام .

وكذلك قوله : ﴿ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾ [طه : 94] يريد بهذا أنه قد

توالت المحنُ علي فذرني وما أنا فيه ، ولا تَزِدْ في بلائي ، خلفتني فيهم فلم يستنصحوني . وتلك عليَّ شديدةٌ . ولقيتُ بَعْدَكَ منهم ما ساءني ، ولقد علمت أنها كانت علي عظيمة كبيرة ، وحين رجعتَ أخذتَ في عتابي وجر رأسي وقصدْتَ ضربي ، وكنت أود منك تسليتي وتعزيتي . فرِفقاً بي ولا تُشْمِتْ بي الأعداء ، ولا تضاعِفْ عليّ البلاء .

وعند ذلك رقَّ له موسى – عليه السلام ، ورجع إلى الابتهال إلى الله والسؤال بنشر الافتقار فقال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 572. 573 ﴾

(73/289)

قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تبين له ما هو اللائق بمنصب أخيه الشريف من أنه لم يقصر في دعائهم إلى الله ولا ونى في نهيهم عن الضلال ، ورأى أن ما ظهر من الغضب مرهب لقومه وازع لهم عما ارتكبوا ،

دعاء له ولنفسه مع الاعتراف بالعجز وأنه لا يسع أحداً إلا العفو ، وساق سبحانه ذلك مساق الجواب لسؤال بقوله : ﴿ قال رب ﴾ أي أيها المحسن إليَّ ﴿ اغفر لي ﴾ أي ما حملني عليه الغضب لك من إيقاعي بأخي ﴿ ولأخي ﴾ أي في كونه لما يبلغ ما كنت أريده منه من جهادهم .

ولما دعا بمحو التقصير ، أتبعه الإكرام فقال : ﴿ وأدخلنا ﴾ أي أنا وأخي وكل من انتظم معنا ﴿ في رحمتك ﴾ لتكون غامرة لنا محيطة بنا ؛ ولما كان التقدير : فأنت خير الغافرين ، عطف عليه ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ أي لأنك تنعم بما لا يحصره الجد ولا يحصيه العد من غير نفع يصل إليك ولا أذى يلحقك بفعل ذلك ولا تركه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 115.116 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قال رَبِّ اغفر لى ﴾ .

أي فيما أقدمت عليه من هذا الغضب والحدة ﴿ وَلأَخِى ﴾ في تركه التشديد العظيم على عبدة العجل ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ .

واعلم أن تمام هذه السؤالات والجوابات في هذه القصة مذكور في سورة طه . والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 11.12 ﴾

وقال السمرقندى :

قال موسى : ﴿ رَبّ اغفر لى ﴾ بما فعلت بأخي هارون ويقال : لإلقاء الألواح ﴿ و ﴾ اغفر ﴿ لأخي ﴾ ما كان منه من التقصير في تركهم على عبادة العجل ﴿ وَلأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ يعني : جنتك ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ يعني : أنت أرحم بنا منا بأنفسنا .

وقال الحسن : يعني أنت أرحم بنا من الأبوين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

استغفر موسى من فعله مع أخيه ومن عجلته في إلقاء الألواح واستغفر لأخيه من فعله في الصبر لبني إسرائيل ، ويمكن بأن الاستغفار كان لغير هذا مما لا نعلمه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قال رب اغفر لي ﴾

يعني أن موسى لما تبين له عذر أخيه هارون قال رب اغفر لي ما صنعت إلى أخي هارون يريد ما أظهر من الموجدة عليه في وقت الغضب ﴿ ولأخي ﴾ يعني واغفر لأخي هارون إن كان وقع منه تقصير في الإنكار على عبدة العجل ﴿ وأدخلنا ﴾ يعني جميعاً ﴿ في رحمتك ﴾ يعني في سعة رحمتك ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ وهذا فيه دليل على الترغيب في الدعاء لأن من هو أرحم الراحمين تؤمل منه الرحمة وفيه تقوية لطمع الداعي في نجاح طلبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(75/289)

وقال أبو حيان :

﴿ قال ربّ اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

لما اعتذر إليه أخوه استغفر لنفسه وله قالوا واستغفاره لنفسه بسبب فعلته مع أخيه وعجلته في إلقاء الألواح واستغفاره لأخيه من فعلته في الصبر لبني إسرائيل قالوا : ويمكن أن يكون الاستغفار مما لا يعلمه والله أعلم ، وقال الزمخشري لما اعتذر إليه أخوه وذكر شماته الأعداء ، ﴿ قال : رب اغفر لي ولأخي ﴾ ليرضي أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا يتمّ لهم شماتتهم واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ولأخيه أن عسى فرّط في حين

الخلافة وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ولا تزال متضمنة لهما في الدنيا والآخرة انتهى ، وقوله ولأخيه أن عسى فرط إن كانت أن بفتح الهمزة فتكون المخففة من الثقيلة ويقرب معناه ، وإن كانت بكسر الهمزة فتكون للشرط ولا يصح إذ ذاك دخولها على عسى لأنّ أدوات الشرط لا تدخل على الفعل الجامد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية اعتذارِ هارونَ عليه السلام كأنه قيل : فماذا قال موسى عند ذلك ؟ فقيل : قال : ﴿ رَبِّ اغفرلى ﴾ أي ما فعلتُ بأخي من غير ذنبٍ مقرّرٍ من قِبَله ﴿ وَلأَخِى ﴾ إن فرَطَ منه تقصيرٌ ما في كفهم عما فعلوه من العظيمة ، استغفرَ عليه السلام لنفسه ليُرضِيَ أخاه ويُظهر للشامتين رضاه لئلا تتم شماتتُهم به ولأخيه للإيذان بأنه محتاجٌ إلى الاستغفار حيث كان يجب عليه أن يقاتلَهم ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ بمزيد الإنعامِ بعد غُفران ما سلف منا ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ فلا غَرْوَ في انتظامنا في سلك رحمتِك الواسعةِ في الدنيا والآخرة ، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(76/289)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية الاعتذار كأنه قيل فماذا قال موسى عليه السلام عند اعتذار أخيه ؟ فقيل : قال ﴿ رَبِّ اغفر لى ﴾ ما فعلت بأخي قبل جلية الحال وحسنات الأبرار سيئات المقربين ﴿ وَلِأَخِى ﴾ إن كان اتصف بما يعد ذنباً بالنسبة إليه في أمر أولئك الظالمين ، وفي هذا الضم ترضية له عليه السلام ورفع للشماتة عنه ، والقول بأنه عليه السلام استغفر لنفسه ليرضي أخاه ويظهر للشامتين رضاه لئلا تتم شماتتهم به ولأخيه للإيذان بأنه محتاج إلى الاستغفار حيث كان يجب عليه أن يقاتلهم لي فيه توقف ولا يخفى وجهه .

﴿ وَأَدْخِلْنَا ﴾ جميعاً . .

﴿ فِي رَحْمَتِكَ ﴾ الواسعة بمزيد الأنعام علينا ، وهذا ما يقتضيه المقابلة بالمغفرة ، والعدول عن ارحمنا إلى ما ذكر ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ فلا غرو في انتظامنا في سلك رحمتك الواسعة في الدنيا والآخرة ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله ، وادعى بعضهم أن فيه إشارة إلى أنه سبحانه استجاب دعاءه وفيه خفاء . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ قال رب اغفر لي ﴾

جواب عن كلام هارون ، فلذلك فصلت .

وابتدأ موسى دعاءه فطلب المغفرة لنفسه تأدباً مع الله فيما ظهر عليه من الغضب ، ثم طلب المغفرة لأخيه فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من تفريط أو تساهل في ردع عبدة العجل عن ذلك .

وذكر وصف الأُخوة هناك زيادة في الاستعطاف عسى الله أن يُكرم رسوله بالمغفرة لأخيه كقول نوح : ﴿ رب إن ابني من أهلي ﴾ [هود : 45] .

والإدخال في الرحمة استعارة لشمول الرحمة لهما في سائر أحوالهما ، بحيث يكونان منها ، كالمستقر في بيت أو نحوه مما يحوي ، فالإدخال استعارة أصلية وحرف (في) استعارة تبعية ، أوقع حرفه الظرفية موقع باء الملابسة .

وجملة : ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ تذييل ، والواوُ للحال أو اعتراضية ، و ﴿ أرحم الراحمين ﴾ الأشد رحمة من كل راحم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) ﴾

قال يا رب اغفر لي إن كان قد بدر مني شيء يخالف منطق الصواب والحق . واغفر لأخي هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أن يأخذ في قتال من عبدوا العجل حتى يمنعهم أو ينالوا منه ولو ما دون القتل جرحاً أو خدشاً أو . . أو . . إلخ .

ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة : ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [الأعراف : 151]

وحين تسمع ﴿ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ أو ﴿ خَيْرُ الرازقين ﴾ ، أو ﴿ خَيْرُ الوارثين ﴾ ، أو ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ ، وكل جمع هو وصف لله ، وإنه بهذا أيضاً يدعو خلقه إلى التخلق بهذا الخلق ، ويوصف به خلقه . فاعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملا وإن كان محدودا يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم ، فضلا على أنها عطاء ومنحة منه – سبحانه – أما صفات الله فهي صفات لا محدودة ولا متناهية جلالا وكمالا وجمالا فسبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، فإذا كان خلق الله هو ﴿ أَرْحَمُ

الراحمين ﴾ فهذا يعني أنه سبحانه لم يمنع الرحمة من خلقه على خلقه ؛ فمن رحم أخاه سُميّ رحيماً ، وراحماً ، ولكن الله أرحم الراحمين ؛ لأن الرحمة من كل إنسان ضمان لمظهرية الغضب في هذا الأحد ، يقال : " رحمت فلاناً " أي من غضبك عليه وعقوبتك ، وإنّ عقوبتك على قدر قوتك ، لكن الله حين يريد أن يأخذ واحداً بذنب فقوته لا نهاية لها ، وكذلك رحمته أيضاً لا نهاية لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(79/289)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ﴾

وفي هذا إشارة إلى وجوب الاستغفار على العبد في عموم الأحوال ، والتحقق بأنَّه – سبحانه – تعذيبَ البريءِ ؛ إذ الخلقُ كُلُّهم مِلْكُه ، وتَصَرُّفُ المالكِ في مِلْكه نافذٌ .

ويقال : ارتكابُ الذَّنبِ كان من بني إسرائيل ، والاعتذارُ كان من موسى وهارون عليهما السلام ، وكذا الشرط في باب خلوص العبودية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 573 ﴾

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ ﴾

أي من بعد خروجه إلى الطور ﴿ مِنْ حُلِيّهِمْ ﴾ متعلق ب ﴿ اتخذ ﴾ أو بمحذوف وقع حالاً ، و ﴿ من ﴾ للتبعيض ، أو للابتداء ، أو للبيان .

والحلي جمع حلى .

وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة ﴿ من حُلِّيهم ﴾ بضم الحاء وتشديد الياء .

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بكسر الحاء .

وقرأ يعقوب بفتح الحاء وتخفيف الياء .

قال النحاس : جمع حَلْيٍ وحُلِيٍ وحِلِى مثل ثدي وثدي وثدي ، والأصل حلوى أدغمت الواو في الياء ، فانكسرت اللام لمجاورتها الياء ، وتكسر الحاء لكسرة اللام وضمها على الأصل .

وأضيفت الحلي إليهم وإن كانت لغيرهم ؛ لأن الإضافة تجوز لأدنى ملابسة ، و ﴿ عِجْلاً

﴿ مفعول ﴿ اتخذ ﴾ .

وقيل : هو بمعنى التصيير ، فيتعدى إلى مفعولين ثانيهما محذوف : أي اتخذوا عجلاً إلهاً .

و ﴿ جَسَداً ﴾ بدل من عجلاً .

وقيل وصف له .

والخوار الصياح .

يقال خار يخور خوراً إذا صاح .

وكذلك خار يخار خواراً .

ونسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعاً ، مع أنه اتخذه السامريّ وحده ، لكونه واحداً منهم ، وهم راضون بفعله .

روي أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فأبطأ عليهم في العشر المزيدة ، قال السامري لبني إسرائيل وكان مطاعاً فيهم : إن معكم حلياً من حلي آل فرعون الذي استعرتموه منهم لتتزينوا به في العيد ، وخرجتم وهو معكم ، وقد أغرق الله أهله من القبط ، فهاتوها ، فدفعوها إليه ، فاتخذ منها العجل المذكور .

قوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أي ألم يعتبروا بأن هذا الذي اتخذوه إلهاً لا يقدر على تكليمهم ، فضلاً عن أن يقدر على جلب نفع لهم ، أو دفع ضرّ عنهم .

﴿ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ أي طريقاً واضحة يسلكونها ﴿ اتخذوه وَكَانُواْ ظالمين ﴾ أي اتخذوه إلهاً ﴿ وَكَانُواْ ظالمين ﴾ لأنفسهم في اتخاذه ، أو في كل شيء .

ومن جملة ذلك هذا الاتخاذ .

(81/289)

قوله : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات ، يقال للنادم المتحير قد سقط في يده .

قال الأخفش : يقال سقط في يده وأسقط .

ومن قال ﴿ سقط في أيديهم ﴾ على البناء للفاعل ، فالمعنى عنده : سقط الندم .

وأصله أن من شأن من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعضّ يده غماً ، فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

وقال الأزهري والزجاج والنحاس وغيرهم : معنى ﴿ سقط في أيديهم ﴾ أي في قلوبهم وأنفسهم ، كما يقال : حصل في يده مكروه ، وإن كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد ، لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد ، قال الله تعالى : ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] وأيضاً الندم وإن حلّ القلب ، فأثره

يظهر في البدن ، لأن النادم يعضّ يده ، ويضرب إحدى يديه على الأخرى ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ [الكهف : 42] ومنه : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان : 27] أي : من الندم .

وأيضاً النادم يضع ذقنه في يده .

﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ معطوف على ﴿ سقط ﴾ : أي تبينوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل ، وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالفوقية في الفعلين جميعاً .

وقرأ الباقون بالتحتية ، واللام للقسم ، وجوابه : ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال في السؤال .

وسيأتي في سورة طه إن شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى .

وإنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد .

قوله : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غضبان أَسِفًا ﴾ هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه .

وانتصاب غضبان وأسفا على الحال ، والأسف شديد الغضب .

قيل هو منزلة وراء الغضب أشدّ منه ، وهو أسف وأسيف وأسفان وأسوف ، قال ابن جرير الطبري : أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا ، فلذلك رجع وهو غضبان أسفاً .

﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ﴾ هذا ذمّ من موسى لقومه ، أي بئس العمل ما عملتموه من بعدي ، أي من بعد غيبتي عنكم ، يقال خلفه بخير وخلفه بشرّ ، استنكر عليهم ما فعلوه ، وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزجار والإيمان بالله وحده ، ولكن هذا شأن بني إسرائيل في تلوّن حالهم واضطراب أفعالهم .

ثم قال منكراً عليهم ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ والعجلة .

التقدّم بالشيء قبل وقته ، يقال عجلت الشيء سبقته ، وأعجلت الرجل حملته على العجلة ، والمعنى : أعجلتم عن انتظار أمر ربكم ؟ أي ميعاده الذي وعدنيه ، وهو الأربعون ففعلتم ما فعلتم .

وقيل معناه : تعجلتم سخط ربكم .

وقيل معناه : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم .

﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ أي طرحها لما اعتراه من شدّة الغضب والأسف ، حين أشرف على قومه ، وهم عاكفون على عبادة العجل .

قوله : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ أي أخذ برأس أخيه هارون ، أو بشعر رأسه حال كونه يجرّه إليه فعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامريّ ، ولا غيره ما رآه من عبادة بني إسرائيل للعجل ، فقال : هارون معتذراً منه ﴿ ابن أُمَّ إِنَّ القوم استضعفونى وكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى ﴾ أي إني لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين ، استضعافهم لي ، ومقاربتهم لقتلي .

وإنما قال ﴿ ابن أمّ ﴾ مع كونه أخاه من أبيه وأمه ، لأنها كلمة لين وعطف ، ولأنها كانت كما قيل مؤمنة .

وقال الزجاج : قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه .

قرىء ﴿ ابن أمّ ﴾ بفتح الميم تشبيهاً له بخمسة عشر ، فصار كقولك يا خمسة عشر أقبلوا .

(83/289)

وقال الكسائي والفراء وأبو عبيد : إن الفتح على تقدير يا ابن أما .

وقال البصريون هذا القول خطأ .

لأن الألف خفيفة لا تحذف ، ولكن جعل الاسمين اسماً واحداً كخمسة عشر ، واختاره

الزجاج والنحاس .

وأما من قرأ بكسر الميم ، فهو على تقدير ابن أمي ، ثم حذفت الياء وأبقيت الكسرة ، لتدل عليها .

وقال الأخفش وأبو حاتم : ابن أمّ بالكسر ، كما تقول يا غلام أقبل وهي لغة شاذة والقراءة بها بعيدة .

وإنما هذا فيما يكون مضافاً إليك .

وقرىء ﴿ ابن أمي ﴾ بإثبات الياء .

قوله : ﴿ يَقْتُلُونَنِى فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ الأعداء ﴾ الشماتة : السرور من الأعداء بما يصيب من يعادونه مع المصائب ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء " وهو في الصحيح .

ومنه قول الشاعر :

إذا ما الدهر جرّ على أناس . . . كلاكله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا . . . سيلقى الشامتون كما لقينا

والمعنى : لا تفعل بي ما يكون سبباً للشماتة منهم .

وقرأ مجاهد ومالك بن دينار " فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ الأعداء " بفتح حرف المضارعة ، وفتح الميم ، ورفع الأعداء على أن الفعل مسند إليهم ، أي لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بي .

وروي عن مجاهد أنه قرأ " تُشْمِتْ " كما تقدّم عنه مع نصب الأعداء .

قال ابن جني : والمعنى فلا تشمت بي أنت يا ربّ ، وجاز هذا كما في قوله : ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 15] ونحوه ، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلاً نصب به الأعداء ، كأنه قال : ولا تشمت يا ربّ بي الأعداء ، وما أبعد هذه القراءة عن الصواب ، وأبعد تأويلها عن وجوه الإعراب .

قوله : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْنِى مَعَ القوم الظالمين ﴾ أي : لا تجعلني بغضبك عليّ في عداد القوم الظالمين ، يعني الذين عبدوا العجل ، أو لا تعتقد أني منهم .

(84/289)

قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اغفر لِي وَلأَخِي ﴾ هذا كلام مستأنف جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال موسى بعد كلام هارون هذا ؟ فقيل : ﴿ قَالَ رَبِّ اغفر لِى وَلأَخِي ﴾ طلب المغفرة له أوّلاً ، ولأخيه ثانياً ، ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة ، فكأنه تذمم مما فعله بأخيه ، وأظهر أنه لا وجه له ، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه ، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليه من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم ، ثم طلب إدخاله وإدخال أخيه في رحمة الله التي وسعت كل شيء ، فهو ﴿ أَرْحَمُ

الرحمين ﴾ .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى ﴾ الآية ، قال : حين دفنوها ألقى عليها السامري قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في الآية قال : استعاروا حلياً من آل فرعون ، فجمعه السامري فصاغ منه ﴿ عِجْلاً ﴾ فجعله ﴿ جَسَداً ﴾ لحماً ودماً ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة ، في قوله : ﴿ خُوَارٌ ﴾ قال : الصوت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك قال : خار العجل خورة لم يئن ، ألم تر أن الله قال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ ﴾ قال : ندموا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ من طرق ، عن ابن عباس ﴿ أَسَفاً ﴾ قال : حزينا .

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي الدرداء ، قال : الأسف منزلة وراء الغضب أشدّ من ذلك .

وأخرج عبد بن حميد ، عن محمد بن كعب ، قال : الأسف الغضب الشديد .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : لما

ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها .

وأخرج أبو الشيخ عنه قال : رفع الله منها ستة أسباعها وبقي سبع .

(85/289)

وأخرج أبو نعيم في الحلية ، عن مجاهد ، أو سعيد بن جبير ، قال : لما ألقاها موسى ذهب التفصيل وبقي الهدى .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ، قال : كانت تسعة رفع منها لوحان وبقي سبعة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال : مع أصحاب العجل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(86/289)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان له ولأخيه وهما معصومان من الذنوب ، طوى ما يتعلق بالمغفرة وذكر متعلق الرحمة بخلاف ما يأتي في السؤال له وللسبعين من قومه فإنه عكس فيه ذلك ؛ ولما صحت براءة الخليفة ، وأشير إلى أنه مع ذلك فقير إلى المغفرة ، التفتت النفس إلى حال المفسدين فقال مخبراً عن ذلك : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾ أي رغبوا رغبة تامه في أخذهم إلهاً مع المخالفة لما ركز في الفطرة الأولى ودعاهم إليه الكليم عليه السلام ﴿ سينالهم ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ غضب ﴾ أي عقوبة فيها طرد أو إبعاد ، ولعله ما أمروا به من قتل أنفسهم ، واشار إلى انه فيه رفق بهم وحسن تربية لتوبة من يبقى منهم بقوله : ﴿ من ربهم ﴾ أي الذي لا محسن إليهم غيره ، يلحقهم في الدنيا ويتبعهم في الآخرة ﴿ وذلة في الحياة الدنيا ﴾ أي جزاء لهم على افترائهم وكذلك من رضي فعلهم ولا سيما إن كان من أولادهم كقريظة والنضير وأهل خيبر ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل جزائهم ﴿ نجزي المفترين ﴾ أي المعتمدين للكذب ، وهذا نص في أن كل مفتر ذليل ، كما هو المشاهد – وإن أظهر الجراءة بعضهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 116 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية شرح حال من عبد العجل .

واعلم أن المفعول الثاني من مفعولي الاتخاذ محذوف ، والتقدير : اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ [طه : 88] وللمفسرين في هذه الآية طريقان : الأول : أن المراد بالذين اتخذوا العجل هم الذين باشروا عبادة العجل ، وهم الذين قال فيهم : ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ وعلى هذا التقدير ففيه سؤال ، وهو أن أولئك الأقوام تاب الله عليهم بسبب أنهم قتلوا أنفسهم في معرض التوبة عن ذلك الذنب ، وإذا تاب الله عليهم فكيف يمكن أن يقال في حقهم أنه ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الحياة الدنيا ﴾ .

والجواب عنه : أن ذلك الغضب إنما حصل في الدنيا لا في الآخرة ، وتفسير ذلك الغضب هو أن الله تعالى أمرهم بقتل أنفسهم ، والمراد بقوله : ﴿ وَذِلَّةٌ فِى الحياة الدنيا ﴾ هو أنهم قد ضلوا فذلوا .

فإن قالوا : السين في قوله : ﴿ سَيَنَالُهُمْ ﴾ للاستقبال ، فكيف يحمل هذا على حكم الدنيا

؟

قلنا : هذا الكلام حكاية عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ، فأخبره في ذلك الوقت أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ، فكان هذا الكلام سابقاً على وقوعهم في القتل وفي الذلة ، فصح هذا التأويل من هذا الاعتبار .

والطريق الثاني : أن المراد بالذين اتخذوا العجل أبناؤهم الذين كانوا في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وعلى هذا التقدير : ففي الآية وجهان :

الوجه الأول : أن العرب تعير الأبناء بقبائح أفعال الآباء كما تفعل ذلك في المناقب .

(88/289)

يقولون للأبناء : فعلتم كذا وكذا ، وإنما فعل ذلك من مضى من آبائهم ، فكذا ههنا وصف اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم باتخاذ العجل ، وإن كان آباؤهم فعلوا ذلك ، ثم حكم عليهم بأنه ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ في الآخرة ﴿ وَذِلَّةٌ فِى الحياة الدنيا ﴾ كما قال تعالى في صفتهم : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ [لبقرة : 61] .

والوجه الثاني : أن يكون التقدير ﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل ﴾ أي الذين باشروا ذلك ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ ﴾ أي سينال أولادهم ، ثم حذف المضاف بدلالة الكلام عليه .

أما قوله تعالى : ﴿ وكذلك نَجْزِى المفترين ﴾ فالمعنى أن كل مفتر في دين الله فجزاؤه غضب الله والذلة في الدنيا ، قال مالك بن أنس : ما من مبتدع إلا ويجد فوق رأسه ذلة ، ثم قرأ هذه الآية ، وذلك لأن المبتدع مفتر في دين الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 12.13 ﴾

(89/289)

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل ﴾

يعني : اتخذوا العجل إلها ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني : يصيبهم عذاب من ربهم ﴿ وَذِلَّةٌ فِى الحياة الدنيا ﴾ وهو ما أمروا بقتل أنفسهم .

ويقال : هذا قول الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم يعني : يصيب أولادهم ذلة في الحياة الدنيا .

وهي الجزية ﴿ وكذلك نَجْزِى المفترين ﴾ يعني : هكذا نعاقب المكذبين . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل إِنَّ الذين اتخذوا العجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ في الآخرة ﴿ وَذِلَّةٌ فِي الحياة الدنيا ﴾ قال أبو العالية : هو ما أُمروا به من قتل أنفسهم .

وقال عطيّة العوفي : أراد سينالهم أولادهم [الكبير] كابراً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب وذلّة في الحياة الدنيا ، وهو ما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء لتوليتهم متخذي العجل ورضاهم به ، وقال ابن عباس : هو الجزية .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المفترين ﴾ الكاذبين قال أبو قلابة : هي والله جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة ، قال يذله الله عزّ وجلّ .

وسمعت أبا عمرو الفراتي سمعت أبا سعيد بكر بن أبي عثمان الخيري سمعت السراج سمعت سوار بن عبد الله الغزّي سمعت أبي يقول : قال مالك بن أنس : ما من مبتدع إلاّ [وتجد فوق] رأسه ذلّة ثمّ قرأ ﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل ﴾ الآية يعني المبتدعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(90/289)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾ الآية ،

مخاطبة من الله لموسى عليه السلام لقوله : ﴿ سينالهم ﴾ ووقع ذلك النيل في عهد موسى عليه السلام ، و" الغضب والذلة " هو أمرهم بقتل أنفسهم هذا هو الظاهر ، وقال بعض المفسرين : الذلة الجزية ، ووجه هذا القول أن الغضب والذلة بقيت في عقب هؤلاء المقصودين بها أولاً وكأن المراد سينال أعقابهم ، وقال ابن جريج : الإشارة في قوله ﴿ الذين ﴾ إلى من مات من عبدة العجل قبل التوبة بقتل النفس وإلى من فر فلم يكن حاضراً وقت القتل .

قال القاضي أبو محمد : والغضب على هذا والذلة هو عذاب الآخرة ، والغضب من الله عز وجل إن أخذ بمعنى الإرادة فهو صفة ذات ، وإن أخذ بمعنى العقوبة وإحلال النقمة فهو صفة فعل ، وقوله : ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ المراد أولاً أولئك الذين افتروا على الله في عبادة العجل وتكون قوة اللفظ تعم كل مفتر إلى يوم القيامة ، وقد قال سفيان بن عيينة وأبو قلابة وغيرهما : كل صاحب بدعة أو فرية ذليل ، واستدلوا بالآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(91/289)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وذلَّةٌ في الحياة الدنيا ﴾

فيها قولان .

أحدهما : أنها الجزية ، قاله ابن عباس .

والثاني : ما أمروا به من قتل أنفسهم ، قاله الزجاج .

فعلى الأول يكون ما أُضيف إليهم من الجزية في حق أولادهم ، لأن أولئك قُتلوا ولم يؤدّوا جزية .

قال عطية : وهذه الآية فيما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء لتولِّيهم متخذي العجل ورضاهم به .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ قال ابن عباس : كذلك أُعاقب من اتخذ إلهاً دوني .

وقال مالك بن انس : ما من مبتدع الا وهو يجد فوق رأسه ذلَّة ، وقرأ هذه الاية .

وقال سفيان بن عيينة : ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلَّة تغشاه ، قال : وهي في كتاب الله تعالى ، قالوا : وأين هي ؟ قال : أوما سمعتم قوله : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلَّة في الحياة الدنيا ﴾ .

قالوا : يا أبا محمد ، هذه لأصحاب العجل خاصة ، قال : كلا ، اتلوا ما بعدها : ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ فهي لكل مفترٍ ومبتدع إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(92/289)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾

الغضب من الله العقوبة .

﴿ وَذِلَّةٌ فِي الحياة الدنيا ﴾ لأنهم أُمِروا بقتل بعضهم بعضاً .

وقيل : الذِّلة الجِزْية .

وفيه بعد ؛ لأن الجزية لم تؤخذ منهم وإنما أخذت من ذريّاتهم .

ثم قيل : هذا من تمام كلام موسى عليه السلام ؛ أخبر الله عز وجل به عَنه ، وتمّ الكلام .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المفترين ﴾ .

وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم ، فإنهم لمّا تابوا وعفا الله عنهم بعد أن جرى القتل العظيم كما تقدّم بيانه في "البقرة" أخبرهم أن من مات

منهم قتيلاً فهو شهيد ، ومن بَقِي حيّاً فهو مغفور له .

وقيل : كان ثَمّ طائفة أشْرِبوا في قلوبهم العجل ، أي حُبّه ، فلم يتوبوا ؛ فهم المعنِيّون بقوله :

﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل ﴾ .

وقيل أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من المِيقات .

وقيل : أراد أولادهم .

وهو ما جرى على قُرِيظة والنضِير ؛ أي سينال أولادهم .

والله أعلم .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المفترين ﴾ أي مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين .

وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ما من مُبْتَدِعٍ إلا وتجد فوق رأسه ذِلّة ، ثم قرأ ﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ حتى قال ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المفترين ﴾ أي المبتدِعين .

وقيل : إن موسى أمر بذبح العجل ، فجرى منه دَمٌ وبَرَدَه بِالْمِبْرد وألقاه مع الدم في اليَمّ وأمرهم بالشرب من ذلك الماء ؛ فمن عبد ذلك العجلَ وأُشْرِبَه ظهر ذلك على أطراف فَمِه ؛ فبذلك عرف عبدة العجل .

وقد مضى هذا في "البقرة" ثم أخبر الله تعالى أن الله يقبل توبة التائب من الشرك وغيره .

وقد مضى هذا في غير موضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾

يعني إلهاً عبدوه من دون الله ﴿ سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ﴾ يعني سينالهم عقوبة من ربهم وهوان بسبب كفرهم وعبادتهم العجل وذلك في عاجل الحياة الدنيا في للمفسرين في هذه الآية قولان :

أحدهما : أن المراد بالذين اتخذوا العجل تابوا إلى الله تعالى بقتلهم أنفسهم كما أمرهم الله فتاب عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة مع التوبة ؟ والجواب : إن ذلك الغضب إنما حصل لهم في الدنيا وهو في نفس القتل فكان ذلك القتل غضباً عليهم والمراد بالذلة هو إسلامهم أنفسهم للقتل واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطأ .

فإن قلت السين في قول سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضي ؟

قلت : هذا الكلام إنما هو خبر عما أخبر الله به موسى حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله في ذلك الوقت أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقاً لوقوعه وهو التل الذي أمرهم الله به بعد ذلك وقال ابن جريج في هذه الآية إن هذا

الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل وهو الذي قاله ابن جرير وإن كان له وجه لكن لجميع المفسرين على الخلافة .

القول الثاني : أن المراد بالذين اتخذوا العجل اليهود الذين كانوا في زمن النبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال ابن عباس : هم الذين أدركوا النبي (صلى الله عليه وسلم) وآباؤهم هم الذين عبدوا العجل وأراد بالغضب عذاب الآخرة وبالذلة في الدنيا الجزية .

وقال عطية العوفي : سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأراد بالغضب والذلة ما أصاب بني النضير وبني قريظة من القتل والجلاء وعلى هذا القول في تقرير الآية وجهان :

(94/289)

الأول : أن العرب تعير الأبناء بقبائح أفعال الآباء كما تفعل لك في المناقب فتقول للأبناء كذا وفعلتم كذا وإما فعل ذلك من مضى من آبائهم فكذلك ها هنا وصف اليهود الذين كانوا على زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنهم اتخذوا العجل وإن كان آباؤهم فعلوا ذلك ثم حكم على اليهود الذين كانوا في زمنه بأنهم سينالهم غضب من ربهم في الآخرة وذلة

في الحياة الدنيا .

الوجه الثاني : أن تكون الآية من باب حذف المضاف والمعنى أن الذين اتخذوا العجل وباشروا عبادته سينال أولادهم ، الخ ثم حذف المضاف لدلالة الكلام عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ يعني : وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً نجزي كل من افترى على الله كذباً أو عبد غيره وقال أبو قلابة : هي والله جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله ، وقال سفيان بن عيينة : هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة وقال مالك بن أنس : ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال والمبتدع مفتر في دين الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(95/289)

وقال أبو حيان :

﴿ إنَ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلّة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾ .

الظاهر أنه من كلام الله تعالى إخباراً عما ينال عباد العجل ومخاطبةً لموسى بما ينالهم .

وقيل : هو من بقية كلام موسى إلى قوله ﴿ وقال إنما اتخذتم ﴾ وأصدقه الله تعالى بقوله :

﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ والأول الظاهر لقوله ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ في نسق واحد مع الكلام قبله والمعنى اتخذوه إلهاً لقوله ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى ﴾ ، قيل : والغضب في الأخرة والذلّة في الدنيا وهم فرقة من اليهود أُشربوا حبّ العجل فلم يتوبوا ، وقيل : هم من مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات ، وقال أبو العالية وتبعه الزمخشري : هو ما أمروا به من قتل أنفسهم ، وقال الزمخشري والذلّة خروجهم من ديارهم لأن ذلّ الغربة مثلٌ مضروب انتهى ، وينبغي أن يقول استمرار انقطاعهم عن ديارهم لأنّ خروجهم كان سبق على عبادة العجل ، وقال عطية العوفيّ : هو في قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير لأنهم تولوا متخذي العجل ، وقيل : ما نال أولادهم على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من السبي والجلاء والجزية وغيرها ، وجمع هذين القولين الزمخشري فقال : هو ما نال أبناءهم وهم بنو قريضة والنضير من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء ومن الذلة بضرب الجزية انتهى ، والغضب إن أخذ بمعنى الإرادة فهو صفة ذات أو بمعنى العقوبة فهو صفة فعل والظاهر أن قوله ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ متعلق بقوله ﴿ سينالهم ﴾ ، وكذلك أي مثل ذلك النيل من الغضب والذلّة نجزي من افترى الكذب على الله وأي افتراء أعظم من قولهم ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ و ﴿ المفترين ﴾ عامّ في كل مفتر ، وقال أبو قلابة ومالك وسفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة أو فرية ذليل واستدلّوا على ذلك بالآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل ﴾

أي تمّوا على اتخاذه واستمروا على عبادته كالسامريِّ وأشياعِه من الذين أُشربوه في قلوبهم كما يُفصح عنه كونُ الموصولِ الثاني عبارةً عن التائبين فإن ذلك صريحٌ في أن الموصولَ الأولَ عبارةٌ عن المصِرّين ﴿ سَيَنَالُهُمْ ﴾ أي في الآخرة ﴿ غَضَبٌ ﴾ أي عظيمٌ لا يقادر قدرُه مستتبِعٌ لفنون العقوباتِ لما أن جريمتَهم أعظمُ الجرائم وأقبحُ الجرائر وقوله تعالى : ﴿ مّن رَّبِهِمُ ﴾ أي مالكِهم ، متعلقٌ بينالُهم أو بمحذوف هو نعتٌ لغضب مؤكد لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتيةِ بالفخامة الإضافية ، أي كائنٌ من ربهم ﴿ وَذِلَّةٌ فِى الحياة الدنيا ﴾ هي ذلةُ الاغترابِ التي تُضرب بها الأمثالُ والمسكنةُ المنتظمةُ لهم ولأولادهم جميعاً ، والذلةُ التي اختص بها السامريُّ من الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مِساس . يروى أن بقاياهم اليومَ يقولون ذلك ، وإذا مس أحدَهم أحدٌ غيرُهم حُمّاً جميعاً في الوقت ، وإيرادُ ما نالهم في حيز السين مع مُضِيّه بطريق تغليب حالِ الأخلافِ على حال الأسلاف ، وقيل : المرادُ بهم التائبون ، وبالغضب ما أُمروا به من قتل أنفسِهم ، واعتُذر عن السين بأن ذلك حكايةٌ عما

أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومِه واتخاذِهم العجلَ بأنه سينالهم غضبٌ من ربهم وذلةٌ فيكون سابقاً على الغضب ، وأنت خبيرٌ بأن سباقَ النظم الكريم وسياقَه نابيان عن ذلك نُبوّاً ظاهراً ، كيف لا وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نَجْزِي المفترين ﴾ ينادي على خلافه فإنهم شهداءُ تائبون فكيف يمكن وصفُهم بعد ذلك بالافتراء ؟ وأيضاً ليس يجزي الله تعالى كلَّ المفترين بهذا الجزاءِ الذي ظاهرُه قهرٌ وباطنُه لطفٌ ورحمة ، وقيل : المرادُ بهم أبناؤهم المعاصِرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن تعييرَ الأبناءِ بأفاعيلِ الآباء مشهورٌ معروفٌ ، منه قولُه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ الآية ، وقولُه تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ

(97/289)

يا موسى ﴾ الآية ، والمرادُ بالغضب الغضبُ الأخرويُّ وبالذلة ما أصابهم من القتل والإجلاءِ وضربِ الجزية عليهم ، وقيل : المرادُ بالموصول المتّخِذون حقيقةً وبالضمير في ينالُهم أخلافُهم ولا ريب في أن توسيطَ حالِ هؤلاء في تضاعيف بيانِ حالِ المتخِذين من قبيل الفصل بين الشجرِ ولِحائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(98/289)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ ﴾

أي بقوا على اتخاذه واستمروا عليه كالسامري وأشياعه كما يفصح عنه كون الموصول الثاني عبارة عن التائبين فإن ذلك صريح في أن الموصول الأول عبارة عن المصرين ﴿ سَيَنَالُهُمْ ﴾ أي سيلحقهم ويصيبهم في الآخرة جزاء ذلك ﴿ غَضَبَ ﴾ عظيم لا يقادر قدره مستتبع لفنون العقوبات لعظم جريمتهم وقبح جريرتهم ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي مالكهم ، والجار والمجرور متعلق بينالهم ، أو بمحذوف وقع نعتاً لغضب مؤكداً لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي كائن من ربهم ﴿ وَذِلَّةٌ ﴾ عظيمة ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ وهي على ما أقول : الذلة التي عرتهم عند تحريق إلههم ونسفه في أليم نسفاً مع عدم القدرة على دفع ذلك عنه ، وقيل : هي ذلة الاغتراب التي تضرب بها الأمثال والمسكنة المنتظمة لهم ولأولادهم جميعاً ، والذلة التي اختص بها السامري من الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مساس ، وروي أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك وإذا مس أحدهم أحد غيرهم حمجميعاً في الوقت ، ولعل ما ذكرناه أولى والرواية لم نر لها أثراً ، وإيراد ما نالهم بالسين للتغليب ، وقيل : وإليه يشير كلام أبي العالية المراد بهم التائبون ، وبالغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم ، وبالذلة إسلامهم أنفسهم لذلك واعترافهم بالضلال ، واعتذر عن السين

بأن ذلك حكاية عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل فإنه قال له : ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ ﴾ الخ فيكون سابقاً على الغضب ، وجعل الكلام جواب سؤال مقدر وذلك أنه تعالى لما بين أن القوم ندموا على عبادتهم العجل بقوله سبحانه : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ [الأعراف : 149] والندم توبة ولذلك عقبوه بقولهم : ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ﴾ [الأعراف : 149] وذكر عتاب موسى لأخيه عليهما السلام ثم استغفاره اتجه لسائل أن يقول : يا رب إلى ماذا يصير أمر القوم

(99/289)

وتوبتهم واستغفار نبي الله تعالى وهل قبل الله تعالى توبتهم ؟ فأجاب ﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ ﴾ أي نقم قبل توبة موسى وأخيه وغفر لهما خاصة وكان من تمام توبة القوم أن الله سبحانه أمرهم بقتل أنفسهم فسلموها للقتل ، فوضع الذين اتخذوا العجل موضع القوم إشعاراً بالعلية .

وتعقب بأن سياق النظم الكريم وكذا سباقه ناب عن ذلك نبواً ظاهراً كيف لا وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نَجْزِى المفترين ﴾ ينادي على خلافه فإنهم شهداء تائبون فكيف يمكن

وصفهم بعد ذلك بالافتراء وأيضاً ليس يجزي الله تعالى كل المفترين بهذا الجزاء الذي ظاهره قهر وباطنه لطف ورحمة إلا أن يقال : يكفي في صحة التشبيه وجود وجه الشبه في الجملة ولا بد من التزام ذلك على الوجه الذي ذكرناه أيضاً ؛ وما ذكر في تحرير السؤال والجواب مما تمجه أسماع ذوي الألباب .

وقال عطية العوفي : المراد سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأريد بالغضب والذلة ما أصاب بني النضير وقريظة من القتل والجلاء ، أو ما أصابهم من ذلك ومن ضرب الجزية عليهم ، وفي الكلام على هذا حذف مضاف وهو الأولاد ، ويحتمل أن لا يكون هناك وهو من تعيير الأبناء بما فعل الآباء ، ومثله في القرآن كثير .

وقيل : المراد بالموصول المتخذون حقيقة وبالضمير في ينالهم أخلافهم وبالغضب الغضب الأخروي وبالذلة الجزية التي وضعها الإسلام عليهم أو الأعم منها ليشمل ما ضربه بختنصر عليهم .

وتعقب ذلك أيضاً بأنه لا ريب في أن توسيط حال هؤلاء في تضاعيف بيان حال المتخذين من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه ، والمراد بالمفترين المفترون على الله تعالى ، وافتراء أولئك عليه سبحانه قول السامري في العجل ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ [طه : 88] ورضاهم به ولا أعظم من هذه الفرية ولعله لم يفتر مثلها أحد قبلهم ولا بعدهم .

وعن سفيان بن عيينة أنه قال : كل صاحب بدعة ذليل وتلا هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعاني حـ 9 صـ ﴾

(100/289)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

يجوز أن قوله : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾ إلى قوله : ﴿ الدنيا ﴾ من تمام كلام موسى ، فبعد أن دعا لأخيه بالمغفرة أخبر أن الله غضب على الذين عبدوا العجل .

وأنه سيظهر أثر عضبه عليهم ، وستنالهم ذلة في الدنيا وذلك بوحي تلقاه ، وانتهى كلام موسى عند قوله : ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ ، وأن جملة : ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ خطاب من جانب الله في القرآن ، فهو اعتراض والواو اعتراضية ذيل الله بهذا الاعتراض حكاية كلام موسى فأخبر بأنه يجازي كل مفتر بمثل ما أخبر به موسى عن مفتري قومه ، وأن جملة : ﴿ والذين عملوا السيئات ﴾ إلى آخر الآية تكملة للفائدة ببيان حالة أضداد المتحدث عنهم وعن أمثالهم .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾ إلى آخرها خطاباً من الله لموسى ،

جواباً عن دعائه لأخيه بالمغفرة بتقدير فعلِ قول محذوف : أي قلنا إن الذين اتخذوا العجل إلى آخره ، مثل ما حكى الله تعالى عن إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ﴾ [البقرة : 126] الآية .

و﴿ ينالهم ﴾ يصيبهم .

والنول والنّيْل : الأخذُ وهو هنا استعارة للإصابة والتلبس كما في قوله تعالى : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ في هذه السورة (37) ، والذين اتخذوا العجل هم الذين عبدوه فالمفعول الثاني ﴿ لاتخذوا ﴾ محذوف اختصاراً ، أي اتخذوه إلاهاً .

وتعريفهم بطريق الموصولية ، لأنها أخصر طريق في استحضارهم بصفة عرفوا بها ، ولأنه يؤذن بسببية ما نالهم من العقاب ، والمراد بالغضب ظهور أثره من الخذلان ومنع العناية ، وأما نفس الغضب فهو حاصل في الحال .

وغضب الله تعالى إرادته السوء بعبده وعقابه في الدنيا والآخرة أو في إحداهما .

(101/289)

والذلة : خضوع في النفس واستكانة من جرّاء العجز عن الدفع ، فمعنى : نيل الذلّة إياهم أنهم يصيرون مغلوبين لمن يغلبهم ، فقد يكون ذلك بتسليط العدو عليهم ، أو بسلب الشجاعة من نفوسهم .

بحيث يكونون خائفين العدو ، ولو لم يسلّط عليهم ، أو ذلّة الاغتراب إذ حرمهم الله ملك الأرض المقدسة فكانوا بلا وطن طول حياتهم حتى انقرض ذلك الجيل كله ، وهذه الذلّة عقوبة دنيوية قد لا تمحوها التوبة ، فإن التوبة إنما تقتضي العفو عن عقاب التكليف ، ولا تقتضي ترك المؤاخذة بمصائب الدنيا ، لأن العقوبات الدنيوية مسببات تنشأ عن أسبابها ، فلا يلزم أن ترفعها التوبة إلا بعناية إلهية خاصة ، وهذا يشبه التفرقة بين خطاب الوضع وخطاب التكليف كما يؤخذ من حديث الإسراء لما أُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بإناءَيْن أحدهما من لبن والآخر من خمر ، فاختار اللبن ، فقال جبريل : الحمد لله الذي هداك للفطرة لو أخذت الخمر لغَوَتْ أمتك ، هذا وقد يمحو الله العقوبة الدنيوية إذا رَضي عن الجاني والله ذو فضل عظيم .

والقول في الإشارة من قوله : ﴿ وكذلك ﴾ تقدم في قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) ، أي ومثل ذلك الجزاء العظيم نجزي المفترين .

والافتراء الكذب الذي لا شبهة لكاذبه في اختلاقه ، وقد مضى في قوله تعالى : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ في سورة المائدة (103) .

والمراد بالافتراء الاختلاق في أصول الدين بوضع عقائِدَ لا تستند إلى دليل صحيح من دلالة العقل أو من دلالة الوحي ، فإن موسى عليه السلام كان حذرهم من عبادة الأصنام كما حكاه الله فيما مضى في قوله تعالى : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . . . ﴾

(102/289)

[الأعراف : 138 140] الآيات الثلاث المتقدمة آنفاً ، فجعل الله جزاءهم على الافتراء الغضبَ والذلة ، وذلك إذا فعلوا مثله بعد أن جاءتهم الموعظة من الله ، ولذلك لم يكن مشركو العرب أذلاّء ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم وهداهم فاستمروا على الافتراء عاقبهم الله بالذلة ، فأزال مهابتهم من قلوب العرب ، واستأصلهم قتلاً وأسراً ، وسلَب ديارهم ، فلما أسلم منهم من أسلموا صاروا أعزة بالإسلام .

ويؤخذ من هذه الآية أن الكذاب يُرمى بالمذلّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(103/289)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

حين يقال : ﴿ اتخذوا العجل ﴾ قد نجد من يتساءل : هل اتخذوه مذبوحاً يأكلونه ؟ أو يثير الأرض أو يسقي الحرث ويدير السواقي ؟ لأن العجل موجود لهذه المهام ، لكنهم لم يأخذوا العجل لتلك المهام ، بل إنهم قد اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً ، أما اتخاذه فيما خُلِقَ له فلا غبار عليه ، وهو هنا محذوف ومتروك لفطنة السامع ؛ فإذا اتخذنا العجل فيما خُلِقَ له العجل لا ينالنا غضب من الله ، أما الذين سينالهم غضب الله فهم من اتخذوا العجل في غير ما خُلِقَ له ، إنهم اتخذوه إلهاً : ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحياة الدنيا ﴾ .

وقوله : ﴿ سَيَنَالُهُمْ ﴾ يدل على أن أوان الغضب والذلة لم يأت بعد ، وسيحدث في المستقبل ، ومستقبل الدنيا هو الآخرة ، ولكن الحق هنا يقول : إن الذلة ستحدث في الدنيا ، فكيف يكون ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ ﴾ مع أنهم تابوا ؟ ويوضح سبحانه لنا ذلك في قوله : ﴿ فتوبوا إلى بَارِئِكُمْ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

فبعضهم تاب إلى بارئه وقتل نفسه فلماذا إذن الغضب ؟

ويوضح الحق لنا أن الذي ينالهم من الغضب هو ما ألجأهم إلى أن يقال لهم : " اقتلوا أنفسكم " ، وهكذا نفهم أن قوله تعالى : ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ ﴾ أي قبل أن يتوبوا ، وقتل النفس هو

منتهى الذلة ومنتهى الإهانة . ﴿ . . . سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحياة الدنيا وَكَذَلِكَ نَجْزِي المفترين ﴾ [الأعراف : 152]

(104/289)

أي أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم ، فكل مفتر يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لابد أن يناله هذا الجزاء ؛ لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث في تاريخهم ؛ وحين يسرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك – سبحانه – أن يعتبر السامع للقصة في نفسه . واعتبار السامع للقصة في نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيهاً وتحذيراً : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المفترين ﴾ أي احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما نالهم ، وهو سبحانه ينبه كلا لينتفع من هذه العبرة وهذه اللقطة فإنَّ التاريخ مسرود لأخذ العبرة ، والعظة ليتعظ بها السامع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(105/289)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أيوب قال : تلا أبو قلابة هذه الآية ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾ قال : هو جزاء لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ قال : كل صاحب بدعة ذليل .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سفيان بن عيينة قال : لا تجد مبتدعاً إلا وجدته ذليلاً ، الم تسمع قول الله ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان بن عيينه قال : ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه ، وهو في كتاب الله . قالوا : أين هي ؟ قال أما سمعتم إلى قوله ﴿ إن الذين اتخذوا العجل . . . ﴾ الآية ؟ قالوا : يا أبا محمد هذه لأصحاب العجل خاصة . . . !

قال : كلا ، اقرأ ما بعدها ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ فهي لكل مفتر ومبتدع إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(106/289)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾ الآية .

المفعول الثاني من مفعولي – الاتِّخاذِ – محذُوف ، والتقديرُ ، اتَّخذوا العجل إلهاً ومَعْبُوداً ، يدلُّ على هذا المحذوف قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ هذآ إلهكم وإله موسى ﴾ [طه : 88] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 327 . 328 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) ﴾

يعني إن الذين اتخذوا العِجْلَ معبوداً سَيَنالهُم في مستقبل أحوالهم جزاءُ أعمالهم . والسين

في قوله " سينالهم " للاستقبال ، ومَنْ لا يضره عصيان العاصين لا يبالي بتأخير العقوبة عن الحال ، وفَرْقٌ بين الإمهال والإهمال ، والحق – سبحانه – يمهل ولكنه لا يهمل ، ولا ينبغي لِمَنْ يذنب ثم لا يُؤَاخَذُ في الحال أَنْ يَغْتَرَّ بالإمهال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 573 ﴾

(107/289)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر المصرين على المعصية ، عطف عليه التائبين ترغباً في مثل حالهم فقال : ﴿ والذين عملوا السيئات ﴾ عبر بالعمل إشارة إلى بالعفو وإن أقدموا عليها على علم ، وجمع إعلاماً بأنه لا يتعاظمه ذنب وإن عظم وكثر وإن طال زمانه ، ولذلك عطف بأداة البعد فقال : ﴿ ثم تابوا ﴾ وحقق الأمر ونفى المجاز بقوله : ﴿ من بعدها ﴾ ثم ذكر الأساس الذي لا يقبل عمل لم يبن عليه على وجه يفهم أنه لا فرق بين أن يكون في السيئات ردة أو لا فقال :

﴿ وآمنوا ﴾ ثم أجاب المبتدأ بقوله : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بقبول توبة التائبين لما سيرك من ذلك لأنك بهم رؤوف رحيم ﴿ من بعدها ﴾ أي التوبة ﴿ لغفور ﴾ أي محاء لذنوب التائبين عيناً وأثراً وإن عظمت وكثرت ﴿ رحيم ﴾ أي فاعل بهم فعل الرحيم من البر والإكرام واللطف والإنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 116 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ والذين عَمِلُواْ السيئات ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُواْ ﴾ فهذا يفيد أن من عمل السيئات فلا بد وأن يتوب عنها أولاً ، وذلك بأن يتركها أولاً ويرجع عنها ، ثم يؤمن بعد ذلك .

وثانياً : يؤمن بالله تعالى ، ويصدق بأنه لا إله غيره ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذه الآية تدل على أن السيئات بأسرها مشتركة في أن التوبة منها توجب الغفران ، لأن قوله : ﴿ والذين عَمِلُواْ السيئات ﴾ يتناول الكل .

والتقدير : أن من أتى بجميع السيئات ثم تاب فإن الله يغفرها له ، وهذا من أعظم ما يفيد البشارة والفرح للمذنبين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 13 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ والذين عَمِلُواْ السيئات ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا ﴾

يعني : رجعوا عن الشرك بالله وعن السيئة ﴿ وَءامَنُواْ ﴾ يعني : صدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ من بعد التوبة ، ويقال : من بعد السيئات ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني : ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم بعد التوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُواْ ﴾

أما التوبة من السيئات فهي الندم على ما سلف والعزم على ألاّ يفعل مثلها . فإن قيل فالتوبة إيمان فما معنى قوله : ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُواْ ﴾ فالجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني أنهم تابوا من المعصية واستأنفوا عمل الإيمان بعد التوبة .

والثاني : يعني أنهم تابوا بعد المعصية وآمنوا بتلك التوبة .

والثالث : وآمنوا بأن الله قابل التوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ والذين عملوا السيئات ﴾ الآية ،

تضمنت هذه الآية الوعد بأن الله عز وجل يغفر للتائبين ، والإشارة إلى من تاب من بني إسرائيل ، وفي الآية ترتيب الإيمان بعد التوبة ، والمعنى في ذلك أنه أرادوا وأمنوا أن التوبة نافعة لهم منجية فتمسكوا بها فهذا إيمان خاص بعد الإيمان على الإطلاق ، ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿ وآمنوا ﴾ أي وعملوا عمل المؤمنين حتى وافوا على ذلك ، ويحتمل أن يريد التأكيد فذكر التوبة والإيمان إذ هما متلازمان ، إلا أن التوبة على هذا تكون من كفر ولا بد فيجيء " تابوا وآمنوا " بمعنى واحد ، وهذا لا يترتب في توبة المعاصي فإن الإيمان متقدم لتلك ولا بد وهو وتوبة الكفر متلازمان ، وقوله : ﴿ إن ربك ﴾ إيجاب ووعد مرج.

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل قوله : " تابوا وآمنوا " أن يكون لم تقصد رتبة الفعلين على عرف الواو في أنها لا توجب رتبة ويكون ﴿ وآمنوا ﴾ بمعنى وهم مؤمنون قبل وبعد ، فكأنه قال ومن صفتهم أن آمنوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(109/289)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾)

فيها قولان .

أحدهما : أنها الشرك .

والثاني : الشرك ، وغيره من الذنوب .

﴿ ثم تابوا من بعدها ﴾ يعني : السيئات .

وفي قوله : ﴿ وآمنوا ﴾ قولان .

أحدهما : آمنوا بالله ، وهو يُخرَّج على قول من قال : هي الشرك .

والثاني : آمنوا بأن الله تعالى يقبل التوبة .

﴿ إن ربك من بعدها ﴾ يعني : السيئات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ والذين عملوا السيئات ﴾

يعني عملوا الأعمال السيئة ويدخل في ذلك كل ذنب صغير وكبير حتى الكفر فما دونه ﴿ ثم تابوا من بعدها ﴾ يعني ثم رجعوا إلى الله من بعد أعمالهم السيئة ﴿ وآمنوا ﴾ يعني وصدقوا بالله تعالى وأنه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب ﴿ إن ربك ﴾ يا محمد أو يا أيها الإنسان التائب ﴿ من بعدها ﴾ يعني من بعد توبتهم ﴿ لغفور رحيم ﴾ يعني أنه تعالى يغفر الذنوب ويرحم التائبين وفي الآية دليل على أن السيئات بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة في التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعاً بفضله ورحمته وتقدير الآية أن من أتى بجميع

السيئات ثم تاب إلى الله وأخلص التوبة فإن الله يغفرها له ويقبل توبته وهذا من أعظم البشائر للمذنبين التائبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(110/289)

وقال أبو حيان :

﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم ﴾

﴿ السيئات ﴾ هي الكفر والمعاصي غيره ﴿ ثم تابوا ﴾ أي رجعوا إلى الله ﴿ من بعدها ﴾ أي من بعد عمل السيئات ﴿ وآمنوا ﴾ داموا على إيمانهم وأخلصوا فيه أو تكون الواو حالية أي وقد آمنوا أنّ ربك من بعدها أي من بعد عمل السيئات هذا هو الظاهر ، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ من بعدها ﴾ عائداً على التوبة أي ﴿ إنّ ربك ﴾ من بعد توبتهم فيعود على المصدر المفهوم من قوله ﴿ ثم تابوا ﴾ وهذا عندي أولى لأنك إذا جعلت الضمير عائداً على ﴿ السيئات ﴾ ، احتجت إلى حذف مضاف وحذف معطوف إذ يصير التقدير من بعد عمل السيئات والتوبة منها وخبر ﴿ الذين ﴾ قوله ﴿ إن ربك ﴾ وما بعده والرابط محذوف أي ﴿ لغفور رحيم ﴾ لهم .

قال الزمخشري : ﴿ لغفور ﴾ لستور عليهم محاء لما كان منهم ﴿ رحيم ﴾ منعم عليهم

بالجنة وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم عظم جنايتهم أوّلاً ثم أردفها بعظم رحمته ليعلم أنّ الذنوب وإن جلت وإن عظمت فإن عفوه تعالى وكرمه أعظم وأجلّ ولكن لا بد من حفظ الشريطة وهي وجوب التوبة والإنابة وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(111/289)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين عَمِلُواْ السيئات ﴾ أيَّ سيئةٍ كانت . ﴿ ثُمَّ تَابُواْ ﴾ عن تلك السيئات ﴿ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد عملها ﴿ وَءامَنُواْ ﴾ إيماناً صحيحاً خالصاً واشتغلوا بإقامة ما هو من مقتضياته من الأعمال الصالحةِ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا كالطائفة الأولى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد تلك التوبةِ المقرونةِ بالإيمان ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ للذنوب وإن عظُمت وكثُرت ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ مبالِغٌ في إفاضة فنونِ الرحمةِ الدنيويةِ والأخروية ، والتعرّضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للتشريف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾

أي سيئة كانت لعموم المغفرة ولأنه لا داعي للتخصيص ﴿ ثُمَّ تَابُواْ ﴾ عنها ﴿ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد عملها وهو تصريح بما تقتضيه ثم ﴿ وَءامَنُواْ ﴾ أي واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضاه وبه وتمامه من الأعمال الصالحة ولم يصروا على ما فعلوا كالطائفة الأولى ، وهو عطف على تابوا ، ويحتمل أن يكون حالاً بتقدير قد ، وإياً ما كان فهو على ما قيل : من ذكر الخاص بعدم العام للاعتناء به لأن التوبة عن الكفر هي الإيمان فلا يقال : التوبة بعد الإيمان كيف جاءت قبله .

وقيل : حيث كان المراد بالإيمان ما تدخل فيه الأعمال يكون بعد التوبة .

وقيل : المراد به هنا التصديق بأن الله تعالى يغفر للتائب أي ثم تابوا وصدقوا بأن الله تعالى يغفر لمن تاب ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد التوبة المقرونة بما لا تقبل بدونه وهو الإيمان ، ولم يجعل الضمير للسيئات لأنه كما قال بعض المحققين لا حاجة له بعد قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا ﴾ لا لأنه يحتاج إلى حذف مضاف ومعطوف من عملها والتوبة عنها لأنه لا معنى لكونه بعدها إلا ذلك ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لذنوبهم وإن عظمت وكثرت ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في إفاضة فنون الرحمة عليهم ، والموصول مبتدأ وجملة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الخ خبر والعائد محذوف ، والتقدير عند أبي البقاء لغفور لهم رحيم بهم ، والتعرض لعنوان

الربوبية مع الإضافة لضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف ، وقيل : الخطاب للتائب ، ولا يخفى لطف ذلك أيضاً ، وفي الآية إعلام بأن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجل ، وما ألطف قول أبي نواس غفر الله تعالى له :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة . . .

فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن . . .

فبمن يلوذ ويستجير المجرم

ومما ينسب للإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي . . .

(112/289)

جعلت الرجا ربي لعفوك سلماً

تعاظمني ذنبي فلما قرنته . . .

بعفوك ربي كان عفوك أعظماً

ويعجبني قول بعضهم : وما أولى هذا المذنب به :

أنا مذنب أنا مخطىء أنا عاصي . . .

هو غافر هو راحم هو عافي

قابلتهن ثلاثة بثلاثة . . .

وستغلبن أوصافه أوصافي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(113/289)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾

ذُكِرَ فِي أَوَّلِ مَادَّةِ " أ س ف " مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ أَنَّ الْأَسَفَ شِدَّةُ الْحُزْنِ وَالْغَضَبِ ، وَالْأَكْثَرُونَ لَا يَشْتَرِطُونَ شِدَّتَهُمَا ، قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ : أَسِفَ أَسَفًا مِنْ بَابِ تَعِبَ وَحَزِنَ وَتَلَهَّفَ فَهُوَ أَسِفٌ مِثْلُ تَعِبَ ، وَأَسِفَ مِثْلُ غَضِبَ وَزْنًا وَمَعْنًى ، وَيُعَدَّى بِالْهَمْزَةِ فَيُقَالُ : آسَفْتُهُ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْأَسَفُ ؛ الْحُزْنُ وَالْغَضَبُ مَعًا ، وَقَدْ يُقَالُ لِكُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى الِانْفِرَادِ ، وَحَقِيقَتُهُ : ثَوَرَانُ دَمِ الْقَلْبِ بِشَهْوَةِ الِانْتِقَامِ ، فَمَتَى كَانَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ دُونَهُ انْتَشَرَ فَصَارَ غَضَبًا ، وَمَتَى كَانَ عَلَى مَنْ فَوْقَهُ انْقَبَضَ فَصَارَ حُزْنًا ؛ وَلِذَلِكَ سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ الْحُزْنِ وَالْغَضَبِ ، فَقَالَ : مَخْرَجُهُمَا وَاحِدٌ وَاللَّفْظُ مُخْتَلِفٌ ، فَمَنْ نَازَعَ مَنْ يَقْوَى عَلَيْهِ أَظْهَرَ غَيْظًا

وَغَضَبًا ، وَمَنْ نَازَعَ مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَظْهَرَ حُزْنًا وَجَزَعًا ، وَبِهَذَا النَّظَرِ قَالَ الشَّاعِرُ :

فَحُزْنُ كُلِّ أَخِي حُزْنٍ أَخُو الْغَضَبِ

(114/289)

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْأَسَفَ فِي الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا هُوَ الْغَضْبَانُ فَهُوَ إِذًا مُتَرَادِفٌ ، وَقَدْ فَاتَهُ هُنَا مَا نَعْهَدُ مِنْ تَحْقِيقِهِ لِمَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ ، وَمَا أَظُنُّ أَنَّ مَا نَقَلَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَصِحُّ ، فَإِنَّ مَا ذَكَرَ مِنَ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْغَضَبِ وَالْحُزْنِ ، إِنَّمَا يَظْهَرُ بَيْنَ الْغَضَبِ وَالْحِقْدِ ، وَإِنَّمَا الْحُزْنُ أَلَمُ النَّفْسِ بِفَقْدِ مَا تُحِبُّ مِنْ مَالٍ أَوْ أَهْلٍ أَوْ وَلَدٍ ، وَلَيْسَ مِنْ شَهْوَةِ الِانْتِقَامِ فِي شَيْءٍ ، وَمِنْ شَوَاهِدِ اسْتِعْمَالِ الْأَسَفِ بِمَعْنَى الْحُزْنِ ؛ قَوْلُهُ – تَعَالَى – حِكَايَةً عَنْ يَعْقُوبَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – : وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ (12 : 84) وَمِنْ شَوَاهِدِ اسْتِعْمَالِهِ بِمَعْنَى الْغَضَبِ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ (43 : 55) وَلَا يُوصَفُ رَبُّنَا تَعَالَى بِالْحُزْنِ وَلَا يُسْنَدُ إِلَيْهِ ، وَغَضَبُهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَغَضَبِ الْبَشَرِ أَلَمًا فِي النَّفْسِ ، وَلَا أَثَرَ غَلَيَانِ دَمِ الْقَلْبِ ، تَعَالَى رَبُّنَا عَنْ هَذِهِ الِانْفِعَالَاتِ وَالْآلَامِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ صِفَةٌ تَلِيقُ بِهِ هِيَ سَبَبُ الْعِقَابِ ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْغَضْبَانِ وَالْأَسِفِ فِي صِفَةِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَسَفَ بِمَعْنَى الْحُزْنِ .

وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى مِنَ الطُّورِ إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ عَلَى أَخِيهِ هَارُونَ إِذْ رَأَى أَنَّهُ ضَعُفَ فِي سِيَاسَتِهِ لَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ فِي خِلَافَتِهِ فِيهِمْ ، حَزِينًا عَلَى مَا وَقَعَ

(115/289)

مِنْهُمْ مِنْ كُفْرِ الشِّرْكِ ، وَإِغْضَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَيْ : بِئْسَ خِلَافَةً خَلَفْتُمُونِيهَا مِنْ بَعْدِ ذَهَابِي عَنْكُمْ إِلَى مُنَاجَاةِ الرَّبِّ - تَعَالَى - ، مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِي مَعَكُمْ أَنْ لَقَّنْتُكُمُ التَّوْحِيدَ ، وَكَفَفْتُكُمْ عَنِ الشِّرْكِ ، وَبَيَّنْتُ لَكُمْ فَسَادَهُ وَبُطْلَانَهُ وَسُوءَ عَاقِبَةِ أَمْرِهِ ؛ حَيْثُ رَأَيْتُمُ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ مِنْ تَمَاثِيلِ الْبَقَرِ - فَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَخْلُفُونِي بِاقْتِفَاءِ سِيرَتِي ، وَلَكِنَّكُمْ خَلَفْتُمُونِي بِضِدِّهَا ، إِذْ صَنَعْتُمْ لَكُمْ صَنَمًا كَأَصْنَامِ أُولَئِكَ

الْقَوْمِ أَوْ كَأَحَدِ أَصْنَامِ الْمِصْرِيِّينَ فَعَبَدَهُ بَعْضُكُمْ ، وَلَمْ يَرْدَعْكُمْ عَنْ ذَلِكَ سَائِرُكُمْ - فَالتَّوْبِيخُ عَامٌّ ، وَفِيهِ تَعَرُّضٌ خَاصٌّ بِهَارُونَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَهُ خَلِيفَتَهُ فِيهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ .

(116/289)

أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ قَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ : وَعَجِلَهُ سَبَقَهُ ، وَأَعْجَلَهُ اسْتَعْجَلَهُ ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ أَيِ : اسْتَبَقْتُمْ ، قَالَ الْفَرَّاءُ : تَقُولُ عَجِلْتُ الشَّيْءَ أَيْ : سَبَقْتُهُ وَأَعْجَلْتُهُ اسْتَحْثَثْتُهُ ا هـ . وَقَالَ فِي الْكَشَّافِ : يُقَالُ عَجِلَ عَنِ الْأَمْرِ إِذَا تَرَكَهُ غَيْرَ تَامٍّ ، وَنَقِيضُهُ تَمَّ عَلَيْهِ ، وَأَعْجَلَهُ عَنْهُ غَيْرُهُ ، وَيُضَمَّنُ مَعْنَى سَبَقَ فَيُعَدَّى تَعْدِيَتَهُ ، فَيُقَالُ : عَجِلْتُ الْأَمْرَ ، وَالْمَعْنَى أَعَجِلْتُمْ عَنْ أَمْرِ رَبِّكُمْ ؛ وَهُوَ انْتِظَارُ مُوسَى حَافِظِينَ لِعَهْدِهِ ، وَمَا وَصَّاكُمْ بِهِ ، فَبَنَيْتُمُ الْأَمْرَ عَلَى أَنَّ الْمِيعَادَ قَدْ بَلَغَ آخِرَهُ ، وَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ فَحَدَّثْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِمَوْتِي فَغَيَّرْتُمْ كَمَا غَيَّرَتِ الْأُمَمُ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ . وَرُوِيَ أَنَّ السَّامِرِيَّ قَالَ لَهُمْ حِينَ أَخْرَجَ لَهُمُ الْعِجْلَ وَقَالَ : هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى (20 : 88) : إِنَّ مُوسَى لَنْ يَرْجِعَ ، وَإِنَّهُ قَدْ مَاتَ ا هـ ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَقَوْلُهُ : أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ أَيِ : اسْتَعْجَلْتُمْ مَجِيئِي إِلَيْكُمْ ، وَهُوَ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ – تَعَالَى – ا هـ ، وَقَدْ نَقَلَ الْآلُوسِيُّ كَلَامَ الْكَشَّافِ مِنْ غَيْرِ عَزْوٍ كَعَادَةِ أَكْثَرِ الْمُؤَلِّفِينَ بَعْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ ، ثُمَّ قَالَ : وَذَهَبَ يَعْقُوبُ إِلَى أَنَّ السَّبْقَ مَعْنًى حَقِيقِيٌّ لَهُ مِنْ غَيْرِ تَضْمِينٍ ، وَالْأَمْرُ وَاحِدُ الْأَوَامِرِ ، وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّ الْمَعْنَى : أَعَجِلْتُمْ وَعْدَ رَبِّكُمُ الَّذِي وَعَدَكُمْ مِنَ الْأَرْبَعِينَ ؟ فَالْأَمْرُ عَلَيْهِ :

(117/289)

وَاحِدُ الْأُمُورِ ا هـ ، وَالْمُرَادُ بِالْأَرْبَعِينَ : مَا بَيَّنَهُ مِنْ أَنَّهَا اللَّيَالِي الَّتِي وَعَدَ مُوسَى رَبَّهُ كَمَا تَقَدَّمَ

.

ثُمَّ قَالَ : وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إلَيْهِ أَيْ : وَطَرَحَ الْأَلْوَاحَ مِنْ يَدَيْهِ ؛ لِيَأْخُذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ مِمَّا كَانَ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَسَفِهِ لِمَا فَعَلَ قَوْمُهُ

(118/289)

مِنَ الشِّرْكِ بِهِ ، وَلِمَا ظَنَّ مِنْ تَقْصِيرِ أَخِيهِ ، وَأَخَذَ بِشَعْرِ رَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إلَيْهِ بِذُؤَابَتِهِ ، إذْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ فِي اجْتِهَادِ مُوسَى أَنْ يَرْدَعَهُمْ وَيَكُفَّهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ إنْ قَدَرَ كَمَا فَعَلَ هُوَ بِتَحْرِيقِهِ ، وَإِلْقَائِهِ فِي الْيَمِّ – وَأَنْ يَتْبَعَهُ إلَى جَبَلِ الطُّورِ إنْ لَمْ يَقْدِرْ كَمَا حَكَى اللَّهُ – تَعَالَى – عَنْهُ فِي سُورَةِ طه قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (20 : 92 و93) وَالِاجْتِهَادُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْمُجْتَهِدِينَ ، فَالْقَوِيُّ الشَّدِيدُ الْغَضَبِ لِلْحَقِّ بِالْحَقِّ كَمُوسَى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْحِلْمُ وَلِينُ الْعَرِيكَةِ كَهَارُونَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَقَدْ بَحَثَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي إلْقَاءِ الْأَلْوَاحِ ، وَمَا رُوِيَ عَنْ تَكَسُّرِ بَعْضِهَا هَلْ يَتَضَمَّنُ تَقْصِيرًا فِي تَعْظِيمِ كَلَامِ اللَّهِ ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنَ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ وَلَوْ فِي حَالِ الْغَضَبِ الشَّدِيدِ ؟ بَلْ تَوَهَّمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ

يَتَضَمَّنُ فِي نَفْسِهِ إهَانَةً لِلْأَلْوَاحِ فَوَجَبَ بَيَانُ الْمَخْرَجِ مِنْهُ ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا فِي الْجَوَابِ عَنْ هَذِهِ الْأَوْهَامِ : أَنَّ إلْقَاءَ الْأَلْوَاحِ لَا يَقْتَضِي إهَانَةً لَهَا ، كَمَا أَنَّ إلْقَاءَ الْعَصَا لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى السَّحَرَةِ لَا يَتَضَمَّنُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَالْإِلْقَاءُ فِي نَفْسِهِ

(119/289)

لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ لُغَةً وَلَا عَادَةً ، وَإِنَّمَا يَقَعُ مَا يَقَعُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ بِقَصْدٍ ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ هُنَا قَطْعًا - وَإِنْ كَانَ الْغَضَبُ مَظِنَّةً لَهُ . فَعَلِمَ بِهَذَا أَنَّ مَا أَطَالَ بِهِ بَعْضُهُمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ وَلَا حَاجَةَ إلَيْهِ . وَمَاذَا كَانَ جَوَابُ هَارُونَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ ابْنَ أُمَّ إنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ ، عَنْ عَاصِمٍ هُنَا ، وَفِي سُورَةِ طه " ابْنَ أُمِّ " بِكَسْرِ الْمِيمِ عَلَى حَذْفِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ لِلتَّخْفِيفِ ، وَهِيَ تُطْرَحُ فِي الْمُنَادَى الْمُضَافِ ، وَقَرَأَهَا الْبَاقُونَ بِالْفَتْحِ وَعَلَّلُوهَا بِزِيَادَةِ التَّخْفِيفِ ، وَبِالتَّشْبِيهِ بِخَمْسَةَ عَشَرَ ، وَقُرِئَ فِي الشَّوَاذِّ " ابْنَ أُمِّي " بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ عَلَى الْأَصْلِ . قَالَ فِي الْكَشَّافِ : قِيلَ : كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ، فَإِنْ صَحَّ فَإِنَّمَا أَضَافَهُ إلَى الْأُمِّ إشَارَةً إلَى أَنَّهُمَا مِنْ بَطْنٍ وَاحِدٍ ، وَذَلِكَ أَدْعَى إلَى الْعَطْفِ وَالرِّقَّةِ وَأَعْظَمُ لِلْحَقِّ الْوَاجِبِ ، وَلِأَنَّهَا كَانَتْ مُؤْمِنَةً فَاعْتَدَّ بِنَسَبِهَا ، وَلِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي

قَاسَتْ فِيهِ الْمَخَاوِفَ وَالشَّدَائِدَ فَذَكَّرَهُ بِحَقِّهَا اهـ ، وَهُوَ حَسَنٌ إلَّا قَوْلَهُ فَاعْتَدَّ بِنَسَبِهَا فَإِنَّ النَّسَبَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَاسْمُ أُمِّهِمَا (يوكابد) بِنْتُ لَاوِي كَمَا فِي التَّوْرَاةِ عِنْدَهُمْ .

(120/289)

وَالْمَعْنَى : يَا ابْنَ أُمِّي لَا تَعْجَلْ بِمُؤَاخَذَتِي وَتَعْنِيفِي فَإِنِّي لَمْ آلُ جَهْدًا فِي الْإِنْكَارِ عَلَى الْقَوْمِ وَالنُّصْحِ لَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمُ اسْتَضْعَفُونِي فَلَمْ يَرْعَوُوا لِنُصْحِي وَلَمْ يَمْتَثِلُوا أَمْرِي ، بَلْ قَارَبُوا أَنْ يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أَيْ : فَلَا تَفْعَلْ بِي مِنَ الْمُعَاتَبَةِ وَالْإِهَانَةِ مَا يُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ ، وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ بِأَنْ تُلْزِقَنِي بِهِمْ فِي قَرْنٍ مِنَ الْغَضَبِ وَالْمُؤَاخَذَةِ فَلَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يَعْنِي بِالْأَعْدَاءِ وَالظَّالِمِينَ فَرِيقًا وَاحِدًا وَهُمُ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ فَوَجَدُوا عَلَيْهِ وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ دُونَ مُوسَى فِي قُوَّةِ الْإِرَادَةِ وَشِدَّةِ الْعَزِيمَةِ ، وَهُوَ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ عُلَمَاؤُنَا وَعُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ .

(121/289)

وَمَاذَا كَانَ مِنْ أَثَرِ هَذَا الِاسْتِعْطَافِ فِي قَلْبِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي أَيِ : اغْفِرْ لِي مَا أَغْلَظْتُ عَلَيْهِ بِهِ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَاغْفِرْ لَهُ مَا عَسَاهُ قَصَّرَ فِيهِ مِنْ مُؤَاخَذَةِ الْقَوْمِ ، لِمَا تَوَقَّعَهُ مِنَ الْإِيذَاءِ حَتَّى الْقَتْلِ : وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ بِجَعْلِهَا شَامِلَةً لَنَا ، وَاجْعَلْنَا مَغْمُورِينَ فِيهَا ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ " وَارْحَمْنَا " وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَهَذَا ثَنَاءٌ ؛ يَدُلُّ عَلَى مَزِيدِ الثِّقَةِ فِي الرَّجَاءِ ، وَالدُّعَاءُ فِي جُمْلَتِهِ أَقْوَى فِي اسْتِعْتَابِ هَارُونَ مِنَ الِاعْتِذَارِ لَهُ ، وَأَدَلُّ عَلَى تَخْيِيبِ أَمَلِ الْأَعْدَاءِ فِي شَيْءٍ مِمَّا يُثِيرُ حَفِيظَةَ الشَّمَاتَةِ ، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَعْلِيلِهِ : لِيُرْضِيَ أَخَاهُ وَيُظْهِرَ لِأَهْلِ الشَّمَاتَةِ رِضَاهُ عَنْهُ - فَلَا تَتِمُّ لَهُمْ شَمَاتَتُهُمْ - وَاسْتَغْفَرَ لِنَفْسِهِ مِمَّا فَرَطَ مِنْهُ إِلَى أَخِيهِ ، وَلِأَخِيهِ أَنْ عَسَى فَرَّطَ فِي حُسْنِ الْخِلَافَةِ ، وَطَلَبَ أَلَّا يَتَفَرَّقَا عَنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَا تَزَالُ مُنْتَظِمَةً لَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ا هـ .

(122/289)

بَرَّأَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ هَارُونَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ جَرِيمَةِ اتِّخَاذِ الْعِجْلِ ، وَمِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى مُتَّخِذِيهِ وَعَابِدِيهِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَهَذَا مِنْ أَهَمِّ الْمَوَاضِعِ الَّتِي هَيْمَنَ بِهَا عَلَى كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي فِي أَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ ؛ فَصَحَّحَ أَغْلَاطَ مُحَرِّفِيهَا ، وَهُوَ يَحْثُو التُّرَابَ فِي أَفْوَاهِ

الطَّاعِنِينَ فِيهِ ، وَفِيمَنْ جَاءَ بِهِ (بَرَّأَهُمَا اللهُ - تَعَالَى -) بِزَعْمِهِمْ أَنَّهُ أَخَذَ عَنِ التَّوْرَاةِ مَا فِيهِ مِنْ أَخْبَارِ مُوسَى وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَإِنَّهُ

(123/289)

صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ كَانَ أُمِّيًّا لَمْ يَقْرَأْ ، وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْكُتُبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بَلَدِهِ مَنْ يَعْرِفُ مِنْ تِلْكَ الْكُتُبِ شَيْئًا ، وَقَدْ كَانَ يَقْرَأُ عَلَى أَعْدَى الْمُعَانِدِينَ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ مِثْلَ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (29 : 48) ، وَقَوْلُهُ : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا (11 : 49) وَلَوْ كَانَ يَعْلَمُ أَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْكُتُبِ لَكَذَّبَهُ فِي هَذَا أُولَئِكَ الْجَاحِدُونَ وَالْمُعَانِدُونَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الِاحْتِجَاجُ بِهَذَا ، وَالْغَرَضُ هُنَا إِقَامَةُ حُجَّةٍ أُخْرَى ، وَهِيَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَقَلَ عَنِ التَّوْرَاةِ لَوَافَقَهَا فِي كُلِّ مَا نَقَلَهُ ، وَهُوَ قَدْ خَالَفَهَا فِي مَوَاضِعَ بِمَا جَعَلَهُ مُنَزِّلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ مُهَيْمِنًا وَرَقِيبًا عَلَيْهَا ، وَمُصَحِّحًا لِأَهَمِّ مَا وَقَعَ مِنَ التَّحْرِيفِ فِيهَا ، وَمِنْهُ تَبْرِئَةُ هَارُونَ وَغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْجَرَائِمِ الَّتِي عُزِيَتْ إِلَيْهِمْ فِيهَا ، فَجَعَلَتْهُمْ قُدْوَةً سَيِّئَةً كَجَعْلِ هَارُونَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هُوَ الصَّانِعُ لِلْعِجْلِ كَمَا هُوَ مُفَصَّلٌ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِينَ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ

قَالَ : (1) وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ : قُمِ اصْنَعْ لَنَا

(124/289)

آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا ؛ لِأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ (2) فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأْتُونِي بِهَا (3) فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي كَانَتْ فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ (4) فَأَخَذَ ذَلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالْأَزْمِيلِ ، وَصَنَعَهُ عِجْلًا مَسْبُوكًا فَقَالُوا : هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ (5) فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ بَنَى مَذْبَحًا أَمَامَهُ وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ : غَدًا عِيدٌ لِلرَّبِّ (6) فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلَامَةٍ وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ (7) فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : اذْهَبِ انْزِلْ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ (8) زَاغُوا سَرِيعًا عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتَهُمْ بِهِ صَنَعُوا لَهُمْ عِجْلًا مَسْبُوكًا وَسَجَدُوا لَهُ وَذَبَحُوا لَهُ وَقَالُوا : هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ " .

وَبَعْدَ هَذَا ذَكَرَ أَنَّ الرَّبَّ قَالَ لِمُوسَى : إِنَّ هَذَا الشَّعْبَ صَلْبُ الرَّقَبَةِ ، وَأَنَّ غَضَبَهُ

اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ لِيَفْتِنَهُمْ ، وَأَنَّ مُوسَى اسْتَرْحَمَهُ أَلَّا يَفْعَلَ وَلَا يُشْمِتَ بِهِمُ الْمِصْرِيِّينَ ، وَذَكَّرَهُ وَعْدَهُ سُبْحَانَهُ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بِتَكْثِيرِ نَسْلِهِمْ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَسْأَلَةَ عَوْدَةِ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ وَمَا فَعَلَ ، ثُمَّ قَالَ :

(125/289)

" 19 وَكَانَ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ إِلَى الْمَحَلَّةِ أَنَّهُ أَبْصَرَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ فَحَمِيَ غَضَبُ مُوسَى وَطَرَحَ اللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدَيْهِ وَكَسَرَهُمَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ 20 ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوا وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِمًا وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ 21 وَقَالَ مُوسَى لِهَارُونَ مَاذَا صَنَعَ بِكَ هَذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيَّةً عَظِيمَةً 22 فَقَالَ هَارُونُ لَا يَحْمَ غَضَبُ سَيِّدِي عَلَيَّ ، أَنْتَ تَعْرِفُ الشَّعْبَ إِنَّهُ فِي شَرٍّ 23 فَقَالُوا لِي اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا " إِلَخْ .

ثُمَّ ذَكَرَ طَلَبَ مُوسَى مِنَ الرَّبِّ أَنْ يَغْفِرَ لِقَوْمِهِ ، وَأَمَرَ الرَّبُّ إِيَّاهُمْ بِأَنْ يَقْتُلَ كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ – وَأَنَّ بَنِي لَاوِي فَعَلُوا ذَلِكَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوٌ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافِ رَجُلٍ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(126/289)

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ لِبَيَانِ مَا اسْتَحَقَّهُ الْقَوْمُ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى اتِّخَاذِ الْعِجْلِ ، قَفَّى بِهِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مُوسَى مَعَ هَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فِي أَمْرِهِمْ ؛ لِأَنَّ مَنْ سَمِعَ ذَاكَ أَوْ قَرَأَهُ تَسْتَشْرِفُ نَفْسُهُ لِمَعْرِفَةِ هَذَا ، فَهُوَ إِذًا مِمَّا أَوْحَاهُ اللَّهُ - تَعَالَى - يَوْمَئِذٍ إِلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَالْمُرَادُ بِالْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ فِيهِ : مَا اشْتَرَطَهُ تَعَالَى فِي قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ مِنْ قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ عَوْدَةِ مُوسَى إِلَى مُنَاجَاتِهِ فِي الْجَبَلِ . وَالذِّلَّةُ ؛ مَا يَشْعُرُونَ بِهِ مِنْ هَوَانِهِمْ عَلَى النَّاسِ وَظَنِّهِمْ عِنْدَ لِقَاءِ كُلِّ أَحَدٍ أَنَّهُ يَتَذَكَّرُ بِرُؤْيَتِهِمْ مَا كَانَ مِنْهُمْ فَيَحْتَقِرَهُمْ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ هَذِهِ الذِّلَّةَ خَاصَّةٌ بِالسَّامِرِيِّ ، وَهِيَ مَا حُكِمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ وَاجْتِنَابِ النَّاسِ بِقَوْلِ مُوسَى لَهُ : فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ (20 : 97) أَيْ : لَا أَمَسُّ أَحَدًا وَلَا يَمَسُّنِي أَحَدٌ .

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ أَيْ وَمِثْلُ هَذَا الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللهِ – تَعَالَى – فِي أَزْمِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ فِي كُلِّ زَمَانٍ ؛ إذَا فُضِحُوا بِظُهُورِ افْتِرَائِهِمْ كَمَا فُضِحَ هَؤُلَاءِ ، وَجَعَلَهُ بَعْضُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ خَاصًّا بِافْتِرَاءِ الْبِدَعِ ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : إنَّ ذُلَّ الْبِدْعَةِ عَلَى أَكْتَافِهِمْ ، وَإِنْ هَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ ، وَطَقْطَقَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ ، وَهَكَذَا رَوَى أَيُّوبُ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ " وَكَذَلِكَ تَجْزِي الْمُفْتَرِينَ " وَقَالَ : هِيَ وَاللهِ لِكُلِّ مُفْتَرٍ . إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ سُفْيَانُ ابْنُ عُيَيْنَةَ : كُلُّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ ذَلِيلٌ . نَقَلَ ذَلِكَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَهُوَ مَشْرُوطٌ بِكَوْنِ افْتِرَاءِ الِابْتِدَاعِ فِي أَزْمِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى مَا قَيَّدْنَاهُ بِهِ ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى – كَفَلَ لَهُمُ النَّصْرَ ، أَوْ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَالْعَدْلِ الَّتِي تُقَامُ فِيهَا السُّنَّةُ ، وَأَمَّا الْبِدْعَةُ فِي دَارِ الْكُفْرِ أَوْ دَارِ الظُّلْمِ وَالْبِدَعِ وَالْفِسْقِ وَالظُّلْمِ فَهِيَ كَظُلَّةٍ مِنَ الدُّخَانِ ، أَوْ قَزَعَةٍ مِنَ السَّحَابِ تَحْدُثُ فِي حِنْدِسِ لَيْلَةٍ مُطْبِقَةِ السَّحَابِ ، حَالِكَةِ الْإِهَابِ ، لَا تَكَادُ تَظْهَرُ ، فَيَكُونُ لِأَصْحَابِهَا احْتِقَارٌ يُذْكَرُ .

(128/289)

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ هَذَا كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ فِي الْقِصَّةِ خَاطَبَ اللهُ بِهِ خَاتَمَ رُسُلِهِ ؛ لِإِنْذَارِ الْمُجَاوِرِينَ لَهُ فِي الْمَدِينَةِ مَا سَيَكُونُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهِمْ فِي افْتِرَائِهِمْ عَلَى اللهِ وَعَدَاوَتِهِمْ لِرَسُولِهِ ، وَإِنْكَارِهِمْ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الْبِشَارَةِ بِهِ ، وَوَصَفَهُمْ بِاتِّخَاذِ الْعِجْلِ لِشَبَهِهِمْ بِهِمْ وَكَوْنِهِمْ خَلَفًا لَهُمْ فِي افْتِرَاءِ كُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى اللهِ فِي عَهْدِ ظُهُورِ حُجَّتِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ . كَمَا عَيَّرَهُمْ فِي آيَاتٍ أُخْرَى بِقَتْلِ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جَرَائِمِ سَلَفِهِمْ ، وَرُوِيَ هَذَا الْوَجْهُ عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ قَالَ : الْمُرَادُ سَيَنَالُ أَوْلَادُ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَأُرِيدَ بِالْغَضَبِ وَالذِّلَّةِ مَا أَصَابَ بَنِي النَّضِيرِ وَقُرَيْظَةَ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجَلَاءِ ، أَوْ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ ضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ ا هـ . وَتَوْجِيهُنَا أَظْهَرُ . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالذِّلَّةِ وَحْدَهَا ، وَيُرَادُ : سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ فِي الْآخِرَةِ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ (2 : 61) ا هـ ، وَأَقُولُ : إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ فَعَذَابُ الْآخِرَةِ مُقَدَّرٌ فِي الْكَلَامِ دَلَّ عَلَيْهِ ذِكْرُ الدُّنْيَا ، عَلَى مَا عُلِمَ مِنِ اطِّرَادِهِ بِنُصُوصٍ أُخْرَى .

(129/289)

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ هَذِهِ الْآيَةُ فِي حُكْمِ مَنْ تَابَ وَقُبِلَتْ تَوْبَتُهُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَا سَبَقَهَا هُوَ حُكْمُ مَنْ لَمْ يَتُبْ أَوْ مَنْ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ثُمَّ تَابُوا وَرَجَعُوا مِنْ بَعْدِهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى بِأَنْ رَجَعَ الْكَافِرُ عَنْ كُفْرِهِ وَتَرَكَهُ وَآمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَرَجَعَ الْعَاصِي عَنْ عِصْيَانِهِ ، وَأَخْلَصَ الْإِيمَانَ وَزَكَّاهُ بِالْعَمَلِ بِمُوجِبِهِ ، إِنَّ رَبَّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْجَرَائِمِ ، أَوْ مِنْ بَعْدِ مَا ذَكَرَ مِنَ التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الْبَاعِثِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، لَغَفُورٌ لَهُمْ ؛ أَيْ : لَسَتُورٌ عَلَيْهِمْ ، مَحَّاءٌ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ رَحِيمٌ بِهِمْ ؛ أَيْ : مُنْعِمٌ عَلَيْهِمْ بِالْجَنَّةِ ، هَكَذَا صَوَّرَ الْمَعْنَى فِي الْكَشَّافِ ، ثُمَّ قَالَ وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌّ يَدْخُلُ تَحْتَهُ مُتَّخِذُو الْعِجْلِ وَمَنْ عَدَاهُمْ ، عَظَّمَ جِنَايَتَهُمْ أَوَّلًا ، ثُمَّ أَرْدَفَهَا تَعْظِيمَ رَحْمَتِهِ ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الذُّنُوبَ وَإِنْ جَلَّتْ وَعَظُمَتْ فَإِنَّ عَفْوَهُ وَكَرَمَهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ حِفْظِ الشَّرِيطَةِ وَهِيَ وُجُوبُ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَمَا وَرَاءَهُ طَمَعٌ فَارِغٌ ، وَأَشْعَبِيَّةٌ بَارِدَةٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا حَازِمٌ اهـ .

(130/289)

وَأَقُولُ إِنَّ طَمَعَ أَكْثَرِ الْفُسَّاقِ بِالْمَغْفِرَةِ قَدْ ذَهَبَ بِحُرْمَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْ قُلُوبِهِمْ حَتَّى اسْتَحَلَّ كَثِيرٌ مِنْهُمُ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَكَانُوا شَرًّا مِمَّنْ قَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ (3 :

24) وَمَا طَمَعُهُمْ بِثَمَرَةِ إِيمَانٍ ، بَلْ أَمَانِيَّ حُمْقٍ وَجَدَلٍ عَلَى أَطْرَافِ اللِّسَانِ .
قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 9 صـ 177 .
184 ﴾

(131/289)

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا ﴾ الآية

اعتراض بأنهم إن تابوا وآمنوا يغفر الله لهم على عادة القرآن من تعقيب التهديد بالترغيب ، والمغفرة ترجع إلى عدم مؤاخذتهم بذنوبهم في عقاب الآخرة ، وإلى ارتفاع غضب الله عنهم في المستقبل ، والمراد بالسيئات : ما يشمل الكفر ، وهو أعظم السيّئات .

والتوبةُ منه هي الإيمان .

وفي قوله : ﴿ من بعدها ﴾ في الموضعين حذف مضاف قبل ما أضيفت إليه (بَعْد) وقد شاع حذفهُ دل عليه ﴿ عملوا ﴾ أي من بَعد عَملها ، وقد تقدم الكلام على حذف

المضاف مع (بعد) و (قبل) المضافين إلى مضاف للمضاف إليه عند قوله تعالى : ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ في سورة البقرة (51) .

وحرف (ثم) هنا مفيد للتراخي ، وذلك إلجاء إلى قبول التوبة ، ولو بعد زمان طويل مملوء بفعل السيّئات .

وقوله : ﴿ من بعدها ﴾ تأكيد لمفاد المهلة التي أفادها حرف (ثم) وهذا تعريض للمشركين بأنهم إن آمنوا يغفر لهم ولو طال أمد الشرك عليهم .

وعطف الإيمان على التوبة ، مع أن التوبة تشمله من حيث إن الإيمان توبة من الكفر ، إما للاهتمام به ، لأنه أصل الاعتداد بالأعمال الصالحة عند الله تعالى كقوله : ﴿ وما أدراك ما العقبة فكّ رقبة إلى قوله : ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 12 17] .

ولئلا يظن أن الإشراك لخطورته لا تنجي منه التوبة .

وإما أن يراد بالإيمان إيمان خاص ، وهو الإيمان بإخلاص ، فيشمل عمل الواجبات .

والخطاب في قوله : ﴿ إن ربك ﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم على الوجه الأظهر ، أو لموسى على جعل قوله : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾ مقولاً من الله لموسى .

وفي تعريف المسند إليه بالإضافة توسل إلى تشريف المضاف إليه بأنه مربوب لله تعالى ، وفي ذكر وصف الربوبية هنا تمهيد لوصف الرحمة .

وتأكيد الخبر بإن ولام التوكيد وصيغتي المبالغة في ﴿ غفور رحيم ﴾ لمزيد الاهتمام به ترغيب للعصاة في التوبة ، وطرداً للقنوط من نفوسهم ، وإن عظمت ذنوبهم ، فلا يحسبوا تحديد التوبة بحد إذا تجاوزته الذنوب بالكثرة أو العِظَم لم تقبل منه توبة .

وضمير : ﴿ من بعدها ﴾ الثاني مبالغة في الامتنان بقبول توبتهم بعد التملّي من السيئات .

وحذف متعلق ﴿ غفور رحيم ﴾ لظهوره من السياق ، والتقدير : لغفور رحيم لهم . أو لكل من عمل سيّئة وتاب منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(133/289)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153) ﴾

وهذا ما حدث ، فبعد أن اتخذوا العجل ، وقال لهم : اقتلوا أنفسكم توبة إلى بارئكم ، ثم تابوا إلى الله وآمنوا بما جاءهم ، غفر الله لهم . وإذا كان الحق قد قص علينا مظهرية

جباريته فإنه أيضاً لم يشأ أن يدعنا في مظهرية الجبارية ، وأراد أن يدخلنا في حنان الرحمانية . لذلك يقول هنا : ﴿ والذين عَمِلُواْ السيئات ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وآمنوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : 153]

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَابُواْ ﴾ أي ندموا على ما فعلوا وأصروا وعزموا على ألَّا يعودوا ، ونعلم من قبل أن التوبة لها مظهريات ثلاثة ؛ أولاً : لها مظهرية التشريع ، ولها مظهرية الفعل من التائب ثانياً ، ولها قبولية الله للتوبة من التائب ثالثاً . ومشروعية التوبة نفسها فيها مطلق الرحمة ، ولو لم يكن ربنا قد شرع التوبة سيستشري شره في السيئة فهذه رحمة بالمذنب ، وبالمجتمع الذي يعيش فيه المذنب . بعد ذلك يتوب العبد ، ثم يكون هنا مظهرية أخرى للحق ، وهو أن يقبل توبته .

التوبة – إذن – لها تشريع من الله ، وذلك رحمة ، وفعل من العبد بأن يتوب ، وذلك هو الاستجابة ، وقبول من الله ، وذلك هو قمة العطاء والرحمة منه سبحانه .

وقوله الحق : ﴿ والذين عَمِلُواْ السيئات ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وآمنوا . . . ﴾ [الأعراف : 153]

إنَّ هذا القول يدل على أن عمل السيئة يخدش الإيمان ، فيأمر سبحانه عبده : جدّد إيمانك ، واستحضر ربك استحضاراً استقباليًّا ؛ لأن عملك السيئة يدل على أنك قد غفلت عن

الحق في أمره ونهيه ، وحين تتوب فأنت تجدد إيمانك وتجد ربك غفوراً رحيماً : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

(134/289)

إن ذنب العبد يكون فيما خالف منهج ربه في " افعل " و " لا تفعل " ، وما دام العبد قد استغفر الله وتاب فسبحانه يقبل التوبة . ويوضح : إذا كنت أنا غفوراً رحيماً ، فإياكم يا خلقي أن تُذَكِّروا مذنباً بذنبه بعد أن يتوب ؛ لأن صاحب الشأن غفر ، فإياك أن تقول للسارق التائب : " يا سارق " ، وإياك أن تقول للزاني التائب : " يا زاني " ، وإياك أن تقول للمرتشي التائب : " يا مرتشي " لأن المذنب ما دام قد جدّد توبته وآمن ، وغفر الله له ، فلا تكن أنت طفيليًّا وتبرز له الذنب من جديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153) ﴾

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود . أنه سئل عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها ، فتلا ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(135/289)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ والذين عَمِلُواْ السيئات ﴾

مبتدأ وخبره قوله إنَّ رَبَّكَ إلى آخره .

والعائد محذوف ، والتقدير : غفورٌ لهم ورحيم بهم ، كقوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] أي منه .

قوله : مِنْ بَعْدِهَا يجوز أن يعود الضمير على السّيِّئاتِ ، وهو الظاهر ، ويجوز أن يكون عائداً على التوبة المدلول عليها بقوله : " ثُمَّ تَابُوا " أي : من بعد التوبة .

قال أبو حيان : " وهذا أوْلَى ، لأنَّ الأوَّلَ يلزُم منه حذفُ مضافٍ ومعطوفه ، إذ التقدير : من بعد عمل السّيئات والتوبة منها " .

قوله : " وَآمَنُوا " يجوزُ أن تكونَ الواوُ للعطفِ ، فإن قيل : التَّوبة بعد الإيمان ، فكيف جاءت قبله ؟ فيقال الواو لا تُرتِّبُ ، ويجز أن تكون الواوُ للحال ، أي : تَابُوا ، وقد آمنوا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 328 . 329 ﴾

(136/289)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153) ﴾

وَصَفَهم بالتوبة بعد عمل السيئات ثم بالإيمان بعدها ، ثم قال : ﴿ مَن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . والإيمان الذي هو بعد التوبة يحتمل آمنوا بأنه يقبل التوبة ، أو آمنوا بأن الحق سبحانه لم يُضِرْه عصيانٌ ، أو آمِنوا بأنهم لا ينجون بتوبتهم من دون فضل الله ، أو آمنوا أي عَدُّوا ما سبق منهم من نقض العَهْدِ شِركاً .

ويقال استداموا للإيمان فكان موافاتهم على الإيمان .

أو آمنوا بأنهم لو عادوا إلى ترك العهد وتضييع الأمر سقطوا من عين الله ، إذ ليس كل مرة تسلم الجرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 574 ﴾

(137/289)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

وكأن المصرين هم الذين قتلوا لما أمرهم موسى عليه السلام بقتل أنفسهم ، فلما أهلك المصرّ وتاب الباقي ، وصحت براءة أخية وبقاؤه على رتبته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاجتهاد في أمر الله ، زال موجب الغضب فأخبر سبحانه عما يعقبه فقال : ﴿ ولما سكت ﴾ أي كف ، شبه الغضب بمتكلم كان يحث موسى عليه السلام ويغريه على ما يوجبه ويقتضيه ، فلما شفى غيظه سكن وقطع كلامه فخلفه ضده وهو الرضى ﴿ عن موسى الغضب ﴾ وهو غليان القلب بما يتأذى به النفس ﴿ أخذ الألواح ﴾ أي التي جاء بها من عند الله بعد ما ألقاها ﴿ وفي ﴾ أي والحال أنه في ﴿ نسختها ﴾ أي الأمر

المكتوب فيها ، فعلة بمعنى مفعولة ، وعن ابن عباس أنه لما ألقاها صام – مثل ما كان صام للمناجاة – أربعين يوماً أخرى ، فردت عليه في لوحين مكان ما تكسر .

﴿ هدى ﴾ أي شيء موضح للمقاصد ﴿ ورحمة ﴾ أي سبب للإكرام ﴿ للذين هم لربهم ﴾ أي لا لغيره ﴿ يرهبون ﴾ أي هم أهل لأن يخافوا خوفاً عظيماً مقطعاً للقلوب موجباً للهرب ويستمرون على ذلك .

(138/289)

شرح ما في هذه الآيات من عند قوله ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ من البدائع من التوراة – قال المترجم في السفر الخامس منها بعد أن بكتهم ببعض ما فعلوه مما أوجب لهم الغضب والعقوبة بالتيه وحثهم على لزوم أمر الله لينصرهم : وأما الوصايا التي آمركم بها اليوم فاحفظوها واعملوا بها لتحيوا وتكثروا وترثوا الأرض التي أقسم الله لآبائكم فتذكروا كل الطريق الذي سيركم الله ربكم فيه ، ودبركم منذ أربعين سنة في البرية ليواضعكم ويجربكم وليعلم ما في قلوبكم هل تحفظون وصاياه أم لا ، فواضعكم وأجاعكم وأطعمكم منّاً لم تعرفوه أنتم ولا آباؤكم ليبين لكم أنه ليس إنما يعيش الإنسان بالخبز فقط ، بل إنما يعيش بما يخرج من فم الله ، ولم تبل ثيابكم ولم تجف أقدامكم منذ أربعين سنة ، احفظوا وصايا الله

ربكم وسيروا في طرقة واتقوه ، لأن الله ربكم هو الذي يدخلكم إلى الأرض المخصبة ، أرض كثيرة الأدوية والينابيع والعيون التي تجري في الصحارى والجبال ، أرض الحنطة والشعير ، فيها الكروم والتين والرمان والزيتون والدهن والعسل ، أرض لاتحتاجون فيها ولا تأكلون خبزكم بالفقر ، ولا يعوزكم فيها شيء ، أرض حجارتها حديد تستخرجون النحاس من جبالها ، فاحتفظوا ، لا تنسوا الله ربكم ، واحفظوا وصاياه وشرائعه التي آمركم بها اليوم ، لا تبطروا ، فإذا أكلتم وشبعتم وبنيتم بيوتاً وسكنتموها وكثر غنمكم وبقركم وكثرت أموالكم فتعظم قلوبكم وتنسوا الله ربكم الذي أخرجكم من أرض مصر وأنقذكم من العبودية ودبركم في البرية المرهوبة العظيمة حيث الحيات الحردات والعقارب وفي مواضع العطش وحيث لم يكن لكم ماء ، أخرج لكم من ماء الظران ، وأطعمكم منّاً لم يعرفه آبائكم ليواضعكم ويجربكم ويحسن إليكم آخر ذلك ، وانظروا ، لا تقولوا في قلوبكم إنا إنما استفدنا هذه الأموال بقوتنا وعزة قلوبنا ، ولكن اذكروا الله ربكم الذي قواكم أن تستفيدوا هذه الأموال ليثبت العهد الذي أقسم لآبائكم ، وإن أنتم

نسيتم الله ربكم وتبعتم آلهة أخرى وعبدتموها وسجدتم لها أشهدت عليكم اليوم فأعلمتكم أنكم تهلكون هلاك سوء ، كما أهلكت الشعوب التي أباد الرب بين أيديكم كذلك تهلكون ، اسمعوا يا بني إسرائيل ! بل أنتم تجوزون اليوم نهر الأردن وتنطلقون لتمتلكوا الشعوب التي هي أقوى وأعظم منكم وتظفروا بالقرى الكبار المشيدة إلى السماء وبشعب كبير عظيم بني الجبابرة ، وقد علمتم وسمعتم أنه ما يقدر إنسان أن يقوم بين يدي الجبابرة ، وتعلمون يومكم هذا أن الله ربكم يجوز أمامكم وهو نار محرقة ، وهو يهلكهم ويهزمهم أمامكم ، ولا تقولوا في قلوبكم إنه إنما أدخلنا الرب ليرث هذه الأرض من أجل برنا ، لأنه إنما يهلك الرب هذه الشعوب من أجل خطاياهم ، وليثبت الأقوال التي وعد بها آباءكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاعلموا أنه ليس من أجل بركم يورثكم الله هذه الأرض المخصبة ، لأنكم صلاب الرقاب ، اذكروا ولا تنسوا أنكم أسخطتم الله ربكم في البرية منذ يوم خرجتم من أرض مصر حتى انتهيتم إلى هذه البلاد ، ولم تزالوا مسخطين لله ربكم ونحوريت أيضاً أغضبتم الرب ، وغضب الرب عليكم وأراد هلاككم حيث صعدت إلى الجبل وأخذت لوحي العهد الذي عاهدكم الرب ، ومكثت في الجبل أربعين يوماً بلياليها لم أذق خبزاً ولم أشرب ماء ، وأعطاني الرب لوحين من حجارة مكتوب عليهما بأصبع الله ، وكانت كل الآيات التي كلمكم الرب بها من الجبل يوم الجمعة ومن بعد الأربعين ، وأعطاني لوحي العهد ، قال لي الرب : قم فانزل من هاهنا سريعاً ، لأن شعبك الذي أخرجته من أرض مصر قد

فسدوا ومالوا عن الطريق الذي أمرتهم عاجلاً ، وعملوا لهم إلهاً مسبوكاً ، وقال لي الرب : رأيت هذا الشعب فإذا هو شعب قاسي القلب ، فدعني الآن حتى أهلكهم وأبيد أسماءهم من تحت السماء وأصيرك مدبراً لشعب أعظم وأعز منهم ، وأقبلت فنزلت من الجبل والجبل يشتعل ناراً ولوحا العهد بيدي ، ورأيت أنكم أذنبتم أمام الله ربكم سريعاً ، وعمدت

(140/289)

إلى لوحي الحجارة فرميت بهما من يدي وكسرتهما قدامكم ، وصليت أمام الرب كما صليت أولاً أربعين يوماً بلياليها ، لم أذق طعاماً ولم أشرب شراباً من أجل جميع الخطايا التي ارتكبتم وما عملتم من الشر بين يدي الرب وأغضبتموه : لأني فرقت وخفت غضب الله وزجره أنه أراد إهلاككم ، واستجاب الله لي في ذلك الزمان ، وأما عجل خطاياكم الذي عملتموه فأخذته وأحرقته بالنار وسحقته وطحنته جداً حتى صار مثل التراب وطرحت ترابه في الوادي الذي ينزل في الجبل ، وبالحريق والبلايا وبقبور أصحاب الشهوة ، أغضبتم الرب ، وإذ أرسلكم ربكم من رقام الحي وقال لكم : اصعدوا ورثوا الأرض التي أعطيكم ، اجتنبتم قول الرب وأغضبتموه ولم تؤمنوا به ولم تسمعوا قوله ، ولم تزالوا لله مسخطين منذ يوم

عرفتكم ، وصليت أمام الرب أربعين يوماً بلياليها ، لأن الرب أمر بهلاككم ، وقلت في صلاتي ، يارب ! لا تهلك شعبك وميراثك الذي خلصته بعظمتك وأخرجتهم من أرض مصر بيد عزيزة ، ولكن اذكر عبيدك إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ولا تنظر إلى معصية هذا الشعب وإثمه وخطاياه ، لئلا يقول سكان تلك الأرض التي أخرجتهم منها : إن الرب لم يقو أن يدخلهم الأرض التي قال لهم ، وإنما أخرجهم من عندنا لبغضه لهم ليضلهم في البرية ، وهو شعبك وميراثك الذي أخرجتهم بقوتك العظيمة وذراعك العزيزة ، فقال لي الرب في ذلك الزمان أن أنقر لوحين من حجارة مثل اللوحين الأولين واصعد إلى الجبل إليّ واعمل تابوتاً من خشب الشمشاد – وفي نسخة : السنط – ونقرت اللوحين من الحجارة مثل اللوحين الأولين وصعدت إلى الجبل واللوحان في يدي ، وكتب على اللوحين الكتاب الأول ، وهي العشر الآيات التي كلمكم الرب بها من الجبل من النار يوم الجماعة ، ودفعها الرب إليّ فأقبلت نازلاً من الجبل ووضعت اللوحين في التابوت الذي عملت وتركتهما فيه كما فيه أمر الرب ، وارتحل بنو إسرائيل من ثروات بني يعقان وموسار ، وتوفي هارون هناك ، وصار

أليعازر ابنه حبراً مكانه ، وارتحلوا من هناك إلى جدجد ، ومن جدجد إلى يطبت أرض مسايل الماء ، في ذلك الزمان أفرز الرب سبط لاوي ليحملوا تابوت عهد الرب ، وأن يقوموا أمام الرب ويخدموه وأن يبركوا باسم الرب إلى اليوم ، ولذلك ليس لبني لاوي حصة مع بني إسرائيل في ميراثهم ، لأن ميراثهم لله ربهم كما قال لهم ، وأنا قمت بين يدي الرب في الجبل مثل الأيام الأولى أربعين يوماً بلياليها ، واستجاب لي الرب في ذلك الزمان أيضاً ، ولم يخذلكم الله ربكم ولم يفسدكم ، وقال لي الرب : قم فارتحل وسر أمام الشعب ليدخلوا ويرثوا الأرض التي أقسمت لآبائهم أن أعطيهم ، والآن يا بني إسرائيل ما الذي يطلب الله ربكم منكم ! ما يطلب الآن إلا أن تتقوا الله ربكم من كل قلوبكم وتسيروا في طرقه وتحبوه ، وأن تعبدوا الله ربكم من كل قلوبكم وأنفسكم ، وأن تحفظوا وصايا الله ربكم التي آمركم بها اليوم ليحسن إليكم لأن السماء وسماء السماء هما لله ربكم والأرض وجميع ما فيها ، وبآبائكم وحدهم سر الرب وأحبهم وانتخب نسلهم من بعدهم وفضلهم على جميع الشعوب كاليوم ، اختتنوا غلفة قلوبكم ، ولا تقسوا رقابكم أيضاً ، لأن الله ربكم هو إله الآلهة ورب الأرباب ، إله عظيم جبار مرهوب لا يحابي ولا يرتشي ، ينصف للأيتام والأرامل ، ويحب الذي يقبل إليه برزقه طعاماً وكسوة ، فأحبوا الذين يقبلون إليه واذكروا أنكم كنتم سكاناً بأرض مصر ، فاتقوا الله ربكم واتبعوه واعبدوه وأقسموا باسمه ، لأنه إلهكم ومريحكم ، وهو الذي أكمل لديكم العجائب التي رأت أعينكم ، واعلموا أنه إنما أنزل آبائكم إلى مصر سبعين رجلاً ،

والآن فقد كثركم الله ربكم مثل نجوم السماء ، أحبوا الله ربكم واحفظوا سننه وأحكامه كل الأيام ، واعلموا يومكم هذا أنه ليس لبنيكم الذين لم يعاينوا ولم يعلموا ما رب الرب وعظمته ويده المنيعة وذراعه العظيمة وآياته وأعماله التي عمل بمصر وبفرعون ملك مصر وكل أرضه وما صنع بأجناد

(142/289)

ملك مصر وما فعل بالخيل والمراكب وفرسانها الذين قلب عليهم ماء بحر سوف حيث خرجوا في طلبكم وأهلكهم الرب إلى اليوم وجميع ما صنع بكم في البرية حيث انتهيتم إلى هذه البلاد وما صنع بداثان وأبيرم ابني أليب بن روبيل اللذين فتحت الأرض فاها وابتلعتهما وبيتهما ، وخيامهم وكل شيء هو لهم إذ كانوا قياماً على أرجلهم بين يدي جميع بني إسرائيل ، ولكن قد رأت أعينكم جميع أعمال الله العظيمة التي عمل ، فاحفظوا جميع الوصايا التي أمركم الله بها اليوم لتدخلوا الأرض التي تجوزون إليها لترثوها وتطول أعماركم في الأرض التي أقسم الله لآبائكم أن يعطيهم ويرثها نسلهم – وستأتي تتمته إن شاء الله تعالى عند ﴿ ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ﴾ [يونس : 93] ، وفيه من المتشابه قوله :

فم الله ، وإصبع الله ، والأول – لكونه لا يجوز إطلاقه في شرعنا – مؤوّل بالكلام ، والثاني بالقدرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 116.120 ﴾

(143/289)

فصل فى إسرائيلية مكذوبة في سبب غضب موسى لما ألقى الألواح

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

ومن الإسرائيليات : ما رواه ابن جرير في تفسيره ، والبغوي في تفسيره ، وغيرهما في سبب غضب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام حتى ألقى الألواح من يديه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ1 وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ "الأعراف : الآية : 150" .

فقد روي عن قتادة أنه قال : نظر موسى في التوراة ، فقال : رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، اجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون –أي : آخرون في الخلق– سابقون في

دخول الجنة رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم ، يقرءونها ، وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ، ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم ، قال : رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول ، وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فصول الضلالة ، حتى ليقاتلون الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون

---

1 طرحها وألقى بها .

(144/289)

عليها ، وكان من قبلهم إذا تصدق بصدقة ، فقبلت منه بعث الله نارا فأكلتها وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم ، قال : رب فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة ، إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون ،

والمشفوع لهم ، فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد .

قال قتادة : فذكر لنا أن نبي الله موسى نبذ الألواح ، وقال : اللهم اجعلني من أمة محمد .

أقول : إن آثار الوضع والاختلاق بادية عليه ، والسند مطعون فيه ، وهي أمور مأخوذة من القرآن ، والأحاديث ، ثم صيغت هذه الصياغة الدقيقة ، وجعلت على لسان موسى عليه السلام والظاهر المتعين أن إلقاء سيدنا موسى بالألواح إنما كان غضبا وحمية لدين الله وغيره لانتهاك حرمة توحيد الله تبارك وتعالى وأما ما ذكره قتادة فغير مسلم .

وإليك ما قاله الإمام الحافظ الناقد ابن كثير في تفسيره 1 قال : "ثم ظاهر السياق أنه –أي : سيدنا موسى– ألقى الألواح؛ غضبًا على قومه ، وهذا قول جمهور العلماء سلفًا وخلفًا ، وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولا غريبا ، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة ، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء ، وهو جدير بالرد ، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب ، وفيهم كذابون ، ووضاعون ، وأفاكون ، وزنادقة .

وصدق ابن كثير فيما قال ، وأرجح أن يكون من وضع زنادقتهم كي يظهروا الأنبياء بمظر المتحاسدين ، لا بمظهر الإخوان المتحابين .

وقال الإمام القرطبي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ أي : مما اعتراه من الغضب والأسف ، حين أشرف على قومه ، وهم عاكفون على عبادة العجل ، وعلى أخيه في إهمال أمرهم ، قاله سعيد بن جبير ولذا قيل : "ليس الخبر كالمعاينة" ، ولا التفات لما روي

عن قتادة إن صح ، ولا يصح أن إلقاء الألواح إنما كان لما رأى من فضيلة أمة محمد .

---

1 تفسير ابن كثير والبغوي ج 3 ص 755 .

(145/289)

صلى الله عليه وسلم ولم يكن ذلك لأمته ، وهذا قول رديء لا ينبغي أن يضاف إلى موسى عليه السلام 1 .

ومما يؤيد أنه من وضع الإسرائيليين الدهاة أن نحوا من هذا المروي عن قتادة قد وراه الثعلبي وتلميذه البغوي عن كعب الأحبار ولا خلاف إلا في تقديم بعض الفضائل وتأخير البعض الآخر ، إلا أنه لم يذكر إلقاء الألواح في آخره :

"فلما عجب موسى من الخبر الذي أعطى الله محمد وأمته قال : يا ليتني من أصحاب محمد ، فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ إلى قوله : ﴿ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ 2 قال : فرضى موسى كل الرضاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 204 . 206 ﴾

---

1 تفسير القرطبي ج7 ص 288 .

2 الأعراف ، الآيات : 144 ، 145 ، 159 .

(146/289)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين لنا ما كان منه مع الغضب بين في هذه الآية ما كان منه عند سكوت الغضب .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب ﴾ أقوال :

القول الأول : أن هذا الكلام خرج على قانون الاستعارة كأن الغضب كان يقويه على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا وكذا ، وألق الألواح وخذ برأس أخيك إليك ، فلما زال الغضب ، صار كأنه سكت .

والقول الثاني : وهو قول عكرمة ، أن المعنى : سكت موسى عن الغضب وقلب كما قالوا : أدخلت القلنسوة في رأسي ، والمعنى : أدخلت رأسي في القلنسوة .

القول الثالث : المراد بالسكوت السكون والزوال ، وعلى هذا جاز ﴿ سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب ﴾ ولا يجوز صمت لأن ﴿ سَكَتَ ﴾ بمعنى سكن ، وأما صمت فمعناه سد فاه عن الكلام ، وذلك لا يجوز في الغضب .

المسألة الثانية :

ظاهر الآية يدل على أنه عليه السلام لما عرف أن أخاه هرون لم يقع منه تقصير وظهر له صحة عذره ، فعند ذلك سكن غضبه .

وهو الوقت الذي قال فيه : ﴿ رَبِّ اغفر لِى وَلأَخِى ﴾ [الأعراف : 151] وكما دعا لأخيه منبهاً بذلك على زوال غضبه ، لأن ذلك أول ما تقدم من أمارات غضبه على ما فعله من الأمرين ، فجعل ضد ذينك الفعلين كالعلامة لسكون غضبه .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ أَخَذَ الالواح ﴾ المراد منه الألواح المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الالواح ﴾ [الأعراف : 150] وظاهر هذا يدل على أن شيئاً منها لم ينكسر ولم يبطل ، وأن الذي قيل من أن ستة أسباع التوراة رفعت إلى السماء ليس الأمر كذلك وقوله : ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾

النسخ عبارة عن النقل والتحويل فإذا كتبت كتاباً عن كتاب حرفاً بعد حرف .

قلت : نسخت ذلك الكتاب ، كأنك نقلت ما في الأصل إلى الكتاب الثاني .

(147/289)

قال ابن عباس : لما ألقى موسى عليه السلام الألواح تكسرت فصام أربعين يوماً ، فأعاد الله تعالى الألواح وفيها عين ما في الأولى ، فعلى هذا قوله : ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ أي وفيما نسخ منها .

وأما إن قلنا إن الألواح لم تتكسر وأخذها موسى بأعيانها بعد ما ألقاها ، ولا شك أنها كانت مكتوبة من اللوح المحفوظ فهي أيضاً تكون نسخاً على هذا التقدير وقوله : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي ﴿ هُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ من العذاب ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ يريد الخائفين من ربهم .

فإن قيل : التقدير للذين يرهبون ربهم فما الفائدة في اللام في قوله : ﴿ لِرَبِّهِمْ ﴾ .

قلنا فيه وجوه : الأول : أن تأخير الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً فدخلت اللام للتقوية ، ونظيره قوله : ﴿ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] الثاني : أنها لام الأجل والمعنى : للذين هم لأجل ربهم يرهبون لا رياء ولا سمعة .

الثالث : أنه قد يزاد حرف الجر في المفعول ، وإن كان الفعل متعدياً كقولك قرأت في السورة وقرأت السورة ، وألقى يده وألقى بيده ، وفي القرآن ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يرى ﴾ [العلق : 14] وفي موضع آخر ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ ﴾ فعلى هذا قوله ﴿ لِرَبِّهِمْ ﴾ اللام صلة وتأكيد كقوله : ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ وقد ذكرنا مثل هذا في قوله : ﴿ وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران : 73] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 13.14 ﴾

(148/289)

وقال السمرقندى :

ثم رجع إلى قصة موسى عليه السلام وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب أَخَذَ الألواح ﴾

يعني : لما سكت عن موسى الغضب .

ويقال : ولما سكت موسى عن الغضب ﴿ أَخَذَ الالواح وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ يعني : في بقيتها فنسخت له الألواح ، وأعيدت له في اللوحتين مكان التي انكسرت .

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ يعني : فيما بقي منها بياناً من الضلالة ورحمة من العذاب .

﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ يعني : يخافون الله ويعملون له بالغيب .

ويقال : وفي نسختها يعني : في كتابها هدى من الضلالة ورحمةٌ من العذاب للذين يخشون ربهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ﴾ يعني سكن عن موسى ﴿ الغضب ﴾ يدلّ عليه قراءة معاوية بن مغيرة : ولمّا سكن ، بالنون .

قال أبو النجم :

وهمت الأفعى بأن تسيحا . . . وسكت المكاء أن يصيحا

وأصله الكف عن الشيء ، ومنه الساكت عن الكلام .

﴿ أَخَذَ الأَلْوَاحَ ﴾ التي ألقاها وذهب منها ستة أسباعها ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ أي فما نسخ منها .

قال عطاء : يعني فيما بقي منها ، ولم يذهب من الحدود و [الأحكام] شيء فقال ابن عباس : وعمرو بن دينار : صام موسى أربعين يوماً فلمّا ألقى الألواح فتكسّرت صام مثلها فردّت عليه وأُعيدت له في لوحين مكان الذي انكسر [ولم يفقد منها شيئاً] ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ .

قال ابن عباس : هدى من الضلالة ورحمة من العذاب ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [يخلفون] وقال الراجز :

يصنع الجزع فيها أو استحيوا . . . للماء في أجوافها خريراً أي من أصل الجزع . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(149/289)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴾

معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام لما سكن غضبه أخذ الألواح التي كان ألقى ، وقد تقدم ما روي أنه رفع أكثرها أو ذهب في التكسير ، وقوله : ﴿ سكت ﴾ لفظة مستعارة شبه خمود الغضب بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوته ، قال يونس بن حبيب : تقول العرب سال الوادي يومين ثم سكت ، وقال الزجاج وغيره : مصدر قولك سَكَتَ الغضب ، سكْت ، ومصدر قولك سكت الرجل سكوت ، وهذا يقتضي أنه فعل على حدة وليس من سكوت الناس ، وقيل إن في المعنى قلباً ، والمراد ولما سكت موسى عن الغضب فهو من باب أدخلت فمي في الحجر وأدخلت القلنسوة في رأسي ، وفي هذا أيضاً استعارة ، إذ الغضب ليس يتكلم فيوصف بالسكوت ، وقرأ معاوية بن قرة : " ولما سكن " ، وفي مصحف حفصة " ولما سكت " ، وفي مصحف ابن مسعود " ولما صبر عن موسى

الغضب " ، قال النقاش : وفي مصحف أبيّ : " ولما اشتق عن موسى الغضب " ، وقوله : ﴿ وفي نسختها ﴾ معناه وفيما ينسخ منها ويقرأ ، واللام في قوله ﴿ لربهم ﴾ يحتمل وجوهاً ، مذهب المبرد أنها تتعلق بمصدر كأنه قال الذين رهبتهم لربهم ، ويحتمل أنه لما تقدم المفعول ضعف الفعل فقوي على التعدي باللام ، ويحتمل أن يكون المعنى : هم لأجل طاعة ربهم وخوف ربهم يرهبون العقاب والوعيد ونحو هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(150/289)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾

قرأ ابن عباس ، وأبو عمران : "سَكّت" بفتح السين وتشديد الكاف وبتاء بعدها ، "الغضبَ" بالنصب .

وقرأ سعيد بن جبير ، وابن يعمر ، والجحدري : "سُكِّت" بضم السين وتشديد الكاف مع كسرها .

وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، وطلحة : "سَكَنَ" بنون .

قال الزجاج : "سكت" بمعنى : سكن ، يقال : سكت يسكت سَكْتاً : إذا سكن ، وسكت يسكت سكْتاً وسكوتاً : إذا قطع الكلام .

قال : وقال بعضهم : المعنى : ولما سكت موسى عن الغضب ، على القلب ، كما قالوا : أدخلت القلنسوة في رأسي .

والمعنى : أدخلت رأسي في القلنسوة ، والأولى هو قول أهل العربية .

قوله تعالى : ﴿ أخذ الألواح ﴾ يعني : التي كان ألقاها .

وفي قوله : ﴿ وفي نسختها ﴾ قولان .

أحدهما : وفيما بقي منها ، قاله ابن عباس .

والثاني : وفيما نُسخ فيها ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ فيهم قولان .

أحدهما : أنه عام في الذين يخافون الله ، وهو معنى قول ابن عباس .

والثاني : أنهم أُمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهو معنى قول قتادة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(151/289)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب ﴾

أي سكن .

وكذلك قرأها معاوية بن قُرَّة "سكن" بالنون .

وأصل السكوت السكون والإمساك ؛ يقال : جرى الوادي ثلاثاً ثم سكن ، أي أمسك عن الجَرْي .

وقال عِكْرمة : سكت موسى عن الغضب ؛ فهو من المقلوب .

كقولك : أدخلت الأصبع في الخاتم ، وأدخلت الخاتم في الأصبع .

وأدخلت القَلَنْسُوَة في رأسي ، وأدخلت رأسي في القلنسوة .

﴿ أَخَذَ الألواح ﴾ التي ألقاها .

﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي "هُدًى" من الضلالة ؛ "وَرَحْمَةٌ" أي من العذاب .

والنسخ : نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر .

ويقال للأصل الذي كتبتَ منه : نسخة ، وللفرع نسخة .

فقيل : لما تكسّرت الألواح صام موسى أربعين يوماً ، فرُدّت عليه وأُعيدت له تلك الألواح في لوحين ، ولم يفقد منها شيئاً ؛ ذكره ابن عباس .

قال القُشَيْرِيّ : فعلى هذا "وَفِي نُسْخَتِهَا" أي وفيما نسخ من الألواح المتكسّرة ونُقل إلى

الألواح الجديدة هدًى ورحمةٌ .

وقال عطاء : وفيما بقي منها .

وذلك أنه لم يبق منها إلا سبعها ، وذهب ستّة أسباعها .

ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء .

وقيل : المعنى "وَفِي نُسْخَتِهَا" أي وفيما نُسخ له منها من اللوح المحفوظ هُدًى .

وقيل : المعنى وفيما كتب له فيها هدًى ورحمةٌ ، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه .

وهذا كما يقال : انسخْ ما يقول فلان ، أي اثبته في كتابك .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أي يخافون .

وفي اللام ثلاثة أقوال : قول الكوفيين هي زائدة .

قال الكِسائِيّ : حدّثني من سمِع الفرزدق يقول : نقدت لها مائة درهم ، بمعنى نقدتها .

وقيل : هي لام أجْل ؛ المعنى : والذين هم من أجل ربّهم يرهبون لا رياء ولا سمعة ؛ عن الأخفش .

وقال محمد بن يزيد : هي متعلقة بمصدر ؛ المعنى : للذين هم رهبتهم لربهم .

وقيل : لما تقدّم المفعول حسن دخول اللام ؛ كقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] .

فلما تقدّم المعمول وهو المفعول ضَعُف عملُ الفعل فصار بمنزلة ما لا يتعدَّى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(153/289)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾

يعني : سكن لأن السكوت أصله الإمساك عن الشيء ولما كان السكوت بمعنى السكون استعير في سكون الغضب لأن الغضب لا يتكلم لكنه لما كان بفورته دالاًّ على ما في نفس المغضب كان بمنزلة الناطق فإذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة السكوت عما كان متكلماً به وقيل معناه ولما سكت موسى عن الغضب فهو من المقلوب كما تقول أدخلت القلنسوة في رأسي والمعنى أدخلت رأسي في القلنسوة والقول الأول أصح لأنه قول أهل اللغة والتفسر ﴿ أخذ الألواح ﴾ يعني التي ألقاها قال الإمام فخر الدين : وظاهر يدل على أن الألواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة شيء ﴿ وفي نسختها ﴾ النسخ عبارة عن النقل والتحويل فإذا

نسخت كتاباً من كتاب حرفاً بحرف قد نقلت ما في الأصل إلى الفرع فعلى هذا قيل أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ ، وقيل : أراد بها النسخة المكتبة من الألواح التي أخذها موسى بعدما تكسرت .

وقال ابن عباس وعمرو بن دينار : لما ألقى موسى الألواح فتكسرت صام أربعين يوماً فردت عليه في لوحين وفيهما ما في الأولى بعينها فيكون نسخها نقلها وعلى قول من قال إن الألواح لم تتكسر وأخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها يكون معنى وفي نسختها المكتوب فيها ﴿ هدى ورحمة ﴾ قال ابن عباس : يعني هدى من الضلالة ورحمة من العذاب ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ يعني للخائفين من ربهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(154/289)

وقال أبو حيان :

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ .

سكوت غضبه كان والله أعلم بسبب اعتذار أخيه وكونه لم يقصر في نهي بني إسرائيل عن

عبادة العجل ووعد الله إياه بالانتقام منهم وسكوت الغضب استعارة شبه خمود الغضب بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوته .

(155/289)

قال يونس بن حبيب : تقول العرب سال الوادي ثم سكت ، وقال الزجاج : مصدر ﴿ سكت ﴾ الغضب سكت ومصدر سكت الرجل سكوت وهذا يقتضي أنه فعل على حدّه وليس من سكوت الناس ، وقيل هو من باب القلب أي ولمّا سكت موسى عن الغضب نحو أدخلت في فيّ الحجر ، وأدخلت القلنسوة في رأسي انتهى ، ولا ينبغي هذا لأنه من القلب وهو لم يقع إلاّ في قليل من الكلام والصحيح أنه لا ينقاس ، وقال الزمخشري وهذا مثل كأنّ الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وخذ برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك وترك الإغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة ، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة ولما سكن عن موسى الغضب لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفاً من تلك الروعة ، وقرىء أسكت رباعيّاً مبنيّاً للمفعول ، وكذا هو في مصحف حفصة والمنوي عند الله أو أخوه باعتذاره إليه أو تنصله أي أسكت الله أو هارون ، وفي

مصحف عبد الله ولما صبر ، وفي مصحف أبي ولما انشق والمعنى ولما طفى غضبه أخذ ألواح التوراة التي كان ألقاها من يده ، روي عن ابن عباس أنه ألقاها فتكسرت فصام أربعين يوماً فردّت إليه في لوحين ولم يفقد منها شيئاً وفي نسختها أي فيما نسخ من الألواح المكسرة أو فيما نسخ فيها أو فيما بقي منها بعد المرفوع وهو سبعها والأظهر أنّ المعنى وفيما نقل وحوّل منها واللام في ﴿ لربهم ﴾ تقوية لوصول الفعل إلى مفعوله المتقدم ، وقال الكوفيّون : هي زائدة ، وقال الأخفش : هي لام المفعول له أي لأجل ربهم ﴿ يرهبون ﴾ لا رياء ولا سمعة ، وقال المبرد : هي متعلقة بمصدر المعنى الذين هم رهبتهم لربهم وهذا على طريقة البصريين لا يتمشّى لأنّ فيه حذف المصدر وإبقاء معموله وهو لا يجوز عندهم إلا في الشعر وأيضاً فهذا التقدير يخرج الكلام عن الفصاحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(156/289)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب ﴾

شروعٌ في بيان بقيةِ الحكايةِ إثرَ ما بيّن تحزب القوم إلى مصر وتائب والإشارةِ إلى مآل كلَ

منهما إجمالاً أي لما سكن عنه الغضبُ باعتذار أخيه وتوبةِ القوم ، وهذا صريحٌ في أن ما حُكي عنهم من الندم وما يتفرّع عليه كان بعد مجيءِ موسى عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا النظم الكريمِ من البلاغة والمبالغةِ بتنزيل الغضبِ الحاملِ له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزلةَ الآمرِ بذلك المُغري عليه بالتحكم والتشديد ، والتعبيرِ عن سكوته بالسكوت ما لا يخفى ، وقرىء سَكَن وسكَت وأسكتَ على أن الفاعل هو الله تعالى أو أخوه أو التائبون ﴿ أَخَذَ الالواح ﴾ التي ألقاها ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ أي فيما نُسخ فيها وكُتب ، فُعلة بمعنى مفعول كالخُطبة وقيل : فيما نسخ منها أي من الألواح المنكسرة ﴿ هُدًى ﴾ أي بيانٌ للحق ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ للخلق بإرشادهم إلى ما فيه الخيرُ والصلاح ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ اللامُ الأولى متعلقةٌ بمحذوف هو صفةٌ لرحمة أي كائنةٌ لهم أو هي لامُ الأجَل أي هدى ورحمةٌ لأجلِهم ، والثانيةُ لتقوية عمل الفعلِ المؤخّر كما في قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أو هي أيضاً لامُ العلة والمفعولُ محذوفٌ أي يرهبون المعاصيَ لأجل ربهم لا للرياء والسمعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(157/289)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾

شروع في بيان بقية الحكاية أثر ما بين تحزب القوم إلى مصر وتائب ، والإشارة ما لكل منهما إجمالاً ، أي ولما سكت عنه الغضب باعتذار أخيه وتوبة القوم ، وهذا صريح في أن ما حكى عنهم من الندم وما بتفرع عليه كان بعد مجيء موسى عليه السلام ، وقيل : المراد ولما كسرت سورة غضبه عليه السلام وقل غيظه باعتذار أخيه فقط لا أنه زال غضبه بالكلية لأن توبة القوم ما كانت خالصة بعد ، وأصل السكوت قطع الكلام ، وفي الكلام استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص ناه آمر وأثبت له السكوت على طريق التخييل ، وقال السكاكي : إن فيه استعارة تبعية حيث شبه سكون الغضب وذهاب حدته بسكون الآمر الناهي والغضب قرينتها ، وقيل : الغضب استعارة بالكناية عن الشخص الناطق والسكوت استعارة تصريحية لسكون هيجانه وغليانه فيكون في الكلام مكنية قرينتها تصريحية لا تخييلية ، وإيا ما كان ففي الكلام مبالغة وبلاغة لا يخفى علو شأنهما ، وقال الزجاج : مصدر سكت الغضب السكتة ومصدر سكت الرجل السكوت وهو يقتضي أن يكون سكت الغضب فعلاً على حدة ؛ وقيل ونسب إلى عكرمة : إن هذا من القلب وتقديره ولما سكت موسى عن الغضب ، ولا يخفى أن السكوت كان أجمل بهذا القائل إذ لا وجه لما ذكره .

وقرأ معاوية بن قرة ﴿ سَكَنَ ﴾ والمعنى على ذلك ظاهر إلا أنه على قراءة الجمهور أعلى كعباً عند كل ذي طبع سليم وذوق صحيح ، وقرىء ﴿ سَكَتَ ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله والتشديد للتعدية و ﴿ أسكت ﴾ بالبناء لذلك أيضاً على أن المسكت هو الله تعالى أو أخوه أو التائبون ﴿ الغضب أَخَذَ الالواح ﴾ التي ألقاها ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ أي فيما نسخ فيها وكتب ، ففعلة بمعنى مفعول كالخطبة ، والنسخ الكتابة ، والإضافة بيانية أو بمعنى في ، وإلى هذا ذهب الجبائي وأبو مسلم وغيرهما ، وقيل : معنى منسوخة ما نسخ فيها من اللوح المحفوظ ، وقيل : النسخ هنا بمعنى النقل ، والمعنى فيما نقل من الألواح المنكسرة .

وروي عن ابن عباس .

وعمرو بن دينار أن موسى عليه السلام لما ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر صام أربعين يوماً فرد عليه ما ذهب في لوحين وفيهما ما في الأول بعينه فكأنه نسخ من الأول ﴿ هُدًى ﴾ أي بيان للحق عظيم ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ جليلة بالإرشاد إلى ما فيه الخير والصلاح ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أي يخافون أشد الخوف ، واللام الأولى متعلقة بمحذوف وقع

صفة لما قبله أو هي لام الرجل أي هدى ورحمة لأجلهم ، والثانية لتقوية عمل الفعل المؤخر كما في قوله سبحانه : ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] أو هي لام العلة والمفعول محذوف أي يرهبون المعاصي لأجل ربهم لا للرياء والسمعة ، واحتمال تعلقها بمحذوف أي يخشون لربهم كما ذهب إليه أبو البقاء بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(159/289)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [154] .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ ﴾ أي : سكن : ﴿ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ ﴾ أي : التي كان ألقاها من شدة الغضب فتكسرت ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ أي : فيما نسخ منها ، أي : كتب .

والنسخة فعلة بمعنى مفعول ، كالخطبة : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ بالشرائع والوصايا الربانية ، المرشدة لما فيه الخير والصلاح : ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أي : يخشون .

لطيفتان :

الأولى : قال أبو السعود : في هذا النظم الكريم ، يعني قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب ، الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول ، ومنزلة الآمر بذلك ، المغرى عليه بالتحكم والتشديد ، والتعبير عن سكونه بالسكوت ـ ما لا يخفى ـ انتهى .

وأصله للزمخشري حيث قال : هذا مثلٌ ، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء . ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سُلَيم ، وذوق صحيح إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شعب البلاغة ، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة (وَلَمَّا سَكَنَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ) لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهمزة ، وطرفاً من تلك الروعة ؟ انتهى .

ومراده بالمثل كونه استعارة مكنية ، حيث شبه الغضب بشخص آمرٍ ناهٍ ، وأثبت له السكوت تخييلاً .

وعد بعض أهل العربية الآية من المقلوب ، أي : من نمط قلب الحقيقة إلى المجاز ، وكأن الأصل : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ كما في خرق الثوب المسمار .

(160/289)

قال في " الإنتصاف " والتحقيق أنه ليس منه ، وأن هذا القلب أشرف وأفصح ، لما فيه من المعنى البليغ ، وهو أن الغضب كان متمكناً من موسى ، حتى كأنه كان يصرفه في أوامره . ومثل هذه النكتة الحسناء ، لا تلفى في خرق الثوب المسمار .

انتهى .

وقرئ سكن وسكَّت وأسكت ، أي : أسكته الله ، أو أخوه باعتذاره إليه .

الثانية – اللام في للذين متعلقة بمحذوف ، صفة لرحمة ، أي : كائنة لهم ، أو هي لام الأجل ، أي : هدى ورحمة لأجلهم : واللام في لربهم لتقوية عمل الفعل المؤخر كما في قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ ﴾ ، أو هي أيضاً لام العلة ، والمفعول محذوف ، أي : يرهبون المعاصي لجل ربهم ، لا للرياء والسمعة . أفاده أبو السعود . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 192 . 193 ﴾

(161/289)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴾

نظم هذا الكلام مثل نظم قوله : ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ [الأعراف : 149] وقوله : ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان ﴾ [الأعراف : 150] ، أي : ثم سكَت عن موسى الغضب ولَمّا سكت عنه أخذ الألواح .

وهذه الجملة عطف على جملة ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه ﴾ [الأعراف : 150] .

والسكوت مستعار لذهاب الغضب عنهُ ، شُبّه ثَوَرانُ الغضب في نفس موسى المنشىء خواطر العقوبة لأخيه ولقومه ، وإلقاء الألواح حتى انكسرت ، بكلام شخصٍ يغريه بذلك ، وحسّن هذا التشبيه أن الغضبان يجيش في نفسه حديث للنفس يدفعه إلى أفعال يطفىء بها ثَوران غضبه ، فإذا سكن غضبه وهدأت نفْسه كان ذلك بمنزلة سكوت المغري ، فلذلك أطلق عليه السكوت ، وهذا يستلزم تشبيه الغضب بالناطق المغري على طريقة المكنية ، فاجتمع استعارتان ، أو هو استعارة تمثيلية مكنية ؛ لأنه لم تذكر الهيئة المشبهُ بها ورُمزَ إليها بذكر شيء من رَوادفها وهو السكوت ، وفي هذا ما يؤيد أن إلقاء الألواح كان أثر للغضب .

والتعريف في ﴿ الألواح ﴾ للعهد ، أي الألواح التي ألقاها ، وإنما أخذها حفظاً لها للعمل بها ، لأن انكسارها لا يضيع ما فيها من الكتابة .

والنُسخة بمعنى المنسوخ ، كالخُطبة والقُبضة ، والنّسخ هو نقلِ مثل المكتوب في لوح أو صحيفة أخرى ، وهذا يقتضي أن هذه الألواح أخذت منها نسخة ، لأن النسخة أضيفت إلى ضمير الألواح ، وهذا من الإيجاز ، إذ التقدير : أخذ الألواح فجُعلت منها نسخة وفي نسختها هدى ورحمة ، وهذا يشير إلى ما في التوراة في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج "ثم قال الرب لموسى إنحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتُبُ أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما " ثم قال "فنحت لوحين من حجر كالأولين إلاهان" قال "وقال الرب لموسى أكتُبْ لنفسك هذه الكلمات" إلى أن قال "فكتَب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر" .

فوصْفُ النسخة بأن فيها هدى ورحمة يستلزم الأصل المنتسخ بذلك ، لأن ما في النسخة نظيرُ ما في الأصل ، وإنما ذكر لفظ النسخة هنا إشارة إلى أن اللوحتين الأصليين عوضا بنسخة لهما ، وقد قيل إن رضاض الألواح الأصلية وضعه في تابوت العهد الذي أشار إليه قوله تعالى : ﴿ أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى ﴾ في سورة البقرة (248) .

وقوله : ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ يتنازع تعلّقه كلٌّ من ﴿ هدى ﴾ و ﴿ رحمة ﴾ ،

واللام في قوله : ﴿ لربهم يرهبون ﴾ لام التقوية دخلت على المفعول لضعف العامل بتأخيره عن المعمول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(163/289)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154) ﴾

وهل للغضب سكوت ؟ هل للغضب مشاعر حتى يسكت ؟ نعم ؛ لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً نزوعيًّا أمام من أذنب ، فكأن الغضب يلح عليه ، ويقول للغاضب : اضرب ، اشتم ، اقتل . كأن الغضب قد مُثِّل وصُوِّر في صورة شخص له قدرة إصدار الأوامر ، فشبَّه الله الغضب بصورة إنسان يلح على موسى في أن يفعل كذا ، ويفعل كذا ، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه .

أو هو كما قال إخواننا العلماء : من القلب في اللغة ، أي أنه يقلب المسألة ، اتكالاً على أن فطنة السامع سترد كل شيء إلى أصله ؛ كما نسمع في اللغة : خرق الثوبُ المسمارَ ، نفهم من هذا القول أن المسمار هو الذي قام بخرق الثوب ؛ لأننا لن نتخيل أنّ الثوب يخرق مسماراً

. ويسمى ذلك " القلب " أي أن يأتي بمسألة مقلوبة تفهمها فطنة السامع . أو أن المسمار مستقر في مكانه ، والثوب هو الذي طرأ عليه فانخرق ، فيكون سبب الخرق من الثوب ، فكأن الفاعلية الحقيقية من الثوب : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب ﴾ .

أو تكون كلمة (سكت) كناية عن أن الغضب زال وانتهى . ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب أَخَذَ الأَلواح وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : 154]

وأول عمل قام به موسى ساعة أن كان غضبان أسفاً أنه ألقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه وزايله أخذ الألواح ، وهذا أمر منطقي ، فالغضب جعله يلقي الألواح ، ويأخذ برأس أخيه ، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره ، وطلب من الله أن يغفر له ، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب وكانت الألواح ملقاة فأخذها ثانية . ﴿ . . . وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : 154]

(164/289)

النسخة من الكتاب مأخوذة من الشيء المنسوخ أي المنقول من مكان إلى مكان ، ويقال : نسخت الكتاب الفلاني من الكتاب الفلاني . أي أن هناك كتاباً مخطوطاً ثم نقلناه بالطباعة

أو بالكتابة إلى نسخة أو عدد من النسخ ، أي أخذته من الأصل إلى الصورة ، واسمه منسوخ ، وكلمة نُسخة على وزن " فُعْلَة " وتأتي بمعنى مفعولة ، فنسخة تعني منسوخة ، وفي القرآن مثل هذا كثير . والحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ . . . ﴾ [البقرة : 249]

و " غُرْفة " أي مغروفة ، وهي القليل من المياه في اليد لتبل الريق فقط ، والغرفة أيضاً تكون في البيوت ؛ لأنها مكان متقطع من مكان آخر ولها جدران تحددها . واسمها غرفة لأنها مغروفة من المكان في حيز مخصوص . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ .

و " هدى " المقصود بها المنهج الموصل للغاية في " افعل " و " لا تفعل " .

إنّه يوصل للغاية وهي ثواب الآخرة . إذن فالهدى والرحمة شيء واحد له طرفان ، فالهدى هو المنهج الذي إن اتبعته تصل إلى الرحمة ، ولذلك يقول الحق : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ .

وهكذا نجد المنهج هدى ورحمة ، فمن يسمع كلام الله ويتبعه يهتدي ويرحمه ربنا ؛ لأنه جعل الله في باله وخاف من صفات الجبارية في الحق ، ولهذا لابد أن يستحضر الإنسان أو المؤمن رهبته لربه وخوفه منه – سبحانه – ليكون المنهج هدى ورحمة له . ويكون من

الذين يرهبون ربهم .

وساعة ترى المفعول تقدم في مثل قوله سبحانه هنا : ﴿ . . . لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : 154]

نفهم أن هذا هو ما يسمى في اللغة " اختصاص " وقَصْر مثلما قال الحق في فاتحة الكتاب : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

(165/289)

وما الفرق بين ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ و " نعبدك " ؟ إن قلنا : " نعبدك " فهو قول لا يمنع من العطف عليه ، فقد نعبدك ونعبد الشركاء معك ؛ لكن قولنا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أي خصصناك بالعبادة وقصرناها عليك سبحانك فلا تتعدى إلى غيرك .

إذن حين تقدم المفعول فهذا هو عمل الاختصاص . ومثال ذلك في حياتنا حين نقول : " أكرمتك " ، ولا مانع أن نقول بعدها " وأكرمت زيداً وأكرمت عمراً " . لكن إن قلت : إياك أكرمت ، فهذا يعني أني لم أكرم إلا إياك . وهنا يقول الحق : ﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ . ولقائل أن يقول : ألا يمكن أن يدعي أحد الرهبة ظاهراً وأنه ممتثل لأمر الله رياء أو سمعة حتى يقول الناس : إن فلاناً حسن الإِسلام ، ويأخذون في الثناء عليه ؟ ولكن هنا نجد

التخصيص الذي يدل على أن العبد لا يرهب أحداً غير الله ، وأن الرهبة خالصة لله ، وليست رياء ، ولا سمعة ، ولا لقصد الثناء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(166/289)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : اعطى الله موسى التوراة ف سبعة الواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء وموعظة التوراة مكتوبة ، فلما جاء بها فرأى بني إسرائيل عكوفاً على العجل ، فرمى التوراة من يده فتحطمت ، وأقبل على هرون فأخذ برأسه ، فرفع الله منها ستة أسباع وبقي سبع ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ قال : فيما بقي منها .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن مجاهد . أن سعيد بن جبير قال : كانت الألواح من زمرد ،

فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل وبقي الهدى والرحمة ، وقرأ ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ [الأعراف : 145] وقرأ ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة ﴾ قال : ولم يذكر التفصيل ههنا .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ﴾ قال : اختارهم ليقوموا مع هرون على قومه بأمر الله ﴿ فلما أخذتهم الرجفة ﴾ تناولتهم الصاعقة حين أخذت قومهم .

وأخرج عبد بن حميد من طريق أبي سعد عن مجاهد ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة ﴾ بعد أن خرج موسى بالسبعين من قومه يدعون الله ويسألونه أن يكشف عنهم البلاء فلم يستجب لهم ، علم موسى أنهم قد أصابوا من المعصية ما أصاب قومهم . قال أبو سعد : فحدثني محمد بن كعب القرضي قال : فلم يستجب لهم من أجل أنهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف ، فأخذتهم الرجفة فماتوا ثم احياها الله .

(167/289)

وأخرج عبد بن حميد عن الفضل بن عيسى ابن أخي الرقاشي . إن بني إسرائيل قالوا : ذات يوم لموسى : ألست ابن عمنا ومنا وتزعم أنك كلمت رب العزة ، فانا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فلما أن أبوا إلا ذلك أوحى الله إلى موسى : ان اختر من قومك سبعين رجلاً . فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً خيرة ، ثم قال لهم : اخرجوا . فلما برزوا جاءهم ما لا قبل لهم به فأخذتهم الرجفة ، قالوا : يا موسى ردنا . فقال لهم موسى : ليس لي من الأمر شيء سألتم شيئاً فجاءكم فماتوا جميعاً ، قيل : يا موسى ارجع . قال : رب إلى أين الرجعة ؟ ﴿ قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ [الأعراف : 155] إلى قوله ﴿ فسأكتبها للذين يتقون . . . ﴾ [الأعراف : 155] الآية . قال عكرمة : كتبت الرحمة يومئذ لهذه الأمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي رضي الله عنه قال : لما حضر أجل هرون أوحى الله إلى موسى : أن انطلق أنت وهرون وابن هرون إلى غار في الجبل فأنا قابض روحه ، فانطلق موسى وهرون وابن هرون ، فما انتهوا إلى الغار دخلوا فإذا سرير ، فاضطجع عليه موسى ثم قام عنه فقال : ما أحسن هذا المكان يا هرون ، فاضطجع هرون فقبض روحه ، فرجع موسى وابن هرون إلى بني إسرائيل حزينين .

فقالوا له : اين هرون ؟ قال : مات . قالوا : بل قتلته ، كنت تعلم أنا نحبه . فقال لهم موسى : ويلكم أقتل أخي وقد سألته الله وزيراً ، ولو أني أردت قتله أكان ابنه يدعني ! ؟ قالوا له : بلى قتلته حسد تناه . قال : فاختاروا سبعين رجلاً فانطلق بهم ، فمرض رجلان في الطريق فخط عليهما خطاً ، فانطلق موسى وابن هرون وبنو إسرائيل حتى انتهوا إلى هرون ، فقال : يا هرون من قتلك ؟ قال : لم يقتلني أحد ولكني مت قالوا : ما تقضي يا موسى ادع لنا ربك يجعلنا أنبياء . قال : فأخذتهم الرجفة فصعقوا وصعق الرجلان اللذان خلفوا ، وقام موسى يدعو ربه ﴿ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ فأحياهم الله فرجعوا إلى قومهم أنبياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(169/289)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وَلَمَّا سَكَتَ " السُّكُوتَ والسُّكَاتُ قطعُ الكلامِ ، وهو هنا استعارةٌ بديعة .

قال الزمخشريُّ : هذا مثلٌ كأنَ الغضبَ كان يُغْريهِ على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا ،

وأَلْقِ الألواحَ وخُذْ برأس أخيك إليك ، فترك النُّطق بذلك ، وترك الإغراء به ، ولم يستحسن هذه الكلمة ، ولمْ يَسْتفصِحْهَا كلُّ ذي طبع سليم وذوق صحيح إلاَّ لذلك ، ولأَنَّهُ من قبيل شُعَب البلاغة ، وإلاَّ فما لقراءة معاوية بن قرة : ولَمَّا سَكَنَ بالنُّونِ ، لا تجدُ النَّفس عندها شيئاً من تلك الهمزة وطرفاً من تلك الرَّوعة ؟

وقيل : شَبَّه جمود الغذب بانقطاع كلام المُتكلِّم .

قال يونسُ : " [سال] الوادي ثم سكت فهذا أيضاً استعارةٌ " .

وقال الزَّجَّاجُ : مصدر : سَكَتَ الغَضَبُ : السكتةُ ، ومصدر : سَكَتَ الرَّجلُ : السُّكُوتُ " وهو يقتضي أن يكون " سكت الغضبُ " فعلاً على حدته .

وقيل : هذا من باب القلب ، والأصلُ : ولما سكت موسى عن الغضب ، نحو : أَدْخَلْتُ القَلَنْسُوَةَ في رَأسِي ، أي : أدخلت رأسي في القلنسوة .

قاله عكرمةُ : وهذا ينبغي أن لا يجوز لعدم الاحتياج إليه ، مع ما في القلب من الخلافِ المُتقدِّم .

وقيل المُرادُ بالسُّكوت : السُّكون والزَّوال ، وعلى هذا جاز سَكَتَ عن مُوسَى الغَضَبُ ولا يجوزُ صمت ؛ لأن سَكَتَ بمعنى سكن ، وأما صَمَتَ بمعنى سدَّ فاه عن الكلام ، فلا يجوزُ في الغضب .

قوله : " لِلَّذِين " متعلق بمحذوف ؛ لأنه صفةٌ لرَحْمَة أي : رحمة كائنة للَّذين ، يجوزُ أن تكون

اللاَّم لامَ المفعول من أجله ، كأنَّه قيل : هُدىً ورحمةٌ لأجْلِ هؤلاء ، وهُمْ مبتدأ ويَرْهَبُونَ خبره ، والجملةُ صلة الموصول .

قوله : لِرَبِّهِم يَرْهَبُونَ .

في هذه اللاَّم أربعةُ أوجُهٍ :

أحدها أنَّ اللاَّم مقوية للفعل لأنَّهُ لمَّا تقدَّم معمولُه ضَعُفَ فقوي باللاَّم كقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] وقد تقدَّم أنَّ اللاَّم تكونُ مقويةً حيث كان العاملُ مؤخراً أو فرعاً نحو : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : 107] ولا تُزَادُ في غير هذين إلا ضرورةً عند بعضهم ؛ كقول الشاعر : [الوافر]

2586 - ولَمَّا أنْ تَوَاقَفْنَا قَليلاً . . .

أَنَخْنَا لِلكَلاكِلِ فَارْتَمَيْنَا

أو في قليل عند آخرين ؛ كقوله تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] .

والثاني : أنَّ اللاَّم لامُ العلَّةِ وعلى هذا فمفعولُ يَرْهَبُونَ محذوفٌ ، تقديره : يرهبون عقابه لأجله ، أي لأجل ربهم لا رياء ولا سمعة وهذا مذهب الأخفش .

الثالث : أنَّها متعلقةٌ بمصدرٍ محذوف ، تقديره : الذين هم رهبتهم لربهم .

وهو قول المُبَرِّدِ وهذا غيرُ جارٍ على قواعد البصريين ، لأَنَّهُ يَلْزَمُ منه حذفُ المصدر ، وإبقاءُ معموله ، وهو ممتنعٌ إلاَّ في شعرٍ ، وأيضاً فهو تقدير مخرج للكلام عن فصاحته .

الرابع : أَنَّخا متعلقةٌ بفعلٍ مُقَدّرٍ أيضاً ، تقديره : يخشعون لربِّه .

وذكرهُ أبُوا البقاء ، وهو أولى مِمَّا قبله .

وقال ابْنُ الخطيبِ : قد يزادُ حرفُ الجرِّ في المفعول ، وإن كان الفعل متعدياً ، كقوله : قرأتُ في السُّورة وقرأ السُّورة ، وأَلْقَى يَدَهُ " وألقى بيده " ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يرى ﴾ [العلق : 4] فعلى هذا تكون هذه اللام صلةً وتأكيداً كقوله ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] ، وقد ذكروا مثل هذا في قوله : ﴿ وَلاَ تؤمنوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران : 73] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 329 . 331 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154) ﴾

تشير إلى حسن إمهاله – سبحانه – للعبد إذا تغيَّر عن حدِّ التمييز ، وغَلَبَ عليه ما لا يطيق ردَّه من بواده الغيب .

وإذا كانت حالة الأنبياء – عليهم السلام – أنه يغلبهم ما يعطلهم عن الاختيار فكيف الظن بِمنْ دونهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 574 ﴾

(171/289)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154) ﴾

التفسير : لما أهلك الله سبحانه أعداء بني إسرائيل سأل موسى ربه أن يؤتيه الكتاب الذي وعده فأمره بصوم ثلاثين وهو شهر ذي القعدة ، فلما أتم الثلاثين أنكر من نفسه خلوف الفم فتسوّك فقالت الملائكة : كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدتها بالسواك ، فأوحى الله تعالى إليه : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ؟ فأمره الله أن

يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لهذا السبب . وقيل : فائدة التفصيل أنه تعالى أمره بصوم ثلاثين وأن يعمل فيها ما يقربه من الله ، ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها .

(172/289)

وقال أبو مسلم الأصفهاني : من الجائز أن يكون موسى عند تمام الثلاثين بادر إلى ميقات ربه قبل قومه بدليل قوله في طه ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾ [طه : 83] فلما أعلمه الله تعالى خبر قومه مع السامري رجع إلى قومه ، ثم عاد إلى الميقات في عشرة أخرى فتم أربعون ليلة . وقيل : لا يمتنع أن يكون الوعد الأوّل لحضرة موسى وحده والوعد الثاني لحضرة المختارين معه ليسمعوا الكلام .

ومن فوائد الفذلكة في قوله ﴿ فتم ميقات ﴾ ربع ﴿ أربعين ليلة ﴾ إزالة وهم من يتوهم أن الميقات كان عشرين ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين . والفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدر فيه عمل من الأعمال والوقت وقت الشيء قدره مقدراً أم لا . وانتصب ﴿ أربعين ﴾ على الحال أي تم بالغاً هذا العدد . ﴿ وهارون ﴾ عطف بيان ﴿ لأخيه ﴾ وقرىء بالضم على النداء ﴿ أخلفني في قومي ﴾ كن خليفتي فيهم ﴿ وأصلح ﴾ كن مصلحاً أو أصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائل ومن دعاك إلى الإفساد فلا تتبعه . وإنما جعله

خليفة مع أنه شريكه في النبوّة بدليل ﴿ وأشركه في أمري ﴾ [طه : 32] والشريك أعلى حالاً من الخليفة لأن نبوّة موسى كانت بالأصالة ونبوّة هارون بتبعيته فكأنه خليفته ووزيره . وإنما وصاه بالإصلاح تأكيداً واطمئناناً وإلا فالنبي لا يفعل إلا الإصلاح . ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ اللام بمعنى الاختصاص كأنه قيل : اختص مجيئه بوقتنا الذي حددنا له كما يقال : أتيته لعشر خلون من شهر كذا ﴿ وكلمه ربه ﴾ للناس في كلام الله مذاهب فقيل : هو عبارة عن هذه الحروف المؤلفة المنتظمة . وقيل : صفة حقيقية مخالفة للحروف والأصوات وعلى الأول فمحل تلك الحروف والأصوات هو ذات الله تعالى وهو قول الكرامية ، أو جسم مغاير كالشجرة ونحوها وهو قول المعتزلة . وعلى التالي فالأشعرية قالوا إن موسى عليه السلام سمع تلك الصفة الأزلية لأنه كما لا يتعذر رؤيته عندنا مع أنه ليس بجسم ولا عرض فكذا لا يمتنع سماع كلامه مع

(173/289)

أنه ليس بحرف ولا صوت . وقال أبو منصور الماتريدي : الذي سمعه موسى عليه السلام أصوات مقطعة وحروف مؤلفة قائمة بالشجرة . واختلف العلماء أيضاً في أن الله تعالى كلم موسى وحده لظاهر الآية أو مع السبعين المختارين وهو قول القاضي لأن تكليم الله موسى

معجز وقد تقدمت نبوّة موسى فلا بد من ظهور هذا المعنى لغيره ﴿ قال رب أرني أنظر إليك ﴾ أي أرني نفسك واجعلني متمكناً من رؤيتك فانظر إليك وأراك . عن ابن عباس : أن موسى عليه السلام جاء ومعه السبعون وصعد الجبل وبقي السبعون في أسفل الجبل وكلم الله موسى وكتب له في الألواح كتاباً وقربه نجياً .

(174/289)

فلما سمع صرير القلم عظم شوقه فقال رب أرني انظر إليك . قالت الأشاعرة إن موسى سأل الرؤية وأنه عارف بما يجب ويجوز ويمتنع على الله تعالى . فلو كانت الرؤية ممتنعة لما سألها . قال القاضي : للمحصلين من العلماء في هذا المقام أقوال : أحدها قول الحسن وغيره أن موسى ما عرف أن الرؤية غير جائزة على الله تعالى وهذا لا يقدح سبحانك في معرفته لأن العلم بامتناع الرؤية وجوازها لا يبعد أن يكون موقوفاً على السمع ، وزيف بأنه يلزم أن يكون موسى أدون حالاً من علماء المعتزلة العالمين بامتناع الرؤية على الله تعالى ، وبأنهم يدعون العلم الضروري بأن كل ما كان مرئياً فإنه يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل ، فلو لم يكن هذا العلم حاصلاً لموسى كان ناقص العقل وهو محال ، وإن كان حاصلاً وجوّز موسى عليه المقابلة كان كفراً وهو أيضاً محال . وثانيها طريقة أبي علي وأبي هاشم

أن موسى عليه السلام سأل الرؤية عن لسان قومه فقد كانوا يكررون المسألة عليه بقولهم ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [البقرة : 55] وزيف بأنه لو كان كذلك لقال موسى أرهم ينظروا إليك ، ولقال الله لن يروني ، وبأنه لو كان محالاً لمنعهم كما منعهم لما قالوا اجعل لنا إلهاً ، وبأن ذكر الدليل القاطع في هذا المقام فرض مضيق فلم يمكن تأخيره مع أنهم كانوا مقرين بنبوّة موسى كفاهم في الامتناع عن السؤال قول موسى وإلا فلا انتفاع لهم بهذا الجواب فإن لهم أن يقولوا لا نسلم أن هذا المنع من الله بل هذا مما افتريته على الله . وثالثها وهو اختيار أبي القاسم الكعبي أن موسى سأل ربه المعرفة الضرورية بحيث تزول عندها الخواطر والوساوس كما في معرفة أهل الآخرة . وردّ بأنه تعالى أراه من الآيات كالعصا واليد وغيرها ما لا غاية بعدها فكيف يليق به أن يقول أظهر لي آية تدل على أنك موجود ؟ ولو فرض أنه لائق بحال موسى فلم منعه الله تعالى عن ذلك ؟ ولقائل أن يقول : منعه في الدنيا لحكمة علمها

(175/289)

الله تعالى ولا يلزم منه المنع في الآخرة . ورابعها وهو قول أبي بكر الأصم أن موسى أراد تأكد الدليل العقلي بالدليل السمعي ، وتعاضد الدلائل أمر مطلوب للعقلاء . وضعف بأنه كان

الواجب عليه حينئذ أن يقول : أريد يا إلهي أن يقوى أمتناع رؤيتك بوجوه زائدة على ما ظهر في عقلي . ولقائل أن يقول : هذا تعيين الطريق . وفي الآية سؤال وهو أنه تعالى لم قال ﴿ لن تراني ﴾ دون ﴿ لن تنظر إليّ ﴾ ليناسب قوله ﴿ انظر إليك ﴾ والجواب لأن موسى لم يطلب النظر المطلق وإنما طلب النظر الذي معه الإدراك بدليل ﴿ أرني ﴾ ومن حجج الأشاعرة أنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز هو استقرار الجبل والمعلق على الجائز جائز .

(176/289)

وردّ بأنه علق حصول الرؤية على استقرار الجبل حال حركته بدليل قوله ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه ﴾ أي وقت النظر وعقيبه واستقرار الجبل حال حركته محال . ومنها قوله ﴿ فلما تجلى ربه ﴾ أي ظهر وبان ومنه جلوت العروس إذا أبرزتها ، أو ظهر للجبل اقتداره وتصدى له أمره وإرادته ﴿ جعله دكاً ﴾ أي مدكوكاً كالمصدر بمعنى " مفعول " . والدك والدق أخوان . ومن قرأ بالمد أراد أرضاً دكاء مستوية ومنه ناقة دكاء متواضعة السنام . والدكاء أيضاً اسم للرابية الناشزة من الأرض كالدكة . والغرض من الجميع تعظيم شأن الرؤية وأن أحداً لا يقوى على ذلك إلا بتقوية الله وتأييده . وقالت المعتزلة : الرؤية أمر محال لقوله ﴿ لن تراني ﴾ وكلمة " لن " إن لم تفد التأبيد فلا أقل من

التأكيد . وأيضاً الاستدراك في قوله ﴿ ولكن انظر ﴾ معناه أن النظر إليّ محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر إلى الجبل لتشاهد تدكك أجزائه وتفرق أبعاضه من عظمة التجلي ، وإذا لم يطق الجماد ذلك فكيف الإنسان ؟ قالت الأشاعرة ههنا : لم يبعد أن يخلق الله تعالى حينئذ في الجبل حياة وعقلاً وفهماً ورؤية . وأيضاً قوله ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ أي مغشياً عليه غشية كالموت دليل استحالة الرؤية على الأنبياء فضلاً عن غيرهم . روي أن الملائكة مرت عليه وهو مغشى عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم يقولون : يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزّة . وأيضاً قوله بعد الافاقة من الصعقة ﴿ سبحانك ﴾ أنزهك عما لا يليق بك من جواز الرؤية عليك ﴿ إني تبت إليك ﴾ من طلب الرؤية بغير إذن منك وإن كان لغرض صحيح هو تنبيه القوم على استحالة ذلك بنص من عندك ﴿ وأنا أوّل المؤمنين ﴾ بأنك لست بمرئي ولا مدرك بشيء من الحواس . وقالت الأشاعرة : وأنا أوّل المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا أو بأنه لا يجوز السؤال منك إلا بإذنك . ثم لما سأل الرؤية ومنعه الله إياها أخذ في تعداد سائر نعمه عليه وأمره أن يشتغل بشكرها ﴿ فقال يا موسى

إني اصطفيتك ﴾ الآية . والمقصود تسلية موسى عن منع الرؤية . قيل : وفي هذا دليل على جواز الرؤية في نفسها وإلا لم يكن إلى هذا العذر حاجة . وإنما قال ﴿ اصطفيتك على الناس ﴾ ولم يقل " على الخلق " لأن الملائكة قد تسمع كلام الله تعالى من غير واسطة كما سمعه موسى . والغرض أنه تعالى خصه من دون الناس بمجموع أمرين الرسالة والكلام وسائر الرسل لهم الرسالة فقط . وإنما كان الكلام بلا وسط سبباً للشرف بناء على العرف الظاهر وقد جاء في الخبر أن نبينا صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة المعراج بعين الرأس . وفي ذلك دليل على أفضليته على موسى شتان بين من اتخذه الملك لنفسه حبيباً وقرّبه إليه بلطفه تقريباً وبين من قرب له الحجاب وحال بينه وبين المقصود بواب ونواب .

(178/289)

والمراد بالرسالات ههنا أسفار التوراة ﴿ فخذ ما أتيتك ﴾ من شرف الرسالة والكلام ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ لله على ذلك بأن تشتغل بلوازمها علماً وعملاً . ثم فصل تلك الرسالة فقال ﴿ وكتبنا له في الألواح ﴾ قيل : خر موسى صعقاً يوم عرفة وأعطاه الله التوراة يوم النحر . وذكروا في عدد الألواح وفيو جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح ، وقيل سبعة ، وقيل لوحين ، وأنها كانت من خشب نزلت من السماء . وعن وهب أنها

كانت من صخرة صماء لينها الله تعالى لموسى قطعها بيده وشققها بأصابعه . وقيل : طولها كان عشرة أذرع . والتحقيق أن أمثال هذه يحتاج إلى النقل الصحيح وإلا وجب السكوت عنه إذ ليس في الآية ما يدل على ذلك . وأما كيفية تلك الكتابة فقال ابن جريج كتبها جبرائيل بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور وحكم هذا النقل أيضاً كما قلنا ﴿ من كل شيء ﴾ مفعول ﴿ كتبنا ﴾ و " من " للتبعيض نحو أخذت من الدراهم ﴿ موعظة وتفصيلاً ﴾ بدل منه فيدخل في الموعظة كل ما يوجب الرغبة في الطاعة والنفرة عن المعصية وذلك بذكر الوعد والوعيد . وأراد بالتفصيل تبيين كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من أقسام الأحكام ، ويجوز أن يكون ﴿ موعظة وتفصيلاً ﴾ مفعولين ل ﴿ كتبنا ﴾ والتقدير : وكتبنا له في الألواح موعظة من كل شيء وتفصيلاً لكل شيء . قيل : أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منها في سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر : موسى ويوشع وعزير وعيسى . وعن مقاتل : كتب في الألواح أني أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بي شيئاً ولا تقطعوا السبيل ولا تحلفوا باسمي كذباً فإن من حلف باسمي كذباً فلا أزكيه ، ولا تزنوا ولا تقتلوا ولا تعقوا الوالدين . ﴿ فخذها ﴾ على إرادة القول أي وكتبنا فقلنا له خذها أو بدل من قوله ﴿ فخذ ما أتيتك ﴾ والضمير للألواح أو لكل شيء لأنه في معنى الأشياء ، أو للرسالات أو للتوراة ﴿ بقوّة ﴾ بجد وعزيمة فعل أولى بالعزم من الرسل ﴿ وأمر قومك يأخذوا

بأحسنها ﴾ سئل ههنا أنه لما تعبد بكل ما في التوراة وجب كون الكل مأموراً به ، فظاهر قوله ﴿ يأخذوا بأحسنها ﴾ يقتضي أن فيه ما ليس بأحسن وأنه لا يجوز الأخذ به .

وأجاب العلماء بوجوه منها ، أن تلك التكاليف منها ما هو حسن ومنها ما هو أحسن كالاقتصاص والعفو والانتصار والصبر ، فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب فيكون كقوله ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ [الزمر : 55] وكقوله ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ [الزمر : 18] قال قطرب : الأحسن بمعنى الحسن وكلها حسن . وقيل : الحسن يشمل الواجب والمندوب والمباح والأحسن الواجب والمندوب .

وقال في الكشاف : يجوز أن يراد يأخذوا بما أمروا به دون ما نهوا عنه كقولهم الصيف أحر من الشتاء . ثم ختم الآية بالوعيد والتهديد فقال ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد يعني جهنم أي ليكن ذكر جهنم حاضراً في أذهانكم لتحذروا أن تكونوا منهم . وعن قتادة : يريد مواطن الجبابرة والفراعنة الخاوية بالشأم ومصر ليعتبروا بذلك فلا يفسقوا مثل فسقهم فيصيبهم مثل ما أصابهم . وقال الكلبي : هي منازل عاد

وثمود وأقرانهم يمرون عليها في أسفارهم . وقيل : المراد الوعد والبشارة بأن الله تعالى سيرزقهم أرض أعدائهم ويؤيده ما قرىء ﴿ سأورثكم ﴾ . وقوله ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ [الأعراف : 137] .

(180/289)

ثم ذكر ما به يعامل الفاسقين المتكبرين فقال ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ الآية . فاحتجت الأشاعرة بها على أنه تعالى قد يمنع عن الإيمان ويصرف عنه . وقال الجبائي : قوله ﴿ سأصرف ﴾ للاستقبال والمصروفون موصوفون بالتكبر والانحراف عن الطريق المستقيم في الزمان الماضي ، فعلم أن المراد من هذا الصرف ليس هو الكفر . وأيضاً الصرف مذكور على وجه العقوبة على التكبر والاعتساف ولا تكون العقوبة عين المعاقب عليه فوجب تأويل الآية . وقال الكعبي وأبو مسلم الأصفهاني : إن هذا الكلام تمام لما وعد الله به موسى من النصرة والعصمة أي أصرفهم عن آياتي فلا يقدرون على منعك من تبليغها كما قال في حق نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ بلغ ما أنزل إليك ﴾ إلى قوله ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] وقيل : سأصرف هؤلاء المتكبرين عن نيل ما في آياتي من العز والكرامة المعدّة للأنبياء والمؤمنين ، فيكون ذلك الصرف المستلزم للإذلال والإهانة جارياً

مجرى العقوبة على كفرهم وتكبرهم على الله تعالى . وقيل : إن من الآيات آيات لا يمكن الانتفاع بها إلا بعد سبق الإيمان فإذا كفروا فقد صيروا أنفسهم بحيث لا يمكنهم الانتفاع بما بعد ذلك فحينئذ يصرفم الله تعالى عنها . وبوجه آخر إن الله تعالى إذا علم من حال بعضهم أنه إذا شاهد تلك الآيات فإنه لا يستدل بها بل يستخف بها ولا يقوم بحقها ، فإذا علم الله تعالى ذلك صح أن يصرفهم عنها ، أو عن الحسن : إن من الكفار من يبالغ في كفره وينتهي إلى الحد الذي إذا وصل إليه مات قلبه وهي بالطبع والخذلان ، فالمراد بالمصروفين هؤلاء .

وعن رسول صلى الله عليه وسلم : " إذا عظمت أمتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي " قوله ﴿ بغير الحق ﴾ أما أن يكون حالاً بمعنى يتكبرون غير محقين لأن التكبير بالحق لله وحده ، إذ لا كمال فوق كماله فله إظهار العظمة والكبرياء على كل من سواه ، وإما أن

يكون صلة للفعل أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الذي لا أصل له ، ومنه يعلم أن للمحق أن يتكبر على المبطل كما قيل : التكبر على المتكبر صدقة .

والرشد طريق الهدى والحق والصواب كلاهما واحد قاله الكسائي ، وفرق أبو عمرو فقال

: الرشد بضم الراء الصلاح لقوله ﴿ فإن آنستم منهم رشد ﴾ [النساء : 6] وبفتحتين الاستقامة في الدين قوله تعالى ﴿ مما علمت رشداً ﴾ [الكهف : 66] وسبيل الغي ضد ما ذكرنا . ثم بين أن ذلك الصرف وتعكيس القضية إنما كان الأمرين : كونهم مكذبين بآيات الله ، وكونهم غافلين عنها ، ومحل ذلك الرفع على الابتداء أو النصب على معنى صرفهم الله ذلك الصرف بسبب أنهم كذا وكذا . ثم بيّن أن أولئك المتكبرين مجزيون شر الجزاء وإن صدر عنهم صورة الإحسان والخير فقال ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ أي جحدوا المعاد حبطت أعمالهم . ثم قال ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ احتجت الأشاعرة بها على فساد قول أبي هاشم إن تارك الواجب يستحق العقاب بمجرد ترك الواجب وإن لم يصدر عنه فعل ذلك . قالوا : لأنها دلت على أنه لا جزاء إلا على عمل وترك الواجب ليس بعمل . أجاب أبو هاشم بأني لا أسمي ذلك العقاب جزاء . ورد بأن الجزأ ما يجزىء ، أي يكفي عن المنع عن النهي أو في الحث على المأمور ، لكن العقاب على ترك الواجب كافٍ في الزجر عن ذلك فكان جزاء . قيل : إن بني إسرائيل كان له عيد يتزينون فيه يستعيرون من القبط الحلي فاستعاروها مرة فأغرق الله القبط فبقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل ، فلهذا أضيفت إليهم على أن مجرد ملابسة الاستعارة أيضاً تحقق الإضافة وتصححها . والحليّ جمع حلي كثدي وثديّ . ومن كسر الحاء فللإتباع . فجمع السامري تلك الحليّ وكان رجلاً مطاعاً فيهم ذا قدر وكانوا قد سألوا موسى أن

يجعل لهم إلهاً يعبدونه فصاغ السامري لهم عجلاً . واختلف المفسرون بعد ذلك فقال قوم : كان قد أخذ تراب حافر فرس جبرائيل فألقاه في جوف ذلك العجل فانقلب لحماً ودماً وظهر منه الخوار مرة واحدة فقال السامري هذا إلهكم وإله موسى . قال أكثر المفسرين من المعتزلة : إنه كان قد جعل ذلك العجل

(182/289)

مجوّفاً ووضع في جوفه أنابيب على وجه مخصوص ، ثم وضع التمثال على مهب الرياح فظهر منه صوت شديد يشبه خوار العجل . وقال آخرون : إنه صير ذلك التمثال أجوف وخبأ تحته من ينفخ فيه من حيث لا يشعر به الناس . وإنما قال سبحانه ﴿ واتخذ قوم موسى ﴾ من أن المتخذ هو السامريّ وحده لأن القوم رضوا بذلك واجتمعوا عليه فكأنهم شاركوه ، أو لأن المراد باتخاذ العجل هو عبادته كقوله ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ [البقرة : 51] أي من بعد مضيه إلى الطور . قال الحسن : كلهم عبدوا العجل غير هارون لعموم الآية ولقول موسى في الدعاء ﴿ رب اغفر لي ولأخي ﴾ ولو كان غيرهما أهلاً للدعاء لأشركهم في ذلك .

(183/289)

وقال آخرون : بل كان قد بقي في بني إسرائيل من ثبت على إيمانه لقوله سبحانه ﴿ من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : 181] وهل انقلب ذلك التمثال لحماً ودماً أو بقي ذهباً كما كان مال بعضهم إلى الأوّل لأنه تعالى قال ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ والجسد اسم للجسم ذي اللحم والدّم والخوار إنما يكون للبقرة لا للصورة . واستبعده بعضهم وناقش في أن الجسد مختص بذي الروح . ثم قال : إن ذلك الصوت لما أشبه الخوار لما يبعد إطلاق لفظ الخوار عليه . وقرأ علي كرم الله وجهه ﴿ جؤار ﴾ بالجيم والهمزة من جأر إذا صاح و ﴿ جسداً ﴾ بدلاً من ﴿ عجلاً ﴾ ثم إنه سبحانه احتج على فساد كون ذلك العجل إلهاً بقوله ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ ومن حق الإله أن يكون متكلماً هادياً إلى سبيل الحق ومناهجه بما ركز في العقول من الأدلة وبما أنزل من الكتب . قالت المعتزلة : ههنا سؤال فمن كان مضلاً عن الدين لا يصلح أن يكون إلهاً . قالت الأشاعرة : لو صح أن الإله يلزم أن يكون متكلماً هادياً لزم أن يكون كل متكلم هادٍ إلهاً . والحق أن الملازمة ممنوعة فإن الدعوى ليست إلا أن كل إله يجب أن يكون متكلماً هادياً والموجبة الكلية لا تنعكس كنفسها على أنه يمكن أن يقال لا متكلم ولا هادي في الحقيقة إلا الله تعالى . ثم ختم الآية بقوله ﴿ اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ وهذا كما قال في البقرة ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ [البقرة : 51] ثم أخبر عن عقبى

حالهم بقوله ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ معناه ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل . واختلفوا في وجه هذه الاستعارة فقال الزجاج : أريد بالأيدي القلوب والأنفس كما يقال حصل في يده مكروه وإن كان من المحال حصول المكروه في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين . وقال في الكشاف : إن من شأن من اشتد ندمه أن يعض يده فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه وقع فيها ،

(184/289)

فأصل الكلام سقط فوه في يده فحذف الفاعل وبني الفعل للمفعول فيه كما يحذف الفعل ويبنى للمفعول فيه في قولهم " مُرَّ بزيد " وهذا من باب الكناية لأن عض اليد من لوازم الحسرة والندم . وقيل : كل عمل يقدم المرء عليه فذلك لاعتقاد أن ذلك العمل خير وصواب وأنه يورثه رفعة ورتبة ، فإذا بان أن ذلك العمل باطل فكأنه انحط وسقط من علو إلى أسفل ومنه قولهم للرجل إذا أخطأ " ذلك منه سقطة " ثم إن اليد آلة البطش والأخذ والنادم كأنه تدارك الحالة التي لأجلها حصل له الندم وكأنه قد سقط في يد نفسه من حيث أنه بعد حصول ذلك الندم يشتغل بالتدارك والتلافي .

(185/289)

وحكى الواحدي أنه من السقط وهو ما يغشى الأرض بالغدوات شبه الثلج فمن وقع في يده السقط لم يحصل منه على شيء قط لأنه يذوب بأدنى حرارة ، فهذا مثل من خسر في عاقبته ولم يحصل على طائل من سعة . وقال بعضهم : الآله الأصلية في أكثر الأعمال اليد والعاجز في حكم الساقط فسقاط اليد هو العجز التام كما يقال في العرف ضل يده ورجله لمن لا يهتدي إلى صلاحه . وقيل : إن " في " بمعنى " على " أي سقط على أيديهم فإن من عادة النادم أن يطأطىء رأسه ويضعه على يده تحت ذقنه . ثم قال الله تعالى ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا ﴾ أي قد تبينوا ضلالهم كأنهم أبصروه بعيونهم . قال القاضي : الكلام على التقديم والتأخير لأن الندم والتحسر بعد تعرف الحال وتبين الخطأ والترتيب الأصلي : ولما رأوا أنهم قد ضلوا سقط في أيديهم . ويمكن أن يقال : الواو لا تفيد الترتيب ، أو يقال : الإقدام على ما لا يعلم كونه صواباً أو خطأً فاسد موجب للندم وقد يتكامل العلم فيظهر أنه خطأ جزماً . ثم إنهم اعترفوا بذنوبهم وانقطعوا إلى ربهم وذكروا مثل ما ذكر أبونا آدم وأمنا حواء ﴿ إن لم يرحمنا ربنا ﴾ الآية . ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه ﴾ قال بعضهم إن موسى قد عرف خبر القوم بعد رجوعه إليهم . وقال الأكثرون وهو قول أبي مسلم : إنه كان عارفاً بذلك قبل رجوعه بدليل قوله ﴿ غضبان أسفاً ﴾ فإنه يدل على أن هاتين الحالتين حاصلتان له عند رجوعه إليهم ولما جاء في سورة طه ﴿ قد فتنا قومك من بعدك ﴾ [

الآية : 85] وفي دليل ظاهر على أنه تعالى أخبره بوقوع الواقعة في الميقات . والأسف الشديد الغضب وهو قول أبي الدرداء والزجاج . وعن ابن عباس والحسن إنه الحزين . وقال الواحدي : هما متقاربان فإذا جاءك ممن هو دونك غضبت وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت ، فكأن موسى غضبان على قومه أسفاً من فتنة ربه ﴿ بئسما خلفتموني ﴾ خاطب عبدة العجل أو وجوه القوم - هارون والمؤمنين - حيث لم يكفوا العبدة . وفاعل ﴿ بئس ﴾ مضمر يفسره ﴿ ما

(186/289)

خلفتموني ﴾ والمخصوص محذوف التقدير : بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم . ومعنى ﴿ من بعدي ﴾ مع قوله ﴿ خلفتموني ﴾ من بعد ما رأيتم مني من توحيد الله ونفي الأنداد أو من بعد ما كنت أحمل القوم عليه من التوحيد والكف من اتخاذ إله غير الله حيث قالوا جعل لنا إلهاً ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة مستخلفيهم من بعدهم ولا يخالفوهم ونظير الآية قوله ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ [مريم : 58] أي من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ قال الواحدي : العجلة التقدم بالشيء قبل وقته ولذلك صارت مذمومة في الأغلب بخلاف السرعة فإنها

عمل الشيء في أوّل وقته .

قال ابن عباس : يعني أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له . وقال الحسن : أعجلتم وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين وذلك أنهم قدّروا أنه لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة فقد مات . وروي أن السامري قال لهم : إن موسى لن يرجع وإنه قد مات . وروي أنهم عدوا عشرين يوماً بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا . وقال الكلبي ، أعجلتم عبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم . وقال عطاء : أعجلتم سخط ربكم . وفي الكشاف : يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره ويضمن معنى سبق فيعدى تعديته فيقال : عجلت الأمر ومعنى : أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به ﴿ وألقى الألواح ﴾ التي فيها التوراة لما لحقه من الدهش والضجر غضباً لله . عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : " يرحم الله أخي موسى ما الخبر كالمعاينة " لقد أخبره الله تعالى بفتنة قومه فعرف أن ما أخبره به حق وأنه مع ذلك متمسك بما في يده . وروي أن التوراة كانت سبعة أسباع فلما ألقى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها وبقي سبع واحد ، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة .

قال في التفسير الكبير : إلقاء الألواح ثابت بالقرآن ، فأما إلقاؤها بحيث تكسرت فلا وإنه جراءة عظيمة ومثله لا يليق بالأنبياء . وأقول : الجراءة تحصل بنفس الإلقاء لا بالتكسر الذي لا يتعلق باختياره فكل ما يجعل عذراً عن نفس الإلقاء يصح أن يجعل عذراً عن التكسر ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ أي بشعر رأسه يجره إليه بذؤابته . واعلم أن موسى عليه السلام كان في نفسه حديداً شديد الغضب وكان هارون ألين منه جانباً ولذلك كان أحبّ إلى بني إسرائيل من موسى . وقد استتبع غضبه أمرين : أحدهما إلقاء الألواح والآخر أخذ رأس أخيه جار إليه ، فزعم مثبتو عصمة الأنبياء أنه جر برأس أخيه إلى نفسه ليسارّه ويستكشف منه كيفية الواقعة لا لأجل الإهانة والاستخفاف ، ثم إن هارون خاف أن يتوهم جهال بني إسرائيل أن موسى فعل ما فعل به إهانة ﴿ فقال يا ابن أم ﴾ من كسرها فعلى طرح ياء المتكلم ، ومن فتحها فتشبيهاً بخمسة عشر لكثرة الاستعمال أو على الألف المبدلة من ياء الإضافة . وإنما أضافه إلى الأم إشارة إلى أن أمهما واحدة على ما روي أنه كان أخاه لأمه ليكون أدعى إلى العطف والرقة لأنها كانت مؤمنة فافتخر . بنسبها ولأنها هي التي تحملت فيه الشدائد فذكره حقها ﴿ إن القوم استضعفوني ﴾ استذلوني وقهروني ولم يبالوا بي لقلة أنصاري ﴿ وكادوا يقتلونني ﴾ حين منعتهم عبادة العجل ونهيتهم عنها ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ﴾ العابدي العجل فإنهم يحملون هذا لذي تفعل

بي على الإهانة لا على الإكرام ﴿ ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ في اشتراك العقوبة والإذلال ، ولا تعتقد أني واحد منهم .

(188/289)

ولا يخفى ما في بعض هذا التفسير من التعسف والتكلف ، والحق أن هذا القدر من الحدة الناشئة من عصبية الدين لا يقدح في العصمة وغايته أن يكون من قبيل ترك الأولى فلذلك ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ رب اغفر لي ﴾ ما أقدمت عليه من الحدة قبل جلية الحال ﴿ ولأخي ﴾ أن عساه فرّط في شأن الخلافة ثم أخبر عن مجازاة القوم فقال ﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾ إلهاً ﴿ سينالهم غضب من ربهم وذلة ﴾ كلاهما في الحياة الدنيا . فالغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم والذلة خروجهم من ديارهم وذل الغربة لا يخفى . واعترض بأن قوله ﴿ سينالهم ﴾ للاستقبال وفي وقت نزول الآية كان القتل واقعاً . وأجيب بأن هذا الكلام حكاية عما أخبر الله تعالى موسى به في الميقات من افتتان قومه وكان سابقاً على وقوعهم في الغضب والذلة . قلت : ويجوز أن يكون الآيتان من تتمة قول موسى إلا أن قوله ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ ينبو عن ذلك إلا أن يحمل على الاعتراض . ولما في هذا التفسير من التكلف ذهب به بعض المفسرين إلى أن المضاف في الآية محذوف

والتقدير : إن الذين اتخذ آباؤهم العجل يعني الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم سينالهم غضب من ربهم في الآخرة وذلة في الحياة الدنيا بضرب الجزية ، أو غضب وذلة كلاهما في الدنيا بالقتل والجلاء كما نال بني قريظة والنضير ، أو التقدير : إن الذين اتخذا العجل سينال أولادهم ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ أي كل مفتر في دين الله فجزاؤه الغضب والذلة . قال مالك بن أنس : ما من مبتدع إلا وتجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ﴾ ظاهر الآية يدل على أن التوبة شرط العفو وأنه لا بد مع التوبة من تجديد الإيمان فما أصعب شأن المذنبين ، ولكن عموم لفظ السيئات يدل على أن من أتى بجميع المعاصي ثم تاب فإنه الله يغفرها له فما أحسن حال التائبين ﴿ لغفور ﴾ ستور عليهم مخّاء لما صدر منهم ﴿ رحيم ﴾ منعم عليهم بالجنة . وفيه أن الذنوب

(189/289)

وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل .

ولما بين ما كان من موسى مع الغضب بين ما كان منه بعد الغضب فقال ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ قال علماء البيان : إنه خرج على قانون الاستعارة فكأن الغضب كان

يغريه على ما فعل ويقول ألق الألواح وغير ذلك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء . وعن عكرمة أن المعنى سكت موسى عن الغضب فقلب كما يقال : أدخلت الخف في رجل وإنما أدخل الرجل في الخف . وقيل : السكوت بمعنى السكون وقد قرىء به .

﴿ أخذ الألواح ﴾ التي ألقاها منبهاً على زوال غضبه لأنه أوكد ما تقدم من إمارات الغضب ﴿ وفي نسختها ﴾ فعلة بمعنى مفعول كالخطبة من النسخ والكتب أي في مكتوبها من اللوح المحفوظ سواء قلنا إن الألواح لم تتكسر وأخذها موسى بأعيانها بعد ما ألقاها أو قلنا إنها تكسرت وأخذ ما بقي منها ، وقيل : النسخ بمعنى الإزالة لما روي عن ابن عباس أنه لما ألقى الألواح تكسرت فصام أربعين يوماً فأعاد الله تعالى الألواح وفيها غير ما في الأولى ﴿ هدى ﴾ من الضلال ﴿ ورحمة ﴾ من العذاب ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ أدخل اللام في المفعول لتقدمه فإن تأخير الفعل يكسبه ضعفاً ونظيره ﴿ للرؤيا تعبرون ﴾ [يوسف : 43] وقولك : لزيد ضربت ويجوز أن يكون المراد للذين هم لأجل ربهم يرهبون لا رياء وسمعة ، وجوّز بعضهم أن تكون اللام صلة نحو ردف لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 313 . 323 ﴾

(190/289)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154) ﴾

الغضب ما نزل بهم من العقوبة في الدنيا بقتل أنفسهم ، وما سينزل بهم في الآخرة من العذاب ، والذلة هي التي ضربها الله عليهم بقوله : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة ﴾ [البقرة : 61] .

وقيل : هي إخراجهم من ديارهم .

وقيل : هي الجزية ، وفيه نظر لأنها لم تؤخذ منهم ، وإنما أخذت من ذراريهم .

والأولى أن يقيد الغضب والذلة بالدنيا ، لقوله : ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ وأن ذلك مختص بالمتخذين للعجل إلهاً ، لا لمن بعدهم من ذراريهم .

ومجرّد ما أمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم ، وبه يصيرون أذلاء .

وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم ، وبه يصبرون أذلاء .

وأما ما نال ذراريهم من الذلة فلا يصحّ تفسير ما في الآية به إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقي ، وهو لم يتعذر هنا ﴿ وكذلك نَجْزِى المفترين ﴾ أي : مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين .

والافتراء الكذب ، فمن افترى على الله سيناله من الله غضب وذلة في الحياة الدنيا .

وإن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء ، بل المراد ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه

، وأن فيه ذلة بأيّ نوع كان ﴿ والذين عَمِلُواْ السيئات ﴾ أي : سيئة كانت ﴿ ثُمَّ تَابُواْ ﴾ عنها ﴿ مِن بَعْدِ ﴾ عملها ﴿ وَءامَنُواْ ﴾ بالله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي : من بعد هذه التوبة ، أو من بعد عمل هذه السيئات التي قد تاب عنها فاعلها وآمن بالله ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم .

قوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب ﴾ أصل السكوت : السكون والإمساك ، يقال جرى الوادي ثلاثاً ثم سكن ، أي أمسك عن الجري .

قيل هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجرّ برأس أخيك ، فترك الإغراء وسكت .

(191/289)

وقيل : هذا الكلام فيه قلب ، والأصل : سكت موسى عن الغضب ، كقولهم أدخلت الإصبع الخاتم ، والخاتم الإصبع .

وأدخلت القلنسوة رأسي ، ورأسي القلنسوة .

وقرأ معاوية ابن قرّة "ولما سكن عن موسى الغضب" .

وقرىء " سكت وأسكت "

﴿ أَخَذَ الأَلواح ﴾ التي ألقاها عند غضبه ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ النسخ نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر .

ويقال للأصل الذي كان النقل منه نسخة ، وللمنقول نسخة أيضاً .

قال القشيري : والمعنى ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ أي فيما نسخ من الألواح المتكسرة ، ونقل إلى الألواح الجديدة ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ .

وقيل المعنى : وفيما نسخ له منها ، أي من اللوح المحفوظ .

وقيل المعنى : وفيما كتب له فيها هدى ورحمة ، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه ، وهذا كما يقال أنسخ ما يقول فلان ، أي أثبته في كتابك .

والنسخة فعلة ، بمعنى مفعولة كالخطبة .

والهدى ما يهتدون به من الأحكام ، والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة .

واللام في ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ ﴾ متعلقة بمحذوف ، أي كائنة لهم أو لأجلهم ، واللام في ﴿ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ للتقوية للفعل ، لما كان مفعوله متقدّماً عليه ، فإنه يضعف بذلك بعض الضعف .

وقد صرح الكسائي بأنها زائدة .

وقال الأخفش : هي لام الأجل ، أي لأجل ربهم يرهبون .

وقال محمد بن يزيد المبرد : هي متعلقة بمصدر الفعل المذكور ، والتقدير : للذين هم رهبتهم

لربهم يرهبون .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن أيوب ، قال : تلا أبو قلابة هذه الآية ﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل ﴾ إلى قوله : ﴿ وكذلك نَجْزِي المفترين ﴾ قال : هو جزاء كل مفتر ، يكون إلى يوم القيامة أن يذله الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : أعطى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد ، فيها تبيان لكل شيء وموعظة .

(192/289)

ولما جاء فرأى بني إسرائيل عكوفاً على العجل رمى التوراة من يده فتحطمت ، وأقبل على هارون فأخذ برأسه ، فرفع الله منها ستة أسباع وبقي سبع ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ مُّوسَى الغضب أَخَذَ الأَلواح وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ قال : فيما بقي منها .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد ، أو سعيد بن جبير ، قال : كانت الألواح من زمرّد ، فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل ، وبقي الهدى والرحمة ، وقرأ ﴿ وكتبنا له في الألواح [من كل شيء] موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ وقرأ ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ

الألواح وفي نسختها هدى ورحمة ﴾ قال : ولم يذكر التفصيل ها هنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(193/289)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ثلاثين ليلة ﴾ لئلا تستكثر النفس الأربعين من ضعف البشرية ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ الخصوصية الأربعين في ظهور ينابيع الحكمة من القلب على اللسان ﴿ وقال موسى ﴾ الروح ﴿ لأخيه هارون ﴾ القلب عند توجهه لمقام المكالمة والتجلي كن خليفتي في قومي من الأوصاف البشرية و ﴿ وأصلح ﴾ ذات بينهم على وفق الشريعة وقانون الطريقة ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ من الهوى والطبيعة . وهذه الخلافة هي السر الأعظم في بعثة الروح من ذروة عالم الأرواح إلى حضيض عالم الأشباح ﴿ ولما جاء موسى ﴾ ولما حصل الروح على بساط القرب وتتابع عليه كاسات الشرب أثر فيه سماع الكلمات فطال لسان انبساطه عند التمكن على بساطه ف ﴿ قال رب أرني أنظر إليك ﴾ فقيل : هيهات أنت بعد في بعد الأثنينية وحجب جبل الأنانية فلن تراني لأنه لا يراني إلا

من كنت له بصراً فبي يبصر ﴿ ولكن انظر ﴾ إلى جبل الأنانية ﴿ فإن استقر مكانه ﴾ عند التجلي ﴿ فسوف تراني ﴾ ببصر أنانيتك ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ بالأنانية فكان ما كان بعد أن بان ما بان وأشرقت الأرض بنور ربها .

قد كان ما كان سراً أبوح به . . . فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

(194/289)

فلو لم يكن جبل أنانية النفس بين موسى الروح وتجلي الرب لطاش في الحال وما عاش ، ولولا أن القلب يحيا عند الفناء بالتجلي لما أمكنه الإفاقة والروح إلى الوجود ، ولو لم يكن تعلق الروح بالجسد لما استسعد بالتجلي ولا بالتحلي فافهم . ﴿ فما أفاق ﴾ من غشية الأنانية بسطوة تجلي الربوبية ﴿ قال ﴾ موسى بلا هويته ﴿ سبحانك ﴾ تنزيهاً لك من خلقك واتصال الخلق بك ﴿ وانا أوّل المؤمنين ﴾ بأنك لا ترى بالأنانية وإنما ترى بنور هويتك . ﴿ برسالاتي وبكلامي ﴾ دون رؤيتي ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ فإن الشكر يبلغك إلى ما سألت من الرؤية لأن الشكر يورث الزيادة والزيادة هي الرؤية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : 26] ﴿ فخذها بقوّة ﴾ أي بقوة الصدق والإخلاص أو بقوة وإعانة منا ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ الخارجين عن طلب الله إلى

طلب الآخرة أو الدنيا ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ فبحجاب التكبر يحجب المتكبر عن رؤية الآيات ﴿ واتخذ قوم موسى ﴾ أي سامري الهوى من بعد توجه موسى الروح لميقات مكالمة الحق.

(195/289)

اتخذ حلى زينة الدنيا ورعونات البشرية التي استعارها بنو إسرائيل صفات القلب من قبط صفات النفس ﴿ عجلاً ﴾ هو الدنيا ﴿ له خوار ﴾ يدعو الخلق به إلى نفسه ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ عند رجوع موسى الروح إلى قومه وهم الأوصاف الإنسانية ندمت من فعلها وعادت إلى ما كانت فيه من عبودية الحق والإخلاص له قائلة ﴿ إن لم يرحمنا ﴾ بجذبات العناية ﴿ ربنا ﴾ الآية ﴿ غضبان ﴾ مما عبدت صفات القلب عجل الدنيا ﴿ أسفاً ﴾ على ما فاتها من عبودية الحق ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ بالرجوع إلى الدنيا وزينتها والتعلق بها قبل أوانه من غير أن يأمركم به ربكم. وفيه إشارة إلى أن أصحاب السلوك لا ينبغي أن يلتفتوا إلى شيء من الدنيا في أثناء الطلب اللهم إلا إذا قطعوا مفاوز النفس والهوى ووصلوا إلى كعبة وصال المولى فيأمرهم المولى أن يرجعوا إلى الدنيا لدعوة الخلق ﴿ وألقى الألواح ﴾ يعني ما لاح للروح من اللوائح الربانية عند استيلاء الغضب

الطبيعي . ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ القلب فإنه أخو الروح ﴿ يجره إليه ﴾ قسراً عند استيلاء طبيعة الروحانية ﴿ قال ابن أم ﴾ هما من أب وأم واحد أبوهما الأمر وأمهما الخلق ، وإنما نسبه إلى الخلق لأن في عالم الخلق تواضعاً وتذللاً بالنسبة إلى عالم الأمر . ﴿ إن القوم استضعفوني ﴾ يعني أن أوصاف البشرية استذلوني بالغلبات عند غيبتك ﴿ وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ﴾ وهم الشيطان والنفس والهوى ﴿ ولا تجعلني مع القوم الظلمين ﴾ فيه أن صفات القلب تتغير وتتلون بلّون صفات النفس ورعونتها ، ولكن القلب من حيث هو هو لا يتغير عما جبل عليه من محبة الله وطلبه وإنما يمرض بتغير صفاته كما أن النفس لا تتغير من حيث هي عما جبلت عليه من حب الدنيا وطلبها ، وإنما تتغير صفاتها من الأمارية إلى اللوّامية والملهمية والمطمئنية والرجوع إلى الحق ، ولو وكلت إلى نفسها طرفة عين لعادت إلى طبعها ﴿ رب اغفر لي ولأخي ﴾ إشارة إلى أن اللوح والقلب استعداد قبول

(196/289)

الجذبة الإلهية التي يدخلها بالسير في عالم الصفات ﴿ وكذلك نجزى المفترين ﴾ الذين يدّعون أن الله أعطاهم قوّة لا يضرهم عبادة الهوى والدنيا وشهواتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 323.325 ﴾

(197/289)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التسعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/290)

الجزء التسعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 155 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 156 ﴾ من نفس السورة

(4/290)

قوله تعالى ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما فرغ سبحانه من ذكر الوعد بالميقات المقصود به سعي الكليم عليه السلام فيما يهديهم إلى صراط الله ، وذكر سعيهم فيما أضلهم عن الطريق باتخاذهم العجل ، وكان ختام ذلك ما بدا من موسى عليه السلام من الشفقة على أخيه ثم على الكافة بأخذ الألواح عند الفراغ مما يجب من الغضب لله ، رد الكلام على ذكر شيء فعله في الميقات مرادٍ به عصمتُهم في صراط الله بنقلهم – بمشاركته في سماعهم لكلام الله – من علم اليقين إلى عين اليقين بل حق اليقين شفقة عليهم ورحمة لهم ، ليكون إخبارهم عما رأوا مؤيداً لما يخبر به ، فيكون ذلك سبباً لحفظهم من مثل ما وقعوا فيه من عبادة العجل ، ومع ذلك وقع منهم العصيان بطلب ما لا ينبغي لهم من الرؤية على وجه التعنت ، فقال : ﴿ واختار ﴾ أي اجتهد في أخذ الخيار ﴿ موسى قومه ﴾ ثم أبدل منهم قوله : ﴿ سبعين رجلاً ﴾ إشارة إلى أن من عداهم عدم ، لا يطلق عليهم اسم القوم في المعنى الذي أراده ، وهو نحو ما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخرجه الشيخان عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ " الناس كالإبل المائة ، لا تكاد تجد فيها راحلة " ثم ذكر علة الاختيار فقال : ﴿ لميقاتنا ﴾ أي فما أختار إلا من رأى أنه يصلح لما نريد من عظمتنا في الوقت الذي حددناه له ، ودنا بهم من الحضرة الخطابية في الجبل هو وهارون عليهما السلام ، واستخلف على بني إسرائيل يوشع بن نون عليه السلام ، كل ذلك عن أمر الله له ، وفي هذا الكلام عطف على قوله ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾ [الأعراف : 142] فيكون الميقات هو الأول وهو ظلاهر التوارة

كما مر بيانه في البقرة ، ويجوز أن يكون عطفاً على قوله ﴿ واتخذ قوم موسى ﴾ [الأعراف : 148] أو على قوله ﴿ أخذ الألواح ﴾ [الأعراف : 154] وحينئذ يكون هذا الميقات غير الميقات الأول ، ويؤيده ما نقل من أن هارون عليه السلام كان معهم ، وكأنهم لما سمعوا كلام الله طلب بعضهم الرؤية جاعليها شرطاً لإيمانهم فقالوا : ﴿ لن

(5/290)

نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [البقرة : 55] كما فعل النقباء الاثنا عشر حين أرسلهم لجس أحوال الجبارين فنقص أكثرهم ، فأخذتهم الرجفة فماتوا ، فخشي موسى عليه السلام أن يتهمه بنو إسرائيل في موتهم كنفس واحدة ﴿ فلما أخذتهم ﴾ أي أخذ قهر وغلبة ﴿ الرجفة ﴾ أي التي سببتها الصاعقة التي تقدمت في البقرة ، فزلزلت قلوبهم فأماتتهم ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هؤلاء غير السبعين الذين قالوا ﴿ أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ﴾ [النساء : 153] وأن أولئك كانوا قبل هؤلاء ، فالظاهر أن سبب الرجفة ما رأوا عند سماع الكلام من جلال الله وعظيم هيبته من الغمام الذي تغشى الجبل والقتار والبروق وأصوات القرون وغير ذلك بحيث كادت الرجفة – وهي رعدة – تفرق أوصالهم بعضها من بعض ﴿ قال ﴾ أي موسى تملقاً لربه سبحانه ﴿ رب ﴾ أي أيها

المحسن إليّ ﴿ لو شئت أهلكتهم ﴾ أي أمتّهم .

ولما لم يكن إهلاكهم مستغرقاً للماضي ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل وإياي ﴾ أي قدرتك عليّ وعليهم قبل أن نقترب من هذه الحضرة المقدسة ونحن بحضرة قومنا كقدرتك علينا حين تشرفنا بها ، وقد أسبلت علينا ذيل عفوك وأسبغت علينا نعمتك ونحن في غير الحضرة فلم تهلكنا ، فإنعامك علينا ونحن في حضرة القدس وبساط القرب والأنس أولى .

ثم لما كان الحال مقتضياً لأن يقال : ألم تر إلى ما اجترؤوا عليه ، وكان كأنه قال : إنما قال ذلك قوم منهم سفهاء ، دل على ذلك بقوله استعطافاً : ﴿ أتهلكنا ﴾ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجفتهم كانت بسبب أنهم لم ينهوا عن عبادة العجل مع أنهم لم يرضوا بذلك .

(6/290)

وكأن موسى عليه السلام عبر بهذه العبارة المقتضية لإهلاك الجميع لأنه جوز أنه كما أهلك هؤلاء يهلك غيرهم لتقصير آخر بسبب ذلك كعدم الجهاد مثلاً حتى يعمهم الهلاك ﴿ بما فعل السفهاء منا ﴾ فكأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ رضي أنه إن لم يشملهم العفو أن يخص العفو بمن لم يذنب بالفعل ويعفو عمن قصر بالسكوت ، وعلى تقدير كون الميقات غير الأول

يجوز أن يكون بعد اتخاذهم العجل كما تقدم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، فيكون موسى عليه السلام خاف أن يكون إهلاكهم فتنة لبني إسرائيل وسبباً لكفرهم كما كان إبطاؤه عنهم بزيادة عشرة أيام الثلاثين في الميقات الأول سبباً لاتخاذهم العجل ، ويجوز حينئذ أن يراد بفعل السفهاء اتخاذ العجل ، ويؤيده التعبير بالفعل دون القول وقد تقدم نقله عن ابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ ما .

ولما كان قوله هذا ربما أفهم رضاه بهلاك المذنبين ، قال معرضاً بالسؤال في العفو عن الجميع : ﴿ إن هي ﴾ أي الفتنة التي أوقعها السفهاء ﴿ إلا فتنتك ﴾ أي ابتلاؤك واختبارك ﴿ تضل بها من تشاء ﴾ أي تظهر في عالم الشهادة من ضلاله ما كان معلوماً لك في عالم الغيب ﴿ وتهدي من تشاء ﴾ أي تظهر ما في علمك من ذلك .

ولما أثبت أن الكل بيده ، استأنف سؤاله في أن يفعل لهم الأصلح فقال : ﴿ أنت ﴾ أي وحدك ﴿ ولينا ﴾ أي نعتقد أنه لا يقدر على عمل مصالحنا غيرك ، وأنت لا نفع لك في شيء من الأمرين ولا ضر ، بل الكل بالنسبة إليك على حد سواء ، ونحن على بصيرة من أن افعالك لا تعلل بالأغراض ، وعفوك عنا ينفعنا وانتقامك منا يضرنا ، ونحن في حضرتك قد انقطعنا إليك وحططنا رحال افتقارنا لديك .

ولما اثبت أنه الفعال لما يشاء وأنه لا ولي لهم غيره ، وكان من شأن الولي جلب النفع ودفع الضر ، سبب عن كونه الولي وحده قوله بادئاً بدفع الضرر : ﴿ فاغفر لنا ﴾ أي امح ذنوبنا

﴿ وارحمنا ﴾ أي ارفعنا ؛ ولما كان التقدير : فأنت خير الراحمين ، عطف عليه قوله : ﴿ وأنت خير الغافرين ﴾ أي لأن غيرك يتجاوز عن الذنب للثناء أو الثواب أو دفعاً للصفة الخسيسة وهي صفة الحقد ونحوه ، وأنت منزه عن ذلك ، وكأنه أحسن العفو عنهم فقال عاطفاً على سؤاله فيه : ﴿ واكتب لنا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 122.120 ﴾

(7/290)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ عذابي أصيب ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع ﴿ أصارهم ﴾ على الجمع : أبو جعفر ونافع وابن عامر وسهل ويعقوب والمفضل . الباقون على التوحيد .

الوقوف ﴿ لميقاتنا ﴾ ج للابتداء بكلمة الجزاء مع فاء التعقيب ﴿ وإياي ﴾ ط ﴿ منا ﴾ ج لتصدر « ان » النافية مع اتحاد القائل ﴿ فتنتك ﴾ ج لأن ما بعده مستأنف ﴿ وتهدي من تشاء ﴾ ط ﴿ الغافرين ﴾ ه ﴿ إليك ﴾ ط ﴿ من أشاء ﴾ ط للفصل بين الجملتين تعظيماً لشأنهما مع الاتفاق في اللفظ ﴿ كل شيء ﴾ ط للتبيين واختلاف

الجملتين والفاء لاستئناف وعد على الخصوص ﴿ يؤمنون ﴾ ه ج لاحتمال ما بعده النصب أو الرفع على المدح والجر على البدل ﴿ الإنجيل ﴾ ج لأن ﴿ يأمرهم ﴾ يحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو يأمرهم ، وأن يكون نعتاً أي مكتوباً أمراً أو بدلاً من ﴿ مكتوباً ﴾ أو مفعولاً بعد مفعول أي يجدونه أمراً ، أو يكون التقدير الأمي الذي يأمرهم فيكون كالبدل من الصلة ﴿ كانت عليهم ﴾ ط ﴿ أنزل معه ﴾ لا لأن ما بعده خبر « فالذين » . ﴿ المفلحون ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ج لاحتمال ما بعده الابتداء والحال أي استحق ملك السموات غير مشارك ﴿ ويميت ﴾ ط لطول الكلام وإلا فالفاء للجواب أي إذا كنت رسولاً فأمنوا إجابة . ﴿ تهتدون ﴾ ه ﴿ يعدلون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 325.326 ﴾

(8/290)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ﴾

في هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى :

الاختيار : افتعال من لفظ الخير يقال : اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره ، وأصل اختار : اختير ، فلما تحركت الياء وقبلها فتحة قلبت ألفاً نحو قال وباع ، ولهذا السبب استوى لفظ الفاعل والمفعول فقيل فيهما ، مختار ، والأصل مختير ومختير فقلبت الياء فيهما ألفاً فاستويا في اللفظ .

وتحقيق الكلام فيه أن نقول : إن الأعضاء السليمة بحسب سلامتها الأصلية صالحة للفعل والترك ، وصالحة للفعل ولضده ، وما دام يبقى على هذا الاستواء امتنع أن يصير مصدراً لأحد الجانبين دون الثاني ، وإلا لزم رجحان الممكن من غير مرجح ، وهو محال ، فإذا حكم الإنسان بأن له في الفعل نفعاً زائداً وصلاحاً راجحاً ، فقد حكم بأن ذلك الجانب خير له من ضده .

فعند حصول هذا الاعتقاد في القلب يصير الفعل راجحاً على الترك ، فلولا الحكم بكون ذلك الطرف خيراً من الطرف الآخر امتنع أن يصير فاعلاً ، فلما كان صدور الفعل عن الحيوان موقوفاً على حكمه بكون ذلك الفعل خيراً من تركه ، لا جرم سمى الفعل الحيواني فعلاً اختيارياً والله أعلم .

فإن قيل : إن الإنسان قد يقتل نفسه وقد يرمي نفسه من شاهق جبل مع أنه يعلم أن ذلك ليس من الخيرات بل من الشرور .

فنقول : إن الإنسان لا يقدم على قتل نفسه إلا إذا اعتقد أنه بسبب ذلك القتل يتخلص عن ضرر أعظم من ذلك القتل ، والضرر الأسهل بالنسبة إلى الضرر الأعظم يكون خيراً لا شراً .

وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل والله أعلم .

المسألة الثانية :

قال جماعة النحويين : معناه واختار موسى من قومه سبعين .

فحذفت كلمة "من" ووصل الفعل فنسب ، يقال : اخترت من الرجال زيداً واخترت الرجال زيداً ، وأنشدوا قول الفرزدق :

ومنا الذي اختار الرجال سماحة . . وجوداً إذا هب الرياح الزعازع

(9/290)

قال أبو علي والأصل في هذا الباب أن من الأفعال ما يتعدى إلى المفعول الثاني بحرف واحد ، ثم يتسع فيحذف حرف الجر فيتعدى الفعل إلى المفعول الثاني ، من ذلك قولك اخترت من الرجال زيداً ثم يتسع فيقال اخترت الرجال زيداً وقولك أستغفر الله من ذنبي وأستغفر الله ذنبي قال الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست أحصيه . . ويقال أمرت زيداً بالخير وأمرت زيداً الخير قال الشاعر :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به . . والله أعلم .

وعندي فيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير : واختار موسى قومه لميقاتنا وأراد بقومه المعتبرين منهم إطلاقاً لاسم الجنس على ما هو المقصود منهم وقوله : ﴿ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ عطف بيان وعلى هذا الوجه فلا حاجة إلى ما ذكروه من التكلفات .

المسألة الثالثة :

ذكروا أن موسى عليه السلام اختار من قومه اثني عشر سبطاً من كل سبط ستة ، فصاروا اثنين وسبعين ، فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاجروا ، فقال إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج ، فقعد كالب ويوشع .

وروى أنه لم يجد إلا ستين شيخاً ، فأوحى الله إليه أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً فأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ، ويطهروا ثيابهم ثم خرج بهم إلى الميقات .

المسألة الرابعة :

هذا الاختيار هل هو للخروج إلى الميقات الذي كلم الله تعالى موسى فيه وسأل موسى من الله الرؤية أو هو للخروج إلى موضع آخر ؟ فيه أقوال للمفسرين :

القول الأول : إنه لميقات الكلام والرؤية قالوا : إنه عليه السلام خرج بهؤلاء السبعين إلى طور سيناء ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام ، حتى أحاط بالجبل كله ودنا

موسى عليه السلام .

ودخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا ، فدنوا ، حتى إذا دخلوا الغمام وقعوا سجداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل .

(10/290)

ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤية وقالوا ﴿ يا موسى لَن نُؤمِنَ لَكَ حَتى نَرَى الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ [البقرة : 55] وهي المراد من الرجفة المذكورة في هذه الآية ، فقال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وإياى أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهاء مِنَّا ﴾ فالمراد منه قولهم : ﴿ أَرِنَا الله جَهْرَةً ﴾ .

والقول الثاني : أن المراد من هذا الميقات ميقات مغاير لميقات الكلام وطلب الرؤية ، وعلى هذا القول فقد اختلفوا فيه على وجوه : أحدها : أن هؤلاء السبعين وإن كانوا ما عبدوا العجل إلا أنهم ما فارقوا عبدة العجل عند اشتغالهم بعبادة العجل .

وثانيها : أنهم ما بالغوا في النهي عن عبادة العجل .

وثالثها : أنهم لما خرجوا إلى الميقات ليتوبوا دعوا ربهم وقالوا أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ، ولا تعطيه أحداً بعدنا ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك الكلام فأخذتهم الرجفة .

واحتج القائلون بهذا القول على صحة مذهبهم بأمور : الأول : أنه تعالى ذكر قصة ميقات الكلام وطلب الرؤية ثم أتبعها بذكر قصة العجل ثم أتبعها بهذه القصة ، وظاهر الحال يقتضي أن تكون هذه القصة مغايرة للقصة المتقدمة التي لا ينكر أنه يمكن أن يكون هذا عوداً إلى تتمة الكلام في القصة الأولى إلا أن الأليق بالفصاحة إتمام الكلام في القصة الواحدة في موضع واحد .

ثم الانتقال منها بعد تمامها إلى غيرها ، فأما ما ذكر بعض القصة ، ثم الانتقال منها إلى قصة أخرى ، ثم الانتقال منها بعد تمامها إلى بقية الكلام في القصة الأولى ، فإنه يوجب نوعاً من الخبط والاضطراب ، والأولى صون كلام الله تعالى عنه .

(11/290)

الثاني : أن في ميقات الكلام وطلب الرؤية لم يظهر هناك منكر ، إلا أنهم ﴿ قَالُواْ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ فلو كانت الرجفة المذكورة في هذه الآية إنما حصلت بسبب ذلك القول لوجب أن يقال : أتهلكنا بما يقوله السفهاء منا ؟ فلما لم يقل موسى كذلك بل قال : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهاء مِنَّا ﴾ علمنا أن هذه الرجفة إنما حصلت بسبب إقدامهم على عبادة العجل لا بسبب إقدامهم على طلب الرؤية .

الثالث : أن الله تعالى ذكر في ميقات الكلام والرؤية أنه خر موسى صعقاً وأنه جعل الجبل دكاً ، وأما الميقات المذكور في هذه الآية ، فإن الله تعالى ذكر أن القوم أخذتهم الرجفة ، ولم يذكر أن موسى عليه السلام أخذته الرجفة ، وكيف يقال أخذته الرجفة ، وهو الذي قال لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ؟ واختصاص كل واحد من هذين الميقاتين بهذه الأحكام يفيد ظن أن أحدهما غير الآخر .

واحتج القائلون بأن هذا الميقات هو ميقات الكلام وطلب الرؤية بأن قالوا إنه تعالى قال في الآية الأولى :

﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا ﴾ [الأعراف : 143] فدلت هذه الآية على أن لفظ الميقات مخصوص بذلك الميقات ، فلما قال في هذه الآية : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقاتنا ﴾ وجب أن يكون المراد بهذا الميقات هو عين ذلك الميقات .

وجوابه : أن هذا الدليل ضعيف ، ولا شك أن الوجوه المذكورة في تقوية القول الأول أقوى . والله أعلم .

والوجه الثالث : في تفسير هذا الميقات ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : إن موسى وهرون عليهما السلام انطلقا إلى سفح جبل ، فنام هرون فتوفاه الله تعالى ، فلما رجع موسى عليه السلام قالوا إنه هو الذي قتل هرون ، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً وذهبوا إلى هرون فأحياه الله تعالى وقال ما قتلني أحد ، فأخذتهم الرجفة هنالك ، فهذا

جملة ما قيل في هذا الباب .

والله أعلم .

المسألة الخامسة :

اختلفوا في تلك الرجفة فقيل : إنها رجفة أوجبت الموت .

(12/290)

قال السدي : قال موسى يا رب كيف أرجع إلى بني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم ولم يبق معي منهم واحد ؟ فماذا أقول لبني إسرائيل وكيف يأمنوني على أحد منهم بعد ذلك ؟ فأحياهم الله تعالى .

فمعنى قوله : ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وإياى ﴾ أن موسى عليه السلام خاف أن يتهمه بنو إسرائيل على السبعين إذا عاد إليهم ولم يصدقوا أنهم ماتوا ، فقال لربه : لو شئت أهلكتنا قبل خروجنا للميقات ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني .

والقول الثاني : أن تلك الرجفة ما كانت موتاً ، ولكن القوم لما رأوا تلك الحالة المهيبة أخذتهم الرعدة ورجفوا حتى كادت تبين منهم مفاصلهم ، وتنقصم ظهورهم ، وخاف موسى عليه السلام الموت ، فعند ذلك بكى ودعا فكشف الله عنهم تلك الرجفة .

أما قوله : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهاء مِنَّا ﴾ فقال أهل العلم : إنه لا يجوز أن يظن موسى عليه السلام أن الله تعالى يهلك قوماً بذنوب غيرهم ، فيجب تأويل الآية ، وفيه بحثان :

الأول : أنه استفهام بمعنى الجحد ، وأراد أنك لا تفعل ذلك .

كما تقول : أتهين من يخدمك ؟ أي لا تفعل ذلك .

الثاني : قال المبرد : هو استفهام استعطاف ، أي لا تهلكنا .

وأما قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ فقال الواحدي رحمه الله : الكناية في قوله : ﴿ هِيَ ﴾ عائدة إلى الفتنة كما تقول : إن هو إلا زيد وإن هي إلا هند .

والمعنى : أن تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنتك أضللت بها قوماً فافتتنوا ، وعصمت قوماً عنها فثبتوا على الحق ، ثم أكد بيان أن الكل من الله تعالى ، فقال : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ ثم قال الواحدي : وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر .

(13/290)

قالت المعتزلة : لا تعلق للجبرية بهذه الآية لأنه تعالى لم يقل ؛ تضل بها من تشاء من عبادك عن الدين ، ولأنه تعالى قال : ﴿ تُضِلُّ بِهَا ﴾ أي بالرجفة ، ومعلوم أن الرجفة لا يضل الله بها

، فوجب حمل هذه الآية على التأويل .

فأما قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ فالمعنى : امتحانك وشدة تعبدك ، لأنه لما أظهر الرجفة كلفهم بالصبر عليها .

وأما قوله : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ ﴾ ففيه وجوه : الأول : تهدي بهذا الامتحان إلى الجنة والثواب بشرط أن يؤمن ذلك المكلف ويبقى على الإيمان ، وتعاقب من تشاء بشرط أن لا يؤمن ، أو إن آمن لكن لا يصبر عليه .

والثاني : أن يكون المراد بالإضلال الإهلاك ، والتقدير : تهلك من تشاء بهذه الرجفة وتصرفها عمن تشاء .

والثالث : أنه لما كان هذا الامتحان كالسبب في هداية من اهتدى ، وضلال من ضل ، جاز أن يضافا إليه .

واعلم أن هذه التأويلات متسعة ، والدلائل العقلية دالة على أنه يجب أن يكون المراد ما ذكرناه ، وتقريرها من وجوه : الأول : أن القدرة الصالحة للإيمان والكفر لا يترجح تأثيرها في أحد الطرفين على تأثيرها في الطرف الآخر ، إلا لأجل داعية مرجحة ، وخالق تلك الداعية هو الله تعالى ، وعند حصول تلك الداعية يجب الفعل وإذا ثبتت هذه المقدمات ثبت أن الهداية من الله تعالى وأن الإضلال من الله تعالى .

الثاني : أن أحداً من العقلاء لا يريد إلا الإيمان والحق والصدق ، فلو كان الأمر باختياره

وقصده لوجب أن يكون كل واحد مؤمناً محقاً ، وحيث لم يكن الأمر كذلك ثبت أن الكل من الله تعالى .

(14/290)

الثالث : أنه لو كان حصول الهداية والمعرفة بفعل العبد فما لم يتميز عنده الاعتقاد الحق عن الاعتقاد الباطل ، امتنع أن يخص أحد الاعتقادين بالتحصيل والتكوين ، لكن علمه بأن هذا الاعتقاد هو الحق وأن الآخر هو الباطل ، يقتضي كونه عالماً بذلك المعتقد أولاً كما هو عليه ، فيلزم أن تكون القدرة على تحصيل الاعتقاد مشروطة بكون ذلك الاعتقاد الحق حاصلاً ، وذلك يقتضي كون الشيء مشروطاً بنفسه وأنه محال ، فثبت أنه يمتنع أن يكون حصول الهداية والعلم بتخليق العبد ، وأما الكلام في إبطال تلك التأويلات فقد سبق ذكره في هذا الكتاب غير مرة والله أعلم .

ثم حكى تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال بعد ذلك : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فاغفر لَنَا وارحمنا وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ﴾ واعلم أن قوله : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ يفيد الحصر ، ومعناه أنه لا ولي لنا ولا ناصر ولا هادي إلا أنت ، وهذا من تمام ما سبق ذكره من قوله : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ وقوله : ﴿ فاغفر لَنَا وارحمنا ﴾ المراد منه أن إقدامه على قوله :

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ جراءة عظيمة ، فطلب من الله غفرانها والتجاوز عنها وقوله : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ﴾ معناه أن كل من سواك فإنما يتجاوز عن الذنب إما طلباً للثناء الجميل أو للثواب الجزيل ، أو دفعاً للريقة الخسيسة عن القلب ، وبالجملة فذلك الغفران يكون لطلب نفع أو لدفع ضرر ، أما أنت فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوض وغرض ، بل لمحض الفضل والكرم ، فوجب القطع بكونه ﴿ خَيْرُ الغافرين ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 14.18 ﴾

(15/290)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ أي من قومه ﴿ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقاتنا ﴾ يعني : للميقات الذي وقتنا له ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ يعني الزلزلة ، تزلزل الجبل بهم فماتوا ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ﴾ يعني : من قبل أن يصحبوني ﴿ وإياى ﴾ بقتل القبطي ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهاء مِنَّا ﴾ قال الكلبي : ظن موسى أنه إنما أهلكهم باتخاذ بني إسرائيل العجل .

وروي عن عليّ بن أبي طالب أنه قال : انطلق موسى وهارون ومعهما شَبَّر وَشَبِيّر وهما

ابنا هارون حتى انتهوا إلى جبل وفيه سرير ، فنام عليه هارون فقبض ، فرجع موسى إلى قومه ، فقالوا له : أنت قتلته حسداً على خلقه ولينه .

قال : كيف أقتله ومعي ابناه ، فاختاروا من شئتم ، فاختاروا سبعين ، فانتهوا إليه .

فقالوا له : من قتلك يا هارون : قال ما قتلني أحد ولكن توفاني الله تعالى .

فأخذتهم الرجفة فماتوا كلهم .

فقال موسى : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ﴾ وإياي .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما انطلق موسى إلى الجبل أمر بأن يختار سبعين رجلاً من قومه : فاختار من كل سبط ستة رجال ، فبغلوا اثنين وسبعين ، فقال موسى : إني أمرت بسبعين فليرجع اثنان ، ولهما أجر من حضر ، فرجع يوشع بن نون وكالوب بن يوقنا .

فذهب موسى مع السبعين إلى الجبل ، فلما رجع إليهم موسى من المناجاة قالوا له : إنك قد لقيت ربك فأرنا الله جهرة حتى نراه كما رأيته .

فجاءتهم نار فأحرقتهم فماتوا .

فقال موسى : حين أماتهم الله تعالى ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ﴾ هذا اليوم وإياي معهم أتهلكنا بما فعل السفهاء منا يعني : أتوقعني في ملامة بني إسرائيل وتعييرهم بفعل هؤلاء السفهاء ثم أحياهم الله تعالى .

(16/290)

وروى أسباط عن السدي قال : إن موسى انطلق بسبعين من بني إسرائيل يعتذرون إلى ربهم عن عبادة العجل ، وذكر نحو حديث عبد الله بن عباس ثم قال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ يعني بليتك وعذابك ويقال : يعني عبادة العجل بليتك حيث جعلت الروح فيه ﴿ تُضِلُّ بِهَا ﴾ أي بالفتنة ﴿ مَن تَشَاء وَتَهْدِى مَن تَشَاء ﴾ من الفتنة ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ أي حافظنا وناصرنا ﴿ فاغفر لَنَا ﴾ يعني : ذنوبنا ﴿ وارحمنا ﴾ يعني : ولا تعذبنا ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ﴾ يعني : المتجاوزين عن الذنوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(17/290)

وقال الثعلبى :

﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾

أي من قومه فلمّا نزع حرف الصفة نصب كقول الفرزدق :

ومنّا الذي أُختير الرجال سماحة . . . وبراً إذا هبّ الرياح [الزعازع]

وقال آخر :

اخترتك للناس إذ رثت خلائقهم . . . واعتل مَنْ كان يُرجى عنده السؤل

أي من الناس ، واختلفوا في سبب اختيار موسى السبعين .

وقال السدي : أمر الله أن سيأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعد موعداً ، واختار موسى من قومه ﴿ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ ثمّ ذهب إليه ليعتذر فلمّا أتوا ذلك المكان قالوا : لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة وإنّك قد كلّمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا .

وقال ابن إسحاق : اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوه ويسألوه التوبة على من تركوا وراءهم من قومهم .

وقال مجاهد : اختارهم لتمام الموعد .

وقال وهب : قالت بنو إسرائيل لموسى (عليه السلام) : إن طائفة يزعمون أنّ الله لا يكلمك ولو كلمك فأقمت لكلامه ألم ترَ أنّ طائفة منّا سألوه النظر إليه فماتوا فلا تسأله أن [ينزل] طائفة منّا حتّى يكلمك فيسمعوا كلامه فيؤمنوا وتذهب التهمة ، فأوحى الله تعالى إلى موسى (عليه السلام) أن اختر من خيارهم سبعين رجلاً ، ثمّ ارتق بهم إلى الجبل أنت وهرون . واستخلف على بني إسرائيل يوشع بن نون يقول كما أمر الله تعالى واختار سبعين

رجلاً .

روى المنهال عن الربيع بن حبيب قال : سمعنا أبا سعيد الرقاشي وقرأ هذه الآية قال : كان السبعون ابناً ما عدا عشرين . ولم يتجاوز الأربعين . وذلك أن ابن عشرين قد ذهب [جماله] وصباه وأنّ من لم يتجاوز الأربعين لم يعد من عقله شيءٌ . وقال الآخرون : كانوا شيوخاً .

قال الكلبي : اختار موسى سبعين رجلاً لينطلقوا إلى الجبل فلم يصب إلاّ ستين شيخاً وأوحى الله تعالى إليه أن يختار من الشباب عشرة فاختار وأصبحوا شيوخاً فاختار من كل سبط ستّة رهط فصاروا اثنين وسبعين .

(18/290)

فقال موسى : إنّما أمرت سبعين رجلاً فاستخلف منكم رجلان فتشاجروا على ذلك . فقال : إنِ لمن قعد مثل أجر من خرج ، فقعد رجلان أحدهما كالب بن [يوقيا] والآخر يوشع بن نون .

فأمر موسى السبعين أن تصوموا وتطهروا ، وتطهّروا ثيابكم ثمّ خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربّه وكان لا يأتيه إلاّ بإذن منه وذلك قوله تعالى : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ

رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ اختلفوا في كيفية هذه الرجفة وسبب أخذها إياهم .

فقال ابن إسحاق والسدي : إنّهم لمّا أتوا ذلك المكان قالوا لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربّنا فقال : أفعل ، فلمّا دنا موسى (عليه السلام) من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتّى يغشي الجبل كله ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم : ادنوا وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني إسرائيل أن ينظر إليه ، فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتّى إذا دخلوا في الغمام وهو عمود فسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره فيها : افعل لا تفعل فلما فرغ انكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا : يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعاً .

وقال ابن عباس : إن السبعين الذين قالوا : لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة كانوا قبل السبعين الذين أخذتهم الرجفة ، وإنما أمر الله موسى أن يختار من قومه سبعين رجلاً فاختارهم وبرزهم ليدعوا ربهم ، فكان فيما دعوا أن قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطيه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة .

(19/290)

قال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه : إنّما أخذتهم الرجفة من أجل دعواهم على موسى قبل هارون ، وذلك أن موسى وهارون وشبر وشبير (عليهم السلام) انطلقوا إلى سفح جبل فنام هارون على سرير فتوفّاه الله فلمّا مات دفنه موسى فلمّا رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له : أين هارون ؟ قال : توفّاه الله ، فقالوا : بل أنت قتلته [عمداً] على خُلُقه وَلِينْهِ ، قال : فاختاروا من شئتم ، فاختاروا سبعين رجلاً وذهب بهم ، فلما انتهوا إلى القبر قال موسى : يا هارون أقتلتَ أم تُوفّيت ؟

فقال هارون : ما قتلني أحد . ولكن الله توفاني إليه .

فقالوا : يا موسى لن نقصّ بعد اليوم فأخذتهم الرجفة وصعقوا وماتوا ، وقال موسى : يارب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم ، يقولون : أنت قتلتهم فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلّهم .

وقال ابن عباس : إنّما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يرضوا ولم ينهوا عن العجل ، وقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب : أخذتهم الرجفة لأنّهم لم [يزايلوا] قومهم حين عبدوا العجل ولم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر .

وقال وهب : لم تكن تلك الرجفة موتاً ولكن القوم لما رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرجفة وخلقوا فرجفوا حتّى كادت أن تبيّن مفاصلهم وتنقص ظهورهم فلمّا رأى ذلك موسى (عليه السلام) رحمهم وخاف عليهم الموت واشتدّ عليه فقدهم وكانوا له ولداً على الخير

سامعين مطيعين فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربّه فكشف الله عنهم تلك الرجفة والرعدة فسكنوا واطمأنوا وسمعوا كلام ربهم فذلك قوله ﴿ قَالَ ﴾ يعني موسى ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ بقتل القبطي ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهآء مِنَّآ ﴾ يعني عبدة العجل .

وظن موسى أنّه عوقبوا باتخاذ بني إسرائيل العجل .

(20/290)

وقال السدي : أوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل وكان موسى لا يعلم ذلك فقال موسى : يارب كيف أرجع إلى بني إسرائيل وقد أهلكت أخيارهم وليس معي رجلٌ واحدٌ فما الذي يصدقوني به ويأمنونني عليه بعد هذا ، فأحياهم الله ، وقال [المبرّد] : قوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا استعلام واستعطاف أي لا تهلكنا قد علم موسى أن الله أعدل من أن يؤاخذ بجريرة الجاني غيره ولكنّه كقول عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : 118] الآية .

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ أي اختيارك .

قال سعيد بن جبير وأبو العالية والربيع : محنتك ، وقال ابن عباس : عذابك تصيب به من

تشاء وتصرفه عن من تشاء ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ ناصرنا ومولانا وحافظنا ﴿ فاغفر لَنَا وارحمنا وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(21/290)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ﴾

وفي الكلام محذوف وتقديره : واختار موسى من قومه سبعين رجلاً .

وفي قوله : ﴿ لِّمِيقَاتِنَا ﴾ قولان :

أحدهما : أنه الميقات المذكور في سؤال الرؤية .

والثاني أنه ميقات غير الأول وهو ميقات التوبة من عبادة العجل .

﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ وفيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها الزلزلة ، قاله الكلبي .

والثاني : أنه الموت . قال مجاهد : ماتوا ثم أحياهم .

والثالث : أنها نار أحرقتهم فظن موسى أنهم قد هلكوا ولم يهلكوا ، قاله الفراء .

﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ وفي سبب أخذها لهم قولان :

أحدهما : لأنهم سألوا الرؤية ، قاله ابن إسحاق .

والثاني : لأنهم لم ينهوا عن عبادة العجل قاله ابن عباس .

﴿ . . . أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّآ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه سؤال استفهام خوفاً من أن يكون الله قد عمهم بانتقامه كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] .

والثاني : أنه سؤال نفي ، وتقديره : إنك ل تعذب إلاَّ مذبناً فكيف تهلكنا بما فعل السفهاء منا .

فحكى أن الله أمات بالرجفة السبعين الذين اختارهم موسى من قومه ، لا موت فناء ولكن موت ابتلاء ليثبت به من أطاع وينتقم به ممن عصى وأخذت موسى غشية ثم أفاق موسى وأحيا الله الموتى ، فقال :

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المراد بالفتنة العذاب ، قاله قتادة .

والثاني : أن المراد بها الابتلاء والاختبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ واختار موسى قومه ﴾ الآية ،

معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاء ليكون منه ومنهم اعتذار إلى الله عز وجل من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلب لكمال العفو عمن بقي منهم ، وروي عن علي بن أبي طالب أن اختيارهم إنما كان بسبب قول بني إسرائيل أن موسى قتل هارون حين ذهب معه ولم يرجع ، فاختار هؤلاء ليذهبوا فيكلمهم هارون بأنه مات بأجله ، وقوله : ﴿ لميقاتنا ﴾ يؤيد القول الأول وينافر هذا القول لأنها تقتضي أن ذلك كان عن توقيت من الله عز وجل وعدة في الوقت الموضع ، وتقدير الكلام : واختار موسى من قومه ، فلما انحذف الخافض تعدى الفعل فنصب ، وهذا كثير في كلام العرب .

واختلف العلماء في سبب ﴿ الرجفة ﴾ التي حلت بهم ، فقيل كانت عقوبة لهم على سكوتهم وإغضائهم على عبادة العجل ، وقيل : كانت على عبادتهم العجل بأنفسهم وخفي ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أعلمه الله ، قاله السدي ، وقيل : كانت عقوبة لهم لأنهم لما دنوا وعلموا أن موسى يسمع كلام الله قالوا له : أرنا ربك فأخذتهم الرجفة ، وقيل : كانت عقوبة لتشططهم في الدعاء بأن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً

قبلنا ولا تعطيه أحداً بعدنا ، فأخذتهم الرجفة ، وقيل : إنما أخذتهم لما سمعوا كلام هارون وهو ميت ، وذلك أن موسى وهارون ذهبا إلى التعبد أو نحوه فمات هارون فدفنه موسى وجاء فقالت له بنو إسرائيل : أين هارون ؟ فقال : مات ، فقالوا بل أنت قتلته لأنك حسدتنا على حسن خلقه وعشرته ، فاختار السبعين ليمضوا معه حتى يروا برهان ما قال لهم ، فلما وصلوا قال له موسى يا هارون أقتلت أم مت ؟ فناداه من القبر بل مت فأخذت القوم الرجفة .

(23/290)

قال القاضي أبو محمد : وروي أنهم ماتوا في رجفتهم هذه ، ويحتمل أن كانت كالإغماء ونحوه ، و ﴿ الرجفة ﴾ الاهتزاز والتقلقل للهول العظيم ، فلما رأى موسى ذلك أسف عليه وعلم أن أمر بني إسرائيل سيتشعب عليه إذا لم يأت بالقوم فجعل يستعطف ربه أي رب لو أهلكتهم قبل هذه الحال إياي لكان أحق عليّ ، وهذا وقت هلاكهم فيه مفسد على مؤذٍ لي ، ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل ، ويحتمل قوله : ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ أن يريد وقت إغضائهم على عبادة العجل اي وقت عبادتهم على القول بذلك وفي نفسه هو وقت قتله القبطي ، أي فأنت قد سترت وعفوت حينئذ

فكيف الآن إذا رجوعي دونهم فساد لبني إسرائيل ، فمنحى الكلام على هذا محض استعطاف ، وعلى التأويل الأول منحاه الإدلاء بالحجة في صيغة استعطاف ، وإذا قلنا إن سبب " الرجفة " كان عبادة العجل كان الضمير في قوله : ﴿ اتهلكنا ﴾ له وللسبعين ، و ﴿ السفهاء ﴾ إشارة إلى العبدة من بني إسرائيل ، وكذلك إذا كان سببها قول بني إسرائيل له قتلت هارون ، وإذا كان سبب الرجفة طلبهم الرؤية وتشطههم في الدعاء أو عبادتهم بأنفسهم العجل فالضمير في قوله : ﴿ أتهلكنا ﴾ يريد به نفسه وبني إسرائيل ، أي بالتفرق والكفر والعصيان يكون هلاكهم ، ويكون قوله : ﴿ السفهاء ﴾ إشارة إلى السبعين ، وروي أن السبعين لم يكن فيهم من زاد على الأربعين ولا من قصر عن العشرين ، وروي عن علي بن أبي طالب أنهم أحيوا وجعلوا أنبياء كلهم ، وقالت فرقة : إن موسى عليه السلام لما أعلمه الله عز وجل أن السبعين عبدوا العجل تعجب وقال : ﴿ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء ﴾ أي الأمور بيدك تفعل ما تريد ، وقيل : إن الله تعالى لما أعلم موسى بعبادة بني إسرائيل العجل وبصفته قال موسى : أي رب ومن أخاره ؟ قال أنا ، قال موسى : فأنت أضللتهم إن هي إلا فتنتك ويحتمل أن يشير بها إلى قولهم : أرنا الله إذ كانت فتنة من الله أوجبت الرجفة ، وفي هذه

الآية رد على المعتزلة ، و ﴿ اغفر ﴾ معناه ستر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾

المعنى : اختار من قومه فحُذف "من" ، تقول العرب : اخترتك القوم ، أي : اخترتك من القوم ، وأنشدوا :

مِنَّا الذي اخِتيرَ الرِّجَالَ سَمَاحةً . . .

وجُوداً إذا هبَّ الرِّياح الزَّعازعُ

هذا قول ابن قتيبة ، والفراء ، والزجاج .

وفي هذا الميقات أربعة أقوال .

أحدها : أنه الميقات الذي وَقَّتَهُ الله لموسى ليأخذ التوراة ، أُمر أن يأتيَ معه بسبعين ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال نوف البِكَاليُّ .

والثاني : أنه ميقات وَقَّتَهُ الله تعالى لموسى ، وأمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ليدعو ربهم ، فدعَوْا فقالوا : اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا ، ولا تعطيه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك ، وأخذتهم الرجفة ؛ رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنه ميقات وَقَّتَهُ الله لموسى ، لأن بني إسرائيل قالوا له : إن طائفة تزعم أن الله لا يكلمك ، فخذ معك طائفة منا ليسمعوا كلامه فيؤمنوا فتذهب التهمة ، فأوحى الله اليه ان أختر من خيارهم سبعين ، ثم ارتقِ بهم على الجبل أنت وهارون ، واستخلف يوشع بن نون ، ففعل ذلك ، قاله وهب بن منبه .

والرابع : أنه ميقات وَقَّتَهُ الله لموسى ليلقاه في ناس من بني إسرائيل ، فيعتذر إليه من فِعْل عبدة العجل ، قاله السدي .

وقال ابن السائب : كان موسى لا يأتي إلا بإذن منه .

فأما الرجفة .

فهي : الحركة الشديدة .

وفي سبب أخذها إياهم أربعة أقوال .

أحدها : أنه ادعاؤهم على موسى قتل هارون ؛ قاله علي بن أبي طالب .

والثاني : اعتداؤهم في الدعاء وقد ذكرناه في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنهم لم ينهَوْا عبدة العجل ولم يرضَوْا ؛ نُقل عن ابن عباس .

وقال قتادة ، وابن جريج : لم يأمروهم بالمعروف ، ولم ينهَوْهم عن المنكر ، ولم يزايلوهم .

والرابع : أنهم طلبوا استماع الكلام من الله تعالى ، فلما سمعوه قالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [البقرة : 55] قاله السدي ، وابن إسحاق .

قوله تعالى : ﴿ قال رب لو شئت أهلكتَهم من قبلُ وإيَّاي ﴾ قال السدي : قام موسى يبكي ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم ﴿ لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإياي ﴾ قال الزجاج : لو شئت أمتَّهم قبل أن تبتليهم بما أوجب عليهم الرجفة .

وقيل : لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا وإياي ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني .

قوله تعالى : ﴿ أتُهْلِكُنا بما فعل السفهاء منا ﴾ قال المبرِّد : هذا استفهام استعطاف ، أي : لا تُهلكْنا .

وقال ابن الأنباري : هذا استفهام على تأويل الجحد ، أراد : لست تفعلُ ذلك .

﴿ والسفهاء ﴾ هاهنا : عبدة العجل .

وقال الفراء : ظن موسى أنهم أُهلكوا باتخاذ أصحابهم العجل .

وإنما أُهلكوا بقولهم : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ فيها قولان .

أحدهما : أنها الابتلاء ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وأبو العالية .

والثاني : العذاب ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

قوله تعالى : ﴿ أنت وَلِيُّنَا ﴾ أي : ناصرنا وحافظنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(26/290)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ﴾

مفعولان ، أحدهما حذفت منه مِن ؛ وأنشد سيبوية :

مِنّا الذي اختير الرجالَ سَماحةً . . .

وبِرّاً إذا هَبّ الرِّياح الزَّعازِع

وقال الراعي يمدح رجلاً :

اخترتك الناسَ إذ رَثّت خلائقُهُم . . .

واختل مَن كان يرجى عنده السُّولُ

يريد : اخترتك من الناس .

وأصل اختار اختير ؛ فلما تحرّكت الياء وقبلها فتحة قلبت ألفاً ، نحو قال وباع .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ أي ماتوا .

والرجفة في اللغة الزلزلة الشديدة .

ويروى أنهم زلزلوا حتى ماتوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ أي أمّتهم ؛ كما قال عز وجل : ﴿ إِنِ امرؤ هَلَكَ ﴾ [النساء : 176] .

"وإياي" عطف .

والمعنى : لو شئت أمتَّنا من قبل أن نخرج إلى الميقات بمحضر بني إسرائيل حتى لا يتهموني .

أبو بكر بن أبي شيبة : حدّثنا يحيى بن سعيد القَطّان عن سفيان عن أبي إسحاق عن عمارة بن عبد عن عليّ رضي الله عنه قال : انطلق موسى وهارون صلى الله عليهما وانطلق شَبّر وشَبير هما ابنا هارون فانتهوا إلى جبل فيه سرير ، فقام عليه هارون فقُبض روحه .

فرجع موسى إلى قومه ، فقالوا : أنت قتلته ، حسدتنا على لِينه وعلى خُلُقه ، أو كلمة نحوها .

الشك من سفيان ، فقال : كيف أقتله ومعي ابناه ! قال : فاختاروا من شئتم ؛ فاختاروا

من كل سِبْط عشرة.

قال: فذلك قوله: ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقاتنا ﴾ فانتهوا إليه؛ فقالوا: مَن قتلك يا هارون؟ قال: ما قتلني أحد ولكن الله توفّاني.

قالوا: يا موسى، ما تُعْصَى.

فأخذتهم الرجفة، فجعلوا يتردّدون يميناً وشمالاً، ويقول: ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهآء مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾.

(27/290)

قال: فدعا الله فأحياهم وجعلهم أنبياء كلَّهم.

وقيل: أخذتهم الرجفة لقولهم: أرنا الله جهرة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ﴾ [البقرة: 55].

على ما تقدّم بيانه في "البقرة".

وقال ابن عباس: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينَهْوا من عبد العجل، ولم يرضَوْا عبادته.

وقيل: هؤلاء السبعون غيرُ من قالوا أرنا الله جهرة.

وقال وهب: ما ماتوا، ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة حتى كادت أن تَبِين مفاصلُهم،

وخاف موسى عليهم الموت .

وقد تقدّم في "البقرة" عن وهب أنهم ماتوا يوماً وليلة .

وقيل غير هذا في معنى سبب أخذهم بالرجفة .

والله أعلم بصحة ذلك .

ومقصود الاستفهام في قوله : "أَتُهْلِكُنَا" الجَحْد ؛ أي لست تفعل ذلك .

وهو كثير في كلام العرب .

وإذا كان نفياً كان بمعنى الإيجاب ؛ كما قال :

ألستمْ خيرَ مَنْ ركب المطايا . . .

وأندى العالمين بُطون راحِ

وقيل : معناه الدعاء والطلب ، أي لا تهلكنا ؛ وأضاف إلى نفسه .

والمراد القوم الذين ماتوا من الرجفة .

وقال المبرّد : المراد بالاستفهام استفهامُ استعظامٍ ؛ كأنه يقول : لا تهلكنا ، وقد علم موسى أن الله لا يهلك أحداً بذنب غيره ؛ ولكنه كقول عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : 118] .

وقيل : المراد بالسفهاء السبعون .

والمعنى : أتهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم "أَرِنَا الله جَهْرَةً" .

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ أي ما هذا إلا اختبارك وامتحانك .

وأضاف الفتنة إلى الله عز وجل ولم يضفها إلى نفسه ؛ كما قال إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى .

وقال يُوشع : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ [الكهف : 63] .

(28/290)

وإنما استفاد ذلك موسى عليه السلام من قوله تعالى له : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ [طه : 85] .

فلما رجع إلى قومه ورأى العجل منصوباً للعبادة وله خُوار قال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا ﴾ أي بالفتنة .

﴿ مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾ وهذا رَدٌّ على القدرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(29/290)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ واختار قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ﴾

الاختيار افتعال من لفظ الخيار يقال اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره .

والمعنى اختار موسى من قومه فحذف كلمة من ذلك سائغ في العربية لدلالة الكلام عليه .

قال أصحاب الأخبار : إن موسى اختار من كل سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين فقال ليتخلف منكم فتشاحوا فقال لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يقونا وقيل إنه لم يجد إلا ستين شيخاً فأوحى الله إليه إن يختار من الشباب عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً فأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه واختلف أهل التفسير في ذلك الميقات فقيل إنه الميقات الذي كلمه فيه ربه وسأل فيه الرؤية وذلك أنه لما خرج إلى طور سيناء أخذ معه هؤلاء السبعين فلما دنى موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى أحاط بالجبل كله ودخل موسى فيه وقال لقومه ادنوا فدنوا حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجداً وسمعوا الله تعالى وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل كذا لا تفعل كذا فلما انكشف الغمام أقبلوا على موسى وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي المراد من الرجفة المذكورة في هذه الآية .

وقال السدي : إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه

ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا ﴿ لن نؤمن لك ﴾ يا موسى ﴿ حتى نرى الله جهرة ﴾ فإنك قد كلمته فأرِناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي .

(30/290)

وقال محمد بن إسحاق اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال السبعون فيما ذكر لي حين فعلوا ما أمرهم به وخرجوا مع موسى لميقات ربه اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى غشي الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا فكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجوداً فسمعوا الله وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا

﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ﴾ وهي مرجفة فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه يقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، وقال ابن عباس : كان الله أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعو ربهم فكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، وقيل : إنما أخذتهم الرجفة من أجل أنهم ادعوا على موسى أنه قتل هارون .

(31/290)

قال علي بن أبي طالب : انطلق موسى وهارون إلى سفح جبل فنام هارون على سرير فتوفاه الله فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له : أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه ، وكان هارون حسن الخلق محبباً في بني إسرائيل فقال لهم موسى اختاروا من شئتم فاختاروا سبعين رجلاً فلما انتهوا إليه قالوا يا هارون من قتلك قال ما قتلني أحد ولكن الله توفاني فأخذتهم الرجفة فجعل موسى يرجع يميناً وشمالاً ويقول ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ الآية فأحياهم الله وقيل إنما أخذتهم الرجفة لتركهم فراق عبدة العجل لا لأنهم كانوا من عبدته .

قال ابن عباس : إنما تناولتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا القوم حين نصبوا العجل وما كرهوا أن يجامعوهم عليه .

قال ابن جريج فلما خرجوا ودعوا الله أماتهم ثم أحياهم : وقال مجاهد : واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا الميقات الموعد فلما أخذتهم الرجفة بعد أن خرج موسى بالسبعين من قومه يدعون الله ويسألونه أن يكشف عنهم البلاء فلم يستجب لهم علم موسى أنهم قد أصابوا من المعصية ما أصاب قومهم ، وقال محمد بن كعب القرظي : لم يستجب لهم من أجل أنهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف فأخذتهم الرجفة فماتوا ثم أحياهم الله وقوله تعالى : ﴿ فلما أخذتهم الرجفة ﴾ أصل الرجفة الاضطراب الشديد الذي يحصل معه التغيير والهلاك ولهذا اختلفوا في تلك الرجفة التي حصلت لهؤلاء هل كان معها موت أم لا فمعظم الروايات التي تقدمت أنهم ماتوا بسبب تلك الرجفة .

(32/290)

وقال وهب بن منبه : لم تكن تلك الرجفة موتاً ولكن القوم لما رأوا تلك الهيئة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين له مطيعين ، فعند

ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه فكشف الله عنهم تلك الرجفة فاطمأنوا وسمعوا كلام الله فذلك قوله تعالى : ﴿ فلما أخذتهم الرجفة ﴾ ﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ رب ﴾ أي يا رب ﴿ لو شئت أهلكتهم من قبل ﴾ يعني من قبل عبادتهم العجل ﴿ وإياي ﴾ وذلك أنه خاف أن يتهمه بنو إسرائل على السبعين إذا رجع إليهم وما هم معه ولم يصدقوه بأنهم ماتوا فقال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل يعني قبل خروجهم إلى الميقات وإياي معهم فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ قال الفراء : ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ أصحاب العجل العجل فقال أتلهكنا بما فعل السفهاء منا يعني عبدة العجل وإنما أهلكوا بسبب مسألتهم الرؤية وهي قولهم أرنا الله جهرة ، وهذا قول الكلبي وجماعة ، وقال جماعة من أهل العلم : لا يجوز أن يظن موسى أن الله تعالى يهلك قوماً بذنوب غيرهم ولكن قوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا استفهام بمعنى الجحد أي لست تفعل ذلك وهذا قول ابن الأنباري ، وقال المبرد : هذا استفهام استعطاف أي لا تهلكنا ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ قال الواحدي : الكناية في هذ تعود إلى الفتنة كما تقول إن هو إلا زيد والمعنى أن تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنتك أي اختبارك وابتلاؤك وهذا تأكيد لقوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا لأن معناه لا تهلكنا بفعلهم فإن تلك الفتنة كانت اختباراً منك وابتلاء أضللت بها قوماً فافتتنوا وهديت قوماً فعصمتهم حتى ثبتوا على

دينك وهو المراد من قوله : ﴿ تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ﴾ قال الواحدي :
وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر ﴿ أنت

(33/290)

وليّنا ﴾ يعني أنت يا ربنا ناصرنا وحافظنا وهذا يفيد الحصر أي لا وليّ لنا ولا ناصر ولا حافظ إلا أنت ﴿ فاغفر لنا ﴾ سأل موسى لنفسه ولقومه الغفران أما لنفسه فلقوله إن هي إلا فتنتك وهذا فيه إقدام على الحضرة المقدسة وأما لقومه فلقولهم أرنا الله جهرة وفي هذا إقدام على الحضرة المقدسة فلهذا السبب سأل موسى الغفران له ولقومه ﴿ وارحمنا ﴾ أي اشملنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿ وأنت خير الغافرين ﴾ يعني أن كل من سواك إنما يغفر الذنب طلباً للثناء الجميل أو لدفع ضرر وأما أنت يا رب فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوض ولا غرض بل لمحض الفضل والكرم فأنت خير الغافرين . انتهى انتهى . ا هـ
﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(34/290)

وقال أبو حيان :

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ﴾ .

﴿ اختار ﴾ افتعل من الخير وهو التخير والانتقاء ﴿ واختار ﴾ من الأفعال التي تعدت إلى اثنين أحدهما بنفسه والآخر بوساطة حرف الجر وهي مقصورة على السماع وهي اختار واستغفر وأمر وكنّى ودعا وزوج وصدق ، ثم يحذف حرف الجر ويتعدّى إليه الفعل فيقول اخترت زيداً من الرجال واخترت زيداً الرجال .

قال الشاعر :

اخترتك الناس إذ رثت خلائقهم . . .

واعتل من كل يرجى عنده السّول

أي اخترتك من الناس و﴿ سبعين ﴾ هو المفعول الأوّل ، و﴿ قومه ﴾ هو المفعول الثاني وتقديره ﴿ من قومه ﴾ ومن أعرب ﴿ قومه ﴾ مفعولاً أوّل و﴿ سبعين ﴾ بدلاً منه بدل بعض من كلّ وحذف الضمير أي ﴿ سبعين رجلاً ﴾ منهم احتاج إلى تقدير مفعول ثان وهو المختار منه فإعرابه فيه بعد وتكلف حذف في رابط البدل وفي المختار منه واختلفوا في هذا الميقات أهو ميقات المناجاة ونزول التوراة أو غيره ، فقال نوف البكالي ورواه أبو صالح عن ابن عباس : وهو الأوّل بيّن فيه بعض ما جرى من أحواله وأنه اختار من كل سبط ستة رجال فكانوا اثنين وسبعين ، فقال ليتخلف اثنان فإنما أمرت بسبعين

فتشاحوا ، فقال : من قعد فله أجر من حضر فقعد كالب بن يوقنا ويوشع بن نون واستصحب السبعين بعد أن أمرهم أن يصوموا ويتطهّروا ويطهروا ثيابهم ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربه وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم : ادنوا فدنوا حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجّداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل ، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤية فوعظهم وزجرهم وأنكر عليهم فقالوا : ﴿ يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾

(35/290)

قال الزمخشري : فقال ﴿ ربّ أرني أنظر إليك ﴾ يريد أن يسمعوا الردّ والإنكار من جهته ، فأجيب : بلن تراني ورجف الجبل بهم وصعقوا انتهى ، وقيل : هو ميقات آخر غير ميقات المناجاة ونزول التوراة ، فقال وهب بن منبه : قال بنو إسرائيل لموسى إن طائفةً تزعم أنّ الله لا يكلمك فخذ منا من يذهب معك ليسمعوا كلامه فيؤمنوا فأوحى الله تعالى إليه أن يختار من قومه سبعين من خيارهم ثم ارتقِ بهم الجبل أنت وهارون واستخلف يوشع ، ففعل فلما سمعوا كلامه سألوا موسى أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الرجفة ، وقال السدّي : هو ميقات

وقته الله تعالى لموسى يلقاه في ناس من بني إسرائيل ليعتذروا إليه من عبادة العجل ، وقال ابن عباس فيما روى عنه عليّ بن طلحة هو ميقات وقته الله لموسى وأمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ليدعوا ربهم فدعوا فقالوا يا الله أعطنا ما لم تعطِ أحداً قبلنا ولا أحداً بعدنا فكره الله ذلك فأخذتهم الرّجفة ، وعن علي رضي الله عنه فيما روى ابن أبي شيبة أن موسى وهارون وابناه شبّر وشبير انطلقوا حتى انتهوا إلى جبل فيه سرير فقام عليه هارون فقبض روحه فرجع موسى إلى قومه فقالوا : أنت قتلته وحسدتنا على خلقه ولينه ، فقال : كيف أقتله ومعي ابناه ، قال : فاختاروا من شئتم فاختير سبعون فانتهوا إليه فقالوا من قتلك يا هارون قال ما قتلني أحد ولكنّ الله توفاني ، قالوا : يا موسى ما نعصي بعد فأخذتهم الرّجفة فجعلوا يتردّون يميناً وشمالاً انتهى ، ولفظ ﴿ لميقاتنا ﴾ في هذا القول الذي روي عن عليّ لأنه يقتضي أنه كان عن توقيت من الله تعالى ، وقال ابن السائب : كان موسى لا يأتي ربه إلا بإذن منه والذي يظهر أن هذا الميقات غير ميقات موسى الذي قيل طفيه : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ لظاهر تغاير القصتين وما جرى فيهما إذ في تلك أن موسى كلمه الله وسأله الرؤية وأحاله في الرؤية على تجليه للجبل وثبوته فلم يثبت وصار دكّاً وصعق موسى وفي هذه

اختير السبعون لميقات الله وأخذتهم الرّجفة ولم تأخذ موسى ، وللفصل الكثير الذي بين أجزاء الكلام لو كانت قصة واحدة .

﴿ فلما أخذتهم الرّجفة قال ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ .

سبب الرجفة مختلف فيه وهو مرتب على تفسير الميقات فهل الرّجفة عقوبة على سكوتهم وإغضائهم على عبادة العجل أو عقوبة على سؤالهم الرؤية أو عقوبة لتشططهم في الدعاء المذكور أو سببه سماع كلام هارون وهو ميت أقوال .

وقال السدّي : عقوبة على عبادة هؤلاء السبعين باختيارهم العجل وخفي ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أعلمه الله وأخذ الرّجفة يحتمل أن نشأ عنه الموت ويحتمل أن نشأ عنه الغشي وهما قولان ، وقال السدّي قال موسى : كيف أرجع إلى بني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم فماذا أقول وكيف يأمنونني على أحد فأحياهم الله ، وقيل أخذتهم الرّعدة حتى كادت تبين مفاصلهم وتنتقض ظهورهم وخاف موسى الموت فعند ذلك بكى ودعا فكشف عنهم ، قال الزمخشري : وهذا تمنّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية كما يقال النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبّة لو شاء الله لأهلكني قبل هذا انتهى .

فمعنى قوله ﴿ من قبل ﴾ سؤال الرّؤية وهذا بناء من الزمخشري على أنّ هذا الميقات هو

ميقات المناجاة وطلب الرؤية وقد ذكرنا أنّ الأظهر خلافه ، وقال ابن عطية لما رأى موسى ذلك أسف عليهم وعلم أن أمر بني إسرائيل يتشعّب إن لم يأتِ بالقوم فجعل يستعطف ربه أن يا رب لو شئت أهلكتهم قبل هذه الحال وإياي لكان أخفّ عليّ وهذا وقت هلاكهم فيه مفسدة عليّ مؤذٍ لي انتهى ، ومفعول ﴿ شئت ﴾ محذوف تقديره لو شئت إهلاكنا وجواب ﴿ لو أهلكتهم ﴾ وأتى دون لام وهو فصيح لكنه باللام أكثر كما قال

(37/290)

﴿ لو شئت لاتخذت ﴾ ﴿ ولو شاء ربك لآمن ﴾ ، ولا يحفظ جاء بغير لام في القرآن ألا هذا وقوله ﴿ أن لو نشاء أصبناهم ﴾ و ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ والمحذوف في ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل الاختيار وأخذ الرّجفة وذلك زمان إغضائهم على عبادة العجل أو عبادتهم هم أياه وقوله ﴿ وإياي ﴾ أي وقت قتلي القبطي فأنت قد سترت وغفرت حينئذ فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فساد لبني إسرائيل قال أكثره ابن عطية وعطف وإياي على الضمير المنصوب في أهلكتهم وعطف الضمير مما يوجب فصله وبدأ بضميرهم لأنّهم الذين أخذتهم الرجفة فماتوا أو أغمي عليهم ولم يمت هو ولا أغمي عليه ولم يكتفِ بقوله أهلكتهم من قبل حتى أشرك نفسه فيهم وإن كان لم يشركهم في مقتضى الإهلاك

تسليماً منه لمشيئة الله تعالى وقدرته وأنه لو شاء إهلاك العاصي والطائع لم يمنعه من ذلك مانع .

﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ قيل : هذا استفهام على سبيل الإدلاء بالحجة في صيغة استعطاف وتذلّل والضمير المنصوب في ﴿ أتهلكنا ﴾ له وللسبعين و ﴿ بما فعل السفهاء ﴾ فيه الخلاف مرتّباً على سبب أخذ الرّجفة من طلب الرؤية أو عبادة العجل أو قولهم قتلت هارون أو تشططهم في الدعاء أو عبادتهم بأنفسهم العجل ، وقيل : الضمير في ﴿ أتهلكنا ﴾ له ولبني إسرائيل وبما فعل السفهاء أي بالتفرّق والكفر والعصيان يكون هلاكهم ، وقال الزمخشري يعني نفسه وإياهم لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء وهم طلبوها سفهاً وجهلاً والذي يظهر لي أنه استفهام استعلام اتبع إهلاك المختارين وهم خير بني إسرائيل بما فعل غيرهم إذ من الجائز في العقل ذلك ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ وقوله عليه السلام ، وقد قيل له : أنهلك وفينا الصالحون قال : " نعم إذا كثر الخبث " وكما ورد أن قوماً يخسف بهم قيل : وفيهم الصالحون فقيل : يبعثون على نيّاتهم أو كلاماً هذا معناه وروي عن عليّ أنهم أحيوا وجعلوا أنبياء كلهم .

﴿ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ أي إن فتنتهم ﴿ إلا فتنتك ﴾ والضمير في ﴿ هي ﴾ يفسره سياق الكلام أي أنت هو الذي فتنتهم قالت فرقة لما أعلمه الله أنّ السبعين عبدوا العجل تعجب وقال ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ ، وقيل لما أعلم موسى بعبادة بني إسرائيل العجل وبصفته قال : يا ربّ ومن أخاره قال : أنا قال : موسى فأنت أضللتهم ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ ، قال ابن عطية : ويحتمل أن يشير به إلى قولهم ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ إذ كانت فتنة من الله أوجبت الرّجفة وفي هذه الآية ردّ على المعتزلة ، وقال الزمخشري أي محنتك وبلاؤك حين كلمتني وسمعت كلامك فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسداً حتى افتتنوا وضلوا تضلّ بها الجاهلين غير الثابتين في معرفتك وتهدي العالمين الثابتين بالقول الثابت ، وجعل ذلك إضلالاً من الله تعالى وهدى منه لأنّ محنته إنما كانت سبباً لأن ضلّوا واهتدوا فكأنه أضلّهم بها وهداهم على الاتساع في الكلام انتهى وهو على طريقة المعتزلة في نفيهم الإضلال عن الله تعالى .

﴿ أنت ولينا ﴾ القائم بأمرنا ﴿ فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ .

سأل الغفران له ولهم والرحمة لما كان قد اندرج قومه في قوله أنت وليّنا وفي سؤال المغفرة والرحمة له ولهم وكان قومه أصحاب ذنوب أكد استعطاف ربه تعالى في غفران تلك الذنوب فأكد ذلك ونبه بقوله وأنت خير الغافرين ولما كان هو وأخوه هارون عليه السلام من

المعصومين من الذنوب فحين سأل المغفرة له ولأخيه وسأل الرحمة لم يؤكد الرحمة بل قال :

﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ فنبه على أنه تعالى أرحم الراحمين ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ وكان تعالى خير الغافرين لأنّ غيره يتجاوز عن الذنب طلباً للثناء أو الثواب أو دفعاً للصفة الخسيسة عن القلب وهي صفة الحقد والباري سبحانه وتعالى منزّه عن أن يكون غفرانه لشيء من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(39/290)

وقال أبو السعود :

﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾

شروعٌ في بيان كيفية استدعاءِ التوبةِ وكيفية وقوعِها واختار يتعدّى إلى اثنين ثانيهما مجرورٌ بمن أي اختار من قومه بحذف الجارّ والمجرور وإيصالِ الفعل إلى المجرور كما في قوله :

اختارك الناسَ إذْ رثَّتْ خلائقُهم . . . واعتلّ مَنْ كان يُرجَى عنده السُّولُ

(40/290)

أي اختارك من الناس ﴿ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ مفعولٌ لاختار أُخِّر عن الثاني لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر ﴿ لميقاتنا ﴾ الذي وقتناه بعد ما وقع من قومه ما وقع لا لميقاتِ الكلام الذي ذكر قبل ذلك كما قيل . قال السدي : أمره الله تعالى بأن يأتيَه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجلِ ووعدهم موعداً فاختار عليه السلام من قومه سبعين رجلاً . وقال محمد بن إسحَاقَ : اختارهم ليتوبوا إليه تعالى مما صنعوه ويسألوه التوبةَ على مَنْ تركوهم وراءهم من قومهم ، قالوا : اختار عليه الصلاة والسلام من كل سِبطٍ ستةً فزاد اثنانِ فقال : ليتخلَّفْ منكم رجلان فتشاحّوا فقال عليه الصلاة والسلام : إن لمن قعد مثلَ أجرِ من خرج فقعد كالبُ ويوشَعُ وذهب من الباقين وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويُطهِّروا ثيابهم فخرج بهم إلى طور سَيْنا فلما دنَوا من الجبل غشِيَه غمامٌ فدخل موسى بهم الغمامَ وخرّوا سُجّداً فسمِعوه تعالى يكلم موسى يأمرُه وينهاه حسبما يشاءُ وهو الأمرُ بقتل أنفسِهم توبةً ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ مما اجترأوا عليه من طلب الرؤيةِ فإنه يروى أنه لما انكشف الغمامُ أقبلوا إلى موسى عليه السلام وقالوا : لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتهم الرجفةُ أي الصاعقةُ أو رجفةُ الجبل فصُعِقوا منها أي ماتوا ولعلهم أرادوا بقولهم : لن نؤمنَ لك ، لن نصدّقك في أن الآمِرَ بما سمعنا الأمرَ بقتل أنفسِهم هو

الله تعالى حتى نراه حيث قاسوا رؤيتَه تعالى على سماع كلامِه قياساً فاسداً فحين شاهد موسى تلك الحالةَ الهائلة .

(41/290)

﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ﴾ أي حين فرّطوا في النهي عن عبادة العجلِ وما فارقوا عبَدَتَه حين شاهدوا إصرارَهم عليها ﴿ وإياى ﴾ أيضاً حين طلبتُ منك الرؤيةَ أي لو شئتَ إهلاكَنا بذنوبنا لأهلكتَنا حينئذ ، أراد به عليه السلام تذكيرَ العفوِ السابقِ لاستجلاب العفوِ اللاحقِ فإن الاعترافَ بالذنب والشكرَ على النعمة مما يربِط العتيدَ ويستجلب المزيد ، يعني إنا كنا مستحقين للإهلاك ولم يكن من موانعه إلا عدمُ مشيئتِك إياه فحيث لطَفْتَ بنا وعفوتَ عنا تلك الجرائمَ فلا غروَ في أن تعفوَ عنا هذه الجريمةَ أيضاً ، وحملُ الكلام على التمني يأباه قوله تعالى : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهاء مِنَّا ﴾ أي الذين لا يعلمون تفاصيلَ شؤونِك ولا يتثبتون في المداحض ، والهمزةُ إما لإنكار وقوعِ الإهلاكِ ثقةً بلطف الله عز وجل كما قاله ابن الأنباري أو للاستعطاف كما قاله المبرد أي لا تهلكنا ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ استئنافٌ مقررٌ لما قبله واعتذارٌ عما صنعوا ببيان منشأ غلطِهم أي ما الفتنةُ التي وقع فيها السفهاءُ وقالوا بسببها ما قالوا من العظيمة إلا فتنتُك أي محنتُك

وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامَك فافتتنوا بذلك ولم يتثبتوا فطمِعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس الفاسد وقوله تعالى : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء ﴾ إما استئنافٌ مبينٌ لحُكم الفتنةِ أو حالٌ من فتنتك أي حال كَونِها مضِلاًّ بها الخ ، أي تُضل بسببها من تشاء إضلالَه فلا يهتدي إلى التثبت وتهدي من تشاء هِدايتَه إلى الحق فلا يتزلزل في أمثالها فيقوى بها إيمانُه ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ أي القائمُ بأمورنا الدنيويةِ والأخرويةِ وناصرُنا وحافظُنا لا غيرُك ﴿ فاغفر لَنَا ﴾ ما قارفناه من المعاصي والفاءُ لترتيب الدعاءِ على ما قبله من الولاية كأنه قيل : فمن شأن الوليِّ المغفرةُ والرحمةُ ، وقيل : إن إقدامَه عليه الصلاة والسلام على

(42/290)

أن يقول : إن هي إلا فتنتُك الخ ، جراءةٌ عظيمةٌ فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوزَ عنها ﴿ وارحمنا ﴾ بإفاضةِ آثارِ الرحمةِ الدنيويةِ والأخروية علينا ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبله من الدعاء ، وتخصيصُ المغفرةِ بالذكر لأنها الأهمُّ بحسب المقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(43/290)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾

تتمة لشرح أحوال بني إسرائيل ، وقال البعض : إنه شروع في بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها ﴿ واختار ﴾ يتعدى إلى اثنين ثانيهما مجرور بمن وقد حذفت هنا وأوصل الفعل والأصل من قومه ، ونحوه قول الفرزدق :

منا الذي اختير الرجال سماحة . . .

وجوداً إذا هب الرياح الزعازع

وقوله الآخر :

فقلت له : اخترها قلوصاً سمينة . . .

ونا با علا با مثل نا بك في الحيا

وقوله سبحانه : ﴿ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ مفعول أول لاختار على المختار وأخر عن الثاني لما مر مراراً ، وقيل : بدل بعض من كل ، ومنعه الأكثرون بناءاً على أن المبدل منه في نية الطرح والاختيار لا بد له من مختار ومختار منه وبالطرح يسقط الثاني ، وجوزه أبو البقاء على ضعف ويكون التقدير سبعين منهم ، وقيل : هو عطف بيان ﴿ لميقاتنا ﴾ ذهب أبو علي .

وأبو مسلم وغيرهما من مفسري السنة والشيعة إلى أنه الميقات الأول وهو الميقات الكلامي قالوا : إنه عليه السلام اختار لذلك من اثني عشر سبطاً من كل سبط ستة حتى تتاموا اثنين وسبعين فقال عليه السلام : ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال : لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد كالب ويوشع ، وروي أنه لم يصب إلا ستين شيخاً فأوحى الله تعالى أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً ، وقيل : كانوا أبناء ما عدا العشرين ولم يتجاوزوا الأربعين فذهب عنهم الجهل والصبا فأمرهم موسى عليه السلام أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم خرج بهم إلى طور سيناء فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى ودخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا فدنوا حتى إذا دخلوا الغمام وقعوا سجداً فسمعوه وهو سبحانه يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤية فوعظهم وكان ما كان ، وذهب آخرون وهو المروى عن الحسن إلى أنه غير الميقات الأول قالوا : إن الله سبحانه أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في أناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل فاختار من اختاره فلما أتوا الطور قالوا ما قالوا ، وروي ذلك عن السدي ، وعن ابن إسحاق أنه عليه السلام إنما

اختارهم ليتوبوا إلى الله تعالى ويسألوه التوبة على من تركوا وراءهم من قومهم .

ورجح ذلك الطيبي مدعياً أن الأول خلاف نظم الآيات وأقوال المفسرين .

(45/290)

أما الأول فلما قال الإمام : إنه تعالى ذكر قصة ميقات الكلام وطلب الرؤية ثم أتبعها بقصة العجل وما يتصل بها فظاهر الحال أن تكون هذه القصة مغايرة للمتقدمة إذ لا يليق بالفصاحة ذكر بعض القصة ثم النقل إلى أخرى ثم الرجوع إلى الأولى وإنه اضطراب يصان عنه كلامه تعالى ، وأيضاً ذكر بعض القصة ثم النقل إلى أخرى ثم الرجوع إلى الأولى وإنه اضطراب يصان عنه كلامه تعالى ، وأيضاً ذكر في الأولى خرور موسى عليه السلام صعقاً ، وفي الثانية قوله بعد أخذ الرجفة : ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم ﴾ ، وأيضاً لو كانت الرجفة بسبب طلب الرؤية لقيل : أتهلكنا بما قال السفهاء وضم إليه الطيبي أنه تعالى حيث ذكر صاعقتهم لم يذكر صعق موسى عليه السلام وبالعكس فدل على التغاير ، وأما الثاني فلما نقل عن السدي مما ذكرناه آنفاً ، وتعقب ما ذكر في الترجيح أولاً صاحب الكشف بأن الإنصاف أن المجموع قصة واحدة في شأن ما من على بني إسرائيل بعد إنجائهم من تحقيق وعد إيتاء الكتاب وضرب ميقاته وعبادة العجل وطلب الرؤية كان في تلك الأيام ، وفي ذلك

الشأن فالبعض مربوط بالبعض بقي إيثار هذا الأسلوب وهو بين لأن الأول في شأن الامتنان عليهم وتفضيلهم كيف وقد عطف

﴿ واعدنا ﴾ [الأعراف : 142] على ﴿ أنجيناكم ﴾ [الأعراف : 141] وقد بين أنه تبيين للتفضيل ، وتعقيب حديث الرؤية مستطرد للفرق بين الطلبين عندنا وليلقمهم الحجر عند المعتزلي .

(46/290)

والثاني في شأن جنايتهم بعد ذلك الإحسان البالغ باتخاذ العجل والملاحة والافتراق من لوازم النظم ، وتعقب ما ذكر فيه ثانياً بأن قول السدي وحده لا يصلح رداً كيف وهذا يخالف ما نقله محيي السنة في قوله سبحانه : ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم ﴾ إنهم كانوا له وزراء مطيعين فاشتد عليه عليه السلام فقدهم فرحمهم وخاف عليهم الفوت وأين ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ [البقرة : 55] من الطاعة وحسن الاستئزار قال : ثم الظاهر من قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتخذوا العجل ﴾ [النساء : 153] إن اتخاذ العجل متأخر عن مقالتهم تلك خلاف ما نقل عن السدي والحمل على تراخي الرتبة لا بد له من سند كيف ولا ينافي التراخي الزماني فلا بد من دليل يخصه به ، هذا وقد

اعترف المفسرون في سورة طه بأنه اختار سبعين لميقات الكلام ذكروه في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى موسى ﴾ [طه : 83] وما اعتذر عنه الطيبي بأن اختيار السبعين كان مرتين وليس في النقل أنهم كانوا معه عند المكالمة وطلب الرؤية فظاهر للمنصف سقوطه انتهى .

(47/290)

وذكر القطب في توهين ما نقل عن السدي بأن الخروج للاعتذار إن كان بعد قتل أنفسهم ونزول التوبة فلا معنى للاعتذار ، وإن كان قبل قتلهم فالعجب من اعتذار ثمرته قتل الأنفس ، ثم قال : ولا ريب أن قصة واحدة تتكرر في القرآن يذكر في سورة بعضها ، وفي أخرى بعض أخر وليس ذلك إلا لتكرار اعتبار المعتبرين بشيء من تلك القصة فإذا جاز ذكر قصة في سور متعددة في كل سورة شيء منها فلم لا يجوز ذلك في مواضع من سورة واحدة لتكرر الاعتبار ا ه ، وهو ظاهر في ترجيح ما ذهب إليه الأولون ، وأنا أقول : إن القول بأن هذا الميقات هو الميقات الأول ليس بعاطل من القول وبه قال جمع كما أشرنا إليه ، وكلامنا في البقرة ظاهر فيه إلا أن الإنصاف أن ظاهر النظم هنا يقتضي أنه غيره وما ذكره صاحب الكشف لا يقتضي أنه ظاهر في خلافه ، وإلى القول بالغيرية ذهب جل من المفسرين .

فقد أخرج عبد بن حميد من طريق أبي سعد عن مجاهد أن موسى عليه السلام خرج بالسبعين من قومه يدعون الله تعالى ويسألونه أن يكشف عنهم البلاء فلم يستجب لهم فعلم موسى أنهم أصابوا من المعصية ما أصاب قومهم ، قال أبو سعد : فحدثني محمد بن كعب القرظي أنه لم يستجب لهم من أجل أنهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف .

وأخرج عبد بن حميد عن الفضل بن عيسى بن أخي الرقاشي أن بني إسرائيل قالوا ذات يوم لموسى عليه السلام ألست ابن عمنا ومنا وتزعم أنك كلمت رب العزة ؟ فإنا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً فلما أبوا إلا ذلك أوحى الله تعالى إلى موسى أن اختر من قومك سبعين رجلاً فاختار سبعين خيرة ثم قال لهم : اخرجوا فلما برزوا جاءهم ما لا قبل لهم به الخبر .

وهو ظاهر في أن هذا الميقات ليس هو الأول .

(48/290)

نعم إنه مخالف لما روي عن السدي لكنهما متفقان على القول بالغيرية ويوافق السدي في ذلك الحسن أيضاً فليس هو متفرداً بذلك كما ظنه صاحب الكشف ، وما ذكره من مخالفة كلام السدي لما نقله محيي السنة في حيز المنع ، وقوله : فإنا لن نؤمن لك الخ يظهر جوابه مما ذكرناه في البقرة عند هذه الآية من الاحتمالات ، والقول بأن الاختيار كان مرتين

غير بعيد وبه قال بعضهم ، وما ذكره القطب من الترديد في الخروج للاعتذار ظاهر بعض الروايات عن السدي يقتض تعين الشق الأول منه .

فقد أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال : انطلق موسى إلى ربه فكلمه فلما كلمه قال : ﴿ مَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى موسى ﴾ [طه : 83] فأجابه موسى بما أجابه فقال سبحانه : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ ﴾ [طه : 85] الآية فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً فأبى الله تعالى أن يقبل توبتهم إلا بالحال التي كرهوا ففعلوا ثم أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون من عبادة العجل فوعدهم موعداً فاختار موسى سبعين رجلاً الخ وهو كما ترى ظاهر فيما قلناه ، والقول بأنه لا معنى للاعتذار بعد قل أنفسهم ونزول التوبة أجيب عنه بأن المعنى يحتمل أن يكون طلباً لزيادة الرضى واستنزال مزيد الرحمة ، ويحتمل أن يكونوا أمروا بذلك تأكيداً للإيذان بعظم الجناية وزيادة فيه وإشارة إلى أنه بلغ مبلغاً في السوء لا يكفي في العفو عنه قتل الأنفس بل لا بد فيه مع ذلك الاعتذار ، ويمكن أن يقال إنه كان قبل قتلهم أنفسهم : والسر في أنهم أمروا به أن يعلموا أيضاً عظم الجناية على أتم وجه بعدم قبوله والله تعالى أعلم ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ أي الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها والكثير على أنهم ماتوا جميعاً ثم أحياهم الله تعالى ، وقيل : غشي عليهم ثم أفاقوا وذلك لأنهم قالوا :

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : 55] على ما في بعض الروايات أو ليتحقق عند القائلين ذلك من قومهم مزيد عظمته سبحانه على ما في البعض الآخر منها ، أو لمجرد التأديب على ما في خبر القرظي ، والظاهر أن قولهم : لن نؤمن الخ صدر منهم في ذلك المكان لا بعد الرجوع كما قيل : ونقلناه في البقرة وحينئذٍ يبعد على ما قيل القول بأن هذا الميقات هو الميقات الأول لأن فيه طلب موسى عليه السلام الرؤية بعد كلام الله تعالى له من غير فصل على ما هو الظاهر فكون هذا الطلب بعده ، وبعيد أن يطلبوا ذلك بعد أن رأوا ما وقع لموسى عليه السلام .

وما أخرجه ابن أبي الدنيا : وابن جرير وغيرهما عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : لما حضر أجل هارون أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن انطلق أنت وهارون وابنه إلى غار في الجبل فإنا قابضو روحه فانطلقوا جميعاً فدخلوا الغار فإذا سرير فاضطجع عليه موسى ثم قام عنه فقال : ما أحسن هذا المكان يا هارون فاضطجع عليه هارون فقبض روحه فرجع موسى وابن أخه إلى بني إسرائيل حزينين فقالوا له : أين هارون : قال مات ؟ قالوا : بل قتلته كنت تعلم إنا نحبه فقال لهم : ويلكم أقتل أخي وقد سألته الله تعالى وزيراً ولو أني أردت قتله أكان ابنه يدعني .

قالوا بلى : قتلته حسداً ، قال : فاختاروا سبعين رجلاً فانطلق بهم فمرض رجلان في

الطريق فخط عليهما خطاً فانطلق هو وابن هارون .

وبنو إسرائيل حتى انتهوا إلى هارون فقال : يا هارون من قتلك ؟ قال : لم يقتلني أحد ولكني مت قالوا : ما تعصى يا موسى ادع لنا ربك يجعلنا أنبياء فأخذتهم الرجفة فصعقوا وصعق الرجلان اللذان خلفوا وقام موسى عليه السلام يدعو ربه فأحياهم الله تعالى فرجعوا إلى قومهم أنبياء لا يكاد يصح فيما أرى لتظافر الآثار بخلافه وإباء ظواهر الآيات عنه .

(50/290)

﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ﴾ عرض للعفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق يعني أنك قدرت على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على إهلاكهم وبإغراقهم في البحر وغيرهما فترحمت عليهم ولم تهلكهم فارحمهم الآن كما رحمتهم من قبل جرياً على مقتضى كرمك وإنما قال : ﴿ وإياي ﴾ تسليماً منه وتواضعاً ، وقيل : أراد بقوله : ﴿ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ حين فرطوا في النهي عن عبادة العجل وما فارقوا عبدته حين شاهدوا إصرارهم عليها أي لو شئت إهلاكهم بذنوبهم إذ ذاك وإياي أيضاً حين طلبت منك الرؤية ، وقيل : حين قتل القبطي لأهلكتنا ، وقيل : هو تمن منه عليه السلام للإهلاك جميعاً بسبب محبته أن لا يرى ما يرى من مخالفتهم له مثلاً أو بسبب آخر وفيه دغدغة ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهاء

مِنَّا ﴾ من العناد وسوء الأدب أو من عبادة العجل ، والهمزة إما لإنكار وقوع الإهلاك ثقة بلطف الله عز وجل كما قال ابن الأنباري أو للاستعطاف كما قال المبرد أي لا تهلكنا ، وإيا ما كان فهو من مقول موسى عليه السلام كالذب قبله ، وقول بعضهم : كان ذلك قاله بعضهم غير ظاهر ولا داعي إليه ، والقول بأن الداعي ما فيه من التضجر الذي لا يليق بمقام النبوة لا يخفى ما فيه ، ولعل مراد القائل بذلك أن هذا القول من موسى عليه السلام يشبه قول أحد السبعين فكأنه قاله على لسانهم لأنهم الذين أصيبوا بما أصيبوا به دوه فافهم ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ استئناف مقرر لما قبله واعتذار عما وقع منهم وإن نافية وهي للفتنة المعلومة للسياق أي ما الفتنة إلا فتنتك أي محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فطمعوا في رؤيتك واتبعوا القياس في غير محله أو أوجدت في العجل خواراً فزاغوا به .

(51/290)

أخرج ابن أبي حاتم عن راشد بن سعد أن الله تعالى لما قال لموسى عليه السلام : إن قومك اتخذوا عجلا جسدا له خوار قال : يا رب فمن جعل فيه الروح ؟ قال : أنا قال : فأنت أضببتهم يا رب قال : يا رأس النبيين يا أبا الحكماء إني رأيت ذلك في قلوبهم فيسرته لهم ، ولعل هذا اشارة إلى الاستعداد الأزلي الغير المجعول .

وقيل : الضمير راجع على الرجفة أي ما هي إلا تشديدك التعبد والتكلف علينا بالصبر على ما أنزلته بنا ، وروي هذا عن الربيع .

وابن جبير .

وأبي العالية ، وقيل : الضمير لمسألة الإراءة وإن لم تذكر .

﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء ﴾ استئناف مبين لحكم الفتنة ، وقيل : حال من المضاف إليه أو المضاف أي تضل بسببها من تشاء إضلاله بالتجاوز عن الحد أو باتباع المخايل أو بنحو ذلك وتهدي من تشاء هداه فيقوى بها إيمانه ، وقيل : المعنى تصيب بهذه الرجفة من تشاء وتصرفها عمن تشاء ، وقيل : تضل بترك الصبر على فتنتك وترك الرضا بها من تشاء عن نيل ثوابك ودخول جنتك وتهدي بالرضا لها والصبر عليها من تشاء وهو كما ترى ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ أي أنت القائم بأمورنا الدنيوية والأخروية لا غيرك ﴿ فاغفر لَنَا ﴾ ما يترتب عليه مؤاخذتك ﴿ وارحمنا ﴾ بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية علينا ، والفاء لترتيب الدعاء على ما قبله من الولاية لأن من شأن من يلي الأمور ويقوم بها دفع الضر وجلب النفع ، وقدم طلب المغفرة على طلب الرحمة لأن التخلية أهم من التحلية ، وسؤال المغفرة لنفسه عليه السلام في ضمن سؤالها لمن سألها له مما لا ضير فيه وإن لم يصدر منه نحو ما صدر منه كما لا يخفى ، والقول بأن إقدامه عليه السلام على أن يقول : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ جرأة عظيمة فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوز عنها مما يأباه

السوق عند أرباب الذوق ، ولا أظن أن الله تعالى عد ذلك ذنباً منه ليستغفره عنه ، وفي ندائه السابق ما يؤيد ذلك .

(52/290)

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ﴾ إذا كل غافر سواك إنما يغفر لغرض نفساني كحب الثناء ودفع الضرر وأنت تغفر لا لطلب عوض ولا غرض بل لمحض الفضل والكرم ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبل ، وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم .

وفسر بعضهم ما ذكر بغفران السيئة وتبديلها بالحسنة ليكون تذييلاً لأغفر وارحم معا .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(53/290)

وقال القاسمى :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء

وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ [155] .

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا ﴾ .

روى محمد بن إسحاق أن موسى عليه السلام ، لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامري ما قال ، وحرق العجل ، وذراه في اليم ، اختار من بني إسرائيل سبعين رجلاً ، الخير فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله ، فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا ، وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم ، فقال له السبعون - فيما ذكر لي - حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه ، لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعل .

فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه

فضرب دونه بالحجاب ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، افعل ولا تفعل ، فلما فرغ إليه من أمره ، انكشف عن موسى الغمام ، أقبل إليهم ، فقالوا لموسى : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ وهي الصاعقة التي يحصل منها الإضطراب الشديد ، فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ قد سفهوا ، أتهلك من ورائي من بني إسرائيل ؟

وفي رواية السدّي : فقام موسى يبكي ويقول : يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم ، وقد أهلكت خيارهم ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ .

وقال ابن إسحاق : اخترت منهم سبعين رجلاً ، الخيّر فالخير ، أرجع إليهم ، وليس معي رجل منهم واحد ، فما الذي يصدقونني أو يأمنونني عليه بعد هذا ؟ وعلى هذا فالمعنى : لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني .

وقال الزجاج : المعنى لو شئت أمتهم من قبل أن تبتليهم ، بما أوجب عليهم الرجفة . انتهى

.

قال ابن القيم في " إغاثة اللهفان " بعد نقل كلام من ذكرنا : وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود ، والذي يظهر – والله أعلم بمراده ومراد نبيه – أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه ، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل ، حتى عبد قومهم العجل ، ولم ينكروا عليهم ، يقول

موسى : إنهم قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم ، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ، ولم تهلكهم ، فيسعهم اليوم ما وسعهم من قبل ، وهذا كمن واخذه سيده بجرم يقول : لو شئت واخذتني قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم ، ولكن وسعني عفوك أولاً ، فيسعني اليوم .

(55/290)

ثم قال نبي الله : أهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ فقال ابن الأنباري وغيره [في المطبوع : وغير] : هذا استفهام على معنى الجحد ، أي : لست تفعل ذلك ، والسفهاء هنا عَبْدة العجل .

قال الفرّاء : ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ قومهم العجل ، فقال : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ وإنما كان إهلاكهم بقولهم : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ . انتهى .

واستظهار أن هذا استفهام استعطاف ، سبقه إليه المبرد .

تنبيه :

قال في " اللباب " : معظم الروايات أنهم ماتوا بسبب تلك الرجفة ، أي : ثم أحيوا .

وقال وهب بن منبه : لم تكن تلك الرجفة موتاً ، ولكن القوم لما رأوا تلك الهيئة ، وأخذتهم

الرعدة وقلقوا ورجفوا ، حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك ، راحمهم وخاف عليهم الموت ، واشتد عليه فقدهم ، وكانوا له وزراء على الخير ، سامعين له مطيعين ، فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه ، فكشف الله عنهم تلك الرجفة ، فاطمأنوا وسمعوا كلام الله . والله أعلم .

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء ﴾ أي : ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك ، وامتحانك لعبادك فأنت ابتليتهم وامتحنتهم ، فالأمر كله لك وبيدك ، لا يكشفه إلا أنت ، كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت . فنحن عائذون بك منك ، ولاجئون منك إليك .

يعني إن الأمر إلاَّ أمرك ، والحكم إلا لك فما شئت كان ، تضل من تشاء وتهدي من تشاء .

قال : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ أي : متولي أمورنا القائم بنا ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 193 . 195 ﴾

(56/290)

وقال صاحب المنار فى الآيتين :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾

ثُمَّ قَصَّ تَعَالَى عَلَيْنَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ مُوسَى بَعْدَ غَضَبِهِ فَقَالَ :

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ السُّكُوتُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ : تَرْكُ الْكَلَامِ فَهُوَ هُنَا مَجَازُ تَشْبِيهٍ أَوْ تَمْثِيلٍ مَبْنِيٌّ عَلَى تَصْوِيرِ الْغَضَبِ بِشَخْصٍ ذِي قُوَّةٍ وَرِيَاسَةٍ يَأْمُرُ وَيَنْهَى فَيُطَاعُ . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : هَذَا مَثَلٌ كَأَنَّ الْغَضَبَ كَانَ يُغْرِيهِ عَلَى مَا فَعَلَ وَيَقُولُ لَهُ : قُلْ لِقَوْمِكَ كَذَا ، وَأَلْقِ الْأَلْوَاحَ ، وَجُرَّ بِرَأْسِ أَخِيكَ إِلَيْكَ - فَتَرَكَ النُّطْقَ بِذَلِكَ وَقَطَعَ الْإِغْرَاءَ ، (قَالَ) : وَلَمْ يَسْتَحْسِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كُلُّ ذِي طَبْعٍ سَلِيمٍ وَذَوْقٍ صَحِيحٍ إِلَّا لِذَلِكَ ، وَلِأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ شُعَبِ الْبَلَاغَةِ ، وَإِلَّا فَمَا لِقِرَاءَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ

" وَلَمَّا سَكَنَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ " (وَهِيَ مِنَ الشَّوَاذِّ) لَا تَجِدُ النَّفْسُ عِنْدَهَا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْهِزَّةِ ، وَطَرَفًا مِنْ تِلْكَ الرَّوْعَةِ ا هـ .

(57/290)

وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ لَمَّا سَكَنَ غَضَبُ مُوسَى بِاعْتِذَارِ أَخِيهِ ، وَلَجَأَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ يَدْعُو رَبَّهُ بِأَنْ يَغْفِرَ لَهُمَا عَادَ إِلَى الْأَلْوَاحِ الَّتِي أَلْقَاهَا فَأَخَذَهَا ، وَفِي نُسْخَتِهَا - أَيْ : مَا نُسِخَ وَكُتِبَ مِنْهَا فَهِيَ مِنَ النَّسْخِ كَالْخُطْبَةِ مِنَ الْخِطَابِ - هُدًى وَإِرْشَادٌ مِنَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

لِلَّذِينَ يَرْهَبُونَ رَبَّهُمْ وَيَخْشَوْنَ عِقَابَهُ بِالْفِعْلِ أَوْ بِالِاسْتِعْدَادِ ، أَوْ يَرْهَبُونَ رَبَّهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

(58/290)

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا الِاخْتِيَارُ صِيغَةُ تَكَلُّفٍ مِنْ مَادَّةِ الْخَيْرِ كَالِانْتِقَاءِ مِنَ النَّقْيِ - بِالْكَسْرِ - وَحَقِيقَتُهُ دُهْنُ الْعِظَامِ ، وَمَجَازُهُ لُبَابُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالِاصْطِفَاءُ مِنَ الصَّفْوِ - وَالِانْتِخَابُ مِنَ النَّخْبِ ، وَأَصْلُهُ انْتِزَاعُ الصَّقْرِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْجَوَارِحِ قَلْبَ الطَّائِرِ ، ثُمَّ

صَارَ يُقَالُ

لِكُلِّ مَنِ انْتَزَعَ لُبَّ الشَّيْءِ وَخِيَارِهِ : نَخَبَهُ وَانْتَخَبَهُ ، وَتُطْلَقُ النُّخْبَةُ (بِالضَّمِّ مَعَ سُكُونِ الْخَاءِ وَفَتْحِهَا) عَلَى الْجَيِّدِ الْمُخْتَارِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، كَمَا أَطْلَقُوا النَّخِبَ وَالنَّخِيبَ وَالْمُنْتَخَبَ عَلَى الْجَبَانِ الَّذِي لَا فُؤَادَ لَهُ ، وَالْأَفِينُ الَّذِي لَا رَأْيَ لَهُ ، كَأَنَّهُ انْتُزِعَ فُؤَادُهُ وَعَقْلُهُ بِالْفِعْلِ .

وَالْكَلَامُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، وَالْمَعْنَى : وَانْتَخَبَ مُوسَى سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ خِيَارِ قَوْمِهِ لِلْمِيقَاتِ الَّذِي وَقَّتَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - لَهُ ، وَدَعَاهُمْ لِلذَّهَابِ مَعَهُ إِلَى حَيْثُ يُنَاجِي رَبَّهُ مِنْ جَبَلِ الطُّورِ ، فَالِاخْتِيَارُ يَكُونُ مِنْ فَاعِلٍ مُخْتَارٍ وَشَيْءٍ مُخْتَارٍ مِنْهُ ، فَيَتَعَدَّى لِلثَّانِي بِـ " مِنْ " ، وَكَأَنَّ نُكْتَةَ حَذْفِ " مِنْ " الْإِشَارَةُ إِلَى كَوْنِ أُولَئِكَ السَّبْعِينَ خِيَارَ قَوْمِهِ كُلِّهِمْ لَا طَائِفَةً مِنْهُمْ

.

(59/290)

فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَيْ : فَلَمَّا أَخَذَتْهُمْ رَجْفَةُ الْجَبَلِ وَصُعِقُوا قَالَ مُوسَى يَا رَبِّ إِنِّي أَتَمَنَّى لَوْ كَانَتْ سَبَقَتْ مَشِيئَتُكَ أَنْ تُهْلِكَهُمْ مِنْ قَبْلِ خُرُوجِهِمْ مَعِي إِلَى هَذَا الْمَكَانِ فَأَهْلَكْتَهُمْ وَأَهْلَكْتَنِي مَعَهُمْ ، حَتَّى لَا أَقَعَ فِي حَرَجٍ شَدِيدٍ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَقُولُوا : قَدْ ذَهَبَ بِخِيَارِنَا لِإِهْلَاكِهِمْ - أَيْ : وَإِذْ لَمْ تَفْعَلْ مِنْ قَبْلُ فَأَسْأَلُكَ

بِرَحْمَتِكَ أَلَّا تَفْعَلَ الْآنَ – وَهَذَا مَفْهُومُ التَّمَنِّي فَقَدْ أَرَادَهُ مُوسَى ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَطَقَ بِهِ إذَا كَانَتْ لُغَتُهُ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلُغَتِنَا ، وَكَانَ مِنْ إيجَازِ الْقُرْآنِ الِاكْتِفَاءُ بِذِكْرِ التَّمَنِّي الدَّالِّ عَلَيْهِ ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ : هَلْ كَانَ هَذَا بَعْدَ أَنْ أَفَاقَ مُوسَى مِنْ صَعْقَةِ تَجَلِّي رَبِّهِ لِلْجَبَلِ عَقِبَ سُؤَالِهِ الرُّؤْيَةَ ؛ إذْ كَانَ مَنْ مَعَهُ مِنْ شُيُوخِ بَنِي إسْرَائِيلَ يَنْتَظِرُونَهُ فِي مَكَانٍ وَضَعَهُمْ فِيهِ غَيْرِ مَكَانِ الْمُنَاجَاةِ كَمَا تَقَدَّمَ ؟ أَوْ كَانَ بَعْدَ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ذَهَبُوا لِلِاعْتِذَارِ وَتَأْكِيدِ التَّوْبَةِ وَطَلَبِ الرَّحْمَةِ ؟

وَكَمَا اخْتَلَفُوا فِي هَذَا اخْتَلَفُوا فِي سَبَبِ أَخْذِ الرَّجْفَةِ إيَّاهُمْ ، هَلْ كَانَ طَلَبُهُمْ رُؤْيَةَ اللَّهِ – تَعَالَى – جَهْرَةً كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوْ سَبَبًا آخَرَ ؟ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ :

(60/290)

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : إنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا ، فَاخْتَارَ سَبْعِينَ رَجُلًا فَوَفَدَ بِهِمْ لِيَدْعُوا رَبَّهُمْ ، وَكَانَ فِيمَا دَعَوُا اللَّهَ أَنْ قَالُوا : اللَّهُمَّ أَعْطِنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ قَبْلِنَا وَلَا تُعْطِ أَحَدًا مِنْ بَعْدِنَا . فَكَرِهَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ دُعَائِهِمْ ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ مُوسَى رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ الْآيَةَ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : إنَّ اللَّهَ – تَعَالَى – أَمَرَ مُوسَى أَنْ يَأْتِيَهُ فِي أُنَاسٍ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ يَعْتَذِرُونَ إلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَوَعَدَهُمْ

مَوْعِدًا ، فَاخْتَارَ مُوسَى مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا عَلَى عَيْنِهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمْ لِيَعْتَذِرُوا ، فَلَمَّا أَتَوْا ذَلِكَ الْمَكَانَ قَالُوا : لَنْ

(61/290)

نُؤْمِنَ لَكَ يَا مُوسَى حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَإِنَّكَ قَدْ كَلَّمْتَهُ فَأَرِنَاهُ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ فَمَاتُوا فَقَامَ مُوسَى يَبْكِي وَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَاذَا أَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا لَقِيتُهُمْ وَقَدْ أَهْلَكْتَ خِيَارَهُمْ ؟ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : اخْتَارَ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَبْعِينَ رَجُلًا الْخَيِّرَ فَالْخَيِّرَ وَقَالَ : انْطَلِقُوا إِلَى اللهِ فَتُوبُوا إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعْتُمْ ، وَاسْأَلُوهُ التَّوْبَةَ عَلَى مَنْ تَرَكْتُمْ وَرَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ ، صُومُوا وَتَطَهَّرُوا وَطَهِّرُوا ثِيَابَكُمْ ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ لِمِيقَاتٍ وَقَّتَهُ لَهُ رَبُّهُ ، وَكَانَ لَا يَأْتِيهِ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنْهُ وَعِلْمٍ ، فَقَالَ لَهُ السَّبْعُونَ فِيمَا ذُكِرَ لِي – حِينَ صَنَعُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، وَخَرَجُوا مَعَهُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ : يَا مُوسَى اطْلُبْ لَنَا نَسْمَعُ كَلَامَ رَبِّنَا . فَقَالَ : أَفْعَلُ . فَلَمَّا دَنَا مُوسَى مِنَ الْجَبَلِ وَقَعَ عَلَيْهِ عَمُودُ الْغَمَامِ حَتَّى تَغَشَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ ، وَدَنَا مُوسَى فَدَخَلَ فِيهِ ، وَقَالَ لِلْقَوْمِ : ادْنُوا ، وَكَانَ مُوسَى إِذَا كَلَّمَهُ اللهُ وَقَعَ عَلَى جَبْهَةِ مُوسَى نُورٌ سَاطِعٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَضُرِبَ دُونَهُ بِالْحِجَابِ وَدَنَا الْقَوْمُ حَتَّى إِذَا دَخَلُوا فِي الْغَمَامِ وَقَعُوا سُجُودًا ، فَسَمِعُوهُ وَهُوَ يُكَلِّمُ مُوسَى يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ

، افْعَلْ وَلَا تَفْعَلْ ، فَلَمَّا فَرَغَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ وَانْكَشَفَ عَنْ مُوسَى الْغَمَامُ أَقْبَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا لِمُوسَى : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ

(62/290)

حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً (2 : 55) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ وَهِيَ الصَّاعِقَةُ فَالْتَقَتْ أَرْوَاحُهُمْ فَمَاتُوا جَمِيعًا ، فَقَامَ مُوسَى يُنَاشِدُ رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ : رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ قَدْ سَفِهُوا أَتُهْلِكُ مِنْ وَرَائِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ا هـ .

أَقُولُ : كُلُّ مَا نُقِلَ عَنْ مُفَسِّرِي الْمَأْثُورِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَأَمْثَالِهَا مَأْخُوذٌ عَنِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ غَيْرِ الْمَوْثُوقِ بِهَا ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مَرْفُوعٌ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَإِنَّمَا يُرَجِّحُ مَنْ بَعْدَهُمْ

(63/290)

بَعْضَ أَقْوَالِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إِلَى ظَاهِرِ نَظْمِ الْآيَاتِ وَأَسَالِيبِهَا وَتَنَاسُبِهَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَأَمَّا التَّوْرَاةُ الَّتِي فِي أَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَدْ ذَكَرَتْ خَبَرَ السَّبْعِينَ مِنْ شُيُوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي

سِيَاقِ مُنَاجَاةِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِرَبِّهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَدْ نَقَلْنَا الْمُهِمَّ مِنْهَا فِي ذَلِكَ ، وَمَجْمُوعُ عِبَارَاتِهَا مُضْطَرِبَةٌ ، فَفِيهَا أَنَّ السَّبْعِينَ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ وَنَادَابَ وَابِيهو " رَأَوْا إِلَهَ إِسْرَائِيلَ وَتَحْتَ رِجْلَيْهِ شِبْهَ صَنِفَةٍ مِنَ الْعَقِيقِ الْأَزْرَقِ الشَّفَّافِ ، وَكَذَا السَّمَاءِ فِي النَّقَاوَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَى أَشْرَافِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوُا اللهَ وَأَكَلُوا وَشَرِبُوا " (خُرُوجُ 24 : 10 ، 11) وَفِيهَا أَنَّ الرَّبَّ قَالَ لِمُوسَى إِذَا طَلَبَ مِنْهُ رُؤْيَةَ مَجْدِهِ " لَا تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَرَانِي وَيَعِيشُ " ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ – أَيِ : الرَّبَّ – يَضَعُهُ فِي نَقْرَةِ صَخْرَةٍ وَيَسْتُرُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَجْتَازَ – أَيِ : الرَّبُّ – قَالَ " ثُمَّ أَرْفَعُ يَدِي فَتَنْظُرُ وَرَائِي ، وَأَمَّا وَجْهِي فَلَا يُرَى " (خُرُوجُ 23 : 18 – 23) .

وَفِي سِفْرِ الْعَدَدِ وَقَائِعُ ، ذُكِرَ فِيهَا غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِتَمَرُّدِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَاتِّهَامِ اللَّاوِيِّينَ مِنْهُمْ لِمُوسَى وَهَارُونَ بِحُبِّ الرِّيَاسَةِ ، وَالتَّرَفُّعِ وَزَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ مُقَدَّسُونَ ، وَالرَّبُّ فِي وَسَطِهِمْ ، وَفِيهِ أَنَّ الرَّبَّ أَهْلَكَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا ، وَكَانَ مُوسَى يَسْتَغِيثُهُ لِيَرْفَعَ

الْهَلَاكَ عَنْهُمْ وَيَرْحَمَهُمْ ، وَلَا أَذْكُرُ أَنَّ فِي شَيْءٍ مِنْهَا ذِكْرَ عَدَدِ السَّبْعِينَ ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِهَا ذِكْرُ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ ، وَفِي بَعْضِهَا ذِكْرُ عَدَدِ 250 رَجُلًا ، وَذَلِكَ فِي الْفَصْلِ 16 مِنْ سِفْرِ

الْعَدَدِ وَهَاكَ بَعْضَهُ : (20) وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلًا (21) افْتَرِزَا مِنْ بَيْنِ هَذِهِ
الْجَمَاعَةِ فَإِنِّي أُفْنِيهِمْ فِي لَحْظَةٍ (22) فَخَرَّا عَلَى وَجْهَيْهِمَا وَقَالَا اللهُمَّ إِلَهَ أَرْوَاحِ جَمِيعِ
الْبَشَرِ هَلْ يُخْطِئُ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَتَسْخَطَ عَلَى كُلِّ الْجَمَاعَةِ ؟ (23) فَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى
قَائِلًا (24) اطْلَعُوا مِنْ حَوَالِي مَسْكَنِ قَوْرَحَ وَدَاثَانَ وَابِيرَامَ (25) فَقَامَ مُوسَى وَذَهَبَ إِلَى
دثَانَ وَابِيرَامَ وَذَهَبَ وَرَاءَهُ شُيُوخُ إِسْرَائِيلَ (26) فَكَلَّمَ الْجَمَاعَةَ قَائِلًا اعْتَزِلُوا عَنْ خِيَامِ
هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْبُغَاةِ وَلَا تَمَسُّوا شَيْئًا مِمَّا لَهُمْ لِئَلَّا تُهْلَكُوا بِجَمِيعِ خَطَايَاهُمْ (27) فَطَلَعُوا مِنْ
حَوَالِي مَسْكَنِ قَوْرَحَ وَدَاثَانَ وَابِيرَامَ وَخَرَجَ دَاثَانُ وَابِيرَامُ وَوَقَفَا فِي بَابِ خَيْمَتَيْهِمَا مَعَ
نِسَائِهِمَا وَبَنِيهِمَا وَأَطْفَالِهِمَا (28) فَقَالَ مُوسَى بِهَذَا تَعْلَمُونَ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَنِي لِأَعْمَلَ كُلَّ
هَذِهِ الْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ نَفْسِي (29) إِنْ مَاتَ هَؤُلَاءِ كَمَوْتِ كُلِّ إِنْسَانٍ وَأَصَابَتْهُمْ
مُصِيبَةُ كُلِّ إِنْسَانٍ فَلَيْسَ الرَّبُّ قَدْ أَرْسَلَنِي (30) وَلَكِنْ إِنِ ابْتَدَعَ الرَّبُّ بِدْعَةً وَفَتَحَتِ

(65/290)

الْأَرْضُ فَاهَا وَابْتَلَعَتْهُمْ وَكُلَّ مَالِهِمْ فَهَبَطُوا أَحْيَاءً إِلَى الْهَاوِيَةِ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدِ ازْدَرَوْا
بِالرَّبِّ (31) فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ التَّكَلُّمِ بِكُلِّ هَذَا الْكَلَامِ انْشَقَّتِ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْتَهُمْ (32)
وَفَتَحَتِ الْأَرْضُ فَاهَا وَابْتَلَعَتْهُمْ وَبُيُوتَهُمْ وَكُلَّ مَنْ كَانَ لِقَوْرَحَ مَعَ كُلِّ الْأَمْوَالِ (33) فَنَزَلُوا هُمْ

وَكُلُّ مَنْ كَانَ لَهُمْ أَحْيَاءً إِلَى الْهَاوِيَةِ وَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ فَبَادُوا مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ (34) وَكُلُّ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ هَرَبُوا مِنْ صَوْتِهِمْ لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَعَلَّ الْأَرْضَ تَبْتَلِعُنَا (35) وَخَرَجَتْ نَارٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ وَأَكْمَلَتِ الْمِئَتَيْنِ وَالْخَمْسِينَ رَجُلًا الَّذِينَ قَرَّبُوا الْبَخُورَ " انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ ، وَمَبْدَأُ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ 16 وَفِي آخِرِهِ أَنَّهُ أَخَذَهُمُ الْوَبَاءُ إِذْ لَمْ يَتُوبُوا .

(66/290)

وَمَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ ذِكْرِ مَسْأَلَةِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ، وَذِكْرِ مَسْأَلَةِ طَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِرُؤْيَةِ اللَّهِ جَهْرَةً ، وَأَخْذِ الصَّاعِقَةِ إِيَّاهُمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ غَيْرُ الْأُولَى ، وَنَقَلْنَا هُنَالِكَ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ اخْتِيَارَ اسْتِقْلَالِ كُلٍّ مِنْهُمَا دُونَ الْآخَرِ ، وَقَوْلُهُ : إِنَّهَا مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ يَعْنِي مَا نَقَلْنَاهُ آنِفًا عَنْ سِفْرِ الْعَدَدِ ، أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ وَهُوَ مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ عَدَدُ السَّبْعِينَ ، فَلَعَلَّهُ يُرِيدُ أَنَّ مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مُخْتَصَرٌ بِقَدْرِ الْعِبْرَةِ كَسُنَّتِهِ ، وَأَنَّ السَّبْعِينَ هُمُ الَّذِينَ أُهْلِكُوا أَوَّلًا ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرِ الْكَاتِبُ عَدَدَهُمْ ثُمَّ هَلَكَ غَيْرُهُمْ فَكَانَ الْجَمِيعُ .

فَإِنْ كَانَتِ الْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ فَقَوْلُ مُوسَى : أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِشَارَةٌ إِلَى قَوْرَحَ وَجَمَاعَتِهِ مِنَ اللَّاوِيِّينَ الْمَغْرُورِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ ، وَهَلِ الَّذِينَ طَلَبُوا مِنْ مُوسَى رُؤْيَةَ اللَّهِ

جَهْرَةً لِغُرُورِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ أَمْ غَيْرُهُمْ ؟ وَإِنْ كَانَتْ فِي عَابِدِي الْعِجْلِ فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عُقَلَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَصْحَابِ الرُّؤْيَةِ مِنْهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُ ، وَإِنَّمَا عَبَدَهُ السُّفَهَاءُ ؛ وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ .

(67/290)

إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ " إِنْ " نَافِيَةٌ ، وَالْفِتْنَةُ : الِاخْتِبَارُ وَالِامْتِحَانُ مُطْلَقًا أَوْ بِالْأُمُورِ الشَّاقَّةِ ، وَالْبَاءُ فِي " بِهَا " لِلسَّبَبِيَّةِ ؛ أَيْ : مَا تَمْلِكُ الْفِعْلَةَ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا لِأَخْذِ الرَّجْفَةِ إِيَّاهُمْ إِلَّا مِحْنَتُكَ وَابْتِلَاؤُكَ الَّذِي جَعَلْتَهُ سَبَبًا لِظُهُورِ اسْتِعْدَادِ النَّاسِ وَمَا طُوِيَتْ عَلَيْهِ سَرَائِرُهُمْ مِنْ ضَلَالٍ وَهِدَايَةٍ ، وَمَا يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ مِنْ عُقُوبَةٍ وَمَثُوبَةٍ ، وَسُنَّتُكَ فِي جَرَيَانِ مَشِيئَتِكَ فِي خَلْقِكَ بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ ، وَالنِّظَامِ الْحَكِيمِ فِي الْخَلْقِ ، تُضِلُّ بِمُقْتَضَاهَا مَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِكَ ، وَلَسْتَ بِظَالِمٍ لَهُمْ فِي تَقْدِيرِكَ ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ وَلَسْتَ بِمُحَابٍ لَهُمْ فِي

(68/290)

تَوْفِيقِكَ ، بَلْ أَمْرُ مَشِيئَتِكَ دَائِرٌ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ ، وَلَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ أَيْ : أَنْتَ الْمُتَوَلِّي لِأُمُورِنَا ، وَالْقَائِمُ عَلَيْنَا بِمَا تَكْتَسِبُ نُفُوسُنَا فَاغْفِرْ لَنَا مَا تَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْمُؤَاخَذَةُ وَالْعِقَابُ مِنْ مُخَالَفَةِ سُنَّتِكَ ، أَوِ التَّقْصِيرِ فِيمَا يَجِبُ مِنْ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَعِبَادَتِكَ ، بِأَنْ تَسْتُرَ ذَلِكَ عَلَيْنَا ، وَتَجْعَلَهُ بِعَفْوِكَ كَأَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ عَنَّا ، وَارْحَمْنَا بِرَحْمَتِكَ الْخَاصَّةِ فَوْقَ مَا شَمَلَتْ بِهِ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ مِنْ رَحْمَتِكَ الْعَامَّةِ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ حِلْمًا وَكَرَمًا وَجُودًا فَلَا يَتَعَاظَمُكَ ذَنْبٌ ، وَلَا يُعَارِضُ غُفْرَانَكَ مَا يُعَارِضُ غُفْرَانَ سِوَاكَ مِنْ عَجْزٍ أَوْ ضَعْفٍ أَوْ هَوَى نَفْسٍ - وَمَا ذُكِرَ فِي الْمَغْفِرَةِ يَدُلُّ عَلَى اعْتِبَارِ مِثْلِهِ فِي الرَّحْمَةِ لِدَلَالَتِهِ عَلَيْهِ - أَيْ : وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ رَحْمَةً وَأَوْسَعُهُمْ فِيهَا فَضْلًا وَإِحْسَانًا ، فَإِنَّ رَحْمَةَ جَمِيعِ الرَّاحِمِينَ مِنْ خَلْقِكَ ، نَفْحَةٌ مُفَاضَةٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ رَحْمَتِكَ . حُذِفَ ذِكْرُ الرَّحْمَةِ اسْتِغْنَاءً عَنْهُ بِذِكْرِ الْمَغْفِرَةِ ، فَإِنَّ تَرْتِيبَ التَّذْيِيلِ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ تَعَالَى عَلَى طَلَبِ مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ مَعًا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الثَّنَاءُ بِهِمَا مَعًا ، فَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْأُولَى لِدَلَالَتِهَا عَلَى الثَّانِيَةِ قَطْعًا ، فَهُوَ مِنَ الْإِيجَازِ الْمُسَمَّى فِي عِلْمِ الْبَدِيعِ الِاكْتِفَاءَ ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذَا مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ :

أَنَّهُ اكْتَفَى بِذِكْرِ الْمَغْفِرَةِ ؛ لِأَنَّهَا الْأَهَمُّ وَلَمْ يَكْتَفِ بِذِكْرِ الرَّحْمَةِ ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ ، وَلِأَنَّهَا قَدْ تَسْتَلْزِمُ الْمَغْفِرَةَ دُونَ الْعَكْسِ ، فَإِنَّ مَعْنَى الْمَغْفِرَةِ سَلْبِيٌّ ؛ وَهُوَ عَدَمُ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَى الذَّنْبِ ، وَالرَّحْمَةُ فَوْقَ ذَلِكَ فَهِيَ إِحْسَانٌ إِلَى الْمُذْنِبِ مُقَدَّمَةٌ عَلَى التَّحْلِيَةِ ، فَلَا يَلِيقُ خَلْعُ الْحُلَلِ النَّفْسِيَّةِ ، إِلَّا عَلَى الْأَبْدَانِ النَّظِيفَةِ ، وَقَدْ قَالَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي دُعَائِهِ لِنَفْسِهِ وَلِأَخِيهِ : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ (7 : 151) الْآيَةَ ، وَقَالَ نُوحٌ عَنْ تَوْبَتِهِ مِنْ سُؤَالِهِ النَّجَاةَ لِوَلَدِهِ الْكَافِرِ : وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (11 : 47) وَعَلَّمَنَا تَعَالَى مِنْ دُعَائِهِ فِي خَاتِمَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا (2 : 286) وَقَلَّمَا ذُكِرَ اسْمُ (الْغَفُورِ) فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ إِلَّا مَقْرُونًا بِاسْمِهِ (الرَّحِيمِ) وَمِنْ غَيْرِ الْأَكْثَرِ قَرْنُهُ بِالشَّكُورِ وَبِالْحَلِيمِ وَالْوَدُودِ وَيَقْرُبُ مَعْنَاهُنَّ مِنْ مَعْنَى الرَّحِيمِ ، وَوَرَدَ قَرْنُهُ بِالْعَفُوِّ وَبِالْعَزِيزِ لِاقْتِضَاءِ الْمَقَامِ ذَلِكَ .

وَدُعَاءُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هُنَا لِنَفْسِهِ مَعَ قَوْمِهِ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ قَدِ اقْتَضَاهُ مَقَامُ الْمُنَاجَاةِ وَالْمَعْرِفَةِ الْكَامِلَةِ ، وَمَنْ كَانَ أَعْرَفُ بِاللَّهِ وَأَكْمَلُ اسْتِحْضَارًا لِعَظَمَتِهِ ، كَانَ

أَشَدَّ شُعُورًا بِالْحَاجَةِ إلَى مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ مَا يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ تَقْصِيرًا صَغِيرًا بِالنِّسْبَةِ إلَى ذُنُوبِ الْغَافِلِينَ وَالْجَاهِلِينَ أَوْ مِنْ بَابِ " حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ " فَإِنْ كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ عَقِبَ طَلَبِ الرُّؤْيَةِ ، فَوَجْهُ طَلَبِهِ لِلْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِنَفْسِهِ أَظْهَرُ ؛ لِأَنَّ طَلَبَهُ ذَاكَ كَانَ ذَنْبًا لَهُ ، صَرَّحَ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ عَقِبَ طَلَبِ السَّبْعِينَ رُؤْيَةً لِلَّهِ جَهْرَةً فَالْأَمْرُ أَظْهَرُ ؛ لِأَنَّ الذَّنْبَ مُشْتَرَكٌ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى أَثَرِ حَادِثَةِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ، فَقَدْ عَلِمَ مَا كَانَ مِنْ شِدَّتِهِ فِيهَا عَلَى أَخِيهِ هَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ، وَأَنَّهُ طَلَبَ لِكُلٍّ مِنْ نَفْسِهِ وَأَخِيهِ الْمَغْفِرَةَ عَلَى الِانْفِرَادِ وَالرَّحْمَةَ بِالِاشْتِرَاكِ ، وَإِنْ كَانَ عَقِبَ تَمَرُّدِ بَنِي إسْرَائِيلَ الَّذِي عَاقَبَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِ بِإِهْلَاكِ بَعْضِهِمْ وَتَهْدِيدِهِمْ بِالِاسْتِئْصَالِ ، فَإِدْخَالُ نَفْسِهِ مَعَهُمْ مِنْ بَابِ الِاسْتِعْطَافِ ، إذْ لَمْ يُنْقَلْ عَنْهُ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يُعَدُّ مِنْ ذُنُوبِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

(تَخْطِئَةُ مَنِ اتَّهَمَ الْكَلِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْجُرْأَةِ عَلَى رَبِّهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ)

(71/290)

كُنْتُ فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ بِطَلَبِي لِلْعِلْمِ فِي طَرَابُلُسَ الشَّامِ أَسْمَعُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ وَالْأُدَبَاءِ يَنْقُلُونَ عَنْ بَعْضِ الصُّوفِيَّةِ أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يَقُلْ لِرَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : إنْ هِيَ إلَّا فِتْنَتُكَ إلَّا وَقَدْ كَانَ فِي مَقَامِ الْأُنْسِ وَالْإِدْلَالِ الَّذِي يُطْلِقُ اللِّسَانُ بِمِثْلِ هَذَا الْمَقَالِ ، وَأَنَّ هَذَا خَيْرُ

جَوَابٍ عَمَّا قِيلَ مِنْ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ جُرْأَةٌ عَظِيمَةٌ تَابَ مِنْهَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - . وَقَالَ الْآلُوسِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : وَالْقَوْلُ بِأَنَّ إِقْدَامَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى أَنْ يَقُولَ : إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ جُرْأَةٌ عَظِيمَةٌ ، فَطَلَبَ مِنَ اللهِ غُفْرَانَهَا وَالتَّجَاوُزَ عَنْهَا مِمَّا يَأْبَاهُ السَّوْقُ ، عِنْدَ أَرْبَابِ الذَّوْقِ ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا مِنْهُ ، لِيَسْتَغْفِرَهُ عَنْهُ ، وَفِي نِدَائِهِ السَّابِقِ مَا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ ا هـ .

(72/290)

وَأَقُولُ : لَا مَجَالَ لِلْقَوْلِ بِالْجُرْأَةِ وَلَا بِالْإِدْلَالِ ، وَمَا كَانَ هَذَا بِالَّذِي يَخْطُرُ لِلْعَرَبِيِّ الْقُحِّ بِبَالٍ ، وَلَا لِلْعَالِمِ الدَّقِيقِ بِمَعَانِي الْمُفْرَدَاتِ وَأَسَالِيبِ الْمَقَالِ ، وَسَبَبُهُ كَلِمَةُ " الْفِتْنَةِ " فَقَدِ اشْتُهِرَ مِنْ عَهْدٍ بَعِيدٍ فِيمَا أَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا إِغْرَاءُ الشَّرِّ بَيْنَ النَّاسِ ، وَأَرَاهُمْ يَتَنَاقَلُونَ اسْتِعْمَالَ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ (2 : 191) بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَلَهُ أَصْلٌ فِي اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ ؛ فَإِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى الْحَرْبِ ، وَيُوصَفُ الشَّيْطَانُ بِالْفَتَّانِ ، وَلَكِنْ هَذَا وَذَاكَ مِنَ الْمَعَانِي الْفَرْعِيَّةِ لِهَذِهِ الْمَادَّةِ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهَا الْأَصْلِيُّ الَّذِي تَفَرَّعَا هُمَا وَأَمْثَالُهُمَا وَأَضْدَادُهُمَا مِنْهُ - الِامْتِحَانُ وَالِاخْتِبَارُ وَلَا سِيَّمَا الشَّاقُّ ، الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ جَيِّدُ الشَّيْءِ أَوِ الشَّخْصِ مِنْ رَدِيئِهِ ، كَعَرْضِ الذَّهَبِ عَلَى النَّارِ : لِتَصْفِيَةِ الْغِشِّ

مِنَ النُّضَارِ ، وَمِثْلُهُ الْفِضَّةُ ، بَلْ كُلُّ مَا أُدْخِلَ النَّارَ يُسَمَّى مَفْتُونًا ، كَمَا يُقَالُ ، دِينَارٌ أَوْ دِرْهَمٌ مَفْتُونٌ ، وَيُسَمَّى حَجَرُ الصَّائِغِ الْفَتَّانَةَ ، وَقَدْ وَرَدَ تَسْمِيَةُ الْمَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ يَمْتَحِنَانِ النَّاسَ عَقِبَ الْمَوْتِ بِفَتَّانَيِ الْقَبْرِ ، وَفَسَّرُوا فِتْنَةَ الْمَمَاتِ وَفِتْنَةَ الْقَبْرِ بِسُؤَالِ الْمَلَكَيْنِ ، وَقَالَ – تَعَالَى – : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ

(73/290)

(8 : 28) أَيِ : اخْتِبَارٌ لَكُمْ يَتَبَيَّنُ بِهِمَا قَدْرُ وُقُوفِكُمْ عِنْدَ الْحَقِّ ، وَالْتِزَامِكُمُ الْكَسْبَ الْحَلَالَ ، وَقَالَ – تَعَالَى – : وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً (21 : 35) .

(74/290)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الْفَتْنَ وَالْفُتُونَ مَصْدَرَيْ فَتَنَ مَعْنَاهُمَا الِابْتِلَاءُ لِلِاخْتِبَارِ وَظُهُورِ حَقِيقَةِ حَالِ الْمَفْتُونِينَ أَوْ لِتَصْفِيَتِهِمْ وَتَمْحِيصِهِمْ ، وَمِنَ الْأَوَّلِ : قَوْلُهُ – تَعَالَى – لِمُوسَى فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ : إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (20 : 85) فَقَوْلُهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِرَبِّهِ : إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ رَبِّهِ

لَهُ : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ فَلَا جُرْأَةَ فِيهَا وَلَا إِدْلَالَ ، دَعْ مَا يَرُدُّ هَذِهِ الدَّعْوَى مِنْ مُنَافَاتِهَا لِمَوْقِفِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ – وَمِنَ الثَّانِي : قَوْلُهُ – تَعَالَى – لَهُ فِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ طه : وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا (20 : 40) أَيِ : اصْطَفَيْنَاكَ مِنَ الشَّوَائِبِ حَتَّى صِرْتَ أَهْلًا لِاصْطِنَاعِنَا وَرِسَالَتِنَا ، وَتَقَدَّمَ تَحْقِيقُ هَذَا اللَّفْظِ مِنْ قَبْلُ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ أَيْ : وَأَثْبِتْ وَأَوْجِبْ لَنَا بِرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ حَيَاةً حَسَنَةً فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَافِيَةِ وَبَسْطِ الرِّزْقِ ، وَعِزِّ الِاسْتِقْلَالِ وَالْمُلْكِ ، وَالتَّوْفِيقُ لِلطَّاعَةِ ، وَمَثُوبَةً حَسَنَةً فِي الْآخِرَةِ بِدُخُولِ جَنَّتِكَ وَنَيْلِ رِضْوَانِكَ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – فِيمَا عَلَّمَنَا مِنْ دُعَائِهِ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً (2 : 201) فَإِنْ ثَمَرَةَ دِينِ اللهِ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ : الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 9 صـ 184 . 191 ﴾

(75/290)

وقال ابن عاشور :

﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقاتنا ﴾ .

عطفت جملة ﴿ واختار موسى ﴾ على جملة : ﴿ واتخذ قوم موسى ﴾ [الأعراف : 148] عطَف القصة على القصة : لأن هذه القصة أيضاً من مواقع الموعظة والعبرة بين

العبَر المأخوذة من قصة موسى مع بني إسرائيل ، فإن في هذه عبرة بعظمة الله تعالى ورحمته ، ودعاء موسى بما فيه جُماع الخيرات والبشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وملاك شريعته .

والاختيار تمييز المرغوب من بين ما هو مخلوط من مرغوب وضده ، وهو زنة افتعال من الخير صيغ الفعل من غير دلالة على مطاوعة لفعل (خار) .

وقوله : ﴿ سبعين رجلا ﴾ بدل من ﴿ قَوْمَه ﴾ بدلَ بعض من كل ، وقيل إنما نُصب قومَه على حذف حرف الجر ، والتقدير : اختار من قومه ، قالوا وحذْفُ الجار من المتعلق الذي هو في رتبة المفعول الثاني شائِع في ثلاثة أفعال : اختار ، واستغفر وأمر ، ومنه أمْرُتك الخير وعلى هذا يكون قوله : ﴿ سبعين ﴾ مفعولاً أول .

وأيّاً مَّا كان فبناء نظم الكلام على ذكر القوم ابتداء دون الاقتصار على سبعين رجلاً اقتضاه حال الإيجاز في الحكاية ، وهو من مقاصد القرآن .

وهذا الاختيار وقع عندما أمره الله بالمجيء للمناجاة التي تقدم ذكرها في قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾ [الأعراف : 142] الآية ، فقد جاء في التوراة في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج : إن الله أمر موسى أن يصعد طور سينا هو وهارون و (ناداب) و (أبيهو) و (يشوع) وسبعون من شيوخ بني إسرائيل ويكون شيوخ

بني إسرائيل في مكان معين من الجبل ويتقد موسى حتى يدخل في السحاب ليسمع كلام الله وأن الله لما تجلى للجبل ارتجف الجبل ومكث موسى أربعين يوماً .

(76/290)

وجاء في الإصحاح الثاني والثلاثين والذي يعده ، بعدَ ذكر عبادتهم العجل وكسر الألواح ، أن الله أمر موسى بأن ينحت لوحين من حجر مثل الأولين ليكتب عليهما الكلمات العشر المكتوبة على اللوحين المنكسرين وأن يصعد إلى طور سينا وذكرتْ صفة صعود تقارب الصفة التي في الإصحاح الرابع والعشرين ، وأن الله قال لموسى من أخطأ أمحُوه من كتابي ، وأن موسى سجد لله تعالى واستغفر لقومه قلة امتثالهم وقال فإن عفرْتَ خطيئتهم وإلا فامحُني من كتابك .

وجاء في الإصحاح التاسع من سفر التثنية : أن موسى لما صعد الطور في المناجاة الثانية صام أربعين يوماً وأربعين ليلة لا يأكل طعاماً ولا يشرب ماء استغفاراً لخطيئة قومه وطلباً للعفو عنهم .

فتبين مما في التوراة أن الله جعل لموسى ميقاتين للمناجاة ، وأنه اختار سبعين رجلاً للمناجاة الأولى ولم تَذْكر اختيارهم للمناجاة الثانية ، ولما كانت المناجاة الثانية كالتكملة للأولى تعيّن

أن موسى استصحب معه السبعين المختارين ، ولذلك وقعت فيها الرجفة مثل المرة الأولى ، ولم يذكر القرآن أن الرجفة أخذتهم في المرة الأولى ، وإنما ذكر أن موسى خَرَّ صعقاً ، ويتعين أن يكون السبعون قد أصابهم ما أصاب موسى لأنهم كانوا في الجبل أيضاً ، وذكر الرجفة في المرة الثانية ولم تذكرها التوراة .

والضمير في أخذتهم الرجفة للسبعين .

فالظاهر أن المراد في هذه الآية هو حكاية حال ميقات المناجاة الثانية التي وقع فيها الاستغفار لقومه ، وأن الرجفة المحكية هنا رجفة أخذتهم مثل الرجفة التي أخذتهم في المناجاة الأولى ، لأن الرجفة تكون من تجلي أثر عظيم من آثار الصفات الإلهية كما تقدم ، فإن قول موسى ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ يؤذن بأنه يعني به عبادتهم العجل ، وحضورَهم ذلك .

وسكوتهم ، وهي المعنيُ بقوله : ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ وقد خشي موسى أن تلك الرجفة مقدمة عذاب كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يخشى الريح أن يكون مبدأ عذاب .

(77/290)

ويجوز أن يكون ذلك في المناجاة الأولى وأن قوله : ﴿ بما فعل السفهاء منا ﴾ يعني به ما صدر من بني إسرائيل من التصلب قبل المناجاة ، كقولهم ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ [البقرة : 61] ، وسؤالهم رؤية الله تعالى .

لكن الظاهر أن مثل ذلك لا يطلق عليه (فَعَل) في قوله : ﴿ بما فعل السفهاء منا ﴾ .

والحاصل أن موضع العبرة في هذه القصة هو التوقي من غضب الله ، وخوف بطشه ، ومقامُ الرسل من الخشية ، ودعاء موسى ، إلخ .

وقد صيغ نظم الكلام في قوله : ﴿ فلما أخذتهم الرجفة ﴾ على نحو ما صيغ عليه قوله : ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبانَ أسفا ﴾ [الأعراف : 150] كما تقدم .

والأخذ مجاز في الإصابة الشديدة المتمكنة تمكن الآخذ من المأخوذ .

و(لو) في قوله : ﴿ لو شئت أهلكتهم ﴾ يجوز أن تكون مستعملة في التمني وهو معنى مجازي ناشىء من معنى الامتناع الذي هو معنى (لو) الأصلي ومنه قول المثل (لو ذات سوار لطمتني) إذ تقدير الجواب .

لو لطمتني لكان أهون علي ، وقد صرح بالجواب في الآية وهو ﴿ شئت أهلكتهم ﴾ أي ليتك أردت إهلاكهم أي السبعين الذين معه .

فجملة أهلكتهم بدل اشتمال من جملة ﴿ شئت ﴾ من قبل خطيئة القوم التي تسبب عنها الرجوع إلى المناجاة .

وعلى هذا التقدير في (لو) لا يكون ، في قوله ﴿ أهلكتهم ﴾ حذف اللام التي من شأنها أن تقترن بجواب (لو) وإنما قال : ﴿ أهلكتهم ﴾ وإياي ولم يقل : أهلكتنا ، للتفرقة بين الإهلاكين لأن إهلاك السبعين لأجل سكوتهم على عبادة العجل ، وإهلاك موسى ، قد يكون لأجل أن لا يشهد هلاك القوم ، قال تعالى:

(78/290)

﴿ فلما جاء أمرنا نجينا هوداً ﴾ [هود : 58] الآية ونظائرها كثيرة ، وقد خشي موسى أن الله يهلك جميع القوم بتلك الرجفة لأن سائر القوم أجدر بالإهلاك من السبعين ، وقد أشارت التوراة إلى هذا في الإصحاح "فرجع موسى إلى الله وقال إن الشعب قد أخطأ خطيئة عظيمة وصنعوا لأنفسهم آلهة فان غفرت لهم خطيئتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت .

فقال الله لموسى من أخطأ إليّ أمحوه من كتابي" فالمحو من الكتاب هو محو تقدير الله له الحياةَ محوَ غضب ، وهو المحكي في الآية بقوله ﴿ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ وقد خشي موسى أن تكون تلك الرجفة إمارة غضب ومقدمة إهلاك عقوبة على عبادتهم العجل ، فلذلك قال ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ فالسفهاء هم

الذين عبدوا العجل وسمي شركهم سفهاً ؛ لأنه شرك مشوب بخسة عقل إذ جعلوا صورة صنعوها بأنفسهم إلهاً لهم .

ويجوز أن يكون حرف (لو) مستعملاً في معناه الأصلي : من امتناع جوابه لامتناع شرطه ، فيتجه أن يتساءل عن موجب حذف اللام من جواب (لو) ولم يقل : لأهلكتهم مع أن الغالب في جوابها الماضي المثبت أن يقترن باللام فحذف اللام هنا لنكتة أن التلازم بين شرط لو وجوابها هنا قوي لظهور أن الإهلاك من فعل الله وحده فهو كقوله تعالى : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ سورة الواقعة (70) وسيأتي بيانه .

ويكون المعنى اعترافاً بمنة العفو عنهم فيما سبق ، وتمهيداً للتعريض بطلب العفو عنهم الآن ، وهو المقصود من قوله ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء ﴾ أي أنك لم تشأ إهلاكهم حين تلبسوا بعبادة العجل فلا تهلكهم الآن .

(79/290)

والاستفهام في قوله : ﴿ أتهلكنا ﴾ مستعمل في التفجع أي : أخشى ذلك ، لأن القوم استحقوا العذاب ويخشى أن يشمل عذابُ الله من كان مع القوم المستحقين وإن لم يشاركهم في سبب العذاب ، كما قال : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [

الأنفال : 25] وفي حديث أم سلمة أنها قالت : " يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبثُ " وفي حديث آخر ، " ثم يحشرون على نياتهم " وقد خشي موسى سوء الظنة لنفسه ولأخيه وللبراء من قومه أن يُظنهم الأمم التي يبلغها خبرهم أنهم مجرمون .

وإنما جمع الضمير في قوله : ﴿ أتهلكنا ﴾ لأن هذا الإهلاك هو الإهلاك المتوقع من استمرار الرجفة ، وتوقعه واحد في زمن واحد ، بخلاف الإهلاك المتقدم ذكره فسببه مختلف فناسب توزيع مفعوله .

وجملة : ﴿ أتهلكنا ﴾ مستأنفة على طريقة تقطيع كلام الحزين الخائف السائل .

وكذلك جملة : ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ وجملة ﴿ أنت ولينا ﴾ .

وضمير ﴿ إن هي ﴾ راجع إلى ما فعل السفهاء لأن ما صُدقَ ما فعل السفهاء هو الفتنة ، والمعنى : ليست الفتنةُ الحاصلة بعبادة العجل إلا فتنة منك ، أي من تقديرك وخلْق أسبابِ حدوثها ، مثل سخافة عقول القوم ، وإعجابهم بأصنام الكنعانيين ، وعيبة موسى ، ولينِ هارون ، وخشيته من القوم ، وخشية شيوخ إسرائيل من عامتهم ، وغير ذلك مما يعلمه الله وأيقن موسى به إيقاناً إجمالياً .

والخبر في قوله : ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ الآية : مستعمل في إنشاء التمجيد بسعة العلم والقدرة ، والتعريض بطلب استبقائهم وهدايتهم ، وليس مستعملاً في الاعتذار لقومه بقرينة

قوله : ﴿ تضل بها من تشاء ﴾ الذي هو في موضع الحال من ﴿ فتنتك ﴾ فالإضلال بها حال من أحْوالها .

(80/290)

ثم عرَّض بطلب الهداية لهم بقوله : ﴿ وتهدي من تشاء ﴾ والمجرور في قوله ﴿ بها ﴾ متعلق بفعل ﴿ تضل ﴾ وحده ولا يتنازعه معه فعل ﴿ تهدي ﴾ لأن الفتنة لا تكون سبب هداية بقرينة تسميتها فتنة ، فمن قدر في التفسير : وتهدي بها أو نحوه ، فقد غفل .

والباء : إما للملابسة ، أي تضل من تشاء ملابساً لها ، وإما للسببية ، أي تضل بسبب تلك الفتنة ، فهي من جهة فتنة ، ومن جهة سبب ضلال .

والفتنة ما يقع به اضطراب الأحوال ، ومرجها ، وتشتت البال ، وقد مضى تفسيرها عند قوله تعالى : ﴿ وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة ﴾ في سورة البقرة (102) .

وقوله : ﴿ وحسبوا أن لا تكون فتنة ﴾ في سورة العقود (71) وقوله : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ في سورة الأنعام (23) .

والقصد من جملة : ﴿ أنت ولينا ﴾ الاعتراف بالانقطاع لعبادة الله تعالى ، تمهيداً لمطلب

المغفرة والرحمة ، لأن شأن الولي أن يرحم مولاه وينصره .

والولي : الذي له وَلاية على أحد ، والوَلايةِ حلف أو عتق يقتضي النصرة والإعانة ، فإن كان من جانبين متكافئين فكلا المتعاقدين يقال له مَولى ، وإن كان أحد الجانبين أقوى قيل للقوي (ولي) وللضعيف (مَولى) وإذ قد كانت الولاية غير قابلة للتعدد ، لأن المرء لا يتولى غيرَ مواليه ، كان قوله : ﴿ أنتَ ولينا ﴾ مقتضياً عدم الانتصار بغير الله .

وفي صريحه صيغة قصر .

والتفريع عن الولاية في قوله : ﴿ فاغفر لنا ﴾ تفريع كلام على كلام وليس المراد أن الولي يتعين عليه الغفران .

وقدم المغفرة على الرحمة لأن المغفرة سبب لرحمات كثيرة ، فإن المغفرة تنهية لغضب الله المترتب على الذنب ، فإذا انتهى الغضب تسنى أن يخلفه الرضا .

والرضا يقتضي الإحسان .

و ﴿ وخيرُ الغافرين ﴾ الذي يغفر كثيراً ، وقد تقدم قريب منه في قوله تعالى : ﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ في سورة آل عمران (150) .

(81/290)

وإنما عطف جملة : ﴿ وأنت خير الغافرين ﴾ لأنه خبر في معنى طلب المغفرة العظيمة ، فعطف على الدعاء ، كأنه قيل : فاغفر لنا وارحمنا واغفر لنا جميع ذنوبنا ، لأن الزيادة في المغفرة من آثار الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(82/290)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ﴾

وكلمة " اختار " تدل على أن العمل الإِختياري يُرجح العقل فيه فعلاً على عدم فعل أو على فعل آخر ، وإلا فلا يكون في الأمر اختيار ؛ لأن " اختار " تعني طلب الخير والخيار ، وكان في مكنتك أن تأخذ غيره ، وهذا لا يتأتى إلا في الأمور الاختيارية التي هي مناط التكليف ، مثال ذلك : اللسان خاضع لإِرادة صاحبه الاختيارية التي هي مناط التكليف ، مثال ذلك : اللسان خاضع لإِرادة صاحبه فخضع للمؤمن حين قال : لا إله إلا الله ، وخضع للملحد حين قال – لعنه الله – : لا وجود لله ، ولم يعص اللسان في هذه ، ولا في تلك . والذي رجح أمراً على أمر هو ترجيح الإِيمان عند المؤمن في أن يقول : لا إله إلا الله ، وترجيح الإِلحاد عند الملحد في أن يقول ما يناقض ذلك . والحق هنا يقول : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ

رَجُلاً ﴾ .

والذين درسوا اللغة يقولون : إن هناك حدثاً . وأنّ هناك موجدا للحدث نسميه فاعلاً مثل قولنا : "كتب زيد الدرس " أي أن زيداً هو الذي أدى الكتابة ، ونسمي " الدرس " الذي وقعت عليه الكتابة مفعولاً به ، ومرة يكون هناك ما نسميه " مفعولاً له " أو " مفعولاً لأجله " مثل قول الابن : قمت لوالدي إجلالاً ، فالذي قام هو الابن ، والإِجلال كان سبباً في إِيقاع الفعل فنسميه " مفعولا لأجله " : ونقول : " صُمْت يوم كذا " ونسميه " مفعولاً فيه " ، وهو أن الفعل ، وقع في هذا الزمن . فمرة يقع الحدث على شيء فيكون مفعولاً به ، ومرة يقع لأجل كذا فيكون مفعولاً لأجله ، ومرة يقع في يوم كذا ؛ العصر أو الظهر فيكون مفعولاً فيه ، ومرة يكون مفعولاً معه " مثل قولنا : سرت والنيل : أي أن الإِنسان سار بجانب النيل وكلما مشى وجد النيل في جانبه .

وهنا يقول الحق : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا . . . ﴾ [الأعراف : 155]

(83/290)

ولأن اختيار موسى للسبعين كان وقع من القوم ؛ فيكون المفعول قد جاء من هؤلاء القوم ، ويسمى " مفعولاً منه " ؛ لأنه لم يخترهم كلهم ، إنما اختار منهم سبعين رجلاً لميقاته مع الله سبحانه .

وقالوا في علة السبعين إن من اتبعوا موسى كانوا أسباطاً ، فأخذ من كل سبط عدداً من الرجال ليكون كل الأسباط ممثلين في الميقات ، وكلمة " ميقات " مرت قبل ذلك حن قال الله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ . . . ﴾ [الأعراف : 143]

وهل الميقات هذا هو الميقات الأول ؟ لا ؛ لأن الميقات الأول كان لكلام موسى مع الله ، والميقات الثاني هو للاعتذار عن عبدة العجل . ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفة قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ . . ﴾ [الأعراف : 155]

ولماذا أخذتهم الرجفة ؟

لأنهم لم يقاوموا الذين عبدو العجل المقاومة الملائمة ، وأراد الله أن يعطي لهم لمحة من عذابه ، والرجفة هي الزلزلة الشديدة التي تهز المرجوف وتخيفه وتترهبه من الراجف . وحين أخذتهم الرجفة قال موسى : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ .

أوضح موسى : لقد أحضرتهم من قومهم . وأهلوهم يعرفون أن السبعين رجلاً قد جاءوا معي ، فإن أهلكتهم يا رب فقد يظن أهلهم أنني أحضرتهم ليموتوا وأسلمتهم إلى الهلاك .

ولو كنت مميتهم يا رب وشاءت مشيئتك ذلك لأمتّهم من قبل هذه المسألة وأنا معهم أيضاً .

ويضيف القرآن على لسان موسى والقوم معاً : ﴿ . . . أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهآء مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فاغفر لَنَا وارحمنا وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ﴾ ﴿ الأعراف : 155]

(84/290)

أنت أرحم يا رب من أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وهذا القول يدل على أن العملية عملية فعل ، والفعل هو عبادة العجل ؛ فلو أن هذا هو الميقات الأول لما احتاج إلى مثل هذا القول ؛ لأن قوم موسى لم يكونوا قد عبدوا العجل بعد . ولكنهم قالوا بعد الميقات الأول : مادام موسى قد كلم الله ، فلابد لنا أن نرى الله ، وقالوا فعلاً لموسى : ﴿ أَرِنَا الله جَهْرَةً . . ﴾ [النساء : 153]

إذن نجد أن ما حصل من قوم موسى بعد الميقات الأول هو قولهم : ﴿ أَرِنَا الله جَهْرَةً ﴾ وليس الفعل ، أما هنا فالآية تتحدث عن الفعل : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهآء مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ .

وهكذا نعلم أن الآية تتحدث عن ميقات ثانٍ تحدد بعد أن عبد بعضهم العجل ، والفتنة

هي الاختبار ، والاختبار ليس مذموماً في ذاته ، ولا يقال في أي امتحان إنه مذموم . إنما المذموم هو النتيجة عند من يرسب ، والاختبار والامتحان غير مذموم عند من ينجح .

إذن فالفتنة هي الابتلاء والاختبار ، وهذا الاختبار يواجه الإِنسان الجاهل الذي لا يعلم بما تصير إليه الأمور وتنتهي إليه ليختار الطريق ويصل إلى النتيجة . ولا يكون ذلك بالنسبة لله ؛ لأنه يعلم أزلاً كل سلوك لعباده ، لكن هذا العلم لا يكون حجة على العباد ؛ ولابد من الفعل من العباد ليبرز ويظهر ويكون له وجود في الواقع لتكون الحجة عليهم . والأخذ بالواقع هو الأعدل .

وقول موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ . . . ﴾ [الأعراف : 155]

هذا القول يعني : أنك يا رب قد جعلت الاختبار لأنك خلقتهم مختارين ؛ فيصح أن يطيعوا ويصح أن يعصوا . والله سبحانه هو من يُضل ويهدي ؛ لأنه مادام قد جعل الإِنسان مختاراً فقد جعل فيه القدرة على الضلال ، والقدرة على الهدى .

(85/290)

وقد بيّن سبحانه من يشاء هدايته ، ومن يشاء إضلاله فقال : ﴿ . . . والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾

[آل عمران : 86]

والسبب في عدم هدايتهم هو ظلمهم ، وكذلك يقول الحق : ﴿ . . . والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 264]

وهكذا نرى أن الكفر منهم هو الذي يمنعهم من الهداية . إذن فقد جعل الله للعبد أن يختار أو أن يختار الضلال ، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قهراً عن الله ؛ لأنه سبحانه لو لم يخلق كلا منا مختاراً لما استطاع الإِنسان أن يفعل غير مراد الله ، ولكنه خلق الإِنسان مختاراً ، وساعة ما تختار – أيها الإِنسان – الهداية أو تختار الضلال فهذا ما منحه الله لك ، وسبحانه قد بيّن أن الذي يظلم ، والذي يفسق هو أهل لأن يعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين من يختار الهداية ؛ لأنه أهل أن يعينه الله على الهداية .

ويقول الحق على لسان سيدنا موسى في نهاية هذه الآية : ﴿ . . . أَنتَ وَلِيُّنَا فاغفر لَنَا وارحمنا وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ﴾ [الأعراف : 155]

والولي هو الذي يليك ، ولا يليك إلا من قربته منك بودك له ، ولم تقربِه إلا لحيثية فيه قد تعجبك وتنفعك وتساعدك إذا اعتدى عليك أحد أو تأخذ من عمله لأنه عليم . إذن

فالمعنى الأول لكلمة الولي أي القريب الذي قربته لأن فيه خصلة من الخصال التي قد تنفعك ، أو تنصرك ، أو تعلمك .

(86/290)

وقول موسى ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ أي ناصرنا ، والأقرب إلينا ، فإن ارتكب الإنسان منا ذنباً فأنت أولى به ، إنك وحدك القادر على أن تغفر ذنبه ؛ لذلك يقول موسى : ﴿ فاغفر لَنَا ﴾ ، ونعلم من هذا أنه يطلب درء المفسدة أولاً لأن درءها مقدم على جلب المصلحة ، فقدم موسى عليه السلام طلب غفر الذنب ، ثم طلب ودعا ربّه أن يرحمهم ، وهذه جلب منفعة . وقد قال ربنا في مجال درء المفسدة : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار ﴾ وهذا درء مفسدة وهو البعد عن النار : ﴿ وَأُدْخِلَ الجنة ﴾ . وهذا جلب منفعة ومصلحة . إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، – وعلى سبيل المثال – إنك ترى تفاحة على الشجرة ، وتريد أن تمد يدك لتأخذها ، ثم التفت فوجدت شابًّا يريد أن يقذفك بطوبة ، فماذا تصنع ؟ انت في مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع الطوبة أولاً ثم تأخذ التفاحة من بعد ذلك . وهذا هو درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة ، وهنا درء المفسدة متمثل في قول موسى : ﴿ فاغفر لَنَا ﴾ ثم قال بعد ذلك : ﴿ وارحمنا ﴾ وهذا جلب

مصلحة ، والقرآن يقول : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ . . . ﴾ [الإِسراء : 82]

لأن الداء يقع أولاً ، وحين تذهب لمنهج القرآن يشفيك من هذا الداء ، والرحمة ألاَّ يجيء لك داء بالمرة . فإذا أخذت القرآن لك نصيراً فلن يأتي لك الداء أبداً . ﴿ . . . فاغفر لَنَا وارحمنا وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ﴾ [الأعراف : 155]

ومثلها مثل قول الحق سبحانه : ﴿ خَيْرُ الرازقين ﴾ ، و ﴿ خَيْرُ الماكرين ﴾ ، و ﴿ خَيْرُ الوارثين ﴾ و ﴿ خَيْرُ الغافرين ﴾ هنا ؛ لأن المغفرة قد تكون من الإِنسان للإِنسان ، ولكنا نعرف أن مغفرة الرب فوق مغفرة الخلق ؛ لأن الغافر من البشر قد يغفر رياء ، وقد يغفر سمعة ، قد يغفر لأنه خاف بطش المقابل . لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير الغافرين من غير مقابل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(87/290)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ واختار موسى قومه ﴾ الآية . قال : كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً فاختار سبعين رجلاً فبرز بهم ، فكان ليدعو ربكم فيما دعوا الله أن قالوا : اللهمَّ اعطنا ما لم تعطه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم ، فأخذتهم الرجفة قال موسى ﴿ لو شئت أهلكتهم من قبل . . . إن هي إلا فتنتك ﴾ يقول : إن هو إلا عذابك تصيب به من تشاء وتصرفه عمن تشاء .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن نوف الحميري قال : لما اختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقات ربه قال الله لموسى : أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً ، واجعل السكينة معكم في بيوتكم ، واجعلكم تقرأون التوراة من ظهور قلوبكم فيقرأها الرجل منكم والمرأة ، والحر والعبد ، والصغير والكبير ، فقال : موسى : إن الله قد جعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً . قالوا : لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس . قال : ويجعل السكينة معكم في بيوتكم . قالوا : لا نريد إلا كما كانت في التابوت . قال : ويجعلكم تقرأون التوراة عن ظهور قلوبكم ، فيقرأها الرجل منكم والمرأة ، والحر والعبد ، والصغير والكبير . قالوا : لا نريد أن نقرأها إلا نظراً . قال الله ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ إلى قوله ﴿ المفلحون ﴾ قال موسى : أتيتك بوفد قومي فجعلت وفادتهم لغيرهم اجعلني نبي هذه الأمة . قال : إن نبيهم منهم . قال : اجعلني من هذه الأمة . قال : إنك لن تدركهم . قال : رب أتيتك بوفد قومي فجعلت وفادتهم لغيرهم . قال : فأوحى الله إليه ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون

بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : 159] قال : فرضي موسى . قال نوف : ألا تحمدون رباً شهد غيبتكم ، وأخذ لكم بسمعكم ، وجعل وفادة غيركم لكم ؟ .

(88/290)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن نوف البكالي . أن موسى لما اختار من قومه سبعين رجلاً قال لهم : فِدوا الى الله وسلوه فكانت لموسى مسألة ولهم مسألة ، فلما انتهى إلى الطور المكان الذي وعده الله به قال لهم موسى : سلوا الله . قالوا ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ [النساء : 153] قال : ويحكم . . . ! تسألون الله هذا مرتين ؟ قال : هي مسألتنا أرنا الله جهرة فأخذتهم الرجفة فصعقوا ، فقال موسى : أي رب جئتك سبعين من خيار بني إسرائيل ، فأرجع إليهم وليس معي منهم أحد ، فكيف أصنع ببني إسرائيل ، أليس يقتلونني ؟ فقيل له : سل مسألتك : قال : أي رب إني أسألك أن تبعثهم . فبعثهم الله فذهبت مسألتهم ومسألته ، وجعلت تلك الدعوة لهذه الأمة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي سعيد الرقاشي في قوله ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً ﴾ قال : كانوا قد جاوزوا الثلاثين ولم يبلغوا الأربعين ، وذلك أن من جاوز الثلاثين فقد ذهب جهله وصباه ، ومن بلغ الأربعين لم يفقد من عقله شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ﴾ قال : لتمام الموعد . وفي قوله ﴿ فلما أخذتهم الرجفة ﴾ قال : ماتوا ثم أحياهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي العالية في قوله ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ قال : بليتك .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ قال : مشيئتك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : قال موسى : يا رب إن هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل أرأيت الروح من نفحها فيه ؟ قال الرب : أنا . قال : رب فأنت إذاً أضللتهم .

(89/290)

وأخرج ابن أبي حاتم عن راشد بن سعد . أن موسى لما أتى ربه لموعده قال : يا موسى ، إن قومك افتتنوا من بعدك . قال : يا رب وكيف يفتنون وقد أنجيتهم من فرعون ، ونجيتهم من البحر ، وأنعمت عليهم ؟ قال : يا موسى إنهم اتخذوا من بعدك عجلاً جسداً له خوار . قال : يا رب فمن جعل فيه الروح ؟ قال : أنا . قال : فأنت أضللتهم يا رب . قال : يا موسى ، يا رأس النبيين ، يا أبا الحكماء ، إني رأيت ذلك في قلوبهم فيسرته لهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي عمر العدني في مسنده وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن السبعين الذين اختارهم موسى من قومه إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يرضوا بالعجل ، ولم ينهوا عنه .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن أولئك السبعين كانوا يلبسون ثياب الطهرة ثياب يغزله وينسجه العذارى ، ثم يتبرزون صبيحة ليلة المطر إلى البرية فيدعون الله فيها ، فوالله ما سأل القوم يومئذ شيئاً إلا أعطاه الله هذه الأمة .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن . أن السبعين الذين اختار موسى من قومه كانوا يعرفون بخضاب السواد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(90/290)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : واخْتَارَ مُوسَى .

الآية ، " اخْتَار " يتعدَّى لاثنين ، لإى أوَّلهما بنفسه ، وإلى ثانيهما بحرف الجرِّ ، ويجوزُ حذفُهُ .

تقول : اخْتَرْتُ زيداً من الرِّجالِ ثم تتسع فتحذف " من " فتقولُ " زَيْداً الرِّجَالَ " قال : [البسيط]

2587 - اخْتَرْتُكَ النَّاسَ إذْ رَثَّتْ خلائِقُهُمْ . . .

واعْقَلَّ مَنْ كَانَ يُرْجَى عندهُ السُّؤلُ

وقال الرَّاعي : [الطويل]

2588 - فَقُلْتُ لَهُ اخْتَرْهَا قَلُوصاً سَمِينَةً . . .

ونابا علينا مِثْلَ نَابِكَ فِي الحَيَا

وقال الفرزدق : [الطويل]

2589 - مِنَّا الذي اخْتِيرَ الرِّجالَ سَماحَةً . . .

وجُوداً إذَا هَبَّ الرِّيَاحُ الزَّعازعُ

وهذا النوعُ مقصورٌ على السَّماعِ ، حصرهُ النحاة في ألفاظ ، وهي : " اختار " و " أمَرَ " .

كقوله : [البسيط]

2590 - أمَرْتُكَ الخَيْرَ فافْعَلْ مَا أمِرْتَ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وذَا نَشَبِ

و " اسْتَغْفَرَ " ، كقوله : [البسيط]

2591 - سْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ . . .

رَبَّ العبادِ إليهِ الوَجْهُ والعملُ

و" سَمَّى " ؛ كقوله : سَمَّيْتُ ابني بِزَيْدٍ ، وإن شِئْتَ : زَيْداً ، و" دَعَا " بمعناه ؛ قال : [الطويل]

(91/290)

2592 - دَعَتْنِي أخَاهَا أم عَمْرٍو ، ولَمْ أكُنْ . . .

أخَاهَا ولَمْ أرْضَعْ لَهَا بِلَبَانِ

و" كَنَى " ؛ تقولُ : كَنَيْتُه بفلانٍ ، وإن شئت : فلاناً .

و" صَدَقَ " قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ [آل عمران : 152] ، و" زَوَّجَ " ؛ قال تعالى : ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ .

ولم يزد أبو حيَّان عليها .

ومنها أيضاً : " حدَّث " و" نَبَّأ " و" أخْبَرَ " و" خَبَّرَ " إذا لم تُضَمَّنْ معنى " أعْلَمَ " .

قال تعالى : ﴿ مَنْ أَنبَأَكَ هذا ﴾ [التحريم : 3] ؛ وقال : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ [مريم : 3] .

وتقول حدَّثْتُكَ بكذا ، وإن شئت : كذا ؛ قال : [الطويل]

2593 - لَئِنْ كانَ مَا حُدِّثْتُهُ اليَوْمَ صَادِقاً . . .

أَصُمْ فِي نَهَارِ القَيْظِ لِلشَّمْسِ بَادِيَا

و" قومه " مفعولٌ ثانٍ على أوَّلِهِمَا ، والتقديرُ : واختار موسى سبعين رجلاً من قومه ، ونقل أبو البقاءِ عن بعضهم أنَّ " قَومَهُ " مفعول أول ، و" سَبْعِينَ " بدلٌ ، أي : بدل بعض من كل ، ثم قال : " وأرى أنَّ البدل جائزٌ على ضَعْفٍ ، وأنَّ التقدير : سَبْعِينَ رجلاً منهم " .

قال شهابُ الدِّين : إنَّما كان ممتنعاً أو ضعيفاً ؛ لأنَّ فيه حذف شيئين .

أحدهما : المختار منه ؛ فإنَّهُ لابُدَّ للاختيار من مختارٍ ، ومختار منه ، وعلى البدل إنَّما ذُكِر المختارُ دون المختار منه .

والثاني : أنَّه لابُدَّ من رابط بين البدل والمبدل منه ، وهو " مِنْهُمْ " كما قدره أبو البقاء ، وأيضاً فإنَّ البدل في نيَّةِ الطَّرح .

قال ابْنُ الخطيبِ : وعندي فيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير : واختار موسى قومه لميقاتنا ، وأراد بـ " قَوْمَهُ " السبعين المعتبرين منهم ؛ إطلاقاً لاسم الجنس على ما هو المقصود منه .

وقوله سَبْعِينَ رجلاً عطف بيانٍ ؛ وعلى هذا فلا حاجةَ إلى ما ذكروه من التكلُّفات .

فصل

الاختيار : افتعالٌ من لفظ الخير كالمصطفى من الصفوة .

يقال : اختار الشَّيء إذا أخذ خيره وخياره ، وأصل اختارَ : اختير ، فتحرّكت الياءُ وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً نحو : بَاعَ : ولذلك استوى لفظ الفاعل والمفعول فقيل فيهما مختار ، والأصل مختِير ومختَير فقلبت الياء فيهما ألفاً .

قوله : " لميقاتِنَا " متعلقٌ بـ " اختيارَ " أي : لأجل ميقاتنا ، ويجوز أن يكون معناها الاختصاصَ أي : اختارهم مخصصاً بهم الميقات ، كقولك : اخترلك كذا .

قوله " لَوْ شِئْتَ " مفعولُ المشيئة محذوف ، أي : لو شئت إهلكانا ، و " أهلكْتَهُم " جواب " لَوْ " والأكثر الإتيانُ باللاّم في هذا النحو ولذلك لم يأتِ مجرداً منها إلاَّ هنا وفي قوله : ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ ﴾ [الأعراف : 100] وفي قوله : ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الواقعة : 70] .

ومعنى من قبل أي قبل الاختيار ، وأخذ الرَّجفة .

وقوله : " وإيَّايَ " قد يتعلَّقُ به من يرى جواز انفصال الضمير مع القُدْرةِ على اتصاله ، إذ كان يمكن أن يقال : أهلكتنا .

وهو تعلُّقٌ واهٍ جداً ، لأنَّ مقصوده ـ صلى الله عليه وسلم ـ التنصيص على هلاك كُلٍّ على حده تعظيماً للأمر ، وأيضاً فإنَّ موسى لَمْ يتعاط ما يقتضي إهلاكهُ ، بخلاف قومه .

وإنَّما قال ذلك تسليماً منه لربِّه ، فعطف ضميرَه تنبيهاً على ذلك ، وقد تقم نظيرُ ذلك في

قوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [النساء : 131] وقوله : ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة : 1] .

قوله : " أَتُهْلِكُنَا " يجوز فيه أن يكون على بابه أي : أَتَعُمُّنَا بالإهلاك أم تخصُّ به السفهاء مِنَّا ؟ ويجوز أن يكون بمعنى النَّفي ، أي : ما تُهْلك مَنْ لَمْ يُذْنِبْ بذنب غيره ، قاله ابنُ الأنباري .

قال وهو كقولك : أتهينُ من يكرمك " ؟ وعن المُبرِّدِ هو سؤال استعطاف ومِنَّا في محل نصب على الحال من السُّفَهَاء ويجوز أن يكون للبيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 331.335 ﴾ . باختصار .

(93/290)

فصل فى منزلة البسط والتخلي عن القبض

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة البسط والتخلي عن القبض

وهي منزلة شريفة لطيفة وهي عنوان على الحال وداعية لمحبة الخلق وقد غلط صاحب المنازل حيث صدرها بقوله تعالى حاكيا عن كليمه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنْ

هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ [الأعراف: 155] وكأنه فهم من هذا الخطاب: انبساطا بين موسى وبين الله تعالى حمله على أن قال: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ وسمعت بعض الصوفية يقول لآخر وهما في الطواف لما قال: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ تدارك هذا الانبساط بالتذلل بقوله: ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: 155] أو نحو من هذا الكلام وكل هذا وهم وفهم خلاف المقصود فالفتنة ههنا: هي الامتحان والاختبار كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام: 53] وقوله: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن: 16-17] وقوله: ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: 35] والمعنى: أن هذه الفتنة اختبار منك لعبدك وامتحان تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء فأي تعلق لهذا بالانبساط وهل هذا إلا توحيد وشهود

(94/290)

للحكمة وسؤال للعصمة والمغفرة وليس للعارف في هذه المنزلة حظ مع الله وإنما هي متعلقة بالخلق وصاحب المنازل: جعلها ثلاث درجات الأولى: مع الناس والثانية والثالثة: مع الله

وسنبين ما في كلامه بحول الله وقوته وتوفيقه قال: الانبساط: إرسال السجية والتحاشي من وحشة الحشمة السجية الطبع وجمعها سجايا يقال: سجية وخليفة وطبيعة وغريزة و إرسالها تركها في مجراها والتحاشي من وحشة الحشمة التحاشي: هو تجنب الوحشة الواقعة بينك وبين من تحبه وتخدمه فإن مرتبته تقتضي احتشامه والحياء منه وإجلاله عن انبساطك إليه وذلك نوع وحشة فالانبساط: إزالة تلك الوحشة لا تسقطك من عينه بل تزيدك حبا إليه ولا سيما إذا وقع في موقعه قال: وهو السير مع الجبلة أي المشي مع ما جبل الله عليه العبد من الأخلاق من غير تكلف قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: الانبساط مع الخلق وهو أن لا تعتزلهم ضنا على نفسك أو شحا على حظك وتسترسل له في فضلك وتسعهم بخلقك وتدعهم يطؤونك والعلم قائم وشهود المعنى دائم يريد: لا تبخل عليهم بنفسك فيحملك ذلك البخل على اعتزالهم وتشح بحظك في الخلوة وراحة العزلة: أن تذهب بمخالطتهم بل تحملك السماحة والجود والبذل على أن تترك ذلك لراحة إخوانك بك وانتفاعهم بمجالستك فتتكرم عليهم بحظك في عزلتك وخلوتك وتؤثرهم به على نفسك وهذا من الفتوة والمروءة والتخلق ضد من أضدادها قوله: وتسترسل لهم في فضلكر

(95/290)

يعني: إذا استرسلت معهم ولم تجذب عنهم عنانك: نالوا من فضلك فيكون استرسالك سببا لنيلهم لفضلك وقبض العنان سببا للحرمان وتسعهم بخلقك باحتمال ما يبدو منهم من سوء العشرة فخذ منهم ما أمر الله نبيه أن يأخذه من أخلاق الناس وهو العفو وتدعهم يطؤونك أي يدوسونك من لينك وتواضعك وخفض جناحك بحيث لا تترك لنفسك بينهم رتبة تتقاضاهم أن يحترموك لأجلها هذا معنى كلامه وقوله: والعلم قائم وشهود المعنى دائم أما قيام العلم: فهو أن يكون هذا الاسترسال موافقا للشرع غير مخرج عن حدوده وآدابه بحيث لا تحملهم على تعدي حدود الله وتضييع حقه وحقوق عباده وأما دوام شهود المعنى فهو حفظ حالك وقلبك مع الله ودوام إقبالك عليه بقلبك كله فأنت معهم مسترسل بشبحك ورسمك وصورتك فقط ومفارقهم بقلبك وسرك مشاهدا للمعنى الذي به حياتك فإذا فارقته كنت كالحوت إذا فارق الماء فإن هذا المعنى هو حياة القلب والروح فإذا فات العبد علته الكآبة وغمره الهم والغم والأحزان وتلون في أفعاله وأقواله وتاه قلبه في الأودية والشعاب وفقد نعيم الدنيا والآخرة وهذا هو الذي أشار إليه يحيى الصرصري في قوله:

إذا صار قلب العبد للسر معدنا . . . تلوح على أعطافه بهجة السنا

وإن فاته المعنى علته كآبة . . . فأصبح في أفعاله متلونا

فمتى كان شهود هذا المعنى قائما في قلبك: لا يضرك مخالطة من لا تسلبك إياه مخالطته

والانبساط إليه

فصل قال: الدرجة الثانية: الانبساط مع الحق وهو أن لا يحبسك

(96/290)

خوف ولا يحجبك رجاء ولا يحول بينك وبينه آدم ولا حواء يريد: أن لا يمنعك عن الانبساط إليه خوف فإن مقام الخوف لا يجامع مقام الانبساط والخوف من أحكام اسم القابض والانبساط من أحكام اسم الباسط و البسط عندهم: من مشاهدة أوصاف الجمال والإحسان والتودد والرحمة و القبض من مشاهدة أوصاف الجلال والعظمة والكبرياء والعدل والانتقام وبعضهم يجعل الخوف من منازل العامة والانبساط من منازل الخاصة إذ الانبساط لا يكون إلا للعارفين أرباب التجليات وليس في حق هؤلاء خوف وأما قوله: ولا يحجبك رجاء فلأن الراجي لطلبه حاجته تحتاج إلى التملق والتذلل فيحجبه رجاؤه وطمعه فيما يناله من المعظم عن انبساطه كالسائل للغني فإن سؤاله وطمعه يمنعه من انبساطه إليه فإذا غاب عن ذلك انبسط وقوله: ولا يحول بينك وبينه آدم ولا حواء استعارة والمعنى: أنك تراه أقرب إليك من أبيك وأمك وأرحم بك منهما وأشفق عليك فلا توسط بينك وبينه أبا خرجت من صلبه ولا أما ركضت في رحمها

وفيه معنى آخر وهو الإشارة إلى أنك تشاهد خلقه لك بلا واسطة كما خلق آدم وحواء فتشاهد خلقه لك بيده ونفخه فيك من روحه وإسجاد ملائكته لك وإبعاد إبليس حيث لم يسجد لك وأنت في صلب أبيك آدم

وهذا يوجب لك شهود الانطواء عن الانبساط وهو رحب الهمة لانطواء انبساط العبد في بسط الحق جل جلاله ومعنى هذا: أن لا يرى العبد لنفسه انبساطا ولا انقباضا بل ينطوي انبساطه ويضمحل في صفة البسط التي للحق جل جلاله وهذا شهود معنى اسم الباسط عز وجل فهذا تقدير كلامه على أن فيه مقبولا ومردودا ولا معنى لتعلق هذه الصفة بالرب تعالى ألبتة وأما تعلقها بالخلق: فصحيح

(97/290)

نعم ههنا مقام اشتباه وفرق وهو أن المحب الصادق: لابد أن يقارنه أحيانا فرح بمحبوبه ويشتد فرحه به ويرى مواقع لطفه به وبره به وإحسانه إليه وحسن دفاعه عنه والتلطف في إيصاله المنافع والمسار والمبار إليه بكل طريق ودفع المضار والمكاره عنه بكل طريق وكلما فتش عن ذلك اطلع منه على أمور عجيبة لا يقف وهمه ومقتبسه لها على غاية بل ما خفي عنه منها أعظم فيداخله من شهود هذه الحالة نوع إدلال وانبساط وشهود نفسه في منزلة

المراد المحبوب ولا يسلم من آفات ذلك إلا خواص العارفين

وصاحب هذا المقام نهايته: أن يكون معذورا وما يبدو منه من أحكامه بالشطحات أليق منه بأحكام العبودية ولم يكن لأحد من البشر في منزلة القرب والكرامة والحظوة والجاه: ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى فكان أشد الخلق لله خشية وتعظيما وإجلالا وحاله كلها مع الله تشهد بتكميل العبودية وأين درجة الانبساط من المخلوق من التراب إلى الانبساط مع رب الأرباب نعم لا ينكر فرح القلب بالرب تعالى وسروره به وابتهاجه وقرة عينه ونعيمه بحبه والشوق إلى لقائه: إلا كثيف الحجاب حجري الطباع فلا بهذا الميعان ولا بذاك الجمود والقسوة وبهذا ومثله طرق المتأخرون من القوم السبيل إليهم وفتحوا للمقالة فيهم بابا فالعبد الخائف الوجل المشفق الذليل بين يدي الله عز وجل المنكس الرأس بين يديه الذي لا يرضى لربه شيئا من عمله: هو أحوج شيء إلى عفوه ورحمته ولا يرى نفسه في نعمته إلا طفيليا ولا يرى نفسه محسنا قط وإن صدر منه إحسان: علم أنه ليس من نفسه ولا بها ولا فيها وإنما هو محض منة الله عليه وصدقته عليه فما لهذا والانبساط نعم انبساطه انبساط فرح وسرور ورضى وابتهاج فإن كان المراد بالانبساط هذا: فلا ننكره لكنه غير الاسترسال المذكور والاستشهاد عليه بالآية يبين مراده والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مدارج السالكين حـ 2 صـ 354. 359﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) ﴾

شتان بين أمة وأمة ؛ أمة يختارهم نبيُّهم – عليه السلام ، وبين أمة اختارها الحقُّ – سبحانه ، فقال : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان : 32] .

الذين اختارهم موسى قالوا : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ [النساء : 153] والذين اختارهم الحق – سبحانه – قال الله تعالى فيهم : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22] .

ويقال إن موسى – عليه السلام – جاهر الحقَّ – سبحانه – بنعت التحقيق وفارق الحشمة وقال صريحاً : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ ثم وَكَلَ الحكمَ إليه فقال : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ ثم عقَّبها ببيان التضرع فقال : ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ ، ولقد قدَّم الثناءَ على هذا الدعاء فقال : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 574 . 575 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

وكأنه أحسن العفو عنهم فقال عاطفاً على سؤاله فيه : ﴿ واكتب لنا ﴾ أي في مدة إحيائك لنا ﴿ في هذه الدنيا ﴾ أي الحاضرة والدنية ﴿ حسنة ﴾ أي عيشة راضية طيبة ﴿ وفي ﴾ الحياة ﴿ الآخرة ﴾ أي كذلك ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنا هدنا ﴾ أي تبنا ﴿ إليك ﴾ أي عما لا يليق بجنابك كما أمرتنا أن نخبر ما عساه يقع منا بالمبادرة إلى التوبة ، فبدأ بذكر عزة الربوبية وثنى بذلة العبودية وهما أقوى أسباب السعادة ، وهذا تلقين لهم وتعليم وتحذير من مثل ما وقعوا فيه وحث على التسليم ، وكأنه لما كان ذنبهم الجهر بما لا يليق به سبحانه من طلب الرؤية ، عبر بهذا اللفظ أو ما يدل على معناه تنبيهاً لهم على أن اسمهم يدل على التوبة والرجوع إلى الحق والصيرورة إلى الصلاح واللين والضعف في الصوت

والاستكانة في الكلام والسكوت عما لا يليق ، وأن يهودا الذي أخذ اسمه من ذلك إنما سموا به ونسبوا إليه تفاؤلاً لهم ليتبادروا إلى التوبة .

ولما كان في كلامه عليه السلام إنكار إهلاك الطائع بذنب العاصي وإن كان ذلك إنما كان على سبيل الاستعطاف منه والتملق مع العلم بأنه عدل منه تعالى وله أن يفعل ما يشاء بدليل قوله ﴿ ولو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ [الأعراف : 155] استأنف سبحانه الإخبار عن الجواب عن كلامه على وجه منبه للجماهير على أن له التصرف المطلق بقوله : ﴿ قال عذابي ﴾ أي انتقامي الذي يزيل كل عذوبه عمن وقع به ﴿ أصيب به ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ من أشاء ﴾ أي أذنب أو لم يذنب ﴿ ورحمتي ﴾ أي إنعامي وإكرامي .

(100/290)

ولما كان الإيجاد من الرحمة فإنه خير من العدم فهو إكرام في الجملة ، قال : ﴿ وسعت كل شيء ﴾ أي هذا شأنها وصفتها في نفس الأمر وإن بلغ في القبائح ما عساه أن يبلغ ، وهذا معنى حديث أبي هريرة في الصحيح " إن رحمتي سبقت - وفي رواية : غلبت - غضبي " سواء قلنا : إن السبق بمعنى الغلبة ، أو قلنا إنه على بابه ، إما الأول فلأن تعلق الرحمة أكثر ،

لأن كل ما تعلق به الغضب تعلقت به الرحمة بإيجاد وإفاضة الرزق عليه ، ولا عكس كالحيونات العجم والجمادات وأهل السعادة من المؤمنين والملائكة والحور وغيرهم من جنود الله التي لا تحصى .

ولما أعلم أن رحمته واسعة وقدرته شاملة ، وكان ذلك موسعاً للطمع ، سبب عن ذلك قوله ذاكراً شرط إتمام تلك الرحمة ترهيباً لمن يتوانى عن تحصيل ذلك الشرط : ﴿ فسأكتبها ﴾ أي أخص بدوامها بوعد لا خلف فيه لأجل تمكني بتمام القدرة مما أريد مبتوتاً أمرها بالكتابة ﴿ للذين يتقون ﴾ أي يوجد لهم هذا الوصف الحامل على كل خير ولا يخلّ بوسعها أن أمنع دوامها بعد الإيجاد من غيرهم ، فإن الكل لو دخلوا فيها دائماً ما ضاقت بهم ، فهي في نفسها واسعة ولكني أفعل ما أشاء .

ولما ذكر نظرهم إلى الخالق بالانتهاء عما نهى عنه والائتمار بما أمر به ، أتبعه النظر إلى الخلائق فقال : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ ولعله خصها لأن فرضها كان في هذا الميقات كما تقدم في البقرة ولأنها أمانة فيما بين الخلق والخالق كما أن صفات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي كتبها لهم وشرط قبول أعمالهم باتباعه كذلك ؛ ثم عمم بذكر ثمرة التقوى فقال مخرجاً لمن يوجد منه ذانك الوصفان في الجملة على غير جهة العموم : ﴿ والذين هم بآياتنا ﴾ أي كلها ﴿ يؤمنون ﴾ أي يصدقون بالقلب ويقرون باللسان ويعملون تصديقاً لذلك بالأكارن ،

فلا يكفرون ببعض ويؤمنون ببعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 122 .

124 ﴾

(101/290)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

اعلم أن هذا من بقية دعاء موسى صلى الله عليه وسلم عند مشاهدة الرجفة .

فقوله : ﴿ واكتب لَنَا فِى هذه الدنيا حَسَنَةً ﴾ معناه أنه قرر أولاً أنه لا ولى له إلا الله تعالى وهو قوله : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ ثم إن المتوقع من الولي والناصر أمران : أحدهما : دفع الضرر . والثاني : تحصيل النفع ، ودفع الضرر مقدم على تحصيل النفع ، فلهذا السبب بدأ بطلب دفع الضرر ، وهو قوله : ﴿ فاغفر لَنَا وارحمنا ﴾ ثم أتبعه بطلب تحصيل النفع وهو قوله : ﴿ واكتب لَنَا فِى هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الأخرة ﴾ وقوله : ﴿ واكتب ﴾ أي وجب لنا والكتابة تذكر بمعنى الإيجاب وسؤاله الحسنة في الدنيا والآخرة كسؤال المؤمنين من هذه الأمة حيث أخبر الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءاتِنَا فِى الدنيا حَسَنَةً

وَفِي الاخرة حَسَنَةً ﴾ [البقرة : 201] .

واعلم أن كونه تعالى ولياً للعبد يناسب أن يطلب العبد منه دفع المضار وتحصيل المنافع ليظهر آثار كرمه وفضله وإلهيته ، وأيضاً اشتغال العبد بالتوبة والخضوع والخشوع يناسب طلب هذه الأشياء ، فذكر السبب الأول أولاً ، وهو كونه تعالى ولياً له وفرع عليه طلب هذه الأشياء ، ثم ذكر بعده السبب الثاني ، وهو اشتغال العبد بالتوبة والخضوع فقال : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ قال المفسرون : ﴿ هُدْنَا ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك ، قال الليث : "الهود" التوبة ، وإنما ذكر هذا السبب أيضاً لأن السبب الذي يقتضي حسن طلب هذه الأشياء ليس إلا مجموع هذين الأمرين كونه إلهاً ورباً ووليا ، وكوننا عبيداً له تائبين خاضعين خاشعين ، فالأول : عهد عزة الربوبية .

والثاني : عهد ذلة العبودية ، فإذا حصلا واجتمعا فلا سبب أقوى منهما .

(102/290)

ولما حكى الله تعالى دعاء موسى عليه السلام ذكر بعده ما كان جواباً لموسى عليه السلام ، فقال تعالى قال : ﴿ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ ﴾ معناه إني أعذب من أشاء وليس لأحد علي اعتراض لأن الكل ملكي ، ومن تصرف في خالص ملكه فليس لأحد أن يعترض

عليه ، وقرأ الحسن ﴿ مَنْ أَسَاء ﴾ من الإساءة ، واختار الشافعي هذه القراءة وقوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فيه أقوال كثيرة .

قيل المراد من قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ هو أن رحمته في الدنيا عمت الكل ، وأما في الآخرة فهي مختصة بالمؤمنين وإليه الإشارة بقوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾

وقيل : الوجود خير من العدم ، وعلى هذا التقدير فلا موجود إلا وقد وصل إليه رحمته وأقل المراتب وجوده ، وقيل الخير مطلوب بالذات ، والشر مطلوب بالعرض وما بالذات راجح غالب ، وما بالعرض مرجوح مغلوب ، وقال المعتزلة : الرحمة عبارة عن إرادة الخير ، ولا حي إلا وقد خلقه الله تعالى للرحمة واللذة والخير لأنه إن كان منتفعاً أو متمكناً من الانتفاع فهو برحمة الله من جهات كثيرة وإن حصل هناك ألم فله الأعواض الكثيرة ، وهي من نعمة الله تعالى ورحمته فلهذا السبب قال : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وقال أصحابنا قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من العام الذي أريد به الخاص ، كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] .

أما قوله : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاوة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ .

فاعلم أن جميع تكاليف الله محصورة في نوعين : الأول : التروك ، وهي الأشياء التي يجب على الإنسان تركها ، والاحتراز عنها والاتقاء منها ، وهذا النوع إليه الإشارة بقوله :

﴿ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ والثاني : الأفعال وتلك التكاليف إما أن تكون متوجهة على مال الإنسان أو على نفسه .

(103/290)

أما القسم الأول : فهو الزكاة وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَيُؤْتُونَ الزكواة ﴾ .

وأما القسم الثاني : فيدخل فيه ما يجب على الإنسان علماً وعملاً أما العلم فالمعرفة ، وأما العمل فالإقرار باللسان والعمل بالأركان ويدخل فيها الصلاة وإلى هذا المجموع الإشارة بقوله : ﴿ والذين هُم بآياتنا يُؤْمِنُونَ ﴾ ونظيره قوله تعالى في أول سورة البقرة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب وَيُقِيمُونَ الصلاة وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : 2 ، 3] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 18.19 ﴾

(104/290)

وقال السمرقندى :

﴿ واكتب لَنَا فِى هذه الدنيا حَسَنَةً ﴾

يعني : اقض لنا وأعطنا في الدنيا العلم والعبادة والنصرة والرزق الحسن الحلال ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ يعني : وأعطنا في الآخرة حسنة وهي الجنة ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعني : تبنا إليك وأقبلنا إليك هكذا قال عكرمة ومجاهد وعطاء وقتادة .

وأصله في اللغة الرجوع من الشيء إلى الشيء ﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء ﴾ يعني : هذا عذابي أخصّ به من أشاء من العباد من كان أهلاً لذلك ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ إنْ رحمتهم ويقال : إن الزلزلة والرجفة كانتا عذابي ، وأنا أنزلتها ، وأنا أصيب بالعذاب من أشاء ، وما سألت من الغفران فمن رحمتي ورحمتي وسعت كل شيء من كان أهلاً لها .

ويقال : لكل شيء حظ من رحمتي .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن قتادة والحسن قالا : ورحمتي التي وسعت كل شيء يعني : وسعت في الدنيا البر والفاجر وفي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة .

ويقال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ تطاول إبليس ، وقال : أنا من تلك الأشياء فأكذبه الله تعالى وآيسه فأنزل قوله ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ يعني : فسأقضيها وسأوجهها للذين يتقون الشرك ﴿ وَيُؤْتُونَ الزكواة والذين هُم بآياتنا يُؤْمِنُونَ ﴾ فقالت اليهود والنصارى : نحن آمنا بالآيات ، وهي التوراة والإنجيل ، ونعطي الزكاة فهذه الرحمة لنا فأكذبهم الله تعالى وأنزل ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبى الأمى ﴾ الآية ويقال

ورحمتي وسعت كل شيء يعني : طمع كل قوم برحمتي ، وأنا أوجبتها للمؤمنين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يتقون الشرك ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، يعني : يصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(105/290)

وقال الثعلبى :

﴿ واكتب لَنَا ﴾ أي حقق [ووفقنا للأعمال الصالحة] يقال : [كتب] الله عليك السلامة ﴿ فِي هذه الدنيا حَسَنَةً ﴾ يعني الأعمال الصالحة ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ يعني المغفرة والجنّة ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ قرأ أبو رجزة السعدي : وكان مصححاً من القراء شاعراً . هدنا بكسر الهاء يقال : هاد يهيد ويهود إذا رجع وتحرك [فأدّله الميل] قال الشاعر :

قد علمت سلمى [رجلاً] . . . أني من الناس لها هايد

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى : ﴿ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ ﴾ من خلقي وقال الحسن وابن السميفع : مَنْ أشاء [. . . . .] من الإشاءة ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ ﴾ عمّت ﴿

كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قال الحسن وقتادة : إن رحمته في الدنيا وسعت البر والفاجر وهي يوم القيامة للمتّقين خاصة .

وقال عطيّة العوفي : وسعت كل شيء ولكن لا يجيب إلاّ الذين يتقون ، وذلك أنّ الكافر يرزق ويدفع عنه بالمؤمن لسعة رحمة الله للمؤمن يعيش فيها ، فإذا صار إلى الآخرة وجبت للمؤمنين خاصة كالمسير في كالمستضيء بنار غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه ، قال أبو روق : ورحمتي وسعت كل شيء يعني الرحمة التي قسمها بين الخلائق يعطفه بها بعضهم على بعض ، وقال ابن زيد : (ورحمتي وسعت كل شيء) هو التوبة ، وقال آخرون : لفظه عام ومعناه خاص لهذه الأُمّة .

وقال ابن عباس وقتادة وابن [جرير] وأبو بكر الهذلي : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قال إبليس : أنا من ذلك الشيء ونزعها الله من إبليس فقال ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فقالت اليهود والنصارى نحن نتّقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله منهم وجعلها لهذه الأُمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(106/290)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴾

في الحسنة هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها النعمة سميت حسنة لحسن موقعها في النفوس .

والثاني : أنها الثناء الصالح .

والثالث : أنها مستحقات الطاعة .

﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه تبنا إليك ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، وإبراهيم .

والثاني : رجعنا بالتوبة إليك ، لأنه من هاد يهود إذا رجع ، قاله علي بن عيسى .

والثالث : يعني تقربنا بالتوبة إليك من قولهم : ما له عند فلان هوادة ، أي ليس له عنده سبب يقربه منه ، قاله ابن بحر .

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : من أشاء من خلقي كما أصيب به قومك .

الثاني : من أشاء في التعجيل والتأخير .

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فيها ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن مخرجها عام ومعناها خاص ، تأويل ذلك : ورحمتي وسعت المؤمنين بي من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الآية قاله ابن عباس .

والثاني : أنها على العموم في الدنيا والخصوص في الآخرة ، وتأويل ذلك : ورحمتي وسعت في الدنيا البر والفاجر ، وفي الآخرة هي للذين اتقوا خاصة ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثالث : أنها التوبة ، وهي على العموم ، قاله ابن زيد .

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يتقون الشرك ، قاله ابن عباس .

والثاني : يتقون المعاصي ، قاله قتادة .

﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها زكاة أموالهم لأنها من أشق فرائضهم ، وهذا قول الجمهور . والثاني : معناه أي يطيعون الله ورسوله ، قاله ابن عباس والحسن ، وذهبا إلى أنه العمل بما يزكي النفس ويطهرها من صالحات الأعمال .

(107/290)

فأما المكنّى عنه بالهاء التي في قوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ فقد قيل إن موسى لما انطلق بوفد بني إسرائيل كلّمه الله وقال : إني قد بسطت لهم الأرض طهوراً ومساجد يصلون فيها حيث أدركتهم الصلاة إلا عند مرحاض أو قبر أو حمّام ، وجعلت السكينة في قلوبهم ، وجعلتهم يقرؤون التوراة عن ظهر ألسنهم ، قال فذكر موسى ذلك لبني إسرائيل ، فقالوا لا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا فاجعلها لنا في تابوت ، ولا نقرأ التوراة إلا نظراً ، ولا نصلي إلا في السكينة ، فقال الله تعالى ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ يعني ما مضى من السكينة والصلاة والقراءة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(108/290)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

﴿ اكتب ﴾ معناه أثبت واقض ، والكتب مستعمل في ما يخلد ، و ﴿ حسنة ﴾ لفظ عام في كل ما يحسن في الدنيا من عافية وغنى وطاعة لله تعالى وغير ذلك وحسنة الآخرة الجنة لا حسنة دونها ولا مرمى وراءها و ﴿ هُدنا ﴾ بضم الهاء معناه تبنا ، وقرأ أبو وجزة " هِدنا " بكسر الهاء ومعناه حركنا أنفسنا وجذبناها لطاعتك ، وهو مأخوذ من

هاد يهيد إذا حرك ، وقوله تعالى : ﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ﴾ الآية ، قال الله عز وجل : إن الرجفة التي أنزلت بالقوم هي عذابي أصيب به من شئت ثم أخبر عن رحمته ، ويحتمل وهو الأظهر أن الكلام قصد الخبر عن عذابه وعن رحمته من أول ما ابتدأ ، ويندرج أمر أصحاب الرجفة في عموم قوله عند ﴿ عذابي أصيب به من أشاء ﴾ وقرأ الحسنَ وطاوس وعمرو بن فائد " من أساء " من الإساءة أي من عمل غير صالح ، وللمعتزلة بهذه القراءة تعلق من وجهين : أحدهما إنفاذ الوعيد ، والآخر خلق المرء أفعاله وأن أساء لا فعل فيه لله ، وهذان التعلقان فيهما احتمال ينفصل عنه كما ينفصل عن سائر الظواهر إلا أن القرأة أطنبوا في التحفظ من هذه القراءة ، وقال أبو عمرو الداني : لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاوس ، وعمرو بن فائد رجل سوء ، وذكر أبو حاتم أن سفيان بن عيينة قرأها مرة واستحسنها فقام إليه عبد الرحمن المقبري وصاح به وأسمعه فقال سفيان : لم أدر ولم أفطن لما يقول أهل البدع وهذا إفراط من المقربين وحملهم على ذلك شحهم على الدين وظنهم أن الانفصال عن تعلق المعتزلة متعذر .

(109/290)

ثم وصف الله تعالى رحمته بأنها ﴿ وسعت كل شيء ﴾ فقال بعض العلماء : هو عموم في الرحمة وخصوص في قوله ﴿ كل شيء ﴾ والمراد من قد سبق في علم الله أن يرحمه دون من سواهم ، وقال بعضهم : هو عموم في رحمة الدنيا لأن الكافر والمؤمن والحيوان كله متقلب في رحمة الله الدنياوية ، وقالت فرقة : قوله : ﴿ ورحمتي ﴾ يراد به التوبة وهي خاصة على هذا في الرحمة وفي الأشياء لأن المراد من قد تقع منه التوبة ، وقال نوف البكالي : إن إبليس لما سمع قول الله تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ طمع في رحمة الله فلما سمع ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ يئس إبليس وبقيت اليهود والنصارى ، فلما تمادت الصفة تبين أن المراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويئس اليهود والنصارى من الآية ، وقال نحوه قتادة ، وقوله : ﴿ فسأكتبها ﴾ أي أقدرها وأقضيها ، وقال نوف البكالي : إن موسى عليه السلام قال يا رب جعلت وفادتي لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال نوف البكالي : فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم ، وقوله : ﴿ يتقون ﴾ في هذه الآية قالت فرقة : معناه يتقون الشرك ، وقالت فرقة : يتقون المعاصي . قال القاضي أبو محمد : ومن قال : الشرك لا غير خرج إلى قول المرجئة ، ويرد عليه من الآية شرط الأعمال بقوله : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ ، ومن قال المعاصي ولا بد خرج إلى قول المعتزلة ، والصواب بأن تكون اللفظة عامة ولكن ليس بأن نقول ولا بد من اتقاء المعاصي بل بأن نقول مع أن مواقع المعاصي في مشيئة الله تعالى ، ومعنى : ﴿ يتقون ﴾ يجعلون بينهم

وبين المتقى وقاية وحجاباً ، فذكر الله تعالى الرتبة العالية ليتسابق السامعون إليها ، وقوله : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ الظاهر من قوله ﴿ يؤتون ﴾ أنها الزكاة المختصة بالمال وخصها هنا بالذكر تشريفاً لها وجعلها مثالاً لجميع الطاعات ، وقال ابن عباس فيما روي عنه : ويؤتون الأعمال التي يزكون بها أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(110/290)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا ﴾

أي : حقق لنا وأوجب ﴿ في هذه الدنيا حسنة ﴾ وهي : الأعمال الصالحة ﴿ وفي الآخرة ﴾ المغفرة والجنة ﴿ إنا هُدْنا إليك ﴾ أي : تبنا ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وأبو العالية ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي .

وقال ابن قتيبة : ومنه ﴿ الذين هادوا ﴾ [البقرة : 62] كأنهم رجعوا من شيء إلى شيء .

وقرأ أبو وجزة السعدي : "إنا هِدنا" بكسر الهاء .

قال ابن الأنباري : المعنى : لا نتغيَّر ؛ يقال هاد يهود ويهيد .

قوله تعالى : ﴿ قال عذابي أُصيبُ به من أشاء ﴾ وقرأ الحسن البصري ، والأعمش وأبو العالية : "من أساء" بسين غير معجمة مع النصب .

قوله تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ في هذا الكلام أربعة اقوال .

أحدها : أن مخرجه عام ، ومعناه خاص ، وتأويله : ورحمتي وسعت المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لقوله تعالى : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ قاله ابن عباس .

والثاني : أن هذه الرحمة على العموم في الدنيا ، والخصوص في الآخرة ، وتأويلها : ورحمتي وسعت كل شيء في الدنيا ، البرَّ والفاجر ، وفي الآخرة هي للمتقين خاصة ، قاله الحسن ، وقتادة .

فعلى هذا ، معنى الرحمة في الدنيا للكافر : أنه يُرزق ويُدفع عنه ، كقوله في حق قارون : ﴿ وأحسنْ كما أحسن إليك ﴾ [القصص : 77] .

والثالث : أن الرحمة : التوبة ، فهي على العموم ، قاله ابن زيد .

والرابع : أن الرحمة تَسَع كل الخلق ، إلا أن أهل الكفر خارجون منها ، فلو قدِّر دخولهم فيها لوسعتهم ، قاله ابن الانباري .

قال الزجاج : وسعت كل شيء في الدنيا .

﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ في الآخرة .

قال المفسرون : معنى ﴿ فسأكتبها ﴾ ؛ فسأوجبها .

وفي الذين يتقون قولان .

أحدهما : أنهم المتقون للشرك ، قاله ابن عباس .

والثاني : للمعاصي ، قاله قتادة .

وفي قوله : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ قولان .

أحدهما : أنها زكاة الأموال ، قاله الجمهور .

(111/290)

والثاني : أن المراد بها : طاعة الله ورسوله ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ذهبا إلى أنها العمل بما يزكّي النفس ويطهّرها .

وقال ابن عباس ، وقتادة : لما نزلت ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ قال إبليس : أنا من ذلك الشيء ، فنزعها الله من إبليس ، فقال : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآيتنا يؤمنون ﴾ فقالت اليهود : نحن نتَّقي ، ونؤتي الزكاة ، ونؤمن بآيات ربنا ، فنزعها الله منهم ، وجعلها لهذه الأمة ، فقال : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأميَّ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(112/290)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً ﴾

أي وفّقنا للأعمال الصالحة التي تكتب لنا بها الحسنات .

﴿ وَفِي الآخرة ﴾ أي جزاء عليها .

﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي تُبْنا ، قاله مجاهد وأبو العالية وقَتادة .

والهَوْد : التوبة ؛ وقد تقدّم في "البقرة" .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ ﴾ أي المستحقّين له ، أي هذه الرجفة والصاعقة عذاب مني أصيب به من أشاء .

وقيل : المعنى "من أشاء" أي من أشاء أن أضلّه .

قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عموم ، أي لا نهاية لها ، أي من دخل فيها لم تعجز عنه .

وقيل : وسِعت كل شيء من الخلق حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها .

قال بعض المفسرين : طمِع في هذه الآية كل شيء حتى إبليس ، فقال : أنا شيء ؛ فقال الله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فقالت اليهود والنصارى : نحن متقون ؛ فقال الله تعالى : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي ﴾ الآية .

فخرجت الآية عن العموم ، والحمد لله .

روى حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : كتبها الله عز وجل لهذه الأمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(113/290)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾

(114/290)

يعني قال موسى في دعائه واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة أي واجعلنا ممن كتبت له حسنة وهي ثواب الأعمال الصالحة في الآخرة أي واكتب لنا في الآخرة مغفرة لذنوبنا ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ قال ابن عباس معناه إنّا تبنا إليك ، وهذا قول جميع المفسرين وأصل الهود الرجوع برفق قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم فلما نسخت شريعتهم صار اسم ذم وهو لازم لهم ﴿ قال ﴾ يعني قال الله لموسى ﴿ عذابي أصيب به

من أشاء ﴾ يعني من خلقي وليس لأحد علي اعتراض لأن الكل ملكي وعبيدي ومن تصرف في خالص حقه فليس لأحد عليه اعتراض ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ يعني أن رحمته سبحانه وتعالى عمَّت خلقه كلهم ، وقال بعضهم : هذا من العام أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر في الدنيا وهي للمؤمنين لسعة في الآخرة وقيل هي للمؤمنين خاصة في الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله له فإذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة قال جماعة من المفسرين لما نزلت ورحمتي وسعت كل شيء تطاول إبليس إليها وقال أنا من ذلك الشيء فنزعها الله تعالى من إبليس فقال تعالى : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ أيس إبليس منها ، وقالت اليهود نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله وأثبتها لهذه الأمة فقال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ﴾ الآية وقال نوف الكبالي لما اختار موسى من قومه سبعين رجلاً قال الله تعالى لموسى اجعل لك الأرض مسجداً وطهوراً تصلون حيث أدركتكم الصلاة لا عند مرحاض أو حمام أو قبر وأجعل السكينة في قلوبكم واجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير فقال موسى ذلك لقومه فقالوا لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا ولا نستطيع أن نقرأ التوراة على ظهر قلوبنا ولا نريد أن نقرأها إلا نظراً قال الله

(115/290)

تعالى ﴿ فسأكتبها للذين يتقون – إلى قوله – المفلحون ﴾ فجعلها الله تعالى لهذه الأمة ، فقال موسى : رب اجعلني نبيهم ، قال : نبيهم منهم ، قال : اجعلني منهم قال إنك لن تدركهم قال موسى : يا رب أتيتك بوفد بني إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله تعالى ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ فرضي موسى ، أما التفسير فقوله الذين يتقون يعني الشرك وسائر ما نهوا عنه لأن جميع التكاليف محصورة في نوعين :

الأول : التروك وهي الأشياء التي يجب على الإنسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ للذين يتقون ﴾ والثاني الأفعال المأمور بها وتلك الأعمال بدنية وقلبية أما البدنية فإنها الإشارة بقوله ويؤتون الزكاة وهذه الآية وإن كانت في حق المال لكن يختص بالبدن بإخراجها والأعمال القلبية كالإيمان والمعرفة وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(116/290)

وقال أبو حيان :

﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك ﴾ .

أي وأثبت لنا عاقبةً وحياة طيبة أو عملاً صالحاً يستعقب ثناء حسناً في الدنيا وفي الآخرة الجنة والرؤية والثواب على حسنة الدنيا والأجود حمل الحسنة على ما يحسن من نعمة وطاعة وغير ذلك وحسنة الآخرة الجنة لا حسنة دونها ﴿ وإنا هدنا ﴾ تعليل لطلب الغفران والحسنة وكتب الحسنة أي تبنا إليك قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير وأبو العالية وقتادة والضحاك والسدّي : من هاد يهود ، وقال ابن بحر : تقرّ بالتوبة ، وقيل : ملنا .

ومنه قول الشاعر :

قد علمت سلمى وجاراتها . . .

أني من الله لها هائد

أي مائل ، وقرأ زيد بن علي وأبو وجزة هدنا بكسر الهاء من هاد يهيد إذا حرك أي حرّكنا أنفسنا وجذبناها لطاعتك فيكون الضمير فاعلاً ويحتمل أن يكون مفعولاً لم يسمَّ فاعله أي حركنا إليك وأملنا والضم في ﴿ هدنا ﴾ يحتملهما وتضمنت هذه الجمل كونه تعالى هو ربهم ووليهم وأنهم تائبون عبيد له خاضعون فناسب عزّ الرّبوبية أن يستعطف للعبيد التائبين الخاضعين بسؤال المغفرة والرّحمة والكتب .

﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ .

الظاهر أنه استئناف إخبار عن عذابه ورحمته ويندرج في قوله : ﴿ أصيب به من أشاء ﴾ أصحاب الرّجفة ، وقيل العذاب هنا هو الرّجفة و﴿ من أشاء ﴾ أصحابها والمعنى أنه لا اعتراض عليه أي من أشاء عذابه ، وقيل : من أشاء أن لا أعفو عنه ، وقيل : من أشاء من خلقي كما أصبت به قومك ، وقيل : من أشاء من الكفار ، وقيل المشيئة راجعة إلى التعجيل والإمهال لا إلى الترك والإهمال ، وقال الزمخشري : ممن أشاء من وجب عليّ في الحكمة تعذيبه ولم يكن في العفو عنه مساغ لكونه مفسدة انتهى ، وهو على طريقة المعتزلة ، وقال ابن عباس أصيب من أشاء على الذنب اليسير ، وقال أيضاً وسعت كل شيء من ذنوب المؤمنين ، وقال أبو روق هي التعاطف بين الخلائق ، وقال ابن زيد : هي التوبة على العموم ، وقال الحسن : هي في الدنيا بالرزق عامة وفي الآخرة بالمؤمنين خاصة ، وقال الزمخشري : وأما رحمتي فمن حالها وصفتها أنها واسعة كل شيء ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمتي انتهى ، وهو بسط قول الحسن : هي في الدنيا بالرزق عامة ، وقرأ زيد بن علي والحسن وطاووس وعمرو بن فائد من أساء من الإساءة ، وقال أبو عمرو والدّاني : لا تصحّ هذه القراءة عن الحسن وطاووس وعمرو بن فائد رجل

سوء ، وقرأ بها سفيان بن عيينة مرّة واستحسنها فقام إليه عبد الرحمن المقري وصاح به وأسمعه فقال سفيان : لم أدرِ ولم أفطن لما يقول أهل البدع وللمعتزلة تعلّق بهذه القراءة من جهة إنفاذ الوعيد ومن جهة خلق المرء أفعاله وإن أساء لا فعل فيه الله تعالى والانفصال عن هذا كالانفصال عن سائر الظواهر .

﴿ فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة ﴾ .

(118/290)

أي أقضيها وأقدّرها والضمير عائد على الرحمة لأنها أقرب مذكور ويحتمل عندي أن يعود على حسنة في قوله ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ أي فسأكتب الحسنة وقاله ابن عباس ونوف البكالي وقتادة وابن جريج والمعنى متقارب لما سمع إبليس ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ تطاول لها إبليس فلما سمع فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة يئس ، وبقيت اليهود والنصارى فلما تمادت الصفة تبين أنّ المراد أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ويئس النصارى واليهود من الآية ، وقال أهل التفسير : عرض الله هذه الخِلال على قوم موسى فلم يتحملوها ولما انطلق وفد بني إسرائيل إلى الميقات قيل : لهم خطت لكم الأرض مسجداً وطهوراً إلا عند مرحاض أو قبر أو حمام وجعلت السّكينة

في قلوبهم فقالوا : لا نستطيع فاجعل السكينة في التابوت والصلاة في الكنيسة ولا نقرأ التوراة إلا عن نظر ولا نصلي إلا في الكنيسة فقال الله تعالى : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وقال نوف البكالي : إن موسى عليه السلام قال : يا رب جعلت وفادتي لأمة محمد ، قال نوف فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم ومعنى ﴿ يتّقون ﴾ قال ابن عباس : وفرقة الشّرك ، وقالت فرقة المعاصي فمن قال الشرك لا غير خرج إلى قول المرجئة ويردّ عليه من الآية شرط الإعمال بقوله ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ ، ومن قال : المعاصي ولا بدّ خرج إلى قول المعتزلة ، قال ابن عطية : والصواب أن تكون اللفظة عامة ولكن لا نقول لا بدّ من اتقاء المعاصي بل نقول مواقع المعاصي في المشيئة ومعنى ﴿ يتّقون ﴾ يجعلون بينهم وبين المتقي حجاباً ووقاية ، فذكر تعالى الرتبة العالية ليتسابق السامعون إليها انتهى .

(119/290)

﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ الظاهر أنها زكاة المال وبه قال ابن عباس وروي عنه : ويؤتون الأعمال التي يزكون بها أنفسهم ، وقال الحسن : تزكية الأعمال بالإخلاص انتهى ، ولما كانت التكاليف ترجع إلى قسمين تروك وأفعال والأفعال قسمان راجعة إلى المال وراجعة إلى

نفس الإنسان وهذان قسمان علم وعمل فالعلم المعرفة والعمل إقرار باللسان ، وعمل بالأركان فأشار بالاتقاء إلى التروك وبالفعل الراجح إلى المال بالزكاة وأشار إلى ما بقي بقوله : ﴿ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ وهذه شبيهة بقوله ﴿ هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ الآية وفهم المفسرون من قوله الذين يتقون إلى آخر الأوصاف إنّ المتصفين بذلك هم أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ويحتمل أن يكون من باب التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه فيكون قوله للذين يتّقون ويؤتون الزكاة لمن فعل ذلك قبل الرسول ويكون قوله والذين هم بآياتنا يؤمنون من فعل ذلك بعد البعثة وفسّر الآيات هنا بأنها القرآن وهو الكتاب المعجز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(120/290)

وقال أبو السعود :

﴿ واكتب لَنَا ﴾ أي عيّنْ لنا وقيل : أوجِبْ وحقِّقْ وأثبتْ ﴿ فِى هذه الدنيا حَسَنَةً ﴾ أي نعمةً وعافيةً أو خَصلة حسنةً . قال ابن عباس رضي الله عنهما : اقبَلْ وِفادتَنا ورُدَّنا بالمغفرة والرحمة ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ أي واكتبْ لنا فيها أيضاً حسنةً وهي المثوبةُ الحسنى والجنة ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي تُبْنا وأنبْنا إليك ، من هاد يهودُ إذا رجَع وقرىء بكسر

الهاء من هاده يهيدُه إذا حرّكه وأماله ويحتمل أن يكون مبنياً للفاعل أو للمفعول بمعنى أمَلْنا أنفسَنا أو أمِلْنا إليك ، وتجويزُ أن تكون القراءةُ المشهورة على بناء المفعول على لغة من يقول : عودَ المريضُ مع كونها لغةً ضعيفةً مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل ، والجملةُ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليل الدعاءِ فإن التوبةَ مما يوجب قَبولَه بموجَب الوعدِ المحتوم ، وتصديرُها بحرف التحقيقِ لإظهار كمالِ النشاطِ والرغبةِ في التوبة ، والمعنى إنا تُبنا ورجَعْنا عما صنعنا من المعصية العظيمةِ التي جئناك للاعتذار عنها وعما وقع هاهنا من طلب الرؤية ، فبعيدٌ من لطفك وفضلك أن لا تقبل توبة التائبين . قيل : لما أخذتْهم الرجفةُ ماتوا جميعاً فأخذ موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله تعالى حتى أحياهم ، وقيل : رجَفوا وكادت تَبينُ مفاصلُهم وأشرفوا على الهلاك فخاف موسى عليه الصلاة والسلام فبكى فكشفها الله تعالى عنهم .

(121/290)

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الكلامُ كأنه قيل : فماذا قال الله تعالى عند دعاءِ موسى عليه السلام ؟ فقيل : قال : ﴿ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء ﴾ لعله عز وجل حين جعل توبةَ عبدةِ العجلِ بقتلهم أنفسَهم ضمّن موسى عليه السلام دعاءَه

التخفيفَ والتيسير حيث قال : واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة أي خَصلةً حسنةً عاريةً عن المشقة والشدة فإن في قتل أنفسهم من العذاب والتشديد ما لا يخفى ، فأجاب تعالى بأن عذابي شأنُه أن أُصيبَ به من أشاء تعذيبَه من غير دخل لغيري فيه وهم ممن تناولَتْه مشيئتي ، ولذلك جُعلت توبتُهم مشوبةً بالعذاب الدنيوي ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي شأنُها أن تسعَ في الدنيا المؤمنَ والكافرَ بل كلَّ ما يدخل تحت الشيئية من المكلفين وغيرِهم وقد نال قومَك نصيبٌ منها في ضمن العذاب الدنيوي ، وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارعِ ونسبةِ السعةِ إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذانٌ بأن الرحمةَ مقتضى الذاتِ وأما العذابُ فبمقتضى معاصي العباد ، والمشيئةُ معتبرةٌ في جانب الرحمةِ أيضاً وعدمُ التصريحِ بها للإشعار بغاية الظهور ، ألا يُرى إلى قوله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ أي أُثبتها وأعيِّنُها فإنه متفرعٌ على اعتبار المشيئةِ كأنه قيل : فإذا كان الأمرُ كذلك أي كما ذكر من إصابة عذابي وسَعةِ رحمتي لكل من أشاء فسأكتُبها كَتْبةً كائنة كما دعوتَ بقولك : واكتب لنا في هذه الخ ، أي سأكتبها خالصةً غيرَ مشوبةٍ بالعذاب الدنيوي ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي الكفر والمعاصي إما ابتداء أو بعد ملامستها وفيه تعريض بقومه كأنه قيل : لا لقومك لأنهم غير متقين فيكفيهم ما قدر لهم من الرحمة وإن كانت مقارنة للعذاب الدنيوي ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وفيه أيضا تعريضٌ بهم حيث كانت الزكاةُ شاقةً عليهم ، ولعل الصلاةَ إنما لم تذكَرْ مع إنافتها على سائر العبادات اكتفاءً عنها بالاتقاء الذي هو

(122/290)

عبارةٌ عن فعل الواجبات بأسرها وتركِ المنكرات عن آخرها ، وإيرادُ إيتاءِ الزكاة لما مر من التعريض ﴿ والذين هُم بآياتنا ﴾ جميعاً ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إيماناً مستمراً من غير إخلالٍ بشيء منها ، وفيه تعريضٌ بهم وبكفرهم بالآيات العظامِ التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام وبما سيجيء بعد ذلك من الآيات البيناتِ كتظليل الغمامِ وإنزالِ المنِّ والسلوى وغيرِ ذلك .

وتكريرُ الموصول مع أن المرادَ به عينُ ما أريد بالموصول الأولِ دون أن يقال : ويؤمنون بآياتنا عطفاً على يؤتون الزكاة كما عُطف هو على يتقون لما أشير إليه من القَصْر بتقديم الجار والمجرور أي هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضها دون بعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(123/290)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا ﴾ أي أثبت واقسم لنا ﴿ فِى هذه الدنيا ﴾ التي عرانا فيها ما عرانا ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ حياة طيبة وتوفيقا للطاعة .

وقيل : ثناءاً جميلاً وليس بجميل ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد اقبل وفادتنا وردنا بالمغفرة والرحمة ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ أي واكتب لنا أيضاً في الآخرة حسنة وهي المثوبة الحسنى والجنة .

قيل : إن هذا كالتأكيد لقوله : اغفر وارحم ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا إليك من هاد يهود إذا رجع وتاب كما قال :

إني امرىء مما جنيت هائد . . .

ومن كلام بعضهم :

يا راكب الذنب هدهد . . .

واسجد كأنك هدهد

وقيل : معناه مال ، وقرأ بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ هُدْنَا ﴾ بكسر الهاء من هاد يهيد إذا حرك ، وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن أبي وجرة السعدي أنه أنكر الضم وقال : والله لا أعلمه في كلام أحد من العرب وإنما هو هدنا بالكسر أي ملنا وهو محجوج بالتواتر ، وجوز على هذه القراءة أن يكون

الفعل مبنياً للفاعل والمفعول بمعنى حركنا أنفسنا أو حركنا غيرنا ، وكذا على قراءة الجماعة ، والبناء للمفعول عليها على لغة من يقول : عود المريض ، ولا بأس بذلك إذا كان الهود بمعنى الميل سوى أن تلك لغة ضعيفة ، وممن جوز الأمرين على القراءتين الزمخشري . وتعقبه السمين بأنه متى حصل الالتباس وجوب أن يأتي بحركة تزيله فيقال : عقت إذا عاقك غيرك بالكسر فقط أو الاشمام إلا أن سيبويه جوز في نحو قيل الأوجه الثلاثة من غير احتراز ، والجملة تعليل لطلب المغفرة والرحمة ، وتصديرها بحرف التحقيق لاظهار كمال النشاط والرغبة في مضمونها ﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قال الله تعالى له بعد دعائه ؟ فقيل : قال : ﴿ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء ﴾ أي شأني أصيب بعذابي من أشاء تعذيبه من غير دخل لغيري فيه .

وقرأ الحسن .

(124/290)

وعمرو الأسود ﴿ مِنْ أَسَاء ﴾ بالسين المهملة ونسبت إلى زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما وأنكر بعضهم صحتها ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْء ﴾ أي شأنها أنها واسعة تبلغ كل شيء ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في الدنيا بنعمتي ،

وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذان بأن الرحمة مقتضي الذات وأما العذاب فمقتضى معاصي العباد ، والمشيئة معتبرة في جانب الرحمة أيضاً ، وعدم التصريح بها قيل : تعظيماً لأمر الرحمة ، وقيل : للاشعار بغاية الظهور ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ فإنه متفرع على اعتبار المشيئة كما لا يخفى ، كأنه قيل : فإذا كان الأمر كذلك أي كما ذكر من إصابة عذابي وسعة رحمتي لكل من أشاء فسأثبتها إثباتاً خاصاً ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي الكفر والمعاصي أما ابتداءاً أو بعد الملابسة ﴿ وَيُؤْتُونَ الزكواة ﴾ المفروضة عليهم في أموالهم وقيل المعنى يطيعون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والظاهر خلافه ، وتخصيص إيتاء الزكاة بالذكر مع اقتضاء التقوى له للتعريض بقوم موسى عليه السلام لأن كان شاقا عليهم لمزيد حبهم للدنيا ، ولعل الصلاة إنما لم تذكر مع انافتها على سائر العبادات وكونها عماد الدين اكتفار منها بالاتقاء الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك المنهيات عن آخرها ﴿ والذين هُم بآياتنا ﴾ كلها كما يفيده الجمع المضاف ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إيماناً مستمراً من غير اخلال بشيء منها ، وتكرير الموصول مع أن المراد به عين ما أريد بالموصول الأول دون أن يقال ويؤمنون بآياتنا عطفاً على ما قبله كما سلك في سابقه قيل : لما أشير إليه من القصر بتقديم الجار والمجرور أي هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضها دون بعض ، وفيه تعرض بمن آمن ببعض وكفر ببعض كقوم موسى عليه السلام .

واختلف في توجيه هذا الجواب فقال شيخ الإسلام : لعل الله تعالى حين جعل توبة عبدة العجل بقتلهم أنفسهم وكان الكلام الذي أطمع السبعين في الرؤية في ذلك ضمن موسى عليه السلام دعاءه التخفيف والتيسير حيث قال : ﴿ واكتب لَنَا فِى هذه الدنيا حَسَنَةً ﴾ أي خصلة حسنة عارية عن المشقة والشدة فإن في القتل من العذاب الشديد ما لا يخفى فأجابه سبحانه بأن عذابي أصيب به من أشاء وقومك ممن تناولته مشيئتي ولذلك جعلت توبتهم مشوبة بالعذاب الدنيوي ورحمتي وسعت كل شيء وقد نال قومك نصيب منها في ضمن العذاب الدنيوي وسأكتب الرحمة خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوي كما دعوت لمن صفتهم كيت وكيت لا لقومك لأنهم ليسوا كذلك فيكفيهم ما قدر لهم من الرحمة وإن كانت مقارنة العذاب ، وعلى هذا فموسى عليه السلام لم يستجب له سؤاله في قومه ومن الله تعالى بما سأله على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وفي بعض الآثار أنه عليه السلام لما أجيب بما ذكر قال : أتيتك يا رب بوفد من بني إسرائيل فكانت وفادتنا لغيرنا .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما دعا موسى ربه سبحانه فجعل دعاءه لمن آمن

بمحمد عليه الصلاة والسلام واتبعه ، وفي رواية أخرى رواها جمع عنه سأل موسى ربه مسألة فاعطاها محمداً صلى الله عليه وسلم وتلا الآية ، لكن لا يخفى أن ما قرره هذا الشيخ بعيد .

(126/290)

وقال صاحب الكشف في ذلك : كأنه لما سأل موسى عليه السلام لنفسه ولقومه خير الدارين أجيب بأن عذابي لغير التائبين ان شئت ورحمتي الدنيوية تعم التائب وغيره وأما الجمع بين الرحمتين فهو للمستعدين فإن تاب من دعوت لهم وثبتوا كأعقابهم نالتهم الرحمة الخاصة الجامعة وأثر فيهم دعاؤك وإن داوموا على ما هم فيه بعدوا عن القبول ، والغرض ترغيبهم على الثبات على التوبة والعمل الصالح وتحذيرهم عن المعاودة عما فرط منهم مع التخلص إلى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والحث على اتباعه أحسن تخلص وحث يحير الألباب ويبدي للمتأمل فيه العجب العجاب ، وإلى بعض هذا يشير كلام الزمخشري .

وقال العلامة الطيبي في توجيهه : إن هذا الجواب وارد على الأسلوب الحكيم ، وقوله سبحانه : ﴿ عَذَابِى ﴾ الخ كالتمهيد للجواب ، والجواب ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ الخ ، وذلك أن موسى عليه السلام طلب الغفران والرحمة والحسنة في الدارين لنفسه ولأمته خاصة بقوله

: ﴿ واكتب لَنَا ﴾ وعلله بقوله : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ فأجابه الرب سبحانه بأن تقييدك المطلق ليس من الحكمة فإن عذابي من شأنه أنه تابع لمشيئتي فأمتك لو تعرضوا لما اقتضت الحكمة تعذيب من باشره لا ينفعهم دعاؤك لهم وإن رحمتي من شأنها أن تعم في الدنيا الخلق صالحهم وطالحهم مؤمنهم وكافرهم فالحسنة الدنيوية عامة فلا تختص بأمتك فتخصيصها تحجير للواسع وأما الحسنة الأخروية فهي للموصوفين بكذا وكذا ، وجعل ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ كالقول بالموجب لأنه عليه السلام طلب ما طلب وجعل العلة ما جعل فضم الله تعالى ما ضم ، يعني أن الذي يوجب اختصاص الحسنتين معا هذه الصفات المتعددة لا التوبة المجردة ، ثم ذكر أن ترتيب هذا على ما قبله بالفاء على منوال قوله تعالى جواباً عن قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] وأيد هذا التقرير بما روي عن الحسن .

(127/290)

وقتادة وسعت رحمته في الدنيا البر والفاجر وهي يوم القيامة للمتقين خاصة ا ه ما أريد منه ، وما ذكره من حديث التحجر في القلب منه شيء فإن الظاهر أن ما في دعاء موسى عليه السلام ليس منه وإنما التحجر في مثل ما أخرجه أحمد .

وأبو داود عن جندب عن عبد الله البجلي قال : "جاء اعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها وصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نادى اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : لقد حظرت رحمة واسعة إن الله خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وانسها وبهائمها وعنده تسعة وتسعون" .

وأنا أقول : قد يقال : إن موسى عليه السلام إنما طلب على أبلغ وجه المغفرة والرحمة الدنيوية والأخروية له ولقومه وتعليل ذلك بالتوبة مما لا شك في صحته ، ولا يفهم من كلامه عليه السلام أنه طلب للقوم كيف كانوا وفي أي حالة وجدوا وعلى أي طريقة سلكوا فإن ذلك مما لا يكاد يقع ممن له أدنى معرفة بربه فضلاً عن مثله عليه السلام ، وإنما هذا الطلب لهم من حيث إنهم تائبون راجعون إليه عز شأنه ، ولا يبعد أن يقال باستجابة دعائه بذلك بل هي أمر مقطوع به بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم ؛ وكيف يشك في أنه غفر له ورحم وأوتي خير الدارين وهو هو وأما بالنسبة إلى قومه فالظاهر أن التائب منهم أوتي خير الآخرة لأن هذه التوبة إن كانت هي التوبة بالقتل فقد جاء عن الزهري أن الله تعالى أوحي إلى موسى بعد أن كان ما كان ما يحزنك ؟ أما من قتل منكم فحي يرزق عندي وأما من بقي فقد قبلت توبته فسر بذلك موسى وبنو اسرائيل ، وإن كانت غيرها فمن المعلوم أن التوبة تقبل بمقتضى الوعد المحتوم ، وخير من قبلت توبته في الآخرة كثير ، وأما خير الدنيا فقد نطقت الآيات بأن القوم غرقي فيه ، ويكفي في ذلك قوله تعالى :

(128/290)

﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نِعْمَتِى التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [البقرة : 47] .

(129/290)

وحينئذ فيمكم أن يقال في توجيه الجواب : أنه سبحانه لما رأى من موسى عليه السلام شدة القلق والاضطراب ولهذا بالغ في الدعاء خشية من طول غضبه تعالى على من يشفق عليه من ذلك سكن جل شأنه روعته وأجاب طلبته بأسلوب عجيب ، وطريق بديع غريب فقال سبحانه له : ﴿ عَذَابِى ﴾ أي الذي تخشى أن تصيب بعض نباله التي أرميها بيد جلالي عن قسى إرادتي من دعوت له أصيب به من أشاء فلا يتعين قومك الذين تخشى عليهم ما تخشى لأن يكون غرضاً له بعد أن تابوا من الذنب وتركوا فعله ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ إنساناً كان أو غيره مطيعاً كان أو غيره فما من شيء إلا وهو داخل فيها سابح في تيارها أو سابح في فيافيها بل ما من معذب إلا ويرشح عليه ما يرشح منها ولا

أقل من أني لم أعذبه بأشد مما هو فيه مع قدرتي عليه فطب نفسا وقر عينا فدخول قومك في رحمة وسعت كل شيء ولم تضق عن شيء أمر لا شك فيه ولا شبهة تعتريه كيف وقد هادوا إلي ووفدوا على أفتري أني أضيق الواسع عليهم وأوجه نبال الخيبة إليهم وأردهم بخفى حنين فيرجع كل منهم صفر الكفين ؟ لا أراني أفعل بل إني سأرحمهم وأذخب عنهم ما أهمهم وأكتب الحظ الأوفر من رحمتي لأخلافهم الذين يأتون آخر الزمان ويتصفون بما يرضيني ويقومون بأعباء ما يراد منهم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الخ ، ولعل تقديم وصف العذاب دون وصف الرحمة ليفرغ ذهنه عليه السلام مما يخاف منه مع أن في عكس هذا الترتيب ما يوجب انتشار النظم الكريم ؛ ووصف أخلاقهم بما وصفوا به لاستنهاض هممهم إلى الاتصاف بما يمكن اتصافهم به منه أو إلى الثبات عليه ، ولم يصرح في الجواب بحصول السؤال بأن يقال : قد أوتيت سؤلك يا موسى مثلا اختياراً لما هو أبلغ فيه ، وهذا الذي ذكرناه وإن كان لا يخلو عن شيء إلا أنه أولى من كثير مما وقفنا عليه من كلام المفسرين وقد تقدم بعضه ، وأقول بعد هذا كله : خير الاحتمالات ما

تشهد له الآثار وإذا صح الحديث فهو مذهبي فتأمل .

والسين في ﴿ سأكتبها ﴾ يحتمل أن تكون للتأكيد ، ويحتمل أن تكون للاستقبال كما لا يخفي وجهه على ذوي الكمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(131/290)

وقال القاسمى :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [156] .

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي : أثبت لنا فيها خصلة حسنة ، كالعافية والحياة الطيبة ، والتوفيق للطاعة : ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ أي : حسنة أيضاً ، وهي المثوبة الحسنى والجنة .

﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي : تبنا إليك . يقال : هاد إليه يهود ، إذا رجع وتاب ، فهو هائد .

ولبعضهم :

يا راكب الذنب هُدْ ، هُدْ واسجد كأنك هُدْهُدْ

وقال آخر :

إني أمرؤ مما جَنَيْتُ هائِدُ

قال أبو البقاء : المشهور ضم الهاء ، وهو من هاد يهود إذا تاب .

وقرئ بكسرها ، من هاد يهيد إذا تحرك أو حرك ، أي : حركنا إليك نفوسنا ، وعلى القراءتين ، يحتمل الوجهين ، البناء للفاعل وللمفعول ، بمعنى ملنا أو أمالنا غيرنا ، أو حركنا أنفسنا ، أو حركنا غيرنا ، وذلك لاتحاد الصيغة وصحة المعنى ، وإن اختلف التقدير .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : فماذا قال تعالى في جواب دعاء موسى ؟ فقيل قال : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء ﴾ أي : تعذيبه من العصاة ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان المراد هنا ، بدليل مقابلتها بالعذاب قبل ، كما قابل الآية التي ذكرناها بقوله : ﴿ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ ، والله أعلم .

(132/290)

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ أي : هذه الرحمة : ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي : الكفر والشرك والفواحش ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أي : يعطون زكاة أموالهم ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا ﴾ أي : بكتابنا

ورسولنا : ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يصدقون .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على حسن سؤال نعيم الدنيا ، كما يحسن سؤال نعيم الآخرة ، وتدل على أن الواجب على الداعي أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص ، لذلك قالوا : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر ، ويخص بالثواب المؤمن ، فلذلك فصل ، ومن تأمل هذا السؤال والجواب ، عرف عظيم محل هذا البيان ، لأنه عليه السلام ، سأل نعيم الدنيا والدين عقيب الرجفة ، فكان من الجواب أن العذاب خاصة يصاب به من يستحقه ، فأما النعم فما كان من باب الدنيا يسع كل شيء يصح عليه التنعم ، وما كان من باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها .

وتدل على أن الرحمة لا تنال بمجرد الإيمان الذي هو التصديق ، حتى ينضم إليه الطاعات ، فيبطل قوله المرجئة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 195 . 196 ﴾

(133/290)

وقال ابن عاشور :

و﴿ اكتُب ﴾ مستعار لمعنى العطاء المحقَق حصوله ، المجدد مرة بعد مرة ، لأن الذي يريد تحقيقَ عقد أو عدة ، أو عطاء ، وتعلّقه بالتجدد في المستقبل يكتب به في صحيفة ، فلا يقبل النكران ، ولا النقصان ، ولا الرجوع ، وتسمى تلك الكتابة عهداً ، ومنه ما كتبوه في صحيفة القطيعة ، وما كتبوه من حلف ذي المجاز ، قال الحارث بن حلزة:

حذر الجَور والتطاخي وهل ينقض ما في المهارق الأهواء

ولو كان العطاء أو التعاقد لمرة واحدة لم يحتج للكتابة ، لأن الحوز أو التمكين مغن عن الكتابة ، كما قال تعالى:

﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها ﴾ [البقرة : 282] فالمعنى : آتنا الحسنة تلو الحسنة في أزمان حياتنا وفي يوم القيامة ، دل على هذا المعنى لفظ ﴿ اكتب ﴾ ولولاه لكان دعاء صادقاً باعطاء حسنة واحدة ، فيحتاج إلى الاستعانة على العموم بقرينة الدعاء ، فإن النكرة يراد بها العموم في سياق الدعاء كقول الحريري في المقامة الخامسة:

يا أهل ذا المغنى وُقيتم ضُرا . . .

(أي كل ضر وليس المراد وقيتم ضرا معيّنا) .

والحسنة الحالة الحسنة ، وهي : في الدنيا المرضية للناس ، ولله تعالى ، فتجمع خير الدنيا

والدين ، وفي الآخرة حالة الكمال ، وقد تقدم بيانها في تفسير قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة ﴾ في سورة البقرة (201) .

وجملة : إنا هدنا إليك ﴾ مسوقة مساق التعليل للطلب والاستجابة ، ولذلك فصلت ولان موقع حرف التأكيد في أولها موقع الاهتمام ، فيفيد التعليل والربط ، ويغني غناء فاء السببية كما تقدم غير مرة .

و﴿ هُدْنا ﴾ معناه تبنا ، يقال : هَادَ يهود إذا رجع وتاب فهو مَضموم الهاء في هذه الآية باتفاق القراءات المتواترة والمعنى تبنا مما عسى أن نكون ألممنا به من ذنب وتقصير ، وهذا إخبار عن نفسه ، وعن المختارين من قومه ، بما يعلم من صدق سرائرهم .

(134/290)

جملة : ﴿ قال ﴾ الخ جوابٌ لكلام موسى عليه السلام ، فلذلك فصلت لوقوعها على طريقة المحاورة ، كما تقدم غير مرة ، وكلام موسى ، وإن كان طلبا ، وهو لا يستدعي جواباً ، فإن جواب الطالب عناية به وفضْل .

والمراد بالعذاب هنا عذاب الدنيا ، لأن الكلام جواب لقول موسى : ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ والإهلاك عذاب ، فبيّن اللَّهُ له أن عذاب الدنيا يصيب الله به من يشاء من

عباده ، وقد اجمل الله سبب المشيئة وهو أعلم به ، وموسى يعلمه إجمالاً ، فالكلام يتضمن طمأنة موسى من أن يناله العذاب هو والبرآء من قومه ، لأن الله أعظم من أن يعاملهم معاملةَ المجرمين .

والمعنى إني قادر على تخصيص العذاب بمن عصوا وتنجية من لم يشارك في العصيان ، وجاء الكلام على طريقة مجملة شأن كلام مَن لا يُسأل عما يعقل .

وقوله : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ مقابل قول موسى : ﴿ فاغفر لنا وارحمنا ﴾ . وهو وعد تعريض بحصول الرحمة المسؤولة له ولمن معه من المختارين ، لأنها لما وسعت كل شيء فهم أرجى الناس بها ، وأن العاصين هم أيضاً مغمورون بالرحمة ، فمنها رحمة الإمهال والرزق ، ولكن رحمة الله عباده ذات مراتب متفاوتة .

وقوله : ﴿ عذابي أصيب به من اشاء ﴾ إلى قوله ﴿ كل شيء ﴾ جواب إجمالي ، هو تمهيد للجواب التفصيلي في قوله : ﴿ فسأكتبها ﴾ .

(135/290)

والتفريع في قوله : ﴿ فسأكتبها ﴾ تفريع على سعة الرحمة ، لأنها لما وسعت كل شيء كان منها ما يكتب أي يعطى في المستقبل للذين أجريت عليهم الصفات ويتضمن ذلك وعداً

لموسى ولصلحاء قومه لتحقق تلك الصفات فيهم ، وهو وعد ناظر إلى قول موسى ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ والضمير المنصوب في ﴿ أَكْتُبُها ﴾ عائدٍ إلى ﴿ رحمتي ﴾ فهو ضمير جنس ، وهو مساو للمعرف بلام الجنس ، أي اكتب فَردا من هذا الجنس لأصحاب هذه الصفات ، وليس المراد أنه يكتب جميع الرحمة لهؤلاء لأن هذا غير معروف في الاستعمال في الإخبار عن الأجناس ، لكن يُعلم من السياق أن هذا النوع من الرحمة نوع عظيم بقرينة الثناء على متعلِقها بصفات توذن باستحقاقها ، وبقرينة السكوت عن غيره ، فيعلم أن لهذا المتعلِق رحمة خاصة عظيمة وأن غيره داخل في بعض مراتب عموم الرحمة المعلومة من قوله : ﴿ وَسِعت كل شيء ﴾ وقد أفصح عن هذا المعنى الحصر في قوله في آخر الآية ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ .

وتقدم معنى ﴿ أكتبها ﴾ قريباً .

وقد تقدم معنى : ﴿ وسعت كل شيء ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وسع ربنا كل شيء علما ﴾ في هذه السورة (89) .

(136/290)

والمعنى : أن الرحمة التي سألها موسى له ولقومه وعدَ اللَّهُ بإعطائِها لمن كان منهم متصفاً بأنه من المتقين والمؤتين الزكاة ، ولمن كان من المؤمنين بآيات الله ، والآياتُ تصدق : بدلائِل صدق الرسل ، وبكلمات الله التي شرع بها للناس رَشادهم وهديهم ، ولا سيما القرآن لأن كل مقدار ثلاث آيات منه هو آية لأنهُ معجز فدال على صدق الرسول ، وهو المقصود هنا ، وهم الذين يتبعون الرسول الأمي إذا جاءهم ، أي يطيعونه فيما يأمرهم ، ولما جعلت هذه الأشياء بسبب تلك الرحمة علم أن التحصيل على بعضها يحصّل بعض تلك الرحمة بما يناسبه ، بشرط الإيمان ، كما علم من آيات أخرى خاطب الله بها موسى كقوله آنفاً ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ﴾ [الأعراف : 153] فتشمل هذه الرحمة من اتقى وآمن وآتى الزكاة من بني إسرائيل قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فإن أتباعهم إياه متعذر الحصول قبل بعثته ، ولكن يجب أن يكونوا عازمين على اتباعه عند مجيئه إن كانوا عالمين بذلك كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ [آل عمران : 81 ، 82] .

وتشمل الرحمة أيضاً الذين يؤمنون بآيات الله ، والمعنى بها الآيات التي ستجيء في المستقبل ، لأن آيات موسى قد استقر الإيمان بها يومئذ ، وهذا موجب إعادة اسم الموصول في ذكر

أصحاب هذه الصلة ، للإشارة إلى أنهم طائفة أخرى ، وهم من يكون عند بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولذلك أبدل منهم قوله : ﴿ الذين يتبعون الرسولَ ﴾ إلخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(137/290)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

ونلحظ أن هذه الآية تضم طلبات جديدة لسيدنا موسى من ربّه بعد قوله : ﴿ فاغفر لَنَا وارحمنا ﴾ . ونرى أن خير الغافرين تعود لقول موسى – عليه السلام – : ﴿ فاغفر لَنَا ﴾ أما الحسنة في قوله : ﴿ واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً ﴾ فإنها تعود على طلب الرحمة : ﴿ واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة ﴾ .

هو إذن يطلب الحسنة في الدنيا وكذلك في الآخرة ، والحسنة لها معنى " لغوي " ، ومعنى " شرعي " أما المعنى اللغوي فكل ما يستحسنه الإِنسان يُسمى حسنة ، ولكن الحسنة الشرعية هي ما حسنه الشرع ، فالشرع رقيب على كل فعل من أفعالنا وتصرفاتنا ، فالحسنة ليست ما يستحسنه الإِنسان ؛ لأن الإِنسان قد يستحسن المعصية ، وهذا

استحسان بشري بعيد عن المنهج ، أما الاستحسان الشرعي فهو في تنفيذ المنهج ب " افعل " و " لا تفعل " .

والحسنة المعتبرة في عرف المكلفين من الله هي الحسنة الشرعية ؛ لأن الإنسان قد يستحسن شيئاً وهو غير شرعي لأنه ينظر إلى عاجلية النفع فيه ، ولا ينظر إلى آجلية النفع ، ولا ينظر إلى كمية النافع . والنفع – كما نعلم – في الدنيا على قدر تصورك في النفع ، أما النفع في الآخرة فلا يعلم قدره إلا علاّم الغيوب – سبحانه – إذن فقوله : ﴿ واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً ﴾ يكون المراد بها الحسنة الشرعية في الدنيا عملاً ، وفي الآخرة جزاءً .

ونلحظ أن موسى أراد بالحسنة الأولى ما يعم الحسنة الشرعية والحسنة اللغوية ؛ فهو دعاء بالعافية والنعم الجلية الطيّبة ؟ ، وكل خير الدنيا في ضوء منهج الله . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا خَالِصَةً يَوْمَ القيامة . . . ﴾ [الأعراف : 32]

(138/290)

إذن فالحسنة الخالصة هي في يوم القيامة ، ولكن هناك من ينتفع بها في الدنيا ؛ فالجماد منتفع برحمة الله ، والنبات برحمة الله ، والحيوان منتفع برحمة الله ، والكافر منتفع برحمة الله . كل ذلك في الدنيا ، وهي الرحمة التي وسعت كل شيء ، لكن مسالة الآخرة كجزاء على الإحسان فهو جزاء خاص بالمؤمنين .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ .

و" هاد " أي رجع ، و " هدنا إليك " أي رجعنا إليك ، وهذا كلام موسى عن نفسه وعن أخيه ، وعن القوم الذين عبدوا العجل ثم تابوا ، وما دمنا قد رجعنا إليك يا ربي فأنت أكرم من أن تردنا خائبين . ويرد الحق سبحانه : ﴿ . . . قَالَ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 156]

وقوله الحق : ﴿ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ ﴾ أي لا يوجد من يدفعني ويرشدني في توجيه العذاب لأحد ؛ فحين يذنب عبد ذنباً أنا أعذبه أو أغفر له ؛ لذلك لا يقولن عبد لمذنب إن الله لابد أن يعذبه ؛ لأنه سبحانه هو القائل : ﴿ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .

. . ﴾ [الأعراف : 156]

وما المقصود بالرحمة هنا ؟ أهي الرحمة في الدنيا أو الرحمة في الآخرة ؟ إنها الرحمة في الدنيا

التي تشمل الطائع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، ولكنها خالصة في اليوم الآخر – كما قلنا – للمؤمنين .

(139/290)

وقوله سبحانه : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ يدل على أن هذا سيكون في الآخرة . أي أن رحمة الله وسعت كل شيء في الدنيا ولكنها رحمة تنتهي بالنسبة للكافرين في إطار الدنيا ، ولكن بالنسبة للمؤمنين فهي رحمة مستمرة قد كتبها الله أزلاً وتعطي للمؤمنين فضلاً ومنّة وعطاء منه – سبحانه – ﴿ . . . فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 156]

وعندما سمع بعض اليهود ذلك قالوا : نحن متقون ، فقيل لهم : في أي منهج أنتم متقون أفي منهج موسى ؟ لو كنتم متقين في منهج موسى – كما تزعمون – لآمنتم بمحمد – صلى الله عليه وسلم – لأن من تعاليم موسى أن تؤمنوا برسول الله محمد – عليه الصلاة والسلام – ولذلك جاء قوله تعالى : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(140/290)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾

العامَّةُ على ضم الهاءِ ، من هاد يَهُود بمعنى : مال ؛ قال : [السريع]

2594 - قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وجَارَاتُهَا . . .

أَنِّي مِنَ اللَّهِ لَهَا هَائِدُ

أو " تَابَ " من قوله : [الرجز]

2595 - إِنِّي امْرؤٌ مِمَّا جَنَيْتُ هَائِدُ . . .

ومن كلام بعضهم : ﴿ المجتث]

2596 - يَا رَاكِبَ الذَّنْبِ هُدْهُدْ . . .

واسْجُدَ كأَنَّكَ هُدْهُدْ

وقرأ زيد بنُ علي ، وأبو وجزة " هِدْنَا " بكسر الهاء مِنْ " هَادَ يَهِيدُ " أي : حَرَّكَ .

أجاز الزمخشريُّ في " هُدْنا " ، و" هِدْنا " - بالضمّ والكسر - أن يكون الفعلُ مبنياً للفاعل أو للمفعول في كُلٍّ منهما بمعنى : مِلْنَا ، أو أَمَالَنَا غَيْرُنَا ، أو حَرَّكْنَا نَحْنُ أنفسنَا ، أو حَرَّكَنَا غَيْرُنَا ، وفيه نظر ؛ لأنَّ بعض النَّحويين قد نصَّ على أَنَّهُ متى أُلْبِسَ ، وجبَ أن يُؤتَى بحركةٍ

تزيل اللبس .

فيقال في " عقتُ " من العوق إذا عاقك غَيْرُكَ : " عِقْت " بالكَسْرِ فقط ، أو الإشمام ، وفي : " بعت يا عبد " إذا قصد أن غيره باعه " بُعْت " بالضم فقط أو الإشمام ، ولكن سيبويه جوَّز في " قيل وبيع " ونحوهما الأوجه الثلاثة من غير احتراز .

و " هِيَ " ضميرٌ يُفَسِّره سياقُ الكلام إذ التقديرُ : إنْ فَتنتُهُمْ إلاَّ فِتنَتُكَ .

وقيل يعندُ على مسألة الإرادة من قوله : ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153] أي : إنَّهُ من مسألة الرُّؤيةِ .

قوله : ﴿ عذابي أُصِيبُ بِهِ ﴾ مبتدأ وخبر .

والعامَّةُ على " مَنْ أشَاءُ " بالشِّينِ المعجمةِ .

وقرأ زيدُ بن علي ، وطاووس ، وعمرو بن فائد " أسَاءُ بالمهملة .

قال الدَّانِي : لا تصحُّ هذه القراءة عن الحسن ، ولا عن طاووس ، وعمرو بن فائد رجل سَوْءَ واختار الشَّافعيُّ هذه القراءة ، وقرأها سفيان بْنُ عيينة ، واستحسنها فقام عبد الرَّحْمنِ المقرىء فصاح به وأسمعه .

(141/290)

فقال سفيانُ : "لَمْ أفطِنْ لِمَا يقولُ أهل البدع" .

يعني عبد الرحمن أنَّ المعتزلة تعلَّقُوا بهذه القراءة في أنَّ فعل العَبْدِ مَخْلُوقٌ لهُ ، فاعتذرَ سفيان عن ذلك .

ومعنى الآية : إنِّي أعذبُ مَنْ من أشَاءُ ، وليس لأحدٍ عليَّ اعتراض ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي : أنَّ رحمته في الدُّنيا تعُمُّ الكل ، وأمَّا في الآخرةِ فهي مختصة بالمؤمنين لقوله هنا ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ وهذا من العام الذي أريد به الخاص كقوله ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] .

قال عطيَّةُ العوفي : " وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ " ولكن لا تَجِب إلاَّ للمُتَّقينَ ، وذلك أنَّ الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن ، لسعة رحمةِ الله للمؤمن ، فإذا صار للآخرة وجبت للمؤمن خاصة كالمستضيء بنار غيره إذا ذهب صاحب السِّراج بسراجه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 337 . 338 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الأَخِرَةِ ﴾ .

نَطَقَ بلسان التضرع والابتهال حيث صَفَّى إليه الحاجة ، وأخلص له في السؤال فقال : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ ﴾ أي اهدنا إليك .

وفي هذه إشارة إلى تخصيص نبيّنا – صلى الله عليه وسلم – في التبري من الحول والقوة والرجوع إلى الحقّ لأن موسى – عليه السلام قال : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي . . . . ﴾ ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم قال : " لا تكلني إلى نفسي طرفة عين " ولا أقلَّ من ذلك ، وقال : " واكفلني كفالة الوليد " ثم زاد في ذلك حيث قال : " لا أحصي ثناء عليك " .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

أي مِلْنَا إلى دينك ، وصِرْنَا لكَ بالكلية ، في غير أَنْ نترك لأنفسنا بقية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

(142/290)

وفي هذا لطيفة ؛ حيث لم يقل : عذابي لا أُخْلِي منه أحَداً ، بل علَّقَه على المشيئة . وفيه أيضاً إشارة ؛ أنّ أفعاله – سبحانه – غيرُ مُعَلَّلَة بأكساب الخلق ؛ لأنه لم يقل : عذابي أصيب به العصاة بل قال : ﴿ مَنْ أَشَاءُ ﴾ ؛ وفي ذلك إشارة إلى جواز الغفران لمن أراد لأنه قال : ﴿ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ فإذا شاء ألا يصيب به أحداً كان له ذلك ، وإلا لم يكن حينئذٍ مختاراً .

ثم لمَّا انتهى إلى الرحمة قال : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ لم يُعلِّقها بالمشيئة ؛ لأنها

نفس المشيئة ولأنها قديمة ، والإرادة لا تتعلق بالقديم . فلمَّا كان العذابُ من صفات الفعل علَّقه بالمشيئة ، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات .

ويقال في قوله تعالى : ﴿ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مجالٌ لآمالِ العُصَاة ؛ لأنهم وإن لم يكونوا من جملة المطيعين والعبادين والعارفين فهم ﴿ شيءٍ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أي سأوجبها لهم ، فيجب الثواب للمؤمنين من الله ولا يجب لأحدٍ شيء على الله إذ لا يجب عليه شيءٍ لعزّه في ذاته .

قوله ها هنا : ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي يجتنبون أَنْ يروا الرحمة باستحقاقهم ، فإذا اتقوا هذه الظنون ، وتيقنوا أن أحكامه ليست معللةً بأكسابهم – استوجبوا الرحمة ، ويحكم بها لهم .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بما يكاشفهم به الأنظار مما يقفون عليه بوجوه الاستدلال ، وبما يلاطفهم به في الأسرار مما يجدونه في أنفسهم من فنون الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 575. 577 ﴾

(143/290)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والتسعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/291)

الجزء الحادى والتسعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 157 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 157 ﴾ نفس الآية

(4/291)

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان اليهود ربما ادعوا ذلك مكابرة ، وأضح غاية الإيضاح بقوله : ﴿ الذين يتبعون ﴾ أي بغاية جهدهم ﴿ الرسول ﴾ ولما كان هذا الوصف وحده غير مبين للمراد ولا صريح في الرسالة عن الله ولا في كونه من البشر ، قال : ﴿ النبي ﴾ أي الذي يأتيه الوحي من الله فبدأ بالأشراف وثنى بما خصه برسالة الله وكونه من الآدميين لا من الملائكة .

ولما لم يتم المراد ، قال مبيناً لأعظم المعجزات ، وهي أن علمه بغير معلم من البشر : ﴿ الأمي ﴾ أي الذي هو مع ذلك العلم المحيط على صفة الأم ، وأمة العرب لا يكتب ولا يقرأ ولا يخالط العلماء العلماء للتعليم منهم بل لتعليمهم ،

(5/291)

فانطبق الوصف على الموصوف مع التنويه بجلالة الأوصاف والتشويق إلى الموصوف ، ولم يعطف لئلا يوهم تعداد الموصوف – والمعنى أني لا أغفر لأحد من بني إسرائيل ولا من غيرهم إلا إن اتبع محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهذا الاتباع تارة يكون بالقوة فقط لمن تقدم موته على زمانه ، وتارة يخرج منة القوة إلى الفعل ممن لحق زمانه دعوته ، فمن علم الله منه أنه لا يتبعه إذا أدركه لا يغفر له ولو عمل جميع الطاعات غير ذلك ، وعرفه لهم بجميع خواصه حتى لا يتطرق إليه عند مجيئه ولا ريب يتعلل في أمره بعلة ، ولذلك أتبعه بقوله : ﴿ الذي يجدونه ﴾ أي علماء بني إسرائيل ؛ ولما اشتد تشوف بذكر الوجدان ، قال : ﴿ مكتوباً ﴾ ثم قرب الأمر بقوله : ﴿ عندهم ﴾ ثم بين أنه مما لا يدخله شك بقوله : ﴿ في التوراة والإنجيل ﴾ أي اللذين يعلمون أنهما من عند الله بصفته البينة كما تقدم بيانه عما عللوا عن تبديله منهما في البقرة ﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه ﴾ [البقرة : 124] وفي آل

عمران عند ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً ﴾ [آل عمران : 33] وفي النساء عند ﴿ ما قتلوه يقيناً ﴾ [النساء : 157] وفي التوارة أيضاً من ذلك في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس : وإذا دخلتم الأرض التي يعطيكم الله ربكم فلا تعملوا مثل أعمال تلك الشعوب ولا يوجد فيكم من يطلب تعليم العرافين ، ثم قال : لأن هذه الشعوب التي ترثونها كانت تطيع العرافين والمنجمين ، فأما أنتم فليس هكذا يعطيكم الله ربكم ، بل يقيم لكم نبياً من إخوتكم مثلي ، فأطيعوا ذلك النبي كما طلبتم إلى الله ربكم في حوريب يوم الجماعة وقلتم : لا تسمع صوت الله ربنا ولا تعاين هذه النار العظيمة لئلا نموت ، فقال الرب :

(6/291)

ما أحسن ما تكلموا ، إني سأقيم لهم نبياً من إخوتهم مثلك ، أجعل كلامي في فيه ويقول لهم ما آمره به ، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه – انتهى .

هكذا رأيته مترجماً في بعض نسخ التوارة ، ثم رأيت السموأل بن يحيى المغربي ترجمه في كتابه الذي ذكر فيه سبب إسلامه وكان من أكابر علمائهم بل العلماء فقال : نبياً أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك ، بع فليؤمنوا – انتهى .

وهو يعني أن يكون هذا النبي محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه من بني إسماعيل أخي إسحاق وقد أتى بشريعة مستقله لا تعلق لها بشريعة قبلها ولا توقف لها عليها ، وذلك أن في العبارة كلمتين : مثل وإخوة ، وحقيقة الأخ ابن أحد الأبوين ، وهو لا يتأتى في أحد من أنبيائهم ، فأقرب المجاز إلى حقيقته الحمل على أخي الأب ، وهو إسماعيل عليه السلام ، والشائع في الاستعمال في نحو ذلك على تقدير إرادة أحد منهم أن يقال : من أنفسهم ، لا من إخوتهم ، وحقيقة المثل المشارك في أخص الصفات ، وأخص صفات موسى عليه السلام الرسالة والكتاب بشريعة مستقلة ، ولم يأت منهم بعده من هو بهذه الصفة ، لأن عيسى عليه السلام لم ينسخ من شريعة موسى عليه السلام إلا بعض الأحكام ، وعلى تقدير دعوى ذلك فيه لكونه نسخ في الجملة وتسليم ذلك لا يتأتى قصده بهذا النص لوجهين : أحدهما أنه ليس من رجالهم إلا بواسطة أمه ، فحق العبارة فيه : من بني أخواتهم – جمع أخت ، وإذا أريد آباء أمه كان المجاز فيهم أبعد من المجاز في بني إسماعيل لما تقدم ، ولا ينتقل إلى الأبعد إلا بقرينة تصرف عن الأقرب – والله أعلم .

(7/291)

وقال السموأل بن يحيى أحد أحبارهم في سبب إسلامه : إن اليهود يقولون : إن هذه البشارة نزلت في حق سموأل أحد أنبيائهم الذين بعد موسى لأنه كان مثل موسى عليه السلام في أنه من سبط لاوي ، وقال : إنه رأى سموأل عليه السلام في المنام وأنه دفع إليه كتاباً فوجد فيه هذه البشارة فقال له : هنيئاً لك يا نبي الله ما خصك الله به ! فنظر مغضباً وقال : أوإياي أراد الله بهذا يا ذكي ! ما أفادتك إذن البراهين الهندسية ، فقلت : يا نبي الله ! فمن أراد الله بهذا ؟ قال : الذي أراد في قوله : هوفيع ميهار فاران ، وتفسيره إشارة إلى نبوة وعد بنزولها على جبال فاران ، فعرفت أنه يعني المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لأنه المبعوث من جبال فاران وهي جبال مكة ، ثم قال : أو ما علمت ان الله لم يبعثني بنسخ شيء من التوارة ، وإنما بعثني أذكرهم بها وأحيي شرائعها وأخلصهم من أهل فلسطين ، قلت : بلى يانبي الله ! قال : فأي حاجة بهم إلى أن يوصيهم ربهم باتباع من لم ينسخ دينهم ولم يغير شريعتهم ، أرأيتهم احتاجوا إلى أن يوصيهم بقبول نبوة دانيال أو يرميا أو حزقيل ؟ قلت : لا لعمري ! فأخذ الكتاب من يدي وانصرف مغضباً فارتعبت لغضبه وازدجرت لموعظته واستيقظت مذعوراً .

(8/291)

وقال في كتابه غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود : إن الله يطلق الإخوة على غير بني إسرائيل كما قال في بني العيص بن إسحاق عليه السلام في الجزء الأول من السفر الخامس ما تفسيره : أنتم عابرون في تخم إخوتكم بني العيص فإذا كانوا بنو العيص إخوة لبني إسرائيل لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحاق ، فكذلك بنو إسماعيل إخوة لجميع ولد إبراهيم عليهم السلام ، قال : وفي الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة في ذكر البشارة لإبراهيم عليه السلام ما تفسيره : وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاءك ، ها قد باركت فيه وأثمره وأكثره جداً جداً وقال : إن جداً جداً بلسان العبراني مفسر " بماد ماد " وهاتان الكلمتان إذا عددنا حروفها بحساب الجمل كان اثنتين وتسعين ، وذلك عدد حساب حروف اسم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يعني فتعين أن يكون مراداً بها لأنها في البشارة بتكثير إسماعيل عليه السلام ، وليس في أولاده من كثره الله به وعدد اسمه هذا العدد غير محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال : وإنما جعل ذلك في هذا الموضع ملغزاً ، لأنه لو صرح به لبدلته اليهود أو أسقطته من التوراة كما عملوا في غيره – انتهى .

وفي آخرة فصول التوراة : دعا موسى عبد الله لبني إسرائيل قبل وفاته قال : أتى ربنا من سيناء وشرق لنا من جبل ساعير وظهر لنا من جبل – وفي نسخة : جبال فاران ، معه ربوات الأطهار على يمينه ، أعطاهم وحببهم إلى الشعوب وبارك على جميع أطهاره – وهم يتبعون آثارك ويتناقلون كلماتك .

وفي نسخة بدل : معه ربوات الأطهار – إلى آخره : وأتى من ربوات القدس بشريعة نوره من يمينه لهم ، واصطفى أيضاً شعباً فجميع خواصه في طاعتك وهم يقفون آثارك وسيتنا قلون كلماتك انتهى .

(9/291)

فالذي ظهر من جبال فاران هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لأنهم معترفون أنها مكة ، ومعه ربوات ، أي جماعات الأطهار ، وأمته حببت إلى الشعوب ، لأن كلاًّ من فريقي أهل الكتاب يقدمهم على الفريق الآخر ، ولم يقبل أحد جميع كلام موسى عليه السلام ويتبع جميع آثاره في بشارته ممن يأتي بعد غيرهم – هذا وأما الإنجيل فالبشائر فيه أكثر وقد تقدم كثير منها ، وهي تكاد أن تكون صريحة في سورة النساء في قصة رفعه عليه السلام ، ومما فيه أيضاً ما في إنجيل متى وغيره وأغلب السياق له : كثيراً أولون يصيرون آخرين وآخرون يصيرون أولين ، يشبه ملكوت السماوات إنساناً رب بيت حرج بالغداة يستأجر فعلة الكرمه فشارط الأكرة على دينار واحد في اليوم وأرسلهم إلى كرمه ، ثم خرج في ثالث ساعة فأبصر آخرين قياماً في السوق بطالين ، فقال لهم : امضوا أنتم إلى كرمي وأنا أعطيكم ما تستحقون ، فمضوا ، وخرج أيضاً في الساعة السادسة والتاسعة فصنع كذلك ، وخرج

في الحادية عشرة فوجد آخرين قياماً ، فقال لهم : ما قيامكم كل النهار بطالين ؟ فقالوا له : لم يستأجرنا أحد ، فقال لهم : امضوا أنتم بسرعة إلى الكرم وأنا أعطيكم ما تستحقون ، فلما كان المساء قال رب الكرم لوكيله : ادع الفعلة وأعطهم الأخرة وابدأ بهم من الآخرين إلى الأولين ، فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة فأخذوا دينار كل واحد ، فجاء الأولون فظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا دينار كل واحد ، لما أخذوا تعمقوا على رب البيت وقالوا إن هؤلاء الآخرين عملوا ساعة واحدة ، جعلتهم أسوتنا ونحن حملنا ثقل النهار وحرّه ! فقال لواحد منهم : ياصاحب ! ما ظلمتك ، ألست بدينار شارطتك ، خذ شيئك وامض ، أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك ، أو ما لي أن أفعل ما أردت بمالي ؟ وأن عينك شريرة ، كذلك يكون الآخرون أولين ، والأولون آخرين ، ما أكثر المدعوين وأقل المنتخبين ، وقال : ودخل إلى الهيكل فجاء إليه رؤساء النكهة وشيوخ الشعب وقالوا له

(10/291)

وهو يعلم : بأيّ سلطان تفعل هذا ؟ ومن اعطاك هذا السلطان ؟ أجاب يسوع وقال لهم : أنا أسألكم عن كلمة واحدة ، فإن أنتم قلتم لي قلت لكم بأي سلطان أفعل هذا ، معمودية يوحنا من أين هي ؟ من السماء أو من الناس ؟ ففكروا في نفوسهم قائلين : إن قلنا : من

السماء قال لنا : لماذا لم تؤمنوا به ؟ وإن قلنا : من الناس ، خفنا من الجمع ، وقال لوقا : وإن قلنا من الناس فإن جميع الشعب يرجمنا لأنهم قد تيقنوا أن يوحنا نبي ؛ وقال متى : لأن يوحنا كان عندهم مثل نبي ؛ وقال مرقس : لأن جميعهم كان يقول : إن يوحنا نبي ؛ قال متى : فقالوا : لا نعلم ، فقال : ولا أنا أيضاً أعلمكم بأي سلطان أفعل هذا .

قال مرقس : وبدأ يكلمهم بأمثال قائلاً ؛ قال متى : ماذا تظنون بإنسان كان له ابنان فجاء إلى الأول فقال له : يا بني ! اذهب اليوم واعمل في الكرم ، فأجاب وقال : ما أريد – وبعد ذلك ندم ومضى ، جاء إلى الثاني وقال له مثل هذا فأجاب وقال : نعم يا رب ! أنا أمضي – و – لم يمض ، من منهما فعل إرادة الأب ؟ فقالوا له : الأول ، فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم ! إن العشارين والزنا يسبقونكم إلى ملكوت الله ، جاءكم يوحنا بطريق العدل فلم تؤمنوا به ، والعشارون والزناة آمنوا به ، فأما أنتم فرأيتم ذلك ولم تندموا أخيراً لتؤمنوا به .

(11/291)

اسمعوا مثلاً آخر : إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاط به سياجاً وحفر فيه معصرة وبنى فيه برجاً ودفعه إلى فعلة وسافر – قال لوقا : زماناً كثيراً – فلما قرب زمان الثمار أرسل عبيده إلى الفعلة ليأخذوا ثمرته ، فأخذ الفعلة عبيده ، ضربوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا

بعضاً ، فأرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين فصنعوا بهم كذلك ، وفي الآخرة أرسل إليهم ابنه وقال : لعلهم يستحيون من ابني ، فلما رأى الفعلة الابن قالوا : هذا هو الوارث تعالوا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ، فإذا جاء رب البيت ماذا يفعل بهؤلائك الفعلة ؟ قالوا له : يهلكهم ويدفع الكرم إلى فعلة آخرين ليعطوه ثمرته في حينه ، قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب أن الحجر الذي رذله البناؤون صار رأس الزاوية ، هذا كان من قبل الرب وهو عجب في أعيننا ، من هذا أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمم يصنعون ثمرتها ، ومن سقط على هذا الحجر ترضض ، ومن سقط عليه طحنه .

فلما سمع رؤساء الكهنة والفريسيين امثاله علموا انه يقول من أجلهم ، فهموا أن يمسكوه وخافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبي .

(12/291)

وقال أيضاً : يشبه ملكوت السماء رجلاً صنع عرساً لابنه ، فأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس ، فلم يريدوا أن يأتوا ، ثم أرسل عبيداً آخرين وقال : قولوا المدعوين : إن طعامي معد ، وعجولي المعلوفة قد ذبحت وكل شيء معد ، فتعالوا إلى العرس ،

فتكاسلوا وذهبوا فمنهم إلى حقله ومنهم إلى تجارته والبقية أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم ، فلما بلغ الملك غضب وأرسل جنده وأهلك هؤلائك القتلة وأحرق مدينتهم ؛ حينئذ قال لعبيده : أما العرس فمستعد ، والمدعوون فغير مستحقين ، اذهبوا إلى مسالك الطريق وكل من وجدتموه ادعوه إلى العرس ، فخرج أولئك العبيد إلى الطرق فجمعوا كل من وجدوا أشراراً وصالحين ، فامتلأ العرس من المتكئين ، فلما دخل الملك لينظر إلى المتكئين رأى هناك رجلاً ليس عليه ثياث العرس فقال : يا هذا ! كيف دخلت ها هنا وليس عليك ثياب العرس ؟ فسكت ، حينئذ قال الملك للخدام : شدوا يديه ورجليه وأخرجوه إلى الظلمة البرانية ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، ما أكثر المدعوين وأقل المنتخبين .

وعبارة لوقا عن ذلك : إنسان صنع وليمه عظيمة ودعا كثيراً فأرسل عبده يقول للمدعوين يأتون فهو ذا كل شيء معد ، فبدؤوا بأجمعهم يستعفون ، فالأول قال : قد اشتريت كرماً والضرورة تدعوني إلى الخروج ونظره ، فأسألك أن تعفيني فما أجيء ، وقال آخر : قد اشتريت خمسة أزواج بقر وأنا ماض أجربها ، أسألك أن تعفيني فما أجيء ، وقال آخر : قد تزوجت امرأة ، لأجل ذلك ما أقدر أجي ، فأتى العبد وأخبره سيده ، فحينئذ غضب رب البيت وقال لعبده : اخرج مسرعاً إلى الطريق وشوارع المدينة وادع المساكين والعور والعميان والمقعدين ، اخرج إلى الطريق والسياجات وألح عليهم حتى يدخلوا ويمتلىء بيتي ولا أجد من هؤلائك يذوق لي عشاء .

وقال يوحنا : الحق أقول لكم ! إن من لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف ، بل يتسور من موضع آخر فإن ذلك لص ، الذي يدخل من الباب هو راعي الخراف ، والبواب يفتح له ، والخراف تسمع له ، وكباشه تتبعه لأنها تعرف صوته ، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف ، فأما الآخر الذي ليس براع وليست الخراف له ، فإذا رأى الذئب قد أقبل يدع الخراف ويهرب ، فيأتي الذئب ويخطف ويبدد الخراف ، وإنما يهرب الأجير لأنه مستأجر وليس يشفق على الخراف ، أنا الراعي الصالح ، ولي كباش أخر ليست من هذا القطيع ، فينبغي لي أن آتي بهم أيضاً ، فتكون الرعية واحدة ، فوقع أيضاً بين اليهود خلف من أجل هذا القول وقال كثير منهم : إن به شيطاناً قد جن ، فما استماعكم منه ! وقال آخرون : إن هذا ليس كلام مجنون .

وفي أوائل السيرة الهشامية : قال ابن إسحاق : وقد كان فيما بلغني عما كان وضع عيسى ابن مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل من صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما أثبت يحنس الحواري لهم حين نسخ لهم الإنجيل أنه قال : من أبغضني فقد أبغض الرب ، ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لمن يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة ، ولكن من الآن

بطروا وظنوا أنهم يعزوني وأيضاً للرب ، ولكن لابد من أن تتم الكلمة التي في الناموس أنهم أبغضوني مجاناً – أي باطلاً ، فلو قد جاء المنحمنا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس ، هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس ، هذا الذي من عند الرب خرج ، فهو شهيد علي وأنتم أيضاً لأنكم قديماً كنتم معي ، هذا قلت لكم لكيما لا تشكوا .

فالمنحمنا بالسريانية محمد ، وهو بالرومية البارقليطس – انتهى .

(14/291)

ولما دل سبحانه عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأوصافه في نفسه وفي الكتب الإلهيه ، دل عليه بشريعته فقال : ﴿ يأمرهم بالمعروف ﴾ أي بكل ما يعرفونه من التوراة والإنجيل وما يعرفونه فيهما أنه ينسخ شرعهم ويأتي من عند الله بهذا المذكور ﴿ وينهاهم عن المنكر ﴾ أي عن كل ما ينكرونه فيهما ، فثبتت بذلك رسالته ، فأنه لكونه أمياً لا يعرف المعروف والمنكر فيهما إلا وهو صادق عن علام الغيوب ، ثم شرع بعد ثبوت رسالته يبين لهم ما في رسالته من المنة عليهم بالتخفيف عنهم بإباحة ما كانوا قد حملوا ثقل تحريمه ، فكانوا لا يزالون يعصون الله بانتهاك حرماته والإعراض عن تبعاته فقال : ﴿ ويحل لهم الطيبات ﴾

أي التي كانت حرمت عليهم عقوبة لهم كالشحوم ﴿ ويحرم عليهم ﴾ وعبر بصيغة الجموع إشارة إلى أن الخبيث أكثر من الطيب في كل مائي الأصل فقال : ﴿ الخبائث ﴾ أي كل ما يستخبثه الطبع السليم أو يؤدي إلى الخبث كالخمر المؤدية إلى الإسكار والرشى المؤدية إلى النار بعد قبيح العار ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ أي ثقلهم الذي كان حمل عليهم فجعلهم لثقلة كالمحبوس الممنوع من الحركة ﴿ والأغلال التي كانت عليهم ﴾ أي جميع ما حملوه من الأثقال التي هي لثقلها وكراهة النفوس لها كالغل الذي يجمع اليد إلى العنق فيذهب القوة ﴿ فالذين آمنوا به ﴾ أي أوجدوا بسببه الأمان من التكذيب بشيء من آيات الله ﴿ وعزروه ﴾ أي منعوه من كل من يريده بسوء وقووا يده تقوية عظيمة على كل من يكيده : قال في القاموس : والتعزير : ضرب دون الحد أو هو أشد الضرب ، والتفخيم والتعظيم ضد ، والإعانة كالعزر والتقوية والنصر – انتهى .

وقال عبد الحق : العزر : المنع ، تقول : عزرت فلاناً عن كذا ، أي منعته – انتهى .

(15/291)

فالمادة كلها تدور على هذا المعنى والضرب واضح فيه التعظيم وما في معناه منع من يكيده ﴿ ونصروه ﴾ أي أيدوه وقمعوا مخالفة ﴿ واتبعوا النور ﴾ أي الوحي من القرآن والسنة

﴿ الذي أنزل معه ﴾ أي مصاحباً إنزاله إرساله ، سمي نوراً لأنه يجعل المقتدي به ببيان طريق الحق كالماشي في ضوء النهار ﴿ أولئك هم ﴾ أي خاصة ﴿ المفلحون ﴾ أي الفائزون بكل مأمول .

ولما تراسلت الآي وطال المدى في أقاصيص موسى عليه السلام وبيان مناقبه العظام ومآثره الجسام ، كان ذلك ربما أوقع في بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصباً وأعظمهم رتبة ، فساق سبحانه هذه الآيات هذا السياق على هذا الوجه الذي بين أن أعلاهم مراتب وأزكاهم مناقب الذي خص برحمته من يؤمن به من خلقه قوة أو فعلاً ، وجعل سبحانه ذلك في أثناء قصة بني إسرائيل اهتماماً به وتعجيلاً له مع ما سيذكر مما يظهر أفضليته ويوضح أكمليته بقصته مع قومه في مبدإ أمره وأوسطه ومنتهاه في سورتي الأنفال وبراءة بكمالها .

(16/291)

ذكر شيء من الآصار التي كانت عليهم وخففت عنهم لو دخلوا في الإسلام ببركته ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير ما أسلفته في آخر البقرة عند قوله تعالى ﴿ ولا تحمل علينا إصراً ﴾ [البقرة : 286] وفي المائدة عند قوله تعالى ﴿ وليحكم أهل الإنجيل ﴾ [المائدة : 47]

قال في السفر الثاني من التوراة : وقال الرب لموسى : اعمد فخذ طيباً – إلى أن قال : وليكن معجوناً طيباً للقدس ودقه واسحقه وبخر منه قدام تابوت الشهادة في قبة الزمان لأواعدك إلى هناك ، ويكون عندكم طهراً مخصوصاً ، وأيما رجل اتخذ مثله ليتبخر به فليهلك ذلك الرجل من شعبه ؛ وقال في الثالث : ثم كلم الرب موسى قال له ؛ كلم هارون وبنيه وجماعة بني إسرائيل وقل لهم ؛ هذا ما أمرني به الرب ان أخبركم ، أي رجل من بني إسرائيل يذبح في محلة بني إسرائيل أو يذبح خارجاً من العسكر ولا يجيء بقربانه إلى باب قبة الزمان ليقربه يعاقب ذلك الرجل عقوبة من قتل قتيلاً ؛ وكلم الرب موسى وقال له : كلم هارون وقل له : من كان عيب من نسلك – أي من الأحبار – في جميع الأحقاب لا يدنو من مقدسي ، لا يقرب قرباناً مثل الرجل الأعراج والأعمى والأفطس والأصمع الأذن أو رجل مسكور اليد أو رجل قيصر أو منحن أو رجل قد أشتر حاجباه أو أجهر العين أو من في عينه بياض أو أبرص أو أحدب أو رجل له خصية واحدة ، أي رجل كان فيه عيب من نسل هارون الكاهن لا يدنو من المذبح ليقرب قربان الرب لأن فيه عيباً ؛ وقال في السفر الرابع وهو من الحجج على أن التوراة لم تنزل جملة : وكلم الرب موسى في برية سيناء في السنة الثانية لخروج بني إسرائيل من مصر في الشهر الأول وقال : تعمل بنو إسرائيل الفصح في وقته في أربعة عشر يوماً من هذا الشهر – إلى أن قال : وعملوا الفصح ، والقوم الذين

تنجسوا بأنفس الناس لم يقدروا أن يعملوا الفصح فقالوا : قد تنجسنا بأنفس الناس ، أي مسسنا ميتاً ، فهل يحرم علينا عمل الفصح ؟ فقال لهم موسى : قوموا في مواضعكم حتى

(17/291)

تسمعوا ما يأمر الرب فيكم ، وكلم الرب موسى وقال له : قل لهم : الرجل إذا تنجس منكم لميت أو كان في مكان بعيد يعمل فصحاً للرب في أربعة عشر يوماً من الشهر الثاني ، ومن كان زكياً ولم يكن مسافراً ولم يعمل الفصح في وقته تهلك تلك النفس من بين بني إسرائيل ، وقال قبل ذلك : وكلم الرب موسى وقال له : مر بني إسرائيل أن يخرجوا من عسكرهم كل من به برص أو سلس وكل من كان نجساً بنفسه ذكراً كان أو أنثى ، يخرجونهم خارج العسكر ، ولا تنجسوا عساكركم لأني نازل بينكم ؛ ثم ذكر : الرجل إذا غار على امرأته واتهمها ، إنه يأتي الكاهن فيقيمها ويلقنها لعناً ، فإذا قالته كتبه وأخذ ماء مقدساً في وعاء فخار ووضع فيه من الترب الذي أسفل المذبح وسقاه لها ، فإن كانت خانت انتفخ بطنها وفسد فخذاها وتصير لعنة في شعبها ، وإن كانت لم تخن تطهرت وولت ذكراً ، ثم أمرهم بذبح بقرة وإحراقها حتى تصير رماداً ، ويغسل الحبر الذي ذبحها ثيابه ويديه ، فكل من يقترب إلى ميت أو ميتة يكون نجساً سبعة أيام ، وينضح عليه من ذلك الماء في اليوم الثالث

واليوم السابع ويتطهر ، وإن لم يرش عليه كذلك فلا يتطهر ، وكل من دنا من إنسان ميت ولا ينضح عليه من ذلك الماء فقد نجس جناب الرب ، فلتهملك تلك النفس لأنه لم ينضح عليه من ماء الرش شيء ، فلذلك يكون نجساً ولا يفارقه نجاسته ، وهذه سنة الإنسان إذا مات في قبة الزمان ، فكل من كان هناك في القبة وكل من يدخلها يكون نجساً سبعة أيام ، وكل وعاء يكون مكشوفاً غير مغطى نجساً ، وكل من دنا من قتيل أو يمس عظم إنسان أو يدخل القبر يكون نجساً سبعة أيام ويؤخذ للمنتخس من رماد البقرة ويصيب في وعاء ماء عذب وينضح منه – على كيفية ذكرها – ليكون زكياً ، ومن تنجس ولم يرش عليه من ذلك الماء تهلك نفسه من جماعتها ، ومن دنا من ماء الرش يكون نجساً إلى الليل ، ومن اقترب إلى ذلك الذي تنجس يكون نجساً إلى الليل – ثم قال : ثم كلم الرب موسى وقال

(18/291)

له : مر بني إسرائيل وقل لهم : قرابتي يكون محفوظة في أوقاتها – ثم ذكر له كثيراً من أمر القرابين ، ثم ذكر من أوقاتها يوم السبت ورؤوس الشهور ، ثم قال : وفي أربع عشرة ليلة من الشهر الأول هو فصح الرب ، ويوم خمسة عشر اتخذوه عيداً ، وكلوا الفطير سبعة أيام ، وصيّروا أول يوم من السبعة مميزاً مطهراً لا تعملوا فيه عملاً ، واليوم السابع يكون مميزاً مطهراً

لا تعملوا فيه عملاً وأول يوم من الشهر السابع يكون مختصاً مطهراً ، لا تعملوا فيه عملاً مما يعمل ، بل صيروه يوماً يهتف فيه بالقرون ، وقربوا ذبائح كاملة – ثم وصفها وكذا غيره من الأيام ثم قال : وكذلك فافعلوا في أول الشهر أبداً ، وفي عشر من الشهر السابع اجعلوه يوماً مختصاً ، مطهراً لا تعملوا فيه عملاً ، ولكن قربوا ، ويوم خمسة عشر من هذا الشهر السابع ، ويكون مدعواً ، لا تعملوا فيه عملاً ، بل اتخذوه عيداً للرب سبعة أيام ؛ ثم قال : حتى إذا كان اليوم الثامن فاحتفلوا بأجمعكم ، ولا تعملوا شيئاً مما يعمل ، وقربوا قرابين كاملة – وأطال في ذلك جداً على كيفيات حفظها فضلاً عن العلم بها في غاية المشقة ؛ ثم قال قربوا للرب في أيام أعيادكم غير نذوركم وغير خواصكم التي تختصون للرب ؛ ثم قال مخاطباً للمجاهدين في مدين : وأما أنتم فانزلوا خارجاً من العسكر سبعة أيام ، كل من قتل نفساً أو مس قتيلاً ينضح عليه من ماء التطهير في الثالث والسابع – وأمرهم بأشياء من الآصار ثم قال : وتطهروا بالماء في اليوم السابع ، ثم بعد ذلك تدخلون العسكر ؛ ثم قال في الخامس : هذه السنن والأحكام التي يجب عليكم أن تعملوها وتحفظوها في الأرض التي يعطيكم الله ربكم ميراثاً كل أيام حياتكم ، خربوا كل البلدان التي ترثونها ، والآلهة التي عبدها أهلها فيها على الجبال الرفيعة والآكام وتحت كل شجرة كبيرة تظل ، واستأصلوا مذابحهم وكسروا أنصابهم ، وأحرقوا أصنامهم المصنوعة وأوثانهم المنحوته ، ولا تصنعوا أنتم

مثل ما صنع أولئك في عبادتكم الله ربكم ، ولكن المواضع التي يختار الله ربكم أن تصيّروا اسمه فيها من جميع قبائلكم ، وافحصوا عن محلته ، وانطلقوا بجمعكم بقرابينكم الكاملة ، كلوا هناك أمام الله ربكم أنتم وأهاليكم ، ولا تعملوا كما يعمل هاهنا اليوم أي قبل الوصول إلى أرض الميراث ؛ ثم قال : انظروا لا تقربوا قرابينكم في المواضع التي تريدون ، لكن في المواضع الذي يختار الرب ، في حد سبط من أسباطكم ؛ ثم قال : وإذا بنيت بيتاً جديداً فحجر على البيت لئلا يقع إنسان من فوقه فليلزمك دمه ، ولا تزرعن في حرثك خلطاً لئلا تفسد غلة زرعك وكرمك ، لا تحرث بالثور والحمار جميعاً ، ولا تنسج ثوباً من قطن وصوف جميعاً ، اعمل خيوطاً في أربعة أطراف ردائك الذي تلبس ؛ ثم قال : وإن وجد رجل فتاة عذراء لم تملك ، فيظفر بها ويضاجعها ويوجد ، يدفع إلى أبيها خمسين مثقالاً من فضة ، وتصير امرأته لأنه فضحها ، ولا يقدر أن يطلقها حتى يموت .

(20/291)

ولا يدخل ولد الزنا إلى بيت الرب ، ولا يدخل نسله من بعده إلى عشرة أحقاب ، ولا يدخل عماني ولا مؤابيّ إلى بيت الرب ، ولا يدخل نسلهما من بعدهما إلى عشرة أحقاب ، لأنهم لم

يضيفوكم ولم يعشوكم بالخبز والماء حيث خرجتم من أرض مصر ، ولأنهم اكتروا بلعام بن بعور من فتورام من بين النهرين – وهي حران – ليلعنكم ، ولم يحب الرب أن يسمع قول بلعام بن بعور ، وقلب الله لعنه إلى الدعاء ، لأن الله ربكم أحبكم ، فلا تريدوا لهم الخير أيام حياتكم ، لا تدفعوا الأدومي عنكم لأنه أخوكم ، ولا تبعدوا المصري أيضاً لأنكم كنتم سكاناً بأرض مصر ، وإن كان في معسكركم رجل أصابته جنابة ، يخرج خارج العسكر ، ولا يجلس بين أصحابه في العسكر ، وإذا كان العشيّ فليستحم بالماء ، وإذا غابت الشمس وأمسى يدخل العسكر ، وليكن لكم موضع معروف خارج العسكر تخرجون إليه إلى الخلاء ، ويكون على سلاحكم وتد من حديد ، فإذا جلستم للخلاء احفروا موضعاً للخلاء وغطوا رجيعكم ، لأن الله ربكم معكم في العسكر لينقذكم ويدفع عنكم أعداءكم ، فليكن عسكركم مطهراً مزكياً لئلا يرى فيكم أمراً قبيحاً ، فيرتفع عنكم ولا يصحبكم ؛ ثم قال : وإن سكن أخوان جميعاً ومات أحدهما ولم يخلف ولداً ، لا تتزوج امرأته من رجل غريب ، ولكن يتزوج بها وارثه ويقيم زرعاً ، وأول ولد تلد ينسب إلى أخيه الذي مات ، ويقال إنه ابن ذلك الذي مات ولم يخلف ولداً ، لئلا يبيد اسمه من بني إسرائيل ، وإن لم يعجب الرجل أن يتزوج امرأة أخيه ، ترتفع امرأة أخيه إلى المشيخة فيدعونه ، فإن ثبت على قوله تتقدم إليه المرأة بين يدي المشيخة وتخلع خفيه من قدميه وتبصق في وجهه وتقول : كذلك يصنع بالرجل الذي لا يحب أن يبني بيتاً لأخيه ، ويدعى اسمه بين بني إسرائيل : صاحب

خلع الخفين ، وإن شاجر الرجل صاحبه فدنت امرأة أحدهما لتخلص زوجها من الذي يقاتله ، فتمد يدها إلى مذاكير الرجل ، يقطع يدها ولا يشفق عليها ولا يترحم - انتهى .

وكل هذه الآصار على النصارى أيضاً ما لم يرد في الإنجيل نسخها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 124 . 133 ﴾

(21/291)

فصل

قال الفخر :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن من صفة من تكتب له الرحمة في الدنيا والآخرة التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بالآيات ، ضم إلى ذلك أن يكون من صفته اتباع ﴿ النبى الأمى الذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التوراة والإنجيل ﴾ واختلفوا في ذلك فقال بعضهم : المراد بذلك أن يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة ، إذ لا يجوز أن يتبعوه في شرائعه قبل أن يبعث إلى الخلق ، وقال في قوله : ﴿ والإنجيل ﴾ أن المراد سيجدونه مكتوباً في الإنجيل ،

لأن من المحال أن يجدوه فيه قبل ما أنزل الله الإنجيل ، وقال بعضهم : بل المراد من لحق من بني إسرائيل أيام الرسول فبين تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم رحمة الآخرة إلا إذا اتبعوا الرسول النبي الأمي .

والقول الثاني أقرب ، لأن اتباعه قبل أن بعث ووجد لا يمكن .

فكأنه تعالى بين بهذه الآية أن هذه الرحمة لا يفوز بها من بني إسرائيل إلا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بالدلائل في زمن موسى ، ومن هذه صفته في أيام الرسول إذا كان مع ذلك متبعاً للنبي الأمي في شرائعه .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى وصف محمداً صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بصفات تسع .

الصفة الأولى : كونه رسولاً ، وقد اختص هذا اللفظ بحسب العرف بمن أرسله الله إلى الخلق لتبليغ التكاليف .

الصفة الثانية : كونه نبياً ، وهو يدل على كونه رفيع القدر عند الله تعالى .

الصفة الثالثة : كونه أمياً .

قال الزجاج : معنى ﴿ الأمى ﴾ الذي هو على صفة أمة العرب .

قال عليه الصلاة والسلام : " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " فالعرب أكثرهم ما كانوا

يكتبون ولا يقرؤون والنبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك ، فلهذا السبب وصفه بكونه أمياً .

(22/291)

قال أهل التحقيق وكونه أمياً بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه : الأول : أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد وأن يزيد فيها وأن ينقص عنها بالقليل والكثير ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير .

فكان ذلك من المعجزات وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] والثاني : أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً في أنه ربما طالع كتب الأولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة ، كان ذلك من المعجزات وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كتاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48] الثالث : أن تعلم الخط شيء سهل فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى

سعى ، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم ، ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر ، ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهماً ، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجار مجرى المعجزات .

(23/291)

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ الذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التوراة والإنجيل ﴾ وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل ، لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله ، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفِّرات ، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله ، وينفر الناس عن قبول قوله : فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿ يَأْمُرُهُم بالمعروف ﴾ قال الزجاج : يجوز أن يكون قوله : ﴿ يَأْمُرُهُم بالمعروف ﴾ استئنافاً ، ويجوز أن يكون المعنى ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾

أنه ﴿يَأْمُرُهُم بالمعروف﴾ وأقول مجامع الأمر بالمعروف محصورة في قوله عليه الصلاة والسلام : " التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله " وذلك لأن الموجود إما واجب الوجود لذاته وإما ممكن الوجود لذاته .

أما الواجب لذاته فهو الله جل جلاله ، ولا معروف أشرف من تعظيمه وإظهار عبوديته وإظهار الخضوع والخشوع على باب عزته والاعتراف بكونه موصوفاً بصفات الكمال مبرأ عن النقائص والآفات منزهاً عن الأضداد والأنداد ، وأما الممكن لذاته فإن لم يكن حيواناً ، فلا سبيل إلى إيصال الخير إليه لأن الانتفاع مشروط بالحياة ، ومع هذا فإنه يجب النظر إلى كلها بعين التعظيم من حيث أنها مخلوقة لله تعالى ، ومن حيث أن كل ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلاً قاهراً وبرهاناً باهراً على توحيده وتنزيهه فإنه يجب النظر إليه بعين الاحترام .

(24/291)

ومن حيث إن الله تعالى في كل ذرة من ذرات المخلوقات أسراراً عجيبة وحكماً خفية فيجب النظر إليها بعين الاحترام ، وأما إن كان ذلك المخلوق من جنس الحيوان فإنه يجب إظهار الشفقة عليه بأقصى ما يقدر الإنسان عليه ، ويدخل فيه بر الوالدين وصلة الأرحام

وبث المعروف فثبت أن قوله عليه الصلاة والسلام : " التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله " كلمة جامعة لجميع جهات الأمر بالمعروف .

الصفة السادسة : قوله : ﴿ وينهاهم عَنِ المنكر ﴾ والمراد منه أضداد الأمور المذكورة وهي عبادة الأوثان ، والقول في صفات الله بغير علم ، والكفر بما أنزل الله على النبيين ، وقطع الرحم ، وعقوق الوالدين .

الصفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات ﴾ من الناس من قال : المراد بالطيبات الأشياء التي حكم الله بحلها وهذا بعيد لوجهين : الأول : أن على هذا التقدير تصير الآية ويحل لهم المحللات وهذ محض التكرير .

الثاني : أن على هذا التقدير تخرج الآية عن الفائدة ، لأنا لا ندري أن الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي ؟ بل الواجب أن يكون المراد من الطيبات الأشياء المستطابة بحسب الطبع وذلك لأن تناولها يفيد اللذة ، والأصل في المنافع الحل فكانت هذه الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل إلا لدليل منفصل .

الصفة الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبئث ﴾ قال عطاء عن ابن عباس ، يريد الميتة والدم وما ذكر في سورة المائدة إلى قوله : ﴿ ذلكم فِسْقٌ ﴾ وأقول : كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس كان تناوله سبباً للألم ، والأصل في المضار الحرمة ، فكان مقتضاه أن كل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه الحرمة إلا لدليل منفصل .

وعلى هذا الأصل : فرع الشافعي رحمه الله تحريم بيع الكلب ، لأنه روى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب الصحيحين أنه قال : " الكلب خبيث ، وخبيث ثمنه " وإذا ثبت أن ثمنه خبيث وجب أن يكون حراماً لقوله تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبئث ﴾ وأيضاً الخمر محرمة لأنها رجس بدليل قوله : ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر ﴾ إلى قوله : ﴿ رِجْسٌ ﴾ [المائدة : 90] والرجس خبيث بدليل إطباق أهل اللغة عليه ، والخبيث حرام لقوله تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبئث ﴾ .

الصفة التاسعة : قوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والاغلال التى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عامر (وحده آصارهم) على الجمع ، والباقون ﴿ إِصْرَهُمْ ﴾ على الواحد .

قال أبو علي الفارسي : الإصر مصدر يقع على الكثرة مع إفراد لفظه يدل على ذلك إضافته ، وهو مفرد إلى الكثرة ، كما قال : ﴿ وَلَوْ شَاء الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبصارهم ﴾ [البقرة : 20] ومن جمع ، أراد ضروباً من العهود مختلفة ، والمصادر قد تجمع إذا اختلفت

ضروبها كما في قوله : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ [الأحزاب : 10] .

المسألة الثانية :

الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه ، أي يحبسه من الحراك لثقله ، والمراد منه : أن شريعة موسى عليه السلام كانت شديدة .

وقوله : ﴿ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ المراد منه : الشدائد التي كانت في عباداتهم كقطع أثر البول ، وقتل النفس في التوبة ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وتتبع العروق من اللحم وجعلها الله أغلالاً ، لأن التحريم يمنع من الفعل ، كما أن الغل يمنع عن الفعل ، وقيل : كانت بنو إسرائيل إذا قامت إلى الصلاة لبسوا المسوح ، وغلوا أيديهم إلى أعناقهم تواضعاً لله تعالى ، فعلى هذا القول الأغلال غير مستعارة .

(26/291)

واعلم أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار أن لا تكون مشروعة ، لأن كل ما كان ضرراً كان إصراً وغلاً ، وظاهر هذا النص يقتضي عدم المشروعية ، وهذا نظير لقوله عليه الصلاة والسلام : " لا ضرر ولا ضرار " في الإسلام ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : " بعثت بالحنيفية السهلة السمحة " وهو أصل كبير في الشريعة .

واعلم أنه لما وصف محمداً عليه الصلاة والسلام بهذه الصفات التسع .

قال بعده : ﴿ فالذين ءامَنُواْ بِهِ ﴾ قال ابن عباس : يعني من اليهود ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ يعني وقروه .

قال صاحب "الكشاف" : أصل التعزير المنع ومنه التعزير وهو الضرب ، دون الحد ، لأنه منع من معاودة القبيح .

ثم قال تعالى : ﴿ وَنَصَرُوهُ ﴾ أي على عدوه ﴿ واتبعوا النور الذى أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ وهو القرآن .

وقيل الهدى والبيان والرسالة .

وقيل الحق الذي بيانه في القلوب كبيان النور .

فإن قيل : كيف يمكن حمل النور ههنا على القرآن ؟ والقرآن ما أنزل مع محمد ، وإنما أنزل مع جبريل .

قلنا : معناه إنه أنزل مع نبوته لأن نبوته ظهرت مع ظهور القرآن . (1)

ثم أنه تعالى لما ذكر هذه الصفات ﴿ قَالَ أُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ أي هم الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 20 . 22 ﴾

(1) عرفنا كيف أنزل القرآن لكن التعبير هنا (أنزل معه) فكيف أنزل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

الذى أفهمه من الآية أن مقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوق أفهامنا ومداركنا .

وهذه الآية قريبة من قوله تعالى فى سورة الطلاق (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولًا) . والله أعلم .

(27/291)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبى الأمى ﴾

يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم الذي لا يكتب ولا يقرأ الكتب قال الزجاج : الأُمِّيُّ الذي هو على خِلْقَةِ أمه لم يتعلم الكتابة وهو على جبلته .

ويقال : إنما سمي محمد صلى الله عليه وسلم أمّيّاً لأنه كان من أم القرى وهي مكة .

ثم قال : ﴿ الذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ يعني : يجدون نعته وصفته ﴿ فِى التوراة والإنجيل يَأْمُرُهُم بالمعروف ﴾ يعني : شرائع الإسلام بالتوحيد يرخص لهم الحلالات من الشحوم واللحوم وأشباهها ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبئث ﴾ يعني : ويبيّن لهم الحرام الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ يعني : ثقلهم من العهود قرأ ابن عامر ﴿ آصَارَهُمْ ﴾ على معنى الجماعة .

وأصل الإصر الثقل .

فسمي العهد إصْراً لأن حفظ العهد يكون ثقيلاً .

ويقال : يعني الأمور التي كانت عليهم في الشرائع .

ويقال : هو ما عهد عليهم من تحريم الطيبات .

ثم قال : ﴿ إِصْرَهُمْ والاغلال التى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ وهي كناية عن أمور شديدة لأن في الشريعة الأولى كان الواحد منهم إذا أصابه البول في ثوبه وجب قطعه ، وكان عليهم ألا يعملوا في السبت ، وغير ذلك من الأعمال الشديدة فوضع عنهم ذلك .

ثم قال : ﴿ فالذين ءامَنُواْ بِهِ ﴾ يعني : صدقوه وأقروا بنبوته ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ يعني : عظموه وشرفوه .

(28/291)

ويقال : أعانوه ﴿ وَنَصَرُوهُ ﴾ بالسيف ﴿ واتبعوا النور ﴾ يعني : القرآن ﴿ الذى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ ﴾ يعني : أهل هذه الصفة ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ أي والناجون في الآخرة وهم في الرحمة التي قال الله تعالى : ﴿ واكتب لَنَا فِى هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عذابى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

وَيُؤْتُونَ الزكواة والذين هُم بأآياتنا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 156] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(29/291)

وقال الثعلبى :

﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي ﴾ الآية

قال نوف البكالي الحميري : لما اختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقات ربه قال الله تعالى لموسى أجعل لكم في الأرض مسجداً وطهوراً تصلّون حيث أدركتكم الصلاة إلاّ عند مرحاض أو حمام أو قبر وأجعل السكينة في قلوبكم وأجعلكم تقرأون التوراة عن ظهور قلوبكم ، يقرأها الرجل منكم والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير .

فقال ذلك موسى لقومه فقالوا : لا نريد أن نصلي في الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا ، ونريد أن تكون كما كانت في التابوت ، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهور قلوبنا ، ولا نريد أن نقرأها إلاّ نظراً ، فقال الله ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ المفلحون ﴾ فجعلها الله لهذه الأمة ، فقال موسى : رب اجعلني نبيهم ، فقال : نبيهم منهم ، قال : رب اجعلني منهم ، قال : إنك لن تدركهم ، فقال موسى : يا رب أتيتك بوفد بني إسرائيل

فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله تعالى ﴿ وَمِن قَوْمِ موسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ ﴾ أنفسهم ﴿ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ فرضي موسى ، قال نوف : إلا تحمدون ربّاً حفظ غيّكم وأجزل لكم سهمكم وجعل وفادة بني إسرائيل لكم .

واختلف العلماء في معنى الأُمّي .

فقال ابن عباس : هو منكم كان أميّاً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحاسب قال الله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت : 48] وقال صلى الله عليه وسلم : " إنا أُمة أُميّة لا نكتب ولا نحاسب " .

وقيل : هو منسوب إلى أُمّته كأن أصله أُمتي فسقطت التاء من النسبة كما سقطت من اليكي والمدى .

(30/291)

وقيل : منسوب إلى أُم القرى وهي مكّة أُم القرى ﴿ الذي يَجِدُونَهُ ﴾ أي صفته ونبوّته ونعته وأمره ﴿ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل ﴾ قال عطاء بن يسار : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن . ﴿ يا أيها النبي إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً

﴿ [الأحزاب : 45] وحرزاً للأُميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتّى يقيم الملّة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلاّ الله فيفتح به قلوباً غلفاً وآذناً صُماً وأعيناً عمياً .

قال عطاء : ثمّ لقي كعباً فسأله عن ذلك فما اختلفا حرفاً إلاّ أن كعباً قال : بلغته قلوباً غلوفياً وآذاناً صمويا وأعيناً عموميّاً .

وروى كعب في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مولده مكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام وأمته الحمادون يحمدون الله على كل حال وفي كل منزلة ، يُوَضِئون أطرافهم و [ويتورّون] إلى [الجهاد] وفيهم وعاة الشمس ويصلون الصلاة حيث أدركتهم ولو على ظهر الكناسة ، صفهم في القول مثل صفهم في الصلاة ثمّ قرأ

﴿ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً ﴾ [الصف : 4] .

(31/291)

وقال الواقدي : حدّثني عثمان بن الضحاك عن يزيد بن [الهادي] عن ثعلبة بن مالك أن عمر بن الخطاب أنه سأل أبا مالك عن صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم في التوراة وكان من علماء اليهود ، فقال : صفته في كتاب بني هرون الذي لم يغير ولم يبدّل أحد من ولد إسماعيل

بن إبراهيم ومن آخر الأنبياء وهو النبي العربي الذي يأتي بدين إبراهيم الحنيف ، يأتزر على وسطه ويغسل أطرافه في [عينيه] حمرة وبين كتفية خاتم النبوّة مثل زر الحجلة ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، يلبس الشملة ويجرى بالبلغة ويركب الحمار ويمشي في الأسواق ، معه حرب وقتل وسبي سيفه على عاتقه لا يبالي مَن لقي مِن الناس ، معه صلاة لو كانت في قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان ولو كانت في عاد ما أهلكوا بالريح ولو كانت في ثمود ما أهلكوا بالصيحة .

مولده بمكّة ومنشأه بها وبدء نبوّته بها ودار هجرته يثرب بين جرّة ونخل [وسبخة] وهو أُمّي لا يكتب بيده ، هو بجهاد ، يحمد الله على كل شدة ورخاء ، سلطانه الشام ، صاحبه من الملائكة جبرئيل يلقى من قومه أذىً شديداً . ويحبّونه حبّاً شديداً ثمّ يدال على قومه يحصرهم حصر [الجرين] ، يكون له وقعات في يثرب ، منها له ومنها عليه ، ثمّ يكون له العاقبة يعدّ معه أقوام هم إلى الموت أسرع من الماء من رأس الجبل إلى أسفله ، صدورهم أناجيلهم قربانهم دماؤهم ليوث النهار ورهبان بالليل يرعب منه عدوه بمسيرة شهر ، يباشر القتال بنفسه حتّى يخرج ويكلم لا شرطة معه ولا حرس يحرسه .

﴿ يَأْمُرُهُم بالمعروف ﴾ أي بالايمان ﴿ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر ﴾ يعني الشرك ، وقيل : المعروف والشريعة والسنة والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنّة .

وقال عطاء : يأمرهم بالمعروف وبخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الأصنام وقطع الأرحام ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات ﴾ يعني الحلالات التي كانت أهل الجاهلية تحرمها : البحائر السوائب والوصائل والحوامي ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث ﴾ يعني لحم الخنزير والدم والميتة والربا وغيرها من المحرمات . ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ ابن عباس والحسن والضحاك والسدي ومجاهد يعني : جهدهم الذي كان يأخذ على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة . وقال ابن زيد وقتادة : يعني الشدائد الذي كان عليهم في الدين ﴿ والأغلال ﴾ يعني الأثقال ﴿ التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [بما أُمروا] به من قتل الأنفس في التوراة وقطع الأبهاء ، شبّه ذلك بالأغلال كما قال الشاعر :

فليس لعهد الدار يا أم مالك . . . ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل . . . سوى العدل شيئاً واستراح العواذل

فشبه حدود الإسلام وموانعه عن التخطّي إلى المحذورات بالسلاسل المحيطات بالرقاب ﴿ فالذين آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أعانوه ووقّروه ﴿ وَنَصَرُوهُ واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ أولئك هُمُ المفلحون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾

يعني محمداً صلى الله عليه وسلم وفي تسميته بالأمي ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه لا يكتب .

الثاني : لأنه من أم القرى وهي مكة .

الثالث : لأن من العرب أمة أمية .

﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ لأن في التوراة في السفر الخامس : إني سأقيم لهم نبياً من إخوتهم مثلك ، واجعل كلامي في فيه فيقول لهم كل ما أوصيته به .

وفيها : وأما ابن الأمة فقد باركت عليه جداً جداً وسأدخره لأمة عظيمة .

وفي الإنجيل بشارة بالفارقليط في مواضع : يعطيكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله .

وفيها قول المسيح للحواريين : أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه ، إنه نذيركم يجمع بين الحق ويخبركم بالأمور المزمعة ويمدحني ويشهد لي . فهذا تفسير ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ . وهو الحق .

﴿ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ وهو الباطل وإنما سمي الحق معروفاً لأنه معروف الصحة في العقول ، وسمي الباطل منكراً لأنه منكر الصحة في العقول .

ثم قال : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعني ما كانت الجاهلية تحرمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ يعني ما كانوا يستحلونه من لحم الخنزير والدماء .

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنه عهدهم الذي كان الله تعالى أخذه على بني إسرائيل .

والثاني : أنه التشديد على بني إسرائيل الذي كان في دينهم من تحريم السبت وتحريم الشحوم والعروق وغير ذلك من الأمور الشاقة ، قاله قتادة .

﴿ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيهِمْ ﴾ فيها تأويلان :

أحدهما : أنه الميثاق الذي أخذه عليهم فيما حرمه عليهم ، قاله ابن أبي طلحة .

(34/291)

والثاني : يعني ما بيَّنه الله تعالى في قوله : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة : 64] .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ . . . ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني عظموه ، قاله علي بن عيسى .

والثاني : منعوه من أعدائه ، قاله أبو جعفر الطبري . ومنه تعزير الجاني لأنه يمنعه من العود إلى مثله .

﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ يعني القرآن ، آمنوا به من بعده فروى قتادة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " أَيُّ الخَلْقِ أَعْجَبُ إِلَيكُم إِيماناً ؟ " قالوا : الملائكة فقال نبي الله (ص) : " المَلائِكَةُ عِندَ رَبِّهم فَمَا لَهُم لاَ يُؤْمِنُونَ . " فقالوا : النبيون ، فقال : " يُوحَى إِلَيهِم فَمَا لَهُم لاَ يُؤْمِنُونَ " قالوا : نحن يا نبي الله . فقال " أَنَا فِيكُم فَمَا لَكُم لاَ تُؤْمِنونَ ، " فقالوا : يا نبي الله فمن هم ؟ قال : " هُم قَومٌ يَكُونُونَ بَعْدَكُم يَجِدُونَ كِتَاباً فِي وَرَقٍ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ " فهو معنى قوله : ﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(35/291)

وقال ابن عطية :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ هذه الألفاظ أخرجت اليهود والنصارى من الأشتراك الذي يظهر في قوله ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ [الأعراف : 156] وخلصت هذه العدة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم قاله ابن عباس وابن جبير وغيرهما ، و﴿ يتبعون ﴾ معناه في شرعه ودينه ، و﴿ الرسول ﴾ و﴿ النبي ﴾ اسمان لمعنيين فإن الرسول ، أخص من النبي هذا في الآدميين لاشتراك الملك في لفظة الرسول ، و﴿ النبي ﴾ مأخوذ من النبأ ، وقيل لما كان طريقاً إلى رحمة الله تعالى وسبباً شبه بالنبيء الذي هو الطريق ، ونشدوا :

لأصبح رتماً دقاق الحصى . . . مكان النبيء من الكاثب

وأصله الهمز ولكنه خفف كذا قال سيبويه وذلك كتخفيفهم خابية وهي من خبأ ، واستعمل تخفيفه حتى قد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تنبروا اسمي ، " وقدم الرسول اهتماماً بمعنى الرسالة عند المخاطبين بالقرآن وإلا فمعنى النبوءة هو المتقدم وكذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على البراء بن عازب حين قال آمنت بكتابك الذي أنزلت وبرسولك الذي أرسلت ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وبنبيك الذي أرسلت " ليترتب الكلام كما ترتب الأمر في نفسه ، لأنه نبيء ثم أرسل ،

وأيضاً في العبارة المردودة تكرار الرسالة وهو معنى واحد ، و" الأُّمي " بضم الهمزة قيل نسب إلى أم القرى وهي مكة .

(36/291)

قال القاضي أبو محمد : واللفظة على هذا مختصة بالنبي صلى الله عليه وسلم وغير مضمنة معنى عدم الكتابة ، وقيل هو منسوب لعدمه الكتابة والحساب إلى الأم ، أي هو على حال الصدر عن الأم في عدم الكتابة ، وقالت فرقة هو منسوب إلى الأمة ، وهذا أيضاً مضمن عدم الكتابة لأن الأمة بجملتها غير كاتبة حتى تحدث فيها الكتابة كسائر الصنائع ، وقرأ بعض القراء فيما ذكر أبو حاتم " الأَمي " بفتح الهمزة وهو منسوب إلى الأم وهو القصد ، أي لأن هذا النبي مقصد للناس وموضع أم يؤمونه بأفعالهم وتشرعهم ، قال ابن جني : وتحتمل هذه القراءة أن يريد الأمي فغير تغيير النسب .

والضمير في قوله : ﴿ يجدونه ﴾ لبني إسرائيل والهاء منه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد صفته ونعته .

وروي أن الله عز وجل قال لموسى قل لبني إسرائيل أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً وأجعل السكينة معكم في بيوتكم وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم ، فأخبر

موسى بني إسرائيل فقالوا : إنما نريد أن نصلي في الكنائس وأن تكون السكينة كما كانت في التابوت وأن لا نقرأ التوراة إلا نظراً ، فقيل لهم فنكتبها للذين يتقون يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وروي عن عبد الله بن عمر ، وفي البخاري أو غيره أن في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فنقيم به قلوباً غلفاً وآذاناً صماً وأعيناً عمياً " .

وفي البخاري " فنفتح به عيوناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً " ونص كعب الأحبار نحو هذه الألفاظ إلا أنه قال " قلوباً غلفاً وآذاناً صموماً " ، قال الطبري وهي لغة حميرية وقد رويت " غلوفياً وصمومياً " .

قال القاضي أبو محمد : وأظن هذا وهماً وعجمة .

(37/291)

وقوله تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ يحتمل أن يريد ابتداء وصف الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يجعله متعلقاً ب ﴿ يجدونه ﴾ في موضع

الحال على تجوز ، أي يجدونه في التوراة أمراً بشرط وجوده فالمعنى الأول لا يقتضي أنهم علموا من التوراة أنه يأمرهم وينهاهم ويحل ويحرم ، والمعنى الثاني يقتضي ذلك فالمعنى الثاني على هذا ذم لهم ، ونحا إلى هذا أبو إسحاق الزجّاج ، وقال أبو علي الفارسي في الإغفال ﴿ يأمرهم ﴾ عندي تفسير لما كتب من ذكره كما أن قوله تعالى ﴿ خلقه من تراب ﴾ [آل عمران : 59] تفسير للمثل ، ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ يجدونه ﴾ لأن الضمير للذكر والاسم ، والذكر والاسم لا يأمران .

قال القاضي أبو محمد : وما قدمته من التجوز وشرط الوجود يقرب ما منع منه أبو علي ، وانظر و ﴿ بالمعروف ﴾ ما عرف الشرع ، وكل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم " بعثت لأتمم محاسن الأخلاق " و ﴿ المنكر ﴾ مقابله .

و ﴿ الطيبات ﴾ قال فيها بعض المفسرين إنها إشارة إلى البحيرة ونحوها ، ومذهب مالك رحمه الله أنها المحللات فكأنه وصفها بالطيب إذ هي لفظة تتضمن مدحاً وتشريفاً ، وبحسب هذا يقول في ﴿ الخبائث ﴾ إنها المحرمات وكذلك قال ابن عباس " الخبائث " هي لحم الخنزير والربا وغيره ، وعلى هذا حلل مالك المتقذرات كالحيات والخنافس والعقارب ونحوها ، ومذهب الشافعي رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير بل

يراها مختصة فيما حلله الشرع ، ويرى " الخبائث " لفظاً عاماً في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هذا المجرى ، والناس على هذين القولين إلا أن في تعيين الخبائث اختلافاً ليس هذا موضع تقصيه .

(38/291)

وقوله تعالى : ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ الآية ، ﴿ يضع ﴾ كأن قياسه أن يكون " يضِع " بكسر الضاد لكن رده حرف الحلق إلى فتح الضاد ، قال أبو حاتم وأدغم أبو عمرو " ويضع عنهم " العين في العين وأشمها الرفع وأشبعها أبو جعفر وشيبة ونافع ، وطلحة ويذهب عنهم إصرهم ، و" الإصر " الثقل وبه فسر هنا قتادة وابن جبير ومجاهد ، و" الإصر " أيضاً العهد وبه فسر ابن عباس والضحاك والحسن وغيرهم ، وقد جمعت هذه الآية المعنيين فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك العهد وثقل تلك الأعمال ، وحكى أبو حاتم عن ابن جبير ، قال : " الإصر " شدة العبادة .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي والناس " إصرهم " وقرأ ابن عامر وحده وأيوب السختياني ويعلى بن حكيم وأبو سراج الهذلي وأبو جعفر " آصارهم "

بالجمع لما كانت الأعمال كثيرة كانت أثقالها متغايرة ، ومن وحد الإصر فإنما هو مفرد اسم جنس يراد به الجمع ، قال أبو حاتم : في كتاب بعض العلماء " أصرهم " واحد مفتوح الهمزة عن نافع وعيسى والزيات وذلك غلط ، وذكرها مكي عن أبي بكر عن عاصم وقال : هي لغة .

﴿ والأغلال التي كانت عليهم ﴾ عبارة مستعارة أيضاً لتلك الأثقال كقطع الجلد من أثر البول ، وأن لا دية ولا بد من قتل للقاتل ، وترك الأشغال يوم السبت ، فإنه روي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه ، هذا قول جمهور المفسرين ، وهذا مثل قولك طوق فلان كذا إذا ألزمه ، ومنه قول الشاعر : [مجزوء الكامل]

إذهب بها إذهب بها . . . طوقتها طوق الحمامه

أي لزمك عارها ومن هذا المعنى قول الهذلي :

فليس كعهد الدار يا أم مالك . . . ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقابل . . . سوى الحق شيئاً فاستراح العواذل

(39/291)

يريد أوامر الإسلام ولوازم الإيمان الذي قيد الفتك كما قال صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن زيد : إنما المراد هنا ب ﴿ الأغلال ﴾ قول الله عز وجل في اليهود ﴿ غلت أيديهم ﴾ [المائدة : 64] فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم زالت عنه الدعوة وتغليلها .

ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين فقال : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ﴾ وقرأ الجحدري وسليمان التيمي وقتادة وعيسى " عزروه " بالتخفيف ، وجمهور الناس على التشديد في الزاي ، ومعناه في القراءتين وقروه ، والتعزير والنصر مشاهدة خاصة للصحابة ، واتباع النور يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة ، و ﴿ النور ﴾ كناية عن جملة الشرع ، وقوله : ﴿ معه ﴾ فيه حذف مضاف والتقدير مع بعثه أو نبوته أو نحو هذا ، وشبه الشرع والهدى بالنور إذ القلوب تستضيء به كما يستضيء بالنور ، و ﴿ المفلحون ﴾ معناه الفائزون ببغيتهم ، وهذا يعم معاني الفلاح فإن من بقي فقد فاز ببغيته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(40/291)

وقال ابن الجوزى :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأميَّ ﴾ .

وقال نَوفٌ : قال الله تعالى لموسى : أجعل لكم الأرض طهوراً ومسجداً ، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم ، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهور قلوبكم ، يقرؤها الرجل منكم ، والمرأة ، والحر ، والعبد ، والصغير ، والكبير ، فأخبر موسى قومه بذلك ، فقالوا : لا نريد أن نصليَ إلا في الكنائس والبِيَع ، ولا أن تكون السكينة إلا في التابوت ، ولا أن نقرأ التوراة إلا نظراً ، فقال الله تعالى : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ إلى قوله : ﴿ المفلحون ﴾ .

وفي هؤلاء المذكورين في قوله : ﴿ للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ إلى قوله : ﴿ المفلحون ﴾ قولان .

أحدهما : أنهم كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وتبعه ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله السدي ، وقتادة .

وفي تسميته بالأمي قولان .

أحدهما : لأنه لا يكتب .

والثاني : لأنه من أُمِّ القرى .

قوله تعالى : ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم ﴾ أي : يجدون نعته ونبوّته .

قوله تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف ﴾ قال الزجاج : يجوز أن يكون مستأنَفاً ، ويجوز أن يكون "يجدونه مكتوباً عندهم" أنه يأمرهم بالمعروف .

قال ابن عباس : المعروف : مكارم الأخلاق ، وصلة الارحام .

والمنكر : عبادة الأوثان ، وقطع الأرحام .

وقال مقاتل : المعروف : الإيمان ، والمنكر : الشر .

وقال غيره : المعروف : الحق ، لأن العقول تعرف صحته ، والمنكر : الباطل ، لأن العقول تنكر صحته .

وفي الطيبات أربعة أقوال .

أحدها : أنها الحلال ، والمعنى : يُحل لهم الحلال .

والثاني : أنها ما كانت العرب تستطيبه .

والثالث : أنها الشحوم المحرَّمة على بني إسرائيل .

والرابع : ما كانت العرب تحرِّمه من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام .

وفي الخبائث ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الحرام ، والمعنى : ويحرِّم عليهم الحرام .

والثاني : أنها ما كانت العرب تستخبثه ولا تأكله ، كالحيات ، والحشرات .

(41/291)

والثالث : ما كانوا يستحلُّونه من الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير .

قوله تعالى : ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "إِصرهم" .

وقرأ ابن عامر : "آصارهم" ممدودة الألف على الجمع .

وفي هذا الإِصر قولان .

أحدهما : أنه العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة ، قاله ابن عباس .

والثاني : التشديد الذي كان عليهم من تحريم السبت ، وأكل الشحوم والعروق ، وغير ذلك من الأمور الشاقة ، قاله قتادة .

وقال مسروق : لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب ، فيصبح وقد كُتب على باب بيته : إن كفارته أن تنْزِع عينيك فيْنزِعهُما .

قوله تعالى : ﴿ والأغلال التي كانت عليهم ﴾ قال الزجاج : ذِكر الأغلال : تمثيل ، ألا ترى أنك تقول : جعلت هذا طوقاً في عنقك ، وليس هناك طوق ، إنما جعلت لزومه كالطوق .

والأغلال : أنه كان عليهم أن لا يُقبَل منهم في القتل دية ، وأن لا يعملوا في السبت ، وأن يَقْرِضُوا ما أصاب جلودهم من البول .

قوله تعالى : ﴿ فالذين آمنوا به ﴾ يعني : بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وعزَّروهُ ﴾

وروى أبان "وعَزَروه" بتخفيف الزاي .

وفي المعنى قولان .

أحدهما : نصروه وأعانوه ، قاله مقاتل .

والثاني : عظَّموه ، قاله ابن قتيبة .

والنور الذي أنزل معه : القرآن ، سماه نورا ، لأن بيانه في القلوب كبيان النور في العيون .

وفي قوله "معه" قولان .

أحدهما : أنها بمعنى "عليه" .

والثاني : بمعنى أُنزل في زمانه ، قال قتادة .

أما نصره ، فقد سُبقتم إليه ، ولكن خيركم من آمن به واتبع النور الذي أُنزل معه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(42/291)

وقال القرطبى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى روى يحيى بن أبي كثير عن نَوْف البِكَالِيّ الحِمْيَرِيّ : لما اختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقات ربه قال الله تعالى لموسى : أن أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مِرحاض أو حمّام أو قبر ، واجعل السكِينة في قلوبكم ، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم ، يقرأها الرجل منكم والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير .

فقال ذلك موسى لقومه ، فقالوا : لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس ، ولا نستطيع حمل السكِينة في قلوبنا ، ونريد أن تكون كما كانت في التابوت ، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ، ولا نريد أن نقرأها إلا نظراً .

فقال الله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ المفلحون ﴾ .

فجعلها لهذه الأمة .

فقال موسى : يا رب ، اجعلني نبيّهم .

فقال : نبيهم منهم .

قال : رب اجعلني منهم .

قال : إنك لن تدركهم .

فقال موسى : يا رب ، أتيتك بوفد بني إسرائيل ، فجعلت وفادتنا لغيرنا .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمِن قَوْمِ موسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف :

159] .

فرضي موسى .

قال نَوْف : فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم .

وذكر أبو نعيم أيضاً هذه القصة من حديث الأوزاعيّ قال : حدّثنا يحيى بن أبي عمرو السّيْبَاني قال حدثني نَوْف البِكالي إذا افتتح موعظة قال : ألا تحمدون ربكم الذي حفظ غيبتكم وأخذ لكم بعد سهمكم وجعل وفادة القوم لكم .

وذلك أن موسى عليه السلام وفَد ببني إسرائيل فقال الله لهم : إني قد جعلت لكم الأرض مسجداً حيثما صليتم فيها تقبلت صلاتكم إلا في ثلاثة مواطن من صلى فيهن لم أقبل صلاته المقبرة والحمام والمرحاض .

قالوا : لا ، إلا في الكنيسة .

(43/291)

قال : وجعلت لكم التراب طهوراً إذا لم تجدوا الماء .

قالوا : لا ، إلا بالماء .

قال : وجعلت لكم حيثما صلى الرجل فكان وحده تقبلت صلاته .

قالوا : لا ، إلا في جماعة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي ﴾ هذه الألفاظ كما ذكرنا أخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذي يظهر في قوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ وخلصت هذه العِدة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس وابن جبير وغيرهما .

و"يَتَّبِعُونَ" يعني في شرعه ودينه وما جاء به .

والرسول والنبيّ اسمان لمعنيين ؛ فإن الرسول أخصُّ من النبيّ .

وقدّم الرسول اهتماماً بمعنى الرسالة ؛ وإلاّ فمعنى النبوة هو المتقدّم ؛ ولذلك " ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على البَرَاء حين قال : وبرسولك الذي أرسلت .

فقال له : "قل آمنت بنبيك الذي أرسلت" " خرّجه في الصحيح .

وأيضاً فإن في قوله : "وبرسولك الذي أرسلت" تكرير الرسالة ؛ وهو معنى واحد فيكون كالحشو الذي لا فائدة فيه .

بخلاف قوله : "ونبيك الذي أرسلت" فإنهما لا تكرار فيهما .

وعلى هذا فكل رسول نبيّ ، وليس كل نبيّ رسولا ؛ لأن الرسول والنبيّ قد اشتركا في أمر عام وهو النبأ ، وافترقا في أمر خاص وهي الرسالة .

فإذا قلت : محمد رسول من عند الله تضمّن ذلك أنه نبيّ ورسول الله .

وكذلك غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ الأمي ﴾ هو منسوب إلى الأمة الأمية ، التي هي على أصل ولادتها .

لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ؛ قاله ابن عزيز .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنبكوت : 48] .

وروي في الصحيح عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنّا أُمَّةٌ أُميّة لا نَكتب ولا نحسُب " الحديث .

(44/291)

وقيل : نسب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى مكة أمِّ القرى ؛ ذكره النحاس .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل ﴾ روى البخاريّ قال : حدّثنا محمد بن سنان قال حدّثنا فُلَيْح قال حدثنا هلال عن عطاء بن يَسار لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله

عليه وسلم في التوراة .

فقال : أجَلْ ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : ﴿ يا أيها النبي إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب : 45] وحِرْزاً للأمّيين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكّل ، ليس بفَظٍّ ولا غليظ ولا صَخَّاب في الأسواق .

ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العَوْجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعْيُناً عُمْياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلْفاً .

(في غير البخاري) قال عطاء : ثم لقِيت كَعْباً فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفاً ، إلا أن كعباً قال بلغتِه : قلوباً غُلُوفِياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً .

قال ابن عطية : وأظنّ هذا وهماً أو عُجمة .

وقد روي عن كعب أنه قالها : قلوباً غلوفاً وآذاناً صموماً وأعينا عمومياً .

قال الطبري : هي لغة حِميَرِية .

وزاد كعب في صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : مولده بمكة ، وهجرته بطابة ، وملكه بالشأم ، وأمّته الحامدون ، يحمدون الله على كل حال وفي كل منزل ، يُوضِئون أطرافهم ويَأْتَزِرون إلى أنصاف ساقهم ، رعاة الشمس ، يصلّون الصلوات حيثما أدركتهم ولو على ظهر الكناسة ، صفهم في القتال مثل صفهم في الصلاة .

ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف :

.4

[

(45/291)

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بالمعروف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر ﴾ قال عطاء : ﴿ يَأْمُرُهُم بالمعروف ﴾ بخلع الأنداد ، ومكارم الأخلاق ، وصلة الأرحام .

﴿ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر ﴾ عبادة الأصنام ، وقطع الأرحام .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات ﴾ مذهب مالك أن الطيّبات هي المحَلَّلات ؛ فكأنه وصفها بالطيب ؛ إذ هي لفظة تتضمن مدحاً وتشريفاً .

وبحسب هذا نقول في الخبائث : إنها المحرمات ؛ ولذلك قال ابن عباس : الخبائث هي لحم الخنزير والرِّبا وغيره .

وعلى هذا حلّل مالك المتقذرات كالحيات والعقارب والخنافس ونحوها .

ومذهب الشافعيّ رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم ؛ إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها ؛ لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير ، بل يراها مختصة فيما حَلَّله الشرع .

ويرى الخبائث لفظاً عاماً في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات ؛ فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هذا المجرى .

والناس على هذين القولين ، وقد تقدّم في "البقرة" هذا المعنى .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ الإصر : الثقل ؛ قاله مجاهد وقتادة وابن جبير .

والإصر أيضاً : العهد ؛ قاله ابن عباس والضحاك والحسن .

وقد جمعت هذه الآية المعنيين ، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال ؛ فوضع عنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك العهد وثقل تلك الأعمال ؛ كغسل البول ، وتحليل الغنائم ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها ؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه .

وروي : جلد أحدهم .

وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها ، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها ، إلى غير ذلك مما ثبت في الحديث الصحيح وغيره .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ والأغلال التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ فالأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال .

ومن الأثقال ترك الاشتغال يوم السبت ؛ فإنه يروى أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه .

هذا قول جمهور المفسرين .

ولم يكن فيهم الدّية ، وإنما كان القصاص .

وأمِروا بقتل أنفسهم علامة لتوبتهم ، إلى غير ذلك .

فشبه ذلك بالأغلال ؛ كما قال الشاعر :

فليس كعهد الدار يا أم مالك . . .

لكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعادَ الفتى كالكَهْل ليس بقائل . . .

سوى العدل شيئاً فاستراح العواذلُ

فشبه حدود الإسلام وموانِعه عن التخطي إلى المحظورات بالسلاسل المحيطات بالرقاب .

ومن هذا المعنى قول أبي أحمد بن جحش لأبي سفيان :

إذهب بها إذهب بها . . .

طُوِّقتَها طوقَ الحمامة

أي لزمك عارها .

يقال : طوّق فلان كذا إذا لزمه .

التاسعة : إن قيل : كيف عطف الأغلال وهو جمع على الإصر وهو مفرد ؛ فالجواب أن الإصر مصدر يقع على الكثرة .

وقرأ ابن عامر "آصارهم" بالجمع : مثل أعمالهم .

فجمعه لاختلاف ضروب المآثم .

والباقون بالتوحيد ؛ لأنه مصدر يقع على القليل والكثير من جنسه مع إفراد لفظه .

وقد أجمعوا على التوحيد في قوله : ﴿ وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً ﴾ [البقرة : 286] .

وهكذا كلما يرد عليك من هذا المعنى ؛ مثل ﴿ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] .

﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم : 43] .

و ﴿ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى : 45] .

كله بمعنى الجمع .

العاشرة : قوله تعالى : ﴿ فالذين آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي وقروه ونصروه .

قال الأخفش : وقرأ الجحدريّ وعيسى "وعَزرُوه" بالتخفيف .

وكذا "وَعَزَرْتُمُوهُمْ" .

يقال : عَزَره يَعْزِره ويعزِّرُه .

و﴿ النور ﴾ القرآن و"الفَلاَحُ" الظفر بالمطلوب .

وقد تقدّم (هذا) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(47/291)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبى الأمي . . . ﴾ الآية : هذه ألفاظٌ أخرجَت اليهودَ والنصارى مِنَ الاشتراك الذي يظهر في قوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ، وخلُصَتْ هذه العِدَةُ لأُمة محمَّد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس وغيره . قلْتُ : وهذه الآيةُ الكريمة مُعْلِمَةٌ بشَرَف هذه الأمَّة على العُمُوم في كلِّ مَنْ آمَنَ باللَّه تعالى ، وأقرَّ برسَالة النبيِّ صلى الله عليه وسلم ثم هم يتفاوتون بعدُ في الشرف ؛ بحَسَب تفاوتهم في حقيقة الاتباعية للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قال الغزَّالِيُّ رحمه اللَّه في "الإحياء" : وإنما أُمَّتُه صلى الله عليه وسلم مَن اتبعه ، وما اتبعه إلاَّ مَنْ أعرض عن الدنيا ، وأَقْبَلَ على الآخرة ، فإنه عليه السلام ما دَعَا إلاَّ إلى اللَّهِ ، واليَوْمِ الآخِرِ ، وما صَرَفَ إلاَّ عن الدنيا والحظوظِ العاجلةِ ، فبقدْرِ ما تُعْرِضُ عن الدنيا ، وتُقْبِلُ على الآخرة ، تَسْلُكُ سبيله الذي سَلَكَهُ صلى الله عليه وسلم ، وبقَدْرِ ما سَلَكْتَ سبيله ، فقد اتبعته ، وبقَدْرِ ما اتبعتَهُ ،

صِرْتَ من أمته ، وبقَدْرِ ما أَقبلْتَ على الدنيا ، عَدَلْتَ عن سبيله ، ورغبْتَ عَنْ متابعته ، والتحقت بالذين قال اللَّه تعالى فيهم : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى * وَءَاثَرَ الحياة الدنيا * فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 37 ، 38 ، 39] . انتهى ، فإن أردتَّ اتباع النبيِّ صلى الله عليه وسلم على الحقيقة ، واقتفاء أثره ، فابحث عن سيرته وخُلُقه في كتب الحديث والتفسير .

(48/291)

قال ابنُ القَطَّان في تصنيفه الذي صنَّفه في "الآيات والمعجزات" : والقول الوجيز في زُهْدِهِ وعبادتِهِ وَتَوَاضُعِهِ وسائرِ حُلاَه ومَعَاليه صلى الله عليه وسلم : أنه مَلَكَ مِنْ أَقْصَى اليمن إلى صحراء عمان إلى أقصى الحجاز ، ثم تُوُفِّيَ عليه السلام ، وعليه دَيْنٌ ، ودِرْعُهِ مَرْهونةٌ في طَعَام لأهله ، ولم يترك دينارا ولا درهماً ، ولا شَيَّد قَصْراً ، ولا غَرَس نَخْلاً ، ولا شَقَّقَ نَهْراً ، وكان يأكل على الأرْضِ ويجلسُ على الأرض ، ويَلْبَسُ العَبَاءة ، ويجالسُ المَساكين ، ويَمْشِي في الأسواق ، ويتوسَّد يَدُه ، ويلعقُ أصابعه ، ويُرقِّع ثوبه ، ويَخْصِفُ نَعْلَه ، ويُصْلِح خُصَّه ، ويمهنُ لأهله ، ولا يأكل متْكِئاً ، ويقول : "أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْد" ، ويقصُّ من نفْسه ، ولا يرى ضاحكاً مِلْءَ فِيهِ ولو دُعِيَ إلى ذراعٍ ، لأجاب ، ولو أُهْدِيَ إليه كُرَاعٌ لَقبل ،

لا يأكلُ وحده ، ولا يَضْرِبُ عبده ، ولا يمنعُ رفْده ولا ضَرَبَ قطُّ بيدِهِ إلاَّ في سَبيل اللَّه ، وقام للَّه حتَّى تَوَرَّمَتْ قدماه ، فقيل له : أتَفْعَلُ هذا وقد غَفَرَ اللَّه لك مَا تَقدَّم من ذنبك وما تأخَّرَ ؟ فقال : "أفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً" ، وكان يُسْمَعُ لجَوْفه أَزِيزٌ ؛ كأزيز المِرْجَلِ من البكاءِ ؛ إذا قام بالليل صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأتباعه صلاةً دائمةً إلى يوم القيامة . انتهى .

وقال الفَخْر : قوله تعالى : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول . . . ﴾ الآية ، قال بعضهم : الإشارة بذلك إلى مَنْ تقدَّم ذكْرُه من بني إسرائيل ، والمعنى : يتبعونه باعتقاد نبوَّته ؛ من حيث وَجَدُوا صفتَهُ في التوراة ، وسيجدونه مكتوباً في الإنجيل .

(49/291)

وقال بعضهم : بل المرادُ مَنْ لحق مِنْ بني إسرائيل أيام النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فبيَّن تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا تكتب لهم رحمةُ الآخرة إلاَّ إذا اتبعوا النبيَّ الأُميَّ .

قال الفخْر : وهذا القول أقربُ . انتهى . وقوله : ﴿ يَجِدُونَهُ ﴾ ، أي : يجدون صفة نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ؛ ففي "البخاريِّ" وغيره ، عن عبد اللَّه بن عمرو ؛ أنَّ في التوراة مِنْ صفة النبيِّ صلى الله عليه وسلم "يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً

وَنَذِيراً وَحِرْزاً لِلأُمِيِّين ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بفَظٍّ ، وَلاَ غَلِيظٍ ، وَلاَ سخَّاب في الأَسْوَاق ، وَلاَ يَجْزِي بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَعْفُو ، وَيَصْفَحُ وَلَنْ أَقْبِضَهُ حتى أُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاء ؛ بأَنْ يَقُولُوا : لاَ إله إلاَّ اللَّهُ ، فَنُقِيمُ بِهِ قُلُوباً غُلْفاً ، وأَذَاناً صُمًّا ، وَأَعْيُناً عُمْياً" ، وفي "البخاريّ" : "فَيَفْتَحُ بِهِ عُيُوناً عُمْياً ، وآذاناً صُمًّا ، وقُلُوباً غُلْفاً" ، ونصّ كعب الأحبار نحو هذه الألفاظ إلاَّ أنه قال : "قُلُوباً غُلُوفاً ، وآذناً صُمُوماً" .

(50/291)

وقوله سبحانه : ﴿ يَأْمُرُهُم بالمعروف . . . ﴾ الآية : يحتمل أن يكون ابتداء كلامٍ وُصِفَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون متعلّقاً ب "يجدونه" في موضع الحال على تجوُّزٍ ، أي : يجدونه في التوراةِ آمراً ؛ بشرط وجوده ، والمعروف : ما عُرِفَ بالشرع ، وكلُّ معروف من جهة المروءة ، فهو معروفٌ بالشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : "بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَحَاسِنَ الأَخْلاَقِ" و ﴿ المنكر ﴾ : مقابله ، وَ ﴿ الطيبات ﴾ ؛ عند مالك : هي المحلَّلات ، و ﴿ الخبائث ﴾ هي المحرَّمات ، وكذلك قال ابن عباس ، والإِصْرُ الثِّقْل ، وبه فَسَّرَ هنا قتادةُ وغيره ، والإِصْر أيضاً : العَهْد ، وبه فسر ابنُ عباس وغيره ، وقد جَمَعَتْ هذه الآيةُ المعنيين ؛ فإِن بني إِسرائيل قد كان أخذ عليهم العَهْدُ بأن يقوموا بأعمال ثقال ،

فَوَضَعَ عنهم نبيُّنا محمَّد صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن جُبيْر : الإِصْر : شدَّة العبادة ، وقرأ ابن عامر : "آصارَهُمْ" بالجمع فمَنْ وحَّد "الإصر" ؛ فإنما هو اسمُ جنْس عِنده ، يراد به الجمعُ ، ﴿ والأغلال التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ عبارةٌ مستعارةٌ أيضاً لتلك الأثقال ، كَقَطْعِ الجِلْدِ من أثر البَوْل ، وأن لا دية ، ولا بدَّ من قَتْل القاتل ، إلى غير ذلك ، هذا قول جمهور المفسّرين ، وقال ابن زَيْدٍ : إنما المراد هنا ب ﴿ الأغلال ﴾ قولُ اللَّه عزَّ وجلَّ في اليهود : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة : 64] ، فمنْ آمن بنبينا محمَّد صلى الله عليه وسلم ، زالَتْ عنه الدعوةُ ، وتغليلها ، ومعنى ﴿ عَزَّرُوهُ ﴾ : أي : وقَّروه ، فالتعْزيرُ والنصْرُ : مشاهدةٌ خاصَّة للصحابة ، واتباع النور : يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة ، والنُّورُ : كنايةٌ عن جُمْلة الشرع ، وشَبَّه الشرعَ والهدى بالنور ، إذ القلوبُ تستضيء به ؛ كما يستضيء البَصَرُ بالنُّور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

(51/291)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوارة والإنجيل ﴾

ذكر الإمام فخر الدين الرازي في معنى هذه التبعية وجهين :

أحدهما : إن المراد بذلك أن يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة إذ لا يجوز أن يتبعوه في شرائعه قبل أن يبعث غلى الخلق وفي قوله والإنجيل أن المراد وسيجدونه مكتوباً في الإنجيل لأن من المحال أن يجده فيه قبل ما أنزل الله الإنجيل .

الوجه الثاني : إن المراد من لحق من بني إسرائيل زمان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فبين تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم رحمة الآخرة إلا إذا اتبعوه ، قال : وهذا القول أقرب لأن اتباعه قبل أن يبعث لا يمكن فبين بهذه الآية أن هذه الرحمة لا يفوز بها من بني إسرائيل إلا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بآيات الله في زمن موسى ، ومن كانت هذه صفته في أيام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في شرائعه فعلى هذين الوجهين يكون المراد بقوله الذين يتبعون الرسول من بني إسرائيل خاصة .

وجمهور المفسرين على خلاف ذلك فإنهم قالوا : المراد بهم جميع أمته الذين آمنوا به واتبعوه سواء كانوا من بني إسرائيل أو غيرهم وأجمع المفسرون على أن المراد بالرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وصفه بكونه رسولاً لأنه الواسطة بين الله وبين خلقه المبلغ رسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه إليهم ثم وصفه بكونه نبياً .

وهذا أيضاً من أعلى المراتب وأشرفها وذلك يدل على أنه رفيع الدرجات عند الله المخبر عنه ثم وصفه بالأمي .

قال ابن عباس : هو نبيكم (صلى الله عليه وسلم) كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الزجاج في معنى الأمي : هو الذي على صفة أمة العرب لأن العرب أكثرهم لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب فالنبي (صلى الله عليه وسلم) كان كذلك فلهذا وصفه الله تعالى بكونه أمياً وصح في الحديث أنه (صلى الله عليه وسلم) قال " نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " قال أهل التحقيق : وكونه (صلى الله عليه وسلم) كان أمياً من أكبر معجزاته وأعظمها ، وبيانه أنه (صلى الله عليه وسلم) أتى بهذا الكتاب العظيم الذي أعجزت الخلائق فصاحته وبلاغته وكان يقرؤه عليهم بالليل والنهار من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ولا تغيير فدل ذلك على معجزته وهو قوله تعالى :

﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ وقيل : إنه لو كان يحسن الكتابة ثم إنه أتى بهذا القرآن العظيم لكان متهماً فيه لاحتمال أنه كتبه ونقله عن غيره فلما كان أمياً وأتى بهذا القرآن العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين والمغيبات دل ذلك على كونه معجزة له (صلى الله عليه وسلم) .

وأيضاً فإن الكتابة تعين الإنسان على الاشتغال بالعلوم وتحصيلها ثم إنه أتى بهذه الشريعة الشريفة والآداب الحسنة مع علوم كثيرة وحقائق دقيقة من غير مطالعة كتب ولا اشتغال على أحد فدل ذلك على كونه معجزة له (صلى الله عليه وسلم) وقيل في معنى الأمي : الذي هو منسوب إلى أمه كأنه لم يخرج بعد عما ولدته عليه وقيل سمي أمياً لأنه منسوب إلى أم القرى وهي مكة وقوله تعالى : ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ يعني يجيدون صفته ونعته ونبوته مكتوباً عندهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسداً منهم له وخوفاً على زوال رياستهم وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا في الذل والهوان (خ) عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة فقال : أجل إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً .

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

الفظ : السيئ الخلق ، والغليظ : الجافي القاسي ، وقوله سخاب : بالسين والصاد وهو كثير

الصياح في الأسواق ، والأعوجاج : ضد الاستقامة وأراد بالملة العوجاء : الكفر والقلب الأغلف : الذي لا يصل إليه شيء ينفعه شبهة بالأغلف كأنه في غلاف .

(54/291)

وروى البغوي بسنده عن كعب الأحبار قال : إني أجد في التوراة مكتوباً محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، أمته الحامدون يحمدون الله في كل منزلة ويكبرونه على كل نجد يأتزرون على أنصافهم ويغضون أطرافهم صفهم في الصلاة وصفهم في القتال سواء مناديهم ينادي في جوف السماء لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام .

وقوله تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف ﴾ يعني بالإيمان وتوحيد الله ﴿ وينهاهم عن المنكر ﴾ يعني عن الشرك بالله ، وقيل : المعروف ما عرف في الشرعية والسنة والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة .

(55/291)

وقال عطاء : يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد وبمكارم الأخلاق وصلة الأرحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام ﴿ ويحل لهم الطيبات ﴾ يعني بذلك ما كان محرماً عليهم في التوراة من الطيبات وهو لحوم الإبل وشحم الغنم والمعز والبقر ، وقيل : هو ما كانوا يحرمونه على أنفسهم في الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي ، وقيل : هي المستلذات التي تستطيبها الأنفس ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾ قال ابن عباس : يريد الميتة والدم ولحم الخنزير ، وقيل : هو كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس ، فإن الأصل في المضار الحرمة إلا ما له دليل متصل بالحل ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ يعني ثقلهم وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه عن الحركة لثقله ، والمراد بالإصر هنا العهد والميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة من الأحكام فكانت تلك الشدائد ﴿ والإغلال التي كانت عليهم ﴾ يعني ويضع الأثقال والشدائد التي كانت عليهم في الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن البدن والثواب بالمقراض وتعيين القصاص في القاتل وتحريم أخذ الدية وترك العمل في السبت وأن صلاتهم لا تجوز إلا في إلا في الكنائس وتتبع العروق في اللحم وغير ذلك من الشدائد التي كانت على بني إسرائيل شبهت بالأغلال مجازاً لأن التحريم يمنع من الفعل كما أن الغل يمنع من الفعل ، وقيل : شبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى النعق .

كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد إلى الحرام الذي نهيت عنه وكانت هذه الأثقال في شريعة موسى فلما جاء محمد نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله : بعثت بالحنيفية السهلة السمحة ﴿ فالذين آمنوا به ﴾ يعني بمحمد ﴿ وعزروه ﴾ يعني وقّروه وعظموه ، وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبي (صلى الله عليه وسلم) تعظيمه وإجلاله ودفع الأعداء عنه وهو قوله ﴿ ونصروه ﴾ يعني على أعدائه ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ يعني القرآن سمي القرآن نوراً لأن به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ يعني هم الناجون الفائزون بالهداية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(57/291)

وقال ابن كثير :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ﴾

وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه وأمروهم

بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم كما قال الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، عن الجُرَيري ، عن أبي صخر العقيلي ، حدثني رجل من الأعراب ، قال : جلبت جَلُوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغت من بيعتي قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشرًا التوراة يقرؤها ، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي ؟" فقال برأسه هكذا ، أي : لا . فقال ابنه ، إي : والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومَخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله فقال : "أقيموا اليهودي عن أخيكم" . ثم ولى كفنه والصلاة عليه (1)

هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح ، عن أنس .

وقال الحاكم صاحب المستدرك : أخبرنا أبو محمد – عبد الله بن إسحاق البغوي ، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي

حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، عن شُرَحْبِيل بن مسلم ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن هشام بن العاص الأموي قال : بعثت أنا ورجل آخر إلى

هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام ، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة - يعني غوطة دمشق - فنزلنا على جبلة بن الأيهم الغساني ، فدخلنا عليه ، فإذا هو على سرير له ، فأرسل إلينا برسوله نكلمه ، فقلنا : والله لا نكلم رسولا إنما بعثنا إلى الملك ، فإن أذن لنا كلمناه وإلا لم نكلم

---

(1) المسند (411/5) .

(58/291)

الرسول فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك ، قال : فأذن لنا فقال : تكلموا فكلّمه هشام بن العاص ، ودعاه إلى الإسلام ، فإذا عليه ثيابُ سوادٍ فقال له هشام : وما هذه التي عليك ؟ فقال : لبستها وحلفت ألا أنزعها حتى أخرجكم من الشام . قلنا : ومجلسك هذا ، والله لنأخذنه منك ، ولنأخذن ملك الملك الأعظم ، إن شاء الله ، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم . قال : لستم بهم ، بل هم قوم يصومون بالنهار ، ويقومون بالليل ، فكيف صومكم ؟ فأخبرناه ، فمُلئ وجهه سوادًا فقال : قوموا . وبعث معنا رسولا إلى الملك ، فخرجنا ، حتى إذا كنا قريبًا من المدينة ، قال لنا الذي معنا : إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك ، فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال ؟ قلنا : والله لا ندخل إلا عليها ،

فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك . فدخلنا على رواحلنا متقلدين سيوفنا ، حتى انتهينا إلى غرفة فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا ، فقلنا : لا إله إلا الله ، والله أكبر فالله يعلم لقد تَنَفَّضَت الغرفة حتى صارت كأنها عِذْق تصَفّقه الرياح ، فأرسل إلينا : ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم . وأرسل إلينا : أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراش له ، وعنده بطارقته من الروم ، وكل شيء في مجلسه أحمر ، وما حوله حمرة ، وعليه ثياب من الحمرة ، فدنونا منه فضحك ، فقال : ما كان عليكم لو حييتموني بتحيتكم فيما بينكم ؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية ، كثير الكلام ، فقلنا : إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك ، وتحيتك التي تُحيى بها لا تحل لنا أن نحييك بها . قال : كيف تحيتكم فيما بينكم ؟ قلنا : السلام عليك . قال : وكيف تحيون ملككم ؟ قلنا : بها . قال : وكيف يرد عليكم ؟ قلنا : بها . قال : فما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا إله إلا الله ، والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم – لقد تَنَفَّضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها ، قال : فهذه الكلمة التي قلتموها حيث تنفضت

(59/291)

الغرفة ، كلما قلتموها في بيوتكم تنفضت عليكم غرفكم ؟ قلنا : لا ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك . قال : لوددت أنكم كلما قلتم تَنَفَّضَ كل شيء عليكم . وإني خرجت من

نصف ملكي . قلنا : لم ؟ قال : لأنه كان أيسر لشأنها ، وأجدر ألا تكون من أمر النبوة ، وأنها تكون من حيل الناس . ثم سألنا عما أراد فأخبرناه . ثم قال : كيف صلاتكم وصومكم ؟ فأخبرناه ، فقال : قوموا فقمنا . فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كَثير ، فأقمنا ثلاثًا .

فأرسل إلينا ليلا فدخلنا عليه ، فاستعاد قولنا ، فأعدناه . ثم دعا بشيء كهيئة الرَّبْعَةِ العظيمة مذهبة ، فيها بيوت صغار عليها أبواب ، ففتح بيتا وقفلا فاستخرج حريرة سوداء ، فنشرها ، فإذا فيها صورة حمراء ، وإذا فيها رجل ضخم العينين . عظيم الأليتين ، لم أر مثل طول عنقه ، وإذا ليست له لحية ، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله . قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا آدم ، عليه السلام ، وإذا هو أكثر الناس شعرًا .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، وإذا فيها صورة بيضاء ، وإذا له شعر كشعر القطط ، أحمر العينين ، ضخم الهامة ، حسن اللحية ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا نوح ، عليه السلام .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة سوداء ، وإذا فيها رجل شديد البياض ، حسن العينين ، صَلْت الجبين ، طويل الخد ، أبيض اللحية كأنه يبتسم ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا إبراهيم ، عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر فإذا فيه صورة بيضاء ، وإذا – والله – رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعم ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وبكينا . قال : والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس ، وقال : والله إنه لهو ؟ قلنا : نعم ، إنه لهو ، كأنك تنظر إليه ، فأمسك ساعة ينظر إليها ، ثم قال : أما إنه كان آخر البيوت ، ولكني عَجَّلته لكم لأنظر ما عندكم .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فإذا فيها صورة أدماء سحماء وإذا رجل جعد قطط ، غائر العينين ، حديد النظر ، عابس متراكب الأسنان ، مقلَّص الشفة كأنه غضبان ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا موسى عليه السلام . وإلى جانبه صورة تشبهه ، إلا أنه مُدْهَان الرأس ، عريض الجبين ، في عينيه قبل ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا هارون بن عمران ، عليه السلام .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل آدم سَبْط رَبْعَة ، كأنه غضبان ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا لوط ، عليه السلام .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرَب حُمرة ، أقنى ، خفيف العارضين ، حسن الوجه فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال هذا إسحاق ، عليه السلام .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق ، إلا أنه على شفته خال ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . [قال] هذا يعقوب ، عليه السلام .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة رجل أبيض ، حسن الوجه ، أقنى الأنف ، حسن القامة ، يعلو وجهه نور ، يعرف في وجهه الخشوع ، يضرب إلى الحمرة ، قال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا إسماعيل جد نبيكم ، عليهما السلام .

(61/291)

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فيها صورة كأنها آدم ، عليه السلام ، كأن وجهه الشمس ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا يوسف ، عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل أحمر حَمْش الساقين ، أخفش العينين ضخم البطن ، رَبْعة متقلد سيفا ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا داود ، عليه السلام .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فيها صورة رجل ضخم الأليتين ، طويل الرجلين ، راكب فرسًا ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا سليمان بن داود ، عليه السلام .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة بيضاء ، وإذا شابٌّ شديد سواد اللحية ، كثير الشعر ، حسن العينين ، حسن الوجه ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا عيسى ابن مريم ، عليه السلام .

(62/291)

قلنا : من أين لك هذه الصور ؟ لأنا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء ، عليهم السلام ، لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله . فقال : إن آدم ، عليه السلام ، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده ، فأنزل عليه صورهم ، فكان في خزانة آدم ، عليه السلام ، عند مغرب الشمس ، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال . ثم قال : أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي ، وإني كنت عبدًا لأشركم ملكه ، حتى أموت . ثم أجازنا فأحسن جائزتنا ، وسرحنا ، فلما أتينا أبا بكر الصديق ، رضي الله عنه ، فحدثناه بما أرانا ، وبما قال لنا ، وما أجازنا ، قال : فبكى أبو بكر وقال : مسكين ! لو أراد الله به خيرًا لفعل . ثم قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم واليهود يجدون نعت محمد صلى الله عليه وسلم عندهم .

هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي ، رحمه الله ، في كتاب "دلائل النبوة" ، عن

الحاكم إجازة ، فذكره (1) وإسناده لا بأس به .

وقال ابن جرير : حدثنا المثنى ، حدثنا عثمان بن عُمَر ، حدثنا فُلَيْح ، عن هلال بن علي ، عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة . قال : أجل والله ، إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن : "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخَّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ويفتح به قلوبا غُلفا ، وآذانًا صمًا ، وأعينًا عميًا" قال عطاء : ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك ، فما اختلف حرفا ، إلا أن كعبا قال بلغته ، قال : "قلوبًا غُلوفًا وآذانًا صموميًا وأعينًا عموميًا" .

---

(1) دلائل النبوة (385/1) .

وقد رواه البخاري في صحيحه ، عن محمد بن سِنَان ، عن فُلَيْح ، عن هلال بن علي - فذكر بإسناده نحوه وزاد بعد قوله : "ليس بفظ ولا غليظ" : "ولا صخاب في الأسواق ،

ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح" .

ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق "التوراة" على كتب أهل الكتاب . وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا موسى بن هارون ، حدثنا محمد بن إدريس ورّاق الحميدي (1) حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم – من ولد جبير بن مطعم – قال : حدثتني أم عثمان بنت سعيد – وهي جدتي – عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير ، عن أبيه محمد بن جبير ، عن أبيه جبير بن مطعم ، قال : خرجت تاجرًا إلى الشام ، فلما كنت بأدنى الشام ، لقيني رجل من أهل الكتاب ، فقال : هل عندكم رجل نبيًا ؟ قلت : نعم . قال : هل تعرف صورته إذا رأيتها ؟ قلت : نعم . فأدخلني بيتا فيه صور ، فلم أر صورة النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا ، فقال : فيم أنتم ؟ فأخبرناه ، فذهب بنا إلى منزله ، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا رجل آخذ بعقب النبي صلى الله عليه وسلم ، قلت : من هذا الرجل القابض على عقبه ؟ قال : إنه لم يكن نبي إلا كان بعده نبي إلا هذا النبي ، فإنه لا نبي بعده ، وهذا الخليفة بعده ، وإذا صفة أبي بكر ، رضي الله عنه (2)

---

(1) في هـ : "محمد بن إدرس بن الحميدي" ، وفي بقية النسخ : "محمد بن إدريس بن وراق بن الحميدي" والمثبت من الجرح والتعدل 204/213 مستفاد من هامش ط .

الشعب .

(2) المعجم الكبير (125/2) ورواه أيضا في الأوسط برقم (3496) "مجمع البحرين" وقال : "لا يروى عن جبير إلا بهذا الإسناد ، تفرد به محمد بن إدريس" . قال الهيثمي في المجمع (233/8) : "فيه من لم أعرفهم" .

(64/291)

وقال أبو داود : حدثنا حفص بن عمر أبو عمر الضرير (1) حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إياس الجريري أخبرهم ، عن عبد الله بن شقيق العقيلي ، عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال : بعثني عمر إلى الأسقف ، فدعوته ، فقال له عمر : هل تجدني في الكتاب ؟ قال : نعم . قال : كيف تجدني ؟ قال : أجدك قَرْنا . قال : فرفع عمر الدرة وقال قرن مه ؟ قال : قرن حديد ، أمير شديد . قال : فكيف تجد الذي بعدي ؟ قال : أجد خليفة صالحا ، غير أنه يؤثر قرابته قال عمر : يرحم الله عثمان ، ثلاثا . قال : كيف تجد الذي بعده ؟ قال : أجد صدأ حديد . قال : فوضع عمر يده على رأسه وقال : يا دفراه ، يا دَفْراه ! قال : يا أمير المؤمنين ، إنه خليفة صالح ، ولكنه يُستخلف حين يُستخلف والسيف مسلول ، والدم مهراق (2)

وقوله تعالى ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ هذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة ، وهكذا كان حاله ، عليه الصلاة والسلام ، لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر ، كما قال عبد الله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فَأَرْعِها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه . ومن أهم ذلك وأعظمه ، ما بعثه الله [تعالى] به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة من سواه ، كما أرسل به جميع الرسل قبله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : 36] وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر – هو العقدي عبد الملك بن عمرو – حدثنا سليمان – هو ابن بلال – عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، عن عبد الملك بن سعيد ، عن أبي حميد وأبي أسيد ، رضي

---

(1) في جميع النسخ : "عمر بن حفص أبو عمر الضرير" ، والمثبت من سنن أبي داود .

(2) سنن أبي داود برقم (4656) ، "والدفر : النتن" .

الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به . وإذا

سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد ، فأنا أبعدكم منه" (1)

هذا [حديث] جيد الإسناد ، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب [الستة]

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري ، عن علي ، رضي الله عنه ، قال : إذا حدثتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا ، فظنوا به الذي هو أهدى ، والذي هو أهنا ، [والذي هو أنجي] والذي هو أتقى (2)

ثم رواه عن يحيى عن بن سعيد ، عن مسعر ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري ، عن أبي عبد الرحمن ، عن علي ، رضي الله عنه ، قال : إذا حدثتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا ، فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأتقاه (3)

وقوله : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ أي : يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر ، والسوائب ، والوصائل ، والحام ، ونحو ذلك ، مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ، ويحرم عليهم الخبائث .

---

(1) المسند من حديث أبي أسيد (497/3) ومن حديث أبي حميد (425/5) .

(2) المسند (122/1) .

(3) المسند (130/1) .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : كلحم الخنزير والربا ، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى .

وقال بعض العلماء : كل ما أحل الله تعالى ، فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ما حرمه ، فهو خبيث ضار في البدن والدين .

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين ، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له .

وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها ، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها ، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته . وفيه كلام طويل أيضا .

وقوله : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : إنه جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "بعثت بالحنيفية السمحة" . وقال لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري ، لما بعثهما إلى اليمن

: "بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا" . وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي : إني صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت تيسيره .

(67/291)

وقد كانت الأمم الذين كانوا قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم ، فوسع الله على هذه الأمة أمورها ، وسهلها لهم ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ، ما لم تقل أو تعمل" (1) وقال : "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" (2) ؛ ولهذا قد أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : 286] وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : قد فعلت ، قد فعلت (4)

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ أي : عظموه ووقروه ، ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ أي : القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلى الناس ، ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ

﴿ 489.483

---

(1) رواه البخاري في صحيحه برقم (5269) ومسلم في صحيحه برقم (127) من حديث أبي هريرة .

(2) رواه ابن ماجة في السنن برقم (2045) من حديث أبي ذر ، رضي الله عنه ، وقد سبق تخريجه وذكر شواهده .

(3) صحيح مسلم برقم (126) من حديث ابن عباس ، رضي الله عنه .

(68/291)

وقال أبو حيان :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾

التعزير قال يونس بن حبيب التعزير هو الثناء والمدح .

الانبجاس العرق .

قال أبو عمرو بن العلاء : انبجست عرقت وانفجرت سالت ، وقال الواحدي الانبجاس الانفجار يقال : نجس وانبجس ، الحوت معروف يجمع في القلة على أحوات وفي الكثرة على حيتان وهو قياس مطّرد في فعل واوي العين نحو عود وأعواد وعيدان .

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوارة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ .

(69/291)

هذا من بقية خطابه تعالى لموسى عليه السلام وفيه تبشير له ببعثة محمد (صلى الله عليه وسلم) وذكر لصفاته وإعلام له أيضاً أنه ينزل كتاباً يسمى الإنجيل ومعنى الاتباع الاقتداء فيما جاء به اعتقاداً وقولاً وفعلاً وجمع هنا بين الرسالة والنبوة لأن الرسالة في بني آدم أعظم شرفاً من النبوة أو لأنها بالنسبة إلى الآدمي والملك أعم فبُدىء به والأميّ الذي هو على صفة أمة العرب إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب فأكثر العرب لا يكتب ولا يقرأ قاله الزجاج ، وكونه أمّياً من جملة المعجز ، وقيل : نسبة إلى أم القرى وهي مكة ، وروي عن يعقوب وغيره أنه قرأ ﴿ الأميّ ﴾ بفتح الهمزة وخرج على أنه من تغيير النسب والأصل الضّم كما قيل في النسب إلى أميّة أموي بالفتح أو على أنه نسب إلى المصدر من أم ومعناه المقصود أي لأنّ هذا النبي مقصد للناس وموضع أم ، وقال أبو الفضل الرازي : وذلك مكة فهو منسوب إليه لكنها ذكرت إرادة للحرم أو الموضع ومعنى ﴿ يجدونه ﴾ أي يجدون وصفه ونعته ، قال التبريزي : ﴿ في التوراة ﴾ أي سأقيم له نبيّاً من إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فيه

ويقول لهم كلما أوصيته وفيها وأما النبي فقد باركت عليه جدًّا جدًّا وسأدخره لأمة عظيمة وفي ﴿ الإنجيل ﴾ يعطيكم الفارقليط آخر يعطيكم معلم الدهر كله ، وقال المسيح : أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه ويمدحني ويشهد لي ويحتمل أن يكون ﴿ يأمرهم بالمعروف ﴾ إلى آخره متعلقاً بيجدونه فيكون في موضع الحال على سبيل التجوّز فيكون حالاً مقدرة ويحتمل أن يكون من وصف النبي كأنه قيل : الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وكذا وكذا ، وقال أبو عليّ ﴿ يأمرهم ﴾ : تفسير لما كتب من ذكره كقوله : ﴿ خلقه من تراب ﴾ ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في يجدونه لأن الضمير للذكر والاسم والاسم والذكر لا يأمران ، قال ابن عباس وعطاء : ﴿ يأمرهم بالمعروف ﴾ أي بخلع الأنداد ومكارم الأخلاق

(70/291)

وصلة الأرحام ، وقال مقاتل : الإيمان ، وقيل : الحق ، وقال الزجاج : كل ما عرف بالشّرع والمنكر ، قال ابن عباس : عبادة الأوثان وقطع الأرحام ، وقال مقاتل : الشّرك ، وقيل : الباطل ، وقيل : الفساد ومبادىء الأخلاق ، وقيل : القول في صفات الله بغير علم والكفر بما أنزل وقطع الرحم والعقوق .

﴿ ويحلّ لكم الطيبات ﴾ تقدّم ذكر الخلاف في ﴿ الطّيبات ﴾ في قوله ﴿ كلوا من طيبات ﴾ أهي الحلال أو المستلذّ وكلاهما قيل هنا ، وقال الزمخشريّ : ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها أو ما طاب في الشريعة واللحم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح وما خلا كسبه من السحت انتهى ، وقيل : ما كانت العرب تحرمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام واستبعد أبو عبد الله الرازي قول من قال : إنها المحلّلات لتقديره ويحلّ لهم المحللات قال وهذا محض التكذيب ، ولخروج الكلام عن الفائدة لأنا لا ندري ما أحلّ لنا وكم هو قال : بل الواجب أن يراد المستطابة بحسب الطبع لأن تناولها يفيد اللذة والأصل في المنافع الحلّ فدلت الآية على أن كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع حلال إلا ما خرج بدليل منفصل .

﴿ ويحرّم عليهم الخبائث ﴾ قيل : المحرمات ، وقيل : ما تستخبثه العرب كالعقرب والحية والحشرات ، وقيل : الدم والميتة ولحم الخنزير ، وعن ابن عباس ما في سورة المائدة إلى قوله ﴿ ذلكم فسق ﴾

﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ .

(71/291)

قرأ طلحة ويذهب عنهم ﴿ إصرهم ﴾ وتقدم تفسير الإصر في آخر سورة البقرة ، وفسره هنا قتادة وابن جبير ومجاهد والضحاك والحسن وغيرهم بالثقل ، وقرأ ابن عامر : آصارهم جمع إصر ، وقرىء أصرهم بفتح الهمزة وبضمها فمن جمع فباعتبار متعلّقات الإصر إذ هي كثيرة ومن وحد فلأنه اسم جنس ، ﴿ والأغلال ﴾ مثل لما كلفوا من الأمور الصعبة كقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وإحراق الغنائم والقصاص حتماً من القاتل عمداً كان أو خطأً وترك الاشتغال يوم السبت وتحريم العروق في اللحم وعن عطاء : أنّ بني إسرائيل كانوا إذا قاموا إلى الصلاة لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة ، وروي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه وهذا المثل كما قالوا جعلت هذا طوقاً في عنقك وقالوا طوقها طوق الحمامة ، وقال الهذلي :

وليس كهذا الدار يا أمّ مالك . . .

ولكن أحاطب بالرّقاب السلاسل

فصار الفتى كالكهل ليس بقابل . . .

سوى العدل شيئاً واستراح العواذل

وليس ثمّ سلاسل وإنما أراد أنّ الإسلام ألزمه أموراً لم يكن ملتزماً لها قبل ذلك كما قال الإيمان قيد الفتك ، وقال ابن زيد الأغلال يريد في قوله ﴿ غلت أيديهم ﴾ فمن آمن زالت

عنه الدعوة وتغليلها .

﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

﴿ وعزّروه ﴾ أثنوا عليه ومدحوه .

قال الزمخشري : منعوه حتى لا يقوى عليه عدوّ ، وقرأ الجحدري وقتادة وسليمان التيمي وعيسى بالتخفيف ، وقرأ جعفر بن محمد وعزّزوه بزايين و ﴿ النور ﴾ القرآن قاله قتادة ، وقال ابن عطية : هو كناية عن جملة الشريعة .

وقيل مع بمعنى عليه أي الذي أنزل عليه .

(72/291)

وقيل هو على حذف مضاف أي أنزل مع نبوته لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به وعلى هذين القولين يكون العامل في الظرف ﴿ أنزل ﴾ ويجوز عندي أن كون معه ظرفاً في موضع الحال فالعامل فيه محذوف تقديره أنزل كائناً معه وهي حال مقدّرة كقوله مررت برجل معه صقر صائداً به غدا فحالة الإنزال لم يكن معه لكنه صار معه بعد كما إنّ الصيد لم يكن وقت المرور ، وقال الزمخشر : ويجوز أن يعلّق باتبعوا أي ﴿ واتبعوا ﴾ القرآن المنزل مع اتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) والعمل بسنته وبما أمر به أي واتبعوا القرآن كما اتبعه

مصاحبين له في اتباعه وفي قوله ؟ ﴿ فالذين آمنوا به ﴾ إلى آخره إشارة إلى من آمن من أعيان بني إسرائيل بالرسول كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(73/291)

وقال أبو السعود :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ ﴾

الذي نوحي إليه كتاباً مختصاً به ﴿ النبى ﴾ أي صاحبَ المعجزة ، وقيل : عنوانُ الرسالةِ بالنسبة إليه تعالى وعنوانُ النبوة بالنسبة إلى الأمة ﴿ الامى ﴾ بضم الهمزة نسبةً إلى الأم ، كأنه باقٍ على حالته التي وُلد عليها من أمّه ، أو إلى أمة العرب كما قال عليه الصلاة والسلام : " إنا أمةٌ لا نحسُب ولا نكتب " أو إلى أم القرى ، وقرىء بفتح الهمزة أي الذي لم يمارس القراءةَ والكتابة وقد جمع مع ذلك علومَ الأولين والآخِرين ، والموصولُ بدلٌ من الموصول الأولِ بدلَ الكلِّ أو منصوبٌ على المدح أو مرفوع عليه أي أعني الذين ، أو هم الذين ، وأما جعلُه مبتدأً على أن خبرَه يأمرُهم أو أولئك هم المفلحون فغيرُ سديد ﴿ الذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا ﴾ باسمه ونعوتِه بحيث لا يشكّون أنه هو لذلك عدل عن أن يقال : يجدون اسمَه أو

وصفه مكتوباً ﴿ عِندَهُمْ ﴾ زيد هذا لزيادة التقريرِ وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضرٌ عندهم لا يَغيب عنهم أصلاً ﴿ فِي التوراة والإنجيل ﴾ اللذيْن تُعبّد بهما بنو إسرائيلَ سابقاً ولاحقاً والظرفان متعلقان بيجدونه أو بمكتوباً وذكرُ الإنجيلِ قبل نزولِه من قبيل ما نحن فيه من ذكر النبي عليه الصلاة والسلام والقرآنِ الكريم قبل مجيئِهما ﴿ يَأْمُرُهُم بالمعروف وينهاهم عَنِ المنكر ﴾ كلامٌ مستأنفٌ لا محل له من الإعراب قاله الزجاج متضمنٌ لتفصيل بعض أحكامِ الرحمةِ التي وعد فيما سبق بكتبها إجمالاً ، فإن ما بُيّن فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحلالِ الطيبات وتحريمِ الخبائث وإسقاطِ التكاليف الشاقةِ كلُّها من آثار رحمتِه الواسعة ، وقي : في محل النصبِ على أنه حال مقدرةٌ من مفعول يجدونه أو من النبي أو من المستكن في مكتوباً ، أو مفسِّرٌ لمكتوباً أي لما كُتب ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات ﴾ التي حُرِّمت عليهم بشؤم ظلمِهم ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبئث ﴾ كالدم ولحمِ الخِنزيرِ والربا والرشوة ﴿ وَيَضَعُ

(74/291)

عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والاغلال التى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يخفف عنهم ما كُلِّفوه من التكاليف الشاقةِ التي هي من قَبيل ما كتب عليهم حينئذ من كون التوبةِ بقتل النفسِ وتعيين القصاصِ

في العمد والخطأ من غير شرعِ الدية ، وقطع الأعضاءِ الخاطئةِ وقرضِ موضعِ النجاسة من الجلد والثوب وإحراقِ الغنائم وتحريمِ السبت . وعن عطاء أنه كانت بنو إسرائيلَ إذا قاموا يصلون لبِسوا المُسوحَ وغلّوا أيديَهم إلى أعناقهم ، وربما ثقَبَ الرجلُ تَرْقُوتَه وجعل فيها طرف السلسلةِ وأثقلها إلى السارية يحبِس نفسه على العبادة ، وقرىء آصارَهم ، أصلُ الإصرِ الثقلُ الذين يأسِرُ صاحبه من الحَراك .

(75/291)

﴿ فالذين ءامَنُواْ بِهِ ﴾ تعليمٌ لكيفية اتّباعِه عليه الصلاة والسلام وبيانٌ لعلو رتبةِ متّبعيه واغتنامِهم مغانمَ الرحمةِ الواسعةِ في الدارين إثرَ بيانِ نعوتِه الجليلة والإشارةِ إلى إرشاده عليه الصلاة والسلام إياهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحلالِ الطيبات وتحريمِ الخبائث ، أي فالذين آمنوا بنبوته وأطاعوه في أوامره ونواهيه ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي عظّموه ووقّروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه وقرىء بالتخفيف وأصلُه المنعُ ومنه التعزير ﴿ وَنَصَرُوهُ ﴾ على أعدائه في الدين ﴿ واتبعوا النور الذى أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ أي مع نبوته وهو القرآنُ ، عبّر عنه بالنور المنبىءِ عن كونه ظاهراً بنفسه ومُظهِراً لغيره أو مظهِراً للحقائق كاشفاً عنها لمناسبة الاتّباعِ ، ويجوز أن يكون معه متعلقاً باتّبعوا أي واتّبعوا القرآنَ المنزلَ مع اتباعه عليه الصلاة

والسلام بالعمل بسنته وبما أمَر به ونهى عنه أو اتبعوا القرآنَ مصاحبين له في اتباعه ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين من حيث اتصافُهم بما فُصّل من الصفات الفاضلةِ للإشعار بعلّيتها للحُكم ، وما فيه من معنى البُعدِ للإيذان بعلو درجتِهم وسُموّ طبقتِهم في الفضل والشرفِ أو أولئك المنعوتون بتلك النعوتِ الجليلة ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ أي هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب لا غيرُهم من الأمم فيدخُل فيهم قومُ موسى عليه الصلاة والسلام دخولاً أولياً حيث لم ينجُوا عما في توبتهم من المشقة الهائلةِ وبه يتحقق التحقيقُ ويتأتّى التوفيقُ والتطبيقُ بين دعائِه عليه الصلاة والسلام وبين الجوابِ لا بمجرد ما قيل من أنه لما دعا لنفسه ولبني إسرائيلَ أجيب بما هو منطوٍ على توبيخ بني إسرائيلَ على استجازتهم الرؤيةَ على الله عز وجل وعلى كفرهم بآياته العظامِ التي أجراها على يد موسى عليه الصلاة والسلام وعرّض بذلك في قوله تعالى : ﴿ والذين هُم بآياتنا يُؤْمِنُونَ ﴾ وأريد أن يكون استماعُ أوصافِ

أعقابِهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كعبد اللَّه بن سلام وغيرِه من أهل الكتابين لطفاً بهم وترغيباً في إخلاص الإيمانِ والعمل الصالح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(77/291)

وقال الآلوسى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ ﴾

الذي أرسله الله تعالى لتبليغ الأحكام ﴿ النبى ﴾ أي الذي أنبأ الخلق عن الله تعالى فالأول تعتبر فيه الإضافة إلى الله تعالى والثاني تعتبر فيه الإضافة إلى الخلق ، وقدم الأول عليه لشرف وتقدم إرسال الله تعالى له على تبليغه ، وإلى هذا ذهب بعضهم ، وجعلوا إشارة إلى أن الرسول والنبي هنا مراد بهما معناهما اللغوي لاجرائهما على ذات واحدة كما أنهما كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴾ [مريم : 54] ، وفسر في الكشاف الرسول بالذي يوحى إليه كتاب والنبي بالذي له معجزة ، ويشير إلى الفرق بين الرسول والنبي بأن الرسول من له كتاب خاص والنبي أعم .

وتعقبه في الكشف بأن أكثر الرسل لم يكونوا أصحاب كتاب مستقل كاسمعيل .

ولوط .

والياس عليهم السلام وكم وكم ثم قال : والتحقيق أن النبي هو الذي ينبىء عن ذاته تعالى وصفاته وما لا تستقل العقول بدرايته ابتداء بلا واسطة بشر ، والرسول هو المأمور مع ذلك باصلاح النوع ، فالنبوة نظر فيها إلى الأنبار عن الله تعالى والرسالة إلى المبعوث إليهم ، والثناي وإن كان أخص وجودا إلا أنهما مفهومان مفترقان ولهذا لم يكن رسولاً نبيا مثل انسان هيوان ا ه .

وفيه مخالفة بينة لما ذكر أولاً ، ولا حجر في الاعتبار .

نعم ما ذكروه مدفوع بأن الفرق المذكور مع تغاير المفهومين على كل حال من عرف الشرع والاستعمال ، واما في الوضع والحقيقة اللغوية فهما عامان .

وقد ورد في القرآن بالاستعمالين فلا تعارض بينهما .

ولا يرد أن ذكر النبي العام بعد الخاص لا يفيد والمعروف في مثل ذلك العكس ، ولا يخفى أن المراد بهذا الرسول النبي نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ النبى الامى ﴾ أي الذي لا يكتب ولا يقرأ ، وهو على ما قال الزجاج نسبة إلى أمة العرب لأن الغالب عليهم ذلك .

(78/291)

وروى الشيخان وغيرهما عن ابن عمر قال : " قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " أو إلى أم القرى لأن أهلها كانوا كذلك ، ونسب ذلك إلى الباقر رضي الله تعالى عنه أو إلى أمه كأنه على الحالة التي ولدته امه عليها ، ووصف عليه الصلاة والسلام بذلك تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله احدى معجزاته صلى الله عليه وسلم فهو بالنسبة إليه بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام صفة مدح ، وأما بالنسبة إلى غيره فلا ، وذلك كصفة التكبير فإنها صفة مدح لله عز وجل وصفة ذم لغيره .

واختلف في أنه عليه الصلاة والسلام هل صدر عنه الكتابة في وقت أم لا ؟ فقيل : نعم صدرت عنه عام الحديبية فكتب الصلح وهي معجزة أيضاً له صلى الله عليه وسلم وظاهر الحديث يقتضيه ، وقيل : لم يصدر عنه أصلاً وإنما أسندت إليه في الحديث مجازاً . وجاء عن بعض أهل البيت رضي الله تعالى عنهم أنه صلى الله عليه وسلم كان تنطق له الحروف المكتوبة إذا نظر فيها ، ولم أر لذلك سنداً يعول عليه ، وهو صلى الله عليه وسلم فوق ذلك .

(79/291)

نعم أخرج أبو الشيخ من طريق مجاهد قال حدثني عون بن عبد الله بن عتبة عن أبيه قال : "ما مات النبي صلى الله عليه وسلم حتى قرأ وكتب فذكرت هذا الحديث للشعبي فقال : صدق سمعت أصحابنا يقولون ذلك" وقيل : الأمي نسبة إلى الأم بفتح الهمزة بمعنى القصد لأنه المقصود وضم الهمزة من تغيير النسب ، ويؤيده قراءة يعقوب ﴿ الامى ﴾ بالفتح وإن احتملت أن تكون من تغيير النسب أيضاً ، والموصول في محل جر بدل من الموصول الأول ، هو أما بدل كل على أن المراد منه هؤلاء المعهودين أو بعض على أنه عام ويقدر حينئذ منهم ، وجوز أن يكون نعتاً له ، ويحتمل أن يكون في محل نصب على القطع وإضمار ناصب له ، وأن يكون في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وقيل : على أنه مبتدأ خبره جملة ﴿ يَأْمُرُهُم ﴾ أو ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ وكلاهما خلاف المتبادر من النظم ﴿ الذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا ﴾ باسمه ونعوته الشريفة بحيث لا يشكون أنه هو ، ولذلك عدل عن أن يقال : يجدون اسمه أو وصفه مكتوباً ﴿ عِندَهُمُ ﴾ ظرف لمكتوبا الواقع حالا أو ليجدون ، وذكر لزيادة التقرير وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضرة عندهم لا يغيب عنهم أصلا ﴿ فِي التوراة والإنجيل ﴾ اللذين يعتمد بهما بنو اسرائيل سابقاً ولاحقاً ، وكأنه لهذا المعنى اقتصر عليهما وإلا فهو صلى الله عليه وسلم مكتوب في الزبور أيضاً ، أخرج ابن سعد .

والدارمي في مسنده .

والبيهقي في الدلائل .

(80/291)

وابن عساكر عن عبد الله بن سلام قال : "صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا لا آله إلا الله ويفتح أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً" ، ومثله من رواية البخاري وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وجاء من حديث أخرجه ابن سعد .

وابن عساكر من طريقذ موسى بن يعقوب الربعي عن سهل مولى خيثمة قال : "قرأت في الإنجيل محمد صلى الله عليه وسلم أنه لا قصير ولا طويل أبيض ذو ضفيرتين بين كتفيه خاتم لا يقبل الصدقة ويركب الحمار .

والبعير ويحلب الشاة ويلبس قميصاً مرقوعاً ومن فعل ذلك فقد برىء من الكبر وهو يفعل ذلك وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد" .

وجاء من خبر أخرجه البيهقي في الدلائل عن وهب بن منبه قال : "إن الله تعالى أوحى في الزبور يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد لا أغضب عليه أبداً ولا يعصيني أبداً وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهروا إلى كل صلاة كما افترضت على الأنبياء قبلهم وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم وأمرتهم باجلهاد كما أمرت الرسل قبلهم يا داود إني فضلت محمداً وأمته على الأمم كلهم ، أعطيتهم ست خصال لم أعطها غيرهم من الأمم ، لا أؤاخذهم بالخطأ والنسيان وكل ذنب ركبوه على غير عمد إذا استغفروني منه غفرته وما قدموا لآخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم عجلته لهم اضعافاً مضاعفة ولهم عندي أضعاف مضاعفة وأفضل من ذلك ، وأعطيتهم على المصائب إذا صبروا وقالوا : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون ﴾ [البقرة : 156] الصلاة والرحمة والهدى إلى جنات النعيم ، فإن دعوني استجبت لهم فإما أن يروه عاجلاً وإما أن أصرف عنهم

سوءاً وإما أن أدخره لهم في الآخرة ، يا داود من لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي صادقاً بها فهو معي في جنتي وكرامتي ومن لقيني وقد كذب محمداً وكذب بما جاء به واستهزأ بكتابي صببت عليه من قبره العذاب صبا وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره في قبره ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار" إلى غير ذلك من الأخبار الناطقة بأنه صلى الله عليه وسلم مكتوب في الكتب الإلهية .

والظرفان متعلقان بيجدونه أو بمكتوبا .

وذكر الإنجيل قبل نزوله من قبيل ما نحن فيه من ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم قبل مجيئهما .

(82/291)

﴿ يَأْمُرُهُم بالمعروف وينهاهم عَنِ المنكر ﴾ كلام مستأنف ، وهو على ما قيل متضمن لتفصيل بعض أحكام الرحمة التي وعد فيما سبق بكتبها إجمالاً إذا ما أشارت إليه المتعاطفات من آثار الرحمة والواسعة ، وجوز كونه في محل نصب على أنه حال مقدرة من مفعول يجدونه أو من النبي أو من المستكن في مكتوباً ، وقيل : هو مفسر لمكتوبا أي لما كتب ، والمراد بالمعروف قيل الإيمان ، وقيل : ما عرف في الشريعة ، والمراد بالمنكر ضد ذلك

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبئث ﴾ فسر الأول بالأشياء التي يستطيبها الطبع كالشحوم ، والثاني بالأشياء التي يستخبثها كالدم ، فتكون الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس وستلذه الطبع الحل وفي كل ما تستخبثه النفس ويكرهه الطبع الحرمة إلا لدليل منفصل ، وفسر بعضهم الطيب بما طاب في حكم الشرع والخبيث بما خبث فيه كالربا والرشوة .

وتعقب بأن الكلام حينئذ يحل ما يحكم بحله ويحرم ما يحكم بحرمته ولا فائدة فيه .

(83/291)

وردوه بأنه يفيد فائدة وأي فائدة لأن معناه أن الحل والحرمة بحكم الشرع لا بالعقل والرأي ، وجوز بعضهم كون الخبيث بمعنى ما يستخبث طبعاً أو ما خبث شرعاً وقال كالدم أو الربا ومثل للطيب بالشحم وجعل ذلك مبينا على اقتضاء التحليل سبق التحريم والشحم كان محرماً عند بني اسرائيل ، وعلى اقتضاء التحريم سبق التحليل وجعل الدم وأخيه مما حرم على هذا لأن الأصل في الأشياء الحل ، ولا يرد ﴿ أَحَلَّ الله البيع وَحَرَّمَ الربا ﴾ [البقرة : 275] لأنه لرد قولهم ﴿ إِنَّمَا البيع مِثْلُ الربا ﴾ [البقرة : 275] أو لأن المراد ابقاؤه على حله لمقابلته بتحريم الربا ، ودفع بهذا ما توهم من عدم الفائدة ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

والاغلال التى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثواب أو منه ومن البدن ، واحراق الغنائم ، وتحريم السبت ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وتعين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية فإنه وان لم يكن مأموراً به في الألواح إلا أنه شرع بعد تشديداً عليهم على ما قيل ، وأصل الأصر الثقل الذي يأصر صاحبه عن الحراك ، والاغلال جمع غل بضم الغين وهي في الأصل كما قال ابن الأثير الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه ويقال لها جامعة أيضاً ، ولعل غير الحديد إذا جمع به يد إلى عنق يقال له ذلك أيضاً ، والمراد منهما هنا ما علمت وهو المأثور عن كثير من السلف ، ولا يخفى ما في الآية من الاستعارة .

(84/291)

وجوز أن يكون هناك تمثيل ، وعن عطاء كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها على السارية يحبس نفسه على العبادة وعلى هذا فالاغلال يمكن أن يراد حقيقته ، وقرأ ابن عامر ﴿ آصارهم ﴾ على الجمع وقرأ ﴿ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ بالفتح على المصدر وبالضم على الجمع أيضاً ﴿ فالذين ءامَنُواْ بِهِ ﴾ أي صدقوا برسالته ونبوته ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي

عظموه ووقروه كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقال الراغب : التعزير النصرة مع التعظيم ، والتعزير الذي هو دون الحد يرجع إليه لأنه تأديب والتأذيب نصرة لأن أخلاق السوء أعداء ولذا قال في الحديث : " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقيل كيف أنصره ظالماً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : تكفه عن الظلم " وأصلح عند غير وأحد المنع والمراد منعوه حتى لا يقوى عليه عدو ، وقرىء ﴿ عزروه ﴾ بالتخفيف ﴿ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ على أعدائه في الدين وعطف هذا على ما قبله ظاهر على ما روي عن الحبر وكذا على ما قاله الجمع إذ الأول عليه من قبيل درء المفاسد وهذا من قبيل جلب المصالح ، ومن فسر الأول بالتعظيم مع التقوية أخذا من كلام الراغب قال هنا نصروه لي أي قصدوا بنصره وجه الله تعالى واعلاء كلمته فلا تكرار خلافاً لمن توهمه ﴿ واتبعوا النور الذى أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ وهو القرآن وعبر عنه بالنور لظهوره في نفسه باعجازه وإظهاره لغيره من الأحكام وصدق الدعوى فهو أشبه شيء بالنور الظاهر بنفسه والمظهر لغيره بل هو نور على نور ، والظرف اما متعلق بانزل والكلام على حذف مضاف أي مع نبوته أو ارساله عليه السلام لأنه لم ينزل معهم وإنما نزل مع جبريل عليه السلام .

(85/291)

نعم استنباؤه أو ارساله كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به وإما متعلق باتبعوا على معنى شاركوه في اتباعه وحينئذ لم يحتج إلى تقدير ، وقد يعلق به على معنى اتبعوا القرآن مع اتباعهم النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى العمل بالكتاب والسنة ، وجوز أن يكون في موضع الحال من ضمير اتبعوا أي اتبعوا أي اتبعوا النور مصاحبين له في اتباعه وحاصله ما ذكر في الاحتمال الثاني ، وأن يكون حالا مقدرة من نائب فاعل أنزل .

وفي مجمع البيان أن مع بمعنى على وهو متعلق بأنزل ولم يشتهر وروي ذلك ، وقال بعضهم : هن هنا مرادفة لعند وهو أحد معانيها المشهورة إلا أنه لا يخفى بعده وإن قيل حاصل المعنى حينئذ أنزل عليه ﴿ أولئك ﴾ أي المنعوتون بتلك النعوت الجليلة ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ أي هم الفائزون يا لمطلوب لا المتصفون بأضداد صفاتهم ، وفي الإشارة إشارة إلى علية تلك الصفات للحكم ، وكاف البعد للايذان ببعد المنزلة وعلو الدرجة في الفضل والشرف ، والمراد من الموصول المخبر عنه بهذه الجملة عند ابن عباس رضي الله تعالى عنه اليهود الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ما يعمهم وغيرهم من أمته عليه الصلاة والسلام المتصفين بعنوان الصلة إلى يوم القيامة والاتصاف بذلك لا يتوقف على إدراكه صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى وهو الأولى عندي .

وادعى بعضهم أن المراد من الموصول في قوله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 156] المعنى الأعم أيضاً وجعله ابن الخازن قول جمهور المفسرين ، وفيه ما فيه ومما يقضي منه العجب كون المراد منه اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام ، والجملة متفرعة على ما تقدم من نعوته صلى الله عليه وسلم الجليلة الشان ، وقيل : على كتب الرحمة لمن مر ، وذكر شيخ الإسلام أنها تعليم لكيفية اتباعه عليه السلام وبيان علو رتبة متبعيه واغتنامهم مغانم الرحمة الواسعة في الدارين إثر بيان نعوته الجليلة والإشارة إلى إرشاده عليه الصلاة والسلام إياهم بما في ضمن ﴿ يَأْمُرُهُم ﴾ الخ ، وجعل الحصر المدلول عليه بقوله سبحانه : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ بالنسبة إلى غيرهم من الأمم ثم قال : فيدخل فيهم قوم موسى عليه السلام دخولا أوليا حيث لم ينجوا عما في توبتهم من المشقة الهائلة ، وهو مبني على ما سلكه في تفسير الآيات من أول الأمر ولا يصفو عن كدر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(87/291)

وقال القاسمي :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [157] .

﴿ الَّذِينَ ﴾ بدل من الموصول الأول بد الكل ، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع عليه ، أي : أعني الذين أو هم الذين : ﴿ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ ﴾ أي : الذي أرسل إلى الخلائق لتكميلهم : ﴿ النَّبِيَّ ﴾ أي : الذي نبئ بأكمل الإعتقادات ، والأعمال والأخلاق والأحوال والمقامات من جهة الوحي ﴿ الأُمِّيَّ ﴾ أي : الذي لم يحصل علماً من بشر : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً ﴾ أي : باسمه محمد وأحمد ونعوته ﴿ عِندَهُمْ ﴾ زيد هذا لزيادة التقرير ، وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلاً .

﴿ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يعني الإيمان بالله ، ووحدانيته والشرائع ومكارم الأخلاق ، لأن جميع ذلك تعرف صحته إما بالعقل وإما بالشرع .

﴿ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ يعني الكفر والشرك والمعاصي ومساوئ الأخلاق ، لأن العقل والشرع ينكره .

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي : التي حرمت عليهم لمعاصيهم .

﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ ﴾ أي : التي كانوا يتناولونها كالخنزير والميتة والدم – هذا في باب المأكولات . .

(88/291)

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ أي : الأمر الذي يثقل عليهم من التكاليف الشاقة ﴿ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ جمع غُل بالضم ، وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ، يستعار للشرائط الحرجة والمواثيق الشديدة ، أي : يخفف عنهم ما كلفوه منها – وهذا في باب العبادات . .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ ﴾ أي : بالنبي الأمي وهو محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي : عظموه ووقروه : ﴿ وَنَصَرُوهُ ﴾ أي : على أعدائه في الدين فمنعوهم عنه ﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ وهو القرآن ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه .

ولا يقال : القرآن أنزل مع جبريل ، فما معنى : ﴿ أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ ؟ لأن المراد أنزل مع نبوته ، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به ، ويجوز أن يعلق باتبعوا أي : واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته ، وبما أمر ونهى عنه ، فيكون أمراً بالعلم بالكتاب والسنة ، أو هو حال ، أي : اتبعوا القرآن كما اتبعه ، مصاحبين له في اتباعه .

وفي التعبير عن القرآن بالنور ، المنبئ عن كونه ظاهراً بنفسه لإعجازه ، ومظهراً لغيره من الأحكام ، لمناسبة الإتباع .

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالرحمة والناجون من النقمة .

تنبيهات :

الأول : يظهر من سياق الآية أن قوله تعالى : ﴿ قالَ عَذَابِي ﴾ الخ ، جواب لموسى عليه السلام ، وذلك أنه دعا بالمغفرة لقومه أجمعين ، كتابه حسنتي الدنيا والآخرة لهم ، فأجيب أولاً بأن ذلك لا يحصل لقومه كلهم ، برًّا أو فاجراً ، لما سبق من تقديره سبحانه العذاب لمن يشاء من الفجار حكمة منه وعدلاً . ولذلك قرأ الحسن

وزيد بن علي هنا لمن أساء ، فعل ماض من الإساءة ، وفي طيه أن ما أصاب قومه من الرجفة من عذابه تعالى ، الذي شاء إصابتهم به لأفاعيلهم ، وثانياً إنه لا يستأهل كتابة الحسنتين إلا المتقون المتصدقون المؤمنون بالآيات ، والمتبعون للنبي الأمي ، فمن استقام على هذا الشرائط ، كتب له ذلك ، ولا يقال – على هذا – كيف يتبعونه ولم يدركوا زمنه ؟ لأنا نقول الإتباع أعم من الإتباع بالقوة ، وذلك بالإيمان به إجمالاً ، حسبما أشار له الكتابان لمن

تقدم موته على زمن بعثته ، وإما بالفعل لمن لحق زمان بعثته .

وفيه تبشير لموسى بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وتعريف له بشأنه وإعلام بشأنه ، بأن كتابة الرحمة موقوفة على اتباعه . وعليه فيكون قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ﴾ بدلاً من الموصول الأول ، بدل الكل ، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع عليه ، أي : أعني الذين ، أو هم الذين .

وقال بعضهم : إن الجواب موسى ينتهي إلي قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وما بعده مستأنف ، فكأنه تعالى أعلم موسى بأنه ذو عذاب يصيب به من يشاء ، كما أصاب أصحاب الرجفة ، وذو رحمة واسعة تكتب للمتقين المتصدقين المؤمنين بالآيات ، أي : فأمر قومك بأن يكونوا من الفريق المرحوم بالمشي على هذا الوصف المرقوم .

ثم استأنف تعالى الإخبار عمن يتبع النبي الأمي بأنهم المفلحون حقاً ، عليه فيكون قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ﴾ مبتدأ خبره : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وتكون القصة استتبعت أعقاب بني إسرائيل ، بأنهم إذا اتبعوا النبي الأمي ، كانوا هم المفلحين .

(90/291)

وجوز بعضهم أن يكون قوله تعالى : ﴿ قالَ عَذابِي ﴾ ارتجال خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، قصد به إعلام أهل الكتاب المعاصرين له ، صلى الله عليه وسلم بأنهم إذا اتبعوه وآمنوا به وصدقوه حقت لهم رحمته تعالى الواسعة ، وإلا فلا يأمنوا أن يصابوا بانتقامه تعالى ، كما جرى لأسلافهم .

وفي ذلك كله من التنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه المتقين ، ما لا يخفى .

الثاني : تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان – هذا ما ذكر في اللغة. وعني أن القرآن الكريم قد تطلق فيه على الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ ، فلعل الرحمة في قوله تعالى هنا : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ بمعنى الجنة ، بدليل مقابلتها بالعذاب قبل . والله أعلم .

وقال أبو المنصور : ما من أحد مسلم وكافر ، إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا ، بها يتعيشون ويؤاخون ويوادون وفيها ينقلبون ، لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة ، لا حظ للكافر فيها ، وذلك قوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي : معصية الله ، والخلاف له ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ جعل طيبات الدنيا ونعيمها مشتركة بين المسلم والكافر ، خالصة للذين آمنوا يوم القيامة ، لا حظ للكافر فيها .

فعلى ذلك رحمته نالت كل أحد في هذه الدنيا ، لكنها للذين آمنوا واتقوا الشرك خاصة في

الآخرة ، ويحتمل قوله ـ والله أعلم ـ : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أنهم سألوا الرحمة ، فقال : سأكتبها للذين يتقون معاصي الله ومخالفته . انتهى .

(91/291)

الثالث : إنما أفرد الزكاة بالذكر ، ومع دخولها في التقوى قبل ، لعلوها وشرفها ، فإنها عنوان الهداية ، ولأنها كانت أشق عليهم ، فذكرها لئلا يفرطوا فيها .

الرابع : كونه صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقرأ ، أمر مقرر مشهور . وهل صدر عنه ذلك في كتابة صلح الحديبية كما هو ظاهر الحديث المشهور ، أو أنه لم يكتب ، وإنما أسند إليه مجازاً ، أو أنه أصدر منه ذلك معجزة ؟ – انظر في " فتح الباري " تفصيله – .

والأمي نسبة إلى أمة العرب ، لأن الغالب عليهم كان ذلك ، كما في الحديث : < إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب > ، وأما نسبته إلى أم القرى فلأن أهله كانوا كذلك ، أو إلى أُمه كأنه على الحالة التي ولدته أمه عليها .

وقيل : إنه منسوب إلى الأم – بفتح الهمزة – بمعنى القصد ، لأنه المقصود ، وضم الهمزة من تغيير النسب ، ويؤيده قراءة يعقوب (الأمي) – بفتح الهمزة – ، وإن احتملت أن تكون من تغيير النسب أيضاً ، وإنما وصفه تعالى به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى

معجزاته ، فهي له مدح وعلو كعب ، لأنها معجزة له ، كما قال البوصيري .

كَفَاكَ بالعلمِ في الأمّي مُعْجزةَ

كما أن صفة التكبر لله مادحة ، وفي غيره ذامة ، كذا في " العناية " .

الخامس : في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ﴾ إشارة إلى بشائر الأنبياء عليهم السلام ، بنبوته صلى الله عليه وسلم .

قال الماوردي في " إعلام النبوة " في الباب الخمس عشر في بشائر الأنبياء بنبوته عليه الصلاة والسلام :

إن الله تعالى عوناً على أوامره ، وإغناءاً عن نواهيه ، فكأن أنبياء الله تعالى معانون على تأسيس النبوة ، بما تقدمه من بشائره ، وتبديه من أعلامها وشعائرها ، ليكون السابق مبشراً ونذيراً ، واللاحق مصدقاً وظهيراً ، فتدوم بهم طاعة الخلق ، وينتظم بهم إستمرار الحق .

(92/291)

وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، مما هو حجة على أممهم ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله تعالى على غيبه ، ليكون

عوناً للرسول ، وحثاً على القبول .

فمنهم من عيّنه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ، ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصه بأفعاله ، ومنهم من ميزه بظهوره وإنتشاره .

وقد حقق الله تعالى جميعها فيه ، حتى صار جلياً بعد الإحتمال ويقيناً بعد الإرتياب ، ثم سرد الماوردي البشائر من نصوص كتبهم .

وجاء في " إظهار الحق " ما نصه : إن الإخبارات الواقعة في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، كثيرة إلى الآن أيضاً ، مع وقوع التحريفات في هذه الكتب ، ومن عرف أولاً طريق إخبار النبي المتقدم ، عن النبي المتأخر ، على ما عرفت في الأمر الثاني – يعني في كلامه – ثم نظر ثانياً بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات ، وقابلها بالإخبارات التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى عليه السلام ، جزم بأن الإخبارات المحمدية في غاية القوة .

وجاء في " منية الأذكياء في قصص الأنبياء " ما نصه : إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بشرت به الأنبياء السالفون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال ، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته . غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمعه – يعني من نسخهم الأخيرة – إلا أن ذلك لم يجدهم نفعاً ، لقاء الصفات التي اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهي أظهر دلالة

من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك اثنان في اسم ، ويمتنع اشتراك اثنين في جميع الأوصاف . لكن من أمد غير بعيد ، قد شرعوا في تحريف بعض الصفات ، ليبعد صدقها على النبي عليه الصلاة والسلام ، فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها في بعض المواضع ، اختلافاً لا يخفى على اللبيب أمره ، ولا ما قصد به ، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم لانتشار النسخ بالطبع ، وتيسر المقابلة بينها ، وها نحن نورد شذرة من البشائر لديهم :

فمنها : في الباب السادس عشر من سفر التكوين في حق هاجر هكذا :

11 – وقال لها ملاكُ الربُ أنتِ حُبلى فتلدين إبناً ، وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك .

12 – وإن يكون إنساناً وحشياً ، يده علي كل واحد ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع إخوته يسكن .

هذه بشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا بجده إسماعيل ، لأن إسماعيل عليه السلام ، لم تكن يده فوق يد الجميع ، ولا كانت يد الجميع ، لا كانت يد الجميع مبسوطة إليه بالخصوص ، بل في التوراة أن إسماعيل وأمه هاجر أُخرج من وطنهما مكرهين ، ولم يرث إسماعيل مع إسحاق ، وكان الملك والنبوة في بني إسحاق ، وكان بنو إسماعيل في البراري العطاش ، ولم

يسمع أن الأمم دانت لهم ، حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدانت له الملوك ، خضعت له الأمم ، وعلت يده وأيدي بني إسماعيل على كل يد ، وصارت يد كل بهم فكان ذكر إسماعيل مقصوداً به ولده .

كما أن في مواضع كثيرة من التوراة ، ذكر يعقوب ، والمقصود بالذكر ولد يعقوب .

فمن ذلك قوله في السفر الخامس : يا إسرائيلُ ! ألا تخشى الله ربَّك ، وتسلك في سَبِيلِهِ وتعمل له ؟

فهذا خطاب لبني إسرائيل باسم أبيهم ، وكذلك قوله لقوم موسى : اسمع إسرائيل ، ثم احفظ ، واعمل يحسن إليك ربك ، وتكثر وتنعم . ونظائره كثيرة .

فظهر أنه قد يذكر إسم الأب ، ويراد الإبن مجازاً ، بقرينة الحال ، وإلا لزم الخلف في خبره تعالى .

(94/291)

ومنها : في الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية هكذا :

1 – وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجلُ الله بني إسرائيل قبل موته .

2 – فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سَعِيرَ ، وتلألأ من جبل فَارَان ، وأتى

من ربواتِ القُدسِ ، وعن يمنيه نار شريعةٍ لهم .

ولا غموض بأن مجئ الله جل وعلا من سيناء عبارة عن إنزاله التوراة على موسى بطور سينا – هكذا يفسره أهل الكتاب – والأمر كذلك فيجب أن يكون إشراقه من سُعَيْر عبارة عن إنزاله الإنجيل على المسيح ، وكان المسيح يسكن أرض الجليل من سُعَيْر بقرية تدعى ناصرة ، وإسم النصارى مأخوذ منها .

وإستعلاؤه من جبال فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد في جبل فاران ، وفاران هي مكة ، ولا يخالفنا في ذلك أهل الكتاب .

ففي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام هكذا :

20 – وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن في البرية ، وكان ينمو رامِيَ قوس .

21 – وسكن في برِّيَة فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

ولا شك أن إسماعيل كان سكنه في مكة ، وفيها مات ، وبها دفن ، وهذا البشارة صريحة في نبينا صلى الله عليه وسلم ، ظاهرة لا تخفى إلا على أكمة لا يعرف القمر .

فأي نبي ظهر في مكة بعد موسى غير محمد ، وأنتشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها ، كما يقتضيه الإستعلان المذكور في البشارة .

ومنها : في الباب الثامن عشر من سفر التثنية هكذا :

17 – قال لي الرب قد أحسنوا في ما تكلموا .

18 - أُقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به .

19 - ويكون أن الْإِنْسَانْ الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه .

هذا البشارة في حق نبينا صلى الله عليه وسلم قطعاً ، لأنه من ذرية إسماعيل ، وذريته يسمون إخوة لبني إبراهيم ، بدليل ما ذكر في التوارة في حق إسماعيل وأنه قبالة إخوته ، ينصب المضارب .

(95/291)

وقد جرت عادة الكتب المنزلة بتسمية أبناء الأعمام ، عن بعد بعيد ، إخوةً كما دعى في القرآن هود وصالح ، إخوة لعاد وثمود مع أنهما على بعد بعيد من أولاد الأعمام .

وكما قيل في سفر العدد في الباب العشرين :

14 - وأرسل موسى رسلاً من قَادشَ إلى ملك أدُومَ : وهكذا يقول أخوك إسرائيل قد عرفت كل المشقة التي أصابتنا . مع أنهما أعمام على بعد بعيد . .

وليست هذه الشهادة في حق أحد من أنبياء بني إسرائيل ، وإلَّا لقال : وسوف أقيم لهم نبياً مثلك منهم أو من أنفسهم كما قال تعالى إخباراً بدعوة إبراهيم عليه السلام

لولد إسماعيل : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُم ﴾ ، وكما قال تعالى في خطاب بني إسماعيل :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ وأما ما زعمته اليهود من أن المراد يوشع فتى موسى ، فهو باطل من وجوه :

1 – أن المبشر به من إخوة بني إسرائيل ، لا من نفس بني إسرائيل ، ويوشع كان من نفس بني إسرائيل .

2 – أن يوشع لم يكن مثل موسى عليه السلام لما في آخر سفر التثنية " الإصحاح الرابع والعشرون " .

10 – ولم يقم بعدُ نبيٌّ في بني إسرائيل مثلُ موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه .

ولأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواه ، ويوشع ليس كذلك ، بل هو مأمور باتباع شريعة موسى .

3 – أن يوشع عليه السلام كان حاضراً هناك ، وقد أشير بعبارة صريحة قبل هذه ففي الباب الأول من هذا السفر .

38 – يَشُوعُ بن نونٍ الواقف أمامك هو يدخل هناك ، شدّده لأنه هو يقسمها لإسرائيل .

فأي مقتض للرمز والتلويح ، بعد هذا التصريح ؟ وأي موجب لإدخال سوف الدالة على الإستقبال على فعل حاصل في الحال ؟

وأما ما زعمته النصارى من أن المارد به عيسى عليه السلام ، فهو أيضاً باطل لوجوه :

1 – أنه من بني إسرائيل ، والمبشر به هنا من غيرهم .

(96/291)

---

2 – أن موسى بَشر بنبيّ مثله ، وهم يدّعون أن عيسى إله ، وينكرون كونه نبياً مرسلاً ، وإلا لزم اتحاد المرسِل والمرسَل ، وهو غير معقول ، على أن مشابهة موسى لنبينا عليهما الصلاة والسلام أقوى من مشابهته لعيسى ، لاتحادهما في أمور :

1 – كونهما ذَوى والدين وأزواج بخلاف عيسى عليه السلام .

2 – كونهما مأمورين بالجهاد ، بخلاف عيسى عليه السلام . وقد أشار في هذه البشارة بقوله :

19 – ويكون أي : الْإِنْسَانْ الذي لا يسمع لكلامي ، الذي يتكلم به باسمي ، أنا أطالبه .

إلى كون هذا النبي مأموراً بجهاد من كفر بما جاء به من عند الله ، والإنتقام منه بسيفه البتّار .

وزعمت النصارى أن الإنتقام هنا بمعنى العذاب الأخرويّ لمنكريه ، وهو خطأ ، لأن ذلك

لا يختص بهذا النبي ، بل كل من أنكر ما جاء به نبي من الأنبياء ينتقم منه في الآخرة ، فلا معنى لتخصيص هذا النبي بالذكر حينئذ .

3 – كون شريعتهما مشتملة على الحدود والقصاص والتعزير وإيجاب الغسل على الجنب والحائض والنفساء ، وإيجاب الطهارة وقت العبادة ، وهذا كلها ليست موجودة في شريعة عيسى عليه السلام – على ما تقول النصارى – ونظائر ذلك كثيرة .

وفي هذا البشارة إشارة إلى كون هذا النبي أمياً لا يقرأ ، حيث قال : يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي .

وبذلك تعرف سر وصفه به في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ الآية التي نحن في صددها .

ومنها : في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلا الأبد ، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ، ولا يعرفه ، وأنتم تعرفونه ، لأنه مقيم عندكم ، وهو ثابت فيكم .

(97/291)

وهذا بشارة من المسيح عليه السلام بأن الله تعالى سيبعث للناس من يقوم مقامه ، وينوب في تبليغ رسالته ، وسياسة خلقه ، ومنابه ، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً ، وهل هذا إلا محمد صلى الله عليه وسلم . و الأب هنا بمعنى الرب والإله ، لأنه إصطلاح أهل الكتابين .

وقد أشار عيسى عليه السلام بكونه روح الحق إلى أن الحق قبل مبعثه ، يكون كالميت لا حراك له ، ولا إنتعاش ، وأنه إذا بعث يكون كالروح له ، فيرجع حينئذ قائماً في الأرض .

ولا خفاء أنه عليه الصلاة والسلام ، هو الذي أحيى الله به الحق بعد عيسى عليه السلام بعد ما اندرس ، ولم يبق فيه نفس . ثم قال : الفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شي ، وهو يذكركم كل ما قلته لكم .

ولا شك بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذي علم كل شيء من الحقائق ، وأوضح ما خفي من الدقائق ، وذكر أمة عيسى ما نسوه من أقواله المتضمنة أنه عبد من عَبَّاد الله تعالى ، وقربه إليه بالرسالة واصطفاه ، وأنه لم يدْعُ لسوى عبادة الله وتوحيده ، وتنزيهه وتمجيده . وقوله : باسمي أي : بالنبوة .

ثم أَبَان لهم سبب إخبارهم به قبل أن يأتي فقال : والآن قد قلت لكم قبل أن يكون ، حتى إذا كان ، تؤمنون .

وفي الباب الخامس عشر من الإنجيل المذكور : فأما إذا جاء الفارقليط الذي

أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب ينشق ، وهو يشهد لأجلي ، وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء .

(98/291)

وفي الباب السادس عشر منه : لكني أقول لكم الحق ، إنه خير لكم أن أنطلق لأني إن لم أنطلق ، لم يأتكم الفارقليط ، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم ، فإذ جاء ذاك فهو يوبخ العالم على خطيئة ، وعلى بر ، وعلى حكم ، أما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بي ، وأما على البر فلأني منطلق إلى الأب ، ولستم ترونني بعد ، وأما على الحكم ، فإن رئيس هذا العالم قد دين ، وإن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ، ولكنكم لستم تطيقون حمله ، وإذا جاء روح الحق ذاك ، فهو يعلمكم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، ويخبركم بما سيأتي ، وهو يمجدني ، لأنه يأخذ مما هو لي ، ويخبركم جميع ما هو للأب ، فهو لي . من أجل هذا قلت : إن مما هو لي يأخذ ويخبركم .

ومن أمعن النظر في هذا العبارات ، ولاحظ ما اشتملت عليه من الفحوى والإشارات جزم بأن الفارقليط هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه هو الذي ظهر بعد عيسى عليه السلام ، شهد لعيسى بالنبوة والرسالة ، ومجده وبرأه مما افتراه عليه النصارى من دعوى الربوبية ،

ومما افتراه عليه اليهود من كونه ساحراً كذاباً ، وعلى والدته من كونها غير طاهرة الذيل ، بريئة الساحة ، وهو الذي وبخ العالم ـ سيما اليهود ـ على الخطايا ، لا سيما خطيئة الكفر بعيسى عليه السلام ، والطعن في والدته الطاهرة البتول ، وهو الأمين الصادق ، الذي علم جميع الحقائق ، هو الذي أَبَان من الأسرار ما لم تطق تحمله قبل مجيئه الأفكار ، وهو الذي ، لا ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ .

وفسر العلامة ابن قتيبة روح الحق الذي من الأب ينبثق ، أي : يصدر بكلام الله المنزل ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ ، والمراد به هنا القرآن الكريم ، لأنه هو الذي يشهد للمسيح بالنبوة والنزاهة

(99/291)

[في المطبوع : النزهة] ، عما افتري عليه ، وبأنه روح الله وكلمته وصفيه ورسوله ، كما شهد الحواريون الذين كانوا معه ، واهتدوا بهديه ، ولم يثبت شهادة كتاب غير القرآن بذلك فتعين أن يكون هو المراد .

وفي قول عيسى عليه السلام : إن خير لكم أن أنطلق ، لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط . إشارة إلى أن نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل .

ولفظ فارقليط يوناني الأصل ، قيل : أصله باراكلي طوس ، بمعنى كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليوناني ، لأنه كان عبرانياً ابن عبرانية ، نشأ في قومه العبرانيين ، فنقل أقواله في هذه الأناجيل ، نقل بالمعنى .

فترجيح من رجح من النصارى ، أن أصل فارقلط هو الأول ترجيح بلا مرجح ، والتفاوت بين اللفظين يسير جداً ، الحروف اليونانية متشابهة .

وأياً كان أصله ، فالإستدلال صحيح ، لصدق اللفظ بمعانيه كلها على النبي صلى الله عليه وسلم صدقاً جلياً ، لايخفى إلا على مشاغب .

وقد كانت هذه البشائر سبب إسلام الفاضل عبد الله الترجمان ، كما بينه في كتابه " تحفة الأديب في الرد على أهل الصليب " .

وقد نبذ النصارى بعد الأناجيل المصرحة باسم محمد ، لكونها شجى في حلوق أهوائهم ، كإنجيل برنابا ففيه التصريح بقوله : إلى أن يجئ محمد رسول الله . كما نقله في " إظهار الحق " .

وإذا كان حالهم في تراجمهم ، في لقب إلههم ، ولقب خليفته ما علم ، فكيف يرجى منهم صحة بقاء محمد أو أحمد ؟

إلا أن سيف الحق أمضى ، وسهام الصوب أنفذ ، فثمة من الأوصاف الصريحة ، والأشائر الصحيحة ، ما لا يبق معه وقفه لحائر .

هذا ، وفي كتبهم بشائر كثيرة ، تعرض لذكرها جلة من العلماء ، مما أناف على العشرين .

قال الماوردي : لعل ما لم يصل إلينا منها أكثر .

وقد اقتصرنا على ما قدمنا ، رَوْماً للإختصار ، ولسهولة الوقوف على البقية ، من مثل " أعلام النبوة " للماوردي و " إظهار الحق " وغيرهما .

(100/291)

وقد قال صاحب " إظهار الحق " الشيخ رحمه الله : إن من أسلم من علماء اليهود والنصارى في القرن الأول ، شهد بوجود البشارات المحمدية في كتب العهدين ، مثل عبد الله بن سلام ، وأبني سعية ، وبنيامين ، ومخيريق ، وكعب الأحبار ، وغيرهم من علماء اليهود ، ومثل بحيرا ونسطورا الحبشي ، وضغاطر ، وهو الأسقف الرومي الذي أسلم على يد دِحْية الكلبي وقت الرسالة فقتلوه ، والجارود ، والنجاشي ، والسوس ، والرهبان الذين جاءوا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله

عنه ، وغيرهم من علماء النصارى .

وقد اعترف بصحة نبوته ، وعموم رسالته ، هرقل قيصر الروم ، ومقوقس صاحب مصر ، وابن صوريا ، وحُيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب وغيرهم ، ممن حملهم الحسد على

الشقاء ولم يسلموا .

ولما ورد على النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران ، وحاجهم في شأن عيسى عليه السلام وحجهم ، دعاهم إلى المباهلة بأمره تعالى ، فنكصوا على أعقابهم ، خوفاً من شؤم مغبتها ، فكانوا كقوم فرعون آمنوا بها : ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ .

السادس : قوله تعالى : ﴿ يأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يحتمل أن يكون مستأنفاً ، وأن يكون مفسراً : ﴿ مَكْتُوباً ﴾ أي : لما كتب .

السابع : الطيبات أعم من الطيبات في المأكل كالشحوم ، وكذا البحائر والسوائب والوصائل والحام .

ومن الطيبات في حكم الشريعة كالبيع ، وما خلا كسبه عن سحت ، وكذا الخبائث ما يستخبث ، من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به ، أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة .

قيل : يستبعد إرادة ما طاب أو خبث في الحكم ، لأن معناه حينئذ ما حكم الشرع بحله ، أو حكم بحرمته ، فيرجع الكلام إلى أنه يحل ما يحكم بحله ، ويحرم ما يحكم بحرمته ، ولا فائدة فيه .

وردوه بأن يفيد فائدة وأي فائدة ! لأن معناه أن الحل والحرمة بحكم الشرع ، لا بالعقل والرأي .

الثامن : في قوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : < بعثت بالحنيفية السمحة > . وقال صلى الله عليه وسلم لأميريه معاذ وأبي موسى

الأشعري ، لما بعثهما إلى اليمن : < بشرا ولا تنفرا [في المطبوع : تنفراص] ، ويسراً ولا تعسراً ، وتطاوعاً ولا تختلفاً > .

وقدمنا أن الإصر والأغلال استعارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة ، فمنها تحريم طبخ الجدي بلبن أمه ، ومنها نظام الأعياد التي يعيدونها لله في السنة وهي عيد الفطير وعيد الحصاد وعيد المظال ، وكذلك عيد كل سبت ، لا يعلم فيه أدنى علم .

وكذلك سبت المزارع ، ففي كل سنة سابعة سبت للأرض ، لا يزرع فيها ، ولا يقطف الكرم ، بل تترك الأراضي عطلاً ، غلت الكروم مأكلاً لفقراء شعبهم ووحوش البرية .

ومنه أن من ضرب أباه أو أمه أو شتمهما أو تمرد عليهما وعصاهما

يقتل حداً . وكذا من يعمل يوم السبت يقتل ، ومن كان به جن أو تابعة يرجم بالحجارة حتى

يموت ، ومن تزوج فتاة فادعى أنه لم يجد لها عذرة ، ثم تبين كذبه ، جميعاً يقتلان ، وإذا أمسكت امرأة عورة رجل تقطع يدها ، وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات المنطوح يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، ومن اضطجع مع امرأة طمث يقطعان من شعبهم ، ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر ، وطلقها أو مات عنها ، فلا يجوز لزوجها الأول أن يرجعها ، وغير ذلك من الآصار التي تقدم بعضها في آخر سورة البقرة – فراجعه – .

التاسع : قال الجشمي : تدل الآية على أن شريعته صلى الله عليه وسلم أسهل الشرائع ، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان في الأمم الماضية ، وذلك نعمة عظيمة على هذا الأمة .

(102/291)

وتدل على وجوب تعظيم الرسول ، ونصره بالجهاد ، ونصرته بنصرة دينه ، وكل أمر يؤدي إلى توهين ما يتصل بذلك ، لأن جميع ذلك من باب النصرة .

وهذا لا يختص بعصره ، فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف ، ولعل الجهاد بالبيان ، وإيراد الحجة ، ووضع الكتب فيه ، وحل شبه المخالفين ، يزيد في كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف ، ولهذا قلنا : منازل العلماء في ذلك أعظم المنازل .

العاشر : قال العلامة البقاعي : لما تراسلت الآي ، وطال المدى في أقاصيص موسى عليه

السلام ، وبيان مناقبه العظام ، ومآثره الجسام ، وكان ذلك ربما أوقع في بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصباً ، وأعظمهم رتبة ، ساق سبحانه هذه الآيات هذا السياق ، على هذا الوجه ، الذي بين أعلاهم مراتب ، وأزكاهم مناقب ، الذي خص برحمته من يؤمن به من خلقه قوة أو فعلاً .

وجعل سبحانه ذلك في أثناء قصة بني إسرائيل ، إهتماماً به ، وتعجيلاً له ، مع ما سيذكر ، مما يظهر أفضليته ، ويوضح أكمليته ، بقصته مع قومه ، في مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه ، وفي سورة الأنفال وبراءة بكمالها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 197 . 208 ﴾

(103/291)

وقال صاحب المنار فى الآيتين :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ : هَادَ يَهُودُ هَوْدًا (أَيْ : مِنْ بَابِ قَالَ) وَتَهَوَّدَ تَابَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ فَهُوَ هَائِدٌ ، وَقَوْمٌ هُودٍ – مِثْلَ حَائِكٍ وَحُوكٍ وَبَازِلٍ وَبُزْلٍ – قَالَ أَعْرَابِيٌّ :

إِنِّي أُمُرُؤٌ مِنْ مَدْحِهِ هَائِدُ

وَفِي التَّنْزِيلِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ أَيْ : تُبْنَا إِلَيْكَ ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَإِبْرَاهِيمَ . قَالَ ابْنُ سِيدَهْ : عَدَّاهُ بِـ " إِلَى " ؛ لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى رَجَعْنَا . ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : هَادَ إِذَا رَجَعَ مِنْ خَيْرٍ إِلَى شَرٍّ أَوْ مِنْ شَرٍّ إِلَى خَيْرٍ ، وَدَاهَ إِذْ عَقَلَ ، وَيَهُودُ اسْمُ الْقَبِيلَةِ قَالَ :

أُولَئِكَ أَوْلِي مِنْ يَهُودَ بِمَدْحِهِ . . . إِذَا أَنْتَ يَوْمًا قُلْتَهَا لَمْ تُؤَنَّبِ

وَقِيلَ : إِنَّمَا هَذِهِ الْقَبِيلَةُ يَهُوذُ فَعُرِّبَتْ بِقَلْبِ الذَّالِ دَالًا انْتَهَى مُلَخَّصًا . وَالْمَعْنَى : إِنَّا تُبْنَا

(104/291)

إِلَيْكَ مِمَّا فَرَطَ مِنْ سُفَهَائِنَا مِنْ طَلَبِ الْآلِهَةِ وَعِبَادَةِ الْعِجْلِ ، وَتَقْصِيرِ خِيَارِنَا فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ أَوْ مِنْ طَلَبِ رُؤْيَتِكَ أَوْ مِنْ تَمَرُّدِ الْمَغْرُورِينَ عَلَى شَرِيعَتِكَ ، وَكُفْرِ نِعْمَتِكَ - تُبْنَا وَرَجَعْنَا إِلَيْكَ فِي جُمْلَتِنَا مُسْتَغْفِرِينَ مُسْتَرْحَمِينَ كَمَا فَعَلَ أَبُونَا آدَمُ إِذْ تَابَ إِلَيْكَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ فَتُبْتَ عَلَيْهِ وَهَدَيْتَهُ وَاجْتَبَيْتَهُ ، فَكَانَتْ تِلْكَ سُنَّتَكَ فِي وَلَدِهِ - يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى فَضْلُ قَوْلِهِ : إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ فَإِنَّهُ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى اسْتِحْقَاقِ التَّائِبِ الْمُنِيبِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالِاعْتِقَادِ لِلْمَغْفِرَةِ ، وَقَدْ كَانَ مِمَّا حَكَاهُ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنْ وَحْيِهِ إِلَى مُوسَى فِي سُورَةِ طَه وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (20 : 82) وَبِمَاذَا أَجَابَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - ؟

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَيْ : قَدْ كَانَ مِنْ سَبْقِ رَحْمَتِي غَضَبِي أَنْ أَجْعَلَ عَذَابِي خَاصًّا أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعُصَاةِ الْمُجْرِمِينَ ، وَأَمَّا رَحْمَتِي فَقَدْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَهِيَ مِنْ صِفَاتِي الْقَدِيمَةِ الْأَزَلِيَّةِ الَّتِي قَامَ بِهَا أَمْرُ الْعَالَمِ مُنْذُ خَلَقْتُهُ ، وَالْعَذَابُ لَيْسَ مِنْ صِفَاتِي بَلْ مِنْ أَفْعَالِي الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى صِفَةِ الْعَدْلِ ؛ وَلِهَذَا عَبَّرَ عَنِ التَّعْذِيبِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ، وَعَنْ تَعَلُّقِ الرَّحْمَةِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي ، وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ هِيَ الْعَامَّةُ الْمَبْذُولَةُ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ ، وَلَوْلَاهَا لَهَلَكَ كُلُّ كَافِرٍ وَعَاصٍ عَقِبَ كُفْرِهِ وَفُجُورِهِ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ (35 : 45) وَهُنَالِكَ رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ يُوجِبُهَا وَيَكْتُبُهَا تَعَالَى لِبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُحْسِنِينَ ، وَيَبْذُلُ مَا شَاءَ مِنْهَا لِمَنْ شَاءَ بِغَيْرِ كِتَابَةٍ مِنْهُ ، وَمَا كِتَابَتُهُ إِلَّا فَضْلٌ مِنْهُ وَرَحْمَةٌ ، وَأَمَّا الْعَذَابُ فَلَمْ يَرِدْ فِي الْكِتَابِ ، وَلَا فِي خَبَرِ الْمَعْصُومِ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - كَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَكِنْ أَثْبَتَهُ ، وَتَوَعَّدَ بِهِ فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ ؛ وَلِأَنَّهُ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ صِفَتَيِ الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ ، وَقَدْ أَفْرَطَ فِي النَّظَرِ إِلَى عُمُومِ الرَّحْمَةِ ، وَغَفَلُوا عَنِ النَّظَرِ فِي مُقْتَضَى الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالْوَعِيدِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ ، فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَدَمِ تَعْذِيبِ أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(106/291)

، وَآخَرُونَ إِلَى عَدَمِ تَعْذِيبِ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ بَعْضُ غُلَاةِ التَّصَوُّفِ ؛ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْعَذَابَ صُورِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ ، وَأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعُذُوبَةِ ، وَإِنَّ فِي جَهَنَّمَ مَنْ هُمْ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ - جَعَلَهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ - . وَأَفْرَطَ آخَرُونَ فِي النَّظَرِ إِلَى مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ فَأَوْجَبُوا عَلَيْهِ تَعَالَى تَعْذِيبَ الْعُصَاةِ بِارْتِكَابِ الْكَبَائِرِ لَا الْكُفَّارِ فَقَطْ ، وَلَوْلَا أَنْ صَارَ هَذَا وَذَاكَ مَذْهَبًا لَسَهُلَ جَمْعُ كَلِمَةِ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى الْأَخْذِ

(107/291)

بِظَوَاهِرِ نُصُوصِ الْقُرْآنِ ، فِي كُلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّحْمَنِ ، وَلَمَا قَالَ مِثْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ مِنْ جَهَابِذَةِ الْبَيَانِ ، فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ أَيْ : مَنْ وَجَبَ عَلَيَّ فِي الْحِكْمَةِ تَعْذِيبُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَفْوِ عَنْهُ مَسَاغٌ ؛ لِأَنَّهُ مَفْسَدَةٌ انْتَهَى . فَقَدْ فَسَّرَ مَنْ يَشَاءُ تَعَالَى تَعْذِيبَهُ بِمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ تَعْذِيبُهُ ، وَجَمَاعَتُهُ يَقُولُونَ إِنَّ هَذَا وُجُوبٌ عَقْلِيٌّ لَا يَدْخُلُ الْإِمْكَانُ سِوَاهُ وَلَا تَتَعَلَّقُ الْقُدْرَةُ بِخِلَافِهِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُنَافِي الْمَشِيئَةَ مُنَافَاةً قَطْعِيَّةً

فَكَيْفَ تُفَسَّرُ بِهِ ؟ ! يَا لَيْتَ الزَّمَخْشَرِيَّ لَمْ يَنْتَحِلْ مَذْهَبًا ، وَلَمْ يَنْظُرْ فِي خِلَافِ الْمَذَاهِبِ ، وَإِذًا لَكَانَ كَشَّافُهُ حُجَّةً عَلَى أَصْحَابِهَا وَمَرْجِعًا لَهُمْ فِي تَحْرِيرِ مَعَانِي نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ السَّلَفِ ؛ إِذْ كَانَ مِنْ أَدَقِّ عُلَمَاءِ هَذِهِ اللُّغَةِ فَهْمًا وَأَحْسَنِهِمْ بَيَانًا وَلَمَا فَهِمَ ، وَمَسْأَلَةُ الْوُجُوبِ عَلَى اللهِ - تَعَالَى - نَظَرِيَّةٌ فِكْرِيَّةٌ لَا لُغَوِيَّةٌ ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَجِبَ عَلَى اللهِ - تَعَالَى - شَيْءٌ لِذَاتِهِ ، وَلَيْسَ فِي النُّصُوصِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْوُجُوبِ إِلَّا أَنْ يُوجِبَهُ تَعَالَى بِمَشِيئَتِهِ ، بِمَعْنَى كِتَابَتِهِ وَجَعْلِهِ أَمْرًا مَقْضِيًّا ، وَلَيْسَ فِي إِيجَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ بِمَشِيئَتِهِ مَا فِي إِيجَابِ عُقُولِ خَلْقِهِ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَى اسْتِعْلَاءِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ تَعَالَى - أَوْ مِنْ إِيهَامِ كَوْنِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَحْكُومًا

(108/291)

بِمَا يُنَافِي سُلْطَانَهُ الِاخْتِيَارِيَّ الَّذِي هُوَ فَوْقَ كُلِّ سُلْطَانٍ ، بَلْ لَا سُلْطَانَ سِوَاهُ ، وَإِنَّمَا سُلْطَانُ غَيْرِهِ بِهِ وَمِنْهُ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ إِلَّا مُرَاعَاةُ الْأَدَبِ لَكَفَى .

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ إِلَخْ ؛ أَيْ : وَإِذْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَسَأَكْتُبُ رَحْمَتِي كَتْبَةً خَاصَّةً ، وَأُثْبِتُهَا بِمَشِيئَتِي إِثْبَاتًا لَا يَحُولُ دُونَهُ شَيْءٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ وَالتَّمَرُّدَ عَلَى رَسُولِهِمْ ، وَيُؤْتُونَ الصَّدَقَةَ الْمَفْرُوضَةَ الَّتِي تَتَزَكَّى بِهَا أَنْفُسُهُمْ

، وَغَيْرِهَا مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ ، وَخَصَّ الزَّكَاةَ بِالذِّكْرِ دُونَ الصَّلَاةِ ، وَمَا دُونَهَا مِنَ الطَّاعَاتِ ؛ لِأَنَّ فِتْنَةَ حُبِّ الْمَالِ تَقْتَضِي بِنَظَرِ الْعَقْلِ وَالِاخْتِبَارِ بِالْفِعْلِ أَنْ يَكُونَ الْمَانِعُونَ لِلزَّكَاةِ أَكْثَرَ مِنَ التَّارِكِينَ لِغَيْرِهَا مِنَ الْفَرَائِضِ ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى شِدَّةِ حُبِّ الْيَهُودِ لِلدُّنْيَا وَافْتِتَانِهِمْ بِجَمْعِ الْمَالِ وَمَنْعِ بَذْلِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ مَعْنَاهُ : وَسَأَكْتُبُهَا كَتْبَةً خَاصَّةً لِلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِجَمِيعِ آيَاتِنَا الَّتِي تَدُلُّ عَلَى تَوْحِيدِنَا وَصِدْقِ رُسُلِنَا تَصْدِيقَ إِذْعَانٍ ، مَبْنِيٍّ عَلَى الْعِلْمِ وَالْإِيقَانِ دُونَ التَّقْلِيدِ لِلْآبَاءِ وَعَصَبِيَّاتِ الْأَقْوَامِ .

وَنُكْتَةُ إِعَادَةِ الْمَوْصُولِ (الَّذِينَ) مَعَ الضَّمِيرِ (هُمْ) إِمَّا جَعْلُ الْمَوْصُولِ الْأَوَّلِ عَامًّا لِقَوْمِهِ

(109/291)

الَّذِينَ دَعَا لَهُمْ – مَنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى الْتِزَامِ التَّقْوَى ، وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ مِنْهُمْ – وَجَعْلُ الثَّانِي خَاصًّا بِمَنْ يُدْرِكُونَ بِعْثَةَ خَاتَمِ الرُّسُلِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَيَتَّبِعُونَهُ كَمَا يَعْلَمُ مِمَّا بَعْدَهُ – وَإِمَّا لِبَيَانِ الْفَصْلِ بَيْنَ مَفْهُومِ الْإِسْلَامِ وَمَفْهُومِ الْإِيمَانِ وَالتَّعْرِيضِ بِأَنَّ الَّذِينَ طَلَبُوا مِنْ مُوسَى أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ آلِهَةً وَالَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ وَالَّذِينَ قَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً (2 : 55) لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ الْعَامَّةِ وَلَا الْخَاصَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا نَبِيُّهُمْ إِذْ لَمْ يَكُونُوا يَعْقِلُونَهَا ، بَلْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لَهُ لِإِنْقَاذِهِمْ مِنْ ظُلْمِ الْمِصْرِيِّينَ – وَبَيَانُ أَنَّ كِتَابَةَ الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ إِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ

جَمَعُوا بَيْنَ الْإِسْلَامِ ؛ وَهُوَ إِتْبَاعُ الرُّسُلِ بِالْفِعْلِ - وَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ بِالْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُفِيدَةِ لِلْيَقِينِ الْمَانِعِ مِنَ الْعَوْدَةِ إلَى الشِّرْكِ بِمِثْلِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَالْمُقْتَضِي لِاتِّبَاعِ مَنْ يَأْتِي مِنَ الرُّسُلِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَفِي هَذَا تَوْطِئَةٌ لِمَا بَعْدَهُ ، فَهُوَ بَيَانٌ لِصِفَةِ مَنْ يَكْتُبُ تَعَالَى لَهُمُ الرَّحْمَةَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِمْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَمَنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْمِهِ ، وَذَلِكَ يُفِيدُ اسْتِجَابَةَ دُعَائِهِ بِشَرْطِهِ ، وَيَلِيهِ بَيَانُ أَحَقِّ الْأُمَمِ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ ؛ ذُكِرَ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِطْرَادِ الْمَقْصُودِ بِالذَّاتِ عَلَى سُنَّةِ الْقُرْآنِ فِي الِانْتِقَالِ مِنْ قَصَصِ الرُّسُلِ

(110/291)

إلَى أُمَّةِ خَاتَمِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - :

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ فَصَلَ الِاسْمَ الْمَوْصُولَ هُنَا ؛ لِأَنَّهُ بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِلْمَوْصُولِ الْأَخِيرِ أَوْ لِلْمَوْصُولَيْنِ اللَّذَيْنِ قَبْلَهُ مَعًا ، وَهُمُ الَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ ، وَلَوْ وَصَلَهُ فَقَالَ : " وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ " إلَخْ . لَكَانَ مُغَايِرًا لَهُمَا فِي الْمَا صَدَقِ فِي الْمَفْهُومِ بِأَنْ يُرَادَ بِالْأَخِيرِ مَنْ يُدْرِكُونَ بِعْثَةَ الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَيَتَّبِعُونَهُ بِالْفِعْلِ فِي زَمَنِهِ

(111/291)

وَبَعْدَ زَمَنِهِ ، وَيُرَادُ بِمَنْ قَبْلَهُمْ مَنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ مَعْنَى صِلَةِ الْمَوْصُولَيْنِ فِي زَمَنِ مُوسَى ، وَمَا بَعْدَهُ إلَى زَمَنِ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ، وَمَعْنَى الْفَصْلِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَخِيرِ اتِّحَادُ الْمَوْصُولَاتِ الثَّلَاثَةِ فِي الْمَفْهُومِ وَالْمَاصَدَقِ جَمِيعًا ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ كِتَابَةَ الرَّحْمَةِ كَتْبَةً خَاصَّةً هِيَ لِلْمُتَّصِفِينَ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ صِلَاتُ الْمَوْصُولَاتِ الثَّلَاثَةِ ، وَإِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الْمَوْصُوفَ بِأَنَّهُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ نِسْبَةً إلَى الْأُمِّ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يُسَمُّونَ الْعَرَبَ بِالْأُمِّيِّينَ ، وَلَعَلَّهُ كَانَ لَقَبًا لِأَهْلِ الْحِجَازِ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ دُونَ أَهْلِ الْيَمَنِ . لَكِنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي الْخَوَنَةِ مِنَ الْيَهُودِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ

(112/291)

سَبِيلٌ (3 : 75) الْعُمُومُ وَلَيْسَ بِنَصٍّ فِيهِ ، وَقَالَ - تَعَالَى - : هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ (62 : 2) وَلَمْ يُنْقَلْ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - بَعَثَ نَبِيًّا أُمِّيًّا غَيْرَ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَهُوَ وَصْفٌ خَاصٌّ لَا يُشَارِكُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِ أَحَدٌ مِنَ النَّبِيِّينَ ، وَالْأُمِّيَّةُ آيَةٌ مِنْ أَكْبَرِ آيَاتِ نُبُوَّتِهِ ، فَإِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ بِأَعْلَى الْعُلُومِ النَّافِعَةِ ، وَهِيَ مَا

يَصْلُحُ مَا فَسَدَ مِنْ عَقَائِدِ الْبَشَرِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَآدَابِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَحْكَامِهِمْ ، وَعَمِلَ بِهَا فَكَانَ لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ فِي الْعَالَمِ مَا لَمْ يَكُنْ وَلَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، وَتَعْرِيفُ الرَّسُولِ وَالنَّبِيِّ الْمَوْصُوفِ بِالْأُمِّيَّةِ كِلَاهُمَا لِلْعَهْدِ كَمَا يُعْلَمُ مِمَّا سَنُبَيِّنُهُ مِنْ بِشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ بِنَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالرَّسُولُ فِي اصْطِلَاحِ الشَّرْعِ أَخَصُّ مِنَ النَّبِيِّ فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ ، وَمَا كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولٌ ؛ وَلِذَلِكَ جَعَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ نُكْتَةَ تَقْدِيمِ الرَّسُولِ عَلَى النَّبِيِّ هُنَا كَوْنُهُ أَهَمَّ وَأَشْرَفُ أَوْ أَنَّهُمَا ذُكِرَا هُنَا بِمَعْنَاهُمَا اللُّغَوِيِّ كَقَوْلِهِ : وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ نُكْتَةِ التَّقْدِيمِ أَظْهَرُ ، وَهُوَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ وَصْفٌ مُمَيِّزٌ لِلرَّسُولِ الَّذِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ اتِّبَاعُهُ مَتَى بُعِثَ ، وَأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الْمَعْرُوفُ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ

(113/291)

مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ (3 : 81) إِلَى آخِرِ آيَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ .

وَالنَّبِيُّ فِي اللُّغَةِ (فَعِيلٌ) مِنْ مَادَّةِ النَّبَأِ بِمَعْنَى الْخَبَرِ الْمُهِمِّ الْعَظِيمِ الشَّأْنِ ، أَوْ بِمَعْنَى الِارْتِفَاعِ وَعُلُوِّ الشَّأْنِ وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ ، وَأَكْثَرُ الْعَرَبِ لَا تَهْمِزُهُ بَلْ نُقِلَ أَنَّهُ لَمْ يَهْمِزْهُ إِلَّا أَهْلُ مَكَّةَ ، وَلَكِنَّ

النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْكَرَ عَلَى رَجُلٍ قَالَ لَهُ : يَا نَبِيءَ اللهِ ، وَأَمَّا فِي الِاصْطِلَاحِ ؛ فَالنَّبِيُّ مَنْ أَوْحَى اللهُ إلَيْهِ ، وَأَنْبَأَهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ بِكَسْبِهِ مِنْ خَبَرٍ أَوْ حُكْمٍ يَعْلَمُ بِهِ عِلْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّهُ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَالرَّسُولُ نَبِيٌّ أَمَرَهُ اللهُ - تَعَالَى - بِتَبْلِيغِ شَرْعٍ وَدَعْوَةِ دِينٍ وَبِإِقَامَتِهِ بِالْعَمَلِ ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الْوَحْيِ إلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كِتَابًا يُقْرَأُ وَيُنْشَرُ ، وَلَا شَرْعًا جَدِيدًا يُعْمَلُ بِهِ وَيُحْكَمُ بَيْنَ النَّاسِ بَلْ قَدْ يَكُونُ تَابِعًا لِشَرْعِ غَيْرِهِ كَالرُّسُلِ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ عَمَلًا وَحُكْمًا بَيْنَ النَّاسِ كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : إنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا (5 : 44) الْآيَةَ .

(114/291)

وَقَدْ يَكُونُ نَاسِخًا لِبَعْضِهِ كَمَا نَسَخَ عِيسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْضَ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ وَأَقَرَّ أَكْثَرَهَا ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ - تَعَالَى - حِكَايَةً لِمَا خَاطَبَ بِهِ بَنِي إسْرَائِيلَ : وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ (3 : 50) وَسِيرَتُهُ الْمَأْثُورَةُ عَنِ الْإِنْجِيلِيِّينَ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ . فَفِيهَا أَنَّهُ مَا جَاءَ لِيَنْقُضَ النَّامُوسَ (أَيِ : التَّوْرَاةَ) وَإِنَّمَا جَاءَ لِيُتَمِّمَ ، وَأَنَّهُ أَحَلَّ لَهُمْ بَعْضَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ حَتَّى مَا دَلَّ عَلَيْهِ عُمُومُ تَرْكِ الْعَمَلِ يَوْمَ السَّبْتِ فَخَصَّهُ بِغَيْرِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ، بَلْ نَرَى فِرَقَ النَّصَارَى

الرَّسْمِيِّينَ بَعْدَ تَكْوِينِ نِظَامِ الْكَنِيسَةِ قَدْ تَرَكُوا مَا عَدَا الْوَصَايَا الْعَشْرِ مِنْ شَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ ، وَاسْتَبْدَلُوا يَوْمَ الْأَحَدِ بِيَوْمِ السَّبْتِ فِيمَا حَرَّمَتِ الْوَصَايَا مِنَ الْعَمَلِ فِيهِ ، وَخَالَفَ الْأَكْثَرُونَ وَصِيَّةَ النَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الصُّوَرِ وَالتَّمَاثِيلِ ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْتُوا بِدَلِيلٍ عَلَى هَذَا مِنْ قَوْلِ الْمَسِيحِ وَلَا مِنْ فِعْلِهِ .

(115/291)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الرَّسُولَ أَخَصُّ فِي عُرْفِ شَرْعِنَا مِنَ النَّبِيِّ ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَا عَكْسَ ، وَإِذَا أُطْلِقَ الرَّسُولُ بِالْمَعْنَى الَّذِي يَعُمُّ رُسُلَ الْمَلَائِكَةِ كَانَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَعَمَّ مِنَ النَّبِيِّ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ فِيهِمْ أَنْبِيَاءَ . فَنَبِيُّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَبِيٌّ رَسُولٌ ، وَجِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رَسُولٌ غَيْرُ نَبِيٍّ ، وَآدَمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَبِيٌّ غَيْرُ رَسُولٍ كَأَكْثَرِ أَنْبِيَاءِ إِسْرَائِيلَ ، وَهَذَا عَلَى قَوْلِ الْمُحَقِّقِينَ فِي نَصِّ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا النَّاطِقِ بِأَنَّ نُوحًا أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى عَدَدِ الرُّسُلِ مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ جَوَازُ تَسْمِيَتِهِ رَسُولًا فِي عُرْفِ بَعْضِ أَهْلِ الْكَلَامِ ، وَأَنَّهُمْ لِهَذَا الْعُرْفِ عَدُّوهُ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ تَجِبُ مَعْرِفَةُ رِسَالَتِهِمْ ، وَأَوَّلَ هَؤُلَاءِ حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ تَأْوِيلَاتٍ تَجِدُهَا هُنَالِكَ .

وَصَفَ اللهُ الرَّسُولَ الَّذِي أَوْجَبَ اتِّبَاعَهُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ بِصِفَاتٍ وَنُعُوتٍ : أَوَّلُهَا - (أَنَّهُ هُوَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْكَامِلُ) ثَانِيهَا - قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ) وَمَعْنَاهُ الَّذِي يَجِدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ صِفَتَهُ وَنُعُوتَهُ مَكْتُوبَةً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَإِنَّمَا

(116/291)

ذَكَرَ الْإِنْجِيلَ وَالسِّيَاقُ فِي قَوْمِ مُوسَى ؛ لِأَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهِ بِالذَّاتِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَمِمَّا هُوَ مَأْثُورٌ عَنِ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي هَذِهِ الْأَنَاجِيلِ : لَمْ أُبْعَثْ إِلَّا إِلَى خِرَافِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ . وَلَا يُعَارِضُهُ مَا رَوَوْا عَنْهُ مِنْ أَمْرِهِ تَلَامِيذَهُ أَنْ يُكْرِزُوا بِالْإِنْجِيلِ فِي الْخَلِيقَةِ كُلِّهَا ، إِذْ يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا أَنْ يُرَادَ بِالْخَلِيقَةِ مَا كَانُوا يُسَمُّونَهُ (الْيَهُودِيَّةَ) وَالْعِبَارَةُ الْأَوْلَى نَصٌّ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ : الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا بِاسْمِهِ وَنُعُوتِهِ الشَّرِيفَةِ بِحَيْثُ لَا يَشُكُّونَ أَنَّهُ هُوَ ؛ وَلِذَلِكَ عَدَلَ عَنْ أَنْ يُقَالَ : يَجِدُونَ نَعْتَهُ أَوْ وَصْفَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ ، وَالظَّرْفُ (عِنْدَهُمْ) لِزِيَادَةِ التَّقْرِيرِ ، وَأَنَّ شَأْنَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَاضِرٌ عِنْدَهُمْ لَا يَغِيبُ عَنْهُمْ اهـ . وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ فِي فَصْلٍ خَاصٍّ .

(117/291)

ثَالِثُهَا وَرَابِعُهَا – قَوْلُهُ : يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ اسْتِئْنَافٌ لِبَيَانِ أَهَمِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ عِنْدَ بَعْثَتِهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ تَفْسِيرٌ لِمَا كُتِبَ . وَالْمَعْرُوفُ مَا تَعْرِفُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ حُسْنَهُ ، وَتَرْتَاحُ الْقُلُوبُ الطَّاهِرَةُ لَهُ لِنَفْعِهِ وَمُوَافَقَتِهِ لِلْفِطْرَةِ وَالْمَصْلَحَةِ ، بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ الْعَاقِلُ الْمُنْصِفُ السَّلِيمُ الْفِطْرَةِ أَنْ يَرُدَّهُ أَوْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهِ إِذَا وَرَدَ الشَّرْعُ بِهِ . وَالْمُنْكَرُ مَا تُنْكِرُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ ، وَتَأْبَاهُ عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ أَيْضًا . وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْمَعْرُوفِ بِمَا أَمَرَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ ، وَالْمُنْكَرِ بِمَا نَهَتْ عَنْهُ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ تَفْسِيرِ الْمَاءِ بِالْمَاءِ . وَكَوْنُ مَا قُلْنَاهُ يُثْبِتُ مَسْأَلَةَ التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ الْعَقْلِيَّيْنِ وِفَاقًا لِلْمُعْتَزِلَةِ وَخِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ مَرْدُودٌ إِطْلَاقُهُ بِأَنَّنَا إِنَّمَا نُوَافِقُ كُلًّا مِنْهُمَا مِنْ وَجْهٍ ، وَنُخَالِفُهُ مِنْ وَجْهٍ اتِّبَاعًا لِظَوَاهِرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَفَهْمِ السَّلَفِ لَهُمَا فَلَا نُنْكِرُ إِدْرَاكَ الْعُقُولِ لِحُسْنِ الْأَشْيَاءِ مُطْلَقًا ، وَلَا نُقَيِّدُ التَّشْرِيعَ بِعُقُولِنَا ، وَلَا نُوجِبُ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا ، بَلْ نَقُولُ : إِنَّهُ لَا سُلْطَانَ لِشَيْءٍ عَلَيْهِ ، فَهُوَ الَّذِي يُوجِبُ عَلَى نَفْسِهِ مَا شَاءَ إِنْ شَاءَ كَمَا كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِمَنْ شَاءَ ، وَأَنَّ مِنَ الشَّرْعِ مَا لَمْ تَعْرِفِ الْعُقُولُ حُسْنَهُ قَبْلَ شَرْعِهِ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا

شَرَعَهُ تَعَالَى يُطَاعُ بِلَا شَرْطٍ وَلَا قَيْدٍ .

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مَا نَصُّهُ : هَذِهِ صِفَةُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَأْمُرُ إلَّا بِخَيْرٍ وَلَا يَنْهَى إلَّا عَنْ شَرٍّ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : إذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَارْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ ، أَوْ شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ ، وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ وَأَعْظَمِهِ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَالنَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، كَمَا أَرْسَلَ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ ، كَمَا قَالَ : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (16 : 36) وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - وَذَكَرَ سَنَدَهُ إلَى أَبِي حُمَيْدٍ ، وَأَبِي أَسِيدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : " إذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ ، فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ " رَوَاهُ أَحْمَدُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ وَلَمْ يُخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْكُتُبِ .

(119/291)

خَامِسُهَا وَسَادِسُهَا – قَوْلُهُ – تَعَالَى – : وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ الطَّيِّبُ مَا تَسْتَطِيبُهُ الْأَذْوَاقُ مِنَ الْأَطْعِمَةِ ، وَتَسْتَفِيدُ مِنْهُ التَّغْذِيَةُ النَّافِعَةُ ، وَمِنَ الْأَمْوَالِ مَا أُخِذَ بِحَقٍّ وَتَرَاضٍ فِي الْمُعَامَلَةِ ، وَالْخَبِيثُ مِنَ الْأَطْعِمَةِ مَا تَمُجُّهُ الطِّبَاعُ السَّلِيمَةُ وَتَسْتَقْذِرُهُ ذَوْقًا كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ الْمَسْفُوحِ ، أَوْ تَصُدُّ عَنْهُ الْعُقُولُ الرَّاجِحَةُ لِضَرَرِهِ فِي الْبَدَنِ كَالْخِنْزِيرِ الَّذِي تَتَوَلَّدُ مِنْ أَكْلِهِ الدُّودَةُ الْوَحِيدَةُ ، أَوْ لِضَرَرِهِ فِي الدِّينِ كَالَّذِي يَذْبَحُ لِلتَّقَرُّبِ بِهِ إلَى غَيْرِ اللَّهِ – تَعَالَى – عَلَى سَبِيلِ الْعِبَادَةِ – أَيْ : لَا مَا يَذْبَحُ لِتَكْرِيمِ الضِّيفَانِ ؛ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ أَوْ أَمِيرٍ أَوْ سُلْطَانٍ – وَالَّذِي يَحْرُمُ ذَبْحُهُ أَوْ أَكْلُهُ لِتَشْرِيعٍ بَاطِلٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ – كَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِي ، وَالْخَبِيثُ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا يُؤْخَذُ بِغَيْرِ الْحَقِّ كَالرِّبَا وَالرِّشْوَةِ وَالْغُلُوِّ وَالسَّرِقَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْغَصْبِ وَالسُّحْتِ . وَقَدْ كَانَ اللَّهُ – تَعَالَى – حَرَّمَ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ عُقُوبَةً لَهُمْ كَمَا قَالَ : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ (4 : 160) الْآيَةَ . وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ النِّسَاءِ . وَحَرَّمُوا هُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ طَيِّبَاتٍ أُخْرَى لَمْ يُحَرِّمْهَا اللَّهُ – تَعَالَى – عَلَيْهِمْ ، وَأَحَلُّوا لِأَنْفُسِهِمْ أَكْلَ أَمْوَالِ غَيْرِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ بِالْبَاطِلِ ، كَمَا حَكَى اللَّهُ –

تَعَالَى - عَنْهُمْ بَعْدَ ذِكْرِ اسْتِحْلَالِ بَعْضِهِمْ أَكْلَ مَا يَأْتَمِنُهُمْ عَلَيْهِ الْعَرَبُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (3 : 75) وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ .

سَابِعُهَا - قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ الْإِصْرُ : الثِّقَلُ الَّذِي يَأْصِرُ صَاحِبَهُ ؛ أَيْ : يَحْبِسُهُ مِنَ الْحَرَاكِ لِثِقَلِهِ ، وَهُوَ مَثَلٌ لِثِقَلِ

(121/291)

تَكْلِيفِهِمْ وَصُعُوبَتِهِ نَحْوَ اشْتِرَاطِ قَتْلِ الْأَنْفُسِ فِي صِحَّةِ تَوْبَتِهِمْ ، وَكَذَلِكَ الْأَغْلَالُ مَثَلٌ لِمَا كَانَ فِي شَرَائِعِهِمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ الشَّاقَّةِ ، قَالَهُمَا الزَّمَخْشَرِيُّ ، وَذَكَرَ لِلثَّانِي عِدَّةَ أَمْثِلَةٍ مِنْ شِدَّةِ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ أَنَّهُ جَاءَ بِالتَّيْسِيرِ وَالسَّمَاحِ كَمَا وَرَدَ الْحَدِيثُ مِنْ طُرُقٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : "بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ" وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَمِيرَيْهِ مُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ لَمَّا بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ : "بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا ، وَيَسِّرُّوا وَلَا تُعَسِّرُوا ، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا" وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا . حَاصِلُ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا فِيمَا أُخِذُوا بِهِ مِنَ الشِّدَّةِ فِي أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ وَالْعُقُوبَاتِ كَالَّذِي يَحْمِلُ أَثْقَالًا يَئِطُّ

مِنْهَا ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُوثَقٌ بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ فِي عُنُقِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى حِكْمَةَ أَخْذِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالشِّدَّةِ فِي الْأَحْكَامِ ، وَأَنَّ الْمَسِيحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

(122/291)

خَفَّفَ عَنْهُمْ بَعْضَ التَّخْفِيفِ فِي الْأُمُورِ الْمَادِّيَّةِ وَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَحْكَامِ الرُّوحِيَّةِ ؛ لِمَا كَانَ مِنْ إِفْرَاطِهِمْ فِي الْأُولَى ، وَتَفْرِيطِهِمْ فِي الْأُخْرَى ، وَكُلُّ هَذَا وَذَاكَ قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - تَرْبِيَةً مَوْقُوتَةً لِبَعْضِ عِبَادِهِ ، لِيَكْمُلَ اسْتِعْدَادُهُمْ لِلشَّرِيعَةِ الْوُسْطَى الْعَادِلَةِ السَّمْحَةِ الرَّحِيمَةِ الَّتِي يَبْعَثُ بِهَا خَاتَمَ الرُّسُلِ الَّذِي أَوْجَبَ اتِّبَاعَهُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَدْرَكَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ .

(123/291)

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ يَطْلُبُ التَّعْزِيرَ فِي اللُّغَةِ عَلَى الرَّدِّ وَالضَّرْبِ وَالْمَنْعِ وَالتَّأْدِيبِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : التَّعْزِيرُ

النُّصْرَةُ مَعَ التَّعْظِيمِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : عَزَّرُوهُ : عَظَّمُوهُ وَوَقَّرُوهُ . لَكِنْ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (48 : 9) وَالْأَقْرَبُ إلَى فِقْهِ اللُّغَةِ مَا حَقَّقَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ هُنَا قَالَ : (وَعَزَّرُوهُ) وَمَنَعُوهُ حَتَّى لَا يَقْوَى عَلَيْهِ عَدُوٌّ ، وَأَصْلُ الْعَزْرِ الْمَنْعُ ، وَمِنْهُ التَّعْزِيرُ لِلضَّرْبِ دُونَ الْحَدِّ ؛ لِأَنَّهُ مَنْعٌ عَنْ مُعَاوَدَةِ الْقَبِيحِ أَلَا تَرَى إلَى تَسْمِيَتِهِ الْحَدَّ ، وَالْحَدُّ هُوَ الْمَنْعُ اهـ . جَاءَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ – بَعْدَ نَقْلِ الْأَقْوَالِ وَجَعَلَهُ مِنْ قَبِيلِ الْأَضْدَادِ . وَالْعَزْرُ النَّصْرُ بِالسَّيْفِ . وَعَزَّرُوهُ عَزْرًا ، وَعَزَّرَهُ (تَعْزِيرًا) أَعَانَهُ وَقَوَّاهُ وَنَصَرَهُ ، قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – : وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَقَالَ – تَعَالَى – : وَعَزَّرْتُمُوهُمْ (5 : 12) جَاءَ فِي التَّفْسِيرِ :

(124/291)

لِتَنْصُرُوهُ بِالسَّيْفِ ، وَمَنْ نَصَرَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالسَّيْفِ فَقَدْ نَصَرَ اللَّهَ – عَزَّ وَجَلَّ – ، وَعَزَّرْتُمُوهُمْ : عَظَّمْتُمُوهُمْ ، وَقِيلَ : نَصَرْتُمُوهُمْ . قَالَ إبْرَاهِيمُ بْنُ السَّرِيِّ : وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ ، وَاللَّهُ – تَعَالَى – أَعْلَمُ – وَذَلِكَ أَنَّ الْعَزْرَ فِي اللُّغَةِ الرَّدُّ وَالْمَنْعُ ، وَتَأْوِيلُ عَزَّرْتُ فُلَانًا ؛ أَيْ : أَدَّبْتُهُ ، إنَّمَا تَأْوِيلُهُ فَعَلْتُ بِهِ مَا يَرْدَعُهُ عَنِ الْقَبِيحِ ، كَمَا إذَا نَكَّلْتُ بِهِ ؛ تَأْوِيلُهُ : فَعَلْتُ بِهِ مَا يَجِبُ أَنْ يُنَكَّلَ مَعَهُ عَنِ الْمُعَاوَدَةِ ، فَتَأْوِيلُ عَزَّرْتُمُوهُمْ نَصَرْتُمُوهُمْ بِأَنْ

تَرُدُّوا عَنْهُمْ أَعْدَاءَهُمْ ، وَلَوْ كَانَ التَّعْزِيرُ هُوَ التَّوْقِيرُ لَكَانَ الْأَجْوَدُ فِي اللُّغَةِ الِاسْتِغْنَاءَ بِهِ ، وَالنُّصْرَةُ إذَا وَجَبَتْ فَالتَّعْظِيمُ دَاخِلٌ فِيهَا ؛ لِأَنَّ نُصْرَةَ الْأَنْبِيَاءِ هِيَ الْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ أَوِ الذَّبُّ عَنْ دِينِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ وَتَوْقِيرِهِمِ ، انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .

(125/291)

وَالْمَعْنَى : إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا - أَيْ : يُؤْمِنُونَ - بِالرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ عِنْدَ مَبْعَثِهِ ؛ أَيْ : مِنْ قَوْمِ مُوسَى ، وَمِنْ كُلِّ قَوْمٍ - فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ : فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْهُمْ ؛ بَلْ أَطْلَقَ - وَيُعَزِّرُونَهُ بِأَنْ يَمْنَعُوهُ وَيَحْمُوهُ مِنْ كُلِّ مَنْ يُعَادِيهِ مَعَ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ ، لَا كَمَا يَحْمُونَ بَعْضَ مُلُوكِهِمْ مَعَ الْكُرْهِ وَالِاشْمِئْزَازِ وَنَصَرُوهُ بِاللِّسَانِ وَالسِّنَانِ ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الْأَعْظَمَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَ رِسَالَتِهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ؛ أَيِ الْفَائِزُونَ بِالرَّحْمَةِ الْعُظْمَى وَالرِّضْوَانِ ، دُونَ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، فَمِنْهُمُ الْفَائِزُونَ بِدُونِ مَا يَفُوزُ بِهِ هَؤُلَاءِ ، كَأَتْبَاعِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمِنْهُمُ الْخَائِبُونَ الْمَخْذُولُونَ ؛ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

(فَصْلٌ فِي بَيَانِ بِشَارَاتِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَغَيْرِهِمَا) بِنَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

اعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ لَنَا ذِكْرُ بِشَارَاتِ كُتُبِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إسْرَائِيلَ بِنَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، بَعْضُهَا بِالْإِجْمَالِ ، وَبَعْضُهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ ، وَفِي

مَوَاضِعَ مِنَ الْمَنَارِ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ فَهَارِسِهِمَا ، وَنُرِيدُ هُنَا أَنْ نُفَصِّلَ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ تَفْصِيلًا كَافِيًا ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَكَانُ الْمُنَاسِبُ لَهُ أَتَمَّ الْمُنَاسَبَةِ ، فَنَقُولُ :

(126/291)

كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَتَنَاقَلُونَ خَبَرَ بَعْثَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا بَيْنَهُمْ وَيَذْكُرُونَ الْبِشَارَاتِ بِهِ مَنْ كُتُبِهِمْ ، حَتَّى إِذَا مَا بَعَثَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ ، وَكَانَ عُلَمَاؤُهُمْ يُصَرِّحُونَ بِذَلِكَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ ، وَتَمِيمٍ الدَّارِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى ، وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا فِي عَصْرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَرَضِيَ عَنْهُمْ - ، وَالرِّوَايَاتُ فِي هَذِهِ كَثِيرَةٌ ، وَمِنْ أَعْجَبِهَا قِصَّةُ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَأَمَّا الَّذِينَ أَبَوْا وَاسْتَكْبَرُوا فَكَانُوا يَكْتُمُونَ الْبِشَارَاتِ بِهِ فِي كُتُبِهِمْ . وَيُؤَوِّلُونَ مَا بَقِيَ مِنْهَا لِمَنِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ ، وَيَكْتُمُونَهُ عَمَّنْ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَرْبَى الْمُتَأَخِّرُونَ وَلَا سِيَّمَا الْإِفْرِنْجُ مِنْهُمْ عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الْمُكَابَرَةِ وَالتَّأْوِيلِ وَالتَّضْلِيلِ ؛ لِذَلِكَ وَضَّحَ الْعَلَّامَةُ الْمُحَقِّقُ الشَّيْخُ رَحْمَةُ اللَّهِ الْهِنْدِيُّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي كِتَابِهِ (إِظْهَارِ الْحَقِّ) بِأُمُورٍ جَعَلَهَا مُقَدِّمَاتٍ لِبِشَارَاتِ تِلْكَ الْكُتُبِ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَرَأَيْنَا أَنْ

نَقْتَبِسَهَا بِنَصِّهَا . قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي سِيَاقِ مَسَالِكِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى نُبُوَّتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا نَصُّهُ : (الْمَسْلَكُ السَّادِسُ)

(127/291)

أَخْبَارُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ عَنْ نُبُوَّتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - . وَلَمَّا كَانَ الْقِسِّيسُونَ يُغَلِّطُونَ الْعَوَامَّ فِي هَذَا الْبَابِ تَغْلِيطًا عَظِيمًا ، اسْتَحْسَنْتُ أَنْ أُقَدِّمَ عَلَى نَقْلِ تِلْكَ الْأَخْبَارِ أُمُورًا ثَمَانِيَةً تُفِيدُ النَّاظِرَ بَصِيرَةً .

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ

إنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْإِسْرَائِيلِيَّةَ مِثْلَ : أَشْعِيَا وَأَرْمِيَا وَدَانْيَالَ وَحِزْقِيَالَ وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَخْبَرُوا عَنِ الْحَوَادِثِ الْآتِيَةِ ، كَحَادِثَةِ بُخْتُ نَصَّرَ ، وَقُورَشَ وَالْإِسْكَنْدَرِ وَخُلَفَائِهِ . وَحَوَادِثِ أَرْضِ أَدُومَ وَمِصْرَ وَنِينَوَى وَبَابِلَ ، وَيَبْعُدُ كُلَّ الْبُعْدِ أَلَّا يُخْبِرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ خُرُوجِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّذِي كَانَ وَقْتَ ظُهُورِهِ كَأَصْغَرِ الْبُقُولِ ، ثُمَّ صَارَ شَجَرَةً عَظِيمَةً تَنْأَوِي طُيُورُ السَّمَاءِ فِي أَغْصَانِهَا ، فَكَسَرَ الْجَبَابِرَةَ وَالْأَكَاسِرَةَ ، وَبَلَغَ دِينُهُ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَغَلَبَ الْأَدْيَانَ وَامْتَدَّ دَهْرًا بِحَيْثُ مَضَى عَلَى ظُهُورِهِ مُدَّةُ أَلْفٍ وَمِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ إلَى هَذَا الْحِينِ ، وَيَمْتَدُّ إنْ

(128/291)

شَاءَ اللهُ إِلَى آخِرِ بَقَاءِ الدُّنْيَا . وَظَهَرَ فِي أُمَّتِهِ أُلُوفٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ ، وَالْحُكَمَاءِ الْمُتْقِنِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ ذَوِي الْكَرَامَاتِ وَالْمُجَاهَدَاتِ ، وَالسَّلَاطِينِ الْعِظَامِ . وَهَذِهِ الْحَادِثَةُ كَانَتْ أَعْظَمُ الْحَوَادِثِ وَمَا كَانَتْ أَقَلَّ مِنْ حَادِثَةِ أَرْضِ أَدُومَ وَنِينَوَى وَغَيْرِهِمَا ، فَكَيْفَ يُجَوِّزُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ أَنَّهُمْ أَخْبَرُوا عَنِ الْحَوَادِثِ الضَّعِيفَةِ وَتَرَكُوا الْأَخْبَارَ عَنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْعَظِيمَةِ ! ؟

الْأَمْرُ الثَّانِي

(129/291)

أَنَّ النَّبِيَّ الْمُقَدَّمَ إِذَا أَخْبَرَ عَنِ النَّبِيِّ الْمُتَأَخِّرِ لَا يَشْتَرِطُ فِي إِخْبَارِهِ أَنْ يُخْبِرَ بِالتَّفْصِيلِ التَّامِّ بِأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الْقَبِيلَةِ الْفُلَانِيَّةِ ، فِي السَّنَةِ الْفُلَانِيَّةِ ، فِي الْبَلَدِ الْفُلَانِيِّ ، وَتَكُونُ صِفَتُهُ كَيْتَ وَكَيْتَ بَلْ يَكُونُ هَذَا الْإِخْبَارُ فِي غَالِبِ الْأَوْقَاتِ مُجْمَلًا عِنْدَ الْعَوَامِّ ، وَأَمَّا عِنْدَ الْخَوَاصِّ فَقَدْ يَصِيرُ جَلِيًّا بِوَاسِطَةِ الْقَرَائِنِ ، وَقَدْ يَبْقَى خَفِيًّا عَلَيْهِمْ أَيْضًا لَا يَعْرِفُونَ مِصْدَاقَهُ إِلَّا بَعْدَ

ادّعَاءِ النَّبِيِّ اللَّاحِقِ أَنَّ النَّبِيَّ الْمُتَقَدِّمَ أَخْبَرَ عَنِّي ، وَظُهُورُ مُصَدِّقِ ادِّعَائِهِ بِالْمُعْجِزَاتِ ، وَعَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ ، وَبَعْدَ الِادِّعَاءِ وَظُهُورِ صِدْقِهِ يَصِيرُ جَلِيًّا عِنْدَهُمْ بِلَا رَيْبٍ ؛ وَلِذَلِكَ يُعَاتِبُونَ كَمَا عَاتَبَ الْمَسِيحُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عُلَمَاءَ الْيَهُودِ بِقَوْلِهِ : (52 وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا النَّامُوسِيُّونَ لِأَنَّكُمْ أَخَذْتُمْ مِفْتَاحَ الْمَعْرِفَةِ ، مَا دَخَلْتُمْ أَنْتُمْ ، وَالدَّاخِلُونَ مَنَعْتُمُوهُمْ) كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي الْبَابِ الْحَادِي عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا ، وَعَلَى مَذَاقِ الْمَسِيحِيِّينَ قَدْ يَبْقَى خَفِيًّا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ فَضْلًا عَنِ الْعُلَمَاءِ ، بَلْ قَدْ يَبْقَى خَفِيًّا عَلَى النَّبِيِّ الْمُخْبِرِ عَنْهُ عَلَى زَعْمِهِمْ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا هَكَذَا 19 (وَهَذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورْشَلِيمَ كَهَنَةً وَلَاوِيِّينَ ، لِيَسْأَلُوهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ 20 (فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ وَأَقَرَّ إِنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحُ) 21

(130/291)

(فَسَأَلُوهُ : إِذًا مَاذَا أَنْتَ إِيلِيَا ؟ فَقَالَ : أَنَا لَسْتُ إِيلِيَا ، فَسَأَلُوهُ : أَنْتَ النَّبِيُّ ؟) فَأَجَابَ : لَا) 22 فَقَالُوا لَهُ : مَنْ أَنْتَ لِنُعْطِيَ جَوَابًا لِلَّذِينَ أَرْسَلُونَا مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ ؟) 23 (قَالَ أَنَا صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ ، كَمَا قَالَ أَشَعْيَا النَّبِيُّ) 24 (وَكَانَ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ) 25 (فَسَأَلُوهُ وَقَالُوا لَهُ : فَمَا بَالُكَ تُعَمِّدُ إِنْ كُنْتَ لَسْتَ الْمَسِيحَ وَلَا إِيلِيَا وَلَا

النَّبِيَّ ؟

وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي لَفْظِ النَّبِيِّ الْوَاقِعِ فِي الْآيَةِ 21 ، 25 لِلْعَهْدِ ، وَالْمُرَادُ النَّبِيُّ الْمَعْهُودُ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْبَابِ الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ الِاسْتِثْنَاءِ عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ الْعُلَمَاءُ الْمَسِيحِيَّةُ ، فَالْكَهَنَةُ وَاللَّاوِيُّونَ كَانُوا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَوَاقِفِينَ عَلَى كُتُبِهِمْ ، وَعَرَفُوا أَيْضًا أَنَّ يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَبِيٌّ لَكِنَّهُمْ شَكُّوا فِي أَنَّهُ الْمَسِيحُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوْ إِيلِيَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوِ النَّبِيُّ الْمَعْهُودُ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، فَظَهَرَ مِنْهُ أَنَّ عَلَامَاتِ هَؤُلَاءِ

(131/291)

الْأَنْبِيَاءِ الثَّلَاثَةِ لَمْ تَكُنْ مُصَرَّحَةً فِي كُتُبِهِمْ بِحَيْثُ لَا يَبْقَى الِاشْتِبَاهُ لِلْخَوَاصِّ فَضْلًا عَنِ الْعَوَامِّ فَلِذَلِكَ سَأَلُوا أَوَّلًا : أَنْتَ الْمَسِيحُ ؟ فَبَعْدَمَا أَنْكَرَ يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنْ كَوْنِهِ مَسِيحًا ، سَأَلُوهُ : أَنْتَ إِيلِيَا ؟ فَبَعْدَمَا أَنْكَرَ عَنْ كَوْنِهِ إِيلِيَا أَيْضًا سَأَلُوهُ : أَنْتَ النَّبِيُّ ؛ أَيِ : (الْمَعْهُودُ) وَلَوْ كَانَتِ الْعَلَامَاتُ مُصَرَّحَةً لَمَا كَانَ لِلشَّكِّ مَحَلٌّ ، بَلْ ظَهَرَ مِنْهُ أَنَّ يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ أَنَّهُ إِيلِيَا حَتَّى أَنْكَرَ فَقَالَ : لَسْتُ أَنَا ، وَقَدْ شَهِدَ عِيسَى أَنَّهُ إِيلِيَا فِي الْبَابِ الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى قَوْلُ (؟) عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي حَقِّ يَحْيَى - عَلَيْهِ

السَّلَامُ – هَكَذَا 14 (وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوا فَهَذَا هُوَ إِيلِيَا الْمُزْمَعُ أَنْ يَأْتِيَ) وَفِي الْبَابِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا 10 (وَسَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ قَائِلِينَ فَمَاذَا يَقُولُ الْكَتَبَةُ : إِنَّ إِيلِيَا يَنْبَغِي أَنْ يَأْتِيَ أَوَّلًا) 11 (فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ إِيلِيَا يَأْتِي أَوَّلًا وَيَرُدُّ كُلَّ شَيْءٍ) 12 (وَلَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ : إِنَّ إِيلِيَا قَدْ جَاءَ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ ، بَلْ عَمِلُوا بِهِ كُلَّ مَا أَرَادُوا ، كَذَلِكَ ابْنُ الْإِنْسَانِ أَيْضًا سَوْفَ يَتَأَلَّمُ مِنْهُمْ) 13 (حِينَئِذٍ فَهِمَ التَّلَامِيذُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ عَنْ يُوحَنَّا الْمَعْمِدَانِ) وَظَهَرَ مِنَ الْعِبَارَةِ الْأَخِيرَةِ أَنَّ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ لَمْ يُعَرِّفُوهُ بِأَنَّهُ إِيلِيَا ، وَفَعَلُوا بِهِ مَا فَعَلُوا ، وَأَنَّ الْحَوَارِيِّينَ

(132/291)

أَيْضًا لَمْ يَعْرِفُوهُ بِأَنَّهُ إِيلِيَا ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ فِي زَعْمِ الْمَسِيحِيِّينَ ، وَأَعْظَمُ رُتْبَةٍ مِنْ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَكَانُوا اعْتَمَدُوا مِنْ يَحْيَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَرَأَوْهُ مِرَارًا ، وَكَانَ مَجِيئُهُ ضَرُورِيًّا قَبْلَ إِلَهِهِمْ وَمَسِيحِهِمْ . وَفِي الْآيَةِ 33 مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا قَوْلُ يَحْيَى هَكَذَا (وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي لِأُعَمِّدَ بِالْمَاءِ ذَاكَ قَالَ لِي : الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلًا وَمُسْتَقِرًّا عَلَيْهِ ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ) وَمَعْنَى قَوْلِهِ : (وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ) عَلَى زَعْمِ الْقِسِّيسِينَ أَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً بِأَنَّهُ الْمَسِيحُ الْمَوْعُودُ بِهِ إِلَى

ثَلَاثِينَ سَنَةً مَا لَمْ يَنْزِلِ الرُّوحُ الْقُدُسُ ، لَعَلَّ كَوْنَ وِلَادَةِ الْمَسِيحِ مِنَ الْعَذْرَاءِ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْمَسِيحِ ، وَإِلَّا فَكَيْفَ

(133/291)

يَصِحُّ هَذَا لَكِنِّي أَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْ هَذَا وَأَقُولُ : إِنَّ يَحْيَى أَشْرَفُ الْأَنْبِيَاءِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ بِشَهَادَةِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي الْبَابِ الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى ، وَإِنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَهُهُ وَرَبُّهُ عَلَى زَعْمِ الْمَسِيحِيِّينَ ، وَكَانَ مَجِيئُهُ ضَرُورِيًّا قَبْلَ الْمَسِيحِ ، وَكَانَ كَوْنُهُ إِيلِيَا يَقِينِيًّا ، فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْ هَذَا النَّبِيُّ الْأَشْرَفُ نَفْسَهُ إِلَى آخِرِ الْعُمْرِ ، وَلَمْ يَعْرِفْ إِلَهَهُ وَرَبَّهُ إِلَى الْمُدَّةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَكَذَا لَمْ يَعْرِفِ الْحَوَارِيُّونَ الَّذِينَ هُمْ أَفْضَلُ مِنْ مُوسَى وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ مُدَّةَ حَيَاةِ يَحْيَى أَنَّهُ إِيلِيَا ، فَمَاذَا رَتَّبَهُ الْعُلَمَاءُ وَالْعَوَامُّ عِنْدَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ النَّبِيِّ اللَّاحِقِ بِخَبَرِ النَّبِيِّ الْمُتَقَدِّمِ عَنْهُ وَتَرَدُّدُهُمْ فِيهِ ؟ وَقِيَافَا رَئِيسَ الْكَهَنَةِ كَانَ نَبِيًّا عَلَى شَهَادَةِ يُوحَنَّا ، كَمَا هُوَ - مُصَرَّحٌ

بِهِ فِي الْآيَةِ الْحَادِيَةِ وَالْخَمْسِينَ مِنَ الْبَابِ الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِهِ ، وَهُوَ أَفْتَى بِقَتْلِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكُفْرِهِ وَأَهَانَهُ ، كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي الْبَابِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ إِنْجِيلِ

مَتَّى ، وَلَوْ كَانَتْ عَلَامَاتُ الْمَسِيحِ فِي كُتُبِهِمْ مُصَرَّحَةً بِحَيْثُ لَا يَبْقَى الِاشْتِبَاهُ (فِيهَا) عَلَى أَحَدٍ ، مَا كَانَ مَجَالٌ لِهَذَا النَّبِيِّ الْمُفْتِي بِقَتْلِ إِلَهِهِ ، وَبِكُفْرِهِ أَنْ يُفْتِيَ بِقَتْلِهِ وَكُفْرِهِ .

(134/291)

وَنَقَلَ مَتَّى وَلُوقَا فِي الْبَابِ الثَّالِثِ ، وَمُرْقُسُ وَيُوحَنَّا فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ أَنَاجِيلِهِمْ خَبَرَ أَشْعِيَا فِي حَقِّ يَحْيَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ، وَأَقَرَّ يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِأَنَّ هَذَا الْخَبَرَ فِي حَقِّهِ عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ يُوحَنَّا ، وَهَذَا الْخَبَرُ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْبَابِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ كِتَابِ أَشْعِيَا هَكَذَا (صَوْتُ الْمُنَادِي فِي الْبَرِّيَّةِ سَهِّلُوا طَرِيقَ الرَّبِّ أَصْلِحُوا فِي الْبَوَادِي سَبِيلًا لِإِلَهِنَا ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَالَاتِ الْمُخْتَصَّةِ بِيَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا مِنْ صِفَاتِهِ ، وَلَا مِنْ زَمَانِ خُرُوجِهِ وَلَا مَكَانِ خُرُوجِهِ ، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى الِاشْتِبَاهُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ ادِّعَاءُ يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِأَنَّ هَذَا الْخَبَرَ فِي حَقِّهِ ، وَكَذَا ادِّعَاءُ مُؤَلِّفِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ لَمَا ظَهَرَ هَذَا لِلْعُلَمَاءِ الْمَسِيحِيَّةِ وَخَوَاصِّهِمْ فَضْلًا عَنِ الْعَوَامِّ ؛ لِأَنَّ وَصْفَ النِّدَاءِ فِي الْبَرِّيَّةِ يَعُمُّ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِ أَشْعِيَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، بَلْ يَصْدُقُ عَلَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُنَادِي مِثْلَ نِدَاءِ يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : تُوبُوا لِأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ

مَلَكُوتُ السَّمَاءِ ، وَسَيَظْهَرُ لَكَ فِي (الْأَمْرِ السَّادِسِ) حَالُ الْإِخْبَارَاتِ الَّتِي نَقَلَهَا الْإِنْجِيلِيُّونَ فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

(135/291)

عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَلَا نَدَّعِي أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ أَخْبَرُوا عَنْ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ إخْبَارُ كُلٍّ مِنْهُمْ بِصِفَتِهِ مُفَصَّلًا بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِيهِ مَجَالُ التَّأْوِيلِ لِلْمُعَانِدِ .

قَالَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي ذَيْلِ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (2 : 42) : وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَظْهَرَ فِي الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ : (بِالْبَاطِلِ) أَنَّهَا بَاءُ الِاسْتِعَانَةِ كَالَّتِي فِي قَوْلِكَ : كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ . وَالْمَعْنَى : لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ ، بِسَبَبِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي تُورِدُونَهَا عَلَى السَّامِعِينَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النُّصُوصَ الْوَارِدَةَ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَتْ نُصُوصًا خَفِيَّةً تَحْتَاجُ فِي مَعْرِفَتِهَا إلَى الِاسْتِدْلَالِ ، ثُمَّ إنَّهُمْ كَانُوا يُجَادِلُونَ فِيهَا ، وَيُشَوِّشُونَ وَجْهَ الدَّلَالَةِ عَلَى الْمُتَأَمِّلِينَ فِيهَا بِسَبَبِ إلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ انْتَهَى كَلَامُهُ بِلَفْظِهِ .

(136/291)

وَقَالَ الْمُحَقِّقُ عَبْدُ الْحَكِيمِ السِّيَالَكُوتِيُّ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى الْبَيْضَاوِيِّ : هَذَا فَصْلٌ يَحْتَاجُ إلَى مَزِيدِ شَرْحٍ ، وَهُوَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أَتَى بِلَفْظَةٍ مُعْرَضَةٍ ، وَإِشَارَةٍ مُدْرَجَةٍ لَا يَعْرِفُهَا إلَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ . وَذَلِكَ لِحِكْمَةٍ إلَهِيَّةٍ ، وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ : مَا انْفَكَّ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ تَضَمُّنِ ذِكْرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَكِنْ بِإِشَارَاتٍ ، وَلَوْ كَانَ مُنْجَلِيًّا لِلْعَوَامِّ لَمَّا عُوتِبَ عُلَمَاؤُهُمْ فِي كِتْمَانِهِ ، ثُمَّ ازْدَادَ ذَلِكَ غُمُوضًا بِنَقْلِهِ مِنْ لِسَانٍ إلَى لِسَانٍ مِنَ الْعِبْرَانِيِّ إلَى السُّرْيَانِيِّ ، وَمِنَ السُّرْيَانِيِّ إلَى الْعَرَبِيِّ . وَقَدْ ذَكَرْتُ مُحَصِّلَةَ أَلْفَاظٍ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ

إذَا اعْتَبَرْتَهَا وَجَدْتَهَا دَالَّةً عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، بِتَعْرِيضٍ هُوَ عِنْدَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ جَلِيٌّ ، وَعِنْدَ الْعَامَّةِ خَفِيٌّ . انْتَهَى كَلَامُهُ بِلَفْظِهِ .

(الْأَمْرُ الثَّالِثُ)

(137/291)

ادِّعَاءُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَا كَانُوا يَنْتَظِرُونَ نَبِيًّا آخَرَ غَيْرَ الْمَسِيحِ وَإِيلِيَا ادِّعَاءٌ بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ ، بَلْ كَانُوا مُنْتَظِرِينَ لِغَيْرِهِمَا أَيْضًا ، لِمَا عَلِمْتَ فِي الْأَمْرِ الثَّانِي أَنَّ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ الْمُعَاصِرِينَ

لِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَأَلُوا يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوَّلًا : أَنْتَ الْمَسِيحُ ؟ وَلَمَّا أَنْكَرَ سَأَلُوهُ : أَنْتَ إِيلِيَا ؟ وَلِمَا أَنْكَرَ سَأَلُوهُ : أَنْتَ النَّبِيُّ ؟ أَيِ النَّبِيُّ الْمَعْهُودُ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ مُوسَى ، فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ كَانَ مُنْتَظَرًا مِثْلَ الْمَسِيحِ وَإِيلِيَا ، وَكَانَ مَشْهُورًا بِحَيْثُ مَا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذِكْرِ الِاسْمِ بَلِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ كَانَتْ

كَافِيَةً ، وَفِي الْبَابِ السَّابِعِ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا بَعْدَ نَقْلِ قَوْلِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هَكَذَا 40 (فَكَثِيرُونَ مِنَ الْجَمْعِ لَمَّا سَمِعُوا هَذَا الْكَلَامَ قَالُوا : هَذَا بِالْحَقِيقَةِ هُوَ النَّبِيُّ) 41 (وَآخَرُونَ قَالُوا : هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ) وَظَهَرَ مِنَ الْكَلَامِ أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ الْمَعْهُودَ عِنْدَهُمْ كَانَ غَيْرَ الْمَسِيحِ ، وَلِذَلِكَ قَابَلُوهُ بِالْمَسِيحِ .

(138/291)

(الْأَمْرُ الرَّابِعُ) ادِّعَاءُ أَنَّ الْمَسِيحَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ بَاطِلٌ ، لِمَا عَرَفْتَ فِي الْأَمْرِ الثَّالِثِ أَنَّهُمْ كَانُوا مُنْتَظِرِينَ لِلنَّبِيِّ الْمَعْهُودِ الْآخَرِ الَّذِي يَكُونُ غَيْرَ الْمَسِيحِ وَإِيلِيَا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَلَمَّا لَمْ يَثْبُتْ بِالْبُرْهَانِ مَجِيئُهُ قَبْلَ الْمَسِيحِ فَهُوَ بَعْدَهُ ؛ وَلِأَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِنُبُوَّةِ الْحَوَارِيِّينَ وَبُولُسَ ، بَلْ بِنُبُوَّةِ غَيْرِهِمْ أَيْضًا ، وَفِي الْبَابِ الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ كِتَابِ الْأَعْمَالِ هَكَذَا 27 (وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ انْحَدَرَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ أُورْشَلِيمَ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ) 28 (وَقَامَ وَاحِدٌ مِنْهُمُ اسْمُهُ

أَغَابُوسَ وَأَشَارَ بِالرُّوحِ أَنَّ جُوعًا عَظِيمًا كَانَ عَتِيدًا أَنْ يَصِيرَ عَلَى جَمِيعِ الْمَسْكُونَةِ الَّذِي صَارَ فِي أَيَّامِ كَلَوْدِيُوسَ قَيْصَرَ) فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ عَلَى تَصْرِيحِ إِنْجِيلِهِمْ . وَأَخْبَرَ وَاحِدٌ مِنْهُمُ اسْمُهُ أَغَابُوسُ عَنْ وُقُوعِ الْجَدْبِ الْعَظِيمِ ، وَفِي الْبَابِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ هَكَذَا 10 (وَبَيْنَمَا نَحْنُ مُقِيمُونَ أَيَّامًا كَثِيرَةً انْحَدَرَ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيٌّ اسْمُهُ أَغَابُوسُ 11) فَجَاءَ إِلَيْنَا وَأَخَذَ مِنْطَقَةَ بُولُسَ وَرَبَطَ يَدَيْ نَفْسِهِ وَرِجْلَيْهِ وَقَالَ : هَذَا يَقُولُهُ الرُّوحُ الْقُدُسُ الرَّجُلُ الَّذِي لَهُ هَذِهِ الْمِنْطَقَةُ . هَكَذَا سَيَرْبُطُهُ الْيَهُودُ فِي أُورُشَلِيمَ وَيُسَلِّمُونَهُ إِلَى أَيْدِي الْأُمَمِ) وَفِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَيْضًا تَصْرِيحٌ بِكَوْنِ أَغَابُوسَ نَبِيًّا ، وَقَدْ يَتَمَسَّكُونَ لِإِثْبَاتِ هَذَا الِادِّعَاءِ بِقَوْلِ الْمَسِيحِ

(139/291)

الْمَنْقُولِ فِي الْآيَةِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ السَّابِعِ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا (احْتَرِزُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَذَبَةِ الَّذِينَ يَأْتُونَكُمْ بِثِيَابِ الْحُمْلَانِ وَلَكِنَّهُمْ مِنْ دَاخِلٍ ذِئَابٌ خَاطِفَةٌ) وَالتَّمَسُّكُ بِهِ عَجِيبٌ ؛ لِأَنَّ الْمَسِيحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَمَرَ بِالِاحْتِرَازِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَذَبَةِ لَا الْأَنْبِيَاءِ الصَّدَقَةِ أَيْضًا ؛ وَلِذَلِكَ

قَيَّدَ بِالْكَذَبَةِ . نَعَمْ ، لَوْ قَالَ : احْتَرِزُوا مِنْ كُلِّ نَبِيٍّ يَجِيءُ بَعْدِي ، لَكَانَ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ

وَجْهٌ لِلتَّمَسُّكِ ، وَإِنْ كَانَ وَاجِبَ التَّأْوِيلِ عِنْدَهُمْ لِثُبُوتِ نُبُوَّةِ الْأَشْخَاصِ الْمَذْكُورِينَ ، وَقَدْ ظَهَرَ الْأَنْبِيَاءُ الْكَذَبَةُ الْكَثِيرُونَ فِي الطَّبَقَةِ الْأُولَى بَعْدَ صُعُودِهِ ، كَمَا يَظْهَرُ مِنَ الرَّسَائِلِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ فِي الْبَابِ الْحَادِيَ عَشَرَ مِنَ الرِّسَالَةِ الثَّانِيَةِ إِلَى أَهْلِ فورنيثوس هَكَذَا 12 (وَلَكِنْ مَا أَفْعَلُهُ سَأَفْعَلُهُ لِأَقْطَعَ فُرْصَةَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ فُرْصَةً كَيْ يُوجَدُوا كَمَا نَحْنُ أَيْضًا فِيمَا يَفْتَخِرُونَ بِهِ) 13 (لِأَنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ رُسُلٌ كَذَبَةٌ فَعَلَةٌ مَاكِرُونَ ، مُغَيِّرُونَ شَكْلَهُمْ إِلَى شِبْهِ رُسُلِ الْمَسِيحِ) فَمُقَدِّسُهُمْ يُنَادِي بِأَعْلَى نِدَاءٍ أَنَّ الرُّسُلَ الْكَذَبَةَ الْغَدَّارِينَ ظَهَرُوا فِي عَهْدِهِ وَقَدْ تَشَبَّهُوا بِرُسُلِ الْمَسِيحِ .

(140/291)

وَقَالَ آدَمُ كلارك الْمُفَسِّرُ فِي شَرْحِ هَذَا الْمَقَامِ (هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصُ كَانُوا يَدَّعُونَ كَذِبًا أَنَّهُمْ رُسُلُ الْمَسِيحِ ، وَمَا كَانُوا رُسُلَ الْمَسِيحِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَكَانُوا يَعِظُونَ وَيَجْتَهِدُونَ لَكِنْ مَقْصُودَهُمْ مَا كَانَ إِلَّا جَلْبَ الْمَنْفَعَةِ) وَفِي الْبَابِ الرَّابِعِ مِنَ الرِّسَالَةِ الْأُولَى لِيُوحَنَّا هَكَذَا (أَيُّهَا الْأَحْبَابُ لَا تُصَدِّقُوا كُلَّ رُوحٍ بَلِ امْتَحِنُوا الْأَرْوَاحَ هَلْ هِيَ مِنَ اللهِ ؟ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْكَذَبَةَ كَثِيرُونَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى الْعَالَمِ) فَظَهَرَ مِنَ الْعِبَارَتَيْنِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْكَذَبَةَ قَدْ ظَهَرُوا فِي عَهْدِ الْحَوَارِيِّينَ . وَفِي الْبَابِ الثَّامِنِ مِنْ كِتَابِ الْأَعْمَالِ هَكَذَا 9 (وَكَانَ قَبْلًا فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ

اسْمُهُ سِيمُونُ يَسْتَعْمِلُ السِّحْرَ وَيُدْهِشُ شَعْبَ السَّامِرَةِ قَائِلًا إِنَّهُ شَيْءٌ عَظِيمٌ) 10 (وَكَانَ الْجَمِيعُ يَتْبَعُونَهُ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ قَائِلِينَ : هَذَا هُوَ قُوَّةُ اللهِ الْعَظِيمَةِ) وَفِي الْبَابِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنَ الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ هَكَذَا (وَلَمَّا اجْتَازَا الْجَزِيرَةَ إِلَى بَافُوسَ وَجَدَا رَجُلًا سَاحِرًا نَبِيًّا كَذَّابًا يَهُودِيًّا اسْمُهُ بَارِيشُوعَ) وَكَذَا سَيَظْهَرُ الدَّجَّالُونَ الْكَذَّابُونَ يَدَّعِي كُلٌّ مِنْهُمْ أَنَّهُ الْمَسِيحُ ، كَمَا أَخْبَرَ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – (وَقَالَ : لَا يُضِلُّكُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ : أَنَا هُوَ الْمَسِيحُ وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ) كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ فِي الْبَابِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى . فَمَقْصُودُ الْمَسِيحِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – التَّحْذِيرُ مِنْ

(141/291)

هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ الْكَذَبَةِ وَالْمُسَحَاءِ الْكَذَبَةِ لَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الصَّادِقِينَ أَيْضًا ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ الْقَوْلِ الْمَذْكُورِ فِي الْبَابِ السَّابِعِ (مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَبًا أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِينًا) وَمُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الصَّادِقِينَ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ ثِمَارُهُ عَلَى مَا عَرَفْتُ فِي الْمَسَالِكِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَلَا اعْتِبَارَ لِمَطَاعِنِ الْمُنْكِرِينَ كَمَا سَتَعْرِفُ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي ؛ وَلِأَنَّ كُلَّ شَخْصٍ يَعْلَمُ أَنَّ الْيَهُودَ يُنْكِرُونَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – وَيُكَذِّبُونَهُ ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ رَجُلٌ أَشَرُّ مِنْهُ مِنِ ابْتِدَاءِ الْعَالَمِ إِلَى

زَمَانِ خُرُوجِهِ ، وَكَذَا أُلُوفٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَبْنَاءِ صِنْفِ الْقِسِّيسِينَ وَكَانُوا مَسِيحِيِّينَ ثُمَّ خَرَجُوا عَنْ هَذِهِ الْمِلَّةِ لِاسْتِقْبَاحِهِمْ إِيَّاهَا يُنْكِرُونَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَبِمِلَّتِهِ وَأَلَّفُوا رَسَائِلَ كَثِيرَةً لِإِثْبَاتِ آرَائِهِمْ وَاشْتَهَرَتْ هَذِهِ الرَّسَائِلُ فِي أَكْنَافِ الْعَالَمِ وَيَزِيدُ مُتَّبِعُوهُمْ كُلَّ يَوْمٍ فِي دِيَارٍ أُورُبَّا ، فَكَمَا أَنَّ إِنْكَارَ الْيَهُودِ هَؤُلَاءِ الْحُكَمَاءِ وَالْعُلَمَاءِ فِي حَقِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ غَيْرُ مَقْبُولٍ عِنْدَنَا ، فَكَذَا إِنْكَارُ أَهْلِ التَّثْلِيثِ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غَيْرُ مَقْبُولٍ عِنْدَنَا .

(142/291)

(الْأَمْرُ الْخَامِسُ) الْإِخْبَارَاتُ الَّتِي نَقَلَهَا الْمَسِيحِيُّونَ فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا تَصْدُقُ عَلَيْهِ عَلَى تَفَاسِيرِ الْيَهُودِ وَتَأْوِيلَاتِهِمْ ؛ وَلِذَلِكَ هُمْ يُنْكِرُونَهُ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ ، وَالْعُلَمَاءُ الْمَسِيحِيَّةُ لَا يَلْتَفِتُونَ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَى تَفَاسِيرِهِمْ وَتَأْوِيلَاتِهِمْ ، وَيُفَسِّرُونَهَا وَيُؤَوِّلُونَهَا بِحَيْثُ تَصْدُقُ فِي زَعْمِهِمْ عَلَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - (وَنَقَلَ هُنَا عِبَارَةً عَنْ مِيزَانِ الْحَقِّ بِهَذَا الْمَعْنَى ثُمَّ قَالَ) : كَمَا أَنَّ تَأْوِيلَاتِ الْيَهُودِ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ مَرْدُودَةٌ غَيْرُ صَحِيحَةٍ وَغَيْرُ لَائِقَةٍ عِنْدَ الْمَسِيحِيِّينَ ، كَذَلِكَ تَأْوِيلَاتُ الْمَسِيحِيِّينَ فِي الْإِخْبَارَاتِ الَّتِي هِيَ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرْدُودَةٌ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ عِنْدَنَا ، وَسَتَرَى أَنَّ الْإِخْبَارَاتِ الَّتِي

نَنْقُلُهَا فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَظْهَرُ صِدْقًا مِنَ الْإِخْبَارَاتِ الَّتِي نَقَلَهَا الْإِنْجِيلِيُّونَ فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْنَا إنْ لَمْ نَلْتَفِتْ إلَى تَأْوِيلَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، وَكَمَا أَنَّ الْيَهُودَ ادَّعَوْا فِي حَقِّ بَعْضِ الْإِخْبَارَاتِ الَّتِي هِيَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ ، أَوَلَيْسَتْ فِي حَقِّ أَحَدٍ ، وَالْمَسِيحِيُّونَ يَدَّعُونَ أَنَّهَا فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَا يُبَالُونَ بِمُخَالَفَتِهِمْ ، فَكَذَا نَحْنُ لَا نُبَالِي بِمُخَالَفَةِ الْمَسِيحِيِّينَ فِي حَقِّ بَعْضِ الْإِخْبَارَاتِ الَّتِي هِيَ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَوْ قَالُوا إنَّهَا فِي

(143/291)

حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَسَتَرَى أَيْضًا أَنَّ صِدْقَهَا فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَلْيَقُ مِنْ صِدْقِهَا فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَادِّعَاؤُنَا أَحَقُّ مِنْ ادِّعَائِهِمْ .

(الْأَمْرُ السَّادِسُ)

مُؤَلِّفُو الْعَهْدِ الْجَدِيدِ بِاعْتِقَادِ الْمَسِيحِيِّينَ ذَوُو إلْهَامٍ ، وَقَدْ نَقَلُوا الْإِخْبَارَاتِ فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، فَيَكُونُ هَذَا النَّقْلُ عَلَى زَعْمِهِمْ بِالْإِلْهَامِ ، فَأَذْكُرُ نُبَذًا مِنْهَا بِطَرِيقِ الْأُنْمُوذَجِ ؛ لِيَقِيسَ الْمُخَاطَبُ حَالَ هَذِهِ الْإِخْبَارَاتِ بِالْإِخْبَارَاتِ الَّتِي أَنْقُلُهَا فِي هَذَا الْمَسْلَكِ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِنْ سَلَكَ أَحَدٌ مِنَ الْقِسِّيسِينَ مَسْلَكَ الِاعْتِسَافِ ،

وَتَصَدَّى لِتَأْوِيلِ الْإِخْبَارَاتِ الَّتِي أَنْقُلُهَا فِي هَذَا الْمَسْلَكِ ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُوَجِّهَ أَوَّلًا الْإِخْبَارَاتِ الَّتِي نَقَلَهَا مُؤَلِّفُو الْعَهْدِ الْجَدِيدِ فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ؛ لِيَظْهَرَ لِلْمُنْصِفِ اللَّبِيبِ حَالَ الْإِخْبَارَاتِ الَّتِي نَقَلَهَا الْجَانِبَانِ ، وَيُقَابِلُهُمَا بِاعْتِبَارِ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، وَإِنْ غَمُضَ النَّظَرُ فِي تَوْجِيهِ الْإِخْبَارَاتِ الْعِيسَوِيَّةِ الَّتِي نَقَلَهَا الْمُؤَلِّفُونَ الْمَذْكُورُونَ ، وَأَوَّلُ الْإِخْبَارَاتِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الَّتِي أَنْقُلُهَا فِي هَذَا الْمَسْلَكِ يَكُونُ مَحْمُولًا عَلَى عَجْزِهِ وَتَعَصُّبِهِ ؛ لِأَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ فِي الْأَمْرِ الثَّانِي وَالْخَامِسِ أَنَّ

(144/291)

الْمُعَانِدَ لَهُ مَجَالٌ وَاسِعٌ لِلتَّأْوِيلِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْإِخْبَارَاتِ ، وَإِنَّمَا اكْتَفَيْتُ عَلَى نُبُذٍ مِمَّا نَقَلَهُ مُؤَلِّفُو الْعَهْدِ الْجَدِيدِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا ظَهَرَ أَنَّ الْبَعْضَ مِنْهَا غَلَطٌ يَقِينًا ، وَالْبَعْضَ مِنْهَا مُحَرَّفٌ ، وَالْبَعْضَ مِنْهَا لَا يَصْدُقُ عَلَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَّا بِالِادِّعَاءِ الْبَحْتِ وَالتَّحَكُّمِ الصِّرْفِ ، ظَهَرَ أَنَّ حَالَ الْإِخْبَارَاتِ الْأُخَرِ الَّتِي نَقَلَهَا الْمَسِيحِيُّونَ الَّذِينَ لَيْسُوا ذَوِي إِلْهَامٍ وَوَحْيٍ يَكُونُ أَسْوَأَ ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى نَقْلِهَا .

(الْخَبَرُ الْأَوَّلُ) مَا هُوَ الْمَنْقُولُ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى ؟ وَقَدْ عَرَفْتَ فِي بَيَانِ الْغَلَطِ الْخَمْسِينَ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ غَلَطٌ عَلَى أَنَّ كَوْنَ

مَرْيَمَ عَذْرَاءَ

وَقْتَ الْحَبْلِ غَيْرَ مُسَلَّمٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالْمُنْكِرِينَ ، وَلَا يَتِمُّ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ ؛ لِأَنَّهَا قَبْلَ وِلَادَةِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَتْ فِي نِكَاحِ يُوسُفَ النَّجَّارِ عَلَى تَصْرِيحِ الْإِنْجِيلِ ، وَالْيَهُودُ الْمُعَاصِرُونَ لِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَقُولُونَ : إنَّهُ وَلَدُ يُوسُفَ النَّجَّارِ كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي الْآيَةِ 55 مِنَ الْبَابِ 13 مِنْ إنْجِيلِ مَتَّى ، وَالْآيَةُ 45 مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ ، وَالْآيَةُ 42 مِنَ الْبَابِ السَّادِسِ مِنْ إنْجِيلِ يُوحَنَّا ، وَإِلَى الْآنَ يَقُولُونَ هَكَذَا ، بَلْ أَشْنَعَ مِنْهُ . وَالْعَلَامَةُ الْأُخْرَى الْمُخْتَصَّةُ بِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - غَيْرُ مَذْكُورَةٍ فِي هَذَا الْخَبَرِ .

(145/291)

(الْخَبَرُ الثَّانِي) مَا هُوَ الْمَنْقُولُ فِي الْآيَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْبَابِ الثَّانِي مِنْ إنْجِيلِ مَتَّى ؟ وَهُوَ إشَارَةٌ إلَى الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْبَابِ الْخَامِسِ مِنْ كِتَابِ مِيخَا ، وَلَا تُطَابِقُ عِبَارَةُ مَتَّى عِبَارَةَ مِيخَا ، فَإِحْدَاهُمَا مُحَرَّفَةٌ ، وَقَدْ عَرَفْتَ فِي الشَّاهِدِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْمَقْصِدِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَابِ الثَّانِي أَنَّ مُحَقِّقِيهِمُ اخْتَارُوا تَحْرِيفَ عِبَارَةِ مِيخَا ؛ لَكِنِ ادَّعَوْا أَنَّ هَذَا لِأَجْلِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْإِنْجِيلِ فَقَطْ وَ (هُوَ) عِنْدَ الْمُخَالِفِ بَاطِلٌ .

(الْخَبَرُ الثَّالِثُ) مَا هُوَ الْمَنْقُولُ فِي الْآيَةِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ الْمَذْكُورِ مِنْ إنْجِيلِ مَتَّى

؟

(الْخَبَرُ الرَّابِعُ) مَا هُوَ الْمَنْقُولُ فِي الْآيَةِ 17 ، 18 مِنَ الْبَابِ الْمَذْكُورِ ؟ (1 ، 2)

(الْخَبَرُ الْخَامِسُ) مَا هُوَ الْمَنْقُولُ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْبَابِ الْمَذْكُورِ ؟ وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ الثَّلَاثَةُ غَلَطٌ ، كَمَا عَرَفْتَ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ .

(146/291)

(الْخَبَرُ السَّادِسُ) الْآيَةُ التَّاسِعَةُ مِنَ الْبَابِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى ، وَقَدْ عَرَفْتَ فِي الشَّاهِدِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْمَقْصِدِ الثَّانِي مِنَ الْبَابِ الثَّانِي أَنَّهُ غَلَطٌ ، عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَالَ يُوجَدُ فِي الْبَابِ الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ كِتَابِ زَكَرِيَّا ، وَلَا مُنَاسِبَةَ لَهُ بِالْقِصَّةِ الَّتِي نَقَلَهَا مَتَّى ؛ لِأَنَّ زَكَرِيَّا – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بَعْدَ مَا ذَكَرَ اسْمَيْ عَصَوَيْنِ وَرَعْيِ قَطِيعٍ (فَإِنَّهُ) يَقُولُ هَكَذَا – تَرْجَمَةٌ عَرَبِيَّةٌ سَنَةَ 1844 – (12 وَقُلْتُ لَهُمْ ، إِنْ حَسُنَ فِي أَعْيُنِكُمْ فَهَاتُوا أُجْرِي وَإِلَّا فَكُفُّوا ، فَوَزَنُوا أُجْرِي ثَلَاثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ) 13 (وَقَالَ لِيَ الرَّبُّ أَلْقِهَا إِلَى صُنَّاعِ التَّمَاثِيلِ ثَمَنًا كَرِيمًا ثَمَّنُونِي بِهِ ، فَأَخَذْتُ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ

أَلْقَيْتُهَا فِي بَيْتِ الرَّبِّ إِلَى صُنَّاعِ التَّمَاثِيلِ) فَظَاهِرُ كَلَامِ زَكَرِيَّا أَنَّهُ بَيَانُ حَالٍ لَا إِخْبَارٌ عَنِ الْحَادِثَةِ الْآتِيَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ آخِذُ الدَّرَاهِمِ مِنَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ زَكَرِيَّا – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، لَا مِنَ

الْكَافِرِينَ مِثْلَ يَهُوذَا .

(الْخَبَرُ السَّابِعُ) مَا نَقَلَهُ بُولِسُ فِي الْآيَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنَ الرِّسَالَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ ، وَقَدْ عَرَفْتَ حَالَهُ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ أَنَّهُ غَلَطٌ لَا يَصْدُقُ عَلَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

(147/291)

(وَالْخَبَرُ الثَّامِنُ) الْآيَةُ الْخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ مِنَ الْبَابِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا (لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ سَأَفْتَحُ بِأَمْثَالٍ فَمِي وَأَنْطِقُ بِمَكْتُوبَاتٍ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ) وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الزَّبُورِ الثَّامِنِ وَالسَّبْعِينَ ، لَكِنَّهُ ادِّعَاءٌ مَحْضٌ وَتَحَكُّمٌ بَحْتٌ ؛ لِأَنَّ عِبَارَةَ هَذَا الزَّبُورِ هَكَذَا (2 أَفْتَحُ بِالْأَمْثَالِ فَمِي وَأَنْطِقُ بِالَّذِي كَانَ قَدِيمًا 3 كُلُّ مَا سَمِعْنَاهُ وَعَرَفْنَاهُ وَآبَاؤُنَا أَخْبَرُونَا 4 وَلَمْ يُخْفُوهُ عَنْ أَوْلَادِهِمْ إِلَى الْجِيلِ الْآخَرِ إِذْ يُخْبِرُونَ بِتَسَابِيحِ الرَّبِّ وَقُوَّاتِهِ وَعَجَائِبِهِ الَّتِي صَنَعَ 5 إِذْ أَقَامَ الشَّهَادَةَ فِي يَعْقُوبَ وَوَضَعَ النَّامُوسَ فِي إِسْرَائِيلَ كُلَّ الَّذِي أَوْصَى آبَاؤُنَا لِيَعْرِفُوا بِهِ أَبْنَاءَهُمْ 6 لِكَيْ مَا يَعْلَمُ الْجِيلُ الْآخَرُ بَيْنُهُمُ الْمَوْلُودِينَ 7 فَيَقُومُونَ أَيْضًا وَيُخْبِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ 8 لِكَيْ يَجْعَلُوا اتِّكَالَهُمْ عَلَى اللهِ ، وَلَا يَنْسَوْا أَعْمَالَ اللهِ وَيَلْتَمِسُوا وَصَايَاهُ 9 لِئَلَّا يَكُونُوا مِثْلَ آبَائِهِمُ الْجِيلِ الْأَعْرَجِ الْمُتَمَرِّدِ الَّذِي لَمْ يَسْتَقِمْ قَلْبُهُ وَلَا آمَنَتْ بِاللهِ رُوحُهُ) .

وَهَذِهِ الْآيَاتُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – يُرِيدُ نَفْسَهُ ، وَلِذَا عَبَّرَ عَنْ نَفْسِهِ بِصِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ ، وَيَرْوِي الْحَالَاتِ الَّتِي سَمِعَهَا مِنَ الْآبَاءِ لِيُبْلِغَهَا إِلَى الْأَبْنَاءِ عَلَى حَسَبِ عَهْدِ اللهِ ، لِتَبْقَى الرِّوَايَةُ مَحْفُوظَةً ، وَبَيَّنَ مِنَ الْآيَةِ الْعَاشِرَةِ إِلَى الْخَامِسَةِ وَالسِّتِّينَ حَالَ إِنْعَامَاتِ اللهِ وَالْمُعْجِزَاتِ الْمُوسَوِيَّةِ ، وَشَرَارَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَمَا لَحِقَهُمْ بِسَبَبِهَا ، ثُمَّ قَالَ (66 وَاسْتَيْقَظَ الرَّبُّ كَالنَّائِمِ مِثْلَ الْجَبَّارِ الْمُفِيقِ مِنَ الْخَمْرِ 67 فَضَرَبَ أَعْدَاءَهُ فِي الْوَرَاءِ وَجَعَلَهُمْ عَارًا إِلَى الدَّهْرِ 68 وَأَبْعَدَ مَحَلَّهُ يُوسُفَ وَلَمْ يُخْبِرْ سِبْطَ أَفْرَامَ 69 بَلِ اخْتَارَ سِبْطَ يَهُوذَا لِجَبَلِ صَهْيُونَ الَّذِي أَحَبَّ 70 وَبَنَى مِثْلَ وَحِيدِ الْقَرْنِ قُدْسَهُ وَأَسَّسَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَى الْأَبَدِ 71 وَاخْتَارَ دَاوُدَ عَبْدَهُ وَأَخَذَهُ مِنْ مَرَاعِي الْغَنَمِ 72 وَمِنْ خَلْفِ الْمُرْضِعَاتِ أَخَذَهُ لِيَرْعَى يَعْقُوبَ عَبْدَهُ وَإِسْرَائِيلَ مِيرَاثَهُ 73 فَرَعَاهُمْ بِدَعَةً قَلْبِهِ وَبِفَهْمِ يَدَيْهِ أَهْدَاهُمْ) .

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْأَخِيرَةُ أَيْضًا دَالَّةٌ صَرَاحَةً عَلَى أَنَّهُ هَذَا الزَّبُورُ فِي حَقِّ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، فَلَا عَلَاقَةَ لِهَذَا بِعِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – .

(الْخَبَرُ التَّاسِعُ) فِي الْبَابِ الرَّابِعِ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا (14 لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِأَشَعْيَا النَّبِيِّ الْقَائِلِ 15 أَرْضَ زَبْلُونَ وَأَرْضَ نَفْتَالِيمَ طَرِيقُ الْبَحْرِ عَبْرَ الْأُرْدُنِّ جَلِيلِ الْأُمَمِ 16 الشَّعْبُ الْجَالِسُ فِي ظُلْمَةٍ أَبْصَرَ نُورًا عَظِيمًا ، وَالْجَالِسُونَ فِي كُورَةِ الْمَوْتِ وَظِلَالِهِ أَشْرَقَ عَلَيْهِمْ نُورٌ) وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْآيَةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ مِنَ الْبَابِ التَّاسِعِ مِنْ كِتَابِ أَشَعْيَا وَعِبَارَتِهِ هَكَذَا (1 - فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ اسْتَخَفَّتْ أَرْضُ زَبْلُونَ وَأَرْضَ نَفْتَالِي ، وَفِي الْآخِرِ تَثَقَّلَتْ طَرِيقَ الْبَحْرِ عَبْرَ الْأُرْدُنِّ جَلِيلِ الْأُمَمِ 2 الشَّعْبُ السَّالِكُ فِي الظُّلْمَةِ رَأَى نُورًا عَظِيمًا السَّاكِنُونَ فِي بِلَادِ ظِلَالِ الْمَوْتِ أَشْرَقَ عَلَيْهِمْ نُورٌ) وَفَرَّقَ مَا بَيْنَ الْعِبَارَتَيْنِ فَإِحْدَاهُمَا مُحَرَّفَةٌ ، وَمَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ هَذَا ، لَا دَلَالَةَ لِكَلَامِ أَشَعْيَا عَلَى ظُهُورِ شَخْصٍ ، بَلِ الظَّاهِرُ أَنَّ أَشَعْيَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُخْبِرُ أَنَّ حَالَ سُكَّانِ أَرْضِ زَبْلُونَ وَنَفْتَالِي كَانَ سَقِيمًا فِي سَالِفِ الزَّمَانِ ثُمَّ صَارَ حَسَنًا ، كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ صِيَغُ الْمَاضِي أَعْنِي : اسْتَخَفَّتْ ، وَتَثَقَّلَتْ ، وَرَأَى وَأَشْرَقَ ، وَإِنْ عَدَلْنَا عَنِ الظَّاهِرِ وَحَمَلْنَاهَا عَلَى الْمَجَازِ بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ وَقُلْنَا : إِنَّ رُؤْيَةَ النُّورِ وَإِشْرَاقَهُ عَلَيْهِمْ عِبَارَةٌ عَنْ مُرُورِ الصُّلَحَاءِ بِأَرْضِهِمْ ، فَادِّعَاءُ أَنَّ مِصْدَاقَ هَذَا الْخَبَرِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَطْ تَحَكُّمٌ صِرْفٌ ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصُّلَحَاءِ

مَرَّ بِتِلْكَ الْأَرْضِ وَلَا سِيَّمَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَوْلِيَاءَ أُمَّتِهِ أَيْضًا الَّذِينَ زَالَتْ ظُلْمَةُ الْكُفْرِ وَالتَّثْلِيثِ مِنْ هَذِهِ الدِّيَارِ بِسَبَبِهِمْ ، وَظَهَرَ نُورُ التَّوْحِيدِ وَتَصْدِيقِ الْمَسِيحِ كَمَا يَنْبَغِي . وَأَكْتَفِي خَوْفًا مِنَ التَّطْوِيلِ عَلَى (؟) هَذَا الْقَدْرِ . وَنَقَلْتُ الْأَخْبَارَ الْأُخَرَ أَيْضًا فِي (إِزَالَةِ الْأَوْهَامِ) وَغَيْرِهِ مِنْ مُؤَلَّفَاتِي وَبَيَّنْتُ وُجُوهَ ضَعْفِهَا .

(الْأَمْرُ السَّابِعُ)

إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ سَلَفًا وَخَلَفًا عَادَتُهُمْ جَارِيَةٌ بِأَنَّهُمْ يُتَرْجِمُونَ غَالِبًا الْأَسْمَاءَ فِي تَرَاجِمِهِمْ ، وَيُورِدُونَ بَدَلَهَا مَعَانِيهَا ، وَهَذَا خَبْطٌ عَظِيمٌ وَمَنْشَأٌ لِلْفَسَادِ ، وَأَنَّهُمْ يَزِيدُونَ تَارَةً شَيْئًا بِطَرِيقِ التَّفْسِيرِ فِي الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللهِ فِي زَعْمِهِمْ ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَى الِامْتِيَازِ ، وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ بِمَنْزِلَةِ الْأُمُورِ الْعَادِيَّةِ عِنْدَهُمْ ، وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي تَرَاجِمِهِمُ الْمُتَدَاوَلَةِ بِأَلْسِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ وَجَدَ شَوَاهِدَ تِلْكَ الْأُمُورِ كَثِيرَةً ، وَأَنَا أُورِدُ أَيْضًا بِطَرِيقِ الْأُنْمُوذَجِ بَعْضًا مِنْهَا .

1 – فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1625 وَسَنَةَ 1831 هَكَذَا (لِذَلِكَ دَعَتِ اسْمُ تِلْكَ الْبِيرِ بِيرِ الْحَيِّ النَّاظِرْنِيِّ) فَتَرْجَمُوا اسْمَ الْبِئْرِ الَّذِي كَانَ فِي الْعِبْرَانِيِّ بِالْعَرَبِيِّ .

2 – وَفِي الْآيَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 (هَكَذَا سَمَّى إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ مَكَانٌ يَرْحَمُ اللهُ زَائِرُهُ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1844 (دَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ الرَّبَّ يَرَى) فَتَرْجَمَ الْمُتَرْجِمُ الْأَوَّلُ الِاسْمَ الْعِبْرَانِيَّ بِمَكَانٍ يَرْحَمُ اللهُ زَائِرُهُ) وَالْمُتَرْجِمُ الثَّانِي بِالرَّبِّ يَرَى .

3 – وَفِي الْآيَةِ الْعِشْرِينَ مِنَ الْبَابِ الْحَادِي وَالثَّلَاثِينَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1652 وَفِي سَنَةِ 1844 هَكَذَا (فَكَتَمَ يَعْقُوبُ أَمْرَهُ عَنْ حَمِيهِ) وَفِي تَرْجَمَةِ أُرْدُو (التَّرْجَمَةُ الْأُورْدِيَّةِ) الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1825 لَفْظُ لَابَانِ مَوْضِعُ حَمِيهِ ، فَوَضَعَ مُتَرْجِمُو الْعَرَبِيَّةِ لَفْظَ الْحَمِي مَوْضِعَ الِاسْمِ .

4 – وَفِي الْآيَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْبَابِ التَّاسِعِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1625 وَسَنَةَ 1844 (فَلَا يَزُولُ الْقَضِيبُ مِنْ يَهُوذَا وَالْمُدَبِّرُ

مِنْ فَخْذِهِ حَتَّى يَجِيءَ الَّذِي لَهُ الْكُلُّ وَإِيَّاهُ تَنْتَظِرُ الْأُمَمُ) فَقَوْلُهُ : (الَّذِي لَهُ الْكُلُّ) تَرْجَمَةُ لَفْظِ " شيلوه " وَهَذِهِ التَّرْجَمَةُ مُوَافِقَةٌ لِلتَّرْجَمَةِ الْيُونَانِيَّةِ ، وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 فَلَا يَزُولُ الْقَضِيبُ مِنْ يَهُوذَا وَالرَّسْمُ مِنْ تَحْتِ أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَجِيءَ الَّذِي هُوَ لَهُ ، وَإِلَيْهِ يَجْتَمِعُ الشُّعُوبُ (وَهَذَا الْمُتَرْجِمُ تَرْجَمَ لَفْظَ شيلوه (بِالَّذِي هُوَ لَهُ) وَهَذِهِ التَّرْجَمَةُ مُوَافِقَةٌ لِلتَّرْجَمَةِ السُّرْيَانِيَّةِ ، وَتَرْجَمَ هَذَا اللَّفْظَ مُحَقِّقُهُمُ الْمَشْهُورُ لِيكرك بِعَاقِبَتِهِ ، وَفِي تَرْجَمَةِ أُرْدُو الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1825 وَقَعَ لَفْظُ شيلا ، وَفِي التَّرْجَمَةِ اللَّاتِينِيَّةِ وَلتكيت (الَّذِي سَيُرْسِلُ) فَالْمُتَرْجِمُونَ تَرْجَمُوا لَفْظَ شيلوه بِمَا ظَهَرَ وَتَرَجَّحَ عِنْدَهُمْ ، وَهَذَا اللَّفْظُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الِاسْمِ لِلشَّخْصِ الْمُبَشَّرِ بِهِ .

5 – وَفِي الْآيَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ الثَّالِثِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1625 وَسَنَةَ 1844 (فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى : أهيه أشراهيه) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 (قَالَ لَهُ الْأَزَلِيَّ الَّذِي لَا يَزَالُ) فَلَفْظُ أهيه أشراهيه كَانَ بِمَنْزِلَةِ اسْمِ الذَّاتِ ، فَتَرْجَمَهُ الْمُتَرْجِمُ الثَّانِي بِالْأَزَلِيِّ الَّذِي لَا يَزَالُ .

(153/291)

6 – وَفِي الْآيَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ الثَّامِنِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1625 وَسَنَةَ 1844 هَكَذَا (تَبْقَى فِي النَّهْرِ فَقَطْ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 هَكَذَا (تَبْقَى فِي النِّيلِ فَقَطْ) .

7 – وَفِي الْآيَةِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1625 وَسَنَةَ 1844 هَكَذَا (فَابْتَنَى مُوسَى مَذْبَحًا وَدَعَا اسْمُهُ الرَّبُّ عَظَمَتِي) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 (وَبَنَى مَذْبَحًا وَسَمَّاهُ اللهُ عِلْمِي) وَتَرْجَمَةُ أُرْدُو مُوَافِقَةٌ لِهَذِهِ الْأَخِيرَةِ فَأَقُولُ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الِاخْتِلَافِ إِنَّ الْمُتَرْجِمِينَ تَرْجَمُوا الِاسْمَ الْعِبْرَانِيَّ .

8 – وَفِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْبَابِ الثَّلَاثِينَ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ فِي التَّرْجَمَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ هَكَذَا (مِنْ مَيْعَةٍ فَائِقَةٍ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 (مِنَ الْمِسْكِ الْخَالِصِ) وَبَيْنَ الْمَيْعَةِ وَالْمِسْكِ فَرْقٌ مَا فَسَّرُوا الِاسْمَ الْعِبْرَانِيَّ بِمَا تَرَجَّحَ عِنْدَهُمْ .

(154/291)

9 - وَفِي الْآيَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْبَابِ الرَّابِعِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ سِفْرِ الِاسْتِثْنَاءِ (أَيِ : التَّثْنِيَةِ) فِي التَّرْجَمَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ هُنَاكَ (فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ (وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 هَكَذَا (فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى رَسُولُ اللهِ) فَهَؤُلَاءِ الْمُتَرْجِمُونَ لَوْ بَدَّلُوا فِي الْبِشَارَاتِ الْمُحَمَّدِيَّةِ لَفْظَ رَسُولِ اللهِ بِلَفْظٍ آخَرَ فَلَا اسْتِبْعَادَ مِنْهُمْ .

10 ، 11 تَرَكْنَا الشَّاهِدَيْنِ لِلِاخْتِصَارِ .

12 - وَفِي الْآيَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 وَسَنَةَ 1844 هَكَذَا (فَإِنْ أَرَدْتُمْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ إِيلِيَا الْمُزْمَعُ أَنْ يَأْتِيَ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 (فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوهُ فَهَذَا هُوَ الْمُزْمَعُ بِالْإِتْيَانِ)

فَالْمُتَرْجِمُ الْأَخِيرُ بَدَّلَ لَفْظَ إِيلِيَا بِهَذَا ، فَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ لَوْ بَدَّلُوا أَسْمَاءَ مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْبِشَارَةِ فَلَا عَجَبَ .

(155/291)

---

13 - وَفِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنَ الْبَابِ الرَّابِعِ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 وَسَنَةَ 1831 وَسَنَةَ 1844 هَكَذَا (لَمَّا عَلِمَ يَسُوعُ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ

الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 وَسَنَةَ 1860 (لَمَّا عَلِمَ الرَّبُّ) فَبَدَّلَ الْمُتَرْجِمَانِ الْأَخِيرَانِ لَفْظَ يَسُوعَ – الَّذِي كَانَ عِلْمُ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بِالرَّبِّ الَّذِي هُوَ مِنَ الْأَلْفَاظِ التَّعْظِيمِيَّةِ ، فَلَوْ بَدَّلُوا اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالْأَلْفَاظِ التَّحْقِيرِيَّةِ لِأَجْلِ عَادَتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فَلَا عَجَبَ .

وَهَذِهِ الشَّوَاهِدُ تَدُلُّ عَلَى تَرْجَمَةِ الْأَسْمَاءِ وَإِيرَادِ لَفْظٍ آخَرَ بَدَلَهَا : 1 – فِي الْبَابِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا (وَنَحْوَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا : ايلِي ايلِي ، لِمَاذَا شَبَقْتَنِي ؟ أَيْ : إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي) وَفِي الْبَابِ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ مُرْقُسَ هَكَذَا (وَفِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا الوي الوي لِمَاذَا شَبَقْتَنِي ، الَّذِي تَفْسِيرُهُ إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي)

فَلَفْظُ : أَيْ : إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي فِي إِنْجِيلِ مَتَّى ، وَكَذَا لَفْظُ " الَّذِي تَفْسِيرُهُ إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي " فِي إِنْجِيلِ مُرْقُسَ ، لَيْسَا مِنْ كَلَامِ الشَّخْصِ الْمَصْلُوبِ يَقِينًا ، بَلْ أُلْحِقَا بِكَلَامِهِ .

(156/291)

---

2 – فِي الْآيَةِ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ الثَّالِثِ مِنْ إِنْجِيلِ مُرْقُسَ هَكَذَا (لَقَبُهَا بيوَانِ رجْسِ أَيِ : ابْنِي الرَّعْدُ) فَلَفْظُ " أَيِ : ابْنِي الرَّعْدُ " لَيْسَ مِنْ كَلَامِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، بَلْ هُوَ

إِلْحَاقِيٌّ .

3 - فِي الْآيَةِ الْحَادِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنَ الْبَابِ الْخَامِسِ مِنْ إِنْجِيلِ مُرْقُسَ هَكَذَا (وَقَالَ لَهَا طليثا قومي ، الَّذِي تَفْسِيرُهُ يَا صَبِّيَةُ لَكِ أَقُولُ قُومِي) فَهَذَا التَّفْسِيرُ إِلْحَاقِيٌّ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

4 - فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنَ الْبَابِ السَّابِعِ مِنْ إِنْجِيلِ مُرْقُسَ فِي التَّرْجَمَةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 (وَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ وَتَأَوَّهَ وَقَالَ : افثا يَعْنِي انْفَتَحَ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 (وَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ وَتَنَهَّدَ وَقَالَ : افاثا ، الَّذِي هُوَ انْفَتَحَ ، وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1844 هَكَذَا (وَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ وَتَنَهَّدَ وَقَالَ لَهُ : انْفَتَحَ الَّذِي هُوَ انْفَتَحَ ، وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1860 هَكَذَا (وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهُ : افثا أَيِ : انْفَتَحَ) وَمِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ صِحَّةُ اللَّفْظِ الْعِبْرَانِيِّ أَهُوَ افثا أَوِ افاثا أَوِ انْفَتَحَ لِأَجَلِ

اخْتِلَافِ التَّرَاجِمِ الَّتِي مَنْشَأُ اخْتِلَافِهَا عَدَمُ صِحَّةِ أَلْفَاظِ أُصُولِهَا ، لَكِنَّهُ يُعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ لَفْظَ أَيِ : انْفَتَحَ أَوِ الَّذِي هُوَ انْفَتَحَ إِلْحَاقِيٌّ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

(157/291)

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الْمَسِيحِيَّةُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي نَقَلْتُهَا مِنَ الشَّاهِدِ الْأَوَّلِ إِلَى هَاهُنَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَسِيحَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – كَانَ يَتَكَلَّمُ بِاللِّسَانِ الْعِبْرَانِيِّ الَّذِي كَانَ لِسَانَ قَوْمِهِ ، وَمَا كَانَ يَتَكَلَّمُ بِالْيُونَانِيِّ ، وَهُوَ قَرِيبُ الْقِيَاسِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عِبْرَانِيًّا ابْنَ عِبْرَانِيَّةٍ نَشَأَ فِي قَوْمِهِ الْعِبْرَانِيِّينَ ، فَنَقْلُ أَقْوَالِهِ فِي هَذِهِ الْأَنَاجِيلِ فِي الْيُونَانِيِّ نَقْلٌ بِالْمَعْنَى ، وَهَذَا أَمْرٌ آخَرُ زَائِدٌ عَلَى كَوْنِ أَقْوَالِهِ مَرْوِيَّةً بِرِوَايَةِ الْآحَادِ .

5 – فِي الْآيَةِ الثَّامِنَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ انْجِيلِ يُوحَنَّا هَكَذَا (فَقَالَا لَهُ : رَبِّي الَّذِي تَفْسِيرُهُ يَا مُعَلِّمُ) فَقَوْلُهُ : الَّذِي تَفْسِيرُهُ يَا مُعَلِّمُ – إِلْحَاقِيٌّ لَيْسَ مِنْ كَلَامِهِمَا .

(158/291)

---

6 – فِي الْآيَةِ الْحَادِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنَ الْبَابِ الْمَذْكُورِ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 وَسَنَةَ 1844 (قَدْ وَجَدْنَا مسيا الَّذِي تَأْوِيلُهُ الْمَسِيحُ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 (مَا مَسِيحُ رَاكَّةٌ تَرْجَمَةُ آنَ كرسطوس ميباشمد يا فتيم) وَتَرْجَمَةُ أُرْدُو الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1814 تُوَافِقُ الْفَارِسِيَّةَ ، فَيُعْلَمُ مِنَ التَّرْجَمَتَيْنِ الْعَرَبِيَّتَيْنِ أَنَّ اللَّفْظَ الَّذِي قَالَهُ أندراوس هومسيا وَأَنَّ الْمَسِيحَ تَرْجَمَتُهُ ، وَمِنَ التَّرْجَمَةِ الْفَارِسِيَّةِ وَأُرْدُو (أَيِ : التَّرْجَمَةِ الْأُورْدِيَّةِ) أَنَّ لَفْظَ الْأَصْلِ هُوَ الْمَسِيحُ وكرسطوس تَرْجَمَتُهُ ، وَيُعْلَمُ مِنْ تَرْجَمَةِ أُرْدُو

الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1839 أَنَّ لَفْظَ الْأَصْلِ خرسته ، وَأَنَّ الْمَسِيحَ تَرْجَمَتُهُ ، فَلَا يُعْلَمُ مِنْ كَلَامِهِمْ أَيُّ لَفْظٍ كَانَ الْأَصْلَ ؟ أَمسيا أَمِ الْمَسِيحُ أَمْ خرسته ؟ وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهَا وَاحِدًا لَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّ الَّذِي قَالَهُ أندراوس هُوَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ يَقِينًا ، وَإِذَا ذُكِرَ اللَّفْظُ وَالتَّفْسِيرُ فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ لَفْظِ الْأَصْلِ أَوَّلًا ، ثُمَّ مِنْ ذِكْرِ تَفْسِيرِهِ ، لَكِنِّي أَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْ هَذَا وَأَقُولُ : إِنَّ التَّفْسِيرَ الْمَشْكُوكَ فِيهِ أَيًّا مَا كَانَ إِلْحَاقِيٌّ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ أندراوس .

(159/291)

---

7 - فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا قَوْلُ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي حَقِّ بُطْرُسَ الْحَوَارِيِّ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 هَكَذَا (أَنْتَ تُدْعَى بِبُطْرُسَ الَّذِي تَأْوِيلُهُ الصَّخْرَةُ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 (سَتُسَمَّى أَنْتَ بِالصَّفَا الْمُفَسَّرِ بِبُطْرُسَ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 (ترا بكيفاس كه تَرْجَمَةُ : آن سنك است تداخوا هند كرد) .

أَمْطَرَ اللَّهُ حِجَارَةً عَلَى تَحْقِيقِهِمْ وَتَصْحِيحِهِمْ لَا يَتَمَيَّزُ الْمُفَسَّرُ مِنْ كَلَامِهِمْ عَنِ الْمُفَسَّرِ ، لَكِنِّي أَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْ هَذَا وَأَقُولُ : إِنَّ التَّفْسِيرَ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَلْ هُوَ إِلْحَاقِيٌّ ، وَإِذَا كَانَ حَالُ تَرَاجِمِهِمْ وَحَالُ تَحْقِيقِهِمْ فِي لَقَبِ إِلَهِهِمْ وَلَقَبِ خَلِيفَتِهِ كَمَا عَلِمْتَ

فَكَيْفَ نَرْجُو مِنْهُمْ صِحَّةَ بَقَاءِ لَفْظِ مُحَمَّدٍ أَوْ أَحْمَدَ أَوْ لَقَبٍ مِنْ أَلْقَابِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ! .

(160/291)

(ثُمَّ قَالَ بَعْدَ إيرَادِ شَوَاهِدَ أُخْرَى مَا نَصُّهُ) : فَإِذَا كَانَتْ خَصْلَةُ أَهْلِ الدِّينِ وَالدِّيَانَةِ مَا عَرَفْتَ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِ أَهْلِ الدِّيَانَةِ ؟ بَلِ الْحَقُّ أَنَّ التَّحْرِيفَ الْقَصْدِيَّ بِالتَّبْدِيلِ بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ مِنْ خِصَالِهِمْ كُلِّهِمْ أَجْمَعِينَ ، فَبَعْضُ الْأَخْبَارِ الَّتِي نَقَلَهَا الْعُلَمَاءُ الْأَسْلَافُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، مِثْلُ الْإِمَامِ الْقُرْطُبِيِّ وَغَيْرِهِ إذَا لَمْ تَجِدْهَا مُوَافِقَةً فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ لِلتَّرَاجِمِ الْمَشْهُورَةِ الْآنَ فَسَبَبُهُ غَالِبًا هَذَا التَّغْيِيرُ ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ نَقَلُوا عَنِ التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ رَائِجَةً فِي عَهْدِهِمْ ، وَبَعْدَ زَمَانِهِمْ وَقَعَ الْإِصْلَاحُ فِي تِلْكَ التَّرْجَمَةِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ

يَكُونَ ذَاكَ السَّبَبُ اخْتِلَافُ التَّرَاجِمِ لَكِنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْمُعْتَمَدُ ؛ لِأَنَّا نَرَى أَنَّ هَذِهِ الْعَادَةَ جَارِيَةٌ إلَى الْآنِ فِي تَرَاجِمِهِمْ وَرَسَائِلِهِمْ ، أَلَا تَرَى إلَى مِيزَانِ الْحَقِّ إلَخْ .

(الْأَمْرُ الثَّامِنُ)

(161/291)

إِنَّ بُولُسَ وَإِنْ كَانَ عِنْدَ أَهْلِ التَّثْلِيثِ فِي رُتْبَةِ الْحَوَارِيِّينَ لَكِنَّهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ عِنْدَنَا ، وَلَا نَعُدُّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، بَلْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْكَذَّابِينَ وَمُعَلِّمِي الزُّورِ وَالرُّسُلِ الْخَدَّاعِينَ الَّذِينَ ظَهَرُوا بِالْكَثْرَةِ بَعْدَ عُرُوجِ الْمَسِيحِ كَمَا عَرَفْتَ فِي الْأَمْرِ الرَّابِعِ ، وَهُوَ الَّذِي خَرَّبَ الدِّينَ الْمَسِيحِيَّ ، وَأَبَاحَ كُلَّ مُحَرَّمٍ لِمُعْتَقِدِيهِ ، وَكَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ مُؤْذِيًا لِلطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ جَهْرًا ، لَكِنَّهُ لَمَّا رَأَى هَذَا الْإِيذَاءَ الْجَهْرِيَّ لَا يَنْفَعُ نَفْعًا مُعْتَدًّا بِهِ ؛ دَخَلَ عَلَى سَبِيلِ النِّفَاقِ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ ، وَادَّعَى رِسَالَةَ الْمَسِيحِ ، وَأَظْهَرَ الزُّهْدَ الظَّاهِرِيَّ ، فَفَعَلَ فِي هَذَا الْحِجَابِ مَا فَعَلَ ، وَقَبِلَهُ أَهْلُ التَّثْلِيثِ لِأَجْلِ زُهْدِهِ الظَّاهِرِيِّ ، وَلِأَجْلِ إِفْرَاغِ ذِمَّتِهِمْ مِنْ جَمِيعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ ، كَمَا قَبِلَ أُنَاسٌ كَثِيرُونَ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي " منتش " الَّذِي كَانَ زَاهِدًا مُرْتَاضًا ، وَادَّعَى أَنَّهُ هُوَ الْفَارْقَلِيطُ الْمَوْعُودُ بِهِ ، فَقَبِلُوهُ لِأَجْلِ زُهْدِهِ وَرِيَاضَتِهِ كَمَا سَيَجِيءُ ذِكْرُهُ فِي الْبِشَارَةِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ ، وَرَدَّهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ سَلَفًا وَخَلَفًا .

(162/291)

قَالَ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ فِي حَقِّ بُولُسَ هَذَا مُجِيبًا لِبَعْضِ الْقِسِّيسِينَ فِي بَحْثِ مَسْأَلَةِ الصَّوْمِ هَكَذَا : " قُلْنَا ذَلِكَ - أَيْ : بُولُسَ - هُوَ الَّذِي أَفْسَدَ عَلَيْكُمْ أَدْيَانَكُمْ ، وَأَعْمَى بَصَائِرَكُمْ وَأَذْهَانَكُمْ ، ذَلِكَ هُوَ الَّذِي غَيَّرَ دِينَ الْمَسِيحِ الصَّحِيحِ ، الَّذِي لَمْ تَسْمَعُوا لَهُ بِخَبَرٍ ، وَلَا وَقَفْتُمْ مِنْهُ عَلَى أَثَرٍ ، هُوَ الَّذِي صَرَفَكُمْ عَنِ الْقِبْلَةِ ، وَحَلَّلَ لَكُمْ كُلَّ مُحَرَّمٍ كَانَ فِي الْمِلَّةِ ؛ وَلِذَلِكَ كَثُرَتْ أَحْكَامُهُ عِنْدَكُمْ وَتَدَاوَلْتُمُوهَا بَيْنَكُمْ " انْتَهَى كَلَامُهُ بِلَفْظِهِ .

وَقَالَ صَاحِبُ (تَخْجِيلِ مَنْ حَرَّفَ الْإِنْجِيلَ) فِي الْبَابِ التَّاسِعِ مِنْ كِتَابِهِ فِي بَيَانِ فَضَائِحِ النَّصَارَى فِي حَقِّ بُولُسَ هَذَا هَكَذَا " وَقَدْ سَلَّهُمْ بُولُسُ هَذَا مِنَ الدِّينِ بِلَطِيفِ خِدَاعِهِ ؛ إِذْ رَأَى عُقُولَهُمْ قَابِلَةً لِكُلِّ مَا يُلْقَى إِلَيْهَا ، وَقَدْ طَمَسَ هَذَا الْخَبِيثُ رُسُومَ التَّوْرَاةِ " انْتَهَى كَلَامُهُ بِلَفْظِهِ ، وَهَكَذَا أَقْوَالُ عُلَمَائِنَا الْآخَرِينَ . فَكَلَامُهُ عِنْدَمَا مَرْدُودٌ وَرَسَائِلُهُ الْمُنْضَمَّةُ بِالْعَهْدِ الْعَتِيقِ

كُلُّهَا وَاجِبَةُ الرَّدِّ ، وَلَا نَشْتَرِي

قَوْلَهُ بِحَبَّةِ خَرْدَلٍ ، فَلَا أَنْقُلُ عَنْ أَقْوَالِهِ فِي هَذَا الْمَسْلَكِ شَيْئًا وَلَا يَكُونُ قَوْلُهُ حُجَّةً عَلَيْنَا .

(163/291)

وَإِذْ قَدْ عَرَفْتَ هَذِهِ الْأُمُورَ الثَّمَانِيَةَ أَقُولُ : إِنَّ الْأَخْبَارَ الْوَاقِعَةَ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تُوجَدُ كَثِيرَةً إِلَى الْآنِ أَيْضًا مَعَ وُقُوعِ التَّحْرِيفَاتِ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ ، وَمَنْ عَرَفَ أَوَّلًا طَرِيقَ إِخْبَارِ النَّبِيِّ الْمُتَقَدِّمِ عَنِ النَّبِيِّ الْمُتَأَخِّرِ عَلَى مَا عَرَفْتَ فِي الْأَمْرِ الثَّانِي ثُمَّ نَظَرَ ثَانِيًا بِنَظَرِ الْإِنْصَافِ إِلَى هَذِهِ الْأَخْبَارِ ، وَقَابَلَهَا بِالْأَخْبَارِ الَّتِي نَقَلَهَا الْإِنْجِيلِيُّونَ فِي حَقِّ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَقَدْ عَرَفْتَ نُبَذًا مِنْهَا فِي الْأَمْرِ السَّادِسِ – جَزَمَ بِأَنَّ الْأَخْبَارَ الْمُحَمَّدِيَّةَ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ ، وَأَنْقُلُ فِي هَذَا الْمَسْلَكِ عَنِ الْكُتُبِ الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ بُرُوتُسْتَنْتْ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ بِشَارَةً .

(الْبِشَارَةُ الْأُولَى)

(164/291)

فِي الْبَابِ الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ الِاسْتِثْنَاءِ (التَّثْنِيَةِ) هَكَذَا (17 فَقَالَ الرَّبُّ لِي نَعَمْ جَمِيعُ مَا قَالُوا 18 وَسَوْفَ أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِثْلَكَ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِمْ ، وَأَجْعَلُ كَلَامِي فِي فَمِهِ وَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ آمُرُهُ بِهِ 19 ، وَمَنْ لَمْ يُطِعْ كَلَامَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي فَأَنَا أَكُونُ الْمُنْتَقِمَ مِنْ ذَلِكَ 20 فَأَنَا النَّبِيُّ الَّذِي يَجْتَرِي بِالْكِبْرِيَاءِ ، وَيَتَكَلَّمُ فِي اسْمِي مَا لَمْ آمُرْهُ بِأَنْ يَقُولَهُ أَمْ بِاسْمِ آلِهَةٍ غَيْرِي فَلْيَقْتُلْ 21 فَإِنْ أَجَبْتَ وَقُلْتَ فِي قَلْبِكَ كَيْفَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُمَيِّزَ الْكَلَامَ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ

الرَّبُّ 22 فَهَذِهِ تَكُونُ لَكَ آيَةً أَنَّ مَا قَالَهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ فِي اسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ فَالرَّبُّ لَمْ يَكُنْ تَكَلَّمَ بِهِ بَلْ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَوَّرَهُ فِي تَعَظُّمِ نَفْسِهِ ، وَلِذَلِكَ لَا تَخْشَاهُ .

وَهَذِهِ الْبِشَارَةُ لَيْسَتْ بِشَارَةً بِيُوشَعَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَمَا يَزْعُمُ الْآنَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ وَلَا بِشَارَةً بِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَمَا زَعَمَ عُلَمَاءُ بُرُوتُسْتَنْتْ بَلْ هِيَ بِشَارَةٌ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِعَشَرَةِ أَوْجُهٍ .

(الْوَجْهُ الْأَوَّلُ) قَدْ عَرَفْتَ فِي الْأَمْرِ الثَّالِثِ أَنَّ الْيَهُودَ الْمُعَاصِرِينَ لِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانُوا يَنْتَظِرُونَ نَبِيًّا آخَرَ مُبَشِّرًا بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَكَانَ هَذَا الْمُبَشَّرُ بِهِ عِنْدَهُمْ غَيْرَ الْمَسِيحِ ، فَلَا يَكُونُ هَذَا الْمُبَشَّرُ بِهِ يُوشَعَ وَلَا عِيسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - .

(165/291)

(وَالْوَجْهُ الثَّانِي) أَنَّهُ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْبِشَارَةِ لَفْظُ مِثْلَكَ ، وَيُوشَعُ وَعِيسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَا مِثْلَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - . أَمَّا أَوَّلًا : فَلِأَنَّهُمَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقُومَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلَ مُوسَى كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْعَاشِرَةُ مِنَ الْبَابِ الرَّابِعِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ سِفْرِ الِاسْتِثْنَاءِ (التَّثْنِيَةِ) وَهِيَ هَكَذَا (10 وَلَمْ يَقُمْ بَعْدَ ذَلِكَ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلَ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ) إِلَخْ . وَأَمَّا ثَانِيًا : فَلِأَنَّهُ لَا مُمَاثَلَةَ بَيْنَ

يُوشَعَ وَبَيْنَ مُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ؛ لِأَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - صَاحِبُ كِتَابٍ وَشَرِيعَةٍ جَدِيدَةٍ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى أَوَامِرَ وَنَوَاهِيَ وَيُوشَعُ لَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ هُوَ مُتَّبِعٌ لِشَرِيعَتِهِ ، وَكَذَا لَا تُوجَدُ الْمُمَاثَلَةُ التَّامَّةُ بَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى

-

(166/291)

عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ؛ لِأَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ إلَهًا وَرَبًّا - عَلَى زَعْمِ النَّصَارَى - وَمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ عَبْدًا لَهُ ، وَأَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى زَعْمِهِمْ - صَارَ مَلْعُونًا لِشَفَاعَةِ الْخَلْقِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ بُولُسُ فِي الْبَابِ الثَّالِثِ مِنْ رِسَالَتِهِ إلَى أَهْلِ غَلَاطِيَةَ وَمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا صَارَ مَلْعُونًا لِشَفَاعَتِهِمْ ، وَأَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - دَخَلَ الْجَحِيمَ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي عَقَائِدِ أَهْلِ التَّثْلِيثِ ، وَمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا دَخَلَ الْجَحِيمَ ، وَأَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - صُلِبَ عَلَى زَعْمِ النَّصَارَى لِيَكُونَ كَفَّارَةً لِأُمَّتِهِ وَمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا صَارَ كَفَّارَةً لِأُمَّتِهِ بِالصَّلْبِ ، وَأَنَّ شَرِيعَةَ مُوسَى مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْحُدُودِ وَالتَّعْزِيرَاتِ وَأَحْكَامِ الْغُسْلِ وَالطَّهَارَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَأْكُولَاتِ وَالْمَشْرُوبَاتِ بِخِلَافِ شَرِيعَةِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَإِنَّهَا فَارِغَةٌ عَنْهَا عَلَى مَا يَشْهَدُ بِهِ

هَذَا الْإِنْجِيلُ الْمُتَدَاوَلُ بَيْنَهُمْ ، وَأَنَّ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – كَانَ رَئِيسًا مُطَاعًا فِي قَوْمِهِ نَفَّاذًا لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَعِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ .

(167/291)

(الْوَجْهُ الثَّالِثُ) أَنَّهُ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْبِشَارَةِ لَفْظُ " مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِمْ " وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَسْبَاطَ الِاثْنَيْ عَشَرَ كَانُوا مَوْجُودِينَ فِي ذَاكَ الْوَقْتِ مَعَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – حَاضِرِينَ عِنْدَهُ ، فَلَوْ كَانَ الْمَقْصُودُ كَوْنَ النَّبِيِّ الْمُبَشَّرِ بِهِ " مِنْهُمْ " لَقَالَ مِنْهُمْ لَا " مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِمْ " لِأَنَّ الِاسْتِعْمَالَ الْحَقِيقِيَّ لِهَذَا اللَّفْظِ أَلَّا يَكُونَ الْمُبَشَّرُ بِهِ لَهُ عَلَاقَةُ الصُّلْبِيَّةِ وَالْبَطْنِيَّةِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَمَا جَاءَ لَفْظُ الْإِخْوَةِ بِهَذَا الِاسْتِعْمَالِ الْحَقِيقِيِّ فِي وَعْدِ اللَّهِ لِهَاجَرَ فِي حَقِّ إِسْمَاعِيلَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ ، وَعِبَارَتُهَا فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1844 هَكَذَا (وَقُبْلَةُ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ بِنَصْبِ الْمَضَارِبِ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 هَكَذَا

(168/291)

(بِحَضْرَةِ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ) وَجَاءَ بِهَذَا الِاسْتِعْمَالِ أَيْضًا فِي الْآيَةِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ فِي حَقِّ إِسْمَاعِيلَ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1844 هَكَذَا (مُنْتَهَى إِخْوَتِهِ جَمِيعِهِمْ سَكَنٌ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1811 هَكَذَا (أَقَامَ بِحَضْرَةِ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ) وَالْمُرَادُ بِالْإِخْوَةِ هَا هُنَا بَنُو عِيسُو وَإِسْحَاقَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَفِي الْآيَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ الْعِشْرِينَ مِنْ سِفْرِ الْعَدَدِ هَكَذَا : (ثُمَّ أَرْسَلَ مُوسَى رُسُلًا مِنْ قَادِسَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ قَائِلًا : هَكَذَا يَقُولُ أَخُوكَ إِسْرَائِيلُ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ كُلَّ الْبَلَاءِ الَّذِي أَصَابَنَا) وَفِي الْبَابِ الثَّانِي مِنْ سِفْرِ (التَّثْنِيَةِ) هَكَذَا (3 وَقَالَ لِيَ الرَّبُّ 4 ثُمَّ أَوْصِ الشَّعْبَ إِنَّكُمْ سَتَجُوزُونَ فِي تُخُومِ إِخْوَتِكُمْ بَنِي عِيسُو الَّذِينَ فِي سَاعِيرَ وَسَيَخْشَوْنَكُمْ 5 فَلَمَّا جُزْنَا إِخْوَتَنَا بَنِي عِيسُو الَّذِينَ يَسْكُنُونَ سَاعِيرَ إِلَخْ) وَالْمُرَادُ بِإِخْوَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَنُو عِيسُو ، وَلَا شَكَّ أَنَّ اسْتِعْمَالَ لَفْظِ إِخْوَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَعْضٍ مِنْهُمْ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنَ التَّوْرَاةِ اسْتِعْمَالٌ مَجَازِيٌّ ، وَلَا تُتْرَكُ الْحَقِيقَةُ وَلَا يُصَارُ إِلَى الْمَجَازِ مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنَ الْحَمْلِ عَلَى الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ مَانِعٌ قَوِيٌّ ، وَيُوشَعُ وَعِيسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - كَانَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ فَلَا تَصْدُقُ هَذِهِ الْبِشَارَةُ

عَلَيْهِمَا .

(الْوَجْهُ الرَّابِعُ) أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْبِشَارَةِ لَفْظُ " سَوْفَ أُقِيمُ " وَيُوشَعُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ حَاضِرًا عِنْدَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - دَاخِلًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ نَبِيًّا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، فَكَيْفَ يَصْدُقُ عَلَيْهِ هَذَا اللَّفْظُ ! .

(الْوَجْهُ الْخَامِسُ) أَنَّهُ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْبِشَارَةِ لَفْظُ : " أَجْعَلُ كَلَامِي فِي فَمِهِ " وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ النَّبِيَّ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، وَإِلَى أَنَّهُ يَكُونُ أُمِّيًّا حَافِظًا لِلْكَلَامِ ، وَهَذَا لَا يَصْدُقُ عَلَى يُوشَعَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِانْتِفَاءِ كِلَا الْأَمْرَيْنِ فِيهِ .

(الْوَجْهُ السَّادِسُ) أَنَّهُ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْبِشَارَةِ : وَمَنْ لَمْ يُطِعْ كَلَامَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَأَنَا أَكُونُ الْمُنْتَقِمَ مِنْهُ ، فَهَذَا الْأَمْرُ لَمَّا ذُكِرَ لِتَعْظِيمِ هَذَا النَّبِيِّ الْمُبَشَّرِ بِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَمْتَازَ ذَلِكَ الْمُبَشَّرُ بِهِ بِهَذَا الْأَمْرِ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالِانْتِقَامِ مِنَ الْمُنْكِرِ الْعَذَابُ الْأُخْرَوِيُّ الْكَائِنُ فِي جَهَنَّمَ ، أَوِ الْمِحَنُ وَالْعُقُوبَاتُ الدُّنْيَوِيَّةُ الَّتِي تَلْحَقُ الْمُنْكِرِينَ مِنَ الْغَيْبِ ؛ لِأَنَّ هَذَا الِانْتِقَامَ لَا يَخْتَصُّ بِإِنْكَارِ

نَبِيٍّ دُونَ نَبِيٍّ ، بَلْ يَعُمُّ الْجَمِيعَ ، فَحِينَئِذٍ يُرَادُ بِالِانْتِقَامِ الِانْتِقَامُ التَّشْرِيعِيُّ ، فَظَهَرَ مِنْهُ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ يَكُونُ مَأْمُورًا مِنْ جَانِبِ اللهِ بِالِانْتِقَامِ مِنْ مُنْكِرِهِ ، فَلَا يَصْدُقُ عَلَى عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ؛ لِأَنَّ شَرِيعَتَهُ خَالِيَةٌ عَنْ أَحْكَامِ الْحُدُودِ وَالْقِصَاصِ وَالتَّعْزِيرِ وَالْجِهَادِ .

(الْوَجْهُ السَّابِعُ) فِي الْبَابِ الثَّالِثِ مِنْ كِتَابِ الْأَعْمَالِ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1844 هَكَذَا (19 فَتُوبُوا وَارْجِعُوا كَيْ تُمْحَى خَطَايَاكُمْ 20 حَتَّى إِذَا تَأْتِي أَزْمِنَةُ الرَّاحَةِ مِنْ قُدَّامِ وَجْهِ الرَّبِّ وَيُرْسِلُ الْمُنَادَى بِهِ لَكُمْ وَهُوَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ 21 الَّذِي إِيَّاهُ يَنْبَغِي لِلسَّمَاءِ أَنْ تَقْبَلَهُ السَّمَاءُ إِلَى الزَّمَانِ الَّذِي يَسْتَرِدُّ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ اللهُ عَلَى أَفْوَاهِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ 22 إِنَّ مُوسَى قَالَ : إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَكُمْ يُقِيمُ لَكُمْ نَبِيًّا مِنْ إِخْوَتِكُمْ مِثْلِي لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ 23 وَيَكُونُ كُلُّ نَفْسٍ لَا تَسْمَعُ ذَلِكَ النَّبِيَّ تَهْلَكُ مِنَ الشَّعْبِ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْفَارِسِيَّةِ . . .

(حَذَفْنَا النَّصَّ الْفَارِسِيَّ اسْتِغْنَاءً عَنْهُ بِمَا يَذْكُرُهُ مِنْ مَضْمُونِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ) :

(171/291)

فَهَذِهِ الْعِبَارَةُ سِيَّمَا بِحَسَبِ التَّرَاجِمِ الْفَارِسِيَّةِ تَدُلُّ صَرَاحَةً عَلَى أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ غَيْرَ الْمَسِيحِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَأَنَّ الْمَسِيحَ لَا بُدَّ أَنْ تَقْبَلَهُ السَّمَاءُ إِلَى زَمَانِ ظُهُورِ هَذَا النَّبِيِّ ،

وَمَنْ تَرَكَ التَّعَصُّبَ الْبَاطِلَ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ - وَتَأَمَّلَ فِي عِبَارَةِ بُطْرُسَ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مَنْ بُطْرُسَ يَكْفِي لِإِبْطَالِ ادِّعَاءِ عُلَمَاءِ بُرُوتُسْتَنْتْ أَنَّ هَذِهِ الْبِشَارَةَ فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

وَهَذِهِ الْوُجُوهُ السَّبْعَةُ الَّتِي ذَكَرْتُهَا تَصْدُقُ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَكْمَلَ صِدْقٍ ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَيُمَاثِلُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ (1) كَوْنُهُ عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ . (2) كَوْنُهُ ذَا وَالِدَيْنِ (3) كَوْنُهُ ذَا نِكَاحٍ وَأَوْلَادٍ (4) كَوْنُ شَرِيعَتِهِ مُشْتَمِلَةً عَلَى السِّيَاسَاتِ الْمَدَنِيَّةِ . (5) كَوْنُهُ مَأْمُورًا بِالْجِهَادِ (6) اشْتِرَاطُ الطَّهَارَةِ وَقْتَ الْعِبَادَةِ فِي شَرِيعَتِهِ . (7) وُجُوبُ الْغُسْلِ لِلْجُنُبِ الْحَائِضِ وَالنُّفَسَاءِ فِي شَرِيعَتِهِ (8) اشْتِرَاطُ طَهَارَةِ الثَّوْبِ مِنْ

الْبَوْلِ وَالْبُرَازِ فِيهَا . (9) حُرْمَةُ غَيْرِ الْمَذْبُوحِ وَقَرَايِينِ الْأَوْثَانِ فِيهَا . (10) وَكَوْنُ شَرِيعَتِهِ مُشْتَمِلَةً عَلَى الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالرِّيَاضَاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ . (11) أَمْرُهُ بِحَدِّ الزِّنَا . (12) تَعْيِينُ الْحُدُودِ وَالتَّعْزِيرَاتِ وَالْقِصَاصِ (13) كَوْنُهُ قَادِرًا عَلَى تَنْفِيذِهَا . (14) تَحْرِيمُ الزِّنَا . (15) أَمْرُهُ بِإِنْكَارِ مَنْ

يَدْعُو إِلَى غَيْرِ اللهِ (16) أَمْرُهُ بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ (17) أَمْرُهُ الْأُمَّةَ بِأَنْ يَقُولُوا لَهُ عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ ، لَا ابْنَ اللهِ أَوِ اللهَ ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ (18) مَوْتُهُ عَلَى الْفِرَاشِ . (19) كَوْنُهُ مَدْفُونًا كَمُوسَى (20) عَدَمُ كَوْنِهِ مَلْعُونًا لِأَجْلِ أُمَّتِهِ .

(173/291)

وَهَكَذَا أُمُورٌ أُخَرُ تَظْهَرُ إِذَا تُؤَمِّلَ فِي شَرِيعَتِهِمَا ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ - تَعَالَى - فِي كَلَامِهِ الْمَجِيدِ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (73 : 15) وَكَانَ مِنْ إِخْوَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، وَكَانَ أُمِّيًّا جَعَلَ كَلَامَ اللهِ فِي فَمِهِ ، وَكَانَ يَنْطِقُ بِالْوَحْيِ كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى - : وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (53 : 3 ، 4) وَكَانَ مَأْمُورًا بِالْجِهَادِ ، وَقَدِ انْتَقَمَ اللهُ لِأَجْلِهِ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ وَالْأَكَاسِرَةِ وَالْقَيَاصِرَةِ وَغَيْرِهِمْ ، وَظَهَرَ قَبْلَ نُزُولِ الْمَسِيحِ مِنَ السَّمَاءِ ، وَكَانَ لِلسَّمَاءِ أَنْ تَقْبَلَ الْمَسِيحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى ظُهُورِهِ لِيَرُدَّ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى أَصْلِهِ ، وَيَمْحَقَ الشِّرْكَ وَالتَّثْلِيثَ وَعِبَادَةَ الْأَوْثَانِ ، وَلَا يَرْتَابُ أَحَدٌ مِنْ كَثْرَةِ أَهْلِ التَّثْلِيثِ فِي هَذَا الزَّمَانِ الْأَخِيرِ ؛ لِأَنَّ هَذَا الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ قَدْ أَخْبَرَنَا عَلَى أَتَمِّ تَفْصِيلٍ وَأَكْمَلِ وَجْهٍ بِحَيْثُ لَا يَبْقَى رَيْبٌ مَا بِكَثْرَتِهِمْ وَقْتَ قُرْبِ ظُهُورِ الْمَهْدِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَهَذَا الْوَقْتُ

قَرِيبٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَسَيَظْهَرُ الْإِمَامُ وَيَظْهَرُ الْحَقُّ عَنْ قَرِيبٍ ، وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْ أَنْصَارِهِ وَخُدَّامِهِ آمِينَ .

(174/291)

(الْوَجْهُ الثَّامِنُ) أَنَّهُ صَرَّحَ فِي هَذِهِ الْبِشَارَةِ بِأَنَّ النَّبِيَّ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ مَا لَمْ يَأْمُرْهُ يُقْتَلُ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَبِيًّا حَقًّا لَكَانَ قُتِلَ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَيْضًا : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (69 : 44 - 46) وَمَا قُتِلَ ، بَلْ قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّهِ : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (5 : 67) وَأَوْفَى وَعْدَهُ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى قَتْلِهِ أَحَدٌ حَتَّى لَقِيَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قُتِلَ وَصُلِبَ عَلَى زَعْمِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْبِشَارَةُ فِي حَقِّهِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا كَاذِبًا كَمَا يَزْعُمُهُ الْيَهُودُ ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ .

(الْوَجْهُ التَّاسِعُ) أَنَّ اللَّهَ بَيَّنَ عَلَامَةَ النَّبِيِّ الْكَاذِبِ (وَهِيَ) أَنَّ أَخْبَارَهُ عَنِ الْغَيْبِ الْمُسْتَقْبَلِ لَا تَخْرُجُ صَادِقَةً ، وَمُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْبَرَ عَنِ الْأُمُورِ الْكَثِيرَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ كَمَا عَلِمْتَ

فِي الْمَسْلَكِ الْأَوَّلِ ، وَظَهَرَ صِدْقُهُ فِيهَا فَيَكُونُ نَبِيًّا صَادِقًا لَا كَاذِبًا .

(الْوَجْهُ الْعَاشِرُ) أَنَّ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ سَلَّمُوا كَوْنَهُ مُبَشَّرًا بِهِ فِي التَّوْرَاةِ لَكِنَّ بَعْضَهُمْ أَسْلَمَ ، وَبَعْضُهُمْ بَقِيَ فِي الْكُفْرِ - كَمَا أَنَّ قيافا وَكَانَ رَئِيسَ الْكَهَنَةِ وَنَبِيًّا عَلَى زَعْمِ يُوحَنَّا عَرَفَ أَنَّ عِيسَى هُوَ الْمَسِيحُ الْمَوْعُودُ بِهِ ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بَلْ أَفْتَى بِكُفْرِهِ وَقَتْلِهِ ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ يُوحَنَّا فِي الْبَابِ الْحَادِيَ عَشَرَ وَالثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ إنْجِيلِهِ - كَمَا رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ مُخَيْرِيقٍ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِصِفَتِهِ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ إلْفَةُ دِينِهِ فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى كَانَ يَوْمُ (غَزْوَةِ) أُحُدٍ ، وَكَانَ يَوْمَ السَّبْتِ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَاللَّهِ إنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ نَصْرَ مُحَمَّدٍ عَلَيْكُمْ لَحَقٌّ . قَالُوا : فَإِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ ؟ قَالَ : لَا سَبْتَ ثُمَّ أَخَذَ سِلَاحَهُ وَخَرَجَ حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأُحُدٍ ، وَكَانَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَعَهِدَ إلَى مَنْ وَرَائَهُ مِنْ قَوْمِهِ : إنْ قُتِلْتُ هَذَا الْيَوْمَ فَمَالِي لِمُحَمَّدٍ يَصْنَعُ فِيهِ مَا أَرَاهُ اللَّهُ - تَعَالَى - ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : " مُخَيْرِيقٌ خَيْرُ يَهُودَ " وَقَبَضَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمْوَالَهُ ، فَعَامَّةُ صَدَقَاتِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْمَدِينَةِ مِنْهَا ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : " أَتَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَيْتَ الْمَدَارِسِ

فَقَالَ : أَخْرِجُوا إِلَيَّ أَعْلَمَكُمْ ، فَقَالُوا : عَبْدُ اللهِ بْنُ صُورِيَا فَخَلَا بِهِ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَنَاشَدَهُ بِدِينِهِ وَبِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَطْعَمَهُمْ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى وَظَلَّلَهُمْ مِنَ الْغَمَامِ : أَتَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ؟ قَالَ : اللهُمَّ نَعَمْ ، وَأَنَّ الْيَهُودَ يَعْرِفُونَ مَا أَعْرِفُ ، وَأَنَّ صِفَتَكَ وَنَعْتَكَ لَمُبَيَّنٌ فِي التَّوْرَاةِ وَلَكِنْ حَسَدُوكَ . قَالَ : " فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْتَ " ؟ قَالَ : أَكْرَهُ خِلَافَ قَوْمِي ، عَسَى أَنْ

يَتَّبِعُوكَ وَيُسْلِمُوا فَأُسْلِمُ – وَعَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – " لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْمَدِينَةَ وَنَزَلَ قُبَاءَ غَدَا عَلَيْهِ أَبِي حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَعَمِّي أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ مُغَلِّسَيْنِ فَلَمْ يَرْجِعَا حَتَّى كَانَ غُرُوبُ الشَّمْسِ ، فَأَتَيَا كَالَّيْنِ كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَا فَهَشَشْتُ إِلَيْهِمَا فَمَا الْتَفَتَ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمَا مَعَ مَا بِهِمَا مِنَ الْهَمِّ ، فَسَمِعْتُ عَمِّي أَبَا يَاسِرٍ يَقُولُ لِأَبِي : أَهُوَ هُوَ ؟ (أَيِ : الْمُبَشَّرِ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ) قَالَ : نَعَمْ وَاللهِ ، قَالَ : أَتُثْبِتُهُ وَتَعْرِفُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَمَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ ؟ قَالَ : عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بَقِيتُ أَبَدًا " – فَتِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ .

(فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ أُخُوَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَنْحَصِرُ فِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ لِأَنَّ بَنِي عِيسُو وَبَنِي أَبْنَاءِ قَطُورَا زَوْجَةِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - مِنْ إِخْوَتِهِمْ أَيْضًا (قُلْتُ) : نَعَمْ هَؤُلَاءِ أَيْضًا مِنْ إِخْوَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَظْهَرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَكُونُ مَوْصُوفًا بِالْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ وَعْدُ اللَّهِ فِي حَقِّهِمْ أَيْضًا بِخِلَافِ بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُ اللَّهِ فِي حَقِّهِمْ لِإِبْرَاهِيمَ وَلِهَاجَرَ عَلَيْهِمَا

السَّلَامُ مَعَ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مِصْدَاقُ هَذَا الْخَبَرِ بَنِي عِيسُو عَلَى مَا هُوَ مُقْتَضَى دُعَاءِ إِسْحَاقَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، الْمُصَرَّحِ بِهِ فِي الْبَابِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ . وَلِعُلَمَاءِ بُرُوتُسْتَنْتْ اعْتِرَاضَانِ نَقَلَهُمَا صَاحِبُ الْمِيزَانِ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِحَلِّ الْإِشْكَالِ فِي جَوَابِ الِاسْتِفْسَارِ . (الْأَوَّلُ) أَنَّهُ وَقَعَ فِي الْآيَةِ 15 مِنَ الْبَابِ 18 مِنْ سِفْرِ الِاسْتِثْنَاءِ (التَّثْنِيَةِ) هَكَذَا (فَإِنَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ يُقِيمُ مِنْ بَيْنِكَ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِكَ) إِلَخْ . فَلَفْظُ " مِنْ بَيْنِكَ " يَدُلُّ دَلَالَةً ظَاهِرَةً عَلَى أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ يَكُونُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ . (وَالثَّانِي) أَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَسَبَ هَذِهِ الْبِشَارَةَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ فِي الْآيَةِ 46 مِنَ الْبَابِ الْخَامِسِ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا (أَنَّ مُوسَى كَتَبَ فِي حَقِّي) .

(أَقُولُ) : آيَةُ التَّثْنِيَةِ عَلَى وَفْقِ التَّرَاجِمِ الْفَارِسِيَّةِ وَتَرَاجِمِ أُرْدُو هَكَذَا (فَإِنَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ يُقِيمُ مِنْ بَيْنِكَ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِكَ نَبِيًّا مِثْلِي فَاسْمَعْ مِنْهُ) وَالْقِسِّيسُ أَيْضًا نَقَلَهَا هَكَذَا . وَالْجَوَابُ أَنَّ اللَّفْظَ الْمَذْكُورَ لَا يُنَافِي مَقْصُودَنَا ؛ لِأَنَّ مُحَمَّدًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَبِهَا تَكَامَلَ أَمْرُهُ قَدْ كَانَ حَوْلَهُ بِلَادُ الْيَهُودِ كَخَيْبَرَ وَبَنِي قَيْنُقَاعَ وَالنَّضِيرِ وَغَيْرِهِمْ فَقَدْ قَامَ مِنْ بَيْنِهِمْ ؛ وَلِأَنَّهُ إذَا كَانَ مِنْ إخْوَتِهِمْ فَقَدْ قَامَ مِنْ بَيْنِهِمْ ؛ وَلِأَنَّ قَوْلَهُ

(179/291)

" مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِكَ " بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ " مِنْ بَيْنِكَ " بَدَلُ اشْتِمَالٍ عَلَى رَأْيِ ابْنِ الْحَاجِبِ وَمُتَّبِعِيهِ الْقَائِلِينَ بِكِفَايَةِ عَلَاقَةِ الْمُلَابَسَةِ غَيْرِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ فِي تَحَقُّقِ هَذَا الْبَدَلِ ، نَحْوَ جَاءَنِي زَيْدٌ أَخُوهُ ، وَجَاءَنِي زَيْدٌ غُلَامُهُ ، وَبَدَلُ إِضْرَابٍ عَلَى رَأْيِ ابْنِ مَالِكٍ ، وَالْمُبْدَلُ مِنْهُ عَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ غَيْرُ مَقْصُودٍ ، وَيَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ غَيْرَ مَقْصُودٍ أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا أَعَادَ هَذَا الْوَعْدَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ فِي الْآيَةِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ لَمْ يُوجَدْ فِيهِ لَفْظُ " مِنْ بَيْنِكَ " ، وَنَقَلَ بُطْرُسُ الْحَوَارِيُّ أَيْضًا هَذَا الْقَوْلَ ، وَلَمْ يُوجَدْ فِيهِ هَذَا اللَّفْظُ كَمَا عَلِمْتَ فِي الْوَجْهِ السَّابِعِ ، وَكَذَا نَقَلَهُ اسْتِفَانُوسُ أَيْضًا وَلَمْ يُوجَدْ فِي نَقْلِهِ أَيْضًا هَذَا اللَّفْظُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْبَابِ السَّابِعِ مِنْ

كِتَابِ الْأَعْمَالِ وَعِبَارَتِهِ هَكَذَا : (هَذَا هُوَ مُوسَى الَّذِي قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ نَبِيًّا مِثْلِي سَيُقِيمُ لَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ لَهُ تَسْمَعُونَ) فَسُقُوطُهُ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِهِ غَيْرَ مَقْصُودٍ فَاحْتِمَالُ الْبَدَلِ قَوِيٌّ جِدًّا .

(180/291)

وَقَالَ صَاحِبُ الِاسْتِفْسَارِ : إنَّ لَفْظَ مِنْ بَيْنِك إلْحَاقِيٌّ زِيدَ تَحْرِيفًا ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ : (الْأَوَّلُ) أَنَّ الْمُخَاطِبِينَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ كَانُوا بَنِي إسْرَائِيلَ كُلَّهُمْ لَا الْبَعْضَ ، فَقَوْلُهُ : مِنْ بَيْنِك خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْقَوْمِ ، فَصَارَ لَفْظٌ مِنْ إخْوَتِك لَغْوًا مَحْضًا لَا مَعْنَى لَهُ ، لَكِنَّ لَفْظَ مِنْ إخْوَتِك جَاءَ فِي الْمَوْضِعِ الْآخَرِ أَيْضًا ، فَيَكُونُ صَحِيحًا ، وَلَفْظُ مِنْ بَيْنِك إلْحَاقِيًّا زِيدَ تَحْرِيفًا (الثَّانِي) أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا نَقَلَ كَلَامَ اللَّهِ لِإِثْبَاتِ قَوْلِهِ لَمْ يُوجَدْ فِيهِ هَذَا اللَّفْظُ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَ مُوسَى مُخَالِفًا لِمَا قَالَهُ اللَّهُ - (وَالثَّالِثُ) أَنَّ الْحَوَارِيِّينَ كُلَّمَا نَقَلُوا هَذَا الْكَلَامَ لَمْ يُوجَدْ فِيهِ لَفْظُ " مِنْ بَيْنِك " . وَإِنْ قُلْتُمْ : إنَّ الْمُحَرِّفَ إذَا حَرَّفَ فَلَمْ يُحَرِّفِ الْكَلَامَ كُلَّهُ ؟ (قُلْتُ) :

(181/291)

نَحْنُ نَرَى فِي مَحَاكِمِ الْعَدَالَةِ دَائِمًا أَنَّ الْقَبَالَجَاتِ الْمُحَرَّفَةَ يَثْبُتُ تَحْرِيفُ الْأَلْفَاظِ الْمُحَرَّفَةِ فِيهَا مِنْ مَوَاضِعَ أُخْرَى مِنْهَا غَالِبًا ، وَإِنَّ شُهُودَ الزُّورِ يُؤْخَذُ بِبَعْضِ بَيَانَاتِهِمْ ، فَالْوَجْهُ الْوَجِيهُ عَلَى أَنَّ عَادَةَ اللهِ جَارِيَةٌ بِأَنَّهُ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ، وَبِأَنَّهُ يُظْهِرُ خِيَانَةَ خَائِنِ الدِّينِ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ ، فَبِمُقْتَضَى هَذِهِ الْعَادَةِ يَصْدُرُ عَنِ الْخَائِنِ شَيْءٌ مَا تَظْهَرُ بِهِ خِيَانَتُهُ ، عَلَى أَنَّهُ لَا تُوجَدُ مِلَّةٌ يَكُونُ أَهْلُهَا كُلُّهُمْ خَائِنِينَ . فَالْخَائِنُونَ الَّذِينَ حَرَّفُوا كُتُبَ الْعَهْدَيْنِ كَانَ لَهُمْ لُحَّاظٌ مَا مِنْ جَانِبِ بَعْضِ الْمُتَدَيِّنِينَ فَلِذَلِكَ مَا بَدَّلُوا الْكُلَّ . انْتَهَى .

(182/291)

أَقُولُ : هَذَا الْجَوَابُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَادَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا عَرَفْتَ فِي الْأَمْرِ السَّابِعِ . وَأَقُولُ فِي الْجَوَابِ عَنِ الِاعْتِرَاضِ الثَّانِي : إِنَّ آيَةَ الْإِنْجِيلِ هَكَذَا (لِأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي لِأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي) وَلَيْسَ فِيهَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – كَتَبَ فِي حَقِّهِ فِي الْمَوْضِعِ الْفُلَانِيِّ بَلِ الْمَفْهُومِ مِنْهُ أَنَّ مُوسَى كَتَبَ فِي حَقِّهِ (مُطْلَقًا) وَهَذَا يَصْدُقُ إِذَا وُجِدَ فِي مَوْضِعٍ مِنَ التَّوْرَاةِ ، إِشَارَةً إِلَيْهِ ، وَنَحْنُ نُسَلِّمُ هَذَا الْأَمْرَ كَمَا سَتَعْرِفُ فِي ذَيْلِ بَيَانِ الْبِشَارَةِ الثَّالِثَةِ ، لَكِنَّنَا نُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ إِشَارَةً إِلَى هَذِهِ الْبِشَارَةِ لِلْوُجُوهِ الَّتِي عَرَفْتَهَا ،

وَقَدِ ادَّعَى هَذَا الْمُعْتَرِضُ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنَ الْبَابِ الثَّانِي مِنَ الْمِيزَانِ أَنَّ الْآيَةَ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ الثَّالِثِ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ إِشَارَةٌ إِلَيْهِ ، فَهَذَا الْقَدْرُ يَكْفِي لِتَصْحِيحِ قَوْلِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، نَعَمْ لَوْ قَالَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : إِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا أَشَارَ فِي أَسْفَارِهِ الْخَمْسَةِ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا إِلَى لَكَانَ لِهَذَا التَّوَهُّمِ مَجَالٌ فِي هَذِهِ الْحَالِ .

(الْبِشَارَةُ الثَّانِيَةُ)

(183/291)

الْآيَةُ 21 مِنَ الْبَابِ 32 مِنْ سِفْرِ الِاسْتِثْنَاءِ (التَّثْنِيَةِ) هَكَذَا (هُمْ أَغَارُونِي بِغَيْرِ إِلَهٍ وَأَغْضَبُونِي بِمَعْبُودَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ وَأَنَا أَيْضًا أُغَيِّرُهُمْ بِغَيْرِ شَعْبٍ وَبِشَعْبٍ جَاهِلٍ أُغْضِبُهُمْ) وَالْمُرَادُ بِشَعْبٍ جَاهِلٍ الْعَرَبُ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ ، وَمَا كَانَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَا مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَلَا مِنَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَمَا كَانُوا يَعْرِفُونَ سِوَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ، وَكَانُوا مُحَقَّرِينَ عِنْدَ الْيَهُودِ لِكَوْنِهِمْ مِنْ هَاجَرَ الْجَارِيَةِ ، فَمَقْصُودُ الْآيَةِ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَغَارُونِي بِعِبَادَةِ الْمَعْبُودَاتِ الْبَاطِلَةِ فَأُغَيِّرُهُمْ بِاصْطِفَاءِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَهُمْ مُحَقَّرُونَ وَجَاهِلُونَ ، فَأَوْفَى بِمَا وَعَدَ ، فَبَعَثَ مِنَ الْعَرَبِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

فَهَدَاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، كَمَا قَالَ اللهُ – تَعَالَى – فِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ : هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (62 : 2) وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّعْبِ الْجَاهِلِ الْيُونَانِيِّينَ

كَمَا يُفْهَمُ مِنْ ظَاهِرِ كَلَامِ مُقَدِّسِهِمْ بُولُسَ فِي الْبَابِ الْعَاشِرِ مِنَ الرِّسَالَةِ الرُّومِيَّةِ ؛ لِأَنَّ الْيُونَانِيِّينَ قَبْلَ ظُهُورِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بِأَزْيَدَ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ كَانُوا فَائِقِينَ عَلَى أَهْلِ الْعَالَمِ كُلِّهِمْ فِي الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ ، وَكَانَ مِنْهُمْ جَمِيعُ

(184/291)

الْحُكَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ مِثْلَ سُقْرَاطَ وَبِقْرَاطَ وَفِيثَاغُورْسَ وَأَفْلَاطُونَ وَأَرَسْطَاطَالِيسَ وَأَرْشَمِيدِسَ وَبِلِينَاسَ وَأَقْلِيدِسَ وَجَالِينُوسَ وَغَيْرِهِمِ الَّذِينَ كَانُوا أَئِمَّةَ الْإِلَهِيَّاتِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ وَالطَّبِيعِيَّاتِ وَفُرُوعِهَا قَبْلَ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَكَانَ الْيُونَانِيُّونَ فِي عَهْدِهِ عَلَى غَايَةِ دَرَجَةِ الْكَمَالِ فِي فُنُونِهِمْ ، وَكَانُوا وَاقِفِينَ عَلَى أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ وَقَصَصِهَا ، وَعَلَى سَائِرِ كُتُبِ الْعَهْدِ الْعَتِيقِ أَيْضًا بِوَاسِطَةِ تَرْجَمَةِ سبتوجنت الَّتِي ظَهَرَتْ بِاللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ قَبْلَ الْمَسِيحِ بِمِقْدَارِ مِائَتَيْنِ وَسِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً ، لَكِنَّهُمْ مَا كَانُوا مُعْتَقِدِينَ لِلْمِلَّةِ الْمُوسَوِيَّةِ ، وَكَانُوا مُتَفَحِّصِينَ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْحِكَمِيَّةِ الْجَدِيدَةِ كَمَا قَالَ مُقَدِّسُهُمْ هَذَا فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنَ

الرِّسَالَةِ الْأُولَى إِلَى أَهْلِ قورنيثوس هَكَذَا : (22 لِأَنَّ الْيَهُودَ يَسْأَلُونَ آيَةً وَالْيُونَانِيِّينَ يَطْلُبُونَ حِكْمَةً 23 وَلَكِنَّنَا نَحْنُ نُكَرِّزُ بِالْمَسِيحِ مَصْلُوبًا لِلْيَهُودِ عَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةً) فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالشَّعْبِ الْجَاهِلِ الْيُونَانِيِّينَ ، فَكَلَامُ مُقَدَّسِهِمْ فِي الرِّسَالَةِ الرُّومِيَّةِ إِمَّا مُؤَوَّلٌ أَوْ مَرْدُودٌ – وَقَدْ عَرَفْتَ فِي الْأَمْرِ الثَّامِنِ أَنَّ قَوْلَهُ سَاقِطٌ عَنِ الِاعْتِبَارِ عِنْدَنَا .

(الْبِشَارَةُ الثَّالِثَةُ)

(185/291)

فِي الْبَابِ الثَّالِثِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ سِفْرِ التَّثْنِيَةِ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1844 هَكَذَا (2 وَقَالَ : جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سَيْنَاءَ وَأَشْرَقَ لَنَا مِنْ سَاعِيرَ ، وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ وَمَعَهُ أُلُوفُ الْأَطْهَارِ فِي يَمِينِهِ سَنَةٌ مِنْ نَارٍ ، فَمَجِيئُهُ مِنْ سَيْنَاءَ إِعْطَاؤُهُ التَّوْرَاةَ لِمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَإِشْرَاقُهُ مِنْ سَاعِيرَ إِعْطَاؤُهُ الْإِنْجِيلَ لِعِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –) وَاسْتِعْلَانُهُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ إِنْزَالُهُ الْقُرْآنَ ؛ لِأَنَّ فَارَانَ جَبَلٌ مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ ، فَقَدْ جَاءَ فِي بَيَانِ حَالِ إِسْمَاعِيلَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ (21 : 20 وَكَانَ اللهُ مَعَهُ وَنَمَا وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَصَارَ شَابًّا يَرْمِي بِالسِّهَامِ 21 وَسَكَنَ بَرِّيَّةَ فَارَانَ وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ امْرَأَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ) وَلَا شَكَّ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –

كَانَتْ سُكْنَاهُ بِمَكَّةَ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ أَنَّ النَّارَ لَمَّا ظَهَرَتْ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ظَهَرَتْ مِنْ سَاعِيرَ وَمِنْ فَارَانَ أَيْضًا ، فَانْتَشَرَتْ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَوْ خَلَقَ نَارًا فِي مَوْضِعٍ لَا يُقَالُ جَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ إلَّا إذَا اتَّبَعَ تِلْكَ الْوَاقِعَةَ وَحْيٌ نَزَلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ أَوْ عُقُوبَةٌ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَقَدِ اعْتَرَفُوا بِأَنَّ الْوَحْيَ اتَّبَعَ تِلْكَ (النَّارَ الَّتِي رَآهَا مُوسَى) فِي طُورِ سَيْنَاءَ . فَكَذَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي سَاعِيرَ وَفَارَانَ .

(الْبِشَارَةُ الرَّابِعَةُ)

(186/291)

فِي الْآيَةِ الْعِشْرِينَ مِنَ الْبَابِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ وَعَدَ اللَّهُ فِي حَقِّ إسْمَاعِيلَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِإِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1844 هَكَذَا (وَعَلَى إسْمَاعِيلَ أَسْتَجِيبُ لَكَ ، هُوذَا أُبَارِكُهُ وَأُكَبِّرُهُ وَأُكَثِّرُهُ جِدًّا فَسَيَلِدُ اثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا وَأَجْعَلُهُ لِشَعْبٍ كَبِيرٍ) قَوْلُهُ : " أَجْعَلُهُ لِشَعْبٍ كَبِيرٍ " يُشِيرُ إلَى مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وَلَدِ إسْمَاعِيلَ مَنْ كَانَ لِشَعْبٍ كَبِيرٍ غَيْرُهُ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – حَاكِيًا دُعَاءَ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي حَقِّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي كَلَامِهِ الْمَجِيدِ أَيْضًا

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2 : 129) .

(187/291)

وَقَالَ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ : وَقَدْ تَفَطَّنَ بَعْضُ النُّبَهَاءِ مِمَّنْ نَشَأَ عَلَى لِسَانِ الْيَهُودِ ، وَقَرَأَ بَعْضَ كُتُبِهِمْ فَقَالَ : يَخْرُجُ مِمَّا ذُكِرَ مِنْ عِبَارَةِ التَّوْرَاةِ فِي مَوْضِعَيْنِ اسْمُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْعَدَدِ عَلَى مَا يَسْتَعْمِلُهُ الْيَهُودُ فِيمَا بَيْنَهُمْ : (الْأَوَّلُ) قَوْلُهُ جِدًّا جِدًّا بِتِلْكَ اللُّغَةِ " بِمَا دماد " وَعَدَدِ هَذِهِ الْحُرُوفِ اثْنَانِ وَتِسْعُونَ ؛ لِأَنَّ الْبَاءَ اثْنَانِ وَالْمِيمَ أَرْبَعُونَ وَالْأَلِفَ وَاحِدٌ وَالدَّالَ أَرْبَعَةٌ وَالْمِيمَ الثَّانِيَةَ أَرْبَعُونَ وَالْأَلِفَ وَاحِدٌ وَالدَّالَ أَرْبَعَةٌ ، وَكَذَلِكَ الْمِيمُ مِنْ مُحَمَّدٍ أَرْبَعُونَ وَالْحَاءُ ثَمَانِيَةٌ وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ وَالدَّالُ أَرْبَعَةٌ

.

(وَالثَّانِي) قَوْلُهُ " لِشَعْبٍ كَبِيرٍ " بِتِلْكَ اللُّغَةِ " لغوي غدول " فَاللَّامُ عِنْدَهُمْ ثَلَاثُونَ وَالْغَيْنُ ثَلَاثَةٌ ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَهُمْ فِي مَقَامِ الْجِيمِ - إِذْ لَيْسَ فِي لُغَتِهِمْ جِيمٌ وَلَا صَادٌ - وَالْوَاوُ سِتَّةٌ وَالْيَاءُ عَشَرَةٌ وَالْغَيْنُ أَيْضًا ثَلَاثَةٌ وَالدَّالُ أَرْبَعَةٌ وَالْوَاوُ سِتَّةٌ وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ فَمَجْمُوعُ هَذِهِ أَيْضًا اثْنَانِ وَتِسْعُونَ ، انْتَهَى كَلَامُهُ بِتَلْخِيصٍ مَا .

وَعَبْدُ السَّلَامِ كَانَ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ ثُمَّ أَسْلَمَ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ الْمَرْحُومِ بَايَزِيدَ خَانَ ، وَصَنَّفَ رِسَالَةً صَغِيرَةً سَمَّاهَا بِالرِّسَالَةِ الْهَادِيَةِ فَقَالَ فِيهَا : " إِنَّ أَكْثَرَ أَدِلَّةِ أَحْبَارِ الْيَهُودِ بِحَرْفِ الْجُمَلِ الْكَبِيرِ ، وَهُوَ حَرْفُ أَبْجَدٍ ، فَإِنَّ أَحْبَارَ الْيَهُودِ حِينَ بَنَى سُلَيْمَانُ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَيْتَ الْمَقْدِسِ اجْتَمَعُوا وَقَالُوا : يَبْقَى هَذَا الْبِنَاءُ أَرْبَعَمِائَةٍ وَعَشْرَ سِنِينَ ، ثُمَّ يَعْرِضُ لَهُ الْخَرَابُ ؛ لِأَنَّهُمْ حَسِبُوا لَفْظَةَ " بزأت " ثُمَّ قَالَ : وَاعْتَرَضُوا عَلَى هَذَا الدَّلِيلِ بِأَنَّ الْبَاءَ فِي بماد ماد لَيْسَتْ

نَفْسَ الْكَلِمَةِ بَلْ هِيَ أَدَاةٌ وَحَرْفٌ جِيءَ بِهِ لِلصِّلَةِ فَلَوْ أُخْرِجَ مِنْهُ لَاحْتَاجَ اسْمُ مُحَمَّدٍ إِلَى بَاءٍ ثَانِيَةٍ وَيُقَالُ : بيماد ماد (قُلْنَا) : مِنَ الْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ الْبَاءَانِ (إِحْدَاهُمَا أَدَاةٌ) (وَالْأُخْرَى) مِنْ نَفْسِ الْكَلِمَةِ تُحْذَفُ الْأَدَاةُ ، وَتَبْقَى الَّتِي هِيَ مِنْ نَفْسِ الْكَلِمَةِ ، وَهَذَا شَائِعٌ عِنْدَهُمْ فِي مَوَاضِعَ غَيْرِ مَعْدُودَةٍ فَلَا حَاجَةَ إِلَى إِيرَادِهَا " انْتَهَى كَلَامُهُ بِلَفْظِهِ .

أَقُولُ : قَدْ صَرَّحَ الْعُلَمَاءُ بِأَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مادماد كَمَا فِي شِفَاءِ الْقَاضِي عِيَاضٍ .

(الْبِشَارَةُ الْخَامِسَةُ)

جَاءَ فِي تَرْجَمَاتٍ سَنَةِ 1722 وَسَنَةِ 1831 وَسَنَةِ 1844 الْعَرَبِيَّةِ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ (49 : 10 فَلَا يَزُولُ الْقَضِيبُ مِنْ يَهُوذَا . وَالْمُدَبِّرُ مِنْ فَخْذِهِ حَتَّى يَجِيءَ الَّذِي لَهُ الْكُلُّ وَإِيَّاهُ تَنْتَظِرُ الْأُمَمُ) وَفِي تَرْجَمَةِ سَنَةِ 1811 (فَلَا يَزُولُ الْقَضِيبُ مِنْ يَهُوذَا وَالرَّاسِمِ مِنْ تَحْتِ أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَجِيءَ الَّذِي هُوَ لَهُ وَإِلَيْهِ تَجْتَمِعُ الشُّعُوبُ) وَلَفْظُ الَّذِي لَهُ الْكُلُّ أَوِ الَّذِي هُوَ لَهُ تَرْجَمَةُ لَفْظِ " شيلوه " وَفِي تَرْجَمَةِ هَذَا اللَّفْظِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ كَمَا عَرَفْتَ فِي الْأَمْرِ السَّابِعِ أَيْضًا . وَقَالَ عَبْدُ السَّلَامِ فِي الرِّسَالَةِ الْهَادِيَةِ هَكَذَا (لَا يَزُولُ الْحَاكِمُ مِنْ يَهُوذَا وَلَا رَاسِمٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ الَّذِي لَهُ وَإِلَيْهِ تَجْتَمِعُ الشُّعُوبُ) وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى مَجِيءِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعْدَ تَمَامِ حُكْمِ مُوسَى وَعِيسَى ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْحَاكِمِ هُوَ مُوسَى ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ يَعْقُوبَ مَا جَاءَ صَاحِبُ شَرِيعَةٍ إِلَى زَمَانِ مُوسَى إِلَّا مُوسَى ، وَالْمُرَادُ مِنَ الرَّاسِمِ هُوَ عِيسَى ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ مُوسَى إِلَى زَمَانِ عِيسَى مَا جَاءَ صَاحِبُ شَرِيعَةٍ إِلَّا عِيسَى ،

وَبَعْدَهُمَا مَا جَاءَ صَاحِبُ شَرِيعَةٍ إلَى مُحَمَّدٍ ، فَعُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ فِي آخِرِ الْأَيَّامِ ، هُوَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَنَّهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بَعْدَ مُضِيِّ حُكْمِ الْحَاكِمِ وَالرَّاسِمِ مَا جَاءَ إلَّا سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ : حَتَّى يَجِيءَ الَّذِي لَهُ - أَيْ : الْحُكْمُ - بِدَلَالَةِ مَسَاقِ الْآيَةِ وَسِيَاقِهَا ، وَأَمَّا قَوْلُهُ (وَإِلَيْهِ تَجْتَمِعُ الشُّعُوبُ) فَهِيَ عَلَامَةٌ صَرِيحَةٌ وَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهَا هُوَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ؛ لِأَنَّهُ مَا اجْتَمَعَ الشُّعُوبُ إلَّا إلَيْهِ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرِ الزَّبُورُ ؛ لِأَنَّهُ لَا أَحْكَامَ فِيهِ ، وَدَاوُدُ النَّبِيُّ تَابِعٌ لِمُوسَى ، وَالْمُرَادُ مِنْ خَبَرِ يَعْقُوبَ هُوَ صَاحِبُ " الْأَحْكَامِ " انْتَهَى كَلَامُهُ بِلَفْظِهِ .

أَقُولُ : إنَّمَا أَرَادَ مِنَ الْحَاكِمِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ؛ لِأَنَّ شَرِيعَتَهُ جَبْرِيَّةٌ انْتِقَامِيَّةٌ وَمِنَ الرَّاسِمِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ؛ لِأَنَّ شَرِيعَتَهُ لَيْسَتْ بِجَبْرِيَّةٍ وَلَا انْتِقَامِيَّةٍ ، وَإِنْ أُرِيدَ مِنَ الْقَضِيبِ السَّلْطَنَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ ، وَمِنَ الْمُدَبِّرِ الْحَاكِمُ الدُّنْيَوِيُّ - كَمَا يُفْهَمُ مِنْ رَسَائِلِ الْقِسِّيسِينَ مِنْ فِرْقَةِ بُرُوتُسْتَنْتْ ، وَمِنْ بَعْضِ تَرَاجِمِهِمْ - فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِشيلوه مَسِيحُ الْيَهُودِ كَمَا هُوَ مَزْعُومُهُمْ ، وَلَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَمَا هُوَ مَزْعُومُ النَّصَارَى . (أَمَّا الْأَوَّلُ) فَظَاهِرٌ ؛ لِأَنَّ السَّلْطَنَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ

(191/291)

وَالْحَاكِمَ الدُّنْيَوِيَّ زَالَا مِنْ آلِ يَهُوذَا مِنْ مُدَّةٍ هِيَ أَزْيَدُ مِنْ أَلْفَيْ سَنَةٍ مِنْ عَهْدِ بُخْتُنَصَّرَ ، وَلَمْ يُسْمَعْ إِلَى الْآنِ حَسِيسُ مَسِيحِ الْيَهُودِ (وَأَمَّا الثَّانِي فَلِأَنَّهُمَا زَالَا مِنْ آلِ يَهُوذَا أَيْضًا قَبْلَ ظُهُورِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بِمِقْدَارِ سِتِّمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ عَهْدِ بُخْتُنَصَّرَ ، وَهُوَ أَجْلَى بَنِي يَهُوذَا إِلَى بَابِلَ وَكَانُوا فِي الْجَلَاءِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ سَنَةً لَا سَبْعِينَ كَمَا يَقُولُ بَعْضُ عُلَمَاءِ بُرُوتُسْتَنْتْ تَغْلِيظًا لِلْعَوَامِ – كَمَا عَرَفْتَ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ وَقَعَ عَلَيْهِمْ فِي عَهْدِ انتيوكس مَا وَقَعَ فَإِنَّهُ عَزَلَ أَنْيَاسَ حِبْرَ الْيَهُودِ وَبَاعَ مَنْصِبَهُ لِأَخِيهِ يَاسُونَ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ وَزْنَةَ ذَهَبٍ يُقَدِّمُهَا لَهُ خَرَاجًا كُلَّ سَنَةٍ ، ثُمَّ عَزَلَهُ وَبَاعَ ذَلِكَ لِأَخِيهِ مِينْالَاوس بِسِتِّمِائَةٍ وَسِتِّينَ وَزْنَةً ، ثُمَّ شَاعَ خَبَرُ مَوْتِهِ فَطَلَبَ يَاسُونَ أَنْ يَسْتَرِدَّ لِنَفْسِهِ الْكَهَنُوتَ ، وَدَخَلَ أُورْشَلِيمَ بِأُلُوفٍ مِنَ الْجُنُودِ فَقَتَلَ كُلَّ مَنْ كَانَ يَظُنُّهُ عَدُوًّا لَهُ – وَهَذَا الْخَبَرُ كَانَ كَاذِبًا – فَهَجَمَ أَنتيوكس عَلَى أُورْشَلِيمَ وَامْتَلَكَهَا ثَانِيَةً فِي سَنَةِ 170 قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ وَقَتَلَ مِنْ أَهْلِهَا أَرْبَعِينَ أَلْفًا ، وَبَاعَ مِثْلَ ذَلِكَ عَبِيدًا وَفِي الْفَصْلِ الْعِشْرِينَ مِنَ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ مُرْشِدِ الطَّالِبِينَ فِي بَيَانِ الْجَدْوَلِ التَّارِيخِيِّ فِي الصَّفْحَةِ 481 مِنَ النُّسْخَةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1852 مِنَ الْمِيلَادِ

(192/291)

(إِنَّهُ نَهَبَ أُورْشَلِيمَ وَقَتَلَ ثَمَانِينَ أَلْفًا) ا هـ ، وَسَلَبَ مَا كَانَ فِي الْهَيْكَلِ مِنَ الْأَمْتِعَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ قِيمَتُهَا ثَمَانِمِائَةِ وَزْنَةِ ذَهَبٍ ، وَقَرَّبَ خِنْزِيرَةً وَقُودًا عَلَى الْمَذْبَحِ لِلْإِهَانَةِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى إِنْطَاكِيَّةَ وَأَقَامَ فَيَلْبِسُ أَحَدُ الْأَرَاذِلِ حَاكِمًا عَلَى الْيَهُودِيَّةِ – وَفِي رِحْلَتِهِ الرَّابِعَةِ إِلَى مِصْرَ أَرْسَلَ أَبُولُونِيُوسَ بِعِشْرِينَ أَلْفًا مِنْ جُنُودِهِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُخَرِّبُوا أُورْشَلِيمَ ، وَيَقْتُلُوا كُلَّ مَنْ فِيهَا مِنَ الرِّجَالِ ، وَيَسْبُوا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ فَانْطَلَقُوا إِلَى هُنَاكَ ، وَبَيْنَمَا كَانَ النَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ مُجْتَمِعِينَ لِلصَّلَاةِ يَوْمَ السَّبْتِ هَجَمُوا عَلَيْهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ فَقَتَلُوا الْكُلَّ إِلَّا مَنْ أَفْلَتَ إِلَى الْجِبَالِ أَوِ اخْتَفَى فِي الْمُغَاوِرِ ، وَنَهَبُوا أَمْوَالَ الْمَدِينَةِ وَأَحْرَقُوهَا وَهَدَمُوا أَسْوَارَهَا وَخَرَّبُوا مَنَازِلَهَا ، ثُمَّ ابْتَنَوْا لَهُمْ مِنْ بَسَائِطِ ذَلِكَ الْهَدْمِ قَلْعَةً حَصِينَةً عَلَى جَبَلِ أَكْرَا ، وَكَانَتِ الْعَسَاكِرُ تَشْرُفُ مِنْهَا عَلَى جَمِيعِ نَوَاحِي الْهَيْكَلِ ، وَمَنْ دَنَا مِنْهُمْ يَقْتُلُونَهُ ثُمَّ أَرْسَلَ أَنْتِيُوكُسُ أَثَانِيُوسَ لِيُعَلِّمَ الْيَهُودَ طُقُوسَ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الْيُونَانِيَّةِ ، وَيَقْتُلَ كُلَّ مَنْ لَا يَتَمَثَّلُ ذَلِكَ الْأَمْرَ ، فَجَاءَ أَثَانِيُوسُ إِلَى أُورْشَلِيمَ ، وَسَاعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ الْيَهُودِ الْكَافِرِينَ ، وَأَبْطَلَ الذَّبِيحَةَ الْيَوْمِيَّةَ ، وَنَسَخَ كُلَّ طَاعَةٍ لِلدِّينِ الْيَهُودِيِّ عُمُومًا وَخُصُوصًا ، وَأَحْرَقَ كُلَّ مَا وَجَدَهُ مِنْ نُسَخِ كُتُبِ الْعَهْدِ

(193/291)

الْعَتِيقِ بِالْفَحْصِ التَّامِّ وَكَرَّسَ الْهَيْكَلَ لِلْمُشْتَرِي ، وَنَصَبَ صُورَةَ ذَلِكَ عَلَى مَذْبَحِ الْيَهُودِ ، وَأَهْلَكَ كُلَّ مَنْ وَجَدَهُ مُخَالِفًا أَمْرَ أَنْتِيُوكَسَ ، وَنَجَا مَتَاثِيَاسُ الْكَاهِنُ مَعَ أَبْنَائِهِ الْخَمْسَةِ فِي هَذِهِ الدَّاهِيَةِ ، وَفَرُّوا إِلَى وَطَنِهِمْ مُودِينَ فِي سِبْطِ دَانٍ ، فَانْتَقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ انْتِقَامًا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ - عَلَى اسْتِطَاعَتِهِ - كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي التَّوَارِيخِ ، فَكَيْفَ يَصْدُقُ هَذَا الْخَبَرُ عَلَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ؟

وَإِنْ قَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ بِبَقَاءِ السَّلْطَنَةِ وَالْحُكُومَةِ امْتِيَازُ الْقَوْمِ كَمَا يَقُولُ بَعْضُهُمُ الْآنَ (قُلْنَا) : هَذَا الْأَمْرُ كَانَ بَاقِيًا إِلَى ظُهُورِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَكَانُوا فِي أَقْطَارِ الْعَرَبِ ذَوِي حُصُونٍ وَأَمْلَاكٍ غَيْرَ مُطِيعِينَ لِأَحَدٍ ، مِثْلَ يَهُودِ خَيْبَرَ وَغَيْرِهِمْ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ التَّوَارِيخُ ، وَبَعْدَ ظُهُورِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ، وَصَارُوا فِي كُلِّ إِقْلِيمٍ مُطِيعِينَ لِلْغَيْرِ - فَالْأَلْيَقُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِشِيلُوهِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا مَسِيحَ الْيَهُودِ وَلَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

الْبِشَارَةُ السَّادِسَةُ

(194/291)

الزَّبُورُ الْخَامِسُ وَالْأَرْبَعُونَ هَكَذَا (1 – فَاضَ قَلْبِي كَلِمَةً صَالِحَةً أَنَا أَقُولُ أَعْمَالِي لِلْمَلِكِ 2
لِسَانِي قَلَمُ كَاتِبٍ سَرِيعُ الْكِتَابَةِ 3 بَهِيٌّ فِي الْحُسْنِ أَفْضَلُ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ 4 انْسَكَبَتِ النِّعْمَةُ
عَلَى شَفَتَيْكَ لِذَلِكَ بَارَكَكَ اللهُ إِلَى الدَّهْرِ 4 تَقَلَّدْ سَيْفَكَ عَلَى فَخِذِكَ أَيُّهَا الْقَوِيُّ بِحُسْنِكَ
وَجَمَالِكَ 5 اسْتَلَّهُ وَانْجَحْ وَامْلُكْ مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ وَالدَّعَةِ وَالصِّدْقِ وَتَهْدِيكَ بِالْعَجَبِ
يَمِينُكَ 6 نَبْلُكَ مَسْنُونَةٌ أَيُّهَا الْقَوِيُّ فِي قَلْبِ أَعْدَاءِ الْمَلِكِ ، الشُّعُوبُ تَحْتَكَ يَسْقُطُونَ 7
كُرْسِيُّكَ يَا اللهُ إِلَى دَهْرِ الدَّاهِرِينَ ، عَصَا الِاسْتِقَامَةِ عَصَا مُلْكِكَ 8 أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ
الْإِثْمَ لِذَلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إِلَهُكَ بِدُهْنِ الْفَرَحِ أَفْضَلَ مِنْ أَصْحَابِكَ 9 الْمُرُّ وَالْمَيْعَةُ وَالسَّلِيخَةُ
مِنْ ثِيَابِكَ ، مِنْ مَنَازِلِكَ الشَّرِيفَةِ الْعَاجِ الَّتِي أَبْهَجَتْكَ 10 بَنَاتُ الْمُلُوكِ فِي كَرَامَتِكَ ، قَامَتِ
الْمَلِكَةُ مِنْ عَنْ يَمِينِكَ مُشْتَمِلَةً بِثَوْبٍ مُذَهَّبٍ مُوَشًّى 11 اسْمَعِي يَا بِنْتُ وَانْظُرِي وَأَنْصِتِي
بِأُذُنَيْكِ وَانْسَيْ شَعْبَكِ وَبَيْتَ أَبِيكِ 12 فَيَشْتَهِي الْمَلِكُ حُسْنَكِ لِأَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكِ وَلَهُ
تَسْجُدِينَ 13 بَنَاتُ صُورٍ يَأْتِينَكَ بِالْهَدَايَا ، لِوَجْهِكَ يُصَلِّي كُلُّ أَغْنِيَاءِ الشَّعْبِ 14 كُلُّ
مَجْدِ ابْنَةِ الْمَلِكِ مِنْ دَاخِلٍ مُشْتَمِلَةٍ بِلِبَاسِ الذَّهَبِ الْمُوَشَّى 15 يُبْلَغْنَ إِلَى الْمَلِكِ عَذَارَى
فِي أَثَرِهَا قَرِيبَاتُهَا إِلَيْكَ يُقَدَّمْنَ 16 يُبْلَغْنَ بِفَرَحٍ وَابْتِهَاجٍ يَدْخُلْنَ إِلَى هَيْكَلِ الْمَلِكِ 17
وَيَكُونُ

بَنُوكَ عِوَضًا مِنْ آبَائِكَ وَتُقِيمُهُمْ رُؤَسَاءَ عَلَى سَائِرِ الْأَرْضِ 18 سَأَذْكُرُ اسْمَكَ فِي كُلِّ جِيلٍ وَجِيلٍ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَعْتَرِفُ لَكَ الشُّعُوبُ إِلَى الدَّهْرِ وَإِلَى دَهْرِ الدَّاهِرِينَ) .

مِنَ الْمُسَلَّمِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – يُبَشِّرُ فِي هَذَا الزَّبُورِ بِنَبِيٍّ يَكُونُ ظُهُورُهُ بَعْدَ زَمَانِهِ ، وَلَمْ يَظْهَرْ إِلَى هَذَا الْحِينِ عِنْدَ الْيَهُودِ نَبِيٌّ يَكُونُ مَوْصُوفًا بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذَا الزَّبُورِ ، وَيَدَّعِي عُلَمَاءُ بُرُوتُسْتَنْتْ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَيَدَّعِي أَهْلُ الْإِسْلَامِ سَلَفًا وَخَلَفًا أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

فَأَقُولُ : إِنَّهُ ذُكِرَ فِي هَذَا الزَّبُورِ مِنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ الْمُبَشَّرِ بِهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ :

1 – كَوْنُهُ حَسَنًا 2 – كَوْنُهُ أَفْضَلَ الْبَشَرِ 3 – كَوْنُ النِّعْمَةِ مُنْسَكِبَةً عَلَى شَفَتَيْهِ 4 – كَوْنُهُ مُبَارَكًا إِلَى (آخَرِ) الدَّهْرِ 5 – كَوْنُهُ مُتَقَلِّدًا بِالسَّيْفِ 6 – كَوْنُهُ قَوِيًّا 7 – كَوْنُهُ ذَا حَقٍّ وَدَعَةٍ وَصِدْقٍ 8 – كَوْنُ هِدَايَةِ يَمِينِهِ بِالْعَجَبِ 9 – كَوْنُ نَبْلِهِ مَسْنُونَةً 10 – سُقُوطُ الشَّعْبِ تَحْتَهُ 11 –

كَوْنُهُ مُحِبًّا لِلْبِرِّ وَمُبْغِضًا لِلْإِثْمِ 12 – خِدْمَةُ بَنَاتِ الْمُلُوكِ إِيَّاهُ 13 – إِتْيَانُ الْهَدَايَا إِلَيْهِ 14 – انْقِيَادُ كُلِّ أَغْنِيَاءِ الشَّعْبِ لَهُ 15 – كَوْنُ أَبْنَائِهِ رُؤَسَاءَ الْأَرْضِ بَدَلَ آبَائِهِمْ 16 – كَوْنُ اسْمِهِ مَذْكُورًا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ 17 – مَدْحُ الشُّعُوبِ إِيَّاهُ إِلَى دَهْرِ الدَّاهِرِينَ .

وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ كُلُّهَا تُوجَدُ فِي مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ .

أَمَّا الْأَوَّلُ : فَلِأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : " مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ ، وَإِذَا ضَحِكَ يَتَلَأْلَأُ فِي الْجِدَارِ " وَعَنْ أُمِّ مَعْبَدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ فِي بَعْضِ مَا وَصَفَتْهُ بِهِ " أَجْمَلُ النَّاسِ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأَحْلَاهُمْ وَأَحْسَنُهُمْ مِنْ قَرِيبٍ " .

وَأَمَّا الثَّانِي : فَلِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ فِي كَلَامِهِ الْمُحْكَمِ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (2 : 253) الْآيَةَ . وَقَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ : أَرَادَ بِقَوْلِهِ : وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ (2 : 253) مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، أَيْ رَفْعَهُ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَقَدْ أَشْبَعَ الْكَلَامَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْإِمَامُ الْهُمَامُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ الْكَبِيرِ ، وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ أَيْ لَا أَقُولُ ذَلِكَ فَخْرًا لِنَفْسِي بَلْ تَحَدُّثًا بِنِعْمَةِ رَبِّي .

وَأَمَّا الثَّالِثُ : فَغَيْرُ مُحْتَاجٍ إلَى الْبَيَانِ حَتَّى أَقَرَّ بِفَصَاحَتِهِ الْمُوَافِقُ وَالْمُخَالِفُ ، وَقَالَ الرُّوَاةُ

فِي وَصْفِ كَلَامِهِ : إِنَّهُ كَانَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً ، فَكَانَ مِنَ الْفَصَاحَةِ بِالْمَحَلِّ الْأَفْضَلِ وَالْمَوْضِعِ الْأَكْمَلِ .

(197/291)

وَأَمَّا الرَّابِعُ : فَلِأَنَّ اللهَ قَالَ : إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ (33 : 56) وَأُلُوفُ أُلُوفٍ مِنَ النَّاسِ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ (وَغَيْرِهَا) .

وَأَمَّا الْخَامِسُ : فَظَاهِرٌ ، وَقَدْ قَالَ هُوَ بِنَفْسِهِ " أَنَا رَسُولُ اللهِ بِالسَّيْفِ " .

وَأَمَّا السَّادِسُ : فَكَانَتْ قُوَّتُهُ الْجُسْمَانِيَّةُ عَلَى الْكَمَالِ كَمَا ثَبَتَ أَنَّ رُكَانَةَ خَلَا بِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي بَعْضِ شِعَابِ مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ فَقَالَ : "يَا رُكَانَةُ أَلَا تَتَّقِي اللهَ وَتَقْبَلُ مَا أَدْعُوكَ إِلَيْهِ " ؟ فَقَالَ : لَوْ أَعْلَمُ وَاللهِ مَا تَقُولُ حَقًّا لَاتَّبَعْتُكَ . فَقَالَ : " أَرَأَيْتَ إِنْ صَرَعْتُكَ أَتَعْلَمُ أَنَّ مَا أَقُولُ حَقٌّ ؟ قَالَ ! نَعَمْ . فَلَمَّا بَطَشَ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَضْجَعَهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ عُدْ . فَصَرَعَهُ أَيْضًا فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ ذَا لَعَجَبٌ ! فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ أُرِيكَهُ إِنِ اتَّقَيْتَ اللهَ وَتَبِعْتَ أَمْرِي " قَالَ : مَا هُوَ ؟ قَالَ : " أَدْعُو لَكَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ " فَدَعَاهَا فَأَقْبَلَتْ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهَا : " ارْجِعِي

مَكَانَكِ " فَرَجَعَ رُكَانَةُ إِلَى قَوْمِهِ

فَقَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ مَا رَأَيْتُ أَسْحَرَ مِنْهُ ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِمَا رَأَى . وَرُكَانَةُ هَذَا كَانَ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ وَالْمُصَارِعِينَ الْمَشْهُورِينَ .

(198/291)

وَأَمَّا شَجَاعَتُهُ فَقَدْ قَالَ ابْنُ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : مَا رَأَيْتُ أَشْجَعَ وَلَا أَنْجَدَ وَلَا أَجْوَدَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : " وَإِنَّا كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ وَاحْمَرَّتِ الْحَدَقُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا " .

وَأَمَّا السَّابِعُ : فَلِأَنَّ الْأَمَانَةَ وَالصِّدْقَ مِنَ الصِّفَاتِ الْجِبِلِّيَّةِ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا قَالَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لِقُرَيْشٍ : " قَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غُلَامًا حَدَثًا ، أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا ، وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ قُلْتُمْ إِنَّهُ سَاحِرٌ ، لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ " وَسَأَلَ هِرَقْلُ عَنْ حَالِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَبَا سُفْيَانَ فَقَالَ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قَالَ : لَا .

وَأَمَّا الثَّامِنُ : فَلِأَنَّهُ رَمَى يَوْمَ بَدْرٍ ، وَكَذَا يَوْمَ حُنَيْنٍ وُجُوهَ الْكُفَّارِ بِقَبْضَةِ تُرَابٍ فَلَمْ يَبْقَ مُشْرِكٌ إلَّا شُغِلَ بِعَيْنِهِ ، فَانْهَزَمُوا وَتَمَكَّنَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ قَتْلًا وَأَسْرًا فَأَمْثَالُ هَذِهِ مِنْ عَجِيبِ هِدَايَةِ يَمِينِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

(199/291)

وَأَمَّا التَّاسِعُ : فَلِأَنَّ كَوْنَ أَوْلَادِ إسْمَاعِيلَ أَصْحَابَ النَّبْلِ فِي سَالِفِ الزَّمَانِ ، غَيْرُ مُحْتَاجٍ إلَى الْبَيَانِ ، وَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ مَرْغُوبًا لَهُ ، وَكَانَ يَقُولُ " سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمُ الرُّومُ وَيَكْفِيكُمُ اللَّهُ ، فَلَا يَعْجَزْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ " وَيَقُولُ : " ارْمُوا بَنِي إسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا " وَيَقُولُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : " مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا " .

وَأَمَّا الْعَاشِرُ : فَلِأَنَّ النَّاسَ دَخَلُوا أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا فِي دِينِ اللَّهِ فِي مُدَّةِ حَيَاتِهِ .

وَأَمَّا الْحَادِيَ عَشَرَ : فَمَشْهُورٌ يَعْتَرِفُ بِهِ الْمُعَانِدُونَ أَيْضًا كَمَا عَرَفْتَ فِي الْمَسْلَكِ الثَّانِي .

وَأَمَّا الثَّانِيَ عَشَرَ : فَقَدْ صَارَتْ بَنَاتُ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ خَادِمَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِي الطَّبَقَةِ الْأُولَى ، وَمِنْهَا شَهْرَبَارُ بِنْتُ يَزْدِجِرْدَ كِسْرَى فَارِسَ كَانَتْ تَحْتَ الْإِمَامِ الْهُمَامِ الْحُسَيْنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

وَأَمَّا الثَّالِثَ عَشَرَ وَالرَّابِعَ عَشَرَ : فَلِأَنَّ النَّجَاشِيَّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ وَمُنْذِرَ بْنَ سَاوِي مَلِكَ

الْبَحْرِينِ وَمَلِكَ عَمَّانَ انْقَادُوا وَأَسْلَمُوا ، وَهِرَقْلَ قَيْصَرَ الرُّومِ أَرْسَلَ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ ، وَالْمُقَوْقِسَ مِلَكَ الْقِبْطِ أَرْسَلَ إِلَيْهِ ثَلَاثَ جَوَارٍ وَغُلَامًا أَسْوَدَ وَبَغْلَةً شَهْبَاءَ وَحِمَارًا أَشْهَبَ وَفَرَسًا وَثِيَابًا وَغَيْرَهَا .

(200/291)

وَأَمَّا الْخَامِسَ عَشَرَ : فَقَدْ وَصَلَ مِنْ أَبْنَاءِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – إِلَى الْخِلَافَةِ وَأُلُوفٌ فِي أَقَالِيمَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَفَارِسَ وَالْهِنْدِ وَغَيْرِهَا وَفَازُوا بِالسَّلْطَنَةِ وَالْإِمَارَةِ الْعَالِيَةِ ، وَإِلَى الْآنَ أَيْضًا فِي دِيَارِ الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَفِي غَيْرِهِمَا تُوجَدُ الْأُمَرَاءُ وَالْحُكَّامُ مِنْ نَسْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَسَيَظْهَرُ إِنْ شَاءَ اللهُ الْمَهْدِيُّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – مِنْ نَسْلِهِ وَيَكُونُ خَلِيفَةَ اللهِ فِي الْأَرْضِ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فِي عَهْدِهِ الشَّرِيفِ .

وَأَمَّا السَّادِسَ عَشَرَ وَالسَّابِعَ عَشَرَ : فَلِأَنَّهُ يُنَادِي أُلُوفَ أُلُوفٍ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ فِي الْأَوْقَاتِ الْخَمْسَةِ بِصَوْتٍ رَفِيعٍ فِي أَقَالِيمَ مُخْتَلِفَةٍ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ فِي الْأَوْقَاتِ الْمَذْكُورَةِ غَيْرُ الْمَحْصُورِينَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَالْقُرَّاءُ يَحْفَظُونَ مَنْشُورَهُ ، وَالْمُفَسِّرُونَ يُفَسِّرُونَ مَعَانِيَ فُرْقَانِهِ ، وَالْوُعَّاظُ

يُبَلِّغُونَ وَعْظَهُ ، وَالْعُلَمَاءُ وَالسَّلَاطِينُ يَصِلُونَ إِلَى خِدْمَتِهِ ، وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ ، وَيَمْسَحُونَ وُجُوهَهُمْ بِتُرَابِ رَوْضَتِهِ وَيَرْجُونَ شَفَاعَتَهُ .

(201/291)

وَلَا يَصْدُقُ هَذَا الْخَبَرُ فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَمَا يَدَّعِيهِ عُلَمَاءُ بُرُوتُسْتَنْتْ ادِّعَاءً بَاطِلًا ؛ لِأَنَّهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى الْخَبَرِ الْمُنْدَرِجِ فِي الْبَابِ الثَّالِثِ وَالْخَمْسِينَ مِنْ كِتَابِ أَشْعِيَا فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَهَذَا نَصُّهُ : لَيْسَ لَهُ مَنْظَرٌ وَجَمَالٌ ، وَرَأَيْنَاهُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَنْظَرٌ وَاشْتَهَيْنَاهُ مُهَانًا ، وَآخِرُ الرِّجَالِ رَجُلُ الْأَوْجَاعِ مُخْتَبَرًا بِالْأَمْرَاضِ ، وَكَانَ مَكْتُومًا وَجْهُهُ ، وَمَزْدُولًا وَلَمْ نَحْسَبْهُ وَنَحْنُ حَسِبْنَاهُ كَأَبْرَصَ ، وَمَضْرُوبًا مِنَ اللهِ وَمَخْضُوعًا ، وَالرَّبُّ شَاءَ أَنْ يَسْحَقَهُ .

وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ ضِدُّ الْأَوْصَافِ الَّتِي فِي الزَّبُورِ الْمَذْكُورِ فَلَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ كَوْنُهُ حَسَنًا ، وَلَا كَوْنُهُ قَوِيًّا ، وَكَذَا لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ كَوْنُهُ مُتَقَلِّدًا بِالسَّيْفِ ، وَلَا كَوْنُ نَبْلِهِ مَسْنُونَةً ، وَلَا انْقِيَادُ الْأَغْنِيَاءِ لَهُ ، وَلَا إِرْسَالُهُمْ إِلَيْهِ الْهَدَايَا ، بَلْ هُمْ عَلَى زَعْمِ النَّصَارَى أَخَذُوهُ وَأَهَانُوهُ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ وَضَرَبُوهُ بِالسِّيَاطِ ثُمَّ صَلَبُوهُ ، وَمَا كَانَ لَهُ زَوْجَةٌ وَلَا ابْنٌ ، فَلَا يَصْدُقُ دُخُولُ بَنَاتِ الْمُلُوكِ فِي بَيْتِهِ ، وَلَا كَوْنُ أَبْنَائِهِ بَدَلَ آبَائِهِ رُؤَسَاءَ الْأَرْضِ .

(فَائِدَةٌ) تَرْجَمَةُ الْآيَةِ الثَّامِنَةِ الَّتِي نَقَلْتُهَا مُطَابِقَةً لِلتَّرْجَمَةِ الْفَارِسِيَّةِ لِلزَّبُورِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدِي ، وَلِتَرَاجِمِ أُرْدُو لِلزَّبُورِ ، وَمُوَافِقَةً لِنَقْلِ مُقَدَّسِهِمْ بُولِسَ ؛ لِأَنَّهُ نَقَلَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ رِسَالَتِهِ الْعِبْرَانِيَّةِ هَكَذَا تَرْجَمَةً عَرَبِيَّةً سَنَةَ 1821 وَسَنَةَ 1831 وَسَنَةَ 1844 (أَحْبَبْتَ الْبِرَّ ، وَأَبْغَضْتَ الْإِثْمَ ؛ لِذَلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إِلَهُكَ بِدُهْنِ الْفَرَحِ أَفْضَلَ مِنْ أَصْحَابِكَ) وَالتَّرَاجِمُ الْفَارِسِيَّةُ الْمَطْبُوعَةُ سَنَةَ 1816 وَسَنَةَ 1828 وَسَنَةَ 1841 وَتَرَاجِمُ أُرْدُو الْمَطْبُوعَةُ سَنَةَ 1839 وَسَنَةَ 1840 وَسَنَةَ 1841 مُطَابِقَةٌ لِلتَّرَاجِمِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَالتَّرْجَمَةُ الَّتِي تَكُونُ مُخَالِفَةً لِمَا نَقَلْتُ تَكُونُ غَيْرَ صَحِيحَةٍ ، وَيَكْفِي لِرَدِّهَا إِلْزَامًا كَلَامُ مُقَدَّسِهِمْ ، وَقَدْ عَرَفْتَ فِي مُقَدِّمَةِ الْبَابِ الرَّابِعِ أَنَّ إِطْلَاقَ لَفْظِ الْإِلَهِ وَالرَّبِّ وَأَمْثَالِهِمَا جَاءَ عَلَى الْعَوَامِّ فَضْلًا عَلَى الْخَوَاصِّ ، وَالْآيَةُ السَّادِسَةُ مِنَ الزَّبُورِ الثَّانِي وَالثَّمَانِينَ هَكَذَا (أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنُو الْعُلَى كُلُّكُمْ) فَلَا يَرِدُ

مَا قَالَ صَاحِبُ مِفْتَاحِ الْأَسْرَارِ أَنَّهُ وَقَعَ فِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ هَكَذَا (أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الشَّرَّ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَا اللهُ مَسِيحُ إِلَهكَ بِدُهْنِ الْبَهْجَةِ أَفْضَلَ مِنْ رُفَقَائِكَ) وَلَا يُقَالُ لِشَخْصٍ غَيْرِ الْمَسِيحِ يَا اللهُ مَسِيحُ إِلَهكَ إِلَخْ . لِأَنَّا لَا نُسَلِّمُ أَوَّلًا صِحَّةَ تَرْجَمَتِهِ لِكَوْنِهَا مُخَالِفَةً لِكَلَامِ مُقَدَّسِهِمْ . (وَثَانِيًا) لَوْ قَطَعْنَا النَّظَرَ عَنْ عَدَمِ صِحَّتِهَا أَقُولُ : ادِّعَاؤُهُ صَرِيحُ الْبُطْلَانِ ؛ لِأَنَّ لَفْظَ اللهِ هَاهُنَا بِالْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ لَا الْحَقِيقِيِّ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: إِلَهكَ ؛ لِأَنَّ الْإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ لَا إِلَهَ لَهُ ، فَإِذَا كَانَ بِالْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ يَصْدُقُ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا يَصْدُقُ فِي حَقِّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

(قَدْ حَذَفْنَا هُنَا 6 بِشَارَاتٍ مِنْ 7 - 12 لِلِاخْتِصَارِ)

(الْبِشَارَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ)

(204/291)

فِي الْبَابِ الثَّالِثِ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا : (1 وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعَمَّدَانُ يُكْرِزُ فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِ 2 قَائِلًا : تُوبُوا لِأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ ، وَفِي الْبَابِ الرَّابِعِ فِي إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا : (12 وَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ أَنَّ يُوحَنَّا أَسْلَمَ انْصَرَفَ إِلَى الْجَلِيلِ . . . 17 مِنْ ذَلِكَ الزَّمَنِ ابْتَدَأَ يَسُوعُ يُكْرِزُ وَيَقُولُ : تُوبُوا لِأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ . . 23 وَكَانَ

يَسُوعُ يَطُوفُ كُلَّ الْجَلِيلِ يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهِمْ وَيُكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ) إِلَخْ . وَفِي الْبَابِ السَّادِسِ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى فِي بَيَانِ الصَّلَاةِ الَّتِي عَلَّمَهَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَلَامِيذَهُ هَكَذَا (10 - لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ) وَلَمَّا أَرْسَلَ الْحَوَارِيِّينَ إِلَى الْبِلَادِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ لِلدَّعْوَةِ وَالْوَعْظِ ، وَصَّاهُمْ بِوَصَايَا مِنْهَا هَذِهِ الْوَصِيَّةُ أَيْضًا (وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ : إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ) كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي الْبَابِ الْعَاشِرِ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى ، وَوَقَعَ فِي الْبَابِ التَّاسِعِ

(205/291)

مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا هَكَذَا (1 وَدَعَا تَلَامِيذَهُ الْاثْنَيْ عَشَرَ وَأَعْطَاهُمْ قُوَّةً وَسُلْطَانًا عَلَى جَمِيعِ الشَّيَاطِينِ وَشِفَاءِ أَمْرَاضٍ 2 وَأَرْسَلَهُمْ لِيُكْرِزُوا بِمَلَكُوتِ اللهِ وَيَشْفُوا الْمَرْضَى) وَفِي الْبَابِ الْعَاشِرِ مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا هَكَذَا (1 وَبَعْدَ ذَلِكَ عَيَّنَ الرَّبُّ سَبْعِينَ آخَرِينَ أَيْضًا وَأَرْسَلَهُمْ) إِلَخْ . (فَقَالَ لَهُمْ) إِلَخْ . (8 وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ دَخَلْتُمُوهَا وَقَبِلُوكُمْ فَكُلُوا مِمَّا يُقَدَّمُ

(206/291)

لَكُمْ (9) وَاشْفُوا الْمَرْضَى الَّذِينَ فِيهَا وَقُولُوا لَهُمْ : قَدِ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ (10) وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ دَخَلْتُمُوهَا وَلَمْ يَقْبَلُوكُمْ فَاخْرُجُوا إِلَى شَوَارِعِهَا وَقُولُوا (11) حَتَّى الْغُبَارُ الَّذِي لَصِقَ بِنَا مِنْ مَدِينَتِكُمْ نَنْفُضُهُ لَكُمْ ، وَلَكِنِ اعْلَمُوا هَذَا أَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ) - فَظَهَرَ أَنَّ كُلًّا مِنْ يَحْيَى وَعِيسَى وَالْحَوَارِيِّينَ وَالتَّلَامِيذِ السَّبْعِينَ بَشَّرَ بِمَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ ، وَبَشَّرَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي بَشَّرَ بِهَا يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، فَعُلِمَ أَنَّ الْمَلَكُوتَ كَمَا لَمْ يَظْهَرْ فِي عَهْدِ يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، فَكَذَا لَمْ يَظْهَرْ فِي عَهْدِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَلَا فِي عَهْدِ الْحَوَارِيِّينَ وَالسَّبْعِينَ ، بَلْ كُلٌّ مِنْهُمْ مُبَشِّرٌ بِهِ ، وَمُخْبِرٌ عَنْ فَضْلِهِ وَمُتَرَجٍّ لِمَجِيئِهِ ، فَلَا يَكُونُ الْمُرَادُ بِمَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ طَرِيقَةَ النَّجَاةِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِشَرِيعَةِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَإِلَّا لَمَّا قَالَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَالْحَوَارِيُّونَ وَالسَّبْعُونَ : إِنَّ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ قَدِ اقْتَرَبَ ، وَلَمَّا عَلَّمَ التَّلَامِيذَ أَنْ يَقُولُوا فِي الصَّلَاةِ وَلْيَأْتِ مَلَكُوتُكَ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ قَدْ ظَهَرَتْ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَهَؤُلَاءِ كَانُوا يُبَشِّرُونَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْجَلِيلَةِ ، وَلَفْظُ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَلَكُوتَ يَكُونُ فِي صُورَةِ السَّلْطَنَةِ لَا فِي صُورَةِ الْمَسْكَنَةِ ،

(207/291)

وَأَنَّ الْمُحَارَبَةَ وَالْجِدَالَ فِيهِ مَعَ الْمُخَالِفِينَ يَكُونَانِ لِأَجْلِهِ ، وَأَنَّ مَبْنَى قَوَانِينِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كِتَابًا سَمَاوِيًّا ، وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ يَصْدُقُ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ .

وَقَوْلُ عُلَمَاءِ الْمَسِيحِيَّةِ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْمَلَكُوتِ شُيُوعُ الْمِلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِ ، وَإِحَاطَتُهَا بِكُلِّ الدُّنْيَا بَعْدَ نُزُولِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – . فَتَأْوِيلٌ ضَعِيفٌ خِلَافُ الظَّاهِرِ ، وَيَرُدُّهُ التَّمْثِيلَاتُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فِي الْبَابِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى مَثَلًا قَالَ : (24 يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا زَرَعَ زَرْعًا جَيِّدًا فِي حَقْلِهِ . . .) ثُمَّ قَالَ : (31 يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ . . .) ثُمَّ قَالَ : (33 يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ خَمِيرَةً أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ وَخَبَّأَتْهَا فِي ثَلَاثَةِ أَكْيَالِ دَقِيقٍ حَتَّى اخْتَمَرَ الْجَمِيعُ) فَشَبَّهَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ بِإِنْسَانٍ زَارِعٍ لَا بِنُمُوِّ الزِّرَاعَةِ وَحَصَادِهَا ، وَكَذَلِكَ شَبَّهَهُ بِحَبَّةِ خَرْدَلٍ لَا بِصَيْرُورَتِهَا شَجَرَةً عَظِيمَةً وَشَبَّهَهُ بِخَمِيرَةٍ لَا بِاخْتِمَارِ جَمِيعِ الدَّقِيقِ . وَكَذَا يَرُدُّ هَذَا التَّأْوِيلَ قَوْلُ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بَعْدَ بَيَانِ التَّمْثِيلِ الْمَنْقُولِ فِي الْبَيَانِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا (43 لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ : إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لِأُمَّةٍ

(208/291)

تَعْمَلُ أُثْمَارَهُ) فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِمَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ طَرِيقَةُ النَّجَاةِ نَفْسُهَا لَا شُيُوعُهَا فِي جَمِيعِ الْعَالَمِ وَإِحَاطَتُهَا بِكُلِّ الْعَالَمِ ، وَإِلَّا لَا مَعْنَى لِنَزْعِ الشُّيُوعِ وَالْإِحَاطَةِ مِنْ قَوْمٍ وَإِعْطَائِهَا لِقَوْمٍ آخَرِينَ ، فَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْمَلَكُوتِ هِيَ الْمَمْلَكَةُ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا دَانْيَالُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فِي الْبَابِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ ، فَمِصْدَاقُ هَذَا الْمَلَكُوتِ وَتِلْكَ الْمَمْلَكَةِ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَعِلْمُهُ أَتَمُّ .

(الْبِشَارَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ)

(209/291)

فِي الْبَابِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا (31 قَدَّمَ لَهُمْ مَثَلًا آخَرَ قَائِلًا يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ (32) وَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُذُورِ ، وَلَكِنْ مَتَى نَمَتْ فَهِيَ أَكْبَرُ الْبُقُولِ ، وَتَصِيرُ شَجَرَةً حَتَّى إِنَّ طُيُورَ السَّمَاءِ تَأْتِي وَتَأْوِي فِي أَغْصَانِهَا) فَمَلَكُوتُ السَّمَاءِ طَرِيقَةُ النَّجَاةِ ، الَّتِي ظَهَرَتْ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ؛ لِأَنَّهُ نَشَأَ فِي قَوْمٍ كَانُوا حُقَرَاءَ عِنْدَ الْعَالَمِ لِكَوْنِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي غَالِبًا وَغَيْرَ وَاقِفِينَ عَلَى الْعُلُومِ وَالصِّنَاعَاتِ ، مَحْرُومِينَ مِنَ اللَّذَّاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ ، وَالتَّكَلُّفَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ الْيَهُودِ لِكَوْنِهِمْ مِنْ أَوْلَادِ هَاجَرَ فَبَعَثَ اللَّهُ مِنْهُمْ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

فَكَانَتْ شَرِيعَتُهُ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ بِمَنْزِلَةِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ ، أَصْغَرُ الشَّرَائِعِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ ، لِكَوْنِهَا لِعُمُومِهَا نَمَتْ فِي مُدَّةٍ قَلِيلَةٍ ، وَصَارَتْ أَكْبَرَهَا ، وَأَحَاطَتْ شَرْقًا وَغَرْبًا ، حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا مُطِيعِينَ لِشَرِيعَةٍ مِنَ الشَّرَائِعِ تَشَبَّثُوا بِذَيْلِ شَرِيعَتِهِ .

(الْبِشَارَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ)

فِي الْبَابِ الْعِشْرِينَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا : (1 فَإِنَّ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ يُشْبِهُ رَجُلًا رَبَّ بَيْتٍ خَرَجَ مَعَ الصُّبْحِ لِيَسْتَأْجِرَ فَعَلَةً لِكَرْمِهِ 2 فَاتَّفَقَ مَعَ الْعَمَلَةِ

(210/291)

عَلَى دِينَارٍ فِي الْيَوْمِ ، وَأَرْسَلَهُمْ إِلَى كَرْمِهِ 3 ثُمَّ خَرَجَ نَحْوَ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ وَرَأَى آخَرِينَ قِيَامًا فِي السُّوقِ بَطَّالِينَ 4 فَقَالَ لَهُمْ : اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضًا إِلَى الْكَرْمِ فَأُعْطِيكُمْ مَا يَحِقُّ لَكُمْ فَمَضَوْا 5 وَخَرَجَ أَيْضًا نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ وَالتَّاسِعَةِ وَفَعَلَ كَذَلِكَ 6 ثُمَّ نَحْوَ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ خَرَجَ وَوَجَدَ آخَرِينَ قِيَامًا بَطَّالِينَ فَقَالَ لَهُمْ : لِمَاذَا وَقَفْتُمْ هَاهُنَا كُلَّ النَّهَارِ بَطَّالِينَ 7 قَالُوا لَهُ : لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْجِرْنَا أَحَدٌ . قَالَ لَهُمُ : اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضًا إِلَى الْكَرْمِ فَتَأْخُذُوا مَا يَحِقُّ لَكُمْ 8 فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ قَالَ صَاحِبُ الْكَرْمِ لِوَكِيلِهِ : ادْعُ الْفَعَلَةَ وَأَعْطِهِمُ الْأُجْرَةَ مُبْتَدِئًا مِنَ الْآخِرِينَ إِلَى الْأَوَّلِينَ 9 فَجَاءَ أَصْحَابُ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَأَخَذُوا دِينَارًا دِينَارًا 10

فَلَمَّا جَاءَ الْأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ فَأَخَذُوا هُمْ أَيْضًا دِينَارًا دِينَارًا 11 وَفِيمَا هُمْ يَأْخُذُونَ تَذَمَّرُوا عَلَى رَبِّ الْبَيْتِ 12 قَائِلِينَ : هَؤُلَاءِ الْآخَرُونَ عَمِلُوا سَاعَةً وَقَدْ سَاوَيْتَهُمْ بِنَا نَحْنُ الَّذِينَ احْتَمَلْنَا ثِقَلَ النَّهَارِ وَالْحَرَّ 13 فَأَجَابَ

(211/291)

وَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ : يَا صَاحِبُ مَا ظَلَمْتُكَ أَمَّا اتَّفَقْتَ مَعِي عَلَى دِينَارٍ ؟ 14 فَخُذِ الَّذِي لَكَ ، وَاذْهَبْ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ هَذَا الْأَخِيرَ مِثْلَكَ 15 أَوَمَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَفْعَلَ مَا أُرِيدُ بِمَالِي أَمْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةٌ ؛ لِأَنِّي أَنَا صَالِحٌ 16 هَكَذَا يَكُونُ الْآخِرُونَ أَوَّلِينَ ، وَالْأَوَّلُونَ آخِرِينَ ؛ لِأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ) اهـ . فَالْآخِرُونَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فَهُمْ يُقَدَّمُونَ فِي الْأَجْرِ وَهُمُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ وَقَالَ : إِنَّ الْجَنَّةَ حُرِّمَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ حَتَّى أَدْخُلَهَا ، وَحُرِّمَتْ عَلَى الْأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتِي

(الْبِشَارَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ)

(212/291)

فِي الْبَابِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا (33 اسْمَعُوا مَثَلًا آخَرَ كَانَ إِنْسَانٌ رَبُّ
بَيْتٍ غَرَسَ كَرْمًا وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ وَحَفَرَ فِيهِ مَعْصَرَةً وَبَنَى بُرْجًا وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ
34 وَلَمَّا قَرُبَ وَقْتُ الْإِثْمَارِ أَرْسَلَ عَبِيدَهُ إِلَى الْكَرَّامِينَ وَسَافَرَ لِيَأْخُذَ أَثْمَارَهُ 35 فَأَخَذَ
الْكَرَّامُونَ عَبِيدَهُ وَجَلَدُوا بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا وَرَجَمُوا بَعْضًا 36 ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا عَبِيدًا
آخَرِينَ أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِينَ فَفَعَلُوا بِهِمْ كَذَلِكَ 37 فَأَخِيرًا أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ ابْنَهُ قَائِلًا : يَهَابُونَ ابْنِي
38 وَأَمَّا الْكَرَّامُونَ فَلَمَّا رَأَوُا الْابْنَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ : هَذَا هُوَ الْوَارِثُ هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ وَنَأْخُذْ
مِيرَاثَهُ 39 فَأَخَذُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ وَقَتَلُوهُ 40 فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ مَاذَا
يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ ؟ 41 قَالُوا لَهُ أُولَئِكَ الْأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلَاكًا رَدِيًّا وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى
كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الْأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا 42 قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ : أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ :
الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاءُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ ؟ كَانَ هَذَا وَهُوَ
عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا 43 لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ : إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لِأُمَّةٍ تَعْمَلُ
أَثْمَارَهُ 44 وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ 45 وَلَمَّا
سَمِعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِيسِيُّونَ أَمْثَالَهُ عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ .

أَقُولُ : إِنَّ " رَبُّ بَيْتٍ " كِنَايَةٌ عَنِ اللهِ ، وَالْكَرْمُ كِنَايَةٌ عَنِ الشَّرِيعَةِ ، وَإِحَاطَتُهُ بِسِيَاجٍ ، وَحَفْرَ الْمَعْصَرَةِ فِيهِ ، وَبِنَاءَ الْبُرْجِ كِنَايَاتٌ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمُبَاحَاتِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي .

وَإِنَّ الْكَرَّامِينَ الطَّاغِينَ كِنَايَةٌ عَنِ الْيَهُودِ ، كَمَا فَهِمَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفِرِيسِيُّونَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَالْعَبِيدَ الْمُرْسَلِينَ كِنَايَةٌ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَالِابْنَ كِنَايَةٌ عَنْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَدْ عَرَفْتَ فِي الْبَابِ الرَّابِعِ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِإِطْلَاقِ هَذَا اللَّفْظِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قَتَلَهُ الْيَهُودُ أَيْضًا فِي زَعْمِهِمْ ، وَالْحَجَرَ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاءُونَ كِنَايَةٌ عَنْ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَالْأُمَّةُ الَّتِي تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ كِنَايَةٌ عَنْ أُمَّتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهَذَا هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كُلُّ مَنْ سَقَطَ عَلَيْهِ تَرَضَّضَ ، وَكُلُّ مَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ سَحَقَهُ .

(214/291)

وَمَا ادَّعَاهُ عُلَمَاءُ الْمَسِيحِيَّةِ بِزَعْمِهِمْ : أَنَّ هَذَا الْحَجَرَ عِبَارَةٌ عَنْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَغَيْرُ صَحِيحٍ لِوُجُوهٍ : (الْأَوَّلُ) أَنَّ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ فِي الزَّبُورِ الْمِائَةِ وَالثَّامِنَ عَشَرَ هَكَذَا 22 الْحَجَرُ الَّذِي رَذَلَهُ الْبَنَّاءُونَ هُوَ صَارَ لِلزَّاوِيَةِ 23 مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَتْ هَذِهِ وَهِيَ عَجِيبَةٌ فِي أَعْيُنِنَا) فَلَوْ كَانَ هَذَا الْحَجَرُ عِبَارَةً عَنْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَهُوَ

مِنَ الْيَهُودِ مِنْ آلِ يَهُوذَا مِنْ آلِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، فَأَيُّ عَجَبٍ فِي أَعْيُنِ الْيَهُودِ عُمُومًا لِكَوْنِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رَأْسَ الزَّاوِيَةِ وَلَا سِيَّمَا فِي عَيْنِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، خُصُوصًا لِأَنَّ مَزْعُومَ الْمَسِيحِيِّينَ أَنَّ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُعَظِّمُ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي مَزَامِيرِهِ تَعْظِيمًا بَلِيغًا ، وَيَعْتَقِدُ الْأُلُوهِيَّةَ فِي حَقِّهِ ، بِخِلَافِ آلِ إِسْمَاعِيلَ ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُحَقِّرُونَ أَوْلَادَ إِسْمَاعِيلَ غَايَةَ التَّحْقِيرِ فَكَانَ كَوْنُ أَحَدٍ مِنْهُمْ رَأْسًا لِلزَّاوِيَةِ عَجِيبًا فِي أَعْيُنِهِمْ .

(215/291)

(وَالثَّانِي) أَنَّهُ وَقَعَ فِي وَصْفِ هَذَا الْحَجَرِ "كُلُّ مَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ تَرَضَّضَ وَكُلُّ مَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ سَحَقَهُ" وَلَا يَصْدُقُ هَذَا الْوَصْفُ عَلَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِأَنَّهُ قَالَ : (وَإِنْ سَمِعَ أَحَدٌ كَلَامِي وَلَمْ يُؤْمِنْ فَأَنَا لَا أُدِينُهُ ، لِأَنِّي لَمْ آتِ لِأُدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لِأُخَلِّصَ الْعَالَمَ) كَمَا هُوَ فِي الْبَابِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا . وَصِدْقُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غَيْرُ مُحْتَاجٍ إلَى الْبَيَانِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مَأْمُورًا بِتَنْبِيهِ الْفُجَّارِ الْأَشْرَارِ فَإِنْ سَقَطُوا عَلَيْهِ تَرَضَّضُوا ، وَإِنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِمْ سَحَقَهُمْ .

(الثَّالِثُ) قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرٍ أُحْسِنَ

بُنْيَانُهُ وَتُرِكَ مِنْهُ مَوْضِعُ لَبِنَةٍ فَطَافَ بِهَا النُّظَّارُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ حُسْنِ بُنْيَانِهِ إلَّا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ ، خُتِمَ بِي الْبُنْيَانُ وَخُتِمَ بِي الرُّسُلُ " وَلَمَّا ثَبَتَتْ نُبُوَّتُهُ بِالْأَدِلَّةِ الْأُخْرَى ، كَمَا ذَكَرْتُ نُبَذًا مِنْهَا فِي الْمَسَالِكِ السَّابِقَةِ ، فَلَا بَأْسَ بِأَنْ أَسْتَدِلَّ فِي هَذِهِ الْبِشَارَةِ بِقَوْلِهِ أَيْضًا .

(وَالرَّابِعُ) أَنَّ الْمُتَبَادَرَ مِنْ كَلَامِ الْمَسِيحِ أَنَّ هَذَا الْحَجَرَ غَيْرُ الِابْنِ

(الْبِشَارَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ)

(216/291)

فِي الْبَابِ الثَّانِي مِنَ الْمُشَاهَدَاتِ هَكَذَا (26 وَمَنْ يَغْلِبْ وَيَحْفَظْ أَعْمَالِي إلَى النِّهَايَةِ فَسَأُعْطِيهِ سُلْطَانًا عَلَى الْأُمَمِ 27 فَيَرْعَاهُمْ بِقَضِيبٍ مِنْ حَدِيدٍ كَمَا تُكْسَرُ آنِيَةٌ مِنْ خَزَفٍ كَمَا أُخِذَتْ أَيْضًا مِنْ عِنْدِ أَبِي 28 وَأُعْطِيهِ كَوْكَبَ الصُّبْحِ 29 مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُ الرُّوحُ بِالْكَنَائِسِ فَهَذَا الْغَالِبُ الَّذِي أُعْطِيَ سُلْطَانًا عَلَى الْأُمَمِ وَيَرْعَاهُمْ بِقَضِيبٍ مِنْ حَدِيدٍ هُوَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، كَمَا قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّهِ : وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (48 : 3) وَقَدْ سَمَّاهُ سَطِيحٌ الْكَاهِنُ صَاحِبَ الْهِرَاوَةِ - رُوِيَ أَنَّهُ لَيْلَةَ وِلَادَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - انْشَقَّ إيوَانُ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانَ ، وَسَقَطَ مِنْهُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ شُرْفَةً - وَخَمَدَتْ نَارُ فَارِسَ ، وَلَمْ تَخْمَدْ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَلْفِ عَامٍ ، وَغَارَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَةَ بِحَيْثُ صَارَتْ يَابِسَةً :

وَرَأَى الْمُوبَذَانُ فِي نَوْمِهِ أَنَّ إِبِلًا صِعَابًا تَقُودُ خَيْلًا عِرَابًا فَقَطَعَتْ دِجْلَةَ ، وَانْتَشَرَتْ فِي بِلَادِهَا ، فَخَافَ كِسْرَى مِنْ حُدُوثِ هَذِهِ الْأُمُورِ ، أَرْسَلَ عَبْدَ الْمَسِيحِ إِلَى سَطِيحٍ الْكَاهِنِ الَّذِي كَانَ فِي الشَّامِ ، وَلَمَّا وَصَلَ عَبْدُ الْمَسِيحِ إِلَيْهِ وَجَدَهُ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ فَذَكَرَ هَذِهِ الْأُمُورَ عِنْدَهُ فَأَجَابَ سَطِيحٌ : إِذَا كَثُرَتِ التِّلَاوَةُ ، وَظَهَرَ صَاحِبُ الْهِرَاوَةِ ، وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَةَ ، وَخَمَدَتْ نَارُ فَارِسَ ، فَلَيْسَتْ بَابِلُ لِلْفُرْسِ مَقَامًا ، وَلَا الشَّامُ لِسَطِيحٍ مَنَامًا ، يُمَلِّكُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ وَمَلِكَاتٌ ، عَلَى

(217/291)

عَدَدِ الشُّرُفَاتِ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ اهـ . ثُمَّ مَاتَ سَطِيحٌ مِنْ سَاعَتِهِ ، وَرَجَعَ عَبْدُ الْمَسِيحِ فَأَخْبَرَ أَنُوشِرْوَانَ بِمَا قَالَ سَطِيحٌ ، قَالَ كِسْرَى : إِلَى أَنْ يَمْلِكَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ مَلِكًا كَانَتْ أُمُورٌ وَأُمُورٌ ، فَمَلَكَ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ فِي أَرْبَعِ سِنِينَ ، وَمَلَكَ الْبَاقُونَ إِلَى خِلَافَةِ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَهَلَكَ آخِرُهُمْ يَزْدِجِرْدُ فِي خِلَافَتِهِ ، وَالْهِرَاوَةُ بِكَسْرِ الْهَاءِ الْعَصَا : الضَّخْمَةُ ، وَكَوْكَبُ الصُّبْحِ عِبَارَةٌ عَنِ الْقُرْآنِ ، قَالَ اللَّهُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (4 : 174) وَقَالَ فِي سُورَةِ التَّغَابُنِ : فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا (64 : 8) .

قَالَ صَاحِبُ صَوْلَةِ الضَّيْغَمِ بَعْدَ نَقْلِ هَذِهِ الْبِشَارَةِ : قُلْتُ لِلْقِسِّيسِينَ وِيت وَوِلْيَم عِنْدَ الْمُنَاظَرَةِ : إِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْقَضِيبِ مِنْ حَدِيدٍ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

(218/291)

فَاضْطَرَبَا بِسَمَاعِ هَذَا الْأَمْرِ وَقَالَا : إِنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَكَمَ بِهَذَا لِكَنِيسَةِ ثِيَاتِيرَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ظُهُورُ مِثْلِ هَذَا الشَّخْصِ هُنَاكَ ، وَمُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا رَاحَ هُنَاكَ ، قُلْتُ : هَذِهِ الْكَنِيسَةُ فِي أَيَّةِ نَاحِيَةٍ كَانَتْ ؟ فَرَجَعَا إِلَى كُتُبِ اللُّغَةِ وَقَالَا : كَانَتْ فِي أَرْضِ الرُّومِ قَرِيبَةً فِي اسْتَانْبُولَ ، قُلْتُ : رَاحَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ الْأَعْظَمِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ وَفَتَحُوهَا ، وَبَعْدَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَيْضًا مُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا فِي أَكْثَرِ الْأَوْقَاتِ ، ثُمَّ تَسَلَّطَ عَلَيْهَا سَلَاطِينُ آلِ عُثْمَانَ أَدَامَ اللَّهُ سَلْطَنَتَهُمْ مِنْ مُدَّةٍ مَدِيدَةٍ ، وَهُمْ مُتَسَلِّطُونَ إِلَى هَذَا الْحِينِ . فَهَذَا الْخَبَرُ صَرِيحٌ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - انْتَهَى كَلَامُهُ .

قُلْتُ : إِنَّ الْفَاضِلَ عَبَّاسَ عَلِيَّ الْجَاجَمَوِيَّ الْهِنْدِيَّ صَنَّفَ أَوَّلًا كِتَابًا كَبِيرًا فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ التَّثْلِيثِ سَمَّاهُ (صَوْلَةُ الضَّيْغَمِ عَلَى أَعْدَاءِ ابْنِ مَرْيَمَ) ثُمَّ نَاظَرَ هُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ وِيت وَوِلْيَم الْقِسِّيسَيْنِ فِي بَلَدٍ كَانْفُورَ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ وَأَلْزَمَهُمَا ، ثُمَّ اخْتَصَرَ كِتَابَهُ وَسَمَّى الْمُخْتَصَرَ

(خُلَاصَةَ صَوْلَةِ الضَّيْغَمِ) وَمُنَاظَرَتُهُ كَانَتْ قَبْلَ أَنْ أُنَاظِرَ مِيزَانَ الْحَقِّ فِي أَكْبَرَ آبَادْ بِمِقْدَارِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً .

(الْبِشَارَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ)

(219/291)

هَذِهِ الْبِشَارَةُ وَاقِعَةٌ فِي آخِرِ أَبْوَابِ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا وَأَنَا أَنْقُلُهَا عَنِ التَّرَاجِمِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1821 وَسَنَةَ 1831 وَسَنَةَ 1844 فِي بَلْدَةِ لَنْدَنَ فَأَقُولُ : فِي الْبَابِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا هَكَذَا (15 إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ 16 وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الْأَبِ فَيُعْطِيكُمْ فَارْقَلِيط آخَرَ لِيُثْبِتَ مَعَكُمْ إِلَى الْأَبَدِ 17 رُوحَ الْحَقِّ الَّذِي لَنْ يُطِيقَ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَرَاهُ وَلَا يَعْرِفُهُ وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَهُ لِأَنَّهُ مُقِيمٌ عِنْدَكُمْ وَهُوَ ثَابِتٌ فِيكُمْ 26 وَالْفَارَقْلِيطُ رُوحُ الْقُدُسِ الَّذِي يُرْسِلُهُ الْآبُ بِاسْمِي هُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يُذَكِّرُكُمْ كُلَّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ 30 وَالْآنَ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى إِذَا كَانَ تُؤْمِنُونَ (وَفِي الْبَابِ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا هَكَذَا (26 فَأَمَّا إِذَا جَاءَ الْفَارَقْلِيطُ الَّذِي أُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَبِ رُوحِ الْحَقِّ الَّذِي مِنَ الْأَبِ يَنْبَثِقُ فَهُوَ يَشْهَدُ لِأَجْلِي 27 وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ لِأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ

الِابْتِدَاءِ) وَفِي الْبَابِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا هَكَذَا (7 لَكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ

(220/291)

أَنْطَلِقَ لِأَنِّي إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لَمْ يَأْتِكُمُ الْفَارَقْلِيطُ ، فَأَمَّا إِنِ انْطَلَقْتُ أَرْسَلْتُهُ إِلَيْكُمْ 8 فَإِذَا جَاءَ ذَاكَ يُوَبِّخُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرٍّ وَعَلَى حُكْمٍ (9 أَمَّا عَلَى الْخَطِيَّةِ فَلِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِي 10 وَأَمَّا عَلَى الْبِرِّ ، فَلِأَنِّي مُنْطَلِقٌ إِلَى الْأَبِ ، وَلَسْتُمْ تَرَوْنَنِي بَعْدُ 11 وَأَمَّا عَلَى الْحُكْمِ فَأَنْ أَكُونَ (رَئِيسَ) هَذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ 12 وَإِنَّ لِي كَلَامًا كَثِيرًا أَقُولُهُ لَكُمْ ، وَلَكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُطِيقُونَ حَمْلَهُ الْآنَ 13 وَإِذَا جَاءَ رُوحُ الْحَقِّ ذَاكَ فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ جَمِيعَ الْحَقِّ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَنْطِقُ مِنْ عِنْدِهِ بَلْ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ وَيُخْبِرُكُمْ بِمَا سَيَأْتِي 14 وَهُوَ يُمَجِّدُنِي لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا هُوَ لِي وَيُخْبِرُكُمْ 15 جَمِيعَ مَا هُوَ لِلْأَبِ فَهُوَ لِي فَمِنْ أَجْلِ هَذَا قُلْتُ إِنَّ مِمَّا هُوَ لِي يَأْخُذُ وَيُخْبِرُكُمْ) .

وَأَنَا أُقَدِّمُ قَبْلَ بَيَانِ وَجْهِ الِاسْتِدْلَالِ بِهَذِهِ الْعِبَارَاتِ أَمْرَيْنِ : (الْأَمْرُ الْأَوَّلُ) أَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ فِي الْأَمْرِ السَّابِعِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ سَلَفًا وَخَلَفًا عَادَتُهُمْ أَنْ يُتَرْجِمُوا غَالِبًا الْأَسْمَاءَ (أَيِ الْأَعْلَامَ) ، وَأَنَّ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – كَانَ يَتَكَلَّمُ بِاللِّسَانِ الْعِبْرَانِيِّ لَا بِالْيُونَانِيِّ ، فَإِذًا لَا يَبْقَى شَكٌّ فِي

أَنَّ الْإِنْجِيلَ الرَّابِعَ تَرْجَمَ اسْمَ الْمُبَشَّرِ بِهِ بِالْيُونَانِيِّ بِحَسْبِ عَادَتِهِمْ ثُمَّ مُتَرْجِمُو الْعَرَبِيَّةِ عَرَّبُوا اللَّفْظَ بِفَارَقْلِيطَ ، وَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيَّ رِسَالَةٌ صَغِيرَةٌ بِلِسَانِ

"

(221/291)

أُرْدُو " مِنْ رَسَائِلِ الْقِسِّيسِينَ فِي سَنَةِ أَلْفٍ وَمِائَتَيْنِ وَثَمَانِيَةٍ وَسِتِّينَ مِنَ الْهِجْرَةِ وَكَانَتْ هَذِهِ الرَّسَائِلُ طُبِعَتْ فِي "كَلْكَتَّهْ" وَكَانَتْ فِي تَحْقِيقِ لَفْظِ (فَارْقَلِيطَ) وَادَّعَى مُؤَلِّفُهَا أَنَّ مَقْصُودَهُ أَنْ يُنَبِّهَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى سَبَبِ وُقُوعِهِمْ فِي الْغَلَطِ مِنْ لَفْظِ فَارَقْلِيطَ ، وَكَانَ مُلَخَّصُ كَلَامِهِ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُعَرَّبٌ مِنَ اللَّفْظِ الْيُونَانِيِّ " فَإِنْ قُلْنَا : إِنَّ هَذَا اللَّفْظَ الْيُونَانِيَّ الْأَصْلِ بَارَاكَلِي طُوسَ فَيَكُونُ بِمَعْنَى الْمُعَزِّي وَالْمُعِينُ وَالْوَكِيلِ ، وَإِنْ قُلْنَا : إِنَّ اللَّفْظَ الْأَصْلَ بِيرَكْلُوطُوسَ يَكُونُ قَرِيبًا مِنْ مَعْنَى مُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ ، فَمَنِ اسْتَدَلَّ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ بِهَذِهِ الْبِشَارَةِ فَهِمَ أَنَّ اللَّفْظَ الْأَصْلَ بِيرَكْلُوطُوسَ وَمَعْنَاهُ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى مُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ فَادَّعَى أَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَخْبَرَ بِمُحَمَّدٍ أَوْ أَحْمَدَ ، لَكِنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهُ بَارَكَلِي طُوسَ " انْتَهَى مُلَخَّصًا مِنْ كَلَامِهِ .

(يَقُولُ مُحَمَّدْ رَشِيدْ مُؤَلِّفُ هَذَا التَّفْسِيرِ) : إِنِّي أُوَضِّحُ هُنَا مَا كَتَبَهُ الشَّيْخُ

رَحْمَةُ اللهِ بِكَلِمَةٍ لِلدُّكْتُورِ مُحَمَّدْ تَوْفِيقْ صِدْقِي أَوْرَدَهَا فِي هَذَا الْمَقَامِ فِي كِتَابِهِ (دِينُ اللهِ فِي كُتُبِ أَنْبِيَائِهِ) قَالَ رَحِمَهُ اللهُ : هَذَا اللَّفْظُ (الْفَارَقْلِيطُ) يُونَانِيٌّ وَيُكْتَبُ بِالْإِنْكِلِيزِيَّةِ هَكَذَا (paraclete) بَارَقْلِيطُ أَيِ (الْمُعَزِّي) وَيَتَضَمَّنُ أَيْضًا مَعْنَى (الْمُحَاجِّ) كَمَا قَالَ بوست فِي قَامُوسِهِ ، وَهَاكَ لَفْظًا آخَرَ يُكْتَبُ هَكَذَا (periclite) وَمَعْنَاهُ رَفِيعُ الْمَقَامِ . سَامٍ . جَلِيلٌ . مَجِيدٌ . شَهِيرٌ . وَهِيَ كُلُّهَا مَعَانٍ تُقَرِّبُ مِنْ مَعْنَى مُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ وَمَحْمُودٍ . وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْمَسِيحَ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِالْعِبْرِيَّةِ فَلَا نَدْرِي مَاذَا كَانَ اللَّفْظُ الَّذِي نَطَقَ بِهِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ؟ وَلَا نَدْرِي إِنْ كَانَتْ تَرْجَمَةُ مُؤَلِّفِ هَذَا الْإِنْجِيلِ لَهُ بِلَفْظِ (paraclete) صَحِيحَةً أَوْ خَطَأً ؟ وَلَا نَدْرِي إِنْ كَانَ هَذَا اللَّفْظُ (paraclete) هُوَ الَّذِي تُرْجِمَ بِهِ مِنْ قَبْلُ أَمْ لَا ؟ لِأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْعِبَارَاتِ وَقَعَ فِيهَا التَّحْرِيفُ مِنَ الْكُتَّابِ سَهْوًا أَوْ قَصْدًا ، كَمَا اعْتَرَفُوا بِهِ فِي جَمِيعِ كُتُبِ الْعَهْدَيْنِ (رَاجِعِ الْفَصْلَ الثَّالِثَ) فَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ الْأَصْلِيُّ (periclite) بِيرقليط فَلَا يَبْعُدُ أَنَّهُ تَحَرَّفَ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا إِلَى (paraclete) بَارَقْلِيط حَتَّى يُبْعِدُوهُ عَنْ مَعْنَى اسْمِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَمِمَّا يُسَهِّلُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ تَشَابُهُ أَحْرُفِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي اللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ .

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَسَوَاءٌ كَانَ هُوَ (paraclete) بَارَقْلِيط أَوْ (periclite) بيرِقْلِيط ، فَمَعْنَى كُلٍّ مِنْهُمَا يَنْطَبِقُ عَلَى مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَهُوَ مُعَزٍّ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى عَدَمِ إِيمَانِ الْكَافِرِينَ ، وَعَلَى وُجُودِ الشَّرِّ فِي هَذَا الْعَالَمِ بِإِيضَاحِ أَنَّ هَذِهِ هِيَ إِرَادَةُ اللهِ لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا هُوَ ، وَمُعَزٍّ أَيْضًا لِلْمُصَابِينَ وَالْمَرْضَى وَالْفُقَرَاءِ وَغَيْرِهِمْ بِعَقِيدَةِ الْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ ، وَهُوَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يُحَاجُّ الْكُفَّارَ وَالْمُشْرِكِينَ وَغَيْرَهُمْ .

(إِذَا كَانَ مَعْنَاهَا الْمُحَاجُّ الْمُجَادِلُ كَمَا قَالَ بوست) وَهُوَ شَهِيرٌ سَامٍ جَلِيلٌ مَجِيدٌ إِذَا كَانَ اللَّفْظُ الْأَصْلِيُّ (بيرِقْلِيط) وَالْعِبَارَاتُ الْوَارِدَةُ فِي إِنْجِيلِ يُوحَنَّا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا تَنْطَبِقُ إِلَّا عَلَى مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ صَاحِبُ كِتَابِ إِظْهَارِ الْحَقِّ وَمُؤَلِّفُ كِتَابِ (فَتْحِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ فِي بَشَائِرِ دِينِ الْإِسْلَامِ) وَكَمَا أَشَرْنَا إِلَى ذَلِكَ فِي صَفْحَةِ 82 مِنْ هَذَا الْكِتَابِ اهـ . وَنَعُودُ إِلَى سِيَاقِ صَاحِبِ إِظْهَارِ الْحَقِّ الشَّيْخِ رَحْمَةِ اللهِ ، قَالَ رَحِمَهُ اللهُ .

وَأَقُولُ : إِنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ يَسِيرٌ جِدًّا ، وَإِنَّ الْحُرُوفَ الْيُونَانِيَّةَ كَانَتْ مُتَشَابِهَةً ، فَتَبَدُّلُ بيركلوطوس بباراكلي طوس فِي بَعْضِ النُّسَخِ مِنَ الْكَاتِبِ قَرِيبُ الْقِيَاسِ ، ثُمَّ رَجَّحَ أَهْلُ التَّثْلِيثِ الْمُنْكِرِينَ هَذِهِ النُّسْخَةَ عَلَى النُّسَخِ الْأُخَرِ ، وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي الْبَابِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ . وَالْأَمْرَ السَّابِعَ مِنْ هَذَا الْمَسْلَكِ السَّادِسِ بِنَظَرِ الْإِنْصَافِ اعْتَقَدَ يَقِينًا بِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَهْلِ الدِّيَانَةِ مِنْ أَهْلِ التَّثْلِيثِ لَيْسَ بِبَعِيدٍ بَلْ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُحَسِّنَاتِ .

(225/291)

(وَالْأَمْرُ الثَّانِي) أَنَّ الْبَعْضَ ادَّعَوْا قَبْلَ ظُهُورِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُمْ مَصَادِيقُ لَفْظِ فَارَقْلِيطَ ، مَثَلًا منتنس الْمَسِيحِيُّ الَّذِي كَانَ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي مِنَ الْمِيلَادِ ، وَكَانَ مُرْتَاضًا شَدِيدَ الِارْتِيَاضِ وَأَتْقَى أَهْلِ عَهْدِهِ : ادَّعَى فِي قُرْبِ سَنَةِ 177 مِنَ الْمِيلَادِ فِي آسْيَا الصُّغْرَى الرِّسَالَةَ ، وَقَالَ : إِنِّي الْفَارَقْلِيطُ الَّذِي وَعَدَ بِمَجِيئِهِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَتَبِعَهُ أُنَاسٌ كَثِيرُونَ فِي ذَلِكَ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ ، وَذَكَرَ وِلْيَمْ مَيُورْ حَالَهُ وَحَالَ مُتَّبِعِيهِ فِي الْقَسَمِ الثَّانِي مِنَ الْبَابِ الثَّالِثِ مِنْ تَارِيخِهِ بِلِسَانِ أُرْدُو الْمَطْبُوعِ سَنَةَ 1848 مِنَ الْمِيلَادِ هَكَذَا : إِنَّ الْبَعْضَ قَالُوا إِنَّهُ ادَّعَى أَنَّهُ الْفَارَقْلِيطُ يَعْنِي الْمُعَزِّي رُوحُ

الْقُدُسِ ، وَهُوَ كَانَ أَتْقَى (؟) وَمُرْتَاضًا شَدِيدًا (؟) وَلِأَجْلِ ذَلِكَ قَبِلَهُ النَّاسُ قَبُولًا زَائِدًا ، انْتَهَى كَلَامُهُ .

(226/291)

فَعُلِمَ أَنَّ انْتِظَارَ الْفَارَقْلِيطِ كَانَ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى الْمَسِيحِيَّةِ أَيْضًا وَلِذَلِكَ كَانَ النَّاسُ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مَصَادِيقُهُ ، وَكَانَ الْمَسِيحِيُّونَ يَقْبَلُونَ دَعَاوِيَهُمْ . وَقَالَ صَاحِبُ لُبِّ التَّوَارِيخِ : إنَّ الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ مِنْ مُعَاصِرِي مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانُوا مُنْتَظِرِينَ لِنَبِيٍّ ، فَحَصَلَ لِمُحَمَّدٍ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ نَفْعٌ عَظِيمٌ ؛ لِأَنَّهُ ادَّعَى أَنَّهُ هُوَ ذَاكَ الْمُنْتَظَرُ ، انْتَهَى مُلَخَّصُ كَلَامِهِ .

فَيُعْلَمُ مِنْ كَلَامِهِ أَيْضًا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا مُنْتَظِرِينَ لِخُرُوجِ نَبِيٍّ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَهُوَ الْحَقُّ ؛ لِأَنَّ النَّجَاشِيَّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ لَمَّا وَصَلَ إلَيْهِ كِتَابُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : أَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ ، وَكَتَبَ الْجَوَابَ وَكَتَبَ فِي الْجَوَابِ : أَشْهَدُ أَنَّكَ

رَسُولُ اللَّهِ صَادِقًا وَمُصَدِّقًا ، وَقَدْ بَايَعْتُكَ وَبَايَعْتُ ابْنَ عَمِّكَ - أَيْ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ - وَأَسْلَمْتُ عَلَى يَدَيْهِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اهـ . وَهَذَا النَّجَاشِيُّ كَانَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ نَصْرَانِيًّا .

(227/291)

وَكَتَبَ الْمُقَوْقِسُ مِلْكُ الْقِبْطِ فِي جَوَابِ كِتَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَكَذَا :

(إلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مِنَ الْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ ، وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ فِيهِ وَمَا تَدْعُو إلَيْهِ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَبِيًّا قَدْ بَقِيَ ، وَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالشَّامِ ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَكَ ، اهـ . وَالْمُقَوْقِسُ هَذَا وَإِنْ لَمْ يُسْلِمْ لَكِنَّهُ أَقَرَّ فِي كِتَابِهِ : أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَبِيًّا قَدْ بَقِيَ ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا فَهَذَانِ الْمَلِكَانِ مَا كَانَا يَخَافَانِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَجْلِ شَوْكَتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ .

وَجَاءَ الْجَارُودُ بْنُ الْعَلَاءِ فِي قَوْمِهِ إلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : فَقَالَ : وَاللهِ لَقَدْ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، وَنَطَقْتَ الصِّدْقَ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَقَدْ وَجَدْتُ وَصْفَكَ فِي الْإِنْجِيلِ ، وَبَشَّرَ بِكَ ابْنُ الْبَتُولِ ، فَطُولُ التَّحِيَّةِ لَكَ ، وَالشُّكْرُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ ، لَا أَثَرَ بَعْدَ عَيْنٍ ، وَلَا شَكَّ بَعْدَ يَقِينٍ ، مُدَّ يَدَكَ فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ثُمَّ آمَنَ قَوْمُهُ ، وَهَذَا الْجَارُودُ كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى ، وَقَدْ أَقَرَّ بِأَنَّهُ قَدْ بَشَّرَ بِهِ ابْنُ الْبَتُولِ أَيْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، فَظَهَرَ أَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ أَيْضًا كَانُوا مُنْتَظِرِينَ لِخُرُوجِ نَبِيٍّ بَشَّرَ بِهِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَأَقُولُ : إِنَّ اللَّفْظَ الْعِبْرَانِيَّ الَّذِي قَالَهُ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَفْقُودٌ ، وَاللَّفْظُ الْيُونَانِيُّ الْمَوْجُودُ تَرْجَمَةٌ لَكِنِّي أَتْرُكُ الْبَحْثَ عَنِ الْأَصْلِ ، وَأَتَكَلَّمُ عَلَى هَذَا اللَّفْظِ الْيُونَانِيِّ فَأَقُولُ : إِنْ كَانَ اللَّفْظُ الْيُونَانِيُّ الْأَصْلِ بيركلوطوس ، فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ وَتَكُونُ بِشَارَةُ الْمَسِيحِ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِلَفْظٍ هُوَ قَرِيبٌ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ قَرِيبَ الْقِيَاسِ بِالنَّظَرِ إِلَى عَادَاتِهِمْ لَكِنِّي أَتْرُكُ هَذَا الِاحْتِمَالَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتِمُّ عَلَيْهِ إِلْزَامًا ، وَأَقُولُ : إِنْ كَانَ اللَّفْظُ الْيُونَانِيُّ الْأَصْلِ باراكلي طوس كَمَا يَدَّعُونَ فَهَذَا لَا يُنَافِي الِاسْتِدْلَالَ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ الْمُعَزِّي وَالْمُعِينُ وَالْوَكِيلُ عَلَى مَا بَيْنَ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ أَوِ الشَّافِعِ كَمَا يُوجَدُ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 وَهَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا تَصْدُقُ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وَأَنَا أُبَيِّنُ الْآنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَارَقْلِيطِ النَّبِيُّ الْمُبَشَّرُ بِهِ أَعْنِي مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ

(229/291)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا الرُّوحُ النَّازِلُ عَلَى تَلَامِيذِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَوْمَ الدَّارِ الَّذِي جَاءَ ذِكْرُهُ فِي الْبَابِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ الْأَعْمَالِ ، وَأَذْكُرُ ثَانِيًا شُبَهَاتِ عُلَمَاءِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَأُجِيبُ

عَنْهَا فَأَقُولُ : أَمَّا الْأَوَّلُ فَيَدُلُّ عَلَيْهِ أُمُورٌ : (1) إِنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ أَوَّلًا (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ) ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْفَارَقْلِيطِ . فَمَقْصُودُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْ يَعْتَقِدَ السَّامِعُونَ بِأَنَّ مَا يُلْقَى عَلَيْهِمْ بَعْدُ ضَرُورِيٌّ وَاجِبُ الرِّعَايَةِ ، فَلَوْ كَانَ الْفَارَقْلِيطِ عِبَارَةً عَنِ الرُّوحِ النَّازِلِ يَوْمَ الدَّارِ لَمَا كَانَتِ الْحَاجَةُ إِلَى هَذِهِ الْفِقْرَةِ ؛ لِأَنَّهُ مَا كَانَ مَظْنُونًا أَنْ يَسْتَبْعِدَ الْحَوَارِيُّونَ نُزُولَ الرُّوحِ عَلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى

لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَفِيضِينَ مِنْهُ مِنْ قَبْلُ أَيْضًا ، بَلْ لَا مَجَالَ لِلِاسْتِبْعَادِ أَيْضًا ، لِأَنَّهُ إِذَا نَزَلَ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ ، وَحَلَّ فِيهِ يَظْهَرُ أَثَرُهُ لَا مَحَالَةَ ظُهُورًا بَيِّنًا فَلَا يُتَصَوَّرُ إِنْكَارُ الْمُتَأَثِّرِ مِنْهُ ، وَلَيْسَ ظُهُورُهُ عِنْدَهُمْ فِي صُورَةٍ يَكُونُ فِيهِ مَظِنَّةً يَكُونُ الِاسْتِبْعَادُ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ النَّبِيِّ الْمُبَشَّرِ بِهِ . حَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْمَسِيحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا عَلِمَ بِالتَّجْرِبَةِ وَبِنُورِ النُّبُوَّةِ أَنَّ الْكَثِيرِينَ مِنْ أُمَّتِهِ يُنْكِرُونَ النَّبِيَّ الْمُبَشَّرَ بِهِ عِنْدَ ظُهُورِهِ أَكَّدَهُ أَوَّلًا بِهَذِهِ الْفِقْرَةِ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ مَجِيئِهِ .

(230/291)

---

(2) إِنَّ هَذَا الرُّوحَ مُتَّحِدٌ بِالْأَبِ مُطْلَقًا وَبِالِابْنِ نَظَرًا إِلَى هُوِّيَّتِهِ اتِّحَادًا حَقِيقِيًّا فَلَا يَصْدُقُ فِي حَقِّهِ (فَارَقْلِيطٌ آخَرُ) بِخِلَافِ النَّبِيِّ الْمُبَشَّرِ بِهِ فَإِنَّهُ يَصْدُقُ هَذَا الْقَوْلُ فِي حَقِّهِ بِلَا تَكَلُّفٍ .

(3) إِنَّ الْوَكَالَةَ وَالشَّفَاعَةَ مِنْ خَوَاصِّ النُّبُوَّةِ لَا مِنْ خَوَاصِّ هَذِهِ الرُّوحِ الْمُتَّحِدِ بِاللَّهِ فَلَا

يَصْدُقَانِ عَلَى الرُّوحِ ، وَيَصْدُقَانِ عَلَى النَّبِيِّ الْمُبَشَّرِ بِهِ بِلَا تَكَلُّفٍ .

(4) إِنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : (هُوَ يُذَكِّرُكُمْ كُلَّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ) وَلَمْ يَثْبُتْ فِي رِسَالَةٍ مِنْ رَسَائِلِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ أَنَّ الْحَوَارِيِّينَ كَانُوا قَدْ نَسُوا مَا قَالَهُ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَهَذَا الرُّوحُ النَّازِلُ يَوْمَ الدَّارِ ذَكَّرَهُمْ إِيَّاهُ .

(5) إِنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : (وَالْآنَ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ (أَنْ يُوجَدَ) حَتَّى إِذَا كَانَ - أَيْ وُجِدَ وَبُعِثَ - تُؤْمِنُونَ) وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ لَيْسَ الرُّوحَ ؛ لِأَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ مَا كَانَ عَدَمُ الْإِيمَانِ مَظْنُونًا مِنْهُمْ وَقْتَ نُزُولِهِ بَلْ لَا مَجَالَ لِلِاسْتِبْعَادِ أَيْضًا ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْحَكِيمِ الْعَاقِلِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ فُضُولٍ ، فَضْلًا عَنْ شَأْنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ الشَّأْنِ ، فَلَوْ أَرَدْنَا بِهِ النَّبِيَّ الْمُبَشَّرَ بِهِ يَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ فِي مَحَلِّهِ ، وَفِي غَايَةِ الِاسْتِحْسَانِ لِأَجْلِ التَّأْكِيدِ مَرَّةً ثَانِيَةً .

(231/291)

---

(6) إِنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : (هُوَ يَشْهَدُ لِأَجْلِي) . وَهَذَا الرُّوحُ مَا شَهِدَ لِأَجْلِهِ بَيْنَ أَيْدِي أَحَدٍ ؛ لِأَنَّ تَلَامِيذَهُ الَّذِينَ نَزَلَ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَى الشَّهَادَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ الْمَسِيحَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ قَبْلَ نُزُولِهِ أَيْضًا فَلَا فَائِدَةَ لِلشَّهَادَةِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَالْمُنْكِرُونَ هُمُ

الَّذِينَ كَانُوا مُحْتَاجِينَ لِلشَّهَادَةِ فَهَذَا الرُّوحُ مَا شَهِدَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بِخِلَافِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَإِنَّهُ شَهِدَ لِأَجْلِ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَصَدَّقَهُ وَبَرَّأَهُ عَنِ ادِّعَاءِ الْأُلُوهِيَّةِ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، وَبَرَّأَ أُمَّهُ عَنْ تُهْمَةِ الزِّنَا ، وَجَاءَ ذِكْرُ بَرَاءَتِهِمَا فِي الْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَفِي الْأَحَادِيثِ فِي مَوَاضِعَ غَيْرِ مَحْصُورَةٍ .

(232/291)

---

(7) إِنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - (قَالَ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ؛ لِأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الِابْتِدَاءِ) وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 هَكَذَا) وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ مَعِي مِنَ الِابْتِدَاءِ) وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1860 هَكَذَا (وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا لِأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الِابْتِدَاءِ (فَيُوجَدُ فِي هَذِهِ التَّرَاجِمِ الثَّلَاثِ لَفْظُ أَيْضًا وَكَذَا يُوجَدُ فِي التَّرَاجِمِ الْفَارِسِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 وَسَنَةَ 1828 وَسَنَةَ 1841 وَفِي تَرْجَمَةِ أُرْدُو الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1814 تَرْجَمَةُ لَفْظِ أَيْضًا ، فَلَفْظُ " أَيْضًا " سَقَطَ مِنَ التَّرَاجِمِ الَّتِي نُقِلَتْ عَنْهَا عِبَارَةُ يُوحَنَّا سَهْوًا أَوْ قَصْدًا فَهَذَا الْقَوْلُ يَدُلُّ دَلَالَةً ظَاهِرَةً عَلَى أَنَّ شَهَادَةَ الْحَوَارِيِّينَ غَيْرُ شَهَادَةِ الْفَارَقْلِيطِ ، فَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الرُّوحَ النَّازِلَ يَوْمَ الدَّارِ لَمْ تُوجَدْ مُغَايَرَةٌ بَيْنَ الشَّهَادَتَيْنِ ؛ لِأَنَّ الرُّوحَ الْمَذْكُورَ لَمْ يَشْهَدْ شَهَادَةً مُسْتَقِلَّةً غَيْرَ شَهَادَةِ الْحَوَارِيِّينَ بَلْ شَهَادَةُ

الْحَوَارِيِّينَ هِيَ شَهَادَتُهُ بِعَيْنِهَا ؛ لِأَنَّ هَذَا الرُّوحَ مَعَ كَوْنِهِ إلَهًا مُتَّحِدًا بِاللَّهِ اتِّحَادًا حَقِيقِيًّا بَرِيًّا مِنَ النُّزُولِ وَالْحُلُولِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالشَّكْلِ - الَّتِي هِيَ مِنْ عَوَارِضِ الْجِسْمِ وَالْجُسْمَانِيَّاتِ - نَزَلَ مِثْلَ رِيحٍ عَاصِفَةٍ ، وَظَهَرَ فِي أَشْكَالِ أَلْسِنَةٍ مُنْقَسِمَةٍ كَأَنَّهَا مِنْ نَارٍ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَوْمَ الدَّارِ فَكَانَ حَالُهُمْ كَحَالِ مَنْ عَلَيْهِ

(233/291)

أَثَرُ الْجِنِّ ، فَكَمَا أَنَّ قَوْلَ الْجِنِّ يَكُونُ قَوْلُهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ فَكَذَلِكَ كَانَتْ شَهَادَةُ الرُّوحِ هِيَ شَهَادَةُ الْحَوَارِيِّينَ ، فَلَا يَصِحُّ هَذَا الْقَوْلُ بِخِلَافِ مَا إذَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِ النَّبِيَّ الْمُبَشَّرَ بِهِ فَإِنَّ شَهَادَتَهُ غَيْرُ شَهَادَةِ الْحَوَارِيِّينَ .

(8) إنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : إنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لَمْ يَأْتِكُمُ الْفَارَقْلِيط فَأَمَّا إنِ انْطَلَقْتُ أَرْسَلْتُهُ إلَيْكُمْ (فَعَلَّقَ مَجِيئَهُ بِذَهَابِهِ وَهَذَا الرُّوحُ عِنْدَهُمْ نَزَلَ عَلَى الْحَوَارِيِّينَ فِي حُضُورِهِ لَمَّا أَرْسَلَهُمْ إلَى الْبِلَادِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ فَنُزُولُهُ لَيْسَ بِمَشْرُوطٍ بِذَهَابِهِ فَلَا يَكُونُ مُرَادًا بِالْفَارَقْلِيطِ ، بَلِ الْمُرَادُ بِهِ شَخْصٌ لَمْ يَسْتَفِضْ مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ قَبْلَ زَمَانِ صُعُودِهِ ، وَكَانَ مَجِيئُهُ مَوْقُوفًا عَلَى ذَهَابِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَمُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ بَعْدَ ذَهَابِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَكَانَ مَجِيئُهُ مَوْقُوفًا عَلَى ذَهَابِ

عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ؛ لِأَنَّ وُجُودَ رَسُولَيْنِ ذَوِي شَرِيعَتَيْنِ مُسْتَقِلَّتَيْنِ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ غَيْرُ جَائِزٍ ، بِخِلَافِ مَا إذَا كَانَ الْآخِرُ مُتَّبِعًا لِشَرِيعَةِ الْأَوَّلِ أَوْ يَكُونُ كُلٌّ مِنَ الرُّسُلِ مُتَّبِعًا لِشَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ وُجُودُ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ وَمَكَانٍ وَاحِدٍ كَمَا ثَبَتَ وُجُودُهُمْ مَا بَيْنَ زَمَانِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

.

(234/291)

---

(9) إنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : (يُوَبِّخُ الْعَالَمَ) فَهَذَا الْقَوْلُ بِمَنْزِلَةِ النَّصِّ الْجَلِيِّ لِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؛ لِأَنَّهُ وَبَّخَ الْعَالَمَ سِيَّمَا الْيَهُودَ عَلَى عَدَمِ إيمَانِهِمْ بِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَوْبِيخًا لَا يَشُكُّ فِيهِ إلَّا مُعَانِدٌ بَحْتٌ ، وَسَيَكُونُ ابْنُهُ الرَّشِيدُ مُحَمَّدٌ الْمَهْدِيُّ رَفِيقًا لِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي زَمَانِ قَتْلِ الدَّجَّالِ الْأَعْوَرِ وَمُتَابِعِيهِ ، بِخِلَافِ الرُّوحِ النَّازِلِ يَوْمَ الدَّارِ ، فَإِنَّ تَوْبِيخَهُ لَا يَصِحُّ عَلَى أُصُولِ أَحَدٍ ، وَمَا كَانَ التَّوْبِيخُ مَنْصِبَ الْحَوَارِيِّينَ بَعْدَ نُزُولِهِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ إلَى الْمِلَّةِ بِالتَّرْغِيبِ

(235/291)

وَالْوَعْظِ . وَمَا قَالَ رانكين فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِدَافِعِ الْبُهْتَانِ الَّذِي هُوَ بِلِسَانِ أُرْدُو فِي رَدِّهِ عَلَى خُلَاصَةِ (صَوْلَةِ الضَّيْغَمِ) : إِنَّ لَفْظَ التَّوْبِيخِ لَا يُوجَدُ فِي الْإِنْجِيلِ ، وَلَا فِي تَرْجَمَةٍ مِنْ تَرَاجِمِ الْإِنْجِيلِ ، وَهَذَا الْمُسْتَدِلُّ أَوْرَدَ هَذَا اللَّفْظَ لِيَصْدُقَ عَلَى مُحَمَّدٍ صِدْقًا بَيِّنًا ؛ لِأَجْلِ أَنْ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَبَخَّ وَهَدَّدَ كَثِيرًا ، إِلَّا أَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّغْلِيظِ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْخَائِفِينَ مِنَ اللهِ – انْتَهَى كَلَامُهُ – فَمَرْدُودٌ ، وَهَذَا الْقِسِّيسُ إِمَّا جَاهِلٌ غَالِطٌ أَوْ مُغَالِطٌ لَيْسَ لَهُ إِيمَانٌ وَلَا خَوْفٌ مِنَ اللهِ ؛ لِأَنَّ هَذَا اللَّفْظَ يُوجَدُ فِي التَّرَاجِمِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ الَّتِي نُقِلَتْ عَنْهَا عِبَارَةُ يُوحَنَّا ، وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1671 فِي رُومِيَّةَ الْعُظْمَى ، وَعِبَارَةُ التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ

(236/291)

الْمَطْبُوعَةِ فِي بَيْرُوتَ سَنَةَ 1860 هَكَذَا (وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ) إِلَخْ . وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 وَسَنَةَ 1825 ، وَفِي التَّرَاجِمِ الْفَارِسِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816 وَسَنَةَ 1828 وَسَنَةَ 1841 يُوجَدُ لَفْظُ الْإِلْزَامِ . وَلَفْظُ التَّبْكِيتِ وَالْإِلْزَامِ أَيْضًا قَرِيبَانِ مِنَ التَّوْبِيخِ لَكِنْ لَا شِكَايَةَ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ عَادَاتِ

عُلَمَاءِ بُرُوتُسْتَنْتْ ، وَلِذَلِكَ تَرَى أَنَّ مُتَرْجِمِي الْفَارِسِيَّةَ وَأُرْدُو تَرَكُوا لَفْظَ فَارَقْلِيط لِشُهْرَتِهِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمُتَرْجِم تَرْجَمَةِ أُرْدُو الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1839 فَاقَ أَسْلَافَهُ هَؤُلَاءِ أَيْضًا حَيْثُ أَرْجَعَ إِلَى الرُّوحِ ضَمَائِرَ الْمُؤَنَّثِ لِيَحْصُلَ الِاشْتِبَاهُ لِلْعَوَامِّ أَنَّ مِصْدَاقَ هَذَا اللَّفْظِ (أَيْ مَدْلُولَهُ) مُؤَنَّثٌ وَلَيْسَ بِمُذَكَّرٍ .

(10) قَالَ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – (أَمَّا عَلَى الْخَطِيَّةِ فَلِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِي) وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَارَقْلِيط يَكُونُ ظَاهِرًا عَلَى مُنْكِرِي عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مُوَبِّخًا لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ ، وَالرُّوحُ النَّازِلُ يَوْمَ الدَّارِ مَا كَانَ ظَاهِرًا عَلَى النَّاسِ مُوَبِّخًا لَهُمْ .

(237/291)

---

(11) قَالَ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – (إِنَّ لِي كَلَامًا كَثِيرًا أَقُولُهُ لَكُمْ وَلَكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُطِيقُونَ حَمْلَهُ الْآنَ (وَهَذَا يُنَافِي إِرَادَةَ الرُّوحِ النَّازِلِ يَوْمَ الدَّارِ ؛ لِأَنَّهُ مَا زَادَ عَلَى أَحْكَامِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، فَإِنَّهُ عَلَى زَعْمِ أَهْلِ التَّثْلِيثِ كَانَ أَمْرُ الْحَوَارِيِّينَ بِعَقِيدَةِ التَّثْلِيثِ ، وَبِدَعْوَةِ أَهْلِ الْعَالَمِ كُلِّهِ ، فَأَيُّ أَمْرٍ حَصَلَ لَهُمْ أَزْيَدُ مِنْ أَقْوَالِهِ الَّتِي قَالَهَا إِلَى زَمَانِ صُعُودِهِ ، نَعَمْ إِنَّهُمْ بَعْدَ نُزُولِ هَذَا الرُّوحِ أَسْقَطُوا جَمِيعَ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ الَّتِي هِيَ مَا عَدَا بَعْضَ الْأَحْكَامِ الْعَشْرَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْبَابِ الْعِشْرِينَ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ ، وَحَلَّلُوا جَمِيعَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا

يَجُوزُ فِي شَأْنِهِ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ حَمْلَهُ ؛ لِأَنَّهُمُ اسْتَطَاعُوا حَمْلَ سُقُوطِ حُكْمِ تَعْظِيمِ السَّبْتِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ . وَكَانَ الْيَهُودُ يُنْكِرُونَ كَوْنَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَسِيحًا مَوْعُودًا بِهِ لِأَجْلِ عَدَمِ مُرَاعَاتِهِ هَذَا الْحُكْمَ ، فَقَبُولُ سُقُوطِ جَمِيعِ الْأَحْكَامِ كَانَ أَهْوَنَ عِنْدَهُمْ ، نَعَمْ قَبُولُ زِيَادَةِ الْأَحْكَامِ لِأَجْلِ ضَعْفِ الْإِيمَانِ وَضَعْفِ الْقُوَّةِ إِلَى زَمَانِ صُعُودِهِ كَمَا يَعْتَرِفُ بِهِ عُلَمَاءُ بُرُوتُسْتَنْتْ كَانَ خَارِجًا عَنِ اسْتِطَاعَتِهِمْ فَظَهَرَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَارَقْلِيطِ نَبِيٌّ تُزَادُ فِي شَرِيعَتِهِ أَحْكَامٌ ، وَيَثْقُلُ حَمْلُهَا عَلَى الْمُكَلَّفِينَ الضُّعَفَاءِ ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

(238/291)

بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّرِيعَةِ الْعِيسَوِيَّةِ .

(12) إِنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : لَيْسَ يَنْطِقُ مِنْ عِنْدِهِ ، بَلْ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَارَقْلِيطَ يَكُونُ بِحَيْثُ يُكَذِّبُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، فَاحْتَاجَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْ يُقَرِّرَ حَالَ صِدْقِهِ فَقَالَ هَذَا الْقَوْلَ ، وَلَا مَجَالَ لِمَظِنَّةِ التَّكْذِيبِ فِي حَقِّ الرُّوحِ النَّازِلِ يَوْمَ الدَّارِ عَلَى أَنَّ هَذَا الرُّوحَ عِنْدَهُمْ عَيْنُ اللَّهِ ، فَلَا مَعْنَى لِقَوْلِهِ: بَلْ يَتَكَلَّمُ بِمَا يَسْمَعُ فَمِصْدَاقُهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّهِ مَظِنَّةُ التَّكْذِيبِ ، وَلَيْسَ هُوَ عَيْنَ

اللهِ ، وكَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (53: 3 ، 4) وَقَالَ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ (6 :50) .

(239/291)

---

(13) إِنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : إِنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا هُوَ لِي ، وَهَذَا لَا يَصْدُقُ عَلَى الرُّوحِ ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَ أَهْلِ التَّثْلِيثِ قَدِيمٌ وَغَيْرُ مَخْلُوقٍ ، وَقَادِرٌ مُطْلَقٌ ، لَيْسَ لَهُ كَمَالٌ مُنْتَظَرٌ ، بَلْ كُلُّ كَمَالٍ مِنْ كَمَالَاتِهِ حَاصِلٌ لَهُ بِالْفِعْلِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمَوْعُودُ بِهِ مِنَ الْجِنْسِ الَّذِي يَكُونُ لَهُ كَمَالٌ مُنْتَظَرٌ ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ مُوهِمًا أَنْ يَكُونَ هَذَا النَّبِيُّ مُتَّبِعًا لِشَرِيعَتِهِ دَفَعَهُ بِقَوْلِهِ فِيمَا بَعْدُ : (جَمِيعُ مَا لِلْأَبِ فَهُوَ لِي فَلِأَجْلِ هَذَا قُلْتُ مِمَّا هُوَ لِي يَأْخُذُ) يَعْنِي أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَحْصُلُ لِلْفَارَقْلِيطِ مِنَ اللهِ فَكَأَنَّهُ يَحْصُلُ مِنِّي كَمَا اشْتُهِرَ : مَنْ كَانَ لِلَّهِ كَانَ اللهُ لَهُ - فَلِأَجْلِ هَذَا قُلْتُ : إِنَّ مِمَّا هُوَ لِي يَأْخُذُ .

وَأَمَّا الثَّانِي أَعْنِي الشُّبَهَاتِ الَّتِي تُورِدُهَا عُلَمَاءُ بُرُوتُسْتَنْتْ فَخَمْسَةٌ : (الشُّبْهَةُ الْأُولَى) جَاءَ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ تَفْسِيرُ الْفَارَقْلِيطِ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَرُوحِ الْحَقِّ ، وَهُمَا عِبَارَاتَانِ عَنِ الْأُقْنُومِ الثَّالِثِ ، فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِالْفَارَقْلِيطِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؟ أَقُولُ فِي الْجَوَابِ : إِنَّ صَاحِبَ مِيزَانِ الْحَقِّ يَدَّعِي فِي تَأْلِيفَاتِهِ كَوْنَ أَلْفَاظِ رُوحِ اللهِ ، وَرُوحِ

الْقُدُسِ ، وَرُوحِ الْحَقِّ ، وَرُوحِ الصِّدْقِ ، وَرُوحِ فَمِ اللهِ ، بِمَعْنًى وَاحِدٍ . قَالَ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَابِ الثَّانِي مِنْ مِفْتَاحِ الْأَسْرَارِ فِي الصَّفْحَةِ 53

(240/291)

مِنَ النُّسْخَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1850 : إِنَّ لَفْظَ رُوحِ اللهِ ، وَلَفْظَ رُوحِ الْقُدُسِ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ انْتَهَى . فَادَّعَى أَنَّ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ يُسْتَعْمَلَانِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ فِي الْعَهْدَيْنِ – وَقَالَ فِي حَلِّ الْإِشْكَالِ ، فِي جَوَابِ كَشْفِ الْأَسْتَارِ : مَنْ لَهُ إِلْمَامٌ مَا بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ أَلْفَاظَ رُوحِ الْقُدُسِ وَرُوحِ الْحَقِّ وَرُوحِ فَمِ اللهِ وَغَيْرِهَا بِمَعْنَى رُوحِ اللهِ ، فَلِذَلِكَ مَا رَأَيْتُ إِثْبَاتَهُ ضَرُورِيًّا انْتَهَى .

(241/291)

فَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا الْقَوْلَ فَنَحْنُ نَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْ صِحَّةِ ادِّعَائِهِ وَعَدَمِ صِحَّتِهِ هَاهُنَا ، وَنُسَلِّمُ تَرَادُفَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ عَلَى زَعْمِهِ ، لَكِنَّا نُنْكِرُ أَنَّ اسْتِعْمَالَهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ مَوَاضِعِ الْعَهْدَيْنِ بِمَعْنَى الْأُقْنُومِ الثَّالِثِ ، وَنَقُولُ قَوْلًا مُطَابِقًا لِقَوْلِهِ : مَنْ لَهُ شُعُورٌ مَا يَكْتُبُ الْعَهْدَيْنِ

يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ تُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ الْأُقْنُومِ الثَّالِثِ كَثِيرًا ، فَفِي الْآيَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَابِ السَّابِعِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ كِتَابِ حِزْقِيَالَ قَوْلُ اللهِ – تَعَالَى – فِي خِطَابِ أُلُوفٍ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ أَحْيَاهُمْ بِمُعْجِزَةِ حِزْقِيَالَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – هَكَذَا : (فَأَجْعَلُ فِيكُمْ رُوحِي) فَفِي هَذَا الْقَوْلِ رُوحُ اللهِ بِمَعْنَى لِلنَّفْسِ النَّاطِقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ لَا بِمَعْنَى الْأُقْنُومِ الثَّالِثِ الَّذِي هُوَ عَيْنُ اللهِ عَلَى زَعْمِهِمْ – وَفِي الْبَابِ الرَّابِعِ مِنَ الرِّسَالَةِ الْأُولَى لِيُوحَنَّا تَرْجَمَةٌ عَرَبِيَّةٌ سَنَةَ 1760 هَكَذَا (1 أَيُّهَا الْأَحِبَّاءُ لَا تُصَدِّقُوا كُلَّ رُوحٍ بَلِ امْتَحِنُوا الْأَرْوَاحَ هَلْ هِيَ مِنَ اللهِ ؟ ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْكَذَبَةَ كَثِيرُونَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى الْعَالِمِ 2 بِهَذَا تَعْرِفُونَ رُوحَ اللهِ : كُلُّ رُوحٍ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَهُوَ مِنَ اللهِ 6 نَحْنُ مِنَ اللهِ فَمَنْ يَعْرِفُ اللهَ يَسْمَعُ لَنَا ، وَمَنْ لَيْسَ مِنَ اللهِ لَا يَسْمَعُ لَنَا ، مِنْ هَذَا تَعْرِفُ رُوحَ الْحَقِّ وَرُوحَ الضَّلَالِ (وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْوَاقِعَةُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ) بِهَذَا تَعْرِفُونَ رُوحَ اللهِ

(242/291)

(وَفِي التَّرَاجِمِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُخَرِ سَنَةَ 1821 وَسَنَةَ 1831 وَسَنَةَ 1844 هَكَذَا (بِهَذَا يُعْرَفُ رُوحُ اللهِ) وَفِي تَرْجَمَةِ سَنَةِ 1825 (فَإِنَّكُمْ تُمَيِّزُونَ رُوحَ اللهِ) وَلَفْظُ رُوحِ اللهِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ ، وَلَفْظُ رُوحٍ فِي الْآيَةِ السَّادِسَةِ بِمَعْنَى الْوَاعِظِ الْحَقِّ لَا بِمَعْنَى الْأُقْنُومِ الثَّالِثِ ،

وَلِذَلِكَ تَرْجَمَ مُتَرْجِمُ تَرْجَمَةِ أُرْدُو الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1845 لَفْظَ كُلِّ رُوحٍ بِكُلِّ وَاعِظٍ ، وَلَفْظَ الْأَرْوَاحِ بِالْوَاعِظِينَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى ، وَلَفْظَ رُوحٍ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ بِالْوَاعِظِ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ . وَلَفْظَ رُوحِ الْحَقِّ فِي الْآيَةِ السَّادِسَةِ بِالْوَاعِظِ الصَّادِقِ . وَتَرْجَمَ لَفْظَ رُوحِ الضَّلَالِ بِالْوَاعِظِ الْمُضِلِّ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِرَوْحِ اللَّهِ ، وَرُوحِ الْحَقِّ الْأُقْنُومَ الثَّالِثَ الَّذِي هُوَ عَيْنُ اللَّهِ عَلَى زَعْمِهِمْ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ . فَتَفْسِيرُ الْفَارَقْلِيطِ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَرُوحِ الْقُدُسِ وَرُوحِ الْحَقِّ لَا يَضُرُّنَا ؛ لِأَنَّهُمَا بِمَعْنَى الْوَاعِظِ الْحَقِّ ، كَمَا أَنَّ لَفْظَ رُوحِ الْحَقِّ رُوحِ اللَّهِ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي الرِّسَالَةِ الْأُولَى لِيُوحَنَّا ، فَيَصِحُّ إطْلَاقُهُمَا عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِلَا رَيْبٍ . (الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ) إنَّ الْمُخَاطَبِينَ بِضَمِيرِ "كُمْ" الْحَوَارِيُّونَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ الْفَارَقْلِيطُ فِي عَهْدِهِمْ ، وَمُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَظْهَرْ فِي عَهْدِهِمْ .

(243/291)

(أَقُولُ) : هَذَا أَيْضًا لَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ مَنْشَأَهُ أَنَّ الْحَاضِرِينَ وَقْتَ الْخِطَابِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا مُرَادِينَ بِضَمِيرِ الْخِطَابِ ، وَهُوَ لَيْسَ بِضَرُورِيٍّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ وَالسِّتِّينَ مِنَ الْبَابِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ إنْجِيلِ مَتَّى فِي خِطَابِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ وَالْمَجْمَعِ هَكَذَا . (وَأَيْضًا أَقُولُ لَكُمْ مِنَ الْآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ

الْإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ وَآتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ) وَهَؤُلَاءِ الْمُخَاطَبُونَ قَدْ مَاتُوا : وَمَضَتْ عَلَى مَوْتِهِمْ مُدَّةٌ هِيَ أَزْيَدُ مِنْ أَلْفٍ وَثَمَانِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَمَا رَأَوْهُ آتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ ، فَكَمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُخَاطَبِينَ هَاهُنَا الْمَوْجُودُونَ مِنْ قَوْمِهِمْ وَقْتَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ ، فَكَذَلِكَ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ ، الْمُرَادُ : الَّذِينَ يُوجَدُونَ وَقْتَ ظُهُورِ الْفَارَقْلِيطِ .

(الشُّبْهَةُ الثَّالِثَةُ) أَنَّهُ وَقَعَ فِي حَقِّ الْفَارَقْلِيطِ أَنَّ الْعَالَمَ لَا يَرَاهُ وَلَا يَعْرِفُهُ وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَهُ ، وَهُوَ لَا يَصْدُقُ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؛ لِأَنَّ النَّاسَ رَأَوْهُ وَعَرَفُوهُ .

(244/291)

أَقُولُ : هَذَا أَيْضًا لَيْسَ بِشَيْءٍ ، وَهُمْ أَحْوَجُ النَّاسِ تَأْوِيلًا فِي هَذَا الْقَوْلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا ؛ لِأَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ عَيْنُ اللَّهِ عِنْدَهُمْ ، وَالْعَالَمُ يَعْرِفُ اللَّهَ أَكْثَرَ مِنْ مَعْرِفَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَلَا بُدَّ أَنْ نَقُولَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْمَعْرِفَةِ الْمَعْرِفَةُ الْحَقِيقِيَّةُ الْكَامِلَةُ . فَفِي صُورَةِ التَّأْوِيلِ اشْتِبَاهٌ فِي صِدْقِ هَذَا الْقَوْلِ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَيَكُونُ الْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَالَمَ لَا يَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً حَقِيقِيَّةً كَامِلَةً . وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَهُ مَعْرِفَةً حَقِيقِيَّةً كَامِلَةً . وَالْمُرَادُ بِالرُّؤْيَةِ الْمُعَرَّفَةُ ، وَلِذَا لَمْ يَعِدْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَفْظَ الرُّؤْيَةِ بَعْدَ لَفْظِ أَنْتُمْ ، بَلْ قَالَ : وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَهُ ، وَلَوْ حَمَلْنَا الرُّؤْيَةَ عَلَى الرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّةِ يَكُونُ نَفْيُ الرُّؤْيَةِ مَحْمُولًا عَلَى مَا

هُوَ الْمُرَادُ فِي قَوْلِ الْإِنْجِيلِيِّ الْأَوَّلِ فِي الْبَابِ

الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِهِ . وَأَنْقُلُ عِبَارَتَهُ عَنِ التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1816

وَسَنَةَ 1825 (13 فَلِذَلِكَ أَضْرِبُ لَكُمُ الْأَمْثَالَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ ، وَيَسْمَعُونَ

وَلَا يَسْتَمِعُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ 14 وَقَدْ كَمُلَ فِيهِمْ تَنَبُّؤُ أَشَعْيَا حَيْثُ قَالَ : إِنَّكُمْ تَسْتَمِعُونَ سَمْعًا

وَلَا تَفْهَمُونَ ، وَتَنْظُرُونَ نَظَرًا وَلَا تُبْصِرُونَ فَلَا إِشْكَالَ أَيْضًا .

(245/291)

وَأَمْثَالُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيَ مَجَازِيَّةً لَكِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْحَقِيقَةِ الْعُرْفِيَّةِ ، وَوَقَعَتْ فِي

كَلَامِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – كَثِيرًا ، فَفِي الْآيَةِ السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْبَابِ الْحَادِيَ عَشَرَ

مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى هَكَذَا (وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الِابْنَ إِلَّا الْأَبُ ، وَلَا أَحَدٌ يَعْرِفُ الْأَبَ إِلَّا الِابْنُ ،

وَمَنْ أَرَادَ الِابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ (وَفِي الْآيَةِ الثَّامِنَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْبَابِ السَّابِعِ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا

هَكَذَا (الَّذِي أَرْسَلَنِي حَقٌّ الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ) وَفِي الْبَابِ الثَّامِنِ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا

هَكَذَا (19 لَسْتُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلَا أَبِي لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضًا 55 وَلَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ

أَيِ اللَّهَ إِلَخْ) . وَفِي الْآيَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْبَابِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا هَكَذَا

(أَيُّهَا الْأَبُ إِنَّ الْعَالِمَ لَمْ يَعْرِفْكَ ، أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ) فِي الْبَابِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا

هَكَذَا (7 لَوْ كُنْتُمْ قَدْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضًا ، وَمِنَ الْآنَ تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ 8 قَالَ لَهُ فِيلبس يَا سَيِّدُ أَرِنَا الْأَبَ وَكَفَانَا 9 قَالَ لَهُ يَسُوعُ : أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هَذِهِ مَدَّتُهُ ، وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلبس الَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْأَبَ ، فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ أَرِنَا الْأَبَ ؟) فَالْمُرَادُ بِالْمَعْرِفَةِ فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمَعْرِفَةُ الْكَامِلَةُ ، بِالرُّؤْيَةِ الْمُعَرَّفَةِ . وَإِلَّا لَا تَصِحُّ هَذِهِ الْأَقْوَالُ يَقِينًا : لِأَنَّ الْعَوَامَّ

(246/291)

مِنَ النَّاسِ كَانُوا يَعْرِفُونَ

عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَضْلًا عَنْ رُؤَسَاءِ الْيَهُودِ وَالْكَهَنَةِ وَالْمَشَايِخِ وَالْحَوَارِيِّينَ ، وَرُؤْيَةُ اللَّهِ بِالْبَصَرِ فِي هَذَا الْعَالَمِ مُمْتَنِعَةٌ عَنْ أَهْلِ التَّثْلِيثِ أَيْضًا .

(الشُّبْهَةُ الرَّابِعَةُ) أَنَّهُ وَقَعَ فِي حَقِّ الْفَارَقْلِيطِ (أَنَّهُ مُقِيمٌ عِنْدَكُمْ وَثَابِتٌ فِيكُمْ) وَيَظْهَرُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الْفَارَقْلِيطَ كَانَ فِي وَقْتِ الْخِطَابِ مُقِيمًا عِنْدَ الْحَوَارِيِّينَ وَثَابِتًا فِيهِمْ ، فَكَيْفَ يَصْدُقُ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ! .

أَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ فِي التَّرَاجِمِ الْأُخْرَى هَكَذَا فَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ سَنَةَ 1816 وَسَنَةَ 1825 (لِأَنَّهُ مُسْتَقِرٌّ مَعَكُمْ وَسَيَكُونُ فِيكُمْ) وَالتَّرَاجِمُ الْفَارِسِيَّةُ الْمَطْبُوعَةُ سَنَةَ 1816 وَسَنَةَ 1828 وَسَنَةَ 1841 وَتَرْجَمَةُ أُرْدُو الْمَطْبُوعَةُ سَنَةَ 1814 وَسَنَةَ

1839 كُلُّهَا مُطَابِقَةٌ لِهَاتَيْنِ التَّرْجَمَتَيْنِ ، وَفِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1860 هَكَذَا : (مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ (فَظَهَرَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ " ثَابِتٌ فِيكُمْ " الثُّبُوتَ الِاسْتِقْبَالِيَّ يَقِينًا فَلَا اعْتِرَاضَ بِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ وَبَقِيَ قَوْلُهُ " مُقِيمٌ عِنْدَكُمْ " .

(247/291)

فَأَقُولُ : لَا يَصِحُّ حَمْلُ هَذَا الْقَوْلِ عَلَى مَعْنَى هُوَ مُقِيمٌ عِنْدَكُمُ الْآنَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُنَافِي قَوْلَهُ : (أَنَا أَطْلُبُ مِنَ الْأَبِ فَيُعْطِيكُمْ فَارَقْلِيط آخَرَ) وَقَوْلُهُ (قَدْ قُلْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى إِذَا كَانَ تُؤْمِنُونَ . وَقَوْلُهُ . إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لَمْ يَأْتِكُمُ الْفَارَقْلِيط) وَإِذَا أُوِّلَ نَقُولُ : إِنَّهُ بِمَعْنَى الِاسْتِقْبَالِ كَمَا أَنَّ الْقَوْلَ الَّذِي بَعْدَهُ بِمَعْنَى الِاسْتِقْبَالِ ، وَمَعْنَاهُ : يَكُونُ مُقِيمًا عِنْدَكُمْ فِي الِاسْتِقْبَالِ ، فَلَا خَدْشَةَ فِي صِدْقِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الِاسْتِقْبَالِ بِالْحَالِ بَلْ بِالْمَاضِي فِي الْأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ كَثِيرٌ فِي الْعَهْدَيْنِ - أَلَا تَرَى أَنَّ حِزْقِيَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَخْبَرَ أَوَّلًا عَنْ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فِي الزَّمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ وَإِهْلَاكِهِمْ حِينَ وُصُولِهِمْ إِلَى جِبَالِ إِسْرَائِيلَ . ثُمَّ قَالَ فِي الْآيَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْبَابِ التَّاسِعِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ كِتَابِهِ هَكَذَا (هَا هُوَ جَاءَ وَصَارَ يَقُولُ الرَّبُّ الْإِلَهُ هَذَا هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ) فَانْظُرُوا إِلَى قَوْلِهِ هَا هُوَ جَاءَ وَصَارَ - وَهَذَا الْقَوْلُ فِي التَّرْجَمَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ سَنَةَ 1839 هَكَذَا

(اينك رسيد وبوقوع بيوست) فَعَبَّرَ عَنِ الْحَالِ الْمُسْتَقْبَلِ بِالْمَاضِي لِكَوْنِهِ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ ، وَقَدْ مَضَتْ مُدَّةٌ أَزْيَدُ مِنْ أَلْفَيْنِ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً ، وَلَمْ يَظْهَرْ خُرُوجُهُمْ - وَفِي الْآيَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْبَابِ الْخَامِسِ مِنْ إِنْجِيلِ

(248/291)

يُوحَنَّا هَكَذَا (الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ ، وَهِيَ الْآنُ حِينَ يَسْمَعُ الْأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللهِ وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ) فَانْظُرُوا إِلَى قَوْلِهِ وَهِيَ الْآنُ ، وَقَدْ مَضَتْ مُدَّةٌ أَزْيَدُ مِنْ أَلْفٍ وَثَمَانِمِائَةِ سَنَةٍ وَلَمْ تَجِئْ هَذِهِ السَّاعَةُ ، وَهِيَ إِلَى الْآنَ مَجْهُولَةٌ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَتَى تَجِيءُ ! .

(الشُّبْهَةُ الْخَامِسَةُ) فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ كِتَابِ الْأَعْمَالِ هَكَذَا (4 وَفِيمَا هُوَ مُجْتَمِعٌ مَعَهُمْ أَوْصَاهُمْ أَلَّا يَبْرَحُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ بَلْ يَنْتَظِرُوا مَوْعِدَ الْأَبِ الَّذِي سَمِعْتُمُوهُ مِنِّي 5 لِأَنَّ يُوحَنَّا عَمَّدَ بِالْمَاءِ ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَسَتَتَعَمَّدُونَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ لَيْسَ هَذِهِ الْأَحْكَامُ بِكَثِيرٍ) وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَارَقْلِيطَ هُوَ الرُّوحُ النَّازِلُ يَوْمَ الدَّارِ ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِوَعْدِ الْأَبِ هُوَ الْفَارَقْلِيطُ .

(249/291)

أَقُولُ : الِادِّعَاءُ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِمَوْعِدِ الْأَبِ هُوَ الْفَارَقْلِيطُ ادِّعَاءٌ مَحْضٌ ، بَلْ هُوَ غَلَطٌ لِثَلَاثَةَ عَشَرَ وَجْهًا ، وَقَدْ عَرَّفْتُهَا ، بَلِ الْحَقُّ أَنَّ الْأَخْبَارَ عَنِ الْفَارَقْلِيطِ شَيْءٌ وَالْوَعْدَ بِإِنْزَالِ الرُّوحِ عَلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى شَيْءٌ آخَرُ . وَقَدْ وَفَّى اللهُ بِالْوَعْدَيْنِ ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنِ الْوَعْدِ الْأَوَّلِ بِمَجِيءِ الْفَارَقْلِيطِ ، وَهَاهُنَا بِمَوْعِدِ الْأَبِ ، غَايَةُ الْأَمْرِ أَنَّ يُوحَنَّا نَقَلَ بِشَارَةَ الْفَارَقْلِيطِ ، وَلَمْ يَنْقُلْهَا الْإِنْجِلِّيُونَ الْبَاقُونَ – وَلُوقَا نَقَلَ مَوْعِدَ نُزُولِ الرُّوحِ الَّذِي نَزَلَ يَوْمَ الدَّارِ ، وَلَمْ يَقُلْهُ يُوحَنَّا . وَلَا بَأْسَ فِيهِ فَإِنَّهُمْ قَدْ يَتَّفِقُونَ فِي نَقْلِ الْأَقْوَالِ الْخَسِيسَةِ ، كَرُكُوبِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عَلَى الْحِمَارِ وَقْتَ الذَّهَابِ إِلَى أُورْشَلِيمَ ، اتَّفَقَ عَلَى نَقْلِهِ الْأَرْبَعَةُ ، وَقَدْ يَتَخَالَفُونَ فِي نَقْلِ الْأَحْوَالِ الْعَظِيمَةِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ لُوقَا انْفَرَدَ بِذِكْرِ إِحْيَاءِ ابْنِ الْأَرْمَلَةِ مِنَ الْأَمْوَاتِ فِي نَايِينَ ، وَبِذِكْرِ إِرْسَالِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – سَبْعِينَ تِلْمِيذًا ، وَبِذِكْرِ إِبْرَاءِ عَشَرَةِ بُرْصٍ ، وَلَمْ يَذْكُرْ هَذِهِ الْحَالَاتِ أَحَدٌ مِنَ الْإِنْجِيلِيِّينَ ، مَعَ أَنَّهَا مِنَ الْحَالَاتِ الْعَظِيمَةِ ، وَأَنَّ يُوحَنَّا انْفَرَدَ بِذِكْرِ وَلِيمَةِ الْعُرْسِ فِي قَانَا الْجَلِيلِ ، وَظَهَرَ مِنْ يَسُوعَ فِي مُعْجِزَةِ تَحْوِيلِ الْمَاءِ خَمْرًا ، وَهَذِهِ الْمُعْجِزَةُ أَوَّلُ مُعْجِزَاتِهِ ، وَسَبَبُ ظُهُورِ مَجْدِهِ وَإِيمَانِ التَّلَامِيذِ بِهِ ، وَيَذْكُرُ إِبْرَاءَ السَّقِيمِ فِي بَيْتِ صَيْدَا فِي

أُورْشَلِيمَ ، وَهَذِهِ أَيْضًا مُعْجِزَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَالْمَرِيضُ كَانَ مَرِيضًا مِنْ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَيَذْكُرُ قِصَّةَ امْرَأَةٍ أُخِذَتْ فِي زِنَا ، وَيَذْكُرُ إِبْرَاءَ الْأَكْمَهِ ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَعْظَمِ مُعْجِزَاتِهِ ، وَهِيَ مُصَرَّحَةٌ بِهِمَا فِي الْبَابِ التَّاسِعِ وَبِذِكْرِ إِحْيَاءِ الْعَازَارِ مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ ، وَلَمْ يَذْكُرْهَا أَحَدٌ مِنَ الْإِنْجِلِيِّينَ ، مَعَ أَنَّهَا حَالَاتٌ عَظِيمَةٌ ، وَهَكَذَا حَالُ مَتَّى وَمُرْقُصَ ، فَإِنَّهُمَا انْفَرَدَا بِذِكْرِ بَعْضِ الْمُعْجِزَاتِ وَالْحَالَاتِ الَّتِي لَمْ يَذْكُرْهُمَا غَيْرُهُمَا ، وَإِذَا طَالَ الْبَحْثُ فِي هَذَا الْمَسْلَكِ فَلْنَقْتَصِرْ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْبِشَارَاتِ الَّتِي نَقَلْتُهَا عَنْ كُتُبِهِمُ الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي زَمَانِنَا اهـ .

بِشَارَةُ إِنْجِيلِ بِرْنَابَا .

ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحْمَةُ اللهِ بَعْدَ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يُعْنَ بِإِيرَادِ الْبِشَارَاتِ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي يَعُدُّهَا أَهْلُ الْكِتَابِ غَيْرَ قَانُونِيَّةٍ إِلَّا بِشَارَةَ إِنْجِيلِ بِرْنَابَا ، وَقَدْ نَقَلَهَا عَنْ مُقَدِّمَةِ تَرْجَمَةِ الْقِسِّيسِ سَايِل الْإِنْكِلِيزِيِّ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وَهَذِهِ تَرْجَمَتُهَا : (اعْلَمْ يَا بِرْنَابَا أَنَّ الذَّنْبَ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا يَجْزِي اللهُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ اللهَ غَيْرُ رَاضٍ

عَنِ الذَّنْبِ ، وَلَمَّا اكْتَسَبَ أُمِّي وَتَلَامِيذِي لِأَجْلِ الدُّنْيَا سَخِطَ اللهُ لِأَجْلِ هَذَا الْأَمْرِ ، وَأَرَادَ بِاقْتِضَاءِ عَدْلِهِ أَنْ يَجْزِيَهُمْ فِي هَذَا الْعَالَمِ عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ غَيْرِ اللَّائِقَةِ لِيَحْصُلَ لَهُمُ النَّجَاةُ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ أَذِيَّةٌ هُنَاكَ ، وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ بَرِيًّا لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَمَّا قَالُوا فِي حَقِّي إِنَّهُ اللهُ وَابْنُ اللهِ كَرِهَ اللهُ هَذَا الْقَوْلَ ، وَاقْتَضَتْ مَشِيئَتُهُ أَلَّا تَضْحَكَ الشَّيَاطِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنِّي

وَلَا يَسْتَهْزِئُونَ بِي ، فَأَرَادَ بِمُقْتَضَى لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنْ يَكُونَ الضَّحِكُ وَالِاسْتِهْزَاءُ فِي الدُّنْيَا بِسَبَبِ مَوْتِ يَهُوذَا ، وَيَظُنُّ كُلُّ شَخْصٍ أَنِّي صُلِبْتُ ، لَكِنَّ هَذِهِ الْإِهَانَةَ وَالِاسْتِهْزَاءَ تَبْقَيَانِ إِلَى أَنْ يَجِيءَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، فَإِذَا جَاءَ فِي الدُّنْيَا يُنَبِّهُ كُلَّ مُؤْمِنٍ عَلَى هَذَا الْغَلَطِ وَتَرْتَفِعُ هَذِهِ الشُّبْهَةُ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ " تَرْجَمَةُ كَلَامِهِ .

(252/291)

أَقُولُ : هَذِهِ الْبِشَارَةُ عَظِيمَةٌ وَإِنِ اعْتَرَضُوا بِأَنَّ هَذَا الْإِنْجِيلَ رَدَّهُ مَجَالِسُ عُلَمَائِنَا السَّلَفِ أَقُولُ : لَا اعْتِبَارَ لِرَدِّهِمْ وَقَبُولِهِمْ كَمَا عَلِمْتَ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ ، وَهَذَا الْإِنْجِيلُ مِنَ الْأَنَاجِيلِ الْقَدِيمَةِ ، وَيُوجَدُ ذِكْرُهُ فِي كُتُبِ الْقَرْنِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ ، فَعَلَى هَذَا كُتِبَ هَذَا الْإِنْجِيلُ قَبْلَ ظُهُورِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمِائَتَيْ سَنَةٍ وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُخْبِرَ

بِغَيْرِ الْإِلْهَامِ بِمِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ قَبْلَ وُقُوعِهِ بِمِائَتَيْ سَنَةٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا قَوْلُ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - . وَإِنْ قَالُوا إنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَرَّفَ هَذَا الْإِنْجِيلَ بَعْدَ ظُهُورِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قُلْتُ هَذَا الِاحْتِمَالُ بَعِيدٌ جِدًّا ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا الْتَفَتُوا إلَى هَذِهِ الْأَنَاجِيلِ الْأَرْبَعَةِ أَيْضًا فَكَيْفَ إلَى إنْجِيلِ بِرْنَابَا ، وَيَبْعُدُ أَنْ يُؤَثِّرَ تَحْرِيفُ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي إنْجِيلِ بِرْنَابَا تَأْثِيرًا تُغَيِّرُ بِهِ النُّسَخُ الْمَوْجُودَةُ عِنْدَ الْمَسِيحِيِّينَ أَيْضًا وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ أَسْلَمُوا نَقَلُوا عَنْ كُتُبِ الْعَهْدَيْنِ الْبِشَارَاتِ الْمُحَمَّدِيَّةَ وَحَرَّفُوهَا فَعَلَى زَعْمِهِمْ أَقُولُ إنَّ

(253/291)

هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ الْكِبَارَ حَرَّفُوا عَلَى زَعْمِهِمْ ، وَلَمْ يُؤَثِّرْ تَحْرِيفُهُمْ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً عِنْدَهُمْ فِي مَوَاضِعِ هَذِهِ الْبِشَارَاتِ ، فَكَيْفَ أَثَّرَ تَحْرِيفُ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فِي إنْجِيلِ بِرْنَابَا فِي النُّسَخِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُمْ ؟ فَهَذَا الِاحْتِمَالُ وَاهٍ ضَعِيفٌ جِدًّا ، وَاجِبُ الرَّدِّ اهـ .

وَقَدْ خَتَمَ الشَّيْخُ (رَحْمَةُ اللَّهِ) - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - هَذِهِ الْبِشَارَاتِ بِتَنْبِيهٍ ذَكَرَ فِيهِ الْقَارِئَ بِمَا بَيَّنَهُ مُفَصَّلًا مِنِ اخْتِلَافِ النَّصَارَى فِي تَرْجَمَةِ كُتُبِهِمْ وَالتَّغْيِيرِ فِيهَا زَمَنًا بَعْدَ زَمَنٍ ؛ لِئَلَّا يَظُنَّ مَنِ اطَّلَعَ عَلَى مَا أَوْرَدَهُ وَرَآهُ مُخَالِفًا لِغَيْرِ التَّرْجَمَاتِ الَّتِي نَقَلَ عَنْهَا أَنَّهُ هُوَ الْمُخْطِئُ فِيمَا

نَقَلَهُ ، وَهَذَا مَشْهُورٌ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهُ .

بَعْدَ هَذَا أَقُولُ : إِنَّ الشَّيْخَ رَحْمَةَ اللهِ لَمْ يَرَ إِنْجِيلَ بِرْنَابَا وَإِنَّمَا نَقَلَ هَذِهِ الْبِشَارَةَ مِنْ مُقَدِّمَةِ سَايِلِ الْمُسْتَشْرِقِ الْإِنْجِلِيزِيِّ لِتَرْجَمَتِهِ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وَسَايِل هَذَا قَدِ اطَّلَعَ عَلَى إِحْدَى النُّسْخَتَيْنِ

(254/291)

اللَّتَيْنِ وُجِدَتَا مِنْ هَذَا الْإِنْجِيلِ فِي أَوَّلِ الْقَرْنِ الثَّامِنَ عَشَرَ ، وَهِيَ النُّسْخَةُ الْأَسْبَانِيَّةُ وَقَدْ فُقِدَتْ ، إِذْ كَانَ الْمُتَعَصِّبُونَ مِنَ النَّصَارَى يُتْلِفُونَ كُلَّ مَا عَثَرُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْإِنْجِيلِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنَاجِيلِ الَّتِي تَعُدُّهَا الْكَنِيسَةُ غَيْرَ قَانُونِيَّةٍ ، وَأَمَّا النُّسْخَةُ الْأُخْرَى فَهِيَ بِاللُّغَةِ الْإِيطَالِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَكَانَتْ فِي خِزَانَةِ كُتُبِ (الْفَاتِيكَانْ) فَسَرَقَهَا مِنْهَا رَاهِبٌ اسْمُهُ (مرينو) فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ السَّادِسَ عَشَرَ ، وَيُظَنُّ أَنَّهَا هِيَ النُّسْخَةُ الْمَوْجُودَةُ الْآنَ فِي خِزَانَةِ كُتُبِ بَلَاطِ (فِيينَّا) وَقَدْ تُرْجِمَتْ هَذِهِ النُّسْخَةُ بِالْإِنْكِلِيزِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَسَعَيْنَا إِلَى تَرْجَمَتِهَا بِالْعَرَبِيَّةِ سَنَةَ 1325 وَطَبَعْنَاهَا طَبْعًا دَقِيقًا فِي مَطْبَعَةِ الْمَنَارِ ، وَإِنَّنَا نَنْقُلُ عَنْهَا هُنَا نَصَّ بَعْضِ بِشَارَاتِهِ بِنَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – غَيْرَ الْبِشَارَةِ الَّتِي نَقَلَهَا الشَّيْخُ رَحْمَةُ اللهِ إِذْ هِيَ مُتَعَدِّدَةٌ .

(255/291)

جَاءَ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي وَالسَّبْعِينَ مِنْ هَذَا الْإِنْجِيلِ أَنَّ الْمَسِيحَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – أَخْبَرَ الْحَوَارِيِّينَ أَنَّهُ سَيَنْصَرِفُ عَنْ هَذَا الْعَالَمِ ثُمَّ قَالَ : (7 فَبَكَى حِينَئِذٍ الرُّسُلُ قَائِلِينَ : يَا مُعَلِّمُ لِمَاذَا تَتْرُكُنَا ، لِأَنَّ الْأَحْرَى بِنَا أَنْ نَمُوتَ مِنْ أَنْ تَتْرُكَنَا 8 أَجَابَ يَسُوعُ : لَا تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلَا تَخَافُوا 9 لِأَنِّي لَسْتُ أَنَا الَّذِي خَلَقَكُمْ ، بَلِ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ يَحْمِيكُمْ 10 أَمَّا مِنْ خُصُوصِي فَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُ لِأُهَيِّئَ الطَّرِيقَ لِرَسُولِ اللهِ الَّذِي سَيَأْتِي بِخَلَاصِ الْعَالَمِ 11 وَلَكِنِ احْذَرُوا أَنْ تُغَشُّوا ؛ لِأَنَّهُ سَيَأْتِي أَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ كَثِيرُونَ يَأْخُذُونَ كَلَامِي وَيُنَجِّسُونَ إِنْجِيلِي .

(256/291)

12 حِينَئِذٍ قَالَ اندراوس : يَا مُعَلِّمُ اذْكُرْ لَنَا عَلَّامَةً لِنَعْرِفَهُ 13 أَجَابَ يَسُوعُ : أَنَّهُ لَا يَأْتِي فِي زَمَنِكُمْ بَلْ يَأْتِي بَعْدَكُمْ بِعِدَّةِ سِنِينَ حِينَمَا يُبْطَلُ إِنْجِيلِي ، وَلَا يَكَادُ يُوجَدُ ثَلَاثُونَ مُؤْمِنًا 14 فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَرْحَمُ اللهُ الْعَالَمَ فَيُرْسِلُ رَسُولَهُ الَّذِي تَسْتَقِرُّ عَلَى رَأْسِهِ غَمَامَةٌ بَيْضَاءُ ، يَعْرِفُهُ أَحَدُ مُخْتَارِي اللهِ وَهُوَ سَيُظْهِرُهُ لِلْعَالَمِ 15 وَسَيَأْتِي بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ عَلَى الْفُجَّارِ وَيُبِيدُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ مِنَ الْعَالَمِ 16 وَإِنِّي أُسَرُّ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ بِوَاسِطَتِهِ سَيُعْلَنُ وَيُمَجَّدُ اللهُ وَيَظْهَرُ

صِدْقِي 17 وَسَيَنْتَقِمُ مِنَ الَّذِينَ سَيَقُولُونَ إِنِّي أَكْبَرُ مِنْ إِنْسَانٍ 18 الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ : إِنَّ الْقَمَرَ سَيُعْطِيهِ رُقَادًا فِي صِبَاهُ ، وَمَتَى كَبُرَ هُوَ أَخْذَهُ بِكَفَّيْهِ 19 فَلْيَحْذَرِ الْعَالِمُ أَنْ يَنْبِذَهُ ؛ لِأَنَّهُ سَيَفْتِكُ بِعَبَدَةِ الْأَصْنَامِ 20 فَإِنَّ مُوسَى عَبْدُ اللهِ قَتَلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا ، وَلَمْ يُبْقِ يَشُوعُ عَلَى الْمُدُنِ الَّتِي أَحْرَقُوهَا وَقَتَلُوا الْأَطْفَالَ 21 لِأَنَّ الْقُرْحَةَ الْمُزْمِنَةَ يُسْتَعْمَلُ لَهَا الْكَيُّ) .

(22 وَسَيَجِيءُ بِحَقٍّ أَجْلَى مِنْ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيُوَبِّخُ مَنْ لَا يُحْسِنُ السُّلُوكَ فِي الْعَالَمِ 23 وَسَيُحْيِي طَرَبًا أَبْرَاجَ مَدِينَةِ آبَائِنَا بَعْضِهَا بَعْضًا 24 فَمَتَى شُوهِدَ سُقُوطُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَاعْتُرِفَ بِأَنِّي بَشَرٌ كَسَائِرِ الْبَشَرِ . فَالْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ : أَنَّ نَبِيَّ اللهِ حِينَئِذٍ يَأْتِي

(257/291)

وَجَاءَ فِي الْفَصْلِ السَّادِسِ وَالتِّسْعِينَ مِنْ مُحَاوَرَةٍ بَيْنَ الْمَسِيحِ وَرَئِيسِ كَهَنَةِ الْيَهُودِ : أَنَّ الْكَاهِنَ سَأَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَجَابَ بِذِكْرِ اسْمِهِ وَاسْمِ أُمِّهِ ، وَبِأَنَّهُ بَشَرٌ مَيِّتٌ ثُمَّ قَالَ الْإِنْجِيلُ مَا نَصُّهُ : (3 أَجَابَ الْكَاهِنُ : أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ مُوسَى أَنْ إِلَهًا سَيُرْسِلُ لَنَا مسيا الَّذِي سَيَأْتِي لِيُخْبِرَنَا بِمَا يُرِيدُ اللهُ ، وَسَيَأْتِي لِلْعَالَمِ بِرَحْمَةِ اللهِ 4 لِذَلِكَ أَرْجُوكَ أَنْ تَقُولَ لَنَا الْحَقَّ هَلْ أَنْتَ مَسْيَا اللهِ الَّذِي نَنْتَظِرُهُ ؟ .

(5 أَجَابَ يَسُوعُ : حَقًّا إِنَّ اللهَ وَعَدَ هَكَذَا وَلَكِنِّي لَسْتُ هُوَ ; لأَنَّهُ خُلِقَ قَبْلِي وَسَيَأْتِي بَعْدِي .

(258/291)

(6 أَجَابَ الْكَاهِنُ : إِنَّنَا نَعْتَقِدُ مِنْ كَلاَمِكَ وَآيَاتِكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّكَ نَبِيٌّ وَقُدُّوسُ اللهِ 7 لِذَلِكَ أَرْجُوكَ بِاسْمِ الْيَهُودِيَّةِ كُلِّهَا وَإِسْرَائِيلَ أَنْ تُفِيدَنَا حُبًّا فِي اللهِ بِأَيَّةِ كَيْفِيَّةٍ سَيَأْتِي مَسِيَّا ؟) (8 أَجَابَ يَسُوعُ : لَعَمْرُ اللهِ الَّذِي تَقِفُ بِحَضْرَتِهِ نَفْسِي إِنِّي لَسْتُ مَسِيَّا الَّذِي تَنْتَظِرُهُ كُلُّ قَبَائِلِ الأَرْضِ كَمَا وَعَدَ اللهُ أَبَانَا إِبْرَاهِيمَ قَائِلاً : بِنَسْلِكَ أُبَارِكُ كُلَّ قَبَائِلِ الْعَرَبِ 9 وَلَكِنْ عِنْدَمَا يَأْخُذُنِي اللهُ مِنَ الْعَالَمِ سَيُثِيرُ الشَّيْطَانُ مَرَّةً أُخْرَى لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ الْمَلْعُونَةِ بِأَنْ يَحْمِلَ عَادِمَ التَّقْوَى عَلَى الاِعْتِقَادِ بِأَنِّي اللهُ وَابْنُ اللهِ 10 فَيَتَنَجَّسَ بِسَبَبِ هَذَا كَلاَمِي وَتَعْلِيمِي حَتَّى لاَ يَكَادَ يَبْقَى ثَلاَثُونَ مُؤْمِنًا 11 حِينَئِذٍ يَرْحَمُ اللهُ الْعَالَمَ ، وَيُرْسِلُ رَسُولَهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ الأَشْيَاءِ لأَجْلِهِ 12 الَّذِي سَيَأْتِي مِنَ الْجَنُوبِ بِقُوَّةٍ وَسَيُبِيدُ الأَصْنَامَ وَعَبَدَةَ الأَصْنَامِ 13 وَسَيَنْتَزِعُ مِنَ الشَّيْطَانِ سُلْطَتَهُ عَلَى الْبَشَرِ 14 وَسَيَأْتِي بِرَحْمَةِ اللهِ لِخَلاَصِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ 15 وَسَيَكُونُ مَنْ يُؤْمِنُ بِكَلاَمِهِ مُبَارَكًا .

ثُمَّ قَالَ فِي الْفَصْلِ 97 مَا نَصُّهُ : (1 وَمَعَ أَنِّي لَسْتُ مُسْتَحِقًّا أَنْ أَحُلَّ سَيْرَ حِذَائِهِ قَدْ نِلْتُ نِعْمَةً وَرَحْمَةً مِنَ اللهِ لِأَرَاهُ) .

(259/291)

(2 فَأَجَابَ حِينَئِذٍ الْكَاهِنُ مَعَ الْوَالِي وَالْمَلِكِ قَائِلِينَ لَا تُزْعِجْ نَفْسَكَ يَا يَسُوعُ قُدُّوسَ اللهِ ; لِأَنَّ هَذِهِ الْفِتْنَةَ لَا تَحْدُثُ فِي زَمَنِنَا مَرَّةً أُخْرَى ; لِأَنَّنَا سَنَكْتُبُ إِلَى مَجْلِسِ الشُّيُوخِ الرُّومَانِيِّ الْمُقَدَّسِ بِإِصْدَارِ أَمْرٍ مَلَكِيٍّ أَنْ لَا أَحَدَ يَدْعُوكَ فِيمَا بَعْدُ اللهَ أَوِ ابْنَ اللهِ (4) فَقَالَ حِينَئِذٍ يَسُوعُ : إِنَّ كَلَامَكُمْ لَا يُعَزِّينِي ; لِأَنَّهُ يَأْتِي ظَلَامٌ حَيْثُ تَرْجُونَ النُّورَ 5 وَلَكِنْ تَعْزِيَتِي هِيَ فِي مَجِيءِ الرَّسُولِ الَّذِي سَيُبِيدُ كُلَّ رَأْيٍ كَاذِبٍ فِيَّ وَسَيَمْتَدُّ دِينُهُ وَيَعُمُّ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ ; لِأَنَّهُ هَكَذَا وَعَدَ اللهُ أَبَانَا إِبْرَاهِيمَ 6 وَأَنَّ مَا يُعَزِّينِي هُوَ وَأَنْ لَا نِهَايَةَ لِدِينِهِ لِأَنَّ اللهَ سَيَحْفَظُهُ صَحِيحًا) .

(7 أَجَابَ الْكَاهِنُ : أَيَأْتِي رُسُلٌ آخَرُونَ بَعْدَ مَجِيءِ رَسُولِ اللهِ ؟)

(8 فَأَجَابَ يَسُوعُ : لَا يَأْتِي بَعْدَهُ أَنْبِيَاءُ صَادِقُونَ مُرْسَلُونَ مِنَ اللهِ 9 وَلَكِنْ يَأْتِي عَدَدٌ غَفِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَذَبَةِ وَهُوَ مَا يُحْزِنُنِي 10 ; لِأَنَّ الشَّيْطَانَ سَيُثِيرُهُمْ بِحُكْمِ اللهِ الْعَادِلِ فَيَتَسَتَّرُونَ بِدَعْوَى إِنْجِيلِي .

(11 أَجَابَ هِيدْرُوسُ : كَيْفَ أَنَّ مَجِيءَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ يَكُونُ بِحُكْمِ اللهِ الْعَادِلِ ؟ .

(12 أَجَابَ يَسُوعُ : مِنَ الْعَدْلِ أَنَّ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْحَقِّ لِخَلَاصِهِ يُؤْمِنُ بِالْكَذِبِ لِلْعُنَتِهِ 13 لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ : إِنَّ الْعَالَمَ كَانَ يَمْتَهِنُ الْأَنْبِيَاءَ الصَّادِقِينَ دَائِمًا وَأَحَبَّ الْكَاذِبِينَ كَمَا يُشَاهَدُ فِي أَيَّامِ مِيشَعَ وَأَرْمِيَا ؛ لِأَنَّ الشَّبِيهَ يُحِبُّ شَبِيهَهُ) .

(260/291)

(13 فَقَالَ الْكَاهِنُ حِينَئِذٍ : مَاذَا يُسَمَّى مسيا ؟ وَمَا هِيَ الْعَلَامَةُ الَّتِي تُعْلِنُ مَجِيئَهُ 14 أَجَابَ يَسُوعُ : إِنَّ اسْمَ مسيا عَجِيبٌ ؛ لِأَنَّ اللهَ نَفْسَهُ سَمَّاهُ لَمَّا خَلَقَ نَفْسَهُ وَوَضَعَهَا فِي بَهَاءٍ سَمَاوِيٍّ 15 قَالَ اللهُ : اصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ ؛ لِأَنِّي لِأَجْلِكَ أُرِيدُ أَنْ أَخْلُقَ الْجَنَّةَ وَالْعَالَمَ وَجَمًّا غَفِيرًا مِنَ الْخَلَائِقِ الَّتِي أَهَبُهَا لَكَ ، حَتَّى إِنَّ مَنْ يُبَارِكُكَ يَكُونُ مُبَارَكًا ، وَمَنْ يَلْعَنُكَ يَكُونُ مَلْعُونًا 16 وَمَتَى أَرْسَلْتُكَ إِلَى الْعَالَمِ أَجْعَلُكَ رَسُولِي لِلْخَلَاصِ وَتَكُونُ كَلِمَتُكَ صَادِقَةً ، حَتَّى إِنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ تَهِنَانِ ، وَلَكِنَّ إِيمَانَكَ لَا يَهِنُ أَبَدًا 17 إِنَّ اسْمَهُ الْمُبَارَكَ مُحَمَّدٌ .

(18 حِينَئِذٍ رَفَعَ الْجُمْهُورُ أَصْوَاتَهُمْ قَائِلِينَ : يَا اللهُ أَرْسِلْ لَنَا رَسُولَكَ يَا مُحَمَّدُ تَعَالَ سَرِيعًا لِخَلَاصِ الْعَالَمِ !) اهـ .

وَأَمَّا الْبِشَارَةُ الَّتِي نَقَلَهَا الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ فِي إِظْهَارِ الْحَقِّ فَهِيَ مِنَ الْفَصْلِ الْعِشْرِينَ بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ ، وَلَيْسَ بَعْدَهُ غَيْرَ فَصْلَيْنِ مِنْ هَذَا الْإِنْجِيلِ ، وَتَرْجَمَتُهَا قَرِيبَةٌ مِنَ التَّرْجَمَةِ الْأَخِيرَةِ لِلْإِنْجِيلِ كُلِّهِ .

تَنْبِيهٌ

لَقَدْ كَانَ مِنْ مَوَاضِعِ ارْتِيَابِ الْبَاحِثِينَ مِنْ عُلَمَاءِ أُورُبَّةَ فِي هَذَا الْإِنْجِيلِ ذِكْرُهُ لِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِاسْمِهِ الْعَلَمِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ (مُحَمَّدٍ) وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ بَعْضَ

(261/291)

الْمُسْلِمِينَ قَدْ دَسُّوا فِيهِ ذَلِكَ ، وَقَوَّى شُبْهَتَهُمْ مَا وُجِدَ مِنَ التَّعْلِيقَاتِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى حَوَاشِي النُّسْخَةِ الطَّلْيَانِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ .

وَقَدْ فَنَّدْنَا هَذِهِ الشُّبْهَةَ فِي مُقَدِّمَتِنَا لِطَبْعَةِ هَذَا الْإِنْجِيلِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَا بَيَّنَّاهُ مِنِ اسْتِحَالَةِ صُدُورِ هَذِهِ الْحَوَاشِي عَنْ مُسْلِمٍ ، فَإِنَّهَا عَلَى فَسَادِ لُغَتِهَا وَعُجْمَتِهَا مُخَالَفَةٌ لِمَا يَعْرِفُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ عَرَبِيًّا كَانَ أَوْ عَجَمِيًّا ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَذْكَارِ الدِّينِ كَكَلِمَةِ سُبْحَانَ اللهِ فَهِيَ تُذْكَرُ فِي هَذِهِ الْحَوَاشِي بِتَقْدِيمِ الْمُضَافِ

إِلَيْهِ عَلَى الْمُضَافِ هَكَذَا " اللهُ سُبْحَانَ " وَبَعْدَ أَنْ أَوْرَدْنَا فِي الْمُقَدِّمَةِ أَمْثِلَةً أُخْرَى كَهَذِهِ قُلْنَا : " وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ أُخْرَى : أَضِفْ إِلَيْهَا عَدَمُ اطِّلَاعِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهَا عَلَى هَذَا الْإِنْجِيلِ كَمَا حَقَّقَهُ الدُّكْتُورُ مَرْجِلْيُوثُ الْمُسْتَشْرِقُ الْإِنْكِلِيزِيُّ . مُؤَيِّدًا تَحْقِيقَهُ بِخُلُوِّ كُتُبِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ رَدُّوا عَلَى النَّصَارَى مِنْ ذِكْرِهِ ، وَنَاهِيكَ بِابْنِ حَزْمٍ الْأَنْدَلُسِيِّ وَابْنِ تَيْمِيَةَ الْمَشْرِقِيِّ ، فَقَدْ كَانَا أَوْسَعَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ اطِّلَاعًا كَمَا يُعْلَمُ مِنْ كُتُبِهِمَا وَلَمْ يَذْكُرَا فِي رَدِّهِمَا عَلَى النَّصَارَى هَذَا الْإِنْجِيلَ .

(262/291)

" بَقِيَ أَمْرٌ يَسْتَنْكِرُهُ الْبَاحِثُونَ فِي هَذَا الْإِنْجِيلِ بَحْثًا عِلْمِيًّا لَا دِينِيًّا أَشَدَّ الِاسْتِنْكَارِ وَهُوَ تَصْرِيحُهُ بِاسْمِ " النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ " عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَائِلِينَ . لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كُتِبَ قَبْلَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ ؛ إِذِ الْمَعْهُودُ فِي الْبِشَارَاتِ أَنْ تَكُونَ بِالْكِنَايَاتِ وَالْإِشَارَاتِ ، وَالْعَرِيقُونَ فِي الدِّينِ لَا يَرَوْنَ مِثْلَ ذَلِكَ مُسْتَنْكَرًا فِي خَبَرِ الْوَحْيِ . وَقَدْ نَقَلَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بِيرَمْ عَنْ رَحَّالَةٍ إِنْكِلِيزِيٍّ أَنَّهُ رَأَى فِي دَارِ الْكُتُبِ الْبَابَوِيَّةِ فِي الْفَاتِيكَانِ نُسْخَةً مِنَ الْإِنْجِيلِ مَكْتُوبَةً بِالْقَلَمِ الْحِمْيَرِيِّ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِيهَا يَقُولُ الْمَسِيحُ (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) وَذَلِكَ مُوَافِقٌ لِنَصِّ الْقُرْآنِ بِالْحَرْفِ ، وَلَكِنْ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ رَأَى شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَنَاجِيلِ الَّتِي فِيهَا هَذِهِ الْبِشَارَاتُ الصَّرِيحَةُ ، فَيَظْهَرُ أَنَّ فِي مَكْتَبَةِ الْفَاتِيكَانِ مِنْ بَقَايَا تِلْكَ الْأَنَاجِيلِ وَالْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ مَمْنُوعَةً فِي الْقُرُونِ الْأُولَى مَا لَوْ ظَهَرَ لَأَزَالَ كُلَّ شُبْهَةٍ عَنْ إِنْجِيلِ بَرْنَابَا وَغَيْرِهِ .

" عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ مُتَرْجِمٌ بِاللُّغَةِ الْإِيطَالِيَّةِ قَدْ ذَكَرَ اسْمَ " مُحَمَّدٍ " تَرْجَمَةً ، أَنْ يَكُونَ قَدْ ذَكَرَ فِي الْأَصْلِ الَّذِي تَرْجَمَ هُوَ عَنْهُ بِلَفْظٍ يُفِيدُ مَعْنَاهُ كَلَفْظِ

(263/291)

الْفَارَقْلِيطِ ، وَمِثْلُ هَذَا التَّسَاهُلِ مَعْهُودٌ عِنْدَ الْمَسِيحِيِّينَ فِي التَّرْجَمَةِ كَمَا بَيَّنَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ بِالشَّوَاهِدِ الْكَثِيرَةِ مِنْ كُتُبِهِمْ فِي الْأَمْرِ السَّابِعِ مِنَ الْمَسْلَكِ السَّادِسِ مِنَ الْبَابِ السَّادِسِ مِنْ كِتَابِهِ إِظْهَارِ الْحَقِّ ، وَزَادَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بَيَانًا فِي الْبِشَارَةِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ " اهـ .

وَإِنَّنِي أَزِيدُ مِثَالًا عَلَى مَا سَبَقَ مِنِ اخْتِلَافِ تَرْجَمَةِ الْأَعْلَامِ وَالْأَلْقَابِ وَالصِّفَاتِ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ يُقَرِّبُ لِفَهْمِ الْقَارِئِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَهُوَ مَا جَاءَ فِي نُبُوَّةِ النَّبِيِّ حجى مِنَ الْبِشَارَةِ بِنَبِيِّنَا ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ : بِشَارَةُ النَّبِيِّ حجى بِمُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ :

" 2 : 6 هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ : هِيَ مَرَّةٌ بَعْدَ قَلِيلٍ فَأُزَلْزِلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَالْيَابِسَةَ 7 وَأُزَلْزِلُ كُلَّ الْأُمَمِ ، وَيَأْتِي مُشْتَهَى كُلِّ الْأُمَمِ فَأَمْلَأُ هَذَا الْبَيْتَ مَجْدًا ، قَالَ رَبُّ

الْجُنُودِ 8 لِيَ الْفِضَّةُ وَلِيَ الذَّهَبُ يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ 9 مَجْدُ هَذَا الْبَيْتِ الْأَخِيرِ يَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ مَجْدِ الْأَوَّلِ ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ 10 وَفِي هَذَا الْمَكَانِ أُعْطِي السَّلَامَ ، يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ "

.

(264/291)

أَقُولُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ : إِنَّ اسْمَ أَوْ لَقَبَ " مُشْتَهَى الْأُمَمِ " وَهُوَ فِي الْأَصْلِ الْعِبْرَانِيِّ عِنْدَ الْيَهُودِ " حَمَدُوتْ " وَمَعْنَاهُ : الَّذِي يُحْمَدُ فَهُوَ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنَ الْحَمْدِ كَمَلَكُوتٍ مِنَ الْمَالِكِ .

فَحَمْدُوتُ الْأُمَمِ هَذَا الَّذِي تَحْمَدُهُ الْأُمَمُ ، وَهُوَ مَعْنَى مُحَمَّدٍ وَمَحْمُودٍ ، فَالْأَوَّلُ اسْمُ فَاعِلٍ مَنْ حَمَّدَهُ بِالتَّشْدِيدِ إِذَا حَمِدَهُ كَثِيرًا ، وَمَنْ تَحْمَدُهُ الْأُمَمُ يَكُونُ مَحْمُودًا حَمْدًا كَثِيرًا أَيْ مُحَمَّدًا . وَالثَّانِي اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ (حَمِدَ) الثُّلَاثِيِّ ، وَمَحْمُودٌ مِنْ أَسْمَائِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

فَهَلْ بَعْدَ هَذَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ الْفَارَقَلِيطِ الْيُونَانِيِّ مُتَرْجَمًا مِنْ لَفْظِ حَمَدُوتْ الْعِبْرَانِيِّ ، وَنُسَخُ الْإِنْجِيلِ الْعِبْرَانِيَّةِ الَّتِي نَقَلَتْ أَلْفَاظَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامِ بِحُرُوفِهَا قَدْ فُقِدَتْ ، وَلَا نَدْرِي سَبَبَ فَقْدِهَا ؟ بَلْ نَحْنُ مُعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ نَتَّهِمُ مَجَامِعَ الْأَسَاقِفَةِ الَّتِي تَحَكَّمَتْ فِي الْأَنَاجِيلِ الْقَدِيمَةِ ، فَعَدَّتْ بَعْضَهَا قَانُونِيًّا وَبَعْضَهَا غَيْرَ قَانُونِيٍّ ، وَصَارُوا يُتْلِفُونَ مَا هُوَ غَيْرُ

قَانُونِيٍّ . بَلْ نَحْنُ لَا نَعْتَدُّ بِتَنَصُّرِ الْقَيْصَرِ قُسْطَنْطِينَ الْأَوَّلِ وَلَا نَعْتَقِدُ إِخْلَاصَهُ فِيهِ ، بَلْ نَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ عَمَلًا سِيَاسِيًّا مِنْهُ ، وَإِنَّهُ اسْتَعَانَ بِالْمَجَامِعِ عَلَى تَحْوِيلِ النَّصْرَانِيَّةِ عَنْ صِرَاطِ التَّوْحِيدِ إِلَى وَثَنِيَّةِ الْقُدَمَاءِ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ

(265/291)

وَأَسَاتِذَتِهِمْ مِنْ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ ، الَّذِينَ دَانُوا بِعَقِيدَةِ التَّثْلِيثِ قَبْلَ الْمَسِيحِ بِأُلُوفٍ مِنَ السِّنِينَ ، وَلَوْ بَقِيَتْ نُسَخُ تِلْكَ الْأَنَاجِيلِ لَكَانَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ الِاسْتِقْلَالِيِّ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ مِنَ التَّحْقِيقِ فِيهَا مَا لَمْ يَكُنْ لِأُولَئِكَ الْأَسَاقِفَةِ الَّذِينَ قَبِلُوا مِنْهَا مَا وَافَقَ اعْتِقَادَهُمْ وَرَدُّوا مَا لَمْ يُوَافِقْهُ ، كَأَنَّ عَقَائِدَهُمُ التَّقْلِيدِيَّةَ الْمُتَأَثِّرَةَ بِنَصْرَانِيَّةِ قُسْطَنْطِينَ السِّيَاسِيَّةِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ خَلَتْ لِلْمَسِيحِ هِيَ الْأَصْلُ ، وَالْأَنَاجِيلُ الْمَأْثُورَةُ هِيَ الْفَرْعُ ، تُعْرَضُ عَلَى تِلْكَ التَّقَالِيدِ فَيُقْبَلُ مِنْهَا مَا وَافَقَهَا وَيُرَدُّ مَا خَالَفَهَا ؟ .

(266/291)

وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ نَرَى إِنْجِيلَ بَرْنَابَا أَرْقَى مِنْ هَذِهِ الْأَنَاجِيلِ الْأَرْبَعَةِ فِي الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَالثَّنَاءِ عَلَى الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَفِي عُلُومِ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ ، وَالْفَضَائِلِ فَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ كَالدُّكْتُورِ خَلِيلِ سَعَادَةَ الَّذِي تَرْجَمَ لَنَا هَذَا الْإِنْجِيلَ يُعَلِّلُ هَذَا بِمُوَافَقَتِهِ لِفَلْسَفَةِ أَرِسْطُو الَّتِي كَانَتْ رَائِجَةً فِي قُرُونِ الْمَسِيحِيَّةِ الْأُولَى - فَإِنَّ بَعْضَ عُلَمَاءِ أُورُبَّةَ الْبَاحِثِينَ الْمُسْتَقِلِّينَ قَدْ طَعَنَ بِمِثْلِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي شَرِيعَةِ مُوسَى ، وَفِي آدَابِ الْأَنَاجِيلِ الْأَرْبَعَةِ فَقَالُوا : إِنَّ التَّوْرَاةَ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ شَرَائِعِ الْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ نَشَأَ مُوسَى فِي حِجْرِ فِرْعَوْنِهِمْ ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهَا مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ شَرِيعَةِ حَمُورَابِي الَّتِي هِيَ أَصْلُ شَرَائِعِ الْبَابِلِيِّينَ ، وَكَانَتْ كِتَابَةُ التَّوْرَاةِ الْحَاضِرَةِ بَعْدَ النَّبِيِّ الْبَابِلِيِّ ، وَفِيهَا أُلُوفٌ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْبَابِلِيَّةِ - وَقَالُوا : إِنَّ الْآدَابَ الْمَسِيحِيَّةَ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ فِي الْفَلْسَفَةِ الْعَمَلِيَّةِ الْأَخْلَاقِ .

(267/291)

وَنَحْنُ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا نَعْتَدُّ بِهَذِهِ الشُّبُهَاتِ ، وَلَكِنَّا نُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ بِهَا فِي مِثْلِ الْمَقَامِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّا لَا مَحَلَّ لِبَسْطِهِ هُنَا . . . .

ثُمَّ إِنَّ بَقِيَّةَ بِشَارَةِ حجى لَا تَصْدُقُ عَلَى غَيْرِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُحَمَّدِ الْأُمَمِ فَهُوَ الَّذِي زَلْزَلَ رَبُّ الْجُنُودِ بِبِعْثَتِهِ الْعَالَمَ ، وَنَصَرَهُ بِالْجُنُودِ وَبِالْحُجَّةِ جَمِيعًا ، وَكَانَ مَجْدُ دِينِ

اللهِ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ مَجْدِهِ بِمُوسَى وَسَائِرِ أَنْبِيَاءِ قَوْمِهِ ، وَفُرِضَتْ شَرِيعَةُ الزَّكَاةِ وَخُمْسُ الْغَنَائِمِ تُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَكَانَتِ الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ لِلَّهِ – وَفِي النُّسْخَةِ السَّبْعِينِيَّةِ لِلْعَهْدِ الْقَدِيمِ : إِنَّ الْآيَةَ التَّاسِعَةَ مِنْ هَذِهِ الْبِشَارَةِ ، " إِنَّ الْمَجْدَ الْقَدِيمَ لِهَذَا الْبَيْتِ أَعْظَمُ مِنَ الْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِلْهَيْكَلِ الْأَوَّلِ " وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ أَظْهَرُ فِي الْمُرَادِ مِنْ تَرْجَمَةِ النَّصَارَى الَّتِي نَقَلْنَا عَنْهَا ، وَحَسْبُنَا هَذَا مِنَ الْبِشَارَاتِ الْكَثِيرَةِ ، وَمَنْ يَهْدِي اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَنَحْمَدُهُ تَعَالَى أَنْ جَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ خَاتَمِ رُسُلِهِ وَالدُّعَاةِ إِلَى مِلَّتِهِ وَصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 9 صـ 191. 255 ﴾

(268/291)

وقال ابن عاشور :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾

وتشمل الرحمة أيضاً الذين يؤمنون بآيات الله ، والمعنى بها الآيات التي ستجيء في المستقبل ، لأن آيات موسى قد استقر الإيمان بها يومئذ ، وهذا موجب إعادة اسم الموصول في ذكر

أصحاب هذه الصلة ، للإشارة إلى أنهم طائفة أخرى ، وهم من يكون عند بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولذلك أبدل منهم قوله : ﴿ الذين يتبعون الرسولَ ﴾ إلخ .

وهو إشارة إلى اليهود والنصارى الكائنين في زمن البعثة وبعدها لقوله : ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم ﴾ ولقوله : ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلالَ التي كانت عليهم ﴾ فإنه يدل على أنهم كانوا أهل شريعة فيها شدة وحرج ، والمراد بآيات الله : القرآن ، لأن ألفاظه هي المخصوصة باسم الآيات ، لأنها جُعلت معجزات للفصحاء عن معارضتها .

ودالة على أنها من عند الله وعلى صدق رسوله ، كما تقدم في المقدمة الثامنة .

وفي هذه الآية بشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وهي مشيرة إلى ما في التوراة من الإصحاح العاشر حتى الرابع عشر ، والاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية : فإن موسى بعد أن ذكَرهم بخطيئة عبادتهم العجل ، وذكر مناجاته لله للدعاء لهم بالمغفرة ، كما تضمنه الاصحاح التاسع من ذلك السفر ، وذكرناه آنفاً في تفسير قوله : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ ، ثم ذكر في الإصحاح العاشر أمرهم بالتقوى بقوله : "فالآن يا إسرائيل ما يطلب منكَ الرب إلا أن تتقي ربك لتسلك في طرقه وتحبه" .

ثم ذكر فيه وفي الثلاثة بعده وصايا تفصيلاً للتقوى ، ثم ذكر في الاصحاح الرابع عشر الزكاة فقال "تعشيراً تعشر كل محصول زرعك سنة بسنة عشر حنطتك وخمرك وزيتك وأبكار بقرك وغنمك ، وفي آخر ثلاث سنين تخرج كل عشر محصولك في تلك السنة فتضعه في

أبوابك فيأتي اللاوي والغريب واليتيم والأرملة الذين على أبوابك فيأكلون ويشبعون" إلخ .

ثم ذكر أحكاماً كثيرة في الإصحاحات الثلاثة بعده .

(269/291)

ثم في الإصحاح الثامن عشر قوله : "يُقيم لك الرب نبياً ومن وسط إخوانك مثلي له تسمعون حسب كل ما طلبتُ من الرب في حُوريب (أي جبل الطور حين المناجاة) يوم الاجتماع قال لي الرب أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كُلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به" فدل هذا على أن هذا النبي من غير بني إسرائيل لقوله : "من وسط أخوتك" فإن الخطاب لبني إسرائيل ، ولا يكونون إخوة لأنفسهم .

وإخوتُهم هم أبناء أخي أبيهم : إسماعيل أخي إسحاق ، وهم العرب ، ولو كان المراد به نبيئاً من بني إسرائيل مثل (صمويل) كما يؤوله اليهود لقال : من بينكم أو من وسطكم ، وعُلم أن النبي رسول بشرع جديد من قوله : "مثلك" فإن موسى كان نبياً رسولاً ، فقد جمع القرآن ذلك كله في قوله : ﴿ للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ إلخ .

ومن نكت القرآن الجمع في هذه الآية بين وصفي النبوة والرسالة للإشارة إلى أن اليهود بدّلوا وصف الرسول ، وعبروا عنه بالنبي ، ليصدق على أنبياء ليصدق على أنبياء بني إسرائيل

، وغفلوا عن مفاد قوله مثلك ، وحذفوا وصف الأمي ، وقد كانت هذه الآية سبب إسلام الحبر العظيم الأندلسي السموأل بن يحيى اليهودي ، كما حكاه عن نفسه في كتابه الذي سماه "غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود" .

فهذه الرحمة العظيمة تختص بالذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى ، وتشمل الرسل والأنبياء الذين أخذ الله عليهم العهد بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فكانوا عالمين ببعثته يقيناً فهم آمنوا به ، وتنزلوا منزلة من اتبع ما جاء به ، لأنهم استعدوا لذلك ، وتشمل المسلمين من العرب وغيرهم غير بني إسرائيل ، لأنهم ساروا من آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام من اليهود في اتباع الرسول النبي الأمي .

(270/291)

وتقديم وصف الرسول لأنه الوصف الأخص الأهم ، ولأن في تقديمه زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب ، حيث حذفوا هذا الوصف ليصير كلام التوراة صادقاً بمن أتى بعد موسى من أنبياء بني إسرائيل ، ولأن محمداً صلى الله عليه وسلم اتشهر بوصف النبي الأمي ، فصار هذا المركب كاللقب له ، فلذلك لا يغير عن شهرته ، وكذلك هو حيثما ورد ذكره في القرآن .

والأمي : الذي لا يعرف الكتابة والقراءة ، قيل هو منسوب إلى الأم أي هو أشبه بأمه منه بأبيه ، لأن النساء في العرب ما كُنّ يعرفن القراءة والكتابة ، وما تعلمْنها إلاّ في الإسلام ، فصار تعلم القراءة والكتابة من شعار الحرائر دون الإماء كما قال عُبيْد الراعي ، وهو إسلامي:

هُنَّ الحرائِر لا ربّاتُ أخمرَة . . .

سُودُ المحاجِر لا يقْرأن بالسّوَرِ

أما الرجال ففيهم من يقرأ ويكتب .

وقيل : منسوب إلى الأمّة أي الذي حاله حال معظم الأمة ، أي الأمة المعهودة عندهم وهي العربية ، وكانوا في الجاهلية لا يعرف منهم القراءة والكتابة إلاّ النادر منهم ، ولذلك يصفهم أهلُ الكتاب بالأُميّين ، لما حكى الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأُميين سبيل ﴾ في آل عمران (75) .

والأميّة وصف خص الله به من رسله محمداً ، إتماماً للإعجاز العلمي العقلي الذي أيده الله به ، فجعل الأمية وصفاً ذاتياً له ، ليتم بها وصفه الذاتي وهو الرسالة ، ليظهر أن كماله النفساني كمالٌ لدُنّي إلهي ، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات ، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه ، مع أنها في غيره وصف نقصان ، لأنه لمّا حصل له من المعرفة وسداد العقل ما لا يحتمل الخطأ في كل نواحي معرفة الكمالات الحق ، وكان على يقين من

علمه ، وبينة من أمره ، ما هو أعظم مما حصل للمتعلمين ، صارت أميته آية على كون ما حصل له إنّما هو من فيوضات إلهية .

(271/291)

ومعنى : يجدونه مكتوباً ﴾ وجدان صفاته ونعوته ، التي لا يشبهه فيها غيره ، فجعلت خاصته بمنزلة ذاته .

وأطلق عليها ضمير الرسول النبي الأمي مجازاً بالاستخدام ، وإنما الموجود نعته ووصفه ، والقرينة قوله : ﴿ مكتوباً ﴾ فإن الذات لا تكتب ، وعُدل عن التعبير بالوصف للدلالة على أنهم يجدون وصفاً لا يقبل الالتباس ، وهو : كونه أمياً ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويُحل الطيبات ، ويحرم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، وشدة شريعتهم .

وذكر الإنجيل هنا لأنه منزلٌ لبني إسرائيل ، وقد آمن به جمع منهم ومن جاء بعدهم من خلفهم ، وقد أعلم الله موسى بهذا .

والمكتوب في التوراة هو ما ذكرناه آنفاً ، والمكتوب في الإنجيل بشارات جمة بمحمد صلى الله عليه وسلم وفي بعضها التصريح بأنه يبعث بعثة عامة ، ففي إنجيل متّى في الإصحاح الرابع والعشرين "ويقوم أنبياء كذَبةٌ كثيرون ويُضلون كثيرون ، ولكن الذي يصبر إلى المنتهى (أي

يدوم شرعه إلى نهاية العالم) فهذا يخلص ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتي المنتهى" (أي منتهى الدنيا) ، وفي إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر "وإما المُعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلتُه لكم" (ومعنى باسمي أي بما ثلتي وهو كونه رسولاً مشرعاً لا نبيّاً موكداً) .

وتقدم ذكر التوراة والإنجيل في أول سورة آل عمران .

وجملة : ﴿ يأمرهم بالمعروف ﴾ قال أبو علي الفارسي : "هي بيان للمكتوب عندهم ولا يجوز أن تكون حالاً من ضمير ﴿ يجدونه ﴾ لأن الضمير راجع للذكر والاسم .

والذكر والاسم لا يأمران" أي فتعين كون الضمير مجازاً ، وكون الآمر بالمعروف هو ذات الرسول لا وصفه وذِكرُه ، ولا شك أن المقصود من هذه الصفات تعريفهم بها ؛ لتدلهم على تعيين الرسول الأمي عند مجيئه بشريعة هذه صفاتها .

(272/291)

وقد جعل الله المعروف والمنكر ، والطيبات ، والخبائث ، والإصر والأغلال متعلقات لتشريع النبي الأمي وعلامات ، فوجب أن يكون المراد منها ما يتبادر من معاني ألفاظها

للأفهام المستقيمة .

فالمعروفُ شامل لكل ما تقبلُه العقول والفطر السليمة ، والمنكر ضده ، وقد تقدم بيانهما عند قوله تعالى : ﴿ ولْتكُن منكم أمة يَدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ في سورة آل عمران (104) .

ويجمعها معنى : الفطرة ، التي هي قوام الشريعة المحمدية كما قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾ [الروم : 30] ، وهذه أوضح علامة لتعرف أحكام الشريعة المحمدية .

والطيبات : جمع طيبة ، وقد روعي في التأنيث معنى الأَكِيلة ، أو معنى الطُّعمة ، تنبيهاً على أن المراد الطيبات من المأكولات ، كما دل عليه قوله في نظائِرها نحو : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ في البقرة (168) وقوله : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ في سورة المائدة (4) ، وليس المراد الأفعال الحسنة ؛ لأن الأفعال عُرّفت بوصف المعروف والمنكر .

(273/291)

والمأكولات لا تدخل في المعروف والمنكر ، إذ ليس للعقل حظ في التمييز بين مقبُولها ومرفوضها ، وإنما تمتلك الناسَ فيها عوائِدُهم ، ولما كان الإسلام دينَ الفطرة ولا اعتداد بالعوائد فيه ، ناط حال المأكولات بالطّيب وحرمتها بالخُبث ، فالطّيب ما لا ضرُ فيه ولا وخامَة ولا قذارة ، والخبيثُ ما أضر ، أوْ كان وَخيم العاقبة ، أو كان مستقذراً لا يقبله العقلاء ، كالنجاسة ، وهذا ملاك المُباح والمحرم من المآكل ، فلا تدخل العادات إلاّ في اختيار أهلها ما شاءوا من المباح ، فقد كانت قريش لا تأكل الضب ، وقد وُضع على مَائدة رسول الله فكره أن يأكل منه ، وقال : ما هو بحرام ولكنه لم يكن من طعام قومي فأجدني أعافُه ولهذا فالوجه : إن كل ما لا ضر فيه ولا فساد ولا قذارة فهو مباح ، وقد يكون مكروهاً اعتباراً بمضرة خفيفة ، فلذلك ورد النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع ، ومحمله عند مالك في أشهر الروايات عنه ، على الكراهة ، وهو الذي لا ينبغي التردد فيه ، وأي ضُر في أكل لحم الأسد ، وكذلك إباحة أكل الخشاش والحشرات والزواحف البرية والبحرية ، لاختلاف عوائِد الناس في أكلها وعدمه ، فقد كانت جَرْم لا يأكلون الدجاج ، وَفقعس يأكلون الكلب ، فلا يحجر على قوم لأجل كراهية غيرهم مما كرهه ذوقه أو عادة قومه ، وقد تقدم شيء من هذا في آية سورة المائِدة ، فعلى الفقيه أن يقصر النظر على طبائِع المأكولات وصفاتها ، وما جهلت بعض صفاته وحرمته الشريعة مثل تحريم الخنزير . وَوَضع الإصر إبطال تشريعه ، أي بنسخ ما كان فيه شدة من الشرايع الإلهية السابقة ،

وحقيقة الوضع الحط من علو إلى سفل ، وهو هنا مجاز في إبطال التكليف بالأعمال الشاقة .

(274/291)

وحقه التعدية إلى المفعول الثاني بحرف (في) الظرفية ، فإذا عُدي إليْه بـ (عن) دل على نقل المفعول الأول من مدخول (عن) وإذا عدي إلى المفعول الثاني بـ (على) كان دالاًّ على حط المفعول الأول في مدخول (على) حطا متمكناً ، فاستعير يضعُ عنهم ﴾ هنا إلى إزالة التكليفات التي هي كالإصر والأغلال فيشمل الوضْعُ معنى النسخ وغيره ، كما سيأتي . و"الإصر" ظاهر كلام الزمخشري في "الكشاف" و"الأساس" إنه حقيقة في الثّقل ، (بكسر الثاءِ) الحسيّ بحيث يَصعب معه التحرك ، ولم يقيده غيره من أصحاب دواوين اللغة ، وهذا القيد من تحقيقاته ، وَهو الذي جرى عليه ظاهر كلام ابن العربي في "الأحكام" ، والمراد به هنا التكاليف الشاقة والحرج في الدين ، فإن كان كما قيده الزمخشري يكن ﴿ ويضع عنهم أصرهم ﴾ تمثيلية بتشبيه حال المزال عنه ما يحْرجه من التكاليف بحال مَن كان محمّلاً بثقل فأزيل عن ظهره ثَقله ، كما في قوله تعالى : ﴿ يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام : 31] وإن لم يكن كذلك كان "الإصر" استعارة مكنية ﴿ ويضع

﴿ تخييلاً ، وهو أيضاً استعارة تبعية للإزالة .

وقد كانت شريعة التوراة مشتملة على أحكام كثيرة شاقة مثل العقوبة بالقتل على معاص كثيرة ، منها العمل يومَ السبتِ ، ومثل تحريم مأكولات كثيرة طيبة وتغليظ التحريم في أمور هينة ، كالعمل يوم السبت ، وأشد ما في شريعة التوراة من الإصر أنها لم تشرع فيها التوبة من الذنوب ، ولا استتابة المُجرم ، والإصر قد تقدم في قوله تعالى:

﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ في سورة البقرة (286)

وقرأ ابن عامر وحده في القراءات المشهورة ، (آصارهم) بلفظ الجمع ، والجمع والإفراد في الأجناس سواء .

(275/291)

والأغلالُ ﴾ جمع غُل بضم الغين وهو إطار من حديد يجعل في رقبة الأسير والجاني ويمسك بسير من جلد ، أو سلسلة من حديد بيد المُوكّل بحراسة الأسير ، قال تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر : 71] ويستعار الغُل للتكليف والعمل الذي يؤلم ولا يطاق فهوَ استعارة فإن بنيْنا على كلام الزَمخشري كان ﴿ الأغلال ﴾ تمثيلية بتشبيه حال المحرر من الذل والإهانة بحال من أطلق من الأسر ، فتعيّن أن وضع الأغلال

استعارة لما يعانيه اليهود من المذلة بين الأمم الذين نزلوا في ديارهم بعد تخريب بيت المقدس ، وزوال ملك يهوذا ، فإن الإسلام جاء بتسوية أتباعه في حقوقهم في الجامعة الإسلامية ، فلا يبقى فيه مَيز بين أصيل ودخيل ، وصميم ولصيق ، كما كان الأمر في الجاهلية ، ومناسبة استعارة الأغلال للذلة أوضح ، لأن الأغلال من شعار الإذلال في الأسر والقود ونحوهما .

(276/291)

وهذان الوصفان لهما مزيد اختصاص باليهود ، المتحدث عنهم في خطاب الله تعالى لموسى ، ولا يتحققان في غيرهم ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن اليهود قد كان لهم شرع ، وكان فيه تكاليف شاقة ، بخلاف غير اليهود من العرب والفرس وغيرهم ، ولذلك أضاف الله الإصر إلى ضميرهم ، ووَصف الأغلال بما فيه ضميرهم ، على أنك إذا تأملت في حال الأمم كلهم قبل الإسلام لا تجد شرائعهم وقوانينهم وأحوالهم خالية من إصر عليهم ، مثل تحريم بعض الطيبات في الجاهلية ، ومثل تكاليف شاقة عند النصارى والمجوس لا تتلاقى مع السماحة الفطرية ، وكذلك لا تجدها خالية من رهق الجبابرة ، وإذلال الرؤساء ، وشدة الأقوياء على الضعفاء ، وما كان يحدث بينهم من التقاتل والغارات ، والتكايُل في الدماء ، وأكلهم أموالهم بالباطل ، فأرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بدينٍ من شأنه

أن يخلص البشر من تلك الشدائِد ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] ولذلك فسرنا الوضع بما يَعم النسخ وغيره ، وفسرنا الأغلال بما يخالف المراد من الأصر ، ولا يناكد هذا ما في أديان الجاهلية والمجوسية وغيرها من التحلل في أحكام كثيرة ، فإنه فساد عظيم لا يخفف وطأة ما فيها من الإصر ، وهو التحلل الذي نظر إليه أبو خِراش الهُذلي في قوله ، يَعْني شريعة الإسلام:

فليس كعهد الدار يا أم مالك . . .

ولكن أحَاطت بالرقاب السلاسل

والفاء في قوله : ﴿ فالذين آمنوا به ﴾ فاء الفصيحة ، والمعنى : إذا كان هذا النبي كما علمتم من شهادة التوراة والإنجيل بنبوءته ، ومن اتصاف شرعه بالصفة التي سمعتم ، علمتم أن الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا هديه ، هم المفلحون .

(277/291)

والقصر المستفاد من تعريف المسند ومن ضمير الفصل قصر إضافي ، أي هم الذين أفلحوا أي دون من كفر به بقرينة المقام ، لأن مقام دعاء موسى يقتضي أنه أراد المغفرة والرحمة وكتابة الحسنة في الدنيا والآخرة لكل من اتبع دينه ، ولا يريد موسى شمول ذلك لمن لا يتبع

الإسلام بعد مجيء محمد صلى الله عليه وسلم ولكن جرى القصر على معنى الاحتراس من الإيهام ، ويجوز أن يكون القصر ادعائياً ، دالاً على معنى كمال صفة الفلاح للذين يتبعون النبي الأمي ، ففلاح غيرهم من الأمم المفلحين الذين سبقوهم كلاَ فلاح ، إذا نُسب إلى فلاحهم ، أي إن الأمة المحمدية أفضل الأمم على الجملة ، وإنهم الذين تنالهم الرحمة الإلهية التي تسع كل شيء من شؤونهم قال تعالى:

﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] .

ومعنى ﴿ عزروه ﴾ أيدوه وقوّوْه ، وذلك بإظهار ما تضمنته كتبهم من البشارة بصفاته ، وصفات شريعته ، وإعلان ذلك بين الناس ، وذلك شيء زائد على الإيمان به ، كما فعل عبد الله بن سَلاَم ، وكقول ورقة بن نوفل : "هذا الناموس الذي أنزل على موسى" ، وهو أيضاً مغاير للنصر ، لأن النصر هو الإعانة في الحرب بالسلاح ، ومن أجل ذلك عطف عليه ﴿ ونصروه ﴾ .

واتّباع النور تمثيل للاقتداء بما جاء به القرآن : شبه حال المقتدي بهدي القرآن ، بحال الساري في الليل إذا رأى نوراً يلوح له اتّبعه ، لعلمه بأنه يجد عنده منجاة من المخاوف وأضرار السير ، وأجزاءُ هذا التمثيل استعارات ، فالإتباع يصلح مستعاراً للاقتداء ، وهو مجاز شائِع فيه ، والنور يصلح مستعاراً للقرآن ؛ لأن الشيء الذي يعلّم الحقّ والرشد يشبّه بالنور ، وأحسن التمثيل ما كان صالحاً لاعتبار التشبيهات المفردة في أجزائه .

(278/291)

والإشارة في قوله : ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ للتنويه بشأنهم ، وللدلالة على أن المشار إليهم بتلك الأوصاف صاروا أحرياء بما يخبر به عنهم بعد اسم الإشارة كقوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] .

وفي هذه الآية تنويه بعظيم فضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم ، ويُلحق بهم من نصر دينه بعدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(279/291)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾

فهذه تسع صفات لسيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهي أن الله أوحى إليه كتابًا مختصاً به وهو القرآن ، وأنه صاحب المعجزات ، أنه بلّغ ونبأ بأفضل وأتم العقائد والعبادات والأخلاق – وهو – عليه الصلاة والسلام – الأمي الذي لم يمارس القراءة

والكتابة ولم يجلس إلى معلم ، فهو – عليه السلام – باقٍ على الحالة التي ولد عليها ، وقد ذكره ربّه – جل وعلا – باسمه وصفاته ونعوته عند اليهود والنصارى في التوارة والإنجيل وقد كتمها الكافرون منهم أو أساءوا تأويلها ، كما وصفه ربه بأنه يأمرهم بالمعروف ويكلفهم بفعل ما تدعوا إليه الطبائع المستقيمة والفطر السليمة ؛ لأن في ذلك النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة ، وأنه – صلى الله عليه وسلم – يزجرهم وينهاهم عن كل منكر مستهجن تستقبحه الجبلة القويمة ، والخلقة السوية ، ويحل لهم ما حرم عليهم من الطيبات التي منعوا منها وحظرها الله عليهم جزاء طغيانهم وضلالهم ، ويحرم عليهم كل ضار وخبيث : كأكل الميتة والمال الحرام من الربا والرشوة والغش ، ويخفف عنهم ما شق عليهم وثقل من التكاليف التي كانت في شريعة موسى – عليه السلام – كقطع الأعضاء الخاطئة وتحريم الغنائم عليهم ووجوب إحراقها ، وكذلك يخفف الله ويحط عنهم المواثيق الشديدة التي فرضت عليهم عقابا لهم على فسوقهم وظلمهم .

يقول – جل شأنه – : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [النساء : 160-161]

وهكذا أعلم الله الرسل السابقين على سيدنا رسول الله أن يبلغوا أقوامهم بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يؤمن الأقوام التي يشهدون ويعاصرون رسالته صلى الله عليه وسلم ، صحيح أن رسول الله لم يكن معاصراً لأحد من الرسل ، ولكن البشارة به قد جاءت بها أنبياؤهم وسجلت في الكتب المنزلة عليهم ، وكل رسول سبق سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، قد أمره الله أن يبلغ الذين أرسل إليهم أن يتبعوا الرسول محمداً ويؤمنوا به ولا يتمسكوا بسلطة زمنية ويخافوا أن تنزع منهم . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه معجزة وبينة فلابد أن يؤمنوا به . ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين . . . ﴾ [آل عمران : 81]

إذن فقد صنع الله سبحانه وتعالى خميرة إيمانية حتى لا يتعارض اتباع الأديان . ولا يفهم أصحاب دين موجود أن ديناً آخر جاء لينسخه ويأخذ منه السلطة الزمنية ؛ لأن رسالة الإيمان موصولة وتحدث الأقضية للناس بامتداد الزمان . فكل الرسل يحرصون على أن تكون الحياة آمنة سعيدة تتساند فيها المواهب ولا تتعاند فيها الحركات .

وقد طلب الحق من الرسل ذلك وأخذ عليهم العهد وبعد ذلك أكده فقال :

﴿ أَأَقْرَرْتُمْ ﴾ واستوحى منهم الكلام الذي يؤيد هذا المنهج . ولذلك لا يصح لتابع نبي أن

يصادم رسالة جديدة مؤيدة بمعجزة ومؤيدة بمنهج يضمن للإِنسان الحياة وسلامتها وسعادتها .

(281/291)

ولم يكتف الحق بأن يجعل الإِيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه ونسلم مجرد خبر ، بل وضع لمحمد وحده سمة في الكتب التي سبقته ، ووصفه لهم مشخصاً ، وحين يصفه مشخصاً فهذا أوضح من الخبر عنه بكلام . ولذلك قال عبد الله بن سلام عندما سأله عمر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به منّي يا بني . قال : وَلِمَ ؟ قال : لأني لست أشك في محمد أنه نبيّ ، فأما ولدي فلعل والدته قد خانت ، فقبّل عمر رأسه . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ .

ولا شك أن الإِنسان يعرف ابنه معرفة دقيقة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له سمات خاصة وهي التي تثبت شخصيته صلى الله عليه وسلم المادية ، وليس الأمر في رحلة الإِسراء والمعراج مجرد كلام ، بل إنه حينما سئل عن هذه الرحلة قال : " رأيت موسى وإذا رجل ضَرْبٌ ، رَجَلٌ كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى فإذا رَبعة أحمر كأنه خرج من ديماس – الحمَّام – وأنا أشبه ولد إبراهيم به " .

وكذلك أعطى الله في التوراة والإنجيل لا الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم فقط ، بل أعطي تفاصيل صورته بحيث تتشخص لهم ، فلا يلتبس به عند مجيئه مع التشخيص شريك ، فيقول سبحانه : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ . ولكن فريقاً منهم كتموا الحق ليحتفظوا بالسلطة الزمنية ، لأنهم كانوا يظنون أنه حين يأتي دين جديد سيأخذ منهم هذه السلطة الزمنية ويقود الأمم والشعوب . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل رسل السماء إلى الأرض متعاونين لا متعاندين ، ينصر بعضهم بعضاً . كما جاء في سورة الفتح : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزراع لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الفتح : 29]

لقد جاء الحق بصورة المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله في التوراة والإنجيل ، لأن الدين الإسلامي الذي نزل على محمد لن يأتي دين بعده ؛ لذلك جاء بسيرة رسول الله وصفاته

وصفات أتباعه في التوراة والإنجيل ، وفي هذا الدين ما تفتقده اليهودية التي انجرفت إلى مادية صرفة وتركت الروحانيات ؛ لذلك تأتي سيرة أتباع محمد في التوراة : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ .

حين أسرف اليهود في المادية أراد الله أن يأتي برسول يجنح ويميل إلى الروحانية وهو سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام .

. ليحصل الاعتدال في تناول الحياة دون إفراط أو تفريط .

(283/291)

إذن فالحق سبحانه وتعالى مهد لكل رسول بأن يبشر به الرسول السابق لأنه لا معاندات في الرسالات . ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الموكب الرسالي ، كان ولابد أن يصفه الله – سبحانه – وصفًا ليس بالكلام ، بل يصفه كصورة ، بحيث إذا رأوه يعرفونه ، ولذلك نجد سيدنا سلمان الفارسي حين رأى رسول الله في المدينة ورأى منه علامات كثيرة أحب أن يرى فيه علامة مادية ، فرأى في كتف الرسول خاتم النبوة .

ولكن هل نفع ذلك ؟ نعم ، فكثير من الناس آمن به . " وقد أقام رسول الله مناظرة بينه وبين اليهود بواسطة عبد الله بن سلام ، الذي قال بعد أن أسلم بين يدي رسول الله : " يا رسول

الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أي رجل فيكم عبد الله بن سَلاَم ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ؟ فخرج عبد الله إليهم ، فقال : أشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه " .

إذن فالأوصاف الكلامية والأوصاف الشخصية المشخصة جاءت حتى لا يقال : إن أديان السماء تتعاند ، إنها كلها متكاتفة في أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زماناً ومكاناً . وقديماً كان العالم معزولاً عن بعضه ، وكل بيئة لها أجواؤها وداءاتها ؛ فيأتي الرسول ليعالج في مكان خاص داءات خاصة ، لكن الله جاء برسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن توحدت هذه الداءات في الدنيا ؛ جاء رسولنا الكريم ليعالج هذه الداءات العالمية ، وجاء رسول الله مؤيداً بأوصافه ومؤيداً بتعاليمه التي تخفف عنهم إصرهم وأغلالهم ، والإِصر هو الحِمْل الثقيل ، والأغلال جمع غُلّ وهو الحديدة التي تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة .

وقد ذكر الحق الأوصاف ومهَّد الأذهان إلى مجيء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليضع عنهم الأغلال بالنور الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالرسالة المحمدية هي الجامعة المانعة ، ولذلك يقول الحق بعد ذلك : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(285/291)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : قَالَ مَالِكٌ : بَلَغَنِي أَنَّ طَائِفَةً مِنْ الْيَهُودِ نَزَلُوا الْمَدِينَةَ ، طَائِفَةُ

خَيْبَرَ ، وَطَائِفَةُ فَدَكَ لَمَّا كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُرُوجِهِ فِي أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ ، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ ، فَأَخْلَفَهُمْ اللَّهُ ذَلِكَ ، وَقَدْ كَانُوا يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ .

(286/291)

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَقِيت عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، فَسَأَلْته عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ قَالَ : أَجَلْ ؛ وَاَللَّهِ إنَّهُ لَمَوْصُوفٌ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إنَّا أَرْسَلْنَاك شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُك الْمُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ؛ وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي إدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ ، فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا ، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ لِيَسْأَلَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ ، فَلَمْ يَفْعَلْ

حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : وَنَحْنُ عِنْدَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ .

قَالَ : وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْخَبَرَ .

(287/291)

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْت أَظْلَمُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي ؟ إِنِّي قُلْت : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ، فَقُلْتُمْ : كَذَبْت .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْت ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ الْإِصْرُ ؛ هُوَ الثِّقَلُ ، وَكَانَ فِيمَا سَبَقَ مِنْ الشَّرَائِعِ تَكَالِيفُ كَثِيرَةٌ فِيهَا مَشَاقُّ عَظِيمَةٌ ، فَخَفَّفَ تِلْكَ الْمَشَاقَّ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمِنْهَا مَشَقَّتَانِ عَظِيمَتَانِ : الْأُولَى فِي الْبَوْلِ .

كَانَ إِذَا أَصَابَ ثَوْبَ أَحَدِهِمْ قَرَضَهُ ، فَخَفَّفَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْغُسْلِ بِالْمَاءِ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ : كَانَ أَبُو مُوسَى يُشَدِّدُ فِي الْبَوْلِ ، وَيَبُولُ فِي قَارُورَةٍ ، وَيَقُولُ : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا أَصَابَ جِلْدَ أَحَدِهِمْ بَوْلٌ قَرَضَهُ بِالْمَقَارِيضِ ﴿ فَقَالَ حُذَيْفَةُ : لَوَدِدْتُ أَنَّ صَاحِبَكُمْ لَا يُشَدِّدُ هَذَا التَّشْدِيدَ ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ نَتَمَاشَى ، فَأَتَى سُبَاطَةَ خَلْفَ حَائِطٍ ، فَقَامَ كَمَا يَقُومُ أَحَدُكُمْ ؛ فَبَالَ ، فَانْتَبَذْتُ مِنْهُ ، فَأَشَارَ إِلَيَّ فَجِئْتُ فَقُمْتُ عِنْدَ عَقِبِهِ حَتَّى فَرَغَ ﴾ .

وَمِنْ الْإِصْرِ الَّذِي وُضِعَ إِحْلَالُ الْغَنَائِمِ ؛ وَكَانَتْ حَرَامًا عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ .

(288/291)

وَمِنْهَا أَلَّا تُجَالِسَ الْحَائِضُ وَلَا تُؤَاكَلَ ، فَخَفَّفَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي دِينِهِ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لِتَشُدَّ عَلَيْهَا إِزَارَهَا ، ثُمَّ شَأْنُهُ بِأَعْلَاهَا ﴾ فِي أَعْدَادٍ لِأَمْثَالِهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(289/291)

" فصل في بشائر الأنبياء عليهم السلام بنبوته صلى الله عليه وسلم "

قال الماوردى :

إن لله تعالى عونا على أوامره وإغناء عن نواهيه فكان أنبياء الله تعالى معانين على تأسيس النبوة بما تقدمه من بشائرهم وتبديه من أعلامها وشعائرها ليكون السابق مبشرا ونذيرا واللاحق مصدقا وظهيرا فتدوم بهم طاعة الخلق وينتظم بهم استمرار الحق وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مما هو حجة على أممهم ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم بما أطلعه الله تعالى على غيبه ليكون عونا للرسول وحثا على القبول

فمن ذلك بشائر ذلك موسى عليه السلام في التوراة فأولها في الفصل التاسع من السفر الأول (لما هربت هاجر من سارة تراءى لها ملك وقال يا هاجر أمة سارة ارجعي إلى سيدتك فاخضعي لها فإن الله سيكثر زرعك وذريتك حتى لا يحصون كثرة وها أنت تحبلين وتلدين ابنا وتسميه إسماعيل لأن الله تعالى قد سمع خشوعك وهو يكون عين الناس وتكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع) وهذا لم يكن في ولد إسماعيل إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا قبله مقهورين فصاروا به قاهرين

ومنها قوله في هذا السفر لإبراهيم حين دعاه في إسماعيل (وباركت عليه وكثرته وعظمته جدا جدا وسيلد اثنى عشر عظيما وأجعله لأمه عظيمة) وليس في ولد إسماعيل من

جعله لأمة عظيمة غير محمد صلى الله عليه وسلم

ومنها في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس عن موسى عليه السلام (إن الرب إلهكم قال إني أقيم لهم نبيا مثلك من بين أخوتهم أجعل كلامي على فمه فأيما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها عني ذلك الرجل باسمي فأنا أنتقم منه) ومعلوم أن أخا بني إسرائيل هم بنو إسماعيل وليس منهم من ظهر كلام الله تعالى على فمه غير محمد صلى الله عليه وسلم

(290/291)

ومنها في الفصل العشرين من هذا السفر (أن الرب جاء من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلى من جبال فاران ومعه عن يمينه ربوات جيش القديسين

فمنحهم إلى الشعوب ودعا لجميع قديسيه بالبركة) فمجيء الله تعالى من طور سيناء هو إنزاله التوراة على موسى وإشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على عيسى لأنه كان في ساعير أرض الخليل في قرية ناصره واستعلاؤه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وفاران هي جبال في مكة في قول الجميع فإن ناكروا كان دفعا لما في التوراة ولأنه لم يستعل الدين كاستعلائه منها فاندفع الإنكار بالعيان

فصل من البشائر به

كان بين موسى وعيسى من الأنبياء الذين أوتوا الكتاب باتفاق أهل الكتابين عليهم ستة عشر نبيا ظهرت كتبهم في بني إسرائيل فبشر كثير منهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فمنهم شعيا بن أموص قال في الفصل الثاني والعشرين (قومي فأزهري مصباحك) يعني مكة (فقد دنا وقتك وكرامة الله طالعة عليك فقد تجلل الأرض الظلام وغطى على الأمم الضباب والرب يشرق عليك إشراقا ويظهر كرامته عليك فتسير الأمم إلى نورك والملوك إلى ضوء طلوعك إرفعي بصرك إلى ما حولك وتأملي فإنهم يستجمعون عندك ويحجونك ويأتيك ولدك من بعيد وتسرين وتبتهجين من أجل أن يميل إليك ذخائر البحر ويحج إليك عساكر الأمم حتى تعمرك ازبل المؤبلة وتضيق أرضك عن القطرات التي تجمع إليك ويساق إليك كباش مدين ويأتيك أهل سبأ يحدثون بنعم الله ويمجدونه وتسير إليك أغنام قاذار) يعني غنم العرب لأنهم من ولد قاذار بن إسماعيل (ويرتفع إلى مديحي ما يرضينني وأحدث حينئذ لبيت محمدتي حمدا) وهذه الصفات كلها موجودة بمكة فكان ما دعا إليها هو الحق ومن قام بها هو المحق

وفي فصل آخر من كتابه (قال لي الرب فامض فأقم على المنظرة تخبرك بما ترى فرأى راكبين أحدهما راكب حمارا) يعني عيسى (والآخر راكب جملا) يعني

محمدا (فبينما هو كذلك إذا أقبل أحد الراكبين وهو يقول هوت بابل وتكسرت آلهتها المنجورة على الأرض فهذا الذي سمعت الرب إله إسرائيل قد أنبأتكم)

وفي الفصل السادس عشر منه (لتفرح أرض البادية العطشى بمنتهج البراري والفلوات ولتسر وتزهو مثل الوعل فإنها بأحمد محاسن لبنان ويكمل حسن الدساكر والرياض وسترون جلال الله تعالى بها) قال شعيا وسلطانه على كتفه يريد علامة نبوته على كتفه وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم وبادية الحجاز

وفي الفصل التاسع عشر منه (هتف هاتف من البدو فقال خلوا الطريق للرب وسهلوا سبيل الهنا في القفر فستمتلىء الأودية مباها وتفيض فيضا وتنخفض الجبال والروابي انخفاضا وتصير الآكام دكاكا والأرض الوعرة مذللة ملسا وتظهر كرامات الرب ويراها كل أحد)

وفي الفصل العشرين منه وهو مذكور في ثلاث وخمسين ومائة من مزامير داود (لترتاح البوادي وقراها ولتصير أرض قاذار مروجا ويسيح سكان الكهوف ولتهتفوا من قلال الجبال بحمد الرب وليرفعوا تسابيحه فإن الرب يأتي كالجبار الملتظى المتكبر وهو يزجر ويقتل أعداءه) وأرض قاذار هي أرض العرب لأنهم

ولد قاذار والمروج ما صار حول مكة من النخل والشجر والعيون

وفي الفصل الحادي والعشرين منه أيضا (أن الضعفاء والمساكين يستسقون ماء ولا ماء لهم فقد جفت ألسنتهم من الظمأ وأنا الرب أجيب يومئذ دعوتهم ولن أهملهم بل أفجر لهم في الجبال الأنهار وأجري بين القفار والعيون وأحدث في البدو أجساما وأجرى في الأرض العطشى ماء معينا وأنبت في البلاقع القفار الصنوبر والآس والزيتون وأغرس في القاع الصفصف البر ليروها جميعا ثم يتدبروا ويعلموا أن يد الله صنعت ذلك وقدوس إسرائيل ابتدعه) وهذه صفات بلاد العرب فيما أحدث الله تعالى لهم فيها بإسلامهم فصل ومن بشائر يوال بن نوتال من أنبياء بني إسرائيل

(292/291)

(مثل الصبح المسلط على الجبال شعب عظيم عزيز لم يكن مثله قط ولا يكون بعده مثله إلى أبد الأبد أمامه نار تتأجج وخلفه لهيب وتلتهب الأرض بين يديه مثل فردوس عدن فإذا جاز فيها وعبرها تركها برية خاوية رؤيته كرؤية الجبل

رجالته فرسان مثل الفرسان أصواتهم كصوت لهب النار الذي يحرق الهشيم رجفت الأرض أمامهم وتزعزعت السماء وأظلمت الشمس وغاب نور النجوم والرب أسمع صوتا بين يدي أجناده لأن عسكره كثيرا جدا وعمل قوله عزيز لأن نور الرب عظيم مرهوب جدا

) وهذا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصل من بشائر عوبديا من أنبياء بني إسرائيل

وفي كتابه قد سمعنا خبرا من قبل الرب وأرسل رسولا إلى الشعوب ثم يتقدم إليه بالحرب أيها الساكن في بحر الكهف ومحله في الموضع الأعلى لأن يوم الرب قريب من جميع الشعوب فهذا مرموز في نبوته فصل من بشائر ميخاء من أنبياء بني إسرائيل في كتابه

(فأما الآن فسيتسلم إلى الوقت الذي تلد فيه الوالدة ويقوم فيرعاهم) يعني الرب (وبكرامة اسم الله ربه ويقبلون بهم إلى من سيعظم سلطانه إلى أقطار الأرض ويكون على عهده الإسلام) فصل من بشائر حبقوق من أنبياء بني إسرائيل

(جاء الله من طور سيناء واستعلن القدوس من جبال فاران وانكسفت لبهاء محمد وانخسفت من شعاع المحمود وامتلأت الأرض من محامده لأن شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعده وتسير المنايا أمامه وتصحب سباع الطير أجناده قام فمسح الأرض وبحث عنهم فتصفصفت الجبال القديمة واتضعت الروابي الدهرية وتزعزع سور أرض مدين ولقد جاز المساعي القديمة قطع الرأس من حب الأثيم ودمغت رؤوس سلاطينه بغضبه) ومعلوم أن محمدا وأحمدا ومحمودا صريح في اسمعه وهما يتوجهان إلى من انطلق عليه اسم المحمد وهو بالسريانية موشيحا أي محمد ومحمود ولهذا إذا أراد

السرياني أن يحمد الله تعالى قال شريحا لإلهنا فصل من بشائر حزقيال من أنبياء بني إسرائيل

(293/291)

في كتابه (إن الذي يظهر من البادية فيكون فيه حتف اليهود كالكرمة أخرجت ثمارها وأغصانها عن مياه كثيرة وتفرعت منها أغصان مشرقة على أغصان الأكابر والسادات وبسقت فلم تلبث تلك الكرمة أن قلعت بالسخطة وضرب بها على الأرض فأخرجت ثمارها وأتت نار فأكلتها فكذلك غرس في البدو وفي الأرض المهملة المعطلة العطشى وخرج من أغصانه الفاضلة نار فأكلت ثمار تلك حتى لم يبق منها عصا قوية ولا قضيب ينهض بأمر السلطان)

فصل من بشائر صفينا من أنبياء بني إسرائيل

في كتابه (أيها الناس ترجوا اليوم الذي أقوم فيه للشهادة فقد حان أن أظهر حكمي بحشر الأمم وجميع الملوك لأصب عليهم سخطي وتكبري هناك أجدد للأمم اللغة المختارة ليرفعوا اسم الرب جميعا وليعبدوه في ربقة واحدة معا وليأتوا بالذبائح من مغاراتها تكون)

ومعلوم أن اللغة العربية هي المختارة لأنها طبقت الأرض وانتقلت أكثر اللغات إليها حتى

صار ما عداها نادرا فصل من بشائر زكريا بن يوحنا من أنبياء بني إسرائيل

في كتابه (رجع الملك الذي ينطق على لساني وأيقظني كالرجع الذي يستيقظ من نومه وقال لي ما الذي رأيت فقلت منارة من ذهب وكفة على رأسها ورأيت على الكفة سبعة سرج لكل سراج منها سبعة أفواه وفوق الكفة شجرتا زيتون إحداهما عن يمين الكفة والأخرى عن يسارها فقلت للملك الذي ينطق على لساني ما هذه يا سيدي فرد الملك علي وقال لي أما تعلم ما هذه فقلت ما أعلم فقال لي هذا قول الرب في زربابال) يعني محمدا (وهو يدعى باسمي وأنا أستجيب له للنصح والتطهير وأصرف عن الأرض أنبياء الزور والأرواح النجسة لا بقوة ولا بعز ولكن بروحي بقول الرب القوي) ويعني بشجرتي الزيتون الدين والملك وزربابال هو محمد صلى الله عليه وسلم

فصل من بشائر دانيال من أنبياء بني إسرائيل

(294/291)

في كتابه (رأيت على سحاب السماء المسمى كهيئة إنسان جاء فانتهى إلى عتيق الإمام وقدموه بين يديه فحوله الملك والسلطان والكرامة أن تعبد له جميع الشعوب والأمم واللغات سلطانه دائم إلى الأبد له يتعبد كل سلطان ويمضي ألفان وثلثمائة ينقضي عقاب الذنوب

يقوم ملك منيع الوجه في سلطانه عزيز القوة لا تكون عزته تلك بقوة نفسه وينجح فيما يريد ويجوز في شعب الأطهار ويهلك الأعزاء ويؤتى بالحق الذي لم يزل قبل العالمين) وفي هذا دليل على أمرين أحدهما صدق الخبر لوجوده على حقه والثاني صحة نبوته لظهور الخبر في صحته فصل من بشائره في رؤيا بختنصر

وهو أن بختنصر رأى في السنة الثانية من ملكه رؤيا ارتاع منها ونسيها

فأحضر من في ممالكه من الكهنة والمنجمين وكان قد ملك الأقاليم السبعة وسألهم عن الرؤيا وتأويلها فقالوا له اذكرها لنا حتى نذكر تأويلها لك فأمر بقتلهم إن لم يذكروها وتأويلها وكان دانيال النبي قد سباه من اليهود فاستمهل في أمرهم ورغب إلى الله تعالى في إطلاعه على الرؤيا وتأويلها فأطلعه الله تعالى على ذلك فأتى بختنصر وقال أيها الملك إنك كلفت هؤلاء ما لا يعلمه إلا الله وقد رغبت إليه فأطلعني عليه ورؤياك التي رأيتها أن قلبك جاش واختلج بما يحدث بعدك في آخر الزمان فعرفك مبدي السرائر ما يكون إنك أيها الملك رأيت صنما عظيما قائما قبالتك له منظر رائع رأسه من الذهب الإبريز وصدره وذراعاه من فضة وفخذاه من نحاس وساقاه من حديد وبعض رجليه من حديد وبعضها من خزف ورأيت حجرا انقطع من جبل عظيم بغير يد إنسان فضرب ذلك الصنم فهشمه حتى صار كالرماد ألوت به ريح عاصف حتى لم يعرف له مكان ثم عظم الحجر الصلد الذي صك

الصنم حتى صار جبلا عظيما امتلأت منه الأرض كلها فهذه الرؤيا وأنا معبرها أما الصنم فهم الملوك فأنت الرأس الذهب ويقوم من بعدك من هو دونك ألين منك

(295/291)

فأما المملكة الثالثة التي هي مثل النحاس فتسقط على الأرض كلها وأما المملكة الرابعة التي هي مثل الحديد فتكون عزيزة كما أن الحديد يهشم الجميع فكذلك هذه تسحق وتغلب الكل

وأما الأرجل والأصابع التي رأيت أن منها من خزف الفخار ومنها من حديد فإن المملكة تكون مختلفة ومتفرقة يكون منها أصل من جوهر الحديد وخلط من

خزف الفخار فيكون بعض المملكة قويا وبعضها واهيا كسيرا لا يأتلف بعضها ببعض كما لا يختلط الحديد بالخزف

وأما الحجر الواقع من الجبل فإن إله السماء يرسل مملكة من عنده لأنه لم تقطع الحجر يد إنسان في زمان هذه الممالك يهلكها ويبقى إلى آخر الدهر ولا يكون لأمة أخرى مملكة ولا سلطان إلا دقة كما يدق الحجر الحديد والنحاس والفضة والذهب فعرفك الله العظيم ما يكون بعدك في آخر الأيام فهذه رؤياك وتأويلها

فخر بختنصر على وجهه ساجدا لدانيال وقال إن إلهكم هذا هو إله الآلهة ورب الأملاك حقا وهو مبدي السرائر وجعل دانيال رأسا مؤمرا على أرض بابل ومعلوم أنه لم يرسل الله تعالى سلطانا أزال به الممالك وملأ به الأرض ودام له الأمر إلا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فصل من بشائر أرميا بن برخنا من أنبياء بني إسرائيل في أيام بختنصر

لما قتل أهل الرس نبيهم قال ابن عباس أمر الله تعالى أن يأمر بختنصر أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم فيقتلهم بما صنعوا بنبيهم فأمره بذلك فدخل بختنصر بلاد العرب فقتل وسبى حتى انتهى إلى تهامة فأتى بمعد بن عدنان فأمر بقتله فقال له النبي (لا تفعل فإن في صلب هذا نبيا يبعث في آخر الزمان يختم الله به الأنبياء) فخلى سبيله وحمله معه حتى أتى حصونا باليمن فهدمها وقتل أهلها وزوج معدا بأجمل امرأة منهم في زمانها وخلفه بتهامة حتى نسل بها قال ابن عباس وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾

فصل من بشائر داود في الزبور

(296/291)

(سبحان الذي هيكله الصالحون يفرح إسرائيل بخالقه وبيوت صيفون من أجل الله اصطفى له أمته وأعطاه النصر وسدد الصالحين منه بالكرامة يسبحونه على مضاجعهم ويكبرون الله بأصوات مرتفعة بأيديهم سيوف ذوات شفرتين لينتقموا من الأمم الذين لا يعبدونه يوثقون ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال) ومعلوم أن سيوف العرب هي ذوات الشفرتين ومحمد هو المنتقم بها من الأمم

وفيه (أن الله أظهر من صيفون أكليلا محمودا) وصيفون العرب والأكليل النبوة ومحمود هو محمد صلى الله عليه وسلم

وفي مزمور آخر منه (أنه يجوز من بحر إلى بحر ومن لدن الأنهار إلى الأنهار إلى منقطع الأرض وأن تخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم وتلحس أعداؤه التراب تأتيه الملوك بالقرابين وتسجد وتدين له الأمم بالطاعة والإنقياد لأنه يخلص المضطهد البائس ممن هو أقوى منه وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له ويرأف بالضعفاء والمساكين وأنه يعطي من ذهب بلاد سبأ ويصلى عليه في كل وقت ويبارك

عليه في كل يوم ويدوم ذكره إلى الأبد) ومعلوم أنه لم يكن هذا إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم

وفي مزمور آخر قال داود (اللهم ابعث جاعل السنة حتى يعلم الناس أنه بشر) أي ابعث نبيا يعلم الناس أن المسيح بشر لعلم داود أن قوما سيدعون في المسيح ما ادعوه وهذا هو محمد صلى الله عليه وسلم فصل من بشائر المسيح به في الإنجيل

قال المسيح عليه السلام للحواريين (أنا ذاهب وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إلا كما يقال له وهو يشهد علي وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به)

وفي نقل يوحنا عنه (أن البارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه شيئا ولكنه مما يسمع به يكلمكم ويسوسكم بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب)

(297/291)

وفي نقل آخر عنه (أن البارقليط روح الحق الذي يرسله باسمي هو يعلمكم كل شيء إني سائل أن يبعث إليك بارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد وهو يعلمكم كل شيء)

وفي نقل آخر عنه (أن البشير ذاهب والبارقليط بعده يحيي لكم الأسرار ويقيم لكم كل شيء وهو يشهد لي كما شهدت له فإني لأجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل) والبارقليط بلغتهم لفظ من الحمد وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أحمد وأنا

محمود وأنا محمد

فهذه من بشائر الأنبياء عن الكتب الإلهية المتناصرة بصحة نبوته المتواترة الأخبار بانتشار دعوته وتأييد شريعته ولعل ما لم يصل إلينا منها أكثر فمنهم من عينه باسمه ومنهم من ذكره بصفته ومنهم من عزاه إلى قومه ومنهم من أضافه

إلى بلده ومنهم من خصه بأفعاله ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره وقد حقق الله تعالى جميعها فيه حتى صار جليا بعد الاحتمال ويقينا بعد الارتياب

فإن قيل مجيء الأنبياء موضوع لمصالح العالم وهم مأمورون بالرأفة والرحمة ومحمد جاء بالسيف وسفك الدماء وقتل النفوس فصار منافيا لما جاء به موسى وعيسى فزال عن حكمهما في النبوة لمخالفتهما في السيرة فعنه ثلاثة أجوبة

أحدها أن الله تعالى بعث كل نبي بحسب زمانه فمنهم من بعثه بالسيف لأن السيف أنجع ومنهم من بعثه باللطف لأن اللطف أنفع كما خالف بين معجزاتهم بحسب أزمانهم فبعث موسى بالعصا في زمان السحر وبعث عيسى بإحياء الموتى في زمان الطب وبعث محمد بالقرآن في زمان الفصاحة لأن الناس في بدء أمرهم يتعاطفون مع القلة ثم يتنافرون ويتحاسدون مع الكثرة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل)

والجواب الثاني أن السيف إذا كان لطلب الحق كان خيرا واللطف إذا كان مع إقرار الباطل كان شرا لأن الشرع موضوع لإقرار الفضائل الإلهية والحقوق الدينية ولذلك جاء الشرع بالقتل والحدود ليستقر به الخير وينتفي به الشر لأن النفوس الأشرة لا يكفها إلا الرهبة فكان القهر لها أبلغ في انقيادها من الرغبة وكانت العرب أكثر الناس شرا وعتوا لكثرة عددهم وقوة شجاعتهم فلذلك كان السيف فيهم أنفع من اللطف

والجواب الثالث أنه لم يكن في جهاده بالسيف بدعا من الرسل ولا أول من أثخن في أعداء الله تعالى

وقبل هذا إبراهيم عليه السلام جاهد الملوك الأربعة الذين ساروا إلى بلاد الجزيرة للغارة على أهلها وحاربهم حتى هزمهم بأحزابه وأتباعه

وهذا يوشع بن نون قتل نيفا وثلاثين ملكا من ملوك الشام وأباد من مدنها ما لم يبق له أثر ولا من أهلها صافر من غير أن يدعوهم إلى دين أو يطلب منهم أتاوة وساق الغنائم

وغزا داود من بلاد الشام ما لم يدع فيها رجلا ولا امرأة إلا قتلهم وهو موجود في كتبهم

ومحمد صلى الله عليه وسلم بدأ بالاستدعاء وحارب بعد الآباء

روى ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء فإذا انتهك من محارم الله تعالى شيء كان أشدهم في ذلك غضبا وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثما وقد كان صلى الله عليه وسلم أحث الناس على الصفح والتعاطف روى أسيد بن عبد الرحمن عن فروة بن مجاهد عن عقبة بن عامر قال لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي يا عقبة صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك فهل يكون أحنى على الخلق ممن يأمرهم بمثل هذا وإنما تطلبت الملحدة بمثل هذا الاعتراض القدم في النبوات فإنهم لم يعفوا نبيا من القدح في معجزاته والطعن على سيرته حتى قال منهم في عصرنا ما طعن به على موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم عليهم بشعر نظمه فقال

(وفالق البحر لم يفلق جوانبه % إذ ضاع فيه ضياع الحر في السفل)

(ومدع يدعي الأشياء خلقته % ما باله زال والأشياء لم تزل)

(وآخر يدعي بالسيف حجته % هل حجة السيف إلا حجة البطل) فحضرني حين وردت هذه الأبيات إلي بعض أهل العلم فأجاب عنها فقال

(قل للذي جاء بالتكذيب للرسل % ورد معجزهم بالزيغ والدغل)

(وقال في ذاك أبيا تا مزخرفة % ليوقع الناس في شك من الملل)

(ضياع موسى دليل من أدلته % من بعد ما صار فرق البحر كالجبل)

(ليعلم الناس أن الله فالقه % وأن موسى ضعيف تاه في السبل)

(والمعجز الحق في فلق المياه له % وجعله البر ما يحتاط بالحيل)

(وابن البتول فإن الله نزهه % عما ذكرت من الدعوى على الجمل)

(ما كان منه سوى طير يقدره % طينا وربي أحياه ولم يزل)

(وقال إني بإذن الله فاعله % وإذن ربي يحيي الخلق لا عملي)

(وصاحب السيف كان السيف حجته % بعد البيان عن الإعجاز والمثل)

(وجاء مبتديا بالنصح مجتهدا % بمعجزات لها حارت أولو النحل)

(300/291)

(منها كتاب مبين نظمه عجب % فيه من الغيب ما أوحى إلى الرسل)

(فأفحم الشعراء المفلقين به % لما تحداهم بالرفق في مهل)

(وأنبع الماء عذبا من أنامله % من غير صخرة كانت ولا وشل)

(وشارف القوم وافاه وكلمه % وقال أنى من قتلي على وجل)

(والذئب قد أخبر الراعي بمبعثه % فجاء يشهد في الإسلام في عجل)

(والجذع حن إليه حين فارقه % حنين ذات جؤار ساعة الهبل)

(وأخبر الناس عما في ضمائرهم % مفصلا بجواب غير محتمل)

(ونبأ الروم من نصر يكون لها % من بعد سبعة أعوام على جدل)

(والفرس أخبرها عن قتل صاحبها % برويز إذ جاءه فيروز في شغل) (وإن تقصيت ما جاء النبي به % طال النشيد ولم آمن من الملل) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أعلام النبوة صـ 216.197 ﴾

(301/291)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس في قوله ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ قال : فلم يعطها موسى ﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ﴾ إلى قوله ﴿ المفلحون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ قال : فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جرير ﴿ واكتب لها في هذه الدنيا حسنه ﴾ قال : مغفرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عن ابن عباس في قوله ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ قال : تبنا إليك .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ قال : تبنا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي وجزة السعدي وكان من أعلم الناس بالعربية قال : لا والله لا أعلمها في كلام أحد من العرب ﴿ هدنا ﴾ قيل : فكيف قال : هدنا بكسر الهاء ؟ يقول : ملنا .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن وقتادة في قوله ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ قالا : وسعت في الدنيا البر والفاجر ، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء في قوله ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ قال : رحمته في الدنيا على خلقه كلهم يتقلبون فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سماك بن الفضل . أنه ذكر عنده أي شيء أعظم ،

فذكروا السموات والأرض وهو ساكت فقالوا : ما تقول يا أبا الفضل ؟ فقال : ما من شيء أعظم من رحمته ، قال الله تعالى ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ .

(302/291)

وأخرج أحمد وأبو داود عن جندب بن عبد الله البجلي قال : جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها ، ثم صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نادى : اللهمَّ ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد حظرت رحمة واسعة ، أن الله خلق مائة رحمة ، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنّها وإنسها وبهائمها ، وعنده تسعة وتسعون " .

وأخرج أحمد ومسلم عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن لله مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسع وتسعون إلى يوم القيامة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان موقوفاً وابن مردويه عن سلمان قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " أن الله خلق مائة رحمة يوم خلق السموات والأرض ، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض ، فأهبط منها رحمة إلى الأرض ، فيها تراحم الخلائق ، وبها تعطف

الوالدة على ولدها ، وبها يشرب الطير والوحوش من الماء ، وبها تعيش الخلائق ، فإذا كان يوم القيامة انتزعها من خلقه ثم أفاضها على المتقين ، وزاد تسعاً وتسعين رحمة ، ثم قرأ ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ " .

وأخرج الطبراني عن حذيفة بن اليمان ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الفاجر في دينه ، الأحمق في معيشته ، والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الذي قد محشته النار بذنبه ، والذي نفسي بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه " .

(303/291)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد في مسنده وأبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " افتخرت الجنة والنار ، فقالت النار : يا رب ، يدخلني الجبابرة والملوك والأشراف . وقالت الجنة : يا رب ، يدخلني الفقراء والضعفاء والمساكين . فقال الله للنار : أنت عذابي أصيب بك من أشاء ، وقال للجنة : أنت رحمتي وسعت كل شيء ، ولكل واحدة منكما ملؤها " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي بكر الهذلي قال : لما نزلت ﴿ ورحمتي وسعت

كل شيء ﴾ قال إبليس : يا رب ، وأنا من الشيء . فنزلت ﴿ فسأكتبها للذين يتقون . . . ﴾ الآية . فنزعها الله من إبليس .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال : لما نزلت ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ قال : إبليس : وأنا من الشيء . فنسخها الله ، فأنزل ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج قال : لما نزلت ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ قال : إبليس : أنا من كل شيء . قال الله ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ قالت يهود : فنحن نتقي ونؤتي الزكاة . قال الله ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ﴾ فعزلها الله عن إبليس وعن اليهود ، وجعلها لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة نحوه .

وأخرج البيهقي في الشعب عن سفيان بن عيينة قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ مد إبليس عنقه فقال : أنا من الشيء . فنزلت ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ فمدت اليهود والنصارى أعناقها فقالوا : نحن نؤمن بالتوراة والإنجيل ، ونؤدي الزكاة . فاختلسها الله من إبليس واليهود والنصارى ، فجعلها لهذه الأمة خاصة فقال ﴿ الذين يتبعون . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبزار في مسنده وابن مردويه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه مسألة فأعطاها محمداً صلى الله عليه وسلم . قوله ﴿ واختار موسى قومه ﴾ إلى قوله ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ فأعطى محمداً صلى الله عليه وسلم كل شيء . سأل موسى ربه في هذه الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ قال : كتبها الله لهذه الأمة .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : دعا موسى فبعث الله سبعين ، فجعل دعاءه حين دعاه آمن بمحمد ، واتبعه قوله ﴿ فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، . . . فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين يتبعون محمداً ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ قال يتقون الشرك .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ قال : أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال موسى : يا ليتني أخرت في أمة محمد . فقالت اليهود لموسى : أيخلق ربك خلقاً ثم يعذبهم ؟ فأوحى الله إليه : يا موسى ارزع . قال : قد زرعت . قال : أحصد . قال : قد حصدت . قال : دس . قال : قد دست . قال : ذر . قال : قد ذريت . قال : فما بقي ؟ قال : ما بقي شيء فيه خير . قال : كذلك لا أعذب من خلقي إلا

من لا خير فيه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . أنه سئل عن أبي بكر وعمر فقال : إنهما من السبعين الذين سألهم موسى بن عمران فاخراً حتى أعطيهما محمداً صلى الله عليه وسلم . قال : وتلا هذه الآية ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا . . . ﴾ الآية .

(305/291)

وأخرج ابن مردويه عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم الجمعة نزل جبريل عليه السلام إلى المسجد الحرام ، فركز لواءه بالمسجد الحرام وغدا بسائر الملائكة إلى المساجد التي يجمع فيها يوم الجمعة ، فركزوا ألويتهم ورايا تهم بأبواب المساجد ، ثم نشروا قراطيس من فضة وأقلاماً من ذهب ، ثم كتبوا الأول فالأول من بكَّر إلى الجمعة ، فإذا بلغ من في المسجد سبعين رجلاً قد بكروا طووا القراطيس ، فكان أولئك السبعون كالذين اختارهم موسى من قومه ، والذين اختارهم موسى من قومه كانوا أنبياء " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا راح منا إلى الجمعة سبعون رجلاً كانوا كسبعين موسى الذين وفدوا إلى ربهم أو أفضل " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم النخعي في قوله ﴿ النبي الأمي ﴾ قال : كان لا يكتب ولا يقرأ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ الرسول النبي الأمي ﴾ قال : هو نبيكم صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يكتب .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال " خرج علينا رسول الله صلى عليه وسلم يوماً كالمودع فقال : أنا محمد النبي الأمي ، أنا محمد النبي الأمي ، أنا محمد النبي الأمي ، ولا نبي بعدي ، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ، وعلمت خزنة النار وحملة العرش ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذهب بي فعليكم كتاب الله ، أحلوا حلاله وحرِّموا حرامه " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، وان الشهر كذا وكذا ، وضرب بيده ست مرات وقبض واحدة " .

(306/291)

وأخرج أبو الشيخ من طريق مجالد . قال حدثني عون بن عبد الله بن عتبة عن أبيه قال : ما مات النبي صلى الله عليه وسلم حتى قرأ وكتب ، فذكرت هذا الحديث للشعبي فقال : صدق ، سمعت أصحابنا يقولون ذلك .

قوله تعالى : ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإِنجيل ﴾ .

أخرج ابن سعد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإِنجيل ﴾ قال : يجدون نعته وأمره ونبوّته مكتوباً عندهم .

وأخرج ابن سعد عن قتادة قال : بلغنا أن نعت رسول الله صلى عليه وسلم في بعض الكتب محمد رسول الله ليس بفظ ولا غليظ ولا صخوب في الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح ، أمته الحمادون على كل حال .

وأخرج ابن سعد وأحمد عن رجل من الأعراب قال : جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغت من بيعتي قلت : لألقين هذا الرجل ولأسمعن منه . فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشيان ، فتبعتهما حتى أتيا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجدني في كتابك ذا صفتي ومخرجي ؟ فقال برأسه هكذا ؛ أي لا . فقال ابنه : أي والذي أنزل التوراة إن لنجد في

كتابنا صفتك ومخرجك ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقال : أقيموا اليهودي عن أخيكم ، ثم ولي كفنه والصلاة عليه " .

(307/291)

وأخرج ابن سعد والبخاري وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ [الأحزاب : 45] وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله . ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً .

وأخرج ابن سعد والدارمي في مسنده والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عبد الله بن سلام قال : صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ [الأحزاب : 45] وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة مثلها

ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله . ويفتح به أعينا عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفا .

وأخرج الدارمي عن كعب قال : في السطر الأول : محمد رسول الله عبدي المختار ، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام . وفي السطر الثاني : محمد رسوله الله أمته الحمادون ، يحمدون الله في السراء والضراء ، يحمدون الله في كل منزلة ويكبرونه على كل شرف ، رعاة الشمس يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ولو كانوا على رأس كناسة ، ويأتزرون على أوساطهم ، ويوضئون أطرافهم ، وأصواتهم بالليل في جوّ السماء كأصوات النحل .

(308/291)

وأخرج ابن سعد والدارمي وابن عساكر عن أبي فروة عن ابن عباس . إنه سأل كعب الأحبار كيف قد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ، فقال كعب : نجده محمد بن عبد الله ، يولد بمكة ويهاجر إلى طابة ، ويكون ملكه بالشام ، وليس بفحاش ولا سخاب في الأسواق ، ولا يكافىء بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، أمته الحمادون يحمدون الله في كل سراء ، ويكبرون الله على كل نجد ، ويوضئون أطرافهم ، ويأتزرون في

أوساطهم ، يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم ، دويهم في مساجدهم كدوي النحل ، يسمع مناديهم في جوّ السماء .

وأخرج أبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن أم الدرداء قالت : قلت لكعب : كيف تجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ؟ قال : نجده موصوفاً فيها محمد رسول الله اسمه المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، وأعطى المفاتيح ليبصر الله به أعيناً عوراً ، ويسمع به آذاناً صماً ، ويقيم به السنة معوجة حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يعين المظلوم ويمنعه من أن يستضعف .

وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " صفتي أحمد المتوكل مولده بمكة ومهاجره إلى طيبة ، ليس بفظ ولا غليظ ، يجزي بالحسنة الحسنة ولا يكافىء بالسيئة ، أمته الحمادون يأتزرون على أنصافهم ، ويوضئون أطرافهم ، أناجيلهم في صدورهم ، يصفون للصلاة كما يصفون للقتال ، قربانهم الذي يتقربون به إلى دمائهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار " .

(309/291)

وأخرج أبو نعيم عن كعب قال : إن أبي كان من أعلم الناس بما أنزل الله على موسى ، وكان لم يدخر عني شيئاً مما كان يعلم ، فلما حضره الموت دعاني فقال لي : يا بني ، إنك قد علمت أني لم أدخر عنك شيئاً مما كنت أعلمه ، إلا أني قد حبست عنك ورقتين فيهما : نبي يبعث قد أظل زمانه فكرهت أن أخبرك بذلك ، فلا آمن عليك أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتطيعه ، وقد جعلتهما في هذه الكوة التي ترى وطينت عليهما ، فلا تعرضن لهما ولا تنظرن فيهما حينك هذا ، فإن الله إن يرد بك خيراً ويخرج ذلك النبي تتبعه ، ثم أنه مات فدفناه فلم يكن شيء أحب إليّ من أن أنظر في الورقتين ، ففتحت الكوة ثم استخرجت الورقتين ؟ فإذا فيهما : محمد رسول الله خاتم النبيين لا نبي بعده ، مولده بمكة ومهاجره بطيبة ، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ويجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويصفح ، وأمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال ، تذلل ألسنتهم بالتكبير وينصر نبيهم على كل من ناوأه ، يغسلون فروجهم ويأتزرون على أوساطهم ، أناجيلهم في صدروهم وتراحمهم بينهم تراحم بني الأم ، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم .

فمكث ما شاء الله ثم بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج بمكة ، فأخرت حتى استثبت ، ثم بلغني أنه توفي وأن خليفته قد قام مقامه ، وجاءتنا جنوده فقلت : لا أدخل في هذا الدين حتى أنظر سيرتهم وأعمالهم ، فلم أزل أدافع ذلك وأؤخره لأستثبت حتى قدمت علينا عمال عمر بن الخطاب ، فلما رأيت وفاءهم بالعهد وما صنع الله لهم على

الأعداء علمت أنهم هم الذين كنت أنتظر ، فوالله إني لذات ليلة فوق سطحي ، فإذا رجل من المسلمين يتلو قول الله ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً . . . ﴾ [النساء : 47] الآية . فلما سمعت هذه الآية خشيت أن لا أصبح حتى يحول وجهي في قفاي ، فما كان شيء أحب إليّ من الصباح فغدوت على المسلمين .

(310/291)

وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن علي بن أبي طالب " أن يهودياً كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم دنانير ، فتقاضى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : ما عندي ما أعطيك . قال : فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني . قال : إذن أجلس معك يا محمد فجلس معه فصلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر والمغرب والعشاء والغداة ، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتهددون اليهودي ويتوعدونه ، فقالوا : يا رسول الله ، يهودي يحبسك ؟ قال : منعني ربي أن أظلم معاهداً ولا غيره ، فلما ترحل النهار أسلم اليهودي وقال : شطر مالي في سبيل الله ، أما والله ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى

نعتك في التوراة : محمد بن عبد الله مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا متزين بالفحشاء ولا قوّال للخنا " .

(311/291)

وأخرج ابن سعد عن الزهري . " أن يهودياً قال : ما كان بقي شيء من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة إلا رأيته إلا الحلم ، وإني أسلفته ثلاثين ديناراً في تمر إلى أجل معلوم ، فتركته حتى إذا بقي من الأجل يوم أتيته فقلت : يا محمد ، اقضني حقي فإنكم معاشر بني عبد المطلب مطل . فقال عمر : يا يهودي الخبيث ، أما والله لولا مكانه لضربت الذي فيه عيناك ، فقال رسول الله صلى عليه وسلم " غفر الله لك يا أبا حفص ، نحن كنا إلى غير هذا منك أحوج إلى أن تكون أمرتني بقضاء ما عليّ ، وهو إلى أن تكون أعنته على قضاء حقه أحوج فلم يزده جهلي عليه إلا حلماً . قال : يا يهودي ، إنما يحل حقك غداً ، ثم قال : يا أبا حفص ، أذهب به إلى الحائط الذي كان سأل أوّل يوم ، فإن رضيه فاعطه كذا وكذا صاعاً وزده لما قلت له كذا وكذا صاعاً وزده ، فإن لم يرض فاعط ذلك من حائط كذا وكذا ، فأتى بي الحائط فرضي تمره فأعطاه ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أمره من الزيادة ، فلما قبض اليهودي تمره قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ،

وأنه والله ما حملني على ما رأيتني صنعت يا عمر إلا أني قد كنت رأيت في رسول الله صفته في التوراة كلها إلا الحلم ، فاختبرت حلمه اليوم فوجدته على ما وصف في التوراة ، وإني أشهدك أن هذا التمر وشطر مالي في فقراء المسلمين . فقال عمر : فقلت : أو بعضهم ؟ فقال : أو بعضهم . قال : وأسلم أهل بيت اليهودي كلهم إلا شيخ كان بان مائة سنة فعسا على الكفر " " .

وأخرج ابن سعد عن كثيِّر بن مرة قال : إن الله يقول : لقد جاءكم رسول ليس بوهن ولا كسل ، يفتح أعيناً كانت عمياً ، ويسمع آذاناً كانت صماً ، ويختن قلوباً كانت غلفاً ، ويقيم سنة كانت عوجاء ، حتى يقال : لا إله إلا الله .

(312/291)

وأخرج ابن سعد عن أبي هريرة قال : " أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدارس فقال " أخرجوا إليَّ أعلمكم فقالوا : عبد الله بن صوريا . فخلا به رسول الله صلى عليه وسلم ، فناشده بدينه وبما أنعم به عليهم ، وأطعمهم من المن والسلوى ، وظللهم به من الغمام ، أتعلم أني رسول الله ؟ قال : اللهمَّ نعم ، وإن القوم ليعرفون ما أعرف ، وإن صفتك ونعتك المبين في التوراة ولكنهم حسدوك . قال : فما يمنعك أنت ؟ قال : أكره خلاف قومي

، وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم " " .

وأخرج الطبراني وأبو نعيم والبيهقي عن الفلتان بن عاصم قال : "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " أتقرأ التوراة ؟ قال : نعم قال : والإنجيل ؟ قال : نعم . فناشده هل تجدني في التوراة والإنجيل ؟ قال : نجد نعتاً مثل نعتك ومثل هيئتك ومخرجك ، وكنا نرجو أن تكون منا ، فلما خرجت تخوّفنا أن تكون هو أنت ، فنظرنا فإذا ليس أنت هو . قال : ولم ذاك ؟ قال : إن معه من أمته سبعين ألفاً ليس عليهم حساب ولا عذاب ، وإنما معك نفر يسير . قال : والذي نفسي بيده لأنا هو ، إنهم لأمتي وأنهم لأكثر من سبعين ألفاً وسبعين ألفاً " " .

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعثت قريش النظر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، وغيرهما إلى يهود يثرب وقالوا لهم : سلوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فقدموا المدينة فقالوا : أتيناكم لأمر حدث فينا ، منا غلام يتيم يقول قولاً عظيماً ، يزعم أنه رسول الرحمن قالوا : صفوا لنا نعته . فوصفوا لهم قالوا : فمن تبعه منكم ؟ قالوا : سفلتنا . فضحك حبر منهم فقال : هذا النبي الذي نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة .

(313/291)

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن وهب قال : كان في بني إسرائيل رجل عصى الله تعالى مائتي سنة ، ثم مات فأخذوه فألقوه على مزبلة ، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام : أن أخرج فصلِّ عليه قال : يا رب ، بنو إسرائيل شهدوا أنه عصاك مائتي سنة ، فأوحى الله إليه : هكذا كان لأنه كان كلما نشر التوراة ، ونظر إلى اسم محمد صلى الله عليه وسلم قبّله وضعه على عينيه وصلى عليه ، فشكرت له ذلك وغفرت ذنوبه وزوّجته سبعين حوراء .

وأخرج ابن سعد والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن النبي صلى الله عليه وسلم مكتوب في الإِنجيل لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال " قدم الجارود بن عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم وقال : والذي بعثك بالحق لقد وجدت وصفك في الإِنجيل ولقد بشَّر بك ابن البتول " .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق موسى بن يعقوب الربعي عن سهل مولى خيثمة قال : قرأت في الإِنجيل نعت محمد صلى الله عليه وسلم : إنه لا قصير ولا طويل أبيض ذو طمرين ، بين كتفيه خاتم ، يكثر الاحتباء ولا يقبل الصدقة ، ويركب الحمار والبعير ،

ويحتلب الشاة ويلبس قميصاً مرقوعاً ، ومن فعل ذلك فقد برىء من الكبر ، وهو يفعل ذلك وهو من ذرية اسمعيل عليه السلام .

(314/291)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : أوحى الله تعالى إلى شعيب " إني باعث نبياً أمياً أفتح به آذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وأعيناً عمياً ، مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ، عبدي المتوكل المصطفى المرفوع الحبيب المتحبب المختار ، لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح رحيماً بالمؤمنين ، يبكي للبهيمة المثقلة ويبكي لليتيم في حجر الأرملة ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا متزين بالفحش ، ولا قوّال للخنا ، يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشي على القصب الرعراع يعني اليابس لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه مبشراً ونذيراً ، أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم ، أجعل السكينة لباسه ، والبرَّ شعاره ، والمغفرة والمعروف حليته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإِسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدي به من بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأسمي به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين

قلوب ، وأهواء متشتتة وأمم مختلفة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، آمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وتوحيداً لي وإيماناً بي وإخلاصاً لي وتصديقاً لما جاءت به رسلي ، وهم رعاة الشمس .

(315/291)

طوبى لتلك القلوب والوجوه والأرواح التي أخلصت لي ، أُلهمهم التسبيح والتكبير والتمجيد والتوحيد في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم ، ويصفُّون في مساجدهم كما تصف الملائكة حول عرشي ، هم أوليائي وأنصاري ، أنتقم بهم من أعدائي عبدة الأوثان ، يصلون لي قياماً وقعوداً وسجوداً ، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً ، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً ، اختم بكتبهم الكتب ، وشريعتهم الشرائع ، وبدينهم الأديان ، من أدركهم فلم يؤمن بكتابهم ويدخل في دينهم وشريعتهم فليس مني وهو مني بريء ، واجعلهم أفضل الأمم ، واجعلهم أمة وسطاء شهداء على الناس ، إذا عضبوا هللوني ، وإذا قبضوا كبَّروني ، وإذا تنازعوا سبَّحوني ، يطهرون الوجوه والأطراف ، ويشدون الثياب إلى الأنصاف ، ويهللون على التلال والأشراف ، قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار ،

مناديهم في جو السماء ، لهم دوي كدوي النحل ، طوبى لمن كان معهم وعلى دينهم ومناهجهم وشريعتهم ، ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم " .

(316/291)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن وهب بن منبه قال : إن الله أوحى في الزبور " يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد صادقاً نبياً لا أغضب عليه أبداً ولا يعصيني أبداً ، وقد غفرت له أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء ، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل ، حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء ، وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهروا لي لكل صلاة كما افترضت على الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم ، يا داود إني فضَّلت محمداً وأمته على الأمم ، أعطيتهم ست خصال لم أعطها غيرهم من الأمم ، لا أؤاخذهم بالخطأ والنسيان ، وكل ذنب ركبوه على غير عمد إذا استغفروني منه غفرته ، وما قدموا لآخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم عجلته لهم أضعافاً مضاعفة ، ولهم عندي أضعاف مضاعفة وأفضل من ذلك ، وأعطيتهم على المصائب في

البلايا إذا صبروا وقالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، الصلاة والرحمة والهدى إلى جنات النعيم ، فإن دعوني استجبت لهم ، فإما أن يروه عاجلاً وإما أن أصرف عنهم سوءاً وإما أن أؤخره لهم في الآخرة ، يا داود من لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي صادقاً بها فهو معي في جنتي وكرامتي ، ومن لقيني وقد كذب محمداً وكذب بما جاء به واستهزأ بكتابي صببت عليه في قبره العذاب صباً ، وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره من قبره ، ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن عبد الله بن عمرو قال : أجد في الكتب أن هذه الأمة تحب ذكر الله كما تحب الحمامة وكرها ، ولهم أسرع إلى ذكر الله من الإِبل إلى وردها يوم ظمئها .

قوله تعالى : ﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ الآية .

(317/291)

أخرج الطبراني عن حبيب بن سليمان بن سمرة عن أبيه عن جده " أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه رجل من الأعراب يستفتيه عن الرجل ، ما الذي يحل له والذي يحرم عليه في ماله ونسكه وماشيته وعنزه وفرعه من نتاج إبله وغنمه ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه

وسلم : أحلَّ لك الطيبات وحرم عليك الخبائث إلا أن تفتقر إلى طعام فتأكل منه حتى تستغني عنه . قال : ما فقري الذي آكل ذلك إذا بلغته ؟ أمْ ما غناي الذي يغنيني عنه ؟ قال : إذا كنت ترجو نتاجاً فتبلغ بلحوم ماشيتك إلى نتاجك ، أو كنت ترجو عشاء تصيبه مدركاً فتبلغ إليه بلحوم ماشيتك ، وإذا كنت لا ترجو من ذلك شيئاً فاطعم أهلك ما بدا لك حتى تستغني عنه . قال الأعرابي : وما عشائي الذي أدعه إذا وجدته ؟ قال : إذا رويت أهلك غبوقاً من اللبن فاجتنب ما حرم عليك من الطعام ، وأما مالك فإنه ميسور كله ليس منه حرام غير أن في نتاجك من إبلك فرعاً ، وفي نتاجك من غنمك فرعاً تغذوه ماشيتك ، حتى تستغني ، ثم إن شئت فاطعمه أهلك وإن شئت تصدَّق بلحمه ، وأمره أن يعقر من الغنم في كل مائة عشراً " .

وأخرج ابن المنذر والبيهقي في سننه عن ابن جريج في قوله ﴿ ويحل لهم الطيبات ﴾ قال : الحلال ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ قال : التثقيل الذي كان في دينهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾ قال : كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلون من المحرمات من المآكل التي حرَّمها الله . وفي قوله ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ قال : هو ما كان أخذ الله عليهم من الميثاق فيما حرم عليهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ قال : عهدهم ومواثيقهم في تحريم ما أحلَّ الله لهم .

(318/291)

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ يقول : يضع عنهم عهودهم ومواثيقهم التي أخذت عليهم في التوراة والإنجيل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ قال : التشديد في العبادة ، كان أحدهم يذنب الذنب فيكتب على باب داره : إن توبتك أن تخرج أنت وأهلك ومالك إلى العدو فلا ترجع حتى يأتي الموت على آخركم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ قال : ما غلظ على بني إسرائيل من قرض البول من جلودهم إذا أصابهم ونحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب في قوله ﴿ والأغلال التي كانت عليهم ﴾ قال : الشدائد التي كانت عليهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ويضع عنه إصرهم

والأغلال التي كانت عليهم ﴾ قال : تشديد شدد على القوم ، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالتجاوز عنهم .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ قال : ما غلظوا على أنفسهم من قطع أثر البول ، وتتبع العروق في اللحم وشبهه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ قال : عهدهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ عزروه ﴾ يعني عَظَّموه وَوَقَّروه .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ وعزَّروه ونصروه ﴾ قال : بالسيف .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ وعزَّروه ﴾ يقول : نصروه . قال : فأما نصره وتعزيزه وقد سبقتم به ، ولكن خيركم من آمن واتبع النور الذي أنزل معه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاده ﴿ وعزَّروه ﴾ قال : شددوا أمره وأعانوا رسوله ونصروه .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وعزروه ﴾ مثقلة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(319/291)

فائدة

قال صاحب روح البيان :

اعلم : أن المقصود الإلهي من ترتيب سلسلة الأنبياء عليهم السلام هو وجود محمد صلى الله عليه وسلّم فوجود الأنبياء قبله كالمقدمة لوجوده الشريف فهو الخلاصة والنتيجة والزبدة وأشرف الأنبياء والمرسلين كما قال عليه السلام : "فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون" وكذلك المقصود من الكتب الإلهية السالفة هو القرآن الذي أنزل على النبي عليه السلام ، فهو زبدة الكتب الإلهية وأعظمها ومصدق لما بين يديه ؛ لأنه بلفظ قد أعجز البلغاء أن يأتوا بسورة من مثله وبمعناه جامع لما في الكتب السالفة من الأحكام والآداب والفضائل متضمن للحجج والبراهين والدلائل ، وكذا المقصود من الأمم السالفة هو هذه الأمة المرحومة أعني أمة محمد صلى الله عليه وسلّم فهي كالنتيجة لما قبلها ، وهي الأمة الوسط كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة : 143) وكذا المقصود من الملوك الماضية والسلاطين السالفة هو الملوك العثمانية فهم زبدة الملوك ودولتهم زبدة الدول حيث لا دولة بعدها لغيرهم إلى ظهور المهدي وعيسى ويقاتلون من هم مبادي الدجال من الكفرة الفجرة من الإفرنج والانكروس

وغيرهم ولهم الجمعية الكبرى واليد الطولى والدولة العظمى في الأقاليم السبعة وأطراف البلاد من المغرب والمشرق ولم يعط هذا لواحد قبل دولتهم ويدل على هذه الجمعية كون اسم جدهم الأعلى عثمان فإن عثمان رضي الله عنه جامع القرآن فهم مظاهر لاسم الحق كما كان عمر رضي الله عنه كذلك حيث إنه لما أسلم قال : يا رسول الله ألسنا على الحق قال عليه السلام : "والذي بعثني بالحق نبياً كلنا على الحق" قال : أنا والذي بعثك بالحق نبياً لا نعبد الله بعد اليوم سراً ، فأظهر الله الدين بإيمانه فكان ظهور الدين مشروطاً بإيمانه فهذا أول الظهور ثم ، وثم إلى أن انتهى إلى زمن

(320/291)

الدولة العثمانية ولذلك يقاتلون على الحق فالسيف الذي بيدهم قد ورثوه كابراً عن كابر ومجاهداً عن مجاهد .

حكي أن عثمان الغازي جد السلاطين العثمانية إنما وصل إلى ما وصل برعاية كلام الله تعالى وذلك أنه كان من أسخياء زمانه يبذل النعم للمترددين ، فثقل ذلك على أهل قريته وانعكس إليه ذلك وذهب ليشتكي من أهل القرية إلى الحاج بكتاش أو غيره من الرجال ، فنزل في بيت رجل قد علق فيه مصحف فسأل عنه ، فقالوا : هو كلام الله تعالى ؟ فقال :

ليس من الأدب أن نقعد عند كلام الله فقام وعقد يديه مستقبلاً إليه فلم تزل إلى الصبح فلما أصبح ذهب إلى طريقه فاستقبله رجل ، وقال أنا مطلبك ، ثم قال له : إن الله تعالى عظمك وأعطاك وذريتك السلطنة بسبب تعظيمك لكلامه ثم أمر بقطع شجرة وربط برأسها منديلاً وقال ليكن ذلك لواء ثم اجتمع عنده جماعة فجعل أول غزوته إلى بلاجك وفتح بعناية الله تعالى ، ثم أذن له السلطان علاء الدين في الظاهر أيضاً فصار سلطاناً ثم بعد ارتحاله صار ولده أورخان سلطاناً ففتح هو بروسة المحروسة بالعون الإلهي فالدولة العثمانية من ذلك الوقت إلى هذا الآن على الازدياد

بسبب تعظيم كلام الله القديم ، وكما أن الله تعالى أظهر لطفه للأولين كذلك يظهره للآخرين ، وإن كان في بعض الأوقات يظهر القهر والجلال تأديباً وتنبيهاً فتحته لطف وجمال . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 323 ـ 324 ﴾

(321/291)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ ﴾

في محلّه أوجه :

أحدها : الجر نعتاً لقوله ﴿ الذين يَتَّقُونَ ﴾ .

الثاني : أَنَّهُ بدلٌ منه .

الثالث : أَنَّهُ منصوبٌ على القطع .

الرابع : أَنَّهُ مرفوع على خبر مبتدأ مضمر وهو معنى القطع أيضاً .

الخامس : أنه مبتدأ وفي الخبر حينئذٍ وجهان : أحدهما الجملةُ الفعليَّةُ من قول : " يأمُرهُمْ بالمَعْرُوفِ " .

والثاني : الجملةُ الأسميَّةُ من قوله : ﴿ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الأعراف : 8] ذكر ذلك أبو البقاءِ ، وفيه ضعف بل مَنْعٌ كيف يجعل : "يَأمْرُهُم " خبراً وهو من تتمسة وَصْفَ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو على أَنَّهُ معمولٌ للوجدان عند بعضهم ؟ كيف يجعل ﴿ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ خبراً لهذا الموصول ؟ والموصولُ الثاني وهو قوله : ﴿ فالذين آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ يطلبه خبراً ، لا يتبادَرُ الذهن إلى غيره ، ولو تبادر لم يكن مُعتَبراً .

قوله " الأمِّيَّ " العامَّةُ على ضمِّ الهمزة ، نسبةً إمَّا إلى الأمة وهي أمَّةُ العرب ؛ وذلك لأن العرب لا تحسب ولا تكتب ، ومنه الحديث " أَنَّا أمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ " ، وإمَّا نسبةً إلى " الأمّ " وهو مصدر " أمَّ يَؤمُّ " أي : قصد يقصد ، والمعنى على هذا : أن النبيَّ

الكريم مقصود لك أحدٍ ، وفيه نظر ؛ لأنه كان ينبغي أن يقال : " الأَمِّيّ " بفتح الهمزة .

وقد يقال : إنَّهُ من تغيير النَّسب ، وسيأتيأنَّ هذه قراءةٌ لبعضهم ، وإمَّا نسبةً إلى " أمِّ القرى " وهي مكة وإمَّا نسبةً إلى الأمّ ، فالأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب على حالةِ ولادته من أمه .

(322/291)

وقرأ يعقوب الأَمِّيَّ بفتح الهمزة ، وخَرَّجهَا بعضُهُمْ ، على أنَّهُ من تَغْيِيرِ النَّسبِ ، كما قالوا في النَّسب إلى أمَيَّة : أموي ، وخرَّجها بعضُهم على أنَّها نسبةٌ إلى " الأَمِّ " وهو القصد ، أي الذي هو على القصْدِ والسَّدادِ ، وقد تقدم ذلك في القراءة الشهيرة ، فكل من القراءتين يحتمل أن تكون مُغَيَّرَةً من الأخرى .

قوله يَجِدُونَهُ الظَّاهرُ أنَّ هذه متعديةٌ لواحد ؛ لأنَّها اللُّقْيَة ، والتقدير : يَلْقونَهُ أي : يلقَوْنَ اسمه ونعته مَكْتُوباً ؛ لأنَّهُ بمعنى : وُجْدَانِ الضالَّة ، يكون مَكْتُوباً حالاً من الهاء في يَجِدُونَه .

وقال أبو عليّ : " إنَّهَا متعدية لاثنين ، أوَّلهما : الهاءُ " .

والثاني : " مَكْتُوباً " .

قال " ولا بدّ من حذف هذا المضاف ، أعني قوله : ذكره ، أو اسمه " .

قال سيبويه : " تقول إذا نظرت في هذا الكتاب : هذا عمرو ، وإنَّما المعنى هذا اسم عمرو

، وهذا ذِكْر عمرو وقال مجاهد وهذا يجوزُ على سعةِ الكلامِ " .

قوله ﴿ عِندَهُمْ فِي التوراة ﴾ .

هذا الظَّرف ، وعديلُه كلاهما متعلِّقٌ بـ "يَجِدُونَ" ، ويجوزُ – وهو الأظهر – أن يتعلَّقا بـ " مَكْتُوباً " أي : كُتِبَ اسمُهُ ونَعْتُهُ عندهم في توراتهم وإنجيلهم .

قوله يَأمُرُهُم فيه ستة أوجه :

أحدها : أنَّهُ مستأنف ؛ فلا محلَّ له حينئذ ، وهو قول الزجاج .

والثاني : أنَّهُ خبر لـ " الّذينَ " قاله أبو البقاءِ : وقد ذُكِرَ ، أي : وقد ذكره فيه ثمَّة .

الثالث : أنَّهُ منصوبٌ على الحال من الهاء في يَجِدُونَهُ ، ولا بدَّ من التَّجوز في ذلك ، بأن يُجْعَلَ حالاً مقدرة ، وقد منع أبو عليّ أن يكون حالاً من هذا الضَّمير .

قال : لأنَّ الضمير للاسم والذِّكْرِ ، والاسم والذِّكر لا يأمران يعني أن الكلام على حذف مضاف كما مر ؛ فإن تقديره : " يجدون اسمه ، أو ذكره " ، والذكر أو الاسم لا يأمران ، إنما يأمر المذكور والمسمَّى .

(323/291)

الرابع : أنه حال من النَّبيِّ .

الخامس : أَنَّهُ حال من الضَّمير المُسْتَكِن في " مَكْتُوباً " .

السادس : أَنَّهُ مُفَسِّر لـ " مَكْتُوباً " أي : لِمَا كُتِبَ ، قاله الفارسي .

قال : "كَمَا فَسَّرَ قوله ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ ﴾ [المائدة : 9] [النور : 55] [الفتح : 29] بقوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : 9] ، وكما فسَّر المثل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ [آل عمران : 59] بقوله : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] .

وقال الزَّجَّاجُ هنا : ويجوز أن يكون المعنى : يجدونه مكتوباً عندهم أَنَّهُ يأمرهم بالمعروف وعلى هذا يكون الأمرُ بالمعروف ، وما ذُكِر معه من صفته التي ذُكِرت في الكتابين ، وقد استدرك أبو علي هذه المقالة ، فقال : لا وجه لقوله : " يجدونه مكتوباً عندهم أَنَّهُ يأمرهم بالمعروف " إن كان يعني أنَّ ذلك مرادٌ ؛ لأَنَّهُ لا شيء يَدُلُّ على حذفه ، ولأَنَّا لا نعلمهم أنهم صدقوا في شيء ، وتفسير الآية أنَّ " وجدت " فيها تتعدَّى لمفعولين فذكر نحو ما تقدم عنه .

قال شهابُ الدِّينِ : وهذا الردُّ تحاملٌ منه عليه ؛ لأَنَّهُ أراد تفسير المعنى وهو تفسير حسن .

قوله ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ .

قرأ ابنُ عامر آصارهم بالجمع ، على صفة " أَفْعَال " فانقلبت الهمزةُ التي هي فاء الكلمة

ألفاً لسبقها بمثلها ، والباقُون بالإفرادِ .

فمن جمع فباعتبار متعلّقاته وأنواعه ، وهي كثيرة ، ومن أفْردَ ؛ فلأنه اسمُ جنسٍ .

وقرأ بعضهم أَصْرَهُمْ بفتح الهمزة ، وبعضهم أُصْرَهُمْ بضِمها .

(324/291)

والإصْرُ : الثِّقلُ الذي يأصر صاحبه ، أي يحبسه من الحرَاك لثقله ، أي : إنَّ شريعة موسى كانت شديدةً ، وقد تقدَّم تفسيرُ هذه المادة في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْراً ﴾ [البقرة : 286] والأغلالُ جمع غُلٍّ ، وهو هنا مثلٌ لِمَا كَلَّفُوهُ كقطع أثر البول ، وقتل النَّفس في التَّوبةِ ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وتتبع العروق من اللَّحم وجعلها الله إلالاً ؛ لأنَّ التَّحريمَ يمنع من الفعل كما أنَّ الغل يمنع من الفعل .

قوله : ﴿ فالذين آمَنُواْ بِهِ ﴾ .

قال ابنُ عبَّاسٍ : يعني من اليهود وعَزَّرُوهُ يعني وقَّره .

قال الزمخشريُّ : أصلُ العزْر المَنْعُ ، ومنه التَّعزير ؛ لأنَّهُ يمنع من معاودة القبيح وتقدَّم تفسيرُ التعزير في المائدة ، والعَامَّةُ على التشديد وعَزَّرُوهُ .

وقرأ الجحدريُّ وعيسى بن عمر ، وسليمان التيمي : بتخفيفها ، وجعفر بن محمد وعَزَّرُوهُ

بزايين معجمتين .

ونَصَرُوهُ أي على عَدُوِّهِ .

﴿ واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ وهو القرآن .

وقيل : الهدى والبينات والرسالة .

فصل

قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى أنزلَ مَعَهُ وإنَّما أُنزِلَ مع جبريل ؟ .

قلت : معناه أُنزل مع نُبوته ؛ لأنَّ استنباءهُ كان مَصْحُوباً بالقرن مَشْفُوعاً به ، ويجوز أن يتعلَّق بـ " اتَّبَعُوا " أي واتَّبعوا القرآن المنزَّل مع اتِّباع النبي والعمل بسنته ، وبما أمَرَ به ونَهَى عنه أو اتبعُوا القرآن كما اتَّبعه مصاحبين له في اتِّباعه ، يعني بهذا الوجه الأخير أنَّهُ حال من فاعل اتَّبَعُوا .

وقيل : " مَعَ " بمعنى " عَلَى " أي : أُنزِلَ عليه .

وجوَّزَ أبو حيان أن يكون معه ظَرْفاً في موضع الحال .

(325/291)

قال : العامل فيها محذوفٌ تقديره : أنزل كائناً معه ، وهي حالٌ مُقدَّرة كقوله : مَرَرْتُ برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً ، فحالةُ الإنزال لم يكن معه ، لكنَّه صار معه بعدُ ، كما أنَّ الصيدَ لم يكن وقت المرور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 339 . 345 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَآئِثَ ﴾ .

أظهر شرفَ المصطفى – صلى الله عليه وسلم – بقوله : ﴿ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﴾ أي أنه لم يكن شيء من فضائله وكمال علمه وتهيؤه إلى تفصيل شرعه مِنْ قِبَلِ نَفْسِه ، أو من تعلُّمه وتكلُّفه ، أو من اجتهاده وتصرُّفه . . بل ظهر عليه كلُّ ما ظهر مِنْ قِبَله – سبحانه – فقد كان هو أميّاً غير قارئٍ للكتب ، ولا مُتَتَبِّعٍ للسِّيَرِ .

ثم قال : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ : والمعروف هو القيام بحق الله ، والمنكر هو البقاء بوصف الحظوظ وأحكام الهوى ، والتعريج في أوطان المُنَى ، وما تصوّره للعبد تزويراتُ الدعوى . والفاصلُ بين الجسمين ، والمميِّزُ بين القسمين – الشريعةُ ، فالحَسَنُ

من أفعال العباد ما كان بنعت الإذن من مالك الأعيان فلَهُم ذلك ، والقبيح ما كان موافقاً لِلنَّهْيِ والزجرِ فليس لهم فعل ذلك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الإصرُ الثِّقلُ ، ولا شيءَ أثقلُ من كَدّ التدبير ، فَمَنْ ترك كد التدبير إلى روْح شهود التقدير ، فقد وُضِع عنه كلُّ إصر ، وكُفِيَ كُلَّ وِزر وأمر .

(326/291)

والأغلالُ التي كانت عليهم هي ما ابتدعوه مِنْ قبَلِ أنفسهم باختيارهم في التزامِ طاعات اله ما لم يُفْتَرَضْ عليهم ، فَوُكِلُوا إلى حَوْلِهمُ ومُنَّتِهم فيها ؛ فأهملوها ، ونقضوا عهودهم .

ومَنْ لَقِيَ – بخصائص الرضا – ما تجري به المقادير ، وشَهِدَ الحقَّ في أجناس الأحداث ، فقد خُصَّ بكل نعمة وفضل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

اعترف لهم بنصرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم كان

الله حسيبه ، ومَنْ كان استقلاله بالحق لم يقف انتعاشه على نصرة الخلق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 577.578 ﴾

(327/291)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَوَاعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

وروى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك اللّه عدوّهم ، أتاهم بكتاب من عند اللّه فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذى القعدة ، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فسوك ، فقالت الملائكة : كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك . وقيل : أوحى اللّه تعالى إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ، فأمره اللّه تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك . وقيل : أمره اللّه أن يصوم ثلاثين يوماً ، وأن يعمل فيها بما يقرّبه من اللّه ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها . ولقد أجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة ، وفصلها هاهنا . ومِيقاتُ رَبِّهِ ما وقته له من الوقت وضربه له .

وأَرْبَعِينَ لَيْلَةً نصب على الحال أى تمّ بالغاً هذا العدد . وهارُونَ عطف بيان لأخيه . وقرئ بالضم على النداء اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي كن خليفتي فيهم وَأَصْلِحْ وكن مصلحاً . أو أصلح ما يجب أن يصلح من أمور بنى إسرائيل ، ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه .

[سورة الأعراف (7) : آية 143]

وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)

لِمِيقاتِنا لوقتنا الذي وقتنا له وحدّدنا . ومعنى اللام الاختصاص ، فكأنه قيل : واختص مجيئه بميقاتنا ، كما تقول : أتيته لعشر خلون من الشهر وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ من غير واسطة «1» كما يكلم

---

(1) . قال محمود : «معناه كلمه من غير واسطة . . . الخ» قال أحمد : وهذا تصريح منه بخلق الكلام ، كما هو معتقد المعتزلة ، والذي يخص به هذه الآية من وجوه الرد عليه : أنها سيقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء اللّه له وتخصيصه إياه بتكليمه ، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ فلو كان تكليم اللّه له بمعنى خلق الحروف والأصوات في بعض الأجرام واستماع موسى لذلك ، لكان كل أحد يساوى موسى عليه السلام في ذلك ، بل كان آحاد

أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام آثر بهذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام ، لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقاً في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكانت مزيتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر . ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه المزية ، فلا يحمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات اللّه سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها ، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات الباري سبحانه وتعالى وإن لم يكن جسما ، فكذلك نجيز أن يسمع كلامه وإن لم يكن حرفا ولا صوتا .

والكلام في هذه العقيدة طويل ، والشوط بطين . وهذه النكتة هي الخاصة بهذه الآية ، واللّه الموفق .

(328/291)

الملك ، وتكليمه : أن يخلق الكلام «1» منطوقا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطا في اللوح وروى : أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : كلمه أربعين يوما وأربعين ليلة ، وكتب له الألواح . وقيل إنما كلمه في أول الأربعين أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ثانى مفعولي أرنى محذوف «2» أى أرنى نفسك أنظر إليك . فإن

قلت :

---

(1) . قوله «و تكليمه أن يخلق الكلام» هذا على مذهب المعتزلة : أن كلامه تعالى ألفاظ يخلقها اللّه في بعض الأجرام . أما على مذهب أهل السنة ، فان كلامه تعالى صفة قديمة قائمة بذاته ، فتكليمه لعبده أن يكشف له عنها ، كما تقرر في علم التوحيد . (ع)

(2) . عاد كلامه . قال : «و قوله أرنى أنظر إليك محذوف المفعول الأول مذكور الثاني ، والتقدير أرنى نفسك أنظر إليك . . . الخ» قال أحمد : ما أشد ما اضطرب كلامه في هذه الآية ، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة ، ويشين بكفه وجه الغزالة ، هيهات قد تبين الصبح لذي عينين ، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذى رين . أما حظ المعقول من إجازة رؤية اللّه تعالى فوظيفة علم الكلام ، وأخصر وجه في إجادة ذلك : أن الوجود مصحح الرؤية ، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً . وقد شمل الجواز الجوهر والعرض ، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود ، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده . وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة فأمر وهمى مثله عرض للمعطلة فعميت بصائرهم ، حتى أنكروا موجوداً لا في جهة ، ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال وهام ، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئي لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف ، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة ، فكذلك يرى لا في جهة ، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه ، لعلمه بجواز ذلك على

اللّه تعالى ، والقدرية يجبرهم الطمع ويجرؤهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم ، وما هم حينئذ إلا ممن آذوا موسى فبرأه اللّه مما قالوا وكان عند اللّه وجيها «وأما قوله عليه السلام :

أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا تبريا من أفاعيلهم وتسفيها لهم وتضليلا لرأيهم ، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية ، فان الذي كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين ثم . وإن كان السبب طلبهم الرؤية ، فليس لأنها غير جائزة على اللّه . ولكن لأن اللّه تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا والخبر صدق ، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية فلما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها ، كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيباً للخبر ، فمن ثم سفههم موسى عليه السلام وتبرأ من طلب ما أخبر اللّه أنه لا يقع ثم ، ولو كان سؤالهم الرؤية قبل إخبار اللّه تعالى بعدم وقوعها ، فإنما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على اللّه هذه الآية الخاصة ، وتوقيفهم الايمان عليها حيث قالوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ألا ترى أن قولهم لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً إنما سألوا فيه جائزاً ، ومع ذلك قرعوا به لاقتراحهم على اللّه ما لا يتوقف وجوب الايمان عليه ، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى وعمايته عن سبيل الهدى ، واللّه الموفق .

(329/291)

الرؤية عين النظر ، فكيف قيل : أرنى أنظر إليك ؟ قلت : معنى أرنى نفسك ، اجعلنى متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك ، فإن قلت : فكيف قال لَنْ تَرانِي ولم يقل لن تنظر إلىّ ، لقوله أَنْظُرْ إِلَيْكَ ؟ قلت : لما قال أَرِنِي بمعنى اجعلنى متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك ، علم أن الطلبة هي الرؤية «1» لا النظر الذي لا إدراك معه ، فقيل : لن تراني ، ولم يقل لن تنظر إلىّ . فإن قلت : كيف طلب موسى عليه السلام ذلك – وهو من أعلم الناس باللّه وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وبتعاليه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس ، وذلك إنما يصحّ فيما كان في جهة . وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة . ومنعُ المجبرة إحالته «2» في العقول غير لازم ، لأنه ليس بأوّل مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد قال – حين أخذت الرجفة الذين قالوا أرنا اللّه جهرة – أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إلى قوله تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالا – ؟ قلت : ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالا . وتبرأ من فعلهم ، وليلقمهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق ، فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا : لا بدَّ ، ولن نؤمن لك حتى نرى اللّه جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند اللّه باستحالة ذلك ، وهو قوله لَنْ تَرانِي ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة ، فلذلك قال :

رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ . فإن قلت : فهلا قال : أرهم ينظروا إليك «3» ؟ قلت : لأنّ اللّه سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسماعون ، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه ، كما أسمعه كلامه فسمعوه معه ، إرادة مبنية على قياس فاسد . فلذلك قال موسى :

---

(1) . قوله «أن الطلبة هي الرؤية» في الصحاح «الطلبة» بكسر اللام : ما طلبته من شيء . (ع)

(2) . قوله «و منع المجبرة إحالته» يعنى أهل السنة ، حيث ذهبوا إلى جواز رؤيته تعالى ومنعوا اشتراط كون المرئي في جهة . قال تعالى وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ والجائز قد ينتفي في بعض الأوقات ويقع في بعض .

والحديث كما سيأتى «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» ومحل الكلام علم الكلام . (ع)

(3) . عاد كلامه . قال : فان قلت : هلا قال أرهم ينظروا إليك . . . الخ» ؟ قال أحمد : وهذا الكلام الآخر من الطراز الأول ، وأقرب شاهد على رده أنه لو كان طلب الرؤية لهم حتى إذا سمعوا منع اللّه تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثا غير مفيد لهذا الغرض ، لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم . إما أن يكونوا مؤمنين بموسى ، أو كفاراً به ، فان كانوا مؤمنين به ، فاخباره إياهم بأن اللّه تعالى لا يرى ولا يجوز عليه ذلك ، كان في حصول المقصود من غير

حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من اللّه أن يريه ذاته ، على علم بأن ذلك محال . وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام فلا يحصل الغرض من ذلك أيضا ، لأن اللّه تعالى إذا منعه مسؤله من الرؤية ، فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن اللّه تعالى أنه منعه ذلك ، وهم كفار بموسى عليه السلام ، فكيف يفيدهم غيره عن اللّه بامتناع ذلك ؟ فهذا أوضح مصداق ، لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوازها على اللّه تعالى ، فأخبره اللّه أن ذلك لا يقع في الدنيا وإن كان جائزاً .

(330/291)

أرني أنظر إليك ، ولأنه إذا زجر عما طلب ، وأنكر عليه في نبوّته واختصاصه وزلفته عند اللّه تعالى ، وقيل له : لن يكون ذلك : كان غيره أولى بالإنكار ، ولأنّ الرسول إمام أمته ، فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعاً إليهم . وقوله أَنْظُرْ إِلَيْكَ وما فيه من معنى المقابلة «1» التي هي محض التشبيه والتجسيم ، دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم ، وجل صاحب الجمل أن يجعل اللّه منظوراً إليه ، مقابلا بحاسة النظر ، فكيف بمن هو أعرق في معرفة اللّه تعالى من واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، والنظام ، وأبى الهذيل والشيخين ، وجميع المتكلمين ؟ فإن قلت : ما معنى لَنْ ؟ قلت : تأكيد النفي الذي

تعطيه «لا» «2» وذلك أن «لا» تنفى المستقبل . تقول : لا أفعل غداً ، فإذا أكدت نفيها قلت : لن أفعل غداً . والمعنى : أنّ فعله ينافي حالى ، كقوله لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ فقوله لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ نفى للرؤية فيما يستقبل . ولن تراني تأكيد وبيان ، لأنّ المنفي مناف لصفاته . فإن قلت : كيف اتصل الاستدراك في قوله وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ بما قبله ؟ قلت : اتصل به على معنى أنّ النظر إلىّ محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر : وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم ، كيف أفعل به وكيف أجعله دكا بسبب طلبك الرؤية ؟ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره ، كأنه عزّ وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد «3» إليه في قوله وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً . فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ

---

(1) . عاد كلامه . قال : و«قوله أنظر إليك وما فيه من معنى المقابلة . . . الخ» قال أحمد : ودعواه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردها . وأما تنزيهه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد استحالة الرؤية إليه فهو غنى عنه .

وأما إقناعه في تفصيله برجحانه عليه السلام في العلم بالله وبصفاته على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبى الهذيل والشيخين ، فهو نقص عن منصبه العلى ، وأقل العوام المقلدين لأهل السنة ، راجح عند الله على أصحاب البدع والأهواء ، وإن ملؤوا الأرض نفاقا ، وشحنوا مصنفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاقا ، فكيف بكليم الله عليه أفضل

الصلاة والسلام.

(2) . عاد كلامه. قال: «فان قلت ما معنى لن؟ قلت تأكيد النفي الذي تعطيه لا . . . الخ» قال أحمد. «لن» كما قال تشارك «لا» في النفي وتمتاز بمزية تأكيده. وأما استنباط الزمخشري من ذلك منافاة الرؤية لحال الباري عز وجل، ثم إطلاق الحال على الله تعالى مما يستحرز عنه، واستشهاده على أن «لن» تشعر باستحالة المنفي بها عقلا، مردود كثيراً بكثير من الآي، كقوله تعالى فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً فذلك لا يحيل خروجهم عقلا، ولَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، لَنْ تَتَّبِعُونا. فهذه كلها جائزات عقلا، لولا أن الخبر منع من وقوعها، فالرؤية كذلك.

(3) . عاد كلامه. قال: «ثم حقق تعالى عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد . . . الخ» قال أحمد: نسبة جواز الرؤية إلى الله تعالى عند الزمخشري كنسبة الولد إليه، وهذا مفرع على المعتقد السالف بطلانه، وليس له في هذا الفصل وظيفة إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية، تلقفها من كل فج. والحق أن دك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء. ولا تستقر الدنيا لإظهار شيء من ملكوت السماء. وهذا هو المأثور عن السلف في هذه الآية. ومعناه عند أبي الحسن رحمه الله فعل فعلا سماه تجليا، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة، وإما لأنهم كتموا الخبر. بأنه لا يرى في الدنيا، وإما لأنهم كفروا بالاقتراح أو بالمجموع.

كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً «1» في جهاته فَسَوْفَ تَرانِي تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكا ويسويه بالأرض ، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض ، وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع . ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك ؟ ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية ؟ أعنى قوله فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي . فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته جَعَلَهُ دَكًّا أى مدكوكا مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير . والدكّ والدقّ أخوان ، كالشك والشق . وقرئ دكاء . والدكاء : اسم للرابية الناشزة من الأرض ، كالدكة أو أرضاً دكاء مستوية . ومنه قولهم : ناقة دكاء متواضعة السنام ، وعن الشعبي : قال لي الربيع بن خثيم : ابسط يدك دكاء ، أى مدّها مستوية . وقرأ يحيى بن وثاب : دكا ، أى قطعاً دكا جمع دكاء وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً من هول ما رأى . وصعق من باب : فعلته ففعل . يقال صعقته فصعق . وأصله من الصاعقة . ويقال لها الصاقعة ، من صقعه إذا ضربه على رأسه ومعناه : خرّ مغشياً عليه غشية كالموت ، وروى أنّ الملائكة مرّت عليه وهو مغشى عليه «2» فجعلوا يلكزونه بأرجلهم

ويقولون : يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة ؟ فَلَمَّا أَفَاقَ من صعقته قالَ سُبْحانَكَ أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها تُبْتُ إِلَيْكَ من طلب الرؤية وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بأنك لست بمرئيّ ولا مدرك بشيء من الحواس . فإن قلت : فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته ، فممّ تاب «3» ؟ قلت : من إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن

---

(1) . عاد كلامه . قال : «و معنى فان استقر مكانه : فان ثبت كما كان ذاهبا . . . الخ» قال أحمد : وهذا من حيل القدرية في إحالة الرؤية يقولون : قد علقها اللّه على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكه ، والمعلق على المحال محال . وهذه حيلة باطلة ، فان المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار ، وذلك ممكن جائز ، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له ، لا يرفع إمكان استقراره ، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس . وحينئذ يتوجه دليلا لأهل السنة فنقول : استقرار الجبل ممكن ، وقد علق عليه وقوع الرؤية ، والمعلق على الممكن ممكن ، والمعتزلة يعتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدوراً ونحن نقول مقدور ، ولكن ما تعلقت المشيئة بإيجاده . وقولنا أقعد بالآداب ، وأسعد بالإجلال في الخطاب .

(2) . عاد كلامه . قال : «و معنى وخر موسى صعقا : وخر مغشيا عليه غشية كالموت وروى أن الملائكة مرت عليه . . . الخ» قال أحمد ، وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عونا وظهراً على المعتقد الفاسد . والوجه التورك بالغلط على

ناقلها وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى كليم اللّه بالوكز بالرجل والغمص في الخطاب.

(3). عاد كلامه. قال: «فان قلت إن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته فمم تاب ... الخ»؟ قال أحمد:

أما دك الجبل، فقد سلف الكلام على سره. وأما تسبيح موسى عليه السلام فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، واللّه تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه وعن الخلف في خبره الحق وقوله الصدق، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح اللّه وقدس علمه وخبره عن الخلف. وأما التوبة في حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب، لأن منصبهم الجليل ينبغي أن يكون منزهاً مبرا من كل ما ينحط به، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية عن الاذن كان أكمل. وقد ورد: سيئات المقربين حسنات الأبرار.

(332/291)

كان لغرض صحيح على لسانه، من غير إذن فيه من اللّه تعالى، فانظر إلى إعظام اللّه تعالى أمر الرؤية في هذه الآية، وكيف أرجف الجبل بطالبيها وجعله دكا، وكيف أصعقهم ولم

يخل كليمه من نفيان «1» ذلك مبالغة في إعظام الأمر ، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه ، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال أنا أول المؤمنين ، ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة «2» كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبا . ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة ، فإنه من منصوبات أشياخهم ! والقول ما قال بعض العدلية «3» فيهم :

لجماعة سموا هواهم سنّة وجماعة حمر لعمري موكفه

قد شبّهوه بخلقه وتخوّفوا شنع الورى فتستّروا بالبلكفه «4»

وتفسير آخر : وهو أن يريد بقوله أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ عرّفنى نفسك تعريفاً واضحاً جلياً ، كأنها إرادة في جلائها بآية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك أَنْظُرْ إِلَيْكَ أعرفك معرفة اضطرار ، كأنى أنظر إليك ، كما جاء في الحديث «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» «5»

---

(1) . قوله «ولم يخل كليمه من نفيان ذلك» قوله «نفيان» هو ما يتطاير من قطر المطر ، وقطر الدلو ، ومن الرمل عند الوطء ، ومن الصوف عند النفش ، ونحو ذلك . كذا في شرح المعلقات العلامة الزوزنى . (ع) [. . . . .]

(2) . عاد كلامه . قال : «ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة . . . الخ» قال أحمد رحمه اللّه : وقد انتقل الزمخشري في هذا الفصل إلى ما

تسمعه من هجاء أهل السنة . ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الأنصارى صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وشاعره والمنافح عنه وروح القدس معه ، لقلنا لهؤلاء المتلقبين بالعدلية وبالناجين سلاما ، ولكن كما نافح حسان عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعداءه ، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعداءهم فنقول :

وجماعة كفروا برؤية ربهم حقاً ووعد اللّه ما لن يخلفه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهم فحسبهمو سفه

وتلقبوا الناجين كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه

(3) . قوله «و القول من قال بعض العدلية» غفر اللّه للمصنف ما لوث به لسانه وقلبه في ذكر هذه الأبيات . (ع)

(4) . الزمخشري في أهل السنة ، أى هم جماعة سموا هوى أنفسهم سنة ، ولكن من عرف أن مستند المعتزلة العقل ، ومستند الجماعة النقل عرف الهوى من الهدى . وحمر أى كالحمر . موكفة : أى موضوع عليها الأكاف ، مبالغة في التشبيه .

قد شبهوه : أى اللّه عز وجل بخلقه حيث قالوا : إنه يرى بالعين ، فخافوا تشنيع الناس عليهم فتستروا بقولهم : إنه يرى بلا كيف . فالبلكفة منحوتة من ذلك .

(5) . متفق عليه من حديث جرير بن عبد اللّه البجلي قال كنا جلوساً عند رسول اللّه

صلى اللّه عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر . فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر - الحديث» وللبخاري من رواية «إنكم سترون ربكم عيانا» واتفقا عليه من حديث أبى سعيد وأبى هريرة بمعناه .

(333/291)

بمعنى : ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى قال لَنْ تَرانِي أى لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة ، ولن تحتمل قوّتك تلك الآية المضطرة ولكن انظر إلى الجبل ، فإنى أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات ، فإن ثبت لتجليها واستقرّ مكانه ولم يتضعضع فسوف تثبت لها وتطبيقها ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً لعظم ما رأى فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ مما اقترحت وتجاسرت وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بعظمتك وجلالك ، وأن شيئاً لا يقوم لبطشك وبأسك .

[سورة الأعراف (7) : آية 144]

قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)

اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ اخترتك على أهل زمانك وآثرتك عليهم بِرِسالاتِي وهي أسفار التوراة وَبِكَلامِي وبتكليمى إياك فَخُذْ ما آتَيْتُكَ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم. وقيل: خرّ موسى صعقاً يوم عرفة، وأعطى التوراة يوم النحر. فإن قلت: كيف قيل: اصطفيتك على الناس وكان هرون مصطفى مثله ونبيا؟ قلت: أجل، ولكنه كان تابعاً له ورداً ووزيراً. والكليم: هو موسى عليه السلام، والأصيل في حمل الرسالة.

[سورة الأعراف (7): الآيات 145 إلى 147]

وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (145) سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (147)

ذكروا في عدد الألواح وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح. وقيل: سبعة. وقيل: لوحين، وأنها

كانت من زمرّد جاء بها جبريل عليه السلام. وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء.

وقيل:

أمر اللّه موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له، فقطعها بيده وشقها بأصابعه. وعن الحسن:

كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة، وأن طولها كان عشرة أذرع. وقوله مِنْ كُلِّ شَيْءٍ في محل النصب مفعول كتبنا. ومَوْعِظَةً وتفصيلا بدل منه. والمعنى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام. وقيل أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى عليهم السلام. وعن مقاتل: كتب في الألواح: إنى أنا اللّه الرحمن الرحيم، لا تشركوا بى شيئا، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين، فإنّ من حلف باسمي كاذبا فلا أزكيه، ولا تقتلوا ولا تزنوا ولا تعقوا الوالدين فَخُذْها فقلنا له: خذها، عطفاً على كتبنا. ويجوز أن يكون بدلا من قوله فَخُذْ ما آتَيْتُكَ والضمير في فَخُذْها للألواح، أو لكل شيء، لأنه في معنى الأشياء، أو الرسالات، أو للتوراة. ومعنى بِقُوَّةٍ بجدّ وعزيمة فعل أولى العزم من الرسل يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها أى فيها ما هو حسن وأحسن، كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر. فمرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في

الحسن وأكثر للثواب ، كقوله تعالى وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وقيل : يأخذوا بما هو واجب أو ندب ، لأنه أحسن من المباح . ويجوز أن يراد : يأخذوا بما أمروا به ، دون ما نهوا عنه ، على قولك : الصيف أحرّ من الشتاء سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ يريد دار فرعون وقومه وهي مصر ، كيف أقفرت منهم ودمّروا لفسقهم ، لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم . وقيل منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم اللّه لفسقهم في ممرّكم عليها في أسفاركم . وقيل : دار الفاسقين : نار جهنم . وقرأ الحسن : سأوريكم وهي لغة فاشية بالحجاز . يقال : أورنى كذا ، وأوريته . ووجهه أن تكون من أوريت الزند ، كأن المعنى : بينه لي وأنره لأستبينه .

وقرئ : سأورثكم ، وهي قراءة حسنة يصححها قوله وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ . سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم ، فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها ، غفلة وانهماكا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم . وعن الفضيل بن عياض : ذكر لنا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إذا عظمت أمّتى الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام ، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرمت بركة الوحى «1» .

وقيل : سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون

---

(1) . لم أجده من هذا الوجه . وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادره من حديث أبى هريرة مثله ، وزاد «وإذا تسابت أمتى سقطت من أعين الناس» ذكره في الخامس والسبعين بعد

المائة ، وفي إسناده البختري بن عبيد .

وهو ضعيف .

(335/291)

أن يبطل آية موسى ، بأن جمع لها السحرة ، فأبى اللّه إلا علو الحق وانتكاس الباطل . ويجوز :

سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها . وتسميتها سحراً بإهلاكهم . وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها ، لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم بِغَيْرِ الْحَقِّ فيه وجهان : أن يكون حالا بمعنى يتكبرون غير محقين ، لأنّ التكبر بالحق للّه وحده . وأن يكون صلة لفعل التكبر ، أى يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ من الآيات المنزلة عليهم لا يُؤْمِنُوا بِها وقرأ مالك بن دينار : وإن يروا بضم الياء . وقرئ : سبيل الرشد والرشد والرشاد ، كقولهم : السقم والسقم والسقام . وما أسفه من ركب المفازة ، فإن رأى طريقاً مستقيما أعرض عنه وتركه ، وإن رأى معتسفا مرديا أخذ فيه وسلكه ، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه ذِلكَ في محل الرفع أو النصب على معنى : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم اللّه ذلك الصرف بسببه .

وَلِقاءِ الْآخِرَةِ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به ، أى ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها ، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى : ولقاء ما وعد اللّه في الآخرة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 148 إلى 149]

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ (148) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (149)

مِنْ بَعْدِهِ من بعد فراقه إياهم إلى الطور . فإن قلت : لم قيل : واتخذ قوم موسى عجلا ، والمتخذ هو السامري ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن ينسب الفعل إليهم ، لأن رجلا منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم ، كما يقال : بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا ، والقائل والفاعل واحد ، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به ، فكأنهم أجمعوا عليه . والثاني : أن يراد واتخذوه إلها وعبدوه . وقرئ مِنْ حُلِيِّهِمْ بضم الحاء والتشديد ، جمع حلى ، كثدي وثدىّ ، ومن حليهم - بالكسر - للإتباع كدلى . ومن حليهم ، على التوحيد . والحلي : اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة . فإن قلت : لم قال : من حليهم ، ولم يكن الحلىّ لهم ، إنما كانت عوارى في أيديهم ؟ قلت :

الإضافة تكون بأدنى ملابسة ، وكونها عوارى في أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد

ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم. ألا ترى إلى قوله عزّ وعلا

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ، جَسَداً بدناً ذا لحم ودم كسائر

(336/291)

الأجساد. والخوار: كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه. فإن قلت: كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه؟ قلت: لما دعا لنفسه ولبنى إسرائيل، أجيب بما هو منطو على توبيخ بنى إسرائيل على استجازتهم الرؤية على اللّه تعالى وعلى كفرهم بآيات اللّه العظام التي أجراها على يد موسى، وعرّض بذلك في قوله وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وما جاء به كعبد اللّه بن سلام وغيره من أهل الكتابين، لطفاً لهم وترغيباً في إخلاص الإيمان والعمل الصالح، وفي أن يحشروا معهم ولا يفرّق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة اللّه «1» التي وسعت كل شيء.

[سورة الأعراف (7): آية 158]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ

يُحيِي ويُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)

إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً قيل : بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد صلى اللّه عليه وسلم إلى كافة الإنس وكافة الجن . وجميعاً : نصب على الحال من إليكم . فإن قلت : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ما محله ؟ قلت : الأحسن أن يكون منتصباً بإضمار أعنى ، وهو الذي يسمى النصب على المدح . ويجوز أن يكون جرا على الوصف ، وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله إليكم . إِلَيْكُمْ جَمِيعاً وقوله لا إِلهَ إِلَّا هُوَ بدل من الصلة التي هي له ملك

---

(1) . قوله «عن رحمة اللّه» لعله «في رحمة اللّه» . أو ضمن التفريق معنى الابعاد ، فعدى بعن . (ع) [. . . . .]

(337/291)

عن حقائق غوامض التنزيل ، ج 2 ، ص : 161

غير اللّه . فإن قلت : أين ما تقتضيه بئس من الفاعل والمخصوص بالذم ؟ قلت : الفاعل مضمر يفسره ما خلفتموني . والمخصوص بالذم محذوف تقديره : بئس خلافة خلفتمونيها

من بعد خلافتكم . فإن قلت : أى معنى لقوله مِنْ بَعْدِي بعد قوله خَلَفْتُمُونِي ؟ قلت : معناه من بعد ما رأيتم منى ، من توحيد اللّه ، ونفى الشركاء عنه ، وإخلاص العبادة له . أو من بعد ما كنت أحمل بنى إسرائيل على التوحيد ، وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر ، حين قالوا اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه . ونحوه فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أى من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة يقال : عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ، ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره ، ويضمن معنى سبق فيعدّى تعديته ، فيقال عجلت الأمر ، والمعنى أعجلتم عن أمر ربكم ، وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به ، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم ، فحدّثتم أنفسكم بموتى ، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم . وروى أنّ السامري قال لهم - حين أخرج لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى - : إن موسى لن يرجع ، وإنه قد مات وروى أنهم عدّوا عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ، ثم أحدثوا ما أحدثوا وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدّة الضجر عند استماعه حديث العجل ، غضبا للّه وحمية لدينه ، وكان في نفسه حديداً شديد الغضب ، وكان هارون ألين منه جانبا ولذلك كان أحب إلى بنى إسرائيل من موسى .

وروى أن التوراة كانت سبعة أسباع ، فلما ألقى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها

وبقي منها سبع واحد ، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ أى بشعر رأسه يَجُرُّهُ إِلَيْهِ بذؤابته ، وذلك لشدّة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته ، وظنا بأخيه أنه فرط في الكف ابْنَ أُمَّ قرئ بالفتح تشبيها بخمسة عشر ، وبالكسر على طرح ياء الإضافة . وابن أمى ، بالياء . وابن إِمِّ ، بكسر الهمزة والميم . وقيل : كان أخاه لأبيه وأمّه ، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم ، إشارة إلى أنهما من بطن واحد . وذلك أدعى إلى العطف والرقة ، وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها ، ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي يعنى أنه لم يأل جهدا في كفهم بالوعظ والإنذار . وبما بلغته طاقته من بذل القوة في مضادّتهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ فلا تفعل بى ما هو أمنيتهم من الاستهانة بى والإساءة إلىّ ، وقرئ . فلا يشمت بى الأعداء ، على نهى الأعداء عن الشماتة . والمراد أن لا يحل به ما يشمتون به لأجله وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ولا تجعلني في موجدتك علىّ وعقوبتك لي قرينا لهم

(338/291)

وصاحبا . أو ولا تعتقد أنى واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم . لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء قال رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ليرضى أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم ، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة . وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة .

[سورة الأعراف (7) : آية 152]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152)

غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ الغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم . والذلة : خروجهم من ديارهم لأنّ ذل الغربة مثل مضروب . وقيل : هو ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير ، من غضب اللّه تعالى بالقتل والجلاء ، ومن الذلة بضرب الجزية الْمُفْتَرِينَ المتكذبين على اللّه ، ولا فرية أعظم من قول السامري : هذا إلهكم وإله موسى . ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها ويراد : سينالهم غضب في الآخرة ، وذلة في الحياة الدنيا ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من اللّه .

[سورة الأعراف (7) : آية 153]

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153)

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ من الكفر والمعاصي كلها ثُمَّ تابُوا ثم رجعوا مِنْ بَعْدِها إلى اللّه واعتذروا إليه وَآمَنُوا وأخلصوا الإيمان إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها من بعد تلك العظائم لَغَفُورٌ لستور عليهم محاء لما كان منهم رَحِيمٌ منعم عليهم بالجنة. وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم. عظم جنايتهم "1" أولا ثم أردفها تعظيم رحمته، ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل، ولكن لا بدّ من حفظ الشريطة: وهي وجوب التوبة "2" والإنابة، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة "3"، لا يلتفت إليها حازم.

---

(1). قال محمود: "عظم جناية متخذي العجل أولا، ثم أردفها بحكم عام... الخ" قال أحمد: يعرض بوجوب وعيد الفساق وأن مغفرة الذنب بدون التوبة منه من المحال الممتنع، وقد تقدم عد ذلك من الأهواء والبدع، بل الحق أن المغفرة لما عدا الشرك موكوله إلى المشيئة، غير ممتنعة عقلا، ثم واقعة نقلا، واللّه الموفق.

(2). قوله: "من حفظ الشريطة وهي وجوب التوبة" مذهب المعتزلة أن الكبيرة لا تغفر إلا بالتوبة. ومذهب أهل السنة أنها قد تغفر بمجرد الفضل. (ع)

(3). قوله "وأشعبية باردة" خصلة منسوبة إلى أشعب، وهو رجل كان طماعا. ويضرب به المثل في الطمع، كما في الصحاح. (ع)

[سورة الأعراف (7) : آية 154]

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ هذا مثل ، كأن الغضب كان يغريه "1" على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا وألق الألواح ، وجرّ برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شعب البلاغة . وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة : ولما سكن عن موسى الغضب ، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهمزة ، وطرفا من تلك الروعة . وقرئ : ولما سكت . وأسكت :

أى أسكته اللّه ، أو أخوه باعتذاره إليه وتنصله ، والمعنى : ولما طفئ غضبه أَخَذَ الْأَلْواحَ التي ألقاها وَفِي نُسْخَتِها وفيما نسخ منها ، أى كتب . والنسخة فعلة بمعنى مفعول كالخطبة لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ دخلت اللام لتقدم المفعول ، لأن تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً . ونحوه لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ وتقول : لك ضربت .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 155 إلى 157]

وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)

---

(1) . قال محمود : "هذا مثل ، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وخذ برأس أخيك . . . الخ" قال أحمد : وهو من النمط الذي قدمته من قلب الحقيقة إلى المجاز ، وكان الأصل : ولما سكت موسى عن الغضب ، ولذلك عده بعض أهل العربية من المقلوب ، وسلكه في نمط خرق الثوب المسمار . والتحقيق أنه ليس منه وأن هذا القلب أشرف وأفصح ، لأنه بماله على معنى بليغ وهو أن الغضب كان متمكنا من موسى حتى كان كأنه يصرفه في أوامره ، وكل ما وقع منه حينئذ فعن الغضب صادر ،

حتى كأنه هو الذي أمره به . ومثل هذه النكتة الحسناء لا تلفى في خرق الثوب المسمار ، بل هي موجودة في قوله تعالى حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ على خلاف قراءة نافع . وقد تقدم ذلك آنفا ، والله الموفق .

(340/291)

وَاخْتَارَ مُوسى قَوْمَهُ أي من قومه ، فحذف الجار وأوصل الفعل ، كقوله :

ومنّا الّذى اختير الرّجال سماحة "1"

قيل اختار من اثنى عشر سبطا ، من كل سبط ستة حتى تناموا اثنين وسبعين ، فقال : ليتخلف منكم رجلان ، فتشاحوا ، فقال : إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج ، فقعد كالب ويوشع .

وروى أنه لم يصب إلا ستين شيخنا ، فأوحى اللّه تعالى إليه أن تختار من الشبان عشرة ، فاختارهم فأصبحوا شيوخا . وقيل : كانوا أبناء ما عدا العشرين ، ولم يتجاوزوا الأربعين ، قد ذهب عنهم الجهل والصبا ، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ، ثم خرج بهم إلى طور سينا لميقات ربه ، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بنى إسرائيل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى ودخل

فيه وقال للقوم : ادنوا ، فدنوا ، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجدا ، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه : افعل ، ولا تفعل .

ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه ، فطلبوا الرؤية فوعظهم وزجرهم وأنكر عليهم ، فقالوا : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى اللّه جهرة . فقال : رب أرنى أنظر إليك ، يريد : أن يسمعوا الردّ والإنكار من جهته ، فأجيب بلن تراني ، ورجف بهم الجبل فصعقوا . ولما كانت الرجعة قالَ موسى رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ وهذا تمنّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية ، كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة : لو شاء اللّه لأهلكنى قبل هذا أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا يعنى أتهلكنا جميعاً . يعنى نفسه وإياهم ، لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء ، وهم طلبوها سفها وجهلا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ أى محنتك وابتلاؤك حين كلمتنى وسمعوا كلامك ، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالا فاسداً ، حتى افتتنوا وضلوا تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ تضلّ بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك ، وتهدى العالمين

---

(1) .

ومنا الذي اختير الرجال سماحة وجوداً إذا هب الرياح الزعازع

المعنى : ومنا الذي اختاره الناس من بين الرجال ، فالرجال نصب على نزع الخافض .

وسماحة : تمييز لبيان جهة الاختيار . ووجوداً عطف عليه ، إذا هب الرياح ، كناية عن

دخول الشتاء ، فتهيج الرياح الزعازع ، أى الشديدة المحركة للأشياء ، وإذا جاد زمن انقطاع الميرة ، فكيف بالصيف .

(341/291)

بك الثابتين بالقول الثابت . وجعل ذلك إضلالا من اللّه وهدى منه ، لأن محنته لما كانت سبباً "1" لأن ضلوا واهتدوا فكأنه أضلهم بها وهداهم على الاتساع في الكلام أَنْتَ وَلِيُّنا مولانا القائم بأمورنا وَاكْتُبْ لَنا وأثبت لنا واقسم فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً عافية وحياة طيبة وتوفيقاً في الطاعة وَفِي الْآخِرَةِ الجنة هُدْنا إِلَيْكَ تبنا إليك . وهاد اليه يهود إذا رجع وتاب . والهود : جمع هائد ، وهو التائب . ولبعضهم :

يا راكب الذّنب هدهد واسجد كأنّك هدهد "2"

وقرأ أبو وجرة السعدي : هدنا إليك ، بكسر الهاء ، من هاده يهيده إذا حرّكه وأماله . ويحتمل أمرين ، ان يكون مبنيا للفاعل والمفعول بمعنى حركنا إليك أنفسنا وأملناها أو حرّكنا إليك وأملنا على تقدير : فعلنا ، كقولك : عدت يا مريض بكسر العين ، فعلت من العيادة . ويجوز : عدت بالإشمام .

وعدت ، بإخلاص الضمة فيمن قال : عود المريض . وقول القول . ويجوز على هذه اللغة أن

يكون هُدْنا بالضم فعلنا من هاده يهيده عَذابِي من حاله وصفته أنى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ أى من وجب علىّ في الحكمة "3" تعذيبه ، ولم يكن في العفو عنه مساغ لكونه مفسدة . وأمّا رَحْمَتِي فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء ، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمتي . وقرأ الحسن : من أساء ، من الإساءة . فسأكتب هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يا بنى إسرائيل للذين يكونون في آخر الزمان من أمّة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، الذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون ، لا يكافرون بشيء منها الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن النَّبِيَّ صاحب المعجزات الَّذِي يَجِدُونَهُ يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بنى إسرائيل مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ . . . . . وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة ، كالشحوم وغيرها . أو ما طاب في الشريعة والحكم ، مما ذكر اسم اللّه عليه من الذبائح ، وما خلى كسبه من السحت وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير ، وما أهلّ لغير اللّه به أو ما خبث في الحكم ، كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيئة . الإصر : الثقل الذي يأصر صاحبه ، أى يحبسه من الحراك لثقله

أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه . فإن قلت : كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه ؟ قلت : لما دعا لنفسه ولبنى إسرائيل ، أجيب بما هو منطو على توبيخ بنى إسرائيل على استجازتهم الرؤية على اللّه تعالى وعلى كفرهم

بآيات اللّه العظام التي أجراها على يد موسى ، وعرّض بذلك في قوله وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنا يُؤْمِنُونَ وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وما جاء به كعبد اللّه بن سلام وغيره من أهل الكتابين ، لطفاً لهم وترغيباً في إخلاص الإيمان والعمل الصالح ، وفي أن يحشروا معهم ولا يفرّق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة اللّه "1" التي وسعت كل شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 151. 165﴾

---

(1) . قوله "لأن محنته لما كانت سببا" صرف الكلام عن ظاهره ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عندهم . أما على مذهب أهل السنة فلا حاجة إلى ذلك . (ع)

(2) . للزمخشري ، شبه ملازمته للذنب بملازمة الراكب للمركوب . وهاد يهود ، إذا تاب ورجع . وهد : أمر منه ، وكرر للتوكيد . ثم قال : واسجد كأنك هدهد ، فشبهه به لكثرة ما يطرق برأسه إلى الأرض لا في السرعة ، فالمعنى : اسجد كثيراً .

(3) . قوله "أي من وجب على في الحكمة" هذا عند المعتزلة . وأما أهل السنة فلا يجب على اللّه تعالى عندهم شيء . (ع)

وقال ابن جزى فى الآيات السابقة :

﴿ واتخذ قَوْمُ موسى ﴾ هم بنو إسرائيل ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد غيبته في الطور ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ بضم الحال والتشديد جمع حلى نحو ثدي وثدي ، وقرئ بكسر الحاء للإتباع وقرئ بفتح الحاء وإسكان اللام ، والحلي هو اسم ما يتزين به من الذهب والفضة ﴿ جَسَداً ﴾ أي جسماً دون روح ، وانتصابه على البدل ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ الخوار هو : صوت البقر ، وكان السامري قد قبض قبضة من تراب أثر فرس جبريل يوم قطع البحر ، فقذفه في العجل فصار له خوار ، وقيل : كان إبليس يدخل في جوف العجل فيصيح فيه فيسمع له خوار ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ ﴾ ردّ عليهم ، وإبطال لمذهبهم الفاسد في عبادته ﴿ اتخذوه ﴾ أي اتخذوه إلهاً ، فحذف لمفعول الثاني للعلم به ، وكذلك حذف من قوله : واتخذ قوم موسى ﴿ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ندموا يقال : سقط في يد فلان إذا عجز عما يريد أو وقع فيما يكره ﴿ أَسِفاً ﴾ شديد الحزن على ما فعلوه ، وقيل : شديد الغضب كقوله : ﴿ فَلَمَّآ آسَفُونَا ﴾ [الزخرف : 55] ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي ﴾ أي قمتم مقامي ، وفاعل بئس مضمر يفسره ما واسم المذموم محذوف ، والمخاطب بذلك أما القوم الذين عبدوا العجل مع السامري حيث عبدوا غير الله في غيبة موسى عنهم ، أو رؤساء بني إسرائيل كهارون عليه السلام ، حيث لم يكفوا الذين عبدوا العجل ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ معناه : أعجلتم عن أمر ربكم ، وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور ، فإنهم لما

رأوا أنّ الأمر قد تم ظنوا أن موسى عليه السلام قد مات فعبدوا العجل ﴿ وَأَلْقَى الأَلواح ﴾ طرحها لما لحقه من الدهش والضجر غضباً لله من عبادة العجل ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ أي شعر رأسه ﴿ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ لأنه ظن أنه فرّط في كف الذين عبدوا العجل ﴿ ابن أُمَّ ﴾ كان هارون شقيق موسى ، وإنما دعاه بأمّه ، لأنه أدعى إلى العطف والحنوّ ، وقرئ ابن أم بالكسر على الإضافة إلى

(343/291)

ياء المتكلم ، وحذفت الياء بالفتح تشبيهاً بخمسة عشر جعَل الاسمان اسما واحداً فبنى ﴿ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين ﴾ أي لا تظن أني منهم أو لا تجد عليَّ في نفسك ما تجدُ عليهم يعني أصحاب العجل ﴿ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ ﴾ أي : غضب في الآخرة وذلة في الدنيا ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب ﴾ أي سكن ، وكذلك قرأ بعضهم ، وقال الزمخشري : قوله : سكت مثل كأن الغضب كان يقول له ألق الألواح وجُرّ برأس أخيك ، ثم سكت عن ذلك ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ أي فيما ينسخ منها ، والنسخة فعلة بمعنى مفعول ﴿ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أي يخافون ، ودخلت اللام لتقدّم المفعول كقوله : ﴿ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] ، وقال المبرّد : تتعلق بمصدر تقديره رهبتهم لربهم .

﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ أي من قومه ﴿ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ حملهم معه إلى الطور يسمعون كلام الله لموسى فقالوا : أرنا الله جهرة فأخذتهم الرجفة عقاباً لهم على قولهم ، وقيل : إنما أخذتهم الرجفة لعبادتهم العجل أو لسكوتهم على عبادته ، والأوّل أرجح لقوله فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ويحتمل أن تكون رجفة موت أو إغماء ، والأول أظهر لقوله : ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وإياي ﴾ يحتمل أن تكون لو هنا للتمني أي تمنوا أن يكون هو وهم قد ماتوا قبل ذلك ، لأنه خاف من تشغيب بني إسرائيل عليه إن رجع إليهم دون هؤلاء السبعين ، ويحتمل أن يكون قال ذلك على وجه التضرع والاستسلام لأمر الله كأنه قال : لو شئت أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت فإنا عبيدك وتحت قهرك ، وأنت تفعل ما تشاء ، ويحتمل ان يكون قالها على وجه التضرع والرغبة كأنه قال : لو شئت أن تهلكنا قبل اليوم لفعلت ، ولكنك عافيتنا وأبقيتنا فافعل معنا الآن ما وعدتنا ، وأحي هؤلاء القوم الذين أخذتهم الرجفة ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهآء مِنَّآ ﴾ أي أتهلكنا وتهلك سائر بني إسرائيل بما فعل السفهاء الذين طلبوا الرؤية ، والذين عبدوا العجل ، فمعنى هذا إدلاء بحجته ، وتبرؤ من فعل السفهاء ، ورغبة إلى الله

أن لا يعم الجميع بالعقوبة ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ أي الأمور كلها بيدك ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ ﴾ ومعنى هذا : اعتذار عن فعل السفهاء ، فإنه كان بقضاء الله ومشيئته ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا ، وهذا الكلام الذي قاله موسى عليه السلام إنما هو : استعطاف ورغبة إلى الله وتضرع إليه ، ولا يتقضي شيئاً مما توهم الجهال فيه من الجفاء في قوله : أتهلكنا بما يفعل السفهاء منا لأنا قد بينا أنه إنما قال ذلك استعطافاً لله وبراءة من فعل السفهاء ﴿ قَالَ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ ﴾ قيل : الإشارة بذلك إلى الذين

(345/291)

أخذتهم الرجفة ، والصحيح أنه عموم يندرجون فيه مع غيرهم ، وقرئ من أساء . بالسين وفتح الهمزة من الإساءة وأنكرها بعض المقرئين وقال : إنها تصحيف ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ يحتمل أن يريد رحمته في الدنيا فيكون خصوصاً في الرحمة ، وعموماً في كل شيء لأنّ المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي : تنالهم رحمة الله ونعمته في الدنيا ، ويحتمل أن يريد رحمة الآخرة فيكون خصوصاً في كل شيء لأنّ الرحمة في الآخرة مختصة بالمؤمنين ، ويحتمل أن يريد جنس الرحمة على الإطلاق ، فيكون عموماً في الرحمة ، وفي كل شيء ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ إن كانت الرحمة المذكورة رحمة الآخرة فهي بلا شك

مختصة بهؤلاء الذين كتب بها الله لهم ، وهم أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت رحمة الدنيا ، فهي أيضاً مختصة بهم لأن الله نصرهم على جميع الأمم ، وأعلى دينهم على جميع الأديان ، ومكن لهم في الأرض ما لم يمكن لغيرهم ، وإن كانت على الإطلاق : فقوله : سأكتبها تخصيص للإطلاق ﴿ والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يؤمنون بجميع الكتب والأنبياء ، وليس ذلك لغير هذه الأمّة .

(346/291)

﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول ﴾ هذا الوصف خصص أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، قال بعضهم : لما قال الله : ورحمتي وسعت كل شيء طمع فيها كل أحد حتى إبليس ، فلما قال : فسأكتبها للذين يتقون فيئس إبليس لعنه الله ، وبقيت اليهود والنصارى ﴿ النبي الأمي ﴾ أي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48] ، قال بعضهم : الأميّ منسوب إلى الأمّ وقيل : إلى الأمة ﴿ النبي الأمي ﴾ ضمير الفاعل في يجدونه لبني إسرائيل ، وكذلك الضمير في عندهم ، ومعنى يجدونه يجدون نعته وصفته ولنذكر هنا ما ورد في التوراة والإنجيل وأخبار المتقدمين من ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فمن ذلك ما ورد في

البخاري وغيره أنّ في التوراة من صفة النبي صلى الله عليه وسلم : " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأمّيين أنت عبدي ورسولي ، أسميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق لا تجزي بالسيئة السيئة ، ولكن تعفو وتصفح ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح به عيوناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً " .

ومن ذلك ما في التوراة مما أجمع عليه أهل الكتاب ، وهو باق بأيديهم إلى الآن : إنّ الملك نزل على إبراهيم فقال له : في هذا العام يولد لك غلام اسمه إسحاق ، فقال إبراهيم يا رب ليت إسماعيل يعيش يخدمك فقال الله لإبراهيم : ذلك لك قد استجيب لك في إسماعيل وأنا أباركه وأنميه وأكبره وأعظمه بماذ ماذ ، وتفسير هذه الحروف محمد [سفر التكوين : 17] .

(347/291)

ومن ذلك في التوراة إنّ الرب تعالى جاء في طور سيناء ، وطلع من ساعد وظهر من جبال فاران ، ويعني بطور سيناء موضع مناجاة موسى عليه السلام ، وساعد موضع عيسى وفاران هي مكة موضع مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه ، ومعنى ما ذكر من

مجيء الله وطلوعه وظهوره هو : ظهور دينه على يد الأنبياء الثلاثة المنسوبين لتلك المواضع ، وتفسير ذلك ما في كتاب شعيا خطاباً لمكة : قومي فأزهري مصباحك فقد دنا وقتك وكرامة الله طالعة عليك ، فقد تخلل الأرض الظلام ، وعلا على الأمم المصاب ، والرب يشرق عليك إشراقاً ، ويظهر كرامته عليك ، تسير الأمم إلى نورك ، والملوك إلى ضوء طلوعك ، ارفعي بصرك إلى ما حولك ، وتأملي فإنهم مستجمعون عندك ، وتحج إليك عساكر الأمم وفي بعض كتبهم : لقد تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود ، وامتلأت الأرض من حمده ، لأنه ظهر بخلاص أمته .

ومن ذلك في التوراة سفر [التكوين : 16] أن هاجر أم إسماعيل لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملك فقال لها : يا هاجر أي تريدين ؟ ومن أين تريدين ؟ ومن أين أقبلت ؟ فقالت : أهرب من سيدتي سارة ، فقال لها : ارجعي إلى سارة وستحبلين وتلدين ولداً اسمه إسماعيل هو يكون عين الناس ، وتكون يده فوق الجميع ، وتكون يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع ، ووجه دلالة هذا الكلام على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن هذا الذي وعدها به الملك من أن يد ولدها فوق الجميع وأن يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع ، ووجه دلالة هذا الكلام على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن هذا الذي وعدها به الملك من أن يد ولدها فوق الجميع وأن يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع إنما ظهرت بمبعث النبي محمد

صلى الله عليه وسلم وظهور دينه وعلو كلمته ، ولم يكن ذلك لإسماعيل ولا لغيره قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

(348/291)

ومن ذلك أيضاً من التوراة أن الرب يقيم لهم نبياً من إخوتهم ، وأي رجل لم يسمع ذلك الكلام يؤديه ذلك النبي عن الله فينتقم الله منه ، ودلالة هذا الكلام ظاهرة بأن أولاد إسماعيل هو إخوة أولاد إسحاق ، وقد انتقم الله من اليهود الذين لم يسمعوا كلام محمد صلى الله عليه وسلم كبني قريظة وبني قينقاع وغيرهم . .

ومن ذلك في التوراة : إن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام وقد أجبت دعاءك في إسماعيل ، وباركت عليه وسيلد اثني عشر عظيماً ، وأجعله لأمة عظيمة . .

ومن ذلك في الإنجيل أن المسيح قال للحواريين : إني ذاهب عنكم وسيأتيكم الفارقليط الذي لا يتكلم من قبل نفسه ، إنما يقول كما يقال له . وبهذا وصف الله سبحانه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ [النجم : 3-4] وتفسير الفارقليط أنه مشتق من الحمد واسم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم محمد وأحمد وقيل معنى الفارقليط الشافع المشفع . .

(349/291)

ومن ذلك في التوراة : مولده بمكة أو مسكنه بطيبة وأمته الحمادون ، وبيان ذلك أن أمته يقرأون : الحمد لله في صلاتهم مراراً كثيرة في كل يوم وليلة ، وعن شهر بن حوشب مثل ذلك في إسلام كعب الأحبار ، وهو من اليمن من حمير أن كعبا أخبره بأمره وكيف كان ذلك ، وقيل كان أبوه من مؤمني أهل التوراة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من عظمائهم وخيارهم ، قال كعب : وكان من أعلم الناس بما أنزل الله على موسى من التوراة ، وبكتب الأنبياء ، ولم يكن يدخر عني شيئاً مما كان يعلم ، فلما حضرته الوفاة دعاني ، فقال يا بني : قد علمت أني لم أكن أدخر عنك شيئاً مما كان يعلم ، إلا أني حبست عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يبعث ، وقد أطل زمانه ، فكرهت أن أخبرك بذلك ، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتتبعه ؛ وقد قطعها من كتابك وجعلتهما في هذه الكوّة التي ترى وطينت عليهما ، فلا تتعرض لهما ولا تنظرهما زمانك هذا وأقرهما في موضعهما حتى يخرج ذلك النبي ، فإذا خرج فاتبعه وانظر فيهما ، فإن الله يزيدك بهذا خيراً ، فلما مات والدي لم يكن شيء أحب إلي من أن ينقضي المأتم حتى أنظر ما في الورقتين .

(350/291)

فلما انقضى المأتم فتحت الكوّة ثم استخرجت الورقتين فإذا فيهما محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، لا نبي بعده ، مولده بمكة ومهاجره بطيبة ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ، ويعفو ويغفر ويصفح ، أمته الحمادون الذي يحمدون الله كل شرف ، وعلى كل حال ، وتذلل بالتكبير ألسنتهم ، وينصر الله نبيهم على كل ما ناوأه ، يغسلون فروجهم بالماء ويأتزرون على أوساطهم وأناجيلهم في صدورهم ويأكلون قربانهم في بطونهم ويؤجرون عليها وتراحمهم بينهم تراحم بني الأم والأب ، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم ، وهم السابقون المقربون والشافعون المشفع لهم ، فلما قرأت هذا قلت في نفسي : والله ما علمني شيئاً خيراً لي من هذا فمكثت ما شاء الله حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم وبيني وبينه بلاد بعيدة منقطعة لا أقدر على إتيانه ، وبلغني أنه خرج في مكة فهو يظهر مرة ويستخفي مرة ، فقلت : هو هذا وتخوفت ما كان والدي حذرني وخوفني من ذكر الكذابين ، وجعلت أحب أن أتبين وأتثبت فلم أزل بذلك حتى بلغني أنه أتى المدينة فقلت في نفسي : إنّي لأرجو أن يكون إياه وجعلت ألتمس السبيل إليه ، فلم يقدر لي حتى بلغني أنه توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : في نفسي : لعله لم يكن الذي كنت أظن . ثم بلغني أن خليفة قام مقامه ، ثم لم ألبث إلا قليلاً حتى جاءتنا جنوده فقلت في نفسي : لا

أدخل في هذا الدين حتى أعلم أهم الذين كنت أرجو وأنتظر ، وأنظر كيف سيرتهم وأعمالهم ، وإلى ما تكون عاقبتهم . فلم أزل أقدذم ذلك وأؤخره لأتبين وأتثبت حتى قدم علينا عمر بن الخطاب ، فلما رأيت صلاة المسلمين وصيامهم وبرهم ووفاءهم بالعهد ، وما صنع الله لهم على الأعداء علمت أنهم هم الذي كنت أنتظر ، فحدثت نفسي بالدخول في دين الإسلام .

(351/291)

فوالله إني ذات ليلة فوق سطح إذا برجل من المسلمين يتلو كتاب الله حتى أتى على هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين أُوتُواْ الكتاب آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أصحاب السبت وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً ﴾ [النساء : 47] فلما سمعت هذه الآية خشيت الله ألا أصبح حتى يحوّل وجهي في قفاي ، فما كان شيء أحبّ إليّ من الصباح ، فغدوت على عمر فأسلمت حين أصبحت .

وقال كعب لعمر عند انصرافهم إلى الشام : يا أمير المؤمنين إنه مكتوب في كتاب الله إن هذه البلاد التي كان فيها بنو إسرائيل ، وكانوا أهلها مفتوحة على يد رجل من الصالحين رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين ، سره مثل علانيته ، وعلانيته مثل سره ، وقوله لا يخالف

فعله ، والقريب والبعيد عنده في الحق سواء وأتباعه رهبان بالليل وأسْد بالنهار ، متراحمون متواصلون متباذلون ، فقال له عمر : ثكلتك أمك ، أحق ما تقول ؟ قال أي والذي أنزل التوراة على موسى ، والذي يسمع ما تقول إنه لحق ، فقال عمر : الحمد لله الذي أعزنا وشرفنا وأكرمنا ورحمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم برحمته التي وسعت كل شيء .

ومن ذلك كتاب فروة بن عمر الجذامي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من ملوك العرب بالشام ، فكتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد رسول الله من فروة بن عمر إني مقرّ بالإسلام مصدق ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبد الله ورسول وأنه الذي بشّر به عيسى ابن مريم عليه السلام ، فأخذه هرقل لما بلغه إسلامه وسجنه فقال والله لا أفارق دين محمد أبداً فإنك تعرف أنه النبي الذي بشّر به عيسى بن مريم ، ولكنك حرصت على ملكك وأحببت بقاءه فقال قيصر صدق والإنجيل .

(352/291)

يشهد لهذا ما أخرجه البخاري ومسلم من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل وسؤال هرقل عن أحواله وأخلاقه صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبر بها علم أنه

رسول الله ، وقال إنه يملك موضع قدميّ ولو خلصت إليه لغسلت قدميه البخاري كتاب بدء الوحي .

ومن حديث زيد بن اسلم عن أبيه وهو عندنا بالإسناد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج زمان الجاهلية مع ناس من قريش في التجارة إلى الشام ، قال فإني لفي سوق من أسواقها إذا أنا ببطريق قد قبض على عنقي ، فذهبت أنازعه فقيل لي : لا تفعل فإنه لا نصيف لك منه ، فأدخلني كنيسة فإذا تراب عظيم ملقى ، فجاءني بزنبيل ومجرفة فقال لي : أنقل ما هاهنا فجعلت أنظر كيف أصنع ، فلما كان من الهاجرة وافاني وعليه ثوب أرى سائر جسده منه ، فقال : أئنك على ما أرى ما نقلت شيئاً ، ثم جمع يديه فضرب بهما دماغي فقلت : واثكل أمك يا عمر ، أبلغت ما أرى ثم وثبت إلى المجرفة فضربت بها هامته فنشرت دماغة ثم واريته في التراب وخرجت على وجهي لا أدري أين أسير ، فسرت بقية يومي وليلتي من الغد إلى الهاجرة فانتهيت إلى دير فاستظللت بفنائه فخرج إليّ رجل منه فقال لي يا عبد الله ما يقعدك هنا ؟ فقلت : أضللت أصحابي ، فقال لي ما أنت على طريق وإنك لتنظر بعيني خائف ، فادخل فأصب من الطعام واسترح .

(353/291)

فدخلت فأتاني بطعام وشراب وأطعمني ، ثم صعد فيّ النظر وصوّبه ، فقال لي ما اسمك فقلت عمر بن الخطاب ، فقال : أنت والله صاحبنا ، فاكتب لي على ديري هذا وما فيه ، فقلت : يا هذا إنك قد صنعت إليّ صينعة فلا تكررها ، فقال إنما هو كتاب في رق ، فإن كنت صاحبنا فذلك ، وإلا لم يضرك شيء فكتب له على ديره وما فيه ، فأتاني بثياب ودراهم فدفعها إليّ ثم أوكف أتاناً فقال لي : أتراها فقلت : نعم ، قال سر عليها ، فإنك لا تمر بقوم إلا سقوها وعلفوها وأضافوك ، فإذا بلغت مأمنك فاضرب وجهها مدبرة فإنهم يفعلون بها كذلك حتى ترجع إليّ . قال فركبتها فكان كما قال ، حتى لحقت بأصحابي وهم متوجهون إلى الحجاز ، فضربتها مدبرة وانطلقت معهم .

فلما وافى عمر الشام في زمان خلافته جاءه ذلك الراهب بالكتاب وهو صاحب دير العرس فلما رآه عرفه ، فقال : قد جاء ما لا مذهب لعمر عنه ، ثم أقبل على أصحابه فحدثهم بحديثه فلما فرغ منه أقبل على الراهب فقال : هل عندكم من نفع للمسلمين ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : إن أضفتم المسلمين ومرضتموهم وأرشدتموهم فعلنا ذلك . قال : نعم يا أمير المؤمنين فوفى له عمر رضي الله عنه ورحمه .

وعن سيف يرفعه إلى سالم بن عبد الله قال : لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق فقال : السلام عليك يا فاروق ، أنت صاحب إيلياء ؛ والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء .

(354/291)

ومن ذلك أن عمرو بن العاصي قدم المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسله إلى عُمان والياً عليها ، فجاءه يوماً يهودي من يهود عمان فقال له : أنشدك بالله ، من أرسلك إلينا ؟ فقال له : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اليهودي : والله إنك لتعلم أنه رسول الله ؛ قال عمرو : نعم ، فقال اليهودي : لئن كان حقاً ما تقول ؛ لقد مات اليوم . فلما سمع عمرو ذلك جمع أصحابه وكتب ذلك اليوم الذي قال له اليهوديّ أن النبي صلى الله عليه وسلم مات فيه . ثم خرج فأخبر بموت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الطريق ووجده قد مات في ذلك اليوم صلى الله عليه وسلم وبارك وشرف وكرم .

(355/291)

ومن ذلك أن وفد غسان قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيهم أبو بكر الصديق فقال لهم من أنتم ؟ قالوا رهط من غسان قدمنا على محمد لنسمع كلامه ، فقال لهم انزلوا حيث تنزل الوفود ، ثم ائتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلموه ، فقالوا وهل نقدر على كلامه كما أردنا فتبسم أبو بكر ، وقال : إنه ليطوف بالأسواق ، ويمشي

وحده ، ولا شرطة معه ، ويرغب من يراه منه فقالوا لأبي بكر من أنت أيها الرجل فقال أنا أبو بكر بن أبي قحافة ، فقالوا أنت تقوم بهذا الأمر بعده فقال أبو بكر الأمر إلى الله ، فقال لهم كيف تخدعون عن الإسلام وقد أخبركم أهل الكتاب بصفته ، وأنه آخر الأنبياء ثم لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا ﴿ يَأْمُرُهُم بالمعروف وينهاهم عَنِ المنكر ﴾ يحتمل أن يكون هذا من وصف النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة ، فتكون الجملة في موضع الحال من ضمير المفعول في يجدونه ، أو تفسير لما كتب من ذكر أو يكون استئناف وصف من اله تعالى غير مذكور في التوراة والإنجيل ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث ﴾ مذهب مالك أن الطيبات هي الحلال ، وأن الخبائث هي الحرام ، ومذهب الشافعي أن الطيبات هي المستلذات ، وأن الخبائث هي المستقذرات : كالخنافس والعقارب وغيرها ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ وهو مثل لما كلفوا في شرعهم من المشقات ، كقتل الأنفس في التوبة ؛ وقطع موضع النجاسة من الثوب ، وكذلك الأغلال عبارة عما منعت منه شريعتهم كتحريم الشحوم ، وتحريم العمل يوم السبت وشبه ذلك ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي منعوه بالنصر حتى لا يقوى عليه عدو ﴿ واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ هو القرآن أو الشرع كله ، ومعنى معه مع بعثه ورسالته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 45 ﴿ 51.

(356/291)

فصل

قال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده ﴾

أي : بعد ذهابه إلى المناجاة ﴿ من حليهم ﴾ أي : الذي استعاروه من القبط بسبب عرس فبقي عندهم .

فإن قيل : كيف قال : من حليهم وكان معهم معاراً ؟

أجيب : بأنه لما أهلك الله تعالى قوم فرعون بقيت تلك الأموال في أيديهم وصارت ملكاً لهم كسائر أملاكهم بدليل قوله تعالى : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ (الدخان ، الآيات :)

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الحاء والباقون بضمها ﴿ عجلاً ﴾ أي : صاغه لهم منه السامري وقوله تعالى : ﴿ جسداً ﴾ بدل منه أي : صار جسداً ذا لحم ودم ﴿ له خوار ﴾ أي : صوت البقر .

روي أنّ السامريّ لما صاغ العجل ألقي في فمه قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر فصار حياً له خوار ، وقيل : صاغه بنوع من الحيل فيدخل الريح جوفه ويصوت . وإنما نسب الاتخاذ إليهم وهو فعله إما لأنهم رضوا به أو لأنّ المراد اتخاذهم إياه

إلهاً ، وقيل : إنه ما خار إلا مرّة واحدة ، وقيل : إنه كان يخور كثيراً فإذا خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رؤوسهم ، وقال وهب : كان يسمع منه الخوار وهو لا يتحرّك ، قال السدي : كان يخور ويمشي .

(357/291)

وقوله تعالى : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ تقريع على فرط ضلالهم وإفراطهم بالنظر لأن هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب ولا يهدي إلى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جماداً أو حيواناً ناقصاً عاجزاً وعلى كلا التقديرين لا يصلح أن يعبد ، ثم وصفهم الله تعالى بالظلم بقوله : ﴿ اتخذوه ﴾ أي : العجل إلهاً ﴿ وكانوا ظالمين ﴾ أي : واضعين الأشياء في غير موضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم ولا أوّل مناكيرهم واختلفوا هل كل قوم موسى عبدوا العجل أو بعضهم ؟ قال الحسن : كلهم عبدوا العجل غير هارون ، واحتج عليه بوجهين : الأوّل : عموم هذه الآية ، والثاني : قول موسى عليه السلام في هذه القصة : ﴿ رب اغفر لي ولأخي ﴾ (الأعراف ،)

قال : خص نفسه وأخاه بالدعاء وذلك يدلّ على أنّ من كان مغايراً لهما ما كان أهلاً للدعاء ولو بقوا على الإيمان ما كان الأمر كذلك ، وقال غيره : بل كان قد بقي في بني

إسرائيل من ثبت على إيمانه وإن ذلك الكفر إنما وقع في قوم مخصوصين والدليل عليه قوله : ﴿ ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ (الأعراف ،) .

(358/291)

﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ أي : ولما ندموا على عبادة العجل ، تقول العرب لكل نادم على أمر قد سقط في يده ، وذلك لأنّ من شأن من اشتدّ ندمه على أمر أن يعض يده ثم يضرب فخذه فتصير يده ساقطة لأنّ السقوط عبارة عن النزول من أعلى إلى أسفل ﴿ ورأوا ﴾ أي : علموا ﴿ أنهم قد ضلوا ﴾ عن الطريق الواضح باتخاذ العجل ﴿ قالوا ﴾ توبة ورجوعاً إلى الله تعالى كما قال أبوهم آدم عليه السلام ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ﴾ الذي لم يقطع قط إحسانه عنا فيكف غضبه ويديم إحسانه ﴿ ويغفر لنا ﴾ أي : يمحو ذنوبنا عيناً وأثراً لئلا ينتقم منا في المستقبل ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ أي : فينتقم منا بذنوبنا وهذا كلام من اعترف بعظيم ما قدم عليه من الذنوب وندم على ما صدر منه ورغب إلى الله تعالى في إقالة عثرته وإنما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه السلام إليهم كما قال تعالى:

﴿ ولما رجع موسى ﴾ أي : من مناجاته ﴿ إلى قومه غضبان ﴾ أي : من جهتهم ﴿ أسفاً ﴾ أي : لأن الله تعالى كان قد أخبره أنه قد فتن قومه وأنّ السامريّ قد أضلهم

فكان موسى في حال رجوعه غضبان أسفاً ، قال أبو الدرداء : الأسف أشدّ الغضب ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : الأسف الحزن والأسيف الحزين ، قال الواحدي : والقولان متقاربان لأنّ الغضب من الحزن والحزن من الغضب وقرأ حمزة والكسائي بالخطاب في يرحمنا ويغفر لنا ونصب ربنا والباقون بالغيبة ورفع الباء ﴿ قال ﴾ موسى لهم : ﴿ بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ أي : بئس الفعل فعلكم بعد فراقي إياكم وهذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل من السامري وأتباعه أي : بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله تعالى وأن يكون لهارون والمؤمنين أي : بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى والمخصوص بالذم محذوف تقديره : بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم .

(359/291)

فائدة : اتفقوا على وصل بئسما هنا في الرسم ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أي : أتركتموه غير تام كأنه ضمن عجل معنى سبق فعدي تعديته أو أعجلتم أمر ربكم الذي وعدنيه من الأربعين وقدرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم .

روي أن السامريّ قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال : هذا إلهكم وإله موسى إنّ موسى

لن يرجع وإنه قد مات .

وروي أنهم عدوا عشرين يوماً بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا ﴿ وألقى الألواح ﴾ أي : ألواح التوراة أي : طرحها من شدّة الغضب وفرط الضجر أي : عند استماعه حديث العجل حمية للدين وكان في نفسه حديداً شديد الغضب .

روي أنّ التوراة كانت سبعة أسباع في سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها أي : ستة أسباع ما فيها لا ستة أسباعها نفسها لقوله بعد وأخذ الألواح وكان فيها تفصيل كل شيء وبقي سبع فرفع ما كان من أخبار الغيب وبقي ما فيه المواعظ والأحكام والحلال والحرام قال الرازي : ولقائل أن يقول : ليس في القرآن إلا أنه ألقى الألواح فإمّا أنه ألقاها بحيث تكسرت فهذا ليس في القرآن وأنه جراءة عظيمة على كتاب الله ومثله لا يليق بالأنبياء ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ أي : بشعر رأسه بيمينه وشعر لحيته بشماله ﴿ يجره ﴾ أي : أخاه ﴿ إليه ﴾ غضباً وكان هارون عليه السلام أكبر من موسى بثلاث سنوات وأحب إلى بني إسرائيل من موسى لأنه كان ألين منه جانباً ف ﴿ قال ﴾ هارون عند ذلك ﴿ ابن أمّ ﴾ قراءة ابن عامر وشعبة والكسائي بكسر الميم وأصله يا ابن أمي فحذف الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفاً كالمنادى المضاف إلى الياء والباقون بالنصب زيادة في التخفيف لطوله أو تشبيهاً بخمسة عشر .

فإن قيل : هارون وموسى من أب وأمّ فلماذا ناداه بالأمّ فقط ؟

أجيب : بأنه إنما ذكرها لأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها ليرققه عليه والطاعنون في عصمة الأنبياء يقولون : أخذ برأس أخيه يجره على سبيل الإهانة والاستحقاق والمثبتون لعمة الأنبياء يقولون : أخذ برأس أخيه يجره على سبيل الإهانة والاستخفاف والمثبتون لعصمة الأنبياء قالوا : جر رأس أخيه ليساره ويستكشف منه كيفية تلك الواقعة .

فإن قيل : فلماذا قال يا ابن أمّ ﴿ إنّ القوم ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿ استضعفوني ﴾ أي : إني قد بذلت وسعي في كفهم فاستذلوني وقهروني ﴿ وكادوا ﴾ أي : قاربوا ﴿ يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ﴾ أي : فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله وأصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال : شمت فلان بفلان إذا سرّ بمكروه نزل به أي : لا تسرّ الأعداء بما تنال مني من مكروه فكيف فعل بأخيه ذلك ؟

أجيب : بأنّ هارون إنما قال ذلك خوفاً من أن يتوهم جهال بني إسرائيل أنّ موسى غضبان عليه كما هو غضبان على عبدة العجل أي : فلا تفعل بي ما تشمت به أعدائي فهم أعداؤك فإنّ القوم يحملون هذا الفعل الذي تفعله بي على الإهانة لا على الإكرام ﴿ ولا

تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ أي : الذين عبدوا العجل مع براءتي منهم بالمؤاخذة أو بنسبة التقصير ولما اعتذر له أخوه وذكر شماتة الأعداء .

﴿ قال رب اغفر لي ﴾ أي : ما حملني عليه مما صنعت بأخي ﴿ ولأخي ﴾ أي : اغفر له ما فرط في كفهم عن عبادة العجل إن كان وقع منه تفريط وضمه إلى نفسه في الاستغفار ترضية له ودفعاً للشماتة عنه ﴿ وأدخلنا في رحمتك ﴾ أي : بمزيد الإنعام علينا ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا قال الله تعالى:

(361/291)

﴿ إنّ الذين اتخذوا العجل ﴾ أي : إلهاً يعبدونه من دون الله تعالى فهذا هو المفعول الثاني من مفعولي اتخذوا ﴿ سينالهم غضب ﴾ أي : عقوبة ﴿ من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ﴾ وهي خروجهم من دارهم ، وللمفسرين في هذه الآية طريقان الأوّل أنّ المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا عبادة العجل .

فإن قيل : أولئك تاب الله عليهم بسبب أن قتلوا أنفسهم في معرض التوبة على ذلك الذنب وإذا تاب الله عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة ؟

أجيب : بأنّ ذلك الغضب إنما حصل لهم في الدنيا وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضباً

عليهم والمراد بالذلة هو استسلامهم أنفسهم للقتل واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطأ ، وقيل : خروجهم من ديارهم لأنّ ذل الغربة مثل مضروب .

فإن قيل : السين في قوله : سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضي ؟

أجيب : بأنّ هذا إنما هو خبر عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله تعالى في ذلك الوقت أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقاً لوقته وهو القتل الذي أمرهم الله تعالى به بعد ذلك ، والطريق الثاني : أنّ المراد بالذين اتخذوا العجل الذين كانوا في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم فوصف اليهود الذين كانوا في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم باتخاذ العجل وإن كان ما فعل ذلك إلا آباؤهم لأنهم رضوا بفعلهم ولأنّ العرب تعير الأبناء بقبائح أفعال الآباء كما يفعل ذلك في المناقب يقولون للأمم : أفعلتم كذا وكذا ؟ وإنما فعله من مضى من آبائهم . ثم حكم عليهم بأنهم سينالهم غضب من ربهم في الآخرة وذلة في الحياة الدنيا كما قال تعالى في صفتهم : ﴿ ضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ (البقرة ،)

(362/291)

﴿ وكذلك ﴾ أي : كما جزيناهم ﴿ نجزي المفترين ﴾ أي : كل مفتر في دين الله فجزاؤه غضب الله في الآخرة والذلة في الدنيا ، قال مالك بن أنس : ما من مبتدع إلا ويجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية لأنّ المبتدع مفتر في دين الله .

﴿ والذين عملوا السيئات ﴾ أي : عملوا الأعمال السيئة ويدخل في ذلك كل ذنب حتى الكفر ﴿ ثم تابوا ﴾ أي : رجعوا عنها إلى الله تعالى ﴿ من بعدها ﴾ أي : من بعد أعمالهم السيئة ﴿ وآمنوا ﴾ أي : وصدقوا بالله تعالى بأنه لا إله غيره وأنه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب وإن عظمت ﴿ إنّ ربك ﴾ أي : يا محمد أو يا أيها الإنسان التائب ﴿ من بعدها ﴾ أي : التوبة ﴿ لغفور ﴾ أي : ستور عليهم محاء لما كان منهم ﴿ رحيم ﴾ بهم أي : منعم عليهم بالجنة وفي الآية دليل على أنّ السيئات بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة في التوبة وأنّ الله تعالى يغفرها جميعاً بفضله ورحمته فإنّ عفوه وكرمه أعظم وأجل وهذا من أعظم ما يفيد البشارة والفرح للمذنبين التائبين ، وتقدير الآية : أنّ من أتى بجميع السيئات ثم تاب إلى الله تعالى وأخلص التوبة فإنّ الله يغفرها له ويقبل توبته .

(363/291)

﴿ ولما سكت ﴾ أي : سكن ﴿ عن موسى الغضب ﴾ أي : باعتذار هارون وبتوبتهم فعند ذلك سكن غضبه وهو الوقت الذي قال : رب اغفر لي ولأخي ، وفي هذا الكلام استعارتان استعارة بالكناية في الغضب عن الشخص الناطق واستعارة تصريحية أو تخييلية في السكوت عن طفء غضب موسى وسكون هيجانه وغليانه ، وقال عكرمة : إنّ المعنى : سكت موسى عن الغضب فقلب كما قالوا : أدخلت القلنسوة في رأسي والمعنى : أدخلت رأسي في القلنسوة ﴿ أخذ الألواح ﴾ أي : وكما دعا لأخيه منبهاً بذلك على زوال غضبه عليه فكذلك أخذ الألواح التي ألقاها منبهاً على زوال غضبه ، قال الإمام الرازي : وظاهر هذا يدلّ على أن شيئاً منها لم ينكسر ولم يبطل وأن الذي قيل من أن ستة أسباع التوراة رفعت إلى السماء ليس الأمر كذلك اه . ومرّت الإشارة إلى ما يدلّ على الجمع بين ما هنا وبين ما مرّ ﴿ وفي نسختها ﴾ أي : ما نسخ فيها من كتب والنسخ عبارة عن النقل والتحويل فإذا نسخت كتاباً من كتاب حرفاً بحرف فقد نسخت ذلك الكتاب فهو نقلك ما في الأصل إلى الفرع لأن الألواح نسخت من اللوح المحفوظ والنسخة فعلة بمعنى مفعولة كالخطبة ، وقيل : إنّ موسى عليه السلام لما ألقى الألواح فتكسرت صام أربعين يوماً فردّت عليه في لوحين ، وعلى قول من قال : إنّ الألواح لم تكسر وأخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها يكون المعنى : وفي نسختها أي : المكتوب فيها ﴿ هدى ﴾ أي : بيان للحق ﴿ ورحمة ﴾ أي : إرشاد إلى الصلاح والخير ، وقال ابن عباس : هدى من الضلالة ورحمة

من العذاب ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ أي : يخافون .

فإن قيل : التقدير : الذين يرهبون ربهم فما الفائدة في اللام في قوله : ﴿ لربهم ﴾ ؟

أجيب بأوجه : الأوّل : أنّ تأخير الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً فدخلت اللام للتقوية

ونظيره قوله تعالى : ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ (يوسف ،)

(364/291)

الثاني : أنها لام الأجل والمعنى : للذين هم لأجل ربهم يرهبون لا رياء ولا سمعة ، الثالث :

أنه قد يزاد حرف الجرّ في المفعول وإن كان الفعل متعدّياً كقولك : قرأت السورة وقرأت

بالسورة .

﴿ واختار موسى قومه ﴾ أي : من قومه فحذف الجارّ وأوصل الفعل إليه فنصب يقال

اخترت من الرجال زيداً ، واخترت الرجال زيداً ، وأنشدوا قول الفرزدق:

*منا الذي اختير الرجال سماحة ** وجوداً إذا هب الرياح الزعازع*

قال أبو علي : والأصل في هذا الباب أنّ في الأفعال ما يتعدّى إلى المفعول الثاني بحرف الجرّ

ثم يتسع فيحذف حرف الجرّ فيتعدّى إلى المفعول الثاني من ذلك قولك : اخترت من الرجال

زيداً ثم يتسع فيقال : اخترت الرجال زيداً ، وأستغفر الله من ذنبي وأستغفر الله ذنبي قال

الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه

ويقال أمرت زيداً بالخير وأمرت زيداً الخير قال الشاعر:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

قال الرازي: وعندي فيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير: واختار موسى قومه لميقاتنا وأراد بقومه المعتبرين منهم إطلاقاً لاسم الخير على ما هو المقصود منه وقوله: ﴿ سبعين رجلاً لميقاتنا ﴾ عطف بيان وعلى هذا الوجه فلا حاجة إلى ما ذكر من التكلفات ﴿ فلما أخذتهم الرجفة ﴾.

روي أنّ الله تعالى أمره أن يأتيه في سبعين رجلاً من بني إسرائيل فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال: ليتخلف منكم رجلان، فتشاحوا فقال: لمن قعد أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع وذهب معه الباقون.

(365/291)

روي أنه لم يصب إلا ستين شيخاً فأوحى الله تعالى إليه أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً، وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين ولم يتجاوزوا الأربعين

قد ذهب عنهم الجهل والصبا فأمرهم موسى عليه السلام أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم خرج إلى طور سينا لميقات ربه وكان أمره أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى غشي الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم : ادنوا وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجداً فسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاه وافعل لا تفعل فلما فرغ من أمره ونهيه وانكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا : له لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي الرجفة فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ﴿ قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل ﴾ أي : من قبل خروجهم إلى الميقات ﴿ وإياي ﴾ معهم فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني إذا رجعت إليهم وما هم معي وعنى بذلك : أنك قدرت على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على إهلاكهم وبإغراقهم في البحر وغيرهما فترحمت عليهم بالإنقاذ منهما فإن ترحمت عليهم مرّة أخرى لم يبعد من عميم إحسانك ، وقال وهب : لم تكن تلك الرجفة موتاً ولكن القوم لما رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرجفة حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتدّ عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين مطيعين فعند ذلك دعا وبكا وناشد ربه فكشف الله تعالى عنهم تلك الرجفة واطمأنوا وسمعوا كلام ربهم وذلك قوله تعالى :

﴿ قال ﴾ أي : موسى ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل ﴾ أي : من قبل عبادة العجل وإياي بقتلي القبطي ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ أي : عبدة العجل وظنّ موسى أنهم عوقبوا باتخاذ بني إسرائيل العجل وقال هذا على

(366/291)

طريق السؤال ، وقال المبرد : هو استفهام استعطاف أي : لا تهلكنا وقد علم موسى عليه السلام أنّ الله تعالى أعظم من أن يأخذ بجريرة الجاني غيره ، وقيل : بما فعل السفهاء من العناد والتجاسر على طلب الرؤية وكان ذلك قاله بعضهم ﴿ إن هي ﴾ أي : ما هي ﴿ إلا فتنتك ﴾ قال الواحدي : الكناية في هي تعود إلى الفتنة كما تقول : إن هو إلا زيد ، والمعنى : أنّ تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنتك أي : اختبارك وابتلاؤك وهذا تأكيد لقوله تعالى : ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ لأنّ معناه لا تهلكنا بفعلهم فإنّ تلك الفتنة كانت اختباراً منك وابتلاء أضللت بها قوماً فافتتنوا بأن أوجدت في العجل خواراً فزاغوا به وأسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية هديت قوماً فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك فذلك معنى قوله : ﴿ تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ﴾ ولما أثبت أنّ الكل بيده تعالى استأنف سؤاله في أن يفعل لهم الأصلح فقال : ﴿ أنت ﴾ أي : وحدك ﴿ ولينا ﴾ نعتقد

أن لا يقدر على عمل مصالحنا غيرك وأنت لا نفع لك في شيء من الأمرين ولا ضر بل الكل بالنسبة إليك على حد سواء ونحن على بصيرة من أنّ أفعالك لا تعلل بالأغراض وعفوك عنا ينفعنا وانتقامك منا يضرّنا ونحن في حضرتك قد انقطعنا إليك وحططنا رحال افتقارنا لديك ﴿ فاغفر لنا ﴾ أي : امح ذنوبنا ﴿ وارحمنا ﴾ أي : اشملنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿ وأنت خير الغافرين ﴾ أي : لأنّ غيرك يتجاوز عن الذنب طلباً للثناء أو للثواب أو دفعاً للصفة الخسيسة وهي صفة الحقد ونحوه وأنت منزه عن ذلك فتغفر السيئة وتبدلها حسنة .

(367/291)

أي : أوجب أو أثبت أو اقسم ﴿ لنا ﴾ أي : في مدّة إحيائك لنا ﴿ في هذه الدنيا ﴾ أي : الحاضرة والدنية ﴿ حسنة ﴾ أي : حسن معيشة وتوفيق طاعة ﴿ وفي الآخرة ﴾ أي : واكتب لنا في الحياة الآخرة حسنة وهي الجنة ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنا هدنا ﴾ أي : تبنا ﴿ إليك ﴾ أي : عما لا يليق بجنابك وأصل الهود الرجوع برفق والهود جمع هائد وهو التائب ولبعضهم:

*يا راكب الذنب هدهد **واسجد كأنك هدهد*

قال بعضهم : وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم ثم صار اسم ذم بعد نسخها ﴿ قال ﴾ الله تعالى لموسى : ﴿ عذابي أصيب به من أشاء ﴾ من خلقي أذنب أو لم يذنب لا اعتراض علي ﴿ ورحمتي وسعت ﴾ عمت وشملت ﴿ كل شيء ﴾ من خلقي في الدنيا ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمتي وهذا معنى حديث أبي هريرة في الصحيحين "إنّ رحمتي سبقت غضبي" وفي رواية "غلبت غضبي" وأمّا في الآخرة فقال تعالى : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ الله ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ وخصها بالذكر لنفعها المتعدّي ولأنها كانت أشق عليهم ، قال قتادة : لما نزل ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ قال إبليس : أنا من ذلك الشيء فقال تعالى : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ ﴿ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ ولا يكفرون بشيء منها فأيس إبليس منها وتمناها اليهود والنصارى وقالوا : نحن نتقي ونؤمن بآيات ربنا فأخرجهما الله تعالى بقوله:

(368/291)

﴿ الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ ﴾ وإنما سماه رسولاً بإضافته إلى الله عز وجل لأنه الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه لرسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه إليهم ونبياً لأنه رفيع

الدرجة عند الله ثم وصفه بالأميّ وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ وهي صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم "نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" والعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرؤون أي : الخط والنبيّ صلى الله عليه وسلم كان كذلك ، قال أهل التحقيق : وكونه أمياً بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه:

الأوّل : أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرّة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فلا بدّ وأن يزيد فيها أو أن ينقص عنها بالقليل والكثير ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب ولا يقرأ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك معجزة وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ (الأعلى ،)

الثاني : أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لكان متهماً في أنه ربما طالع كتب الأوّلين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ (العنكبوت ،)

الثالث : تعلم الخط شيء سهل فإن أقلّ الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم ثم إنه تعالى آتاه علوم الأوّلين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من الخلق ومع تلك القوّة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهماً فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجارية مجرى المعجزات وهذا الاتباع تارة يكون بالقوّة فقط لمن تقدم موته على زمانه صلى الله عليه وسلم وتارة يخرج من القوّة إلى الفعل كمن لحق زمان دعوته فمن علم الله تعالى منه أنه لا يتبعه إذا أدركه لا يغفر له ولو عمل جميع الطاعات غير ذلك وعرّفه لهم بجميع خواصه حتى لا يتطرق إليه عند مجيئه ريب ولا يتعلل في أمره بعلة ولذلك اتبعه .

﴿ الذي يجدونه ﴾ أي : علماء بني إسرائيل ﴿ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ باسمه ونعته ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسداً منهم له وخوفاً على زوال رياستهم وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا في الذل والهوان وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال : أجل إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي

ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاء ، انتهى .ا

(370/291)

شرح غريب ألفاظه : الفظ : السيء الخلق ، والغليظ : الجافي القاسي ، والسخاب بالسين والصاد : الكثير الصياح ، والاعوجاج : ضدّ الاستقامة والملة العوجاء : الكفر ، والقلب الأغلف : الذي لا يصل إليه شيء ينفعه كأنه في غلاف .

(371/291)

وقوله تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف ﴾ قال الزجاج : يجوز أن يكون استئنافاً ويجوز أن يكون المعنى : يجدونه مكتوباً عندهم إنه يأمرهم بالمعروف قال الرازي : ومجامع المعروف في قوله عليه الصلاة والسلام "التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله" وذلك لأنّ الموجود إمّا واجب الوجود لذاته وإمّا ممكن لذاته ، أما الواجب لذاته فهو الله تعالى ولا معروف

أشرف من تعظيمه وإظهار عبوديته وإظهار الخشوع والخضوع على باب عزته والاعتراف بكونه موصوفاً بصفات الكمال مبرأ عن النقائص والآفات منزهاً عن الأضداد والأنداد ، وأما الممكن لذاته فإن لم يكن حيواناً فلا سبيل إلى إيصال الخير إليه لأنّ الانتفاع مشروط بالحياة ومع ذلك فإنه يجب النظر إلى كلها بعين التعظيم من حيث إنها مخلوقة لله ومن حيث إنّ كل ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلاً ظاهراً وبرهاناً باهراً على توحيده وتنزيهه فإنه يجب النظر إليه بعين الاحترام ومن حيث إنّ لله سبحانه وتعالى في كل ذرة من ذرات المخلوقات أسراراً عجيبة وحكماً خفية فيجب النظر إليها بعين الاحترام ، وأما إن كان ذلك المخلوق من جنس الحيوان فإنه يجب الشفقة عليه بأقصى ما يقدر الإنسان عليه ويدخل فيه برّ الوالدين وصلة الأرحام وبث المعروف فثبت أنّ قوله صلى الله عليه وسلم "التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله" كلمة جامعة لجميع جهات الأمر بالمعروف ﴿ وينهاهم عن المنكر ﴾ وهو ضد الأمور المذكورة ، وقال عطاء : يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد وبمكارم الأخلاق وبصلة الأرحام وينهاهم عن المنكر أي : عبادة الأوثان وقطع الأرحام ﴿ ويحل لهم الطيبات ﴾ أي : ما حرم عليهم في شرعهم كالشحوم ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾ كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ أي : ثقلهم الذي كان يحمل عليهم ، وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة الممدودة والصاد وألف بعد الصاد عى الجمع والباقون بكسر الهمزة وسكون الصاد ولا ألف بعدها على التوحيد

﴿ والأغلال التي كانت عليهم ﴾ أي : ويضع الأثقال والشدائد التي كانت عليهم من الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة من البدن والثوب بالمقراض وغير ذلك من الشدائد التي كانت على بني إسرائيل شبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق كما أنّ اليد لا تمتدّ مع وجود الغل فكذلك لا تمتدّ إلى الحرام الذي نهيت عنه وكانت هذه الأثقال في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم نسخ ذلك كله ويدلّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم "بعثت بالحنيفية السهلة السمحة" ﴿ فالذين آمنوا به ﴾ أي : بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وعزروه ﴾ أي : وقروه وعظموه وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبيّ صلى الله عليه وسلم تعظيمه وإجلاله ودفع الأعداء عنه ﴿ ونصروه ﴾ على أعدائه ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ أي : القرآن سمي نوراً لأن به يستنير قلب المؤمن فيخرج من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ، وقيل : الهدى والبيان والرسالة ، وقيل : الحق الذي بيانه في القلوب كبيان النور .

فإن قيل : كيف يمكن حمل النور هنا على القرآن والقرآن ما أنزل مع محمد صلى الله عليه

وسلم وإنما أنزل مع جبريل عليه السلام ؟

أجيب : بأنّ معناه أنه أنزل مع نبوّته لأنّ نبوّته ظهرت مع ظهور القرآن ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الصفات قال : ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ أي : الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 257 . 268 ﴾

(373/291)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقاتنا ﴾

هذا شروع في بيان ما كان من موسى ، ومن القوم الذين اختارهم ، وسبعين مفعول ﴿ اختار ﴾ ، وقومه منصوب بنزع الخافض ، أي من قومه على الحذف والإيصال ، ومثله قوله الراعي :

اخترتك الناس إذ رثت خلائقهم . . . واعتل من كان يرجى عنده السول

يريد اخترتك من الناس ، ومعنى ﴿ لميقاتنا ﴾ للوقت الذي وقتناه له ، بعد أن وقع من قومه ما وقع .

والميقات الكلام الذي تقدم ذكره ، لأن الله أمره أن يأتي إلى الطول في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه سبحانه من عبادة العجل ، كذا قيل .

والرجفة في اللغة : الزلزلة الشديدة .

قيل : إنهم زلزلوا حتى ماتوا ، فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم : ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وإياى ﴾ قاله عليه السلام تحسراً وتلهفاً ، لأن سبب أخذ الرجفة لهم ما حكى الله عنهم من قولهم : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ﴾ [البقرة : 55] على ما تقدّم في البقرة .

وقيل : هؤلاء السبعون غير من قالوا : ﴿ أَرِنَا الله جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153] بل أخذتهم الرجفة ، بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل .

وقيل : إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل ، ولا نهوا السامريّ ومن معه عن عبادته ، فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم .

والمعنى لو شئت إهلاكنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافاً منه عليه السلام بالذنب ، وتلهفاً على ما فرط من قومه .

والاستفهام في قوله : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهاء مِنَّا ﴾ للجحد ، أي لست ممن يفعل ذلك ، قاله ثقة منه برحمة الله .

والمقصود منه الاستعطاف والتضرّع .

وقيل : معناه الدعاء والطلب ، أي لا تهلكنا .

قال المبرد : المراد بالاستفهام استفهام الإعظام كأنه يقول : [لا تهلكنا] وقد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره .

(374/291)

ولكنه كقول عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : 118] .

وقيل المراد بالسفهاء : السبعون ، والمعنى : أتهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153] .

وقيل المراد بهم : السامري وأصحابه .

قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ أي ما الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت ، وتمتحن بها من أردت .

ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه : ﴿ فإنا قد فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ [طه : 85] ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء ﴾ أي تضل بهذه الفتنة من تشاء من عبادك وتهدي بها من تشاء منهم ، ومثله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] ، ثم رجع إلا الاستعطاف والدعاء فقال : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ أي المتولي لأمورنا ﴿ فاغفر

لَنَا ﴾ ما أذنبناه ﴿ وارحمنا ﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ﴾ للذنوب .

﴿ واكتب لَنَا فِى هذه الدنيا حَسَنَةً ﴾ بتوفيقنا للأعمال الصالحة ، أو تفضل علينا بإفاضة النعم في هذه الدنيا من العافية ، وسعة الرزق ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ أي واكتب لنا في الآخرة الجنة بما تجازينا به ، أو بما تتفضل به علينا من النعيم في الآخرة .

وجملة ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة ، والرحمة ، والحسنة ، في الدنيا وفي الآخرة ، أي : إنا تبنا إليك ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني إسرائيل .

والهود : التوبة .

وقد تقدّم في البقرة .

وجملة : ﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء ﴾ مستأنفة كنظائرها فيما تقدّم .

قيل المراد بالعذاب هنا : الرجفة .

وقيل : أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم ، أي ليس هذا إليك يا موسى ، بل ما شئت كان ، وما لم أشأ لم يكن .

والظاهر أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب ، ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولاً أوّلياً .

(375/291)

وقيل المراد : من أشاء من المستحقين للعذاب ، أو من أشاء أن أضله وأسلبه التوفيق ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ : من الأشياء من المكلفين وغيرهم .

ثم أخبر سبحانه أنه سيكتب هذه الرحمة الواسعة ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الذنوب ﴿ وَيُؤْتُونَ الزكواة ﴾ المفروضة عليهم ﴿ والذين هُم بِئَايَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يصدّقون بها ويذعنون لها .

ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة ، ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبى الأمى ﴾ وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل .

والأمي : إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب ، وهم العرب ، أو نسبة إلى الأم .

والمعنى أنه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ؛ وقيل نسبة إلى أمّ القرى ، وهي مكة .

﴿ الذي يجدونه ﴾ يعني : اليهود والنصارى ، أي يجدون نعته ﴿ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التوراة والإنجيل ﴾ وهما مرجعهم في الدين .

وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون .

ثم وصف هذا النبيّ الذي يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف ، أي بكل ما تعرفه القلوب ، ولا تنكره من الأشياء التي هي من مكارم الأخلاق ﴿ وينهاهم عَنِ المنكر ﴾ أي ما تنكره القلوب ولا تعرفه .

وهو ما كان من مساوئ الأخلاق .

قيل : إن قوله : ﴿ يَأْمُرُهُم بالمعروف ﴾ إلى قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التي وعد بها .

ذكر معناه الزجاج .

وقيل : هو في محل نصب على الحال من النبيّ .

وقيل : هو مفسر لقوله : ﴿ مَكْتُوبًا ﴾ .

قوله : ﴿ يَحِلُّ لَهُمُ الطيبات ﴾ أي المستلذات .

(376/291)

وقيل : يحلّ لهم ما حرّم عليهم من الأشياء التي حرّمت عليهم بسبب ذنوبهم ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبئث ﴾ أي المستخبثات كالحشرات والخنازير ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ الإصر الثقل ، أي يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة .

وقد تقدّم بيانه في البقرة [الآية : 286] .

﴿ والأغلال التى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ويضع عنهم الأغلال التي كانت عليهم .

الأغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التي كانوا قد كلفوها ﴿ فالذين ءامَنُواْ بِهِ ﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ واتبعوه ﴾ فيما جاء به من الشرائع ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي عظموه ووقروه ، قاله الأخفش .

وقيل : معناه منعوه من عدوّه ، وأصل العزر : المنع ، وقرأ الجحدريّ "وعزروه" بالتخفيف ﴿ ونصروه ﴾ أي قاموا بنصره على من يعاديه ﴿ واتبعوا النور الذى أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ أي اتبعوا القرآن الذي أنزل عليه مع نبوّته .

وقيل المعنى : واتبعوا القرآن المنزل إليه مع اتباعه بالعمل بسنته ، مما يأمر به وينهى عنه ، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه ، والإشارة ب ﴿ أولئك ﴾ إلى المتصفين بهذه الأوصاف ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ الفائزون بالخير والفلاح لا غيرهم من الأمم .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ الآية .

قال كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ، فاختار سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعوا ربهم ، فكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا مالم تعط أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم ، فأخذتهم الرجفة .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ﴾ ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ يقول : إن هي إلا عذابك تصيب به من تشاء وتصرفه عمن تشاء .

(377/291)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ﴿ لميقاتنا ﴾ قال : لتمام الموعد ، وفي قوله : ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ قال : ماتوا ثم أحياهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو الشيخ ، عن أبي العالية ، في قوله ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ قال : بليتك .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ قال : مشيئتك .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : إن السبعين الذين اختارهم موسى من قومه ، إنما أخذتهم الرجفة ، لأنهم لم يرضوا بالعمل ولم ينهوا عنه .

وأخرج سعيد بن منصور ، عنه ، في قوله : ﴿ واكتب لَنَا فِى هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة ﴾ فلم يعطها موسى ﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء ﴾ إلى قوله : ﴿ المفلحون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة ، في قوله : ﴿ واكتب لَنَا فِى هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي

الآخرة ﴾ قال : فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، من طرق ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ قال تبنا إليك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ، مثله .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي وجزة السعدي ، وكان من أعلم الناس بالعربية قال : لا والله ما أعلمها في كلام العرب ﴿ هدنا ﴾ ؛ قيل فكيف قال " هدنا " بكسر الهاء ، يقول : مِلنا .

وأخرج عبد الرزاق ، وأحمد في الزهد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن وقتادة ، في قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قال : وسعت رحمته في الدنيا البرّ والفاجر ، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة .

وأخرج مسلم وغيره ، عن سلمان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن لله مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق .

(378/291)

وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة " وأخرج نحوه أحمد ، وأبو داود ، والطبراني ، والحاكم ، والضياء المقدسي ، من حديث جندب بن عبد الله العجلي .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السدي قال : لما نزلت : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قال إبليس : وأنا من الشيء .

فنسخها الله ، فنزلت : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ، قال : لما نزلت : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قال إبليس : أنا من الشيء ، قال الله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة ﴾ قالت اليهود : فنحن نتقي ونؤتي الزكاة ، قال الله : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبى الأمى ﴾ فعزلها الله عن إبليس وعن اليهود ، وجعلها لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن قتادة نحوه .

وأخرج البزار في مسنده ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : سأل موسى ربه مسئلة فأعطاها محمداً .

قوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فأعطى محمداً كل شيء سأل موسى ربه في هذه الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن

مردويه ، عنه ، في قوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ قال : كتبها الله لهذه الأمة .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : يتقون الشرك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن النخعي في قوله : ﴿ النبى الأمى ﴾ قال : كان لا يقرأ ولا يكتب .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في الآية قال : هو نبيكم صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يكتب .

(379/291)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ الذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ قال : يجدون نعته وأمره ونبوّته مكتوباً عندهم .

وأخرج ابن سعد ، والبخاري ، والبيهقي في الدلائل ، عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت له أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن " يا أَيُّهَا النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا تجزى بالسيئة السيئة ، ولكن تعفو وتصفح ، ولن

يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً" .

وأخرج ابن سعيد ، والدارمي في مسنده ، والبيهقي في الدلائل ، وابن عساكر ، عن عبد الله بن سلام مثله .

وقد روي نحو هذا مع اختلاف في بعض الألفاظ ، وزيادة في بعض ، ونقص في بعض عن جماعة .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات ﴾ قال : الحلال ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأغلال التى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ قال : التثقيل الذي كان في دينهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث ﴾ قال : كلحم الخنزير والربا ، وما كانوا يستحلونه من المحرّمات من المآكل التي حرمها الله ، وفي قوله : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأغلال التى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ قال : هو ما كان الله أخذ عليهم من الميثاق فيما حرّم عليهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ، في قوله : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ قال : ما غلظ على بني إسرائيل من قرض البول من جلودهم إذا أصابهم ونحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ يعني : عظموه ووقروه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(380/291)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

وبينما كان موسى – عليه السلام – في حضرة ربه ، في ذلك الموقف الفريد ، الذي تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار ؛ وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار . . كان قوم موسى من بعده يرتكسون وينتكسون ، ويتخذون لهم عجلاً جسداً له خوار – لا حياة فيه – يعبدونه من دون الله !

ويفاجئنا السياق القرآني بنقلة بعيدة من المشهد التاسع إلى المشهد العاشر . نقلة هائلة من الجو العلوي السامق المشرق بسبحاته وأشواقه وابتهالاته وكلماته إلى الجو الهابط المتردي بانحرافاته وخرافاته وارتكاساته وانتكاساته :

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدا له خوار . ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ . .

إنها طبيعة إسرائيل التي ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوي عن الطريق ؛ والتي ما تكاد ترتفع عن مدى الرؤية الحسية في التصور والاعتقاد ؛ والتي يسهل انتكاسها كلما فتر عنها التوجيه والتسديد .

ولقد راودوا نبيهم من قبل أن يجعل لهم إلهاً يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم ! فصدهم نبيهم عن ذلك الخاطر وردهم رداً شديداً .

(381/291)

فلما خلوا إلى أنفسهم ، ورأوا عجلاً جسدا من الذهب – لا حياة فيه كما تفيد كلمة جسد – صنعه لهم السامري – رجل من السامرة كما يجيء تفصيل قصته في سورة طه – واستطاع أن يجعله بهيئة بحيث يخرج صوتاً كصوت خوار الثيران . . لما رأوا ذلك العجل الجسد طاروا إليه ، وتهافتوا عليه حين قال لهم السامري : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ الذي خرج موسى لميقاته معه ؛ فنسي موسى موعده معه – ربما لزيادة الليالي العشر الأخيرة في الميقات التي لم يكن القوم يعلمونها ، فلما زاد عن الثلاثين ولم يرجع قال لهم السامري : لقد نسي موسى موعده مع إلهه فهذا إلهه ! – ولم يتذكروا وصية نبيهم لهم من قبل بعبادة ربهم الذي لا تراه الأبصار – رب العالمين – ولم يتدبروا حقيقة هذا العجل الذي

صنعه لهم واحد منهم ! . . وإنها لصورة زرية للبشرية تلك التي كان يمثلها القوم . صورة يعجب منها القرآن الكريم ؛ وهو يعرضها على المشركين في مكة وهم يعبدون الأصنام !

﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين ؟ ﴾ . .

وهل أظلم ممن يعبد خلقاً من صنع أيدي البشر . والله خلقهم وما يصنعون ؟ !

وكان فيهم هارون – عليه السلام – فلم يملك لهم رداً عن هذا الضلال السخيف . وكان فيهم بعض عقلائهم فلم يملكوا زمام الجماهير الضالة المتدافعة على العجل الجسد – وبخاصة أنه من الذهب معبود إسرائيل الأصيل !

وأخيراً هدأت الهيجة ، وانكشفت الحقيقة ، وتبين السخف ، ووضح الضلال ، وجاءت نوبة الندم والإقرار :

﴿ ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ . .

يقال : سقط في يده إذا عدم الحيلة في دفع ما هو بصدده من أمر . . ولما رأى بنو إسرائيل أنهم صاروا – بهذه النكسة – إلى موقف لا يملكون دفعه فقد وقع منهم وانتهى ! قالوا قولتهم هذه :

﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ . .

وهذه القولة تدل على أنه كان فيهم – إلى ذلك الحين – بقية من استعداد صالح . فلم تكن قلوبهم قد قست كما قست من بعد – فهي كالحجارة أو أشد قسوة كما يصفهم من هو أعلم بهم ! – فلما أن تبين لهم ضلالهم ندموا وعرفوا أنه لا ينقذهم من عاقبة ما أتوا إلا أن تدركهم رحمة ربهم ومغفرته . . وهذه علامة طيبة على بقية من استعداد في الفطرة للصلاح .

كل ذلك وموسى – عليه السلام – بين يدي ربه ، في مناجاة وكلام ، لا يدري ما أحدث القوم بعده . . إلا أن ينبئه ربه . . وهنا يرفع الستار عن المشهد الحادي عشر .

﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً . قال : بئسما خلفتموني من بعدي ! أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال : ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني . فلا تشمت بي الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال : رب اغفر لي ولأخي ، وأدخلنا في رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين ﴾ . .

لقد عاد موسى إلى قومه غضبان أشد الغضب . يبدو انفعال الغضب في قوله وفعله . .

يبدو في قوله لقومه :

﴿ بئسما خلفتموني من بعدي ! أعجلتم أمر ربكم ؟ ﴾ . .

ويبدو في فعله إذا يأخذ برأس أخيه يجره إليه ويعنفه .

﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ! ﴾ . .

وحق لموسى عليه السلام أن يغضب فالمفاجأة قاسية . والنقلة بعيدة :

﴿ بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ . .

تركتكم على الهدى فخلفتموني بالضلال ، وتركتكم على عبادة الله فخلفتموني بعبادة عجل جسد له خوار !

﴿ أعجلتم أمر ربكم ؟ ﴾ . .

أي استعجلتم قضاءه وعقابه ! أو ربما كان يعني : استعجلتم موعده وميقاته !

﴿ وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ . .

وهي حركة تدل على شدة الانفعال . . فهذه الألواح هي التي كانت تحمل كلمات ربه . وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه . وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه . وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب !

(383/291)

فأما هارون فيستجيش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليسكن من غضبه ، ويكشف له عن طبيعة موقفه ، وأنه لم يقصر في نصح القوم ومحاولة هدايتهم :

﴿ قال : ابن أم ، إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ! ﴾ . .

وهنا ندرك كيف كان القوم في هياجهم واندفاعهم إلى العجل الذهب ؛ حتى لهموا بهارون إذ حاول ردهم عن التردي والانتكاس :

﴿ ابن أم ﴾ . . بهذا النداء الرقيق وبهذه الوشيجة الرحيمة .

﴿ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ﴾ . . بهذا البيان المصور لحقيقة موقفه .

﴿ فلا تشمت بي الأعداء ﴾ . . وهذه أخرى يستجيش بها هارون وجدان الأخوة الناصرة المعينة ، حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون !

﴿ ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ . .

القوم الذين ضلوا وكفروا بربهم الحق ؛ فأنا لم أضل ولم أكفر معهم ، وأنا بريء منهم !

عندئذ تهدأ ثائرة موسى أمام هذه الوداعة وأمام هذا البيان . وعندئذ يتوجه إلى ربه ، يطلب المغفرة له ولأخيه ، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين :

﴿ قال : رب اغفر لي ولأخي ، وأدخلنا في رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين ﴾ . .

وهنا يجيء الحكم الفاصل ممن يملكه سبحانه ! ويتصل كلام الله سبحانه بما يحكيه القرآن الكريم من كلام عبده موسى ، على النسق الذي يتكرر في السياق القرآني :

﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا . وكذلك نجزي المفترين . والذين عملوا السيئات ، ثم تابوا من بعدها وآمنوا ، إن ربك من بعدها لغفور

رحيم ﴾ . .

إنه حكم ووعد . . إن القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا . . ذلك مع قيام القاعدة الدائمة : إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته .

(384/291)

وإذن فقد علم الله أن الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا توبة موصولة ؛ وأنهم سيرتكبون ما يخرجهم من تلك القاعدة . . وهكذا كان . فقد ظل بنو إسرائيل يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة ؛ ويسامحهم الله المرة بعد المرة . حتى انتهوا إلى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة :

﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ . .

كل المفترين إلى يوم الدين . . فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله ، من بني إسرائيل ، ومن غير بني إسرائيل . .

(385/291)

ووعد الله صادق لا محالة . وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة . وكان آخر ما كتب الله عليهم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . فإذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض ؛ ويستعلون بنفوذهم على الأمميين – أو كما يقولون عنهم في التلمود : " الجوييم " ! – وأنهم يملكون سلطان المال ، وسلطان أجهزة الإعلام ؛ وأنهم يقيمون الأوضاع الحاكمة التي تنفذ لهم ما يريدون ؛ وأنهم يستذلون بعض عباد الله ويطردونهم من أرضهم وديارهم في وحشية ؛ والدول الضالة تساندهم وتؤيدهم . . . إلى آخر ما نراه في هذا الزمان . . فليس هذا بناقض لوعيد الله لهم ، ولا لما كتبه عليهم . . فهم بصفاتهم هذه وأفعالهم يختزنون النقمة في قلوب البشر ؛ ويهيئون الرصيد الذي يدمرهم من السخط والغضب . . إنما هم يستطيلون على الناس في فلسطين مثلاً لأن الناس لم يعد لهم دين ! ولم يعودوا مسلمين ! . . إنهم يتفرقون ويتجمعون تحت رايات قومية جنسية ؛ ولا يتجمعون تحت راية العقيدة الإسلامية ! وهم من ثم يخيبون ويفشلون ؛ وتأكلهم إسرائيل ! غير أن هذه حال لن تدوم ! إنها فترة الغيبوبة عن السلاح الوحيد ، والمنهج الوحيد ، والراية الوحيدة ، التي غلبوا بها ألف عام ، والتي بها يَغلبون ، وبغيرها يُغلبون ! إنها فترة الغيبوبة بحكم السموم التي بثتها اليهودية والصليبية في كيان الأمة " الإسلامية " ! والتي تحرسها بالأوضاع التي تقيمها في هذه الأرض " الإسلامية " . . ولكن هذا كله لن يدوم . . ستجيء الصحوة من هذه الغيبوبة . . وسيفيء أخلاف المسلمين إلى

سلاح أسلافهم المسلمين . . ومن يدري فقد تصحو البشرية كلها يوماً على طغيان اليهود ! لتحقق وعيد الله لهم ، وتردهم إلى الذلة التي كتبها الله عليهم . . فإن لم تصح البشرية فسيصحوا أخلاف المسلمين . . هذا عندنا يقين . .

وكانت هذه وقفة للتعقيب على مصير الذين اتخذوا العجل وافتروا على الله ، تتوسط المشهد ثم يمضي السياق يكمل المشهد :

(386/291)

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ، وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ . .

والتعبير القرآني يشخص الغضب . فكأنما هو حي . وكأنما هو مسلط على موسى ، يدفعه ويحركه . . حتى إذا ﴿ سكت ﴾ عنه ، وتركه لشأنه ! عاد موسى إلى نفسه ، فأخذ الألواح التي كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه .

ثم يقرر السياق مرة أخرى أن في هذه الألواح هدى ، وأن فيها رحمة ، لمن يخشون ربهم ويرهبونه ؛ فتتفتح قلوبهم للهدى ، وينالون به الرحمة . . والهدى ذاته رحمة . فليس أشقى من القلب الضال ، الذي لا يجد النور . وليس أشقى من الروح الشارد الحائر الذي لا يجد

الهدى ولا يجد اليقين . . ورهبة الله وخشيته هي التي تفتح القلوب للهدى ؛ وتوقظها من الغفلة ، وتهيئها للاستجابة والاستقامة . . إن الله خالق هذه القلوب هو الذي يقرر هذه الحقيقة . ومن أعلم بالقلوب من رب القلوب ؟

ويمضي السياق بالقصة ، فإذا نحن أمام مشهد جديد . المشهد الثاني عشر . مشهد موسى وسبعين من قومه مختارين للقاء ربه :

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا . فلما أخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي . أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ، إنا هدنا إليك . قال : عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ . .

وتختلف الروايات في سبب هذا الميقات . وربما كان لإعلان التوبة ، وطلب المغفرة لبني إسرائيل مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة – وفي سورة البقرة أن التكفير الذي فرض على بني إسرائيل هو : أن يقتلوا أنفسهم ، فيقتل المطيع منهم من عصى ؛ وقد فعلوا حتى أذن لهم الله بالكف عن ذلك ، وقبل كفارتهم – وهؤلاء السبعون كانوا من شيوخهم ومن خيرتهم . أو كانوا هم خلاصتهم التي تمثلهم ، فصيغة العبارة : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً . . لميقاتنا ﴾ تجعلهم بدلاً من القوم جميعاً في الاختيار . .

ومع هذا فما الذي كان من هؤلاء المختارين ؟ لقد أخذتهم الرجفة فصعقوا . ذلك أنهم – كما ورد في السورة الأخرى طلبوا إلى موسى أن يروا الله جهرة ، ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض في الألواح . . وهي شاهدة بطبيعة بني إسرائيل ، التي تشمل خيارهم وشرارهم ، ولا يتفاوتون فيها إلا بمقدار ، وأعجب شيء أن يقولوها وهم في مقام التوبة والاستغفار !

فأما موسى – عليه السلام – فقد توجه إلى ربه ، يتوسل إليه ، ويطلب المغفرة والرحمة ، ويعلن الخضوع والاعتراف بالقدرة :

﴿ فلما أخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ . .

فهو التسليم المطلق للقدرة المطلقة من قبل ومن بعد ، يقدمه موسى بين يدي دعائه لربه أن

يكشف عن القوم غضبه ؛ وأن يرد عنهم فتنته ، وألا يهلكهم بفعلة السفهاء منهم .

﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ ﴾ . .

وقد جاء الرجاء بصيغة الاستفهام . زيادة في طلب استبعاد الهلاك . . أي : رب إنه لمستبعد على رحمتك أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا .

﴿ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ﴾ . .

(388/291)

يعلن موسى – عليه السلام – إدراكه لطبيعة ما يقع ؛ ومعرفته أنها الفتنة والابتلاء ؛ فما هو بغافل عن مشيئة ربه وفعله كالغافلين ! . وهذا هو الشأن في كل فتنة : أن يهدي الله بها من يدركون طبيعتها ويأخذونها على أنها ابتلاء من ربهم وامتحان يجتازونه صاحين عارفين . وأن يضل بها من لا يدركون هذه الحقيقة ومن يمرون بها غافلين ، ويخرجون منها ضالين . . وموسى – عليه السلام – يقرر هذا الأصل تمهيداً لطلب العون من الله على اجتياز الابتلاء :

﴿ أنت ولينا ﴾ . .

فامنحنا عونك ومددك لاجتياز فتنتك ، ونيل مغفرتك ورحمتك :

﴿ فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ . .

﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ، إنا هدنا إليك ﴾ . .

رجعنا إليك ، والتجأنا إلى حماك ، وطلبنا نصرتك .

وهكذا قدم موسى – عليه السلام – لطلب المغفرة والرحمة ، بالتسليم لله والاعتراف بحكمة ابتلائه ، وختمه بإعلان الرجعة إلى الله والالتجاء إلى رحابه . فكان دعاؤه نموذجاً لأدب العبد الصالح في حق الرب الكريم ؛ ونموذجاً لأدب الدعاء في البدء والختام .

ثم يجيئه الجواب :

﴿ قال : عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ . .

تقريراً لطلاقة المشيئة ، التي تضع الناموس اختياراً ، وتجريه اختياراً : وإن كانت لا تجريه إلا بالعدل والحق على سبيل الاختيار أيضاً ، لأن العدل صفة من صفاته تعالى لا تتخلف في كل ما تجري به مشيئته ، لأنه هكذا أراد . . فالعذاب يصيب به من يستحق عنده العذاب . . وبذلك تجري مشيئته . . أما رحمته فقد وسعت كل شيء ؛ وهي تنال من يستحقها عنده كذلك : وبذلك تجري مشيئته ، ولا تجري مشيئته – سبحانه – بالعذاب أو بالرحمة جزافاً أو مصادفة . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(389/291)

وبعد تقرير القاعدة يطلع الله نبيه موسى على طرف من الغيب المقبل ، إذا يطلعه على نبأ الملة الأخيرة التي سيكتب الله لها رحمته التي وسعت كل شيء . . بهذا التعبير الذي يجعل رحمة الله أوسع من ذلك الكون الهائل الذي خلقه ، والذي لا يدرك البشر مداه . . فيالها من رحمة لا يدرك مداها إلا الله !

﴿ فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ؛ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

وإنه لنبأ عظيم ، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي ، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى – عليهما السلام – منذ أمد بعيد .

جاءهم الخبر اليقين ببعثه ، وبصفاته ، وبمنهج رسالته ، وبخصائص ملته . فهو " النبي الأمي " ، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، وهو يضع عمن يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم ، فيرفعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به . وأتباع هذا

النبي يتقون ربهم ، ويخرجون زكاة أموالهم ، ويؤمنون بآيات الله . . وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي ؛ ويعظمونه ويوقرونه ، وينصرونه ويؤيدونه ، ويتبعون النور الهادي الذي معه ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ . .

وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل – على يد نبيهم موسى عليه السلام – كشف الله سبحانه عن مستقبل دينه ، وعن حامل رايته ، وعن طريق أتباعه ، وعن مستقر رحمته . . فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة ، بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين .

(390/291)

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى عليه السلام – وهو والسبعون المختارون من قومه في ميقات ربه – يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في استقبالهم لهذا النبي الأمي وللدين الذي جاء به . وفيه التخفيف عنهم والتيسير ، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين !

إنها الجريمة عن علم وعن بينة ! والجريمة التي لم يألوا فيها جهداً . . فقد سجل التاريخ أن بني إسرائيل كانوا هم ألأم خلق وقف لهذا النبي وللدين الذي جاء به . . اليهود أولاً والصليبيون

أخيراً . . وأن الحرب التي شنوها على هذا النبي ودينه وأهل دينه كانت حرباً خبيثة ماكرة لئيمة قاسية ؛ وأنهم أصروا عليها ودأبوا ؛ وما يزالون يصرون ويدأبون !

والذي يراجع – فقط – ما حكاه القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين – وقد سبق منه في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ما سبق – يطلع على المدى الواسع المتطاول الذي أداروا فيه المعركة مع هذا الدين في عناد لئيم !

والذي يراجع التاريخ بعد ذلك – منذ اليوم الذي استعلن فيه الإسلام بالمدينة ، وقامت له دولة – إلى اللحظة الحاضرة ، يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود !

ولقد استخدمت الصهيونية والصليبية في العصر الحديث من ألوان الحرب ، والكيد والمكر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية . . وهي في هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته ؛ وتحسب أنها تدخل معه في المعركة الأخيرة الفاصلة . . لذلك تستخدم جميع الأساليب التي جربتها في القرون الماضية كلها – بالإضافة إلى ما استحدثته منها – جملة واحدة !

(391/291)

ذلك في الوقت الذي يقوم ممن ينتسبون إلى الإسلام ناس يدعون في غرارة ساذجة إلى التعاون بين أهل الإسلام وأهل بقية الأديان للوقوف في وجه تيار المادية والإلحاد ! أهل بقية الأديان الذين يذبحون من ينتسبون إلى الإسلام في كل مكان ؛ ويشنون عليهم حرباً تتسم بكل بشاعة الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في الأندلس – سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة في المستعمرات في آسيا وإفريقية أو عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويسندونها في البلاد (المستقلة !) لتحل محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية ! تنكر " الغيبية " لأنها " علمية " ! و " تطوّر " الأخلاق لتصبح هي أخلاق البهائم التي ينزو بعضها على بعض في " حرية ! " ، و " تطوّر " كذلك الفقه الإسلامي ، وتقيم له مؤتمرات المستشرقين لتطويره . كيما يحل الربا والاختلاط الجنسي وسائر المحرمات الإسلامية ! !

إنها المعركة الوحشية الضارية يخوضها أهل الكتاب مع هذا الدين ، الذي بشروا به وبنبيه منذ ذلك الأمد البعيد . ولكنهم تلقوه هذا التلقي اللئيم الخبيث العنيد ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1373 . 1379 ﴾

(392/291)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة الأعراف (7) : الآيات 88 إلى 89]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (89)

الإعراب :

(قال) فعل ماض (الملأ) فاعل مرفوع (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت للملأ

(استكبروا) فعل ماض مبنيّ على

(393/291)

الضمّ . . والواو ضمير في محلّ رفع فاعل (من قوم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل استكبروا و(الهاء) ضمير مضاف إليه (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نخرجنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) نون التوكيد و(الكاف) ضمير في محلّ نصب مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (يا) أداة نداء (شعيب) منادى مفرد علم

مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الواو) عاطفة (الذين) موصول في محلّ نصب معطوف على ضمير المخاطب في (نخرجنّك) ، (آمنوا) مثل استكبروا (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (آمنوا) ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (من قرية) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نخرجنّ) ، و(نا) ضمير في محل جرّ مضاف إليه (أو) حرف عطف (اللام) مثل الأول (تعودنّ) مضارع مرفوع " 1 " وعلامة الرفع ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال و . . الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل مرفوع " 2 " . و(النون) نون التوكيد (في ملّة) جارّ ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل تعودنّ و(نا) ضمير مضاف إليه " 3 " ، (قال) مثل الأول (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الواو) واو الحال " 4 " ، (لو)

---

(1) تامّ أو ناقص . . ويقدر ناقصا بمعنى تصيرون لأن شعيبا لم يكن من ملّتهم حتى يعود إليها . . ويؤوّل تامّا على قاعدة التغليب إذ أنّ قوم شعيب كانوا من ملّة المستكبرين .

(2) أو هي اسم للفعل إذا قدّر ناقصا .

(3) والجارّ والمجرور خبر للفعل إذا قدّر ناقصا .

(4) هذا الإعراب على رأي الزمخشري ، ولكن أبا حيان يقول : " هذه الواو هي واو العطف عطفت على حال محذوفة كقوله عليه السلام : " ردّوا السائل ولو بظلف محرق " ليس المعنى ردّوه في حال الصدقة عليه بظلف محرق بل المعنى ردّوه مصحوبا بالصدقة ولو مصحوبا بظلف محرّق . . " . اه

حرف موصول " 1 " (كنّا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير في محلّ رفع اسم كان (كارهين) خبر كنّا منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : قال الملأ . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : استكبروا . . . لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : نخرجنّك لا محلّ لها جواب قسم مقدر ، وجملة القسم المقدّر في محلّ نصب مقول القول .

وجملة النداء : يا شعيب لا محلّ لها معترضة للتهديد .

وجملة : آمنوا لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : تعودنّ لا محلّ لها جواب قسم مقدّر ، وجملة القسم المقدّر معطوفة على جملة القسم الأولى في محلّ نصب .

وجملة : قال . . . لا محلّ لها استئنافيّة بيانية . . وجملة مقول القول محذوفة والتقدير : أ نعود فيها .

وجملة : كنّا كارهين في محلّ نصب حال من الضمير في الفعل المقدّر نعود .

(قد) حرف تحقيق (افترينا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير في محلّ رفع فاعل (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ(افترينا) ، (كذبا) مفعول به منصوب " 2 " ، (إن) حرف شرط جازم (عدنا) مثل افترينا ،

---

(1) قال الجمل في حاشيته : " لو في مثل هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشيء لانتفاء غيره بل لمجرد الربط " اه .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر إن ضمّن (افترى) معنى كذب .

(395/291)

والفعل في محلّ جزم فعل الشرط " 1 " ، (في ملّتكم) مثل في ملّتنا (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ(عدنا) ، (إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (نجّانا) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف . .

ومفعوله (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نجّانا) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية (يكون) مضارع تامّ بمعنى ينبغي مرفوع (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ(يكون) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (نعود) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن " 2 " ، (فيها) مثل منها متعلّق

بمحذوف حال .

والمصدر المؤوّل (أن نعود) في محلّ رفع فاعل يكون .

(إلّا) حرف للاستثناء (أن يشاء) مثل أن نعود (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ربّ) نعت للفظ الجلالة مرفوع مثله و(نا) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يشاء اللّه) في محلّ نصب على الاستثناء من عموم الأحوال أي إلّا حال مشيئة اللّه " 3 " .

(وسع) فعل ماض (ربّنا) فاعل مرفوع ، و(نا) ضمير مضاف إليه (كلّ) مفعول به منصوب (شيء) مضاف إليه مجرور (علما) تمييز منصوب محوّل عن الفاعل (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (توكّلنا) وهو مثل افترينا (ربّ) منادى مضاف منصوب محذوف منه حرف النداء و(نا) ضمير

---

(1) انظر الحاشية رقم (1) في الصفحة 6 .

(2) بجعل الفعل ناقصا أو تاما .

(3) أو ما يكون لنا أن نعود فيها في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة اللّه . . وهذا التقدير لا يصح في حق الأنبياء لأنهم معصومون في كل وقت .

مضاف إليه (افتح) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (افتح) ، و(نا) مثل المتقدّم (الواو) عاطفة (بين) مثل الأول ومعطوف عليه (قوم) مضاف إليه مجرور و(نا) مثل المتقدّم (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (افتح) بتضمينه معنى احكم (الواو) استئنافيّة (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (خير) خبر مرفوع (الفاتحين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : قد افترينا . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : عدنا في ملّتكم لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله ، أي إن عدنا فقد افترينا .

وجملة : نجّانا اللّه . . . في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة : ما يكون . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة قد افترينا " 1 " .

وجملة : نعود لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : يشاء اللّه لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : وسع ربّنا . . . لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

وجملة : توكّلنا لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء : ربّنا . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : افتح . . . لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : أنت خير الفاتحين لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) لأنّ الفعل (افترينا) بمعنى المستقبل نفتري على الرغم من تقدم (قد) عليه .

(397/291)

الصرف :

(كارهين) ، جمع كاره ، اسم فاعل من كره الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(نجّانا) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله نجّينا - بالياء - فلمّا تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا نجّانا ، وزنه فعّلنا .

(الفاتحين) ، جمع الفاتح ، اسم فاعل من فتح الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

[سورة الأعراف (7) : آية 90]

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90)

الإعراب :

(قال الملأ . . . من قومه) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (اتّبعتم) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . و(تم) ضمير

فاعل (شعيبا) مفعول به منصوب (إنّ) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (إذا) حرف جواب لا عمل له " 2 " ، (اللام) لام القسم التي تفيد ربط الجواب بالقسم " 3 " ، (خاسرون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

---

(1) في الآية (88) من هذه الصورة .

(2) ولكن تفيد التوكيد . . وقال أبو حيان في البحر المحيط : وزعم بعض النحويين انها في موضع الظرف والعامل فيه لخاسرون والنون عوض من المحذوف والتقدير : إنكم إذا ابتعتموه لخاسرون ، فلما حذف ما أضيف إليه عوض من ذلك النون . . . مثل التعويض في يومئذ وحينئذ ونحوه ، وما ذهب إليه هذا الزاعم ليس بشيء لأنه لم يثبت التعويض والحذف في إذا التي للاستقبال في موضع فيحمل عليه هذا . . . " أ ه . [. . . . .]

(3) وهي المزحلقة من غير القسم .

(398/291)

وجملة : قال الملأ . . لا محلّ لها معطوفة على جملة قال الملأ الذين استكبروا .

وجملة : كفروا لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : اتّبعتم في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: إنّكم . . لخاسرون لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

[سورة الأعراف (7): آية 91]

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة (أخذت) فعل ماض . . و(التاء) للتأنيث و(هم) ضمير مفعول به (الرجفة) فاعل مرفوع (الفاء) مثل الأولى (أصبحوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على الضمّ . . والواو ضمير في محلّ رفع اسم أصبح (في دار) جارّ ومجرور متعلّق بجاثمين وهو خبر أصبح منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: أخذتهم الرجفة لا محلّ لها معطوفة على جملة قال الملأ . . .

وجملة: أصبحوا . . . جاثمين لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذتهم الرجفة.

[سورة الأعراف (7): الآيات 92 إلى 93]

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (93)

الإعراب:

(الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (كذّبوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (شعيبا) مفعول به منصوب (كأنّ) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها محذوف تقديره كأنهم (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يغنوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يغنوا) ، (الذين كذّبوا شعيبا) مثل الأولى (كانوا) مثل أصبحوا " 1 " ، (هم) ضمير فصل (الخاسرين) خبر كانوا منصوب .

جملة : الذين كذّبوا . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : كذّبوا . . . لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : كأن لم يغنوا . . . في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : يغنوا . . . في محل رفع خبر كأن المخفّفة .

وجملة : الذين كذّبوا (الثانية) لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة .

وجملة : كذّبوا (الثانية) لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : كانوا . . الخاسرين في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) الثاني .

(الفاء) عاطفة (تولّى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل ضمير

مستتر تقديره هو (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تولّى) ، (الواو) عاطفة (قال) فعل ماض ، والفاعل هو (يا) حرف للنداء (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف و(الياء) المحذوفة ضمير

---

(1) في الآية (91) السابقة .

(400/291)

مضاف إليه (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (أبلغت) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(التاء) فاعل و(كم) ضمير مفعول به (رسالات) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الكسرة (ربّ) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (نصحت) مثل أبلغت (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نصحت) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال عامله (آسى) وهو مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (على قوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آسى) ، (كافرين) نعت لقوم مجرور مثله وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : تولّى . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة أصبحوا . .

جاثمين " 1 " .

وجملة : قال . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة تولّى .

وجملة النداء : يا قوم في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : قد أبلغتكم لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّر جواب النداء .

وجملة : نصحت لا محلّ لها معطوفة على جملة أبلغت . .

وجملة : آسى . . . في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي ، إن لم تؤمنوا فكيف آسى . .

الصرف :

(يغنوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله يغناوا ، حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة ، ثمّ بقيت الفتحة على النون دلالة على

---

(1) في الآية (91) السابقة وما بين الجملتين في حكم الاعتراض .

الألف المحذوفة .

(آسى) ، المدّة فيه منقلبة عن همزتين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة وأصله أأسى . وفيه إعلال بالقلب حيث قلبت الياء فيه – وهي لام الفعل – إلى ألف لمجيئها متحرّكة بعد فتح فماضيه أسي والمضارع أصله يأسي – بالياء – ثمّ أصبح بأسى – بالألف – .

البلاغة

1 – التكرير : في قوله تعالى " الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً " وذلك مبالغة في ردّ مقالة الملأ لأشياعهم ، وتسفيه لرأيهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم ، واستعظام لما جرى عليهم .

2 – وصف لحال النفس في ترددها :

فقد اشتدّ حزنه على قومه ، ثم أنكر على نفسه ، فقال : فكيف يشتدّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 94 إلى 96]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (95) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (96)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (أرسلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون. و(نا) ضمير في محلّ رفع فاعل (في قرية) جارّ ومجرور متعلّق بـ(أرسلنا)، (من) حرف جرّ زائد (نبيّ) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (إلّا) حرف للحصر (أخذنا) مثل أرسلنا (أهل) مفعول به منصوب و(ها) ضمير مضاف إليه (بالبأساء) جارّ وجرور متعلّق بفعل أخذنا بتضمينه معنى عاقبنا (الواو) عاطفة (الضرّاء) معطوفة على البأساء مجرور (لعلّ) حرف للترجّي والنصب - ناسخ - و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (يضّرّعون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل.

جملة: أرسلنا... لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: أخذنا... في محلّ نصب حال بتقدير (قد).

وجملة: لعلّهم يضّرّعون لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: يضّرّعون في محلّ رفع خبر لعلّ.

(402/291)

(ثمّ) حرف عطف (بدّلنا) مثل أرسلنا (مكان) مفعول به ثان مقدّم " 1 " منصوب (السيّئة) مضاف إليه مجرور (الحسنة) مفعول به منصوب على حذف مضاف أي مكان

الحسنة (حتى) حرف غاية وجرّ (عفوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة . . والواو فاعل (الواو) حرف عطف (قالوا) فعل ماض وفاعله (قد) حرف تحقيق (مسّ) فعل ماض (آباء) مفعول به مقدّم منصوب و(نا) ضمير مضاف إليه (الضرّاء) فاعل مرفوع (السرّاء) معطوف على الضرّاء بالواو (الفاء) عاطفة (أخذنا) مثل أرسلنا و(هم) ضمير مفعول به (بغتة) مصدر في موضع الحال من فاعل أخذناهم أو من مفعوله " 2 " ، (الواو) حاليّة (هم) ضمير في محلّ رفع مبتدأ (لا) نافية (يشعرون) مضارع مرفوع. والواو فاعل.

---

(1) أو منصوب على نزع الخافض أي بمكان السيّئة ، وذلك لأن الفعل بدّل إذا لحقت الباء أحد مفعوليه كان هو المفعول الثاني المتروك .

(2) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر بتضمين أخذناهم معنى بغتناهم .

أو هو دالّ على نوع المصدر أي أخذناهم أخذ المباغتة .

(403/291)

وجملة : بدّلناهم . . . في محلّ نصب معطوفة على جملة أخذنا .

وجملة : عفوا . . . لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر . . والمصدر المؤوّل (أن

عفوا) في محل جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (بدّلنا) .

وجملة : قالوا . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة عفوا .

وجملة : قد مسّ . . الضرّاء في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : أخذناهم . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا وبين الجملتين رابطة المسبّب والسبب .

وجملة : هم لا يشعرون في محلّ نصب حال مؤكّدة .

وجملة : لا يشعرون في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

(الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (أنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (أهل) اسم أنّ منصوب (القرى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة (آمنوا) مثل قالوا (الواو) عاطفة (اتّقوا) مثل عفوا .

والمصدر المؤوّل (أنّ أهل القرى . .) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت أي : لو ثبت إيمان أهل القرى وتقواهم .

(اللام) واقعة في جواب لو (فتحنا) مثل أرسلنا (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (فتحنا) بتضمينه معنى صببنا (بركات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (من السماء) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لبركات (الواو) عاطفة (الأرض) معطوفة على السماء مجرور (الواو) عاطفة (لكن) حرف للاستدراك (كذّبوا) مثل قالوا

(الفاء) – عاطفة سببيّة (أخذنا) مثل الأول و(هم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ للسببيّة

(ما) حرف مصدريّ " 1 " (كانوا) فعل ماض ناقص واسمه (يكسبون) مثل يضرّعون .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا يكسبون) في محلّ جر بالباء متعلّق بـ (أخذناهم) بتضمينه عذّبناهم .

وجملة : (ثبت) إيمان . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلنا من قرية .

وجملة : آمنوا في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : اتّقوا في محلّ رفع معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : فتحنا لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم .

وجملة : كذّبوا . . . في محل رفع معطوفة على جملة آمنوا . .

وجملة : أخذناهم في محلّ رفع معطوفة على جملة كذّبوا .

وجملة : كانوا يكسبون لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : يكسبون في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(يضّرّعون) ، فيه إبدال التاء ضادا لمقاربة المخرج في كلا الحرفين لأنّ أصله يتضرّعون فلما قلبت التاء ضادا سكّنت الضاد الأولى لمناسبة الإدغام ، وزنه يتفعّلون .

(بركات) ، جمع بركة ، وهو اسم من بارك الرباعيّ بمعنى النماء والزيادة ، وزنه فعلة لفتحتين .

---

(1) أو اسم موصول في محل جر بالباء متعلّق بـ (أخذناهم) . . وجملة كانوا يكسبون لا محلّ لها صلة الموصول والعائد محذوف .

(404/291)

[سورة الأعراف (7) : الآيات 97 إلى 100]

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (أمن) فعل ماض (أهل) فاعل مرفوع (القرى) مضاف إليه مجرور (أن) حرف مصدريّ ونصب (يأتي) مضارع منصوب و(هم) ضمير مفعول به (بأس) فاعل مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (بيا تا) ظرف زمان منصوب " 1 " متعلّق بـ

(يأتي) ، (الواو) واو الحال (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (نائمون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة أمن أهل القرى لا محلّ لها استئنافيّة . . . أو معطوفة على جملة (ثبت) إيمان أهل القرى " 2 " .

وجملة : يأتيهم بأسنا لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) أو هو حال من المفعول أي غافلين ليلا ، وقد يكون حالا من الفاعل أي متخفيا ليلا .

(2) في جعل الفاء عاطفة ذهب المعربون مذاهب شتى وتأويلات مختلفة . . فبعضهم عطف على جملة أخذناهم بغتة ، وجعل ما بين المعطوف والمعطوف عليه معترضا – وهو رأي الزمخشري ، وتبعه أبو حيّان – وذهب آخرون إلى تقدير معطوف عليه محذوف بين الهمزة والفاء . . . وكلّهم يفعل ذلك لأنّ الفاء عندهم عاطفة ، ويمكن استبعاد هذه التأويلات بجعل الفاء استئنافيّة ، والمعنى لا يأباه .

(405/291)

وجملة : هم نائمون في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في يأتيهم .

والمصدر المؤوّل (أن يأتيهم بأسنا) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره (من) متعلّق بـ

(أمن) . . أو هو في محلّ نصب مفعول به عامله أمن .

(أو أمن . . . وهم) تعرب كنظيرتها المتقدّمة ، والواو بعد الاستفهام عاطفة (يلعبون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

وجملة : أمن أهل القرى . . لا محلّ لها معطوفة على جملة أمن أهل (الأولى) .

وجملة : يأتيهم بأسنا لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : هم يلعبون في محلّ نصب حال من ضمير المفعول .

وجملة : يلعبون في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

والمصدر المؤوّل (أن يأتيهم بأسنا) كالمصدر المؤوّل السابق .

(الهمزة) مثل الأولى (الفاء) عاطفة (أمنوا) فعل ماض وفاعله (مكر) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الفاء) تعليليّة " 1 " ، (لا) نافية (يأمن) مضارع مرفوع (مكر) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (إلا) أداة حصر (القوم) فاعل مرفوع (الخاسرون) نعت للقوم مرفوع وعلامة الرفع الواو .

---

(1) لأن ما بعدها تعليل لمقدّر ، وتقدير الكلام : أ فأمنوا مكر اللّه . . إنهم واهمون لأنّه لا يأمن مكر اللّه إلّا القوم الخاسرون ويقول العكبري : " الفاء للتنبيه على أن العذاب يعقب أمن مكر اللّه " أ ه .

وجملة : أمنوا . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة أمن أهل القرى . .

وجملة : لا يأمن . . إلا القوم لا محلّ لها تعليل لمقدّر .

(الهمزة) مثل الأولى وللتوبيخ (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يهد) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يهد) بتضمينه معنى يتّضح ويتبيّن (يرثون) مثل يلعبون (الأرض) مفعول به منصوب (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يرثون) ، (أهل) مضاف إليه مجرور (ها) ضمير مضاف إليه (أن) مخفّفة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف (لو) حرف شرط غير جازم (نشاء) مضارع مرفوع والفاعل ضمير تقديره نحن (أصبنا) فعل ماض وفاعله و(هم) ضمير مفعول به .

والمصدر المؤوّل (أن لو نشاء . . .) في محلّ رفع فاعل يهد " 1 " ، أي أو لم يتّضح للوارثين إصابتنا إيّاهم بذنوبهم لو شئنا ذلك .

(بذنوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أصبنا) والباء للسببيّة و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (نطبع) مثل نشاء (على) قلوب جارّ ومجرور متعلّق بـ (نطبع) ، و(هم) مثل

الأخير (الفاء) عاطفة (هم) ضمير منفصل مبتدأ (لا) نافية (يسمعون) مثل يلعبون .

وجملة : لم يهد . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة أمنوا مكر اللّه .

---

(1) يجوز أن يكون الفاعل ضميرا مستترا يعود على لفظ الجلالة . . ويصبح المصدر المؤوّل مفعولا به . كما يجوز أن يكون ضميرا يعود على ما يفهم من سياق الكلام أي أو لم يهد ما جرى للأمم السابقة . والمصدر المؤوّل مفعول .

(407/291)

وجملة : يرثون . . . لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : نشاء في محلّ رفع خبر أن المخفّفة .

وجملة : أصبناهم لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : نطبع . . . لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : هم لا يسمعون لا محلّ لها معطوفة على جملة نطبع .

وجملة : لا يسمعون في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

الصرف :

(الضحى) ، بالضمّ والقصر ، اسم دالّ على أول ارتفاع الشمس ، وزنه فعل بضمّ ففتح ،

والألف منقلبة عن واو لأنه مأخوذ من ضحا يضحو أي برز للشمس ، وإنما رسمت الألف برسم الياء لأنه من الثلاثيّ المضموم الأول الذي أجاز فيه العلماء رسمه بوجهين : الألف الطويلة – الضحا – والألف القصيرة ، الياء غير المنقوطة – الضحى – كالربا والربى ، والعلا والعلى . . .

(مكر) ، مصدر سماعيّ لفعل مكر يمكن باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون . . ومكر اللّه على المجاز ومعناه مجازاة المرء على المكر .

(يهد) ، فبه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله يهدي ، وزنه يفع .

(يرثون) ، فيه إعلال بالحذف فهو معتلّ مثال ، حذفت فاؤه في المضارع لأنّ عينه جاءت مكسورة وزنه يعلون .

---

(1) لا يجوز أن تكون (الواو) قبل الفعل عاطفة ، وبالتالي لا يجوز أن تكون الجملة معطوفة على ما سبق وهو جواب لو أي جملة أصبناهم لأنّ الجواب في حيز النفي – الجواب ممتنع لامتناع الشرط – و(نطبع) في حيز الإثبات إذ المراد إثباته ، ولهذا كانت (الواو) استئنافيّة والجملة بعدها مستأنفة .

(408/291)

[سورة الأعراف (7) : الآيات 101 إلى 103]

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101) وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103)

الإعراب :

(تي) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (القرى) بدل من تلك أو عطف بيان " 1 " ، (نقصّ) مضارع مرفوع والفاعل نحن للتعظيم (على) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نقصّ) ، (من أنباء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نقصّ) ، و(ها) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (جاءت) فعل ماض . . و(هم) ضمير مفعول به (رسل) فاعل مرفوع و(هم) مضاف إليه (بالبيّنات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاءتهم) ، (الفاء) عاطفة (ما) حرف نفي (كانوا) ماض ناقص - ناسخ مبنيّ على الضمّ . .

والواو ضمير اسم كان (اللام) لام الجحود (يؤمنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لاسم الإشارة وهو اختيار أبي حيان في النهر المادّ من البحر قال :

" والقرى خبر ونقصّ جملة حالية نحو قوله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا " وفي الإخبار بالقرى معنى التعظيم لها ولمهلكها كما قيل في قوله ذلك الكتاب ، وفي قوله عليه السلام أولئك الملأ من قريش ، ولمّا كان الخبر مقيّدا بالحال أفاد التقييد بالصفة " أ ه .

(409/291)

في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يؤمنوا) ، والعائد محذوف " 1 " ، (كذّبوا) فعل ماض وفاعله

(من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (كذّبوا) .

والمصدر المؤوّل (أن يؤمنوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كانوا أي : ما كانوا مؤهّلين أو مستعدّين للإيمان .

(الكاف) حرف جرّ " 2 " ، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عاملة يطبع (واللام) للبعد ، و(كاف) لخطاب (يطبع) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (على قلوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يطبع) ، (الكافرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : تلك القرى نقصّ . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : نقصّ . . . في محلّ رفع خبر المبتدأ تلك " 3 " .

وجملة : جاءتهم رسلهم . . . لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . .

وجملة القسم المقدّر لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : ما كانوا . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : يؤمنوا . . . لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

---

(1) أو هو حرف مصدري يؤوّل مع ما بعده بمصدر في محلّ جرّ ، والباء سببيّة أي ما كانوا ليؤمنوا بسبب كذبهم من قبل .

(2) أو اسم بمعنى مثل في محل نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته .

[. . . . .]

(3) أو خبر ثان بكون القرى خبر أوّل ، أو في محلّ نصب حال والقرى هو الخبر .

(410/291)

وجملة : كذّبوا . . . لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : يطبع اللّه . . . لا محلّ لها استئنافيّة أو اعتراضيّة .

(الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (وجدنا) فعل ماض وفاعله (لأكثر) جارّ ومجرور متعلّق

بمحذوف حال من عهد " 1 " و(هم) ضمير مضاف إليه (من) حرف جرّ زائد (عهد) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به عامله وجد (للواو) عاطفة (إن) مخفّفة من الثقيلة، مهملة " 2 " ، (وجدنا) مثل الأول (أكثر) مفعول به أوّل منصوب و(هم) مثل الأخير (اللام) هي الفارقة (فاسقين) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : وجدنا لأكثرهم . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة يطبع . .

أو على جملة ما كانوا ليؤمنوا .

وجملة : إن وجدنا . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة ما وجدنا .

(ثمّ) حرف عطف (بعثنا) مثل وجدنا (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بعثنا) " 3 " ، و(هم) ضمير مضاف إليه (موسى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بعثنا) ، و(نا) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (إلى فرعون) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بعثنا) ، وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف للعلميّة

---

(1) هذا إذا كان الفعل (وجد) متعديا لواحد . . وهو المفعول الثاني إذا كان متعدّيا لاثنين .

(2) إن المخفّفة إذا باشرت الفعل وجب إهمالها ، ولكنّ العكبري والزمخشري أعملاها ،

والاسم عند العكبري ضمير المتكلم ، وعند الزمخشري ضمير الشأن .

(3) أو بمحذوف حال من (موسى) أي رسولا من بعدهم .

(411/291)

و العجمة (الواو) عاطفة (ملأ) معطوف على فرعون مجرور و(الهاء) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (ظلموا) مثل كذّبوا (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ظلموا) بتضمينه معنى كفروا " 1 " ، (الفاء) استئنافيّة (انظر) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب خبر كان مقدّم (عاقبة) اسم كان مرفوع (المفسدين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : بعثنا . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة وجدنا .

وجملة : ظلموا . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة بعثنا .

وجملة : انظر . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : كان عاقبة . . . في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام كيف .

البلاغة

وضع الظاهر موضع الضمير : في قوله تعالى "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ " " أي

قلوبهم) فوضع المظهر موضع المضمر ليدل على أن الطبع بسبب الكفر ، وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وإدخال الروعة .

الفوائد

(1) الباء سببيّة والمفعول محذوف أي ظلموا أنفسهم أو الناس أي الصدود عن الإيمان بسبب هذه الآيات .

- اللام الفارقة هي اللام المفتوحة التي تقع في أول خبر " إن " المخففة من الثقيلة ، وغرضها أن تفرق بين " إن " المخففة وإن النافية .

و" إن " هذه إذا وليها (فعل) تهمل وجوبا ، وإن وليها " اسم " فيكثر إهمالها ويقلّ إعمالها نحو إن خالدا لمجتهد . . !

[سورة الأعراف (7) : آية 104]

وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (104)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض (موسى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (يا) حرف نداء (فرعون) منادى مفرد على مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (رسول) خبر مرفوع (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رسول) ، (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : قال موسى . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : يا فرعون في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : إنّي رسول . . . لا محلّ لها جواب النداء .

الفوائد

فرعون : ممنوع من الصرف ، والمانع له علتان ، هما : العلمية والعجمة ، وكل اسم ممنوع من الصرف لا بد أن يشتمل على علتين تمنعانه من الصرف ، يستثني من ذلك صيغتا منتهى الجموع " مفاعل ومفاعيل " وألف التأنيث الممدودة .

وللبحث تتمة سنستأنفه في موضع آخر .

[سورة الأعراف (7) : آية 105]

حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (105)

الإعراب :

(حقيق) خبر ثان للحرف المشبّه بالفعل إنّ " 1 " ، (على) حرف جرّ (أن) حرف مصدري ونصب (لا) حرف ناف (أقول) مضارع منصوب بأن ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أقول) بتضمينه معنى ادّعي (إلا) أداة حصر (الحق) مفعول به منصوب " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن لا أقول . .) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (حقيق) على معنى حريص " 3 " .

(413/291)

(قد) حرف تحقيق (جئت) فعل ماض وفاعله و(كم) ضمير مفعول به (ببيّنة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جئتكم) (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لبيّنة " 4 " ، و(كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أرسل) فعل أمر والفاعل أنت (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (أرسل) ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (بني) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من التنوين للعلميّة والعجمة .

جملة : أقول . . . لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : قد جئتكم في محلّ رفع خبر ثالث للحرف المشبّه بالفعل انّ " 5 " .

---

(1) في الآية السابقة ، أو هو نعت لرسول في الآية السابقة . . أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنا ، والجملة مستأنفة .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته .

(3) بعض المعربين يجعل الجارّ (على) بمعنى الباء – وكذا جاءت قراءة أبيّ – وبهذا يضمّن حقيق معنى جدير .

(4) أو متعلّق بـ (جئتكم) ، و(من) لابتداء الغاية .

(5) أو خبر ثان للمبتدأ المحذوف أنا .

(414/291)

وجملة : أرسل . . في محلّ جزم جواب شرط أي مقدر أي ان كنت بقولي مؤمنا فأرسل .

الصرف :

(حقيق) ، صفة مشتقّة على وزن فعيل بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول ، والغالب أنّه بمعنى الفاعل لأنه يأتي بمعنى واجب وحريص وجدير .

[سورة الأعراف (7) : آية 106]

قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106)

الإعراب :

(قال) فعل ماض والفاعل هو (إن) حرف شرط جازم (كنت) فعل ماض ناقص - ناسخ - في محل جزم فعل الشرط ، و(التاء) اسم كان (جئت) فعل ماض وفاعله (بآية) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جئت) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ائت) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ائت) ، (إن كنت) مثل الأولى (من الصادقين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كنت ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : (كنت جئت) في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " جئت بآية " في محلّ نصب خبر كنت .

وجملة : " ائت بها " في محلّ جزم جواب الشرط .

وجملة : "كنت من الصادقين " لا محلّ لها استئناف لتأكيد ما تقدّم . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : فأت بها .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 107 إلى 108]

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنّاظِرِينَ (108)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (ألقى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (عصا) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب " 1 " ، (إذا) فجائيّة " 2 " ، (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ثعبان) خبر مرفوع (مبين) نعت لثعبان مرفوع.

وجملة : " ألقى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال " 3 " .

وجملة : " هي ثعبان " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقى .

(الواو) عاطفة (نزع) فعل ماض والفاعل هو (يد) مفعول به منصوب و(الهاء) مضاف إليه (فاذا هي بيضاء) مثل فإذا هي ثعبان (للناظرين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بيضاء) بمعنى عجيبة .

وجملة : " نزع يده " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقى عصاه .

وجملة : " هي بيضاء " لا محلّ لها معطوفة على جملة نزع . . .

---

(1) هذه الفاء زائدة لازمة عند الفارسيّ والمازنيّ وجماعة . . وبعضهم يجعلها للسببيّة المحضة دون العطف .

(2) هي على القول المشهور حرف يأتي لمجرّد الربط . . وعند بعضهم ظرف للمكان ، وعند آخرين ظرف للزمان .

(3) في الآية السابقة (106) .

(415/291)

الصرف :

(ثعبان) ، اسم جامد لذكر الحيّات أو العظيم الضخم ، وزنه فعلان بضمّ الفاء وسكون العين .

(بيضاء) ، مؤنّث أبيض صفة مشبّهة باسم الفاعل ، وزنه فعلاء يجمع على فعل بضمّ فسكون أي بيض .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 109 إلى 110]

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (110)

الإعراب :

(قال الملأ) فعل ماض وفاعله المرفوع (من قوم) جار ومجرور متعلّق بحال من الملأ (فرعون)

مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة للعلميّة والعجمة (إن) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ

(ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) تفيد التوكيد

(ساحر) خبر مرفوع (عليم) نعت لساحر مرفوع.

جملة: "قال الملأ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إنّ هذا لساحر " في محلّ نصب مقول القول.

(يريد) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (أن) حرف مصدري ونصب

(يخرج) مضارع منصوب و(كم) ضمير مفعول به والفاعل هو (من أرض) جارّ ومجرور

متعلّق بـ (يخرج)، و(كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) استئنافيّة – أو عاطفة – " 1 "،

(ما) اسم استفهام مبتدأ في

---

(1) إن كان الكلام الذي تلاها من كلام الملأ فهي للعطف، وإن كان من كلام فرعون – وهو الظاهر – فهي للاستئناف أي فقال: ماذا تأمرون، ويدلّ على ذلك قولهم بعد ذلك: قالوا أرجه . . . [. . . . .]

محلّ رفع (ذا) اسم موصول في محلّ رفع خبر ، (تأمرون) - بفتح النون - مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يخرجكم) في محلّ نصب مفعول به .

وجملة : " يريد . . . " في محلّ رفع خبر ثان لـ " إنّ " " 1 " .

وجملة : " ماذا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول محذوف . .

وجملة القول المقدّرة استئنافيّة لا محلّ لها " 2 " .

وجملة : " تأمرون " لا محلّ لها صلة الموصول ، والعائد محذوف أي ماذا تأمرونيه " 3 " .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 111 إلى 112]

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (112)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (أرجه) فعل أمر مبنيّ على السكون الظاهر على الهمزة المحذوفة للتخفيف أصله أرجئ " 4 " . . و(الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير

---

(1) أو هي حال من ساحر لأنه وصف . . أو هي نعت ثان لساحر . . أو هي استئناف بيانيّ .

(2) يجوز أن تكون جملة : ماذا . . . معطوفة على جملة يريد أن يخرجكم . هذا ويجوز

أن تكون (ماذا) كلمة واحدة اسم استفهام مفعول به ثان لفعل الأمر ، والمفعول الأول ضمير المتكلّم المقدّر .

(3) إذا أعربت كلمة (ماذا) من غير تجزئة فجملة تأمرون معطوفة على جملة يريد أو هي مقول القول للقول المحذوف .

(4) أو مبنيّ على حذف حرف العلّة إن كان الفعل معتلّا كما تشير كتب اللغة .

(417/291)

مستتر تقديره أنت (الواو) عاطفة (أخا) معطوف على الضمير المتّصل الغائب ، منصوب وعلامة النصب الألف و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أرسل) مثل أرجئ (في المدائن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسل) بتضمينه معنى انشر (حاشرين) مفعول به منصوب – وهو نعت لموصوف محذوف أي رجالا حاشرين – .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرجه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أرسل . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أرجه .

(يأتوا) مضارع مجزوم جواب الطلب ، وعلامة الجزم حذف النون . .

والواو فاعل و(الكاف) ضمير مفعول به (بكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتوك) ، (ساحر) مضاف إليه مجرور (عليم) نعت لساحر مجرور مثله .

وجملة : " يأتوك . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إن ترسل . . يأتوك .

الصرف :

(المدائن) ، جمع المدينة اسم على وزن فعلية فيه الياء زائدة في المفرد لذلك قلبت همزة في الجمع وهو من مدن يمدن بالمكان إذا أقام من باب نصر ، ووزن المدائن فعائل .

(حاشرين) ، جمع حاشر اسم فاعل من حشر الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 113 إلى 114]

وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (113) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (جاء) فعل ماض (السحرة) فاعل مرفوع (فرعون) مفعول به منصوب ، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (اللام) للتأكيد (أجرا) اسم إنّ مؤخّر منصوب (إن) حرف شرط جازم (كنّا)

فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و(نا) ضمير في محلّ رفع اسم كان (نحن) ضمير فصل " 1 " ، (الغالبين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " جاء السحرة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " إنّ لنا لأجرا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إن كنّا نحن الغالبين " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : فهل لنا أجر .

(قال) مثل جاء ، والفاعل هو (نعم) حرف جواب (الواو) عاطفة (إن) مثل الأول و(كم) ضمير اسم إنّ (اللام) هي المزحلقة للتوكيد (من المقرّبين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر إنّ .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

والجملة المقدّرة بعد حرف الجواب في محلّ نصب مقول القول أي نعم إنّكم مأجورون .

---

(1) أو ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد للضمير المتّصل (نا) .

(2) أو هي حال بتقدير (قد) .

وجملة : " إنّكم لمن المقرّبين " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

الصرف :

(السحرة) ، جمع ساحر ، اسم فاعل وزنه فاعل من الثلاثيّ سحر . . ووزن السحرة فعلة بفتحتين .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 115 إلى 116]

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116)

الإعراب :

(قالوا) مثل السابق " 1 " ، (يا) حرف نداء (موسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف في محلّ نصب (إمّا) حرف تخيير (أن) حرف مصدري ونصب (تلقي) مضارع منصوب ، والفاعل أنت .

والمصدر المؤوّل (أن تلقي) في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره مبدوء به " 2 " .

(الواو) عاطفة (إمّا) مثل الأول (أن نكون) مثل أن تلقي ، والفعل ناقص ناسخ ، واسمه نحن ، (نحن الملقين) مثل نحن الغالبين " 3 " .

والمصدر المؤوّل (أن نكون . .) مثل المصدر المؤوّل الأول .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) في الآية (113) من هذه السورة .

(2) أو مفعول به بفعل محذوف تقديره : اختر إلقاءك .

(3) في الآية (113) من هذه السورة .

(419/291)

وجملة : " النداء وصلتها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إلقاؤك (مبدوء به) " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تلقي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " كون إلقائنا (مبدوء به) " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " نكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (ألقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب سحروا (ألقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . والواو فاعل (سحروا) مثل قالوا " 1 " ، (أعين) مفعول به (الواو) عاطفة (جاؤوا) مثل قالوا " 2 " .

(بسحر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاؤوا) " 3 " ، (عظيم) نعت لسحر مجرور .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ألقوا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ألقوا – بفتح القاف – " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " سحروا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " استرهبوهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة سحروا .

وجملة : " جاؤوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سحروا .

(1 ، 2) في الآية (113) من هذه السورة .

(3) أو بمحذوف حال من فاعل جاؤوا .

(420/291)

الصرف :

(الملقين) ، جمع الملقي ، اسم فاعل من ألقى الرباعيّ وزنه المفعل بضمّ الميم وكسر العين . . وفيه إعلال بالحذف حيث اجتمع ياءان ساكنان فحذف الياء الذي هو لام الكلمة تخلّصا من التقاء الساكنين ، ووزن الملقين مفعين وذلك لأنه اسم منقوص .

(ألقوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله ألقيوا ، جاءت الياء مضمومة فاستثقلت عليها الحركة فسكّنت ونقلت الحركة إلى القاف قبلها - إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين فصار ألقوا ، وزنه أفعوا .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 117 إلى 122]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (120) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (121)

رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (122)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أوحينا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير فاعل (إلى موسى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوحينا) ، وعلامة الجرّ الفتحة المقدّرة على الألف ممنوع من الصرف (أن) حرف تفسير (ألق) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (عصا) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (إذا) فجائية لا محلّ لها (هي) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (تلقف) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (يأفكون) مضارع مرفوع ، والواو فاعل ،

(1) أجاز بعضهم أن تكون (ما) مصدرية ، وهذا بعيد إذ كيف يتمّ تلقّف الإفك وهو والعائد محذوف أي يأفكونه .

(421/291)

جملة : " أوحينا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة ألق . . . لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة هي تلقف . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة محذوفة والتقدير فألقاها فإذا هي تلقف . . والجملة المحذوفة لا محلّ لها معطوفة على جملة أوحينا .

وجملة : " تلقف . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هي .

وجملة : " يأفكون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(الفاء) عاطفة (وقع) فعل ماض (الحقّ) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (بطل) مثل وقع (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل " 1 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . . والواو اسم كان (يعملون) مثل يأفكون .

وجملة : " وقع الحقّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هي تلقف .

وجملة : " بطل ما . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وقع الحقّ .

وجملة : "كانوا يعملون" لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "يعملون" في محلّ نصب خبر كانوا .

(الفاء) عاطفة (غلبوا) ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ .

والواو ضمير في محلّ رفع نائب الفاعل (هنالك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بـ (غلبوا) و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب

حدث بينما المعنى أن العصا تلقّفت الحبال والعصيّ ؟ إلّا إذا ضمّنا تلقّف معنى تبطل فحينئذ يصحّ كونها مصدريّة .

(1) أو حرف مصدري ، والمصدر المؤوّل فاعل بطل . [. . . . .]

(422/291)

(الواو) عاطفة (انقلبوا) فعل ماض وفاعله (صاغرين) حال منصوبة من فاعل انقلبوا ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : "غلبوا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بطل . .

وجملة : "انقلبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة غلبوا .

(الواو) عاطفة ! (ألقي) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، (السحرة) نائب الفاعل مرفوع ،

(ساجدين) حال منصوبة من نائب الفاعل وعلامة النصب الياء .

وجملة : " القي السحرة " لا محلّ لها معطوفة على جملة انقلبوا .

(قالوا) مثل انقلبوا ، (آمنّا) مثل أوحينا ، (برت) جارّ ومجرور متعلق بـ (آمنّا) ، (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " آمنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(ربّ) بدل من ربّ الأول مجرور " 2 " ، (موسى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة المقدّرة على الألف ممنوع من المصرف (الواو) عاطفة (هارون) معطوف على موسى مجرور مثله وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف للعلميّة والعجمة .

الصرف :

(ألق) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء فهو أمر المعتلّ يلقي ، وزنه أفع .

(هارون) ، انظر الآية (248) من سورة البقرة .

---

(1) أو في محلّ نصب حال ثانية من نائب الفاعل السحرة ، بتقدير (قد) ، أو من الضمير في ساجدين .

(2) أو هو عطف بيان لربّ ، وأجاز الجمل أن يكون نعتا لربّ العالمين .

الفوائد

- فن القصة القرآنية هو فن مغاير لفن القصة قديمها وحديثها ، فهو يتخذ طريق الحوار من جهة ، وهو يتناول من القصة المواطن الهامة فيها ، ويهمل ما دون ذلك . ولكن القارئ والسامع يقرأ ما بين السطور "كما يقال" فيقف على مجرى القصة من أولها إلى آخرها .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 123 إلى 124]

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124)

الإعراب :

(قال) فعل ماض (فرعون) فاعل مرفوع (آمنتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(تم) ضمير فاعل ، وهمزة استفهام قبله محذوفة وهي للإنكار والتوبيخ (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ حرف مصدري ونصب (آذن) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (آذن) ، (إنّ) حرف

مشبّه بالفعل – ناسخ – (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) هي المزحلقة تفيد التوكيد (مكر) خبر مرفوع (مكرتم) مثل آمنتم و(الواو) زائدة إشباع لحركة الميم و(الهاء) مفعول به (في المدينة) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل مكرتم " 1 " ، (اللام) لام العاقبة أو للتعليل – (اخرجوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والواو فاعل (منها) مثل به متعلّق بـ (تخرجوا) (أهل) مفعول به منصوب و(ها) ضمير مضاف إليه .

---

(1) أو هو متعلق بـ (مكرتموه) .

(424/291)

والمصدر المؤوّل (أن تخرجوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (مكرتموه) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (سوف) حرف للمستقبل (تعلمون) مثل يعملون " 1 " ، ومفعول تعلمون مقدّر أي عاقبة فعلكم .

جملة : " قال فرعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنتم به " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آذن لكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) والمصدر المؤول (أن آذن

. .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّ هذا لمكر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ في حيّز قول فرعون .

وجملة : " مكرتموه " في محلّ رفع نعت لمكر .

وجملة : " سوف تعلمون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن فعلتم فسوف تعلمون . . .

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (أقطعنّ) مصارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع لتجريده من الناصب والجازم . . و(النّون) نون التوكيد ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (أيدي) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أرجلكم) معطوف على أيدي منصوب . . و(كم) مضاف إليه (من خلاف) جارّ ومجرور في محلّ نصب حال (ثمّ) حرف عطف (لأصلّبنّ) مثل لأقطّعنّ و(كم) ضمير مفعول به (أجمعين) توكيد للضمير المتّصل المنصوب تبعه في النصب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " اقطّعنّ . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر ، والقسم وجوابه تفسير للتهديد المتقدّم " 2 " .

---

(1) في الآية (118) من هذه السورة .

(2) أو استئناف بيانيّ .

وجملة : " أصلّبنّكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم بإعادة اللام " 1 "

.

الصرف :

(آذن) ، حرف المدّ فيه أصله همزتان الأولى همزة المضارعة متحرّكة بالفتح والثانية أصلية ساكنة أي أأذن ، فالقاعدة المعروفة أن تقلب الهمزتان مدّة فوق ألف واحدة .

(المدينة) ، اسم جامد وزنه فعلية جمعه مدن زنة فعل بضمتين ومدائن زنة فعائل .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 125 إلى 126]

قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (125) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (126)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (إنّا) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - واسمه (إلى رب) جار ومجرور متعلّق بـ (منقلبون) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (منقلبون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّا . . . منقلبون " في محلّ نصب مقول القول .

(الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (تنقم) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت

(من) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب

---

(1) أو هو جواب قسم مقدّر آخر ، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم الأولى .

(426/291)

(تنقم) بتضمينه معنى تنكر (إلّا) أداة حصر (أن) حرف مصدري (آمنّا) مثل آمنتم " 1 " ، (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمنّا) ، (ربّ) مضاف إليه مجرور و(نا) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن آمنّا) في محلّ نصب مفعول به .

(لمّا) ظرف بمعنى حين متضمن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب المحذوف

(جاءت) فعل ماض و(التاء) تاء التأنث ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي . (ربّنا) منادى مضاف منصوب محذوف منه أداة النداء . . و(نا) ضمير مضاف إليه (أفرغ) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت (على) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أفرغ)

بتضمينه معنى أنزل (صبرا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (توفّ) فعل أمر دعائيّ مبنيّ على حذف حرف العلّة ، و(نا) ضمير مفعول به (مسلمين) حال منصوبة من مفعول توفّنا ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : " تنقم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " آمنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " جاءتنا " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط المحذوف تقديره آمنّا فسّره المذكور قبله .

وجملة النداء وجوابها لا محلّ لها استئناف في حيّز قول السحرة .

وجملة : " أفرغ . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " توفّنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

---

(1) في الآية (123) من هذه السورة .

الصرف :

(منقلبون) ، جمع منقلب ، اسم فاعل من الخماسيّ انقلب ، وزنه منفعل بضمّ الميم وكسر العين .

البلاغة

1 – تأكيد المدح بما يشبه الذم : في قوله تعالى " وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا " أي ما تعيب منا . إلا الإيمان بآيات اللّه ، أرادوا : وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها ، وهو الإيمان ومنه قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

2 – الاستعارة : في قوله تعالى " رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً " أي أفض علينا صبرا يغمرنا كما يفرغ الماء ، أو صب علينا ما يطهرنا من الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون ، (فأفرغ) على الأول استعارة تبعية تصريحية و(صبرا) قرينتها ، والمراد هب لنا صبرا تاما كثيرا ، وعلى الثاني يكون (صبرا) استعارة أصلية مكنية و(أفرغ) تخييلية .

الفوائد

– لمّا حرف شرط ، وتسمى حرف وجود لوجود . ومن العلماء من يجعلها ظرفا للزمان بمعنى " حين " وتسمى لمّا الحينية ، وتضاف إلى جملة الشرط . وهذا هو المشهور .

والمحققون يزعمون أنها حرف للربط .

والحق أن في هذا البحث تفصيلا حريّ بالتحقيق لو لا أن الإطالة غير مرغوب بها في هذا

الموجز .

[سورة الأعراف (7) : آية 127]

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (127)

(428/291)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قال الملأ من قوم فرعون) مرّ إعرابها " 1 " ، (الهمزة) للاستفهام (تذر) مضارع مرفوع ، والفاعل أنت (موسى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف وهو ممنوع من التنوين ، (الواو) عاطفة (قوم) معطوف على موسى منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (اللام) لام العاقبة (يفسدوا) مثل تخرجوا " 2 " ، (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يفسدوا) .

والمصدر المؤوّل (أن يفسدوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تذر) .

(الواو) عاطفة " 3 " ، (يذر) مضارع منصوب معطوف على (يفسدوا) ، و(الكاف) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (آلهة) معطوفة على الضمير المتّصل

المخاطب في (يذرك) ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (قال) فعل ماض والفاعل هو (السين) حرف استقبال (نقتّل) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم ، (أبناءهم) مفعول به منصوب . . و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (نستحيي) مضارع مرفوع (نساءهم) مثل أبناءهم (الواو) حاليّة (إنا) مثل السابق " 4 " ، (فوق) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (قاهرون) ، (وهم) مضاف إليه (قاهرون) خبر إن مرفوع وعلامة الرفع الواو .

---

(1) في الآية (109) من هذه السورة .

(2) في الآية (123) من هذه السور .

(3) أو واو المعيّة والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد واو المعيّة .

والمصدر المؤوّل معطوف على مصدر مأخوذ من الكلام السابق أي : أو ذرّ – أي ترك – لموسى منك ووذر للالهة ولك منه .

(4) في الآية (125) من هذه السورة .

جملة : " قال الملأ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تذر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يفسدوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يذرك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يفسدوا .

وجملة : " قال " . . . لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " سنقتّل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نستحيي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " إنّا فوقهم قاهرون " في محلّ نصب حال من فاعل نقتّل ونستحيي " 1 " .

الصرف :

(قاهرون) ، جمع قاهر اسم فاعل من الثلاثيّ قهر ، وزنه فاعل .

[سورة الأعراف (7) : آية 128]

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)

الإعراب :

(قال) فعل ماض (موسى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف وهو ممنوع من التنوين (لقوم) جار ومجرور متعلّق بـ (قال) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (استعينوا)

فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الواو) فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استعينوا) ، . (الواو) عاطفة (اصبروا) مثل استعينوا (إنّ) حرف مشبّه

---

(1) يجوز قطعها على الاستئناف ، فلا محلّ لها .

(430/291)

بالفعل – ناسخ – (الأرض) اسم إنّ منصوب (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر إنّ (يورث) مضارع مرفوع و(ها) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه (من) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مثل يورث (من عباد) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من العائد المحذوف و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (العاقبة) مبتدأ مرفوع (للمتّقين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قال موسى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " استعينوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اصبروا " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " إنّ الأرض للّه " لا محلّ لها تعليليّة ، أو استئناف بيانيّ .

وجملة : " يورثها . . . " في محلّ نصب حال من لفظ الجلالة " 1 " .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " العاقبة للمتّقين " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ الأرض للّه .

[سورة الأعراف (7) : آية 129]

قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

---

(1) يجوز قطعها على الاستئناف ، فلا محل لها كما يجوز أن تكون خبرا ثانيا في محلّ رفع .

(431/291)

الإعراب

" قالوا " فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (أوذينا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على السكون و(نا) ضمير في محلّ رفع نائب الفاعل (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوذينا) ، (أن) حرف مصدري ونصب (تأتي) مضارع منصوب و(نا) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت .

والمصدر المؤوّل (أن تأتينا) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(الواو) عاطفة (من بعد) مثل من قبل (ما) حرف مصدري (جئتنا) فعل ماض . . .

و(التاء) فاعل . . . و(نا) مفعول به (قال) فعل ماض ، والفاعل هو (عسى) فعل ماض ناقص جامد (ربّ) اسم عسى مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (أن يهلك) مثل أن تأتي (عدوّ) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (يستخلف) مضارع منصوب معطوف على (يهلك) ، و(كم) ضمير مفعول به (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ(يستخلفكم) .

والمصدر المؤوّل (أن يهلك . .) في محلّ نصب خبر عسى .

(الفاء) عاطفة (ينظر) مضارع منصوب معطوف على (يستخلف) ، والفاعل هو أي اللّه (كيف) اسم استفهام مبنيّ على الفتح في محلّ نصب حال من فاعل تعملون (تعملون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أوذينا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تأتينا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " جئتنا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " عسى ربّكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يهلك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " يستخلفكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يهلك .

وجملة : " ينظر . . . " لا محلّ له معطوفة على جملة يستخلفكم .

وجملة : " تعملون " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام كيف .

الفوائد

- كيف : اسم مبهم غير متمكن ، مبني على الفتح ويستفهم به عن حالة الشيء .

والاستفهام بها قد يكون حقيقيا ، وقد يكون غير حقيقي ، نحو "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ" .

وتعرب خبرا مقدما ، نحو "كيف أنت" . أو خبر لكان نحو "كيف كنت" ؟ أو مفعولا ثانيا لظن وأخواتها . وقد تدخل الباء في خبرها من حروف الجر ، فتكون الباء حرف جر زائد ، وتكون كيف في محل رفع خبر متقدم .

وقد تكون في محل نصب مفعول مطلق نحو :

"كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ" . وقد تقع حالا قبل ما يتم به الكلام .

أما "كيف الشرطية" فتقتضي فعلين متفقي اللفظ والمعنى ، غير مجزومين ، نحو "كيف

تصنع أصنع " . وبحث "كيف" دقيق فتأمّل .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 130 إلى 131]

وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (131)

الإعراب :

(433/291)

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (أخذنا) فعل ماض مبنيّ على السكون و(نا) ضمير فاعل للتعظيم (آل) مفعول به منصوب (فرعون) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (بالسنين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخذنا) بتضمينه معنى عاقبنا - أو ابتلينا - وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم (الواو) عاطفة (نقص) معطوف على السنين مجرور (من الثمرات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نقص) فهو مصدر أو اسم مصدر (لعلّ) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (يذّكّرون) مثل تعملون في الآية المتقدّمة (129) .

وجملة : " أخذنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " لعلّهم يذّكّرون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يذّكّرون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

(الفاء) عاطفة (إذا) ظرف للمستقبل فيه معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (قالوا) ، (جاء) فعل ماض (التّاء) للتّأنيث و(هم) ضمير مفعول به (الحسنة) فاعل مرفوع (قالوا) مثل المتقدّم " 1 " ، (اللام) حرف جرّ و(نا)

---

(1) في الآية (129) من هذه السورة . [. . . . .]

ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ها) حرف للتنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (الواو) حرف عطف (إن) حرف شرط جازم (تصب) مضارع مجزوم و(هم) ضمير مفعول به (سيّئة) فاعل مرفوع (يطّيّروا) مضارع مجزوم جواب الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (بموسى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يطّيّروا) ، وعلامة الجرّ الفتحة المقدّرة على الألف فهو ممنوع من الصرف (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ معطوف على موسى (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف

صلة من و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إلا) أداة تنبيه واستفتاح (إنّما) كافّة ومكفوفة (طائر) مبتدأ مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك - ناسخ - (أكثر) اسم لكنّ منصوب و(هم) مثل الأخير (لا) حرف ناف (يعلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

وجملة : " جاءتهم الحسنة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لنا هذه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تصبهم سيّئة . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط المتقدّمة ، وهي معطوفة بالفاء على جملة القسم المقدّرة المستأنفة .

وجملة : " يطّيّروا . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " طائرهم عند اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أكثرهم لا يعلمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة طائرهم عند اللّه .

وجملة : " لا يعلمون . . . " في محل رفع خبر لكن .

الصرف :

(السنين) ، جمع سنة ، وفيه لغتان أشهرهما إجراؤه مجرى جمع المذكّر السالم فيرفع بالواو وينصب ويجرّ بالياء ، وتحذف نونه للإضافة ، واللغة الثانية أن يجعل الإعراب على النون ولكن مع الياء خاصّة ، وهو رأي الفرّاء وانظر الآية (155) من سورة البقرة .

(يطّيّروا) ، فيه إبدال تاء التفعّل طاء لاقتراب المخارج بينهما ، وأصله يتطيّروا ، وكانت الطاء الأولى مفتوحة كما كانت التاء ثمّ سكّنت ليصحّ إدغام الطاءين ، وزنه يتفعّلوا .

(طائرهم) ، اسم فاعل من طار الثلاثيّ وزنه فاعل بقلب حرف العلّة فيه إلى همزة ، وقد استعمل بمعنى قدرهم أو نصيبهم . وفي المصباح :

طائر الإنسان عمله الذي يقلّده . . والاسم الطيرة وزان عنبة وهو التشاؤم .

البلاغة

- في تعريف الحسنة وتنكير السيئة فن عجيب من فنون علم المعاني ، ففي تعريف الحسنة ، وذكرها بأداة التحقيق ، للإيذان بكثرة وقوعها ، وتعلق الإرادة بها بالذات كما أن تنكير السيئة ، وإيرادها بحرف الشك ، للإشعار بندورة وقوعها ، وعدم تعلق الإرادة بها إلا بالعرض .

الفوائد

- التطير : لا أصل للتطير في الحقيقة وإنما هو وهم ، ومرض نفسي ، أخذ به علماء النفس

المعاصرون ، واعتبروا مصدره ضعف الأعصاب ، وتشتت الأفكار . وقد نهى الإسلام عن التطير ، واعتبره مخالفا لقواعد الإيمان .

وقد اشتهر ابن الرومي بالتطير ، وكان يشعر بفرقة ، ويتخذ الحذر ما وسعه الحذر ، وفيه يقول :

فآمن ما يكون المرء يوما إذا لبس الحذار من الخطوب

[سورة الأعراف (7) : آية 132]

وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132)

الإعراب :

(436/291)

(الواو) استئنافيّة (قالوا) مرّ إعرابها (مهما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف يفسّره الفعل الظاهر تقديره (تعطنا) ، وهذا المقدّر يأتي بعد اسم الشرط لأن له الصدارة " 1 " ، (تأت) مضارع مجزوم فعل الشرط للتفسير ، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة و(نا) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تأتنا) ، (من آية) جارّ ومجرور تمييز للضمير في به " 2

" ، (اللام) للتعليل (تسحر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام و(نا) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت (بها) مثل به متعلّق بفعل (تسحر) . والمصدر المؤوّل (أن تسحرنا) في محلّ جرّ متعلّق بـ (تأتي) .

(الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) حرف ناف عامل عمل ليس (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما ، (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (مؤمنين) (الباء) حرف جرّ زائدة (مؤمنين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

والجملة المقدرة : (تعطنا) في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تأتنا " لا محلّ لها تفسيريّة .

---

(1) ذلك أن الظاهر تعدّى إلى المفعول الثاني بوساطة الباء في قوله (تأتنا به) .

(2) أو متعلّق بحال من ضمير في به .

(437/291)

وجملة : " ما نحن . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الصرف :

(مهما) ، فيه ثلاثة أقوال . . . أحدها أنّه مكوّن من (مه) بمعنى اكفف و(ما) اسم للشرط كقوله : ما يفتح اللّه للناس من رحمة .

الثاني أنّ أصل (مه) هو ما الشرطيّة زيدت عليها ما كما زيدت في قوله :

إمّا يأتينّكم . . ثمّ أبدلت الألف الأولى هاء لئلّا تتوالى كلمتان من لفظ واحد . الثالث أنّها بأسرها كلمة واحدة غير مركّبة " 1 " .

الفوائد

وقال في ابن طالب الكاتب :

ويدعى أبوه طالبا وكفاكم به طيرة ان المنية طالب

و

كان رسول اللّه/ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم/ يكره الطيرة ويقول : إذا تطيرتم فامضوا وعلى اللّه فتوكلوا .

– مهما : قد استدل بعض النحاة على أنها حرف بقول زهير بن أبي سلمى :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فلم يكن في هذا البيت لـ " مهما " محل من الإعراب ، وذهب بعض المحققين إلى أن مهما في هذا البيت في محل رفع مبتدأ ، وهو الأرجح .

أما ابن مالك فقد ذكر أن ما ومهما تردان ظرفي زمان فقال :

وقد أتت مهما وما ظرفين في شواهد من يعتضد بها كفى

وللعلماء ردود عليه ، وعلى رأسهم الزمخشري ، لا نرى الخوض فيها ، فنخرج عن مجرى الكتاب .

---

(1) العكبري في (إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب . .)

(438/291)

[سورة الأعراف (7) : آية 133]

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (133)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (أرسلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . .

و(نا) ضمير فاعل (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أرسلنا) ، (الطوفان) مفعول به منصوب (الجراد . . الدم) ألفاظ معطوفة بحروف العطف على الطوفان منصوبة مثله (آيات) حال منصوبة من الألفاظ الخمسة ، وعلامة النصب الكسرة (مفصّلات) نعت لآيات منصوب وعلامة النصب الكسرة (الفاء) عاطفة (استكبروا)

فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (كانوا) ناقص يعرب مثل استكبروا . . والواو اسم كان (قوما) خبر كانوا منصوب (مجرمين) نعت لـ (قوما) منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : "أرسلنا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا . . . " 1 " .

وجملة : "استكبروا "لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلنا .

وجملة : "كانوا قوما . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة استكبروا .

الصرف :

(الطوفان) ، فيه قولان : أحدهما هو جمع طوفانة أي هو اسم جنس كقمح وقمحة . الثاني هو مصدر كالنقصان ، وزنه فعلان بضمّ فسكون .

(الجراد) ، اسم جنس واحدته جرادة للذكر والأنثى ، قال بعضهم أنّه مشتقّ من الجرد ، وزنه فعال بفتح الفاء .

---

(1) في الآية (132) السابقة .

(القمّل) ، اسم جنس واحدته قملة للذكر والأنثى ، وزنه فعّل بضمّ الفاء وفتح العين المشدّدة ، وفي لفظه لغة أخرى هي القمل بفتح القاف وسكون الميم .

(الضفادع) ، جمع ضفدع بوزن درهم ، ويجوز كسر الدال ، والضفدع مؤنّث ، ويفرّق بين ذكره وأنثاه بالوصف فيقال ضفدع ذكر وضفدع أنثى .

وفي القاموس الضفدع كزبرج بكسر الدال وجعفر وجندب بضمّ الضاد والدال ودرهم – وهذا أقلّ أو مردود – الواحدة بهاء ، والجمع ضفادع وضفادي .

(مفصّلات) ، جميع مفصّلة مؤنّث مفصّل . . اسم مفعول به (فصّل) الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين . وانظر الآية (144) من سورة الأنعام .

البلاغة

سر استعمال القمّل : وردت لفظة " القمّل " في الآية حسنة مستساغة ، وذلك لأنها جاءت مندرجة في ضمن كلام متناسب ولم ينقطع الكلام عندها ، فقد تضمنت الآية خمسة ألفاظ هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي الطوفان والجراد والدم ، فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم معها الطوفان والجراد وأخرت لفظة الدم آخرا ، وجعلت لفظة القمل والضفادع في الوسط ، ليطرق السمع أولا الحسن من الألفاظ الخمسة ، وينتهي إليه آخرا . ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 134 إلى 136]

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (136)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين فيه معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب قالوا (وقع) فعل ماض (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (وقع) ، (الرجز) فاعل مرفوع (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (يا) حرف نداء (موسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف في محلّ نصب (ادع) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ادع) ، (ربّ) مفعول به منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الباء) حرف جرّ (ما) اسم " 1 " موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (ادع) " 2 " ، (عهد)

مثل وقع ، والفاعل هو (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (عهد) و(الكاف) مثل المتقدّم (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (كشف) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط و(التاء) ضمير فاعل (عنا) مثل لنا متعلّق بـ (كشفت) ، (الرجز) مفعول به منصوب (اللام) لام القسم (نؤمننّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) نون

---

(1) أو هو حرف مصدريّ أي : بعهده عندك .

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من الضمير في (ادع) ، أي ادعه متوسّلا بالذي عهد عندك .

(441/291)

التوكيد الثقيلة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نؤمننّ) ، (الواو) عاطفة (لنرسلنّ) مثل لنؤمننّ (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (نرسلنّ) " 1 " ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (بني) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة .

جملة : " وقع . . . الرجز " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يا موسى . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ادع لنا ربّك . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " عهد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : "كشفت . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ ، أو تفسير لموضوع الدعاء وغرضه .

وجملة " نؤمننّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم " 2 " .

وجملة : " نرسلنّ . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

(الفاء) عاطفة (لمّا) مثل الأول (كشفنا عنهم الرجز) مثل كشفت عنّا الرجز (إلى أجل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كشفنا) ، (هم) ضمير منفصل

---

(1) أو بمحذوف حال من بني إسرائيل .

(2) أبو حيّان : (جملة القسم حال من فاعل قالوا . أي قالوا ادع لنا . . . مقسمين) .

مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بالغو) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو ، وحذفت النون للإضافة و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إذا) حرف مفاجأة (هم) مثل الأول (ينكثون) مضارع مرفوع

. . والواو فاعل .

وجملة : "كشفنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هم بالغوه " في محلّ جرّ نعت لأجل .

وجملة : " هم ينكثون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ينكثون " في محلّ رفع خبر (هم) .

(الفاء) عاطفة في الموضعين " 1 " ، (انتقمنا) مثل كشفت (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (انتقمنا) ، (أغرقنا) مثل كشفت و(هم) ضمير مفعول به (في اليمّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أغرقناهم) ، (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (كذّبوا) مثل قالوا (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) و(نا) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أنّهم كذّبوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أغرقناهم) ، والباء سببيّة .

(الواو) عاطفة (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبنيّ على الضمّ . .

والواو اسم كان (عنها) مثل عنّا متعلّق بـ (غافلين) ، (غافلين) خبر كانوا منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " انتقمنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف المتمثّل في مفتتح الآيات السابقة : فلمّا وقع . . فلمّا كشفنا . . .

(1) يجوز أن تكون الفاء زائدة في (أغرقناهم) ، والجملة حينئذ بدل من (انتقمنا) .

(443/291)

وجملة : "أغرقناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة انتقمنا .

وجملة : "كذّبوا " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : "كانوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كذّبوا .

الصرف :

(اليمّ) ، اسم جامد ذات بمعنى البحر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

الاستعارة : في قوله تعالى " إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ " أي ينقضون العهد ، وأصل النكث فل طاقات الصوف المغزول ليغزل ثانيا ، فاستعير لنقض العهد بعد إبرامه .

[سورة الأعراف (7) : آية 137]

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ (137)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة . (أورثنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير في محلّ رفع فاعل (القوم) مفعول به أوّل منصوب (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت للقوم (كانوا) مثل المتقدّم " 1 " ، (يستضعفون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو ضمير نائب الفاعل (مشارق) مفعول به ثان منصوب (الأرض) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (مغارب) معطوف على

---

(1) في الآية السابقة (136) .

(444/291)

مشارق منصوب و(ها) ضمير مضاف إليه (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت لمشارق الأرض ومغاربها (باركنا) مثل أورثنا (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (باركنا) ، (الواو) عاطفة (تمّت) فعل ماض . . . و(التاء) للتأنيث (كلمة) فاعل مرفوع (ربّ) مضاف إليه مجرور و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الحسنى) نعت لكلمة مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (على بني) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تمّت) ، (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (الباء) حرف جرّ (ما) حرف

مصدريّ (صبروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . .

والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما صبروا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تمّت) .

(الواو) عاطفة (دمّرنا) مثل أورثنا (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (كان) فعل ماض ناقص ناسخ ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود على ما " 1 " ، (يصنع) مضارع مرفوع (فرعون) فاعل يصنع مرفوع (الواو) عاطفة (قوم) معطوف على فرعون مرفوع و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما كانوا يعرشون) مثل ما كان يصنع . . .

ومعطوفة عليها .

---

(1) أي دمّرنا الذي كان مصنوعا من قبل فرعون . . وقد أجاز النحويون أوجها أخرى في إعراب هذه الآية منها : آ – أن يكون اسم كان ضميرا مستترا وجوبا تقديره هو يعود على فرعون ، وفرعون الظاهر فاعل يصنع وعائد الموصول محذوف أي دمّرنا ما كان يصنعه فرعون . . ويجوز أن يكون فرعون الظاهر هو اسم كان وفاعل يصنع ضمير مستتر يعود على فرعون أي ما كان فرعون يصنعه .

ب – أن يكون (كان) زائدا و(ما) حرفا مصدريا أي دمّرنا صنع فرعون . . ذكره

العكبريّ . ويصحّ أن تكون ما موصولة . ج - (كان) فعل ناقص اسمه ضمير الشأن و(ما) حرف مصدريّ وجملة يصنع خبر كان .

(445/291)

جملة : "أورثنا . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة : "كانوا يستضعفون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يستضعفون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

وجملة : " باركنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " تمّت كلمة ربّك " لا محلّ لها معطوفة على جملة أورثنا .

وجملة : " صبروا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " دمّرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أورثنا .

وجملة : "كان يصنع " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : " يصنع فرعون " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : "كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " يعرشون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الفوائد

- جاء رسم " التاء " في هذه الآية مبسوطة ، وهي إحدى الأماكن التي يخالف بها رسم كلمات القرآن ما نحن عليه من قواعد الكتابة والاملاء . ويحسن أن نشير إلى أن هذا النوع من الرسم لا يقاس عليه ولا يعتدّ به في تدريسنا لأصول الكتابة ، لأنّه وقف على القرآن الكريم دون غيره من الكتب .

[سورة الأعراف (7) : آية 138]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (جاوزنا) مثل أورثنا " 1 " (ببني إسرائيل) مثل على بني إسرائيل " 2 " متعلّق بـ (جاوز) ، (البحر) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (أتوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . والواو فاعل (على قوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أتوا) بتضمينه معنى قدموا (يعكفون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (على أصنام) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعكفون) ، (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لأصنام (قالوا) مثل صبروا " 3 " ، (يا) حرف نداء (موسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (اجعل) فعل أمر والفاعل أنت أي : اصنع (لنا)

مثل لهم متعلّق بـ (اجعل) ، (إلها) مفعول به منصوب (الكاف) حرف جرّ وتشبيه (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف نعت لـ (إلها) ، (لهم) مثل الأول ، متعلّق بمحذوف صلة ما . . الجارّ والمجرور – عند ابن هشام – خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي أي الأصنام (آلهة) بدل من الضمير المستتر في صلة ما أي كالتي استقرّت هي لهم آلهة .

جملة : " جاوزنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أتوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئنافيّة .

وجملة : " يعكفون . . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يا موسى . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اجعل لنا إلها " لا محلّ لها جواب النداء .

(1 ، 2 ، 3) في الآية السابقة (137) .

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (قوم) خبر إنّ مرفوع (تجهلون) مثل يعكفون .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّكم قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تجهلون " في محلّ رفع نعت لقوم .

[سورة الأعراف (7) : آية 139]

إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (139)

الإعراب :

(إنّ) حرف توكيد ونصب (ها) للتنبيه (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب اسم انّ (متّبر) خبر مرفوع " 1 " ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نائب فاعل لاسم المفعول متّبر (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر هم (الواو) عاطفة (باطل) معطوفة على متّبر مرفوع مثله (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبنيّ على الضمّ . . . والواو ضمير اسم كان (يعملون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . .) في محلّ رفع فاعل لاسم الفاعل باطل .

جملة : " إنّ هؤلاء متّبر . . " لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

(1) أو خبر مقدّم للموصول بعده ، والجملة الاسميّة من الموصول وصلته والخبر خبر إنّ .

وكذلك (باطل) يجوز أن يكون خبرا ، والمصدر المؤوّل مبتدأ ، والجملة معطوفة على جملة الموصول وخبره .

(2) أو موصول والعائد محذوف . [. . . . .]

(447/291)

وجملة : " هم فيه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ له صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(متبر) ، اسم مفعول من تبّر الرباعيّ أي هلك ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين .

[سورة الأعراف (7) : آية 140]

قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (140)

الإعراب :

(قال) فعل ماض والفاعل هو (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ التوبيخيّ التعجّبيّ (غير) مفعول

به مقدم (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (أبغي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا و(كم) ضمير مفعول به على حذف اللام ، والأصل أبغي لكم (إلها) تمييز لغير منصوب " 1 " ، (الواو) واو الحال (هو) ضمير مبتدأ (فضّل) فعل ماض ، والفاعل هو و(كم) ضمير مفعول به (على العالمين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (فضّلكم) ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أبغيكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هو فضّلكم . . . " في محلّ نصب حال من لفظ الجلالة أو من ضمير المخاطب الجمع " 2 " .

---

(1) ويجوز أن يكون حالا ويجوز في التوجيهات التالية : (إلها) مفعول به (غير) حال من (إلها) – نعت تقدّم على المنعوت – .

(2) يجوز قطع الجملة على الاستئناف فلا محلّ لها .

وجملة : " فضّلكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هو .

البلاغة

خروج الاستفهام عن معناه الأصلي : في قوله تعالى " قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً " فالاستفهام هنا للإنكار .

[سورة الأعراف (7) : آية 141]

وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكروا (أنجينا) فعل ماض وفاعله و(كم) ضمير مفعول به (من آل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنجينا) ، (فرعون) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (يسومون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو ضمير فاعل و(كم) مثل الأخير (سوء) مفعول به ثان منصوب (العذاب) مضاف إليه مجرور (يقتّلون) مثل يسومون (أبناء) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (يستحيون نساءكم) مثل يقتّلون أبناءكم (الواو) استئنافيّة (في) حرف جرّ (ذلكم) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم . .

و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (بلاء) مبتدأ مؤخّر مرفوع (من ربّ) جارّ ومجرور متعلق بمحذوف نعت لبلاء و(كم) ضمير مضاف إليه (عظيم) نعت ثان لبلاء مرفوع " 1 " جملة: " أنجيناكم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

---

(1) انظر إعراب الآية بتمامها في سورة البقرة الآية (49).

(449/291)

وجملة: " يسومونكم . . . " في محلّ نصب حال من آل فرعون.

وجملة: " يقتّلون . . . " في محلّ نصب بدل من جملة يسومونكم وجملة: " يستحيون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يقتّلون.

وجملة: " في ذلكم بلاء " لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة الأعراف (7): آية 142]

وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (واعدنا) مثل أنجينا " 1 "، (موسى) مفعول به منصوب وعلامة

النصب الفتحة المقدّرة على الألف وهو ممنوع من التنوين (ثلاثين) مفعول به ثان منصوب وهو على حذف مضاف أي تمام ثلاثين ، وعلامة النصب الياء (ليلة) تمييز منصوب (الواو) عاطفة (أتممنا) ، مثل أنجينا " 2 " ، و(ها) ضمير مفعول به (بعشر) جارّ ومجرور متعلّق بـ(أتممنا) ، (الفاء) عاطفة (تمّ) فعل ماض (ميقات) فاعل مرفوع (ربّ) مضاف إليه مجرور و(الهاء) ضمير مضاف إليه (أربعين) حال منصوبة وعلامة النصب الياء " 3 " ، (ليلة) مثل الأول (الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض (موسى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (لأخي) جارّ ومجرور متعلّق بـ(قال) وعلامة الجرّ الياء و(الهاء) ضمير

---

(1) في الآية السابقة (141) .

(2) في الآية السابقة (141) .

(3) يجوز أن يكون مفعولا به إذا ضمّن فعل تمّ معنى بلغ .

مضاف إليه (هارون) بدل من أخيه - أو عطف بيان - مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (اخلف) فعل أمر و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره

أنت (في قوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اخلف) و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أصلح) مثل اخلف (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تتّبع) مضارع مجزوم والفاعل أنت (سبيل) مفعول به منصوب (المعتدين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " واعدنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أتممناها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة واعدنا .

وجملة : " تمّ ميقات . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتممناها .

وجملة : " قال موسى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اخلفني . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أصلح " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " لا تتّبع . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

(451/291)

[سورة الأعراف (7) : الآيات 143 إلى 144]

وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً

فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب قال (جاء) فعل ماض (موسى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (لميقات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاء) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (كلّم) مثل جاء و(الهاء) ضمير مفعول به (ربّ) فاعل مرفوع و(الهاء) مضاف إليه (قال) مثل جاء ، والفاعل هو (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة وهي المضاف إليه (أرني) فعل أمر ، دعائيّ ، مبنيّ على حذف حرف العلّة . .

(452/291)

و(النون) للوقاية ، و(الياء) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أنظر) مضارع مجزوم ، جواب الطلب " 1 " ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (إلى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنظر) ، (قال) مثل الأول (لن) حرف نفي نصب

(تراني) مضارع منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف . . . و(النون) للوقاية ، و(الياء) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (انظر) فعل امر والفاعل أنت (إلى الجبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (انظر) ، (الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (استقرّ) ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (مكان) منصوب على نزع الخافض أي بمكانه . . . و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (سوف) حرف استقبال (تراني) مثل الأول (الفاء) عاطفة (لمّا تجلّى) مثل لمّا جاء ، وبناء الفتح مقدّر على الألف (ربّه) مثل الأول (للجبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجلّى) ، (جعله) مثل كلّمه (دكّا) مفعول به ثان منصوب أي مدكوكا (الواو) (الواو) عاطفة (خرّ)

---

(1) هذا بحسب الظاهر ، ولكنّ المعنى أن فعل (أنظر) هو جواب شرط مقدّر والمعنى هيّئ لي سبيل الرؤية ، فإن فعلت أو تمّ ذلك أنظر إليك .

(453/291)

مثل جاء (موسى) فاعل كالمتقدّم ، (صعقا) حال منصوبة (فلمّا أفاق) مثل فلمّا تجلّى (قال) مثل الأول (سبحانك) مفعول مطلق لفعل محذوف . .

و(الكاف) ضمير مضاف إليه (تبت) فعل ماض وفاعله (إلى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تبت) ، (الواو) عاطفة (أنا) ضمير مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أوّل) خبر مرفوع (المؤمنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " جاء موسى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " كلّمه ربّه " في محلّ جرّ معطوفة على جملة جاء موسى .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة النداء وجوابها . . . في محلّ نصب مقول القول .

(454/291)

وجملة : " أرني . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أنظر إليك " لا محلّ لها جواب شرط مقدر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " قال الثانية " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لن تراني " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " انظر . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " استقرّ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة انظر فهي في حيّز القول .

وجملة : " سوف تراني " في محلّ جزم جواب الشرط .

وجملة : " تجلّى ربّه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . والشرط وفعله وجوابه معطوف على الشرط الأول وفعله وجوابه .

وجملة : " جعله دكّا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " خرّ موسى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعله .

وجملة : " أفاق . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . والشرط وفعله وجوابه معطوف على الشرط الثاني وفعله وجوابه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " سبحانك " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " تبت . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنا أوّل المؤمنين " في محلّ نصب معطوفة على جملة تبت إليك .

(455/291)

(قال) مثل الأول (يا) حرف نداء (موسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر في محلّ نصب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ

(اصطفيت) فعل ماض مبنيّ على السكون وفاعله و(الكاف) ضمير مفعول به (على الناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اصطفيتك) ، (برسالات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اصطفيت) و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (بكلامي) مثل برسالاتي إعرابا وتعليقا (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (خذ) فعل أمر ، والفاعل أنت (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (آتيت) مثل اصطفيت والمفعول الثاني محذوف أي آتيتك إياه (الواو) عاطفة (كن) فعل أمر ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من الشاكرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كن ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة النداء وجوابها في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّي اصطفيتك . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اصطفيتك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " خذ . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أتتك آياتي فخذ . .

وجملة : " آتيتك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول .

وجملة : " كن من الشاكرين " معطوفة على جملة خذ .

الصرف :

(تراني) ، مثل نرى . . فيه حذف الهمزة – وهي عين الكلمة – تخفيفا ، وأصله ترأى وزنه

تفل بفتحتين .

(تجلّى) ، فيه إعلال بالقلب أصله تجلّي – بالياء – ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(دكّا) ، مصدر سماعيّ لفعل دكّ باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(صعقا) ، صفة مشبّهة من فعل صعق يصعق باب فرح ، وزنه فعل بفتح فكسر .

(أفاق) ، الألف فيه منقلبة عن واو لأنّ مجرّده فاق يفوق فوقا ، فلمّا جاءت الواو متحركة بعد فتح قلبت ألفا .

(كلامي) ، اسم مصدر لفعل كلّم الرباعيّ ، وقد يطلق على الكتاب المنزل من تسمية الشيء باسم المصدر وزنه فعال بفتح الفاء .

(456/291)

الفوائد

رؤية اللّه في الدنيا وفي الآخرة :

أما في الدنيا ، فقد نصت الآية على نفيها بقوله تعالى : لن تراني . وأما في الآخرة ، فقد شجر خلاف بين المعتزلة والأشعرية ، فالمعتزلة ينفون الرؤية في

الآخرة ، ويقولون أن " لن " للتأبيد ، مما يدل على امتناع الرؤية مطلقا وأما الأشعرية فيستدلون على جواز الرؤية بآيات أخرى ، منها قوله تعالى : " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ " . وقد اتسع الخلاف ، وبلغ المهاترات وكيل التّهم ، ولكل وجهة نظر . وما أغنى الناس عن ولوجهم في أمور هي خارج مدركاتهم الحسية ، وهي وراء المنطقة المضيئة كما يقول الفلاسفة . فتدبّر الأمر ولا تخض مع الخائضين .

[سورة الأعراف (7) : آية 145]

وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (145)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كتبنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير فاعل (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (كتبنا) ، (في الألواح) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كتبنا) ، (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من موعظة (شيء) مضاف إليه مجرور (موعظة) مفعول به منصوب " 1 " ، (تفصيلا) معطوف على موعظة بالواو ، منصوب (لكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تفصيلا) " 2 " ، (شيء) مثل الأول . (الفاء) عاطفة (خذ) فعل أمر ، والفاعل أنت و(ها) ضمير مفعول به (بقوّة) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل خذ أي متلبّسا " 3 " ، (الواو) عاطفة (أؤمر) مثل خذ (قوم) مفعول به

منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (يأخذوا) مضارع مجزوم جواب الطلب وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (بأحسن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأخذوا) بتضمينه

(457/291)

---

(1) جعله بعضهم بدلا من الجارّ والمجرور قبله (من كل شيء) ، لأن محلّه النصب .

(2) يجوز جعل اللام زائد للتقوية و(كلّ) منصوب محلّا مفعول به للمصدر (تفصيلا) .

(3) يجوز أن يكون الجارّ والمجرور حالا بمعنى خذها جادّا أو مجتهدا .

معنى يتمسّكوا ، وعلامة الجرّ الكسرة و(ها) ضمير مضاف إليه (السين) حرف استقبال (أوري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و(كم) ضمير مفعول به أوّل ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (دار) مفعول به ثان منصوب (الفاسقين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : "كتبنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خذها . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل قلنا محذوف ، والجملة المحذوفة لا محلّ لها معطوفة على جملة كتبنا .

وجملة : " أؤمر . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة خذها .

وجملة : " يأخذوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " سأريكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

الصرف :

(الألواح) جمع لوح ، اسم جامد ذات معروف ، وزنه فعل بفتح فسكون .

وجملة : (وأمر) ، فيه حذف همزة الوصل ، والأصل أؤمر - بهمزة وصل ثمّ همزة ثانية مرسومة على واو ، لأن حركة الوصل الضمّ - فلمّا جاء حرف العطف حذفت همزة الوصل ثمّ كتبت الهمزة الثانية على ألف ، وزنه وفعل بسكون الفاء وضمّ العين .

البلاغة

الالتفات : في قوله تعالى " سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ " فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، والقصد المبالغة في الحث وفي وضع الإراءة موضع الاعتبار ، إقامة المسبب مقام السبب مبالغة أيضا .

[سورة الأعراف (7) : آية 146]

(458/291)

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146)

الإعراب :

(سأصرف) مثل سأوري " 1 " ، (عن آيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أصرف) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يتكبّرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتكبّرون) ، (بغير) جارّ ومجرور حال من فاعل يتكبّرون (الحقّ) مضاف إليه مجرور و(إن) حرف شرط جازم (يروا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون والواو فاعل (كلّ) مفعول به منصوب (آية) مضاف إليه مجرور (لا) حرف نفي (يؤمنوا) مضارع مجزوم جواب الشرط الواو فاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (يؤمنوا) ، (الواو) عاطفة (إن يروا سبيل . . .) مثل نظيرتها المتقدّمة و(الهاء) في (يتّخذوه) مفعول به أوّل (سبيلا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (إن يروا . . .) الثانية تعرب مثل الأولى (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . و(اللام) للبعد ، و(الكاف) للخطاب ، والإشارة إلى الصرف (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (كذّبوا) فعل ماض مبنيّ على

(1) في الآية السابقة (145) .

(459/291)

الضمّ . . والواو فاعل (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه

(الواو) عاطفة (كانوا) ماض ناقص – ناسخ – مبنيّ على الضمّ . . . والواو اسم كان

(عنها) مثل بها متعلّق بـ (غافلين) وهو خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " سأصرف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتكبّرون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول .

وجملة : " إن يروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " لا يؤمنوا بها " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " إن يروا (الثانية) لا محلّ لها معطوفة على جملة إن يروا الأولى .

وجملة : " لا يتّخذوه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط الثاني غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " إن يروا (الثالثة) " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن يروا الثانية .

وجملة : " يتّخذوه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط الثالث غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " ذلك بأنّهم . . . " لا محلّ لها استئناف بياني أو تعليليّة .

وجملة : "كذّبوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : "كانوا عنها غافلين " في محلّ رفع معطوفة على جملة خبر أن " 1 " .

---

(1) يجوز قطعها على الاستئناف فلا محلّ لها .

(460/291)

و المصدر المؤوّل (أنّهم كذّبوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ذلك) .

البلاغة

الطباق : بين سبيل الرشد وسبيل الغي .

[سورة الأعراف (7) : آية 147]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (147)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الذين) موصول مبتدأ (كذّبوا بآياتنا) مثل السابقة " 1 " (الواو) عاطفة (لقاء) معطوفة على آيات مجرور مثله (الآخرة) مضاف إليه مجرور (حبطت) فعل ماض . . . و(التاء) للتأنيث (أعمال) فاعل مرفوع (هم) ضمير مضاف إليه (هل) حرف استفهام بمعنى النفي (يجزون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . والواو ضمير في محلّ رفع

نائب الفاعل (إلّا) أداة حصر (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به على حذف مضاف أي جزاء ما كانوا . . . (كانوا) مثل السابق " 2 " ، (يعملون) مثل يتكبّرون " 3 "

.

جملة : " الذين كذّبوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كذّبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " حبطت أعمالهم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) " 4 " .

---

(1) في الآية السابقة (146) .

(2 ، 3) في الآية (146) السابقة . [. . . . .]

(4) يجوز أن تكون حالا من فاعل كذّبوا بتقدير (قد) ، وجملة يجزون خبر .

(461/291)

وجملة : " هل يجزون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : "كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يعملون " في محلّ نصب خبر كان .

الصرف :

(يجزون) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله يجزاون ، جاءت الألف ساكنة قبل الواو الساكنة ، حذفت الألف لالتقاء الساكنين ، وزنه يفعون بضمّ الياء وفتح العين .

الفوائد

- الاستفهام :

هو طلب الفهم بالأدوات المخصوصة .

أ- للاستفهام حرفان : هل والهمزة ب- وله تسعة أسماء هي :

" ما ومن وأي وكم وكيف وأنى ومتى وأين وأيّان " .

ج- جميع أسماء الاستفهام لطلب التصور .

ء - " هل " فإنها لطلب التصديق فقط .

ه - والهمزة مشتركة بين التصور والتصديق .

[سورة الأعراف (7) : آية 148]

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ (148)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اتّخذ) فعل ماض (قوم) فاعل مرفوع (موسى) مضاف إليه مجرور

وعلامة الجرّ الفتحة المقدّرة على الألف

---

(1) أو في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (الذين) .

(462/291)

للتعذّر ، وهو ممنوع من الصرف (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اتّخذ) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (من حليّ) جارّ ومجرور متعلّق بحال من (عجلا) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (عجلا) مفعول به أوّل منصوب (جسدا) نعت لـ (عجلا) بمعنى مجسّد ، منصوب " 1 " ، (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (خوار) مبتدأ مؤخّر مرفوع . (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (لم) حرف نفي وقلب وجزم (يروا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(الهاء) ضمير في محل نصب اسم أنّ (لا) حرف نفي (يكلّم) مضارع مرفوع و(هم) ضمير مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) عاطفة (لا يهديهم) مثل لا يكلّمهم (سبيلا) مفعول به ثان منصوب .

والمصدر المؤوّل (أنّه لا يكلّمهم) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يروا . . أو المفعول الواحد .

(اتّخذوا) مثل الاول والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به أوّل ، والمفعول الثاني محذوف تقديره إلها (الواو) عاطفة (كانوا ظالمين) مثل كانوا غافلين " 2 " .

جملة : " اتّخذ قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " له خوار " في محلّ نصب نعت لـ (عجلا) .

وجملة : " يروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يكلّمهم " في محلّ رفع خبر أنّ .

---

(1) أو بدل من (عجلا) منصوب . . والمفعول الثاني محذوف تقديره إلها .

(2) في الآية (146) من هذه السورة .

وجملة : " لا يهديهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يكلّمهم .

وجملة : " اتّخذوه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة لتأكيد الأولى .

وجملة : " كانوا ظالمين " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتخذوه .

الصرف :

(حليّهم) ، جمع حلي بفتح الحاء ويجوز أن يكون حلي - بالفتح - جمعا الواحدة حلية

كطبية .

(جسدا) ، اسم ذات في الأصل ، ثمّ استعمل استعمال الصفة بمعنى مجسّد أو متجسّد ، وزنه فعل بفتحتين .

(خوار) ، مصدر خار يخور ، ولمّا كان دالّا على صوت فله ضابط تقريبيّ كونه على وزن فعال بضمّ الفاء .

الفوائد

– السامري والعجل :

أمر اللّه موسى أن يتطهر ، وأن يصوم ثلاثين يوما ، ثم يأتي إلى طور سيناء حتى يكلمه ربه ، ويتلقى أمره في كتاب يكون لهم المرجع والمآب .

طال غياب موسى عن قومه حتى بلغ أربعين يوما . تحركت في نفس السامري نزوة الشر والفساد ، فاغتنم الفرصة ، وجمع الحلي من بني إسرائيل ، وصهرها على النار وصنع منها عجلا له خوار .

فتن بنو إسرائيل بهذا العجل ، وراحوا يعبدونه ، ولما عاد موسى ورأى قومه وما هم عليه ، كاد يبطش بأخيه هارون ، ولما سكت عنه الغضب ، أخذ العجل فحرقه وألقى برماده في الماء .

ثم استتاب بني إسرائيل فتابوا وندموا ، وراحوا يعاقبون نفوسهم بالذل والحرمان ، حتى

تاب اللّه عليهم. وقاطع بنو إسرائيل السامري، فكان هذا جزاءه في دنياه، والجزاء في الآخرة أشد وأبقى.

[سورة الأعراف (7) : آية 149]

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (149)

الإعراب:

(464/291)

(الواو) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب قالوا (سقط) ماض مبنيّ للمجهول (في أيدي) جارّ ومجرور في محلّ رفع نائب الفاعل و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (رأوا) فعل ماض وفاعله (أنّهم) مثل أنّه " 1 "، (قد) حرف تحقيق (ضلّوا) مثل رأوا (قالوا) مثل رأوا (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (لم) حرف نفي (يرحمنا) مضارع مجزوم فعل الشرط. . و(نا) ضمير مفعول به (ربّ) فاعل مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (يغفر) مضارع مجزوم معطوفة على (يرحمنا)، و(لنا) متعلق بـ (يغفر) (اللام) لام القسم (نكوننّ) مضارع ناقص -

ناسخ – مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) نون التوكيد واسمه ضمير مستتر تقديره نحن (من الخاسرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر نكوننّ ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " سقط في أيديهم " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " رأوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة سقط . . .

وجملة : " قد ضلّوا " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إن لم يرحمنا . . . " في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

---

(1) في الآية السابقة (148) .

(2) ان قدّرت جملة القسم المحذوفة مقولا للقول كانت جملة الشرط استئنافا في حيّز القول .

وجملة : " يغفر لنا " في محلّ نصب معطوفة على جملة يرحمنا .

وجملة : " نكوننّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

والمصدر المؤوّل (أنّهم قد ضلوا . . . " في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي رأوا .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ " أي ندموا على ما فعلوا غاية الندم ، فإن ذلك كناية عنه ، لأن النادم المتحسر يعض يده غما ، فتصير يده مسقوطا فيها . وقال الزجاج : معناه سقط الندم في أنفسهم ، أما بطريق الاستعارة بالكناية ، أو بطريق التمثيل .

[سورة الأعراف (7) : آية 150]

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لمّا) مثل السابق " 1 " فعل ماض (موسى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ممنوع من التنوين (إلى قوم) جارّ ومجرور متعلّق به (رجع) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (غضبان) حال منصوبة ممنوع من التنوين للوصفية وزيادة الألف

---

(1) في الآية السابقة (149) .

و النون (أسفا) حال ثانية منصوبة (قال) ماض (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (ما) نكرة موصوفة في محلّ نصب تمييز للضمير الفاعل – أي الخلافة – والمخصوص بالذّم محذوف تقديره خلافتكم (خلفتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . . و(تم) ضمير فاعل و(الواو) زائدة هي إشباع حركة الميم و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلفتموني) ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (عجلتم) مثل خلفتم (أمر) مفعول به منصوب " 1 " ، (ربّ) مضاف إليه مجرور و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (ألقى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الألواح) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (أخذ) مثل رجع والفاعل هو (برأس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخذ) بتضمينه معنى مسك (أخي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء و(الهاء) ضمير مضاف إليه (يجرّ) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء و(الهاء) ضمير مضاف إليه (يجرّ) مضارع مرفوع و(الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (إلى) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يجرّ) ، (قال) مثل الأول (ابن أمّ) منادى مبنيّ على

الضمّ المقدّر على آخره منع من ظهوره حركة البناء الأصليّ وهو فتح الجزأين لأنه تركيب أشبه خمسة عشر في محلّ نصب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (القوم) اسم إنّ منصوب (استضعفوا) مثل قالوا " 2 " ، و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (كادوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – والواو ضمير اسم كاد (يقتلون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل و(النون) الثانية للوقاية

---

(1) أو منصوب على نزع الخافض ، والأصل أ عجلتم عن أمر ربّكم .

(2) في الآية السابقة (149) .

(467/291)

و (الياء) مفعول به (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لا) ناهية جازمة (تشمت) مضارع مجزوم والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الباء) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تشمت) ، (الأعداء) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا تجعل) مثل لا تشمت و(النون) للوقاية و(الياء) مفعول به (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (تجعل) ، (القوم) مضاف إليه مجرور (الظالمين) نعت للقوم مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " رجع موسى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " بئسما . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " خلفتموني " في محلّ نصب نعت لـ (ما) ، والعائد محذوف .

وجملة : " عجلتم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " ألقى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أخذ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقى .

وجملة : " يجرّه . . . " في محلّ نصب حال من فاعل أخذ أو من رأس .

وجملة : " قال (الثانية) لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ابن أمّ . . . " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " انّ القوم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

---

(1) أو اعتراضيّة ، ومقول القول جملة انّ القوم استضعفوني .

(468/291)

وجملة : " استضعفوني " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " كادوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة استضعفوني .

وجملة : " يقتلونني " في محلّ نصب خبر كادوا .

وجملة : " لا تشمت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " لا تجعلني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تشمت .

الصرف :

(غضبان) صفة مشبّهة من فعل غضب يغضب باب فرح ، وزنه فعلان بفتح فسكون .

(أسفا) ، صفة مشبّهة من فعل أسف يأسف باب فرح ، وزنه فعل بفتح فكسر .

الفوائد

1 - ابن أمّ : في اعراب هذين اللفظين رأيان :

أ - الرأي الراجح أنهما اسمان مبنيان على الفتح لأنهما مركبان تركيب الأعداد . مثل : خمسة عشر ، وصباح مساء . وعلى هذا الرأي فحركتهما حركة بناء .

ب - رأي الكوفيين أنّ ابن مضاف لأم وأم مضاف إلى ياء المتكلم وقد قلبت الياء ألفا ، ثم حذفت الألف واجتزئ عنها بالفتحة ، وعليه فحركة ابن حركة اعراب وهو مضاف لأم وأم في محل جرّ بالإضافة ، وعلى الرأيين فأداة النداء محذوفة . وقد اقتصر على ذكر الأم لأن ذكرها أعطف للقلب ، فتأمل حكمة الله في كتابه الكريم . . . !

[سورة الأعراف (7) : آية 151]

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)

الإعراب :

(قال) فعل ماض والفاعل هو أي موسى (ربّ) منادى منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة للتخفيف ، و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (اغفر) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اغفر) (الواو) عاطفة (لأخ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اغفر) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (أدخل) مثل اغفر و(نا) ضمير مفعول به (في رحمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أدخل) ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الواو) حاليّة (أنت) ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع (أرحم) خبر مرفوع (الراحمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ربّ الندائيّة " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اغفر . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أدخلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " أنت أرحم . . . " في محلّ نصب حال .

[سورة الأعراف (7) : آية 152]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (اتّخذوا) فعل ماض مبني على الضمّ . . .

والواو فاعل (العجل) مفعول به أوّل منصوب ، والمفعول الثاني محذوف تقديره إلها " 1 " ، (السين) حرف استقبال (ينال) مضارع مرفوع و(هم) ضمير مفعول به (غضب) فاعل مرفوع (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينال) " 2 " و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ذلّة) معطوف على غضب مرفوع (في الحياة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (ذلّة) " 3 " ، (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (الكاف) حرف جرّ (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي . . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (نجزي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (المفترين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : "إنّ الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّخذوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " سينالهم غضب . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " نجزي . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة - أو استئنافية .

---

(1) إذا ضمّن (اتّخذوا) معنى عبدوا فالعجل مفعول به ليس غير .

(2) أو متعلّق بمحذوف نعت لغضب .

(3) أو متعلّق بكلّ من غضب وذلّة .

(470/291)

الصرف :

(المفترين) ، جمع المفتري ، اسم فاعل من افترى الخماسيّ ، وفيه حذف الياء لام الكلمة لالتقاء الساكنين .

[سورة الأعراف (7) : آية 153]

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (الذين عملوا السيّئات) مثل الذين اتّخذوا العجل " 1 " وعلامة النصب في

المفعول الكسرة والموصول مبتدأ (ثم) حرف عطف (تابوا) مثل اتخذوا (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تابوا) ، (وها) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (آمنوا) مثل اتّخذوا " 2 " ، (إنّ) مثل السابق " 3 " ، (ربّ) اسم إنّ منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (من بعدها) مثل الأول متعلّق بـ (غفور) وهو خبر إن مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

وجملة: " الذين عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ الذين اتّخذوا " 4 " .

وجملة: " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " تابوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول.

وجملة: " آمنوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة تابوا .

وجملة: " إنّ ربك . . . " في محلّ رفع خبر الذين والرابط محذوف تقديره غفور لهم رحيم بهم.

(1، 2، 3، 4) في الآية السابقة (152) . [. . . . .]

(471/291)

[سورة الأعراف (7) : آية 154]

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ

يَرْهَبُونَ (154)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لمّا سكت) مثل لمّا رجع " 1 " ، (عن موسى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سكت) ، وعلامة الجر الفتحة المقدّرة على الألف فهو ممنوع من الصرف (الغضب) فاعل مرفوع (أخذ) فعل ماض والفاعل هو (الألواح) مفعول به منصوب (الواو) حاليّة (في نسخة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم و(ها) ضمير مضاف إليه (هدى) مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (رحمة) معطوفة على هدى مرفوع مثله (اللام) حرف جرّ (الذين) موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بكلّ من هدى ورحمة " 2 " ، (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اللام) زائدة للتقوية " 3 " ، (ربّ) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به مقدّم عاملة يرهبون و(هم) ضمير مضاف إليه (يرهبون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " سكت . . . الغضب " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أخذ . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " في نسختها هدى " في محلّ نصب حال .

وجملة : " هم . . . يرهبون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) في الآية (150) من هذه السورة .

(2) أو متعلّق بمحذوف نعت لرحمة .

(3) أو هي أصلية جاءت للتعليل ، ومفعول يرهبون محذوف تقديره يرهبون عقابه ، ويعلّق الجارّ بـ (يرهبون) وقد يضمّن معنى يذعنون .

(472/291)

وجملة : " يرهبون " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

الصرف :

(نسخة) ، اسم جامد بمعنى الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ في نسخة ثانية منه . . . أو هو اسم مشتقّ بمعنى المنسوخ أي المكتوب فيها ، فهي فعلة بضمّ فسكون بمعنى مفعول .

البلاغة

الاستعارة : في قوله تعالى " وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ " ففي الكلام استعارة مكنية ، حيث شبه الغضب بشخص ناه آمر ، وأثبت السكوت على طريق التخييل وقال السكاكي : إن فيه استعارة تبعية ، حيث شبه سكون الغضب وذهاب حدته بسكون الآمر الناهي ، والغضب قرينتها وقيل : الغضب استعارة بالكناية عن الشخص الناطق ،

والسكوت استعارة تصريحية لسكون هيجانه وغليانه ، فيكون في الكلام مكنية قرينتها تصريحية لا تخييلية ، وأيا ما كان ففي الكلام مبالغة وبلاغة لا يخفى علو شأنهما .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 155 إلى 157]

وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)

(473/291)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (اختار) فعل ماض (موسى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (قوم) منصوب على نزع الخافض أي من قوم و(الهاء) ضمير مضاف إليه (سبعين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء " 1 " ، (رجلا) تمييز منصوب (لميقات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اختار) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب قال (آخذت) فعل ماض . . و(التاء) للتأنيث و(هم) ضمير مفعول به (الرجفة) فاعل مرفوع (قال) مثل اختار (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الياء المحذوفة للتخفيف ، و(الباء) المحذوفة مضاف إليه (لو) حرف امتناع لامتناع ، حرف شرط غير جازم (شئت) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(الياء) فاعل (أهلكت) مثل شئت و(هم) ضمير مفعول به (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أهلكتهم) ، (الواو) عاطفة (إيّاي) ضمير منفصل في محلّ نصب معطوف على الضمير الغائب المتّصل (الهمزة) للاستفهام وفيه معنى الاستعطاف (تهلك) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت و(نا) مفعول به (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدري " 2 " ،

---

(1) أجاز أبو البقاء العكبري إعرابه بدلا من قوم على ضعف ، وقوم هو المفعول الأول ، أمّا

المفعول الثاني فمقدّر وفي تقديره تكلّف كما يتكلّف الرابط للبدل .

(2) يجوز أن يكون اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة بعده صلة أي بالذي فعله السفهاء .

(474/291)

(فعل) مثل اختار (السفهاء) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من السفهاء والمصدر المؤول (ما فعل السفهاء) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تهلكنا) (إن) حرف نفي (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (فتنة) خبر مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (تضلّ) مثل تلك (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تضلّ) ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (تشاء) مثل تهلك (الواو) عاطفة (تهدي من تشاء) مثل تضلّ من تشاء (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (وليّ) خبر مرفوع (نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اغفر) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت (لنا) مثل منّا متعلّق بـ (أغفر) ، (الواو) عاطفة (أرحم) مثل أغفر و(نا) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (أنت خير) مثل أنت وليّ (الغافرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " أخذتهم الرجفة " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لمّا) .

وجملة النداء وجوابها في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لو شئت . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أهلكتهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لو) .

وجملة : " تهلكنا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " فعل السفهاء " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " هي . . . فتنتك " لا محلّ لها استئنافيّة لتأكيد معنى الإهلاك .

وجملة : " تضلّ . . . " في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب .

وجملة : " تضلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " تهدي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تضلّ .

وجملة : " تشاء (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " أنت وليّنا " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " اغفر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أذنبنا فاغفر لنا .

وجملة : " ارحمنا " معطوفة على جملة اغفر لنا .

وجملة : " أنت خير . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنت وليّنا .

(الواو) عاطفة (اكتب) مثل اغفر (لنا) مثل منّا متعلّق بـ (اكتب) ، (في) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (اكتب) " 1 " ، (الدنيا) بدل من اسم الإشارة – أو عطف بيان – مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (حسنة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة في (الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف يفسّره المذكور اكتب (حسنة) مفعول به عامله الفعل المحذوف منصوب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (هدنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . . و(نا) ضمير فاعل (إلى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (هدنا) ، (قال) مثل الأول (عذاب) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (أصيب) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (به) مثل بها متعلّق بـ (أصيب) (من) مثل الأول (أشاء) مثل أصيب ، ومفعول أشاء محذوف تقديره إصابته (الواو) عاطفة (رحمتي) مثل عذابي ، (وسعت) فعل ماض . . . و(التاء) للتأنيث ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (كلّ) مفعول به منصوب (شيء) مضاف إليه مجرور (الفاء) عاطفة لربط المسبّب

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من الضمير المجرور في لنا ، أو حال من حسنة – نعت تقدّم على المنعوت –

(476/291)

بالسبب (السين) حرف استقبال (أكتب) مثل أصيب و(ها) مفعول به (اللام) حرف جرّ (الذين) موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أكتبها) ، (يتّقون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (يؤتون) مثل يتّقون (الزكاة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (الذين) مثل الأول ومعطوف عليه (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمنون) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (يؤمنون) مثل يتّقون .

وجملة : " اكتب لنا . . . " معطوفة على جملة اغفر لنا .

وجملة : " إنّا هدنا . . . " لا محلّ لها تعليل للدعاء السابق .

وجملة : " هدنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " عذابي أصيب . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أصيب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (عذابي) .

وجملة : " أشاء " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " رحمتي وسعت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " وسعت كلّ . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (رحمتي) .

وجملة : " سأكتبها . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة وسعت .

وجملة : " يتقون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يؤتون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هم . . . يؤمنون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " يؤمنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

(477/291)

(الذين) بدل من الذين يتقون في محلّ جرّ " 1 " ، (يتّبعون) مثل يتّقون (الرسول) مفعول به منصوب (النبيّ) بدل من الرسول – أو نعت له – منصوب (الأميّ) نعت للنبيّ منصوب (الذي) موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت ثان للنبيّ (يجدون) مثل يتّقون و(الهاء) ضمير مفعول به (مكتوبا) حال منصوبة من ضمير الغائب في (يجدونه) ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (يجدون) " 2 " ، و(هم) ضمير مضاف إليه (في التوراة) جارّ ومجرور متعلّق بـ

(يجدون) " 3 " ، (الواو) عاطفة (الإنجيل) معطوف على التوراة مجرور (يأمر) مضارع مرفوع ، والفاعل هو و(هم) ضمير مفعول به (بالمعروف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأمر) ، (الواو) عاطفة (ينهاهم) مثل يأمرهم (عن المنكر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينهاهم) ، (الواو) عاطفة (يحلّ) مثل يأمر (لهم) مثل لنا متعلّق بـ (يحلّ) ، (الطّيّبات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) حرف عطف (يحرّم عليهم الخبائث) مثل يحلّ لهم الطّيّبات (الواو) عاطفة (يضع عنهم إصرهم) مثل يحلّ لهم الطّيّبات (الواو) عاطفة (الأغلال) معطوفة على إصر منصوب (التي) موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت للأغلال (كانت) فعل ماض ناقص – ناسخ – و(التاء) للتأنيث ، واسمه ضمير مستتر تقديره هي (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر كانت .

(الفاء) استئنافيّة (الذين) موصول مبنيّ مبتدأ (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على

---

(1) أو في محلّ رفع خبر لمبتدأ بمحذوف وجوبا تقديره هم ، وقد قطع عن النعت للمدح أو في محلّ نصب بفعل محذوف على المدح .

(2 ، 3) أو متعلّق بـ (مكتوبا) .

الضمّ . . والواو ضمير في محلّ رفع فاعل (به) مثل الأول متعلّق بـ (آمنوا) ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (عزّروا ، نصروا ، اتّبعوا) ، مثله آمنوا و(الهاء) في الفعلين مفعولان (النور) مفعول به منصوب (الذي) مثل التي (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (معه) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (أنزل) ، و(الهاء) مضاف إليه (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (هم) ضمير فصل " 1 " ، (المفلحون) خبر المبتدأ أولئك مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

وجملة : " يتّبعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يجدونه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يأمرهم . . . " في محلّ نصب حال من الرسول .

وجملة : " ينهاهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يأمرهم .

وجملة : " يحلّ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يأمرهم .

وجملة : " يحرّم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يأمرهم .

وجملة : " يضع . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يأمرهم .

وجملة : " كانت عليهم " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " عزّروه " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ ثان خبره (المفلحون) ، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ (أولئك) .

(479/291)

وجملة : " نصروه " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول .

وجملة : " اتّبعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول .

وجملة : " أنزل معه " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثالث .

وجملة : " أولئك هم المفلحون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين آمنوا) .

الصرف :

(اختار) ، الألف فيه منقلبة عن ياء ، وأصله اختير بفتح الياء لأن المصدر اختيار حيث عادت الياء إلى أصلها ، فلمّا تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه افتعل .

(الغافرين) ، جمع الغافر اسم فاعل من غفر الثلاثيّ وزنه فاعل .

(هدنا) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون فهو معتلّ أجوف هاد يهود بمعنى رجع وأصله هودنا ، فلمّا بني الدال على السكون والتقى ساكنان حذف حرف العلّة ،

وزنه فلنا .

(الأمّيّ) ، انظر بحثا عن تصريف هذه الكلمة في الآية (78) من سورة البقرة .

(مكتوبا) ، اسم مفعول من كتب الثلاثيّ على وزن مفعول .

(الخبائث) ، جمع خبيثة مؤنّث خبيث ، صفة مشبّهة من فعل خبث يخبث باب كرم وزنه فعيل ، ووزن الخبائث فعائل ، قلبت الياء همزة لأنها مسبوقة بألف ساكنة ، وهي زائدة .

(الأغلال) ، جمع غلّ ، اسم جامد لما يقيّد به وأستعير هنا للشدّة ، وزنه فعل بكسر الفاء .

الفوائد

- في هذه الآية إشارة صريحة إلى أن التوراة والإنجيل قد بشرا صراحة برسالة محمد صلّى اللّه عليه واله وسلم . ولكن اليهود كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، لطمس تلك البشارة ، وتحريف الكلم ، إما بتجاوز بعض ما ورد في التوراة وإخفائه ، وإما بتفسيره تفسيرا مغايرا للمقصود ، وكلاهما وقع من يهود المدينة وخيبر ومن لفّ لفّهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 9 صـ 97.5 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة الأعراف (7) : الآيات 88 إلى 89]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (89)

اللغة :

(لَتَعُودُنَّ) : لفعل " عاد " في لغة العرب استعمالان : أحدهما وهو الأصل : الرجوع إلى ما كان عليه من الحال الأول ، وثانيهما :

استعمالها بمعنى صار ، وحينئذ ترفع الاسم وتنصب الخبر . وقد جرينا على الإعرابين .

الإعراب :

(481/291)

(قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) تقدم هذا الاعراب بنصه ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما قالوه بعد ما سمعوا من المواعظ (لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ

قَرْيَتِنا) اللام موطئة للقسم ، ونخرجنك فعل مضارع مبني على الفتح ، والكاف مفعول به ، والذين عطف على الكاف أو مفعول معه ، وجملة آمنوا صلة ، ومعك ظرف مكان متعلق بالإخراج لا بالإيمان ، وتوسيط النداء باسم شعيب زيادة بيان إغراقهم في الوقاحة والطغيان ، ومن قريتنا جار ومجرور متعلقان بنخرجنك (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا) أو عاطفة ، ولتعودن عطف على جواب القسم الأول ، أي : والله لنخرجنك والمؤمنين أو لتعودن ، وتعودن هنا معرب لأنه لم يتصل مباشرة بنون التوكيد الثقيلة ، وأصله تعودونن ، فحذفت النون لتوالي الأمثال ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين ، والواو إما فاعل وإما اسم تعود على الاستعمالين ، وفي ملتنا جار ومجرور متعلقان بتعودن أو بمحذوف خبر تعودن (قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ) جملة القول مستأنفة مسوقة لبيان ردّ شعيب عليه السلام ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ، أي إنكار ، ولو شرطية لمجرد الربط لا لانتفاء الشيء في الزمن الماضي لانتفاء غيره فيه ، وكان واسمها وخبرها ، وجملة لو كنا كارهين في محل نصب حال من ضمير الفعل المقدر ، أي : أنعود ولو كنا كارهين (قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ) الجملة مستأنفة مسوقة للتعجب من إصرارهم على موقفهم ، وقد حرف تحقيق ، وافترينا فعل وفاعل ، وعلى الله جار ومجرور متعلقان بافترينا ، وكذبا مفعول به أو صفة لمصدر محذوف ، وإن شرطية ، وعدنا في ملتكم في محل جزم فعل الشرط ، وتقدم إعراب الباقي على

الاستعمالين ، وجواب إن محذوف دل عليه ما قبله ، أي : فقد افترينا الكذب (بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها) بعد ظرف زمان متعلق بمحذوف حال ، والظرف مضاف إلى ظرف آخر ، وجملة نجانا في محل جر بالإضافة والله فاعل ، ومنها جار ومجرور متعلقان بنجانا (وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها) الواو استئنافية مسوقة لاستبعاد العود ، وما نافية ، ويكون فعل مضارع ، ولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، وأن وما في حيزها هو اسم يكون ، وفيها جار ومجرور متعلقان بنعود أو بمحذوف خبرها ، على الاستعمالين (إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا) في هذا الاستثناء وجهان : أحدهما أنه متصل ، فعلى هذا يكون الاستثناء من أعم الأوقات أو الأحوال ، وثانيهما أنه منقطع ، فيكون التقدير : لكن إذا شاء الله العود ، والله فاعل يشاء ، وربنا بدل من الله (وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان سعة علم ربنا ، ووسع فعل ماض ، وربنا فاعل ، وكل شيء مفعول به ، وعلما تمييز محوّل عن الفاعل ، أي وسع علمه كل شيء (عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا) الجملة في موضع نصب على الحال ، وعلى الله جار ومجرور متعلقان بتوكلنا ، وتوكلنا فعل وفاعل (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ) الجملة مستأنفة ، وربنا منادى مضاف ، وافتح فعل أمر ،

وبيننا ظرف مكان متعلق بافتح ، أي : احكم بيننا وبين قومنا ، والواو للحال أو للاستئناف أيضا ، وأنت مبتدأ ، وخير الفاتحين خبر .

الفوائد :

اشتملت هاتان الآيتان على : كثير من الفوائد نلخصها فيما يلي :

1- الشبهة في العود :

إذا كانت " عاد " على معناها الأصلي فكيف يحسن أن يقال :

" أو لتعودنّ " أي : ترجعنّ إلى حالتكم الأولى ، مع أن شعيبا عليه السلام لم يكن قط على دينهم ولا في ملتهم ؟ وقد أجيب عن هذه الشبهة بأمور :

(483/291)

1- إن هذا القول من رؤسائهم قصدوا به التلبيس والإيهام على العوام بأنه كان على دينهم وفي ملتهم .

2- أن يراد بعوده رجوعه إلى حاله قبل بعثته ، وهي السكوت لأنه قبل أن يبعث يخفي إيمانه وهو ساكت .

3- تغليب الجماعة على الواحد ، لأنهم لما أصحبوه مع قومه في الإخراج أجروا عليهم

حكم العود إلى الملة تغليبا لهم عليه .

على أن استعمال عاد بمعنى صار لا يستدعي العود إلى حالة سابقة بل العكس من ذلك ، وهو الانتقال من حالة سابقة إلى حال مؤتنفة ، وحينئذ تندفع الشبهة تماما .

وثمة وجه لطيف فني لردّ الشبهة ليس بعيدا وهو أن تبقى عاد على معناها الأصلي ، وهو أن يكون الكلام من وادي قوله تعالى :

" اللّه وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات " والإخراج يستدعي دخولا سابقا فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن

الناشئ في الإيمان المترعرع على ذراه لم يدخل قط في ظلمة الكفر ولا كان فيها ، وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الايمان ولا كان فيه ، ولكن لما كان الايمان والكفر من الأفعال الاختيارية كان تعبيرا عن السبب بالمسبب لإقامة حجة اللّه على عباده .

2- لزوم ما لا يلزم :

وفي الآية الأولى لزوم ما لا يلزم وهي قوله تعالى : " لنخرجنك يا شعيب والذين معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا " فقد لزمت التاء قبل النون ، وهذا ما يسمى " لزوم ما لا يلزم " ، وهو أن يلتزم الشاعر في شعره والناثر في نثره حرفا أو حرفين فصاعدا قبل حرف الرّويّ على قدر طاقته ، ومقدار قوة عارضته ، مشروطا بعدم الكلفة . وسيرد في القرآن الكثير

منه .

أبو العلاء المعرّي واللّزوم :

وقد قال أبو العلاء :

كثّير أنا في حرفي أهبت له في التاء يلزم حرفا غير يلتزم

(484/291)

فقد أرخ شاعرنا الفيلسوف في بيته الفنّ الذي أحبه ونذر له نفسه أولا وهو " لزوم ما لا يلزم " . ومعنى البيت أنه حذا حذو كثّير عزة الذي التزم اللام في تائيته التي يقول في مستهلها :

خليليّ هذا ربع عزّة فاعقلا قلوصيكما ثم احللا حيث حلّت

وهذه القصيدة المستجادة تعدّ حسب رواية القالي خمسة وثلاثين بيتا ، بناها من أولها إلى آخرها على التزام حرف معين قبل الرّويّ ، وهو أمر لم يسبق إليه شاعر من شعراء العرب في استخدام هذا النوع ، فقلّده الشعراء ، وهل أراد المعري ذلك ؟ الجواب : لا ، ومن رأينا أن المعري في اقتدائه بكثير عزّة لم يفعل ذلك ، لأن كثّيرا أول من استخدم هذا الفن – كما توهم فريق من علماء البيان – بل لأن لزوم ما لا يلزم لم يرد إلا نادرا في شعر العرب قبل عصر كثير ، كما أنه ورد في نبذ ومقطوعات قصيرة ، أما كثير فقد نظم أشهر وأطول قصيدة

لزومية تناقلتها الرواة. وقد أكثر شعراء العرب قبل كثير وبعده من التزام ما لا يلزم قبل تاء التأنيث هذه.

هذا وقد بلغ أبو العلاء الغاية في لزومياته، فقد بنى قافية على دارهم، صدارهم، ملتزما فيها أربعة أحرف، وبنى أخرى على ضرائرهم، صرائرهم، سرائرهم، ملتزما فيها خمسة أحرف.

ويطول بنا الحديث إن أردنا الاستشهاد فحسبنا ما تقدم.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 90 إلى 93]

وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (93)

(485/291)

اللغة:

)

يَغْنَوْا) مضارع غني بالمكان أقام به فهو غان . والمغني المنزل ، والجمع المغاني ، قال الطائي :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى وكلا سقاناه بكاسيهما الدهر

فما زادنا بغيا على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

(آسى) : أصله أأسى بهمزتين ، قلبت الثانية ألفا . وفي المصباح :

أسي أسى من باب تعب : حزن .

الاعراب :

(وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) تقدم إعرابها (لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ)

الجملة القسمية في محل نصب مقول قولهم ، واللام موطئة للقسم ، وإن شرطية ، واتبعتم شعيبا فعل وفاعل ومفعول به ، وإن واسمها ، وإذن حرف جواب وجزاء مهمل ، واللام المزحلقة ، وخاسرون خبر إن ، وجملة إنكم جواب القسم لا محل لها ، وهي سادة مسد جواب الشرط كما هي القاعدة في اجتماع شرط وقسم

(486/291)

)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ) الفاء عاطفة ، وأخذتهم الرجفة فعل

ومفعول به وفاعل ، فأصبحوا عطف على فأخذتهم ، والواو اسم أصبحوا وجاثمين خبرها ، وفي دارهم جار ومجرور متعلقان بجاثمين (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا) جملة مستأنفة لبيان حقيقة هؤلاء المكذبين . والذين مبتدأ ، وجملة كذبوا شعيبا صلة ، وكأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وجملة لم يغنوا فيها خبرها (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ) الذين مبتدأ ، وجملة كذبوا شعيبا صلة ، وجملة كانوا خبر الذين ، وهذا التكرير في المبتدأ والخبر مبالغة في الردّ على أشياعهم وتسفيه آرائهم ، والإيذان بأن ما ذكر في حيز الصلة هو الذي استوجب العقوبتين ، وأسند إلى الموصول تعظيما لغير السامعين ، فإن خسران مكذبيه يدل على سعادة مصدقه ، ويلزمه تعظيم شعيب عليه السلام الذي هو غير المتكلم والمخاطب في هذا المقام (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ : يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي) الفاء عاطفة ، وتولى فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو ، وعنهم جار ومجرور متعلقان بتولي ، وقال عطف على تولى ، وجملة لقد أبلغتكم رسالات ربي مقول القول ، ورسالات مفعول به ثان لأبلغتكم (وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ) عطف على ما سبق ، والفاء استئنافية ، وكيف اسم استفهام معناه النفي في محل نصب حال ، وآسى فعل مضارع ، وفاعله مستتر تقديره أنا ، وعلى قوم جار ومجرور متعلقان بآسى ، وكافرين صفة لقوم .

البلاغة :

في الآية وصف لحال النفس في ترددها فقد اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال : كيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن

(487/291)

عليهم لكفرهم وتماديهم في الطغيان ، واستحقاقهم لما نزل بهم ؟ ثم يتخلل ذلك العودة عليهم بالملامة ، يريد لقد أعذر من أنذر ، وبلغت أقصى ما يستطيعه الغيور على قومه من الارتطام في بوادي الجهل المتشعبة ، ومهالكه الموبقة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 94 إلى 96]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (95) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (96)

اللغة :

(عَفَوْا) : كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم من قولهم : عفا النبات وعفا الشحم والوبر إذا كثرت . ويقال : عفا : كثر ، وعفا :

درس ، فهو من أسماء الأضداء . وفي المصباح أنه يتعدى ولا يتعدى ، ويتعدى أيضا بالهمزة ، فيقال : أعفيته .

الاعراب :

(وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق لبيان أحوال الأمم بصورة مجملة لتكون مع القصة نذيرا للمنذرين . وما نافية ، وأرسلنا فعل وفاعل ، ومن حرف جر زائد ، ونبيّ مجرور لفظا منصوب محلّا على أنه مفعول به (إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) إلا أداة حصر ، فالاستثناء مفرّغ من أعم الأحوال ، فجملة أخذنا في محل نصب على الحال بتقدير " قد " كما هو الشرط في وقوع الماضي حالا ، وقد تقدّم بحثه .

(488/291)

و التقدير : وما أرسلنا في قرية من القرى المهلكة نبيا من الأنبياء في حال من الأحوال إلا حال كوننا قد أخذنا . وأهلها مفعول به ، وبالبأساء جار ومجرور متعلقان بأخذنا ، والضراء عطف على البأساء ، ولعلهم لعل واسمها ، وجملة يضّرّعون خبرها ، وجملة لعلهم يضرعون حالية .

(ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ) ثم حرف عطف وتراخ ، وبدلنا عطف على أخذنا منتظم في حكمه . ومكان مفعول به لبدلنا ، والسيئة مضاف إليه ، والحسنة مفعول به ثان ، وهذا ما منع من نصبه على الظرفية ، فالحسنة هي المأخوذة الحاصلة ، ومكان السيئة هو المتروك الذاهب ، وهو الذي تصحبه الباء في مثل هذا التركيب ، وقد تقدم تحقيق ذلك في البقرة (حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا : قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ) حتى حرف غاية وجر ، وعفوا فعل ماض وفاعله ، والمصدر المؤول المجرور بأن متعلقان ببدلنا ، وقالوا عطف على عفوا ، وجملة قد مس مقول القول ، وآباءنا مفعول به ، والضراء والسراء عطف عليه (فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) فأخذناهم عطف على عفوا ، وبغتة حال أو صفة لمصدر محذوف ، وهم الواو حالية ، وهم مبتدأ ، وجملة لا يشعرون خبر ، والجملة الاسمية في محل نصب حال (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ) الواو استئنافية ، ولو شرطية لمجرد الربط ، وأن واسمها ، وجملة آمنوا خبرها ، وأن وما بعدها

(489/291)

فاعل لفعل محذوف ، أي : ثبت إيمانهم ، ولفتحنا اللام واقعة في جواب لو ، وفتحنا فعل وفاعل ، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بفتحنا ، وبركات مفعول به ، ومن السماء والأرض جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لبركات (وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ) الواو حالية ، ولكن حرف استدراك مهمل ، وكذبوا فعل وفاعل ، والجملة نصب على الحال ، فأخذناهم الفاء عاطفة ، وأخذناهم فعل وفاعل ومفعول به ، وبما جار ومجرور متعلقان بأخذناهم ، وما مصدرية أو موصولة ، وكان واسمها ، وجملة يكسبون خبر ، وجملة الكون صلة " ما " أو المصدر المؤول ، لا محل له بعد الموصول الحرفي .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 97 إلى 99]

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99)

اللغة :

(بَياتاً) البيات يكون بمعنى البيتوتة ، يقال : بات بياتا ، وقد يكون بمعنى التبييت ، كالسلام بمعنى التسليم ، يقال بيته العدو بياتا ، فيجوز أن يراد يأتيهم بأسنا بائتين أو وقت بيات ، أو مبيتا أو مبيتين .

والبيات الهجوم على الأعداء ليلا .

(الضُّحى) : اشتداد الشمس وامتداد النهار ، يقال : ضحي ، ويقال : ضحى وضحاء ، إذا ضممته قصرته ، وإذا فتحته مددته .

الاعراب :

)

(490/291)

أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى) الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي ، والفاء عاطفة على أخذناهم بغتة ، وما بينها وهو قوله : " ولو أن أهل القرى " اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وقد تقدّم أن مثل هذا التركيب يكون حرف العطف في نية التقديم ، وإنما تأخر ، وتقدمت عليه الهمزة لقوة تصدرها في أول الكلام . وأمن أهل القرى فعل وفاعل (أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ) أن المصدرية وما في حيزها مفعول أمن ، وبأسنا فاعل يأتيهم ، وبياتا حال أو ظرف ، والواو حالية ، وهم نائمون مبتدأ وخبر ، والجملة نصب على الحال من الضمير في يأتيهم (أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) عطف على الجملة السابقة مماثلة لها في الاعراب ، وضحى ظرف زمان متعلق بيأتيهم (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ) تقدم إعرابها ، والتكرير لزيادة النكير والتوبيخ ، وقد تقدم القول في المراد بمكر الله (فَلا

يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ) الفاء عاطفة ، ولا نافية ، ويأمن مكر اللّه فعل ومفعول به ، وإلا أداة حصر ، والقوم فاعل ، والخاسرون صفة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 100 إلى 102]

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100) تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101) وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102)

اللغة :

(يَهْدِ) : يبين ، من هدى يهدي .

الاعراب :

)

(491/291)

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ومعنى يهدي :

أن يتبين وهي مجزومة ب " لم " وللذين متعلقان بيهد ، وجملة يرثون الأرض صلة ، ومن بعد أهلها جار ومجرور متعلقان بيرثون (أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) أن هنا هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وجملة نشاء خبر ، وأن وما بعدها فاعل يهد ، ويجوز أن يكون فاعل " يهد " مستترا هو ضمير " اللّه " أو ضميرا عائدا على المفهوم من سياق الكلام ، أي : أولم يهد ما جرى للأمم السابقة ، وعندئذ تكون أن وما في حيزها في تأويل مصدر في محل المفعول ، والتقدير على الوجه الأول : أولم يهد اللّه ويبين للوارثين مآلهم وعاقبة أمرهم إصابتنا إياهم بذنوبهم ، ويكون المفعول به محذوفا كما قدرناه .

وعلى الوجه الثاني يكون التقدير : أولم يبين ويوضح اللّه أو ما جرى للامم إصابتنا إياهم لو شئنا ذلك . وأصبناهم فعل وفاعل ومفعول به ، وبذنوبهم جار ومجرور متعلقان به (وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة ، ولا يجوز عطفه على جواب " لو " لأنه يؤدي إلى كون الطبع منفيا بمقتضى " لو " مع أنه ثابت لهم ، وعلى قلوبهم جار ومجرور متعلقان بنطبع (فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ) الفاء عاطفة لتعقيب عدم السمع بعد الطبع على القلب ، وهم مبتدأ ، وجملة لا يسمعون خبره (تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها) تلك اسم إشارة في محل رفع مبتدأ ، والقرى بدل من تلك ، وجملة نقص خبر تلك . ويجوز أن تكون القرى هي الخبر وجملة نقص حالية ، على حد قوله تعالى : "

هذا بعلي شيخا " ، وعليك جار ومجرور متعلقان بنقصّ ، ومن أبنائها ، جار ومجرور متعلقان بنقص أيضا ، ومن للتبعيض ، أي :

(492/291)

بعض أنبائها ، ولها أنباء أخرى لم نقصها عليك ، وجملة الإشارة استئنافية مسوقة لبيان أن هؤلاء لا تجدي فيهم النصائح والعبر ، ولا تؤثر فيهم المواعظ ، فماتوا مصرين على عنادهم ، لم تلن لهم شكيمة ، ولم يهدأ لهم عناد (وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ) الواو استئنافية أو عاطفة ، واللام جواب قسم محذوف ، وقد حرف تحقيق ، وجاءتهم فعل ومفعول به ، رسلهم فاعل ، وبالبينات جار ومجرور متعلقان بجاءتهم (فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ) الفاء عاطفة ، وما نافية ، وكان واسمها ، واللام للجحود ، ويؤمنوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود ، والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف ، أي فما كانوا مريدين ليؤمنوا ، وبما جار ومجرور متعلقان بيؤمنوا ، وما اسم موصول أو مصدرية ، ومن قبل جار ومجرور متعلقان بكذبوا ، وعلى كون " ما " موصولة فالعائد محذوف ، وهو مجرور ، كقوله تعالى في سورة يونس : " فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا

به " ، وهو من اتحاد المتعلق معنى ، وبيان كونه من ذلك أن مجموع " ما كانوا ليؤمنوا " بمعنى "كذبوا به " ، فاتحد المتعلقان معنى .

(493/291)

ويمكن أن يقال : قد تعدى قوله تعالى : " ليؤمنوا " بالياء ، ويؤمن نقيض يكذب ، فأجراه مجراه ، لأنهم قد يحملون الشيء على نقيضه ، كما يحمل على نظيره (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) الكاف مع مدخولها صفة لمصدر محذوف ، أي : مثل ذلك الطبع على قلوب أهل القرى المنتفى عنهم الايمان كذلك يطبع اللّه على قلوب الكفرة الآتين بعدهم (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ) الواو معترضة ، والجملة لا محل لها لأنها اعتراضية ، وما نافية ، ووجدنا فعل وفاعل ، ولأكثرهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لعهد ، ومن حرف جر زائد ، وعهد مفعول به محلا لوجدنا ، ويجوز أن يكون لأكثرهم مفعولا ثانيا لوجدنا ، بترجيح أنها علمية لا وجدانية (وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) الواو عاطفة ، وإن مخففة من الثقيلة غير عاملة على قلة ، ويجوز أن تكون عاملة واسمها ضمير الشأن ، وسيأتي حكمها في باب الفوائد ، ووجدنا أكثرهم فعل وفاعل ومفعول به ، واللام الفارقة ، وفاسقين مفعول به ثان لوجدنا .

الفوائد :

إذا خففت " إن " المكسورة الهمزة أهملت وجوبا إن وليها فعل ، كقوله تعالى : " وإن نظنك لمن الكاذبين " ، فإن وليها اسم فالغالب إهمالها أيضا ، نحو : إن أنت لصادق ، ويقل إعمالها ، نحو : إن زيدا لمنطلق . ومتى خففت وأهملت لزمتها اللام المفتوحة وجوبا تفرقة بينها وبين " إن " النافية وتسمى اللام الفارقة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 103 إلى 106]

(494/291)

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (105) قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106)

الإعراب :

(ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها) ثم : حرف عطف وتراخ ، وبعثنا فعل وفاعل ، من بعدهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، والضمير للرسل أو

للأمم ، وموسى مفعول به ، وبآياتنا جار ومجرور متعلقان ببعثنا ، والى فرعون جار ومجرور متعلقان ببعثنا أيضا ، وملئه عطف على فرعون ، أي إلى قومه ، فظلموا الفاء للعطف والتعقيب ، وبها جار ومجرور متعلقان بظلموا ، وأجرى الظلم مجرى الكفر لأنهما من شعبة واحدة ، (فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) تقدم إعراب نظيرها فجدد به عهدا (وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) الواو استئنافية ، والجملة مسوقة لتفصيل ما أجمله من قبل . ويا حرف نداء للتوسط ، وفرعون منادى مفرد علم مبني على الضم ، وهو لقبه ، واسمه الحقيقي الوليد بن مصعب

(495/291)

ابن الريان ، أما كنيته فأبو مرة ، وإن واسمها ومن رب العالمين خبرها ، والجملة في محل نصب مقول القول (حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) حقيق خبر لمبتدأ محذوف ، أي : أنا حقيق ، بمعنى جدير ، والجملة استئنافية ، وعلى أن لا أقول جار ومجرور متعلقان بحقيق ، لأنه فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ، وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بأقول ، وإلا أداة حصر ، والحق صفة لمصدر محذوف ، أي : إلا القول الحق ، ويجوز أن يكون مفعولا به لأنه يتضمن معنى جملة (قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) الجلة صفة لرسول ، وقد حرف تحقيق ، وجئتكم

فعل وفاعل ومفعول به ، وببينة جار ومجرور متعلقان بجئتكم ، ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لبينة (فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) الفاء الفصيحة ، أي : إذا استمعت كلامي وثبت إلى الرشد فخلّ أمرهم واترك سبيلهم حتى يذهبوا معي .

وأرسل فعل أمر ، ومعي ظرف متعلق بأرسل ، وبني إسرائيل مفعول به ، وغاية موسى تحريرهم من العبودية وتخليصهم من ربقة الأسر والهوان (قَالَ : إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) جملة قال استئنافية لطلب فرعون الإتيان بآية من ربه ، والجملة الشرطية في محل نصب مقول القول ، وإن شرطية ، وكان واسمها ، وجملة جئت خبر كنت ، وبآية جار ومجرور متعلقان بجئت ، والفاء رابطة للجواب ، وأت فعل أمر ، وبها جار ومجرور متعلقان به ، وكنت كان واسمها في محل جزم فعل الشرط ، ومن الصادقين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كنت ، وجواب إن محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : فأت بها .

البلاغة :

من سنن العرب في كلامهم القلب ، وهو ضربان : الأول قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة ، وقد تشبث أبو الطيب المتنبي بأهدابه حين قال :

والسيف يشقى كما تشقى الضلوع به وللسّيوف كما للناس آجال

و المراد بشقاء السيف انقطاعه في أضلاع المضروب ، على حد قوله في بيت آخر :

طوال الرّدينيّات يقصفها دمي وبيض السّريجيّات يقطعها لحمي

والضرب الثاني ضرب معرّى عن هذا المعنى البليغ ، كقولهم :

خرق الثوب المسمار ، وأشباهه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 107 إلى 112]

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108)
قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما
ذا تَأْمُرُونَ (110) قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (111)
يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (112)

الاعراب :

)

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ) الفاء عاطفة للتعقيب ، وألقى فعل ماض ، وعصاه مفعول به ، فإذا الفاء عاطفة أيضا ، وإذا الفجائية ، وقد تقدم القول فيها ، وإن النحاة ذهبوا فيها ثلاثة مذاهب : ظرف مكان أو زمان أو حرف ، وهي مبتدأ ، وثعبان خبر ، ومبين صفة (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ) الواو عاطفة ، ونزع يده فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به ، أي : أخرجها من جيبه ، وهو طوق قميصه ، والفاء عاطفة ، وإذا فجائية ، وهي مبتدأ ، وبيضاء خبر ، وللناظرين جار ومجرور متعلقان ببيضاء ، والمعنى : فإذا هي بيضاء للنظّارة بياضا عجيبا باهرا خارقا للعادة ، مع أنه كان آدم شديد الأدمة ، أي السمرة . ولك أن تعلق الجار والمجرور بمحذوف صفة لبيضاء (قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ) كلام مستأنف مسوق ليعلن الملأ من قومه عجبهم ، ولا منافاة بين ما ورد هنا من صدور الكلام عنهم وما ورد في سورة الشعراء من عزوه إلى فرعون ، فقد يكون هو القائل فحكوا قوله . وقال الملأ فعل وفاعل ، ومن قوم فرعون جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، وساحر خبر ، وعليم صفة ، والجملة في محل نصب مقول القول (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ) جملة يريد صفة ثانية لساحر ، وأن وما في حيزها في تأويل مصدر مفعول به ليريد ، ويخرجكم فعل مضارع منصوب بأن ، ومن أرضكم جار ومجرور متعلقان بيخرجكم ، والفاء عاطفة ،

وماذا اسم استفهام مفعول مقدم لتأمرون ، أو " ما " مبتدأ و" ذا " اسم موصول خبرها ، وجملة تأمرون لا محل لها ، وقد تقدم ال

(498/291)

وجملة أرجه نصب مقول القول ، وأرجه فعل أمر ، أي بها على أنها مفعول معه (وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ) الواو عاطفة ، وأرسل فعل أمر ، وفي المدائن جار ومجرور متعلقان بأرسل ، وحاشرين صفة لمفعول به محذوف ، أي : رجالا حاشرين السحرة ، وقيل : هو منصوب على الحالية ، ومفعول حاشرين محذوف ، أي : السحرة ، والمدائن جمع مدينة ، فميمها أصلية وياؤها زائدة ، مشتقة من مدن يمدن مدونا : أي أقام ، وإذا كانت الياء زائدة في المفرد تقلب همزة في الجمع (يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ) يأتوك فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ، والواو فاعل ، والكاف مفعول به ، وبكل جار ومجرور متعلقان بيأتوك ، وساحر مضاف إليه ، وعليم صفة .

الفوائد :

تقدم القول مستوفى في " إذا " الفجائية ، ونورد هنا المسألة الزّنبوريّة ، وهي مناظرة جرت بين سيبويه والكسائي . وكان من خبرهما أن سيبويه قدم على البرامكة ، فعزم يحيى بن

خالد على الجمع بينهما ، فجعل لذلك يوما . فلما حضر سيبويه تقدم إليه الفراء وخلف ، فقال سيبويه : لست أكلمكما حتى يحضر صاحبكما فحضر الكسائي فقال له : تسألني أو أسألك ؟ فقال له سيبويه : سل أنت . فسأله عن المسألة الزنبورية ، وهي : قالت العرب : " قد كنت أظنّ أن العقرب أشد لسعا من الزنبور فإذا هو هي " . وقالوا أيضا : " فإذا هو إياها " .

فقال سيبويه : " لا يجوز النصب " فقال يحيى : قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما ؟ فقال الكسائي : العرب ببابك ، قد سمع منهم أهل البلدين فيحضرون ويسألون . فقال يحيى وجعفر :

أنصفت ، فأحضروا فوافقوا الكسائي ، فاستكان سيبويه ، فأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم ، فخرج إلى فارس فأقام بها حتى مات ، ولم يعد إلى البصرة . فيقال : إن العرب قد ارشوا على ذلك ، وأنهم علموا بمنزلة الكسائي عند الرشيد .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 113 إلى 116]

(499/291)

وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (113) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116)

الإعراب :

(وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ) فعل وفاعل ومفعول به ، والجملة مستأنفة (قالُوا : إِنَّ لَنا لَأَجْراً) قالوا : فعل وفاعل ، والجملة مستأنفة مسوقة لإيراد جوابهم على تقدير : سأل : " ما قالوا " ، وتنكير الأجر يقصد به المبالغة في الكثرة . وإن حرف مشبه بالفعل ، ولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها المقدم ، واللام المزحلقة ، وأجرا

خبرها ، والجملة في محل نصب مقول القول (إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ) إن شرطية ، وكان واسمها ، ونحن تأكيد ل " نا " ، ويجوز أن يكون ضمير فصل أو عماد ، والغالبين خبر ، وجواب الشرط محذوف للدلالة عليه (قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) الكلام مستأنف مسوق لإيراد جواب فرعون . ونعم حرف جواب تضمن تحقيق ما طلبوه من أجر كثير ، وإنكم الواو عاطفة على محذوف سدّ مسدّه حرف الجواب ، كأنه قال : نعم إن لكم لأجرا ، وإنكم إن

واسمها ، واللام المزحلقة ، ومن المقربين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر إنّ (قالُوا : يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ) جملة مستأنفة تضمنت مخاطبة السحرة لموسى ، وفيه الكثير من الأدب الرفيع المتبادل بين أبناء المهنة الواحدة ، كما يفعل أصحاب الصناعات إذا التقوا . وإما حرف شرط تضمن معنى التخيير ، وفيه يتجلى حسن أدب منهم . وأن مصدرية مؤوّلة مع ما في حيزها بمصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره محذوف ، والتقدير : إما إلقاؤك مبدوء به ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : وإما أمرك إلقاء ، ويجوز أن يكون المصدر منصوبا بفعل محذوف ، أي : افعل إما إلقاءنا وإما إلقاءك (وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) عطف على ما تقدم (قالَ : أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ) جملة ألقوا في محل نصب مقول قوله وجملة قال استئنافية والفاء استئنافية ولما رابطة أو حينية وألقوا فعل وفاعل وجملة سحروا جواب لما وأعين الناس مفعول به واسترهبوهم عطف على سحروا كأنهم استدعوا رهبتهم (وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) عطف أيضا وبسحر جار ومجرور متعلقان بجاءوا وعظيم صفة لسحر .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 117 إلى 122]

(501/291)

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (120) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (121)

رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (122)

اللغة :

(تَلْقَفُ) مضارع لقف ، كعلم يعلم ، يقال : لقفت الشيء ألقفه لقفا وتلقّفته أتلقّفه تلقّفا إذا أخذته بسرعة فأكلته أو ابتلعته .

ويقال : لقف ولقم بمعنى واحد .

(يَأْفِكُونَ) : الإفك : في الأصل قلب الشيء عن وجهه ، ومنه قيل للكذاب : أفّاك ، لأنه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح إلى الباطل .

الاعراب :

(وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ) الواو استئنافية ، وأوحينا فعل وفاعل ، والى موسى جار ومجرور متعلقان بأوحينا ، و" أن " يجوز أن تكون مفسرة لوقوعها بعد ما فيه معنى القول دون حروفه ، ويجوز أن تكون أن مصدرية ، فتكون هي وما بعدها مفعول أوحينا ، وألق فعل أمر ، وعصاك مفعول به لألق (فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ) الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق ، والتقدير : فألقاها فإذا هي ، وإذا الفجائية ، وهي ضمير

منفصل في محل رفع مبتدأ ، وجملة تلقف خبر ، و" ما " يجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي : الذي يأفكونه ، ويجوز أن تكون مصدرية مؤوّلة مع

(502/291)

ما بعدها بمصدر منصوب على المفعولية لتلقف ، وجملة يأفكون لا محل لها على كل حال (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) الفاء عاطفة ، ووقع الحق فعل وفاعل ، وبطل فعل ماض ، و" ما " موصولة أو مصدرية ، وهي في محل رفع فاعل ، أو مع ما في حيزها . وكان واسمها ، وجملة يعملون خبرها (فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ) الفاء عاطفة ، غلبوا فعل ماض مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل ، وهنالك اسم إشارة في محل نصب على الظرفية المكانية ، أي : غلبوا في المكان الذي وقع فيه سحرهم ، وانقلبوا عطف على غلبوا ، وصاغرين حال (وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ) عطف على ما قبله ، والسحرة نائب فاعل لألقي ، وساجدين حال من السحرة (قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ) الجملة مستأنفة لا محل لها ، ويجوز أن تكون حالية ، أي : ألقوا حال كونهم ساجدين قائلين ، وجملة آمنا في محل نصب مقول القول ، وبرب العالمين جار ومجرور متعلقان بآمنا (رَبِّ مُوسى وَهارُونَ) رب بدل من رب العالمين أو نعت له ، وقدموا موسى على هارون - وإن كان هارون أسنّ منه - لأمرين :

أولهما ارتفاعه عليه بالرتبة ، ولأنه وقع فاصلة ، ومراعاة الفواصل تكاد تكون مطردة في القرآن .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 123 إلى 126]

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (125) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (126)

اللغة :

)

(503/291)

خِلافٍ) : يكاد المفسرون يجمعون على أن المعنى هو أن يقطع من كل شقّ طرفا فيقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى .

وقالوا : إن أول من قطع من خلاف وصلب هو فرعون . وفي اللغة خالفه خلافا بكسر الخاء ومخالفة : ضد وافقه ، وخالف بين رجليه قدم إحداهما وأخر الأخرى ، فلعله

مأخوذ من هذا المعنى . ويبعد قول من فسره بالمخالفة أي : لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم لأجل مخالفتكم إياي . فتكون " من " تعليلية لأن هذا يتنافى مع أسلوب القرآن البليغ .

(تَنْقِمُ) في المصباح : نقمت عليه أمره ونقمت منه نقما من باب ضرب ، ونقوما . ونقمته أنقمته من باب تعب لغة : إذا عيبته وكرهته أشد الكراهة لسوء فعله .

الاعراب :

(قالَ فِرْعَوْنُ : آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) جملة قال فرعون استئنافية مسوقة للإنكار على السحرة ، موبخا لهم على ما فعلوه .

وجملة آمنتم في محل نصب مقول القول ، وهي بهمزة واحدة وبعدها الألف التي هي فاء الكلمة ، وهي إحدى القراءات الأربع في هذه الكلمة . وتحتمل الإخبار المحض المتضمن للتوبيخ ، وتحتمل الاستفهام

(504/291)

المحذوف لفهم المعنى ، وبه جار ومجرور متعلقان بآمنتم وقبل ظرف زمان متعلق بآمنتم أيضا ، وأن وما في حيزها مصدر مضاف ، وآذن أصله أأذن وهو فعل مضارع منصوب بأن ، والهمزة الأولى هي همزة المتكلم التي تدخل على المضارع ، والثانية قلبت ألفا لوقوعها

ساكنة بعد همزة أخرى ، ولكم جار ومجرور متعلقان بآذن ، وجملة آمنتم في محل نصب مقول قوله (إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ) كلام مستأنف مسوق أتى به فرعون ليؤكد لهم أن إيمانهم يقوم على تواطؤ بينهم وبين موسى ، وعقب الكلام بأنه قوي ، فجنح إلى التهديد . وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، ومكر خبرها ، وجملة مكرتموه صفة لمكر ، وفي المدينة جار ومجرور متعلقان بمكرتموه (لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) اللام للتعليل ، وتخرجوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، والجار والمجرور متعلقان بمكرتموه ، ومنها جار ومجرور متعلقان بتخرجوا ، وأهلها مفعول به ، والفاء الفصيحة ، وسوف حرف استقبال ، وتعلمون فعل مضارع وفاعل ، ومفعوله محذوف للعلم به ، أي : تعلمون ما يحل بكم من قوارع العذاب (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ) اللام موطئة للقسم ، وأقطعن فعل مضارع مبني على الفتح ، والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم مفسرة للإبهام الناشئ عن حذف المفعول به ، وأيديكم مفعول به ، وأرجلكم عطف على أيديكم ، ومن خلاف جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي :

مختلفة ، ويجوز أن تكون " من " للتعليل ، فيتعلق الجار والمجرور بنفس الفعل (ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) ثم حرف عطف وتراخ ، لأصلبنكم عطف على لأقطعن ، وأجمعين تأكيد للكاف (قالُوا : إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ) كلام مستأنف مسوق للإدلاء بجوابهم عند تهديده إياهم

بأنهم لا يبالون بالموت لانقلابهم إلى ربهم ، ورحمته وأنهم ميتون منقلبون إلى ربهم ، فما تفعل الا مالا بد منه ، وإن وما بعدها مقول القول ، وإنا : إن واسمها ، والى ربنا متعلقان بمنقلبون ، ومنقلبون خبر إن . (وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا) الواو عاطفة ، والكلام منسوق على ما تقدم من جوابهم ، وما نافية ، وتنقم فعل مضارع ، وفاعله مستتر تقديره أنت ، ومنا جار ومجرور متعلقان بتنقم ، أي : ما تعيب علينا إلا إيماننا ، وإلا أداة حصر ، وأن مصدرية ، وهي مع مدخولها مصدر مفعول تنقم ، ويجوز أن يكون المصدر مفعولا من أجله ، فهو استثناء مفرّغ على كل حال ، وبآيات ربنا جار ومجرور متعلقان بآمنا ، ولما رابطة أو حينية ، وجملة جاءتنا لا محل لها أو في محل جر بالإضافة (رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ) كلام مستأنف تحولوا فيه عن خطابه إلى الفزع لله وتفويض الأمور إليه . وربنا منادى مضاف ، وأفرغ فعل دعاء تأدّبا ، وعلينا جار ومجرور متعلقان بأفرغ ، وصبرا مفعول به ، وتوفنا عطف على أفرغ ، ومسلمين حال ، ومعنى الإفراغ هنا الصب ، أي : صبّ علينا أجرا واسعا يفيض علينا ويغمرنا كما يصب الماء ، وجواب " لما " محذوف تقديره : لما جاءتنا آمنا بها من غير تردد . وجملة الجواب لا محل لها على كل

حال .

البلاغة :

في هذه الآية فنّ طريف وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، أو المدح في معرض الذم . وهو نوعان :

1- أن يستثنى من صفة ذمّ منفية عن الشيء صفة مدح لذلك الشيء بتقدير دخولها في صفة الذمّ ، وهذا النوع هو المشهور ، ومنه قول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

ومنه الآية التي نحن بصددها ، وقد مرت آية في المائدة مماثلة لها أيضا .

(506/291)

2- أن تثبت لشيء صفة مدح ، وتعقب ذلك بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى لذلك الشيء نحو : أنا أفصح العرب بيد أني من قريش . ومنه قول النابغة أيضا :

فتى كملت أوصافه غير أنه جواد فما يبقي على المال باقيا

[سورة الأعراف (7) : الآيات 127 إلى 129]

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ

سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (127) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

اللغة :

(نَسْتَحْيِي) أي : نسبقي نساءهم للخدمة .

الاعراب :

)

(507/291)

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ) الواو استئنافية أو عاطفة ، والكلام مستأنف لبيان ما قاله ملأ فرعون وتحريضهم على موسى وقومه ، أو عطف على ما تقدم . وقال الملأ فعل وفاعل ، ومن قوم فرعون جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الملأ (أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ) الاستفهام إنكاري لتحريض فرعون على موسى وقومه ، وتذر فعل مضارع ، وفاعله مستتر ، والجملة مقول القول ، وموسى مفعول به ،

وقومه عطف على موسى ، واللام للتعليل ، ويفسدوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، والجار والمجرور وهو لام التعليل والمصدر المؤول بعدها متعلقان بتذر ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بيفسدوا ، ويذرك : يجوز أن يكون معطوفا على يفسدوا فينصب مثله ، ويجوز أن تكون الواو للمعية ويذرك منصوب بأن مضمرة بعد الواو في جواب الاستفهام ، والكاف مفعول به ، وآلهتك عطف على الضمير أو مفعول معه ، والمعنى كيف يكون الجمع بين تركك موسى وقومه مفسدين في الأرض وبين تركهم إياك وعبادة آلهتك ؟ (قالَ : سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ) جملة القول مستأنفة مسوقة لحكاية حال فرعون بعد فرقه من إلحاق أي مكروه بموسى عليه السلام ، وعدل إلى إعادة القتل والإثخان في قومه ، وقرئ سنقتّل بالتشديد وضمّ النون ، أما مع التخفيف فتكون النون مفتوحة ، وجملة سنقتل نصب على أنها قول قوله ، وأبناءهم مفعول به ،

(508/291)

و نستحيي نساءهم عطف (وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ) الواو عاطفة أو حالية ، وإن واسمها ، وقاهرون خبرها ، والظرف متعلق بقاهرون أو بمحذوف حال ، (قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ : اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ) جملة مستأنفة مسوقة لحكاية قول موسى لقومه طالبا منهم الاستعانة بالله ،

وجملة استعينوا في محل نصب مقول القول (وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) عطف على استعينوا ، وان واسمها ، ولله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، والجملة لا محل لها لأنها تعليلية ، وجملة يورثها في محل نصب على الحال من لفظ الجلالة أو خبر بعد خبر لإن ، ومن اسم موصول مفعول به ثان ليورثها ، والعاقبة الواو استئنافية ، والعاقبة مبتدأ ، وللمتقين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (قالُوا : أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا) كلام مستأنف مسوق لبيان ما قاله قوم موسى ، ويتذمرون منه ، لما كانوا يمتهنون فيه من ضروب الخدم ، ويسامون به من ألوان العذاب قبل مولد موسى عليه السلام ، وبعد مولده ، فقد كان فرعون وقومه يستخدمونهم في الأعمال الشاقة . وجملة أوذينا في محل نصب مقول قولهم ، ومن قبل جار ومجرور متعلقان بأوذينا ، وأن وما في حيزها في تأويل مصدر مجرور بالإضافة ، ومن بعد عطف على من قبل ، وما مصدرية ، مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالإضافة (قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان جواب موسى عليه السلام ، على تذمر قومه به جريا على طبيعتهم ، وجملة الرجاء في محل نصب مقول قوله ، وفيه رمز إلى البشارة بإهلاك فرعون . وعسى فعل ماض من أفعال الرجاء ، وربكم اسمها ، وأن يهلك مصدر مؤول في محل نصب خبرها ، وعدوكم مفعول به (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ) عطف على ما تقدم (فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) الفاء عاطفة للتعقيب ، وينظر

عطف على يستخلفكم ، وكيف استفهام في موضع نصب على الحالية أو المفعولية المطلقة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 130 إلى 132]

وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (131) وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132)

اللغة :

(السنون) : جمع سنة ، وهي اثنا عشر شهرا ، وتجمع على سنين وسنوات وسنهات ، وتصغيرها على سنيّة وسنينة وسنيهة ، والنسبة إليها سنويّ وسنهيّ ، والجمع يعرب بالحروف إلحاقا بجمع المذكر السالم . وربما أعرب بالحركات . والسنة أيضا : الجدب والقحط ، وقد اشتقوا منها ، فقالوا : أسنت القوم بمعنى أجدبوا وأقحطوا .

(يَطَّيَّرُوا) الأصل : يتطيروا ، فأدغمت التاء في الطاء لمقاربتها لها ، والتطيّر كما في معاجم

اللغة : التشاؤم ، وأصله أن يفرق المال ويطير بين القوم ، فيطير لكل واحد حظه وما يخصه ، ثم أطلق على الحظ والنصيب السيء بالغلبة .

الاعراب :

)

(510/291)

وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في تفصيل كيفية إهلاكهم وما سبقه من أحداث . واللام جواب قسم محذوف ، وقد حرف تحقيق ، وأخذنا فعل وفاعل ، وآل فرعون مفعول به ، وبالسنين جار ومجرور متعلقان بأخذنا (وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) الواو عاطفة ، ونقص عطف على السنين ، ومن الثمرات جار ومجرور متعلقان بنقص ، والمراد إتلاف الغلة بالآفات المختلفة ، ولعل واسمها ، وجملة يذكرون خبرها ، وجملة لعلهم يتذكرون حالية (فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا : لَنا هذِهِ) الفاء عاطفة ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ، وجملة جاءتهم الحسنة في محل جر بالإضافة ، والمراد ما يصيبهم من الرخاء والخصب ، وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، ولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وهذه

اسم إشارة في محلّ رفع مبتدأ مؤخر ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول قولهم (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ) الواو عاطفة ، وإن شرطية ، وتصبهم فعل الشرط ، والهاء مفعول به ، وسيئة فاعل ، ويطيروا جواب الشرط ، وبموسى جار ومجرور متعلقان بيطّيّروا ، ومن عطف على موسى ، ومعه ظرف مكان متعلق بمحذوف لا محل له من الأعراب لأنه صلة الموصول (أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ) ألا أداة استفتاح وتنبيه ، وإنما كافة ومكفوفة ، وطائرهم مبتدأ ، وعند اللّه ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر ، والجملة مستأنفة مسوقة من قبله تعالى للرد على اقتنائهم ، وأن ما أصابهم هو جزاء وفاق لأعمالهم السيئة المسجلة عنده (وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الواو حالية ، ولكن واسمها ، والجملة نصب على

(511/291)

الحال ، وجملة لا يعلمون خبر لكنّ (وَقالُوا : مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها) الواو عاطفة ، وقالوا فعل وفاعل ، ومهما اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ، وتأتنا فعل الشرط ومفعول به ، وبه جار ومجرور متعلقان بتأتنا ، ومن آية جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، ولتسحرنا اللام للتعليل ، وتسحرنا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، ونا

مفعول به ، والجار والمجرور " لام التعليل والمصدر المؤول بعدها " متعلقان بتأتنا وبها جار ومجرور متعلقان بتسحرنا (فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) الفاء رابطة لجواب الشرط ، وما نافية حجازية ، ونحن واسمها ، ولك جار ومجرور متعلقان بمؤمنين ، والباء حرف جر زائد ، ومؤمنين مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر " ما " . والجملة في محل جزم جواب الشرط ، وجملة فعل الشرط وجوابه خبر مهما .

البلاغة :

في تعريف الحسنة وتنكير السيئة فنّ عجيب من فنون علم المعاني ، فقد عرّف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بأحداثها ، ونكّر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورتها ، ولعدم القصد إليها ، إلا بالتبع . وفي الحسنة والسيئة طباق جميل .

الفوائد :

1 – الطيرة : أوردنا في باب اللغة المفهوم اللغوي للطّيرة ، ثم اصطلح علماء النفس على معنى أثبت لها ، فاعتبروها مرضا من شعبة أمراض الخوف الناشئ عن ضعف الأعصاب واختلالها ، إلا أنها خوف

خاص له بواعثه وأعراضه ، وأولها ضعف الأعصاب ، فالرجل السليم لا يتطيّر ولا يتشاءم ، لأنه ينتظر من الدنيا خيرا ، ولا يحس النفرة بينه وبينها ، ومن ثم لا يحس الخوف

ولا التطيّر منها ، ويمكن أن نعتبر الطيرة أنها تشاؤم مؤقت استدعته ظروف طارئة ، وجوّ يلائم حالات اليأس والتشاؤم العارضة ، فاذا بالمتطيّر يتسلف الفزع من الشر قبل وقوعه .

ابن الرومي شاعر التطيّر :

(512/291)

و من شعرائنا الذين اشتهروا بالطيّرة ابن الرومي ، فقد كان يشعر من قرارة نفسه أنه فروقة حذور ، وهو في الوقت نفسه يشعر أن حذره لا يدفع عنه ما هو مراد به ، ولكنه يرى أنه لا مندوحة له عنه للاعتصام به ، وليستشعر الأمن الذاهب والقلق الواجف :

فآمن ما يكون المرء يوما إذا لبس الحذار من الخطوب

ويرى بعض النقاد أن من روافد الطيرة في ابن الرومي ذوق الجمال وتداعي الخواطر ، ذلك أن النفس المطبوعة على استذواق الجمال تفرح وتهلل للمناظر المغرية الأخاذة ، وبالعكس تنفر وتنقبض من المناظر الدميمة الشوهاء ، أما تداعي الخواطر فصاحبه فريسة للنوازع عرضة للتأويلات التي لا مسوّغ لها يستخرج من الكلمات المهموسة ، أو الفكر الطارئة أمورا يحذر منها المرء ويخاف ، فقد كان ابن الرومي يتطير من صديقه جعفر في حال مرضه ، ولكنه لم يتطير منه قبل المرض ، ودعواه أن جعفرا مشتق من الجوع والفرار ، والخان يذكّره

بالخيانة :

فكم خان سفر خان فانقضّ فوقهم كما انقضّ صقر الدجن فوق الأرانب

وقال في ابن طالب الكاتب :

وهل أشبه المرّيخ إلا وفعله لفعل نذير السوء شبه مقارب

وهل يتمارى الناس في شؤم كاتب لعينيه لون السيف والسيف قاصب

ويدعى أبوه طالبا وكفاكم به طيرة أن المنيّة طالب

ألا فاهربوا م

2- القول في مهما : قال سيبويه : وسألت الخليل عن " مهما " فقال : هي " ما " أدخلت معها " ما " ولكنهم استقبحوا تكرير لفظ واحد فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى .

وقد استدل بعض العلماء على أنها حرف بقول زهير بن أبي سلمى :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(513/291)

فأعرب هؤلاء " خليقة " اسما لتكن ، ومن زائدة ، فتعيّن خلو الفعل من الضمير ، ولم يكن ل " مهما " محل من الإعراب ، إذ لا يليق بها إلا الابتداء ، والابتداء متعذّر لعدم وجود رابط ،

وإذا ثبت أن لا موضع لها تعين كونها حرفا ، والتحقيق أن اسم تكن مستتر ، ومن خليقة تفسير لمهما ، ومهما مبتدأ ، والجملة خبر ، وفي الآية الضميران في " به " و" بها " راجعان لمهما ، إلا أن أحدهما ذكّر على اللفظ ، والآخر أنّث على المعنى ، لأنه في معنى الآية .

وهذا الذي أنكره الزمخشري من أن " هما " لا تأتي ظرف كان ، قد ذهب إليه ابن مالك ، ذكره في التسهيل وغيره من تصانيفه ، إلا أنه لم يقصر مدلولها على أنها ظرف زمان ، بل قال : وقد ترد " ما " و" مهما " ظرفي زمان ، وقال في أرجوزته الطويلة المسماة بالشافية الكافية : :

وقد أتت مهما وما ظرفين في شواهد من يعتضد بها كفى

وقال في شرح البيت : جميع النحويين يجعلون " ما " و" مهما " مثل " من " في التجرد عن الظرف ، مع أن استعمالهما ظرفين ثابت في استعمال الفصحاء من العرب ، وأنشد أبياتا عن العرب زعم فيها أن

ما ومهما ظرفا زمان ، وكفانا الرد عليه ابنه الشيخ بدر الدين بن محمد ، وقد تأولنا نحن بعضها ، وذكرنا ذلك في كتاب التكميل لشرح التسهيل من تأليفنا ، وكفاه ردا نقله عن جميع النحويين خلاف ما قاله ، لكن من يعاني علما يحتاج إلى مثوله بين يدي الشيوخ ، وأما من فسر " مهما " في الآية بأنها ظرف زمان فهو كما قال الزمخشري ملحد في آيات اللّه .

وعبارة الزمخشري :

"

(514/291)

و هذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرّفها من لا يد له في علم العربية فيضعها غير موضعها ، ويحسب " مهما " بمعنى " متى ما " ويقول مهما جئتني أعطيتك ، وهذا من وضعه وليس من كلام واضعي العربية في شيء ، ثم يذهب فيفسر : مهما تأتني به من آية ، بمعنى الوقت فيلحد في آيات اللّه ، وهو لا يشعر ، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين يدي الناظر في كتاب سيبويه " .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 133 إلى 136]

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (133) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (136)

اللغة :

(الطُّوفانَ) : اختلفت فيه أقوال علماء اللغة فقال بعضهم : هو اسم جنس كقمح وقمحة وشعير وشعيرة . وقيل بل هو مصدر كالنقصان والرجحان ، وهذا قول المبرد . وهو يطلق في اللغة على الماء أو السيل المغرق ، وعلى شدة ظلام الليل ، وعلى الموت الذرّيع الجارف . والطوفان من كل شيء مهما كان كثيرا .

(الْجَرادَ) : جمع جرادة ، الذكر والأنثى فيه سواء ، يقال :

جرادة ذكر وجرادة أنثى ، كنملة وحمامة . وهي صنفان الطيار وهو الذي يطير غالبا والزّحاف .

(الْقُمَّلَ) : اختلفت فيه الأقوال كثيرا فقيل : هو القردان وقيل :

(515/291)

دابة تشبهها أصغر منها ، وقيل : هو السوس الذي يخرج من الحنطة ، وقيل : هو نوع من الجراد أصغر منه وقيل : هو القمل بفتح القاف الذي يكون في بدن الإنسان وثيابه ، فيكون فيه لغتان .

(الضَّفادِعَ) : جمع ضفدع بوزن درهم ، ويجوز كسر داله فيصير بزنة زبرج ، والضفدع

مؤنث وليس بمذكّر ، فعلى هذا يفرق بين مذكره ومؤنثه بالوصف فيقال : ضفدع ذكر وضفدع أنثى ، والجمع ضفادع وضفادي .

(الرِّجْزُ) : العذاب .

الاعراب :

(فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ) الفاء عاطفة ، وأرسلنا فعل وفاعل ، وعليهم : جار ومجرور متعلقان بأرسلنا ، والطوفان مفعول به ، وما بعده عطف عليه (آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) آيات حال من الخمسة المذكورات :

(516/291)

و مفصلات صفة ، فاستكبروا عطف على أرسلنا ، وكانوا قوما مجرمين كان واسمها ، وقوما خبرها ، ومجرمين صفة (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ) الواو عاطفة ، ولما رابطة أو حينية ، ووقع فعل ماض ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بوقع ، والرجز فاعل ، وجملة وقع لا محل لها أو في محل جر بالإضافة (قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ) جملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، ويا حرف نداء ، وموسى منادى مفرد علم ، وادع فعل

أمر ، ولنا جار ومجرور متعلقان ب " ادع " ، وربك مفعول به ، وبما جار ومجرور متعلقان ب " ادع " وما مصدرية أو موصولة ، وجملة عهد لا محل لها على كل حال ، وعندك ظرف مكان متعلق بعهد (لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ) اللام موطئة للقسم ، وإن شرطية وكشفت فعل ماض وفاعل وهو في محل جزم فعل الشرط ، وعنا جار ومجرور متعلقان بكشفت ، والرجز مفعول به ، ولنؤمنن : اللام جواب للقسم ، ونؤمنن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، والجملة لا محل لها لأنها جواب للقسم ، ولك جار ومجرور متعلقان بنؤمننّ (وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ) عطف على ما تقدم ، ومعك ظرف مكان متعلق بنرسلن ، وبني إسرائيل مفعول به (فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ) الفاء عاطفة ، ولما رابطة أو حينية ، وجملة كشفنا لا محل لها أو في محل جر بالإضافة ،

(517/291)

و كشفنا فعل وفاعل ، والرجز مفعول به ، وعنهم جار ومجرور متعلقان بكشفنا (إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ) إلى أجل جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وهم مبتدأ ، وبالغوه خبر ، والجملة الاسمية صفة لأجل ، وإذا الفجائية وقد تقدم أننا اخترنا الحرفية لها وجها ، وهم مبتدأ ، وجملة ينكثون خبره ، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم

، وقد استدل سيبويه بهذه الآية على أن " لما " حرف وجوب لوجوب ، أي رابطة لا ظرف بمعنى حين – كما زعم بعضهم – لافتقاره إلى عامل فيه ، ولا يحتمل إضمارا ، ولا يعمل ما بعد إذا الفجائية فيما قبلها (فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ) فانتقمنا عطف ، ومنهم جار ومجرور متعلقان بانتقمنا ، فأغرقناهم عطف أيضا ، وفي اليم جار ومجرور متعلقان بأغرقناهم (بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ) بأنهم الباء وما في حيزها جار ومجرور متعلقان بأغرقناهم ، ومعنى الباء السببية ، أي : بسبب أنهم ، وجملة كذبوا خبر أن ، وكانوا عطف على كذبوا ، وعنها جار ومجرور متعلقان بغافلين ، وغافلين خبر كانوا .

البلاغة :

سر استعمال القمّل :

وردت لفظة " القمّل " في آية من القرآن حسنة مستساغة ، وقد وردت في بيت للفرزدق غير حسنة مستهجنة ، وهو :

من عزّه احتجزت كليب عنده زربا كأنهم لديه القمّل

وإنما حسنت هذه اللفظة في الآية دون البيت لأنها جاءت في الآية

(518/291)

مندرجة في ضمن كلام متناسب ، ولم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت في الشعر قافية ، أي : آخرا انقطع الكلام عندها ، فقد تضمنت الآية خمسة ألفاظ هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي الطوفان والجراد والدم ، فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم منها الطوفان والجراد وأخرت لفظة الدم آخرا ، وجعلت لفظة القمل والضفادع في الوسط ، ليطرق السمع أولا الحسن من الألفاظ الخمسة ، وينتهي إليه آخرا . ثم إن لفظة " الدم " أحسن من لفظتي " الطوفان " و" الجراد " ، وأخف في الاستعمال ، ومن أجل ذلك جيء بها آخرا . ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 137 إلى 138]

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ (137) وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)

اللغة :

(كَلِمَتُ رَبِّكَ) نصّوا على رسم هذه بالتاء المجزورة (أي المبسوطة) وما عداها في القرآن بالهاء على الأصل ، والمراد بالكلمة وعده تعالى لهم بقوله : " ونريد أن نمنّ " إلخ .

(يَعْرِشُونَ) : بضم الراء وكسرها ، وقد قرئ بهما في السبع .

أي يرفعون من البنيان تمهيدا للشروع في قصة بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من فرعون من أنواع الكفر وأنماط التعنت والشطط مما لا تزال شواهده نواطق بحقائقهم .

الاعراب :

)

(519/291)

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا) الواو عاطفة أو استئنافية ، وأورثنا القوم فعل وفاعل ومفعول به ، والذين صفة للقوم ، وجملة كانوا صلة الموصول ، وجملة يستضعفون خبر كانوا ، ويستضعفون فعل مضارع مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل ، مشارق الأرض مفعول به ثان ، ومغاربها عطف على مشارق (الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا) التي اسم موصول صفة للمشارق والمغارب ، وجملة باركنا لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وفيها جار ومجرور متعلقان بباركنا ، وتمت كلمة ربك عطف على " أورثنا " ، وكلمة فاعل ، والحسنى صفة لكلمة ، وعلى بني إسرائيل جار ومجرور متعلقان بتمت وبما جار ومجرور متعلقان بصبروا (وَدَمَّرْنا

ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ) الواو عاطفة ، ودمرنا فعل وفاعل ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة كان صلة ، واسم كان

(520/291)

ضمير مستتر ، وجملة يصنع خبر كان ، وفرعون فاعله ، وقومه عطف على فرعون ، و" ما " عطف على " ما " الأولى ، وجملة كانوا يعرشون صلة " ما " وجملة يعرشون خبر كانوا (وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق للشروع في قصة بني إسرائيل وما أحدثوه من بدع للاعتبار والاتعاظ بحال الإنسان المفطور على الشرّ . وببني إسرائيل جار ومجرور متعلقان بجاوزنا ، والبحر مفعول به ، ويجوز أن يتعلق " ببني " بمحذوف حال (فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ) فأتوا عطف على جاوزنا ، وعلى قوم جار ومجرور متعلقان بأتوا ، وجملة يعكفون صفة لقوم ، وعلى أصنام جار ومجرور متعلقان بيعكفون ، ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لأصنام (قالُوا : يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ) كلام مستأنف مسوق لبيان تعنتهم وافتئاتهم وطلبهم الآلهة ورؤية اللّه جهرة ، وغير ذلك من أنواع المعاصي . وجملة اجعل مقول القول ، ولنا جار ومجرور متعلقان باجعل ، أو بمحذوف مفعول به أول ، وإلها مفعول به ثان . وكما الكاف

حرف جر ، وما اسم موصول بمعنى الذي ، ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة ، وآلهة بدل من الضمير المستكن في " لهم " والتقدير : كالذي استقر هو لهم آلهة ، والكاف ومجرورها صفة لإلها ، واختار الزمخشري أن تكون " ما " كافة للكاف ، فهي كافة ومكفوفة ، ولذلك وقعت الجملة بعدها (قالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) كلام مستأنف لبيان جواب موسى لهم ، وإن واسمها وخبرها ، وجملة تجهلون صفة لقوم ، وجملة إنكم مقول القول .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 139 إلى 141]

(521/291)

إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (139) قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

اللغة :

(مُتَبَّرٌ) مكسّر ، فهو اسم مفعول من تبر ، أي : دمّر وأهلك ، والمصدر التتبير . ومنه التبر وهو كسارة الذهب ، لتهالك الناس عليه .

الاعراب :

(إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان مصيرهم الذي يئولون إليه . وإن حرف مشبه بالفعل ، وهؤلاء اسم إشارة اسم إن ، ومتبر يجوز أن يكون خبر إن ، وما اسم موصول في محل رفع نائب فاعل لمتبر ، وهم فيه مبتدأ وخبر ، والجملة لا محل لها لإنها صلة ، ويجوز أن يكون الموصول مبتدأ ، ومتبر خبره المقدم عليه ، والجملة خبر إن (وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) الواو حرف عطف ، وباطل خبر مقدم ، وما مبتدأ مؤخر ، وكانوا يعملون من كان واسمها وخبرها صلة " ما " ، ولك أن تعطف " باطل " على " متبر " وتجعل " ما " فاعلا لباطل لأنه اسم فاعل (قالَ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان شئون اللّه الموجبة لتخصيص العبادة به . والهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي ، وغير مفعول به لفعل

محذوف ، أي : أأطلب لكم معبودا غير المستحق للعبادة ؟ وجملة أبغيكم مقول القول ، وإلها تمييز أو حال ، ويجوز أن يكون " غير " مفعولا مقدما لأبغيكم ، والكاف منصوبة بنزع الخافض ، أي :

(522/291)

أأبغي لكم غير اللّه؟ ويجوز على هذا الوجه إعراب " غير " حالا وإلها هو المفعول به (وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ) الواو حالية ، وهو مبتدأ ، وجملة فضلكم خبر ، والجملة كلها حالية ، وعلى العالمين جار ومجرور متعلقان بفضلكم ، ويجوز أن تكون الواو للاستئناف ، والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب (وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) الواو عاطفة أو استئنافية ، وإذ مفعول به لفعل محذوف ، تقديره : اذكروا وقت أنجيناكم ، وجملة أنجيناكم في محل جر بالإضافة ، ومن آل جار ومجرور متعلقان بأنجيناكم ، وفرعون مضاف إليه مجرور وعلامة جره الفتحة لمنعه من الصرف (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ) الجملة نصب على الحال من آل فرعون ، ويسومونكم فعل مضارع وفاعل ومفعول به أول ، وسوء العذاب مفعول به ثان (يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ) جملة يقتلونكم بدل من جملة يسومونكم ، ويستحيون نساءكم جملة معطوفة عليها (وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) الواو حالية أو استئنافية ، وفي ذلكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وبلاء مبتدأ مؤخر ، ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لبلاء ، وعظيم صفة ثانية .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 142 إلى 143]

(523/291)

وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)

الإعراب :

(وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق لتفصيل ما أجمله في سورة البقرة ، وهو قوله تعالى : " وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة " ، وواعدنا موسى فعل وفاعل ومفعول به ، وثلاثين مفعول به ثان لواعدنا ، وفيه حذف مضاف تقديره : تمام ثلاثين ، وليلة تمييز ، وذلك ليصومها حتى نكلمه ، وأتممناها عطف على واعدنا ، وبعشر جار ومجرور متعلقان بأتممناها (فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) الفاء عاطفة ، وتم ميقات فعل وفاعل ، وربه مضاف إليه ، وأربعين حال ، أي تمّ بالغا هذا العدد ، وليلة تمييز ، وسيأتي في باب الفوائد تعليل نصبها على الحال . وقيل : هو مفعول " تم " لأن معناه بلغ ، ولا يصح أن يكون ظرفا للتمام ، لأن التمام إنما هو بآخر جزء من تلك الأزمنة (وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ) الواو عاطفة ، وقال موسى فعل وفاعل ، ولأخيه جار ومجرور متعلقان

بقال . وهارون : بدل من أخيه أو عطف بيان (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) الجملة مقول قول موسى ، واخلفني فعل أمر ومفعول به ، وفي قومي جار ومجرور متعلقان باخلفني ، وأصلح عطف على اخلفني ، ولا تتبع الواو حرف عطف ، ولا الناهية وتتبع فعل مضارع مجزوم بلا الناهية ، وسبيل المفسدين مفعول به (وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا) الواو عاطفة ، ولما رابطة أو حينية ، متضمنة معنى الشرط ، وجملة جاء موسى لا محل لها . أو في محل جر بالإضافة ، ولميقاتنا جار ومجرور متعلقان بجاء ، واللام للاختصاص ، كما تقول : أتيته لعشر خلون من الشهر (وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ : رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) وكلمه ربه عطف على جاء ، وربه فاعل كلمه .

وجملة قال لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، ورب منادى مضاف محذوف منه حرف النداء ، وأرني فعل أمر للدعاء ، وفاعله مستتر ، والنون للوقاية ، والياء مفعول به أول ، ومفعول الرؤية الثاني محذوف تقديره : نفسك ، وأنظر فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وجملة الطلب وجوابه مقول القول ، وإليك جار ومجرور متعلقان بأنظر (قالَ لَنْ تَرانِي) الجملة مقول القول ، ولن حرف نفي ونصب واستقبال ، وتراني فعل مضارع

منصوب بلن والياء مفعول به (وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) الواو عاطفة ، ولكن حرف استدراك مخفف مهمل ، وانظر فعل أمر ، والى الجبل جار ومجرور متعلقان بانظر ، فإن الفاء عاطفة ، وإن شرطية ، واستقر فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، ومكانه ظرف مكان متعلق باستقر ، فسوف الفاء رابطة لجواب الشرط ، وسوف حرف استقبال ، وتراني فعل مضارع ، والجملة في محل جزم جواب الشرط (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا) الفاء عاطفة ، ولما رابطة أو حينية ، وتجلى ربه فعل وفاعل ،

(525/291)

وللجبل جار ومجرور متعلقان بتجلى ، وجعله فعل ومفعول به ، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، ودكا مفعول به ثان لجعله ، لأنه مصدر بمعنى مفعول ، أي : مدكوك ، ويجوز نصبه على المصدرية ، إذ التقدير : دكه دكا (وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا) صعقا حال (فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ : سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) الفاء عاطفة ، ولما رابطة أو حينية ، وجملة أفاق لا محل لها ، أو في محل جر بالإضافة ، وجملة قال لا محل لها ، وسبحانك مفعول مطلق لفعل محذوف ، وتبت فعل وفاعل ، وإليك جار ومجرور متعلقان بتبت ، وأنا الواو عاطفة ، وأنا مبتدأ ، وأول المؤمنين خبر .

الفوائد :

رؤية اللّه في الآخرة :

استدل الزمخشري وغيره من أئمة المعتزلة على عدم رؤية اللّه تعالى في الآخر ب " لن " ، قالوا : هي للتأكيد والتأبيد . ورد عليهم علماء السنة ، وشجر خلاف طويل حول ذلك ، وجر إلى التهاتر والتراشق بالحساب العسير والتهم ، مما لا يتسع المجال له في كتابنا . فارجع إليه في المطولات .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 144 إلى 146]

قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (145) سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (146)

الاعراب :

(قالَ : يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي) كلام مستأنف مسوق لتسلية موسى عليه السلام على ما فاته من الرؤية .

وجملة النداء في محل نصب مقول القول ، وإن واسمها ، وجملة اصطفيتك خبر ، وعلى الناس جار ومجرور متعلقان باصطفيتك ، وبرسالاتي جار ومجرور متعلقان باصطفيتك أيضا ، وجمع الرسالة لأن الذي أرسل به ضروب وأنواع مختلفة ، وبكلامي عطف على برسالاتي ، وقدم الرسالة تنويها بالترقي إلى الأشرف ، لأن مكالمته مزية خاصة له ، وأعاد حرف الجر تنويها بمغايرة الاصطفاء للكلام (فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ) الفاء الفصيحة ، والجملة بعدها لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وجملة آتيتك صلة " ما " ، وكن من الشاكرين عطف على خذ ، ومن الشاكرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر "كن " (وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) الواو استئنافية ، وكتبنا فعل وفاعل ، وله جار ومجرور متعلقان بكتبنا ، وفي

الألواح جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، ومن كل شيء جاء ومجرور متعلقان بمحذوف مفعول به ، والمراد ألواح التوراة (مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ) موعظة بدل من محل " من كل شيء " ، لأنه مفعول به كما تقدم ، ويجوز إعراب " موعظة " مفعولا من أجله ، أي : كتبنا له تلك الأشياء للموعظة والتفصيل ، ولكل شيء جار ومجرور متعلقان ب " تفصيلا " أو صفة له (فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ) الفاء الفصيحة أو عاطفة لمحذوف على كتبنا ، والتقدير : فقلنا خذها ، وخذ فعل أمر ، والهاء مفعول به . وبقوة جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل خذها ، وجملة امر عطف على خذها ، وقومك مفعول به ، ويأخذوا فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ، وخص الأحسن بالأخذ ، وكل ما فيها مطلوب ، مبالغة في التحري وحسن الأخذ واختيار الأسدّ المحكم ، أو ان التفضيل غير مراد كقولهم : الصيف أحر من الشتاء ، أي هو في حرّه أبلغ من الشتاء في برده ، فتفضيل حرارة الصيف على برد الشتاء غير مراد ، فلما أريد بالأحسن المأمور به – لكونه أبلغ في الحسن من المنهي عنه في القبح – كان اللازم أن لا يجوز الأخذ بالمنهي عنه ، وسأريكم دار الفاسقين جملة مستأنفة مسوقة للتأكيد للأمر بالأخذ بالأحسن والحث عليه ، فهي بمثابة التعليل ، ولا يخفى ما في الالتفات من زيادة في التأكيد والمبالغة للأخذ بالأحسن . أما دار الفاسقين فقيل : هي دار فرعون وأتباعه ، للاعتبار بها ، وقيل : هي غير ذلك ، ولا محل للاجتهاد هنا (سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) كلام مستأنف مسوق للتحذير من الاستكبار الصارف للأذهان عن التفكير الحق . وعن آياتي جار

البلاغة :

1 - الالتفات في قوله : " س

(528/291)

اءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (147) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ (148)

اللغة :

(حُلِيِّهِمْ) : جمع حلي كثدي وثديّ ، وأصله حلويّ ، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت ياء وأدغمت في الياء وكسرت اللام لأجل الياء . والحلي اسم لما يتحلى به من الذهب والفضة .

(خُوارٌ) : بضم الخاء كما هي القاعدة الأغلبية في أسماء الأصوات ، إما على وزن فعال أو فعيل كزئير .

الاعراب :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة لبيان نمط آخر من عصيانهم وافتئاتهم على اللّه . واسم الموصول في محل رفع مبتدأ ، وجملة كذبوا بآياتنا صلة ، ولقاء الآخرة عطف على بآياتنا ، وجملة حبطت أعمالهم خبر المبتدأ (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ) الهمزة للاستفهام ، المراد به النفي ، ولذلك دخلت بعدها " إلا " ، ويجزون فعل مضارع مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل ، وإلا أداة حصر ، وما اسم موصول

(529/291)

في محل نصب مفعول به ثان ، وجملة كانوا صلة الموصول ، وجملة يعملون خبر ، ولا أرى داعيا لتقدير محذوف ، كما قال الواحديّ ، ونصه : " وهنا لا بد من تقدير محذوف ، أي إلا بما كانوا ، أو على ما كانوا ، أو جزاء ما كانوا " . قلت : والجزاء المقابل أوضح ، فلا داعي لهذا التكلف . (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق لسرد نمط آخر من أنماط تجنيهم ، ويجوز أن تكون الواو عاطفة ، من عطف قصة على قصة . وقوم موسى فاعل ، ومن بعده جار ومجرور

متعلقان باتخذ ، ومن حليهم جار ومجرور متعلقان باتخذ ، أو بمحذوف في موضع الحال ، لأنه لو تأخر لكان صفة ، كما هي القاعدة . وعجلا مفعول به ، وجسدا بدل ، وأتى بهذا البدل دفعا لتوهم أنه صورة عجل منقوشة ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وخوار مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل نصب صفة لقوله : " عجلا " (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا) كلام مستأنف مسوق لتقريعهم على سوء اختيارهم ، وإمعانهم في ركوب متن الشطط . والهمزة للاستفهام الإنكاري ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، والواو فاعل يروا ، وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يروا ، وجملة لا يكلمهم خبر ، ولا يهديهم سبيلا عطف على لا يكلمهم ، وسبيلا مفعول به ثان ، أو منصوب بنزع الخافض (اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ) جملة مستأنفة مسوقة لتكون جوابا عن سؤال نشأ من سياق الكلام ، أي : فكيف اتخذوه ؟

والواو عاطفة ، وكان واسمها ، وظالمين خبرها .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 149 إلى 151]

(530/291)

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)

اللغة :

(سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) : اضطربت أقوال أهل اللغة في أصل هذه الكلمة ، وهي تستعمل للندم والتّحيّر . فقال أبو مروان اللغوي :

قول العرب : سقط في يده مما أعياني معناه . وقال الواحدي : قد بان من أقوال المفسرين وأهل اللغة أن سقط في يده : ندم . وأنه يستعمل في صفة النادم . فأما القول في مأخذه وأصله فلم أر لأحد من أئمة اللغة شيئا أرتضيه فيه . وقال الزّجّاج : قوله تعالى : " سقط في أيديهم " : بمعنى ندموا ، وهذه اللفظة لم تسمع قبل القرآن ، ولم تعرفها العرب في النظم والنثر ، جاهلية وإسلاما . فلما سمعوه خفي عليهم وجه استعماله ، لأنه لم يقرع أسماعهم ، فقال أبو نواس : " في نشوة قد سقطت منها يدي " وهو العالم النحرير فأخطأ في استعماله . وعبارة الفراء : يجوز سقط وأسقط ، وترك الهمزة هو الأكثر الأجود

، وسقط بالفتح والبناء للفاعل لغة قليلة ، قال الأخفش : وقد قرئ بها في الشواذّ كأنه أضمر الندم ، أي :

(531/291)

سقط الندم في أيديهم . وقال المطرزي : سقط في يده مثل يضرب للنادم المتحيّر ، ومعناه ندم . لأن من شأن من اشتد ندمه أن يعضّ يده فتصير يده مسقوطا فيها ، كأن فاه وقع فيها . هذا وترى مزيدا من القول في هذه اللفظة في باب البلاغة .

الاعراب :

(وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان مصيرهم بعد ارتكاب جريرتهم . ولما رابطة أو حينية ، وسقط بالبناء للمجهول ، وفي أيديهم قائم مقام نائب الفاعل ، وفي بمعنى على ، أي : على أيديهم (وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا) عطف على سقط في أيديهم ، وأن وما في حيزها سدت مسدّ مفعولي رأوا ، لأنها بمعنى علموا ، وجملة قد ضلوا خبر أن (قالُوا : لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا) جملة قالوا لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم ، واللام موطئة للقسم ، وإن شرطية ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ويرحمنا فعل مضارع مجزوم بلم ، ونا مفعول به ، وربنا فاعل مؤخر ، ويغفر الواو حرف

عطف ، وجملة يغفر عطف على يرحمنا ، ولنا جار ومجرور متعلقان بيغفر (لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ) اللام جواب للقسم ، ونكونن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، وجملة جواب القسم لا محل لها ، وجملة القسم في محل نصب مقول القول ، ومن الخاسرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر نكونن (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً)

(532/291)

الواو استئنافية ، أو عاطفة ، ولما رابطة أو حينية ، وجملة رجع موسى لا محل لها ، أو في محل جر بالإضافة ، والى قومه جار ومجرور متعلقان برجع ، وغضبان حال أولى ، وأسفا حال ثانية من موسى (قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي) بئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم ، وفاعله ضمير مستتر تقديره هو وجوبا هنا خاصة . وما نكرة موصوفة في محل نصب تمييز ، والمعنى خلافة ، وجملة خلفتموني صفة لما ، والمخصوص بالذم محذوف أي : خلافتكم ، ومن بعدي جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التقريعي ، وعجلتم أي : سبقتم فعل وفاعل ، وأمر ربكم مفعول به ، وكلها تتمة مقولهم (وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ) الواو عاطفة ، وألقى عطف

على قال ، والمراد هنا استيلاء الغضب ، وأخذ عطف على ألقى ، وبرأس جار ومجرور متعلقان بأخذ ، وأخيه مضاف إليه ، وجملة يجره إليه حال من ضمير موسى المستتر في أخذ ، أي : أخذه جارّا برأسه إليه (قالَ ابْنَ أُمَّ) ابن أمّ اسمان مبنيان على الفتح لتركبهما تركيب الأعداد ، مثل خمسة عشر أو الظروف مثل صباح مساء ، فعلى هذا ليس ابن مضاف لأم بل هو مركب معها ، فحركتهما حركة بناء . وذهب الكوفيون إلى أن ابن مضاف لأمّ ، وأمّ مضاف إلى ياء المتكلم ، وقد قلبت ألفا كما تقلب في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم ، ثم حذفت الألف واجتزئ عنها بالفتحة كما يجتزأ بالياء عن الكسرة ، وحينئذ فحركة ابن حركة إعراب ، وهو مضاف لأمّ ، فهي في محل جر بالإضافة ، وعلى كل فحرف النداء محذوف أي :

يا ابن أم ، وانما اقتصر في خطابه على الأم مع أنه شقيقه لأن ذكر الأم أعطف لقلبه (إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي) الجملة بمثابة التعليل لما عاملوه به . وإن واسمها ، وجملة استضعفوني خبرها ،

(533/291)

وكادوا عطف على استضعفوني ، والواو اسم كاد ، وجملة يقتلونني خبرها (فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ) الفاء الفصيحة ، أي : إذا علمت عذري فلا تسرّ الأعداء بما تفعل بي من المكروه ، وبي جار ومجرور متعلقان بتشمت ، والأعداء مفعول به (وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتجعلني فعل مضارع مجزوم بلا ، ومع ظرف مكان متعلق بتجعلني ، والقوم مضاف إليه والظالمين صفة (قالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي) الجملة مستأنفة مسوقة لطلب المغفرة له ولأخيه ، ورب منادى محذوف منه حرف النداء ، واغفر فعل دعاء ، ولي جار ومجرور متعلقان باغفر ، ولأخي عطف على " لي " (وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) عطف على اغفر ، وفي رحمتك جار ومجرور متعلقان بأدخلنا ، وأنت الواو حالية أو استئنافية ، وأنت مبتدأ ، وأرحم الراحمين خبر .

البلاغة :

الكناية في قوله : " سقط في أيديهم " عن الندم فإن العادة أن الإنسان إذا ندم على شيء عضّ بفمه على أصابعه ، فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم ، فأطلق اسم اللازم وأريد الملزوم على سبيل الكناية . وقال الزمخشري : " ولما سقط في أيديهم : ولما اشتد ندمهم ، وحسرتهم على عبادة العجل ، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعضّ يده غما فتصير يده مسقوطا فيها لأن فاه قد وقع فيها " .

وقال القطب في شرح الكشاف : إنه على تفسير الزّجّاج استعارة تمثيلية ، لأنه شبه حال

الندم في القلب بحال الشيء في اليد ، وقيل : هو على تفسيره ، استعارة بالكناية في الندم بتشبيهه ما يرى في العين .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 152 إلى 154]

(534/291)

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)

الإعراب :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) كلام مستأنف ، مسوق لإخبار موسى بما سينالهم بعد هذه الكبائر المتتابعة . وإن واسمها ، وجملة اتخذوا العجل لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وجملة سينالهم خبر إن ، وغضب فاعل ، ومن ربهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لغضب ، وذلة عطف على غضب ، وفي الحياة جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لذلة ، والدنيا صفة للحياة (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ)

أي : مثل ذلك الجزاء نجزيهم ، وقد تقدمت له نظائر كثيرة (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا) عطف على الذين السابقة أو مبتدأ ، وجملة عملوا السيئات صلة ، ثم تابوا عطف على عملوا ، ومن بعدها جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وآمنوا عطف على عملوا (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(535/291)

إن واسمها ، ومن بعدها جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، واللام المزحلقة ، وغفور خبر أول لإنّ ، ورحيم خبر ثان ، والجملة كلها خبر الذين (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان المبالغة ، ولما رابطة أو حينية ، وقد تكررت مرارا ، وسكت الغضب فعل وفاعل ، وعن موسى جار ومجرور متعلقان بسكت ، وجملة سكت لا محل لها أو في محل جر بالإضافة (أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، والواو حالية ، وفي نسختها جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وهدى مبتدأ مؤخر ، ورحمة عطف على هدى ، وللذين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ، وهم مبتدأ ، وجملة يرهبون خبر ، ولربهم جار ومجرور متعلقان بيرهبون ، ودخلت اللام لتقوية

المفعول به لأن تأخر الفعل يكسبه ضعفا ، ونحوه : للرؤيا تعبرون ، وقال الكسائي : إنها زائدة . وقال المبرد : هي متعلقة بمصدر الفعل المذكور ، والتقدير للذين رهبتهم لربهم يرهبون ، وجملة هم لربهم يرهبون صلة .

البلاغة :

في قوله : " ولما سكت عن موسى الغضب " استعارتان :

1- استعارة تصريحية تبعية :

بتشبيه السكون بالسكوت .

2- استعارة مكنية :

في تشبيه الغضب بإنسان ناطق يغري موسى ويقول له : قل لقومك كذا وكذا ، وألق الألواح ، وخذ برأس أخيك . ثم يقطع الإغراء ويترك الكلام .

أقسام أخرى للاستعارة :

وقد تقدم القول في الاستعارة ، ونعود هنا فنقول : إن هذه الاستعارة ، وهي إسناد السكوت إلى الغضب فيها ، هي استعارة معقول للمشاركة في أمر معقول ، وهي واحدة من خمس للاستعارات :

فالمستعار السكوت ، والمستعار له الغضب ، والمستعار منه الساكت ، والمعنى " ولما زال عن موسى الغضب " لأن حقيقة السكوت زوال الكلام وحقيقة زوال الغضب عدم ما يدل عليه من الكلام أو غيره في تلك الحال ، وغضب موسى إنما عرف هنالك من قوله : " بئسما خلفتموني من بعدي " فإن هذا الكلام كان مقدمة إلقاء الألواح ، ولما زال الكلام الدال على الغضب ، حسنت استعارة السكوت للغضب ، ولا يلزم من سكوت الغضب حصول الرضا ، فإن موسى لم يرض بمعصيتهم ولا ببقائهم على المعصية حتى تحصل التوبة ، ولهذا أخبر سبحانه عنه بسكوت الغضب دون حصول الرضا ، وهذه الاستعارة ألطف الاستعارات الخمس لأنها استعارة معقول لمعقول للمشاركة في أمر معقول .

الأقسام الأربعة الأخرى :

أما الأقسام الأربعة الأخرى فهي :

2- استعارة المحسوس للمحسوس للاشتراك في أمر معقول ، وهو الاستعارة المركبة من الكثيف اللطيف ، ومثالها قوله تعالى :

" إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم " فإن المستعار له : الريح ، والمستعار منه : ذات النتاج ، والمستعار العقيم ، وهو عدم النتاج ، والمشاركة بين المستعار له والمستعار منه في عدم النتاج وهو شيء معقول .

3- استعارة المحسوس للمعقول وهي ألطف من المركّبة .

ومثالها قوله تعالى : " بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق " . فالقذف والدفع مستعاران ، وهما محسوسان ، والحق والباطل مستعار لهما ، وهما معقولان ، ومثله قوله تعالى : " ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من اللّه وحبل من الناس " فالمستعار الحبل وهو محسوس ، والمستعار له العهد وهو معقول ، والمشاركة بينهما في الاتصال ، لأن العهد يصل بين المعاهد والمسلم كما يصل الحبل بين المرتبطين ، وهو شيء محسوس ، ومن هذا القسم قوله تعالى :

"

(537/291)

فاصدع بما تؤمر " ، فالمستعار منه الزجاجة ، والمستعار الصدع وهو الشقّ ، والمستعار له هو عقوق المكلفين ، والمعنى صرّح بجميع ما أوحي إليك ، وبين كل ما أمرت ببيانه ، وإن شق ذلك على بعض القلوب فانصدعت ، والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصديع في القلوب ، فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التّقبّض والانبساط ، ويلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار كما يظهر ذلك على ظاهر الزجاجة المصدوعة من المطروقة في

باطنها . يروى أن بعض الأعراب لما سمع هذه اللفظات الثلاث سجد فقيل : لم سجدت ؟ فقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام .

4- استعارة المعقول للمحسوس بالاشتراك في أمر معقول .

ومثالها قوله تعالى : " إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية " فالمستعار له كثرة الماء وهي حسّيّة ، والمستعار منه التكبر وهو عقلي ، والجامع

الاستعلاء المفرط ، وهو عقلي أيضا . وستأتي للاستعارة أبحاث أخرى في محلها من هذا الكتاب .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 155 إلى 157]

(538/291)

وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ
مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ
تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ
شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)

اللغة :

(هُدْنَا) تبنا ورجعنا عن المعصية وجئناك معتذرين منها ، من هاد يهود إذا رجع ، وأصل الهود : الرجوع برفق ، وبه سميت اليهود ، وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم ، وبعده صار اسم ذم لازما لهم أبدا يتّسمون به إلى الأبد ، والهود جمع هائد وهو التائب . ولبعضهم ،

يا راكب الذّنب هدهد واسجد كأنك هدهد

شبه ملازمته للذنب بملازمة الراكب للمركوب ، وشبه الساجد بالهدهد ، لكثرة ما يطرق برأسه إلى الأرض .

(الْأُمِّيَّ) : نسبة إلى الأم ، كأنه باق على حالته التي ولد عليها .

(539/291)

والمراد به الذي لا يقرأ الخط ولا يكتب ، وهذا الوصف مما اختصّ به محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ويجوز أن تكون نسبته إلى الأمة ، وهي أمة العرب ، وذلك لأن العرب لا تحسب ولا تكتب ، ويجوز أن يكون نسبة إلى الأم مصدر أمّ يؤمّ ، أي قصد يقصد ، والمعنى على هذا : أن هذا النبي العربي الكريم مقصود لكلّ أحد ، فإن قيل : كان ينبغي أن يقال في النسبة أمّيّ بفتح الهمزة ، قلنا إنه من تغيير النسب .

وسيأتي مزيد من هذا الوصف في باب الفوائد .

(الإصر) : الثقل الذي يأصر صاحبه ، أي يحبسه عن الحركة

لثقله . والمراد بالإصر هنا العهد والميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل أن يعملوا بأحكام التوراة .

(الْأَغْلالَ) : جمع غلّ ، والغل بالضمّ طوق من حديد يجعل في العنق .

الاعراب :

(وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا) كلام مستأنف مسوق لسرد قصة الذين لم يعبدوا العجل ، وقد أمره اللّه باختيار سبعين منهم . والتفاصيل في المطوّلات . واختار موسى فعل وفاعل ، وقومه منصوب بنزع الخافض ، أي من قومه ، فحذف الجار وأوصل الفعل ، وسبعين مفعول به لاختار ، وقد تقدم حديث الأفعال التي تعدت إلى اثنين أحدهما بنفسه والآخر بوساطة حرف الجر ، وهي مقصورة على السماع ، وهي : اختار واستغفر

وأمر وكنى ، ودعا وزوج وصدق ، ثم يحذف حرف الجر ويتعدى إليه الفعل ، فتقول :

اخترت زيدا من الرجال ، واخترت زيدا الرجال ، قال الشاعر :

اخترتك الناس إذ رثّت خلائقهم واعتلّ من كان يرجى عند السّول

ورجلا تمييز ، لميقاتنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي للوقت الذي وعدناه بإتيانهم فيه للاعتذار عن عبادة العجل (فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) الفاء عاطفة ، ولما رابطة أو حينية ، وقد تقدم إعرابها كثيرا ، وأخذتهم الرجفة فعل ومفعول به وفاعل (قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ)

(540/291)

جملة القول مستأنفة لبيان ما قاله موسى ، وجملة النداء في محل نصب مقول القول ، ولو شرطية ، وشئت فعل وفاعل ، والمفعول به محذوف ، أي لو شئت إهلاكهم ، وأهلكتهم فعل وفاعل ومفعول به ، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، ومن قبل جار ومجرور متعلقان بأهلكتهم ، وإياي ضمير منفصل معطوف على الهاء (أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا) الاستفهام هنا معناه النفي مع الاستعطاف ، أي : لا يمكن أن تعذبنا بما فعل غيرنا . وللمبرد عبارة جميلة قال : « والمراد بالاستفهام استفهام الإعظام ، كأنه يقول ، وقد

علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره ، ولكنه من وادي قول عيسى : « إن تعذبهم فانهم عبادك » .

وتهلكنا فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، وبما جار ومجرور متعلقان بتهلكنا ، وما موصولة أو مصدرية ، أي بسبب الذي فعله السفهاء أو بسبب فعل السفهاء ، ومنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ) إن نافية ، وهي مبتدأ ، وإلا أداة حصر ، وفتنتك أي : ابتلاؤك خبر (تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ) الجملة حالية ، أي : مضلا بها وهاديا ، ومن اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وكذلك « من » الثانية (أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ) أنت مبتدأ ، ووليّنا خبر ، فاغفر الفاء الفصيحة ، واغفر فعل أمر للدعاء ، ولنا جار ومجرور متعلقان باغفر ، وارحمنا عطف على اغفر ، وأنت الواو حالية أو استئنافية ، وأنت مبتدأ ، وخير الغافرين خبر (وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ) واكتب عطف على فاغفر ، ولنا جار ومجرور متعلقان باكتب ، وفي هذه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وحسنة مفعول به ، وفي الآخرة عطف على « في هذه الدنيا » ، واكتفى بالمفعول الأول ، أي : وفي الآخرة حسنة (إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ) الجملة مستأنفة مسوقة لتعليل

الدعاء ، لأن ذلك مما يوجب قبوله . وإن واسمها ، وجملة هدنا إليك خبر إن (قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ) الجملة مستأنفة مسوقة لمعرفة جواب اللّه . وعذابي مبتدأ ، خبره جملة أصيب ، وإما خبر لمبتدأ محذوف ، وجملة أصيب حالية ، وبه جار ومجرور ، ومن اسم موصول مفعول به ، وجملة أشاء صلة (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) عطف على الجملة السابقة (فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ) الفاء استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة للتعريض بقومه ، والسين حرف استقبال ، واكتبها فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، وللذين جار ومجرور متعلقان بسأكتبها ، وجملة يتقون لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وجملة ويؤتون الزكاة عطف على جملة يتقون (وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ) والذين عطف على الذين السابقة ، وهم مبتدأ ، وجملة يؤمنون خبر ، وبآياتنا جار ومجرور متعلقان بيؤمنون ، والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة الموصول (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ) الذين نعت للذين أو بدل منه ، وجملة يتبعون صلة الموصول ، والرسول مفعول به والنبي صفة أولى والأمي صفة ثانية ، والذي صفة ثالثة ، وجملة يجدونه لا محل لها لأنها صلة الموصول ، ومكتوبا مفعول به ثان ليجدونه ، وعندهم ظرف متعلق ب «مكتوبا» ، وفي التوراة جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ) الجملة حالية ، وبالمعروف جار ومجرور متعلقان

بيأمرهم ، وينهاهم عن المنكر عطف على الجملة السابقة (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ) عطف على ما تقدم (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ) عطف أيضا ، وإصرهم مفعول به ، والأغلال عطف

على إصرهم ، والتي نعت للأغلال ، وجملة كانت عليهم صلة ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كانت (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ)

(542/291)

الفاء : استئنافية ، والذين مبتدأ ، وجملة آمنوا صلة ، وبه جار ومجرور متعلقان بآمنوا ، وعزروه ونصروه معطوفان على آمنوا (وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ) و

اتبعوا عطف أيضا ، والنور مفعول به ، والذي نعت ، وجملة أنزل صلة ، ومعه ظرف مكان متعلق بأنزل (أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الجملة الاسمية خبر اسم الموصول ، واسم الاشارة مبتدأ ، وهم ضمير فصل أو مبتدأ ثان ، والمفلحون خبر أولئك ، أو خبر «هم» ، والجملة الاسمية خبر أولئك .

الفوائد :

معنى الأميّ :

تكلمنا في باب اللغة بإسهاب عن معنى الأمّيّ ، ونتساءل الآن مع المتسائلين : هل كان النبي يعرف القراءة والكتابة ؟ أما أكثر المستشرقين فيقولون : إن كلمة «أمّيّ» التي وصف بها النبي غامضة ، ولا تدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعرف القراءة ، ويرجحون أن تكون نسبة إلى كلمة أمّة ، كما ذكرنا ذلك في حينه .

أراجيف دائرة المعارف الإسلامية :

أما دائرة المعارف الإسلامية فتثير إشكالا آخر ، وهو أنه ورد في سورة العنكبوت الآية : «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون» قالت : «وهي تدل على أنه تعلم القراءة في الكبر ، أي : بعد نزول القرآن ، وإن كان التعبير غامضا» .

وواضح أن التعبير ليس غامضا ، ولكن التخريج الذي خرّجته الدائرة

(543/291)

فاسد ، فلفظ الآية صريح كل الصراحة ، واضح كل الوضوح - كما سيأتي في حينه - وهو يدل ، بلا لبس ، على أن أهل مكة عرفوا قبل نزول الوحي عليه أنه لم يكن يتلو كتابا ، ولا يكتب بيمينه ، ولو أنه كان كذلك إذن لارتاب المبطلون بأن يذكروا أنه كان يخلو الى نفسه ، فيكتب القرآن ويعدّه ، ثم يخرج للناس فيتلوه عليهم .

وآية أخرى أوردتها دائرة المعارف الإسلامية وهي : «و قالوا :

أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا» ولا يفهم من هذه الآية شيء مما أريد حمله عليها ، إذ أنها تدل ببساطة على أن كفار قريش كانوا يدّعون أن رسول اللّه يكتب ما يملى عليه من أساطير الأولين ، وليس كل ما يدعي الكفار صوابا ، بل هذا هو هجوم صريح وافتئات واضح يقصد منه التجريح وإضعاف شأن القرآن . ولعلّ القرآن نفسه تولى الكشف عن هذه الأراجيف في الآية السابقة لها وهي : «و قال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل : أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما» .

الباجه جي ودعوى عدم الأمّيّة :

وليست دائرة المعارف الإسلامية وغيرها من كتب المستشرقين وحدها التي تحاول اثارة هذه الشبهات ، فقد تناثرت في كتب المسلمين إشارات تلمح الى هذا الموضوع ، فقد ذكر ابن كثير : «و من زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجيّ ومن تابعه أن النبي عليه السلام كتب يوم الحديبية : «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد اللّه» ،

فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : " ثم أخذ فكتب " ، وهذه محمولة على الرواية الأخرى : " ثم أمر فكتب " ، ولهذا اشتد النكير على من قال بقول الباجيّ ، وتبرءوا منه ، وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في محافلهم . على أن القول الفصل في هذا ما ورد في القرآن نفسه ، فقد أكد في مواضع كثيرة أن القرآن أنزل على قلب رسول اللّه ، وأنه كلّف بحفظه ، وبأن يحفظه المسلمون لا أن يكتبوه ، " فإنه نزله على قلبك بإذن اللّه مصدّقا لما بين يديه " ، وإذن فلم يكن النبي يكتب ما يوحى إليه ، ولا نعلم على وجه دقيق كيف كان يكتب القرآن في العهد المكي .

قصة إسلام عمر :

ولكننا نذكر الرواية الشائعة التي تقصّ إسلام عمر بن الخطاب أنه وجد في يد أخته فاطمة صحيفة فيها آيات من القرآن ، وعلى الرغم من أن هناك روايات أخرى تهمل قصة فاطمة وما حدث بينها وبين عمر ، إلا أن من الممكن أن نعتمد عليها في أن نعلم أنه كانت هناك صحف تكتب فيها أجزاء من القرآن ، سواء أكانت هذه الصحف عند فاطمة أخت عمر أو عند غيرها . وكلمة صحيفة لا تدل على الورق الذي نعرفه اليوم ، ولكنها – على كل حال – شيء خفيف الحمل يكتب عليه في سهولة . وقد وردت في القرآن كلمة صحيفة ، مثل قوله تعالى :

(545/291)

"في صحف مكرّمة مرفوعة مطهرة" . على أن الحفظ كان أساس العلم بالقرآن ، وليست التلاوة من صحف مسطورة ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 3 صـ 304 . 471﴾

(546/291)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والتسعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/292)

الجزء الثانى والتسعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 158 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 158 ﴾ نفس الآية

(4/292)

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تم ما نظمه تعالى في أثناء هذه القصص من جواهر أوصاف هذا النبي الكريم حثاً على الإيمان به وإيجاباً له على وجه علم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف تقدم زمانه أو تأخر ؛ أمره سبحانه أن يصرح بما تقدم التلويح إليه ، ويصرّح بما أخذ ميثاق الرسل عليه تحقيقاً لعموم رسالته وشمول دعوته فقال : ﴿ قل ﴾ وأتى بأداة البعد لأنه محلها ﴿ يا أيها الناس ﴾ وقد مضى في الأنعام أن اشتقاقهم من النوس ، وأن الإمام السبكي قال : إن ذلك يقتضي دخول الجن والكملائكة فيهم .

(5/292)

وتقدم عند ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ في هذه السورة ما ينفع هنا ﴿ إني رسول الله ﴾ أي الذي له جميع الملك ﴿ إليكم جميعاً ﴾ أي لا فرق بين أدركني ومن تأخر عني أو تقدم عليّ في أن الكل يشترط عليهم الإيمان بي والاتباع لي ؛ وهذا المراد بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ حين رفع إليه الذراع فنهش منها فقال : " أنا سيد الناس يوم القيامة " وللدرامي في أوائل مسنده عن

جابر ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال " أنا قائد المرسلين ولا فخر ، وأنا خاتم النبيين ولا فخر ، وانا أول شافع وأول مشفع ولا فخر " وللترمذي في المناقب عن أنس ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ؛ " أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا مستشفعهم إذا حبسوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا لواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر " وقال : حديث حسن غريب ، وله في المناقب أيضاً عن أبي بن كعب ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر " وقال : حسن صحيح غريب ؛ وللترمذي والدارمي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ألا ! وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامه تحته آدم فمن دونه ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامه ولا فخر ، وانا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر " وللترمذي وقال : حسن – عن أبي سعيد الخدري ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامه ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي " الفخر : ادعاء العظمة والكبر والشرف ، أي لا أقوله تبجحاً ، ولكن شكراً وتحديثاً بالنعمة ؛ وما

اجتمع بهم في مجمع إلا كان إمامهم قبل موته وبعده ، اجتمع بهم ليلة الإسراء في بيت المقدس فصلى بهم إماماً ، ثم اجتمع بهم في السماء فصلى بجميع أهل السماء إماماً ، وأما يوم الجمع الأكبر والكرب الأعظم فيحيل الكل عليه ويؤمنون بالرسالة ، وما أحال بعض الكابر على بعض إلا علماً منهم بأن الختام يكون به .

ليكون أظهر للاعتراف بأمانته والانقياد لطاعته ، لأن المحيل على المحيل على الشيء محيل على ذلك الشيء ، ولو أحال أحد ممن قبل عيسى عليه السلام لطرقه احتمال ، والحاصل أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يظهر في ذلك الموقف رسالته بالفعل إلى الخلق كافة ، فيظهر سر هذه الآية ﴿ الذين يتبعون الرسول ﴾ والله الموفق .

ولما دل بالإضافة إلى اسم الذات الدال على جميع الصفات على عموم دعوته وشمول رسالته حتى للجن والملائكة ، أيد ذلك بقوله : ﴿ الذي له ﴾ أي وحده ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ أي فلا بدع أن يرسله إلى جميع من فيهما ، بل وما فيهما .

ولما كان مما بالغه في الدنيا أنه ربما في مملكة الملك من يناظره أو يقرب منه من ولي عهد أو نحوه ، فربما رد بعض أمره في صورة نصح أو غيره ؛ نفى ذلك بقوله مبيناً تمام ملكه : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي فالكل منقادون لأمره خاضعون له ، لأنه لا موجود بالفعل ولا بالإمكان من يصلح للإلهية سواه ؛ ثم علل ذلك بقوله ﴿ يحيي ويميت ﴾ أي له هاتان الصفتان مختصاً بهما ،

ومن كان كذلك كان منفرداً بما ذكر ، وإذا راجعت ما يأتي إن شاء الله تعالى في أول الفرقان مع ما مضى في أوائل الأنعام ، لم يبق عندك شك في دخول الملائكة عليهم السلام في عموم الدعوة .

ولما تقرر أنه لا منازع له ، تسبب عن ذلك توجيه الأمر بالانقياد لرسوله فقال : ﴿ فآمنوا بالله ﴾ أي لما ثبت له من العظمة والإحاطة بأوصاف الكمال وبكل شيء فإن الإيمان به أساس لا ينبني شيء من الدين إلا عليه .

(7/292)

ولما كان أقرب الفروع الأصلية إليه الرسالة قال : ﴿ ورسوله ﴾ أي لأنه رسوله ؛ ثم وصفه بما دل على قربه فقال : ﴿ النبي ﴾ أي الذي يخبره بما يريد من الأمور العظيمة غيباً وشهادة ، ويعليه عن كل مخلوق بإخباره بإرساله ؛ ولما كان علوه على كل عالم - مع أنه ثم يتعلم من آدمي - أدل شيء على صدقه قال : ﴿ الأمي ﴾ أي الذي هو - مع كونه لا يحسن كتابة ولا قراءة ، بل هو على الفطرة الأولى السليمة التي لم يخالطها هوى ، ولا دنسها حظ ولا شهوة - بحيث يؤم ويقصد للاقتداء به ، لما حوى من علوم الدنيا والآخرة والتخلق بأوصاف الكمال .

ولما أشارة بهذه الصفة إلى أن سبب الإيمان الخلاص من الهوى بالكون على الفطره الأولى ، قال منبهاً على وجوب الإيمان به ، لكونه أول فاعل لما يدعو إليه : ﴿ الذي يؤمن بالله ﴾ أي لأجل ما يقتضية ذاته سبحانه من التعبد له لما له من العظمة ، فكلما تجدد له علم من علوم الذات بحسب ترقيه في رتب الكمال من رتبة كاملة إلى أكمل منها إلى ما لا نهاية له ، جدد له إيماناً بحسبه ، لا تعتريه غفلة ولا يخالطه سهو ولا شائبة فتور ﴿ وكلماته ﴾ كذلك أيضاً ، كلما تجدد له علم بصفة منها جدد لها إيماناً ، ومنها المعجزات التي جرت على يديه ، كل واحدة منها كلمة لأن ظهوره بالكلمة ، كما سمى عيسى عليه السلام كلمة لذلك .

ولما تقرر أنه امتثل ما أمر به ، فثبتت بذلك رسالته ، استحق أن يكون قدوة فقال : ﴿ واتبعوه ﴾ أي في كل ما يقول ويفعل مما ينهى عنه أو يأمر به أو يأذن فيه ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي ليكون حالكم حال من يرجى له حصول ما سأل في الفاتحة من الاهتداء ، أي خلق الهداية في القلب مع دوامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 134 . 136 ﴾

(8/292)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ثم بين تعالى أن من شرط حصول الرحمة لأولئك المتقين ، كونهم متبعين للرسول النبي الأمي ، حقق في هذه الآية رسالته إلى الخلق بالكلية .

فقال : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس إِنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وفي هذه الكلمة مسألتان :

المسألة الأولى :

هذه الآية تدل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام مبعوث إلى جميع الخلق .

وقال طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية وهم أتباع عيسى الأصفهاني : أن محمداً رسول صادق مبعوث إلى العرب .

وغير مبعوث إلى بني إسرائيل .

ودليلنا على إبطال قولهم ؛ هذه الآية .

لأن قوله : ﴿ أَيُّهَا الناس ﴾ خطاب يتناول كل الناس .

ثم قال : ﴿ إِنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وهذا يقتضي كونه مبعوثاً إلى جميع الناس ، وأيضاً فما يعلم بالتواتر من دينه ، أنه كان يدعى أنه مبعوث إلى كل العالمين .

فأما أن يقال : إنه كان رسولاً حقاً أو ما كان كذلك ، فإن كان رسولاً حقاً ، امتنع الكذب

عليه .

ووجب الجزم بكونه صادقاً في كل ما يدعيه ، فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدعي كونه مبعوثاً إلى جميع الخلق ، وجب كونه صادقاً في هذا القول ، وذلك يبطل قول من يقول : إنه كان مبعوثاً إلى العرب فقط ، لا إلى بني إسرائيل .

وأما قول القائل : إنه ما كان رسولاً حقاً ، فهذا يقتضي القدح في كونه رسولاً إلى العرب وإلى غيرهم ، فثبت أن القول بأنه رسول إلى بعض الخلق دون بعض كلام باطل متناقض .

(9/292)

إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ يا أيها الناس إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ من الناس من قال إنه عام دخله التخصيص ومنهم من أنكر ذلك ، أما الأولون فقالوا : إنه دخله التخصيص من وجهين : الأول : أنه رسول إلى الناس إذا كانوا من جملة المكلفين فأما إذا لم يكونوا من جملة المكلفين لم يكن رسولاً إليهم ، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام قال : " رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق " والثاني : أنه رسول الله إلى كل من وصل إليه خبر وجوده وخبر معجزاته وشرائعه ، حتى يمكنه عند ذلك متابعته ، أما لو قدرنا حصول قوم في طرف من أطراف العالم لم يبلغهم خبر

وجوده ولا خبر معجزاته ، فهم لا يكونون مكلفين بالإقرار بنبوته ومن الناس من أنكر القول بدخول التخصيص في الآية من هذين الوجهين :

أما الأول : فتقريره أن قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الناس ﴾ خطاب وهذا الخطاب لا يتناول إلا المكلفين وإذا كان كذلك فالناس الذين دخلوا تحت قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الناس ﴾ ليسوا إلا المكلفين من الناس ، وعلى هذا التقدير فلم يلزم أن يقال : إن قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الناس ﴾ عام دخله التخصيص .

وأما الثاني : فلأنه يبعد جداً أن يقال : حصل في طرف من أطراف الأرض قوم لم يبلغهم خبر ظهور محمد عليه الصلاة والسلام ، وخبر معجزاته وشرائعه ، وإذا كان ذلك كالمستبعد لم يكن بنا حاجة إلى التزام هذا التخصيص .

المسألة الثانية :

هذه الآية وإن دلت على أن محمداً عليه الصلاة والسلام مبعوث إلى كل الخلق فليس فيها دلالة على أن غيره من الأنبياء عليهم السلام ما كان مبعوثاً إلى كل الخلق ، بل يجب الرجوع في أنه هل كان في غيره من الأنبياء من كان مبعوثاً إلى كل الخلق أم لا ؟ إلى سائر الدلائل .

(10/292)

فنقول : تمسك جمع من العلماء في أن أحداً غيره ما كان مبعوثاً إلى كل الخلق لقوله عليه الصلاة والسلام : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، أرسلت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، ونصرت على عدوي بالرعب يرعب مني مسيرة شهر ، وأطعمت الغنيمة دون من قبلي .

وقيل لي سل تعطه فاختبأتها شفاعة لأمتي "

ولقائل أن يقول : هذا الخبر لا يتناول دلالته على إثبات هذا المطلوب ، لأنه لا يبعد أن يكون المراد مجموع هذه الخمسة من خواص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يحصل لأحد سواه ولم يلزم من كون هذا المجموع من خواصه كون واحد من آحاد هذا المجموع من خواصه ، وأيضاً قيل إن آدم عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع أولاده ، وعلى هذا التقدير فقد كان مبعوثاً إلى جميع الناس ، وأن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة ، كان مبعوثاً إلى الذين كانوا معه ، مع أن جميع الناس في ذلك الزمان ما كان إلا ذلك القوم .

أما قوله تعالى : ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ فاعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بأن يقول للناس كلهم إني رسول الله إليكم أردفه بذكر ما يدل على صحة هذه الدعوى .

واعلم أن هذه الدعوى لا تتم ولا تظهر فائدتها إلا بتقرير أصول أربعة .

الأصل الأول : إثبات أن للعالم إلهاً حياً عالماً قادراً .

والذي يدل عليه ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ وذلك لأن

أجسام السموات والأرض ، تدل على افتقارها إلى الصانع الحي العالم القادر ، من جهات كثيرة مذكورة في القرآن العظيم ، وشرحها وتقريرها مذكور في هذا التفسير ، وإنما افتقرنا في حسن التكليف وبعثة الرسل إلى إثبات هذا الأصل ، لأن بتقدير أن لا يحصل للعالم مؤثر يؤثر في وجوده ، أو إن حصل له مؤثر ، لكن كان ذلك المؤثر موجباً بالذات لا فاعلاً بالاختيار لم يكن القول ببعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام ممكناً .

(11/292)

والأصل الثاني : إثبات أن إله العالم واحد منزه عن الشريك والضد والند ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وإنما افتقرنا في حسن التكليف وجواز بعثة الرسل إلى تقرير هذا الأصل ، لأن بتقدير أن يكون للعالم إلهان ، وأرسل أحد الإلهين نبياً إلى الخلق فلعل هذا الإنسان الذي يدعوه الرسول إلى عبادة هذا الإله ما كان مخلوقاً له ، بل كان مخلوقاً للإله الثاني ، وعلى هذا التقدير فإنه يجب على هذا الإنسان عبادة هذا الإله وطاعته ، فكان بعثة الرسول إليه ، وإيجاب الطاعة عليه ظلماً وباطلاً .

أما إذا ثبت أن الإله واحد ، فحينئذ يكون جميع الخلق عبيداً له ، ويكون تكليفه في الكل نافذاً وانقياد الكل لأوامره ونواهيه لازماً ، فثبت أن ما لم يثبت كون الإله تعالى واحداً لم

يكن إرسال الرسل وإنزال الكتب المشتملة على التكاليف جائزاً .

والأصل الثالث : إثبات أنه تعالى قادر على الحشر والنشر والبعث والقيامة ، لأن بتقدير أن لا يثبت ذلك ، كان الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية عبثاً ولغواً ، وإلى تقدير هذا الأصل الإشارة بقوله : ﴿يُحْيِ وَيُمِيتُ﴾ لأنه لما أحيا أولاً ، ثبت كونه قادراً على الإحياء ثانياً ، فيكون قادراً على الإعادة والحشر والنشر ، وعلى هذا التقدير يكون الإحياء الأول إنعاماً عظيماً ، فلا يبعد منه تعالى أن يطالبه بالعبودية ، ليكون قيامه بتلك الطاعة قائماً مقام الشكر عن الإحياء الأول ، وأيضاً لما دل الإحياء الأول على قدرته على الإحياء الثاني ، فحينئذ يكون قادراً على إيصال الجزاء إليه .

واعلم أنه لما ثبت القول بصحة هذه الأصول الثلاثة .

(12/292)

ثبت أنه يصح من الله تعالى إرسال الرسل ومطالبة الخلق بالتكاليف ، لأن على هذا التقدير الخلق كلهم عبيده ولا مولى لهم سواه ، وأيضاً إنه منعم على الكل بأعظم النعم ، وأيضاً إنه قادر على إيصال الجزاء إليهم بعد موتهم ، وكل واحد من هذه الأسباب الثلاثة سبب تام ، في أنه يحسن منه تكليف الخلق ، أما بحسب السبب الأول ، فإنه يحسن من المولى مطالبة

عبده بطاعته وخدمته ، وأما بحسب السبب الثاني فلأنه يحسن من المنعم مطالبة المنعم عليه بالشكر والطاعة ، وأما بحسب السبب الثالث فلأنه يحسن من القادر على إيصال الجزاء التام إلى المكلف أن يكلفه بنوع من أنواع الطاعة ، فظهر أنه لما ثبتت الأصول الثلاثة بالدلائل التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية ، فإنه يلزم الجزم بأنه يحسن من الله إرسال الرسل ، ويجوز منه تعالى أن يخصهم بأنواع التكاليف ، فثبت أن الآيات المذكورة دالة على أن للعالم إلهاً حياً عالماً قادراً ، وعلى أن هذا الإله واحد ، وعلى أنه يحسن منه إرسال الرسل وإنزال الكتب .

واعلم أنه تعالى لما أثبت هذه الأصول المذكورة بهذه الدلائل المذكورة في هذه الآية ذكر بعده قوله : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بالله ورسوله ﴾ وهذا الترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأنه لما بين أولاً أن القول ببعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام أمر جائز ممكن ، أردفه بذكر أن محمداً رسول حق من عند الله لأن من حاول إثبات مطلوب وجب عليه أن يبين جوازه أولاً ، ثم حصوله ثانياً ، ثم إنه بدأ بقوله : ﴿ فئامنوا بالله ﴾ لأنا بينا أن الإيمان بالله أصل ، والإيمان بالنبوة والرسالة فرع عليه ، والأصل يجب تقديمه .

فلهذا السبب بدأ بقوله : ﴿ فَـَٔامنوا بالله ﴾ ثم أتبعه بقوله : ﴿ وَرَسُولِهِ النبى الامى الذى يُؤْمِنُ بالله وكلماته ﴾ .

واعلم أن هذا إشارة إلى ذكر المعجزات الدالة على كونه نبياً حقاً ، وتقريره : أن معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت على نوعين :

(13/292)

النوع الأول : المعجزات التي ظهرت في ذاته المباركة ، وأجلها وأشرفها أنه كان رجلاً أمياً لم يتعلم من أستاذ ، ولم يطالع كتاباً ، ولم يتفق له مجالسة أحد من العلماء ، لأنه ما كانت مكة بلدة العلماء ، وما غاب رسول الله عن مكة غيبة طويلة يمكن أن يقال إن في مدة تلك الغيبة تعلم العلوم الكثيرة ، ثم إنه مع ذلك فتح الله عليه باب العلم والتحقيق وأظهر عليه هذا القرآن المشتمل على علوم الأولين والآخرين ، فكان ظهور هذه العلوم العظيمة عليه ، مع أنه كان رجلاً أمياً لم يلق أستاذاً ولم يطالع كتاباً من أعظم المعجزات ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ النبى الامى ﴾ .

والنوع الثاني : من معجزاته الأمور التي ظهرت من مخارج ذاته مثل انشقاق القمر ، ونبوع الماء من بين أصابعه .

وهي تسمى بكلمات الله تعالى ، ألا ترى أن عيسى عليه السلام ، لما كان حدوثه أمراً غريباً مخالفاً للمعتاد ، لا جرم سماه الله تعالى كلمة .

فكذلك المعجزات لما كانت أموراً غريبة خارقة للعادة لم يبعد تسميتها بكلمات الله تعالى ، وهذا النوع هو المراد بقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بالله وكلماته ﴾ أي يؤمن بالله وبجميع المعجزات التي أظهرها الله عليه ، فبهذا الطريق أقام الدليل على كونه نبياً صادقاً من عند الله .

واعلم أنه لما ثبت بالدلائل القاهرة التي قررناها بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وجب أن يذكر عقيبه الطريق الذي به يمكن معرفة شرعه على التفصيل ، وما ذاك إلا بالرجوع إلى أقواله وأفعاله وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ واتبعوه ﴾ .

واعلم أن المتابعة تتناول المتابعة في القول وفي الفعل .

أما المتابعة في القول فهو أن يمتثل المكلف كل ما يقوله في طرفي الأمر والنهي والترغيب والترهيب .

وأما المتابعة في الفعل فهي عبارة عن الإتيان بمثل ما أتى المتبوع به سواء كان في طرف الفعل أو في طرف الترك ، فثبت أن لفظ ﴿ واتبعوه ﴾ يتناول القسمين .

(14/292)

وثبت أن ظاهر الأمر للوجوب فكان قوله تعالى : ﴿ واتبعوه ﴾ دليلاً على أنه يجب الانقياد له في كل أمر ونهي ، ويجب الاقتداء به في كل ما فعله إلا ما خصه الدليل ، وهو الأشياء التي

ثبت بالدليل المنفصل أنها من خواص الرسول صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : الشيء الذي أتي به الرسول يحتمل أنه أتى به على سبيل أن ذلك كان واجباً عليه ، ويحتمل أيضاً أنه أتى به على سبيل أن ذلك كان مندوباً ، فبتقدير أنه أتى به على سبيل أن ذلك كان مندوباً ، فلو أتينا به على سبيل أنه واجب علينا ، كان ذلك تركاً لمتابعته ، ونقضاً لمبايعته .

والآية تدل على وجوب متابعته ، فثبت أن إقدام الرسول على ذلك الفعل لا يدل على وجوبه علينا .

قلنا : المتابعة في الفعل عبارة عن الإتيان بمثل الفعل الذي أتى به المتبوع ، بدليل أن من أتى بفعل ثم إن غيره وافقه في ذلك الفعل ، قيل : إنه تابعه عليه .

ولو لم يأت به .

قيل : إنه خالفه فيه .

فلما كان الإتيان بمثل فعل المتبوع متابعة ، ودلت الآية على وجوب المتابعة لزم أن يجب على الأمة مثل فعل الرسول صلى الله عليه وسلم .

بقي ههنا أنا لا نعرف أنه عليه السلام أتى بذلك على قصد الوجوب أو على قصد الندب .

فنقول : حال الدواعي والعزائم غير معلوم ، وحال الإتيان بالفعل الظاهر والعمل المحسوس معلوم ، فوجب أن لا يلتفت إلى البحث عن حال العزائم والدواعي ، لكونها أموراً مخفية

عنا ، وأن نحكم بوجوب المتابعة في العمل الظاهر .

لكونها من الأمور التي يمكن رعايتها ، فزالت هذه الشبهة ، وتقريره : أن هذه الآية دالة على أن الأصل في كل فعل فعله الرسول أن يجب علينا لإتيان بمثله إلا إذا خصه الدليل .

إذا عرفت هذا فنقول : إنا إذا أردنا أن نحكم بوجوب عمل من الأعمال .

(15/292)

قلنا : إن هذا العمل فعله أفضل من تركه ، وإذا كان الأمر كذلك : فحينئذ نعلم أن الرسول قد أتى به في الجملة ، لأن العلم الضروري حاصل بأن الرسول لا يجوز أن يواظب طول عمره على ترك الأفضل ، فعلمنا أنه عليه السلام قد أتى بهذا الطريق الأفضل .

وأما أنه هل أتى بالطرف الأحسن فهو مشكوك ، والمشكوك لا يعارض المعلوم ، فثبت أنه عليه السلام أتى بالجانب الأفضل .

ومتى ثبت ذلك وجب أن يجب علينا ذلك لقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ واتبعوه ﴾ فهذا أصل شريف ، وقانون كلي في معرفة الأحكام ، دال على النصوص لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يوحى ﴾ [النجم : 3 ، 4] فوجب علينا مثله لقوله تعالى : ﴿ واتبعوه ﴾ .

وأما قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ففيه بحثان : أحدهما : أن كلمة "لعل" للترجي ، وذلك لا يليق بالله ، فلا بد من تأويله .

والثاني : أن ظاهره يقتضي أنه تعالى أراد من كل المكلفين الهداية والإيمان على قول المعتزلة ، والكلام في تقرير هذين المقامين قد سبق في هذا الكتاب مراراً كثيرة ، فلا فائدة في الإعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 23. 27 ﴾

(16/292)

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس ﴾

يعني : يا أهل مكة ويقال : هو لجميع الناس ﴿ إِنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ويقال : إنه أول نداء نادى به في مكة بهذه الآية .

وكان من قبل يدعو واحداً واحداً .

فلما نزلت هذه الآية ، أظهر ونادى في الناس : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً من ذلك الرب ﴿ الذى لَهُ ملكا لسموات والأرض لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ يعني : لا خالق ولا رازق في السماء ولا في الأرض إلا هو ﴿ لاَ إله ﴾ يعني : يحيي الأموات للبعث ، ويميت الأحياء في

الدنيا ، ويحيي للبعث ثانياً .

ويقال : يحيي يعني : يخلق الخلق من النطفة ، ويميتهم عند انقضاء آجالهم .

﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ يعني : يصدق بالله ﴿ وكلماته ﴾ يعني : القرآن قال : السدي وَكَلِمَتُهُ يعني : صدق بأن عيسى صار مخلوقاً بكلمة الله ﴿ واتبعوه ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ من الضلالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(17/292)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾

هذا أمر من الله عز وجل لنبيه بإشهار الدعوة والحض على الدخول في الشرع ، وذلك أنه لما رجا الأمة المتبعة للنبي الأمي التي كتب لهم رحمته عقب ذلك بدعاء الناس إلى الاتباع الذي معه تحصل تلك المنازل وهذه الآية خاصة لمحمد صلى الله عليه وسلم بين الرسل ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة وإلى الجن ، قاله الحسن ، وتقتضيه الأحاديث ، وكل نبي إنما بعث إلى فرقة دون العموم ، ثم إنه لما أعلن بالرسالة من عند الله

أردف بصفة الله التي تقتضي الإذعان له وهي أنه ملك السموات والأرض بالخلق والإبداع والإحياء والإماتة لا إله إلا هو ولا معبود سواه .

وقوله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ الآية ، هو الحض على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ الذي يؤمن ﴾ يريد الذي يصدق ﴿ بالله وكلماته ﴾ والكلمات هنا الآيات المنزلة من عنده كالتوراة والإنجيل ، وقرأ جمهور الناس "كلماته" بالجمع ، وقرأ عيسى بن عمر "كلمته" بالإفراد الذي يراد به الجمع ، وقرأ الأعمش "الذي يؤمن بالله وآياته" بدل "كلماته" ، وقال مجاهد والسدي : المراد ب "كلماته" أو "كلمته" عيسى بن مريم ، وقوله تعالى : ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي على طمعكم وبحسب ما ترونه ، وقوله : ﴿ واتبعوه ﴾ لفظ عام يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة جعلنا الله من متبعيه على ما يلزم بمنه ورحمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

ذكر أن موسى بَشَّر به ، وأن عيسى بَشّر به .

ثم أمره أن يقول بنفسه "إني رسول الله إليكم جميعاً" .

و ﴿ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ كلمات الله تعالى كتبه من التوراة والإنجيل والقرآن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) أي قل يا محمد للناس إني رسول الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم دون بعض ففي الآية دليل على عموم رسالته إلى كافة الخلق ، لأن قوله يا أيها الناس خطاب عام يدخل فيه جميع الناس ثم أمره الله بأن يقول إني رسول الله إليكم جميعاً ، وهذا يقتضي كونه مبعوثاً إلى جميع الناس (ق) عن جابر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة وطهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة " وفي رواية " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة " وقوله في الرواية الأولى وبعثت إلى كل أحمر

وأسود قيل أراد بالأحمر العجم وبالأسود العرب وقيل أراد بالأحمر الإنس وبالأسود الجن فعلى هذا تكون رسالته (صلى الله عليه وسلم) عامة إلى كافة الخلق من الإنس والجن .

(م) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " فضلت على الأنبياء بستة أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلخلق كافة وختم بي النبيون "

(19/292)

وقوله تعالى : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ لما أمر الله رسوله محمداً بأن يقول " يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً " أردفه بما يدل على صحة دعواه : يعني أن الذي له ملك السموات والأرض وهو مدبرهما ومالك أمرهما هو الذي أرسلني إليكم وأمرني بأن أقول لكم إني رسول الله إليكم جميعاً ﴿ لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴾ وصف الله نفسه بالإلهية وأنه لا شريك له فيها وأنه القادر على إحياء خلقه وإماتتهم ومن كان كذلك فهو القادر على إرسال الرسل إلى خلقه ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ لما أمر الله رسوله محمداً (صلى الله عليه وسلم) بأن يقول للناس إني رسول الله إليكم جميعاً أمر الله جميع خلقه بالإيمان به ورسوله وذلك لأن الإيمان بالله هو الأصل والإيمان برسوله فرع عنه فلهذا بدأ

بالإيمان بالله ثم ثنى بالإيمان برسوله فقال فآمنوا بالله ورسوله ثم وصفه الله تعالى فقال ﴿ النبي الأمي ﴾ تقدم معناهما ﴿ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ قال قتادة : يعني آياته وهو القرآن ، وقال مجاهد والسدي : أراد بكلماته عيسى ابن مريم لأنه خلق بقوله كن فكن ، وقيل : هو على العموم يعني يؤمن بجميع كلمات الله تعالى : ﴿ واتبعوه ﴾ يعني واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه وقيل : المتابعة على قسمين : متابعة في الأقوال ومتابعة في الأفعال .

أما المتابعة في الأقوال فبأن يتمثل التابع جميع ما أمره به المتبوع على طريق الأمر والنهي والترغيب والترهيب ، وأما المتابعة في الأفعال فبأن يقتدي به في جميع أفعاله وآدابه إلا ما خص به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وثبت بالدليل أنه من خصائصه فلا متابعة فيه وقوله تعالى : ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ يعني لكي تهتدوا وترشدوا وتصيبوا الحق والصواب في متابعتكم إياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(20/292)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ هذا أمر من اللَّه

سبحانه لنبيّه بإشهار الدعوة العامَّة ، وهذه من خصائصه صلى الله عليه وسلم مِنْ بين سائر الرسُلِ ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم بُعِثَ إلى الناس كافَّة ، وإلى الجنّ ، وكلُّ نبيٍّ إنما بعث إلى فرقة دون العُمُوم .

وقوله سبحانه : ﴿ فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ . . . ﴾ الآية : حَضٌّ على اتباع نبينا محمَّد صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ الذي يُؤْمِنُ بالله وكلماته ﴾ ، أيْ : يصدق باللَّه وكلماته ، والكلماتُ هنا : الآياتُ المنزلة مِنْ عند اللَّه ؛ كالتوراة والإنجيل ، وقوله : و ﴿ اتبعوه ﴾ لفظ عامٌّ يدخل تحته جميعُ إلزامات الشريعة ، جعلنا اللَّه مِنْ متَّبعيه على ما يلزم بمنّه ورحمته .

قُلْتُ : فإن أردتَّ الفوْزَ أيُّها الأَخُ ، فعَلَيْكَ باتباع النبيِّ صلى الله عليه وسلم وتعظيمِ شريعته ، وتعظيم جَمِيعِ أسبابه .

قال عِيَاضٌ : وَمِنْ إعظامه صلى الله عليه وسلم وإكبارِهِ إعظام جميع أَسبابه وإِكْرَامُ مشاهده وأَمْكِنَتِهِ ، ومعاهِدِهِ ، وما لَمَسَهُ عليه السلام أَوْ عُرِفَ به ، حُدِّثْتُ أن أبا الفَضْل الجوهري ، لمَّا وَرَدَ المدينةَ زائراً ، وقَرُبَ من بيوتها ، ترجَّل ، ومشى باكياً منشداً : [الطويل]

وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا . . . فُؤَاداً لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلا لُبَّا

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً . . . لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نَلُمَّ بِهِ رَكْبَا

وحُكِيَ عن بعض المريدين ؛ أنه لما أشْرَفَ على مدينة الرسول عليه السلام ، أنشأ يقُولُ : [الكامل]

رُفِعَ الحِجَابُ لَنَا فَلاَحَ لَنَا ظِرِي . . . قَمَرٌ تَقَطَّعُ دُونَهُ الأَوْهَامُ

وَإِذَا المَطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّداً . . . فَظُهُورُهُنَّ على الرِّجَالِ حَرَامُ

(21/292)

قَرَّبْنَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِىءَ الحَصَى . . . فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ

وحُكِيَ عن بعض المشايخِ ؛ أنه حجَّ ماشياً ، فقيل له في ذلك ، فقال : العَبْدُ الآبِقُ يأتي إلى بيت مولاه راكباً ؟ لو قَدَرْتُ أَنْ أَمْشِيَ على رأسِي ، ما مَشَيْتُ على قدَمي .

قال عياضَ : وجديرٌ لمواطَنَ عُمِرَتْ بالوحْيِ ، والتنزيل ؛ وتردَّد فيها جبريلُ وميكائيل ، وعَرَجَتْ منها الملائكةُ والرُّوح ؛ وضجَّتْ عرصاتها بالتقديس والتسبيح ، واشتملَتْ تربتها على جَسَد سَيِّد البَشَر ؛ وانتشر عنْهَا مِنْ دِينِ اللَّه وسنة رسُوله ما انتشر ، مدارسُ وآيات ؛ ومَسَاجِدُ وصَلَوَات ؛ ومَشَاهِدُ الفَضَائِلِ والخَيْرَات ؛ ومعاهدُ البراهين والمُعْجِزَات – أنْ تعظَّم عَرَصَاتها ؛ وتُتَنَسَّمَ نفحاتها ؛ وتُقَبَّلَ رُبُوعُها وجدراتُها : [الكامل]

يَا دَارَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ . . . هَدْيُ الأَنَامُ وَخُصَّ بِالآيَاتِ

عِنْدِي لأَجْلِكَ لَوْعَةٌ وَصَبَابَةٌ . . . وَتَشَوُّقٌ مُتَوَقِّدُ الجَمَرَاتِ

الأبيات . انتهى من «الشفا» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

(22/292)

وقال ابن كثير :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) ﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود ، والعربي والعجمي ، ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي : جميعكم ، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : 19] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : 17] وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ ﴾ [آل عمران : 20] والآيات في هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، رسول الله إلى الناس كلهم .

قال البخاري ، رحمه الله ، في تفسير هذه الآية : حدثنا عبد الله ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا عبد الله بن العلاء بن زَبْر حدثني بسر ابن عبيد الله ، حدثني أبو إدريس الخولاني قال : سمعت أبا الدرداء ، رضي الله عنه ، يقول : كانت بين أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، محاورة ، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عمر عنه مغضبا ، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – فقال أبو الدرداء : ونحن عنده – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما صاحبكم هذا فقد غامر" – أي :

(23/292)

غاضب وحاقد – قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر – قال أبو الدرداء

: وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ إني قلت : يا أيها الناس ، إني رسول الله إليكم جميعا ، فقلتم : كذبت وقال أبو بكر : صدقت" . انفرد به البخاري (1)

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا يزيد بن أبي زياد ، عن مقسم ، عن ابن عباس [رضي الله عنه] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أعطيت خمسًا لم يعطهن نبي قبلي - ولا أقوله فخرًا : بعثت إلى الناس كافة : الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي ، فهي لمن لا يشرك بالله شيئًا" (2) إسناده جيد ، ولم يخرجوه .

---

(1) صحيح البخاري برقم (4640) .

(2) المسند (301/1) قال الهيثمي في المجمع (258/8) : "رجال أحمد رجال الصحيح غير يزيد بن أبي زياد وهو حسن الحديث" .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا بكر بن مضر ، عن أبي الهاد ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك ، قام من الليل يصلي ، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه ، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم : "لقد أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن أحد قبلي ، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه ، ونصرت على العدو بالرعب ، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ مني رعبا ، وأحلت لي الغنائم آكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها ، كانوا يحرقونها ، وجعلت لي الأرض مساجد وطهورًا ، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت ، وكان من قبلي يعظمون ذلك ، إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم ، والخامسة هي ما هي ، قيل لي : سل ؛ فإن كل نبي قد سأل . فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة ، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله" (1) إسناد جيد قوي أيضا ولم يخرجوه .

وقال أيضا : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني ، فلم يؤمن بي ، لم يدخل الجنة" (2)

وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر ، عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني

، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار" (3)

---

(8) المسند (222/2) .

(10) المسند (496/4) .

(14) هذا لفظ حديث أبي هريرة وقد رواه مسلم في صحيحه برقم (153) وحديث أبي موسى الأشعري بهذا اللفظ رواه النسائي في السنن الكبرى برقم (11241) .

(25/292)

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس - وهو سليم بن جبير - عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : "والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي أو نصراني ، ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار" . تفرد به أحمد (1)

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي بُرْدَة ، عن أبي موسى ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعطيت خمسًا : بعثت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي ، ونصرت بالرعب شهرًا وأعطيت الشفاعة -

وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة ، وإني قد اختبأت شفاعتي ، ثم جعلتها لمن مات من أمتي لم يشرك بالله شيئا" (2)

وهذا أيضا إسناد صحيح ، ولم أرهم خرجوه ، والله أعلم ، وهذا الحديث ثابت في الصحيحين أيضا ، من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي [صلى الله عليه وسلم] يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة" (3)

وقوله : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ صفة الله تعالى ، في قوله (9) ﴿ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ أي : الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه ، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة ، وله الحكم .

---

(1) المسند (350/2) .

(2) المسند (416/4) وقال الهيثمي في المجمع (258/8) : "رجاله رجال الصحيح" .

(3) صحيح البخاري برقم (335) وصحيح مسلم برقم (521) .

(26/292)

وقوله : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ، ﴿ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﴾ أي : الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة ، فإنه منعوت بذلك في كتبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ أي : يصدق قوله عمله ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿ وَاتَّبِعُوهُ ﴾ أي : اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي : إلى الصراط المستقيم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 489 . 491 ﴾

(27/292)

وقال أبو حيان :

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴾ .

لما ذكر تعالى لموسى عليه السلام صفة محمد (صلى الله عليه وسلم) وأخبر أن من أدركه

وآمن به أفلح أمر تعالى نبيه بإشهار دعوته ورسالته إلى الناس كافة والدعاء إلى الإيمان بالله ورسوله وكلماته واتباعه ودعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عامّة للإنس والجنّ قاله الحسن، وتقتضيه الأحاديث و﴿ الذي ﴾ في موضع نصب على المدح أو رفع وأجاز الزمخشري أن يكون مجروراً صفة لله قال وإنْ حيل بين الصفة والموصوف بقوله ﴿ إليكم ﴾، وقال أبو البقاء: ويبعد أن يكون صفةً لله أو بدلاً منه لما فيه من الفصل بينهما بإليكم وبالحال وإليكم متعلّق برسول وجميعاً حال من ضمير ﴿ إليكم ﴾ وهذا الوصف يقتضي الإذعان والانقياد لمن أرسله إذ له الملك فهو المتصرف بما يريد وفي حصر الإلهية له نفي الشركة لأن من كان له ملك هذا العالم لا يمكن أن يشركه أحد فهو المختص بالإلهية وذكر الإحياء والإماتة إذ هما وصفان لا يقدر عليهما إلا الله وهما إشارة إلى الإيجاد لكلّ شيء يريده الإعدام والأحسن أن تكون هذه جملاً مستقلة من حيث الإعراب وإن كانت متعلقاً بعضها ببعض من حيث المعنى.

وقال الزمخشري: ﴿ لا إله إلا هو ﴾ بدل من الصلة التي هي ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ وكذلك ﴿ يحيي ويميت ﴾ وفي ﴿ لا إله إلا هو ﴾ بيان للجملة قبلها لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة وفي ﴿ يحيي ويميت ﴾ بيان لاختصاصه بالإلهية لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره انتهى، وإبدال الجمل من الجمل غير المشتركة في عامل لا نعرفه، وقال الحوفي: ﴿ يحيي ويميت ﴾ في موضع الخبر لأن ﴿ لا إله ﴾ في

موضع رفع بالابتداء ﴿ وإلا هو ﴾ بدل على الموضع قال : والجملة أيضاً في موضع الحال من اسم الله تعالى انتهى ، يعني من ضمير اسم الله وهذا إعراب متكلف .

(28/292)

﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ .

لما ذكر أنه رسول الله أمرهم بالإيمان بالله وبه عدل عن ضمير المتكلم إلى الظاهر وهو الالتفات لما في ذلك من البلاغة بأنه هو النبي السابق ذكره في قوله ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ ﴾ وأنه هو المأمور باتباعه الموجود بالأوصاف السابقة والظاهر أن كلماته هي الكتب الإلهية التي أنزلت على من تقدمه وعليه ولما كان الإيمان بالله هو الأصل يتفرع عنه الإيمان بالرسول والنبي بدأ به ثم أتبعه بالإيمان بالرسول ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى المعجز الدّال على نبوّته وهو كونه أمّيّاً وظهر عنه من المعجزات في ذاته ما ظهر من القرآن الجامع لعلوم الأوّلين والآخرين مع نشأته في بلد عار من أهل العلم لم يقرأ كتاباً ولم يخطّ ولم يصحب عالماً ولا غاب عن مكة غيبة تقتضي تعلماً .

وقيل : و﴿ كلماته ﴾ المعجزات التي ظهرت من خارج ذاته مثل انشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وهي تسمى بكلمات الله لما كانت أموراً خارقة غريبة كما سمّي عيسى

عليه السلام لما كان حدوثه أمراً غريباً خارقاً كلمة ، وقرأ مجاهد وعيسى : وكلمة وحد وأراد به الجمع نحو أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد وقد يقولون للقصيدة كلمة وكلمة فلان ، وقال مجاهد والسدّي : المراد بكلماته وكلمته أي بعيسى لقوله : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ ، وقيل : كلمة كن التي تكون بها عيسى وسائر الموجودات ، وقرأ الأعمش : الذي يؤمن بالله وآياته بدل كلماته ولما أمروا بالإيمان بالله ورسوله وذلك هو الاعتقاد أمروا بالاتباع له فيما جاء به وهو لفظ يدخل تحته جميع التزامات الشريعة وعلق رجاء الهداية باتباعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(29/292)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ ﴾

لما حُكي ما في الكتابين من نعوت رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وشرف مَنْ يتّبعه من أهلهما ونيلِهم لسعادة الدارين أُمر عليه الصلاة والسلام ببيان أن تلكَ السعادةَ غيرُ مختصةٍ بهم بل شاملةٌ لكل من يتبعه كائناً مَنْ كان ببيان عمومِ رسالتِه للثقلين مع اختصاص رسالةِ سائرِ الرسلِ عليهم السلام بأقوامهم وإرسالِ موسى عليه السلام إلى فرعونَ وملئِه بالآيات

التسعِ إنما كان لأمرهم بعبادة ربِّ العالمين عز سلطانُه وتركِ العظيمةِ التي كان يدّعيها الطاغيةُ ويقبلها منه فئتُه الباغيةُ وبإرسال بني إسرائيلَ من الأسر والقسرِ ، وأما العملُ بأحكام التوراةِ فمختصٌّ ببني إسرائيل ﴿ جَمِيعاً ﴾ حالٌ من الضمير في إليكم ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ منصوبٌ أو مرفوعٌ على المدح أو مجرورٌ على أنه صفةٌ للجلالة وإن حيل بينهما بما هو متعلقٌ بما أضيف إليه فإنه في حكم المتقدّمِ عليه وقوله تعالى : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ بيانٌ لما قبله فإن مَنْ ملَك العالمَ كان هو الإله لا غيرُه وقوله تعالى : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ لزيادة ألوهيتِه والفاءُ في قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لتفريع الأمرِ على ما تمهّد وتقرّر من رسالته عليه الصلاة والسلام ، وإيرادُ نفسِه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالةِ على طريقة الالتفاتِ إلى الغَيْبة للمبالغة في إيجاب الامتثالِ بأمره ، ووصفُ الرسول بقوله : ﴿ النبى الأمى ﴾ لمدحه عليه الصلاة والسلام بهما ولزيادة تقريرِ أمرِه وتحقيقِ أنه المكتوبُ في الكتابين ، ووصفُه بقوله تعالى : ﴿ الذى يُؤْمِنُ بالله وكلماته ﴾ أي ما أنزل إليه وإلى سائر الرسلِ عليهم السلام من كُتُبه ووحيِه لحمل أهلِ الكتابين على الامتثال بما أُمروا به ، والتصريحُ بإيمانه بالله تعالى للتنبيه على أن الإيمانَ به تعالى لا ينفك عن الإيمان بكلماته ولا يتحقق إلا به ، وقرىء وكلمتِه على إرادة الجنسِ أو القرآنِ تنبيهاً

(30/292)

على أن المأمورَ به هو الإيمانُ به عليه الصلاة والسلام من حيث أنزل عليه القرآنُ لا من حيثيةٍ أخرى ، أو على أن المرادَ بها عيسى عليه الصلاة والسلام تعريضاً باليهود وتنبيهاً على أن من لم يؤمن به لم يُعتدَّ بإيمانه ﴿ واتبعوه ﴾ أي في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ علةٌ للفعلين أو حالٌ من فاعليها أي رجاءً لاهتدائكم إلى المطلوب أو راجين له ، وفي تعليقه بهما إيذانٌ بأن من صدّقه ولم يتبعْه بالتزام أحكام شريعتِه فهو بمعزل من الاهتداء مستمرٌّ على الغي والضلالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(31/292)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس إِنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

لما حكى ما في الكتابين من نعوته صلى الله عليه وسلم وشرف من يتبعه على ما عرفت ، أمر عليه الصلاة والسلام بأن يصدع بما فيه تبكيت لليهود الذين حرموا اتباعه وتنبيه لسائر الناس على افتراء من زعم منهم أنه صلى الله عليه وسلم مرسل إلى العرب خاصة ، وقيل :

إنه أمر له عليه الصلاة والسلام ببيان أن سعادة الدارين المشار إليهما فيما تقدم غير مختصة بمن اتبعه من أهل الكتابين بل شاملة لكل من يتبعه كائناً من كان وذلك ببيان عموم رسالته صلى الله عليه وسلم وهي عامة للثقلين كما نطقت به النصوص حتى صرحوا بكفر منكره وما هنا لا يأبى ذلك ، والمفهوم فيه غير معتبر عند القائل به لفقد شرطه وهو ظاهر ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ في موضع نصب باضمار أعني أو نحوه أو رفع على إضمار هو .

(32/292)

وجوز أن يكون في موضع جر على أنه صفة للاسم الجليل أو بدل منه ، واستبعد ذلك أبو البقاء لما فيه من الفصل بينهما ، وأجيب بأنه مما ليس بأجنبي وفي حكم ما لا يكون فيه فصل ورجح الأول بالفخامة إذ يكون عليه جملة مستقلة مؤذنة بأن المذكور علم في ذلك أي اذكر من لا يخفى شأنه عند الموافق والمخالف ، وقيل : هو مبتدأ خبره ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ وهو على الوجوه الأول بيان لما قبله وجعله الزمخشري مع ذلك بدلاً من الصلة وقد نص على جواز هذا النحو سيبويه وذكر العلامة أن سوق كلامه يشعر بأنه بدل اشتمال ، ووجه البيان أن من ملك العالم علويه وسفليه هو الإله فبينهما تلازم يصحح جعل الثاني مبيناً للأول

وليس المراد بالبيان الإثبات بالدليل حتى يقال الظاهر العكس لأن الدليل على تفرده سبحانه بالألوهية ملكه للعالم بأسره مع أنه يصح أن يجعل دليلاً عليه أيضاً فيقال الدليل على أنه جل شأنه المالك المتصرف في ذلك انحصار الألوهية فيه إذ لو كان إنه غيره لكان له ذلك ، واعترض أبو حيان القول بالبدلية بأن إبدال الجمل من الجمل غير المشتركة في عامل لا يعرف ، وتعقب بأن أهل المعاني ذكروه وتعريف التابع بكل ثان أعرب بإعراب سابقه ليس بكلي ، وقوله سبحانه : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ لزيادة تقرير إلهيته سبحانه ، وقيل : لزيادة اختصاصه تعالى بذلك وله وجه وجيه والفاء في قوله عز شأنه : ﴿ قُلْ يا أيها الناس ﴾ لتفريع الأمر على ما تقرر من رسالته صلى الله عليه وسلم وإيراد نفسه الكريمة عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة على طريق الالتفات إلى الغيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال ووصف الرسول بقوله تعالى : ﴿ النبى الامى ﴾ لمدحه ولزيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين ﴿ الذى يُؤْمِنُ بالله وكلماته ﴾ ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل عليهم السلام من كتبه ووحيه ، وقرىء ﴿ وَكَلِمَتُهُ ﴾ على أرادة الجنس أو القرآن أو عيسى عليه السلام كما روى ذلك عن

مجاهد تعريضاً لليهود وتنبيهاً على أن من لم يؤمن به عليه السلام لم يعتبر إيمانه ، والاتيان بهذا الوصف تحمل أهل الكتابين على الامتثال بما أمروا به والتصريح بالايمان بالله تعالى للتنبيه على أن الأيمان به سبحانه لا ينفك عن الايمان بكلماته ولا يتحقق إلا به ولا يخفى ما في هذه الآية من إظهار النصفة والتفادي عن العصبية للنفس وجعلوا ذلك نكتة للالتفات وإجراء هاتيك الصفات ﴿ واتبعوه ﴾ أي في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ علة للفعلين أو حال من فاعليهما أي رجاء لاهتدائكم إلى المطلوب أو زاجين له ، وفي تعليقه بهما إيذان بأن من صدقة ولم يتبعه بالتزام شرعه فهو بعد في مهامه الضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(34/292)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الخطاب عام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم مبعوثاً إلى الكافة من الثقلين إلى من وجد في عصره ، وإلى من سيوجد بعده إلى يوم القيامة بخلاف سائر الرسل فإنهم بعثوا إلى أقوامهم أهل عصرهم ولم تستمر شرائعهم إلى يوم القيامة وإليكم متعلق بقوله : (رسول) وجميعاً حال من ضمير

إليكم .

قال الحدادي : إني رسول الله إليكم كافة أدعوكم إلى طاعة الله وتوحيده واتباعه فيما أؤديه إليكم .

وفي "آكام المرجان" : لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في أن الله تعالى أرسل محمداً صلى الله عليه وسلّم إلى الجن والأنس والعرب والعجم فإن قلت : في بعثة سليمان عليه السلام مشاركة له لأنه أيضاً كان مبعوثاً إلى الأنس والجن وحاكماً عليهما بل على جميع الحيوانات قلت : إن سليمان لم يبعث إلى الجن بالرسالة بل بالملك والضبط والسياسة والسلطنة ؛ لأنه عليه السلام استخدمهم وقضى بينهم بالحق وما دعاهم إلى دينه لأن الشياطين والعفاريت كانوا يقومون في خدمته وينقادون له مع أنهم على كفرهم وطغيانهم كذا حققه وإلهي الأسكوبي .

قال ابن عقيل : الجن داخلون في مسمى الناس لغة وهو من ناس ينوس إذا تحرك .

قال الجوهري : وصاحب "القاموس" الناس يكون من الأنس ومن الجن جمع أنس أصله أناس جمع عزيز أدخل عليه أل .

﴿ الَّذِى ﴾ منصوب أو مرفوع على المدح ، أي : أعني الله الذي أو هو الذي ﴿ لَه مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (مراوراست ادشاهى آسمانها وزمينها وتدبير وتصرف دران) .

﴿ لا إله إِلا هُوَ ﴾ (هي معبودى

و﴿ هو ﴾ بدل من الصلة التي قبله وفيه بيان لها لأن من ملك العالم كان هو الإله المتفرد بالألوهية واسم هو ضمير غيبة وهو من أخص أسمائه تعالى إذ الغيبة الحقيقية إنما هي له إذ لا تتصوره العقول ولا تحده الأوهام ، وهو اسم لحضرة الغيب الثانية التي هي أول تعينات الذات الذي هو برزخ جامع بين حكمي الاسم الباطن والظاهر وحيث تخفى فيه الواو فهو اسم لحضرة غيب الغيب وهي الحضرة الأولى من حضرات الذات وهو فاتحة الأسماء وأم كتابها تنزل منزلة الألف من الحروف كذا في "ترويح القلوب" لعبد الرحمن البسطامي قدس سره .

واعلم : أن المقربين لا يرون موجوداً سوى الله تعالى فإذا قالوا هو أشاروا به إلى الحق سبحانه سواء تقدم له مرجع أو لا وتحقيقه في "حواشي ابن الشيخ" في سورة الإخلاص .

﴿ لا إِلَهَ إلا هو ﴾ زيادة تقرير للألوهية لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة إلا الذي لا إله إلا هو .

قال الحدادي : يحيي الخلق من النطفة ويميتهم عند انقضاء آجالهم لا يقدر على ذلك أحد سواه وقيل : معناه يحيي الأموات للبعث ويميت الأحياء في الدنيا .

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الفاء لتفريع الأمر على ما تمهد وتقرر من رسالته عليه الصلاة والسلام .

﴿ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﴾ مدح له عليه السلام ، ومعنى الأمي : لا يقرأ ولا يكتب فيؤمن من جهته أن يقرأ الكتب وينقل إليهم أخبار الماضين ولكن يتبع لما يوحى إليه ﴿ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ أي : ما أنزل عليه من أخبار سائر الرسل ومن كتبه ووحيه وإنما وصف به لحمل أهل الكتابين على الامتثال بما أمروا به ، والتصريح بإيمانه بالله تعالى للتنبيه على أن الإيمان به تعالى لا ينفك عن الإيمان بكلماته ولا يتحقق إلا به .

﴿ وَاتَّبِعُوهُ ﴾ أي : في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين .

(36/292)

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ علة للفعلين أو حال من فاعليهما ، أي : رجاء لاهتدائكم إلى المطلوب أو راجين له ، وفي تعليقه بهما إيذان بأن من صدقه ولم يتبعه بالتزام أحكام شريعته فهو بمعزل من الاهتداء مستمر على الغي والضلالة .

قال سيد الطائفة الجنيد قدس سره : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلّم واتبع سنته ، ولزم طريقته ؛ لأن طرق الخيرات كلها

مفتوحة عليه وعلى المقتفين أثره والمتابعين سنته .

قال الشيخ العارف الواصل الوارث الكامل محيي الدين بن العربي قدس سره في بيان السنة ، والسني : الإنسان لا يخلو أن يكون واحداً من ثلاثة بالنظر الشرعي ، وهو إما أن يكون باطنياً محضاً ، وهو القائل بتجريد التوحيد عندنا حالاً وفعلاً ، وهذا يؤدي إلى تعطيل أحكام الشرائع وقلب أعيانها وكل ما يؤدي إلى هدم قاعدة من قواعد الدين أو سنة من سننه ولو في العادات كالأكل والشرب والوقاع ، فهو مذموم بالإطلاق عصمنا الله وإياكم من ذلك .

وإما أن يكون ظاهرياً محضاً متقلقلاً بحيث أن يؤديه ذلك إلى التجسيم والتشبيه نعوذ بالله منهما في باب الاعتقادات ، أو يكون معتمداً على مذهب فقيه من الفقهاء أصحاب علوم الأحكام المحجوبة قلوبهم بحب الدنيا عن معاينة الملكوت فتراه خائفاً من الخروج عن مذهبه فإذا سمع سنة من سنن النبي عليه السلام يحيلها على مذهب فقيه آخر فيترك العمل بها ، ولو أوردت ألف حديث مأثور في فضائلها فيتصامم عن سماعها بل يسيء الظن برواية المتقدمين من التابعين والسلف بناء على عدم إيراد ذلك الفقيه إياها في كتابه ، فمثل ذلك أيضاً ملحوق بالذم شرعاً وإلى الله نفزع ونلتجىء من أن يجعلنا وإياكم منهم .

(37/292)

وإما أن يكون جارياً مع الشريعة على فهم اللسان حيث ما مشى الشارع مشى وحيث ما وقف وقف قدماً بقدم حتى في أقل شيء من الفضائل في العبادات والعادات صارفاً جل عنايته وباذلاً كل مجهوده في أن لا يفوته شيء من الأفعال المحمدية في عباداته وعاداته على حسب ما سنح له في أثناء مطالعاته من كتب الأحاديث المعول عليها أو ألقى في أذنه من أستاذه وشيخه المعتمد عليه إن لم يكن من أهل المطالعة فهذا هو الوسط وهو السنة والآخذ به هو السني وبهذا يصح محبة الله له .

وحكي أن الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر قال : راعيت جميع ما صدر عن النبي عليه السلام سوى واحد وهو أنه عليه السلام زوج بنته علياً رضي الله عنه وكان يبيت في بيتها بلا تكلف ولم يكن لي بنت حتى أفعل كذلك .

وحكي عن سلطان العارفين أبي يزيد البسطامي قدس سره أنه قال ذت يوم لأصحابه قوموا بنا حتى ننظر إلى ذلك الذي قد سهر نفسه بالولاية قال فمضينا فإذا بالرجل قد قصد المسجد فرمى بزاقه نحو القبلة فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال هذا ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلّم فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين .

وحكي عن أحمد بن حنبل رحمه الله قال : كنت يوماً مع جماعة تجردوا ودخلوا الماء

فعملت بالحديث وهو : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر" ولم أتجرد فرأيت تلك الليلة قائلاً يقول لي : يا أحمد أبشر فإن الله قد غفر لك باستعمالك السنة وجعلك إماماً يقتدى بك فقلت من أنت قال جبريل عليه السلام .

وعن عابس بن ربيعة قال رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقبل الحجر الأسود ويقول : إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك .

(38/292)

واتفق المشايخ على أن من ألقى زمامه في يد كلب مثلاً حتى لا يكون تردده بحكم طبعه فنفسه أقوم لقبول الرياضة ممن جعل زمامه في حكم نفسه يسترسل بها حيث شاء كالبهائم فالواجب عليك أن تكون تابعاً لا مسترسلاً .

فإذا اتبعت فاتبع سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلّم الذي آدم ومن دونه من الأنبياء والأولياء تحت لوائه فإذا اتبعت واحداً من أمته فلا تتبعه لمجرد كونه رجلاً مشهوراً بين الناس مقبولاً عند الأمراء والسلاطين بل كان الواجب عليك أن تعرف أولاً الحق ثم تزن الرجال به ، وفيه قال باب العلم الرباني علي رضي الله عنه : من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال ، بل اعرف الحق تعرف أهله وبقدر متابعتك للنبي صلى الله عليه

وسلّم تستحكم مناسبتك به وتتأكد علاقة المحبة بينك وبينه وبكل

ما يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلّم من الصلاة عليه أو زيارة قبره أو جواب المؤذن

والدعاء له عقيبه كنت مستحقاً لشفاعته قالوا لو وضع شعر رسول الله صلى الله عليه

وسلّم أو عصاه أو سوطه على قبر عاص لنجا ذلك العاصي ببركات تلك الذخيرة من

العذاب وإن كانت في دار إنسان أو بلدة لا يصيب سكانها بلاء ببركاتها ، وإن لم يشعروا بها

ومن هذا القبيل ماء زمزم والكفن المبلول به وبطانة أستار الكعبة والتكفن بها .

قال الإمام الغزالي رحمه الله : وإذا أردت مثالاً من خارج فاعلم أن كل من أطاع سلطاناً

وعظمه فإذا دخل بلدته ورأى فيها سهماً من جعبته أو سوطاً له فإنه يعظم تلك البلدة

وأهلها ، فالملائكة يعظمون النبي صلى الله عليه وسلّم فإذا رأوا ذخائره في دار أو بلدة أو

قبر عظموا صاحبه وخففوا عنه العذاب ولذلك السبب ينفع الموتى أن توضع المصاحف

على قبورهم ويتلى عليهم القرآن ويكتب القرآن على القراطيس وتوضع في أيدي الموتى

كذا في "الأسرار المحمدية" .

اللهم اجعل حرفتنا محبته وارزقنا شفاعته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ

331.327 ﴾

(39/292)

وقال الشوكاني :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

لما تقدّم ذكر أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم المكتوبة في التوراة والإنجيل ، أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضى لعموم رسالته إلى الناس جميعاً ، لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام ، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة ، و ﴿ جميعاً ﴾ منصوب على الحال ، أي حال كونكم جميعاً .

و ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ إما في محل جرّ على الصفة للاسم الشريف ، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

وجملة ﴿ لاَ إِله إِلاَّ الله ﴾ بدل من الصلة مقرر لمضمونها مبين لها ، لأن من ملك السموات والأرض وما فيهما هو الإله على الحقيقة ، وهكذا من كان يحيى ويميت هو المستحق لتفرّده بالربوبية ونفى الشركاء عنه .

والأمر بالإيمان بالله وبرسوله متفرع على ما قبله .

وقد تقدّم تفسير النبيّ الأميّ .

وهما وصفان لرسوله .

وكذلك : ﴿ الذى يُؤْمِنُ بالله وكلماته ﴾ وصف له ، والمراد بالكلمات ما أنزله الله عليه

وعلى الأنبياء من قبله أو القرآن فقط .

وجملة ﴿ واتبعوه ﴾ مقررة لجملة ﴿ فَآمِنُواْ بِاللّهِ ﴾ ، و ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ علة للأمر بالإيمان والاتباع .

وقد أخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الأحمر والأسود فقال : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس إِنِّى رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

والأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة ، فلا نطيل بذكرها .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وكلماته ﴾ قال : آياته .

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ وكلماته ﴾ قال : عيسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(40/292)

وقال صاحب المنار :

﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

ذُكِرَتْ رِسَالَةُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتِطْرَادًا بِحَسَبِ نَظْمِ الْكَلَامِ ، وَلَكِنَّهَا هِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالذَّاتِ مِنَ الْقِصَّةِ ، وَمِنْ سَائِرِ قِصَصِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَلَمَّا كَانَ ذِكْرُهَا فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ لِدَعْوَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي كُتُبِهِمْ وَالْبِشَارَةِ بِرِسَالَتِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِمْ ، وَبَيَانِ مَا يَكُونُ لَهُمْ مِنَ الْفَلَاحِ وَالْفَوْزِ بِالْإِيمَانِ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاتِّبَاعِهِ نَاسَبَ أَنْ يُقَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِبَيَانِ عُمُومِ بَعْثَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَدَعْوَةِ النَّاسِ كَافَّةً إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى وَبِهِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُخَاطِبًا لَهُ صَلَوَاتُهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :

(41/292)

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا هَذَا خِطَابٌ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَجَّهَهُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْهَاشِمِيِّ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى ، يُنْبِئُهُمْ بِهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ كَافَّةً لَا إِلَى قَوْمِهِ الْعَرَبِ خَاصَّةً كَمَا زَعَمَتِ الْعِيسَوِيَّةُ مِنَ الْيَهُودِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا (34 : 28) وَقَوْلِهِ : وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ (6 : 19) أَيْ وَأُنْذِرَ بِهِ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ مِنَ الثَّقَلَيْنِ ، فَمَنْ قَالَ إِنَّهُ يُؤْمِنُ بِرِسَالَتِهِ إِلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً لَا يُعْتَدُّ بِإِيمَانِهِ ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِهَذِهِ النُّصُوصِ الْعَامَّةِ الْقَطْعِيَّةِ

مِمَّا جَاءَ بِهِ ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (25 : 1) وَقَوْلِهِ : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (21 : 107) وَهُوَ يَشْمَلُ عُقَلَاءَ الْجِنِّ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى أَحَادِيثُ صَحِيحَةٌ نَاطِقَةٌ بِاخْتِصَاصِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِرِسَالَةِ الْعَامَّةِ كَحَدِيثِ جَابِرٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ

(42/292)

فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إلَى النَّاسِ عَامَّةً وَفِي رِوَايَةٍ "كَافَّةً" ، وَرَوَاهُ آخَرُونَ عَنْ غَيْرِهِ بِأَلْفَاظٍ أُخْرَى ، وَلَمَّا كَانَتِ الشَّفَاعَةُ عَلَى إطْلَاقِهَا غَيْرَ خَاصَّةٍ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إلَى أَنَّ الْخَاصَّ بِهِ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى لِجَمِيعِ الْخَلْقِ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ فِيهِمْ وَمُحَاسَبَتِهِمْ لِيُعْلَمَ مُسْتَقَرُّ كُلٍّ مِنْهُمْ ، وَفِي أَحَادِيثِ الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ أَهْلَ الْمَوْقِفِ يُرْسِلُونَ الْوُفُودَ إلَى آدَمَ فَنُوحٍ فَإِبْرَاهِيمَ فَمُوسَى فَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَطْلُبُونَ مِنْهُمُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِفَصْلِ الْقَضَاءِ ، فَيَعْتَرِفُ كُلٌّ مِنْهُمْ بِأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَيَقُولُ "

لَسْتُ هُنَاكُمْ " وَيَطْلُبُ النَّجَاةَ لِنَفْسِهِ وَيُحِيلُهُمْ عَلَى مَنْ بَعْدَهُ ، حَتَّى إذَا أَحَالَهُمْ عِيسَى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ أَجَابَهُمْ إلَى طَلَبِهِمْ ، وَقَالَ : " أَنَا لَهَا " وَفِي رِوَايَةٍ " أَنَا صَاحِبُكُمْ " فَيُشَفَّعُ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْخَلْقِ فَتُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ . وَقِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ غَيْرُ هَذِهِ الشَّفَاعَةِ . وَقِيلَ : مَا يَعُمُّهَا وَغَيْرَهَا ، وَالرِّوَايَاتُ فِي الشَّفَاعَةِ مُتَدَاخِلَةٌ مُضْطَرِبَةٌ ، وَلَسْنَا بِصَدَدِ تَحْقِيقِ الْقَوْلِ فِيهَا .

(43/292)

ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ وَبِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ فَقَالَ : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَالْمُرَادُ بِمُلْكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : التَّصَرُّفُ وَالتَّدْبِيرُ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ ، لِمَا جَرَى عَلَيْهِ عُرْفُ الْبَشَرِ مِنْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ هِيَ الْعَوَالِمُ الَّتِي تَعْلُو هَذِهِ الْأَرْضَ الَّتِي يَعِيشُونَ فِيهَا ، وَصَاحِبُ الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ فِيهِمَا هُوَ رَبُّهُمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ وَهُوَ وَاحِدٌ ، وَلَوْ كَانَ لِغَيْرِهِ تَصَرُّفٌ لَتَعَارَضَ مَعَ تَصَرُّفِهِ ، وَفَسَدَ النِّظَامُ الْعَامُّ ؛ فَإِنَّ وَحْدَةَ النِّظَامِ فِي جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ وَعَدَمَ التَّفَاوُتِ وَالتَّعَارُضِ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى وَحْدَةِ مَصْدَرِهَا وَتَدْبِيرِهَا ، وَإِذَا كَانَ رَبُّ الْخَلَائِقِ وَاحِدًا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَعْبُودَ وَحْدَهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ ، وَالتَّوْحِيدُ بِقِسْمَيْهِ ، تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِالْإِيمَانِ

وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ – أَيْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ – هَمَّا أَصْلُ الدِّينِ وَأَسَاسُهُ ، وَالرُّكْنُ الْأَوَّلُ لِعَقَائِدِهِ ، وَقَدِ اقْتَرَنَ بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَهِيَ الرُّكْنُ الثَّانِي ، وَأَمَّا وَصْفُهُ تَعَالَى بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ ، وَهُوَ بَعْضُ تَصَرُّفِ الرَّبِّ فِي خَلْقِهِ فَيَتَضَمَّنُ عَقِيدَةَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ الَّتِي هِيَ الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ ، فَقَدْ أُدْمِجَتْ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ أَرْكَانُ الدِّينِ

(44/292)

الثَّلَاثَةُ – وَهُوَ مِنْ إِيجَازِ

الْقُرْآنِ الْغَرِيبِ – وَبَنَى عَلَى ذَلِكَ الدَّعْوَةَ

إِلَى الْإِيمَانِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّفْرِيعِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ بَلِ الْأُصُولِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

(45/292)

فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ أَيْ : فَآمِنُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ بِاللهِ الْوَاحِدِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ الَّذِي يُحْيِي كُلَّ مَا تُحِلُّهُ الْحَيَاةُ فِي الْعَالَمِ ، وَيُمِيتُ كُلَّ مَا يَعْرِضُ لَهُ الْمَوْتُ

بَعْدَ الْحَيَاةِ ، وَهَذَا أَمْرٌ يَتَجَدَّدُ كُلَّ يَوْمٍ فَتُشَاهِدُونَهُ ، وَمَثَلُهُ الْبَعْثُ الْعَامُّ بَعْدَ الْمَوْتِ الْعَامِّ وَخَرَابِ هَذَا الْعَالَمِ ، وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ الْمُمْتَازَ بِأَنَّهُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي بَعَثَهُ فِي الْأُمِّيِّينَ (الْعَرَبِ) رَسُولًا إِلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُطَهِّرُهُمْ مِنْ خُرَافَاتِ الشِّرْكِ وَالرَّذَائِلِ وَالْجَهْلِ وَالتَّفَرُّقِ وَالتَّعَادِي بِعَصَبِيَّاتِ الْأَجْنَاسِ وَاللُّغَاتِ وَالْأَوْطَانِ ؛ لِيَكُونُوا بِهِدَايَتِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً يَتَحَقَّقُ بِهَا الْإِخَاءُ الْبَشَرِيُّ الْعَامُّ ، وَقَدْ بَشَّرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ الْكِرَامُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ لِأَنَّهُ الْمُتِمُّ الْمُكَمِّلُ لِمَا بُعِثُوا بِهِ مِنْ هِدَايَةِ الْأَقْوَامِ ، وَأُمِّيَّتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ أَعْظَمِ مُعْجِزَاتِهِ ، وَآيَةٌ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَى الرِّسَالَةِ أَقْوَى وَأَظْهَرُ مِنْ تَعْلِيمِ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَتَعَلَّمْ شَيْئًا لِجَمِيعِ الْأُمَمِ مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ ؟ . !

(46/292)

الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ أَيْ : يُؤْمِنُ بِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَلِمَاتِهِ التَّشْرِيعِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا لِهِدَايَةِ خَلْقِهِ ، وَهِيَ مَظْهَرُ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَكَلِمَاتِهِ التَّكْوِينِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَظْهَرُ إِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَبَعْدَ أَمْرِهِمْ بِالْإِيمَانِ أَمَرَهُمْ بِالْإِسْلَامِ فَقَالَ : وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ أَيْ : وَاتَّبِعُوهُ بِالْإِذْعَانِ الْفِعْلِيِّ لِكُلِّ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ فِعْلًا

وَتَرْكًا ، رَجَاءَ اهْتِدَائِكُمْ بِالْإِيمَانِ وَبِاتِّبَاعِهِ لِمَا فِيهِ سَعَادَتُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَثَمَرَةُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ اهْتِدَاءُ صَاحِبِهِمَا وَوُصُولِهِ بِالْفِعْلِ لِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَدَلِيلُهُ الْفِعْلِيُّ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ مَا آمَنَ قَوْمٌ بِنَبِيٍّ إلَّا وَكَانُوا بَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ خَيْرًا مِمَّا كَانُوا قَبْلَهُ مِنْ هَنَاءِ الْمَعِيشَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ فِي دُنْيَاهُمْ ، وَأَظْهَرُ التَّوَارِيخِ وَأَقْرَبُهَا عَهْدًا تَارِيخُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَصِلَ بِهِمُ الْجَهْلُ بَعْدَ ذَلِكَ إلَى تَرْكِ هَذِهِ الْهِدَايَةِ الَّتِي نَالُوا بِهَا الْمُلْكَ الْعَظِيمَ وَالْعِزَّ وَالسُّؤْدُدَ وَالْغِنَى وَالْحَضَارَةَ ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ أَنْ يَزُولَ الْمَعْلُولُ بِزَوَالِ عِلَّتِهِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهِ فَيَعُودُوا إلَيْهِ وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَيْنِ أَنْ يَصِلَ بِهِمُ الْجَهْلُ إلَى أَنْ يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ هِدَايَةَ الْإِسْلَامِ

(47/292)

الَّتِي سَعِدُوا بِهَا ثُمَّ شَقُوا بِتَرْكِهَا هِيَ سَبَبُ هَذَا الشَّقَاءِ الْأَخِيرِ لَا تَرْكُهَا .

(فَصْلٌ فِي مَعْنَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ وَمَوْضُوعِهِ وَلَوَازِمِهِ)

قَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا : وَاتَّبِعُوهُ أَعَمُّ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا : وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ فَتِلْكَ فِي اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ خَاصَّةً ، وَهَذِهِ تَشْمَلُ اتِّبَاعَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا شَرَعَهُ مِنَ

الْأَحْكَامِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاهُ ذَلِكَ ، وَأَذِنَ لَهُ بِهِ ، وَاتِّبَاعَهُ فِي اجْتِهَادِهِ

(48/292)

وَاسْتِنْبَاطِهِ مِنَ الْقُرْآنِ إذَا كَانَ تَشْرِيعًا - كَتَحْرِيمِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا أَوْ خَالَتِهَا كَالْجَمْعِ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ الْمَنْصُوصِ فِي الْقُرْآنِ - وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ اتِّبَاعُهُ فِيمَا كَانَ مِنْ أُمُورِ الْعَادَاتِ كَحَدِيثِ : كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ طَيِّبٌ مُبَارَكٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا بِأَلْفَاظٍ أُخْرَى وَأَسَانِيدُهُ ضَعِيفَةٌ ، وَحَدِيثُ كُلُوا الْبَلَحَ بِالتَّمْرِ إلَخْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ عَنْ عَائِشَةَ وَصَحَّحُوهُ ; فَإِنَّ هَذَا مِنْ أُمُورِ الْعَادَاتِ الَّتِي لَا قُرْبَةَ فِيهَا وَلَا حُقُوقَ تَقْتَضِي التَّشْرِيعَ بِخِلَافِ حَدِيثِ : كُلُوا لُحُومَ الْأَضَاحِيِّ وَادَّخِرُوا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَقَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ ، فَإِنَّ الْأَضَاحِيَّ مِنَ النُّسُكِ وَالْأَكْلَ مِنْهَا سُنَّةٌ فَأَمَرَ الْمُضَحِّي بِهِ لِلنَّدْبِ ، وَادِّخَارُهَا جَائِزٌ لَهُ ، لَوْلَا الْأَمْرُ بِهِ لَظُنَّ تَحْرِيمُهُ أَوْ كَرَاهَتُهُ لِعَلَاقَةِ الْأَضَاحِيِّ بِالْعِيدِ فَهِيَ ضِيَافَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي أَيَّامِ الْعِيدِ ، فَالتَّشْرِيعُ إمَّا عِبَادَةٌ أُمِرْنَا بِالتَّقَرُّبِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى بِهَا وُجُوبًا أَوْ نَدْبًا ، وَإِمَّا مَفْسَدَةٌ نُهِينَا عَنْهَا اتِّقَاءً لِضَرَرِهَا فِي الدِّينِ كَدُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَيْسَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَتَعَاوَنُ

عَلَيْهَا النَّاسُ ، وَكَأَكْلِ الْمَذْبُوحِ لِغَيْرِ اللهِ وَتَعْظِيمِ غَيْرِ اللهِ بِمَا شَرَعَ تَعْظِيمَ اللهِ بِهِ مِنَ الذَّبْحِ لَهُ وَالْحَلِفِ بِاسْمِهِ

(49/292)

- أَوْ لِضَرَرِهَا فِي الْعَقْلِ أَوِ الْجِسْمِ أَوِ الْمَالِ أَوِ الْعِرْضِ أَوِ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ - وَإِمَّا حُقُوقٌ مَادِّيَّةٌ أَوْ مَعْنَوِيَّةٌ أُمِرْنَا بِأَدَائِهَا إِلَى أَهْلِهَا كَالْمَوَارِيثِ وَالنَّفَقَاتِ وَمُعَاشَرَةِ الْأَزْوَاجِ بِالْمَعْرُوفِ ، أَوْ أُمِرْنَا بِالْتِزَامِهَا لِضَبْطِ الْمُعَامَلَاتِ كَالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ ، وَبِإِدْخَالِ حُكْمِ الِاسْتِحْبَابِ وَحُكْمِ كَرَاهَةِ التَّنْزِيهِ فِي التَّشْرِيعِ تَتَّسِعُ أَحْكَامُهُ فِي أُمُورِ الْعَادَاتِ كَمَا يُعْلَمُ مِمَّا يَأْتِي : .

لَيْسَ مِنَ التَّشْرِيعِ الَّذِي يَجِبُ فِيهِ امْتِثَالُ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابُ النَّهْيِ مَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ حَقُّ اللهِ تَعَالَى ، وَلَا لِخَلْقِهِ لَا جَلْبُ مَصْلَحَةٍ وَلَا دَفْعُ مَفْسَدَةٍ كَالْعَادَاتِ وَالصِّنَاعَاتِ وَالزِّرَاعَةِ وَالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى التَّجَارِبِ وَالْبَحْثِ ، وَمَا يَرِدُ فِيهَا مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ إِرْشَادًا لَا تَشْرِيعًا إِلَّا مَا تَرَتَّبَ عَلَى النَّهْيِ عَنْهُ وَعِيدٌ كَلُبْسِ الْحَرِيرِ

(50/292)

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَنَّ إنْكَارَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِبَعْضِ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى التَّجَارِبِ لِلتَّشْرِيعِ كَتَلْقِيحِ النَّخْلِ فَامْتَنَعُوا عَنْهُ فَأَشَاصَ (خَرَجَ ثَمَرُهُ شِيصًا أَيْ رَدِيئًا أَوْ يَابِسًا) فَرَاجَعُوهُ فِي ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ قَالَ مَا قَالَ عَنْ ظَنٍّ وَرَأْيٍ لَا عَنِ التَّشْرِيعِ ، وَقَالَ لَهُمْ : " أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ " وَالْحَدِيثُ مَعْرُوفٌ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَحِكْمَتُهُ تَنْبِيهُ النَّاسِ إلَى أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْمَعَاشِيَّةِ كَالزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا لِذَاتِهَا تَشْرِيعٌ خَاصٌّ بَلْ هِيَ مَتْرُوكَةٌ إلَى مَعَارِفِ النَّاسِ وَتَجَارِبِهِمْ .

وَكَانُوا يُرَاجِعُونَهُ أَيْضًا فِيمَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ أَهُوَ مِنْ رَأْيِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاجْتِهَادِهِ الدُّنْيَوِيِّ أَوْ بِأَمْرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ؟ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَشْرِيعًا كَسُؤَالِهِ عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي اخْتَارَهُ لِلنُّزُولِ فِيهِ يَوْمَ بَدْرٍ ، قَالَ لَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَهَذَا مَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا مُتَقَدَّمٌ عَنْهُ وَلَا

مُتَأَخَّرٌ ؟ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ فَلَمَّا أَجَابَهُ بِأَنَّهُ رَأْيٌ لَا وَحْيٌ ، وَأَنَّ الْمُعَوَّلَ فِيهِ عَلَى الْمَصْلَحَةِ وَمَكَايِدِ الْحَرْبِ أَشَارَ بِغَيْرِهِ فَوَافَقَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

(51/292)

وَإِذَا اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ الصَّحَابَةِ بَعْضُ هَذِهِ الْمَسَائِلِ فَغَيْرُهُمْ أَوْلَى بِأَنْ يَعْرِضَ لَهُمُ الِاشْتِبَاهُ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا ، وَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُبَيِّنُ لِأُولَئِكَ الْحَقَّ فِيمَا اشْتَبَهُوا فِيهِ ، وَمَنْ ذَا يُبَيِّنُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِهِ ؟ وَلَوْ لَمْ يَتَّخِذِ النَّاسُ اجْتِهَادَ الْعُلَمَاءِ مِنْ بَعْدِهِ دِينًا يُوجِبُونَ اتِّبَاعَهُ لَهَانَ الْأَمْرُ ، وَلَكِنَّ اتِّخَاذَهُ دِينًا قَدْ كَثُرَتْ بِهِ التَّكَالِيفُ ، وَوَقَعَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ فِي حَرَجٍ عَظِيمٍ فِي الْأَزْمِنَةِ الَّتِي ضَعُفَ فِيهَا الِاتِّبَاعُ ، فَثَقُلَتْ عَلَى الطِّبَاعِ فَصَارُوا يَتْرُكُونَ مَا ثَقُلَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، وَجَرَّأَهُمْ ذَلِكَ عَلَى تَرْكِ الْمَشْرُوعِ الْقَطْعِيِّ الَّذِي لَا حَرَجَ وَلَا عُسْرَ فِيهِ ، ثُمَّ جَرَّهُمْ ذَلِكَ إلَى تَرْكِ بَعْضِهِمْ لِلدِّينِ كُلِّهِ ، وَدَعْوَةِ غَيْرِهِمْ إلَى ذَلِكَ ، وَالْجَامِدُونَ مِنْ مُقَلِّدَةِ الْفِقْهِ الْمُتَشَدِّدِينَ فِي إلْزَامِ الْأُمَّةِ التَّدَيُّنَ بِاجْتِهَادِ الْفُقَهَاءِ لَا يَشْعُرُونَ بِهَذِهِ الْعَاقِبَةِ السُّوءِ وَلَا يُبَالُونَ إذَا أَشْعَرَهُمُ الْمُصْلِحُونَ .

(52/292)

مِثَالُ مَا شَدَّدَ بِهِ بَعْضُهُمْ مِنْ ذَلِكَ صَبْغُ الشَّيْبِ بِالسَّوَادِ ، وَهُوَ مِنَ الْأُمُورِ الْعَادِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالزِّينَةِ الْمُبَاحَةِ إذْ لَا تَعَبُّدَ فِيهِ وَلَا حُقُوقَ لِلَّهِ وَلَا لِلنَّاسِ ، إلَّا مَا قَدْ يَعْرِضُ فِيهِ وَفِي مِثْلِهِ كَالزِّيِّ مِنْ كَوْنِ فِعْلِهِ أَوْ تَرْكِهِ صَارَ خَاصًّا بِالْكُفَّارِ ، وَفَعَلَهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ تَشَبُّهًا بِهِمْ أَوْ صَارَ بِفِعْلِهِ لَهُ مُشَابِهًا لَهُمْ بِحَيْثُ يُعَدُّ مِنْهُمْ ، وَفِي ذَلِكَ ضَرَرٌ مَعْنَوِيٌّ وَسِيَاسِيٌّ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْبَاحِثِينَ

فِي سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ مِنْ كَوْنِ الْمُتَشَبِّهِ بِقَوْمٍ تَقْوَى عَظَمَتُهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ تَضْعُفُ فِيهَا رَابِطَتُهُ بِقَوْمِهِ وَأَهْلِ مِلَّتِهِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي صَبْغِ الشَّيْبِ أَخْبَارٌ وَآثَارٌ يَدُلُّ بَعْضُهَا عَلَى اسْتِحْبَابِهِ عَادَةً لَا عِبَادَةً وَلَوْ بِالسَّوَادِ ، وَفَهِمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمَا اسْتِحْبَابَهُ شَرْعًا ، وَفَهِمَ آخَرُونَ مِنْ بَعْضٍ آخَرَ كَرَاهَتَهُ بِالسَّوَادِ بَلْ قَالَ الْمُتَشَدِّدُونَ مِنْهُمْ بِتَحْرِيمِهِ ، فَصَارَ الْمُقَلِّدُونَ لَهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَى فَاعِلِهِ ، وَيَعُدُّونَهُ عَاصِيًا لِلَّهِ تَعَالَى ، فَخَالَفُوا هَدْيَ السَّلَفِ فِي الْمَسْأَلَةِ وَفِي الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ عَدَمُ الْإِنْكَارِ فِي الْمَسَائِلِ الِاجْتِهَادِيَّةِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْخِلَافُ .

(53/292)

فَمِنَ الْأَخْبَارِ فِي الْمَسْأَلَةِ مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ " أَنَّ أَبَا قُحَافَةَ وَالِدَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - جَاءَ أَوْ أُتِيَ بِهِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَرَأْسُهُ وَلِحْيَتُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " غَيِّرُوا هَذَا بِشَيْءٍ وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ " فَاسْتَدَلَّ الشَّافِعِيَّةُ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى تَحْرِيمِ الصَّبْغِ بِالسَّوَادِ ، مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ فِي وَاقِعَةِ عَيْنٍ تَتَعَلَّقُ بِأَمْرٍ عَادِيٍّ فَلَا هِيَ مِنْ مَسَائِلِ الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ ، وَلَا مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي يُعْتَبَرُ فِيهَا الْعُمُومُ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي الْأُصُولِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مُعَارَضَةٌ بِإِطْلَاقِ الْأَمْرِ بِصَبْغِ الشَّيْبِ الْمُوَجَّهِ لِلْأُمَّةِ وَهُوَ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - : إنَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبُغُونَ فَخَالِفُوهُمْ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ - وَبِقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " إنَّ أَحْسَنَ مَا غَيَّرْتُمْ بِهِ هَذَا الشَّيْبَ الْحِنَّاءُ وَالْكَتَمُ " وَظَاهِرُهُ تَغْيِيرُهُ

بِهِمَا مَعًا ، وَإِلَّا لَقَالَ " أَوِ الْكَتَمُ " ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا صَحَّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ كَانَ يَخْضِبُ بِالْحِنَّاءِ وَالْكَتَمِ مَعًا ، إنَّهُ أَسْوَدُ يَضْرِبُ إلَى الْحُمْرَةِ أَيْ لَيْسَ حَالِكًا ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ أَنَّهُ يَكُونُ شَدِيدَ السَّوَادِ إذَا كَانَ قَوِيًّا مُشَبَّعًا ، وَيَضْرِبُ إلَى الْحُمْرَةِ إذَا كَانَ خَفِيفًا ، وَهُوَ أَسْوَدُ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

(54/292)

وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ سَبَبَ أَمْرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِاجْتِنَابِ السَّوَادِ فِي تَغْيِيرِ شَيْبِ أَبِي قُحَافَةَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَحْسِنْهُ لِشَيْخٍ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ، وَكَانَ شَعْرُ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ كَالثَّغَامَةِ فِي شِدَّةِ بَيَاضِهِ كُلِّهِ ، وَمَنْ رَجَعَ إلَى ذَوْقِ الْبَشَرِ الْعَامِّ أَدْرَكَ أَنَّ السَّوَادَ لَا يَلِيقُ بِمِثْلِهِ ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرَهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : كُنَّا نَخْضِبُ بِالسَّوَادِ إذْ كَانَ الْوَجْهُ جَدِيدًا فَلَمَّا نَفَضَ الْوَجْهُ وَالْأَسْنَانُ تَرَكْنَاهُ اهـ . وَلِمِثْلِ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّاتِ قَالَ الْأُصُولِيُّونَ : إنَّ وَقَائِعَ الْأَعْيَانِ لَا عُمُومَ لَهَا . وَذَكَرَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ أَيْضًا : أَنَّ الَّذِينَ أَجَازُوا

الصَّبْغَ بِالسَّوَادِ تَمَسَّكُوا بِالْأَمْرِ الْمُطْلَقِ بِتَغْيِيرِهِ مُخَالَفَةً لِلْأَعَاجِمِ (وَقَالَ) وَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ مِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَجَرِيرٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (أَيْ مِنَ الصَّحَابَةِ) أَقُولُ : وَقَدْ نَقَلَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ الْحَدِيثَيْنِ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ

الْقَاضِي عِيَاضٍ بَعْدَ جَزْمِهِ هُوَ بِأَنَّ الْأَصَحَّ الْمُخْتَارَ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ تَحْرِيمُ السَّوَادِ مَا نَصُّهُ :

(55/292)

" وَقَالَ الْقَاضِي اخْتَلَفَ السَّلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي الْخِضَابِ وَفِي جِنْسِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : تَرْكُ الْخِضَابِ أَفْضَلُ . وَرَوَوْا حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي النَّهْيِ عَنْ تَغْيِيرِ الشَّيْبِ ، وَلِأَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يُغَيِّرْ شَيْبَهُ ، رُوِيَ هَذَا عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَأُبَيٍّ وَآخَرِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ، وَقَالَ آخَرُونَ : الْخِضَابُ أَفْضَلُ ، وَخَضَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ لِلْأَحَادِيثِ الَّتِي ذَكَرَهَا مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ ، ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فَكَانَ أَكْثَرُهُمْ يَخْضِبُ بِالصُّفْرَةِ مِنْهُمُ ابْنُ عُمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَآخَرُونَ ، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ ، وَخَضَبَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ بِالْحِنَّاءِ وَالْكَتَمِ ، وَبَعْضُهُمْ بِالزَّعْفَرَانِ ، وَخَضَبَ جَمَاعَةٌ بِالسَّوَادِ . رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عُثْمَانَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ابْنَيْ عَلِيٍّ ، وَعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ وَابْنِ سِيرِينَ وَأَبِي

بُرْدَةَ وَآخَرِينَ (قَالَ الْقَاضِي) قَالَ الطَّبَرَانِيُّ الصَّوَابُ أَنَّ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِتَغْيِيرِ الشَّيْبِ وَبِالنَّهْيِ عَنْهُ كُلَّهَا صَحِيحَةٌ ، وَلَيْسَ فِيهَا تَنَاقُضٌ ، بَلِ الْأَمْرِ بِالتَّغْيِيرِ لِمَنْ شَيْبُهُ كَشَيْبِ أَبِي قُحَافَةَ ، وَالنَّهْيِ لِمَنْ لَهُ شَمَطٌ فَقَطْ (قَالَ) : وَاخْتِلَافُ السَّلَفِ فِي فِعْلِ الْأَمْرَيْنِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ فِي ذَلِكَ مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ فِي ذَلِكَ لَيْسَ لِلْوُجُوبِ بِالْإِجْمَاعِ ; وَلِهَذَا لَمْ يُنْكِرْ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ خِلَافَهُ فِي

(56/292)

ذَلِكَ . (قَالَ) : وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِيهِمَا نَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ .

(قَالَ الْقَاضِي) وَقَالَ غَيْرُهُ هُوَ عَلَى حَالَيْنِ فَمَنْ كَانَ فِي مَوْضِعٍ عَادَةُ أَهْلِهِ الصَّبْغُ أَوْ تَرْكُهُ فَخُرُوجُهُ عَنِ الْعَادَةِ شُهْرَةٌ وَمَكْرُوهٌ ، وَالثَّانِي أَنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نَظَافَةِ الشَّيْبِ فَمَنْ كَانَتْ شَيْبَتُهُ تَكُونُ نَقِيَّةً أَحْسَنَ مِنْهَا مَصْبُوغَةً فَالتَّرْكُ أَوْلَى ، وَمَنْ كَانَتْ شَيْبَتُهُ تَسْتَبْشِعُ فَالصَّبْغُ أَوْلَى (قَالَ النَّوَوِيُّ) : هَذَا مَا نَقَلَهُ الْقَاضِي ، وَالْأَصَحُّ الْأَوْفَقُ لِلسُّنَّةِ مَا قَدَّمْنَاهُ عَنْ مَذْهَبِنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ اهـ .

أَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْإِصْرَارَ مِنَ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى تَصْحِيحِ مَذْهَبِ أَصْحَابِهِ ، وَجَعْلِهِ أَوْفَقَ لِلسُّنَّةِ مِنْ غَرِيبِ تَعَصُّبِهِ لَهُمْ بَعْدَ الْعِلْمِ بِعَمَلِ بَعْضِ عُظَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ

بِخِلَافِهِ ، وَسَائِرُ مَا نَقَلَهُ عَنِ الْقَاضِي وَغَيْرِهِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْإِمَامِ الطَّبَرِيِّ مِنْ أَنَّ الْأَمْرَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ - وَكَذَا أَمْثَالُهَا - لَيْسَ لِلْوُجُوبِ ، وَالنَّهْيَ لَيْسَ لِلتَّحْرِيمِ ؛ لِأَنَّهَا مِنْ أُمُورِ الْعَادَاتِ وَالزِّينَةِ وَالتَّجَمُّلِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ مِنْ كَوْنِهَا تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ السِّنِّ ، وَبِاخْتِلَافِ الْعَادَةِ وَالْأَحْوَالِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيُعَبِّرُ فِيهَا الذَّوْقُ فِي الزِّينَةِ هُوَ الصَّوَابُ كَمَا قَالَ الطَّبَرِيُّ . وَأَيُّ مَدْخَلٍ لِلتَّحْرِيمِ فِي مِثْلِ هَذَا وَلَا مُحَرِّمَ فِي الشَّرِيعَةِ السَّمْحَةِ إلَّا مَا كَانَ ضَارًّا ؟ .

(57/292)

وَقَدْ سَبَقَ لَنَا تَفْصِيلٌ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَأَمْثَالِهَا كَسُنَنِ الْفِطْرَةِ فِي فَتَاوَى الْمَنَارِ ، وَمِنْهُ أَنَّ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ "يَكُونُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَخْضِبُونَ بِالسَّوَادِ كَحَوَاصِلِ الْحَمَامِ لَا يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ " ضَعِيفٌ مَتْنًا وَسَنَدًا بَلْ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : إنَّهُ مَوْضُوعٌ وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ مِنْ آيَاتِ الْوَضْعِ فِي مَتْنِهِ الْوَعِيدَ بِالْحِرْمَانِ مِنْ رَائِحَةِ الْجَنَّةِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَادَاتِ ، وَلَا يُحْرَمُ مِنَ الْجَنَّةِ إلَّا الْكَافِرُ بِالْمَعْنَى الْأَخَصِّ دَعْ مُخَالَفَتَهُ لِحَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ ، وَفِي سَنَدِهِ عَبْدُ الْكَرِيمِ غَيْرُ مَنْسُوبٍ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ ابْنُ أَبِي الْمُخَارِقِ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، فَإِنْ قِيلَ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ الْجَزَرِيُّ الَّذِي رَوَى عَنْهُ الشَّيْخَانِ قُلْنَا : التَّصْحِيحُ لَا يَثْبُتُ بِالِاحْتِمَالِ ، وَلَا

سِيَّمَا فِي أَمْرٍ مُخَالِفٍ لِأُصُولِ الشَّرْعِ كَهَذَا الْوَعِيدِ ، وَإِنَّ ابْنَ حِبَّانَ مَنَعَ مِنَ الِاحْتِجَاجِ بِمَا يَنْفَرِدُ بِهِ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجَزَرِيُّ كَهَذَا الْحَدِيثِ .

(58/292)

وَمَا نَقَلَهُ الْقَاضِي عَنِ الَّذِينَ اخْتَارُوا عَدَمَ تَغْيِيرِ الشَّيْبِ مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يُغَيِّرْ شَيْبَتَهُ غَيْرُ صَحِيحٍ ، بَلْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ خَضَبَ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَأُمِّ سَلَمَةَ ، وَلَهُ بَابٌ فِي شَمَائِلِ التِّرْمِذِيِّ فَيُرَاجَعُ مَعَ شُرُوحِهِ ، وَفِي الْأُصُولِ أَنَّ أَفْعَالَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا تَدُلُّ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَلَى وُجُوبٍ وَلَا نَدْبٍ شَرْعِيٍّ ، وَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الْإِبَاحَةِ ; لِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ الْحَرَامَ ، وَعَدَمُ فِعْلِهِ لِعَادَةٍ مِنْ عَادَاتِ النَّاسِ أَوْلَى بِأَلَّا يَدُلَّ عَلَى حُرْمَتِهَا وَلَا كَرَاهَتِهَا دِينًا ، وَقَدْ صَحَّ أَنَّهُ نَبَّهَ الْأُمَّةَ إلَى أَنَّ بَعْضَ أَعْمَالِهِ فِي بَعْضِ الْعِبَادَاتِ لَمْ يَقْصِدْ بِهَا التَّشْرِيعَ كَمَوْقِفِهِ فِي عَرَفَاتٍ وَالْمُزْدَلِفَةِ لِئَلَّا يَلْتَزِمُوهَا تَدَيُّنًا فَيَكُونُوا قَدْ شَرَعُوا مِنَ الدِّينِ

(59/292)

مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ، عَلَى أَنَّ زَمَنَ تَوَخِّي اتِّبَاعِهِ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ ، فِي الْعَادَاتِ ، حُبًّا فِيهِ وَتَذَكُّرًا لِحَيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ ، بِدُونِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الدِّينِ أَوْ يُوهِمَ النَّاسَ ذَلِكَ أَوْ يَتَحَمَّلَ ضَرَرًا لَا يُبَاحُ التَّعَرُّضُ لَهُ شَرْعًا ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ سَبَبَ شُهْرَةٍ مَذْمُومَةٍ شَرْعًا – فَجَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ اتِّبَاعُهُ هَذَا مَزِيدَ كَمَالٍ فِي إِيمَانِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بِتَحَرِّي ذَلِكَ يَزِيدُ تَذَكُّرُهُ لِلنَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَحُبُّهُ لَهُ ، وَقَدِ انْفَرَدَ مِنَ الصَّحَابَةِ ابْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ بِتَتَبُّعِ أَعْمَالِهِ وَعَادَاتِهِ وَتَقَلُّبِهِ فِي سَفَرِهِ وَلَا سِيَّمَا سَفَرُ حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَتَحَرِّي اتِّبَاعِهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَلَمْ يَكُنِ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ ، لِئَلَّا يَعُدَّهُ النَّاسُ تَشْرِيعًا فَيَكُونُ جِنَايَةً عَلَى الدِّينِ ، فَالزِّيَادَةُ فِيهِ كَالنَّقْصِ مِنْهُ ، وَهِيَ تَتَضَمَّنُ تَكْذِيبَ قَوْلِهِ تَعَالَى : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ (5 : 3) .

وُجُوبُ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ :

وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي أَحْكَامِ رِسَالَتِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِلنَّاسِ كَافَّةً أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ إِيمَانَ أَحَدٍ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ عَلَى وَجْهِهَا الصَّحِيحِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى

أُمَّتِهِ – أَيْ أُمَّةِ الْإِجَابَةِ – وَهُمُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ ، أَنْ يُبَلِّغُوا دَعْوَتَهُ لِجَمِيعِ النَّاسِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحَرِّكُ إِلَى النَّظَرِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِمُونَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ جَمَاعَاتٍ تَتَعَاوَنُ عَلَيْهِ إِذْ لَا يُغْنِي الْأَفْرَادُ غَنَاءَ الْجَمَاعَاتِ سَوَاءٌ أَكَانَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى أَصْلِ الْإِيمَانِ الْإِجْمَالِيِّ – الَّذِي هُوَ بَدْءُ الدَّعْوَةِ – أَمْ إِلَى الشَّرَائِعِ التَّفْصِيلِيَّةِ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيَشْمَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (3 : 104) وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِهَا مَا بَسَطَهُ شَيْخُنَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مِنْ كَوْنِ الرَّاجِحِ الْمُخْتَارِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ تَجْرِيدٌ كَقَوْلِ الْقَائِلِ : لِيَكُنْ لِي مِنْكَ صَدِيقٌ – أَيْ لِتَكُنْ صَدِيقًا لِي ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونُوا دُعَاةً إِلَى الْخَيْرِ الْأَعْظَمِ الَّذِي هَدَاهُمُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَيَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ وَاسْتِطَاعَتِهِ كَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ ، وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَتَأَلَّفَ لِلدَّعْوَةِ جَمَاعَاتٌ تُعِدُّ لَهَا عُدَّتَهَا ، وَأَنَّ هَذَا مُتَعَيِّنٌ عَلَى الْوَجْهِ الْآخَرِ فِي الْآيَةِ وَهُوَ جَعْلُ " مِنْكُمْ " لِلتَّبْعِيضِ إِلَخْ . [رَاجِعْ ص22 – 438 ط الْهَيْئَةِ] .

(61/292)

وَتَبْلِيغُ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْأَفْرَادِ وَالْأَقْوَامِ ، فَقَدْ كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ فِي عَصْرِ الْبَعْثَةِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَخَالِقُ الْخَلْقِ وَمُدَبِّرُ أُمُورِهِ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ غَيْرَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْأَصْنَامِ ، زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، وَيَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَهُ ، فَيَقْضِي لَهُمْ حَاجَتَهُمْ مِنْ جَلْبِ خَيْرٍ وَدَفْعِ ضُرٍّ بِوَسَاطَتِهِمْ ، وَكَانُوا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالْحَيَاةَ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُنْكِرُونَ

(62/292)

الرِّسَالَةَ وَالْوَحْيَ مِنَ اللَّهِ لِبَعْضِ الْبَشَرِ ، فَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَدْعُوهُمْ أَوَّلًا إِلَى التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ عُنْوَانُ الْإِسْلَامِ ، وَبَابُ الدُّخُولِ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ الرُّكْنُ الْأَعْظَمُ ، ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ يُقِيمُ لَهُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ ، وَهُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ ، وَعَلَى حَقِّيَّةِ الرِّسَالَةِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ مَعَ دَفْعِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الشُّبُهَاتِ عَلَى ذَلِكَ كَمَا تَرَاهُ مُفَصَّلًا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ الَّتِي هِيَ أَجْمَعُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِذَلِكَ ، وَكَذَا فِي غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ ، وَيَلِي ذَلِكَ دَعْوَتُهُمْ إِلَى أُصُولِ الشَّرِيعَةِ وَقَوَاعِدِهَا الْكُلِّيَّةِ فِي الْآدَابِ وَالْفَضَائِلِ وَالْحَلَالِ

وَالْحَرَامِ ، ثُمَّ إِلَى الطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ . وَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَكَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَبِالْوَحْيِ

(63/292)

وَالرُّسُلِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَلَكِنْ دَخَلَتْ عَلَى أَكْثَرِهِمُ الْوَثَنِيَّةُ الْقَدِيمَةُ بِجَمِيعِ أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا وَلَاسِيَّمَا النَّصَارَى الَّذِينَ أَقَامُوا عَقِيدَتَهُمْ عَلَى أَسَاسِ التَّثْلِيثِ الْمَعْرُوفِ عَنْ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ وَالْهُنُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْوَثَنِيِّينَ ، وَكَانَ الْيَهُودُ يَزْعُمُونَ أَنَّ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ مَحْصُورَةٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ رَسُولًا مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَكَانَتِ التَّوْرَاةُ قَدْ فُقِدَتْ فِي غَزْوَةِ الْبَابِلِيِّينَ لَهُمْ ، ثُمَّ كَتَبَ بَعْضُهُمْ لَهُمْ تَوْرَاةً بَعْدَ عِدَّةِ قُرُونٍ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ تَارِيخٍ دِينِيٍّ مُشْتَمِلٍ عَلَى قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى عَهْدِ مُوسَى وَهَارُونَ ، وَعَلَى مَا تَذَكَّرَ الْكَاتِبُ مِنْ شَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ مَعَ تَحْرِيفٍ وَأَغْلَاطٍ كَثِيرَةٍ ، وَكَانَ الْإِنْجِيلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ وَعْظٍ وَتَعْلِيمٍ وَبِشَارَةٍ قَدِ ادَّعَاهُ كَثِيرُونَ فَظَهَرَ فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ بَعْدَهُ زُهَاءَ سَبْعِينَ إِنْجِيلًا اخْتَارَ الْجُمْهُورُ الَّذِي جَمَعَ شَمْلَهُ الْمَلِكُ قُسْطَنْطِينُ – الْوَثَنِيُّ الَّذِي تَنَصَّرَ سِيَاسَةً – أَرْبَعَةً مِنْهَا فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْخِلَافِ وَالتَّعَارُضِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ الْمَسِيحِ بِثَلَاثَةِ قُرُونٍ ، وَفَشَا فِيهِمْ مُنْذُ عَهْدِ هَذَا الْمَلِكِ الْوَثَنِيِّ الْمُتَنَصِّرِ عِبَادَةُ السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَغَيْرِهَا مِنَ الصَّالِحِينَ

حَتَّى صَارَتِ الْكَنَائِسُ النَّصْرَانِيَّةُ كَهَيَاكِلِ الْأَوْثَانِ مَمْلُوءَةً بِالصُّوَرِ وَالتَّمَاثِيلِ الْمَعْبُودَةِ - فَكَانَتْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ

(64/292)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إيَّاهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ وَحُجَجُهُ عَلَيْهِمْ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ تَخْتَلِفُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ عَنْ دَعْوَةِ الْمُشْرِكِينَ الْأَصْلِيِّينَ ، كَمَا تَرَاهُ مَبْسُوطًا فِي السُّوَرِ الطِّوَالِ الْأَرْبَعِ الْأُولَى : الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءِ وَالْمَائِدَةِ - فَفِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَقَرَةِ مِنَ الْقُرْآنِ : يُوَجِّهُ أَكْثَرَ الْكَلَامِ إلَى الْيَهُودِ ، وَذُكِرَتْ فِيهِ النَّصَارَى بِالْعَرَضِ - وَأَوَائِلُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ نَزَلَتْ فِي حِجَاجِ نَصَارَى نَجْرَانَ ، وَفِي أَوَاخِرِ النِّسَاءِ كَلَامٌ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْثَرُهُ فِي النَّصَارَى . وَجُلُّ سُورَةِ الْمَائِدَةِ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ عَامَّةً وَالنَّصَارَى خَاصَّةً .

وَأَمَّا هَذَا الْعَصْرُ فَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِ الْمَلَاحِدَةُ وَالْمُعَطِّلَةُ ، وَتَجَدَّدَتْ لِلْكُفَّارِ عَلَى اخْتِلَافِ فِرَقِهِمْ شُبُهَاتٌ جَدِيدَةٌ يَتَوَكَّئُونَ فِيهَا عَلَى مَسَائِلَ مِنَ الْعُلُومِ الْعَصْرِيَّةِ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ الْأَقْدَمِينَ ، وَحَدَثَتْ لِلنَّاسِ آرَاءٌ وَمَذَاهِبُ فِي الْحَيَاةِ فِيهَا الْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ ، وَالنَّافِعُ وَالضَّارُّ ، بَلْ مِنْهَا مَا قَدْ يُفْضِي إلَى فَسَادِ الْعَالَمِ ، وَتَقْوِيضِ دَعَائِمِ الْعُمْرَانِ ، وَمَثَارُ ذَلِكَ كُلِّهِ

ذُيُوعُ التَّعَالِيمِ الْمَادِّيَّةِ ، وَفَوْضَى الْآدَابِ ، وَتَدَهْوُرُ الْأَخْلَاقِ ، وَتَغَلُّبُ الرَّذَائِلِ عَلَى الْفَضَائِلِ ، وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا الْفَسَادُ فِي أَفْظَعِ صُورَةٍ فِي حَرْبِ الْمَدَنِيَّةِ الْكُبْرَى وَمَا وَلَّدَتْهُ مِنْ تَفَاقُمِ شَرِّهِ

(65/292)

الْمُسْتَعْمِرِينَ وَشَرِّهِمْ وَفَظَائِعِهِمْ فِي الشَّرْقِ ، وَانْتِشَارِ الْبَلْشَفِيَّةِ وَمَفَاسِدِهِمْ فِي الْبِلَادِ الرُّوسِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَبَثِّ دَعْوَتِهَا فِي الْعَالَمِ - فَصَارَ مِنَ الْوَاجِبِ مُرَاعَاةُ ذَلِكَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ وَالِاحْتِجَاجِ لَهُ ، وَرَدِّ الشُّبَهِ الَّتِي تُوَجَّهُ إِلَيْهِ . وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الْمُشَارِ إِلَيْهَا آنِفًا (آيَ 3 : 104) حَاجَةَ الدَّاعِي إِلَى الْإِسْلَامِ فِي هَذَا الزَّمَانِ إِلَى أَحَدَ عَشَرَ عِلْمًا مِنْهَا السِّيَاسَةُ وَلُغَاتُ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ تُوَجَّهُ إِلَيْهِمُ الدَّعْوَةُ ، وَأَشَرْتُ هُنَالِكَ إِلَى مَقَالَةٍ كُنْتُ كَتَبْتُهَا قَبْلَ ذَلِكَ فِي الْمَنَارِ فِي الدَّعْوَةِ وَطَرِيقِهَا وَآدَابِهَا .

اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةُ الْإِسْلَامِ :

(66/292)

وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي بَحْثِ اتِّبَاعِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ تَعَلُّمُ لُغَتِهِ الَّتِي هِيَ لُغَةُ الْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ، وَأَمَرَ جَمِيعَ مَنِ اتَّبَعَهُ وَدَانَ بِدِينِهِ أَنْ يَتَعَبَّدَهُ بِهِ ، وَأَنْ يَتْلُوَهُ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِ الصَّلَاةِ مَعَ التَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي مَعَانِيهِ ، وَذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى إِتْقَانِ لُغَتِهِ وَهِيَ الْعَرَبِيَّةُ ، فَالْمُسْلِمُونَ يُبَلِّغُونَ الدَّعْوَةَ لِكُلِّ قَوْمٍ بِلُغَتِهِمْ ، حَتَّى إِذَا مَا هَدَى اللهُ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ ، وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ عَلَّمُوهُ أَحْكَامَهُ وَلُغَتَهُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ الْخُلَفَاءُ الْفَاتِحُونَ فِي خَيْرِ الْقُرُونِ وَمَا بَعْدَهَا ، إِلَى أَنْ تَغَلَّبَتِ الْأَعَاجِمُ عَلَى الْعَرَبِ ، وَسَلَبُوهُمُ الْمُلْكَ فَوَقَفَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَضَعُفَ الْعِلْمُ بِالْعَرَبِيَّةِ إِلَى أَنْ قَضَى عَلَيْهَا التُّرْكُ وَحَرَّمَتْهَا حُكُومَتُهُمْ عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، لِتَقْطَعَ كُلَّ صِلَةٍ لَهُمْ بِدِينِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذِهِ الْمَبَاحِثَ فِي مَجَلَّةِ الْمَنَارِ تَفْصِيلًا .

(67/292)

وَمِمَّا نَشَرْنَاهُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ مَقَالٌ فِي لُغَةِ الْإِسْلَامِ نَشَرْنَاهُ أَوَّلًا فِي بَعْضِ الْجَرَائِدِ الْيَوْمِيَّةِ ، وَفِيهِ تَصْرِيحٌ لِلْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بِوُجُوبِ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فِي رِسَالَتِهِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُ يُبَيِّنُ أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ نَزَلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ إِلَّا بِلِسَانِهِمْ ثُمَّ قَالَ مَا نَصُّهُ : " فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : مَا الْحُجَّةُ فِي أَنَّ كِتَابَ اللهِ مَحْضٌ

بِلِسَانِ الْعَرَبِ لَا يَخْلِطُهُ فِيهِ غَيْرُهُ ؟ فَالْحُجَّةُ فِيهِ كِتَابُ اللهِ ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (14 : 4) .

" فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَإِنَّ الرُّسُلَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ كَانُوا يُرْسَلُونَ إِلَى قَوْمِهِمْ خَاصَّةً ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بُعِثَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ؟ (قِيلَ) : فَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بُعِثَ بِلِسَانِ قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَيَكُونُ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً أَنْ يَتَعَلَّمُوا لِسَانَهُ ، أَوْ مَا يُطِيقُونَهُ مِنْهُ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بُعِثَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَهَلْ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّهُ بُعِثَ بِلِسَانِ قَوْمِهِ خَاصَّةً دُونَ أَلْسِنَةِ الْعَجَمِ ؟ ؟ .

(68/292)

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : فَالدَّلَالَةُ عَلَى ذَلِكَ بَيِّنَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، فَإِذَا كَانَتِ الْأَلْسِنَةُ مُخْتَلِفَةً بِمَا لَا يَفْهَمُهُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ تَبَعًا لِبَعْضٍ ، أَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ فِي اللِّسَانِ الْمُتَّبَعِ عَلَى التَّابِعِ ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِالْفَضْلِ فِي اللِّسَانِ مَنْ لِسَانُهُ لِسَانُ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَلَا يَجُوزُ – وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ – أَنْ يَكُونَ أَهْلُ لِسَانِهِ أَتْبَاعًا لِأَهْلِ لِسَانٍ غَيْرِ لِسَانِهِ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ ، بَلْ كُلُّ لِسَانٍ تَبَعٌ لِلِسَانِهِ

وَكُلُّ أَهْلِ دِينٍ قَبْلَهُ فَعَلَيْهِمُ اتِّبَاعُ دِينِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ . قَالَ اللهُ عَزَّ ذِكْرُهُ : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (26 : 192 - 195) وَقَالَ : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا حُكْمًا عَرَبِيًّا (13 : 37) وَقَالَ : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا (42 : 7) وَقَالَ تَعَالَى : حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (43 : 1 - 3) .

(69/292)

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : فَأَقَامَ حُجَّتَهُ بِأَنَّ كِتَابَهُ عَرَبِيٌّ فِي كُلِّ آيَةٍ ذَكَرْنَاهَا ، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِأَنْ نَفَى جَلَّ وَعَزَّ عَنْهُ كُلَّ لِسَانٍ غَيْرِ لِسَانِ الْعَرَبِ فِي آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (16 : 103) وَقَالَ : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ (41 : 44) .

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وَعَرَّفَنَا قَدْرَ نِعَمِهِ بِمَا خَصَّنَا بِهِ مِنْ مَكَانَةٍ فَقَالَ تَعَالَى : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ . . . (9 : 128) الْآيَةَ ، وَقَالَ : هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ (62 : 2) الْآيَةَ وَكَانَ مِمَّا عَرَّفَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - مِنْ إنْعَامِهِ أَنْ قَالَ : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ (43 : 44) فَخَصَّ قَوْمَهُ بِالذِّكْرِ مَعَهُ بِكِتَابِهِ وَقَالَ : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (26 : 214) وَقَالَ : لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا (42 : 7) وَأُمُّ الْقُرَى

مَكَّةُ وَهِيَ بَلَدُهُ وَبَلَدُ قَوْمِهِ ، فَجَعَلَهُمْ فِي كِتَابِهِ خَاصَّةً ، وَأَدْخَلَهُمْ مَعَ الْمُنْذَرِينَ عَامَّةً ، وَقَضَى أَنْ يُنْذَرُوا بِلِسَانِهِمُ الْعَرَبِيِّ لِسَانِ قَوْمِهِ مِنْهُمْ خَاصَّةً .

(70/292)

" فَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ مَا بَلَّغَهُ جُهْدُهُ حَتَّى يَشْهَدَ بِهِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَيَتْلُو بِهِ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَنْطِقَ بِالذِّكْرِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْبِيرِ ، وَأَمَرَ بِهِ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّشَهُّدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَمَا ازْدَادَ مِنَ الْعِلْمِ بِاللِّسَانِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِسَانَ مَنْ خَتَمَ بِهِ نُبُوَّتَهُ ، وَأَنْزَلَ بِهِ آخِرَ كُتُبِهِ ، كَانَ خَيْرًا لَهُ ، كَمَا

عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الصَّلَاةَ وَالذِّكْرَ فِيهَا ، وَيَأْتِيَ الْبَيْتُ وَمَا أُمِرَ بِإِتْيَانِهِ وَيَتَوَجَّهَ لِمَا وُجِّهَ لَهُ ، وَيَكُونَ تَبَعًا فِيمَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ وَنُدِبَ إِلَيْهِ لَا مَتْبُوعًا .

(71/292)

" قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَإِنَّمَا بَدَأْتُ بِمَا وَصَفْتُ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ دُونَ غَيْرِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْ إِيضَاحِ جُمَلِ عِلْمِ الْكِتَابِ أَحَدٌ جَهِلَ سَعَةَ لِسَانِ الْعَرَبِ وَكَثْرَةَ وُجُوهِهِ ، وَجِمَاعَ مَعَانِيهِ وَتَفَرُّقَهَا . وَمَنْ عَلِمَهَا انْتَفَتْ عَنْهُ الشُّبَهُ الَّتِي دَخَلَتْ عَلَى مَنْ جَهِلَ لِسَانَهَا ، فَكَانَ تَنْبِيهُ الْعَامَّةِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ خَاصَّةً نَصِيحَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَالنَّصِيحَةُ لَهُمْ فَرْضٌ لَا يَنْبَغِي تَرْكُهُ ، أَوْ إِدْرَاكُ نَافِلَةِ خَيْرٍ لَا يَدَعُهَا إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَتَرَكَ مَوْضِعَ حَظِّهِ ، فَكَانَ يَجْمَعُ مَعَ النَّصِيحَةِ لَهُمْ قِيَامًا بِإِيضَاحِ حَقٍّ ، وَكَانَ الْقِيَامُ بِالْحَقِّ وَنَصِيحَةُ الْمُسْلِمِينَ طَاعَةً لِلَّهِ ، وَطَاعَةُ اللهِ جَامِعَةٌ لِلْخَيْرِ " اهـ . ثُمَّ ذَيَّلْنَا هَذَا النَّقْلَ بِمَا نَذْكُرُ هُنَا مُلَخَّصَهُ بِبَعْضِ تَصَرُّفٍ ، وَهُوَ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي رِسَالَةِ الْأُصُولِ الشَّهِيرَةِ الْمَطْبُوعَةِ بِمِصْرَ بِنَصِّهَا ، وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ هَذَا مَذْهَبٌ لَهُ خَالَفَهُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، كَلَّا إِنَّهُ إِجْمَاعٌ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ ، وَقَدِ اشْتَهَرَتْ رِسَالَتُهُ هَذِهِ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْإِسْلَامِ إِذْ كَانَتْ هِيَ أَوَّلَ مَا كُتِبَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَقَدْ خَالَفَهُ بَعْضُ الْمُجْتَهِدِينَ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الْأُصُولِ دُونَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَلَمْ يُخَالِفْهُ وَلَمْ يُنَاقِشْهُ أَحَدٌ فِيهَا ، وَلَا فِيمَا أَوْرَدَهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَيْهَا ، وَأَوْضَحُ الْأَدِلَّةِ عَلَى هَذَا

إِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ سَلَفًا وَخَلَفًا عَلَى التَّعَبُّدِ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ وَأَذْكَارِ الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ وَغَيْرِهِمَا بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَلَمْ يَشِذَّ عَنْ هَذَا سُنِّيٌّ وَلَا شِيعِيٌّ وَلَا إِبَاضِيٌّ وَلَا خَارِجِيٌّ وَلَا مُعْتَزِلِيٌّ .

نَعَمْ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ قَصَّرُوا فِي دِرَاسَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ بَعْدَ ضَعْفِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَغَلُّبِ الْأَعَاجِمِ ، فَعَطَّلُوا بِذَلِكَ بَعْضَ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالْعِبْرَةِ وَالِاتِّعَاظِ

(73/292)

بِآيَاتِهِ وَفَهْمِ عَقَائِدِهِ وَفِقْهِ أَحْكَامِهِ ، وَلَكِنْ رُوِيَ قَوْلٌ شَاذٌّ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بِجَوَازِ أَدَاءِ بَعْضِ أَذْكَارِ الصَّلَاةِ وَالتِّلَاوَةِ فِيهَا بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ لِمَنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ تَعَلُّمُ مَا يَجِبُ مِنْهُمَا أَيْ مِنَ الْأَفْرَادِ لِضَعْفٍ فِي نُطْقِهِ وَفَهْمِهِ ، وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ رَجَعَ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ ، عَلَى أَنَّهُ مُقَيَّدٌ بِالضَّرُورَةِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَلَمْ يَقُلْ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ بِإِطْلَاقِ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ يَسَعُ أَيُّ شَعْبٍ أَعْجَمِيٍّ أَنْ يَسْتَغْنِيَ فِي دِينِهِ عَنْ لُغَةِ كِتَابِهِ وَسُنَّتِهِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ جَمِيعَ مُقَلِّدِيهِ مِنَ الْأَعَاجِمِ لَا يَزَالُونَ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَأَذْكَارَ الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ وَغَيْرَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ خُطْبَةُ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ إِلَّا مَا شَذَّتْ بِهِ الْحُكُومَةُ الْكَمَالِيَّةُ التُّرْكِيَّةُ فَأَمَرَتِ

الْخُطَبَاءَ بِأَنْ يَخْطُبُوا بِالتُّرْكِيَّةِ تَمْهِيدًا لِلصَّلَاةِ بِهَا لِخَلْعِ رِبْقَةِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ جَمَاعَةَ الْمُصَلِّينَ مِنَ التُّرْكِ لَمَّا سَمِعُوا خُطْبَةَ الْجُمْعَةِ بِالتُّرْكِيَّةِ نَكِرُوهَا ، وَنَفَرُوا مِنْهَا وَاتَّخَذُوا خُطَبَاءَهَا سِخْرِيًّا ؛ لِأَنَّ لِلْعَرَبِيَّةِ سُلْطَانًا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ يَخْشَعُونَ لَهَا ، وَإِنْ لَمْ يَفْهَمُوا كُلَّ عِبَارَاتِهَا ؛ وَلِأَنَّهُمُ اعْتَادُوا أَنْ يَسْمَعُوهَا بِنَغَمٍ خَاصٍّ وَأَدَاءٍ خَاصٍّ لَا تَقْبَلُهُ اللُّغَةُ التُّرْكِيَّةُ كَالْعَرَبِيَّةِ .

(74/292)

وَلَيْسَتْ عِبَادَاتُ الْإِسْلَامِ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ ، بَلْ مَعْرِفَةُ أَحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا أَيْضًا فَإِنَّ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا حَتَّى الْمَدَنِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى الِاجْتِهَادِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِالتَّشْرِيعِ ، وَقَدْ أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْأُصُولِ مِنْ جَمِيعِ الْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى تَوَقُّفِ الِاجْتِهَادِ فِي الشَّرْعِ ، وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ عَلَى مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَعْرِفَةً تُمَكِّنُ صَاحِبَهَا مِنْ فَهْمِ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَدْ وَضَّحْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ ، وَبَيَّنَّا وَجْهَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ فِي كِتَابِ (الْخِلَافَةِ – أَوِ الْإِمَامَةِ الْعُظْمَى) فَتُرَاجَعُ فِيهِ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ إِقَامَةَ دِينِ الْإِسْلَامِ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى لُغَةِ كِتَابَةِ الْمُنَزَّلِ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُرْسَلِ

سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ هِدَايَتُهُ الرُّوحِيَّةُ ، وَرَابِطَتُهُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ ، وَحُكُومَتُهُ الْعَادِلَةُ الْمَدَنِيَّةُ ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَكُونُوا فِي عَصْرٍ مِنَ الْعُصُورِ أَحْوَجَ إِلَى الْوَحْدَةِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَيْهِمُ الْمُتَوَقِّفَةِ عَلَى هَذِهِ اللُّغَةِ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي تَمَزَّقُوا فِيهِ كُلَّ مُمَزَّقٍ فَأَصْبَحُوا أَكَلَةً لِمَنْهُومِي الِاسْتِعْمَارِ وَمُسْتَعْبِدِي الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ وَصَدَقَ فِيهِمْ قَوْلُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا الْحَدِيثَ .

(75/292)

بَحْثُ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ :

سَيَقُولُ بَعْضُ الْجَاهِلِينَ لِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَكَوْنِهِ دِينًا رُوحَانِيًّا مَدَنِيًّا سِيَاسِيًّا ، وَبَعْضُ أُولِي الْعَصَبِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ : إِنَّ مُقْتَضَى مَا ذَكَرْتَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِقَامَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ كَمَا يَجِبُ إِلَّا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَلِمَاذَا لَا يَجُوزُ عَلَى شُعُوبِ الْمُسْلِمِينَ مَا جَازَ عَلَى شُعُوبِ النَّصَارَى مَثَلًا مِنْ تَرْجَمَةِ كُتُبِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ بِلُغَاتِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ مَعَ بَقَائِهِمْ عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ وَمِلَّةِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ .

(76/292)

وَنَقُولُ : (أَوَّلًا) إِنَّ الْمَسْأَلَةَ عِنْدَنَا مَسْأَلَةُ نَقْلٍ وَاتِّبَاعٍ لَا مَسْأَلَةُ رَأْيٍ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَئِمَّتَنَا مُجْمِعُونَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا (وَثَانِيًا) إِنَّنَا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ لَا نَعْتَقِدُ أَنَّ النَّصَارَى عَلَى مِلَّةِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَزِيدَ عَلَى ذِكْرِ اعْتِقَادِنَا هَذَا فِي صَحِيفَةٍ عُمُومِيَّةٍ وَثَالِثًا (إِنَّ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ لِلْبَشَرِ تَرْجَمَةً تُؤَدِّي مَعَانِيَهُ تَأْدِيَةً تَامَّةً كَمَا أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى وَيَبْقَى بِهَا مُعْجِزًا وَآيَةً – مُتَعَذِّرَةٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا بِالْإِيضَاحِ فِي مَجَلَّتِنَا (الْمَنَارِ) وَلَا مَحَلَّ لَهُ هُنَا .

(وَرَابِعًا) إِذَا فَرَضْنَا أَنَّ تَرْجَمَةَ الْكِتَابِ لَا تُخِلُّ بِفَهْمِ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ وَتَشْرِيعِهِ أَفَلَا تُخِلُّ بِمَا هُوَ مَوْضُوعُ هَذَا الْمَقَالِ مِنْ وُجُوبِ وَحْدَتِهِمْ وَتَعَارُفِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ – وَتَوَقُّفُ ذَلِكَ عَلَى لُغَةٍ وَاحِدَةٍ ضَرُورِيٌّ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ لُغَةَ جَمِيعِ أَفْرَادِ شُعُوبِهِمْ فَلْتَكُنْ مِمَّا يُتْقِنُهُ طَوَائِفُ رِجَالِ الدِّينِ وَدُعَاةُ الْوَحْدَةِ وَالِاتِّفَاقِ مِنْهُمْ ؟ بَلَى بَلَى اهـ .

(تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ) كَتَبْنَا فِي فَاتِحَةِ الْمُجَلَّدِ (26) مِنَ الْمَنَارِ مَقَالًا فِي مَسْأَلَةِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ نَذْكُرُ هُنَا مِنْهُ مَا يَلِي :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (سُورَةُ يُوسُفَ 12 1 ، 2)

.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (سُورَةُ طه 20 : 113) .

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (الْأَحْقَافِ 46 : 12) .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (سُورَةُ الزُّمَرِ 39 : 27 ، 28) .

حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (سُورَةُ فُصِّلَتْ 41 : 1 – 3) .

حُمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (الزُّخْرُفِ 43 : 1 – 4) .

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (سُورَةُ الشُّورَى 42 : 7) .

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ 26 : 192 - 199) .

(78/292)

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (سُورَةُ النَّحْلِ 16 : 102 ، 103) .

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (سُورَةُ فُصِّلَتْ 41 : 44) .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (سُورَةِ الرَّعْدِ 13 : 37) .

أَمَّا بَعْدُ ، فَهَذِهِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ فِي هَذَا الْبَابِ ، تَجَاوَزْنَ جَمْعَ الْقِلَّةِ

(79/292)

إِلَى جَمْعِ الْكَثْرَةِ ، وَعَدَوْنَ إِشَارَاتِ الْإِيجَازِ وَحُدُودَ الْمُسَاوَاةِ إِلَى بَاحَةِ الْإِطْنَابِ ، يَنْطِقْنَ بِنُصُوصٍ صَرِيحَةٍ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، وَلَا تَقْبَلُ التَّبْدِيلَ وَلَا التَّحْوِيلَ ، بِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي جَعَلَهُ آخِرَ كُتُبِهِ ، عَلَى خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَوْحَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي فَصَّلَ آيَاتِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، وَأَنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَزَلَ بِهِ عَلَى قَلْبِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ، وَأَنَّهُ ضَرَبَ فِيهِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَالْمُرَادُ بِالنَّاسِ أُمَّةُ الدَّعْوَةِ مِنْ جَمِيعِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ ، حَالَ كَوْنِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ، وَأَنَّهُ أَمَرَ خَاتَمَ رُسُلِهِ أَنْ يُنْذِرَ بِهِ (أُمَّ الْقُرَى) وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ جَمِيعِ الْوَرَى ، وَأَنَّهُ عَلَى إِنْزَالِهِ إِيَّاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِلْإِنْذَارِ وَالذِّكْرَى ، وَالْوَعِيدِ وَالْبُشْرَى ، لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يَحْدُثُ لَهُمْ ذِكْرًا ، أَنْزَلَهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَأَمَرَ مَنْ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ جَمِيعِ النَّاسِ بِمَا أَرَاهُ اللهُ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، الَّذِي جَعَلَهُ فِيهِ حَقًّا مَشَاعًا لَا هَوَادَةَ فِيهِ وَلَا مُحَابَاةَ لِقَرَابَةٍ وَلَا فَضْلٍ ، فَقَالَ : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا اقْرَأْ الْآيَاتِ (مِنْ سُورَةِ

النِّسَاءِ 4 : 5 10 - 114) بِطُولِهَا ، وَرَاجِعْ سَبَبَ نُزُولِهَا فَعُلِمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ هِدَايَةٌ دِينِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ ، وَأَنَّهُ حُكُومَةٌ دِينِيَّةٌ مَدَنِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ ، عَرَبِيَّةُ اللِّسَانِ ، عَامَّةٌ لِجَمِيعِ شُعُوبِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ .

وَصَلَوَاتُ اللهِ وَتَحِيَّاتُهُ الْمُبَارَكَةُ الطَّيِّبَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْأَمِينِ ، الَّذِي جَعَلَهُ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ وَفَضَّلَهُ عَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، بِإِكْمَالِ دِينِهِ بِلِسَانِهِ ، وَعَلَى لِسَانِهِ وَإِرْسَالِهِ لِجَمِيعِ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ هِدَايَةَ رِسَالَتِهِ بَاقِيَةً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، بِقَوْلِهِ عَمَّتْ رَحْمَتُهُ : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (21 : 107) وَقَوْلِهِ تَبَارَكَ اسْمُهُ : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (25 : 1) وَقَوْلِهِ تَعَالَى جَدُّهُ : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (34 : 28) وَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (33 : 40) وَقَوْلِهِ عَمَّ نَوَالُهُ فِيمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ : الْيَوْمُ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (5 : 3) .

وَقَدْ بَلَّغَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَعْوَةَ رَبِّهِ كَمَا أُمِرَ ، فَبَدَأَ بِأُمِّ الْقُرَى ثُمَّ بِمَا حَوْلَهَا مِنْ

جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَشُعُوبِ الْعَجَمِ ، بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي قَضَى اللهُ أَنْ يُوَحِّدَ بِهِ أَلْسِنَةَ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، فَيَجْعَلُهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً بِالْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْآدَابِ وَالشَّرْعِ وَاللُّغَةِ ؛ لِيَكُونُوا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

لَا مَثَارَ بَيْنَهُمْ لِلْعَدَاوَاتِ الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَ النَّاسِ بِعَصَبِيَّاتِ الْأَنْسَابِ وَالْأَقْوَامِ وَالْأَوْطَانِ وَالْأَلْسِنَةِ فَكَتَبَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كُتُبَهُ إِلَى قَيْصَرِ الرُّومِ وَكِسْرَى الْفُرْسِ وَمُقَوْقِسِ مِصْرَ بِلُغَةِ الْإِسْلَامِ الْعَرَبِيَّةِ كَكُتُبِهِ إِلَى مُلُوكِ الْعَرَبِ وَأُمَرَائِهِمْ ، وَبَلَّغَ أَصْحَابُهُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أُمَّتَهُ مِنْ تَعْمِيمِ الدَّعْوَةِ ، وَبَشَّرَهُمْ بِأَنَّ نُورَهَا سَيَنْتَشِرُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، فَصَدَعَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لِهَدْيِهِمْ ، وَجَمِيعُ دُوَلِ الْإِسْلَامِ مِنْ بَعْدِهِمْ ، بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ نَشْرِ هَذَا الدِّينِ بِلُغَتِهِ ، فِي كِلَا قِسْمَيْ شَرِيعَتِهِ عِبَادَتِهِ وَحُكُومَتِهِ .

(82/292)

فَكَانَ الْإِسْلَامُ يَنْتَشِرُ فِي شُعُوبِ الْأَعَاجِمِ مِنْ قَارَّاتِ الْأَرْضِ الثَّلَاثِ (آسِيَةَ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَأُورُبَّةَ) بِلُغَتِهِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَيُقْبِلُ الدَّاخِلُونَ فِيهِ عَلَى تَعَلُّمِ هَذِهِ اللُّغَةِ بِبَاعِثِ الْعَقِيدَةِ ، وَضَرُورَةِ إِقَامَةِ الْفَرِيضَةِ ، وَلَا سِيَّمَا فَرِيضَةُ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ عِمَادُ الدِّينِ ، وَأَعْظَمُ أَرْكَانِهِ بَعْدَ التَّصْرِيحِ بِالشَّهَادَتَيْنِ ، اللَّتَيْنِ هُمَا عُنْوَانُ الدُّخُولِ فِيهِ ، عَلَى أَنَّهُمَا مِنْ أَعْمَالِ الصَّلَاةِ أَيْضًا ، فَكَانَ

تَعَلُّمُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْإِسْلَامِ ، عِنْدَ جَمِيعِ تِلْكَ الشُّعُوبِ وَالْأَقْوَامِ ، بِالْإِجْمَاعِ الْعِلْمِيِّ الْعَمَلِيِّ التَّعَبُّدِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ تَقْصِيرِ دَوْلَةِ التُّرْكِ الْعُثْمَانِيِّينَ ، بِعَدَمِ جَعْلِ الْعَرَبِيَّةِ لُغَةً رَسْمِيَّةً لِلدَّوَاوِينِ ، كَسَلَفِهِمْ مِنَ السَّلْجُوقِيِّينَ وَالْبُوَيْهِيِّينَ ، حَتَّى بَعْدَ تَنَحُّلِهِمْ لِلْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَرَفْعِ أَلْوِيَتِهِمْ عَلَى مَهْدِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْبِلَادِ الْحِجَازِيَّةِ ، فَآلَ ذَلِكَ إِلَى التَّعَارُضِ وَالتَّعَادِي بَيْنَ الْعَصَبِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ وَرَابِطَةِ الْإِسْلَامِ ، فَالتَّفَرُّقِ وَالتَّقَاتُلِ بَيْنَ التُّرْكِ وَالْعَرَبِ ، فَإِلْغَاءِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، فَإِسْقَاطِ دَوْلَةِ آلِ عُثْمَانَ ، وَتَأْلِيفِ جُمْهُورِيَّةٍ ، تُرْكِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، أُورُبِّيَّةِ الْعَادَاتِ وَالتَّقْنِينِ وَالتَّشْرِيعِ ، وَإِبْطَالِ مَا كَانَ فِي الدَّوْلَةِ مِنَ الْمَصَالِحِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، كَمَشْيَخَةِ الْإِسْلَامِ وَالْأَوْقَافِ وَالْمَدَارِسِ

(83/292)

الدِّينِيَّةِ وَالْمَحَاكِمِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَصَرَّحُوا بِأَنَّ حُكُومَتَهُمْ هَذِهِ مَدَنِيَّةٌ غَرْبِيَّةٌ لَا دِينِيَّةٌ وَأَنَّهُمْ فَصَلُوا بَيْنَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ فَصْلًا بَاتًّا كَمَا فَعَلَتِ الشُّعُوبُ الْإِفْرِنْجِيَّةُ ، عَلَى أَنَّهُمْ لَمَّا وَضَعُوا قَانُونَ هَذِهِ الْجُمْهُورِيَّةِ قَبْلَ التَّجَرُّؤِ عَلَى كُلِّ مَا ذُكِرَ ، وَضَعُوا فِي مَوَادِّهِ أَنَّ الدِّينَ الرَّسْمِيَّ لِلدَّوْلَةِ هُوَ الْإِسْلَامُ مُرَاعَاةً لِلشَّعْبِ التُّرْكِيِّ الْمُسْلِمِ ، كَمَا وَضَعُوا فِيهِ مَوَادًّا أُخْرَى تُنَافِي الْإِسْلَامَ مِنَ اسْتِقْلَالِ الْمَجْلِسِ الْوَطَنِيِّ الْمُنْتَخَبِ بِالتَّشْرِيعِ بِلَا قَيْدٍ وَلَا شَرْطٍ ، وَمِنْ إِبَاحَةِ

الرِّدَّةِ وَاسْتِحْلَالِ مَا حَرَّمَ الشَّرْعُ . وَظَهَرَ أَثَرُ

ذَلِكَ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، كَالطَّعْنِ الصَّرِيحِ فِي الدِّينِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِ حَتَّى فِي الصُّحُفِ الْعَامَّةِ وَكَإِبَاحَةِ الزِّنَا وَالسُّكْرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَبُرُوزِ النِّسَاءِ التُّرْكِيَّاتِ فِي مَعَاهِدِ الْفِسْقِ وَمَحَافِلِ الرَّقْصِ كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ ، مَائِلَاتٍ مُمِيلَاتٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُنَافِيَاتِ الدِّينِ . .

. .

وَلَكِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَمْ يَرْوِ غَلِيلَ الْعَصَبِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ التُّورَانِيَّةِ ، وَلَمْ يَذْهَبْ بِحِقْدِهَا عَلَى الرَّابِطَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَآدَابِهَا الدِّينِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، بَلْ كَانَ مِنْ كَيْدِهَا لَهَا السَّعْيُ لِإِزَالَةِ كُلِّ مَا هُوَ عَرَبِيٌّ مِنْ نَفْسِ الشَّعْبِ التُّرْكِيِّ وَلِسَانِهِ ، وَعَقْلِهِ وَوِجْدَانِهِ ؛ لِيَسْهُلَ عَلَيْهِمْ سَلْخُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ ، بِمَعُونَةِ التَّرْبِيَةِ

(84/292)

الْجَدِيدَةِ وَالتَّعْلِيمِ الْعَامِّ ، بَلْ عَمَدُوا إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ ، الثَّابِتِ أَصْلُهَا ، الرَّاسِخِ فِي أَرْضِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ عِرْقُهَا ، الْمُمْتَدِّ فِي أَعَالِي السَّمَاءِ فَرْعُهَا ، الَّتِي تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، عَمَدُوا إِلَيْهَا لِاجْتِثَاثِ أَصْلِهَا وَاقْتِلَاعِ جِذْرِهَا بَعْدَ مَا كَانَ مِنَ الْتِحَاءِ عُودِهَا ، وَامْتِلَاخِ أُمْلُودِهَا ، وَخَضْدِ شَوْكَتِهَا وَعَضْدِ خَصْلَتِهَا ، بَعْدَ أَنْ نَعِمُوا بِضَعَةِ قُرُونٍ

بِثَمَرَتِهَا ، وَإِنَّمَا تِلْكَ الشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْحَكِيمُ الْمَجِيدُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ ، هِيَ الزَّيْتُونَةُ الْمُبَارَكَةُ الْمَوْصُوفَةُ بِأَنَّهَا لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، فَإِذَا مَسَّتْهُ نَارُ الْإِيمَانِ بِحَرَارَتِهَا اشْتَعَلَ نُورًا عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (24 : 35) .

(85/292)

وَإِنَّمَا أَعْنِي بِقَطْعِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ أَرْضِ الشَّعْبِ التُّرْكِيِّ مُحَاوَلَةَ حِرْمَانِهِ مِنْهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ تَرْجَمُوا الْقُرْآنَ بِالتُّرْكِيَّةِ لَا لِيَفْهَمَهُ التُّرْكُ ، فَإِنَّ تَفَاسِيرَهُ بِلُغَتِهِمْ كَثِيرَةٌ ، وَكَانَ مِنْ مَقَاصِدِ إِبْطَالِ الْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ إِبْطَالُ دِرَاسَتِهَا (أَيِ التَّفَاسِيرِ حَتَّى التُّرْكِيَّةِ) وَحَظْرِ مُدَارَسَةِ كُتُبِ السُّنَّةِ وَكُتُبِ الْفِقْهِ وَنَحْوِهَا ؛ لِأَنَّهَا مَشْحُونَةٌ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَبِالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَبِآثَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَبِالْحِكَمِ وَالْأَمْثَالِ وَشَوَاهِدِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَهُمْ يُرِيدُونَ مَحْوَ كُلِّ مَا هُوَ عَرَبِيٌّ مِنَ اللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ ، وَمِنْ أَنْفُسِ الْأُمَّةِ التُّرْكِيَّةِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ أَلَّفُوا جَمْعِيَّةً خَاصَّةً لِمَا عَبَّرُوا عَنْهُ بِتَطْهِيرِ اللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ " مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَاقْتِرَاحِ بَعْضِهِمْ كِتَابَةَ لُغَتِهِمْ بِالْحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ ، وَإِذَا طَالَ أَمَدُ نُفُوذِ الْمَلَاحِدَةِ فِي هَذَا الشَّعْبِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَرِيمِ ، فَإِنَّهُمْ سَيُنَفِّذُونَ هَذَا الِاقْتِرَاحَ قَطْعًا كَمَا نَفَّذُوا غَيْرَهُ حَتَّى

اسْتِبْدَالَ قُرْآنٍ تُرْكِيٍّ بِلُغَةِ بَعْضِ مَلَاحِدَةِ التُّورَانِيِّينَ ، بِالْقُرْآنِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ،

(86/292)

الْمُتَعَبَّدِ بِأَلْفَاظِهِ الْعَرَبِيَّةِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْمُعْجِزِ بِبَلَاغَتِهِ الْعَرَبِيَّةِ لِجَمِيعِ الْعَالَمِينَ ، وَكَوْنِهِ حُجَّةَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أَرَأَيْتَ أَيُّهَا الْقَارِئُ هَذَا الْخَطْبَ الْعَظِيمَ ؟ أَرَأَيْتَ هَذَا الْبَلَاءَ الْمُبِينَ ؟ أَرَأَيْتَ هَذِهِ الْجَرْأَةَ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ أَرَأَيْتَ هَذِهِ الصَّدْمَةَ لِدِينِ اللهِ الْقَوِيمِ ؟ ثُمَّ أَرَأَيْتَ هَذَا الشَّنَآنَ وَالِاحْتِقَارَ لِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ؟ وَرَفْضَ مَا جَرَوْا عَلَيْهِ مُدَّةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَرْنًا وَنِصْفٍ ؟ ثُمَّ أَرَأَيْتَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ مَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي مِصْرَ أَعْرَفِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي الْفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَالْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ ! .

لَقَدْ كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ ذَلِكَ مَا هُوَ أَقْوَى الْبَرَاهِينِ ، عَلَى فَوْضَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، وَاخْتِلَالِ الْمَنْطِقِ وَفَسَادِ التَّعْلِيمِ ، وَالْجَهْلِ الْفَاضِحِ بِضَرُورِيَّاتِ الْإِسْلَامِ وَشُئُونِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَقَدْ كَانَ أَثَرُ ذَلِكَ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ ، وَتَعَارُضِ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَتَسْوِيدِ الصَّحَائِفِ الْمُنَشَّرَةِ ، بِمِثْلِ مَا

شَوَّهُوهَا بِهِ فِي مَسْأَلَةِ الْخِلَافَةِ ، وَقَدْ كَانَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَسْأَلَةُ الْقُرْآنِ أَبْعَدَ عَنْ أَهْوَاءِ الْخِلَافِ ، لِلنُّصُوصِ

(87/292)

الْكَثِيرَةِ الصَّرِيحَةِ فِيهَا ، وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ عَلَيْهَا ، وَعَدَمِ شُذُوذِ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ وَالْفِرَقِ حَتَّى الْمُبْتَدِعَةِ عَنْهَا ، فَقَدْ كَثُرَ الْخِلَافُ وَالتَّفَرُّقُ فِي الدِّينِ ، وَتَعَدَّدَتِ الْأَحْزَابُ وَالشِّيَعُ فِي الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى مَا وَرَدَ فِي النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ وَالْوَعِيدِ عَلَيْهِ فِي الْآيَاتِ الصَّرِيحَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ، وَارْتَدَّ بَعْضُ الْفِرَقِ عَنِ الدِّينِ ، بِضُرُوبٍ مِنْ فَاسِدِ التَّأْوِيلِ ، وَسَخَافَاتٍ مِنْ أَبَاطِيلِ التَّحْرِيفِ ، كَمَا فَعَلَ زَنَادِقَةُ الْبَاطِنِيَّةِ ، وَغَيْرُهُمْ ، قَبْلَ أَنْ يَقْوُوا وَيُصَرِّحُوا بِكُفْرِهِمْ ، وَلَمْ تَقُمْ فِرْقَةٌ تَنْتَمِي إِلَى الْإِسْلَامِ بِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ وَلَا ضَلَّتْ طَائِفَةٌ بِتَرْجَمَةِ أَذْكَارِ الصَّلَاةِ وَالْآذَانِ ؛ لِأَجْلِ الِاسْتِغْنَاءِ بِهَا فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ ، عَنِ اللَّفْظِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنَّمَا قُصَارَى مَا وَقَعَ مِنَ الْخِلَافِ فِيمَا حَوْلَ ذَلِكَ مِنْ فُرُوعِ الْمَسْأَلَةِ ، وَمِنْ تَصْوِيرِ الْفُقَهَاءِ لِلْوَقَائِعِ النَّادِرَةِ ، أَنَّهُ إِذَا أَسْلَمَ أَعْجَمِيٌّ مَثَلًا ، وَأَرَدْنَا تَعْلِيمَهُ الصَّلَاةَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِسَانُهُ أَنْ يَنْطِقَ بِأَلْفَاظِ الْفَاتِحَةِ فَهَلْ يُصَلِّي بِمَعَانِيهَا مِنْ لُغَتِهِ ، أَمْ يَسْتَبْدِلُ بِهَا بَعْضُ الْأَذْكَارِ

الْعَرَبِيَّةِ الْمَأْثُورَةِ مُؤَقَّتًا رَيْثَمَا يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ ، أَمْ يُصَلِّي بِتَرْجَمَةِ الْفَاتِحَةِ بِلُغَتِهِ ؟ نُقِلَ الْقَوْلُ الْأَخِيرِ عَنْ أَبِي

(88/292)

حَنِيفَةَ وَحْدَهُ مَعَ مُخَالَفَةِ جَمِيعِ أَصْحَابِهِ لَهُ ، وَنُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ رَجَعَ عَنْهُ إِلَى الْإِجْمَاعِ ، وَمَا يُنْقَلُ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ عَمِلَ بِهِ (عَلَى أَنَّهُ لَا حُجَّةَ فِي عَمَلِ أَحَدٍ وَلَا فِي قَوْلِهِ ، غَيْرَ الْمَعْصُومِ) فَكَانَ هَذَا الْإِجْمَاعُ الْعَامُّ الْمُطْلَقُ مِمَّا يُؤَيِّدُ حِفْظَ اللهِ تَعَالَى لِلْقُرْآنِ ، وَأَرَادَ مَلَاحِدَةُ التُّرْكِ أَنْ يُبْطِلُوهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (سُورَةُ الصَّفِّ 61 : 8 ، 9)

مَنْشَأُ فِكْرَةِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ وَسَبَبُهَا :

(89/292)

لَقَدْ كَانَ ضَعْفُ الْخِلَافَةِ الْقُرَشِيَّةِ بِجَهْلِ الْخُلَفَاءِ وَتَرَفِهِمْ وَفِسْقِهِمْ سَبَبًا لِتَفَرُّقِ الْمُسْلِمِينَ فَتَخَاذُلِهِمْ فَضَعْفِهِمْ ، إِذْ كَانَ سَبَبًا لِتَأْسِيسِ عِدَّةِ دُوَلٍ إِسْلَامِيَّةٍ تَتَنَازَعُ السُّلْطَةَ ، وَلِضَعْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَتَرْكِ الْأَعَاجِمِ ، فَاضْطِرَارِهِمْ إِلَى تَرْجَمَةِ بَعْضِ الْكُتُبِ الدِّينِيَّةِ ، وَتَدْرِيسِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْهَا بِالتَّرْجَمَةِ ، فَالشُّعُورِ بِالْحَاجَةِ إِلَى تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ نَفْسِهِ بِلُغَاتِهِمْ لِأَجْلِ فَهْمِهِ بِالْإِجْمَالِ ، ثُمَّ بِالْحَاجَةِ إِلَى تَرْجَمَتِهِ بِسَائِرِ اللُّغَاتِ لِأَجْلِ الدَّعْوَةِ بِتَرْجَمَتِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَلَمَّا انْفَرَدَتْ دَوْلَةُ التُّرْكِ الْعُثْمَانِيِّينَ دُونَ سَائِرِ دُوَلِ الْأَعَاجِمِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِجَعْلِ لُغَتِهِمْ رَسْمِيَّةً لَهَا ، ثُمَّ بِادِّعَاءِ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ لِسُلْطَانِهَا اقْتَضَى ذَلِكَ تَعَمُّدَ هَذِهِ الدَّوْلَةِ لِإِضْعَافِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلِمُعَادَاتِهَا ، وَلِتَفْضِيلِ لُغَةِ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ عَلَى لُغَةِ كِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ رَسُولِهِمْ ، ثُمَّ لِتَفْضِيلِ رَابِطَةِ جِنْسِهِمْ وَلُغَتِهِمْ عَلَى رَابِطَةِ دِينِهِمْ ، ثُمَّ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنْ هَذَا بِتِلْكَ ، وَمِنْ ثَمَّ صَارَتْ جَامِعَةُ اللُّغَةِ وَالْقَوْمِيَّةِ مُعَارِضَةً لِلْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَسَبَبًا لِمُعَادَاتِهَا . ثُمَّ تَجَدَّدَ لِدُعَاةِ الْعَصَبِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ سَبَبٌ آخَرُ لِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ وَهُوَ التَّمْهِيدُ بِهِ إِلَى الْمُرُوقِ مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا إِلَّا التُّرْكُ الَّذِينَ نَالُوا بِالْإِسْلَامِ دُونَ غَيْرِهِ مَا نَالُوا مِنَ

(90/292)

الْعِزِّ وَالْمُلْكِ الْكَبِيرِ .

إنْ مَلَاحِدَةَ التُّرْكِ وَدُعَاةَ الْعَصَبِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ مِنْهُمْ قَدْ بَثُّوا فِي قَوْمِهِمْ فِكْرَةَ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِتَرْجَمَتِهِ بِاللِّسَانِ التُّرْكِيِّ قَبْلَ عَهْدِ الْحُرِّيَّةِ الدُّسْتُورِيَّةِ بِسِنِينَ ، وَقَدْ أَنْكَرْنَا هَذَا عَلَيْهِمْ قَوْلًا وَكِتَابَةً ، وَأَوَّلُ مَنْ سَمِعْنَا مِنْهُ هَذَا الرَّأْيَ مُحَمَّدُ عُبَيْدِ اللَّهِ أَفَنْدِي الَّذِي صَارَ بَعْدَ الدُّسْتُورِ مَبْعُوثًا ،

وَأَنْشَأَ فِي الْآسِتَانَةِ جَرِيدَةً عَرَبِيَّةً بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ لِأَجْلِ خِدَاعِ الْعَرَبِ وَإِضْلَالِهِمْ سَمِعْتُ هَذَا الرَّأْيَ الْفَاسِدَ مِنْهُ فِي مِصْرَ ، وَرَدَدْتُ عَلَيْهِ فِيهِ ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ فِي الْآسِتَانَةِ مِنْ غَيْرِهِ أَيْضًا وَأَنْكَرْتُهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ ذَكَرْتُهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ مُجَلَّدِ الْمَنَارِ الثَّالِثَ عَشَرَ .

(مِنْهَا) قَوْلُنَا فِي (الْفَتْوَى 27 ص343 ج5 م13 الَّذِي صَدَرَ فِي سَلْخِ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ 1327) فِي سِيَاقِ تَخْطِئَةِ مُحَمَّدِ عُبَيْدِ اللَّهِ أَفَنْدِي فِي ادِّعَائِهِ أَنَّ الْإِسْلَامَ نُشِرَ بِالْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ : .

(91/292)

" لَيْسَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ هِيَ الَّتِي شَذَّ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الرَّجُلُ ، فَإِنَّ لَهُ شُذُوذًا فِي مَسَائِلَ أُخْرَى دِينِيَّةٍ ، وَتَارِيخِيَّةٍ كَادِّعَائِهِ أَنَّ نُبُوَّةَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا تَمَّتْ وَلَا تَتِمُّ إِلَّا

بِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ إلَى جَمِيعِ اللُّغَاتِ ، وَكَادَّعَائِهِ أَنَّ غَيْرَ الْعَرَبِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُمْكِنُهُمُ الِاسْتِغْنَاءُ فِي دِينِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَعَنِ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى آيَةً لِلْعَالَمِينَ ، مُعْجِزًا لِلْبَشَرِ عَلَى مَرِّ السِّنِينَ ، بِتَرْجَمَتِهِ إلَى التُّرْكِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ اللُّغَاتِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَرْجِمُ يُتَرْجِمُ حَسَبَ فَهْمِهِ فَيَخْتَلِفُ مَعَ غَيْرِهِ ، فَيَكُونُ لِكُلِّ أَهْلِ لُغَةٍ قُرْآنٌ ، وَإِنْ كَانَتِ التَّرْجَمَةُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ فِيهَا الْإِعْجَازُ كَالْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَصِحُّ التَّعَبُّدُ بِتِلَاوَتِهَا ، وَلَا يَتَحَقَّقُ فِيهَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ سَبَقَ لِي مُنَاظَرَةٌ مَعَهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِمِصْرَ مُنْذُ سِنِينَ اهـ .

(92/292)

وَمِنْهَا – مَا ذَكَرْتُهُ فِي (ج 7 مِنْهُ ص 549) فِي سِيَاقِ سَمَرٍ مَعَ طَلْعَت بك (بَاشَا) نَاظِرِ الدَّاخِلِيَّةِ بِدَارِهِ فِي الْآسِتَانَةِ ذَكَرَ لِي فِيهِ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ سَيُنْشِئُ جَرِيدَةً عَرَبِيَّةً ؛ لِأَجْلِ التَّأَلُّفِ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالتُّرْكِ ، فَذَكَرْتُ لَهُ أَنَّهُ يُخْشَى أَنْ يَكُونَ تَأْثِيرُهَا زِيَادَةَ الشِّقَاقِ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ بِهِ مِنْ كَرَاهَةِ الْعَرَبِ ، وَزَعْمِهِ إمْكَانَ اسْتِغْنَاءِ التُّرْكِ عَنْ لُغَتِهِمْ وَعَنْ قُرْآنِهِمُ الْعَرَبِيِّ بِتَرْجَمَتِهِ بِالتُّرْكِيَّةِ إلَخْ وَكَذَلِكَ كَانَ .

وَمِنْهَا – قَوْلُنَا فِي مُنَاجَاةِ اللَّهِ تَعَالَى (فِي ص384 مِنْهُ) : اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ (أَيِ

الْمُفْسِدِينَ) مَنْ يَفُوقُ سِهَامُ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي شَرَّفْتَهَا وَفَضَّلْتَهَا بِخَاتَمِ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ ، وَخَيْرِ كُتُبِكَ الْمُنَزَّلَةِ لِهِدَايَةِ خَلْقِكَ وَخَاطَبْتَ سَلَفَهَا الصَّالِحَ بِقَوْلِكَ الْحَقِّ : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (3 : 110) إِلَخْ .

" اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ حَسَدُوهَا أَنْ جَعَلْتَ كِتَابَكَ عَرَبِيًّا مُبِينًا ، فَهُمْ يُرِيدُونَ تَرْجَمَتَهُ لِيَكُونَ عُرْضَةً لِتَحْرِيفِ الْمُحَرِّفِينَ ، وَاخْتِلَافِ الْمُتَّفِقِينَ ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَهُ لِتَجْمَعَهُمْ عَلَيْهِ ، وَهُمْ يُحَاوِلُونَ تَرْجَمَتَهُ لِكُلِّ شَعْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِيَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ حَبْلُكَ الْمَتِينُ الَّذِي أَمَرْتَنَا أَنْ نَعْتَصِمَ بِهِ

(93/292)

وَلَا نَتَفَرَّقَ عَنْهُ بِقَوْلِكَ : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا (3 : 103) وَهُوَ بَيِّنَاتُكَ الَّتِي قُلْتَ فِيهَا : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ (3 : 105) .

" اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ رِسَالَةَ خَاتَمِ رُسُلِكَ مَا تَمَّتْ إِلَى الْآنِ . وَأَنَّهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ ، وَأَنْتَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (5 : 3) .

وَمِنْهَا – قَوْلُنَا فِي آخِرِ الْفَتْوَى 32 مِنْهُ (ص571) فِي سِيَاقِ الدَّعْوَةِ إِلَى الِاهْتِدَاءِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : وَلَا يَتِمُّ هَذَا الِاهْتِدَاءُ إِلَّا بِالْعِنَايَةِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَا شَيْءَ أَضَرَّ عَلَى الْإِسْلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِمَّنْ يَدْعُو إِلَى تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ إِلَى اللُّغَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ; لِيَسْتَغْنِيَ الْمُسْلِمُونَ بِالتَّرْجَمَةِ عَنِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . فَالْغَايَةُ مِنْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ إِذَا وَقَعَتْ (لَا سَمَحَ اللهُ) أَنْ يَكُونَ الْأَعَاجِمُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عُرْضَةً لِتَرْكِ الدِّينِ . وَسَنُوَضِّحُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى اهـ .

(94/292)

وَقَدْ رَاجَتْ دَعْوَةُ مَلَاحِدَةِ التُّرْكِ إِلَى الِاسْتِغْنَاءِ عَنْ كِتَابِ اللهِ الْمُنَزَّلِ بَعْدَ قَبْضِ مَلَاحِدَةِ جَمْعِيَّةِ الِاتِّحَادِ وَالتَّرَقِّي عَلَى أَعِنَّةِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، تَمْهِيدًا مِنْهُمْ لِمَا نَفَّذَهُ أَنْدَادُهُمُ الْكَمَالِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ نَبْذِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ لِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ ، وَسَعْيِهَا لِسَلِّ الشَّعْبِ التُّرْكِيِّ مِنْهُ أَيْضًا .

وَقَدْ كَانَ مِمَّا نَشَرَ الِاتِّحَادِيُّونَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُمَهِّدَةِ لِهَذَا السَّبِيلِ (كِتَابُ قَوْمٍ جَدِيدٌ) الَّذِي انْتَقَدْنَاهُ وَنَشَرْنَا تَرْجَمَةَ بَعْضِ مَسَائِلِهِ فِي الْمُجَلَّدِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الْمَنَارِ (سَنَةَ 1335) وَالْمُرَادُ بِكَلِمَةِ (قَوْمٍ جَدِيدٍ) إِنْشَاءُ شَعْبٍ تُرْكِيٍّ غَيْرِ مُسْلِمٍ . وَمِمَّا قُلْنَاهُ فِي آخِرِ مُقَالٍ

طَوِيلٍ مِنْهُ (ص160 ج2 م17) عُنْوَانُهُ (مَفَاسِدُ الْمُتَفَرْنِجِينَ فِي أَمْرِ الِاجْتِمَاعِ وَالدِّينِ) مَا نَصُّهُ : "يَرَى هَؤُلَاءِ الْعَامِلُونَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي طَرِيقِهِمْ عَقَبَةٌ تَحُولُ دُونَ بُلُوغِ الْمَقْصِدِ

(95/292)

بِالسُّرْعَةِ الَّتِي يَبْغُونَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْعَمَلِ إِلَّا حَاجَةَ التُّرْكِ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ لِأَجْلِ الدِّينِ .

وَيَرَوْنَ أَنَّ هَذَا الدِّينَ وَلُغَتَهُ مِمَّا يُعِيقُ تَكْوِينَ أُمَّةٍ تُرْكِيَّةٍ مَحْضَةٍ عَلَى الطِّرَازِ الْإِفْرَنْجِيِّ الْفَرَنْسِيِّ ، فَاجْتَهَدُوا فِي إِزَالَةِ هَذَا الْمَانِعِ بِمُزِيلَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ بِالتُّرْكِيَّةِ ، وَدَعْوَةُ التُّرْكِ إِلَى الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ بِمَا سَمَّوْهُ الْقُرْآنَ التُّرْكِيَّ ، وَإِذَا اسْتَغْنَوْا عَنِ الْقُرْآنِ يَسْتَغْنُونَ بِالْأَوْلَى عَنْ غَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ وَسَائِرِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ .

(الثَّانِي) نَشْرُ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ الَّتِي تَجْعَلُ الْجِنْسِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ أَعْلَى وَأَسْمَى فِي النُّفُوسِ مِنْ رَابِطَةِ الدِّينِ تَمْهِيدًا لِلثَّانِيَةِ بِالْأُولَى . . . .

(وَذَكَرْنَا مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ كِتَابَ " قَوْمٍ جَدِيدٍ " وَأَشَرْنَا إِلَى بَعْضِ مَفَاسِدِهِ) ثُمَّ نَشَرْنَا نَمُوذَجًا مِنْ كِتَابِ (قَوْمٍ جَدِيدٍ) هَذَا فِي (ص539 – 544 مِنْهُ) أَوَّلُهُ قَوْلُهُ فِي (ص14 مِنْهُ) :

يَجِبُ تَعْطِيلُ جَمِيعِ الْمَسَاجِدِ وَالتَّكَايَا الْمَوْجُودَةِ فِي الْآسِتَانَةِ مَا عَدَّا الْجَوَامِعِ الَّتِي بَنَاهَا

السَّلَاطِينُ وَتَخْصِيصُ نَفَقَاتِهَا بِالشُّؤُونِ الْحَرْبِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَعْمَالِ النَّبَوِيَّةِ (؟) وَيَلِيهِ قَوْلُهُ فِي ص15 بِفَرْضِيَّةِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ .

(96/292)

وَمِنْهُ مَا ذَكَرَهُ مِنْ صِفَاتِ مَنْ سَمَّاهُمْ (قَوْمٌ عَتِيقٌ) مِنْ تَمَسُّكِهِمْ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالْحَجِّ وَالزَّكَاةِ وَالْعَمَلِ بِكُتُبِ فِقْهِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي وَصَفَهَا بِأَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ بِالنِّفَاقِ وَالشِّقَاقِ ، وَزَعَمَ أَنَّ الْعَمَلَ بِهَا غَيْرُ جَائِزٍ – ثُمَّ قَالَ فِي صِفَاتِ (قَوْمٍ جَدِيدٍ) مَا نَصُّهُ : " وَأَمَّا الْقَوْمُ الْجَدِيدُ فَإِنَّهُمْ لَا يُبَالُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ الْقَدِيمَةِ ، بَلِ اسْتَخْرَجُوا مِنَ الْأَحْكَامِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْحَدِيثِيَّةِ الْأَرْكَانَ الدِّينِيَّةَ الْآتِيَةَ : (1) الْعَقْلَ . (2) كَلِمَةَ الشَّهَادَةِ . (3) الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ . (4) الْجِهَادَ مَالًا وَبَدَنًا وَالْحَرْبَ . (5) السَّعْيَ لِإِعْدَادِ لَوَازِمِ الْحَرْبِ . . . إِلَخْ ثُمَّ بَسَطْنَا هَذِهِ الْمَسَائِلَ مِنْ وَسَائِلَ وَمَقَاصِدَ فِي الْمُجَلَّدِ التَّاسِعَ عَشَرَ ، وَقَدْ صَدَقَ كُلُّ مَا قُلْنَاهُ وَارْتَأَيْنَاهُ مِنْ مَقَاصِدِ مَلَاحِدَةِ التُّرْكِ مَا فَعَلَتْهُ الْحُكُومَةُ الْكَمَالِيَّةُ مِنْ إِلْغَاءِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ كُلِّهَا ، وَجَعْلِ جَمِيعِ سِيَاسَتِهَا وَأَحْكَامِهَا حَتَّى الشَّخْصِيَّةِ مَدَنِيَّةً أُورُبِّيَّةً ، وَإِلْغَاءِ الْأَحْكَامِ

(97/292)

الشَّرْعِيَّةِ ، وَالْأَوْقَافِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ – دَعْ إِلْغَاءَ مَا عُمِلَ بِاسْمِ الدِّينِ مِنَ الْمُبْتَدِعَاتِ كَتَكَايَا أَصْحَابِ الطُّرُقِ مُقَلِّدَةِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِلَخْ . صَدِّقُوا بِالْفِعْلِ كُلَّ مَا قُلْنَاهُ مِنْ مَقَاصِدِهِمْ ، وَكَانَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الْجَاهِلِينَ بِحَالِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ ، وَتَأْثِيرِ التَّفَرْنُجِ فِيهَا يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا مَا نَقُولُهُ عَنْ عِلْمٍ وَخِبْرَةٍ وَغَيْرَةٍ عَلَى الْإِسْلَامِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ إِضْعَافٌ لِلدُّوَلِ حَامِيَةِ الْإِسْلَامِ ، وَإِنَّمَا كَانَ حِرْصًا عَلَى تَقْوِيَةِ الدَّوْلَةِ بِالْإِسْلَامِ ، وَتَقْوِيَةِ الْإِسْلَامِ بِالدَّوْلَةِ ؛ لِأَنَّنَا نَعْلَمُ مَالَا يَعْلَمُونَ مِنْ إِفْضَاءِ هَذِهِ الضَّلَالَاتِ وَالْعَصَبِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ إِلَى إِضَاعَةِ هَؤُلَاءِ الْمُتَعَصِّبِينَ الْمَفْتُونِينَ لِلْإِسْلَامِ وَلِلدَّوْلَةِ مَعًا – وَكَذَلِكَ كَانَ .

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ التُّرْكِ الرُّوسِيِّينَ اسْتَفْتَانَا فِي مَسْأَلَةِ التَّرْجَمَةِ قَبْلَ أَنْ نَعْلَمَ بِهَذَا الْغَرَضِ الْفَاسِدِ فَأَفْتَيْنَاهُ فِيهَا لِذَاتِهَا ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِبَالِنَا أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتَوَسَّلُ بِذَلِكَ إِلَى إِخْرَاجِ شَعْبٍ إِسْلَامِيٍّ مِنَ الْإِسْلَامِ – وَهَذَا نَصُّ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ : (فَتْوَى الْمَنَارِ فِي حَظْرِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ)

نُشِرَتْ فِي ص 268 - 274 م 11 ج 4 مِنْهُ الْمُؤَرَّخِ 29 رَبِيعِ الْآخَرِ سَنَةَ 1326

(س 1) مِنَ الشَّيْخِ أَحْسَنَ شَاهْ أَفَنْدِي أَحْمَد (مِنْ رُوسْيَا) .

حَضْرَةَ الْأُسْتَاذُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا : نَرْجُو أَنْ تُعِيرُوا جَانِبَ الِالْتِفَاتِ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْمُهِمَّةِ : ذَكَرَ الْفَاضِلُ أَحْمَدُ مِدْحَت أَفَنْدِي مِنْ عُلَمَاءِ التُّرْكِ الْعُثْمَانِيِّينَ فِي كِتَابِهِ " بَشَائِرِ صِدْقِ نُبُوَّت " مَا تَرْجَمْتُهُ :

إِنَّ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَجَمِيعِ الْمُبَاحَثَاتِ الَّتِي دَارَتْ بِشَأْنِ تَرْجَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمَجِيدِ لَمْ تَرْسِ عَلَى نَتِيجَةٍ ، وَذَلِكَ لِوُجُوهٍ : (الْأَوَّلُ) أَنَّ تَرْجَمَتَهُ بِالتَّمَامِ غَيْرُ مُمْكِنَةٍ لِإِعْجَازِهِ مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ . (وَالْوَجْهُ الثَّانِي) أَنَّ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الْكَلِمَاتِ لَا يُوجَدُ لَهَا مُقَابِلٌ فِي اللُّغَةِ الَّتِي يُتَرْجِمُ إِلَيْهَا ، فَيَضْطَرُّ الْمُتَرْجِمُ إِلَى الْإِتْيَانِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا مَعَ شَيْءٍ مِنَ التَّغْيِيرِ . ثُمَّ إِذَا نُقِلَتْ هَذِهِ التَّرْجَمَةُ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى يَحْدُثُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ التَّغْيِيرِ أَيْضًا وَهَلُمَّ جَرًّا ، فَيُخْشَى مِنْ هَذَا أَنْ يُفْتَحَ طَرِيقٌ لِتَحْرِيفِ الْقُرْآنِ وَتَغْيِيرِهِ . (الْوَجْهُ الثَّالِثُ) أَنَّ كَلِمَاتِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ

(99/292)

يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا بَعْضُ إِشَارَاتٍ وَأَحْكَامٍ بِطَرِيقِ الْحِسَابِ ، فَإِبْدَالُهَا بِالتَّرْجَمَةِ يَسُدُّ هَذَا الطَّرِيقَ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ سَعْدِي جَلَبِي كَتَبَ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى الْبَيْضَاوِيِّ عِنْدَ تَفْسِيرِ سُورَةِ

الْفَاتِحَةِ أَنَّهُ إِذَا أُخْرِجَتِ الْحُرُوفُ الْمُكَرَّرَةُ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ الْقُرْآنِ وَسُورَةِ النَّاسِ الَّتِي هِيَ آخِرُ سُورَةٍ تَكُونُ الْحُرُوفُ الْبَاقِيَةُ ثَلَاثَةً وَعِشْرِينَ . قَالَ : وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى مُدَّةِ سِنِيِّ النُّبُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ - فَإِذَا تُرْجِمَ الْقُرْآنُ لَا يَبْقَى فِي التَّرْجَمَةِ مِثْلُ هَذِهِ الْفَوَائِدِ الَّتِي هِيَ مِنْ جُمْلَةِ مُعْجِزَاتِهِ انْتَهَى " مِنْ بَشَائِرِ صِدْقِ نُبُوَّتِ " .

أَمَّا أُدَبَاؤُنَا مَعْشَرَ التُّرْكِ الرُّوسِيِّينَ ، فَإِنَّهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى تَرْجَمَتِهِ وَيَقُولُونَ : لَا مَعْنَى لِلْقَوْلِ بِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ إِلَّا إِيجَابَ بَقَائِهِ غَيْرَ مَفْهُومٍ ; فَلِذَا يَذْهَبُونَ إِلَى وُجُوبِ تَرْجَمَتِهِ ، وَهُوَ الْآنَ يُتَرْجَمُ فِي مَدِينَةِ قَزَّانَ ، وَتُطْبَعُ تَرْجَمَتُهُ تَدْرِيجًا ، وَكَذَلِكَ تَشَبَّثَ بِتَرْجَمَتِهِ إِلَى اللِّسَانِ التُّرْكِيِّ زَيْنُ الْعَابِدِينَ حَاجِيُّ الْبَاكَوِيُّ أَحَدُ فِدَائِيَّةِ الْقُفْقَازِ ، فَنَرْجُو مِنْ حَضْرَةِ الْأُسْتَاذِ التَّدَبُّرَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ .

حَرَّرَهُ الْإِمَامُ الْحَقِيرُ أَحْسَنُ شَاه أَحْمَد

الْكَاتِبُ الدِّينِيُّ السَّمَاوِيُّ

(100/292)

(جَوَابُ الْمَنَارِ لَهُ) إِنَّ مِنْ تَقْصِيرِ الْمُسْلِمِينَ فِي نَشْرِ دِينِهِمْ أَلَّا يُبَيِّنُوا مَعَانِيَ الْقُرْآنِ لِأَهْلِ كُلِّ لُغَةٍ بِلُغَتِهِمْ ، وَلَوْ بِتَرْجَمَةِ بَعْضِهِ ; لِأَجْلِ دَعْوَةِ مَنْ لَيْسَ مَنْ أَهْلِهِ إِلَيْهِ ، وَإِرْشَادِ مَنْ يَدْخُلُ فِيهِ عِنْدَ

الْحَاجَةِ بِقَدَرِ الْحَاجَةِ ، وَإِنَّ مَنْ زَلْزَلَ الْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ أَنْ يَتَفَرَّقُوا إِلَى أُمَمٍ تَكُونُ رَابِطَةُ كُلِّ أُمَّةٍ مِنْهَا جِنْسِيَّةً نَسَبِيَّةً أَوْ لُغَوِيَّةً أَوْ قَانُونِيَّةً وَيَهْجُرُوا الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى خَاتَمِ رُسُلِهِ ، الْمُعْجِزِ بِأُسْلُوبِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَهِدَايَتِهِ ، الْمُتَعَبَّدِ بِتِلَاوَتِهِ ، اكْتِفَاءً بِأَفْرَادٍ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ يُتَرْجِمُونَهُ لَهُمْ بِلُغَتِهِمْ بِحَسْبِ مَا يَفْهَمُ الْمُتَرْجِمُ .

هَذَا الزِّلْزَالُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ جِهَادِ أُورُبَّا السِّيَاسِيِّ وَالْمَدَنِيِّ لِلْمُسْلِمِينَ . زُيِّنَ لَنَا أَنْ نَتَفَرَّقَ وَنَنْقَسِمَ إِلَى أَجْنَاسٍ ، ظَانًّا كُلُّ جِنْسٍ مِنَّا أَنَّ فِي ذَلِكَ حَيَاتَهُ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مَوْتٌ لِلْجَمِيعِ . وَلَا نُطِيلُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ هُنَا ، وَلَكِنَّنَا نَذْكُرُ شَيْئًا مِمَّا يَخْطُرُ فِي الْبَالِ مِنْ مَفَاسِدِ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ لِلْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) – اسْتِغْنَاءً

(101/292)

عَنْهُ بِتَرْجَمَةٍ أَعْجَمِيَّةٍ يُغْنِيهِمْ عَنْهَا تَفْسِيرُهُ بِلُغَتِهِمْ مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى نَصِّهِ الْمُتَوَاتِرِ الْمَحْفُوظِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ – مَعَ مُرَاعَاةِ الِاخْتِصَارِ فَنَقُولُ : (1) إِنَّ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ تَرْجَمَةً حَرْفِيَّةً تُطَابِقُ الْأَصْلَ مُتَعَذِّرَةٌ كَمَا يُعْلَمُ مِنَ الْمَسَائِلِ الْآتِيَةِ ، وَالتَّرْجَمَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ عِبَارَةٌ عَنْ فَهْمِ الْمُتَرْجِمِ لِلْقُرْآنِ ، أَوْ فَهْمِ مَنْ عَسَاهُ يَعْتَمِدُ هُوَ عَلَى فَهْمِهِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَحِينَئِذٍ لَا تَكُونُ هَذِهِ التَّرْجَمَةُ هِيَ الْقُرْآنُ ، وَإِنَّمَا هِيَ فَهْمُ رَجُلٍ لِلْقُرْآنِ يُخْطِئُ فِي فَهْمِهِ وَيُصِيبُ ، وَلَا

يَحْصُلُ بِذَلِكَ الْمَقْصُودُ الْمُرَادُ مِنَ التَّرْجَمَةِ بِالْمَعْنَى الَّذِي نُنْكِرُهُ .

(2) إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ أَسَاسُ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ ، بَلْ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ ; إِذِ السُّنَّةُ لَيْسَتْ دِينًا إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مُبَيِّنَةٌ لَهُ ، فَالَّذِينَ يَأْخُذُونَ بِتَرْجَمَتِهِ يَكُونُ دِينُهُمْ مَا فَهِمَهُ مُتَرْجِمُ الْقُرْآنِ لَهُمْ ، لَا نَفْسَ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، وَالِاجْتِهَادُ بِالْقِيَاسِ إِنَّمَا هُوَ فَرْعٌ عَنِ النَّصِّ ، وَالتَّرْجَمَةُ لَيْسَتْ نَصًّا مِنَ الشَّارِعِ ، وَالْإِجْمَاعُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُسْتَنَدٌ وَالتَّرْجَمَةُ لَيْسَتْ مُسْتَنَدًا . فَعَلَى هَذَا لَا يَسْلَمُ لِمَنْ يَجْعَلُونَ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ قُرْآنًا شَيْءٌ مِنْ أُصُولِ الْإِسْلَامِ .

(102/292)

---

(3) إِنَّ الْقُرْآنَ مَنَعَ التَّقْلِيدَ فِي الدِّينِ وَشَنَّعَ عَلَى الْمُقَلِّدِينَ . فَأَخْذُ الدِّينِ مِنْ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ هُوَ تَقْلِيدٌ لِمُتَرْجِمِهِ ، فَهُوَ إِذًا خُرُوجٌ عَنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ لَا اتِّبَاعٌ لَهَا .

(4) يَلْزَمُ مِنْ هَذَا حِرْمَانُ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى هَذِهِ التَّرْجَمَةِ مِمَّا وَصَفَ اللهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (12 : 108) وَأَمْثَالِهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَجْعَلُ مِنْ مَزَايَا الْمُسْلِمِ اسْتِعْمَالَ عَقْلِهِ وَفَهْمِهِ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ " .

(5) كَمَا يَلْزَمُ حِرْمَانُهُمْ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَالِيَةِ يَلْزَمُ مَنْعُ الِاجْتِهَادِ وَالِاسْتِنْبَاطِ مِنْ عِبَارَةِ

الْمُتَرْجِمِ ; لِأَنَّ الِاجْتِهَادَ فِيهَا مِمَّا لَا يَقُولُ بِهِ مُسْلِمٌ .

(6) إِنَّ مَنْ يَعْرِفُ لُغَةَ الْقُرْآنِ ، وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي فَهْمِهِ كَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَتَارِيخِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ الَّذِي ظَهَرَ فِيهِ الْإِسْلَامُ يَكُونُ مَأْجُورًا بِالْعَمَلِ بِمَا يَفْهَمُهُ مِنَ الْقُرْآنِ ،

(103/292)

وَإِنْ أَخْطَأَ فِي فَهْمِهِ ; لِأَنَّهُ بَذَلَ جُهْدَهُ فِي الِاهْتِدَاءِ بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ هِدَايَةً لَهُ ، كَمَا يُعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ مُعَامَلَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَصْحَابِهِ فِيمَا فَهِمُوهُ مِنْ كَيْفِيَّةِ التَّيَمُّمِ إِذْ عُذِرُ الْمُخْتَلِفِينَ فِي فَهْمِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا ، وَمِثْلُهُ مُعَامَلَتُهُ لَهُمْ فِيمَا فَهِمُوهُ مِنْ نَهْيِهِ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ; وَلِذَلِكَ شَوَاهِدُ أُخْرَى ، وَلَا إِخَالُ مُسْلِمًا يَجْعَلُ لِعِبَارَةِ مُتَرْجِمِ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْمَزِيَّةَ .

(104/292)

---

(7) إِنَّ الْقُرْآنَ يَنْبُوعٌ لِلْهِدَايَةِ وَالْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ ، لَا تَخْلُقُ جِدَّتُهُ ، وَلَا تَفْتَأُ تَتَجَدَّدُ هِدَايَتُهُ وَتَفِيضُ لِلْقَارِئِ عَلَى حَسَبِ اسْتِعْدَادِهِ حِكْمَتُهُ ، فَرُبَّمَا ظَهَرَ لِلْمُتَأَخِّرِ مَنْ حِكَمِهِ وَأَسْرَارِهِ

مَا لَمْ يَظْهَرْ لِمَنْ قَبْلَهُ ، تَصْدِيقًا لِعُمُومِ حَدِيثِ : " فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ " وَتَرْجَمَتُهُ تُبْطِلُ هَذِهِ الْمَزِيَّةَ ، إِذْ تُفِيدُ الْقَارِئَ بِالْمَعْنَى الَّذِي صَوَّرَهُ الْمُتَرْجِمُ بِحَسْبِ فَهْمِهِ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُتَرْجِمَ قَدْ يَجْعَلُ قَوْلَهُ تَعَالَى : وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (15 : 22) مِنَ الْمَجَازِ بِالِاسْتِعَارَةِ ، أَيْ أَنَّ اتِّصَالَ الرِّيحِ بِالسَّحَابِ ، وَحُدُوثَ الْمَطَرِ عَقِبَ ذَلِكَ يُشْبِهُ تَلْقِيحَ الذَّكَرِ لِلْأُنْثَى ، وَحُدُوثَ الْوَلَدِ بَعْدَ ذَلِكَ كَمَا فَهِمَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ ، فَإِذَا هُوَ جَرَى عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ فَرَضْنَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي اللُّغَةِ الَّتِي يُتَرْجِمُ بِهَا لَفْظٌ يَقُومُ مَقَامَ (لَوَاقِحَ) الْعَرَبِيِّ فِي احْتِمَالِ حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ إِذَا أُطْلِقَ فَإِنَّ الْقَارِئِينَ يَتَقَيَّدُونَ بِهَذَا الْفَهْمِ ، وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْهَمُوا مِنَ الْعِبَارَةِ مَا هِيَ حَقِيقَةٌ فِيهِ ، وَهُوَ كَوْنُ الرِّيَاحِ لَوَاقِحَ بِالْفِعْلِ ، إِذْ هِيَ تَحْمِلُ مَادَّةَ اللِّقَاحِ مِنْ ذُكُورِ الشَّجَرِ إِلَى إِنَاثِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَنْطَبِقْ هَذَا الْمِثَالُ عَلَى الْقَاعِدَةِ لِتَيَسُّرِ تَرْجَمَةِ الْآيَةِ تَرْجَمَةً حَرْفِيَّةً فَإِنَّ هُنَاكَ أَمْثِلَةً أُخْرَى ، وَحَسْبُنَا أَنْ يَكُونَ هَذَا مُوَضِّحًا وَالتَّرْجَمَةُ تَقِفُ بِنَا عِنْدَ حَدٍّ مِنَ الْفَهْمِ يُعْوِزُنَا

(105/292)

مَعَهُ التَّرَقِّي الْمَطْلُوبُ .

(8) ذَكَرَ الْغَزَالِيُّ فِي كِتَابِ " إِلْجَامِ الْعَوَامِّ عَنْ عِلْمِ الْكَلَامِ " أَنَّ تَرْجَمَةَ آيَاتِ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ غَيْرُ جَائِزَةٍ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا هُوَ وَاضِحٌ جِدًّا . وَقَدْ ذَكَرْنَا عِبَارَتَهُ فِي تَفْسِيرِ : هُوَ

الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ (3 : 7) وَبَيَّنَ أَنَّ الْخَطَأَ فِي ذَلِكَ مَدْرَجَةٌ لِلْكُفْرِ .

(9) ذَكَرَ الْغَزَالِيُّ فِي الِاسْتِدْلَالِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَنَّ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ مَا لَا يُوجَدُ لَهَا فَارِسِيَّةٌ تُطَابِقُهَا - أَيْ وَمِثْلُ الْفَارِسِيَّةِ التُّرْكِيَّةُ وَغَيْرُهَا - فَمَا الَّذِي يَفْعَلُهُ الْمُتَرْجِمُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ ، وَهُوَ إِنْ شَرَحَهَا بِحَسْبِ فَهْمِهِ رُبَّمَا يُوقِعُ قَارِئَ تَرْجَمَتِهِ فِي اعْتِقَادِ مَا لَمْ يُرِدْهُ الْقُرْآنُ ؟ (10) قَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَيْضًا : أَنَّ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ مَا لَهَا فَارِسِيَّةٌ تُطَابِقُهَا " لَكِنْ مَا جَرَتْ عَادَةُ الْفُرْسِ بِاسْتِعَارَتِهَا لِلْمَعَانِي الَّتِي جَرَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ بِاسْتِعَارَتِهَا لَهَا " فَإِذَا أَطْلَقَ الْمُتَرْجِمُ اللَّفْظَ الْفَارِسِيَّ يَكُونُ هُنَا مُؤَدِّيًا الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّ لِلَّفْظِ الْعَرَبِيِّ . وَرُبَّمَا كَانَ مُرَادُ اللَّهِ هُوَ الْمَعْنَى الْمَجَازِيُّ ، وَمِثْلُ الْفُرْسِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَعَاجِمِ . وَهَذَا الْمَقَامُ مِنْ مَزَلَّاتِ الْأَقْدَامِ إِذَا كَانَ الْكَلَامُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ .

(106/292)

---

(11) ذَكَرَ أَيْضًا فِي هَذَا الْمَقَامِ : أَنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ مَا يَكُونُ مُشْتَرَكًا فِي الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَا يَكُونُ فِي الْعَجَمِيَّةِ كَذَلِكَ . فَقَدْ يَخْتَارُ الْمُتَرْجِمُ غَيْرَ الْمُرَادِ لِلَّهِ مِنْ مَعْنَى الْمُشْتَرَكِ ، وَلَا

يَخْفَى مَا فِيهِ ، وَقَدْ مَرَّ نَظِيرُهُ آنِفًا .

(12) مِنَ الْمُقَرَّرِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ إِذَا ظَهَرَ دَلِيلٌ قَطْعِيٌّ عَلَى امْتِنَاعِ ظَاهِرِ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَجِبُ تَأْوِيلُهَا حَتَّى تَتَّفِقَ مَعَ ذَلِكَ الدَّلِيلِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ تَأْوِيلِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَتَأْوِيلِ أَلْفَاظِ تَرْجَمَتِهِ لَا يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ لَاسِيَّمَا فِي الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ وَالْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ .

(107/292)

---

(13) إِنَّ لِنَظْمِ الْقُرْآنِ وَأُسْلُوبِهِ تَأْثِيرًا خَاصًّا فِي نَفْسِ السَّامِعِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْقَلَ بِالتَّرْجَمَةِ ، وَإِذَا فَاتَ يَفُوتُ بِفَوْتِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، فَيَا طَالَمَا كَانَ جَاذِبًا إِلَى الْإِسْلَامِ ، حَتَّى قَالَ أَحَدُ فَلَاسِفَةِ أُورُبَّا وَهُوَ فِرَنْسِيٌّ نَسِيتُ اسْمَهُ : إِنَّ مُحَمَّدًا كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِحَالٍ مُؤَثِّرَةٍ تَجْذِبُ السَّامِعَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، فَكَانَ تَأْثِيرُهُ أَشَدَّ مِنْ تَأْثِيرِ مَا يُنْقَلُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ ، وَحَضَرَ الدُّكْتُورُ فَارِسُ أَفَنْدِي نِمِر مَرَّةً الِاحْتِفَالَ السَّنَوِيَّ لِمَدْرَسَةِ الْجَمْعِيَّةِ الْخَيْرِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ فَافْتَتَحَ الِاحْتِفَالَ تِلْمِيذٌ بِقِرَاءَةِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ لِي الدُّكْتُورُ فَارِسُ أَفَنْدِي : إِنَّ لِهَذِهِ الْقِرَاءَةِ تَأْثِيرًا عَمِيقًا فِي النَّفْسِ . ثُمَّ لَمَّا كَتَبَ خَبَرَ الِاحْتِفَالِ فِي جَرِيدَتِهِ (الْمُقَطَّمِ) كَتَبَ ذَلِكَ ، فَإِذَا كَانَ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ هَذَا التَّأْثِيرُ حَتَّى فِي نَفْسِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ بِهِ ، فَكَيْفَ نَحْرِمُ مِنْهَا الْمُسْلِمِينَ بِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ لَهُمْ .

---

(14) إِذَا تَرْجَمَ التُّرْكِيُّ وَالْفَارِسِيُّ وَالْهِنْدِيُّ وَالصِّينِيُّ . . . إِلَخ . الْقُرْآنَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ هَذِهِ التَّرَاجِمِ مِنَ الْخِلَافِ مِثْلُ مَا بَيْنَ تَرَاجِمِ كُتُبِ الْعَهْدِ الْعَتِيقِ وَالْعَهْدِ الْجَدِيدِ عِنْدَ النَّصَارَى ، وَقَدْ رَأَيْنَا مَا اسْتَخْرَجَهُ لَهُمْ صَاحِبُ إِظْهَارِ الْحَقِّ مِنَ الْخِلَافَاتِ الَّتِي كُنَّا نَقْرَؤُهَا ، وَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى أَنْ حَفِظَ كِتَابَنَا مِنْ مِثْلِهَا ، فَكَيْفَ نَخْتَارُهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِنَا ؟ .

(15) إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْآيَةُ الْكُبْرَى عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، بَلْ هُوَ الْآيَةُ الْبَاقِيَةُ مِنْ آيَاتِ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ كَوْنُهُ آيَةً بَاقِيَةً مَحْفُوظَةً مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ ، وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّصْحِيفِ ، بِالنَّصِّ الَّذِي نَقَلْنَاهُ عَمَّنْ جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَالتَّرْجَمَةُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ . هَذَا مَا تَرَاءَى لَنَا مِنَ الْوُجُوهِ الْمَانِعَةِ مِنْ تَرْجَمَتِهِ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ لِيَكُونَ لَهُمْ قُرْآنٌ أَعْجَمِيٌّ بَدَلَ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ هَذِهِ الْوُجُوهِ مِمَّا يُمْكِنُ إِدْخَالُهُ فِي الْبَعْضِ - وَإِنَّمَا ذُكِرَ هَكَذَا ؛ لِزِيَادَةِ الْإِيضَاحِ - فَإِنَّ هُنَاكَ وُجُوهًا أُخْرَى يُمْكِنُ اسْتِنْبَاطُهَا لِمَنْ تَأَمَّلَ وَفَكَّرَ فِي وَقْتِ صَفَاءِ الذِّهْنِ وَصِحَّةِ الْبَدَنِ ، بَلْ مِنْهَا مَا تَرَكْنَاهُ مَعَ تَذَكُّرِهِ .

وَأَمَّا دَعْوَى الْقَائِلِينَ بِوُجُوبِ تَرْجَمَتِهِ أَنَّ عَدَمَ جَوَازِ التَّرْجَمَةِ يَسْتَلْزِمُ إِيجَابَ بَقَائِهِ غَيْرَ مَفْهُومٍ فَهِيَ مَمْنُوعَةٌ ، فَإِنَّا نَقُولُ : إِنَّ فَهْمَهُ سَهْلٌ ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْعَلَ فَهْمَهُ حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِ فَكَيْفَ يَجْعَلُهُ دِينًا لِشَعْبٍ بِرُمَّتِهِ ؟ وَإِنَّ لِاهْتِدَاءِ الْمُسْلِمِ الْأَعْجَمِيِّ بِالْقُرْآنِ دَرَجَتَيْنِ ، دَرَجَةٌ دُنْيَا بِالْعَوَامِّ الَّذِينَ لَا يَتَيَسَّرُ لَهُمْ طَلَبُ الْعِلْمِ فَيَحْفَظُونَ الْفَاتِحَةَ وَبَعْضَ السُّوَرِ الْقَصِيرَةِ ; لِأَجْلِ قِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ ، وَيُتَرْجَمُ لَهُمْ تَفْسِيرُهَا ، وَتُقْرَأُ أَمَامَهُمْ فِي مَجَالِسِ الْوَعْظِ بَعْضُ الْآيَاتِ ، وَيُذْكَرُ لَهُمْ تَفْسِيرُهَا بِلُغَتِهِمْ كَمَا جَرَى عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعَاجِمِ حَتَّى بِبِلَادِ الصِّينِ ، وَدَرَجَةٌ عُلْيَا لِلْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ ، وَهَؤُلَاءِ يَجِبُ أَنْ يُتْقِنُوا لُغَتَهُ وَيَسْتَقِلُّوا بِفَهْمِهِ مُسْتَعِينِينَ بِكَلَامِ الْمُفَسِّرِينَ غَيْرَ مُقَلِّدِينَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ .

إِنَّ الْأَعَاجِمَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى أَيْدِي الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ قَدْ فَهِمُوا أَنَّ لِلْإِسْلَامِ لُغَةً خَاصَّةً بِهِ ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ عَامَّةً بَيْنَ أَهْلِهِ لِيَفْهَمُوا كِتَابَهُ الَّذِي

(110/292)

يَدِينُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ ، وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ بِتِلَاوَتِهِ ; وَلِتَتَحَقَّقَ بَيْنَهُمُ الْوَحْدَةُ الْمُشَارُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ فِيهِ : إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (21 : 92) وَيَكُونُوا جَدِيرِينَ بِأَنْ يَعْتَصِمُوا بِهِ وَهُوَ حَبْلُ

اللهِ فَلَا يَتَفَرَّقُوا ، وَلِتَكْمُلَ فِيهِمْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ الَّتِي حَتَّمَهَا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (49 : 10) ; وَلِذَلِكَ انْتَشَرَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي فَتَحَهَا الصَّحَابَةُ بِسُرْعَةٍ غَرِيبَةٍ مَعَ عَدَمِ وُجُودِ مَدَارِسَ وَلَا كُتُبٍ وَلَا أَسَاتِذَةٍ لِلتَّعْلِيمِ ، وَاسْتَمَرَّتِ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ فِي زَمَنِ الْأُمَوِيِّينَ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَفِي أَوَّلِ مُدَّةِ الْعَبَّاسِيِّينَ حَتَّى صَارَتِ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةَ الْمَلَايِينِ مِنَ الْأُورُبِّيِّينَ وَالْبَرْبَرِ وَالْقِبْطِ وَالرُّومِ وَالْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ فِي مَمَالِكَ تَمْتَدُّ مِنَ الْمُحِيطِ الْغَرْبِيِّ (الْأَتْلَانْتِيكِ) إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَهَلْ كَانَ هَذَا إِلَّا خَيْرًا عَظِيمًا تَآخَتْ فِيهِ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ ، وَتَعَاوَنَتْ عَلَى مَدَنِيَّةٍ كَانَتْ زِينَةً لِلْأَرْضِ وَضِيَاءً وَنُورًا لِأَهْلِهَا .

(111/292)

ثُمَّ هَفَا الْمَأْمُونُ فِي الشَّرْقِ هَفْوَةً سِيَاسِيَّةً حَرَّكَتِ الْعَصَبِيَّةَ الْجِنْسِيَّةَ فِي الْفُرْسِ فَأَنْشَؤُوا يَتَرَاجَعُونَ إِلَى لُغَتِهِمْ ، وَيَعُودُونَ إِلَى جِنْسِيَّتِهِمْ ، وَجَاءَ الْأَتْرَاكُ فَفَعَلُوا بِالْعَصَبِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ مَا فَعَلُوا ، فَسَقَطَ مَقَامُ الْخِلَافَةِ وَتَمَزَّقَ شَمْلُ الْإِسْلَامِ بِقُوَّةِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ ، وَلَكِنْ لَمْ تَصِلِ الْفِتْنَةُ بِالنَّاسِ إِلَى إِيجَادِ قُرْآنٍ أَعْجَمِيٍّ لِلْأَعَاجِمِ ، وَإِبْقَاءِ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُنَزَّلِ خَاصًّا بِالْعَرَبِ ، بَلْ بَقِيَ الدِّينُ وَالْعِلْمُ عَرَبِيَّيْنِ وَرَاءَ إِمَامِهِمَا الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ .

(112/292)

فَالْوَاجِبُ عَلَى دُعَاةِ الْإِصْلَاحِ فِي الْإِسْلَامِ الْآنَ أَنْ يَجْتَهِدُوا فِي إِعَادَةِ الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ خَيْرِ قُرُونِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ يَسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِالطُّرُقِ الصِّنَاعِيَّةِ فِي التَّعْلِيمِ ، فَيَجْعَلُوا تَعَلُّمَ الْعَرَبِيَّةِ إِجْبَارِيًّا فِي جَمِيعِ مَدَارِسِ الْمُسْلِمِينَ وَيُحْيُوا الْعِلْمَ بِالْإِسْلَامِ بِطَرِيقَةٍ اسْتِقْلَالِيَّةٍ لَا يَتَقَيَّدُونَ فِيهَا بِآرَاءِ الْمُؤَلِّفِينَ فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ الْمُخَالِفَةِ لِطَبِيعَةِ هَذَا الْعَصْرِ فِي أَحْوَالِهَا الْمَدَنِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ ، وَلَكِنَّنَا نَرَى بَعْضَ الْمَفْتُونِينَ مِنَّا بِسِيَاسَةِ أُورُبَّا يُعَاوِنُونَهَا عَلَى تَقْطِيعِ بَقِيَّةِ مَا تَرَكَ الزَّمَانُ مِنَ الرَّوَابِطِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِتَقْوِيَةِ الْعَصَبِيَّاتِ الْجِنْسِيَّةِ حَتَّى صَارَ بَعْضُهُمْ يُحَاوِلُ إِغْنَاءَ بَعْضِ شُعُوبِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ ! أَلَا إِنَّهَا فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَقَى اللهُ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهَا . فَهَذَا مَا أَقُولُهُ الْآنَ فِي تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ لِلْمُسْلِمِينَ دُونَ

تَفْسِيرِهِ لَهُمْ بِلُغَتِهِمْ مَعَ بَقَائِهِ إِمَامًا لَهُمْ ، وَدُونَ تَرْجَمَتِهِ لِدَعْوَةِ غَيْرِهِمْ بِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ مَعَ أَنَّ الْمُتَرْجِمَ بَيَّنَ الْمَعْنَى الَّذِي يَفْهَمُهُ هُوَ . انْتَهَتِ الْفَتْوَى .

وَمُلَخَّصُ هَذِهِ الْفَتْوَى : أَنَّ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ تَرْجَمَةً حَرْفِيَّةً مُتَعَذِّرَةٌ وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَفَاسِدُ

كَثِيرَةٌ ، فَهُوَ مَحْظُورٌ لَا يُبِيحُهُ الْإِسْلَامُ ; لِأَنَّهُ جِنَايَةٌ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُسَمَّى التَّرْجَمَةُ قُرْآنًا وَلَا كِتَابَ اللَّهِ ، وَلَا أَنْ يُسْنَدَ شَيْءٌ مِنْهَا إلَيْهِ تَعَالَى فَيُقَالُ قَالَ : اللَّهُ كَذَا ; لِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ وَقُرْآنَهُ عَرَبِيٌّ بِالنَّصِّ الْقَطْعِيِّ وَالْإِجْمَاعِ الشَّرْعِيِّ مِنْ سَلَفِ أَهْلِ الْمِلَّةِ كُلِّهِمْ وَخَلَفِهِمْ لَا الْإِجْمَاعِ الْأُصُولِيِّ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ ; وَلِأَنَّهَا لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ مِنْ خَصَائِصِ الْقُرْآنِ اللَّفْظِيَّةِ وَلَا الْمَعْنَوِيَّةِ كَالْإِعْجَازِ ، وَهِيَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُخَالِفَةً لَهُ فِي الْمَعْنَى كَمُخَالَفَتِهَا فِي اللَّفْظِ ، فَإِسْنَادُهَا إلَيْهِ تَعَالَى كَذِبٌ عَلَيْهِ وَكُفْرٌ بِكِتَابِهِ . بَلْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إبْدَالُ لَفْظٍ مِنْ أَلْفَاظِ الْمُصْحَفِ بِلَفْظٍ آخَرَ يُرَادِفُهُ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَكَلِمَتِي " شَكٍّ ، وَرَيْبٍ " فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ (2 : 2) وَأَمَّا التَّرْجَمَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ الَّتِي هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ تَفْسِيرِ مَا يَحْتَاجُ إلَى تَفْسِيرِهِ مِنْهُ بِلُغَةٍ أُخْرَى فَغَيْرُ مُحَرَّمٍ ، وَإِنَّمَا تُتَّبَعُ فِيهِ الْمَصْلَحَةُ الشَّرْعِيَّةُ بِقَدْرِهَا .

(أَقْوَالُ الْفُقَهَاءِ فِي الْمَسْأَلَةِ)

تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ وَقِرَاءَتُهُ وَكِتَابَتُهُ بِغَيْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

(114/292)

الْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْأَئِمَّةِ وَسَائِرِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ لَا تَجُوزُ كِتَابَةُ الْقُرْآنِ وَلَا قِرَاءَتُهُ وَلَا تَرْجَمَتُهُ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ مُطْلَقًا ، إلَّا فِيمَا نُقِلَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَصَاحِبِهِ مِنْ جَوَازِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالْفَارِسِيَّةِ فِي خُصُوصِ الصَّلَاةِ ، وَإِلَيْكَ بَعْضُ النُّصُوصِ فِي ذَلِكَ : قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْحَسَنِ الْمَرْغِينَانِيُّ الْحَنَفِيُّ فِي التَّجْنِيسِ : وَيُمْنَعُ مِنْ كِتَابَةِ الْقُرْآنِ بِالْفَارِسِيَّةِ بِالْإِجْمَاعِ ; لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إلَى الْإِخْلَالِ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ ; لِأَنَّا أُمِرْنَا بِحِفْظِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى فَإِنَّهُ دَلَالَةٌ عَلَى النُّبُوَّةِ ; وَلِأَنَّهُ يُؤَدِّي إلَى التَّهَاوُنِ بِأَمْرِ الْقُرْآنِ اهـ .

وَقَالَ فِي مِعْرَاجِ الدِّرَايَةِ : مَنْ تَعَمَّدَ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ أَوْ كِتَابَتَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ فَهُوَ مَجْنُونٌ أَوْ زِنْدِيقٌ وَالْمَجْنُونُ يُدَاوَى ، وَالزِّنْدِيقُ يُقْتَلُ ، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ الْبُخَارِيِّ اهـ .

وَفِي الدِّرَايَةِ : إنَّ الْقُرْآنَ اسْمٌ لِلنَّظْمِ وَالْمَعْنَى جَمِيعًا بِالْإِجْمَاعِ ، وَقَدْ أُنْزِلَ حُجَّةً عَلَى النُّبُوَّةِ وَعَلَمًا عَلَى الْهُدَى ، وَالْهُدَى بِمَعْنَاهُ ، وَالْحُجَّةُ بِنَظْمِهِ . وَكَمَا أَنَّ الْإِخْلَالَ بِالْمَعْنَى يُسْقِطُ حُكْمَ الْقِرَاءَةِ كَذَلِكَ الْإِخْلَالُ بِالنَّظْمِ ، وَلِأَنَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ وَاجِبٌ فِي الْجُمْلَةِ ; لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَى الْحُكْمِ وَلَا قِرَاءَةَ تَجِبُ إلَّا فِي الصَّلَاةِ ، فَعُلِمَ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِعَيْنِ مَا أُنْزِلَ لِيَقَعَ الْحِفْظُ بِهَا اهـ .

(115/292)

وَرَوِيَ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ كَمَا فِي الْهِدَايَةِ وَغَيْرِهَا : جَوَازُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالْفَارِسِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ مُطْلَقًا ، وَعَنِ الصَّاحِبَيْنِ : إذَا كَانَ لَا يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ ، أَمَّا إذَا كَانَ يُحْسِنُهَا فَلَا يَجُوزُ ، وَتَفْسُدُ صَلَاتُهُ إذَا قَرَأَ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ .

وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ : رُجُوعُ الْإِمَامِ إلَى قَوْلِهِمَا وَعَلَيْهِ الِاعْتِمَادُ – وَقَالَ الْإِمَامُ الزَّاهِدِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ : إنَّ مَا نُقِلَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَصَاحِبَيْهِ مِنْ أَنَّ الْقِرَاءَةَ بِالْفَارِسِيَّةِ تُفْسِدُ الصَّلَاةَ لِمَنْ قَدَرَ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ ، أَمَّا عِنْدَ الْعَجْزِ فَلَا فَسَادَ إذَا قَرَأَ بِالْفَارِسِيَّةِ كُلَّ لَفْظٍ بِمَا هُوَ فِي مَعْنَاهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ فِيهِ شَيْئًا . أَمَّا إذَا قَرَأَ عَلَى سَبِيلِ التَّفْسِيرِ فَتَفْسُدُ صَلَاتُهُ بِالْإِجْمَاعِ اهـ .

وَهُوَ تَقْيِيدٌ حَسَنٌ ؛ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ مُتَكَلِّمًا بِكَلَامٍ غَيْرِ الْقُرْآنِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ وَهُوَ مُفْسِدٌ لِلصَّلَاةِ .

(116/292)

وَأَصْلُ الِاخْتِلَافِ فِي ذَلِكَ كَمَا فِي بَدَائِعِ الصَّنَائِعِ وَأَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِحُجَّةِ الْإِسْلَامِ الْجَصَّاصِ قَوْلُهُ تَعَالَى فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (73 : 20) حَيْثُ أَمَرَ بِالْقِرَاءَةِ ، وَالْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ ،

وَلَا مَوْضِعَ لِوُجُوبِ الْقِرَاءَةِ غَيْرُ الصَّلَاةِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْقِرَاءَةَ فِي الصَّلَاةِ ، فَذَهَبَ الصَّاحِبَانِ إلَى أَنَّهُ إذَا قَرَأَ بِالْفَارِسِيَّةِ وَهُوَ يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ ، فَقَدْ قَرَأَ مَا لَيْسَ بِقُرْآنٍ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ عُهْدَةِ الْأَمْرِ ; لِأَنَّ الْفَارِسِيَّ لَيْسَ قُرْآنًا ، وَالْقُرْآنُ هُوَ الْمُنَزَّلُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، قَالَ تَعَالَى : إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا (12 : 2) وَأَيْضًا فَالْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجِزُ ، وَالْإِعْجَازُ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ يَزُولُ بِزَوَالِ النَّظْمِ الْعَرَبِيِّ فَلَا يَكُونُ الْفَارِسِيُّ قُرْآنًا لِانْعِدَامِ الْإِعْجَازِ ; وَلِهَذَا لَمْ تُحَرَّمْ قِرَاءَتُهُ عَلَى الْجُنُبِ وَالْحَائِضِ ، غَيْرُ أَنَّهُ إذَا كَانَ لَا يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ ، فَقَدْ عَجَزَ عَنْ مُرَاعَاةِ لَفْظِهِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ مُرَاعَاةُ مَعْنَاهُ ; لِيَكُونَ التَّكْلِيفُ بِحَسْبِ الْإِمْكَانِ اهـ - وَالْمُرَادُ مُطْلَقُ الْمَعْنَى ، وَإِلَّا فَمَعْنَى النَّظْمِ الْمُعْجِزِ لَا تُؤَدِّيهِ التَّرْجَمَةُ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

وَلَا يَعْنِينَا الْآنَ بَيَانُ وَجْهِ اسْتِدْلَالِ الْإِمَامِ بِالْآيَةِ عَلَى مَا ذَهَبَ إلَيْهِ بَعْدَ أَنْ صَحَّ رُجُوعُهُ إلَى قَوْلِ الصَّاحِبَيْنِ .

(117/292)

فَظَهَرَ أَنَّ قَوْلَ الثَّلَاثَةِ بِجَوَازِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ لِمَنْ لَا يُحْسِنُهَا لَيْسَ مَبْنَاهُ أَنَّ التَّرْجَمَةَ تَصِيرُ قُرْآنًا عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْ أَدَائِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ ، فَيُفْرَضُ عَلَيْهِ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، بَلِ الْمَفْرُوضُ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ تَعَلُّمُ الْعَرَبِيَّةِ ; لِأَنَّهُ الْقُرْآنُ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي الصَّلَاةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى

الِاكْتِفَاءِ بِالْمَعْنَى فِي حَقِّهِ لِعَجْزِهِ ، وَلِأَنَّهُ الْمَيْسُورُ لَهُ مِنْ مَعْنَى الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مَجْمُوعُ النَّظْمِ وَالْمَعْنَى الْمَأْمُورِ بِهِ فِي الصَّلَاةِ . وَلَمَا كَانَ أَدَاءُ الْمَفْرُوضِ مَوْقُوفًا عَلَى النَّظْمِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَيْسُورًا لَهُ أُتِيَ بِالتَّرْجَمَةِ بَدَلًا عَنْهُ ؛ لِتَقُومَ مَقَامَهُ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى الْمَفْرُوضِ ، مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ قُرْآنًا ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ ، الْمُنَزَّلُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَالتَّرْجَمَةُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ - وَفِي الدِّرَايَةِ قِرَاءَةُ غَيْرِ الْعَرَبِيِّ تُسَمَّى قُرْآنًا مَجَازًا ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَصِحُّ نَفْيُ الْقُرْآنِ عَنْهُ فَيُقَالُ لَيْسَ بِقُرْآنٍ وَإِنَّمَا هُوَ تَرْجَمَتُهُ ، وَإِنَّمَا جَوَّزْنَاهُ لِلْعَاجِزِ إذَا لَمْ يُخِلَّ بِالْمَعْنَى ، لِأَنَّهُ قُرْآنٌ مِنْ وَجْهٍ بِاعْتِبَارِ اشْتِمَالِهِ عَلَى الْمَعْنَى ، فَالْإِتْيَانُ بِهِ أَوْلَى مِنَ التَّرْكِ مُطْلَقًا ؛ إذِ التَّكْلِيفُ بِحَسْبِ الْوُسْعِ اهـ .

(118/292)

وَظَاهِرٌ أَنَّ مَسْأَلَةَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ ، وَمَسْأَلَةُ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ وَقِرَاءَتِهِ بِغَيْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مُطْلَقًا شَيْءٌ آخَرُ ، وَالْكَلَامُ فِي الثَّانِي دُونَ الْأَوَّلِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ جَوَازِ الْأَوَّلِ عَلَى فَرْضِ تَسْلِيمِهِ جَوَازُ الثَّانِي ، حَتَّى يُنْسَبَ إلَى الْإِمَامِ وَصَاحِبَيْهِ الْقَوْلُ بِجَوَازِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ وَقِرَاءَتِهِ خَارِجَ الصَّلَاةِ ، وَكِتَابَتِهِ بِغَيْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَيْفَ ذَلِكَ وَقَدْ أَجْمَعَتْ كُتُبُهُمْ عَلَى أَنَّ الْخِلَافَ فِي خُصُوصِ الصَّلَاةِ . وَأَصْلُهُ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْقِرَاءَةِ إنَّمَا هُوَ فِي الصَّلَاةِ دُونَ غَيْرِهَا

كَمَا أَطْبَقُوا عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (73 : 20)

وَالْقُرْآنُ الْمَعْرُوفُ هُوَ اللَّفْظُ الْمُنَزَّلُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ خَاصَّةً .

وَفِي شَرْحِ أُصُولِ الْبَزْدَوِيِّ لِلْإِمَامِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَحْمَدَ الْبُخَارِيِّ الْحَنَفِيِّ :

الْقُرْآنُ اسْمٌ لِلنَّظْمِ وَالْمَعْنَى جَمِيعًا فِي قَوْلِ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ مِنْ قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ ، إلَّا أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ النَّظْمَ رُكْنًا لَازِمًا فِي جَوَازِ الصَّلَاةِ خَاصَّةً ، وَإِنَّمَا هُوَ لَازِمٌ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الْأُخْرَى ، كَوُجُوبِ الِاعْتِقَادِ ، وَحُرْمَةِ كِتَابَةِ الْمُصْحَفِ بِالْفَارِسِيَّةِ ، وَحُرْمَةِ الْمُدَاوَمَةِ وَالِاعْتِيَادِ عَلَى الْقِرَاءَةِ بِهَا اهـ .

(119/292)

وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ الْإِمَامَ رَجَعَ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ فِي الصَّلَاةِ أَيْضًا إلَى الْقَوْلِ بِعَدَمِ جَوَازِ الصَّلَاةِ بِالْفَارِسِيَّةِ مُطْلَقًا ، فَيَكُونُ النَّظْمُ رُكْنًا لَازِمًا عِنْدَهُ فِي كُلِّ حَالَةٍ كَمَا ذَكَرَهُ الْعَلَّامَةُ الْآلُوسِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ : وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (26 : 196) بِنَاءً عَلَى عَوْدِ الضَّمِيرِ إلَى الْقُرْآنِ بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : تَخْصِيصُ الْجَوَازِ بِالْفَارِسِيَّةِ ؛ لِأَنَّهَا أَشْرَفُ اللُّغَاتِ بَعْدَ الْعَرَبِيَّةِ ، وَفِي أُخْرَى إنَّهَا إنَّمَا تَجُوزُ بِالْفَارِسِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ لِلْعَاجِزِ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَقَدْ صَحَّحَ رُجُوعَهُ عَنِ الْقَوْلِ بِجَوَازِ الْقِرَاءَةِ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ مُطْلَقًا جَمْعٌ مِنَ الثِّقَاتِ الْمُحَقِّقِينَ ؛

لِضَعْفِ الِاسْتِدْلَالِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَيْهِ كَمَا لَا يَخْفَى فَإِنَّ الظَّاهِرَ عَوْدُ الضَّمِيرِ فِي الْآيَةِ عَلَى الْقُرْآنِ بِتَقْدِيمِ مُضَافٍ ، أَيْ وَإِنَّ ذِكْرَ الْقُرْآنِ لَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ إنْ فُلَانًا فِي دَفْتَرِ الْأَمِيرِ اهـ مُلَخَّصًا .

(120/292)

وَمِنْ هَذَا يُعْلَمُ مَا فِي اسْتِدْلَالِ بَعْضِهِمْ بِقَوْلِ الْإِمَامِ عَلَى جَوَازِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ بِأَيِّ لُغَةٍ خَارِجِ الصَّلَاةِ وَدَاخِلِهَا لِلْقَادِرِ وَالْعَاجِزِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَى رِوَايَةِ التَّخْصِيصِ بِالْفَارِسِيَّةِ لَا تَجُوزُ بِغَيْرِهَا مُطْلَقًا ، وَعَلَى رِوَايَةِ رُجُوعِهِ إلَى قَوْلِ صَاحِبَيْهِ لَا تَجُوزُ خَارِجَ الصَّلَاةِ مُطْلَقًا ، وَلَا لِلْقَادِرِ فِي الصَّلَاةِ ، وَعَلَى رِوَايَةِ الثِّقَاتِ عَنْهُ : لَا تَجُوزُ مُطْلَقًا بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا لِلْقَادِرِ وَالْعَاجِزِ وَالْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ رَأْيُهُ الْأَخِيرِ الَّذِي صَحَّ إلَيْهِ كَمَا هُوَ رَأْيُ الْجَمَاعَةِ ، فَكَيْفَ يَصِحُّ الِاسْتِدْلَالُ بِقَوْلِهِ عَلَى جَوَازِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ مُطْلَقًا ؟ اهـ (ص31 – 36) ثُمَّ قَالَ فِي فَصْلٍ آخَرَ (ص39) : " وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيَّةِ عَدَمُ جَوَازِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالْفَارِسِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ أَوْ لَا يُحْسِنُهَا ، وَفِي فَتَاوَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ حَجَرٍ مِنْ أَئِمَّةِ الشَّافِعِيَّةِ – وَقَدْ سُئِلَ

هَلْ تَحْرُمُ كِتَابَةُ الْقُرْآنِ بِالْعَجَمِيَّةِ كَقِرَاءَتِهِ ؟ فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ قَضَّةً مَا فِي الْمَجْمُوعِ عَنِ الْأَصْحَابِ التَّحْرِيمُ ، وَوَجْهُهُ بِمَا لَا يَخْرُجُ عَمَّا قَدَّمْنَاهُ فَرَاجِعْهُ .

(121/292)

" وَقَالَ الْإِمَامُ الزَّرْكَشِيُّ مِنْ أَئِمَّةِ الشَّافِعِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْأَقْرَبُ الْمَنْعُ مِنْ كِتَابَةِ الْقُرْآنِ بِالْفَارِسِيَّةِ كَمَا تَحْرُمُ قِرَاءَتُهُ بِغَيْرِ لُغَةِ الْعَرَبِ ، وَفِي شَرْحِ الْعُبَابِ أَنَّ كِتَابَةَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ بِالْعَجَمِيِّ تَصَرُّفٌ فِي اللَّفْظِ الْمُعْجِزِ الَّذِي حَصَلَ بِهِ التَّحَدِّي بِمَا لَمْ يَرِدْ بَلْ بِمَا يُوهِمُ عَدَمَ الْإِعْجَازِ بَلِ الرَّكَاكَةَ ; لِأَنَّ الْأَلْفَاظَ الْعَجَمِيَّةَ فِيهَا تَقْدِيمُ الْمُضَافِ إلَيْهِ عَلَى الْمُضَافِ ; وَذَلِكَ مِمَّا يُخِلُّ بِالنُّظُمِ وَيُشَوِّشُ الْفَهْمَ ، وَقَدْ صَرَّحُوا بِأَنَّ التَّرْتِيبَ مَنَاطُ الْإِعْجَازِ . وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي حُرْمَةِ تَقْدِيمِ آيَةٍ عَلَى آيَةٍ يَعْنِي أَوْ كَلِمَةٍ عَلَى كَلِمَةٍ كَمَا يَحْرُمُ ذَلِكَ قِرَاءَةً اهـ .

" بَلْ نَصُّوا عَلَى أَنَّ فِي تَرْتِيبِ حُرُوفِ الْكَلِمَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ، وَمُرَاعَاةِ التَّنَاسُبِ فِيمَا بَيْنَهَا مِنَ الصِّفَاتِ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ مَا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فَضْلًا عَمَّا فِي تَرْتِيبِ الْكَلِمَاتِ وَالْجُمَلِ مِنَ اللَّطَائِفِ وَالْأَسْرَارِ مِمَّا لَا يَحُومُ حَوْلَ بَيَانِهِ لِسَانٌ أَوْ يُدْرِكُهُ جَنَانٌ .

(122/292)

" وَمَعَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ كِتَابَةِ الْقُرْآنِ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ اخْتَلَفُوا فِيمَا إذَا كُتِبَ بِغَيْرِهَا : هَلْ يَحْرُمُ مَسُّهُ وَحَمْلُهُ لِلْحَائِضِ وَالْجُنُبِ ؟ ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إلَى الْجَوَازِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِقُرْآنٍ ، وَنَقَلَ الْعَلَّامَةُ الشَّوْبَرِيُّ عَنِ الشَّافِعِيَّةِ : أَنَّ الْقُرْآنَ إذَا كُتِبَ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ يَحْرُمُ مَسُّهُ وَحَمْلُهُ لِلْحَائِضِ وَالْجُنُبِ ، إذْ لَا يَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ كَوْنِهِ قُرْآنًا ، وَإِلَّا لَمْ تَحْرُمْ كِتَابَتُهُ اهـ .

وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ كَوْنِهِ مُتَضَمِّنًا مَعْنَى الْقُرْآنِ بِقَدْرِ مَا تَسَعُهُ أَوْضَاعُ اللُّغَةِ الْمَكْتُوبِ بِهَا ، وَإِنْ خَرَجَ عَنْ نَظْمِهِ وَأُسْلُوبِهِ ، وَإِعْطَاؤُهَا حُكْمَ الْقُرْآنِ حَمَلًا وَمَسًّا عِنْدَهُمْ إنَّمَا هُوَ احْتِرَامٌ لِهَذَا الْقَدْرِ ، وَإِلْحَاقٌ لِنُقُوشِ الرَّسْمِ الْعَجَمِيِّ بِالرَّسْمِ الْمَخْطُوطِ الْعَرَبِيِّ مَعَ مُرَاعَاةِ جَانِبِ الْمَعْنَى فِي الْجُمْلَةِ .

" وَلَمْ يُلَاحَظْ مِثْلُ ذَلِكَ فِي التَّفْسِيرِ مَعَ أَنَّ نَظْمَ الْقُرْآنِ مَوْجُودٌ فِيهِ مُتَخَلِّلٌ بَيْنَ سُطُورِهِ لَمْ يَطْرَأْ عَلَيْهِ تَغْيِيرٌ وَلَا تَبْدِيلٌ ، نَظَرًا إلَى أَنَّ الْمَجْمُوعَ الْمُرَكَّبَ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ لَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْقُرْآنِ وَلَا تَرْجَمَتُهُ بَلْ يُسَمَّى تَفْسِيرًا فَقَطْ ، وَالْغَالِبُ أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُهُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فَرُوعِيَ جَانِبُهُ فِي الْحُكْمِ كَمَا رُوعِيَ فِي التَّسْمِيَةِ ،

(123/292)

وَالْكِتَابَةِ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَظْمُ الْقُرْآنِ مَوْجُودًا فِيهَا بِذَاتِهِ ، وَلَا هِيَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ بِهَيْئَتِهِ ، وَلَكِنْ لِوَضْعِ نَقْشِهِ مَكَانَ النَّقْشِ الدَّالِّ عَلَيْهِ وَإِقَامَتِهِ مَقَامَهُ نَزَلَ مَنْزِلَتَهُ .

" وَالْحَاصِلُ أَنَّ الرُّسُومَ الْكِتَابِيَّةَ لَمَّا كَانَتْ كُلُّهَا مِنْ وَضْعِ الْبَشَرِ لَا فَرْقَ بَيْنَ عَرَبِيٍّ وَغَيْرِهِ أُعْطِيَتْ حُكْمًا وَاحِدًا حَمْلًا وَمَسًّا ، بِخِلَافِ الْأَلْفَاظِ ، فَإِنَّ نَظْمَ الْقُرْآنِ مِنْ وَضْعِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا عَدَاهُ مِنْ صُنْعِ الْبَشَرِ ; فَلِذَلِكَ لَمْ يُنَزِّلْ غَيْرَ النَّظْمِ الْمُعْجِزِ مَنْزِلَتَهُ قِرَاءَةً وَتَعَبُّدًا وَنَزَلَ الرَّسْمُ غَيْرُ الْعَرَبِيِّ مَنْزِلَةَ الْعَرَبِيِّ حَمْلًا وَمَسًّا عِنْدَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ .

"

وَمَذْهَبُ الْحَنَابِلَةِ : أَنَّ الصَّلَاةَ تَفْسُدُ بِالْقِرَاءَةِ بِالْفَارِسِيَّةِ وَنَحْوِهَا عِنْدَ الْعَجْزِ وَعَدَمِهِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى مَنْعِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَكِتَابَتِهِ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ مُطْلَقًا .

وَمَذْهَبُ الْمَالِكِيَّةِ : أَنَّهُ لَا تَجُوزُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَكِتَابَتُهُ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ ; وَلِذَلِكَ أَوْجَبُوا تَعَلُّمَ الْفَاتِحَةِ عَلَى مَنْ لَا يُحْسِنُ قِرَاءَتَهَا فِي الصَّلَاةِ بِالْعَرَبِيَّةِ إِنْ أَمْكَنَ ، وَإِلَّا ائْتَمَّ بِمَنْ يُحْسِنُهَا ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَالْمُخْتَارُ سُقُوطُهَا وَسُقُوطُ الْقِيَامِ لَهَا وَقِيلَ : يَجِبُ قِيَامُهُ بِقَدْرِ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الذِّكْرِ .

(124/292)

" إذَا عَلِمْتَ هَذَا فَالْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ عِنْدَ جَمِيعِ الْأَئِمَّةِ أَنَّهُ لَا تَجُوزُ كِتَابَةُ الْقُرْآنِ وَلَا قِرَاءَتُهُ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ لِعَاجِزٍ أَوْ قَادِرٍ ، لَا فِي الصَّلَاةِ وَلَا خَارِجَهَا ، إلَّا مَا تَقَدَّمَ عَنِ السَّادَةِ الْحَنَفِيَّةِ فِي خُصُوصِ الصَّلَاةِ لِلْعَاجِزِ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَقَدْ عَلِمْتَ مَا فِيهِ وَتَصْحِيحَ الثِّقَاتِ رُجُوعَ الْإِمَامِ عَنْهُ .

" وَمِنْ ذَلِكَ تَعْلَمُ مَا فِي قَوْلِ صَاحِبِ الْكَافِي مِنْ عُلَمَاءِ الْحَنَفِيَّةِ (إنْ اعْتَادَ الْقِرَاءَةَ بِالْفَارِسِيَّةِ أَوْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ مُصْحَفًا بِهَا يُمْنَعُ ، وَإِنْ فَعَلَ فِي آيَةٍ أَوْ آيَتَيْنِ لَا فَإِنْ كَتَبَ الْقُرْآنَ وَتَفْسِيرَ كُلِّ حَرْفٍ وَتَرْجَمَتِهِ جَازَ اهـ .

" فَإِنَّهُ إنْ أَرَادَ بِالتَّرْجَمَةِ التَّرْجَمَةَ الْحَرْفِيَّةَ لِلْقُرْآنِ فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهَا لَا تَجُوزُ مُطْلَقًا ذُكِرَ مَعَهَا تَفْسِيرٌ أَوْ لَمْ يُذْكَرْ ؛ لِأَنَّهَا تَحْرِيفٌ وَتَغْيِيرٌ لِلنَّظْمِ لَا يَدْفَعُهُ اقْتِرَانُ التَّفْسِيرِ بِهِ ، وَإِنْ أَرَادَ التَّرْجَمَةَ التَّفْسِيرِيَّةَ فَهَذِهِ جَائِزَةٌ مُطْلَقًا بِالشَّرْطِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ ، وَلَيْسَتْ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ ، عَلَى أَنَّ نُصُوصَ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ تُخَالِفُهُ .

وَلِذَلِكَ أَفْتَى صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الْأُسْتَاذُ شَيْخُ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ بِمَنْعِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ ، وَوُجُوبِ مُصَادَرَةِ الْمُصْحَفِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى التَّرْجَمَةِ الْحَرْفِيَّةِ وَإِنْ كَانَ مَعَهَا تَرْجَمَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ .

" وَمَا يُتَوَهَّمُ مِنْ جَوَازِ التَّرْجَمَةِ الْحَرْفِيَّةِ أَخْذاً مِنْ ظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ (9 : 6) فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ; لِأَنَّ الْمَعْنَى كَمَا ذَكَرَهُ الْآلُوسِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ الْمُشْرِكَ إِذَا طَلَبَ الْأَمَانَ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ الْمَضْرُوبِ يُؤْمِنُ حَتَّى يَتَدَبَّرَ الْأَمْرَ وَيَتَّعِظَ بِمَا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنْ هَدْيِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الْعَرَبِ تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُ اللهِ وَكَلَامُهُ ; لِأَنَّهُ مِنْ أَعْرَفِ النَّاسِ بِدَلَالَتِهَا وَأَعْلَمِهِمْ بِبَرَاعَةِ أُسْلُوبِهَا وَبَلَاغَةِ نَظْمِهَا ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَهُمْ صَاغِرُونَ ، وَآمَنُوا بِهِ وَهُمْ لِإِعْجَازِهِ مُذْعِنُونَ .

وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ يُبَيِّنُ لَهُ مَا يُرْشِدُهُ لِلْحَقِّ وَيَهْدِيهِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لَا بِخُصُوصِ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى .

وَاقْتُصِرَ فِي الْآيَةِ عَلَى ذِكْرِ السَّمَاعِ ; لِأَنَّهَا مُسَوَّقَةٌ لِبَيَانِ حَالِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، وَهُمْ مِنْ أَهْلِ اللَّسَنِ وَالْبَلَاغَةِ ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُهَا يَتَنَاوَلُهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَالْمُرَادُ : حَتَّى يَنْصَاعُوا لِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ .

(126/292)

" وَقَدْ عَلِمْتَ مِمَّا سَلَفَ حُكْمَ تَرْجَمَةِ كُتُبِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَأَنَّ بَعْثَهَا إِلَى الْكُفَّارِ مُشْتَمِلَةً عَلَى بَعْضِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ لَا يَنْهَضُ دَلِيلًا عَلَى جَوَازِ التَّرْجَمَةِ الْحَرْفِيَّةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؛ لِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ تَرْجَمَةُ مَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ نَحْوِ الْآيَةِ وَالْآيَتَيْنِ تَرْجَمَةً تَفْسِيرِيَّةً لَا حَرْفِيَّةً ، وَلَوْ سُلِّمَ أَنَّهَا حَرْفِيَّةٌ فَهِيَ لَمْ تَذْكُرْ فِي الْكُتُبِ عَلَى أَنَّهَا نَظْمٌ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَلَا قُصِدَ بِهَا تِلَاوَتُهُ بَلْ سِيقَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى حُكْمِهَا ضِمْنَ كُتُبِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اهـ .

شُبَهَاتٌ مِنْ أَبَاحَ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ فِي هَذَا الزَّمَانِ

قَدْ كَانَ مِمَّا نَشْكُو مِنْ فَوْضَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ كَتَبُوا مَقَالَاتٍ فِي الْجَرَائِدِ خَالَفُوا فِيهَا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ إِلَى الْيَوْمِ فَزَعَمُوا أَنَّ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ مُبَاحَةٌ ، وَجَاءُوا بِشُبَهَاتٍ يَحْتَجُّونَ بِهَا عَلَى رَأْيِهِمْ ، بَعْضُهَا آرَاءٌ لَهُمْ ، وَبَعْضُهَا أَقْوَالٌ مِنَ الْكُتُبِ لَمْ يَفْهَمُوهَا ، فَهِيَ لَا تَدُلُّ عَلَى زَعْمِهِمْ ، وَلَوْ دَلَّتْ عَلَيْهَا لَمْ تَكُنْ حُجَّةً ؛ لِأَنَّهَا كَآرَائِهِمْ ، وَمَا كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْقُضَ بِرَأْيِهِ بِنَاءً رَفَعَ سَمْكَهُ الْقُرْآنُ ، وَأَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ قَوْلًا وَعَمَلًا .

(الشُّبْهَةُ الْأُوْلَى) مَا اسْتَدَلَّ بِهِ بَعْضُ الْحَنَفِيَّةِ لِإِمَامِهِمْ عَلَى قَوْلِهِ الَّذِي كَانَ خَطَرَ لَهُ ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ لِظُهُورِ بُطْلَانِهِ لَهُ ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُتَابِعْهُ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ ، وَلَا عَمِلَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ . أَعْنِي مَا سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ مِرَارًا مِنْ جَوَازِ قِرَاءَةِ الْعَاجِزِ عَنِ النُّطْقِ بِالْعَرَبِيَّةِ لَمَّا عَجَزَ عَنْهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ بِالْفَارِسِيَّةِ ، أَعْنِي بِمَا اسْتُدِلَّ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (26 : 196) قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي كَشَّافِهِ فِي تَفْسِيرِهَا : وَإِنَّ الْقُرْآنَ - يَعْنِي ذِكْرَهُ - مُثْبَتٌ فِي سَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ . وَقِيلَ : إِنَّ مَعَانِيَهُ فِيهَا ، وَبِهِ يُحْتَجُّ لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي جَوَازِ الْقِرَاءَةِ بِالْفَارِسِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ حَيْثُ قِيلَ : وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ لِكَوْنِ مَعَانِيهِ فِيهَا اهـ . وَنَقَلَهُ عَنْهُ آخَرُونَ كَصَاحِبِ التَّفْسِيرَاتِ الْأَحْمَدِيَّةِ . وَصَاحِبِ فَتْحِ الْبَيَانِ ، وَنَقَلَهُ عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بَعْضُ الْأَزْهَرِيِّينَ فِي الْجَرَائِدِ عِنْدَمَا دَارَ الْجِدَالُ فِي حُكْمِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ بِاللُّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَادَّعَى أَنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ فَهِمَ هَذَا مِنَ الْآيَةِ .

وَنَقُولُ فِي رَدِّ هَذِهِ الشُّبْهَةِ : (أَوَّلًا) إِنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ لَمْ يَفْهَمْ هَذَا مِنَ الْآيَةِ ، بَلْ فَهِمَ غَيْرَهُ ، وَنَقَلَهُ بِصِيغَةِ التَّمْرِيضِ وَالتَّضْعِيفِ " قِيلَ " وَإِنَّمَا الَّذِي فَهِمَهُ وَاعْتَمَدَهُ مَا قَبْلَهُ ، وَلَعَلَّهُ لَوْلَا

عَادَةُ الْمُنْتَمِينَ إِلَى مَذْهَبٍ مُجْتَهِدٍ لِحِكَايَةِ كُلِّ مَا يُؤَيِّدُ قَوْلَهُ مِنْ قَوِيٍّ وَضَعِيفٍ لَمْ يَنْقُلْهُ ، وَلَوْ بِصِيغَةِ التَّمْرِيضِ ، وَلَهُ كَثِيرٍ مِنَ النُّقُولِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَا يَحْمِلُ تَبَعَتَهَا لِإِشَارَتِهِ إِلَى ضَعْفِهَا .

(ثَانِيًا) أَنَّ سَبَبَ إِشَارَتِهِ إِلَى ضَعْفِهِ هُوَ أَنَّ تَفْسِيرَ الْمَعَانِي بِمَا ذَكَرُوهُ ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُرِيدَهُ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ ، وَلَا مِنْ دُونِهِ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ وَالدِّينِ ، أَعْنِي أَنْ تَكُونَ مَعَانِيهُ هِيَ مَدْلُولُ كَلِمَةِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ ، بِأَنْ تَكُونَ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ الْوَاجِبَةُ فِي الصَّلَاةِ – وَهِيَ مَوْضُوعُ مَسْأَلَةِ أَبِي حَنِيفَةَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ – مَوْجُودَةً فِي التَّوْرَاةِ بِهَذَا النَّظْمِ وَالتَّرْتِيبِ وَلَكِنْ بِأَلْفَاظٍ عِبْرَانِيَّةٍ ; إِذْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَكَانَ الْقُرْآنُ تَرْجَمَةً لِلتَّوْرَاةِ ، وَصَحَّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ هُوَ التَّوْرَاةُ ، وَلَا نُطِيلُ فِي بَيَانِ وُجُوهِ فَسَادِ هَذَا الْقَوْلِ وَبُطْلَانِهِ ، وَمَا كَانَ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ لَوْ كَانَ مُرَادًا مِنَ الْأَبَاطِيلِ كَاحْتِجَاجِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِكِتَابٍ جَدِيدٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بَلْ بِتَرْجَمَةِ بَعْضِ التَّوْرَاةِ .

(129/292)

(ثَالِثًا) إِنْ فَرَضْنَا أَنَّ هَذَا مُرَادٌ فِي بَعْضِ الْقُرْآنِ كَقِصَّةِ مُوسَى الَّتِي فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ أَوْ مُطْلَقًا دُونَ الْفَاتِحَةِ ، وَمِثْلِ قِصَّةِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ ، وَأَنَّ مَنْ قَرَأَ قِصَّةَ مُوسَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ يَصِحُّ أَنْ يَقُولَ : قَرَأْتُ التَّوْرَاةَ مُتَرْجَمَةً بِالْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّ هَذَا – عَلَى كَوْنِهِ – لَيْسَ بِصَحِيحٍ أَيْضًا

عَلَى حَقِيقَتِهِ - لَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ كَمَا أَنَّ الَّذِي يَقْرَأُ الْقِصَّةَ فِي سِفْرِ الْخُرُوجِ مِنَ التَّوْرَاةِ لَا يَصِحُّ أَنْ يَقُولَ : قَرَأْتُ الْقُرْآنَ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعُ الْخِلَافِ . وَإِنَّمَا قُصَارَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنْ تَجُوزَ قِرَاءَةُ عِبَارَةِ التَّوْرَاةِ الْمُوَافِقَةِ لِلْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ ، وَأَنْ يُقَاسَ عَلَيْهَا جَوَازُ تَرْجَمَتِهَا بِالْفَارِسِيَّةِ مَثَلًا ، وَلَمْ يَقُلْ بِالْأَصْلِ أَبُو حَنِيفَةَ وَلَا غَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَصِحَّ قِيَاسُهُمْ عَلَيْهِ . وَهَا هُنَا مَجَالٌ وَاسِعٌ لِلتَّجْهِيلِ وَالسُّخْرِيَةِ بِمَنْ يَتَهَوَّكُونَ مِثْلَ هَذَا التَّهَوُّكِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ ، وَيَنْشُرُونَهُ عَلَى النَّاسِ فِي مَسْأَلَةٍ عَظِيمَةٍ كَهَذِهِ نَتْرُكُهُ عَفْوًا عَنْهُمْ .

(130/292)

(رَابِعًا) اتَّفَقَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ فِي الْآيَةِ مُقَدَّرٌ فِيهِ مُضَافٌ قَبْلَ ضَمِيرِ الْقُرْآنِ ، وَمُضَافٌ قَبْلَ ضَمِيرِ الْقُرْآنِ ، وَمُضَافٌ قَبْلَ زُبُرِ الْأَوَّلِينَ - كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ - وَالْمَعْنَى : وَإِنَّ ذِكْرَهُ أَوْ خَبَرَهُ أَوْ دَلِيلَ صِدْقِهِ - مَثَلًا - لَثَابِتٌ فِي بَعْضِ زُبُرِ الْأَوَّلِينَ . وَلَهُمْ فِي الضَّمِيرِ قَوْلَانِ : (أَحَدُهُمَا) : أَنَّهُ الْقُرْآنُ - وَهُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنَ السِّيَاقِ قَبْلَهُ - (وَالثَّانِي) : أَنَّهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا قَالَ : يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ

(7 : 157) .

(خَامِسًا) أَنَّ الَّذِي يُوجَدُ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ فِي كُتُبِ الرُّسُلِ الْأَوَّلِينَ قِسْمَانِ : (أَحَدُهُمَا) عَامٌّ يُوجَدُ فِيهَا كُلِّهَا وَهُوَ أُصُولُ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ الْمُطْلَقِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَمَا يُقَابِلُ ذَلِكَ مِنَ الزَّجْرِ عَنِ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي

(131/292)

وَالرَّذَائِلِ - وَيَصِحُّ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَيْهِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا (42 : 13) إلَخْ : (وَالثَّانِي) خَاصٌّ وَهُوَ الْأَقْرَبُ إلَى السِّيَاقِ سَابِقِهِ وَلَاحِقِهِ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَأَمْثَالِهَا مِنْ قِصَّةِ مُوسَى وَكَذَا غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّتِي كَانَتْ مَجْهُولَةً عِنْدَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَوْمِهِ وَأَهْلِ بَلَدِهِ خَاصَّةً ; وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إسْرَائِيلَ (26 : 197) كَمَا قَالَ عَقِبَ قِصَّةِ مُوسَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُحْتَجًّا عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إذْ قَضَيْنَا إلَى مُوسَى الْأَمْرَ (28 : 44) الْآيَاتِ .

(132/292)

فَهَلْ يَصِحُّ لِذِي عِلْمٍ أَوْ فَهْمٍ أَنْ يَقُولَ فِي الْآيَةِ إنَّهَا تَدُلُّ عَلَى جَوَازِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ بِالْفَارِسِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا ، وَإِنَّ التَّرْجَمَةَ مَعَ هَذَا تُسَمَّى قُرْآنًا ، وَكَلَامَ اللَّهِ ، وَيُتَعَبَّدُ بِهَا ، خِلَافًا لِنُصُوصِ الْقُرْآنِ الْقَطْعِيَّةِ ، وَلِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ مُنْذُ وُجِدَ الْإِسْلَامُ إلَى الْيَوْمِ ؟ ! لَكَ أَنْ تَقُولَ : إنَّ فَوْضَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ يَصِحُّ مَعَهَا مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ هَذَا عَنِ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ ، كَمَا صَحَّ لِعَالِمٍ أَزْهَرِيٍّ أَنْ يَقُولَ : إنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ رَجَّحَ الْقَوْلَ الَّذِي رَأَيْتُ أَنَّهُ حَكَاهُ حِكَايَةً بِصِيغَةِ التَّضْعِيفِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ ، وَلَا فِي قَوَاعِدِ اللُّغَةِ مَا يَمْنَعُ هَذَا التَّفْسِيرَ ، وَقَدْ عَلِمْتُ قَطْعًا أَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ ، وَالْمُتَبَادِرَ مِنَ اللُّغَةِ يَمْنَعُ ذَلِكَ ! ! ! .

(الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ) قَوْلُ هَذَا الْأَزْهَرِيِّ " وَإِنْ رَجَعْنَا إلَى قَوْلِ الْفُقَهَاءِ - ؛ لِأَنَّ الْجَوَازَ وَعَدَمَهُ مِنْ مَبَاحِثِهِمْ - رَأَيْنَا الْإِمَامَ الشَّافِعِيَّ رُوِيَ عَنْهُ فِي الْأُمِّ أَنَّ لِلْأَعْجَمِيِّ أَنْ يَنْطِقَ بِالْقُرْآنِ مُتَرْجَمًا إلَى غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ ، وَأَنَّ مَا يَنْطِقُ بِهِ إذَا أَرَادَ الْقُرْآنَ بِهِ صِحَّتْ صَلَاتُهُ ، وَعِنْدَمَا يَنْطِقُ بِهِ قِرَاءَةً وَقُرْآنًا ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ وُجُودُ جَمَاعَةٍ تُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ يَقْرَأُ الْإِمَامُ فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ بِلِسَانٍ أَعْجَمِيٍّ ، وَيَقْرَأُ الْمُؤْتَمُّونَ بِهِ بِلِسَانٍ أَعْجَمِيٍّ ، كَذَلِكَ أُمُّ الْقُرْآنِ وَغَيْرُهَا مِنَ السُّوَرِ مَا دَامُوا لَا يُحْسِنُونَ الْعَرَبِيَّةَ " اهـ .

يَا لَلْعَجَبِ وَيَا لِلْفَوْضَى : الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ يُجِيزُ لِلْأَعْجَمِيِّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ فِي الصَّلَاةِ مُتَرْجَمًا إلَى غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ وَيُسَمِّي التَّرْجَمَةَ قُرْآنًا ؟ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ يُجَوِّزُ إقَامَةَ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ الْعَامَّةِ فِي الْمَسْجِدِ بِإِمَامٍ يَقْرَأُ بِلِسَانٍ أَعْجَمِيٍّ ، وَجَمَاعَةٍ يَقْرَؤُونَ بِلِسَانٍ أَعْجَمِيٍّ سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ أُمُّ الْقُرْآنِ وَغَيْرُهَا مِنَ السُّوَرِ ؟ وَمَاذَا بَقِيَ ؟ إذَا كَانَ الشَّافِعِيُّ يُجِيزُ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ بِاللِّسَانِ الْأَعْجَمِيِّ لِلْإِمَامِ وَلِلْجَمَاعَةِ وَلِلْأَفْرَادِ بِمِثْلِ هَذَا الْإِطْلَاقِ الَّذِي حَكَاهُ هَذَا الْعَالِمُ الْأَزْهَرِيُّ عَنِ الْأُمِّ ، فَمَا مَعْنَى ذَلِكَ الْبَيَانِ الْمُفَصَّلِ الَّذِي أَوْرَدَهُ فِي رِسَالَتِهِ فِي الْأُصُولِ فِي إثْبَاتِ كَوْنِ الْقُرْآنِ عَرَبِيًّا ، وَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ لِيَقْرَأَهُ بِهَا فِي الصَّلَاةِ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ إلَخ ؟ .

(وَالْجَوَابُ) عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ أَنَّ صَاحِبَهَا تَقَوَّلَ عَلَى الشَّافِعِيِّ مَا لَمْ يَقُلْ ، عَلَى أَنَّهُ كَانَ

قَدْ نَقَلَ بَعْضَ عِبَارَتِهِ بِتَصَرُّفٍ ، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِمَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ ، فَقَصَّرَ فِي النَّقْلِ ، وَأَخْطَأَ فِي الْفَهْمِ ، وَلَا نَتَّهِمُهُ بِتَعَمُّدِ التَّقَوُّلِ عَلَى الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ ، وَهَذَا نَصُّ عِبَارَةِ الْأُمِّ : " فَإِنْ أَمَّ أَعْجَمِيٌّ أَوْ لَحَّانٌ فَأَفْصَحَ بِأُمِّ الْقُرْآنِ . أَوْ لَحْنٌ لَا يُحِيلُ مَعْنَى شَيْءٍ مِنْهَا أَجْزَأَتْهُ وَأَجْزَأَتْهُمْ ،

وَإِنْ لَحَنَ فِيهَا لَحْنًا يُحِيلُ مَعْنَى شَيْءٍ مِنْهَا لَمْ تُجْزِ مِنْ خَلْفِهِ صَلَاتُهُمْ وَأَجْزَأَتْهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنْ غَيْرَهُ ، كَمَا يَجْزِيهِ أَنْ يُصَلِّيَ بِلَا قِرَاءَةٍ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ الْقِرَاءَةَ . وَمِثْلُ هَذَا إِنْ لَفِظَ مِنْهَا بِشَيْءٍ بِالْأَعْجَمِيَّةِ ، وَهُوَ لَا يُحْسِنُ غَيْرَهُ أَجْزَأَتْهُ صَلَاتُهُ ، وَلَمْ تُجْزِ مَنْ خَلْفَهُ قَرَءُوا مَعَهُ أَوْ لَمْ يَقْرَءُوا ، وَإِذَا ائْتَمُّوا بِهِ فَإِنْ أَقَامَا مَعًا أُمَّ الْقُرْآنِ أَوْ نَطَقَ أَحَدُهُمَا بِالْأَعْجَمِيَّةِ أَوْ لِسَانٍ أَعْجَمِيٍّ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ غَيْرِهَا أَجْزَأَتْهُ ، وَمَنْ خَلْفَهُ صَلَاتُهُمْ إِذَا كَانَ أَرَادَ الْقِرَاءَةَ لِمَا نَطَقَ بِهِ مِنْ عُجْمَةٍ وَلَحْنٍ . فَإِنْ أَرَادَ بِهِ كَلَامًا غَيْرَ الْقِرَاءَةِ فَسَدَتْ صَلَاتُهُ ، فَإِنِ ائْتَمُّوا بِهِ فَسَدَتْ صَلَاتُهُمْ " اهـ .

(135/292)

ذُكِرَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ فِي الْأُمِّ فِي فَصْلٍ عُنْوَانِهِ (إِمَامَةُ الْأَعْجَمِيِّ وَالْأَعْجَمِيُّ كَالْأَعْجَمِ مَنْ فِي لِسَانِهِ لُكْنَةٌ وَفَهَاهَةٌ ، سَوَاءٌ كَانَ عَرَبِيًّا أَوْ عَجَمِيًّا ، وَضِدُّهُ الْفَصِيحُ الْجَيِّدُ النُّطْقِ كَمَا فِي الْمِصْبَاحِ وَغَيْرِهِ ، وَحُكْمُ الْأَعْجَمِيِّ أَنَّهُ يُغْتَفَرُ لَهُ مَا ذَكَرَ آنِفًا مِنَ اللَّحْنِ فِي الصَّلَاةِ مُنْفَرِدًا وَإِمَامًا أَوْ مُنْفَرِدًا فَقَطْ ، كَمَا يُغْتَفَرُ تَرْكُ الْقِرَاءَةِ فِيهَا مُطْلَقًا لِمَنْ لَا يُحْسِنُهَا . وَقَوْلُهُ الْأَخِيرُ الَّذِي لَمْ يَفْهَمْهُ النَّاقِلُ فَكَانَ مَحَلَّ الشُّبْهَةِ وَهُوَ " وَإِذَا ائْتَمُّوا بِهِ " إِلَخ . مَعْنَاهُ أَنَّ الْأَعْجَمِيَّ الَّذِي لَا يُحْسِنُ الْقِرَاءَةَ إِذَا أَمَّ مِثْلَهُ

فَأَقَامَا مَعًا أُمَّ الْقُرْآنِ ، أَيْ أَحْسَنَ كُلٌّ مِنَ الْإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ قِرَاءَةَ الْفَاتِحَةِ ، أَوْ لَحِنَا جَمِيعًا فِي غَيْرِ الْفَاتِحَةِ ، أَوْ نَطَقَ أَحَدُهُمَا بِالْأَعْجَمِيَّةِ أَوْ لِسَانٍ أَعْجَمِيٍّ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْفَاتِحَةِ كَانَتْ صَلَاةُ كُلٍّ مِنْهُمَا صَحِيحَةً ; لِأَنَّ اللَّحْنَ وَالْعُجْمَةَ وَالرَّطَانَةَ الْأَعْجَمِيَّةَ فِي غَيْرِ الْفَاتِحَةِ لَا تُبْطِلُ الْإِمَامَةَ وَلَا الصَّلَاةَ ، إِذْ رُكْنُ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ هُوَ الْفَاتِحَةُ ، وَمَا عَدَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فَهُوَ مُسْتَحَبٌّ لَا فَرْضٌ وَلَا وَاجِبٌ – وَلَيْسَ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ فِي الصَّلَاةِ وَاجِبٌ غَيْرُ فَرْضٍ – وَالْمَفْرُوضُ أَنَّ مَا ذُكِرَ مِنَ النُّطْقِ بِالْأَعْجَمِيَّةِ أَوْ بِاللِّسَانِ الْأَعْجَمِيِّ فِي غَيْرِ الْفَاتِحَةِ سَبَبُهُ الْعَجْزُ عَنِ الْقِرَاءَةِ الْفَصِيحَةِ لَا التَّلَاعُبُ وَلَا قَصْدُ غَيْرِ الْقِرَاءَةِ ، وَإِلَّا بَطَلَتْ صَلَاتُهُمَا

.

وَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ مِنْ تَعَمُّدِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ وَالِاسْتِغْنَاءِ بِالْعَجَمِيِّ الْمُتَرْجَمِ بِهِ عَنِ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى ، وَتَسْمِيَتِهِ قُرْآنًا . كَيْفَ وَقَدْ صَرَّحَ الشَّافِعِيُّ فِي الرِّسَالَةِ بِوُجُوبِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا بِالْعَرَبِيَّةِ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَبِوُجُوبِ أَدَاءِ سَائِرِ الْأَذْكَارِ الْمَأْمُورِ بِهَا بِالْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا . وَبِوُجُوبِ تَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ لِذَلِكَ ، وَهَذَا نَصُّ عِبَارَتِهِ (كَمَا فِي ص9 مِنَ الطَّبْعَةِ الْأَمِيرِيَّةِ الَّتِي مَعَ كِتَابِ الْأُمِّ لَهُ) : .

" فَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ مَا بَلَغَهُ جُهْدُهُ ، حَتَّى يَشْهَدَ بِهِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَيَتْلُو بِهِ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَنْطِقَ بِالذِّكْرِ فِيمَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْبِيرِ ، وَأُمِرَ بِهِ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّشَهُّدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ " إِلَخْ .

هَذَا نَصُّ الشَّافِعِيِّ بَعْدَ أَنْ أَطَالَ فِي كَوْنِ كُلِّ مَا فِي الْقُرْآنِ عَرَبِيٌّ ، وَكُتُبَ مَذْهَبِهِ مُتَّفِقَةٌ فِي الْمَسْأَلَةِ كَسَائِرِ كُتُبِ الْمُسْلِمِينَ وَأَتْبَاعُهُ أَشُدُّهُمْ فِيهَا – أَلَيْسَ مِنَ الْعَجِيبِ مَعَ هَذَا أَنْ يَتَجَرَّأَ عَالِمٌ أَزْهَرِيٌّ فَيَعْزُوَا إِلَى رِوَايَةِ الْأُمِّ عَنِ الشَّافِعِيِّ مَا يَأْتِي عَلَى إِطْلَاقِهِ : .

(1) إِنَّ لِلْأَعْجَمِيِّ أَنْ يَنْطِقَ بِالْقُرْآنِ مُتَرْجَمًا إِلَى غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ .

(2) وَإِنَّ مَا يَنْطِقُ بِهِ إِذَا أَرَادَ الْقِرَاءَةَ بِهِ صَحَّتْ صَلَاتُهُ ، وَعُدَّ مَا يَنْطِقُ قِرَاءَةً وَقُرْآنًا .

(3 ، 4) وَإِنَّهُ يَجُوزُ وُجُودُ جَمَاعَةٍ تُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ يَقْرَأُ الْإِمَامُ فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ بِلِسَانٍ أَعْجَمِيٍّ أُمَّ الْقُرْآنِ ، وَغَيْرَهَا مِنَ السُّوَرِ مَا دَامُوا لَا يُحْسِنُونَ الْعَرَبِيَّةَ .

أَيْنَ ذَكَرَ الشَّافِعِيُّ التَّرْجَمَةَ وَأَبَاحَهَا لِلْأَعْجَمِيِّ ؟ اللَّهُمَّ هَذَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ .

أَيْنَ أَجَازَ الشَّافِعِيُّ إِقَامَةَ الْجَمَاعَةِ فِي مَسْجِدٍ يَقْرَأُ إِمَامُهُ فِيهَا الْفَاتِحَةَ وَغَيْرَهَا بِلِسَانٍ أَعْجَمِيٍّ إِلَخْ ؟ وَعِبَارَتُهُ الْمَنْقُولَةُ عَنْهُ آنِفًا صَرِيحَةٌ فِي كَوْنِ عَجْزِ الْأَعْجَمِيِّ عَنِ الْإِفْصَاحِ وَلَوْ بِبَعْضِ الْفَاتِحَةِ عُذْرًا لَهُ دُونَ مَنْ يُصَلِّي خَلْفَهُ ، فَإِنَّهُمْ لَا تَصِحُّ صَلَاتُهُمْ مَعَهُ ، وَعَدَمُ الْإِفْصَاحِ بِالْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ شَيْءٌ وَالتَّرْجَمَةُ بِلِسَانٍ عَجَمِيٍّ شَيْءٌ آخَرُ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ عِبَارَةَ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ فِي هَذَا الْمَقَامِ خَاصَّةٌ بِمَنْ لَا يُحْسِنُ النُّطْقَ بِالْقُرْآنِ ، وَمَا يُعْذَرُ بِهِ هُوَ وَمَنْ يَأْتَمُّ بِهِ ، وَمِثْلُ هَذَا الْعَجْزِ مَعْهُودٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ نَسْمَعُهُ بِآذَانِنَا مِمَّنْ يَتَعَلَّمُونَ لُغَةً غَيْرَ لُغَتِهِمْ وَلَا يُتْقِنُونَهَا مِنَ الْعَرَبِ أَوِ الْعَجَمِ ، فَهُمْ يُحَرِّفُونَ وَيَلْحَنُونَ وَيَخْلِطُونَ أَلْفَاظًا مِنَ اللُّغَةِ الَّتِي يُجِيدُونَهَا بِاللُّغَةِ الَّتِي لَا يُجِيدُونَهَا بِغَيْرِ اخْتِيَارٍ ، وَنُعِيدُ الْقَوْلَ وَنُؤَكِّدُهُ بِأَنَّ تَعَمُّدَ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ وَالْقِرَاءَةِ بِهِ لَا تَدْخُلُ فِي شَيْءٍ مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ ، وَلَمْ تَخْطُرْ بِبَالِ أَحَدٍ مِنْ أَحَدِ أَتْبَاعِهِ فِي مَذْهَبِهِ عِنْدَمَا شَرَحُوا كَلَامَهُ ، وَفَصَّلُوا أَحْكَامَهُ ، وَلَا تَخْطُرُ بِبَالِ أَيِّ قَارِئٍ لَهُ يَفْهَمُ مَا يَقْرَأُ .

(139/292)

(الشُّبْهَةُ الثَّالِثَةُ) أَنَّ الدَّلَائِلَ عَلَى وُجُوبِ فَهْمِ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ وَتَدَبُّرِهِ فِيهَا وَفِي خَارِجِهَا صَرِيحَةٌ ، وَالْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِيهَا مُحْكَمَةٌ ، وَلَا يَتِمُّ أَدَاءُ هَذَا الْوَاجِبِ إِلَّا بِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ بِلُغَاتِ

جَمِيعِ الشُّعُوبِ الْعَجَمِيَّةِ الَّتِي تُدِينُ بِالْإِسْلَامِ . وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ .

وَالْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْفَهْمَ وَالتَّدَبُّرَ وَمَا يُرَادُ بِهِمَا مِنَ الْخُشُوعِ وَالِاعْتِبَارِ إنَّمَا يَتِمُّ بِتَعَلُّمِ الْمُسْلِمِينَ لِلُغَةِ الْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ لَا بِتَحْوِيلِ الْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ إلَى لُغَاتِهِمْ كُلِّهَا ، كَمَا فَصَّلَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي رِسَالَةِ الْأُصُولِ ، وَأَقَرَّهُ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ لِسَبْقِ الْإِجْمَاعِ وَجَرَيَانِ الْعَمَلِ عَلَى ذَلِكَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ ، وَيُؤَكِّدُهُ أَنَّ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ تَرْجَمَةً صَحِيحَةً تُؤَدِّي مَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي وَالتَّأْثِيرِ كَمَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَعَذِّرَةٌ وَمُسْتَلْزِمَةٌ لِتَغْيِيرِ كَلَامِ اللَّهِ ، وَهَذَا دَلِيلٌ وَسَنَدٌ لِلْإِجْمَاعِ عَلَى تَحْرِيمِهَا فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ تَابِعِينَ لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى دُونَ أَنْ يَكُونَ مَا أَنْزَلَهُ تَعَالَى تَابِعًا لِلُغَاتِهِمْ . وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يُؤْثِرَ الْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ لُغَةَ قَوْمِهِ عَلَى لُغَةِ

(140/292)

كِتَابِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ; وَلِهَذَا كَانَ قُدَمَاءُ الْعَجَمِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُزَاحِمُونَ الْعَرَبَ بِالْمَنَاكِبِ فِي تَلَقِّي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَعْرَابِ الْبَادِيَةِ ، وَفِي جَمِيعِ عُلُومِهَا وَفُنُونِهَا وَآدَابِهَا كَعُلُومِ الشَّرِيعَةِ نَفْسِهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ إيمَانَهُمْ كَانَ بُرْهَانِيًّا وِجْدَانِيًّا ، وَمَا أَحْدَثَ التَّنَافُسَ بَيْنَ لُغَةِ الدِّينِ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ وَلُغَةِ الْآبَاءِ مِنَ الْعَجَمِ إلَّا بَعْضُ زَنَادِقَةِ الْفُرْسِ الْأَوَّلِينَ وَمَلَاحِدَةِ التُّرْكِ

الْمُتَأَخِّرِينَ ، وَأَمَّا قُدَمَاءُ مُسْلِمِي التُّرْكِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ الْعَرَبِيَّةِ وَفُنُونِهَا فَكَانَتْ آفَتُهُمُ الْجَهْلَ ، فَالْخَوْفَ مِنْ عَوْدَةِ السُّلْطَانِ وَالسِّيَادَةِ إِلَى الْعَرَبِ – وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَعَدَّهُمْ لِقَبُولِ دَسَائِسِ الْإِفْرِنْجِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى عَصَبِيَّةِ الْجِنْسِ وَاللُّغَةِ الَّتِي قَوَّضَتْ سَلْطَنَتَهُمْ (إِمْبِرَاطُورِيَّتَهُمُ) الْعُظْمَى بِجَهْلِهِمْ .

(ثَانِيهِمَا) أَنَّ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنَ التِّلَاوَةِ فِي الصَّلَاةِ وَهُوَ الْفَاتِحَةُ وَبَعْضُ الْآيَاتِ أَوِ السُّوَرِ الْقَصِيرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يُفَسَّرَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ بِحِفْظِهِ تَفْسِيرًا يَتَمَكَّنُ بِهِ مَنْ فَهْمِ مَعْنَاهُ ، وَالِاعْتِبَارِ بِهِ فَهُوَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى تَرْجَمَتِهِ وَتَسْمِيَتِهَا كَلَامُ اللهِ كَذِبًا عَلَى اللهِ ، وَخِلَافًا لِنَصِّ كِتَابِ اللهِ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ – فَضْلًا عَنْ تَرْجَمَةِ جَمِيعِ الْقُرْآنِ كَذَلِكَ .

(141/292)

(الشُّبْهَةُ الرَّابِعَةُ) مَسْأَلَةُ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ . وَقَدْ بَيَّنَّا بُطْلَانَهَا مِنْ قَبْلُ ، وَنَزِيدُهَا هُنَا بَيَانًا فَنَقُولُ : لَئِنْ كَانَ اطِّلَاعُ بَعْضِ الْأَفْرَادِ مِنْ أَعَاجِمِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ عَلَى تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ سَبَبًا لِإِسْلَامِهِمْ ، فَعِلَّتُهُ أَنَّهُمْ عَرَفُوا مِنْهَا أُصُولَ الْإِسْلَامِ وَمَقَاصِدَهُ كُلَّهَا أَوْ بَعْضَهَا ، وَذَلِكَ كَافٍ لِتَفْضِيلِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا ، وَلَمْ يَكُنْ سَبَبُهُ تَرْجَمَتَهُ كَتَأْثِيرِ أَصْلِهِ الْمُعْجِزِ لِلْبَشَرِ فِي إِقْنَاعِ الْعُقُولِ ، وَهِدَايَةِ الْقُلُوبِ الَّذِي كَانَ سَبَبَ اهْتِدَاءِ الْعَرَبِ ، وَقَلْبِ طِبَاعِهِمْ ،

وَجَمْعِ كَلِمَتِهِمْ ، وَارْتِفَاعِ رَايَتِهِمْ ، وَخُضُوعِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ لَهُمْ . وَلَوْ بَلَغَتْ هَذِهِ الْأُصُولُ وَالْمَقَاصِدُ لِلْأَعَاجِمِ بِلُغَاتِهِمْ بِأُسْلُوبٍ آخَرَ بِأَنْ يُذْكَرَ كُلُّ أَصْلٍ فِي فَصْلٍ خَاصٍّ مَعَ الشَّوَاهِدِ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، بِبَيَانِ مَعَانِي نُصُوصِهِمَا بِالتَّفْسِيرِ ، وَإِقَامَةِ الْأَدِلَّةِ عَلَيْهِ مِنَ النَّقْلِ وَالْعَقْلِ - لَكَانَ يَكُونُ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى الْإِقْنَاعِ ، وَأَشَدَّ تَأْثِيرًا فِي هِدَايَةِ الْمُسْتَعِدِّ لِلْإِسْلَامِ فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْمُثْلَى لِلدَّعْوَةِ ، وَهِيَ الَّتِي جَرَى عَلَيْهَا مُسْلِمُو خَيْرِ الْقُرُونِ ، وَشَهِدَ لَهُمْ بِذَلِكَ أَصْدَقُ الشُّهُودِ ، وَأَبْعَدُهَا عَنِ الْجَرْحِ وَالطَّعْنِ - وَهِيَ سِيرَتُهُمُ الْفُضْلَى فِي فُتُوحِهِمْ وَعَدْلِهِمُ الْمُطْلَقِ فِي أَحْكَامِهِمْ ، وَصَلَاحِهِمْ وَإِصْلَاحِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَبِذَلِكَ انْتَشَرَ

(142/292)

الْإِسْلَامُ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ ، وَسَادَ أَهْلُهُ الْأُمَمَ وَالشُّعُوبَ بِسُرْعَةٍ لَمْ يُعْرَفْ لَهَا نَظِيرٌ فِي التَّارِيخِ .

(143/292)

فَإِسْلَامُ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ كَانَ بِتَأْثِيرِ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ وَهَدْيِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَجِهَادِهِ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (17 : 9) ، نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا (42 : 52) وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا (2 : 26) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ (5 : 16) وَقَالَ لِنَبِيِّهِ : وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (25 : 52) وَقَدْ كَانَ كُلُّ مَا كَانَ مِنِ اضْطِهَادِ رُؤَسَاءِ قَوْمِهِ الْمُعَانِدِينَ لَهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِأَجْلِ صَدِّهِ عَنْ تَبْلِيغِ الْقُرْآنِ لِلْعَرَبِ لِجَزْمِهِمْ بِمَا يَكُونُ مِنْ جَذْبِهِمْ بِهِ إِلَى اتِّبَاعِهِ ، كَمَا قَالَ لَهُمْ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ بِتَبْلِيغِهِمُ الدَّعْوَةَ : خُذُوا عَلَى يَدَيْهِ ، قَبْلَ أَنْ تَجْتَمِعَ الْعَرَبُ عَلَيْهِ . وَلَمْ يَكُنْ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَطْلُبُ مِنْهُمْ ، ثُمَّ مِنْ كُلِّ مَنْ كَانَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَوْسِمِ إِلَّا حِمَايَتَهُ لِيُبَلِّغَ دَعْوَةَ رَبِّهِ ، وَلَمَّا أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ سِرًّا ، وَنَشَرُوا الدَّعْوَةَ فِي عَاصِمَتِهِمْ يَثْرِبَ ، وَصَارَ لَهُمْ قُوَّةٌ يَحْمُونَهُ بِهَا مِنْ قُرَيْشٍ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ . فَمَا زَالَتْ قُرَيْشٌ تُقَاتِلُهُ إِلَى أَنْ رَضِيَ مِنْهُمْ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ قُوَّتِهِ أَنْ يُصَالِحَهُمْ فِي الْحُدَيْبِيَةِ بِالشُّرُوطِ الَّتِي يَرْضَوْنَهَا – مَعَ كَرَاهَةِ أَصْحَابِهِ كُلِّهِمْ لَهَا – فِي مُقَابَلَةِ الشَّرْطِ الْوَحِيدِ الَّذِي كَانَ هُوَ أَهَمَّ الْمُهِمَّاتِ عِنْدَهُ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ

اللهِ وَسَلَامُهُ ، وَهُوَ حُرِّيَّةُ الِاخْتِلَاطِ وَالِاجْتِمَاعِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ ، لِعِلْمِهِ بِأَنَّ سَمَاعَهُمْ لِلْقُرْآنِ – وَلَاسِيَّمَا مِنْهُ – كَافٍ لِإِسْلَامِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْهُمْ ، وَكَذَلِكَ كَانَ .

وَكَذَلِكَ مَا فَعَلَ خُلَفَاؤُهُ وَأَصْحَابُهُ الْهَادُونَ الْمَهْدِيُّونَ مِنَ الْعَجَائِبِ فِي نَشْرِ الْإِسْلَامِ وَفَتْحِ الْأَقْطَارِ ، وَثَلِّ عُرُوشِ أَعْظَمِ دُوَلِ الْأَرْضِ قُوَّةً وَعَظَمَةً وَنِظَامًا وَتَشْرِيعًا وَحَضَارَةً ، وَتَبْدِيلِ مَمَالِكِهِمْ وَشُعُوبِهَا بِذَلِكَ كُلِّهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ – مَا فَعَلُوا ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَّا بِتَأْثِيرِ الْقُرْآنِ .

وَأَمَّا انْتِشَارُ الْإِسْلَامِ فِي الْأَعَاجِمِ فَقَدْ كَانَ بِتَبْلِيغِ الصَّحَابَةِ ثُمَّ مَنْ تَبِعَهُمْ فِي هَدْيِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ فَالْعَجَمِ لِلدَّعْوَةِ ، وَكَانَ بُرْهَانُهُمْ عَلَيْهَا مِنْ أَحْوَالِهِمُ الصَّالِحَةِ وَسِيرَتِهِمُ الْحُسْنَى أَقْوَى تَأْثِيرًا فِي تِلْكَ الشُّعُوبِ مِنْ أَقْوَالِهِمُ الَّتِي كَانَتْ تُنْقَلُ إِلَيْهَا بِالتَّرْجَمَةِ ، وَلَمْ يَنْتَشِرِ الْإِسْلَامُ فِي شَعْبٍ مِنْهَا بِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ بِلُغَتِهِ ، وَقِرَاءَتِهِمْ لِتَرْجَمَتِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ دَرَجَةُ الْهُدَى وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ تَرْتَفِعُ فِيهِمْ بِقَدْرِ تَدَبُّرِهِمْ لَهُ بَعْدَ تَعَلُّمِ لُغَتِهِ ، فَكَانَ مِنْ مُتْقِنِي لُغَةِ الْقُرْآنِ مِنَ الْمَوَالِي كِبَارُ الْأَئِمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ الرَّأْيِ ، وَجَهَابِذَةُ عُلُومِ اللُّغَةِ وَفُنُونِهَا ، وَأَفْرَادُ الْعِبَادِ ، وَنَوَابِغُ الْأُدَبَاءِ ، وَفُحُولَةُ الشُّعَرَاءِ .

وَقَدْ كَانَ إِيمَانُهُمُ الصَّحِيحُ بِتِلْكَ الدَّعْوَةِ الْمُثْلَى هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى طَلَبِ لُغَةِ الدِّينِ (الْعَرَبِيَّةِ) مِنْ غَيْرِ إِلْزَامٍ حَاكِمٍ ، وَلَا نِظَامِ تَعْلِيمٍ إِجْبَارِيٍّ تُؤَسَّسُ لَهُ الْمَدَارِسُ .

وَقَدْ تُرْجِمَ الْقُرْآنُ فِي هَذِهِ الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ بِأَشْهَرِ لُغَاتِ الشُّعُوبِ الْكَبِيرَةِ مِنْ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ ، فَكَانَتْ تَرْجَمَتُهُ مَثَارًا لِلشُّبُهَاتِ وَسَبَبًا لِلْمَطَاعِنِ ، أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ سَبَبًا لِلِاهْتِدَاءِ إِلَى الْإِسْلَامِ (فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ مَثَارَ الشُّبُهَاتِ لَمْ يَكُنْ مِنَ التَّرْجَمَةِ بَلْ مِنَ الْخَطَأِ فِيهَا ، وَذَلِكَ يُتَلَافَى بِالتَّرْجَمَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي نَدْعُو إِلَيْهَا ، وَإِنَّ سَبَبَ الطَّعْنِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا سُوءَ قَصْدٍ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ دُعَاةِ النَّصْرَانِيَّةِ أَوِ الْمَلَاحِدَةِ ، وَهَؤُلَاءِ يَطْعَنُونَ فِي الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُنَزَّلِ أَيْضًا .

(146/292)

(قُلْتُ) : إِنِّي عَلَى عِلْمِي بِهَذَا أَقُولُ : إِنَّ التَّرْجَمَةَ أَكْبَرُ عَوْنٍ عَلَى الْأَمْرَيْنِ ، فَإِنَّ الَّذِي يَطْعَنُ فِي الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ ضَعِيفًا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ حَاذِقًا لَهَا رَاسِخًا فِيهَا ، فَالْأَوَّلُ شَبِيهٌ بِمَنْ يُحَاوِلُ فَهْمَ الْقُرْآنِ مِنَ التَّرْجَمَةِ أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى مَنْ جَهْلِهِ بِاللُّغَةِ ، وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ يَتَكَلَّفُ الطَّعْنَ تَكَلُّفًا يُكَابِرُ بِهِ وِجْدَانُهُ ، وَيُغَالِبُ ذَوْقَهُ وَبَيَانَهُ ، فَيَجِيءُ طَعْنُهُ ضَعِيفًا سَخِيفًا ، وَيَكُونُ الرَّدُّ عَلَيْهِ سَهْلَ الْمَسْلَكِ . وَاضِحَ الْمَنْهَجِ ، وَقَلَّمَا يَكُونُ الدِّفَاعُ عَنِ التَّرْجَمَةِ كَذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً ، وَلَنْ تَكُونَ صَحِيحَةً إِلَّا فِي بَعْضِ الْجُمَلِ أَوِ الْآيَاتِ

الْقَصِيرَةِ ، دُونَ السُّورِ وَالْآيَاتِ الطَّوِيلَةِ . بَلْ بَعْضِ الْمُفْرَدَاتِ تَتَعَذَّرُ تَرْجَمَتُهَا بِمُفْرَدَاتٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْأُخْرَى تُؤَدِّي الْمُرَادَ مِنْهَا ، وَإِنَّهُ لَيُوجَدُ فِي كُلِّ لُغَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمُفْرَدَاتِ الَّتِي لَا يُوجَدُ لَهَا مُرَادِفٌ فِي لُغَةٍ أُخْرَى ، وَفِي كَلَامِ بَعْضِ الْعَارِفِينَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ الْمَشْهُورَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ أَغْنَاهُنَّ بِهَذِهِ الْمُفْرَدَاتِ دَعْ مَا لَهَا مِنَ الْخَصَائِصِ فِي فُنُونِ الْمَجَازِ وَالْكِنَايَاتِ .

تَعَذُّرُ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ :

(147/292)

قَدْ تَكَرَّرَ فِي كَلَامِنَا الْجَزْمُ بِتَعَذُّرِ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ ، وَالْمُسْلِمُ الصَّحِيحُ الْإِسْلَامِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ عَلَى هَذَا ؛ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجِزٌ لِلْبَشَرِ بِأُسْلُوبِهِ وَنَظْمِهِ الْعَرَبِيِّ الْمُنَزَّلِ ، كَمَا أَنَّهُ مُعْجِزٌ بِهِدَايَتِهِ وَإِصْلَاحِهِ لِلْبَشَرِ ، وَقَدْ تَحَدَّى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْعَرَبَ بِهَذَا الْإِعْجَازِ ، وَتَحَدَّى الْمُسْلِمُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَهُمْ فَثَبَتَ عَجْزُ الْجَمِيعِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ ، وَصَدَقَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (17 : 88) وَالتَّرْجَمَةُ لَا تَكُونُ صَحِيحَةً إِلَّا إِذَا كَانَتْ مِثْلَ الْأَصْلِ ، فَالْآيَةُ نَصٌّ قَطْعِيٌّ عَلَى عَجْزِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ

بَعْضُهُمْ عَوْنًا وَمُسَاعِدًا لِبَعْضٍ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ فَرْدٌ أَوْ جَمَاعَةٌ ؟ ! .

وَإِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ تَرْجَمَتَهُ مِنَ التُّرْكِ لِصَرْفِ قَوْمِهِمْ بِهَا عَنِ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ بِهِ ، فَتَقُومُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْحُجَّةُ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُقَلِّدِينَ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ كَثِيرًا مِنْ أُصُولِ الْإِسْلَامِ وَفُرُوعِهِ لَيَنْخَدِعُونَ بِشُبُهَاتِ الْقَائِلِينَ بِتَرْجَمَةِ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ بِاللُّغَاتِ

(148/292)

الْمُخْتَلِفَةِ ، وَلَا يَدْرُونَ أَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ ، وَلَا أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ ، وَإِذْ قَدْ بَيَّنَّا لِلْفَرِيقَيْنِ عَدَمَ جَوَازِهِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَفَاسِدِ بِالْأَدِلَّةِ الْمُقْنِعَةِ وَجَبَ أَنْ نُبَيِّنَ لَهُمَا الدَّلَائِلَ عَلَى عَدَمِ إِمْكَانِهَا مِنْ جِهَةِ اللُّغَةِ ، وَلَا نَقْتَصِرُ عَلَى بَيَانِهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ فَقَطْ .

وَقَدْ عُلِمَ أَنَّنَا نَعْنِي بِالتَّرْجَمَةِ حَقِيقَةَ مَعْنَاهَا وَالْمُرَادَ مِنْهَا الَّذِي هُوَ مَحَلُّ النِّزَاعِ ، وَهُوَ التَّعْبِيرُ عَنِ الْآيَاتِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَا يُؤَدِّي مَعَانِيَهَا وَتَأْثِيرَهَا مِنْ لُغَةٍ أُخْرَى .

وَإِنَّ تَوْفِيَةَ هَذَا الْمَوْضُوعِ حَقَّهُ يَقْتَضِي تَأْلِيفَ كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ ، وَلَكِنَّنَا نَكْتَفِي بِقَلِيلٍ مِنَ الشَّوَاهِدِ تُغْنِي عَنِ الْكَثِيرِ ، وَنَبْدَأُ بِالْمُفْرَدَاتِ ، وَنُثَنِّي بِالْجُمَلِ ثُمَّ نُعَزِّزُهُمَا بِكَلِمَةٍ فِي الْأَسَالِيبِ .

أَمَّا الْمُفْرَدَاتُ : فَإِمَّا حَقِيقَةٌ وَإِمَّا مَجَازٌ وَإِمَّا كِنَايَةٌ ، وَكُلٌّ مِنْهَا إِمَّا لُغَوِيٌّ سَبَقَ بِهِ اسْتِعْمَالُ

الْعَرَبِ ، وَإِمَّا شَرْعِيٌّ أَوْ مِمَّا انْفَرَدَ بِهِ التَّنْزِيلُ ، وَمِنْهَا الْمُشْتَرَكُ الَّذِي وُضِعَ لِعِدَّةِ مَعَانٍ فِي اللُّغَةِ تَعْرِفُ الْمُرَادَ مِنْهَا بِالْقَرَائِنِ . وَمِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ وَالْأُصُولِ مَنْ أَثْبَتَ

(149/292)

أَنَّ اللَّفْظَ قَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ وَالْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ أَوْ مَعَانِيهِ إذَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ ، وَقَدْ جَرَى عَلَى هَذَا الْجَمْعِ شَيْخُ الْمُفَسِّرِينَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَتَبِعْنَاهُ فِيهِ ، ثُمَّ إنَّ هَذِهِ الْمُفْرَدَاتِ تَنْقَسِمُ إلَى أَسْمَاءٍ وَأَفْعَالٍ وَحُرُوفِ مَعَانٍ ، وَكُلٌّ مِنْهَا أَقْسَامٌ لِكُلٍّ مِنْهَا مَوَاقِعُ فِي الِاسْتِعْمَالِ .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالْقَطْعِ لَدَى الْعَارِفِينَ بِاللُّغَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَّفِقَ لُغَتَانِ مِنْ لُغَاتِ الْعَالَمِ فِي جَمِيعِ مُفْرَدَاتِهَا ، وَلَا فِي طُرُقِ دَلَالَتِهَا ، وَإِذَا فُرِضَ اتِّفَاقُ لُغَتَيْنِ فِي حَقِيقَةِ لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَجَازِهِ وَكِنَايَتِهِ بِحَيْثُ يُتَرْجِمُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ مَهْمَا يَكُنِ الْمُرَادُ مِنْهُ لِلْمُتَكَلِّمِ فَلَنْ يُمْكِنَ مِثْلَ هَذَا فِي الْأَوْضَاعِ الْجَدِيدَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعُرْفِيَّةِ ، كَالْأَلْفَاظِ الْمَوْضُوعَةِ فِي الْقُرْآنِ لِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ أَوْ لِبَعْضِ الْعِبَادَاتِ ; وَلِذَلِكَ ذَهَبَ بَعْضُ عُلَمَاءِ اللُّغَاتِ وَعُلَمَاءِ الِاجْتِمَاعِ إلَى اسْتِحَالَةِ قِيَامِ لُغَةٍ مَقَامَ أُخْرَى فِي آدَابِهَا وَمَعَارِفِهَا وَمَعَانِيهَا الْعَقْلِيَّةِ وَالشِّعْرِيَّةِ .

مِثَالُ ذَلِكَ : الْأَسْمَاءُ الْمَوْضُوعَةُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ ، وَكُلُّ لَفْظٍ مِنْهَا لَهُ مَعْنًى تَدُلُّ عَلَيْهِ مَادَّتُهُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُرَادٌ لِتَحَقُّقِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، كَالْوَاقِعَةِ وَالْقَارِعَةِ وَالطَّامَّةِ وَالصَّاخَّةِ وَالْحَاقَّةِ وَالْغَاشِيَةِ إلَخ . وَقَدْ أَقَمْتُ الْحُجَّةَ عَلَى طَبِيبٍ تُرْكِيٍّ فِي الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ ، إذْ زَعَمَ أَنَّهُ يُتَرْجِمُ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ – وَهُوَ لَا يُحْسِنُ التَّعْبِيرَ عَنْ مُرَادِهِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا يَجِبُ – قُلْتُ لَهُ : لَكُمْ أَنْ تُفَسِّرُوهُ بِالتُّرْكِيَّةِ كَمَا فَعَلَ بَعْضُ عُلَمَائِكُمْ مِنْ قَبْلُ ، وَأَمَّا التَّرْجَمَةُ فَهِيَ مِمَّا يَتَعَذَّرُ عَلَى أَهْلِ اللُّغَاتِ الَّتِي هِيَ أَغْنَى مِنْ لُغَتِكُمْ وَأَوْسَعُ وَإِنْ أَتْقَنُوا الْعَرَبِيَّةَ . . ثُمَّ سَأَلْتُهُ : كَيْفَ تُتَرْجِمُ هَذِهِ الْمُفْرَدَاتِ الْمَوْضُوعَةَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : إنَّهُ يُتَرْجِمُهَا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ : قُلْتُ : إذَا تَفَوَّتُ الْمَعَانِي الِاشْتِقَاقِيَّةَ الْمَقْصُودَةَ بِالذَّاتِ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ ، وَهِيَ بَيَانُ صِفَاتِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَبْدَأً وَغَايَةً وَمَا يَقَعُ فِيهِنَّ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْوَعْظِ وَالنُّذُرِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَالرَّادِعَةِ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَإِذَا تُرْجِمَتْ بِمَعْنَاهَا الِاشْتِقَاقِيِّ لَمْ يُفْهَمْ مِنْهَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا صِفَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ

الْقَارِعَةَ اسْمُ فَاعِلٍ يُوصَفُ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ امْرَأَةٌ تَقْرَعُ أَحَدًا بِالْمِقْرَعَةِ ، وَفِي الْمَجَازِ دَاهِيَةٌ تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِأَهْوَالِهَا ، وَالْقَرْعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ ضَرْبُ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ - كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ - وَأَخَصُّ مِنْهَا (الصَّاخَّةُ) وَهِيَ الضَّرْبَةُ ذَاتُ الصَّوْتِ الشَّدِيدِ يَصُخُّ الْمَسَامِعَ أَيْ يَقْرَعُهَا حَتَّى يُصِمَّهَا أَوْ يَكَادَ ، أَوِ الَّذِي يَضْطَرُّهَا إِلَى الْإِصَاخَةِ وَالْإِصْغَاءِ .

(152/292)

وَإِذَا أَنْتَ فَسَّرْتَ الْكَلِمَةَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَوَصَفْتَهُ بِالْقَارِعَةِ فِي سُورَتِهَا وَبِالصَّاخَّةِ فِي سُورَةِ عَبَسَ وَتَوَلَّى تَكُونُ قَدِ انْفَلَتَ مِنْ مَأْزِقِ التَّرْجَمَةِ إِلَى سِعَةِ التَّفْسِيرِ ، وَحِينَئِذٍ قَدْ تَكُونُ عُرْضَةً لِغَلَطٍ فِي التَّفْسِيرِ يُضِيعُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ . وَإِذَا كَانَ قَدْ وَقَعَ فِي هَذَا بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، فَالْمُتَرْجَمُ بِلُغَةٍ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْلَى بِالْغَلَطِ ; فَإِنَّ بَعْضَ الْمُفَسِّرِينَ قَالَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْقَارِعَةِ الدَّاهِيَةُ الَّتِي تَقْرَعُ الْقُلُوبَ . وَهَذَا التَّفْسِيرُ مَرْدُودٌ بِدَلَالَةِ الْقُرْآنِ نَفْسِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي شَرْحِ هَذَا الْقَرْعِ : إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (56

: 1 – 6) فَهَذَا عَيْنُ الْمُرَادِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (101 : 1 – 5) .

(153/292)

وَيُوَضِّحُ هَذَا مِنْ نَظَرِيَّاتِ الْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْفَلَكِيِّينَ مِنْ أَنَّ خَرَابَ هَذَا الْعَالَمِ لَا يُتَصَوَّرُ إِلَّا بِدُنُوِّ بَعْضِ النُّجُومِ ذَوَاتِ الْأَذْنَابِ مِنَ الْأَرْضِ وَصَدْمِهِ أَوْ قَرْعِهِ لَهَا قَرْعَةً شَدِيدَةً عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ الْجَذْبِ ، تَبَسُّ بِهِ الْجِبَالُ أَيْ تَتَفَتَّتُ حَتَّى تَكُونَ هَبَاءً مُنْبَثًّا فِي الْفَضَاءِ ، وَحِينَئِذٍ يَبْطُلُ نِظَامُ الْجَاذِبِيَّةِ الْعَامَّةِ ، فَتَتَنَاثَرُ الْكَوَاكِبُ وَتَتَصَادَمُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ ذَلِكَ الْيَوْمِ : وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (82 : 2) فَانْطِبَاقُ الْآيَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْوَارِدَةِ فِي وَصْفِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ السُّوَرِ الْمُتَفَرِّقَةِ عَلَى هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ الْفَلَكِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ مَعْرُوفَةً لِلْعَرَبِ وَلَا لِغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْفَلَكِ عَلَى الطَّرِيقِ الْقَدِيمِ – قَدْ تُعَدُّ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ وَعَجَائِبِهِ ، وِفَاقًا لِمَا وَرَدَ فِي وَصْفِهِ مِنَ الْأَثَرِ (وَلَا تَنْتَهِي عَجَائِبُهُ) وَلَكِنَّهُ لَا يَظْهَرُ مِنْ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ الْحَرْفِيَّةِ ، فَيَكُونُ قُصُورُهَا وَعَدَمُ مُوَافَقَتِهَا لِلْأَصْلِ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ .

فَلَمَّا سَمِعَ مِنِّي ذَلِكَ الطَّبِيبُ التُّرْكِيُّ الْمَغْرُورُ هَذَا الشَّرْحَ بُهِتَ وَلَمْ يُحِرْ جَوَابًا – عَلَى أَنَّنَا

رَأَيْنَا فِي الصُّحُفِ أَنَّ الَّذِينَ شَرَعُوا يُتَرْجِمُونَ الْقُرْآنَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ قَدْ فَسَّرُوا يَوْمَ الدِّينِ فِي الْفَاتِحَةِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَالدِّينُ الْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ ،

(154/292)

وَذِكْرُهُ مَقْصُودٌ بِالذَّاتِ ، وَلَهُ مِنَ التَّأْثِيرِ مَا لَيْسَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ التَّالِي لِلْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا بِأَنَّ اللَّهَ سَيُحَاسِبُهُ عَلَى أَعْمَالِهِ وَيَجْزِيهِ بِهَا " إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ " .

وَأَذْكُرُ مِنْ مُفْرَدَاتِ الْأَفْعَالِ دَلَالَةَ صِيَغِهَا مِنْ نَحْوِ التَّكَلُّفِ وَالتَّكْثِيرِ وَالْمُشَارَكَةِ وَالْمُطَاوَعَةِ إِلَخ . وَمِنْ مُفْرَدَاتِ حُرُوفِ الْمَعَانِي وَالْأَدَوَاتِ الْفُرُوقَ فِي الْعَطْفِ وَنُكَتِ وَضْعِ بَعْضِهَا فِي مَوْضِعِ الْآخَرِ كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةَ الْمُكَذِّبِينَ (6 : 11) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ (29 : 20) فَعَطَفَ النَّظَرَ فِي الْأَوَّلِ بِـ " ثُمَّ " الْمُفِيدَةِ لِلتَّرَاخِي ، وَفِي الثَّانِي بِـ " الْفَاءِ " الْمُفِيدَةِ لِلتَّعْقِيبِ . فَهَلْ يُوجَدُ فِي سَائِرِ اللُّغَاتِ مِثْلُ هَذَا الْعَطْفِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْمَعَانِي ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْأُولَى مَعَ مُقَارَنَاتٍ أُخْرَى (ص268 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ) وَلَهُ نَظَائِرُ أُخْرَى فِي تَفْسِيرِنَا .

وَأَذْكُرُ مِنْ مَعَانِي الْأَدَوَاتِ مَا حَقَّقَهُ الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَصْرِ بِـ " إِنَّمَا " وَالْحَصْرِ بِحَرْفَيِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ كَقَوْلِكَ : مَا هُوَ إِلَّا كَذَا . وَهُوَ أَنَّ مَوْضُوعَ " إِنَّمَا " عَلَى أَنْ تَجِيءَ لِخَبَرٍ لَا يَجْهَلُهُ الْمُخَاطَبُ وَلَا يَدْفَعُ صِحَّتَهُ ، أَوْ لَمَّا نَزَلَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ ، وَأَنَّ الْخَبَرَ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ يَكُونُ لِلْأَمْرِ يُنْكِرُهُ الْمُخَاطَبُ وَيَشُكُّ فِيهِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ الْقَاعِدَةَ بِالْأَمْثِلَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ (6 : 145) وَبَيَّنَّا سَبَبَ حَصْرِ هَذَا الْمَعْنَى بِـ " إِنَّمَا " فِي سُورَتَيِ النَّحْلِ وَالْبَقَرَةِ ، وَأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا هُوَ أَنَّ آيَةَ الْأَنْعَامِ هِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي هَذَا الْحَصْرِ ، فَكَانَ لِمَا يُنْكِرُهُ الْمُشْرِكُونَ وَيَجْهَلُهُ الْمُسْلِمُونَ ، وَأَنَّ آيَتَيِ النَّحْلِ وَالْبَقَرَةِ نَزَلَتَا بَعْدَ ذَلِكَ فَكَانَتْ فِي مَعْنَى صَارَ مَعْرُوفًا ، فَهَلْ يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا الْفَرْقِ فِي الْأَدَوَاتِ فِي اللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ وَغَيْرِهَا ؟ وَهَلْ يَفْهَمُ الْمُتَرْجِمُونَ هَذِهِ الدَّقَائِقَ فِي الْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ فَيُرَاعُونَهَا فِي تَرْجَمَتِهِمْ ، إِنْ كَانَتْ لُغَتُهُمْ تُسَاعِدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ؟ ! .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ : الْفَرْقُ بَيْنَ " إِنْ " وَ " إِذَا " الشَّرْطِيَّتَيْنِ ذَكَّرَنِي بِهِ قَوْلِي الْآنَ " إِنْ كَانَتْ لُغَتُهُمْ تُسَاعِدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ " وَهُوَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي شَرْطِ " إِنْ " أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَجْهَلُهُ الْمُخَاطَبُ أَوْ يُنْكِرُهُ أَوْ يَشُكُّ فِيهِ أَوْ مَا يَنْزِلُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ ، وَأَنَّ شَرْطَ " إِذَا " بِخِلَافِهِ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي عِلْمَيِ الْمَعَانِي وَالنَّحْوِ بِأَمْثِلَتِهِ .

وَأَمَّا الْجُمَلُ فَأَكْتَفِي مِنْهَا بِإِيرَادِ شَاهِدٍ وَاحِدٍ ، وَهِيَ الْجُمْلَةُ الْمُفِيدَةُ بِالْحَالِ وَالْفَرْقِ فِيهَا بَيْنَ الْحَالِ الْمُفْرَدَةِ وَجُمْلَةِ الْحَالِ ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَحْكَامٌ شَرْعِيَّةٌ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا (4 : 43) فَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَأَنْتُمْ سُكَارَى جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ مُقَيِّدَةٌ لِلنَّهْيِ . وَقَوْلُهُ : (جُنُبًا) حَالٌ مُفْرَدَةٌ مُقَيِّدَةٌ لَهُ أَيْضًا ، وَلَكِنَّ الْأُولَى تُفِيدُ النَّهْيَ عَنِ السُّكْرِ قَبْلَ الصَّلَاةِ لِئَلَّا يَأْتِيَ وَقْتَ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ فَيَضْطَرُّ السَّكْرَانُ إِلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ أَوْ إِلَى أَدَائِهَا وَهُوَ سَكْرَانُ وَهُوَ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ فِي الْآيَةِ . وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَلَا تَدُلُّ عَلَى تَرْكِ أَسْبَابِ الْجَنَابَةِ قَبْلَ وَقْتِ الصَّلَاةِ ، وَلَا فِي وَقْتِهَا إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ فِعْلِ الطَّهَارَةِ وَأَدَاءِ الصَّلَاةِ

قَبْلَ ذَهَابِ الْوَقْتِ . وَمِثَالُهُ مَا قَالَهُ الْفُقَهَاءُ فِي النُّذُورِ وَهُوَ أَنَّ مَنْ قَالَ : لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ أَعْتَكِفَ صَائِمًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصُومَ ; لِأَجْلِ الِاعْتِكَافِ وَلَا يُجْزِئُهُ أَنْ يَعْتَكِفَ فِي رَمَضَانَ ، وَمَنْ قَالَ لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ أَعْتَكِفَ وَأَنَا صَائِمٌ لَا يَلْزَمُهُ صَوْمٌ لِأَجْلِ الِاعْتِكَافِ بَلْ يُجْزِئُهُ أَنْ يَعْتَكِفَ فِي رَمَضَانَ ، وَيُرَاجَعَ وَجْهُ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (ص94 وَمَا بَعْدَهَا ج5 ط الْهَيْئَةِ) فَهَلْ يَفْهَمُ مُتَرْجِمُ الْقُرْآنِ بِالتُّرْكِيَّةِ مِثْلَ هَذِهِ الدَّقَائِقِ ؟ وَهَلْ تُسَاعِدُهُ لُغَتُهُ عَلَى مُرَاعَاتِهَا إنْ كَانَ يَفْهَمُهَا ؟ أَمْ لَا يَحْتَاجُ إلَى شَرْحٍ وَتَفْسِيرٍ لِبَيَانِهَا فَيَكُونُ مُفَسِّرًا لَا مُتَرْجِمًا ؟ ! .

هَذَا شَاهِدٌ مِنْ شَوَاهِدِ دِقَّةِ التَّعْبِيرِ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ . وَأَمَّا دِقَّةُ التَّعْبِيرِ ، وَبَلَاغَتُهُ فِي الْوَصْفِ الْمُفِيدِ لِلْمَوْعِظَةِ وَالتَّأْثِيرِ ، فَمِنْ عَجَائِبِ شَوَاهِدِهِ وَصْفُ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ إبْرَاهِيمَ : إنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (14 : 42 ، 43) .

(158/292)

شُخُوصُ الْأَبْصَارِ عِبَارَةٌ عَنِ ارْتِفَاعِهَا ، وَكَوْنُ أَجْفَانِهَا مَفْتُوحَةً سَاكِنَةً لَا تَطْرِفُ " وَمُهْطِعِينَ " مِنْ أَهْطَعَ الْبَعِيرُ إذَا صَوَّبَ عُنُقَهُ وَمَدَّ بَصَرَهُ ، وَقِيلَ : الْإِهْطَاعُ أَنْ تُقْبِلَ بِبَصَرِكَ عَلَى الْمَرْئِيِّ

تُدِيمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْإِسْرَاعِ ، وَمُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ مِنْ أَقْنَعَ الْبَعِيرُ رَأْسَهُ إِلَى الْحَوْضِ لِيَشْرَبَ إِذَا رَفَعَهُ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ يَكُونُ رَفْعًا وَخَفْضًا فَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الْاضْدَادِ ، وَقَوْلُهُ : لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ مَعْنَاهُ أَنَّ لَهُمْ فِي شُخُوصِ الْأَبْصَارِ وَإِهْطَاعِهَا مَعَ امْتِدَادِ الْأَعْنَاقِ وَتَصْوِيبِهَا إِلَى مَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ شُغْلًا شَاغِلًا لَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فَتَكُونَ طَوْعَ إِرَادَتِهِمْ يُوَجِّهُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا بَلْ هُمْ فِي هَوْلٍ وَكَرْبٍ لَا مَشِيئَةَ وَلَا سُلْطَانَ لَهُمْ مَعَهُمَا عَلَى أَبْصَارِهِمْ بَلْ عُيُونُهُمْ مَمْدُودَةٌ مَفْتُوحَةٌ لَا تَطْرُفُ وَلَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَتَوَجَّهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ بِتَصْوِيبٍ وَلَا تَصْعِيدٍ . ثُمَّ بَيَّنَ عِلَّةَ هَذَا وَسَبَبَهُ فِي النَّفْسِ فَقَالَ : وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ أَيْ خَلَاءٌ خَاوِيَةٌ مِنَ الْعَقْلِ فَاقِدَةٌ لِلْقُوَّةِ وَالْإِرَادَةِ .

لَعَمْرُ الْحَقِّ إِذَا تَصَوَّرَ مَنْ يَفْهَمُ هَذَا الْوَصْفَ حَقَّ الْفَهْمِ قَوْمًا هَذِهِ حَالُهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى كَأَنَّهُ يَرَاهُمْ لَيَأْخُذَنَّ الرُّعْبُ بِمَخْنِقِهِ ، وَلَيَسْتَحْوِذَنَّ الذُّعْرُ عَلَى شُعُورِهِ وَإِدْرَاكِهِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِنَ الْعَرَبِ الْخُلَّصِ أَوِ الْأَعْرَابِ الْأَقْحَاحِ .

(159/292)

وَأَذْكُرُ فِي الْكِنَايَاتِ مِثْلَ الرَّفَثِ وَإِفْضَاءِ الزَّوْجِ إِلَى الزَّوْجِ وَقَوْلَهُ تَعَالَى : فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا (7 : 189) وَقَوْلَهُ تَعَالَى : أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ (4 : 43) وَقَوْلَهُ :

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ (2 : 223) وَقَوْلُهُ : وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ (2 : 237) فَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّ فِي اللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ وَغَيْرِهَا لَفْظًا بِمَعْنَى التَّغَشِّي الدَّالِّ عَلَى السَّتْرِ ، وَلَفْظًا بِمَعْنَى الْحَرْثِ وَهُوَ الزَّرْعُ - لِأَنَّ مَعَانِيَهُمَا كَالْمَسِّ وَالْمُلَامَسَةِ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الشُّعُوبِ - فَهَلْ تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا فِي لُغَاتِهِمْ كِنَايَةً عَنِ الْوَظِيفَةِ الزَّوْجِيَّةِ السِّرِّيَّةِ كَمَا تُسْتَعْمَلُ فِي الْعَرَبِيَّةِ ؟ .

(160/292)

وَأَمَّا أُسْلُوبُ الْقُرْآنِ فَالْكَلَامُ فِيهِ هُوَ الْبَحْرُ الْخِضَمُّ ، وَالْقَامُوسُ الْمُحِيطُ الْأَعْظَمُ ، فَإِنَّهُ أَظْهَرَ وُجُوهَ الْإِعْجَازِ اللَّفْظِيَّةِ ، وَذَلِكَ أَنْ يَمْزِجَ فُنُونَ الْكَلَامِ . وَيُنَظِّمَ مَقَاصِدَ الْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا ، وَتَبَايُنِ مَوْضُوعَاتِهَا ، مَزْجًا مُتَلَائِمًا ، وَنَظْمًا مُتَنَاسِبًا مُتَنَاسِقًا ، مُوَافِقًا لِلذَّوْقِ السَّلِيمِ ، مُطَابِقًا لِنُكَتِ الْبَلَاغَةِ . فَالْعَقَائِدُ الْإِلَهِيَّةُ وَالدَّلَائِلُ الْعِلْمِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ ، وَالْأَخْبَارُ الْغَيْبِيَّةُ ، وَالسُّنَنُ الْكَوْنِيَّةُ وَالِاجْتِمَاعِيَّةُ ، وَالْمَوَاعِظُ الْأَخْلَاقِيَّةُ وَالْأَدَبِيَّةُ ، وَأَحْكَامُ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْقَضَائِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ ، وَقَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَوَصْفُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ جَمَادَاتٍ وَأَحْيَاءٍ ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ هَوَاءٍ وَهَبَاءٍ ، تَرَاهُ كُلَّهُ فِي السُّورَةِ

الْوَاحِدَةِ ، وَتَرَى الْكَثِيرَ مِنْهُ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ ، بِعِبَارَةٍ بَدِيعَةٍ مُؤَثِّرَةٍ ، يَنْتَقِلُ فِيهَا الْعَقْلُ مِنْ فَائِدَةٍ إِلَى فَائِدَةٍ وَيَتَقَلَّبُ

(161/292)

فِيهَا الْقَلْبُ مِنْ مَوْعِظَةٍ إِلَى مَوْعِظَةٍ ، مَعَ مُنْتَهَى الْإِحْكَامِ وَالْمُنَاسَبَةِ ، بِحَيْثُ لَا تَمَلُّ تِلَاوَتَهُ ، وَلَا تَفْتَأُ تَتَجَدَّدُ هِدَايَتُهُ ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الْأُدَبَاءِ وَأَهْلِ الذَّوْقِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَتَرَدَّدُونَ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ عَلَى بُيُوتِ مَعَارِفِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِيَسْمَعُوا الْقُرْآنَ . وَيُمَتِّعُوا قُلُوبَهُمْ وَأَذْوَاقَهُمْ بِسَمَاعِ تَرْتِيلِهِ ، بِذَلِكَ النَّظْمِ الَّذِي لَيْسَ بِشِعْرٍ وَلَا سَجْعٍ ، وَلَا كَلَامٍ مُرْسَلٍ ، بَلْ هُوَ نَظْمٌ خَاصٌّ ، قَابِلٌ لِلْأَدَاءِ بِالنَّغَمَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُؤَثِّرَةِ عَلَى تَفَاوُتِ آيَاتِهِ وَفَوَاصِلِهِ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ ، فَالْآيَةُ قَدْ تَكُونُ كَلِمَةً مُفْرَدَةً أَوْ كَلِمَتَيْنِ وَجُمْلَةً أَوْ جُمْلَتَيْنِ ، أَوْ جُمَلًا قَلِيلَةً أَوْ كَثِيرَةً ، وَكُلُّهَا " مُخَالِفَةٌ لِسَائِرِ أَسَالِيبِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْمَنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ ، وَلِكُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا تَأْثِيرٌ غَرِيبٌ فِي تَرْتِيلِهَا وَتَجْوِيدِهَا ، بِالْأَصْوَاتِ الْمُلَائِمَةِ لِمَعَانِيهَا .

(162/292)

صَلَّيْتُ الْفَجْرَ مَرَّةً فِي أَهْلِ بَيْتِي بِسُورَةِ الْقَمَرِ ، وَتَلَوْتُهَا بِصَوْتٍ خَاشِعٍ صَادِعٍ مُنَاسِبٍ لِزَوَاجِرِهَا وَنُذُرِهَا ، فَقَالَتْ لِي الْوَالِدَةُ : إِنَّ هَذِهِ النُّذُرَ تَقْصِمُ الظَّهْرَ ، وَصَارَتْ تُسَمِّيهَا سُورَةَ النُّذُرِ . وَقَالَتْ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ مَرَّةً أُخْرَى فِي سُورَةِ (ق) فَهَلْ يُتَصَوَّرُ مِثْلُ هَذَا التَّأْثِيرِ لِلتَّرْجَمَةِ التُّرْكِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ لُغَاتِ الْأَعَاجِمِ فِي أَنْفُسِ أَهْلِهَا كَمَا يُؤَثِّرُ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا دُونَ الْقُرْآنِ مِنْ كَلَامِ بُلَغَائِهِمْ ؟ كَلَّا .

نَمُوذَجٌ مِنْ تَرْجَمَةٍ تُرْكِيَّةٍ :

إِنَّنِي بَعْدَ كِتَابَةِ مَا ذُكِرَ تَذَكَّرْتُ أَنَّ عِنْدَ بَعْضِ مَعَارِفِي تَرْجَمَةً تُرْكِيَّةً لِلْقُرْآنِ فَاسْتَعَرْتُهَا مِنْهُ ، فَإِذَا هِيَ تَرْجَمَةُ جَمِيلِ بْنِ سَعِيدٍ ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُهَا – وَإِذَا فِيهَا مِنَ النَّقْصِ وَالْحَذْفِ وَالْخَطَأِ فَوْقَ مَا كُنْتُ أَظُنُّ ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنَ التَّرْجَمَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ ، وَهَذِهِ جُرْأَةٌ قَبِيحَةٌ لَا تَصْدُرُ عَنْ رَجُلٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَدُلُّ عَلَى سُوءِ نِيَّةِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ فِي التَّرْجَمَةِ ، وَكَوْنُ غَرَضِهِمْ مِنْهَا الْعَبَثُ بِدِينِ الْإِسْلَامِ وَتَنْفِيرُ التُّرْكِ مِنْهُ . وَفَتْحُ أَبْوَابِ الطَّعْنِ لَهُمْ فِيهِ ، وَقَدْ رَاجَعْنَا فِيهَا مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَوَجَدْنَاهُ يَذْكُرُ أَلْفَاظَهَا

الْعَرَبِيَّةَ وَيُفَسِّرُهَا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَأَمَّا كِنَايَاتُ الْوِقَاعِ فَحَذَفَ مِنْهَا قَوْلَهُ تَعَالَى : فَلَمَّا تَغَشَّاهَا (7 : 189) وَاكْتَفَى بِكَلِمَةٍ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَمْلِ .

وَتَرْجَمَ الْمُلَامَسَةَ بِمَا مَعْنَاهُ وَإِذَا وُجِدْتُمْ بِالْمُنَاسَبَاتِ الْجِنْسِيَّةِ مَعَ النِّسَاءِ فَتَنَظَّفُوا .

وَفِيهِ مَا فِيهِ . وَأَمَّا الْحَرْثُ فَتَرْجَمَهُ بِكَلِمَةِ " تارلا " وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُعَدَّةُ لِزَرْعِ الْحُبُوبِ دُونَ الْمُشَجَّرَةِ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْكِنَايَةَ تُجَامِعُ الْحَقِيقَةَ ، فَإِحْلَالُ الرَّفَثِ إِلَى النِّسَاءِ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ يَدُلُّ بِمَفْهُومِهِ عَلَى حَظْرِ الرَّفَثِ بِالْقَوْلِ عَلَى الصَّائِمِ ، وَهُوَ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيُّ لِلْكَلِمَةِ كَمَا يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ الْفِعْلِ الْمُكَنَّى عَنْهُ . وَالتَّرْجَمَةُ التُّرْكِيَّةُ لَا تُفِيدُ الدَّلَالَتَيْنِ .

وَتَرْجَمَ قَوْلَهُ تَعَالَى : لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى (4 : 43) إِلَخْ . بِمَا مَعْنَاهُ : لَا تُصَلُّوا فِي حَالِ سُكْرِكُمْ بَلِ انْتَظِرُوا أَنْ تَجِيئُوا إِلَى حَالٍ يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَفْهَمُوا فِيهَا مَا تَقُولُونَ – وَلَا تَعْبُدُوا فِي حَالِ كَوْنِكُمْ جُنُبًا بَلِ انْتَظِرُوا الْغُسْلَ . وَهَذِهِ تَرْجَمَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ بَاطِلَةٌ مِنْ وُجُوهٍ كَمَا يَرَى الْقَارِئُ وَلَيْسَ فِيهَا تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْحَالَيْنِ وَلَا بَيْنَ الْحُكْمَيْنِ .

(164/292)

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الظَّالِمِينَ : إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (14 : 42 ، 43) فَقَدْ تَرْجَمَهُ بِمَا مَعْنَاهُ

الْحَرْفِيُّ : يُمْهِلُهُمُ اللهُ إِلَى يَوْمٍ يَعْطِفُونَ فِيهِ أَنْظَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ بِصُورَةٍ كَامِلَةٍ ، وَسَتَبْقَى قُلُوبُهُمْ فَارِغَةً وَأَنْظَارُهُمْ ثَابِتَةً ، وَهُمْ يُسْرِعُونَ بِعَجَلَةٍ رُفِعَتْ رُؤُوسُهُمْ اهـ . فَزَادَ عَلَى الْأَصْلِ تَوْجِيهَ النَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَوْلُهُ : " بِصُورَةٍ كَامِلَةٍ " أَرَادَ بِهِ تَفْسِيرَ شُخُوصِ الْبَصَرِ ، وَهُوَ لَا يُؤَدِّي مَعْنَاهُ وَلَا يُصَوِّرُ ذَلِكَ الْوَصْفَ الْبَلِيغَ الْمُؤْثِرَ لِلْأَبْصَارِ الشَّاخِصَةِ ، وَالرُّءُوسِ الْمُقْنِعَةِ ، وَالْأَعْنَاقِ الْمُهْطِعَةِ ، بَلْ لَمْ يَذْكُرِ الرُّؤُوسَ وَالْأَعْنَاقَ أَلْبَتَّةَ . وَإِذَا كَانَ بِهَذِهِ الدَّرْكَةِ مِنَ الْعَجْزِ مَعَ اسْتِعَانَتِهِ بِالْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَكَيْفَ تَكُونُ تَرْجَمَتُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى إِذَا حَاوَلُوا أَنْ تَكُونَ تُرْكِيَّةً خَالِصَةً خَالِيَةً مِنَ الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا يَطْلُبُ غُلَاةُ غُوَاتِهِمْ ؟ ! .

(165/292)

هَذَا وَإِنَّ فِي هَذِهِ التَّرْجَمَةِ مِنَ الْغَلَطِ وَتَحْرِيفِ الْمَعَانِي وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ مَا لَا يَعْقِلُ لَهُ الْمُطَّلِعُ عَلَيْهِ سَبَبًا إِلَّا تَعَمُّدَ الْإِضْلَالِ ؛ لِأَنَّ الْجَهْلَ وَحْدَهُ لَا يَهْبِطُ بِهَذَا الْمُتَرْجِمِ إِلَى هَذَا الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مَعَ ادِّعَائِهِ الْوُقُوفَ عِنْدَ حُدُودِ التَّعْبِيرِ عَنْ مَدْلُولِ اللَّفْظِ الْعَرَبِيِّ بِلَفْظٍ تُرْكِيٍّ ، كَوَظِيفَةِ مُتَرْجِمِي الْمَحَاكِمِ الْقَضَائِيَّةِ .

فَمِنَ التَّحْرِيفِ الْمُخِلِّ الدَّالِّ عَلَى سُوءِ النِّيَّةِ تَرْجَمَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً (سُورَةُ يُونُسَ آيَةِ 87) .

اتَّفَقَ مُفَسِّرُوا السَّلَفِ وَالْخَلْفِ عَلَى أَنَّ مَعْنَى اتِّخَاذِ بُيُوتِهِمْ قِبْلَةً أَنْ يُصَلُّوا فِيهَا ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : اجْعَلُوهَا مَسَاجِدَ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ - أَوْ أَنْ يُوَجِّهُوهَا إلَى الْقِبْلَةِ - قِيلَ : هِيَ الْكَعْبَةُ . وَقِيلَ

بَيْتُ الْمَقْدِسِ ، إلَّا مَا ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ احْتِمَالِ جَعْلِهَا مُتَقَابِلَةً مُتَقَارِبَةً وَلَكِنَّ الْمُتَرْجِمَ التُّرْكِيَّ تَرْجَمَهَا بِقَوْلِهِ : " قومكزا يجون مصرده خانه لر إنشا ايديكز . ويوتلريني قبلة طرفنه توجيه ايديكز " أَيْ أَنْشِئُوا فِي مِصْرَ بُيُوتًا لِقَوْمِكُمْ وَوَجِّهُوا أَصْنَامَهَا لِجِهَةِ الْقِبْلَةِ (؟ ؟) فَمَا قَوْلُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي تَرْجَمَتِهِ لِلْقُرْآنِ ، تُعَلِّمُ التُّرْكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجَازَ لِبَنِي إسْرَائِيلَ اتِّخَاذَ الْأَصْنَامِ . وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى ! ! .

(166/292)

وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْغَلَطُ الْوَحِيدُ فِي تَرْجَمَةِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَلْ هُوَ الْأَفْحَشُ ، وَفِيهَا أَيْضًا أَنَّهُ تَرْجَمَ تَبَوَّأَ الْبُيُوتِ وَهُوَ غَلَطٌ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ سُكْنَاهَا .

وَمِنَ الْحَذْفِ وَالْإِسْقَاطِ أَنَّهُ أَسْقَطَ مِنْ تَرْجَمَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ قَوْلَهُ تَعَالَى : ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ (2 : 29) وَأَسْقَطَ ذِكْرَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى مِنَ الْآيَةِ 57 مِنْهَا - وَأَسْقَطَ وَصْفَ الْقُرْآنِ بِالْقَيِّمِ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ ، وَالْأَمْرِ بِالسُّجُودِ وَالِاقْتِرَابِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْعَلَقِ . .

وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَشُقُّ إِحْصَاؤُهُ .

نَعَمْ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ رَئِيسَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ فِي الْجُمْهُورِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ قَدْ أَعْلَنَ أَنَّ هَذِهِ التَّرْجَمَةَ مَمْلُوءَةٌ بِالْأَغْلَاطِ فَلَا يَجُوزُ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهَا ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْحُكُومَةَ لَمْ تَجْمَعْ نُسَخَهَا وَتَمْنَعِ اسْتِعْمَالَهَا وَطَبْعَهَا فَهِيَ مُنْتَشِرَةٌ ، وَبَلَغَنَا أَنَّهَا أَلَّفَتْ لَجْنَةً لِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ . أَيُّ مُسْلِمٍ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا وَعَلَى لَجْنَتِهَا فِي عِلْمٍ يَعُدُّهُ الْمُسْلِمُونَ الْعَارِفُونَ بِالْإِسْلَامِ جِنَايَةً عَلَيْهِ وَهَدْمًا لَهُ ؟ .

صِفَةُ تَرْجَمَاتِ الْقُرْآنِ التُّرْكِيَّةِ :

(167/292)

وَقَدْ نَشَرَتْ جَرِيدَةُ الْأَخْبَارِ الْمِصْرِيَّةِ رِسَالَةً لِمُرَاسِلِهَا مِنَ الْآسِتَانَةِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ جَاءَ فِيهَا : بَعْدَ الْمُوَافَقَةِ عَلَى تَرْجَمَةِ التُّرْكِ لِلْقُرْآنِ وَتَحْبِيذِهَا مَا نَصُّهُ : "كَانَ أَوَّلَ مُتَرْجِمٍ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ زَكِي أَفَنْدِي مَغَامِز ، وَهُوَ مَسِيحِيٌّ سُورِيٌّ ، وَقَدِ اطَّلَعْنَا عَلَى تَرْجَمَتِهِ صُدْفَةً قَبْلَ طَبْعِهَا ، فَأَبْدَيْنَا رَأْيَنَا فِي الْحَالِ ، وَكُنَّا السَّبَبَ فِي عَدَمِ طَبْعِهَا ثُمَّ قَامَ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ الشَّيْخُ مُحْسِنُ فَانِي (هُوَ حُسَيْنُ كَاظِم بك)

أَحَدُ أَعْلَامِ تُرْكِيَا فِي الْأَدَبِ وَالْفَضْلِ ، وَتَصَدَّى لِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ زُمَلَائِهِ ، وَقَدْ رَأَيْنَاهُ لَا يُؤَدِّي الْمَعَانِي حَقَّهَا ، لَا يُؤَدِّيهَا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تُؤَدَّى بِهَا فِي اللُّغَةِ

التُّرْكِيَّةِ ; وَلِذَلِكَ فَإِنَّنَا انْتَقَدْنَاهُ مِرَارًا .

"

(168/292)

ثُمَّ قَامَ بَعْدَهُمَا جَمِيلُ سَعِيد بك حَفِيدُ كَمَال بَاشَا نَاظِرِ الْمَعَارِفِ الْأَسْبَقِ ، فَتَرْجَمَ الْقُرْآنَ لَقَدْ كَانَ الْمُنْتَظَرُ أَنْ تَكُونَ التَّرْجَمَةُ الثَّانِيَةُ أَحْسَنَ وَأَكْمَلَ مِنَ الْأَوَّلِ إِنَّمَا لَمْ يَتَحَقَّقْ ذَلِكَ الْأَمَلُ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّنَا قَدِ انْتَقَدْنَا جَمِيل بك أَمَرَّ انْتِقَادٍ ، وَلَمْ نَتْرُكْ لَهُ أَيَّ مَنْفَذٍ لِلتَّخَلُّصِ ، وَقَدْ أَرَادَ حَضْرَتُهُ أَنْ يُجِيبَنَا عَلَى انْتِقَادَاتِنَا بِتَخْفِيفِ أَهَمِّيَّةِ أَخْطَائِهِ فَلَمْ يَفْلَحْ فِي ذَلِكَ ، بَلْ كَانَ جَوَابُهُ أَعْدَلَ شَاهِدٍ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ كُفْءٍ لِلْعَمَلِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَقُومَ بِهِ ، وَالْأَدْهَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّنَا عِنْدَ انْتِقَادِنَا لَهُ ظَنَنَّا أَنَّهُ تَرْجَمَ الْقُرْآنَ مِنْ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ أُورُبَّا ، لَا مِنْ أَصْلِهِ الْعَرَبِيِّ ، وَاسْتَدْلَلْنَا عَلَى ذَلِكَ بِبَعْضِ الدَّلَائِلِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُجِيبَنَا عَلَى ذَلِكَ بِبِنْتِ شَفَةٍ ; وَلِذَلِكَ فَإِنَّنَا فِي مَقَالَتِنَا الثَّانِيَةِ شَدَدْنَا عَلَيْهِ الْحَمْلَةَ لِآخَرَ دَرَجَةٍ ، وَقُلْنَا لَهُ : إِنَّهُ فَضَحَ الشَّعْبَ التُّرْكِيَّ بِاقْتِرَافِ هَذِهِ الْجَرِيرَةِ الْمُدْهِشَةِ ; لِأَنَّ الشَّعْبَ التُّرْكِيَّ شَعْبٌ مُسْلِمٌ مُنْذُ عَشَرَاتِ الْقُرُونِ ، شَعْبٌ يَخْدِمُ الْمَدَنِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَيَتَوَلَّى زَعَامَةَ الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُنْذُ قُرُونٍ ، شَعْبٌ يَفْهَمُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مِنْ أَصْلِهِ الْعَرَبِيِّ مُنْذُ قُرُونٍ شَعْبٌ أَنْجَبَ الْمِئَاتِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ

فَسَّرُوا الْقُرْآنَ ، وَتَبَحَّرُوا فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْهُ . فَعَارٌ أَنْ يَقْرَأَ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ فِي هَذَا

(169/292)

الْقَرْنِ مِنْ لُغَةِ مُبَشِّرٍ مُتَعَصِّبٍ .

وَقَدْ أَخْرَجْنَا لِذَلِكَ الْمُتَرْجِمِ كَثِيرًا مِنْ أَخْطَائِهِ الَّتِي لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا ، وَعَدَا هَذَا فَإِنَّ رِيَاسَةَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ فِي أَنْقِرَةَ لَمْ تَتَأَخَّرْ مُطْلَقًا فِي الْقِيَامِ بِوَاجِبِهَا ، بَلْ إِنَّهَا عِنْدَ انْتِشَارِ كُلِّ تَرْجَمَةٍ مِنْ هَذِهِ التَّرَاجِمِ حَذَّرَتِ النَّاسَ مِنْهَا ، وَنَبَّهَتْهُمْ إِلَى مَا فِيهَا مِنَ التَّحْرِيفَاتِ . وَبِذَلِكَ قَضَتْ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ بِمَا تَسْتَحِقُّهَا انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .

وَجَاءَ فِي جَرِيدَةِ الْأَهْرَامِ فِي 29 مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ 1342 هـ مَا نَصُّهُ : تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ بِالتُّرْكِيَّةِ

(170/292)

أَقْدَمَ فَرِيقٌ مِنَ التُّرْكِ أَخِيرًا عَلَى تَنْفِيذِ الْفِكْرَةِ الَّتِي طَالَمَا تَمَنَّوْا تَنْفِيذَهَا ، وَهِيَ أَنْ يُتَرْجِمُوا الْقُرْآنَ بِالتُّرْكِيَّةِ ، وَيَسْتَغْنُوا بِهِ عَنِ النَّظْمِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ ، فَشَرَعَ مُصْطَفَى أَفَنْدِي الْعَيْنَتَابِيُّ وَزِيرُ الْحَقَّانِيَّةِ السَّابِقُ ، وَالشَّيْخُ مُحْسِنُ فَانِي ، وَمُصْطَفَى بِك ، وَسَيْفُ الدِّينِ بِك فِي نَشْرِ التَّرْجَمَةِ التُّرْكِيَّةِ بِأَقْلَامِهِمْ ، وَقَدْ أَنْشَأَتْ مَجَلَّةُ (سَبِيلِ الرَّشَادِ) التُّرْكِيَّةُ مَقَالَةً عِلْمِيَّةً فِي انْتِقَادِ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ ، وَبَيَانِ مَوَاطِنِ الْخَلَلِ فِيهَا ، وَقَدَّمَتْ لِذَلِكَ نَمُوذَجًا مِنَ الْغَلَطَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي تَرْجَمَةِ (سُورَةِ الْفَاتِحَةِ) فَقَطْ فَبَلَغَتْ سِتَّ غَلَطَاتٍ لَا يَجُوزُ التَّسَامُحُ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا . فَمِنْ ذَلِكَ خَطَؤُهُمْ فِي وَضْعِ لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمُنْدَمِجِ فِي حَرْفِ (أَلْ) مِنْ (الْحَمْدُ) وَحَشْوِهِمْ لَفْظًا زَائِدًا فِي تَرْجَمَةِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَتَقُولُ الْمَجَلَّةُ التُّرْكِيَّةُ : إِنَّهُمْ قَطَعُوا بِذَلِكَ نَظْمَ الْكَلِمَاتِ الْقُدْسِيَّةِ بَلْ سَحَقُوا مَا فِيهَا مِنَ الدُّرَرِ ، وَتَرْجَمُوا وَغَيَّرُوا لَفْظَ يَوْمِ الدِّينِ بِلَفْظِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

(171/292)

وَقَدْ أَبَانَتِ الْمَجَلَّةُ التُّرْكِيَّةُ الْفُرُوقَ الْعَظِيمَةَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ وَزَادُوا فِي الْفَاتِحَةِ نِدَاءَ "يَا اللَّهُ" مَرَّتَيْنِ بِلَا لُزُومٍ . وَبِذَلِكَ حَوَّلُوا بَلَاغَةَ الْقُرْآنِ وَإِيجَازَهُ إِلَى شَكْلٍ غَيْرِ لَطِيفٍ . وَتَرْجَمُوا كَلِمَةَ (اهْدِنَا) بِلَفْظِ "أَرِنَا" قَالَتِ الْمَجَلَّةُ : وَبِذَلِكَ نَحَوْا نَحْوَ مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ ، وَلَا نَدْرِي

أَقَصَدُوا ذَلِكَ أَمْ هِيَ رَمْيَةٌ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ؟ وَحَرَّفُوا نَظْمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ فَجَعَلُوا " الصِّرَاطَ " فِي التَّرْجَمَةِ مَفْعُولَ الْإِنْعَامِ ، وَهُوَ مَفْعُولُ الْهِدَايَةِ ، فَجَاءَتْ تَرْجَمَتُهُمْ هَكَذَا : " الصِّرَاطُ الَّذِي أَنْعَمْتَهُ عَلَى غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ " .

قَالَتْ مَجَلَّةُ سَبِيلِ الرَّشَادِ : وَالْحَقُّ أَنَّ جَرْأَةَ أُنَاسٍ هَذَا مَبْلَغُ عِلْمِهِمْ بِلُغَةِ الْقُرْآنِ ، عَلَى أَنْ يُتَرْجِمُوا الْقُرْآنَ لَمِمَّا يَدْعُو إِلَى الْأَسَفِ ، وَإِنَّهُ لَإِثْمٌ عَظِيمٌ . قَالَتْ : وَرَجَاؤُنَا إِلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا اللهَ مِمَّا ارْتَكَبُوا مِنَ الْإِثْمِ الْعَظِيمِ ، وَأَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ وَيَتَحَوَّلُوا عَنْ هَذَا الْعَمَلِ السَّقِيمِ الَّذِي حَاوَلُوهُ اهـ .

وَنَقُولُ : بَلَغَنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَتُوبُوا ، وَأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِذَلِكَ مِنْ حُكُومَةِ أَنْقَرَةَ ، وَأَنَّ تَرْجَمَتَهُمْ سَتَكُونُ الرَّسْمِيَّةَ وَاللهُ أَعْلَمُ .

(172/292)

قَدْ عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ تَرْجَمَةٍ حَاوَلَهَا التُّرْكُ قَاصِرَةٌ عَنْ أَدَاءِ مَعَانِي الْقُرْآنِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي يَفْهَمُهَا كُلُّ قَارِئٍ ، وَيَسْهُلُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِكُلِّ لُغَةٍ ، دَعْ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ ، وَالْأَوْصَافِ الْمُمْتَازَةِ فِي الْبَلَاغَةِ ، وَأَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَعَالَمِ الْغَيْبِ ، وَالتَّعْبِيرِ عَنْهَا بِالْمُفْرَدَاتِ وَالْجُمَلِ وَالْأَسَالِيبِ الْخَاصَّةِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ دُونَ لُغَاتِ الْعَجَمِ وَلَا سِيَّمَا التُّرْكِيَّةُ

الْفَقِيرَةُ ، وَهَذَا يَفْتَحُ أَبْوَابًا وَاسِعَةً لِلشُّبُهَاتِ وَالْمَطَاعِنِ فِيهِ ، وَيَسُدُّ أَبْوَابًا وَاسِعَةً لِضُرُوبٍ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأَمُّلِ الدَّافِعَةِ لَهَا ، وَضُرُوبٍ مِنَ الْمَعَارِفِ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ لَهُ . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ التُّرْكَ حَظَرُوا تَعْلِيمَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَفُنُونَهَا وَالْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ فِي بِلَادِهِمْ . فَعَلَى هَذَا لَا يَجِدُ قَارِئُ تَرْجَمَتِهِمُ التُّرْكِيَّةِ لِلْقُرْآنِ فِي الْأَجْيَالِ الْآتِيَةِ مَرْجِعًا لِتَفْسِيرِ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ إِذَا هُوَ اسْتَشْكَلَ أَوْ طَعَنَ لَهُ أَحَدٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا .

(173/292)

وَأَضْرِبُ لِذَلِكَ مِنَ الْمَثَلِ قَوْلَهُ تَعَالَى : وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (95 : 1) الَّذِي سَأَلَ عَنْهُ مُصْطَفَى كَمَال بَاشَا بَعْضَ عُلَمَائِهِمْ ، فَأَجَابَهُ بِأَنَّ الْجَوَابَ لَا يُمْكِنُ بَيَانُهُ فِي أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ سَاعَةٍ ، فَهَزَأَ بِهِ الْبَاشَا ، وَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهُ مَثَلًا فِي الْجَهْلِ ، وَهُوَ أَجْدَرُ بِهَذَا الْوَصْفِ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِتَوَهُّمِهِ أَنَّهُ يَكْفِي فِي الْجَوَابِ أَنْ يَذْكُرَ لَهُ مُرَادِفَ التِّينِ بِالتُّرْكِيَّةِ وَهُوَ " انجير " ، وَذَلِكَ الْعَالِمُ يُعْذَرُ إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْكَبِيرَ فِي مَقَامِهِ وَفِي مَعَارِفِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ تَفْسِيرِ بَعْضِ الْمُفْرَدَاتِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَا يُقَابِلُهَا فِي التُّرْكِيَّةِ وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُرِيدُ بِالسُّؤَالِ مَعْنَى إِقْسَامِ اللهِ تَعَالَى بِبَعْضِ الشَّجَرِ وَالْبِقَاعِ وَالْبِلَادِ وَحِكْمَتِهِ ، كَمَا إِذَا سَأَلَ هَذَا الْفَقِيهُ مِنَ

الْبَاشَا عَمَّا يُسَمِّيهِ رِجَالُ الْحَرْبِ " خَطَّ الرَّجْعَةِ " مَثَلًا ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُرِيدَ بِذَلِكَ تَفْسِيرَ كَلِمَةِ خَطٍّ وَكَلِمَةِ الرَّجْعَةِ لُغَةً .

(174/292)

وَلَعَلَّ ذَلِكَ الْعَالِمَ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْبَاشَا لَمْ يَسْأَلْ هَذَا السُّؤَالَ إلَّا وَهُوَ مُنْكِرٌ لِوُرُودِ الْقَسَمِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ، كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ كَلَامٍ لَهُ كَثُرَ نَقْلُهُ عَنْهُ ، وَهُوَ احْتِقَارُ التَّعَالِيمِ وَالنَّظْمِ الَّتِي وُضِعَتْ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ ، وَزَعْمُهُ أَنَّهَا وُضِعَتْ لِقَوْمٍ مُنْحَطِّينَ فِي الْحَضَارَةِ وَالْفُنُونِ ، فَلَا يَلِيقُ اتِّبَاعُهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي ارْتَقَتْ فِيهِ الصِّنَاعَاتُ وَالْفُنُونُ وَالْمَعَارِفُ الْمَادِّيَّةُ ، وَاسْتَبَاحَ الْمُتْرَفُونَ فِيهِ الرَّذَائِلَ بِاسْمِ الْمَدَنِيَّةِ ، فَأَرَادَ أَنْ يُزِيلَ مِنْ فِكْرِهِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ الْجَهْلِيَّةِ ، وَيُبَيِّنَ لَهُ مَعْنَى صِيغَةِ الْقَسَمِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَهُوَ تَأْكِيدُ الْكَلَامِ وَحِكْمَةُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْإِقْسَامِ بِالْمَخْلُوقَاتِ كَالتَّذْكِيرِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ ، وَمُنَاسِبَةِ كُلِّ قَسَمٍ مِنْهُ أُقْسِمَ بِهِ عَلَيْهِ لِتَوْكِيدِهِ ، كَالْإِقْسَامِ بِالنَّجْمِ عَلَى هِدَايَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَشَادِهِ ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يُهْتَدَى بِهِ ، ثُمَّ الِانْتِقَالُ مِنْ ذَلِكَ إلَى مَا وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ مُنَاسِبًا لِذَلِكَ ، وَلَا بَأْسَ بِبَيَانِ ذَلِكَ وَإِنْ طَالَ الِاسْتِطْرَادُ ؛ إزَالَةً لِشُبْهَةِ مُصْطَفَى كَمَالِ بَاشَا وَأَمْثَالِهِ لِئَلَّا يَكُونَ تَأْخِيرًا لِلْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ فَنَقُولُ : .

(175/292)

إِنَّ الْجَمْعَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (95 : 1 – 3) بَيَّنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الشَّجَرِ وَمَوْقِعَيْنِ مِنْ بِقَاعِ الْأَرْضِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِمُنَاسَبَةٍ جَامِعَةٍ بَيْنَهُمَا كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي التَّنْزِيلِ ، وَفِيمَا دُونَهُ مِنْ كَلَامِ الْبُلَغَاءِ أَيْضًا ، وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ قَطْعًا أَنَّ طُورَ سِينِينَ (أَيْ سَيْنَاءَ) مَهْبِطُ الْوَحْيِ عَلَى مُوسَى ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَمَظْهَرُ نُبُوَّتِهِ – وَأَنَّ الْبَلَدَ الْأَمِينَ (مَكَّةَ) مَهْبِطُ الْوَحْيِ عَلَى مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَمَظْهَرِ نُبُوَّتِهِ – تَرَجَّحَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ الْكِنَايَةَ عَنْ مَظْهَرَيْنِ مِنْ مَظَاهِرِ النُّبُوَّةِ وَالدِّينِ ، كَمَا يُكَنَّى بِالْأَهْرَامِ أَوْ أَبِي الْهَوْلِ عَنْ حَضَارَةِ الْفَرَاعِنَةِ ، وَبِشَجَرِ الْأَرْزِ عَنْ جَبَلِ لُبْنَانَ مَثَلًا .

(176/292)

وَإِذَا رَجَعْنَا لِلتَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ نَرَى فِيهِ عَنْ تُرْجُمَانِ الْقُرْآنِ وَحَبْرِ الْأُمَّةِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَوْلَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) مَا رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفَاسِيرِهِمْ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالتِّينِ مَسْجِدُ نُوحٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) الَّذِي بَنَاهُ عَلَى

الْجُودِيِّ - أَيْ حَيْثُ اسْتَوَتْ سَفِينَتُهُ بَعْدَ الطُّوفَانِ ، وَالزَّيْتُونُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ ، وَطُورُ سِينِينَ مَسْجِدُ الطُّورِ ، وَالْبَلَدُ الْأَمِينِ مَكَّةُ . (ثَانِيهُمَا) مَا رَوَاهُ عَنْهُ الْأَخِيرُ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى حَيْثُ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلَخْ . وَيُقَوِّي الْأَوَّلَ تَعَدُّدُ رُوَاتِهِ وَمُوَافَقَةُ التَّارِيخِ لَهُ كَمَا بَيَّنَهُ شَيْخُنَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ فِي تَفْسِيرِ السُّورَةِ مِنْ جُزْءِ " عم " ، فَإِنَّهُ قَالَ بَعْدَ حِكَايَةِ أَشْهَرِ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ مَا نَصُّهُ : .

" وَقَالَ قَلِيلٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إنَّ الْإِقْسَامَ هُوَ بِالنَّوْعَيْنِ لِذَاتِهِمَا التِّينِ وَالزَّيْتُونِ . قَالُوا : لِكَثْرَةِ فَوَائِدِهِمَا ، وَلَكِنْ تَبْقَى الْمُنَاسَبَةُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ طُورِ سِينِينَ وَالْبَلَدِ الْأَمِينِ وَحِكْمَةِ جَمْعِهِمَا مَعَهُمَا فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ غَيْرُ مَفْهُومَةٍ ; وَلِهَذَا رَجَّحَ أَنَّهُمَا مَوْضِعَانِ ، وَقَدْ يُرَجَّحُ أَنَّهُمَا النَّوْعَانِ مِنَ الشَّجَرِ ، وَلَكِنْ لَا لِفَوَائِدِهِمَا كَمَا ذَكَرُوا ، بَلْ لِمَا يُذْكَرُ أَنَّ بِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي

(177/292)

لَهَا الْآثَارُ الْبَاقِيَةُ فِي أَحْوَالِ الْبَشَرِ . قَالَ صَاحِبُ هَذَا الْقَوْلِ :

(178/292)

إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُذَكِّرَنَا بِأَرْبَعَةِ فُصُولٍ مِنْ كِتَابِ الْإِنْسَانِ الطَّوِيلِ مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِ إِلَى يَوْمِ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، فَالتِّينُ إِشَارَةٌ إِلَى عَهْدِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَسْتَظِلُّ فِي تِلْكَ الْجَنَّةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا يُورِقُ التِّينُ ، وَعِنْدَمَا بَدَتْ لَهُ وَلِزَوْجِهِ سَوْآتُهُمَا طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ التِّينِ . وَالزَّيْتُونُ إِشَارَةٌ إِلَى عَهْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُرِّيَّتِهِ ، وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ فَسَدَ الْبَشَرُ ، وَأَهْلَكَ اللهُ مَنْ أَهْلَكَ مِنْهُ بِالطُّوفَانِ ، وَنَجَّى نُوحًا فِي سَفِينَتِهِ وَاسْتَقَرَّتِ السَّفِينَةُ ، نَظَرَ نُوحٌ إِلَى مَا حَوْلَهُ فَرَأَى الْمِيَاهَ لَا تَزَالُ تُغَطِّي وَجْهَ الْأَرْضِ فَأَرْسَلَ بَعْضَ الطُّيُورِ لَعَلَّهُ يَأْتِي إِلَيْهِ بِخَبَرِ انْكِشَافِ الْمَاءِ عَنْ بَعْضِ الْأَرْضِ فَغَابَ وَلَمْ يَأْتِ بِخَبَرٍ ، فَأَرْسَلَ طَيْرًا آخَرَ فَرَجَعَ إِلَيْهِ يَحْمِلُ وَرَقَةً مِنْ شَجَرِ الزَّيْتُونِ فَاسْتَبْشَرَ وَسُرَّ وَعَرَفَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ قَدْ سَكَنَ ، وَقَدْ أُذِنَ لِلْأَرْضِ أَنْ تُعَمَّرَ . ثُمَّ كَانَ مِنْهُ وَمِنْ أَوْلَادِهِ تَجْدِيدُ الْقَبَائِلِ الْبَشَرِيَّةِ الْعَظِيمَةِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي مُحِيَ عُمْرَانُهَا بِالطُّوفَانِ ، فَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ الزَّمَنِ بِزَمَنِ الزَّيْتُونِ . وَالْإِقْسَامُ هُنَا بِالزَّيْتُونِ لِلتَّذْكِيرِ بِتِلْكَ الْحَادِثَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ مَا يُذَكَّرُ بِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ ، وَطُورُ سِينِينَ إِشَارَةٌ إِلَى عَهْدِ الشَّرِيعَةِ الْمُوسَوِيَّةِ ، وَظُهُورِ نُورِ التَّوْحِيدِ فِي الْعَالَمِ بَعْدَ مَا

تَدَنَّسَتْ جَوَانِبُ الْأَرْضِ بِالْوَثَنِيَّةِ ، وَقَدِ اسْتَمَرَّ الْأَنْبِيَاءُ بَعْدَ مُوسَى يَدْعُونَ قَوْمَهُمْ إِلَى التَّمَسُّكِ بِتِلْكَ الشَّرِيعَةِ إِلَى أَنْ كَانَ آخِرُهُمْ عِيسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَاءَ مُخْلِصًا لِرُوحِهَا مِمَّا عُرِضَ عَلَيْهِ مِنَ الْبِدَعِ ، ثُمَّ طَالَ الْأَمَدُ عَلَى قَوْمِهِ فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الِاخْتِلَافِ فِي الدِّينِ ، وَحَجْبِ نُورِهِ بِالْبِدَعِ ، وَإِخْفَاءِ مَعْنَاهُ بِالتَّأْوِيلِ ، وَإِحْدَاثِ مَا لَيْسَ مِنْهُ بِسَبِيلٍ ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَى الْبَشَرِ بِبِدَايَةِ تَارِيخٍ يَنْسَخُ جَمِيعَ تِلْكَ التَّوَارِيخِ ، وَيَفْصِلُ بَيْنَ مَا سَبَقَ مِنْ أَطْوَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَبَيْنَ مَا يَلْحَقُ ، وَهُوَ عَهْدُ ظُهُورِ النُّورِ الْمُحَمَّدِيِّ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِذِكْرِ الْبَلَدِ الْأَمِينِ . وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي فَصَّلْنَا بَيَانَهُ يَتَنَاسَبُ الْقَسَمُ وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ كَمَا سَتَرَى " انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .

وَمِنْ هَذَا الشَّرْحِ تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ الْعَالِمَ التُّرْكِيَّ عَلَى عِلْمٍ لَا يُشَارِكُهُ مُصْطَفَى كَمَال بَاشَا فِي شَيْءٍ مِنْهُ ، وَأَنَّهُ مُصِيبٌ فِي تَقْدِيرِ زَمَنِ الْجَوَابِ بِنِصْفِ سَاعَةٍ ، كَمَا تَعْلَمُ أَنَّ التَّرْجَمَةَ التُّرْكِيَّةَ لَنْ تَكُونَ إِلَّا قَاصِرَةً عَنِ احْتِمَالِ مِثْلِ هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَأَنَّهَا تَمْهِيدٌ لِلْإِضْلَالِ وَالتَّكْفِيرِ .

سُبْحَانَ اللهِ ! أَنْشُدُكَ فِي كَوْنِ مُرَادِ مَلَاحِدَةِ التُّرْكِ بِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ التَّوَسُّلَ بِهَا

إِلَى الطَّعْنِ فِيهِ ، وَالتَّشْكِيكَ فِي كَوْنِهِ كَلَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِقَامَةَ الشُّبَهَاتِ عَلَى بُطْلَانِ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَتَرْكَ الْمُسْلِمِ مِنْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ فِيهَا بَصِيصًا مِنَ النُّورِ يَهْتَدِي بِهِ إِلَى الدِّفَاعِ عَنْ دِينِهِ ؟ أَنَشُكُّ فِي هَذَا بَعْدَ إِقْدَامِهِمْ عَلَى إِبْطَالِ التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ حُكُومَتِهِمْ حَتَّى فِي الْأَحْكَامِ الشَّخْصِيَّةِ مِنْ زَوَاجٍ وَطَلَاقٍ وَإِرْثٍ ، تَفْضِيلًا لِلتَّشْرِيعِ الْأُورُبِّيِّ عَلَيْهِ عَلَى اخْتِلَافِهِ ، وَإِبْطَالِ التَّعْلِيمِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ بِلَادِهِمْ ، وَاضْطِهَادِ عُلَمَاءِ الدِّينِ حَتَّى فِي مَلَابِسِهِمْ ، فَقَدْ أَكْرَهُوهُمْ عَلَى

(181/292)

لُبْسِ الزِّيِّ الْخَاصِّ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ كَغَيْرِهِمْ ، وَلَمْ يُبَالُوا بِمُرَاعَاةِ وِجْدَانِ أَحَدٍ وَلَا اعْتِقَادِهِ فِي أَنَّ ذَلِكَ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى بَلْ هُوَ آيَةُ الرِّدَّةِ عَنْ دِينِهِ – فَعَلُوا هَذَا وَالسَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الشَّعْبِ التُّرْكِيِّ يَدِينُ لِلَّهِ بِالْإِسْلَامِ وِجْدَانًا وَتَسْلِيمًا يَحْمِلُهُ عَلَى الْفَضَائِلِ ، وَيَزَعُهُ عَنِ الرَّذَائِلِ ، وَلِعُلَمَاءِ الدِّينِ احْتِرَامٌ عِنْدَهُ ، ثُمَّ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ دِينِ الشَّعْبِ بِكَلِمَةٍ مَعَ كَوْنِ مَادَّةِ الْقَانُونِ الْأَسَاسِيِّ لِلْجُمْهُورِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ النَّاطِقَةِ بِأَنَّ دِينَ الدَّوْلَةِ هُوَ الْإِسْلَامُ لَمَّا تُنْسَخْ – كَمَا نُسِخَتْ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ نَفْسُهَا ، ذَلِكَ بِأَنَّ مَنْ عَارَضَ الْحُكُومَةَ فِي عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهَا هَذِهِ يُسَاقُ إِلَى مَحْكَمَةٍ خَاصَّةٍ تُسَمَّى مَحْكَمَةَ الِاسْتِقْلَالِ ، مُفَوَّضَةٌ بِأَنْ تَحْكُمَ بِالْقَتْلِ

لِلدِّفَاعِ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ اللَّادِينِيَّةِ مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ إِلَى شَرْعٍ مُنَزَّلٍ ، وَلَا قَانُونٍ مُدَوَّنٍ ، وَيَكُونُ حُكْمُهَا نِهَائِيًّا لَا اسْتِئْنَافَ لَهُ ، وَلَا مُرَاجَعَةَ فِيهِ ، وَقَدْ قُتِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَتْقِيَاءِ لِلْمُعَارَضَةِ فِي وَضْعِ الْقَلَنْسُوَةِ الْإِفْرِنْجِيَّةِ (الْبُرْنِيطَةِ) مَوْضِعَ الْعِمَامَةِ وَاسْتِبْدَالِهَا بِهَا ؟ ! .

(182/292)

هَذَا مَا يَجْرِي الْيَوْمَ فَمَاذَا يَكُونُ فِي الْغَدِ إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُسْلِمُ التُّرْكِيُّ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي بِلَادِهِ مِنْ كُتُبِ دِينِهِ إِلَّا تَرْجَمَةً لِلْقُرْآنِ بِالصِّفَةِ الَّتِي عَرَفْتَ أَغْلَاطَهَا وَقُصُورَهَا ؟ نَعَمْ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةَ أَنْفُسَهُمْ سَيُفَسِّرُونَهَا لَهُ بِمَا يَزِيدُهُ بُعْدًا عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَيُعِدُّهُ لِلْكُفْرِ بِهِ وَعَدَاوَتِهِ وَعَدَاوَةِ أَهْلِهِ ، إِنْ طَالَ أَمْرُ اسْتِبْدَادِهِمْ فِيهِ .

لَا تَقُلْ : وَمَا يَمْنَعُ بَقِيَّةَ أَهْلِ الدِّينِ مِنْهُمْ أَنْ يُفَسِّرُوهَا بِالتُّرْكِيَّةِ تَفْسِيرًا يُصَحِّحُ الْأَغْلَاطَ وَيَدْفَعُ الشُّبُهَاتِ ؟ فَإِنَّ الَّذِينَ مَنَعُوا مَا عَلِمْتَ يَمْنَعُونَ هَذَا أَيْضًا ، وَيَنْشُرُونَ تَفَاسِيرَ مَلَاحِدَتِهِمُ الْمُؤَيِّدَةَ لِغَرَضِهِمْ ، وَهُمْ يَسْتَمِدُّونَهَا مِنْ خُصُومِ الْإِسْلَامِ كَدُعَاةِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَشَيَاطِينِ السِّيَاسَةِ الْأُورُبِّيَّةِ ، وَمَلَاحِدَةِ الْمَادِّيَّةِ ، دَعْ مَا يُمْلِيهِ عَلَيْهِمُ الْجَهْلُ أَوِ الْكُفْرُ .

أَذْكُرُ مِثَالًا وَاحِدًا مِنْ ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى : وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ

(183/292)

(15 : 99) بَلَغَنِي مِنْ عَالِمٍ عَرَبِيٍّ أَقَامَ فِي الْآسِتَانَةِ سِنِينَ كَثِيرَةً يُخَالِطُ عُلَمَاءَهُمْ عَنْ عَالِمٍ تُرْكِيٍّ أَعْرِفُهُ ، وَكُنْتُ أُعِدُّهُ مِنْ أَفْضَلِ عُلَمَائِهَا الْجَامِعِينَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالتَّدَيُّنِ وَمَعْرِفَةِ حَالِ الْعَصْرِ أَنَّهُ يَشْتَغِلُ بِتَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ ، وَأَنَّهُ يَقُولُ بِقَوْلِ الْبَاطِنِيَّةِ الْأَوَّلِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَهُوَ : أَنَّ الْعِبَادَةَ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ لَمْ تُفْرَضْ إلَّا عَلَى مَنْ لَمْ يَصِلُوا فِي الْعِلْمِ إلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ ، وَمَنْ وَصَلَ إلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ تَرْتَفِعُ عَنْهُ الْعِبَادَةُ بِنَصِّ هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَيَكْفِي هَذَا التَّأْوِيلُ لِإِبْطَالِ جَمِيعِ عِبَادَاتِ الْإِسْلَامِ . فَإِنَّ الْيَقِينَ أَمْرٌ يُمْكِنُ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَدَّعِيَهُ ، وَيُمْكِنُ إضْلَالُ جَمَاهِيرِ النَّاسِ بِالْوُصُولِ إلَيْهِ ، وَفِي التَّحَكُّمِ فِيمَا يَطْلُبُ الْيَقِينُ فِيهِ .

(184/292)

وَنَقُولُ فِي إبْطَالِ هَذِهِ الضَّلَالَةِ (أَوَّلًا) : إنَّهَا طَعْنٌ صَرِيحٌ فِي النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى يَقِينٍ فِي دِينِهِ وَعِلْمِهِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّ الْخِطَابَ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْآيَةِ ، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِهِ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ وَإِنْ كَانَ الْحُكْمُ عَامًّا ، وَذَلِكَ بِالتَّبَعِ لِمَا قَبْلَهُ مِنْ الِامْتِنَانِ عَلَيْهِ بِإِيتَائِهِ السَّبْعَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، وَأَمْرِهِ بِالتَّبْلِيغِ وَالصَّدْعِ بِهِ ، وَتَهْوِينِ أَمْرِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِ ، وَإِنْبَائِهِ بِكِفَايَتِهِ تَعَالَى أَمْرَ الْمُسْتَهْزِئِينَ مِنْهُمْ . بَعْدَ هَذَا قَالَ :

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (15 : - 97 - 99) وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْيَقِينِ الْمَوْتُ ، وَأَنَّ الْمَعْنَى : وَاعْبُدْ رَبَّكَ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَنَقَلُوا شَوَاهِدَ لَهُ مِنَ الِاسْتِعْمَالِ . وَفَسَّرُوا بِهِ قَوْلَهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ أَهْلِ النَّارِ : وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (74 : 46 ، 47) .

(185/292)

(ثَانِيًا) إنَّ أَصْلَ الْيَقِينِ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْعِبَادَةِ فَالْيَقِينُ فِي الْإِسْلَامِ مَبْدَأٌ لَا غَايَةٌ ، وَالْحَنَفِيَّةُ الَّذِينَ تَلْقَى هَذَا التُّرْكِيُّ الدِّينَ عَلَى مَذْهَبِهِمْ يَقُولُونَ : إنَّ الْإِيمَانَ لَا يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ وَلَا النُّقْصَانَ ؛ لِأَنَّ التَّصْدِيقَ إذَا لَمْ يَكُنْ يَقِينًا لَا يَكُونُ إيمَانًا ، وَلَيْسَ فَوْقَ الْيَقِينِ غَايَةٌ تَكُونُ هِيَ الزِّيَادَةَ ، وَفِي هَذَا الْبَحْثِ نَظَرٌ لَيْسَ هَذَا مَحَلَّهُ .

(ثَالِثًا) إنَّ الْيَقِينَ الَّذِي يَنْتَهِي إلَيْهِ تَصْدِيقُ الْإِنْسَانِ فِي الدِّينِ أَوْ غَيْرِهِ لَا يَصِحُّ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْإِتْيَانِ وَنَحْوِهِ كَالْمَجِيءِ ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي نَفْسِهِ وَعَقْلِهِ ، وَإِنَّمَا يُعَبَّرُ بِهِ عَمَّا يَرِدُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْخَارِجِ بِذَاتِهِ أَوْ بِأَسْبَابِهِ كَالْمَوْتِ وَالْعِلْمِ الْخَبَرِيِّ ، أَوِ الْمُنْتَزَعِ مِنَ الْمَعْلُومِ الْخَارِجِيِّ ، دُونَ نَتِيجَةِ الْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ كَقَوْلِهِ

: وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ (14 : 17) وَقَوْلِهِ : مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ (63 : 10) وَقَوْلِهِ : حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ (6 : 61) .

(186/292)

وَنَكْتَفِي بِهَذَا الْقَدْرِ مِنَ الِاسْتِطْرَادِ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِهِ ، فَهُوَ أَفْضَلُ مَا يُدَافِعُ بِهِ عَنْهُ ، بَلْ هُوَ مِنْ مَقَاصِدِ التَّفْسِيرِ لَا مِنَ الِاسْتِطْرَادِ الْأَجْنَبِيِّ عَنْهُ . وَمَا ضَعُفَ اهْتِدَاءُ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ إِلَّا بِخُلُوِّ تَفْسِيرِهِ مِنْ تَطْبِيقِ عَقَائِدِهِ وَأَحْكَامِهِ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ ، وَدَفْعِ الشُّبَهَاتِ الَّتِي تَصُدُّهُمْ عَنْهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 9 صـ 255 .

306 ﴾

(187/292)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

هذه الجملة معترضة بين قصص بني إسرائيل جاءت مستطردة لمناسبة ذكر الرسول الأمي ،

تذكيرًا لبني إسرائيل بما وعد الله به موسى عليه السلام ، وإيقاظاً لأفهامهم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو مِصداق الصفات التي علمها الله موسى والخطاب بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ لجميع البشر ، وضمير التكلم ضمير الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

وتأكيد الخبر بـ (إن) باعتبار أن في جملة المخاطبين منكرين ومترددين ، استقصاء في إبلاغ الدعوة إليهم .

وتأكيد ضمير المخاطبين بوصف ﴿ جميعاً ﴾ الدال نصاً على العموم ، لرفع احتمال تخصيص رسالته بغير بني إسرائيل ، فإن من اليهود فريقاً كانوا يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبيء ، ويزعمون إنه نبيُء العرب خاصة ، ولذلك لما قال رسول الله لابن صياد وهو يهودي أتشهد أني رسول الله ، قال ابن صياد : أشهد إنك رسول الأميين .

وقد ثبت من مذاهب اليهود مذهب فريق من يهود أصفهان يدعون بالعيسوية وهم أتباع أبي عيسى الأصفهاني اليهودي القائِل بأن محمداً رسول الله إلى العرب خاصة لا إلى بني إسرائيل ، لأن اليهود فريقان : فريق يزعمون أن شريعة موسى لا تنسخ بغيرها ، وفريق يزعمون أنها لا تنسخ عن بني إسرائيل ، ويجوز أن يبعث رسول لغير بني إسرائيل .

وانتصب ﴿ جميعاً ﴾ على الحال من الضمير المجرور ، بـ (إلى) وهو فعيل بمعنى مفعوُل أي مجموعين ، ولذلك لزم الإفرادَ ؛ لأنه لا يطابق موصوفه .

﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ نعت لاسم الجلالة ، دال على الثناء .

وتقديم المجرور للقصر ، أي : لا لغيره مما يعبده المشركون ، فهو قصر إضافي للرد على المشركين .

وجملة : ﴿ لا إله إلاّ هو ﴾ حال من اسم الجلالة في قوة متفرداً بالإلهية ، وهذا قصر حقيقي لتحقيق صفة الوحدانية ، لا لقصد الرد على المشركين .

وجملة : ﴿ يُحيي ويميت ﴾ حال ،

(188/292)

والمقصود من ذكر هذه الأوصاف الثلاثة : تذكير اليهود ، ووعظهم ، حيث جحدوا نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم وزعموا أنه لا رسول بعد موسى ، واستعظموا دعوة محمد ، فكانوا يعتقدون أن موسى لا يشبهه رسول ، فذُكّروا بأن الله مالك السماوات والأرض ، وهو واهب الفضائِل ، فلا يُستعظم أن يرسل رسولاً ثم يرسل رسولاً آخر ، لأن الملك بيده ، وبأن الله هو الذي لا يشابهه أحد في ألوهيته ، فلا يكون إلهان للخلق ، وأما مرتبة الرسالة فهي قابلة للتعدد ، وبأن الله يحيي ويميت فكذلك هو يميت شريعة ويحيي شريعة أخرى ، وإحياء الشريعة إيجادها بعد أن لم تكن : لأن الإحياء حقيقته إيجاد الحياة في الموجود ، ثم يحصل من هذه الصفات إبطال عقيدة المشركين بتعدد الآلهة وبإنكار الحشر .

وقد انتظم أن يفرع على هذه الصفات الثلاث الطلب الجازم بالإيمان بهذا الرسول في قوله : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأُمي ﴾ والمقصود طلب الإيمان بالنبي الأمي ؛ لأنه الذي سِيق الكلام لأجله ، ولكن لما صُدّر الأمر بخطاب جميع البشر وكان فيهم من لا يؤمن بالله ، وفيهم من يؤمن بالله ولا يؤمن بالنبي الأمّي ، جُمع بين الإيمان بالله والإيمان بالنبي الأمي في طلب واحد ، ليكون هذا الطلب متوجهاً للفرَق كلهم ، ليجمعوا في إيمانهم بين الإيمان بالله والنبي الأمي ، مع قضاء حق التأدب مع الله بجعل الإيمان به مقدماً على طلب الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم للإشارة إلى أن الإيمان بالرسول إنما هو لأجل الإيمان بالله ، على نحو ما أشار إليه قوله تعالى:

﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ﴾ [النساء : 150] ، وهذا الأسلوب نظير قوله تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ﴾ [النساء : 171] فإنهم آمنوا بالله ورُسله ، وإنما المقصود زيادة النهي عن اعتقاد التثليث ، وهو المقصود من سياق الكلام .

(189/292)

والإيمان بالله الإيمانُ بأعظم صفاته وهي الإلهية المتضمن إياها اسم الذات ، والإيمان بالرسول الإيمانُ بأخص صفاته وهو الرسالة ، وذلك معلوم من إناطة الإيمان بوصف الرسول دون اسمه العلم .

وفي قوله : ﴿ ورسوله النبي الأمي ﴾ التفاتٌ من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم

ووصف النبي الأمي بالذي يؤمن بالله وكلماته ، بطريق الموصولية للإيماء إلى وجه الأمر بالإيمان بالرسول ، وإنه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب ، لأن هذا الرسول يؤمن بالله وبكلمات الله ، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائِر الأديان الإلهية الحق ، وهذا نظير قوله تعالى ، في تفضيل المسلمين : ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ [آل عمران : 119] وتقدم معنى الأمي قريباً .

وكلمات جمع كلمة بمعنى الكلام مثل قوله تعالى : ﴿ كلاّ إنها كلمة هو قائِلها ﴾ [المؤمنون : 100] أي قولُه : ﴿ ربِ ارْجِعُون لعليِّ أعْمل صالحاً فيما تركت ﴾ [المؤمنون : 99 ، 100] .

فكلمات الله تشمل كتبه ووحيه للرسل ، وأوثِر هنا التعبير بكلماته ، دون كتبه ، لأن المقصود الإيماء إلى إيمان الرسول عليه الصلاة والسلام بأن عيسى كلمة الله ، أي أثَرُ كلمته ، وهي أمر التكوين ، إذ كان تكّون عيسى عن غير سبب التكون المعتاد بل كان تكونه بقول

الله ﴿ كُن ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كُن فيكون ﴾ [آل عمران : 59] ، فاقتضى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يؤمن بعيسى ، أي بكونه رسولاً من الله ، وذلك قطع لمعْذرة النصارى في التردد في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واقتضى أن الرسول يؤمن بأن عيسى كلمة الله ، وليس ابن الله ، وفي ذلك بيان للإيمان الحق ، ورد على اليهود فيما نسبوه إليه ، ورد على النصارى فيما غَلَوْا فيه .

والقول في معنى الاتّباع تقدم ، وكذلك القول في نحو ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(190/292)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

هنا يأمر الحق رسوله بالآتي : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ في رسالة تعم الزمان ، وتعم المكان . وفي ذلك يقول رسول الله :

" أعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحد من الأنبياء قبلي . . نُصرت بالرعب مسيرة شهر ،

وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة" .

ثم بعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت عمومية الرسالة بعمومية تسخير الكون للخلق ؛ لذلك كان الحديث موجهاً إلى كافة الناس : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس ﴾ . وكل من يطلق عليهم ناس فالرسول مرسل إليهم : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ وأراد سبحانه أن يعطينا الحيثيات التي تجعل لله رسولاً يبلغ قومه وكافة الأقوام منهج الله في حركة حياتهم ، فقال : ﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ .

وما دام هو الذي يملك السموات والأرض ، ولم يدّع أحد من خلقه أنه يملكها ، وفي السموات والأرض وما بينهما حياتنا ومقومات وجودنا فهو سبحانه أولى وأحق أن يعبد . ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لكان من الممكن أن يكون إله هنا ، وإله هناك وإله هنالك . وفي هذا يقول الحق : ﴿ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . . ﴾ [المؤمنون : 91]

إذن فما دام الوجود كله من السموات والأرض وما سواهما لله ، فهو الأوْلى أن يعبد ، وأول قمة العبادة أن تشهد بأنه لا إله إلا الله ، وحيثية ألوهيته الأولى أن له ملك السموات والأرض . وما دام إلهاً فلا بد أن يطاع ، ولا يطاع إلا بمنهج ، ولا منهج إلا بافعل ولا تفعل . وأول المنهج القمة العقدية إنه هو التوحيد . وجعل الله للتوحيد حيثية من واقع الحياة فقال : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ . وهذا أمر لم يدعه أحد أبداً ؛ لأن الله هو الذي له ملك السموات والأرض ، ولأنه يحيي ويميت .

ولذلك نجد من حاجّ إبراهيم في ربه يقول الحق عنه : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللهُ الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ . . . ﴾ [البقرة : 258]

وحاول هذا الملك أن يدير حواراً سفسطائيًّا مضللا ليفحم ويسكت إبراهيم – عليه السلام – فقال : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . . . ﴾ [البقرة : 258]

وذلك بأن يأمر بقتل انسان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لا يميته بل يحييه في منطق السفسطائيين . لكن هل الأمر بالقتل هو الموت ؟ . طبعا لا ؛ لأن هناك فارقا بين الموت والقتل ، فقد يقتل إنسان إنساناً آخر ، لكنه لا يمكن أن يميته ؛ لأن الموت يأتي بدون هدم بنيته بشيء ؛ برصاصة أو بحجر أو بقنبلة . ولا أحد قادر على أن يميت احداً إذا رغب في أن يميته ، فالموت هو الحادث بدون سبب ، لكن أن يقتل إنسان إنساناً آخر فهذا ممكن ، ولذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ .

. . ﴾ [الأعراف: 158]

وانظروا إلى الدقة في الأداء؛ فما دام قد أمر الحق رسوله أن يقول: إني رسول الله إليكم جميعاً، وحيثية الإيمان هي الإقرار والاعتقاد بوحدانية الإله الذي له ملك السموات والأرض، وهو لا إله إلا هو، وهو يحيي ويميت؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى: ﴿ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾.

(192/292)

لم يقل محمدٌ وآمنوا بي؛ لأنها ليست مسألة ذاتية في شخصك ما يا محمد، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس، فالإيمان لا بذاتك وشخصك، ولكن لأنك رسول الله، فجاء بالحيثية الأصلية ﴿ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾، والرسول قد يكون محمداً أو غير محمد . . وبعد ذلك قال في وصف النبي: ﴿ النبي الأمي الذي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾. والأمية – كما علمنا من قبل – شرف في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو صلى الله عليه وسلم يؤمن بكلمات الله، وهي إما بما بلغنا عنه من أسلوب القرآن، وإمّا بالذي قاله موسى لقومه: "وجعل كلامي في فيه".

ويقول فيه عيسى – الذي لا يتكلم من قِبَل نفسه –، وإنما تأتي له كلمات ربنا في فمه،

والقول الشامل في وصف كلمات محمد صلى الله عليه وسلم : ما بيّنه الحق في قوله : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3]

أو أن الإيمان بالكلمات هو أن يؤمن بأن كل كون الله مخلوق بكلمة منه : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82]

ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله شيئاً وهو لم يكن بعد ؟ ونقول : إنه سبحانه قد علمه أزلاً ، ووجوده ثابت وحاصل ، ولكن الله يريد أن يبرز هذا الموجود للناس ، فوجود أي شيء هو أزلي في علم الله ، وكأنه يقول للشيء : اظهر يا كائن للوجود ليراك الناس بعد أن كنت مطموراً في طيّ قدرتي .

وسواء أكانت الكلمة بخلق الأسباب ، مثل خلق الشمس والقمر أم بخلق شيء بلا أسباب ، كعيسى – عليه السلام – فأنه "كلمة منه " أي كلمة تخطت نطاق الأسباب ؛ بأن ولدت سيدتنا مريم من غير رجل . وفي هذا تخطٍ للأسباب ، ولذلك قال الحق سبحانه :

(193/292)

﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ . ونعلم أن كل شيء لا يكون إلا بكلمة منه سبحانه ، ولكن بكلمة لها أسباب ، أو بكلمة لا أسباب لها . والكلمات هي أيضاً الآيات التي فيها منهج الأحكام ،

ولذلك يأتي قوله الحق : ﴿ قولوا آمَنَّا بالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وَمَا أُوتِيَ موسى وعيسى وَمَا أُوتِيَ النبيون مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 136]

ويروي لنا الأثر أن سيدنا موسى عليه السلام قال لربه :

" أني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد " .

وقول موسى آمنوا بالكتاب الآخر ، هو الذي يدل عليه قول الحق سبحانه : ﴿ قولوا آمَنَّا بالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط . . . ﴾ [البقرة : 136]

ويذيل الحق الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ واتبعوه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ . و " لعل " رجاء وطلب . ونعلم أن كل طلب يتعلق بأحد أمرين : إما طلب لمحال لكنك تطلبه لتدل بذلك على أنك تحبه ، وهو لون من التمني مثل قول من قال : ليت الشباب يعود يوماً ، إنه يعلم أن الشباب لا يعود لكنه يقول ذلك ليشعرك بأنه

يحب الشباب . أو كقول إنسان : ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح ، وهذا طلب لمحال ، إلا أنه يريد أن يشعرك بأن هذا أمر يحبه ، إمَّا طلب ممكن التحقيق . وهو ما يسمى بالرجاء . وله مراحل : فأنت حين ترجو لإِنسان كذا ، تقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والإِدخال في باب الرجاء أن تقول : لعلي أعطيك ؛ لأن الرجاء منك أنت ، وأنت الذي تقوله ، ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه ، والأقوى أن تقول : لعل الله يعطيك . أما الله يعطيك . ولكنها من كلامك أنت فقد يستجيب الله لك وقد لا يستجيب ، أما إذا قال الله : لعلكم ، فهذا أرجي الرجاءات ، ولابد أن يتحقق .

وحينما يتكلم الحق عن قوم موسى ، يتكلم عنهم بعرض قصصهم ، وفضائحهم للعهد بعد نعم الله الواسعة الكثيرة عليهم ، وأوضح لنا : إياكم أن تأخذوا هذا الحكم عاماً ؛ لأن الحكم لو كان عاماً ، لما وُجد من أمة موسى من يؤمن بمحمد . ولذلك قلنا قديماً إن هناك ما يسمى " صيانة الاحتمال " . ومثال على ذلك نجد من اليهود من آمنوا برسالة رسول الله مثل مخريق الذي قال فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " مخريق خير يهود " . وعبد الله بن سلام إن بعض اليهود كانوا مشغولين بقضية الإِيمان ، ولذلك لا تأخذ المسألة كحكم عام ؛ لأن من قوم موسى من يصفهم الحق بالقول الكريم : ﴿ وَمِن قَوْمِ موسى أُمَّةٌ . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى جميع الناس ، وصرح بذلك في آيات كثيرة كقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : 28] ، وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] وقوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : 17] ، وقيد في موضع آخر : عموم رسالته ببلوغ هذا القرآن ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : 19] ، وصرح بشمول رسالته لأهل الكتاب مع العرب بقوله : ﴿ وَقُل لِلَّذِينَ أُوتُواْ الكتاب والأميين أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهتدوا وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ [آل عمران : 20] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ النبي الأمي الذي يُؤْمِنُ بالله وَكَلِمَاتِهِ ﴾ الآية .

لم يبين هنا كثرة كلماته ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف : 109] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ

مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ﴾ [لقمان : 27] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ

﴾

(196/292)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الأحمر والأسود فقال ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ .

وأخرج البخاري وابن مردويه عن أبي الدرداء قال : " كانت بين أبي بكر وعمر محاورة ، فاغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عمر عنه مغضباً . فأتبعه أبو بكر فسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلَّم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقصَّ الخبر ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هل أنتم تاركو لي صاحبي ، إني قلت ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ فقلتم : كذبت . وقال أبو بكر :

صدقت " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ يؤمن بالله وكلمته ﴾ قال : عيسى .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ يؤمن بالله وكلماته ﴾ على الجماع . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(197/292)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ .

يجوزُ فيه : الرَّفْعُ ، والنَّصْبُ ، والجَرُّ ، فالرَّفْعُ والنَّصْبُ على القطع كما تقدم [الأعراف : 57] ، والجَرُّ من وجهين : إمَّا النَّعْتِ للجلالة ، وإمَّا البدلِ منها .

قال الزمخشريُّ : ويجوزُ أن يكون جَرّاً على الوصفِ ، وإن حيلَ بين الصِّفةِ والموصوف بقوله " إلَيْكُمْ جَمِيعاً " .

واستضعف أبو البقاءِ هذا ووجه البدل ، فقال : ويَبْعُدُ أن يكون صفة لله أو بدلاً منه ، لما

فيه من الفصل بينهما بـ " إِلَيْكُمْ " وبحالٍ ، وهو مُتعلِّقٌ بـ " رَسُولُ " .

قوله ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ لا محلَّ لهذه الجملةِ من الإعراب ، إذ هي بدل من الصلةِ قبلها وفيها بيان لها ؛ لأنَّ من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقةِ ، وكذلك قوله "يُحْيي ويُمِيتُ " هي بيان لقوله لا إله إلاَّ هُوَ سِيقَتْ لبيان اختصاصه بالإلهيَّةِ ؛ لأنه يَقْدِرُ على الإحياء والإماتةِ غَيْرُهُ .

قاله الزمخشريُّ : وقال أبو حيَّان : " وإبدالُ الجُمَلِ من الجُمَلِ غير المشتركة في عاملٍ لا نعرفه " .

فصل

وقال الحُوفيُّ : إن "يُحْيِ ويُمِيتُ " في موضع خبر لا إله .

قال : " لأنَّ الإله " في موضع رفع بالابتداء ، وإلاَّ هُوَ بدلٌ على الموضع .

قال : والجملةُ أيضاً في موضع الحال من اسم اللَّهِ .

ويعني بالجملةِ قوله : ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ يُحْيِي ويُمِيتُ ﴾ ويعني باسم الله ، أي : الضَّمير في لهُ مُلْكُ أي استقرَّ له الملك في حال انفراده بالإلهيَّةِ .

وقال أبو حيَّان : والأحْسَنُ أن تكون هذه جملاً مستقلة من حيث الإعراب ، وإن كان متعلقاً بعضها ببعضٍ من حيث المعنى .

وقال في إعراب الحوفي المتقدم إنَّهُ متكلَّفٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ

﴿ 346 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

(198/292)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾

صَرِّحْ بما رقَّيْنَاكَ إليه من المقام ، وأفصِحْ عما لقيناك به من الإكرام ، قُلْ إني إلى جماعتكم مُرسلٌ ، وعلى كافتكم مُفَضَّل ، وديني - لِمَنْ نظر واعتبر ، وفكَّر وسَبَرَ - مُفَصَّل . فإلهي الذي لا شريكَ له ينازعه ، ولا شبيهَ يُضَارِعه له حقُّ التصرف في مُلْكِه بما يريد من حكمه . ومن جملة ما حكم وقضى ، ونفذ به التقدير وأَمْضى - إرسالي إليكم لتطيعوه فيما يأمركم ، وتحذروا من ارتكاب ما يزجركم . وإنَّما أَمَرَكُم به أنه قال لكم : آمِنوا بالنبي الأُمِّي ، واتبعوه لتُفْلِحوا في الدنيا والعقبى ، وتستوجبوا الزُّلفى والحسنى ، وتتخلصوا من البلوى والهوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 578 ﴾

(199/292)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والتسعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والتسعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 159 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 163 ﴾ من نفس السورة

(4/293)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كثر عد مثالب إسرائيل ، وختم بتخصيص المتبع لهذا النبي الكريم بالهداية والرحمة المسببة عنها ، وكان فيهم المستقيم على ما شرعه له ربه ، المتمسك بما لزمه أهل طاعته وحزبه ، سواء كان من صفات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو غيرها ، مع الإذعان لذلك كله ؛ نبه عليه عائداً إلى تتميم أخبارهم ، ثم ما وقع في أيام موسى عليه السلام وبعدها من شرارهم ، تعزية لهذا النبي الكريم وتسلية ، وتطييباً لنفسه الزكية وتأسية ، وهو مع ما بعده من أدله ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ [الأعراف : 146] فقال تعالى عاطفاً على ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده ﴾ [الأعراف : 148] ﴿ ومن قوم موسى أمة ﴾ أي قوم

يستحقون أن يؤموا لأنهم لا يتكبرون في الأرض بغير الحق ، بل ﴿ يهدون ﴾ أي يوقعون الهداية وهي البيان ﴿ بالحق وبه ﴾ أي خاصه ﴿ يعدلون ﴾ أي يجعلون القضايا المختلفة المتنازع فيها معادلة ليقع الرضى بها ، لا يقع منهم جور في شيء منها ، ومنهم الذين اتبعوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كعبد الله بن سلام ومخيريق ـ رضى الله عنهم ـ ما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 136 . 137 ﴾

(5/293)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الرسول ، وذكر أنه يجب على الخلق متابعته ، ذكر أن من قوم موسى عليه السلام من اتبع الحق وهدى إليه ، وبين أنهم جماعة ، لأن لفظ الأمة ينبىء عن الكثرة ، واختلفوا في أن هذه الأمة متى حصلت ، وفي أي زمان كانت ؟ فقيل هم اليهود الذين كانوا في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأسلموا مثل عبد الله بن سلام ، وابن صوريا والاعتراض عليه بأنهم كانوا قليلين في العدد ، ولفظ الأمة يقتضي الكثرة ، يمكن

الجواب عنه بأنه لما كانوا مختلفين في الدين ، جاز إطلاق لفظ الأمة عليهم كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : 120] وقيل : إنهم قوم مشوا على الدين الحق الذي جاء به موسى ودعوا الناس إليه وصانوه عن التحريف والتبديل في زمن تفرق بني إسرائيل وإحداثهم البدع ، ويجوز أن يكونوا أقاموا على ذلك إلى أن جاء المسيح فدخلوا في دينه ، ويجوز أن يكونوا هلكوا قبل ذلك ، وقال السدي وجماعة من المفسرين : إن بني إسرائيل لما كفروا وقتلوا الأنبياء ، بقي سبط في جملة الإثني عشر فما صنعوا وسألوا الله أن ينقذهم منهم ، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين ثم هؤلاء اختلفوا ، منهم من قال : إنهم بقوا متمسكين بدين اليهودية إلى الآن ومنهم من قال إنهم الآن على دين محمد صلى الله عليه وسلم يستقبلون الكعبة ، وتركوا السبت وتمسكوا بالجمعة ، لا يتظالمون ولا يتحاسدون ولا يصل إليهم منا أحد ولا إلينا منهم أحد .

وقال بعض المحققين : هذا القول ضعيف لأنه إما أن يقال : وصل إليهم خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، أو ما وصل إليهم هذا الخبر .

(6/293)

فإن قلنا : وصل خبره إليهم ، ثم إنهم أصروا على اليهودية فهم كفار ، فكيف يجوز وصفهم بكونهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ؟ وإن قلنا بأنهم لم يصل إليهم خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فهذا بعيد ، لأنه لما وصل خبرهم إلينا ، مع أن الدواعي لا تتوفر على نقل أخبارهم ، فكيف يعقل أن لا يصل إليهم خبر محمد عليه الصلاة والسلام مع أن الدنيا قد امتلأت من خبره وذكره ؟

فإن قالوا : أليس إن يأجوج ومأجوج قد وصل خبرهم إلينا ولم يصل خبرنا إليهم ؟

قلنا : هذا ممنوع ، فمن أين عرف أنه لم يصل خبرنا إليهم ، فهذا جملة ما قيل في هذا الباب .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ يَهْدُونَ بالحق ﴾ أي يدعون الناس إلى الهداية بالحق ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ قال الزجاج : العدل الحكم بالحق .

يقال : هو يقضي بالحق ويعدل ؛ وهو حكم عادل ، ومن ذلك قوله : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النساء ﴾ [النساء : 129] وقوله : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا ﴾ [الأنعام : 152] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 27 . 28 ﴾

(7/293)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق ﴾

يعني : جماعة يدعون إلى الحق ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ يعني : وبالحق يعملون .

وقال بعضهم : يعني به مؤمني أهل الكتاب وهم عبد الله بن سلام وأصحابه وهذا كما قال في آية أخرى : ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءايات الله ءَانَآءَ الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : 113] الآية .

وقال بعضهم : هم قوم من وراء الصين من أمة موسى ما وراء رمل عالج .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أُسري به إلى البيت المقدس ومعه جبريل فرفعه إليهم وكلّمهم وكلّموه .

فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلمون ؟ قالوا : لا .

قال : فإن هذا محمد النبي الأمي .

قال : يا جبريل وقد بعثه الله تعالى ؟ قال نعم فآمنوا به وصدّقوه .

وقالوا : يا رسول الله إن موسى بن عمران أوصى إلينا أن من أدرك ذلك النبي منكم فليقرأ عليه السلام مني ومنكم ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم على موسى ورد عليهم السلام ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما لِي أَرَى بُيُوتَكُمْ مُسْتَوِيَةً " ؟ قالوا : لأنا قوم لا يبغي بعضنا على بعض .

قال : " فما لي لا أرى عليها أبواباً " ؟ قالوا : إنّا لا يضر بعضنا بعضاً .

قال : " فَمَا لِي لا أَرَاكُمْ تَضْحَكُونَ " ؟ قالوا : ما ضحكنا قط لأن الله تعالى أخبرنا في كتابه أن جهنم عرضها ما بين الخافقين وقعرها الأرض السفلى ، وقد أقسم الله تعالى ليملأنها من الجنة والناس أجمعين .

قال : " فَهَلْ تَبْكُونَ عَلَى المَيّتِ "

؟ قالوا : يا رسول الله كيف نبكي على الميت وكلنا ميتون .

وهو سبيل لا بد منه .

والله أعطانا والله أخذ منا .

قال : " فَهَلْ تَمْرَضُونَ " ؟ قالوا : يا رسول الله إنما يمرض أهل الذنوب والخطايا .

(8/293)

فأما نحن فمعصومون بدعاء نبي الله موسى عليه السلام قال : " فَكَيْفَ تَمُوتُونَ إِذَا لَمْ تَمْرَضُوا ؟ " قالوا : إذا استوفى أحدنا رزقه جاءه ملك الموت فقبض روحه فندفنه ، حيث يموت .

قال : " فَهَلْ تَحْزَنُونَ إِذَا وُلِدَ لأَحَدِكُمْ جَارِيَةٌ " ؟ قالوا : يا رسول الله لا ولكنا نصوم لله تعالى

شهراً شكراً ، فإذا ولد ط لأحدنا غلام نصوم لله شهرين شكراً لله تعالى .

قال : " فَهَلْ فِيكُمْ حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ " ؟ قالوا : نعم .

قال : "كَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهِنَّ " ؟ قالوا : يا رسول الله نمشي عليهن ويمشين علينا ، ولا نؤذيهن ولا تؤذينا ، آمنات منا ونحن آمنون منهن .

قال : " فَهَلْ لَكُمْ مَاشِيَةٌ " ؟ قالوا : نعم ، نجز أصوافها فنتخذ منه الأفنية والأكسية ، ونأكل من لحومهن الكفاف ، وكل أهل القرية فيها شرع أي سواء ليس أحد أحق به منا .

قال : " فَهَلْ تَزِنُونَ أَوْ يُوزَنُ عَلَيْكُمْ " ؟ قالوا : لا نزن ولا يوزن علينا ولا نكيل ولا يكال علينا ولا نشتري ولا نبيع .

قال : " فَمِنْ أَيْنَ تَأْكُلُونَ " ؟ قالوا : يا رسول الله : نخرج فنزرع ، ويرسل الله تعالى السماء علينا فينبته ، ثم نخرج إليه فنحصده ، ونضعه في أماكن من القرية ، فيأخذ أهل القرية منها الكفاف ويدعون ما سواه .

قال : " فَهَلْ تُجَامِعُونَ النِّسَاءَ " ؟ قالوا : نعم يا رسول الله لنا بيوت مظلمة وثياب معلومة فإذا أردنا المجامعة لبسنا ثيابنا تلك ودخلنا تلك البيوت ، لا يرى الرجل عورة امرأته ولا المرأة عورة زوجها .

قال : " فَهَلْ فِيكُمْ زِنًى ؟ " قالوا : يا رسول الله لا فإن فعل ذلك أحد منا لظننا أن الله تعالى يبعث عليه ناراً فيحرقه أو يخسف به الأرض ، ولكن إذا كان للرجل منا ابنة طلبها منه

رجل فيزوجه إياها إرادة الأجر والعفة .

قال : " فَهَلْ تَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ " ؟ قالوا : لا .

يا رسول الله .

(9/293)

إنما يكنز الذهب والفضة من لا يثق بالله ، ومن يرى أن الله تعالى لم يتكفل له برزقه .

فأما نحن فلا نكنز الذهب والفضة .

فأقرأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سور من القرآن أنزلت بمكة ، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة فعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم بالصلاة والزكاة ورجع من ليلته .

وقال قتادة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : في قوله : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ قال : " قَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا " ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ يعني : في هذه الأمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(10/293)

وقال الثعلبي :

﴿ وَمِن قَوْمِ موسى ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ أُمَّةٌ ﴾ جماعة ﴿ يَهْدُونَ بالحق ﴾ أي يرشدون إلى الحق ، وقيل : خلفاء يهتدون ويستقيمون عليه ويعملون به ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ أي ينصفون من أنفسهم ويحمدون .

وقال السدي : هم قوم بينكم وبينهم [قوم] من سهل .

وقال ابن جريج : بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم ممّا صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم [وبينه] ففتح الله عليم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصف حتّى خرجوا من وراء الصين ، فهم هناك حقاً مسلمون يستقبلون قبلتنا .

قال الكلبي والربيع والضحاك وعطاء : هم قوم من قبل المغرب خلف الصين على نهر من الرمل يسمى نهر أودق وليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصبحون بالنهار ويزرعون لا يصل إليهم منّا أحدٌ ولا منهم إلينا أحدٌ وهم على الحق وذكر " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن جبرئيل [ذهب إليهم ليلة] أُسري به فكلّمهم فقال لهم جبرئيل : هل تعرفون مَنْ تُكلّمون ؟

قالوا : لا .

قال : هذا محمدٌ النبيّ فآمنوا به ، وقالوا : يا رسول الله إنّ موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه منّي السلام .

فردّ محمد صلى الله عليه وسلم على موسى : فعليه السلام ، ثمّ أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم يكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة فأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يُقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا وأن يتركوا السبت " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(11/293)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾

فإن قيل فهذا يدل على أن في اليهود من هم على حق .

الجواب عند ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم الذين تمسكوا بالحق في وقت ضلالتهم بقتل أنبيائهم ، ولا يدل هذا على استدامة حاله على الأبد .

والثاني : أنهم قوم وراء الصين لم تبلغهم دعوة الإسلام ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثالث : أنهم من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وابن صوريا وغيرهما ، قاله الكلبي .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ ومن قوم موسى ﴾ الآية ،

﴿ يهدون ﴾ معناه يرشدون أنفسهم ، وهذا الكلام يحتمل أن يريد به وصف المؤمنين المتقين من بني إسرائيل على عهد موسى وما والاه من الزمن ، فأخبر أنه كان في بني إسرائيل على عتوهم وخلافهم من اهتدى واتقى وعدل ، ويحتمل أن يريد الجماعة التي آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم ، ويحتمل ما روي من أن بني إسرائيل لما تقطعوا مرت أمة منهم واعتزلت ودخلت تحت الأرض فمشت في سرب تحت الأرض سنة ونصف سنة حتى خرجوا وراء الصين ، فهم هنالك خلف واد من شهد يقيمون الشرع ويهدون بالحق ، قاله السدي وابن جريج ، وروي بعضه عن ابن عباس .

قال القاضي أبو محمد : وهذا حديث بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾

فيه قولان .

أحدهما : يدعون إلى الحق .

والثاني : يعملون به .

قوله تعالى : ﴿ وبه يعدلون ﴾ قال الزجاج : وبالحق يحكمون .

وفي المشار إليهم بهذا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قوم وراء الصين لم تبلغهم دعوة الإسلام ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : أنهم مَن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم مثل ابن سلام وأصحابه ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنهم الذين تمسكوا بالحق في زمن أنبيائهم ، ذكره الماوردي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(13/293)

وقال القرطبى :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

أي يدعون الناس إلى الهداية .

و﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ معناه في الحكم .

وفي التفسير : إن هؤلاء قوم من وراء الصين ، من وراء نهر الرّمل ، يعبدون الله بالحق والعدل ، آمنوا بمحمد وتركوا السبت ، يستقبلون قبلتنا ، لا يصل إلينا منهم أحد ، ولا منا إليهم أحد .

فروى أنه لما وقع الاختلاف بعد موسى كانت منهم أمة يهدون بالحق ، ولم يقدِروا أن يكونوا بين ظهراني بني إسرائيل حتى أخرجهم الله إلى ناحية من أرضه في عزلة من الخلق ، فصار لهم سرَب في الأرض ، فمشوا فيه سنة ونصف سنة حتى خرجوا وراء الصين ؛ فهم على الحق إلى الآن .

وبين الناس وبينهم بحر لا يوصل إليهم بسببه .

ذهب جبريل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم ليلة المعراج فآمنوا به وعلمهم سوراً من القرآن وقال لهم : هل لكم مكيال وميزان ؟ قالوا : لا ، قال : فمن أين معاشكم ؟ قالوا : نخرج إلى البرية فنزرع ، فإذا حصدنا وضعناه هناك ، فإذا احتاج أحدنا إليه يأخذ حاجته .

قال : فأين نساؤكم ؟ قالوا : في ناحية مِنا ، فإذا احتاج أحدنا لزوجته صار إليها في وقت الحاجة .

قال : فيكذِب أحدكم في حديثه ؟ قالوا : لو فعل ذلك أحدنا أخذته لظى ، إن النار تنزل فتحرقه .

قال : فما بال بيوتكم مستوية ؟ قالوا لئلا يعلو بعضنا على بعض .

قال : فما بال قبوركم على أبوابكم ؟ قالوا : لئلا نغفل عن ذكر الموت .

ثم لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا ليلة الإسراء أنزل عليه : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : 181] يعني أمة محمد عليه السلام .

يعلمه أن الذي أعطيت موسى في قومه أعطيتك في أمتك .

وقيل : هم الذين آمنوا بنبينا محمد عليه السلام من أهل الكتاب .

وقيل : هم قوم من بني إسرائيل تمسكوا بشرع موسى قبل نسخه ، ولم يبدلوا ولم يقتلوا الأنبياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(14/293)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ومن قوم موسى ﴾ يعني من بني إسرائيل ﴿ أمة ﴾ أي جماعة ﴿ يهدون بالحق ﴾ يعني يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون إليه ﴿ وبه يعدلون ﴾ يعني وبالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون ويتصفون .

واختلفوا في هؤلاء من هم فقيل هم الذين أسلموا من بني إسرائيل مثل عبد الله بن سلام وأصحابه فإنهم آمنوا بموسى والتوراة وآمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) والقرآن واعترض على هذا بأنهم كانوا قليلين ولفظ الأمة يقتضي الكثرة .

وأجيب عنه بأنهم لما كانوا مخلصين في الدين جاز إطلاق لفظ الأمة عليهم كما في قوله إن إبراهيم كان أمة وقيل هم قوم بقوا على الدين الحق الذي جاء به موسى قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس إليه .

وقال السدي وابن جريج وجماعة من المفسرين : إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وأن يبعدهم عنم ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا .

قال ابن جريج قال ابن عباس : ساروا في السرب سنة ونصفاً رواه الطبري .

وحكى البغوي عن الكلبي والضحاك والربيع قالوا : هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق

على نهر يسمى نهر الأردن ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصحون بالنهار ويزرعون ولا يصل إليهم أحد منا وهم على الحق .

(15/293)

وذكر لنا أن جبريل ذهب بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة الإسراء به فكلمهم فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلمون ؟ قالوا : لا ، قالوا هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به وقالوا يا رسول الله إن موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام فرد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على قوم موسى وأقرأهم عشر سور من القرآن نزلت عليه بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت وهذه الحكاية ضعيفة من وجوه :

الأول : قولهم إن أحداً منا لا يصل إليهم وإذا كان كذلك فمن ذا الذي أوصل خبرهم إلينا .

الوجه الثاني : قولهم إن جبريل ذهب بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة الإسراء به وهذا لم يرد به نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث ولا يلتفت إلى قول الإخباريين والقصاص في ذلك .

الوجه الثالث : قولهم إنهم بلغوا النبي صلى الله عليه والسلام موسى وقد صح في حديث

المعراج أنه سلم عليه في السماء السادسة وأيضاً قولهم وأقرأهم عشر سور وقد نزل عليه بمكة أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضيتها فإذا ثبت بما ذكرناه بطلان هذه الرواية فالمختار في تفسير هذه الآية أنها إما أن تكون نزلت في قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك وإما أن تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كعبد الله بن سلام وأصحابه والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(16/293)

وقال أبو حيان :

﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

لما أمر بالإيمان بالله ورسوله وأمر باتباعه ذكر أنّ ﴿ من قوم موسى ﴾ من وفق للهداية وعدل ولم يجر ولم تكن له هداية إلا باتباع شريعة موسى قبل مبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وباتباع شريعة رسول الله بعد مبعثه فهذا إخبار عن من كان من قوم موسى بهذه الأوصاف فكان المعنى أنهم كلهم لم يكونوا ضلالاً بل كان منهم مهتدون ، قال السائب : هو قوم من أهل الكتاب آمنوا بنبينا (صلى الله عليه وسلم) كعبد الله بن سلام وأصحابه

وقال قوم : هم أمة من بني إسرائيل تمسكوا بشرع موسى قبل نسخه ولم يبدّلوا ولم يقتلوا الأنبياء ، وقال الزمخشري هم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل لما ذكر الذين نزلوا منهم ذكر أمة مؤمنين تائبين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم وبالحق يعدلون بينهم في الحكم ولا يجورون أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي (صلى الله عليه وسلم) وآمن به من أعقابهم انتهى ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يريد به الجماعة التي آمنت بمحمد (صلى الله عليه وسلم) على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم ويحتمل أن يريد به وصف المؤمنين التائبين من بني إسرائيل ومن اهتدى واتقى وعدل انتهى ، وما روي عن ابن عباس والسدي وابن جريج أنهم قوم اغتربوا من بني إسرائيل ودخلوا سرباً مشوا فيه سنة ونصفاً تحت الأرض حتى خرجوا وراء الصين فهم هناك يقيمون الشرع في حكايات طويلة ذكرها الزمخشري وصاحب التحرير والتحبير يوقف عليها هناك لعله لا يصح وفي قوله : ومن قوم موسى إشارة إلى التقليل وأنّ معظمهم لا يهدي بالحق ولا يعدل به وهم إلى الآن ، كذلك دخل في الإسلام من النصارى عالم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى وأما اليهود فقليل من آمن منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(17/293)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لدفع ما عسى يُوهِمه تخصيصُ كَتْبِ الرحمة والتقوى والإيمان بالآيات بمتّبعي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من حِرمانِ أسلافِ قومِ موسى عليه السلام من كل خير وبيانِ أن كلَّهم ليسوا كما حُكيت أحوالُهم بل منهم ﴿ أُمَّةٌ يَهْدُونَ ﴾ أي الناسَ ﴿ بالحق ﴾ أي ملتبسين به أو يهدونهم بكلمة الحق ﴿ وَبِهِ ﴾ أي بالحق ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ أي في الأحكام الجاريةِ فيما بينهم ، وصيغةُ المضارعِ في الفعلين لحكاية الحالِ الماضيةِ ، وقيل : هم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ويأباه أنه قد مر ذكرُهم فيما سلف ، وقيل : إن بني إسرائيلَ لما بالغوا في العتُوّ والطغيان حتى اجترأوا على قتل الأنبياءِ عليهم السلام تبرّأ سِبطٌ منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرّق بينهم وبين أولئك الطاغين ففتح الله تعالى لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنةً ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين ، وهم اليوم هنالك حنفاءُ مسلمون يستقبلون قِبلتَنا وقد ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريلَ عليه السلام ذهب به ليلة الإسراءِ نحوَهم فكلمهم فقال جبريلُ عليه السلام : هل تعرِفونَ من تكلمون ؟ قالوا : لا ، قال : هذا محمد النبي الأمي ، فآمنوا به وقالوا : يا رسول الله إن موسى أوصانا مَنْ أدرك منكم أحمدَ فليقرأ مني عليه السلام فرد محمدٌ على موسى عليهما السلامَ ثم أقرأهم عشرَ سورٍ من القرآن نزلت بمكةَ ولم تكن نزلت يومئذ فريضةٌ غيرَ الصلاة والزكاة وأمرهم أن يُقيموا مكانهم وكانوا يسْبِتون

فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبْتَ هذا ، وأنت خبيرٌ بأن تخصيصَهم بالهداية من بين قومِه عليه السلام مع أن منهم مَنْ آمن بجميع الشرائعِ لا يخلو عن بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(18/293)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ أُمَّةٍ ﴾ جماعة عظيمة ﴿ يَهْدُونَ ﴾ الناس ﴿ بالحق ﴾ أي محقين على أن الباء للملابسة ، والجار والمجرور في موضع الحال أو بكلمة الحق على أن الباء للآلة والجار لغو ﴿ وَبِهِ ﴾ أي بالحق ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ في الأحكام الجارية فيما بينهم ، وصيغة المضارع في الفعلين للإيذان بالاستمرار التجديدي ، واختلف في المراد منهم فقيل أناس كانوا كذلك على عهد موسى صلى الله عليه وسلم والكلام مسوق لدفع ما عسى يوهمه تخصيص كتب الرحمة والتقوى والايمان بالآيات بمتبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام في كل خير وبيان إن كلهم ليسوا كما

حكيت أحوالهم بل منهم الموصوفون بكيت وكيت ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية .

(19/293)

واختار هذا شيخ الإسلام ولا يبعد عندي أن يكون ذلك بياناً لقسم آخر من القوم مقابل لما ذكره موسى عليه السلام في قوله : ﴿ أَتُهْلِكُنَا فَعَلَ السفهاء مِنَّا ﴾ [الأعراف : 155] فيه تنبيص على أن من القوم من لم يفعل ، وقيل : أناس وجدوا على عهد نبينا صلى الله عليه وسلم موصوفون بذلك كعبد الله بن سلام وأضرابه ورجحه الطيبي بأنه أقرب الوجوه ، وذلك أنه تعالى لما أجاب عن دعاء موسى عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبى الامى ﴾ [الأعراف : 156 ، 157] الخ ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما فيه تبكيت لليهود وتنبيه على افترائهم فيما يزعمونه في شأنه عليه السلام مع إظهار النصفة وذلك بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس ﴾ [الأعراف : 158] الخ وقوله سبحانه : ﴿ فَئَامِنُواْ ﴾ [الأعراف : 158] الخ عقب ذلك بقوله عز شأنه : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ الخ ، والمعنى أن بعض هؤلاء الذين حكينا عنهم ما حكينا آمنوا وأنصفوا من أنفسهم يهدون الناس إلى أنه عليه الصلاة والسلام

الرسول الموعود ويقولون لهم : هذا الرسول النبي الأمي الذي نجده مكتوباً عندنا في التوراة والإنجيل ويعدلون في الحكم ولا يجورون ولكن أكثرهم ما أنصفوا ولبسوا الحق بالباطل وكتموه وجاروا في الأحكام فيكون ذكر هذه الفرقة تعريضاً بالأكثر .

(20/293)

واعترض بأن الذين آمنوا من قوم موسى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا قليلين ولفظ أمته يدل على الكثرة ، وأيضاً إن هؤلاء قد مر ذكرهم فيما سلف ، وأجيب بأن لفظ الأمة قد يطلق على القليل لا سيما إذا كان له شأن بل قد يطلق على الواحد إذا كان كذلك كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : 120] وبأن ذكرهم هنا لما أشير إليه من النكتة لا يأبى ذكرهم فيما سلف لغير تلك النكتة وتكرار الشيء الواحد لاختلاف الأغراض سنة مشهورة في الكتاب على أنه قد قيل : إنهم فيما تقدم قد وصفوا بما هو ظاهر في أنهم مهتدون وهنا قد وصفوا بما هو ظاهر في أنهم هادون فيحصل من الذكرين أنهم موصوفون بالوصفين .

نعم يبقى الكلام في نكتة الفصل ولعلها لا تخفى على المتدبر ، وقيل هم قوم من بني إسرائيل وجدوا بين موسى ونبينا محمد عليهما الصلاة والسلام وهم الآن موجودون أيضاً ، فقد

أخرج ابن جرير وغيره عن ابن جريج أنه قال : بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينهم ففتح الله تعالى لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء يستقبلون قبلتنا ، وإليهم الإشارة كما قال ابن عباس بقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِى إسرائيل اسكنوا الأرض فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخرة جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : 104] وفسر وعد الآخرة بنزول عيسى عليه السلام وقال : إنهم ساروا في السرب سنة ونصفاً .

وذكر مقاتل كما روى أبو الشيخ أن الله تعالى أجرى معهم نهر أو جعل لهم مصباحاً من نور بين أيديهم وأن أرضهم التي خرجوا إليها تجتمع فيها الهوام والبهائم والسباع مختلطين وأن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم ليلة المعراج ومعه جبريل عليه السلام فآمنوا به وعلمهم الصلاة ، وعن الكلبي .

والضحاك .

(21/293)

والربيع أنه عليه الصلاة والسلام علمهم الزكاة وعشر سور من القرآن نزلت بمكة وأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت وأقرؤه سلام موسى عليه السلام فرد النبي عليه الصلاة والسلام اللاسم ، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال بينكم وبينهم نهر من رمل يجري ، وضعف هذه الحكمة ابن الخازن وأنا لا أراها شيئاً ولا أظنك تجد لها سنداً يعول عليهم ولو ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(22/293)

وقال ابن عاشور :

﴿ ومن قوم موسى ﴾

عطف على قوله : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حُليهم عِجلاً ﴾ [الأعراف : 148] الآية ، فهذا تخصيص لظاهر العموم الذي في قوله : ﴿ واتخذ قوم موسى ﴾ [الأعراف : 148] قصد به الاحتراس لئلا يتوهم أن ذلك قد عمله قوم موسى كلُّهُم ، وللتنبيه على دفع هذا التوهم ، قُدّم ﴿ ومن قوم موسى ﴾ على متعلقه .

وقوم موسى هم أتباع دينه من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فمن بقي متمسكاً بدين

موسى ، بعد بلوغ دعوة الإسلام إليه ، فليس من قوم موسى ، ولكن يقال هو من بني إسرائيل أو من اليهود ، لأن الإضافة في ﴿ قوم موسى ﴾ تؤذن بأنهم متبعو دينه الذي من جملة أصوله ترقب مجيء الرسول الأمي صلى الله عليه وسلم

و﴿ أمة ﴾ : جماعة كثيرة متفقة في عمل يجمعها ، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ أمة واحدة ﴾ في سورة البقرة (213) ، والمراد أن منهم في كل زمان قبل الإسلام .

و﴿ يَهدون بالحق ﴾ أي يهدون الناس من بني إسرائيل أو من غيرهم ببث فضائل الدين الإلهي ، وهو الذي سماه الله بالحق ويعدلون أي يحكمون حكماً لا جَور فيه .

وتقديم المجرور في قوله : ﴿ وبه يعدلون ﴾ للاهتمام به ولرعاية الفاصلة ، إذ لا مقتضي لإرادة القصر ، بقرينة قوله : ﴿ يهدون بالحق ﴾ حيث لم يقدم المجرور ، والمعنى : إنهم يحكمون بالعدل على بصيرة وعِلم ، وليس بمجرد مصادفة الحق عن جهل ، فإن القاضي الجاهل إذا قضى بغير علم كان أحدَ القاضيين اللذين في النار ، ولو صادف الحق ، لأنه بجهله قد استخف بحقوق الناس ولا تنفعه مصادفة الحق ؛ لأن تلك المصادفة لا عمل له فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(23/293)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) ﴾

وحين يسمع قوم موسى هذا القول سيقولون في أنفسهم أنه يعلم ما في صدورنا من تفكير في الإيمان برسالة صلى الله عليه وسلم . ولكن لو عمَّم الحكم فمن يفكر في الإيمان بمحمد يقول : لماذا يصدر حكماً ضدي وأنا أفكر في الإيمان ؟ لكن الحق " صان الاحتمال " وأوضح لكل واحد من هؤلاء الذين يفكرون في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى إعلان الإيمان فقال : ﴿ وَمِن قَوْمِ موسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : 159]

أي يدلون الناس على الحق ويدعونهم إلى طريق الخير ، وبهذا الحق يعدلون في حكمهم بين الناس ولا يجورون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(24/293)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) ﴾

هم الذين سبقت لهما لعناية ، وصدقت فيهم الولاية فبقوا على الحق من غير تحريف ولا تحويل ، وأدركتهم الرحمةُ السابقةُ ، فلم تتطرق إليهم مفاجأة تغيير ، ولا خفيٌّ تبديل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 579 ﴾

(25/293)

وقال القاضى البيضاوى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الناس إِنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ ﴾

الخطاب عام ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى كافة الثقلين ، وسائر الرسل إلى أقوامهم . ﴿ جَمِيعاً ﴾ حال من إليكم . ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ صفة لله وإن حيل بينهما بما هو متعلق المضاف إليه لأنه كالتقدم عليه ، أو مدح منصوب أو مرفوع ، أو مبتدأ خبره ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ وهو على الوجوه . الأول بيان لما قبله فإن من ملك العالم كان هو الإله لا غيره وفي : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيْتُ ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية . ﴿ فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِي الأُمِّي الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله وَكَلِمَاتِهِ ﴾ ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه . وقرىء "وكلمته" على إرادة الجنس أو القرآن ، أو عيسى تعريضاً لليهود وتنبيهاً على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه ، وإنما عدل عن التكلم إلى

الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له . ﴿ واتبعوه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين تنبيهاً على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة .

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ يعنى من بني إسرائيل . ﴿ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق ﴾ يهدون الناس محقين أو بكلمة الحق . ﴿ وَبِهِ ﴾ بالحق . ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ بينهم في الحكم والمراد بها الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه ، أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر . وقيل مؤمنو أهل الكتاب . وقيل قوم وراء الصين رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فآمنوا به .

﴿ وقطعناهم ﴾ وصيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض .

(26/293)

﴿ اثنتى عَشْرَةَ ﴾ مفعول ثان لقطع فإنه متضمن معنى صير ، أو حال وتأنيثه للحمل على الأمة أو القطعة . ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ بدل منه ولذلك جمع ، أو تمييز له على أن كل واحد من اثنتي عشرة أسباط فكأنه قيل : اثنتي عشرة قبيلة . وقرىء بكسر الشين وإسكانها . ﴿

أُمَمًا ﴾ على الأول بدل بعد بدل ، أو نعت أسباط وعلى الثاني بدل من أسباط . ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ ﴾ في التيه . ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ الحجر فانبجست ﴾ أي فضرب فانبجست وحذفه للإيماء على أن موسى صلى الله عليه وسلم لم يتوقف في الامتثال ، وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته ﴿ مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ كل سبط . ﴿ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام ﴾ ليقيهم حر الشمس . ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى كُلُواْ ﴾ أي وقلنا لهم كلوا . ﴿ مِن طيبات مَا رزقناكم وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ سبق تفسيره في سورة "البقرة" . ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسكنوا هذه القرية ﴾ بإضمار اذكروا لقرية بيت المقدس . ﴿ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وادخلوا الباب سُجَّدًا ﴾ مثل ما في سورة "البقرة" معنى غير أن قوله ﴿ فَكُلُواْ ﴾ فيها بالفاء أفاد تسبب سكناهم للأكل منها ، ولم يتعرض له ها هنا اكتفاء بذكره ثمة ، أو بدلالة الحال عليه وأما تقديم قوله قولوا على وادخلوا فلا أثر له في المعنى لأنه لا يوجب الترتيب وكذا الواو العاطفة بينهما . ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيئاتكم سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ وعد بالغفران والزيادة عليه بالإثابة ، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف للدلالة على أنه تفضل محض ليس في مقابلة ما أمروا به . وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب "تغفر" بالتاء والبناء للمفعول ، و ﴿ خطيئاتكم ﴾ بالجمع والرفع غير ابن عامر فإنه وحد وقرأ أبو عمرو "خطاياكم" .

﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الذى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مّنَ السماء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ مضى تفسيره فيها .

﴿ وَاسْئَلْهُمْ ﴾ للتقرير والتقريع بقديم كفرهم وعصيانهم ، والإعلام بما هو من علومهم التي لا تعلم إلا بتعليم أو وحي ليكون لك ذلك معجزة عليهم . ﴿ عَنِ القرية ﴾ عن خبرها وما وقع بأهلها . ﴿ التى كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ قريبة منه وهي أيلة قرية بين مدين والطور على شاطىء البحر ، وقيل مدين ، وقيل طبرية . ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى السبت ﴾ يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت ، و﴿ إِذْ ﴾ ظرف ل ﴿ كَانَتْ ﴾ أو ﴿ حَاضِرَةَ ﴾ أو للمضاف المحذوف أو بدل منه بدل اشتمال . ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ ظرف ل ﴿ يَعْدُونَ ﴾ أو بدل بعد بدل . وقرىء ﴿ يَعْدُونَ ﴾ وأصله يعتدون ويعدون من الإعداد أي يعدون آلات الصيد يوم السبت ، وقد نهوا أن يشتغلوا فيه بغير العبادة . ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ يوم تعظيمهم أمر السبت مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بالتجرد للعبادة . وقيل اسم لليوم والإضافة لاختصاصهم بإحكام فيه ، ويؤيد الأول إن قرىء يوم إسباتهم ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ وقرىء ﴿ لاَ يَسْبِتُونَ ﴾ من أسبت

و﴿ لاَيَسْبِتُونَ ﴾ على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت ، و﴿ شُرَّعًا ﴾ حال من الحيتان ومعناه ظاهرة على وجه الماء من شرع علينا إذا دنا وأشرف . ﴿ كذلك نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم . وقيل كذلك متصل بما قبله أي لا تأتيهم مثل إتيانهم يوم السبت ، والباء متعلق ب ﴿ يَعْدُونَ ﴾ .

(28/293)

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ﴾ عطف على ﴿ إِذْ يَعْدُونَ ﴾ . ﴿ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ ﴾ جماعة من أهل القرية يعني صلحاءهم الذين اجتهدوا في موعظتهم حتى أيسوا من اتعاظهم . ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ مخترمهم . ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ في الآخرة لتماديهم في العصيان ، قالوه مبالغة في أن الوعظ لا ينفع فيهم ، أو سؤالاً عن علة الوعظ ونفعه وكأنه تقاول بينهم أو قول من ارعوى عن الوعظ لمن لم يرعو منهم ، وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاظهم رداً عليهم وتهكماً بهم . ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ جواب للسؤال أي موعظتنا إنهاء عذر إلى الله حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر . وقرأ حفص ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ بالنصب على المصدر أو العلة أي اعتذرنا به معذرة ووعظناهم معذرة . ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ إذ اليأس لا يحصل إلا بالهلاك .

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ ﴾ تركوا ترك الناسي . ﴿ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ ما ذكرهم به صلحاؤهم . ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ ﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله . ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ شديد فعيل من بؤس يبؤس بؤساً إذا اشتد . وقرأ أبو بكر " بيئس " على فيعل كضيغم ، وابن عامر "بئس" بكسر الباء وسكون الهمز على أنه بئس كحذر ، كما قرىء به فخفف عينه بنقل حركتها إلى الفاء ككبد في كبد ، وقرأ نافع " بيس " على قلب الهمزة ياء كما قلبت في ذئب أو على أنه فعل الذم وصف به فجعل اسماً ، وقرىء " بيس " كريس على قلب الهمزة ثم ادغامها و" بيس " بالتخفيف كهين وبائس كفاعل . ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم .

(29/293)

﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَمَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ تكبروا عن ترك ما نهوا عنه كقوله تعالى : ﴿ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم ، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى . روي : أن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين كرهوا مساكنتهم ، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق ، فأصبحوا

يوماً ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين فقالوا : إن لهم شأناً فدخلوا عليهم فإذا هم قردة فلم يعرفوا أنسباءهم ولكن القردة تعرفهم ، فجعلت تأتي أنسباءهم وتشم ثيابهم وتدور باكية حولهم ثم ماتوا بعد ثلاث . وعن مجاهد مسخت قلوبهم لا أبدانهم .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ أي أعلم تفعل من الإيذان بمعناه كالتوعد والإيعاد ، أو عزم لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله فأجرى مجرى فعل القسم ﴿ كعلم الله ﴾ و ﴿ شَهِدَ الله ﴾ . ولذلك أجيب بجوابه وهو : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ والمعنى وإذ أوجب ربك على نفسه ليسلطن على اليهود . ﴿ مَن يَسُومُهُمْ سُوء العذاب ﴾ كالإذلال وضرب الجزية ، بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخرب ديارهم وقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم ، وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ففعل ما فعل ثم ضرب عليهم الجزية فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب ﴾ عاقبهم في الدنيا . ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن تاب وآمن .

(30/293)

﴿ وقطعناهم فِي الأرض أُمَمًا ﴾ وفرقناهم فيها بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم تتمة لأدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط و ﴿ أُمَمًا ﴾ مفعول ثان أو حال . ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ تقديره ومنهم أناس دون ذلك أي منحطون عن الصلاح ، وهم كفرتهم وفسقتهم . ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ بالنعم والنقم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ينهون فيرجعون عما كانوا عليه .

(31/293)

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد المذكورين . ﴿ خَلْفٌ ﴾ بدل سوء مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع . وقيل جمع وهو شائع في ﴿ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها . ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى ﴾ حطام هذا الشيء الأدنى يعني الدنيا ، وهو من الدنو أو الدناءة وهو ما كانوا يأخذون من الرشا في الحكومة وعلى تحريف الكلم ، والجملة حال من الواو . ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه ، وهو يحتمل العطف والحال والفعل مسند إلى الجار والمجرور ، أو مصدر يأخذون . ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ حال من الضمير في ﴿ لَنَا ﴾ أي : يرجون المغفرة مصرين على الذنب عائدين إلى مثله غير تائبين عنه . ﴿ أَلَمْ

يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مّيثَاقُ الكتاب ﴾ أي في الكتاب . ﴿ أَن لاَّ يقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحق ﴾ عطف بيان للميثاق ، أو متعلق به أي بأن يقولوا والمراد توبيخهم على البت بالمغفرة مع عدم التوبة والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج عن ميثاق الكتاب . ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ عطف على ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ ﴾ من حيث المعنى فإنه تقرير ، أو على ﴿ وَرِثُواْ ﴾ وهو اعتراض . ﴿ والدار الاخرة خَيْرٌ للَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ مما يأخذ هؤلاء . ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ فيعلموا ذلك ولا يستبدلوا الأدنى الدنيء المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلد ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالتاء على التلوين . ﴿ والذين يُمَسّكُونَ بالكتاب وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ عطف على الذين ﴿ يَتَّقُونَ ﴾ وقوله : ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ اعتراض أو مبتدأ خبره : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ على تقدير منهم ، أو وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على أن الإِصلاح كالمانع من التضييع . وقرأ أبو بكر ﴿ يُمَسّكُونَ ﴾ بالتخفيف وإفراد الإِقامة لإِنافتها على سائر أنواع التمسكات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 65.70 ﴾

(32/293)

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) ﴾

التفسير : الاختيار افتعال من لفظ الخير يقال : اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره ومن هنا سمي فعل الحيوان فعلاً اختيارياً ، وذلك أن صدور الفعل عن الحيوان موقوف على حكمه بكون ذلك الفعل خيراً له من تركه . قال النحويون : أصله واختار موسى من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل ، فمن الأفعال ما يتعدى إلى المفعول الثاني بحرف واحد ثم يتسع فيحذف الحرف . من ذلك قولهم : اخترت من الرجال زيداً ثم يتسع فيقال اخترت الرجال زيداً . وكذا استغفرت الله من ذنبي واستغفرته ذنبي . وجوّز بعضهم في الآية أن يراد بالقوم المعتبرون منهم إطلاقاً لاسم الجنس على ما هو المقصود منهم فيكون مفعولاً أوّل من غير واسطة ويكون ﴿ سبعين ﴾ بدلاً أو بياناً قيل : اختار من اثني عشر سبطاً من كل سبط ستة فصاروا اثنين وسبعين فقال : ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال : إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد كالب ويوشع . وروي أنه لم يجد إلا ستين شيخاً فأوحى

إليه أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً . وقيل : كانوا أبناء ما عدا العشرين ولم يجاوزوا الأربعين قد ذهب عنهم الجهل والصبا فأمرهم موسى أن يتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم خرج بهم إلى طور سينا لميقات ربه . وللمفسرين خلاف في أن هذا الميقات عين ميقات الكلام والرؤية أم غيره ؟ الذاهبون إلى الأوّل قالوا : إن موسى كان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل ، فلما سمعوا الكلام طلبوا الرؤية وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي المراد من الرجفة في هذه الآية .

(33/293)

والذاهبون إلى الثاني حملوا القصة على ما مر في البقرة في تفسير قوله ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك ﴾ وقد ذكرنا هنالك أن منهم من قال هذه الواقعة كانت قبل قتل الأنفس توبة من عبادة العجل ، ومنهم من قال إنها كانت بعد القتل . واحتج أصحاب هذا المذهب على المغايرة بأنه تعالى ذكر قصة ميقات الكلام وطلب الرؤية ثم أتبعها ذكر قصة العجل ثم ختم الكلام بهذه القصة ، فظاهر الحال يقتضي أن تكون هذه القصة مغايرة لتلك القصة وإلا انخرم التناسب . عن علي عليه السلام أن موسى وهارون انطلقا إلى سفح جبل فنام هارون فتوفاه الله تعالى ، فلما رجع موسى إلى قومه قالوا إنه قتل هارون فاختار من قومه

سبعين فذهبوا إلى هارون فأحياه الله تعالى فقال : ما قتلني أحد فأخذتهم الرجفة هنالك . قيل : كانت موتاً . وقيل أخذتهم الرعدة حتى كادت تبين مفاصلهم وتنقض ظهورهم فخاف موسى عليهم الموت فدعا الله تعالى وقال ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ قال في الكشاف : هذا تمن منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة لو شاء الله لأهلكني قبل هذا ﴿ أتهلكنا ﴾ جميعاً يعني نفسه وإياهم ﴿ بما فعل السفهاء منا ﴾ قال أهل العلم : لا يجوز أن يظن موسى أن الله تعالى أهلك قوماً بذنوب غيره ، فهذا الاستفهام بمعنى الجحد أراد أنك لا تفعل ذلك كما تقول : أتهين من يخدمك تريد أنك لا تفعل ذلك ، وقال المبرد : إنه استفهام استعطاف أي لا تهلكنا . قيل : لو كان تسفيههم لقولهم ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [النساء : 153] ناسب أن يقال : أتهلكنا بما قاله السفهاء . فإذن التسفيه لفعل صدر عنهم كعبادة العجل أو غيرها ، ومنه يعلم أن هذا الميقات غير ميقات طلب الرؤية ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ الضمير يعود إلى الفتنة أي كما تقول إن هو إلا زيد وإن هي إلا هند قاله الواحدي . ولعله يعود إلى مقدر ذهني والمعنى أن الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنتك

(34/293)

ابتلاءك ومحنتك حين كلمتني وسمعوا كلامك أو حين أسمعتهم صوت العجل ﴿ تضل بها ﴾ أي بالفتنة من تشاء فيفتتن ﴿ وتهدي من تشاء ﴾ فيثبت على الحق . قالت الأشاعرة : في الآية دلالة ظاهرة على مذهبنا أن الإضلال والهداية من الله تعالى . وقالت المعتزلة : إن محنته لما كانت سبباً لأن ضلوا واهتدوا فكأنه أضلهم بها وهداهم على الاتساع في الكلام أو الضمر يعود إلى الرجفة أي ﴿ تضل ﴾ على الجنة بسبب عدم الصبر على تلك الرجفة ، أو لعدم الإيمان بأنها من عندك ﴿ من تشاء وتهدي ﴾ إلى الجنة بها الأضداد ما قلنا ﴿ من تشاء ﴾ أو المراد بالإضلال الإهلاك أي تهلك من تشاء بالرجفة وتصرفها عمن تشاء ﴿ أنت ولينا ﴾ يفيد الحصر أي لا ولي لنا ولا ناصر إلا أنت ﴿ فاغفر لنا وارحمنا ﴾ قيل : تذكر أن قوله ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ جراءة عظيمة فأشرك نفسه مع قومه في طلب المغفرة والرحمة ﴿ وأنت خير الغافرين ﴾ لأن غفرانك غير متوقف على جلب نفع أو دفع ضر بل لمحض الفضل والكرم .

(35/293)

﴿ واكتب ﴾ أوجب ﴿ لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ نظيره سؤال المؤمنين من هذه الأمة ﴿ ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ [البقرة : 201] وقد

فسرنا في سورة البقرة . واعلم أن كونه تعالى ولياً للعبد يناسبه أن يطلب العبد منه دفع المضار وتحصيل المنافع ليظهر آثار كرمه وإلهيته . وأيضاً اشتغال العبد بالتوبة والخضوع يناسب طلب هذه الأشياء . فذكر السبب الأوّل ثم رتب عليه الدعاء وختمه بالسبب الثاني وهو قوله ﴿ إنَّا هدنا إليك ﴾ قال أهل اللغة : النهود التوبة أي تبنا ورجعنا . وقد تم بذكر السببين عهد عز الربوبية وعهد ذل العبودية فلا يبعد وقوع الإجابة ولأن دفع الضر مقدم على تحصيل النفع ، قدم طلب المغفرة والرحمة على طلب إيجاب الحسنة في الدارين ﴿ قال ﴾ الله تعالى في جواب موسى ﴿ عذابي ﴾ من حالة وصفته أني ﴿ أصيب به من أشاء ﴾ إذا ليس لأحد عليّ اعتراض في ملكي . وقالت المعتزلة : أي من وجب عليّ في الحكمة تعذيبه ولم يكن في العفو عنه مساغ لكونه مفسدة . وقرأ الحسن ﴿ من أساء ﴾ من الإساءة ﴿ ورحمتي ﴾ من شأنها أنها ﴿ وسعت كل شيء ﴾ قالت الأشاعرة : هذا من العام الذي أريد به الخاص . وقال أكثر المحققين : إن رحمته في الدنيا تعم الكل ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمته . وأما في الآخرة فهي مختصة بالمؤمنين وذلك قوله ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ وقيل : الوجود خير من العدم فلا موجود إلا وهو مشمول بنعمته . وقيل : الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض وما بالذات راجح غالب . وقالت المعتزلة : الرحمة عبارة عن إرادة الخير ولا حي إلا وقد خلقه الله تعالى للرحمة والخير واللذة وإن حصل هناك ألم فله أعواض كثيرة . واعلم أن تكاليف الله

تعالى كثيرة ولكنها محصورة في نوعين : التروك والأفعال . فقوله ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ إشارة إلى التروك . التكليف الفعلي إما ما لي وهو قوله ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ وإما غيره وذلك

(36/293)

قوله ﴿ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ فإنه يشمل كل ما يجب على الإنسان علماً وعملاً . ثم ضم إلى ذلك اتباع النبي الأمي إلى آخره . وصف محمداً صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بصفات تسع : الأولى الرسالة .

الثانية النبوة . فإن قيل : النبوة مندرجة تحت الرسالة فلم أفردها بالذكر ؟ قلت : لا بل بينهما عموم وخصوص من وجه فقد يكون رسولاً ولا يكون نبياً كقوله ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ [فاطر : 1] وقد يكون نبياً لا رسولاً ككثير من الأنبياء ، فلا يكون أحد الوصفين على الإطلاق مغنياً عن الآخر . ولو سلم فذكر الآخر تتميم وتصريح بما علم ضمناً . الثالثة . كونه أمياً . قال الزجاج : معناه أنه على صفة أمة العرب . قال صلى الله عليه وآله : " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " وقيل : إنه منسوب إلى الأم أي إنه على هيئته يوم ولد لم يكتسب خطاً ودراسة . وكان هذا من جملة معجزاب نبينا صلى الله

عليه وسلم وبيانه من وجوه : الأول أنه كان يقرأ عليهم كتاب الله منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل . والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد أن يزيد فيها وينقص ، فهذا المعنى من مدد سماوي كقوله ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى : 6] الثاني لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً بأنه طالع كتب الأوّلين ، ولما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على جلائل العلوم من غير تعلم ومطالعة عرف أنه من السماء وإليه الإشارة بقوله ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48] الثالث : أن تعلم الخط لا يتفقر إلا إلى فطنة قليلة ومع ذلك كان الخط مشكلاً عليه . ثم إن الله تعالى آتاه علوم الأوّلين والآخرين وما لم يصل إليه أحد من العالمين ، فالجمع بين هاتين الحالتين من الأمور الخارقة للعادة كالجمع بين الضدين . الصفة الرابعة ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ الضمير في يجدون للذين يتبعونه من بني إسرائيل . ثم إن كان المراد أسلافهم فالوجه أن يراد بالاتباع اعتقاد نبوته من حيث وجدوا نعته في التوراة إذ لا يمكن أن يتبعوه في شرائعه قبل بعثه إلى الخلق ، ويكون المراد من قوله ﴿ والإنجيل ﴾ أنهم يجدون نعته

(37/293)

مكتوباً عندهم في الإنجيل فمن المحال أن يجدوه في الإنجيل قبل إنزال الإنجيل ، وإن كان المراد المعاصرين فالمعنى أن هذه الرحمة لا يفوز بها بني إسرائيل إلا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بالدلائل في زمن موسى واتبع نبي آخر الزمان في شرائعه ، وفي هذا دليل على أن نعته وصحة نبوّته مكتوب في التوراة والإنجيل ، وإلا كان ذكر هذا الكلام من أعظم القوادح والمنفرات لأهل الكتابين عن قبول قوله ، لأن الإصرار على الزور والبهتان يوجب نقصان حال المدعي فلا يرتكبه عاقل فلما أصر على ذلك دل على أن الأمر في نفسه كذلك . الخامسة والسادسة ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ وقد ذكرنا تفصيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في آل عمران ومجامع ذلك محصورة في قوله صلى الله عليه وسلم :

(38/293)

" ملاك الدين تعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله " فإن كل ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلاً قاهراً وبرهاناً باهراً على توحيد الله وتنزيهه فإنه يجب النظر إليها بعين الاحترام والإشفاق كما يليق بها . السابعة ﴿ ويحل لهم الطيبات ﴾ قيل : أي ما يستطاب طبعاً لأن تناول ذلك يفيد لذة . وقيل : يعني الأشياء التي حكم الله تعالى بحلها وزيف بأنه يجري

مجرى قول القائل : ويحل المحللات وهو تكرار . ويمكن أن يجاب بأن المراد ويبين لهم المحللات . وفائدة العدول أن يعلم أن كل حلال مستطاب طبعاً وأن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل إلا الدليل منفصل . وقيل : يعني ما يحرم عليه من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها . الثامنة ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾ قال عطاء عن ابن عباس : الميتة والدم ونحوهما من المحرمات . وقيل : كل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه الحرمة إلا بدليل منفصل . التاسعة ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ الإصر الثقل الذي يأصر حبه أي يحبسه من الحراك لثقله وهو مثل لصعوبة تكاليفهم كاشتراط قتل النفس في صحة التوبة . وكذا الأغلال التي كانت عليهم مثل لما في شرائعهم من الأمور الشاقة كالقصاص بتة من غير شرع الدية ، وكقطع الأعضاء الخاطئة ، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب . وإحراق الغنائم ، وتحريم العروق في اللحم جعلها الله تعالى أغلالاً لأن التحريم يمنع من الفعل كما أن الغل يمنع من الفعل . عن عطاء : كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم ، وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها على السارية يحبس نفسه على العبدة . فالأغلال على هذا القول غير مستعارة ، وفي الآية دلالة على أن الأصل في المضار والمشاق الحرمة كما قال صلى الله عليه وسلم : " بعثت بالحنيفية السهلة السمحة " وهذا أصل عظيم في هذه الشريعة . ثم لما وصفه بالصفات التسع أكد الإيمان به بقوله ﴿ فالذين آمنوا به ﴾ قال ابن عباس : يعني

من اليهود والأولى حمله على العموم ﴿ وعزروه ﴾ وقروه وعظموه . قال في الكشاف : وأصل العزر المنع ومنه التعزير للضرب دون الحد لأنه منع من معاودة القبيح . فالمراد ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدوّه ، وعلى هذا لم يبق بينه وبين قوله ﴿ ونصروه ﴾ فرق كبير ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ وهو القرآن أي أنزل مع نبوّته لأن نبوّته ظهرت مع ظهور القرآن أو يتعلق ب ﴿ اتبعوا ﴾ أي اتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته ، واتبعوا القرآن كما اتبعه النبي مصاحبين له في اتباعه ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بالمطلوب في الدارين ، اعلم أنه سبحانه لما قال ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ بين أن من شروط نزول الرحمة لأولئك المتقين كونهم متبعين لرسول آخر الزمان ، ثم أراد أن يحقق عموم رسالته إلى المكلفين فقال ﴿ قل يا أيها الناس أني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وانتصابه على الحال من ﴿ إليكم ﴾ وفيه دليل على أن محمداً صلى الله عليه وآله مبعوث إلى الخلق كافة خلافاً لطائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أتباع عيسى الأصفهاني ، زعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول صادق لكنه مبعوث إلى العرب خاصة وفساده ظاهر لأنه من المعلوم بالتواتر من دينه أنه كان يدعي عموم الرسالة فإن كان رسولاً إلى العرب وإلى غيرهم .

وزعم بعض العلماء أنه عام دخله التخصيص لأنه غير مبعوث إلى غير المكلفين بقوله : صلى الله عليه وسلم : " رفع القلم عن ثلاث : عن الصبي حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق " وأيضاً يمكن وجود قوم في طرف من أطراف العمارة لم يصل إليهم خبر وجوده فهم لا يكونون مكلفين بالإقرار بنبوّته . والجواب أن رفع القلم عن الأصناف الثلاثة أيضاً حكم عليهم بهذا الاعتبار يدخلون تحت الخطاب وإن وجود قوم كما زعمتم من المستبعدات فلا يستحق الالتفات إليه . قال بعض الأكابر : إن الآية وإن دلت على أنه صلى الله عليه وسلم مبعثوث إلى كل الخلق فليس فيها دلالة على أن غيره من الأنبياء ما كان مبعوثاً إلى كلهم . وقد تمسك جمع من العلماء بالحديث المشهور : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي أرسلت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ، وختم بي النبيون " ورد بأن مجموع هذه الأمور من خواصه لا كل واحد واحد ، وبأن آدم بعث إلى كل أولاده في ذلك الزمان فيكون مبعوثاً إلى كل الناس وقتئذ . ولا يخفى ضعف هذا الرد لأنا نعلم من دين محمد أنه خاتم النبيين وحده في رواية أخرى : " وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي "

وإذا كان بعض هذه الأمور من خواصه لزم أن يكون كل واحد منها كذلك . وأيضاً أن آدم لم يكن مبعوثاً إلى حواء لأنها عرفت التكليف لا بواسطة آدم بدليل ولا تقرباً . ثم لما أمر رسول الله بأن يقول للناس أني رسول الله إليكم أتبعه ذكر ما يدل على صحة هذه الدعوى وأنها لا تتم إلا بتقرير أصول أربعة : أوّلها إثبات أن للعالم إلهاً حياً عالماً قادراً وأشار إليه بقوله ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ إذ لو لم يكن للعالم مؤثر موجب بالذات لا فاعل بالاختيار لم يمكن القول ببعثة الرسول . ومحل ﴿ الذي ﴾ نصب أو رفع على المدح أو جر بدلاً أو وصفاً لله . وثانيها أن إله العالم واحد وذلك قوله ﴿ لا إله

(41/293)

إلا هو ﴾ إذ لو فرض إلهان لم يكن عبادة أحدهما أولى من عبادة الآخر .

وثالثها أنه تعالى قادر على الخير والشر والبعث والحساب كما قال ﴿ يحيي ويميت ﴾ وإنما لم يوسط العاطف بين هذه الجمل لأن كل واحد منها مبينة لما قبلها ، وإذا ثبتت هذه الأصول الثلاثة ثبت أصل رابع وهو أنه يصح من الله تعالى إرسال الرسل ومطالبة الخلق بالتكاليف . أما بالأصل الأوّل والثاني فلأنه يحسن من المولى مطالبة عبده بطاعته وخدمته ولا سيما إذا كان فرداً منزهاً عن الشريك والنظير مستقلاً بالأمر والنهي . وأما

الأصل الثالث فلأنه يحسن من القادر تكليف المكلف بنوع من طاعته إيصالاً له إلى الجزاء إلى لذة الجزاء ، فإن تحصيل لذة الأجر بدون كونه أجر ممتنع وأشار إلى هذا الأصل الرابع بقوله ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي ﴾ اقتصر من الصفات المذكورة ههنا على الأمية لأنها أجل الأوصاف وأدلها على حقيته ، وذلك أنه لم يتفق له مطالعة كتاب ولا مصاحبة معلم لأنه ما كانت مكة بلدة العلماء وما غاب عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم غيبة طويلة يمكن التعلم فيها ومع ذلك فتح الله عليه أبواب العلم والتحقيق وأظهر عليه هذا القرآن الذي اشتمل على علوم الأوّلين والآخرين فليس ذلك إلا بتأييد سماوي وفيض إلهي . ثم وصفه بقوله ﴿ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ لأن النبي صلى الله عليه وآله يجب أن يكون ممن آمن بالله وبكتبه . وإنما لم يقل فآمنوا بالله وبي بعد قول ﴿ إني رسول الله ﴾ بل عدل إلى المظهر ليمكن أن يجري عليه الصفات المذكورة . ولما في طريقة الالتفات من البلاغة ، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان ، أنا أو غيري إظهاراً للنصفة واحترازاً عن العصبية . واعلم أن الكمالات إما نظرية وأشار إليها بقوله ﴿ فآمنوا بالله ﴾ وإما عملية وإليها الإشارة بقوله ﴿ واتبعوه ﴾ والأولى إشارة إلى التكاليف المستفادة من أقواله ، والثانية إشارة إلى المستفادة من أفعاله ، فإن كل فعل

يصدر عنه وقد واظب عليه فلا بد أن يكون جانب فعله ذلك الفعل جانب فعله راجحاً على تركه . ثم إن ظاهر الأمر للوجوب فيجب علينا اتباعه وإن كان ذلك مندوباً له إلا أن يدل دليل منفصل على أن ذلك الفعل من خصائصه . ومعنى الترجي في ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ قد مر في نظائره ولا سيما في أوّل البقرة في قوله ﴿ لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : 21] ثم لما ذكر الرسول وأنه يجب على الخلق متابعته ذكر أن في قوم موسى من اتبع الحق وهدي إليه فقال ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ﴾ أي يهدون الناس بكلمة الحق ﴿ وبه ﴾ أي بالحق ﴿ يعدلون ﴾ بينهم في الحكم لا يجورون . وهذه الآية متى حصلت في أي زمان كانت ؟ اختلف المفسرون في ذلك . فقيل : هم اليهود الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كعبد الله بن سلام وابن صوريا وغيرهما .

(43/293)

ولفظ الأمة قد يطلق على القليل إذا كان لهم شأن كما أطلق على الواحد في قوله ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ [النحل : 120] وقيل : إنهم قوم ثبتوا على دين الحق الذي جاء به موسى ودعوا الناس إليه وصانوه عن التحريف والتبديل في زمن تفرق بني إسرائيل

وإحداثهم البدع ، ويجوز أن يكونوا أقاموا على ذلك إلى أن جاء المسيح فدخلوا في دينه ، ويجوز أن يكونوا هلكوا قبل ذلك ، وقال السدي وجماعة من المفسرين : إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين . ثم من المفسرين من قال : إنهم بقوا متمسكين بدين اليهودية إلى الآن بناء على أن خبر نبينا لم يصل إليهم فيهم معذورون ، ومنهم من استبعد عدم وصول الخبر إليهم مع أن خبر هذه الشريعة طار في كل أفق وتغلغل في كل نفق فقال : إنهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبرائيل ذهب به صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء نحوهم فكلمهم فقال لهم جبرائيل : هل تعرفون من تكلمون ؟ قالوا : لا . قال : هذا محمد صلى الله عليه وسلم النبي الأمي فآمنوا به . وقالوا : يا رسول الله إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه مني السلام ، فرد محمد على موسى عليه السلام ثم أقرأهم عشر سور من القران نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة ، وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 326 . 333 ﴾

(44/293)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ واختار موسى قومه ﴾ المختار من الخلق من اختاره الله تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ [القصص : 68] فالذي اختاره الله كان مثل موسى ﴿ وأنا اخترتك ﴾ [طه : 13] . والذين اختارهم موسى كانوا مستحقين بسوء الأدب للرجفة والصعقة . وههنا نكتة هي أن قلب موسى عليه السلام لما كان مخصوصاً بالاصطفاء للرسالة والكلام دون القوم كان سؤاله للرؤية شعلة نار المحبة مقروناً بحفظ الأدب على بساط القرب بقوله ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾ قدّم عزة الربوبية وأظهر ذلة العبودية ، وكان سؤال القوم من القلوب الساهية اللاهية فتصاعد دخان الشوق بسوء الأدب فقالوا ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [البقرة : 55] قدّموا الجحود والإنكار وطلبوا الرؤية جهاراً فأخذتهم الصاعقة . فصعقة موسى كانت صعقة اللطف مع تجلي صفة الربوبية ، وصعقتهم كانت صعقة القهر عند إظهار صفة العزة والعظمة . ولما كان موسى عليه السلام ثابتاً في مقام التوحيد كان ينظر بنور الواحدة فيرى الأشياء كلها من عند الله ، فرأى سفاهة القوم من آثار صفات قهره فتنة واختياراً لهم فقال ﴿ إن

هي إلا فتنتك ﴾ تزيغ بها قلب من تشاء بأصبع صفة القهر ، وتقيم قلب من تشاء بإصبع صفة اللطف .

(45/293)

﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾ الرؤية كما كتبت لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فسأكتبها ﴾ يعني حسنة الرؤية والرحمة ﴿ للذين يتقون ﴾ بالله عن غيره ﴿ ويؤتون ﴾ عن نصاب هذا المقام ﴿ الزكاة ﴾ إلى طلابه والذين هم بأنوار شواهد الآيات بالتحقيق لا بالتقليد يؤمنون ، وفي قوله ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ﴾ إشارة إلى أن في أمته من يكون مستعداً لاتباعه في هذه المقامات الثلاثة ، ومعنى الأمي أنه أم الموجودات وأصل المكوّنات كما قال صلى الله عليه وسلم : " أول ما خلق الله روحي " وقال حكاية عن الله لولاك لما خلقت الكون . فأما اتباعه في مقام الرسالة فبأن تأخذ منه ما أتاك وتنتهي عما نهاك ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] فالرسالة تتعلق بالظاهر والنبوة بالباطن فللعوام شركة مع الخواص في الانتفاع من الرسالة وللخواص اختصاص بالانتفاع من النبوة ، فمن أدى حقوق أحكام الرسالة في الظاهر يفتح له ببركة ذلك أحوال النبوة في الباطن فيصير صاحب الإشارات والإلهامات الصادقة والرؤيا

الصالحة والهواتف الملكية ، وربما يؤل حاله إلى أن يكون صاحب المكالمة والمشاهدة والمكاشفة ، ولعله يصير مأموراً بدعوة الخلق إلى الحق بالمتابعة لا بالاستقلال كما قال صلى الله عليه وآله : " علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل " وأما اتباعه في مقام أمبته فذلك لأخص الخواص وذلك أنه صلى الله عليه وآله يرجع بالسير من مقام بشريته إلى مقام روحانيته الأولى ، ثم بجذبات الوحي أنزل في مقام التوحيد وهو قاب قوسين ، ثم اختطف بأنوار الهوية عن أنانيته إلى أو أدنى وهو مقام روحانيته ثم بجذبات النبوة أنزل في مقام التوحيد ، ثم اختطف بأنوار المتابعة عن أنانيته إلى مقام الوحدة فقد حظي من مقام أميته ﴿ مكتوباً عندهم ﴾ بالحقيقة هو مكتوب عنده في مقعد صدق ﴿ يأمرهم بالمعروف ﴾ وهو طلب الحق ﴿ وينهاهم عن المنكر ﴾ طلب ما سواه ﴿ ويحل لهم الطيبات ﴾

(46/293)

كل ما يقرّب إلى الله فإن الله هو الطيب ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾ الدنيا وما فيها ﴿ ويضع عنهم أصرهم ﴾ أي العهد الذي بين الله وبين حبيبه أو لا يوصل أحد إلى مقام أميته إلا أمته وأهل شفاعته كقوله : " الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم " فكان من هذا العهد عليهم شدة وأغلال يمنعهم من الوصول إلى هذا المقام . فقد وضع النبي صلى الله

عليه وسلم هذا الإصر والأغلال بالدعوة إلى متابعته ، وأشار إلى هذه المعاني بقوله ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ﴾ وقروه باعتقاد اختصاص هذا المقام به دون سائر الأنبياء والرسل ونصروه بالمتابعة ﴿ واتبعوا ﴾ نور الوحدة الذي ﴿ أنزل معه ﴾ له ملك سموات القلوب وأرض النفوس لا مدبر فيهما غيره ، يحيي قلب من يشاء من عباده بنور الوحدة ، ويميت نفسه عن صفات البشرية .

وكلماته هي ما أوحى إليه ليلة المعراج بلا واسطة ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ﴾ يعني خواصهم الذين يرشدون الخلق بالكتاب المنزل بالحق على موسى ﴿ وبه يعدلون ﴾ في الحكم بين العوام فشتان بين أمة غايتهم القصوى هي هداية الخلق وكان نبيهم محجوباً بحجاب الأنانية عند سؤال الرؤية فأجيب ب ﴿ لن تراني ﴾ وبين أمة أمية بلغوا بجذبات أنوار المتابعة إلى مقام الوحدة حتى سموا أمة أميين وقال في حقهم : "كنت له سمعاً وبصراً ولساناً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق " فلهذا دعا موسى عليه السلام : اللهم اجعلني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم شوقاً إلى لقاء ربه فافهم جداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 333.334 ﴾

(47/293)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ قَالَ يَا موسى إِنِّى اصطفيتك عَلَى الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ دون رؤيتي على ما يقوله نفاة الرؤية ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ ﴾ بالتمكين ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ [الأعراف : 144] بالاستقامة في القيام بحق العبودية التي لا مقام أعلا منها

لا تدعني إلا بيا عبدها . . .

فإنه أشرف أسمائي

وبالشكر تزداد النعم كما نطق بذلك الكتاب ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلواح ﴾ أي أظهرنا نقوش استعداده في ألواح تفاصيل وجوده من الروح والقلب العقل والفكر والخيال فظهر فيها ﴿ مِن كُلِّ شَىْء مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْء فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أي بعزم لتكون من ذويه ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي أكثرها نفعاً وهي العزائم ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ﴾ [الأعراف : 145] أي عاقبة الذين لا يأخذون بذلك ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرض بِغَيْرِ الحق ﴾ [الأعراف : 146] هم الذين في مقام النفس فيكون تكبرهم حجاباً لهم عن آيات الله تعالى وأما المتكبرون بالحق وهم الذي فنيت صفاتهم وظهرت عليهم صفات مولاهم فليسوا بمحجوبين ولا يعد تكبرهم مذموماً لأنه ليس تكبرهم حقيقة وإنما حظهم منه كونهم مظهراً له

﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا وَلِقَاء الآخرة ﴾ [الأعراف : 147] حيث حجبوا بصفاتهم وأفعالهم حبطت أعمالهم فلا تقربهم شيئاً ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيّهِمْ عِجْلاً ﴾ صنعه لهم السامري وكان من قوم يعبدون العجل أو ممن رآهم فوقع في قلبه لسوء استعداده حبه وأضمر عبادته واختار صياغته من حليهم ليكون ميلهم إليه أتم لأن قلب الإنسان يميل حيث ماله سيما إذا كان ذهباً أو فضة ، وكثير من الناس اليوم عبيد الدرهم والدينار وهما العجل المعنوي لهم وإن لم يسجدوا له وأكثر الأقوال أن ذلك العجل صار ذا لحم ودم وإليه الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف : 148] وفي كلام الشيخ الأكبر قدس سره أنه صار ذا روح بواسطة التراب الذي وطئه الروح الأمين ولم يصرح بكونه ذا لحم ودم ﴿ وَأَلْقَى الالواح ﴾ أي ذهل من شدة الغضب عنها وتجافي عن حكم ما فيها ونسيان ما يستحسن من الحلم مثلاً عند الغضب مما يجده كل أحد من نفسه ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ يجره إليه ظناً أنه قصر في كفهم .

﴿ قَالَ ابن أُمَّ ﴾ [الأعراف : 150] ناداه بذلك لغلبة الرحمة عليه ، وتأويل ذلك في الأنفس على ما قاله بعض المؤولين أن سامري الهوي بعد توجه موسى عليه السلام الروح لميقات مكالمة الحق اتخذ من حلى زينة الدنيا ورعونات البشرية التي استعارها بنو إسرائيل صفات القلب من قبط صفات النفس معبوداً يتعجلون إليه له خوار يدعون الخلق به إلى نفسه ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ ﴾ بما ينفعهم ولا يهديهم سبيلاً إلى الحق ﴿ اتخذوه وَكَانُواْ ظالمين ﴾ [الأعراف : 148] حيث عدلوا عن عبادة الحق إلى عبادة غيره في نظرهم ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ندموا عند جروع موسى الروح ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ بجذبات العناية ﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ بأن يستر صفاتنا بصفاته سبحانه وتعالى : ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الأعراف : 149] رأس مال هذه النشأة وهو الاستعداد ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ ﴾ وهم الأوصاف الإنسانية ﴿ غضبان ﴾ مما عبدت صفات القلب عجل الدنيا ﴿ أَسِفاً ﴾ على ما فات لها من عبادة الحق ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى ﴾ حيث لم تسيروا سيري ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ بالرجوع إلى الفاني من غير أمره تعالى ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ أي ما لاح له من اللوائح الربانية عند استيلاء الغضب الطبيعي ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ وهو القلب يجره إليه قسراً ، ﴿ قَالَ ابن أُمَّ ﴾ ناداه بذلك مع أنه أخوه من أبيه وهو عالم الأمر وأمه وهو عالم الخلق لأنهما في عالم الخلق ﴿

إِنَّ القوم ﴾ أي أوصاف البشرية ﴿ استضعفونى ﴾ عند غيبتك ﴿ وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى ﴾ يزيلون مني حياة استعدادي بالكلية

(50/293)

﴿ فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ الأعداء ﴾ [الأعراف : 150] وهم وهم ، وهذا ما يقتضيه مقام الفرق ، قال : رب اغفر لي ولأخي استر صفاتنا وأدخلنا في رحمتك بإفاضة الصفات الحقة علينا ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ [الأعراف : 151] لأن كل رحمة فهو شعاع نور رحمتك ﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل ﴾ أي عجل الدنيا إلهاً ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ وهو عذاب الحجاب وذلة في الحياة الدنيا باستعباد هذا الفاني المدني لهم ﴿ وكذلك نَجْزِى المفترين ﴾ [الأعراف : 152] الذين يفترون على الله تعالى فيثبتون وجوداً لما سواه ، ﴿ والذين عَمِلُواْ السيئات ثُمَّ تَابُواْ ﴾ رجعوا إليه سبحانه وتعالى بمجاهدة نفوسهم وإفنائها إن ربك من بعدها لغفور فيستر صفاتهم ﴿ رحيم ﴾ [الأعراف : 153] فيفيض عليهم من صفاته ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح الربانية ، وفي نسختها هدى إرشاد إلى الحق ﴿ وَرَحْمَةٌ للذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : 154] يخافون لحسن استعدادهم ، ويقال في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ واختار موسى

قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقاتنا ﴾ إن موسى عليه السلام اختار سبعين رجلاً من أشراف قومه ونجباءهم أهل الاستعداد والصفاء والإرادة والطلب والسلوك فلما أخذتهم الرجفة أي رجفة البدن التي هي من مبادي صعقة الفناء عند طريان بوارق الأنوار وظهوره طوالع تجليات الصفات من اقشعرار الجسد وارتعاده وكثيراً ما تعرض هذه الحركة للسالكين عند الذكر أو سماع القرآن أو ما يتأثرون به حتى تكاد تتفرق أعضاؤهم ، وقد شاهدنا ذلك في الخالدين من أهل الطريقة النقشبندية ، وربما يعتريهم في صلاتهم صياح معه فمنهم من يستأنف صلاته لذلك ومنهم من لا يستأنف ، وقد كثر الإنكار عليهم وسمعت بعض المنكرين يقولون : إن كانت هذه الحالة مع الشعور والعقل فهي سوء أدب ومبطلة للصلاة قطعاً وإن كانت مع عدم شعور وزوال عقل فهي ناقضة للوضوء ونراهم لا يتوضؤون

(51/293)

، وأجيب بأنها غير اختيارية مع وجود العقل والشعور ، وهي كالعطاس والسعال ومن هنا لا ينتقض الوضوء بل ولا تبطل الصلاة ، وقد نص بعض الشافعية أن المصلي لو غلبه الضحك في الصلاة لا تبطل صلاته ويعذر بذلك فلا يبعد أن يلحق ما يحصل من آثار التجليات الغير الاختيارية بما ذكر ولا يلزم من كونه غير اختياري كونه صادراً من غير شعور

فإن حركة المرتعش غير اختيارية مع الشعور بها ، وهو ظاهر فلا معنى للإنكار .

نعم كان حضرة مولانا الشيخ خالد قدس سره يأمر من يعتريه ذلك من المريدين بالوضوء واستئناف الصلاة سداً لباب الإنكار ، والحق أن ما يعتري هذه الطائفة غير ناقض الوضوء لعدم زوال العقل معه لكنه مبطل للصلاة لما فيه من الصياح الذي يظهر به حرفان مع أمور تأباها الصلاة ولا عذر لمن يعتريه ذلك إلا إذا ابتلى به بحيث لم يخل زمن من الوقت يسع الصلاة بدونه فإنه يعذر حينئذ ولا قضاء عليه إذا ذهب مه ذلك الحال كمن به حكة لا يصبر معها على عدم الحك .

وقد نص الجد عليه الرحمة في حواشيه على شرح الحضرمية للعلامة ابن حجر في صورة ابتلى بسعال مزمن على نحو ذلك ، ثم قال : فرع لو ابتلى بذلك وعلم من عادته أن الحمام يسكنه عنه مدة تسع الصلاة وجب عليه دخوله حيث وجد أجرة الحمام فاضلة عما يعتبر في الفطرة وإن فاتته الجماعة وفضيلة أول الوقت انتهى .

نعم ذكر عليه رحمة الله تعالى في الفعل الكثير المبطل للصلاة وهو ثلاثة أفعال أنه لو ابتلى بحركة اضطرارية نشأ عنها عمل كثير فمعذور ، وقال أيضاً : إنه لا يضر الصوت الغير المشتمل على النطق بحرفين متواليين من أنف أو فم وإن اقترنت به همهمة شفتي الأخرس ولو لغير حاجة وإن فهم الفطن كلاماً أو قصد محاكاة بعضهم أصوات الحيوانات وإن لم يقصد التلاعب وإلا بطلت ، وينبغي التحري في هؤلاء القوم فإن حالهم في ذلك متفاوت لكن أكثر

ما شاهدناه على الطراز الذي ذكرناه ، وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من الكتب الفقهية .

(52/293)

قال موسى : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وإياى ﴾ وذلك من شدة غلبته الشوق ، و﴿ لَوْ ﴾ هذه للتمني ، أتهلكنا بعذاب الحجاب والحرمان بما فعل السفهاء من عبادة العجل إن هي إلا فتنتك لا مدخل فيها لغيرك ، وهذا مقتضى مقام تجلي الأفعال ، فاغفر لنا ذنوب صفاتنا وذواتنا كما غفرت ذنوب أفعالنا ، وارحمنا بإفاضة أنوار شهودك ورفع حجاب الآنية بوجودك ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وهي حسنة الاستقامة بالبقاء بعد الفناء ، وفي الآخرة حسنة المشاهدة ، والكلام في بقية الكلام لا يخفى على من له أدنى ذوق .

خلا أن بعضهم أول العذاب في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء ﴾ [الأعراف : 156] بعذاب الشوق المخصوص الذي يصيب أهل العناية من الخواص وهو الرحمة التي لا يكتنه كنهها ولا يقدر قدرها وإنها لأعز من الكبريت الأحمر ، وأهل الظاهر يرونه بعيداً والقوم يقولون نراه قريباً ، وقالوا : الأمي نسبة إلى الأم لكن على حد أحمري ،

وقيل : للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه أم الموجودات وأصل المكنونات ، واختير هذا اللفظ لما فيه من الإشارة إلى الرحمة والشفقة وهو الذي جاء رحمة للعالمين وإنه عليه الصلاة والسلام لأشفق على الخلق من الأم بولدها إذ له صلى الله عليه وسلم الحظ الأوفر من التخلق بأخلاق الله تعالى وهو سبحانه أرحم الراحمين ، وذكروا أن أتباعه من حيث النبوة الخواص ومن الأمية خواص الخواص ومن حيث الرسالة هؤلاء المذكورون كلهم والعوام نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباعه صلى الله عليه وسلم في سائر شؤونه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(53/293)

قوله تعالى ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما مدحهم ، شرع يذكرهم شيئاً مما أسبغ عليهم من النعم لأجل هؤلاء المهتدين من التكثير بعد القلة والإعزاز بعد الذلة بجعلهم ممن يؤم استعطافاً لغيرهم ، ويذكر بعض عقوباتهم ترهيباً فقال : ﴿ وقطعناهم ﴾ أي فرقنا بينهم بالأشخاص بعد أن كانوا ماء واحداً من شخص واحد ، وهو إسرائيل عليه السلام ؛ وصرح بالكثرة بعد أن لوح بها بالتقطيع بقوله : ﴿ اثنتي عشرة ﴾ وميزه – موضع المفرد الذي هو مميز العشرة – بالجمع للإشارة إلى أن كل سبط يشتمل لكثرته على عدة قبائل بقوله : ﴿ أسباطاً ﴾ والسبط – بالكسر : ولد الولد ، والقبيلة من اليهود ، وهذه المادة تدور على الكثرة والبسط ؛ وبين عظمتهم وكثرة انتشارهم وتشعبهم بقوله : ﴿ أمماً ﴾ أي هم أهل لأن يقصدهم الناس لما لهم من الكثرة والقوة والدين ، أو أن كل أمة منهم تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى من غيرهم ديناً .

(54/293)

ولما وصفهم بهذه الكثرة ، وكان ذلك مجرى لذكر الإنعام عليهم بالكفاية في الأكل والشرب ، ذكر نعمة خارقة للعادة في الماء ، وبدأ به لأنه الأصل في الحياة ، وهي من نوع تقسيمهم من نفس واحدة مشيرة إلى ظلمهم وإسراعهم في المروق فقال : ﴿ وأوحينا إلى موسى إذ ﴾ أي حين ﴿ استسقاه قومه ﴾ أي طلبوا منه برية لا ماء بها أن يسقيهم ، وذلك في التيه ،

والتعبير بالقوم إشارة إلى تبكيتهم بكونهم أهل قوة ولم يتأسوا بموسى عليه السلام في الصبر إلى أن يأتي الله الذي أمرهم بهذا المسير بالفرج، بل طلبوا منه ذلك على الوجه المذكور في البقرة من إظهار القلق والدمدمة ﴿أن اضرب بعصاك﴾ أي التي جعلناها لك آية وضربت بها البحر فانفلق ﴿الحجر﴾ أي أيّ حجر أردته من هذا الجنس؛ وبين سبحانه سرعة امتثال موسى عليه السلام وسرعة التأثير عن ضربه بحذف: فضربه، وقوله مشيراً إليه: ﴿فانبجست﴾ أي فانشقت وظهرت ونبعت، وذلك كاف في تعنيفهم وذمهم على كفرهم بعد المن به، وهذا السياق الذي هو لبيان إسراعهم في المروق هو لا ينافي أن يكون على وجه الانفجار، ويكون التعنيف حينئذ أشد ﴿منه اثنتا عشرة عيناً﴾ على عدد الأسباط، وأشار إلى شدة تمايزها بقوله: ﴿قد علم كل أناس﴾ أي من الأسباط ﴿مشربهم﴾ ولما لم يتقدم للأكل ذكر ولا كان هذا سياق الامتنان، لم يذكر ما أتم هذه الاية به في البقرة.

(55/293)

ولما ذكر تبريد الأكباد بالماء، أتبعه تبريدها بالظل فقال: ﴿وظللنا﴾ أي في التيه ﴿عليهم الغمام﴾ أي لئلا يتأذوا بالشمس؛ ولما أتم تبريد الأكباد، أتبعه غذاء الأجساد

فقال : ﴿ وأنزلنا عليهم المن ﴾ أي خبراً ﴿ والسلوى ﴾ أي إداماً ؛ وقال السمؤال بن يحيى : وهو طائر صغير يشبه السماني ، وخاصيته أن أكل لحمه يلين القلوب القاسية ، يموت إذا سمع صوت الرعد كما أن الخطاف يقتله البرد ، فيلهمه الله عز وجل أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون بها مطر ولا رعد إلى انفصال أوان المطر والرعد ، فيخرج من الجزائر وينتشر في الأرض .

ولما ذكر عظمته في ذلك ، ذكر نتيجته فقال : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أي بصفة العظمة القاهرة لما نريد مما لم تعالجوه نوع معالجة ، ودل على أنهم قابلوا هذا الإحسان بالطغيان والظلم والعدوان بقوله عطفاً على ما تقديره : فعدلوا عن الطيبات المأذون فيها ، وأكلوا الخبائث التي حرمناها عليهم بالاصطياد يوم السبت – كما يأتي – وفعلوا غير ذلك من المحرمات ، فظلموا أنفسهم بذلك : ﴿ وما ظلمونا ﴾ أي بشيء مما قابلوا فيه الإحسان بالكفران ﴿ ولكن كانوا ﴾ أي دائماً جبلة وطبعاً ﴿ أنفسهم ﴾ أي خاصة ﴿ يظلمون ﴾ وهو – مع كونه من أدلة ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ الآية – دليل على صحة وصف هذا الرسول بالنبي ، فإن من علم هذه الدقائق من أخبارهم مع كونه أمياً ولم يخالط أحداً من أحبارهم ، كان صادقاً عن علام الغيوب من غير مؤيد وكذا ما بعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 137.138 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية ، شرح نوعين من أحوال بني إسرائيل : أحدهما : أنه تعالى جعلهم اثني عشر سبطاً ، وقد تقدم هذا في سورة البقرة ، و المراد أنه تعالى فرق بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة ، لأنهم كانوا من اثني عشر رجلاً من أولاد يعقوب ، فميزهم وفعل بهم ذلك لئلا يتحاسدوا فيقع فيهم الهرج والمرج .

وقوله : ﴿ وقطعناهم ﴾ أي صيرناهم قطعاً أي فرقاً وميزنا بعضهم من بعض وقرىء ﴿ وقطعناهم ﴾ بالتخفيف وههنا سؤالان :

السؤال الأول : مميز ما عدا العشرة مفرد ، فما وجه مجيئه مجموعاً ، وهلا قيل : اثني عشر سبطاً ؟

والجواب : المراد وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة ، وكل قبيلة أسباط ، فوضع أسباطاً موضع قبيلة .

السؤال الثاني : قال : ﴿ اثنتى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا ﴾ مع أن السبط مذكر لا مؤنث .

الجواب قال الفراء : إنما قال ذلك ، لأنه تعالى ذكر بعده ﴿ أُمَمًا ﴾ فذهب التأنيث إلى

الأمم.

ثم قال: ولو قال: اثني عشر لأجل أن السبط مذكر كان جائزاً.

وقال الزجاج: المعنى ﴿وقطعناهم اثنتى عَشْرَةَ﴾ فرقة ﴿أَسْبَاطًا﴾ فقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ نعت لموصوف محذوف، وهو الفرقة.

وقال أبو علي الفارسي: ليس قوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ تمييزاً، ولكنه بدل من قوله: ﴿اثنتى عَشْرَةَ﴾.

وأما قوله: ﴿أُمَمًا﴾ قال صاحب "الكشاف": هو بدل من ﴿اثنتى عَشْرَةَ﴾ بمعنى: وقطعناهم أمما لأن كل سبط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد، وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى ولا تكاد تأتلف.

وقرىء ﴿اثنتى عَشْرَةَ﴾ بكسر الشين.

النوع الثاني: من شرح أحوال بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ الحجر﴾ وهذه القصة أيضاً قد تقدم ذكرها في سورة البقرة.

قال الحسن: ما كان إلا حجراً اعترضه وإلا عصاً أخذها.

واعلم أنهم كانوا ربما احتاجوا في التيه إلى ماء يشربونه ، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه الحجر .

وكانوا يريدونه مع أنفسهم فيأخذوا منه قدر الحاجة ، وقوله : ﴿ فانبجست ﴾ قال الواحدي : فانبجس الماء وانبجاسه انفجاره .

يقال : بجس الماء يبجس وانبجس وتبجس إذا تفجر ، هذا قول أهل اللغة ، ثم قال : والانبجاس والانفجار سواء ، وعلى هذا التقدير فلا تناقض بين الانبجاس المذكور ههنا وبين الانفجار المذكور في سورة البقرة ، وقال آخرون : الانبجاس خروج الماء بقلة ، والانفجار خروجه بكثرة ، وطريق الجمع : أن الماء ابتدأ بالخروج قليلاً ، ثم صار كثيراً ، وهذا الفرق مروي عن أبي عمرو بن العلاء ، ولما ذكر تعالى أنه كيف كان يسقيهم ، ذكر ثانياً أنه ظلل الغمام عليهم ، وثالثا : أنه أنزل عليهم المن والسلوى ، ولا شك أن مجموع هذه الأحوال نعمة عظيمة من الله تعالى ، لأنه تعالى سهل عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه ودفع عنهم مضار الشمس .

ثم قال : ﴿ كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم ﴾ والمراد قصر أنفسهم على ذلك المطعوم وترك غيره .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ وفيه حذف ، وذلك لأن هذا الكلام إنما يحسن ذكره لو أنهم تعدوا ما أمرهم الله به ، وذلك إما بأن تقول إنهم ادخروا مع أن الله منعهم منه ، أو

أقدموا على الأكل في وقت منعهم الله عنه ، أو لأنهم سألوا غير ذلك مع أن الله منعهم منه ، ومعلوم أن المكلف إذا ارتكب المحظور فهو ظالم لنفسه ، فلذلك وصفهم الله تعالى به ونبّه بقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وذلك أن المكلف إذا أقدم على المعصية فهو ما أضر إلا نفسه حيث سعى في صيرورة نفسه مستحقة للعقاب العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 28 . 29 ﴾

(58/293)

وقال الثعلبى :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ﴾ روى أبان بن يزيد العطار عن عاصم : وقطعناهم بالتخفيف وأراد بالأسباط القبائل والفرق ولذلك أنشأ العدد والأسباط جمع مذكر .

قال الشاعر :

وإن قريشاً كلّها عشر أبطن . . . وأنت بريءٌ من قبائلها العشر

فذهب بالبطن إلى القبيلة والفصيلة فلذلك كان [البطن] مذكر وإنما قال : (أسباطاً أُمماً) بالجمع ولا يقال : أتاني اثنا عشر رجالاً ، لأنه أراد الأعداد والجموع فأقام كل عدد مقام

واحد ، وقيل : معناه وقطعناهم أسباطاً أمماً اثني عشر .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلى موسى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ ﴾ في التيه ﴿ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر ﴾ قال عطاء : كان الحجر أربعة وجوه لكل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين لا يُخالطهم سواه ﴿ فانبجست ﴾ أخصبت وانفجرت .

قال أهل التفسير : انبجست وانفجرت واحد ، وكان أبو عمرو بن العلاء يفرق بينهما فيقول انبجست عرفت وانفجرت [سالت] .

قال عطاء : كان يظهر على كل موضع من الحجر يضربه موسى (عليه السلام) مثل ثدي المرأة فيعرق أوّلاً ثمّ يسيل ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ من كل سبط ﴿ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ لا يدخل سبط على غيره في شربه وكل سبط من أب واحد . ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام ﴾ في التيه يقيهم من الشمس ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى ﴾ إلى قوله : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيائاتكم ﴾ وقرأ أهل المدينة يغفر [بياء] مضمومة وخطاياكم بالرفع ، وقرأ ابن [عامر] بتاء مضمومة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(59/293)

وقال ابن عطية :

﴿ وقطعناهم ﴾

قرأ بعض من الناس " وقطّعناهم " بشد الطاء ، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة " وقطَعناهم " بتخفيف الطاء ، ورواها أبان عن عاصم ، ومعناه فرقناهم من القطع ، وقرأ جمهور الناس " عشْرة " بسكون الشين ، وهي لغة الحجاز وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وطلحة بن سليمان بخلاف " عَشرة " بفتح الشين ، وقرأت هذه الجماعة أيضاً وطلحة بن مصرف وأبو حيوة " عشِرة " بكسر الشين وهي لغة تميم ، وقال أبو حاتم والعجب أن تميماً يخففون ما كان من هذا الوزن أي أهل الحجاز يشبعون وتناقضوا في هذا الحرف ، وقوله : ﴿ أسباطاً ﴾ بدل من ﴿ اثنتي ﴾ .

والتمييز الذي بين العدد محذوف مقدر اثنتي عشرة فرقة أو قطعة أسباطاً ، وإما أن يزول عن التمييز ويقدر وقطعناهم فرقاً اثنتي عشرة ثم أبدل أسباطاً ، والأول أحسن وأبين ، ولا يجوز أن يكون ﴿ أسباطاً ﴾ تمييزاً لأن التمييز لا يكون إلا مفرداً نكرة ، وأيضاً فالسبط مذكر وهو قد عد مؤنثاً على أن هذه العلة لو انفردت لمنعت إذ السبط بمعنى الأمة ، قال الطبري ، وقال بعض الكوفيين لما كان السبط بمعنى الأمة غلب التأنيث وهو مثل قول الشاعر : [الطويل]

فإن كلاباً هذه عشر أبطن . . . وأنت بريء من قبائلها العشرِ

قال القاضي أبو محمد : وأغفل هذا الكوفي جمع الأسباط ، وإن ما ذهب إليه إنما كان يجوز لو كان الكلام اثنتي عشرة سبطاً والسبط في ولد إسحاق كالقبيلة في ولد إسماعيل ، وقد قال الزجّاج وغيره : إن السبط من السبط وهو شجر .

قال القاضي أبو محمد : وإنما الإظهر فيه عبراني عرب .

قوله عز وجل :

(60/293)

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

قد تقدم في سورة البقرة أمر الحجر والاستسقاء وأين كان وأمر التظليل وإنزال المن والسلوى ، وذكرنا ذلك بما يغني عن إعادته هاهنا .

و ﴿ انبجست ﴾ معناه انفجرت إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار ، وقرأ الأعمش وعيسى الهمداني ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ بتوحيد الضمير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقطّعناهم ﴾ يعني : قوم موسى ، يقول : فرّقناهم ﴿ اثنتي عشرة أسباطاً ﴾ يعني : أولاد يعقوب ، وكانوا اثنى عشر ولداً ، فولد كل واحد منهم سبطاً ، قال الفراء : وإنما قال : ﴿ اثنتي عشرة ﴾ والسبط ذكَر ، لأن بعده "أُمما" فذهب بالتأنيث إلى الأمم ، ولو كان "اثني عشر" لتذكير السبط ، كان جائزاً .

وقال الزجاج : المعنى : وقطَّعناهم اثنتي عشرة فرقة ، "أسباطاً" نعت "فرقة" كأنه يقول : جعلناهم أسباطاً ، وفرّقناهم أسباطاً ، فيكون "أسباطاً" بدلاً من "اثنتي عشرة" و "أُمماً" من نعت أسباط .

والأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل ليُفصل بين ولد إسماعيل وبين ولد إسحاق .

وقال أبو عبيدة : الأسباط : قبائل بني إسرائيل ، واحدهم : سبط ، ويقال : من أي سبط أنت أي ؟ من أي قبيلة وجنس ؟

قوله تعالى : ﴿ فانبجست منه ﴾ قال ابن قتيبة : انفجرت ؛ يقال : تبجَّس الماء ، كما يقال : تفجَّر ؛ والقصة مذكورة في سورة [البقرة : 58 – 60] .

قوله تعالى : ﴿ نغفرْ لكم خطاياكم ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "نغفر لكم خطيئاتكم" بالتاء مهموزة على الجمع .

وقرأ أبو عمرو : "نغفر لكم خطاياكم" مثل : قضاياكم ، ولا تاء فيها .

وقرأ نافع : "تُغفَر" بالتاء مضمومة "خطيئاتُكم" بالهمز وضم التاء ، على الجمع ، وافقه ابن عامر في "تُغفَر" بالتاء المضمومة ، لكنه قرأ : ﴿ خطيئتُكم ﴾ على التوحيد . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(62/293)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ﴾ عدّد نعمه على بني إسرائيل ، وجعلهم أسباطاً ليكون أمر كل سبط معروفاً من جهة رئيسهم ؛ فيخف الأمر على موسى .

وفي التنزيل : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً ﴾ [المائدة : 12] وقد تقدّم .

وقوله : ﴿ اثنتى عَشْرَةَ ﴾ والسبط مذكر لأن بعده "أُمَماً" فذهب التأنيث إلى الأمم .

ولو قال : اثني عشر لتذكير السبط جاز ؛ عن الفرّاء .

وقيل : أراد بالأسباط القبائل والفِرق ؛ فلذلك أنث العدد .

قال الشاعر

وإن قريشاً كلها عشرُ أبْطُن . . .

وأنت بريء من قبائلها العَشْر

فذهب بالبَطْن إلى القَبيلة والفَصيلة ؛ فلذلك أنثها .

والبطن مذكّر ، كما أن الأسباط جمع مَذكّر .

الزجاج : المعنى قطعناهم اثنتي عشرة فرقة .

﴿ أَسْبَاطاً ﴾ بدل من اثنتي عشرة ﴿ أُمَماً ﴾ نعتٌ للأسباط .

وروى المفضّل عن عاصم .

"وقَطَّعْنَاهم" مخففاً .

"أَسْبَاطاً" الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل عليهما السلام .

والأسباط مأخوذ من السبط وهو شجر تعلفه الإبل .

وقد مضى في "البقرة" مستوفى .

وروى مَعْمَر عن همّام بن مُنَبّه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : " ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ﴾ قالوا : حَبّة في شعرة " وقيل لهم :

﴿ وادخلوا الباب سُجَّداً ﴾ فدخلوا متورّكين على أستاههم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(63/293)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وقطعناهم ﴾ يعني وفرقنا بني إسرائيل ﴿ اثنتي عشرة أسباطاً ﴾ يعني من أولاد يعقوب لأن يعقوب هو إسرائيل وأولاده الأسباط وكانوا اثني عشر ولداً ﴿ أمماً ﴾ يعني جماعات وقبائل ﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه ﴾ يعني في التيه ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست ﴾ يعني : فانفجرت : وقيل : عرقت وهو الانبجاس ﴿ منه ﴾ أي من الحجر ﴿ اثنتا عشرة عيناً ﴾ يعني : لكل سبط عين ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ يعني لا يدخل سبط على سبط في مشربهم ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ يعني في التيه يقيهم حر الشمس ﴿ وأنزلنا عليهم المن ﴾ هو الترنجبين ﴿ والسلوى ﴾ جنس من الطير جعل الله ذلك طعاماً لهم في التيه ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أي وقلنا كلوا ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ في الكلام حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات ما رزقناكم فأجمعوا ذلك

وسئموه ، وقالوا : لن نصبر على طعام واحد وسألوه غيره لأن المكلف إذا أمر بشيء فتركه وعدل عنه إلى غيره يكون عاصياً بفعله ذلك فلهذا قال : وما ظلمونا يعني وما أدخلوا علينا في ملكنا وسلطاننا نقصاً بمسألتهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعني بمخالفتهم ما أمروا به وقد تقدم بسط الكلام على هذه الآية في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(64/293)

وقال أبو حيان :

﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾

أي وقطعنا قوم موسى ومعناه فرّقناهم وميّزناهم وفي ذلك رجوع أمر كل سبط إلى رئيسه ليخفّ أمرهم على موسى ولئلا يتحاسدوا فيقع الهرج ولهذا فجّر لهم اثنتي عشرة عيناً لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء ولهذا جعل لكلّ سبط نقيباً ليرجع بأمرهم إليه وتقدّم تفسير الأسباط ، وقرأ إبان بن تغلب عن عاصم بتخفيف الطاء وابن وثاب والأعمش وطلحة بن سليمان ﴿ عشرة ﴾ بكسر الشين ، وعنهم الفتح أيضاً وأبو حيوة وطلحة بن مصرف بالكسر وهي لغة تميم والجمهور بالإسكان وهي لغة الحجاز و ﴿ اثنتي عشرة ﴾

حال وأجاز أبو البقاء أن يكون قطعنا بمعنى صيرنا وأن ينتصب ﴿ اثنتي عشرة ﴾ على أنه مفعول ثان لقطعناهم ولم يعد النحويون قطعنا في باب ظننت وجزم به الحوفي فقال ﴿ اثنتي عشرة ﴾ مفعول لقطعناهم أي جعلنا ﴿ اثنتي عشرة ﴾ وتمييز اثنتي عشرة محذوف لفهم المعنى تقديره اثنتي عشرة فرقة و﴿ أسباطاً ﴾ بدل من ﴿ اثنتي عشرة ﴾ وأمماً .

قال أبو البقاء نعت لأسباطاً أو بدل بعد بدل ولا يجوز أن يكون ﴿ أسباطاً ﴾ تمييزاً لأنه جمع وتمييز هذا النوع لا يكون إلا مفرداً وذهب الزمخشري إلى أن ﴿ أسباطاً ﴾ تمييز قال : (فإن قلت) : مميز ما بعد العشرة مفرد فما وجه مجيئه مجموعاً وهلا قيل : اثنتي عشر سبطاً ، (قلت) : لو قيل ذلك لم يكن تحقيقاً لأنّ المراد وقطعناهم ﴿ اثنتي عشرة ﴾ قبيلة وكلّ قبيلة أسباط لا سبط فوضع ﴿ أسباطاً ﴾ موضع قبيلة ونظيره .

(65/293)

بين رماحي مالك ونهشل ، و﴿ أمماً ﴾ بدل من ﴿ اثنتي عشرة ﴾ بمعنى ﴿ وقطعناهم ﴾ ﴿ أمماً ﴾ لأنّ كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة تؤمّ خلاف ما تؤمّه الأخرى لا تكاد تأتلف انتهى ، وما ذهب إليه من أن كل قبيلة أسباط

خلاف ما ذكر الناس ذكروا أنّ الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب وقالوا :

الأسباط جمع سبط وهم الفرق والأسباط من ولد إسحاق بمنزلة القبائل من ولد إسماعيل

ويكون على زعمه قوله تعالى :

﴿ وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ معناه القبيلة وقوله

ونظيره :

بين رماحي مالك ونهشل . . .

ليس نظيره لأنّ هذا من تثنية الجمع وهو لا يجوز إلا في الضرورة وكأنه يشير إلى أنه لو لم يلحظ

في الجمع كونه أريد به نوع من الرماح لم يصحّ تثنيته كذلك هنا لحظ هنا الأسباط وإن كان

جمعاً معنى القبيلة فميز به كما يميز بالمفرد ، وقال الحوفي : يجوز أن يكون على الحذف

والتقدير ﴿ اثنتي عشرة ﴾ فرقة ويكون ﴿ أسباطاً ﴾ نعتاً لفرقة ثم حذف الموصوف

وأقيمت الصفة مقامه و ﴿ أمماً ﴾ نعت لأسباط وأنث العدد وهو واقع على الأسباط

وهو مذكر لأنه بمعنى الفرقة أو الأمة كما قال : ثلاثة أنفس يعني رجالاً وعشر أبطن بالنظر

إلى القبيلة انتهى ونظير وصف التمييز المفرد بالجمع مراعاة للمعنى .

قول الشاعر :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة . . .

سوداً كحافته الغراب الأسحم

ولم يقل سوداء .

وقيل : جعل كل واحدة من ﴿ اثنتي عشرة أسباطاً ﴾ كما تقول لزيد دراهم ولفلان دراهم ولعمر دراهم فهذه عشرون دراهم ، وقيل : التقدير ﴿ وقطعناهم ﴾ فرقاً ﴿ اثنتي عشرة ﴾ فلا يحتاج إلى تمييز ، وقال البغوي : في الكلام تأخير وتقديم تقديره وقطعناهم أسباطاً أمماً اثنتي عشرة وهذه كلها تقادير متكلّفة والأجرى على قواعد العرب القول الذي بدأنا به .

(66/293)

﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتي عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

تقدم تفسير نظير هذه الجمل في البقرة وانبجست : إن كان معناه ما قال أبو عمرو بن العلاء فقيل : كان يظهر على كلّ موضع من الحجر فضربه موسى مثل ثدي المرأة فيعرق أولاً ثم يسيل وإن كان مرادفاً لانفجرت فلا فرق ، وقال الزمخشري : هنا الأناس اسم جمع غير تكسير نحو رخاء وثناء وثؤام وأخوات لها ويجوز أن يقال : إنّ الأصل الكسر والتكسير

والضمة بدل من الكسر كما أبدلت في نحو سكارى وغيارى من الفتحة انتهى ولا يجوز ما قال لوجهين ، أحدهما : أنه لم ينطلق بإناس بكسر الهمزة فيكون جمع تكسير حتى تكون الضمة بدلاً من الكسرة بخلاف سكارى وغيار فإنّ القياس فيه فَعالى بفتح فاء الكلمة وهو مسموع فيهما ، (والثاني) : أنّ سكارى وغيارى وعجالى وما ورد من نحوها ليست الضمة فيه بدلاً من الفتحة بل نصّ سيبويه في كتابه على أنه جمع تكسير أصل كما أن فعالى جمع تكسير أصل وإن كان لا ينقاس الضمّ كما ينقاس الفتح ، قال سيبويه في حدّ تكسير الصفات : وقد يكسرون بعض هذا على فعالى ، وذلك قول بعضهم سكارى وعجالى ، وقال سيبويه في الأبنية أيضاً : ويكون فعالى في الاسم نحو حبارى وسماني ولبادي ولا يكون وصفاً إلا أن يكسر عليه الواحد للجمع نحو عجالى وكسالى وسمانى فهذان نصّان من سيبويه على أنه جمع تكسير وإذا كان جمع تكسير أصلاً لم يسغ أن يدّعي أن أصله فعالى وأنه أُبدلت الحركة فيه وذهب المُبرّد إلى أنه اسم جامع أعني فعالى بضم الفاء وليس بجمع تكسير فالزمخشري لم يذهب إلى ما ذهب إليه سيبويه ولا إلى ما ذهب إليه المبرد لأنه عند المبرّد اسم جمع فالضمة في فائه أصل ليست بدلاً من الفتحة بل أحدث قولاً ثالثاً .

(67/293)

وقرأ عيسى الهمداني من طيبات ما رزقتكم موحّداً للضمير .

﴿ وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطّة وادخلوا الباب سجّداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ تقدّمت هذه القصة وتفسيرها في البقرة وكأن هذه مختصرة من تلك إلا أنّ هناك ﴿ وإذ قلنا ادخلوا ﴾ ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا ﴾ وهناك ﴿ رغداً ﴾ وسقط هنا وهناك ﴿ وسنزيد ﴾ وهنا ﴿ سنزيد ﴾ وهناك ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا ﴾ وهنا فأرسلنا عليهم وبينهما تغاير في بعض الألفاظ لا تناقض فيه فقوله : ﴿ وإذ قيل لهم ﴾ وهناك ﴿ وإذ قلنا ﴾ فهنا حذف الفاعل للعلم به وهو الله تعالى ، وهناك ﴿ ادخلوا ﴾ وهنا ﴿ اسكنوا ﴾ السّكنى ضرورة تتعقب الدخول فأمروا هناك بمبدأ الشيء وهنا بما تسبّب عن الدخول وهناك ﴿ فكلوا ﴾ بالفاء وهنا بالواو فجاءت الواو على أحد محتملاتها من كون ما بعدها وقع بعد ما قبلها ، وقيل الدخول حالة مقتضية فحسن ذكر فاء التعقيب بعده والسكنى حالة مستمرة فحسن الأمر بالأكل معه لا عقيبة فحسنت الواو الجامعة للأمرين في الزمن الواحد وهو أحد محاملها ويزعم بعض النحويين أنه أولى بحاملها وأكثر .

وقيل ثبت ﴿ رغداً ﴾ بعد الأمر بالدخول لأنها حالة قدوم فالأكل فيها ألذ وأتم وهم إليه أحوج بخلاف السكنى فإنها حالة استقرار واطمئنان فليس الأكل فيها ألذّ ولا هم أحوج .

وأما التقديم والتأخير في ﴿ وقولوا ﴾ ﴿ وادخلوا ﴾ ، فقال الزمخشريّ : سواء قدّموا الحطة على دخول الباب وأخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما انتهى ، وقوله سواء قدّموا وأخّروها تركيب غير عربي وإصلاحه سواء أقدموا أم أخروها كما قال تعالى : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ ويمكن أن يقال : ناسب تقديم الأمر بدخول الباب ﴿ سجّداً ﴾ مع تركيب ﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ لأنه فعل دالّ على الخضوع والذلة و ﴿ حطة ﴾ قول والفعل أقوى في إظهار الخضوع من القول فناسب أن يذكر مع مبدأ الشيء وهو الدخول ولأنّ قبله ﴿ ادخلوا ﴾ فناسب الأمر بالدخول للقرية الأمر بدخول بابها على هيئة الخضوع ولأنّ دخول القرية لا يمكن إلا بدخول بابها فصار باب القرية كأنه بدل من القرية أعيد معه العامل بخلاف الأمر بالسّكنى .

وأما ﴿ سنزيد ﴾ هنا فقال الزمخشري موعد بشيئين بالغفران والزيادة وطرح الواو لا يخلّ بذلك لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ وزيادة ﴿ منهم ﴾ بيان وأرسلنا وأنزلنا و ﴿ يظلمون ﴾ ويفسقون من واد واحد ، وقرأ الحسن : ﴿ حطة ﴾ بالنصب على المصدر أي حطّة ذنوبنا حطة ويجوز

أن ينتصب بقولوا : على حذف التقدير ﴿ وقولوا ﴾ قولاً ﴿ حطّة ﴾ أي ذا ﴿ حطة ﴾ فحذف ذا وصار ﴿ حطّة ﴾ وصفاً للمصدر المحذوف كما تقول : قلت حسناً وقلت حقّاً أي قولاً حسنا وقولاً حقًّا ، وقرأ الكوفيون وابن كثير والحسن والأعمش ﴿ نغفر ﴾ بالنون ﴿ لكم خطيئاتكم ﴾ جمع سلامة إلا أن الحسن خفّف الهمزة وأدغم الياء فيها ، وقرأ أبو عمرو ﴿ نغفر ﴾ بالنون لكم خطاياكم على وزن قضاياكم ، وقرأ نافع ومحبوب عن أبي عمرو تغفر بالتاء مبنيًّا للمفعول ﴿ لكم خطيئاتكم ﴾ جمع سلامة ، وقرأ ابن عامر تغفر بتاء مضمومة مبنيًّا للمفعول لكم خطيئتكم على التوحيد مهموزاً . وقرأ ابن هرمز تغفر بتاء مفتوحة على معنى أنّ الحطّة تغفر إذ هي سبب الغفران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(69/293)

وقال أبو السعود :

﴿ وقطعناهم ﴾ أي قومَ موسى لا الأمةَ المذكورةَ منهم ، وقرىء بالتخفيف وقوله تعالى : ﴿ اثنتى عَشْرَةَ ﴾ ثاني مفعولي قطع لتضمّنه معنى التصيير ، والتأنيثُ للحمل على الأمة أو القِطعة ، أي صيرناهم اثنتي عشْرةَ أمةً أو قطعةً متميزاً بعضُها من بعض ، أو حالٌ من

مفعوله أي فرقناهم معدودين هذا العددَ ، وقوله تعالى : ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ بدلٌ منه ولذلك جُمع ، أو مميزٌ له على أن كل واحدة من اثنتي عشرةَ قطعةً أسباطٌ لا سبطٌ وقرىء عشِرة بكسر الشين وقوله تعالى : ﴿ أُمَمًا ﴾ على الأول بدلٌ بعد بدل أو نعتٌ لأسباطاً وعلى الثاني بدل من أسباطاً ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ ﴾ حين استولى عليهم العطشُ في التيه الذي وقعوا فيه بسوء صنيعِهم لا بمجرد استسقائِهم إياه عليه الصلاة والسلام بل باستسقائه لهم لقوله تعالى : ﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ الحجر ﴾ مفسرٌ لفعل الإيحاءِ وقد مر بيانُ شأنِ الحَجَر في تفسير سورة البقرة ﴿ فانبجست ﴾ عطفٌ على مقدر ينسحب عليه الكلامُ قد حذف تعويلاً على كمال الظهورِ وإيذاناً بغاية مسارعتِه عليه السلام إلى الامتثال وإشعاراً بعدم تأثير الضربِ حقيقةً وتنبيهاً على كمال سرعةِ الانبجاسِ وهو الانفجارُ كأنه حصل إثرَ الأمر قبل تحقق الضربِ كما في قوله تعالى : ﴿ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ أي فضرب فانبجست ﴿ مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ بعدد الأسباطِ وأما ما قيل من أن التقديرَ فإن ضربت فقد انبجست فغيرُ حقيق بجزالة النظمِ التنزيلي ، وقرىء عشَرة بكسر الشين وفتحها ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ كلُّ سبطٍ ، عبّر عنهم بذلك إيذاناً بكثرة كل واحدٍ من الأسباط ﴿ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أي عينَهم الخاصةَ بهم ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام ﴾ أي جعلناها

بحيث تُلقي عليهم ظلَّها تسير في التيه بسيرهم وتسكُن بإقامتهم وكان ينزل بالليل عمودٌ من نار

(70/293)

يسيرون بضوئه .

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى ﴾ أي الترنجين والسمانى . قيل : كان ينزل عليهم المنُّ مثلَ الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسانٍ صاعٌ وتبعث الجَنوبُ عليهم السُّمانى فيذبح الرجل منهم ما يكفيه ﴿ كُلُواْ ﴾ أي وقلنا لهم : كلوا ﴿ مِن طَيِّبَاتِ مَا رزقناكم ﴾ أي مستلذاته ، وما موصولةً كانت أو موصوفةً عبارةٌ عن المن والسلوى ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ رجوعٌ إلى سنن الكلامِ الأولِ بعد حكايةِ خطابِهم ، وهو معطوفٌ على جملة محذوفةٍ للإيجاز والإشعارِ بأنه أمرٌ محققٌ غنيٌّ عن التصريح به أي فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلةِ وما ظلمونا بذلك ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ إذ لا يتخطاهم ضررُه ، وتقديمُ المفعولِ لإفادة القصْرِ الذي يقتضيه النفيُ السابقُ وفيه ضربٌ من التهكم بهم ، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدِلالة على تماديهم فيما هم فيه من الظلم والكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وقطعناهم ﴾ أي قوم موسى عليه السلام لا الأمة المذكورة كما يوهمه القرب ﴿ وقطع ﴾ يقرأ مشدداً ومخففاً والأول هو المتواتر ويتعدى لواحد وقد يضمن معنى صير فيتعدى لاثنين فقوله تعالى : ﴿ وقطعناهم اثنتى عَشْرَةَ ﴾ حال أو مفعول ثان ، أي فرقناهم معدودين بهذا العدد أو صيرناهم اثنتي عشرة أمة يتميز بعضها عن بعض ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أسباطا ﴾ كما قال ابن الحاجب في "شرح المفصل" بدل من العدد لا تمييز له وإلا لكانوا ستة وثلاثين ، وعليه فالتمييز محذوف أي فرقة أو نحوه ، قال الحوفي : إن صفة التمييز أقيمت مقامه والأصل فرقة اسباطا ، وجوز أن يكون تمييزاً لأن مفرد تأويلاً ، فقد ذكروا أن السبط مفرداً ولد الولد أو ولد البنت أو الولد أو القطعة من الشيء أقوال ذكرها ابن الأثير ، ثم استعمل في كل جماعة من بني إسرائيل كالقبيلة في العرب ، ولعله تسمية لهم باسم أصلهم كتميم ، وقد يطلق على كل قبيلة منهم أسباط أيضاً كما غلب الأنصار على جمع مخوص فهو حينئذ بمعنى الحي والقبيلة فلهذا وقع موقع المفرد في التمييز وهذا كما ثنى الجمع في قول أبي النجم يصف رمكة تعودت الحرب :

تبقلت في أول التبقل . . .

بين رماحي مالك ونهشل

(72/293)

وتأنيث اثنتي مع أن المعدود مذكر وما قبل الثلاثة يجري على أصل التأنيث والتذكير لتأويل ذلك بمؤنث وهو ظاهر مما قررنا ، وقرأ الأعمل وغيره ﴿ اثنتى عَشْرَةَ ﴾ بكسر الشين وروى عنه فتحها أيضاً والكسر لغة تميم والسكون لغة الحجاز ، وقوله سبحانه : ﴿ أُمَمًا ﴾ بدل بعد بدل من اثنتي عشرة لا من أسباط على تقدير أن يكون بدلاً لأنه لا يبدل من البدل ، وجوز كونه بدلاً منه إذا لم يكن بدلاً ونعتاً إن كان كذلك أو لم يكن ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ ﴾ حين استولى عليه العطش في التيه ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ الحجر ﴾ تفسير لفعل الإيحاء ﴿ فَانٍ ﴾ بمعنى أي ، وجوز أبو البقاء كونها مصدرية ﴿ فانبجست ﴾ أي انفجرت كمات قال ابن عباس وزعم الطبرسي أن الانبجاس خروج الماء بقلة والانفجار خروجه بكثرة ، والتعبير بهذا تارة وبالأخرى أخرى باعتبار أول الخروج وما انتهى إليه والعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي فضرب فانبجست وحذف المعطوف عليه لعدم الالباسا وللإشارة إلى سرعة الامتقال حتى كأن الإيحاء

وضربه أمر واحد وأن الانبجاس بأمر الله تعالى حتى كأن فعل موسى عليه السلام لا دخل فيه .

(73/293)

وذكر بعض المحققين أن هذه الفاء على ما قرر فصيحة وبعضهم يقدر شرطاً في الكلام فإذا ضربت فقد انبجست ﴿ مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ وهو غير لائق بالنظم الجليل ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ أي سبط ، والتعبير عنهم بذلك للإيذان بكثرة كل واحد من الأسباط ، وأنا إما جمع أو اسم جمع ، وذكر السعد أن أهل اللغة يسمون اسم الجمع جمعاً ، و﴿ عِلْمٍ ﴾ بمعنى عرف الناصب مفعولاً واحداً أي قد عرف ﴿ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أي عينهم الخاصة بهم ، ووجه الجمع ظاهر ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام ﴾ أي جعلنا ذلك بحيث يلقى عليهم ظله ليقيهم من حر الشمس وكان يسير يسيرهم ويسكن بإقامتهم ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى ﴾ أي الترنجبين والسماني فكان الواحد منهم يأخذ ما يكفيه من ذلك ﴿ كُلُواْ ﴾ أي قلنا أو قائلين لهم كلوا .

﴿ مِن طَيِّبَاتِ مَا رزقناكم ﴾ أي مستلذاته ، و﴿ مَا ﴾ موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ عطف على محذوف للإيجاز والإشعار بأنه

أمر محقق غني عن التصريح أي فظلموا بأن كفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر إذ لا يتخطاهم ضرره ، وتقديم المفعول لإفادة القصر الذي يقتضيه النفي السابق ، وفي الكلام من التهكم والإشارة إلى تماديهم على ما هم فيه ما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(74/293)

وقال ابن عاشور :

﴿ وقطعناهم اثنتى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ .

عطف على قوله ﴿ ومن قوم موسى أمة ﴾ [الأعراف : 159] إلخ ، فإن ذلك التقطيع وقع في الأمة الذين يهدون بالحق .

والتقطيع شدة في القطع وهو التفريق ، والمراد به التقسيم ، وليس المراد بهذا الخبر الذم ، ولا بالتقطيع العقاب ، لأن ذلك التقطيع منة من الله ، وهو من محاسن سياسة الشريعة الموسوية ، ومن مقدمات نظام الجماعة كما فصله السفر الرابع ، وهو سفر عدد بني إسرائيل وتقسيمهم ، وهو نظير ما فعل عمر بن الخطاب من تدوين الديوان ، وهم كانوا منتسبين إلى أسباط إسحاق ، ولكنهم لم يكونوا مقسمين عشائِر لمّا كانوا في مصر ، ولمّا اجتازوا البحر ،

فكان التقسيم بعد اجتيازهم البحر الأحمر ، وقبلَ انفجار العيون ، وهو ظاهر القرآن في سورة البقرة وفي هذه السورة لقوله فيهما : ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ وذكرُه هنا الاستسْقاء عقب الانقسام إلى اثنتي عشرة أمة ، وذلك ضروري أن يكون قبل الاستسْقاء ، لأنه لو وقع السقي قبل التقسيم لحصل من التزاحم على الماء ما يفضي إلى الضر بالقوم ، وظاهر التوراة أنهم لما مروا بِحُوريب ، وجاء شعيب للقاء موسى : إن شعيباً أشار على موسى أن يقيم لهم رؤساء ألوف ، ورؤساء مِئات ، ورؤساء خماسين ، ورؤساء عشرات ، حسب الإصحاح 18 من الخروج ، وذلك يقتضي أن الأمة كانت منتسبة قبائِل من قبلُ ، ليسهل وضع الرؤساء على الأعداد ، ووقع في السنة الثانية من خروجهم أن الله أمر موسى أن يحصي جميع بني إسرائيل ، وأن مِوسى وهارون جمعا جميع بني إسرائيل فانتسبوا إلى عشائرهم وبيوت آبائِهم ، كما في الإصحاح الأول من سفر العدد ، وتقدم ذكر الأسباط عند قوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ في سورة البقرة (136) .

وجيء باسم العدد بصيغه التأنيث في قوله : اثنتي عشرة ﴾ لأن السبط أطلق هنا على الأمة فحذف تمييز العدد لدلالة قوله : ﴿ أمماً ﴾ عليه .

و ﴿ أسباطاً ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿ وقطّعناهم ﴾ ولا يجوز كونه تمييزاً لأن تمييز اثنتي عشرة ونحوه لا يكون إلاّ مفرداً .

وقوله : ﴿ أمماً ﴾ بدل من أسباط أو من أثنتي عشرة ، وعدل عن جعل أحد الحالين تمييزاً في الكلام إيجازاً وتنبيهاً على قصد المنة بكونهم أمماً من آباء أخوة .

وأن كل سبط من أولئك قد صار أمة ، قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم ﴾ [الأعراف : 86] مع ما يذكر به لفظ أسباط من تفضيلهم ، لأن الأسباط أسباط إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

هذا مظهر من مظاهر حكمة تقسيمهم إلى اثني عشر سبطاً ولم يعطف هذا الخبر بالفاء لإفادة أنه منة مستقلة .

وتفسير هذه الآية مضى في مشابهتها عند قوله : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ في سورة البقرة (60) .

وانبجست ﴾ مطاوع بجس إذا شق ، والتعقيب الذي دلت عليه الفاء تعقيب مجازي تشبيهاً لقصر المهلة بالتعقيب ونظايره كثيرة في القرآن ، ومنه ما وقع في خبر الشّرب إلى أم زرع قولها : "فلقي امرأة معها ولدان كالفهدْين يلعبان من تحت خصرها برُمّانتين فطلّقني ونكحها" إذ التقدير فأعجبته فطلقني ونكحها .

ضمائر الغيبة راجعة إلى قوم موسى ، وهذه الآية نظير ما في سورة البقرة سوى اختلاف

بضميري الغيبة هنا وضميري الخطاب هناك لأن ما هنالك قصد به التوبيخ .

وقد أسند فعل (قيل) في قوله : ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية ﴾ [الأعراف : 161] إلى المجهول وأسند في سورة البقرة (58) إلى ضمير الجلالة ﴿ وإذ قلنا ﴾ لظهور أن هذا القول لا يصدر إلاّ من الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(76/293)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

وحين يقول الحق " قطعناهم " فهذه عودة لقوم موسى ، ونعرف أن القرآن لا يخصص كأي كتاب فصلاً لموسى وآخر لعيسى وثالثاً لمحمد ، لا ، بل يجعل من المنهج الإِيماني عجينة واحدة في الدعوة ، فيأتي بقضية عيسى ، ثم يدخل في الدعوة قضية موسى وغيره وهكذا ، ثم يرجع إلى القضية الأصلية كي يستغل انفعالات النفس بعد أي قصة من القصص .

وهنا يعود الحق سبحانه لقوم موسى مرة أخرى . فبعد أن أنصفهم وبيّن أن فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . يقول : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ﴾ . والمقصود هنا

بنو إسرائيل ، ومعنى " قطعت الشيء " أن الشيء كان له تمام وجودي مع بعضه ، ثم قطعته وفصلت بعضه عن بعض ، وجعلته قطعاً وأجزاء . فهم كلهم بنو إسرائيل ، ولكن الحق يوضح أنه قطعهم وجعلهم " أسباطاً " ، و " السبط " هو ولد والولد ، وهم هنا أولاد سيدنا يعقوب وكانوا اثني عشر ولداً ، وحكت سورة يوسف وقالت : ﴿ . . . ياأبت إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4]

وحين تعد وتحصي ستجد أحد عشر كوكباً مرئية ، وتضم إليها الشمس والقمر والرائي ، فيصير العدد أربعة عشر واترك الشمس والقمر لأنهما يرمزان إلى يعقوب وزوجه ، وخذ الأحد عشر كوكباً ، وأضف الرائي وهو يوسف فيكون العدد اثنى عشر . وهؤلاء هم الاثنى عشر سبطاً ، فقد أنجب سيدنا يعقوب اثنى عشر ابناً من أمهات مختلفة ، وعرفنا من قبل أن الأمهات حين تتعدد فالميول الأهوائية بين الأبناء قد تتعاند . ولذلك تنبأ سيدنا يعقوب وقال لسيدنا يوسف : ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً . . . ﴾ [يوسف : 5]

هذا أول دليل على أنهم مختلفون ، وهو سبب من أسباب وحيثية التقطيع : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً ﴾ .

وفي سورة يوسف نقرأ : ﴿ هذا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً . . . ﴾ [يوسف : 100]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً . . . ﴾ [الأعراف : 160]

إنهم لا يريدون حتى مجرد الاشتراك في الماء تحسباً للاختلاف فيما بينهم ، فجعل الحق لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ليعالج ما فيهم من داءات الغيرة والحقد على بعضهم البعض ؛ لأن الحق قال عنهم : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ﴾ .

وهنا وقفة لغوية فقط ، والأسباط في أولاد يعقوب وإسحاق يقابلون القبائل في أولاد إسماعيل ، وأولاد إسماعيل " العرب " يسمونهم قبائل ، وهؤلاء يسمونهم " أسباطاً " ، ونعرف أن لفظ " اثنتي " يدل على أنهم إناث ، و " عشرة " أيضاً إناث ، لأننا نقول : " جاءني رجلان اثنان " و " امرأتان اثنتان " ؛ أي اثنان للذكور ، واثنتان للإناث ، وكلمة " اثنتي عشرة " عدد مركب وتمييزه يكون دائماً مفرداً ، ولذلك يقول الحق : ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ .

إذن " اثنتا عشرة " يدل على أنه مؤنث . لكن المذكور هنا " سبط " وسبط مذكر ، ولنا أن نعرف أنه إذا جمع صار مؤنثاً لأنهم يقولون : " كل جمع مؤنث " وأيضاً فالمراد بالأسباط

القبائل ، ومفردها قبيلة وهي مؤنثة ، وقطعهم أي كانت لهم – من قبل – وحدة تجمعهم ، فأراد الحق أن يلفتنا إلى أنهم من شيء واحد ، فجاء بكلمة " أسباط " مكان قبيلة ، وقبيلة مفردة مؤنثة ، ويقال : " اثنتا عشرة قبيلة " ، ولا يقال اثنتا عشرة قبائل ، فوضع أسباطاً ، موضع قبيلة لأن كل قبيلة تضم أسباطاً لذا جاء التمييز مذكراً . . . ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً . . . ﴾ [الأعراف : 160]

(78/293)

أي جعلنا كل سبط أمة بخصوصها . والواقع الكوني أثبت أنهم كذلك ؛ لأنك لا تجد لهم – فيما مضى – تجمعاً قوميًّا وهو ما يسمونه " الوطن القومي لليهود " برغم أن الدول الظالمة القوية أعانوهم وأقاموا لهم وطنًا على أرض فلسطين ، ومع ذلك نجد في كل بلد طائفة منهم تعيش معزولة عن الشعوب التي تحيا في رحابها ، وكأنهم لا يريدون أن يذوبوا في الشعوب ، ففي باريس – مثلاً – تجد " حي اليهود " ، وفي لندن المسألة نفسها ، وفي كل مدينة كبيرة تتكرر هذه الحكاية ، فهم يعيشون فيها بطقوسهم وبشكلهم وبأكلهم ، وبعاداتهم معزولين عن الشعوب ، وكأنهم ينفذون قدر الله فيهم : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ﴾

.

وقطعهم ربنا في الأرض أي أنه نشرهم في البلاد ، ولم يجعل لهم وطناً مستقلاً ، ولذلك ستقرأ في سورة الإِسراء إن شاء الله : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض . . . ﴾

.

أي أنه سبحانه قال لهم بعد سيدنا موسى : اسكنوا الأرض وحين تقول لنا يا رب : " اسكن " فأنت تحدد مكاناً من الأرض . كأن يسكن الإِنسان في الإِسكندرية أو القاهرة أو الأردن أو سوريا ، لكن أن يصدر الحكم بأن ﴿ اسكنوا الأرض ﴾ فهذا يعني أن انساحوا فيها فلا تجمع لكم .

ويقول الحق : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ .

أي أنه حين يجيء وعد الآخرة تكون ضربة قاضية عليكم – أيها اليهود – لأن عدوكم لن يتتبعكم في كل أمة من الأمم ، ويبعث جيشاً يحاربكم في كل مكان تعيش فيه طائفة منكم ، لكن إذا جاء وعد الآخرة يأتي بهم الحق لفيفاً ويتجمعون . في هذا الوطن القومي الذين يفرحون به ، ونقول لهم : لا تفرحوا فهذا هو التجمع الذي قال الله عنه : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ لتكون الضربة موجهة لكم في مكان واحد تستأصلكم وتقضي عليكم .

ويأتي الحق بعد ذلك بخبر المعجزات : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر .

. . ﴾ [الأعراف : 160]

و" استسقى " المراد منه هو طلب السقيا ، والسقيا هي طلب الماء الذي يمنع على الإِنسان العطش ، ومادام قد طلبوا السقيا فلابد أنهم يعانون من ظمأ ، كأنهم في التيه . وأراد الله سبحانه أن يبرز لهم نعمه وقت الحاجة ، فقد تركهم إلى أن عطشوا ليستسقوا وليشعروا بنعمة الرِّي .

والحق يقول : ﴿ إِذِ استسقاه قَوْمُهُ ﴾ ، أي طلبوا من سيدنا موسى أن يسأل الله السقيا . فلماذا لجأوا إلى موسى وقت الظمأ ؟ وقال لهم موسى : ليس بذاتي أرويكم ، ولكن سأستسقي لكم ربي ، ونعلم أن مقومات الحياة بالترتيب الوجودي الاضطراري : الهواء والماء والطعام . وساعة ترى " همزة " وسيناً " وتاء " واقعة على شيء من الأشياء فاعرف أنه أمر مطلوب ومرغوب فيه .

مثال ذلك : حين سار موسى والعبد الصالح ونزلا قرية استطعما أهلها ، أي طلبا طعاماً وهذا هو المقوم الثالث للحياة . وهنا " استسقى " أي طلب المقوم الثاني وهو الماء ، ونعلم أن المقوم الأول وهو الهواء لا نستغني عنه . لذا لم يضعه الله في يد أحد بل أعطاه ومنحه كل الخلق .

ولما كان الهواء غير مملوك وهو مشاع ؛ لذلك لم توجد فيه هذه العملية . إنما الطعام يُمكن أن يُملك ، والماء يُمكن أن يُملك ، فقال سبحانه مرة " استطعم " ، وقال هنا " استسقى " ، ولم يوجد " استهوى " لطلب الهواء ، لكن وجد في القرآن " استهوى " بمعنى طلب أن تكون على هواه : ﴿ استهوته الشياطين . . . ﴾ [الأنعام : 71]

أي طلبت الشياطين أن يكون هواه ومراده تبعاً لما يريدون لا لما يريده الله .

(80/293)

وقصة الاستسقاء وردت من قبل في سورة البقرة : ﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ ﴾ .

وفي سورة الأعراف التي نحن بصدد خواطرنا عنها هم الذين طلبوا الاستسقاء . فهل هناك تعارض ؟ . طبعاً لا ؛ لأن قوم موسى طلبوا السقيا من موسى ، فطلب لهم السقيا من ربه . فهل هذا تكرار ؟ لا ؛ لأنه سبحانه تكلم عن الواسطة ، وبعد ذلك تكلم عن الأصل ، وهو سبحانه الواهب للماء ؛ فقال هنا : " إذ استسقاه قومه " ، وفي سورة البقرة قال : ﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ ﴾ .

وهذا ترتيب طبيعي . أقول ذلك لنعرف الفارق بين العبارتين حتى نؤكد أنه لا خلاف ولا تكرار ؛ لأن المستسقي هنا القوم ، والمستسقي لهم هنا هو موسى والمستسقي منه هو الله

-جلت قدرته- وهذا أمر طبيعي .

والحق سبحانه يقول في سورة البقرة : ﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ الحجر . . . ﴾ [البقرة : 60]

ونجد الوحي نزل إلى موسى بقوله : ﴿ فَقُلْنَا اضرب ﴾ ؛ وهنا في سورة الأعراف نجد الحق يقول : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر . . . ﴾ [الأعراف : 160]

ولنا أن نعرف أَنَّ ﴿ فَقُلْنَا ﴾ تساوي " أوحينا " تماماً ، لأن المقصود بالقول هنا ليس من مناطات تكليم الله لموسى ، بل مناط هذه القضية غير المناط في قوله الحق : ﴿ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ﴾ .

فليس كل وحي لموسى جاء بكلام مباشر من الله ، بل سبحانه كلمه مرة واحدة كتشريف له ، ثم أوحي له من بعد ذلك كغيره من الرسل .

وقوله الحق : ﴿ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً . . . ﴾ [الأعراف : 160]

هذا القول يدلنا على الإعجاز المطلق ، فمرة أمر الحق موسى أن يضرب الماء بالعصا ﴿ فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ ، ومرة يأمره هنا أن يضرب الحجر فينحبس منه الماء ، وهكذا نرى طلاقة قدرة الله في أن يعطي ويمنع بالشيء الواحد ، ولم يكن ذلك إلا بالأسباب التي في يد الله يحركها كيف يشاء . ولذلك رأينا أمر الله حين ضرب موسى البحر بعصاه ، فصار كل فرق كالطود ، أي كالجبل ، وامتنعت السيولة ، ولما خرج موسى وقومه إلى البر بعد أن عبر البحر أراد أن يضرب البحر ليعود ثانية إلى سيرته الأولى من السيولة ، فأوحى له الله : ﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ .

أي تركه كما هو عليه ؛ لأن الله يريد أن يغتر فرعون وقومه بأن يروا اليابس طريقاً موجوداً بين الماء ، فيحاولوا النفاذ منه وراء موسى وقومه ، وما أن دخل فرعون وقومه خلف موسى حتى عاد الماء إلى سيولته فغرق فرعون وقومه . وهكذا أنجى الله وأغرق بالشيء الواحد ، وكذلك في أمر العصا ؛ إنها حين ضربت الماء فلقته فصار كل فرق كالطود والجبل الشامخ ، ثم ضرب موسى بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا من الماء ، وهكذا نرى قدرة من بيده القدرة والأسباب . ﴿ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً . . . ﴾ [الأعراف : 160]

وهنا تعبير " انبجست " ، وهناك تعبير " انفجرت " ، ونعلم أن الانبجاس يحدث أولاً ثم يتبعه الانفجار ثانياً ، فالانبجاس أن يأتي الماء قطرة قطرة ، ثم يأتي الانفجار وتتدفق المياه

الكثيرة ، فكان موسى عليه السلام أول ما يضرب الضربة تأتي وتجيء المياه قليلة ثم تنفجر بعد ذلك . إذن فقد تكلم الحق عن المراحل التي أعقبت الضربة في لقطات متعددة لمظهر واحد ؛ له أولية وله آخرية .

وحين تكلم أمير الشعراء عن عطاء الله وقدرته قال :

سبحانك اللهم خير معلم . . . علمت بالقلم القرون الأولى

أرسلت بالتوراة موسى مرشداً . . . وابن البتول فعلَّم الإِنجيلا

(82/293)

ثم جاء لسيدنا محمد وقال :

وفجرت ينبوع البيان محمداً . . . فسقى وناول التنزيلا

وهنا توفيق رائع في العبارة حين قال : " فسقى الحديث " ، فالحديث سقيا أما القرآن فمناولة من الله لخلقه . والحق يقول : ﴿ فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ .

إن الضربة واحدة من عصا واحدة ، وكان المفترض أن تحدث هذه الضربة عينا واحدة تنبع منها المياه ، لكن الحق أرادها اثنتي عشرة عينا وعلم كل أناس مشربهم ؛ لذلك كان لابد أن يكون المكان متسعاً .

وأن هذه الضربة كانت إيذاناً بالانفعال من الأرض . ﴿ فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 160]

ومن أين عرف كل قسم منهم الماء الذي يخصه ؟ إنها قسمة الله وصارت كل عين تجذب أصحابها ، فلم يتزاحموا ، وهذا يدل أيضاً على التساوي ، فلم تنفجر عين بماء أكثر من الأخرى فتثير الطمع ، لا ، بل انتظم الجميع فيما أراده الحق : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ .

والحق هنا يتكلم عن رحلة بني إسرائيل في التيه ، وفي الصحراء والشمس محرقة ، ولا ماء ، فاستسقوا موسى ، فطلب لهم السقيا من الله ، وجاءت لهم اثنتا عشرة عينا حتى لا يتزاحموا ، وعرف كل منهم مشربه .

ويضيف الحق : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام ﴾ .

ولأن الشمس محرقة يرحمهم الله بمسيرة من الغمامات تظللهم ، ولكل سبط غمامة على قدره ، فإذا كان الواحد من البشر حين يوزع جماعة من كتل صغيرة ، لا يعجز أن يضعهم في عشرين خيمة مثلا ، فهل يعجز ربنا عن ذلك ؟ طبعاً لا . وإذا كان الحق قد ضمن لنا في الأرض الرزق حتى لا نجوع ، ولا نعرى ، ولا تحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقي أمر الطعام لهؤلاء . فقال : لا تحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقي أمر الطعام لهؤلاء .

فقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 160]

(83/293)

ساعة تأتي كلمة " أنزلنا " نعرف أنها مسألة جاءت من علو ، ولا يُفترض أن يكون مكانها عاليًا ، لكن هي مسألة جاءت من أعلى من قدرتك ، أي من فوق أسبابك إنها بقدرة الأعلى .

و " المنّ " مادة بيضاء اللون حلوة الطعم مثل قطرات الزئبق . يجدونه على الشجر . ولا يزال هذا الشجر موجوداً إلى الآن في العراق ، يهزونه صباحاً فيتساقط ما على الورق من قطرات متجمدة لونها أبيض ، فيأخذونه على ملاءة بيضاء واسمه عندهم المنْ – أيضاً – وهو طعم القشدة وليونتها ، وحلاة العسل .

و " السلوى " هو طير من رتبة الدجاجيات يستوطن أوروبا وحوض البحر المتوسط واحدته " سَلواة " وهو " السُّماني " ويسميه أهل السواحل " السُّمان " وهو يأتي مهاجراً ولم يربه أحد ، وفي هذا إنزال من الله لأنه رزق من فوق قدرة العباد وأسبابهم . ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 160]

وهناك مصانع تصنع المن في أشكال مختلفة وأنواع من الحلوى جميلة ، ومن زار العراق ذاقه أو أحضره لأهله . والسلوى – كما قلنا – هو طائر " السمان " الموجود في بيئة أخرى يغريه ربنا بالطقس الدافئ فيأتي إلينا لنأخذه ، وهذه الطيور جاءت طالبة استمرار الحياة ، ويبعثها ربنا لتصير لنا طعاماً ليدلل على أنه حين يريد الماء ، وكما ظلّلهم بالغمام ، وبذلك صارت حاجاتهم قدريَّة ليس لهم فيها أسباب وجاءت لهم بالهناء .

فقالوا : ومن يدرينا أن الرزق الذي يأتينا من المن والسلوى سيستمر ، ثم كيف لنا أن نصبر على طعام واحد ؟ إنهم قالوا لنبيهم سيدنا موسى ما حكاه القرآن بقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا . . . ﴾ [البقرة : 61]

(84/293)

وهنا قال الحق : اذهبوا إلى أي مِصْرٍ من الأمصار والمدن تجدوا ما تريدون : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ . لقد أعطاهم الحق الرزق بدون السببية ، إنه منه مباشرة ، فكان من الواجب أن تشكروا من أراحكم ، وجعل لكم الرزق ميسرا . لكنهم لم يشكروا

الله ، بل تمردوا ، ولذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ . نعم فهم ظلموا بعدم شكر النعمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(85/293)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ ﴾ .

الظَّاهِرُ أن قَطَّعْنَاهُمُ مُتَعد لواحد ؛ لأنه لم يُضَمَّنْ معنى ما يتعدَّى لاثنين ، فعلى هذا يكون اثْنَتَيْ حالاً من مفعول : قَطَّعْنَاهُمُ أي : فَرَّقْنَاهم مَعْدُودينَ بهذا العدد .

وجوَّز أبو البقاءِ أن يكون قَطَّعْنَا بمعنى " صَيَّرْنَا " ، وأن اثْنَتَيْ مفعولٌ ثانٍ وجزم الخُفِيُّ بذلك .

وتمييز : اثْنَتَيْ عَشْرَةَ محذوف ، لفهم المعنى ، تقديره : اثْنَتَيْ عشرة فرقةٌ ، و" اسْبَاطاً " بدلٌ من ذلك التمييز .

وإنَّما قلتُ إن التَّمييزَ محذوفٌ ، ولم أجعل أسْبَاطاً هو المُمَيِّز لوجهين ، أحدهما : أنَّ المعدودَ مُذَكَّر ؛ لأنَّ أسْبَاطاً جمع " سِبْط " فكان يكون التركيبُ : اثني عشر .

الثاني : أنَّ تمييز العدد المركَّبِ ، وهو من " أحد عشر " إلى " تِسْعَة عَشَرَ " مفردٌ منصوبٌ وهذا - كما رأيت - جمع ، وقد جعله الزمخشريُّ تمييزاً له معتذراً عنه ، فقال : فإن قلت : مُمَيِّزُ ما عدا العشرة مفردٌ ، فما وجهُ مجيئه جمعاً ؟ وهلاَّ قيل : اثني عشر سِبْطاً ! ؟ قلتُ لو قيل ذلك ، لم يكن تحقيقاً ؛ لأن المُرادَ وقطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عشْرَةَ قبيلة ، وكلُّ قبيلة أسباط لا سِبْط ، فوضع " أسْبَاطاً " موضع " قبيلة " ؛ ونظيره قوله : [الرجز]

2597 - بَيْنَ رَمَاحَيْ مَالِكِ ونَهْشَلِ . . .

قال أبو حيان : وما ذهب إليه من أنّ كلَّ قبيلةٍ أسباط خلافُ ما ذكره النَّاسُ ، ذكروا أن الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب .

(86/293)

وقالوا : الأسْبَاطُ جمع وهم الفرق ، والأسباطُ في ولد إسحاق كالقبائل في ولد غسماعيل ، ويكون على زعمه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط ﴾ [البقرة : 136] معناه : والقبيلةُ ، وقوله : " وهو نظير قوله : بين رماحي مالكٍ ونهشَلِ " ليس بنظيره ، لأنَّ هذا من باب تثنية الجمع ، وهو لا يجوزُ إلا في ضرورةٍ ، وكأنَّهُ يشيرُ إلى أنه لوْ لمْ يُلْحَظْ في الجمع كونُه أُريد به نوعق من الرِّمَاحِ لم تَصِحَّ

التثنية ، كذلك هنا لُحِظَ في " الأسْبَاط " – وإن كان جمعاً – معنى القبيلة فمُيِّزَ به كَما يُمَيَّزُ بالفرد .

وقال الحُوفِيُّ : يجوز أن يكون على الحذفِ ، والتقديرُ : اثنتي عشرة فرقةً أسبَاطاً ويكون " أسْبَاطاً " نعتاً لـ " فرقة " ، ثم حذف الموصوفُ ، وأقيمت الصّفةُ مقامه و " أمَماً " نعتٌ لأسباط ، وأنَّثَ العدد ، وهو واقعٌ على الأسباطِ وهو مذكَّرٌ ، وهو بمعنى فرقة أو أمة كما قال : [الوافر]

2598 – ثَلاثَةُ أنْفُسٍ . . . . . .

يعني : رجلاً ، وقال : [الطويل]

2599 – . . . .

عَشْرُ أبْطُنٍ . . . . . .

بالنَّظَرِ إلى القبيلةِ ، ونظيرُ وصف التمييزِ المقرر بالجمعِ مراعاةً للمعنى قول الشّاعر : [الكامل]

2600 – فِيهَا اثْنَتَانِ وأرْبَعُونَ حَلُوبَةً سُوداً كَخَافِيَةِ الغُرابِ الأسْحمِ

فوصف " حَلُوبَةً " وهي مفردة لفظاً بـ " سُوداً " وهو جمع مراعاةً لمعناها ، إذ المرادُ الجمع .

وقال الفراء : إنَّما قال : " اثْنَتَيْ عَشْرَةَ " والسِّبْطُ مذكر ؛ لأنَّ ما بعده " أمم " فذهب التأنيث إلى الامم ، ولو كان " اثني عشر " لتذكير السبط لكان جائزاً .

واحتج النحويون على هذا بقوله : [الطويل]

2601 - وإنْ قريشاً هذه عَشْرُ أبْطُنٍ . . .

وأنْتَ بَرِيءٌ مِنْ قَبَائِلهَا العَشْرِ

(87/293)

ذهب بالبطْن إلى القبيلةِ ، والفصيلة ، لذلك أنَّثَ ، والبطن ذَكَرٌ .

وقال الزَّجَّاج : المعنى : وقطَّعْنَاهُمْ اثنتي عشرةَ فرقةً أسْبَاطاً ، من نعتِ فرة كأنَّهُ قال : جَعَلْنَاهُم أسباطاً وفرَّقناهم أسباطاً ، وجوَّز أيضاً أن يكون " أسْبَاطاً " بدلا من اثْنَتَيْ عَشْرَةَ : وتبعه الفارسيُّ في ذلك .

وقال بعضهم : تقديرُ الكلامِ : وقطعناهم فرقاً اثْنَتَيْ عشرَةَ ، فلا يحتاجُ حينئذٍ إلى غيره .

وقال آخرون : جعل كلَّ واحدٍ من الاثنتي عشرةَ أسباطاً ، كما تقولُ : لزيد دراهم ، ولفلانٍ دراهمُ : فهذه عشرون دراهم يعني أن المعنى على عشرينات من الدَّراهِم .

ولو قلت : لفلان ، ولفلان ، ولفلان عشرون درهماً بإفراد " درهم " لأدَّى إلى اشتراك الكُلِّ في عشرين واحدة ، والمعنى على خلافه .

وقال جماعةٌ منهم البَغَوِيُّ : " في الكلامِ تقديمٌ وتأخير تقديره : وقطعناهم أسباطاً أمماً اثنتي

عشرة " .

وقوله : أمماً إمَّا نعتٌ لـ " أسْبَاطاً " ، وإمَّا بدل منها بعد بدلٍ على قولنا : إنَّ " اسْبَاطاً " بدلٌ من ذلك التَّمييز المقدَّر .

وجعلهُ الزمخشريُّ أنه بدل من " اثْنَتَيْ عَشْرَة " ؛ قال : بمعنى : " وقطَّعْنَاهم أمَماً " ، لأنَّ كل أسباط كانت أمَّةً عظيمةً وجماعة كثيفة العدد ، وكلُّ واحد تؤمُّ خلاف ما تؤمُّهُ الأخرى فلا تكادُ تأتلف " . انتهى .

وقد تقدَّم القولُ في " الأسْبَاط " .

وقرأ أبان بنُ تغلبَ " وقَطَعْنَاهُمْ " بتخفيف العينِ والشَّهيرةُ أحسن ؛ لأنَّ المقامَ للتَّكثيرِ ، وهذه تحتمله أيضاً .

وقرأ الأعمش وابن وثَّابٍ ، وطلحة بنُ سليمان " عَشِرَة " بكسر الشِّينِ ، وقد رُوي عنهم فَتْحُها أيضاً ، ووافقهم على الكسر فقط أبو حَيْوَةَ ، ولطحة بن مصرف .

وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك في البقرة [60] ، وأنَّ الكسر لغةُ تميم والسُّكُونَ لغةُ الحجاز .

قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى إذِ استسقاه قَوْمُهُ ﴾ .

وتقدمت هذه القصَّةُ في البقرةِ .

" أن اضرب " يجوز في " أنْ " أن تكون المفسّرة للإيحاء ، وأن تكون المصدرية .

قال الحسنُ : ما كان إلاَّ حجراً اعترضه وإلاَّ عصاً أخذها .

وقوله : " فانبجَسَتْ " كقوله : " فانْفَجَرتْ " إعراباً وتقديراً ومعنىً ، وتقدَّم ذلك في البقرة .

وقيل : الانبجَاسَ : العرق .

قال أبو عمرو بنُ العلاءِ : " انبَجَستْ " : عَرِقَتْ ، وانفَجَرَتْ : سالتْ .

ففرَّق بينهما بما ذُكر .

قال المفسّرون : إنَّ موسى – عليه الصَّلاة والسَّلام كان إذا ضرب الحجر ظهر عليه مثلُ ثَدْي المرأة فَيَعْرَقُ ثُمَّ يسيل ، وهُمَا قَرِيبَان من الفرقِ المذكور في النَّضْح والنَّضْخ .

وقال الرَّاغِبُ : بَجَسَ الماءُ وانبَجَسَ انفَجَرَ ، لكنَّ الانبجاسَ أكثرُ ما يقالُ فيما يَخْرج من شيء ضيق ، والانفجار يُستعملُ فيه وفيما يخرج من شيء واسع ؛ ولذلك قول تعالى : ﴿ فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ ، وفي موضع آخر ﴿ فانفجرت ﴾ البقرة : 60] ، فاستُعْمِلَ حيث شاق المخرجُ اللفظتان .

يعني : ففرَّق بينهما بالعُمُوم والخُصُصِ ، فكلُّ انبجاس انفجارٌ من غير عكس .

وقال الهَرَوِيُّ : يقالُ : انبَجَسَ ، وتَبَجَّسَ ، وتَفَجَّرَ ، وتَفَّتَقَ بمعنى واحدٍ .

وفي حديث حذيفة ما منا إلا رجلٌ له آمَّةٌ يَبجُسُهَا الظَّفُر غَيْرَ رَجُلَيْنِ يعني : عمر وعليّاً ما .

الآمَّةُ : الشّجَّة تبلغ أمَّ الرأس ، وهذا مثل يعني أَنَّ الآمَّة منا قد امتلأت صديداً بحيث إنه يقدر على استخراج ما فيها بالظفر من غير احتياج إلى آلة حديد كالمبضع فعبَّر عن زلَل الإنسان بذلك ، وأنه تفاقهم إلى أن صار يشبه شَجَّةً هذه صفتها .

قوله : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ .

(89/293)

قال الزمخشريُّ : " الأناسُ " اسمُ جمع غير تكسير نحو : رخال وثناء ونوّام ، وأخواتٍ لها ، ويجوز أن يقال : إن الأصل : الكَسْرُ ، والتكسيرُ والضَّمة بدلٌ من الكسرةِ لما أبدلت في نحو : سُكَارَى وغُيَارى من الفتحةِ .

قال أبو حيان : ولا يجوز ما قال لوجهين ، أحدهما : أَنَّهُ لم يُنْطَقْ بـ " إناس " بكسر الهمزة ، فيكون جمع تكسير ، حتَّى تكون الضمَّةُ بدلاً من الكسرة بخلاف " سُكَارَى " و " غُيَارَى " فإنَّ القياس فيه " فَعَانَى " بفتح فاء الكلمة ، وهو مَسْمُوعٌ فيهما .

والثاني : أنَّ " سُكَارى " و " عُجَالى " و " غُيارى " وما ورد من نحوها ليست الضَّمَّةُ فيه بدلاً من الفتحة ، بل نصَّ سيبويه في كتابه على أَنَّه جمعُ تكسيرٍ أصلٌ ، كان أنَّ " فَعَالَى " جمعُ تكسيرٍ أصلٌ وإن كان لا ينقاسُ الضَّمُّ كما ينقاسُ الفتح .

قال سيبويه – في الأبنيةِ أيضاً – : " ويكون " فُعَالى " في الاسم نحو : حُبَارَى ، وسُمَانَى ، ولُبَادَى ، ولا يكون وصفاً إلاَّ وصفاً إلاَّ أن يُكَسَّرَ عليه الواحدُ للجمع نحو : سُكَارى وعُجَالى " .

فهذا نَصَّان من سيبويه على أنَّهُ جمعُ تكسير ، وإذا كان جمعَ تكسير أصْلاً لم يَسُغْ أن يُدَّعَى أن أصله فَعَلى وأنه أبدلت الحركة فيه .

وذهب المُبَرِّدُ إلى أنه اسمُ جمع أعني " فُعَالى " بضم الفاءِ ، وليس بجمع تكسير .

فالزمخشريُّ لم يذهبْ إلى ما ذهب إليه سيوبيه ، ولا إلى ما ذهب إليه المُبَرِّدُ ؛ لأنَّه عند المبرد اسمُ جمعٍ فالضَّمَّةُ في فائه أصلٌ وليست بدلاً من الفتحة بل أحدث قولاً ثلاثاً .

﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ والمُرادُ قَصْرُ نفوسهم على ذلك المطعُومِ ، وترك غيره .

وقرأ عيسى الهَمانِيُّ مَا رَزَقْتُكُم بالإفراد .

(90/293)

ثمَّ قال ومَا ظَلَمُونَا وفيه حذف ؛ لأنَّ هذا الكلامَ إنَّمَا يَحْسُنُ ذكره لو أنَّهم تعدوا ما أمرهم اللَّهُ به ، إمَّا لكونهم ادَّخَرُوا ما منعم اللَّهُ منه ، أو أقدمُوا على الأكل في وقت منعهم اللَّهُ منه ؛ أو لأنَّهم سألوا عن ذلك مع أنَّ اللَّهَ منعهم منه والمكلف إذَا ارتكبَ المَحْظُورَ فهو ظالم لنفسه

، ولذلك وصفهم اللَّهُ بقوله : ﴿ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ؛ لأنَّ الملكف إذا أقدم على المعصية فهو ما أضر إلاَّ نَفْسَهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 353.349 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

فَرَّقهم أصنافاً ، وجعلهم في التحزب أخيافاً ، ثم كفاهم ما أَهَمهُم ، وأعطاهم ما لم يكن لهم بُدٌّ منه فيما نابَهم ؛ فظللنا عليهم ما وقاهم أذى الحرّ والبرد ، وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوى مما نفى عنهم تعبَ الجوعِ والجهد والسعي والكد ، وفجَّرنا لهم العيونَ عند النزول حتى كانوا يشاهدونهم عياناً ، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين ، ولكن ليست العِبْرةُ بأفعال الخَلْقِ ولا بأعمالهم إنما المدارُ على مشيئة الحق ، سبحانه وتعالى فيما يُمضِي عليهم من فنون أحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 579 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما حباهم في القفار ، أتبعه إنعامه عليهم عند الوصول إلى الدار فقال : ﴿ وإذ ﴾ أي اذكر لهم هذا ليصدقوك أو يصيروا في غاية الظلم كأصحاب السبت فيتوقعوا مثل عذابهم ، واذكر لهم ما لم تكن حاضره ولا أخذته عنهم ، وهو وقت إذ ، وعدل عن الإكرام بالخطاب ونو العظمة ، لأن السياق للأسراع في الكفر فقال : ﴿ قيل لهم اسكنوا ﴾ أي ادخلوا مطمئنين على وجه الإقامة ، ولا يسمى ساكناً إلا بعد التوطن بخلاف الدخول ، فإنه يكون بمجرد الولوج في الشيء على أيّ وجه كان ﴿ هذه القرية ﴾ .

فهو دليل آخر على الأمرين : الصرف والصدق ؛ وعبر هنا بالمجهول في ﴿ قيل ﴾ إعراضاً عن تلذيذهم بالخطاب إيذاناً بأن هذا السياق للغضب عليهم بتساقطهم في الكفر وإعراضهم عن الشكر ، من أيّ قائل كان وبأيّ صيغة ورد القول وعلى أيّ حالة كان ، وإظهاراً للعظمة حيث كانت ، أدنى إشارة منه كافية في سكناهم في البلاد واستقرارهم فيها قاهرين لأهلها الذين ملؤوا قلوبهم هيبة حتى قالوا ﴿ إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ﴾ [المائدة : 24] .

ولما خلت نعمة الأكل في هذا السياق عما دعا إليه سياق البقرة من التعقيب وهو الاستعطاف ، ذكرت بالواو الدالة على مطلق الجمع ، وهي لا تنافي تلك ، فقال : ﴿ وكلوا منها ﴾ أي القرية ﴿ حيث شئتم ﴾ وأسقط الرغد لذلك ، وقدم ﴿ وقولوا حطة ﴾ ليكون أول قارع للسمع مما أمروا به من العبادة مشعراً بعظيم ما تحملوه من الآثام ، إيذاناً بما سيقت له هذه القصص في هذه السورة المقام .

ولما أمروا بالحطة قولاً ، أمروا أن يشفعوها بفعل ، لتحط عنهم ذنوبهم ، ولا ينافي التقديم هنا التأخير في البقرة ، لأن الواو لا ترتب ، فقال : ﴿ وادخلوا الباب ﴾ أي باب بيت المقدس حال كونكم ﴿ سجداً نغفر لكم ﴾ ولما كان السياق هنا لبيان إسراعهم في الكفر ، ناسب ذلك جمع الكثرة في قوله : ﴿ خطاياكم ﴾ في قراءة أبي عمرو ، وأما قراءة ابن عامر ﴿ خطيئتكم ﴾ بالإفراد وقراءة غيرهما ﴿ خطياتكم ﴾ جمع قلة فللإشارة إلى أنها قليل في جنب عفوة تعالى ، وكذا بناء ﴿ نغفر ﴾ للمجهول تأنيثاً وتذكيراً ، كل ذلك ترجيه لهم واستعطافاً إلى التوبة ، ولذلك ساق سبحانه ما بعده مساق السؤال لمن كأنه قال : هذا الرجاء قد حصل ، فهل مع مع المغفرة من كرامة ؟ فقال : ﴿ سنزيد ﴾ أي بوعد لا خلف فيه عن قريب ، وهو لا ينافي إثبات الواو في البقرة ﴿ المحسنين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 138 . 139 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾

اعلم أن هذه القصة أيضاً مذكورة مع الشرح والبيان في سورة البقرة .

بقي أن يقال : إن ألفاظ هذه الآية تخالف ألفاظ الآية التي في سورة البقرة من وجوه : الأول : في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية ﴾ [البقرة : 58] وههنا قال : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسكنوا هذه القرية ﴾ والثاني : أنه قال في سورة البقرة ﴿ فَكُلُواْ ﴾ بالفاء وههنا ﴿ وَكُلُواْ ﴾ بالواو .

والثالث : أنه قال في سورة البقرة ﴿ رَغَدًا ﴾ وهذه الكلمة غير مذكورة في هذه السورة .

والرابع : أنه قال في سورة البقرة : ﴿ وادخلوا الباب سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ وقال ههنا على التقديم والتأخير .

والخامس : أنه قال في البقرة ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطاياكم ﴾ وقال ههنا : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيئاتكم ﴾ والسادس : أنه قال في سورة البقرة : ﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ وههنا حذف حرف الواو .

والسابع : أنه قال في سورة البقرة : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [البقرة : 59] وقال

ههنا : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ والثامن : أنه قال في سورة البقرة : ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ واعلم أن هذه الألفاظ متقاربة ولا منافاة بينها ألبتة ، ويمكن ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة .

أما الأول : وهو أنه قال في سورة البقرة : ﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ وقال ههنا : ﴿ اسكنوا ﴾ فالفرق أنه لا بد من دخول القرية أولاً ، ثم سكونها ثانياً .

وأما الثاني : فهو أنه تعالى قال في البقرة : ﴿ ادخلوا هذه القرية فَكُلُوا ﴾ [البقرة : 58] بالفاء .

وقال ههنا : ﴿ اسكنوا هذه القرية وَكُلُوا ﴾ بالواو والفرق أن الدخول حالة مخصوصة ، كما يوجد بعضها ينعدم .

فإنه إنما يكون داخلاً في أول دخوله ، وأما ما بعد ذلك فيكون سكوناً لا دخولاً .

إذا ثبت هذا فنقول : الدخول حالة منقضية زائلة وليس لها استمرار .

(93/293)

فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده ، فلهذا قال : ﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ وأما السكون فحالة مستمرة باقية .

فيكون الأكل حاصلاً معه لا عقيبه فظهر الفرق .

وأما الثالث : وهو أنه ذكر في سورة البقرة ﴿ رَغَدًا ﴾ وما ذكره هنا فالفرق الأكل عقيب دخول القرية يكون ألذ ، لأن الحاجة إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم ، ولما كان ذلك الأكل ألذ لا جرم ذكر فيه قوله : ﴿ رَغَدًا ﴾ وأما الأكل حال سكون القرية ، فالظاهر أنه لا يكون في محل الحاجة الشديدة ما لم تكن اللذة فيه متكاملة ، فلا جرم ترك قوله : ﴿ رَغَدًا ﴾ فيه .

وأما الرابع : وهو قوله في سورة البقرة : ﴿ وادخلوا الباب سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ وفي سورة الأعراف على العكس منه ، فالمراد التنبيه على أنه يحسن تقديم كل واحد من هذين الذكرين على الآخر ، إلا أنه لما كان المقصود منهما تعظيم الله تعالى ، وإظهار الخضوع والخشوع لم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير .

وأما الخامس : وهو أنه قال في سورة البقرة : ﴿ خطاياكم ﴾ [البقرة : 58] وقال ههنا : ﴿ خطيئاتكم ﴾ فهو إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة ، فهي مغفورة عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرع .

وأما السادس : وهو أنه تعالى قال في سورة البقرة : ﴿ وَسَنَزِيدُ ﴾ [البقرة : 58] بالواو وههنا حذف الواو فالفائدة في حذف الواو أنه استئناف ، والتقدير : كان قائلاً قال : وماذا

حصل بعد الغفران ؟ فقيل له ﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 29.30 ﴾

(94/293)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾

اختلف في المأخوذ منه تسمية القرية على وجهين :

أحدهما : لأن الماء يقرى إليها أي يجمع ، من قولهم قرى الماء في حوضه إذا جمعه .

والثاني : لأن الناس يجتمعون إليها كما يجتمع الماء فى الحوض .

واختلف في هذه القرية على قولين :

أحدهما : أنها بيت المقدس ، قاله قتادة .

والثاني : هي أرض الشام ، قاله الحسن .

فإنه قيل : فكيف سمى المأوى مسكناً والإنسان في مسكنه متحرك ؟ قيل لأنه يترك فيه التصرف فصار في أكثر أحواله ساكناً وإن كان في بعضها متحركاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾

المعنى واذكر " إذ قيل لهم " ، والمراد من سلف من بني إسرائيل ، وذلك أنهم لما خرجوا من التيه قيل لهم ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ و" القرية " في كلام العرب المدينة مجتمع المنازل ، والإشارة هنا إلى بيت المقدس ، قاله الطبري ، وقيل إلى أريحا ، و﴿ حيث شئتم ﴾ أي هي ونعمها لكم مباحة ، وقرأ السبعة والحسن وأبو رجاء ومجاهد وغيرهم " حطةٌ " بالرفع ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " حطةً " بالنصب ، الرفع على خبر ابتداء تقديره طلبنا حطة ، والنصب على المصدر أي حط ذنوبنا حطةً ، وهذا على ان يكلفوا قول لفظة معناها حطة ، وقد قال قوم كلفوا قولاً حسناً مضمنة الإيمان وشكر الله ليكون حطة لذنوبهم ، فالكلام على هذا كقولك قل خيراً . . وتوفية هذا مذكور في سورة البقرة . وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي " نغفر " بالنون " لكم خطيئاتكم " بالتاء مهموز على الجمع ، وقرأ أبو عمرو " نغفر " بالنون " لكم خطاياكم " نحو قضاياكم وهي قراءة

الحسن والأعمش ، وقرأ نافع " تُغفر " بتاء مضمومة " لكم خطيئاتُكم " بالهمز وضم التاء على الجمع ، ورواها محبوب عن أبي عمرو ، وقرأ ابن عامر " تُغفر " بتاء مضمومة " لكم خطيئتُكم " واحدة مهمزوة مرفوعة ، قال أبو حاتم : وقرأها الأعرج وفرقة " تُغفر بالتاء وفتحها على معنى أن الحطة تغفر إذ هي سبب الغفران ، و" بدل " معناه غير اللفظ دون أن يذهب بجميعه ، وأبدل إذا ذهب به وجاء بلفظ آخر والإشارة بالقول إلى قول بني إسرائيل حبة في شعرة أو حنطة في شعيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(96/293)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وإذ قيل لهم ﴾

يعني : واذكر يا محمد لقومك إذ قيل لهم يعني لبني إسرائيل ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ يعني بيت المقدس ، وقال في سورة البقرة : ادخلوا هذه القرية ، ولا منافاة بينهما لأن كل ساكن في موضع لا بد له من الدخول إليه ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ يعني وكلوا من ثمار القرية وزروعها وحبوبها وبقولها حيث شئتم وأين شئتم .

وقال في البقرة : فكلوا ، بالفاء وهو بالواو والفرق بينهما أن الدخول حالة مقتضية للأكل عقبه فيحسن دخول الفاء التي هي للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو عقب السكنى فيكون الأكل حاصلاً متى شاؤوا وإنما قال في سورة البقرة : رغداً ، ولم يقله هنا لأن الأكل عقب الدخول ألذ وأكمل فأما الأكل مع السكنى والاستمرار فليس كذلك فحسن دخول لفظة رغداً هناك بخلافه هنا ﴿ وقولوا حطة ﴾ أي حط عنا ذنوبنا ﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾ وقال في البقرة عكس هذا اللفظ ولا منافاة في ذلك لأن المقصود من ذلك تعظيم أمر الله وإظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بسبب التقديم والتأخير ﴿ نغفر لكم خطيئاتكم ﴾ يعني نغفر لكم ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها .

وإنما قال هنا خطيئاتكم وفي البقرة خطاياكم لأن المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة أو كثيرة إذا أتوا بالدعاء والتضرع ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ وقال في سورة البقرة : وسنزيد ، بالواو ومعناه أنه قد وعد المسيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب وإسقاط الواو لا يخل بهذا المعنى لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له : سنزيد المحسنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(97/293)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبيُّ عليه الصلاة والسلام وإيرادُ الفعلِ على البناء للمفعول مع استناده إليه تعالى كما يفصِحُ عنه ما وقع في سورة البقرة من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ للجري على سنن الكبرياء والإيذان بالغِنى عن التصريح به لتعين الفاعلِ ، وتغييرُ النظمِ بالأمر بالذكر للتشديد في التوبيخ أي اذكر لهم وقت قولِه تعالى لأسلافهم : ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ منصوب على المفعولية ، يقال : سكنت الدارَ وقيل : على الظرفية اتساعاً ، وهي بيتُ المقدس وقيل : أريحا وهي قريةُ الجبارين وكان فيها قومٌ من بقية عادٍ يقال لهم : العمالقةُ (على) رأسهم عوجُ بنُ عنقٍ وفي قوله تعالى : ﴿ اسكنوا ﴾ إيذانٌ بأن المأمورَ به في سورة البقرة هو الدخولُ على وجه السُّكنى والإقامة ، ولذلك اكتُفي به عن ذكر رغداً في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ أي من مطاعمها وثمارِها على أن من بعيضيةٌ أو منها على أنها ابتدائية ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ أي من نواحيها من غير أن يزاحمَكم فيها أحدٌ فإن الأكلَ المستمرَّ على هذا الوجه لا يكون إلا رغداً واسعاً ، وعطفُ كلوا على اسكُنوا بالواو لمقارنتها زماناً بخلاف الدخولِ فأنه مقدمٌ على الأكل ولذلك قيل هناك : فكلوا ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ أي مسألتُنا أو أمرُك حِطةٌ لذنوبنا وهي فِعلة من الحَطّ كالجِلسة ﴿ وادخلوا الباب ﴾ أي بابَ القرية ﴿ سُجَّدًا ﴾ أي متطامنين مُخبتين أو

ساجدين شكراً على إخراجهم من التيه ، وتقديمُ الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور في سورة البقرة غيرُ مُخلَ بهذا الترتيب لأن المأمورَبه هو الجمعُ بين الفعلين من غير اعتبارِ الترتيبِ بينهما ثم إن كان المرادُ بالقرية أريحاءَ فقد روي أنهم دخلوها حيث سار إليها موسى عليه السلام بمن بقي من بني إسرائيلَ أو بذراريهم على اختلاف الروايتين ففتحها كما مر في سورة المائدة ، وأما إن كان بيتَ المقدس فقد رُوي

(98/293)

أنهم لم يدخُلوه في حياة موسى عليه السلام فقيل : المرادُ بالباب بابُ القُبة التي كانوا يصلّون إليها ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيئاتكم ﴾ وقرىء خطاياكم كما في سورة البقرة ، وتُغفَرْ لكم خطيئاتُكم وخطاياكم وخطيئتُكم على البناء للمفعول ﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ عِدةٌ بشيئين بالمغفرة وبالزيادة ، وطرحُ الواوا هاهنا لا يُخِل بذلم لأنه استئنافٌ مترتبٌ على تقدير سؤال نشأ من الإخبار بالغفران كأنه قيل : فماذا لهم بعد الغفرانِ ؟ فقيل : سنزيد وكذلك زيادةٌ منهم زيادةَ بيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(99/293)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ معمول لا ذكر ، وإيراد الفعل هنا مبنياً للمفعول جرياً على سنن الكبرياء مع الإيذان بأن الفاعل غني عن التصريح أي اذكر لهم وقت قولنا لأسلافهم ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ القريبة منكم وهي بيت المقدس أو أريحاء ، والنصب مبني على المفعولية كسكنت الدار على الظرفية اتساعاً والتعبير بالسكنى هنا للإيذان بأن المأمور به في البقرة الدخول بقصد الإقامة أي أقيموا في هذه القرية ﴿ وَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ أي مطاعمها وثمارها أو منها نفسها على أن من تبعيضية أو ابتدائية ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ أي من نواحيها من غير أن يزاحمكم أحد ؛ وجيء بالواو هنا وبالفاء في البقرة لأنه قيل هناك ادخلوا ذكر التعقيب معه وهنا اسكنوا والسكنى أمر ممتد والأكر معه لا بعده ، وقيل : إن إذا تفرع المسبب عن السبب اجتمعا في الوجود فيصح الإتيان بالواو والفاء ، وفيه أن هذا إنما يدل على صحة العبارتين وليس السؤال عن ذلك ، وذكر ﴿ رَغَدًا ﴾ [البقرة : 58] هناك لأن الأكل في أول الدخول يكون ألذ وبعد السكنى واعتباره لا يكون كذلك وقيل : إنه اكتفى بالتعبير باسكنوا عن ذكره لأن الأكل المستمر من غير مزاحم لا يكون إلا رغداً واسعاً ، وإلى الأول

ذهب صاحب اللباب ، ويرد على القولين أنه ذكر ﴿ رَغَدًا ﴾ [البقرة : 35] مع الأمر بالسكنى في قصة آدم عليه السلام ، ولعل الأمر في ذلك سهل ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وادخلوا الباب سُجَّدًا ﴾ مر الكلام فيه في البقرة غير أن ما فيها عكس ما هنا في التقديم والتأخير ولا ضير في ذلك لأن المأمور به هو الجمع بين الأمرين من غير اعتبار الترتيب بينهما ، وقال القطب : فائدة الاختلاف التنبيه على حسن تقديم كل من المذكورين على الآخر لأنه لما كان المقصود منهما تعظيم الله تعالى وإظهار الخشوع والخشوع لم يتفاوت الحال في التقديم والتأخير ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ ﴾ جزم في جواب الأمر .

وقرأ نافع .

وابن عامر .

(100/293)

ويعقوب ﴿ لَّمْ تَغْفِرْ ﴾ بالتاء والبناء للمفعول و ﴿ خياتكم ﴾ بالرفع والجمع غير ابن عامر فإنه وحد ، وقرأ أبو عمرو ﴿ لَكُمْ خطاياكم ﴾ كما في صورة [البقرة :] ، وبين القطب فائدة الاختلاف بين ما هناك وبين ما هنا على القراءة المشهورة بأنها الإشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة فهي مغفور بعد الإتيان بالمأمور به ، وطرح الواو هنا

من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ إشارة إلى أن هذه الزيادة تفضل محض ليس في مقابلة ما أمروا به كما قيل .

والمراد أن امتثالهم جازاه الله تعالى بالغفران وزاد عليه وتلك الزيادة فضل محض منه تعالى فقد يدخل في الجزاء صورة لترتبه على فعلهم وقد يخرج عنه لأن زيادة على ما استحقوه ، ولذا قرن بالسين الدالة على أنه وعد وتفضل ، ومفعول نزيد محذوف أي ثواباً وزيادة منهم في قوله تعالى شأنه : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(101/293)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) ﴾

وهذه القصة مذكورة أيضاً في سورة البقرة ، ونعرف أن قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ ، ولم يذكر الحق من القائل ؛ لأن طبيعة الأمر في الأسباط أنه سبحانه جعل لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم لا يأتلفون ؛ فلا يكون القول

من واحد إلى الجميع ، بل يصدر القول من المشرع الأعلى وهو الحق إلى الرسول ، والرسول يقول للنقباء ، والنقباء يقولون للناس .

وبعد أن تلقى موسى القول أبلغه للنقباء ، والنقباء قالوه للأسباط ، وفي آية أخرى قال الحق : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ . وهذا القول الأول وضعنا أمام لقطة توضح أن المصدر الأصيل في القول هو الله ، ولأنهم أسباط ولكل سبط مشرب ؛ لذلك يوضح هنا أنه أوحى لموسى .

وساعة ما تسمع " وإذ " فاعلم أن المراد اذكر حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، لقد قيل إن هذه القرية هي بيت المقدس أو أريحا ، لكنهم قالوا : لن ندخلها أبداً لأن فيها قوماً جبارين وأضافوا : ﴿ . . . فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : 24] والحق لا يبين لنا القرية في هذه الآية ؛ لأن هذا أمر غير مهم ، بل جاء بالمسألة المهمة التي لها وزنها وخطرها وهي تنفيذ الأمر على أي مكان يكون : ﴿ اسكنوا هذه القرية وَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ .

ويوضح الحق : أنا تكفلت بكم فيها كما تكفلت بكم في التيه من تظليل غمام ، وتفجير ماء غماما ، وتفجير ماء من صخر ، ومَنّ وسلوى . وحين أقول لكم ادخلوا القرية واسكنوها فلن أتخلى عنكم : ﴿ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ . وقديماً كان لكل قرية باب ؛ لذلك يتابع سبحانه : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وادخلوا الباب سُجَّداً ﴾ .

والحطة تعني الدعاء بأن يقولوا : يا رب حط عنا ذنوبنا فنحن قد استجبنا لأمرك وجئنا إلى القرية التي أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفّههم فيه . وإذا ما فعلوا ذلك سيكون لهم الثواب وهو : ﴿ . . . نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيائاتكم سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ [الأعراف : 161]

وسبحانه يغفر مرة ثم يكتب حسنة ، أي سلب مضرة ، وجلب منفعة ، لكن هناك في سورة البقرة قد جاء النص التالي : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وادخلوا الباب سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ [البقرة : 58]

فالكيان العام واحد ونجد خلافاً في الألفاظ واللقطات عن الآية التي وردت في سورة الأعراف . أول خلاف ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ ، و ﴿ وَإِذْ قِيلَ ﴾ ، وشاء الحق ذلك ليأتي لنا بلقطة مختلفة كنا أوضحنا من قبل . ففي آية سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ ادخلوا ﴾ وفي آية سورة الأعراف يقول : ﴿ اسكنوا ﴾ ، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهي السكن أي ادخلوا لتسكنوا ، وأوضح ذلك بقوله في سورة الأعراف : ﴿ اسكنوا ﴾ ليبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة .

وأراد سبحانه أن يعطيهم الغاية النهائية ؛ لأنه لا يسكن أحد في القرية إلا إذا دخلها .

وهكذا نرى أن كلمات القرآن لا تأتي لتكرار ، بل للتأسيس وللإتيان بمعنى جديد يوضح ويبين ويشرح . ويقول الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ . وفي آية سورة البقرة يقول : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾ .

(103/293)

وحين أمرهم الله بالدخول وكانوا جوعى أمرهم الحق أن يأكلوا ، على الفور والتوّ بتوسع ، لذلك أتى بكلمة " رغداً " لأن حاجتهم إلى الطعام شديدة وملحة ، لكنه بعد أن أمرهم بالسكن أوضح لهم أن يأكلوا ؛ لأن السكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أن يأكل براحة وتأن . وقال الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وادخلوا الباب سُجَّداً ﴾ . أي أنه قدم قولهم " حطة " على السجود ، وفي آية سورة البقرة قدم السجود فقال : ﴿ وادخلوا الباب سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ . . . ﴾ [البقرة : 58]

جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من ينفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر ينفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله . وأيضاً قال الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ . . . نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيائاتكم سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ [الأعراف :

وفي سورة البقرة يقول : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ .

(104/293)

ونعلم أن صيغة الجمع تختلف ؛ فهناك " جمع تكسير " وجمع تأنيث ، ففي جمع التكسير نغير من ترتيب حروف الكلمة ، مثل قولنا " قفل " فنقول في جمعها " أقفال " . أما في جمع التأنيث فنحن نزيد على الكلمة ألفاً وتاء بعد حذف ما قد يوجد في المفرد من علامة تأنيث ، مثل قولنا " فاطمة " ، و " فاطمات " ، و " أكلة " ، و " أكلات " وهذا جمع مؤنث سالم ، أي ترتيب حروفه لم يتغير ، وجمع المؤنث السالم يدل على القلة . لكن جمع التكسير يدل على الكثرة فجاء – سبحانه – بجمع المؤنث السالم الذي يدل على القلة وبجمع التكسير الذي يدل على الكثرة لاختلاف درجات ونسب الخطايا ؛ لأن المخاطبين غير متساوين في الخطايا ، فهناك من ارتكب أخطاء كثيرة ، وهناك من أخطأ قليلاً . والاختلاف حدث أيضاً في عجز الآيتين ، فقال في سورة البقرة : ﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ وجاء عجز سورة الأعراف بدون " واو " فقال : ﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ .

وقد عودنا ودعانا الحق إلى أن نقول : اغفر لنا وأنت خير الغافرين ، وارحمنا وأنت خير

الراحمين ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة . وهنا يوضح سبحانه : أنا لن أكتفي بأن أغفر لكم وأن أرفع عنكم الخطايا . لكني سأزيدكم حسناً ، وفي هذا سلب للضرر وجلب للنفع . كأن الله حينما قال : " خطاياكم " بجمع التكسير الذي ينبئ ويدل على كثرة الذنوب والخطايا و " خطياآتكم " التي تدل على القلة انشغلوا وتساءلوا : وماذا بعد الغفران يا رب فقيل ؟ لهم : ﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ هل يغفر لنا فقط ، أو أنه سيجازينا بالحسنات أيضاً ؟ وكانت إجابة الله أنه سيغفر لهم ويزيدهم ويمدهم بالحسنات . وقد عقدنا هذه المقارنة المفصلة بين آية سورة البقرة وآية سورة الأعراف لنعرف أن الآيات لا تتصادم مع بعضها البعض ، بل تتكامل مصداقاً لقول الحق : ﴿ . . . وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(105/293)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ

أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) ﴾

أخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال موسى : يا رب ، أجد أمة انجيلهم في قلوبهم ؟ قال : تلك أمة تكون بعدك أمة أحمد . قال : يا رب ، أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارة لما بينهن ؟ قال : تلك أمة تكون بعدك أمة أحمد . قال : يا رب أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ثم ترجع فيهم فيأكلون ؟ قال : تلك أمة تكون بعدك أمة أحمد . قال : يا رب ، اجعلني من أمة أحمد . فأنزل الله كهيئة المرضية لموسى ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي ليلى الكندي قال : قرأ عبد الله بن مسعود " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " فقال رجل : ما أحب إني منهم . فقال عبد الله : لم ما يزيد صالحوكم على أن يكونوا مثلهم ؟

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ ومن قوم موسى أمة ﴾ الآية . قال : بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً ، تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينهم ، ففتح الله له نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين ، فهم هنالك حنفاء مستقبلين يستقبلون قبلتنا . قال ابن جريج : قال ابن عباس : فذلك قوله ﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ [الإسراء : 104] ووعد الآخرة عيسى ابن مريم . قال ابن عباس : ساروا في السرب سنة ونصفاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ، وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ، وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ، فأما اليهود فإن الله يقول ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ وأما النصارى فإن الله يقول ﴿ منهم أمة مقتصدة ﴾ [المائدة : 66] فهذه التي تنجو ، وأما نحن فيقول ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : 181] فهذه التي تنجو من هذه الأمة .

وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل قال : إن مما فضل الله به محمداً صلى الله عليه وسلم أنه عاين ليلة المعراج قوم موسى الذين من وراء الصين ، وذلك أن بني إسرائيل حين عملوا بالمعاصي وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس ، دعوا ربهم وهم بالأرض المقدسة فقالوا : اللهمَّ أخرجنا من بين أظهرهم ، فاستجاب لهم فجعل لهم سرباً في الأرض فدخلوا فيه ، وجعل معهم نهراً يجري وجعل لهم مصباحاً من نور بين أيديهم ، فساروا فيه سنة ونصفاً وذلك من بيت المقدس إلى مجلسهم الذي هم فيه ، فأخرجهم الله إلى أرض تجتمع فيها الهوام والبهائم والسباع مختلطين بها ، ليس فيها ذنوب ولا معاص ، فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ومعه جبريل ، فآمنوا به وصدقوه وعلَّمهم الصلاة وقالوا : إن موسى قد بشَّرهم به .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ قال : بينكم وبينهم نهر من سهل ، يعني من رمل يجري .

وأخرج ابن أبي حاتم عن صفوان بن عمرو قال : هم الذين قال الله ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ﴾ يعني سبطان من أسباط بني إسرائيل يوم الملحمة العظمى ينصرون الإِسلام وأهله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : إن لله عباداً من وراء الأندلس كما بيننا وبين الأندلس لا يرون أن الله عصاه مخلوق ، رضراضهم الدر والياقوت وجبالهم الذهب والفضة ، لا يزرعون ولا يحصدون ولا يعملون عملاً ، لهم شجر على أبوابهم لها أوراق عراض هي لبوسهم ، ولهم شجر على أبوابهم لها ثمر ، فمنها يأكلون .

قوله تعالى : ﴿ فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ فانبجست ﴾ قال : انفجرت .

(108/293)

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عزَّ وجلَّ ﴿ فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ قال : أجرى الله من الصخرة اثنتي عشرة عيناً ، لكل سبط عين يشربون منها . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم . أما سمعت بشر بن أبي حازم يقول :

فاسلبت العينان مني بواكف . . . كما انهل من واهي الكلى المتبجس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسكنوا هذه القرية ﴾ الآيةُ .

اعلم أنَّ هذه القصة قد تقدَّمت مشروحة في سورة البقرةِ إلاَّ أنَّ بينهما تفاوتاً من وجوه :

أحدها : أنَّهُ عيَّن القائل في سورة البقرة ، فقال وإذْ قُلْنا وههنا أبهمه فقال وَإِذْ قيلَ .

وثانيها : قال في سورة لابقرة " ادخلوا " وقال هاهنا " اسكنوا " .

وثالثها : قال في سورة البقرة فَكُلُوا بالفاء ، وههنا بالواو .

وارابعها : قال هناك رَغَداً وأسقطها ههنا .

وخامسها : قدَّم هناك قوله ﴿ وادخلوا الباب سُجَّداً ﴾ على " وقولُوا حِطَّةٌ " وههنا على العكس .

وسادسها : قال في البقرة ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ [البقرة : 58] وههنا " خطِيئَاتِكُمْ " .

وسابعها : قال هنا : " وسَنَزِيدُ المُحْسنينَ " بالواو وههنا حذفها .

وثامنها : قال في البقرة " فأنزلْنَا " وههنا " فأرْسَلْنَا " .

(110/293)

وتاسعها : قال هناك : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة : 58] .

وقال ههنا " يَظْلِمُونَ " .

وهذه ألفاظٌ لا مناقاةَ بينها ألبتة ، ويمكن ذكر فوائدهَا .

أما قوله ههنا : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ إعلاماً للسَّامع بان هذا القائل هو ذاك ، وأمَّا قوله هنا " ادْخُلُوا " ، وههنا " اسْكُنُوا " فالفرقُ أنَّهُ لا بدَّ من دخول القريَةِ أوّلاً ، ثم سكونها ثانياً .

وأمَّا قوله هنا " فَكُلُوا " بالفاءِ وههنا بالواوِ ، فالفرق أنَّ الدُّخُولَ حالة مخصوصة ، كما يوجد بعضها ينعدم ، فإنَّهُ إنَّما يكون داخلاً في أوَّل دخوله .

وأمَّا بعد ذلك ، فيكون سكنى لا دخولاً ، وإذا كان كذلك فالدَّخُولُ حالة منقضية زائلة وليس لها استمرار ، فحسن ذكر فاء التعقيب بعده ، فلهذا قال ﴿ ادخلوا هذه القرية فَكُلُواْ ﴾ [البقرة : 58] وأمَّا السُّكْنَى فحالة مستمرة باقية فيكون الأكل حاصلاً معها لا عقيبها فحل الفرق .

وأمَّا قوله هناك " رغَداً " ولم يذكره هنا ؛ لأنَّ الأكْلَ عقيب دخول القرية يكون ألذ ؛ لأنَّهُ وقت الحاجةِ الشديدةِ ، فلذلك ذكر رَغَداً وأما الأكر حالة السُّكنى ، فالظَّاهِرُ أنَّ الحاجة لا تكونُ شديدة .

وأمَّا قوله هناك : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ وههنا على العكس ، فالمرادُ التَّنبيهُ على أنَّهُ يحسن تقديم كل واحد منهما على الآخر ، لأنَّ المقصُودَ منهما تعظيم اللَّهِ تعالى وإظهار الخُضُوعِ ، وهذا لا يتفاوتُ الحال فيه بحسب التَّقديم والتَّأخير .

قال الزمخشريُّ : التَّقديمُ والتأخيرُ في وقُولُوا وادخُلُوا سواء قدَّمُوا " الحِطَّة " على دخول الباب ، أو أخَّرُوَاها فهم جامعون في الإيجاد بينهما .

قال أبو حيَّان : وقوله : سواءٌ قدَّمُوا أو أخَّرُوها تركيب غير عربي ، وإصلاحه سواء أقدَّمُوا أمْ أخَّرُوا ، كما قال تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا ﴾ [إبراهيم : 21] .

(111/293)

فصل قال شهابُ الدِّين : يعني كونه أتى بعد لفظ " سواء " بـ " أوْ " دون " أمْ " ، ولم يأتي بهمزة التسوية بعد " سواء " وقد تقدَّم أنَّ ذلك جائز ، وإن كان الكثيرُ ما ذكره وأنه قد

قرىء

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾ [البقرة : 6] والرَّدُ بمثل هذا غير " طائل " .

وأما قوله في البقرة ﴿ خَطَايَاكُمْ ﴾ وههنا " خَطِيئَاتِكُم " فهو إشارة على أنَّ هذه الذنوب سواء كانت قليلة ، أو كثيرة ، فهي مغفورةٌ عند الإتيان بهذا الدُّعاء .

وأما قوله هناك " وسَنَزِيدُ " بالواوِ ، وههُنَا حذفها ففائدته أنه استئناف ، كأنَّ قائلاً قال : وماذا حصل بعد الغُفْرانِ ؟

فقيل لهم : " سَنَزِيدُ المُحْسنينَ " .

وأما قوله هناك " فأَنزَلْنَا " ، وههُنَا " فأَرْسَلْنَا " فلأنَّ الإنزال لا يشعر بالكَثْرَة ، والإرسَال يشعر بها ، فكأَنَّهُ تعالى بدأ بإنزال العذابِ القليل ، ثمَّ جعله كثيراً ، وهو نظيرُ الفرقِ بين قوله ﴿ فانبجست ﴾ [الأعراف : 160] وقوله ﴿ فانفجرت ﴾ [البقرة : 60] .

وأمَّا قوله هناك ﴿ عَلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [البقرة : 59] ، وههُنَا " عَلَيْهِمْ " فهو إيذان بأنَّ هؤلاء المضمرون هم أولئك ، وأمَّا قوله هَهُنَا " يَظْلمُونَ " وهناك " يَفْسُقُونَ " فلأنهم موصوفون بأنهم كانوا ظالمينَ لأَنَّهم ظلموا نفسهم ، وبكونهم فاسقين ، لأَنَّهُمْ خَرَجُوا عن طاعةِ اللَّهِ .

قوله : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيائاتكم ﴾ قد تقدَّم الخلافُ في " نَغْفِر " وأمَّا " خَطِيئَاتِكُمْ " فقرأها ابن عامر " خَطِيئَتُكُم " بالتَّوحيد ، والرَّفع على ما لم يُسَمَّ فاعله ، والفرض أنه يقرأ "

تغفرْ " بالتَّاء من فوق .

ونافع قرأ " خَطِيئَاتِكُم " بجمع السَّلاَمة ، رفعاً على ما لم يُسَمَّ فاعلُه ؛ لأنَّهُ يقرأ " تُغْفرُ لكم " كقراءة ابن عامر .

وأبو عمرو قرأ " خَطَايَاكُم " جمع تكسير ، ويَقْرأ " نَغْفِرْ " بنون العظمة .

(112/293)

والباقون " نَغْفِرْ " كأبي عمرو ، " خَطِيئَاتِكُمْ " بجمع السَّلامة منصوباً بالكسرة على القاعدة .

وفي سورة نوح قرأ أبو عمرو " خطاياهم " بالتكسير أيضاً ، والباقون بجمع التصحيح .

وقرأ ابنُ هرمز " تُغْفَرْ " بتاءٍ مضمومة مبيناً للمفعول ، كنافع ، " خَطَايَاكُم " كأبي عمرو ، وعنه " يَغْفِرْ " بياء الغيبة ، وعنه " تَغْفِر " بفتح التَّاءِ من فوق ، على معنى أنَّ " الحِطَّة " سببٌ للغفران ، فنسب الغفران إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 355.353 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) ﴾

يخبر عما ألزمهم من مراعاة الحدود ، وما حصل منهم من نقض العهود . وعما ألزمهم من التكليف ، ولقَّاهم به من صنوف التعريف ، وإكرامه من شاءَ منهم بالتوفيق والتصديق ، وإذلاله من شاء منهم بالخذلان وحرمان التحقيق ، ثم ما عاقبهم به من فنون البلاء فما لقوا تعريفاً ، وأذاقهم من سوء الجزاء ، حُكْماً – من الله – حتما ، وقضاء جزماً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 580 ﴾

(113/293)

قوله تعالى ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

وللسياق الذي وصفت قيد قوله : ﴿ فبدل الذين ظلموا ﴾ بقوله : ﴿ منهم ﴾ لئلا يتوهم أنهم من الدخلاء فيهم ﴿ قولاً غير الذي ﴾ .

ولما كان من المعلوم أن القائل من له إلزامهم ، بناه للمجهول فقال : ﴿ قيل لهم ﴾ وقال : ﴿ فأرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ عليهم ﴾ بالإضمار تهويلاً لاحتمال العموم بالعذاب ﴿ رجزاً من السماء ﴾ ولفظُ الظلم - في قوله : ﴿ بما كانوا يظلمون ﴾ بما يقتضيه من أنهم لا ينفكون عن الكون في الظلام إما مطلقاً وإما مع تجديد فعل فعل من هو فيه - أهول من لفظ الفسق المقتضي لتجديد الخروج مما ينبغي الاستقرار فيه ، كما أن لفظ الإرسال المعدي ب ﴿ على ﴾ كذلك بالنسبة إلى لفظ الإنزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 139. 140 ﴾

(114/293)

فصل

قال الفخر :

وأما الفرق السابع بين المذكور فى البقرة والمذكور فى الأعراف : وهو الفرق بين قوله : ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ وبين قوله : ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة ، والإرسال يشعر بها ، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل ، ثم جعله كثيراً ، وهو نظير ما ذكرناه في الفرق بين قوله : ﴿ فانبجست ﴾ وبين قوله : ﴿ فانفجرت ﴾ .

وأما الثامن : وهو الفرق بين قوله : ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ وبين قوله : ﴿ يَفْسُقُونَ ﴾ فذلك لأنهم موصوفون بكونهم ظالمين ، لأجل أنهم ظلموا أنفسهم ، وبكونهم فاسقين ، لأجل أنهم خرجوا عن طاعة الله تعالى ، فالفائدة في ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الأمرين ، فهذا ما خطر بالبال في ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة ، وتمام العلم بها عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 30 ﴾ . بتصرف يسير .

(115/293)

وقال الخازن :

﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ﴾

يعني فغير الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أمرنا من بني إسرائيل فقالوا قولاً غير الذي قيل لهم وأمروا به وذلك أنهم أمروا أن يقول حطة فقالوا حنطة في شعيرة فكان ذلك تبديلهم وتغييرهم ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء ﴾ يعني بعثنا عليهم عذاباً نم السماء أهلكهم ، ولا منافاة بين قوله تعالى هنا أرسلنا وبين قوله في سورة البقرة أنزلنا لأنهما لا يكونان إلا من أعلى إلى أسفل ، وقيل : بينهما فرق وهو أن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بذلك فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب قليلاً ثم أرسله عليهم كثيراً ﴿ بما

كانوا يظلمون ﴾ يعني أن إرسال العذاب عليهم بسبب ظلمهم ومخالفتهم أمر الله .

وقال في البقرة : بما كانوا يفسقون ، والجمع بينهما أنهم لما ظلموا أنفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى وقد تقدمت هذه القصة أيضاً في تفسير سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(116/293)

وقال أبو حيان :

﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾

قال ابن عطية : ﴿ وبدل ﴾ غير اللفظ دون أن يذهب بجميعه وأبدل إذا ذهب به وجاء بلفظ آخر انتهى ، وهذه التفرقة ليست بشيء وقد جاء في القراءات بدل وأبدل بمعنى واحد قرىء : ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة ﴾ و ﴿ عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدّله أزواجاً ﴾ ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ﴾ بالتخفيف والتشديد والمعنى واحد وهو إذهاب الشيء والإتيان بغيره بدلاً منه ثم التشديد قد جاء حيث يذهب الشيء كله قال تعالى : ﴿ فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات ﴾ و ﴿ بدلناهم بجنتيهم جنتين ﴾ ثم ﴿ بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ وعلى هذا كلام العرب نثرها ونظمها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾

بما أمروا به من التوبة والاستغفارِ حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعَه ﴿ قَوْلاً ﴾ آخرَ مما لا خيرَ فيه . روي أنهم دخلوه زاحفين على أستاههم وقالوا مكانَ حطةٌ : حنطةٌ وقيل : قالوا بالنبطية حطا شمقاثا يعنون حنطةً حمراءَ استخفافاً بأمر الله تعالى واستهزاءً بموسى عليه الصلاة والسلام ، وقوله تعالى : ﴿ غَيْرَ الذى قِيلَ لَهُمْ ﴾ نعتٌ لقولاً ، صرّح بالمغايرة مع دِلالة التبديلِ عليها قطعاً تحقيقاً للمخالفة وتنصيصاً على المغايرة من كل وجه ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ﴾ إثرَ ما فعلوا ما فعلوا من غير تأخير ، وفي سورة البقرة ﴿ عَلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ والمعنى واحدٌ والإرسالُ من فوق فيكون كالإنزال ﴿ رِجْزًا مّنَ السماء ﴾ عذاباً كائناً منها والمراد الطاعون . روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعةٌ وعشرون ألفاً ﴿ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ بسبب ظلمِهم المستمرّ السابق واللاحقِ حسبما يفيده الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ لا بسبب التبديلِ فقط كما يُشعر به ترتيبُ الإرسالِ عليه بالفاء ، والتصريحُ بهذا التعليل لما أن الحُكم هاهنا مترتبٌ على المضمر دون الموصولِ بالظلم كما في سورة البقرة ، وأما التعليلُ بالفسق بعد الإشعارِ بعلّية الظلمِ فقد مر وجهُه هناك والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾

لزيادة البيان أي بدل الذي ظلموا من هؤلاء بما أمروا به من التوبة والاستغفار حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعه ﴿ قَوْلاً ﴾ آخر مما لا يخير فيه ﴿ غَيْرَ الذى قِيلَ لَهُمْ ﴾ وأمروا بقوله و﴿ غَيْرِ ﴾ نعت للقول وصرح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها تحقيقاً للمخالفة وتنصيصاً على المغايرة من كل وجه ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ﴾ إثر ما فعلوا ما فعلوا من غير تأخير ﴿ رِجْزًا مّنَ السماء ﴾ عذاباً كائناً منها وهو الطاعون في رواية .

﴿ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق ، وهذا بمعنى ما في البقرة لأن ضمير عليهم للذين ظلموا والإرسال من فوق إنزال ، والتصريح بهذا التعليل لما أن الحكم هنا مرتب على المضمر دون الموصول بالظلم كما في البقرة ، وأما التعليل بالفسق بعد الإشعار بعلية الظلم هناك فللإيذان بأن ذلك فسق وخروج عن الطاعة وغلو في الظلم وأن تعذيبهم بجميع ما ارتكبوا من القبائح كما قيل وقال القطب في وجه المغايرة : إن الإرسال مشعر بالكثرة بخلاف الإنزال فكأنه أنزل العذاب القليل ثم جعل كثيراً وإن الفائدة في ذكر

الظلم والفسق في الموضعين الدلالة على حصولهما فيهم معاً ، وقد تقدم لك في وجوه المغايرة بين آية البقرة وهذه الآية ما ينفعك تذكره فتذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(118/293)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

بَيَّنَ تَعَالَى فِي الِاسْتِطْرَادِ الْخَاصِّ بِنُبُوَّةِ خَاتَمِ الرُّسُلِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كِتَابَةِ رَحْمَتِهِ لِلَّذِينَ يَتْبَعُونَهُ مِنْ قَوْمِ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَقَالَ فِي مُتَّبِعِيهِ : أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَيْ : دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ بَعْدَ بَعْثَتِهِ وَبُلُوغِ دَعْوَتِهِ . وَذَلِكَ لَا يُنَافِي كَوْنَ الْمُتَّبِعِينَ لِمُوسَى حَقَّ الِاتِّبَاعِ قَبْلَ بَعْثَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى هُدًى وَحَقٍّ وَعَدْلٍ ، وَأَنَّهُمْ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ، فَإِنَّ مَا أَفَادَتْهُ جُمْلَةُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ مِنَ الْحَصْرِ إِضَافِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا ، وَبَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الْآيَةِ ; وَلِذَلِكَ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ فِي هَذَا الْآيَةِ حَالَ خَوَاصِّ

أَتْبَاعِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِينَ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لَهُ حَقَّ الِاتِّبَاعِ ، عَاطِفًا إِيَّاهُمْ عَلَى الْمُهْتَدِينَ بِاتِّبَاعِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : .

(119/293)

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ أَيْ : وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى (أَيْضًا) جَمَاعَةٌ عَظِيمَةٌ يَهْدُونَ النَّاسَ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَعْدِلُونَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِ إِذَا حَكَمُوا بَيْنَ النَّاسِ ، لَا يَتَّبِعُونَ فِيهِ الْهَوَى ، وَلَا يَأْكُلُونَ السُّحْتَ وَالرِّشَى . فَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ أَنَّ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ كَانُوا فِي عَصْرِهِ وَبَعْدَ عَصْرِهِ حَتَّى بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ ضَيَاعِ أَصْلِ التَّوْرَاةِ ثُمَّ وُجُودِ النُّسْخَةِ الْمُحَرَّفَةِ بَعْدَ السَّبْيِ ، فَإِنَّ الْأُمَمَ الْعَظِيمَةَ لَا تَخْلُو مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ . وَهَذَا مِنْ بَيَانِ الْقُرْآنِ لِلْحَقَائِقِ ، وَعَدْلِهِ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْأُمَمِ ، كَقَوْلِهِ : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا (3 : 75) وَقِيلَ فِي وَجْهِ التَّنَاسُبِ وَالِاتِّصَالِ : إِنَّهُ ذَكَرَ هَؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِهِ فِي مُقَابِلِ مُتَّخِذِي الْعِجْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا بَعْضَ قَوْمِهِ لَا كُلَّهُمْ ، وَهُوَ جَائِزٌ عَلَى بُعْدٍ يُقَدَّرُ بِقَدْرِ بُعْدِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ قِصَّةِ الْعِجْلِ ، وَمَا قُلْنَاهُ أَظْهَرُ .

(120/293)

(فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ قَوْلَهُ : "يَهْدُونَ وَيَعْدِلُونَ" لِلْحَالِ الْمُفِيدِ الِاسْتِمْرَارَ (قُلْنَا) : إِنَّ أَمْثَالَهُ مِمَّا حَكَى فِيهِ حَالَ الْغَابِرِينَ وَحْدَهُمْ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ كَثِيرٌ ، وَوَجْهُهُ أَنَّ التَّعْبِيرَ لِتَصْوِيرِ الْمَاضِي فِي صُورَةِ الْحَاضِرِ ، وَمَا هُنَا يَشْمَلُ أَهْلَ الْحَقِّ مِنْ قَوْمِ مُوسَى إلَى زَمَنِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ مِمَّنْ لَمْ تَكُنْ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا كُلَّمَا بَلَغَتْ أَحَدًا مِنْهُمُ الدَّعْوَةُ قَبْلَهَا وَأَسْلَمَ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي وَصْفِهِمْ آيَاتٌ صَرِيحَةٌ وَحَمَلَ بَعْضُهُمْ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي نُفَسِّرُهَا عَلَيْهِمْ وَحْدَهُمْ .

(121/293)

قَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَؤُلَاءِ الْأُمَّةِ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَضْرَابِهِ . وَنَقُولُ : إِنَّهُ نَزَلَ فِي هَؤُلَاءِ آيَاتٌ صَرِيحَةٌ كَقَوْلِهِ فِي آخِرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ (3 : 199) وَهَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا لَيْسَتْ صَرِيحَةً فِي هَذَا ، بَلِ السِّيَاقِ يُنَافِيهِ ؛ لِأَنَّهَا جَاءَتْ بَعْدَ بَيَانِ حَالِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَالْمُتَبَادَرُ فِيهَا أَنَّهَا فِي خَوَاصِّ قَوْمِ مُوسَى فِي عَهْدِ مُوسَى ، وَبَعْدَ عَهْدِهِ وَمِنْهُمُ النَّبِيُّونَ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْقُضَاةُ الْعَادِلُونَ

، كَمَا يُعْلَمُ بِالْقَطْعِ مِنْ آيَاتٍ أُخْرَى . فَالْآيَاتُ فِي الْخِيَارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ : (1) الصَّرِيحَةُ فِي الَّذِينَ أَدْرَكُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَآمَنُوا قَبْلَ إِيمَانِهِمْ أَوْ بَعْدَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ (2 : 121) وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ إِلَى قَوْلِهِ : أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ

(28 : 52 - 54) الْآيَاتِ وَمِثْلُهُنَّ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَالرَّعْدِ وَالْإِسْرَاءِ وَالْقَصَصِ وَالْعَنْكَبُوتِ إِلَخْ .

(122/293)

---

(2) الصَّرِيحَةُ فِي الَّذِينَ كَانُوا فِي عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاسْتَقَامُوا مَعَهُ ، ثُمَّ فِي عَهْدِ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ إِلَى عَهْدِ الْبِعْثَةِ الْعَامَّةِ قَبْلَ بُلُوغِ دَعْوَتِهَا كَالْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا . (3) الْمُحْتَمِلَةُ لِلْقِسْمَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ (3 : 113 - 115) إِلَخْ فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهُنَّ [فِي ص58 - 61 ج4 ط الْهَيْئَةِ] .

وَفِي تَفْسِيرِ الْأُمَّةِ هُنَا خُرَافَاتٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ ذَكَرَ بَعْضَهَا ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ قَالَ : بَلَغَنِي كَذَا ، وَذَكَرَ أَنَّ سِبْطًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَارُوا فِي نَفَقٍ مِنَ الْأَرْضِ فَخَرَجُوا مِنْ وَرَاءِ

الصِّينِ إلخْ ، وَذَكَرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يُؤَيِّدُ هَذَا بِدُونِ سَنَدٍ . وَابْنُ جُرَيْجٍ عَلَى سِعَةِ عِلْمِهِ وَرِوَايَتِهِ وَعِبَادَتِهِ شَرُّ الْمُدَلِّسِينَ تَدْلِيسًا ؛ لِأَنَّهُ لَا يُدَلِّسُ عَنْ ثِقَةٍ ، وَأَئِمَّةُ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ لَا يَعْتَدُّونَ بِشَيْءٍ يَرْوُونَهُ بِغَيْرِ تَحْدِيثٍ ، وَنَقَلَ هَذِهِ الْخُرَافَةَ كَثِيرُونَ ، وَزَادُوا فِيهَا مَا عَزَوْهُ إلَى غَيْرِهِ أَيْضًا وَبَحَثُوا فِيهَا مَبَاحِثَ ، وَلَا يَسْتَحِقُّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُحْكَى .

(123/293)

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ هَذَا سِيَاقٌ آخَرُ مِنْ أَخْبَارِ قَوْمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عُطِفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ لِمُشَارَكَتِهِ إيَّاهُ فِي كُلِّ مَا يَقْصِدُ بِهِ مِنَ الْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ . قَالَ تَعَالَى : .

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا أَيْ : وَفَرَّقْنَا قَوْمَ مُوسَى الَّذِينَ كَانَ مِنْهُمْ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ، وَمِنْهُمُ الظَّالِمُونَ وَالْفَاسِقُونَ كَمَا سَيَأْتِي بَعْدَ بِضْعِ آيَاتٍ – قَطَّعْنَاهُمْ فَجَعَلْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قِطْعَةً ، أَيْ فِرْقَةً تُسَمَّى أَسْبَاطًا ، أَيْ أُمَمًا وَجَمَاعَاتٍ يَمْتَازُ كُلُّ مِنْهَا بِنِظَامٍ خَاصٍّ فِي مَعِيشَتِهِ وَبَعْضِ شُئُونِهِ كَمَا يَأْتِي قَرِيبًا فِي مُشَارِبِ مَائِهِمْ . وَالْمَشْهُورُ

مِنْ مَعْنَى السِّبْطِ - بِكَسْرِ السِّينِ - أَنَّهُ وَلَدُ الْمَوْلُدِ

مُطْلَقًا ، وَقَدْ يُخَصُّ بِوَلَدِ الْبِنْتِ . وَأَسْبَاطُ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَلَائِلُ أَوْلَادِهِ الْعَشَرَةِ -

(124/293)

أَيْ مَا عَدَا لَاوِي - وَسَلَائِلُ وَلَدَيْ ابْنِهِ يُوسُفَ وَهُمَا (إفرايم ومنسى) وَأَمَّا سُلَالَةُ لَاوِي

فَنِيطَتْ بِهَا خِدْمَةُ الدِّينِ فِي جَمِيعِ الْأَسْبَاطِ ، وَلَمْ تَجْعَلْ سِبْطًا مُسْتَقِلًّا . وَقَدْ تَقَدَّمَ

تَفْصِيلُ ذَلِكَ فَالْأَسْبَاطُ بَيَانٌ لِلْفِرَقِ وَالْقِطَعِ الَّتِي هِيَ أَقْسَامُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّهَا سُمِّيَتْ

بِذَلِكَ ، كَمَا سُمِّيَتِ الْفِرَقُ فِي الْعَرَبِ بِالْقَبَائِلِ ، وَالْأُمَمُ بَيَانٌ لِلْمُرَادِ مِنْ مَعْنَى الْأَسْبَاطِ

الِاصْطِلَاحِيِّ . وَالْأُمَّةُ الْجَمَاعَةُ الَّتِي تُؤَلِّفُ بَيْنَ أَفْرَادِهَا رَابِطَةٌ أَوْ مَصْلَحَةٌ وَاحِدَةٌ أَوْ نِظَامٌ

وَاحِدٌ وَتَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ أَيْضًا .

(125/293)

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا

عَشْرَةَ عَيْنًا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِثْلُ هَذَا مَعَ تَفْسِيرِهِ وَهُوَ : وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ

فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا (2 : 60) فَأَفَادَ مَا هُنَا أَنَّ قَوْمَهُ اسْتَسْقَوْهُ ، وَمَا هُنَاكَ أَنَّهُ اسْتَسْقَى رَبَّهُ لِقَوْمِهِ ، وَكِلَاهُمَا قَدْ حَصَلَ . وَالِاسْتِسْقَاءُ طَلَبُ الْمَاءِ لِلسُّقْيَا ، وَتَعْرِيفُ الْحَجَرِ فِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ الْمَكِّيَّةِ (الْأَعْرَافِ) وَالْمَدَنِيَّةِ (الْبَقَرَةِ) لِتَعْظِيمِ جُرْمِهِ ، وَقَدْ عُبِّرَ عَنْهُ فِي التَّوْرَاةِ بِالصَّخْرِ - أَوْ تَعْظِيمِ شَأْنِهِ ، أَوْ كِلَيْهِمَا ، وَكِلَاهُمَا عَظِيمٌ ، وَقَدْ يَكُونُ لِلْعَهْدِ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ عِبَارَةُ التَّوْرَاةِ ، إذْ عَيَّنَتْ مَكَانَهُ مِنْ جَبَلِ حوريت . وَالِانْبِجَاسُ وَالِانْفِجَارُ وَاحِدٌ يُقَالُ : بَجَسَهُ أَيْ فَتَحَهُ فَانْبَجَسَ وَبَجَّسَهُ (بِالتَّشْدِيدِ) فَتَبَجَّسَ ، كَمَا يُقَالُ : فَجَّرَهُ (كَنَصَرَهُ) إذَا شَقَّهُ فَانْفَجَرَ وَفَجَّرَهُ (بِالتَّشْدِيدِ) فَتَفَجَّرَ - وَزَعَمَ الطَّبَرْسِيُّ أَنَّ الِانْبِجَاسَ خُرُوجُ الْمَاءِ بِقِلَّةٍ ، وَالِانْفِجَارَ خُرُوجُهُ بِكَثْرَةٍ ، وَأَنَّهُ عَبَّرَ بِهِمَا ؛ لِإِفَادَةِ أَنَّهُ خَرَجَ أَوَّلًا قَلِيلًا ثُمَّ كَثُرَ . وَأَدَقُّ مِنْهُ قَوْلُ الرَّاغِبِ : الِانْبِجَاسُ أَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِيمَا يَخْرُجُ مِنْ شَيْءٍ ضَيِّقٍ ، وَالِانْفِجَارُ يُسْتَعْمَلُ فِيهِ ، وَفِيمَا يَخْرُجُ مِنْ شَيْءٍ وَاسِعٍ ، فَاسْتَعْمَلَ حَيْثُ ضَاقَ الْمَخْرَجُ اللَّفْظَانِ - أَيْ وَهُوَ حَجَرُ مُوسَى .

(126/293)

وَقَالَ : وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (18 : 33) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا (54 : 12) وَلَمْ يَقُلْ بَجَّسْنَا اهـ .

أَقُولُ : وَلَكِنَّ رُوَاةَ اللُّغَةِ فَسَّرُوا أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ ، وَذَكَرُوا مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَيْهِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْكَثْرَةِ . قَالَ فِي اللِّسَانِ : الْبَجْسُ انْشِقَاقٌ فِي قِرْبَةٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ أَرْضٍ يَنْبُعُ مِنْهُ الْمَاءُ فَإِنْ لَمْ يَنْبُعْ فَلَيْسَ بِانْبِجَاسٍ وَأَنْشَدَ

وَكَيْفَ غَرَبِي دَالِجٍ تَبَجَّسَا

وَالسَّحَابُ يَتَبَجَّسُ بِالْمَطَرِ وَالِانْبِجَاسُ عَامٌّ ، وَالنُّبُوعُ لِلْعَيْنِ خَاصَّةً ، وَبَجَسْتُ الْمَاءَ فَانْبَجَسَ أَيْ فَجَّرْتُهُ فَانْفَجَرَ ، وَبَجَّسَ بِنَفْسِهِ يُبَجِّسُ ، يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى . وَسَحَابٌ بَجِسٌ ، وَتَبَجَّسَ أَيِ انْفَجَرَ اهـ . وَفِي الْأَسَاسِ : انْبَجَسَ الْمَاءُ مِنَ السَّحَابِ وَالْعَيْنِ : انْفَجَرَ وَتَبَجَّسَ تَفَجَّرَ إِلَخْ . . . وَسَحَابٌ بَجِسٌ وَبَجَّسَهَا اللَّهُ . قَالَ ابْنُ مُقْبِلٍ :

لَهُ قَائِدٌ دُهْمُ الرَّبَابِ خَلْفَهُ . . . رَوَايَا يُبَجِّسْنَ الْغَمَامَ الْكَنَهْوَرَا

(127/293)

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى : وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى حِينَ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ فَاسْتَسْقَى رَبَّهُ لَهُمْ (كَمَا فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ) بِأَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَضَرَبَهُ فَنَبَعَتْ مِنْهُ عَقِبَ ضَرْبِهِ إِيَّاهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا مِنَ الْمَاءِ بِعَدَدِ أَسْبَاطِهِمْ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ أَيْ : قَدْ عَرَفَ أُنَاسُ كُلِّ سِبْطٍ الْمَكَانَ الَّذِي يَشْرَبُونَ مِنْهُ إِذْ خُصَّ كُلٌّ مِنْهُمْ لَا يَأْخُذُ الْمَاءَ إِلَّا مِنْهَا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ النِّظَامِ ، وَاتِّقَاءِ ضَرَرِ

الزِّحَامِ . وَفِي أَوَّلِ سِفْرِ الْعَدَدِ مِنَ التَّوْرَاةِ : أَنَّ عَدَدَ الرِّجَالِ الصَّالِحِينَ لِلْحَرْبِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يَزِيدُ عَلَى سِتِّمِائَةِ أَلْفٍ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ فَمَا فَوْقَهُ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ عَدَدُ الْجَمِيعِ رِجَالًا وَنِسَاءً وَأَطْفَالًا لَا يَقِلُّ عَنْ أَلْفَيْ أَلْفٍ (مِلْيُونَيْنِ) وَلِلْمُؤَرِّخِ النَّقَّادِ الْحَكِيمِ ابْنِ خَلْدُونَ تَشْكِيكٌ مَعْرُوفٌ فِيمَا قَالَهُ الْمُؤَرِّخُونَ تَبَعًا لِلتَّوْرَاةِ فِي كَثْرَةِ هَذَا الْعَدَدِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ ، فَصَّلَهَا فِي أَوَّلِ مُقَدِّمَةِ تَارِيخِهِ ، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ الشَّكُّ فِي أَنَّهُمْ كَانُوا أُلُوفًا كَثِيرَةً أَوْ عَشَرَاتِ الْأُلُوفِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي سَيْنَاءَ مَوَارِدُ لِلْمَاءِ غَيْرَ تِلْكَ الْعُيُونِ الَّتِي انْفَجَرَتْ مِنْ صَخْرٍ فِي جَبَلِ (حوريت) مُتَّصِلٍ بِهِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مِسَاحَةُ ذَلِكَ الصَّخْرِ وَاسِعَةً جِدًّا ، وَأَنْ يَكُونَ السَّهْلُ أَمَامَهُ أَفْسَحَ لِيَسَعَ الْأُلُوفَ مِنَ الْأَسْبَاطِ يَرِدُونَ وَيُصْدِرُونَ . وَقَدِ اخْتَلَفَ

(128/293)

عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي مَدْلُولِ لَفْظِ (حوريت) الَّذِي أَمَرَ اللهُ مُوسَى أَنْ يَذْهَبَ إِلَى صَخْرٍ فِيهِ فَيَجِدُهُ – أَيِّ الرَّبَّ – عِنْدَهُ أَوْ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ فَيَنْفَجِرَ مِنْهُ الْمَاءُ ، هَلْ هُوَ جَبَلُ سَيْنَاءَ نَفْسُهُ ؟ أَمْ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ عُمُومٌ وَخُصُوصٌ ؟ – وَيَزْعُمُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ الصَّخْرُ الْمَذْكُورُ فِي الْوَادِي الَّذِي يُسَمَّى (وَادِي اللجَاءِ) وَيُعَيِّنُ بَعْضُ الرُّهْبَانِ مَكَانَهُ ، وَلَا يَعْنِينَا شَيْءٌ مِمَّا ذُكِرَ إِلَّا أَنَّنَا نَجْزِمُ بِأَنَّ مَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ عِنْدَنَا مِنْ صِفَةِ ذَلِكَ الْحَجَرِ وَحَجْمِهِ

وَشَكْلِهِ كَكَوْنِهِ كَرَأْسِ الشَّاةِ أَوْ أَكْبَرَ ، وَكَوْنِهِ يُوضَعُ فِي الْجَوَالِقِ أَوْ يُحْمَلُ عَلَى ثَوْرٍ أَوْ حِمَارٍ - كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْخُرَافَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الَّتِي كَانُوا يَتَلَقَّوْنَهَا بِالْقَبُولِ أَيُّهَا أَغْرَبُ . وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ كَثِيرٍ عَلَى احْتِرَامِهِ كَثِيرًا مِنْهَا .

(129/293)

وَفِي عَرَائِسِ الْمَجَالِسِ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّ مُوسَى كَانَ يَقْرَعُ لَهُمْ أَقْرَبَ حَجَرٍ فَتَنْفَجِرُ مِنْهُ عُيُونٌ . . . فَقَالُوا إِنْ فَقَدَ مُوسَى عَصَاهُ مِتْنَا عَطَشًا ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بِأَنْ يُكَلِّمَ الْحِجَارَةَ فَتُعْطِيَهُ ، فَقَالُوا : كَيْفَ بِنَا إِذَا مَضَيْنَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا حِجَارَةٌ ؟ فَأَمَرَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ حَجَرًا فَحَيْثُمَا نَزَلَ أَلْقَاهُ ! إلخ . وَهَذَا مِنَ الْخُرَافَاتِ الَّتِي اخْتَلَقَهَا وَهْبٌ ، لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ عِنْدَ الْيَهُودِ وَلَا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَوْلَا جُنُونُ الرُّوَاةِ بِكُلِّ مَا يُقَالُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَا قَبِلُوا مِنْ مِثْلِهِ أَنْ يَشْرَبَ مِئَاتُ الْأُلُوفِ أَوِ الْمَلَايِينِ مِنْ حَجَرٍ صَغِيرٍ يُحْمَلُ ، كَمَا قَبِلُوا مِنْ مَزَاعِمِهِ

أَنَّ رَأْسَ الرَّجُلِ مِنْ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ كَالْقُبَّةِ الْعَظِيمَةِ ! ! وَقَدْ عَدُّوهُ مَعَ أَمْثَالِ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ ثِقَةً فِي الرِّوَايَةِ ! .

وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ الْغَمَامُ : السَّحَابُ أَوِ الْأَبْيَضُ أَوِ الرَّقِيقُ مِنْهُ ، أَيْ وَسَخَّرْنَا لَهُمُ الْغَمَامَ

يُلْقِي عَلَيْهِمْ ظِلَّهُ فَيَقِيهِمْ لَفْحَ حَرَارَةِ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ لَا يُحْرَمُونَ فَائِدَةَ نُورِهَا وَحَرِّهَا الْمُعْتَدِلِ ، وَتُسَمَّى السَّحَابَةُ ظُلَّةً بِالضَّمِّ كَكُلِّ مَا أَظَلَّكَ مِنْ فَوْقُ . وَلَوْلَا كَثْرَةُ السَّحَابِ فِي التِّيهِ لَأَحْرَقَتْهُمُ الشَّمْسُ إِذْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ شَجَرٌ يَسْتَظِلُّونَ بِهِ .

(130/293)

وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى الْمَنُّ مَادَّةٌ بَيْضَاءُ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ (الْجَوِّ) كَالطَّلِّ حُلْوَةُ الطَّعْمِ تُشْبِهُ الْعَسَلَ ، وَإِذَا جَفَّتْ تَكُونُ كَالصَّمْغِ ، وَقَدْ كَثُرَ نُزُولُهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التِّيهِ ، وَهُوَ مَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِأَنَّ طَعْمَهُ كَطَعْمِ قَطَائِفَ بِالزَّيْتِ ، وَمَنْظَرُهُ

(131/293)

كَمَنْظَرِ الْمُقَلِ ، وَعُبِّرَ عَنْهُ فِيهَا بِخُبْزِ السَّمَاءِ . وَقَدْ كَانَ يَقُومُ مَقَامَ الْخُبْزِ . وَيَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّهُ هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْأَطِبَّاءِ بِالتَّرَنْجَبِينِ . وَقَالَ : (الدُّكْتُورُ بُوسْتُ) فِي قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ : لَا يَجُوزُ أَنْ يُشْتَبَهَ بَيْنَ هَذَا الْمَنِّ ، وَالْمَنِّ الطِّبِّيِّ الَّذِي هُوَ عَصِيرٌ مُنْعَقِدٌ مِنْ شَجَرَةِ الدَّرْدَارِ – وَلَا هُوَ أَيْضًا الْمَنُّ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْ شَجَرَةِ الطَّرْفَاءِ . وَعَلَّلَ

ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (1) إِنَّ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ لَمْ يَرَوْهُ قَبْلَ رِحْلَتِهِمْ . (2) لَا يُوجَدُ الْمَنُّ الْعَرَبِيُّ إِلَّا تَحْتَ الطَّرْفَاءِ وَفِي أَوَّلِ الصَّيْفِ فَقَطْ . (3) يُمْكِنُ حِفْظُهُ مُدَّةً طَوِيلَةً وَلَا يُدَوِّدُ . (4) لَا يُمْكِنُ طَحْنُهُ أَوْ دَقُّهُ . (5) يَتَكَوَّنُ الْمَنُّ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ مُدَّةَ الْفَصْلِ اهـ . وَفِي قَوْلِهِ نَظَرٌ لَا حَاجَةَ إِلَى شَرْحِهِ ، وَهُوَ يُرِيدُ بِهِ إِثْبَاتَ مَا قَالَهُ مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَنَّ كَانَ " عَجِيبَةً " أَيْ مُعْجِزَةً أَوْ كَرَامَةً لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ مَا آتَى اللَّهُ كَلِيمَهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ عَلَى قَوْمِهِ لِإِصْلَاحِهِمْ . وَقَدْ كَانَ أَفْسَدَهُمُ اسْتِعْبَادُ الْمِصْرِيِّينَ لَهُمْ ، وَيَكْفِي أَنْ تَكُونَ الْمُعْجِزَةُ فِي نُزُولِهَا بِتِلْكَ الْكَثْرَةِ الَّتِي كَانَتْ تَكْفِي تِلْكَ الْأُلُوفَ ، وَتَقُومُ عِنْدَهُمْ مَقَامَ الْخُبْزِ كَمَا اعْتَرَفَ بِهِ هُوَ فِي (السَّلْوَى) فَقَدْ وَافَقَ غَيْرَهُ فِي أَنَّهَا هِيَ طَيْرُ السِّمَّانِ الْمَعْرُوفِ وَقَالَ : إِنَّهَا كَانَتْ تُهَاجِرُ مِنْ أَفْرِيقِيَّةَ

(132/293)

(وَلَا سِيَّمَا مِصْرُ) فَتَصِلُ إِلَى سَيْنَاءَ تَعِبَةً فَتَقَعُ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ تَسِفُّ فَتُؤْخَذُ بِالْيَدِ . وَقِيلَ : طَيْرٌ تُشْبِهُ السِّمَانَ وَلَكِنَّهَا أَكْبَرُ مِنْهَا .

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ هُنَا قَوْلٌ مُقَدَّرٌ يَكْثُرُ مِثْلُهُ فِي التَّنْزِيلِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ ، أَيْ وَقُلْنَا لَهُمْ - أَوْ أُنْزِلَنَا مَا ذُكِرَ عَلَيْهِمْ قَائِلِينَ : كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، فَوُضِعَ هَذَا الْوَصْفُ لِلْمَنِّ

وَالسَّلْوَى مَوْضِعَ الضَّمِيرِ ; لِتَعْظِيمِ شَأْنِ الْمِنَّةِ بِهِمَا . وَإِسْنَادُ الرِّزْقِ إِلَى ضَمِيرِ جَمْعِ الْعَظَمَةِ تَأْكِيدٌ لِلتَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ بِمَا يَجِبُ مِنْ شُكْرِهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ . وَيُقَدَّرُ مِثْلُ هَذَا فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ الْمَدَنِيَّةِ ، وَإِنْ كَانَتْ خِطَابًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُجَاوِرِينَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمَدِينَةِ وَلِمَنْ بَلَغَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَإِنَّ الْخِطَابَ لَهُمْ هُنَالِكَ إِنَّمَا كَانَ بِمَا وَقَعَ لِأَجْدَادِهِمْ ، فَهُوَ بِمَعْنَى الْحِكَايَةِ فِي آيَةِ

الْأَعْرَافِ إِلَّا أَنَّ الْكَلَامَ هُنَا كَانَ مُوَجَّهًا أَوَّلًا إِلَى الْمُشْرِكِينَ ; لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ ; وَلِذَلِكَ اتَّحَدَ عَجُزُ الْآيَةِ فِي السُّورَتَيْنِ وَهُوَ : .

(133/293)

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ أَيْ وَمَا ظَلَمُونَا بِكُفْرِهِمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ ، وَلَكِنْ كَانَ دَأْبُهُمْ ظُلْمَ أَنْفُسِهِمْ دُونَ رَبِّهِمُ الَّذِي لَا يَنَالُهُ تَأْثِيرُ أَحَدٍ بِظُلْمٍ وَلَا غَيْرِهِ ، فَكَانُوا يَجْنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِكُفْرِ النِّعَمِ وَالْجُحُودِ وَغَيْرِهِمَا آنًا بَعْدَ آنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي الْقُرْآنِ بِالْإِجْمَالِ ، وَفِي التَّوْرَاةِ بِالتَّفْصِيلِ . فَتَقْدِيمُ أَنْفُسِهِمْ عَلَى يَظْلِمُونَ الْمُفِيدُ لِقَصْرِ ظُلْمِهِمْ عَلَيْهَا إِنَّمَا هُوَ لِبَيَانِ أَنْ كُفْرَهُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى يَضُرُّهُمْ وَلَا يَضُرُّهُ تَعَالَى كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ الطَّوِيلِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا "يَا عِبَادِي إِنِّي

حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَّالَمُوا " . (وَمِنْهُ) "يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي " وَلَا يَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْقَصْرِ أَنَّهُمْ لَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ أَحَدٌ مِنَ النَّبِيِّ فَيَنْفِي عَنْهُمْ ظُلْمَهُ ، وَلَمَّا اتَّصَلُوا بِالنَّاسِ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْهُ كَانَ مِنْهُمُ الْعَادِلُونَ وَمِنْهُمُ الظَّالِمُونَ ، وَمَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ كَانَ لِغَيْرِهِ أَظْلَمَ . وَإِنْ كَانَ ظُلْمُهُ لِنَفْسِهِ مِمَّا يَجْهَلُ أَنَّهُ ظُلْمٌ لَهَا ; لِأَنَّهُ يَتَجَلَّى لَهُ فِي صُورَةِ الْمَنْفَعَةِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ عَاقِبَتُهُ الْمَضَرَّةَ ، وَهَكَذَا شَأْنُ جَمِيعِ الظَّالِمِينَ وَالْمُجْرِمِينَ . يَنُوءُونَ بِظُلْمِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ

(134/293)

نَفْعَ أَنْفُسِهِمْ جَهَالَةً مِنْهُمْ . وَلَا يَزَالُ طَوَائِفُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقْدِمُونَ عَلَى ضُرُوبٍ مِنْ ظُلْمِ النَّاسِ يَقْصِدُونَ بِهَا نَفْعَ أَنْفُسِهِمْ وَقَوْمِهِمْ ، وَهِيَ تُنْذِرُ بِخَطَرٍ كَبِيرٍ ، وَشَرٍّ مُسْتَطِيرٍ ، كَالْفِتْنَةِ الَّتِي أَثَارُوهَا فِي بِلَادِ الرُّوسِيَّةِ بِتَعَالِيمِ الِاشْتِرَاكِيَّةِ الْمُسْرِفَةِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالْبَلْشَفِيَّةِ ، وَمُحَاوَلَةِ انْتِزَاعِ فِلَسْطِينَ مِنَ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَهَذَا مِمَّا يَدْخُلُ فِي مَضْمُونِ التَّمَادِي وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى الظُّلْمِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِجُمْلَةِ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ إِذْ هِيَ تُفِيدُ أَنَّ هَذَا صَارَ دَأْبًا وَعَادَةً لَهُمْ .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا

نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ

تَقَدَّمَ مِثْلُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَبَيْنَ مَا هُنَا وَمَا هُنَالِكَ فُرُوقٌ فِي التَّعْبِيرِ نُبَيِّنُهَا هُنَا فَنَقُولُ : .

(135/293)

(1 ، 2) قَالَ تَعَالَى هُنَا : وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ لِأَنَّ الْقِصَّةَ خِطَابٌ وُجِّهَ أَوَّلًا إلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَالْحِكَايَةُ فِيهِ عَنْ بَنِي إسْرَائِيلَ حِكَايَةٌ عَنْ غَائِبٍ ، وَالْأَصْلُ أَنْ يَذْكُرَ ضَمِيرُهُ فِيهِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : (لَهُمْ) وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : وَإِذْ قُلْنَا (2 : 58) وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ ; إذْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْقَائِلَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقَدْ رُوعِيَ هُنَالِكَ السِّيَاقُ ، وَفِي خِطَابِ بَنِي إسْرَائِيلَ إذْ قَبْلَهَا : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ (2 : 50) ، وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى . . . . (2 : 51) فَنَاسَبَ أَنْ يَقُولَ : وَإِذْ قُلْنَا وَلَمْ يَقُلْ فِيهَا " لَكُمْ " كَمَا قَالَ هُنَا : (لَهُمْ) ; لِأَنَّ الْقَوْلَ كَانَ لِأَجْدَادِ الْمُخَاطَبِينَ مِنْ أُلُوفِ السِّنِينَ لَا لَهُمْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَمْ يَقُلْ : " لَهُمْ " أَيْضًا ; لِأَنَّ السِّيَاقَ لَمْ يَكُنْ حِكَايَةً عَنْ غَائِبٍ مَجْهُولٍ يَحْتَاجُ إلَى تَعْيِينِهِ ، بَلْ هُوَ تَذْكِيرُ الْخَلَفِ بِمَا تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ مِنْ شُئُونِ السَّلَفِ ; لِأَنَّهُمْ وَارِثُو أَخْلَاقِهِمْ وَغَرَائِزِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ ، فَهُوَ إذَنْ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْخَلَفِ الْحَاضِرِ وَالسَّلَفِ الْغَابِرِ ،

وَزِيَادَةُ " لَهُمْ " تَلْصِقُهُ بِالْغَائِبِ وَحْدَهُ فَتَكُونُ حِكَايَتُهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ كَحِكَايَتِهِ لِعَرَبِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ ، فَتَأَمَّلْ ! .

(136/293)

---

(3) قَالَ هَاهُنَا : اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (ادْخُلُوا) وَالْفَائِدَةُ هَاهُنَا أَتَمُّ ; لِأَنَّ السُّكْنَى تَسْتَلْزِمُ الدُّخُولَ وَلَا عَكْسَ . وَتَظْهَرُ فَائِدَةُ اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِي الْفِعْلَيْنِ بِمَا يَلِيهَا مِنَ الْعَطْفِ عَلَيْهِمَا وَهُوَ : .

(4 ، 5) قَالَ هَاهُنَا : وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا (2 : 58) فَعَطَفَ الْأَمْرَ بِالْأَكْلِ هُنَالِكَ بِـ " الْفَاءِ " ; لِأَنَّهُ بَدْءُهُ يَكُونُ عَقِبَ الدُّخُولِ كَأَكْلِ الْفَوَاكِهِ وَالثَّمَرَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُوجَدُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنَ الْقَرْيَةِ - وَالسُّكْنَى أَمْرٌ مُمْتَدٌّ يَكُونُ الْأَكْلُ فِي أَثْنَائِهِ لَا عَقِبَهُ ، بَلْ لَا يُقَالُ عَقِبَ السُّكْنَى إِلَّا فِيمَنْ يَتْرُكُ هَذِهِ السُّكْنَى ; وَلِذَلِكَ عُطِفَ عَلَيْهِ هُنَا بِـ " الْوَاوِ " الَّتِي تُفِيدُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ مُطْلَقًا بِلَا مُلَاحَظَةِ تَرْتِيبٍ وَلَا تَعْقِيبٍ ، وَقَدْ وُصِفَ هُنَالِكَ الْأَكْلُ بِالرَّغَدِ وَهُوَ الْوَاسِعُ الْهَنِيُّ ، وَالتَّبْشِيرُ بِهِ يُنَاسِبُ حَالَ الدُّخُولِ ، إِذِ الْأَمْرُ لَدَى الدَّاخِلِ مَجْهُولٌ .

(6) قَالَ هَاهُنَا : وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقَدَّمَ هُنَالِكَ مَا أَخَّرَ

(137/293)

هُنَا ، وَأَخَّرَ مَا قَدَّمَهُ أَيْ فِي الذِّكْرِ ، وَهُوَ لَا يَدُلُّ عَلَى طَلَبِ تَرْتِيبٍ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ فِيهِ بِالْوَاوِ الدَّالَّةِ عَلَى طَلَبِ الْأَمْرَيْنِ مُطْلَقًا ، وَلَكِنْ لَوْ كَانَ التَّعْبِيرُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَاحِدًا لَفُهِمَ مِنْهُ أَنَّ الْمُقَدَّمَ فِي الذِّكْرِ أَرْجَحُ أَوْ أَهَمُّ وَلَوْ فِي الْجُمْلَةِ كَمَا هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي التَّقْدِيمِ لِذَاتِهِ . فَكَانَ الِاخْتِلَافُ دَالًّا عَلَى عَدَمِ الْفَرْقِ بَيْنَ تَقْدِيمِ هَذَا وَتَأْخِيرِ ذَلِكَ وَبَيْنَ عَكْسِهِ ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُمَا لَا يَقْتَضِي تَرْتِيبًا بَيْنَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ (حِطَّةٌ) وَهُوَ الدُّعَاءُ بِأَنْ تُحَطَّ عَنْهُمْ أَوْزَارُهُمْ وَخَطَايَاهُمْ كَقَوْلِكِ اللَّهُمَّ غُفْرًا وَبَيْنَ دُخُولِ بَابِ الْقَرْيَةِ فِي حَالِ التَّلَبُّسِ بِالتَّوَاضُعِ وَالْخُشُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى وَتَنْكِيسِ الرُّؤُوسِ شُكْرًا لِجَلَالِهِ عَلَى نَوَالِهِ ، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ الْأَعْظَمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ فَاتِحًا .

(138/293)

---

(7) قَالَ هَاهُنَا : نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ (تُغْفَرْ) بِالتَّاءِ وَالْفَاءِ الْمَفْتُوحَةِ وَرَفْعِ (خَطِيئَاتُكُمْ) وَهُوَ يُنَاسِبُ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ (نَغْفِرْ) بِالنُّونِ وَكَسْرِ

الْفَاءَ وَنَصْبِ " خَطِيئَاتِكُمْ " بِكَسْرِ تَائِهَا ، وَهُوَ يُنَاسِبُ مَا بَعْدَهُ ، وَهُوَ كَوْنُ " سَنَزِيدُ " لِلْمُتَكَلِّمِ الْمُعَظِّمِ . وَالْمَعْنَى فِيهِمَا وَاحِدٌ ؛ لِأَنَّ الْمُخَاطَبَ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَاحِدٌ . وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ (خَطِيئَتَكُمْ) بِالْإِفْرَادِ . وَهُوَ بِمَعْنَى الْجَمْعِ ؛ لِأَنَّهُ مُضَافٌ فَيُفِيدُ الْعُمُومَ ، وَلَعَلَّ فِيهِ إِشَارَةً إِلَى خَطِيئَةٍ خَاصَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ . وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو (خَطَايَاكُمْ) وَبِهَا قَرَأَ الْجُمْهُورُ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ ، مَعَ اخْتِلَافِهِمْ فِي فِعْلِ الْمَغْفِرَةِ كَمَا هُنَا . وَكِتَابَةُ الْكَلِمَتَيْنِ فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ تَحْتَمِلُ كُلَّ مَا ذُكِرَ فِي الْكَلِمَتَيْنِ ، وَفَائِدَةُ الِاخْتِلَافِ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ التَّوَسُّعُ فِي الْقِرَاءَةِ ، وَقَالَ الْقُطْبُ الشِّيرَازِيُّ : إِنَّ فَائِدَةَ الِاخْتِلَافِ بَيْنَ قِرَاءَتَيِ الْإِفْرَادِ وَالْجَمْعِ لِلْخَطِيئَةِ أَنَّ هَذِهِ الذُّنُوبَ تُغْفَرُ لَهُمْ إِذَا فَعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، سَوَاءٌ كَانَتْ قَلِيلَةً كَوَاحِدَةٍ أَوْ كَثِيرَةً .

(8) قَالَ هَاهُنَا : سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ بِدُونِ وَاوٍ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ ، وَهُوَ جَوَابُ سُؤَالٍ كَأَنَّهُ قِيلَ : وَمَاذَا بَعْدُ الْمَغْفِرَةِ ؟ أَيْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فِي عَمَلِهِمْ جَزَاءً حَسَنًا عَلَى

إِحْسَانِهِمْ ، وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : وَسَنَزِيدُ بِالْعَطْفِ . وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ . وَقَدْ يَكُونُ طَرْحُ الْوَاوِ أَدَلَّ عَلَى كَوْنِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ تَفَضُّلٌ مَحْضٌ لَيْسَ مُشَارِكًا لِلْمَغْفِرَةِ فِيمَا جَعَلَ سَبَبًا لَهَا مِنَ الْخُضُوعِ وَالسُّجُودِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالدُّعَاءِ بِحَطِّ الْأَوْزَارِ .

(9) قَالَ هَاهُنَا : فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ وَفِيهِ زِيَادَةُ (مِنْهُمْ) عَلَى مَثَلِهِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَسَبَبُهَا مَا تَقَدَّمَ نَظِيرُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ إِلَخْ . مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى ذِكْرِ ضَمِيرِ الْمَحْكِيِّ عَنْهُمْ لِرَبْطِ الْكَلَامِ ، وَهَذِهِ الْحَاجَةُ مُنْتَفِيَةٌ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَمَا عَلِمْتَ مِنَ الْفَرْقِ السَّابِعِ آنِفًا ، وَلَيْسَ لِزِيَادَةِ الْبَيَانِ كَمَا قِيلَ ، بَلْ هُوَ الْأَصْلُ هَاهُنَا ، وَلَا حَاجَةَ إِلَيْهِ هُنَالِكَ وَإِنْ كَانَ حِكَايَةً عَنِ الْغَائِبِينَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سِيَاقِ مُخَاطَبَةِ خَلَفِهِمُ الْحَاضِرِينَ .

وَأَمَّا مَعْنَى تَبْدِيلِهِمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ ، وَمُلَخَّصُهُ أَنَّهُمْ عَصَوْا بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، وَخَالَفُوا الْأَمْرَ مُخَالَفَةً تَامَّةً لَا تَحْتَمِلُ الِاجْتِهَادَ وَلَا التَّأَوُّلَ ، فَلَمْ يُرَاعُوا ظَاهِرَ مَدْلُولِ لَفْظِهِ ، وَلَا فَحْوَاهُ وَالْمَقْصِدَ مِنْهُ ، حَتَّى كَأَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ غَيْرُ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ، وَلَوْ قَالَ فَبَدَّلُوا قَوْلًا بِقَوْلٍ ، أَوْ فَبَدَّلُوا مَا قِيلَ لَهُمْ ، لَمْ يَدُلْ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى كُلِّهِ .

(140/293)

وَلَا ثِقَةَ لَنَا بِشَيْءٍ مِمَّا رُوِيَ فِي هَذَا التَّبْدِيلِ مِنْ أَلْفَاظٍ عِبْرَانِيَّةٍ وَلَا عَرَبِيَّةٍ ، فَكُلُّهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الْوَضْعِيَّةِ ، كَمَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هُنَالِكَ . وَإِنْ خَرَجَ بَعْضُهُ فِي الصَّحِيحِ وَالسُّنَنِ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا كَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَرْفُوعِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا " قِيلَ لِبَنِي

إِسْرَائِيلَ : وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا : حِطَّةٌ ، حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ : " وَفِي رِوَايَةِ " شُعَيْرَةٍ " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ السُّورَتَيْنِ مِنْ طَرِيقِ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَخِي وَهْبٍ ، وَهُمَا صَاحِبَا الْغَرَائِبِ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ . وَلَمْ يُصَرِّحْ أَبُو هُرَيْرَةَ بِسَمَاعِ هَذَا مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ إِذْ ثَبَتَ أَنَّهُ رُوِيَ عَنْهُ ، وَهَذَا مَدْرَكُ عَدَمِ اعْتِمَادِ الْأُسْتَاذِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مِثْلِ هَذَا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَإِنْ صَحَّ سَنَدُهُ ، وَلَكِنْ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي الصَّحِيحِ الْمَرْفُوعِ شَيْءٌ يَقْتَضِي الطَّعْنَ فِي سَنَدِهَا .

(10 - 12) قَالَ هَاهُنَا : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ وَقَالَ هُنَالِكَ : فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (2 : 59) فَالِاخْتِلَافُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : .

(141/293)

(أَوَّلُهَا) بَيْنَ الْإِرْسَالِ وَالْإِنْزَالِ وَهُوَ لَفْظِيٌّ إِذِ الْإِرْسَالُ مِنْ فَوْقِ عَيْنِ الْإِنْزَالِ : (ثَانِيهَا) بَيْنَ الْمُضْمَرِ (عَلَيْهِمْ) وَالْمُظْهَرِ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْمُرَادُ مِنْهُمَا أَنَّ ذَلِكَ الرِّجْزَ عَذَابٌ كَانَ خَاصًّا بِالَّذِينَ ظَلَمُوا لَا عَامًّا ، فَحَسُنَ أَنْ يَقُولَ فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ : " عَلَيْهِمْ " لِتَصْرِيحِهِ

بِسَبَبِيَّةِ الظُّلْمِ بَعْدَهُ ، وَلَوْ قَالَ " فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ " لَكَانَ تَكْرَارُ التَّعْلِيلِ بِالظُّلْمِ مُنَافِيًا لِلْبَلَاغَةِ ، وَهَذَا التَّكْرَارُ مُنْتَفٍ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ لِأَنَّ التَّعْلِيلَ فِيهَا بِالْفِسْقِ لَا الظُّلْمِ ؛ .

(ثَالِثُهَا) بَيْنَ (يَظْلِمُونَ) وَ (يَفْسُقُونَ) وَفَائِدَتِهِ : بَيَانُ أَنَّهُمْ كَانُوا جَامِعِينَ بَيْنَ الظُّلْمِ الَّذِي هُوَ نَقْصٌ لِلْحَقِّ أَوْ إِيذَاءٌ لِلنَّفْسِ أَوْ لِلْغَيْرِ ، وَبَيْنَ الْفِسْقِ الَّذِي هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الطَّاعَةِ ، وَلَوْ فِي غَيْرِ الظُّلْمِ لِلنَّفْسِ أَوْ لِلنَّاسِ . وَحَسُنَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الزِّيَادَةُ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ ؛ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ آخِرًا . وَالرِّجْزُ : الْعَذَابُ الَّذِي تَضْطَرِبُ لَهُ الْقُلُوبُ أَوْ يَضْطَرِبُ لَهُ النَّاسُ فِي شُؤُونِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ تَحْقِيقُهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ 134 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَذَكَرْنَا فِيهَا قَوْلَ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الرِّجْزَ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ فِي قِصَّةِ دُخُولِ الْقَرْيَةِ هُوَ الطَّاعُونُ ، وَأَنَّهُ جَائِزٌ ، وَلَكِنْ لَمْ يَثْبُتْ بِنَقْلٍ صَحِيحٍ ، وَقَدْ عَزَاهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ .

(142/293)

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُدًى وَمَوْعِظَةً ، وَجَعَلَ قَصَصَ الرُّسُلِ فِيهِ عِبْرَةً وَتَذْكِرَةً لَا تَارِيخَ شُعُوبٍ وَمَدَائِنَ ، وَلَا تَحْقِيقَ وَقَائِعَ وَمَوَاقِعَ . وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنْ نَتَّقِيَ الظُّلْمَ وَالْفِسْقَ . وَنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُ الْأُمَمَ عَلَى ذُنُوبِهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّهُ قَدْ عَاقَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

بِظُلْمِهِمْ ، وَلَمْ يُحِلْ دُونَ عِقَابِهِ ، مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْمَزَايَا وَالْفَضَائِلِ ، وَكَثْرَةِ وُجُودِ الْأَنْبِيَاءِ فِيهِمْ . وَمِنْهُ السِّيَاقُ الْآتِي : .

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 9 صـ 306.316 ﴾

(143/293)

وقال ابن عاشور فى الآيتين :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾

هذه الآية أيضاً نظير ما في سورة البقرة إلاّ أنه عبر في هذه الآية بقوله : ﴿ اسكنوا ﴾ وفي سورة البقرة (58) بقوله : ﴿ ادخلوا ﴾ لأن القولين قيلا لهم ، أي قيل لهم : ادخلوا واسكنوها ففرّق ذلك على القصتين على عادة القرآن في تغيير أسلوب القصص استجداداً لنشاط السامع .

وكذلك اختلاف التعبير في قوله هنا : ﴿ وكلوا ﴾ وقوله في سورة البقرة (58) ﴿ فكلوا ﴾ فإنه قد قيل لهم بما يرادف فاء التعقيب ، كما جاء في سورة البقرة ، لأن التعقيب معنى زائد على مطلق الجمع الذي تفيده واو العطف ، واقتصر هنا على حكاية أنه قيل

لهم ، وكانت آية البقرة أولى بحكاية ما دلت عليه فاء التعقيب ، لأن آية البقرة سيقت مساق التوبيخ فناسبها ما هو أدل على المنة ، وهو تعجيل الانتفاع بخيرات القرية ، وآيات الأعراف سيقت لمجرد العبرة بقصة بني إسرائيل .

ولأجل هذا الاختلاف مُيزت آية البقرة بإعادة الموصول وصلته في قوله : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً ﴾ [البقرة : 59] وعوض عنه هنا بضمير الذين ظلموا ، لأن القصد في آية البقرة بيان سبب إنزال العذاب عليهم مرتين أشير إلى أولاهما بما يومىء إليه الموصول من علة الحكم ، وإلى الثانية بحرف السببية ، واقتصر هنا على الثاني .

وقد وقع في سورة البقرة (59) لفظ ﴿ فأنزلنا ﴾ ووقع هنا لفظ ﴿ فأرسلنا ﴾ ولما قيد كلاهما بقوله : ﴿ من السماء ﴾ كان مفادهما واحداً ، فالاختلاف لمجرد التفنن بين القصتين .

(144/293)

وعبر هنا ﴿ بما كانوا يظلمون ﴾ وفي البقرة (59) ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ لأنه لما اقتضى الحال في القصتين تأكيدَ وصفهم بالظلم وأدي ذلك في البقرة (59) بقوله : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا ﴾ استثقلت إعادة لفظ الظلم هنالك ثالثة ، فعُدل عنه إلى ما

يفيد مفاده ، وهو الفسق ، وهو أيضاً أعم ، فهو أنسب بتذييل التوبيخ ، وجيء هنا بلفظ يظلمون ﴾ لئلا يفوت تسجيل الظلم عليهم مرة ثالثة ، فكان تذييل آية البقرة أنسب بالتغليط في ذمهم ، لأن مقام التوبيخ يقتضيه .

ووقع في هذه الآية ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم ﴾ ولم يقع لفظ ﴿ منهم ﴾ في سورة البقرة ، ووجه زيادتها هنا التصريحُ بأن تبديل القول لم يصدر من جميعهم ، وأجمل ذلك في سورة البقرة لأن آية البقرة لما سيقت مساق التوبيخ ناسب إرهابهم بما يوهم أن الذين فعلوا ذلك هم جميع القوم ، لأن تبعات بعض القبيلة تحمل على جماعتها .

وقدم في سورة البقرة (58) قوله : ﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾ على قوله : ﴿ وقولوا حطة ﴾ [البقرة : 58] وعُكس هنا وهو اختلاف في الإخبار لمجرد التفنن ، فإن كلا القولين واقع قُدّم أو أُخّر .

وذكر في البقرة (58) : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم رَغَداً ﴾ ولم يذكر وصف رغداً هنا ، وإنما حكي في سورة البقرة ، لأن زيادة المنة أدخل في تقوية التوبيخ .

وجملة سنزيد المحسنين ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن قوله : ﴿ نَغفرْ لكم ﴾ في مقام الامتنان بإعطاء نعم كثيرة مما يثير سؤال سائِل يقول : وهل الغفران هو قصارى جزائِهم ؟ فأجيب بأن بعده زيادة الأجر على الإحسان ، أي على الامتثال .

وفي نظير هذه الآية من سورة البقرة (58) ذكرت جملة ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ معطوفة

بالواو على تقدير : قلنا لهم ذلك وقلنا لهم سنزيد المحسنين ، فالواو هنالك لحكاية الأقوال ، فهي من الحكاية لا من المحكي أي قلنا وقلنا سنزيد .

(145/293)

وقرأ نافع ، وأبو جعفر ، ويعقوب ﴿ تُغفر ﴾ بمثناة فوقية مبنياً للمجهول ، و ﴿ خطيئاتُكم ﴾ بصيغة جمع السلامة للمؤنث وقرأه ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : ﴿ نَغْفر ﴾ بالنون مبنياً للفاعل و ﴿ خطيئاتِكم ﴾ بصيغة جمع المؤنث السالم أيضاً وقرأه أبو عمرو ﴿ نغفر ﴾ بالنون و ﴿ خطاياكم ﴾ بصيغة جمع التكسير ، مثل آية البقرة ، وقرأ ابن عامر : ﴿ تُغفر ﴾ بالفوقية وخطيئتكم بالإفراد .

والاختلاف بينها وبين آية البقرة في قراءة نافع ومن وافقه : تفنن في حكاية القصة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(146/293)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162) ﴾

هذه الآية تدل على أنهم افترقوا فرقتين ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد قال : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ فهذا يعني أن بعضهم قالوا وفعلوا المطلوب ، وبعضهم ظلموا وبدلوا القول ، فقد أمرهم الحق أن يقولوا : " حطة " وطلب منهم أن يدخلوا سجداً . والتغيير منهم جاء في القول ؛ لأن القول قد يكون بين الإنسان وبين نفسه بحيث لا يسمعه سواه . لكن الفعل مرئي مما يدل على أن بعضهم يرائي بعضاً ، ففي القول أرادوا أن يهذروا ويتكلموا بما لا ينبغي ولا يليق ، فبدلاً من أن يقولوا : " حطة " قالوا : " حنطة " استهزاءً بالكلمة .

وهكذا نرى أن التبديل جاء في القول ، لكن الفعل لم يأت فيه كلام ، وإن قال بعضهم : إن التبديل أيضاً حدث من بعضهم في الفعل . فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا زاحفين على مقعداتهم ، كنوع من التعالي ، لكن الحق لم يذكر شيئاً من ذلك ؛ لأن سلوكهم في الفعل قد يكون السبب فيه أن بعضهم لا قدرة له على الفعل . ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 162]

وكأن الحق يذكرنا بما فعله معهم من رعايتهم في أثناء التيه وكيف ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، واستسقى لهم موسى فجاءت المياه . لكن غريزة التبديل والتمرد لم

تغادرهم . وما داموا قد بدّلوا في كلمات الله ، فعليهم أن ينالوا العقاب : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السمآء ﴾ .

(147/293)

وهناك آية ثانية في سورة البقرة يقول فيها الحق : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السمآء ﴾ [البقرة : 59] . والفارق بين " الإنزال " وبين " الإرسال " أن الإنزال يكون مرة واحدة . أما الإرسال فهو مسترسل ومتواصل . ولذلك يقول الحق سبحانه في المطر : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً ﴾ . لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء . لكن في الإرسال استمرار ، اللهم إلا بعضاً من تأثير الهواء . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ . فالذي يحتاج إلى استمرارية في الفعل يقول فيه الحق : " أرسل " بدليل أن الله حينما أراد أن يجيء بالطوفان ليغرق المكذبين بموسى قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان . . . ﴾ [الأعراف : 133]

وعندما أراد أن يرغب عاداً قوم سيدنا هود في الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والآثام قال لهم : ﴿ ويا قوم استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً . . . ﴾ [هود : 52]

إذن فالإِرسال يعني التواصل ، أما الإِنزال فهو لمرة واحدة ، وأراد الحق سبحانه من قصة بني إسرائيل أن يأتي لنا بلقطة فجاء بكلمة " أنزلنا " ، ولقطة أخرى جاء فيها ب " أرسلنا " ؛ لأن العقوبة تختلف باختلاف المذنبين ، والمذنبون مقولون بالتشكيك ، فهذا له ذنب صغير ، وآخر ذنبه أكبر ، وكل إنسان يأخذ العذاب على قدر ذنبه ؛ فمن أذنب ذنباً صغيراً أنزل الله عليه عقاباً على قدر ذنبه .

ومن تمادى أرسل الله عليه عذاباً يستمر على قدر ذنوبه الكبيرة .

وهنا يقول الحق : ﴿ . . . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السمآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 162]

(148/293)

و " رجزاً " أي عذاباً ، وهناك رِجْز ، ورُجْز ، والرِّجز يُولد من الرُّجز ؛ وينشأ مثل قوله الحق : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ . أي اهجر الرُّجز . . أي المآثم والمعاصي والذنوب لتسلم من الرِّجز . . أي من العذاب . وهنا يبين الحق أنهم تلقوا العذاب بسبب ظلمهم ، وهناك في الآية الأخرى قال : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ .

والفسق يسبق الظلم ؛ لأن الإِنسان لا يمكن أن يظلم نفسه بمخالفة منهج إلا إذا فسق أولاً ،

ولذلك جاء الحق بالمسبَّب وجاء السبب ، وهكذا نتأكد أن كل كلمة في القرآن جاءت لمعنى أساسي تؤديه ولا تكرار إلا لمجموع القصة في ذاتها ، أما لقطات القصة هنا ، ولقطات القصة هناك فأمور جاءت تأسيساً في كل شيء لتعطي معاني ولقطات جديدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(149/293)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162) ﴾

جاء في التفسير أنهم زادوا حرفاً في الكلمة التي قيلت لهم فقالوا : حنطة بدل " حِطَّة " فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفاً أن الزيادةَ في الدين ، والابتداعَ في الشرع عظيمُ الخَطَرَ ، ومجاوزةُ حدِّ الأمر شديدُ الضرر .

ويقال إذا كان تغييرُ كلمةٍ هي عبارة عن التوبة يوجب كل ذلك العذاب – فما الظنُّ بتغيير ما هو خبرٌ عن صفات المعبود ؟

ويقال إنَّ القول أَنْقَصُ من العمل بكلِّ وجهٍ – فإذا كان التغيير في القول يُوجِبُ كلَّ هذا . . فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 580 ﴾

(150/293)

قوله تعالى ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما فرغ من هتك أستارهم فيما عملوه أيام موسى عليه السلام وما يليها ، أتبعه خزياً آخر أشد مما قبله ، كان بعد ذلك بمدة لا يعلمه أحد إلا من جهتهم أو من الله ، وإذا انتفى الأول ثبت الثاني ، فقال : ﴿ وسئلهم ﴾ أي بني إسرائيل مبكتاً لهم ومقرراً ﴿ عن القرية ﴾ أي البلد الجامع ﴿ التي كانت حاضرة البحر ﴾ أي على شاطئه وهي أيلة ، ولعله عبر بالسؤال ، ولم يقل : وإذ تعدو القرية التي – إلى آخره ، ونحو ذلك ، لأن كراهتهم للإطلاع على هذه

الفضيحة أشد مما مضى ، وهي دليل على الصرف والصدق .

ولما كان السؤال عن خبر أهل القرية قال مبدلاً بدل اشتمال من القرية ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ يعدون ﴾ أي يجوزون الحد الذي أمرهم الله به ﴿ في السبت إذ ﴾ أي العدو حين ﴿ تأتيهم ﴾ وزاد في التبكيت بالإشارة إلى المسارعة في الكفر بالإضافة في قوله : ﴿ حيتانهم ﴾ إيماء إلى أنها مخلوقة لهم ، فلو صبروا نالوها وهم مطيعون ، كما في حديث جابر - رضى الله عنهم - رفعه " بين العبد وبين رزقه حجاب ، فإن صبر خرج إليه ، وإلا هتك الحجاب ولم ينل إلا ما قدر له " ﴿ يوم سبتهم ﴾ أي الذي يعظمونه بترك الاشتغال فيه بشيء غير العبادة ﴿ شرعاً ﴾ أي قريبة مشرفة لهم ظاهرة على وجه الماء بكثرة ، جمع شارعة وشارع أي دان ﴿ ويوم لا يسبتون ﴾ أي لا يكون سبت ، ولعله عبر بهذا إشارة إلى أنهم لو عظموا الأحد على أنه سبت جاءتهم فيه ، وهو من : سبتت اليهود - إذا عظمت سبتها ﴿ لا تأتيهم ﴾ أي ابتلاء من الله لهم ، ولو أنهم صبروا أزال الله هذه العادة فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

ولما كان هذا بلاء عظيماً ، قال مجيباً لسؤال من كأنه قال لشدة ما بهره من هذا الأمر : هل وقع مثل هذا ؟ مشيراً إلى أنه وقع ، ولم يكتف به ، بل وقع لهم أمثاله لإظهار ما في عالم الغيب منهم إلى عالم الشهادة : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا البلاء العظيم ﴿ نبلوهم ﴾ أي نجدد اختبارهم كل قليل ﴿ بما ﴾ أي سبب ما ﴿ كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يفسقون ﴾ أي

يجددون في علمنا من الفسق ، وهو الخروج مما هو أهل للتوطن من الطاعات . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 140 ﴾

(151/293)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾

اعلم أن هذه القصة أيضاً مذكورة في سورة البقرة .

وفيها مسائل :

المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ واسألهم ﴾ المقصود تعرف هذه القصة من قبلهم ، لأن هذه القصة قد صارت معلومة للرسول من قبل الله تعالى ، وإنما المقصود من ذكر هذا السؤال أحد أشياء : الأول : أن المقصود من ذكر هذا السؤال تقرير أنهم كانوا قد أقدموا على هذا الذنب القبيح والمعصية الفاحشة تنبيهاً لهم على أن إصرارهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وبمعجزاته ليس شيئاً حدث في هذا الزمان ، بل هذا الكفر والإصرار كان حاصلاً

في أسلافهم من الزمان القديم .

والفائدة الثانية : أن الإنسان قد يقول لغيره هل هذا الأمر كذا وكذا ؟ ليعرف بذلك أنه محيط بتلك الواقعة ، وغير ذاهل عن دقائقها ، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً أمياً لم يتعلم علماً ، ولم يطالع كتاباً ، ثم أنه يذكر هذه القصص على وجهها من غير تفاوت ولا زيادة ولا نقصان ، كان ذلك جارياً مجرى المعجز .

المسألة الثانية :

الأكثرون على أن تلك القرية أيلة .

وقيل : مدين .

(152/293)

وقيل طبرية ، والعرب تسمى المدينة قرية ، وعن أبي عمرو بن العلاء ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج يعني رجلين من أهل المدن ، وقوله : ﴿ كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ يعني قريبة من البحر وبقربه وعلى شاطئه والحضور نقيض الغيبة كقوله تعالى : ﴿ ذلك لِمَنْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 196] وقوله : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى السبت ﴾ يعني يجاوزون حد الله فيه ، وهو اصطيادهم يوم السبت وقد نهوا عنه ، وقرىء

﴿ يَعْدُونَ ﴾ بمعنى يعتدون أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين و ﴿ يَعْدُونَ ﴾ من الأعداد وكانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة و ﴿ السبت ﴾ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها فقوله : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى السبت ﴾ معناه يعدون في تعظيم هذا اليوم ، وكذلك قوله : ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ معناه : يوم تعظيمهم أمر السبت ، ويدل عليه قوله : ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ ﴾ ويؤكده أيضاً قراءة عمر بن عبد العزيز (يوم أسباتهم) وقرىء ﴿ لاَ يَسْبُتُونَ ﴾ بضم الباء ، وقرأ على رضى الله عنه ﴿ لاَ يَسْبُتُونَ ﴾ بضم الياء من أسبتوا ، وعن الحسن ﴿ لاَ يَسْبِتُونَ ﴾ على البناء للمفعول ، وقوله : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ نصب بقوله : ﴿ يَعْدُونَ ﴾ والمعنى : سلهم إذ عدوا في وقت الإتيان ، وقوله : ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ أي ظاهرة على الماء وشرع جمع شارع وشارعة وكل شيء دان من شيء فهو شارع ، ودار شارعة أي دنت من الطريق ، ونجوم شارعة أي دنت من المغيب .

وعلى هذا فالحيتان كانت تدنو من القرية بحيث يمكنهم صيدها ، قال ابن عباس ومجاهد : إن اليهود أمروا باليوم الذي أمرتم به ، يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله به وحرم عليهم الصيد فيه وأمروا بتعظيمه ، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر .

فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل .

وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله : ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ كذلك نَبْلُوهُم ﴾ أي مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم ، وذلك يدل على أن من أطاع الله تعالى خفف الله عنه أحوال الدنيا والآخرة ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء والمحن ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى لا يجب عليه رعاية الصلاح والأصلح لا في الدين ولا في الدنيا وذلك لأنه تعالى علم أن تكثير الحيتان يوم السبت ربما يحملهم على المعصية والكفر ، فلو وجب عليه رعاية الصلاح والأصلح ، لوجب أن لا يكثر هذه الحيتان في ذلك اليوم صوناً لهم عن ذل الكفر والمعصية .

فلما فعل ذلك ولم يبال بكفرهم ومعصيتهم علمنا أن رعاية الصلاح والأصلح غير واجبة على الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 31.32 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التى كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾

واسمها أيلة وذلك أن اليهود قالوا : نحن من أبناء إبراهيم صلى الله عليه وسلم فلا يعذبنا الله تعالى إلا مقدار عبادة العجل فقال الله تعالى : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية ﴾ يعني : أهل القرية التي كانت حاضرة البحر كيف عذبهم الله تعالى بذنوبهم .

ثم أخبر عن ذنوبهم فقال تعالى : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى السبت ﴾ يعني : أنهم استحلوا الصيد في يوم السبت .

وقال : يعتدون في يوم السبت .

وأصل الاعتداء هو الظلم .

يقال : عدوت على فلان إذا ظلمته واعتديت عليه .

ثم قال : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ يعني : يوم استراحتهم شوارع في الماء وهو جمع الشارع ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ يعني : إذا لم يكن يوم السبت ويوم الراحة لا تأتيهم .

وإنما تمّ الكلام عند قوله : ﴿ تَأْتِيهِمْ ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ كذلك نَبْلُوهُم ﴾ يعني : هكذا نختبرهم .

وقال بعضهم : إنّما يتم الكلام عند قوله : ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ كذلك يعني : لا

تأتيهم كما تأتيهم يوم السبت لأن في يوم السبت تأتيهم الحيتان شارعات من أسفل الماء إلى أعلاه وفي سائر الأيام يأتيهم القليل ، ولا يأتيهم كما يأتيهم في يوم السبت .

ثم ابتداء الكلام فقال : ﴿ كذلك نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ يعني : نختبرهم بما كانوا يعصون الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(155/293)

وقال الثعلبى :

﴿ وَسْئَلْهُمْ ﴾ واسأل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال تقرير وتوبيخ ﴿ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ أي بقربه وعلى شاطئه ، واختلفوا فيها فروى عكرمة عن ابن عباس قال : هي قرية يقال لها ايلديس مدين والطور .

وروى عليّ بن أبي طلحة عنه فقال : هي قرية على شاطئ البحر من مصر والمدينة يقال لها : ايله وقال ابن زيد : هي قرية يقال لها : مقنى بين مدين وعينونا ، وقيل : هي الطبريّة ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السبت ﴾ أي يتجاوزون أمر الله وقرأ أبو نهيك إذ تعدون بضم الياء وكسر العين بتثقيل الدال من الأعداد يريد [يهيبون] الآلة لأخذها .

وقرأ ابن السميفع : في الاسبات ، على جمع السبت ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً

﴿ قرأ ابن عبد العزيز يوم إسباتهم شرعاً الى [شراع] ظاهرة على الماء كثيرة ، وقال الضحاك : متتابعة ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ ﴾ أي لا يفعلون السبت . يقال سبت يسبت سبتاً وسبوتاً إذا أعظم السبت .

وقرأ الحسن : يُسبتون بضم الياء أي يدخلون في السبت كما يقال أجمعنا وأشهرنا أي دخلنا في الجمعة والشهر ﴿ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ نختبرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

وسمعت الحسن بن محمد بن الحسن سمعت إبراهيم بن [محارب] بن إبراهيم سمعت أبي يقول : سألت الحسين بن الفضل هل تجد في كتاب الله الحلال لا [يأتيك] إلاّ قوتاً والحرام يأتيك جزفاً جزفاً ؟ قال : نعم ، في قصّة داود وتأويله : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ .

(156/293)

قال عكرمة : جئت ابن عباس يوماً فإذا هو يبكي ووضع المصحف في حجرة فقلت : ما يُبكيك جعلني الله فداك . قال : هؤلاء الورقات فإذا هو في سورة الأعراف ، فقال : تعرف الآية ؟ قلت : نعم ، قال : فإنّه كان بها حي من اليهود في زمن داود حرم عليهم الحيتان في السبت ، وذلك أنّ اليهود أمروا باليوم الذي أمرتهم به يوم الجمعة فتركوه واختاروا

السبت فابتلوا به وحرّم عليهم فيه الصيد فأمروا بتعظيمه إن أطاعوا لم يؤجروا وإن عصوا عذبوا ، وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعاً بيضاء سماناً كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم حتّى لا يرى الماء من كثرتها ويوم لا يسبتون لا تأتيهم فكانوا كذلك برهة من الدهر .

ثمّ إنّ الشيطان أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فأتّخذوا الحياض وكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة [فتسقي] فيها ولا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد .

وقال ابن زيد : كانوا قد قرّبوا بحب الحيتان وكان في غير يوم السبت لا تأتيهم حوت واحد فأخذ رجل منهم حوتاً فربط في ذنبه خيطاً فأخذه وشواه فوجد جار له ريح الحوت .

فقال له : يا فلان أنا أجد في بيتك ريح نون ، قال : لا فتطلع في تنوره فإذا هو فيه فقال : إني أرى الله سيعذّبك ، فلما لم يره عذب ولم يعجل عليهم بالعذاب أخذ في السبت الأُخرى حوتين اثنين .

(157/293)

فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم أكلوا وملحوا وباعوا وأثروا وكثر مالهم ، وكانوا نحواً من سبعين ألف ، فصارت أهل القرية [ثلاثاً] : ثلث نُهوا وكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً وثلث قالوا : لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم ، وثلث أصحاب الخطيئة ، فلما لم ينتهوا قال المسلمون : لا [نسألهم] فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود (عليه السلام) فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس شأناً لعل الخمر غلبتهم فعلوا على الجدار فنظروا فإذا بهم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم وعرفت القردة [أنسابها] من الأنس . ولا تعرف الأنس أنسابهم من القرود . فجعلت القردة تأتي نسيبها من الأنس وتشم ثيابه وتبكي فيقول : ألم ننهكم ؟ فتقول برأسها : نعم .

قال قتادة : صار الشبان قردة والشيوخ خنازير فما نجا إلاّ الذين نهوا وهلك سائرهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(158/293)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾

فيها خمسة أقاويل :

أحدها : أنها أيلة ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، والسدي .

والثاني : أنها بساحل مدين ، قاله قتادة .

والثالث : أنها مدين قرية بين أيلة والطور ، حكاه أبو جعفر الطبري .

والرابع : أنها قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونا ، قاله ابن زيد .

والخامس : ما قاله ابن شهاب أن القرية التي كانت حاضرة البحر طبرية ، والقرية التي قال فيها ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ [يس : 13] . أنطاكية .

وسؤالهم عن هذه القرية إنما هو سؤال توبيخ على ما كان منهم فيها من سالف الخطيئة وقبيح المعصية .

﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ هو تعديهم فيه بفعل ما نهوا عنه .

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن معنى ﴿ شُرَّعاً ﴾ أي طافية على الماء ظاهرة ، قاله ابن عباس ، ومنه شوارع البلد لظهورها .

والثاني : أنها تأتيهم من كل مكان ، قاله عطية العوفي .

والثالث : أنها شرّع على أبوابهم كأنها الكباش البيض رافعة رؤوسها حكاه بعض

المتأخرين فتعدَّوا فأخذوها في السبت ، قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(159/293)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾ الآية ،

قال بعض المتأولين : إن اليهود المعارضين لمحمد صلى الله عليه وسلم قالوا إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان ولا معاندة لما أمروا به فنزلت هذه الآية موبخة لهم ومقررة ما كان من فعل أهل هذه القرية ، فسؤالهم إنما كان على جهة التوبيخ و ﴿ القرية ﴾ هنا مدين قاله ابن عباس ، وقيل أيلة ، قاله ابن عباس وعبد الله بن كثير وعكرمة والسدي والثوري ، وقال قتادة هي مقنا بالقاف ساكنة ، وقال ابن زيد هي مقناة ساحل مدين ، ويقال فيها مغنى بالغين مفتوحة ونون مشددة ، وقيل هي طبرية قاله الزهري ، و ﴿ حاضرة ﴾ يحتمل أن يريد معنى الحضور أي البحر فيها حاضر ، ويحتمل أن يريد معنى الحضارة على جهة التعظيم لها أي هي الحاضرة في مدن البحر ، و ﴿ إذ يعدون ﴾ معناه يخالفون الشرع من عدا يعدو ، وقرأ شهر بن حوشب وأبو نهيك " يعَدُّون " ، قال أبو الفتح أراد يعتدون

فأسكن التاء ليدغمها في الدال ونقل فتحها إلى العين فصار " يعَدُّون " بفتح العين وشد الدال المضمومة ، والاعتداء منهم في السبت هو نفس العمل والاشتغال كان صيداً أو غيره إلا أنه كان في هذه النازلة بالصيد وكان الله عز وجل ابتلاهم في أمر الحوت بأن يغيب عنهم سائر الجمعة فإذا كان يوم السبت جاءهم في الماء شارعاً أي مقبلاً إليهم مصطفاً كما تقول أشرعت الرماح إذا مدت مصطفة ، وهذا يمكن أن يقع من الحوت بإرسال من الله كإرسال السحاب أو بوحي وإلهام كالوحي إلى النحل أو بإشعار في ذلك اليوم على نحو ما يشعر الله الدواب يوم الجمعة بأمر الساعة حسبما يقتضيه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس فرقاً من الساعة " ، ويحتمل أن يكون ذلك من الحوت شعوراً بالسلامة في ذلك اليوم على نحو شعور حمام الحرم بالسلامة .

(160/293)

قال رواة هذا القصص : فيقرب الحوت ويكثر حتى يمكن أخذه باليد فإذا كان ليلة الأحد غاب بجملته وقيل غابت كثرته ولم يبق منه إلا القليل الذي يتعب صيده ، قاله قتادة ففتنهم ذلك وأضر بهم فتطرقوا إلى المعصية بأن حفروا حفراً يخرج إليها ماء البحر على أخدود فإذا جاء الحوت يوم السبت وحصل في الحفرة ألقوا في الأخدود حجراً فمنعوه الخروج إلى

البحر فإذا كان الأحد أخذوه فكان هذا أول التطرق .

وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطاً ويصنع فيه وهقة وألقاها في ذنب الحوت ، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد مضروب ، وتركه كذلك إلى الأحد ، ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يبتلى كثر صيد الحوت ومشي به في الأسواق ، وأعلن الفسقة بصيده وقالوا ذهبت حرمة السبت فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت وجاهزت بالنهي واعتزلت ، والعامل في قوله : ﴿ ويوم لا يسبتون ﴾ قوله : ﴿ لا تأتيهم ﴾ وهو ظرف مقدم ، وقرأ عمر بن عبد العزيز " حيتانهم يوم أسباتهم " ، وقرأ نافع وأبو عمرو والحسن وأبو جعفر والناس " يسبِتون " بكسر الباء ، وقرأ عيسى بن عمر وعاصم بخلاف " يسبتُون " بضمها ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن وعاصم بخلاف "يُسبتون " من أسبت إذا دَخل في السبت ، ومعنى قوله : ﴿ كذلك ﴾ الإشارة إلى أمر الحوت وفتنتهم به ، هذا على من وقف على ﴿ تأتيهم ﴾ ومن وقف على ﴿ كذلك ﴾ فالإشارة إلى كثرة الحيتان شرعاً ، أي فما أتى منها فهو قليل ، و ﴿ نبلوهم ﴾ أي نمتحنهم لفسقهم وعصيانهم .

قال القاضي أبو محمد : وفي قصص هذه الآية رواية وتطويل اختصرته واقتصرت منه على ما لا تفهم ألفاظ الآية إلا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ واسألهم ﴾

يعني : أسباط اليهود ، وهذا سؤال تقرير وتوبيخ يقرِّرهم على قديم كفرهم ، ومخالفة أسلافهم الأنبياء ، ويخبرهم بما لا يُعلم إلا بوحي .

وفي القرية خمسة أقوال .

أحدها : أنها أيلة ، رواه مُرّة عن ابن مسعود ، وأبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنها مَدْيَن ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنها ساحل مدين ، روي عن قتادة .

والرابع : أنها طبرية ، قاله الزهري .

والخامس : أنها قرية يقال لها : مقنا ، بين مدين وعينونا ، قاله ابن زيد .

ومعنى : ﴿ حاضرة البحر ﴾ مجاورة البحر وبقربه وعلى شاطئه .

﴿ إذ يَعْدُون ﴾ قال الزجاج : أي : يظلمون ، يقال : عدا فلان يعدو عُدْواناً وعَداءً وعَدْواً وعُدّواً : إذا ظلم وموضع ﴿ إذ ﴾ نصب ، والمعنى : سلهم عن وقت عَدْوِهم في السبت .

﴿ إذ تأتيهم حيتانهم ﴾ في موضع نصب أيضاً ب ﴿ يَعْدُونَ ﴾ والمعنى : سلهم إذ عَدَوْا في وقت الإتيان .

﴿ شُرَّعاً ﴾ أي : ظاهرة .

﴿ كذلك نبلوهم ﴾ أي : مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم بفسقهم .

ويحتمل على بعد أن يكون المعنى : ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴾ كذلك ، أي : لا تأتيهم شُرَّعاً ؛ ويكون ﴿ نبلوهم ﴾ مستأنفاً .

وقرأ الحسن ، والأعمش ، وأبان ، والمفضل عن عاصم : ﴿ يُسبِتون ﴾ بضم الياء .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(162/293)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية ﴾

أي عن أهل القرية ؛ فعبّر عنهم بها لما كانت مستقراً لهم أو سبب اجتماعهم .

نظيره ﴿ واسأل القرية التي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف : 82] .

وقوله عليه السلام : " اهتز العرش لموت سعد بن معاذ " يعني أهل العرش من الملائكة ،

فرحا واسبشاراً بقدومه ، رضي الله عنه .

أي واسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم وما مسخ الله منهم قِردة وخنازير .

وهذا سؤال تقرير وتوبيخ .

وكان ذلك علامة لصدق النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ إذ أطلعه الله على تلك الأُمور من غير تعلم .

وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، لأنا من سِبط خليله إبراهيم ، ومن سِبط إسرائيل وهم بكر الله ، ومن سبط موسى كليم الله ؛ ومن سبط ولده عزير ، فنحن من أولادهم .

فقال الله عز وجل لنبيه : سلهم يا محمد عن القرية ، أما عذبتهم بذنوبهم ؛ وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة .

واختلف في تعيين هذه القرية ؛ فقال ابن عباس وعِكرمة والسُّدِّي : هي أيلة .

وعن ابن عباس أيضاً أنها مَدْين بين أيلة والطور .

الزُّهْرِيّ : طَبَرِيّة .

قتادة وزيد بن أسلم : هي ساحل من سواحل الشأم ، بين مَدْين وعَيْنون ، يقال لها : مقناة .

وكان اليهود يكتمون هذه القصة لما فيها من السُّبّة عليهم .

﴿ التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ أي كانت بقرب البحر ؛ تقول : كنت بحضرة الدار أي

بقربها .

﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السبت ﴾ أي يصيدون الحِيتان ، وقد نُهوا عنه ؛ يقال : سَبَت اليهودُ ؛ تركوا العمل في سبتهم .

وسُبِت الرجل للمفعول سُباتاً أخذه ذلك ، مثل الخرس .

وأسبت سكن فلم يتحرك .

والقوم صاروا في السبت .

واليهود دخلوا في السبت ، وهو اليوم المعروف .

وهو من الراحة والقَطْع .

ويجمع أسْبُت وسُبُوت وأسبات .

(163/293)

وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من احتجم يوم السبت فأصابه بَرَص فلا يلومنّ إلا نفسه " قال علماؤنا : وذلك لأن الدّم يجمد يوم السبت ، فإذا مددته لتستخرجه لم يجرِ وعاد بَرَصاً .

وقراءة الجماعة "يَعْدُون" .

وقرأ أبو نَهِيك "يُعِدّون" بضم الياء وكسر العين وشد الدال .

الأُولى من الاعتداء والثانية من الإعداد ؛ أي يهيئون الآلة لأخذها .

وقرأ ابن السَّمَيْقَع "في الأسبات" على جمع السبت .

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ وقرىء "أسباتهم" .

﴿ شُرَّعاً ﴾ أي شوارع ظاهرة على الماء كثيرة .

وقال اللّيث : حيتان شُرّع رافعة رؤوسها .

وقيل : معناه أن حيتان البحر كانت ترِد يوم السبت عُنُقاً من البحر فتزاحم أيْلة .

ألهمها الله تعالى أنها لا تُصاد يوم السبت ؛ لنَهْيه تعالى اليهود عن صيدها .

وقيل : إنها كانت تشرع على أبوابهم ؛ كالكِباش البيض رافعةً رؤوسها .

حكاه بعض المتأخرين ؛ فتعدّوا فأخذوها في السبت ؛ قاله الحسن .

وقيل : يوم الأحد ، وهو الأصح على ما يأتي بيانه .

﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ ﴾ أي لا يفعلون السبت ؛ يقال : سبت يسبِت إذا عظّم السبت .

وقرأ الحسن "يُسْبِتون" بضم الياء ، أي يدخلون في السبت ؛ كما يقال : أجمعنا وأظهرنا وأشهرنا ، أي دخلنا في الجمعة والظهر والشهر .

﴿ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ أي حيتانهم .

﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ أي نشدّد عليهم في العبادة ونختبرهم .

والكاف في موضع نصب .

﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي بفسقهم .

وسئل الحسين بن الفضل : هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتاً ، والحرام يأتيك جَزْفاً جَزْفاً ؟ قال : نعم ، في قصة داود وأيلة ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ .

(164/293)

ورُوي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود عليه السلام ، وأن إبليس أَوْحَى إليهم فقال : إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ؛ فكانوا يسوقون الحِيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد .

وروى أشهب عن مالك قال .

زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطاً ويضع فيه وَهَقة ، وألقاها في ذنب الحوت ، وفي الطرف الآخر من الخيط وتِد وتركه كذلك إلى الأحد ، ثم تطرّق الناس حين رأُوا من صنع هذا لا يُبْتَلى حتى كثُرَ صيد الحوت ، ومُشي به في الأسواق ، وأعلن الفسقة بصيده ؛ فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت ، وجاهرت بالنهي واعتزلت .

وقيل : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار .

فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس لشأنا ؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قَردة ، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القِردة أنسابَها من الإنس ، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القِردة تأتي نسيبها من الإنس فَتَشُم ثيابه وتبكي ؛ فيقول : ألم ننهكم ! فتقول برأسها نعم .

قال قتادة : صار الشبان قردةً والشيوخ خنازير ، فما نجا إلا الذين نَهوْا وهلك سائرهم .

فعلى هذا القول إن بني إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين .

ويكون المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ أي قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم : إذا علمتم أن الله مهلكنا فلم تعظوننا ؟ فمسخهم الله قردة .

﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي قال الواعظون : موعظتنا إياكم معذرةٌ إلى ربكم ؛ أي إنما يجب علينا أن نعظكم لعلكم تتقون .

أسند هذا القول الطَّبريّ عن ابن الكلبيّ .

(165/293)

وقال جمهور المفسرين : إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فِرَق ، وهو الظاهر من الضمائر في الآية .

فرقة عَصَتْ وصادت ، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً .

وفرقة نَهَت واعتزلت ، وكانوا اثني عشر ألفاً .

وفرقة اعتزلت ولم تَنْهَ ولم تَعْص ، وأن هذه الطائفة قالت للناهية : لِم تعظون قوماً تريد العاصية الله مهلكُهم أو معذّبهم على غلبة الظن ، وما عُهد من فعل الله تعالى حينئذ بالأمم العاصية .

فقالت الناهية : موعظتنا معذرةٌ إلى الله لعلّهم يتقون .

ولو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية : ولعلكم تتقون ، بالكاف .

ثم اختلف بعد هذا ؛ فقالت فرقة : إن الطائفة التي لم تَنْه ولم تَعْص هلكت مع العاصية عقوبةً على ترك النهي ؛ قاله ابن عباس .

وقال أيضاً : ما أدري ما فُعل بهم ؛ وهو الظاهر من الآية .

وقال عكْرمة : قلت لابن عباس لمّا قال ما أدري ما فعل بهم : ألا ترى أنهم قد كَرِهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا : لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم ؟ فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نَجَوْا ؛ فكسَاني حُلّة . وهذا مذهب الحسن .

ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غيرُ قولُه : "وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا" .

وقولُه : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذين اعتدوا مِنْكُمْ فِي السبت ﴾ [البقرة : 65] الآية . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(166/293)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾

الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) أي : سل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك عن حال أهل القرية وهذا السؤال سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استفهام ، لأنه كان قد علم حال أهل هذه القرية بوحي الله إليه وإخباره إياهم بحالهم وإنما المقصود بهذا السؤال تقريع اليهود على إقدامهم على الكفر والمعاصي قديماً وأن إصرارهم على الكفر بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وإنكار نبوته ومعجزاته ليس بشيء قد حدث منهم في زمانه بل إصرارهم على الكفر كان حاصلاً لأسلافهم في قديم الزمان .

وفي الإخبار بهذه القصة معجزة للنبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه كان أمياً لا يقرأ الكتب القديمة ولم يعرف أخبار الأولين ، ثم أخبرهم بما جرى لأسلافهم في قديم الزمان وأنهم بسبب مخالفتهم أمر الله مسخوا قردة وخنازير واختلفوا في هذه القرية فقال ابن عباس :

هي قرية بين مصر والمدينة والمغرب .

وقيل بين مدين والطور على شاطئ البحر .

وقال الزهري : هي طبرية الشام .

وفي رواية عن ابن عباس قال : هي مدين وقال وهب : هي ما بين مدين وعيوني يعني القرية التي كانت على ساحل البحر وقريبة منه ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ يعني يتجاوزون حد الله فيه ، وما أمرهم به من تعظيمه فخالفوا أمر الله وصادوا فيه السمك ﴿ إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ﴾ يعني ظاهرة على الماء كثيرة وقال الضحاك تأتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضاً وقيل كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش البيض السمان ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴾ يعني الحيتان ﴿ كذلك نبلوهم ﴾ يعني مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم ونحن أعلم بحالهم ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ يعني أن ذلك الابتداء والاختبار بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله وما أمروا به .

(167/293)

قال أهل التفسير : إن اليهود أمروا يوم الجمعة فتركوه واختاروا يوم السبت فابتلوا به وهو أن الله أمرهم بتعظيمه ونهاهم عن العمل فيه وحرم عليه فيه الصيد ، فلما أراد ان يبتليهم

كانت الحيتان تظهر لهم في يوم السبت ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تُر إلى السبت المقبل فلما ابتلوا به وسوس إليهم الشيطان وقال إن الله لم ينهكم عن الاصطياد وإنما نهاكم عن الأكل فاصطادوا وقيل إنه وسوس إليهم أنكم إنما نهيتم عن الأخذ فاتخذوا حياضاً على ساحل البحر وسوقوا إليها الحيتان يوم السبت فإذا كان يوم الأحد خذوها ففعلوا ذلك زمانا ثم إنهم تجرؤوا على السبت وقالوا : ما نرى السبت إلا قد حل لنا فاصطادوا فيه وأكلوا وباعوا وصار أهل القرية أحزاباً ثلاثة وكانوا من سبعين ألفاً فثلث نهوا عن الاصطياد وثلث سكتوا ولم ينهوا وقالوا للناهين لم تعظمون قوماً الله مهلكهم وثلث هم أصحاب الخطيئة الذين خالفوا أمر الله واصطادوا وأكلوا وباعوا فلما لم ينتهوا عما هم فيه من المعصية قال الناهون لا نساكنكم في قرية واحد فقسموا القرية بينهم بجدار للناهين باب يدخلون ويخرجون منه وللعاصين باب ، ولعنهم داود وكانوا في زمنه فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا إن لهم لَشأناً لعل الخمر قد غلبتهم فعلوا على الجدار الذي بينهم فإذا هم قد مسخوا قردة ففتحوا عليهم الباب ودخلوا إليهم فصار القردة يعرفون أنسابهم من الناس ولم يعرف الناس أنسابهم من القردة فجعلت القردة تأتي أنسابها من الناس فتشم ثيابها فيقول لهم أهلوهم ألم ننهكم فتقول القردة برأسها نعم فنجا الناهون وهلك سائرهم فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت أمة منها لم تعظون قوماً الله

مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(168/293)

وقال أبو حيان :

﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ .

(169/293)

الضمير في و﴿ اسألهم ﴾ عائد على من يحضره الرسول (صلى الله عليه وسلم) من اليهود وذكر أن بعض اليهود المعارضين للرسول (صلى الله عليه وسلم) قالوا له لم يكن من بني إسرائيل عصيان ولا معاندة لما أمروا به فنزلت هذه الآية موبّخة لهم ومقررة كذبهم ومعلمة ما جرى على أسلافهم من الإهلاك والمسخ وكانت اليهود تكتم هذه القصة فهي مما لا يعلم إلا بكتاب أو وحي فإذا أعلمهم بها من لم يقرأ كتابهم علم أنه من جهة الوحي ، وقوله

﴿ عن القرية ﴾ فيه حذف أي عن أهل لقرية و﴿ القرية ﴾ إيلة قاله ابن مسعود وأبو صالح عن ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة والسدّي وعكرمة وعبد الله بن كثير والثوري ، أو مدين ورواه عكرمة عن ابن عباس أو ساحل مدين ، وروي عن قتادة وقال هي مقّنى بالقاف ساكنة ، وقال ابن زيد : هي مقناة ساحل مدين ، ويقال : لها معنى بالعين مفتوحة ونون مشدّدة أو طبرية قاله الزهري أو أريحا أو بيت المقدس وهو بعيد لقوله ﴿ حاضرة البحر ﴾ أو قرية بالشام لم تسمَّ بعينها وروي عن الحسن : ومعنى انتهى حاضرة البحر بقرب البحر مبنية بشاطئه ويحتمل أن يريد معنى الحاضرة على جهة التعظيم لها أي هي الحاضرة في قرى البحر فالتقدير ﴿ حاضرة ﴾ قرى ﴿ البحر ﴾ أي يحضر أهل قرى البحر إليها لبيعهم وشرائهم وحاجتهم ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ أي يجاوزون أمر الله في العمل يوم السبت وقد تقدم منه تعالى النهي عن العمل فيه والاشتغال بصيد أو غيره إلا أنه في هذه النازلة كان عصيانهم ، وقرىء ﴿ يعدّون ﴾ من الإعداد وكانوا يعدّون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة وقرأ شهر بن حوشب وأبو نهيك ﴿ يعَدّون ﴾ بفتح العين وتشديد الدال وأصله يعتدون فأدغمت التاء في الدال كقراءة من قرأ

﴿ لا تعدوا في السبت ﴾ ﴿ إذ ﴾ ظرف والعامل فيه .

قال الحوفي : ﴿ إذ ﴾ متعلقة بسلهم انتهى ، ولا يتصور لأن ﴿ إذ ﴾ ظرف لما مضى وسلهم مستقبل ولو كان ظرفاً مستقبلاً لم يصحّ المعنى لأن العادين وهم أهل القرية مفقودون فلا يمكن سؤالهم والمسؤول عن أهل القرية العادين .

وقال الزمخشري : ﴿ إذ يعدون ﴾ بدل ﴿ من القرية ﴾ والمراد بالقرية أهلها كأنه قيل وسلهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت وهو من بدل الاشتمال انتهى ، وهذا لا يجوز لأن ﴿ إذ ﴾ من الظروف التي لا تتصرف ولا يدخل عليها حرف جر وجعلها بدلاً يجوز دخول عن عليها لأن البدل هو على نيّة تكرار العامل ولو أدخلت عن عليها لم يجز وإنما تصرف فيها بأن أضيف إليها بعض الظروف الزمانية نحو يوم إذ كان كذا وأما قول من ذهب إلى أنها يتصرّف فيها بأن تكون مفعولة باذكر فهو قول من عجز عن تأويلها على ما ينبغي لها من إبقائها ظرفاً ، وقال أبو البقاء ﴿ عن القرية ﴾ : أي عن خبر القرية وهذا المحذوف هو الناصب للظرف الذي هو ﴿ إذ يعدون ﴾ ، وقيل هو ظرف للحاضرة وجوّز ذلك أنها كانت موجودة في ذلك الوقت ثم خربت انتهى ، والظاهر أن قوله ﴿ في السبت ﴾ و ﴿ يوم سبتهم ﴾ المراد به اليوم ومعنى ﴿ اعتدوا فيه ﴾ أي بعصيانهم وخلافهم كما قدمنا ، وقال الزمخشري : السبت مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبّد فمعناه يعدون في تعظيم هذا اليوم وكذلك قوله تعالى يوم سبتهم يوم

تعظيمهم ويدل عليه قوله ﴿ ويوم لا يسبتون ﴾ ﴿ وإذ تأتيهم ﴾ العامل في ﴿ إذ يعدون ﴾ أي إذ عدوا في السبت إذ أتتهم لأنّ إذ ظرف لما مضى يصرف المضارع للمضي .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل انتهى ، يعني بدلاً من ﴿ القرية ﴾ بعد بدل ﴿ إذ يعدون ﴾ وقد ذكرنا أن ذلك لا يجوز وأضاف ﴿ السبت ﴾ إليهم لأنهم مخصوصون بأحكام فيه .

(171/293)

وقرأ عمر بن عبد العزيز : ﴿ حيتانهم ﴾ يوم أسباتهم ، قال أبو الفضل الرازي في كتاب اللوامح وقد ذكر هذه القراءة عن عمر بن عبد العزيز : وهو مصدر من أسبت الرجل إذا دخل في السبت ، وقرأ عيسى بن عمر وعاصم بخلاف ﴿ لا يسبتون ﴾ بضمّ كسرة الباء في قراءة الجمهور ، وقرأ علي والحسن وعاصم بخلاف ﴿ يسبتون ﴾ بضم ياء المضارعة من أسبت دخل في السبت ، قال الزمخشري : وعن الحسن ﴿ لا يسبتون ﴾ بضم الياء على البناء للمفعول أي لا يدار عليهم السبت ولا يؤمرون بأن يسبتوا والعامل في ﴿ يوم ﴾ قوله ﴿ لا تأتيهم ﴾ وفيه دليل على أنّ ما بعد لا للنفي يعمل فيما قبلها وفيه ثلاثة مذاهب الجواز مطلقاً والمنع مطلقاً والتفصيل بين أن يكون لا جواب قسم فيمتنع أو غير ذلك فيجوز

وهو الصحيح كذلك أي مثل ذلك البلاء بأمر الحوت نبلوهم أي بلوناهم وامتحناهم ، وقيل كذلك متعلق بما قبله أي ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك ﴾ أي لا ﴿ تأتيهم ﴾ إتياناً مثل ذلك الإتيان وهو أن تأتي شرّعاً ظاهرة كثيرة بل يأتي ما أتى منها وهو قليل فعلى القول الأول في كذلك ينتفي إتيان الحوت مطلقاً ، كما روي في القصص أنه كان يغيب بجملته وعلى القول الثاني كان يغيب أكثره ولا يبقى منه إلاّ القليل الذي يتعب بصيده قاله قتادة : وهذا الإتيان من الحوت قد يكون بإرسال من الله كإرسال السُّحاب أو بوحي إلهام كما أوحى إلى النحل أو بإشعار في ذلك اليوم على نحو ما يشعر الله الدّواب يوم الجمعة بأمر الساعة حسبما جاء وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس فرقاً من الساعة ويحتمل أن يكون ذلك من الحوت شعوراً بالسلامة ومعنى ﴿ شرّعاً ﴾ مقبلة إليهم مصطفّة ، كما تقول أشرعت الرّمح نحوه أي أقبلت به إليه ، وقال الزمخشري : ﴿ شرّعاً ﴾ ظاهرة على وجه الماء ، وعن الحسن : تشرّع على أبوابهم كأنها الكباش السّمن يقال : شرع علينا فلان إذا دنا منه وأشرف علينا وشرعت على فلان في بيته فرأيته

يفعل كذا ، وقال رواة القصص : يقرب حتى يمكن أخذه باليد فساءهم ذلك وتطرّقوا إلى المعصية بأن حفروا حفراً يخرج إليها ماء البحر على أخدود فإذا جاء الحوت يوم السبت وحصل في الحفرة ألقوا في الأخدود حجراً فمنعوه الخروج إلى البحر فإذا كان الأحد أخذوه فكان هذا أول التطريق ، وقال ابن رومان : كانوا يأخذ الرجل منهم خيطاً ويضع فيه وهقة وألقاها في ذنب الحوت وفي الطرف الآخر من الخيط وتدٌ مضروب وتركه كذلك إلى أن يأخذه في الأحد ثم تطرق الناس حين رأوا من يصنع هذا لا يبتلي حتى كثر صيد الحوت ومشى به في الأسواق وأعلن الفسقة بصيده وقالوا ذهبت حرمة السبت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(173/293)

وقال أبو السعود :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾

﴿ وَسْئَلْهُمْ ﴾ عطف على المقدر في إذ قيل أي واسأل اليهودَ المعاصرين لك سؤالَ تقريعٍ وتقرير كفرَهم وتجاوزَهم لحدود الله تعالى وإعلاماً لهم بأن ذلك مع كونه من علومهم الخفيةِ التي لا يقف عليها إلا من مارس كتبَهم قد أحاط به النبيُّ عليه الصلاة والسلام خُبْراً ، وإذ

ليس ذلك بالتلقي من كتبهم لأنه عليه الصلاة والسلام بمعزل من ذلك تعين أنه من جهة الوحي الصريح ﴿ عَنِ القرية ﴾ أي عن حالها وخبرِها وما جرى على أهلها من الداهية الدهياءِ وهي أَيْلَةُ ، قريةٌ بين مدْيَنَ والطور ، وقيل : هي مدينُ وقيل : طبرية ، والعرب تسمي المدينةَ قرية ﴿ التى كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ أي قريبةً منه مشرفةً على شاطئه ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى السبت ﴾ أي يتجاوزون حدودَ الله تعالى بالصيد يوم السبت ، وإذ ظرفٌ للمضاف المحذوفِ أو بدلٌ منه ، وقيل : ظرفٌ لكانت أو حاضرة ، وليس بذاك إذ لا فائدةَ في تقييد الكونِ أو الحضور بوقت العُدوان ، وقرىء يعدّون وأصله يعتدون ويُعِدّون من الإعداد حيث كانوا يُعِدّون آلاتِ الصيدِ يوم السبت وهم منهيّون عن الاشتغال فيه بغير العبادة .

(174/293)

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ ظرفٌ لَيَعْدون أو بدلٌ بعد بدلٍ والأولُ هو الأولى لأن السؤالَ عن عُدوانهم أدخلُ في التقريع ، والحيتانُ جمعُ حوتٍ قُلبت الواوُ ياءً لانكسار ما قبلها كنونٍ ونينانٍ لفظاً ومعنى ، وإضافتُها إليهم للإشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد في سائر أفرادِ الجنس من الخواصّ الخارقةِ للعادة ، أو لأن المرادَ بها الحيتانُ الكائنةُ في

تلك الناحيةِ وأن ما ذكر من الإتيان وعدمِه لاعتيادها أحوالَهم في عدم التعرّض يوم السبت ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ ظرفٌ لتأتيهم أي تأتيهم يومَ تعظيمِهم لأمر السبت وهو مصدرُ سَبَتت اليهودُ إذا عظّمت السبْت بالتجرد للعبادة ، وقيل : اسمٌ لليوم ، والإضافةُ لاختصاصهم بأحكام فيه ويؤيد الأولَ قراءةُ من قرأ يوم أسباتِهم وقوله تعالى : ﴿ شُرَّعًا ﴾ جمعُ شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف ، وهو حالٌ من حيتانُهم أي تأتيهم يوم سبْتِهم ظاهرةً على وجه الماء قريبةً من الساحل ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ ﴾ أي لا يراعون أمرَ السبتِ لكن لا بمجرد عدمِ المراعاةِ مع تحقق يوم السبتِ كما هو المتبادرُ بل مع انتفائهما معاً أي لا سبت ولا مراعاة كما في قوله :

(175/293)

ولا ترى الضبَّ بها ينجحِرُ . . . وقرىء لا يُسبتون من أسبت ولا يُسبَتون على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت ولا يُدار عليهم حكمُ السبتِ ولا يؤمرون فيه بما أمروا به يوم السبت ﴿ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ كما كانت تأتيهم يوم السبت حذار من صيدهم ، وتغييرُ السبك حيث لم يقل : ولا تأتيهم يوم لا يسبتون لما أن الإخبارَ بإتيانها يوم سبْتهم مظِنةُ أن يقال : فماذا حالُها يوم لا يسبتون ؟ فقيل : يوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴿ كذلك نَبْلُوهُم ﴾ أي مثلَ

ذلك البلاءِ العجيب الفظيعِ نعاملهم معاملةَ من يختبرهم ليُظهِرَ عداوتَهم ونؤاخذهم به ، وصيغةُ المضارعِ لحكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتها والتعجيبِ منها ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقِهم المستمرِّ المدلولِ عليه بالجمع بين صيغتي الماضي والمستقبلِ لكن لا في تلك المادةِ فإن فسقَهم فيها لا يكون سبباً للبلوى بل بسبب فسقهم المستمر في كل ما يأتون وما يذرون ، وقيل : (كذلك) متصلٌ بما قبله أي لا تأتيهم مثلَ ما تأتيهم يوم سبتهم فالجملةُ بعده حينئذ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال عن حكمة اختلافِ حال الحيتانِ بالإتيان تارة وعدمِه أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(176/293)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾

﴿ واسألهم ﴾ عطف على اذكر المشار إليه فيما تقدم آنفاً ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وضمير الغيبة لمن بحضرته عليه الصلاة والسلام من نسل اليهود أي واسأل اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع وتقرير بتقدم تجاوزهم لحدود الله تعالى ، والمراد إعلامهم بذلك لأنهم كانوا يخفونه ، وفي الإطلاع عليه مع كونه عليه الصلاة والسلام ليس ممن مارس

كتبهم أو تعلمه من علمائهم ما يقضي بأن ذلك عن وحي فيكون معجزة شاهدة عليهم ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية ﴾ أي عن خبرها وحالها وما وقع بأهلها من ثالثة الأثافي ، والمراد بالسؤال عن ذلك بما يعم السؤال عن النفس وعن الأهل أو الكلام على تقدير مضاف ، والمراد عن حال أهل القرية ، وجوز التجوز فيها ، وهي عند ابن عباس وابن جبير إيلة قرية بين مدين والطور .

(177/293)

وعن ابن شهاب هي طبرية ، وقيل : مدين وهي رواية عن الحبر ، وعن ابن زيد أنها مقتاً بين مدين وعينونا ﴿ التى كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ أي قريبة منه مشرفة على شاطئه ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى السبت ﴾ أي يظلمون ويتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم البست أو بتعظيمه ، وإذ بدل من المسؤول عنه بدل اشتمال أو ظرف للمضاف المصدر ، قيل : واحتمال كونه ظرفاً لكانت أو حاضرة ليس بشيء إذ لا فائدة بتقييد الركون أو الحضور بوقت العدوان وضمير يعدون للأهل المقدر أو المعلوم من الكلام ، وقيل : إلى القرية على سبيل الاستخدام ، وقرىء ﴿ يَعْدُونَ ﴾ بمعنى يعتدون أدغمت التاء في الدار ونقلت حركتها إلى العين ﴿ ويعدون ﴾ من الإعداد حيث كانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت

وهم منهيون عن الاشتغال فيه بغير العبادة ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ ﴾ ظرف ليعدون أو بدل بعد بدل ، وإلى الأول ذهب أكثر المعربين ، وهو الأولى لأن السؤال عن عدوانهم أبلغ في التقريع ، وحيتان جمع حوت أبدلت الواو ياءاً لسكونها وانكسار ما قبلها كنون ونينات لفظاً ومعنى وإضافتها إليهم باعتبار أن المراد الحيتان الكائنة في تلك الناحية التي هم فيها ، وقيل : للإشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد في سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة ، ولا يخفى بعده ﴿ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ ظرف لتأتيهم أي تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السب ، وهو مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت بترك العمل والتفرغ للعبادة فيه ، وقيل : اسم لليوم والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه ، ويؤيد الأول قراءة عمرو بن عبد العزيز ﴿ يَوْمٍ ﴾ ، وكذا النفي الآتي ﴿ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ أي ظاهرة على وجه الماء كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قريبة من الساحل ، وهو جمع شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف ، وفي الشرع معنى الإظهار والتبيين ، وقيل : حيتان شرع رافعة رؤسها كأنه جعل ذلك إضهاراً وتبييناً ، وقيل :

المعنى متتابعة ونسب إلى الضحاك ، والظاهر أنها ظاهرة وهو نصب على الحال من الحيتان ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ ﴾ أي لا يراعون أمر السب وهو على حد قوله :

على لا حب لا يهتدي بمناره . . .

إذ المقصود انتفاء السبت والمراعاة .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ لاَ يَسْبِتُونَ ﴾ بضم حرف المضارعة من أسبت إذا دخل في السبت كاصبح إذا دخل في الصباح ، وعن الحسن أنه قرأ لا يسبتون على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت ولا يؤمرون فيه بما أمروا به يوم السبت ، وقرىء ﴿ لاَ يَسْبِتُونَ ﴾ بضم الباء والظرف متعلق بقوله سبحانه : ﴿ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ أي لا تأتيهم يوم لا يسبتون كما كانت تأتيهم يوم السبت حذراً من صيدهم لاعتيادها أحوالهم وأن ذلك لمحض تقدير العزيز العليم ، وتغيير البسك حيث قدم الظرف على الفعل ولم يعكس لما أن الإتيان يوم سبتهم مظنة كما قيل : لأن يقال فماذا حالها يوم لا يسبتون ؟ فقيل : يوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴿ كذلك نَبْلُوهُم ﴾ أي نعاملهم معاملة المختبرين لهم ليظهر منهم ما يظهر فنؤاخذهم به ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحشار صورتها والتعجيب منها ، والإشارة إما إلى الابتلاء السابق أو إلى الابتلاء المذكور بعد كما مر غير مرة ؛ وقيل : الإشارة إلى الإتيان يوم السبت وهي متصلة بما قبل أي لا تأتيهم كذلك الإتيان يوم السبت ، والكاف في موضع نصب على الحال عند الطبرسي ، وجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع

صفة لمصدر مقدر أي إتياناً كائناً كذلك ، وجملة نبلوهم استئناف مبني على السؤال عن حكم اختلاف حال الحيتان بالاتيان تارة وعدمه أخرى ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر في كل ما يأتون ويذرون ، وهو متعلق بما عنده ، وتعلق إذ يعدون بنبلوهم وبما يبعدون على معنى نبلوهم وقت العدوان بالفسق مما لا ينبغي تخريج كتاب الله تعالى الجليل عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(179/293)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾

غُيِّر أسلوب الخبر عن بني إسرائيل هُنا : فابتدىءَ ذِكرُ هذه القصة بطلب أن يسأل سائل بني إسرائيل الحاضرين عنها ، فنعلم من ذلك أن لهذه القصص الآتية شأناً غير شأن القصص الماضية ، ولا أحسب ذلك إلاّ من أجل أن هذه القصة ليست مما كُتب في توراة اليهود ولا في كتب أنبيائهم ، ولكنها مما كان مروياً عن أحبارهم ، ولذلك افتتحت بالأمر بسؤالهم عنها ، لإشعار يهود العصر النبوي بأن الله أُطلع نبيّه عليه الصلاة والسلام عليها ، وهم كانوا يكتمونها ، وذلك أن الحوادث التي تكون مواعظ للأمة فيما اجترحته من

المخالفات والمعاصي تبقي لها عَقب الموعظة أثراً قد تعيّر الأمة به ، ولكن ذلك التعيير لا يؤبه به في جانب ما يحصل من النفع لها بالموعظة ، فالأمة في خُوَيْصّتها لا يهتم قادتها ونصحاؤها إلاّ بإصلاح الحال ، وإن كان في ذكر بعض تلك الأحوال غضاضة عندها وامتعاض ، فإذا جاء حكم التاريخ العام بين الأمم تناولتْ الأمم أحوال تلك الأمة بالحكم لها وعليها ، فبقيت حوادث فلتاتها مغمزاً عليها ومعرّة تُعير بها ، وكذلك كان شأن اليهود لما أضاعوا مُلكهم ووطنهم وجاوروا أمماً أخرى فأصبحوا يكتمون عن أولئك الجيرة مَسَاوي تاريخهم ، حتى أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم فعلّمه من أحوالهم ما فيه معجزة لأسلافهم ، وما بقي معرّة لأخلافهم ، وذلك تَحدّ لهم ، ووخز على سوء تلقيهم الدعوة المحمدية بالمكر والحسد .

(180/293)

فالسؤال هنا في معنى التقرير لتقريع بني إسرائيل وتوبيخهم وَعد سوابق عصيانهم أي ليس عصيانهم إياك ببدع ، فإن ذلك شنشنة قديمة فيهم ، وليس سؤالَ الاستفادة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعلم بذلك من جانب ربه تعالى ، وهو نظير همزة الاستفهام التقريري فوزان ﴿ وأسألهم عن القرية ﴾ وزان : أعدَوْتُم في السَبْت ، فإن السؤال في كلام

العرب على نوعين أشهرهما أن يسأل السائِل عما لا يعلمه ليعلمه ، والآخران يسأل على وجه التقرير حين يكون السائِل يعلم حصول المسؤول عنه ، ويعلم المسؤول أن السائل عالم وأنه إنما سأله ليقرره .

وجملة : ﴿ واسألهم ﴾ عطف على جملة : ﴿ وإذْ قيل لهم اسكنوا هذه القرية ﴾ [الأعراف : 161] واقعة معترضة بين قصص الامتنان وقصص الانتقام الآتية في قوله : ﴿ وقَطّعنْاهم ﴾ [الأعراف : 168] ، ومناسبة الانتقال إلى هذه القصة إن في كلتا القصتين حديثا يتعلق بأهل قرية من قرى بني إسرائيل .

وتقدم ذكر القرية عند قوله تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ الآية من سورة البقرة (65) .

وهذه القرية قيل : (أُيلة) وهي المسماة اليوم (العقبة) وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر قرب شبه جزيرة طور سينا ، وهي مبدأ أرض الشام من جهة مصر ، وكانت من مملكة إسرائيل في زمان داود عليه السلام ، ووصفت بأنها حاضرة البحر بمعنى الاتصال بالبحر والقربِ منه ، لأن الحضور يستلزم القرب ، وكانت (أيلة) متصلة بخليج من البحر الأحمر وهو القلزم .

وقيل هي (طبرية) وكانت طبرية تدعى بحيرة طبرية ، وقد قال المفسرون : إن هذه القصة التي أشير إليها في هذه الآية كانت في مدة داود .

وأطلقت القرية على أهلها بقرينة قوله : إذ يعْدُون ﴾ أي أهلها .

والمراد السؤال عن اعتدائهم في السبت بقرينة قوله : ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ الخ فقوله : ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ بدل اشتمال من القرية وهو المقصود بالحكم .

(181/293)

فتقدير الكلام : وأسألهم إذ يعدُو أهل القرية في السبت و ﴿ إذْ ﴾ فيه اسم زمان للماضي ، وليست ظرفاً .

والعدوان الظلم ومخالفة الحق ، وهو مشتق من العدوْ وبسكون الدال وهو التجاوز .

والسبت علم لليوم الواقع بعد يوم الجمعة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وقُلنا لهم لا تَعدُوا في السبت ﴾ في سورة النساء (154) .

واختيار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم .

وتعدية فعل يعدون ﴾ إلى ﴿ في السبت ﴾ مؤذن بأن العدوان لأجل يوم السبت ، نظراً إلى ما دلت عليه صيغة المضارع من التكرير المقتضي أن عدوانهم يتكرر في كل سبت ، ونظراً إلى أن ذكر وقت العدوان لا يتعلق به غرض البليغ ما لم يكن لذلك الوقت مزيد اختصاص بالفعل فيعلم أن الاعتداء كان مَنوطاً بحق خاص بيوم السبت ، وذلك هو حق

عدم العمل فيه ، إذ ليس ليوم السبت حق في شريعة موسى سوى أنه يحرم العمل فيه ، وهذا العمل هو الصيد كما تدل عليه بقية القصة .

وهدف ﴿ في ﴾ للظرفية ، لأن العدوان وقع في شأن نقص حرمة السبت .

وقوله : ﴿ إذ تأتيهم حيتانهم ﴾ ظرف ل ﴿ يعْدُون ﴾ أي يَعْدون حين تأتيهم حيتانهم .

والحيتان جمع حوت ، وهو السمكة ، ويطلق الحوت على الجمع فهو مما استوى فيه المفرد والجمع مثل فُلْك ، وأكثر ما يطلق الحوت على الواحد ، والجمعُ حيتان .

وقوله : ﴿ شُرّعاً ﴾ هو جمع شارع ، صفة للحوت الذي هو المفرد ، قال ابن عباس : أي ظاهرة على الماء ، يعني أنها قريبة من سطح البحر آمنة من أن تصاد ، أي أن الله ألهمها ذلك لتكون آية لبني إسرائيل على أن احترام السبت من العمل فيه هو من أمر الله ، وقال الضحاك : ﴿ شُرَعاً ﴾ متتابعة مصطفة ، أي فهو كناية عن كثرة ما يَرد منها يومَ السبت .

(182/293)

وأحسب أن ذلك وصف من شَرَعَتْ الإبل نحو الماء أي دخلتْ لتشرب ، وهي إذا رعها الرعاة تسابقت إلى الماء فاكتظت وتراكمت وربما دخلت فيه ، فمثلت هيئة الحيتان ، في كثرتها في الماء بالنعم الشارعة إلى الماء وحسّن ذلك وجود الماء في الحالتين ، وهذا أحسن

تفسيراً .

والمعنى : أنهم يَعْدون في السبت ولم يمتثلوا أمر الله بترك العمل فيه ، ولا اتعظوا بآية إلهام الحوت أن يكون آمناً فيه .

وقوله : ﴿ يوم سبتهم ﴾ يجوز أن يكون لفظ سبت مصدَر سبتَ إذا قطع العمل بقرينة ظاهر قوله : ﴿ ويوم لا يسبتون ﴾ فإنه مضارع سَبت ، فيتطابق المثبت والمنفي فيكون المعنى : إنهم إذا حفظوا حرمة السبت ، فأمسكوا عن الصيد في يوم السبت ، جاءت الحيتان يومئذٍ شُرعاً آمنة ، وإذا بعثهم الطمع في ورفة الصيد فأعدُّوا له آلاته ، وعزموا على الصيد لم تأتهم .

ويجوز أن يكون لفظ ﴿ سبتهم ﴾ بمعنى الاسم العلم لليوم المعروف بهذا الاسم من أيام الأسبوع ، وإضافته إلى ضميرهم اختصاصه بهم بما أنهم يهود ، تعريضاً بهم لاستحلالهم حرمة السبت فإن الاسم العلم قد يضاف بهذا القصد ، كقول أحد الطائيَن:

عَلاَ زيدُنا يوم النّقا رأسَ زيدِكم . . .

بأبيض ماضي الشفرتين يَمانِ

وقول ربيعة بن ثابت الأسدي:

لشتّان ما بين اليزيدين في النّدى . . .

يَزيدِ سُلَيْم والأغَرّ ابنِ حاتم

وعلى الوجهين يجوز في قوله : ﴿ ويوم لا يسبتون ﴾ أن يكون المعنى والأيامَ التي لا يحرم العمل فيها ، أي أيام الأسبوع ، لا تأتي فيها الحيتان ، وأن يكون المعنى وأيامَ السبوت التي استحلوها فلم يكفوا عن الصيد فيها يَنقطع فيها إتيان الحيتان ، ولا يخفى أن لا يثار هذا الأسلوب في التعبير عن السبت خصوصية بلاغية ، ترمي إلى إرادة كلا المعنيين .

فالمقصود من الآية الموعظة والعبرة وليست منة عليهم ، وقرينته قوله تعالى : ﴿ كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ أي نمتحن طاعتهم بتعريضهم لداعي العصيان وهو وجود المشتهى الممنوع .

(183/293)

وجملة ﴿ كذلك نبلوهم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لجواب سؤال من يقول : ما فائدة هذه الآية مع علم الله بأنهم لا يَرعوون عن انتهاك حرمة السبت .

والإشارة إلى البلوى الدال عليها ﴿ نبلوهم ﴾ أي مثل هذا الابتلاء العظيم نبلوهم ، وقد تقدم القول في نظيره من قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) .

وأصل البلوى الاختبار ، والبلوى إذا أسندت إلى الله تعالى كانت مجازاً عقلياً أي ليبلو

الناس تمسكهم بشرائع دينهم .

والباء للسببية و (ما) مصدرية ، أي بفسقهم ، أي توغلهم في العصيان أضراهم على الزيادة منه ، فإذا عرض لهم داعِيهِ خفُّوا إليه ولم يرقبوا أمر الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(184/293)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾

هنا سؤال عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، ونعلم أن القرية الأولى التي دخلوها هي " بيت المقدس " ولم تكن على البحر ، والقرية التي كانت على البحر هي " أيلة " أو " مدين " أو " طبرية " ، المهم أنها كانت " حاضرة البحر " أي قريبة من البحر ومشرفة عليه ؛ لأننا نقول فلان حضر ، أي كان بعيداً فاقترب . فمثل الإِسكندرية يمكن أن نسميها حاضرة البحر .

وقوله : " واسألهم " والسؤال هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوجه السؤال إلى أهل الكتاب ، ويطلب منهم أن ينظروا في كتبهم ليعرفوا أن ما يقوله هو وحي من الله إليه

؛ لأنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ في كتاب ، وإنما علّمه من أرسله ، إنّه صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يَعْلَم منهم ، بل يريد أن يُعْلِمَهم أنه يعلم ، وهم يعلمون أنه لا مصدر له كعلم سائر البشر ؛ لا جلس على معلم ولا قرأ في كتاب ولذلك تجد " ما كُنَّات " القرآن أي قوله الحق : " ما كنت " و " ما كنت " و " ما كنت " و " ما كنت " مثل قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَا آلى مُوسَى الأمر . . . ﴾ [القصص : 44]

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . . . ﴾ [القصص : 45]

ومثل قوله تعالى : ﴿ . . . وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : 44]

(185/293)

إذن فأنت يا رسول الله لم تكن معهم لتقول ما حدث وحصل لهم ، بل إن ذلك موجود عندهم في كتبهم ، إذن فالذي علمك هو من أرسلك . كذلك هنا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ المبطلون ﴾ [

العنكبوت : 48]

وفي هذا القول أمر من الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أنه سبحانه قد علمه وأعلمه بما لا يستطيعون إنكاره ليتيقنوا أن الله يعلمه ليؤمنوا به . ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر . . . ﴾ [الأعراف : 163]

وكلمة " واسألهم " تحل لنا إشكالات كثيرة ، مثال ذلك حديث الإِسراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء بصلاة إبراهيم .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً مثله قط ، فرفعه الله إليّ أنظر إليه ، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به ، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلي وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلي أقرب الناس شبها به عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به صاحبكم – يعني نفسه – فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل : يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأني بالسلام " .

وتأتي آية في القرآن تقول : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ . . . ﴾ [الزخرف : 45]

والأمر لرسول الله عليه الصلاة والسلام أن يسأل رسل الله من قبله ، ومتى يسألهم ؟ لابد أن توجد فرصة ليلتقوا فيسأل . إذن حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه التقى بالأنبياء وكلمهم وصلى بهم فالخبر مصدق لأنه أدى أمر الله : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ . والسؤال هنا سؤال للتقرير والتقريع والتوبيخ : وما قصة القرية التي كانت حاضرة البحر ؟

لقد قلنا إن حاضرة البحر أي القريبة من البحر ، ونفهم أن ما تتعرض له الآية من سؤالهم يشير إلى أنّ للبحر فيه مدخلاً ؛ لأن المسألة متعلقة بالحيتان والسمك والصيد ؛ لذلك لابد أن تكون بلدة ساحلية . ﴿ . . . إِذْ يَعْدُونَ فِي السبت إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : 163] وحيتان جمع حوت ، مثلما يجمعون " نُوناً " – وهو الحوت أيضاً – على " نينان " ؛ وهو صنف من الأسماك . لقد حرم الله عليهم العمل في يوم معين لينقطعوا فيه للعبادة وهو يوم " السبت " ، ومازالت عندهم بعض هذه العادات ، حتى إن واحداً منهم زار أمريكا ورفض أن يركب سيارة يوم السبت لأنه يوم عطلة ، ورفض كذلك أن يعمل حتى جاء اليوم التالي . وشاء الحق سبحانه أن يؤدبهم حينما ارتكبوا أشياء مخالفة للمنهج ، وسلب منهم وقتاً للعمل وقال : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . . . ﴾ [

النساء : 160]

وفي هذه مُثُل وعِبَر لأي منحرف ، ولكل منحرف نقول : إياك أن تظن أنك بانحرافك عن منهج الله ستأخذ أشياء من وراء ربنا وتسرقها ، لا ؛ لأن ربنا قادر أن يبتيله بعقاب يفوق ما أخذ آلاف المرات ، فالمرتشي مثلاً يفتح له الله أبواباً من الأمراض ومن العلل ومن المصائب فيضيع عليه كل شيء أخذه .

(187/293)

إذن فقد استحل بنو إسرائيل أشياء محرمة ، فابتلاهم الله بأن يحرمهم من أشياء كانت حلالاً لهم . وهكذا نرى أن ما وقع عليهم من عقاب كان بظلمهم لأنفسهم ؛ لأنهم انشغلوا بالدنيا وبالمادة ، فحرم عليهم العمل في يوم السبت ، وهؤلاء الذين كانوا يقيمون قريباً من حاضرة البحر يبتليهم الله البلاء العظيم ، ويرون السمك في المياه وهو يرفع زعانفه كشراع المركب ، وتطل عليهم أشرعة الحيتان وهم في بيوتهم ، وهذا ابتلاء من ربهم لهم وعقاب ؛ لأنهم ممنوعون من صيده ، ويرون هذا السمك أمامهم في يوم السبت ، لكن في بقية الأيام التي يباح فيها العمل ، كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة : ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

وهنا قالوا : ما دام ربنا قد حرم علينا أن نصطاد يوم السبت فعلينا أن نحتال . وصنعوا كيساً من السلك المضفر والذي نسميه " الجوبية " وهم أول من صنعوا هذه الجوبية بشكل خاص ، ويدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتي السمك يوم السبت في الجوبية ويستخرجونه يوم الأحد . وفي هذا اعتداء . أو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج وفي هذا مكر . وتمكر لهم السماء بحيلة أشد . لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج . وخرجوا عن الطاعة ، واستحلوا أشياء حرمها الله ؛ لذلك يحرم الله عليهم أشياء أحلها لغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(188/293)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " عَنِ القَرْيَةِ " لابُدَّ من مضافٍ محذوفٍ ، أي : عن خبر القرية ، وهذا المحذوفُ هو النَّاصِبُ لهذا الظرف وهو قوله " إذْ يَعْدُون " .

وقيل : هو منصوب بـ " حَاضِرَة " .

قال أبو البقاء : وجوَّزَ ذلك أنها كانت موجودةً في ذلك الوقت ثم خربت .

وقدر الزمخشريُّ : المُضاف " أهل " أي : عن أهل القرية ، وجعل الظرف بدلاً من " أهل " المحذوف فإنَّهُ قال : " إذْ يَعْدُون " بدل من القرية ، والمرادُ بالقرية : أهلُها كأنه قيل : واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في البيت ، وهو من بدل الاشتمال .

قال أبو حيَّان وهذا لا يجوزُ ؛ لأن " إذْ " من الظُّرُوف التي لا تتصرَّفُ ، ولا يدخل عليها حرفُ جر ، وجعلها بدلاً يجَوِّزُ دخول " عن " عليها ؛ لأنَّ البدل هو على نِيَّةِ تكرار العامل ولو أَدْخَلْتَ " عن " عليها لم يجز ، وإنَّما يتصرَّف فيها بأن تُضيف إليها بعض الظُّروف الزَّمانية نحو : يوم إذ كان كذا ، وأمَّا قول من ذهب إلى أنَّها تكونُ مفعولةً بـ " اذكر " فقولُ مَنْ عَجَزَ عن عن تأويلها على ما ينبغي لها من إبقائها ظرفاً .

وقال الحوفيُّ : " إذ " متعلقةٌ بـ " سَلْهم " .

(189/293)

قال أبو حيان : وهذا لا يتصوَّر ، لأن " إذْ " لما مضى ، و " سَلْهم " مستقبلٌ ، لو كان ظرفاً مستقبلاً لم يَصِحَّ المعنى ؛ لأنَّ العادين – وهم أهل القريةِ – مفقودون فلا يمكن سُؤالهم والمسئول غير أهل القرية العادين .

وقرأ شهر بن حوشب وأبو نهيك " يَعَدُّون " بفتح العين وتشديد الدَّالِ ، وهذه تُشبه قراءة

نافع في قوله ﴿ لاَ تَعْدُواْ فِي السبت ﴾ [النساء : 154] والأصل : تَعْتَدوا ، فأدغم التاء في الدال لمقاربتها لها .

وقُرِىء "يُعِدُّونَ" بضمِّ الياء وكسر العين وتشديد الدال من : أعَدَّ يُعِدُّ إعداداً إذ هَيَّأ آلاته ، لما ورد أنهم كانوا مأمورين في السبت بالعبادةِ ، فيتركونها ويُهَيِّئُونَ آلاتِ الصَّيد .

قوله : "إذْ تَأتيهم" العامل فيه "تَعْجون" أي : إذَا عَدَوا إذ أتَتْهُمْ ؛ لأنَّ الظَّرْفَ الماضي يَصْرِفُ المضارع إلى المضيِّ .

وقال الزمخشريُّ : و"إذ تأتيهم" بدلٌ من "إذ يَعْدُونَ" بدل بعد بدل ، يعني : أنه بدلُ ثانٍ من القريةِ على ما تقدَّم عنه ، وقد تقدَّم ردُّ أبي حيان عليه فيعود هنا .

و"حِيتَان" جمع "حُوت" ، وإنَّما أبدلَت الواوُ يَاءً ، لسكونها وانكِسَارِ ما قبلها ، ومثلُهُ نُون ونِينَان والنُّونُ : الحُوتُ .

قوله "شُرَّعاً" حالٌ من "حِيتَانُهُمْ" وشُرَّعٌ : جمعُ شارع .

وقرأ عمر بن عبد العزيز : "يَوْمَ إسباتهم" وهو مصدر "أسبت" إذا دخل في السَّبْت .

وقرأ عاصم بخلاف عنه وعيسى بن عمر "لاَ يَسْبُتُونَ" .

وقرأ عليٌّ والحسنُ وعاصمٌ بخلاف عنه "لاَ يُسْبِتُونَ" بضم الياء وكسر الباء ، من أسْبَت ، أي : دخل في السبت .

وقُرِىء : "يُسْبَتُونَ" بضمِّ الياء وفتح الباء مبنياً للمفعول ، نقلها الزمخشريُّ عن الحسن .

قال : أي لا يُدَار عليهم السبت ولا يؤمَرُونَ بن يَسْبِتُوا ، والعامل في : " ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ ﴾ قوله : " لا تَأْتيهمْ " أي : لا تأتيهم يوم لا يَسْبِتُونَ ، وهذا يَدُلُّ على جواز تقديم معمول المنفي بـ " لا " عليها وقد تقدم فيه ثلاث مذاهب : الجواز مطلقاً كهذه الآية ، والمنع مطلقاً ، والتفصيل بين أن يكون جواب قسم فيمتنع أوْ لا فيجوز .

ومعنى شُرَّعاً أي ظاهرة على الماء كثيرة .

من شرع فهو شارع ، ودار شارعة أي : قريبة من الطريق ، ونجوم شارعة أي : دنت من المغيب ، وعلى هذا فالحيتان كانت تَدْنُوا من القرية بحيث يمكنهم صيدها .

وقال الضَّحَّاكُ : متتابعة .

قوله : " كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ " .

ذكر الزجاجُ ، وابن الأنباريِّ في هذه الكافر ومجرورها وجهين :

أحدهما : قال الزَّجَّاج : أي : مثل هذا الاختبار الشَّديد نختبرهم ، فموضع الكاف نصبٌ بـ " نَبْلُوهُم " .

قال ابن الأنباري : ذلك إشارةٌ إلى ما بعده ، يريد : نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ كذلك البلاء

الذي وقع بهم في أمر الحيتان ، وينقطع الكلام عند قوله " لا تَأتيهمْ " .

الوجه الثاني : قال الزجاج ويحتمل أن يكون – على بُعْدٍ – أن يكون : ويَوْمَ لا يَسبتُون لا تأتيهم كذلك أي لا تأتيهم شُرَّاعاً ، ويكون " نَبْلُوهُم " مستأنفاً .

قال أبو بكر : وعلى هذا الوجه كذلك راجعةٌ إلى الشُّرُوع في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً ﴾ والتقدير : ويَوْمَ لا يسبتُونَ لا تأتيهم كذلك الإتيانِ بالشّروع ، وموضعُ الكاف على هذا نَصْبٌ بالإتيان على الحالِ ، أي : لا تأتي مثل ذلك الإتيان .

قوله : " بِمَا كَانُوا " الباءُ سببيةٌ و" ما " مصدريةٌ ، أي : نَبْلُوهم بسبب فسقهم ، ويضعُفُ أن تكون بمعنى " الذي " لتكلُّفِ حذفِ العائد على التدريج .

(191/293)

فقال : وأفصحُ اللغات أن ينتصبَ الظرف مع السبت والجمعة فتقول : اليوم السَّبْتُ ، واليوم الجُمعَةُ فتنصب اليوم على الظَّرْلإِ ، وترفع مع سائر الأيام فتقول : اليومُ الأحدُ واليومُ الأربعاءُ لأَنَّهُ لا معنى للفعل فيهما فالمبتدأ هو الخبر فترفع .

قال شهابُ الدّين : هذه المسألة فيها خلافٌ بين النَّحويين ، فالجمهورُ كما ذكر يوجبون الرفع ؛ لأَنَّه بمنزلة قولك : اليومُ الأولُ ، اليومُ الثاني .

وأجاز الفراء وهشام النَّصبَ ، قالا : لأنَّ اليوم بمنزلة : الآن وليست هذه المسألةُ مختصَّةً بالجمعة والسبت بل الضابطُ فيها : أنه إذا ذُكر " اليوم " مع ما يتضمن عملاً أو حدثاً جاز الرفع والنصب نحو قولك : اليوم العيد ، اليوم الفطر ، اليوم الأضحى .

كأنك قلت : اليوم يحدث اجتماع وفطر وأضحية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 356.359 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) ﴾

كان دينهم الأخذ بالتأويل ، وذلك رَوَغَانٌ - في التحقيق ، وإن الحقائق تأبى إلا الصدق ، وإنَّ التعريج في أوطان الحظوظ والجنوحَ إلى محتملات الرُّخَص فسْخٌ لأكيد مواثيق الحقيقة ، ومن شاب شوّبَ له ، ومن صَفَّى صفي له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 581.580 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والتسعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/294)

الجزء الرابع والتسعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 164 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 166 ﴾ من نفس السورة

(4/294)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر أن الفسق ديدنهم ، أكده بقوله عطفاً على ﴿ إذ يعدون ﴾ [الأعراف : 163] ﴿ وإذ ﴾ أي واسألهم عن خبرهم حين ﴿ قالت أمة منهم ﴾ أي جماعة ممن يعتبر ويقصد من الواعظين الصالحين الذين وعظوا حتى أيسوا لأمة أخرى منهم لا يقلعون عن الوعظ تخويفاً للموعوظين بما يتجاوزون به ﴿ لم تعظون قوماً ﴾ أي معتمدين على قوتهم ﴿ الله ﴾ أي الذي له الملك كله ﴿ مهلكهم ﴾ أي لا محالة لأنهم لا ينتهون عن الفساد ولا يتعظون بالمواعظ ﴿ أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ أي بعظيم ما يرتكبونه وتماديهم فيه

﴿ قالوا ﴾ أي الأمة الأخرى من الواعظين : وعظنا ﴿ معذرة إلى ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بالحفظ عما وقعوا فيه من الذنب والإقبال على الوعظ حتى إذا سئلنا عن أمرنا في عصيانهم نقول : فعلنا في أمرهم جهدنا ، هذا إن لم يرجعوا ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ أي وليكون حالهم حال من يرجى خوفه لله فيرجع عن غيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 141 ﴾

(5/294)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ ﴾ وحكمه حكمه في الإعراب وقوله : ﴿ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظة أولئك الصيادين حتى أيسوا من قبولهم لأقوام آخرين ما كانوا يقلعون عن وعظهم .

وقوله : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أي مخترمهم ومطهر الأرض منهم ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ لتماديهم في الشر ، وإنما قالوا ذلك لعلمهم أن الوعظ لا ينفعهم وقوله : ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : قرأ حفص عن عاصم ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ بالنصب والباقون بالرفع ، أما من نصب ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ فقال الزجاج معناه : نعتذر معذرة ، وأما من رفع فالتقدير : هذه معذرة أو قولنا معذرة وهي خبر لهذا المحذوف .

البحث الثاني : المعذرة مصدر كالعذر ، وقال أبو زيد : عذرته أعذره عذراً ومعذرة ، ومعنى عذره في اللغة أي قام بعذره ، وقيل : عذره ، يقال : من يعذرني أي يقوم بعذري ، وعذرت فلاناً فيما صنع أي قمت بعذره ، فعلى هذا معنى قوله : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ أي قيام منا بعذر أنفسنا إلى الله تعالى ، فإنا إذا طولنا بإقامة النهي عن المنكر .

قلنا : قد فعلنا فنكون بذلك معذورين ، وقال الأزهري : المعذرة اسم على مفعلة من عذر يعذر وأقيم مقام الاعتذار .

كأنهم قالوا : موعظتنا اعتذار إلى ربنا .

فأقيم الاسم مقام الاعتذار ، ويقال : اعتذر فلان اعتذاراً وعذراً ومعذرة من ذنبه فعذرته ، وقوله : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي وجائز عندنا أن ينتفعوا بهذا الوعظ فيتقوا الله

ويتركوا هذا الذنب .

إذا عرفت هذا فنقول : في هذه الآية قولان :

(6/294)

القول الأول : أن أهل القرية منهم من صاد السمك وأقدم على ذلك الذنب ومنهم من لم يفعل ذلك ، وهذا القسم الثاني صاروا قسمين : منهم من وعظ الفرقة المذنبة ، وزجرهم عن ذلك الفعل ، ومنهم من سكت عن ذلك الوعظ ، وأنكروا على الواعظين وقالوا لهم : لم تعظوهم ، مع العلم بأن الله مهلكهم أو معذبهم ؟ يعني : أنهم قد بلغوا في الإصرار على هذا الذنب إلى حد لا يكادون يمنعون عنه ، فصار هذا الوعظ عديم الفائدة عديم الأثر ، فوجب تركه .

والقول الثاني : أن أهل القرية كانوا فرقتين : فرقة أقدمت على الذنب ، وفرقة أحجموا عنه ووعظوا الأولين ، فلما اشتغلت هذه الفرقة بوعظ الفرقة المذنبة المتعدية المقدمة على القبيح ، فعند ذلك قالت الفرقة المذنبة للفرقة الواعظة ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ بزعمكم ؟ قال الواحدي : والقول الأول أصح ، لأنهم لو كانوا فرقتين وكان قوله

: ﴿ مَعْذِرَةً إلى ربّكُمْ ﴾ خطاباً من الفرقة الناهية للفرقة المعتدية لقالوا : وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 32.33 ﴾

(7/294)

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ ﴾

أي عصبة وجماعة منهم وهي الظلمة للأمة الواعظة ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ لأن الواعظة نهوهم عن أخذ الحيتان ، وخوفوهم ، فرد عليهم الظلمة ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إلى ربّكُمْ ﴾ قرأ عاصم في إحدى الروايتين ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ بالنصب يعني : نعتذر إلى ربكم .

وقرأ الباقون ﴿ مَعْذِرَةٌ ﴾ بالضم يعني : هي معذرة يعني : لا ندع الأمر بالمعروف حتى نكون معذورين عند الله تعالى ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يعني : لعلهم ينتهون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(8/294)

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

واختلف العلماء في الفرقة الذين قالوا : (لِمَ تعظون قوماً) كانت من الناجية أو من الهالكة ؟ فقال بعضهم : كانت من الناجية لأنّها كانت من الناهية .

وقال آخرون : كانت من الفرقة الهالكة ، لأنّهم كانوا من الخاطئة وذلك أنهم لما نهوا وقالوا لهم انتهوا عن هذا العمل قبل أن ينزل بكم العذاب فإنّا قد علمنا أن الله تعالى منزل عليكم بأسه إن لم تنتهوا قالوا لهم ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ إذ علمتم أنّ الله معذبهم ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ أي هذه معذرة ، وقرأ حفص : معذرة أي يفعل ذلك معذرة ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ صيد الحيتان والصواب أنها كانت من الفرقة الناجية وأن هذا الكلام من قول المؤمنين بعضهم لبعض لأنّه لو كان الخطاب للمعتدين لقالوا : ولعلكم تتّقون يدلّ عليه قول يمان بن رئاب نحن الطائفتان اللذان قالوا ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ والذين قالوا ﴿ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ فأهلك الله أهل المعصية الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة وخنازير .

وقال ابن عباس : ليت شعري ما فعل هؤلاء الذين قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ قال عكرمة : فقلت له : جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم

وقالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ فلم أزل به حتّى عرّفته أنهم قد نجوا فكساني حلّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(9/294)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

قال جمهور المفسرين : إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق ، فرقة عصت وصادت ، وفرقة نهت وجاهرت وتكلمت واعتزلت ، وفرقة اعتزلت ولم تعص ولم تنه ، وإن هذه الفرقة لما رأت مجاهرة الناهية وطغيان العاصية وعتوها قالت للناهية ﴿ لم تعظون قوماً ﴾ يريدون العاصية ﴿ الله مهلكهم أو معذبهم ﴾ على غلبة الظن وما عهد من فعل الله حينئذ بالأمم العاصية ، فقالت الناهية موعظتنا معذرة إلى الله ، ثم اختلف بعد هذا فقالت فرقة إن الطائفة التي لم تعص ولم تنه هلكت مع العاصية عقوبة على ترك النهي ، قاله ابن عباس ، وقال أيضاً : ما أدري ما فعل بهم ، وقالت فرقة بل نجت مع الناهية لأنها لم تعص ولا رضيت قاله عكرمة والحسن وغيرهما ، وقال ابن الكلبي فيما أسند عنه الطبري إن بني إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين ، فرقة عصت وجاهرت وفرقة نهت وغيرت واعتزلت ،

وقالت للعاصية إن الله يهلكهم ويعذبهم ، فقالت أمة من العاصين للناهين على جهة الاستهزاء لم تعظون قوماً قد علمتم أن الله مهلكهم أو معذبهم .

قال القاضي أبو محمد : والقول الأول أصوب ، وتؤيده الضمائر في قوله : ﴿ إلى ربكم ولعلهم ﴾ فهذه المخاطبة تقتضي مخاطِباً ومخاطباً ومكنياً عنه ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي " معذرةٌ " بالرفع ، أي موعظتنا ، معذرة أي إقامة عذر ، وقرأ عاصم في بعض ما روي عنه وعيسى بن عمر وطلحة بن مصرف " معذرةً " بالنصب أي وعظنا معذرة ، قال أبو علي حجتها أن سيبويه قال : لو قال رجل لرجل معذرة إلى الله وإليك من كذا لنصب .

(10/294)

قال القاضي أبو محمد : الرجل القائل في هذا المثال معتذر عن نفسه وليس كذلك الناهون من بني إسرائيل فتأمل ، ومعنى ﴿ مهلكهم ﴾ في الدنيا ﴿ أو معذبهم ﴾ في الآخرة ، وقوله : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ يقتضي الترجي المحض ، لأنه من قول آدميين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت أُمَّةٌ منهم ﴾

قال المفسرون : افترق أهل القرية ثلاث فرق ، فرقة صادت وأكلت ، وفرقة نهت وزجرت ، وفرقة أمسكت عن الصيد ، وقالت للفرقة الناهية : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ لاموهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير مقلعين ، فقالت الفرقة الناهية : ﴿ معذرةٌ إلى ربكم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "معذرةُ" رفعاً ، أي : موعظتُنا إياهم معذرةٌ ، والمعنى : أن الأمر بالمعروف واجب علينا ، فعلينا موعظة هؤلاء عذراً إلى الله .

وقرأ حفص عن عاصم : "معذرةً" نصباً ، وذلك على معنى نعتذر معذرةً .

﴿ ولعلهم يتقون ﴾ أي : وجائز أن ينتفعوا بالموعظة فيتركوا المعصية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(11/294)

وقال القرطبى :

وقرأ عيسى وطلحة "معذِرةً" بالنصب .

ونصبُه عند الكسائيّ من وجهين : أحدهما على المصدر .

والثاني على تقدير فعلنا ذلك معذرة .

وهي قراءة حَفْص عن عاصم .

والباقون بالرفع : وهو الاختيار ؛ لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذاراً مستأنَفاً من أمر ليمُوا عليه ، ولكنهم قيل لهم : لِم تَعظون ؟ فقالوا : موعظتنا معذرة .

ولو قال رجل لرجل : معذرةً إلى الله وإليك من كذا ، يريد اعتذاراً ؛ لنصب .

هذا قول سيبويه .

ودلّت الآية على القول بسدّ الذَّرائع .

وقد مضى في "البقرة" .

ومضى فيها الكلام في الممسوخ هل ينْسُل أم لا ، مبيّناً .

والحمد لله .

ومضى في "آل عمران" و"المائدة" الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر .

ومضى في "النساء" اعتزال أهل الفساد ومجانبتهم ، وأن من جالسهم كان مثلهم ؛ فلا معنى للإعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(12/294)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت أمة منها لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ﴾

اختلفوا في القائلين هذه المقالة فقال بعض المفسرين إن أهل القرية افترقوا ثلاث فرق اعتدت وأصابت الخطيئة وفرقة نهتهم عن ذلك الفعل وفرقة أمسكت عن الصيد وسكتت عن موعظة المعتدين .

وقالوا للناهين : لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ، يعني أنهم لاموهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير متعظين ولا منزجرين فقالت الفرقة الناهية للذين لاموهم .

معذرة إلى ربكم يعني أن موعظتنا إياهم معذرة إلى ربكم لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب علينا فموعظتنا لهؤلاء عذر لنا عند الله ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ أي : وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم فيه من الصيد وقال بعضهم : إن أهل القرية كانوا فرقتين فرقة نهت وزجرت عن السوء وفرقة عملت بالسوء فعلى هذا يكون الذين قالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم الفرقة المعتدية وذلك أن الفرقة الناهية قالوا للفرقة المعتدية انتهوا قبل أن ينزل بكم عذاب شديد إن لم تنتهوا عما أنتم فيه فقالت لهم الفرقة المعتدية : لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ والمعنى : لم تعظونا وقد

علمتم أن الله مهلكنا أو منزل بنا عذابه ، والقول الأول أصح لأنهم لو كانوا فرقتين لكان قولهم معذرة إلى ربكم خطاباً من الناهية للمعتدية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(13/294)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربّكم ولعلهم يتقون ﴾ .

أي جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين جرّبوا الوعظ فيهم فلم يروه يجدي والظاهر أن القائل غير المقول لهم ﴿ لم تعظون قوماً ﴾ فيكون ثلاث فرق اعتدوا وفرقة وعظت ونهت وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعتد وهذه الطائفة غير القائلة للواعظة ﴿ لم تعظون ﴾ ، وروي أنهم كانوا فرقتين فرقة عصت وفرقة نهت ووعظت وأن جماعة من العاصية قالت للواعظة على سبيل الاستهزاء ﴿ لم تعظون قوماً ﴾ قد علمتم أنتم أنّ الله ﴿ مهلكهم ﴾ أو معذبهم .

(14/294)

قال ابن عطية : والقول الأوّل أصوب ويؤيده الضمائر في قوله ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ فهذه المخاطبة تقتضي مخاطباً انتهى ويعني أنه لو كانت العاصية هي القائلة لقالت الواعظة ﴿ معذرة إلى ربهم ولعلهم ﴾ أو بالخطاب ﴿ معذرة إلى ربكم ﴾ ولعلكم ﴿ تتقون ﴾ ومعنى ﴿ مهلكهم ﴾ مخترمهم ومطهّر الأرض منهم أو معذبهم عذاباً شديداً لتماديهم في العصيان ويحتمل أن يكون العذاب في الدنيا ويحتمل أن يكون في الآخرة وإن كانوا ثلاث فرق فالقائلة : إنما قالت ذلك حيث علموا أن الوعظ لا ينفع فيهم لكثرة تكرره عليهم وعدم قبولهم له ويحتمل أن يكونا فرقتين عاصية وطائعة وإنّ الطائعة قال بعضهم لبعض لما رأوا أنّ العاصية لا يجدي فيها الوعظ ولا يؤثر شيئاً : ﴿ لم تعظون ﴾ ؟ وقرأ الجمهور ﴿ معذرة ﴾ بالرفع أي موعظتنا إقامة عذر إلى الله ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط ولطمعنا في أن يتقوا المعاصي ، وقرأ زيد بن علي وعاصم في بعض ما روى عنه وعيسى بن عمر وطلحة بن مصرف ﴿ معذرة ﴾ بالنصب أي وعظناهم معذرة ، قال سيبويه : لو قال رجل لرجل معذرة إلى الله وإليك من كذا لنصب انتهى ، ويختار هنا سيبويه الرفع قال لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذاراً مستأنفاً ولكنهم قيل : لهم ﴿ لم تعظون ﴾ قالوا : موعظتنا معذرة ، وقال أبو البقاء : من نصب فعلى

المفعول له أي وعظنا للمعذرة ، وقيل : هو مصدر أي نعتذر معذرة وقالهما الزمخشري .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(15/294)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ﴾ عطفٌ على إذ يعدون مَسوقٌ لتماديهم في العدوان وعدمِ انزجارِهم عند بعد العظاتِ والإنذارات ﴿ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي جماعةٌ من صلحائهم الذين ركبوا في عِظتهم متنَ كلِّ صعبٍ وذَلول حتى يئسوا من احتمال القبولِ لآخرين لا يُقلِعون عن التذكير رجاءً للنفع والتأثير مبالغةً في الإعذار وطمعاً في فائدة الإنذار ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أي مخترِمُهم بالكلية ومطهرُ الأرض منهم ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ دون الاستئصال بالمرة وقبل مهلكهم مخزيهم في الدنيا أو معذبُهم في الآخرة لعدم إقلاعِهم عما كانوا عليه من الفسق والطغيانِ والترديد لمنع الخلوّ دون منع الجمعِ فإنهم مهلَكون في الدنيا ومعذَّبون في الآخرة ، وإيثارُ صيغةِ اسمِ الفاعل مع أن كلاًّ من الإهلاك والتعذيب مترقَّبٌ للدِلالة على تحققهما وتقرُّرِهما ألبتةَ ، كأنهما واقعان وإنما قالوه مبالغةً في أن الوعظ لا ينجع فيهم أو

ترهيباً للقوم أو سؤالاً عن حكمة الوعظِ ونفعِه ، ولعلهم إنما قالوه بمحضر من القوم حثاً لهم على الاتعاظ ، فإن بتَّ القولِ بهلاكهم وعذابهم مما يُلقي في قلوبهم الخوفَ والخشيةَ ، وقيل : المرادُ طائفةٌ من الفِرقة الهالكةِ أجابوا به وُعّاظَهم رداً عليهم وتهكماً بهم وليس بذاك كما ستقف عليه ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الوعاظُ ﴿ مَعْذِرَةً إلى ربّكُمْ ﴾ أي نعظُهم معذرةً إليه تعالى على أنه مفعول له وهو الأنسب بظاهر قولِهم لمَ تعِظون ، أو نعتذر معذرةً على أنه مصدرٌ لفعل محذوفٍ ، وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ ، أي موعظتُنا معذرةٌ إليه تعالى حتى لا نُنسَبَ إلى نوع تفريطٍ في النهي عن المنكر ، وفي إضافة الربِّ إلى ضمير المخاطَبين نوعُ تعريضٍ بالسائلين ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ عطفٌ على معذرةً أي ورجاءً لأن يتقوا بعضَ التقاة ، وهذا صريحٌ في أن القائلين : (لمَ تعظون) الخ ، ليسوا من الفِرقة الهالكةِ وإلا لوجب الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(16/294)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ﴾ عطف على ﴿ إذ يعدون ﴾ [الأعراف : 163] مسوق لبيان

تماديهم في العدوان وعدم انزجارهم عنه بعد العظات والإنذارات .

قال العلامتان الطيبي والتفتازاني : ولا يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ إذ تأتيهم ﴾ [الأعراف : 163] وإن كان أقرب لفظاً لأنه إما بدل أو ظرف فيلزم أن يدخل هؤلاء القائلون في حكم أهل العدوان وليس كذلك ، وهذا على ما قيل على تقدير الظرفية ظاهر ، وأما على تقدير الإبدال فلأن البدل أقرب إلى الاستقلال ، واستظهر في بيان وجه ذلك ان زمان القول بعد زمان العدوان ومغاير له واعتبار كونه ممتدا كسنة مثلا يقع فيه ذلك كله تكلف من غير مقتض ، والقول بأن العطف على ذاك يشعر أو يوهم أن القائلين من العادين في السبت لا من مطلق أهل القرية فيه ما فيه ﴿ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي جماعة من صلحائهم الذين لم يألوا جهداً في عظتهم حين يئسوا من احتمال القبول لآخرين لم يقلعوا عن التذكير رجاء النفع والتأثير ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أي مستأصلهم بالكلية ومطهر وجه الأرض منهم ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ دون الاستئصال بالمرة ، وقيل مهلكهم في الدنيا أو معذبهم في الآخرة لعدم إقلاعهم عما هم عليه من الفسق والترديد لمنع الخلو على هذا ، وإيثار صيغة اسم الفاعل في الشقين للدلالة على تحقق كل من الاهلاك والتعذيب وتقررهما البتة كأنهما واقعان ، وإنما قالوا ذلك مبالغة في أن الوعظ لا ينجع فيهم إذ المقصود لا تعظوا أو أتعظون فعدل عنه إلى السؤال عن السبب لاستغرابه لأن الأمر العجيب لا يدري سببه أو سؤالا عن حكمة الوعظ ونفعه ، وقيل : إن هذا تقاول وقع بين الصلحاء الواعظين كأنه

قال بعضهم لبعض : لم نشتغل بما لا يفيد ، ويحتمل على كلا القولين أن ذلك صدر من القائل بمحضر من القوم فيكون متضمناً لحثهم على الاتعاظ فإن بت القول بهلاكهم أو عذابهم مما يلقي في قلوبهم الخوف والخشية ، وقيل قائلو ذلك المعتدون في السبت قالوا : تهكما بالناصحين المخوفين لهم بالهلاك والعذاب ، وفيه بعد كما ستقف عليه قريباً إن شاء الله تعالى ﴿ قَالُواْ ﴾ أي المقول لهم ذلك

(17/294)

﴿ مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُمْ ﴾ أي نعظهم معذرة إليه تعالى على أنه مفعول له وهو الأنسب بظاهر قولهم : لم تعظون أو نعتذر معذرة على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف ، وقيل : هو مفعول به للقول وهو وإن كان مفرداً في معنى الجملة لأنه الكلام الذي يعتقذر به .

والمعذرة في الأصل بمعنى العذر وهو التنصل من الذنب ، وقال الأزهري : إنه بمعنى الاعتذار ، وعداه بإلى لتضمنه معنى الانهاء والإبلاغ ، وفي إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين نوع تعريض بالسائلين ، وهذا الجواب على القولين الأولين ظاهر وعلى الأخير قيل إنه من تلقى السائل بغير ما يترقب فهو من الأسلوب الحكيم ، وقرأ من عدا حفص .

والمفضل ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي موعظتنا معذرة إليه تعالى

حتى لا ننسب إلى نوع تفريط في النهي عن المنكر ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ عطف على معذرة أي ورجاء أن يتقوا بعض التقاة فإن اليأس المحقق لا يحصل إلا بالهلاك ، قال شيخ الإسلام : وهذا صريح في أن القائلين لم تعظون الخ ليسوا من الفرقة الهالكة وإلا لوجب الخطاب ا ه . وقد يوجه ذلك على ذلك القول بأنه التفات أو مشاكلة لتعبيرهم عن أنفسهم في السؤال بقوم وإما لجعله باعتبار غير الطائفة القائلين إلا أن كل ذلك خلاف الظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(18/294)

وقال ابن عاشور :

جملة : ﴿ وإذ قالت أمة منهم ﴾ عطف على قوله : ﴿ إذ يعدون ﴾ [الأعراف : 163] والتقدير : واسألَ بني إسرائيل إذ قالت أمة منهم ، فإذْ فيه اسم زمان للماضي وليست ظرفاً ، ولها حكم ﴿ إذْ ﴾ [الأعراف : 163] أختها ، المعطوفة هي عليها ، فالتقدير : واسألهم عن وقت قالت أمة ، أي عن زمنَ قول أمة منهم ، والضمير المجرور بمن عائِد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ أسألهم ﴾ [الأعراف : 163] وليس عائداً إلى القرية ، لأن المقصود توبيخ بني إسرائيل كلهم ، فإن كان هذا القول حصل في تلك القرية كما ذكره

المفسرون كان غير منظور إلى حصوله في تلك القرية ، بل منظوراً إليه بأنه مظهر آخر من مظاهر عصيانهم وعتوهم وقلة جدوى الموعظة فيهم ، وأن ذلك شأن معلوم منهم عند علمائهم وصلحائهم ، ولذلك لما عطفت هذه القصة أعيد معها لفظ اسم الزمان فقيل : ﴿ وإذْ قالت أمة ﴾ ولم يقل : وقالت أمة .

والأمة الجماعة من الناس المشتركة في هذا القول ، قال المفسرون : إن أمة من بني إسرائيل كانت دائبة على القيام بالموعظة والنهى عن المنكر ، وأمة كانت قامت بذلك ثم أيست من إتعاظ الموعوظين وأيقنت أن قد حقت على الموعوظين المصمين آذانهم كلمة العذاب ، وأمة كانت سادرة في غلوائها ، لا ترعوي عن ضلالتها ، ولا ترقب الله في أعمالها .

وقد أجملت الآية ما كان من الأمة القائلة إيجازاً في الكلام ، اعتماداً على القرينة لأن قولهم : ﴿ الله مهلكهم ﴾ يدل على أنهم كانوا منكرين على الموعوظين ، وإنهم ما علموا أن الله مهلكهم إلاّ بعدَ أن مارسوا أمرهم ، وسبروا غورهم ، ورأوا أنهم لا تغني معهم العظات ، ولا يكون ذلك إلاّ بعد التقدم لهم بالموعظة ، وبقرينة قوله بعد ذلك ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ إذ جعل الناس فريقين ، فعلمنا أن القائلين من الفريق الناجي ، لأنهم ليسوا بظالمين ، وعلمنا أنهم ينهون عن السوء .

(19/294)

وقد تقدم ذكر الوعظ عند قوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وعظْهم ﴾ في سورة النساء (63) وعند قوله آنفاً ﴿ موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ في هذه السورة (145) .

واللام في ﴿ لمَ تعظون ﴾ للتعليم ، فالمستفهم عنه من نوع العلل ، والاستفهام إنكاري في معنى النفي ، فيدل على انتفاء جميع العلل التي من شأنها أن يوعظَ لتحصيلها ، وذلك يفضي إلى اليأس من حصول إتعاظهم ، والمخاطب بـ ﴿ تعظون ﴾ أمة أخرى .

ووصف القوم بأن الله مهلكهم : مبني على أنهم تحققتْ فيهم الحال التي أخبر الله بأنه يهلك أو يعذب من تحققتْ فيه ، وقد أيقن القائلون بأنها قد تحققت فيهم ، وأيقن المقول لهم بذلك حتى جاز أن يصفهم القائلون للمخاطبين بهذا الوصف الكاشف لهم بأنهم موصوفون بالمصير إلى أحد الوعيدين .

واسما الفاعل في قوله : ﴿ مهلكهم أو معذبهم ﴾ مستعملان في معنى الاستقبال بقرينة المقام ، وبقرينة التردد بين الإهلاك والعذاب ، فإنها تؤذن بأن أحد الأمرين غير معين الحصول ، لأنه مستقبل ولكن لا يخلو حالهم عن أحدهما .

وفصلت جملة ﴿ قالوا ﴾ لوقوعها في سياق المحاورة ، كما تقدم غير مرة أي قال المخاطبون بِ ﴿ لمَ تعظون قوماً ﴾ الخ .

والمعذرة بفتح الميم وكسر الذال مصدر ميمي لفعل (اعتذر) على غير قياس ، ومعنى

اعتذر أظهر العذر بضم العين وسكون الذال والعذر السبب الذي تبطل به المؤاخذة بذنب أو تقصير ، فهو بمنزلة الحجة التي يبديها المؤاخَذ بذنب ؛ ليظهر أنه بريء مما نسب إليه ، أو متأول فيه ، ويقال : عذَره إذا قبل عذره وتحقق براءته ، ويعدّى فعل الاعتذار بإلى لما فيه من معنى الإنهاء والإبلاغ .

وارتفع ﴿ معذرة ﴾ على أنه خبر لمبتدإ محذوف دل عليه قول السائلين ﴿ لم تعظون ﴾ والتقديرُ موعظتنا معذرة منا إلى الله .

وبالرفع قرأه الجمهور ، وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على المفعول لأجله أي وعظناهم لأجل المعذرة .

(20/294)

وقوله : ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ علة ثانية للاستمرار على الموعظة أي رجاء لتأثير الموعظة فيهم بتكرارها .

فالمعنى : أن صلحاء القوم كانوا فريقين .

فريق منهم أيِس من نجاح الموعظة وتحقق حلول الوعيد بالقوم ، لتوغلهم في المعاصي ، وفريق لم ينقطع رجاؤُهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار ، فأنكر الفريقُ الأول على الفريق

الثاني استمرارهم على كلفة الموعظة .

واعتذر الفريق الثاني بقولهم : ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ فالفريق الأول أخذوا بالطرف الراجح الموجب للظن .

والفريق الثاني أخذوا بالطرف المرجوح جمعاً بينه وبين الراجح لقصد الاحتياط ، ليكون لهم عذراً عند الله إن سألهم لماذا أقلعتم عن الموعظة ولما عسى أن يحصل من تقوى الموعوظين بزيادة الموعظة ، فاستعمال حرف الرجاء في موقعه ، لأن الرجاء يقال على جنسه بالتشكيك فمنه قوي ومنه ضعيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(21/294)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) ﴾

وحينما تجد أن طائفة قالت قولاً ، فلابد أن هناك أناساً قيل لهم هذا القول . إذن ففيه " قوم واعظون " ، و " قوم موعوظون " ، و " قوم مستنكرون وعظ الواعظين " . وهكذا

صاروا ثلاث فرق :

الذين قالوا وعظاً لهم : لماذا لا تلتزمون بمنهج الله ؟ هؤلاء هم المؤمنون حقًّا . وقالوا ذلك لأنهم رأوا من يخالف منهج الله . والذين لاموا الواعظين هم الصلحاء من أهل القرية الذين يئسوا من صلاح حال المخالفين للمنهج .

وحين ندقق في الآية : ﴿ وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 164]

نعلم أن القائلين هم من الذين لم يعتدوا ، ولم يعظوا وقالوا هذا التساؤل لمن وعظوا ؛ لأنهم رأوا الوعظ مع الخارجين على منهج الله لا ينفع . كما قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

هنا يسأل الحق رسوله : ولماذا تُحزن نفسك وتعمل على إزهاق روحك . وهنا قال بعض بني إسرائيل : لم تعظون هؤلاء المغالين في الكفر ، لماذا ترهقون أنفسكم معهم ، إنهم يعملون من أجل أن يعذبهم الله . وماذا قال الواعظون ؟ : ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

(22/294)

وما هي المعذرة إلى الله ؟ . يقال : " عذرك فلان إذا كنت قد فعلت فعلاً كان في ظاهره أنه ذنب ثم بينت العذر في فعله ، كأن تقول : لقد جعلتني انتظرك طويلاً وتأخرت في ميعادك معي . انت تقول ذلك لصديق لك لأنه أتى بعمل مخالف وهو التأخر في ميعادٍ ضربه لك . فيرد عليك : تعطلت مني السيارة ولم أجد وسيلة مواصلات ، وهذا عذر . إذن فمعنى " العذر " هو إبداء سبب لأمر خالف مراد الغير . ولذلك يقال : أعذر من أنذر ، والحق يقول : ﴿ وَجَآءَ المعذرون مِنَ الأعراب . . . ﴾ [التوبة : 90]

ونعلم أيضاً أن هناك مُعْذِراً . والمُعَذِّر هو من يأتي بعذر كاذب ، والمُعْذِر هو من يأتي بعذر صادق . وقال الواعظون : نحن نعظهم ، وأنتم حكمتم بأن العظة لا تنفع معهم لأنهم اختاروا أن يهلكهم الله ويعذبهم ولكنا لم نيأس ، وعلى فرض أننا يئسنا من فعلهم ، فعلى الأقل قد قدمنا لربنا المعذرة في أننا عملنا على قدر طاقتنا .

وكلمة " وَعْظ " تقتضي أن نقول فيها : إن هناك فارقاً بين بلاغ الحكم ، والوعظ بالحكم ؛ فالوعظ أن تكرر لموعوظ ما يعلمه لكنه لا يفعله . كأن تقول لإِنسان : قم إلى الصلاة ، هو يعلم أن الصلاة مطلوبة لكنه لا يقوم بأدائها .

إذن فالوعظ معناه تذكير الغافل عن حكم ، ومن كلمة الوعظ نشأت الوعَّاظ . وهم من يقولون للناس الأحكام التي يعرفونها ، ليعملوا بها ، فالوعاظ إذن لا يأتون بحكم جديد .

وبعض العلماء قال : إن قول الحق : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ ليس مراداً به الفئة

التي لم تفعل الذنب ولم تعظ ، إنما يراد به الفئة الموعوظة ، كأن الموعوظين قالوا : إن ربنا سيعذبنا فلماذا توعظوننا ؟ . ونقول : لا ؛ لأن عجز الآية ينافي هذا . فالحق يقول : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

ومجيء " لعلهم " يؤكد أن هذا خبر عن الغير لا أنَّه من الموعوظين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(23/294)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" مَعْذِرَةً " قرأ العامَّةُ : " مَعْذِرَةٌ " رفعاً على أنه خبر ابتداء مضمر ، أي : موعظتنا معذرة .

وقرأ حفصٌ عن عاصم ، وزيد بن علي ، وعيسى بنُ عمر ، وطلحةُ بنُ مصرف : " مَعْذِرَةً " نصباً وفيها ثلاثة أُوجه :

أظهرها : أنَّهَا منصوبةٌ على المفعول من أجله ، أي : " وعَظْنَاهُم لأجل المعذرة " .

وقال سيبويه : ولو قال رجلٌ لرجلٍ : معذرةً إلى الله وإليك من كذا ، لنصب .

الثَّاني : أنَّها منصوبةٌ على المصدر بفعل مقدر من لفظها ، تقديره : نَعْتَذِرُ مَعْذرةً .

الثالث : ان ينصب انتصابَ المفعول به ؛ لأن المعذرةَ تتضمَّنُ كلاماً ، والمفردُ الثالث :

والمفردُ المتضمِّنُ لكلام إذا وقع بعد القولِ نُصِبَ نصب المفعول به ، كـ " قلت خطبة " .

وسيبويه يختارُ الرَّفْعَ .

قال : لأنَّهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذاراً مستأنفاً .

ولكنهم قيل لهم : لِمَ تَعِظُونَ ؟

" فَقَالُوا " موعظتنا معذرةً .

والمَعْذِرَةُ : اسمُ مصدر وهو العذر .

وقال الأزهري : إنَّها بمعنى الاعتذارِ ، والعذرُ : التَّنصلُ من الذَّنبِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 360 . 361 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) ﴾

الحقائق – وإن كانت لازمة – فليست للعبد عند لوازم الشرع عاذِرةً بل الوجوبُ يُفْتَرَضُ شرعاً ، وإن كان التقدير غالباً بكل وجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 581 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تراجعوا بهذا الكلام ليكون زاجراً للعاصين فلم يرجعوا ، أخبر أنه صدق ظنهم بإيقاع الأمرين معاً : العذاب الشديد والإهلاك فقال : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي فعلوا في إعراضهم عنه فعل الناسي وتركوه ترك المنسيّ ، وهو أن الله لا يهملهم كما أن الإنسان لا يمكن أن يهمل أحداً تحت يده ، ليفعل ما يشاء من غير اعتراض ﴿ أنجينا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ الذين ينهون ﴾ أي استمروا على النهي ﴿ عن السوء ﴾ أي الحرام ﴿ وأخذنا ﴾ أي أخذ غلبة وقهر ﴿ الذين ظلموا ﴾ أي بالعدو في السبت ﴿ بعذاب بئيس ﴾ أي شديد جداً ﴿ بما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يفسقون ﴾ أي بسبب استمرارهم على تجديد الفسق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 141 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾

يعني : أنهم لما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه ، أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الظالمين المقدمين على فعل المعصية .

واعلم أن لفظ الآية يدل على أن الفرقة المتعدية هلكت ، والفرقة الناهية عن المنكر نجت .

أما الذين قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ ﴾ فقد اختلف المفسرون في أنهم من أي الفريقين كانوا ؟

فنقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه توقف فيه .

ونقل عنه أيضاً : هلكت الفرقتان ونجت الناهية ، وكان ابن عباس إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : إن هؤلاء الذين سكتوا عن النهي عن المنكر هلكوا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ، ثم نسكت ولا نقول شيئاً .

قال الحسن : الفرقة الساكتة ناجية ، فعلى هذا نجت فرقتان وهلكت الثالثة .

واحتجوا عليه بأنهم لما قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ ﴾ دل ذلك على أنهم كانوا منكرين عليهم أشد الإنكار ، وأنهم إنما تركوا وعظهم لأنه غلب على ظنهم أنهم لا يلتفتون إلى ذلك الوعظ ولا ينتفعون به .

فإن قيل : إن ترك الوعظ معصية ، والنهي عنه أيضاً معصية ، فوجب دخول هؤلاء التاركين للوعظ الناهين عنه تحت قوله : ﴿ وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ ﴾ .

قلنا : هذا غير لازم ، لأن النهي عن المنكر إنما يجب على الكفاية .

فإذا قام به البعض سقط عن الباقين ، ثم ذكر أنه تعالى أخذهم بعذاب بئيس ، والظاهر أن هذا العذاب غير المسخ المتأخر ذكره .

وقوله : ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أي شديد وفي هذه اللفظة قراآت : أحدها : ﴿ بَئِيسٍ ﴾ بوزن فعيل .

قال أبو علي : وفيه وجهان : الأول : أن يكون فعيلاً من بؤس يبؤس بأساً إذا اشتد .

والآخر : ما قاله أبو زيد ، وهو أنه من البؤس وهو الفقر يقال بئس الرجل يبأس بؤساً وبأساً وبئيساً إذا افتقر فهو بائس ، أي فقير .

فقوله : ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أي ذي بؤس .

والقراءة الثانية (بِئْسَ) بوزن حذر .

(26/294)

والثالثة : (بيس) على قلب الهمزة ياء ، كالذيب في ذئب ، والرابعة : (بيئس) على فيعل .

والخامسة : (بيس) كوزن ريس على قلب همزة بئيس ياء وإدغام الياء فيها .

والسادسة : (بيس) على تخفيف بيس كهين في هين ، وهذه القراآت نقلها صاحب "الكشاف" .

ثم بين تعالى أنهم مع نزول هذا العذاب بهم تمردوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 33 ﴾

(27/294)

وقال السمرقندى :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾

يعني : تركوا ما وعظوا به ﴿ أَنجَيْنَا ﴾ من العذاب ﴿ الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ ﴾ يعني : عذبنا الذين تركوا أمر الله ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ يعني : شديد ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ يعني : يعصون ويتركون أمر الله تعالى .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان القوم ثلاثة فرق .

فرقة كانوا يصطادون .

وفرقة كانوا ينهون .

وفرقة لم ينهوا ولم يستحلوا وقالوا للواعظة : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ .

وروى أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال : أتيت ابن عباس وهو يقرأ في المصحف ويبكي فدنوت منه حتى أخذت بلوحي المصحف وقلت : ما يبكيك قال : تبكيني هذه السورة وهو يقرأ سورة الأعراف .

وقال : هل تعرف أيلة ؟ قلت : نعم .

قال : إن الله تعالى أسكنها حياً من اليهود ، وابتلاهم بحيتان حرمها عليهم يوم السبت وأحلها لهم في سائر الأيام .

فإذا كان يوم السبت خرجت إليهم الحيتان .

فإذا ذهب السبت غابت في البحر حتى يغوص لها الطالبون ، وإن القوم اجتمعوا واختلفوا فيها .

فقال فريق منهم : إنما حرمت عليكم يوم السبت أن تأكلوها فصيدوها يوم السبت ، وكلوها في سائر الأيام .

وقال الآخرون : بل حرم عليكم أن تصيدوها أو تنفروها أو تؤذوها .

وكانوا ثلاث فرق : فرقة على أيمانهم ، وفرقة على شمائلهم ، وفرقة على وسطهم فقالت

الفرقة اليمنى فجعلت تنهاهم في يوم السبت ، وجعلت تقول : الله يحذركم بأس الله .

وأما الفرقة اليسرى فأمسكت أيديها ، وكفت ألسنتها .

وأما الوسطى فوثبت على السمك تأخذه .

وجعلت الفرقة الأخرى التي كفت أيديها ، وألسنتها ، ولم تتكلم .

(28/294)

تقول : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فقال : ﴿ الذين يَنْهَوْنَ ﴾ ﴿ مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُم وَلَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ فدخل الذين أصابوا السمك إلى المدينة ، وأبى الآخرون أن يدخلوا معهم فغدا هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا المدينة .

فجعلوا ينادون من فيها فلم يجبهم أحد .

فقالوا : لعل الله خسف بهم ، أو رموا من السماء بحجارة ، فارفعوا رجلاً ينظر ، فجعلوا رجلاً على سلم فأشرف عليهم ، فإذا هم قردة تتعادى ولها أذناب قد غيّر الله تعالى صورهم بصنيعهم .

فصاح إلى القوم فإذا هم قد صاروا قردة ، فكسروا الباب ، ودخلوا منازلهم ، فجعلوا لا يعرفون أنسابهم ، ويقولون لهم : ألم ننهكم عن معصية الله تعالى ونوصيكم ؟ فيشيرون

برؤوسهم بلى ودموعهم تسيل على خدودهم .

فأخبر الله تعالى أنه أنجى الذين ينهون عن السوء ، وأخذ الذين ظلموا .

قوله : ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ .

ولا يدرى ما صنع بالذين لم ينهوا ولم يأخذوا .

وقال عكرمة : بل أهلكهم الله لأنه أنجى الذين ينهون عن السوء .

وأهلك الفريقين الآخرين .

فوهب له ابن عباس بردة بهذا الكلام .

وروي في رواية أُخرى أنهم كانوا يأخذون الحظائر والحياض بجنب البحر ، ويسيلون الماء فيها يوم السبت من البحر حتى يدخل فيها السمك ، ويأخذونه في يوم الأحد فقالوا : إنا نأخذه في يوم الأحد .

فلما لم يعذبوا استحلوا الأخذ في يوم السبت من البحر وقالوا : إنما حرم الله على أبنائنا ولم يحرم علينا فنهاهم الصلحاء فلم يمتنعوا ، فضربوا حائطاً بينهم ، وصارت الواعظة في ناحية ، والذين استحلوا في ناحية والحائط بين الفريقين .

فأصبحوا في يوم من الأيام ولم يفتح الباب الذي بينهما ، فارتقى واحد منهم الحائط ، فإذا القوم قد مسخوا إلى قردة .

وقال بعضهم : كان القوم أربعة أصناف صنف يأخذون ، وصنف يرضون ، وصنف ينهون ، وصنف يسكتون ، فنجا صنفان ، وهلك صنفان .

قال بعضهم : كانوا صنفين صنف يأخذون ، وصنف ينهون .

وروى قتادة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : كانوا ثلاث فرق فهلك الثاني ، ونجا الثالث ، والله أعلم ما فعل بالفرقة الثالثة .

قرأ نافع بعذاب ﴿ بِيْس ﴾ بكسر الباء وسكون الياء بلا همز .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بعذاب ﴿ بَيْأَس ﴾ بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة .

وقرأ الباقون : ﴿ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ بنصب الباء وكسر الياء والهمزة وسكون الياء وهي اللغة المعروفة ، والأولى لغة لبعض العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(30/294)

وقال الثعلبى :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾

تركوا ما وعظوا به ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السواء ﴾ أي المعصية ﴿ وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي عاقبنا باعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرم الله ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ شديد وجيع من البأس وهو الشدة والفعل منه بَؤس يبَؤسُ ، فاختلف القراء فيها فقرأ أهل المدينة بِيْس بكسر الباء وجزم الياء من غير همزة على وزن فعل ، وقرأ ابن عامر كذلك على وزن فِعْل إلاّ أنّه الهمزة .

وقرأ عاصم : في رواية أبي بكر : بَيْئَس بفتح الباء وجزم الياء وفتح الهمزة على وزن فيعل مثل صيقل ويثرب .

كما قال الشاعر :

كلاهما كان رئيساً بيئسا . . . يضرب في الهيجاء منه القونسا

وقرأ بعضهم : بَيِئَس بفتح الباء وكسر الهمزة على وزن فعل مثل [حذر] كقول ابن قيس الرقيات :

ليتني ألقى رقيّة في . . . خلوة من غير ما بيئَس

وقرأ الحسن : بكسر الباء وفتح السين على معنى بيئَس العذاب .

وقرأ مجاهد : بايئس على وزن فاعل وقرأ أبو أياس بفتح الباء والياء من غير همزة .

وقرأ نصر بن عاصم : بيئَس بفتح الباء وكسر الياء مشدداً من غير همزة .

وقرأ بعض أهل مكة بئيس بكسر الياء والهمزة كما يقال : بعر للبعير . وقال أهل اللغة : كل

فعل ثانية أحد حروف الحلق فإنّه يجوز كسر أوّله مثل بِعير وصغير ورحيم و [حميم] وبخيل ، وقرأ الباقون بئيس على وزن فعيل وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم لأن فعيلاً أشبهه بصفات [التعريف] كقول ذي الاصبع العدواني :

لقد رأيت بني أبيك . . . محمجين إليك شوساً

حنقاً عليّ ولن ترى . . . لي فيهم أثراً بئيساً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(31/294)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

نسوا يعني تركوا ، والذي ذكروا به أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر .

﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَونَ عَنِ السُّوءِ ﴾ وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ وهم الذين تركوا المعروف وفعلوا المنكر .

﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : شديد ، قاله مجاهد .

والثاني : رديء ، قاله الأخفش .

الثالث : أنه العذاب المقترن بالفقر وهو البؤس .

وأما الفرقة الثالثة التي لم تنه ولم تفعل ففيها قولان :

أحدهما : أنها نُجِّيَتْ مع الذين نهوا .

والثاني : ما قاله ابن عباس : لا أدري ما فعل بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(32/294)

وقال ابن عطية :

والضمير في قوله : ﴿ نسوا ﴾ للمهنيين وهو ترك سمي نسياناً مبالغة إذ أقوى منازل الترك أن ينسى المتروك . و ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما ذكروا به ﴾ معنى الذي ، ويحتمل أن يراد به الذكر نفسه ، ويحتمل أن يراد به ما كان فيه الذكر ، و ﴿ السوء ﴾ لفظ عام في جميع المعاصي إلا أن الذي يختص هنا بحسب قصص الآية صيد الحوت ، و ﴿ الذين ظلموا ﴾ هم العاصون ، وقوله : ﴿ بعذاب بئيس ﴾ معناه مؤلم موجع شديد ، وقرأ نافع وأهل المدينة أبو جعفر وشيبة وغيرهما "بَيْسٍ" بكسر الباء وسكون الياء وكسر السين وتنوينها

، وهذا على أنه فعل سمي به كقوله صلى الله عليه وسلم " أنهاكم عن قيل وقال " وقرأ الحسن بن أبي الحسن " بيس " كما تقول بيس الرجل وضعّفها أبو حاتم ، قال أبو عمرو : وروي عن الحسن " بئس " بهمزة بين الباء والسين ، وقرأ نافع فيما يروي عنه خارجه " بَيْسٍ " بفتح الباء وسكون الياء وكسر السين منونة ، وروى مالك بن دينار عن نصر بن عاصم " بَيَس " بفتح الباء والياء منونة على مثل جمل وجيل ، وقرأ أبو عبد الرحمن المقري " بَئِس " بفتح الباء وهمزة مكسورة وسين منونة على وزن فعل ، ومنه قول عبد الله بن قيس الرقيات : [المديد]

ليتني ألقى رقية في . . . خلوة من غير ما بئس

(33/294)

قال أبو عمرو الداني هي قراءة نصر بن عاصم وطلحة بن مصرف ، وروي عن نصر " بِيس " بباء مكسورة من غيرهم ، قال الزهراوي وروي عن الأعمش " بِئّسٍ " الباء مفتوحة والهمزة مكسورة مشددة والسين مكسورة منونة ، وقرأت فرقة " بئس " كالتي قبل إلا فتح السين ، ذكرها أبو عمرو الداني عما حكى يعقوب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ونافع في رواية أبي قرة عنه وعاصم في رواية حفص عنه " بئيسٍ " بباء بعد

الهمزة المكسورة والسين المنونة على وزن فعيل ، وهذا وصف بالمصدر كقولهم عذير الحي والنذير والنكير ، ونحو ذلك ، وهي قراءة الأعرج ومجاهد وأهل الحجاز وأبي عبد الرحمن ونصر بن عاصم والأعمش وهي التي رجح أبو حاتم ، ومنه قول ذي الأصبع العدواني : [مجزوء الكامل]

حنقاً عليّ ولا أرى . . . لي منهما نشراً بئيسا

وقرى أهل مكة " بئيس " كالأول إلا كسر الباء على وزن فعيل قال أبو حاتم : هما لغتان ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه " بَيْئَسَ " بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة على وزن فيعَل ومعناه شديد ، ومنه قول امرىء القيس بن عابس الكندي : [الرجز]

كلاهما كان رييساً بَيْئَسا . . . يضرب في يوم الهياج القونسا

(34/294)

فهي صفة كضيغم وحيدر ، وهي قراءة الأعمش ، وقرأ عيسى بن عمر والأعمش بخلاف عنه " بَيِْئس " كالتي قبل إلا كسر الهمزة على وزن فيعِل ، وهذا شاذ لأنه لا يوجد فعِل في الصحيح وإنما يوجد في المعتل مثل سيد وميت ، وقال الزهراوي : روى نصر عن عاصم " بيْس " على مثال ميت وهذا على أنه من البوس لا أصل له في الهمز ، قال أبو حاتم زعم

عصمة أن الحسن والأعمش قرءا " بِئْيَس " الباء مكسورة والهمزة ساكنة والياء مفتوحة على مثال خِدْيَم ، وضعفها أبو حاتم ، وقرأ ابن عامر من السبعة " بِئْسٍ " بكسر الباء وسكون الهمزة وتنوين السين المكسورة وقرأت فرقة " بَأْس " بفتح الباء وسكون الألف ، وقرأ أبو رجاء " بائِس " على وزن فاعِل ، وقرأ فرقة " بَيَسَ " بفتح الباء والياء والسين على وزن فَعَلَ ، وقرأ مالك بن دينار " بَأْسَ " بفتح الباء والسين وسكون الهمزة على وزن فَعْلَ غير مصروف ، وقرأت فرقة " بأس " مصروفاً ، وحكى أبو حاتم " بيس " قال أبو الفتح هي قراءة نصر بن عاصم ، وحكى الزهراوي عن ابن كثير وأهل مكة " بِيِس " بكسر الباء وبهمز همزاً خفيفاً .

قال القاضي أبو محمد : ولم يبين هل الهمزة مكسورة أو ساكنة ، وقوله : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أي لأجل ذلك وعقوبة عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(35/294)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذُكِّروا به ﴾

يعني : تركوا ما وُعظوا به ﴿ أنجينا الذين ينهَوْن عن السوء ﴾ وهم الناهون عن المنكر .

والذين ظلموا هم المعتدون في السبت .

قوله تعالى : ﴿ بعذاب بئيس ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "بئيس" على وزن فعيل ، فالهمزة بين الباء والياء .

وقرأ نافع : "بِيسٍ" بكسر الباء من غير همز .

وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه همز .

وروى خارجة عن نافع : "بَيْسٍ" بفتح الباء من غير همز ، على وزن "فَعْلٍ" .

وروى أبو بكر عن عاصم : "بَيْأسٍ" على وزن "فَيْعَلٍ" .

وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأيوب : "بَيْآسٍ" على وزن "فَيْعالٍ" .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، ومعاذ القارىء : "بَئِسٍ" بفتح الباء وكسر الهمزة من غير ياء على وزن "نَعِسٍ" .

وقرأ الضحاك ، وعكرمة : "بَيِّسٍ" بتشديد الياء مثل : "قيِّم" .

وقرأ أبو العالية ، وأبو مجلز : "بَئِسَ" بفتح الباء والسين وبهمزة مكسورة من غير ياء ولا ألف على وزن "فَعِلَ" .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو رجاء : "بائسٍ" بألف ومَدّة بعد الباء وبهمزة مكسورة بوزن "فاعِلٍ" .

قال أبو عبيدة : البئيس : الشديد .

وأنشد :

حَنَقاً عَليَّ وما تَرَى . . .

لي فيهِمُ أثراً بَئيسَا

وقال الزجاج : يقال : بَئس يبأس بأساً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(36/294)

وقال القرطبى :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾

والنسيان يطلق على الساهي .

والعامد : التارك ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ أي تركوه عن قصد ؛ ومنه ﴿ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] .

ومعنى ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أي شديد .

وفيه إحدى عشرة قراءة : الأُولى قراءة أبي عمرو وحمزة والكِسائيّ "بئيس" على وزن فعيل .

الثانية قراءة أهل مكة "بِئيس" بكسر الباء والوزن واحد .

والثالثة قراءة أهل المدينة "بِيْسٍ" الباء مكسورة بعدها ياء ساكنة بعدها سين مكسورة منوّنة ، وفيها قولان .

قال الكسائي : الأصل فيه "بِيِيس" خفيفة الهمزة ، فالتقت ياءان فحذفت إحداهما وكسر أوّله ؛ كما يقال : رَغِيف وشهيد .

وقيل : أراد "بئس" على وزن فِعل ؛ فكسر أوله وخفف الهمزة وحذف الكسرة ؛ كما يقال : رَحِم ورِحْم .

الرابعة قراءة الحسن ، الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها سين مفتوحة .

الخامسة قرأ أبو عبد الرحمن المقرىء "بِئْسٍ" الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مكسورة منوّنة .

السادسة قال يعقوب القارىء : وجاء عن بعض القراء "بعذاب بِئْسَ" الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مفتوحة .

السابعة قراءة الأعمش "بَيْئْسٍ" على وزن فيعل .

وروى عنه "بَيْأْسٍ" على وزن فيعل .

وروى عنه "بِئْسٍ" بباء مفتوحة وهمزة مشددة مكسورة ، والسين في كله مكسورة منوّنة ، أعني قراءة الأعمش .

العاشرة قراءة نصر بن عاصم "بعذاب بَيّس" الباء مفتوحة والياء مشدّدة بغير همز .

قال يعقوب القارىء : وجاء عن بعض القراء "بِئيسٍ" الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها ياء مفتوحة .

فهذه إحدى عشرة قراءة ذكرها النحاس .

قال عليّ بن سليمان : العرب تقول جاء ببنات بِيسٍ أي بشيء رديء .

فمعنى "بِعَذَابٍ بِيسٍ" بعذاب رديء .

(37/294)

وأما قراءة الحسن فزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها ، قال : لأنه لا يقال مررت برجل بِئس ، حتى يقال : بئس الرجل ، أو بئس رجلاً .

قال النحاس : وهذا مردود من كلام أبي حاتم ؛ حكى النحويون : إن فعلت كذا وكذا فبِهَا ونِعْمَتْ .

يريدون فبها ونعمت الخصلة .

والتقدير على قراءة الحسن : بعذاب بئس العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(38/294)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾

أي فلما تركوا ما وعظوا به ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء ﴾ وهم الفرقة الناهية ﴿ وأخذنا الذين ظلموا ﴾ يعني الفرقة المعتدية العاصية ﴿ بعذاب بئيس ﴾ أي شديد وجميع من البأس وهو الشدة ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ يعني أخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : أسمع الله يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدر ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكي قال عكرمة : فقلت جعلني الله فداك ، ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه ، وقالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولي ورضي به وأمر لي ببردين فكسانيهما وقال : نجت الساكتة وقال يمان بن رباب : نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن ، وقال ابن زيد : نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهذه الآية أشد آية في ترك النهي عن المنكر . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾

أي تركوا ما ذكرهم به صلحاؤُهم تركَ الناسي للشيء وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً بحيث لم يخطُر ببالهم شيءٌ من تلك المواعظ أصلاً ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء ﴾ وهم الفريقان المذكورانِ ، وإخراجُ إنجائِهم مُخرجَ الجوابِ الذي حقُّه الترتبُ على الشرط وهو نِسيانُ المعتدين المستتبِعُ لإهلاكهم لما أن ما في حيز الشرط شيآنِ : النسيانُ والتذكيرُ كأنه قيل : فلما تَذَكَّرَ المذكورون ولم يتذكر المعتدون أنجينا الأولين وأخذنا الآخَرين ، وأما تصديرُ الجواب بإنجائهم فلما مر مراراً من المسارعة إلى بيان نجاتِهم من أول الأمرِ مع ما في المؤخر من نوع طُول ﴿ وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ ﴾ بالاعتداء ومخالفةِ الأمر ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أي شديدٍ وزناً ومعنى ، من بَؤُس يبؤُس بأساً إذا اشتد ، وقرىء بَيْئِس على وزن فيعل بفتح العين وكسرِها ، وبَئِسٍ على تخفيف العين ونقلِ حركتِها إلى الفاء ككَبِد في كبد وبِيسٍ بقلب الهمزة ياءً كذيب في ذئب وبيّس كرّيس بقلب همزة بئيس ياءً وإدغام الياء فيها وبَيْسٍ على تخفيف بيّس كهَيْن في هيّن ، وتنكيرُ العذاب للتفخيم والتهويل ﴿ بِمَا كَانُواْ

يَفْسُقُونَ ﴾ متعلقٌ بأخذنا كالباء الأولى ولا ضيرَ فيه لاختلافهما معنى أي أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم في الفسق الذي هو الخروجُ عن الطاعة وهو الظلمُ والعدوانُ أيضاً ، وإجراءُ الحكم على الموصول وإن أشعرَ بعلّية ما في حيز الصلة له لكنه صرّح بالتعليل المذكورِ إيذاناً بأن العلةَ هو الاستمرارُ على الظلم والعدوان مع اعتبار كونِ ذلك خروجاً عن طاعة الله عز وجل لا نفسُ الظلم والعدوان ، وإلا لما أخّروا عن ابتداء المباشرة ساعة ، ولعله تعالى قد عذبهم بعذاب شديد دون الاستئصالِ فلم يُقلعوا عما كانوا عليه بل ازدادوا في الغي فمسخهم بعد ذلك لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(40/294)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾

أي تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً ، فما موصولة وجوز أن تكون مصدرية ، وهو خلاف الظاهر .

والنسيان مجاز عن الترك ، واستظهر أنه استعارة حيث شبه الترك بالنسيان بجامع عدم المبالاة ، وجوز أن يكون مجازاً مرسلاً لعلاقة السببية ، ولم يحمل على ظاهره كما قال بعضهم المحققين لأنه غير واقع ولأنه لا يؤاخذ بالنسيان ولأن الترك عن عمد هو الذي يترتب عليه انجاء الناهين في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء ﴾ إذ لم يمتثلوا أمرهم بخلاف ما لو نسوه فإنه كان يلزمهم تذكيرهم وظاهر الآية ترتب الانجاء على النسيان وهو في الحقيقة مرتب على النسيان والتذكير ، وما في حيز الشرط مشير إليهما فكأنه قيل : فلما ذكر المذكرون ولم يتذكر المعتدون وأعرضوا عما ذكروا به أنجينا الأولين وأخذنا الآخرين ، وعنوان النهي عن السوء شامل للذين قالوا ﴿ لم تعظون ﴾ [الأعراف : 164] الخ وللمقول لهم ذلك ، أما شموله للمقول لهم فواضح وأما شموله للقائلين فلأنهم نهوا أيضاً إلا أنهم رأوا عدم النفع فكفوا وذلك لا يضرهم فقد نصوا على أنه إذا علم الناهي حال المنهى وأن النهي لا يؤثر فيه سقط عنه النهي وربما وجب الترك على ما قال الزمخشري لدخوله في باب العبث ، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على الطريق لأخذ أموال الفقراء وغيرهم بغير حق لتعظهم وتكفهم عما هم عليه كان ذلك عبثاً منك ولم يكن إلا سبباً للتلهي بك ، ولم يعرض أولئك كما أعرض هؤلاء لعدم بلوغهم في اليأس كما بلغ إخوانهم أو لفرط حرصهم وجدهم في

أمرهم كما وصف الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ على ءاثارهم ﴾ [الكهف : 6] .

(41/294)

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : لا أدري ما فعلت الفرقة الساكتة وعنى بهم القائلين ومنشأ قوله هذا كما نطقت به بعض الروايات أنه سمع قوله سبحانه : ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي بالاعتداء ومخالفة الأمر ولم يغص رضي الله تعالى عنه مع أنه الغواص فقال له عكرمة : جعلني الله فداك ألا تراهم كيف أنكروا وكرهوا ما القوم عليه وقالوا ما قالوا وإن لم يقل الله سبحانه أنجيتهم لم يقل أهلكتهم فأعجبه قوله وأمر له ببردين وقال : نجت الساكتة ، ونسب الطبرسي إليه رضي الله تعالى عنه قولين آخرين في الساكتة أحدهما القول بالتوقف وثانيهما القول بالهلاك وبه قال ابن زيد ، وروي عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه فالمأخوذ حينئذ الساكتون والظالمون ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أي شديد وفسره الحبر بما لا رحمة فيه ويرجع إلى ما ذكر ، وهو فعيل إما وصف أو مصدر كالنكير وصف به مبالغة ، والأكثرون على كونه وصفاً من بؤس يبؤس بأساً إذا اشتد .

وقال الراغب : البؤس والبأس والبأساء الشدة والمكروه إلا أن البؤس في الفقرة والحرب أكثر والبأس والبأساء في النكاية ، وقرأ أبو بكر ﴿ بيئس ﴾ على فيعل كضيغم وهو من الأوزان التي تكون في الصفات والأسماء ، والياء إذا زيدت في المصدر هكذا تصيره اسما أو صفة كصقل وصيقل وعينه مفتوحة في الصحيح مكسورة في المعتل كسيد ، ومن هنا قيل في قراءة عاصم في رواية عنه ﴿ بيئس ﴾ بكسر الهمزة إنها ضعيفة رواية ودراية ويخففها أن المهموز أخو المعتل ، وقرأ ابن عامر ﴿ بالالقاب بِئْسَ ﴾ بكسر الباء وسكون الهمزة على أن أصله بئس بباء مفتوحة وهمزة مكسورة كحذر فسكن للتخفيف كما قالوا في كبد كبد وفي كلمة كلمة ، وقرأ نافع ﴿ بيس ﴾ على قلب الهمزة ياء كما قلبت في ذيب لسكونها وانكسار ما قبلها ، وقيل : إن هاتين القراءتين مخرجتان على أن أصل الكلمة بئس التي هي فعل دم جعلت اسماً كما في قيل وقال ، والمعنى بعذاب مذموم مكروه ، وقرىء ﴿ بيس ﴾ كريس وكيس على قلب الهمزة ياء ثم ادغامها في الياء ، وقيل : على أنه من البؤس بالواو وأصله بيوس كميوت فأعل اعلاله و ﴿ بيس ﴾ على التخفيف كهين و ﴿ بائس ﴾ بزنة اسم الفاعل أي ذو بأس وشدة ، وقرىء غير ذلك ، وأوصل بعضهم ما

فيه من القراءات إلى ست وعشرين ، وتنكير العذاب للتفخيم والتهويل ﴿ السماء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ متعلق بأخذنا كالباء الأولى ولا ضير فيه لاختلافهما معنى أي أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب فسقهم المستمر ، ولا مانع من أن يكون ذلك سبباً للأخذ كما كان سبباً للابتداء وكذا لا مانع من تعليله بما ذكر بعد تعليله بالظلم الذي في حيز الصلة لأن ذلك ظلم أيضاً ، ولم يكتف بالأولى لما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(43/294)

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾

وضمير ﴿ نسوا ﴾ عائد إلى ﴿ قوماً ﴾ والنسيان مستعمل في الإعراض المفضي إلى النسيان كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذُكروا به ﴾ في سورة الأنعام (44) .

والذين ينهون عن السوء ﴾ هم الفريقان المذكوران في قوله آنفاً ﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً ﴾ إلى قوله ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ ، و ﴿ الذين ظلموا ﴾ هم القوم المذكورون

في قوله : ﴿ قوماً الله مُهلكهم ﴾ إلخ .

والظلم هنا بمعنى العصيان ، وهو ظلم النفس ، حق الله تعالى في عدم الامتثال لأمره .

و﴿ بِيسٍ ﴾ قرأه نافع وأبو جعفر بكسر الباء الموحدة مشبعة بياء تحتية ساكنة وبتنوين السين على أن أصله بئْس بسكون الهمزة فخففت الهمزة ياء مثل قولهم : ذِيب في ذِئْب .

وقرأه ابن عامر ﴿ بئْس ﴾ بالهمزة الساكنة وإبقاء التنوين على أن أصله بَئِيس .

وقرأه الجمهور ﴿ بَئِيس ﴾ بفتح الموحدة وهمزة مكسورة بعدها تحتية ساكنة وتنوين السين على أنه مثال مُبالغة من فعل بَؤُس بفتح الموحدة وضم الهمزة إذا أصابه البؤس ، وهو الشدة من الضر .

أو على أنه مصدر مثل عَذير ونَكير .

وقرأه أبو بكر عن عاصم ﴿ بَيْئَسَ ﴾ بوزنَ صَيْقل ، على أنه اسم للموصوف بفعل البؤس مبالغة ، والمعنى ، على جميع القراءات : أنه عذاب شديد الضر .

وقوله : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ تقدم القول في نظيره قريباً .

وقد أجمل هذا العذاب هنا ، فقيل هو عذاب غير المسخ المذكور بعده ، وهو عذاب أصيب به الذين نَسوا ما ذُكروا به ، فيكون المسخ عذاباً ثانياً أصيب به فريق شاهدوا العذاب الذي حل بإخوانهم ، وهو عذاب أشد ، وقع بعد العذاب البيس ، أي أن الله أعذر إليهم فابتدأهم بعذاب الشدة ، فلما لم ينتهوا وعتوا ، سلّط عليهم عذاب المسخ .

وقيل : العذاب البِئس هو المسخ ، فيكون قوله : ﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه ﴾ بياناً "جمال العذاب البئس ، ويكون قوله : ﴿ فلما عتوا ﴾ بمنزلة التأكيد لقوله : ﴿ فلما نسوا ﴾ صيغ بهذا الأسلوب لتهويل النسيان والعتو ، ويكون المعنى : أن النسيان ، وهو الإعراض ، وقع مقارناً للعتو .

و﴿ ما ذكّروا به ﴾ و ﴿ ما نُهوا عنه ﴾ ما صُدَقُهما شيء واحد ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : فلما نسوا وَعتوا عما نهوا عنه وذُكروا به قلنا لهم الخ ، فعدل عن مقتضى الظاهر إلى هذا الأسلوب من الإطناب لتهويل أمر العذاب ، وتكثير أشكاله ، ومقام التهويل من مقتضيات الأطناب ، وهذا كإعادة التشبيه في قول لبيد :

فتنازعا سبطاً يطير ظلاله . . .

كدخان مُشعَلة يشبّ ضرامها

مشمولةٍ غُلِثت بنابت عَرفج . . .

كدُخان نار ساطع أسنامها

ولكن أسلوب الآية أبلغ وأوفر فائدة ، وأبعد عن التكرير اللفظي ، فما في بيت لبيد كلامٌ بليغ ، وما في الآية كلام معجز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(45/294)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) ﴾

ويخبرنا الحق هنا أن الموعوظين حينما نسوا ما وعظهم به بعض المؤمنين أهلكهم الله بالعذاب الشديد جزاءً لخروجهم وفسوقهم عن المنهج وأنجى الله الفرقة الواعظة . وماذا عن الفرقة الثالثة التي لم تنضم إلى الواعظين أو الموعوظين ؟ الذين قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ إن قولهم هذا لون من الوعظ ؛ فساعة يخوفونهم بأن ربنا مهلك أو معذب من يخرج على منهجه ، فهو وعظ من طرف آخر .

وقوله الحق : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ يدل على أنه قد وعظهم غيرهم وذكروهم .

ويعذب الحق هؤلاء الذين ضربوا عرض الحائط بمنهجه ولم يسمعوا مَن وعظوهم ، وخرجوا على تعاليمه فظلموا أنفسهم واستحقوا العذاب الشديد ؛ فالمسألة ليست تعنتاً من الله ؛

لأنهم السبب في هذا ، إما بفسق ، وإمّا بظلم للنفس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(46/294)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾

الضَّميرُ في نَسُوا للْمنهيّينَ و" ما " موصولةٌ بمعنى " الذي " أي : فلمَّا نسُوا الوعظ الذي ذكَّرَهُم به الصَّالحون .

قال ابنُ عطيَّة : ويحتمل أن يُرادَ به الذِّكرُ نفسه ، ويحتمل أن يراد به ما كان فيه الذكر .

قال أبو حيان : ولا يظهرُ لي هذان الاحتمالان .

قال شهابُ الدِّين : يعني ابنُ عطية بقوله : " الذِّكرُ نفسُهُ " أي : نفسُ الموصول مُرادٌ به المصدر كأنه قال : فلمَّا نسُوا الذِّكْرَ الذي ذُكِّروا به ، وبقوله : " مَا كان فيه الذِّكر " نَفَسُ الشيء المذكَّر به الذي هو متعلِّق الذكر ؛ لأن ابن عطيَّة لمَّا جعل " ما " بمعنى " الذي " قال : إنَّها تحتملُ الوقوع على هذين الشيئَن المتغايرين .

فصل

النِسيان يطلق على السَّاهي ، والعامد التَّارك لقوله : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ أي : تركوه عن قصد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] .

قوله : " بعذابٍ بئيسٍ " .

أي : شديد .

قرا نافعٌ ، وأبو جعفر ، وشيبةٌ بيْسٍ بياء ساكنة ، وابن عامر بهمزة ساكنة .

وفيهما أربعة أوجه :

أحدها : أنَّ هذا في الأصْلِ فعلٌ ماضٍ سُمِّيَ به فأعربَ كقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " أنهاكم عن قيل وقال " بالإعراب والحكاية ، وكذا قولهم : " مُذ شبَّ إلى دبَّ ومُذ شبٍّ إلى دَبٍّ " ، فلما نُقل إلى الاسميَّة صار وصفاً ك : نِضْوا ونِقْض .

والثاني : أنَّهُ وصف وضع على فعل ك : حِلْف .

الثالث : أن أصله بَئيس كالقراءةِ المشهورة ، فخفَّفَ الهمزة ؛ فالتقت ياءان ، ثم كسر الياء إتباعاً ، كرغيف وشهيد فاستثقل توالي ياءين بعد كسرةٍ ، فحذفت الياء المكسورة ؛ فصار اللَّفظُ " بِيْسٍ " وهو تخريج الكسائيِّ .

الرابع : أن أصله بَئِس بوزن " كَتِف " ثم أتبعت الياءُ للهمزة في الكسر ثم سُكِّنت الهمزة ، ثمَّ أبدلت ياء ك : بِيرٍ وذِيبٍ .

وأمَّا قراءة ابن عامر فتحتمل أن تكون فعلاً منقولاً ، وأن تكون وصفاً كـ : حِلْف .

وقرأ أبو بكر عن عاصم بَيْئَس بياء ساكنة بين باء ، وهمزة مفتوحتين ، وهو صفةٌ على فَيْعَل كـ : ضَيْغَم ، وصَيْرَف ، وصَيْقَل ، وهي كثيرةٌ في الأوصافِ .

وقرأ امرؤُ القيسِ : [الرجز]

2602 - كِلاهُمَا كَأَنَ رَئِيساً بَيْئَسا . . .

يَضْرِبُ في يومِ الهِيَاجِ القَوْنَسَا

وقرأ باقي السبعة " بَئِيس " بزنه " رَئِيس " وفيه وجهان :

أحدهما : أنَّهُ وصفٌ على " فَعِيل " كـ : شَدِيد ، وهو للمبالغة وأصله فاعل .

والثاني : أنه مصدرٌ وصف به أي : بعذابٍ ذي بأس بَئِيس ، فـ " بَئِيس " مصدر مثل : النكثير والقدير ، ومثر ذلك في احتمالِ الوجهين قول أبي الأصبع العدواني : [مجزوء الكامل]

2603 - حَنَقاً عليَّ ولا أرَى . . .

لِيَ مِنْهُمَا شَرّاً بَئِيساً

وهي أيضاً قراءةُ عليٍّ وأبي رجاء .

وقرأ يعقوبُ القارئ "بَئِسَ" بوزن "شَهِدَ" ، وقرأها أيضاً عيسى بنُ عُمَرَ ، وزيد بن علي .

وقرأ نصرُ بنُ عاصم "بَأَسَ" بوزن "ضَرَبَ" فعلاً ماضياً .

وقرأ الأعمش ومالك بنُ دينار "بَأْس" فعلاً ماضياً ، وأصله "بَئِس" بكسر الهمزة ، فسكَّنَهَا تخفيفاً كـ : شَهْدَ في قوله : [الرجز]

2604 - لَوْ شَهْدَ عَاد فِي زَمَانِ تُبَّعِ . . .

وقرأ ابنُ كثير وأهل مكة بِئْسٍ بكسر البَاءِ ، والهمز همزاً خفيفاً ، ولم يُبَيِّن هل الهمزة مكسورةٌ أو ساكنةٌ ؟

وقرأ طلحة وخارجة عن نافع "بَيْسٍ" بفتح الباء ، وسكون الياء مثل : كَيْلٍ ، وأصله "بَيْئَس" مثل : ضَيْغَم فخفَّف الهمزة بقلبها ياءً ، وإدغام الياء فيها ثم خفَّفهُ بالحذف كـ : مَيْت في : مَيِّت .

(48/294)

وقرأ عيسى بن عمر والأعمش وعاصم في رواية "بَيْئِسٍ" كقراءة أبي بكر عنه، إلاَّ أَنَّهُ كسر الهمزة، وهذه قد ردَّها النَّاسُ؛ لأن "فَيْعِلاً" بكسر العين في المعتلِّ، كما أن "فَيْعَلاً" بفتحها في الصحيح كـ: سَيِّد وضَيْغَم، على أنه قد شذّ "صَيْقِل" بالكسر، و"عَيَّل" بالفتح.

وقرأ نصر في رواية مالك بن دينار عن "بَأْسٍ" بفتح الباء والهمزة وجر السِّين، بزنة "جَبَلٍ".

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وطلحة بن مصرف "بَئِسٍ" مثل كبد وحذر.

قال عبيد الله بن قيس: [المديد]

2605 - لَيْتَنِي أُلْقَى رُقَيَّةَ فِي . . .

خَلْوَةٍ مِنْ غَيْرِ مَا بَئِسِ

وقرأ نصر بنُ عاصم في رواية بَيِّسٍ بهمزةٍ مشددة.

قالوا: قلب الياء همةً وأدغمها في مثلها.

ورويت هذه عن الأعمش أيضاً.

وقرأت طائفة بَأَسَ بفتح الثلاثة، والهمزة مشددة، فعلاً ماضياً، كـ"شَمَّرَ"، وطائفة أخرى بَأَسَ كالتي قبلها إلاَّ أَنَّ الهمزة خفيفةٌ، وطائفة بَائِسٍ بألف صريحة بين الباءِ والسِّينِ المجرورة، وقرأ أهل المدينة بِئِيسٍ كـ: "رِئِيسٍ"، غلاًّ أنهم كسروا الباء، وهذه لغةُ تميم في

فعيل الحلقيِّ العين نحو : بِعِير ، وشِعِير ، وشِهيد ، سواء أكان اسماً أم صفة .

وقرأ الحسن والأعمس " بِئْيَسٍ " بياء مكسورة ، ثم همزة ساكنة ، ثم يا مفتوحة ، بزنة " حِذْيَم " ، و" عِثْيَر " .

وقرأ الحسنُ بِئْسَ بكسر الباءِ ، وسكون الهمزة وفتح السِّينِ ، جعلها التي للذَّمِّ في نحو : بِئْسَ الرجل زيدٌ .

ورُويت عن أبي بكر .

وقرأ الحسن أيضاً كذلك ، إلاَّ أنه بياءٍ صريحة ، وتخريجها كالتي قبلها ، وهي مرويةً عن نافع وقد ردَّ أبو حاتم هذه القراءةَ والتي قبلها بأَنَّهُ لا يقالُ : مررت برجلٍ بِئْسَ ، حتَّى يقال بِئْسَ الرجل ، أو بئس رجلاً .

(49/294)

قال النَّحَّاس : وهذا مردودٌ – يعني قول أبي حاتم – حكى النحويون : إن فعلت كذا وكذا فبها ونعمت ، أي : ونعمت الخصلة ، والتقدير : بِئْسَ العذابُ .

قال شهابُ الدِّينِ : أبو حاتم معذورٌ في القراءة ، فإنَّ الفاعل ظاهراً غير مذكور ، والفاعل عمدةٌ لا يجوز حذفه ، ولكنه قد ورد في الحديث مَنْ تَوضَّأَ فبها ونعْمتُ ، ومن اغتسَلَ

فالغُسْلُ أُفضلُ ففاعل "نِعْمَتْ" هنا مضمرٌ يفسّرُهُ سياقُ الكلام.

قال أبو حيَّان: فهذه اثنتان وعشرون قراءةً، وضبطُها بالتَّلخيص: أنَّها قُرِئتْ ثلاثية اللَّفْظِ، ورباعَيَّتَهُ، فالثُّلاثي اسماً: بِئْسٍ، وَبِيْسٍ، وبَيْسٍ، وبَأْسٍ، وبَأَسٍ، وبَئْسٍ، وفعلاً بِيْسَ وبِئْسَ، وبَئِسَ، وبَأَسَ، وبَأْسَ، وبَيِسَ.

والرباعية اسماً: بَيْئَسٍ، وبِيْئِسٍ، وبَيْئِسٍ، وبَيِّسٍ، وبَيِّئْسٍ، وبِيْئَسٍ، وبِيْئِسٍ، وبِيْئَسٍ، وفعلاً: بَأَّسَ".

وقد زا أبو البقاء أربع قراءات أخر: بَيِس بباء مفتوحة وياء مكسورة.

قال: وأصلها همزة مكسورة فأبدلت ياء، وبَيَس بفتحهما.

قال: وأصلها ياء ساكنة وهمزة مفتوحة إلاَّ أنَّ حركة الهمزة ألقيت على الياء وحذفت، ولم تقلب الياء ألفاً، لأنَّ حركتها عارضةٌ.

وبَأْيَسٍ بفتح الباء، وسكون الهمزة وفتح الياء.

قال: وهو بعيد إذ ليس في الكلام "فَعْيَل" وبَيْآس على فَيْعَال. وهو غريب. انتهى انتهى.

اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 361. 365 ﴾. باختصار.

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ

بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) ﴾

إذا تمادى العبد في تَهَتُّكِه ، ولم يُبالِ بطول الإمهال والسَّتْر لم تُهْمِلْ يدُ التقرير عن استئصال العين ، ومحو الأثر ، وسرعة الحساب ، وتعجيل العذاب الأدنى قبل هجوم الأكبر . ثم البرءُ في فضاء السلامة ، وتحت ظِلِّ الحفظ ، ودوام روْح التخصيص وبَرْدِ عيش التقريب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 581 ﴾

(50/294)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما هددهم بهمن العذاب الشديد ، أتبعه الهلاك فقال : ﴿ فلما عتوا ﴾ أي تكبروا جلافة ويبساً عن الانتهاء ﴿ عن ما نهوا عنه ﴾ أي بعد الأخذ بالعذاب الشديد ، وتجاوزوا إلى الاجتراء على جميع المعاصي عناداً وتكبراً بغاية الوقاحة وعدم المبالاة ، كان مواقعتهم لذلك الذنب وإمهالهم مع الوعظ أكسبتهم ذلك وغلظت أكبادهم عن الخوف بزاجر العذاب ، من عتا يعتو عتواً - إذا أقبل على الآثام ، فهو عات ، قال عبد الحق في

كتابة الواعي : وقيل إذا أقدم على كل أموره ، ومنه هذه الآية ، وقيل : العاتي هو المبالغ في ركوب المعاصي ، وقيل : المتمرد الذي لا ينفع فيه الوعظ والتنبيه ، ومنه قوله سبحانه ﴿ فعتوا عن أمر ربهم ﴾ [الذاريات : 44] أي جاوزوا المقدار والحد في الكفر - انتهى .

وحقيقته : جاوزوا الأمر إلى النهي ، أو جاوزوا الائتمار بأمره ، والمادة ترجع إلى الغلظ والشدة والصلابة ﴿ قلنا لهم ﴾ أي بما لنا من القدرة العظيمة ﴿ كونوا قردة ﴾ أي في صورة القردة حال كونكم ﴿ خاسئين ﴾ أي صاغرين مطرودين بعدين عن الرحمة كما يبعد الكلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 141.142 ﴾

(51/294)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) ﴾

فيه مباحث :

البحث الأول : العتو عبارة عن الإباء والعصيان ، وإذا عتوا عما نهوا عنه فقد أطاعوا ،

لأنهم أبوا عما نهوا عنه ، ومعلوم أنه ليس المراد ذلك فلا بد من إضمار ، والتقدير : فلما عتوا عن ترك ما نهوا عنه ، ثم حذف المضاف ، وإذا أبوا ترك المنهي كان ذلك ارتكاباً للمنهى .

البحث الثاني : من الناس من قال : إن قوله : ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً ﴾ ليس من المقال ، بل المراد منه : أنه تعالى فعل ذلك .

قال : وفيه دلالة على أن قوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] هو بمعنى الفعل لا الكلام .

وقال الزجاج : أمروا بأن يكونوا كذلك بقول سمع فيكون أبلغ .

واعلم أن حمل هذا الكلام على هذا بعيد ، لأن المأمور بالفعل يجب أن يكون قادراً عليه ، والقوم ما كانوا قادرين على أن يقلبوا أنفسهم قردة .

البحث الثالث : قال ابن عباس : أصبح القوم وهم قردة صاغرون ، فمكثوا كذلك ثلاثاً فرآهم الناس ثم هلكوا .

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن شباب القوم صاروا قردة ، والشيوخ خنازير ، وهذا القول على خلاف الظاهر .

واختلفوا في أن الذين مسخوا هل بقوا قردة ؟ وهل هذه القردة من نسلهم أو هلكوا ، وانقطع نسلهم ، ولا دلالة في الآية عليه ، والكلام في المسخ وما فيه من المباحثات قد سبق

بالاستقصاء في سورة البقرة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 34 ﴾

(52/294)

وقال الثعلبى :

قوله ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ ﴾

قال ابن عباس : أبوا أن يرجعوا عن المعصية ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ صاغرين . قال سعيد بن جبير : رأى موسى (عليه السلام) رجلاً يحمل قصباً يوم السبت فضرب عنقه ، أبو روق : الخاسئون الذين لا يتكلّمون .

وقال المؤرخ مبعدين كما بَعُد الكلاب . قال ابن عباس : [مكثوا] ثلاث أيام ينظر إليهم الناس ثمّ هلكوا ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا ولم يمكث مسخ فوق ثلاثة أيام .

قال مقاتل : عاشوا سبعة أيام يعرف الكبير بكبره والصغير بصغره ، ثمّ ماتوا .

وروى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله لم يمسخ شيئاً فجعل له نسلاً وعاقبه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(53/294)

وقال ابن عطية :

و" العتو " الاستعصاء وقلة الطواعية ، وقوله : ﴿ قلنا لهم ﴾ يحتمل أن يكون قولاً بلفظ من ملك أسمعهم ذلك فكان أذهب في الإغراب والهوان والإصغار ، ويحتمل أن يكون عبارة عن المقدرة المكونة لهم قردة ، و﴿ خاسئين ﴾ خبر بعد خبر ، هذا اختيار أبي الفتح ، وضعف الصفة وكذلك هو ، لأن القصد ليس التشبيه بقردة مبعدات .

قال القاضي أبو محمد : ويجوز أن يكون ﴿ خاسئين ﴾ حالاً من الضمير في ﴿ كونوا ﴾ ، والصفة أيضاً متوجهة مع ضعفها ، وروي أن الشباب منهم مسخوا قردة والرجال الكبار مسخوا خنازير ، وروي أن مسخهم كان بعد المعصية في صيد الحوت بعامين وقال ابن الكلبي إن إهلاكهم كان في زمن داود ، وروي أن الناهين قسموا المدينة بينهم وبين العاصين بجدار ، فلما أصحبوا ليلة أهلك العاصون لم يفتح مدينة العاصين حتى ارتفع النهار فاستراب الناهون لذلك فطلع أحد الناس على السور فرآهم ممسوخين قردة تتوالب ، فصاح ، فدخلوا عليهم يعرف الرجل قرابته ويعرف القرد أيضاً كذلك قرابته ، وينضمون إلى قرابتهم فيتحسرون ، قال الزجاج : وقال قوم : يجوز أن تكون هذه القردة من نسلهم .

قال القاضي أبو محمد : وتعلق هؤلاء بقول النبي صلى الله عليه وسلم : إن أمة من الأمم فقدت وما أراها إلا الفأر إذا قرب لها لبن لم تشرب ، وبقوله صلى الله عليه وسلم في الضب

، وقصص هذا الأمر أكثر من هذا لكن اختصرته واقتصرت على عيونه . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا ﴾

أي فلما تجاوزوا في معصية الله .

﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ يقال : خسأته فخسأ ؛ أي باعدته وطردته .

وقد تقدّم في "البقرة" .

ودلّ على أن المعاصي سبب النقمة : وهذا لا خفاء به فقيل : قال لهم ذلك بكلام يُسمع ، فكانوا كذلك .

وقيل : المعنى كوّناهم قردة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(54/294)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إذْ

تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أُمَّهَاتِ الشَّرِيعَةِ ، وَفِيهَا مَسَائِلُ أُصُولُهَا تِسْعٌ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : إنَّ اللَّهَ أَمَرَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْأَلَ الْيَهُودَ إخْوَةَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ عَنْ الْقَرْيَةِ الْبَحْرِيَّةِ الَّتِي اعْتَدَوْا فِيهَا يَوْمَ السَّبْتِ ، فَمَسَخَهُمْ اللَّهُ بِاعْتِدَائِهِمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ ، لِيُعَرِّفَهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ الْعُقُوبَةِ بِتَغْيِيرِ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الشَّرِيعَةِ ، فَكَيْفَ بِتَغْيِيرِ أَصْلِ الشَّرِيعَةِ ، الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ ﴾ يَعْنِي أَهْلَ الْقَرْيَةِ ؛ فَعَبَّرَ بِهَا عَنْهُمْ لَمَّا كَانَتْ مُسْتَقَرًّا لَهُمْ وَسَبَبَ اجْتِمَاعِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ الْآيَةَ ، وَكَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدٍ ﴾ يَعْنِي أَهْلَ الْعَرْشِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ يُرِيدُ اسْتِبْشَارَهُمْ بِهِ .

وَكَمَا قَالَ أَيْضًا فِي الْمَدِينَةِ : ﴿ هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قِيلَ : كَانَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ أَيْلَةَ ، مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ .

وَقِيلَ : كَانَتْ طَبَرِيَّةَ مِنْ أَعْمَالِ الشَّامِ .

وَقِيلَ : مَدْيَنَ ؛ وَرَبُّك أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي سَبَبِ مَسْخِهِمْ ، فَقِيلَ : إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ الصَّيْدَ يَوْمَ السَّبْتِ ، ثُمَّ ابْتَلَاهُمْ بِأَنْ تَكُونَ الْحِيتَانُ تَأْتِي يَوْمَ السَّبْتِ شُرَّعًا أَيْ : رَافِعَةً رُءُوسَهَا فِي الْمَاءِ يَنْظُرُونَ إلَيْهَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْأَحَدِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ الْأَيَّامِ طَلَبُوا مِنْهَا حُوتًا وَاحِدًا لِلصَّيْدِ فَلَمْ يَجِدُوهُ ؛ فَصَوَّرَ عِنْدَهُمْ إبْلِيسُ أَنْ يَسُدُّوا أَفْوَاهَ الْخُلْجَانِ يَوْمَ السَّبْتِ حَتَّى إذَا أَمْسَوْا ، وَأَرَادَتْ الْحِيتَانُ أَنْ تَرْجِعَ إلَى النَّهْرِ الْأَعْظَمِ وَإِلَى غَمْرَةِ الْبَحْرِ لَمْ تَجِدْ مَسْلَكًا ، فَيَأْخُذُونَهَا فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ ؛ فَفَعَلُوا ذَلِكَ فَمُسِخُوا .

وَرَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ فِي الْقِصَّةِ عَنْ بَعْضِ أَشْيَاخِهِ ، قَالَ : كَانَتْ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ ، فَإِذَا كَانَ الْمَسَاءُ ذَهَبَتْ فَلَا يُرَى مِنْهَا شَيْءٌ إلَى السَّبْتِ الْآخَرِ ، فَاتَّخَذَ لِذَلِكَ رَجُلٌ مِنْهُمْ خَيْطًا وَوَتَدًا ، فَرَبَطُوا حُوتًا مِنْهَا فِي الْمَاءِ يَوْمَ السَّبْتِ ، حَتَّى إذَا أَمْسَوْا لَيْلَةَ الْأَحَدِ أَخَذَهُ فَاشْتَوَاهُ ، فَوَجَدَ النَّاسُ رِيحَهُ ، فَأَتَوْهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَجَحَدَهُمْ ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى قَالَ لَهُمْ : إنَّهُ جِلْدُ حُوتٍ وَجَدْنَاهُ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ السَّبْتِ الْآخَرِ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَلَا أَدْرِي لَعَلَّهُ قَالَ ثُمَّ رَبَطَ حُوتَيْنِ ، فَلَمَّا أَمْسَى مِنْ لَيْلَةِ الْأَحَدِ أَخَذَهُ وَاشْتَوَاهُ ، فَوَجَدُوا رِيحَهُ ، فَجَاءُوهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : لَوْ شِئْتُمْ صَنَعْتُمْ كَمَا أَصْنَعُ .

قَالُوا : وَمَا صَنَعْت ؟ فَأَخْبَرَهُمْ ، فَفَعَلُوا مِثْلَ مَا فَعَلَ ، حَتَّى كَثُرَ ذَلِكَ ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَدِينَةٌ لَهَا رَبَضٌ يُغْلِقُونَهَا عَلَيْهِمْ ، فَأَصَابَهُمْ مِنْ الْمَسْخِ مَا أَصَابَهُمْ ، فَغَدَا إلَيْهِمْ جِيرَانُهُمْ مِمَّنْ كَانَ حَوْلَهُمْ

يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ مَا يَطْلُبُ النَّاسُ ، فَوَجَدُوا الْمَدِينَةَ مُغْلَقَةً عَلَيْهِمْ ، فَنَادَوْا فَلَمْ يُجِبْهُمْ أَحَدٌ ، فَتَسَوَّرُوا عَلَيْهِمْ الْمَدِينَةَ ، فَإِذَا هُمْ قِرَدَةٌ ، فَجَعَلَ الْقِرْدُ مِنْهُمْ يَدْنُو فَيَتَمَسَّحُ بِمَنْ كَانَ يَعْرِفُ قَبْلَ ذَلِكَ .

قَالَ الْحَسَنُ : فَأَكَلُوا وَاَللَّهِ أَوْخَمَ أَكْلَةٍ أَكَلَهَا قَوْمٌ ، وَعُوقِبُوا أَسْوَأَ عُقُوبَةٍ فِي الدُّنْيَا وَأَشَدَّهَا عَذَابًا فِي الْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ : وَاَللَّهِ لَقَتْلُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَكْلِ الْحِيتَانِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : لَمَّا فَعَلُوا هَذَا نَهَاهُمْ كُبَرَاؤُهُمْ ، وَوَعَظَهُمْ أَحْبَارُهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ ، فَاسْتَمَرُّوا عَلَى نَهْيِهِمْ لَهُمْ ، وَلَمْ يَمْنَعْ مِنْ التَّمَادِي عَلَى الْوَعْظِ وَالنَّهْيِ عَدَمُ قَبُولِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ فَرْضٌ قُبِلَ أَوْ لَمْ يُقْبَلْ ، حَتَّى قَالَ لَهُمْ بَعْضُهُمْ : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ ؟ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا ، ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فِي الْآخِرَةِ ؟ قَالَ لَهُمْ النَّاهُونَ : مَعْذِرَةً إلَى رَبِّكُمْ ، أَيْ نَقُومُ بِفَرْضِنَا ؛ لِيَثْبُتَ عُذْرُنَا عِنْدَ رَبِّنَا .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أَيْ : تَرَكُوهُ عَنْ قَصْدٍ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النِّسْيَانَ لَفْظٌ يَنْطَلِقُ عَلَى السَّاهِي وَالْعَامِدِ رَدًّا عَلَى أَهْلِ جَهَالَةٍ زَعَمُوا أَنَّ النَّاسِيَ وَالسَّاهِيَ لِمَعْنًى وَاحِدٍ .

وَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا مَعْرِفَةَ لَهُمْ بِاللُّغَةِ ، وَقَصْدُهُمْ هَدْمُ الشَّرِيعَةِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، وَحَقَّقْنَا مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا ﴾ .

وَقُلْنَا : مَعْنَاهُ مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ تَرَكَهَا فَلْيُصَلِّهَا مَتَى ذَكَرَهَا .

فَالسَّاهِي لَهُ حَالَةُ ذِكْرٍ ، وَالْعَامِدُ هُوَ أَبَدًا ذَاكِرٌ ؛ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ فَرْضُ الْقَضَاءِ مَتَى حَضَرَهُ الذِّكْرُ دَائِمًا أَوْ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ ، وَبِهَذَا اسْتَقَامَ نِظَامُ الْكَلَامِ ، وَاسْتَقَرَّ حُكْمُ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ إثْبَاتِ الذَّرَائِعِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا مَالِكٌ ، وَتَابَعَهُ عَلَيْهَا أَحْمَدُ فِي بَعْضِ رِوَايَاتِهِ ، وَخَفِيَتْ عَلَى الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ مَعَ تَبَحُّرِهِمَا فِي الشَّرِيعَةِ ، وَهُوَ كُلُّ عَمَلٍ ظَاهِرِ الْجَوَازِ يُتَوَصَّلُ بِهِ إلَى مَحْظُورٍ ، كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ حِينَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ صَيْدَ السَّبْتِ ، فَسَكَرُوا الْأَنْهَارَ ، وَرَبَطُوا الْحِيتَانَ فِيهِ إلَى يَوْمِ الْأَحَدِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَدِلَّةَ الْمَسْأَلَةِ فِي كُتُبِ الْخِلَافِ ، وَبَسَطْنَاهَا قُرْآنًا وَسُنَّةً وَدَلَالَةً مِنْ الْأُصُولِ فِي الشَّرِيعَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا الَّذِي فَعَلَتْ الْيَهُودُ لَمْ يَكُنْ تَوَسُّلًا إلَى الصَّيْدِ ؛ بَلْ كَانَ نَفْسَ الصَّيْدِ .

(58/294)

قُلْنَا : إنَّمَا حَقِيقَةُ الصَّيْدِ إخْرَاجُ الْحُوتِ مِنْ الْمَاءِ وَتَحْصِيلُهُ عِنْدَ الصَّائِدِ ، فَأَمَّا التَّحَيُّلُ عَلَيْهِ إلَى حِينِ الصَّيْدِ فَهُوَ سَبَبُ الصَّيْدِ ، لَا نَفْسُ الصَّيْدِ ، وَسَبَبُ الشَّيْءِ غَيْرُ الشَّيْءِ ؛ إنَّمَا هُوَ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إلَيْهِ ، وَيُتَوَسَّلُ بِهِ فِي تَحْصِيلِهِ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَعَلَهُ أَصْحَابُ السَّبْتِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّمَا هَلَكُوا بِاتِّبَاعِ الظَّاهِرَةِ ؛ لِأَنَّ الصَّيْدَ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : لَا نَصِيدُ ، بَلْ نَأْتِي بِسَبَبِ الصَّيْدِ ، وَلَيْسَ سَبَبُ الشَّيْءِ نَفْسَ الشَّيْءِ ، فَنَحْنُ لَا نَرْتَكِبُ عَيْنَ مَا نُهِينَا عَنْهُ ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الْأَخْذِ بِالظَّاهِرِ الْمُطْلَقِ فِي الشَّرِيعَةِ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْمَمْسُوخِ ؛ هَلْ يَنْسِلُ أَمْ لَا ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّ الْمَمْسُوخَ لَا يَنْسِلُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ يَنْسِلُ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ عِنْدِي .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَمْرَانِ : أَحَدُهُمَا : حَدِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ حِينَ ﴿

سُئِلَ عَنْ الضَّبِّ ، فَقَالَ إِنَّ أُمَّةً مُسِخَتْ ، فَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ الضَّبُّ مِنْهَا ﴾ .

وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِنَّ الْفَأْرَ مُسِخَ ، أَلَا تَرَاهُ إِذَا وُضِعَ لَهُ أَلْبَانُ الْإِبِلِ لَمْ يَشْرَبْهَا ﴾ .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْت فِي الْجَاهِلِيَّةِ قِرَدَةً قَدْ رَجَمُوا قِرَدَةً .

(59/294)

وَنَصُّ الْحَدِيثِ : قَدْ رَأَيْت فِي الْجَاهِلِيَّةِ قِرَدَةً قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا قِرَدَةٌ قَدْ زَنَتْ فَرَجَمُوهَا ، فَرَجَمْتُهَا مَعَهُمْ .

ثَبَتَ فِي بَعْضِ نُسَخِ الْبُخَارِيِّ ، وَسَقَطَ فِي بَعْضِهَا .

وَثَبَتَ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ : قَدْ زَنَتْ .

وَسَقَطَ هَذَا اللَّفْظُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ .

فَإِنْ قِيلَ : وَكَأَنَّ الْبَهَائِمَ بَقِيَتْ فِيهِمْ مَعَارِفُ الشَّرَائِعِ حَتَّى وَرِثُوهَا خَلَفًا عَنْ سَلَفٍ إلَى زَمَانِ عُمَرَ .

وَقُلْنَا : نَعَمْ ، كَذَلِكَ كَانَ ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ غَيَّرُوا الرَّجْمَ ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُقِيمَهُ فِي مُسُوخِهِمْ ، حَتَّى يَكُونَ إبْلَاغًا فِي الْحُجَّةِ عَلَى مَا أَنْكَرُوهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَغَيَّرُوهُ ، حَتَّى تَشْهَدَ عَلَيْهِمْ كُتُبُهُمْ وَأَحْبَارُهُمْ وَمُسُوخُهُمْ ، حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، وَيُحْصِي مَا يُبَدِّلُونَ

وَمَا يُغَيِّرُونَ ، وَيُقِيمَ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، وَيَنْصُرَ نَبِيَّهُ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(60/294)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه ﴾

قول ابن عباس : أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الإباء والعصيان والمعنى فلما عتوا عما نهوا يعني عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا في العصيان من اعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك في يوم السبت وأكله ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ يعني صاغرين مبعدين من كل خير .

قال قتادة : لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعد ما كانوا رجالاً ونساء .

وقال ابن عباس : جعل الله منهم القردة والخنازير فزعم أن شبان القوم صاروا قردة وأن المشيخة صاروا خنازير ، قيل إنهم بقوا ثلاثة أيام ينظر الناس إليهم ثم هلكوا جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ .

أي استعصوا والعتوّ الاستعصاء والتأبيّ في الشيء وباقي الآية تقدم تفسيره في البقرة ، والظاهر أن العذاب والمسخ والهلاك إنما وقع بالمعتدين في السبت والأمة القائلة ﴿ لم تعظون قوماً ﴾ هم من فريق النّاهين الناجين وإنما سألوا إخوانهم عن علة وعظهم وهو لا يجدي فيهم شيئاً البتة أذ الله مهلكهم أو معذّبهم فيصير الوعظ إذ ذاك كالبعث كوعظ المساكين فإنهم يسخرون بمن يعظهم وكثير ما يؤدي إلى تنكيل الواعظ وعلى قول من زعم أن الأمة القائلة ﴿ لم تعظون ﴾ هم العصاة قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء أي تزعمون أن الله مهلكهم أو معذبهم تكون هذه الأمة من الهالكين الممسوخين والظاهر من قوله ﴿ فلما عتوا ﴾ أنهم أولاً أخذوا بالعذاب حين نسوا ما ذكروا به ثم لما عتوا مسخوا ، وقيل : ﴿ فلما عتوا ﴾ تكرير لقوله : ﴿ فلما نسوا ﴾ والعذاب البئيس هو المسخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(61/294)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾

أي تمرّدوا وتكبروا وأبَوا أن يتركُوا ما نُهوا عنه ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ صاغرين أذلأَّبُعَداءَ عن الناس ، والمرادُ بالأمر هو الأمرُ التكوينيُّ لا القولي ، وترتيبُ المسخِ على العتو عن الانتهاء عما نهوا عنه للإيذان بأنه ليس لخصوصية الحوتِ بل العُمدةُ في ذلك هو مخالفةُ الأمر والاستعصاءُ عليه تعالى . وقيل : المرادُ بالعذاب البئيس هو المسخُ والجملةُ الثانية تقريرٌ للأولى . روي أن اليهودَ أُمروا باليوم الذين أُمرنا به وهو يومُ الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعنيُّ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ فابتُلوا به وحُرّم عليهم الصيدُ فيه وأُمروا بتعظيمه فكانت الحيتانُ تأتيهم يوم السبت كأنها المخاضُ لا يُرى وجهُ الماء لكثرتها ولا تأتيهم في سائر الأيامِ فكانوا على ذلك برهةً من الدهر ثم جاءهم إبليسُ فقال لهم : إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضاً سهلةَ الورودِ صعبةَ الصدور ففعلوا فجعلوا يسوقون الحيتانَ إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ويأخذونها يوم الأحد ، وأخذ رجل منهم حوتاً وربط في ذنبه خيطاً إلى خشبة في الساحل ثم شواه يوم الأحد فوجد جارُه ريحَ السمك فتطلع في تنّوره فقال له : إني أرى الله سيعذبك ، فلما لم يَرَه عُذّب أخذ في يوم السبت القابلِ حُوتين فلما رأوا أن العذابَ لا يعاجلُهم استمروا على ذلك فصادوا وأكلوا وملّحوا وباعوا وكانوا نحواً من سبعين ألفاً فصار أهلُ

القرية أثلاثاً ثلثٌ استمروا على النهي ، وثلثٌ ملُّوا التذكير وسئِموه وقالوا للواعظين : لم تعِظون الخ ، وثلث باشروا الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون : نحن لا نساكنُكم فقسموا القريةَ بجدار ، للمسلمين بابٌ وللمعتدين باب ولعنهم داودُ عليه السلام فأصبح الناهون ذاتَ يوم في مجالسهم ولم يخرُجْ من المعتدين أحد فقالوا : إن لهم لشأناً فعَلَوا الجدارَ فنظروا فإذا هم

(62/294)

قردةٌ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القِردةُ أنسباءَهم من الإنس وهم لا يعرفونها فجعل القردُ يأتي نسيبَه فيشم ثيابه فيبكي فيقول له نسيبُه : ألم ننهَكم ؟ فيقول القردُ برأسه : بلى ، ثم ماتوا عن ثلاث ، وقيل : صار الشبانُ قردةً والشيوخُ خنازير ، وعن مجاهد رضي الله عنه : مُسخت قلوبُهم ، وقال الحسن البصري : أكلوا والله أوخَمَ أكلةٍ أكلها أهلُها أثقلُها خزياً في الدنيا وأطولُها عذاباً في الآخرة هاه وأيمُ الله ما حوتٌ أخذه قومٌ فأكلوه أعظمُ عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعداً والساعةُ أدهى وأمرّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(63/294)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ ﴾ أي تكبروا ﴿ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ أي عن ترك ذلك ففي الكلام تقدير مضاف إذ التكبر والأباء عن المنهى عنه لا يذم ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ صاغرين أذلاء مبعدين عن كل خير والأمر تكويني لا تكليفي لأنه ليس في وسعهم حتى يكلفوا به ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] في أنه يحتمل أن يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل ، والظاهر أن الله تعالى أوقع بهم نكالا في الدنيا غير المسخ فلم يقلعوا عما كانوا عليه فمسخهم قردة . وجوز أن يكون المراد بالعذاب البئيس هو المسخ وتكون هذه الآية تفصيلاً لما قبلها .

روي عن ابن عباس أن اليهود إنما افترض عليهم اليوم الذي افترض عليكم وهو يوم الجمعة فخالفوا إلى يوم السبت واختاروه فحرم عليهم الصيد فيه وابتلوا به فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعاً بيضاً سماناً حتى لا يرى الماء من كثرتها فمكثوا ما شاء الله تعالى لا يصيدون ثم أتاهم الشيطان فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض والشبكات فكانوا يسوقون الحيتان إليها فيه ثم يأخذونها يوم الأحد ، وفي رواية أن رجلاً منهم أخذ حوتاً فحزمه بخيط ثم ضرب له وتدا في الساحل وربطه فيه وتركه في الماء فلما كان الغد جاء فأخذخ وأكله فلاموه على ذلك فلما لم يأته العذاب أخذ في السبت القابل

حوتين وفعل ما فعل ولم يصبه شيء فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم تجاسروا فأخذوا وملحوا وباعوا وكانوا نحوا من اثنى عشر ألفا أو من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثاً كما قص الله تعالى فقال المسلمون للمعتدين نحن لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب وكانت القصة في زمن داود عليه السلام فلعنهم فأصبح المسلمون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا : إن لهؤلاء لشأنا لعل الخمر غلبتهم فعلوا على الجدار فإذا القوم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الانس ولم تعرف الإنس انسابهم منها فجعلت تأتي إلى نسيبها فتشم ثيابه وتبكي فيقول : ألم ننهكم فتقول القردة برأسها نعم ثم ماتوا بعد ثلاث .

وعن قتادة أن الشبان صاروا قردة والشيوخ خنازير ، وعن مجاهد أنه مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفعهم الحق .

(64/294)

وأخرج ابن جرير وغيره عن الحسن قال : كان حوتاً حرمه الله عليهم في يوم وأحله لهم فيما سوى ذلك فكان يأتيهم في اليوم الذي حرمه الله تعالى عليهم كأنه المخاض ما يمتنع من أحد فجعلوا يهمون ويمسكون وقلما رأيت أحداً أكثر الاهتمام بالذنب إلا واقعة حتى أخذوه

فأكلوا والله أوخم أكله أكلها قوم أثقلها خزيا في الدنيا وأطولها عذاباً في الآخرة وايم الله تعالى ما حوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله تعالى من قتل رجل مؤمن وللمؤمن أعظم حرمة عند الله سبحانه من حوت ولكن الله عز وجل جعل موعد قوم الساعة والساعة أدهى وأمر .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة أنه كان على شاطىء البحر الذي هم عنده ضمان من حجارة مستقبلان الماء يقال لأحدهما لقيم وللآخرة لقمانة فأوحى الله تعالى إلى السمك إن حج يوم السبت إلى الصنمين وأوحى إلى أهل القرية إني قد أمرت السمك أن يحجوا إلى الصنمين يوم السبت فلا تتعرضوه فيه فإذا ذهب اليوم فشأنكم به فصيدوه فابتلى القوم ووقع منهم ما مسخوا به قردة وفي القلب من صحة هذا الأثر شيء ولعله لا صحة له كما لا يخفى على من يعرف معنى الحج من المصلين ، ويشبه هذين الصنمين عين حق لأن قرب جزيرة الحديثة من العراق وهي قريبة من شاطىء الفرات السمك يزورها في أيام مخصوصة من السنة حتى يخيل أنه لم يبق في بطن الفرات حوت إلا قذف إليها فيصيد أهل ذلك الصقع منه ما شاء الله تعالى وينقلونه إلى الجزائر والقرى القريبة منهم كألوس وحبة وعانات وهيت ثم ينقطع فلا ترى سمكة في العين بعد تلك الأيام إلى مثلها من قابل وسبحان الفعال لما يريد ، واستدل بعض أهل العلم بقصة هؤلاء المعتدين على حرمة الحيل في الدين ، وأيد ذلك بما أخرجه ابن بطة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا ترتكبوا ما

ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(65/294)

وقال القاسمى :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [166] .

﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ أي : تكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ أي : صاغرين أذلاء ، بُعداء من الناس .

قال الزجاج : أمروا بأن يكونوا كذلك بقولٍ سُمع .

وقال غيره : المراد بالأمر هو الأمر التكويني ، لا القولي ، أي : التكليفي ، لأنه ليس في وسعهم حتى يؤمروا به .

وفي الكلام استعارة تخييلية ، شبه تأثير قدرته تعالى في المراد من غير توقف ، ومن غير مزاولة عمل واستعمال آلة ، بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور به ، من غير توقف . كذا في " العناية " .

وظاهر الآية يقتضي أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد ، فعتوا بعد ذلك فمسخهم ،

ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً لما قبلها .

تنبيهات :

الأول : قال الجشمي : تدل الآية على أنهم تعبدوا بتحريم الصيد يوم السبت ، وأنه شدد التكليف عليهم بظهورها يومئذ ، وأنهم خالفوا أمر الله ، وهذا القدر يقتضيه الظاهر .

ومتى قيل : أفظهور الحيتان يوم السبت دون غيره من الأيام ، هل كانت معجزة ؟

قلنا : اختلفوا فيه ، فقيل : كان معجزة لنبي ذلك الزمان ، لأنه لا يتفق للسمك أن يأتي الأنهار كثيراً في يوم واحد ، ولا يظهر في سائر الأيام ، فإن كان كذلك ، فلا بد أن الله تعالى قوى دواعي الحيتان يوم السبت ، فظهروا ، وصرفهم في سائر الأيام ، فلم يظهروا ، فكانت معجزة .

وقيل : كانت جرت عادتهم بترك الصيد يوم السبت ، فعلموا ذلك فكثروا في ذلك اليوم على عادتهم ، كما اعتاد الدواب كثيراً من الأشياء . انتهى .

وقد روي في اعتدائهم في السبت روايات :

منها : أنهم تحيلوا لاصطياد الحيتان فيه بوضع الحبائل والبرك قبل يوم السبت ، حتى إذا جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة ، نشبت بتلك الحبائل ، فلم تخلص منها يومها ، فإذا كان الليل ، أخذوها بعد انقضاء السبت .

ومنها : أنهم كانوا يأخذونها يوم السبت بالفعل ، ولكن يأكلونها في غيره من الأيام ، فتأول لهم الشيطان أن النهي عن الأكل فيه منها ، لا عن صيدها ، فنهتهم طائفة منهم عن ذلك وقالت : ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف ، أو قذف ، أو بعض ما عنده من العذاب ، فلما أصبحوا وجدوهم أصابهم من المسخ ما أصابهم ، وإذا هم قردة – رواه عبد الرزاق وابن جرير – وثمة روايات أخر .

وروي عن مجاهد أنهم مسخت قلوبهم ، لا أبدانهم – والله أعلم – .

الثاني : اسُتدل بهذه القصة على تحريم الحِيَلِ .

قال الإمام ابن القيم في " إغاثة اللهفان " : ومن مكايد الشيطان التي كاد بها الإسلام وأهله ، الحيل والمكر والخداع ، الذي يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط ما فرضه ، ومضادته في أمره ونهيه ، وهي من الرأي الباطل الذي اتفق السلف على ذمه .

فإن الرأي رأيان : رأي يوافق النصوص ، وتشهد له بالصحة والإعتبار ، وهو الذي اعتبره السلف ، وعملوا به ، ورأي يخالف النصوص ، وتشهد له بالإبطال والإهدار ، فهو الذي ذموه وأنكروه .

وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به ، وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام ، وتخليص الحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي ، فهذا النوع محمود ، يثاب فاعله ومعلمه . ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالماً ، والظالم مظلوماً ، والحق باطلاً ، والباطل حقاً ، فهذا الذي اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض .

ثم ساق الوجوه العديدة على تحريمه وإبطاله .

وقال في سادسها :

(67/294)

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما اختالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم الأحد .

قال بعض الأئمة : ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ، ممن يتلبس بعلم الفقه ، وهو غير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عندها ، ليس المتحيل على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه .

ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى عليه السلام وكفراً بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل ، واختيال ظاهره ظاهر الإيفاء ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا – والله أعلم – مسخوا قردة ، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الْإِنْسَانْ ، وفي أوصافه شبه منهم ، وهو مخالف له في الحد والحقيقة .

فلما نسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره ، دون حقيقته ، مسخهم الله قردة يشبهونهم في بعض ظواهرهم ، دون الحقيقة ، جزاء وفاقاً .

ثم روي في عاشرها عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل > .

الثالث : دلت الآيات على أن أهل هذه القرية صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على صيد السمك يوم السبت ، كما بينا . وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمنكرة : لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم ؟ فأجابتها المنكرة : بأنا نفعل ذلك اعتذاراً إلى ربنا فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ثم نص الله على نجاة الناهين ، وهلاك الظالمين .

وقال ابن كثير : وسكت عن الساكتين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين ، أو من الناجين ؟ على قولين .

ويروى أن ابن عباس كان توقف فيهم ، ثم صار إلى نجاتهم ، لما قال له غلامه عِكْرِمَة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه ، خالفوهم ، وقالوا : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ؟ فكساه حلة .

الرابع : دل قوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ على أن النهي عن المنكر لا يسقط ، ولو علم المنكر عدم الفائدة فيه ، إذ ليس من شرطه حصول الإمتثال عنه ، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان الدين ، والغيرة على حدود الله ، والإعتذار إليه تعالى ، وإذ شدد في تركه لكفاه فائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 216.214 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) ﴾

و(العتو) تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فعقروا الناقة وعَتوا عن أمر ربهم ﴾ في هذه السورة (77) .

وقوله : ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ تقدم القول في نظيره عند قوله تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ في سورة البقرة (65) ، ولأجل التشابه بين الآيتين ، وذكر العدْوِ في السبت فيهما ، وذكرِه هنا في الإخبار عن القرية ، جزم المفسرون بأن الذين نسوا مَا ذكروا به وعتوا عما نهوا عنه هم أهل هذه القرية ، وبأن الأمة القائلة ﴿ لم تعظون قوماً ﴾ هي أمة من هذه القرية فجزموا بأن القصة واحدة ، وهذا وإن كان لا ينبو عنه المقام ، كما أنه لا يمنعُ تشابه فريقين في العذاب ، فقد بينتُ أن ذلك لا ينافي جعل القصة في معنى قصتين من جهة الاعتبار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(70/294)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) ﴾

وأخذهم بعذاب يدل على أنه لم يزهق حياتهم ويميتهم ؛ لأن العذاب هو إيلام من يتألم ، والموت ليس عذاباً لأنه ينهي الإِحساس بالألم ، ولنتعرف على الفارق بين الموت والعذاب حين نقرأ قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول سيدنا سليمان حين تنبه لغياب الهدهد عندما وجد مكانه خاليا : ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَاْذْبَحَنَّهُ . . . ﴾ [النمل : 20-21]

هكذا نرى الفارق بين العذاب وبين الموت . وهنا يقول الحق : ﴿ فَلَماَّ عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ و " عتوا " تعني أبْوا وعصوْا واستكبروا فحق عليهم عذاب الله الذي أوضحه قول الحق : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ .

لأن " العتو " كبرياء وإباء ؛ فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأخس الحيوانات فصيرهم أشباه القرود ، كل منهم مفضوح السوءة ، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم . فهل انقلبوا قردة ؟ . نعم ؛ لأنك حين تأمر إنساناً بفعل . . أَلاَ تُقَدِّر قبل الأمر له بالفعل أنه صالح أن يفعل وألا يفعل ؟ . وحين يقول الله : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً ﴾ فهل في مكنتهم أن يصنعوا من أنفسهم قردة ؟ . ونقول : إن هذا اسمه " أمر تسخيري " أي اصبحوا وصُيِّروا قردة . وقد رأوهم على

هذه الهيئة من وعظوهم ، وهي هنا مقولة " خبر " نصدقه بتوثيق من قاله ، وكان هذا الخبر واقعاً لمن شاهده .

(71/294)

ولذلك نجد المعجزات التي حدثت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير القرآن الذي وصلنا ككتاب منهج ومعجزة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، لكن ألم ينبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ؟ لقد حدث ذلك وغيره من المعجزات وشاهده أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وأخبرونا بالخبر ، وكان ذلك آية تُثبِّت يقينهم وإيمانهم . وتثبت لنا خبراً ، فإن اتسع لها ذهنك فأهلاً وسهلاً ، وإن لم يتسع لها فلا توقف إيمانك ؛ لأنها آية لم تأت من أجلك أنت ، وكل معجزة كونية حدثت لرسول الله فالمراد بها من شاهدها ، ووصلتك أنت كخبر ، إن وثقت بالخبر صدقته ، وإن لم تثق به ووقفت عنده فلن ينقص إيمانك . غير أنه يجب على من وصل إليه الخبر بطريق مقطوع به ، أن يصدق ويذعن .

وقد أخبر الحق هنا بالأمر بقوله : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ بأنه أوقع عليهم عذاباً بأن جعلهم قردة خاسئين ، فهذا عقاب للذين عتوا عمَّا نهوا عنه . والذين وعظوهم أو

عاصروهم هم من شاهدوا وقوع العذاب .

وهل الممسوخ يظل ممسوخاً ؟ . إن الممسوخ قرداً أو خنزيراً ، يظل فترة كذلك ليراه من رآه ظالماً ، ثم بعد ذلك يموت وينتهي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(72/294)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : دخلت على ابن عباس وهو يقرأ هذه الآية ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾ قال : يا عكرمة ، هل

تدري أي قرية هذه؟ قلت: لا. قال: هي أيلة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب ﴿ واسألهم عن القرية ﴾ قال: هي طبرية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد واسألهم عن القرية قال: هي قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونا.

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ واسألهم عن القرية ﴾ قال: هي مدين.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ قال: يظلمون.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ شرعاً ﴾ يقول: من كل مكان.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ شرعاً ﴾ قال: ظاهرة على الماء.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ شرعاً ﴾ قال: واردة.

(73/294)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾ قال: هي قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة، فحرَّم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، فكانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها، فمكثوا كذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم

أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة فلم يزدادوا إلا غيّاً . فقالت طائفة من النهاة : تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ وكانوا أشد عضباً من الطائفة الأخرى ، وكل قد كانوا ينهون ، فما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالتا : لم تعظون ؟ والذين ﴿ قالوا : معذرة إلى ربكم ﴾ وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ واسألهم عن القرية . . . ﴾ الآية . قال : إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم يوم الجمعة ، فخالفوا إلى السبت فعظَّموه وتركوا ما أمروا به ، فلما ابتدعوا السبت ابتلوا فيه ، فحرمت عليهم الحيتان ، وهي قرية يقال لها مدين بين أيلة والطور ، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر ، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى مثله من السبت المقبل ، فإذا جاء السبت عادت شرعاً ، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فحزمه بخيط ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه وتركه في الماء ، فلما كان الغد جاء فأخذه فأكله سراً ، ففعلوا ذلك وهم ينظرون لا يتناهون إلا بقية منهم ، فنهوهم حتى إذا ظهر ذلك في الأسواق علانية قالت طائفة للذين ينهونهم ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ قالوا ﴿ معذرة إلى ربكم ﴾ في سخطنا أعمالهم ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ فكانوا أثلاثاً .

(74/294)

ثلثاً نهى ، وثلثاً قالوا ﴿ لم تعظون ﴾ وثلثاً أصحاب الخطيئة ، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم ، فأصبح الذين نهوا ذات غداة في مجالسهم يتفقدون الناس لا يرونهم ، وقد باتوا من ليلتهم وغلقوا عليهم دورهم ، فجعلوا يقولون : إن للناس شأناً فانظروا ما شأنهم ، فاطلعوا في دورهم فإذا القوم قد مسخوا يعرفون الرجل بعينه وأنه لقرد ، والمرأة بعينها وانها لقردة .

(75/294)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عكرمة قال : جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي ، وإذا المصحف في حجره فقلت : ما يبكيك يا ابن عباس ؟ فقال : هؤلاء الورقات . وإذا في سورة الأعراف قال : تعرف أيلة ؟ قلت : نعم . قال : فإنه كان بها حي من يهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا عليها بعد كد ومؤنة شديدة ، وكانت تأتيهم يوم السبت شرعاً بيضاً سماناً كأنها

الماخض ، فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام . فقالت : ذلك طائفة منهم ، وقالت طائفة : بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها في يوم السبت ، فعدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها ، واعتزلت طائفة ذات اليمين ، وتنحَّت واعتزلت طائفة ذات اليسار ، وسكتت وقال الأيمنون : ويلكم . . . ؟ لا تتعرضوا لعقوبة الله ، وقال الأيسرون ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ قال الأيمنون : ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ ان ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا ، وأن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم . فمضوا على الخطيئة وقال الأيمنون : قد فعلتم يا أعداء الله ، والله لنباينّكم الليلة في مدينتكم . والله ما أراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب ، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا ، فوضعوا سلما وعلوا سور المدينة رجلاً ، فالتفت إليهم فقال : أي عباد الله قردة والله تعاوى لها أذناب . . . ! ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الانس ولا تعرف الانس أنسابها من القردة ، فجعلت القرود تأتي نسيبها من الانس فتشم ثيابه وتبكي ، فيقول ألم ننهكم فتقول برأسها : أي نعم . ثم قرأ ابن عباس ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ قال : أليم وجيع . قال :

فارى

(76/294)

الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها . قلت : أي جعلني الله فداك ، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم ، وقالوا ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ قال : فأمر بي فكسيت ثوبين غليظين .

(77/294)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كانت قرية على ساحل البحر يقال لها ايلة ، وكان على ساحل البحر صنمان من حجارة مستقبلان الماء ، يقال لأحدهما لقيم والآخر لقمانة ، فأوحى الله إلى السمك ، أن حج يوم السبت إلى الصنمين ، وأوحى إلى أهل القرية : أني قد أمرت السمك أن يحجوا إلى الصنمين يوم السبت فلا تعرضوا للسمك يوم لا يمتنع منكم ، فإذا ذهب السبت فشأنكم به فصيدوه ، فكان إذا طلع الفجر يوم السبت أقبل السمك شرعاً إلى الصنمين لا يمتنع من آخذ يأخذه ، فظهر يوم السبت شيء من السمك في القرية فقالوا : نأخذه يوم السبت فنأكله يوم الأحد ، فلما كان يوم السبت الآخر ظهر أكثر من ذلك

، فلما كان السبت الآخر ظهر السمك في القرية ، فقام إليهم قوم منهم فوعظوهم فقالوا : اتقوا الله . فقام آخرون فقالوا ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ فلما كان سبت من تلك الأسبات فشى السمك في القرية ، فقال الذين نهوا عن السوء فقالوا : لا نبيت معكم الليلة في هذه القرية . فقيل لهم : لو أصبحتم فانقلبتم بذراريكم ونسائكم . قالوا : لا نبيت معكم الليلة في هذه القرية ، فإن أصبحنا غدونا فاخرجنا ذرارينا وأمتعتنا من بين ظهرانيكم وكان القوم شاتين ، فلما أمسوا أغلقوا أبوابهم فلما أصبحوا لم يسمع القوم لهم صوتاً ولم يروا سرجاً خرج من القرية . . . ! قالوا : قد أصاب أهل القرية شر . . . ! فبعثوا رجلاً منهم ينظر إليهم ، فلما أتى القرية إذا الأبواب مغلقة عليهم ، فاطلع في دار فإذا هم قرود كلهم ، المرأة أنثى والرجل ذكر ، ثم اطلع في دار أخرى فإذا هم كذلك الصغير صغير والكبير كبير ، ورجع إلى القوم فقال : يا قوم نزل بأهل القرية ما كنتم تحذرون ، أصبحوا قردة كلهم لا يستطيعون أن يفتحوا الأبواب ، فدخلوا عليه فإذا هم قردة كلهم ، فجعل الرجل يومىء إلى القرد منهم أنت فلان ، فيومىء برأسه : نعم . وهم يبكون فقالوا :

أبعدكم الله قد حذرناكم هذا ، ففتحوا لهم الأبواب فخرجوا فلحقوا بالبرية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : نجا الناهون وهلك الفاعلون ، ولا أدري ما صنع بالساكتين .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : والله لئن أكون علمت أن القوم الذين قالوا ﴿ لم تعظون قوماً ﴾ نجوا مع الذين نهوا عن السوء أحب إلى ما عدل به . وفي لفظ : من حمر النعم . ولكني أخاف أن تكون العقوبة نزلت بهم جميعاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : قال ابن عباس : ما أدري انجا الذين قالوا لم تعظون قوماً أم لا ؟ قال : فما زلت أبصره حتى عرف أنهم قد نجوا فكساني حلة .

وأخرج عبد بن حميد عن ليث بن أبي سليم قال : مسخوا حجارة الذين قالوا ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ واسألهم عن القرية . . . ﴾ الآية . قال : كان حوتاً حرمه الله عليهم في يوم وأحله لهم فيما سوى ذلك ، فكان يأتيهم في اليوم الذي حرَّمه الله عليهم كأنه المخاض ما يمتنع من أحد ، فجعلوا يهمون ويمسكون وقلما رأيت أحداً أكثر الأهتمام بالذنب إلا واقعه ، فجعلوا يهمون ويمسكون حتى أخذوه فأكلوا بها والله أوخم أكلة أكلها قوم قط أبقاه خزياً

في الدنيا وأشده عقوبة في الآخرة ، وأيم الله للمؤمن من أعظم حرمة عند الله من حوت ، ولكن الله عز وجل جعل موعد قوم الساعة والساعة أدهى وأمر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : أخذ موسى عليه السلام رجلاً يحمل حطباً يوم السبت ، وكان موسى يسبت فصلبه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : احتطب رجل في السبت ، وكان داود عليه السلام يسبت فصلبه .

(79/294)

وأخرج عبد بن حميد عن أبي بكر بن عياش قال : كان حفظي عن عاصم " بعذاب بئيس " على معنى فعيل ، ثم دخلني منها شك فتركت روايتها عن عاصم وأخذتها عن الأعمش " بعذاب بئيس " على معنى فعيل .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ بعذاب بئيس ﴾ قال : لا رحمة فيه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ بعذاب بئيس ﴾ قال : وجيع .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ بعذاب بئيس ﴾ قال : أليم

بشدة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : نودي الذي اعتدوا في السبت ثلاثة أصوات ، نودوا يا أهل القرية فانتبهت طائفة ، ثم نودوا يا أهل القرية فانتبهت طائفة أكثر من الأولى ، ثم نودوا يا أهل القرية فانتبه الرجال والنساء والصبيان ، فقال الله لهم ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ [البقرة : 65] فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون : يا فلان ألم ننهكم ؟ فيقولون برؤوسهم : أي بلى .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير وماهان الحنفي قال : لما مسخوا جعل الرجل يشبه الرجل وهو قرد ، فيقال : أنت فلان . . . ؟ ! فيومىء إلى يديه بما كسبت يداي .

وأخرج ابن بطة عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل " .

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان قال : قالوا لعبد الله بن عبد العزيز العمري في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : تأمر من لا يقبل منك ؟ قال : يكون معذرة ، وقرأ ﴿ قالوا معذرة إلى ربكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(80/294)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) ﴾

إذا انتهت مدةُ الإمهال فليس بعده إلا حقيقة الاستئصال ، وإذا سقط العبدُ من عين الله لم ينتعشْ بعده أبداً ، فمن أسقطه حكمُ الملوك فلا قبول له بعد الردّ ، وفي معناه أنشدوا :

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيء لم تكَدْ . . . إليه بوجهٍ آخرَ الدهرِ تُقْبَلُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 581 ﴾

(81/294)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ لما قص الله علينا ما وقع من السامريّ وأصحابه ، وما حصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين ، قص علينا سبحانه أن قوم موسى أمة مخالفة لأولئك الذين تقدّم ذكرهم ، ووصفهم بأنهم ﴿ يَهْدُونَ بالحق ﴾ أي يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق ﴿ وَبِهِ ﴾ أي : بالحق ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ بين الناس في

الحكم .

وقيل : هم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم منهم .

قوله : ﴿ وقطعناهم اثنتى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا ﴾ الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدّم ذكرهم ، لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون ، والمعنى : صيرناهم قطعاً متفرّقة ، وميزنا بعضهم من بعض .

وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل ، والمعنى : أنه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطاً كل سبط معروف على انفراده لكل سبط نقيب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثنى عَشَرَ نَقِيباً ﴾ [المائدة : 12] وقد تقدّم ، وقوله : ﴿ اثنتى عَشْرَةَ ﴾ هو ثاني مفعولي ﴿ قطعنا ﴾ لتضمنه معنى التصيير .

و ﴿ أسباطاً ﴾ تمييز له أو بدل منه .

و ﴿ أُمَمًا ﴾ نعت للأسباط أو بدل منه .

والأسباط جمع سبط : وهو ولد الولد ، صاروا اثنتي عشرة أمة من اثني عشر ولداً ، وأراد بالأسباط القبائل ، ولهذا أنث العدد ، كما في قول الشاعر :

وإن قريشاً كلها عشر أبطن . . . وأنت بريء من قبائلها العشر

أراد بالبطن القبيلة .

وقد تقدّم تحقيق معنى الأسباط في البقرة [الآية : 58] .

وروى المفضل عن عاصم أنه قرأ " قطعناهم " مخففاً ، وسماهم أمماً ، لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد ، وكانوا مختلفي الآراء يؤمّ بعضهم غير ما يؤمه الآخر .

(82/294)

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ ﴾ أي وقت استسقائهم له لما أصابهم العطش في التيه ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ الحجر ﴾ تفسير لفعل الايحاء ﴿ فانبجست ﴾ عطف على مقدّر يدل عليه السياق ، أي فضرب فانبجست ، والانبجاس : الانفجار ، أي فانفجرت ﴿ مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ بعدد الأسباط ، لكل سبط عين يشربون منها ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أي : كل سبط منهم العين المختصة به التي يشرب منها .

وقد تقدّم في البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة .

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام ﴾ أي جعلناه ظللاً عليهم في التيه ، يسير بسيرهم ويقيم بإقامتهم ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى ﴾ أي : الترنجبين والسماني كما تقدّم تحقيقه في البقرة ﴿ كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم ﴾ أي : وقلنا لهم كلوا من المستلذات التي رزقناكم ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : كان ظلمهم مختصاً بهم مقصوراً عليهم ، لا يجاوزهم إلى

غيرهم .

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ أي : واذكر وقت قيل لهم هذا القول وهو ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ أي : بيت المقدس أو أريحاء .

وقيل غير ذلك مما تقدم بيانه ﴿ وَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ أي : من المأكولات الموجودة فيها ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ أي : في أيّ مكان شئتم من أمكنتها ، لا مانع لكم من الأكل فيه ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ قد تقدم تفسيرها في البقرة [الآية : 58] ﴿ وادخلوا الباب ﴾ أي : باب القرية المتقدمة حال كونكم ﴿ سُجَّدًا ﴾ أمروا بأن يجمعوا بين قولهم ﴿ حطة ﴾ وبين الدخول ساجدين .

(83/294)

فلا يقال كيف قدّم الأمر بالقول هنا على الدخول وأخّره في البقرة ؟ وقد تقدّم بيان معنى السجود الذي أمروا به ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خطيئاتكم ﴾ جواب الأمر ، وقرىء " خَطِيئَتكُمْ " ، ثم وعدهم بقوله : ﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ أي : سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضل به عليهم من النعم .

والجملة استئنافية جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا لهم بعد المغفرة ؟ ﴿ فَبَدَّلَ الذين

ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الذى قِيلَ لَهُمْ ﴾ قد تقدّم بيان ذلك في البقرة [الآية : 59] ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مّنَ السماء ﴾ أي : عذاباً كائناً منها ﴿ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : بسبب ظلمهم .

قوله : ﴿ وَاسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التى كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ معطوف على عامل إذ المقدّر ، أي اذكر إذ قيل لهم واسألهم ، وهذا سؤال تقريع وتوبيخ ، والمراد من سؤال القرية : سؤال أهلها ، أي اسألهم عن هذا الحادث الذي حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم الله به .

وفي ضمن هذا السؤال فائدة جليلة ، وهي تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن اطلاعه لا يكون إلا بإخبار له من الله سبحانه ، فيكون دليلاً على صدقه .

واختلف أهل التفسير في هذه القرية : أيّ قرية هي ؟ فقيل أيلة .

وقيل طبرية .

وقيل مدين .

وقيل إيليا .

وقيل قرية من قرى ساحل الشام التي كانت حاضرة البحر ، أي التي كانت بقرب البحر .

يقال كنت بحضرة الدار ، أي بقربها .

والمعنى : سل يا محمد هؤلاء اليهود الموجودين عن قصة أهل القرية المذكورة .

قرىء ﴿ واسألهم ﴾ وقرىء "سلهم" .

﴿ إِذْ يَعْدُونَ ﴾ أي وقت يعدون ، وهو ظرف لمحذوف دلّ عليه الكلام ، لأن السؤال هو عن حالهم وقصتهم وقت يعدون .

وقيل : إنه ظرف ل ﴿ كانت ﴾ أول ﴿ حاضرة ﴾ .

وقرىء "يُعِدُّون" بضم الياء وكسر العين وتشديد الدال من الإعداد للآلة .

(84/294)

وقرأ الجمهور ﴿ يعدون ﴾ بفتح الياء وسكون العين وضم الدال مخففة ، أي يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت الذي نهوا عن الاصطياد فيه .

وقرىء "يعدّون" بفتح الياء والعين وضم الدال مشدّدة بمعنى يعتدون ، أدغمت التاء في الدال .

والسبت : هو اليوم المعروف وأصله السكون .

يقال سبت : إذا سكن وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم ، والجمع أسبت ، وسبوت ، وأسبات ، وقرأ ابن السمفع في "الأسبات" على الجمع .

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ ظرف ل ﴿ يعدون ﴾ .

والحيتان : جمع حوت ، وأضيفت إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه .

و﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ ظرف ل ﴿ تأتيهم ﴾ .

وقرىء "يوم أسباتهم" و ﴿ شُرَّعًا ﴾ حال ، وهو جمع شارع ، أي ظاهرة على الماء .

وقيل رافعة رؤوسها .

وقيل : إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكباش البيض .

قال في الكشاف : يقال شرع علينا فلان إذا دنى منا وأشرف علينا ، وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا انتهى .

﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ أي : لا يفعلون السبت ، وذلك عند خروج يوم السبت لا تأتيهم الحيتان ، كما كانت تأتيهم في يوم السبت ﴿ كذلك نَبْلُوهُم ﴾ أي : مثل ذلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم .

والابتلاء الامتحان والاختبار .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ ﴾ معطوف على ﴿ إذ يعدون ﴾ معمول لعامله ، داخل في حكمه .

والأمة الجماعة ، أي قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدّين في السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة ، وإقلاعهم عن المعصية ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أي : مستأمل لهم بالعقوبة ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بما انتهكوا

من الحرمة ، وفعلوا من المعصية ، وقيل : إن الجماعة القائلة ﴿ لم تعظون قوماً ﴾ ؟ هم العصاة الفاعلون للصيد في يوم السبت ، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم .

(85/294)

والمعنى : إذا علمتم أن الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا ؟ ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ أي : قال الواعظون للجماعة القائلين لهم ﴿ لم تعظون ﴾ ، وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأوّل ، أو الفاعلين على الوجه الثاني ﴿ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ بالنصب ، وهي قراءة حفص عن عاصم ، وقرأ الباقون بالرفع .

قال الكسائي : ونصبه على وجهين : أحدهما على المصدر ، والثاني على تقدير فعلنا ذلك معذرة ، أي لأجل المعذرة .

والرفع على تقدير مبتدأ : أي موعظتنا معذرة إلى الله ، حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اللذين أوجبهما علينا ، ولرجاء أن يتعظوا فيتقوا ويقلعوا عما هم فيه من المعصية .

قال جمهور المفسرين : إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق : فرقة عصت وصادت وكانت

نحو سبعين ألفاً ، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص ، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص ، فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ﴾ يريدون الفرقة العاصية ﴿ اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ ﴾ قالوا ذلك على غلبة الظنّ لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم ، من دون استئصال بالهلاك ، فقالت الناهية : موعظتنا معذرة إلى الله ولعلهم يتقون .

ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية ، وعاصية لقال : لعلكم تتقون .

(86/294)

قوله : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ أي : لما ترك العصاة من أهل القرية ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر ، ترك الناسي للشيء المعرض عنه كلية الإعراض ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء ﴾ أي : الذين فعلوا النهي ، ولم يتركوه ﴿ وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ ﴾ وهم العصاة المعتدون في السبت ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيس ﴾ أي : شديد من بؤس الشيء يبؤس بأساً إذا اشتد ، وفيه إحدى عشرة قراءة ، للسبعة وغيرهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أي : بسبب فسقهم ، والجار والمجرور متعلق بأخذنا ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَمَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ أي : تجاوزوا الحد في معصية الله سبحانه تمرّداً وتكبراً ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً ﴾ أي : أمرناهم

أمراً كونياً لا أمراً قولياً ، أي مسخناهم قردة .

قيل : إنه سبحانه عذبهم أوّلاً بسبب المعصية ، فلما لم يقلعوا مسخهم قردة .

وقيل : إن قوله : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَمَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ تكرير لقوله : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ للتأكيد والتقرير ، وأن المسخ هو العذاب البئيس ، والخاسىء الصاغر الذليل أو المباعد المطرود ، يقال خسأته فخسىء ، أي باعدته فتباعد .

واعلم أن ظاهر النظم القرآني هو أنه لم ينجح من العذاب إلا الفرقة الناهية التي لم تعص لقوله : ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء ﴾ وأنه لم يعذب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ فإن كانت الطوائف منهم ثلاثاً كما تقدّم ، فالطائفة التي لم تنه ولم تعص يحتمل أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية ؛ لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهي ، وعتت عما نهاها الله عنه من ترك النهي عن المنكر .

(87/294)

ويحتمل أنها لم تمسخ ، لأنها وإن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيه ، لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة ، وهي صيد الحوت في يوم السبت ، ولا عتت عن نهيه لها عن الصيد .

وأما إذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالطائفة الثانية ، وإنما جعلت طائفة مستقلة لكونها قد جرت المقاولة بينها وبين الطائفة الأخرى من الناهين المعتزلين ، فهما في الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما في النهي والاعتزال والنجاة من المسخ .

وقد أخرج الفريابي ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : قال موسى : يا ربّ أجد أمة أناجيلهم في قلوبهم ، قال : تلك أمة تكون بعدك أمة أحمد .

قال : يا ربّ أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهنّ ، قال : تلك أمة تكون بعدك : أمة أحمد .

قال : يا ربّ أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ثم ترجع فيهم ، فيأكلون ، قال : تلك أمة بعدك : أمة أحمد .

قال : يا ربّ اجعلني من أمة أحمد .

فأنزل الله كهيئة المرضاة لموسى ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ ﴾ الآية ، قال : بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم ، وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً ، تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا ، وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينهم ، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض ، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا .

قال ابن جريج : قال ابن عباس : فذلك قوله : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : 104] ووعد الآخرة عيسى ابن مريم .

قال ابن عباس ساروا في السرب سنة ونصفاً .

أقول : ومثل هذا الخبر العجيب والنبأ الغريب محتاج إلى تصحيح النقل .

(88/294)

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عليّ بن أبي طالب ، قال : افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا فرقة .

وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا فرقة ، ولتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ، فأما اليهود فإن الله يقول : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ فهذه التي تنجو .

وأما النصارى فإن الله يقول : ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ [المائدة : 66] فهذه التي تنجو .

وأما نحن فيقول : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : 181] فهذه التي تنجو من هذه الأمة .

وقد قدّمنا أن زيادة "كلها في النار" لم تصح لا مرفوعة ولا موقوفة.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ فانبجست ﴾ قال: فانفرجت.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة قال: دخلت على ابن عباس، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ وَاسأَلْهُمْ عَنِ القرية التى كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ قال: يا عكرمة هل تدري أيّ قرية هذه؟ قلت لا، قال: هي أيلة.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الزهري قال: هي طبرية.

وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قله: ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى السبت ﴾ قال: يظلمون.

وأخرج ابن جرير، عنه، في قوله: ﴿ شُرَّعًا ﴾ يقول: من كل مكان.

وأخرج ابن جرير، عنه، أيضاً قال: ظاهرة على الماء.

وأخرج ابن المنذر، عنه، قال: واردة.

(89/294)

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه، في الآية قال: هي قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة، يقال لها أيلة، فحرّم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، فكانت تأتيهم

يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر ، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها ، فمكثوا كذلك ما شاء الله ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة فلم يزدادوا إلا غياً ، فقالت طائفة من النهاة يعلمون أن هؤلاء قوم حق عليهم العذاب ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وكانوا أشدّ غضباً من الطائفة الأخرى ، وكل قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا ﴿ لِمَ تَعِظُونَ ﴾ والذين قالوا : ﴿ مَعْذِرَةً إلى ربّكُمْ ﴾ وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان ، فجعلهم قردة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عنه ، أنهم ثلاث فرق : فرقة العصاة ، وفرقة الناهون وفرقة القائلين ﴿ لم تعظون ﴾ ؛ فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم ، فأصبح الذين نهوا ذات غداة في مجالسهم يتفقدون الناس لا يرونهم ، وقد باتوا من ليلتهم ، وغلقوا عليهم دورهم ، فجعلوا يقولون إن للناس لشأناً فانظروا ما شأنهم ؟ فاطلعوا في دورهم ، فإذا القوم قد مسخوا يعرفون الرجل بعينه ، وإنه لقرد ، والمرأة بعينها وإنها لقردة .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، فذكر القصة ، وفي آخرها أنه قال : فأرى الذين نهوا قد نجوا ، ولا أرى الآخرين ذكروا .

ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها .

قال عكرمة : فقلت جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم .

وقالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ قال فأمر بي فكسيت ثوبين غليظين .

(90/294)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، أيضاً قال : نجا الناهون وهلك الفاعلون ، ولا أدري ما صنع بالساكتين .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ ، عنه قال : والله لأن أكون علمت أن القوم الذين قالوا ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ﴾ نجوا مع الذين نهوا عن السوء أحبّ إلي مما عدل به .

وفي لفظ : من حمر النعم ، ولكن أخاف أن تكون العقوبة نزلت بهم جميعاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن عكرمة ، قال : قال ابن عباس : ما أدري أنجا الذين قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أم لا ؟ قال : فما زلت أبصره حتى عرف أنهم قد نجوا فكساني حلة .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ليث بن أبي سليم ، قال : مسخوا حجارة الذين قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيس ﴾ قال : أليم وجيع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(91/294)

كلام نفيس وجامع للإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى الحيل

قال عليه سحائب الرحمة :

فصل

ومن مكايده التى كاد بها الإسلام وأهله: الحيل والمكر والخداع الذى يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط ما فرضه ، ومضادته فى أمره ونهيه ، وهى من الرأى الباطل الذى اتفق السلف على ذمه

فإن الرأى رأيان: رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذى اعتبره السلف ، وعملوا به .

ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار ، فهو الذى ذموه وأنكروه . وكذلك الحيل نوعان: نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به ، وترك ما نهى عنه والتخلص من الحرام ، وتخليص الحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى ، فهذا النوع

محمود يثاب فاعله ومعلمه .

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالماً ، والظالم مظلوماً ، والحق باطلاً والباطل حقاً ، فهذا النوع الذى اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض .

وقال الإمام أحمد رحمة الله: لا يجوز شئ من الحيل فى إبطال حق مسلم .

وقال الميمونى: قلت لأبى عبد الله: من حلف على يمين ثم احتال لإبطالها ، فهل تجوز تلك الحيلة ؟ قال: نحن لا نرى الحيلة إلا بما يجوز . قلت: أليس حيلتنا فيها أن نتبع ما قالوا ، وإذا وجدنا لهم قولا فى شئ اتبعناه ؟ قال: بلى هكذا هو . قلت: أو ليس هذا منا نحن حيلة ؟ قال: نعم .

فبين الإمام أحمد أن من اتبع ما شرعه الله له وجاء عن السلف فى معانى الأسماء التى علقت بها الأحكام ليس بمحتال الحيل المذمومة . . وإن سميت حيلة فليس الكلام فيها .

وغرض الإمام أحمد بهذا : الفرق بين سلوك الطريق المشروعة التى شرعت لحصول مقصود الشارع ، وبين الطريق التى تسلك لإبطال مقصوده .

فهذا هو سر الفرق بين النوعين ، وكلامنا الآن فى النوع الثانى .

قال شيخنا : فالدليل على تحريم هذا النوع وإبطاله من وجوه:

الوجه الأول: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: 8-9] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: 142].

وقال فى أهل العهد: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ [الأنفال: 62].

فأخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله تعالى خادع من خدعه، وأنه يكفى المخدوع شر من خدعه.

والمخادعة: هى الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع. وهذا موافق لاشتقاق اللفظ فى اللغة. فإنهم يقولون: طريق خيدع، إذا كان مخالفاً للقصد لا يشعر به ولا يفطن له، ويقال للسراب الخيدع، لأنه يغر من يراه، وضب خدَعٍ، أى مراوغ. كما قالوا: أخدع من ضب، ومنه: "الحرب خدعة" وسوق خادعة، أى متلونة، وأصله: الإخفاء والستر. ومنه سميت الخزانة مخدعاً.

فلما كان القائل "آمنت" مظهراً لهذه الكلمة، غير مريد حقيقتها المرعية المطلوبة شرعاً، بل مريد لحكمها وثمرتها فقط مخادعاً، كان المتكلم بلفظ "بعت" و "اشتريت" و "طلقت" و "نكحت" و "خالعت" و "آجرت"، و "ساقيت" و "أوصيت" غير مريد لحقائقها

الشرعية المطلوبة منها شرعاً ، بل مريد لأمور أخرى غير ما شرعت له ، أو ضد ما شرعت له مخادعاً . ذاك مخادع فى أصل الإيمان ، وهذا مخادع فى أعماله وشرائعه .

قال شيخنا : وهذا ضرب من النفاق فى آيات الله تعالى وحدوده ، كما أن الأول نفاق فى أصل الدين .

يؤيد ذلك: ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما "أنه جاءه رجل فقال: إن عمى طلق امرأته ثلاثا ، أيحلها له رجل ؟ فقال: من يخادع الله يخدعه" .

(93/294)

وعن أنس بن مالك: أنه سئل عن العينة ، يعنى بيع الحريرة ؟ فقال: إن الله تعالى لا يخدع ، هذا ما حرم الله تعالى ورسوله . رواه أبو جعفر محمد بن سليمان الحافظ المعروف بمُطَين فى كتاب البيوع له .

وعن ابن عباس: أنه سئل عن العِينة ، يعنى بيع الحريرة ، فقال: إن الله لا يخدع ، هذا مما حرم الله تعالى ورسوله ، رواه الحافظ أبو محمد النخشى .

فسمى الصحابة من أظهر عقد التبايع ومقصود به الربا خداعاً لله ، وهم المرجوع إليهم فى هذا الشأن والمعوّل عليهم فى فهم القرآن . وقد تقدم عن عثمان ، وعبد الله بن عمر ،

وغيرهما أنهما قالا فى المطلقة ثلاثا : لا يحلها إلا نكاح رغبة ، لا نكاح دِلسة .

قال أهل اللغة: المدالسة: المخادعة .

وقال أيوب السختيانى فى المحتالين: يخادعون الله كما يخادعون الصبيان ، فلو أتوا الأمر عياناً كان أهون علىّ .

وقال شريك بن عبد الله القاضى فى كتاب الحيل: هو كتاب المخادعة .

وكذلك المعاهدون إذا أظهروا للرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنهم يريدون سلمه ، وهم يقصدون بذلك المكُر به من حيث لا يشعر . فيظهرون له أمانا ويبطنون له خلافه .

كما أن المحلل والمرابى يظهران النكاح والبيع المقصودين ، ومقصود هذا الطلاق بعد استفراش المرأة ، ومقصود الآخر ما تواطآ عليه قبل إظهار العقد ، من بيع الألف الحالة بالألف والمائتين إلى أجل ، فمخالفة ما يدل عليه العقد شرعاً أو عرفاً خديعة .

قال: وتلخيص ذلك أن مخادعة الله تعالى حرام ، والحيل مخادعة لله .

بيان الأول: أن الله تعالى ذم المنافقين بالمخادعة وأخبر أنه خادعهم ، وخدعه للعبد عقوبة تستلزم فعله للمحرم .

وبيان الثانى: أن ابن عباس وأنساً وغيرهما من الصحابة والتابعين أفتوا أن التحليل ونحوه من الحيل مخادعة لله تعالى ، وهم أعلم بكتاب الله تعالى .

الثانى: أن المخادعة إظهار شئ من الخير وإبطان خلافه كما تقدم .

الثالث: أن المنافق لما أظهر الإسلام، ومراده غيره، سمى مخادعا لله تعالى، وكذلك المرابى. فإن النفاق والربى من باب واحد. فإذا كان هذا الذى أظهر قولاً غير معتقد ولا مريد لما يفهم منه، وهذا الذى أظهر فعلاً غير معتقد ولا مريد لما شرع له مخادعاً. فالمحتال لا يخرج عن أحد القسمين: إما إظهار فعل لغير مقصوده الذى شرع له، أو إظهار قول لغير مقصوده الذى شرع له. وإذا كان مشاركاً لهما فى المعنى الذى

سميا به مخادعين وجب أن يشركهما فى اسم الخداع، وعلم أن الخداع اسم لعموم الحيل لا لخصوص هذا النفاق.

الوجه الثانى: أن الله تعالى ذم المستهزئين بآياته، والمتكلم بالأقوال التى جعل الشارع لها حقائق ومقاصد مثل كلمة الإيمان، وكلمة الله تعالى التى يستحل بها الفروج، ومثل العهود والمواثيق التى بين المتعاقدين وهو يريد بها حقائقها المقومة لها، ولا مقاصدها التى جعلت هذه الألفاظ محصلة لها، بل يريد أن يراجع المرأة ليضرها ويسئ عشرتها ولا حاجة فى نكاحها، أو ينكحها ليحلها لمطلقها، لا ليتخذها زوجاً، أو يخلعها ليلبسها، أو يبيع بيعاً جائزاً ومقصوده به ما حرمه الله تعالى ورسوله، فهو ممن اتخذ آيات الله تعالى هزواً.

يوضحه:

الوجه الثالث: ما رواه ابن ماجه بإسناد حسن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم "ما بال أقوام يلعبون بحدود الله، ويستهزئون بآياته؟ طلقتك، راجعتك، طلقتك، راجعتك؟" فجعل المتكلم بهذه العقود غير مريد لحقائقها وما شرعت له مستهزئاً بآيات الله تعالى، متلاعباً بحدوده. ورواه ابن بطة بإسناد جيد، ولفظة "خلعتك، راجعتك، خلعتك، راجعتك".

(95/294)

الوجه الرابع: ما رواه النسائي عن محمود بن لبيد "أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً، على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟" الحديث، وقد تقدم. فجعله لاعباً بكتاب الله، مع قصده الطلاق، لكنه خالف وجه الطلاق وأراد غير ما أراد الله تعالى به، فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يطلق طلاقاً يملك فيه ردّ المرأة إذا شاء، فطلق هو طلاقاً لا يملك فيه ردها.

وأيضاً فإن المرتين والمرات في لغة القرآن والسنة، بل ولغة العرب، بل ولغات سائر الأمم: لما كان مرة بعد مرة، فإذا جمع المرتين والمرات في مرة واحدة فقد تعدى حدود الله تعالى

وما دل عليه كتابه ، فكيف إذا أراد باللفظ الذى رتب عليه الشارع حكما ضد ما قصده الشارع ؟ .

الوجه الخامس: أن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم ما

بلاهم به فى سورة

ن وهم قوم كان للمساكين حق فى أموالهم ، إذا جذوا نهاراً ، بأن يلتقط المساكين ما يتساقط من التمر فأرادوا أن يجدوا ليلا ليسقط ذلك الحق لئلا يأتيهم مسكين وأنه عاقبهم بأنه أرسل على جنتهم طائفاً وهم نائمون فأصبحت كالصريم . وذلك لما تحيلوا على إسقاط نصيب المساكين بأن يصرموها مصبحين قبل مجئ المساكين ، فكان فى ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده .

(96/294)

الوجه السادس: أن الله تعالى أخبر [الأعراف: 163 167] عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى عليهم من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد . قال بعض الأئمة: ففى هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه إذ الفقيه

من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده وتعظيم حرماته والوقوف عندها ، ليس المحتال على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه . ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى عليه السلام وكفراً بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ، ظاهره ظاهر الاتقاء ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا والله أعلم مسخوا قردة ، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان وفى بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه ، وهو مخالف له فى الحد والحقيقة . فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه

الدين فى بعض ظاهره دون حقيقته ، مسخهم الله تعالى قردة ، يشبهونهم فى بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقاً ، يوضحه:

الوجه السابع: أن بنى إسرائيل كانوا أكلى الربا وأموال الناس بالباطل كما قصه الله

تعالى فى كتابه ، وذلك أعظم من أكل الصيد الحرام فى يوم بعينه ، ولذلك كان الربا والظلم حراماً فى شريعتنا والصيد يوم السبت غير محرم فيها ثم أن أكلة الربا وأموال الناس بالباطل لم يعاقبوا بالمسخ كما عوقب به مستحلو الحرام بالحيلة وإن كانوا عوقبوا بجنس آخر كعقوبات أمثالهم من العصاة . فيشبه ، والله أعلم أن هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً إذ هم

بمنزلة المنافقين ولا يعترفون بالذنب ، بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم كانت عقوبتهم أغلظ من عقوبة غيرهم ، فإن من أكل الربا والصيد الحرام عالما بأنه حرام فقد اقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم ، وهو إيمان بالله تعالى وآياته . ويترتب على ذلك من خشية الله تعالى ورجاء مغفرته وإمكان التوبة ما قد يفضى به إلى خير ورحمة . ومن أكله مستحلاً له بنوع احتيال تأول فيه ، فهو مصر على الحرام ، وقد اقترن به اعتقاده الفاسد فى حل الحرام ، وذلك قد يفضى به إلى شر طويل .

وقد جاء ذكر المسخ فى عدة أحاديث قد تقدم بعضها فى هذا الكتاب كقوله فى حديث أبى مالك الأشعرى ، الذى رواه البخارى فى صحيحه: "وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" .

وقوله فى حديث أنس: "لَيَبِيتَنَّ رِجَالٌ عَلَى أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَعَزْفٍ ، فَيُصْبِحُونَ عَلَى أَرَائِكِهِمْ مَمْسُوخِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ" .

وفى حديث أبى أمامة أيضا : "يَبِيتُ قَوْمٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ عَلَى طَعْمٍ وَشَرْبٍ وَلَهْوٍ فَيُصْبِحُونَ وَقَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ" .

وفى حديث عمران بن حصين: "يَكُونَ فى أُمَّتِى قَذْفٌ وَمَسْخٌ وَخَسْفٌ" .

وكذلك فى حديث سهل بن سعد وكذلك فى حديث على بن أبى طالب ، وقوله: "فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، وخسفاً ، ومسخاً" .

وفى حديثه الآخر: "يمسخ طائفة من أمتى قردة وطائفة خنازير" .

وفى حديث أنس رضى الله عنه "ليكونن فى هذه الأمة خسف وقذف ومسخ" .

(98/294)

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه "يمسخ قوم من هذه الأمة فى آخر الزمان قردة وخنازير . قالوا: يا رسول الله ، أليس يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ؟ قال: بلى ، ويصومون ، ويصلون ، ويحجون . قالوا: فما بالهم لله ؟ قال: اتخذوا المعازف والدفوف ، القينات ، فباتوا على شربهم ولهوهم . فأصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير" .

وفى حديث جبير بن نفير: ليبتلين آخر هذه الأمة بالرجف . فإن تابوا تاب الله عليهم ، وإن عادوا عاد الله تعالى عليهم بالرجف ، والقذف ، والمسخ ، والصواعق .

وقال سالم بن أبى الجعد: ليأتين على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل ، ينظرون أن يخرج إليهم ، فيطلبوا إليه الحاجة ، فيخرج إليهم وقد مسخ قرداً أو خنزيراً ، وليمرن الرجل على الرجل فى حانوته يبيع ، فيرجع إليه وقد مسخ قرداً أو خنزيراً .

وقال أبو هريرة: لا تقوم الساعة حتى يمشى الرجلان إلى الأمر يعملانه ، فيمسخ أحدهما

قرداً أو خنزيراً . فلا يمنع الذى نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضى إلى شأنه ذلك حتى يقضى شهوته ، وحتى يمشى الرجلان إلى الأمر يعملانه ، فيخسف بأحدهما ، فلا يمنع الذى نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضى لشأنه ذلك ، حتى يقضى شهوته منه .

وقال عبد الرحمن بن غَنْمٍ: "يُوشِكُ أَنْ يقعُدَ أَثْنَانِ عَلَى ثِفَالِ رَحىً يَطْحَنَانِ ، فَيُمْسَخُ أَحَدُهُمَا وَالآخَرُ يَنْظُرُ" .

وقال مالك بن دينار: بلغنى أن ريحاً تكون فى آخر الزمان ، وظلم ، فيفزع الناس إلى علمائهم ، فيجدونهم قد مسخوا .

وقد ساق هذه الأحاديث والآثار وغيرها بأسانيدها ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الملاهى .

فالمسخ على صورة القردة والخنازير واقع فى هذه الأمة ولا بد وهو فى طائفتين: علماء السوء الكاذبين على الله ورسوله ، الذين قلبوا دين الله تعالى وشرعه . فقلب الله تعالى صورهم كما قلبوا دينه . والمجاهرين المتهتكين بالفسق والمحارم . ومن لم يمسخ منهم فى الدنيا مسخ فى قبره أو يوم القيامة .

(99/294)

وَقد جاءَ فى حديثِ اللهِ أَعلم بحَالهِ: "يُحشَرُ أَكَلَةُ الرِّبَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فى صَوَرِ الْخَنَازِيرِ وَالْكِلابِ مِنْ أَجْلِ حِيَلِهِمْ عَلَى الرِّبَا كَمَا مُسِخَ أصحاب دَاوُدَ لاحْتِيَالِهِمْ عَلَى أَخْذِ الْحِيتَانِ يَوْمَ السَّبْتِ" .

وبكل حال فالمسخ لأجل الاستحلال بالاحتيال قد جاء فى أحاديث كثيرة .

قال شيخنا : وإنما ذلك إذا استحلوا هذه المحرمات بالتأويلات الفاسدة . فإنهم لو استحلوها مع اعتقد أن الرسول حرمها كانوا كفار ولم يكونوا من أمته . ولو كانوا معترفين بأنها حرام لأوشك أن لا يعاقبوا بالمسخ ، كسائر الذين يفعلون هذه المعاصى ، مع اعترافهم بأنها معصية ، ولما قيل فيهم: يستحلون . فإن المستحل للشئ هو الذى يفعله معتقداً حله . فيشبه أن يكون استحلالهم للخمر ، يعنى أنهم يسمونها بغير اسمها ، كما جاء فى الحديث . فيشربون الأنبذة المحرمة ، ولا يسمونه خمراً . واستحلالهم المعازف باعتقادهم أن آلات اللهو مجرد سمع صوت فيه لذة . وهذا لا يحرم كأصوات الطيور ، واستحلال الحرير وسائر أنواعه باعتقادهم أنه حلال فى بعض الصور كحال الجرب وحال الحكة . فيقيسون عليه سائر الأحوال ويقولون: لا فرق بين حال وحال . وهذه التأويلات ونحوها واقعة فى الطوائف الثلاثة الذين قال فيهم عبد الله بن المبارك رحمه الله:

وَهَلْ أَفسدَ الدِّينَ إلا الملُوكُ وَأَحبَارُ سُوءٍ ورُهْبَانُهَا

ومعلوم أنها لا تغنى عن أصحابها من الله شيئاً بعد أن بلغ الرسول وبين تحريم هذه

الأشياء بيانا قاطعاً للعذر مقيما للحجة . والحديث الذى رواه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عبد الرحمن بن غنم عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "ليشربن ناس من أمتى الخمر ، يسمونها بغير اسمها ، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والقينات ، يخسف الله تعالى بهم الأرض ، ويجعل منهم القردة والخنازير" .

(100/294)

الوجه الثامن: أن النبى صلى الله تعالى وآله وسلم قال: "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى" الحديث .

وهو أصل فى إبطال الحيل وبه احتج البخارى على ذلك . فإن من أراد أن يعامل رجلاً معاملة يعطيه فيها ألفاً بألف وخمسمائة إلى أجل فأقرضه تسعمائة ، وباعه ثوباً بستمائة يساوى مائة ، إنما نوى بإقراض التسعمائة تحصيل الربح الزائد . وإنما نوى بالستمائة التى أظهر أنها ثمن الثوب الربا . والله يعلم ذلك من جذر قلبه وهو يعلمه ، ومن عامله يعلمه ، ومن أطلع على حقيقة الحال يعلمه ، فليس له من عمله إلا ما نواه وقصده حقيقة من إعطاء الألف حالة ، وأخذ الألف والخمسمائة مؤجلة ، وجعل صورة القرض وصورة البيع محللاً

لهذا المحرم .

الوجه التاسع : ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال :

"البَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ حَتَّى يَتَفَرَّقَا ، إِلا أَنْ يَكُونَ صَفْقَةَ خِيَارٍ . وَلا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُفَارِقَهُ خَشْيَةَ أَنْ يَسْتَقِيلَهُ" .

رواه أحمد وأهل السنن ، وحسنه الترمذى .

وقد استدل به الإمام أحمد ، وقال : فيه إبطال الحيل .

ووجه ذلك : أن الشارع أثبت الخيار إلى حين التفرق الذى يفعله المتعاقدان بداعية طباعهما . فحرم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يقصد المفارق منع الآخر من الاستقالة وهى طلب الفسخ ، سواء كان العقد جائزا أو لازماً ، لأنه قصد بالتفرق غير ما جعل التفرق فى العرف له . فإنه قصد به إبطال حق أخيه من الخيار ، ولم يوضع التفرق لذلك . وإنما جعل التفرق لذهاب كل منهما فى حاجته ومصلحته .

الوجه العاشر : ما روى محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال :

"لا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ ، وَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ" .

رواه أبو عبد الله بن بطة: حدثنا أحمد بن محمد بن سلام حدثنا الحسن بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو ، وهذا إسناد جيد يصحح مثله الترمذى .

وهو نص فى تحريم استحلال محارم الله تعالى بالحيل . وإنما ذكر صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أدنى الحيل تنبيها على أن مثل هذا المحرم العظيم الذى قد توعد الله تعالى عليه بمحاربة من لم ينته عنه .

فمن أسهل الحيل على من أراد فعله: أن يعطيه مثلاً ألفاً إلا درهماً باسم القرض ، ويبيعه خرقة تساوى درهماً بخمسمائة .

وكذلك المطلق ثلاثاً : من أسهل الأشياء عليه أن يعطى بعض السفهاء عشرة دراهم مثلاً . ويستعيره لينزو على مطلقته فتطيب له ، بخلاف الطريق الشرعى . فإنه يصعب معه عودها حلالاً إذ من الممكن أن لا يطلق بل أن يموت المطلق أولا قبله ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم نهانا عن التشبه باليهود ، وقد كانوا احتالوا

فى الاصطياد يوم السبت ، بأن حفروا خنادق يوم الجمعة تقع فيها الحيتان يوم السبت ثم يأخذونها يوم الأحد ، وهذا عند المحتالين جائز . لأن فعل الاصطياد لم يوجد يوم السبت ، وهو عند الفقهاء حرام لأن المقصود هو الكف عما ينال به الصيد بطريق التسبب أو

المباشرة.

ومن احتيالهم: أن الله سبحانه وتعالى لما حرم عليهم الشحوم، تأولوا أن المراد نفس إدخاله الفم، وأن الشحم هو الجامد دون المذاب، فجملوه فباعوه وأكلوا ثمنه، وقالوا: ما أكلنا الشحم، ولم ينظروا فى أن الله تعالى إذا حرم الانتفاع بشئ فلا فرق بين الانتفاع بعينه أو ببدله، إذ البدل يسد مسده. فلا فرق بين حال جامده ووده، فلو كان ثمنه حلالاً لم يكن فى تحريمه كثير أمر، وهذا هو:

(102/294)

الوجه الحادى عشر: وهو ما روى ابن عباس قال: "بَلَغَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنّ فُلاناً بَاعَ خَمْراً. فقَالَ: قَاتَلَ اللهُ فُلاناً، أَلَمْ يَعْلَمْ أَنّ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ تعالَى عَلَيْهِ وآله وسلّمَ قَالَ: "قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، حُرّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا" متفق عليه.

قال الخطابى: "جملوها" معناه: أذابوها حتى تصير ودكا فيزول عنها اسم الشحم يقال: جملت الشحم، وأجملته، واجتملته. والجميل: الشحم المذاب.

وعن جابر بن عبد الله: أنه سمع النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: "إِنّ اللهَ حَرّمَ بَيْعَ الْخَمرِ وَالمَيْتَةِ، وَالْخنْزِيرِ، وَالأَصْنَامِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ المَيْتَةِ فإِنّهَا

يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ ؟ فَقَالَ: لا ، هُوَ حَرَامٌ . ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ" رواه البخارى وأصله متفق عليه .

قال الإمام أحمد ، فى رواية صالح ، وأبى الحارث فى أصحاب الحيل: عمدوا إلى السنن ، فاحتالوا فى نقضها ، فالشئ الذى قيل إنه حرام احتالوا فيه حتى أحلوه . ثم احتج بهذا الحديث ، وحديث: "لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ" .

قال الخطابى قد ذكر حديث الشحوم: فى هذا الحديث بطلان كل حيلة يحتال بها المتوصل إلى المحرم ، وأنه لا يتغير حكمه بتغير هيئة وتبديل اسمه ، وقد مثلت حيلة أصحاب الشحوم بمن قيل له: لا تقرب مال اليتيم ، فباعه وأخذ ثمنه فأكله وقال: لم آكل نفس مال اليتيم . أو اشترى شيئاً فى ذمته ونقده وقال: هذا قد ملكته وصار عوضه دينا فى ذمتى ، فإنما أكلت ما هو ملكى باطناً وظاهراً .

ولولا أن الله سبحانه

رحم هذه الأمة بأن نبيها نبههم على ما لعنت به اليهود ، وكان السابقون منها فقهاء أتقياء ، علموا مقصود الشارع ، فاستقرت الشريعة بتحريم المحرمات: من الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها وإن تبدلت صورها ، وبتحريم أثمانها ، لطرَق الشيطان لأهل الحيل ما طرق لهم فى الأثمان ونحوها . إذ البابان باب واحد على ما لا يخفى .

الوجه الثانى عشر: أن باب الحيل المحرمة مداره على تسمية الشئ بغير اسمه ، على تغيير صورته مع بقاء حقيقته ، فمداره على تغيير الاسم مع بقاء المسمى ، وتغيير الصورة مع بقاء الحقيقة . فإن المحلل مثلا غير اسم التحليل إلى اسم النكاح ، واسم المحلل إلى الزوج ، وغير مسمى التحليل بأن جعل صورته صورة النكاح ، والحقيقة حقيقة التحليل .

ومعلوم قطعاً أن لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على ذلك إنما هو لما فيه من الفساد العظيم الذى اللعنة من بعض عقوبته ، وهذا الفساد لم يزل بتغيير الاسم والصورة مع بقاء الحقيقة ، ولا بتقديم الشرط من صلب العقد إلى ما قبله . فإن المفسدة تابعة للحقيقة ، لا للاسم ولا لمجرد الصورة .

وكذلك المفسدة العظيمة التى اشتمل عليها الربا لا تزول بتغيير اسمه من الربا إلى المعاملة ولا بتغيير صورته من صورة إلى صورة ، والحقيقة معلومة متفق عليها بينهما قبل العقد يعلمها من قلوبهما عالم السرائر فقد اتفقا على حقيقة الربا الصريح قبل العقد ، ثم غير اسمه إلى المعاملة ، وصورته إلى التبايع الذى لا قصد لهما فيه ألبتة وإنما هو حيلة ومكر ومخادعة

الله تعالى ولرسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

وأىّ فرق بين هذا وبين ما فعلته اليهود من استحلال ما حرم الله عليهم من الشحوم بتغيير اسمه وصورته ؟ فإنهم أذابوه حتى صار ودكا وباعوه وأكلوا ثمنه وقالوا : إنما أكلنا الثمن ، لا المثمن ، فلم نأكل شحماً .

(104/294)

وكذلك من استحل الخمر باسم النبيذ كما فى حديث أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: "ليشربنّ ناس من أمتى الخمر ، يسمونها بغير اسمها ، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والقينات ، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير" .

وإنما أتى هؤلاء من حيث استحلوا المحرمات بما ظنوه من انتفاء الاسم ، ولم يلتفتوا إلى وجود المعنى المحرم وثبوته ، وهذا بعينه هو شبهة اليهود فى استحلال بيع الشحم بعد جمله ، واستحلال أخذ الحيتان يوم الأحد بما أو أوقعوها به يوم السبت فى الحفائر والشباك من فعلهم يوم الجمعة ، وقالوا : ليس هذا صيد يوم السبت ، ولا استباحة لنفس الشحم بل الذى

يستحل الشراب المسكر ، زاعما أنه ليس خمراً مع علمه أن معناه معنى الخمر ومقصوده مقصوده وعمله عمله أفسد تأويلا . فإن الخمر اسم لكل شراب مسكر كما دلت عليه النصوص الصحيحة الصريحة ، وقد جاء هذا الحديث عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من وجوه أخرى .

منها : ما رواه النسائى عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها" وإسناده صحيح .

ومنها : ما رواه ابن ماجه عن عبادة بن الصامت يرفعه: "يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها" ورواه الإمام أحمد ، ولفظه: "ليستحلنّ طائفة من أمتى الخمر" .

ومنها : ما رواه ابن ماجه أيضاً من حديث أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "لا تذهب الليالى والأيام حتى تشرب طائفة من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها" .

فهؤلاء إنما شربوا الخمر استحلالاً لما ظنوا أن المحرم مجرد ما وقع عليه اللفظ ، وأن ذلك اللفظ لا يتناول ما استحلوه . وكذلك شبهتهم فى استحلال الحرير والمعازف ، فإن الحرير أبيح للنساء وأبيح للضرورة ، وفى الحرب . وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ [الأعراف: 32] .

والمعازف قد أبيح بعضها فى العرس ونحوه ، وأبيح الحداء ، وأبيح بعض أنواع الغناء .

وهذه الشبهة أقوى بكثير من شبه أصحاب الحيل . فإذا كان من عقوبة هؤلاء : أن يمسخ بعضهم قردة وخنازير ، فما الظن بعقوبة من جرمهم أعظم ، وفعلهم أقبح ؟ فالقوم الذين يخسف بهم ويمسخون ، . إنما فعل ذلك بهم من جهة التأويل الفاسد الذى استحلوا به المحارم بطريق الحيلة ، وأعرضوا عن مقصود الشارع وحكمته فى تحريم هذه الأشياء .

ولذلك مسخوا قردة وخنازير كما مسخ أصحاب السبت بما تأولوا من التأويل الفاسد الذى استحلوا به المحارم ، وخسف ببعضهم كما خسف بقارون ، لأن فى الخمر والحرير والمعازف من الكبر والخيلاء ما فى الزينة التى خرج فيها قارون على قومه ، فلما مسخوا دين الله تعالى مسخهم الله ، ولما تكبروا عن الحق أذلهم الله تعالى ، فلما جمعوا بين الأمرين جمع الله لهم بين هاتين

فصل

وقد أخبر صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن طائفة من أمته تستحل الربا باسم البيع كما أخبر عن استحلالهم الخمر باسم آخر .

فروى ابن بطة بإسناده عن الأوزاعى عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَسْتَحِلُّونَ الرِّبَا بِالْبَيْعِ" .

يعنى العينة ، وهذا وإن كان مرسلاً فإنه صالح للاعتضاد به بالاتفاق ، وله من المسندات ما يشهد له ، وهى الأحاديث الدالة على تحريم العينة . فإنه من المعلوم أن العينة عند مستحلها إنما يسميها بيعاً ، وفى هذا الحديث بيان أنها ربا لا بيع ، فإن الأمة لم يستحل أحد منها الربا الصريح ، وإنما استحل باسم البيع وصورته ، فصوروه بصورة البيع وأعاروه لفظه .

(106/294)

ومن المعلوم أن الربا لم يحرم لمجرد صورته ولفظه ، وإنما حرم لحقيقته ومعناه ومقصوده ، وتلك الحقيقة والمعنى والمقصود قائمة فى الحيل الربوية كقيامها فى صريحه سواء ، والمتعاقدان يعلمان ذلك من أنفسهما ويعلمه من شاهد حالهما ، والله يعلم أن قصدهما نفس الربا ، وإنما توسلاً إليه بعقد غير مقصود وسمياه باسم مستعار غير اسمه . ومعلوم أن هذا لا يدفع التحريم ولا يرفع المفسدة التى حرم الربا لأجلها ، بل يزيدها قوة وتأكيدا من وجوه عديدة .

منها : أنه يقدم على مطالبة الغريم المحتاج بقوة لا يقدم بمثلها المربى صريحاً ، لأنه واثق بصورة العقد واسمه .

ومنها : أنه يطالبه مطالبه معتقد حل تلك الزيادة وطيبها بخلاف مطالبه المربى صريحا .

ومنها : اعتقاده أن ذلك تجارة حاضرة مدارة . والنفوس أرغب شئ فى التجارة ، فهو فى ذلك بمنزلة من أحب امرأة حباً شديداً ويمنعه من وصالها كونها محرمة عليه . فاحتال إلى أن أوقع بينه وبينها صورة عقد لا حقيقة له ، يأمن به من بشاعة الحرام وشناعته ، فصار يأتيها آمنا . وهما يعلمان فى الباطن أنها ليست زوجته ، وإنما أظهرا صورة عقد يتوصلان بها إلى الغرض .

ومن المعلوم أن هذا يزيد المفسدة التى حرم الحكيم الخبير لأجلها الربا قوة فإن الله سبحانه وتعالى حرم الربا لما فيه من ضرر المحتاج ، وتعريضه للفقر الدائم . والدين اللازم الذى لا ينفك عنه . وتولد ذلك وزيادته إلى غاية تجتاحه وتسلبه متاعه وأثاثه كما هو الواقع فى الواقع .

فالربا أخو القمار الذى يجعل المقمور سليبا حزينا محسوراً .

(107/294)

فمن تمام حكمة الشريعة الكاملة المنتظمة لمصالح العباد تحريمه ، وتحريم الذريعة الموصلة إليه ، كما حرم التفرق فى الصرف قبل القبض ، وأن يبيعه درهماً بدرهم إلى أجل ، وإن لم

يكن هناك زيادة ، فكيف يظن بالشارع مع كمال حكمته أن يبيح التحيل والمكر على حصول هذه المفسدة ، ووقوعها زائدة متضاعفة بأكل المحتال فيها مال المحتاج أضعافاً مضاعفة ؟ ولو سلك مثل هذا بعض الأطباء مع المرضى لأهلكهم . فإن ما حرم الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من المحرمات إنما هو حمية لحفظ صحة القلب ، وقوة الإيمان ، كما أن ما يمنع منه الطبيب مما يضر المريض حمية له ، فإذا احتال المريض أو الطبيب على تناول ذلك المؤذى بتغيير صورته ، مع بقاء حقيقته وطبعه ، أو تغيير اسمه مع بقاء مسماه ، ازداد المريض بتناوله مرضاً إلى مرضه ، وترامى به إلى الهلاك ، ولم ينفعه تغير صورته ولا تبدل اسمه .

وأنت إذا تأملت الحيل المتضمنة لتحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى ، وإسقاط ما أوجب وحل ما عقد وجدت الأمر فيها كذلك ، ووجدت المفسدة الناشئة منها أعظم من المفسدة الناشئة من المحرمات الباقية على صورتها وأسمائها ، والوجدان شاهد بذلك . فالله سبحانه إنما حرم هذه المحرمات وغيرها لما اشتملت عليه من المفاسد المضرة بالدنيا والدين ، ولم يحومها لأجل أسمائها وصورها . ومعلوم أن تلك المفاسد تابعة لحقائقها ، لا تزول بتبدل أسمائها وتغير صورتها ،

ولو زالت تلك المفاسد بتغير الصورة والأسماء لما لعن

الله سبحانه اليهود على تغيير صورة الشحم واسمه بإذابته حتى استحدث اسم الودك

وصورته ثم أكلوا ثمنه وقالوا لم نأكله . وكذلك تغيير صورة الصيد يوم السبت بالصيد يوم الأحد .

(108/294)

فتغيير صور المحرمات وأسمائها مع بقاء مقاصدها وحقائقها زيادة فى المفسدة التى حرمت لأجلها ، مع تضمنه لمخادعة الله تعالى ورسوله ، ونسبة المكر والخداع والغش والنفاق إلى شرعه ودينه ، وأنه يحرم الشئ لمفسدة ويبيحه لأعظم منها .

ولهذا قال أيوب السختيانى : يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان ، لو أتوا الأمر على وجهه كان أهون .

وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : "لا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ" .

وقال بشر بن السرى وهو من شيوخ الإمام أحمد : نظرت فى العلم ، فإذا هو الحديث والرأى ، فوجدت فى الحديث ذكر النبيين والمرسلين ، وذكر الموت ، وذكر ربوبية الرب تعالى وجلاله وعظمته ، وذكر الجنة والنار ، والحلال والحرام ، والحث على صلة الأرحام وجماع الخير . ونظرت فى الرأى فإذا فيه المكر والخديعة ، والتشاح ، واستقصاء الحق والمماراة

فى الدين ، واستعمال الحيل ، والبعث على قطيعة الأرحام ، والتجرؤ على الحرام .

وقال أبو داود : سمعت أحمد بن حنبل ، وذكر أصحاب الحيل فقال: يحتالون لنقض سنن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

والرأى الذى اشتقت منه الحيل المتضمنة لإسقاط ما أوجب الله تعالى وإباحة ما حرم الله هو الذى اتفق السلف على ذمه وعيبه .

فروى حرب عن الشعبى قال: قال ابن مسعود رضى الله عنه: إياكم وأرأيت ، أرأيت ، فإنما هلك من كان قبلكم بأرأيت أرأيت ، ولا تقيسوا شيئاً بشئ فتزل قدم بعد ثبوتها .

وعن الشعبى عن مسروق قال: قال عبد الله: ليس من عام إلا والذى بعده شر منه ، لا أقول أمير خير من أمير ، ولا عام أخصب من عام ، ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم ، فينهدم الإسلام وينثلم .

(109/294)

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إياكم وأصحاب الرأى ، فإنهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، وتفلتت منهم أن يعوها ، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا : لا نعلم . فعارضوها برأيهم ، فإياكم وإياهم .

وقال أحمد فى رواية إسماعيل بن سعيد : لا يجوز شئ من الحيل .

وفى رواية صالح ابنه: الحيل لا نراها .

وقال فى رواية الأثرم ، وذكر حديث عبد الله بن عمر فى حديث: "الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ وَلَا يَحِلُّ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يُفَارِقَ صَاحِبَهُ خَشْيَةَ أَنْ يَسْتَقِيلَهُ" قال فيه إبطال الحِيل .

وقال فى رواية أبى الحارث: هذه الحيل التى وضعها هؤلاء ، احتالوا فى الشئ الذى قيل لهم: إنه حرام ، فاحتالوا فيه حتى أحلوه ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم ، فأذابوها وأكلوا أثمانها" فإنما أذابوها حتى أزالوا عنها اسم الشحوم . وقد لعن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم المحلل والمحلل له .

وقال فى رواية ابنه صالح: ينقضون الأيمان بالحيل ، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل: 91] ، وقَالَ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ [الإنسان: 7] .

وقال فى رواية أبى طالب فى التحيل لإسقاط العدة "سبحان الله ، ما أعجب هذا ، أبطلوا كتاب الله والسنة ، جعل الله على الحرائر العدة من الحمل ، فليس من امرأة تطلق ، أو يموت زوجها ، إلا تعتد من أجل الحمل ، ففرج يوطأ ، ثم يعتقها على المكان فيتزوجها فيطؤها ، فإن كانت حاملا ، كيف يصنع ؟ يطؤها رجل اليوم ، ويطؤها الآخر غداً ؟ هذا نقض لكتاب الله والسنة ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "لا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ ، وَلَا غَيْرُ ذَاتِ حَمْلٍ تَحِيضَ" فلا يدرى هى حامل أم لا ؟ سبحان الله ما أَسْمَجَ

هذا .

وقال فى رواية حبيش بن سندى فى الرجل يشترى الجارية ثم يعتقها من يومه ويتزوجها :

(110/294)

أيطؤها من يومه ؟ فقال: كيف يطؤها هذا من يومه ، وقد وطئها ذاك بالأمس ؟ وغضب وقال: هذا أخبث قول .

وقال فى رواية الميمونى: إذا حلف على شئ ثم احتال بحيلة ، فصار إليه ، فقد صار إلى ذلك بعينه .

وقال فى رواية الميمونى ، فيمن حلف على يمين ، ثم احتال لإبطالها : هل يجوز ؟ قال: نحن لا نرى الحيلة إلا بما يجوز . فقال له الميمونى: أليس

حيلتنا فيها أن نتبع ما قالوا ؟ فإذا وجدنا لهم فيها قولاً اتبعناه ؟ قال: بلى هكذا هو .

قلت: أو ليس هذا منا نحن حيلة ؟ قال: نعم ، فقلت: إنهم يقولون فى رجل حلف على امرأته ، وهى على درجة: إن صعدت أو نزلت فأنت طالق . قالوا: تحمل حملاً ولا تنزل .

فقال: هذا الحنث بعينه ، ليس هذا حيلة ، هذا هو الحنث .

وذكر لأحمد : أن امرأة كانت تريد أن تفارق زوجها ، فيأبى عليها ، فقال لها بعض أرباب

الحيل: لو ارتددت عن الإسلام بنت منه ، ففعلت ، فغضب أحمد رحمه الله وقال: من أفتى بهذا أو علمه أو رضى به فهو كافر .

وكذلك قال عبد الله بن المبارك ثم قال: ما أرى الشيطان يحسن مثل هذا حتى جاء هؤلاء فتعلمه منهم .

وقال يزيد بن هارون: أفتى أصحاب الحيل بشيء لو أفتى به اليهود والنصارى كان قبيحاً . أفتوا رجلاً حلف أن لا يطلق امرأته بوجه من الوجوه فبذلت له مالاً كثيراً فى طلاقها ، فأفتوه بأن يُقَبِّل أمها أو يباشرها .

وذكرت الحيلة عند شريك ، فقال: من يخادع الله يخدعه .

وقال النضر بن شميل: فى كتاب الحيل ثلاثمائة وعشرون مسألة كلها كفر .

وقال حفص بن غياث: ينبغى أن يكتب عليه: كتاب الفجور .

وقال عبد الله بن المبارك فى قصة بنت أبى روح حيث أمرت بالارتداد فى أيام أبى غسان فارتدت ففرق بينهما وأودعت السجن: فقال ابن المبارك وهو غضبان: من أمر بهذا فهو كافر ، ومن كان هذا الكتاب عنده ، أو فى بيته ليأمر به فهو كافر ، وإن هويه ولم يأمر به فهو كافر .

وقال أيوب السختيانى: ويل لهم ، من يخدعون ؟ يعنى أصحاب الحيل .

وقال بعض أصحاب الحيل: ما تنقمون منا إلا أنا عمدنا إلى أشياء كانت عليكم حراما فاحتلنا فيها حتى صارت حلالاً .

وقال زاذان . قال على رضى الله عنه ، يعنى وقد رأى مبادئ الحيل: إنى أراكم تحلون أشياء قد حرمها الله ، وتحرمون أشياء قد حللها الله .

قلت: ومن تأمل الشريعة ورزق فيها فقه نفس رآها قد أبطلت على أصحاب الحيل مقاصدهم وقابلتهم بنقيضها ، وسدت عليهم الطرق التى فتحوها للتحيل الباطل .

فمن ذلك: أن الشارع منع المتحيل على الميراث بقتل مورثه ميراثه ، ونقله إلى غيره دونه لما احتال عليه بالباطل .

ومن ذلك: بطلان وصية الموصى له بمال إذا قتل الموصى .

ومن ذلك: بطلان تدبير المدبَّر إذا قتل سيده ليعجل العتق .

ومن ذلك: تحريم المنكوحة فى عدتها على الزوج ، تحريما مؤبداً ، عند عمر ابن الخطاب ، ومالك ، وإحدى الروايتين عن أحمد ، لما احتال على وطئها بصورة العقد المحرم .

ومن ذلك: ما لو احتال المريض على منع امرأته من الميراث بطلاقها ، فإنها ترثه ما دامت فى العدة ، عند طائفة ، وعند آخرين ترثه وإن انقضت عدتها ، ما لم تتزوج ، وعند طائفة: ترث وإن تزوجت .

ومن ذلك: بطلان إقرار المريض لوارثه بمال لأنه يتخذه حيلة على الوصية له . ونظائر ذلك كثيرة:

فالمحتال بالباطل معامل بنقيض قصده شرعاً وقدراً .

وقد شاهد الناس عيانا أنه من عاش بالمَكْرِمَاتَ بالفقر .

ولهذا عاقب الله سبحانه وتعالى من احتال على إسقاط نصيب المساكين وقت الجداد بحرمانهم الثمرة كلها .

وعاقب من احتال على الصيد المحرم بأن مسخهم قردة وخنازير .

وعاقب من احتال على أكل أموال الناس بالربا بأن يمحق ماله . كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: 276] .

فلا بد أن يمحق مال المرابي ولو بلغ ما بلغ .

وأصل هذا: أن الله سبحانه جعل عقوبات أصحاب الجرائم بضد ما قصدوا له بتلك الجرائم ، فجعل عقوبة الكاذب إهدار كلامه ورده عليه .

(112/294)

وجعل عقوبة الغال من الغنيمة لما قصد تكثير ماله بالغلول: حرمانه سهمه ، وإحراق متاعه .

وجعل عقوبة من اصطاد فى الحرم أو الإحرام: تحريم أكل ما صاده ، وتغريمه نظيره .

وجعل عقوبة من تكبر عن قبول الحق والانقياد له: أن ألزمه من الذل والصغار بحسب ما تكبر عنه من الحق .

وجعل عقوبة من استكبر عن عبوديته وطاعته: أن صيره عبدا لأهل عبوديته وطاعته .

وجعل عقوبة من أخاف السبيل وقطع الطريق: أن تقطع أطرافه ، وتقطع عليه الطرق كلها بالنفى من الأرض ، فلا يسير فيها إلا خائفاً .

وجعل عقوبة من التذ بدنه كله وروحه بالوطء الحرام: إيلام بدنه وروحه بالجلد والرجم فيصل الألم إلى حيث وصلت اللذة .

وشرع النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عقوبة من اطلع فى بيت غيره: أن تقلع عينه بعود ونحوه ، إفساداً للعضو الذى خانه ، وأولجه بيته بغير إذنه ، واطلع به على حرمته .

وعاقب كل خائن بأنه يضل كيده ويبطله ولا يهديه المقصوده وإن نال بعضه ، فالذى ناله سبب لزيادة عقوبته وخيبته: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف: 52] .

وعاقب من حرص على الولاية ، والإمارة والقضاء ، بأن شرع منعه وحرمانه ما حرص عليه كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "إِنَّا لا نُوَلِّى عَمَلَنَا هذَا مَنْ سَأَلَهُ" .

ولهذا عاقب أبا البشر آدم عليه السلام: بأن أخرجه من الجنة لما عصاه بالأكل من الشجرة ليخلد فيها ، فكانت عقوبته إخراجه منها ، ضد ما أمله .

وعاقب من اتخذ معه إلها آخر ، ينتصر به ، ويتعزز به: بأن جعله عليه ضدا يذل به ، ويخذل به . كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: 81-82] وقال تعالى ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: 74-75]

(113/294)

وقال تعالى ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ [الإسراء: 22] .

ضد ما أمله المشرك من اتخاذ الإله من النصر والمدح.

وعاقب الناس إذا بخسوا الكيل والميزان بجور السلطان عليهم ، يأخذ من أموالهم أضعاف ما يبخس به بعضهم بعضا .

وعاقبهم إذا منعوا الزكاة والصدقة ترفيها لأموالهم بحبس الغيث عنهم ، فيمحق بذلك أموالهم ، ويستوى غيهم وفقيرهم فى الحاجة .

وعاقبهم إذا أعرضوا عن كتابه وسنة نبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وطلبوا الهدى

من غيره: بأن يضلهم ، ويسد عليهم أبواب الهدى كما قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى حديث على رضى الله عنه الذى رواه الترمذى وغيره ، وذكر القرآن:

"مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فى غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ" .

فإن المعرض عن القرآن إما أن يعرض عنه كبرا ، فجزاؤه أن يقصمه الله ، أو طلبا للهدى من غيره فجزاؤه أن يضله الله .

وهذا باب واسع جدا عظيم النفع . لمن تدبره يجده متضمنا لمعاقبة الرب سبحانه من خرج عن طاعته ، بأن يعكس عليه مقصوده شرعاً وقدراً ، دنيا وآخره . وقد اطردت سنته الكونية سبحانه فى عباده ، بأن من مكر بالباطل مكر به ، ومن احتال احتيل عليه ، ومن خادع غيره خدع . قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: 142] وقال تعالى ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: 43] .

فلا تجد ماكراً إلا وهو ممكور به ، ولا مخادعا إلا وهو مخدوع ، ولا محتالا إلا وهو محتال عليه .

فصل

وإذا تدبرت الشريعة وجدتها قد أتت بسد الذرائع إلى المحرمات ، وذلك عكس باب الحيل الموصلة إليها . فالحيل وسائل وأبواب إلى المحرمات ، وسد الذرائع عكس ذلك . فبين

البابين أعظم تناقض ، والشارع حرم الذرائع ، وإن لم يقصد بها المحرم ، لإفضائها إليه .

فكيف إذا قصد بها المحرم نفسه ؟

(114/294)

فنهى الله تعالى عن سب آلهة المشركين ، لكونه ذريعة إلى أن يسبوا الله سبحانه وتعالى عدوا وكفرا ، على وجه المقابلة .

وأخبر النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن: "مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ . قَالُوا: وَهَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قَالَ: نَعَمْ ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ . وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ" .

ولما جاءت صفية رضى الله تعالى عنها تزوره صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وهو معتكف قام معها ليوصلها إلى بيتها فرآهما رجلان من الأنصار فقال: "عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍ . فَقَالا: سُبْحَانَ اللهِ ، يَا رَسُولَ اللهِ . فَقَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ . إِنِى خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِى قُلُوبِكُمَا شَرًا" .

فسد الذريعة إلى ظنهما السوء بإعلامهما أنها صفية .

وأمسك صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قتل المنافقين مع ما فيه من المصلحة ، لكونه

ذريعة إلى التنفير وقول الناس:

"إِنّ مُحَمّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ" .

وحرم القطرة من الخمر وإن لم تحصل بها مفسدة الكثير ، لكون قليلها ذريعة إلى شرب كثيرها .

وحرم إمساكها للتخليل وجعلها نجسة ، لئلا تفضى مقاربتها بوجه من الوجوه إلى شربها .

ونهى عن الخليطين وعن شرب العصير والنبيذ بعد ثلاث ، وعن الانتباذ فى الأوعية التى لا يعلم بتخمير النبيذ فيها حسماً للمادة وسدا للذريعة .

وحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية والسفر بها والنظر إليها لغير حاجة ، حسماً للمادة وسدا للذريعة .

ومنع النساء إذا خرجن إلى المسجد من الطيب والبخور .

ومنعهن من التسبيح فى الصلاة لنائبة تنوب ، بل جعل لهن التصفيق .

ومنع المعتدة من الوفاة ، من الزينة والطيب والحلى .

ومنع الرجل من التصريح بخطبتها فى العدة وإن كان إنما يعقد النكاح بعد انقضاءها .

(115/294)

ونهى المرأة أن تصف لزوجها امرأة غيرها حتى كأنه ينظر إليها .

ونهى عن بناء المساجد على القبور ولعن فاعله .

ونهى عن تعلية القبور وتشريفها وأمر بتسويتها .

ونهى عن البناء عليها وتجصيصها والكتابة عليها والصلاة إليها وعندها ، وإيقاد المصابيح عليها . كل ذلك سدا لذريعة اتخاذها أوثاناً . وهذا كله حرام على من قصده ومن لم يقصده ، بل على من قصد خلافه ، سدا للذريعة .

ونهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لكون هذين الوقتين وقته سجود الكفار للشمس . ففى الصلاة نوع تشبه بهم فى الظاهر . وذلك ذريعة إلى الموافقة والمشابهة فى الباطن ، وأكد كذلك بالنهى عن الصلاة بعد العصر وبعد الفجر وإن لم يحضر وقت سجود الكفار للشمس مبالغة فى هذا المقصود ، وحماية لجانب التوحيد ، وسداً لذريعة الشرك بكل ممكن .

ومنع من التفرق فى الصرف قبل التقابض ، وكذلك الربوى إذا بيع بربوى آخر ، من غير جنسه ، سدا لذريعة النَّساء ، الذى هو صلب الربا ومعظمه ، بل منع من بيع الدرهم بالدرهمين نقداً سداً لذريعة ربا النَّساء ، كما علل بذلك صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، وهذا أحسن العلل فى تحريم ربا الفضل .

وحرم الجمع بين السلف والبيع ، لما فيه من الذريعة إلى الربح فى السلف ، بأخذ أكثر مما

أعطى ، والتوسل إلى ذلك بالبيع أو الإجارة كما هو الواقع .

ومنع البائع أن يشترى السلعة من مشتريها بأقل مما اشتراها به ، وهى مسألة العينة وإن لم يقصد الربا ، لكونه وسيلة ظاهرة واقعة إلى بيع خمسة عشر نسيئة بعشرة نقداً .

وحرم جمع الشرطين فى البيع ، لكونه وسيلة إلى ذلك ، وهو منطبق على مسألة العينة .

ومنع من القرض الذى يجر النفع وجعله ربا .

(116/294)

ومنع المقرض من قبول هدية المقترض ، ما لم يكن بينهما عادة جارية بذلك قبل القرض .

ففى سنن ابن ماجه عن يحيى بن أبى إسحاق الهنائى . قال سألت أنس بن مالك: الرجل منا يقرض أخاه المال ، فيهدى إليه ؟ فقال: قال رسول الله صلى الله تعالي عليه وآله وسلم:

"إِذَا أَقْرَضَ أَحَدُكُمْ قَرْضاً فَأَهْدَى إِلَيْهِ ، أَوْ حَمَلَهُ عَلَى الدَّابَّةِ فَلا يَرْكَبْهَا ، وَلا يَقْبَلْهُ إِلا أَنْ يَكُونَ جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ قَبْلَ ذَلِكَ" .

وروى البخارى فى تاريخه عن يزيد بن أبى يحيى الهنائى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "إِذَا أَقْرَضَ أَحَدُكُمْ فَلا يَأْخُذْ

هَدِيّةً" .

وفى صحيح البخارى عن أبى بردة عن أبى موسى قال: "قَدِمْتُ المَدِينَةَ فَلَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلامٍ فقَالَ لى: إنّكَ بأَرْضٍ الرِّبَا فِيهَا فَاشٍ ، فَإِذَا كانَ لَكَ عَلَى رَجُلٍ حَق فأَهْدَى إِلَيْكَ حمل تبن أو حْمِل شَعِيرٍ ، أَوْ حُمِل قَتٍّ ، فَلا تَأْخُذْهُ فَإِنّهُ رِباً" .

وروى سعيد بن منصور فى سننه هذا المعنى عن أبى بن كعب .

وجاء عن ابن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو رضى الله عنهم نحوه .

وكل ذلك سدا لذريعة أخذ الزيادة فى القرض الذى موجبه رد المثل .

ونهى عن بيع الكالئ بالكالئ ، وهو الدين المؤخر بالدين المؤخر ، لأنه ذريعة إلى ربا النسيئة ، فلو كان الدينان حالين لم يمتنع ، لأنهما يسقطان جميعاً من ذمتيهما ، وفى الصورة المنهى عنها ذريعة إلى تضاعف الدين فى ذمة كل واحد منهما فى مقابلة تأجيله وهذه مفسدة ربا [النسيئة] بعينها .

ونهى الله سبحانه وتعالى النّساء أنْ ﴿يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: 31] .

فلما كان الضرب بالرجل ذريعة إلى ظهور صوت الخلخال الذى هو ذريعة إلى ميل الرجال إليهن نهاهن عنه .

وأمر الله سبحانه الرجال والنساء بغض أبصارهم لما كان النظر ذريعة إلى الميل والمحبة التى هى ذريعة إلى مواقعة المحظور .

وحرم التجارة فى الخمر وإن كان إنما يبيعها من كافر يستحل شربها ، فإن التجارة فيها ذريعة إلى اقتنائها وشربها ، ولهذا لما نزلت الآيات فى تحريم الربا قرأها عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وقرن بها تحريم التجارة فى الخمر ، فإن الربا ذريعة إلى إفساد الأموال . والخمر ذريعة إلى إفساد العقول . فجمع بين تحريم التجارة فى هذا وهذا .

ونهى عن استقبال رمضان بيوم أو يومين ، لئلا يتخذ ذريعة إلى الزيادة فى الصوم الواجب كما فعل أهل الكتاب .

ونهى عن التشبه بأهل الكتاب وغيرهم من الكفار فى مواضع كثيرة ، لأن المشابهة الظاهرة ذريعة إلى الموافقة الباطنة فإنه إذا أشبه الهدى الهدى أشبه القلب القلب . وقد قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "خَالِفَ هَدْيُنَا هَدْيَ الْكُفَّارِ" .

وفى المسند مرفوعاً : "مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ" .

وحرم الجمع بين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها ، لكونه ذريعة إلى قطيعة الرحم . وبهذه العلة بعينها علل رسول الله صلى الله تعالى عليه و آله وسلم فقال: "إِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ قَطَعْتُمْ أَرْحَامَكُمْ" .

وأمر بالتسوية بين الأولاد فى العطية ، وأخبر أن تخصيص بعضهم بها جور لا يصلح ، ولا تنبغى الشهادة عليه . وأمر فاعله برده ووعظه وأمره بتقوى الله تعالى ، وأمره بالعدل لكون ذلك ذريعة ظاهرة قريبة جدا إلى وقوع العداوة بين الأولاد وقطيعة الرحم بينهم ، كما هو المشاهد عياناً ، فلو لم تأت السنة الصحيحة الصريحة التى لا معارض لها بالمنع منه ، لكان القياس وأصول الشريعة وما تضمنته من المصالح ودرء المفاسد يقتضى تحريمه .

ومنع من نكاح الأمة ، لكونه ذريعة ظاهرة إلى استرقاق ولده ثم جوز وطأها بملك اليمين لزوال هذه المفسدة .

(118/294)

ومنع من تجاوز أربع زوجات لكونه ذريعة ظاهرة إلى الجور وعدم العدل بينهن ، وقصر الرجال على الأربع ، فسحة لهم فى التخلص من الزنا ، وإن وقع منهم بعض الجور فاحتماله أقل مفسدة من مفسدة الزنى .

ومنع من عقد النكاح فى حال العدة وحال الإحرام ، وإن تأخر الدخول إلى ما بعد انقضائها وحصول الحل ، لكون العقد ذريعة إلى الوطء ، والنفوس لا تصبر غالباً مع قوة الداعى .

وشرط فى النكاح شروطاً زائدة على مجرد العقد ، فقطع عنه شبه بعض أنواع السفاح به كاشتراط إعلانه ، إما بالشهادة أو بترك الكتمان أو بهما . واشتراط الولى ، ومنع المرأة أن تليه . وندب إلى إظهاره ، حتى استحب فيه الدف ، والصوت ، والوليمة وأوجب فيه المهر .

ومنع هبة المرأة نفسها لغير النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

وسر ذلك: أن فى ضد ذلك والإخلال به ذريعة إلى وقوع السفاح بصورة النكاح كما فى الأثر:

"إِنّ الزَّانِيَةَ هِيَ الّتِى تُزَوِّجُ نَفْسَهَا" .

فإنه لا تشاء زانية تقول: زوجتك نفسى بكذا سراً من وليها ، بغير شهود ولا إعلان ولا وليمة ولا دف ولا صوت إلا فعلت . ومعلوم قطعاً أن مفسدة الزنا لا تنتفى بقولها : أنكحتك نفسى ، أو زوجتك نفسى . أو أبحتك منى كذا وكذا . فلو انتفت مفسدة الزنا بذلك لكان هذا من أيسر الأمور عليها وعلى الرجل .

(119/294)

فعظم الشارع أمر هذا العقد . وسد الذريعة إلى مشابهته للزنا بكل طريق . ثم أكد ذلك ، بأن جعل له حريما من العدة يزيد على مقدار الاستبراء ، وأثبت له أحكاماً من المصاهرة وحرمتها ، ومن التوارث . ولهذا كان الراجح فى الدليل: أن الزنى لا يثبت حرمة المصاهرة كما لا يثبت التوارث والنفقة وحقوق الزوجية . ولا يثبت به النسب ، ولا العدة على الصحيح . وإنما تستبرأ بحيضة ليعلم براءة رحمها ، ولا يقع فيه طلاق ، ولا ظهار ، ولا إيلاء . ولا يثبت المحرمية بينه وبين أمها وابنتها . فلا يثبت حرمة المصاهرة ولا تحريمها . فإن الشارع جعل وصلة الصهر فيه مع وصلة النسب . وجمع بينهما فى قوله: ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ [الفرقان: 54] .

فإذا انتفت وصلة النسب فيه انتفت وصلة الصهر .

وكنا ننصر القول بالتحريم ثم رأينا الرجوع إلى عدم التحريم أولى لاقتضاء الدليل له .

وليس المقصود استيفاء أدلة المسألة من الجانبين ، وإنما الغرض التنبيه على أن من قواعد الشرع العظيمة: قاعدة سد الذرائع .

ومن ذلك: نهى النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن تقام الحدود فى دار الحرب . وأن تقطع الأيدى فى الغزو ، لئلا يكون ذلك ذريعة إلى لحاق المحدود بالكفار .

ومن ذلك: أن المسلم إذا احتاج إلى التزوج بدار الحرب ، وخاف على نفسه الزنا عزل عن امرأته ، نص عليه أحمد ، لئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن ينشأ ولده كافراً .

ومن ذلك: أن الصحابة اتفقوا على قتل الجماعة الكثيرة بالواحد ، وإن كان القصاص يقتضى المساواة ، لئلا يتخذ ذريعة إلى إهدار الدماء ، وتعاون الجماعة على قتل المعصوم .

ومن ذلك: أن السكران لو قتل اقتص منه ، وإن كان فى هذه الحالة لا قصد له . لئلا يتخذ السكر ذريعة إلى قتل المعصوم وسقوط القصاص .

ومن ذلك: نهيه سبحانه رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو ، لما كان ذريعة إلى سبهم للقرآن ومن أنزله .

(120/294)

ومن ذلك: أنه سبحانه نهى الصحابة أن قالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿ رَاعِنَا ﴾ [البقرة: 104] .

مع قصدهم المعنى الصحيح ، وهو المراعاة ، لئلا يتخذ اليهود هذه اللفظة ذريعة إلى السب ، ولئلا يتشبهوا بهم ، ولئلا يخاطب بلفظ يحتمل معنى فاسدا .

ومن ذلك: أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كره الصلاة إلى ما قد عبد من دون الله ، وأحب لمن صلى إلى عمود أو عود أو شجرة ، أن يجعله على أحد حاجبيه ، ولا يصمد له صمداً سداً لذريعة التشبه بالسجود لغير الله تعالى .

ومن ذلك: أنه أمر المأمومين أن يصلوا جلوساً إذا صلى إمامهم جالساً ، سدا لذريعة التشبه بفارس والروم فى قيامهم على ملوكهم وهم قعود .

ومن ذلك: أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم منع الرجل من أخذ نظير حقه بصورة الخيانة ممن خانه وجحد حقه ، وإن كان إنما يأخذ حقه أو دونه ، فقال لمن سأله: عن ذلك: "أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ" .

لأن ذلك ذريعة إلى إساءة الظن به ونسبته إلى الخيانة . ولا يمكنه أن يحتج عن نفسه ، ويقيم عذره ، مع أن ذلك أيضاً ذريعة إلى أن لا يقتصر على قدر الحق وصفته ، فإن النفوس لا تقتصر فى الاستيفاء غالبا على قدر الحق .

ومن ذلك: أن سلط الشريك على انتزاع الشقص المشفوع من يد المشترى سدا لذريعة المفسدة الناشئة من الشركة والمخالطة بحسب الإمكان . وقبل البيع ليس أحدهما أولى بانتزاع نصيب شريكه من الآخر . فإذا رغب عنه وعرضه للبيع كان شريكه أحق به لما فيه من إزالة الضرر عنه ، وعدم تضرره هو . فإنه يأخذه بالثمن الذى يأخذه به الأجنبى ، ولهذا كان الحق: أنه لا يحل الاحتيال لإسقاط الشفعة ، ولا تسقط بالاحتيال . فإن الاحتيال على إسقاطها يعود على الحكمة التى شرعت لها بالنقض والإبطال .

ومن ذلك: أنه لا يقبل شهادة العدو ، ولا الظنين فى تهمة أو قرابة . ولا الشريك فيما هو شريك فيه ، ولا الوصى فيما هو وصى فيه ، ولا الولد على ضرة أمه ، ولا يحكم القاضى بعلمه . كل ذلك سدا لذريعة التهمة والغرض الفاسد .

ومن ذلك: أن السنة مضت بكراهة إفراد رجب بالصوم ، وإفراد يوم الجمعة ، لئلا يتخذ ذريعة إلى الابتداع فى الدين بتخصيص زمان لم يخصه الشارع بالعبادة .

ومن ذلك: أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقطع الشجرة التى كانت تحتها البيعة وأمر بإخفاء قبر دانيال ، سدا لذريعة الشرك والفتنة . ونهى عن تعمد الصلاة فى الأمكنة التى كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ينزل بها فى سفره وقال "أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ من أدركته الصلاة فيه فليصل ، وإلا فلا" .

ومن ذلك: جمع عثمان بن عفان رضى الله عنه الأمة على حرف واحد من الأحرف السبعة ، لئلا يكون اختلافهم فيها ذريعة إلى اختلافهم فى القرآن . ووافقه على ذلك الصحابة رضى الله عنهم .

ومن ذلك: أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أمر الذى أرسل معه بهدية إذا عطب شئ منه دون المحل أن ينحره ، ويصبغ نعله الذى قلده به بدمه ، ويخلى بينه وبين المساكين ، ونهاه أن يأكل منه هو أو أحد من أهل رفقته ، قالوا : لأنه لو جاز له أن يأكل منه ،

أو أحد من رفقته قبل بلوغ المحل لخادعته نفسه إلى أن يقصر فى علفه وحفظه حتى يشارف العطب فينحره . فسد الشارع الذريعة ومنعه ورفقته من الأكل منه .

ومن ذلك: نهيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الذرائع التى توجب الاختلاف والتفرق والعداوة والبغضاء ، كخطبة الرجل على خطبة أخيه ، وسومه على سومه ، وبيعه على بيعه ، وسؤال المرأة طلاق ضرتها ، وقال:

"إذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا" .

سدا لذريعة الفتنة والفرقة .

(122/294)

ونهى عن قتال الأمراء والخروج على الأئمة وإن ظلموا وجاروا ما أقاموا الصلاة سدا لذريعة الفساد العظيم ، والشر الكبير بقتالهم كما هو الواقع ، فإنه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم من الشرور أضعاف أضعاف ما هم عليه ، والأمة فى بقايا تلك الشرور إلى الآن .

ومن ذلك: أن الشروط المضروبة على أهل الذمة تضمنت تمييزهم عن المسلمين في اللباس والشعور والمراكب ، لئلا تفضى مشابهتهم للمسلمين فى ذلك إلى معاملتهم معاملة المسلمين

فى الإكرام والاحترام ففى إلزامهم بتمييزهم عنهم سدا لهذه الذريعة .

ومن ذلك: منعه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من بيع القلادة التى فيها خرز وذهب بذهب ، لئلا يتخذ ذريعة إلي بيع الذهب بالذهب متفاضلاً ، إذا ضم إلى أحدهما خرز أو نحوه .

ولو لم يكن فى هذا الباب إلا أن الله سبحانه وتعالى أوجب إقامة الحدود ، سدا للذريعة إلى الجرائم إذا لم يكن عليها وازع طبيعى ، وجعل مقادير عقوباتها وأجناسها وصفاتها بحسب مفاسدها في نفسها وقوة الداعى إليها وتقاضى الطباع لها .

وبالجملة ، فالمحرمات قسمان: مفاسد ، وذرائع موصلة إليها ، مطلوبة الإعدام ، كما أن المفاسد مطلوبة الإعدام .

والقربات نوعان: مصالح للعباد ، وذرائع موصلة إليها .

ففتح باب الذرائع فى النوع الأول كسد باب الذرائع فى النوع الثانى ، وكلاهما مناقض لما جاءت به الشريعة ، فبين باب الحيل وباب سد الذرائع أعظم تناقض .

وكيف يظن بهذه الشريعة العظيمة الكاملة التى جاءت بدفع المفاسد وسد أبوابها وطرقها أن تجوز فتح باب الحيل ، وطرق المكر على إسقاط واجباتها ، واستباحة محرماتها .

والتذرع إلى حصول المفاسد التى قصدت دفعها .

وإذا كان الشئ الذى قد يكون ذريعة إلى الفعل المحرم إما بأن يقصد به ذلك المحرم ، أو بأن لا يقصد به ، وإنما يقصد به المباح نفسه ، لكن قد يكون ذريعة إلى المحرم ، يحرمه الشارع بحسب الإمكان ، ما لم يعارض ذلك مصلحة راجحة تقتضى حله ، فالتذرع إلى المحرمات بالاحتيال عليها أولى أن يكون حراماً ، وأولى بالإبطال والإهدار إذا عرف قصد فاعله ، وأولى أن لا يعان فاعله عليه ، وأن يعامل بنقيض قصده ، وأن يبطل عليه كيده ومكره .

وهذا بحمد الله تعالى بين لمن له فقه وفهم فى الشرع ومقاصده .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وتجويز الحيل يناقض سد الذرائع مناقضة ظاهرة ، فإن الشارع يسد الطريق إلى ذلك المحرم بكل ممكن ، والمحتال يتوسل إليه بكل ممكن ، ولهذا اعتبر الشارع فى البيع والصرف والنكاح وغيرها ، شروطاً سد ببعضها التذرع إلى الربا والزنا ، وكمل بها مقصود العقود ، ولم يمكن المحتال الخروج منها فى الظاهر . ومن يريد الاحتيال على ما منع الشارع منه فيأتى بها مع حيلة أخرى توصله بزعمه إلى نفس ذلك الشئ الذى سد الشارع الذريعة إليه ، لم يبق لتلك الشروط التى أتى بها فائدة ولا حقيقة ، بل تبقى بمنزلة العبث واللعب ، وتطويل الطريق إلى المقصود من غير فائدة .

(124/294)

قال: واعتبر هذا بالشفعة ، فإن الشارع أباح انتزاع الشقص من مشتريه ، والشارع لا يخرج الملك عن مالكه بقيمة أو غيرها ، إلا لمصلحة راجحة ، وكانت المصلحة هاهنا تكميل العقار للشريك فإنه بذلك يزول ضرر المشاركة والمقاسمة ، وليس فى هذا التكميل ضرر على البائع ، لأن مقصوده من الثمن يحصل بأخذه من المشترى ، شريكاً كان أو أجنبياً ، فالمحتال لإسقاطها مناقض لمقصود الشارع ، مضاد له فى حكمه . فالشارع يقول: لا يحل له أن يبيع حتى يؤذن شريكه ، فإن شاء أخذ وإن شاء ترك ، والمحتال يقول: لك أن تتحيل على منع الشريك من الأخذ بأنواع من الحيل ، التى ظاهرها مكر وخداع ، وباطنها منع الشريك مما أباحه له الشارع ومكنه منه ، وتفويت نفس مقصود الشارع . والمصيبة الكبرى: إظهار المحتال أنه إنما فعل ما أذن له الشارع فى فعله ، وأنه مكنه من المكر والخداع ، والتحيل على إسقاط حق الشريك ، وهذا بين لمن تأمله .

قال: والمقصود: بيان تحريم الحيل ، وأن صاحبها متعرض لسخط الله تعالى ، وأليم عقابه . ويترتب على ذلك أن ينقض على صاحبها مقصوده منها بحسب الإمكان ، وذلك فى كل حيلة بحسبها . فلا يخلو الاحتيال: إما أن يكون من واحد أو اثنين فأكثر ، فإن كان من اثنين فأكثر ، فإن كان عقد بيع تواطآ عليه تحيلا على الربا ، كما في العينة حكم بفساد العقدين ، ويرد إلى الأول رأس ماله ، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها ، وكان بمنزلة

المقبوض بعقد ربا ، لا يحل الانتفاع به ، بل يجب رده إن كان باقياً ، وبدله إن كان تالفاً ، وكذلك إن جمعا بين بيع وقرض ، أو إجارة وقرض ، أو مضاربة ، أو شراكه أو مساقاة ، أو مزارعة ، وقرض ، حكم بفسادهما ، فيجب أن يرد عليه بدل ماله الذى جعلاه قرضاً ، والعقد الآخر فاسد ، حكمه حكم العقود الفاسدة . وكذلك إن كان نكاحاً تواطآ عليه كان حكمه حكم الأنكحة الفاسدة . وكذلك إن تواطآ على هبة أو بيع لإسقاط الزكاة ، أو على هبة لتصحيح نكاح فاسد ، أو وقف فاسد ،

(125/294)

مثل أن تريد مواقعة مملوكها فتهبه لرجل فيزوجها به ، فإذا قضت وطرها منه استوهبته من الرجل فوهبتها إياه ، فانفسخ النكاح ، فهذا البيع والهبة فاسدان فى جميع الأحكام .

وإن كان الاحتيال من واحد ، فإن كانت الحيلة يستقل بها لم يحصل بها غرضه . فإن كانت عقداً كان فاسداً ، مثل أن يهب لابنه هبة يريد أن يرجع فيها لئلا يجب عليه الزكاة فإن وجود هذه الهبة كعدمها ليست هبة فى شئ من الأحكام ، لكن إن ظهر المقصود ترتب الحكم عليه ظاهرا وباطنا وإلا كانت فاسدة فى الباطن فقط .

وإن كانت حيلة لا يستقل بها ، مثل أن ينوى التحليل ، ولا يظهره للزوجة ، أو يرتجع المرأة

إضراراً بها ، أو يهب ماله إضراراً للورثة ونحو ذلك ، كانت هذه العقود بالنسبة إليه وإلى من علم غرضه باطلة ، فلا يحل له وطء المرأة ولا يرثها لو ماتت . وإذا علم الموهوب له ، و الموصى له غرضه باطلا: لم يحصل له الملك فى الباطن . فلا يحل له الانتفاع به بل يجب رده إلى مستحقه . وأما بالنسبة إلى العاقد الآخر الذى لم يعلم فإنه صحيح يفيد مقصود العقود الصحيحة ، ولهذا نظائر كثيرة فى الشريعة .

وإن كانت الحلية له وعليه كطلاق المريض ، صح الطلاق من جهة أنه أزال ملكه ولم يصح من جهة أنه يمنع الإرث . فإنه إنما منع من قطع الإرث ، لا من إزالة ملك البضع .

وإن كانت الحيلة فعلا يفضى إلى غرض له مثل أن يسافر فى الصيف ليتأخر عنه الصوم إلى الشتاء ، لم يحصل غرضه بل يجب عليه الصوم في هذا السفر .

قلت: ونظير هذا ما قالت المالكية: إنه لا يستبيح رخصة المسح على الخفين إذا لبسهما لنفس المسح ، فلو مسح لذلك لم يجزه ، وعليه إعادة الصلاة أبدا . وإنما تثبت الرخصة فى حق من لبسهما لحاجة ، كالبرد والركوب ونحوهما . فيمسح عليهما لمشقة النزع .

وخالفهم باقى الفقهاء فى ذلك ، والمنع جار على أصول من راعى المقاصد .

(126/294)

قال شيخنا : وإن كان يفضى إلى سقوط حق غيره مثل أن يطأ امرأة أبيه أو ابنه ، لينفسخ نكاحه ، أو مثل أن تباشر المرأة ابن زوجها ، أو أباه عند من يرى ذلك موجبا للتحريم ، فهذه الحيل بمنزلة الإتلاف للملك بقتل أو غصب لا يمكن إبطالها ، لأن حرمة المرأة بهذا السبب حق الله تعالى

يترتب عليه فسخ النكاح ضمنا . والأفعال الموجبة للتحريم لا يعتبر لها العقل فضلا عن القصد . وهذا بمنزلة أن يحتال على نجاسة مائع فإن نجاسات

المائعات بالمخالطة ، وتحريم المصاهرة بالمباشرة ، أحكام تثبت بأمور حسية فلا ترفع الأحكام مع وجود تلك الأسباب .

قلت: هذا كان قول الشيخ أولاً ثم رجع إلى أن تحريم المصاهرة لا يثبت بالمباشرة المحرمة . وحينئذ فصورة ذلك: أن ترضع ابنته الكبيرة أو أمته امرأته الصغيرة . لينفسخ نكاحها . فإن فسخ النكاح هاهنا لا يتوقف على العقل ولا على القصد ، بل لو كانت المرضعة مجنونة يثبت التحريم ، فهو بمنزلة أن يلقى فى مائعه ما ينجسه .

قال: وإن كانت الحيلة فعلا يفضى إلى تحليل له أو لغيره مثل أن يقتل رجلاً ليتزوج امرأته ، أو يزوجها غيره . فهاهنا تحل المرأة لغير من قصد تزويجها به . فإنها بالنسبة إليه كمن مات عنها زوجها ، أو قتل بحق أو فى سبيل الله . وأما بالنسبة إلى من قصد بالقتل أن يتزوج المرأة إما بمواطأة منها أو بدونها ، فهذا يشبه من بعض الوجوه ما لو خلل الخمر بنقلها من

موضع إلى موضع ، من غير أن يطرح فيها شيئاً . والصحيح أنها لا تطهر ، وإن كانت تطهر إذا تخللت بفعل الله تعالى . وكذلك هذا الرجل لو مات بدون هذا القصد حلت المرأة ، فإذا قتله لهذا القصد أمكن أن يقال تحرم عليه مع حلها لغيره .

ويشبه هذا : الحلال إذا صاد الصيد وذبحه لحرام ، فإنه يحرم على ذلك المحرم ويحل للحلال .

(127/294)

ومما يؤيد هذا : أن القاتل يمنع الإرث ، ولا يمنعه غيره من الورثة . لكن لما كان مال الرجل تتطلع إليه نفوس الورثة كان القتل مما يقصد به المال ، بخلاف الزوجة فإن ذلك لا يكاد يقصد ، فإن التفات الرجل إلى امرأة غيره بالنسبة إلى التفات الورثة إلى مال المورث قليل . وكونه يقتله ليتزوجها ، فهذا أقل . فلذلك لم يشرع أن من قتل رجلاً حرمت عليه امرأته ، كما شرع أن من قتل مورثا منع ميراثه ، فإذا قتله ليتزوج بها فقد وجدت الحكمة فيه فيعاقب بنقيض قصده .

وأكثر ما يقال فى رد هذا : أن الأفعال المحرمة لحق الله تعالى لا تفيد الحل ، كذبح الصيد ، وتحليل الخمر ، والتذكية فى غير المحل .

أما المحرم لحق الآدمى ، كذبح المغصوب ، فإنه يفيد الحل . أو يقال: إن الفعل المشروع لثبوت الحكم يشترط فيه وقوعه على الوجه المشروع كالذكاة والقتل لم يشرع لحل المرأة ، وإنما انقضاء النكاح بانقضاء الأجل ، فحصل الحل ضمنا وتبعاً .

ويمكن أن يقال فى جواب هذا : إن قتل الآدمى حرام لحق الله تعالى وحق الآدمى . ولهذا لا يستباح بالإباحة ، بخلاف ذبح المغصوب ، فإنه حرم لمحض حق الآدمى . ولهذا لو أباحه حل ، فالمحرم هناك إنما هو تفويت المالية على المالك لا إزهاق الروح .

وقد اختلف فى الذبح بآلة مغصوبة ، وفيه عن أحمد روايتان واختلف العلماء فى ذبح المغصوب ، وقد نص أحمد على أنه ذكى . وفيه حديث رافع بن خديج فى ذبح الغنم المنهوبة ، والحديث الآخر فى المرأة التى أضافت النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فذبحت له شاة أخذتها بدون إذن أهلها ، فقال:

"أَطْعِمُوهَا الأُسَارَى" .

وفى هذا دليل على أن المذبوح بدون إذن أهله يمنع من أكله المذبوح له دون غيره ، كالصيد إذا ذبحه الحلال لحرام ، حرم على الحرام دون الحلال .

وقد نقل صالح عن أبيه فيمن سرق شاة فذبحها : لا يحل أكلها ، يعنى له ، قلت لأبى: فإن ردها على صاحبها ؟ قال: توكل .

فهذه الرواية قد يؤخذ منها أنها حرام على الذابح مطلقاً ، لأن أحمد لو قصد التحريم من جهة أن المالك لم يأذن له فى الأكل ، لم يخص الذابح بالتحريم .

فهذا القول الذى دل عليه الحديث فى الحقيقة حجة لتحريم مثل هذه المرأة على القاتل ليتزوجها دون غيره بطريق الأولى .

هذا كله كلام شيخنا .

وبعد ، فالتحريم مطرد على قواعد أحمد ، ومالك من وجوه متعددة .

منها : مقابلة الفاعل بنقيض قصده كطلاق الفار ، وقاتل مورثه ، وقاتل الموصى ، والمدبر إذا قتل سيده .

ومنها : سد الذرائع .

ومنها : تحريم الحيل .

ومنها : تخليل الخمر كما ذكره شيخنا ، والله تعالى أعلم .

قال: فتلخص أن الحيل نوعان: أقوال ، وأفعال .

فالأقوال: يشترط لثبوت أحكامها العقل ، ويعتبر فيها القصد ، وتكون صحيحة تارة ، وفاسدة أخرى .

ثم ما ثبت حكمه ، منه ما يمكن فسخه ورفعه بعد وقوعه ، كالبيع والنكاح. ومنه مالا

يمكن فيه ذلك كالعتق والطلاق .

فهذا الضرب إذا قصد به الاحتيال على فعل محرم ، أو إسقاط واجب أمكن إبطاله ، إما من جميع الوجوه ، وإما من الوجه الذى يبطل مقصود المحتال ، بحيث لا يترتب عليه الحكم المحتال على حصوله ، كما حكم به الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فى طلاق الفار .

وأما الأفعال: فإن اقتضت الرخصة للمحتال لم تحصل كالسفر للقصر والفطر . وإن اقتضت تحريماً على الغير فإنه قد يقع وتكون بمنزلة إتلاف النفس والمال . وإن اقتضت حلاً عاماً إما بنفسها أو بواسطة زوال الملك ، فهذه مسألة القتل وذبح الصيد للحلال ، وذبح المغصوب للغاصب .

وبالجملة: فإذا قصد بالفعل استباحة محرم لم يحل له ، وإن قصد إزالة ملك الغير ليحل له فالأقيس أن لا يحل له أيضاً وإن حل لغيره .

(129/294)

وقد دخل فى القسم الأول احتيال المرأة على فسخ النكاح بالردة ، فهى لا تمشى غالبا إلا عند من يقول: الفرقة تنجز بنفس الردة ، أو يقول: بأنها لا تقتل ، فالواجب فى مثل هذه الحيلة: أن لا ينفسخ بها النكاح ، وإذا علم الحاكم أنها ارتدت لذلك لم يفرق بينهما . وتكون

مرتدة من حيث العقوبة والقتل ، غير مرتدة من حيث فساد النكاح ، حتى لو توفيت أو قتلت قبل الرجوع استحق ميراثها ، لكن لا يجوز له وطؤها فى حالة الردة ، فإن الزوجة قد يحرم وطؤها بأسباب من جهتها كما لو أحرمت ، لكن لو ثبت أنها ارتدت ثم قالت: إنما ارتدت لفسخ النكاح ، لم يقبل هذا ، فإنه قد يجعل ذريعة إلى عود نكاح كل مرتدة ، بأن تلقن أنها إنما ارتدت للفسخ ، ولأنها متهمة فى ذلك ، ولأن الأصل أنها مرتدة فى جميع الأحكام .

فصل

وقد استدل البخارى فى صحيحه على بطلان الحيل بقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم:

"لاَ يُجْمَعُ بَيْنَ مُتَفَرِّقٍ ، وَلاَ يُفَرَّقُ بَيْنَ مُجْتَمِعٍ ، خَشْيَةَ الصَّدَقَةِ" .

فإن هذا النهى يعم ما قبل الحول وما بعده .

واحتج بقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الطاعون: "إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ" .

وهذا من دقة فقهه رحمه الله ، فإنه إذا كان قد نهى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الفرار من قدر الله تعالي إذا نزل بالعبد ، رضا بقضاء الله تعالى وتسليماً لحكمه ، فكيف بالفرار من أمره ودينه إذا نزل بالعبد ؟ .

واحتج بأنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "نَهَى عَنْ بَيْعِ فَضْلِ الْمَاءِ لِيَمْنَعَ بِهِ الْكَلأَ" .

فدل على أن الشئ الذى هو فى نفسه غير محرم إذا قصد به أمر محرم صار محرماً .

واحتج أحمد رحمه الله على بطلان الحيل وتحريمها بلعنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم للمحلل ، وبقوله "لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل" .

(130/294)

واحتج على تحريم الحيل لإسقاط الشفعة بقوله "فلا يحل له أن يبيع حتى يؤذن شريكه" .

واحتج ابن عباس وبعده أيوب السختيانى ، وغيره من السلف: بأن الحيل مخادعة لله تعالى . وقد قال الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 9] .

قال ابن عباس: ومن يخادع الله يخدعه .

ولا ريب أن من تدبر القرآن والسنة ، ومقاصد الشارع جزم بتحريم الحيل وبطلانها فإن القرآن دل على أن المقاصد والنيات معتبرة فى التصرف والعادات ، كما هى معتبرة فى القربات والعبادات ، فيجعل الفعل حلالاً أو حراماً ، وصحيحاً أو فاسداً ، وصحيحاً من

وجه ، فاسداً من وجه ، كما أن القصد والنية فى العبادات تجعلها كذلك .

وشواهد هذه القاعدة كثيرة جداً فى الكتاب والسنة .

فمنها : قوله تعالى فى آية الرجعة: ﴿ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ﴾ [البقرة: 231] .

وذلك نص فى أن الرجعة إنما تثبت لمن قصد الصلاح دون الضرار ، فإذا قصد الضرار لم يملكه الله تعالى الرجعة .

ومنها : قوله تعالى فى آية الخلع: ﴿ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلا أَنْ يَخَافَا أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ [البقرة: 229] .

وهذا دليل على أن الخلع المأذون فيه إنما هو إذا خاف الزوجان أن لا يقيما حدود الله ، وأن النكاح الثانى إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله ، فإنه شرط فى الخلع عدم خوف إقامة حدوده ، وشرط فى العود ظن إقامة حدوده .

ومنها : قوله تعالى فى آية الفرائض: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ [النساء: 12] .

(131/294)

فإنه سبحانه وتعالى إنما قدم على الميراث وصية من لم يضار الورثة ، فإذا كانت الوصية وصية ضرار كانت حراماً ، وكان للورثة إبطالها ، وحرم على الموصى له أخذ ذلك بدون رضا الورثة ، وأكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله:

﴿ تِلكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: 229] .

وتأمل كيف ذكر سبحانه وتعالى الضرار فى هذه الآية دون التى قبلها . لأن الأولى تضمنت ميراث العمودين ، والثانية تضمنت ميراث الأطراف: من الزوجين ، والإخوة . والعادة أن الميت قد يضار زوجته وإخوته ، ولا يكاد يضار والديه

وولده .

والضرار نوعان: جنف ، وإثم . فإنه قد يقصد الضرار ، وهو الإثم ، وقد يضار من غير قصد ، وهو الجنف ، فمن أوصى بزيادة على الثلث فهو مضار ، قصد أو لم يقصد ، فللوارث رد هذه الوصية . وإن أوصى بالثلث فما دون ولم يعلم أنه قصد الضرار وجب إمضاؤها .

فإن علم الموصى له أن الموصى إنما أوصى ضرارا لم يحل له الأخذ ، ولو اعترف الموصى أنه إنما أوصى ضرارا لم تجز إعانته على إمضاء هذه الوصية .

وقد جوز سبحانه وتعالى إبطال وصية الجنف والإثم ، وأن يصلح الوصى أو غيره بين الورثة والموصى له فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ

عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 182].

وكذلك إذا ظهر للحاكم أو الوصى الجنف أو الإثم في الوقف ومصرفه أو بعض شروطه فأبطل ذلك كان مصلحاً لا مفسدا . وليس له أن يعين الواقف على إمضاء الجنف والإثم ، ولا يصحح هذا الشرط ولا يحكم به ، فإن الشارع قد رده وأبطله . فليس له أن يصحح ما رده الشارع وحرمه ، فإن ذلك مضادة له ومناقضة .

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: 19].

فهذا دليل على أنه إذا عضلها لتفتدى نفسها منه وهو ظالم لها بذلك لم يحل له أخذ ما بذلته له ولا يملكه بذلك .

(132/294)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: 19].

فحرم سبحانه وتعالى أن يأخذ منها شيئاً مما آتاها إذا كان قد توسل إليه بالعضل .

ومن ذلك: أن جداد النخل عمل مباح أى وقت شاء صاحبه لكن لما قصد به أصحابه في

الليل حرمان الفقراء عاقبهم الله تعالى بإهلاكه . ثم قال: ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: 33] [الزمر: 26] .

ثم جاءت السنة بكراهة الجداد بالليل ، لكونه ذريعة إلى هذه المفسدة . ونص عليه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره .

قال أصحاب الحيل: قد أسمعتمونا على بطلان الحيل وتحريمها ما فيه كفاية . فاسمعوا الآن على جوازها واستحبابها ما نقيم به عذرنا .

قال الله سبحانه

وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفسهم قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ [النساء: 97-99] .

ووجه الاستدلال: أنه سبحانه وتعالى إنما عذرهم بتخلفهم وعجزهم إذ لم يستطيعوا حيلة يتخلصون بها من المقام بين أظهر الكفار ، وهو حرام . فعلم أن الحيلة التى تخلص من الحرام مستحبة مأذون فيها . وعامة الحيل التى تنكرونها علينا هى من هذا الباب . فإنها حيل

تخلص من الحرام ، ولهذا سمى بعض من صنف فى ذلك كتابه: "المخارج الحرام والتخلص من الآثام" واعتبر هذا بحيلة العينة ، فإنها تخلص من الربا المحرم .

(133/294)

وكذلك الجمع بين الإجارة والمساقاة يخلص من بيع الثمرة قبل بدو صلاحها ، وهو حرام .

وكذلك خلع اليمين يخلص من وقوع الطلاق الذى هو حرام أو مكروه ، أو من مواقعة المرأة بعد الحنث وهو حرام .

وكذلك هبة الرجل ماله قبل الحول لولده أو امرأته ، يخلصه من إثم منع الزكاة ، كما يتخلص من إثم المنع بإخراجها ، فهما طريقان للتخلص .

فالحيل تخلص من الحرج وتخلص من الإثم . والله تعالى قد نفى الحرج عنا وعن ديننا ، وندبنا إلى التخلص منه ومن الآثام ، فمن أفضل الأشياء معرفة ما يخلصنا من هذا وهذا وتعليمه ، وفتح طريقه .

ألا ترى أن الرجل إذا حلف بالطلاق ليقتلن أباه ، أو ليشربن الخمر ، أو ليزنين بامرأة ونحو ذلك . كانت الحيلة تخليصه من مفسدة فعل ذلك ، ومن مفسدة خراب بيته ، ومفارقة أهله . فإن من لا يرى الحيلة ليس له عنده مخرج إلا بوقوع الطلاق ، فإذا علم أنه يقع به

الطلاق فزال ، فعل المحلوف عليه ، فأى شئ أفضل من تخليصه من هذا وهذا ؟

وكذلك من وقع عليه الطلاق الثلاث ولا صبر له عن امرأته ، ويرى

اتصالها بغيره أشد من موته ، فاحتلنا له بأن زوجناها بعبد فوطئها ، ثم وهبناه منها

فانفسخ نكاحه ، وحلت لزوجها المطلق بعد انقضاء العدة .

قالوا : وقد قال الله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام ، وقد حلف ليجلدن امرأته مائة .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ ﴾ [ص: 44] .

(134/294)

قال سعيد عن قتادة: كانت امرأته قد عرضت له بأمر ، وأرادها إبليس على شئ فقال لها : لو تكلمت بكذا وكذا ؟ وإنما حملها عليها الجوع . فحلف نبى الله لئن شفاه الله تعالى ليجلدنها مائة جلدة ، قال: فأمر بأصل فيه تسعة وتسعون قضيباً ، والأصل تكملة المائة ، فيضربها به ضربة واحدة . فأبر الله تعالى نبيه . وخفف عن أَمَتَه . وقال عبد الرحمن بن جبير: لقيها إبليس فقال لها : والله لو تكلم صاحبك بكلمة واحدة لكشف عنه كل ضر ، ولرجع إليه ماله وولده ، فأخبرت أيوب فقال: ويلك ، ذاك عدو الله ، إنما مثلك المرأة الزانية ، إذا جاءها صديقها بشئ قبلته وأدخلته . وإن لم يأتها بشئ طردته وأغلقت بابها عنه .

لما أعطانا الله تعالى المال والولد آمنا به ، وإذا قبض الذى له منا نكفر به . إن أقامنى الله تعالى من مرضى لأجلدنك مائة . فأفتاه الله بما أخبر به: أن يأخذ ضغثاً ، وهو الحزمة من الشئ ، مثل الشماريخ الرطبة والعيدان ونحوها ، مما هو قائم على ساق ، فيضربها ضربة واحدة .

وهذا تعليم منه سبحانه لعباده التخلص من الآثام ، والمخرج من الحرج بأيسر شئ وهذا أصلنا فى باب الحيل ، فإنا قسنا على هذا وجعلناه أصلاً .

قالوا : وقد أرشد النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى التخلص من صريح الربا بأن يبيع التمر بدراهم ، ثم يشترى بتلك الدراهم تمراً . وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال:

"جَاءَ بِلالٌ إلى النَّبَى صلى اللهُ تعالى عليه وآلِهِ وسَلمَ بِتَمْرٍ بَرْنِيٍّ ، فَقَالَ لَهُ النَّبَى صلى اللهُ تعالى عليه وآلِهِ وسلمَ: مِنْ أَيْنَ هذا ؟ قَالَ: كانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ رديء فَبِعْت مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ لِنُطْعِمَ النَّبَى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فَقَالَ لَهُ النَّبُى صلى اللهُ تعَالى عليه وآله وسَلم عِنْدَ ذِلكَ: أَوَّهْ عَيْنُ الرِّبَا ، لا تَفْعَلْ وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَن تَشْتَرِىَ فَبِعِ التَّمْرَ بِالدَّرَاهِمِ ، ثُمَّ اشْتَرِ بِهِ" متفق عليه .

وفى لفظ آخر: "بِعِ الجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ، ثُمَّ اُشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيباً" . والجمع والجنيب نوعان من التمر .

وفى لفظ لمسلم: "بِعْهُ بِسِلْعَةٍ ، ثُمّ ابْتَعْ بِسِلْعَتِكَ أَيَّ التَّمْرِ شِئْتَ" .

فقد أمره أن يبيع التمر بالدراهم أو السلعة ، ثم يبتاع بها تمراً . وهذا ضرب من الحيلة . ولم يفرق بين بيعه ممن يشترى منه التمر ، أو من غيره . وقد جاء قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: 282] .

وهذا إرشاد إلى حيلة العِينة وما يشبهها . فإن السلعة تدور بين المتعاقدين ، للتخلص من الربا .

قالوا: وقد دلت السنة على أنه يجوز للإنسان أن يتخلص من القول الذى يأثم به أو يخاف بالمعاريض ، وهى حيلة فى الأقوال ، كما أن تلك حيلة فى الأعمال .

فروى قيس بن الربيع عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: إن فى معاريض الكلام ما يغنى الرجل عن الكذب .

وقال الحكم عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما: ما يسرنى بمعاريض الكلام حمر النعم .

وقال الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط

، وكانت من المهاجرات الأول: "لَمْ أَسْمَعْ رَسُولَ اللهِ صلى الله تعالى عليه وآلِهِ وسلمَ يُرَخِّصُ فى شَىْءٍ مِّمَا يَقُولُ النَّاسُ إِنَّهُ كَذِبٌ إلا فى ثَلاثٍ: الرَّجُل يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَالَّرجُلِ يَكْذِبُ لامْرَأَتِه ، وَالْكَذِبِ فى الْحَرْبِ" .

ومعنى الكذب فى ذلك هو المعاريض لا صريح الكذب .

(136/294)

وقال منصور: كان لهم كلام يدرءون به عن أنفسهم العقوبة والبلايا ، وقد لقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم طليعة للمشركين ، وهو فى نفر من أصحابه فقال المشركون: "مِمَّنْ أَنْتُمْ ؟ فقَالَ النَّبِى صلى اللهُ تعالى عليهِ وآله وسلمَ: نَحْنَ مِنْ مَاءٍ . فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ فَقَالُوا: أَحْيَاءُ الْيَمَنِ كَثِيرٌ ، لَعَلَّهُمْ منهم ، وَانْصَرَفُوا" .

وأراد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقوله "نحن من ماء" قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: 6] .

ولما وطئ عبد الله بن رواحة جاريته أبصرته امرأته فأخذت السكين وجاءته فوجدته قد قضى حاجته . فقالت: لو رأيتك حيث كنت لوجأت بها فى عنقك . فقال ما فعلت ؟ فقالت: إن كنت صادقاً فاقرأ القرآن . فقال:

فقالت: آمنت بكتاب الله وكذبت بصرى . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فضحك حتى بدت نواجذه .

قال ابن عبد البر: ثبت ذلك عن عبد الله بن رواحة .

ويذكر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: عجبت لمن يعرف المعاريض ، كيف يكذب ؟ .

ودعى أبو هريرة رضى الله عنه إلى طعام فقال: "إنى صائم ثم رأوه يأكل . فقالوا: ألم تقل: إنى صائم . فقال: ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "صِيامَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صِيَامُ الدَّهرِ" .

وكان محمد بن سيرين إذا اقتضاه غريم ولا شئ معه ، قال: أعطيك فى أحد اليومين إن شاء الله تعالى . فيظن أنه أراد يومه والذى يليه ، وإنما أراد يومى الدنيا والآخرة .

وذكر الأعمش عن إبراهيم أنه قال له رجل: إن فلاناً أمرنى أن آتى مكان كذا وكذا وأنا لا أقدر على ذلك المكان ، فكيف الحيلة ؟ فقال له: قل والله ما أبصر إلا ما سددنى غيرى ، يعنى إلا ما أبصرك ربك .

وقال حماد عن إبراهيم فى رجل أخذه رجل ، فقال: إن لى معك حقاً . فقال: لا . فقال: احلف بالمشى إلى بيت الله ، فقال احلف بالمشى إلى بيت الله واعن مسجد حَيِّك .

وذكر هشام بن حسان عن ابن سيرين أن رجلاً كان يصيب بالعين ، فرأى بغلة شريح فأراد أن يعينها ففطن له شريح . فقال: إنها إذا ربضت لم تقم حتى تقام . فقال الرجل: أف أف . وسلمت بغلته . وإنما أراد: أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يقيمها .

وقال الأعمش عن إبراهيم: إنه سئل عن الرجل يبلغه عن الرجل الشيء يقوله فيه: فيسأله عنه ، فقال: قل: والله إن الله ليعلم ما من ذلك من شيئ ، يعنى ب"ما": الذى .

وقال عقبة بن المعيرة: كنا نأتى إبراهيم وهو خائف من الحجاج فكنا إذا خرجنا من عنده يقول: إن سئلتم عنى وحلفتم ، فاحلفوا بالله ما تدرون أين أنا . ولا لنا به علم ولا فى أى موضع هو . واعنوا أنكم لا تدرون أى موضع أنا فيه قائم أو قاعد ، وقد صدقتم .

وجاءه رجل فقال: إنى اعترضت على دابة فنفقت فأخذت غيرها ، ويريدون أن يحلفونى أنها الدابة التى اعترضت عليها ؟ فقال: اركبها واعترض عليها على بطنك راكباً . ثم احلف أنها الدابة التى اعترضت عليها .

وقال أبو عوانة عن أبى مسكين: كنت عند إبراهيم ، وامرأته تعاتبه فى جارية له ، وبيده مروحة ، فقال: أشهدكم أنها لها ، فلما خرجنا قال: علام شهدتم ؟ قلنا: شهدنا أنك جعلت الجارية لها . قال: أما رأيتمونى أشير إلى المروحة ؟ إنما قلت لكم: اشهدوا أنها لها ، وأنا أعنى المروحة .

وقال محمد بن الحسن عن عمر بن ذر عن الشعبى: من حلف على يمين لا يستثنى ، فالبر والإثم فيها على علمه . قلت: ما تقول فى الحيل ؟ قال: لا بأس بالحيل فيما يحل ويجوز ، وإنما الحيل شئ يتخلص به الرجل من الحرام ، ويخرج به إلى الحلال . فما كان من هذا ونحوه ، فلا بأس به ، وإنما نكره من ذلك أن يحتال الرجل فى حق لرجل حتى يبطله ، أو يحتال فى باطل حتى يموهه ، أو يحتال فى شئ حتى يدخل فيه شبهة ، وأما ما كان على السبيل الذى قلنا فلا بأس بذلك .

وكان حماد رحمه الله إذا جاءه من لا يريد الاجتماع به وضع يده على ضرسه ثم قال: ضرسى ، ضرسى .

(138/294)

ووجه الرشيد إلى شريك رجلاً ليحضره ، فسأله شريك أن ينصرف ويدافع بحضوره ، ففعل . فحبسه الرشيد ، ثم أرسل إليه رسولاً آخر فأحضره ، وسأله عن تخلفه لما جاءه رسوله . فحلف له بالأيمان المغلظة أنه ما رأى الرسول فى اليوم الذى أرسله فيه ، وعنى بذلك الرسول الثانى ، فصدقه ، وأمر بإطلاق الرجل .

وأحضر الثورى إلى مجلس المهدى فأراد أن يقوم فمنع ، فحلف بالله أنه يعود ، فترك نعله

وخرج ثم رجع فلبسها ولم يعد ، فقال المهدى: ألم

يحلف أنه يعود ؟ فقالوا:

إنه عاد فأخذ نعله .

قالوا: وليس مذهب من مذاهب الأئمة المتبوعين إلا وقد تضمن كثيرا من مسائل الحيل .

فأبعد الناس عن القول بها مالك ، وأحمد ، وقد سئل أحمد عن المروزى وهو عنده ، ولم يرد أن يخرج إلى السائل ، فوضع أحمد إصبعه فى كفه ، وقال: ليس المروزى هاهنا . وماذا يصنع المروزى هاهنا ؟ ، .

وقد سئل أحمد عن رجل حلف بالطلاق ليطأن امرأته فى نهار رمضان ، فقال يسافر بها ويطؤها فى السفر .

وقال صاحب المستوعب: وجدت بخط شيخنا أبى حكيم: حكى أن رجلاً سأل أحمد عن رجل حلف أن لا يفطر فى رمضان ؟ فقال له: اذهب إلى بشر ابن الوليد ، فاسأله ثم ائتنى فأخبرنى ، فذهب فسأله ، فقال له بشر: إذا أفطر أهلك فاقعد معهم ولا تفطر ، فإذا كان وقت السحر ، فكل ، واحتج بقول النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم:

"هَلُمَّ إِلَى الْغَدَاءِ المبَارَكِ" فاستحسنه أحمد .

قالوا: وقد علم الله سبحانه نبيه يوسف عليه السلام الحيلة التى توصل بها إلى أخذ أخيه ، بإظهار أنه سارق ووضع الصواع فى رحله ، ولم يكن كذلك حقيقة . لكن أظهر ذلك

توصلاً إلى أخذ أخيه وجعله عنده . وأجزه الله سبحانه أن ذلك كيد ، كاده سبحانه ليوسف ، ليأخذ أخاه ، ثم أخبر سبحانه وتعالى أن ذلك من العلم الذى رفع به درجات من يشاء ، وأن الناس متفاوتون فيه . فوق كل ذى علم عليم .

فصل

قال منكرو الحيل:

الحيل ثلاثة أنواع:

نوع هو قربة وطاعة ، وهو من أفضل الأعمال عند الله تعالى .

(139/294)

ونوع هو جائز مباح ، لا حرج على فاعله ، ولا على تاركه تركه ، وترجح فعله على تركه أو عكس ذلك تابع لمصلحته .

ونوع هو محرم ومخادعة لله تعالى ورسوله ، متضمن لإسقاط ما أوجبه ، وإبطال ما شرعه ، وتحليل ما حرمه . وإنكار السلف والأئمة ، وأهل الحديث إنما هو لهذا النوع .

فإن الحيلة لا تذم مطلقاً ، ولا تحمد مطلقاً ، ولفظها لا يشعر بمدح ولا ذم ، وإن غلب فى العرف إطلاقها على ما يكون من الطرق الخفية إلى حصول الغرض ، بحيث لا يتفطن له إلا

بنوع من الذكاء والفطنة .

وأخص من هذا : تخصيصها بما يذم من ذلك ، وهذا هو الغالب على عرف الفقهاء المنكرين للحيل ، فإن أهل العرف لهم تصرف فى تخصيص الألفاظ العامة ببعض موضوعاتها وتقييد مطلقها ببعض أنواعه .

فإن الحيلة فعلة ، من الحول ، وهو التصرف من حال إلى حال ، وهى من ذوات الواو ، وأصلها "حولة" فسكنت الواو وانكسر ما قبلها ، فقلبت ياء ، كميزان ، وميقات ، وميعاد .

قال فى المحكَم: الحْولُ ، والحَيلْ ، والحِوَلُ ، والحَوْلة ، والحِيلة ، والحوِيل ، والمحالة ، والمحال ، والاحتيال ، والتَّحوُّل ، والتَّحيُّل: كل ذلك: الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على وجه التصرف . قال: والحول والحيل ، والحيلات: جمع حيلة ، ورجل حُوَل ، وحُوَلَة ، وحول ، وحُوَّلَة ، وحوالى ، وحولول ، وحُوَّلى: شديد الاحتيال . وما أحوله وأحيله ، وهو أحول منك ، وأحيل ، انتهى .

فالحيلة: فعلة من الحول ، وهو التحول من حال إلى حال ، وكل من حاول أمراً يريد فعله أو الخلاص منه ، فما يحاوله به حيلة يتوصل بها إليه .

فالحيلة: معتبرة بالأمر المحتال بها عليه إطلاقاً ومنعا ومصلحة ومفسدة وطاعة ومعصية .

فإن كان المقصود أمرا حسناً كانت الحيلة حسنة . وإن كان قبيحاً كانت الحيلة قبيحة .

وإن كان طاعة وقربة كانت الحيلة عليه كذلك . وإن كانت معصية وفسوقاً كانت الحيلة عليه كذلك .

(140/294)

ولما قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "لا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ تَعَالَى بِأَدْنَى الْحِيلِ" .

صارت فى عرف الفقهاء إذا أطلقت: يقصد بها الحيل

التى تستحل بها المحارم كحيل اليهود . وكل حيلة تتضمن إسقاط حق لله تعالى أو لآدمى ، فهى مما يستحل بها المحارم .

ونظير ذلك: لفظ الخداع ، فإنه ينقسم إلى محمود ومذموم ، فإن كان بحق فهو محمود ، وإن كان بباطل فهو مذموم .

ومن النوع المحمود : قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم "الحرب خدعة" وقوله فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره:

"كُلُّ الْكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ ، إلا ثَلاثَ خِصَالٍ: رَجُل كَذَبَ عَلَى امْرَأَتِهِ لِيُرْضِيَهَا ، وَرَجُل كَذَبَ بَيْنَ اثْنَيْنِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا ، وَرَجُل كَذَبَ فى خِدْعَةِ حَرْبٍ .

ومن النوع المذموم قوله فى حديث عياض بن جمار ، الذى رواه مسلم فى صحيحه: "أَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ ، ذَكَرَ مِنْهُمْ رَجُلاً لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسِى إلا وَهْوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ" .

وقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾ [الأنفال: 62] .

ومن النوع المحمود: خدع كعب بن الأشراف وأبى رافع ، عَدُوَّى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، حتى قتلا ، وقتل خالد بن سفيان الهذلى .

ومن أحسن ذلك: خديعة معبد بن أبى معبد الخزاعى لأبى سفيان وعسكر المشركين حين هموا بالرجوع ليستأصلوا المسلمين ، وردهم من فورهم .

ومن ذلك: خديعة نعيم بن مسعود الأشجعى ليهود بنى قريظة ، ولكفار قريش والأحزاب ،

حتى ألقى الخُلْف بينهم ، وكان سبب تفرقهم ورجوعهم . ونظائر ذلك كثيرة .

(141/294)

وكذلك المكر ، ينقسم إلى محمود ومذموم . فإن حقيقته إظهار أمر وإخفاء خلافه ليتوصل به إلى مراده .

فمن المحمود: مكره تعالى بأهل المكر، مقابلة لهم بفعلهم، وجزاء لهم بجنس عملهم.

قال تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: 30] وقال تعالى ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُون ﴾ [النمل: 50].

وكذلك الكيد ينقسم إلى نوعين. قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: 183] وقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ [يوسف: 76] وقال تعالى ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ [الطارق: 15-16].

فصل

إذا عرف ذلك فلا إشكال أنه يجوز للإنسان أن يظهر قولاً أو فعلاً مقصوده به مقصود صالح وإن كان ظاهره خلاف ما قصد به إذا كانت فيه مصلحة دينية، مثل دفع الظلم عن نفسه أو غيره، أو إبطال حيلة محرمة.

وإنما المحرم: أن يقصد بالعقود الشرعية غير ما شرعها الله تعالى ورسوله له. فيصير مخادعاً لله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، كائداً لدينه، ماكراً بشرعه، فإن مقصوده حصول الشئ الذى حرمه الله تعالى ورسوله بتلك الحيلة، وإسقاط الذى أوجبه بتلك الحيلة.

وهذا ضد الذى قبله. فإن ذلك مقصوده التوصل إلى إظهار دين الله تعالى. ودفع معصيته

، وإبطال الظلم وإزالة المنكر . فهذا لون ، وذاك لون آخر .

ومثال ذلك: التأويل فى اليمين ، فإنه نوعان: نوع لا ينفعه ، ولا يخلصه من الإثم وذلك إذا كان الحق عليه فجحده ، ثم حلف على إنكاره متأولا ، فإن تأويله لا يسقط عنه إثم اليمين الغموس ، والنية للمستحلف فى ذلك باتفاق المسلمين ، بل لو تأول من غير حاجة لم ينفعه ذلك عند الأكثرين .

وأما المظلوم المحتاج فإنه ينفعه تأويله ، ويخلصه من الإثم ، وتكون اليمين على نيته .

(142/294)

فإذا استحلفه ظالم بأيمان البيعة ، أو أيمان المسلمين فتأول الأيمان بجمع يمين وهى اليد أو حلفه بأن كل امرأة له طالق فتأول أنها طالق من وثاق ، أو طالق عند الولادة أو طالق من غيرى ونحو ذلك .

أو استحلفه بأن كل مملوك له حر أو عتيق ، فتأول أنه عتيق أو كريم ، من قولهم: فرس عتيق .

أو استحلفه بأن تكون امرأته عليه كظهر أمه ، فتأول ظهر أمه بمركوبها ، فإن ضيق عليه وألزمه أن يقول: إنه مظاهر من امرأته ، تأول بأنه قد ظاهر بين ثوبين ، أو جبتين من عند

امرأته .

وإن استحلفه بالحرام ، تأول أن الحرام الذى حرمه الله تعالى عليه يلزمه تحريمه ، فإن ضيق عليه بأن يلزمه أن يقول: الحرام يلزمنى من زوجتى ، أو أن تكون على حراماً ، قيد ذلك بنية: إذا أحرمت ، أو صامت ، أو قامت إلى الصلاة ، ونحو ذلك .

وإن استحلفه بأن كل ماله ، أو كل ما يملكه صدقة ، تأول بأنه صدقة من الله سبحانه وتعالى عليه .

وإن قال له: قل: وإن جميع ما أملكه: من دار وعقار وضيعة وقف على المساكين ، تأول الفعل المضارع بما يملكه فى المستقبل ، بعد كذا وكذا سنة .

فإن ضيق عليه ، وقال قل: جميع ما هو جار فى ملكى الآن ، نوى إضافة الملك إلى الآن ، لا إلى نفسه ، والآن لا يملك شيئاً ، فإن قال: مما هو فى ملكى فى هذا الوقت يكون وقفاً ، أخرج معنى لفظ الوقف عن المعهود إلى معنى آخر ، والعرب تسمى سوار العاج وقفاً .

وإن استحلفه بالمشى إلى بيت الله ، نوى مسجداً من مساجد المسلمين .

فإن قال قل: على الحج إلى بيت الله ، نوى بالحج القصد إلى المسجد . فإن قال: إلى البيت العتيق ، نوى المسجد القديم ، فإن قال: البيت الحرام ، نوى الحرام هدمه واتخاذه دار أو حماماً ونحو ذلك .

وإن استحلفه بالأمانة ، نوى بها الوديعة ، أو اللقطة ، ونحو ذلك .

وإن استحلفه بصوم سنة ، نوى بالصوم الإمساك عن كلام يمكنه الإمساك عنه سنة أو دائما .

هذا كله فى المحلوف به .

وأما المحلوف عليه ، فيجرى هذا المجرى .

(143/294)

فإذا استحلفه: ما رأيت فلانا ، نوى ما ضربت رئته . أو ما كلمته ، نوى ما جرحته . أو ما عاشرته ولا خالطته ، نوى بالمعاشرة والمخالطة معاشرة الزوجة والسرية . أو ما بايعته ولا شاريته ، نوى بذلك ما بايعته بيعة اليمين ، ولا شاريته من المشاراة ، وهى اللجاج أو الغضب ، تقول: شرى ، على مثال علم ، إذا لج أو استشاط غضباً .

وإن استحلفه لص أنه لا يدل عليه ، ولا يعلم به ولا يخبر به أحداً ، نوى أنه لا يفعل ذلك ما دام معه . وإن ضيق عليه وقال: ما عاش ، أو ما بقى ، أو ما دام فى هذه البلدة ، نوى قطع الظرف عما قبله ، وأن لا يكون متعلقاً به ، أو نوى بما : الذى ، أى لا أدل عليك الذى عاش أو بقى بعد أخذك .

وإن استحلفه أن لا يطأ زوجته نوى وطأها برجله .

وإن استحلفه أن لا يتزوج فلانة ، نوى أن لا يتزوجها نكاحاً فاسداً .

وكذلك إذا استحلفه أن لا يبيع كذا ، أو لا يشتريه ، أو لا يؤجره ، ونحو ذلك .

وكذلك إذا استحلفه أن لا يدخل هذه الدار أو البلد أو المحلة ، قيد الدخول بنوع معين بالنية .

وكذلك لو استحلفه: أنك لا تعلم أين فلان ؟ نوى مكانه الخاص من داره ، أو بلده أو سوقه .

ولو استحلفه: أنه ليس عنده فى داره ، نوى أنه ليس عنده إذا خرج من الدار . فإن ضيق عليه ، وقال: الآن ، نوى أنه ليس حاضراً معه الآن ، وقد بر وصدق .

وإن استحلفه ليس لى به علم ، نوى أنه ليس لى علم بسره وما ينطوى عليه ، وما يضمره ، أو ليس لى علم به على جهة التفصيل ، فإن هذا لا يعلمه إلا الله سبحانه وحده .

فصل

وللمظلوم المستحلف مخرجان يتخلص بهما : مخرج بالتأويل حال الحلف . فإن فاته فله مخرج يتخلص به بعده إن أمكنه ، كما إذا استحلفه قطاع الطريق أو اللصوص أن لا يخبر بهم أحداً . فالحيلة فى ذلك أن يجمع الوالى المتهمين ، ثم يسأله عن واحد واحد ، فيبرئ البرئ ، ويسكت عن المتهم ، وهذا المخرج أضيق من الأول .

فإذا استحلفه ظالم أن لا يشكو غريمه ، ولا يطالبه بحقه ، فحلف ولم يتأول أحال عليه بذلك الحق من يطالبه به ، ولم يحنث فى يمينه .

وإذا استحلفه ظالم أن يبيعه شيئاً ، فله أن يملكه زوجته أو ولده ، فإذا باعه بعد فلك كان قد بر فى يمينه ، ويمنع من تسليمه مَن مَلَّكه إياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إغاثة اللهفان حـ 1 صـ 338. 391﴾

(145/294)

وقال أيضا رحمه الله :

فصل

وللحيل التى يتخلص بها من مكر غيره والغدر به أمثلة:

المثال الأول: إن استأجر منه أرضاً أو بستاناً أو دارا سنين ، ثم لا يأمن من مكره إذا صلحت الأرض والبستان ، بنوع من أنواع المكر والغدر ، ولو لم يكن إلا بأن يدعى أن أجرة المثل فى هذه الحال أكثر مما سمى .

فالحيلة فى أمنه من ذلك: أن يسمى لكل سنة أجراً معلوماً ، ويجعل أجرة السنين المتأخرة

معظم الأجرة ، وأقلها للسنين الأول ، فلا يسهل عليه المكر بعد ذلك . وعكسه إذا خاف المؤجر مكر المستأجر وغدره فى المستقبل جعل معظم الأجرة فى السنين الأول ، وأقلها فى الأواخر .

المثال الثانى: أن يخاف المؤجر غيبة المستأجر ، فلا يتمكن من مطالبة امرأته بالأجرة ، ولا من إخراجها .

فالحيلة فى أمنه من ذلك: أن يؤجرها رب الدار من المرأة . فإن دخل عليه تعذر مطالبتها بالأجرة ، ضمن الزوج الأجرة أو أخذ بها رهنا . فإن كان قد أجرها من الزوج ، وخاف غيبته أشهد على إقرار المرأة أن الدار له ، وأنها فى يدها بحكم إجارة الزوج إلى مدة كذا وكذا ، وإن كفل المرأة وقت العقد أنها تردّ إليه الدار عند انقضاء المدة نفعه ذلك .

المثال الثالث: أن يخاف المستأجر أن يزاد عليه فى الأجرة ، ويفسخ عقده ، إما بكون العين المؤجرة وقفا عند من يرى ذلك ، أو يتحيل عليه ، حتى يبطل عقده .

فالحيلة فى أمنه وتخليصه: أن يسمى للأجرة أكثر مما اتفقا عليه ، ثم يصارفه عليه بقدر المسمى ويدفعه إليه ، ويشهد عليه أنه قبض المسمى الذى وقع عليه العقد . فإذا مكر به وطلب فسخ عقده طالبه بما قبضه من المسمى . هذا إذا تعذر عليه رفع تلك الإجارة إلى حاكم يحكم بلزومها ، وعدم فسخها للزيادة .

المثال الرابع: أن يخاف أن يؤجره ما لا يملك ، فيأبى المالك ويفسخ العقد ، ويرجع عليه

بالأجرة . فالحيلة فى تخليصه: أن يضمن المؤجر درك العين المستأجرة ، وإن ضمن من يخاف منه الاستحقاق ومطالبته كان أقوى .

(146/294)

المثال الخامس: أن يخاف فَلَس المستأجر ولم يجد من يضمنه الأجرة .

فالحيلة فى فسخه: أن يشهد عليه فى العقد أنه متى تعذر عليه القيام بأجرة شهر أو سنة فله الفسخ . ويصح هذا الشرط ولو لم يشرط ذلك . فإنه يملك الفسخ عند تعذر قبض أجرة ذلك الشهر ، أو السنة ، ويكون حدوث الفلس عيبا فى الذمة يتمكن به من الفسخ . كما يكون حدوث العيب فى العين المستأجرة مسوّغاً للفسخ . وهذا ظاهر إذا سمى لكل شهر أو سنة قسطاً معلوماً . ولا يعين مقدار المدة ، بل يقول آجرتك كل سنة بكذا ، أو كل شهر بكذا ، تقوم لى بالأجرة فى أول الشهر أو السنة ، فإن أفلس قبل مضى شئ من المدة ملك المؤجر الفسخ . وإن أفلس بعد مضى شئ منها ، فهل يملك الفسخ ؟ على وجهين:

أحدهما : لا يملكه . لأن مضى بعضها كتلف بعض المبيع ، وهو يمنع الرجوع .

والثانى: يملكه . وهو قول القاضى . وهو الصحيح ، لأنَّ المنافع إنما تملك شيئاً فشيئاً بخلاف الأعيان فإنها تملك فى آن واحد . فيتعذر تجدد العقد عند تجدد المنافع .

المثال السادس: إذا خاف المستأجر أن تنهدم الدار فيعمرها ، فلا يحتسب له المؤجر بما أنفق فى ذلك .

فالحيلة فى ذلك: أن يقول وقت العقد : وأذن المؤجر للمستأجر أن يعمر ما تحتاج الدار إلى عمارته من أجرتها ، ويقدر لذلك قدراً معلوما . فيقول ، مثلا: بمائة فما دونها ، أو يقول: من عشرة إلى مائة . فإن لم يفعل ذلك واحتاجت إلى عمارة لا يتم الانتفاع إلا بها ، أشهد على ذلك وعلى ما أنفق عليها ، وأنه غير متبرع به ، وحسب له من الأجرة .

وكذلك إذا استأجر منه دابة ، واحتاجت إلى علف وخاف أن لا يحتسب له به المؤجر فعل مثل ذلك . فإن قال: أذنت لك أن تنفق على الدار ، أو الدابة ما تحتاج إليه ، فادعى قدراً وأنكره المؤجر . فالقول قول المؤجر .

(147/294)

والحيلة فى قبول المستأجر: أن يسلف رب الدار ما يعلم أنها تحتاج إليه من العمارة ، ويشهد عليه بقبضه من الأجرة ثم يدفعها إليه ، ويوكله أن ينفق منه على الدار أو الدابة ما تحتاج إليه ، فالقول حينئذ قوله لأنه أمين . فإن خاف المؤجر أن يستهلك المستأجر المال الذى قبضه ويقول إنه تلف ، وهو أمانة ، فلا يلزمنى ضمانه ، فالحيلة فى أمنه من ذلك: أن

يقرضه إياه ، ويجعله فى ذمته ، ثم يوكله أن ينفق على العين ما تحتاج إليه من ذلك .

المثال السابع: إذا آجره دابة ، أو داراً مدة معلومة ، وخاف أن يحبسها عنه بعد انقضاء المدة .

فطريق التخلص من ذلك: أن يقول: فإذا انقضت المدة فأجرتها بعدها لكل يوم دينار أو نحوه ، فلا يسهل عليه حبسها بعد انقضاء المدة .

المثال الثامن: إذا كان له عليه دين فقال: اشتر له به كذا وكذا ففعل ، لم يبرأ من الدين بذلك لأنه لا يكون مبرئاً لنفسه من دين الغير بفعله .

وطريق التخلص: أن يشهد على إقرار رب الدين أن من عليه الدين برئ منه بعد شرائه لمستحقه كذا وكذا ، والقياس أنه يبرأ بالشراء وإن لم يفعل ذلك ، لأنه بتوكيله له قد أقامه مقام نفسه ، فكما قام مقامه فى التصرف قام مقامه فى الإبراء . فهو لم يبرأ بفعل نفسه لنفسه ، وإنما برئ بفعله لموكله القائم مقام فعل الموكل .

المثال التاسع: إذا أراد أن يستأجر إلى مكان بأجرة معلومة . فإن لم يبلغه وأقام دونه فالأجرة كذا وكذا ،

فقالوا: لا يصح العقد . لأنا لا نعلم على أى المسافتين وقع العقد .

قالوا: والحيلة فى تصحيحه: أن يسمى للمكان الأقرب أجرة، ثم يسمى منه إلى المكان الأبعد أجرة أخرى. فيقول مثلا: آجرتك إلى الرملة بمائة، ومن الرملة إلى مصر بمائة. لكن لا يأمن المستأجر مطالبة المؤجر له بالأجرة إلى المكان الأقصى، ويكون قد أقام فى المكان الأقرب. فالحيلة فى تخلصه: أن يشترط عليه الخيار فى العقد الثانى. إن شاء أمضاه، وإنْ شاء فسخه. ويصح اشتراط الخيار فى عقد الإجارة، إذا كانت على مدة لا تلى العقد. والقياس يقتضى صحة الإجارة على أنه إن وصل إلى مكان كذا وكذا فالأجرة مائة. وإن وصل إلى مكان كذا وكذا فالأجرة مائتان. ولا غرر فى ذلك، ولا جهالة. وكذا إذا قال: إن خطت هذا الثوب روميا. فلك درهم، وإن خطته فارسيا، فلك نصف درهم، إنما يقع على وجه واحد. وكذلك قطع المسافة، فإنه إما أن يقطع القريبة أو البعيدة، فلا يشبه هذا قوله: بعتكه بعشرة نقدا، أو بعشرين نسيئة. فإنه إذا أخذه لا يدرى بأى الثمنين أخذ. فيقع التنازع، ولا سبيل لنا إلى العلم بالمعين منهما. بخلاف عقد الإجارة، فإن استيفاء المعقود عليه لا يقع إلا معينا، فيجب أجرة عمله.

المثال العاشر: إذا زرع أرضه. ثم أراد أن يؤجرها، والزرع قائم لم يجز، لتعذر انتفاع المستأجر بالأرض.

طريق تصحيحها: أن يبيعه الزرع، ثم يؤجره الأرض، فإن أحب بقاء الزرع على ملكه قدر

لكماله مدة معينة . ثم أجره الأرض بعد تلك المدة إجارة مضافة . فإن خاف أن يفسخ عليه العقد حاكم يرى بطلان هذه الإجارة ، فالحيلة: أن يبيعه الزرع ، ثم يؤجره الأرض ، فإذا تم العقد اشترى منه الزرع ، فعاد الزرع إلى ملكه ، وصحت الإجارة .

المثال الحادى عشر: إذا أراد أن يؤجر الأرض على أن خراجها على المستأجر . لم يصح ، لأن الخراج تابع لرقبة الأرض ، فهو على مالكها ، لا على المنتفع بها: من مستأجر ، أو مستعير .

(149/294)

وطريق الجواز: أن يؤجره إياها بأجرة زائدة على أجر مثلها بقدر خراجها ، ثم يشهد عليه أنه قد أذن للمستأجر أن يدفع من أجرة الأرض فى الخراج كل سنة كذا وكذا . وكذلك لو استأجر دابة على أن يكون علفها على المستأجر لم يصح . وطريق الحيلة: أن يستأجرها بشيء مسمى ، ثم يقدر له ما تحتاج إليه الدابة ، ويوكله فى إنفاقه عليها . والقياس يقتضى صحة العقد بدون ذلك ، فإنَّا نصحح استئجار الأجير بطعامه وكسوته ، كما أجر موسى عليه السلام نفسه بعفة فرجه وشبع بطنه . فكذلك يجوز إجارة الدابة بعلفها ، وكما يجوز أن يكون علفها جميع الأجرة ، يجوز أن يكون بعض الأجرة ، والبعض الآخر شيئاً مسمى .

المثال الثانى عشر: لا تجوز إجارة الأشجار، لأن المقصود منها الفواكه. وذلك بمنزلة بيعها قبل بدوها.

قالوا: والحيلة فى جوازه: أن يؤجره الأرض، ويساقيه على الشجر بجزء معلوم.

قال شيخ الإسلام: وهذا لا يحتاج إليه، بل الصواب جواز إجارة الشجر. كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بحديقة أسيد بن حضير. فإنه أجرها سنين، وقضى بها دينه.

قال: وإجارة الأرض لأجل ثمنها بمنزلة إجارة الأرض لمغلها. فإن المستأجر يقوم على الشجر بالسقى والإصلاح، والذيار فى الكرم، حتى تحصل الثمرة. كما يقوم على الأرض بالحرث والسقى والبذر، حتى يحصل المَغَل. فثمرة الشجر تجرى مجرى مغل الأرض.

فإن قيل: الفرق بين المسألتين: أن المغل من البذر. وهو ملك المستأجر، والمعقود عليه الانتفاع بإيداعه فى الأرض. وسقيه، والقيام عليه. بخلاف استئجار الشجر، فإن الثمرة من الشجرة، وهى ملك المؤجر.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا لا تأثير له فى صحة العقد وبطلانه. وإنما هو فرق عديم التأثير.

الثانى: أن هذا يبطل باستئجار الأرض لكلئها وعشبها الذى ينبته الله سبحانه وتعالى، بدون بذر من المستأجر، فهو نظير ثمرة الشجر.

الثالث: أن الثمرة إنما حصلت بالسقى والخدمة ، والقيام على الشجرة ، فهى متولدة من عمل المستأجر ، ومن الشجرة . فللمستأجر سعى وعمل فى حصولها .

الرابع: أن تولد الزرع ليس من البذر وحده . بل من البذر: والتراب ، والماء ، والهواء . فحصول الزرع من التراب الذى هو ملك المؤجر كحصول الثمرة من الشجرة . والبذر فى الأرض قائم مقام السقى للشجرة . فهذا أودع فى أرض المؤجر عينا جامدة . وهذا أودع فى شجرة عينا مائعة ، ثم حصلت الثمرة من أصل هذا وماء المستأجر وعمله ، كما حصل العمل من أرض هذا وبذر المستأجر وعمله . وهذا من أصح قياس على وجه الأرض .

وبه يتبين أن الصحابة أفقه الأمة وأعلمهم بالمعانى المؤثرة فى الأحكام ، ولم ينكر أحد من الصحابة على عمر رضى الله عنه ، فهو إجماع منهم . ثم إن هذه الحيلة التى ذكرها هؤلاء تتعذر غالبا إذا كان البستان ليتيم ، أو وقفاً ، فإن المؤجر ليس له أن يحابى فى المساقاة حينئذ ، ولا يخلص من ذلك محاباة المستحق فى إجارة الأرض ، فإنه إذا أربحه فى عقد لم يجز له أن يخسره فى عقد آخر ، ولا يخلص من ذلك اشتراط عقد فى عقد ، بأن يقول: إنما أساقيك على جزء من ألف جزء ، بشرط أن أؤجرك الأرض بكذا وكذا ، فإن هذا لا يصح . فعلى ما فعله الصحابة – وهو مقتضى القياس الصحيح – لا يحتاج إلى هذه الحيلة

، وبالله التوفيق .

المثال الثالث عشر : إذا اشترى دارا أو أرضا ، وخاف أن تخرج وقفا أو مستحقة فتؤخذ منه هى وأجرتها ،

فالحيلة: أن يضمن البائع أو غيره درك المبيع ، وأنه ضامن لما

(151/294)

غرمه المشترى من ذلك ، ويصح ضمان الدرك ، حتى عند من يبطل ضمان المجهول ، وضمان ما لم يجب ، للحاجة إلى ذلك ، فإن ضمن من يخاف استحقاقه: كان أقوى ، فإن خاف أن يظهر الاستحقاق على وارثه بعد موته ، ضمن الدرك ورثة البائع ، أو ورثة من يخاف استحقاقه إن أمكنه . فإن كان على ثقة أنه متى استحق عليه المبيع رجع بثمنه ولكن يغرم قيمة المنفعة ، وهى أجرة المثل لمدة استيلائه على العين ، وهذا قول ضعيف جدا . فإن المشترى إنما دخل على أن يستوفى المنفعة بلا عوض ، والعوض الذى بذله فى مقابلة العين لا للانتفاع ، فإلزامه بالأجرة إلزام ما لم يلتزمه ، وكذلك نقول فى المستعير إذا استحقت العين ، لم يلزمه عوض المنفعة ، لأنه إنما دخل على أن ينتفع مجاناً بلا عوض ، بخلاف المستأجر ، فإنه التزم الانتفاع بالعوض ، ولكن لا يلزمه إلا المسمى الذى دخل عليه .

وكذلك الأمة المشتراة إذا وطئها ، ثم استحقت ، لم يلزمه المهر ، لأنه دخل على أن يطأها مجاناً ، بخلاف الزوج ، فإنه دخل على أن الوطء فى مقابلة المهر ، ولكن لا يلزمه إذا استحقت إلا المسمى ، وعلى هذا فليس للمستحق أن يطالب المغرور ، لأنه معذور ، غير ملتزم للضمان ، وهو محسن غير ظالم ، فما عليه من سبيل ، وهذا هو الصواب . فإن طالبه على القول الآخر رجع على من غره بما لم يلتزم ضمانه خاصة ، ولا يرجع عليه بما التزم غرامته . فإذا غرم المودع أو المُتَّهِب قيمة العين والمنفعة ، رجع على الغار بهما ، وإذا غرم المستأجر ذلك رجع بقيمة العين ، دون قيمة المنفعة ، إلا أنه يرجع بالزائد على المسمى ، حيث لم يلتزم ضمانه ، وإذا ضمن وهو مشتر ، أو مستعير قيمة العين والمنفعة ، رجع بقيمة المنفعة دون قيمة العين ، لكنه يرجع بما زاد على الثمن المسمى .

والمقصود : أن هذا المشترى متى خاف أن يطالب بقيمة المنفعة إذا استحق عليه المبيع . فالحيلة فى تخلصه من ذلك : أن يستأجر منه الدار ، أو الأرض سنين معلومة بأجرة مسماة ، ثم يشتريها منه بعد ذلك

(152/294)

ويشهد عليه أنه أقبضه الأجرة ، فمتى استحقت العين وطولب بعوض المنفعة ، طالب هو المؤجر بما قبضه من الأجرة لما ظهرت الإجارة باطلة .

المثال الرابع عشر : إذا وكله أن يزوجه امرأة معينة أو يشترى له جارية معينة ، ثم خاف الموكل أن تعجب وكيله فيتزوجها ، أو يشتريها لنفسه . فطريق التخلص من ذلك فى الجارية: أن يقول له: ومتى اشتريتها لنفسك فهى حرة . ويصح هذا التعليق والعتق ، وأما الزوجة: فمن صحيح هذا التعليق فيها ، كمالك ، وأبى حنيفة ، نفعه . وأما على قول الشافعى وأحمد ، فإنه لا ينفعه .

فطريق التخلص: أن يشهد عليه أنها لا تحل له ، وأن بينهما سبباً يقتضى تحريمها عليه ، وأنه متى نكحها كان نكاحه باطلاً . فإن أراد الوكيل أن يتزوجها أو يشتريها لنفسه ولا يأثم فيما بينه وبين الله تعالى ،

فالحيلة: أن يعزل نفسه عن الوكالة ، ثم يعقد عليها لنفسه ، ولو عقد عليها لنفسه كان ذلك عزلاً لنفسه عن الوكالة . فإن خاف أن لا يتم له ذلك بأن يرفعه إلى حاكم حنفى يرى أنه لا يملك الوكيل عزل نفسه فى غيبة الموكل ، فأراد التخلص من ذلك . فالطريق فى ذلك: أن يشتريها لنفسه بغير جنس ما أذن له فيه ، فإنه إذا اشترها لنفسه بجنس ما أذن له فيه تضمن ذلك عزل نفسه فى غيبة موكله ، وهو ممتنع . فإذا اشتراها بغير الجنس حصل الشراء له ولم يكن ذلك عزلاً .

المثال الخامس عشر: إذا وكله فى بيع جارية، ووكله آخر فى شرائها. فإن قلنا: الوكيل يتولى طرفى العقد. جاز أن يكون بائعاً مشتريا لهما. وإن منعنا ذلك، فالطريق: أن يبيعها لمن يستوثق منه أن يشتريها منه، ثم يشتريها لموكله. فإن خاف أن لا يفى له المشترى الذى توثق منه، فالحيلة أن يبيعه إياها بشرط الخيار. فإن وفى له بالبيع، وإلا كان متمكنا من الفسخ.

المثال السادس عشر: لا يملك خلع ابنته بصداقها. فإن ظهرت المصلحة فى ذلك لها.

(153/294)

فالطريق: أن يتملكه عليها، ثم يخلعها من زوجها به، فيكون قد اختلعها بماله.

والصحيح: أنه لا يحتاج إلى ذلك، بل إذا ظهرت المصلحة فى افتدائها من الزوج بصداقها جاز بذلك. وكان بمنزلة افتدائها من الأسر بمالها، وربما كان هذا خيرا لها.

المثال السابع عشر: إذا وكله أن يشترى له متاعاً فاشتراه، ثم أراد أن يبعث به إليه.

فخاف أن يهلك، فيضمنه الوكيل.

فطريق التخلص من ذلك: أن يستأذن

الوكيل أن يعمل فى ذلك برأيه، ويفوض إليه ذلك. فإذا أذن له فبعث به فتلف لم يضمنه.

المثال الثامن عشر: إذا أراد أن يُسْلِم وعنده خمر، أو خنازير، وأراد أن لا يتلف عليه، فالحيلة: أن يبيعها لكافر قبل الإسلام. ثم يسلم، ويكون له المطالبة بالثمن، سواء أسلم المشترى أو بقى على كفره. نص على هذا أحمد فى مجوسى باع مجوسياً خمراً، ثم أسلما، يأخذ الثمن الذى قد وجب له يوم باعه.

المثال التاسع عشر: إذا كان له عصير فخاف أن يتخمر، فلا يجوز له بعد ذلك أن يتخذه خلاً.

فالحيلة: أن يلقى فيه أولا ما يمنع تخمره، فإن لم يفعل حتى تخمر وجب عليه إراقته. ولم يجز له حبسه حتى يتخلل، فإن فعل لم يطهر، لأن حبسه معصية، وعوده خلاً نعمة، فلا تستباح بالمعصية.

المثال العشرون: إذا كان له على رجل دين مؤجل، وأراد رب الدين السفر وخاف أن يَتْوى ماله، أو احتاج إليه، ولا يمكنه المطالبة قبل الحلول. فأراد أن يضع عن الغريم البعض ويعجل له باقيه. فقد اختلف السلف والخلف فى هذه المسألة. فأجازها ابن عباس، وحرّمها ابن عمرْ. وعن أحمد فيها روايتان. أشهرهما عنه: المنع، وهى اختيار جمهور أصحابه، والثانية: الجواز، حكاها ابن موسى. وهى اختيار شيخنا.

وحكى ابن عبد البر فى الاستذكار ذلك عن الشافعى قولا . وأصحابه لا يكادون يعرفون هذا القول ، ولا يحكونه ، وأظن أن هذا – إن صح عن الشافعى – فإنما هو فيما إذا جرى ذلك بغير شرط ، بل لو عجل له بعض دينه ، وذلك جائز ، فأبرأه من الباقى ، حتى لو كان قد شرط ذلك قبل الوضع والتعجيل ، ثم فعلاه بناء على الشرط المتقدم ، صح عنده . لأن الشرط المؤثر فى مذهبه: هو الشرط المقارن ، لا السابق ، وقد صرح بذلك بعض أصحابه . والباقون قالوا : لو فعل ذلك من غير شرط جاز ، ومرادهم الشرط المقارن .

وأما مالك فإنه لا يجوزه مع الشرط ، ولا بدونه ، سدا للذريعة .

وأما أحمد فيجوزه فى دين الكتابة ، وفى غيره عنه روايتان .

واحتج المانعون بالآثار والمعنى .

أما الآثار : ففى سنن البيهقى عن المقداد بن الأسود قال: "أسلفت رجلاً مائة دينار ، ثم خرج سهمى فى بعث بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فقلت له: عجل تسعين ديناراً ، وأحط عشرة دنانير . فقال: نعم . فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: فقال: أكلت ربا ، مقداد ، وأطعمته" وفى سنده ضعف .

وصح عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه: "قد سئل عن الرجل يكون له الدين على رجل إلى أجل ، فيضع عنه صاحبه ، ويعجل له الآخر . فكره ذلك ابن عمر ، ونهى عنه" .

وصح عن أبى المنهال أنه سأل ابن عمر رضى الله عنهما رضى الله عنهما . فقال: لرجل على دين ، فقال لى: عجل لى لأضع عنك ، قال: فنهانى عنه ، وقال: نهى أمير المؤمنين – يعنى عمر – أن يبيع العين بالدين .

وقال أبو صالح مولى السفاح ، واسمه عبيد : بعت برا من أهل السوق إلى أجل ، ثم أردت الخروج إلى الكوفة ، فعرضوا ، على أن أضع عنهم ، وينقدونى ، فسألت عن ذلك زيد بن ثابت . فقال: لا آمرك أن تأكل هذا ، ولا تؤكله . رواه مالك فى الموطأ .

(155/294)

وأما المعنى: فإنه إذا تعجل البعض وأسقط الباقى ، فقد باع الأجل بالقدر الذى أسقطه وذلك عين الربا ، كما لو باع الأجل بالقدر الذى يزيده ، إذا حل عليه الدين ، فقال: زدنى فى الدين وأزيدك فى المدة ، فأى فرق بين أن تقول: حط من الأجل ، وأحط من الدين ، أو تقول: زد فى الأجل ، وأزيد فى الدين ؟

قال زيد بن أسلم: كان ربا الجاهلية: أن يكون للرجل على الرجل الحق إلى أجل ، فإذا حل الحق قال له غريمه: أتقضى أم تربى ؟ فإن قضاه أخذه ، وإلا زاده فى حقه وأخر عنه فى الأجل . رواه مالك .

وهذا الربا مجمع على تحريمه ، وبطلانه ، وتحريمه معلوم من دين الإسلام ، كما يعلم تحريم الزنى ، واللواطة ، والسرقة .

قالوا : فنقص الأجل فى مقابلة نقص العوض ، كزيادته فى مقابلة زيادته ، فكما أن هذا رباً ، فكذلك الآخر .

قال المبيحون: صح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان لا يرى بأسا أن يقول: "أعجل لك وتضع عنى" وهو الذى روى:

"أَنّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ تعالى عليه وآله وسَلم: لَمَّا أَمَرَ بِإِخْرَاجِ بَنِى النَّضِيرِ مِنَ المَدِينَةِ جَاءَهُ نَاسٌ مِنْهُمْ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنّكَ أَمَرْتَ بِإِخْرَاجِهِمْ ، وَلَهُمْ عَلَى النَّاسِ دُيُونٌ لَمْ تَحِلَّ ، فَقَالَ النَّبِىُّ صلّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَمَ: ضَعُوا وَتَعَجَّلُوا" .

قال أبو عبد الله الحاكم: هو صحيح الإسناد .

قلت: هو على شرط السنن ، وقد ضعفه البيهقى ، وإسناده ثقات: وإنما ضعف بمسلم بن خالد الزنجى ، وهو ثقة فقيه ، روى عنه الشافعى واحتج به .

وقال البيهقى: باب من عجل له أدنى من حقه قبل محله ، فوضع عنه ، طيبة به أنفسهما .

وكأن مراده أن هذا وقع بغير شرط ، بل هذا عجل ، وهذا وضع ، ولا محذور فى ذلك .

قالوا: وهذا ضد الربا ، فإن ذلك يتضمن الزيادة فى الأجل والدين ، وذلك إضرار محض بالغريم ، ومسألتنا تتضمن براءة ذمة الغريم من الدين ، وانتفاع صاحبه بما يتعجله فكلاهما حصل له الانتفاع من غير ضرر ، بخلاف الربا المجمع عليه ، فإن ضرره لاحق بالمدين ، ونفعه مختص برب الدين ، فهذا ضد الربا صورة ومعنى .

قالوا: ولأن مقابلة الأجل بالزيادة فى الربا ذريعة إلى أعظم الضرر ، وهو أن يصير الدرهم الواحد ألوفا مؤلفة ، فتشتغل الذمة بغير فائدة ، وفى الوضع والتعجيل تتخلص ذمة هذا من الدين ، وينتفع ذاك بالتعجيل له .

قالوا: والشارع له تطلع إلى براءة الذمم من الديون ، وسمى الغريم المدين: أسيراً ففى براءة ذمته تخليص له من الأسر ، وهذا ضد شغلها بالزيادة مع الصبر ، وهذا لازم لمن قال: يجوز ذلك فى دين الكتابة . وهو قول أحمد ، وأبى حنيفة ، فإن المكاتب مع سيده كالأجنبى فى باب المعاملات ، ولهذا لا يجوز أن يبيعه درهما بدرهمين ، ولا يبايعه بالربا ، فإذا جاز له أن يتعجل بعض كتابته ،

ويضع عنه باقيها ، لما له فى ذلك من مصلحة تعجيل العتق ، وبراءة ذمته من الدين ، لم يمنع ذلك فى غيره من الديون . ولو ذهب ذاهب إلى التفصيل فى المسألة وقال: لا يجوز فى دين القرض إذا قلنا بلزوم تأجيله ويجوز فى ثمن المبيع والأجرة ، وعوض الخلع ، والصداق ،

لكان له وجه ، فإنه فى القرض يجب رد المثل ، فإذا عجل له وأسقط باقيه ، خرج عن موجب العقد ، وكان قد أقرضه مائة ، فوفاه تسعين ، بلا منفعة حصلت للمقرض ، بل اختص المقترض بالمنفعة ، فهو كالمربى سواء فى اختصاصه بالمنفعة ، دون الآخر ، وأما فى البيع والإجارة فإنهما يملكان فسخ العقد ، وجعل العوض حالاً أنقص مما كان ، وهذا هو حقيقة الوضع والتعجيل ، لكن تحيلا عليه ، والعبرة فى العقود بمقاصدها لا بصورها . فإن كان الوضع والتعجيل مفسدة فالاحتيال عليه لا يزيل مفسدته ، وإن لم يكن مفسدة لم يحتج إلى الاحتيال عليه .

فتلخص فى المسألة أربعة مذاهب:

(157/294)

المنع مطلقاً ، بشرط ، وبدونه ، فى دين الكتابة وغيره ، كقول مالك .

وجوازه فى دين الكتابة ، دون غيره ، كالمشهور من مذهب أحمد وأبى حنيفة .

وجوازه فى الموضعين . كقول ابن عباس ، وأحمد فى الرواية الأخرى .

وجوازه بلا شرط ، وامتناعه مع الشرط المقارن ، كقول أصحاب الشافعى ، والله أعلم .

المثال الحادى والعشرون: إذا كان له عليه ألف درهم ، فصالحه منها على مائة درهم يؤديها

إليه فى شهر كذا من سنة كذا ، فإن لم يفعل فعليه مائتان ، فقال القاضى أبو يعلى: هو جائز ، وقد أبطله قوم آخرون .

والحيلة فى جوازه على مذهب الجميع: أن يعجل رب المال حط ثمانمائة بَتا ، ثم يصالح عن المطلوب من المائتين الباقيتين على مائة ، يؤديها إليه فى شهر كذا ، على أنه إن أخرها عن هذا الوقت فلا صلح بينهما .

المثال الثانى والعشرون: إذا كاتب عبده على ألف يؤديها إليه فى سنتين ، فإن لم يفعل فعليه ألف أخرى ، فهى كتابة فاسدة ، ذكره القاضى ، لأنه علق إيجاب المال بخطر ولا يجوز ذلك .

والحيلة فى جوازه: أن يكاتبه على ألفى درهم ، ثم يصالحه منها على ألف درهم يؤديها إليه فى سنتين . فإن لم يفعل فلا صلح بينهما ، فيكون قد علق الفسخ بخطر ، فيجوز . وتكون كالمسألة التى قبلها .

المثال الثالث والعشرون: إذا كان له عليه دين حال فصالحه على تأجيله ، أو تأجيل بعضه ،

لم يلزمه التأجيل . فإن الحال لا يتأجل . والصحيح: أنه يتأجل ، كما يتأجل بدل القرض .

وإن كان النزاع فى الصورتين . فمذهب أهل المدينة فى ذلك هو الراجح .

وطريق الحيلة فى صحة التأجيل ولزومه: أن يشهد على إقرار صاحب الدين أنه لا

يستحق المطالبة به قبل الأجل الذى اتفقا عليه ، وأنه متى طالب به قبله فقد طالب بما لا يستحق . فإذا فعل هذا من رجوعه فى التأجيل .

(158/294)

المثال الرابع والعشرون: إذا اشترى من رجل دارا بألف ، فجاء الشفيع يطلب الشفعة ، فصالحه المشترى على نصف الدار بنصف الثمن جاز ذلك ، لأن الشفيع صالح على بعض حقه ، كما أنه صالح من ألف على خمسمائة . فإن صالحه على بيت من الدار بعينه بحصته من الثمن يقوَّم البيت ثم تخرج حصته من الثمن ، جاز أيضاً ، لأن حصته معلومة فى أثناء الحال . فلا يضر كونها مجهولة حالة الصلح . كما إذا اشترى شقصاً وسيفاً : فللشفيع أن يأخذ الشقص بحصته من الثمن ، وإن كانت مجهولة حال العقد ، لأن مآلها إلى العلم .

وقال القاضى وغيره من أصحابنا : لا يجوز ، لأنه صالحه على شئ مجهول .

ثم قال: والحيلة فى تصحيح ذلك: أن يشترى الشفيع هذا البيت من المشترى بثمن مسمى ، ثم يسلم الشفيع للمشترى ما بقى من الدار ، وشراء الشفيع لهذا البيت تسليم للشفعة ، ومساومته بالبيت تسليم للشفعة .

فإن أراد الشفيع شراء البيت المعين وبقاءه على شفعته فى الباقى .

فالحيلة أن لا يبدأ بالمساومة ، بل يصبر حتى يبتدئ المشترى ، فيقول: هذا البيت أخذته بكذا وكذا ، فيقول الشفيع: قد استوجبته بما أخذته به ، ولا يكون مسلماً للشفعة فى باقى الدار وليس فى هذه الحيلة إبطال حق غيره ، وإنما فيها التوصل إلى حقه .

المثال الخامس والعشرون: يجوز تعليق الوكالة على الشرط . كما يجوز تعليق الولاية والإمارة على الشرط . وقد صح عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تعليق الإمارة بالشرط وهى وكالة وتفويض ، وتولية ، ولا محذور فى تعليق الوكالة بالشرط البتة .

والحيلة فى تصحيحها : أن ينجز الوكالة ويعلق الإذن فى التصرف بالشرط وهذا فى الحقيقة تعليق لها نفسها بالشرط ، فإن مقصود الوكالة صحة التصرف ونفوذه ، والتوكل وسيلة وطريق إلى ذلك ، فإذا لم يمتنع تعليق المقصود بالشرط ، فالوسيلة أولى بالجواز .

(159/294)

المثال السادس والعشرون: يجوز تعليق الإبراء بالشرط . ويصح ، وفعله الإمام أحمد وقال أصحابنا : لا يصح . قالوا : فإذا قال: إن مت فأنت فى حل مما لى عليك . فإن علق ذلك بموت نفسه صح ، لأنه وصية . وإن علقه بموت من عليه الدين لم يصح . لأنه تعليق البراءة بالشرط ولا يصح كما لا يصح تعليق الهبة . فيقال: أولا ، الحكم فى الأصل غير ثابت

بالنص ، ولا بالإجماع ، فما الدليل على بطلان تعليق الهبة بالشرط ؟ وقد صح عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه علق الهبة بالشرط فى حديث جابر لما قال:

"لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ لأَعْطَيْتُكَ هكَذَا ، وَهكَذَا ، ثمَّ هكَذَا" – ثَلاَثَ حَثَيَاتٍ . وأنجز ذلك له الصديق رضى الله عنه لما جاء مال البحرين بعد وفاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

فإن قيل: كان ذلك وعداً ؟ .

قلنا : نعم ، والهبة المعلقة بالشرط وعد . وكذلك فعل النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لما بعث إلى النجاشى بهدية من مسك ، وقال لأم سلمة: "إِنِّى قَدْ أَهْدَيْتُ إِلَى النَّجَاشِى حُلَّةً

وَأَوَاقِى مِنْ مِسْكٍ ، وَلا أَرَى النَّجَاشِى لا قَدْ مَاتَ ، وَلا أرَى هَدِيَّتِى إلا مَرْدُودَةً فإن رُدَّتْ عَلَى فَهِى لَكِ" وذكر الحديث ، رواه أحمد . فالصحيح: صحة تعليق الهبة بالشرط ، عملا بهذين الحديثين .

وأيضاً . فالوصية تمليك ، وهى فى الحقيقة تعليق للتمليك بالموت ، فإنه إذا قال: إن مت من مرضى هذا فقد أوصيت لفلان بكذا ، فهذا تمليك معلق بالموت . وكذلك الصحيح: صحة تعليق الوقف بالشرط . نص عليه فى رواية الميمونى فى تعليقه بالموت . وسائر التعليق فى معناه ، ولا فرق البتة . ولهذا طرده أبو الخطاب . وقال: لا يصح تعليقه بالموت .

والصواب طرد النص ، وأنه يصح تعليقه بالموت وغيره . وهو أحد الوجهين فى مذهب أحمد . وهو مذهب مالك . ولا يعرف عن أحمد نص على عدم صحته . وإنما عدم الصحة قول القاضى وأصحابه .

(160/294)

وفى المسألة وجه ثالث: أنه يصح تعليقه بشرط الموت دون غيره من الشروط ، وهذا اختيار الشيخ موفق الدين . وفرق بأن تعليقه بالموت وصية ، والوصية أوسع من التصرف فى الحياة ، بدليل الوصية بالمجهول والمعدوم ، والحمل والصحيح: الصحة مطلقاً . ولو كان تعليقه بالموت وصية لامتنع على الوارث ، ولا خلاف أنه يصح تعليقه بالشرط بالنسبة إلى البطون ، بطنا بعد بطن ، وأن كونه وقفا على البطن الثانى مشروط بانقضاء البطن الأول .

وقد قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1] .

وقال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ" .

والقياس الصحيح: يقتضى صحة تعليقه ، فإنه أشبه بالعتق منه بالتمليك ، ولهذا لا يشترط فيه القبول إذا كان على جهة ، اتفاقاً ، وكذلك إذا كان على آدمى معين ، فى أقوى الوجهين ،

وما ذاك إلا لشبهه بالعتق .

والمقصود : أن تعليق الإبراء بالشرط أولى من ذلك كله ، فمنعه مخالف لموجب الدليل والمذهب .

ويقال ثانياً : لا يلزم من بطلان تعليق الهبة بطلان تعليق الإبراء ، بل القياس الصحيح يقتضى صحة تعليقه ، لأنه إسقاط محض ، ولهذا لا يفتقر إلى قبول المبرئ ، ولا رضاه ، فهو بالعتق والطلاق أشبه منه بالتمليك .

وعلى هذا ، فيستغنى بالصحة فى ذلك كله عن الحيلة . فإن احتاج إلى التعليق ، وخاف أن ينقض عليه ،

فالحيلة: أن يقول: لا شئ لى عليه بعد هذا الشهر أو العام ، أو لا شئ لى عليه عند قدوم زيد ، أو كل دعوى أدعيها عليه بعد شهر كذا ، أو عام كذا ، أو عند قدوم زيد بسبب كذا ، أو من دين كذا ، فهى دعوى باطلة ، أو يقول: كل دعوى أدعيها فى تركته بعد موته: من دين كذا أو ثمن كذا ، فهى دعوى باطلة . وعلى ما قررناه لا يحتاج إلى شئ من ذلك .

(161/294)

المثال السابع والعشرون: إذا أعسر الزوج بنفقة المرأة، ملكت الفسخ، فإن تحملها عنه غيره لم يسقط ملكها للفسخ، لأن عليها فى ذلك منة، كما أراد قضاء دين عن الغير، فامتنع ربه من قبوله، لم يجبر على ذلك.

وطريق الحيلة فى إبطال حقها من الفسخ: أن يحيلها بما وجب لها عليه من النفقة على ذلك الغير، فتصح الحوالة، وتلزم على أصلنا، إذا كان المحال عليه غنيا. وطريق صحة الحوالة: أن يقر ذلك الغير للزوج بقدر معين لنفقتها سنة أو شهراً، أو نحو ذلك، ثم يحيلها الزوج عليه، فإن لم يمكنه الإجبار على القبول، لعدم من يرى ذلك، وكل الزوج الملتزم لنفقتها فى الإنفاق عليها، والزوج مخير بين أن ينفق عليها بنفسه، أو بوكيله. وهكذا العمل فى مسألة أداء الدين عن الغريم سواء.

المثال الثامن والعشرون: إذا خاف المضارب أن يضمنه المالك بسبب من الأسباب التى لا يملكها بعقد المضاربة، فخلط المال بغيره، أو استبراء به بأكثر من رأس المال، والاستدانة على مال المضاربة، أو دفعه إلى غيره مضاربة أو إبضاعاً، أو إيداعاً، أو السفر به.

فطريق التخلص من ضمانه فى هذا كله: أن يشهد على رب المال أنه قال له: اعمل برأيك، أو ما تراه مصلحة.

المثال التاسع والعشرون: إذا كان لكل من الرجلين عروض، وأرادا أن يشتركا فيها شركة عنان، ففى ذلك روايتان:

إحداهما : تصح الشركة . وتقوم العروض عند العقد ، ويكون قيمتها هو رأس المال .

فيقسم الربح على حسبه ، أو على ما شرطاه . وإذا أرادا الفسخ رجع كل منهما إلى قيمة عروضه ، واقتسما الربح على ما شرطاه ، وهذا القول هو الصحيح .

والرواية الثانية: لا تصح إلا على النقدين ، لأنهما إذا تفاسخا الشركة ، وأراد كل منهما الرجوع إلى رأس ماله ، ويقتسما الربح ، لم يعلم ما مقدار رأس مال كل منهما إلا بالتقويم ، وقد تزيد قيمة العروض وتنقص قبل العمل ، فلا يستقر رأس المال .

(162/294)

وأيضاً فمقتضى عقد الشركة: أن لا ينفرد أحد الشريكين بربح مال الآخر ، وهذه الشركة تفضى إلى ذلك ، لأنه قد تزيد قيمة عرض أحدهما ، ولا تزيد قيمة عرض الآخر ، فيشاركه من لم تزد قيمة عروضه . وهذا إنما يصح فى المقومات كالرقيق ، والحيوان ، ونحوهما . فأما المثليات ، فإن ذلك منتف فيها ، ولهذا كان الصحيح عند من منع الشركة بالعروض: جوازها بالمثليات . فالصحيح: الجواز فى الموضعين . لأن مبنى عقد الشركة على العدل من الجانبين ، وكل من الشريكين متردد بين الربح والخسران ، فهما فى هذا الجواز مستويان . فتجويز ربح أحدهما دون الآخر فى مقابلة عكسه ، فقد استويا فى

رجاء الغنم وخوف الغرم ، وهذا هو العدل ، كالمضاربة ، فإنه يجوز أن يربحاً ، وأن يخسراً ، وكذلك المساقاة والمزارعة .

وطريق الحيلة فى تصحيح هذه المشاركة ، عند من لا يجوزها بالعروض: أن يبيع كل منهما بعض عروضه ببعض عروض صاحبه ، فإذا كان عَرضَ أحدهما يساوى خمسة آلاف ،

وعرض الآخر يساوى ألفا ، فيشترى صاحب العرض الذى قيمته خمسة آلاف من صاحبه خمسة أسداس عرضه الذى يساوى ألفا بسدس عرضه الذى يساوى خمسة آلاف ، فإذا فعلا ذلك صارا شريكين ، فتصير للذى يساوى متاعه ألفا سدس جميع المتاع . وللآخر خمسة أسداسه . أو يبيع كل منهما صاحبه بعض عرضه بثمن مسمى ، ثم يتقابضان فيصير مشتركاً بينهما ، ثم يأذن كل واحد منهما لصاحبه فى التصرف ، فما حصل من الربح يكون بينهما على ما شرطاه عند أحمد ، وعلى قدر رءوس أموالهما عند الشافعى ، والخسران على قدر المال اتفاقاً .

المثال الثلاثون: إذا تزوجها على أن لا يخرجها من دارها أو بلدها ، أو لا يتزوج عليها ، ولا يتسرى عليها ، فالنكاح صحيح . والشرط لازم . هذا إجماع الصحابة رضى الله عنهم ، فإنه صح عن عمر ، وسعد ، ومعاوية ، ولا مخالف لهم من الصحابة . وإليه ذهب عامة

التابعين وقال به أحمد .

وخالف فى ذلك الثلاثة ، فأبطلوا الشرط ولم يوجبوا الوفاء به .

(163/294)

فإذا احتاجت المرأة إلى ذلك ، ولم يكن عندها حاكم يرى صحة ذلك ولزومه ، فالحيلة لها فى حصول مقصودها : أن تمتنع من الإذن ، إلا أن تشترط بعد العقد أنه إن سافر بها ، أو نقلها من دارها ، أو تزوج عليها فهى طالق ، أو لها الخيار فى المقام معه ، أو الفسخ . فإن لم تثق به أن يفعل ذلك ، فإنها تطلب مهراً كثيراً جداً ، إن لم يفعل ، وتطلب ما دونه إن فعل ، فإن شرط لها ذلك رضيت بالمهر الأدنى ، وإن لم يشرط ذلك طالبته بالأعلى ، وجعلته حالاً ، ولها أن تمنع نفسها حتى تقبضه ، أو يشرط لها ما سألته .

فإن قيل : فعلى أى المهرين يقع العقد ؟

قيل : يقع على المهر الزائد ، لتتمكن من إلزامه بالشرط .

فإن خاف أن يشرط لها ما طلبت ، ويستقر عليه المهر الزائد ، فالحيلة : أن يشهد عليها أنها لا تستحق عليه بعد الاشتراط شيئاً من المبلغ الزائد على الصداق الأدنى ، وأنها متى ادعت به فدعواها باطلة ، فيستوثق منها بذلك ، ويكتب هو الشرط ، ولها أن تطالب

بالصداق الزائد ، إذا لم

يف لها بالشرط ، لأنها لم ترض بأن يكون الأدنى مهراً إلا فى مقابلة منفعة

أخرى تسلم لها ، وهى المقام فى دارها ، أو بلدها ، أو يكون الزوج لها وحدها ، وهذا

جار مجرى بعض صداقها . فإذا فاتها فلها المطالبة بالمهر الأعلى .

المثال الحادى والثلاثون: إذا زوج ابنته بعبده صح النكاح ، فإن حضره الموت فخاف هو ،

أو المرأة ، أن ترث جزءا منه ، فينفسخ النكاح .

فالحيلة فى بقائه: أن يبيع العبد من أجنبى ، فإن شاء قبض ثمنه ، وإن شاء جعله دينا فى

ذمته ، يكون حكمه حكم سائر ديونه ، فإذا ورثت نصيبها من ثمنه ، لم ينفسخ نكاحها .

وإن باع العبد من أجنبى قبل العقد ، ثم زوجه الابنة ، أمن هذا المحذور أيضاً .

وكذلك إذا أراد أن يزوج أمته بابنه ، وخاف أن يموت فيرث الابن زوجته ، فينفسخ النكاح

، باعها من أجنبى ، ثم زوجها الابن ، أو يبيعها من الأجنبى بعد العقد .

(164/294)

المثال الثانى والثلاثون: إذا أحاله بدينه ، وخاف المحتال أن يبور ماله عند المحال عليه ،

وأراد التوثق لماله .

فالحيلة فى ذلك ، أن يقول: لا تحلنى بالمال ، لكن وكلنى فى المطالبة به ، واجعل ما أقبضه فى ذمتى قرصاً ، فيبرآن جميعاً بالمقاصة . فإن خاف المحيل أن يهلك المال فى يد الوكيل قبل اقتراضه ، فيرجع عليه بالدين .

فالحيلة له: أن يقول للمحال عليه: اضمن عنى هذا الدين لهذا الطالب ، فيضمنه فإذا قبضه قبضه لنفسه . فإن امتنع المحال عليه من الضمان احتال الطالب عليه على أنه إن لم يوفه حقه إلى وقت كذا وكذا ، فالمحيل ضامن لهذا المال ، ويصح تعليق الضمان بالشرط . فإن وفاه المحيل عليه وإلا رجع إلى المحال ، وأخذه بالمال .

المثال الثالث والثلاثون: إذا كان له دين على رجل فرهنه به عبداً ، فخاف أن يموت العبد ، فيحاكمه إلى من يرى سقوط الدين بتلف الرهن .

فالحيلة فى تخليصه من هذا المحذور: أن يشترى العبد منه بدينه ، ولا يقبض العبد فإن وفاه دينه أقاله فى البيع . وإن لم يوفه الدين طالبه بالتسليم ، وإن تلف العبد كان من ضمان البائع ، ورجع المشترى إلى دينه الذى هو ثمنه .

المثال الرابع

والثلاثون: إذا كان له عليه دين ، فرهنه به رهنا ، ثم خاف أن يستحق الرهن فتبطل الوثيقة .

فالحيلة فيه: أن يضمن دينه لمن يخاف منه استحقاق الرهن . فإذا استحقه عليه طالبه

بالمال ، أو يضمنه درك الرهن ، أو يشهد عليه أنه لا حق له فيه . ومتى ادعى فيه حقاً فدعواه باطلة .

المثال الخامس والثلاثون: إذا كان له عليه مائة دينار خمسون منها بوثيقة ، وخمسون بغير وثيقة ، وجحده الغريم القدر الذى بغير وثيقة .

(165/294)

فالحيلة له فى تخليص ماله: أن يوكل رجلاً غريباً بقبض المال الذى بالوثيقة . ويشهد على وكالته علانية ، ثم يشهد شهودا آخرين: أنه قد عزله عن الوكالة ، ثم يطالب الوكيل المطلوب بذلك المال ، ويثبت شهود وكالته . فإذا قبض الخمسين ديناراً دفعها إلى مستحقها وغاب ، ثم يطالبه المستحق بهذه الخمسين . فإن قال: دفعتها إلى وكيلك . أقام البينة أنه كان قد عزله عن الوكالة ، فيلزمه الحاكم بالمال ، ويقول له: اتْبَعِ القابض ، فخذ مالك منه . فإن كان الغريم حذرا لم يدفع إلى الوكيل شيئاً خشية مثل هذا . ويقول: لا أدفع إليك إلا بحضرة الموكل وإقراره أنك وكيله ، فتبطل هذه الحيلة .

المثال السادس والثلاثون: إذا حضره الموت ، ولبعض ورثته عليه دين ، وأراد تخليص ذمته . فإن أقر له به ، لم يصح إقراره ، وإن وصى له به ، كانت وصية لوارث .

فالحيلة فى خلاصه: أن يواطئه على أن يأتى بمن يثق به ، فيقر له بذلك الدين ، فإذا قبضه أوصله إلى مستحقه ، فإن خاف الأجنبى أن يلزمه الحاكم أن يحلف أن هذا الدين واجب لك على الميت ، ولم تبرئه منه ، ولا من شئ منه لم يجز له أن يحلف على ذلك . وانتقلنا إلى حيلة أخرى ، وهى أن يقول له المريض: بع دارك ، أو عبدك من وارثى ، بالمال الذى له على فيفعل . فإذا لزمته اليمين بعد هذا حلف على أمر صحيح ، فإن لم يكن له ما يبيعه إياه وهب له الوارث عبدا أو أمة ، فقبضه ، ثم باعه من الوارث بالدين على الميت .

المثال السابع والثلاثون: إذا نكح أمة ، حيث يجوز له نكاح الإماء ، وخاف أن يسترق سيدها ولده .

فالحيلة فى ذلك: أن يسأل سيد الأمة أن يقول: كل ولد تلده منك فهو حر . فإذا قال فما ولدته منه فهم أحرار .

المثال الثامن والثلاثون: إذا قال لامرأته: إن سألتنى الخلع ، فأنت طالق ثلاثاً إن لم أخلعك . وقالت المرأة: كل مملوك لها حر ، إن لم أسألك الخلع اليوم .

(166/294)

فسئل أبو حنيفة عنها فقال للمرأة: سليه الخلع ، فقالت: أسألك أن تخلعنى . فقال للزوج: قل خلعتك على ألف درهم ، فقال ذلك . فقال أبو حنيفة للمرأة قولى: لا أقبل . فقالت: لا أقبل ، فقال أبو حنيفة: قومى مع زوجك ، فقد بر كل منكما فى يمينه .

المثال التاسع والثلاثون: سئل أبو حنيفة عن أخوين تزوجا أختين ، فزفت امرأة كل واحد منهما إلى الآخر ، فوطئها ، ولم يعلموا بذلك حتى أصبحوا ، فقيل له: ما الحيلة فى ذلك ؟ فقال: أكل منهما راض بالتى دخل بها ؟ قالوا: نعم ، فقال: ليطلق كل واحد منهما امرأته طلقة ، ففعلا ، فقال: ليتزوج كل منهما المرأة التى وطئها ، فطابت أنفسهما .

المثال الأربعون: إذا كان لرجل على رجل مال وللذى عليه المال عقار ، فأراد أن يجعل عقاره فى يد غريمه يستغله ، ويقبض غلته من دينه جاز ذلك ، لأنه توكيل له فيه ، فإن خاف الغريم أن يعزله صاحب العقار عن الوكالة .

فالحيلة: أن يسترهنه منه ويستديم قبضه ، ثم يأذن له فى قبض أجرته من دينه ، ولو لم يأذن له فله أن يقبضها قصاصاً .

وله حيلة أخرى: أن يستأجره منه بمقدار دينه ، فما وجب له عليه من الأجرة سقط من دينه بقدره قصاصاً .

المثال الحادى والأربعون: إذا كان له جارية فأراد وطأها ، وخاف أن تحبل منه فتصير أم ولد ، لا يمكنه بيعها .

فالحيلة: أن يبيعها لأبيه ، أو أخيه ، أو أخته ، فإذا ملكها سأله أن يزوجه إياها فيطأها بالنكاح ، ويكون ولده منها أحرارا يعتقون على البائع بالرحم ، وهذا إذا كان ممن يجوز له نكاح الإماء ، بأن لا يكون تحته حرة عند أبي حنيفة . أو يكون خائفاً للعنت عادماً لطَوْل حرة ، عند الجمهور .

المثال الثاني والأربعون: إذا بانت منه امرأته ببينونة صغرى ، وأراد أن يجدد نكاحها فخاف إن أعلمها لم تتزوج به ، فله في ذلك حيل:

إحداها : أن يقول: قد حلفت بيمين ، ثم استفتيت ، فقيل لي: جدد نكاحك ، فإن كانت قد بانت منك عاد النكاح ، وإلا لم يضرك . فإن كان لها ولي جدد نكاحها ، وإلا فالحاكم أو نائبه .

(167/294)

ومنها : أن يظهر أنه يريد سفراً ، وأنه يريد أن يجعل لها شيئاً من ماله ، وأن الاحتياط أن يجعله صداقاً بعقد يظهره .

ومنها : أن يظهر مرضاً ، وأنه يريد أن يقر لها بمال ، أو يوصي لها به ، وأن ذلك لا يتم .

والأحوط أن أظهر عقد نكاح وأجعل ذلك صداقاً فيه .

فإن قيل: إذا بانت منه ملكت نفسها ، ولم يصح نكاحها إلا برضاها ، ولعلها لو علمت الحال لم ترض بالنكاح الثانى .

قيل: رضاها بتجديد العقد للغرض الذى يريده يتضمن رضاها بالنكاح ، وهى لو هزلت بالإذن صح إذنها وصح النكاح ، مع أنها لم تقصده كما لو هزل الزوج بالقبول صح نكاحه ، وها هنا قد قصدت بقاء النكاح ، ورضيت به ، فهو أولى بالصحة .

فإن قيل: فالرجل قاصد إلى النكاح ، والمرأة غير قاصدة له ؟

قيل: بل قصدت إلى تجديد نكاح يتم به غرضها ، فلم تخرج بذلك عن القصد والرضا .

ولو قال رجل لرجل ، هزلاً ومزاحاً : زوجنى ابنتك على مائة درهم ، أو قال: زوجنى موليتك ، وهى تسمع ، فقال له ، مزاحاً وهزلاً: قد زوجتكها . انعقد النكاح وحل له وطؤها لحديث أبى هريرة الذى رواه أهل السنن عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: "ثَلاثٌ جِدُّهُنَّ جِد ، وَهَزْلُهُنَّ جد : النِّكَاحُ ، وَالطَّلاقُ ، وَالرَّجْعَةَ" .

المثال الثالث والأربعون: إذا كان الرجل حسن التصرف فى ماله ، غير مبذر له ، فرفع إلى الحاكم وشهد عليه أنه مبذر ، فخاف أن يحجر عليه . فقال: إن حجرت على فعبيدى أحرار ، ومالى صدقة على المساكين لم يملك القاضى أن يحجر عليه بعد ذلك ،

لأنه إنما يحجر عليه صيانة لماله ، وفى الحجر عليه إتلاف ماله ، فهو يعود على مقصود الحجر بالإبطال .

(168/294)

المثال الرابع والأربعون: يصح الصلح عندنا ، وعند أبى حنيفة ، ومالك ، على الإنكار ، فإذا ادعى عليه شيئاً فأنكره ثم صالحه على بعضه جاز . والشافعى لا يصحح هذا الصلح ، لأنه لم يثبت عنده شئ ، فبأى طريق يأخذ ما صالحه عليه ؟ بخلاف الصلح على الإقرار ، فإنه إذا أقر له بالدين والعين ، فصالحه على بعضه ، كان قد وهبه ، أو أبرأه من البعض الآخر .

والجمهور يقولون: قد دل الكتاب والسنة والقياس على صحة هذا الصلح ، فإن الله سبحانه وتعالى ندب إلى الإصلاح بين الناس . وأخبر أن الصلح خير وقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: 10] .

وقال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "الصُّلْحُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ جَائِزٌ ، إِلا صُلْحاً أَحَلَّ حَرَاماً أَوْ حَرَّمَ حَلالاً" .

وأما القياس: فإن المدعى عليه يفتدى مطالبته باليمين وإقامة البينة ، وتوابع ذلك: بشيء

من ماله يبذله ، ليتخلص من الدعوى ولوازمها . وذلك غرض صحيح ، مقصود عند العقلاء . وغاية ما يُقَدَّر أن يكون المدعى كاذباً ، فهو يتخلص من تحليفه له ، وتعريضه للنكول ، فيقضى عليه به ، أو ترد اليمين ، بل عند الخِرَقى: لا يصح الصلح إلا على الإنكار ، ولا يصح مع الإقرار ، قال: لأنه يكون هضما للحق .

فإذا صالحه مع الإنكار ، فخاف أن يرفعه إلى حاكم يبطل الصلح ، فالحيلة فى تخلصه من ذلك: أن يصالح أجنبى عن المنكر على مال ، ويقر الأجنبى لهذا المدعى بما ادعاه على

غريمه ، ثم يصالحه من دعواه على مال ، ولا يفتقر إلى إذن المدعى عليه ، ولا وكالته ، إن كان المدعى دينا ، لأنه يقول: إن كان كاذباً فقد استنقذته من هذه الدعوى ، وذلك بمنزلة فكاك الأسير ، وإن كان صادقاً فقد قضيت عنه بعض دينه ، وأبرأه المدعى من باقيه ، وذلك لا يفتقر إلى إذنه . وإن كان المدعى عينا ، لم يصح حتى يقول: قد وكلنى المنكر . لأنه يقول: قد اشتريت له هذه العين المدعاة بالمال الذى أصالحك عليه ، فإن لم يعترف أنه وكله ، وإلا لم يصح .

فإن لم يعترف بوكالته ، فطريق الصحة: أن يصالح الأجنبى لنفسه ، فيكون بمنزلة شراء العين

المغصوبة . فإن اعترف بها المدعى باطنا ، صار هو الخصم فيها . وإن لم يعترف بها له لم يسعه أن يخاصم فيها المدعى عليه ، ويكون اعترافه له بها ظاهراً حيلة على تصحيح الصلح .

وعلى هذا ، فإن كان المدعى دار خلفها الميت لابنه وامرأته ، فادعاها رجل فصالحاه من دعواه على مال ، فإن كان صلحاً على الإنكار فالدار بينهما على ثمانية أسهم ، على المرأة الثمن ، وعلى الابن سبعة أثمان . وإن كان على الإقرار ، فالمال بينهما نصفان والدار لهما نصفان . فإذا أراد لزوم الصلح على الإنكار ، صالح عنهما أجنبى على الإقرار فلزم الصلح ، وكان المال بينهما على سبعة أثمان ، وكذلك الدار ، فإنهما لم يقرا له بالدار وإقرار الأجنبى لا يلزمهما حكمه .

المثال الخامس والأربعون: إذا ادعى عليه أرضا فى يده ، أو داراً أو بستانا . فصالحه على عشرة أذرع ، أو أقل ، أو أكثر ، جاز ، وكذلك لو صالحه على عشرة أذرع من أرض أو أخرى ، جاز ، لأنه يقول: قد أخذت بعض حقى وأسقطت البعض .

فإن خاف أن يرفعه إلى حاكم حنفى ، لا يرى جواز ذلك بناء على أنه لا يجوز بيع ذراع ، ولا عشرة ، من أرض أو دار . فطريق الجواز: أن يذرع الدار التى صالحه على هذا القدر منها ، ثم ينسبه إلى المجموع ، فما أخرجته النسبة أوقع الصلح عليه ، ويصح ذلك ويلزم .

المثال السادس والأربعون: إذا أوصى لرجل بخدمة

عبده مدة معينة ، أو ما عاش ، جاز

ذلك . فإذا أراد الوارث أن يشترى من الموصى له خدمة العبد لم يصح ، لأن الحق الموصى له به إنما هو فى المنافع ، وبيع المنافع لا يجوز .

والحيلة فى الجواز : أن يصالحه الوارث من وصيته على مال معين ، فيجوز ذلك . وكذلك لو أوصى له بحمل شاته أو أمته ، أو بما يحمل شجره عاماً . فإذا أراد الوارث شراءه منه لم يصح ، وله أن يصالحه عليه ، فإن الصلح – وإن كان فيه شائبة من البيع – فهو أوسع منه .

المثال السابع والأربعون : لو شجه رجل ، فعفا المشجوج عن الشجة ، وما يحدث منها ثم مات منها ، لم يلزم الشاج شيئاً ، ولو قال : عفوت عن هذه الجراحة ، أو الشجة ، ولم يقل : وما يحدث منها ، فكذلك فى إحدى الروايتين ، وفى الأخرى : تضمن بقسطها من الدية .

ولو قال : عفوت عن هذه الجناية ، فلا شئ له فى السراية ، رواية واحدة . وعند أبى حنيفة له المطالبة بالدية فى ذلك كله ، إلا إذا قال : عفوت عنها ، وعما يحدث منها .

فالحيلة فى تخلص المعفو عنه : أن يشهد على المجنى عليه : أنه عفا عن هذه الجناية أو الشجة وما يحدث منها ، فيتخلص عند الجميع .

المثال الثامن والأربعون: إذا مات وترك زوجة وورثة ، فأرادت الزوجة أن يصالحها الورثة عن حقها نظرنا فى التركة ، وفى الذى وقع عليه الصلح ، فإن كان فى التركة أثمان: ذهب وفضة ، فصالحتهم على شئ من الأثمان لم يصح ، لإفضائه إلى الربا . لأن صلحها بيع نصيبها منهم . وإن صالحتهم على عرض أو عقار ، أو كان فى التركة دراهم ، فصالحتهم بدنانير ، أو بالعكس جاز . ولا تضر جهالة حقها ، لأن عقد الصلح أوسع من البيع كما تقدم .

فإن كان فى التركة ديون لم يصح ، لأن بيع الدين من غير الذى هو فى ذمته لا يصح . ويحتمل أن يقول بصحته ، كما يصح عن المجهول ، وإن لم يصح بنفسه .

فالحيلة فى صلحها عن الدين أيضاً : أن يعجل لها حصتها من الدين ، يقرضها الورثة

ذلك ، وتوكلهم فى اقتضائه ، ثم تصالحهم من الأعيان ، على ما اتفقوا عليه ، لأنهم إذا أقرضوها حصتها من الدين ثم وكلتهم بقبض حصتها من الدين ، فإذا قبضوا حصتها من الدين فقد حصل فى أيديهم بما لها من جنس ما لهم عليها فيتقاصان . ويكون عقد الصلح قد وقع على العروض والمتاع خاصة .

فإن لم تطب أنفسهم أن يقرضوها قدر حصتها من الدين ، وأحبت تعجيل الصلح صالحتهم

عن حقها من المتاع والعروض ، دون الديون . وكلما قبض من الدين شئ أخذت حقها منه ، فإن تعسر ذلك ، وشق عليها ، وأحبت الخلاص . حاسبوها فى الصلح من الأعيان بأكثر من حقها منها ، وأقرت أن الدين حق للورثة دونها ، من ثمن متاع باعه الميت لهم . فإن أرادوا قسمة الدين فى الذمم . فالمشهور : أنه لا يصح لأن الذمم لا تتكافأ ، وفيه رواية أخرى تجوز قسمته ، وهى الصحيحة . فإن قد تكون مصلحة الورثة والغرماء فى ذلك ، وتفاوت الذمم لا يمنع القسمة ، فإن التفاوت فى المحل ، والمقسوم واحد متماثل ، وإن اختلفت محاله . وإذا كان الغرماء كلهم موسرين أو معسرين ، أو بعضهم موسراً ، وبعضهم معسراً ، فأخذ كل من الورثة موسراً ومعسراً ، كان هذا عدلاً غير ممتنع وقد تراضوا به فلا وجه لبطلانه ، وبالله التوفيق .

المثال التاسع والأربعون : إذا كان لرجل على رجل دين ، فقال : تصدق به عنى ففعل لم يبرأ ، وكانت الصدقة عن المخرج ودينه باقياً ، قاله أصحابنا لأنه لم يتعين ، ولأنه لا يكون مبرئا لنفسه بفعله .

قالوا : وطريق الصحة أن يقول : تصدق عنى بكذا ، بقدر دينه ، ويكون ذلك إقراضاً منه . فإذا فعل ثبت له فى ذمته ذلك القدر ، وعليه له مثله ، فيتقاصان

وكذلك لو قال له : ضارب بالمال الذى عليك والربح بيننا ، لم يصح .

والحيلة فى صحته: أن يقول: أذنت لك فى دفعه إلى ابنك ، أو زوجتك وديعة ثم وكلتك فى أخذه والمضاربة به .

(172/294)

والظاهر: أنه لا يحتاج إلى شئ من ذلك . ويكفى قبضه من نفسه لرب الناس . وإذا تصدق عنه بالذى قال ، كان عن الآمر . هذا هو الصحيح ، وهو تخريج لبعض أصحابنا ولا حاجة به إلى هذه الحيلة ، فإذا عينه بالنية تعين ، وكان قابضاً من نفسه لموكله ، وأى محذور فى ذلك ؟ .

المثال الخمسون: يجوز استئجار الأجير بطعامه وكسوته عندنا ، وكذلك الدابة بعلفها وكذلك المرضعة ، وهو مذهب مالك ، وقال الشافعى: لا يجوز فيهما ، وجوزه أبو حنيفة فى الظئر خاصة . فإذا عقد الإجارة كذلك ، ثم خاف أن يرفعه إلى حاكم يرى بطلانها ، فيلزمه بأجرة مثله ، فالحيلة فى تصحيح ذلك: أن يستأجر بنقد معلوم ، يكون بقدر الطعام والكسوة ، ثم يشهد عليه أنه وكله فى إنفاق ذلك على نفسه وكسوته ، وكذلك فى الدابة .

المثال الحادى والخمسون: يجوز للمستأجر أن يؤجر ما استأجره المؤجر ، كما يجوز لغيره . وأبو حنيفة يبطل هذه الإجارة .

فالحيلة فى لزومها : أن يؤجر ذلك لأجنبى غير المؤجر ، ثم يؤجره إياها الأجنبى .

المثال الثانى والخمسون: إذا كفل اثنان واحدا ، فسلمه أحدهما برئ الآخر ، كما لو ضمنا دينا ، فقضاه أحدهما ، فإن خاف أن يرفعه إلى حاكم لا يرى ذلك ، ويلزم الآخر بتسليمه . فالحيلة فى خلاصه: أن يكفلا هذا المكفول به ، على أنه إذا دفعه أحدهما فهما جميعاً بريئان ، أو يشهدا عليهما أن كل واحد منهما وكيل صاحبه فى دفع المكفول به إلى الطالب ، والتبرى إليه منه ، فيبرآن على قول الجميع .

المثال الثالث والخمسون: يصح ضمان المجهول ، وضمان ما لم يجب عندنا ، كما يصح ضمان الدرك ، فإذا قال: ما أعطيت لفلان فأنا ضامن له ، صح ولزمه . وقال الشافعى: لا يصح .

(173/294)

فالحلية فى صحته ، لئلا يبطل ذلك حاكم يرى بطلانه: أن يقول: ما أعطيت لفلان من درهم إلى ألف ، فأنا ضامن له . فإن ضمنه اثنان وأطلقا جاز ، واستويا فى الغرم . فإن ضمناه على أن على أحدهما الثلث ، وعلى الآخر الثلثين ، جاز ذلك لأن المال إنما يجب على كل منها بالتزامه ، فإذا التزماه على هذا الوجه صح . فان أراد أحد الضامنين أن

يضمن الآخر ما لزمه من هذا الضمان ، فيصير ضامناً ، جاز ذلك أيضاً ، لأن المال قد ثبت في ذمة كل واحد منهما ، فإذا ضمنه أحدهما جاز كما يجوز في الأصل .

المثال الرابع والخمسون: إذا اشترك رجلان شركة عنان ، فسافر أحدهما بالمال بإذن شريكه ، فخاف أن يموت المقيم ، فيشتري بالمال بعد موته متاعاً ، فيضمن ، لأنه قد انتقل إلى الورثة ، وبطلت الشركة .

فالحيلة في تخلصه من ذلك: أن يشهد على شريكه المقيم أن حصته في المال الذي بينه وبينه لولده الصغار ، وقد أوصى إلى شريكه بالتصرف فيه ، وأمره أن يشتري بها ما أحب في حياته وبعد وفاته ، فإن كان ولده كباراً أشهد على نفسه أن هذا المال لهم ثم يأمر ولده الكبار هذا الشريك أن يعمل لهم في مالهم هذا بما يرى ، ويشتري لهم ما أحب .

المثال الخامس والخمسون: إذا كان لرجلين على امرأة ألف درهم مثلا ، فتزوجها أحدهما على نصيبه في المال عليها صح النكاح ، وبرئت ذمة المرأة من ذلك المقدار ، ولم يلزم الزوج أن يضمن لصاحبه شيئاً منه ، لأنه لم يقبض شيئاً من نصيبه ، ولم يحصل في ضمانه ، فجرى مجرى إبرائها له منه . وبعض الفقهاء يضمنه نصيب شريكه من المهر ، ويجعله كالمقبوض ، لأنه عاوض عليه بالبضع ، فهو كما لو اشترى منها به سلعة ، فإنها تكون بينهما ، وها هنا تعذرت مشاركته في البضع ، فيشاركه في بدله وهو المهر ، فكأنها وفته نصيبه من الدين .

وطريق الحيلة فى تخليصه من ذلك: أن يهب لها نصيبه مما عليها ، ثم يتزوجها بعد ذلك على خمسمائة فى ذمته ، ثم تهب له المرأة ما لها عليه من الصداق ، فإن أحد الشريكين إذا وهب نصيبه من المال المشترك لا يضمن لشريكه شيئاً ، لأنه متبرع . فإن خاف أن يهبها أو يبرئها فتغدر به ، ولا تتزوج به ، فالحيلة له: أن يشهد على إقرارها أنه يستحق عليها ذلك المبلغ ، ما دامت أجنبية منه ، وأنه لا يستحق على زوجته فلانة شيئاً من ذلك المال .

وأكثر ما فيه: أنه يسميها زوجة قبل العقد برئت من الدين . فإن خاف أن لا تبرئه من الصداق ، وتطالبه به ، ويسقط حقه من المال الذى عليها ، فالحيلة له: أن يشهد عليها فى العقد : أنه برئ إليها من الصداق ، وأنها لا تستحق المطالبة به .

المثال السادس والخمسون: إذا أراد أن يشترى جارية ، وعرض له آخر يريد شراءها . فاستحلف أحدهما صاحبه: أنه إن اشتراها فهى بينه وبينه نصفين ، فأراد أن يشتريها وتكون له . تأول فى يمينه: أنه إن اشتراها بنفسه فهى بينه وبينه . فإذا وكل من يشتريها له كانت له وحده .

فإن استحلفه أنه إن ملكها فهو شريكه فيها ، بطلت هذه الحيلة ، فله أن يأمر من يثق به أن يشتريها لنفسه ، ويؤدى هو عنه الثمن . ثم يزوجه إياها . فإذا أراد بيعها استبرأها ، ثم أمر ذلك الرجل أن يبيعها ويرجع ثمنها إليه .

المثال السابع والخمسون: إذا كان بينهما عرض من العروض ، فاشتراه منهما أجنبى بمائه درهم وقبضه . ثم إن المشترى أراد أن يصالح أحدهما من جميع الثمن على بعضه ، على أن يضمن له الدرك من شريكه ، حتى يخلصه منه ، أو يرد عليه جميع الثمن الذى وقع العقد عليه فقال القاضى: لا يجوز ذلك ، لأن الضمان على شريكه إنما يجب بقبضه المال ، وذلك لم يوجد ، فلا يكون مضمونا عليه .

فالحلية للمشترى: أن يكون بريئا . وإن أدركه درك من شريكه رجع به على الذى صالحه أن يحط الشريك المصالح عن المشترى نصيبه كله من الثمن ثم يدفع المشترى إليه نصيب صاحبه ،

(175/294)

فصالحه على أنه ضامن لما أدركه من شريكه ، حتى يخلصه منه ، أو يرد عليه ما قبضه منه ، ويبرئه هو من نصيبه ، لأنه إذا أبرأه من نصيبه لم يبق من الدين إلا نصيب صاحبه ، فإذا قبضه كان مضمونا عليه ، لأنه قبض دين الغير بغير أمره .

المثال الثامن والخمسون: إذا كان عبد بين شريكين موسرين ، فأراد كل منهما عتق نصيبه ، وأن لا يغرم لشريكه شيئاً .

فالحيلة: أن يوكلا رجلاً فيعتقه عنهما ، ويكون ولاؤه بينهما .

المثال التاسع والخمسون: إذا سأله عبده أن يزوجه أمته فحلف أن لا يفعل ، ثم بداله فى تزويجه .

فالحيلة: أن يبيع العبد والأمة لمن يثق به ، ثم يزوجه المشترى ، فإذا تم العقد أقاله فى البيع . ولا بأس هذه الحيلة ، فإنها لا تتضمن إبطال حق ، ولا تحليل محرم . وذلك غير ممتنع على أصلنا ، لأن الصفة ، وهى عقد النكاح قد وجدت فى حال زوال ملكه . فلا يتعلق بها حنث ، ولا يحنث أيضاً باستدامة التزويج بعد ملكهما . لأن التزويج عبارة عن العقد ، وقد انقضى ، وإنما بقى حكمه . ولهذا لو حلف لا يتزوج فاستدام التزويج . لم يحنث ، وهذا بخلاف ما إذا حلف على عبده أنه لا يدخل الدار ، فباعه . ودخلها ثم ملكه . فإن دخلها حنث ، لأنه ابتدأ الدخول واليمين باقية ، ولو دخلها فى حال زوال ملكه وهو داخل فيها حنث ، لأن الدخول الأول عبارة عن الكون وذلك موجود بعد الملك الثانى فيحنث به ، كما لو كان موجودا فى الملك الأول .

وقد قال أحمد فى رواية مهنا ، فى رجل قال لامرأته: أنت طالق إن رهنت كذا وكذا . فإذا هى قد رهنته قبل يمينه ، فقال: أخاف أن يكون حنث .

قال القاضى: وهذا محمول على أنه قال إن كنت رهنته . وهذا تأويل منه لكلام أحمد : فظاهر كلامه أنه جعل استدامة الرهن بمنزلة ابتدائه ، كالدخول .

المثال الستون: إذا كان له عليه مال ، فمرض المستحق وأراد أن يبرئه منه ، وهو يخرج من ثلثه . فخاف أن تكتم الورثة ماله ، ويقولوا : لم يدع إلا الدين الذى على هذا .

(176/294)

فالحلية فى خلاصه: أن يخرج المريض من ماله بقدر الدين الذى على غريمه ، فيملكه إياه ، ثم يستوفيه منه ، ويشهد على ذلك ، وكذلك إذا أراد المريض أن يعتق عبداً ، وله مال يخرج من ثلثه ، ويملكه ماله ، فخاف أن يقول الورثة: لم يخلف الميت شيئاً غير هذا العبد وماله . فالحيلة: أن يبيع المريض العبد من رجل يثق به ، ويقبض الثمن ، فيهبه للمشترى ثم يعتقه المشترى . فإن كان على الميت دين وله وفاء وفضل يخرج العبد من ثلثه فخاف المريض أن يغيب الورثة ماله ، ثم يقولوا : أعتق العبد ولا مال له غيره ، فلا نجيز له ما صنع من ذلك . فالحيلة فيه: أن يبيع العبد من نفسه ، ويقبض الثمن منه بمحضر من الشهود . ثم يهب المريض للعبد ما قبض منه فى السر ، فيأمن حينئذ من اعتراض الورثة ، فإن لم يكن للعبد مال يشترى به نفسه ، وهبه مالا فى السر ، وأقبضه إياه ، فيشترى به العبد نفسه من سيده . فإن لم يرد السيد عتقه ، وأراد بيعه من بعض ورثته بمال على المريض ليست له به بينة .

فالحيلة فى ذلك: أن يقبض وارثه ماله فى السر ، ثم يبيعه العبد ويشهد له على ذلك ، ويقبض الثمن بمحضر من الشهود ، فيتخلص من اعتراض الورثة .

المثال الحادى والستون: إذا أوصى إلى رجل ، فخاف أن لا يقبل ، فقال: إن لم يقبل فلان وصيتى فهى لفلان . صح ذلك بسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الصحيحة الصريحة ، التى لا تجوز مخالفتها حيث علق الإمارة بالشرط . فتعليق الوصية أولى ، لأنه يستفيد بالإمارة أكثر مما يستفيد بالوصية . وبعض الفقهاء يبطل ذلك .

فالحيلة فى ذلك: أن يشهد المريض أنهما جميعاً وصياه ، فإن لم يقبل أحدهما ، وقبل الآخر ، فالذى قبل منهما وصى وحده . فإن قبلا جميعا ، فلكل واحد منهما أن ينفرد بالتصرف عن صاحبه ، لأنه رضى بتصرف كل واحد منهما ، قاله القاضى:

فإن خاف أن يمنع ذلك من لا يرى انفراد أحدهما بالتصرف ، ويقول: قد شرك بينهما وجعلهما بمنزلة وصى واحد .

(177/294)

فالحيلة فى الجواز: أن يقول: أوصيت إليهما على الاجتماع والانفراد .

المثال الثانى والستون: إذا تصرف الوصى وباع واشترى وأنفق على اليتيم . فللحاكم أن

يحاسبه ويسأله عن وجوه ذلك ، ولا يمنعه من محاسبته كونه أمينا ، فإن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حاسب عماله ، كما ثبت فى صحيح البخارى: "أَنَّهُ بَعَثَ ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ عَامِلاً عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ" .

فإن أراد الوصى أن يتخلص من ذلك .

فالحيلة له: أن يجعل غيره هو الذى يتولى بيع التركة ، وقبض الدين والإنفاق ، ولا يشهد على نفسه بوصول شئ من ذلك إليه ، فإذا سأله الحاكم ، قال: لم يصل إلى شئ من التركة ، ولا تصرفت فيها . فإن كانت التركة قد بيعت بأمره وقبض ثمنها بأمره ، وصرف بأمره . فحلفه الحاكم إنه لم يقبض ، ولم يوكل من قبض وتصرف وأنفق . فإن كان محسنا قد وضع التركة موضعها ولم يخن ، وسعه أن يتأول فى يمينه . وإن كان ظالماً لم ينفعه تأويله .

المثال الثالث والستون: يصح وقف الإنسان على نفسه ، على أصح الروايتين ، ويجوز اشتراط النظر لنفسه ، ويجوز أن يستثنى الإنفاق منه على نفسه ما عاش ، أو على أهله . وغيرنا ينازعنا فى ذلك ، فإذا خاف من حاكم يبطل الوقف على هذا الوجه .

فالحيلة له: أن يملكه لولده أو زوجته ، أو أجنبى يقفه عليه ، ويشترط له النظر فيه . وأن يقدم على غيره من الموقوف عليهم بغلّته ، أو بالإنفاق عليه ، فيصح حينئذ ، ولا يبقى للاعتراض عليه سبيل .

المثال الرابع والستون: إذا اشترى جارية وقبضها ، فوجد بها عيبا ولم يكن نقد ثمنها ، فأراد ردها . فصالحه البائع على أن يأخذ البائع الجارية بأقل من الثمن الذى اشتراها به . فقال القاضى: لا يجوز ذلك ، لأن هذا الصلح فى معنى البيع ، وبيع المبيع من بائعه بأقل من ثمنه لا يجوز ، لأنه ذريعة إلى الربا ، وهو كمسألة العينة ، فإن كان قد حدث بالجارية عيب عند المشترى جاز ذلك ، لأن مقدار الحط يكون بإزاء العيب الذى حدث عند المشترى ، فلا يؤدى إلى مسألة العينة .

والحيلة فى جواز ذلك ، فى الصورة الأولى على وجه لا يشبه العينة: أن يخرج الجارية من ملكه ، فيبيعها لرجل بالثمن الذى يأخذها به البائع ، فيصالح الذى فى يده الجارية البائع على أن يقبلها بدون الثمن الذى وقع عليه العقد ، ويجعل هذا الثمن الذى يأخذ به الجارية قضاء عن مشترى الجارية ، لأن المشترى الثانى متى صالح البائع على أن يقبل الجارية بدون الثمن الذى اشتريت به ، فهو عقد جرى بينهما مبتدأ ، من غير بناء أحد العقدين على الآخر ، فإذا اشتراها البائع من هذا الثانى حصل ثمنها فى ذمته له ، وله هو على المشترى الأول ثمنها ، فإذا طالبه البائع بالثمن أحاله على المشترى الأول ، فيتقاصان .

المثال الخامس والستون: الضمان لا تبرأ ذمة المضمون عنه بمجرده ، حيا كان المضمون عنه أو ميتا .

وفيه رواية أخرى: أنه يبرئ ذمة الميت دون الحى ، وهى مذهب أبى حنيفة .

وفيه قول ثالث: أنه يبرئ ذمة الحى والميت ، كالحوالة ، وهو مذهب داود .

فإذا أراد الضامن أن يكون مراجعه مبرئاً لذمة المضمون عنه ،

فالحيلة فى ذلك: أن يقول: لا أضمن دينه إلا بشرط أن تبرئه منه ، فمتى أبرأته منه فأنا ضامن له ، ويصح تعليق الضمان بالشرط فى أقوى الوجهين ، فإذا أبرأه صحت البراءة ، ولزم الدين الضامن وحده . فإن خاف رب الدين أن

يرفعه إلى حاكم لا يرى صحة الضمان المعلق فيبطل دينه من ذمة الأصيل بالإبراء ، ولا يثبت له فى ذمة الضامن .

(179/294)

فالحيلة له: أن يكتب ضمانه ضماناً مطلقاً ، ويشهد عليه به من غير شرط ، بعد إقراره ببراءة الأصيل ، فيحصل مقصودهما .

المثال السادس والستون: الحوالة تنقل الحق من ذمة المحيل إلى ذمة المحال عليه ، فلا يملك مطالبة المحيل بعد ذلك إلا فى صورة واحدة ، وهى: أن يشترط ملاءة المحال عليه فيتبين مفلساً .

وعند أبى حنيفة: إذا قرر المال على المحال عليه [بأن جحده حقه ، إذ قرار المحال على المحال عليه] . فإن جحده حقه وحلف عليه أو مات مفلساً رجع على المحيل .

وعند مالك: إن ظن ملاءته ، فبان مفلساً ، رجع وإن طرأ عليه الفلس لم يكن له الرجوع .

فإذا أراد صاحب الحق التوثق لنفسه ، وأنه إن تقرر ماله على المحال عليه رجع على المحيل .

فالحيلة له فى ذلك: أن يحتال حوالة قبض لا حوالة استيفاء . فيقول للمحيل: أحلنى على غريمك أن أقبض لك ما عليه من الدين ، فيجيبه إلى ذلك . فما قبضه منه كان على ملك المحيل فيأذن له فى استيفائه . فإن خاف المحيل أن يهلك هذا المال فى يد القابض ولا يغرمه لأنه وكيل فى قبضه .

فالحيلة أن يقول له: ما قبضته فهو قرض فى ذمتك ، فيثبت فى ذمته نظير ماله عليه ، فيتقاصان .

فالحوالة ثلاثة أنواع: حوالة قبض محض ، فهى وكالة ، وحوالة استيفاء ، وهى التى تنقل الحق ، وحوالة إقراض .

فالأولى لا تثبت المقبوض فى ذمة المحال ، والثانية تجعل حقه فى ذمة المحال عليه ، والثالثة تثبت المأخوذ فى ذمته بحكم الاقتراض .

المثال السابع والستون: إذا ضمن الدين ضامن فلمستحقه مطالبة أيهما شاء .

وعن مالك روايتان ، إحداهما : كذلك . والثانية: أنه ليس له مطالبة الضامن إلا إذا تعذر مطالبة الأصيل .

فإن أراد الضامن أن يضمن على هذا الوجه فالحيلة أن يقول: إن تعذر مالك قبله فأنا ضامن له . ويصح تعليق الضمان على الشرط على الأصح .

فإن أراد أن يصحح ذلك على كل قول ، ويأمن رفعه إلى من يرى بطلان ذلك .

(180/294)

فالحيلة فيه: أن يقول: ضمنت لك ما يتقرر لك على فلان ، أو يعجز عن أدائه ، فيصح ذلك ، ولا يتمكن من مطالبته إلا إذا تقرر المال على الأصيل ، أو عجز عنه .

المثال الثامن والستون: إذا بذت عليه امرأته ، فقال: الطلاق يلزمني منك لا تقولين لي شيئاً إلا قلت لك مثله ، فقالت: أنت طالق ثلاثاً ، فقال بعضهم: يقول لها : أنت طالق ثلاثاً بفتح التاء ، ولا تطلق ، لأن الخطاب لا يصلح لها ، وهذا ضعيف جداً ، لأن قوله: أنت طالق إما أن يعنيها به ، أو يعني غيرها ، فإن لم يعنها لم يكن قد قال لها مثل ما قالت بل يكون القول لغيرها فلا يبر به وإن عناها به طلقت للمواجهة وفتح لتاء لا يمنع صحة الخطاب ، والمعنى: أنت أيها الشخص ، أو الإنسان .

ثم ما يقول هذا القائل: إذا قالت له: فعل الله بك كذا ، فقال لها : فعل الله بك وفتح الكاف ، هل يكون باراً فى يمينه بذلك ؟ فإن قال: لا يبر لزمه مثله فى الطلاق وإن قال: يبر ، كان قائلا لها مثل ذلك فيكون مطلقاً لها . وأجود من هذا ، أن يكون قوله على التراخى ، ما لم يقيده بالفور ، بلفظه أو نيته .

وقالت طائفة: يقول لها : أنت طالق ثلاثاً ، إن لم أفعل كذا وكذا ، أو إن فعلت لما لا تقدر هى عليه ، فيكون قد قال لها مثل ما قالت ، وزاد عليه ، وفى هذا ضعف لا يخفى ، لأن هذه الزيادة تنقص الكلام ، فهى زيادة فى اللفظ ونقصان فى المعنى ، فإنه إذا علق الطلاق بشرط خرج من التنجيز إلى التعليق ، وصار كله كلاماً واحدا ، وهى لم تعلق كلامها ، وإنما نجزته . فالمماثلة تقتضى تنجيزا مثله .

وأجود من هذا كله أن يقال: لا يدخل هذا الكلام الذى صدر منها فى يمينه ، لأنه لم يرده قطعاً ، ولا خطر بباله ، فيمينه لم يتناوله ، فهو غير محلوف عليه بلا شك ، واللفظ العام يختص بالنية والعرف ، والعرف فى مثل هذا لا يدخل فيه قولها له ذلك ، والأيمان يرجع فيها إلى العرف والنية والسبب ، وهذا مطرد ظاهر

على أصول مالك وأحمد ، فى اعتبارهم

عرف الحالف ونيته وسبب يمينه ، والله أعلم .

(181/294)

المثال التاسع والستون: يجوز أن يستأجر الشاة والبقرة ونحوهما مدة معلومة للبنها . ويجوز أن يستأجرها لذلك بعلفها وبدراهم مسماة ، والعلف عليه ، هذا مذهب مالك ، وخالفه الباقون .

وقوله هو الصحيح ، واختاره شيخنا . لأن الحاجة تدعو إليه ، ولأنه كاستئجار الظئر للبنها مدة ، ولأن اللبن وإن كان عينا فهو كالمنافع فى استخلافه وحدوثه شيئاً بعد شئ ولأن إجارة الأرض لما نبت فيها من الكلأ والشوك جائزة ، وهو عين ، ولأن اللبن حصل بعلفه وخدمته ، فهو كحصول المغل ببذره وخدمته ، ولا فرق بينهما ، فإن تولد اللبن من العلف كتولد المغل من البذر ، فهذا من أصح القياس .

وأيضاً فإنه يجوز أن يقفها ، فينتفع الموقوف عليها بلبنها ، وحق الواقف إنما هو فى منفعة الموقوف مع بقاء عينه .

وأيضاً فإنه يجوز أن يمنحها غيره مدة معلومة لأجل لبنها . وهى باقية على ملك المانح . فتجرى منحتها مجرى إعارتها ، والعارية إباحة المنافع ، فإذا كان اللبن يجرى مجرى المنفعة فى الوقف والعارية ، جرى مجراها فى الإجارة .

وأيضاً فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الطلاق: 6] .

فسمى ما تأخذه المرضعة فى مقابلة اللبن أجرا ، ولم يسمه ثمنا .

وأيضاً فيجوز أن يستأجر بئرا مدة معلومة لمائها ، والماء لم يحصل بعمله ، فلأن يجوز استئجار الشاة للبنها الحاصل بعلفه والقيام عليها أولى .

وأيضاً : فإنه يجوز أن يستأجر بركة يعشش فيها السمك لأجله ، فهذا أولى بالجواز ، لأنه معلوم بالعرف . وهو حاصل بعلفه والقيام على الحيوان .

وقياس المنع على تحريم بيع اللبن فى الضرع قياس فإن ذاك بيع مجهول لا يعرف قدره ، وما يتحصل منه ، وهو بيع معدوم ، فلا يجوز . والإجارة أوسع من البيع ولهذا يجوز على المنافع المعدومة المستخلفة شيئاً بعد شئ ، فاللبن فى ذلك كالمنفعة سواء وإن كان عينا ، فهذا القول هو الصحيح .

فإن خاف أن يرفعه إلى حاكم يبطل هذا العقد .

(182/294)

فالحيلة فى لزومه: أن يؤجره الحيوان مدة بدراهم مسماة ، ثم يأذن له فى علفه بها ، ويبيحه اللبن .

وهذه الحيلة تتأتى فى إجارة البقرة ، والناقة ، والجاموس ، إذ يمكن الحرث عليها وركوبها ،

وأما الشاة فلا يراد منها إلا الدر والنسل ، فلا تتهيأ الإجارة على منفعتها ، فالطريق فى ذلك: أن يستأجرها لرضاع سخلة له مدة معلومة ، ويوكله فى النفقة عليها بأجرتها ، أو ببعضها ويبيحه اللبن .

المثال السبعون: إذا دفع إليه ثوبه وقال: بعه بعشرة ، فما زاد فلك . فنص أحمد على صحته ، تبعاً لعبد الله بن عباس ، ووافقه إسحاق ، ومنعه أكثرهم .

ووجه الخلاف . أن فى هذا العقد شائبة الوكالة والإجارة والمضاربة ، فمن رجح جانب الوكالة صحح العقد ، ومن رجح جانب الإجارة أو المضاربة أبطله ، لأن الأجرة والربح الذى جعل له مجهول .

والصحيح: الجواز لأن العشرة تجرى مجرى رأس المال فى المضاربة ، وما زاد فهو كالربح ، فإذا جعله كله له ، كان بمنزلة الإبضاع ، إذا دفع إليه مالاً يضارب به ، وقال: ما ربحت فهو لك ، فليس العقد من باب الإجارات ، بل هو بالمشاركات أشبه . فإن خاف أن يرفعه إلى حاكم يرى بطلانه .

فالحيلة فى ذلك: أن يقول: وكلتك فى بيعه بعشرة ، فإن بعته بأكثر فلا حق لى فى الزيادة ، فيصح هذا . وتكون الزيادة للوكيل .

المثال الحادى والسبعون: قال الإمام أحمد ، فى رواية مهنا : "لا بأس أن يحصد الزرع ويصرم النخل بسدس ما يخرج منه ، وهو أحب إلى من المقاطعة" يعنى أن يقاطعه على كيل معين ،

أو دراهم أو عروض .

وكذلك نص فى رواية الأثرم وغيره ، فى رجل دفع دابته إلى آخر ليعمل عليها ، وما رزق الله بينهما نصفين: "أن ذلك جائز" .

وقال أحمد أيضاً : "لا بأس بالثوب يدفع بالثلث والربع" ، لحديث جابر : "أَنَّ النَّبَّى صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أَعْطَى خَيْبَرَ عَلَى الشّطْرِ" .

ونقل عنه أبو داود فيمن يعطى فرسه على النصف من الغنيمة: "أرجو أن لا يكون به بأس" .

(183/294)

وقال فى رواية إسحاق بن إبراهيم: "إذا كان على النصف والربع فهو جائز" .

ونقل عنه أحمد بن سعيد فيمن دفع عبده إلى رجل ليكتسب عليه ويكون له ثلث الكسب أو ربعه: "أنه جائز" .

ونقل عنه حرب فيمن دفع ثوبا إلى خياط ليفصله قمصانا يبيعها ، وله نصف ربحها بحق عمله فهو جائز . ونص فى رجل دفع غزله إلى رجل ينسجه ثوبا بثلث ثمنه أو ربعه: أنه جائز .

وقال فى "المغنى": وعلى قياس قول أحمد: يجوز أن يعطى الطحان أقفزة معلومة يطحنها بقفيز دقيق منها.

وحكى عن ابن عقيل المنع منه. واحتج بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

"نَهَى عَنْ قَفِيزِ الطَّحَّانِ".

قال الشيخ: وهذا الحديث لا نعرفه ولا ثبت عندنا صحته. وقياس قول أحمد: جوازه لما ذكرنا عنه من المسائل.

وكذلك لو دفع شبكته إلى صياد ليصيد بها، والسمك بينهما نصفين. قال فى "المغنى": فقياس قول أحمد صحة ذلك، والسمك بينهما شركة. وقال ابن عقيل: السمك للصائد، ولصاحب الشبكة أجرة مثلها.

ولو كان له على رجل مال، فقال لرجل: اقبضه منه، ولك ربعه، أو ثلثه، أو ما اقتضيته منه فلك منه الربع أو الثلث، فهو جائز

وكذلك لو غصبت منه عين، فقال لرجل: خلصها لى، ولك نصفها، جاز أيضاً.

ولو غرق متاعه فى البحر، فقال لرجل: ما خلصته منه، فلك نصفه، أو ربعه، جاز.

ولو أبق عبده، فقال لرجل، أو قال: من رده على فله فيه نصفه، أو ربعه، أو شردت دابته فقال ذلك، صح ذلك كله.

قلت: وكذلك يجوز أن يقول له: انقض لى هذا الزيتون بالسدس، أو الربع. أو اعصره

بالثلث ، أو الربع ، أو اكسر هذا الحطب بالربع ، أو اخبز هذا العجين بالربع ، وما أشبه ذلك . فكل هذا جائز على نصوصه وأصوله ، وهو أحب من المقاطعة فى بعض الصور . ولم يجوز الشافعى وأبو حنيفة شيئاً من ذلك .

وأما مالك فقال أصحابه عنه: إذا قال: احصد زرعى ولك نصفه ، فذلك جائز ، وإن قال: احصد اليوم ، فما حصدت فلك نصفه ، لم يجز عند ابن القاسم وفى العينية أنه يجوز .

(184/294)

فإن قال: القط زيتونى فما لقطت فلك نصفه ، فهو جائز عند ابن القاسم ، وروى سحنون أنه لا يجوز . ولو قال: انقض زيتونى ، فما نقضت فلك نصفه ، لم يجز عند ابن القاسم وأجازه عبد الملك بن حبيب .

فإن قال: اقبض لى المائة دينار التى على فلان ، ولك عشرها ، جاز عند ابن القاسم وابن وهب . وعند أشهب لا يجوز .

فلو قال: اقبض دينى الذى على فلان ، ولك من كل عشرة واحد ، ولم يبين قدر الدين ، لم يجز عند ابن وهب . وأجازه ابن القاسم وأصبغ .

والذين منعوا الجواز فى ذلك جعلوه إجارة ، والأجر فيها مجهول ، والصحيح: أن هذا ليس من باب الإجارات ، بل من باب المشاركات ، وقد نص أحمد على ذلك .

فاحتج على جواز دفع الثوب بالثلث والربع بحديث خيبر . وقد دلت السنة على جواز ذلك ، كما فى المسند والسنن عن رويفع بن ثابت ، قال: "أَنْ كانَ أَحَدُنَا فى زَمَنِ رَسُولِ الله

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لَيَأْخُذُ نِضْوَ أَخِيهِ عَلَى أَنّ لَهُ النّصْفَ مِمَّا يَغْنَمُ وَلَنَا النّصفُ ، وَإِنْ كانَ أَحَدُنَا لَيَطيرُ لَهُ النَّصْلُ وَالرِّيشُ وللآخَرِ القِدْحُ" .

وأصل هذا كله: أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم دفع أرض خيبر إلى اليهود يعملونها بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع . وأجمع المسلمون على جواز المضاربة . وأنها دفع ماله لمن يعمل عليه بجزء من ربحه . فكل عين تنمى فائدتها من العمل عليها جاز لصاحبها دفعها لمن يعمل بجزء من ربحها .

فهذا محض القياس ، وموجب الأدلة . وليس مع المانعين حجة ، سوى ظنهم أن هذا من باب الإجارات بعوض مجهول . وبهذا أبطلوا المساقاة والمزارعة .

واستثنى قوم بعض صورها ، وقالوا: المضاربة على خلاف القياس ، لظنهم أنها إجارة بعوض عنده لم يعلم قدره .

وأحمد رحمه الله عنده هذا الباب كله أطيب وأحل من المؤاجرة ، لأنه فى الإجارة يحصل

على سلامة العوض قطعاً ، والمستأجر متردد بين سلامة العوض وهلاكه فهو على خطر .

وقاعدة العدل فى المعاوضات: أن يستوى المتعاقدان فى الرجاء والخوف . وهذا حاصل فى المزارعة ، والمساقاة ، والمضاربة ، وسائر هذه الصور الملحقة بذلك ، فإن المنفعة إن سلمت سلمت لهما ، وإن تلفت عليهما ، وهذا من أحسن العدل .

واحتج المتأخرون من المانعين بحديث أبى سعيد الذى رواه الدارقطنى:

"نُهِى عَنْ قَفِيزَ الطَّحَّانِ" وهذا الحديث لا يصح . وسمعت شيخ الإسلام يقول: هو موضوع .

وحمله بعض أصحابنا على أن المنهى عنه طحن الصبرة لا يعلم كيلها بقفيز منها ، لأن ماعداه مجهول ، فهو كبيعها إلا قفيزا منها ، فأما إذا كانت معلومة القفزان ، فقال: اطحن هذه العشرة بقفيز منها ، صح حبا ودقيقاً . أما إذا كان حبا فقد استأجره على طحن تسعة أقفزة بقفيز حنطة . وأما إذا كان دقيقاً شاركه فى ذلك على أن العشر للعامل وتسعة الأعشار للآخر ، فيصير شريكه بالجزء المسمى .

فإن قيل: فالشركة عندكم لا تصح بالعروض ؟

قيل: بل أصح الروايتين صحتها ، وإن قلنا بالرواية الأخرى ، فإلحاق هذه بالمساقاة والمزارعة أولى بها من إلحاقها بالمضاربة على العروض ، لأن المضاربة بالعروض تتضمن التجارة والتصرف فى رقبة المال بإبداله بغيره ، بخلاف هذا .

فإن قيل: دفع حبه إلى من يطحنه بجزء منه مطحونا ، أو غزله إلى من ينسجه بجزء منه منسوجاً يتضمن محذورين .

أحدهما : أن يكون طحن قدر الأجرة ونسجه مستحقاً على العامل بحكم الإجارة ، ومستحقاً له بحكم كونه أجرة ، وذلك متناقض . فإن كونه مستحقاً عليه يقتضى مطالبة المستأجر به ، وكونه مستحقاً له يقتضى مطالبة المؤجر به .

الثانى: أن يكون بعض المعقود عليه هو العوض نفسه ، وذلك ممتنع .

قيل: إنما نشأ هذا من ظن كونه إجارة ، وقد بينا أنه مشاركة لا إجارة ، ولو سلم أنه

من باب المؤاجرة فلا تناقض فى ذلك ، فإن جهة الاستحقاق مختلفة ، فإنه مستحق له بغير الجهة التى يستحق بها عليه ، فأى محذور فى ذلك ؟

وأما كون بعض المعقود عليه يكون عوضاً ، فهو إنما عقد على عمله فالمعقود عليه العمل

والنفع بجزء من العين ، وهذا أمر متصور شرعاً وحساً .

فظهر أن صحة هذا الباب هى مقتضى النص والقياس ، وبالله التوفيق .

وعلى هذا فلا يحتاج إلى حيلة لتصحيح ذلك ، إلا إذا خيف غدر أحدهما ، وإبطاله للعقد ، والرجوع إلى أجرة المثل .

فالحيلة فى التخلص من ذلك: أن يدفع إليه ربع الغزل والحب ، أو نصفه . ويقول: انسج لى باقيه بهذا القدر ، فيصيران شريكين فى الغزل والحب ، فإذا تشاركا فيه بعد ذلك صح ، وكان بينهما على قدر ما شرطاه .

والعجب أن المانعين جوزوا ذلك على هذا الوجه ، وجعلوه مشاركة لا مؤاجرة ، فهلا أجازوه من أصله كذلك ؟ وهل الاعتبار فى العقود إلا بمقاصدها وحقائقها [ومعانيها] ، دون صورها وألفاظها ؟ وبالله التوفيق .

المثال الثانى والسبعون: إذا كان لرجل على رجل دين فتوارى عن غريمه ، وله هو دين على آخر . فأراد الغريم أن يقبض دينه من الدين الذى له على ذلك ، لم يكن له ذلك إلا بحوالة أو وكالة ، وقد توارى عنه غريمه ، فيتعذر عليه الحوالة والوكالة .

فالحيلة له فى اقتضاء دينه من ذلك: أن يوكله ، فيقول: وكلتك فى اقتضاء دينى الذى على فلان ، وبالخصومة فيه ، ووكلتك أن تجعل ماله عليك قصاصاً مما لى عليه ، وأجزت أمرك فى ذلك . فيقبل الوكيل ، ويشهد عليه شهودا ، ثم يشهد الوكيل أولئك الشهود ، أو غيرهم

أن فلاناً وكلنى بقبض ماله على فلان ، وأن أجعله قصاصاً بما لفلان على ، وأجاز أمرى فى ذلك ، وقد قبلت من فلان ما جعل إلى من ذلك ، واشهدوا أنى قد جعلت الألف درهم التى لفلان على قصاصاً بالألف التى لفلان موكلى عليه ، فتصير الألف قصاصاً ، ويتحول ما كان للرجل المتوارى على هذا الوكيل للرجل الذى وكله .

المثال الثالث والسبعون: إذا كان لرجل على

(187/294)

رجل مال فغاب الذى عليه المال . وأراد

الرجل أن يثبت ماله عليه ، حتى يحكم الحاكم عليه وهو غائب ، جاز للحاكم أن يحكم عليه فى حال غيبته مع بقائه على حجته فى أصح المذهبين . وهو قول أحمد فى الصحيح عنه ، ومالك ، والشافعى . وعند أبى حنيفة لا يجوز الحكم على الغائب . فإذا لم يكن فى الناحية إلا حاكم يرى هذا القول ويخشى صاحب الحق من ضياع حقه .

فالحيلة له: أن يجئ برجل ، فيضمن لهذا الرجل الذى له المال جميع ماله على الرجل الغائب ، ويسميه وينسبه ، ويشهد على ذلك ، ثم يقدمه إلى القاضى ، فيقر الضامن بالضمان ، ويقول: قد ضمنت له ماله على فلان بن فلان ، ولا أدرى كم له عليه . ولا أدرى: له عليه

مال ، أم لا ؟ فإن القاضى يكلف المضمون له أن يحضر بينته على ذلك بماله على فلان فإذا أحضر البينة قبلها القاضى بمحضر من هذا الضمين ، وحكم على الغائب ، وعلى هذا الضامن بالمال بموجب ضمانه ، ويجعل القاضى هذا الضمين بالمال خصماً على الغائب ، لأنه قد ضمن ما عليه . ولا يجوز الحكم على هذا الضمين حتى يحكم على المضمون عنه . ثم يحكم بذلك على الضمين لأنه فرعه ، فما لم يثبت المال على الأصل لا يثبت على الفرع .

المثال الرابع والسبعون: إذا غصبه متاعاً له ، ويقر له فى السر بعينه . ويجحده فى العلانية ، ويريد تخليص ماله منه .

فالحيلة له: أن يبيعه ممن يثق به ، ويشهد له على ذلك ببينة عادلة . ثم يبيعه بعد ذلك من الغاصب . ويكون بين البيعين من المدة ما يعرفه الشهود ليوقنوا بذلك عند الأداء ، فإذا أشهد الغاصب بالبيع فى الوقت المعين جاء الذى باع منه المغصوب قبله ببينته فيحكم له لسبق بينته فيرجع الغاصب على المغصوب منه بالثمن الذى دفعه إليه فيُسلَّم العين للمغصوب منه . وكذلك لو أقربها المغصوب منه لرجل يثق به ، ثم باعها بعد ذلك للغاصب ، ثم جاء المقر له فأقام بينة على الإقرار السابق .

فإن قيل: فلو خاف الغاصب من هذه الحيلة ، وقال للمغصوب منه: لست أبتاع منك

هذه السلعة ، خشية هذا الصنيع ، ولكن آمر من يبتاعها منك لى ، فأراد المغصوب منه حيلة ترجع إليه بها سلعته .

فالحيلة: أن يبيعها أولا ممن يثق به ، ولا يكتب فى كتاب هذا الشراء الثانى قبض المشترى ، فإنه إذا أقر وكيل الغاصب بقبض العين من المغصوب منه ، ثم جاء الرجل الذى كتب له المغصوب منه الشراء ، كان أولى بها من وكيل الغاصب لأن وقت شرائه أقدم ، وإقراره بقبضها وتسليمها إلى الرجل المشترى لها أولا أولى ، ويرجع وكيل الغاصب على المغصوب منه بالثمن الذى دفعه إليه .

المثال الخامس والسبعون: إذا أقرضه مالاً وأجله . لزم تأجيله على أصح المذهبين ، وهو مذهب مالك ، وقول فى مذهب أحمد . والمنصوص عنه: أنه لا يتأجل ، كما هو قول الشافعى ، وأبى حنيفة ، ويدل على التأجيل قوله تعالى: ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: 1] وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: 2- 3] وقوله ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ [الإسراء: 34] .

وقوله صَلى اللهُ تعالى عَلَيه وسلم: "المُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ" وقوله: "آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ" وقوله: "يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لواء عِنْدَ اسْتِهِ يَوْمَ القيامة بِقَدْرِ غُدْرَتِهِ" وقوله: "لا تَغْدِرُوا" وقوله: "إِنَّ الْغَدْرَ لا يصْلُحُ" . وقوله

فى صفة المنافق: "إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ" .

وإخلاف الوعد مما فطر الله العباد على ذمه واستقباحه ، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح ، وعلى هذا فلا حاجة إلى التحيل على لزوم التأجيل .

وعلى القول الأخر: قد يحتاج إلى حيلة يلزم بها التأجيل .

فالحيلة فيه: أن يحيل المستقرض صاحب المال بماله إلى سنة أو نحوها ، بقدر مدة التأجيل ، فيكون المال على المحتال عليه إلى ذلك الأجل ولا يكون

(189/294)

للطالب ، ولا لورثته على المستقرض سبيل ، ولا على المحال عليه إلى الأجل . فإن الحوالة تنقل الحق .

ولو أحال المحال عليه صاحب المال على رجل آخر إلى ذلك الأجل جازت الحوالة ، فإن مات المحال عليه الأول ، لم يكن لصاحب المال على تركته سبيل ، ولا على المحال عليه الثانى .

المثال السادس والسبعون: إذا رهنه دارا أو سلعة على دين ، وليس عنده من يشهد على قدر الدين ويكتبه .

فالقول قول المرتهن فى قدره ، ما لم يَدَّعِ أكثر من قيمته هذا قول مالك: وقال الشافعى ، وأبو حنيفة ، وأحمد : القول قول الراهن ، وقول مالك هو الراجح . وهو اختيار شيخنا ، لأن الله سبحانه جعل الرهن بدلا من الكتاب يشهد بقدر الحق ، والشهود التى تشهد به ، وقائما مقامه . فلو لم يقبل قول المرتهن فى ذلك بطلت الوثيقة من الرهن ، وادعى المرتهن أنه رهن على أقل شئ ، فلم يكن فى الرهن فائدة . والله سبحانه وتعالى قد قال فى آية المداينة [البقرة: 282] التى أرشد بها عباده إلى حفظ حقوق بعضهم على بعض خشية ضياعها بالجحود ، أو النسيان ، فأرشدهم إلى حفظها بالكتاب وأكد ذلك بأن أمرهم بكتابة الدين ، وأمر الكاتب أن يكتب ، ثم أكد ذلك بأن نهاه أن يأبى أن يكتب . ثم أعاد الأمر بأن يكتب مرة أخرى ، وأمر من عليه الحق أن يملل ، ويتقى ربه فلا يبخس من الحق شيئاً . فإن تعذر إملاؤه لسفهه أو صغره أو جنونه ، أو عدم استطاعته ، فوليه مأمور بالإملاء عنه . فأرشدهم إلى حفظها باستشهاد شهيدين من الرجال أو رجل وامرأتين . فأمرهم بالحفظ بالنصاب التام الذى لا يحتاج صاحب الحق معه إلى يمين ، ونهى الشهود أن يأبوا إذا دعوا إلى إقامة الشهادة . ثم أكد ذلك عليهم بنهيهم أن يمتنعوا من كتابة الحقير والجليل من الحقوق ،

سآمة وملالا . وأخبر أن ذلك أعدل عنده ، وأقوم للشهادة . فيتذكرها الشاهد إذا عاين خطه فيقيمها . وفى ذلك تنبيه على أن له أن يقيمها إذا رأى خطه وتيقنه . وإلا لم يكن بالتعليل بقوله ﴿ وأقوم للشهادة ﴾ [البقرة: 282] فائدة .

وأخبر أن ذلك أقرب إلى اليقين ، وعدم الريب . ثم رفع عنهم الجناح بترك الكتابة

(191/294)

إذا كان بيعاً حاضراً فيه التقابض من الجانبين ، يأمن به كل واحد من المتبايعين من جحود الآخر ونسيانه . ثم أمرهم مع ذلك بالإشهاد إذا تبايعوا ، خشية الجحود وغدر كل واحد منهما بصاحبه فإذا أشهدا على التبايع أمنا ذلك . ثم نهى الكاتب والشهيد عن أن يضارا ، إما بأن يمتنعا من الكتابة والشهادة تحملاً وأداء ، أو أن يطلبا على ذلك جعلا يضر بصاحب الحق ، أو بكتم الشاهد بعض الشهادة ، أو يؤخر الكتابة والشهادة تأخيراً يضر بصاحب الحق ، أو يمطلاه ، ونحو ذلك ، أو هو نهى لصاحب الحق أن يضار الكاتب والشهيد ، بأن يشغلهما عن ضرورتهما وحوائجهما ، أو يكلفهما من ذلك ما يشق عليهما . ثم أخبر أن ذلك فسوق بفاعله . فهذا كله عند القدرة على الكتاب والشهود . ثم ذكر ما تحفظ به الحقوق عند عدم القدرة على الكتاب والشهود ، وهو السفر فى الغالب ،

فقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة: 283].

فدل ذلك دلالة بينة أن الرهان قائمة مقام الكتاب والشهود ، شاهدة مخبرة بالحق ، كما يخبر به الكتاب والشهود . وهذا ، والله أعلم ، سر تقييد الرهن بالسفر ، لأنه حال يتعذر فيها الكتاب الذى ينطق بالحق غالباً ، فقام الرهن مقامه ، وناب منابه ، وأكد ذلك بكونه مقبوضاً للمرتهن حتى لا يتمكن الراهن من جحده . فلا أحسن من هذه النصيحة ، وهذا الإرشاد والتعليم ، الذى لو أخذ به الناس لم يضع فى الأكثر حق أحد ، ولم يتمكن المبطل من الجحود والنسيان . فهذا حكمه سبحانه المتضمن لمصالح العباد فى معاشهم ومعادهم . والمقصود : أنه لو لم يقبل قول المرتهن على الراهن فى قدر الدين لم يكن وثيقة ولا

(192/294)

حافظاً لدينه ، ولا بد لا من الكتاب الشهود ، فإن الراهن يتمكن من أخذه منه ، ويقول: إنما رهنته منه على ثمن درهم ونحوه ، ومن يجعل القول قول الراهن ، فإنه يصدقه على ذلك ويقبل قوله فى رهن الربع والضيعة على هذا القدر . فالذى نعتقده وندين الله به: هو قول أهل المدينة . فإذا أراد الرجل حفظ حقه ، وخاف أن يقع التحاكم عند حاكم لا يرى هذا

المذهب .

فالحيلة فى قبول قوله: أن يسترهنه المرتهن على قيمته ، ويدفع إليه ما اتفقا عليه ، ويشهد الراهن أن الباقى من قيمته أمانة عنده ، أو قرض فى ذمته يطالبه به متى شاء ، فيتمكن كل واحد منهما من أخذ حقه ، ويأمن ظلم الآخر له ، والله أعلم .

المثال السابع والسبعون: إذا كان لرجل على رجل ألف درهم ، وفى يده رهن بالألف ، فطالب صاحب الدين الغريم بالألف ، وقدمه إلى الحاكم ، وقال: لى على هذا ألف درهم ، وخاف أن يقول: وله عندى رهن بالألف وهو كذا وكذا . فيقول الغريم: ماله على هذه الألف التى يدعيها ، ولا شئ منها ، وهذا الذى ادعى أنه لى رهن فى يده هو لى ، كما قال ، ولكنه ليس برهن ، بل وديعة ، أو عارية ، فيأخذه منه ويبطل حقه .

فالحيلة فى أمنه من ذلك: أن يدعى بالألف ، فيسأل الحاكم المطلوب عن المال ، فإما أن يقر به ، وإما أن ينكره ، فإن أقر به وادعى أن له رهنا لزمه المال ودفع الرهن إلى صاحبه ، أو بيع فى وفائه . وإن أنكره وقال: ليس له على شئ ، ولى عنده تلك العين: إما الدار وإما الدابة . فليقل صاحب الحق للقاضى: سله عن هذا الذى يدعى على: على أى وجه هو عندى ؟ أعارية ، أم غصب أم وديعة ، أم رهن ؟ فإن ادعى أنه فى يده على غير وجه الرهن حلف على إبطال دعواه ، وكان صادقاً ، وإن ادعى أنه فى يده على وجه الرهن ، قال للقاضى: سله: على كم هو رهن ؟ فإن أقر بقدر الحق أقر له بالعين ، وطالب بحقه .

وإن جحد بعضه حلف على نفى ما ادعاه ، وكان صادقاً .

المثال الثامن والسبعون: إذا باعه سلعة ولم يقبضه إياها ، أو أجره دارا ولم يتسلمها ،

(193/294)

أو زوّجه ابنته ولم يسلِّمها إليه . ثم ادعى عليه بالثمن ، أو الأجرة ، أو المهر ، فخاف إن أنكر أن يستحلفه ، أو يقيم عليه البينة بجريان هذه العقود ، وإن أقر لزمه ما ادعى عليه به . فالحيلة فى تخلصه: أن يقول فى الجواب: إن ادعيت هذا المبلغ من ثمن مبيع لم أقبضه ، أو إجارة دار لم تسلمها إلى ، أو نكاح امرأة لم تسلمها إلى ، أو كانت المرأة هى التى ادَّعت فقال: إن ادعيت هذا المبلغ من مهر أو كسوة أو نفقة من نكاح لم تسلمى إلى نفسك فيه ، ولم تمكنينى من استيفاء المعقود عليه فأنا مقر به . وإن كان غير ذلك فلا أقر به . وهذا جواب صحيح يتخلص به .

فإن قيل: فهذا تعليق للإقرار بالشرط ، والإقرار لا يصح تعليقه ، كما لو قال: إن شاء الله ، أو إن شاء زيد ، فله على ألف .

قيل: بل يصح تعليق الإقرار بالشرط فى الجملة ، كقوله: إذا جاء رأس الشهر فله على ألف ، فهذا إقرار صحيح ، ولا يلزمه قبل مجيء الشهر ، وكذا لو قال: إن شهد فلان على بما

ادعاه صدقته ، صح التعليق . فإذا شهد به عليه فلان كان مقراً به ، ولا فرق بين تقديم الشرط وتأخيره ، كما فى تعليق الطلاق والعتاق والخلع .

وفيه وجه آخر : أنه إن أخر الشرط لم ينفعه ، وكان إقراراً ناجزاً . وهذا ضعيف جداً ، فإن الكلام بآخره ، ولو بطل الشرط الملحق به لبطل الاستثناء والبدل والصفة ، فإن ذلك يغير الكلام ، ويخرجه من العموم إلى الخصوص . والشرط يخرجه من الإطلاق إلى التقييد ، فهو أولى بالصحة .

وقد جاء تأخير الشرط فى القرآن فيما هو أبلغ من الإقرار . كقوله تعالى ، حاكيا عن نبيه شعيب أنه قال لقومه: ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ ﴾ [الأعراف: 89] .

وقد وافق صاحب هذا الوجه على أنه إذا قال: له على ألف درهم إذا جاء رأس الشهر: أنه يصح ، وجها واحداً . وهذا يبطل تعليله بأن إلحاق الشرط بعد الخبر كالرجوع عن الإقرار . وعلى هذا فلو قال: له على ألف مؤجلة ، صح الإقرار ولزمه الألف مؤجلاً .

(194/294)

وقيل: القول قول خصمه فى حلوله ، وشبهة هذا : أنه مقر بالدين مدع لحلوله وهذا ظاهر البطلان ، فإنه إنما أقر به على هذه الصفة فلا يجوز إلزامه به مطلقاً ، كما لو وصفها بنقد غير

النقد الغالب ، أو استثنى منها شيئاً .

وكذلك لو قال: له على ألف من ثمن مبيع لم أقبضه ، أو أجرة عن دار لم أتسلمها ، أو قال: هلك قبل التمكن من قبضه ، على أصح الوجهين ، لأنه إنما أقر به على هذه الصفة ، فلا يجوز إلزامه به مطلقاً .

وكذا لو قال: كان له على ألف فقضيته ، لم يلزمه ، لأنه إنما أقر به فى الماضى ، لا فى الآن ، هذا منصوص أحمد ، وليس الكلام بمتناقض فى نفسه ، فيكون بمنزلة قوله: له على ألف لا تلزمنى . والفرق بين الكلامين أظهر من أن يحتاج إلى بيان .

وعن أحمد رواية أخرى: أنه مقر بالحق مدع لقضائه ، فلا يقبل منه إلا ببينة . وهذا قول الأئمة الثلاثة .

وعنه رواية ثالثة: أن هذا ليس بجواب صحيح ، فيطالب برد الجواب .

وعلى هذا ، فإذا قال: له على ألف قضيته إياه . ففيه ثلاث روايات منصوصات .

إحداهن: أنه غير مقر ، كما لو قال: كان له على .

والثانية: أنه مقر مدع للقضاء ، فلا يقبل منه إلا ببينة .

والثالثة: أنه لا يسمع منه دعوى القضاء ، ولو أقام به بينة . بل يكون مكذبا لها ، وعلى هذا إذا قال: كان له على ، ولم يزد على هذا فهو مقر .

وخرج أنه غير مقر من نصه ، على أنه إذا قال: كان له على وقضيته: أنه غير مقر ، وهو تخريج فى غاية الصحة ، فإن أحمد لم يجعله غير مقر من قوله: وقضيته . فإن هذا دعوى منه للقضاء ، وإنما جعله كذلك من جهة أنه أخبر عن الماضى ، لا عن الحال ، فلا يلزم بكونه فى ذمته فى الحال ، وهو لم يقر به .

والمقصود : أن المدعى عليه إذا كان مظلوماً ، فالحيلة فى تخلصه ، أن يقول: إن ادعيت كذا من جهة كذا وكذا ، فأنا غير مقر به ، وإن ادعيته من جهة كذا وكذا فأنا مقر به ، كان جواباً صحيحاً ، ولم يكن مقراً على الإطلاق .

(195/294)

المثال التاسع والسبعون: قال أصحابنا : لا يملك البائع حبس المبيع على قبض ثمنه ، بل يجبر على تسليمه إلى المشترى ، ثم إن كان الثمن معينا فتشاحنا فى المبتدئ بالتسليم ، جعل بينهما عدل يقبض منهما ، ويسلم إليهما . وإن كان ديناً أجبر البائع على التسليم ، ثم يجبر المشترى على دفع الثمن . فإن كان ماله غائبا عن المجلس حجر عليه فى ماله كله حتى

يسلم الثمن . وإن كان غائباً عن البلد فوق مسافة القصر ، ثبت للبائع الفسخ . وإن كان دونها ، فهل يحجر عليه ، أو يثبت للبائع الفسخ ؟ على وجهين . وإن كان المشترى معسراً ، فللبائع الفسخ والرجوع فى عين ماله . هذا منصوص أحمد ، والشافعى .

وللشافعية وجه: أنه تباع السلعة ، ويقضى دينه من ثمنها . فإن فضل له فضل أخذه وإن فضل عليه شئ استقر فى ذمته .

والصحيح: أن البائع يملك حبس السلعة على الثمن ، حتى يقبضه ، هذا هو موجب العدل ، وإلا ففى تمكين المشترى من القبض قبل الإقباض إضرار بالبائع ، فإنه قد يتلف المبيع بأن يكون طعاماً أو شراباً فيستهلكه ، ويتعذر أو يتعسر عليه مطالبته بالثمن فيضر به ولا يزول ضرره إلا بحبس المبيع على ثمنه .

وعلى هذا ، لو دفع الثمن إلا درهما منه ، فله حبس المبيع كله على باقى الثمن ، كما نقول فى الرهن .

وفيه قول آخر : أنه يملك أن يتسلم من المبيع بقدر ما دفع من الثمن ، لأن كل جزء من المبيع فى مقابلة كل جزء من أجزاء الثمن ، فإذا سلم بعض الثمن ملك تسليم ما يقابله . والفرق بينه وبين الرهن: أن الرهن ليس بعوض من الدين . وإنما هو وثيقة ، فملك حبسه إلى أن يستوفى جميع الدين . والأول هو الصحيح ، لأنه إنما رضى بإخراج المبيع من ملكه إذا سلم

له جميع الثمن ، ولم يرض بإخراجه ، ولا إخراج شئ منه ببعض الثمن .

فإذا خاف البائع أن يجبر على التسليم ، ثم يحال على تقاضى المشترى .

(196/294)

فالحيلة له فى الأمن من ذلك: أن يبيعه العين بشرط أن يرتهنها على ثمنها ، ويجوز شرط الرهن والضمين فى عقد البيع ، ويصح رهنه قبل قبضه على ثمنه فى أصح الوجهين ، كما يصح رهنه قبل القبض بدين آخر غير ثمنه ، ومن غير البائع ، بل رهنه على ثمنه أولى . فإنه يملك حبسه على الثمن بدون الرهن كما تقدم ، فلأن يصح حبسه على الثمن رهنا أولى وأحرى .

وأيضاً . فإذا جاز التصرف فيه بالرهن من الأجنبى

قبل القبض ، فجوازه من البائع أولى .

لأن المشترى يملك من التصرف مع البائع قبل القبض بالإقالة وغيرها مالا يملكه مع الأجنبى ، ومن منع رهنه على ثمنه قبل قبضه لزمه أن يمنع رهنه على غير الثمن ، أو من الأجنبى .

فإن قيل: الفرق بينهما : أنه قبل القبض عرضة للتلف ، فيكون من ضمان البائع ، وكونه رهنا يقتضى أن يكون من ضمان راهنه ، فتنافى الأمران ، حيث يكون مضمونا له

ومضمونا عليه من جهة واحدة . وهذا بخلاف رهنه من أجنبى قبل القبض . فإنه يكون مضمونا عليه للأجنبى ومضمونا له من البائع ، ولا تنافى بين أن يكون مضمونا له من شخص ، ومضمونا عليه لغيره . كالعين المؤجرة إذا أجرها المستأجر ، صارت المنافع مضمونة عليه للمستأجر الثانى ، ومضمونة له من المؤجر الأول . وكذلك الثمار إذا بدا صلاحها جاز للمشترى بيعها ، وهى مضمونة له على البائع الأول ، ومضمونة عليه للمشترى الثانى .

فإن قيل: هذا هو الفرق الذى بنى عليه هذا القول ، ولكن يقال: أى محذور فى ذلك ، وأن يكون مضمونا له وعليه ؟ وقولكم: إن ذلك من جهة واحدة ، ليس كذلك ، فإنه مضمون له من جهة كونه مشترياً ، فهو من ضمان البائع حتى يمكنه من قبضه ، ومضموناً عليه من جهة كونه راهنا ، فإذا تلف تلف من ضمانه ، حتى لو اتحدت الجهة لم يكن فى ذلك محذور بحيث يكون مضموناً له وعليه من جهة واحدة ، كما قلتم: إنه يجوز للمستأجر إجارة ما استأجره لمؤجره ، فتكون المنافع مضمونة عليه وله ، فأى محذور فى ذلك ؟

(197/294)

فإن قيل: فإذا تلف هذا الرهن ، فمن ضمان من يكون ؟ فالبائع يقول للمشترى: يتلف من ضمانك ، لأنه رهن . والمشترى يقول: يتلف من ضمانك ، لأنه مبيع لم يقبض ، وليس

أحدهما بترجيح جانبه أولى من الآخر .

قيل: بل يكون تلفه من ضمان البائع ، لأن ضمانه أسبق من ضمان الراهن ، لأنه لما باعه كان من ضمانه حتى يسلمه ، فحبسه على ثمنه لا يسقط عنه ضمانه ، كما لو حبس من غير ارتهان فارتهانه إياه لم يسقط عنه ما لزمه بعقد البيع من التسليم ، فإنه إنما احتاط لنفسه بعقد الرهن ، والراهن لم يتعوض عن الرهن بدين يكون الرهن فى مقابلته ، فإذا تلف كان قد انتفع بالدين الذى أخذه فى مقابلة الرهن .

فإن أراد الحيلة فى تصحيح الرهن والوثيقة ، وأن لا يعرضه للبطلان .

فالحيلة له: أن يقبضه من البائع ، ثم يرهنه إياه على ثمنه بعد قبضه ، فيصح الرهن ، ولا يتوالى هناك ضمانان ، فإذا تلف بعد ذلك تلف من ضمان المشترى ، ولا يسقط الثمن عنه ، فإن خاف البائع أن يغيب المشترى ، أو يؤخر فكاك الرهن ، كتب كتاباً وأشهد فيه شهودا : أنه إن مضى وقت كذا وكذا ولم يفتك الرهن فقد أذن له فى بيعه وقبض دينه من ثمنه ، وما بقى منه فهو أمانة فى يده .

فإن خاف أن يبطل هذه الوكالة من يرى أنه لا يصح تعليقها بالشرط . كتب فى الكتاب: أنه قد وكله الآن ، ويعلق تصرفه فيه بالبيع بمجيء الوقت فيعلق التصرف ، وينجز التوكيل .

فإن خاف أن يعزله الموكل فلا ينفذ تصرفه فيه .

فالحيلة له: أن يوكل وكالة دورية ، عند من يرى ذلك ، فيقول: وكلما عزلته فقد وكلته ، وإن

شاء أن يقول: وكلته وكالة لا تقبل العزل ، وإن شاء أن يقول: على أنى متى عزلته فلا حق لى عنده ولا دعوى ، وما ادّعيته عليه من جهة كذا وكذا فدعواى باطلة ، والله أعلم .

(198/294)

المثال الثمانون: إذا ادعت عليه المرأة أنه لم ينفق عليها ، ولم يكسها مدة مقامها معه أو سنين كثيرة ، والحس والعرف يكذبها ، لم يحل للحاكم أن يسمع دعواها ، ولا يطالبه برد الجواب ، فإن الدعوى إذا ردها الحس والعادة المعلومة كانت كاذبة .

وفى الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "مَنِ ادَّعى دَعْوًى كَاذِبَةً لِيَتَكَثَّرِ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلا قِلةً" .

وفى الصحيح أيضاً عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "مَنِ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَا وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" .

فلا يجوز لأحد . حاكم ولا غيره ، أن يساعد من ادعى ما يشهد الحس والعرف والعادة أنه ليس له ، وأن دعواه كاذبة ، ففى سماع دعواه وإحضار المدعى عليه وإحلافه أعظم مساعدة ومعاونة على ما يكذبه الحس والعادة .

(199/294)

ثم كيف يسع الحاكم أن يقبل قول المرأة: أنها هى التى كانت تنفق على نفسها ، وتكسو نفسها هذه المدة كلها ، مع شهادة العرف والعادة المطردة بكذبها ؟ ولا يقبل قول الزوج: أنه هو الذى كان ينفق عليها ويكسوها ، مع شهادة العرف والعادة له ، ومشاهدة الجيران وغيرهم له: أنه كل وقت يدخل إلى بيته الطعام والشراب والفاكهة ، وغير ذلك . فكيف يكذب من معه مثل هذه الشهادة ، ويقبل قول من يكذب دعواه ذلك ؟ وكيف يمكن الزوج أن يتخلص من مثل هذا البلاء الطويل ، والخطب الجليل إلا بأن يشهد كل يوم بكرة وعشية شاهدى عدل على الإنفاق وعلى الكسوة . أو يفرض لها كل شهر بكرة وعشية شاهدى عدل على الإنفاق وعلى الكسوة . أو يفرض لها كل شهر دراهم معلومة يقبضها إياها بإشهاد ؟ . ثم إما أن يمكنها أن تخرج من بيته كل وقت تشترى لها ما يقوم بمصالحها ، أو يتصدى هو لخدمتها ، وشراء حوائجها ، فيكون هو العانى الأسير المملوك ، وهى المالكة الحاكمة عليه . وكل هذا ضد ما قصده الشارع من النكاح: من الألفة والمودة ، والمعاشرة بالمعروف . فإن هذه المعاشرة من أنكر المعاشرة ، وأبعدها من المعروف .

ثم من العجب: أنها إذا ادعت الكسوة والنفقة لمدة مقامها عنده ، فقال الزوج للحاكم: سلها : من أين كانت تأكل ، وتشرب ، وتلبس ؟ فيقول الحاكم: لا يلزمها ذلك ! ! .

فيا لله العجب: إذا كانت غير معروفة بالدخول والخروج ، ولا يمكن الزوج أحداً يدخل

عليها ، وهى فى منزله عدد سنين ، تأكل ، وتشرب ، وتلبس ، كيف لا يسألها الحاكم: من الذى كان يقوم لك بذلك ؟ فمتى سأل الزوج سؤالها وجب عليه ذلك . ومتى تركه كان تاركاً

(200/294)

للحق ؟ فإن سمت أجنبيا غير الزوج كلفها الحاكم البينة على ذلك ، وإن قالت: أنا الذى كنت أطعم نفسى وأكسوها فى هذه المدة ، كان كذبها معلوماً ، ولم يقبل قولها ، فإن النفقة والكسوة واجبان على الزوج ، وهى تدعى أنها هى التى قامت عنه بهذا الواجب وأدته من مالها ، وهو ويدعى أنه هو الذى فعل هذا الواجب ، وقام به ، وأسقطه عن نفسه ، ومعه الظاهر والأصل .

أما الظاهر: فلا يمكن عاقلاً أن يكابر فيه ، بل هو ظاهر ظهوراً قريبا من القطع بل يقطع به فى حق أكثر الناس .

وأما الأصل: فهو أيضاً من جانب الزوج . فإنهما قد اتفقا على القيام بواجب حقها ، وهى تضيف ذلك إلى نفسها ، أو إلى أجنبى ، وهو يدعى أنه هو الذى قام بهذا الواجب ، فقد اتفقا على وصول النفقة والكسوة إليها ، وهى تقول: كان ذلك بطريق البدل والنيابة عنك .

وهو يقول: لم يكن بطريق النيابة ، بل بطريق الأصالة .

وهذا بخلاف ما إذا لم يعلم وصول الحق إلى مستحقه كالديون والأعيان المضمونة ، فإن قبول قول المنكر متوجه ومعه الأصل .

ونظيره: أن يعترف بقضاء الدين ووصوله إليه ، ثم ينكر أن يكون وصل إليه من جهة من عليه الدين . فيقول: وصل إلى الدين الذى لى ، لكن ليس من جهتك ، بل غيرك أداه عنك . فهل يقبل قوله هاهنا أحد ؟ ويقال: الأصل بقاء الدين فى ذمته ؟ .

وهذا نظير مسألة الإنفاق سواء بسواء ، فإنها مقرة بوصول النفقة إليها ، ولو أنكرتها لكذبها الحس ، ومدعية أن وصول ذلك إلى لم يكن من جهتك ، فدعواها تخالف الأصل والظاهر جميعاً . ولهذا لا يقبلها مالك ، وفقهاء أهل المدينة ، وقولهم هو الصواب والحق الذى ندين الله به ، ولا نعتقد سواه .

وأى قبيح أعظم من دعوى امرأة على الزوج ترك النفقة والكسوة ستين سنة أو أكثر وهى لا تدخل ولا تخرج ، ولا يمكنها أن تعيش عيش الملائكة ، فيطالب الزوج بنفقة جميع المدة التى ادعت ترك الإنفاق فيها ، وقد تستغرق جميع ماله وداره وثيابه ودوابه . فيؤخذ

ذلك كله منه ، ويحبس على الباقى ، ويجعل دينا مستقراً فى ذمته ، تطالبه به متى شاءت . وهى تعلم كذب دعواها ، ووليها يعلم ذلك ، وجيرانها والله وملائكته ، والذى يساعدها ويخاصم عنها .

ولما علم فقهاء العراق ، كأبى حنيفة وأصحابه ، ما فى ذلك من الشر والفساد ، والضرر الذى لا تأتى به شريعة . أسقطوا النفقة والكسوة عن الزوج بمضى الزمان . فلم يسمعوا دعوى المرأة بذلك . كما يقوله منازعوهم فى نفقة القريب ، فنفسوا الخناق عن الأزواج بهذا القول ، وأشموهم رائحة الحياة ، ونفسوا عنهم بعض الكرب .

ولقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بعد أن أرسله الله تعالى إلى الناس ثلاث عشرة سنة بمكة ، وعشراً بالمدينة ، فما ألزم زوجاً قط بنفقة وكسوة ماضية ، ولا ادعتها عنده امرأة . وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده ، وكذلك عصر الصحابة جميعهم ، وعصر التابعين ، ولا حبس على عهده وعهد أصحابه وتابعيهم رجل واحد على ذلك . ولا على صداق امرأته ، مع صيانة نسائهم ، ولزومهن بيوتهن ، وعدم تبرجهن وتزينهن وخروجهن فى الأسواق والطرقات . والأزواج فى الحبوس ، وهن مسيبات يخرجن ويذهبن حيث أردن . فوالله لو رأى هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لشق عليه غاية المشقة ولعظم عليه وعز عليه ، ولكان إلى دفعه وإنكاره أسرع منه إلى غيره . وبالجملة فالدعوى ، إذا كانت مما تردها العادة والعرف والظاهر لم يجز سماعها .

ومن هاهنا قال أصحاب مالك: إذا كان رجل حائزاً لدار ، متصرفا فيها مدة السنين الطويلة ، بالبناء والهدم ، والإجارة والعمارة وينسبها إلى نفسه ، ويضيفها إلى ملكه ، وإنسان حاضر يراه ويشاهد أفعاله فيها طول هذه المدة ، وهو مع ذلك لا يعارضه فيها ، ولا يذكر أن له فيها حقاً ولا مانع يمنعه من مطالبته: من خوف سلطان ، أو نحو ذلك من الضرر المانع من المطالبة بالحقوق ، ولا بينه وبين المتصرف فى الدار قرابة ، ولا شركة فى ميراث ، وما أشبه ذلك مما يتسامح به القرابات وذوو

(202/294)

الصهر بينهم فى إضافة أحدهم أموال الشركة إلى نفسه ، بل كان عريّاً عن ذلك كله ، ثم جاء بعد طول هذه المدة

يدعيها لنفسه ، ويزعم أنها له ، ويريد أن يقيم بذلك بينة . فدعواه غير مسموعة أصلا ، فضلا عن بينة ، وتقر الدار بيد حائزها .

قالوا: لأن كل دعوى ينفيها العرف وتكذبها العادة فإنها مرفوضة ، غير مسموعة قال تعالى:

﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ [الأعراف: 199] .

وأوجبت الشريعة الرجوع إليه عند الاختلاف فى الدعاوى وغيرها .

قلت: ومما يدل على ذلك: أن الظن المستفاد من هذا الظاهر أقوى بكثير من الظن المستفاد من شاهدين ، أو شاهد ويمين ، أو مجرد النكول ، أو الرد .

وأيضاً ، فإن البينة على المدعى ، والبينة هى كل ما يبين الحق ، والعرف والعادة والظاهر القوى الذى إن لم يقطع به فهو أقرب إلى القطع ، يدل على صدق الزوج ، وكذب المرأة فى إمساكها عن كسوتها والإنفاق عليها مدة سنين متطاولة ، ولا يدخل عليها أحد ، ولا هى ممن تخرج تشترى لها ما تأكل وتلبس .

فالشريعة جاءت بما يعرف لا بما ينكر ، وقد أخبر الله سبحانه أن للزوجة مثل الذى عليها بالمعروف ، وليس من المعروف إلزام الزوج بنفقة ستين سنة وكسوتها ، واجتياح ماله كله ، وسلبه نعمة الله عليه ، وجعله مسكينا ذا مترية ، وجعله أسيراً لها ، ينافى ما ادعت به ، بل هذا من أنكر المنكر ، ومما يراه المسلمون ، بل وغير المسلمين ، قبيحاً .

وأيضاً : فالرجل له ولاية الإنفاق على زوجته ، كما له ولاية حبسها ومنعها من الخروج من بيته ، فالشارع جعل إليه ذلك ، وأمره أن يقوم على المرأة ولا يؤتها ماله بل يرزقها ويكسوها فيه ، وجعلها الله سبحانه فى ذلك بمنزلة الصغير والمجنون مع وليه ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ [النساء: 5] .

قال ابن عباس: لا تعمد إلى مالك الذى خولك الله وجعله لك معيشة ، فتعطيه امرأتك وبنيك ، فيكونوا هم الذين يقومون عليك فى كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم . فالسفهاء هم النساء والصبيان وقد جعل الله سبحانه الأزواج

قوامين عليهم ، كما جعل ولى الطفل قواماً عليه والقوام على غيره أمين عليه . ومن قبل قول الزوجة أو الطفل بعد

البلوغ فى عدم إيصال النفقة إليهما ، فقد جعلهما قوامين على الأزواج والأولياء ، ولو لم يقبل قول الزوج لم يكن قواماً على المرأة . فإن المرأة إذا كانت غريما مقبول القول دون الزوج ، كانت هى القوامة .

وبالجملة فللرجل على امرأته ولاية ، حتى فى مالها ، فإن له أن يمنعها من التبرع به لأنه إنما بذل لها المهر لمالها ونفسها ، فليس لها أن تتصرف فى ذلك بما يمنع الزوج من كمال استمتاعه ، وقد سوى النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بين نفقة الزوجات ، ونفقة المماليك ، وجعل المرأة عانية عند الزوج ، والعانى: هو الأسير ، وهو نوع من الرق ، فقال فى المرأة: "تُطْعِمُهَا مِمَّا تَأْكُلُ ، وَتَكْسُوهَا مِمَّا تَلبَسُ" .

وكذلك قال فى الرقيق سواء ، فهو أمير على نفقة امرأته ورقيقه ، وأولاده ، بحكم قيامه عليهم ، ولم يوجب الله سبحانه على الأزواج تمليك النساء طعاماً وإداما ، ولا دراهم أصلا ، وإنما أوجب إطعامهن وكسوتهن بالمعروف ، وإيجاب التمليك مما لم يدل عليه كتاب ولا سنة ، ولا إجماع .

وكذلك فرض النفقة وتقديرها بدراهم ، لا أصل له من كتاب ، ولا سنة ، ولا قول صحابى ولا تابعى ، ولا أحد من الأئمة الأربعة .

فإن الناس لهم قولان ، منهم من يرى تقديرها بالحب كالشافعى ، ومنهم من يردها إلى العرف ، وهم الجمهور ، ولا يعرف عن أحد من السلف والأئمة تقديرها بالدراهم البتّة .

(204/294)

ثم أن فيه إيجاب المعاوضة على الواجب لها بغير رضا الزوج ، ومن غير اعتبار كون الدراهم قيمة الواجب لها من الحب ، أو الواجب بالعرف ، ففرض الدراهم مخالف لهذا وهذا ، ولأقوال جميع السلف والأئمة ، وفيه من الفساد ما لا يحصيه إلا الله . فإنه إن مكن المرأة تخرج كل وقت تشترى لها طعاماً وإداما دخل على الزوج والزوجة من الشر والفساد ما يشهد به العيان ، وإن منعها من الخروج أضر بها وبالزوج ، وجعله كالأجير والأسير

معها .

وبالجملة: فمبنى الحكم فى الدعاوى على غلبة الظن المستفاد من براءة الأصل تارة ومن الإقرار تارة ، ومن البينة تارة ، ومن النكول مع يمين الطالب المردودة . أو بدونها وهذا كله مما يبين الحق ظاهراً فهو بينة ، وتخصيص البينة بالشهود عرف خاص ، وإلا فالبينة اسم لما يبين الحق . فمن كان ظن الصدق من جانبه أقوى كان بالحكم أولى ولهذا قدمنا جانب المدعى عليه ، حيث لا بينة ولا إقرار ، ولا نكول ، ولا شاهد حال استنادا إلى الظن المستفاد من البراءة الأصلية . فإذا كان فى جانب المدعى بينة شرعية قدم ، لقوة الظن فى جانبه بالبينة .

وكذلك إذا كان فى جانبه قرينة ظاهرةٌ ، كاللوث قدم جانبه .

ولذلك قدم جانبه فى اللعان ، إذا نكلت المرأة ، فإنها ترجم بأيمانه . لقوة الظن فى جانبه بإقدامه على اللعان ، مع نكول المرأة عن دفع الحد والعار عنها باليمين .

وقد أجمع الناس على جواز وطء المرأة التى تزف إلى الزوج ليلة العُرْس ، وإن لم يكن رآها ، ولا وُصفَتْ له ، من غير اشتراط شاهدى عدل يشهدان أنها هى امرأته التى وقع عليها العقد ، اكتفاء بالظن الغالب ، بالقطع المستفاد من شاهد الحال .

وكذلك يجوز الأكل من الهدْى المنحور إذا كان بالفلاة ، ولا أحد عنده ، اكتفاء بشاهدِ الحال .

وكذلك دَرَجَ السلفُ والخلف على جوازِ أكل الفقير مما يدفعه إليه الصبى ويخرجه من البيت: من كِسرةٍ ونحوها ، اعتماداً على شاهدِ الحال .

(205/294)

وكذلك يُكتفَى بشاهدِ الحال فى بيع المحقَّرات بالمعاطاة . وهو عمل الأمة قديماً وحديثا .

واكتفى الشارع بسكوت البكر فى الاستئذان ، وجعله دليلاً على رضاها ، اكتفاء بشاهد الحال .

واكتفت الأمة فى الاعتماد على المعاملات ، والهدايا ، والتبرعات ، بكونها بيد الباذل ، لأن دلالتها على ملكه تورث ظنا ظاهراً .

واكتفتْ بمعاملة مجهول الحرية والرشد ، وإقراره ، وأكل طعامه ، وقبول هديته وإباحة الدخول إلى منزله ، اعتماداً على شاهد الحال والظن الغالب .

واكتفى الشارعُ بقول الخارص . الواحد فى محل الظن ، والخرْصِ ، نظراً إلى الظن المستفاد من خرصه .

واكتفت الأمة بقول المقومين فيما دق وجل ، اعتمادا على الظن المستفاد من تقويمهم .

وقد اكتفى الشارع بتقويم اثنين فى جزاء الصيد . واكتفى بواحد فى الخرْص

واكتفى بواحد فى رؤية هلال رمضان .

واكتفت الأمة بقول القاسم وحده ، أو بقول اثنين ، وكذلك القائف ، أو القائفين . واكتفت بقول المؤذن الواحد .

وقد اكتفى كثير من الفقهاء بانتساب الصغير ، وميل طبعه إلى من ادعاه ، من رجلين أو أكثر ، اعتمادا على الظن المستفاد من ميل طبعه ، وهو من أضعف الظنون ، ولذلك كان فى آخر رتب الإلحاق عندهم ، عند عدم القائف .

وكذلك الاعتماد فى وجوب دفع اللقطة ، أو جوازه ، على الظن المستفاد من وصف الواصف لها .

وكذلك الاعتماد على أمارات الطهارة ، والنجاسة . والقبلة ، والاعتماد على قول الكيال والوزان .

وقال كثير من الفقهاء : يحبس المدعى عليه بشهادة المستورين ، إلا أن يعدلا ، إذ الغالب من المستورين العدالة . فاستجازوا عقوبة الرجل المسلم بمثل هذا الظن .

وقالوا : تسمع الشهادة على المقر بالإقرار من غير اشتراط ذكر الشاهدين أهلية المقر حال إقراره ، اعتماداً على ظن الرشد والاختيار .

وقالوا : إذا كان الجدار حائلا بين الطريق وبين ملك المدعى ، أو بين ملكه وبين موات ، اختص به المدعى ، لأن الظاهر أن الطريق والموات لا يحاط عليهما .

وقالوا: لو كان بين الملكين جدار متصل بأبنية أحد المالكين اتصالاً بدواخل وترصيف، اختص به صاحب الترصيف لقوة الظن من جانبه، إذ معه دلالتان، إحداهما: الاتصال. والثانية: التداخل والترصيف فلو تداخل من أحد طرفيه فى ملك أحدهما، ومن الطرف الآخر فى الملك الأخر اشتراكاً فيه: لتساويهما فى الدلالتين.

وقالوا: إن الأبواب المشرعة فى الدروب غير النافذة دالة على الاشتراك فى الدرب إلى حد كل باب منها، فيكون الأول شريكاً من أول الدرب إلى بابه، والثانى شريكاً إلى بابه، والذى فى آخر الدرب شريك من أول الدرب إلى بابه، قولاً واحداً، وإلى آخر الدرب على الصحيح، وكل ذلك بناء على الظن المستفاد من الاستطراق، وأنه بحق.

وقالوا: إن الأجنحة المطلة على ملك الجار وعلى الدروب غير النافذة أنها ملك لأصحابها اعتماداً على غلبة الظن بذلك، وأنها وضعت باستحقاق. وكذلك القنوات، والجداول الجارية فى ملك الغير، دالة على اختصاصها بأرباب المياه، بناء على الظن المستفاد من ذلك، وأن صورها دالة على أنها وضعت باستحقاق.

ومن ذلك: دلالة الأيدى على الاستحقاق، اعتمادا على الظن الغالب، مع القطع بكثرة

وضع الأيدى عدوانا وظلماً ، ولا سيما ما اطردت العادة بإجارته وخروجه من يد مالكه ، إلى يد مستأجره ، كالأراضى والدواب ، والحوانيت ، والرباع ، والحمامات وأن الغالب فيها الخروج عن يد مالكها ، وقد اعتبرتم اليد ، وقد استشكل كثير من فضلاء أصحابكم هذا ، واعترف بأن جوابه مشكل جداً ، ولما كان الظن المستفاد من الشهود أقوى من الظن المستفاد من هذه الوجوه قدم عليها .

ولما كان الظن المستفاد من الإقرار أقوى من الظن المستفاد من الشهود قدم الإقرار عليها .

ولذلك اكتفى كثير من الفقهاء بالمرة الواحدة فى الإقرار بالزنا والسرقة لهذه القوة .

(207/294)

قالوا : لأن وازع المقر طبعى ، ووازع الشهود شرعى ، والوازع الطبعى أقوى من الوازع الشرعى ، ولذلك يقبل الإقرار من المسلم ، والكافر ، والبر ، والفاجر : لقيام الوازع الطبعى . ولما كان الوازع عن الكذب على نفسه مخصوصا بالمقر كان إقراره حجة قاصرة عليه وعلى من يتلقى عنه ، لكونه فرعه .

ولما كان الوازع الشرعى عاماً بالنسبة إلى جميع الناس ، كان حجة عامة : فإن خوف الله يزع الشاهد عن الكذب فى حق كل أحد . فكان قوله حجة عامة لكل أحد . ولما

كان وازع الكذب مختصاً بالمقر قصر عليه ، فهو خاص قوى ، والشهادة عامة ضعيفة بالنسبة إلى الإقرار ، قوية بالنسبة إلى الأيدى وإلى ما ذكرناه من الدلالات .

ومعلوم أن الظنون لا تقع إلا بأسباب تثيرها وتحركها . فمن أسبابها : الاستصحاب واطراد العادة ، أو كثرة وقوعها ، أو قول الشاهد ، أو شاهد الحال . ولا يقع فى الظنون تعارض ، وإنما يقع فى أسبابها وعلاماتها . فإذا تعارضت أسباب الظنون ، فإن حصل الشك لم يحكم بشئ ، وإن وجد الظن فى أحد الطرفين ، حكم به ، والحكم للراجح . لأن مرجوحية مقابله تدل على ضعفه .

فإذا تعارض سببا ظن – وكان كل واحد منهما مكذباً للآخر – تساقطاً : كتعارض البينتين والأمارتين ، وإن لم يكن كل واحد منهما مكذباً للآخر عمل بهما ، على حسب الإمكان ، كدابة عليها راكبان ، وعبد ممسك بيديه اثنان ، ودار فيها ساكنان ، وخشبة لها حاملان ، وجدار متصل بملكين ، ونظائر هذا .

فإن كان أحدهما أرجح من الآخر ، عمل بالراجح ، كالشاهد مع البراءة الأصلية ، ومع اليد ، يقدم عليهما ، لرجحانه .

(208/294)

ولما كانت اليد لها مراتب فى القوة والضعف . كانت يد اللابس لثيابه ، وعمامته ، وخفه ، ومنطقته ، ونعله: أقوى من يد الجالس على البساط ، والراكب على الدابة ، ويد الراكب أقوى من يد السائق والقائد ، ويد الساكن للدار أضعف من تلك الأيدى ، ويد من هو داخل الحمام والخان ، أضعف من هذا كله– قدم أقوى الأيدى على أضعفها . فلو كان فى الدار اثنان ، وتنازعا فيها ، وفى لباسهما الذى عليهما ، جعلت الدار بينهما ، لاستوائهما فى اليد . وكان القول قول كل منهما فى لباسه المختص به ، لقوة يده بالقرب والاتصال . ولو تنازع الراكب والسائق والقائد ، قدمت يد الراكب . وكذلك قال الجمهور .

ولو تنازع الزوجان فى متاع البيت ، أو الصانعان فى حانوت ، كان القول قول من يدعى منهما ما يصلح له وحده ، لغلبة الظن القريب من القطع باختصاصه به .

وكذلك لو رأينا رجلا شريفاً حاسر الرأس ، وأمامه داعر على رأسه عمامة ، وبيده عمامة لا تليق به وهو هارب . فتقديم يده على الظن المستفاد من كونها يدا عادية مما يقطع ببطلانه .

وكذلك فقيه له كتب فى داره . وامرأته غير معروفة بشئ من ذلك البتة . فتقديم يدها على شاهد حال الفقيه فى غاية البعد .

وأين الظن المستفاد من هذا وأمثاله إلى الظن المستفاد من النكول ، ومن الظن المستفاد من اليد ؟ بل أين ذاك الظن من الظن المستفاد من الشاهد واليمين ؟ .

ومن الممتنع أن يرتب الشارع الأحكام على هذه الظنون ، ولا يرتبها على الظنون التى هى أقوى منها بمراتب كثيرة . بل تكاد تقرب من القطع . كما أنه من المحال أن يحرم التأفيف للوالدين ، ويبيح شتمهما وضربهما .

وهل تقديم قول المدعى فى القسامة إلا اعتمادا على الظن الغالب باللوث ؟ وقدم هذا الظن على ظن البراءة الأصلية لقوته .

(209/294)

وقد حكى الله سبحانه فى كتابه عن الشاهد الذى شهد من أهل امرأة العزيز . وحكم بالقرائن الظاهرة على براءة يوسف عليه السلام . وكذب المرأة بقوله: ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: 26 - 28] .

وسمى الله سبحانه ذلك أية ، وهى أبلغ من البينة ، فقال: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف: 35] .

وحكى سبحانه ذلك مقررا له غير منكر ، وذلك يدل على رضاه به .

ومن هذا: حكم نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام بالولد الذى تنازع فيه المرأتان ، فقضى به داود للكبرى ، فخرجتا

على سليمان ، فقصتا عليه القصة ، فقال سليمان عليه السلام: ائتونى بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى: لا تفعل يا نبى الله ، هو ابنها . فقضى به

للصغرى ، ولم يكن سليمان ليفعل ، ولكن أوهمهما ذلك ، فطابت نفس الكبرى بذلك . استرواحاً منها إلى راحة التسلى والتأسى بذهاب ابن الأخرى . كما ذهب ابنها ، ولم تطب نفس الصغرى بذلك ، بل أدركتها شفقة الأم ورحمتها ، فناشدته أن لا يفعل ، استرواحاً إلى بقاء الولد ، ومشاهدته حيا ، وإن اتصل إلى الأخرى .

وتأمل حكم سليمان به للصغرى ، وقد أقرت به للكبرى تجد تحته: أن الإقرار إذا ظهرت أمارات كذبه ، وبطلانه ، لم يلتفت إليه ، ولم يحكم به على المقر ، وكان وجوده كعدمه . وهذا هو الحق الذى لا يجوز الحكم بغيره .

وكذلك إذا غلط المقر ، أو أخطأ أو نسى ، أو أقر بما لا يعرف مضمونه . لم يؤاخذ بذلك الإقرار ، ولم يحكم به عليه ، كما لو أقر مكرها .

(210/294)

والله تعالى رفع المؤاخذة بلغو اليمين ، لكون الحلف لم يقصد موجبها . وأخبر أنه إنما يؤاخذ بكسب القلب ، والغالط والمخطئ والناسى والجاهل والمكره ، لم يكسب قلبه ما أقر به أو حلف عليه ، فلا يؤاخذ به .

والمقصود : أن الزوج المظلوم المدعى عليه دعوى كاذبة ظالمة: بأنه ترك النفقة والكسوة تلك السنين كلها ، أو مدة مقامها عنده ، إذا تبين كذب المرأة فى دعواها ، لم يجز للحاكم سماعها فضلاً عن مطالبته برد الجواب .

فله طرق فى التخلص من هذه الدعوى .

أحدها : أن يقول: كيف يسوغ سماع دعوى تكذبها العادة والعرف ، ومشاهدة الجيران ؟ .

الثانى: أن يقول للحاكم: سلها : من كان ينفق عليها ، ويكسوها فى هذه المدة ؟ .

فإن ادعت أن غيره كان يؤدى ذلك عنه ، لم تسمع دعواها ، وكانت الدعوى لذلك الغير .

ولا يقبل قولها على الزوج إن غيره قام بهذا الواجب عنه . وهذا مما لا خفاء به ، ولا إشكال فيه .

وإن قالت: أنا كنت أنفق على نفسى . قال الزوج: سلها : هل كانت هى التى كانت تدخل وتخرج تشترى الطعام والإدام ؟ فإن قالت: نعم ، ظهر كذبها ولا سيما إن كانت من ذوات الشرف والأقدار .

وإن قالت: كنت أوكل غيرى فى ذلك ، ألزمت ببيانه ، وإلا ظهر كذبها وظلمها

وعدوانها . وكانت معاونتها على ذلك معاونة على الإثم والعدوان .

فإن أعوز الزوج حاكم عالم متحرٍّ للحق لا تأخذه فيه لومة لائم ، فليعدل إلى التحيُّل بالخلاص بما يبطل دعواها الكاذبة ، إما بأن يجحد استحقاقها لما ادعت به ، ولا يعدل إلى الجواب المفصل ، فتحتاج هى إلى إقامة البينة على سبب الاستحقاق . وقد يتعذر أو يتعسر عليها ذلك .

فإن أحضرت الصداق وأقامت البينة ، فإن كانت لم تنتقل معه إلى داره ، جحد تسليمها إليه ، والقول قوله إذا لم تكن معه فى منزله .

(211/294)

فإن كانت قد انتقلت معه إلى منزله وادعى نشوزها تلك المدة ، وأمكنه إقامة البينة بذلك ، سقطت نفقتها فى مدة النشوز . وإن لم يمكنه إقامة البينة ، وادعى عدم تمكينها له من الوطء ، وادعت أنها مكنته فالقول قوله ، لأن الأصل عدم التمكين ، وهذا غير دعواه النشوز فإن النشوز هو العصيان ، والأصل عدمه ، وهذا إنكار لاستيفاء حقه ، والأصل عدمه فتأمله . فإن كان له منها ولد لم يمكنه هذا الإنكار .

ومتى أحس بالشر والمكر احتال ، بأن يخبئ شاهدى عدل ، بحيث يسمعان كلامها ، ولا

تراهما ، ثم يدفع إليها مالا ، أو ترضى به ، ويتلطف بها ، ثم يقول: أريد أن يجعل كل منا صاحبه فى حل حتى تطيب أنفسنا ، ولعل الموت يأتى بغتة ، ونحو ذلك من الكلام .

وإن أمكنه أن يستنطقها بأنها لا تستحق عليه إلى ذلك الوقت نفقة ولا كسوة ، وأنه يرضيها من الآن ، ويدفع إليها ما ترضى به كان أقوى . ثم يأخذ خط الشاهدين بذلك ، ويكتمه منها . فإن أعجله الأمر عن ذلك ، وأمكنه المبادرة برفعها إلى حاكم مالكى ، أو حنفى بادر إلى ذلك . وبالجملة فالحازم من يستعد لحيلهن ، ويعد لها حيلا يتخلص بها منها ، وهذا لا بأس به ، ولا إثم فيه ، ولا فى تعليمه ، فإن فيه تخليص المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإخزاء الظالم المعتدى . والله الموفق للصواب .

وإنما أطلنا الكلام فى هذا المثال ، لشدة حاجة الناس إلى ذلك ، ولعموم البلوى ، وكثرة الفجور ، وانتشار الضرر بتمكين المرأة من هذه الدعوى وسماعها ، وجعل القول قولها ، وفى ذلك كفاية ، وإلا فهى تحتمل أكثر من ذلك .

فصل

والمقصود بهذه الأمثلة وأضعافها ، مما لم نذكره: أن الله سبحانه أغنانا بما شرعه لنا من الحنيفية السمحة ، وما يسره من الدين على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وسهله للأمة عن الدخول فى الآصار والأغلال ، وعن ارتكاب طرق المكر والخداع ،

والاحتيال ، كما أغنانا عن كل باطل ومحرم وضار ، بما هو أنفع لنا منه من الحق ، والمباح النافع .

(212/294)

فأغنانا بأعياد الإسلام عن أعياد الكفار والمشركين من أهل الكتاب والمجوس والصابئين وعبدة الأصنام . وأغنانا بوجوه التجارات والمكاسب الحلال عن الربا والميسر والقمار . وأغنانا بنكاح ما طاب لنا من النساء مثنى وثلاث ورباع ، والتسرِّى بما شئنا من الإماء ، عن الزنا والفواحش . وأغنانا بأنواع الأشربة اللذيذة ، النافعة للقلب والبدن ، عن الأشربة الخبيثة المسكرة المذهبة للعقل والدين . وأغنانا بأنواع الملابس الفاخرة: من الكتان ، والقطن ، والصوف ، عن الملابس

المحرمة من الحرير والذهب . وأغنانا عن سماع الأبيات وقرآن الشيطان بسماع الآيات وكلام الرحمن . وأغنانا عن الاستقسام بالأزلام ، طلبا لما هو خير وأنفع لنا باستخارته التى هى توحيد وتفويض واستعانة وتوكل . وأغنانا عن طلب التنافس فى الدنيا وعاجلها بما أحبه لنا وندبنا إليه من التنافس فى الآخرة ، وما أعد لنا فيها ، وأباح الحسد فى ذلك . وأغنانا به عن الحسد على الدنيا وشهواتها . وأغنانا بالفرح بفضله ورحمته ، وهما القرآن

والإيمان ، عن الفرح بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع ، والعقار ، والأثمان ، فقال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: 58] .

وأغنانا بالتكبر على أعداء الله تعالى ، وإظهار الفخر والخيلاء لهم ، عن التكبر على أولياء الله تعالى والفخر والخيلاء عليهم ، فقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لمن رآه يتبختر بين الصفين: "إِنَّهَا لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلا فى مِثْلِ هذَا الْمَوْطِنِ" .

وأغنانا بالفروسية الإيمانية والشجاعة الإسلامية التى تأثيرها فى الغضب على أعدائه ونصرة دينه ، عن الفروسية الشيطانية التى يبعث عليها الهوى وحمية الجاهلية .

(213/294)

وأغنانا بالخلوة الشرعية حال الاعتكاف ، عن الخلوة البدعية التى يترك لها الحج والجهاد والجمعة والجماعة . وكذلك أغنانا بالطرق الشرعية عن طرق أهل المكر والاحتيال .

فلا تشتد حاجة الأمة إلى شئ إلا وفيما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ما يقتضى إباحته وتوسعته ، بحيث لا يحوجهم فيه إلى مكر واحتيال ، ولا يلزمهم الآصار والأغلال ، فلا هذا من دينه ، ولا هذا . كما أغنانا بالبراهين والآيات التى أرشد إليها القرآن عن الطرق المتكلفة المتعسفة المعقدة ، التى باطلها أضعاف حقها : من الطرق

الكلامية ، التى الصحيح منها كلحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل .

ونحن نعلم علما لا نشك فيه أن الحيل التى تتضمن تحليل ما حرمه الله تعالى ، وإسقاط ما أوجبه لو كانت جائزة لسنها الله سبحانه . وندب إليها ، لما فيها من التوسعة ، والفرج للمكروب ، والإغاثة للملهوف ، كما ندب إلى الإصلاح بين الخصمين . وقد قال المبعوث بالحنيفية السمحة صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ إلا وَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ بِهِ ، وَلا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ يُبْعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ إلا وَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ بِهِ ، وَتَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلا هَالِكٌ" .

فهلا ندب النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى الحيل ، وحض عليها ، كما حض على إصلاح ذات البين ؟ بل لم يزل يحذر من الخداع ، والمكر ، والنفاق ، ومشابهة أهل الكتاب باستحلال محارمه بأدنى الحيل .

ولو كان مقصود الشارع إباحة تلك المحرمات التى رتب عليها أنواع الذم والعقوبات وسد الذرائع الموصلة إليها لم يحرمها ابتداء ، ولا رتب عليها العقوبة ، ولا سد الذرائع إليها .

ولكان ترك أبوابها مفتحة أسهل من المبالغة فى غلقها وسدها ، ثم يفتح لها أنواع الحيل ، حتى ينقب المحتال عليها من كل

ناحية . فهذا مما تصان عنه الشرائع ، فضلا عن أكملها شريعة وأفضلها دينا .

وقد قدمنا أن الضرر والمفاسد الحاصلة من تلك المحرمات لا يزول بالاحتيال والتنقيب عليها ، بل تقوى وتشتد مفاسدها .

فصل

إذا عرف هذا . فالطرق التى تتضمن نفع المسلمين ، والذب عن الدين ، ونصر المظلومين ، وإغاثة الملهوفين ، ومعارضة المحتالين بالباطل ليدحضوا به الحق ، من أنفع الطرق ، وأجلها علماً وعملاً وتعليما . فيجوز للرجل أن يظهر قولاً أو فعلاً مقصوده به مقصود صالح ، وإن ظن الناس أنه قصد به غير ما قصد به ، إذا كان فيه مصلحة دينية ، مثل دفع ظلم عن نفسه أو عن مسلم ، أو معاهد ، أو نصرة حق ، أو إبطال باطل ، من حيلة محرمة ، أو غيرها ، أو دفع الكفار عن المسلمين أو التوصل إلى تنفيذ أمر الله تعالى ورسوله .

فكل هذه طرق جائزة أو مستحبة ، أو واجبة .

وإنما المحرم: أن يقصد بالعقود الشرعية غير ما شرعت له ، فيصير مخادعاً له ، فهذا مخادع لله ورسوله ، وذلك مخادع للكفار والفجار ، والظلمة ، وأرباب المكر والاحتيال . فبين هذا الخداع وذاك الخداع من الفرق كما بين البر والإثم ، والعدل والظلم ، والطاعة والمعصية ، فأين من قصده إظهار دين الله تعالى ، ونصر المظلوم ، وكسر الظالم إلى من قصده ضد

ذلك ؟ .

إذا عرف هذا ، فنقول: الحيل أقسام:

أحدها : الطرق الخفية التى يتوصل بها إلى ما هو محرم فى نفسه ، فمتى كان المقصود بها محرماً فى نفسه ، فهى حرام باتفاق المسلمين ، وصاحبها فاجر ظالم آثم . وذلك كالتحيل على هلاك النفوس . وأخذ الأموال المعصومة ، وفساد ذات البين ، وحيل الشياطين على إغواء بنى آدم ، وحيل المخادعين بالباطل على إدحاض الحق ، وإظهار الباطل فى الخصومات الدينية والدنيوية . فكل ما هو محرم فى نفسه ، فالتوصل إليه محرم بالطرق الظاهرة والخفية ، بل التوصل إليه بالطرق الخفية أعظم إثما ، وأكبر عقوبة ، فإن

(215/294)

أذى المخادع وشره يصل إلى المظلوم من حيث لا يشعر ، ولا يمكنه الاحتراز عنه ، ولهذا قطع السارق دون المنتهب والمختلس .

ومن هذا : رأى مالك ومن وافقه: أن القاتل غيلة يقتل ، وإن قتل من لا يكافئه ، لمفسدة فعله ، وعدم إمكان التحرز منه . ومن هذا : رأى عبد الله بن الزبير: قطع يد الزُّغلى ، لعظم ضرره على الأموال ، وعدم إمكان التحرز منه ، فهو أولى بالقطع من السارق ، وقوله قوى

جداً . ومن هذا رأى الأمام أحمد قطع يد جاحد العارية ، لأنه لا يمكن الاحتراز منه ، بخلاف جاحد الوديعة فإنه هو الذى ائتمنه .

والعمدة فى ذلك على السنة الصحيحة التى لا معارض لها .

والقصد : أن التوصل إلى الحرام حرام ، سواء توصل إليه بحيلة خفية أو بأمر ظاهر .

وهذا النوع من الحيل ينقسم قسمين:

أحدهما : ما يظهر فيه أن مقصود صاحبه الشر والظلم كحيل اللصوص ، والظلمة والخونة .

والثانى: ما لا يظهر ذلك فيه ، بل يظهر المحتال أن قصده الخير ، ومقصوده الظلم والبغى ، مثل إقرار المريض لوارث لا شئ له عنده ، قصداً لتخصيصه بالمقرَّ به ، أو إقراره بوارث ، وهو غير وارث ، إضرارا بالورثة وهذا حرام باتفاق الأمة ، وتعليمه لمن يفعله حرام ، والشهادة عليه حرام ، إذا علم الشاهد صورة الحال . والحكم بموجب ذلك حكم باطل حرام يأثم به الحاكم باتفاق المسلمين . إذا علم صورة الحال ، فهذه الحيلة فى نفسها محرمة ، لأنها كذب وزور ، والمقصود بها محرم ، لكونه ظلما وعدواناً .

ولكن لما أمكن أن يكون صدقا اختلف العلماء فى إقرار المريض لوارث ، هل هو باطل ، سدا للذريعة ، وردا للإقرار الذى صادف حق الورثة فيما هو متهم فيه ، لأنه شهادة على نفسه فيما تعلق به حقهم ، فيرد للتهمة ، كالشهادة على غيره ، أو هو مقبول ، إحسانا للظن بالمقر ، ولا سيما عند الخاتمة ؟ .

ومن هذا الباب: احتيال المرأة على فسخ نكاح الزوج، مع إمساكه بالمعروف، بإنكارها الإذن للولى، أو إساءة عشرة الزوج، ونحو ذلك.

(216/294)

واحتيال البائع على فسخ البيع، بدعواه أنه كان محجوراً عليه. واحتيال المشترى على الفسخ بأنه لم ير المبيع. واحتيال المؤجر على المستأجر فى فسخ الإجارة. أو احتيال المستأجر عليه بأنه استأجر ما لم يره. واحتيال الراهن على المرتهن فى فسخ الرهن، بأن يظهر أنه آجره قبل الرهن، أو كان رهنه عند زوجته، أو أمته، ونحو ذلك.

فهذا النوع لا يستريب أحد أنه من كبائر الإثم، وهو من أقبح المحرمات، وهو بمنزلة لحم خنزير ميت حرام، وأنه فى نفسه معصية، لتضمنه الكذب والزور. ومن جهة تضمنه إبطال الحق، وإثبات الباطل.

القسم الثالث: ما هو مباح فى نفسه، لكن بقصد المحرم صار حراماً، كالسفر لقطع الطريق، ونحو ذلك، فها هنا المقصود حرام، والوسيلة فى نفسها غير محرمة، لكن لما توسل بها إلى الحرام صارت حراما.

القسم الرابع: أن يقصد بالحيلة أخذ حق، أو دفع باطل، لكن تكون الطريق إلى حصول

ذلك محرمة . مثل أن يكون له على رجل حق فيجحده ، فيقيم شاهدين لا يعرفان غريمه ، ولم يرياه يشهدان له بما ادعاه . فهذا محرم أيضاً ، وهو عند الله تعالى عظيم ، لأن الشاهدين يشهدان بالزور ، وشهادة الزور من الكبائر . وقد حملهما على ذلك .

وكذلك لو كان له عند رجل دين فيجحده إياه . وله عنده وديعة فجحد الوديعة ، وحلف أنه لم يودعه ، أو كان له على رجل دين لا بينة له به . ودين آخر به بينه ، لكنه اقتضاه منه ، فيدعى هذا الدين . ويقيم به بينة . وينكر الاستيفاء .

أو يكون قد اشترى منه شيئاً ، فظهر به عيب تلف المبيع به ، فادعى عليه بثمنه ، فأنكر أصل العقد . وأنه لم يشتر منه شيئاً ، أو تزوج امرأة فأنفق عليها مدة طويلة . فادعت عليه أنه لم ينفق عليها شيئا ، فجحد نكاحها بالكلية .

فهذا حرام أيضاً لأنه كذب . ولاسيما إن حلف عليه . ولكن لو تأول فى يمينه لم يكن به بأس فإنه مظلوم .

(217/294)

فإن قيل: فما تقولون لو عامله معاملة ربا ، فقبض رأس ماله ، ثم ادعى عليه بالزيادة المحرمة ، هل يسوغُ له أن ينكر المعاملة أو يحلف عليها ؟ .

قيل: يسوغ له الحلف على عدم استحقاقها ، وأن دعواها دعوى باطلة ، فلو لم يقبل منه الحاكم هذا الجواب ساغ له التأويل فى اليمين ، لأنه مظلوم ، ولا يسوغُ له الإنكارُ والحلف من غير تأويل ، لأنه كذب صريح . فليس له أن يقابل الفجور بمثله ، كما أنه ليس له أن يكذب على من كذب عليه ، أو يقذف من قذفه ، أو يَفجُر بزوجةِ من فَجَر بزوجته ، أو بابنة من فَجر بابْنته .

فإن قيل: فما تقولون فى مسألة الظفر ؟ هل هى من هذا الباب ، أو من القصاص المباح ؟ .

قيل: قد اختلف الفقهاء فيها على خمسة أقوال:

أحدها : أنها من هذا الباب ، وأنه ليس له أن يخون من خانه . ولا يجحد من جحده . ولا يغصب من غصبه . وهذا ظاهر مذهب أحمد ومالك .

والثانى: يجوز له أن يَسْتَوْفى قدر حقه ، إذا ظفر بجنسه أو غير جنسه . وفى غير الجنس يدفعه إلى الحاكم يبيعه ويستوفى ثمنه منه . وهذا قول أصحاب الشافعى .

والثالث: يجوز له أن يستوفى قدر حقه ، إذا ظفر بجنس ماله . وليس له أن يأخذ من غير الجنس . وهذا قول أصحاب أبى حنيفة .

والرابع: أنه إن كان عليه دين لغيره لم يكن له الأخذ ، وإن لم يكن عليه دين فله الأخذ . وهذا إحدى الروايتين عن مالك .

والخامس: أنه إن كان سبب الحق ظاهراً ، كالنكاح ، والقرابة ، وحق الضيف ، جاز

للمستحق الأخذ بقدر حقه ، كما أذن فيه النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لهند .

"أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مَالِ أَبِى سُفْيَانَ مَا يَكْفِيهَا وَيَكْفِى بَنِيهَا" .

وكما أذن لمن نزل بقوم ولم يُضيِّفوه أن يُعْقِبَهم

فى مالهم بمثل قِراه كما فى الصحيحين عن عُقْبة بن عامر قال:

(218/294)

"قُلْتُ لِلنَّبِى صلى اللهُ تعالى عليه وآله وسلم: إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ لاَ يُقْرُونَا فَمَا تَرَى ؟ فَقَالَ لَنَا : إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمِرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِى لِضَيْفٍ فَاقْبَلُوا ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِى يَنْبَغِى لَهُمْ" .

وفى المسند من حديث المقْدام أبى كريمة أنه سمع النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: "مَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُقْرُوهُ ، فَإِنْ لَمْ يُقْرُوهُ فله أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ" .

وفى المسند لأحمد أيضاً من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "أَيُّمَا ضَيْفٍ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَأَصْبَحَ الضَّيْفُ مَحْرُوماً ، فَلَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِقَدْرِ قِرَاهُ ، وَلاَ حَرَجَ عَلَيْهِ" .

وإن كان سبب الحق خفيا ، بحيث يتهم بالأخذ وينسب إلى الخيانة ظاهراً ، لم يكن له

الأخذ وتعريض نفسه للتهمة والخيانة وإن كان فى الباطن آخذا حقه . كما أنه ليس له أن يتعرض للتهمة التى تُسلط الناس على عرضه ، وإن ادَّعى أنه محق غير متهم .

وهذا القول أصح الأقوال وأسدُّها ، وأوفقها لقواعد الشريعة وأصولها ، وبه تجتمع الأحاديث .

فإنه قد روى أبو داود فى سننه من حديث يوسف بن ماهك قال: "كنت أكتب لفلان نفقه أيتام كان وليهم ، فغالطوه بألف درهم ، فأداها إليهم ، فأدركت له من أموالهم مثلها ، فقلت: اقبض الألف الذى ذهبوا به منك ، قال: لا حَدّثَنى أَبى أَنّهُ سَمِعَ رَسُول اللهِ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يَقُولُ: "أَدِّ الأَمَانَةَ إلى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ" .

(219/294)

وهذا ، وإن كان فى حكم المنقطع ، فإن له شاهدا من وجه آخر ، وهو حديث طلْق بن غنام: أخبرنا شريك وقيس عن أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: "أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك" وقيس هو ابن الربيع ، وشريك ثقة ، وقد قوى حديثه بمتابعة قيس له ، وإن كان فيه ضعف .

وله شاهد آخر من حديث أيوب بن سويد عن ابن شوذب عن أبى التياح عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نحوه ، وأيوب بن سويد – وإن كان فيه ضعف – فحديثه يصلح للاستشهاد به . وله شاهد آخر ، وإن كان فيه ضعف ، فهو يقوى بانضمام هذه الأحاديث إليه . رواه يحيى بن أيوب عن إسحاق بن أسيد عن أبى حفص الدمشقى عن مكحول: أن رجلا قال لأبى أمامة الباهلى: "الرَّجُلُ أَسْتَوْدِعُهُ الوَدِيعَةَ ، أَوْ يَكُونُ لِى عَلَيْهِ دَيْنٌ ، فَيَجْحَدُنِى ، ثُمَّ يَسْتَوْدِعُنِى أو يَكُونَ لَهُ عِنْدِى الشيء ، أَفَأَجْحَدُهُ ؟ فَقَالَ: لا ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ تعالى عليهِ وآله وسلمَ يقُولُ: أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ" .

وله شاهد آخر مرسل . قال يحيى بن أيوب: عن

ابن جريج عن الحسن عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ" .

وله شاهد . آخر . وهو ما رواه الترمذى من حديث مالك بن نضله قال: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ،

الرَّجُلُ أَمُرُّ بِهِ فَلا يُقْرِينِى ، وَلا يُضَيِّفُنِى . فَيَمُرُّ بِى ، أَفَأَجْزِيهِ ؟ قَالَ: لا ، أَقْرِهِ" .

قال الترمذى: هذا الحديث حسن صحيح .

وله شاهد آخر . وهو ما رواه أبو داود من حديث بِشر بن الخصاصية ، قال: "قُلْتُ: يَا

رَسُولَ اللهِ ، إنَّ أَهْلَ الصّدَقَةِ يَعْتَدُونَ عَلَيْنَا ، أَفَنَكْتُمُ مِنْ أَمْوَالِنَا بِقَدْرِ مَا يَعْتَدُونَ عَلَيْنَا ؟ فَقَالَ: لا" .

(220/294)

وله شاهد آخر من حديث بشر هذا أيضاً :

"قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، إنَّ لَنَا جِيرَاناً لا يَدَعُونَ لَنَا شَاذَّةً ، وَلا فَاذَّةً إلا أَخَذُوهَا فَإِذَا قَدَرْنَا لَهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَنَأْخُذُهُ ؟ فَقَالَ: أَدِّ الأَمَانَةَ إلى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ" .

ذكره شيخنا فى كتاب إبطال التحليل .

فهذه الآثار ، مع تعدد طرقها واختلاف مخارجها ، يشد بعضها بعضاً ، ولا يشبه الأخذ فيها الأخذ فى الموضعين اللذين أباح رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيهما الأخذ لظهور سبب الحق ، فلا يُنسب الآخذ إلى الخيانة ، ولا يتطرق إليه تهمة ، ولتعسر الشكوى فى ذلك إلى الحاكم ، وإثبات الحق والمطالبة به والذين جوزوه يقولون: إذا أخذ قدر حقه من غير زيادة ، لم يكن ذلك خيانة ، فإن الخيانة أخذ ما لا يحل له أخذه ، وهذا ضعيف جداً ، فإنه يبطل فائدة الحديث . فإنه قال: "ولا تَخُنْ مَنْ خانَكَ" فجعل مقابلته له خيانة ، ونهاه عنها ، فالحديث نص ، بعد صحته .

فإن قيل: فهلا جعلتموه مستوفياً لحقه بنفسه ، إذ عجز عن استيفائه بالحاكم ، كالمغصوب ماله . إذا رآه في يد الغاصب ، وقدر على أخذه منه قهراً ؟ فهل تقولون: إنه لا يحل له أخذ عين ماله ، وهو يشاهده في يد الظالم المعتدى ؟ ولا يحل له إخراجه من داره وأرضه ؟ .

وكذلك إذا غصب زوجته وحال بينه وبينها ، وعقد عليها ظاهراً ، بحيث لا يتهم فهل يحرم على الزوج الأول انتزاع زوجته منه ، خشية التهمة ؟ وهذا لا تقولونه أنتم ، ولا أحد من أهل

العلم .

ولهذا قال الشافعي ، وقد ذكر حديث هِنْدٍ : وإذ قد دلت السنة وإجماع كثير من أهل العلم على أن يأخذ الرجل حقه لنفسه سراً ، فقد دل أن ذلك ليس بخيانة . إذ الخيانة أخذ ما لا يحل له أخذه .

فالجواب: أنا نقول ، يجوز له أن يستوفي قدر حقه ، لكن بطريق مباح ، فأما بخيانة وطريق محرمة فلا .

(221/294)

وقولكم: ليس ذلك بخيانة قلنا : بل هو خيانة حقيقة ، ولغة ، وشرعاً ، وقد سماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم خيانة ، وغايتها أنها خيانة مقابلة ومقاصة ، لا خيانة ابتداء ، فيكون كل واحد منهما مسيئا إلى الآخر ظالما له ، فإن تساوت الخيانتان قدراً وصفة فقد يتساقط إثمهما ، والمطالبة فى الآخرة ، أو يكون لكل منهما على الآخر مثل ما للآخر عليه وإن بقى لأحدهما فضل رجع به ، فهذا فى أحكام الثواب والعقاب .

وأما فى أحكام الدنيا فليس كذلك ، لأن الأحكام فيها مرتبة على الظواهر ، وأما السرائر فإلى الله ، ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وأله وسلم: "إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَّى ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَقْضِى بِنَحْوِ ما أَسْمَعُ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِه مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلا يأْخُذْهُ ، فَإِنَما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ" .

فأخبر صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه يحكم بينهم بالظاهر ، وأعلم المبطل فى نفس الأمر أن حكمه لا يحل له أخذ ما يحكم له به ، وأنه مع حكمه له به فإنما يقطع له قطعة من النار ، فإذا كان الحق مع هذا الخصم فى الظاهر وجب على الحاكم أن يحكم له به ، ويقره بيده وإن كانت يدا عادية ظالمة عند الله تعالى ، فكيف يسوغ لخصمه أن يحكم لنفسه ، ويستوفى لنفسه بطريق محرمة باطلة ، لا يحكم بمثلها الحاكم وإن كان محقاً فى نفس الأمر ؟ .

وليس هذا بمنزلة من رأى عين ماله أو أمته أو زوجته بيد غاصب ظالم ، فخلصها منه قهراً

، فإنه قد تعين حقه فى هذا العين ، بخلاف صاحب الدين ، فإن حقه لم يتعين فى تلك العين التى يريد أن يستوفى منها ، ولأنه لا يتكتم بذلك ، ولا يستخفى به ، كما يفعل الخائن ، بل يكابر صاحب اليد العادية ويغالبه ، ويستعين عليه بالناس ،

فلا ينسب إلى خيانة ، والأول متكتم مستخف ، متصور بصورة خائن وسارق . فإلحاق أحدهما بالآخر باطل ، والله أعلم .

(222/294)

فصل

القسم الخامس من الحيل .

أن يقصد حل ما حرمه الشارع ، أو سقوط ما أوجبه ، بأن يأتى بسبب نصبه الشارع سبباً إلى أمر مباح مقصود ، فيجعله المحتال المخادع سبباً إلى أمر محرم مقصود اجتنابه . فهذه هى الحيل المحرمة التى ذمها السلف ، وحرموا فعلها وتعليمها .

وهذا حرام من جهتين: من جهة غايته ، ومن جهة سببه .

أما غايته: فإن المقصود به إباحة ما حرمه الله ورسوله ، وإسقاط ما أوجبه .

وأما من جهة سببه: فإنه اتخذ آيات الله هزواً ، وقصد بالسبب ما لم يشرع لأجله ، ولا

قصده به الشارع ، بل قصد ضده ، فقد ضاد الشارع فى الغاية والحكمة والسبب جميعا .

وقد يكون أصحاب القسم الأول من الحيل أحسن حالاً من كثير من أصحاب هذا القسم ، فإنهم يقولون: إن ما نفعله حرام ، وإثم ، ومعصية ، ونحن أصحاب تحيل بالباطل ، عصاة لله ورسوله ، مخالفون لدينه . وكثير من هؤلاء يجعلون هذا القسم من الدين الذى جاءت به الشريعة ، وأن الشارع جوز لهم التحيل بالطرق المتنوعة على إباحة ما حرمه ، وإسقاط ما أوجبه ، فأين حال هؤلاء من حال أولئك ؟ .

ثم إن هذا النوع من الحيل يتضمن نسبة الشارع إلى العبث ، وشرع ما لا فائدة فيه إلا زيادة الكلفة والعناء ، فإن حقيقة الأمر عند أرباب الحيل الباطلة: أن تصير العقود الشرعية عبثا لا فائدة فيها ، فإنها لم يقصد بها المحتال مقاصدها التى شرعت لها ، بل لا غرض له فى مقاصدها وحقائقها البتة ، وإنما غرضه التوصل بها إلى ما هو ممنوع منه ، فجعلها سترة وجنة يتستر بها من ارتكاب ما نهى عنه صرفاً ، فأخرجه فى قالب الشرع .

كما أخرجت الجهمية التعطيل فى قالب التنزيه .

وأخرج المنافقون النفاق فى قالب الإحسان والتوفيق والعقل المعيشى .

وأخرج الظلمة الفجرة الظلم والعدوان فى قالب السياسة وعقوبة الجناة .

وأخرج المكاسون أكل المكوس فى قالب إعانة المجاهدين ، وسد الثغور ، وعمارة الحصون .

وأخرج الروافض الإلحاد والكفر ، والقدح فى سادات الصحابة وحزب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وأوليائه وأنصاره ، فى قالب محبة أهل البيت ، والتعصب لهم ، وموالاتهم .

وأخرجت الإباحية وفسقة المنتسبين إلى الفقر والتصوف بدعهم وشطحهم فى قالب الفقر ، والزهد ، والأحوال ، والمعارف ، ومحبة الله ، ونحو ذلك .

وأخرجت الاتحادية أعظم الكفر والإلحاد فى قالب التوحيد ، وأن الوجود واحد لا اثنان ، وهو الله وحده ، فليس هاهنا وجودان: خالق ، ومخلوق ولا رب وعبد ، بل الوجود كله واحد ، وهو حقيقة الرب .

وأخرجت القدرية إنكار عموم قدرة الله تعالى على جميع الموجودات: أفعالها ، وأعيانها ، فى قالب العدل ، وقالوا: لو كان الرب قادراً على أفعال عباده لزم أن يكون ظالما لهم ، فأخرجوا تكذيبهم بالقدر فى قالب العدل .

وأخرجت الجهمية جحدهم لصفات كماله سبحانه فى قالب التوحيد ، وقالوا: لو كان له سبحانه سمع وبصر ، وقدرة ، وحياة ، وإرادة ، وكلام يقوم به لم يكن واحداً وكان آلهة

متعددة .

وأخرجت الفسقة والذين يتبعون الشهوات الفسوق والعصيان فى قالب الرجاء وحسن الظن بالله تعالى ، وعدم إساءة الظن بعفوه ، وقالوا : تجنب المعاصى والشهوات إزراء بعفو الله تعالى ، وإساءة للظن به ، ونسبة له إلى خلاف الجود والكرم والعفو .

وأخرجت الخوارج قتال الأئمة ، والخروج عليهم بالسيف فى قالب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وأخرج أرباب البدع جميعهم بدعهم فى قوالب متنوعة ، بحسب تلك البدع .

وأخرج المشركون شركهم فى قالب التعظيم لله ، وأنه أجل من أن يتقرب إليه بغير وسائط وشفعاء ، وآلهة تقربهم إليه .

فكل صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه فى قالب حق .

والمقصود : أن أهل المكر والحيل المحرمة يخرجون الباطل فى القوالب الشرعية ، ويأتون بصور العقود دون حقائقها ومقاصدها .

فصل

وهذا القسم من أقسام الحيل أنواع:

أحدها : الاحتيال لحل ما هو حرام فى الحال . كالحيل الربوية ، وحيلة التحليل .

الثانى : الاحتيال على حل ما انعقد سبب تحريمه ، فهو صائر إلى التحريم ولا بد ، كما إذا علق طلاقها بشرط محقق ، تعليقاً يقع به ، ثم أراد منع وقوع الطلاق عند الشرط فخالعها خلع الحيلة ، حتى بانت ، ثم تزوجها بعد ذلك .

الثالث : الاحتيال على إسقاط ما هو واجب فى الحال ، كالاحتيال على إسقاط الإنفاق الواجب عليه ، وأداء الدين الواجب ، بأن يملك ماله لزوجته أو ولده ، فيصير معسراً ، فلا يجب عليه الإنفاق والأداء ، وكمن يدخل عليه رمضان ولا يريد صومه ، فيسافر ولا غرض له سوى الفطر ، ونحو ذلك .

الرابع : الاحتيال على إسقاط ما انعقد سبب وجوبه ولم يجب ، لكنه صائر إلى الوجوب . فيحتال حتى يمنع الوجوب ، كالاحتيال على إسقاط الزكاة ، بتمليكه ماله قبل مضى الحول لبعض أهله ، ثم استرجاعه بعد ذلك . وهذا النوع ضربان :

أحدهما : إسقاط حق الله تعالى بعد وجوبه ، أو انعقاد سببه .

والثانى : إسقاط حق المسلم بعد وجوبه . أو انعقاد سببه . كالاحتيال على إسقاط الشفعة التى شرعت دفعاً للضرر عن الشريك ، قبل وجوبها أو بعده .

الخامس : الاحتيال على أخذ حقه أو بعضه أو بدله بخيانة كما تقدم . وله صور كثيرة .

منها : أن يجحده دينه ، كما جحده .

ومنها : أن يخونه فى وديعته ، كما خانه .

ومنها : أن يغشه فى بيع معيب ، كما غشه هو فى بيع معيب .

ومنها : أن يسرق ماله كما سرق ماله .

ومنها : أن يستعمله بأجره دون أجرة مثله ظلما وعدواناً ، أو غروراً وخداعاً . أو غبنا ، فيقدر المستأجر له على مال فيأخذ تمام أجرته .

وهذا النوع يستعمله كثير من أرباب الديوان ، ونظار الوقوف ، والعمال ، وجباة الفيء والخراج والجزية والصدقة ، وأمثالهم . فإن كان المال مشتركاً بين المسلمين رتعوا وربعوا ، ورأى أحدهم أن من الغبن أن يفوته شئ منه . ويرى إن عدل أن له نصف ذلك المال .

ويسعى فى السدس ، تكملة للثلثين كما قيل فى بعضهم:

(225/294)

لَهُ نِصْفُ بَيْتِ المالِ فَرْضٌ مُقَرَّرٌ وَفى سُدُسِ التَّكْمِيلِ يَسْعَى لِيَخْلُصَا

مِنَ القَوْمِ لا تُثْنِيهُمُ عَنْ مُرَادِهِمْ عُقُوبَةُ سُلْطَانٍ بِسَوْطٍ وَلا عَصَا

فصل

وقد عرف بما ذكرنا الفرق بين الحيل التى تخلص من الظلم والبغى والعدوان ، والحيل التى يحتال بها على إباحة الحرام ، وإسقاط الواجبات ، وإن جمعهما اسم الحيلة والوسيلة .

وعرف بذلك أن العينة لا تخلص من الحرام ، وإنما يتوسل بها إليه ، وهو المقصود الذى اتفقا عليه ، ويعلمه الله تعالى من نفوسهما وهما يعلمانه ، ومن شاهدهما يعلمه .

وكذلك تمليك ماله لولده عند قرب الحول ، فراراً من الزكاة ، لا يخلص من الإثم ، بل يغمسه فيه ، لأنه قصد إلى إسقاط فرض قد انعقد سببه ، ولكن عذر من جوز ذلك أنه لم يسقط الواجب ، وإنما أسقط الوجوب وفرق بين الأمرين ، فإن له أن يمنع الوجوب ، وليس له أن يمنع الواجب .

وهكذا القول فى التحيل على إسقاط الشفعة قبل البيع ، فإنه يمنع وجوب الاستحقاق . ولا يمنع الحق الذى وجب بالبيع فذلك لا يجوز ، وهو نظير منع الزكاة بعد وجوبها فذلك لا يجوز بحيلة ولا غيرها .

وكذلك التحيل على منع وجوب الجمعة عليه ، بأن يسكن فى مكان لا يبلغه النداء أولا يمكنه الذهاب منه إلى الجمعة والرجوع فى يومه ، أو السفر قبل دخول وقتها ، ولا يجوز له التحيل على تركها بعد وجوبها عليه .

وكذلك التحيل على منع وجوب الإنفاق على القريب ، بأن لا يكتسب ما لا يجب فيه الإنفاق . ولا يجوز له التحيل على إسقاط ما وجب من ذلك .

فهذا سر الفرق اعتمده أصحاب الحيل .

وأما المانعون فيجيبون عن ذلك:

(226/294)

بأن هذا لو أجدى على المتحيلين لم يعاقب الله سبحانه وتعالى أصحاب الجنة الذين عزموا على صرامها ليلا ، لئلا يحضرهم المساكين ، فهؤلاء قصدوا دفع الوجوب بعد انعقاد سببه ، وهو نظير التحيل لإسقاط الزكاة بعد ثبوت سببها . وبأن هذا يبطل حكمة الإيجاب . فإن الله سبحانه إنما أوجبها فى أموال الأغنياء طهرة لهم وزكاة ، ورحمة للمساكين ، وسدا لفاقتهم . فالتحيل على منع وجوبها يعود على ذلك كله بالإبطال .

وبأن الشارع لوجوّز التحيل على منع الإيجاب بعد انعقاد سببه ، لم يكن فى الإيجاب فائدة ، إذ ما من أحد إلا ويمكنه التحيل بأدنى حيلة على الدفع ، فيكون الإيجاب عديم الفائدة فإنه إذا أوجبه وجوز إسقاطه بعد انعقاد سبب الإيجاب عاد ذلك بنقض ما قصده .

وبأنه إذا انعقد سبب الوجوب فقد تعلق الوجوب بالمكلف ، فلا يمكنه الشارع من قطع هذا التعليق ، ولا سيما إذا شارف وقت الوجوب وحضر ، حتى كأنه داخل فيه ، كما إذا بقى من الحول يوم ، أو ساعة ، فالإسقاط هاهنا فى حكم الإسقاط بعد الحول سواء ،

ومفسدته كمفسدته ، فإن المصلحة الفائتة بالمنع بعد تلك الساعة كالمفسدة الحاصلة بالتسبب إلى المنع قبلها من كل وجه .

وبأن الحكم بعد انعقاد سببه كالثابت الذى قد صح ووجد .

وبأن الوجوب قد تحقق بانعقاد سببه وإنما جوز له التأخير إلى تمام الحول توسعة عليه ولهذا يجوز له أداء الواجب قبل الحول ، ويكون واقعاً موقعه ، ولأن الفرار من الإيجاب إنما يقصد به الفرار من أداء الواجب ، وأن يسقط ما فرضه الله عليه عند مضى الحول . وليس هذا كمن ترك اكتساب المال الذى يجب فيه الزكاة ، فرارا من وجوبها عليه ، أو ترك بيع الشْقص فراراً من أخذ الشفيع له أو ترك التزوج فرار أمن وجوب الإنفاق ونحو ذلك ، فإن هذا لم ينعقد فى حقه السبب . بل ترك ما يفضى إلى الإيجاب ، ولم يتسبب إليه ، وهذا تحيل بعد السبب على إسقاط ما تعلق به من أداء الواجب . واحتال على قطع سببيته بعد ثبوتها .

(227/294)

وأيضاً ، فإن قطع سببية السبب تغيير لحكم الله ، وإسقاط للسببيه بالتحيل ، وليس ذلك للمكلف ، فإن الله سبحانه هو الذى جعل هذا سببا بحكمه وحكمته ، فليس له أن يبطل هذا الجعل بالحيلة والمخادعة ، وهذا بخلاف ما إذا وهبه ظاهراً وباطنا ، أو أنفقه فإنه لم

يحتل بإظهار أمر وإبطان خلافه على منع الإيجاب ، وأداء الواجب .

وأيضاً ، فإنه إذا احتال على منع الإيجاب تضمن ذلك الحيلة على منع أداء الواجب .

ومعلوم أن منعه أداء الواجب فقط أيسر من تحيله على الأمرين جميعاً .

وأيضاً فإنه لا يصح فراره من الوجوب مع إتيانه بسببه ، فإن الفارّ من الشيء فار من أسبابه ، وهذا أحرص شئ على الملك الذى هو سبب وجوب الحق عليه ، ومن حرصه عليه: تحيلَ على ترك الإخراج حرصاً وشحاً . فهو فار من أداء الواجب ، ظاناً أنه يفر من وجوبه عليه . والأول حاصل له دون الثانى .

ونكتة الفرق من جهة الوسيلة والمقصود ، فإن المحتال على المحرمات ، وإسقاط الواجبات ، مقصوده فاسد ، ووسيلته باطلة . فإنه توسل بالشيء إلى غير مقصوده ، وتوسل به إلى مقصود محرم .

فإن الله سبحانه إنما جعل النكاح وسيلة إلى المودة والرحمة ، والمصاهرة والنسل ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، والتمتع والإيواء ، وغير ذلك من مقاصد النكاح ، والمحلل لم يتوسل به إلى شئ من ذلك بل إلى تحليل ما حرمه الله تعالى ، فإنه سبحانه حرمها على المطلق ثلاثا عقوبة له ، فتوسل هذا بنكاحها إلى تحليل ما حرمه الله تعالى له ، ولم يتوسل به إلى ما شرع له . فكان القصد محرماً ، والوسيلة باطلة .

وكذلك شرع الله البيع وسيلة إلى انتفاع المشترى بالعين والبائع بالثمن ، فتوسل به المرابى إلى

محض الربا ، وأتى به لغير مقصوده . فإنه لا غرض له فى تملك تلك العين ، ولا الانتفاع بها ، وإنما غرضه الربا ، فتوسل إليه بالبيع .

(228/294)

وكذلك شرع سبحانه الأخذ بالشفعة دفعاً للضرر عن الشريك . فتوسل المبطل لها بإظهار الصرف الذى لا حقيقة له إلى إبطالها ، فكانت وسيلته باطلة ، ومقصوده محرماً .

وكذلك الزكاة . فرضها رحمة منه بالمساكين ، وطهرة للأغنياء ، فتوسل المسقط لها إلى إبطال هذا المقصود بإظهار عقد لا حقيقة له ، من بيع ، أو هبة .

وكذلك القرض شرع الله سبحانه فيه العدل ، وأن لا يزداد على مثل ما أقرضه . فإذا احتال المقرض على الزيادة فقد احتال على مقصود محرم بطريق باطلة .

وكذلك بيع الثمر قبل بُدُوّ صلاحها باطل ، لما يفضى إليه من أكل المال بالباطل ، فإذا احتال عليه بأن شرط القطع ثم تركه حتى يكمل ، كان قد احتال على مقصود محرم بشرط غير مقصود ، بل قد علم المتعاقدان وغيرهما أنه لا يقطعه ، ولا سيما إن كان مما لا ينتفع به قبل الصلاح بوجه كالتوت والفرسك وغيرهما . فاشتراط قطعه خداع محض .

وكذلك سائر الحيل التى تعود على مقصود الشارع وشرعه بالنقض والإبطال ، غاياتها

محرمة ، ووسائلها باطلة لا حقيقة لها .

وكذلك الفدية والخلع التى شرعها الله ليخلص كلا من الزوجين من الآخر إذا وقع الشقاق بينهما ، فجعلوه حيلة للحنث فى اليمين ، وبقاء النكاح . والله سبحانه إنما شرعه لقطع النكاح . حيث يكون قطعه مصلحة لهما .

وبهذا يتبين لك الفرق بين الحيل التى يتوصل بها

إلى تنفيذ أمر الله تعالى ورسوله وإقامة دينه ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ونصر الحق ، وكسر المبطل . والحيل التى يتوصل بها إلى خلاف ذلك . فتحصيل المقاصد المشروعة بالطرق التى جعلت موصلة إليها شئ ، وتحصيل المقاصد الفاسدة بالطرق التى جعلت لغيرها شئ آخر .

فالفرق بين النوعين ثابت من جهة الوسيلة والمقصود ، اللذين هما : المحتال به والمحتال عليه .

فالطرق الموصلة إلى الحلال المشروع هى الطرق التى لا خداع فى وسائلها ، ولا تحريم فى مقاصدها ، وبالله التوفيق .

فصل

[الرد على أقوال من يجيز الحيل]

وأما قولكم: إن من حلف بطلاق زوجته: ليشربن هذا الخمر ، أو ليقتلن هذا الرجل ، أو نحو ذلك – كان فى الحيلة تخليصه من هذه المفسدة . ومن مفسدة وقوع الطلاق .

فيقال: نعم والله ، قد شرع الله له ما يتخلص به ، ولخلاصه طرق عديدة ، فلا تتعين الحيلة التى هى خداع ومكر لتخليصه ، بل ها هنا طرق عدة قد سلك كل طريق منها طائفة من الفقهاء من سلف الأمة وخلفها .

الطريق الأولى: طريقة من قال: لا تنعقد هذه اليمين بحال ، ولا يحنث فيها بشيء سواء كانت بصيغة الحلف ، كقوله "الطلاق يلزمنى لأفعلن" أو بصيغة التعليق المقصود كقوله "إن طلعت الشمس ، أو إن حضت ، أو إن جاء رأس الشهر ، فأنت طالق" أو التعليق المقصود به اليمين ، من الحض والمنع ، والتصديق والتكذيب ، كقوله "إن لم أفعل كذا ، وإن فعلت كذا ، فامرأتى طالق" وهذا اختيار أجل أصحاب الشافعى ، الذين جالسوه ، أو من هو من أجلهم: أبى عبد الرحمن . وهو أجل من أصحاب الوجوه المنتسبين إلى الشافعى ، وهذا مذهب أكثر أهل الظاهر .

فعندهم أن الطلاق لا يقبل التعليق كالنكاح ، ولم يرد مخالفوا هؤلاء عليهم بحجة تشفى .

الطريق الثانية: طريق من يقول: لا يقع الطلاق المحلوف به ، ولا العتق المحلوف به ، ويلزمه كفارة اليمين إذا حنث فيه ، وهذا مذهب ابن عمر ، وابن عباس ، وأبى هريرة ، وعائشة

، وزينب بنت أم سلمة ، وحفصة ، فى الحلف بالعتق الذى هو قربه إلى الله تعالى ، بل من أحب القرب إلى الله ، ويسرى فى ملك الغير ، فما يقول هؤلاء فى الحلف بالطلاق الذى هو أبغض الحلال إلى الله تعالى ، وأحب الأشياء إلى الشيطان ؟ . والسائل لهؤلاء الصحابة إنما كان امرأة حلفت بأن كل مملوك لها حر إن لم تفرق بين عبدها وبين امرأته . فقالوا لها كفرى عن يمينك ، وخلى بين الرجل وبين امرأته .

(230/294)

وهؤلاء الصحابة أفقه فى دين الله وأعلم من أن يفتوا بالكفارة فى الحلف بالعتق ويرونه يمينا . ولا يرون الحلف بالطلاق يمينا ، . ويلزمون الحانث بوقوعه ، فإنه لا يجد فقيه شم رائحة بين البابين والتعليقين فرقاً بوجه من الوجوه .

وإنما لم يأخذ به أحمد ، لأنه لم يصلح عنده إلا من طريق سليمان التيمى ، واعتقد أنه تفرد به . وقد تابعه عليه محمد بن عبد الله الأنصارى ، وأشعث الحمرانى ، ولهذا لما ثبت عند أبى ثور قال به ، وظن الإجماع فى الحلف بالطلاق على لزومه ، فلم يقل به .

الطريق الثالثة: طريق من يقول: ليس الحلف بالطلاق شيئاً ، وهذا صحيح عن طاوس ، وعكرمة .

أما طاوس فقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه: أنه كان لا يرى الحلف بالطلاق شيئاً .

وقد رد بعض المتعصبين لتقليدهم ومذاهبهم هذا النقل بأن عبد الرزاق ذكره فى باب يمين المكره ، فحمله على الحلف بالطلاق مكرها ، وهذا فاسد ، فإن الحجة ليست فى الترجمة . وإنما الاعتبار بما يروى فى أثناء الترجمة ، ولا سيما المتقدمين ، كابن أبى شيبة ، وعبد الرزاق ووكيع وغيرهم ، فإنهم يذكرون فى أثناء الترجمة آثاراً لا تطابق الترجمة ، وإن كان لها بها نوع تعلق ، وهذا فى كتبهم – لمن تأمله – أكثر وأشهر من أن يخفى ، وهو فى صحيح البخارى وغيره ، وفى كتب الفقهاء وسائر المصنفين .

ثم لو فهم عبد الرزاق هذا ، وأنه فى يمين المكره ، لم تكن الحجة فى فهمه ، بل الأخذ بروايته ، وأى فائدة فى تخصيص الحلف بالطلاق بذلك ؟ بل كل مكره حلف بأى يمين كانت ، فيمينه ليست بشيء .

وأما عكرمة ، فقال سنيد بن داود فى تفسيره: حدثنا عباد بن عباد المهلبى عن عاصم الأحول عن عكرمة: فى رجل قال لغلامه: إن لم أجلدك مائة سوط فامرأتى طالق ، قال "لا يجلد غلامه ، ولا يطلق امرأته ، هذا من خطوات الشيطان" .

فإذا ضممت هذا الأثر إلى أثر ابن طاوس عن أبيه ، إلى أثر ابن عباس ، فيمن قالت

لمملوكها : إن لم أفرق بينك وبين امرأتك فكل مملوك لى حر ، إلى الآثار المستفيضة عن ابن عباس فى الحلف بتحريم الزوجة: أنها يمين يكفرها – تبين لك ما كان عليه ابن عباس وأصحابه فى هذا الباب .

فإذا ضممت ذلك إلى آثار الصحابة فى الحلف بالتعليقات . كالحج ، والصوم ، والصدقة ، والهدى ، والمشى إلى مكة حافياً ، ونحو ذلك: أنها أيمان مكفرة – تبين لك حقيقة ما كان عليه الصحابة فى ذلك .

فإذا ضممت ذلك إلى القياس الصحيح الذى يستوفى فيه حكم الأصل والفرع: تبين لك توافق القياس وهذه الآثار .

فإذا ارتفعت درجة أخرى ، ووزنت ذلك بالنصوص من القرآن والسنة ، تبين لك الراجح من المرجوح .

ومع هذا كله فلا يدان لك بمقاومة السلطان ، ومن يقول: حكمت وثبت عندى ، فالله المستعان .

الطريق الرابعة: طريق من يفرق بين أن يحلف على فعل امرأته أو فعل نفسه ، أو على غير الزوجة ، فيقول: إن قال لامرأته "إن خرجت من الدار ، أو كلمت رجلاً ، أو فعلت كذا فأنت طالق" فلا يقع عليه الطلاق بفعلها ذلك ، وإن حلف على فعل نفسه ، أو غير امرأته ،

وحنث لزمه الطلاق .

وهذا قول أفقه أصحاب مالك على الإطلاق ، وهو أشهبُ بن عبد العزيز ، ومحله من الفقه ، والعلم غير خاف .

ومأخذُ هذا : أن المرأة إذا فعلت ذلك لتطلق نفسها ، لم يقع به الطلاق ، معاقبة لها بنقيض قصدها ، وهذا جار على أصول مالك وأحمد ، ومن وافقهما فى معاقبة الفار من التوريث والزكاة ، وقاتل مورثه ، والموصى له ، ومن دبَّره بنقيض قصده ، وهذا هو الفقه ، لا سيما وهو لم يرد طلاقها ، إنما أراد حضها ، أو منعها ، وأن لا تتعرض لما يؤذيه ، فكيف يكون فعلها سببا لأعظم أداه ؟ وهو لم يملكها ذلك بالتوكيل والخيار ، ولا ملكها الله إياه بالفسخ ، فكيف تكون الفرقة إليها ، إن شاءت أقامت معه ، وإن شاءت فارقته بمجرد حضها ومنعها ؟ وأى شئ أحسن من هذا الفقه ، وأطرد على قواعد الشريعة ؟ .

(232/294)

الطريق الخامسة: طريق من يُفصّل بين الحلف بصيغة الشرط والجزاء ، والحلف بصيغه الالتزام .

فالأول: كقوله: إن فعلتُ كذا ، أو إن لم أفعله ، فأنت طالق .

والثانى: كقوله: الطلاق يلزمنى، أوْلى لازم، أو على الطلاق إن فعلت، أو إن لم أفعل. فلا يلزمه الطلاق فى هذا القسم، إذا حنث دون الأول.

وهذا أحد الوجوه الثلاثة لأصحاب الشافعى، وهو المنقول عن أبى حنيفة وقدماء أصحابه، ذكره صاحب الذخيرة، وأبو الليث فى فتاويه.

قال أبو الليث: ولو قال: طلاقُك على واجب، أو لازم، أو فرض، أو ثابت فمن المتأخرين من أصحابنا من قال: يقع واحدة رجعية، نواه أو لم يَنْوِه، ومنهم من قال: لا يقع وإن نوى، والفارق: العرف.

قال صاحب الذخيرة: وعلى هذا الخلاف: إذا قال: إن فعلت كذا فطلاقك على واجب، أو قال: لازم، ففعلت.

وذكر القُدورى فى شرحه: أن على قول أبى حنيفة: لا يقعُ الطلاق فى الكل، وعند أبى يوسف: إن نوى الطلاق يقع فى الكل، وعن محمد: أنه يقع فى قوله: لازم، ولا يقع فى: واجب.

واختار الصدرُ الشهيدُ الوقوع فى الكل، وكان ظهيرُ الدين المْرِغينانُّى يُفتى بعدم الوقوع فى الكل، هذا كله لفظ صاحب الذخيرة.

وأما الشافعية: فقال ابن يونس، فى شرح التنبيه: وإن قال: الطلاق والعتاق لازم لى، ونواه لزمه لأنهما يقعان بالكناية مع النية، وهذا اللفظ محتمل، فجعل كناية وقال الرويانى:

الطلاق لازم لى: صريح ، وعدّ ذلك فى صرائح الطلاق ، ولعل وجهه غلبة استعماله لإرادة الطلاق . وقال القفال فى فتاويه: ليس بصريح ولا كناية ، حتى لا يقع به الطلاق وإن نواه ، لأن الطلاق لابد فيه من الإضافة إلى المرأة ، ولم يتحقق ، هذا لفظه .

وحكى شيخنا هذا القول عن بعض أصحاب أحمد .

فقد صار الخلاف فى هذا الباب فى المذاهب الأربعة بنقل أصحابها فى كتبهم .

(233/294)

ولهذا التفريق مأخذ آخر من هذا الذى ذكره الشارح ، وهو أن الطلاق لا يصح التزامه ، وإنما يلزم التطليق ، فإن الطلاق هو الواقع بالمرأة ، وهو اللازم لها ، وإنما الذى يلتزمه الرجل: هو التطليق ، فالطلاق لازم لها إذا وقع .

إذا تبين هذا فالتزام التطليق لا يوجب وقوع الطلاق ، فإنه لو قال: إن فعلت كذا فعلى أن أطلقك ، أو تالله على أن أطلقك ، أو فتطليقك لازم لى ، أو واجب على ، وحنث لم يقع عليه الطلاق . فهكذا إذا قال: إن فعلت كذا فالطلاق يلزمنى ، لأنه إنما التزم التطليق ، ولا يقع بالتزامه .

والموقعون يقولون: هو قد التزم حكم الطلاق ، وهو خروج البضع من ملكه ، وإنما يلزمه

حكمه إذا وقع ، فصار هذا الالتزام مستلزما لوقوعه .

فقال لهم الآخرون: إنما يلزمه حكمه إذا أتى بسببه ، وهو التطليق ، فحينئذ يلزمه حكمه ، وهو لم يأت بالتطليق منجزا بلا ريب ، وإنما أتى به معلقاً له ، والتزام التطليق بالتنجيز لا يلزم ، فكيف يلزم بالتعليق ؟ .

والمنصف المتبصر لا يخفى عليه الصحيح ، وبالله التوفيق .

فصل

وممن ذكر الفرق بين الطلاق ، وبين الحلف بالطلاق: القاضى أبو الوليد هشام ابن عبد الله بن هشام الأزدى القرطبى فى كتابه "مفيد الحكام فيما يعرض لهم من نوازل الأحكام" .

فقال فى كتاب الطلاق من ديوانه ، وقد ذكر اختلاف أصحاب مالك فى الأيمان اللازمة .

ثم قال: ولا ينبغى أن تتلقى هذه المسألة هكذا تلقيا تقليدياً إلا أن يشمها نور الفهم ويوضحها لسان البرهان ، وأنا أشير لك إلى نكتة تسعد بالغرض فيها إن شاء الله تعالى .

منها : الفرق بين الطلاق إيقاعاً ، وبين اليمين بالطلاق ، وفى المدونة كتابان موضوعان: أحدهما لنفس الطلاق ، والثانى للأيمان بالطلاق ، ووراء هذا الفن فقه على الجملة .

وذلك

أن الطلاق صورته فى الشرع . حل وارد على عقد ، واليمين بالطلاق عَقد فليفهم هذا .

وإذا كان عقدا لم يحصل منه حل إلا أن تنقله من موضع العقد إلى موضع الحل بنية ، ليخرج بها اللفظ من حقيقته إلى كنايته ، فقد نجمت هذه المسألة فى أيام الحجاج بعد أن استقل الشرع بأصوله وفروعه ، وحقائقه ومجازاته ، فى أيمان البيعة ، وليس فى أيمان الطلاق إلا ما أذكره لك . وذلك أن الطلاق على ضربين: صريح ، وكناية .

فالصريح: كل لفظ استقل بنفسه فى إثبات حكمه تحديداً .

والكناية: على ضربين ، كناية غالبة ، وكناية غير غالبة .

فالغالبة: كل ما أشعر بثبوت الطلاق فى موضوع اللغة ، أو الشرع ، كقوله: الحقى بأهلك ، واعتدّى .

وغير الغالبة: كل ما لا يشعر بثبوت الطلاق فى وضع اللغة والشرع ، كقوله: ناولينى الثوب ، وقال: أردت بذلك الطلاق .

فإذا عرضنا لفظ الأيمان يلزمنى على صريح الطلاق لم تكن من قسمه ، وإن عرضناها على الكناية ، لم تكن من قسيمها إلا بقرينة ، من شاهد حال ، أو جارى عرف ، أو نية تقارن اللفظ ، فإن اضطرب شاهد الحال ، أو جارى العرف باحتمال يحتمله ، فقد تعذر الوقوف على النية ، ولا ينبغى لحاكم ولا لغيره أن يمد القلم فى فتوى حتى يتأمل مثل هذه

المعانى ، فإن الحكم إن لم يقع مستوضحاً عن نور فكرى مشعر بالمعنى المربوط اضمحل .

ثم قال: وأنا ذاكر لك ما بلغنى فى هذه اليمين من كلام العلماء ، ورأيته من أقوال الفقهاء ، وهى يمين محدثة ، لم تقع فى الصدر الأول .

ثم ذكر اختلاف أهل العلم فى الحلف بالأيمان اللازمة .

والمقصود : أنه ذكر الفرق الفطرى العقلى الشرعى بين إيقاع الطلاق ، والحلف بالطلاق ، وأنهما بابان مفترقان بحقائقهما ، ومقاصدهما ، وألفاظهما ، فيجب افتراقهما حكماً .

أما افتراقهما بالحقيقة ، فما ذكره من أن الطلاق حل وفسخ ، واليمين عقد والتزام . فهما إذن حقيقتان مختلفتان ، قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيمانَ ﴾ [المائدة: 89] .

(235/294)

ثم أشار إلى الافتراق فى الحكم بقوله: وإذا كانت اليمين عقداً لم يحصل بها حل ، إلا أن ينقل من موضع العقد إلى موضع الحل ، ومن البين أن الشارع لم ينقلها من العقد إلى الحل . فيجب بقاؤها على ما وضعت عليه ، نعم لو قصد الحالف بها إيقاع الطلاق عند الحنث فقد استعملها فى العقد والحل ، فتصير كناية فى الوقوع ، وقد نواه . فيقع به الطلاق ، لأن هذا

العقد صالح للكناية . وقد اقترنت به النية ، فيقع الطلاق . أما إذا نوى مجرد العقد ، ولم ينو الطلاق البتة ، بل هو أكره شئ إليه ، فلم يأت بما ينقل اليمين من موضوعها الشرعى ، ولا نقلها عنه الشارع . فلا يلزمه غير موجب الأيمان .

فليتأمل المنصف العالم هذا الفرق ، ويخرج قلبه ساعة من التعصب والتقليد ، واتباع غير الدليل .

والمقصود : أن باب اليمين وباب الإيقاع مختلفان فى الحقيقة والقصد واللفظ ، فيجب اختلافهما فى الحكم . أما الحقيقة فما تقدم .

وأما القصد . فلأن الحالف مقصوده الحض والمنع ، أو التصديق أو التكذيب ، والمطلق مقصوده التخلص من الزوجة من غير أن يخطر بباله حض ولا منع ، ولا تصديق ولا تكذيب . فالتسوية بينهما لا يخفى حالها .

وأما اختلافهما لفظاً ، فإن لفظ اليمين لا بد فيها من التزام قَسَمِى يأتى فيه بجواب القسم ، أو تعليق شرطى يقصد فيه انتفاء الشرط والجزاء ، أو وقوع الجزاء على تقدير وقوع الشرط ، وإن كان يكرهه ، ويقصد انتفاءه ، فالمقدم فى الصورة الأولى مؤخر فى الثانية ، والمنفى فى الأولى ثابت فى الثانية ، ولفظ الإيقاع لا يتضمن شيئاً من ذلك ، ومن تصور هذا حق التصور جزم بالحق فى هذه المسألة ، والله الموفق .

الطريقة السادسة: أن يزول المعنى الذى كانت اليمين لأجله ، فإذا فعل المحلوف عليه بعد

ذلك لم يحنث ، لأن امتناعه باليمين إنما كان لعلة ، فيزول بزوالها ، وهذا مطرد على أصول الشرع ، وقواعد مذهب أحمد وغيره ممن يعتبر النية والقصد فى اليمين ، تعميما وتخصيصاً وإطلاقاً وتقييداً . فإذا حلف: لا

(236/294)

أكلم فلانة ، وكان سبب اليمين الذى هيجها كونها أجنبية ، يخاف الوقوع فى عرضه بكلامها ، فتزوجها . لم يحنث بكلامها ، إعمالا لسبب اليمين وما هيجها فى التقييد بكونها أجنبية . هذا إذا لم يكن له نية ما دامت كذلك ، أما إذا كانت له نية فلا إشكال فى تقييد اليمين بها .

ونظيره: أن يحلف: لا يكلم فلاناً ، ولا يعاشره . لكونه صبيا ، فصار رجلاً ، وكانت نيته وسبب يمينه لأجل صباه .

ونظيره: أن يحلف: لا دخلت هذه الدار لأجل من يَظُن به التهمة لدخولها ، فمات أو سافر ، فدخلها ، لم يحنث .

وبذلك أفتى أبو حنيفة وأبو يوسف: من حلف: لا دخلت دار فلان هذه ، ولا كلمت عبده هذا . فباع العبد والدار .

ونظير هذا: أن يحلف لا يكلم فلانا ، والحامل له على اليمين كونه تاركاً للصلاة ، أو مرابياً أو خماراً ، أو واليا ، فتاب من ذلك كله ، وزالت الصفة التى حلف لأجلها ، لم يحنث بكلامه .

وكذلك إذا حلف: لا تزوجت فلانة . والحامل له على اليمين صفة فيها ، مثل كونها بغياً أو غير ذلك ، فزالت تلك الصفة لم يحنث بتزوجها .

كل هذا مراعاة للمقاصد التى الألفاظ دالة عليها . فإذا ظهر القصد كان هو المعتبر .

ولهذا لو حلف: ليقضينه حقه فى غد . وقصده ، أو السبب: أن لا يجاوزه ، فقضاه قبله لم يحنث . ولو حلف: لا يبيع عبده إلا بألف فباعه بأكثر لم يحنث .

ولو حلف أن لا يخرج من البلد إلا بإذن الوالى . والنية أو السبب: يقتضى التقييد ما دام كذلك فعزل لم يحنث بالخروج بغير إذنه .

وكذلك لو حلف على زوجته ، أو عبده ، أو أمته: أن لا تخرج إلا بإذنه ، فطلق أو أعتق أو باع ، لم يحنث بخروجهم بغير إذنه . لأن اقتضاء السبب والقصد التقييد فى غاية الظهور .

ونظائر ذلك كثيرة جداً . وسائر الفقهاء يعتبرون ذلك وإن خالفوه فى كثير من المواضع .

وهذا هو الصواب ، لأن الألفاظ إنما اعتبرت لدلالتها على المقاصد ، فإذا ظهر القصد كان

الاعتبار له ، وتقيد اللفظ به . ولهذا لو دعى إلى غداء ، فحلف لا يتغذى تقيدت يمينه بذلك الغداء وحده ، لأن النية والسبب ومناط اليمين لا يقتضى غيره .

وقد أخبر النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم "أن الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى" وما لم ينوه بيمينه ، أو كان السبب لا يقتضيه ، لا يجوز أن يلزم به ، مع القطع بأنه لم يرده ، ولا خطر على باله .

وقد أفتى غير واحد من الفقهاء ، منهم ابن عقيل وشيخنا ، وغيرهما : فيمن قيل له: إن امرأتك قد خرجت من بيتك ، أو قد زنت بفلان ، فقال هى طالق ، ثم تبين له أنها لم تخرج من البيت ، وأن الذى رميت به فى بلد بعيد لا يمكن وصوله إليها ، أو أنه حين رميت به كان ميتا ، ونحو ذلك مما يعلم به أنها لم تزن ، فإنه لا يقع عليه الطلاق ، لأنه إنما طلقها بناء على هذا السبب ، فهو كالشرط فى طلاقها .

وهذا الذى قالوه هو الذى لا يقتضى المذهب وقواعد الفقه غيره ، فإنهم قد قالوا : لو قال: لها أنت طالق ، وقال: أردت إن قمت ، دُين ، ولم يقع به الطلاق ، فهذا مثله سواء .

ونظير هذا : ما قالوه: إن المكاتب لو أدى إلى سيده المال ، فقال: أنت حر ، فبان أن المال الذى أعطاه مستحق ، أو زيوف ، لم يقع العتق ، وإن كان قد صرح به . ذكره أصحاب أحمد والشافعى ، لأنه إنما أعتقه بناء على سلامة العوض ، ولم يسلم له ، وقواعد الشريعة كلها مبنية على أن الحكم إذا ثبت لعلة زال بزوالها .

وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصر .

فهذه الطريقة تخلص من كثير من الحنث .

وإذا تأملت هذه الطرق لرأيت أيتها سلكت أحسن من طرق الحيل التى يتحيلون بها على عدم الحنث ، وهى أنواع:

أحدها : التسريح .

الثانى: خلع اليمين .

الثالث: التحيل لفساد النكاح ، إما بكون الولى كان قد فعل ما يفسق به ، أو الشهود كانوا جلوساً على مقعد حرير ، ونحو ذلك ، فيكون النكاح باطلاً . فلا يقع فيه الطلاق .

(238/294)

الرابع: الاحتيال على فعل المحلوف عليه ، بتغيير اسمه ، أو صفته . أو نقله من مالك إلى مالك ، ونحو ذلك .

فإذا غلبوا عن شئ من هذه الحيل الأربعة فزعوا إلى التيس المستعار ، فاستأجروه ليسفد ويأخذ على سفاده أجرا .

فليوازن من يعلم أنه موقوف بين يدى الله تعالى ومسئول ، بين هذه الطرق وتلك الطرق التى

قبلها . وليقم لله ناظراً ، ومناظراً متجرداً من العصبية والحمية ، فإنه لا يكاد يخفى عليه الصواب ، والله ولى التوفيق .

فصل

وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص: 44] .

فمن العجب أن يحتج بهذه الآية من يقول إنه لو حلف ليضربنه عشرة أسواط ، فجمعها وضربه بها ضربة واحدة لم يبر فى يمينه .

هذا قول أصحاب أبى حنيفة ، ومالك ، وأصحاب أحمد .

وقال الشافعى: إن علم أنها مسته كلها بر فى يمينه ، وإن علم أنها لم تمسه لم يبر . وإن شك لم يحنث ، ولو كان هذا موجباً لبر الحالف لسقط عن الزانى والقاذف والشارب تعدد الضرب ، بأن يجمع له مائة سوط ، أو ثمانين ، ويضرب بها ضربة واحدة ، وهذا إنما يجزئ فى حق المريض ، كما قال الإمام أحمد فى المريض عليه الحد "يضرب بعثكال يسقط عنه الحد" .

واحتج بما رواه عن أبى أمامة بن سهل عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: "كان بين أبياتنا رويجل ضعيف مخدع ، فلم يرع الحى إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها ، قال: فَذَكَرَ ذِلِكَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ لِرَسولِ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلَم ، وكانَ ذِلِكَ الرَّجُلُ

مُسْلِماً ، فقَالَ: "اضْرِبُوهُ حَدَّهُ" ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّهُ أَضْعَفُ مَّمِا تَحْسبُ ، لَوْ ضَرَبْنَاهُ مِائَةً قَتَلْنَاهُ ، فقَالَ: "خُذُوا له عِثْكالاً فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ ، ثُمَّ اضْرِبُوهُ بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً ، فَفَعَلُوا" .

(239/294)

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق ، فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه تلتمس له الدواء بما تقدر عليه . فلما لقيها الشيطان وقال ما قال ، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك ، فقال: إنه الشيطان ، ثم حلف: لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط ، فكانت معذورة محسنة فى شأنه ، ولم يكن فى شرعهم كفارة ، فإنه لو كان فى شرعهم كفارة لعدل إلى التكفير ، ولم يحتج إلى ضربها ، فكانت اليمين موجبة عندهم ، كالحدود ، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه ، بأن يجمع له مائة شمراخ ، أو مائة سوط ، فيضرب بها ضربة واحدة ، وامرأة أيوب كانت معذورة ، لم تعلم أن الذى خاطبها الشيطان ، وإنما قصدت الإحسان ، فلم تكن تستحق العقوبة ، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور ، هذا مع رفقها به ، وإحسانها إليه ، فجمع الله له بين البر فى يمينه ، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التى لا تستحق العقوبة . فظهر موافقة نص

القرآن فى قصة أيوب عليه السلام لنص السنة فى شأن الضعيف الذى زنى ، فلا يتعدى بها عن محلها .

فإن قيل: فقولوا هذا فى نظير ذلك ، ممن حلف ليضربن امرأته أو أمته مائة ، وكانتا معذورتين ، لا ذنب لهما : أنه يبر بجمع ذلك فى ضربة بمائة شمراخ.

قيل: قد جعل الله له مخرجاً بالكفارة ، ويجب عليه أن يكفر عن يمينه ، ولا يعصى الله بالبر فى يمينه هاهنا ، ولا يحل له أن يبر فيها ، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة ، ولا يحل له أن يضربها ، لا مفرقاً ولا مجموعاً .

فإن قيل: فإذا كان الضرب واجبا . كالحد ، هل تقولون: ينفعه ذلك ؟

قيل: إما أن يكون العذر مرجو الزوال ، كالحر والبرد الشديد ، والمرض اليسير ، فهذا ينتظر زواله ، ثم يحد الحد الواجب ، كما روى مسلم فى صحيحه عن على رضى الله عنه:

(240/294)

"أَنَّ أَمَةً لرَسولِ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلَم زنَتْ ، فأَمَرَنى أَنْ أَجْلِدَهَا ، فَأَتَيْتُهَا ، فَإِذَا هِى حَدِيثَةُ عَهْدٍ بِنِفَاس ، فَخَشِيتُ إن جَلَدْتُهَا أَنْ أَقْتُلَهَا ، فَذَكَرْتُ ذلِكَ لِرَسُولِ الله صلى اللهُ تعالى عليه وآله وسلَم ، فَقَالَ: أَحْسَنْتَ ، اتْرُكْهَا حَتَّى تَمَاثَلَ" .

فصل

وأما حديث بلال فى شأن التمر ، وقول النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم له: "بِعَ التَّمرَ بِالدَّرَاهمِ ، ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيباً" .

فقال شيخنا : ليس فيه دلالة على الاحتيال بالعقود التى ليست مقصودة لوجوه:

أحدها : أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أمره أن يبيع سلعته الأولى ، ثم يبتاع بثمنها سلعة أخرى ومعلوم أن ذلك إنما يقتضى البيع الصحيح ، ومتى وجد البيعان على الوجه الصحيح جاز ذلك بلا ريب ، ونحن نقول: كل بيع صحيح يفيد الملك ، لكن الشأن فى بيوع قد دلت السنة وأقوال الصحابة على أن ظاهرها ، وإن كان بيعاً ، فإنها ربا وهى بيع فاسد ، ومعلوم أن مثل هذا لا يدخل فى الحديث ، ولو اختلف رجلان فى بيع مثل هذا ، هل هو صحيح ، أو فاسد ؟ وأراد أحدهما إدخاله فى هذا اللفظ ، لم يمكنه ذلك ، حتى يثبت أنه بيع صحيح ، ومتى أثبت أنه بيع صحيح ، لم يحتج إلى الاستدلال بهذا الحديث .

فتبين أنه لا حجة فيه على صورة من صور النزاع ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إغاثة اللهفان حـ 2 صـ 99.3﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والتسعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والتسعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 167 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 170 ﴾ من نفس السورة

(4/295)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تبين بما مضى من جرأتهم على المعاصي وإسراعهم فيها استحقاقهم لدوام الخزي والصغار ، أخبر أنه فعل بهم ذلك على وجه موجب للقطع بأنهم مرتبكون في الضلال ، مرتكبون سيىء الأعمال ، ما دام عليهم ذلك النكال ، فقال : ﴿ وإذ ﴾ وهو عطف على ﴿ وسئلهم ﴾ أي واذكر لهم حين ﴿ تأذن ﴾ أي أعلم إعلاماً عظيماً جهراً معتنى به ﴿ ربك ﴾ أي المربي لك والممهد لأدلة شريعتك والناصر لك على من خالفك .

(5/295)

ولما كان ما قيل جارياً مجرى القسم ، تلقى بلامه ، فكان كأنه قيل : تاذن مقسماً بعزته وعظمته وعلمه وقدرته : ﴿ ليبعثن ﴾ أي من مكان بعيد ، وأفهم أنه بعث عذاب بأداة الاستعلاء المفهمة لأن المعنى : ليسلطن ﴿ عليهم ﴾ أي اليهود ، ومد زمان التسليط فقال : ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ الذي هو الفيصل الأعظم ﴿ من يسومهم ﴾ أي ينزل بهم دائماً ﴿ سوء العذاب ﴾ بالإذلال والاستصغار وضرب الجزية والاحتقار ، وكذا فعل سبحانه فقد سلط عليهم الأمم ومزقهم في الأرض كل ممزق من حين أنكروا رسالة المسيح عليه السلام ، كما أتاهم به الوعد الصادق في التوارة ، وترجمة ذلك موجودة بين أيديهم الآن في قوله في آخر السفر الأول : لا يزول القضيب من آل يهودا ، لا يعدم سبط يهودا ملكاً مسلطاً واتخاذه نبياً مرسلاً حتى يأتي الذي له الملك – وفي نسخة : الكل – وإياه تنتظر الشعوب ، يربط بالحلبة جحشه ؛ وقال السمؤال في أوائل كتابه غاية المقصود : نقول لهم : فليس في التوارة التي في أيديكم ما تفسيره : لا يزول الملك من آل يهودا والراسم بين ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح فلا يقدرون على جحده ، فنقول لهم : إذاً علمتم أنكم كنتم أصحاب دولة وملك إلى ظهور المسيح ثم انقضى ملككم – انتهى .

ومن أيام رسالة المسيح سلط الله عليهم الأمم ومزقهم في الأرض ، فكانوا مرة تحت حكم البابليين ، وأخرى تحت أيدي المجوس ، وكرة تحت قهر الروم من بني العيص ، وأخرى في

أسر غيرهم إلى أن أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضرب عليهم الجزية هو وأمته من بعده .

ولما كان السياق للعذاب وموجباته ، علل ذلك مؤكداً بقوله : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بإذلال أعدائك الذين هم أشد الأمم لك ولمن آمن بك عداوة ﴿ لسريع العقاب ﴾ أي يعذب عقب الذنب بالانتقام باطناً بالنكته السوداء في القلب ، وظاهراً – إن أراد – بما يريد ، وهذا بخلاف ما في الأنعام فإنه في سياق الإنعام بجعلهم خلائف .

(6/295)

ولما رهب ، رغب بقوله : ﴿ وإنه لغفور ﴾ أي محاء للذنوب عيناً وأثراً لمن تاب وآمن ﴿ رحيم ﴾ أي مكرم منعم بالتوفيق لما يرضاه ثم بما يكون سبباً له من الإعلاء في الدينا والآخرة .

(7/295)

ذكر شيء مما هددوا به التوارة على العصيان والبغي والعدوان غير ما تقدم في المائدة عند ﴿ من لعنه الله وغضب عليه ﴾ [المائدة : 60] وغيرها من الايات – قال في السفر الخامس : وإن لم تحفظ وتعمل بجميع الوصايا والسنن التي كتبت في هذا الكتاب وتتق الله ربك وتهب اسمه المحمود المرهوب ، يخصك الرب بضربات موجعة ويبتليك بها ، ويبتلي نسلك من بعدك وتدوم عليك ، ويبقى من نسلك عدد قليل من بعد كثرتهم التي كانت قد صارت مثل نجوم السماء ، وتجلون عن الأرض التي تدخلونها لترثوها ، ويفرقكم الرب بين الشعوب ، وتعبدون هنالك الآلهة الأخرى التي عملت من الحجارة والخشب ، ولا تسكنون أيضاً بين تلك الشعوب ، ولكن يصير الله قلوبكم هناك فزعة مرتجفة بالغداة تقولون : متى نمسي ؟ وبالعشيّ تقولون : متى نصبح ؟ وذلك من فزع قلوبكم وخوفكم وقلة حيلتكم ، ويردكم الله إلى ارض مصر في الوف في الطريق الذي قال الرب : لا تعودوا أن تروه ، وتباعون هناك عبيداً وإماء ، ولا يكون من يشتريكم – هذه أقوال العهد التي أمر الله بها موسى أن يعاهد بني إسرائيل في أرض مؤاب سوى العهد الذي عاهدهم بحوريب ؛ ثم دعا موسى جميع بني إسرائيل وقال لهم : قد رأيتم ما صنع الله بأرض مصر بفرعون وجميع عبيده وكل شعبه والبلايا العظيمه التي رأت أعينكم والآيات والأعاجيب التي شهدتموها ، ولم يعطكم الرب قلوباً تفهم وتعلم ، ولا أعيناً تبصر ولا آذاناً تسمع إلى يومنا هذا ، ودبركم في البرية أربعين سنة ، لم تبل ثيابكم عليكم ولم تخلق خفافكم أيضاً ولم تأكلوا خبزاً ، لتعلموا

أني أنا الله ربكم ، وأنا الذي أتيت بكم إلى هذه البلاد ، فاحفظوا وصايا هذه التوارة واعملوا بها وأتموا جميع الأعمال في طاعة الله وأكملوها ، لأنكم قد عرفتم جميعاً أن كنا سكاناً بأرض مصر وجزنا بين الشعوب ، ورأيتم نجاستهم وأصنامهم ، لعل فيكم اليوم رجلاً أو امرأة أو قبيلة أو سبطاً يميل قلبه عن عبادة الله ربنا ويطلب

(8/295)

عبادة آلهة تلك الشعوب ، فيسمع هذا العهد فيقول : يكون لي السلام فاتبع مسرة قلبي ، هذا لا يريد الرب أن يغفر له ، ولكن هناك يشتد غضب الرب وزجره عليه وينزل به كل اللعن الذي في هذا الكتاب ، ويستأصل الرب اسمه من تحت السماء ويفرزه الرب من جميع أسباط بني إسرائيل للشر والبلايا ويقول الحقب الآخر بنوكم الذين يقومون من بعدكم والغرباء ، وينظرون إلى ضربات تلك الأرض والأوجاع أنزل الله بها ويقول الشعب : لماذا صنع الرب هكذا ؟ ولماذا اشتد غصبة على هذا الشعب العظيم ؟ ويقولون : لأنهم تركوا عهد الله إله آبائهم ، فاشتد غضب الرب على هذه الأمة وأمر أن ينزل بها كل اللعن الذي كتب في هذا الكتاب ، ويجليهم الرب عن بلادهم بغضب وزجر شديد ويبعدهم إلى أرض

غريبة كما ترى اليوم ، فأما الخفايا والسرائر فهي لله ربنا ، والأمور الظاهرة المكشوفة هي لنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 142.144 ﴾

(9/295)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح ههنا بعض مصالح أعمال اليهود وقبائح أفعالهم ذكر في هذه الآية أنه تعالى حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة ، قال سيبويه : أذن أعلم .

وأذن نادى وصاح للإعلام ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : 44]

وقوله : ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ بمعنى أذن أي أعلم .

ولفظة تفعل ، ههنا ليس معناه أنه أظهر شيئاً ليس فيه ، بل معناه فعل فقوله : ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ بمعنى أذن كما في قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : 18] معناه علا وارتفع لا بمعنى أنه أظهر من نفسه العلو ، وإن لم يحصل ذلك فيه وأما قوله ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : أن اللام في قوله : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ ﴾ جواب القسم لأن قوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ ﴾ جار مجرى القسم في كونه جازماً بذلك الخبر .

البحث الثاني : الضمير في قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ يقتضي أن يكون راجعاً إلى قوله : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ [الأعراف : 166] لكنه قد علم أن الذين مسخوا لم يستمر عليهم التكليف .

ثم اختلفوا فقال بعضهم : المراد نسلهم والذين بقوا منهم .

وقال آخرون : بل المراد سائر اليهود فإن أهل القرية كانوا بين صالح وبين متعد فمسخ المتعدي وألحق الذل بالبقية ، وقال الأكثرون : هذه الآية في اليهود الذين أدركهم الرسول صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى شريعته ، وهذا أقرب .

لأن المقصود من هذه الآية تخويف اليهود الذين كانوا في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم وزجرهم عن البقاء على اليهودية ، لأنهم إذا علموا بقاء الذل عليهم إلى يوم القيامة انزجروا .

(10/295)

البحث الثالث : لا شبهة في أن المراد اليهود الذين ثبتوا على الكفر واليهودية ، فأما الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فخارجون عن هذا الحكم .

أما قوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ فهذا تنصيص على أن ذلك العذاب ممدود إلى يوم القيامة وذلك يقتضي أن ذلك العذاب إنما يحصل في الدنيا ، وعند ذلك اختلفوا فيه فقال بعضهم : هو أخذ الجزية .

وقيل : الاستخفاف والإهانة والإذلال لقوله تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ ﴾

وقيل : القتل والقتال .

وقيل : الإخراج والإبعاد من الوطن ، وهذا القائل جعل هذه الآية في أهل خيبر وبني قريظة والنضير ، وهذه الآية نزلت في اليهود على أنه لا دولة ولا عز ، وأن الذل يلزمهم ، والصغار لا يفارقهم .

ولما أخبر الله تعالى في زمان محمد عن هذه الواقعة .

ثم شاهدنا بأن الأمر كذلك كان هذا أخباراً صدقاً عن الغيب ، فكان معجزاً ، والخبر المروي في أن أتباع الرجال هم اليهود إن صح ، فمعناه أنهم كانوا قبل خروجه يهوداً ثم دانوا بإلهيته ، فذكروا بالاسم الأول ولولا ذلك لكان في وقت اتباعهم الدجال قد خرجوا عن الذلة والقهر ، وذلك خلاف هذه الآية .

واحتج بعض العلماء على لزوم الذل والصغار لليهود بقوله تعالى :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَمَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ الله ﴾ [آل عمران : 112] إلا أن دلالتها ليست قوية لأن الاستثناء المذكور في هذه الآية يمنع من القطع على لزوم الذل لهم في كل الأحوال .

أما الآية التي نحن في تفسيرها لم يحصل فيها تقييد ولا استثناء ، فكانت دلالتها على هذا المعنى قوية جداً .

واختلفوا في أن الذين يلحقون هذا الذل بهؤلاء اليهود من هم ، فقال بعضهم : الرسول وأمته وقيل يحتمل دخول الولاة الظلمة منهم ، وإن لم يؤمروا بالقيام بذلك إذا أذلوهم .

(11/295)

وهذا القائل حمل قوله : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ ﴾ على نحو قوله : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ [مريم : 83] فإذا جاز أن يكون المراد بالإرسال التخلية ، وترك المنع ، فكذلك البعثة ، وهذا القائل .

قال : المراد بختنصر وغيره إلى هذا اليوم ، ثم أنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب ﴾ والمراد التحذير من عقابه في الآخرة مع الذلة في الدنيا ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لمن تاب من الكفر واليهودية ، ودخل في الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 34.35 ﴾

(12/295)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾

يعني : أعلم ربك ويقال : قال ربكم وكل شيء في القرآن تأذن فهو إعلام .

ومعناه قال : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ ﴾ أي ليسلطن ﴿ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ أي على بني إسرائيل ، والذين لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَن يَسُومُهُمْ سُوء العذاب ﴾ يعني : يعذبهم بالجزية والقتل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب ﴾ إذا عاقب من أصرّ على كفره ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ ﴾ لمن تاب من الشرك ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بعد ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ أذّن وأعلم ربّك مثل قولهم تعلم بمعنى أعلم . وأنشد المبرّد :

تعلم أن خير الناس حي . . . ينادي في شعارهم يسار

وقال زهير :

فقلت تعلم أن للصيد غرّة . . . فان لا تضيعها فإنّك قاتله

وقال ابن عباس : (تأذن ربّك) قال ربّك ، وقال مجاهد : أمر ربّك ، وقال عطاء : حتم ، وقال أبو عبيد : أخبر ، وقال قطرب : وعد .

﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سواء العذاب ﴾ هم اليهود بعث الله عليهم محمداً وأمته يقاتلونهم حتّى يسلموا أو يعطوا الجزية ، وقال سعيد بن جبير : هم أهل الكتاب بعث الله عليهم العرب يجبونهم الخراج إلى يوم القيامة فهو سوء العذاب ولم يجب نبي قط الخراج إلاّ موسى (عليه السلام) فهو أول من وضع الخراج فجباه ثلاث عشرة سنة ثمّ أمسك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(13/295)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه تفعُّل من الإذن ومعناه أعلم ، قاله الحسن ، ومنه قول الأعشى :

أَذَّنَ الْقَوْمُ جِيرَتِي بِخُلُوفِ . . . صَرَمُوا حَبْلَ آلِفٍ مَأْلُوفِ

والثاني : معناه نادى وأقسم ، قاله الزجاج .

﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني على اليهود .

﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ والمبعوثون هم العرب ، وسوء العذاب هو الذلة وأخذ الجزية ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

ويقال إن أول من وضع الخراج وجباه من الأنبياء موسى ، فجبى الخراج سبع سنين وقيل ثلاث عشرة ثم أمسك إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال سعيد بن المسيب : استحب أن أبعث في الجزية الأنباط . ولا أعلم لاستحبابه ذلك وجهاً إلا أن يكون لأنهم من قوم بختنصر فهم أشد انتقاماً ، أو لأنها قد كانت تؤخذ منهم على استيفائها لأجل المقابلة أحرص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(14/295)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾

بنية تأذن هي التي تقتضي التكسب من أذن أي علم ومكن وآذن أي أعلم مثل كرم وأكرم

وتكرم إلا أن تعلم وما جرى مجرى هذا الفعل إذا كان مسنداً إلى اسم الله عز وجل لم يلحقه معنى التكسب الذي يلحق المحدثين ، فإنما يترتب بمعنى علم صفة لا بتكسب بل هي قائمة بالذات وإلى هذا المعنى ينحو الشاعر بقوله :

تعلم أبيت اللعن . . . لأنه لم يأمره بالتعلم الذي يقتضي جهالة وإنما أراد أن يوقفه على قوة علمه ، ومنه قول زهير :

تعلم إن شر الناس حي . . . ينادي في شعارهم يسار

فمعنى هذه الآية وإذ علم الله ليبعثن عليهم ، ويقتضي قوة الكلام أن ذلك العلم منه مقترن بإنفاذ وإمضاء ، كما تقول في أمر قد عزمت عليه غاية العزم علم الله لأفعلن كذا ، نحا إليه أبو علي الفارسي ، وقال الطبري وغيره ﴿ تأذن ﴾ معناه أعلم وهو قلق من جهة التصريف إذ نسبة ﴿ تأذن ﴾ إلى الفاعل غير نسبة أعلم ، وتبين ذلك من التعدي وغيره ، وقال مجاهد : ﴿ تأذن ﴾ معناه قال ، وروي عنه أن معناه أمر ، وقالت فرقة : معنى ﴿ تأذن ﴾ تألى .

قال القاضي أبو محمد : وقادهم إلى هذا القول دخول اللام في الجواب ، وأما اللفظة فبعيدة عن هذا ، والضمير في ﴿ عليهم ﴾ لمن بقي من بني إسرائيل لا للضمير في " لهم " . وقوله : ﴿ من يسومهم ﴾ قال سعيد بن جبير هي إشارة إلى العذاب ، وقال ابن عباس هي إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

(15/295)

قال القاضي أبو محمد : والصحيح أنها عامة في كل من حال اليهود معه هذه الحال ، و ﴿ يسومهم ﴾ معناه يكلفهم ويحملهم ، و ﴿ سوء العذاب ﴾ الظاهر منه الجزية والإذلال ، وقد حتم الله عليهم هذا وحط ملكهم فليس في الأرض راية ليهودي ، وقال ابن المسيب فيستحب أن تتعب اليهود في الجزية ، ولقد حدثت أن طائفة من الروم أملقت في صقعها فباعت اليهود المجاورة لهم الساكنة معهم وتملكوهم ، ثم حسن في آخر هذه الآية لتضمنها الإيقاع بهم والوعيد أن ينبه على سرعة عقاب الله ويخوف بذلك تخويفاً عاماً لجميع الناس ثم رجى ذلك لطفاً منه تبارك وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(16/295)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذ تأذَّن ربك ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : أعلم ، قاله الحسن ، وابن قتيبة .

وقال : هو من آذنتك بالأمر .

وقال ابن الأنباري : "تأذن" بمعنى آذن ؛ كما يقال : تعلَّم أن فلاناً قائم ، أي : اعلم .

وقال أبو سليمان الدمشقي : أي : أعلم أنبياء بني إسرائيل .

والثاني : حتم ، قاله عطاء .

والثالث : وعد ، قاله قطرب .

والرابع : تألّى ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ ليبعثن عليهم ﴾ أي : على اليهود .

وقال مجاهد : على اليهود والنصارى بمعاصيهم .

﴿ من يسومهم ﴾ أي : يولِّيهم ﴿ سوء العذاب ﴾ .

وفي المبعوث عليهم قولان .

أحدهما : أنه محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، قاله ابن عباس .

والثاني : العرب ، كانوا يجبونهم الخراج ، قاله سعيد بن جبير قال : ولم يجْبِ الخراجَ نبيٌّ قط إلا موسى ، جباه ثلاث عشرة سنة ، ثم أُمسك إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال السدي : بعث الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم .

وفي سوء العذاب أربعة أقوال .

أحدها : أخذ الجزية .

رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : المسكنة والجزية ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : الخراج ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير .

والرابع : أنه القتال حتى يُسلموا أو يُعطوا الجزية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ

﴾

(17/295)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

أي أعلم أسلافهم أنهم إن غيّروا ولم يؤمنوا بالنبيّ الأُميّ بعث الله عليهم من يعذّبهم .

وقال أبو عليّ : "آذن" بالمد ، أعلم .

و"أذّن" بالتشديد ، نادى .

وقال قوم : آذن وأذّن بمعنى أعلم ؛ كما يقال : أيقن وتيقّن .

قال زهير :

فقلتُ تَعَلَّمْ إن للصيد غرَّةً . . .

فإلاّ تُضَيِّعها فإنك قاتِلُهْ

وقال آخر :

تعلّم إن شر الناس حيّ . . .

يُنَادَى في شعارهم يَسار

أي اعلم .

ومعنى ﴿ يَسُومُهُمْ ﴾ يذيقهم ؛ وقد تقدّم في "البقرة" .

قيل : المراد بُخْتَنصّر .

وقيل : العرب .

وقيل : أُمّة محمد صلى الله عليه وسلم .

وهو أظهر ؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة .

والله أعلم .

قال ابن عباس : "سُوءَ الْعَذَابِ" هنا أخذ الجِزْية .

فإن قيل : فقد مُسِخوا ، فكيف تؤخذ منهم الجزية ؟ فالجواب أنها تؤخذ من أبنائهم

وأولادهم ، وهم أذلّ قوم ، وهم اليهود .

وعن سعيد بن جبير "سُوءَ الْعَذَابِ" قال : الخَراج ، ولم يَجْب نبيّ قطّ الخَراج ، إلا موسى

عليه السلام هو أوّل من وضع الخراج ، فجباه ثلاث عشرة سنة ، ثم أمسك ، ونبينا عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(18/295)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربك ﴾

الخطاب فيه للنبي (صلى الله عليه وسلم) ومعنى تأذن أذن والأذن الإعلام يعني أعلم ربك وقيل معناه قال ربك ، وقيل : حكم ربك وقيل آلى ربك بمعنى أقسم أجزما ربك ﴿ ليبعثن عليهم ﴾ اللام في قوله ليبعثن جواب القسم لأن قوله وإذ تأذن ربك جارٍ مجرى القسم لكونه وجواب القسم ليبعثن عليهم واختلفوا في الضمير في عليهم إلى من يرجع فقيل يقتضي أن يكون راجعاً إلى قوله فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين لكن قد علم أن الذين مسخوا لم يبق منهم أحد فيحتمل أن يكون المراد الذين بقوا منهم فألحق الذل بهم وقيل بأن المراد سائر اليهود من بعدهم لأن الذين بقوا من أهل القرية كانوا صالحين والذي بعثه الله على اليهود هو بختنصر وسخاريب وملوك الروم فساموهم سوء العذاب .

(19/295)

وقيل : المراد بقوله ليبعثن عليهم اليهود الذين كانوا في زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والذي بعثه الله عليهم وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأمته فألزم من لم يسلم منهم الصَّغار والذلة والهوان والجزية لازمة لليهود إلى يوم القيامة وأورد على هذا بأن في آخر الزمان يكون لهم عزة وذلك عند خروج الدجال لأن اليهود أتباعه وأشياعه وأجيب عنه بأن ذلك العز الذي يحصل لهم في نفسه غاية الذلة لأنهم يدعون إلهية الدجال فيزدادون كفراً على كفرهم فإذا هلك الدجال أهلكهم المسلمون وقتلوهم جميعاً فذلك هو الذلة والصغار المشار إليه بقوله تعالى ليبعثن عليهم ﴿ إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ وهذا نص في أن العذاب إنما يحصل لهم في الدنيا مستمراً عليهم إلى يوم القيامة ولهذا فسر هذا العذاب بالإهانة والذلة وأخذ الجزية منهم فإذا أفضوا إلى الآخرة ؛ كان عذابهم أشد وأعظم وهو قوله تعالى ﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ يعني لمن أقام على الكفر ففيه دليل على أنه يجمع لهم مع ذلة الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمراً عليهم في الدنيا والآخرة ، ثم ختم الآية بقوله تعالى : ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ يعني لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل في دين الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(20/295)

قال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾

منصوب على المفعولية بمضمر معطوفٍ على قوله تعالى : ﴿ واسألهم ﴾ وتأذّن بمعنى آذن كما أن توعّد بمعنى أوعد أو بمعنى عزم فإن العازمَ على الأمر يحدث به نفسه ، وأُجري مُجرى فعل القسمِ كعلم الله وشهد الله فلذلك أجيب بجوابه حيث قيل : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ أي واذكر لهم وقت إيجابِه تعالى على نفسه أن يسلّط على اليهود البتة ﴿ مَن يَسُومُهُمْ سُوء العذاب ﴾ كالإذلال وضربِ الجزية وغير ذلك من فنون العذاب وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمانَ عليه السلام بُختَ نَصّر فخرّب ديارهم وقتل مقاتِلتَهم وسبى نساءَهم وذرارِيَهم وضرب الجزية على من بقي منهم وكانوا يؤدّونها إلى المجوس حتى بُعث النبي عليه الصلاة والسلام ففعل ما فعل ثم ضرب الجزيةَ عليهم فلا تزال مضروبةً إلى آخر الدهر ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب ﴾ يعاقبهم في الدنيا ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن تاب وآمن منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(21/295)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ منصوب بمضمر معطوف على قوله سبحانه : ﴿ واسئلهم ﴾ [الأعراف : 163] وتأذن تفعل من الاذن وهو بمعنى آذن أي أعلم والتفعل يجيء بمعنى الافعال كالتوعد والايعاد ، وإلى هذا يؤول ما روي عن ابن عباس من أن المعنى قال ربك ، وفسره ، بعضهم بعزم وهو كناية عنه أو مجاز لأن العازم على الأمر يشاور نفسه في الفعل والترك ثم يجزم فهو يطلب من النفس الاذن فيه ، وفي الكشف لو جعل بمعنى الاستئذان دون الايذان كأنه يطلب الاذن من نفسه لكان وجهاً ، وحيث جعل بمعنى عزم وكان العازم جازماً فسر عزم بجزم وقضى فافاد التأكيد فلذا أجرى مجرى القسم ، وأجيب بما يجاب به وهو هنا ﴿ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ ﴾ وجاء عزمت عليك لتفعلن ، ولا يرد على هذا أنه مقتضى لجواز نسبة العزم إليه تعالى وقد صرح بمنع ذلك لأن المنع مدفوع فقد ورد عزمة من عزمات الله تعالى ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي اليهود لا المعتدين الذين مسخوا قردة إذ لم يبقوا كما علمت ، ويحتمل عود الضمير عليهم بناء على ما روي عن الحسن .

والمراد حينئذ هم وأخلافهم ، وعوده إلى اليهود والنصارى ليس بشيء وإن روي عن مجاهد ، والجار متعلق بيبعثن على معنى يسلط عليهم البتة ﴿ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ أي إلى انتهاء الدنيا وهو متعلق بيبعث ، وقيل : بتأذن وليس بالوجه ولا يصح كما لا يخفى تعلقه بالصلة في قوله سبحانه : ﴿ مَن يَسُومُهُمْ ﴾ يذيقهم ويوليهم ﴿ سُوء العذاب ﴾

كالادلال .

وضرب الجزية .

وعدم وجود منعة لهم .

وجعلهم تحت الأيدي وغير ذلك من فنون العذابد وثد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه الصلاة والسلام بخت نصر فخرب ديارهم وقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم ففعل ما فعل ثم ضرب الجزية عليهم فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر .

(22/295)

ولا ينافي ذلك رفعها عند نزول عيسى عليه الصلاة والسلام لأن ذلك الوقت ملحق بالآخرة لقربه منها أو لأن معنى رفعه عليه السلام إياها عنهم أنه لا يقبل منهم إلا الإسلام ويخيرهم بينه وبين السيف فالقوم حينئذ إما مسلمون أو طعمة لسيوفهم فلا اسكال ، وما يحصل لهم زمن الدجال مع كونه ذلافي نفسه غمامة صيف على أنهم ليسوا يهود حين التبعية ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب ﴾ لما شاء سبحانه أن يعاقبه في الدنيا ومنهم هؤلاء ، وقيل : في الآخرة

، وقيل : فيهما وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رحيمٌ ﴾ لمن تاب وآمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(23/295)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

عطف على جملة : ﴿ واسألهم ﴾ [الأعراف : 163] بتقدير اذكر ، وضمير ﴿ عليهم ﴾ عائد إلى اليهود المتقدم ذكرهم بالضمير الراجع إليهم بدلالة المقام في قوله تعالى : ﴿ واسألهم ﴾ [الأعراف : 163] كما تقدم بيان ذلك كله مسستوفى عند قوله : ﴿ واسألهم عن القرية ﴾ [الأعراف : 163] فالمتحدث عنهم بهذه الآية لا علاقة لهم بأهل القرية الذين عَدَوْا في السبت .

و ﴿ تأَذَّنَ ﴾ على اختلاف إطلاقاته ، ومما فيه هنا مشتق من الإذن وهو العلم ، يقال : أذِنَ أي علم ، وأصله العلم بالخبر ، لأن مادة هذا الفعل وتصاريفه جائية من الأُذْن ، اسم الجارحة التي هي آلة السمع ، فهذه التصاريف مشتقة من الجامد نحو استحجر الطين أي صار حجراً ، واستنسر البُغاث أي صار نَسراً ، فتأذن : بزنة تَفعَل الدالة على مطاوعة

فَعل ، والمطاوعة مستعملة في معنى قوة حصول الفعل ، فقيل : هو هنا بمعنى أفْعل كما يقال : تَوعد بمعنى أوْعد فمعنى ﴿ تأذن ربك ﴾ أعلم وأخبر ليبعثن ، فيكون فعل أعلم معلقاً عن العمل بلام القسم ، وإلى هذا مَال الطبري ، قال ابن عطية : وهذا قلق من جهة التصريف إذ نسبة تأذن إلى الفاعل غير نسبة أعلم ، ويتبين ذلك من التعدي وغيره ، وعن مجاهد : ﴿ تأذن ﴾ تألى قال في "الكشاف" معناه عزم ربّك ، لأن العازم على الأمر يُحدث نفسه به" أراد أن إشرا به معنى القسم ناشىء عن مجاز فأطلق التأذن على العزم ، لأن العازم على الأمر يحدث به نفسه ، فهو يؤذنها بفعله فتعزمُ نفسه ، ثم أجرى مجرى فعل القسم مثل عَلم الله ، وشهد الله .

ولذلك أجيب بما يجاب به القسم .

قال ابن عطية : "وقادهم إلى هذا القول دخول اللام في الجواب ، وأما اللفظة فبعيدة عن هذا" وعن ابن عباس ﴿ تأذن ربك ﴾ قال ربك يعني أن الله أعلن ذلك على لسان رسله .

(24/295)

وحاصل المعنى : أن الله أعلمهم بذلك وتوعدهم به ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ في سورة إبراهيم (7) .

ومعنى البعث الإرسال وهو هنا مجاز في التقييض والإلهام ، وهو يؤذن بأن ذلك في أوقات مختلفة وليس ذلك مستمراً يوماً فيوماً ، ولذلك اختير فعل ليبعثن ﴾ دُون نحو ليلزمنهم ، وضمن معنى التسليط فعدي بعلى كقوله : ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا ﴾ [الإسراء : 5] وقوله : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ [الأعراف : 133] .

و ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ غاية لما في القسم من معنى الاستقبال ، وهي غاية مقصود منها جعل أزمنة المستقبل كله ظرفاً للبعث ، لإخراج ما بعد الغاية .

وهذا الاستغراق لأزمنة البعث أي أن الله يسلط عليهم ذلك في خلال المستقبل كله ، والبعث مطلق لا عام .

و ﴿ يسومهم ﴾ يفرض عليهم ، وحقيقة السوم أنه تقدير العوض الذي يستْبدل به الشيءُ ، واستعمل مجازاً في المعاملة اللازمة بتشبيهها بالسوم المقَدر للشيء ، وقد تقدم في سورة البقرة (49) ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ﴾

وتقدم في هذه السورة نظيره ، فالمعنى يجعل سوء العذاب كالقيمة لهم فهو حظهم .

وسوء العذاب أشده ، لأن العذاب كله سوء فسوءُه الأشد فيه .

والآية تشير إلى وعيد الله إياهم بأن يسلط عليهم عدوهم كلما نقضوا ميثاق الله تعالى ،

وقد تكرر هذا الوعيد من عهد موسى عليه السلام إلى هلُم جرّا ، كما في سفر التثنية في الثامن والعشرين ففيه إن لم تحرص لتعمل بجميع كلمات هذا الناموس . . .

ويبددُك الله في جميع الشعوب وفي تلك الأمم لا تطمئن وترتعب ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك وفي سفر يوشع الإصحاح 23 لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب في سفر شريعة موسى ولكن إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب اعلموا يقيناً أن الله يجعلهم لكم سَوطاً على جُنوبكم وشوكاً في أعينكم حتى تبيدوا حينما تتعدون عهد الرب إلهكم .

(25/295)

وأعظم هذه الوصايا هي العهد باتباع الرسول الذي يُرسل إليهم ، كما تقدم ، ولذلك كان قوله : ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ معناه ما داموا على إعراضهم وعنادهم وكونهم أتباع ملة اليهودية مع عدم الوفاء بها ، فإذا أسلموا وآمنوا بالرسول النبي الأمي فقد خرجوا عن موجب ذلك التأذنُ ودخلوا فيما وعد الله به المسلمين .

ولذلك ذيل هذا بقوله : ﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ أي لهم ، والسرعة تقتضي التحقق ، أي أن عقابه واقع وغيرُ متأخر .

لأن التأخر تقليل في التحقق إذ التأخر استمرار العدم مدة مّا .

وأول من سُلط عليهم "بُخْتنصَّر" ملك (بابل) .

ثم توالت عليهم المصائب فكان أعظمها خراب (أرشليم) في زمن (إدريانوس) انبراطور (رومة) ولم تزل المصائب تنتابهم ويُنفس عليهم في فترات معروفة في التاريخ .

وأما قوله : ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ فهو وعد بالإنجاء من ذلك إذا تابوا واتبعوا الإسلام ، أي لغفور لمن تاب ورجع إلى الحق ، وفيه إيماء إلى أن الله قد ينفس عليهم في فترات من الزمن لأن رحمة الله سبقت غضبه ، وقد ألمّ بمعنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتُفسدُن في الأرض مرتين ولتعلن عُلواً كبيراً فإذا جاء وعدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديدٍ فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ثم رددنا لكم الكّرة عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدْخلوا المسجدَ كما دخلوه أول مرةٍ وليتبروا ما علوا تتبيراً عسى ربكم أن يرحمكم وإن عُدتم عُدنا ﴾ [الإسراء : 84] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(26/295)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

وتَأَذَّن نجد مادتها من الهمزة والذال والنون ، فمنه أُذُن ، ومنها أَذَان ، وكلها يراد بها الإِعلام ، والوسيلة للإِعلام هي الأذن والسمع ، حتى الذي سنُعلمه بواسطة الكتابة نقول له ليسمع . ثم يكتب ويقرأ ، وما قرأ إلا بعد أن سمع ؛ لأنه لن يعرف القراءة إلا بعد أن يسمع أسماء الحروف " ألف " ، " باء " إلخ ، ثم تهجاها . إذن فلا أحد يقرأ إلا بعد أن يسمع ، وهكذا يكون السمع هو الأصل في المعلومات ، ونقول في القرآن : ﴿ إِذَا السماء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : 1-2]

وأذنت لربها . . أي سمعت لربها ، فبمجرد أن قال لها : " انشقي " امتثلت وانشقت .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سواء العذاب إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : 167]

والكلام هنا بالنسبة لبني إسرائيل ، ويبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين في أن يفعلوا ، " فإن مواقفهم الإِيمانية ستظل متقلبة مترددة ، ولن يهدأ لهم حال في نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ولماذا ؟ .

(27/295)

لأنهم منسوبون لدين ، والله لا يسوم العذاب للكافر به وللملحد ، لأنه بكفره وإلحاده خرج عن هذه الدائرة ، إذ لم يبعث الله له رسولا . ولكن المنسوب لله ديانة ، والمنسوب لله رسالة ، والمنسوب لله كتاباً ؛ إذا فسد مع كون الناس ويعلمون عنه أنه تابع لنبي ، وأن له كتاباً ، حينئذ يكون أسوة سيئة في الفساد للناس ، فإذا ما سلط الله عليهم العذاب فإنما يسلط عليهم لا لأجل الفساد فقط ، ولكن لأنه فساد لمن هو منسوب إلى الله . وعرفنا أن مادة أذن كلها مناط الإعلام ، وحينما تكلم الله عن خلقنا قال : ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . . ﴾ [النحل : 78] إنّ الحق – سبحانه – يسمي العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أي ليس عندهم شيء من أسباب العلم ، وسبحانه خلق لنا وسائل العلم . بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وهي وسائل العلم التي تبدأ بالسمع ثم بالأبصار ثم الأفئدة . ومن العجيب أنه رتبها في أداء وظيفتها ؛ لأن الإنسان منا إذا كان له وليد – كما قلنا سابقاً – ثم جاء أحد بعد ميلاده ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف ؛ لأنه عينه لم تؤد بعد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدي مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا جئت في أذنه وصرخت انفعل .

إن هذا دليل على أن أذنه أدت مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدي مهمة الرؤية إلا

بعد مدة ، فأولاً يأتي السمع ، ثم يأتي البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإِنسان معلومات عقلية ، ويقولون للطفل مثلاً : إياك أن تقبل على هذه النار حتى لا تحرقك ، فلا يصدق ، ومنظر النار يجذبه فيلمسها ، فتلسعه مرة واحدة ، وبعد أن لسعته النار مرة واحدة ، لم يعد في حاجة إلى أن يتكرر له القول : بأن النار محرقة .

(28/295)

فقد تكونت عنده معلومة عقلية . فأولاً يأتي السمع ، ثم الأبصار ، ثم تأتي الأفئدة .

ولذلك قال سبحانه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . تشكرون له سبحانه أن أمدكم بوسائل العلم ليخرجكم مِن أميتكم .

وهناك لفتة إعجازية أخرى ؛ فحين تكلم الحق عن وسائل العلم ، تكلم عن السمع بالإِفراد ، وعن الأبصار بالجمع . مع أن هذه آلة ، وهذه آلة ؛ فقال : (السمع والأبصار) ولم يقل السمع والبصر ، ولم يقل الأسماع والأبصار ؛ لأن السمع هي الآلة التي تلتقط الأصوات ، وليس لها سد من طبيعتها ، أما العين فليست كذلك ، ففي طبيعة تكوينها حجاب لتغمض . وإذا أنت أصدرت صوتاً من فمك يسمعه الكل ، وعلى هذا فمناط السمع واحد ، لكن في أي منظر من المناظر قد تكون لديك رغبة في أن تراه ، فتفتح عينيك ، وإن لم تكن

بك رغبة للرؤية فأنت تغمضهما .

إذن فالأبصار تتعدد مرائيها ، أما السمع فواحد ولا اختيار لك في أن تسمع أو لا تسمع .

أما البصر فلك اختيار في أن ترى أو لا ترى ، وهذه الأمور رتبها لنا الحق في القرآن قبل أن ينشأ علم وظائف الأعضاء ، ورتبها سبحانه فأفرد في السمع ، وجمع في البصر مع أنهما في مهمة واحدة ، إلا آية واحدة جاءت في القرآن : ﴿ . . . إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36]

قال الحق ذلك لأن المسئولية هنا هي الفردية الذاتية ، وكل واحد مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس . ونرى مادة السمع قد تقدمت ، وبعدها جاءت مادة البصر إلا في آية واحدة أيضاً ، تتحدث عن يوم القيامة : ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا . . . ﴾ [السجدة : 12]

(29/295)

هنا قدّم الحق مادة الإبصار على مادة السمع ؛ لأن هول القيامة ساعة يأتي سنرى تغيراً في الكون قبل أن نسمع شيئاً . ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سواء العذاب إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : 167]

وتأذَّن أي أَعْلم الله إعلاماً مؤكداً بأنكم يا بني إسرائيل ستظلون على انحراف دائم ، ولذلك سيسلط الله عليكم من يسومكم سوء العذاب ، إما من جهة إيمانية ، مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني النضير وبني النضير وبني قريظة وبني قينقاع وخيبر ، وإما أن يسلط عليهم حاكماً ظالماً غير متدين ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً . . . ﴾ [الأنعام : 129]

وكذلك مثلما حدث من بختنصر ، وهتلر . إذن ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ أي أعلم ربك إعلاماً مؤكداً ؛ لأن البشر قد يُعْلمون بشيء ، ولكن قدرتهم ليست مضمونة لكي يعملوا ما أعلموا به ، فإذا أعلمت أنت بشيء فأنت قد لا تملك أدوات التنفيذ ، أمّا الله – سبحانه – فهو المالك لأدوات التنفيذ ، والإعلام منه مؤكد ، ولذلك يُعْلم بالشيء ، أما غيره فالظروف المحيطة به قد لا تساعده على أن ينفذ .

مثال ذلك : صحابة رسول الله الأول وهم مستضعفون ولم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من اضطهاد المشركين والكافرين ، وصار كل واحد يبحث لنفسه عن مكان يأمن فيه ؛ منهم من يذهب إلى الحبشة أو يذهب إلى قوي يحتمي به ، فينزل الله في هذه الظروف العصيبة آية قرآنية لرسول الله يقول فيها : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45]

وتساءل البعض كيف يُهزمون ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا . فعندما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر : أي جمع يُهزم ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يثب في الدروع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ ، فعرفت تأويلها يومئذ . إن الله سبحانه وتعالى أَعْلَمَ بالنصر . وهو قادر على إنفاذ ما أَعْلَم به على وفق ما أعَلم ؛ لأنه لا يوجد إله آخر يصادمه . إذن ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ يعني أعلم إعلاماً مؤكداً ، وحيثية الإعلام المؤكد أنه لا توجد قوة أخرى تمنع قدرته ولا تنقض حكمه . ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة . . . ﴾ بالأعراف : 167]

أي يبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . وهناك بنص القرآن مبعوث ، والله يخلي بينه وبينهم ، فلا يمنعهم الله منه ، إنما يسلط الله عليهم العذاب باختيار الظالم . مثلما قال الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ [مريم : 83]

أي أنه – سبحانه – أرسلهم لهذه المهمة وخلّى بينهم وبين الذين يستمعون إليهم : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ .

وكلمة ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ تفيد أن هذا العنصر ، المشاكس من اليهود سيبقى في الكون كخميرة (عكننة) إلى أن تقوم الساعة ، لماذا ؟ !

هم يقومون بمهمة الشر في الوجود ، ولولا أن هذا الشر موجود في الوجود ، ويعضُّ الناس

بمساوئه وإفساداته ، لم يكن من الناس من يتهافت على الحق وعلى الخير . فالشر – إذن – جاء ليعضّ الناس بآلامه وإفساده ليتجه الناس إلى الخير ، ولذلك تجد أقوى انفعالات تعتمل في صدور المسلمين وأقوى نزوع حركي إلى الإِسلام حين يجدون مَن يضطهد قضية الإِسلام .

(31/295)

إنَ مهمة الشر في الوجود أنه يجمع عناصر الخير في الوجود ومهمة الباطل في الوجود أنه يحفز عناصر الحق ويحضهم على محاربة الشر ومناهضته ؛ لأن الباطل حين يعم ، ويتضايق منه الناس ، ترفع يدها وتقول : يا ناس افعلوا الخير . ولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة . ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب .

. . ﴾ [الأعراف : 167]

(ويسوم) من مادتها سام ، ونسمعها في البهائم ونسميها السائمة وهي التي تطلب مقومات حياتها ، وليس صاحبها هو الذي يجهز لها مقومات حياتها . أما البهائم التي تُرْبط وليست سائمة التي تجد من يجهز لها طعامها ، إذن أصل " سام " أي طلب ، وبهيمة سائمة

أي تطلب رزقها وأكلها بنفسها .

و" سام " أيضاً أي طلب العذاب . ولا يطلب أحد العذاب إلا أن يكون قد أفرغ قوته في التعذيب . فيطلب ممن يقدر على العذاب أن يعذب ، أي أن الله يسلط ويبعث عليهم من يقوم بتعذيبهم جهد طاقته ، فإذا فترت طاقته أو ضعفت فإنه يستعين على تعذيبهم بغيره . إذن فطلب العذاب معناه أنّه : عَذَّب هو ، ولم يكتف بأنه عذَّب بل طلب لهم عذاباً آخر ، و ﴿ يَسُومُهُمْ سواء العذاب ﴾ أي العذاب السيء الشديد . ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : ﴿ . . . إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : 167]

ومعنى سرعة الشيء أن تأخذه زمناً أقل مما يتوقع له ؛ لن السرعة هي اختصار الزمن . ﴿ لَسَرِيعُ العقاب ﴾ هي للدنيا وللآخرة ، فساعة يقترفون ذنباً . يسلط عليهم من يعذبهم في الدنيا ، أما الآخرة ففيها سرعة عالية ؛ لأن مسافة كل إنسان إلى العذاب ليست هي عمر الدنيا ، فالإنسان بمجرد أن يموت تنتهي الدنيا بالنسبة له . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته " .

(32/295)

إن هناك سرعة لحساب الآخرة . وحتى لو افترضنا أننا سنبقى جميعاً دون حساب إلى أن تنتهي الدنيا ، فإن الحساب سيكون سريعاً لأن كل لحظة تمر على أي إنسان تقربه من العقاب ، وحتى لو كان عمر الدنيا مليون سنة ، فكل يوم يمر سينقص من عمر الدنيا .

وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قد نجد من يسأل كيف والحديث هنا عن العقاب ؟ ونقول : إنه سبحانه الذي يتكلم . وهو القادر ، فإذا قال : أنه لسريع العقاب ، فهذا يعني أنه يسرع بعقاب المفسدين والظالمين ؛ لأنه غفور رحيم بالمظلومين الذين يُظلمون ، إذن فسرعة عقاب الظّلمَة رحمة منه بالمظلومين . أو أن الله كما قال " سريع العقاب " فإنه – سبحانه – يأتي بالمقابل لكي يشجع كل إنسان على الدخول في رحمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(33/295)

موعظة

قال صاحب روح البيان :

ينبغي للعاقل أن يحسن الظن بربه ، ولا يتكاسل في باب العبادة فإن السفينة لا تجري على اليبس .

وعن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال : دخلت جبانة البصرة فإذا أنا بسعدون المجنون فقلت : كيف حالك وكيف أنت ؟ قال : يا مالك كيف يكون حال من أمسى وأصبح يريد سفراً بعيداً بلا أهبة ولا زاد ، ويقدم على رب عدل حاكم بين العباد ، ثم بكى بكاء شديداً ، فقلت ما يبكيك ؟ قال : والله ما بكيت حرصاً على الدنيا ولا جزعاً من الموت والبلى لكن بكيت ليوم مضى من عمري لا يحسن فيه عمل أبكاني والله قلة الزاد وبعد المفازة والعقبة الكؤود ولا أدري بعد ذلك أصير إلى الجنة أم إلى النار ؟ فسمعت منه كلام حكمة فقلت : إن الناس يزعمون أنك مجنون ، فقال : وأنت اغتررت بما اغتر به بنو إسرائيل زعم الناس أني مجنون وما بي جنة ولكن حب مولاي قد خالط قلبي وأحشائي وجرى بين لحمي ودمي وعظامي فأنا والله من حبه هائم مشغوف ، فقلت : يا سعدون فِلِمَ لا تجالس الناس وتخالطهم فأنشأ يقول :

كن من الناس جانبا

وارض بالله صاحبا

قلّبِ الناس كيف شئـ

ـت تجدهم عقاربا .

كذا في "روض الرياحين" لليافعي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 342 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ الآية .

قال الواحديُّ : وأكثر أهل اللغة على أنَّ : " التَّأذُّ " بمعنى الإيذان ، وهو الإعلامُ .

قال الفارسي : " آذَنَ " أعْلَمَ ، و " أذَّنَ " نادى وصاح للإعلام ، ومنه قوله ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : 44] .

قال : وبعض العرب يُجْرِي " آذَنْتُ " مجرى " تَأَذَّنتُ " فيجعل " آذَانَ وتَأَذَّنَ " بمعنى فإذا كان " أذَّنَ " أعلم في لغة بعضهم ، ف " أذَّنَ " تفعَّل من هذا .

وقيل : معناه : حَتَّمَ وأوْجبَ وهو معنى قول مجاهد : أمر ربك ، وقول عطاء : حكم ربّك .

وقال الزمخشري : " تأذَّن " عزم ربك ، وهو تفعَّل من الإيذانِ وهو الإعلامُ ؛ لأنَّ العازمَ على الأمر يُحدِّثُ به نفسه ويؤذنها بفعله ، وأجري مُجْرَى فعل القسم كـ : عَلِمَ الله ، وشَهِدَ الله ، ولذلك أجيب بما يجابُ به القسم وهو : " لَيَبْعَثَنَّ " .

وقال الطبريُّ وغيره " تَأَذَّنَ " معناه " أعْلَمَ " ، وهو قلقٌ من جهة التصريف ، إذ نسبةُ " تأذَّنَ " إلى الفاعل غيرُ نسبة " أعْلَمَ " ، وبين ذلك فرقٌ من التعدي وغيره .

وقال ابن عباس : تأذَّنَ ربُّك قال ربُّكَ .

قوله : ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ فيه وجهان :

أصحهما : أنَّهُ متعلقٌ بـ : لِيَبعَثَنَّ .

والثاني : أنَّهُ متعلقٌ بـ : تَأَذَّنَ نقله أبو البقاء ، ولا جائزٌ أن يتلعق بـ : يَسُومُهُمْ ؛ لأن " مَنْ " إمَّا موصولةٌ ، وإمَّا موصوفةٌ ، والصلةُ والصفةُ لا يعملان فيما قبل الموصول والموصوف . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 366 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) ﴾

إذا الحقُّ – سبحانه – أمضى سُنَتَه بالإنذار وتقديم التعريف بما يستحقه كلُّ أحد على ما يحصل منه من الآثار إبداءٌ للعذر – وإنْ جلت رتبته عن كل عذر – فإنْ يَنْجَعْ فيهم القولُ وإلا دَمَّرَ عليهم بالعذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 582 ﴾

(35/295)

قوله تعالى ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر سبحانه بالتأذن ، كان كأنه قيل : فأسرعنا في عقابهم بذنوبهم وبعثنا عليهم من سامهم سوء العذاب بالقتل والسبي ، فعطف عليه قوله : ﴿ وقطعناهم ﴾ أي بسبب ما حصل لهم من السبي المترتب على العذاب بما لنا من العظمة تقطيعاً كثيراً بأن أكثرنا تفريقهم ﴿ في الأرض ﴾ حال كونهم ﴿ أمماً ﴾ يتبع بعضهم بعضاً ، فصار في كل بلدة قليل منهم ليست لهم شوكة ولا يدفعون عن أنفسهم ظلماً .

ولما كان كأنه قيل : فهل أطبقوا بعد هذا العذاب على الخير ؟ قيل : لا ، بل فرقتهم الأديان نحو فرقة الأبدان ﴿ منهم الصالحون ﴾ أي الذين ثبتوا على دينهم إلى أن جاء الناسخ له فتبعوه امتثالاً لدعوة كتابهم ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ أي بالفسق تارة وبالكفر أخرى ﴿ وبلوناهم ﴾ أي عاملناهم معاملة المبتلى ليظهر للناس ما نحن به منهم عالمون ﴿ بالحسنات ﴾ أي النعم ﴿ والسيئات ﴾ أي النقم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى رجوعه عن غيه رغبة أو رهبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 144 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ وقطعناهم ﴾ أحد ما يدل على أن الذي تقدم من قوله : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : 167] المراد جملة اليهود ، ومعنى ﴿ قطعناهم ﴾ أي فرقناهم تفريقاً شديداً .

فلذلك قال بعده : ﴿ فِي الأرض أُمَمًا ﴾ وظاهر ذلك أنه لا أرض مسكونة إلا ومنهم فيها أمة ، وهذا هو الغالب من حال اليهود ، ومعنى قطعناهم ، فإنه قلما يوجد بلد إلا وفيه طائفة منهم .

ثم قال : ﴿ مِّنْهُمُ الصالحون ﴾ قيل المراد القوم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام لأنه كان فيهم أمة يهدون بالحق .

وقال ابن عباس ومجاهد : يريد الذين أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ أي ومنهم قوم دون ذلك ، والمراد من أقام على اليهودية .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ من يكون صالحاً إلا أن صلاحه

كان دون صلاح الأولين لأن ذلك إلى الظاهر أقرب .

قلنا : أن قوله بعد ذلك : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يدل على أن المراد بذلك من ثبت على اليهودية وخرج من الصلاح .

أما قوله : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ أي عاملناهم معاملة المبتلى المختبر بالحسنات ، وهي النعم والخصب والعافية ، والسيئات هي الجدب والشدائد ، قال أهل المعاني : وكل واحد من الحسنات والسيئات يدعو إلى الطاعة ، أما النعم فلأجل الترغيب ، وأما النقم فلأجل الترهيب .

وقوله : ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ يريد كي يتوبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 36 ﴾

(37/295)

وقال السمرقندى :

﴿ وقطعناهم ﴾ أي فرقناهم ﴿ فِي الأرض أُمَمًا ﴾ أي فرقاً ﴿ مّنْهُمُ الصالحون ﴾ أي المؤمنون وهم مؤمنو أهل الكتاب .

ويقال : هم الذين وراء رمل عالج ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ وهم الكفار منهم ﴿ وبلوناهم

بالحسنات والسيئات ﴾ يعني : اختبرناهم بالخصب والجدوبة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ من الكفر إلى الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً . . . ﴾

أي فرقناهم فيها فرقاً . وفي تفريقهم فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : زيادة في الانتقام منهم .

والثاني : ليذهب تعاونهم .

والثالث : ليتميز الصالح من المفسر لقوله تعالى : ﴿ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بالثواب والعقاب .

والثاني : بالنعم والنقم . والثالث : بالخصب والجدب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(38/295)

وقال ابن عطية :

﴿ وقطعناهم ﴾ معناه فرقناهم في الأرض ، قال الطبري عن جماعة من المفسرين : ما في الأرض بقعة إلا وفيها معشر من اليهود ، والظاهر في المشار إليهم في هذه الآية أنهم الذين بعد سليمان وقت زوال ملكهم ، والظاهر أنه قبل مدة عيسى عليه السلام لأنه لم يكن فيهم صالح بعد كفرهم بعيسى صلى الله عليه وسلم ، وفي التواريخ في هذا الفصل روايات مضطربة ، و﴿ الصالحون ﴾ و﴿ دون ذلك ﴾ ألفاظ محتملة أن يدعها صلاح الإيمان ف ﴿ دون ﴾ بمعنى غير يراد بها الكفرة ، وإن أريد بالصلاح العبادة والخير وتوابع الإيمان ف ﴿ دون ذلك ﴾ يحتمل أن يكون في مؤمنين ، و﴿ بلوناهم ﴾ معناه امتحناهم ، و﴿ الحسنات ﴾ الصحة والرخاء ونحو هذا مما هو بحسب رأي ابن آدم ونظره ، و﴿ السيئات ﴾ مقابلات هذه ، وقوله : ﴿ لعلهم ﴾ أي بحسب رأيكم لو شاهدتم ذلك ، والمعنى لعلهم يرجعون إلى الطاعة ويتوبون من المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ2 صـ ﴾

(39/295)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقطَّعناهم في الأرض أُمماً ﴾

قال أبو عبيدة : فرَّقناهم فِرقاً .

قال ابن عباس : هم اليهود ، ليس من بلد إلا وفيه منهم طائفة .

وقال مقاتل : هم بنو إسرائيل .

وقيل : معناه : شتّات أمرهم وافتراق كلمتهم .

﴿ منهم الصالحون ﴾ وهم المؤمنون بعيسى ومحمد عليهما السلام .

﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ وهم الكفار .

وقال ابن جرير : إنما كانوا على هذه الصفة قبل أن يُبعث عيسى ، وقبل ارتدادهم .

قوله تعالى : ﴿ وبلوناهم ﴾ أي : اختبرناهم ﴿ بالحسنات ﴾ وهي : الخير ، والخصب ، والعافية ، ﴿ والسيئات ﴾ وهي : الجدب ، والشر ، والشدائد ؛ فالحسنات والسيئات تحث على الطاعة ، أما النعم فطلب الازدياد منها ، وخوف زوالها ، والنقمُ فلكشفها ، والسلامة منها .

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي : لكي يتوبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً ﴾

أي فرّقناهم في البلاد .

أراد به تشتيت أمرهم ، فلم تُجمع لهم كلمة .

﴿ مِّنْهُمُ الصالحون ﴾ رفع على الابتداء .

والمراد من آمن بمحمد عليه السلام ، ومن لم يبدّل منهم ومات قبل نسخ شرع موسى .

أو هم الذين وراء الصين ؛ كما سبق .

﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ منصوب على الظرف .

قال النحاس : ولا نعلم أحداً رفعه .

والمراد الكفار منهم .

﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي اختبرناهم .

﴿ بالحسنات ﴾ أي بالخصْب والعافية .

﴿ والسيئات ﴾ أي الجدب والشدائد .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ليرجعوا عن كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ

﴾

(40/295)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً ﴾

يعني وفرقنا بني إسرائيل في الأرض جماعات متفرقة فلا تجد بلداً وفيه من اليهود طائفة وجماعة ، قال ابن عباس : كل أرض يدخلها قوم من اليهود ﴿ منهم الصالحون ﴾ يعني من هؤلاء الذين وصفهم الله من بني إسرائيل صالحون وهم من آمن بالله ورسوله وثبت منهم على دينه قبل مبعث عيسى وإنما وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ذكره الطبري ولم يذكر غيره ، وروى البغوي وغيره من المفسرين عن ابن عباس ومجاهد : إن المراد بالصالحين الذين أدركوا النبي (صلى الله عليه وسلم) من اليهود وآمنوا به والصحيح ما ذكره الطبري يدل عليه قوله بعد فخلف من بعدهم خلف من بعدهم خلف والخلف إنما كان بعد هؤلاء الذين وصفهم بالصلاح من بني إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ يعني الذين كفروا من بني إسرائيل وبدلوا وغيروا ﴿ وبلوناهم ﴾ يعني جميعاً الصالح وغيره وهي بلوى اختبار وامتحان ﴿ بالحسنات ﴾ يعني الخصب والعافية ﴿ والسيئات ﴾ يعني الجدب والشدة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ يعني لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا إليه .

قال أهل المعاني : كل واحدة من الحسنات والسيئات إذا فسرت بالنعم والشدة تدعو إلى

طاعة الله تعالى أما النعمة فيزداد عليها شكراً فيرغب في الطاعة وأما الشدة فيخاف سوء عاقبتها فيرهب منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(41/295)

وقال أبو حيان :

﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

أي فرقاً متباينين في أقطار الأرض فقل أرض لا يكون منهم فيها شرذمة وهذا حالهم في كل مكان تحت الصغار والذلّة سواء كان أهل تلك الأرض مسلمين أم كفاراً و ﴿ أمماً ﴾ حال ، وقال الحوفي مفعول ثان وتقدم قوله هذا في قطعناهم ﴿ اثنتي عشرة ﴾ و ﴿ الصالحون ﴾ من آمن منهم بعيسى ومحمد عليهما السلام أو من آمن بالمدينة ومنهم منحطون عن الصالحين وهم الكفرة وذلك إشارة إلى الصلاح أي و ﴿ منهم قوم ﴾ دون أهل الصلاح لأنه لا يعتدل التقسيم إلا على هذا التقدير من حذف مضاف أو يكون ذلك المعنى به أولئك فكأنه قال ﴿ ومنهم قوم ﴾ دون أولئك ، وقد ذكر النحويون أنّ اسم الإشارة المفرد قد يستعمل للمثنى والمجموع فيكون ﴿ ذلك ﴾ بمعنى أولئك على هذه اللغة ويعتدل التقسيم والصالحون و ﴿ دون ذلك ﴾ ألفاظ محتملة فإن أريد بالصلاح الإيمان فدون ذلك يُراد به

الكفار وإن أريد بالصلاح العبادة والخير وتوابع الإيمان كان دون ذلك في مؤمنين لم يبلغوا رتبة الصلاح الذي لأولئك ، والظاهر الاحتمال الأول لقوله ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إذ ظاهر قوله ﴿ وبلوناهم ﴾ إنهم القوم الذين هم دون أولئك وهو من ثبت على اليهودية وخرج من الإيمان ودون ذلك ظرف أصله للمكان ثم يستعمل للانحطاط في المرتبة ، وقال ابن عطية : فإن أريد بالصلاح الإيمان فدون ذلك بمعنى غير يراد به الكفرة انتهى ، فإن أراد أنّ ﴿ دون ﴾ ترادف غيراً فهذا ليس بصحيح وإن أراد أنه يلزم ممن كان دون شيء أن يكون غيراً فصحيح و ﴿ دون ﴾ ظرف في موضع رفع نعت لمنعوت محذوف ويجوز في التفصيل بمن حذف الموصوف وإقامة صفته مقامة نحو هذا ومنه قولهم منا ظعن ومنا أقام .

﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ .

أي بالصحة والرخاء والسعة والسيئات مقابلاتها .

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إلى الطاعة ويتوبون عن المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(42/295)

وقال أبو السعود :

﴿ وقطعناهم ﴾ أي فرقنا بني إسرائيلَ ﴿ فِى الأرض ﴾ وجعلنا كل فِرقةٍ منهم في قُطر من أقطارها بحيث لا تخلو ناحيةٌ منها منهم تكملةً لأدبارهم حتى لا تكون لهم شوكةٌ ، وقوله تعالى : ﴿ أُمَمًا ﴾ إما مفعولٌ ثانٍ لقطّعنا أو حال من مفعوله ﴿ مّنْهُمُ الصالحون ﴾ صفةٌ لأمماً أو بدلٌ منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ومن يسير بسيرتهم ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ أي ناسٌ دون ذلك الوصفِ أي منحطّون عن الصلاح وهم كَفرتُهم وفَسَقتُهم ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ بالنعم والنقم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما كانوا فيه من الكفر والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(43/295)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

﴿ وقطعناهم ﴾ أي فرقنا بني اسرائيل أو صيرناهم ﴿ فِى الأرض ﴾ وجعلنا كل فرقة منهم في قطر من أقطارها بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم تكملة لأدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة وهذا من مغيبات القرآن كالذي تضمنته الآية قبل ، وقوله سبحانه : ﴿ أُمَمًا ﴾ إما

مفعول ثان لقطعنا وإما حال من مفعوله ﴿ مِّنْهُمُ الصالحون ﴾ وهم كما قال الطبري من آمن بالله تعالى ورسوله وثبت على دينه قبل بعث عيسى عليه الصلاة والسلام وقيل هم الذين أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ونسب ذلك إلى ابن عباس .

ومجاهد ، وقيل : هم الذين وراء الصين وهو عندي وراء الصين ، والجار متعلق بمحذوف خبر مقدم والصالحون مبتدأ ، وجوز أن يكون فاعلاً للظرف والجملة في موضع النصب صفة لأمم على الاحتمالين ، وجوز أن تكون في موضع الحال وهي بدل من أمم على الاحتمال الثاني وأن تكون صفة موصوف مقدر هو البدل على الأول أي قوماً منهم الصالحون ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ أي منحطون عن أولئك الصالحين غير بالغين منزلتهم في الصلاح وهم الذين امتثلوا بعض الأوامر وخالفوا بعضاً مع كونهم مؤمنين ، وقيل : هم الكفرة منهم بناء على أن المراد بالصلاح الإيمان ، وقيل : المراد بهم ما يشمل الكفرة والفسقة ، والجار متعلق بمحذوف خبر مقدم و ﴿ دُونِ ﴾ على ما ذكره الطبرسي مبتدأ إلا أنه بقي مفتوحاً لتمكنه في الظرفية مع إضافته إلى المبنى ، ومثله على قول أبي الحسن ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ في قوله سبحانه : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] أو المبتدأ محذوف والظرف صفته أي ومنهم أناس أو فرقة دون ذلك ، ومن المشهور عند النحاة أن الموصوف بظرف أو جملة يطرد حذفه إذا كان بعض اسم مجرور بمن أو في مقدم عليه كما في منا أقام ومنا ظعن ، ومحط الفائدة الانقسام إلى أن هؤلاء منقسمون إلى قسمين ، ومن الناس من

تكلف في مثل هذا التركيب لجعل الظرف الأول صفة مبتدأة محذوف ، وجعل الظرف الثاني خبراً لما ظنه داعياً لذلك ، وليس بشيء ، والإشارة للصالحين ، وقد ذكروا أن اسم الإشارة المفرد قد يستعمل للمثنى والمجموع وقد مرت الإشارة إليه ، وقيل : أشير به إلى الصلاح كما يقتضيه ظاهر الأفراد ويقدر حينئذ مضاف وهو أهل مثلا ﴿ وبلوناهم بالحسنات ﴾ الخصب والعافية ﴿ والسيئات ﴾ الجدب والشدة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي يتوبون عما كانوا عليه مما نهوا عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(44/295)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

عطف قصة على قصة ، وهو عود إلى قصص الإخبار عن أحوالهم ، فيجوز أن يكون الكلام إشارة إلى تفرقهم بعد الاجتماع ، والتقطيع التفريق ، فيكون محموداً مثل ﴿ وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً ﴾ [الأعراف : 160] ، ويكون مذموماً ، فالتعويل على القرينة لا على لفظ التقطيع .

فالمراد من الأرض الجنس أي في أقطار الأرض .

و﴿ أمماً ﴾ جمع أمّة بمعنى الجماعة ، فيجوز أن يكون المراد هنا تقطيعاً مذموماً أي تفريقاً بعد اجتماع أمتهم فيكون إشارة إلى أسر بني إسرائيل عندما غزا مملكة إسرائيل (شلمناصرُ) مَلك بابل .

ونقلهم إلى جبال انشور وأرض بابل سنة 721 قبل الميلاد .

ثم أسر (بُخْتنصّر) مملكة يهوذا وملكها سنة 578 قبل الميلاد ، ونقل اليهود من (أرشليم) ولم يبق إلاّ الفقراء والعجّز .

ثم عادوا إلى أرشليم سنة 530 ، وَبَنوْا البيت المقدس إلى أن أجلاهم (طيطوس) الروماني ، وخرّب بيت المقدس في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد ، فلم تجتمع أمتهم بعد ذلك فتمزقوا أيدي سبأ .

ووصف الأمم بأنهم ﴿ منهم الصالحون ﴾ إيذان بأن التفريق شمل المذنبين وغيرهم ، وأن الله جعل للصالحين منزلة إكرام عند الأمم التي حلّوا بينها ، كما دل عليه قوله : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيّئات ﴾ .

وشمل قوله : ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ كل من لم يكن صالحاً على اختلاف مراتب فقدان الصلاح منهم .

و﴿ الصالحون ﴾ هم المتمسكون بشريعة موسى والمصدقون للأنبياء المبعوثين من بعده والمؤمنون بعيسى بعد بعثته ، وأن بني إسرائيل كانوا بعد بعثة عيسى غير صالحين إلاّ قليلاً

منهم : الذين آمنوا به ، وزادوا بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وعدم إيمانهم به ، بُعداً عن الصلاح إلاّ نفراً قليلاً منهم مثل عبد لله بن سَلام ، ومخيريق .

(45/295)

وانتصب ﴿ دونَ ذلك ﴾ على الظرفية وصفاً لمحذوف دل عليه قوله : ﴿ منهم ﴾ أي ومنهم فريق دون ذلك ، ويجوز أن تكون (مِن) بمعنى بعض اسماً عند من يجوّز ذلك ، فهي مبتدأ ، و ﴿ دون ﴾ خبر عنه .

ويحتمل أن تكون الآية تشير إلى تفريقهم في الأرض في مدة ملوك بابل ، وإنهم كانوا في مدة إقامتهم ببابل ﴿ منهم الصالحون ﴾ مثل (دانيال) وغيره ، ومنهم دون ذلك ، لأن التقسيم بمِنهم مشعر بوفرة كلا الفريقين .

وقوله : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ أي أظهرنا مختلف حال بني إسرائيل في الصبر والشكر ، أو في الجزع والكفر ، بسبب الحسنات والسيئات ، فهي جمع حسنة وسيئة بمعنى التي تَحسن والتي تَسوء ، كما تقدم في قوله : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئةٌ يطّيروا بموسى ومن معه ﴾ [الأعراف : 131] وعلى هذا يكون الحسنات والسيئات تفصيلاً للبلوى ، فالحسنات والسيئات من فعل الله تعالى ، أي بالتي

تحسن لفريق الصالحين وبالتي تسوء فريق غيرهم ، توزيعاً لحال الضمير المنصوب في قوله : ﴿ بلوناهم ﴾ .

وجملة : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ استئناف بياني أي رجاء أن يتوبوا أي حين يذكرون مدة الحسنات والسيئات ، أو حين يرون حسن حال الصالحين وسوء حال من هم دون ذلك ، على حسب الوجهين المتقدمين .

والرجوع هنا الرجوع عن نقض العهد وعن العصيان ، وهو معنى التوبة .

هذا كله جري على تأويل المفسرين الآية في معنى ﴿ قَطّعناهم ﴾ .

(46/295)

ويجوز عندي أن يكون قوله : ﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً ﴾ ، عوداً إلى أخبار المنن عليهم ، فيكون كالبناء على قوله : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ [الأعراف : 160] ، فيكون تقطيعاً محموداً ، والمراد بالأرض : أرض القدس الموعودة لهم أي لكثرناهم فعمروها جميعها ، فيكون ذكر الأرض هنا دون آية ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ [الأعراف : 160] للدلالة على أنهم عمروها كلها ، ويكون قوله : ﴿ منهم الصالحون ﴾ إنصافاً لهم بعد ذكر أحوال عدوان جماعاتهم وصم آذانهم عن الموعظة

، وقوله : ﴿ وبلوناهم ﴾ إشارة إلى أن الله عاملهم مرة بالرحمة ومرة بالجزاء على أعمال دهمائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(47/295)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) ﴾

وقد قال سبحانه قبل ذلك أيضاً : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً . . . ﴾ [الأعراف : 160]

ولكن القول هنا يجيء لمعنى آخر : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً مِّنْهُمُ الصالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ .

وقد قطعهم الحق حتى لا يبقى لهم وطن ، ويعيشون في ذلة ؛ لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم منذ البداية ، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم .

وهنا يقول الحق : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً ﴾ .

ومعنى ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ ﴾ أي أن كل قطعة يكون لها تماسك ذاتي في نفسها ، وأيضاً لا

تشيع في المكان الذي تحيا فيه ، ولذلك قلنا : إنهم لا يذوبون في المجتمعات أبداً ، - كما قلنا - فعندما تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حيًّا خاصًّا ، كذلك فرنسا ، وألمانيا ، وكل مكان يكون لهم فيه تجمع خاص بهم ، لا يدخل فيه أحد ، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد ، وشاء الحق بعد ذلك أن قال لهم : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ . . . ﴾ [المائدة : 21]

فبعد أن مَنَّ عليهم بأرض يقيمون فيها ، قالوا : ﴿ . . . إِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : 24]

(48/295)

فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطنا واحداً يتجمعون فيه ، ونشرهم في الكون كله لأنهم لو كانوا متجمعين لعم فسادهم فقط في دائرتهم التي يعيشون فيها . ويريد الله أن يعلن للدنيا كلها أن فسادهم فساد عام . ولذلك فهم إن اجتمعوا في مكان فلابد أن تتآلب عليهم القوى وتخرجهم مطرودين أو تعذبهم ، وأظن حوادث هتلر الأخيرة ليست بعيدة عن الذاكرة ، وقد أوضحنا ذلك من قبل في شرح قوله الحق : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض . . . ﴾ [الإسراء : 104]

لقد قلنا : إن السكن في الأرض هو أن يتبعثروا فيها ؛ لأنه – سبحانه – لم يحدد لهم مكانا يقيمون فيه ، فإذا جاء وعد الآخرة ينتقم الله منهم بضربة واحدة ، ويأتي الحق بهم لفيفاً تمهيداً للضربة القاصمة : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً مِّنْهُمُ الصالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ .

وهناك فريق منهم جاء إلى المدينة المنورة ووسعتهم المدينة وصاروا أهل العلم وأهل الكتاب ، وأهل الثراء وأهل المال ، وأهل بناية للحصون ، وحين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد معهم معاهدة . فالذي دخل منهم في الإيمان استحق معاملة المؤمنين ، فلهم ما لهم وعليهم وما عليهم ، والحق قد قال : ﴿ وَمِن قَوْمِ موسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : 159]

وقلنا إن هذه تسمى صيانة الاحتمال لمن يفكرون في الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً مِّنْهُمُ الصالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ . و " دون " أي غير ، فالمقابل للصالحين هم المفسدون . أو منهم الصالحون في القمة ، ومنهم من هم أقل صلاحاً . فهناك أناس يأخذون الأحسن ، وأناس يأخذون الحسن فقط .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ . . . وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الاعراف : 168]

كلمة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ هي التي جعلتنا نفهم أن قول الحق سبحانه وتعالى : أن منهم أناساً صالحين ، ومنهم دون ذلك ، أي كافرون ؛ لأنهم لو كانوا قد صنعوا الحسن والأحسن فقط ، لما جاء الحق ب ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . أو هم يرجعون إلى الأحسن .

و" بلونا " أي اختبرنا ؛ لأن لله في الاختبارات مطلق الحرية ، فهو يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك لأنه – سبحانه – عالم به ، من قبل أن تعمل ، لكن علمه الأزلي لا يُعتبر شهادة منا . لذلك يضع أمامنا الاختبار لتكون نتيجة عملنا شهادة إقرار منا علينا : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات ﴾ . وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى أتغزنا الأسباب في الدنيا عن المُسبِّب الأعلى الذي وهبها : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7]

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها في مظان الخير لها . فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرسب في الاختبار . إذن فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم . والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر ، أي ليراه ويعلمه واقعاً حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : 15-16]

إننا نجد من يقول : ﴿ ربي أَكْرَمَنِ ﴾ . ومَن يقول : ﴿ ربي أَهَانَنِ ﴾ والحق يوضح : أنتما كاذبان . فليست النعمة دليل الإِكرام ، ولا سلب النعمة دليل الإِهانة . ولكن الإِكرام ينشأ حين تستقبل النعمة بشكر ، وتستقبل النقمة بصبر . إذن مجيء النعمة في ذاتها ليس إلا اختبارا . وكذلك إن قَدَرَ الله عليك رزقك وضيقه عليك ، فهذا ليس للإِهانة ولكنه للاختبار أيضاً .

(50/295)

ويوضح الحق جل وعلا : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم * وَلاَ تَحَآضُّونَ على طَعَامِ المسكين * وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً * وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ [الفجر : 17-20]

أنتم لا تطعمون في مالكم يتيماً ولا تحضون على طعام مسكين . فكيف يكون المال نعمة ؟ إنه نقمة عليكم . وهنا يقول الحق : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . ولله المثل الأعلى ، نقول : إن فلاناً أتعبني ، لقد قلبته على الجنبين ، لا الشدة نفعت فيه ، ولا اللين نفع فيه ، ولا سخائي عليه نفع فيه ، ولا ضنى عليه نفع فيه ، وقد اختبر الله بني إسرائيل فلم يعودوا إلى الطاعة مما يدل على أن هذا طبع تأصل فيهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ تأذن ربك . . . ﴾ الآية . قال : الذين يسومونهم سوء العذاب محمد وأمته إلى يوم القيامة ، وسوء العذاب الجزية .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ تأذن ربك ﴾ الآية . قال : هم اليهود ، بعث عليهم العرب يجبونهم الخراج فهو سوء العذاب ، ولم يكن من نبي جبا الخراج إلا موسى ، جباه ثلاث عشرة سنة ثم كفَّ عنه ولا النبي صلى الله عليه وسلم . وفي قوله ﴿ وقطعناهم . . . ﴾ الآية . قال : هم اليهود بسطهم الله في الأرض ، فليس في الأرض بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وإذ تأذن ربك ﴾ يقول : قال ربك : ليبعثن عليهم قال : على اليهود والنصارى إلى يوم القيامة ﴿ من يسومهم سوء العذاب ﴾ فبعث الله عليهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم يأخذون منهم الجزية وهم صاغرون ﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً ﴾ قال : يهود ﴿ منهم الصالحون ﴾ وهم مسلمة أهل الكتاب ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ قال : اليهود ﴿ وبلوناهم بالحسنات ﴾ قال : الرخاء والعافية ﴿ والسيئات ﴾ قال : البلاء والعقوبة .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قول الله ﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً ﴾ ما الأمم ؟ قال : الفرق ، وقال فيه بشر بن أبي حازم :

من قيس غيلان في ذوائبها . . . منهم وهم بعد قادة الأمم

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ قال : بالخصب والجدب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(52/295)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً ﴾ الآية .

هذه الآية تدلُّ على أن المراد بقوله : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : 167] جملة اليهود ، ومعنى " قَطَّعناهُم " أي : فرقناهم في الأرض ، وهذا يدلُّ على أَنَّهُ لا أرض مسكونة إلاَّ وفيها منهم أمة ، وهذا هو الغالبُ .

وقوله : " أمَماً " إمَّا حالٌ من مفعول " قطَّعْنَاهُم " ، وإمَّا مفعولٌ ثانٍ على ما تقدَّم من أنَّ " قطَّع " تضمَّن معنى : صَيَّر .

و " مِنْهُمُ الصَّالحُون " صفة لـ " أمم " .

وقال أبو البقاء : " أو بدل منه ، أي : من أمم " .

يعني : أَنَّهُ حالٌ من مفعول : " قطَّعناهُمْ " أي : فرَّقناهُم حال كونهم منهم الصَّالحون .

قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾

" منهم " خبرٌ مقدم ، و " دُون ذلك " : نَعْتٌ لِمنعُوتٍ محذوف هو المبتدأ ، والتقدير : ومنهم ناسٌ أو قومٌ دون ذلك .

قال الزمخشري : معناه : ومنهم ناسٌ منحطُّون عن الصَّلاح ، ونحوه : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ

مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] .

بمعنى : مَا منَّا أحدٌ إلاَّ له مقامٌ معلومٌ .

(53/295)

يعني في كونه حذف الموصوفُ وأقيم الجملة الوصفية مقامهُ ، كما قام مقامه الظرفُ الوصفيُّ ، والتفصيل بـ " مِنْ " يجوزُ فيه حذفُ الموصوف وإقامةُ الصِّفة مقامه كقولهم : منَّ ظَعَنَ ومنَّا أقَامَ .

؟

وقال ابنُ عطيَّة : فإن أريدَ بالصَّلاح الإيمانُ ف " دُونَ " بمعنى " غير " يُراد به الكفرة .

قال أبو حيان : إن أراد أنَّ دُونَ ترادفُ " غيراً " ، فليس بصحيحٍ ، وإن أراد أنَّهُ يلزم أنَّ من كان دون شيء أن يكون غيراً له فصحيح ، وذلك إمَّا أن يُشارَ به إلى الصَّلاح وإمَّا أن يُشار به إلى الجماعة ، فإن أشير به إلى الصلاح ؛ فلا بد من حذفِ مضاف ، ليصحَّ المعنى ، تقديره : ومنهم دُون أهل ذلك الصلاح ، ليعتدلَ التقسيم ، وإن أُشير به إلى الجماعة ، أي : ومنهم دون أولئك الصالحين ، فلا حاجة إلى تقدير مضافٍ ؛ لاعتدار التقسيم بدونه .

وقال أبو البقاء : دُون ذِلكَ ظرفٌ أو خبر على ما ذكرنا في قوله : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [

الأنعام : 94] وفيه نظر من حيث إن " دُونَ " ليس بخبر .

قوله : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات ﴾ أي : عاملناهم معاملة المبتلى المختبر بالحسناتِ ، وهي : النِّعمُ والخصبُ ، والعافيةُ ، والسَّيِّئاتِ وهي الجدب ، والشَّدائدُ .

قال أهل المعاني : وكُلُّ واحدةٍ من الحسناتِ والسيئاتِ تدعُو إلى الطَّاعة ، أمَّا النعم فللترغيب ، وأمَّا النِّقَمُ فللترهيب .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ : لكي يندموا ويتوبوا ويرجعوا إلى طاعة ربِّهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 368 . 369 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) ﴾

(54/295)

أجراهم على ما علم أنهم يكونون عليه من صلاح وسداد ، ومَعَاص وفساد . ثم ابتلاهم بفنون الأفعال من محنٍ أزاحها ، ومن مِنَنٍ أتاحها ، وطالبهم بالشكر على ما أسدى ،

والصبرِ على ما أبلى ، ليظهر للملائكة والخلائق أجمعين جواهرَهم في الخلاف والوفاق ، والإخلاص والنفاق ؛ فأمَّا الحسناتُ فهي ما يُشْهِدهم المُجْرِي ، ولا يُلْهِيهم عن المُبْدي ، وأمَّا السيئاتُ فالتردد بين الإنجاز والتأخير ، والإباحة والتقصير .

ويقال الحسنة أن يُنْسِيَكَ نفسك ، والسيئة أَنْ يُشْهِدَكَ نفسك .

ويقال الحسنات بتيسير وقتٍ عن الغفلات خالٍ ، وتسهيل يومٍ عن الآفات بائن . والسيئاتُ التي ابتلاهم بها خذلانٌ حاصل وحرمانٌ متواصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 583 ﴾

(55/295)

قوله تعالى ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان العذاب الذي وقع التأذن بسببه ممتداً إلى يوم القيامة ، تسبب عنه قوله :

﴿ فخلف ﴾ أي نشأ ، ولما كانوا غير مستغرقين لزمان البعد ، أتى بالجار فقال : ﴿ من بعدهم خلف ﴾ أي قوم هم أسوأ حالاً منهم ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أي الذي هو نعمة ، وهو التوراة ، فكان لهم نقمة لشهادته عليهم بقبح أفعالهم ، لأنه بقي في أيديهم بعد أسلافهم يقرؤونه ولا يعملون بما فيه ؛ قال ابن فارس : والخلف ما جاء من بعد ، أي سواء كان محركاً أو ساكناً ، وقال أبو عبيد الهروي في الغريبين : ويقال : ؛ خلف سوء – أي بالسكون – وخلَف صدق ، وقال الزبيدي في مختصر العين : والخلف : خلف السوء بعد أبيه ، والخلَف : الصالح ، وقال ابن القطاع في الأفعال : وخَلَفَ خَلَفُ سوء : صاروا بعد قوم صالحين ، وخَلَف سوء ، قال الأخفش : هما سواء ، أي بالسكون ، منهم من يسكن ومنهم من يحرك فيهما جميعاً ، ومنهم من يقول : خلف صدق – أي بالتحريك – وخلف سوء – أي بالسكون – يريد بذلك الفرق بينهما ، وكل إذا أضاف ، يعني فإذا لم يضف كان السكون – للفساد ، والتحريك للصلاح ؛ وقال في القاموس : خلف نقيض قدام ، والقرن بعد القرن ، ومنه : هؤلاء خلف سوء ، والرديء من القول ، وبالتحريك الولد الصالح ، فإذا كان فاسداً أسكنت اللام ، وربما استعمل كل منهما مكان الآخر ، يقال : هو خلف صدق من أبيه – إذا قام مقامه ، أو الخلف بالسكون وبالتحريك سواء ، الليث : خلف للأشرار خاصة ، وبالتحريك ضده .

والمادة ترجع إلى الخلف الذي هو نقيض قدام ، كما بنيت ذلك في فن المضطرب من حاشيتي على شرح ألفية العراقي .

(56/295)

ولما كان المظنون بمن يرث الكتاب الخير ، فكان كأنه قيل : ما فعلوه من الخير فيما ورثوه ؟ قال مستأنفاً : ﴿ يأخذون ﴾ أو يجددون الأخذ دائماً ، وحقر ما أخذوه بالإعلام بأنه مما يعرض ولا يثبت بل هو زائل فقال : ﴿ عرض ﴾ وزاده حقارة بإشارة الحاضر فقال ﴿ هذا ﴾ وصرح بالمراد بقوله : ﴿ الأدنى ﴾ أي من الوجودين ، وهو الدنيا ﴿ ويقولون ﴾ أي دائماً من غير توبة .

ولما كان النافع الغفران من غير نظر إلى معين ، بنوا للمفعول قولهم : ﴿ سيغفر لنا ﴾ أي من غير شك ، فأقدموا على السوء وقطعوا بوقوع ما يبعد وقوعه في المستقبل حكماً على من يحكم ولا يحكم عليه ، وصرح بما افهمه ذلك من إصرارهم معجباً منهم في جزمهم بالمغفرة مع ذلك بقوله : ﴿ وإن ﴾ أي والحال أنه إن ﴿ يأتهم عرض مثله ﴾ أي في الدناءة والخسة - والحرمة كالرشى ﴿ يأخذوه ﴾ .

ولما كان هذا عظيماً ، أنكر عليهم مشدداً - للتكبير بقوله مستأنفاً : ﴿ ألم يؤخذ عليهم ﴾

بناه للمفعول إشارة إلى أن العهد يجب الوفاء به على كل حال ، ثم عظمه بقوله : ﴿ ميثاق الكتاب ﴾ أي الميثاق المؤكد في التوارة ﴿ أن لا يقولوا ﴾ أي قولاً من الأقوال وإن قل ﴿ على الله ﴾ أي الذي له الكمال العظمة ﴿ إلا الحق ﴾ أي المعلوم ثباته ، وليس من المعلوم ثباته إثبات المغفرة على القطع بغير توبة ، بل ذلك خروج عن ميثاق الكتاب .

ولما كان ربما وقع في الوهم أنه أخذ على أسلافهم ولم يعلم هؤلاء به ، نفى ذلك بقوله : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أي ما في ذلك الميثاق بتكرير القراءة للحفظ ﴿ والدار الأخرة ﴾ أي فعلوا ما تقدم من مجانبة التقوى والحال أن الآخرة ﴿ خير ﴾ أي مما يأخذون ﴿ للذين يتقون ﴾ أي وهم يعلمون ذلك بإخبار كتابهم ، ولذلك أنكر عليهم بقولة : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي حين أخذوا ما يشقيهم ويفنى بدلاً مما يسعدهم ويبقى ، وعلى قراءة نافع وابن عامر وحفص بالخطاب يكون المراد الإعلام بتناهي الغضب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 144.146 ﴾

(57/295)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ ظاهره أن الأول ممدوح .

والثاني مذموم ، وإذا كان كذلك ، فيجب أن يكون المراد : فخلف من بعد الصالحين منهم الذين تقدم ذكرهم خلف .

قال الزجاج : الخلف ما أخلف عليك مما أخذ منك ، فلهذا السبب يقال للقرن الذي يجيء في إثر قرن خلف ، ويقال فيه أيضاً خلف ، وقال أحمد بن يحيى : الناس كلهم يقولون خلف صدق وخلف سوء ، وخلف للسوء لا غير .

وحاصل الكلام : أن من أهل العربية من قال الخلف والخلف قد يذكر في الصالح وفي الرديء ، ومنهم من يقول الخلف مخصوص بالذم قال لبيد :

وبقيت في خلف كجلد الأجرب . . ومنهم من يقول : الخلف المستعمل في الذم مأخوذ من الخلف ، وهو الفساد ، يقال للرديء من القول خلف ، ومنه المثل المشهور سكت ألفاً ونطق خلفاً ، وخلف الشيء يخلف خلوفاً وخلفاً إذا فسد وكذلك الفم إذا تغيرت رائحته .

وقوله : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى ﴾ قال أبو عبيدة جميع متاع الدنيا عرض بفتح الراء ، يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ، وأما العرض بسكون الراء فما خالف العين ، أعني الدراهم والدنانير وجمعه عروض ، فكان كل عرض عرضاً وليس كل عرض عرضاً ، والمراد بقوله : ﴿ عَرَضَ هذا الأدنى ﴾ أي حطام هذا الشيء الأدنى يريد الدنيا وما يتمتع به منها ، وفي قوله : ﴿ هذا الأدنى ﴾ تخسيس وتحقير ، و ﴿ الأدنى ﴾ إما من

الدنو بمعنى القرب لأنه عاجل قريب ، وإما من دنو الحال وسقوطها وقلتها .

والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلام .

ثم حكى تعالى عنهم أنهم يستحقرون ذلك الذنب ويقولون سيغفر لنا .

ثم قال : ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ والمراد الإخبار عن إصرارهم على الذنوب .

وقال الحسن هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وأنهم لا يستمتعون منها .

(58/295)

ثم بين تعالى قبح فعلهم فقال : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ أي التوراة ﴿ أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ قيل المراد منعهم عن تحريف الكتاب وتغيير الشرائع لأجل أخذ الرشوة ، وقيل : المراد أنهم قالوا سيغفر لنا هذا الذنب مع الإصرار ، وذلك قول باطل .

فإن قيل : فهذا القول يدل على أن حكم التوراة هو أن صاحب الكبيرة لا يغفر له .

قلنا : أنهم كانوا يقطعون بأن هذه الكبيرة مغفورة ، ونحن لا نقطع بالغفران بل نرجو الغفران ، ونقول : إن بتقدير أن يعذب الله عليها فذلك العذاب منقطع غير دائم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ أي فهم ذاكرون لما أخذ عليهم لأنهم قد قرؤه ودرسوه .

ثم قال : ﴿ والدار الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ من تلك الرشوة الخبيثة المحقرة ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 36 . 37 ﴾

(59/295)

وقال السمرقندى :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾

يعني : بعد بني إسرائيل خلف السوء ﴿ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ يعني : التوراة ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الادنى ﴾ يقول : يستحلون أخذ الحرام من هذه الدنيا وهو الرشوة في الحكم ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ قال مجاهد : يعني : يأخذون ما يجدون حلالاً أو حراماً ويتمنَّون المغفرة ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ أي وإن يجدوا مثله من العرض يأخذوه .

ويقال : معناه أنهم يصرون على الذنوب وأكل الحرام ، فإذا أخذوا أول النهار يعودون إليه في آخر النهار ولا يتوبون عنه .

ويقال : يطلبون بعلمها الدنيا .

ويقال : يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون : سيغفر لنا هذه المرة .

وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ويقولون مثل ذلك : أي سيغفر لنا لأنا لا نشرك بالله شيئاً .

وقال سعيد بن جبير : يأخذون عرض هذا الأدنى .

يقول : يعملون بالذنوب .

ويقولون : سيغفر لنا ما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار .

وما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل .

﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ يعني : الذنوب .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ يعني : ألم يؤخذ عليهم ميثاقهم في التوراة ﴿ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أي : إلا الصدق ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ أي قرؤوا ما فيه ﴿ والدار الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي : يتقون الشرك ، ويحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن الآخرة خير من الدنيا .

ويقال : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ما يدرسون من الكتاب .

ويقال : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أن الإصرار على الذنوب ليس من علامة المغفورين ، قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص أَفَلَا تَعْقِلُونَ بالتاء على وجه المخاطبة .

وقرأ الباقون بالياء على وجه المغايبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(60/295)

وقال الثعلبي :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾

أي حضرت وجاء وتبدل من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف .

قال أبو حاتم : الخلف بسكون اللام الأولاد والواحد والجميع فيه سواء والخلف بفتح اللام البدل ولداً كان أو غريباً ، وقال الآخرون : هم خلف سوء .

وقال ابن الأعرابي : الخلف بالفتح الصالح و [بالجزم] الصالح . قال لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . . وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ومنه قيل للردئ من الكلام : خلف ، ومنه المثل السائر : سكت الفاً وبطن خلفاً .

وقال النضر بن شميل : الخلف بجزم اللام واسكانها في غير القرآن السوء واحد ، فأمّا في القرآن الصالح [بفتح] اللام لا غير ، وأنشد :

إنا وجدنا خلفاً بئس الخلف . . . عبداً إذا ما ناء بالحمل خضف

وقال محمد بن جرير الطبري : أكثر ما جاء في المدح بفتح اللام وفي الذم بتسكينها وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح ومن ذلك قول حسان بن ثابت :

لنا القدم الأولى وإليك وخلفنا . . . لأولنا في طاعة الله تابع

قال : واحسب أنّه إذا وجّه إلى الفساد مأخوذ من قولهم : خلف اللبن وحمض من طول تركه في السقاء حتى تفسد ، ومن قولهم : خلف فم الصائم إذا تغير ريحه وفسد ، فكان

الرجل الفاسد مشبه به .

﴿ وَرِثُواْ الكتاب يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى ﴾ والعرض متاع الدنيا أجمع . والعرض بسكون الراء ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير .

قال المفسّرون : [إن] اليهود ورثوا كتاب الله فقرأوه وعلموه وضيعوا العمل به وخالفوا حكمه يرتشون في حكم الله وتبديل كتاب الله وتغيير صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ذنوبنا ما عملناه بالليل كُفّر عنا بالنهار ، وما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل تمنياً على الله الأباطيل .

﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ . قال سعيد بن جبير : وإن عرض لهم ذنب آخر عملوه .

(61/295)

وقال مجاهد : ما أشرف لهم في اليوم من شيء من الدنيا الحلال أو حرام يشتهونه أخذوه . وكلما وهف لهم شيء من الدنيا أكلوه وأخذوا من الدنيا ، ما وهف أي ما سهل ، لا يبالون حلالاً كان أو حراماً ويبتغون في المغفرة فإن يجدوا الغد مثله يأخذوه .

قال السدي : كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلاّ ارتشى في الحكم . وإن خيارهم

اجتمعوا فأخذوا منهم بعض العهود أن لا يفعلوا فجعل الرجل منهم إذا استقضى وارتشى يقال له : مالك ترتشي في الحكم ، فيقول : سيُغفر لي ، فيطعن عليه البقية [عَرَض] من بني إسرائيل فيما صنع ، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجلاً ممن كان يطعن فيرتشي فيقول وأن يأتي الآخرين عرض مثله يأخذوه ومعناه : وإن يأت يهود يثرب الذين كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض مثله يأخذوه كما أخذ أسلافهم . والأدنى تذكير الدنيا وعرض هذه الدار الدنيا فلما ترك الاسم المؤنث ذكر النعت لتذكير اللفظ .

سمعت أبا القاسم الحبيبي قال : سمعت أبا بكر محمد بن عبد [. . . .] يقول فيه تقديم وتأخير أي : يأخذون هذا العرض الأدنى ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الكتاب أَن لاَّ يقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحق وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ وقرأوا ما فيه ، وقرأ السلمي : ادّارسوا أي تدارسوا مثل إذا زكّوا أي قرأ بعضهم بعضاً .

﴿ والدار الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الشرك والحرام ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ بالياء قرأ أكثر القراء على الخبر .

وقرأ الحسن وابن الأشهب بالتاء على الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾

معناه فخلفهم خلف ، والخلف بتسكين اللام مستعمل في الذم . وبفتح اللام مستعمل في الحمد . وقال أبو عبيدة . معناها [واحد] مثل الأثر والإثر ، والأول أظهر وهو في قول الشعراء أشهر ، قال بعضهم :

خلفت خلفاً ليت بهم . . . كان ، لا بِكَ التلف

وفي الخلف وجهان :

أحدهما : القرن ، قاله الفراء .

والثاني : أنه جمع خالف .

﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ يعني انتقل إليهم انتقال الميراث من سلف إلى خلف وفيهم قولان :

أحدهما : أنهم من خلف اليهود من أبنائهم . والكتاب الذي ورثوه التوراة لانتقالها لهم .

والثاني : أنهم النصارى : لأنهم خلف من اليهود . والكتاب الذي ورثوه : الإنجيل لحصوله معهم ، قاله مجاهد .

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى ﴾ يعني الرشوة على الحكم في قول الجميع وسماه عرضاً لقلة بقائه . وفي وصفه بالأدنى وجهان :

أحدهما : لأخذه في الدنيا الدانية .

والثاني : لأنه من المحرمات الدنية .

﴿ وَيَقُولُونَ : سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه مغفور ، لا نؤاخذ به .

والثاني : أنه ذنب لكن الله قد يغفره لنا تأميلاً منهم لرحمته .

﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم أهل إصرار على الذنوب ، قاله مجاهد وقتادة والسدي .

والثاني : أنهم لا يشبعهم شيء ، فهم لا يأخذونه لحاجة ، قاله الحسن .

﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ألا يقولوا على الله إلا الحق في تحريم الحكم بالرشا .

والثاني : في جميع الطاعات والمعاصي والأوامر والنواهي .

﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : تركوا ما فيه أن يعملوا به حتى صار دارساً .

والثاني : أنهم قد تلوه ودرسوه فهم لا يجهلون ما فيه ويقومون على مخالفته مع العلم به . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الجصاص

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ قِيلَ إنَّ الْأَغْلَبَ فِي ﴿ خَلْفٌ ﴾ بِتَسْكِينِ الْعَيْنِ أَنَّهُ لِلذَّمِّ ؛ وَقَالَ لَبِيدٍ : وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ وَقَدْ جَاءَ بِالتَّسْكِينِ فِي الْمَدْحِ أَيْضًا ، قَالَ حَسَّانُ : لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إلَيْك وَخَلْفُنَا لِأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ قِيلَ إنَّ الْعَرَضَ مَا يَقِلُّ لُبْثُهُ ، يُقَالُ عَرَضَ هَذَا الْأَمْرُ فَهُوَ عَارِضٌ خِلَافُ اللَّازِمِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ يَعْنِي السَّحَابَ لِقِلَّةِ لُبْثِهِ وَرُوِيَ فِي قَوْلِهِ ﴿ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ أَنَّ مَعْنَاهُ الرِّشْوَةُ عَلَى الْحُكْمِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ .

قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ ﴿ أَهْلُ إصْرَارٍ عَلَى الذُّنُوبِ ﴾ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : ﴿ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يُشْبِعُهُمْ شَيْءٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(64/295)

وقال ابن عطية :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾

﴿ خلف ﴾ معناه حدث خلفهم و ﴿ بعدهم خلْف ﴾ بإسكان اللام يستعمل في الأشهر في الذم ومنه قول لبيد : [الكامل]

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . . وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وقد يستعمل في المدح ومنه قول حسان : [الطويل]

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا . . . لأولنا في طاعة الله تابع

والخلَف بفتح اللام يستعمل في الأشهر في المدح ، قال أبو عبيدة والزجاج : وقد يستعمل في الذم أيضاً ومنه قول الشاعر :

الا ذلك الخلف الأعور . . . وقال مجاهد : المراد ب " الخلف " ها هنا النصارى وضعفه الطبري وقرأ جمهور الناس ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ وقرأ الحسن بن أبي الحسن البصري " ورّثوا الكتاب " بضم الواو وشد الراء ، وقوله ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ إشارة إلى الرشا والمكاسب الخبيثة و " العرض " ما يعرض ويعن ولا يثبت ، و " الأدنى " إشارة إلى عيش الدنيا ، وقوله : ﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ ذم لهم باغترارهم وقولهم : ﴿ سيغفر ﴾ مع علمهم بما في كتاب الله من الوعيد على المعاصي وإصرارهم عليهم وأنهم إذا

أمكنتهم ثانية ارتكبوها فهؤلاء عجزة كما قال صلى الله عليه وسلم : " والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ، فهؤلاء قطعوا بالمغفرة وهم مصرون وإنما يقول سيغفر لنا من أقلع وندم " .

(65/295)

وقوله تعالى : ﴿ ألم يؤخذ عليهم ﴾ الآية ، تشديد في لزوم الحق على الله في الشرع والأحكام بين الناس وأن لا تميل الرشا بالحكام إلى الباطل ، و ﴿ الكتاب ﴾ يريد به التوراة وميثاقها الشدائد التي فيها في هذا المعنى ، وقوله : ﴿ أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ يمكن أن يريد بذلك قولهم الباطل في حكومة مما يقع بين أيديهم ، ويمكن أن يريد قولهم سيغفر لنا وهم قد علموا الحق في نهي الله عن ذلك ، وقرأ جمهور الناس : " يقولوا " بياء من تحت وقرأ الجحدري : " تقولوا " بتاء من فوق وقوله : ﴿ ودرسوا ﴾ معطوف على قوله : ﴿ ألم يؤخذ ﴾ الآية بمعنى المضي ، يقدر : أليس قد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه وبهذين الفعلين تقوم الحجة عليهم في قولهم الباطل ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، " وادارسوا " ما فيه وقال الطبري وغيره ، قوله : ﴿ ودرسوا ﴾ معطوف على قوله : ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا نظر لبعد المعطوف عليه لأنه قوله : ﴿ ودرسوا ﴾ يزول منه معنى إقامة الحجة بالتقدير الذي في قوله : ﴿ ألم ﴾ ثم وعظ وذكر تبارك وتعالى بقوله : ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ وقرأ جمهور الناس : " أفلا تعقلون " بالتاء من فوق وقرأ أبو عمرو وأهل مكة : " يعقلون " بالياء من أسفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(66/295)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم ﴾

أي : من بعد الذين وصفناهم ﴿ خَلْفٌ ﴾ وقرأ الجوني ، والجحدري : " خَلَفٌ " بفتح اللام .

قال أبو عبيدة : الخَلَفُ والخلفُ واحد ، وقوم يجعلون المحرَّك اللام ، للصالح ، والمسكَّن لغير الصالح .

وقال ابن قتيبة : الخَلْفُ : الرديء من الناس ومن الكلام ، يقال : هذا خَلْفٌ من القول .

وقال ابن الأنباري : أكثر ما تستعمل العرب الخَلْفَ ، باسكان اللام ، في الرديء المذموم .

وتفتح اللام في الفاضل الممدوح.

وقد يوقع الخَلْفُ على الممدوح، والخَلَفُ على المذموم، غير أن المختار ما ذكرناه.

وفي المراد بهذا الخَلْف ثلاثة أقوال.

أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، وابن زيد.

والثاني: النصارى.

والثالث: أن الخَلْفَ من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم، والقولان عن مجاهد.

فإن قيل: الخَلْفُ واحد، فكيف قال: "يأخذون" وكذلك قال في [مريم: 59] "أضاعوا" فقد ذكر ابن الأنباري عنه جوابين.

أحدهما: أن الخَلْف: جمع خالف، كما أن الركب: جمع راكب، والشَّرْب: جمع شارب.

والثاني: أن الخَلْف مصدر يكون للاثنين والجميع، والمذكر والمؤنث.

قوله تعالى: ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أي: انتقل إليهم انتقال الميراث من سلف إلى خلف، فيخرج في الكتاب ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه التوراة.

والثاني: الإنجيل.

والثالث: القرآن.

قوله تعالى : ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أي : هذه الدنيا ، وهو ما يعرض لهم منها .

وقيل : سماه عرضاً ، لقلة بقائه .

قال ابن عباس : يأخذون ما أحبوا من حلال أو حرام .

وقيل : هو الرِّشوة في الحكم .

وفي وصفه بالأدنى قولان .

أحدهما : أنه من الدُّنُوِّ .

والثاني : أنه من الدناءة .

قوله تعالى : ﴿ سيُغفَرُ لنا ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : إنا لا نؤاخَذ ، تمنِّياً على الله الباطلَ .

والثاني : أنه ذنْب يغفره الله لنا ، تأميلاً لرحمة الله تعالى .

(67/295)

وفي قوله : ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ قولان .

أحدهما : أن المعنى : لا يشبعهم شيء ، فهم يأخذون لغير حاجة ، قاله الحسن .

والثاني : أنهم أهل إصرار على الذنوب ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ قال ابن عباس : وكّد الله عليهم في التوراة أن لا يقولوا على الله إلا الحق ، فقالوا الباطل ، وهو ما أوجبوا على الله من مغفرة ذنوبهم التي لا يتوبون منها ، وليس في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار .

قوله تعالى : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ معطوف على "ورثوا" .

ومعنى "درسوا ما فيه" : قرؤوه ، فكأنه قال : خالفوا على علم .

﴿ والدار الآخرة ﴾ أي : ما فيها من الثواب ﴿ خير للذين يتقون أفلا يعقلون ﴾ أن الباقي خير من الفاني .

قرأ ابن عامر ، ونافع ، وحفص عن عاصم : بالتاء ، والباقون : بالياء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(68/295)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾

يعني أولاد الذين فرّقهم في الأرض .

قال أبو حاتم : "الخَلْف" بسكون اللام : الأولاد ، الواحد والجميع فيه سواء .

و"الخَلَف" بفتح اللام البَدَل ، ولداً كان أو غريباً .

وقال ابن الأعرابيّ : "الْخَلَفُ" بالفتح الصالح ، وبالجزم الطالح .

قال لَبِيد :

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافِهم . . .

وبقيْتُ في خلْف كجِلْد الأجْرَب

ومنه قيل للرديء من الكلام : خَلْف .

ومنه المثل السائر "سَكَت ألْفاً ونطق خَلْفاً" .

فخلفٌ في الذَّم بالإسكان ، وخَلَفٌ بالفتح في المدح .

هذا هو المستعمل المشهور .

قال صلى الله عليه وسلم : "يَحمِل هذا العلم مِن كل خَلَف عدولُه" وقد يستعمل كل

واحد منهما موضع الآخر .

قال حسان بن ثابت :

لنا القَدَمُ الأُولَى إليك وخَلْفُنا . . .

لأوّلنا في طاعة اللّه تابع

وقال آخر :

إنا وجدنا خَلَفاً بئس الخلَفْ . . .

أغلق عنا بابَه ثم حلف

لا يُدخل البوابُ إلا من عرف . . .

عبداً إذا ما ناء بالحِمل وَقَفْ

ويروى : خَضَف ؛ أي رَدَم .

والمقصود من الآية الذمّ .

﴿ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ قال المفسرون : هم اليهود ، ورِثوا كتاب الله فقرؤوه وعلموه ، وخالفوا حكمه وأتَوْا محارمه مع دراستهم له .

فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً .

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم ونهمهم .

﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهم لا يتوبون .

ودلّ على أنهم لا يتوبون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ والعَرَض : متاع الدنيا ؛ بفتح الراء .

وبإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير .

والإشارة في هذه الآية إلى الرَشا والمكاسب الخبيثة .

ثم ذمّهم باغترارهم في قولهم "سَيُغْفَرُ لَنَا" وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها ، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصِرّون ، وإنما يقول سيغفر لنا من أقْلَع وندم .

قلت : وهذا الوصف الذي ذمّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا .

أسند الدارمِيّ أبو محمد : حدّثنا محمد بن المبارك حدّثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يُكْنَى أبا عمرو عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سَيَبْلَى القرآنُ في صدور أقوام كما يَبْلَى الثّوب فيتهافَت ، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ، يَلْبَسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالُهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصّروا قالوا سنبلغ ، وإن أساؤوا قالوا سيغفر لنا ، إنا لا نشرك بالله شيئاً .

وقيل : إن الضمير في "يَأْتِهِمْ" ليهود المدينة ؛ أي وإن يأت يهودَ يَثْرِبَ الذين كانوا على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم عَرَضٌ مثْلُه يأخذوه كما أخذه أسلافهم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فيه مسألتان .

الأُولى : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ يريد التوراة .

وهذا تشديد في لزوم قول الحق في الشرع والأحكام ، وألاّ يميل الحكام بالرُّشَا إلى الباطل .

قلت : وهذا الذي لزم هؤلاء وأُخذ عليهم به الميثاق في قول الحق ، لازم لنا على لسان نبيّنا صلى الله عليه وسلم وكتابِ ربّنا ، على ما تقدّم بيانه في "النساء" .

ولا خلاف فيه في جميع الشرائع ، والحمد لله .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ أي قرؤوه ، وهم قَرِيبُو عهد به .

وقرأ أبو عبد الرحمن "وادارسوا ما فيه" فأدغم التاء في الدال .

(70/295)

قال ابن زيد : كان يأتيهم المُحِقّ برشوة فيُخرجون له كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحكموا له .

وقال ابن عباس : "أَلاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ" وقد قالوا الباطل في غُفران ذنوبهم الذي يوجبونه ويقطعون به .

وقال ابن زيد يعني في الأحكام التي يحكمون بها ؛ كما ذكرنا .

وقال بعض العلماء : إن معنى "وَدَرَسُوا مَا فِيهِ" أي مَحَوْه بترك العمل به والْفَهْم له ؛ من قولك : درستِ الريح الآثار ، إذا مَحَتْها .

وخط دارس وربْع دارس ، إذا امحى وعفا أثره .

وهذا المعنى مواطىء أي موافق لقوله تعالى : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب كِتَابَ الله وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران : 187] حسب ما تقدّم بيانه في "البقرة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(71/295)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم ﴾

يعني من بعد هؤلاء الذين وصفناهم قوله تعالى : ﴿ خلف ﴾ يعني خلف سوء يعني حدث من بعدهم وتبدل منهم بدل سوء يقال منه هو خلّف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها فأكثر ما يقال في المدح بفتح اللام وفي الذم بسكونها وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح قال حسان بن ثابت في المدح :

لنا القدم الأولى إليك وخلْفنا . . .

لأولنا في طاعة الله تابع

فسكن اللام في قوله وخلفنا وهو يريد المدح وقال لبيد في الذم :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . .

وبقيت في خَلَف كجلد الأجرب

ففتح اللام وهو يريد الذم وأصله من الفساد .

(72/295)

يقال : خلف اللبن إذا فسد وتغير في السقاء ويقال للرديء من القول : خلف وخلف الشيء تغيره ، ومنه خلوف فم الصائم والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذي يجيء بعد قرن كان قبله ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ يعني انتقل إليهم الكتاب عن آبائهم والمراد بالكتاب التوراة ﴿ يأخذون عرَض هذا الأدنى ﴾ العرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ، والعرْض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير والمعنى أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام على تبديل الكلام وتغييره وذلك الذي يأخذونه من حطام الدنيا هو الشيء التافه الخسيس الحقير لأن الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا في الأحكام ويعلمون أنها حرام ثم إنهم

مع إقدامهم على هذا الذنب العظيم يصرون عليه ﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ يعني ذنوبنا فيتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة عن شداد بن أوس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني " أخرجه الترمذي وقال في قوله دان نفسه يعني حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسَب يوم القيامة وموضع الاستشهاد من الحديث على الآية ، قوله وتمنى على الله الأماني لأن اليهود كانوا يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمني بعينه قوله تعالى : ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب ، والمعنى أنهم إذا أتاهم شيء من الدنيا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ويتمنون على الله المغفرة وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه .

(73/295)

قال السدي : كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم فيقال له ما بالك ترتشي فيقول : سيغفر لي فيطعن عليه الآخرون فإذا مات أو نزع من الحكم وجعل مكانه آخر فمن كان يطعن عليه ارتشى أيضاً يقول الله وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ﴾ يعني ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في أحكامهم العهود

والمواثيق في الكتاب وهو التوراة ﴿ أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ يعني إنّا أخذنا عليهم الميثاق على أن يقولوا الحق فقالوا الباطل وخالفوا أمر الله وهو قولهم سيغفر لنا والمراد من هذا التوبيخ والتقريع لليهود في ادائهم على الله الباطل قال ابن عباس : هو ما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ يعني ما في الكتاب والمعنى أنهم ذاكرون لما أخذ عليهم من العهود والمواثيق في الكتاب لأنهم دارسون له لم يتركوه ولكن درسوه وضيعوا العمل به ﴿ والدار الآخرة ﴾ يعني وما في الدار الآخرة مما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته العاملين بما أمرهم الله به من كتابه ، ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يرتشوا في الأحكام ﴿ خير للذين يتقون ﴾ يعني يتقون الله ويخافون عقابه ﴿ أفلا يعقلون ﴾ يعني أفلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أن ما في الآخرة خير وأبقى لأنها دار المتقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(74/295)

وقال أبو حيان :

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ .

أي حدث من بعد المذكورين خلف ، قال الزجاج : يقال للقرن الذي يجيء بعد القرن خلف ، وقال الفراء : الخلف القرن والخلف من استخلفه ، وقال ثعلب : الناس كلهم يقولون خلف صدق للصالح وخلف سوء للطالح .

ومنه قول الشاعر :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . .

وبقيت في خلف كجلد الأجرب

والمثل : سكت ألفاً ونطق خلفاً أي سكت طويلاً ثم تكلّم بكلام فاسد ، وعن الفرّاء : الخلف يذهب به إلى الذمّ والخلف خلف صالح .

وقال الشاعر :

خلفت خلفاً ولم تدع خلفاً . . .

كنت بهم كان لا بك التلفا

وقد يكون في الرّدى خلف وعليه قوله :

ألا ذلك الخلف الأعور . . .

وفي الصالح خلف وعلى هذا بيت حسان :

لنا القدم الأولى عليهم وخلفنا . . .

لأوّلنا في طاعة الله تابع

﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أي ما في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب والذي عليه هوى المجبر هو مذهب اليهود بعينه كما ترى .

(75/295)

وقال مالك بن دينار رحمه الله : يأتي على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به قالوا : سيغفر لنا لن نشرك بالله شيئاً كل أمرهم على الطمع خيارهم فيه المداهنة فهؤلاء من هذه الأمة أشباه الذين ذكرهم الله تعالى وتلا الآية انتهى ، وهو على طريقة المعتزلة وقوله : ﴿ إلا الحقّ ﴾ دليل على أنهم كانوا يقولون الباطل على تناولهم عرض الدنيا ﴿ ودرسوا ﴾ معطوف على قوله ﴿ ألم يؤخذ ﴾ وفي ذلك أعظم توبيخ وتقريع وهو أنهم كرّروا على ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله وهذا العطف على التقرير لأنّ معناه قد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه كقوله ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ وليثبت معناه قد ربّيناك ولبثت ، وقال الطبري وغيره : هو معطوف على قوله ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ وفيه بعد ، وقيل هو على إضمار قد أي قد ﴿ درسوا ما فيه ﴾ وكونه معطوفاً على التقرير هو الظاهر لأن فيه معنى إقامة الحجة عليهم في أخذ ميثاق الكتاب بكونهم حفظوا لفظه وكرّروه وما نسوه وفهموا معناه وهم مع ذلك لا يقولون

إلا الباطل ، وقرأ الجحدري ﴿ أن لا تقولوا ﴾ بتاء الخطاب ، وقرأ علي والسلمي : وادّارسوا وأصله وتدارسوا كقوله ﴿ فادارأتم ﴾ أي تدارأتم وقد مر تقريره في العربية ، وهذه القراءة توضح أن معنى ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ هو التكرار لقراءته والوقوف عليه وأنّ تأويل من تأوّل ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أن معناه ومحوه بترك العمل والفهم له من قولهم درست بالريح الآثار إذا محتها فيه بعد ولو كان كما قيل لقيل ربع مدروس وخط مدروس ، وإنما قالوا : ربع دارس وخط دارس بمعنى داثر .

﴿ والدار الاخرة خير للذين يتقون أفلا يعقلون ﴾ .

(76/295)

أي ولثواب دار الآخرة خير من تلك الرشوة الخبيثة الخسيسة المعقبة خزي الدنيا والآخرة ومعنى ﴿ يتقون ﴾ محارم الله تعالى وقرأ أبو عمرو وأهل مكة ﴿ يعقلون ﴾ بالياء جرياً على الغيبة في الضمائر السابقة ، وقرأ الجمهور بالخطاب على طريقة الالتفات إليهم أو على طريق خطاب هذه الأمة كأنه قيل ﴿ أفلا تعقلون ﴾ حال هؤلاء وما هم عليه من سوء العمل ويتعجبون من تجارتهم على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(77/295)

وقال أبو السعود :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾

أي من بعد المذكورين ﴿ خَلْفٌ ﴾ أي بدلُ سوءٍ ، مصدرٌ نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع ، وقيل : جمع وهو شائعٌ في الشر والخَلَفُ بفتح اللام في الخير ، والمرادُ به الذين كانوا في عصر رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ أي التوراةَ من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الادنى ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتِهم إياه أي يأخذون حُطامَ هذا الشيءِ الأدنى أي الدنيا من الدنو أو الدناءة ، والمرادُ به ما كانوا يأخذونه من الرِّشا في الحكومات وعلى تحريف الكلام وقيل : حال من واو ورثوا ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ولا يؤاخذُنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنه ، والجملةُ تحتمل العطفَ والحالية ، والفعلُ مُسندٌ إلى الجار والمجرور ، أو مصدر يأخذون ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ حال من الضمير في لنا أي يرجون المغفرةَ والحال أنهم مُصِرّون على الذنب عائدون إلى مثله غيرَ تائبين عنه ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكتاب ﴾ أي الميثاقُ الواردُ في الكتاب ﴿ أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحق ﴾ عطفُ بيانٍ للميثاق أو متعلقٌ به أي بأن لا يقولوا الخ ، والمرادُ به الردُّ عليهم والتوبيخُ على بتّهم القولَ بالمغفرة بلا توبةٍ والدِلالةُ على أنها افتراءٌ على الله تعالى وخروجٌ عن ميثاق الكتاب ﴿

وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ عطفٌ على ألم يؤخذ من حيث المعنى فإنه تقريرٌ أو على ورِثوا وهو اعتراض ﴿ والدار الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ما فعل هؤلاء ، ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ فتعلموا ذلك فلا تستبدلوا الأدنى المؤدّي إلى العقاب بالنعيم المخلّد ، وقرىء بالياء وفي الالتفات تشديدٌ للتوبيخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(78/295)

قال الآلوسى :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي المذكورين ، وقيل : الصالحين ﴿ خَلْفٌ ﴾ أي بدل سوء مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع ، وقيل : هو اسم جمع وهو مراد من قال : إنه جمع وهو شائع في الشر ، ومنه سكت ألفاً ونطق خلفاً والخلف بفتح اللام في الخير وادعى بعضهم الوضع لذلك ، وقيل : هما بمعنى وهو من يخلف غيره صالحاً كان أو طالحاً ، ومن مجيء الساكن في المدح قول حسان :

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا . . .

لأولنا في طاعة الله تابع

ومن مجيء المتحرك في الذم قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . .

وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وعن البصريين أنه يجوز التحريك والسكون في الردى وأما الجيد فبالتحريك فقط ووافقهم أهل اللغة إلا القراء وأبا عبيدة واشتقاقه إما من الخلافة أو من الخلوف وهو الفساد والتغير ومنه خلوف فم الصائم ، وقال أبو حاتم : الخلف بالسكون الأولاد الواحد والجمع فيه سواء والخلف بالفتح البدل ولدا كان أو غريباً ؛ والأكثرون على أن المراد بهؤلاء الخلف الذين كانوا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحينئذ لا يصح تفسير الصالحين بمن آمن به عليه الصلاة والسلام ، والظاهر أنهم من اليهود وعن مجاهد أنهم النصارى وليس بذاك ﴿ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ أي التوراة والوراثة مجاز عن كونها في أيديهم وكونهم واقفين على ما فيها بعد أسلافهم .

وقرأ الحسن ﴿ وَرِثُواْ ﴾ بالضم والتشديد مبنياً لما لم يسم فاعله والجملة على القراءتين في موضع الصفة لخلف وقوله سبحانه : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الادنى ﴾ استئناف مسوق لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتهم إياه .

وقال أبو البقاء .

حال من الضمير في ورثوا واستظهره بعضهم ويكفي مقارنته لبعض زمان الوراثة لامتداده ، والغرض ما لا ثبات له ومنه استعار المتكلمون العرض لمقابل الجوهر .

وفي النهاية العرض بالفتح متاع الدنيا وحطامها ، وقال أبو عبيدة : هو غير النقدين من متاعها وبالسكون المال والقيم ، و﴿ الادنى ﴾ صفة لمحذوف أي الشيء الأدنى والمراد به الدنيا وهو من الدنو للقرب بالنسبة إلى الآخرة ، وكونها من الدناءة خلاف الظاهر وان كان ذلك ظاهراً فيها لأنه مهموز ، والمراد بهذا العرض ما يؤخذونه من الرشا في الحكومات وعلى تحريف الكلام ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ولا يؤاخذنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنا ، والجملة عطف على ما قبلها واحتمال الحالية يحتاج إلى تقدير مبتدأ من غير حاجة ظاهرة والفعل مسند إلى الجار والمجرور ؛ وجوز أن يكون مسنداً إلى ضمير يأخذون : ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ في موضع الحال قيل من ضمير يقولون ، والقول بمعنى الاعتقاد أي يرجون المغفرة وهم مصرون على الذنب عائدون إلى مثله غير تائبين عنه ، وقيل : من ضمير لنا والمعنى على ذلك والأول أظهر ، والقول بأن تقييد القول بذلك لا يستلزم تقييد المغفرة به والمطلوب الثاني والثاني مكتفل به لا يخلو عن نظر .

واختار الحلبي والسفاقسي أن الجملة مستأنفة لا لأن الجملة الشرطية لا تقع حالا إذ وقوعها مما لا شك في صحته بل لأن في القول بالحالية نزغة اعتزالية ولا يخفى أن الأمر وإن كان كذلك إلا أن الحالية أبلغ لأن رجاءهم المغفرة في حال يضادها أوفق بالانكار عليهم فافهم ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ أي الميثاق المذكور في التوراة فالإضافة على معنى في ، ويجوز أن تكون اختصاصية على معنى اللام ويؤول المعنى إلى ما ذكر ، وال في الكتاب للعهد ، وقوله سبحانه : ﴿ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ عطف بيان للميثاق ، وقيل : بدل منه ، وقيل : إنه مفعول لأجله ، وقيل : إنه متعلق بميثاق بتقدير حرف الجر أي بأن لا يقولوا ، وجوز في ﴿ إن ﴾ أن تكون مصدرية وأن تكون مفسرة لميثاق لأنه بمعنى القول ، وفي ﴿ لا ﴾ أن تكون ناهية وأن تكون نافية واعتبار كل مع ما يصح معه مفوض إلى ذهنك ، والمراد من الآية توبيخ أولئك الورثة على بتهم القول بالمغفرة مع إصرارهم على ما هم عليه .

(81/295)

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم وبخوا على إيجابهم على الله تعالى غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون إليها ولا يتوبون منها ، وجاء البت من السين فإنها للتأكيد كما

نص عليه المحققون ، وقد عرض الزمخشري عامله الله تعالى بعدله في تفسير هذه الآية بأهل السنة ، وزعم أن مذهبهم هو مذهب اليهود بعينه حيث جوزوا غفران الذنب من غير توبة ، ونقل عن التوراة من ارتكب ذنباً عظيماً فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة ، وأنت تعلم أن اليهود أكدوا القول بالغفران وأهل السنة لا يجزمون في المطيع بالغفران فضلاً عن العاصي بما هو حق الله تعالى فضلاً عمن عصاه سبحانه فيما هو من حقوق العباد فالموجبون على الله تعالى وإن كان بالنسبة إلى التائب أقرب إليهم فهل ما ادعاه إلا من قبيل ما جاء في المثل رمتني بدائها وانسلت وما نقله عن التوراة إن كان استنباطاً من الآية فلا تدل على ما في الكشف إلا على تحريفهم ما في التوراة من نعت النبي صلى الله عليه وسلم وآية الرجم ونحو ذلك من تسهيلاً تهم على الخاصة وتخفيفاتهم على العامة يأخذون الرشا بذلك والتقول على الله عظيمة وإن كان قد قرأ التوراة التي لم تحرف وأنها هي تعين الحمل على الشرك بقواطع من كتاب الله تعالى الكريم أو يكون ذلك لهم وهذا لهذه الأمة المرحومة خاصة ، وقد سلم هو نحوا منه في قوله سبحانه :

(82/295)

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [الأحقاف : 31] وقد أطبق أهل السنة على ذم المتمني على الله ، ورووا عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله سبحانه " ومن هنا قيل : إن القوم ذموا بأكلهم أموال الناس بالباطل وإتباع أنفسهم هواها وتمنيهم على الله سبحانه ووبخوا على افترائهم على الله في الأحكام التي غيروها وأخذوا عرض هذا الأدنى على تغييرها فكأنه قيل : الم يؤخذ عليهم الميثاق المذكور في كتابهم أن لا يقولوا على الله تعالى في وقت من الأوقات إلا الحق الذي تضمنه الكتاب فلم حكموا بخلافه وقالوا : هو من عند الله وما هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ؟ وفيه مع مخالفته لما روي عن الحبر مخالفة للظاهر .

وقرأ الجحدري ﴿ أَن لا تَقُولُواْ ﴾ بالخطاب على الالتفات ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ أي قرأوه فهم ذاكرون لذلك ، وهو عطف على ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ ﴾ من حيث المعنى وإن اختلفا خبراً وانشاءاً إذ المعنى أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا الخ ، وجوز كونه عطفاً على ﴿ لَمْ يُؤْخَذْ ﴾ والاستفهام التقريري داخل عليهما وهو خلاف الظاهر أو على ورثوا وتكون جملة ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ ﴾ معترضة وما قبلها حالية أو يكون المجموع اعتراضاً كما قيل ولا مانع منه خلا ان الطبرسي نقل عن بعضهم تفسير درسوا على هذا الوجه من العطف بتركوا وضيعوا وفيه بعد .

وقيل : إن الجملة في موضع الحال من ضمير يقولوا باضمار قد أي أخذ عليهم الميثاق بأن لا يقولوا على الله إلا الحق الذي تضمنه كتابهم في حال دراستهم ما فيه وتذكرهم له وهو كما ترى .

وقرأ السلمي ﴿ ادارسوا ﴾ بتشديد الدال وألف بعدها وأصله تدارسوا فادغمت التاء في الدال واجتلبت لها همزة الوصل .

(83/295)

﴿ فِيهِ والدار الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الله تعالى ويخافون عقابه فلا يفعلون ما فعل ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ فتعلموا ذلك ولا تستبدلوا الأدنى المؤدي إلى العذاب بالنعيم المقيم ، وهو خطاب لأولئك المأخوذ عليهم الميثاق الآخذين لعرض هذا الأدنى ؛ وفي الالتفات تشديد للتوبيخ ، وقيل : هو خطاب للمؤمنين ولا التفات فيه .

وقرأ جمع بالياء على الغيبة وبالتاء وقرأ نافع . وابن عامر . وابن ذكوان . وأبو جعفر . وسهل . ويعقوب . وحفص .

وهذه الآية ظاهرة في التوبيخ على الأخذ ، وجعل بعضهم قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ

عَلَيْهِم ﴾ الخ توبيخاً على ذلك القول ففي الآية ما هو من قبيل ما فيه اللف والنشر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(84/295)

فائدة

قال صاحب روح البيان :

وفي "التأويلات النجمية" : من شأن النفوس أن يجعلوا المواهب الربانية والكشوف الروحانية ذريعة العروض الدنيوية ويصرفها في تحصيل المال والجاه واستيفاء اللذات والشهوات ويقولون سيغفر لنا ؛ لأنا وصلنا إلى مقام ورتبة يغفر لنا مثل الزلات والخطيئات كما هو مذهب أهل الإباحة جهالة وغروراً منهم ، وفيه معنى آخر وهو أنهم يقولون : سيغفر لنا إذا استغفرنا منها وهم يستغفرون باللسان لا بالقلب .

واعلم : أن الغالب في آخر الزمان ترك العمل بالقرآن ولقد خلف من بعد السعداء أشقياء اطمأنوا إلى زخارف الدنيا .

قال الحسن : رأيت سبعين بدرياً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم وكانوا بالبلاء أشد منكم فرحاً بالرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين ولو رأوا أخياركم قالوا ما

لهؤلاء من خلاق ولو رأوا أشراركم حكموا بأنهم ما يؤمنون بيوم الحساب إذا عرض عليهم الحلال من المال تركوه خوفاً من فساد قلوبهم .

قال هرم لأويس : أين تأمرني أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام ، فقال : هرم كيف المعيشة بها ؟

قال : أويس أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها العظة .

وهذا الشك لا يزول إلا بالتوفيق الخاص الإلهي ولا بد من تربية المرشد الكامل فإنه أعرف بمصالح النفس ومفاسدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 344 . 345 ﴾ . بتصرف يسير .

(85/295)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾

جملة ﴿ فخلف ﴾ تفريع على قوله : ﴿ وقطّعناهم ﴾ [الأعراف : 168] إن كان المراد تقطيعهم في بلاد أعدائهم وإخراجهم من مملكتهم ، فتكون الآية مشيرة إلى عودة بني إسرائيل إلى بلادهم في عهد الملك (كورش) ملك الفرس في حدود سنة 530 قبل الميلاد

، فإنه لما فتح بلاد أشور أذن لليهود الذين أسرهم (بختنصر) أن يرجعوا إلى بلادهم فرجعوا ، وبنوا بيت المقدس بعد خرابه على يد (نحميا) و (عزرا) كما تضمنه سفر نحميا وسفر عزرا ، وكان من جملة ما أحيوه أنهم أتوا بسفر شريعة موسى الذي كتبه عزرا وقرأوه على الشعب في (أورشليم) فيكون المراد بالخَلْف ما أوّله ذلك الفلّ من بني إسرائيل الذين رجعوا من أسر الآشوريين .

والمراد بإرث الكتاب إعادة مزاولتهم التوراة التي أخرجها إليهم (عزرا) المعروف عند أهل الإسلام باسم عُزَير ، ويكون أخذهم عرض الأدنى أخذَ بعض الخلف لا جميعه ، لأن صدر ذلك الخلف كانوا تائبين وفيهم أنبياء وصالحون .

وإن كان المراد من تقطيعهم في الأرض أمماً تكثيرَهم والامتنانَ عليهم ، كان قوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ تفريعاً على جميع القصص المتقدمة التي هي قصص أسلافهم ، فيكون المراد بالخَلْف من نشأ من ذرية أولئك اليهود بعد زوال الأمة وتفرقها ، منهم الذين كانوا عند ظهور الإسلام ، وهم اليهود الذين كانوا بالمدينة ، وإلى هذا المعنى في (الخَلْف) نحا المفسرون .

(86/295)

والخَلْف بسكون اللام من يأتي بعد غيره سابِقِه في مكان أو عمل أو نسل ، يُبينه المقام أو القرينة ، ولا يغلب فيمن يخلف في أمر سيء ، قاله النضر بن شُميل ، خلافاً لكثير من أهل اللغة إذ قالوا : الأكثر استعمال الخَلْف بسكون اللام فيمن يخلف في الشر ، وبفتح اللام فيمن يخلف في الخير ، وقال البصريون : يجوز التحريك والإسكان في الرديء ، وأما الحسن فبالتحريك فقطْ .

وهو مصدر أريد به اسم الفاعل أي خَالِف ، والخَلْف مأخوذ من الخَلَفْ ضد القدّام لأن من يجيء بعد قوم فكأنه جاء من ورائهم ، ولاَ حَد لآخر الخلف ، بل يكون تحديده بالقرائن ، فلا ينحصر في جيل ولا في قرن ، بل قد يكون الخلف ممتداً ، قال تعالى بعد ذكر الأنبياء ﴿ فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات ﴾ [مريم : 59] فيشمل من خلفهم من ذرياتهم من العرب واليهود وغيرهم ، فإنه ذكر من أسلافهم إدريسَ وهو جد نوح .

و﴿ ورثوا ﴾ مجازٌ في القيام مقام الغير كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها ﴾ في هذه السورة (43) وقوله فيها : ﴿ أو لم يهد الذين يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ [الأعراف : 100] فهو بمعنى الحلفية ، والمعنى : فخلف من بعدهم خلف في إرث الكتاب ، وهذا يجري على كلا القولين في تخصيص الخلف ، لأنه بيان للفعل لا لاسم الخلف .

وجملة : ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ حال من ضمير ﴿ ورثوا ﴾ ، والمقصود هو ذم الخلف بأنهم يأخذون عرض الأدنى ويقولون سيغفر لنا ، ومهد لذلك بأنهم ورثوا الكتاب ليدل على أنهم يفعلون ذلك عن علم لا عن جهل ، وذلك أشد مذمة ، كما قال تعالى : ﴿ وأضله الله على علمٍ ﴾ [الجاثية : 23] .

ومعنى الأخذ هنا الملابسة والاستعمال فهو مجاز أي : يلابسونه ، ويجوز كونه حقيقة كما سيأتي .

والعَرَض بفتح العين وفتح الراء الأمر الذي يزول ولا يدوم .

ويراد به المال ، ويراد به أيضاً ما يعرض للمرء من الشهوات والمنافع .

(87/295)

والأدنى الأقرب من المكان ، والمراد به هنا الدنيا ، وفي اسم الإشارة إيماء إلى تحقير هذا العرض الذي رغبوا فيه كالإشارة في قول قيس بن الخطيم:

متى يات هذَا الموت لا يُلفِ حاجة . . .

لنفسيَ إلاّ قد قضيت قضاءَها

وقد قيل : أَخذ عرض الدنيا أريد به ملابسة الذنوب ، وبذلك فسر سعيد بن جبير ،

ومجاهد ، وقتادة ، والطبري ، فيشمل كل ذنب ، ويكون الأخذ مستعملاً في المجاز وهو الملابسة ، فيصدق بالتناول باليد وبغير ذلك ، فهو من عموم المجاز ، وقيل عرض الدنيا هو الرّشا وبه فسّر السّدي ، ومعظمُ المفسرين ، فيكون الأخذ مستعملاً في حقيقته وهو التناول ، وقد يترجح هذا التفسير بقوله ﴿ وإن يأتهم عَرَض ﴾ كما سيأتي .

والقول في : ﴿ ويقولون ﴾ هو الكلام اللساني ، يقولون لمن ينكر عليهم ملابسة الذنوب وتناول الشهوات ، لأن (ما) بعد يقولون يناسبه الكلام اللفظي ، ويجوز أن يكون الكلام النفساني ، لأنه فرع عنه ، أي قولهم في أنفسهم يعللونها به حين يجيش فيها وازع النهي ، فهو بنمزلة قوله تعالى : ﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ [المجادلة : 8] وذلك من غرورهم في الدين .

وبناء فعل "يُغفر" على صيغة المجهول لأن الفاعل معروف ، وهو الله ، إذ لا يصدر هذا الفعل إلاّ عنه ، وللدلالة على أنهم يقولون ذلك على وجه العموم لا في خصوص الذنب الذي أنكر عليهم ، أو الذي تلبَّسُوا به حين القول ، ونائب الفاعل محذوف لعلمه من السياق ، والتقدير : سيُغفر لنا ذلك ، أو ذُنوبنا ، لأنهم يحسبون أن ذنوبهم كلها مغفورة ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة ﴾ كما تقدم في سورة البقرة (80) ، أي يغفر لنا بدون سبب المغفرة ، وهو التوبة كما يعلم من السياق ، وهو جزمهم بذلك عقب ذكر الذنب دون ذكر كفارة أو نحوها .

وقوله ﴿ لنا ﴾ لا يصلح للنيابة عن الفاعل ، لأنه ليس في معنى المفعول ، إذ فعل المغفرة يتعدّى لمفعول واحد ، وأما المجرور بعده باللام فهو في معنى المفعول لأجله ، يقال : غفر الله لك ذنبك ، كما قال تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] فلو بُني شُرح للمجهول لما صح أن يجعل ﴿ لك ﴾ نائِباً عن الفاعل .

وجملة : ﴿ ويقولون سيُغفر لنا ﴾ معطوفة على جملة ، ﴿ يأخذون ﴾ لأن كِلا الخبرين يوجب الذم ، واجتماعهما أشد في ذلك .

وجملة : ﴿ وَإِنْ يأتهم عرض مثلُه يأخذوه ﴾ معطوفة على التي قبلها ، واستعير إتيان العرْض لبذله لهم إن كان المراد بالعرض المالَ ، وقد يُراد به خطور شهوته في نفوسهم إن كان المراد بالعرض جميع الشهوات والملاذ المحرمة ، واستعمال الإتيان في الذوات أنسب من استعماله في خطور الأعراض والأمور المعنوية ، لقرب المشابهة في الأول دون الثاني .

والمعنى : أنهم يعصون ، ويزعمون أن سيّئاتهم مغفورة ، ولا يُقلعون عن المعاصي .

وجملة : ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ﴾ جواب عن قولهم : ﴿ سيُغفر لنا ﴾ إبطالاً لمضمونه ، لأن قولهم : ﴿ سيغفر لنا ﴾ يتضمن أنهم يزعمون أن الله وعدهم بالمغفرة على

ذلك ، والجملة معترضة في أثناء الإخبار عن الصالحين وغيرهم ، والمقصود من هذه الجملة إعلام النبي صلى الله عليه وسلم ليحجهم بها ، فهم المقصود بالكلام .

كما تشهد به قراءة ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بتاء الخطاب .

والاستفهام للتقرير المقصود منه التوبيخ ، وهذا التقرير لا يسعهم إلاّ الاعتراف به ، لأنه صريح كتابهم ، في الإصحاح الرابع من السفر الخامس "لا تزيدوا على الكلام الذي أوصيكم به ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا وصايا الرب" ولا يجدون في الكتاب أنهم يغفر لهم ، وإنما يجدون فيه التوبة كما في الإصحاح من سفر التثنية ، وكما في سفر الملوك الأول في دعوة سليمان حين بنى الهيكل في الإصحاح الثامن ، فقولهم : ﴿ سيغفر لنا ﴾ تقوّل على الله بما لم يقله .

(89/295)

والميثاق : العهد ، وهو وصية موسى التي بلّغها إليهم عن الله تعالى في مواضع كثيرة ، وإضافة الميثاق إلى الكتاب على معنى (في) أو على معنى اللام أي الميثاق المعروف به ، والكتاب توراة موسى ، وأن لا يقولوا هو مضمون ميثاق الكتاب فهو على حذف حرف الجر قبل (أن) الناصبة ، والمعنى : بأن لا يقولوا ، أي بانتفاء قولهم على الله غيرَ الحق ،

ويجوز كونه عطف بيان من ميثاق ، فلا يقدر حرف جر ، والتقدير : ميثاق الكتاب انتفاءُ قولهم على الله الخ .

وفعل ﴿ درسوا ﴾ عطف على ﴿ يؤخذ ﴾ ، .

لأن يؤخذ في معنى المضي ، لأجل دخول لم عليه ، والتقدير : ألم يؤخذ ويدرسوا ، لأن المقصود تقريرهم بأنهم درسوا الكتاب ، لا الإخبار عنهم بذلك كقوله تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبالَ أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سُباتاً ﴾ إلى قوله ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً ﴾ [النبأ : 146] والتقدير : ومخلقكم أزواجاً ونجعل نومكم سباتاً ، إلى آخر الآية .

والمعنى : أنهم قد أخذ عليهم الميثاق بأن لا يقولوا على الله إلاّ الحق ، وهم عالمون بذلك الميثاق ، لأنهم درسوا ما في الكتاب فبمجموع الأمرين قامت عليهم الحجة .

وجملة : ﴿ والدارُ الآخرة خير للذين يتقون ﴾ حالية من ضمير ﴿ يأخذون ﴾ أي : يأخذون ذلك ويكذبون على الله ويصرون على الذنب وينبذون ميثاق الكتاب على علم في حال أن الدار الآخرة خير مما تعجّلوه ، وفي جعل الجملة في موضع الحال تعريض بأنهم يعلمون ذلك أيضاً فهم قد خيّروا عليه عرض الدنيا قصداً ، وليس ذلك عن غفلة صادفتهم فحرمتهم من خير الآخرة ، بل هم قد حَرموا أنفسهم ، وقرينة ذلك قوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ المتفرع على قوله : ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ وقد نُزلوا في تخيرهم عرض

الدينا بمنزلة من لا عقول لهم ، فخوطبوا بـ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بالاستفهام الإنكاري ، وقد قريء بتاء الخطاب ، على الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب .

(90/295)

ليكون أوقع في توجبه التوبيخ إليهم مواجهة ، وهي قراءةَ نافع ، وابن عامر ، وابن ذكوان ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب ، وأبي جعفر ، وقرأ البقية بياء الغيبة ، فيكون توبيخهم تعريضياً .

وفي قوله : ﴿ والدارُ الآخرة خير للذين يتقون ﴾ كناية عن كونهم خَسروا خير الآخرة بأخذهم عرض الدنيا بتلك الكيفية ، لأن كون الدار الآخرة خيراً مما أخذوه يستلزم أن يكون ما أخذوه قد أفات عليهم خيرَ الآخرة .

وفي جعل الآخرة خير للمتقين كناية عن كون الذين أخذوا عَرض الدنيا بتلك الكيفية لم يكونوا من المتقين ، لأن الكناية عن خسرانهم خيرَ الآخرة مع إثبات كون خير الآخرة للمتقين تستلزم أن الذين أضاعوا خير الآخرة ليسوا من المتقين ، وهذه معان كثيرة جمعها قوله : ﴿ والدارُ الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ وهذا من حَد الإعجاز العجيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾

والخَلَف أو الخَلْف أو الخليفة هو من يأتي بعد ذلك ، ويقال : فلان خليفة فلان ، ومن قبل قرأنا أن سيدنا موسى قال لسيدنا هارون : ﴿ اخلفني فِي قَوْمِي . . . ﴾ [الأعراف : 142]

أي كن خليفة لي ، إلا أنك حين تسمع " خَلْفُ " بسكون اللام ، فاعلم أنه في الفساد ، وإن سمعتها " خَلَفٌ " بفتح اللام فاعلم أنه في الخير ، ولذلك حين تدعو لواحد تقول : اللهم اجعله خير خَلَف لخير سلف . وهنا يقول الحق : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ .

والحديث هنا عن أنهم هم الفاسدون والمفسدون ، والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . . وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجرب

الشاعر هنا يبكي موت الكرماء وأهل السماحة ، فلم يعد أحد من الذين كان يعيش في رحاب كرمهم وسماحتهم ؛ فقد ذهب الذين يُعاش في أكنافهم أي جوارهم ؛ لأن هذا

الجوار كان نعمة أيضاً . وحين يجاور رجل ضُيِّق وقُدِر عليه رزقه رجلاً طيباً عنده نعمة ، فتنضح عليه نعمة الرجل الطيب . والشاعر هنا قال : " وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجرب " أي أن جلده قريب ولاصق لكنه جلد أجرب .

وعرفنا قصة " أبودلف " وكان رجلاً كريماً في بغداد . يعيش في نعمته كل الناس ومن يحتاج يعطيه . وطرأ طارئ على جار فقير له ، وأراد أن يبيع داره ، فعرض الدار للبيع ، وسألوه عن الثمن الذي يرتضيه ، فقال : داري بمائة دينار . لكن جواري لأبي دلف بألف دينار ، فبلغ هذا الكلام أبا دلف فقال : إن رجلاً قدر جوارنا بعشرة أمثال ما قدر به داره لحقيق ألا يفرّط فيه . قالوا له : فليبق جاراً لنا وليأخذ ما يريد من مال .

(92/295)

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ . والكتاب هو التوراة ، والخَلْف أخذوه ميراثاً ، والشيء لا يكون ميراثاً إلا إذا حمله السابق بأمانة وأدّاه للاحق ، ولكن لأنهم أهل إفساد فلنر ماذا فعلوا في الكتاب ؟ لقد ورثوه . وبُلِّغ إليهمُ وعرفوا ما فيه . ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ . . . ﴾ [الأعراف : 169]

أي لا حجة لهم في ألاّ يكونوا أصحاب منهج خير ، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما في الكتاب – التوراة – من المواثيق ، والحلال ، والحرام ، وافعل كذا ولا تفعل كذا ؛ لم يلتفتوا لكل هذا ؛ لأنهم قالوا لأنفسهم : إن هذا الكتاب يعطي النعيم البعيد في الآخرة ، وهم يريدون النعيم القريب ، فمنهم من قبل الرشوة واستغلال النفوذ . وبذلك أخذوا عَرَضَ الحياة الأدنى وهو عرض الدنيا . ولم يأخذوا إدارة الدنيا بمنهج الله ، والدنيا فيها جواهر أو أعراض ، والجوهر هو الشيء الذاتي ، فالإنسان بشحمه ولحمه " جوهر " أما لونه إن كان أسمر أو أبيض فهذا عَرَض ، قصيراً أو طويلاً ، صحيحاً أو مريضاً ، وغنيًّا أو فقيراً فهذا عرض . إذن فالأعراض هي ما توجد وتزول ، والجواهر هي التي تبقى ثابتة على قدر ما كتب لها من بقاء ، وكما يقول علماء المنطق : الجوهر ما قام بنفسه ، والعَرَض ما قام بغيره .

وهم قد أخذوا العرض من الحياة الدنيا ، وعرض الدنيا قد يتمثل في المال الحرام ، وأن يغشوا ويستحلوا الرشوة . ونعلم أن الإنسان – حتى المؤمن – قد تحدث منه معصية ولا يمنع ربنا هذا ؛ لأن المشرع الأعلى حين يشرع عقوبة لجريمة ، فهذا إذْنٌ بأنها قد تحدث ، وحين يقول الحق : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا . . . ﴾ [المائدة : 38]

(93/295)

إنَّ معنى هذا القول أن المؤمن قد تسول له نفسه أَنْ يسرق مثلاً ، ولم يترك الحق هذا الجرم بدون عقوبة . وإن رأينا مسلماً يسرق ، نقل له هذا فعل مُجَرَّم من الإِسلام ، وله عقوبة ، والمُجْرَم لا يمكن أن يرتكب الجُرْم وهو ملتزم بالدِّين ، بل هو منسوب للدين فقط ، وعندما يرتكب مسلم ذنباً أو معصية ثم يندم ويتوب ويعزم على أنه لن يعود تصح توبته ، وكذلك لو ألَّحت عليه معصيته فيعود إليها ، ثم تاب ، المهم أنه في كل مرة لا يصر على الفعل ، ثم يقول : سوف أتوب . وهم كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا ، بل إنهم لم يفكروا في التوبة ، ووجدنا منهم من يقول : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ . . . ﴾ [المائدة : 18] ويأتي الرد : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ . . . ﴾ [المائدة : 18]

إذن هم يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويحكمون في أخذهم بهذا العرض أنه سبحانه سوف يَغْفِر لهم . وبذلك استحلوا الحرام وانتقلوا من منطقة المعصية إلى منطقة الكفر ؛ لأن هناك فرقاً بين أن تفعل الشيء وتقول هو معصية . لكن أن يرتكب الإِنسان المعصية ويقول : ليست بمعصية ، فهذا انتقال من العصيان إلى الكفر ، ومثال ذلك الربا حين نجد من يحلله ، نقول له : اقْبَلْ أن تكون عاصيًا ولا تدخل نفسك في الكفر ؛ لأنك إن حللت ما حرم الله يقع عليك الكفر وتوصف به والعياذ بالله ، أما إن قلت : هو حرام ولكن ظروفي صعبة ولا أقدر على نفسي فقد يغفر الله لك . لكن قوم موسى كانوا يصرون على المعصية ويقولون :

سيغفر الله لنا :

ويقول الحق : ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ .

(94/295)

وهم بعد ذلك تركوا الأعلى وأخذوا عرض الحياة الأدنى ويتمادون في غيهم ويرتكبون المعاصي تلو المعاصي دون أن يدقوا باب التوبة . لذلك ينبههم الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ . . . ﴾ [الأعراف : 169] لقد ورثوا الكتاب ، وفي الكتاب قد أُخذ عليهم عهدٌ موثقٌ ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لكن هل يعدل الفاسق عن الباطل ويعود إلى الحق ؟ . طبعاً لا ، هم إذن تجاهلوا ما في هذا الكتاب ، رغم أنهم قد درسوا ما فيه مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ وكلمة " دَرَسَ " تدل على تكرار العمل ، فيقال : " فلان درس الفقه " أي تعلمه تعلما متواصلاً ليصير الفقه عنده ملكة .

وهو مختلف عمن قرأ الكتاب مرة واحدة ، هنا لا يصبح الفقه عنده ملكة . وحتى نفهم الفرق بين " العلم " و " الملكة " ، نقول : إن العلم هو تلقي المعلومات ، أما من درس المعلومات وطبقها وصارت عنده المسألة آلية ، فهذا هو من امتلك ناصية العلم حتى صار

العلم عنده ملكة .

إذا التقى صائم – مثلا – بفقيه وسأله عن فتوى في أمر الصيام يجيبه فوراً ؛ لأنه علم كل صغيرة وكبيرة في الفقه . لكن إن تسأل تلميذاً مبتدئاً في الأزهر فقد يرتبك وقد يطلب أن يرجع إلى كتبه ليعثر على الإجابة ؛ لأن الفقه لم يصبح لديه ملكه . والملكة في المعنويات هي مقابل الآلية في الماديات التي تحتاج إلى دُرْبة ، فمن يمسك النول لينسج النسيج ويتقن تمرير المكوك بين الفتلتين لا يفعل ذلك إلا عن دُرْبة . إنه قد تعلم ذلك بصعوبة وتكرار تدريب .

(95/295)

إذن فقوله : ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ اي تكررت دراسة الكتاب حتى عرفوا ما فيه من علم . ونحن أخذنا " درس العلم " من مسألة حسية هي " درس القمح " ، ويعلم من تربى في الريف كيف ندرس القمح ، حين يدور النورج على سنابل القمح فيخرج لنا الحب من أكمامه ، ويقطع لنا العيدان ، وهذه العملية تسمى " درس القمح " .

إن ما فعلوه من عصيان ليس عن غفلة عن هذا الميثاق في ألاّ يقولوا على الله إلا الحق ، لأنهم درسوا ما في الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة دراسة مستوعبة ، لكنهم أخذوا العرض الأدنى . وكان لابد أن يأتي بمقابل العرض الأدنى فيوضح لنا أنّ مصير من يريد الدار الآخرة

هو الثواب الدائم ولذلك يقول الحق : ﴿ . . . والدار الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف : 169]

وهذا يعني التنبيه بأنه من الواجب قبل أن تفعلوا الفعل أن تنظروا ما يعطيه من خير ، وأن تتركوه إن كان يعطي الكثير من الشر ، وزنوا المسألة بعقولكم ، وساعة أن تَزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أن عمل الخير راجح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(96/295)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ قال : أقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها ويتبعون رخص القرآن ويقولون : سيغفر لنا ، ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه ، ويقولون : سيغفر لنا .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ قال : النصارى ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ قال : ما أشرف لهم شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً يشتهونه أخذوه ويتمنون المغفرة ، وإن يجدوا آخر مثله يأخذونه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ فخلف من بعدهم خلف . . . ﴾ الآية . يقول : يأخذون ما أصابوا ويتركون ما شاؤوا من حلال أو حرام ، ويقولون سيغفر لنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ قال : خلف سوء ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم أورثهم الله الكتاب وعهد إليهم ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ قال : آمانيٌّ تمنوها على الله وغرة يغترون بها ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ ولا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينهاهم شيء عن ذلك ، كلما أشرف لهم شيء من الدنيا أخذوه ولا يبالون حلالاً كان أو حراماً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الشعب ، عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ قال : كانوا يعملون بالذنوب ، ويقولون : سيغفر لنا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء في قوله ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ قال : يأخذون ما عرض لهم من الدنيا ، ويقولون : نستغفر الله ونتوب إليه .

(97/295)

وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال : كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم ، فإذا قيل له يقول : سيغفر لي .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الجلد قال : يأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن ، وتتهافت وتبلى كما تبلى ثيابهم ، لا يجدون لهم حلاوة ولا لذاذة ، إن قصروا عما أُمروا به قالوا : إن الله غفور رحيم ، وإن عملوا بما نهوا عنه قالوا : سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً أمرهم كله طمع ليس فيه خوف ، لبسوا جلود الضان على قلوب الذئاب أفضلهم في نفسه المدهن .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : المؤمن يعلم أن ما قال الله كما قال الله ، والمؤمن أحسن عملاً وأشدّ الناس خوفاً لو أنفق جبلاً من مال ما أمن دون أن يعاين ، لا يزداد صلاحاً وبرّاً وعبادة إلا ازداد فرقاً يقول : ألا أنجو . . . ؟ والمنافق يقول : سواد الناس كثير وسيغفر لي ولا بأس عليَّ ، فيسيء العمل ويتمنى على الله .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ فيما يوجهون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون إليها ولا يتوبون منها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ قال : علموا ما في الكتاب لم يأتوه بجهالة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ قال : هي لأهل الأيمان منهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ قال : من اليهود والنصارى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ قال : الذي جاء به موسى عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(98/295)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ الآية .

الخَلَف والخَلْف - بفتح اللام وإسكانها - هل هما بمعنىً واحد ؟ أي : يُطلقُ منهما على القرن الذي يَخْلُف غيره صالحاً أو طالحاً ، أو أنَّ السَّاكن اللام في الطَّالح ، اولمفتوح في الصَّالح ؟ خلافٌ مشهور بين اللُّغويين .

قال الفرَّاءُ : يُقال للقرنِ " خَلْف " يعني ساكناً ولمن استخلفته : خَلَفاً ، يعني : متحرك اللاَّم .

وقال الزجاج : الخلفُ ما أخلْفَ عليك بدلاً مِمَّا أخذ منك ؛ فلهذا السبب يقالُ للقرنِ يجيء بعد القرنِ " خَلْفٌ " .

وقال ثعلبُ : النَّاسُ كُلُّهم يقولون " خَلَفُ صدْقٍ " للصَّالح ، و " خَلْفُ سوء " للطَّالح ؛

وأنشد : [الكامل]

2626 - خَلَّفْتَ خَلْفاً ولمْ تدعْ خَلَفَا . . .

لَيْتَ بِهِمْ كانَ لا بِكَ التَّلَفَا

وقال بعضهم : قد يجيء في الرَّديء " خَلَفَ " بالفتح ، وفي الجيد " خَلْف " بالسُّكُون ، فمن مجيء الأول قوله : [المتقارب]

2608 - . . . . . .

إلى ذِلك الخَلَفِ الأعوَرِ

ومن مجيء الثاني قول حسان : [الطويل]

2609 - لَنَا القدمُ الأولى عليْهِمْ وخَلْفُنَا . . .

لأوّلَنَا في طاعةِ اللَّهِ تَابعُ

وقد جمع بينهما الشَّاعِرُ في قوله : [الرجز]

2610 - إنَّا وَجدْنَا خَلْفنَا بِئْسَ الخَلَفْ . . .

عَبْداً إذا ما نَاءَ بالحِمْلِ خَضَفْ

فاستعمل السَّاكن والمتحرك في الرَّديء .

ولهذا قال النَّضْرُ : يجوزُ التَّحريم والسُّكونُ في الرَّديء ، فأمَّا الجيدُ فبالتحريك فقط ووافقه جماعةٌ من أهْلِ اللُّغة ، إلاَّ الفرَّاء وأبا عبيدٍ ، فإنَّهُمَا أجازا السكون في الخلف المراد به الصالح ، و" الخَلْف " بالسُّكون فيه وجهان ، أحدهما : أنَّهُ مصدر ، ولذلك لا يُثَنَّى ولا يُجْمَعُ ولا يُؤنَّث ، وعليه ما تقدَّم من قوله :

2611 - إنَّا وَجَدُنَا خَلْفَنَا بئس الخَلَفْ . . .

(99/295)

وإمَّا اسم جمع " خالفِ " ك : رَكْب لراكب ، وتَجْر لتَاجرٍ .

وإمَّا اسم جمع " خالِف " ك : رَكْب لراكب ، وتَجْر لتَاجرٍ .

قاله ابنُ الأنباري : ورَدُّه عليه ، بأَنَّهُ لو كان اسمَ جمع لم يَجْرِ على المفرد ، وقد جرى عليه واشتقاقه إمَّا من الخلافةِ ، أي كُلُّ خلفٍ يَخْلُفُ من قبله ، وإمَّا من خلفَ النبيذ يَخْلُفُ أي : فَسَدَ .

يقال : خَلَفَ النَّبيذُ يَخْلُفُ خَلْفاً وخُلُوفاً ، وكذلك الفَمُ إذا تغيَّرت رائحتُهُ ومن ذلك الحديث " لَخُلُوفُ فمِ الصَّائم " .

وقوله : " وَرِثُوا " في محل رفع نعتاً لـ " خَلْف " ويَأْخُذُونَ حال من فاعل وَرِثُوا .

وقرأ الحسنَ البصري : وُرِّثُوا بضمِّ الواو وتشديد الرَّاءِ مبنيّاً لما لم يُسَمَّ فاعله ، والمعنى انتقل إليهم الكتابُ من آبائهم وهو التَّوراةُ ، ويجوز أن يكون : يَأْخُذُونَ مستأنفاً أخبر عنهم بذلك .

وقوله : عَرَضَ هذا الأدْنَى .

قال أبو عبيدٍ : جميع متاعِ الدُّنْيَا عرض بفتح الرَّاء .

يقال : " الدُّنيا عرضٌ حاضرٌ يأكل منها البرُّ والفاجرُ " .

وأما العَرْ بسكون الرَّاء فما خالف الثَّمين ، أعني الدَّراهم والدَّنانير وجمعه عروض ، فكان العَرْضُ من العَرَض وليس كل عَرَضٍ عَرْضاً .

والمعنى : حُطَامُ هذا الشَّيء الأدْنَى يريد الدُّنْيَا ، والمرادُ منه : التَّخسيس والتَّحقير ، والأدْنَى إمَّا من الدُّنوِّ بمعنى القرب ؛ لأَنَّهُ عاجل قريب ، وإمَّا من دنوِّ الحالِ وسقوطها .

وتقدَّم الكلامُ عليه .

قوله ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ نسقٌ على يَأخذُونَ بوجهيه ، وسَيُغْفَرُ معموله ، وفي القائم مَقَام فاعله وجهان : أحدهما الجَارُّ بعده وهو " لَنَا " والثاني : أَنَّهُ ضمير الأَخْذِ المدلول عليه بقوله يَأخُذُونَ أي : سيغفرُ لنا أخذُ العرض الأدْنَى .

قوله : ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ ﴾ هذه الجملة الشَّرطية فيها وجهان :

أظهرهما : أَنَّها مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب .

(100/295)

والثاني : أنَّ الواوَ للحال ، وما بعدها منصوبٌ عليها .

قال الزمخشري : الواو للحال ، أي : يَرْجُون المغفرة وهم مُصِرُّون عائدون إلى فعلهم غير تائبين ، وغفرانُ الذُّنوب لا يصحُّ إلاَّ بالتَّوبةِ ، والمُصِرُّ لا غفران له انتهى .

وإنَّما جعل الواو للحال لهذا الغرض الذي ذكره من أن الغُفران شرطه التَّوبة ، وهو رأي المعتزلة وأمَّا أهْلُ السُّنَّة : فيجوز مع عدم التوبة ، لأنَّ الفاعل مختار .

والعَرَض – بفتح الراء – ما لا ثبات له ، ومنه استعار المتكلمون : العَرَض المقابل للجوهر .

وقال أبو عبيدة : العَرَضُ – بالفتح – جميعُ متاعِ الدُّنيا غير النقدين . كما تقدَّم .

قوله : ﴿ أَن لاَّ يَقُولُواْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنَّ محله رفع على البدل من " مِيثَاقُ " ؛ لأن قول الحقّ هو ميثاق الكتاب .

والثاني : أنَّهُ عطفُ بيان له وهو قريب من الأوّلِ .

والثالث : أنه منصوبٌ على المفعول من أجله .

قال الزمخشريُّ : وإنْ فُسِّرَ ميثاق الكتاب بما تقدَّم ذكره كان : " ألاَّ يقُولُوا " مفعولاً من أجله ومعناه : لئلا يقولوا وكان قد فسَّر ميثاق الكتاب بقوله في التوراة : " من ارتكب ذنْباً عَظِيماً فإنَّه لا يُغفر له إلا بالتَّوبة " ، و " أنْ " على هذه الأقوالِ الثلاثة مصدرية .

الرابع : أنَّ " أنْ " مفسرة لـ " مِيثَاقُ الكتابِ " ؛ لأنَّهُ بمعنى القولِ ، و " لا " ناهية ، وما بعدها مجزوم بها ، وعلى الأقوال المتقدّمة " لا " نافية ، والفعلُ منصوبٌ بـ " أنْ " المصدرية و " الحَقَّ " يجوز أن يكون مفعولاً به ، وأن يكون مصدراً ، وأضيفَ الميثاقُ للكتابِ ؛ لأنَّهُ مذكورٌ فيه .

قوله : " ودَرَسُوا " فيه ثلاثة أُوجه ،

أظهرُها ما قاله الزمخشريُّ : وهو كونُه معطوفاً على قوله : " أَلَمْ يُؤخَذْ " ؛ لأنَّهُ تقرير .

(101/295)

فكأنه قيل : أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ، نظيره قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء : 18] معناه : قد ربَّيْنَاك ولَبِثْتَ .

والثاني : أنَّهُ معطوف على " وَرِثُوا " .

قال أبو البقاءِ : ويكونُ قوله أَلَمْ يُؤخَذْ معترضاً بينهما وهذا الوجه سبقه إليه الطَّبري وغيره .

الثالث : أنه على إضمار " قَدْ " والتقدير : وقد درسوا .

فهو على هذا منصوب على الحال نسقاً على الجملة الشرطية ، أي : يقولون : سَيُغْفَرُ لنا في هذه الحال ، ويجوز أن يكون حالاً من فاعل : "يَأخُذُوهُ" أي يأخذون العرضَ في حال دَرْسِهم ما في الكتاب المانع من أخذ الرِّشَا وعلى كلا التقديرين فالاستفهامُ اعتراض .

وقرأ الجحدري : أن لا تقُولُوا بتاء الخطابِ ، وهو التفاتٌ حسنٌ .

وقرأ علي وأبو عبد الرحمن السلمي وادَّارَسُوا بتشديد الدَّالِ ، والأصلُ : تَدَارَسُوا وتصريفه كتصريف ﴿ فادارأتم فِيهَا ﴾ [البقرة : 72] وقد تقدم .

ثم قال تعالى : ﴿ والدار الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي : من تلك الرَشوة الخبيثة المحقرة " فلا تَعْقِلُونَ " .

وقد تقدَّم الكلام على هذه الهمزة والفاء غير مرة .

وقرأ ابنُ عامرٍ ونافعٌ وحفصٌ تَعْقِلُونَ بالخطابِ ، والباقون بالغيبة ، فالخطابُ يحتمل وجهين

: أحدهما : أنه التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب ، والمرادُ بالضَّمائر حينئذٍ شيءٌ واحد .

والثاني : أنَّ الخطابَ لهذه الأمَّةِ ، أي : أفلا تعلقون أنتم حال هؤلاء وما هم عليه وتتعَجَّبُونَ من حالهم .

وأمَّا الغيبةُ فجرى على ما تقدَّم من الضَّمائر ، ونقل أبو حيان أنَّ قراءة الغيبة لأبي عمرو وأهل مكَّة ، وقراءة الخطاب للباقين .

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 369 . 373 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

(102/295)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيَغْفَرُ لَنَا ﴾ .

استوجبوا الذم بقوله – سبحانه : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ لأنهم آثروا العَرَض الأدنى ، وركنوا إلى عاجل الدنيا ، وجعلوا نصيبهم من الآخرة المنى فقالوا : ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ .

ويقال من أمارات الاستدراج ارتكابُ الزلة ، والاغترارُ بزمان المُهْلة ، وحَمْلُ تأخيرِ العقوبة على استحقاق الوصلة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ .

أخبر عن إصرارهم على الاغترار بالمنى ، وإيثار متابعة الهوى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ ﴾ .

استفهام في معنى التقرير ، أي أُمِروا ألا يَصِفُوا الحقَّ إلا بنعت الجلال ، واستحقاق صفات الكمال ، وألا يتحاكموا عليه بما لم يأتِ منه خبر ، ولم يشهد بصحته برهانٌ ولا نظر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ .

يعني تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان . يعني التعرضُ لنفحات فضله – سبحانه – خيرٌ لمن أَمَّلَ جودَه من مقاساة التعب ممن بَذَلَ – في تحصيل هواه – مجهودَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 582. 583 ﴾

(103/295)

فصل جامع فى قصة موسى الكليم (عليه السلام)

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما نصه :

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام قال تعالى واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير وسنورد سيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد في الآثار المنقولة من الاسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان قال الله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذي استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق أي بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له ان فرعون علا في

الأرض وجعل أهلها شيعا أي تجبر وعتا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهلها شيعا أي قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع يستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وارداها وأدناها ومع هذا يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته

(105/295)

غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل

فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض امرائه واساورته وهم يسمرون عنده فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذرا من وجود هذا الغلام ولن يغني

حذر من قدر

وذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة أن فرعون رأى في منامه كأن نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والحزأة والسحرة وسألهم عن ذلك فقالوا هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان ولهذا قال الله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض وهم بنو إسرائيل ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين أي الذين يؤل ملك مصر وبلادها إليهم ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون أي سنجعل الضعيف قويا والمقهور قادرا والذليل عزيزا وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل كما قال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا الآية وقال تعالى كم تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله

(106/295)

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكرا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم وهذا فيه نظر بل هو باطل وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى كما قال تعالى فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولا حذرا من وجود موسى هذا والقدر يقول يا أيها ذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف أقداره ان هذا المولود الذي تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ولا يغذى إلا بعمامك وشرابك في منزلك وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتعداه ولا تطلع على سر معناه ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين وتكذيبك ما أوحى اليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد وأنه هو القوي الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوى والمشيئة التي لا مرد لها وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل بسبب قتل

ولدانهم الذكور وخشي أن تتفاني الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون فأمر فوعون بقتل الأبناء عاما وأن يتركوا عاما فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم فضاقت أمه به ذرعا واحترزت من اول ما حبلت ولم يكن يظهر عليها مخائيل الحبل فلما وضعت الهمت أن اتخذت له تابوتا فربطته في حبل وكانت دارهما متاخمة للنيل فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت فأرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل عندها فإذا ذهبوا استرجعته إليها به قال الله تعالى وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا الآية وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة

قال السهيلي واسم أم موسى أيارخا وقيل أياذخت (1) والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه وألقى في خلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك وإن الله سيجعله نبيا مرسلا يعلي كلمته في الدنيا والآخرة فكانت تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون فالتقطه آل فرعون قال الله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا قال بعضهم هذه لام العاقبة وهو ظاهر ان كان متعلقا بقوله فالتقطه وأما إن جعل متعلقا بمضمون الكلام وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدوا وحزنا صارت اللام معللة كغيرها والله اعلم ويقوي هذا التقدير الثاني قوله إن فرعون وهامان وهو الوزير السوء وجنودهما المتابعين لهما كانوا خاطئين أي كانوا على خلاف الصواب فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة وذكر المفسرون أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه فلم يتجاسرون على فتحه حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عسد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف وقيل أنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى وقيل بل كانت عمته حكاه السهيلي فالله أعلم

وسيأتي مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول

(109/295)

الله صلى الله عليه و سلم في الجنة فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبا شديدا جدا فلما جاء فرعون قال ما هذا وأمر بذبحه فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت قرة عين لي ولك فقال لها فرعون أما لك فنعم وأما لي فلا أي لا حاجة لي به والبلاء موكل بالمنطق وقولها عسى أن ينفعنا وقد أنالها الله ما رجت من النفع أما في الدنيا فهداها الله به وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه أو نتخذه ولدا وذلك أنهما تبنياه لأنه لم يكن يولد لهما ولد قال الله تعالى وهم لا يشعرون أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى امه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا

يعلمون قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم وأصبح فؤاد أم موسى فارغا أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى إن كادت لتبدي به أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة لولا أن ربطنا على قلبها أي صبرناها وثبتناها لتكون من المؤمنين وقالت لأخته وهي ابنتها الكبيرة قصيه اي اتبعي اثره واطلبي له خبره فبصرت به عن جنب قال مجاهد عن بعد وقال قتادة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ولهذا قال وهم لا يشعرون وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثديا ولا أخذ طعاما فحاروا في أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل كما قال تعالى وحرمنا عليه المراضع من قبل فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعل يجدون من يوافق رضاعته فبينما هم وقوف به والناس

(110/295)

عكوف عليه إذ بصرت به اخته فلم تظهر انها تعرفه بل قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون قال ابن عباس لما قالت ذلك قالوا لها ما يدريك بنصحهم وشفقهم عليه فقالت رغبة في صهر الملك ورجاء منفعته فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ففرحوا بذلك فرحا

شديدا وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها فأبت عليها وقالت إن لي بعلا وأولادا ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي فأرسلته معها ورتبت لها رواتب وأجرت عليها النفقات الكساوي والهبات فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها قال الله تعالى فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق أي كما وعدناها برده ورسالته فهذا رده وهو دليل على صدق البشارة برسالته ولكن اكثرهم لا يعلمون وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه فقال له فيما قال له ولقد مننا عليك مرة اخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقين عليك محبة مني ولتصنع على عيني إذ قال قتادة وغير واحد من السلف أي تطعم وترفه وتغذي بأطيب المآكل وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني وذلك كله بحفظي وكلائتي لك فيما صنعت بك لك وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرددناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان

(111/295)

ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى وهو إحتكام الخلق والخلق وهو سن الأربعين في قول الأكثرين آتاه الله حكما وعلما وهو النبوة والرسالة التي كان بشر بها أمه حين قال إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل وانقضى الأمد وكان ما كان من كلام الله له وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتي قال تعالى ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي وذلك نصف النهار وعن ابن عباس بين العشائين فوجد فيها رجلين يقتتلان أي يتضاربان ويتهاوشان هذا من شيعته أي إسرائيلي وهذا من عدوه أي قبطي قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحاق فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته في بيته وكانت بنو إسرائيل قد

عزوا وصارت لهم وجاها وارتفعت رؤسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله أي من الرضاعة فلما استغاث ذلك الاسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى فوكزه قال مجاهد أي طعنه بجمع كفه وقال قتادة بعصا كانت معه فقضى عليه أي فمات منها وقد كان ذلك القبطي كافرا مشركا بالله العظيم ولم يرد موسى قتله بالكلية وإنما أراد زجره وردعه ومع هذا قال موسى هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي

(112/295)

فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي أي من العز والجاه فلن أكون ظهيرا للمجرمين فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفا أي من فرعون وملائه أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره إنما قتله موسى في نصره رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ويترتب على ذلك أمر عظيم فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم خائفا يترقب أي يلتفت فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته قال له إنك لغوي مبين ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدو لموسى وللاسرائيلي فيردعه عنه ويخلصه منه فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد الا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين قال بعضهم إنما قال هذا الكلام الاسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس وكانه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله إنك لغوي مبين فقال ما قال لموسى وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس فذهب القبطي فاستعدى موسى إلى فرعون وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي وأنه لما رآه مقبلا اليه خافه ورأى من سجيته انتصارا

جيدا للاسرائيلي فقال ما قال من باب الظن والفراسة إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس أو لعله فهم من كلام الاسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم

(114/295)

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب وجاء من أقصى المدينة ساعيا إليه مشفقا عليه فقال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج أي من هذه البلدة إني لك من الناصحين أي فيما أقوله لك قال الله تعالى فخرج منها خائفا يترقب أي فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه قائلا رب نجني من القوم الظالمين ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما انزلت إلي من خير فقير يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفا يترقب أي يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون وهو لا يدري أين يتوجه ولا إلى أين يذهب وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها ولما توجه تلقاء مدين أي اتجه له طريق يذهب فيه قال عسى ربي أن يهديني

(115/295)

سواء السبيل أي عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود وكذا وقع أو صلته إلى مقصود وأي مقصود ولما ورد ماء مدين وكانت بئرا يستقون منها ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب عليه السلام وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء ولما ورد الماء المذكور وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان أي تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات وهذا أيضا من الغلط وكأنه كن سبعا ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظا والا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير أي لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء لضعفنا وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره قال الله تعالى فسقى لهما

(116/295)

قال المفسرون وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء ها تان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان قال أمير المؤمنين عمر وكان لا يرفعه إلا عشرة وإنما استقى ذنوبا واحدا فكفاهما ثم تولى إلى الظل قالوا وكان ظل شجرة من السمر روى ابن جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف قال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير قال ابن عباس سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر وكان حافيا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وان بطنه لاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وأنه لمحتاج إلى شق تمرة قال عطاء بن السائب لما قال رب إني لما انزلت الي من خير فقير اسمع المرأة فجاءته احداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي ها تين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل لما جلس موسى عليه السلام في الظل و قال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير سمعته المرأتان فيما قيل فذهبتا إلى أبيهما فيقال إنه استنكر

سرعة رجوعهما فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السلام فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه فجاءته إحداهما تمشي على استحياء أي مشي الحرايرقالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة وهذا من تمام حيائها وصيانتها فلما جاءه وقص عليه القصص وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فرارا من

(117/295)

فرعونها قال له ذلك الشيخ لا تخف نجوت من القوم الظالمين أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو فقيل هو شعيب عليه السلام وهذا هو المشهور عند كثيرين وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس وجاء مصرحا به في حديث ولكن في إسناده نظر وصرح طائفة بأن شعيبا عليه السلام عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري أن صاحب موسى عليه السلام هذا اسمه شعيب وكان سيد الماء ولكن ليس بالنبي صاحب مدين وقيل إنه ابن أخي شعيب وقيل ابن عمه وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب

وقيل رجل اسمه يثرون هكذا هو في كتب أهل الكتاب يثرون كاهن مدين أي كبيرها وعالمها قال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله اسمه يثرون زاد أبو عبيدة وهو ابن أخي شعيب زاد ابن عباس صاحب مدين

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها يا أبت استأجره أي لرعي غنمك ثم مدحته بأنه قوي أمين قال عمرو ابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد لما قالت ذلك قال لها أبوها وما علمك بهذا فقالت إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه فقال كوني من ورائي فإذا اختلف الطريق فأخذ في لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق

(118/295)

قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة صاحب يوسف حين قال لامرأته أكرمي مثواه وصاحبة موسى حين قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله

من الصالحين استدل بهذا جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على صحة ما اذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك أنه يصح لقوله احدى ابنتي هاتين وفي هذا نظر لأن هذه مراوضة لا معاقدة والله أعلم

واستدل أصحاب أحمد على صحة الايجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه مترجما في كتابه باب استئجار الأجير على طعام بطنه حدثنا محمد بن الصفي الحمصي حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة بن علي عن سعيد بن أبي أيوب عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح قال سمعت عتبة بن الدر يقول كنا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فقرأ طس حتى إذا بلغ قصة موسى قال إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثماني سنين أو عشرة على عفة فرجه وطعام بطنه وهذا من هذا الوجه لا يصح لأن مسلمة بن علي الحسني الدمشقي البلاطي ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده ولكن

(119/295)

قد روى من وجه آخر فقال ابن أبي حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر حدثني ابن لهيعة وحدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لهيعة

عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن الندر السلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال إن موسى عليه السلام آجر نفسه لعفة فرجه وطعمة بطنه ثم قال تعالى ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل يقول إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت فأيهما قضيت فلا عدوان علي والله على مقالتنا سامع ومشاهد ووكيل علي وعليك ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامه

(120/295)

قال البخاري حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فاسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل تفرد به البخاري من هذا الوجه وقد رواه النسائي في حديث الفتون كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسي وابن أبي حاتم عن أبيه

كلاهما عن الحميدي عن سفيان بن عيينة حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي عن سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم فذكره وقد رواه سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد مرسلا أن رسول الله سأل عن ذلك جبريل فسأل جبريل إسرافيل فسأل إسرافيل الرب عز و جل فقال أبرهما وأوفاهما وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرح مرسلا ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه و سلم سئل أي الأجلين قضى موسى قال أوفاهما وأتمهما وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران الجوني وهو ضعيف عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم سئل أي الأجلين قضى موسى قال أوفاهما وأبرهما قال وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح عن عتبة بن النذر أن رسول الله قال إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه فلما وفى الأجل قيل يا رسول الله أي الأجلين قال

أبرهما وأوفاهما فلما أراد فراق شعيب سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام وكانت غنمه سودا حسانا فانطلق موسى عليه السلام

إلى عصا قسمها من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاة الا ضرب جنبها شاة شاة قال فاتمئت وآنثت (1) ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كموش تفوت الكف قال النبي صلى الله عليه و سلم لو أقتحمتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية قال ابن لهيعة الفشوش واسعة السخب والضبوب طويلة الضرع تجره والعزوز ضيقة السخب والثعول الصغيرة الضرع كالحلمتين والكموش التي لا يحكم الكف على ضرعها لصغره وفي صحة رفع هذا الحديث نظر وقد يكون موقوفا كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة حدثنا أنس بن مالك قال لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه كل شاة ولدت على لونها فلك ولدها فعمد فوضع خيالا على الماء فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقا الا شاة واحدة فذهب باولادهن ذلك العام وهذا إسناد رجاله ثقات والله أعلم

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقا ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام فالله أعلم فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما وقد يؤخذ هذا من قوله فلما قضى موسى الأجل وعن مجاهد أنه أكمل عشرا وعشرا بعدها وقوله وسار بأهله أي من عند صهره ذاهبا فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق إلى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه قالوا واتفق ذلك في ليلة مظلمة برادة وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف وجعل يوري زناده فلا يوري

شيئا واشتد الظلام والبرد فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارا تأجج في جانب الطور وهو الجبل الغربي منه عن يمينه فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا وكأنه والله أعلم رآها دونهم لأن هذه النار هي نور في الحقيقة ولا يصلح رؤيتها لكل أحد لعلي آتيكم منها بخبر أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة لقوله في الآية الأخرى وهل أتاك

(123/295)

حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق وجمع الكل في سورة النمل في قوله إذ قال موسى لأهله إني آنست سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر ووجد عندها هدى وأي هدى واقتبس منها نورا وأي نور قال الله تعالى فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين وقال في النمل فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين أي سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم وقال في سورة طه فلما أتاها نودي يا

موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزي كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج وكل ما لتلك النار في اضطرام وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد فوقف متعجبا وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه كما قال تعالى وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين وكان موسى في واد اسمه طوى فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمر أولا بخلع نعليه تعظيما وتكريما وتوقيرا لتلك البقعة المباركة ولا سيما في تلك الليلة المباركة

(124/295)

وعند أهل الكتاب أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور مهابة له وخوفا على بصره ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلا له إني أنا الله رب العالمين إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو الذي لا تصلح العبادة وإقامة

الصلاة إلا له ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية يوم القيامة التي لا بد من كونها ووجودها لتجزى كل نفس بما تسعى أي من خير وشر وحضه وحثه على العمل لها ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه ثم قال له مخاطبا ومؤانسا ومبينا له أنه القادر على كل شيء الذي يقول للشيء كن فيكون وما تلك بيمينك يا موسى أي أما هذه عصاك التي نعرفها منذ صحبتها قال هي عصاي أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى أي بل هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها قال القها يا موسى فالقاها فإذا هي حية تسعى وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه يقول للشيء كن فيكون وأنه الفعال بالاختيار

وعند أهل الكتاب أنه سأل برهانا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر فقال له الرب

(125/295)

عز وجل ما هذه التي في يدك قال عصاي قال القها إلى الأرض فألقاها فإذا هي حية تسعى فهرب موسى من قدامها فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب

تصك وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان وهو ضرب من الحيات يقال الجان والجنان وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدا فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة فلما عاينها موسى عليه السلام ولى مدبرا أي هاربا منها لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ولم يعقب أي ولم يلتفت فناداه ربه قائلا له يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى فيقال إنه هابها شديدا فوضع يده في كم مدرعته ثم وضع يده في وسط فمها وعند أهل الكتاب بذنبها فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين فسبحان القدير العظيم رب المشرقين والمغربين ثم أمره تعال بإدخال يده في جيبه ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء أي من غير برص ولا بهق ولهذا قال اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب قيل معناه إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك وهذا وإن كان خاصما به إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء وقال في سورة النمل وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين أي هاتان الآيتان وهما العصا واليد وهما البرهانان المشار إليهما في قوله فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين ومع ذلك سبع آيات أخر فذلك تسع آيات بينات وهي

المذكورة في آخر سورة سبحان حيث يقول تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم

(126/295)

فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الأرب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه وهذه التسع آيات غير العشر الكلمات فإن التسع من كلمات الله القدرية والعشر من كلماته الشرعية وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة فظن أن هذه هي هذه كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل

(127/295)

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي رداً يصدقني إني أخاف أن يكذبون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام في جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فرارا من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي رداً يصدقني إني أخاف أن يكذبون أي اجعله معي معينا ورداً ووزيرا يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لسانا وأبلغ بيانا قال الله تعالى مجيبا له إلى سؤاله سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا أي برهانا فلا يصلون إليكما أي فلا ينالون منكما مكروها بسبب قيامكما بآياتنا وقيل ببركة آياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون وقال في سورة طه اذهب إلى فرعون إنه طغى قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي قيل إنه أصابه في لسانه لثغة بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه التي كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله فخافت عليه آسية وقالت إنه طفل فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ

التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكلية

(128/295)

قال الحسن البصري والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ولهذا بقيت في لسانه بقية ولهذا قال فرعون قبحه الله فيما زعم إنه يعيب به الكليم ولا يكاد يبين أي يفصح عن مراده ويعبر عما في ضميره وفؤاده ثم قال موسى عليه السلام واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا قال قد أوتيت سؤالك يا موسى أي قد أجبناك إلى جميع ما سألت وأعطيناك الذي طلبت وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحى إليه وهذا جاه عظيم قال الله تعالى وكان عند الله وجيها وقال تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلا يقول لأناس وهم سائرون طريق الحج أي أخ أمن على أخيه فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه قال الله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا قال تعالى في سورة الشعراء وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون الا يتقون قال

رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل

(129/295)

معنا بني إسرائيل قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين تقدير الكلام فاتياه فقالا له ذلك وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته وتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤوا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه فتكبر فرعون في نفسه وعتا وطغى ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلا له ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين أي أما أنت الذي ربيناه في منزلنا وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر وهذا يدل على أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فر منه خلافا لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذي فر منه مات في مدة مقامه بمدين وأن الذي بعث إليه فرعون آخر وقوله وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين أي وقتلت الرجل القبطي وفررت منا وجحدت نعمتنا قال فعلتها إذا وأنا من الضالين أي قبل أن يوحى إلى وينزل على ففرت

منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ثم قال مجيبا لفرعون عما امتن به من التربية والاحسان إليه وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بني إسرائيل أي وهذه النعمة التي ذكرت من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله واستعبدتم في اعمالك وخدمك وأشغالك قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون

(130/295)

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى وزعم أنه الاله فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى وقال يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب وأن الله هو الخالق البارىء المصور الاله الحق كما قال تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار

لرسالته والاظهار أنه ما ثم رب ارسله وما رب العالمين لأنهما قالا له إنا رسول رب العالمين فكانه يقول لهما ومن رب العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما فأجابه موسى قائلا رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يسلم كل موقن انها لم تحدث بأنفسها ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين قال أي فرعون لمن حوله من امرائه ومرازبته ووزرائه

(131/295)

على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام ألا تسمعون يعني كلامه هذا قال موسى مخاطبا له ولهم ربكم ورب آبائكم الأولين أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه ولم يحدث من غير محدث وإنما أوجده وخلقه رب العالمين وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه قال إن

رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة المسير للأفلاك الدائرة خالق الظلام والضياء ورب الأرض والسماء رب الأولين والآخرين خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون وفلك يسبحون يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد عدل الى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما وهما العصا واليد وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذي بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين أي عظيم الشكل بديع في الضخامة والهول والمنظر العظيم الفظيع الباهر حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رهب شديد وخوف عظيم بحث أنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في يوم وكان قبل ذلك لا يتبرز في كل أربعين يوما إلا مرة واحدة فانعكس عليه الحال وهكذا لما أدخل موسى

عليه السلام يده في جيبه واستخرجها أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نورا بهر الأبصار فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى ومع هذا كله لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك بل استمر على ما هو عليه وأظهر أن هذا كله سحر وأراد معارضته بالسحرة فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن في رعيته وتحت قهره ودولته كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من اظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملائه وأهل دولته وملته ولله الحمد والمنه وقال تعالى في سورة طه فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى يقول تعالى مخاطبا لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه وأنعم بالنبوة عليه وكلمه منه إليه قد كنت مشاهدا

(133/295)

لك وأنت في دار فرعون وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري فلبثت فيها سنين ثم جئت على قدر أي مني لذلك

فوافق ذلك تقديري وتسييري واصطنعتك لنفسي أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري يعني ولا تفترا في ذكري إذ قدمتما عليه ووفدتما إليه فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته وإهداء النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا الآية ثم قال تعالى اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره وهو إذ ذاك أردى خلقه وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي هي أحسن برفق ولين ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى كما قال لرسوله ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وقال تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم الآية قال الحسن البصري فقولا له قولا لينا أعذرا إليه قولا له إن لك ربا ولك معادا وإن بين يديك جنة ونارا وقال وهب بن منبه قولا له إني لي العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى وذلك أن فرعون كان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا له سلطان في بلاد مصر طويل عريض وجاه وجنود وعساكر وسطوة فهاباه من حيث البشرية

وخافا أن يسطو عليهما في بادىء الأمر فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى كما قال في الآية الأخرى إنا معكم مستمعون فاتياه فقولا

(134/295)

إنا رسولا ربك فارسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهم بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم قد جئناك بآية من ربك وهو البرهان العظيم في العصي واليد والسلام على من اتبع الهدى تقيد مفيد بليغ عظيم ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى أي كذب بالحق بقلبه وتولى عن العمل بقالبه

وقد ذكر السدي وغيره أنه لما قدم من بلاد مدين دخل على أمه وأخيه هارون وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل وهو اللفت فأكل معهما ثم قال يا هارون إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته فقم معي فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق فقال موسى للبوابين والحجبة

أعلموه أن رسول الله بالباب فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل وقال محمد بن إسحاق أذن لهما بعد سنتين لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما فالله أعلم ويقال إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه فانزعج فرعون وأمر باحضارهما فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز و جل كما أمرهما

(135/295)

وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسى عليه السلام إن هارون اللاوي يعني من نسل لاوي بن يعقوب سيخرج ويتلقاك وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى عند فرعون وأمره أن يظهر ما أتاه من الآيات وقال له سأقسي قلبه فلا يرسل الشعب وأكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بني إسرائيل وذهبا إلى فرعون فلما بلغاه رسالة الله قال من هو الله لا أعرفه ولا أرسل بني إسرائيل وقال الله مخبرا عن فرعون قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم

الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى

(136/295)

يقول تعالى مخبرا عن فرعون إنه أنكر اثبات الصانع تعالى قائلا فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى أي هو الذي خلق الخلق وقدر لهم أعمالا وأرزاقا وآجالا وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه لكمال علمه وقدرته وقدره وهذه الآية كقوله تعالى سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى أي قدر قدرا وهدى الخلائق إليه قال فما بال القرون الأولى يقول فرعون لموسى فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدره وهو بهذه المثابة من انه لا يستحق العبادة سواه فلم عبد الاولون غيره وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى أي هم وان عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك كل شيء فعلوه مستطر

عليهم في الزبر من صغير وكبير وسيجزيهم على ذلك ربي عز وجل ولا يظلم أحدا مثقال ذرة لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئا ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء وجعله الأرض مهادا والسماء سقفا محفوظا وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم كما قال كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لأولي النهي أي لذوي العقول

(137/295)

الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة غير السقيمة فهو تعالى الخالق الرزاق وكما قال تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ولما ذكر أحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال منها أي من الأرض خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى كما قال تعالى كما بدأكم تعودون وقال تعالى وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ثم قال تعالى ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك

بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى

(138/295)

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها وقوله لموسى إن هذا الذي جئت به سحر ونحن نعارضك بمثله ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس ولهذا قال موعدكم يوم الزينة وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم وأن يحشر الناس ضحى أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى ولم يطلب أن يكون ذلك ليلا في ظلام كيما يروج عليهم محالا وباطلا بل طلب أن يكون نهارا جهرة لأنه على بصيرة من ربه ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه وإن رغمت أنوف القبط قال الله تعالى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم أئتوا صفا وقد أفلح

اليوم من استعلى

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء في فنهم غاية فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير فقيل كانوا ثمانين ألفا قاله محمد بن كعب وقيل سبعين ألفا قاله القاسم بن أبي بردة وقال السدي بضعة وثلاثين ألفا وعن أبي أمامة تسعة عشر ألفا وقال محمد بن اسحاق خمسة عشر ألفا وقال كعب الأحبار كانوا إثني عشر ألفا وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس كانوا سبعين رجلا وروى عنه أيضا أنهم كانوا أربعين غلاما من بني إسرائيل أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر ولهذا قالوا وما أكرهتنا عليه من السحر وفي هذا نظر

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم وذلك أن فرعون نادى فيهم أن

يحضروا هذا الموقف العظيم فخرجوا وهم يقولون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل الذي

فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم قيل معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم فقائل يقول هذا كلام نبي وليس بساحر وقائل منهم يقول بل هو ساحر فالله أعلم وأسروا التناجي بهذا وغيره قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما يقولون إن هذا وأخاه هارون ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة فأجمعوا كيدكم ثم أتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان وهيهات كذبت والله الظنون واخطأت الآراء أنى يعارض البهتان والسحر والهذيان خوارق العادات التي أجراها الديان على يدي عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذي يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان وقولهم فأجمعوا كيدكم أي جميع ما عندكم ثم اتوا صفا أي جملة واحدة ثم حضوا بعضهم بعضا على التقدم في هذا المقام لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى قال بل القوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى والق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له إما أن تلقي قبلنا وإما أن نلقي قبلك قال بل القوا أنتم وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطرابا يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها وإنما تتحرك بسبب ذلك فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم وألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون قال الله تعالى فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم وقال تعالى فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقي ما في يده فإنه لا يضع شيئا قبل أن يؤمر فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كسد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال ما جئتم به السحر ان الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون وقال تعالى فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون

فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم فيما ذكره غير واحد من علماء السلف وعنق عظيم وشكل هائل مزعج بحيث أن الناس انحازوا منها وهربوا سراعا وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي فجعلت تلقفه واحدا واحدا في أسرع ما يكون من الحركة والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعبذة ولا محال ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى آمنا برب موسى وهارون كما قال تعالى فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف

ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى إنه من يأت ربه مجرما فإن له جنهم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى

(142/295)

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة والأوزاعي وغيرهم لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكروا موسى وهرن في الناس على هذه الصفة الجميلة أفزعه ذلك ورأى أمرا بهره وأعمى بصيرته وبصره وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله فقال مخاطبا للسحرة بحضرة الناس آمنتم له قبل ان آذن لكم أي هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي ثم تهدد وتوعد وابرق وارعد وكذب فابعد قائلا إنه لكبيركم الذي علمكم السحر وقال في الآية الأخرى إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها

أهلها فسوف تعلمون وهذا الذي قاله من البهتان يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان بل لا يروج مثله على الصبيان فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوما من الدهر فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق ومن حواضر بلاد

(143/295)

مصر والأطراف ومن المدن والأرياف قال الله تعالى في سورة الأعراف ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن

الملقين قال القوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس وأسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم وأوحينا
إلى موسى أن الق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا
هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى
وهارون قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها
أهلها فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا
إلى ربنا منقلبون وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جائتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا
مسلمين وقال تعالى في سورة يونس ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه
بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين
قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون قالوا أجئتنا لتلفتنا
عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين وقال فرعون
إئتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقو قال
موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا

(144/295)

يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون وقال تعالى في سورة الشعراء

قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشيء مبين قال فأت به

إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين

قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون

قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم فجمع السحرة

لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين فلما

جاء السحرة قالوا لفرعون إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين

قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن

الغالبون فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا

برب العالمين رب موسى وهارون قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم

السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من

خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا

خطايانا أن كنا أول المؤمنين

والمقصود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر في قوله إنه لكبيركم الذي علمكم السحر وأتى ببهتان يعلمه العالمون بل العالمون في قوله إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون وقوله لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف يعني يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ولأصلبنكم أجميعن أي ليجعلهم مثلة ونكالا لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته ولهذا قال ولأصلبنكم في جذوع النخل أي على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى يعني في الدنيا قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات أي لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات والذي فطرنا قيل معطوف وقيل قسم فاقض ما أنت قاض أي فافعل ما قدرت عليه إنما تقضي هذه الحياة الدنيا أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى أي وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب وأبقى أي وأدوم من هذه الدار الفانية وفي الآية الأخرى قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أي ما اجترمناه من المآثم والمحارم أن كنا أول المؤمنين أي من القبط بموسى وهارون عليهما السلام وقالوا له أيضا وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا أي ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا أي ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار

العنيد والسلطان الشديد بل الشيطان المريد وتوفنا مسلمين وقالوا أيضا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى يقولون له فاياك أن تكون منهم فكان منهم ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى أي المنازل العالية جنات

(146/295)

عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمانع وحكم العلي العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ليباشر العذاب الأليم يصب من فوق رأسه الحميم ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم ذق إنك أنت العزيز الكريم

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء بررة ويؤيد هذا قولهم ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين

فصل

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل وأسلم

السحرة الذين استنصروا ربهم لم يزدهم ذلك الا كفرا وعنادا وبعدا عن الحق قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساهم وإنا فوقهم قاهرون قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون

(147/295)

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى قالوا أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك يعنون قبحهم الله أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة الى اعتقاد القبط لعنهم الله وقرأ بعضهم ويذرك وآلهتك أي وعبادتك ويحتمل شيئين أحدهما ويذر دينك وتقويه القراءة الأخرى الثاني ويذر أن يعبدك فإنه كان يزعم أنه إله لعنه الله قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم أي لئلا يكثر مقاتلتهم وإنا فوقهم قاهرون أي غالبون وقال

موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين أي إذا هموا هم بأذيتكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين أي فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة كما قال في الآية الأخرى وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين وقولهم قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون وقال الله تعالى في سورة حم المؤمن ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب وكان فرعون الملك وهامان الوزير وكان قارون إسرائيليا من قوم موسى إلا أنه كان على دين فرعون وملائه وكان ذا مال جزيل جدا كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه

(148/295)

الإهانة والإذلال والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون فلم

ينفعهم ذلك ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم صار فرعون مذكرا وهذا منه فإن فرعون في زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب أي عذت بالله ولجأت إليه بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره على بسوء وقوله من كل متكبر أي جبار عنيد لا يرعوي ولا ينتهي ولا يخاف عذاب الله وعقابه لأنه لا يعتقد معادا ولا جزاء ولهذا قال من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد وهذا الرجل هو ابن عم فرعون وكان يكتم ايمانه من قومه خوفا منهم على نفسه وزعم بعض الناس أنه كان اسرائيليا وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظا ومعنى والله أعلم

قال ابن جريج قال ابن عباس لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذي جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون رواه ابن أبي حاتم قال الدارقطني لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون حكاه السهيلي وفي تاريخ الطبراني أن اسمه خير فالله أعلم والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هم فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملائه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب فقال على وجه المشورة والرأي وقد ثبت في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لأشد جورا منه وهذا الكلام لا أعدل منه لأن فيه عصمة نبي ويحتمل أنه كاشرهم بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتمه والأول أظهر والله أعلم قال أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله أي من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام يعني لأنه قد جاءكم بالبينات من ربكم أي بالخوارق التي دلت على صدقة فيما جاء به عمن أرسله فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه إن يك كاذبا فعليه كذبه ولا يضركم ذلك وان يك صادقا وقد تعرضتم له يصبكم بعض الذي يعدكم أي وأنتم تشققون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به فكيف بكم إن حل جميعه عليكم

وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام وقوله يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فانه ما تعرض الدول للدين

(150/295)

الا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون ما زالوا في شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة والحبور ثم حولوا إلى البحر مهانين ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه الكامل العقل يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض أي عالين على الناس حاكمين عليهم فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة لما نفعنا ذلك ولا رد عنا بأس مالك الممالك قال فرعون أي في جواب هذا كله ما أريكم إلا ما أرى أي ما أقول لكم إلا ما عندي وما أهديكم إلا سبيل الرشاد وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة وإنما كان يظهر خلافه بغيا وعدوانا وعتوا وكفرانا

قال الله تعالى اخبارا عن موسى لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر وإني لا أظنك يا فرعون مبثورا فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا وقال تعالى فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين وأما قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد فقد كذب أيضا فإنه لم يكن على رشاد من الأمر بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال فكان أولا ممن يعبد الأصنام والأمثال ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال في دعواه أنه رب تعالى الله ذو الجلال قال الله تعالى ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا

(151/295)

ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين وقال تعالى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال

أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى وقال تعالى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار وبئس الورد المورود وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيمة بئس الرفد المرفود

والمقصود بيان كذبه في قوله ما أريكم إلا ما أرى وفي قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من

(152/295)

الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار يحذرهم ولي الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات مما تواتر عندهم وعند

غيرهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة في صدق ما جاءت به الأنبياء لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيمة وهو يوم التناد أي حين ينادي الناس بعضهم بعضا حين يولون ان قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيل يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر وقال تعالى يا معشر الجن والإنس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان فبأي آلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأي آلاء ربكما تكذبان وقرأ بعضهم يوم التناد بتشديد الدال أي يوم الفرار ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس فيودون الفرار ولات حين مناص فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر ما كان منه من الاحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم وهذا من سلالته وذريته ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته وأن لا يشركوا به أحدا من بريته وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان أي من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ولهذا قال فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا أي وكذبتم في هذا ولهذا قال كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب

الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم أي يريدون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت أي يبغض من تلبس به من الناس ومن اتصف به من الخلق كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار قرىء بالإضافة وبالنعت وكلاهما متلازم أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق ولا تخالفه الا بلا برهان فإن الله يطبع عليها أي يختم عليها وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وقال ههنا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات أي طرقها ومسالكها فاطلع إلى إله موسى وإني لا أظنه كاذبا ويحتمل هذا معنيين أحدهما وإني لأظنه

(154/295)

كاذبا في قوله إن للعالم ربا غيري والثاني في دعواه أن الله أرسله والأول أشبه بظاهر حال فرعون فإنه كان ينكر ظاهر اثبات الصانع والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال فاطلع إلى إله موسى أي فاسأله هل أرسله أم لا وإني لأظنه كاذبا أي في دعواه ذلك وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وان يحثهم على تكذيبه قال الله تعالى وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وقرىء وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب قال ابن عباس ومجاهد يقول الا في خسار أي باطل لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبدا أعني السماء الدنيا فكيف بما بعدها من السموات العلى وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلى منه وان كان مبنيا من الآجر المشوى بالنار ولهذا قال فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا

(155/295)

وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل كانوا يسخرون في ضرب اللبن وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه بل كانوا هم الذين

يجمعون ترابه وتبنه وماءه ويطلب منهم كل يوم قسط معين إن لم يفعلوه والا ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية ولهذا قالوا لموسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع وهذا من دلائل النبوة ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه قال الله تعالى وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب يدعوهم رضي الله عنه إلى طريق الرشاد والحق وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه ثم زهدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ورغبهم في طلب الثواب عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه الذي يعطي على القليل كثيرا ومن عدله لا يجازى على السيئة الا مثلها وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها مؤمنا قد عمل الصالحات فلهم الجنات العاليات والغرف الآمنات والخيرات الكثيرة الفائقات والأرزاق الدائمة التي لا تبيد والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد

ثم شرع في إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز

الغفار لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب

(156/295)

النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان وأنها لا تملك من نفع ولا اضرار فقال لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار أي لا تملك تصرفا ولا حكما في هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم إلى النار

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد قال الله فوقاه الله سيئات ما مكروا أي بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ومكرهم في صدهم عن سبيل الله مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التي ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم ولهذا قال وحاق أي أحاط بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا أي تعرض أرواحهم في برزخهم صباحا ومساء على النار ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير ولله الحمد

(157/295)

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم وارسال الرسول إليهم وإزاحة الشبه عنهم وأخذ الحجة عليهم منهم فبالترهيب تارة والترغيب أخرى كما قال تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهي اعوام الجدب التي لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع وقوله ونقص من الثمرات وهي قلة الثمار من الأشجار لعلهم يذكرون أي فلم ينتفعوا ولم يرعوا بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم فإذا جاءتهم الحسنة والخصب ونحوه قالوا لنا هذه أي هذا الذي نستحقه وهذا الذي يليق بنا وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولا يقولون في الأول انه بركتهم وحسن مجاورتهم ولكن

(158/295)

قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق إذا جاء الشر أسندوه إليه وإن رأوا خيرا ادعوه لأنفسهم قال الله تعالى ألا إنما طائرهم عند الله أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين أي مهما جئتنا به من الآيات وهي الخوارق للعادات فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل آية وهكذا أخبر الله عنهم في قوله إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم قال الله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين أما الطوفان فعن ابن عباس

هو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك وعن ابن عباس وعطاء هو كثرة الموت وقال مجاهد الطوفان الماء والطاعون على كل حال وعن ابن عباس أمر طاف بهم وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان عن المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن مينا عن عائشة عن النبي صلى الله عليه و سلم الطوفان الموت وهو غريب وأما الجراد فمعروف وقد روى أبو داود عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي قال سئل رسول الله عن الجراد فقال أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه وترك النبي صلى الله عليه و سلم أكله إنما هو على وجه التقذر له كما ترك أكل الضب وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم سبع غزوات نأكل الجراد وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعا ولا ثمارا ولا سبدا ولا لبدا وأما القمل فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحطنة وعنه أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وقال سعيد بن جبير والحسن هو دواب سود صغار وقال عبد الرحمن بن زيد بن

أسلم هي البراغيث وحكى ابن جرير عن أهل العربية أنها الحمنان وهو صغار القردان فرق القمقامة فدخل معهم البيوت والفرش فلم يقر لهم قرار ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف وأما الضفادع فمعروفة لبستهم حتى كانت تسقط في أطعماتهم وأوانيهم حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئا إلا وجدوه دما عبيطا ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دما في الساعة الراهنة هذا كله لم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية وهذا من تمام المجزة الباهرة والحجة القاطعة أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام فينالهم عن آخرهم ولا يحل هذا لأحد من بني إسرائيل وفي هذا أدل دليل قال محمد بن إسحاق فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مفلولا ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر

(160/295)

وتابع الله عليه بالآيات فأخذه بالسنين فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد لا

يقدرون على أن يخرجوا ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا فلما بلغهم ذلك قالوا يا موسى أدع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فدعا موسى ربه فكشفه عنهم فلما لم يفوا له بشيء فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملا حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلم يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بئر ولا نهر يغترفون من إناء إلا عاد دما عبيطا وقال زيد بن أسلم المراد بالدم الرعاف رواه ابن أبي حاتم قال الله تعالى ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى أدع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة التي أراهم الله إياها عيانا وجعلها عليهم دليلا وبرهانا وكلما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى فيقولون فيكذبون ويعدون ولا يفون لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجل عليهم ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والانذار إليهم أخذ عزيز مقتدر فجعلهم عبرة ونكالا وسلفا لمن أشبههم من الكافرين ومثلا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين في سورة حم والكتاب المبين ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا إذا

هم منها يضحكون وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين

(162/295)

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون وعن سبيل الله يصدون وعن الحق يصدون فأرسل الله عليهم الآيات تتري يتبع بعضها بعضا وكل آية أكبر من التي تتلوها لأن التوكيد أبلغ مما قبله وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصا ولا عيبا لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه

وضراعتهم لديه قال الله تعالى فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها وهي الخلجانات التي يكسرونها أمام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليته وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه لا يكاد يبين يعني كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة التي هي شرف له وكمال وجمال ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه وأنزل بعد ذلك التوراة عليه وتنقصه فرعون لعنه الله بكونه لا أساور في بدنه ولا زينة عليه وإنما ذلك من حلية النساء لا يليق بشهامة الرجال فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلا وأتم معرفة وأعلى همة وأزهد في الدنيا وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الأخرى وقوله أو جاء معه الملائكة مقترنين لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير كما جاء في الحديث إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضي بما يصنع فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم وان كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعا لذوي الألباب ولمن قصد إلى الحق والصواب

(163/295)

ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لب اللباب وطبع على قلبه رب الأرباب وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذاب قال الله تعالى فاستخف قومه فأطاعوه أي استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم إنهم كانوا قوما فاسقين

فلما آسفونا أي أغضبونا انتقمنا منهم أي بالغرق والإهانة وسلب العز والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة والهوان بعد الرفاهية والنار بعد طيب العيش عياذا بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك فجعلناهم سلفا أي لمن اتبعهم في الصفات ومثلا أي لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ممن بلغه جليه خبرهم وما كان من أمرهم كما قال الله تعالى فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أطلع إلى اله موسى وإني لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لايرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيمة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق وادعى ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه اشتد

غضب الرب القدير العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع عليهم فانتقم منهم أشد الانتقام وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد ولم يبق منهم ديار بل كان قد غرق فدخل النار وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين ويوم القيمة بئس الرفد المرفود ولم القيمة هم من المقبوحين

هلاك فرعون وجنوده

(164/295)

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم متابعة لملكهم فرعون ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام وأقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون ولم يؤمن منهم إلا القليل قيل ثلاثة وهم امرأة فرعون ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ومؤمن آل فرعون الذي تقدم حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصى المدينة فقال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط وقيل بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون

والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل ويدل على هذا قوله تعالى فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين فالضمير في قوله إلا ذرية من قومه عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه وقيل على موسى لقربه والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته

(165/295)

وجبروته وسلطته ومن ملائهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم قال الله تعالى مخبرا عن فرعون وكفى بالله شهيدا وإن فرعون لعال في الأرض أي جبار عنيد مستعل بغير الحق وإنه لمن المسرفين أي في جميع أموره وشئونه وأحواله ولكنه جرثومة قد حان إنجعافها وثمرة خبيثة قد آن قطافها ومهجة ملعونة قد حتم اتلافها وعند ذلك قال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين يأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجا ومخرجا وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين أوحى الله تعالى

إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذوا لقومهما بيوتا متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة في الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض وقوله واجعلوا بيوتكم قبلة قيل مساجد وقيل معناه كثرة الصلاة فيها قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم ومعناه على هذا الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وكان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا حزبه أمر صلى وقيل معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم فأمروا أن يصلوا في بيوتهم عوضا عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق في ذلك الزمان الذي اقتضى حالهم اخفاءه خوفا من فرعون وملائه والمعنى الأول أقوى لقوله وبشر المؤمنين وإن كان لا ينافي الثاني أيضا والله أعلم وقال سعيد بن جبير واجعلوا بيوتكم قبلة أي متقابلة وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على

قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون غضبا لله عليه لتكبره عن اتباع الحق وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي والبرهان القطعي فقال ربنا إنك آتيت فرعون وملأه يعني قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك أي وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنهم على شيء لكون هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية والدور الأنيقة والقصور المبنية والمآكل الشهية والمناظر البهية والملك العزيز والتمكين والجاه العريض في الدنيا لا الدين ربنا اطمس على أموالهم قال ابن عباس ومجاهد أي أهلكها وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت وقال قتادة بلغنا أن زروعهم صارت حجارة وقال محمد بن كعب جعل سكرهم حجارة وقال أيضا صارت

(167/295)

أموالهم كلها حجارة ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له قم ايتني بكيس فجاءه بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة رواه ابن أبي حاتم وقوله واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال ابن عباس أي اطبع عليها وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه فاستجاب الله تعالى لها وحققها وتقبلها كما استجاب لنوح في قومه حيث قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ولهذا قال تعالى مخاطبا لموسى حين دعا على فرعون وملائه وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضا قال قد أجبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم فأذن لهم وهو كاره ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له وإنما كان في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعيروا حليا منهم فأعاروهم شيئا كثيرا فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم قال الله تعالى وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي انكم متبعون فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني

إسرائيل فاتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم قال علماء التفسير لما ركب فرعون في جنوده طالبا

(168/295)

بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف فالله أعلم وقيل إن بني إسرائيل كانوا نحوا من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستا وعشرين سنة شمسية

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فادركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه وراآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون إنا لمدركون وذلك لأنهم اضطروا في

طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد الا سلوكه وخوضه وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم وواجههم وعاينوه في جنوده وجيوشه وعدده وهم منه في غاية

(169/295)

الخوف والذعر لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمنكر فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه فقال لهم الرسول الصادق المصدوق كلا إن معي ربي سيهدين وكان في الساقة فتقدم إلى المقدمة ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ويتزايد زبد اجاجه وهو يقول ههنا أمرت ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار وقد أوحى الله إليه وجعله نبيا بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ومعهم أيضا مؤمن آل فرعون وهم وقوف وبنو إسرائيل بكما لهم عليهم عكوف ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مرارا في البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن ويقول لموسى عليه السلام يا نبي الله أههنا أمرت فيقول نعم فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فعند ذلك أوحى

الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم أن اضرب بعصاك البحر فلما ضربه يقال إنه قال له انفلق بإذن الله ويقال إنه كناه بأبي خلد فالله أعلم قال الله تعالى فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ويقال إنه انفلق اثنتي عشرة طريقا لكل سبط طريق يسيرون فيه حتى قيل إنه صار أيضا شبابيك ليرى بعضهم بعضا وفي هذا نظر لأن الماء جرم شفاف إذا كان من وارئه ضياء حكاه وهكذا كان ماء البحر قائما مثل الجبال مكفوفا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون وأمر الله ريح الدبور فلفحت حال البحر فاذهبته حتى صار يابسا لا يعلق في سنابك الخيول والدواب قال الله تعالى ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى

(170/295)

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدي قلوب المؤمنين فلما جاوزوه وجاوزه

وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ولا سبيل عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق في المقال ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ولقد

(171/295)

نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين ولقد اخترناهم على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين فقوله تعالى وأترك البحر رهوا أي ساكنا على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم

وغيرهم فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاين ما عاين هاله هذا المنظر العظيم وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم فأحجم ولم يتقدم وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده تجلدا وعاملهم معاملة العدا وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه أنظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي الخارجين عن طاعتي وبلدي وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات ويقدم تارة ويحجم تارات فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى في صورة فارس راكب على رمكة حايل فمر بين يدي فحل فرعون لعنه الله فحمحم اليها وأقبل عليها وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر واستبق الجواد وقد أجاد فبادر مسرعا هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضرا ولا نفعا فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين حتى هم أولهم بالخروج منه فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فارتد عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم إنسان قال الله تعالى وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم أي في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد واغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة

والمناهج المستقيمة وقال تعالى وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتبعم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وأن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أقر لأعين بني إسرائيل وأشفى لنفوسهم فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب وآمن حين لا ينفع نفسا إيمانها كما قال تعالى إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم وقال تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأو بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون وهكذا دعا

موسى على فرعون وملائه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم أي حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال تعالى لهما أي لموسى وهارون حين دعوا بهذا قد أجيبت دعوتكما فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال قال لي جبريل لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة وقال الترمذي حديث حسن وقال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن يناله الرحمة ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شعبة وقال الترمذي حسن غريب صحيح وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه

فيرمسه ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم قال قال لي جبريل يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له يعني فرعون وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمي وقتادة وميمون بن مهران

(174/295)

ويقال إن الضحاك بن قيس خطب به الناس وفي بعض الروايات إن جبريل قال ما بغضت أحدا بغضي لفرعون حين قال أنا ربكم الأعلى ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال وقوله تعالى الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين استفهام إنكار ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه والله أعلم لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين قال الله بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه وإنهم لكاذبون وقوله فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية قال ابن عباس وغير واحد شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون حتى قال بعضهم إنه لا يموت فأمر الله البحر فرفعه

على مرتفع قيل على وجه الماء وقيل على نجوة من الأرض وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه ولهذا قال فاليوم ننجيك ببدنك أي مصاحبا درعك المعروفة بك لتكون أي أنت آية لمن خلفك أي من بني إسرائيل دليلا على قدرة الله الذي أهلكه ولهذا قرأ بعض السلف لتكون لمن خلقك آية (1) ويحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحبا لتكون درعك علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وإنك هلكت والله أعلم وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء كما قال الإمام البخاري في صحيحه حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قدم النبي صلى الله عليه و سلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون قال النبي صلى الله عليه و سلم أنتم أحق بموسى منهم فصوموا وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما والله أعلم

أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

(175/295)

قال الله تعالى فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك

الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون
وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتو على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا
إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال
أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء
العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم يذكر تعالى ما
كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم وأورث بني
إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم كما قال كذلك وأورثناها بني إسرائيل وقال ونريد أن نمن
على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين وقال ههنا وأورثنا القوم
الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى
على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون أي أهلك
ذلك جميعه وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده
ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا فذكر ابن عبد الحكم في تاريخ مصر أنه من ذلك
الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن
من العامة فكانت لهن السطوة عليهم واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومك هذا
وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أو

سنتهم وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملا من الغنم فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه

(176/295)

فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم ولا يأكلونه مطبوخا ولكن مشويا برأسه وأكارعه وبطنه ولا يبقوا منه شيئا ولا يكثروا له عظما ولا يخرجوا منه شيئا إلى خارج بيوتهم وليكن خبزهم فطيرا سبعة أيام ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم وكان ذلك في فصل الربيع فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة وخفافهم في أرجلهم وعصيهم في أيديهم وليأكلوا بسرعة قياما ومهما فضل عن عشائهم فما بقي إلى الغد فليحرقوه بالنار وشرع لهم هذا عيدا لأعقابهم ما دامت التوراة معمولا بها فإذا نسخت بطل شرعها وقد وقع قالوا وقتل الله عز وجل في تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ليشتغلوا عنهم وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ليس من بيت الا وفيه عويل وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين فحملوا العجين قبل اختماره وحملوا الأزواد في الأردية والقوها على عواتقهم وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حليا كثيرا فخرجوا وهم ستمائة

ألف رجل سوى الذراري بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة هذا نص كتابهم وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ وهذا العيد عيد الفسخ ولهم عيد الفطير وعيد الحمل وهو أول السنة وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم منصوص عليها في كتابهم ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا على طريق بحر سوف وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عامود نور وبالليل أمامهم عامود نار فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين وهم هناك حلول على شاطىء اليم فقلق كثير من بني إسرائيل حتى قال قائلهم كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا قالوا

(177/295)

وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس وصار الماء من ههنا وههنا كالجبلين وصار وسطه يبسا لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر واتبعهم فرعون وجنوده فلما توسطوه أمر الله

موسى فضرب البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم والله أعلم قالوا ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب وقالوا نسبح الرب البهي الذي قهر الجنود ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود وهو تسبيح طويل قالوا وأخذت مريم النبية أخت هارون دفا بيدها وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول وجعلت مريم ترتل لهن وتقول سبحان الرب القهار الذي قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر هكذا رأيته في كتابهم ولعل هذا هو من الذي حمل محمد بن كعب القرظي على زعمه أن مريم بنت

(178/295)

عمران أم عيسى هي أخت هارون وموسى مع قوله يا أخت هارون وقد بينا غلطه في ذلك وان هذا لا يمكن أن يقال ولم يتابعه أحد عليه بل كل واحد خالفه فيه ولو قدر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام وأم عيسى عليها السلام وافقتها في الأسم واسم الأب واسم الأخ لأنهم كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم للمغيرة بن شعبة لما سأله أهل نجران عن قوله يا أخت هارون فلم يدر ما يقول لهم

حتى سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن ذلك فقال أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم رواه مسلم وقولهم النبية كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة ومن بيت الإمرة أميرة وإن لم تكن مباشرة شيئا من ذلك فكذا هذه استعارة لها لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف في العيد وهذا مشروع لنا أيضا في حق النساء لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف في أيام منى ورسول الله صلى الله عليه و سلم مضطجع مولي ظهره إليهم ووجهه إلى الحائط فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال ابمزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا وهكذا يشرع عندنا في الأعراس ولقدوم الغياب كما هو مقرر في موضعه والله أعلم وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك فوجدوا ماء زعاقا أجاجا لم يستطيعوا شربه فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه فحلا وساغ شربه وعلمه الرب هنالك فرائض وسننا ووصاه وصايا كثيرة وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتوا على قوم يعكفون

على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قالوا هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناما قيل كانت على صور البقر فكأنهم سألوهم لم يعبدونها فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة فقال لهم مبينا لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون إن هؤلاء متبر ما فيه وباطل ما كانوا يعملون ثم ذكرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذي بين أظهرهم وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من انجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملاؤه يجمعونه من الاموال والسعادة وما كانوا يعرشون وبين لهم أنه لا تصلح العبادة الا لله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق القهار وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون 277 على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة أي قال بعضهم كما في قوله وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا فالذين

زعموا هذا بعض الناس لا كلهم وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها فقال النبي صلى الله عليه و سلم الله أكبر هذا كما قالت بنو

(180/295)

إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة انكم تركبون سنن الذين من قبلكم ورواه النسائي عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به ورواه الترمذي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عن سفيان بن عيينة عن الزهري به ثم قال حسن صحيح وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق ومعمر وعقيل عن الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى خيبر قال وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم

قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون والمقصود أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوما من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم واجلائهم اياهم عن بيت المقدس فإن الله كتبه لهم ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل أو موسى الكليم الجليل فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف والقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون كما قال الله تعالى وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فانا داخلون قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب

(181/295)

أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم احسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم أي تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم فتنقلبوا خاسرين أي فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين أي عتاة كفرة متمردين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا فإنا داخلون خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسا وأكثر جمعا وأعظم جندا وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الاعداء ومقاومة المردة الأشقياء

(182/295)

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثارا فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاما جدا حتى إنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحدا واحدا ويلفهم في

أكمامه وحجزة سراويله وهم إثنا عشر رجلا فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين فقال ما هؤلاء ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها وأن الملك بعث معهم عنبا كل عنبة تكفي الرجل وشيئا من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم وهذا ليس بصحيح وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع هكذا ذكره البغوي وغيره وليس بصحيح كما قدمنا بيانه عند قوله صلى الله عليه وسلم إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن قالوا فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها صارت طوقا في عنق عوج بن عنق ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع فوصل إلى كعب قدمه فقتله يروى هذا عن عوف البكالي ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم ولا تميز لهم بين صحتها وباطلها ثم لو كان هذا صحيحا لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم وقد ذمهم الله على نكولهم وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالاقدام ونهياهم عن الاحجام ويقال إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا قاله ابن عباس ومجاهد

وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس وغير واحد قال رجلان من الذين يخافون أي يخافون الله وقرأ بعضهم يخافون أي يهابون أنعم

(183/295)

الله عليهما أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين أي إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون فصمم ملأؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير فيقال إن يوشع وكالب لما سمعا هذا

(184/295)

الكلام شقا ثيابهما وإن موسى وهارون سجدا إعظاما لهذا الكلام وغضبا لله عز وجل وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال ابن عباس اقض بيني وبينهم قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في

الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض يسيروا إلى غير مقصد ليلا ونهارا وصباحا ومساء ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام لكن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن وغيره من المهاجرين ثم جعل يقول أشيروا علي حتى قال سعد بن معاذ كأنك تعرض بنا يا رسول الله فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن يلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد وبسطه ذلك وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن مخارق بن عبد الله الأحمسي عن طارق هو ابن شهاب أن المقداد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون وهذا إسناد جيد من هذا الوجه وله طرق أخرى قال أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال قال عبد الله بن مسعود لقد شهدت من المقداد مشهدا لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به أتى

رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو يدعو على المشركين قال والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكنا نقاتل

(185/295)

عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه و سلم يشرق لذلك وسر بذلك رواه البخاري في التفسير والمغازي من طرق عن مخارق به وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا علي بن الحسن بن علي حدثنا أبو حاتم الرازي حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ثم استشارهم فقالت الأنصار يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله صلى الله عليه و سلم قالوا إذا لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون والذي بعثك بالحق إن ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به ورواه النسائي عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميد عن أنس به نحوه وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى عن عبد الأعلى بن حماد عن معتمر عن

حميد عن أنس به نحوه

دخول بني إسرائيل التيه وما فيه من الأمور العجيبة

(186/295)

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبارين وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين ولكن فيها أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمة ورفع موسى عصاه فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك وجعل هارون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس فانتصر حزب يوشع عليه السلام وعندهم أن يثرون كاهن مدين وختن موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون فقدم على موسى مسلما ومعه ابنته صفورا زوجة موسى وابناها منه جرشون وعازر فتلقاه موسى وأكرمه واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظموه وأجلوه وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالا أمناء أتقياء أعفاء يبغضون الرشاء والخيانة فيجعلهم على الناس رؤس

ألوف ورؤس مئين ورؤس خمسين ورؤس عشرة فيقضوا بين الناس فإذا أشكل عليهم أمر جاؤك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم ففعل ذلك موسى عليه السلام قالوا ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم وهي أول فصل الربيع فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف والله أعلم قالوا ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء وصعد موسى الجبل فكلمه ربه وأمره أن يذكر بني إسرائيل ما أنعم الله به عليهم من أنجائه إياهم من فرعون وقومه وكيف حملهم على مثل جناحي نسر من يده وقبضته وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث فإذا كان في اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ولا يقتربن أحد منهم إليه فمن دنا منه قتل حتى ولا شيء من البهائم ما داموا يسمعون صوت القرن فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن

(187/295)

ترتقوه فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جدا ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعا شديدا وخرجوا فقاموا في سفح الجبل وغشى الجبل دخان عظيم

في وسطه عمود نور وتزلزل الجبل كله زلزلة شديدة واستمر صوت الصور وهو البوق واشتد وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلمه ويناجيه وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل فأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله ويأمر الأحبار وهم علمائهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليقدموا بالقرب وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة فقال موسى يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه وقد نهيتهم عن ذلك فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بأخيه هارون وليكن الكهنة وهم العلماء والشعب وهم بقية بني إسرائيل غير بعيد ففعل موسى وكلمه ربه عز وجل فأمره حينئذ بالعشر كلمات

(188/295)

وعندهم أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله ولكن لم يفهموا حتى فهمهم موسى وجعلوا يقولون لموسى بلغنا أنت عن الرب عز وجل فانا نخاف أن نموت فبلغهم عنه فقال هذه العشر الكلمات وهي الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن الحلف بالله كاذبا والأمر بالمحافظة على السبت ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السبت أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض الذي يعطيك الله ربك لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد على صاحبك شهادة زور لا تمد عينك إلى بيت صاحبك ولا

تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا من الذي لصاحبك

ومعناه النهي عن الحسد وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم مضمون هذه العشر

الكلمات في آيتين من القرآن وهما قوله تعالى في سورة الأنعام قل تعالوا أتل ما حرم ربكم

عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم

وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق

ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده

وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربي

وبعهد الله أوفوا ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه الآية

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاما متفرقة عزيزة كانت فزالت وعملت

بها حينا من الدهر ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ثم عمدوا إليها فبدلوها

وحرفوها وأولوها ثم بعد ذلك كله سلبوها فصارت منسوخة مبدلة بعد ما كانت

مشروعة مكملة فلله الأمر من قبل ومن بعد وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد الا له

الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين وقد قال الله تعالى يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من

عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما

رزقناكم

ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن أي منهم لينزل عليه أحكاما عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع منا من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد ومن أخذ منه قليلا كفاه أو كثيرا لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز وهو

(190/295)

في غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوأها الباهر كما قال تعالى في سورة البقرة يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي

فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا
قليلا وإياي فاتقون إلى أن قال وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون
أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم
وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده
وأنتم ظالمون ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون وإذ آتينا موسى الكتاب
والفرقان لعلكم تهتدون وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل
فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب
الرحيم وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم
تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن
والسلوي كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون إلى أن قال وإذ
استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم
كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين وإذ قلتم يا موسى
لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها
وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما
سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات
الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون فذكر تعالى إنعامه

عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه بل ينزل الله المن باكرا ويرسل عليهم طير السلوى عشيا وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجرا كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين منه تنبجس ثم تنفجر ماءا زلالا فيستقون ويسقون دولبهم ويدخرون كفايتهم وظلل عليهم الغمام من الحر وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلا أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها وإذا هبطتم إليها أي ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما

قال تعالى ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى أي فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار وقد حل عليه غضب الملك الجبار ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى

سؤال الرؤية

(192/295)

قال الله تعالى وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن

يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وأن يرو سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون الا ما كانوا يعملون قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله واتمت أربعين ليلة بعشر ذي الحجة فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم دينه وأقام حجته وبراهينه والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائما يقال إنه لم يستطعم الطعام فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه فأمر الله أن يمسك عشرا أخرى فصارت أربعين ليلة ولهذا ثبت في الحديث أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل الجليل وهو ابن أمه وأبيه ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه فوصاه وأمره وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة قال الله تعالى ولما جاء موسى لميقاتنا أي في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه وكلمه ربه أي كمله الله من وراء حجاب الا أنه أسمعه الخطاب

فناداه وناجاه وقربه وأدناه وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ومنصب شريف ومنزل منيف فصلوات الله عليه تترى وسلامه عليه في الدنيا والأخرى ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القوى البرهان ربي أرني أنظر إليك قال لن تراني ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتا وأشد ثباتا من الإنسان لا يثبت عند التجلي من الرحمان ولهذا قال ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني

(194/295)

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال له يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده وفي الصحيحين عن أبي موسى عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال حجابه النور وفي رواية النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه وقال ابن عباس في قوله تعالى لا تدركه الأبصار ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء ولهذا قال تعالى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين قال مجاهد ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه

فسوف تراني فإنه أكبر منك وأشد خلقا فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قرأ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا قال هكذا بإصبعه ووضع النبي صلى الله عليه و سلم الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل لفظ ابن جرير وقال السدي عن عكرمة وعن ابن عباس ما تجلى يعني من العظمة إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكا قال ترابا وخر موسى صعقا أي مغشيا عليه وقال قتادة ميتا والصحيح الأول لقوله فلما أفاق فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي قال سبحانك تنزيه وتعظيم وإجلال إن يراه بعظمته أحد تبت إليك أي فلست أسأل بعد هذا الرؤية وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن ابي حسن المازني الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور لفظ البخاري وفي أوله قصة

اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري حين قال لا والذي اصطفى موسى على البشر فقال رسول الله لا تخيروني من بين الأنبياء وفي الصحيحين من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم بنحوه وفيه لا تخيروني على موسى وذكر تمامه وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات وليس ينال هذا بمجرد الرأي بل بالتوقيف ومن قال إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ثم نسخ باطلاعه على أفضليته

(196/295)

عليهم كلهم ففي قوله نظر لان هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخرا فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا والله اعلم ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة قال الله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وما كملوا إلا بشرف نبيهم وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون الذي

تحيد عنه الأنبياء والمرسلون حتى أولو العزم إلا كملون نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وقوله صلى الله عليه و سلم فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش أي آخذا بها فلا أدري أفاق قبلي ام جوزي بصعقة الطور دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء فيجد موسى باطشا بقائمة العرش قال الصادق المصدوق لا أدري أصعق فأفاق قبلي أي كانت صعقته خفيقة لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق أو جوزي بصعقة الطور يعني فلم يصعق بالكلية وهذا شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية ولا يلزم تفضيله بها مطلقا من كل وجه ولهذا نبه رسول الله صلى الله عليه و سلم على شرفه وفضيلته بهذه الصفة لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال لا والذي اصطفى موسى على الشر قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام فبين النبي صلى الله عليه و سلم فضيلته وشرفه وقوله تعالى قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي أي في ذلك الزمان لا ما قبله لان إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم ولا ما بعده لان محمدا صلى الله عليه و سلم أفضل منهما كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء وكما

ثبت أنه قال سأقوم مقاما يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم وقوله تعالى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين أي فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه وكن من الشاكرين على ذلك قال الله تعالى وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء

وكانت الالواح من جوهر نفيس ففي الصحيح أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ عن الاثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام فخذها بقوة أي بعزم ونية صادقة قوية وأمر قومك يأخذوا بأحسنها أي يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها سأريكم دار الفاسقين أي ستروا عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لامري المكذبين لرسلي سأصرف عن آياتي عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذي أريد منها ودل عليه مقتضاها الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وأن يروا كل آية لا يؤمنوا بها أي ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادوا لاتباعها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا أي لا يسلكوه ولا يتبعوه وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا أي صرفناهم

عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها وإعراضهم عن التصديق بها والتفكر في معناها

وترك العمل بمقتضاها والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون

قصة عبادتهم العجل في غيبة موسى

(198/295)

قال الله تعالى واخذ قوم موسى من بعده مل حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط في أيديهم ورأو أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس اخيه يجره إليه قال يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين قال رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت ارحم الراحمين إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال تعالى وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى قال فأنا

قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدي قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمري قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فإن لك في الحياة أن

(199/295)

لا تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما يذكر تعالى ما كان من امر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور

يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السالم عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها فعمد رجل منهم يقال له هارون السامري فأخذ ما كان استعاره من الحلي فصاغ منه عجلا وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من اثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه فلما ألقاها فيه خار كما

(200/295)

بخور العجل الحقيقي ويقال إنه استحال عجلا جسدا أي لحما ودما حيا يخور قاله قتادة وغيره وقيل بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أي فنسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو ههنا تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وعداته قال الله تعالى مبينا بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من الهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيوانا بهيما وشيطانا رجيما أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا وقال ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جوابا ولا يملك ضرا ولا نفعا ولا يهدي إلى رشد اتخذوه وهم ظالمون لانفسهم عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال ولما

سقط في أيديهم أي ندموا على ما صنعوا ورأوا أنهم قد أضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ومعه الألواح المتضمنة التوراة القاها فيقال إنه كسرها وهكذا هو عند أهل الكتاب وإن الله أبدله غيرها وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك إلا أنه القاها حين عاين ما عاين وعند أهل الكتاب أنهما كانا لوحين وظاهر القرآن أنها الواح متعددة ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الخبر كالمعاينة ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا إنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري تحرجوا من تملك حلى آل فرعون وهم أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل

(201/295)

الجسد الذي له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلا له يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أي هلا لما رأيت ما

صنعوا اتبعتني فاعلمتني بما فعلوا فقال إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل أي تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي وزجرهم عنه أتم الزجر قال الله تعالى ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به أي إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختبارا لكم وإن ربكم الرحمن أي لا هذا فاتبعوني أي فيما أقول لكم وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى يشهد الله لهرون عليه السلام وكفى بالله شهيدا أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه ثم أقبل موسى على السامري قال ما خطبك يا سامري أي ما حملك على ما صنعت قال بصرت بما لم يبصروا به أي رأيت جبرائيل وهو راكب

(202/295)

فرسا فقبضت قبضة من أثر الرسول أي من أثر فرس جبريل وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب فأخذ من أثر حافرها فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحدا معاقبة

له على مسه ما لم يكن له مسه هذا معاقبة له في الدنيا ثم توعده في الأخرى فقال وإن لك موعدا لن تخلفه وقرىء لن نخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا قال فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه بالنار كما قاله قتادة وغيره وقيل بالمبارد كما قاله علي وابن عباس وغيرهما وهو نص أهل الكتاب ثم ذراه في البحر وأمر بني إسرائيل فشربوا فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه وقيل بل اصفرت ألوانهم ثم قال تعالى اخبارا عن موسى أنه قال لهم إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما وقال تعالى إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين وهكذا وقع وقد قال بعض السلف وكذلك نجزي المفترين مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيمة ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم لكم لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل كما قال تعالى وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم فيقال إنهم أصبحوا يوما وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف وألقى الله عليه ضبابا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين

ألفا ثم قال تعالى ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون استدل بعضهم بقوله وفي نسختها على انها تكسرت وفي هذا الاستدلال نظر وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت والله أعلم وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون كما سيأتي أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر وما هو ببعيد لأنهم حين خرجوا قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة

وهكذا عند أهل الكتاب فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة

إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ذكر السدي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني اسرائيل ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وابيهو ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع وصعد موسى الجبل فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين وحملوا عليه قوله تعالى وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون وليس هذا بلازم لقوله تعالى فأجره حتى يسمع كلام الله أي مبلغا وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغا عن موسى عليه السلام وزعموا أيضا أن السبعين رأوا الله وهذا غلط منهم لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة كما قال تعالى وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون وقال ههنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي الآية قال محمد بن إسحاق اختار موسى من بني

إسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى

(205/295)

تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل في الغمام وقال للقوم أدنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمر وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فانا براء مما عملوا وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل وقوله إن هي إلا فتنتك أي اختبارك وابتلاؤك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن

جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف يعني أنت الذي قدرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل اختبارا تختبرهم

(206/295)

به كما قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به أي أختبرتم ولهذا قال تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أي من شئت أضللته باختبارك إياه ومن شئت هديته لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا اليك أي تبنا إليك ورجعنا وأنبنا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحاك والسدي وقتادة وغير واحد وهو كذلك في اللغة قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها ورحمتي وسعت كل شيء أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها ورحمتي وسعت كل شيء كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون

أي فسأوحيها حتما لمن يتصف بهذه الصفات الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الآية وهذا فيه تنويه بذكر محمد صلى الله عليه و سلم وامته من الله لموسى عليه السلام في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومقنع ولله الحمد والمنة وقال قتادة قال موسى يا رب أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد قال رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون في الخلق السابقون في دخول الجنة رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد قال رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظرا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه وان الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا عن الأمم قال رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد قال رب

(207/295)

إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد قال رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم إذا تصدق بصدقة

فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتها وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير وان الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم قال رب فاجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد قال رب فإني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعماية ضعف قال رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد قال رب إني أجد في السلام نبذ الألواح وقال اللهم اجعلني من أمة أحمد وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه وحسن هدايته ومعونته وتأييده

(208/295)

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان في صحيحه ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة أخبرنا عمر بن سعيد الطائي بمنبج حدثنا حامد بن يحيى البلخي حدثنا سفيان حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن أبجر شيخان صالحان سمعنا الشعبي يقول سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبي صلى الله عليه وسلم إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل أي أهل الجنة أدنى منزلة فقال رجل يجي بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال أدخل الجنة فيقول كيف أدخل الجنة وقد نزل

الناس منازلهم وأخذوا إخاذاتهم فيقال له ترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا فيقول نعم أي رب فيقال لك هذا ومثله ومثه فيقول أي رب رضيت فيقال له لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك وسأل ربه أي أهل الجنة أرفع منزلة قال سأحدثك عنهم غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين الآية وهكذا رواه مسلم والترمذي كلاهما عن ابن أبي عمر عن سفيان وهو ابن عيينة به ولفظ مسلم فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا فيقول رضيت رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله فيقول في الخامسة رضيت رب فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول رضيت رب قال رب فاعلاهم منزلة قال أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر قال ومصداقه من كتاب الله فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون وقال الترمذي حسن صحيح قال ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة فلم يرفعه والمرفوع أصح وقال ابن حبان ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع حدثنا عبد الله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن

أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال سأل موسى ربه عز و جل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها قال يا رب أي عبادك أتقى قال الذي يذكر ولا ينسى قال فأي عبادك أهدى قال الذي يتبع الهدى قال فأي عبادك أحكم قال الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه قال فأي عبادك أعلم قال عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه قال فأي عبادك أعز قال الذي إذا قدر غفر قال فأي عبادك أغنى قال الذي يرضى بما يؤتى قال فأي عبادك أفقر قال صاحب منقوص قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ليس الغنى عن ظهر إنما الغنى غنى النفس وإذا أراد الله بعبد خيرا جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه وإذا أراد بعبد شرا جعل فقره بين عينيه قال ابن حبان قوله صاحب منقوص يريد به منقوص حالته يستقل ما أوتى ويطلب الفضل وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن ابن حميد عن يعقوب التميمي عن هارون بن عبيرة عن أبيه عن ابن عباس قال سأل موسى ربه عز و جل فذكر نحوه وفيه قال أي رب فأي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس

إلى علمه عسى أن يجد كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى قال أي رب فهل في الأرض أحد أعلم مني قال نعم الخضر فسأل السبيل إلى لقيه فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله وبه

الثقة

حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان

(210/295)

قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا بن لهيعة عن راج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال إن موسى قال أي رب عبدك المؤمن مقتر عليه في الدنيا قال ففتح له باب من الجنة فنظر إليها قال يا موسى هذا ما أعددت له فقال موسى يا رب وعزتك وجلالك لو كان مقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بؤسا قط قال ثم قال أي رب عبدك الكافر موسع عليه في الدنيا قال ففتح له باب إلى النار فيقول يا موسى هذا ما أعددت له فقال أي رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيرا قط تفرد به أحمد من هذا الوجه وفي صحته نظر والله أعلم وقال ابن حبان ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئا يذكره به حدثنا ابن سلمة حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث إن دراجا حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال قال موسى يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به

قال قل يا موسى لا إله إلا الله قال يا رب كل عبادك يقول هذا قال قل لا إله إلا الله قال إنما أريد شيئًا تخصني به قال يا موسى لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في السنن عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال أفضل الدعاء دعاء عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية الكرسي حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدسكي حدثني أبي عن أبيه حدثنا أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى هل ينام ربك قال اتقوا الله فناداه ربه

(211/295)

يا موسى سألوك هل ينام ربك فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا فقال يا موسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك قال وأنزل الله على رسوله آية الكرسي وقال ابن

جرير حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن ابان عن عكرمة عن أبي هريرة قال سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز و جل فأرسل

(212/295)

الله إليه ملكا فارقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان قال ضرب الله له مثلا أن لو كان ينام لم يستمسك السماء والأرض وهذا حديث غريب رفعه والأشبه أن يكون موقوفا وأن يكون أصله إسرائيليا وقال الله تعالى وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين وقال تعالى وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون قال ابن عباس وغير واحد من السلف لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوارة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم فقالوا أنشرها علينا فإن كانت

أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها فقال بل أقبلوها بما فيها فراجعوه مرارا فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤسهم حتى صار كأنه ظلة أي غمامة على رؤسهم وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم فصارت سنة لليهود إلى اليوم يقولون لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب وقال سنيد بن داود عن حجاج بن محمد عن أبي بكر بن عبد الله قال فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز فليس على وجه الأرض يهودي صغير ولا كبير تقرأ عليه التوارة إلا اهتز ونفض لها رأسه قال الله تعالى ثم توليتم من بعد ذلك أي ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم فلولا فضل الله عليكم ورحمته بان تداركم بالارسال اليكم وانزال الكتب عليكم لكنتم من الخاسرين

قصة بقرة بني إسرائيل

(213/295)

قال الله تعالى واذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا

فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي وغير واحد من السلف كان رجل في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخا كبيرا وله

(214/295)

بنوا أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق ويقال على باب رجل منهم فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى عليه السلام فقال موسى عليه السلام أنشد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به فلم يكن عند أحد منهم علم منه وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز و جل فسأل ربه عز و جل في ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال إن الله يأمركم أن

تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين أي أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلي وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتموني عنه أن أسأله فيه قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدي وأبو العالية وغير واحد فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ولكنهم شددوا فشدد عليهم وقد ورد فيه حديث مرفوع وفي إسناده ضعف فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها فأجيبوا بما عز وجوده عليهم وقد ذكرنا في تفسير ذلك كله في التفسير والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهي الوسط بين النصف الفارض وهي الكبيرة والبكر وهي الصغيرة قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أي مشرب بحمرة تسر الناظرين وهذا اللون عزيز ثم شددوا أيضا فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا إن شاء الله لمهتدون ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه لولا أن بني إسرائيل استثنوا لما أعطوا وفي صحته نظر والله أعلم قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون وهذه الصفات أضيق

مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهي المذللة بالحراثة وسقى الأرض بالسانية مسلمة وهي الصحيحة التي لا عيب فيها قاله أبو العالية وقتادة وقوله لا شية فيها أي ليس فيها لون يخالف لونها بل هي مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف قالوا الآن جئت بالحق ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارا بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم فارغبوه في ثمنها حتى أعطوه فيما ذكر السدي بوزنها ذهبا فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها منهم فأمرهم نبي الله موسى بذبحها فذبحوها وما كادوا يفعلون أي وهم يترددون في أمرها ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها قيل بلحم فخذها وقيل بالعظم الذي يلي الغضروف وقيل بالبضعة التي بين الكتفين فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أوداجه فسأله نبي الله من قتلك قال قتلني ابن أخي ثم عاد ميتا كما كان قال الله تعالى

كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون أي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة كما قال ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة الآية

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شي حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها قال اخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا امرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عزرا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض

فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فاردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا

(217/295)

قال بعض أهل الكتاب إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي ويقال إنه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الأحبار والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل قال البخاري حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمر بن دينار أخبرني سعيد بن

جبير قال قلت لابن عباس إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا رب وكيف لي به قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سربا وامسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به قال له فتاه أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا قال فرجعا يقصان

أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر واني بارضك السلام قال أنا موسى قال موسى بني إسرائيل قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبرا يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه انت وانت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه فقال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا قال له الخضر فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلمهم ان يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما ركبا في السفينة لم يفجأ الا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة

(219/295)

بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا امرا قال ألم أقل إنك لن تستيطع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا قال وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم وكانت الأولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما علمي وعلمك في علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا

من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك إنك لن تسطيع معي صبرا قال وهذه أشد من الأولى قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض قال مائل فقال الخضر بيده فأقامه فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل

(220/295)

ما لم تستطع عليه صبرا قال ارسول الله صلى الله عليه و سلم وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين ثم رواه البخاري أيضا عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناده نحوه وفيه فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها قال فوضع موسى رأسه فنام قال سفيان وفي حديث غير عمرو قال وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا

يصيب من مائها شيء إلا حي فأصاب الحوت من ماء تلك العين قال فتحرك وانسل من المكتل ودخل البحر فلما استيقظ قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا وساق الحديق وقال ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر فقال الخضر لموسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمام الحديث وقال البخاري حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبير يزيد أحدهما على صاحبه وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال سلوني فقلت أي أبا عباس جعلني الله فداك بالكوفة رجل قاص يقال له نوف يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل أما عمرو فقال لي قال قد كذب عدو الله وأما يعلى فقال لي قال ابن عباس حدثني أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى رسول الله قال ذكر الناس يوما حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك قال لا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله قيل بلى قال أي رب فأين قال بمجمع البحرين قال أي رب اجعل لي علما أعلم ذلك به قال لي عمرو قال حيث يفارقك الحوت وقال لي يعلى قال خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتا فجعله في مكتل فقال لفتاه

لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت قال ما كلفت كبيرا فذلك قوله وإذ قال موسى لفتاه يوشع بن نون ليست عن سعيد بن جبير قال فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرب الحوت وموسى نائم فقال فتاه لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره وتضرب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر قال لي عمرو هكذا كان أثره في حجر وحلق بين ابهاميه واللتين تليان لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال وقد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد أخبره فرجعا فوجدا خضرا قال لي عثمان بن أبي سليمان على طنفسة خضراء على كبد البحر قال سعيد مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال هل بأرض من سلام من أنت قال أنا موسى قال موسى بني إسرائيل قال نعم قال فما شأنك قال جئتك لتعلمني مما علمت رشدا قال أما يكفيك أن التوارة بيديك وأن الوحي يأتيك يا موسى إن لي علما لا ينبغي لك أن تعلمه وإن لك علما لا ينبغي لي أن أعلمه فاخذ طائر بمنقاره من البحر فقال والله ما علمي وعلمك

(222/295)

في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر حتى إذا ركبا في السفينة وجدا معابر صغارا تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر عرفوه فقالوا عبد الله الصالح قال فقلنا لسعيد خضر قال نعم لا نحمله بأجر فخرقها ووتد فيها وتدا قال موسى أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا قال مجاهد منكرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا كانت الأولى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال يعلى قال سعيد وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما كافرا ظريفا فاضجعه ثم ذبحه بالسكين قال أقتلت نفسا زكية لم تعمل بالخبث ابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلاما زكيا فانطلقا فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام قال يعلى حسبت أن سعيدا قال فمسحه بيده فاستقام قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال سعيد أجرا نأكله وكان وراءهم وكان أمامهم قرأها ابن عباس أمامهم ملك يزعمون عن غير سعيد أنه هدد بن بدد والغلام المقتول يزعمون جيسور ملك يأخذ كل سفينة غصبا فإذا هي مرت به يدعها بعيبها فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها منهم من يقول سدوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار كان أبواه مؤمنين وكان كافرا فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا أي يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة لقوله أقتلت نفسا زكية وأقرب رحما هما به أرحم منها بالأول الذي قتل خضر وزعم سعيد بن جبير أنه ابن لا

جارية وأما داود بن أبي عصام فقال عن غير واحد إنها جارية وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطب موسى بني إسرائيل فقال ما أحد أعلم بالله وبأمره مني فأمر أن يلقى هذا الرجل فذكر نحو ما تقدم وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن

(223/295)

كعب عن رسول الله صلى الله عليه و سلم كنحو ما تقدم أيضا ورواه العوفي عنه موقوفا وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فقال ابن عباس هو خضر فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه فهل سمعت من رسول الله فيه شيئا قال نعم وذكر الحديث وقد تقصينا طرق هذا الحديث والفاظه في تفسير سورة الكهف ولله الحمد وقوله وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة قال السهيلي وهما أصرم وصريم ابنا كاشح وكان تحته كنز لهما قيل كان ذهبا قاله عكرمة وقيل علما قاله ابن عباس والأشبه أنه كان لوحا من ذهب

مكتوبا فيه علم قال البزار حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا بشر بن المنذر حدثنا الحرث بن عبد الله اليحصبي عن عياش بن عباس الغساني عن بن حجيرة عن أبي ذر رفعه قال إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه لوح من الذهب مصمت عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب وعجبت

(224/295)

لمن ذكر النار لم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل لا إله إلا الله وهكذا روى عن الحسن البصري وعمر مولى عفرة وجعفر الصادق نحو هذا وقوله وكان أبوهما صالحا وقد قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته فالله المستعان وقوله رحمة من ربك دليل على أنه كان نبيا وأنه ما فعل شيئا من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبي وقيل رسول وقيل ولي وأغرب من هذا من قال كان ملكا قلت وقد أغرب جدا من قال هو ابن فرعون وقيل إنه ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة قال ابن جرير والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن أفريدون ويقال إنه كان على مقدمة ذي القرنين الذي قيل إنه كان أفريدون وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل وزعموا أنه شرب من ماء الحيوة فخلد وهو باق إلى الآن وقيل إنه من ولد بعض من آمن

بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل وقيه اسمه ملكان وقيل أرميا بن خلقيا وقيل كان نبيا في زمن سباسب بن لهراسب قال ابن جرير وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب قال ابن جرير والصحيح أنه كان في زمن أفريدون واستمر حيا إلى أن أدركه موسى عليه السلام وكانت نبوة موسى في زمن منوشهر الذي هو من ولد ابرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس وكان اليه الملك بعد جده أفريدون لعهده وكان عادلا وهو أول من خندق الخنادق وأول من جعل في كل قرية دهقانا وكانت مدة ملكه قريبا من مائة وخمسين سنة ويقال إنه كان من سلالة اسحاق بن ابراهيم وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكليم البليغ النافع الفصيح ما يبهر العقل ويحير السامع وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل والله أعلم وقد قال الله تعالى وإذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمه ثم جائكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أءقررتم الآية

(225/295)

فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره فلو كان الخضر حيا في زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون

نبيا وهو الحق أو رسولا كما قيل أو ملكا فيما ذكر وأياما كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر ولو كان حيا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته فكيف ان كان الخضر وليا كما يقوله طوائف كثيرون فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأحرى ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوما واحدا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التغرية فيه وان كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيف والله أعلم وسنفرد لخضر ترجمة على حدة بعد هذا

حديث الفتون المتضمن قصة موسى من أولها إلى آخرها

(226/295)

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب التفسير من سننه عند قوله تعالى في سورة طه وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا حديث الفتون حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا أصبغ بن زيد حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبير قال سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى وفتناك فتونا فسأله عن الفتون ما هو فقال استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثا طويلا فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لا ننجز منه ما وعدني من حديث الفتون فقال تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد

ابراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكا فقال بعضهم إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه وكانوا يظنون انه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد إبراهيم فقال فرعون فكيف ترون فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذي كانوا يكفونكم فاقتلوا عاما كل مولود ذكر فتقل بناتهم ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار فانهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم اياكم ولن تفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا تقتل فيه الغلمان فولدته علانية آمنة فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم فلما ولدت فعلت ذلك فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها ما فعلت يا بني لو ذبح عندي فواريته

وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه فانتهى الماء به حتى أوفى عند فرضة تستقى منها جواري امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن ان في هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه فحملته كهيئته لم يخرجن منه شيئا حتى دفعنه اليها فلما فتحته رأت فيه غلاما فالقى عليه منها محبة لم تلق منها على أحد قط وأصبح فؤاد أم موسى فارغا

ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم الى امرأة فرعون ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت لهم أقروه فان هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتى فرعون

(228/295)

فاستوهبه منه فإن وهبه مني كنتم قد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم ألمكم فأتت فرعون فقالت قرة عين لي ولك فقال فرعون يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمه ذلك فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن

تختار ظئرا فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئرا يأخذه منها فلم يقبل وأصبحت أم موسى والها فقالت لأخته قصى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا أحي إبني أم قد أكلته الدواب ونسيت ما كان الله وعدها فيه فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فقالوا ما يدريك ما نصحهم هل يعرفونه حتى شكوا في ذلك وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت نصحهم له وشفقتهم عليه ورغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئرا فأرسلت إليها فأتت بها وبه فلما رأت ما يصنع بها قالت أمكثي ترضعي ابني هذا فإني لم أحب شيئا حبه قط قالت أم موسى لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيرا فعلت فإني غير تاركة بيتي وولدي وذكرت ام موسى ما كان الله وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز موعوده فرجعت إلى بيتها من يومها وأنبته الله نباتا

حسنا وحفظ لما قد قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما

(229/295)

كان فيهم فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى أريني ابني فوعدتها يوما تريها إياه فيه وقالت امرأة فرعون لخازنها وظئورها وقهارمتها لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك فيه وأنا باعثة أمينا يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون فلما دخل عليها نحلته وأكرمته فرحت به ونحلت أمه بحسن أثرها عليه ثم قالت لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه فلما دخلت به وعليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض فقال الغواة من أعداء الله لفرعون ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه وذلك من الفتون يا بن جبير بعد كل بلاء ابتلى به وأريد به فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون فقالت ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي فقال ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني فقالت اجعل بيني وبينك أمرا تعرف فيه الحق أئت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه فإن بطش باللؤلؤتين

واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل وان تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل فقرب إليه فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده فقالت المرأة ألا ترى فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به وكان الله بالعافية أمره فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الإمتناع فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر اسرائيلي فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضبا شديدا لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم ما لم يطلع عليه غيره فوكز موسى الفرعوني فقتله وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي فقال موسى حين قتل الرجل هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ثم قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين فأصبح في المدينة خائفا يترقب الأخبار فأتى فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فقال ابغوني قاتله من يشهد عليه فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا ينبغي له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت

فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلا من آل فرعون آخر فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم إنك لغوي مبين فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال فإذا هو غضبان كغضبه بالامس الذي قتل فيه الفرعوني فخاف ان يكون بعد ما قال له إنك لغوي مبين أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني فخاف الإسرائيلي وقال موسى أتريد أن تقتلني كما

(231/295)

قتلت نفسا بالأمس وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول اتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره وذلك من الفتون يا ابن جبير فخرج موسى متوجها نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن

ظنه بربه عز و جل فإنه قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان يعني بذلك حابستين غنمهما فقال لهما ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس قالتا ليس لنا قوة تزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغرف من الدلو ماء كثيرا حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما وانصرف موسى فاستظل بشجرة وقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلا بطانا فقال إن لكما اليوم لشأنا فاخبرتاه بما

(232/295)

صنع موسى فأمر احداهما أن تدعوه فأتت موسى فدعته فلما كلمه قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا قومه علينا من سلطان ولسنا في مملكته فقالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين فاحتملته الغيرة على أن قال لها ما يدريك ما قوته وما أمانته فقالت أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلا قط أقوى في ذلك السقي منه وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ثم قال لي امشي خلفي وانعتي لي

الطريق فلم يفعل هذا إلا وهو أمين فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت فقال له هل لك أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة وكانت السنتان عدة منه فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرا قال سعيد هو ابن جبير فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال هل تدري اي الأجلين قضى موسى قلت لا وأنا يومئذ لا أدري فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له فقال أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة لم يكن نبي الله لينقص منها شيئا وتعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التي وعده فإنه قضى عشر سنين فلقيت النصراني فأخبرته ذلك فقال الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك قلت أجل وأولى فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصي ويده ما قص الله عليك في القرآن فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون ويكون له ردأ ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فأتاه الله عز و جل وحل عقدة من لسانه وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون فانطلقا جميعا إلى فرعون فأقاما على بابه حينا لا يؤذن لهما ثم اذن لهما

بعد حجاب شديد فقالا إنا رسولا ربك فقال فمن ربكما فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن قال فما تريدان وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت قال أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل فأبى عليه وقال أئت بآية إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون فلما رأى فرعون قاصدة إليه خافها واقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص ثم ردها فعادت إلى لونها الأول فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب وقالوا له إجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متغالم فلما أتوا فرعون قالوا بم يعمل السحر قالوا يعمل بالحيات قالوا فلا والله ما أحد من الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصى الذي نعمل وما أجرنا إن نحن غلبنا قال لهم أنتم أقاربي وخاصتي وأنا صانع

إليكم كل شيء أحببتم فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى قال سعيد فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الامر لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين يعنون موسى وهارون استهزاء بهما فقالوا يا موسى بعد تريثهم بسحرهم إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين قال بل ألقوا فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألق عصاك فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جرزا على الثعبان أن تدخل فيه حتى ما أبقت عصا ولا حبلا إلا ابتلعته فلما عرف السحرة ذلك قالوا لو كان هذا سحرا لم تبلغ من سحرنا كل هذا ولكنه أمر من الله تعالى آمنا بالله وبما جاء به موسى ونتوب إلى الله مما كنا عليه فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو لله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهمها لموسى فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا مضت أخلف من غده وقال هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم

آيات مفصلات كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده حتى أمر موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن

معه ثم التقى على من بقي بعد من فرعون وأشياعه فنسي موسى ان يضرب البحر بالعصي وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله عز وجل فلما تراءء الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى إنا لمدركون إفعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب قال وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا اوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى قال اصحابه إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه فدعا ربه فأخرجه

له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى فأنزلهم موسى منزلا

(236/295)

وقال أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم فإني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم فيها فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم فتناول موسى شيئا من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه حين أتاه لم أفطرت وهو أعلم بالذي كان قال يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح قال أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك إرجع فصم عشرا ثم ائتني ففعل موسى ما أمره به ربه فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك وكان هارون قد خطبهم فقال إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع ولكم فيها مثل ذلك وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم ولا احل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ولسنا برادين إليهم شيئا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا فحفر حفيرا وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك

الحفير ثم أوقد عليه النار فأحرقه فقال لا يكون لنا ولا لهم وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا فقضى له أن رأى أثرا فقبض منه قبضة فمر بهارون فقال له هارون يا سامري إلا تلقي ما في يديك وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد فألقاها ودعا له هارون فقال أريد أن تكون عجلا فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد فصار عجلا أجوف ليس فيه روح له خوار قال ابن عباس لا والله ما كان فيه صوت قط إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك فتفرق بنو إسرائيل فرقا فقالت فرقة يا سامري ما هذا وأنت أعلم به قال هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق وقالت فرقة لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى فإن كان ربنا لم نكن

(237/295)

ضيعناه وعجزنا فيه حتى رأيناه وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى وقالت فرقة هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق واشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال

السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به فقال لهم هارون عليه السلام يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن ليس هذا قالوا فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا هذه أربعون يوما قد مضت قال سفهاؤهم أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه فلما كلم الله موسى وقال له ما قال أصبره بما لقي قومه من بعده فرجع إلى قومه غضبان أسفا فقال لهم ما سمعتم ما في القرآن وأخذ برأس اخيه يجره إليه وألقى الألواح من الغضب ثم إنه عذر اخاه بعذره واستغفر له فانصرف إلى السامري فقال له ما حملك على ما صنعت قال قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة واغتبط

(238/295)

الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون فقالوا لجماعتهم يا موسى سل لنا أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا ما عملنا فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك لا يألوا الخير خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في الحق فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبي

الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال لو شئت لأهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمان به فلذلك رجفت بهم الأرض فقال رحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فقال يا رب سألتك التوبة لقومي فقلت إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم فقال له إن توبتهم أن يقتل كل رجل من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف لا يبالي من قتل في ذلك الموطن وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون وأطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها ونتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم وأخذوا الكتاب بايمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر وذكر من ثمارهم أمرا عجبا من عظمها فقالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم ولا ندخلها ما داموا فيها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون قال

رجلان من الذين يخافون قيل ليزيد هكذا قراه قال نعم من الجبارين آمنا بموسى وخرجنا إليه فقالوا نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما

(239/295)

تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ويقول اناس إنهم من قوم موسى فقال الذين يخافون من بني إسرائيل قالوا يا موسى إنا لن ندخلها ابدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون فأغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله لهم وسماهم كما سماهم فاسقين فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ثم ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من محله إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذي كان فيه بالأمس رفع ابن عباس هذا الحديث إلى

النبي صلى الله عليه و سلم وصدق ذلك عندي ان معاوية سمع ابن عباس هذا الحديث فأنكر عليه ان يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى امر القتيل الذي

قتل فقال كيف يفشي عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك فغضب ابن عباس فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري فقال له يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون الإسرائيلي الذي أفشى عليه ام الفرعوني قال إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون والأشبه والله أعلم أنه موقوف وكونه مرفوعا فيه نظر وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام وفي بعض ما فيه نظر ونكارة والأغلب أنه كلام كعب الأحبار وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك والله أعلم

بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشار وجلود الانعام وشعر الأغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند اهل الكتاب ولها عشر سرادقات طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعا وعرضه أربعة أذرع ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره وبعمل تابوت من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين ونصفا وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعا ونصفا ويكون مضببا بذهب خالص من داخله وخارجه وله أربع حلق في اربع زواياه ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان صفة رجل اسمه بصليال وأمراه أن يعمل مائدة من خشب الشمشار طولها ذراعا وعرضها ذراع ونصف لها ضباب ذهب واكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب وأربع حلق من نواحيها من ذهب معذرة في مثل الرمان من خشب ملبس ذهبا واعمل صحافا ومصافي وقصاعا على المائدة واصنع منارة من الذهب دلى فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاثة على كل قصبة ثلاث سرج وليكن في المنارة أربع قناديل ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب صنع ذلك بصليال أيضا وهو الذي عمل المذبح أيضا ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم وهو أول يوم من الربيع ونصب تابوت

الشهادة وهو والله أعلم المذكور في قوله تعالى إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولا جدا وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم وكيفيته وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيء بيت المقدس وأنها كانت لهم كالكعبة

(242/295)

يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها وينزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجدا لله عز وجل ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبين فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهي وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء يجيء إلى قبة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة وقد كان هذا مشروعا لهم في زمانهم أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلىء في معبدهم وعند مصلاهم فأما في شريعتنا فلا بل قد نهينا عن

زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسع في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم للذي وكله على عمارته ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس وقال ابن عباس لنزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم إذ جمع الله هممهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه وصان أبصارهم وخواطرهم عن الإشتغال والتفكر في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة فلله الحمد والمنة وقد كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه يصلون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمرت بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام وهو الذي دخل بهم بيت المقدس كما سيأتي بيانه والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس

(243/295)

فكانوا يصلون إليها فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله صلى الله عليه و سلم وقد صلى إليها رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل الهجرة وكان يجعل الكعبة بين يديه فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشر وقيل سبعة عشر شهرا ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر وقيل الظهر كما بسطنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها إلى قوله قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 237. 308﴾

(244/295)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين ما للمفسدين من كونهم قالوا على الله غير الحق فلا يغفر لهم ، بين ما للصالحين

المذكورين في قوله ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : 159] فقال عاطفاً على تقديره : أولئك حبطت أعمالهم فيما درسوا من الكتاب ، ولا يغفر لهم ما أتوا من الفساد : ﴿ والذين يمسكون ﴾ أي يمسكون إمساكاً شديداً يتجدد على كل وجه الاستمرار ، وهو إشارة إلى إن التمسك بالسنة في غاية الصعوبة لا سيما عند ظهور الفساد ﴿ بالكتاب ﴾ أي فلا يقولون على الله إلا الحق ، ومن جملة تمسيكهم المتجدد انتقالهم عن ذلك الكتاب عند إتيان الناسخ لأنه ناطق بذلك – والله الموفق .

ولما كان من تمسيكهم بالكتاب عند نزول هذا الكلام انتقالهم عن دينهم إلى الإسلام كما وقع الأمر به في المواضع التي تقدم بيانها ، عبر عن إقامة الصلاة المعهودة لهم بلفظ الماضي دون المضارع لئلا يجعلوه حجة في الثبات على دينهم .

فيفيد ضد المراد فقال : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وخصها إشارة إلى أن الأولين تركوها كما صرح به في آية مريم ، وتنويهاً بشأنها بياناً لأنها من أعظم شعائر الدين ، ولما كان التقدير إخباراً عن المبتدإ : سنؤتيهم أجورهم لإصلاحهم ، وضع موضعه للتعميم قوله : ﴿ إنا لا نضيع ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ أجر المصلحين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 146 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ والذين يُمَسّكُونَ بالكتاب ﴾ يقال مسكت بالشيء وتمسكت به واستمسكت به وامتسكت به ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ يُمَسِّكُونَ ﴾ مخففة والباقون بالتشديد .

أما حجة عاصم فقوله تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة : 229] وقوله : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب : 37] وقوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : 4] قال الواحدي : والتشديد أقوى ، لأن التشديد للكثرة وههنا أريد به الكثرة ، ولأنه يقال : أمسكته ، وقلما يقال أمسكت به .

إذا عرفت هذا فنقول : في قوله : ﴿ والذين يُمَسّكُونَ بالكتاب ﴾ قولان :

القول الأول : أن يكون مرفوعاً بالابتداء وخبره ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ والمعنى : إنا لا نضيع أجرهم وهو كقوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 30] وهذا الوجه حسن لأنه لما ذكر وعيد من ترك التمسك بالكتاب أردفه بوعد من تمسك به .

والقول الثاني : أن يكون مجروراً عطفاً على قوله : ﴿ الذين يَتَّقُونَ ﴾ ويكون قوله : ﴿ إِنَّا لاَ

نُضِيعُ ﴾ زيادة مذكورة لتأكيد ما قبله .

فإن قيل : التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ، ومنها إقامة الصلاة فكيف أفردت بالذكر ؟

قلنا : إظهاراً لعلو مرتبة الصلاة ، وأنها أعظم العبادات بعد الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 37.38 ﴾

(246/295)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ والذين يُمَسّكُونَ بالكتاب ﴾

يعني : يعملون بالتوراة ولا يغيرونها عن مواضعها ﴿ والذين يُمَسّكُونَ ﴾ يعني : أتموا الصلاة المفروضة ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ يعني : عمل الموحدين وهم الذين يمسكون بالكتاب ، وأقاموا الصلاة .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ يُمَسّكُونَ ﴾ بالتخفيف .

وقرأ الباقون ﴿ يُمَسّكُونَ ﴾ بالتشديد على معنى المبالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب ﴾

قرأ عمر بن الخطاب وأبو العالية وعاصم ورواية أبي بكر بسكون خفيفة . وقرأ الباقون بسكون التشديد .

قال أبو عبيد وأبو حاتم : لأنه يقال تمسكت بالشيء ولا يقال أمسكت بالشيء : إنما يقال أمسكته ويدل عليه قراءة أُبي ابن كعب (والذين مسكوا الكتاب) على الماضي وهو جيد لقوله : (وأقاموا الصلاة) إذ قال ما يعطف (من) على مستقبل إلاّ في المعنى .

وقرأ الأعمش : (والذين استمسكوا بالكتاب) ومعنى الآية : وأن يعملوا بما في كتاب الله

قال مجاهد وابن زيد : هم من اليهود والنصارى الذين يمسكون بالكتاب الذي جاء به موسى فلا يحرفونه ولا يكتمونه أحلّوا حلاله وحرموا حرامه ولم يتخذوه [ما كُلُّهُ نَزَل] في عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقال عطاء : فيهم أنّه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاةِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ والذين ﴾ عطف على قوله : ﴿ للذين يتقون ﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وأبو عمرو والناس : "يَمَسّكون" بفتح الميم وشد السين وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأبو العالية وعاصم وحده في رواية أبي بكر . "يمْسِكون" بسكون الميم وتخفيف السين ، وكلهم خفف ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ [الممتحنة : 10] إلا أبا عمرو فإنه قرأ : "ولا تمَسّكوا" بفتح الميم وشد السين ، وقرأ الأعمش "والذين استمسكوا" وفي حرف أبيّ "والذين مسكوا" يقال أمسك ومسك وهما لغتان بمعنى واحد ، قال كعب بن زهير : [البسيط]

فما تمسك بالعهد الذي زعمت . . . إلا كما تمسك الماء الغرابيل

أما أن شد السين يجري مع التعدي بالباء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(248/295)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والذين يُمسّكون بالكتاب ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : ﴿ يمسِّكون

﴿ مشددة ، وقرؤوا : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ مخففة [الممتحنة : 10]

وقرأهما أبو عمرو بالتشديد .

وروى أبو بكر عن عاصم أنه خففهما .

ويقال : مسّكتُ بالشيء ، وتمسّكت به ، واستمسكت به ، وامتسكت به .

وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يُحرِّفوه ، منهم [عبد الله] بن سلام واصحابه .

قال ابن الأنباري : وخبر "الذين" : "إنا" وما بعده ، وله ضمير مقدر بعد "المصلحين" تأويله : والذين يمسّكون بالكتاب إنا لا نضيع أجر المصلحين منهم ، ولهذه العلة وَعَدَهُم حفظَ الأجر بشرطٍ ، إذ كان منهم من لم يصلح .

قال : وقال بعض النحويين : المصلحون يرجعون على الذين ، وتلخيص المعنى عنده : والذين يمسِّكون بالكتاب ، وأقاموا الصلاة ، إنا لا نضيع أجرهم ، فأظهرت كنايتهم بالمصلحين ، كما يقال : عليٌّ لقيتُ الكسائي ، وأبو سعيد رويت عن الخدري ، يراد لقيتُهُ ورويت عنه .

قال الشاعر :

فيا رَبَّ لَيلى أَنْتَ في كُلِّ مَوطِنٍ . . .

وَأَنْتَ الذي في رَحْمِةِ الله أَطْمَعُ

أراد في رحمته ، فأظهر ضمير الهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب ﴾

أي بالتوراة ، أي بالعمل بها ؛ يقال : مسك به وتمسك به أي استمسك به .

وقرأ أبو العالِية وعاصم في رواية أبي بكر "يُمْسِكُونَ" بالتخفيف من أمسك يمسك .

والقراءة الأُولى أوْلى ؛ لأن فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى وبدينه

فبذلك يُمدحون .

فالتمسك بكتاب الله والدِّين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك .

وقال كعب بن زهير :

فما تَمسّكُ بالعهد الذي زعمتْ . . .

إلاّ كما تُمسك الماءَ الغرابيلُ

فجاء به على طبعه يذمّ بكثرة نقض العهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ

﴾

(249/295)

وقال الخازن :

﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾

يقال مسكت بالشيء وتمسكت به واستمسكت به وأمسكت به والمراد بالتمسك بالكتاب العمل بما فيه من إحلال حلاله وتحريم حرامه وإقامة حدوده والتمسك بأحكامه .

نزلت هذه الآية في الذين أسلموا من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه لأنهم تمسكوا بالكتاب الأول ولم يحرفوه ولم يغيروه فأداهم ذلك المسك إلى الإيمان بالكتاب الثاني وهو القرآن ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ يعني وداوموا على إقامتها في مواقيتها وإنما أفردها بالذكر وإن كانت الصلاة داخلة في التمسك بالكتاب تنبيهاً على عظم قدرها وأنها من أعظم العبادات بعد الإيمان بالله وبرسوله ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(250/295)

وقال أبو حيان :

﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحِين ﴾ .

الظاهر أنّ الكتاب هو السابق ذكره في ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ فيجيء الخلاف فيه كالخلاف في ذلك وهو مبني على المراد في قوله ﴿ خلف ورثوا ﴾ ، وقيل : الكتاب هنا للجنس أي الكتب الإلهية والتمسّك بالكتاب يستلزم إقامة الصلاة لكنها أفردت بالذكر تعظيماً لشأنها لأنها عماد الدين بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة ، وقرأ عمر وأبو العالية وأبو بكر عن عاصم ﴿ يمسكون ﴾ من أمسك والجمهور ﴿ يمسكون ﴾ مشدّداً من مسك وهما لغتان جمع بينهما كعب بن زهير فقال :

فما تمسّك بالعهد الذي زعمت . . .

إلا كما يمسك الماء الغرابيل

(251/295)

وأمسك متعدّ قال : ﴿ ويمسك السماء أن تقع عَلى الأرض ﴾ فالمفعول هنا محذوف أي يمسكون أعمالهم أي يضبطونها والباء على هذا تحتمل الحالية والآلة ومسك مشدد بمعنى تمسّك والباء معها للآلة وفعل تأتّي بمعنى تفعل نصّ عليه التصريفيون ، وقرأ عبد الله والأعمش : استمسكوا وفي حرف أبي تمسكوا بالكتاب والظاهر أن قوله ﴿ والذين ﴾ استئناف إخبار لما ذكر حال من لم يتمسك بالكتاب ذكر حال من استمسك به فيكون

والذين على هذا مرفوعاً بالابتداء وخبره الجملة بعده كقوله ﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ إذا جعلنا الرابط هو في من أحسن عملاً وهو العموم كذلك هذا يكون الرابط هو العموم في ﴿ المصلحين ﴾ ، وقال الحوفي وأبو البقاء : الرابط محذوف تقديره أجر المصلحين اعتراض والتقدير مأجورون أو نأجرهم انتهى ، ولا ضرورة إلى ادعاء الحذف وأجاز أبو البقاء أن يكون الرّابط هو ﴿ المصلحين ﴾ وضعه موضع المضمر أي لا نضيع أجرهم انتهى ، وهذا على مذهب الأخفش حيث أجاز الرابط بالظاهر إذا كان هو المبتدأ فأجاز زيد قام أبو عمرو إذا كان أبو عمرو وكنية زيد كأنه قال : زيد أي هو وأجاز الزمخشري أن يكون ﴿ والذين ﴾ في موضع جرّ عطفاً على ﴿ الذين يتّقون ﴾ ولم يذكر ابن عطية غيره والاستئناف هو الظاهر كما قلنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(252/295)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين يُمَسّكُونَ بالكتاب ﴾

أي يتمسكون في أمور دينهم ، يقال : مسَك بالشيء وتمسّك به . قال مجاهد : هم الذين

آمنوا من أهل الكتاب كعبد اللَّه بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام فلم يحرّفوه ولم يكتُموه ولم يتخذوه مأكلةً ، وقال عطاء : هم أمةُ محمد عليه الصلاة والسلام وقرىء يُمْسِكون من الإمساك وقرىء تمسّكون واستمسكوا موافقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ ﴾ ولعل التغييرَ في المشهورة للدلالة على أن التمسّك بالكتاب أمرٌ مستمرٌ في جميع الأزمنة بخلاف إقامةِ الصلاة فإنها مختصةٌ بأوقاتها ، وتخصيصُها بالذكر من بين سائر العبادات لإنافتها عليها ، ومحلُّ الموصولِ إما الجرُّ نسقاً على الذين يتقون وقولُه : أفلا تعقلون اعتراضٌ مقرر لما قبله وإما الرفعُ على الابتداء والخبر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ والرابطُ إما الضميرُ المحذوفُ كما هو رأيُ جمهورِ البصْريين ، والتقديرُ أجرُ المصلحين منهم ، وإما الألفُ واللامُ كما هو رأيُ الكوفيين فإنه في حكم مُصلحيهم كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ أي مأواهم وقوله تعالى : ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب ﴾ أي أبوابُها ، وإما العمومُ في مصلحين فإنه من الروابط ، ومنه نعم الرجلُ زيدٌ على أحد الوجوه . وقيل : الخبرُ محذوفٌ والتقديرُ : والذين يمسّكون بالكتاب مأجورون أو مثابرون وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ ﴾ الخ ، اعتراضٌ مقرر لما قبله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾

أي يتمسكون به في أمور دينهم يقال : مسك بالشيء وتمسك به بمعنى ، قال مجاهد . وابن زيد : هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة وقال عطاء : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمراد من الكتاب القرآن الجليل الشأن ، وقرأ أبو بكر . وحم ﴿ يُمَسِّكُونَ ﴾ التخفيف من الإمساك ، وابن مسعود ﴿ استمسكوا ﴾ ، وأبي ﴿ مسكوا ﴾ وفي ذلك موافقة لقوله تعالى : ﴿ بالكتاب وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ ولعل التغيير في المشهور للدلالة على أن التمسك أمر مستمر في جميع الأزمنة بخلاف الإقامة فإنها مختصة بالأوقات المخصوصة ، وتخصيصها بالذكر من بين سائر العبادات مع دخولها بالتمسك بالكتاب لانافتها عليها لأنها عماد الدين ، ومحل الموصول إما الجر عطفاً على ﴿ للذين يتقون ﴾ [الأعراف : 169] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف : 169] اعتراض مقرر لما قبله ، والاعتراض قد يقرن بالفاء كقوله :

فاعلم فعلم المرء ينفعه . . .

أن سوف يأتي كل ما قدرا

وإما الرفع على الابتداء والخبر قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ والرابط إما الضمير المحذوف كما هو رأي جمهور البصريين أي أجر المصلحين منهم وإما الألف واللام كما هو رأي الكوفيين فإنها كالعوض عن الضمير فكأنه قيل مصلحيهم ، وأما العموم في المصلحين فإنه على المشهور من الروابط ومنه نعم الرجل زيد على أحد الأوجه أو وضع الظاهر موضع المضمر بناء على أن الأصل لا نضيع أجرهم إلا أنه غير لما ذكر تنبيهاً على أن الصلاح كالمانع من التضييع لأن التعليق بالمشتق يفيد علية مأخذ الاشتقاق فكأنه قيل : لا نضيع أجرهم لصلاحهم .

(254/295)

وقيل : الخبر محذوف والتقدير والذين يمسكون بالكتاب مأجورون أو مثابون ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ ﴾ الخ حينئذ اعتراض مقرر لما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(255/295)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا ، وَلَا أَعْلَمُ لِلْقِصَّةِ ذِكْرًا مِنْ كُتُبِ الْيَهُودِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَهُمْ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَبَهَتُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمَدِينَةِ عِنْدَمَا نَزَلَ عَلَيْهِ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَوْ لَمَا آمَنَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ عُلَمَائِهِمْ إذَا كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ مَا حُكِيَ لَهُمْ عَنِ اللهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَهُ مُؤَكَّدًا بِلَامِ الْقَسَمِ ، وَإِذَا قَالَ غَيْرُ الْمُسْلِمِ الْمُؤْمِنِ إنَّهُ اطَّلَعَ عَلَى الْقِصَّةِ فِي بَعْضِ كُتُبِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ أَوِ التَّارِيخِيَّةِ غَيْرِ الْمُقَدَّسَةِ أَوْ سَمِعَهُ مِنْ بَعْضِهِمْ قُلْنَا أَوَّلًا : إنَّ آيَاتِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ هَذِهِ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ فِي أَوَائِلِ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَقِيَ أَحَدًا مِنَ الْيَهُودِ - وَمِنَ الْمَعْلُومِ قَطْعًا أَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا لَمْ يَقْرَأِ الْكُتُبَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (29 : 48) إلَخْ . وَثَانِيًا : إنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَكُنْ يُصَدِّقُهُمْ بَعْدَ مُعَاشَرَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ بِكُلِّ مَا يَحْكُونَ عَنْ كُتُبِهِمْ بَلْ كَذَّبَهُمْ عَنِ اللهِ

(256/295)

تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ يُصَدِّقُهُمْ فِي كُلِّ مَا يَقُولُونَ غَيْرَ مَنْقُولٍ عَنْ كُتُبِهِمْ بِالْأَوْلَى ، وَهَاكَ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ بِمَدْلُولِ أَلْفَاظِهَا ، وَلَا نَعْتَمِدُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ فِيهَا : .

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالسُّؤَالُ فِيهِ لِلتَّقْرِيرِ الْمُتَضَمِّنِ لِلتَّقْرِيعِ ، وَالْإِدْلَالِ بِعِلْمِ مَاضِيهِمْ . وَالْمَعْنَى : وَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ أَيْ قَرِيبَةً مِنْهُ ، رَاكِبَةً لِشَاطِئِهِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ أَيِ اسْأَلْ عَنْ حَالِهِمْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانُوا يَعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ ، وَيَتَجَاوَزُونَ حُكْمَ اللَّهِ بِالصَّيْدِ الْمُحَرَّمِ عَلَيْهِمْ فِيهِ إِذْ تَأْتِيهِمْ أَيْ سَمَكُهُمْ - وَلَا يَزَالُ أَهْلُ الْحِجَازِ يُسَمُّونَ السَّمَكَةَ حُوتًا

(257/295)

كَبِيرَةً كَانَتْ أَوْ صَغِيرَةً ، وَأَهْلُ سُورِيَّةَ يَخُصُّونَ السَّمَكَةَ الْكَبِيرَةَ بِاسْمِ الْحُوتِ - وَقَدْ أُضِيفَتِ الْحِيتَانُ إِلَيْهِمْ لَمَّا كَانَ مِنِ ابْتِلَائِهِمْ بِهَا ، وَاحْتِيَالِهِمْ عَلَى صَيْدِهَا ، وَكَانَتْ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ أَيْ تَعْظِيمِهِمْ لِلسَّبْتِ ، فَهُوَ مُصْدَرُ سَبَتَتِ الْيَهُودُ تَسْبُتُ إِذَا عَظَّمَتِ السَّبْتَ بِتَرْكِ الْعَمَلِ فِيهِ وَتَخْصِيصِهِ لِلْعِبَادَةِ (شُرَّعًا) أَيْ ظَاهِرَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ ظَاهِرَةً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ - وَهِيَ جَمْعُ شَارِعٍ كَالرُّكَّعِ السُّجَّدِ جَمْعِ

الرَّاكِعِ وَالسَّاجِدِ ، مِنْ شَرَعَ عَلَيْهِ إِذَا دَنَا وَأَشْرَفَ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ أَيْ : وَلَا تَأْتِيهِمْ يَوْمَ لَا يُعَظِّمُونَ السَّبْتَ فِعْلًا وَتَرْكًا . قِيلَ : إِنَّهَا اعْتَادَتْ أَلَّا يَتَعَرَّضَ أَحَدٌ لِصَيْدِهَا يَوْمَ السَّبْتِ ، فَأَمِنَتْ وَصَارَتْ تَظْهَرُ فِيهِ ، وَتَخْفَى فِي الْأَيَّامِ الَّتِي لَا يَسْبِتُونَ فِيهَا لَمَّا اعْتَادَتْ مِنِ اصْطِيَادِهَا فِيهَا ، فَلَمَّا رَأَوْا ظُهُورَهَا وَكَثْرَتَهَا فِي يَوْمِ السَّبْتِ أَغْرَاهُمْ ذَلِكَ بِالِاحْتِيَالِ عَلَى صَيْدِهَا فَفَعَلُوا .

كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أَيْ : مِثْلُ هَذَا الْبَلَاءِ بِظُهُورِ السَّمَكِ لَهُمْ نَبْلُوهُمْ أَيْ نَخْتَبِرُهُمْ أَوْ نُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْمُخْتَبِرِ لِحَالِ مَنْ يُرِيدُ إِظْهَارَ كُنْهِ حَالِهِ لِيَتَرَتَّبَ الْجَزَاءُ عَلَى عَمَلِهِ بِسَبَبِ فِسْقِهِمُ الْمُسْتَمِرِّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَاعْتِدَائِهِمْ حُدُودَ شَرْعِهِ .

(258/295)

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أَيْ : وَاسْأَلْهُمْ عَنْ حَالِ أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي قَالَتْ أُمَّةٌ وَجَمَاعَةٌ مِنْهُمْ كَيْتَ وَكَيْتَ تَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ بَعْضُ أَهْلِ الْقَرْيَةِ لَا كُلُّهُمْ ، وَأَنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ ، فِرْقَةُ الْعَادِينَ الَّتِي أُشِيرُ إِلَيْهَا فِي الْآيَةِ الْأُولَى ، وَفِرْقَةُ الْوَاعِظِينَ الَّذِينَ نَهَوُا الْعَادِينَ عَنِ الْعُدْوَانِ وَوَعَظُوهُمْ لِيَكُفُّوا عَنْهُ ، وَهِيَ الَّتِي أُشِيرُ إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَفِرْقَةُ اللَّائِمِينَ

لِلْوَاعِظِينَ الَّتِي قَالَتْ لَهُمْ : لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا قَضَى اللهُ عَلَيْهِمْ بِالْهَلَكَةِ أَوِ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ، فَهُوَ إِمَّا مُهْلِكُهُمْ بِالِاسْتِئْصَالِ أَوْ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ دُونَ الِاسْتِئْصَالِ ، أَوِ الْمَعْنَى مُهْلِكُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَمُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ – وَأَيًّا مَا كَانَ الْمُرَادُ فِي (أَوْ) هُنَا هِيَ الْمَانِعَةُ لِلْخُلُوِّ مِنْ وُقُوعِ أَحَدِ الْجَزَاءَيْنِ ، لَا الْمَانِعَةُ لِجَمْعِهِمَا ، فَهِيَ لَا تَنْفِي اجْتِمَاعَهُمَا . وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْإِيجَازِ الْبَلِيغِ مَا لَا يُوجَدُ نَظِيرُهُ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ .

قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَيْ : قَالَ الْوَاعِظُونَ لِلَائِمِينَ : نَعِظُهُمْ وَعْظَ عُذْرٍ

(259/295)

نَعْتَذِرُ بِهِ إِلَى رَبِّكُمْ عَنِ السُّكُوتِ عَلَى الْمُنْكَرِ ، وَقَدْ أَمَرَنَا بِالتَّنَاهِي عَنْهُ ، وَرَجَاءً فِي انْتِفَاعِهِمْ بِالْمَوْعِظَةِ ، وَحَمْلِهَا عَلَى اتِّقَاءِ الِاعْتِدَاءِ الَّذِي اقْتَرَفُوهُ . أَيْ فَنَحْنُ لَمْ نَيْأَسْ مِنْ رُجُوعِهِمْ إِلَى الْحَقِّ يَأْسَكُمْ .

(260/295)

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَيْ فَلَمَّا نَسِيَ الْعَادُونَ الْمُذْنِبُونَ ، مَا ذَكَّرَهُمْ وَوَعَظَهُمْ بِهِ إِخْوَانُهُمُ الْمُتَّقُونَ ، بِأَنْ تَرَكُوهُ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ حَتَّى صَارَ كَالْمَنْسِيِّ فِي كَوْنِهِ لَا تَأْثِيرَ لَهُ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ أَيْ عَنِ الْعَمَلِ الَّذِي تَسُوءُ عَاقِبَتُهُ أَيْ : أَنْجَيْنَاهُمْ مِنَ الْعِقَابِ الَّذِي اسْتَحَقَّهُ فَاعِلُو السُّوءِ بِظُلْمِهِمْ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَحْدَهُمْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ أَيْ : شَدِيدٍ ، مِنَ الْبَأْسِ وَهُوَ الشِّدَّةُ ، أَوِ الْبُؤْسِ وَهُوَ الْمَكْرُوهُ أَوِ الْفَقْرُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أَيْ بِسَبَبِ فِسْقِهِمُ الْمُسْتَمِرِّ لَا بِظُلْمِهِمْ فِي الِاعْتِدَاءِ فِي السَّبْتِ فَقَطْ . وَذَلِكَ أَنَّ وَصْفَهُمْ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا تَعْلِيلٌ لِأَخْذِهِمْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ، عَلَى قَاعِدَةِ كَوْنِ بِنَاءِ الْحُكْمِ أَوِ الْجَزَاءِ عَلَى الْمُشْتَقِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُشْتَقَّ مِنْهُ عِلَّةٌ لَهُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُؤَاخِذُ كُلَّ ظَالِمٍ فِي الدُّنْيَا بِكُلِّ ظُلْمٍ يَقَعُ مِنْهُ ، وَلَوْ كَانَ قَلِيلًا فِي الصِّفَةِ أَوِ الْعَدَدِ ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْكَيْفِ أَوِ الْكَمِّ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ (35 : 45) وَقَوْلِهِ : وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَإِنَّمَا يُؤَاخِذُ الْأُمَمَ وَالشُّعُوبَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ بِالظُّلْمِ وَالذُّنُوبِ الَّتِي يَظْهَرُ أَثَرُهَا فِيهَا بِالْإِصْرَارِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَيْهَا ، وَهُوَ مَا أَفَادَهُ هُنَا فِي هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ قَوْلُهُ تَعَالَى : بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِنَّمَا يَكُونُ

الْعِقَابُ عَلَى بَعْضِ الذُّنُوبِ دُونَ بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا خَاصًّا بِالْأَفْرَادِ أَوِالْجَمَّاعَاتِ الصَّغِيرَةِ مِنَ الْمُذْنِبِينَ كَأَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ كَانُوا بَعْضَ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْ أُمَّةٍ كَبِيرَةٍ ، وَأَمَّا الْأُمَمُ الْكَبِيرَةُ فَهِيَ الَّتِي تَصْدُقُ عَلَيْهَا سُنَنُ اللهِ فِي عِقَابِ الْأُمَمِ إذَا غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْفِسْقُ وَالظُّلْمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً (8 : 25) إلَّا أَنْ يُقَالَ إنَّ الْفَاسِقِينَ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ كَانُوا أَقَلَّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْآخَرَيْنِ ، وَقَدْ عَاقَبَ اللهُ بَنِي إسْرَائِيلَ كَافَّةً بِتَنْكِيلِ الْبَابِلِيِّينَ ثُمَّ النَّصَارَى بِهِمْ وَسَلْبِهِمْ مُلْكَهُمْ ، عِنْدَمَا عَمَّ فِسْقُهُمْ ، وَلَمْ يَدْفَعْ ذَلِكَ عَنْهُمْ وُجُودُ بَعْضِ الصَّالِحِينَ فِيهِمْ ، إذْ لَمْ يَكُونُوا يَخْلُونَ مِنْهُمْ : .

(262/295)

وَالْآيَةُ نَاطِقَةٌ بِهَلَاكِ الظَّالِمِينَ الْفَاسِقِينَ ، وَنَجَاةِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ نَهَوْهُمْ عَنْ عَمَلِ السُّوءِ وَارْتِكَابِ الْمُنْكَرِ ، وَسَكَتَتْ عَنِ الْفِرْقَةِ الَّتِي أَنْكَرَتْ عَلَى الْوَاعِظِينَ وَعْظَهُمْ وَإِنْكَارَهُمْ ، فَقِيلَ : إنَّهَا لَمْ تَنْجُ ; لِأَنَّهَا لَمْ تَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ بَلْ أَنْكَرَتْ عَلَى الَّذِينَ نَهَوْا ، وَقِيلَ : بَلْ نَجَتْ ; لِأَنَّهَا كَانَتْ مُنْكِرَةً لِلْمُنْكَرِ مُسْتَقْبِحَةً لَهُ . وَلِذَلِكَ لَمْ تَفْعَلْهُ ، وَإِنَّمَا لَمْ تَنْهَ عَنْهُ لِيَأْسِهَا مِنْ فَائِدَةِ النَّهْيِ ، وَجَزْمِهَا بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدِ اسْتَحَقُّوا عِقَابَ اللهِ بِإِصْرَارِهِمْ فَلَا يُفِيدُهُمُ الْوَعْظُ ، وَرُوِيَ

هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ كَمَا رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مُتَرَدِّدًا فِي هَذِهِ الْفِرْقَةِ حَتَّى أَقْنَعَهُ تِلْمِيذُهُ عِكْرِمَةُ بِنَجَاتِهَا . وَقَدْ رَجَّحَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُ هَذَا قَالَ : .

(263/295)

(فَإِنْ قُلْتَ) : الْأُمَّةُ الَّذِينَ قَالُوا : لِمَ تَعِظُونَ ؟ مَنْ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ هُمْ ؟ أَمِنْ فَرِيقِ النَّاجِينَ أَمِ الْمُعَذَّبِينَ ؟ (قُلْتُ) : مِنْ فَرِيقِ النَّاجِينَ ; لِأَنَّهُمْ مِنْ فَرِيقِ النَّاهِينَ ، وَمَا قَالُوا مَا قَالُوا إِلَّا سَائِلِينَ عَنْ عِلَّةِ الْوَعْظِ وَالْغَرَضِ فِيهِ ، حَيْثُ لَمْ يَرَوْا فِيهِ غَرَضًا صَحِيحًا لِعِلْمِهِمْ بِحَالِ الْقَوْمِ ، وَإِذَا عَلِمَ النَّاهِي حَالَ الْمَنْهِيِّ ، وَأَنَّهُ النَّهْيُ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ ، سَقَطَ عَنْهُ النَّهْيُ ، وَرُبَّمَا وَجَبَ التَّرْكُ لِدُخُولِهِ فِي بَابِ الْعَبَثِ . أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ ذَهَبْتَ إِلَى الْمَكَّاسِينَ الْقَاعِدِينَ عَلَى الْمَآصِرِ ، وَالْجَلَّادِينَ الْمُرَتَّبِينَ لِلتَّعْذِيبِ ، لِتَعِظَهُمْ وَتَكُفَّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، كَانَ ذَلِكَ عَبَثًا مِنْكَ ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَبَبًا لِلتَّلَهِّي بِكَ . وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَإِنَّمَا لَمْ يُعْرِضُوا عَنْهُ إِمَّا ; لِأَنَّ يَأْسَهُمْ لَمْ يَسْتَحْكِمْ كَمَا اسْتَحْكَمَ يَأْسُ الْأَوَّلِينَ ، وَلَمْ يَخْبَرُوهُمْ كَمَا خَبَرُوهُمْ . أَوْ لِفَرْطِ حِصْرِهِمْ ، وَجِدِّهِمْ فِي أَمْرِهِمْ ، كَمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قَوْلِهِ : فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ (18 : 6) اهـ .

(264/295)

أَقُولُ : إِنَّ مَا ذَكَرَهُ مِنْ سُقُوطِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ وُجُوبِ تَرْكِهِ فِي حَالَةِ الْيَأْسِ مِنْ تَأْثِيرٍ مَرْجُوحٍ وَلَا سِيَّمَا إِذَا أَخَذَ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَأْنُ أَضْعَفِ الْإِيمَانِ فِي حَدِيثِ : مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَإِنَّمَا تَكُونُ هَذِهِ الْحَالَةُ أَضْعَفَ الْإِيمَانِ عِنْدَ عَدَمِ اسْتِطَاعَةِ مَا قَبْلَهَا ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ النَّهْيَ ، وَسَكَتَ عَنْهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُذْرٌ مُطْلَقًا ; وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَ فِي هَؤُلَاءِ السَّاكِتِينَ ، الْمُحْتَمِلَةُ حَالُهُمْ لِلْعُذْرِ وَعَدَمِهِ ، وَالْيَأْسُ قَلَّمَا يَنْشَأُ إِلَّا مِنْ ضَعْفٍ فِي النَّفْسِ أَوِ الْإِيمَانِ ، وَكَأَيِّنْ مِنْ مِكَّاسٍ وَجَلَّادٍ وَمُدْمِنِ خَمْرٍ تَابَ وَأَنَابَ ، وَالْمُحَقِّقُونَ لَمْ يَجْعَلُوا احْتِمَالَ الْأَذَى وَلَا يَقِينَهُ مُوجِبًا لِتَرْكِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَا لِتَفْضِيلِهِ عَنِ الْفِعْلِ بَلْ قَالُوا فِي هَذِهِ الْحَالِ بِالْجَوَازِ ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى تَفْضِيلِ النَّهْيِ بِحَدِيثِ أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَغَيْرُهُمْ .

(265/295)

وَفِي (بَئِيسٍ) عِدَّةُ قِرَاءَاتٍ أُخْرَى بَيْنَ مُتَوَاتِرَةٍ وَشَاذَّةٍ ، تَتَخَرَّجُ عَلَى الْخِلَافِ فِي أَصْلِ صِيغَتِهِ ، وَعَلَى لُغَاتِ الْعَرَبِ فِي التَّصَرُّفِ فِي الْمَهْمُوزِ : فَقَرَأَهَا أَبُو بَكْرٍ عَلَى خِلَافٍ عَنْهُ " بَئْيَسٍ " بِوَزْنِ ضَيْغَمٍ - وَابْنُ عَامِرٍ بِكَسْرِ الْبَاءِ وَسُكُونِ الْهَمْزَةِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ أَصْلُهُ بِئْسَ بِوَزْنِ حِذْرٍ فَنُقِلَتْ حَرَكَةُ الْهَمْزَةِ إِلَى الْفَاءِ لِلتَّخْفِيفِ كَكَبِدٍ فِي كِبْدٍ ، وَنَافِعٌ " بِيسٍ " عَلَى قَلْبِ الْهَمْزَةِ يَاءً كَذِئْبٍ وَذِيبٍ أَوْ عَلَى أَنَّهُ فِعْلُ الذَّمِّ وُصِفَ بِهِ فَجُعِلَ اسْمًا ، وَمِنَ الشَّوَاذِّ " بَيِّسٍ " كَرَيِّسٍ عَلَى قَلْبِ الْهَمْزَةِ يَاءً ، وَإِدْغَامِهَا ، وَ " بَيْسٍ " كَهَيْنٍ عَلَى تَخْفِيفِ الْمُشَدَّدَةِ ، وَ " بَائِسٍ " بِوَزْنِ فَاعِلٍ .

فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ أَيْ : فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ عُتُوَّ إِبَاءٍ وَاسْتِكْبَارٍ عَنْ تَرْكِ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ الْوَاعِظُونَ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ هَذَا الْقَوْلُ لِلتَّكْوِينِ ، أَيْ : تَعَلَّقَتْ إِرَادَتُنَا بِأَنْ يَكُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ أَيْ صَاغِرِينَ أَذِلَّاءَ فَكَانُوا كَذَلِكَ .

قِيلَ : إِنَّ هَذَا بَيَانٌ وَتَفْصِيلٌ لِلْعَذَابِ الْبَئِيسِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ، وَقِيلَ هُوَ عَذَابٌ آخَرُ ، وَإِنَّ

اللَّهَ عَاقَبَهُمْ أَوَّلًا بِالْبُؤْسِ وَالشَّقَاءِ فِي الْمَعِيشَةِ ؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُرَبِّيهِ وَيُهَذِّبُهُ إِلَّا الشِّدَّةُ وَالْبُؤْسُ كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُرَبِّيهِ وَيُهَذِّبُهُ الرَّخَاءُ وَالنِّعْمَةُ ، وَبِكُلٍّ يَبْتَلِي اللَّهُ عِبَادَهُ وَيَمْتَحِنُهُمْ كَمَا

قَالَ : وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً (21 : 35) وَقَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ : وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (7 : 168) وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَمْ يَزِدْهُمُ الْبُؤْسُ وَالسُّوءُ إِلَّا عُتُوًّا وَإِصْرَارًا عَلَى الْفِسْقِ وَالظُّلْمِ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ ، وَمَسَخَهُمْ مَسْخَ خُلُقٍ وَبَدَنٍ فَكَانُوا قِرَدَةً بِالْفِعْلِ ، أَوْ مَسْخَ خُلُقٍ وَنَفْسٍ ، فَكَانُوا كَالْقِرْدَةِ فِي طَيْشِهَا وَشَرِّهَا وَإِفْسَادِهَا لِمَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَيْدِيهَا ، وَالْأَوَّلُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ ، وَالثَّانِي قَوْلُ مُجَاهِدٍ قَالَ : مُسِخَتْ قُلُوبُهُمْ فَلَمْ يُوَفَّقُوا لِفَهْمِ الْحَقِّ .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ

(267/295)

يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ، وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ هَذِهِ الْآيَاتُ خَاتِمَةُ قِصَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَمَا سَيَأْتِي مِنْ نَبَأِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ آيَاتِهِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا مَثَلٌ عَامٌّ لَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ

فَهُوَ لَا يَدْخُلُ فِي قِصَّتِهِمْ ، وَمُنَاسِبَةُ هَذِهِ لِمَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً أَنَّهَا بَيَانٌ لِجَرَيَانِ سُنَّةِ اللَّهِ الْعَامَّةِ فِي عِقَابِ الْأُمَمِ ، وَانْطِبَاقِهَا عَلَى الْيَهُودِ عَامَّةً ، بَعْدَ بَيَانِ عِقَابِهِ تَعَالَى لِطَائِفَةٍ مِنْهُمْ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : .

(268/295)

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ تَأَذَّنَ صِيغَةُ " تَفَعَّلَ " مِنَ الْإِيذَانِ ، وَهُوَ الْإِعْلَامُ الَّذِي يُبَلِّغُ فَيُدْرِكُ بِالْآذَانِ ، وَيَتَضَمَّنُ هُنَا تَأْكِيدَ الْقَسَمِ ، وَمَعْنَى الْعَهْدِ الْمَكْتُوبُ الْمُلْتَزَمُ ، بِدَلِيلِ مَجِيءِ لَامِ الْقَسَمِ وَنُونِ التَّوْكِيدِ فِي جَوَابِهِ ، وَالْمَعْنَى : وَاذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْخَاتَمُ الْعَامُّ إِذْ أَعْلَمَ رَبُّكَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ أَنَّهُ قَدْ قَضَى فِي عِلْمِهِ وَكَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ ، وِفَاقًا لِمَا أَقَامَ عَلَيْهِ نِظَامَ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ مِنْ سُنَنِهِ ، لَيَبْعَثَنَّ وَيُسَلِّطَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، أَيْ يُرِيدُهُ وَيُوقِعُهُ بِهِمْ ، عِقَابًا عَلَى ظُلْمِهِمْ

وَفِسْقِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ، وَهُوَ مَجَازٌ مِنْ سَوَّمَ الشَّيْءَ ، كَمَا يُقَالُ سَامَهُ خَسْفًا . وَسُوءُ الْعَذَابِ مَا يَسُوءُ صَاحِبَهُ وَيُذِلُّهُ ، وَهُوَ هُنَا سَلْبُ الْمِلْكِ ، وَإِخْضَاعُ الْقَهْرِ .

(269/295)

مِصْدَاقُ هَذَا وَتَفْصِيلُهُ عَلَى مَا قَرَّرْنَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (17 : 4) إِلَى قَوْلِهِ : وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (17 : 7) ثُمَّ قَالَ : عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا (17 : 8) الْآيَةَ أَيْ وَإِنْ عُدْتُمْ بَعْدَ عِقَابِ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ إِلَى الْإِفْسَادِ ، عُدْنَا إِلَى التَّعْذِيبِ وَالْإِذْلَالِ ، وَقَدْ عَادُوا فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّصَارَى فَسَلَبُوا مُلْكَهُمُ الَّذِي أَقَامُوهُ بَعْدَ نَجَاتِهِمْ مِنَ السَّبْيِ الْبَابِلِيِّ ، وَقَهَرُوهُمْ وَاسْتَذَلُّوهُمْ ، ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَعَادَاهُ مِنْهُمُ الَّذِينَ كَانُوا هَرَبُوا مِنَ الذُّلِّ وَالنَّكَالِ ، وَلَجَئُوا إِلَى بِلَادِ الْعَرَبِ فَعَاشُوا فِيهَا أَعِزَّاءَ آمِنِينَ ، وَلَمْ يَفُوا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَا عَاهَدَهُمْ عَلَيْهِ إِذْ أَمَّنَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَحُرِّيَّةِ دِينِهِمْ ، بَلْ غَدَرُوا بِهِ وَكَادُوا لَهُ ، وَنَصَرُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِ ، فَسَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَقَاتَلَهُمْ فَنَصَرَهُ عَلَيْهِمْ ، فَأَجْلَى بَعْضَهُمْ ، وَقَتَلَ بَعْضًا ، وَأَجْلَى عُمَرُ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ فَتَحَ عُمَرُ سُورِيَّةَ ، بَعْضَهَا بِالصُّلْحِ كَبَيْتِ الْمَقْدِسِ ،

وَبَعْضَهَا عَنْوَةً ، فَصَارَ الْيَهُودُ مِنْ سِيَادَةِ الرُّومِ الْجَائِرَةِ الْقَاهِرَةِ فِيهَا إِلَى سُلْطَةِ الْإِسْلَامِ الْعَادِلَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ ظَلُّوا أَذِلَّةً بِفَقْدِ الْمُلْكِ وَالِاسْتِقْلَالِ . وَقَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ حَالِهِمْ ، وَمَا يُحَاوِلُونَهُ مِنِ

(270/295)

اسْتِعَادَةِ مُلْكِهِمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَفِي مَوَاضِعَ مِنَ الْمَنَارِ .

إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ لِلْأُمَمِ الَّتِي تَفْسُقُ عَنْ أَمْرِهِ وَتُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ ، فَلَا يَتَخَلَّفُ عِقَابُهُ عَنْهَا كَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْ بَعْضِ الْأَفْرَادِ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (17 : 16) أَيْ أَمَرْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ فَعَصَوْا وَفَسَقُوا عَنِ الْأَمْرِ ، وَأَفْسَدُوا وَظَلَمُوا فِي الْأَرْضِ ، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ . بِمُقْتَضَى سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ ، فَحَلَّ بِهِمُ الْهَلَاكُ عَلَى الْفَوْرِ .

وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ تَابَ عَقِبَ الذَّنْبِ ، وَأَصْلَحَ مَا كَانَ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ ، قَبْلَ

أَنْ يَحِقَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (20 : 82)

وَهَذَا كَمَا قَالَ فِي الْيَهُودِ بَعْدَ ذِكْرِ إِفْسَادِهِمْ مَرَّتَيْنِ : عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ

عُدْنَا وَقَلَّمَا ذَكَرَ اللهُ عَذَابَ الْفَاسِقِينَ الْمُفْسِدِينَ ، إِلَّا وَقَرَنَهُ بِذِكْرِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِلتَّائِبِينَ الْمُحْسِنِينَ حَتَّى لَا يَيْأَسَ صَالِحٌ مُصْلِحٌ مِنْ رَحْمَتِهِ بِذَنْبٍ عَمِلَهُ بِجَهَالَةٍ ، وَلَا يَأْمَنُ مُفْسِدٌ مِنْ عِقَابِهِ اغْتِرَارًا بِكَرَمِهِ وَعَفْوِهِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى ذَنْبِهِ .

(271/295)

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى كَيْفَ كَانَ بَدْءُ إِذْلَالِ الْيَهُودِ بِإِزَالَةِ وَحْدَتِهِمْ ، وَتَمْزِيقِ جَامِعَتِهِمْ فَقَالَ : وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا أَيْ وَفَرَّقْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ حَالَ كَوْنِهِمْ أُمَمًا بِالتَّقْدِيرِ ، أَوْ صَيَّرْنَاهُمْ أُمَمًا مُتَقَطِّعَةً ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أُمَّةً مُتَّحِدَةً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ كَالَّذِينَ نَهَوُا الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ عَنْ ظُلْمِهِمْ ، وَالَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِأَنْبِيَاءِ اللهِ تَعَالَى فِيهِمْ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِلَى عَهْدِ عِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَمِنْهَا نَاسٌ دُونَ وَصْفِ الصَّلَاحِ لَمْ يَبْلُغُوهُ ، وَهُمْ دَرَجَاتٌ أَوْ دَرَكَاتٌ ، مِنْهُمُ الْغُلَاةُ فِي الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ ، كَالَّذِينَ كَانُوا يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَمِنْهُمُ السَّمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ الْأَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ شَأْنُ الْأُمَمِ الْفَاسِدَةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ ، تُفْسِدُ بِالتَّدْرِيجِ لَا دُفْعَةً وَاحِدَةً كَمَا نَرَاهُ فِي أُمَّتِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ .

وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَيِ امْتَحَنَّاهُمْ ، وَبَلَوْنَا سَرَائِرَهُمْ

وَاسْتِعْدَادَهُمْ بِالنِّعَمِ الَّتِي تَحْسُنُ ، وَتَقَرُّ بِهَا الْأَعْيُنُ ، وَبِالنِّقَمِ الَّتِي تَسُوءُ صَاحِبَهَا ، وَرُبَّمَا حَسُنَتْ بِالصَّبْرِ وَالْإِنَابَةِ عَوَاقِبُهَا ، رَجَاءَ أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ ذُنُوبِهِمْ ، وَيُنِيبُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، فَيَعُودَ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ .

(272/295)

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَيْ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانَ فِيهِمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، خَلْفُ سُوءٍ وَبَدَلُ شَرٍّ ، قِيلَ : إِنَّ الْخَلْفَ بِسُكُونِ اللَّامِ يَغْلِبُ فِي الْأَشْرَارِ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي الْأَخْبَارِ خَلَفٌ بِالتَّحْرِيكِ كَسَلَفٍ وَرِثُوا الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ التَّوْرَاةُ عَنْهُمْ ، وَقَامَتِ الْحُجَّةُ بِهِ عَلَيْهِمْ ،

فَمَاذَا كَانَ شَأْنُهُمْ ؟ الْجَوَابُ : يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى أَيْ : يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الشَّيْءِ الْأَدْنَى ، أَيْ هَذَا الْحُطَامَ الْحَقِيرَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا ، وَالْمُرَادُ بِهِ مَا كَانُوا يَأْكُلُونَهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّشَى ، وَالِاتِّجَارِ بِالدِّينِ وَالْمُحَابَاةِ فِي الْحُكْمِ وَالْفَتْوَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا أَيْ : سَيَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا ، وَلَا يُؤَاخِذُنَا بِمَا أَذْنَبْنَا ، فَإِنَّنَا شَعْبُهُ الْخَاصُّ ، سَلَائِلُ أَنْبِيَائِهِ ، وَنَحْنُ أَبْنَاؤُهُ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَمَا هَذِهِ الْأَقْوَالُ إِلَّا أَمَانِيَّ ، وَغُرُورٌ وَأَوْهَامٌ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُمُ النَّصَارَى ، وَقَدْ يَكُونُ أَعَمَّ مِنْ ذَلِكَ اهـ . وَكُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ يُنَافِيهِ مُقْتَضَى السِّيَاقِ ، فَأَوَائِلُ

النَّصَارَى كَانُوا صَالِحِينَ ، وَسَابِقُ الْكَلَامِ وَلَاحِقُهُ فِي الْيَهُودِ وَحْدَهُمْ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَيْ : يَقُولُونَ ذَلِكَ ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى ذَنْبِهِمْ ، إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ آخَرُ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ أَوْ بِالْبَاطِلِ يَأْخُذُوهُ لَا يَتَعَفَّفُونَ عَنْهُ ، وَإِنَّمَا وَعَدَ اللَّهُ فِي كُتُبِهِ بِالْمَغْفِرَةِ لِلتَّائِبِينَ الَّذِينَ

(273/295)

يَتْرُكُونَ الذُّنُوبَ نَدَمًا وَخَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَرَجَاءً فِيهِ ، وَيُصْلِحُونَ مَا كَانُوا أَفْسَدُوا ، كَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ ، وَمِنْهُ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ مُوسَى مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ - خِطَابًا لَهُمْ - مِنْ سُورَةِ طه : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (20 : 82) .

وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ زَعْمَهُمْ بِقَوْلِهِ : أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ ، أَيْ قَدْ أُخِذَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ فِي كِتَابِهِ بِأَلَّا يَقُولُوا عَلَيْهِ غَيْرَ الْحَقِّ الَّذِي بَيَّنَهُ فِيهِ ، فَمَا بَالُهُمْ يَجْزِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَغْفِرُ لَهُمْ مَعَ إِصْرَارِهِمْ عَلَى ذُنُوبِهِمْ عَلَى خِلَافِ مَا فِي الْكِتَابِ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ أَيْ : مِنْ تَحْرِيمِ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ كَقَوْلِهِ : إِنَّهُ سَيَغْفِرُ لَهُمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَمَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ فِي الْعَمَلِ بِكِتَابِهِ كَمَا فِي آخِرِ سِفْرِ تَثْنِيَةِ الِاشْتِرَاعِ .

وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَيْ : وَالدَّارُ الْآخِرَةُ ، وَمَا أَعَدَّهُ اللهُ فِيهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الرَّذَائِلَ وَالْمَعَاصِيَ خَيْرٌ مِنَ الْحُطَامِ الْفَانِي مِنْ عَرَضِ

(274/295)

الدُّنْيَا بِالرَّشْوَةِ وَالسُّحْتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ذَلِكَ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ لَا يَخْفَى عَلَى عَقْلٍ لَمْ يَطْمِسْهُ الطَّمَعُ الْبَاطِلُ ، فِي الْحُطَامِ الْعَاجِلِ ، فَتُرَجِّحُونَ الْخَيْرَ عَلَى الشَّرِّ ، وَالنَّعِيمَ الْعَظِيمَ الدَّائِمَ ، عَلَى الْمَتَاعِ الْحَقِيرِ الزَّائِلِ ! وَقَدْ عُلِمَ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الطَّمَعَ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا هُوَ الَّذِي اسْتَحْوَذَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَفْسَدَ عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ ، وَلَا يَزَالُ هَذَا التَّفَانِي فِيهِ أَخَصَّ صِفَاتِهِمْ .

(275/295)

وَقَدْ سَرَى شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْفَسَادِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى رِجَالِ الدِّينِ الَّذِينَ وَرِثُوا الْكِتَابَ الْكَرِيمَ ، وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، غَلَبَ عَلَى أَكْثَرِهِمُ الطَّمَعُ فِي حُطَامِ الدُّنْيَا الْقَلِيلِ ، وَعَرَضِهَا الدَّنِيءِ ، وَالْغُرُورِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّحَلِّي بِلَقَبِهِ ، وَالتَّعَلُّلِ

بِأَمَانِيِّ الْمَغْفِرَةِ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ وَالِاتِّكَالِ عَلَى الْمُكَفِّرَاتِ وَالشَّفَاعَاتِ ، وَهُمْ يَقْرَؤُونَ مَا فِي الْكِتَابِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْأَمَانِيِّ وَالْأَوْهَامِ ، وَمِنْ نَوْطِ الْجَزَاءِ بِالْأَعْمَالِ ، وَالْمَغْفِرَةِ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِصْلَاحِ ، وَكَوْنِ الشَّفَاعَةِ لَا تَقَعُ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِمَنْ رَضِيَ عَنْهُ كَقَوْلِهِ : وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (21 : 28) وَلَنْ يَرْضَى اللهُ عَنْ فَاسِقٍ وَلَا مُنَافِقٍ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (9 : 96) ، بَلْ مَا قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِثْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا لِنَعْتَبِرَ بِأَحْوَالِهِمْ وَنَتَّقِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي أَخَذَهُمْ بِهَا ، وَلَكِنَّنَا مَعَ هَذَا كُلِّهِ اتَّبَعْنَا سُنَنَهُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، إِلَّا أَنَّنَا نَحْمَدُ اللهَ أَنَّ هَذَا الِاتِّبَاعَ فِينَا غَيْرُ عَامٍّ ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ فِينَا طَائِفَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى الْحَقِّ يَطْعَنُ فِيهَا الْجَمَاهِيرُ الَّذِينَ صَارَ الْإِسْلَامُ فِيهِمْ غَرِيبًا ، وَقَدْ شَرَحْنَا ذَلِكَ مِرَارًا بَلْ صَرَّحَتِ الْآيَاتُ بِالتَّحْذِيرِ مِنِ اتِّبَاعِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي أَمَانِيهِمْ

(276/295)

وَفِي فِسْقِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ (4 : 123) إِلَخ . وَقَوْلِهِ : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ

(16 : 57)

قَرَأَ تَعْقِلُونَ بِالتَّاءِ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَابْنُ ذَكْوَانَ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَسَهْلٌ وَيَعْقُوبُ وَحَفْصٌ ، فَقِيلَ : إِنَّ الْخِطَابَ بِهِ لِلْيَهُودِ الْمَحْكِيِّ عَنْهُمْ بِطَرِيقِ الِالْتِفَاتِ ، وَقِيلَ : بَلْ هُوَ خِطَابٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ لِتَعْتَبِرَ بِحَالِهِمْ ، وَتَجْتَنِبَ مَا كَانَ سَبَبًا لِسُوءِ مَآلِهِمْ ، مِنَ الْإِصْرَارِ

عَلَى سُوءِ أَعْمَالِهِمْ ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ (يَعْقِلُونَ) عَلَى الْأَصْلِ فِي الْحِكَايَةِ عَنِ الْغَائِبِينَ ، وَلَوْ صَحَّ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ وَحْدَهَا فِي الْمَدِينَةِ لَصَحَّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ الْخِطَابَ مُوَجَّهٌ إِلَى الْيَهُودِ الْمُجَاوِرِينَ لَهَا ؛ لِأَنَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ الْخَلْفِ ، الَّذِي نَزَلَ فِيهِ هَذَا الْوَصْفُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ .

(277/295)

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ قَرَأَ الْجُمْهُورُ يُمَسِّكُونَ بِتَشْدِيدِ السِّينِ مَنْ مَسَّكَ تَمَسُّكًا بِمَعْنَى تَمَسَّكَ تَمَسُّكًا ، وَمِثْلُهُ قَدَّمَ بِمَعْنَى تَقَدَّمَ ، وَمِنْهُ : لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (49 : 1) وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ وَحَمَّادٌ يُمْسِكُونَ بِالتَّخْفِيفِ مِنَ الْإِمْسَاكِ - أَيْ : وَالَّذِينَ يَسْتَمْسِكُونَ بِعُرْوَةِ الْكِتَابِ الْوُثْقَى ، وَيَعْتَصِمُونَ بِحَبْلِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَأَوْقَاتِهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ الَّتِي هِيَ عِمَادُ الدِّينِ فِي أَوْقَاتِهَا إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ

الْمُصْلِحِينَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُصْلِحُونَ ، وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ، فَهُوَ خَبَرٌ قُرِنَ بِالدَّلِيلِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (18 : 30) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 9 صـ 316.

324 ﴾

(278/295)

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى : ﴿ والذين يمسِكون بالكتاب ﴾

وقعت جملة : ﴿ والذين يمسِكون بالكتاب ﴾ إلى آخرها عقب التي قبلها : لأن مضمونها مقابلَ حكمَ التي قبلها إذ حصل من التي قبلها أن هؤلاء الخلف الذين أخذوا عرض الأدني قد فرطوا في ميثاق الكتاب ، ولم يكونوا من المتقين ، فعُقب ذلك ببشارة من كانوا ضد أعمالهم ، وهم الآخذون بميثاق الكتاب والعاملون ببشارته بالرسل ، وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فأولئك يستكملون أجرهم لأنهم مصلحون .

فكني عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة ، لأن الصلاة شعار دين الإسلام ، حتى سمي أهل الإسلام أهلَ القبلة ، فالمراد من هؤلاء هم من آمن من اليهود

بعيسى في الجملة وإن لم يتبعوا النصرانية ، لأنهم وجدوها مبدّلة محرّفة فبقوا في انتظار الرسول المخلّص الذي بشرت به التوراة والإنجيل ، ثم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم حين بُعث : مثل عبد الله بن سَلاَم .

ويحتمل أن المراد بالذين يمسكون بالكتاب : المسلمون ، ثناء عليهم بأنهم الفائزون في الآخرة وتبشيراً لهم بأنهم لا يسلكون بكتابهم مسلك اليهود بكتابهم .

وجملة : ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ خبر عن الذين يمسكون ، والمصلحون هم ، والتقدير : إنّا لا نضيع أجرهم لأنهم مصلحون ، فطوي ذكرهم اكتفاء بشمول الوصف لهم وثناء عليهم على طريقة الإيجاز البديع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(279/295)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170) ﴾

إنّ الكثير من بني إسرائيل ورثوا الكتاب ، وأخذوا العرض الأدنى ، ولم يزنوا الأمور بعقولهم ؛ لذلك لم يتمسكوا بالكتاب ، وتركوه ، وساروا على هواهم ؛ كأنهم غير مقيدين بمنهج افعل

كذاَ ولا تفعل كذاَ ، ويقابلهم بعض الذين يتمسكون بالكتاب الذي ورثوه ، ولا يقولوا على الله إلا الحق .

ومادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق ؛ فالذي يجعل الانسان متصلاً بالشيء هو ماسكه ، وتقول : " مسَكَ " وتقول : " مَسَّكَ " ، و " أمسك " ، وتقول " استمسك " ، و " تماسك " ، وكلها مادة واحدة . وقوله الحق : " يمسِّكون " مبالغة في المسك ، كُل قطع وقطَّع ، ولكن قطَّع أبلغ .

و(مسَّك) يعني أن الماسك تمكن مما يمسك ، و (استمسك) أي طلب ، و (تماسك) أي أنّ هناك تفاعلاً بين الاثنين ؛ بين الماسك والممسوك . ومن رحمة ربنا أنه لا يطلب منا أن نمسك الكتاب . بل يطلب أن نستمسك بالكتاب ، ولذلك يوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن أنت ملت إلى القرب مني والزلفى إليّ ، فاترك الباقي عنك فالمعونة منّي أنا ، ولذلك يدلنا على أن من ينفذ منهج القرآن لا يلقى الهوان أبدا ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى لاَ انفصام لَهَا ﴾ وهنا يستخدم الحق سبحانه كلمة (استمسك) لا كلمة مسَك ، فمن وجه نيته في أن يفعل يعطيه الله المعونة ، ولذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي : " أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إليَّ بشبر ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة . "

فأنت بإيمانك بالله تعزز نفسك وتقويها بمعونه الله لك . فإن أردت أن يذكرك الله فاذكر الله ؛ فإن ذكرته في نفسك يذكرك في نفسه ، وإن ذكرته في ملأ يذكرك في ملأ خير منه ، وإن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً ، فماذا تريد أكثر من ذلك ، خاصة أنك لن تضيف إليه شيئاً ، إذن فالموقف في يدك ، فإذا أردت أن يكون الله معك فسر في طريقه تأت لك المعونة فوراً . وهكذا يكون الموقف معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به .

ولذلك قلنا من قبل : إن الانسان إذا أراد أن يلقى عظيماً من عظماء الدنيا وفي يده مصلحة من مصالح الإنسان فهو يكتب طلباً ، فإما أن يوافق هذا العظيم وإما ألاّ يوافق ، وحين يوافق هذا العظيم يحدد الزمان ويحدد المكان ، ويسألك مدير مكتبه عن الموضوعات التي ستتكلم فيها ، وحين تقابله وينتهي الوقت ، فهو يقف من كرسيه لينهي المقابلة ، هذا هو العظيم من البشر ، لكن ماذا عن العظيم الأعظم الأعلى الذي تلتقي به في الإيمان ؟ أنت تلقى الله في أي وقت ، وفي أي مكان ، وتقول له ما تريد ، وأنت الذي تنهي المقابلة ، ألا يكفي كل ذلك لتستمسك بالإيمان ؟ .

﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب وَأَقَامُواْ الصلاة إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ [الأعراف : 170]

والكتاب هنا هو الكتاب الموروث ، والمقصود به التوراة وهو الذي درسوا ما فيه ، وقد أخذ الله في هذا الكتاب الميثاق عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق ، والحق يقول هنا : ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ فهل هذا الكتاب ليس فيه إلا الصلاة ؟ لا ، ولكنه خص الصلاة بالذكر . لأننا نعلم أن الصلاة عماد الدين ، وعرفنا في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن الصلاة قد فرضت بالمباشرة ، وكل فروض الإِسلام – غير الصلاة – قد فرضت بالوحي .

(281/295)

لقد قلنا من قبل ولله المثل الأعلى ، إن رئيس أي مصلحة حكومية حين يريد أمراً عادياً رُوتينياً ، فهو يوقع الورق الذي يحمل هذا الأمر ويكتب عليه : " يعرض على فلان " ويأخذ الورق مجراه ، وحين يهتم بأمر أكثر ، فهو يتحدث تليفونياً إلى الموظف المختص ، وحين يكون الأمر غاية في الأهمية القصوى فهو يطلب من الموظف أن يحضر لديه ، وهكذا فرضت الصلاة بهذا الشكل لأنها الإِعلان الدائم للولاء لله خمس مرات في اليوم ، وإن

شئت أن تزيد على ذلك تنفلا وتهجداً فعلت .

إنك بالصلاة توالى الله بكل أحكامه ، إنك توالي الله بالزكاة كل سنة ، وبالصوم في شهر واحد هو رمضان ، وبالحج مرة واحدة في العمر إن استطعت . لكن الصلاة ولاء دائم متجدد ، ولأن الصلاة لها كل هذه الأهمية ؛ لذلك لا تسقط أبداً . وأركان الإِسلام – كما نعلم – خمسة ؛ شهادة أن لا إله إلا اله وأن محمداً . رسول الله ، إنها الإِيمان بالله وبالرسول كوحدة واحدة لا تنفصل ، ويكفي أن ينطقها الإِنسان مرة لتكتب له ، ثم تأتي أركان الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والحج ليس ركناً مفروضاً إلا على من يستطيعون . قد لا يكون للإِنسان مال يخرج عنه الزكاة ؛ فلا يجب عليه إخراج شيء حينئذ ، وقد يكون الإِنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم .

إذن فبعض فروض الإِسلام قد تسقط عن المسلم ، إلا الصلاة فهي لا تسقط أبداً ؛ لأن في الصلاة في ظاهر الأمر قطعا لبعض الوقت عن حركة عملك ، وإن كان كل فرض يأخذ مثلاً نصف ساعة ، فالإِنسان يقتطع من وقته ساعتين ونصف الساعة كل يوم في أداء الصلاة . والوقت عزيز عند الإِنسان . ففي الصلاة بذل لبعض الوقت الذي يستطيع أن يكسب الإِنسان فيه مالاً ، وفيها أيضا الصوم عن الأكل والشرب ومباشرة الزوجات ، ففيها كل مقومات أركان الإِسلام ، لذا فهي لا تسقط أبدا . ﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب وَأَقَامُواْ الصلاة . . . ﴾ [الأعراف : 170]

إذن الاستمساك واضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمساك بمنهج الإيمان .

ولذلك نسمع من يقول : حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشنا الصفاء النفسي والإشراق الروحي ، وعشنا مع التجلِّي والنور الذي يغمر الأعماق . وأقول لمن يقول ذلك : إن ربنا هنا هو ربنا هناك ، فقط أنت هناك التزمت ، وساعة كنت تسمع الأذان كنت تجري وتسعى إلى الصلاة ، وإذا صنعت هنا مثلما صنعت هناك فسترى التجليات نفسها . إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه وتعالى فالحق لن يضيع أجرك كاحد المصلحين . لأنه القائل : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ .

وهذه قضية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح . وقوله : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ بعد قوله : ﴿ يُمَسِّكُونَ بالكتاب وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ دليل على أن أي إصلاح في المجتمع يعتمد على من يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة ؛ لأن المجتمع لا يصلح إلا إذا استدمت أنت صلتك بمن خلقك وخلق المجتمع ، وأنزل لك المنهج القويم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " والَّذينَ يُمَسِّكُون " :

فيه وجهان : أظهرهما : أنَّهُ مبتدأ ، وفي خبره حينئذ وجهان : أحدهما : الجملة من قوله ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ وفي الرَّابط حينئذ أقوال :

أحدها : أنَّهُ ضميرٌ محذوف لفهم المعنى ، والتقدير : المُصْلحين منهم ، وهذا على قواعد جمهور البصريين ، وقواعد الكوفيين تقتضي أنَّ " أل " قائمةٌ مقام الضمير ، تقديره : أجْرَ مَصْلحيهمْ ؛ كقوله : ﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 41] أي : مَأواهُ ، وقوله ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب ﴾ [ص : 50] أي : أبوابُها ، وقوله : ﴿ في أَدْنَى الأرض ﴾ [الروم : 3] أي : أرضهم ، إلى غير ذلك .

والثاني : أنَّ الرَّابطَ تكرُّرُ المبتدأ بمعناه ، نحو : زيد قام أبو عبد الله ، وهو رأي الأخفش ، وهذا كما يُجيزه في الموصول ، نحو : أبو سعيدٍ الذي رويتُ عنه الخُدريُّ ، والحجَّاجُ الذي رأيتُ ابنُ يُوسُفَ ، وقد تقدَّم من ذلك شواهدُ .

الثالث : أنَّ الرَّابط هو العموم في " المُصْلحينَ " قاله أبو البقاء .

قال : " وإن شئْتَ قلت : لمَّا كان المصلحون جنساً والمبتدأ واحد منه استغنيت عن ضمير " .

قال شهاب الدين : العمومُ ربطٌ من الروابط الخمسة ؛ وعليه قول الشاعر : [الطويل]

2612 - ألاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إلَى أمِّ سالمٍ . . .

سَبِيلٌ ؟ فأمَّا الصَّبْرُ عَنْهَا فَلاَ صَبْرا

ومنه : نعم الرجُلُ زيدٌ ، على أحد الأوجه :

والوجه الثاني - من وجهي الخبر - : أنَّهُ محذوف ، تقديره : والذين يمسكون مأجورون ، أو مثابُونَ ونحوه .

وقوله تعالى : ﴿ إنَّا لاَ نُضِيعُ ﴾ جملة اعتراضية ، قاله الحوفيُّ .

ولا ضرورة تدعو إليه .

الثاني من وجْهَيْ " الذينَ يُمَسِّكُون " : أنَّه محل جر نسقاً على : " الَّذين يَتَّقُونَ " أي : والدّار الآخرةُ خير للمتقين ، وللمتمسكين ، قاله الزمخشريُّ .

إلاَّ انه قال : ويكون قوله : ﴿ إنَّا لا نُضيعُ ﴾ اعتراضاً سيق لتأكيد ما قبله .

وفيه نظرٌ ؛ لأنَّه لَمْ يقعْ بين شيئَين متلازمين ولا بين شيئَين بينهما تعلُّقٌ معنويٌّ ، فكان ينبغي أن يقول : ويكون على هذا مستأنفاص .

وقرأ العامَّةُ "يُمَسِّكُونَ" بالتشديد مِنْ "مَسَّك" بمعنى "تَمَسَّكَ" حكاه أهلُ التصريف أي: إنَّ: "فَعَّلَ" بمعنى "تفعَّل"، وعلى هذا فالباءُ للآلة، كهي في "تَمَسَّكْتُ بالحبل".

يقال: مَسَّكْتُ بالشَّيء، وتَمَسَّكْتُ، واسْتَمْسَكْتُ به، وامتسَكْتُ به.

وقرأ أبو بكر عن عاصم، ورويت عن أبي عمرو وأبي العالية "يُمْسِكُونَ" بسكون الميم وتخفيف السين من "أمْسَكَ" وهما لغتان يقال: مَسَكْتُ، وأمْسَكْتُ.

وقد جمع كعبُ بنُ زهير بينهما في قوله: [البسيط]

2613 - ولا تُمَسِّكُ بالعهدِ الذي زَعَمَتْ. . .

إلاَّ كَمَا تُمْسِكُ الماءَ الغَرَابِيلُ

ولكن "أمْسَك" مُتعدٍّ.

قال تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء ﴾ [الحج: 65] فعلى هذا مفعوله محذوف، تقديره: يُمسِكون دينهم وأعمالهم بالكتاب، فالباء يجوز أن تكون للحال وأن تكون للآلة أي مصاحبين للكتابِ، أي: لأوامره ونواهيه.

وحجة عاصم قوله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: 229]، وقوله: ﴿

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب: 37]، وقوله: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة: 4].

قال الواحديُّ: والتشديدُ أقوى؛ لأنَّ التشديد للكثرة، وههنا أريد به الكثرة؛ ولأَنَّهُ يقال: أمسكته، وقلَّمَا يقال: أمسكت به.

وقرأ عبد الله والأعمش: "اسْتَمْسَكُوا"، وأبي: "تَمَسَّكُوا" على الماضي، وهو جيّد لقوله تعالى: ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ إذ قل ما يعطف على مستقبل إلاَّ في المعنى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 373.374 ﴾

(285/295)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ﴾.

يمسكون بالكتاب إيماناً، وأقاموا الصلاة إحساناً، فبالإيمان وجدوا الأَمَان، وبالإحسان وجدوا الرضوان؛ فالأَمانُ مُعَجَّل والرضوان مؤجل. ويقال ﴿ يمسكون بالكتاب ﴾ سبب النجاة، وإقامة الصلاة تحقق المناجاة. فالنجاة في المآل والمناجاة في الحال.

ويقال أفرد الصلاة ها هنا بالذكر عن جملة الطاعات ليُعْلمَ أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

مَنْ أَمَّلَ سببَ إنعامنا لم تَخْسِرْ له صفقة ، ولم تخْفِق له في الرجاء رفقة ، ويقال من نقل (. . .) إلى بابه قَدَمَه لم يَعْدم في الآجل نعمَهَ ، ومَنْ رَفَعَ إلى ساحاتِ جوده هِمَمَه نالَ في الحالِ كرمه .

ويقال مَنْ تَوَصَّلَ إليه بجوده نال في الدارين شَرَفَه . ومن اكتفى بجوده كان اللهُ عنه خَلَفَه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 583.584 ﴾

(286/295)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ ﴾

إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً قيل : بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد صلى الله

عليه وسلم إلى كافة الإنس وكافة الجن . وجميعاً : نصب على الحال من إليكم . فإن قلت : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ما محله ؟ قلت : الأحسن أن يكون منتصباً بإضمار أعنى ، وهو الذي يسمى النصب على المدح . ويجوز أن يكون جرا على الوصف ، وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله إليكم . إِلَيْكُمْ جَمِيعاً وقوله لا إِلهَ إِلَّا هُوَ بدل من الصلة التي هي له ملك

(287/295)

وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته ، نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم . وكذلك الأغلال ، مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة ، نحو : بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب .

وإحراق الغنائم ، وتحريم العروق في اللحم ، وتحريم السبت . وعن عطاء : كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلى لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم . وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة . وقرئ آصارهم ، على الجمع وَعَزَّرُوهُ ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدوّ . وقرئ بالتخفيف .

وأصل العزر : المنع . ومنه التعزير للضرب دون الحدّ ، لأنه منع عن معاودة القبيح . ألا ترى إلى تسمية الحدّ ، والحدّ هو المنع . والنُّورَ القرآن . فإن قلت : ما معنى قوله أُنْزِلَ مَعَهُ وإنما أنزل مع جبريل ؟

قلت : معناه أنزل مع نبوّته ، لأنّ استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعا به . ويجوز أن يعلق باتبعوا . أى : واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه .

---

(1) . قوله «عن رحمة اللّه» لعله «في رحمة اللّه» . أو ضمن التفريق معنى الابعاد ، فعدى بعن . (ع) [. . . . .]

السموات والأرض ، وكذلك يُحيِي ويُمِيتُ وفي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ بيان للجملة قبلها ، لأنّ من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة . وفي يحيى ويميت : بيان لاختصاصه بالإلهية ، لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره وكَلِماتِهِ وما أنزل عليه وعلى من تقدّمه من الرسل من كتبه ووحيه . وقرئ وكلمته على الإفراد وهي القرآن . أو أراد جنس ما كلم به . وعن مجاهد : أراد عيسى ابن مريم .

وقيل : هي الكلمة التي تكوّن منها عيسى وجميع خلقه ، وهي قوله كُنْ وإنما قيل إن عيسى

كلمة اللّه ، فخص بهذا الاسم ، لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ، ولم يكن من نطفة تمنى لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إرادة أن تهتدوا . فإن قلت : هلا قيل : فآمنوا باللّه وبى ، بعد قوله : إنى رسول اللّه إليكم ؟ قلت : عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التي أجريت عليه ، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة ، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمى الذي يؤمن باللّه وكلماته ، كائناً من كان ، أنا أو غيرى ، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه .

[سورة الأعراف (7) : آية 159]

وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159)

وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ هم المؤمنون التائبون من بنى إسرائيل ، لما ذكر الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين عبادة العجل واستجازة رؤية اللّه تعالى ، ذكر أنّ منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ، ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم . وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون . أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي صلى اللّه عليه وسلم وآمن به من أعقابهم . وقيل : إنّ بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا ، وسألوا اللّه أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ، ففتح اللّه لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين ، وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا . وذكر عن النبي صلى اللّه

عليه وسلم أن جبريل ذهب به ليلة الاسراء نحوهم ، فكلمهم فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلمون ؟ قالوا : لا . قال : هذا محمد النبي الأمي ، فآمنوا به وقالوا : يا رسول اللّه ، إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد ، فليقرأ عليه منى السلام فردّ محمد على موسى عليهما السلام السلام ، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة ، وأمرهم أن يقيموا مكانهم ، وكانوا يسبتون ، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت . وعن مسروق . قرئ : بين يدي عبد اللّه فقال رجل : إنى منهم . فقال عبد اللّه : يعنى لمن كان في مجلسه من المؤمنين : وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئاً من يهدى بالحق وبه يعدل . وقيل : لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين .

(289/295)

وهذا من باب الفرض والتقدير وإلا فقد طار الخبر بشريعة محمد صلى اللّه عليه وسلم إلى كل أفق ، وتغلغل في كل نفق ، ولم يبق اللّه أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا برّ ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها ، إلا وقد ألقاه إليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة .

[سورة الأعراف (7) : آية 160]

وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)

وَقَطَّعْناهُمُ وصيرناهم قطعا ، أى فرقا وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم . وقرئ وقطعناهم بالتخفيف اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً كقولك اثنتي عشرة قبيلة . والأسباط : أولاد الولد ، جمع سبط وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثنى عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام . فإن قلت :

مميز ما عدا العشرة مفرد ، فما وجه مجيئه مجموعا ؟ وهلا قيل : اثنى عشر سبطا ؟ قلت : لو قيل ذلك لم يكن تحقيقا لأنّ المراد : وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة ، وكل قبيلة أسباط لا سبط ، فوضع أسباطا موضع قبيلة . ونظيره :

بين رماحى مالك ونهشل «1»

---

(1) تبقلت في أول التبقل بين رماحي مالك ونهشل

في حبة حرف وحمض هيكل مستأسد ذبانه في عيطل

يقلن للرائد أعشبت انزل لأبى النجم ، يصف رمكة باعتيادها الحروب واقتحامها المكاره

من أول أمرها . يقال : تبقلت الغنم وغيرها : رعت البقل وهو النبات الرطب . شبه اقتحام تلك الفرس للحروب من صغرها حتى اعتادتها برعي الدابة للكلأ واعتيادها عليه ، بجامع التمرن والاعتياد والسهولة ، بل والاستلذاذ ، ثم استعار التبقل لذلك على طريق التصريحية ، وبلغ في ذلك حيث أسند الفعل إليها ، كأنه لا دخل له فيه . ويروى : من أول التبقل ، بين رماحى مالك ونهشل : أى بين رماح مالك بن ضبعة ورماح نهشل بن دارم من أمراء العرب ، فثنى الرماح دلالة على التنويع والتمايز . وقال أبو حنيفة : الحبة بالكسر اليبس المنكسر المتراكم . وقال الأزهرى : هي البذور الساقطة مع الأوراق في آخر الصيف والحرن : اليابسة الدقيقة . والحمض نوع من النبات . والهيكل : الطويل الضخم . والمستأسد : الطويل الغليظ أيضا .

وذبان جمع ذباب ، كغربان وغراب . والعيطل – بالعين المهملة – : الأصوات المختلطة . والرائد : هو الذي يتقدم القوم لطلب الخصب . يقلن ، أى الذبان . وأعشب الرجل : وجد العشب ، وصف النبات بالكثرة والالتفاف حتى كثر ذبابه وصارت له أصوات مختلطة ، فكان يدعو الرائد ويحمله على النزول في هذا المكان عند سماع صوته ، فاستعار القول لذلك على سبيل التصريح . وروى : مستأسد أذنابه في عيطل . تقول للرائد ، فالأذناب جمع ذنب ، أى أطرافه تصوت بالريح بقول ذلك النبات والمجاز كما تقدم . هذا ، وحق الرواية : بين رماكى مالك ونهشل .

والرمكة : الأنثى من البراذين والخيل ، وجمعها رماك وأرماك ورمكات ، كثمرة وثمار وأثمار وثمرات . يصف فرسه بأنها رعت البقل حقيقة مع تلك الخيول والبراذين ، فلا مجاز هنا .

(290/295)

وأُمَماً بدل من اثنتي عشرة . بمعنى : وقطعناهم أمما لأنّ كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد ، وكل واحدة كانت تؤمّ خلاف ما تؤمّه الأخرى ، لا تكاد تأتلف . وقرئ اثنتي عشرة بكسر الشين فَانْبَجَسَتْ فانفجرت . والمعنى واحد ، وهو الانفتاح بسعة وكثرة : قال العجاج :

وكيف غربي دالج تبجّسا «1»

فإن قلت : فهلا قيل : فضرب فانبجست ؟ قلت : لعدم الإلباس ، وليجعل الانبجاس مسبباً عن الإيحاء بضرب الحجر للدلالة على أنّ الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر ، وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به . من قوله كُلُّ أُنَاسٍ نظير قوله : اثنتي عشرة أسباطاً ، يريد كل أمّة من تلك الأمم الثنتى عشرة . والأناس ، اسم جمع غير تكسير ، نحو . رخال وتناء وتوام «2» وأخوات لها . ويجوز أن يقال : إن الأصل الكسرة والتكسير ، والضمة بدل من الكسرة ، كما أبدلت في نحو . سكارى وغيارى «3» من

الفتحة وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وجعلناه ظليلا عليهم في التيه ، وكُلُوا على إرادة القول وَما ظَلَمُونا وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم ، ولكن كانوا يضرون أنفسهم . ويرجع وبال ظلمهم إليهم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 161 إلى 162]

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (162)

---

(1) وانحلبت عيناه من فرط الأسى وكيف غربي دالج تبجسا

فرط الاسى : شدة الحزن . والوكيف : مصدر نصب بانحلبت ، لأن معناه : وكفت .

والغرب : الدلو العظيم .

والدالج : من يأخذ الدلو من البئر فيفرغه في الحوض . والتبجس . اتساع الانفجار . يقول : انصبت دموع عينيه من شدة الحزن ، كانصباب دلوي رجل مفرغ لهما في الحوض تفجرا بسعة . وفيه تشبيه العينين بالغربين .

(2) . قوله : «نحو رخال وتناء وتؤام» رخال : هي الإناث من أولاد الضأن . والتناء : القاطنون بالبلد .

والتؤام - بالمد - واحدة توأم ، وزان كوكب . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قوله : «نحو سكارى وغيارى» غار الرجل على أهله فهو غيور . وجمعه غير وغيران . وجمعه غيارى وغيارى ، كذا في الصحاح . (ع)

(291/295)

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ واذكر إذ قيل لهم . والقرية : بيت المقدس . فإن قلت : كيف اختلفت العبارة هاهنا وفي سوره البقرة ؟ قلت : لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ، ولا تناقض بين قوله ، اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ، وبين قوله فكلوا لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها ، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها . وسواء قدّموا الحطة على دخول الباب أو أخروها ، فهم جامعون في الإيجاد بينهم ، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته ، وقوله نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ موعد بشيئين : بالغفران ، وبالزيادة ، وطرح الواو لا يخلّ بذلك ، لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل : وما ذا بعد الغفران ؟ فقيل له : سنزيد المحسنين ، وكذلك زيادة مِنْهُمْ زيادة بيان ، وأرسلنا ، وأنزلنا . وَيَظْلِمُونَ ويفسقون من واد واحد . وقرئ : يغفر لكم خطيئاتكم ، وتغفر لكم خطاياكم . وخطيئاتكم ، وخطيئتكم ، على البناء للمفعول .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 163 إلى 166]

وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (166)

وَسْئَلْهُمْ وسل اليهود . وقرئ : واسألهم . وهذا السؤال معناه التقرير والتقريع بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود اللّه والإعلام بأنّ هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم ، علم أنه من جهة الوحى . ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك : أعدوتم في السبت ؟ والقرية أيلة . وقيل : مدين . وقيل : طبرية . والعرب تسمى المدينة قرية . وعن أبى عمرو بن العلاء . ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، يعنى رجلين من أهل المدن حاضِرَةَ الْبَحْرِ قريبة منه راكبة لشاطئه إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إذ يتجاوزون حدّ اللّه فيه ، وهو اصطيادهم في يوم السبت ، وقد نهوا عنه .

وقرئ : يَعدّون بمعنى يعتدون ، أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين ، ويُعدّون من الإعداد ، وكانوا

يعدّون آلات الصيد يوم السبت ، وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة . والسبت : مصدر سبتت اليهود ، إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد ، فمعناه : يعدون في تعظيم هذا اليوم ، كذلك قوله يَوْمَ سَبْتِهِمْ معناه يوم تعظيمهم أمر السبت . ويدل عليه قوله وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ قراءة عمر بن عبد العزيز : يوم إسباتهم . وقرئ : لا يسبتون ، بضم الباء .

وقرأ علي : لا يسبتون بضم الياء ، من أسبتوا . وعن الحسن : لا يسبتون على البناء للمفعول ، أي لا يدار عليهم السبت ، ولا يؤمرون بأن يسبتوا ، فإن قلت : إذ يعدون ، وإذ تأتيهم ، ما محلهما من الإعراب ؟ قلت : أمّا الأوّل فمجرور بدل من القرية ، والمراد بالقرية أهلها ، كأنه قيل : واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت ، وهو من بدل الاشتمال . ويجوز أن يكون منصوباً بكانت ، أو بحاضرة . وأمّا الثاني فمنصوب بيعدون . ويجوز أن يكون بدلا بعد بدل . والحيتان السمك ، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة شُرَّعاً ظاهرة على وجه الماء . وعن الحسن : تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض . يقال : شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا . وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ أي مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم وَإِذْ قالَتْ معطوف على إذ يعدون ، وحكمه حكمه في الإعراب أُمَّةٌ مِنْهُمْ جماعة من أهل القرية من

صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم ، حتى أيسوا من قبولهم ، لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أى مخترمهم ومطهر الأرض منهم أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً لتماديهم في الشر . وإنما قالوا ذلك ، لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ أى موعظتنا إبلاء عذر إلى اللّه ، ولئلا نسب في النهى عن المنكر إلى بعض التفريط وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ولطمعنا في أن يتقوا بعض الاتقاء .

وقرئ مَعْذِرَةً بالنصب ، أى وعظناهم معذرة إلى ربكم ، أو اعتذرنا معذرة فَلَمَّا نَسُوا يعنى أهل القرية ، فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الظالمين الراكبين للمنكر . فإن قلت : الأمة الذين قالوا لِمَ تَعِظُونَ من أى الفريقين هم ؟ أمن فريق الناجين أم المعذبين ؟ قلت :

من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين . وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضا صحيحاً لعلمهم بحال القوم . وإذا علم الناهي حال المنهي وأن النهى لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهى . وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث . ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر «1» والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ،

---

(1) . قوله «على المآصر» المآصر هي المحابس ، من أصره اللّه حبسه . كذا في الصحاح . (ع)

كان ذلك عبثا منك ، ولم يكن إلا سببا للتلهى بك . وأما الآخرون فإنما لم يعرضوا عنهم إمّا لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم ، أو لفرط حرصهم وجدّهم في أمرهم كما وصف اللّه تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ وقيل : الأمة هم الموعوظون ، لما وعظوا قالوا للواعظين : لم تعظون منا قوما تزعمون أنّ اللّه مهلكهم أو معذبهم ؟ وعن ابن عباس رضى اللّه عنه أنه قال : يا ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا : لم تعظون قوما ؟ قال عكرمة : فقلت جعلني اللّه فداك ، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا ، لم تعظون قوما اللّه مهلكهم ، فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا . وعن الحسن :

نجت فرقتان وهلكت فرقة ، وهم الذين أخذوا الحيتان . وروى أنّ اليهود أُمروا باليوم الذين أُمرنا به وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا يوم السبت ، فابتلوا به وحرّم عليهم فيه الصيد ، وأمروا بتعظيمه ، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا بيضا سمانا كأنها المخاض ، لا يرى الماء من كثرتها ، ويوم لا يستبون لا تأتيهم ، فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم جاءهم إبليس فقال لهم : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا تسوقون

الحيتان إليها يوم السبت ، فلا تقدر على الخروج منها . وتأخذونها يوم الأحد ، وأخذ رجل منهم حوتا وربط في ذنبه خيطا إلى خشبة في الساحل ، ثم شواه يوم الأحد ، فوجد جاره ريح السمك فتطلع في تنوره فقال له : إنى أرى اللّه سيعذبك ، فلما لم يره عذب أخذ في السبت القابل حوتين ، فلما رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم ، صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا ، وكانوا نحوا من سبعين ألفاً ، فصار أهل القرية أثلاثا ، ثلث نهوا وكانوا نحواً من اثنى عشر ألفاً ، وثلث قالوا : لم تعظون قوما ؟ وثلث هم أصحاب الخطيئة . فلما لم ينتهوا قال المسلمون : إنا لا نساكنكم ، فقسموا القرية بجدار : للمسلمين باب ، وللمعتدين باب . ولعنهم داود عليه السلام ، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس شأنا ، فعلوا الجدار فنظروا فإذا هم قردة ، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القرود أنسباءها من الإنس ، والإنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود ، فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه ويبكى ، فيقول : ألم ننهك فيقول برأسه : بلى . وقيل : صار الشباب قردة ، والشيوخ خنازير . وعن الحسن : أكلوا واللّه أوخم أكلة أكلها أهلها ، أثقلها خزيا في الدنيا وأطولها عذابا في الآخرة ، هاه وايم اللّه ، ماحوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند اللّه من قتل رجل مسلم . ولكن اللّه جعل موعدا ، والساعة أدعى وأمرّ بَئِيسٍ شديد .

يقال : بؤس يبؤس بأسا ، إذا اشتدّ ، فهو بئيس . وقرئ : بئس ، بوزن حَذِر . وبئس على

تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء ، كما يقال : كبد في كبد . وبيس على قلب الهمزة ياء ، كذيب في ذئب ، وبيئس على فيعل ، بكسر الهمزة وفتحها . وبيس ، بوزن ريس ، على قلب همزة بيئس ياء وإدغام الياء فيها ،

(294/295)

وبيس على تخفيف بيس ، كهين في هين . وبائس على فاعل فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه ، كقوله وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً عبارة عن مسخهم قردة ، كقوله إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ والمعنى : أنّ اللّه تعالى عذبهم أوّلا بعذاب شديد ، فعتوا بعد ذلك فمسخهم . وقيل : فلما عتوا ، تكرير لقوله فَلَمَّا نَسُوا والعذاب البئيس : هو المسخ .

[سورة الأعراف (7) : آية 167]

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167)

تَأَذَّنَ رَبُّكَ عزم ربك ، وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام ، لأنّ العازم على الأمر يحدّث نفسه به ويؤذنها بفعله ، وأجرى مجرى فعل القسم ، كعلم اللّه ، وشهد اللّه . ولذلك أجيب

بما يجاب به القسم وهو قوله لَيَبْعَثَنَّ والمعنى : وإذ حتم ربك وكتب على نفسه ليبعثنّ على اليهود إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ فكانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس ، إلى أن بعث اللّه محمدا صلى اللّه عليه وسلم فضربها عليهم ، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر . ومعنى ليبعثنّ عليهم ليسلطنّ عليهم ، كقوله : بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 168 إلى 169]

وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (169)

وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً وفرقناهم فيها ، فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ الذين آمنوا منهم بالمدينة ، أو الذين وراء الصين وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه ، وهم الكفرة والفسقة . فإن قلت : ما محل دون ذلك ؟ قلت :

الرفع ، وهو صفة لموصوف محذوف ، معناه : ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ، ونحوه وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ بمعنى : وما منا أحد إلا له مقام وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ

بالنعم والنقم لَعَلَّهُمْ ينتهون فينيبون فَخَلَفَ من بعد المذكورين خَلْفٌ وهم الذين كانوا في زمن رسول اللّه

(295/295)

صلى اللّه عليه وسلم وَرِثُوا الْكِتابَ التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرءونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم ، ولا يعملون بها يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى أى حطام هذا الشيء الأدنى ، يريد الدنيا وما يتمتع به منها . وفي قوله هذَا الْأَدْنى تخسيس وتحقير . والأدنى : إما من الدنوّ بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب ، وإما من دنوّ الحال وسقوطها وقلتها ، والمراد : ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا لا يؤاخذنا اللّه بما أخذنا . وفاعل سَيُغْفَرُ الجار والمجرور ، وهو لَنا ويجوز أن يكون الأخذ الذي هو مصدر يأخذون وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ الواو للحال ، أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم ، غير تائبين . وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة ، والمصر لا غفران له أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ يعنى قوله في التوراة : من ارتكب ذنبا عظيما فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة وَدَرَسُوا ما فِيهِ في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب ، والذي عليه المجبرة «1» هو مذهب

اليهود بعينه كما ترى. وعن مالك بن دينار رحمه اللّه، يأتى على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به، قالوا: سيغفر لنا، لأنا لم نشرك باللّه شيئا، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداهنة، فهؤلاء من هذه الأمّة أشباه الذين ذكرهم اللّه، وتلا الآية. وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ من ذلك العرض الخسيس لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الرشا ومحارم اللّه. وقرئ: ورّثوا الكتاب. وألا تقولوا، بالتاء. وادّارسوا، بمعنى تدارسوا. وأفلا تعقلون، بالياء والتاء. فإن قلت: ما موقع قوله أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ؟ قلت: هو عطف بيان لميثاق الكتاب. ومعنى ميثاق الكتاب. الميثاق المذكور في الكتاب.

وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب وافتراء على اللّه.

وتقوّل عليه ما ليس بحق. وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان أَنْ لا يَقُولُوا مفعولا له. ومعناه: لئلا يقولوا. ويجوز أن تكون إِنْ مفسرة، ولا يَقُولُوا نهياً، كأنه قيل: ألم يقل لهم لا تقولوا على اللّه إلا الحق؟ فإن قلت: علام عطف قوله وَدَرَسُوا ما فِيهِ؟ قلت: على أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ لأنه تقرير، فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

[سورة الأعراف (7): آية 170]

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ فيه وجهان، أحدهما: أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ والمعنى: إنا لا نضيع أجرهم، لأنّ المصلحين في معنى الذين يمسكون

(1) . قوله «في غفران الذنوب والذي عليه المجبرة» يعنى أهل السنة ، ومذهبهم تجويز المغفرة بمجرد الفضل ، لا الطمع فيها مع الإصرار على المعصية . (ع)

(296/295)

بالكتاب ، كقوله إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا والثاني :

أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون ، ويكون قوله إِنَّا لا نُضِيعُ اعتراضا . وقرئ : يمسكون ، بالتشديد . وتنصره قراءة أبىّ . والذين مسكوا بالكتاب . فإن قلت : التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة . ومنها إقامة الصلاة ، فكيف أفردت ؟ قلت : إظهارا لمزية الصلاة لكونها عماد الدين ، وفارقة بين الكفر والإيمان . وقرأ ابن مسعود رضى اللّه عنه . والذين استمسكوا بالكتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 165 . 175﴾

(297/295)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم ﴾

الخطاب عام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى كافة الثقلين بل وإلى الملائكة قاله السبكي والبقاعيّ وغيرهما وهذا هو اللائق بمقامه صلى الله عليه وسلم وإن خالف في ذلك بعضهم ، وأما سائر الرسل فمبعوثون إلى أقوامهم فقط لقوله صلى الله عليه وسلم "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي أرسلت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض طيبة مسجداً وطهوراً ونصرت على عدوّي بالرعب يرعب مني مسيرة شهر وأطعمت الغنيمة دون من قبلي وقيل لي سل تعطه وأخبأت شفاعتي لأمتي" .

فإن قيل : كان آدم عليه السلام مبعوثاً إلى جميع أولاده ونوح عليه السلام لما خرج من السفينة كان مبعوثاً إلى الذين كانوا معه مع أن جميع الناس في ذلك الزمان ما كانوا إلا ذلك القوم ؟

(298/295)

أجيب : بأنّ ذلك لم يكن لعموم رسالتهما بل للحصر المذكور فليس ذلك من باب عموم الرسالة ، وقوله : ﴿ جميعاً ﴾ حال من إليكم أي : إن الكل يشترط عليهم الإيمان بي

والإتباع لي وقد طار الخبر بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى كل أفق وتغلغل في كل نفق ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بحر ولا بر في مشارق الأرض ومغاربها إلا وقد ألقاه إليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائله عنهم يوم القيامة وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه حين رفع إليه الذراع فنهش منها فقال : "أنا سيد الناس يوم القيامة" ، وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنا أوّل الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا قائدهم إذا وفدوا وأنا خطيبهم إذا أنصتوا وأنا مستشفعهم إذا حبسوا وأنا مبشرهم إذا يئسوا لواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر" ، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر" ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر وأنا أوّل شافع وأوّل مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أكرم الأوّلين والآخرين ولا فخر" ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي" والفخر ادعاء العظمة والكبر والشرف أي : لا أقول تبجحاً ولكن شكراً وتحدّثاً بالنعمة وما اجتمع بهم في مجمع إلا كان إمامهم قبل موته

وبعده اجتمع بهم ليلة الإسراء في بيت المقدس فصلى بهم إماماً ثم اجتمع بهم في السماء فصلى بجميع أهل السماء إماماً وأما يوم الجمع الأكبر والكرب الأعظم فيحيل الكل عليه وما أحال بعض الأكابر على بعض إلا علما منهم بأن الختام يكون به ليكون أظهر للاعتراف بإمامته والانقياد لطاعته لأنّ المحيل على المحيل على الشيء محيل على ذلك والحاصل أنه صلى الله عليه وسلم تظهر في ذلك الموقف رسالته بالفعل إلى كافة الخلق فيظهر سر هذه الآية ﴿ الذين يتبعون الرسول ﴾ قال البقاعيّ : ولما دل بالإضافة إلى اسم الذات ما يدل على جميع الصفات على عموم دعوته وشمول رسالته حتى للجنّ والملائكة أيد ذلك بقوله : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ فيكون محله جرّاً على الوصف وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله : ﴿ إليكم جميعاً ﴾ لأنه متعلق المضاف إليه فهو كالمتقدّم عليه قال الزمخشريّ : والأحسن أن يكون محله نصباً بإضمار أعني وهذا الذي يسمى النصب على المدح ، قال البيضاوي : أو مبتدأ خبره ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي : فالكل منقادون لأمره خاضعون له ثم علل ذلك بقوله : ﴿ يحيي ويميت ﴾ أي : له هاتان الصفتان مختصاً بهما ومن كان كذلك كان منفرداً بما ذكر ، قال البقاعيّ : وإذا راجعت ما يأتي إن شاء الله تعالى

في أوّل الفرقان مع ما مضى في أوائل الأنعام لم يبق عندك شك في دخول الملائكة عليهم السلام في عموم الدعوة اه .

(300/295)

وقد مرّت الإشارة إلى ذلك ولما أمر الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقول للناس : ﴿ إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ أمر الله تعالى جميع خلقه بالإيمان به وبرسوله بقوله : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ وذلك أن الإيمان بالله هو الأصل والإيمان برسوله فرع عليه فلهذا بدأ بالإيمان بالله ثم ثنى بالإيمان برسوله ثم وصفه تعالى بقوله : ﴿ النبيّ الأميّ ﴾ وتقدّم معناهما ﴿ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ أي : بما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه وقال قتادة : المراد بكلماته القرآن ، وقال مجاهد : عيسى ابن مريم لأنه خلق بقوله : كن فكان ولم يكن من نطفة تمنى ، ولهذا سمي كلمة الله وقيل : هو الكلمة التي تكون عنها عيسى وجميع خلقه وهي قوله : ﴿ كن ﴾ ﴿ واتبعوه ﴾ أي : واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي : لكي تهتدوا وترشدوا جعل تعالى رجاء الاهتداء أثر الإيمان والاتباع تنبيهاً على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شريعته فهو بعد في خطيئة الضلالة .

﴿ ومن قوم موسى ﴾ أي : من بني إسرائيل ﴿ أمة ﴾ أي : جماعة ﴿ يهدون بالحق ﴾ أي : يهدون الناس محقين أو بكلمة الحق ﴿ وبه ﴾ أي : بالحق ﴿ يعدلون ﴾ أي : يحكمون والمراد بتلك الأمّة الثابتون على الإيمان القائلون بالحق من أهل زمان موسى عليه السلام اتبع ذكر المرتابين الكافرين من بني إسرائيل بذكر أضدادهم كما هو عادة القرآن تنبيهاً على أن تعارض الخير والشرّ وتزاحم أهل الحق والباطل مستمر وقيل : هم الذين أسلموا من اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ واعترض ﴾ بأنهم كانوا قليلين في العدد ولفظ الأمة يقتضي الكثرة ، وأجيب : بأنهم لما كانوا مخلصين في الدين جاز إطلاق لفظ الأمة عليهم كما في قوله تعالى : ﴿ إنّ إبراهيم كان أمّة ﴾ (النحل ،)

(301/295)

وقيل : إنّ بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرّق بينهم وبين إخوانهم ففتح الله تعالى لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين وهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا . وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل ذهب به ليلة الإسراء نحوهم فكلمهم فقال لهم جبريل عليه السلام : هل تعرفون من تكلمون ؟ قالوا : لا ، قال :

هذا محمد النبي الأميّ فآمنوا به وقالوا : يا رسول الله إنّ موسى عليه السلام أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام فردّ محمد على موسى صلى الله عليهما وسلم السلام ثم أقرأهم عشر سور من القرآن أنزلت بمكة ولم تكن فريضة نزلت غير الصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت ولا يتظالموا ولا يتحاسدوا ولا يصل إليهم منا أحد ولا إلينا منهم أحد قال بعض المحققين : هذا القول ضعيف وإن كان البغوي صححه لوجوه : الأوّل : كونه أقرأهم عشر سور وقد نزل عليه أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضها ، الثاني : كون جبريل ذهب إليهم به ليلة الإسراء لم يرد بذلك نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث ، الثالث : أنّ أحداً منهم لا يصل إلينا ولا يصل إليهم منا أحد فمن الذي أوصل خبرهم إلينا فثبت بذلك بطلان هذا القول .

فإن قيل : إنّ يأجوج ومأجوج قد وصل خبرهم إلينا ولم يصل خبرنا إليهم أجيب : بالمنع فمن أين يعرف أنه لم يصل خبرنا إليهم ثم قال : فالمختار في تفسير هذه الآية أنها إما أن تكون قد نزلت في قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك وإما أن تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه .

﴿ وقطعناهم ﴾ أي : فرقنا بني إسرائيل وقوله تعالى : ﴿ اثنتي عشرة ﴾ حال وتأنيثه حملاً على الأمة ﴿ أسباطاً ﴾ بدل منه ولذلك جمع قبائل والأسباط أولاد الولد وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام ﴿ أمماً ﴾ بدل بعد بدل أو نعت لأسباطاً أي : وقطعناهم أمماً لأنّ كل سبط كان أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى لا تكاد تأتلف ﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه ﴾ أي : حين استسقوه في التيه ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست ﴾ أي : انفجرت والمعنى واحد وهو الانفتاح بسعة وكثرة يقال : بجست الماء فانبجس أي : فجرته فانفجر قاله الجوهري ، وعلى هذا التقرير فلا تباين بين الانبجاس المذكور هنا وبين الانفجار المذكور في سورة البقرة ، وقال آخرون : الانبجاس خروج الماء بقلة والانفجار خروجه بكثرة وطريق الجمع أن الماء ابتدأ بالخروج قليلاً ثم صار كثيراً وهذا الفرق مروي عن عمرو بن العلاء .

فإن قيل : هلا قيل : فضربه فانبجست ؟

أجيب : بأنه إنما حذف ذلك للإيماء على أن موسى لم يتوقف في الامتثال وإن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته ﴿ منه ﴾ أي : من الحجر ﴿ اثنتا عشرة عيناً ﴾ أي : بعدد الأسباط ﴿ قد علم كل أناس ﴾ أي : كل سبط منهم ﴿ مشربهم ﴾ أي : لا يدخل سبط على سبط في مشربهم ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ أي : في التيه ليقيهم من حر الشمس ﴿ وأنزلنا عليهم المنّ ﴾ الترنجبيل ﴿ والسلوى ﴾ أي : الطير السماني بتخفيف الميم والقصر جعل الله تعالى ذلك طعاماً لهم في التيه ، وقيل : المنّ الخبز والسلوى الإدام ، وقال ابن يحيى : السلوى طائر يشبه السماني وخاصيته أن أكل لحمه يلين القلوب القاسية يموت إذا سمع صوت الرعد كما أنّ الخطاف يقتله البرد فيلهمه الله تعالى أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون فيها مطر ولا رعد إلى انقضاء أوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينتشر في الأرض ﴿ كلوا ﴾ أي : وقلنا لهم كلوا ﴿ من طيبات ما رزقناكم ﴾ مما لم تعالجوه نوع معالجة وقوله تعالى : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ فيه حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات ما رزقناكم فامتنعوا من ذلك وسئموه وقالوا : لن نصبر على طعام واحد وسألوه غير ذلك لأنّ المكلف إذا أمر بشيء فتركه وعدل عنه إلى غيره يكون عاصياً بفعل ذلك فلهذا قال تعالى : ﴿ وما ظلمونا ﴾ أي : بفعل شيء مما قابلوا به الإحسان بالكفران ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بمخالفتهم ما أمروا به وقد سبق تفسير هذه الآية في سورة البقرة .

﴿ وإذ قيل لهم ﴾ أي : واذكر يا محمد لقومك إذا قيل لبني إسرائيل ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ أي : بيت المقدس ﴿ وكلوا منها ﴾ أي : من القرية ﴿ حيث شئتم وقولوا ﴾ أمرنا ﴿ حطة وادخلوا الباب ﴾ أي : باب القرية ﴿ سجداً ﴾ أي : سجوداً نحناء وقوله تعالى : ﴿ نغفر لكم ﴾ قرأه نافع وابن عامر بضم التاء وفتح الفاء على التأنيث والباقون بنون مفتوحة وكسر الفاء وقوله تعالى : ﴿ خطاياكم ﴾ قرأه نافع بكسر الطاء بعدها همزة مفتوحة ممدودة وبعد الهمزة تاء مضمومة على الجمع وابن عامر كذلك إلا أنه يقصر الهمزة على التوحيد وأبو عمرو بفتح الخاء والطاء وبعد الطاء ألف بعدها ياء وبعد الياء ألف على وزن قضاياكم والباقون بكسر الطاء بعدها همزة مفتوحة ممدودة بعدها تاء مكسورة ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ أي : بالطاعة ثواباً .

﴿ فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ فقالوا حبة في شعرة ودخلوا يزحفون على أستاههم أي : أدبارهم ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً ﴾ أي : عذاباً ﴿ من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ أي : وهذه القصة أيضاً تقدّمت في سورة البقرة لكن ألفاظ هذه الآية تخالف الآية المذكورة في (البقرة ،)

من وجوه : الأوّل : أنه قال هناك : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ﴾ وهنا قال : ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية ﴾ والثاني : أنه قال هناك : ﴿ فكلوا ﴾ بالفاء وقال هنا : ﴿ وكلوا ﴾ بالواو ، والثالث : أنه قال هناك : ﴿ رغداً ﴾ وأسقطه هنا ، والرابع : أنه قال هناك : ﴿ وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ﴾ وقال هنا : على التقديم والتأخير ، والخامس : أنه قال هناك : ﴿ نغفر لكم خطاياكم ﴾ وقال هنا : ﴿ نغفر لكم خطيئاتكم ﴾ والسادس : أنه قال هناك : ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ وهنا : حذف الواو ، والسابع : أنه قال هناك : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا ﴾ وقال هنا : ﴿ فأرسلنا عليهم ﴾ الثامن : أنه قال هناك : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ وقال هنا : ﴿ بما كانوا يظلمون ﴾ ولا منافاة بين هذه الألفاظ المختلفة أمّا الأول : وهو أنه قال هناك : ﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ وقال هنا : ﴿ اسكنوا ﴾ فلا منافاة بينهما لأنّ كل ساكن في موضع فلا بدّ من الدخول فيه ، وأمّا الثاني : وهو قوله هناك : ﴿ فكلوا ﴾ بالفاء ، وقال هنا : ﴿ وكلوا ﴾ بالواو فالفرق بينهما أنّ للدخول حالة مقتضية للأكل عقب الدخول فحسن دخول الفاء التي هي للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو عقب السكنى فيكون الأكل

حاصلاً متى شاؤوا فظهر الفرق ، وأمّا الثالث : وهو أنه ذكر هناك : ﴿ رغداً ﴾ وأسقطه هنا فلأنّ الأكل عقب الدخول ألذ وأكمل والأكل مع السكنى والاستمرار ليس كذلك فحسن دخول لفظ رغداً هناك : دون هنا ، وأمّا الرابع : وهو قوله هناك : ﴿ ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ﴾ وقال هنا على التقديم والتأخير فلا منافاة في ذلك لأنّ المقصود من ذلك تعظيم أمر الله تعالى وإظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير ، وأمّا الخامس : وهو أنه قال هناك : ﴿ خطاياكم ﴾ وقال هنا : ﴿ خطيئاتكم ﴾ فهو إشارة إلى أنّ هذه الذنوب سواء كانت قليلة أم كثيرة فهي مغفورة عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرّع ، وأمّا السادس : وهو قوله تعالى هناك :

(306/295)

﴿ وسنزيد ﴾ بالواو وقال هنا بحذفها

فالفائدة في حذف الواو أنه تعالى وعد بشيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب وإسقاط الواو لا يخل بذلك المعنى لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل : ماذا حصل بعد الغفران ؟ فقيل : إنه سيزيد المحسنين ، وأما السابع : وهو الفرق بين أنزلنا وبين أرسلنا ، فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بها فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل ثم

جعله كثيراً وهو نظير ما تقدّم من الفرق بين انبجست وانفجرت .

وأما الثامن وهو الفرق بين قوله تعالى : ﴿ يفسقون ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ يظلمون ﴾ فلأنهم لما ظلموا أنفسهم فيما غيروا وبدّلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله فوصفوا بكونهم ظالمين لأجل أنهم ظلموا أنفسهم ، وبكونهم فاسقين لأنهم خرجوا عن طاعة الله فالفائدة في ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الأمرين هذا ملخص كلام الرازي رحمه الله تعالى ثم قال : وتمام العلم بذلك عند الله تعالى .

(307/295)

﴿ واسألهم ﴾ أي : اسأل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال توبيخ وتقريع ﴿ عن القرية ﴾ أي : عن خبرها وما وقع بأهلها لا سؤال استفهام لأنه صلى الله عليه وسلم كان قد علم حال هذه القرية بوحي من الله تعالى إليه وإخباره إياه بحالهم وإنما القصد من هذا السؤال تقرير اعتداء اليهود وإقدامهم على الكفر والمعاصي قديماً ، وأن إصرارهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وإنكارهم نبوته ومعجزاته ليس بشيء قد حدث الآن في زمانه ، بل إصرارهم على الكفر كان حاصلاً في قديم الزمان ، وفي الإخبار بهذه القصة معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان أمياً لم يقرأ الكتب القديمة

ولم يعرف أخبار الأوّلين ثم أخبرهم بما جرى لأسلافهم في قديم الزمان وأنهم بسبب مخالفتهم لأمر الله تعالى مسخوا قردة ، واختلفوا في هذه القرية فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور على شاطىء البحر ، وقال الزهري : هي طبرية الشام ، وقيل : مدين والعرب تسمي المدينة قرية ، وعن أبي عمرو بن العلاء : ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، يعني : رجلين من أهل المدن . ﴿ التي كانت حاضرة البحر ﴾ أي : مجاورة بحر القلزم على شاطئه والحضور نقيض الغيبة كقوله تعالى : ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ (البقرة ،)

(308/295)

﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ يعدون ﴾ أي : يعتدون ﴿ في السبت ﴾ أي : يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد فيه وقد نهوا عنه ، وقوله تعالى : ﴿ إذ تأتيهم حيتانهم ﴾ ظرف ليعدون ﴿ يوم سبتهم شرعاً ﴾ أي : ظاهرة على الماء كثيرة جمع شارع ، وقال الضحاك : متتابعة ، وعن الحسن تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض والحيتان السمك وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة والسبت مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد ، فمعناه يعدون في تعظيم هذا اليوم وكذلك قوله : ﴿ يوم

سبتهم ﴾ معناه يوم تعظيمهم أمر السبت يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ويوم لا يسبتون ﴾ أي : لا يعظمون السبت أي : سائر الأيام ﴿ لا تأتيهم ﴾ أي : الحيتان ابتلاء من الله تعالى ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل ذلك البلاء الشديد ﴿ نبلوهم بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كانوا يفسقون ﴾ وقوله تعالى:

﴿ وإذ ﴾ معطوف على إذ قبله ﴿ قالت أمة ﴾ أي : جماعة ﴿ منهم ﴾ أي : من أهل القرية لم تصد ولم تنه لمن نهى ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ في الدنيا بعذاب من عنده لأنهم لا ينتهون عن الفساد ولا يتعظون بالمواعظ ﴿ أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ في الآخرة لتماديهم في العصيان ﴿ قالوا ﴾ أي : الواعظون موعظتنا ﴿ معذرة ﴾ نعتذر بها ﴿ إلى ربكم ﴾ أي : لئلا ننسب إلى تقصير في ترك النهي فإنّ النهي عن المنكر يجب وإن علم الناهي أن مرتكبه لا يقلع عن معصيته وقيل : إذا علم الناهي حال المنهي وأنّ النهي لا يؤثر فيه سقط النهي ، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث ، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر أو الجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه كان ذلك عبثاً منك ولم يكن إلا سبباً للتلهي بك ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ أي : وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم فيه من الصيد ؛ إذ اليأس لا يحصل إلا بالهلاك .

(309/295)

﴿ فلما نسوا ﴾ أي : تركوا ترك الناسي ﴿ ما ذكروا ﴾ أي : وعظوا ﴿ به ﴾ ولم يرجعوا ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا ﴾ أي : بالاعتداء ومخالفة أمر الله تعالى ﴿ بعذاب بئيس ﴾ أي : شديد ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كانوا يفسقون ﴾ .

روي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال أسمع الله تعالى يقول : ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ فلا أدري ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكي ، قال عكرمة : فقلت جعلني الله تعالى فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه ، قالوا : لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم ، وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم ، قال : فأعجبه قولي ورضي به وأمر لي ببردين فألبسنيهما ، وقال نجت الساكتة ، وقال عمار بن زيان : نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، والذين قالوا معذرة ، وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن .

فإن قيل : إنّ ترك الوعظ معصية والنهي أيضاً عنه معصية فوجب دخول هؤلاء التاركين للوعظ الناهين عنه تحت قوله تعالى : ﴿ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ ولهذا قال ابن زيد : نجت الناهية وهلكت الفرقتان . أجيب : بأنّ هذا غير لازم لأنّ النهي عن المنكر إنما يجب على الكفاية فإذا قام به البعض سقط عن الباقين .

﴿ فيما عتوا عما نهوا عنه ﴾ قال ابن عباس : أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة

عن الإباء والعصيان أي : فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه وتمرّدوا في العصيان من اعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرّم الله تعالى عليهم من صيد السمك في يوم السبت وأكله . ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ أي : صاغرين فكانوها كقوله تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ (النحل ،)

وهذا يقتضي أنّ الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم ، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى .

(310/295)

وروي أنّ اليهود أمروا باليوم الذي أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا يوم السبت فابتلوا به وحرّم الله عليهم فيه الصيد ، وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعاً بيضاً سماناً كأنها المخاض لا يرى الماء من كثرتها ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم جاءهم إبليس فقال لهم : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضاً تسوقون الحيتان إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ، وتأخذونها يوم الأحد ، وأخذ رجل منهم حوتاً وربط في ذنبه خيطاً إلى خشبة في الساحل ثم شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع في تنوره فقال : إني أرى الله سيعذبك فلما لم يره

عذب أخذ في السبت القابل حوتين ، فلما رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحواً من سبعين ألفاً ، فصار أهل القرية أثلاثاً ثلثاً نهوا وكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً ، وثلثاً قالوا : لم تعظون قوماً ؟ وثلثاهم أصحاب الخطيئة ، فلما لم ينتهوا قال المسلمون : إنا لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ، ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إنّ للناس شأناً فعلوا الجدار فنظروا فإذا هم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القرود أنسباءها من الإنس والإنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود فجعل القرد يأتي نسيبه فيشمّ ثيابه ويبكي فيقول : ألم ننهك فيقول برأسه بلى ، وقيل : صار الشباب قردة والشيوخ خنازير . واختلفوا في أنّ الذين مسخوا هل بقوا قردة وهل هذه القردة من نسلهم أو هلكوا وانقطع نسلهم ؟ لا دلالة في الآية على شيء من ذلك ، وعن الحسن : أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزياً في الدنيا وأطولها عذاباً في الآخرة ، وعن جابر : بين العبد وبين رزقه حجاب فإن صبر خرج إليه وإلا هتك الحجاب ولم ينل إلا ما قدّر له .

(311/295)

قال الزمخشريّ : هاه وايم الله ما حوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ، ولكن الله تعالى جعل موعداً والساعة أدهى وأمرّ وقوله تعالى:

﴿ وإذا ﴾ عطف على واسألهم أي : واذكر لهم حين ﴿ تأذن ﴾ أي : اعلم ﴿ ربك ﴾ وأجري مجرى القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بجوابه وهو ﴿ ليبعثن عليهم ﴾ أي : اليهود ﴿ إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ أي : بالإهانة والذل وأخذ الجزية منهم فبعث الله تعالى عليهم سليمان وبعده بختنصر فقتلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية ، وكانوا يؤدونها إلى المجوس إلى أن بعث الله تعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم ولا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر حتى ينزل عيسى ابن مريم فإنه لا يقبل الجزية ولا يقبل إلا الإسلام .

فإن قيل : إنه يحكم بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته أخذ الجزية أو الإسلام أجيب : بأنّ شريعته بذلك مغياة بنزول عيسى عليه السلام وقوله تعالى : ﴿ إنّ ربك سريع العقاب ﴾ أي : لمن أقام على الكفر كهيئة الدليل على أنه يجمع لهم مع ذل الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمراً عليهم في الدنيا والآخرة ، ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ وإنه لغفور ﴾ أي : لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل في دين الإسلام ﴿ رحيم ﴾ بهم .

﴿ وقطعناهم ﴾ أي : فرقناهم ﴿ في الأرض أمماً ﴾ أي : فرقاً بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم تتمة لإدبارهم حتى لا تكون لهم شوكة قط و ﴿ أمماً ﴾ مفعول ثانٍ أو حال وقوله تعالى : ﴿ منهم الصالحون ﴾ صفة أو بدل منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم ﴿ ومنهم ﴾ أي : أناس ﴿ دون ذلك ﴾ أي : منحطون عن الصلاح فهم كفرتهم وفسقتهم

﴿ وبلوناهم ﴾ أي : اختبرناهم جميعاً الصالح وغيره ﴿ بالحسنات ﴾ أي : بالخصب والعافية ﴿ والسيآت ﴾ أي : بالجور والشدّة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي : كي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا إليه . قال أهل المعاني : وكل واحد من الحسنات والسيآت يدعو إلى الطاعة أما النعم فلأجل الترغيب وأما النقم فلأجل الترهيب .

﴿ فخلف من بعدهم ﴾ أي : هؤلاء الذين وصفناهم ﴿ خلف ﴾ والخَلف القرن الذي يجيء من بعد وهو بسكون اللام شائع في الشر وبفتحها في الخير يقال : خَلَف صدق بفتح اللام وخلْف سوء بسكونها وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح قال حسان بن ثابت:

*لنا القدم الأولى إليك وخلفنا ** لأوّلنا في طاعة الله تابع*

وقال لبيد في الذم:

*ذهب الذين يعاش في أكنافهم ** وبقيت في خلف كجلد الأجرب*

فحرك اللام والخلف مصدر نعت به ، ولذلك يقع على الواحد والجمع والمراد به الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أي : التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أي : هذا الشيء الفاني الأدنى أي : الدنيا وما يتمتع به فيها وفي قوله : ﴿ هذا الأدنى ﴾ تخسيس وتحقير ، والأدنى إما من الدنو بمعنى القرب لأنه عاجل قريب ، وإما من دون الحال وسقوطها وقلتها والعرض بالفتح جميع متاع الدنيا كما يقال : الدنيا عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر ، والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير وجمعه عروض . والمعنى : أنهم يأخذون حطام الدنيا وهو الشيء التافه الخسيس الحقير ؛ لأنّ الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا في الأحكام ويعلمون أنه حرام ﴿ و ﴾ مع إقدامهم على هذا الذنب العظيم وإصرارهم عليه ﴿ يقولون سيغفر لنا ﴾ أي : لا يؤاخذهم الله تعالى بذلك فيتمنون على الله الأمانيّ الباطلة ، وعن شدّاد بن أوس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني" ؛

لأنّ اليهود كانوا يقومون على الذنوب ويقولون : سيغفر لنا ، وهذا هو التمني بعينه . وقوله تعالى : ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ الواو فيه للحال أي : يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم غير تائبين وليس في التوراة وعد المغفرة مع الإصرار وقوله تعالى : ﴿ ألم يؤخذ ﴾ استفهام تقرير ﴿ عليهم ميثاق الكتاب ﴾ أي : التوراة والإضافة بمعنى في ﴿ أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ أي : المعلوم شأنه وليس من المعلوم إثبات المغفرة على القطع بغير توبة ، بل ذلك خروج عن ميثاق الكتاب وقوله تعالى : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أي : ما في ذلك الميثاق الذي في الكتاب أو الكتاب بتقرير القراءة للحفظ

(314/295)

عطف على ﴿ ألم يؤخذ ﴾ من حيث المعنى فإنه تقرير أو على ورثوا و ﴿ ألم يؤخذ ﴾ اعتراض ﴿ والدار الآخرة خير ﴾ أي : وما في الدار الآخرة مما أعده الله خير ﴿ للذين يتقون ﴾ الله ويخافون عقابه ﴿ أفلا يعقلون ﴾ أي : حين أخذوا ما يشقيهم ويفنى بدل ما يسعدهم ويبقى أنّ الدار الآخرة خير ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب ويكون المراد الإعلام بتناهي الغضب ، والباقون بالياء على الغيبة .

﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ يقال : مسكت بالشيء وتمسكت به وأمسكت به

والتمسك بالكتاب العمل بما فيه وإحلال حلاله وتحريم حرامه وإقامة حدوده والتمسك بأحكامه وقرأ شعبة بسكون الميم وتخفيف السين والباقون بفتح الميم وتشديد السين ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي : وداوموا على إقامتها في مواقيتها وإنما أفردها بالذكر وإن كانت الصلاة داخلة في التمسك بالكتاب تنبيهاً على عظم قدرها وأنها أعظم العبادات بعد الإيمان بالله تعالى وهذه الآية نزلت في الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه وقوله تعالى : ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ الجملة خبر الذين وفيه وضع الظاهر موضع المضمر أي : أجرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 268 . 279 ﴾

(315/295)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ معطوف على ما قبله ، أي واسألهم وقت تأذن ربك ، وتأذن تفعل من الأيذان ، وهو الإعلام .

قال أبو علي الفارسي : آذن بالمد أعلم ، وأذّن بالتشديد نادى .

وقال قوم : كلاهما بمعنى أعلم ، كما يقال أيقن وتيقن ، والمعنى في الآية : واسألهم وقت أن

وقع الإعلام لهم من ربك ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : وفي هذا الفعل معنى القسم كعلم الله ، وشهد الله ، ولذلك أجيب بما يجاب به القسم ، حيث قال : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : ليرسلنّ عليهم ، ويسلطن ، كقوله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [الإسراء : 5] ﴿ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ غاية لسومهم سوء العذاب ممن يبعثه الله عليهم ، وقد كانوا أقماهم الله هكذا أذلاء مستضعفين معذبين بأيدي أهل الملل ، وهكذا هم في هذه الملة الإسلامية ، في كل قطر من أقطار الأرض ، في الذلة المضروبة عليهم والعذاب والصغار ، يسلمون الجزية بحقن دمائهم ، ويمتهنهم المسلمون فيما فيه ذلة من الأعمال التي يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار .

ومعنى ﴿ يَسُومُهُمْ ﴾ : يذيقهم .

وقد تقدّم بيان أصل معناه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب ﴾ يعاجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : كثير الغفران والرحمة .

﴿ وقطعناهم فِي الأرض ﴾ أي : فرّقناهم في جوانبها ، أو شتتنا أمرهم ، فلم تجتمع لهم كلمة ، و ﴿ أُمَمًا ﴾ منتصب على الحال ، أو مفعول ثان لقطعنا ، على تضمينه معنى صيرنا ، وجملة ﴿ مِّنْهُمُ الصالحون ﴾ بدل من ﴿ أمماً ﴾ ، قيل : هم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبدّل .

وقيل : هم الذين سكنوا وراء الصين كما تقدّم بيانه قبل هذا ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ أي : دون هذا الوصف الذي اتصفت به الطائفة الأولى وهو الصلاح ، ومحل ﴿ دُونِ ذَلِكَ ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : ومنهم أناس دون ذلك ، والمراد بهؤلاء هم من لم يؤمن ، بل انهمك في المخالفة لما أمره الله به .

قال النحاس ﴿ دُونِ ﴾ منصوب على الظرف ، ولا نعلم أحداً رفعه ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ أي : امتحناهم بالخير والشرّ رجاء أن يرجعوا مما هم من الكفر والمعاصي .

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ المراد بهم : أولاد الذين قطعهم الله في الأرض .

قال أبو حاتم : الخلف بسكون اللام : الأولاد ، الواحد والجمع سواء .

والخلف بفتح اللام البدل ولداً كان أو غيره .

وقال ابن الأعرابي : الخلف بالفتح الصالح ، وبالسكون الطالح .

قال لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . . وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ومنه قيل للرديء من الكلام خلف بالسكون ، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر ، ومنه قول حسان ابن ثابت :

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا . . . لأوّلنا في طاعة الله تابع

﴿ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ أي : التوراة من أسلافهم يقرءونها ولا يعملون بها ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى ﴾ أخبر الله عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم وقوّة نهمتهم ، والأدنى : مأخوذ من الدنوّ ، وهو القرب ، أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى ، وهو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشاء ، وما هو مجعول لهم من السحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله ، وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة ، وكتمهم لما يكتمونه منها .

وقيل : إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط ، أي إنهم يأخذون عرض الشيء الدنيء الساقط .

﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ أي : يعللون أنفسهم بالمغفرة ، مع تماديهم في الضلالة ، وعدم رجوعهم إلى الحق .

(317/295)

وجملة ﴿ يَأْخُذُونَ ﴾ يحتمل أن تكون مستأنفة لبيان حالهم ، أو في محل نصب على الحال .

وجملة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ معطوفة عليها ، والمراد بهذا الكلام : التقريع والتوبيخ لهم ، وجملة ﴿

وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي يتعللون بالمغفرة ، والحال أنهم إذا أتاهم عرض مثل العرض الذي كانوا يأخذونه أخذوه غير مبالين بالعقوبة ، ولا خائفين من التبعة .

وقيل : الضمير في ﴿ يَأْتِهِمْ ﴾ ليهود المدينة ، أي وإن يأت هؤلاء اليهود الذين هم في عصر محمد صلى الله عليه وسلم عرض مثل العرض الذي كان يأخذه أسلافهم ، أخذوه كما أخذه أسلافهم .

﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ أي : التوراة ﴿ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وجملة ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ معطوفة على ﴿ يُؤْخَذْ ﴾ على المعنى ، وقيل : على ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ ، والأولى : أن تكون في محل نصب على الحال بتقدير قد .

والمعنى : أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب ، والحال أن قد درسوا ما في الكتاب وعلموه ، فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل ، وذلك أشدّ ذنباً وأعظم جرماً .

وقيل : معنى ﴿ دَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ أي : محوه بترك العمل به والفهم له ، من قولهم درست الريح الآثار : إذا محتها .

﴿ والدار الآخرة خَيْرٌ ﴾ من ذلك العرض الذي أخذوه وآثروه عليها ﴿ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الله ، ويجتنبون معاصيه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فتعلمون بهذا وتفهمونه ، وفي هذا من التوبيخ

والتقريع ما لا يقادر قدره .

قوله : ﴿ والذين يُمَسّكُونَ بالكتاب ﴾ قرأ الجمهور ﴿ يمسكون ﴾ بالتشديد من مسك وتمسك ، أي استمسك بالكتاب ، وهو التوراة .

وقرأ أبو العالية ، وعاصم ، في رواية أبي بكر ، بالتخفيف من أمسك يمسك .

(318/295)

وروي عن أبيّ بن كعب أنه قرأ "مسكوا" والمعنى : أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب ، ولا يعملون بما فيه ، مع كونهم قد درسوه وعرفوه ، وهم من تقدّم ذكره .

وطائفة يتمسكون بالكتاب ، أي التوراة ويعملون بما فيه ، ويرجعون إليه في أمر دينهم ، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله ، والموصول مبتدأ .

و ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ خبره ، أي لا نضيع أجر المصلحين منهم ، وإنما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة ، لأنها رأس العبادات وأعظمها ، فكان ذلك وجهاً لتخصيصها بالذكر .

وقيل لأنها تقام في أوقات مخصوصة ، والتمسك بالكتاب مستمرّ ، فذكرت لهذا وفيه نظر .

فإن كل عبادة في الغالب تختصّ بوقت معين ، ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على الموصول الذي قبله ، وهو ﴿ للذين يتقون ﴾ ، وتكون ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ جملة معترضة .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ يَسُومُهُمْ سُوء العذاب ﴾ قال محمد وأمته إلى يوم القيامة وسوء العذاب : الجزية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، قال ﴿ سُوء العذاب ﴾ الخراج .

وفي قوله : ﴿ وقطعناهم ﴾ قال : هم اليهود بسطهم الله في الأرض ، فليس منها بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، في قوله : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ قال : على اليهود والنصارى ﴿ إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سُوء العذاب ﴾ فبعث الله عليهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يأخذون منهم الجزية ، وهم صاغرون ﴿ وقطعناهم فِي الأرض أُمَمًا ﴾ قال : يهود ﴿ مّنْهُمُ الصالحون ﴾ وهم مسلمة أهل الكتاب ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ قال : اليهود ﴿ وبلوناهم بالحسنات ﴾ قال : الرخاء والعافية ﴿ والسيئات ﴾ قال : البلاء والعقوبة .

(319/295)

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ بالخصب والجدب .

وأخرج أبو الشيخ ، عنه ، أنه سئل عن هذه الآية ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى ﴾ قال : أقوام يقبلون على الدنيا ، فيأكلونها ، ويتبعون رخص القرآن ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ قال : النصارى ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى ﴾ قال : ما أشرف لهم من شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً يشتهونه أخذوه ، ويتمنون المغفرة ، وإن يجدوا الغد مثله يأخذوه .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ الآية يقول : يأخذون ما أصابوا ويتركون ما شاءوا من حلال أو حرام ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكتاب أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحق ﴾ فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون إليها ولا يتوبون منها .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن أبي زيد ، في قوله : ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ قال :

علموا ما في الكتاب ، لم يأتوه بجهالة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن ، في قوله : ﴿ والذين يُمَسّكُونَ بالكتاب ﴾ قال : هي لأهل الإيمان منهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد في قوله : ﴿ والذين يُمَسّكُونَ بالكتاب ﴾ قال : من اليهود والنصارى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(320/295)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والتسعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/296)

الجزء السادس والتسعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 171 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 174 ﴾ من نفس السورة

(4/296)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر الكتاب أنه رهبهم من مخالفته ورغبهم في مؤالفته ، وكان عذاب الآخرة مستقبلاً وغائباً ، وكان ما هذا شأنه يؤثر في الجامدين ، أمره أن يذكرهم بترهيب دنيوي مضى إيقاعه بهم ، ليأخذوا مواثيق الكتاب لغاية الجد مع أنه لا يعلمه إلا علماؤهم ، فيكون علم الأمي له من أعلام نبوته الظاهرة فقال : ﴿ وإذ ﴾ أي اذكر لهم هذا ، فإن لمن يتعظوا اذكر لهم إذ ﴿ نتقنا ﴾ أي قلعنا ورفعنا ، وأتى بنون العظمة لزيادة الترهيب ﴿ الجبل ﴾ عرفه لمعرفتهم به ، وعبر لدلالة لفظه على الصعوبة والشدة دون الطور - كما في البقرة - لأن السياق لبيان نكدهم بإسراعهم في المعاصي الدالة على غلظ القلب .

ولما كان مستغرقاً لجميع الجهة الموازية لعساكرهم ، حذف الجار فقال : ﴿ فوقهم ﴾ ثم بين أنه كان أكبر منهم بقوله : ﴿ كأنه ظلة ﴾ أي سقف ، وحقق أنه صار عليهم موازياً لهم من جهة الفوق كالسقف بقوله : ﴿ وظنوا ﴾ هو على حقيقته ﴿ أنه واقع ﴾ ولما كان ما تقدم قد حقق العلو ، لم يحتج إلى حرف الاستعلاء ، فقال مشيراً إلى السرعة واللصوق :

﴿ بهم ﴾ أي إن لم يأخذوا عهود التوارة ، قالوا : ولما رأوا ذلك خر كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ، وصار ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فزعاً من سقوطه ، وهي سنة لهم في سجودهم إلى الآن ، يقولون : هذه السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة .

ولما كان كأنه قيل : فقالوا : أخذنا يارب عهودك ، قال مشيراً إلى عظمته ليشتد إقبالهم عليه إشارة إلى أنه علة رفع الجبل : ﴿ خذوا ما آتيناكم ﴾ أي بعظمتنا ، فهو جدير بالإقبال عليه وإن يعتقد فيه الكمال ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ بقوة ﴾ أي عزم عظيم على احتمال مشاقه ؛ ولما كان الأخذ للشيء بقوة ربما نسيه في وقت ، قال : ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ أي من الأوامر والنواهي وغيرهما – فلا تنسوه ﴿ لعلكم تتقون ﴾ أي ليكون حالكم حال من يرجى تقواه ، فدل سبحانه بهذا على تأكيد المواثيق عليهم في أخذ جميع ما في الكتاب الذي من جملته ألا تقولوا على الله إلا الحق ولا تكتموا شيئاً منه ، قالوا : ولما قرأ موسى عليه السلام الألواح وفيها كتاب الله لم يبق على الأرض شجر ولا جبل ولا حجر إلا اهتز ، فلذلك لا ترى يهودياً يسمع التوارة إلا اهتز وأنقض رأسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 146 . 147 ﴾

(6/296)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) ﴾

قال أبو عبيدة : أصل النتق قلع الشيء من موضعه ، والرمي به .

يقال : نتق ما في الجراب إذا رمى به وصبه .

وامرأة ناتق ومنتاق إذا كثر ولدها لأنها ترمي بأولادها رمياً فمعنى ﴿ نَتَقْنَا الجبل ﴾ أي قلعناه من أصله وجعلناه فوقهم وقوله : ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ قال ابن عباس : كأنه سقيفة والظلة كل ما أظلك من سقف بيت أو سحابة أو جناح حائط ، والجمع ظلل وظلال ، وهذه القصة مذكورة في سورة البقرة ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ قال المفسرون : علموا وأيقنوا .

وقال أهل المعاني : قوي في نفوسهم أنه واقع بهم إن خالفوه ، وهذا هو الأظهر في معنى الظن ، ومضى الكلام فيه عند قوله ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : 46] روي أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها ، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم ، وكان فرسخاً في فرسخ ، وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم ، فلما نظروا إلى الجبل خر كل واحد منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ، وهو ينظر بعينه اليمنى خوفاً من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى ، ويقولون هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة .

ثم قال تعالى : ﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ أي وقلنا خذوا ما آتيناكم أو قائلين : خذوا ما آتيناكم من الكتاب بقوة وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه ﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ من الأوامر والنواهي ، أي واذكروا ما فيه من الثواب والعقاب ، ويجوز أن يراد : خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة ، إن كنتم تطيقونه كقوله : ﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السموات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن : 33] واذكروا ما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة لعلكم تتقون ما أنتم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 38 ﴾

(8/296)

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ ﴾

يقول : قلعنا ورفعنا الجبل فوقهم ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أي كهيئة الغمام ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي أنه يعني : أيقنوا الجبل واقع بهم ﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ أي قيل لهم : اعملوا بما أعطيناكم من التوراة بقوة أي بجد ومواظبة ﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ أي اعملوا ما فيه من

الحلال والحرام والأمر والنهي ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ المعاصي ، وذلك حين أبوا أن يقبلوا التوراة ، فرفع الجبل فوقهم فقبلوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(9/296)

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ ﴾ أي قلعنا الجبل .

قال مجاهد : كما ينتق الزبد . وقال المؤرخ : قطعنا .

وقال أبو عبيدة : زعزعنا . وقال الفراء : خلقنا . وقال بعضهم رفعناه . واحتج بقول العجاج :

ينتقن أقتاد الشليل نتقاً . . . يعني يرفعه عن ظهره .

وقال آخر :

ونتّقوا أحلامنا الأثاقلا . . . وقال بعضهم : أصل النتق والنتوق أن يقلع الشيء من موضعه فيرمى . قال أبان بن تغلب : سمعت رجلاً من العرب يقول لغلامه : فخذ الحجر ألقه فانتقه أي نكسه وانثره .

ويقال للمرأة الكثيرة الولد : ناتق ومنتاق لأنها ترمي [صدرها] رمياً قال النابغة :

لم يحرموا حسن الغذاء وأُمهم . . . حقت عليك بناتق مذكار

وقال بعضهم : هو من التحريك فقال : ينتقي السير أي حَرِّكني ، يقال : ينتق برجله ويركض إذا حركت رجله على الدابة حين تعدو به . ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ الظلة ما أظلك ﴿ وظنوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ نازل بهم ﴿ خُذُواْ ﴾ أي قلنا خذوا ﴿ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ فاعملوا به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وذلك حين أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة ويعملوا بها لتغليظها وكانت شريعة ثقيلة فرفع الله عز وجل جبلاً على رؤوسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخاً في فرسخ .

وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها ليقعن عليكم . قال الحسن البصري : فلما نظروا للجبل خرَّ كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى على الجبل خوفاً من أن يسقط عليهم فلذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلاّ على حاجبه الأيسر ، يقولون : هذه السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة .

نشر موسى الألواح فيها كتاب الله كتب بيده لم يبقَ على وجه الأرض جبل ، ولا بحر ولا حجر إلاّ اهتزّ فليس اليوم يهودي على الأرض صغير ولا كبير يقرأ عليه التوراة إلاّ اهتزّ وتعفّر لها رأسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(10/296)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ . . . ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : زعزعناه ، قاله ابن قتيبة ، ومنه قول العجاج :

قد جرّبوا أخلاقنا الجلائلا . . . . . ونتقوا أحلامنا الأثاقلا

والثاني : بمعنى جذبناه ، والنتق : الجذب ومنه قيل للمرأة الولود ناتق ، قال النابغة :

لم يحرموا حسن الغذاء وأمهم . . . طفحت عليك بناتقٍ مذكار .

واختلف في سبب تسميتها ناتقاً ، فقيل لأن : خروج أولادها بمنزلة الجذب . وقيل : لأنها تجذب ماء الفحل تؤديه ولداً .

والثالث : معناه ورفعناه عليهم من أصله .

قال الفراء : رفع الجبل على عسكرهم فرسخاً في فرسخ .

قال مجاهد : وسبب رفع الجبل عليهم أنهم أبوا أن يقبلوا فرائض التوراة لما فيها من المشقة ، فوعظهم موسى فلم يقبلوا ، فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم : إن أخذتموه بجد واجتهاد وإلا ألقي عليكم . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : فأخذوه بقوة ثم نكثوا بعد .

واختلف في سبب رفع الجبل عليهم هل كان انتقاماً منهم أو إنعاماً عليهم ؟ على قولين :

أحدهما : أنه كان انتقاماً بالخوف الذي دخل عليهم .

والثاني : كان إنعاماً لإقلاعهم به عن المعصية .

﴿ . . . وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه غلب في نفوسهم انه واقع بهم على حقيقة الظن .

والثاني : أنهم تيقنوه لما عاينوا من ارتفاعه عليهم ، قاله الحسن .

﴿ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ ﴾ يعني التوارة .

﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بجد واجتهاد .

والثاني : بنية صادقة وطاعة خالصة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(11/296)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾

﴿ نتقنا ﴾ معناه اقتلعنا ورفعنا فكأن النتق اقتلاع الشيء ، تقول العرب : نتقت الزبدة من فم القربة ، ومنه قول الشاعر : [الرجز]

ونتقوا أحلامنا الأثاقلا . . . والناتق الرحم التي تقلع الولد من الرجل ، ومنه قول النابغة :

لم يحرموا حسن الغداء وأمهم . . . دحقت عليك بناتق مذكار

(12/296)

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " عليكم بتزويج الأبكار فإنهن أنتق أرحاماً وأطيب أفواهاً " الحديث . وقد جاء في القرآن بدل هذه اللفظة في هذه القصة بعينها رفعنا لكن ﴿ نتقنا ﴾ ، و﴿ فوقَهم ﴾ أعطت الرفع بزيادة قرينة هي أن الجبل اقتلعته الملائكة وأمر الله إياه ، وروي أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فقال عن الله تعالى هذا كتاب الله أتقبلونه بما فيه ؟ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم ، قالوا : انشر علينا ما فيها فإن كانت فرائضها يسيرة وحدودها خفيفة قبلناها ، قال : قبلوها بما فيها قالوا : لا ، فراجعهم موسى فراجعوا ثلاثاً فأوحى الله عز وجل إلى الجبل فانقلع وارتفع فوق رؤوسهم ، فقال لهم موسى صلى الله عليه وسلم ألا ترون ما يقول ربي ؟ : لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل قال الحسن البصري : فلما رأوا إلى الجبل خر كل واحد منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً أن يسقط عليه فلذلك ليس في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر

يقولون هذه السجدة التي رفعت بها عنا العقوبة ، و" الظلة " ما أظل ومنه ﴿ من ظلل من الغمام ﴾ [البقرة : 210] ومنه ﴿ عذاب يوم الظلة ﴾ [الشعراء : 189] ومنه قول أسيد بن حضير للنبي صلى الله عليه وسلم : قرأت البارحة " فغشي الدار مثل الظلة فيها أمثال المصابيح " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " تلك السكينة تنزلت للقرآن " فإن قيل فإذا كان الجبل ظلة فما معنى : كأنه ؟ فالجواب أن البشر إنما اعتادوا هذه الأجرام الأرضية ظللاً إذا كانت على عمد ، فلما كان الجبل على غير عمد قيل ﴿ كأنه ظلة ﴾ أي كأنه على عمد ، ﴿ وظنوا ﴾ قال المفسرون : معناه أيقنوا .

(13/296)

قال القاضي أبو محمد : وليس الأمر عندي كذلك بل هو موضع غلبة الظن مع بقاء الرجاء ، وكيف يوقنون بوقوعه وموسى عليه السلام يقول : إن الرمي به إنما هو بشرط أن لا يقبلوا التوراة والظن إنما يقع ويستعمل في اليقين متى كان ذلك المتيقن لم يخرج إلى الحواس وقد يبين هذا فيما سلف من هذا الكتاب ثم قبل لهم في وقت ارتفاع الجبل : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ فأخذوها والتزموا جميع ما تضمنته من شدة ورخاء فما وفوا ، وقرأ جمهور الناس : ﴿ واذكروا ﴾ وقرأ الأعمش فيما حكى أبو الفتح عنه : " واذكروا ولعلكم " على

ترجيهم وهذا تشدد في حفظها والتهمم بأمرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(14/296)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم ﴾

أي : واذكر لهم إذ نتقنا الجبل ، أي : رفعناه .

قال مجاهد : أُخرج الجبل من الأرض ، ورفع فوقهم كالظُّلَّة ، فقيل لهم : لتؤمنُنَّ أو ليقعنَّ عليكم .

وقال قتادة : نزلوا في أصل الجبل ، فرُفع فوقهم ، فقال : لتأخُذُنَّ أمري ، أو لأرمينكم به .

قوله تعالى : ﴿ وظنوا أنَّه واقع بهم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه الظن المعروف .

والثاني : أنه بمعنى اليقين .

وباقي الآية مفسر في سورة [البقرة : 63] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل ﴾

"نتقنا" معناه رفعنا .

وقد تقدّم بيانه في "البقرة" .

﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أي كأنه لارتفاعه سحابة تُظلّ .

﴿ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ أي بِجدّ .

وقد مضى في "البقرة" إلى آخر الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(15/296)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾

يعني واذكر يا محمد إذ قلعنا الجبل فرفعناه فوق بني إسرائيل كأنه ظلة يعني جعلناه فوقهم كالظلة والظلة كل ما علا الإنسان كالسقف ونحوه ﴿ وظنوا ﴾ أي علموا وأيقنوا ﴿ أنه واقع بهم ﴾ يعني الجبل ﴿ خذوا ﴾ يعني وقلنا لهم خذوا وإضمار القول كثير في القرآن وكلام العرب ﴿ ما آتيناكم ﴾ يعني التوراة ﴿ بقوة ﴾ يعني بجد واجتهاد ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ يعني واعملوا بما فيه من الأحكام ﴿ لعلكم تتقون ﴾ قال أصحاب الأخبار : إن

بني إسرائيل لما أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة أمر الله جبريل فرفع جبلاً عظيماً حتى صار على رؤوسهم كالظلة فلما نظروا إلى الجبل فوق رؤوسهم خرّوا ساجدين فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً أن يسقط عليه ولذلك لا تسجد اليهود إلا على وجوههم الأيسر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(16/296)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾

أي جذبنا الجبل بشدة و ﴿ فوقهم ﴾ حال مقدرة والعامل فيها محذوف تقديره كائناً فوقهم إذ كانت حالة النتق لم تقارن الفوقية لكنه صار فوقهم ، وقال الحوفي وأبو البقاء : ﴿ فوقهم ﴾ ظرف لنتقنا ولا يمكن ذلك إلا أن ضمن ﴿ نتقنا ﴾ معنى فعل يمكن أن يعمل في ﴿ فوقهم ﴾ أي رفعنا بالنتق الجبل فوقهم فيكون كقوله

(17/296)

﴿ ورفعنا فوقهم الطور ﴾ والجملة من قوله ﴿ كأنه ظلة ﴾ في موضع الحال والمعنى كأنه عليهم ظلّة والظلّة ما أظلّ من سقيفة أو سحاب وينبغي أن يحمل التشبيه على أنه بظلة مخصوصة لأنه إذا كان كلّ ما أظل يسمى ظلة فالجبل فوقهم صار ظلة وإذا صار ظلّة فكيف يشبه بظلة فالمعنى والله أعلم كأنه حالة ارتفاعه عليهم ظلة من الغمام وهي الظلة التي ليست تحتها عمد بل إمساكها بالقدرة الإلهية وإن كانت أجراماً بخلاف الظلّة الأرضية فإنها لا تكون إلا على عمد فلما دانت هذه الظلمة الأرضية فوقهم بلا عمد شبهت بظلة الغمام التي ليست بلا عمد ، وقيل : اعتاد البشر هذه الأجرام الأرضية ظللاً إذ كانت على عمد فلما كان الجبل مرتفعاً على غير عمد قيل : ﴿ كأنه ظلة ﴾ أي كأنه على عمد وقرىء طلة بالطاء من أطل عليه إذ أشرف ﴿ وظنوا ﴾ هنا باقية على بابها من ترجيح أحد الجائزين ، وقال المفسّرون : معناه أيقنوا ، وقال الزمخشري : علموا وليس كذلك بل هو غلبة ظن مع بقاء الرّجاء إلا أن قيد ذلك بقيد أن لا يعقلوا التوراة ، فإنه يكون بمعنى الإتقان ، وتقدّم ذكر سبب رفع الجبل فوقهم في تفسير قوله ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ في البقرة فأغنى عن إعادته وقد كرره المفسرون هنا الزمخشري وابن عطية وغيرهما وذكر الزمخشري : هنا عند ذكر السبب أنه لما نشر موسى عليه السلام الألواح وفيها كتاب الله تعالى لم يبقَ شجر ولا جبل ولا حجر إلا اهتز فلذلك لا ترى يهوديّاً يقرأ التوراة إلاّ اهتز

وأنغض لها رأسه انتهى ، وقد سرت هذه النزعة إلى أولاد المسلمين فيما رأيت بديار مصر تراهم في المكتب إذا قرأوا القرآن يهتزون ويحركون رؤوسهم وأما في بلادنا بالأندلس والغرب فلو تحرّك صغير عند قراءة القرآن أدبه مؤدّب المكتب وقال له لا تتحرك فتشبه اليهود في الدراسة .

﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ .

(18/296)

قرأ الأعمش ﴿ واذكروا ﴾ بالتشديد من الإذكار ، وقرأ ابن مسعود وتذكروا وقرىء وتذكروا بالتشديد بمعنى وتذكّروا وتقدّم تفسير هذه الجمل في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ ﴾

أي قلعناه من مكانه ورفعناه عليهم ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أي سقيفةٌ وهي كلُّ ما أظلك ﴿ وَظَنُّواْ ﴾ أي تيقنوا ﴿ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ ساقطٌ عليهم لأن الجبلَ لا يثبُت في الجو لأنهم كانوا يُوعَدون به ، وإطلاقُ الظنِّ في الحكاية لعدم وقوعِ متعلَّقِه وذلك أنهم أبَوْا أن يقبلوا أحكامَ

التوراة لثقلها فرفع الله تعالى عليهم الطورَ وقيل لهم : إن قبلتم ما فيها وإلا ليقعَنَّ عليكم ﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم ﴾ أي وقلنا أو قائلين : خذوا ما آتيناكم من الكتاب ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد وعزيمة على تحمل مشاقّه وهو حالٌ من الواو ﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ بالعمل ولا تتركوه كالمنسيِّ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ بذلك قبائحَ الأعمالِ ورذائلَ الأخلاق أو راجين أن تنتظموا في سلك المتقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(19/296)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ ﴾

عطف على ما قبل بتقدير اذكر والنتق الرفع كما روي عن ابن عباس .

وإليه ذهب ابن الأعرابي ، وعن أبي مسلم أنه الجذب ، ومنه نتقت الغرب من البئر ، وعن أبي عبيدة أنه القلع وما روي عن الحبر أوفق بقوله سبحانه : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطور ﴾ [النساء : 154] وعلى القولين الأخيرين يضمن معنى الرفع ليتطابق الآيتان ، والمراد بالجبل الطور أو جبل غيره وكان فرسخاً في فرسخ كمعسكر القوم فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام لما توقفوا عن أخذ التوراة وقبولها إذ جاءتهم جملة مشتملة على ما يستثقلونه فقلعه

من أصله ورفعه عليهم ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أي غمامة أو سقيفة ؛ وفسرت بذلك مع أنها كل ما علا وأظل لأجل حرف التشبيه إذ لولاه لم يكن لدخوله وجه و ﴿ فَوْقَ ﴾ ظرف لنتقنا أو حال من الجبل مخصصة على ما قيل للرفع ببعض جهات العلو ، والجملة الاسمية بعد في موضع الحال أيضاً أي مشابها ذلك ﴿ وَظَنُّواْ ﴾ أي تيقنوا ﴿ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي ساقط عليهم إن لم يقبلوا يوعدون بذلك بهذا الشرط والصادق لا يتخلف ما أخبر به لكن لما لم يكن المفعول واقعاً لعدم شرطه أشبه المظنون الذي قد يتخلف فلهذا سمي ذلك ظناً .

(20/296)

وقيل : تيقنوا ذلك لأن الجبل لا يثبت في الجو ، واعترض بأن عدم ثبوته فيه لا يقتضي التيقن لأنه على جري العادة وأما على خرقها فالثابت الثبوت والواقع عدم الوقوع ويكون ذلك كرفعه فوقهم ووقوفه هناك حتى كان ما كان منهم ، والحق أن المتيقن لهم الوقوع إن لم يقبلوا لكونه المعلق عليه ، ففي الأثر أن بني إسرائيل أبوا أن يقبلوا التوراة فرفع الجبل فوقهم ، وقيل : إن قبلتم وإلا ليقعن عليكم فوقع كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون : هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة وامتثلوا ما أمروا به ولا يقدح في ذلك

احتمال الثبوت على خرق العادة كما لا يقدح فيه عدم الوقوع إذا قبلوا ، ألا ترى إلى أنه يتيقن احتراق ما وقع في النار مع إمكان عدمه كما في قصة الخليل عليه الصلاة والسلام ، وذهب الرماني .

والجبائي إلى أن الظن على بابه ، والمراد قوي في نفوسهم أنه واقع ، واختاره بعض المحققين ، والجملة مستأنفة ، وجوز أن تكون معطوفة على نتقنا أو حالاً بتقدير قد كما قال أبو البقاء ﴿ خُذُواْ ﴾ أي وقلنا خذوا أو قائلين خذوا ﴿ مَا ءاتيناكم ﴾ من الكتاب ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بجد وعزم على تحمل مشاقه ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من الواو ، والمراد خذوا ذلك مجدين ﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ أي اعملوا به ولا تتركوه كالمنسي وهو كناية عن ذلك أو مجاز .

وقرأ ابن مسعود ﴿ وتذكروا ﴾ وقرىء واذكروا بمعنى وتذكروا ﴿ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ بذلك قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق أو راجين أن تنتظموا في سلك المتقين .

(21/296)

وجوز أن يراد بما آتيناكم الآية العظيمة أعني نتق الجبل أي خذوا ذلك إن كنتم تطيقونه كقوله تعالى ﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السموات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن : 33

] واذكروا ما فيه من القدرة الباهرة والإنذار ، وعلى هذا فالمراد من نتق الجبل إظهار العجز لا غير ، والكلام نظير قولك لمن يدعي الصرعة والقوة بعد ما غلبته : خذه مني ، وحاصله إن كنتم تطلبون آية قاهرة وتقترحونها فخذوا ما آتيناكم إن كنتم تطيقونه ، ولا يخفى أن ذلك خلاف الظاهر والآثار على خلافه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(22/296)

وقال الشوكانى :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾

قوله : ﴿ وَإِذْ ﴾ منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله ، أي واسألهم إذ نتقنا الجبل ، أي رفعنا الجبل ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ و ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أي : كأنه لارتفاعه سحابة تظلهم ، والظلة : اسم لكل ما أظلّ ، وقرىء "طلة" بالطاء من أطلّ عليه إذا أشرف ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي : ساقط عليهم .

قيل : الظنّ هنا بمعنى العلم .

وقيل : هو على بابه ﴿ خُذُوا مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ هو على تقدير القول ، أي وقلنا لهم

خذوا ، والقوّة : الجدّ والعزيمة ، أي أخذاً كائناً بقوّة ﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ من الأحكام التي شرعها الله لكم ، ولا تنسوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ رجاء أن تتقوا ما نهيتهم عنه ، وتعملوا بما أمرتم به ، وقد تقدّم تفسير " ما " هنا في البقرة مستوفى ، فلا نعده .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجبل ﴾ يقول : رفعناه ، وهو قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطور ﴾ [النساء : 154] فقال : ﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ وإلا أرسلته عليكم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه ، في الآية قال : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم ، فقيل لهم : ﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا ، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، أيضاً قال : إني لأعلم لم تسجد اليهود على حرف ، قال الله ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ ﴾ قال : لتأخذنّ أمري أو لأرمينكم به ، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم ، وكانت سجدة رضيها الله سبحانه فاتخذوها سنة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجبل ﴾ قال : انتزعه الله من أصله ، ثم جعله فوق رؤوسهم ، ثم قال : لتأخذنّ أمري أو لأرمينكم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(24/296)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾

عاد الكلام إلى العبرة بقصص بني إسرائيل مع موسى عليه السلام ، لأن قصة رفع الطور عليهم من أمهات قصصهم ، وليست مثل قصة القرية الذين اعتدوا في السبت ، ولا مثل خبر إيذانهم بمن يسومهم سوء العذاب .

فضمائر الجمع كلها هنا مراد بها بنو إسرائيل الذين كانوا مع موسى ، بقرينة المقام .

والجملة معطوفة على الجمل قبلها .

و ﴿ إِذْ ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره : واذكر إذ نتقنا الجبل فوقهم .

والنتق : الفصل والقلع .

والجبل الطور .

وهذه آية أظهرها الله لهم تخويفاً لهم ، لتكون مُذَكرة لهم ، فيعقب ذلك أخذُ العهد عليهم بعزيمة العمل بالتوراة ، فكان رفع الطور معجزة لموسى عليه السلام تصديقاً له فيما سيبلغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة والقصة تقدمت في سورة البقرة (63) عند قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ﴾ والظلة السحابة ، وجملة : ﴿ خذوا ما آتيناكم ﴾ مقولة لقول محذوف يدل عليه نظم الكلام ، وحذفُ القول في مثله شائع كثير ، وتقدم نظيرها في سورة البقرة .

وعُدّي ﴿ واقع ﴾ بالباء : للدلالة على أنهم كانوا مستقرين في الجبل فهو إذا ارتفع وقع ملابساً لهم ففتتهم ، فهم يرون أعلاه فوقهم وهم في سفحه ، وهذا وجه الجمع بين قوله ﴿ فوقهم ﴾ وبين باء الملابسة .

وجعل بعض المفسرين الباء بمعنى (على) .

وجملة : ﴿ خُذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ مقول قول محذوف .

وتقدم تفسير نظيرها في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(25/296)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) ﴾

والجبل معروف أنه من الأحجار المندمجة في بعضها والمكونة لجرم عالٍ قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال : ﴿ والجبال أَرْسَاهَا ﴾ ولا يقال أرساها إلا إذا كان وجد شيء له ثقل ، فأنت لا تقول : " أرسيت الورقة على المكتب " ، ولكنك تقول : " أرسيت لوح الزجاج على لمكتب ليحميه " ، وأنت بذلك ترسي شيئاً له وزن وثقل .

وقد أرسى ربنا الجبال وجعلها في الأرض أوتادا ، والوَتِد – كما نعلم – ممسوك من الموتود والمثبت فيه ، بدليل أنه لو تخلخل في مكانه نضع له ما نسميه " تخشينة " لتلصقه وتربطه بما يثبت فيه ، وهنا يقول الحق : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجبل ﴾ " نتقنا " أي قلعنا ، وهناك قول آخر : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطور بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادخلوا الباب سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السبت . . . ﴾ [النساء : 154]

وقال الحق أيضا : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور . . . ﴾ [البقرة : 63]

(26/296)

وهنا اختلاف بين " نتق " و " رفع " ؛ لأن الجبل راسٍ في الأرض ، وممسوك كالوتد ؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاع من الأرض ، ثم يأتي من بعد ذلك الرفع ، و " نتقا " تعني نزعنا الجبل من مكان إرسائه حتى نرفعه ، وقد رفعه الله ليجعل منه ظلة عليهم ، أي أن هناكَ ثلاث عمليات : نتق أي نزع وخلع ، ثم رفع ، ثم جعله سبحانه ظلة لهم ، وهذا يحتاج إلى اتجاه في المرفوع إلى جهة ما . والحق يقول : " وإذ " أي اذكر إذ نتقنا الجبل ، أي نزعناه وخلعناه من الأرض ، ولا ننزعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أي نجعله ظلة ، وكان تظليل الغمام رحمة لهم من قبل ، وصار الجبل ظلة " عذاب " ؛ لأن الحق أنزل لهم التوراة على موسى فقالوا له : إن أحكام هذه التوراة شديدة . وللإِنسان أن يتساءل : لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التي جاءت لمصلحة البشر ؟ . وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كظلة تحمل التهديد كأنه قد يقع فوقهم ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظنوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ .

لذلك نجد أن كل يهودي يسجد على حاجبه الأيسر ، على الرغم من أن السجود يقتضي تساوي وضع الجبهة على الأرض ، ولكنهم يسجدون بميل إلى الحاجب الأيسر لأن السابقين لهم رأوا الجبل فوقهم وتملكهم الخوف من سقوط الجبل ، وكانوا يسجدون وفي الوقت نفسه يرقبون الجبل ، وبقيت هذه المسألة لازمة فيهم ، وصاروا لا يسجدون إلا

على حاجبهم الأيسر ، بسبب حكاية الجبل الذي نتقه الله وقلعه فصار فوقهم . ﴿ وظنوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ .

والظن هو رجحان قضية ، وقد يأتي ويراد به أنه رجحان قوى قد يصل إلى درجة اليقين ، مثل قوله الحق : ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ ﴾

وحين بقيت الحالة هذه ، وخافوا من الجبل أن يقع عليهم ، ولأن هناك كتابا قد أنزل إليهم وهو التوراة وهم يعصون ويتمردون على ما فيه ؛ لذلك قال لهم الحق : ﴿ .

(27/296)

. . خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ واذكروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 171]

و" خذوا " فعل أمر ، والأمر يقتضي آمرا ، ولابد له من شيء يأمر به . وكلمة " القوة " هذه هي الطاقة الفاعلة ، والأصل في الكون كله أن نقبل على كل شيء بقوة ؛ لأن الكون الذي تراه مسخراً ليس له رأي في أن يفعل أو لا يفعل ، بل هو فاعل دائما إذا أُمر ، وكما قلنا من قبل : لم تغضب الشمس على الناس وقالت : لن أطلع هذا اليوم ، وكذلك لم يمتنع الهواء ، وأيضاً لا يرفض الحمار مثلاً أن يحمل الروث ، أو أن ينظفه صاحبه ويأتي له ب " البرذعة " ليجعله ركوبة متميزة ، الحمار إذن لا يعصي هنا ولا يعصي هناك ، والكون كله مسخر

بقوانين مادية ثابتة . ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40]

وقد وضع الحق هذا النظام للكون نظراً لأنه مقهور وليس له تكليف ، والمحكوم بالغريزة الكونية صالح للحياة عن المحكوم بالاختيار الفعلي ، ومع هذا الاختيار فالإنسان له أشياء تفعل فعلها فيه ولا يَدْرِي عنها شيئاً مع أن بها قوام حياته ، فلا أحد يمسك قلبه ويضبطه ويقول له : دق ، والرئة كذلك وحركة التنفس ، والحركة الدودية في الأمعاء ، والحالب ، ويرغب الإنسان في دخول دورة المياه عندما تمتلئ المثانة بالبول ، كل هذه مسائل رتيبة لا اختيار للإنسان فيها أبدا ، والأمور المحكومة بالغرائز ليس لنا فيها اختيار ، كأن يأكل الإنسان ويتكلم في أثناء تناول الطعام فتنزل حبة أرز في القصبة الهوائية فيحاول الإنسان أن يطردها بالسعال ، هذا اسمه " غريزة " أي أمر غير محكوم بالفعل الاختياري .

(28/296)

وكذلك الحيوان إذا أحضرت له طعاما فهو لا يأكل أكثر من طاقته حتى لو ضربه صاحبه . أما الإنسان فقد يأكل بعد أن يشبع ، وحين يقول له مُضيفه – على سبيل المثال – : أنت لم تذق هذا اللون من اللحم ، فيأكل . ولهذا نجد أن الأمراض في الانسان أكثر من الأمراض

في الحيوان ؛ لأن اختيار الإنسان يمتد إلى مجالات متعددة متفرقة قد تضر به وتؤذيه .

ونعرف جميعاً هذا المثال للفارق بين الإنسان والحيوان ، نجد الإنسان يغلي النعناع ويشربه ، ويطبخ الملوخية ليأكلها ، وقد فعل ذلك لأنه اختبر الاثنين ، فلم يأكل النعناع وأكل الملوخية ، رغم تشابه أوراقهما . لكن هات شجرة النعناع أمام الجاموسة أو الحمار ، وهات النجيل الناشف وضع الاثنين أمام الجاموسة أو الحمار ، ستجد الجاموسة والحمار يتجهان إلى النجيل الناشف ويتركان نبات النعناع الأخضر الرطب ، وهما يفعلان ذلك بالغريزة ، فالمحكوم بالغريزة له نظام ، ولو كان الحيوان مختارا لارْتَبَكت حركة الحياة كلها واختلطت واشتد على الناس شأنها .

وهكذا نعرف أن مقومات الحياة تقوم على قوانين الغريزة ، وهذه القوانين موجودة في الكون لتخدمنا نحن بني البشر . فالكهرباء مثلاً كانت موجودة قبل أن ننتفع بها ، لكن بعد ذلك انتفعنا بها ، وكذلك الجاذبية ، كانت موجودة في الكون منذ الأزل ، لكنا لم ننتبه لها ، وحين اكتشفناها زادت قدراتنا على الاستفادة منها ، وهكذا نرى أن الإنسان واحد من هذا الكون ، إلا أنه يتميز بأن له جهة اختيار في بعض الأمور ، وله جهة قهر في البعض الآخر ، فهو يشارك الكون في القهر ، ويتميز عن بقية المخلوقات – عدا الجن – بالاختيار في أمور أخرى . ونجد على سبيل المثال أن الإنسان الذي يعاني قلبه من ضعف ما ، عندما يصعد هذا

الإنسان سلماً ينهج ويتتابع نَفَسه من الإعياء وكثرة الحركة ، لأنّ غريزته المحكوم بها تُنبه الجسد إلى ضرورة أن تعمل الرئة أكثر لتعطي الأوكسجين الذي يساعد على الصعود .

(29/296)

ومثال آخر ، نجد الذكر في الحيوانات يقترب من أنثاه ليشمها ، فإن وجدها حاملاً لا يقربها ، والحيوان في هذا الأمر مختلف عن الإنسان ؛ لأن الحيوان تحركه الغريزة التي تبين له أن العملية الجنسية بين الذكر والأنثى لحفظ النوع ، وما دامت الأنثى قد حملت ، فالذكر لا يقربها ، فاختلف الإنسان عن الحيوان في هذا الأمر ؛ فلذة الإنسان في الجنس أعلى من لذة الحيوان ؛ لأنها في الحيوان ترضخ للغريزة فحسب ، أما في الإنسان فإنها مع الغريزة ترضخ أيضا للاختيار الذي منحه الله للإنسان .

ومن رحمة الله – إذن – أن يكون الإنسان مقهوراً في بعض الأشياء ومختاراً في أشياء أخرى ، ب " افعل " و " لا تفعل " حتى يختار بين البديلات .

وهنا يقول الحق : ﴿ خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّة ﴾

أي خذوا ما آتاكم في الكتاب بجد واجتهاد . وكان هذا القول مقدمة لما جاء به العلم في شرح معنى القوة . وقد وصل إلينا خبر العلم قبل أن يصل لنا واقعه المادي ، فصرنا نرى

الطاقة التي تعطي القوة . وجاء نيوتن ليكشف لنا قانون الجاذبية ، القانون الأول والثاني والثالث ، واكتشف أن كل جسم يظل على ما هو عليه ، فإن كان ساكناً يبق على سكونه إلى أن يأتي محرك يحركه . وإن كان الجسم متحركاً فهو لا يتوقف إلى أن يصدمه صادم أو يمسكه ماسك . وسمّى العلماء هذا التأثير بالقصور الذاتي . أو التعطل ، أي أن الساكن يُعَطّلُ عن الحركة إلا أن يحركه محرك ، والمتحرك يُعَطّلُ عن السكون إلا أن يوقفه موقف ، فأنت إذا ركبت سيارة وأنت قاعد وساكن والسيارة تسير ، فإنك تظل ساكناً ، إلى أن يوقفها السائق فجأة فتتحرك من مكانك ما لم تمسك بشيء .

وفي الأسواق نرى الحواة وهم يؤدون بعض الألعاب ليسحروا أعين الناس فيأتي بمنضدة وعليها مفرش لامع وأملس ، ثم يضع عليها أطباقاً وأكواباً ، ثم يحرك المفرش بخفة لينزعه بهدوء من تحت الأكواب حتى لا تتحرك بحركة المفرش .

(30/296)

وحين جاء نيوتن عقد مقارنة وموازنة بين القوة والحركة والعطالة ، وقلنا : إنّ العطالة تعني أن الساكن يتعطل عن الحركة ، والمتحرك يتعطل عن السكون ، وهذه هي القضية المادية في الكون التي خدمت العلم الفضائي الخاص بسفن الفضاء والصواريخ . ونحن نرى السفن

الفضائية ونعتقد أنها تدور في الفضاء بالوقود ، رغم أن حجمها لا يسع الوقود الذي يسيرها لسنوات ، والحقيقة أنها تسير بقانون القصور الذاتي أو العطالة إنّها بدون وقود ، وهي تندفع إلى الفضاء بقوة الصاروخ إلى أن تخرج إلى الفضاء الكوني ، وتظل متحركة ما لم يوقفها موقف . ونرى ذلك في التجربة اليسيرة حين يطلق إنسان رصاصة من مسدس فتنطلق الرصاصة بقوة الطلقة مسافة ثم تقع إن لم يوجد حاجز يصدها ، وهي تقع بعد مسافة معينة ؛ لأن الهواء يقابلها فيصادم الحركة إلى أن تتوقف ، أما في الفضاء الخارجي فليس هناك هواء ؛ لذلك لا تتوقف سفينة الفضاء ، لأنها تسير بقانون القصور الذاتي أو العطالة

.

وهذه السفن الفضائية تعتمد في صعودها إلى الفضاء على الصواريخ لتصل إلى المدار الخارجي . والصواريخ تسير بالغاز المتفلت الذي أخذ القانون الثالث من قوانين نيوتن ، وهو القانون القائل : إن كل فعل له رد فعل يساويه ومضاد له في الاتجاه ، وحين يسخن هذا الغاز المتفلت يخرج من خلف الصاروخ بقوة فيندفع الصاروخ للأمام .

(31/296)

وهكذا نرى قول الحق : ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ في الواقع المادي والواقع القيمي .

وانظر إلى غير المتدينين تجدهم ساكنين في بعض الأمور ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها ، فالواحد منهم لا يصلي ، ولا يزكي ، ولا يقول كلمة معروف ، وهو في ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله . ونجد أيضا من غير المتدينين من يشرب خمرة . أو يزني أو يسرق أو يرتشي . وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصده عن مثل هذه الحركة . ولذلك نقول : إن الإنسان في أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين : الأول إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير ، وإن كان متحركا إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه ، وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيماني في " افعل " ، و " لا تفعل " . فمن يتراخى عن الصلاة وسكن عنها نقول له صلّ . ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه ، إذن فالقوة الشرعية تكون في المنهج ب " افعل " ليحرك الساكن ، و " لا تفعل " ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة في ضوء المنهج .

(32/296)

ولنعرف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لنا الكافرين ليبينوا لنا المستغلق علينا في قوانين الكون ، فقد اكتشفوا قوانين القوة المادية وفهمناها نحن في إطار الماديات والمعنويات ،

وليس اكتشاف الكافرين للقوانين في الكون مدعاة للكسل والاعتماد عليهم ، بل علينا أن نشحذ الهمم لنتقدم في العلم الذي يُسير أمور الحياة ، ولنعلم أنه لا شيء ينشىء فينا فطرة جديدة ؛ لأن البشر من قديم مفطورون على الفطرة السليمة التي تلفتهم إلى أن لهذا العالم صانعاً ، فكل ذراتنا وكل اتجاهاتنا تؤكد لنا وجود إله واحد . بل إن الفلاسفة حينما بحثوا وراء المادة تأكد لهم ذلك ، وأغلب الفلاسفة كانوا غير مؤمنين ، وهم ببحثهم وراء المادة إنما يبحثون عن الخالق الأعظم ؛ لأن الإنسان لا يبحث عن شيء لا يظن وجوده . ولأنهم جميعا يعلمون أن الإنسان طرأ على كون ، وهذا الكون مقام بهندسة حكيمة ، ومخلوق بقوة لا تستطيع قوى البشر جميعا أن تأتي بمثلها ، إذن لابد لهذا الكون من الخالق . لقد بيّنا أن القوانين التي تظهر لنا في المادة تتماثل مع قوانين القيم ، إلا أن الناس يتهافتون على قانون المادة لأنها تحقق لهم خيراً أو تدفع عنهم شرا ، فيأخذون ما ينفعهم ويدعون ويتركون ما يضرهم ، ولذلك احتاج الإنسان إلى منهج من السماء ليوضح ويبين له قوانين القيم التي تحقق له السعادة العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة ، أما قوانين المادة في الأرض فتركها الله لنشاط العقل ، حتى الذين لا يؤمنون بالله يذهبون إلى قوانين المادة ويصنعونها ، ويتهربون من قوانين القيم لأنها تحد من شهوات النفس ، وتتعب بمشقة التكليف ، فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يقول فيها : ﴿ . . . خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ واذكروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 171]

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطي من قانون المادة ما يقرب لنا قوانين القيم في الفعل ورد الفعل ، لنفهم أن كل حركة للشر قد تحبها النفس لأنها تحقق لها شهوة من شهواتها ، لكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أيها الإنسان أن لكل فعل رد فعل مساوياً له في الحركة ومضاداً له في الاتجاه ، فإن كنت ترتاح في هذا العمل وتحبه وتشتهيه فتذكر جيداً رد الفعل الذي يأتيك بالعقاب عليه ، وكذلك مشقات التكليف ، حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الأيام الخالية ﴾ [الحاقة : 24]

وفي هذا القول فعل ورد فعل ، الفعل هو العمل الصالح في الأيام التي مضت ، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنيء في الآخرة . ولمن اغتر واعتز بنفسه وجبروته وقوته يقول له الحق :

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً . . . ﴾ [التوبة : 82]

وهكذا نجد البكاء الكثيف الشديد الكثير نتيجة للضحك القليل .

ويأتي الإنسان من هؤلاء يوم القيامة ليقال له : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49]

إن كنت قد فهمت أنك عزيز كريم فأسأت إلى الناس فلسوف تتلقى العقاب . ولذلك يقول لنا الحق عن المنهج : ﴿ واذكروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . وإياكم أن تطرأ عليكم الغفلة من هذه الناحية ، فالذي يتعب الناس في مناهج الله أنهم يغفلون عنها ؛ لأن الطاعة تكلفهم مشقة وبعض عناء ، والمعاصي تكسبهم لذة وشهوة ، فأوضح الحق : اذكروا جيدا الفعل ورد الفعل في هذه القيم .

(34/296)

ونعلم أن الذِّكْر يحتاج إلى أشياء كثيرة جدا ، فالواعظ مثلاً يذكرهم دائماً ، وقلنا إن " الوعظ " هو نوع من إعادة التذكير بالإعلام بالحكم ، فأنا أعظ من عَلِمَ الحكم ؛ لأني أريد أن يفعله ، فبعد أن علمه الموعوظ علماً فقط يريد منه الوَاعظ أن ينفذه عملياً . فكلنا نعلم أن الصلاة ركن ، وأن الحج ركن ، والزكاة ركن من أركان الإسلام ، وكلنا جاءنا العلم بذلك ، لكن منا من يكسل في تطبيق هذا العلم . ونظل ندق على دماغه بالتذكير والوعظ ، وهذا من خيرية أمته صلى الله عليه وسلم : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . . ﴾ [آل عمران : 110]

ولماذا هذا التذكير ؟ . يجيب الحق : ﴿ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . ﴾

[آل عمران : 110]

الأمر بالمعروف عظة قولية ، والنهي عن المنكر عظة قولية ، ويعددها الرسول صلى الله عليه وسلم لبقاء التذكير ، وليأخذ كل مسلم منهج الله بقوة ، فيقول في الحديث :

" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان " .

(35/296)

إذن فقد نقل الرسول المسألة من الأمر وهو القول والنهي وهو قول أيضاً إلى أن نباشرها فعلاً ، فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه ، ونجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً ، لأن هناك فرقاً بين المعلومة التي تدخل الذهن ، وحمل النفس على مطلوب المعلومة . ولذلك نحن ندرس الدين في مدارسنا ، وندرس فيها أيضا الجبر والهندسة ، والكيمياء والطبيعة ، والمتعب ليس تدريس الدين ، بل الذي يتعب الناس هو حمل النفس على مطلوب الدين . لكن التلميذ حين يتعلم الجبر والهندسة أو الكيمياء ، فهذه علوم تعطي الإنسان خير الدنيا فيذهب لها ، لكن مسألة الدين مسألة قيم ؛ لذلك لا يكفي أن نعلم الدين بل لابد أن تنفذ ذلك العلم ، وتنفيذ هذه المسألة يكون

بالتطبيق في سلوك من أسوة حسنة وقدوة طيبة .

وهب أن الذي يُعلم الدين يدرسه معلومة ويدخلها في نفوس التلاميذ ، ثم لا يجدون من أثر هذه المعلومة نضحاً على سلوك مَن علَّمها ، ماذا يكون الموقف ؟ . هنا تضعف ثقة التلميذ في أستاذة ، وتضعف ثقته في الدين ؛ لأنه لم ير من الدين إلا كلاماً يقال ، بدليل أن من يقولونه لا ينفذونه ، وفي هذا فشل في تعليم منهج الدين ، والخطأ إذن أن الناس يظنون أن منهج الدين يقف عند تعليم المعلومات الدينية ، لا .

إن تعليم الدين يقتضي تنفيذ ما فيه من معلومات ، عكس العلوم الأخرى التي تعطي المعلومة فقط . وإن أراد الإنسان أن ينتفع بها في حياته انتفع ، وإن لم يرد فهو حر في ذلك .

(36/296)

إذن فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر ، ومرة يكون بالفعل ، " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه " وماذا يعني التغيير باللسان ؟ . يعني أن الإنسان إن كان عنده حسن تأد واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصح فله أن يقبل على تناول العظة . وليس كل إنسان صالحا لأن ينصح ؛ لأن المنصوح يخالف المنهج ، والناصح

يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج ، إنه يخرجه عما ألف وأحب ، لذلك يجب أن يتلطف الناصح في النصح .

(37/296)

ومثال ذلك نجد الطبيب حين يذهب إليه المريض يصف له الدواء ، والدواء قديماً كان كله مرًّا . وكانت الناس تأخذ الدواء بصعوبة ، ويمسك الكبار الأطفال ليعطوهم الدواء . وحين ارتقت صناعة الدواء ، قام الصيادلة بتغليف جرعة الدواء بغلاف يحجب المرارة . ليتلطفوا مع مريض الجسم ، فما بالنا بمريض القيم ؟ . إنه يحتاج إلى المسألة نفسها . لذلك لابد أن نجعل النصح خفيفاً ، ولا نجمع على المنصوح بين أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب ، ولذلك قلنا : إن النصح ثقيل ، لأنك حين تنصح إنسانا فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه ، وهو أقل منك في ذلك ، وهذا هو أول مطب ، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه . ولهذا قالوا في الأثر : النصح ثقيل فلا ترسله جبلا ، ولا تجعله جدلاً . وقيل أيضا : الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان . هكذا يكون التذكير ، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول ؛ لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيِّر على المغيَّر ، وهذا لا يأتي إلا بأن يكون للمغير مقدمة وسابقة مع المغيَّر يثبت

فيها المغيِّر أنه يحب مصلحة المغيَّر . وقد يكون ذلك وارداً من غير أن تقول . كأن تكون أباه أو أمه ، والأب والأم يقومان برعاية الابن ، وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً . وكل منهما هو المتولي لمصالح الابن . وإذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح ، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب . فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه ، وتنبهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه إنك قد قدمت له شيئاً من المعروف فيتحمل منك النصح .

ومثال آخر : افرض أن ابنك قد طلب منك أن تحضر له ساعة ، وبعد ذلك قالت لك أمه : إنه لم يستذكر دروسه حتى الآن . ثم تأتي له بالساعة وتقول له : يا ولد أنت أردت مني ساعة وأحضرتها لك ، وتناولها له وتقول : إن أمك قالت لي إنك غير مهتم بدروسك ، ولو تذكرت قولها لما أحضرت لك الساعة .

(38/296)

وقد توجه له توبيخاً فيضحك لأنك قد حننت قلبه ، وبينت له أنك تحبه فيقبل النصح ، حتى ولو صفعته قد يقبل لأنه يعلم أنك تحب مصلحته . إذن للتذكير ألوان متعددة : عظة بالقول ، وتغيير بالفعل وإنكار بالقلب .

﴿ واذكروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ والأصل في التقوى أن تتقي شيئاً بشيء ؛ تتقي مؤلماً بجعل وقاية بينك وبينه ، وهي تأتي كما علمنا في المتقابلات ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ واتقوا النار التي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : 131]

وهو سبحانه وتعالى يقول : ﴿ . . . واتقوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : 189][آل عمران : 130]

ونجد من يتساءل : كيف يقول : " اتقوا الله " ، " واتقوا النار " ؟

نقول : نعم ؛ لأن اتقوا الله تعني اتقوا غضب الله عليكم ، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية ، ولابد أن تجعل بينك وبين النار وقاية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالىَ كما علمنا لَه صفات جلال وصفات جمال ، وصفات الجمال هي التي تسعد الإنسان ككونه – سبحانه – " غفوراً " ، و " رحيماً " ، " باسطاً " ، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه – سبحانه – فله صفات جلال تعطيك الرهبة ، فهو – جل شأنه – جبار منتقم . فاتق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التي منها جبار منتقم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(39/296)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ يقول : رفعناه وهو قوله ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ [النساء : 154] فقال ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ وإلا أرسلته عليكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ قال : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم فقيل لهم ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا : سمعنا وأطعنا ، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا : سمعنا وعصينا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إني لأعلم لم تسجد اليهود على حرف قال الله ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾ قال : لتأخذن أمري أو لأرمينكم به ، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم ، فكانت سجدة رضيها الله تعالى فاتخذوها سنة .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال : أتى ابن عباس يهودي ونصراني فقال لليهودي : ما دعاكم أن تسجدوا بجباهكم ؟ فلم يدر ما يجيبه ، فقال : سجدتم بجباهكم لقول الله

﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ فخررتم لجباهكم تنظرون إليه ، وقال للنصراني : سجدتم إلى الشرق لقول الله ﴿ انتبذت به مكاناً شرقياً ﴾ [مريم : 16] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : إن هذا الجبل ، جبل الطور ، هو الذي رفع على بني إسرائيل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ قال : كما تنتق الزبدة أخرجنا الجبل .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ثابت بن الحجاج قال : جاءتهم التوراة جملة واحدة ، فكبر عليهم فأبوا أن يأخذوه حتى ظلَّل الله عليهم الجبل ، فأخذوه عند ذلك .

(40/296)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ قال : انتزعه الله من أصله ثم جعله فوق رؤوسهم ، ثم قال : لتأخذن أمري أو لأرمينكم به .

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن الكلبي قال : كتب هرقل ملك الروم إلى معاوية يسأله عن الشيء ولا شيء ، وعن دين لا يقبل الله غيره ، وعن مفتاح الصلاة ، وعن غرس الجنة ، وعن صلاة كل شيء ، وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا في اصلاب الرجال ولا ارحام

النساء ، وعن رجل لا أب له ، وعن رجل لا قوم له ، وعن قبر جرى بصاحبه ، وعن قوس قزح ، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة لم تطلع عليها قبلها ولا بعدها ، وعن ظاعن ظعن مرة لم يظعن قبلها ولا بعدها ، وعن شجرة نبتت بغير ماء ، وعن شيء يتنفس لا روح له ، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد ما أجزاؤها في الكلام ، وعن الرعد والبرق وصوته ، وعن المجرة ، وعن المحو الذي في القمر ؟ فقيل له : لست هناك وإنك متى تخطىء شيئاً في كتابك إليه يغتمزه فيك ، فاكتب إلى ابن عباس .

(41/296)

فكتب إليه فأجابه ابن عباس : أما الشيء : فالماء ، قال الله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ واما لا شيء : فالدنيا تبيد وتفنى ، وأما الدين الذي لا يقبل الله غيره : فلا إله إلا الله ، وأما مفتاح الصلاة : فالله أكبر ، وأما غرس الجنة . فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وأما صلاة كل شيء : فسبحان الله وبحمده ، وأما الأربعة التي فيها الروح ولم يرتكضوا في أصلاب الرجال ولا أرحام النساء : فآدم ، وحواء ، وعصا موسى ، والكبش الذي فدى الله به إسحق ، واما الرجل الذي لا أب له : فعيسى ابن مريم ، وأما الرجل الذي لا قوم له : فآدم ، وأما القبر الذي جرى بصاحبه : فالحوت حيث سار بيونس في البحر ، وأما قوس

قزح : فأمان الله لعباده من الغرق ، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها : فالبحر حيث انفلق لبني إسرائيل ، وأما الظاعن الذي ظعن مرة لم يظعن قبلها ولا بعدها : فجبل طور سيناء ، كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال ، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله بجناحين من نور فيه ألوان العذاب ، فأظله الله عليهم وناداهم مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم ، فأخذوا التوراة معذورين فرده الله إلى موضعه ، فذلك قوله ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة . . . ﴾ الآية ، وأما الشجرة التي نبتت من غير ماء : فاليقطينة التي أنبتت على يونس ، وأما الذي تنفس بلا روح فالصبح . قال الله ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ [التكوير : 18] ، وأما اليوم : فعمل ، وأما أمس : فمثل ، وأما غد : فأجل وبعد غد فأمل ، وأما البرق : فمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب ، وأما الرعد : فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره ، وأما المجرة : فأبواب السماء ومنها تفتح الأبواب ، وأما المحو الذي في القمر فقول الله ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ﴾ [الإِسراء : 12] ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل .

(42/296)

فبعث بها معاوية إلى قيصر ، وكتب إليه جواب مسائله . فقال قيصر : ما يعلم هذا إلا نبي أو رجل من أهل بيت نبي . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(43/296)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل ﴾ الآية .

قال أبو عبيدة : النَّتْقُ : قلعُ الشيء من موضعه ، والرَّمْيُ به ، ومنه : نَتَقَ ما في الجراب إذا نفضه فرمى ما فيه ، وامرأة نَاتِقٌ ، ومِنْتَاقٌ : إذا كانت كثيرة الولادة ، وفي الحديث : " عليْكُمْ بزواج الأبكارِ ، فإنَّهُنَّ أطْيَبُ أفواهاً ، وأنْتَقُ أرْحاماً ، وأرضى باليسَيرِ " .

وقيل : النَّتق : الجَذْبُ بشدة .

ومنه : نتقْتُ السِّقَاءِ إذا جذبْتَهُ لتقتلعَ الزُّبدْةَ من فم القربة .

قال الفرَّاءُ : " هو الرفعُ " وقال ابن قتيبة : الزَّعْزَعَةُ ، وبه فَسَّرَهُ مجاهد .

وقال النَّابغة : [الكامل]

2614 - لَمْ يُحْرَمُوا حُسنَ الغذاءِ وأمَّهُمْ . . .

طَفَحَتْ عليْكَ بِنَاتِقٍ مِذْكَارِ

وكلُّها معانٍ متقاربة .

قوله : " فَوقَهُمْ " فيه وجهان :

أحدهما : هو متعلِّقٌ بمحذوف ، على أنَّه حال من الجَبَل وهي حالٌ مقدرة ؛ لأنَّ حالةَ النَّتْق لم تكن فوقهم ، لكن بالنَّتْق صار فوقهم .

والثاني : أنه ظرفٌ لـ : نَتَقْنَا قاله الحوفيُّ وأبو البقاءِ .

قال أبو حيان : ولا يمكن ذلك ، إلاَّ أن يُضَمَّن معنى فِعْلٍ يمكن أن يعمل في فَوقَهُمْ أي : رفعنا بالنَّتْقِ الجبل فوقهم ، فيكون كقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطور ﴾ [النساء : 154] .

فعلى هذا يكون فَوقَهُمْ منصوباً بـ " نتق " لا بمعنى رفع .

قوله : " كأنَّهُ ظُلَّةٌ " في محل نصبٍ على الحالِ من " الجَبَل " أيضاً فتتعدَّد الحال .

وقال مكيٌّ : هي خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو كأنه ظُلَّة وفيه بُعد .

والظُّلَّة : كل ما أظلك .

قال عطاءٌ : سقيفة .

قوله وَظَنُّوا فيه أوجه :

أحدها : أنَّهُ في محل جرٍّ نسقاً على نَتَقْنَا المخفوض بالظَّرف تقديراً .

والثاني : أنه حال و" قد " مقدرةٌ عند بعضهم ، وصاحبُ الحالِ إمَّا : الجبل أي : كأَنَّهُ ظُلَّةٌ في حال كونه مظنوناً وقوعه بهم ، ويضعف أن يكون صاحبُ الحال : هُمْ في : فَوْقَهُمْ .

الثالث : أنه مستأنف ، فلا محلَّ له ، والظنُّ هنا على بابه .

قال أهل المعاني : قوي في نفوسهم ويجوز أن يكون بمعنى اليقين .

قال المفسِّرُون : علموا وأيقنوا أَنَّهُ واقع بهم والباء على بابها أيضاً .

قيل : ويجوز أن تكون بمعنى " على " .

قوله ﴿ واذكُرُوا ﴾ العامَّةُ على التخفيف أمْراً من : ذَكَرَ يَذْكُرَ : والأعمش واذَّكَرُوا بتشديد الذال من الأذّكار ، والأصل : اذتكرُوا ، والاذتكار ، تقدم تصريفه .

وقرأ ابن مسعود تذكَّرُوا من : " تذكَّر " بتشديد الكاف .

وقرىء وتذَّكَّرُوا بتشديد الذال والكاف والأصل : ولتتذكَّرُوا فأدغمت التاء في الذال ، وحُذِفتْ لامُ الجزم كقوله : [الوافر]

2615 - مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ . . . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 375.376 ﴾ . باختصار .

(44/296)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) ﴾

ليس من يأتي طوعاً كمن يأتي جَبْراً ، فإن الذي يأتي قهراً لا يعرف للحق – سبحانه – قدراً ، وفي معناه أنشدوا :

إذا كان لا يرضيك إلا شفاعة . . . فلا خير في ود يكون لشافعِ

وأنشدوا :

إذا أنا عاتبتُ الملولَ فإنَّما . . . أَخُطُّ بأقلامي على الماء أَحْرُفَا

وَهَبْهُ ارْعَوَى بعد العتاب . . . ألم يكن تودده طبعاً ، فصار تكلُّفا ؟

ويقال قصارى من أتى خيراً أن ينكص على عقبيه طوعاً ، كذلك لمَّا قابلوا الكتاب بالإجبار ما لبثوا حتى قابلوه بالتحريف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 584 ﴾

(45/296)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) ﴾

التفسير : إنه سبحانه ختم قصة بني إسرائيل بتعداد جمل من أحوالهم تبصرة للمكلفين بعدهم . ومعنى ﴿ قطعناهم ﴾ أي صيرناهم قطعاً أي فرقاً وميزنا بعضهم عن بعض كيلا يتحاسدوا ويتباغضوا فيقع بينهم الفتن والهرج . الأسباط أولاد الأولاد جمع سبط وأصله من السبط نبت يعتلفه الإبل فكان الأب كالشجرة والأولاد كالأغصان الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل من العرب وههنا سؤال وهو أن مميز ما عدا العشرة إلى تسعة وتسعين مفرد فهلا قيل اثني عشر سبطاً ؟ وأجيب بأن كل قبيلة أسباط لا سبط فوضع أسباطاً موضع قبيلة كقوله :

بين رماحي مالك ونهشل . . . ولهذا أنث اثنتي عشرة

وقال الزجاج: المميز محذوف و ﴿ أسباطاً ﴾ نعت لذلك المحذوف والتقدير: اثنتي عشرة فرقة أسباطاً. وقال الفارسي والجوهري: ﴿ أسباطاً ﴾ بدل من ﴿ اثنتي عشرة ﴾ والمميز كما قال الزجاج. وقوله ﴿ أمماً ﴾ بدل من ﴿ اثنتي عشرة ﴾ لأن كل أسباط كانت جماعة كثيرة العدد تؤم خلاف ما كانت تؤمه الأخرى. وباقي الآية إلى قوله ﴿ بما كانوا يظلمون ﴾ قد مر تفسيره في البقرة، وكذا بيان المتشابهات فلنذكر النوع الآخر من أحوالهم. قوله تعالى ﴿ واسئلهم عن القرية ﴾ أي عن أهلها وليس المقصود تعرف هذه القصة من قبل اليهود لأنها معلومة للرسول صلى الله عليه وسلم من قبل الله تعالى، ولكن المراد تقرير ما كانوا قد أقدموا عليه من الاعتداء والفسق ليعلم أن هلم سابقة في ذلك، وليس كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم أول مناكيرهم. وقد يقول الإنسان لغيره: هل كان هذا الأمر كذا وكذا ليعرف ذلك الغير أنه محيط بتلك القصة؟ وفيه أنه إذا أعلمهم به من لم يقرأ كتاباً ولم يتعلم علماً كان ذلك مستفاداً من الوحي فيكون معجزاً. والكثرون على أن تلك القرية أيلة، وقيل مدين، وقيل طبرية، والعرب تسمي المدينة قرية. ومعنى ﴿ حاضرة البحر ﴾ قريبة من البحر وعلى شاطئه ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ يتجاوزون حد الله فيه وهو اصطيادهم في يوم السبت. ومحل ﴿ إذ يعدون ﴾ مجرور بدلاً عن القرية بدل الاشتمال أي واسألهم عن وقت عدوانهم. قال في الكشاف: يجوز أن يكون منصوباً

بحاضرة أو بكانت بناء على أن كان الناقصة تعمل في غير الاسم والخبر وفيه نظر إذ لا معنى لكون القرية حاضرة البحر في قوت العدوان لأنها حاضرته في جميع الأحيان وقوله ﴿ إذ تأتيهم ﴾ منصوب ب ﴿ يعدون ﴾ أو مجرور بدلاً بعد بدل . والحيتان جمع الحوت وهو السمكة ﴿ شرعاً ﴾ ظاهرة على وجه الماء جمع شارع كركع وراكع وكل شيء دان من شيء فهو شارع ، ودار شارعة إذا دنت من الطريق ، ونجوم شوارع إذا دنت من المغيب ، فالحيتان كانت تدنو من

(47/296)

القرية بحيث يمكنهم صيدها ، وعن الحسن تشرع على ابوابهم كأنها الكباش البيض . وقال ابن عباس ومجاهد : إن اليهود أمروا باليوم الذي أمرتم به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله تعالى به وحرم عليهم الصيد فيه ، وباقي القصة مذكور في البقرة ، وفيها دلالة على أن من أطاع الله تعالى خفف عليه أهوال الدنيا والآخرة ، ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلايا والمحن . قالت الأشاعرة : لو وجب رعاية الأصلح على الله تعالى لوجب أن لا يكثر الحيتان في ذلك اليوم صوناً لهم عن الكفر والمعصية وهذا الاعتراض وارد على خلق إبليس وسائر أسباب الشرور . والنوع الثالث قوله ﴿ وإذ قالت ﴾ وهو

معطوف على ﴿ إذ يعدون ﴾ وحكمه حكمه في الإعراب ﴿ أمة منهم ﴾ جماعة من صلحاء أهل القرية الذين بالغوا في موعظتهم حتى آيسوا الآخرين كانوا لا يتركون وعظهم ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ مدمرهم ﴿ أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ لعلمهم بأن عاقبة المعصية شؤم والمنهمك في الفساد لا يكاد يفلح ﴿ قالوا معذرة ﴾ من رفع فبتقدير هذه أو موعظتنا أو قولنا إبداء عذر إلى الله .

(48/296)

والمعذرة مصدر كالمغفرة ، ومن نصب فعلى أنَّا نعتذر معذرة أو وعظناهم معذرة إلى ربكم أي إذا طولبنا بإقامة النهي عن المنكر قلنا قد فعلنا فنكون بذلك معذورين ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ ولأنا نرجو أن يتقوا بعض الاتقاء فيتركوا الصيد في السبت ﴿ فلما نسوا ﴾ يعني أهل القرية تركوا ما ذكرهم به الصالحون ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ ومعناه على اختلاف القراءات شديد من بؤس بأساً إذا اشتد . والظاهر أن هذا العذاب غير المسخ المتأخر في قوله ﴿ فلما عتوا ﴾ تكبروا وتمردوا أو أبوا عن ترك ما نهوا عنه بحذف المضاف لأن الإباء عن المنهي عنه يكون طاعة ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ والمراد أمر التكوين والإيجاد لا أن هناك قولاً . وقيل :

فلما عتوا تكرير لقوله ﴿ فلما نسوا ﴾ والعذاب البئيس هو المسخ . عن الحسن : أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزياً في الدنيا وأطولها عذاباً في الآخرة . هاه وأيم الله ما حوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله جعل موعداً والساعة أدهى وأمر . وقد ذكرنا هذه القصة مع تحقيق المسخ في سورة البقرة إلا أنه بقي ههنا بحث هو أن أهل القرية كم فرقة كانوا ؟ فقيل : فرقتان المذنبة والواعظة ، وأما الأمة القائلة " لم تعظون " فهم المذنبة بعينها قالوا للفرقة الواعظة ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم ﴾ بزعمكم . والاعتراض على هذا القول أنه لو صح ذلك لكان اللائق أن يقال في الجواب معذرة إلى ربكم ولعلكم تتقون لأن الجميع خطاب من الفرقة الناهية للفرقة العاصية .

والصحيح أنهم ثلاث فرق فرقة مذنبة وفرقة واعظة وفرقة قالوا للواعظين ﴿ لم تعظون ﴾ أما المذنبة فقد هلكوا بالاتفاق ، وأما الواعظة فقد نجوا . بقي الكلام في الثالثة : فعن ابن عباس أنه توقف فيهم وكان يقول فيهم ليت شعري ما فعل بهؤلاء . وعنه أيضاً أنهم هلكوا وكان إذا قرىء عليه هذه الآية بكى . وقال : أن هؤلاء

الذين سكتوا عن النهي عن المنكر هلكوا ونحن نرى أشياء ننكرها ثم نسكت ولا نقول شيئاً . وعن الحسن أنهم نجوا لأنهم كانوا ينكرون عليهم ويحكمون بأن الله سيهلكهم أو يعذبهم وإنما تركوا الوعظ لأنهم لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال لقوم ، وإذا علم الناهي بحال المنهي وأن النهي لا ينجع فيه سقط عنه النهي . ولعل الواعظين لم يستحكم يأسهم بعد كما استحكم يأس هؤلاء أو لعلهم كانوا أحرص الطائفتين .

(50/296)

ولعل الأمة سألوا عن علة الوعظ سؤال المسترشدين لا سؤال المنكرين والله تعالى أعلم بالسرائر . النوع الرابع : ﴿ وإذ تأذن ربك ﴾ هو تفعل من الإيذان وهو الإعلام والمعنى عزم ربك لأن العازم على الأمر يحدث به نفسه فكأنه يؤذن النفس بأنه يفعله وأجري مجرى فعل القسم في الجزم بالجزاء نحو " علم الله " و " شهد الله " . فأجيب بجواب القسم أي ختم ربك وكتب على نفسه ﴿ ليبعثن ﴾ ومعناه التسليط كقوله ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ [الإسراء : 5] واختلف في العائد في ﴿ عليهم ﴾ فقيل : يرجع إلى الممسوخين بناء على أن لهم نسلاً . وقيل : إلى صلحاء تلك القرية فكأنه مسخ المعتدين وألحق الذل بالبقية . وقال الأكثرون : هم اليهود الذين أدركهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم ودعاهم إلى شريعته فثبتوا على الكفر واستمروا على اليهودية . أما العذاب فقيل : هو أخذ الجزية كانوا يؤدونها إلى المجوس إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم ، فلا تزال مضروبة عليهم إلى يوم القيامة . وقيل : الاستخفاف والإهانة . وقيل : القتل والقتال كما وقع في زمن بختنصر وغيره . وقيل : الإخراج عن الأوطان كما في يهود خيبر وبني قريظة والنضير . وإذ قد أخبر الله تعالى بلزوم الذل والصغار إياهم ونحن نشاهد أن الأمر كذلك فهو إذاً إخبار عن الغيب فيكون معجز . قيل : والخبر المروي في أن أتباع الدجال هم اليهود إن صح فمعناه أنهم كانوا قبل خروجه يهود ، ثم دانوا بألهيته فذكروا بالاسم الأول ، وإنما تكلف ذلك لأنهم يكونون في وقت اتباع الدجال قاهرين غالبين . النوع الخامس : ﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً ﴾ فرقناهم فيها تفريقاً شديداً فلا يكاد يوجد بلد إلا وفيه منهم طائفة ﴿ منهم الصالحون ﴾ الذين كانوا في زمن موسى يهدون بالحق أو الذين هم وراء الصين . وعن ابن عباس ومجاهد : الذين أدركوا النبي صلى الله عليه وآله وآمنوا به . ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ أي ومنهم ناس دون ذلك

(51/296)

الوصف منحطون عنه فيجوز أن يكون فيهم بعض الصلاح وإن كان أدون من صلاح الأولين إلا أن قوله بعد ذلك ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ يدل على أن المراد بهم الكفرة الفسقة الباقية على ضد الخير والرشاد . ومحل ﴿ دون ذلك ﴾ رفع على أنه صفة مرفوع محذوف كما قلنا ﴿ وبلوناهم ﴾ عاملناهم معاملة المبتلى المختبر ﴿ بالحسنات ﴾ الخصب والعافية ﴿ والسيئات ﴾ بالجدب والشدائد ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ لأن كلاً من الحالتين تدعو إلى الطاعة والإنابة والنعم بالترغيب والنقم بالترهيب ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ ظاهره يدل على أن الأوّل ممدوح والثاني مذموم . فالمراد فخلف من بعد أولئك الصلحاء خلف سوء . قال الجوهري الخلف القرن بعد القرن يقال : هؤلاء خلف سوء لناس لاحقين بناس أكثر منهم .

قال الأخفش : وقد يحرك ومنهم من يقول خلف سوء من أبيه بالتسكين وخلف صدق من أبيه بالتحريك قال لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . . وبقيت في خلف كجلد الأجرب

والخلف الردىء من القول يقال : سكت ألفاً ونطق خلفاً أي سكت عن ألف كلمة ثم تكلم بخطأ ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أي التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرؤنها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي ولا يعملون بها ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أي حطام هذا الشيء الأدنى يريد الدنيا وما يتمتع به منها . يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر

والفاجر . وفي الإشارة بقوله ﴿ هذا الأدنى ﴾ تحقير وتخسيس . وأراد بالدنو القرب لأنه عاجل . أو دنو الحال وسقوطها وقلتها . والمراد كانوا يأخذونه من الرشا في تحريف الأحكام والنعوت ﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ يؤاخذنا الله بما أخذنا . وإسناد الفعل إما إلى الجار والمجرور وإما إلى الأخذ الدال عليه ﴿ يأخذون ﴾ ، ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ الواو للحال أي يرجون المغفرة جزماً وهم مصرون والمراد الإخبار عن إصرارهم على الذنوب . وقال الحسن : هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وأنهم لا يشبعون منها .

(52/296)

ثم بين نكث عهدهم فقال ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ﴾ أي التوراة . ومحل ﴿ ألا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ رفع عطف بيان للميثاق المذكور في التوراة وهو أن لا يحرّفوا الكلم عن مواضعه ولا يقبلوا الرشا أو لا يصروا على الذنب مع الجزم بالغفران . فإن خلاف كل ذلك خروج عن ميثاق الكتاب وافتراء على الله وتقول عليه ما ليس بحق . ويجوز أن يكون ﴿ ألا يقولوا ﴾ مفعولاً لأجله ومعناه لئلا يقولوا ويجوز أن تكون " أن " مفسرة ﴿ ولا يقولوا ﴾ نهياً كأنه قيل : ألم نقل لهم لا تقولوا على الله إلا الحق ؟ ﴿ ودرسوا ﴾ عطف

على ﴿ ألم يؤخذ ﴾ لأنه تقرير كأنه قيل : أخذ عليهم الميثاق وقرأوا ما فيه أي أنهم ذاكرون لما أخذ عليهم قد قرأوه ودرسوه . ﴿ والدار الآخرة خير ﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿ للذين يتقون ﴾ الرشا والمحرمات . ثم لما ذكر حال من ترك التمسك بالتوراة أتبعها حال من تمسك أي اعتصم به فقال ﴿ والذين يمسكون ﴾ الآية والتشديد للتكثير وفي إفراد إقامة الصلاة بالذكر مع أن التمسك بالكتاب مشتمل على كل عبادة إظهار لمزية الصلاة وإشعار بأنها عماد الدين . النوع السادس : ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ قال أبو عبيدة : أصل النتق قلع الشيء عن موضعه والرمي به ومنه امرأة ناتق إذا كثر ولدها كأنها ترمي بأولادها رمياً . والمعنى إذا قلعنا الجبل من أصله وجعلناه ﴿ فوقهم كأنه ظله ﴾ وهي كل ما أظلك من سقف أو حائط ﴿ وظنوا أنه واقع بهم ﴾ علموا وتيقنوا أنه ساقط عليهم . وقيل : قوي في نفوسهم أنه يقع بهم إن خالفوا . روي أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخاً في فرسخ .

(53/296)

وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم . فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجداً عل حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه فلذلك لا

ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون هذه السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة . ولما نشر موسى الألواح وفيه كتاب الله لم يبق جبل ولا حجر إلا اهتز فلذلك لا ترى يهودياً تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونغض لها رأسه . ﴿ خذوا ﴾ على إرادة القول أي قلنا لهم أو قائلين خذوا ﴿ ما آتيناكم ﴾ من الكتاب ﴿ بقوة ﴾ بجد وعزيمة على احتمال مشاقه وتكاليفه ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ من الأوامر والنواهي ، أو من التعريض للثواب ، أو المراد خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة إن كنتم تطيقونه كقوله ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن : 33] واذكروا ما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ما أنتم عليه من الإباء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 335 . 341 ﴾

(54/296)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ . . . الآيات ﴾

وقبل أن يمضى السياق إلى مشهد جديد من مشاهد القصة ، يقف عند هذا البلاغ المبكر

، يوجه الخطاب إلى النبي الأمي - صلى الله عليه وسلم - يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعاً ، تصديقاً لوعد الله القديم :

﴿ قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، الذي له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو يحيي ويميت . فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ . .

إنها الرسالة الأخيرة ، فهي الرسالة الشاملة ، التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل . . ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية محدودة بفترة من الزمان – ما بين عهدي رسولين – وكانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسالات خطوات محدودة ، تأهيلاً لها للرسالة الأخيرة . وكانت كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً في الشريعة يناسب تدرج البشرية . حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها ، قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها ، وجاءت للبشر جميعاً ، لأنه ليست هنالك رسالات بعدها للأقوام والأجيال في كل مكان . وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً . ومن ثم حملها النبي الأمي الذي لم يدخل على فطرته الصافية – كما خرجت من يد الله – إلا تعليم الله . فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض ومن أفكار الناس ! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعاً :

﴿ قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ . .

وهذه الآية التي يؤمر فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يواجه برسالته الناس جميعاً ، هي آية مكية في سورة مكية . . وهي تجبه المزورين من أهل الكتاب ، الذين يزعمون أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها ، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشاً ، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب .

(55/296)

ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها . . كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف ! وإن هي إلا فرية من ذيول الحرب التي شنوها قديماً على هذا الدين وأهله . وما يزالون ماضين فيها !

وليست البلية في أن يرصد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله . وأن يكون " المستشرقون " الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله . . إنما البلية الكبرى أن كثيراً من السذج الأغرار ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين يتخذون من هؤلاء المزوّرين على نبيهم ودينهم . المحاربين لهم ولعقيدتهم ، أساتذة لهم ، يتلقون عنهم في هذا الدين نفسه ، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه ، ثم يزعم هؤلاء

السذج الأغرار لأنفسهم أنهم " مثقفون ! " . .

ونعود إلى السياق القرآني بعد تكليف الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن رسالته للناس جميعاً . فنجد بقية التكليف هي تعريف الناس جميعاً بربهم الحق سبحانه :

﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ﴾ . .

إنه - صلى الله عليه وسلم - رسول للناس جميعاً من ربهم الذي يملك هذا الوجود كله – وهم من هذا الوجود – والذي يتفرد بالألوهية وحده ، فالكل له عبيد . والذي تتجلى قدرته وألوهيته في أنه الذي يحيي ويميت . .

والذي يملك الوجود كله ، والذي له الألوهية على الخلائق وحده ، والذي يملك الحياة والموت للناس جميعاً . هو الذي يستحق أن يدين الناس بدينه ، الذي يبلغه إليهم رسوله . .

فهو تعريف للناس بحقيقة ربهم ، لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له ، وطاعتهم لرسوله :

﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ . .

وهذا النداء الأخير في هذا التعقيب يتضمن لفتات دقيقة ينبغي أن نقف أمامها لحظات :

* إنه يتضمن ابتداء ذلك الأمر بالإيمان بالله ورسوله . . وهو ما تتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، في صورة أخرى من صور هذا المضمون الذي لا يقوم بدونه إيمان ولا إسلام . . ذلك أن هذا الأمر بالإيمان بالله سبقه في الآية التعريف بصفاته تعالى : ﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ﴾ . . فالأمر بالإيمان هو أمر بالإيمان بالله الذي هذه صفاته الحقة . كما سبقه التعريف برسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس جميعاً .

* ثم يتضمن ثانية أن النبي الأمي – صلوات الله وسلامه عليه – يؤمن بالله وكلماته . . ومع أن هذه بديهية ، إلا أن هذه اللفتة لها مكانها ولها قيمتها . فالدعوة لا بد أن يسبقها إيمان الداعي بحقيقة ما يدعو إليه ، ووضوحه في نفسه ، ويقينه منه . لذلك يجيء وصف النبي المرسل إلى الناس جميعاً بأنه ﴿ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ .

وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونصه . .

* ثم يتضمن أخيراً لفتة إلى مقتضى هذا الإيمان الذي يدعوهم إليه . وهو اتباعه فيما يأمر به ويشرعه ، واتباعه كذلك في سنته وعمله . وهو ما يقرره قول الله سبحانه : ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ . . فليس هناك رجاء في أن يهتدي الناس بما يدعوهم إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا باتباعه فيه . ولا يكفي أن يؤمنوا به في قلوبهم ما لم يتبع الإيمان الاتباع العملي . . وهو الإسلام . .

إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته في كل مناسبة . . إنه ليس مجرد عقيدة تستكن في الضمير . . كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تؤدى وطقوس . . إنما هو الاتباع الكامل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وفيما يشرعه ويسنه . . والرسول لم يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله فحسب . ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب ولكنه أبلغهم شريعة الله في قوله وفعله . ولا رجاء في أن يهتدي الناس إلا إذا اتبعوه في هذا كله . . فهذا هو دين الله . . وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التي تشير إليها هذه اللفتة : ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله . . ولو كان الأمر في هذا الدين أمر اعتقاد وكفى ، لكان في قوله : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ الكفاية !

ثم تمضي القصة في سياقها بعد الرجفة التي أخذت رجالات بني إسرائيل . . ولا يذكر السياق هنا ماذا كان من أمرهم بعد دعوات موسى - عليه السلام - وابتهالاته . ولكنا نعرف من سياق القصة في سور أخرى أن الله أحياهم بعد الرجفة ، فعادوا إلى قومهم مؤمنين .

وقبل أن يمضي السياق هنا في حلقة جديدة ، يقرر حقيقة عن قوم موسى . . أنهم لم يكونوا جميعاً ضالين :

﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ . .

هكذا كانوا على عهد موسى ؛ وهكذا كانت منهم طائفة تهدي بالحق وتحكم بالعدل من بعد موسى . . ومن هؤلاء من استقبلوا رسالة النبي الأمي في آخر الزمان بالقبول والاستسلام ، لما يعرفونه عنها في التوراة التي كانت بين أيديهم على مبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي أولهم الصحابي الجليل : عبد الله بن سلام رضي الله عنه . الذي كان يواجه يهود زمانه بما عندهم في التوراة عن النبي الأمي ، وما عندهم كذلك من شرائع تصدقها شرائع الإسلام .

وبعد تقرير تلك الحقيقة تمضي القصة في أحداثها بعد الرجفة :

﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ؛ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه : أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشر عيناً . قد علم كل أناس مشربهم . وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم .

وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . .

إنها رعاية الله ما زالت تظلل موسى وقومه – بعد أن كفروا فعبدوا العجل ، ثم كفروا عن الخطيئة كما أمرهم الله ، فتاب عليهم . وبعد أن طلبوا رؤية الله جهرة ، فأَخذتهم الرجفة ، ثم استجاب الله لدعاء موسى فأحياهم . . تتجلى هذه الرعاية في تنظيمهم حسب فروعهم في اثنتي عشرة أمة – أي جماعة كبيرة – ترجع كل جماعة منها إلى حفيد من حفداء جدهم يعقوب – وهو إسرائيل – وقد كانوا محتفظين بأنسابهم على الطريقة القبلية :

﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ . .

وتبدو في تخصيص عين تشرب منها كل جماعة وتعيينها لهم ، فلا يعتدي بعضهم على بعض .

﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه : أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً . قد علم كل أناس مشربهم . . ﴾

وتبدو في تظليل الغمام لهم من شمس هذه الصحراء المحرقة ، وإنزال المن – وهو نوع من العسل البري – والسلوى ، وهو طائر السماني ، وتيسيره لهم ضماناً لطعامهم بعد ضمان شرابهم :

﴿ وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾ . .

وتبدو في إباحة كل هذه الطيبات لهم ، حيث لم يكن قد حرم عليهم بعد شيء بسبب عصيانهم :

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ . .

والرعاية واضحة في هذا كله ؛ ولكن هذه الجبلة ما تزال بعد عصية على الهدى والاستقامة كما يبدو من ختام هذه الآية التي تذكر كل هذه النعم وكل هذه الخوارق : من تفجير العيون لهم من الصخر بضربة من عصا موسى . ومن تظليل الغمام لهم في الصحراء الجافة . ومن تيسير الطعام الفاخر من المن والسلوى :

﴿ وما ظلمونا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . .

(59/296)

وسيعرض السياق نماذج من ظلمهم لأنفسهم ؛ بالمعصية عن أمر الله والالتواء عن طريقه . . وما يبلغون بهذا الالتواء وتلك المعصية أن يظلموا الله – سبحانه – فالله غني عنهم وعن العالمين أجمعين . وما ينقص من ملكه أن يجتمعوا هم والعالمون على معصيته ؛ وما يزيد في ملكه أن يجتمعوا هم والعالمون على طاعته . إنما هم يؤذون أنفسهم ويظلمونها بالمعصية والالتواء ، في الدنيا وفي الآخرة سواء .

والآن فلننظر كيف تلقى بنو إسرائيل رعاية الله لهم ؛ وكيف سارت خطواتهم الملتوية على طول الطريق :

﴿ وإذ قيل لهم : اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا : حطة ، وادخلوا الباب سجداً ، نغفر لكم خطيئاتكم ، سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ، فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ . .

لقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ؛ وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل . ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم . . ثم ها هم أولاء تلتوي بهم طبيعتهم عن استقامة الطريق ! ها هم أولاء يعصون الأمر ، ويبدلون القول ! ها هم أولاء يؤمرون بدخول قرية بعينها – أي مدينة كبيرة – لا يعين القرآن اسمها – لأنه لا يزيد في مغزى القصة شيئاً – وتباح لهم خيراتها جميعاً ، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها ؛ وعلى أن يدخلوا بابها سجداً ، إعلان للخضوع لله في ساعة النصر والاستعلاء – وذلك كما دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة في عام الفتح ساجداً على ظهر دابته – وفي مقابل طاعة الأمر يعدهم الله أن يغفر لهم خطيئاتهم وأن يزيد للمحسنين في حسناتهم .

. فإذا فريق منهم يبدلون صيغة الدعاء التي أمروا بها ، ويبدلون الهيئة التي كلفوا أن يدخلوا عليها . . لماذا ؟ تلبية للانحراف الذي يلوي نفوسهم عن الاستقامة :

﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ . .

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذاباً . . السماء التي تنزل عليهم منها المن والسلوى وظللهم فيها الغمام ! . .

﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ . .

وهكذا كان ظلم فريق منهم – أي كفرهم – ظلماً لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله . .

ولا يفصل القرآن نوع العذاب الذي أصابهم في هذه المرة . لأن غرض القصة يتم بدون تعيينه . فالغرض هو بيان عاقبة المعصية عن أمر الله ، وتحقيق النذر ، ووقوع الجزاء العادل الذي لا يفلت منه العصاة .

ومرة أخرى يقع القوم في المعصية والخطيئة . . وهم في هذه المرة لا يخالفون الأمر جهرة ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها ! ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه ، لأن الصبر على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة في تملك الارتفاع عن الأهواء والأطماع :

﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون في السبت ، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمة منهم : لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ قالوا : معذرة إلى ربكم ،

ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم : كونوا قردة خاسئين . وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ . .

يعدل السياق هنا عن أسلوب الحكاية عن ماضي بني إسرائيل ، إلى أسلوب المواجهة لذراريهم التي كانت تواجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المدينة . . والآيات من هنا إلى قوله تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ آيات مدنية . نزلت في المدينة لمواجهة اليهود فيها ؛ وضمت إلى هذه السورة المكية في هذا الموضع ، تكملة للحديث عما ورد فيها من قصة بني إسرائيل مع نبيهم موسى .

(61/296)

يأمر الله سبحانه رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة لهم في تاريخ أسلافهم .

وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال ؛ ويذكرهم بعصيانهم القديم ، وما جره على فريق منهم من المسخ في الدنيا ؛ وما جره عليهم جميعاً من كتابة الذل عليهم

والغضب أبداً . . اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبي ، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

ولا يذكر اسم القرية التي كانت حاضرة البحر ؛ فهي معروفة للمخاطبين ! فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بني إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية . . وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيداً للعبادة ؛ ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش ، فجعل لهم السبت . . ثم كان الابتلاء ليربيهم الله ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع ؛ وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع . . وكان ذلك ضرورياً لبني إسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذي عاشوا فيه طويلاً ؛ ولا بد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية ، لتعتاد الصمود والثبات . فضلاً على أن هذا ضروري لكل من يحملون دعوة الله ؛ ويؤهلون لأمانة الخلافة في الأرض . . وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء . . فلم يصمدا له واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى ! ثم ظل هو الاختبار الذي لا بد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف في الأرض . . إنما يختلف شكل الابتلاء ، ولا تتغير فحواه !

ولم يصمد فريق من بني إسرائيل – في هذه المرة – للابتلاء الذي كتبه الله عليهم بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم . . لقد جعلت الحيتان في يوم السبت تتراءى لهم على الساحل ، قريبة المأخذ ، سهلة الصيد . فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التي قطعوها على أنفسهم ! فإذا مضى السبت ، وجاءتهم أيام الحل . لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة . كما كانوا يجدونها يوم الحرم ! . . وهذا ما أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكرهم به ؛ ويذكرهم ماذا فعلوا وماذا لاقوا :

﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر . إذ يعدون في السبت . إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ .

فأما كيف وقع لهم هذا ، وكيف جعلت الأسماك تحاورهم هذه المحاورة ، وتداورهم هذه المداورة . . فهي الخارقة التي تقع بإذن الله عندما يشاء الله . . والذين لا يعلمون ينكرون أن تجري مشيئة الله بغير ما يسمونه هم " قوانين الطبيعة " ! والأمر في التصور الإسلامي – وفي الواقع – ليس على هذا النحو . . إن الله سبحانه هو الذي خلق هذا الكون ، وأودعه القوانين التي يسير عليها بمشيئته الطليقة . ولكن هذه المشيئة لم تعد حبيسة هذه القوانين لا تملك أن تجري إلا بها . لقد ظلت طليقة بعد هذه القوانين كما كانت طليقة .

. وهذا ما يغفل عنه الذين لا يعلمون . . وإذا كانت حكمة الله ورحمته بعباده المخاليق قد اقتضت ثبات هذه القوانين ؛ فإنه لم يكن معنى هذا تقيد هذه المشيئة وانحباسها داخل هذه القوانين . . فحيثما اقتضت الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفاً لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر . . ثم إن جريان هذه القوانين الثابتة في كل مرة تجري فيها إنما يقع بقدر من الله خاص بهذه المرة . فهي لا تجري جرياناً آلياً لا تدخل لقدر الله فيه . . وهذا مع ثباتها في طريقها ما لم يشأ الله أن تجري بغير ذلك . . وعلى أساس أن كل ما يقع – سواء من جريان القوانين الثابتة أو جريان غيرها – إنما يقع بقدر من الله خاص ، فإنه تستوي الخارقة والقانون الثابت في جريانه بهذا القدر . . ولا آلية في نظام الكون في مرة واحدة – كما يظن الذين لا يعلمون ! – ولقد بدأوا يدركون هذا في ربع القرن الأخير !

على أية حال ، لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرة البحر من بني إسرائيل . . فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء ، فتتهاوى عزائمهم ، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم ، فيحتالون الحيل – على طريقة اليهود – للصيد في يوم السبت ! وما أكثر الحيل عندما يلتوي القلب ، وتقل التقوى ، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص ، ويراد التفلت

من ظاهر النصوص ! . . إن القانون لا تحرسه نصوصه ، ولا يحميه حراسه . إنما تحرسه القلوب التقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته ، فتحرس هي القانون وتحميه . وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه ! ما من قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية ! ولن تستطيع الدولة – كائناً ما كان الإرهاب فيها – أن تضع على رأس كل فرد حارساً يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته ؛ ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس ، ومراقبتهم له في السر والعلن . .

(64/296)

من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية . وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من الله . . ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التي تقيمها الدول لحراسة القوانين وتنفيذها . وتعجز الملاحقة والمراقبة التي تتابع الأمور من سطوحها !

وهكذا راح فريق من سكان القرية التي كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت ، الذي حرم عليهم الصيد فيه . . وروي أنهم كانوا يقيمون الحواجيز على السمك ويحوّطون عليه في يوم السبت ؛ حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه ؛ وقالوا : إنهم لم يصطادوه في

السبت ، فقد كان في الماء – وراء الحواجيز – غير مصيد !

وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتيال على الله ! فيحذر الفريق العاصي مغبة احتياله ! وينكر عليه ما يزاوله من الاحتيال !

بينما مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر : ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة ، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه ؟ وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب ؟

﴿ وإذ قالت أمة منهم : لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ ﴾ .

فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم ، ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم . بعد ما كتب الله عليهم الهلاك أو العذاب الشديد ؛ بما اقترفوه من انتهاك لحرمات الله .

﴿ قالوا : معذرة إلى ربكم ، ولعلهم يتقون ﴾ . .

فهو واجب نؤديه : واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتخويف من انتهاك الحرمات ، لنبلغ إلى الله عذرنا ، ويعلم أن قد أدينا واجبنا . ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية فيثير فيها وجدان التقوى .

وهكذا انقسم سكان الحاضرة إلى ثلاث فرق . . أو ثلاث أمم . . فالأمة في التعريف الإسلامي هي مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد وتدين لقيادة واحدة ، وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث ، مجموعة الناس التي تسكن في إقليم واحد من الأرض وتحكمها دولة واحدة ! فهذا مفهوم لا يعرفه الإسلام ، إنما هي من مصطلحات الجاهلية القديمة أو الحديثة !

وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم : أمة عاصية محتالة . وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة . وأمة تدع المنكر وأهله ، وتقف موقف الإنكار السلبي ولا تدفعه بعمل إيجابي . . وهي طرائق متعددة من التصور والحركة ، تجعل الفرق الثلاث أمماً ثلاثاً !

فلما لم يجد النصح ، ولم تنفع العظة ، وسدر السادرون في غيهم ، حقت كلمة الله ، وتحققت نذره . فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجوة من السوء . وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد الذي سيأتي بيانه . فأما الفرقة الثالثة – أو الأمة الثالثة – فقد سكت النص عنها . . ربما تهوينا لشأنها – وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب – إذ أنها قعدت عن الإنكار الإيجابي ، ووقفت عند حدود الإنكار السلبي . فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم : كونوا قردة خاسئين ﴾ . .

(66/296)

لقد كان العذاب البئيس – أي الشديد – الذي حل بالعصاة المحتالين ، جزاء إمعانهم في المعصية – التي يعتبرها النص هي الكفر ، الذي يعبر عنه بالظلم مرة وبالفسق مرة كما هو الغالب في التعبير القرآني عن الكفر والشرك بالظلم والفسق ؛ وهو تعبير يختلف عن المصطلح الفقهي المتأخر عن هذه الألفاظ إذ أن مدلولها القرآني ليس هو المدلول الذي جعل يشيع في التعبير الفقهي المتأخر – كان ذلك العذاب البئيس هو المسخ عن الصورة الآدمية إلى الصورة القردية ! لقد تنازلوا هم عن آدميتهم ، حين تنازلوا عن أخص خصائصها – وهو الإرادة التي تسيطر على الرغبة – وانتكسوا إلى عالم " الحيوان " حين تخلوا عن خصائص " الإنسان " .

فقيل لهم أن يكونوا حيث أرادوا لأنفسهم من الانتكاس والهوان !

أما كيف صاروا قردة ؛ وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قردة ؟ هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج عن جنسه ؟ أم تناسلوا وهم قردة ؟ . . . إلى آخر هذه المسائل التي تتعدد

فيها روايات التفسير . . . فهذا كله مسكوت عنه في القرآن الكريم ؛ وليس وراءه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيء . . فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه .

لقد جرت كلمة الله التي يجري بها الخلق والتكوين ابتداء ؛ كما يجري بها التحوير والتغيير . . كلمة "كن" .

﴿ قلنا لهم : كونوا قردة خاسئين ﴾ . .

فكانوا قردة مهينين . كما جرى القول الذي لا راد له ؛ ولا يعجز قائله عن شيء سبحانه !

ثم كانت اللعنة الأبدية على الجميع – إلا الذين يؤمنون بالنبي الأمي ويتبعونه – بما انتهى إليه أمرهم بعد فترة من المعصية التي لا تنتهي ؛ وصدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذي لا راد له ولا معقب عليه :

﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم ﴾ . .

(67/296)

فهو إذْنُ الأبد الذي تحقق منذ صدروه ؛ فبعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب . والذي سيظل نافذاً في عمومه ، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى

من يسومهم سوء العذاب . وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا ، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة ، الناكثة العاصية ، التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية ؛ ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف . .

ولقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقفت ، وأن يهود قد عزت واستطالت ! وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ . . ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة التالية ، وما بعدها إلى يوم القيامة .

لقد تأذن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة – كما أخبر الله نبيه في قرآنه – معقباً على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه في العذاب والرحمة .

﴿ إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم ﴾ . .

فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمته بالعذاب – كما أخذ القرية التي كانت حاضرة البحر – وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يثوب من بني إسرائيل ، ممن يتبعون الرسول النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم ، في التوراة والإنجيل . . فليس عذابه – سبحانه – عن نقمة ولا إحنة . إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه ، ووراءه المغفرة والرحمة . .

ثم تمضي خطوات القصة مع خطوات التاريخ ، من بعد موسى وخلفائه ، مع الأجيال التالية في بني إسرائيل إلى الجيل الذي كان يواجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - والجماعة

المسلمة في المدينة :

﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً .

(68/296)

. منهم الصالحون ومنهم دون ذلك . . وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون .

فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون : سيغفر لنا . وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ! والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ . .

وهذه بقية الآيات المدنية الواردة في هذا السياق تكملة لقصة بني إسرائيل من بعد موسى . . ذلك حين تفرق اليهود في الأرض ؛ جماعات مختلفة المذاهب والتصورات ، مختلفة المشارب والمسالك . فكان منهم الصالحون وكان منهم من هم دون الصلاح .

وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات . تارة بالنعماء وتارة بالبأساء ، لعلهم يرجعون إلى ربهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويستقيمون على طريقهم :

﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ . .

والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد ، وتذكير دائم لهم ، ووقاية من النسيان المؤدي إلى الاغترار والبوار . .

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون : سيغفر لنا . وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ . .

وصفة هذا الخلف الذي جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى : أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه . . ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم . . شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ . . وكلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه ، ثم تأولوا وقالوا : ﴿ سيغفر لنا ﴾ . . وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد !

ويسأل سؤال استنكار :

﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ؟ ودرسوا ما فيه ؟ ﴾ .

(69/296)

ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله في الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص ، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق . . فما بالهم يقولون : ﴿ سيغفر لنا ﴾ ويتهافتون على أعراض الحياة

الدنيا ؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم ، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقاً ؛ ويقلعون عن المعصية فعلاً ؛ وليس هذا حالهم ، فهم يعودون كلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا ! وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه !

بلى ! ولكن الدراسة لا تجدي ما لم تخالط القلوب . وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد . إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا . . وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة ؛ ولا يأخذونه عقيدة ؛ ولا يتقون الله ولا يرهبونه ؟ !

﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

نعم ! إنها الدار الآخرة ! إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة . وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا . . نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ؛ ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها . . وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض ؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي ؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع ؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل ،

وبين الخير والشر ، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتنأى ؟ والشر يتبجح والباطل يطغى ؟

(70/296)

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى ، إلا اليقين في الآخرة ، وأنها خير للذين يتقون ، ويعفون ، ويترفعون ، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن ، ويمضون في الطريق لا يتلفتون . . مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين . .

وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذي يريد دعاة " الاشتراكية العلمية " أن يلغوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا ؛ ويحلوا محله تصوراً كافراً جاهلاً مطموساً يسمونه : " العلمية " . .

ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد الحياة ، وتفسد النفوس ؛ وينطلق السعار المجنون الذي لا يكبحه إلاَّ ذلك اليقين . . ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع والطغيان . وينتشر داء الإهمال وقلة المبالاة والخيانة في كل مجال . .

إن " العلمية " التي تناقض " الغيبية " جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع

عشر . جهالة يرجع عنها " العلم البشري " ذاته ، ولا يبقى يرددها في القرن العشرين إلا الجهال ! جهالة تناقض فطرة " الإنسان " ومن ثم تفسد " الحياة " ذلك الإفساد الذي يهدد البشرية بالدمار ! ولكنه المخطط الصهيوني الرهيب الذي يريد أن يسلب البشرية كلها قوام حياتها وصلاحها . ليسهل تطويعها لملك صهيون في نهاية المطاف ! والذي تردده الببغاوات هنا وهناك ، بينما الأوضاع التي أقامتها الصهيونية وكفلتها في أنحاء الأرض تمضي عن علم في تنفيذ المخطط الرهيب هنا وهناك !

ولأن قضية الآخرة ، وقضية التقوى قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة ، يحيل السياق القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى . . عرض الحياة الدنيا . . إلى العقل :

﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون . . أفلا تعقلون ؟ ﴾ . .

(71/296)

ولو كان العقل هو الذي يحكم لا الهوى . . ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمى العلم هو الذي يقضي . . لكانت الدار الآخرة خيراً من عرض هذا الأدنى . ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً :

﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

وهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه ؛ ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذي درسوه ، ولا يعملون به ، ولا يحكمونه في تصوراتهم وحركاتهم ؛ ولا في سلوكهم وحياتهم .

. غير أن الآية تبقى – من وراء ذلك التعريض – مطلقة ، تعطي مدلولها كاملاً ، لكل جيل ولكل حالة .

إن الصيغة اللفظية : ﴿ يمسكون ﴾ . . تصور مدلولاً يكاد يحس ويرى . . إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة . . الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه . . في غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت . . فالجد والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر . . إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسر ولكنها تنافي التميع ! ولا تنافي سعة الأفق ولكنها تنافي الاستهتار ! ولا تنافي مراعاة الواقع ولكنها تنافي أن يكون " الواقع " هو الحكم في شريعة الله ! فهو الذي يجب أن يظل محكوماً بشريعة الله ! والتمسك بالكتاب في جد وقوة وصرامة ؛ وإقامة الصلاة – أي شعائر العبادة – هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة . . والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقروناً إلى الشعائر يعني مدلولاً معيناً . إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة ، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس . فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس ،

ولا تصلح بسواه . . والإشارة إلى الإصلاح في الآية :

﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ . .

يشير إلى هذه الحقيقة . . حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً ، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين .

(72/296)

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني . . ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس ؛ وترك العبادة التي تصلح القلوب فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص ، كالذي كان يصنعه أهل الكتاب ؛ وكالذي يصنعه أهل كل كتاب ، حين تفتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله . .

إنه منهج متكامل . يقيم الحكم على أساس الكتاب ؛ ويقيم القلب على أساس العبادة . . ومن ثم تتوافى القلوب مع الكتاب ؛ فتصلح القلوب ، وتصلح الحياة .

إنه منهج الله ، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجاً آخر ، إلا الذين كتبت عليهم الشقوة وحق عليهم العذاب !

وفي ختام حلقات القصة في هذه السورة يذكر كيف كان الله قد أخذ على بني إسرائيل

الميثاق :

﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم . خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ .

إنه ميثاق لا ينسى . . فقد أخذ في ظرف لا ينسى ! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق ؛ فأعطوه في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس . ولقد أمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية ، وأن يستمسكوا به في شدة وصرامة ، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا في ميثاقهم الوثيق ، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه ، لعل قلوبهم تخشع وتتقي . وتظل موصولة بالله لا تنساه !

ولكن إسرائيل هي إسرائيل ! نقضت الميثاق ، ونسيت الله ، ولجت في المعصية ، حتى استحقت غضب الله ولعنته . وحق عليها القول ، بعد ما اختارها الله على العالمين في زمانها ، وأفاء عليها من عطاياه . فلم تشكر النعمة ، ولم ترع العهد ، ولم تذكر الميثاق . . وما ربك بظلام للعبيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1379 . 1389 ﴾

(73/296)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾ هي قرية الجسد الحيواني على شاطىء بحر البشرية ، وأهل قرية الجسد الصفات الإنسانية صنف روحاني كصفات الروح ، وصنف قلبي كصفات القلب ، وصنف نفساني كصفات النفس الأمارة بالسوء ، وكل قد نهوا عن صيد حيتان الدواعي البشرية في سبت محارم الله ، فلم تنتهك الحرمة إلا الصفات النفسانية ﴿ إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ﴾ لأن الإنسان حريص على ما منع فتهيج الدواعي في المحرمات دون المحللات ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أي بما كان من طبيعة النفس وصفاتها من الخروج عن أمر الله أنها أمارة بالسوء ﴿ وإذ قالت أمة منها ﴾ هي صفات القلب قالوا لصفات الروح ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ بالمخالفات عند استيفاء اللذات والشهوات ﴿ أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ وهو المسخ بتبديل الصفات الإنسانية إلى الصفات الحيوانية ﴿ قالوا معذرة إلى ربكم ﴾ لأنه خلقنا هكذا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر فنقضي ما علينا ليعلم أنّا ما تغيرنا عن أوصافنا الروحانية والملكية ، ولعل النفس وصفاتها ﴿ يتقون ﴾ فتتصف بالمأمورية والاطمئنان فإنها قابلة لذلك ﴿ بعذاب بئيس ﴾ وهو إبطال استعداد قبول الفيض الإلهي ﴿ ليبعثن عليهم ﴾ على الأرواح والقلوب الذين يتبعون النفس وصفاتها ﴿ من يسومهم ﴾ وهو الشيطان

المنظر إلى يوم القيامة ﴿ سوء العذاب ﴾ عذاب البعد عن الله وعذاب ذلة الخدمة للنفس والشيطان ﴿ وقطعناهم ﴾ فرقنا الأرواح والقلوب في أرض الأجساد ﴿ منهم الصالحون ﴾ قابلون لفيض نور الله ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ في القبول ﴿ وبلوناهم بالحسنات ﴾ وهي الطاعات ﴿ والسيئات ﴾ وهي المعاصي ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إلى الحق . وذلك أن السير إلى الله يتم بقدم الطاعة وبقدم ترك المعصية ومن هنا قيل خطوتان وقد وصلت . أو بلوناهم بالحسنات ليرجعوا إلينا بقدم الشكر ، والسيئات ليرجعوا بقدم الصبر أو بلوناهم بكثرة الطاعات والعجب بها كما كان حل إبليس وبكثرة المعاصي

(74/296)

والندامة عليها كما كان حال آدم ﴿ فخلف ﴾ من بعد الأرواح والقلوب لما سلكوا طريق الحق ووصلوا إلى مقعد صدق خلفهم النفوس الأمارة بالسوء ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ وهو ما ألهم الله تعالى الأرواح والقلوب من المواعظ والحكم والمعاني والأسرار وورثتها النفوس وجعلوها ذريعة للعروض الدنياوية وتحصيل المال والجاه واستيفاء اللذات ﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ مثل هذه الزلات لأنا واصلون كاملون كما هو مذهب أهل الإباحة ، أو

سيغفر لنا إذا اسغفرنا وهم يستغفرون باللسان لا بالقلب ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ فيه أن الإنسان لو وكل إلى طبعه ونفسه لا يقبل شيئاً من الأمور الدينية وإنما يعان على القبول بأمر ظاهر أو باطن .

وفيه أن على رؤوس أهل الطلب جبل أمر الحق وهو أمر التحويل فيحولهم بالقدرة إلى أن يأخذوا ما آتاهم الله تعالى بقوة منه لا بقوتهم وإرادتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 341.342 ﴾

(75/296)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر أنه ألزمهم أحكام الكتاب على هذه الهيئة القاهرة الملجئة القاسرة التي هي من أعظم المواثيق عند أهل الأخذ وأنه أكد عليهم المواثيق في كثير من فصول الكتاب ، وكان ذلك كله خاصاً بهم ؛ أمره أن يذكر لهم أنه ركب لهم في عموم هذا النوع الآدمي من العقول

ونصب من الأدلة الموضحة للأمر إيضاح المشهود للشاهد ما لو عذب تاركه والمتهاون به لكان تعذيبه جارياً على المناهج ملائماً للعقول ، ولكنه لسبق رحمته وغلبة رأفته لم يؤاخذ بذلك حتى ضم إليه الرسل ، وأنزل معهم الكتب ، وأكثر فيها من المواثيق ، وزاد في الكشف والبيان ، وإلى ذلك الإشارة باسم الرب ، فكأن من عنده علم أشد ملامة من الجاهل ، فقال : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكر لهم إذ ﴿ أخذ ﴾ أي خلق بقوله وقدرته ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بالتمهيد لرسالتك كما يؤخذ القمل بالمشط من الرأس .

(76/296)

ولما كان السياق لأخذ المواثيق والأخذ بقوة ، ذكر أخذ الذرية من أقوى نوعي الآدمي ، وهم الذكور فقال : ﴿ من بني آدم ﴾ وذكر أنه جعلها من أمتن الأعضاء فقال : ﴿ من ظهورهم ﴾ كل واحد من ظهر أبيه ﴿ ذريتهم ﴾ إشارة إلى أنه أكد عليهم المواثيق وشددها لهم وأمرهم – بالقوة في أمرها ، أعطاهم من القوة في التركيب والمزاج ما يكونون به مطيعين لذلك ، فهو تكليف بما في الوسع ، وجعل لهم عقولاً عند من قال : هو على حقيقته كنملة سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾ أي أوضح لهم من البراهين من الإنعام بالعقول مع خلق السماوات والأرض وما فيهما على هذا المنوال

الشاهد له بالوحدانية وتمام العلم والقدرة ، ومن إرسال الرسل المؤيدين بالمعجزات ما كانوا كالشهود بأنه لا رب غيره ؛ وقد ذكر معنى هذا الإمام حجة الإسلام الغزالي في الكلام على العقل من باب العلم من الإحياء فإنه قال معنى هذه الآية : والمراد إقرار نفوسهم ، لا إقرار الألسنة ، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص ؛ ثم ذكر أن النفوس فطرت على معرفة الأشياء على ما هي عليه لقرب الاستعداد للإدراك .

ولما تبين أنه فرد لا شريك له فلا راد لأمره ، وأنه رب فلا أرأف منه ولا أرحم ، كان ذلك أدعى إلى طاعته خوفاً من سطوته ورجاء لرحمته ، فكانوا بذلك بمنزلة من سئل عن الحق فأقر به ، فلذلك قال : ﴿ ألست بربكم ﴾ أي المحسن إليكم بالخلق والتربية بالرزق وغيره ﴿ قالوا بلى شهدنا ﴾ أي كان علمنا بذلك علماً شهودياً ، وذلك لأنهم وصلوا بعد البيان إلى حد لا يكون فيه الجواب إلا ذلك فكأنهم قالوه ؛ فهو – والله أعلم – من وادي قوله تعالى ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ [الرعد : 15] – الآية و ﴿ لله يسجد ما في السماوات والأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ [النحل : 49] .

ولما كان كأنه قيل : لم فعل ذلك ؟ قيل : دلالة على أن المتقدم إنما هو على طريق التمثيل يجعل تمكينهم من الاستدلال كالإشهاد ، فعله كراهة ﴿ أن تقولوا يوم القيامة ﴾ أي إن لم

ينصب لهم الأدلة ﴿ إنا كنا عن هذا ﴾ أي وحدانيتك وربوبيتك ﴿ غافلين ﴾ أي لعدم الأدلة فلذلك أشركنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 147 . 148 ﴾

(77/296)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ذريتهم ﴾ على التوحيد : حمزة وعلي وخلف وابن كثير وعاصم سوى حفص والمفضل . الباقون : على الجمع ﴿ يقولوا ﴾ بياء الغيبة في الحرفين : أبو عمرو ﴿ يلهث ذلك ﴾ بالإظهار : حفص والأصفهاني عن ورش ، والحلواني عن قالون والنقاش عن أبي ربيعة عن قنبل ﴿ يلحدون ﴾ بفتح الياء والحاء : حمزة ، الباقون : بضم الياء وكسر الحاء من الإلحاد ﴿ ولقد ذرأنا ﴾ مظهراً : أبو جعفر ونافع وابن كثير غير ورش وعاصم غير الأعشى ﴿ ذرأنا ﴾ بغير همزة : أبو عمرو ويزيد والأعشى والأصفهاني عن ورش وحمزة في الوقف . الباقون : بالهمز .

(78/296)

الوقوف : ﴿ أنفسهم ﴾ ج لأن التقدير وقال ألست بربكم مع اتحاد الكلام . بربكم ط فصلاً بين السؤال والجواب . ﴿ بلى ﴾ ج لأن ﴿ شهدنا ﴾ يصلح أن يكون من قولهم فيوقف على ﴿ شهدنا ﴾ ويعلق أن بمحذوف أي فعلنا ذلك لئلا تقولوا ، ويصلح أن يكون ﴿ شهدنا ﴾ من قول الملائكة أي قيل للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا فيكون منفصلاً من جملة بلى متصلاً بأن تقولوا . ﴿ غافلين ﴾ ه لا للعطف ﴿ من بعدهم ﴾ ج لابتداء الاستفهام واتحاد القائل . ﴿ المبطلون ﴾ ه ﴿ يرجعون ﴾ ه ﴿ الغاوين ﴾ ه ﴿ هواه ﴾ ج لأن قوله ﴿ فمثله ﴾ مبتدأ ولدخول الفاء فيه ﴿ كمثل الكلب ﴾ ج لابتداء الشرط من أن الجملة تفسير للمثل ﴿ أو تتركه يلهث ﴾ ط ﴿ بآياتنا ﴾ ط ﴿ يتفكرون ﴾ ه ﴿ يظلمون ﴾ ه ﴿ المهتدي ﴾ ج للعطف ولأن التفصيل بين الجملتين أبلغ في التنبيه ﴿ الخاسرون ﴾ ه ﴿ والإنس ﴾ ط والوصل أولى لأن الجملة بعده صفة ل ﴿ كثيراً ﴾ ، ﴿ لا يفقهون بها ﴾ ج لأن العطف صحيح ولكن الوقف لإمهال فرصة الاعتبار وكذا الثانية ولهذا كرر لفظة ﴿ لهم ﴾ في أول كل جملة ﴿ لا يسمعون بها ﴾ ط ﴿ أضل ﴾ ط ﴿ الغافلون ﴾ ه ﴿ فادعوه بها ﴾ ص لعطف المتفقتين ﴿ في أسمائه ﴾ ط ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ يعدلون ﴾ ه ﴿ لا يعلمون ﴾ وج وعطف ﴿ وأملي ﴾ على ﴿

سنستدرجهم ﴾ احسن من جعله مستأنفاً فيوقف على ﴿ أملي ﴾ ، ﴿ لهم ﴾ ، ﴿ متين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 342 . 343 ﴾

(79/296)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع توابعها على أقصى الوجوه ذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تقرير الحجة على جميع المكلفين ، وفي تفسير هذه الآية قولان : الأول : وهو مذهب المفسرين وأهل الأثر ما روى مسلم بن يسار الجهني أن عمر رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : " إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة

وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون " فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار " وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة من ذريته إلى يوم القيامة " وقال مقاتل : " إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر تتحرك ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه الذر سوداء كهيئة الذر فقال يآدم هؤلاء ذريتك .

ثم قال لهم : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين ، وقال للسود هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ثم أعادهم جميعاً في صلب آدم " ، فأهل القبول محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال ، وأرحام النساء .

(80/296)

وقال تعالى فيمن نقض العهد الأول ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ [الأعراف : 102] وهذا القول قد ذهب إليه كثير من قدماء المفسرين كسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وعكرة ، والكلبي ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه أبصر آدم في ذريته قوماً لهم نور .

فقال يا رب من هم ؟ فقال الأنبياء ، ورأى واحداً هو أشدهم نوراً فقال من هو ؟ قال داود ، قال فكم عمره قال سبعون سنة قال آدم : هو قليل قد وهبته من عمري أربعين سنة ، وكان عمر آدم ألف سنة ، فلما تم عمر آدم تسعمائه وستين سنة أتاه ملك الموت ليقبض روحه ، فقال بقي من أجلي أربعون سنة ، فقال : ألست قد وهبته من ابنك داود ؟ فقال ما كنت لأجعل لأحد من أجلي شيئاً ، فعند ذلك كتب لكل نفس أجلها .

أما المعتزلة : فقد أطبقوا على أنه لا يجوز تفسير هذه الآية بهذا الوجه .

واحتجوا على فساد هذا القول بوجوه .

الحجة الأولى : لهم قالوا : قوله : ﴿ مِن بَنِى ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ لا شك أن قوله : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ يدل من قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ﴾ فيكون المعنى : وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم .

وعلى هذا التقدير : فلم يذكر الله تعالى أنه أخذ من ظهر آدم شيئاً .

الحجة الثانية : أنه لو كان المراد أنه تعالى أخرج من ظهر آدم شيئاً من الذرية لما قال : ﴿ مِن

ظُهُورِهِمْ ﴾ بل كان يجب أن يقول : من ظهره ، لأن آدم ليس له إلا ظهر واحد ، وكذلك قوله : ﴿ ذُرِّيَّتَهُم ﴾ لو كان آدم لقال ذريته .

الحجة الثالثة : أنه تعالى حكى عن أولئك الذرية أنهم قالوا : ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا من قبل ﴾ وهذا الكلام يليق بأولاد آدم ، لأنه عليه السلام ما كان مشركاً .

(81/296)

الحجة الرابعة : أن أخذ الميثاق لا يمكن إلا من العاقل ، فلو أخذ الله الميثاق من أولئك الذر لكانوا عقلاء ، ولو كانوا عقلاء وأعطوا ذلك الميثاق حال عقلهم لوجب أن يتذكروا في هذا الوقت أنهم أعطوا الميثاق قبل دخولهم في هذا العالم ؛ لأن الإنسان إذا وقعت له واقعة عظيمة مهيبة فإنه لا يجوز مع كونه عاقلاً أن ينساها نسياناً كلياً لا يتذكر منها شيئاً لا بالقليل ولا بالكثير ، وبهذا الدليل يبطل القول بالتناسخ .

فإنا نقول لو كانت أرواحنا قد حصلت قبل هذه الأجساد في أجساد أخرى لوجب أن نتذكر الآن أنا كنا قبل هذا الجسد في جسد آخر ، وحيث لم نتذكر ذلك كان القول بالتناسخ باطلاً .

فإذا كان اعتمادنا في إبطال التناسخ ليس إلا على هذا الدليل وهذا الدليل بعينه قائم في

هذه المسألة ، وجب القول بمقتضاه ، فلو جاز أن يقال إنا في وقت الميثاق أعطينا العهد والميثاق مع أنا في هذا الوقت لا نتذكر شيئاً منه ، فلم لا يجوز أيضاً أن يقال إنا كنا قبل هذا البدن في بدن آخر مع أنا في هذا البدن لا نتذكر شيئاً من تلك الأحوال .

وبالجملة فلا فرق بين هذا القول وبين مذهب أهل التناسخ فإن لم يبعد التزام هذا القول لم يبعد أيضاً التزام مذهب التناسخ .

الحجة الخامسة : أن جميع الخلق الذين خلقهم الله من أولاد آدم عدد عظيم وكثرة كثيرة ، فالمجموع الحاصل من تلك الذرات يبلغ مبلغاً عظيماً في الحجمية والمقدار وصلب آدم على صغره يبعد أن يتسع لذلك المجموع .

الحجة السادسة : أن البنية شرط لحصول الحياة والعقل والفهم ، إذ لو لم يكن كذلك لم يبعد في كل ذرة من ذرات الهباء أن يكون عاقلاً فاهماً مصنفاً للتصانيف الكثيرة في العلوم الدقيقة .

وفتح هذا الباب يفضي إلى التزام الجهالات .

وإذا ثبت أن البنية شرط لحصول الحياة ، فكل واحد من تلك الذرات لا يمكن أن يكون عالماً فاهماً عاقلاً ؛ إلا إذا حصلت له قدرة من البنية واللحمية والدمية ، وإذا كان كذلك فمجموع تلك الأشخاص الذين خرجوا إلى الوجود من أول تخليق آدم إلى آخر قيام القيامة لا تحويهم عرصة الدنيا ، فكيف يمكن أن يقال إنهم بأسرهم حصلوا دفعة واحدة في صلب آدم عليه السلام ؟

الحجة السابعة : قالوا هذا الميثاق إما أن يكون قد أخذه الله منهم في ذلك الوقت ليصير حجة عليهم في ذلك الوقت ، أو ليصير حجة عليهم عند دخولهم في دار الدنيا .

والأول باطل لانعقاد الإجماع على أن بسبب ذلك القدر من الميثاق لا يصيرون مستحقين للثواب والعقاب والمدح والذم ولا يجوز أن يكون المطلوب منه أن يصير ذلك حجة عليهم عند دخولهم في دار الدنيا لأنهم لما لم يذكروا ذلك الميثاق في الدنيا فكيف يصير ذلك حجة عليهم في التمسك بالإيمان ؟

الحجة الثامنة : قال الكعبي : إن حال أولئك الذرية لا يكون أعلى في الفهم والعلم من حال الأطفال ، ولما لم يكن توجيه التكليف على الطفل ، فكيف يمكن توجيهه على أولئك الذوات ؟

وأجاب الزجاج عنه فقال : لما لم يبعد أن يؤتى الله النمل العقل كما قال : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النمل ﴾ [النمل : 18] وأن يعطي الجبل الفهم حتى يسبح كما قال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ

دَاوُودُ الجبال يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء : 79] وكما أعطى الله العقل للبعير حتى سجد للرسول ، وللنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت فكذا ههنا .

(83/296)

الحجة التاسعة : أن أولئك الذر في ذلك الوقت إما أن يكونوا كاملي العقول والقدر أو ما كانوا كذلك ، فإن كان الأول كانوا مكلفين لا محالة وإنما يبقون مكلفين إذا عرفوا الله بالاستدلال ولو كانوا كذلك لما امتازت أحوالهم في ذلك الوقت عن أحوالهم في هذه الحياة الدنيا ، فلو افتقر التكليف في الدنيا إلى سبق ذلك الميثاق لافتقر التكليف في وقت ذلك الميثاق إلى سبق ميثاق آخر ولزم التسلسل وهو محال .

وأما الثاني : وهو أن يقال إنهم في وقت ذلك الميثاق ما كانوا كاملي العقول ولا كاملي القدر ، فحينئذ يمتنع توجيه الخطاب والتكليف عليهم .

الحجة العاشرة : قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 5 ، 6] ولو كانت تلك الذرات عقلاء فاهمين كاملين ، لكانوا موجودين قبل هذا الماء الدافق ولا معنى للإنسان إلا ذلك الشيء فحينئذ لا يكون الإنسان مخلوقاً من الماء الدافق وذلك رد لنص القرآن .

فإن قالوا : لم لا يجوز أن يقال إنه تعالى خلقه كامل العقل والفهم والقدرة عند الميثاق ثم أزال عقله وفهمه وقدرته ؟ ثم إنه خلقه مرة أخرى في رحم الأم وأخرجه إلى هذه الحياة .

قلنا : هذا باطل لأنه لو كان الأمر كذلك لما كان خلقه من النطفة خلقاً على سبيل الابتداء بل يجب أن يكون خلقاً على سبيل الإعادة .

وأجمع المسلمون على أن خلقه من النطفة هو الخلق المبتدأ فدل هذا على أن ما ذكرتموه باطل .

الحجة الحادية عشرة : هي أن تلك الذرات إما أن يقال هي عين هؤلاء الناس أو غيرهم والقول الثاني باطل بالإجماع ، بقي القول الأول .

فنقول : إما أن يقال إنهم بقوا فهماء عقلاء قادرين حال ما كانوا نطفة وعلقة ومضغة أو ما بقوا كذلك والأول باطل ببديهة العقل .

والثاني : يقتضي أن يقال الإنسان حصل له الحياة أربع مرات : أولها وقت الميثاق ، وثانيها في الدنيا ، وثالثها في القبر ، ورابعها في القيامة .

وأنه حصل له الموت ثلاث مرات .

موت بعد الحياة الحاصلة في الميثاق الأول ، وموت في الدنيا ، وموت في القبر ، وهذا العدد مخالف للعدد المذكور في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ [غافر : 11] .

الحجة الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ [المؤمنين : 12] فلو كان القول بهذا الذر صحيحاً لكان ذلك الذر هو الإنسان لأنه هو المكلف المخاطب المثاب المعاقب ، وذلك باطل .

لأن ذلك الذر غير مخلوق من النطفة ، والعلقة ، والمضغة ، ونص الكتاب دليل على أن الإنسان مخلوق من النطفة والعلقة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ وقوله : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَىّ شَىْء خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ [عبس : 17 - 19] فهذه جملة الوجوه المذكورة في بيان أن هذا القول ضعيف .

والقول الثاني : في تفسير هذه الآية قول أصحاب النظر وأرباب المعقولات : أنه تعالى أخرج الذرية وهم الأولاد من أصلاب آبائهم وذلك الإخراج أنهم كانوا نطفة فأخرجها الله تعالى في أرحام الأمهات ، وجعلها علقة ، ثم مضغة ، ثم جعلهم بشراً سوياً ، وخلقاً كاملاً ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقه ، وغرائب صنعه .

فبالإشهاد صاروا كأنهم قالوا بلى ، وإن لم يكن هناك قول باللسان ، ولذلك نظائر منها قوله

تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11]

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40]

وقول العرب :

قال الجدار للوتد لم تشقني . . قال سل من يدقني

فإن الذي ورايي . . ما خلاني ورايي

وقال الشاعر :

(85/296)

امتلأ الحوض وقال قطني . . فهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور في الكلام ، فوجب حمل الكلام عليه ، فهذا هو الكلام في تقرير هذين القولين ، وهذا القول الثاني لا طعن فيه ألبتة ، وبتقدير أن يصح هذا القول لم يكن ذلك منافياً لصحة القول الأول : إنما الكلام في أن القول الأول هل يصح أم لا ؟

فإن قال قائل : فما المختار عندكم فيه ؟

قلنا : ههنا مقامان : أحدهما : أنه هل يصح القول بأخذ الميثاق عن الذَّر ؟ والثاني : أن بتقدير أن يصح القول به ، فهل يمكن جعله تفسيراً لألفاظ هذه الآية ؟

أما المقام الأول : فالمنكرون له قد تمسكوا بالدلائل العقلية التي ذكرناها وقررناها ، ويمكن الجواب عن كل واحد منها بوجه مقنع .

أما الوجه الأول : من الوجوه العقلية المذكورة ، وهو أنه لو صح القول بأخذ هذا الميثاق لوجب أن نتذكره الآن .

قلنا : خالق العلم بحصول الأحوال الماضية هو الله تعالى لأن هذه العلوم عقلية ضرورية . والعلوم الضرورية خالقها هو الله تعالى ، وإذا كان كذلك صح منه تعالى أن يخلقها .

فإن قالوا : فإذا جوزتم هذا ، فجوزوا أن يقال : إن قبل هذا البدن كنا في أبدان أخرى على سبيل التناسخ وإن كنا لا نتذكر الآن أحوال تلك الأبدان

قلنا : الفرق بين الأمرين ظاهر وذلك لأنا إذا كنا في أبدان أخرى ، وبقينا فيها سنين ودهوراً ، امتنع في مجرى العادة نسيانها ، أما أخذ هذا الميثاق إنما حصل في أسرع زمان ، وأقل وقت فلم يبعد حصول النسيان فيه ، والفرق الظاهر حاكم بصحة هذا الفرق ، لأن الإنسان إذا بقي على العمل الواحد سنين كثيرة يمتنع أن ينساه ، أما إذا مارس العمل الواحد لحظة واحدة فقد ينساه ، فقد ظهر الفرق .

وأما الوجه الثاني : وهو أن يقال : مجموع تلك الذرات يمتنع حصولها بأسرها في ظهر آدم عليه السلام .

قلنا : عندنا البنية ليست شرطاً لحصول الحياة ، والجوهر الفرد الذي لا يتجزأ ، قابل للحياة والعقل ، فإذا جعلنا كل واحد من تلك الذرات جوهراً فرداً ، فلم قلتم إن ظهر آدم عليه السلام لا يتسع لمجموعها ؟ إلا أن هذا الجواب لا يتم إلا إذا قلنا : الإنسان جوهر فرد . وجزء لا يتجزأ في البدن .

على ما هو مذهب بعض القدماء ، وأما إذا قلنا : الإنسان هو النفس الناطقة ، وإنه جوهر غير متحيز ، ولا حالٌّ في المتحيز فالسؤال زائل .

وأما الوجه الثالث : وهو قوله فائدة أخذ الميثاق هي أن تكون حجة في ذلك الوقت أو في الحياة الدنيا ؟

فجوابنا أن نقول : يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأيضاً أليس أن من المعتزلة إذا أرادوا تصحيح القول بوزن الأعمال ، وإنطاق الجوارح قالوا : لا يبعد أن يكون لبعض المكلفين في إسماع هذه الأشياء لطف ؟ فكذا ههنا لا يبعد أن يكون لبعض الملائكة في تمييز السعداء من الأشقياء في وقت أخذ الميثاق لطف .

وقيل أيضاً إن الله تعالى يذكرهم ذلك الميثاق يوم القيامة وبقية الوجوه ضعيفة والكلام عليها سهل هين .

وأما المقام الثاني : وهو أن بتقدير أن يصح القول بأخد الميثاق من الذر .

فهل يمكن جعله تفسيراً لألفاظ هذه الآية ؟ فنقول الوجوه الثلاثة المذكورة أولاً دافعة لذلك لأن قوله : ﴿ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فقد بينا أن المراد منه ، وإذا أخذ ربك من ظهور بني آدم ، وأيضاً لو كانت هذه الذرية مأخوذة من ظهر آدم لقال من ظهره ذريته ولم يقل من ظهورهم ذريتهم .

أجاب الناصرون لذلك القول : بأنه صحت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فسر هذه الآية بهذا الوجه والطعن في تفسير رسول الله غير ممكن .

(87/296)

فنقول : ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أخرج الذر من ظهور بني آدم فيحمل ذلك على أنه تعالى يعلم أن الشخص الفلاني يتولد منه فلان وذلك الفلان فلان آخر ، فعلى الترتيب الذي علم دخولهم في الوجود يخرجهم ويميز بعضهم من بعض ، وأما أنه تعالى يخرج كل تلك الذرية من صلب آدم ، فليس في لفظ الآية ما يدل على ثبوته وليس في الآية أيضاً ما يدل على بطلانه ، إلا أن الخبر قد دل عليه ، فثبت إخراج الذرية من ظهور بني آدم بالقرآن ، وثبت إخراج الذرية من ظهر آدم بالخبر ، وعلى هذا التقدير : فلا منافاه بين الأمرين ولا مدافعة ، فوجب المصير إليهما معاً .

صوناً للآية .

والخبر عن الطعن بقدر الإمكان ، فهذا منتهى الكلام في تقرير هذا المقام .

المسألة الثانية :

قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو ﴿ ذرياتهم ﴾ بالألف على الجمع والباقون ﴿ ذُرِّيَّتَهُم ﴾ على الواحد .

قال الواحدي : الذرية تقع على الواحد والجمع .

فمن أفرد فإنه قد استغنى عن جمعه وبوقوعه على الجمع فصار كالبشر فإنه يقع على الواحد كقوله : ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ وعلى الجمع كقوله : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن : 6] وقوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ وكما لم يجمع بشر بتصحيح ولا تكسير كذلك لا يجمع الذرية ومن جمع قال : إن الذرية وإن كان واحداً فلا إشكال في جواز الجمع فيه ، وإن كان جمعاً فجمعه أيضاً حسن ، لأنك قد رأيت الجموع المكسرة قد جمعت .

نحو الطرقات والجدرات ، وهو اختيار يونس أما قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ فنقول : أما على قول من أثبت الميثاق الأول فكل هذه الأشياء محمولة على ظواهرها ، وأما على قول من أنكره قال : إنها محمولة على التمثيل ، والمعنى : أنه تعالى نصب لهم الأدلة على ربوبيته ، وشهدت بها عقولهم ، فصار ذلك جارياً مجرى ما إذا أشهدهم على أنفسنا وإقرارنا بوحدانيته ، أما قوله : ﴿ شَهِدْنَا ﴾ ففيه قولان :

القول الأول : أنه من كلام الملائكة ، وذلك لأنهم لما قالوا ﴿ بلى ﴾ قال الله للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا ، وعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله : ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ لأن كلام الذرية قد انقطع ههنا وقوله : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ تقريره : أن الملائكة قالوا شهدنا عليهم بالإقرار ، لئلا يقولوا ما أقررنا ، فأسقط كلمة "لا" كما قال :

﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] يريد لئلا تميد بكم ، هذا قول الكوفيين ، وعند البصريين تقريره : شهدنا كراهة أن يقولوا .

والقول الثاني : أن قوله : ﴿ شَهِدْنَا ﴾ من بقية كلام الذرية ، وعلى هذا التقرير ، فقوله : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ متعلق بقوله : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ والتقدير : وأشهدهم على أنفسهم ، بكذا وكذا ، لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ أو كراهية أن يقولوا ذلك وعلى هذا التقدير ، فلا يجوز الوقف عند قوله : ﴿ شَهِدْنَا ﴾ لأن قوله : ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ متعلق بما قبله وهو قوله : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ ﴾ فلم يجز قطعه منه .

واختلف القراء في قوله : ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ أو تقولوا : فقرأ أبو عمرو بالياء جميعاً ، لأن الذي تقدم من الكلام على الغيبة وهو قوله : ﴿ مِن بَنِى ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ وقرأ الباقون بالتاء ، لأنه قد جرى في الكلام خطاب وهو قوله : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَا ﴾ وكلا الوجهين حسن ، لأن الغائبين هم المخاطبون في المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 39.44 ﴾

(89/296)

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْت بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : رَوَى مَالِكٌ وَغَيْرُهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﴿ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّك مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ فَقَالَ عُمَرُ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَقَالَ : إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ ، فَقَالَ :

خَلَقْت هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ .

ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ ، فَقَالَ : خَلَقْت هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ .

فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ اللَّهَ إذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ ﴾ وَقَدْ تُكُلِّمَ فِي سَنَدِ هَذَا الْحَدِيثِ بِكَلَامٍ [قَدْ] بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ .

(90/296)

وَقَدْ ثَبَتَ وَصَحَّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ، مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُك .

فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ .

فَقَالَ : يَا رَبِّ ؛ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : رَجُلٌ

مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِك يُقَالُ لَهُ دَاوُد .

فَقَالَ : رَبِّ كَمْ جَعَلْت عُمُرَهُ ؟ قَالَ : سِتِّينَ سَنَةً .

قَالَ : أَيْ رَبِّ ، زِدْهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً .

فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، فَقَالَ : أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَك دَاوُد ؟ قَالَ : فَجَحَدَ آدَم ، فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ؛ وَنَسِيَ آدَم فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ؛ وَخَطِئَ آدَم ، فَأَخْطَأَتْ ذُرِّيَّتُهُ ﴾ .

خَرَّجَهُ أَبُو عِيسَى وَصَحَّحَهُ ، وَمِنْ رِوَايَةِ غَيْرِهِ ، ﴿ فَمِنْ حِينَئِذٍ أُمِرَ بِالْكِتَابِ وَالشُّهُودِ ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ أَنَّهُ رَأَى فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ وَالْمُبْتَلَى وَالصَّحِيحَ فَقَالَ لَهُ آدَم : يَا رَبِّ ، مَا هَذَا ؟ أَلَا سَوَّيْت بَيْنَهُمْ ؟ قَالَ : أَرَدْت أَنْ أَشْكُرَ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : أَنَّهُ ﴿ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كَهَيْئَةِ الذَّرِّ ، ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمْ الْمِيثَاقَ ، ثُمَّ أُعِيدُوا فِي صُلْبِهِ ﴾ .

(91/296)

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ عُمَرَ خَطَبَ بِالْجَابِيَةِ ، فَقَالَ : مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ .

فَقَالَ الْجَاثَلِيقُ : تَرَكَّسْت تَرَكَّسْت .

فَقَالَ الرَّاوِي : يَقُولُ مَعَاذَ اللَّهِ ، لَا يُضِلُّ اللَّهُ أَحَدًا .

فَقَالَ عُمَرُ : بَلْ اللَّهُ خَلَقَك ثُمَّ أَضَلَّك ، ثُمَّ يُمِيتُك ، ثُمَّ يُدْخِلُك النَّارَ ؛ وَاَللَّهِ لَوْلَا وَلْثٌ مِنْ عَهْدِك لَضَرَبْت عُنُقَك .

فَقَالَ : إنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ نَثَرَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ فِي كَفَّيْهِ ، فَقَالَ : هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَمَا هُمْ عَامِلُونَ ، وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَمَا هُمْ عَامِلُونَ ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ ؛ قَالَ : فَتَفَرَّقَ النَّاسُ .

وَمَا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ فِي الْقَدَرِ .

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ : ﴿ خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ قَابِضٌ عَلَى شَيْئَيْنِ فِي يَدَيْهِ ، فَفَتَحَ الْيَمِينَ ، فَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَعْدَادِهِمْ

وَأَعْمَالِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ ، فَجَمَعَ عَلَيْهِمْ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ أَحَدٌ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ ، وَقَدْ يَسْلُكُ السُّعَدَاءُ طَرِيقَ أَهْلِ الشَّقَاءِ حَتَّى يُقَالَ : هُمْ مِنْهُمْ .

هُمْ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تُدْرِكُ أَحَدَهُمْ سَعَادَتُهُ وَلَوْ قَبْلَ مَوْتِهِ بِفُوَاقِ نَاقَةٍ .

(92/296)

ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْعَمَلُ بِخَوَاتِمِهِ ، الْعَمَلُ بِخَوَاتِمِهِ ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ ، فَقَالَ لَهُ : اُكْتُبْ ، فَكَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﴿ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ أَمْرٌ مُسْتَأْنَفٌ أَمْ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ ؟ فَقَالَ : فَرَغَ رَبُّكُمْ .

قَالُوا : فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ قَالَ : اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ؛ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ .

وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ .

ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ ﴾ وَثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا .

وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُعَذِّبَ الْخَلْقَ وَهُمْ لَمْ يُذْنِبُوا ، أَوْ يُعَاقِبُهُمْ عَلَى مَا أَرَادَهُ مِنْهُمْ ، وَكَتَبَهُ عَلَيْهِمْ ، وَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ ؟ قُلْنَا : وَمِنْ أَيْنَ يَمْتَنِعُ ذَلِكَ ؟ أَعَقْلًا أَمْ شَرْعًا ؟ فَإِنْ قِيلَ : لِأَنَّ الرَّحِيمَ

الْحَكِيمَ مِنَّا لَا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ .

قُلْنَا : لِأَنَّ فَوْقَهُ آمِرًا يَأْمُرُهُ وَنَاهِيًا يَنْهَاهُ ، وَرَبُّنَا لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ .

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَاسَ الْخَالِقُ بِالْمَخْلُوقِ ، وَلَا تُحْمَلُ أَفْعَالُ الْإِلَهِ عَلَى أَفْعَالِ الْعِبَادِ .

وَبِالْحَقِيقَةِ الْأَفْعَالُ كُلُّهَا لِلَّهِ ، وَالْخَلْقُ بِأَجْمَعِهِمْ لَهُ صَرَفَهُمْ كَيْفَ شَاءَ ، وَحَكَمَ فِيهِمْ كَيْفَ أَرَادَ ؛ وَهَذَا الَّذِي يَجِدُهُ الْآدَمِيُّ إِنَّمَا تَبْعَثُ عَلَيْهِ رِقَّةُ الْجِبِلَّةِ ، وَشَفَقَةُ الْجِنْسِيَّةِ ، وَحُبُّ الثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ ، لِمَا يُتَوَقَّعُ فِي ذَلِكَ مِنْ الِانْتِفَاعِ ؟ وَالْبَارِي مُتَقَدِّسٌ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْتَبَرَ بِهِ .

وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ وَفِي كُتُبِ الْأُصُولِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْكُفَّارِ الْمُتَأَوِّلِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَمَذْهَبُ شَيْخِ السُّنَّةِ ، وَإِلَيْهِ صَغَى الْقَاضِي فِي أَشْهَرِ قَوْلَيْهِمَا أَنَّ الْكُفْرَ يَخْتَصُّ بِالْجَاحِدِ ، وَالْمُتَأَوِّلُ لَيْسَ بِكَافِرٍ . وَالَّذِي نَخْتَارُهُ كُفْرُ مَنْ أَنْكَرَ أُصُولَ الْإِيمَانِ ، فَمِنْ أَعْظَمِهَا مَوْقِعًا وَأَبْيَنِهَا مَنْصِفًا ، وَأَوْقَعِهَا مَوْضِعًا الْقَوْلُ بِالْقَدَرِ ، فَمَنْ أَنْكَرَهُ فَقَدْ كَفَرَ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْمُقْسِطِ وَالْمُشْكِلَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْمَالِكِيَّةِ فِي تَكْفِيرِهِمْ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَالصَّرِيحُ مِنْ أَقْوَالِ مَالِكٍ تَكْفِيرُهُمْ ، لَقَدْ سُئِلَ عَنْ نِكَاحِ الْقَدَرِيَّةِ ، فَقَالَ : قَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ﴾ .

وَمَنْ قَالَ مِنْ أَصْحَابِنَا : إنَّ ذَلِكَ أَدَبٌ لَهُمْ ، وَلَيْسُوا بِكُفَّارٍ ، أَوْ حَكَى فِي ذَلِكَ غَيْرَ مَا أَوْرَدْنَاهُ مِنْ الْأَقْوَالِ ؛ فَذَلِكَ لِضَعْفِ مَعْرِفَتِهِ بِالْأُصُولِ ، فَلَا يُنَاكَحُوا ، وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ خِيفَ عَلَيْهِمْ الضَّيْعَةُ دُفِنُوا كَمَا يُدْفَنُ الْكَلْبُ .

فَإِنْ قِيلَ : وَأَيْنَ يُدْفَنُونَ ؟ قُلْنَا : لَا يُؤْذَى بِجِوَارِهِمْ مُسْلِمٌ .

وَإِنْ قَدَرَ عَلَيْهِمْ الْإِمَامُ اسْتَتَابَهُمْ ، فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قَتَلَهُمْ كُفْرًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(95/296)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾

أي : اذكر يا محمد إذا أخذ ربك .

ويقال : معناه وقد أخذ ربك من بني آدم من ظهور بني آدم ﴿ ذُرِّيَّتَهُم ﴾ يعني : ﴿ أَخَذَ رَبُّكَ مِن تَتَّقُونَ وَإِذْ أَخَذَ ﴾ ذريتهم .

وقال بعضهم : يعني الذرية التي تخرج وقتاً بعد وقت إلى يوم القيامة ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ فقال لهم : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ يعني : إنّ كل بالغ تشهد له خلقته بأن الله تعالى واحد ﴿ شَهِدْنَا ﴾ يعني : قال الله تعالى شهدنا ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ أي لكيلا تقولوا .

ويقال : هذا كراهة أن يقولوا : ﴿ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ وروي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن الله مسح على ظهر آدم فأخرج ذريته من صلبه كهيئة الذر من هو مولود إلى يوم القيامة .

فقال لهم : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ شهدنا بأنك ربنا قال بعضهم : هذا التفسير لا يصح وطعنوا فيه من وجوه أحدها أن الرواية لم تصح لأنها رواية أبي صالح ، وأبو صالح ليس ممن يعتمد على روايته ، لأنه روي عن الشعبي أنه كان يمر بأبي صالح ويفرك أذنه ، ويقول له : إنك لم تحسن أن تقرأ القرآن ، فكيف تفسره بالرأي .

قالوا : ولأن هذا غير محتمل في اللغة لأنه قال : من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم .

قالوا : ولأنه لا يجوز من الحكيم أن يخاطب الذر .

وإنما يجوز خطاب من هو عاقل .

ومن كان مثل الذر كيف يجوز خطابه ؟ قالوا : ولأنه لا يجوز أن تكون حجة الله بشيء لم يذكر .

وإنما تكون الحجة بشيء يكون الإنسان ذاكراً له .

قالوا : ولأن الله تعالى قال : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر : 11] ولم يقل : أحييتنا ثلاث مرات .

(96/296)

ولكن الجواب أن يقال : إن الرواية صحيحة ، لأن الآثار قد جاءت عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يجوز دفعه .

فمن ذلك ما حدثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدثنا الماسرخسي .

قال : حدثنا إسحاق بن إبراهيم وهو ابن علية عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ قال : مسح الله تعالى ظهر آدم فأخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة .

فأخذ ميثاقهم وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ .

قال : حدثنا الشيخ الرئيس أبو طاهر محمد بن داود .

قال : حدثنا محمد بن أحمد بأستراباذ .

قال : حدثنا أحمد بن زكريا .

قال : حدثنا عبد السلام بن صالح عن جعفر بن سليمان عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري .

قال : حججنا مع عمر في أول خلافته فوقف على الحجر ثم قال : أما إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّلك ما قبّلتك .

فقال له عليٌّ رضي الله عنه : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين فإنه يضر وينفع بإذن الله .

ولو أنك قرأت القرآن وعلمت ما فيه ما أنكرت عليّ ما قلت .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ فلما أقروا بالعبودية على أنفسهم ، كتب إقرارهم في رق ، ثم دعا هذا الحجر فقال له : افتح قال : فألقمه ذلك الرق فهو أمين الله في هذا المكان يشهد لمن استلمه ووافاه يوم القيامة .

فقال له عمر رضي الله عنه : لقد جعل الله بين ظهرانيكم من العلم غير قليل .

وروى ربيع بن أنس عن أبن العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ ﴾ الآية .

(97/296)

قال : جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً ، ثم صورهم ، ثم استنطقهم ، ثم قال : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ شهدنا بأنك ربنا .

قال : فإني أرسل إليكم رسلي ، وأنزل عليكم كتبي ، فلا تكذبوا رسلي ، وصدقوا وعدي ؛ وأخذ عهدهم وميثاقهم فنظر إليهم آدم فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك .

فقال آدم : رب لو شئت سويت بين عبادك .

فقال : إني أحببت أن أشكر .

قال : والأنبياء يومئذ مثل السرج فأخذ عليهم ميثاق الرسالة أن يبلغوها .

فهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وإبراهيم وموسى وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظاً ﴾ [الأحزاب : 7] الآية .

قال الفقيه : أخبرني الثقة بإسناده عن مالك بن أنس عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد

بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن هذه الآية فقال : " إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هؤلاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ .

ثُمَّ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هؤلاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ "

فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال : " إِنَّ اللهَ تَعَالَى إذا خَلَقَ العَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ .

(98/296)

وَإِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ النَّارَ " وبهذا احتج الجبرية أن ما عمل عبد عملاً من خير أو شر إلا ما قدره الله تعالى يوم الميثاق .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما خلق الله تعالى آدم أخرج ذريته من ظهره مثل الذر ، فقال لأصحاب اليمين : هؤلاء في الجنة ولا أبالي وقال

للآخرين : هؤلاء في النار ولا أبالي .

وروى أسباط عن السدي في قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية .

قال : لما أخرج الله تعالى آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء ، مسح صفحة ظهر آدم اليمين فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر فقال : ادخلوا الجنة برحمتي ، ومسح صفحة ظهره اليسرى أخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال لهم : ادخلوا النار ولا أبالي .

فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ فأجابه طائفة طائعين ، وطائفة كارهين .

فقال هو والملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ .

فلما رويت فيه من الأخبار من طرق شتى لا يجوز رده ، ويرجع الطعن إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى عنهم .

ويجب للطاعن أن يطعن في فهم نفسه لا في الصحابة .

(99/296)

وهذا كقوله : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَاذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 11] أما الجواب عن قولهم : إنه قال : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل من ظهر آدم فالمعنى في ذلك والله أعلم أنه قد أخرج ذرية آدم الذين هم ولده من صلبه ، ثم أخرج من ظهورهم ذريتهم ، ثم أخرج من بعدهم حتى أخرج جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأخرج من ظهورهم كل نسمة تخرج من ظهر ، فذكر الأخذ من ظهور ذريته ، ولم يذكر ظهر آدم لأن في الكلام دليلاً عليه كما قال الله تعالى : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة أدخلوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ [غافر : 46] ولم يذكر فرعون لأن في الكلام دليلاً عليه .

وأما الجواب عن قولهم : إنه لا يجوز خطاب الذر فعن هذا القول جوابان .

أحدهما : أنه يجوز أن يكونوا كالذر في الصغر ويرزقهم الله تعالى من العقل ما يكونوا به من أهل الخطاب .

ألا ترى أن نملة سليمان بن داود عليهما السلام قد تكلمت بكلام العقلاء وفهم ذلك عنها سليمان ، وسبَّح الطير والجبال مع داود ، فكذلك هذا .

والجواب الثاني أنهم كانوا كالذر في الازدحام والكثرة لا في الخلقة والجثة .

ولكنهم في الخلقة مثل خلقتهم اليوم لأن الذر إذا كثرت وازدحمت لا يعرف عددها .

فكذلك ذرية آدم كانوا في الكثرة والازدحام مثل الذر .

ولكنهم في الخلقة مثل خلقتهم اليوم .

والجواب عن قولهم : أنه لا تكون الحجة بشيء لم يذكر أن يقال : إن الله تعالى قد أرسل الرسل وأخبرهم بذلك الميثاق ، وإذا أخبرهم الرسل بذلك صار حجة عليهم .

فإن قيل : إن الرسل وإن أخبروهم فإذا لم يذكروا ذلك فكيف يصير حجة عليهم ؟ قيل لهم : وإن لم يذكروا صار قول الثقات حجة عليهم .

(100/296)

ألا ترى أن رجلاً لو طلق امرأته وقد نسي فشهد عليه شاهدان عدلان بأنه قد طلقها قبل غيبته عنها يجب عليه أن يقبل قولهما .

وكذلك لو صلى فشهد عليه عدلان أنه ترك ركعة من صلاته وجب عليه أن يأخذ بقولهما وإن كان لا يذكر .

فكذلك هاهنا والجواب عن قولهم إنه لم يقل : أحييتنا ثلاث مرات .

لأن الإحياء المعروف مرتان فذكر الإحياء الذي كان معروفاً عنده .

وقوله تعالى : ﴿ شَهِدْنَا ﴾ قال بعضهم : هذا حكاية عن قول الذرية قالوا : بلى شهدنا .

وتم الكلام .

ثم في الآية مضمر ومعناه : أخذنا عليهم الميثاق لكي لا يقولوا هذا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ وقال بعضهم : إنما تمّ الكلام عند قوله : ﴿ بلى ﴾ ثم إنه قال تعالى : ﴿ شَهِدْنَا ﴾ يعني : شهدنا عليكم وأخذنا عليكم الميثاق لكيلا يقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(101/296)

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ .

قال المفسّرون : لمّا خلق الله عزّ وجلّ آدم مسح ظهره وأخرج منه ذريته كلهم وهي الذرية واختلفوا في موضع الميثاق .

فقال ابن عباس : بسكن نعمان واد إلى جنب عرفة ، وروي فيه أيضاً أنّ ذلك [برهبا] أرض بالهند وهو الموضع الذي أهبط الله فيه آدم صلى الله عليه وسلم .

وقال الكلبي : بين مكّة والطائف . وقال السدي : أخرج الله آدم من الجنّة ولم يهبط من السماء ثمّ مسح ظهره وأخرج ذريته . قالوا : فأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية سوداء فقال لهم : ادخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب

الشمال . وأصحاب المنامة .

وقال لهم : جميعاً أعلموا أن لا إله غيري وأنا ربكم لا رب لكم غيري فلا تشركوا بي شيئاً فإنّي مرسل إليكم رجالاً يذكرونكم بعهدي وميثاقي ومنزل عليكم كتباً فتكلّموا وقالوا : شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ولا رب لنا غيرك ، فأقرّوا يومئذ كلهم طائفة طائعين . وطائفة على وجه التقدير تقيّة ، فأخذوا بذلك مواثيقهم وسُمّيت آجالهم وأرزاقهم وحسابهم فنظر إليهم آدم ، ورأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : رب لولا سويت بينهم ، فقال : إنّي [أحببت أن] أشكر .

قالوا : وفيهم الأنبياء يومئذ أمثال السرج فرأى آدم نوراً ساطعاً فقال : من هذا ؟ فقال : هذا داود نبي من ذريتك قال : كم عمره ؟ قال : ستّون سنة قال : رب زده .

(102/296)

قال : جرى القلم بآجال بني آدم ، قال : رب زده من عمري أربعين سنة ، فأثبت لداود أربعين وكان عمر آدم ألف سنة ، فلما استكمل آدم تسعمائة وستين سنة جاء ملك الموت ، فلما رآه آدم قال : مالك ؟ قال : استوفيت أجلك ، قال له آدم : بقي من عمري أربعون سنة ، قال : أليس قد وهبتها لداود ؟ قال : لا فجحد آدم ، فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت

ذريته ، وخطأ فخطئت ذريته ، فرجع الملك إلى ربه فقال : إن آدم يدعي أنه بقي من عمره أربعون سنة ، قال : أخبر آدم أنه وهبها لابنه داود (عليه السلام) والأقلام بطيئة فأثبتت لداود ، فلما قررهم بتوحيده وآثر بعضهم على بعض أعادهم إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتّى يولد كل من أخذ ميثاقه ولا يزداد فيهم ولا ينقص عنهم ، فذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ ﴾ ونظم الآية : وإذا أخذ ربّك من ظهر بني آدم ذريتهم ، ولم يذكر أمر آدم فإنما أعرجوا يوم الميثاق في ظهره ، لأن الله عزّ وجلّ أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء ، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم بقوله (من بني آدم) فلما علم أنهم كلهم بنوه و [خرجوا] من ظهره ترك ذكر ظهر آدم وذكر ظهور بنيه .

(103/296)

وقوله : ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قرأ أهل مكة والكوفة : ذريتهم بغير ألف على الواحد ، وقرأ الباقون على الجمع بالألف ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ وقال لهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ سؤال تقرير ﴿ قَالُواْ ﴾ جميعاً ﴿ بلى ﴾ أنت ربّنا ﴿ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ ﴾ قرأ ابن عباس وابن محيصن وأبو عمرو : (يقولوا) بالياء ، والباقون بالتاء كقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ، واختلفوا في قوله : (شهدنا) فقال السدي : خبر من قوله تعالى عن نفسه وعن ملائكته

أنهم شهدوا على إقرار بني آدم ، وقال الآخرون : بل ذلك على إقرار بني آدم حين أشهد بعضهم على بعض أن يقولوا يعني أن لا يقولوا ﴿ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا ﴾ الميثاق والإقرار ﴿ غَافِلِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(104/296)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾

اُختلف في الذين أخرجهم وأخذ ذلك عليهم على قولين :

أحدهما : أنه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وجعل فيها من المعرفة ما علمت به من خاطبها . واختلف من قال بهذا هل كان ذلك قبل نزوله إلى الأرض على قولين :

أحدهما : أنه كان في الجنة قبل هبوطه إلى الأرض .

والثاني : أنه فعل ذلك بعد هبوطه إليها .

والقول الثاني : في الأصل أنه خلق الأرواح والأجساد معاً وذلك في الأرض عند جميع من قال بهذا التأويل .

فعلى هذا فيه قولان :

أحدهما : أنه أخرجهم كالذر وألهمهم هذا فقالوه ، قال الكلبي ومقاتل : وذلك أن الله مسح ظهر آدم بين مكة والطائف فخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرية كالذر بيض ، فهم أصحاب الميمنة . وخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية كالذر سود ، فهم أصحاب المشأمة ، فلما شهدوا على أنفسهم جميعاً من آمن منهم ومن كفر أعادهم .

والثاني : أنه أخرج الذرية قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر .

وفي ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : هو أنه دلهم على أنفسهم بما شهدوه من قدرته ، قاله بعض المتكلمين .

والثاني : هو إشهادهم على أنفسهم بما اعترفوا من ربوبيته ووحدانيته . وفيه على التأويل قولان :

أحدهما : أنه قال ذلك للآباء من بني آدم حين أخرج من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ليعلمهم أنه خلق ذرياتهم بعد أن لم يكونوا كان هو الخالق لهم لأنهم كانوا ذرية مثلهم لمن تقدمهم كما صار هؤلاء ذرية لهم فاعترفوا بذلك حين ظهرت لهم الحجة ، قاله ابن بحر .

والقول الثاني : أنه قال ذلك للذرية حين أخذهم من ظهور آبائهم ، وهذا قول الأكثرين فعلى هذا فيه قولان :

أحدهما : أنه قال لهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ على لسان الأنبياء بعد أن كملت عقولهم .

(105/296)

والثاني : أنه جعل لهم عقولاً علموا بها ذلك فشهدوا به على أنفسهم . وفي أصل الذرية قولان :

أحدهما : لأنهم يخرجون من الأصلاب كالذر .

والثاني : أنه مأخوذ من ذَرَأَ الله الخلق إذا أحدثهم وأظهرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(106/296)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك ﴾ الآية ،

التقدير واذكر إذ أخذ وقوله : ﴿ من ظهورهم ﴾ قال النحاة : هو بدل اشتمال من قوله : ﴿ من بني آدم ﴾ ، وألفاظ هذه الآية تقتضي أن الأخذ إنما كان من بني آدم من ظهورهم وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظة وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن النبي

صلى الله عليه وسلم من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبد الله بن عباس وغيرهما أن الله عز وجل لما خلق آدم وفي بعض الروايات لما أهبط آدم إلى الأرض في دهناء من أرض السند قاله ابن عباس ، وفي بعضها أن ذلك بنعمان وهي عرفة وما يليها قاله أيضاً ابن عباس وغيره ، مسح على ظهره وفي بعض الروايات بيمينه وفي بعض الروايات ضرب منكبه فاستخرج منها أي من المسحة أو الضربة نسم بينه ففي بعض الروايات كالذر وفي بعضها كالخردل وقال محمد بن كعب : إنها الأرواح جعلت لها مثالات ، وروى عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس وجعل الله لهم عقولاً كنملة سليمان وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره " فأقروا بذلك والتزموه وأعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكرة وداعية ، فشهد بعضهم على بعض ، قال أبيّ بن كعب وأشهد عليهم السماوات السبع فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عيله العهد في ذلك اليوم والمقام ، وقال السدي أعطى الكفار العهد يومئذ كارهين على وجه التقية .

(107/296)

قال القاضي أبو محمد : هذه نخيلة مجموع الروايات المطولة ، وكأن ألفاظ هذه الأحاديث لا تلتئم مع ألفاظ الآية ، وقد أكثر الناس في روم الجمع بينهما فقال قوم : إن الآية مشيرة إلى هذا التناسل الذي في الدنيا ، و ﴿ آخذ ﴾ بمعنى أوجد على المعهود وأن الإشهاد هو عند بلوغ المكلف وهو قد أعطي الفهم ونصبت له هذه الصنعة الدالة على الصانع ، ونحا إلى هذا المعنى الزجّاج ، وهو معنى تحتمله الألفاظ لكن يرد عليه تفسير عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما الآية بالحديث المذكور ، وروايتهما ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(108/296)

وطوّل الجرجاني في هذه المسألة ومدار كلامه على أن المسح وإخراج الذرية من أظهر آدم حسب الحديث ، وقيل في الآية أخذ من ظهورهم إذ الإخراج من ظهر آدم الذي هو الأصل إخراج من ظهور بنيه الذين هم الفرع إذ الفرع والأصل شيء واحد ، إلى كلام كثير لا يثبت للنقد ، وقال غيره : إن جميع ما في الحديث من مسح بيمينه وضرب منكبه ونحو هذا إنما هي عبارة عن إيجاد ذلك النسم منه ، و" اليمين " عبارة عن القدرة أو يكون الماسح ملكاً بأمر الله عز وجل فتضمن الحديث صدر القصة وإيجاد النسم من آدم ، وهذه زيادة على ما

في الآية ، ثم تضمنت الآية ما جرى بعد هذا من أخذ العهد ، والنسم حضور موجودون هي تحتمل معنيين أحدهما ن يكون أخذ عاملاً في عهد أو ميثاق تقدره بعد قوله ﴿ ذرياتهم ﴾ ويكون قوله ﴿ من ظهورهم ﴾ لبيان جنس النبوة إذ المراد من الجميع التناسل ويشركه في لفظة بني آدم بنوه لصلبه وبنوه بالحنان والشفقة ويكون قوله : ﴿ من ذرياتهم ﴾ بدلاً من ﴿ بني آدم ﴾ ، والمعنى الآخر أنه لما كانت كل نسمة هنالك لها نسبة إلى التي هي من ظهرها كأن تعيين تلك النسبة أخذ من الظهر إذ ستخرج منه فهي المستأنف فالمعنى وإذ عينوا بهذه النسبة وعرفوا بها فذلك أخذ ما و﴿ أخذ ﴾ على هذا عامل في ﴿ ذرياتهم ﴾ وليس بمعنى مسح وأوجد بل قد تقدم إيجادهم كما تقدم الحديث المذكور ، فالحديث يزيد معنى على الآية وهو ذكر آدم وأول إيجاد النسم كيف كان .

وقال الطرطوشي إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة كما يلزم الطلاق من شهد عليه به وهو قد نسيه إلى غير هذا مما ليس بتفسير ولا من طريقه .

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر : " ذرياتهم " جمع جمع وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي : " ذريتهم " والإفراد هنا جمع وقد تقدم القول على لفظ الذرية في سورة آل عمران .

وروي في قصص هذه الآية : أن الأنبياء عليهم السلام كانوا بين تلك النسم أمثال السرج وأن آدم عليه السلام رأى داود فأعجبه فقال : من هذا ؟ فقيل : نبي من ذريتك فقال : كم عمره ؟ فقيل ستون سنة ، فقال زيدوه من عمري أربعين سنة فزيدت قال : وكان عمر آدم ألفاً فلما أكمل تسعمائة وستين جاء ملك الموت فقال له آدم بقي لي أربعون سنة فرجع ملك الموت إلى ربه فأخبره فقال له قل له إنك أعطيتها لابنك داود فتوفي عليه السلام بعد أن خاصم في الأربعين ، قال الضحاك بن مزاحم : من مات صغيراً فهو على العهد الأول ومن بلغ فقد أخذه العهد الثاني يعني الذي في هذه الحياة المعقولة الآن ، وحكى الزجاج عن قوم أنهم قالوا إن هذه الآية عبارة عن أن كل نسمة إذا ولدت وبلغت فنظرها في الأدلة المنصوبة عهد عليها في أن تؤمن وتعرق وتعرف الله ، وقد تقدم ذكر هذا القول وهو قول ضعيف منكب عن الأحاديث المأثورة مطرح لها .

وقوله : ﴿ شهدنا ﴾ يحتمل أن يكون من قول بعض النسم لبعض أي شهدنا عليكم لئلا تقولوا يوم القيامة غفلنا عن معرفة الله والإيمان به فتكون مقالة من هؤلاء لهؤلاء ، ذكره الطبري ، وعلى هذا لا يحسن الوقف على قوله : ﴿ بلى ﴾ ويحتمل أن يكون قوله ﴿ شهدنا ﴾ من قول الملائكة فيحسن الوقف على قوله ﴿ بلى ﴾ ، قال السدي : المعنى قال الله وملائكته شهدنا ، ورواه عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ

السبعة غير أبي عمرو : " أن تقولوا " على مخاطبة حاضرين ، وقرأ أبو عمرو وحده ، " أن يقولوا " على الحكاية عن غائبين وهي قراءة ابن عباس وابن جبير وابن محيصن والقراءتان تتفسر بحسب المعنيين المذكورين ، و ﴿ أن ﴾ في موضع نصب على تقدير مخافة أن .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(110/296)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم ﴾

روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان " ونعمان قريب من عرفة ذكره ابن قتيبة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرهم بين يديه كالذَّر ، ثم كلَّمهم قِبَلاً وقال : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كُنَّا عن هذا غافلين ﴾ ومعنى الآية : وإذا أخذ ربكم من ظهور بني آدم .

فقوله : ﴿ من ظهورهم ﴾ بدل من ﴿ بني آدم ﴾ .

وقيل : إنما قال : ﴿ من ظهورهم ﴾ ولم يقل من ظهر آدم ، لأنه أخرج بعضهم من ظهور بعض ، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لأنه قد علم أنهم بنوه ، وقد أُخرجوا من ظهره .

وقوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَاتهم ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "ذُرِّيَّتَهُم" على التوحيد .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "ذُرِّيَاتِهِم" على الجمع .

قال أبو علي : الذُّرِّية تكون جمعاً ، وتكون واحداً .

وفي قوله : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أشهدهم على أنفسهم باقرارهم ، قاله مقاتل .

والثاني : دلَّهم بخلقه على توحيده ، قاله الزجاج .

والثالث : أنه أشهد بعضهم على بعض باقرارهم بذلك ، قاله ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ ألست بربكم ﴾ والمعنى : وقال لهم : ألست بربكم ؟ وهذا سؤال تقرير .

قالوا : بلى شهدنا أنك ربنا .

قال السدي : قوله : ﴿ شهدنا ﴾ خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته .

أنهم شهدوا على إقرار بني آدم .

ويحسن الوقف على قوله "بلى" لأن كلام الذرية قد انقطع .

وزعم الكلبي ان الذرية لما قالت "بلى" قال الله للملائكة : ﴿ اشهدوا ﴾ فقالوا : ﴿ شهدنا ﴾ .

وروى أبو العالية عن أُبَيِّ بن كعب قال : جمعهم جميعاً ، فجعلهم أزواجاً ، ثم صوَّرهم ، ثم استنطقهم ، ثم قال : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ أنك آلهنا .

(111/296)

قال : فاني أُشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ لم نعلم بهذا .

وقال السدي : أجابته طائفة طائعين ، وطائفة كارهين تقيةً .

قوله تعالى : ﴿ ان يقولوا ﴾ قرأ أبو عمرو "أن يقولوا" ، "أو يقولوا" بالياء فيهما .

وقرأ الباقون بالتاء فيهما .

قال أبو علي : حجة أبي عمرو قوله : ﴿ وإذ أخذ ربك ﴾ وقوله : ﴿ قالوا بلى ﴾ ، وحجة من قرأ بالتاء أنه قد جرى في الكلام خطاب ﴿ ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ .

ومعنى قوله : ﴿ يقولوا ﴾ لئلا يقولوا ، مثله : ﴿ أن تميد بكم ﴾ [لقمان : 10] .

وفي قوله : ﴿ إنا كنا ﴾ قولان .

أحدهما : أنه إشارة إلى الميثاق والإقرار .

والثاني : أنه إشارة إلى معرفة أنه الخالق .

قال المفسرون : وهذه الآية تذكير من الله تعالى بما أخذ على جميع المكلَّفين من الميثاق ، واحتجاج عليهم لئلا يقول الكفار : إنا كنا على هذا الميثاق غافلين لم نذكره ، ونسيانهم لا يُسقط الاحتجاج بعد أن أخبر الله تعالى بذلك على لسان النبي صلى الله عليه وسلم الصادق .

وإذا ثبت هذا بقول الصادق ، قام في النفوس مقام الذِّكر ، فالاحتجاج به قائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(112/296)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ أي واذكر لهم مع ما سبق من تذكير المواثيق في كتابهم ما أخذتُ من المواثيق من العباد يوم الذّرّ .

وهذه اية مشِكلة ، وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها ، فنذكر ما ذكروه من ذلك

حسب ما وقفنا عليه .

فقال قوم : معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض .

قالوا : ومعنى "أَشْهَدَهُمْ على أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ" دلّهم بخلقه على توحيده ؛ لأن كل بالغ يعلم ضرورةً أن له ربّاً واحداً .

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي قال : فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم ، والإقرار منهم ؛ كما قال تعالى في السموات والأرض .

﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] .

ذهب إلى هذا القَفّالُ وأطنب .

وقيل : إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد ، وأنه جعل فيها من المَعْرفة ما علمت به ما خاطبها .

قلت : وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم غيرُ هذين القولين ، وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه السلام .

وروى مالك في موطَّئه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ﴾ فقال عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذُرِّية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذُرِّية فقال خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون" .

(113/296)

فقال رجل : ففيم العمل ؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيُدخلَه الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار" " قال أبو عمر : هذا حديث منقطع الإسناد ؛ لأن مسلم بن يسار لم يَلْق عمر .

وقال فيه يحيى بن مَعين : مسلم بن يسار لا يُعرف ، بينه وبين عمر نعيمُ بن ربيعة ، ذكره النسائيّ ، ونعيم غير معروف بحمل العلم .

لكن معنى هذا الحديث قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وعبد الله بن مسعود وعليّ بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم .

روى الترمِذِيّ وصححه عن أبي هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كلُّ نَسَمَة هو خالقها (من ذُرِّيته) إلى يوم القيامة وجعل بين عَيْنَيْ كلِّ رجل منهم وَبيصاً من نور ثم عَرَضَهُمْ على آدم فقال يا ربّ من هؤلاء قال هؤلاء ذُرِّيتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبِيصُ ما بين عينيه فقال أيْ ربِّ من هذا ؟ فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذُرِّيتك يقال له داود فقال ربِّ كم جعلت عُمْرَه قال ستين سنة قال أي رَبِّ زِدْه من عُمْرِي أربعين سنةً فلما انقضى عُمْر آدم عليه السلام جاءه مَلَك الموت فقال أو لم يبق من عُمْري أربعون سنةً قال أوَلم تُعْطِها ابنك داود قال فجَحَد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته " في غير الترمذي : فحينئذ أمر بالكُتّاب والشهود .

في رواية : فرأى فيهم الضعيف والغنيّ والفقير والذليل والمبتلى والصحيح .

فقال له آدم : يا ربّ ، ما هذا ؟ ألا سوّيت بينهم ! قال : أردت أن أشكر .

(114/296)

وروى عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أخِذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس " وجعل الله لهم عقولاً كنملة سليمان .

وأخذ عليهم العهد بأنه ربّهم وأن لا إله غيره .

فأقرّوا بذلك والتزموه ، وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل ؛ فشهد بعضهم على بعض .

قال أُبيّ بن كعب : وأشهد عليهم السموات السّبع ، فليس من أحد يُولد إلى يوم القيامة إلا وقد أُخِذ عليه العهد .

واخُتلف في الموضع الذي أخذ فيه الميثاق حين أخرجوا على أربعة أقوال ؛ فقال ابن عباس : ببطن نَعْمان ، وادٍ إلى جنب عَرفة .

وروى عنه أن ذلك برَهْبَا أرض بالهند الذي هبط فيه آدم عليه السلام .

وقال يحيى بن سلام قال ابن عباس في هذه الآية : أهبط الله آدم بالهند ، ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نَسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ ﴾ قال يحيى قال الحسن : ثم أعادهم في صُلب آدم عليه السلام .

وقال الكَلْبِي : بين مكة والطائف .

وقال السُّدّيّ : في السماء الدنيا حين أهبط من الجنة إليها مسح على ظهره فأخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ ، فقال لهم ادخلوا الجنة برحمتي .

وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرّية سوداء وقال لهم ادخلوا النار ولا أبالي .

قال ابن جُريج : خرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء .

وكل نفس مخلوقة للنار سوداء .

الثانية قال ابن العربيّ (رحمه الله) : "فإن قيل فكيف يجوز أن يعذب الخلق وهم لم يُذنبوا ، أو يُعاقبهم على ما أراده منهم وكتبه عليهم وساقهم إليه ، قلنا : ومن أين يمتنع ذلك ، أعقلاً أم شرعاً ؟ فإن قيل : لأن الرحيم الحكيم منا لا يجوز أن يفعل ذلك .

قلنا : لأن فوقه آمراً يأمره وناهياً ينهاه ، وربنا تعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، ولا يجوز أن يقاس الخلق بالخالق .

(115/296)

ولا تُحمل أفعال العباد على أفعال الإله ، وبالحقيقة الأفعال كلها لله جل جلاله ، والخلُق بأجمعهم له ، صَرْفهم كيف شاء ، وحَكَم بينهم بما أراد ، وهذا الذي يجده الآدميّ إنما تبعث عليه رِقة الجِبِلّة وشفقة الجنسيّة وحبُّ الثناء والمدح ؛ لما يتوقع في ذلك من الانتفاع ، والباري تعالى متقدّس عن ذلك كله ، فلا يجوز أن يعتبر به" .

الثالثة واختلف في هذه الآية ، هل هي خاصّة أو عامّة .

فقيل : الآية خاصة ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ مِن بني آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ فخرج من هذا الحديث من كان من ولد آدم لصُلْبه .

وقال جل وعز : ﴿ أَوْ تقولوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ فخرج منها كلُّ مَن لم يكن له آباء

مشركون .

وقيل : هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء .

وقيل : بل هي عامّة لجميع الناس ؛ لأن كلّ أحد يعلم أنه كان طفلاً فغُذّي ورُبِّيَ ، وأن له مُدبِّراً وخالقاً .

فهذا معنى ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ .

ومعنى ﴿ قَالُواْ بَلَى ﴾ أي إن ذلك واجب عليهم .

فلما اعترف الخلق لله سبحانه بأنه الربّ ثم ذهلوا عنه ذكّرهم بأنبيائه وختم الذِّكر بأفضل أصفيائه لتقوم حجته عليهم فقال له : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : 22] .

ثم مكّنه من السيطرة ، وأتاه السلطنة ، ومكّن له دينه في الأرض .

قال الطَّرْطوشي : إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة ، كما يلزم الطلاقُ من شُهد عليه به وقد نَسِيَه .

الرابعة وقد استدل بهذه الآية من قال : إن من مات صغيراً دخل الجنة لإقراره في الميثاق الأوّل .

ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأوّل .

وهذا القائل يقول : أطفال المشركين في الجنة ، وهو الصحيح في الباب .

وهذه المسألة اختُلف فيها لاختلاف الآثار ، والصحيح ما ذكرناه .

وسيأتي الكلام في هذا في "الرُّوم" إن شاء الله .

(116/296)

وقد أتينا عليها في كتاب "التّذكرة" والحمد لله .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿ مِن بني آدَمَ ﴾ .

وألفاظ الآية تقتضي أن الأخذ إنما كان من بني آدم ، وليس لآدم في الآية ذكْر بحسب اللفظ .

ووجه النظم على هذا : وإذ أخذ ربُّك من ظهور بني آدم ذرّيتهم .

وإنما لم يذكر ظهر آدم لأن المعلوم أنهم كلّهم بَنُوه ، وأنهم أخرجوا يوم الميثاق من ظهره .

فاستغنى عن ذكره لقوله : ﴿ مِن بني آدَمَ ﴾ .

﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قرأ الكوفيون وابن كَثير بالتوحيد وفتح التاء ، وهي تقع للواحد والجمع ؛ قال الله تعالى : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران : 38] فهذا للواحد ؛ لأنه إنما سأل هبة ولد فَبشّر بيحيى .

وأجمع القراء على التوحيد في قوله :

﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ ﴾ [مريم : 58] ولا شيء أكثر من ذرّية آدم .

وقال : ﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ فهذا للجمع .

وقرأ الباقون "ذُرِّيَّاتِهِمْ" بالجمع ، لأن الذرية لما كانت تقع للواحد أتى بلفظ لا يقع للواحد فجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يُشركها فيه شيء وهو الجمع ؛ لأن ظهور بني آدم استخرج منها ذرّيات كثيرة متناسبة ، أعقاب بعد أعقاب ، لا يعلم عددهم إلا الله ؛ فجمع لهذا المعنى .

السادسة قوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ تقدّم القول فيها في "البقرة" عند قوله : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ مستوفى ، فتأمله هناك .

﴿ أَن يقولوا ﴾ "أَوْ يَقُولُوا" قرأ أبو عمرو بالياء فيهما .

ردّهما على لفظ الغَيْبة المتكرر قبله ، وهو قوله : ﴿ مِن بني آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ أيضاً لفظ غيبة .

وكذا ﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ "وَلَعَلَّهُمْ" فحمله على ما قبله وما بعده من لفظ الغيبة .

(117/296)

وقرأ الباقون بالتاء فيهما ؛ ردّوه على لفظ الخطاب المتقدّم في قوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ .

ويكون "شَهِدْنَا" من قول الملائكة .

لما قالوا "بلى" قالت الملائكة : ﴿ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ ﴾ "أَوْ تَقُولُوا" أي لئلا تقولوا : وقيل : معنى ذلك أنهم لما قالوا بلى ، فأقروا له بالربوبية ، قال الله تعالى للملائكة اشهدوا قالوا شهدنا بإقراركم لئلا تقولوا أو تقولوا .

وهذا قول مجاهد والضحاك والسُّدِّي .

وقال ابن عباس وأبي بن كعب : قوله "شَهِدْنَا" هو من قول "بني آدم" والمعنى : شهدنا أنك ربُّنا وإلهنا ، وقال ابن عباس : أشهد بعضهم على بعض ؛ فالمعنى على هذا قالوا بلى شهد بعضنا على بعض ؛ فإذا كان ذلك من قول الملائكة فيوقف على "بلى" ولا يحسن الوقف عليه إذا كان من قول بني آدم ؛ لأن "أن" متعلقة بما قبل بلى ، من قوله : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ لئلا يقولوا : وقد روى مجاهد عن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا " أي شهدنا عليكم بالإقرار بالرُّبوبية لئلا تقولوا .

فهذا يدلّ على التاء .

قال مَكِّيّ : وهو الاختيار لصحة معناه ، ولأن الجماعة عليه .

وقد قيل : إن قوله "شَهِدْنَا" من قول الله تعالى والملائكة .

والمعنى : فشهدنا على إقراركم ؛ قاله أبو مالك ، وروي عن السّدِّي أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(118/296)

وقال ابن كثير :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) ﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم ، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو . كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : 30] وفي الصحيحين عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة – وفي رواية : على هذه الملة – فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء" وفي

صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقول الله [تعالى] إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم ، عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم" (1)

---

(1) صحيح مسلم برقم (2865) .

(119/296)

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني السري بن يحيى : أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم ، عن الأسود بن سريع من بني سعد ، قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات ، قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتد عليه ، ثم قال : "ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟" قال رجل : يا رسول الله ، أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : "إن خياركم أبناء المشركين ! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة ، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها" . قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ] ﴾ الآية

وقد رواه الإمام أحمد ، عن إسماعيل بن علية ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن البصري (1) به . وأخرجه النسائي في سننه من حديث هُشَيْم ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن قال : حدثنا الأسود ابن سَرِيع ، فذكره ، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك (2)

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلْب آدم ، عليه السلام ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين و[إلى] أصحاب الشمال ، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .

---

(1) المسند (435/3) .

(2) سنن النسائي الكبرى برقم (8616) .

(120/296)

قال الإمام أحمد : حدثنا حَجَّاج ، حدثنا شُعْبة ، عن أبي عمران الجَوْني ، عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به ؟" قال : "فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئًا ، فأبيت إلا أن تشرك بي" .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث شعبة ، به (1)

حديث آخر : وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير - يعني ابن حازم - عن كلثوم بن جابر عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم ، عليه السلام ، بنعمان . يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلا قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْمُبْطِلُونَ ﴾

وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه ، عن محمد بن عبد الرحيم - صاعقة - عن حسين بن محمد المروزي ، به . ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد (2) به . إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفا . وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره ، عن جرير بن حازم ، عن كلثوم بن جَبْر ، به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير (3) هكذا قال ، وقد رواه عبد الوارث ، عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فوقفه وكذا رواه إسماعيل بن علية ووَكِيع ، عن ربيعة بن كلثوم ، عن جبير ، عن أبيه ، به . وكذا رواه عطاء بن السائب ، وحبيب بن أبي ثابت ، وعلي بن بَذِيمة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله ، وكذا رواه العَوْفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن

(1) المسند (127/3) وصحيح البخاري برقم (3334) وصحيح مسلم برقم (2805) .

(2) المسند (272/1) وسنن النسائي الكبرى برقم (11191) وتفسير الطبري (222/13) وقال النسائي : "كلثوم هذا ليس بالقوى ، وحديثه ليس بالمحفوظ" .

(3) المستدرك (27/1) .

(121/296)

عباس فهذا أكثر وأثبت ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا أبي ، عن أبي هلال ، عن أبي جَمْرَة الضبعي ، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] قال : أخرج الله ذرية آدم [عليه السلام] من ظهره كهيئة الذر ، وهو في آذى من الماء .

وقال أيضا : حدثنا علي بن سهل ، حدثنا ضَمْرَة بن ربيعة ، حدثنا أبو مسعود عن جُوبير قال : مات ابن للضحاك بن مُزَاحِم ، [وهو] ابن ستة أيام . قال : فقال : يا جابر ، إذا أنت وضعت ابني في لحده ، فأبرز وجهه ، وحُلّ عنه عقده ، فإن ابني مُجْلَس ، ومسئول . ففعلت به الذي أمر ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله ، عمّ يُسأل ابنك ؟ من يسأله إياه ؟

قال : يُسْأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم . قلت : يا أبا القاسم ، وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم ؟ قال : حدثني ابن عباس [رضي الله عنه] ؛ أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وتكفل لهم بالأرزاق ، ثم أعادهم في صلبه . فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطي الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به ، نفعه الميثاق الأول . ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به ، لم ينفعه الميثاق الأول . ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر ، مات على الميثاق الأول على الفطرة

فهذه الطرق كلها مما تقوّي وَقْف هذا على ابن عباس ، والله أعلم .

حديث آخر : وقال ابن جرير : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد ، حدثنا أحمد بن أبي طيبة ، عن سفيان بن سعيد ، عن الأجلح ، عن الضحاك وعن – منصور ، عن مجاهد – عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال : "أخذ من ظهره ، كما يؤخذ بالمشط من الرأس ، فقال لهم : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ ﴿ شهدنا أن يقولوا ﴾ يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (1)

---

(1) تفسير الطبري (232/13) قال الطبري : "ولأعلمه صحيحا ؛ لأن الثقات الذين

يعتمد على حفظهم واتقانهم ، حدثوا بهذا الحديث عن الثوري فوقفوه على عبد الله بن عمرو ، ولم يرفعوه ولم يذكروا في الحديث هذا الحرف الذي ذكره أحمد بن أبي طيبة عنه" .

(122/296)

أحمد بن أبي طيبة هذا هو : أبو محمد الجرجاني قاضي قومس ، كان أحد الزهاد ، أخرج له النسائي في سننه ، وقال أبو حاتم الرازي : يكتب حديثه . وقال ابن عَدِيّ : حدث بأحاديث أكثرها غرائب .

وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مَهْدِيّ ، عن سفيان الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو ، قوله ، وكذا رواه جرير ، عن منصور ، به . وهذا أصح والله أعلم .

(123/296)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا روح - هو ابن عبادة - حدثنا مالك ، وحدثنا إسحاق ، أخبرنا مالك ، عن زيد بن أبي أُنَيْسةَ : أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن

الخطاب ، أخبره ، عن مسلم بن يَسار الجُهَني : أن عمر بن الخطاب سُئِل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ الآية ، فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سُئل عنها ، فقال : "إن الله خلق آدم ، عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون" . فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا خلق الله العبد للجنة ، استعمله بأعمال أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة . وإذا خلق العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار" .

وهكذا رواه أبو داود عن القَعْنَبي – والنسائي عن قتيبة – والترمذي عن إسحاق بن موسى ، عن مَعْن . وابن أبي حاتم ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب . وابن جرير من حديث روح ابن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر . وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، من رواية أبي مصعب الزبيري ، كلهم عن الإمام مالك بن أنس ، به (1)

قال الترمذي : وهذا حديث حسن ، ومسلم بن يَسَار لم يسمع عُمَر . وكذا قاله أبو حاتم وأبو زُرْعَة . زاد أبو حاتم : وبينهما نُعَيْم بن ربيعة .

---

(1) المسند (44/1) وسنن أبي داود برقم (4703) وسنن النسائي الكبرى برقم (11190) وسنن الترمذي برقم (3075) وتفسير الطبري (233/13) .

(124/296)

وهذا الذي قاله أبو حاتم ، رواه أبو داود في سننه ، عن محمد بن مصفى ، عن بَقِيَّةَ ، عن عمر ابن جُعْثُم القرشي ، عن زيد بن أبي أُنَيْسَة ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن مسلم بن يَسَار الجهني ، عن نعيم بن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] وقد سئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فذكره (1)

وقال الحافظ الدارقطني : وقد تابع عمر بن جُعْثُم بن زيد بن سِنان أبو فَرْوَة الرَّهَاوي ، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك ، والله أعلم (2)

قلت : الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر "نعيم بن ربيعة" عمدًا ؛ لما جهل حاله ولم يعرفه ،

---

(1) سنن أبي داود برقم (4704) ورواه الطبري في تفسيره (235/13) من طريق محمد بن مصفى ، به .

(2) العلل للدارقطني (2/221 - 223) .

فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث ، وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ؛ ولهذا يرسل كثيرًا من المرفوعات ، ويقطع كثيرًا من الموصولات ، والله أعلم .

(125/296)

حديث آخر : قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا أبو نُعَيْم ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما خلق الله [عز وجل] آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نَسَمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وَبيصًا من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال : أي رب ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذرّيتك . فرأى رجلا منهم فأعجبه وَبِيص ما بين عينيه ، فقال : أي رب ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذُرّيتك ، يقال له : داود . قال : رب ، وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة . قال : أي رب ، زده من عمري أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم ، جاءه ملك الموت قال : أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أوَلم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته" .

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وقد رُوي من غير وجه عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ورواه الحاكم في مستدركه ، من حديث أبي نُعَيْم الفضل بن دُكَيْن ، به . وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (1)

ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره ، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، أنه حدثه عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال : "ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم ، هؤلاء ذريتك . وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى ، وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يا رب ، لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تشكر نعمتي . وقال آدم : يا رب ، من هؤلاء الذين أراهم أظْهَرَ الناس نورا ؟ قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك" . ثم ذكر قصة داود ، كنحو ما تقدم (2)

---

(1) سنن الترمذي برقم (3076) والمستدرك (325/2) .

(2) ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (1015) من طريق محمد بن شعيب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، به . وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف .

حديث آخر : قال عبد الرحمن بن قتادة النَّصْري عن أبيه ، عن هشام بن حكيم ، رضي الله عنه ، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أتبدأ الأعمال ، أم قد قُضِي القضاء ؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ، ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه" ثم قال : "هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة مُيَسَّرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار مُيَسَّرون لعمل أهل النار" .

رواه ابن جرير ، وابن مردويه من طرق عنه (1)

قال العلامة الشيخ أحمد شاكر ما نصه :

(6) الأثر : 15377 - رواه أبو جعفر بأربعة أسانيد ، هذا ، والذي يليه إلى رقم ، 15380 . وهو خبر قد نصوا قديماً على أنه مضطرب الإسناد . واضطرابه من وجوه سأبينها بعد : إن شاء الله ، في هذا الموضع .

(أحمد بن الفرج بن سليمان الكندي الحمصي) ، (أبو عتبة) يعرف بالحجازي . ورد بغداد غير مرة ، وحدث بها عن بقية بن الوليد ، وغيره . روى عنه عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، وابن جرير ، والحسين بن إسماعيل المحاملي ، وغيرهم ، وكتب عنه ابن أبي حاتم ،

وقال : (محله عندنا الصدق) . قال ابن عدي : (كان محمد بن عوف الطائي ، يضعفه ، ومع ضعفه يكتب حديثه) . قال محمد بن عوف الطائي : (الحجازى كذاب . . . وليس عنده في حديث بقية بن الوليد عن الزبيدي ، أصل . هو فيها أكذب خلق الله . إنما هي أحاديث وقعت إليه في ظهر قرطاس كتاب صاحب حديث ، في أولها مكتوب : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، قال حدثنا بقية) ، ثم رماه بأشياء . وذكره ابن حبان في الثقات وقال : (يخطئ وهو مشهور بكنيته) . ومع ذلك ، فهذا الخبر الذي رواه عنه أبو جعفر ، رواه بعده عن محمد بن عوف الطائي وغيره ، فما قيل فيه لا يضر . مترجم في التهذيب ، وابن أبي حاتم 1 / 1 / 67 ، وتاريخ بغداد 4 : 339 - 341 ، وقد مضى برقم : 6899 ، بروايته عن بقية بن الوليد ، ولم يترجم هناك .

و(بقية بن الوليد الحمصي) ، ثقة ، تكلموا فيه من أجل تدليسه ، فإذا صرح بالسماع كانت روايته صحيحة ، وقد صرح بها في هذا الأثر ، ولم يصرح في الذي يليه . وقد مضى برقم : 153 ، 5563 ، 6521 ، 6899 ، 9224 ، وغيرها .

و(الزبيدي) هو (محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي الحمصي) ، ثقة ، روى له الشيخان . مضى برقم : 6656 ، 6899 .

و(راشد بن سعد المقرئي الحبراني الحمصي) ، وثقه ابن سعد ، وابن معين وغيرهما . وقال أحمد : (لا بأس به) ، وقال الدارقطني : (يعتبر به إذا لم يحدث عن متروك) . وشذ

ابن حزم فضعفه . وذهبت عين راشد بن سعد في يوم صفين ، وتوفي سنة 108 . مترجم في التهذيب ، وابن سعد 162/2/7 ، والكبير 266/1/2 ، وابن أبي حاتم 1 / 2 / 483 ، وميزان الاعتدال 1 : 331 ، ومختصر تاريخ ابن عساكر 5 : 289 .

ومن عند رواية راشد بن سعد يبدأ الاضطراب في إسناد الخبر ، وفي نسبة بعض رجاله ، والاختلاف في لفظه . وهذه هي أسانيده التي وقعت لي ، جمعتها مع ذكر موضع كل إسناد :

1 – الزبيدي ، عن راشد بن سعد ، عن عبد الرحمن بن قتادة النصري ، عن أبيه ، عن هشام بن حكيم الطبري : 15377 – 15379 / الكبير للبخاري 191/2/4 ، 192 / إسحق بن راهويه ، في (شفاء العليل) لابن القيم : 10 / ابن كثير 3 : 588 .

2 – الزبيدي ، عن راشد بن سعد ، عن عبد الرحمن بن قتادة النصري ، عن هشام بن حكيم الآجري في الشريعة : 172 .

3 – معاوية بن صالح ، عن راشد بن سعد ، عن عبد الرحمن بن قتادة ، عن هشام بن حكيم الطبري : 15380

4 – معاوية بن صالح ، عن راشد بن سعد ، عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي ، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن سعد 1 / 1 / 9 ثم 135/2/7 المسند 4 : 186 / المستدرك 1 : 31 / أسد

الغابة 3 : 319 / الإصابة 4 : 179 ، في ترجمة عبد الرحمن بن قتادة .

5 – الزبيدي ، . . . عن عبد الرحمن بن قتادة ، عن أبيه ، وهشام بن حكيم الإصابة 4 : 179 ، غير مبين تمام إسناده ، ولكنه عن راشد بن سعد بلا شك .

فالأسانيد الثلاثة الأولى ، والإسناد الخامس ، رواية الخبر فيها عن هشام بن حكيم ، أو عن قتادة النصري . واختلف الزبيدي على راشد بن سعد ، فقال مرة : (عبد الرحمن بن قتادة ، عن أبيه ، عن هشام) وقال مرة أخرى : (عبد الرحمن بن قتادة ، عن هشام) ، وأسقط ذكر (عن أبيه) . وأما معاوية بن صالح ، فاختلف على راشد بن سعد ، فقال مرة : (عبد الرحمن بن قتادة عن هشام بن حكيم) ، كإسناد الزبيدي الثاني ، وقال مرة أخرى : (عبد الرحمن بن قتادة السلمي وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله) .

قال ابن حجر : (وأعل البخاري الحديث : بأن عبد الرحمن إنما رواه عن هشام بن حكيم . هكذا رواه معاوية بن صالح وغيره عن راشد بن سعد . وقال معاوية مرة أن عبد الرحمن قال : سمعت ، وهو خطأ . ورواه الزبيدي ، عن عبد الرحمن بن قتادة ، عن أبيه ، وهشام بن حكيم . وقيل عن الزبيدي : عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن هشام) (الإصابة 4 : 179) .

أما الاختلاف الثاني في نسبة بعض رجاله ، فإن الذي جاء في الإسناد الأول والثاني : (

عبد الرحمن بن قتادة النصري) . ثم جاء في الإسناد الرابع (عبد الرحمن بن قتادة السلمي) ، ولم يذكر في ترجمة (عبد الرحمن بن قتادة السلمي) الصحابي أنه يقال له : (النصري) ، وسيتبين ذلك في الكلام بعد عن رجال الإسناد .

أما الاختلاف الثالث ، ففي لفظة . فهذا اللفظ الذي رواه أبو جعفر الطبري هنا برقم 15377 ، رواه بنحوه البخاري في الكبير 191/2/4 ، 192 ، والآجري في كتاب الشريعة : 172 ، وإسحق ابن راهويه (شفاء العليل : 10) ، ومجمع الزوائد 7 : 186 ، والدر المنثور 1 : 143 ، وزاد نسبته إلى البزار والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وكل ذلك عن هشام بن حكيم .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ، وذكر هذا الخبر بلفظه ، عن هشام بن حكيم ، ثم قال : (رواه البزار ، والطبراني . وفيه بقيه بن الوليد ، وهو ضعيف ، ويحسن حديثه بكثرة الشواهد . وإسناد الطبراني حسن) .

وأما اللفظ الثاني : فهو عبد الرحمن بن قتادة السلمي ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أن الله عز وجل خلق آدم ، ثم اخذ الخلق من ظهره . وقال : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي . فقال قائل : يا رسول الله ، فعلى ماذا نعمل ؟ قال : على مواقع القدر)

وبهذا اللفظ ونحوه عن عبد الرحمن بن قتاده السلمي الصحابي ، رواه احمد في المسند 4 :

186 ، وابن سعد في الطبقات 1 / 1 / 9 ثم 7 / 2 / 135 ثم ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل 2 / 2 / 276 ثم الحاكم في المستدرك 1 : 31 / مجمع الزوائد 7 : 186 / الإصابة 4 : 179 / تعجيل المنفعة : 255 ، 256 / الدر المنشور 1 : 144 ، 145 ، ونسبه إلى ابن سعد وأحمد . قال الحاكم في المستدرك : (هذا حديث صحيح ، قد اتفقا على الاحتجاج برواته عن آخرهم إلى الصحابة . وعبد الرحمن بن قتادة من بنى سلمة ، من الصحابة . وقد احتجا جميعاً بزهير بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس له راو غير أبي عثمان النهدى ، وكذلك احتج البخاري بحديث أبي سعيد بن المعلى ، وليس له راو غير حفص بن عاصم) . ووافقه الذهبي .

وأما الهيثمى في مجمع الزوائد فقال : (رواه أحمد ، ورجاله ثقات) ، يعنى الإسناد الرابع الذي ذكرناه ، باللفظ الثاني .

***

ثم نقضي إلى القول في (عبد الرحمن بن قتادة) . فهو في الإسناد الأول والثاني (عبد الرحمن بن قتادة النصري) ، يروى عن أبيه ، عن هشام ، الحديث باللفظ الأول ، ولا يظهر من إسناده أنه صحابي ، فإن كان صحابياً ، فهو صحابي ، يروى عن صحابي ، عن صحابي ، وهو غريب نادر . فإذا صح ما قاله البخاري أن الراوي هو عبد الرحمن عن هشام ، وان قوله : (عن أبيه) زيادة ، فهو رواية صحابي عن صحابي . ويحتمل أن يكون

(عبد الرحمن بن قتادة النصري) ، تابعياً . ولكن لم يبين أحد أن (عبد الرحمن بن قتادة النصري) ، غير (عبد الرحمن بن قتادة السلمي) ، و(السلمي) ، صحابي ، كما جاء في نص الإسناد الرابع . وترجم للصحابي (عبد الرحمن بن قتادة السلمي) : ابن سعد 7 / 135/2 ثم ابن أبي حاتم 2 / 2 / 276 وقال بعد : (روى عن هشام بن حكيم ، روى عنه راشد بن سعد ثم الاستيعاب : 398 / وأسد الغابة 3 : 319 / وتعجيل المنفعة : 255 / والإصابة 45 : 179 . ولم يذكر أحد منهم أن هذا (السلمي) يقال له (النصري) . وهذا غريب أيضا .

ثم إنهم ترجموا لأبيه (قتادة النصري) في الكبير 4 / 1 / 185 ، وقال : (سمع هشام بن حكيم ، روى عنه ابنه عبد الرحمن) ، وابن أبي حاتم 3 / 2 / 135 ، وقال مثله . أما (قتادة السلمي) ، فلم يذكر الموضعين ، بل جاء ذكره في ترجمة (هشام بن حكيم) في التهذيب ، والإصابة . وهذا غريب أيضاً .

(ونسبة السلمي) ، مضبوطة بالقلم في ابن سعد وغيره بضم السين وفتح اللام ، نسبة إلى (سليم ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان) وأما الحاكم في المستدرك ، فقد بين أنه من (بني سلمة) (بفتح السين وكسر اللام) والنسبة إليها (السلمي) (بفتحتين) ، وهم من الأنصار . وسواء أكان هذا أو ذاك ، فلا أدري كيف يكون (نصرياً) من كان من هذه أو تلك . و(النصري) فيما أرجح ، إنما هو نسبة إلى (نصر بن معاوية بن بكر بن

هوازن بن منصور بن عكرمة) ، وهم من أبناء عمومة (سليم بن منصور) فجائز أن يكون (عبد الرحمن بن قتادة) من بني (سليم ابن منصور) ، دخل في بني عمومته (نصر بن معاوية) فنسب إليهم أيضاً . ولا حجة لي في ذلك ، كما لم أجد حجة لما قاله الحاكم في المستدرك .

وقد أطلت في بيان هذا الاضطراب ، لأضبطه بعض الضبط . وبعد ذلك كله ، فمعنى الحديث صحيح ، مروى عن جماعة من الصحابة بأسانيد ليس فيها هذا الاضطراب . وهو اضطراب قديم ، كما نصوا على ذلك فيما نقلت آنفاً . انتهى كلام الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى .

(127/296)

حديث آخر : روى جعفر بن الزبير – وهو ضعيف – عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما خلق الله الخلق ، وقضى القضية ، أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله ، فقال : يا أصحاب اليمين . فقالوا : لبيك وسعديك . قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . قال : يا أصحاب الشمال . قالوا : لبيك وسعديك . قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ثم خلط بينهم ، فقال قائل : يا رب ، لم خلطت بينهم ؟

قال : لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، ثم ردهم في صلب آدم [عليه السلام] . رواه ابن مردويه (1)

---

(1) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (287/8) من طريق عثمان بن الهيثم ، عن جعفر بن الزبير به . وجعفر بن الزبير ضعيف جدا ، وقد توبع :

تابعه بشر بن نمير عن القاسم عن أبي أمامة بنحوه . ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (228) والعقيلي في الضعفاء الكبير (51/1) ، ولكن لم يفرح بهذه المتابعة فإن بشر بن نمير متروك متهم .

(128/296)

أثر آخر : قال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أُبي بن كعب [رضي الله عنه] في قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية والتي بعدها ، قال : فجمعهم له يومئذ جميعا ، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة ، فجعلهم أرواحًا ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، الآية . قال : فإني أشهد عليكم السماوات السبع ، والأرَضِين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة : لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا

إله غيري ، ولا رب غيري ، فلا تشركوا بي شيئًا ، وإني سأرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتبي . قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك . فأقروا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم ، فرأى فيهم الغني والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك . فقال : يا رب ، لو سَوَيت بين عبادك ؟ قال : إني أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرُج عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذي يقول تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ [وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا] ﴾ [الأحزاب : 7] وهو الذي يقول : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ [الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ] ﴾ الآية [الروم : 30] ، ومن ذلك قال : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى ﴾ [النجم : 56] ومن ذلك قال : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ [وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ] ﴾ [الأعراف : 102] .

(129/296)

رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه ، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مَرْدُويه في تفاسيرهم ، من رواية ابن جعفر الرازي ، به . وروي عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن

جبير ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وغير واحد من علماء السلف ، سياقات توافق هذه الأحاديث ، اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها ، وبالله المستعان .

(130/296)

فهذه الأحاديث دالة على أن الله ، عز وجل ، استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم ، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] وفي حديث عبد الله بن عمرو [رضي الله عنهما] وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان ، كما تقدم . ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد ، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمَار المُجَاشعي ، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَرِيع . وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك ، قالوا : ولهذا قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ ولم يقل : "من آدم" ، ﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل : "من ظهره" ﴿ ذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أي : جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرنًا بعد قرن ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام : 165] وقال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [النمل : 62] وقال : ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : 133]

ثم قال : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ أي : أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالا وقالا . والشهادة تارة تكون بالقول ، كما قال [تعالى] ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ [الأنعام : 130] الآية ، وتارة تكون حالا كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة : 17] أي : حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ [العاديات : 7] كما أن السؤال تارة يكون بالقال ، وتارة يكون بالحال ، كما في قوله : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم : 34] قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا ، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ، ليكون حجة عليه . فإن قيل : إخبار الرسول به كاف في وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التي فُطِروا عليها من الإقرار بالتوحيد ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ أي : لئلا يقولوا يوم القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ

هَذَا ﴾ أي : [عن] التوحيد ﴿ غَافِلِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 506.500 ﴾

(132/296)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ الآية

عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ الآية قال سئل عنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال " إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن الله سبحانه وتعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار " أخرجه

مالك في الموطأ وأبو داود والترمذي ، وقال حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلاً .

(133/296)

قلت ذكر الطبري في بعض طرق هذا الحديث الرجل فقال عن مسلم بن يسار عن يعمر بن ربيعة عن عمر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بنحوه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يا رب من هذا قال داود قال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يا رب زده من عمري أربعين سنة قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلما انقضى عمر آدم إلا أربعين جاءه ملك الموت فقال آدم أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال أو لم تعطيها ابنك داود ؟ فجحد آدم فجحد ذريته ونسي آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطئ فخطئت ذريته " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وأما تفسير الآية فقوله سبحانه وتعالى : وإذ أخذ ربك ، يعني واذكر يا محمد إذ أخذ ربك

من بني آدم من ظهورهم يعني من ظهور بني آدم وإنما لم يذكر ظهر آدم وإن كان الله سبحانه وتعالى أخرج جميع الذرية من ظهره لأن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهر بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء فلذلك قال سبحانه وتعالى من بني آدم من ظهورهم فاستغنى عن ذكر ظهر آدم عليه السلام لما علم أنهم كلهم بنو آدم وأخرجوا من ظهره فترك ذكر ظهر آدم استغناء .

(134/296)

ثم للعلماء في تفسير هذه الآية مذهبان : أحدهما وهو مذهب أهل التفسير والأثر وظاهر ما جاءت به الراوايات عن السلف فيما روي عن ابن عباس من طرق كثيرة وروايات مختلفة رواها عنه الطبري بأسانيد ، فمنها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً وقال ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين " وعن ابن عباس في هذه الآية قال : مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان هذا الذي وراء عرفة وأخذ ميثاقهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا وعن ابن عباس أيضاً قال : إن أول ما

أهبط الله آدم إلى الأرض أهبطه بدهناء أرض الهند فمسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو بارئها إلى يوم القيامة ثم أخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين " زاد في رواية عنه " فجف القلم بما كان يوم القيامة " وفي رواية عنه قال " لما خلق الله آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذريته كالذر وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم " وفي رواية عنه قال " إن الله مسح صلب آدم فاستخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفّل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد كل من أعطي الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الأول ومن مات صغيراً ولم يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الاول على الفطرة " وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

(135/296)

" أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس " فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى ؟ قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة " إنا كنا عن هذا غافلين " وقال ابن عباس : أخرج ذرية

آدم من ظهره فكلمهم الله وأنطقهم فقال ألست بربكم قالوا بلى ثم أعادها في صلبه فليس أحد من الخلق إلا وقد تكلم فقال ربي الله وإن القيامة لن تقوم حتى يولد من كان يومئذ أشهد على نفسه ، وقال السدي : أخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه من السماء ثم إنه مسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج منه كهيئة الذر بيضاء فقال ادخلوا الجنة برحمتي ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه كهيئة الذر سوداء فقال ادخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال ألست بربكم قالوا بلى فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجهه التبعية زاد في رواية وذلك حيث يقول " وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً " وقال محمد بن كعب القرظي : أقر له بالإيمان والمعرفة الأرواح قبل خلق أجسادها ، وقال مقاتل : مسح صفحة ظهر آدم اليمنى ، فأخرج منها ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منها ذرية سوداء كهيئة الذر يتحركون فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال ثم أعادهم جميعاً في صلب آدم فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق جميعاً .

وروى أن الله سبحانه وتعالى قال لهم جميعاً .

اعلموا أنه لا إله لكم غيري وأنا ربكم لا رب لكم غيري فلا تشركوا بي شيئاً فإني سأنتقم ممن أشرك بي ولم يؤمن بي وإني مرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي ومنزل عليكم كتباً فتكلموا جميعاً وقالوا شهدنا أنك ربنا لا رب لنا غيرك فأخذ بذلك مواثيقهم ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم فنظر إليهم آدم عليه السلام فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال رب هلا سويت بينهم فقال إني أحب أن أشكر فلما قررهم بتوحديه وأشهد بعضهم على بعض أعاده إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ منه الميثاق " وقال الزجاج وجائز أن يكون الله سبحانه وتعالى جعل لأمثال الذر عقلاً وفهما تعقل به كما قال تبارك وتعالى في النملة ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ وكما قال ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ وقال ابن الأنباري مذهب أصحاب الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولادهم وهم صور كالذر وأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعه فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبال عقولاً حتى خوطبوا بقوله ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ وكم جعل للبعير عقلاً حتى سجد للنبي (صلى الله عليه وسلم) وكذلك الشجرة حتى سمعت لأمره وانقادت ومعنى قوله ﴿ ألست بربكم ﴾ على هذا التفسير قال الله تعالى للذرية ﴿ ألست بربكم ﴾ فهو

إيجاب للربوبية عليهم قالوا بلى يعني قال الذرية بلى أنت ربنا فهو جواب منهم له وإقرار منهم له بالربوبية واعتراف على أنفسهم بالعبودية ﴿ شهدنا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنهم لما أقروا له بالربوبية قال الله للملائكة اشهدوا قالوا شهدنا على إقرارهم فعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله سبحانه وتعالى بلى لأن كلام الذرية تم وانقطع وقوله شهدنا كلام مستأنف .

(137/296)

والقول الثاني : إن قوله سبحانه وتعالى شهدنا من كلام الذرية والمعنى شهدنا على أنفسنا بهذا الإقرار وعلى هذا لا يحسن الوقف على بلى لتعلقه بما بعده .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أن تقولوا ﴾ وقرئ بالتاء على خطاب الذرية ومعناه لئلا تقولوا أيها الذرية ﴿ يوم القيامة إنا كنا عن هذا ﴾ يعني الميثاق ﴿ غافلين ﴾ وقرئ أن يقولوا بالياء على الغيبة ومعناه لئلا يقولوا أي الذرية إنا كنا عن هذا غافلين ، والمذهب الثاني في معنى هذه الآية وهو مذهب أهل الكلام والنظر أنه سبحانه وتعالى أخرج الذرية وأنشأهم بعد أن كانوا نطفاً في أصلاب الآباء وهم أولاد بني آدم فأخرج الذرية إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقول وأراهم عجائب خلقه

وغرائب صنعه ودلائل وحدانيته فبهذا الإشهاد صاروا كأنهم قالوا : بلى وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم وذلك بما أظهر لهم من دلائل آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم وبارئهم وربهم ونافذ الحكم فيهم فلما عرفوا ذلك دعاهم ذلك إلى التصديق بوحدانيته وربوبيته فقالوا بلى شهدنا على أنفسنا أنك أنت ربنا وخالقنا فعلى هذا القول يكون قولهم بلى شهدنا على أنفسنا على المجاز لا على الحقيقة وهذا النوع من المجاز الاستعارة مشهور في كلام العرب فكل من بلغ وعقل فقد أخذ عليه الميثاق بما جعل فيه من السبب الذي يؤخذ به الميثاق وهو العقل والتكليف فيكون معنى الآية وإذ يأخذ ربك من بني ويشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذي يكون به الفهم والتكليف الذي به يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة .

فإن قلت : فما المختار من هذين المذهبين في تفسير هذه الآية ؟

قلت : المذهب الأول هو المختار لأنه مذهب جمهور المفسرين من السلف وورد الحديث بذلك عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

(138/296)

فإن قلت إذا كانت المختار في تفسير هذه الآية هو مذهب السلف في ذلك وأن الله تعالى أخرج الذرية من ظهر آدم لأخذ الميثاق عليهم كما ورد في الحديث أيضاً فكيف يحمل تفسير ألفاظ هذه الآية على هذا القول ؟

(139/296)

قلت : قد صحَّ الحديث بان الله مسح ظهر آدم فأخرج ذريته وأخذ عليهم الميثاق ولا منافاة بين الآية والحديث كما تقدم في تفسير ألفاظ الآية من أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض كما في الخارج وكلهم بأجمعهم من ظهر آدم الذي هو أصلهم فبهذا الطريق أمكن الجمع بين الآية والحديث ، إذ ليس في معنى ألفاظ الآية مايدل على بطلان ذلك ونفيه وقد ورد الحديث بثوبت ذلك وصحته فوجب المصير إليه والأخذ به جمعاً بين الآية والحديث وحكى الواحدي عن صاحب النظم أنه قال : ليس بين قوله إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه تعالى إذ أخرجهم من ظهر آدم فقد أخرجهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية كذرية بعضهم من بعض قال وتحصل الفائدة بهذا الفصل بأنه تعالى أثبت الحجة على كل منفوس ممن بلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم بالحجة بالآيات والدلائل التي نصبها

بالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ وقال غيره : فائدة أخذ الميثاق عليها في القدم أن من مات منهم صغيراً أدخل الجنة بإقراره بالميثاق الأول وهذا على قول من يقول إن أطفال المشركين يدخلون الجنة إذا ماتوا صغاراً فأما من لا يحكم لهم بالجنة فإنه يقول من كان من أهل الشقاوة من الذرية السوداء وإنما أقروا بالمعرفة كرهاً فلم يغن عنهم ذلك شيئاً ومن بلغ وعقل لم يغن عنه إقراره بالميثاق الأول شيئاً حتى يؤمن ويصدق عند بلوغه وعقله بأن الله ربه وخالقه ويصدق رسله فيما جاؤوا به من عنده وإنما فعل ذلك لئلا يقول الكفار إنا كنا عن هذا الميثاق أو الإيمان بأن الله ربنا غافلين أو لئلا تقول أخلافهم إنما أشرك آباؤنا ونحن نسير على آثارهم ظناً منهم أن الحق ما كانوا عليه .

فإن قلت : إن ذلك الميثاق لا يذكره أحد اليوم فكيف يكون حجة عليهم اليوم أو فكيف يذكرونه يوم القيامة حتى يحتج عليهم به .

(140/296)

قلت : لما أخرج الذرية من صلب آدم ركب فيهم العقول وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا إلى صلب آدم بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق لاقتضاء الحكمة الإلهية نسيانهم له ثم ابتدأهم بالخطاب على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام وأصحاب

الشرائع فقام ذلك مقام الذكر ، إذ الدار دار تكليف وامتحان ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والابتلاء ، والتكليف ، فقامت الحجة عليهم لإمدادهم بالرسل وإعلامهم بجريان أخذ الميثاق عليهم وبذلك قامت الحجة عليهم أيضاً يوم القيامة لإخبار الرسل إياهم بذلك الميثاق في الدنيا فمن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزمتهم الحجة ولم تسقط الحجة عنهم بنسيانهم وعدم حفظهم بعد أخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(141/296)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾

روي في الحديث من طرق أخذ من ظهر آدم ذرّيته وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره فأقروا بذلك والتزموه واختلفوا في كيفية الإخراج وهيئة المخرج والمكان والزمان وتقرير هذه الأشياء محلها ذلك الحديث والكلام عليه وظاهر هذه الآية ينافي ظاهر ذلك الحديث ولا تلتئم ألفاظه مع لفظ الآية وقد رام الجمع بين الآية والحديث جماعة بما هو

متكلف في التأويل وأحسن ما تكلم به على هذه الآية ما فسره به الزمخشري قال من باب التمثيل والتخييل ومعنى ذلك أنه تعالى نصب لهم الأدلة على ربوبيته وواحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه سبحانه ﴿ أشهدهم على أنفسهم ﴾ وقررهم وقال ﴿ ألست بربكم ﴾ وكأنهم ﴿ قالوا بلى ﴾ أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا لوحدانيتك وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وفي كلام العرب ونظيره قول الله عز وجل ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيَكون ﴾ ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قَالتا آتينا طائعين ﴾ وقول الشاعر :

إذا قالت الانساع للبطن الحقي . . .

تقول له ريح الصّبا قرقار

(142/296)

ومعلوم أنه لا قول ثم وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى وأن تقولوا مفعول له أي فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة أن تقولوا يوم القيامة وتقديره إنا كنا عن هذا غافلين لم ننبه عليه أو كراهة أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم

فاقتدينا بهم لأنّ نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم ، (فإن قلت) : بنو آدم وذرياتهم من هم ، قلت : عني ببني آدم أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله تعالى حيث قالوا : ﴿ عزير ابن الله ﴾ وبذرياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أخلافهم المقتدين بآبائهم والدليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله تعالى : ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ والدليل على أنها في اليهود الآيات التي عطفت عليها هي والتي عطفت عليها وهي على نمطها وأسلوبها وذلك على قوله ﴿ واسألهم عن القرية ﴾ ﴿ وإذ قالت أمة منهم ﴾ ﴿ وإذ تأذن ربّك ﴾ ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم ﴾ ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾ انتهى كلام الزمخشري وهو بسط كلام من تقدمه ، قال ابن عطية : قال قوم الآية مشيرة إلى هذا التأويل الذي في الدنيا وأخذ بمعنى أوجد وأن الاشهادين عند بلوغ المكلّف وهو قد أعطى الفهم ونصبت له الصفة الدالة على الصانع ونحالها الزجاج وهو معنى تحتمله الألفاظ انتهى ، والقول بظاهر الحديث يطرق إلى القول بالتناسخ فيجب تأويله ومفعول ﴿ أخذ ﴾ ذرياتهم قاله الحوفي ويحتمل في قراءة الجميع أن يكون مفعول أخذ محذوفاً لفهم المعنى و ﴿ ذرّياتهم ﴾ بدل من ضمير ﴿ ظهورهم ﴾ كما أنّ ﴿ من ظهورهم ﴾ بدل من قوله ﴿

بني آدم ﴾ والمفعول المحذوف هو الميثاق كما قال : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله ﴾ وتقدير

(143/296)

الكلام : وإذ أخذ ربك من ظهور ذرّيات بني آدم ميثاق التوحيد لله وإفراده بالعبادة واستعار أن يكون أخذ الميثاق من الظهر كان الميثاق لصعوبته وللارتباط به والوقوف عنده شيء ثقيل يحمل على الظهر وهذا من تمثيل المعنى بالجزم ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾ بما نصب لهم من الأدلة قائلاً ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ ، وقرأ العربيان ونافع : ﴿ ذرياتهم ﴾ بالجمع وتقدّم إعرابه ، وقرأ باقي السبعة ذرّيتهم مفرداً بفتح التاء ويتعيّن أن يكون مفعولاً بأخذ وهو على حذف مضاف أي ميثاق ذرياتهم وإنما كان أخذ الميثاق من ذرية بني آدم لأنّ بني آدم لصلبه لم يكن فيهم مشرك وإنما حدث الإشراك في ذريتهم .

﴿ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ .

أي قال الله شهدنا عليكم أو قال الله والملائكة قاله السدّي ، أو قالت الملائكة أو شهد بعضهم على بعض أقوال ومعنى عن هذا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبيّة . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾

منصوبٌ بمضمر معطوفٌ على ما انتصب به إذ نتقنا مَسوقٌ للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاقِ العام المنتظمِ للناس قاطبةً وتوبيخِهم بنقضه إثرَ الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاقِ الطورِ ، وتعليقُ الذكر بالوقت مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانُه مراراً أي واذكر لهم (وقتَ) أخذ ربُّك ﴿ مِن بَنِى ءادَمَ ﴾ المرادُ بهم الذين وَلدَهم كائناً من كان نسلاً بعد نسلٍ سوى مَنْ لم يولدْ له بسبب من الأسباب كالعُقم وعدمِ التزوج والموتِ صغيراً ، وإيثارُ الأخذ على الإخراج للإيذان بالاعتناء بشأن المأخوذِ لما فيه من الإنباء عن الاجتباء والاصطفاءِ وهو السببُ في إسناده إلى اسم الربِّ بطريق الالتفاتِ مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي ، وإضافتُه إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقوله تعالى : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ بدلٌ من بني آدمَ بدلَ البعضِ بتكرير الجار كما في قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ ﴾ و (من) في الموضعين ابتدائيةٌ وفيه مزيدُ تقريرٍ لابتنائه على البيان بعد الإبهامِ ، والتفصيلُ غِبَّ الإجمالِ تنبيهٌ على أن الميثاقَ قد أُخذ منهم وهم في

أصلاب الآباءِ ولمْ يُستودَعوا في أرحام الأمهات ، وقوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّتَهُم ﴾ مفعول أُخذَ أُخِّر عن المفعول بواسطة الجارِّ لاشتماله على ضمير راجعٍ إليه ، ولمراعاة أصالتِه ومنشئيّتِه ، ولما مرّ مراراً من التشويق إلى المؤخّر ، وقرىء ذرّياتِهم والمرادُ بهم أولادُهم على العموم فيندرج فيهم اليهودُ المعاصِرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اندراجاً أولياً كما اندرج أسلافُهم في بني آدم كذلك ، وتخصيصُهما باليهود سلفاً وخلفاً مع أن ما أريد بيانُه من بديع صنعِ الله تعالى عز وجل شاملٌ للكل كافة مُخِلٌّ بفخامة التنزيلِ وجزالةِ التمثيل ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي أشهد كل واحدةٍ من أولئك الذرياتِ المأخوذين من ظهور

(145/296)

آبائهم على نفسها لا على غيرها تقريراً لهم بربوبيته التامةِ وما تستتبعه من المعبودية على الاختصاص وغيرِ ذلك من أحكامها وقوله تعالى : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ على إرادة القولِ ، أي قائلاً : ألست بربكم ومالكَ أمرِكم ومربيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مدخلٌ في شأن من شؤونكم ؟ فينتظم استحقاقُ المعبودية ويستلزم اختصاصَه به تعالى . ﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل : فماذا قالوا حينئذ ؟ فقيل : قالوا : ﴿ بلى شَهِدْنَا ﴾ أي على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا ربَّ لنا غيرُك كما ورد

في الحديث الشريف وهذا تمثيلٌ لخلقه تعالى إياهم جميعاً في (مبدأ) الفطرةِ مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبةِ في الآفاق والأنفسِ المؤدية إلى التوحيد والإسلامِ كما ينطِق به قوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة ﴾ الحديث ، مبنيٌّ على تشبيه الهيئةِ المنتزَعَةِ من تعريضه تعالى إياهم لمعرفة ربوبيتِه بعد تمكينِهم منها بما ركَّز فيهم من العقول والبصائر ونصبَ لهم في الآفاق والأنفسِ من الدلائل تمكيناً تاماً ، ومن تمكّنهم تمكناً كاملاً وتعرّضِهم لها تعرضاً قوياً بهيئة منتزعةٍ من حمله تعالى إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمرِ ومن مسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلاً من غير أن يكون هناك أخذٌ وإشهادٌ وسؤالٌ وجواب كما في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

(146/296)

وقوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ بالتاء على تلوين الخطاب وصرفِه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاصريه من اليهود تشديداً في الإلزام ، أو إليهم وإلى متقدّميهم بطريق التغليبِ لكن لا من حيث إنهم مخاطَبون بقوله تعالى : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ فإنه ليس من الكلام المحكي ، وقرىء بالياء على أن الضمير للذرية ، وأياً ما كان فهو مفعولٌ له لما قبله من

الأخذ والإشهاد أي فعلنا ما فعلنا كراهةَ أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرةُ أو يقولوا هم ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ عند ظهور الأمرِ ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا ﴾ عن وحدانية الربوبيةِ وأحكامِها ﴿ غافلين ﴾ لم ننبّه عليه ، فإنهم حيث جُبلوا على ما ذكر من التهيؤ التامّ لتحقيق الحقّ والقوة القريبةِ من الفعل صاروا محجوبين عاجزين عن الاعتذار بذلك إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذُكر من خلقهم على الفطرة السليمةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(147/296)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾

منصوب بمضمر على طرز ما سلف في نظائره وهو معطوف على ما قبل مسوق لإلزام اليهود بمقتضى الميثاق العام فإن منهم من أشرك فقال : عزير بن الله عز اسمه بعد إلزامهم بالميثاق المخصوص بهم والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ومنعهم عن التقليد ، وبعضهم جوز أن يكون تذييلاً تعميماً بعد التخصيص وإظهاراً لتمادي هؤلاء اليهود في الغي ومنعهم عن التقليد ، وبعضهم جوز أن يكون تذييلاً تعميماً بعد التخصيص وإظهاراً لتمادي هؤلاء

اليهود في الغي بعد أخذ الميثاق الخاص المدلول عليه بقوله سبحانه : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل ﴾ [الأعراف : 171] لقوله جل وعلا : ﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا ميثاقكم وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور ﴾ [البقرة : 63] ، وعليه فلا عطف وهو أظهر من التذييل نظراً إلى ظاهر اللفظ وأولى منه إذا خص العام بالمشركين كما قيل ، وقد يقال : إن الآية مسوقة لبيان أخذ ميثاق سابق من جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم قبل هذه النشأة بما هو أهم الأمور والأصل الأصيل لجميع التكليفات على وجه خال مما يشبه الإكراه متضمن لإلزام المشركين المعاصرين له صلى الله عليه وسلم ورفع احتجاجهم ما كانوا بعد الإشارة إلى أخذ ميثاق من قوم مخصوصين في هذه النشأة على وجه هو أشبه الأشياء بالإكراه بما الظاهر فيه أنه من الأعمال لأن القوم إذ ذاك كانوا مقرين بالربوبية بل بها وبرسالة موسى عليه السلام فلم يكن حاجة إلى نتق الجبل فوقهم لذلك ولو قال قائل : إن ذكر ذلك خلال الآيات المتعلقة باليهود من باب الاستطراد والمناسبة فيه ظاهرة لم يبعد لكن الأول وهو الذي جرى عليه أكثر متأخري المفسرين أي واذكر لهم أو للناس إذ أخذ ربك ﴿ مِن بَنِى ءادَمَ ﴾ المراد بهم الذين ولد لهم مؤمنين كانوا أو كفاراً نسلاً بعد نسل سوى من لم يولد له بسبب من الأسباب وتخصيصهم بأسلاف اليهود الذي أشركوا بالله تعالى حيث قالوا ما قالوا مما لا يكاد يلتفت إليه .

وإيثار الأخذ على الإخراج للإيذان بشأن المأخوذ إذ ذاك لما فيه من الأنباء عن الاجتباء والاصطفاء وهو السبب في إسناده في اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي ، وإضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف ، وقيل : إن إيثار الأخذ على الإخراج لمناسبة ما تضمنته الآية من الميثاق فإن الذي يناسبه هو الأخذ دون الإخراج ، والتعبير بالرب لما أن ذلك الأخذ باعتبار ما يتبعه من آثار الربوبية ، واستأنس بعضهم بمغايرة أسلوب هذا الكلام بما فيه من الالتفات لما قبله من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ﴾ [الأعراف : 171] ولما بعده من قوله تعالى : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذى ءاتيناه ءاياتنا ﴾ [الأعراف : 175] لكونه استطرادياً ، وقوله تعالى : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ بدل من بني آدم بدل البعض من الكل بتكرير الجار كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ ءامَنَ ﴾ [الأعراف : 75] وقيل : بدل اشتمال وإليه ذهب أبو البقا ، ء وبينه بعضهم بأن بدل الاشتمال ما يكون بينه وبين المبدل منه ملابسة بحيث توجب النسبة إلى المتبوع النبسة إلى التابع إجمالاً نحو أعجبني زيد علمه فإنه يعلم ابتداء أن زيداً معجب باعتبار صفاته لا باعتبار ذاته وتتضمن نسبة الأعجاب إليه نسبته إلى صفة من صفاته إجمالاً ، ونسبة الأخذ الذي هو بمعنى الإخراج هنا إلى بنء آدم نسبة إلى ظهورهم إجمالاً لأنه يعمل ابتداء أن بني آدم ليسوا مأخوذين باعتبار ذواتهم بل باعتبار

أجسادهم وأعضائهم وتتضمن نسبة الأخذ إليهم نسبته إلى أعضائهم إجمالاً ، وادعى أن القول به أولى من القول ببدل البعض لأن النسبة إلى المبدل منه الكل تكون تامة وتحصل بها الفائدة بدون ذكر البدل نحو أكلت الرغيف نصفه فإن النبسة تامة لو لم يذكر النصف ولا شك أن النسبة هنا ليست تامة بدون ذكر البدل .

(149/296)

وأيضاً أن الظهور ليس بعض بني آدم حقيقة بل بعض أعضائهم ولا يخفى ما في ذلك من النظر .

و﴿ مِنْ ﴾ في الموضعين ابتدائية ، وفيه مزيد تقرير لابتنائه على البيان بعد الإبهام والتفصيل غب الإجمال ، قيل : وتنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم وهم في أصلاب الآباء ولم يستودعوا في أرحام الأمهات وقوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّتَهُم ﴾ مفعول ﴿ أَخَذَ ﴾ أخر عن المفعول بواسطة الجار لاشتماله على ضمير راجع إليه فيلزم بالتقديم رجوع الضمير إلى متأخر لفظاً ورتبة وهو لا يجوز إلا في مواضع ليس هذا منها ولمراعاة أصالته ومنشئيته ولما مر غير مرة من التشويق إلى المؤخر .

وقرأ نافع وأبو عمرو .

وابن عامر .

ويعقوب ﴿ ذرياتهم ﴾ والمراد أولادهم على العموم ، ومن خص بني آدم بأسلاف اليهود على ما مر خص هذا بأخلافهم وفيه ما فيه ، والإشكال المشهور وهو أن كل الناس يصدق عليه بنو آدم وذريته فيتحد المخرج والمخرج منه مدفوع بظهور أن المراد إخراج الفروع من الأصول حسب ترتب الولاد ولا يتوقف التخلص عنه على القول بذلك التخصيص .

(150/296)

﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي أشهد كل واحد من أولئك الذرية المأخوذين من ظهور آبائهم على أنفسهم لا على غيرهم تقريراً لهم بربوبيته سبحانه وتعالى التامة قائلاً لهم : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي مالك أمركم ومربيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل في شأن من شؤنكم ﴿ قَالُواْ ﴾ في جوابه سبحانه وتعالى ﴿ بلى شَهِدْنَا ﴾ أي على أنفسنا بأنك ربنا لا رب لنا غيرك والمراد اقررنا بذلك ، وجاء أن القاضي شريح قال لمقر عنده شهد عليك ابن أخت خالتك ، ومن هنا قال الجلال السيوطي : إن هذه الآية أصل في الإقرار و﴿ بلى ﴾ حرف جواب وألفها أصلية عند الجمهور ، وقال جمع : الأصل بل والألف زائدة وبعض أولئك يقول : إنها لتأنيث الكلمة كالتاء في ثمت وربت لأنها

أميلت ولو لم تكن للتأنيث لكانت زائدة لمجرد التكثير كالف قبعثري وتلك لا تمال ، وتختص بالنفي فلا تقع إلا في جوابه فتفيد إبطاله سواء كان مجرداً أو مقروناً بالاستفهام حقيقياً كان أو تقريرياً ، وقد أجروا النفي مع التقرير مجرى النفي المجرد في رده ببلى كما في هذه الآية ، ولذلك قال ابن عباس وغيره لو قالوا نعم لكفروا .

ووجهه أن نعم تصديق للمخبر بنفي أو إيجاب ، ولذلك قال جماعة من الفقاء : لو قال أليس لي عليك ألف ؟ فقال : بلى لزمته ؛ ونعم لا .

وقال آخرون : تلزمه فيهما وجروا فيه على مقتضى العرف لا اللغة .

(151/296)

ونازع السهيلي وجماعة في المحكى عن الحبر وغيره متمسكين بأن الاستفهام التقريري موجب ولذلك امتنع سيبويه من جعل ﴿ أَمْ ﴾ متصلة على ما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ ﴾ [الزخرف : 51 ، 52] فإنها لا تقع بعد الإيجاب وإذا ثبت أنه إجياب فنعم بعد الإيجاب تصديق له ، قال ابن هشام : ويشكل عليهم أن بلى لا يجاب بها الإيجاب وذلك متفق عليه و﴿ بلى قَدْ جَاءتْكَ ءاياتى ﴾ [الزمر : 59] متقدم فيه ما يدل على النفي لكن وقع في الحديث ما يقتضي أنها يجاب بها الاستفهام المجرد ففي

"صحيح البخاري" أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " أترضون أن تكونوا رفع أهل الجنة ؟ قالوا : بلى " وفي "صحيح مسلم" أنه صلى الله عليه وسلم قال : " أنت الذي لقيتني بمكة فقال له المجيب : بلى " وليس لهؤلاء أن يحتجوا بذلك لأنه قليل فلا يتخرج عليه التنزيل انتهى .

وأجاب البدر الدماميني بأنه لا إشكال في الحقيقة فإن هؤلاء راعوا صورة النفي المنطوق به فيجاب ببلى حيث يراد إبطال النفي الواقع بعد الهمزة وجوزوا الجواب بنعم على أنه تصديق لمضمون الكلام جميعه الهمزة ومدخولها وهو إيجاب كما سلف ودعواه الاتفاق مناقش فيها أما إن أراد الإيجاب المجرد من النفي بالمرة فقد حكى الرضى الخلاف فيه ، وذكر أن بعضهم أجاز استعمالها بعده تمسكاً بقوله :

وقد بعدت بالوصل بيني وبينها . . .

بلى إن من زار القبور ليبعدا

(152/296)

وإن أراد ما هو الأعم حتى يشمل التقرير المصاحب للنفي فالخلاف فيه موجود مشهور ذكره هو في حرف النون انتهى ، ولا يخفى أن البيت شاذ كما صرح به الرضى ، والمذكور في

بحث النون أن جماعة من المتقدمين والمتأخرين منهم الشلوبين قالوا : إنه إذا كان قبل النفي استفهام فإن كان على حقيقته فجوابه كجواب النفي المجرد وإن كان مراداً به التقرير فالأكثر أن يجاب بما يجاب به النفي رعياً للفظه ، ويجوز عند أمن اللبس أن يجاب بما يجاب به الإيجاب رعياً لمعناه وعلى ذلك قول الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم نعم وقد قال لهم : ألستم ترون لهم ذلك وقول جحدر :

أليس الليل يجمع أم عمرو . . .

وإيانا فداك بنا تداني

نعم وأرى الهلال كما تراه . . .

ويعلوها النهار كما علاني

وعلى ذلك جرى كلام سيبويه ، وقال ابن عصفور : أجرت العرب التقرير في الجواب مجرى النفي المحض وإن كان إيجاباً في المعنى فإذا قيل : ألم أعطك درهماً قيل في تصديقه : نعم وفي تكذيبه بلى ، وذلك لأن المقرر قد يوافقك فيما تدعيه وقد يخالفك فإذا قال : نعم لم يعلم هل أراد نعم لم تعطني على اللفظ أو نعم أعطيتني على المعنى فلذلك أجابوه على اللفظ ولم يلتفتوا إلى المعنى .

وأما نعم في بيت جحدر فجواب لغير مذكور وهو ما قدره اعتقاده من أن الليل يجمعه وأم عمرو وجاز ذلك لأمن اللبس لعلمه أن كل أحد يعلم أن الليل يجمعه مع أن عمرو ، أو هو

جواب لقوله : وأرى الهلال قدم عليه وأما قول الأنصار : فجاز لأمن الليس لأنه قد علم أنهم يريدون نعم يعرف لهم ذلك ، وعلى هذا يحمل استعماله سيبويه لها بعد التقرير انتهى .

(153/296)

والأحسن أن تكون نعم في البيت جواباً لقوله : فذاك بنا تداني ، ثم قال ابن هشام : ويتحرر على هذا أنه لو أجيب ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ بنعم لم يكف في الإقرار لأنه سبحانه وتعالى أوجب في الإقرار بما يتعلق بالربوبية ما لا يحتمل غير المعنى المراد من المقر ، ولهذا لا يدخل في الإسلام بقوله لا إله إلا الله برفع إله لاحتماله لنفي الوحدة ، ولعل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إنما قال : إنهم لو قالوا : نعم لم يكن إقراراً وافياً ، وجوز الشلوبين أن يكون مراده رضي الله تعالى عنه أنهم لو قالوا نعم جواباً للملفوظ على ما هو الأفصح لكان كفراً إذ لأصل تطابق السؤال والجواب لفظاً ، وفيه نظر لأن التكفير لا يكون بالاحتمال ، والكلام عند جمع تمثيل لخلقه تعالى الخلق جميعاً في مبدأ الفطرة مستعدين للاستدلال بالأدلة الآفاقية والأنفسية المؤدية إلى التوحيد كما نطق به قوله صلى الله عليه وسلم :

كل مولود يولد على الفطرة . . .

الحديث مبني على تشبيه الهيئة المنتزعة من تعريضه سبحانه وتعالى إياهم لمعرفة ربوبيته

ووحدانيته بعد تمكينهم منها بما ركز فيهم من العقول والبصائر ونصب لهم في الآفاق والأنفس من الدلائل تمكيناً تاماً ومن تمكنهم منها تمكناً كاملاً وتعرضهم لها تعرضاً قوياً بهيئة منتزعة من حمله تعالى إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ومن مسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلاً من غير أن يكون هناك أخذ وإشهاد وسؤال وجواب ، ونظير ذلك في قول ما في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] ومن ذلك سائر ما يحكى عن الحيوان والجماد كقوله :

شكا إلى جملي طول السري . . .

مهللاً رويداً فكلانا مبتلي

وقوله :

امتلأ الحوض وقال قطني . . .

مهلاً رويداً قد ملأت بطني

وجعلوا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ من تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاصريه من اليهود تشديداً في الإلزام أو إليهم إلى متقدميهم بطريق التغليب وهو مفعول له لما قبله من الأخذ والإشهاد أو لمقدر يدل عليه ذلك ، والمعنى على ما يقول البصريون : فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا وعلى ما يقول الكوفيون : لئلا تقولوا ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ عند ظهور الأمر وإحاطة العذاب بمن أشرك ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا ﴾ أي وحدنية الربوبية ﴿ غافلين ﴾ لم ننبه عليه ، وإنما لم يسعهم هذا الاعتذار حينئذ على ما قيل لأنهم نبوا بنصب الأدلة وجعلوا متهيئين تهياً تاماً لتحقيق الحق وإنكار ذلك مكابرة فكيف يمكنهم أن يقولوا ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(155/296)

وقال القاسمى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [172] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي : أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن ، من أنهم كانوا نطفة قذفت إلى رحم الأمهات ، ثم جعلت علقة ،

ثم مضغة ، ثم أنشأهم بشراً سوياً حياً مكلفاً ، فجعل خلقه إياهم كذلك ، إخراجاً من أصلابهم ، لأن أصلهم خرج منها ، و

﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ بدل من : ﴿ بني آدَمَ ﴾ بدل البعض ، وقرئ

(ذرياتهم) .

﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : أشهد كل واحدة من أولئك الذاريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها ، تقريراً لهم بربوبيته التامة .

قال الجشمي : أي : أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقته ، وغرائب صنعته ، من أعضاء سوية ، وحواس مدركة ، وجوارح ظاهرة ، وأعصاب وعروق وغير ذلك ، مما يعلمه من تفكر فيه ، وكلها تدل عليه وعلى صفاته ووحدانيته ، فبالإشهاد بالأدلة ، صار كأنه أشهدهم بقوله .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ على إرادة القول ، أي : قائلاً ألست بربكم ، ومالك أمركم ومربيكم على الإطلاق ، من غير أن يكون لأحد مدخل في شأن من شؤونكم ، فينتظم استحقاق المعبودية ، ويستلزم اختصاصه به تعالى : ﴿ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا ﴾ أي : على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك ، لأنهم بما ظهر عليهم من آثار الصنعة صاروا كأنهم قالوا : ﴿ بلى ﴾ ، وإن لم يكن هناك قول باللسان .

فالآية من باب التمثيل المعروف في كلام العرب ، مثل تعالى خلقهم على فطرة التوحيد ، وإخراجهم من ظهور آبائهم ، شاهدين بربوبيته شهادة لا يخالجها ريب ، بجمله إياهم على الإعتراف بها بطريق الأمر ، ومسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلاً .

والقصد من الآية الإحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفة فطرية ، لازمة لهم لزوم الإقرار منهم والشهادة . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ، والفطرة هي معرفة ربوبيته .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ > .

والجمعاء سالمة الأذن والجدعاء مقطوعتها .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم < يقول إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم > .

وروى الطبري عن الحسن عن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهوّدانها أو ينصّرانها > .

قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه : ﴿ وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بنِي آدَمَ ﴾ الآية. رواه الإمام أحمد والنسائي. بدون استشهاد الحسن بالآية .

وأما الأخبار المروية في إخراج الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتكليمه تعالى إياهم ونطقهم ، ثم إعادتهم إلى صلب أبيهم ، فغير صحيحة الإسناد .

وما حسن إسناده منها فغير صريح في ذلك ، بل هو أقرب إلى ألفاظ الآية ، كما بينه الحافظ ابن كثير ، قال رحمه الله :

(157/296)

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض والأسود . وقد فسر الحسن الآية بذلك .

قالوا : ومعنى أشهدهم أي : أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالاً وقالاً .

والشهادة تارة تكون بالقول ، كقوله : ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ الآية ، وتارة تكون حالاً كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ أي : حالهم شاهداً عليهم بذلك ، لأنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ ، كما أن السؤال تارة يكون بالقال ، وتارة يكون بالحال ، كقوله :

﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ .

قالوا : مما يدل على أن المراد هذا ، أن جعل الإشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع كما قاله من قاله ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه .

فإن قيل : إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم به كاف في وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد .

﴿ أَن تَقُولُوا ﴾ أي : كراهة أن تقولوا .

﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : الذي يسأل فيه عن الربوبية والتوحيد .

﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا ﴾ أي : عن ربوبيته وتوحيده ﴿ غَافِلِينَ ﴾ أي : لم ننبه عليه .

فإنهم حيث جبلوا على ما ذكر ، صاروا محجوبين عاجزين عن الإعتذار بذلك ، إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 220 . 222 ﴾

(158/296)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾

هذا كلام مصروف إلى غير بني إسرائيل ، فإنهم لم يكونوا مشركين والله يقول ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباءنا من قبل ﴾ فهذا انتقال بالكلام إلى محاجة المشركين من العرب ، وهو المقصود من السورة ابتداء ونهاية ، فكان هذا الانتقال بمنزلة رد العجز على الصدر .

جاء هذا الانتقال بمناسبة ذكر العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل في وصية موسى ، وهو ميثاق الكتاب ، وفي يوم رفع الطور .

وهو عهد حصل بالخطاب التكويني أي بجعل معناه في جبلة كل نسمة وفطرتها ، فالجملة معطوفة على الجمل السابقة عطف القصة على القصة .

والمقصود به ابتداء هم المشركون .

وتَبَدُّل أسلوب القصة واضح إذ اشتملت هذه القصة على خطاب في قوله : ﴿ أن تقولوا يوم القيامة ﴾ إلى آخر الآية .

وإذ صرح فيها بمعاد ضمير الغيبة وهو قوله ﴿ من بني آدم ﴾ فعموم الموعظة تابع لعموم العظة .

فهذا ابتداء لتقريع المشركين على الإشراك ، وما ذكر بعده إلى آخر السورة مناسب لأحوال المشركين .

و﴿ إذ ﴾ اسم للزمن الماضي ، وهو هنا مجردٌ عن الظرفية ، فهو مفعول به لفعل "اذكرْ" محذوف .

وفعل ﴿ أخذ ﴾ يتعلق به ﴿ من بني آدم ﴾ وهو معدَّى إلى ذرياتهم ، فتعين أن يكون المعنى : أخذ ربك كلَّ فرد من أفراد الذرية .

من كل فرد من أفراد بني آدم ، فيحصل من ذلك أن كل فرد من أفراد بني آدم أقر على نفسه بالمربوبية لله تعالى .

و(من) في قوله : ﴿ من بني آدم ﴾ وقوله : ﴿ من ظهورهم ﴾ ابتدائية فيهما .

والذُرّيات جمع ذُرّيَة ، والذّرّية اسمُ جمع لما يتولد من الإنسان ، وجمعُه هنا للتنصيص على العموم .

وأخذُ العهد على الذرية المخرَجين من ظهور بني آدم يقتضي أخذَ العهد عى الذرية الذين في ظهر آدم بدلالة الفحوى ، وإلا لكان أبناء آدم الأدْنَون ليسوا مأخوذا عليهم العهد مع أنهم أولى بأخذ العهد عليهم في ظهر آدم .

(159/296)

ومما يثبت هذه الدلالة أخبار كثيرة رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن جمع من أصحابه ، متفاوتة في القوة غيرُ خالٍ واحدٌ منها عن مُتكلَّم ، غير أن كثرتها يؤيد بعضُها بعضاً ، وأوضحها ما روى مالك في "الموطأ" في ترجمة "النهيُ عن القول بالقدر" بسنده إلى عمر بن الخطاب قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عن هذه الآية ﴿ وإذْ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ فقال إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه حتى استخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون وساق الحديث بما لا حاجة إليه في غرضنا ، ومحمل هذا الحديث على أنه تصريح بمدلول الفحوى المذكور ، وليس تفسيراً لمنطوق الآية ، وبه صارت الآية دالة على أمرين ، أحدهما : صريح وهو ما أفاده لفظها ، وثانيهما : مفهوم وهو فحوى الخطاب .

وجاء في الآية أن الله أخذ على الذريات العهد بالإقرار بربوبية الله ، ولم يُتعرض لذلك في الحديث ، وذُكر فيه أنه ميز بين أهل الجنة وأهل النار منهم ، ولعل الحديث اقتصار على بيان ما سأل عنه السائِلُ فيكون تفسيراً للأية تفسيرَ تكميل لما لم يذكر فيها ، أو كان في الحديث اقتصار من أحد رواته على بعض ما سمعه .

والأخذ مجاز في الإخراج والانتزاع قال الله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ [الأنعام : 46] الآية .

وقوله : ﴿ من ظهورهم ﴾ بدل ﴿ من بني آدم ﴾ أبدل بعض من كل ، وقد أعيد حرف الجر مع البدل للتأكيد كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ومن النخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ ﴾ في سورة الأنعام (99) .

والإشهاد على الأنفس يطلق على ما يساوي الإقرار أو الحمل عليه ، وهو هنا الحمل على الإقرار ، واستعير لحالة مغيبة تتضمن هذا الإقرار يعلمها الله لاستقرار معنى هذا الاعتراف في فطرتهم .

(160/296)

والضمير في أشهدهم ﴾ عائد على الذرية باعتبار معناه ، لأنه اسم يدل على جمعَ .

والقول في ﴿ قالوا بلى ﴾ مستعار أيضاً لدلالة حالهم على الإعتراف بالربوبية لله تعالى .

وجملة ﴿ ألستُ بربكم ﴾ مقولٌ لقول محذوف هو بيان لجملة ﴿ أشهدهم على أنفسهم ﴾ أي قررهم بهذا القول وهو من أمر التكوين .

والمعنى واحد ، لأن الذرية لما أضيف إلى ضمير بني آدم كان على معنى التوزيع .

والاستفهام في ﴿ ألست بربكم ﴾ تقريري ، ومثله يقال في تقرير من يُظن به الإنكار أو يُنزل منزلة ذلك ، فلذلك يقرر على النفي استدراجاً له حتى إذا كان عاقداً قلبه على النفي ظن

أن المقّرر يطلبه منه ، فأقدم على الجواب بالنفي ، فأما إذا لم يكن عاقداً قلبه عليه فإنه يجيب بإبطال النفي ، فيتحقق أنه بريء من نفي ذلك ، وعليه قوله تعالى : ﴿ ويوم يُعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق ﴾ [الأحقاف : 34] تنزيلاً لهم منزلة من يظنه ليس بحق ، لأنهم كانوا ينكرونه في الدنيا ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم ﴾ في سورة الأنعام (130) .

والكلام تمثيل حال من أحوال الغيب ، من تسلط أمر التكوين الإلهي على ذوات الكائنات وأعراضها عند إرادة تكوينها ، لا تبلغ النفوس إلى تصورها بالكُنْه ، لأنها وراء المعتاد المألوف ، فيراد تقريبها بهذا التمثيل ، وحاصل المعنى : أن الله خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلة الوحدانية ، وجعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلع إلى إدراك ذلك ، وتحصيل إدراكه إذا جرد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها .

وجملة : ﴿ قالوا بلى ﴾ جواب عن الاستفهام التقريري ، وفصلت لأنها جاءت على طريقة المحاورة كما تقدم في قوله تعالى:

﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة (30) .

(161/296)

وأطلق القول إما حقيقة فذلك قول خارق للعادة ، وإمّا مجازاً على دلالة حالهم على أنهم مربوبون لله تعالى ، كما أطلق القول على مثله في قوله تعالى : ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلت : 11] أي ظهرت فيهما آثار أمر التكوين .

وقال أبو النجم:

قالت له الطيرُ تقّدم راشداً . . .

إنك لا ترجع إلا حامداً

فهو من المجاز الذي كثر في كلام العرب .

و﴿ بلى ﴾ حرف جواب لكلام فيه معنى النفي ، فيقتضي إبطال النفي وتقرير المنفي ، ولذلك كان الجواب بها بعد النفي أصرح من الجواب بحرف (نَعم) ، لأن نعم تحتمل تقرير النفي وتقرير المنفي ، وهذا معنى ما نقل عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال : "لو قالوا نعم لكفروا" أي لكان جوابهم محتملا للكفر ، ولما كان المقام مقام إقرار كان الاحتمال فيه تفصيا من الاعتراف .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، ويعقوب : ﴿ ذرياتهم ﴾ ، بالجمع ، وقرأ الباقون ﴿ ذُريتهم ﴾ ، بالإفراد .

وقولهم : ﴿ شهدنا ﴾ تأكيد لمضمون ﴿ بلى ﴾ والشهادة هنا أيضاً بمعنى الإقرار .

ووقع ﴿ أن تقولوا ﴾ في موقع التعليل لفعل الأخذ والإشهاد ، فهو على تقرير لام التعليل الجارة ، وحذفُها مع أنْ جار على المطرد الشائع .

والمقصود التعليل بنفي أن يقولوا ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ لا بإيقاع القول ، فحذف حرف النفي جريا على شيوخ حذفه مع القول ، أو هو تعليل بأنهم يقولون ذلك ، إن لم يقع إشهادهم على أنفسهم كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب ﴾ في سورة الأنعام (156) .

وقرأ الجمهور : أن تقولوا بتاء الخطاب وقد حول الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب ، ثم من خطاب الرسول إلى خطاب قومه ، تصريحاً بأن المقصود من قصة أخذ العهد تذكير المشركين بما أودع الله في الفطرة من التوحيد ، وهذا الأسلوب هو من تحويل الخطاب عن مخاطب إلى غيره ، وليس من الإلتفاف لاختلاف المخاطبين .

(162/296)

وقرأه أبو عمرو ، وحده : بياء الغيبة ، والضمير عائد إلى ذريات بني آدم .

والإشارة بـ ﴿ هذا ﴾ إلى مضمون الاستفهام وجوابه وهو الاعتراف بالربوبية لله تعالى على تقديره بالمذكور .

والمعنى : أن ذلك لمَّا جُعل في الفطرة عند التكوين كانت عقول البشر منساقة إليه ، فلا يغفل عنه أحد منهم فيعتذر يوم القيامة ، إذا سئل عن الإشراك ، بعذر الغفلة ، فهذا إبطال للاعتذار بالغفلة ، ولذلك وقع تقدير حرف نفي أي أنْ لا تقولوا إلخ .

وعُطف عليه الاعتذار بالجهل دون الغفلة بأن يقولوا إننا اتبعنا آباءنا وما ظننا الإشراك إلا حقاً ، فلما كان في أصل الفطرة العلمُ بوحدانية الله بطل الاعتذار بالجهل به ، وكان الإشراك إما عن عمد وإما عن تقصير ، وكلاهما لا ينهض عذراً ، وكل هذا إنما يصلح لخطاب المشركين دون بني إسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(163/296)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) ﴾

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء :

أحدهما : أن معنى أخذه ذرية بني آدم من ظهورهم : هو إيجاد قرن منهم بعد قرن ، وإنشاء قوم بعد آخرين كما قال تعالى : ﴿ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : 133] ،

وقال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ﴾ [النمل : 62] ، ونحو ذلك من الآيات : وعلى هذا القول فمعنى قوله : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ أن إشهادهم على أنفسهم إنما هو بما نصب لهم من الأدلة القاطعة بأنه ربهم المستحق منهم لأن يعبدوه ، وحده ، وعليه فمعنى قالوا بلى ، أي قالوا ذلك : بلسان حالهم لظهور الأدلة عليه ونظيره من إطلاق الشهادة على شهادة لسان الحال قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ على أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة : 17] أي بلسان حالهم على القول بذلك ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ على ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ [العاديات : 6-7] أي بلسان حاله أيضاً على القول بأن ذلك هو المراد في الآية أيضاً .

(164/296)

واحتج من ذهب إلى هذا القول بأن الله جل وعلا جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك به جل وعلا في قوله : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ ، قالوا : فلو كان الإشهاد المذكور الإشهاد عليهم يوم الميثاق ، وهم في صورة الذر لما كان حجة عليهم ، لأنه لا يذكره منهم أحد عند وجوده في الدنيا ، وما لا علم للإنسان به لا يكون حجة عليه . فإن قيل إخبار الرسل

بالميثاق المذكور كاف في ثبوته قلنا : قال ابن كثير في تفسيره : « الجواب عن ذلك أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ أَن تَقُولُوا ﴾ الآية اه منه بلفظه .

فإذا علمت هذا الوجه الذي ذكرنا في تفسير الآية ، وما استدل عليه قائله به من القرآن .

فاعلم أن الوجه الآخر في معنى الآية : أن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر ، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكرة بذلك الميثاق الذي نسيه الكل ولم يولد أحد منهم وهو ذاكر له وإخبار الرسل به يحصل به اليقين بوجوده .

قال مقيده – عفا الله عنه – هذا الوجه الأخير يدل له الكتاب والسنة .

(165/296)

أما وجه دلالة القرآن عليه ، فهو أن مقتضى القول الأول أن ما أقام الله لهم من البراهين القطعية كخلق السماوات والأرض ، وما فيهما من غرائب صنع الله . الدالة على أنه الرب المعبود وحده ، وما ركز فيهم من الفطرة التي فطرهم عليها تقوم عليهم به الحجة ، ولو لم

يأتيهم نذير والآيات القرآنية مصرحة بكثرة ، بأن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل ، وهو دليل على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة ، وما ركز من الفطرة ، فمن ذلك قوله تعالى :

(166/296)

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] فإنه قال فيها : حتى نبعث رسولاً ، ولم يقل حتى نخلق عقولاً ، وننصب أدلة ، ونركز فطرة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] الآية ، فصرح بأن الذي تقوم به الحجة على الناس ، وينقطع به عذرهم : هو إنذار الرسل لا نصب الأدلة والخلق على الفطرة .

(167/296)

وهذه الحجة التي بعث الرسل لقطعها بينها في « طه » بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ [طه :

134] ، وأشار لها في « القصص » بقوله : ﴿ ولولا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [القصص : 47] ، ومن ذلك أنه تعالى صرح بأن جميع أهل النار قطع عذرهم في الدنيا بإنذار الرسل ، ولم يكتف في ذلك بنصب الأدلة كقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُواْ بلى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : 8-9] ، وقوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا قَالُواْ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ [الزمر : 71] ، ومعلوم أن لفظة كلما في قوله : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ صيغة عموم ، وأن لفظة الذين في قوله : ﴿ ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا ﴾ صيغة عموم أيضاً ، لأن الموصول يعم كلما تشمله صلته .

(168/296)

وأما السنة : فإنه قد دلت أحاديث كثيرة على أن الله أخرج ذرية آدم في صورة الذر فأخذ عليهم الميثاق كما ذكر هنا ، وبعضها صحيح قال القرطبي في تفسير هذه الآية : قال أبو

عمر – يعني ابن عبد البر – لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود ، وعلي بن ابي طالب ، وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم اه . محل الحاجة منه بلفظه ، وهذا الخلاف الذي ذكرنا هل يكتفي في الإلزام بالتوحيد بنصب الأدلة ، أو لا بد من بعث الرسل لينذروا ؟ هو مبنى الخلاف المشهور عند أهل الأصول في أهل الفترة . هل يدخلون النار بكفرهم ؟ وحكى القرافي عليه الإجماع وجزم به النووي في (شرح مسلم) ، أو يعذرون بالفترة وهو ظاهر الآيات التي ذكرناها ، وإلى هذا الخلاف أشار في (مراقي السعود) بقوله :

ذو فترة بالفرع لا يراع . . . وفي الأصول بينهم نزاع

وقد حققنا هذه المسألة مع مناقشة أدلة الفريقين في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة « بني إسرائيل » في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] ، ولذلك اختصرناها هنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(169/296)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾

وإذ تنصرف إلى الزمن ، أي اذكر وقت أن أخذ الله من بني آدم ، والآخذ هو الله ، والمأخوذ منه بنو آدم ، والشيء المأخوذ هو ذريتهم ، هذه هي العناصر . ولنتأمل ذلك بدقة ، إن الرب هنا هو الآخذ ، وبنو آدم مأخوذ منهم ، والمأخوذ هو الذرية . وبنو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة ، وهنا اتحد المأخوذ والمأخوذ منه ، ولابد أن نرى تصريفاً في هذا النص ؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلاً ، والمأخوذ بعضه .

والمثال : إن أنا أخذتُ منك شيئاً ، فالمأخوذ منه هو الكل ، والمأخوذ بنفسه هو البعض . لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه ، وأزال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال في هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه :

" لما خلق الله أدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم ، فقال : أيْ رَبِّ . من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك . فرأى رجلاً منهم . فأعجبه وميض ما بين عينيه . فقال : أي رب . من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك ، يقال له داود ، فقال : رب كم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة . قال : أي رب زده من عمري أربعين سنة ، فلما قُضي عُمُر آدم

جاءه ملك الموت . فقال : أو لم يَبْقَ من عُمُري أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدمُ فجحدتُ ذُريته ، ونسي فنسيت ذريته . وخطئ آدم فخطئت ذريته "

(170/296)

إذن ذرية آدم أُخذت من ظهر آدم . وعرفنا من قبل أنّ كُلاً منا قبل أن تحملَ به أمّه كان ذرَّةً في ظهر أبيه ، وأبوه كان ذرّة في ظهر أبيه حتى آدم . وهكذا نجد أنّ كل واحد مأخوذ من ظهره ذرية ، هناك أناس يؤخذون – كذرية – ولا يؤخذ منهم ، مثلٌ من فرض عليهم الله أن يكون الواحد منهم عقيماً ، وكذلك آخرُ جيل تقومُ عليه الساعة ، ولن ينجبوا . وآدم مأخوذ منه لأنه أول الخلق ، وهو غير مأخوذ من أحد . وما بين الأب آدم وآخر ولد ؛ مأخوذ ومأخوذ منه . وبذلك يكون كل واحد مأخوذ ومأخوذ منه ، وهكذا يستقيم المعنى .

والمأخوذ منه آدم ثم كل ولد من أول أولاد آدم إلى الجيل الأخير الذي سينقطع عن النسل . وأوضح النبي صلى الله عليه وسلم : أن ربنا سبحانه وتعالى مسح بيده على ظهر آدم وأخرج منه الذرية ، وقال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . وبهذا عَلمْنا أنّ كل ذرّة من الذرات قد أُخذت مما قبلها ، وأُخذ منها ما بعدها ؛ وكلها مأخوذ ومأخوذ منه ، اللهم إلا

القوسين ؛ القوس الأول : آدم لأنه مأخوذ منه وليس مأخوذاً من شيء ، والقوس الثاني : آخر ولد من أولاده مأخوذ وليس مأخوذاً منه ؛ لأن الإنسان منا وُجد من حيوان أبيه المنويّ .

ولو أن الحيوانَ المَنَويَّ أصابه موت لما أنجب الأب . ومن وُلد من حيوان مَنَوِيَّ لأب ، هذا الأب مأخَوذ من حيوان مَنَوِيَّ حيّ من الجد أيضاً ، وسلسلها إلى آدم ؛ ستجد أن كل واحد منا فيه جزيء حَيّ من لدن آدم لن يدركه موت أبداً .

لذلك يقول ربنا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ . . . ﴾ [الأعراف : 172]

ولا تقل إن الكل سيكون في ظهره ؛ لأن المأخوذ منه هو الأساس الموجود في ظهره ، وما دام كل شيء يتكاثر فهو قد وجد من أقل شيءٍ ونعلم أن الأقل يوجد فيه الأكثر مطموراً . وقد أخذ ربنا من ظهور بني آدم الذرية وخاطب الذرية بقوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ .

(171/296)

وهنا قد يقول قائل : أكان لهذه الذرية القدرة على النطق ؛ إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر ؛ لتتحد مثلاً ب " البويضة " في رحم الأم ؟ فنرد عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم

أمرُ صعب ؟ إن الواحد من البشر يستطيع أن يتَعلَّم عَشْرَ لغاتٍ ، ويتزوجَ من أربع سيدات ، وكل سيدة ينجب منها ذرية ، ويقعد يوماً عند سيدة وذريتها ويعلمهَا اللغة الإنجليزية مثلا ، ويجلس مع الأخرى ويعلمها اللغة الألمانية ، ويعلم الثالثة وأولادها اللغة العربية وهكذا ، بل يستطيع أن يتفاهم حتى بالإشارة معَ من لا يعرف لغته ، وإذا كان الإنسانُ يستطيع أن يعدد وسائل الأداء ، ألاَ يقدر أن يعدد وسائل الأداء لمخلوقاته ؟ إنه قادر على أن يعدد ويخاطب ، ألم يقل الحق تبارك وتعالى للجبال : ﴿ ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ . . . ﴾ [سبأ : 10]

كيف إذن لا يتسع أفق الإنسان لأن يدرك أن الله قادر على أن يخاطب أيّاً من مخلوقاته ؟ .

إنه قادر على أن يخاطب كل مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر . وهو القائل سبحانه : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ . . . ﴾ [الأنبياء : 79]

ونعلم أن القرآن الكريم كذلك أن الجبال تسبح أيضاً من غير داود ، شأنها شأن المخلوقات جميعها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . ﴾ [الإسراء : 44]

وحتى ذرات يد الكافر تسبح ، وإن كان تسبيحها لا يوافق إرادته .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ ﴾

يبين لنا أن الجبال كانت تردد تسبيح داوود وتلاوته للزبور ، ولا يقتصر أمر الحق إلى الجبال بل إلى كل مخلوق ، فنحن – على سبيل المثال – نقرأ في القرآن الكريم أن ربنا اوحى إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً من الشجر ومما يعرشون . إذن فلله مع خلقه أدوات خطاب ؛ لأنه هو الذي خلق الكون والمخلوقات ، وله سبحانه خطاب بألفاظ ، وخطاب إشارات ، وخطاب بإلهام ، وخطاب بوحي ، فإذا قرأنا أن الحق تبارك وتعالى قال لذرية آدم : ألست بربكم ؟ فهذا يعني أنه قالها لهم باللغة التي يفهمونها ، لأنه هو سبحانه الذي قال للسماء والأرض :

﴿ . . . ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11]

ولقد تكلمت النملة وفهم سليمان كلامها ، ولو لَمْ يُعْلِم اللهُ سليمانَ كيف يفهم كلامها لما عرفنا أنها تكلمت : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ . . . ﴾ [النمل : 18]

إنها تفهم ما يفعله البشر حين يدوسون على كائنات صغيرة دون أن يروها ، ولكن سليمان نبي من أنبياء الله ، ولن يعتدي على خلق الله ، والنملة التي تكلمت كانت تحرس بقية النمل . وكذلك تكلم الهدهد ليخبر سيدنا سليمان عن مملكة سبأ وحالة بلقيس وقومها .

إذن فالله عز وجل يخاطب جميعَ خلقه ، ويجيبُه جميعُ خلقه ، فلا تقل : كيف خاطب

المولى سبحانه الذر ، والذَر لم يكن مكلفاً بعد ؟ ولم يحاول العلماء أن يدخلوا في هذه المسألة ؛ لأنها في ظاهرها بعيدة عن العقل ، ويكفي أن ربنا الخالق القادر قد أبلغنا أنه قد خاطب الذرات قائلا : ألست بربكم ؟ . قالوا : بلىَ . ويبدو من هذا القول أن المسألة تمثيل للفطرة المودعة في النفس البشرية . وكأنه سبحانه قد أودع في النفس البشرية والذات الإنسانية فطرةً تؤكد له أنَّ وراءَ هذا الكونِ إلهاً خالقاً قادرا مدبرا .

(173/296)

وقديماً قلنا : هب أنَّ طائرةً وقعت في صحراء ، وحين أفقت من إغماءة الخوف ؛ فكرّت في حالك وكيف أنك لا تجد طعاماً أو شراباً أو أنيساً ، وأصابك غمٌّ من هذه الحالة فنمت ، ثم استيقظت فوجدت مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، ألا تتلفت لتسأل من الذي أقام لك هذه المأدبة قبل أن تمد يدك إلى أطايب الطعام ؟ . كذلك الإنسان الذي طرأ على هذا الكون الحكيم الصنع ؛ البديع التكوين ؛ ألا يجدرُ بهِ أن يسأل نفسه من خلق هذا الكون ؟ .

إننا نعلم أن المصباح الكهربي احتاج لصناعته إلى علماء وصناع مهرة كثيرين وإلى إمكانات لا حصر لها لينير هذا المصباح حجرة محدودة ، وحين نرى الشمس تنير الكون كله ، ولا

يصيبها كلٌ أو تعبٌ ولا تحتاج منا إلى صيانة ، ألا نسأل من صنعها ؟ وخصوصاً أنَّ أحداً لم يدَّعِ أنه قد صنعها ، وقد أبلغنا المولى سبحانه وتعالى بأنه هو الذي خلق الأرض وخلق الشمس وخلق القمر ، فإما أن يكون هذا الكلام صحيحاً ؛ فنعبده ، وإما لا يكون الكلام صحيحاً فنبحث عمن صنع وخلق الكون لنعبده .

وبما أن أحداً لم يَدَّعِ لنفسه صناعة هذه الكائنات ، فهي تسلم لصاحبها وأنه لا إله إلا الله .

إذن فالفطرة تهدينا أن وراء هذا الكون العظيم قدرةً تناسب هذه العظمة ؛ قدرة تناسب الدقة ؛ هذه الدقة التي أخذنا منها موازين لوقتنا ؛ فقد أخذنا من الأفلاك مقياساً للزمن ؛ ولولا حركة الأفلاك التي تنظم الليل والنهار ؛ لما قسمنا اليوم إلى ساعات ، ولولا أن حركة الأفلاك مصنوعة بدقة متناهية ؛ لما استطعنا أن نَعُدَّها مقياساً للزمن .

وحينما نستعرض قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5]

(174/296)

نجد أن كلمة " بحسبان " وردت مرتين ، فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى : أنه جعل الشمس والقمر بحسبان ، أو حسبانا ، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم

سلطانه ولم يخلقهما عبثا بل لحكمة عظيمة . ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب . . . ﴾ [يونس : 5]

فقد أخذنا من دورة الشمس والقمر مقياساً ، ولم نكن لنفعل ذلك إلا أن كانت مخلوقة بحساب ؛ لأن الكون مصنوع ومخلوق على هذه الدرجة من الدقة والإحكام لهذا يجب أن نلتفت إلى أن هناك قدرة وراء هذا العالم تناسب عظمته . لكن أنعرف ماذا تريد هذه القوة بالعقل ؟ إن أقصى ما يهدينا العقل هو أن نعرف أنَّ هناك قوةً ولا يعرف العقل اسم هذه القوة ، وكذلك لم يعرف العقل مطلوبات هذه القوة ، وكان لابد أن يأتي لنا رسولٌ من طرف تلك القوة ليقول لنا مرادَها ، وجاء الموكب الرسالي فجاءت الرسل ليبلغ كلُّ رسولٍ مرادَ الحق من الخلق ، فقال كلُّ رسول : إن اسم القوة التي خلقتكم هو الله ، وله مطلق التصرف في هذا الكون ، ومراد الحق من الخلق تعمير هذا الكون في ضوء منهج عبادة الحق الذي خلق الإنسان والكون . وكل هذه الأمور ما كانت لتدرك بالعقل .

وهكذا نعلم أن منتهى حدود العقل هو إيمانٌ بقوةٍ خالقه وراءَ هذا الكون ، وتستوي العقول الفطرية في هذه المسألة . أما اسم القوة والمنهج المطلوب لهذا الاله فلابد له من رسول .

وأرهق الفلاسفة أنفسهم في البحث عن هذه القوة ومرادها . وسموها مجال البحث " الميتافيزيقا " أي " ماوراء الطبيعة " وعادة ما يقابل الفلاسفة من يسألهم من أهل الإيمان : ومن الذين قال لكم إن وراء المادة قوة يجب أن تبحثوا عنها ؟ .

وغالباً ما يقول الفيلسوف منهم : إنها الفطرة التي هدتني إلى ذلك . وتشعبت الفلسفة إلى مدارس كثيرة . وحاول أهل الفلسفة أن يتصوروا هذه القوة ، وهذا هو الخلل ؛ لأن الإنسان يمكنه أن يعقل وجود القوة الخالقة ، ولا يمكن له أن يتصورها . وغرق الكثيرون من الفلاسفة في القلق النفسي المدمِّر . وأنقذ بعضهم نفسه بالإيمان . وكان يجب على كل فيلسوف أن يرهف أذنه ويسمع ما قاله الرسل ليحلّوا لنا هذا اللغز ، بدلاً من إرهاق النفس بالخلط بين تعقل وجود قوة وراء المادة ، وبين تصور هذه القوة .

وإنني في هذا الصدد أضرب هذا المثل وأرجو آلا تنسوه أبداً : إننا إذا كنا قاعدين في حجرة ، والحجرة مغلقة الأبواب . ودق الجرس وكلنا يجمع على أن طارقاً بالباب ؛ وهذا الشيء المجمع عليه من الكل يَعدُّ تعقلاً ، لكن أنستطيع أن نتصور من الطارق ؟ رجل ؟ امرأة ؟ شاب ؟ شيخ ؟ .

المؤكد أننا سنختلف في التصور وإن اتحدنا في التعقل .

ونقول للفلاسفة : أنتم أولى الناس بأن ترهفوا آذانكم لمجيء رسول يحل لكم لغز هذا الكون ، واسم القوة التي وراء هذا الكون ، ومطلوب هذه القوة منا .

والحق سبحانه وتعالى يهدينا إلى هذا عبر الرسل ، ويقول هنا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ . . . ﴾ [الأعراف : 172]

وهذه شهادة الفطرة ، ونحن نرى أن الفطرة تكون موجودة في الطفل المولود الذي يبحث بفمه عن ثدي أمه حتى ولو كانت نائمة ويمسك الثدي ليرضع بالفطرة وبالغريزة ، وهذه الفطرة هي التي تصون الإنسان منا في حاجات كثيرة ، وفي رد فعل الانعكاسي ؛ مثال ذلك حين تقرب أصبعك من عين طفل ، فيغمض عينيه دون أن يعلمه أحد ذلك .

وقد أشهدنا الحق على وحدانيته ونحن في عالم الذر : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ ﴾

(176/296)

ويقال " أشهدته " أي جعلته شاهداً ، والشهادة على النفس لَوْنٌ من الإقرار ، والإقرار سيد الأدلة ؛ لأنك حين تُشهد إنساناً على غيره ؛ فقد يغيّر الشاهد شهادته ، ولكن الأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد الفطرة خشية أن يقولوا يوم القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ﴾

فحين يأتي يوم الحساب ، لا داعي أو يقولَن أحد إنني كنت غافلاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(177/296)

فائدة

قال التسترى :

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [172] قال : إن الله تعالى أخذ الأنبياء من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام ، ثم أخذ من ظهر كل نبي ذريته كهيئة الذر ، لهم عقول ، فأخذ من الأنبياء ميثاقهم ، كما قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] وكان الميثاق عليهم أن يبلغوا عن الله تعالى أمره ونهيه ، ثم دعاهم جميعاً إلى الإقرار بربوبيته لقوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [172] وأظهر قدرته حتى ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ [172] ، فجمع الله مراده من خلقه ، وما هم عليه من الابتداء والانتهاء في قولهم : « بلى » ، إذ هو على جهة الابتلاء ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآءِ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ [هود : 7] وأشهد الأنبياء عليهم حجة كما قال : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [172] ثم أعادهم في

صلب آدم عليه السلام ، ثم بعث الأنبياء ليذكرهم عهده وميثاقه ، وكان في علمه يوم أقروا بما أقروا به من يكذب به ومن يصدق به ، فلا تقوم الساعة حتى تخرج كل نسمة قد أخذ الميثاق عليها ، ثم تقوم الساعة .

فقيل : ما علامة السعادة والشقاوة ؟ قال : إن من علامات الشقاوة إنكار القدرة ، وإن من علامة السعادة أن تكون واسع القلب بالإيمان ، وأن ترزق الغنى في القلب والعصمة في الطاعة والتوفيق في الزهد ، ومن ألهم الأدب فيما بينه وبين الله تعالى طهر قلبه ويرزق السعادة ، وليس شيء أضيق من حفظ الأدب .

(178/296)

فقيل له ما الأدب ؟ قال : اجعلوا طعامكم الشعير ، وحلواكم التمر ، وإدامكم الملح ، ودسمكم اللَبن ، ولباسكم الصوف ، وبيوتكم المساجد ، وضياءكم الشمس ، وسراجكم القمر ، وطيبكم الماء ، وبهاكم النظافة ، وزينتكم الحذر ، وعملكم الارتضاء ، أو قال : الرضا ، وزادكم التقوى ، وأكلكم بالليل ، ونومكم بالنهار ، وكلامكم الذكر ، وصمتكم وهمتكم التفكر ، ونظركم العبرة ، وملجأكم وناصركم مولاكم ، واصبروا عليه إلى الممات .

وقال : ثلاث من علامات الشقاوة : أن تفوته الجماعة وهو بقرب من المسجد ، وأن تفوته

الجماعة وهو في المدينة ، وأن يفوته الحج وهو بمكة .

قال سهل : والذرية ثلاث : أول وثاني وثالث :

فالأول : محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى لما أراد أن يخلق محمداً صلى الله عليه وسلم أظهر من نوره نوراً ، فلما بلغ حجاب العظمة سجد لله سجدة ، فخلق سبحانه من سجدته عموداً عظيماً كالزجاج من النور ، أي باطنه وظاهره فيه عين محمد صلى الله عليه وسلم ، فوقف بين يدي رب العالمين بالخدمة ألف ألف عام بطبائع الإيمان ، وهو معاينة الإيمان ومكاشفة اليقين ومشاهدة الرب ، فأكرمه الله تعالى بالمشاهدة قبل بدء الخلق بألف ألف عام .

وما من أحد في الدنيا إلاَّ غلبه إبليس لعنه الله فأسره ، إلاَّ الأنبياء صلوات الله عليهم ، والصديقون الذين شاهدت قلوبهم إيمانهم في مقاماتهم ، وعرفوا اطلاع الله عليهم في جميع أحوالهم ، فعلى قدر مشاهدتهم يعرفون الابتلاء ، وعلى قدر معرفتهم الابتلاء يطلبون العصمة ، وعلى قدر فقرهم وفاقتهم إليه يعرفون الضر والنفع ، ويزدادون علماً وفهماً ونظراً .

(179/296)

ثم قال : ما حمل الله على أحد من الأنبياء ما حمل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الخدمة ، وما من مقام خدمة خدم الله تعالى بها من ولد آدم عليه السلام إلى أن بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، إلاَّ وقد خدم الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم .

وقد سئل عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إني لست كأحدكم إن ربي يطعمني ويسقيني » فقال : ما كان معه طعام ولا شراب ، ولكنه كان يذكر خصوصيته عند الله تعالى ، فيكون كمن أكل الطعام وشرب الشراب ، ولو كان معه شراب أو طعام لآثر أهله وأهل الصفة على نفسه .

الثاني : آدم صلوات الله عليه ، خلقه من نور ، قال عليه السلام : « وخلق محمداً صلى الله عليه وسلم ، يعني جسده ، من طين آدم عليه السلام » .

والثالث : ذرية آدم .

وإن الله عزَّ وجلَّ خلق المريدين من نور آدم ، وخلق المرادين من نور محمد صلى الله عليه وسلم ، فالعامة من الخلق يعيشون في رحمة أهل القرب ، وأهل القرب يعيشون في رحمة المقرب ، ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ [الحديد : 12] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير التستري صـ 68.69 ﴾

(180/296)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله " مِنْ ظُهُورِهِمْ "

بدل من قوله : " مِن بَنِي آدَمَ " بإعادةِ الجارّ ، كقوله : ﴿ لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ ﴾ [الزخرف : 33] ﴿ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأعراف : 75] وهل هو بدلُ اشتمال أو بدلُ بعض من كل ؟ قولان :

الأول لأبي البقاء ، والثاني للزمخشري ، وهو الظاهر كقولك : ضربتُ زيداً ظهره وقطعتُه يده ، لا يُعْرِب هذا أحد بدل اشتمالٍ ، و " ذُرِّيَّتَهُمْ " مفعول به .

وقرأ الكوفيون وابن كثير ذُرِّيتهُمْ بالإفراد ، والباقون " ذُرِّيَّاتهم " بالجمع .

قال أبو حيان : ويحتمل في قراءة الجمع أن يكون مفعولُ " أخذ " محذوفاً لفهم المعنى وذُرِّيَّاتهم بدلٌ من ضمير " ظُهُورِهِمْ " كما أنَّ من ظُهُورِهِمْ بدلٌ من بَنِي آدَمَ والمفعولُ المحذوفُ هو الميثاق كقوله : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ [النساء : 154] .

قال : وتقديرُ الكلامِ : وإذ أخذ ربُّكَ من ظهور ذُرِّيات بني آدم ميثاق التوحيد لله ، واستعارَ أن يكون أخذ الميثاق من الظهر كأن الميثاق لصعوبته والارتباط به شيءٌ ثقيلٌ يحمل على الظَّهْرِ .

وكذلك قرأ الكوفيُّون وابن كثير في سورة يس ، وفي الطُّورِ في الموضعين ذُرِّيَّتَهُم بالإفراد ؛ وافقهم أبو عمرو على ما في يس ، وناف وافقهم في أول الطور ، وهي ذُرِّيَّتَهُم بإيمانٍ دون الثانية ، وابن عامر على الجمع ، وأبو عمرو ونافع جمعوا بين الأمرين .

(181/296)

قال أبو حيان في قراءة الإفراد في هذه السُّورةِ : ويتعيَّن أن يكون مفعولاً بـ " أخذ " وهو على حذف مضاف ، أي : ميثق ذريتهم .

يعني أنه لم يَجُزْ فيه ما جاز في ذُرِّيَّاتهم من أنَّه بدل ، والمفعولُ محذوف وذلك واضحٌ ؛ لأنَّ من قرأ : " ذُرِّيَّتَهُمْ " بالإفراد لم يَقْرَأْهُ إلاَّ منصوباً ، ولو كان بدلاً من هُمْ في ظُهُورِهِمْ لكان مجرورً ، بخلاف ذُرِّيَّاتهم بالجمع فإنَّ الكسرة تَصْلُح أن تكون علامة للجر وللنصب في جمع المُؤَنَّثِ السَّالِمِ .

قال الواحديُّ : الذرية تقع على الواحِدِ والجمع ، فمنْ أفردَ فقد استغنى عن جمعه بوقوعه على الجمع كالبشر فإنه يقع على الواحد ، كقوله : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ [يوسف : 31] وعلى الجمع ، كقوله : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن : 6] ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [إبراهيم : 10] فكما لم يجمع " بشر " جمع تصحيح ، ولا تكسير كذلك لا يجمع " الذريَّة

".

ومن جمع قال : إنَّ الذرية وإن كان واحداً فلا إشكال في جواز الجمع فيه ، وإن كان جمعاً فجمعه حسن ، لأنَّ الجموع المكسرة قد معت نحو : الطرقات والجدرات .

قوله : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ ﴾ .

أمَّا على قول مَنْ أثْبَتَ الميثاق الأوَّل فكل هذه الأشياء محمولة على ظواهرها ، وأمَّا من أنكره ، قال : إنَّهَا محمولة على التَّمثيل ، أي : أنه تعالى نصب لهم الأدلة على ربوبيته ، وشهدت بها عقولهم ، فصار ذلك جارياً مجرى ما إذَا أشهدهم على أنفسهم ، وقال لهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ .

وكأنهم قالوا بلى أنت ربُّنَا .

قوله : "بَلَى" جواب : "أَلَسْتُ" .

قال ابنُ عبَّاس : لو قالوا "نَعَمْ" لكفروا ، يريد أنَّ النَّفيَ إذا أجيب بـ "نعم" كان تصديقاً له ، فكأنهم أقَرُّوا بأنه ليس بربهم ، هكذا ينقلونه عن ابن عباس .

وفيه نظرٌ - إن صحَّ عنه - وذلك أن هذا النفي صار مُقرَّراً ، فكيف يكفرون بتصديق التقرير ؟ وإنَّما المانعُ من جهةِ اللغة ، وهو أنَّ النفيَ مطلقاً إذا قُصدَ إيجابه أجيب بـ " بَلَى " وإن كان مقرراً بسبب دخول الاستفهام عليه ، وإنَّما كان ذلك تغليباً لجانب اللفظ ، ولا يجوز مراعاةُ جانب المعنى إلاَّ في شعر ، كقوله : [الوافر]

2618 - أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو . . .

وإيَّانَا فَذاكَ بِنَا تَدَانِي

نَعَمْ وأرَى الهلالَ كما تَرَاهُ . . .

ويَعْلُوهَا النَّهارُ كَمَا عَلاَنِي

فأجاب قوله أَلَيْسَ بـ " نَعَمْ " ، مراعاةً للمعنى ؛ لأنه إيجاب .

قوله شَهِدْنا هذا من كلامِ اللَّهِ تعالى ، وقيل : من كلام الملائكة ، لأنهم لمَّا قالوا بَلَى ، قال الله للملائكة : اشهدوا فقال : شهدنا ، وعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله : " قالوا بَلَى " لأن كلامَ الذرية قد انقطع ههنا .

وقوله : " أَنْ تقُولُوا " أي : لئلا تقولوا ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ﴾ تقريره : أنَّ الملائكة قالوا شهدنا عليهم بالإقرارِ ؛ يقولوا ما أقررنا ، فأسقط كلمة " لِئَلاَّ " كقوله ﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] ، أي : لئلاَّ تميد بكم .

قاله الكوفيون ، وعند البصريين تقديره : شَهِدْنَا كراهة أن تقولوا .

وقيل : من كلام الله تعالى والملائكة .

وقيل : من كلام الذُّرِّيَّةِ ، وعلى هذا فقوله : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ﴾ تقديره : وأشهدهم على نفسهم بكذا وكذا لئلاَّ يقولوا يوم القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ﴾ أو كراهية أن يقولوا ذلك .

قال الواحديُّ : وعلى هذا لا يحسن الوقفُ على قوله : بَلَى ولا يتعلَّقُ أن تقولُوا بـ " شَهِدْنَا " ولكن بقوله : " وأشهدَهُمْ " فلم يجز قطعه عنه .

(183/296)

قوله " أنْ تقُولُوا " مفعولٌ من أجله ، والعامِلُ فيه إمَّا شَهِدْنَا أي : شهدنا كراهة أن تقولوا .

هذا تأويل البصريين ، وأما الكوفيون : فقاعدتهم تقدير " لا " النافية ، أي : لئلاَّ تقولوا : كقوله ﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] .

كما تقدم .

وقول القطامي : [الوافر]

2619 - رَأَيْنَا مَا يَرَى البُصَرَاءُ فِيهَا . . .

فَآلَيْنَا عَلَيْهَا أَنْ تُبَاعَا

أي : أن لا تُباع ، وأما : " وأشهدَهُمْ " أي : وأشهدهم لئلا يقولوا أو كراهة أن يقولوا ، وقد تقدم أن الواحدي قد قال إنّ شَهِدْنا إذا كان من قول الذُّرِّيَّةِ يتعيَّنُ أن يتعلَّق أن تقولوا بـ " أشْهَدَهُمْ " كأنَّه رأى أن التركيب يصير : شَهِدْنَا أن تقولوا ، سواءً قرىء بالغيبة أو الخطاب ، والشَّاهدُون هم القائلون في المعنى ، فكان ينبغي أن يكون التركيب : شهدنا أن نقول نحن ، وهذا غيرُ لازم ؛ لأنَّ المعنى : شهد بعضهم على بعض ، فبعضُ الذرية قال شهدنا أن يقول البعضُ الآخر كذلك .

وذكر الجرجانيُّ عن بعضهم وجهاً آخر : وهو أن يكون قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ إلى قوله " قَالُوا بَلَى " تمام قصة الميثاق ، ثم ابتدأ عزَّ وجلَّ خبراً آخر بذكر ما يقوله المشركون يوم القيمة ، فقال : " شَهِدْنَا " بمعنى : نشهد ؛ كقوله الحطيئة : [الكامل]

2620 - شَهِدَ الحُطَيْئَةُ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ . . . . . .

أي : يشهد ، فيكون تأويله : يَشْهَدُ أن يقولوا .

وقرأ أبو عمرو : " يَقُولُوا " في الموضعين بالغيبةِ ، جرياً على الأسماء المتقدمة ، والباقون بالخطاب ، وهذا واضحٌ على قولنا : إنّ شَهِدْنَا مُسْنَدٌ لضمير الله تعالى .

وقيل : على قراءة الغيبة يتعلَّق أن يقولوا بـ " أشهدهم " ، ويكون قالوا شِهِدْنَا معترضاً بين الفعل وعلَّته ، والخطابُ على الالتفات ، فتكون الضَّمائر لشيء واحد . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 9 صـ 382 . 384 ﴾

فصل في تقدير الرب تعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم قبل خلقهم وهو تقدير ثان بعد الأول

قال العلامة ابن القيم :

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكث بمخصرته ثم قال: "ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة قال: فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل فقال من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ " ، وفي لفظ اعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ

لِلْعُسْرَى ﴾ ، وعن عمران بن حصين قال: "قيل يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار فقال: نعم قيل ففيم يعمل العاملون قال كل ميسر لما خلق له" متفق عليه وفي بعض طرق البخاري كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له ، وعن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون

(185/296)

فيه أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقلت بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم قال فقال أفلا يكون ظلما قال ففزعت من ذلك فزعا شديدا و قلت كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون قال فقال لي يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقال: "بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم" وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ، رواه مسلم في صحيحه ، وعن شغي الأصبحي عن عبد الله بن عمرو قال

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال: "أتدرون ما هذان الكتابان قال قلنا لا ألا أن تخبرنا يا رسول الله قال للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين تبارك وتعالى بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل عليهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص أبدا ثم قال للذي في يساره هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا فقال أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة وإن عمل أي عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل النار وإن عمل أي عمل ثم قال: بيده فقبضها ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد ثم قال: باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير" رواه الترمذي عن قتيبة عن ليث أبي قبيل عن شغى وعن قتيبة عن بكر بن نصر عن أبي قبيل به وقال حديث حسن صحيح غريب ورواه النسائي

(186/296)

والإمام أحمد وهذا السياق له ، وفي صحيح الحاكم وغيره من حديث أبي جعفر الرازي ثنا الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ

مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال جمعهم له يومئذ جمعا ما هو كائن إلى يوم القيامة فجعلهم أزواجا ثم صورهم واستنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ إلى قوله المبطلون قال فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم أو تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين فلا تشركوا بي شيئا فإني أرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي فقالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ورفع لهم أبوهم آدم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة وغير ذلك فقال رب لو سويت بين عبادك فقال إني أحب أن أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج وذكر تمام الحديث وفي صحيحه وجامع الترمذي من حديث هشام بن يزيد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة أمثال الذر ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال من هؤلاء يا رب فقال هؤلاء ذريتك فرأى فيهم رجلا أعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يا رب من هذا قال ابنك داود يكون في آخر الأمم قال كم جعلت له من العمر قال ستين سنة قال يا رب زده من عمري أربعين سنة قال الله: إذا يكتب ويختم لا يبدل فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال أولم يبق من عمري أربعون سنة قال له أولم تجعلها لابنك داود قال: فجحد فجحدت

ذريته ونسي فنسيت ذريته وخطئ فخطئت ذريته" قال هذا على شرط مسلم وفي موطأ مالك عن زيد بن

(187/296)

أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم ﴾ فقال عمر سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سئل عنها فقال: "إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره

بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل فقال: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار" ، قال الحاكم هذا الحديث على شرط مسلم وليس كما قاله بل هو حديث منقطع قال أبو عمر: هو حديث منقطع فإن مسلم بن يسار هذا لم يلق عمر بن الخطاب بينهما نعيم بن ربيعة هذا إن صح أن

الذي رواه عن زيد بن أبي أنيسة فذكر فيه نعيم بن ربيعة إذ ليس هو بأحفظ من مالك ولا ممن يحتج به إذا خالفه مالك ومع ذلك فإن نعيم بن ربيعة ومسلم بن يسار جميعا مجهولان غير معروفين بحمل العلم ونقل الحديث وليس هو مسلم بن يسار العابد البصري وإنما هو رجل مدني مجهول ثم ذكر من تاريخ ابن أبي خيثمة قال: قرأت على يحي بن معين حدث مالك هذا فكتب بيده على مسلم بن يسار لا يعرف ، قال أبو عمر: هذا الحديث وإن كان عليل الإسناد فإن معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم قد روي من وجوه كثيرة من حديث عمر بن الخطاب وغيره وممن روى عن النبي صلى الله عليه وسلم معناه في القدر علي بن أبي طالب وأبي بن كعب وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وأبو سريحة العبادي وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص وذو اللحية الكلابي وعمران بن حصين وعائشة وأنس بن مالك وسراقة بن

(188/296)

جعشم وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت قلت وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وجابر بن عبد الله وحذيفة بن أسيد وأبو ذر ومعاذ بن جبل وهشام بن حكيم وأبو عبد الله رجل من الصحابة روى عنه أبو نصر وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأبو

الدرداء وعمرو بن العاص وعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن الزبير وأبو أمامة الباهلي وأبو الطفيل وعبد الرحمن بن عوف وبعض أحاديثهم موقوفة وستمر بك جميعا متفرقة في أبواب الكتاب إن شاء الله عز وجل ، وقال إسحاق بن راهوية أخبرنا بقية بن الوليد قال أخبرني الزبيدي محمد بن الوليد عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن أبي قتادة عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حزام أن رجلا قال: يا رسول الله أتبتدأ الأعمال أم قد مضى القضاء فقال إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار قال إسحاق وأخبرنا عبد الصمد حدثنا حماد حدثنا الحريري عن أبي نصرة أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي فقالوا له ما يبكي قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: "إن الله قبض قبضة بيمينه وأخرى بيده الأخرى قال هذه لهذه وهذه لهذه ولا أبالي فلا أدري في أي القبضتين أنا" ، أخبرنا عمرو بن محمد بن إسماعيل بن رافع عن المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: "إن الله تعالى خلق آدم من تراب ثم جعله طينا ثم تركه حتى إذا كان صلصالا كالفخار كان إبليس يمر به فيقول خلقت لأمر عظيم ثم نفخ الله فيه من روحه قال يا رب ما ذريتي قال اختر يا آدم قال اخترت يمين ربي

وكلتا يدي ربي يمين فبسط الله كفه فإذا كل من هو كائن من ذريته في كف الرحمن" ، أخبرنا النضر أخبرنا أبو معشر عن أبي سعيد المقبري ونافع مولى الزبير عن أبي هريرة قال:

(189/296)

لما أراد الله

أن يخلق آدم فذكر خلق آدم فقال له يا آدم أي يدي أحب إليك أن أريك ذريتك فيها قال يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين فبسط يمينه وإذا فيها ذريته كلهم ما هو خالق إلى يوم القيامة الصحيح على هيئته والمبتلى على هيئته والأنبياء على هيئاتهم فقال ألا أعفيهم كلهم فقال أني أحببت أن أشكر وذكر الحديث ، وقال محمد بن نصر المروزي حدثنا محمد بن يحيى ثنا سعيد بن أبي مريم أنا الليث بن سعد حدثني ابن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن عبد الله بن سلام قال: "خلق الله آدم ثم قال بيده فقبضها فقال اختر يا آدم فقال اخترت يمين ربي وكلتا يديك يمين فبسطها فإذا فيها ذريته فقال من هؤلاء يا رب قال من قضيت أن أخلق من ذريتك من أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة" ، قال وثنا إسحاق بن راهوية أنا جعفر بن عون أنا هشام بن سعد عن زيد بن سالم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو

خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وذكر الحديث ، وقال إسحاق بن الملاي ثنا المسعودي عن علي بن نديمة عن سعد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم ﴾ قال: إن الله أخذ على آدم ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصيباته ثم أخرج من ظهره ولده كهيئة الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم وكتب رزقهم وأجلهم ومصيباتهم قال وحدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن ابن عباس قال مسح الله ظهر آدم فأخرج كل طيب في يمينه وفي يده الأخرى كل خبيث وقال محمد بن نصر حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني وثنا حجاج عن أبن جريج عن الزبير بن موسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "إن الله ضرب منكبه الأيمن فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية فقال هؤلاء أهل الجنة ثم ضرب منكبه الأيسر فخرجت كل نفس مخلوقة للنار سوداء فقال هؤلاء أهل النار ثم أخذ

(190/296)

عهده على الإيمان والمعرفة به والتصديق له وبأمره من بني آدم كلهم وأشهدهم على أنفسهم فآمنوا وصدقوا وعرفوا وأقروا" ، حدثنا إسحاق ثنا روح بن عبادة بن محمد بن عبد الملك عن أبيه عن الزبير بن موسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا الحديث وزاد

قال ابن جريج وبلغني أنه أخرجهم على كفه أمثال الخردل قال إسحاق وأخبرنا جرير عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ قال أخذهم كما يؤخذ بالمشط وفي تفسير أسباط عن السدي عن أصحابه أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود عن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ الآية قال: لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر فقال لهم ادخلوا الجنة برحمتي ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال أدخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال ألست بربكم قالوا بلى فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية فقال هو والملائكة: ﴿ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ الآية فلذلك ليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن الله ربه ولا مشرك إلا وهو يقول:: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ فذلك قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ وذلك حين يقول: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ وذلك حين يقول: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ

فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال يعني يوم أخذ الميثاق ، وقال إسحاق حدثنا وكيع حدثنا مضر عن ابن سليط قال قال أبو بكر رضي الله عنه: "خلق الله الخلق قبضتين فقال لمن في يمينه ادخلوا الجنة بسلام وقال لمن في يده الأخرى ادخلوا النار ولا أبالي" وأخبرنا جرير بن الأعمش عن أبي ظبيان عن رجل من الأنصار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قال: "لما خلق الله الخلق قبض قبضتين بيده فقال لمن في يمينه أنتم أصحاب اليمين وقال لمن في اليد الأخرى أنتم أصحاب الشمال فذهبت إلى يوم القيامة" ، وقال عبد الله بن وهب في كتاب القدر أخبرني جرير بن حازم عن أيوب السختياني عن أبي قلابة قال: "إن الله عز وجل لما خلق آدم أخرج ذريته ثم نشرهم في كفه ثم أفاضهم فألقى التي في يمينه عن يمينه والتي في يده الأخرى عن شماله ثم قال هؤلاء لهذه ولا أبالي وهؤلاء لهذه ولا أبالي وكتب أهل النار وما هم عاملون وأهل الجنة وما هم عاملون فطوى الكتاب ورفع القلم" ، وقال أبو داود ثنا مسدد ثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي صالح فذكره قال ابن وهب وأخبرني عمرو بن الحرث وحيوة ابن شريح عن ابن أبي أسيد هكذا قال عن أبي فراس حدثه أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: "إن الله عز وجل لما خلق آدم نفضه نفض المرود فأخرج من ظهره ذريته أمثال النغف فقبضهم قبضتين ثم ألقاهما ثم قبضهما فقال فريق في الجنة وفريق في السعير" ، قال ابن وهب وأخبرني يونس بن يزيد عن الأوزاعي عن

عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "من كان يزعم أن مع الله قاضيا أو رازقا أو يملك لنفسه ضرا أو نفعا أو موتا أو حياة أو نشورا لقي الله فأدحض حجته وأحرق لسانه وجعل صلاته وصيامه هباء وقطع به الأسباب وأكبه الله على وجهه في النار وقال أن الله خلق الخلق فأخذ منهم الميثاق وكان عرشه على الماء" ، وذكر أبو داود ثنا يحيى بن حبيب ثنا معتمر ثنا أبي عن أبي العالية في قوله عز وجل:

(192/296)

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ قال صاروا فريقين وقال لمن سود وجوههم وغيرهم أكفرتم بعد أيمانكم قال هو الإيمان الذي كان حيث كانوا أمة واحدة مسلمين قال أبو داود وحدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا أبو نعامة السعدي قال كنا عند أبي عثمان النهدي فحمدنا الله عز وجل فذكرناه ودعوناه فقلت لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحا مني بآخره فقال أبو عثمان ثبتك الله كنا عند سلمان فحمدنا الله عز وجل وذكرناه ودعوناه فقلت لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحا مني بآخره فقال سلمان: "ثبتك الله إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج من

ظهره ما هو ذارئ إلى يوم القيامة فخلق الذكر والأنثى والشقوة والسعادة والأرزاق والآجال والألوان ومن علم السعادة فعل الخير ومجالس الخير ومن علم الشقاوة فعل الشر ومجالس الشر" وقال أبو داود حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد أخبرنا عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "مسح ربك تعالى ظهر آدم فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة أخذ عهودهم ومواثيقهم" قال سعيد : فيرون أن القلم جف يومئذ ، وقال الضحاك خرجوا كأمثال الذر ثم أعادهم فهذه وغيرها تدل على أن الله سبحانه قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم وشقاوتهم عقيب خلق أبيهم وأراهم لأبيهم آدم صورهم وأشكالهم وحلاهم وهذا والله أعلم أمثالهم وصورهم ، وأما تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ الآية به ففيه ما فيه وحديث عمر لو صح لم يكن تفسيرا للآية وبيان

(193/296)

إن ذلك هو المراد بها فلا يدل الحديث عليه ولكن الآية دلت على أن هذا الآخذ من بني آدم لا من آدم وأنه من ظهورهم لا من ظهره وأنهم ذرياتهم أمة بعد أمة وأنه إشهاد تقوم به الحجة له سبحانه فلا يقول الكافر يوم القيامة كنت غافلا عن هذا ولا يقول الولد أشرك أبي وتبعته

فإن ما فطرهم الله عليه من الإقرار بربوبيته وأنه ربهم وخالقهم وفاطرهم حجة عليهم ثم دل حديث عمر وغيره على أمر آخر لم تدل عليه الآية وهو القدر السابق والميثاق الأول وهو سبحانه لا يحتج عليهم بذلك وإنما يحتج عليهم برسله وهو الذي دلت عليه الآية فتضمنت الآية والأحاديث إثبات القدر والشرع وإقامة الحجة والإيمان بالقدر فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عنها بما يحتاج العبد إلى معرفته والإقرار به معها وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شفاء العليل حـ 1 صـ 9.13 ﴾

(194/296)

قوله تعالى ﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) ﴾

فصل

قال البقاعي :

﴿ أو تقولوا ﴾ أي لو لم نرسل إليهم الرسل ﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ أي من قبل أن نوجد ﴿ وكنا ذرية من بعدهم ﴾ فلم نعرف لنا مربياً غيرهم فكنا لهم تبعاً فشغلنا اتباعهم عن النظر ولم يأتنا رسول منبه ، فيتسبب عن ذلك إنكارهم في قولهم : ﴿ أفتهلكنا بما فعل

المبطلون ﴾ أي من آبائنا ؛ قال أبو حيان : والمعنى أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول بما تضمنه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حجتان : إحدهما " كنا غافلين " والأخرى "كنا تبعاً لأسلافنا " فكيف والذنب إنما هو لمن طرّق لنا وأضلنا – انتهى .

(195/296)

ومما يؤيد معنى التمثيل حديث أنس في الصحيح " يقول الله لأهون أهل النار عذاباً : لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به ؟ قال : نعم ، قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك شيئاً ، فأبيت إلا الشرك " وذلك لأن التصريح بالآباء ينافي كون الإقرار على حقيقته ، والأخذ وهو في الصلب إنما هو بنصب الأدلة وتقرير الحق على وجه مهيىء للاستدلال بتركيب العقل على القانون الموصل إلى المقصود عند التخلي من الحظوظ والشوائب ، وهذا الذي وقع تأويل الآية به لا يعارضه حديث الاستنطاق في عالم الذر على تقدير صحته ، فإنه روي من طرق كثيرة جداً ذكرتها في كتابي سر الروح ، منها في الموطأ ومسند أحمد وإسحاق بن راهويه ومحمد بن نصر المروزي وأبي يعلى الموصلي ومستدرك الحاكم وكتاب المائتين لأبي عثمان الصابوني عن صحابة وتابعين

مرفوعاً وموقوفاً – منهم عمر وأبيّ بن كعب وأبو هريرة وحكيم بن حزام وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عمرو وابن عباس وابن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ م ، وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار وسعيد بن المسيب وأبي العالية رحمهم الله ، وإنما كان لا يعارضه لأن في بعض طرقه عن أبيّ بن كعب ـ رضى الله عنهم ـ أنه سبحانه قال بعد أن استنطقهم : " فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، فلا تشركوا بي شيئاً ، فإني أرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتبي ، فقالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك " فالاستنطاق في الحديث على بابه ، عبرة لأبينا آدم عليه السلام ومن حضر ذلك من الخلق ، وإيقافاً لهم على بديع قدرته وعظيم علمه ، وإشهاد ما أشهد من المخلوقات بمعنى أنه نصب فيها من الأدلة ما يكون إقامة الحجة به عليهم بالنقض إن أشركوا كشهادة الشاهد الذي لا يرد ، وليس في شيء من الروايات ما ينافي هذا ؛ والحاصل أنه أخذ علينا عهدان : أحدهما حالي تهدى إليه العقول ، وهو نصب الأدلة ، والآخر مقالي أخبرت به الرسل ، كل ذلك للإعلام بمزيد الاعتناء بهذا النوع البشري لما له من الشرف الكريم ويراد به من الأمر العظيم – والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 148 .

﴿149

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾

قال المفسرون : المعنى أن المقصود من هذا الإشهاد أن لا يقول الكفار إنما أشركنا ، لأن آباءنا أشركوا ، فقلدناهم في ذلك الشرك ، وهو المراد من قوله : ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ والحاصل : أنه تعالى لما أخذ عليهم الميثاق امتنع عليهم التمسك بهذا القدر .

وأما الذين حملوا الآية على أن المراد منه مجرد نصب الدلائل .

قالوا : معنى الآية إنا نصبنا هذه الدلائل ، وأظهرناها للعقول كراهة أن يقولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ فما نبهنا عليه منبه أو كراهة أن يقولوا إنما أشركنا على سبيل التقليد لأسلافنا ، لأن نصب الأدلة على التوحيد قائم معهم ، فلا عذر لهم في الإعراض عنه ، والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 44 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ أَوْ تَقُولُواْ ﴾ أي : لكيلا تقولوا : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا ﴾ ونقضوا العهد ﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ لم نعلم به ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ يعني : آباؤنا

المشركون .

فإن قيل : هل كان إقرارهم إيماناً منهم ؟ قيل له : أما المؤمنون كان إقرارهم إيماناً .

وأما الكافرون فلم يكن إقرارهم إيماناً .

لأن إقرارهم كان تقية .

ولم يكن حقيقة .

قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو ﴿ ذرياتهم ﴾ بلفظ الجماعة .

وقرأ الباقون ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ بلفظ واحد لأن الذرية قد أضافها إلى الجماعة

فاستغنى عن لفظ الجمع .

وقرأ أبو عمرو ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ بالياء وكذلك في قوله ﴿ أَوْ يَقُولُواْ ﴾ .

وقرأ الباقون كليهما بالتاء على معنى الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ

﴾

(197/296)

وقال ابن عطية :

﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

قال القاضي أبو محمد : المعنى في هذه الآيات أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مذكر وبما تضمنه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حجتان ، إحداهما كنا غافلين ، والأخرى كنا تباعاً لأسلافنا فكيف نهلك ، والذنب إنما هو لمن طرق لنا وأضلنا فوقعت شهادة بعضهم على بعض أو شهادة الملائكة عليهم لتنقطع لهم هذه الحجج ، والاختلاف في " يقولوا " أو " تقولوا " بحسب الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾

فاتَّبَعنا منهاجهم على جهلٍ منَّا بآلهيتك ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ في دعواهم أن معك إلهاً ، فقطع الله احتجاجهم بمثل هذا ، إذ أذكرهم أخذ الميثاق على كل واحد منهم .

وجماعة أهل العلم على ما شرحنا من أنه استنطق الذر ، وركَّب فيهم عقولاً وأفهاماً عرفوا بها ما عرض عليهم .

وقد ذكر بعضهم أن معنى أخذ الذرية : إخراجهم إلى الدنيا بعد كونهم نطفاً .

ومعنى إشهادهم على أنفسهم : اضطرارهم إلى العلم بأنه خالقهم بما أظهر لهم من الآيات والبراهين .

ولما عرفوا ذلك ودعاهم كلُّ ما يرون ويشاهدون إلى التصديق ، كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهِدين على أنفسهم بصحته ، كما قال : ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ [التوبة : 17] يريدهم : بمنزلة الشاهدين ، وإن لم يقولوا نحن كفرة ، كما يقول الرجل : قد شهدتْ جوارحي بصدقك ، أي : قد عرفْته .

ومن هذا الباب قوله : ﴿ شهد الله ﴾ [آل عمران : 19] أي : بيَّن وأعلم .

وقد حكى نحو هذا القول ابن الأنباري ، والأول أصح ، لموافقة الآثار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(198/296)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ أو تقولوا ﴾ يعني الذرية ﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ يعني إنما أخذ الميثاق عليهم لئلا يقول المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴿ وكنا ذرية من بعدهم ﴾ يعني وكنا أتباعاً لهم فاقتدينا بهم في الشرك ﴿ أفتهلكنا ﴾ يعني أفتعذبنا ﴿ بما فعل المبطلون ﴾ قال المفسرون : هذا قطع لعذر الكفار فلا يستطيع أحد من الذرية أن يقول يوم القيامة إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد والميثاق وكنا نحن الذرية من بعدهم فقلدناهم

واقتدينا بهم وكنا في غفلة عن هذا الميثاق فلا ذنب لنا فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل ذلك وقد أخذ عليهم جميعاً الميثاق وجاءتهم الرسل وذكروهم به وثبتت الحجة عليهم بذلك يوم القيامة ، وأما الذين حملوا معنى الآية على أن المراد منه مجرد نصب الدلائل وهو مذهب أهل النظر قالوا معناه إن الله نصب هذه الدلائل وأظهرها للعقول لئلا يقولوا إنما أشركنا على سبيل التقليد لآبائنا لأن نصب أدلة التوحيد قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على تقليد الآباء في الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ .

المعنى أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مذكر بما تضمنه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حجتان إحداهما : كنا غافلين والأخرى : كنا أتباعاً لأسلافنا فكيف نهلك والذنب إنما هو لمن طرّق لنا وأضلّنا فوقعت الشهادة لتنقطع عنهم الحجج ، وقرأ أبو عمرو إن يقولوا بالياء على الغيبة وباقي السبعة بالتاء على الخطاب .

﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

هذا من تمام القول الثاني أي كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك وتقدمهم فيه وتركه سنة لنا والمعنى أنه تعالى أزال عنهم الاحتجاج بتركيب العقول فيهم وتذكيرهم ببعثة الرسل إليهم فقطع بذلك أعذارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(199/296)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا ﴾

عطفٌ على تقولوا و (أو) لمنع الخلوّ دون الجمعِ ، أي هم اخترعوا الإشراكَ وهم سنّوه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل زمانِنا ﴿ وَكُنَّا ﴾ نحن ﴿ ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ لا نهتدي إلى السبيل ولا نقدِر على الاستدلال بالدليل ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ من آبائنا المُضلّين بعد ظهور أنهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبدادِ بالرأي ، أو أتؤاخذنا فتهلكنا الخ ، فإن ما ذكر من استعدادهم الكاملِ يسُدّ عليهم بابَ الاعتذار بهذا أيضاً فإن التقليدَ عند قيامِ الدلائلِ والقدرةِ على الاستدلال بها مما لا مساغَ له أصلاً .

(200/296)

هذا وقد حُملت هذه المقاولة على الحقيقة كما روي عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسحَ ظهرَه فأخرج منه كلَّ نسَمةٍ هو خالقُها إلى يوم

القيامة فقال : ألستُ بربكم قالوا : بلى فنودي يومئذ جَفّ القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة .

وقد روي عن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن الآية الكريمة فقال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سُئل عنها فقال : " إن الله تعالى خلق آدمَ ثم مسحَ ظهرَه بيمينه فاستخرج منه ذريةً فقال : خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهلِ الجنة يعملون ، ثم مسح ظهرَه فاستخرج منه ذريةً فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهلِ النار يعملون " ، وليس المعنى أنه تعالى أخرج الكلَّ من ظهره عليه الصلاة والسلام بالذات بل أخرج من ظهره عليه السلام أبناءَه الصُّلبية ومن ظهرهم أبناءَهم الصلبية وهكذا إلى آخر السلسلة لكن لما كان المظهرُ الأصليُّ ظهرَه عليه الصلاة والسلام وكان مَساقُ الحديثين الشريفين بيانَ حال الفريقين إجمالا من غير أن يتعلق بذكر الوسائطِ غرضٌ على نسب إخراجِ الكلِّ إليه ، وأما الآيةُ الكريمة فحيث كانت مسوقةً للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيانِ عدمِ إفادةِ الاعتذارِ بإسناد الإشراكِ إلى آبائهم اقتضى الحالُ نسبةَ إخراجِ كل واحدٍ منهم إلى ظهر أبيهم من غير تعرّضٍ لإخراج الأبناءِ الصلبيةِ لآدم عليه السلام من ظهره قطعاً ، وعدمُ بيان الميثاقِ في حديث عمرَ رضى الله تعالى عنه ليس بياناً لعدمه ولا مستلزماً له ، وأما ما قالوا من أن أخذَ الميثاق لإسقاط عذرِ الغفلةِ حسبما ينطِق به قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ ومعلوم أنه غيرُ دافع لغفلتهم في

دار التكليفِ إذ لا فرْدَ من أفراد البشر يذكُر ذلك فمردودٌ لكن لا بما قيل من أن الله عز وجل قد أوضح الدلائلَ على وحدانيته وصدقِ رسلهِ فيما أَخبروا

(201/296)

به فمن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزِمتْه الحُجة ، ونسيانُهم وعدمُ حفظهم لا يُسقط الاحتجاجَ بعد إخبار المخبرِ الصادقِ بل بأن قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ الخ ، ليس مفعولاً له لقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ ﴾ وما يتفرع عليه من قولهم : (بلى شهِدنا) حتى يجب كونُ ذلك الإشهادِ والشهادة محفوظاً لهم في إلزامهم بل لفعل مضمر ينسحب عليه الكلامُ والمعنى فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاقِ وبيانِه كراهةَ أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرةُ يوم القيامة : إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاقِ لم نُنَبَّه عليه في دار التكليفِ وإلا لعمِلنا بموجبه . هذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة بالياء فهو مفعول له لنفس الأمر المضمر العاملِ في إذ أخذ ، والمعنى اذكُرْ لهم الميثاقَ المأخوذَ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباءِ ، هذا على تقدير كونِ قوله تعالى : ﴿ شَهِدْنَا ﴾ من كلام الذرية وهو الظاهرُ ، فأما على تقدير كونِه من كلامه تعالى فهو العامل في أن تقولوا ولا محذور

أصلاً ، إذ المعنى شهِدنا قولَكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة الخ لأنا نردكم ونكذبكم حينئذ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(202/296)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾

﴿ أَوْ تَقُولُواْ ﴾ في ذلك اليوم ﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءابَاؤُنَا ﴾ أي إن آباءنا هم اخترعوا الإشراك وهم سنوه من قبل زماننا ﴿ وَكُنَّا ﴾ نحن ﴿ ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ لا نهتدي إلى سبيل التوحيد ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا ﴾ أي أتؤاخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب ﴿ بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ من آبائنا المضلين لا نراك تفعل .

و ﴿ أَوْ ﴾ لمنع الخلو دون الجمع ، وفعل القول عطف على نظيره .

وقرأهما أبو عمرو بالياء على الغيبة لأن صدر الكلام عليها ، ووجه قراءة الخطاب ما علمت .

وقال البعض : إن ذاك لقول الرب تعالى ربكم وإنما وإنما لم يسع القوم هذا القول ون ما ذكر من استعدادهم يضيق عليهم المسالك إليه إذ التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على

الاستدلال بها مما لا مساغ إليه أصلاً .

هذا والذي عليه المحدثون والصوفية قاطبة أن الله تعالى أخذ من العباد بأسرهم ميثاقاً قالياً قبل أن يظهروا بهذه البنية المخصوصة وأن الإخراج من الظهور كان قبل أيضاً .

فقد أخرج أحمد . والنسائي . وابن جرير . وابن مردويه . والحاكم وصححه . والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرها بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا " .

(203/296)

أخرج مالك في الموطى . وأحمد . وعبد بن حميد . والبخاري في التاريخ . وأبو داود . والترمذي وحسنه . والنسائي . وابن جرير وخلق كثير عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ [الأعراف : 172] الخ فقال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل

النار يعملون فقال الرجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال : إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله تعالى النار " والبيضاوي حمل الآية في تفسيره على التمثيل وكذا في شرحه للمصابيح وذكر فيه أن ظاهر حديث عمر رضي الله تعالى عنه لا يساعد ذلك ولا ظاهر الآية لأنه سبحانه وتعالى لو أراد أن يذكر أنه استخرج الذرية من صلب آدم دفعة واحدة لا على توليد بعضهم من بعض على مر الزمان لقال : وإذ أخذ ربك من ظهر آدم ذريته ، والتوفيق بينهما أن يقال : المراد من بني آدم في الآية وأولاده وكأنه صار اسماً للنوع كالإنسان والبشر ، والمراد بالإخراج توليد بعضهم من بعض على مر الزمان واقتصر في الحديث على ذكر آدم اكتفاء بذكر الأصل عن ذكر الفرع ، وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث

(204/296)

" مسح ظهر آدم " يحتمل أن يكون الماسح الملك الموكل على تصوير الأجنة وتخليقها وجمع موادها وأسند إلى الله تعالى لأنه الآمر كما أسند التوفي إليه قوله تعالى : ﴿ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] والمتوفي لها هو الملك لقوله تعالى : ﴿ تتوفاهم الملائكة ﴾ [

النحل : 28] ويحتمل أن يكون الماسح هو الله تعالى ويكون المسح من باب التمثيل ، وقيل : هو من المساحة بمعنى التقدير كأنه قال : قدر ما ف ظهره من الذرية انتهى كلامه .

وقال بعضهم : ليس المعنى في الحديث أنه تعالى أخرج الكل من ظهر آدم عليه السلام بالذات بل أخرج من ظهره أبناءه الصلبية ومن ظهورهم أبناءهم الصلبية وهكذا إلى آخر السلسلة لكن لما كان المظهر الأصلي ظهره عليه الصلاة والسلام وكان مساق الحديث بيان حال الفريقين إجمالاً من غير أن يتعلق بذكر الوسائط غرض علمي نسب إخراج الكل إليه ، وأما الآية الكريمة فحيث كانت مسوقة للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان عدم إفادة الاعتذار بإسناد الإشراك إلى آبائهم اقتضى الحال نسبة إخراج كل واحد منهم إلى ظهر أبيه من غير تعرض لإخراج الأبناء الصلبية لآدم عليه السلام من ظهره قطعاً ، وعدم بيان الميثاق في الخبر العمري ليس بياناً لعدمه ولا مستلزماً له اه .

وأنت تعلم أن التأويل الذي ذكره البيضاوي يأبى عنه كل الآباء حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأن ما ذكره البعض من أن مساق الحديث بيان حال الفريقين إجمالاً يأباه ظهور عدم كون السؤال عن حالهما ليساق الحديث لبيانه فإن الظاهر أن الصحابي إنما سأله عليه الصلاة والسلام عما أشكل عليه من معنى الآية أن الاشهاد هل هو حقيقة أم على الاستعارة ؟ فلما أجابه صلى الله عليه وسلم بما عرف منه ما أراده سكت لأنه كان

بليغاً ولو أشكل عليه من جهة أخرى لكان الواجب بيان تلك الجهة وكذا فهم الفاروق رضي الله تعالى عنه .

(205/296)

ومن هنا يعلم أن قول الإمام أن ظاهر الآية يدل على إخراج الذرية من ظهر بني آدم ، وليس فيها ما يدل على أنهم أخرجوا من صلب آدم ولا ما يدل على نفيه إلا أن الخبر دل عليه فيثبت خروجهم من آدم بالحديث ومن بنيه بالآية لا يطابق سياق الحديث كما لا يخفى ، وقال الشيخ شهاب الدين التوربشتي : إنما جد كثير من أهل العلم في الهرب عن القول في معنى الآية بما يقتضيه ظاهر خبر الحبر لمكان قول سبحانه :

﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ [الأعراف : 172] فقالوا : إن كان هذا الإقرار عن اضطرار حيث كوشفوا بحقيقة الأمر وشاهدوه عين اليقين فلهم ذلك اليوم أن يقولوا : شهدنا يومئذ فلما زال عنا علم الضرورة ووكلنا إلى آرائنا كان منا من أصاب ومنا من أخطأ وإن كان عن استدلال ولكنهم عصموا عنده من الخطأ فلهم أيضاً أن يقولوا : أيدنا يوم الإقرار بتوفيق وعصمه وحرمناهما من بعد ولو امددنا بهما أبداً لكانت شهادتنا في كل حين كشهادتنا في اليوم الأول فيتعين حينئذ أن يراد بالميثاق ما ركب الله تعالى فيهم

من العقول وآتاهم من البصائر لأنها هي الحجة البالغة والمانعة عن قولهم ﴿ إنا كنا ﴾ [الأعراف : 172] الخ لأن الله تعالى جعل الإقرار والتمكن من معرفة ربوبيته ووحدانيته سبحانه حجة عليهم في الإشراك كما جعل بعث الرسول حجة عليهم في الايمان بما أخبر عنه من الغيوب انتهى .

وحاصله أنه لو لم تؤول الآية بما ذكر يلزم أن لا يكون محجوجين يوم القيامة ، وقد أجيب عنه باختبار كل من الشقين ورفع محذوره .

(206/296)

أما الأول : فبأن يقال : إذا قالوا شهدنا يومئذ فلما زال علم الضرورة ووكلنا إلى آرائنا كان كذا أيها الكذابون متى وكلتم إلى إرائكم ألم نرسل رسلنا تترى ليوقظكم عن سنة الغفلة ؟

وأما الثاني : فبأن يقال : إن هذا مشترك الالزام فإنه إذا قيل لهم : ألم نمنحكم العقول والبصائر : فلهم أن يقولوا ؟ فإذا حرمنا اللطف والتوفيق فأي منفعة لنا في العقل والبصيرة ؟

وذكر محيي السنة في جواب أنه كيف تلزم الحجة ولا أحد يذكر ذلك الميثاق أن الله تعالى قد أوضح الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به فمن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزمته الحجة ونسيانه وعدم حفظه لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق

، ولا يخفى ما فيخ ، ولهذا أجاب بعضهم بأن قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ [الأعراف : 172] الخ ليس مفعولاً له لقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ ﴾ [الأعراف : 172] وما يتفرع عليه من قولهم ﴿ بلى شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف : 172] حتى يجب كون ذلك الإشهاد والشهادة محفوظاً لهم في إلزامهم بل لفعل مضمر ينسحب عليه الكلام ، والمعنى فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه في دار التكليف وإلا لعملنا بموجبه ، هذا على قراءة الجمهور ، أما على القراءة الأخرى فهو مفعول له لنفس الأمر المضمر العامل في ﴿ إِذْ أَخَذَ ﴾ [الأعراف : 172] والمعنى اذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء ، ثم قال : هذا على تقدير كون ﴿ شهدنا ﴾ [الأعراف : 172] من كلام الذرية وهو الظاهر فإما على تقدير كونه من كلام الله تعالى فهو العامل في

﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ [الأعراف : 172] ولا محذور أصلاً والمعنى شهدنا قولكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة الخ لأنا نردكم ونكذبكم حينئذ انتهى .

(207/296)

ولا يخفى أن ما ذكره أولاً من تعلق ﴿ إن ﴾ وما بعدها بفعل مضمر ينسحب عليه الكلام أو بنفس الفعل المضمر العامل في ﴿ إِذْ ﴾ وضاح في دفع السؤال الذي أشرنا إليه ، وإنه لعمري في غاية الحسن إلا أن الظاهر تعلقه بالاشهاد وما يتفرع عليه ، وأرى الجواب مع عدم العدول عنه لا يخلو عن العدول عنه ، ويؤيد ماذكره ثانياً من كون ﴿ شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف : 172] من كلام الله تعالى وكونه العامل ما أخرجه ابن عبد البر في التمهيد من طريق السدي عن أبي مالك .

وعن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وناس من الصحابة أنهم قالوا في الآية : لما أخرج الله تعالى آدم من الجنة قبل تهبيطه من السماء مسح صفح ظهره اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر فقال لهم : ادخلوا الجنة برحمتي ومصح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال : ادخلوا النار ولا أبالي فذلك قوله تعالى : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال : ﴿ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ﴾ [الأعراف : 172] فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية فقال : هو والملائكة ﴿ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القيامة ﴾ [الأعراف : 172] الحديث ، وفيه مخالفة لما روى عن الحبر أولاً من أن الأخذ كان بنعمان إذ هو ظاهر في كون ذلك بعد الهبوط وهذا ظاهر في كونه كان قبل ، وفي بعض الأخبار مايقتضي أنه كان إذ كان عرضه سبحانه على

الماء ، فقد أخرج عبد بن حميد .

والحكيم الترمذي في نوادر الأصول .

والطبراني .

وأبو الشيخ في العظمة .

(208/296)

وابن مردويه عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خلق الله تعالى الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء فأخذ أهل اليمين بيمينه وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين فقال : يا أصحاب اليمين فاستجابوا له فقالوا له : لبيك ربنا وسعديك قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى .

قال : يا أصحاب الشمال فاستجابوا له فقالوا له لبيك ربنا وسعديك قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى " فخلط بعضهم ببعض الخبر ، وذكر بعضهم أنه كان بالهند حيث هبط آدم عليه السلام ، وآخرون أنه كان في موضع الكعبة وأن الذرية المخرجة من ظهر آدم عليه السلام كالذر أحاطت به ، وجعل المحل الذي شغلته إذ ذاك حرماً ، وليس لهذا سند يعول عليه ، والتوفيق بين هذه الروايات مشكل إلا أن يقال بتعدد أخذ الميثاق ، وإليه ذهب السادة

السوفية قدس الله تعالى أسرارهم ، لكن يشعر كلامهم باختلاف النوع ، فقد قال بعضهم :

رأيت من يستحضر قبل ميثاق

﴿ أَلَسْتَ ﴾ [الأعراف : 172] ستة مواطن أخرى ميثاقية فذكرت ذلك لشيخنا

رضي الله تعالى عنه فقال : إن قصد القائل بالحضرات الستة التي عرفها قبل ميثاق ﴿

أَلَسْتَ ﴾ الكليات فمسلم ، وأما إن أراد جملة الحضرات الميثاقية التي قبل ﴿ أَلَسْتَ ﴾

فهي أكثر من ذلك ، ويعلم من هذا ما في قولهم : لا أحد يذكر ذلك الميثاق على وجه

السلب الكلي من المنع ، وقد روى عن ذي النون أيضاً وقد سئل عن ذلك هل تذكره أنه قال

: كأنه الآن في أذني .

وقال بعضهم مستقرباً له : إن هذا الميثاق بالأمس كان وأشار فيه أيضاً إلى مواثيق أخر

كانت قبل ، ويمكن أن يقال مرادهم من تلك السالبة لا أحد من المشركين يذكر ذلك الميثاق

لا لا أحد مطلقاً .

(209/296)

وذكر قطب الحق والدين العلامة الشيرازي في التوفيق بين الآية والخبر العمري كلاماً ارتضاه

الفحول وتلقوه بالقبول وحاصله : أن جواب النبي صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الآية من

قبيل أسلوب الحكيم وذلك أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن بيان الميثاق الحالي فأجاب ببيان الميثاق المقالي على ألطف وجه .

وبيانه أنسبحانه كان له ميثاقان مع بني آدم .

أحدهما : تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الباعثة على الاعتراف الحالي .

(210/296)

وثانيهما : المقالي الذي لا يهتدي إليه العقل بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد كالأنبياء عليهم السلام فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلم الأمة ويخبرهم عن أن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقاً آخر أزلياً فقال ما قال من مسح ظهر آدم عليه السلام في الأزل وإخراج الذرية ليعرف منه أن هذا النسل الذي يخرج في لا يزال من أصلاب بني آدم هو الذر الذي أخرج في الأزل من صلب آدم وأخذ منه الميثاق المقالي الأزلي كما أخذ منهم في لا يزال بالتدريج حين أخرجوا الميثاق الحالي اللايزالي اه وهو حسن كما قالوا ، لكن ينبغي أن يحمل الأزل فيه ولا يزال على المجاز لأن خروج النسل محدود بيوم القيامة وعلى القول بعدم انقطاعه بعده هو خاص بالسعداء على وجه خاص كما علم في محله والأمر حادث لا أزلي وإلا لزم خرق إجماع المسلمين والتدافع بين الآية وكان

الله تعالى ولم يكن معه شيء ، ونقل عن الخلخالي أنه شمر عن ساقه في دفع ذلك فقال : المخاطبون هم الصور العلمية القديمة التي هي ماهيات الأشياء وحقائقها ويسمونها الأعيان الثابتة وليست تلك الصور موجودة في الخارج فلا يتعلق بها بحسب ذلك الثبوت جعل بل هي في ذواتها غير محتاجة إلى ما يجعلها تلك الصور وهي صادرة عنه تعالى بالفيض الأقدس وقد صرحوا بأنها شؤنات واعتبارات للذات الاحدى وجوابهم بقولهم : بلى إنما هو بألسنة استعداداتهم الأزلية لا بالألسنة التي هي بعد تحققها في الخارج انتهى .

(211/296)

وهو مبني على الفرق بين البثوت والوجود وفيه نزاع طويل لكنا ممن يقول به والله لا يستحي من الحق ، ومن هنا انقدح لبعض الأفاضل وجه آخر في التوفيق بين الآية والحديث وهو أن المراد بالذرية المستخرجة من صلب آدم عليه السلام وبنيه هو الصور العلمية والأعيان الثابتة وأن المراد باستخراجها هو تجلي الذات الإحدي وظهوره فيها وأن نسبة الإخراج إلى ظهورهم باعتباره أن تلك الصور إذا وجدت ففي الأعيان كانت عينهم وأن تلك المقاوملة حالية استعدادية أزلية لا قالية لا يزالية حادثة وهذا هو المراد بما نقل الشيخ العارف أبو عبد الرحمن السلمي في الحقائق عن بنان حيث قال : أوجدهم لديه في كون

الأزل ثم دعاهم فأجابهم سراعاً وعرفهم نفسه حين لم يكونوا في الصورة الإنسية ثم أخرجهم بمشيئته خلقاً وأودعهم في صلب آدم فقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ [الأعراف : 172] الخ فأخبر أنه خاطبهم وهم غير موجودين إلا بوجوده لهم إذا كانوا واجدين للحق في غير وجودهم لأنفسهم وكان الحق بالحق في ذلك موجوداً ثم أنشد السلمي لبعضهم :

لو يسمعون كما سمعت كلامها . . .

خروا لعزة ركعاً وسجوداً

انتهى .

ولا يخفى أن هذا التوفيق بعيد بمراحل عن ذوق أرباب الظاهر لمخالفته لظواهر الأخبار والمتبادر من الآثار ، وما نقل عن بنان فيه وهو أول كلامه انتخبهم للولاية واستخلصهم للكرامة ، وجعل لهم فسوحاً في غوامض غيب الملكوت وبعده ما ذكر ، وشموله لسائر الخلق سعيدهم وشقيهم لا يخلو عن بعد ، وذكر الشيخ الأكبر قدس سره أن الله تعالى أبدع المبدعات وتجلى بلسان الأحدية في الربوبية فقال : ألست بربكم ؟ والمخاطب في غاية الصغاء فقالوا : بلى .

فكان كمثل الصدا فإنهم أجابوه به فإن الوجود المحدث خيال منصوب وهذا الإشهاد كان إشهاد رحمة لأنه سبحانه ما قال لهم وحدي إبقاء عليهم لما علم أنهم يشركون به تعالى عن ذلك علواً كبيراً بما فيهم من الحظ الطبيعي وبما فيهم من قبول الاقتدار الإلهي وما يعلمه إلا قليل ؛ وأنت تعلم أن محققي المفسرين اعتبروا الوحدانية في الإشهاد وكذا في الشهادة كما مرت الإشارة إليه ونطقت الآثار به ، ومن ذلك ما أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند .

والبيهقي .

وابن عساكر .

وجماعة عن أبي بن كعب أنه قال في الآية : جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى .

قال : فإني أشهد عليكم السموات السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة إنا لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً إني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي قالوا : شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب

لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا ورفع عليهم آدم ينظر إليهم فرأى الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال : يا رب لولا سويت بين عبادك قال : إني أحببت أن أشكر .

(213/296)

وبهذا يندفع ما يقال : إن إقرار الذراري بربوبيته سبحانه لا ينافي الشرك لأن المشركين قائلون بربوبيته سبحانه كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف : 87] والمعتزلة ينكرون أخذ الميثاق القالي المشار إليه في الأخبار ويقولون : إنها من جملة الآحاد فلا يلزمنا أن نترك لها ظاهر الكتاب وطعنوا في صحتها بمقدمات عقلية مبنية على قواعد فلسفية على ما هو دأبهم في أمثال هذه المطالب ، قالوا أولاً : إن أخذ الميثاق لا يمكن إلا من العاقل فوجب أن يتذكر الإنسان في هذا العالم ذلك الميثاق إذ لا يجوز للعاقل أن ينسى مثل هذه الواقعة العظيمة نسيا كلياً فحيث نسي كذلك دل على عدم وقوعها ، وبنحو هذا الدليل بطل التناسخ .

وأجيب بأن العلم إنما هو بخلق الله تعالى فجاز أن لا يخلقه لحكمة علمها ، ودليل بطلان التناسخ ليس منحصراً بما ذكر ، فقد استدلوا أيضاً على بطلانه بلزوم أن يكون للبدن نفسان كما بينه الإمام في المباحث الشرقية وأن يكون عدد الهالكين مساوياً لعدد الكائنين

والطوفات العامة تأبى هذا التساوي ، على أنه يمكن أن يجاب بالفرق بين التناسخ وبين ما نحن فيه ، وذلك أنا إذا كنا في أبدان أخرى وبقينا فيها سنين امتنع في مجرى العادة نسيان أحوالها ، وأما أخذ الميثاق فإنما حصل في أسرع زمان فلم يبعد حصول النسيان فيه .

وبعضهم أجاب بأن النسيان وعدم التذكر هنا لبعد الزمان .

(214/296)

واعترض بأن أهل الآخرة يعرفون كثيراً من أحوال الدنيا كما نطقت بذلك الآيات والأخبار اللهم إلا أن يقال : إن ذلك خصوصية الدار ، وقالوا ثانياً : إن تلك الذرية المأخوذة من ظهر آدم عليه السلام لا بد أن يكون لكل واحد منها قدر من البنية حتى يحصل فيه العلم والفهم فمجموعها لا تحويه عرصة الدنيا فيمتنع حصوله في ظهر آدم ليؤخذ ثم يرد ، وأجيب بأنه مبني على كون الحياة مشروطة بالبنية المخصوصة كما هو مذهب الخصوم ، والبرهان قائم على بطلانه كما تقرر في الكلام ، فجوز أن يخلق الله تعالى الحياة في جوهر فرد ، وتلك الذرية المخرجة كانت كالذر وهو قريب من الجوهر ، وكون المجموع لا تحويه عرصة الدنيا غير مسلم ، وإن كان الأخذ في السماء قبل هبوط آدم عليه السلام فالدائرة واسعة ، وإن كان إذ كان العرش على الماء فالدائرة أوسع ، ولا مانع إذا كان في الأرض أن يكون اجتماع

الذر متراكماً بينها وبين السماء وإنه لفضاء عظيم وإن صغرت قاعدته ، وإن اعتبر أن الإنسان عبارة عن النفس الناطقة وأنها جوهر غير متحيز ولا حال فيه لم يحتج إلى الفضاء إلا أن فيه ما فه ، وقالوا ثالثاً : إنه لا فائدة ف أخذ الميثاق لأنهم لا يصيرون بسببه مستحقين للثواب والعقاب على أنهم أدون حالاً من الأطفال والطفل لا يتوجه عليه التكليف فكيف يتوجه على الذر .

(215/296)

وأجيب : بأن فائدة الأخذ غير منحصرة في الاستحقاق المذكور بل يجوز أن تكون إظهار كمال القدرة لمن حضر من الملائكة أو إقامة الحجة يوم القيامة كما يقتضيه قول البعض في الآية ، وكونهم إذ ذاك أدون حالاً من الأطفال في حز البطلان كما لا يخفى على من هو أدون حالاً من الأطفال ، وقالوا رابعاً : إنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] وقال جل وعلا : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 5 ، 6] وكون أولئك الذر أناسي ينافي كون الإنسان مخلوقاً مما ذكر .

وأجيب بأن الإنسان في هذه النشأة مخلوق من ذلك ولا يلزم منه أن يكون في تلك النشأة

كذلك على أن الله تعالى لا يعجزه شيء ، وبالجملة ينبغي للمؤمن أن يصدق بذلك الأخذ فقد نطقت به الأخبار الصادرة من منبع الرسالة ، ولا يلتفت إلى قول من قال : إنها متروكة العمل لكونها من الآحاد فإن ذلك يؤدي إلى سد باب كبير من الفتوحات الغيبية ويحرم قائله من عظيم المنح الإلهية .

وقد روى البيهقي في المدخل عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال : الذين لقيناهم كلهم يثبتون خبر واحد عن واحد عن النبي صلى الله عليه وسلم ويجعلونه سنة حمد من تبعها وعيب من خالفها ، وقال : من خالف هذا المذهب كان عندنا مفارقاً لسبيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل العلم بعدهم وكان من أهل الجهالة ، وفي "جامع الأصول" عن رزين عن أبي رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لأعرفن الرجل منكم يأتيه الأمر من أمري أنا أمرت به أو نهيت عنه وهو متكىء في أريكته فيقول : ما ندري ما هذا عندنا كتاب الله تعالى وليس هذا فيه " الحديث ، ولا ينبغي البحث عن كيفية ذلك فإنه من العلوم المسكوت عنها المحتاجة إلى كشف الغطاء وفيض العطاء .

ومن ذلك ما أخرجه الجندي في فضائل مكة .

وأبو الحسن القطان .

والحاكم .

والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه عن أبي سعيد الخدري قال : حججنا مع عمر رضي الله تعالى عنه فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك ثم قبله فقال له علي كرم الله تعالى وجهه : يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع قال : بم ؟ قال : بكتاب الله عز وجل قال : وأين ذلك من كتاب الله تعالى قال : قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ الآية إلى قوله سبحانه :

﴿ بلى ﴾ [الأعراف : 172] وذلك أن الله عز شأنه خلق آدم عليه السلام ومسح على ظهره فأخرج ذريته فقررهم بأنه الرب وأنهم العبيد وأخذ عهودهم ومواثيقهم وكتب ذلك في رق وكان لهذا الحجر عينان ولسان فقال له : افتح فاك ففتح فاه فألقمه ذلك الرق فقال : اشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة وأني أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يؤتي يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق ليشهد لمن يستلمه بالتوحيد " فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع .

فقال عمر رضي الله تعالى عنه أعوذ بالله تعالى أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن .

قيل : ومن هنا يعلم قوله صلى الله عليه وسلم : " الحجر يمين الله تعالى في أرضه " والكلام في ذلك شهر ، هذا ومن الناس من ذكر أن الناس بعد أن قالوا : بلى منهم من سجد

سجدتين ومنهم من لم يسجد أصلاً ومنهم من سجد مع الأولين السجدة الأولى ولم يسجد الثانية ومنهم من عكس ، فالصنف الأول هم الذين يعيشون مؤمنين ويموتون كذلك ، والثاني هم الذين يعيشون كفاراً ويموتون كذلك .

والثالث هم الذين يعيشون مؤمنين ويموتون كفاراً ، والرابع هم الذين يعيشون كفاراً ويموتون مؤمنين انتهى .

(217/296)

وهو كلام لم يشهد له كتاب ولا سنة فلا عول عليه ، ومثله القول بأن بعضاً من القائلين بلى قد مكر منهم إذ ذاك حيث أظهر لهم إبليس في ذلك الجمع وظنوا أنه القائل : ألست بربكم ؟ فعنوه بالجواب وأولئك هم الأشقياء ، وبعضاً تجلى لهم الرب سبحانه فعرفوه وأجابوه وأولئك هم السعداء ، وهذا عندي من البطلان بمكان ؛ والذي ينبغي اعتقاده أنهم كلهم وجهوا الجواب لرب الأرباب .

نعم ذهب البعض إلى أن البعض أجاب كرهاً واستدلوا له ببعض الآثار السالفة ، وذهب أهل هذا القول إلى أن أطفال المشركين في النار ، ومن قال : إنهم في الجنة ذهب إلى أنهم أقروا عند أخذ الميثاق اختياراً فيدخلون الجنة بذلك الإقرار والله سبحانه أرحم الراحمين

وإسناد القول في الآية على بعض الأقوال إلى ضمير الجمع إنما هو باعتبار وقوعه من البعض فإن وقوعه من الكل باطل بداهة ، ومثل هذا واقع في الآيات كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

(218/296)

وقال القاسمى :

﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [173] .

﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا ﴾ أي : سنوا الإشراك واخترعوه : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل زماننا : ﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ أي : فنشأنا على طريقتهم ، احتجاجاً بالتقليد ، وتعويلاً عليه ، فقد قطعنا العذر بما بيّنا من الآيات .

﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي : أتؤاخذنا بما فعل آباؤنا من الشرك ، وأسسوا من الباطل ، أو بفعل آبائنا الذي أبطلوا تأثير والعقول ، وأقوال الرسل ؟ والإستفهام للإنكار ، أي : أنت حكيم لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء ، وقد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شعروا لنا من الباطل .

والمعنى : أزلنا الشبهتين بأن الإقرار بالربوبية والتوحيد ، هو في أصل فطرتكم ، فلم لم ترجعوا إليه عند دعوة العقول والرسل ؟ والفطرة أكبر دليل ، فهي تسد باب الإعتذار بوجه ما ، لا سيما والتقليد عند قيام الدلائل ، والقدرة على الإستدلال بها ، مما لا مساغ له أصلاً .

تنبيهات :

الأول : وافق الإمام ابن كثير ، في هذا المقام أيضاً الجشمي في تفسيره ، قال : ويروي أصحاب الحديث أسلافهم من الآثار موقوفة ومرفوعة ، ويجعلون ذلك تأويلاً للآية ، وهو أنه تعالى مسح ظهر آدم ، فأخرج منه ذريته ، أمثال الذر ، فقال : ألست بربكم ؟ فقالوا : بلى طائعين ، ثم أعادهم في صلب آدم . وإن تأويل الآية على ذلك .

قال : وقد ذكر مشايخنا رحمهم الله أن ذلك فاسد ، وأن ظاهر الآية يخالف ذلك ، وذكروا في الرواية ما نذكره .

قالوا : فمما يدل على فساده وجوه :

منها : أنه لو كان حال كما ذكروا ، لذكرناه ، لأن مثل ذلك الأمر العظيم لا ينساه العاقل ، خصوصاً إذا كان أشهاداً عليه ، ليعمل به .

ومنها : ما ذكره شيخنا أبو علي ، أن ظهر آدم لا يسع هذا الجمع العظيم ، وهذا شنيع من الكلام .

ومنها : أنه ذكر أنه خلقنا من نطفة ، وكل ولد ولد من أب ومن نطفة ، فلو خلقهم ابتداء لا من شيء ، لم يصح ذلك .

ومنها : أن الجزء الواحد ، لا يجوز أن يكون حياً عاقلاً ، لأن تلك البنية ، لا تحمل الحياة ، فلا بد من أن يكون مؤلفاً من أجزاء ، وحينئذ لا يصح أن يكون الجميع في ظهر آدم .

ومنها : أنه يفتح باب التناسخ ، والقول بالرجعة ، لأن لهم أن يقولوا : إذا جاز الإعادة ثمة ، لم ينكر التناسخ .

ومنها : أنه لا بد أن يكون فيه فائدة ، وفائدته أن يذكره ليجري على تلك الطريقة ، وإذا لم يذكره بطلت فائدته .

ومنها : أن الإعتراف لا يصح إلا وقد تقدم حال لهم عرفوا

ذلك ، فكيف يصح في ابتداء الخلق ، إلى غير ذلك مما لا يقبله العقل .

ثم قال : قال مشايخنا رحمهم الله : والآية ظاهرها بخلاف قولهم من وجوه :

منها : أنه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ ﴾ ولو يقل : من آدم . وقال : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل : من ظهره ، وقال : ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ولم يقل : ذريته .

ومنها : أنه قال : ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ يعني فعل ذلك ، لكيلا تقولوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ وأي غفلة أعظم من أن جميع العقلاء لا يذكرون شيئاً من ذلك .

ومنها : أنه قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا ﴾ ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك .

وكل ذلك يبين فساد ما قالوا ، ولم يصحح أحد من مشايخنا هذه الرواية ، ولا قبلها ، بل ردها ، غير أبي بكر أحمد بن علي ، فإنه جوز ذلك من غير قطع على صحته ، غير أنه قال : ليس ذلك بتأويل الآية ، وذكر أن فائدة ذلك أن يجروا على الأعراق الكريمة في شكر النعمة ، والإقرار بالربوبية .

كما قال : إنهم ولدوا على الفطرة ، قال : وأخرجهم كالذر ثم ألهمهم حتى قالوا بلى . انتهى ما قاله الجشمي .

(220/296)

الثاني : استدل بهذه الآية والأحاديث المتقدمة في معناها ، أن معرفته تعالى فطرية ضرورية ، قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

وعن عِمْرَان بن حصين قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي : < يا حصين : كم تعبد اليوم إلهاً ؟ > قال أبي : سبعة ، ستاً في الأرض ، وواحداً في السماء ؟ قال : < فأيهم تُعد لرغبتك ورهبتك ؟ > قال : الذي في السماء . – رواه الترمذي –

فالله تعالى فطر الخلق كلهم

على معرفته فطرة توحيد ، حتى من خلق مجنوناً مطبقاً مصطلماً لا يفهم شيئاً ، ما يحلف إلا به ، ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس ، فطرة بالغة .

قال التقي ابن تيمية : إن الإقرار والإعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس ، وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته ، حتى يحتاج إلى نظر ، يحصل له به المعرفة وهذا قول جمهور الناس ، وعليه حذاق النظار أن المعرفة تحصل بالضرورة ، وقد تحصل بالنظر لمن فسدت فطرته ، كما اعترف بذلك خلائق من أئمة المتكلمين .

وقال أيضاً : ذهب طوائف من النظار إلى أن معرفة الله واجبة ، ولا طريق لها إلا بالنظر فأوجبوا النظر على كل أحد . وهذا القول إنما اشتهر في الأمة عن المعتزلة ونحوهم .

ولهذا قال أبو جعفر السمناني وغيره : إيجاب الأشعري النظر في المعرفة بقية بقيت عليه من الإعتزال .

وذكر رحمه الله أن الذي يدل عليه كلامه الأئمة والسلف – وهو أعدل الأقوال – أن النظر

يجب في حال دون حال ، وعلى شخص دون شخص ، فوجوبه من العوارض التي تجب على بعض الناس في بعض الأحوال ، لا من اللوازم العامة .

(221/296)

والذين أوجبوا النظر ليس معهم ما يدل على عموم وجوبه ، إنما يدل على أنه قد يجب ، كقوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ فإنه خطاب مع المتكبرين الجاحدين ، أُمروا بالنظر ، ليعرفوا الحق ، ويقروا به ، ولا ريب أن النظر يجب على هؤلاء .

قال أبو حيان التوحيدي في " مقابساته " ، في المقابسة الثانية والأربعين :

قيل لأبي الخير : حدثنا عن معرفة الله ، تقدس وعلا ، ضرورة هي أم استدلال ؟ فإن المتكلمين في هذا اختلفوا اختلافاً شديداً ، وتنابذوا عليه تنابذاً بعيداً ، ونحب أن يحصل لنا جواب ، فيفسر على حد الإختصار مع البيان .

فقال : هي ضرورة من ناحية العقل ، واستدلال من ناحية الحس ، ولما كان كل مطلوب من العلم إما أن يطلب بالعقل في المعقول ، أو بالحس في المحسوس ، ساغ أن يظن مرة أن معرفته تعالى اكتساب واستدلال ، لأن الحسن يتصفح ويستقوي بمؤازرة العقل ومظاهرته وتحصيله

، وأن يظن تارة أنها ضرورة ، فإن العقل السليم من الآفة ، البريء من العاهة ، يحث على الإعتراف بالله تقدس اسمه ، ويحظر على صاحبه جحده وإنكاره والتشكك فيه لكن ضرورة فيه لكن ضرورة لائقة بالعقل ، لأن ضرورة العقل ليست

كضرورة الحس ، لأن ضرورة الحس فيها جذب واختيار ، وحمل وإكراه ، وضرورة العقل لطيفة جداً ، لأنه يعظ ويلاطف وينصح ويخفف .

ثم ضرب مثلاً لطيفاً ، وقال بعده : فعلى هذا ، فإن الله تقدس اسمه ، معروف عند العقل بالإضطرار ، لا ريب عنده في وجوده ، ومستدل عليه عند الحس ، لأنه يستحيل كثيراً ولا يثبت أصلاً ، فمن استدل ترقى من الجزئيات ، ومن ادعى الإضطرار انحدر من الكليات

.

وكلا الطريقين قد وضح بهذا الإعتبار وكُفي مؤونة الخبط والإكثار .

(222/296)

فأما ما ينظر منه في الجدال ، فلا يرث منه إلا الشك والفرقة والحمية والعصبية ، وهناك للهوى ولادة وحضانة ، وللباطل استيلاء وجولة ، وللحيرة ركود وإقامة . أخذ الله بأيدينا

، وكفانا الهوى الذي يؤذينا . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 7 صـ 222 .
225 ﴾

(223/296)

وقال ابن عاشور :

ومعنى : ﴿ وكنا ذرية من بعدهم ﴾

كنا على دينهم تبعاً لهم لأننا ذرية لهم ، وشأن الذرية الاقتداء بالآباء وإقامة عوائدهم فوقع إيجاز في الكلام وأقيم التعليل مقام المعلل .

و ﴿ من بعدهم ﴾ نعت لذرية لما تؤذن به ذرية من الخلفية والقيام في مقامهم .

والاستفهام في ﴿ أفتهلكنا ﴾ إنكاري ، والإهلاك هنا مستعار للعذاب ، والمبطلون الآخذون بالباطل ، وهو في هذا المقام الإشراك .

وفي هذه الآية دليل على أن الإيمان بالإله الواحد مستقر في فطرة العقل ، لو خُلي ونفسه ، وتجرد من الشبهات الناشئة فيه من التقصير في النظر ، أو الملقاة إليه من أهل الضلالة المستقرة فيهم الضلالة ، بقصد أو بغير قصد ، ولذلك قال الماتريدي والمعتزلة : أن الإيمان بالإله الواحد واجب بالعقل ، ونسب إلى أبي حنيفة وإلى الماوردي وبعضِ الشافعية من

أهل العراق ، وعليه أنبتت مؤاخذة أهل الفترة على الإشراك ، وقال الأشعري : معرفة الله واجبة بالشرع لا بالعقل تمسكاً بقوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء : 15] ولعله أرجع مؤاخذة أهل الفترة على الشرك إلى التواتر بمجيء الرسل بالتوحيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(224/296)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) ﴾

كأن الحق يريد أن يقطع عليهم حجة مخالفتهم لمنهج الله ، فينبه إلى عهد الفطرة والطبيعة والسجية المطمورة في كل إنسان ؛ حيث شهد كل كائن بأنه إلهٌ واحدٌ أحَدٌ ، ويذكرنا سبحانه بهذا العهد الفطري قبل أن توجد أغيار الشهوات فينا .

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ وهل كان أحد من الذر وهو في علم الله وإرادته وقدرته يجرؤ على أن يقول : لا لست ربي ؟ . طبعاً هذا مستحيل ، وأجاب كل الذر بالفطرة " بلى " . وهي تحمل نفي النفي ، ونفي النفي إثبات مثل قوله الحق : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ

الحاكمين ﴾ [التين : 8]

و" أليس " للاستفهام عن النفي ؛ ولذالك يقال لنا : حين تسمع " أليس " عليك أن تقول " بلى " وبذلك تنفي النفي أي أثبتّ أنه لا يوجد أحكم الحاكمين غيره سبحانه ، وهنا يقول الحق : " ألست بربكم " ؟ وجاءت الإجابة : بلى شهدنا . ولماذا كل ذلك ؟ قال الحق ذلك ليؤكد لكل الخلق أنهم بالفطرة مؤمنون بأن الله هو الرب ، والذي جعلهم يغفلون عن هذه الفطرة تحرُّك شهواتهم في نطاق الاختيار ، ومع وجود الشهوات في نطاق الاختيار إن سألتهم من خلقهم ؟ يقولون : الله ، وما دام هو الذي خلقهم فهو ربهم . ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله . . . ﴾ [العنكبوت : 61]

وجاء الحق بقصة هذه الشهادة حتى لا يقولَنَّ أحدُ : ﴿ إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ وبذلك نعلم أن أعذار العاصين وأعذار الكافرين التي يتعللون ويعتذرون بها تنحصر في أمرين اثنين : الغفلة عن عهد الذر ، وتقليد الآباء .

وما الغفلة؟ وما التقليد ؟ . الغفلة قد لا يسبقها كفر أو معصية ، ويقلدها الناس الذين يأتون من بعد ذلك . والمثال الواضح أن سيدنا آدم عليه السلام قد أبلغ أولاده المنهج السوي المستقيم لكنهم غفلوا عنه ولم يعد من اللائق أن يقول واحد منهم إن أباه قد أشرك . ولكن جاء هذا الأمر من الغفلة ، ثم جاء إشراك الآباء في المرحلة الثانية ؛ لأن كل واحد لو قلد أباه في الإشراك ؛ لانتهى الشرك إلى آدم ، وآدم لم يكن مشركاً ، لكن الغفلة عن منهج الله المستقيم حدثت من بعض بني آدم ، وكانت هذه الغفلة نتيجة توهم أن هناك تكاليف شاقةً يتطلبها المنهج ، فذهب بعض من أبناء آدم إلى ما يحبون وتناسوا هذا المنهج ولم يعد في بؤرة شعورهم ؛ لأن الإنسان إنما ينفذ دائماً الموجود في بؤرة شعوره . أما الشيء الذي سيكلفه مَشقَّة فهو يحاول أن يتناساه ويغفل عنه ، هكذا كانت أول مرحلة من مراحل الانفصال عن منهج الله وهي الغفلة في آبائهم . وهنا يضاف عاملان اثنان : عامل الغفلة ، وعامل الأسوة في أهله وآبائه . ولم تكن القضايا الإيمانية في بؤرة الشعور ، ولذلك يقال : الغالب ألا ينسى أحد ما له ولكنه ينسى ما عليه ؛ لأن الإنسان يحفظ ما له عند غيره في بؤرة الشعور ، ويُخرج الإنسان ما عليه بعيداً عن بؤرة الشعور .

ولأن البعض قد يتصور أن في التكليف الإيماني مشقة ، لذلك فهو يحاول أن يبعد عنه وينساه ، وكذلك يحاول هذا البعض أن ينأى بنفسه عن هذه التكاليف .

ونأخذ المثل من حياتنا : قد نجد إنساناً مَدِيناً لمحل بقالة أو لنجارٍ وليس عنده مال يعطيه له

، لذلك يحاول أن يبتعد عن محل هذا البقال ، أو أن يسير بعيدا عن أعين النجار . وهكذا يكون افتعال الغفلة في ظاهره هو أمراً مَنْجِياً من مشقات التكاليف ، لكن البشر في ميثاق الذر قالوا : ﴿ بلى شَهِدْنَآ ﴾

(226/296)

وقد أُخِذَ ذلك العهدُ عليهم ، وأُقرُّوا به واستشهد الحقُّ بهم ، على أنفسهم حتى لا يقولوا يوم القيامه ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ﴾ لأنه لا يصح أن نغفل عن هذا العهد أبداً ، ولكنَّ الحقَّ تبارك وتعالى عرَفَ أَنَّنا بشرٌ ، وقال في أبينا آدم : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ . . . ﴾ [طه : 115]

ومادام آدم قد نسي ، فنسيانه يقع عليه حيث بيَّن وأوضح لنا الإسلام أن الأمم السابقة على الإسلام تؤخذ بالنسيان ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر واضح : فقال عليه الصلاة والسلام :

" رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه "

والخطأ معلوم ، كأن يقصدَ الإنسانُ شيئاً ويحدث غيرهُ ، والنسيانُ ألاَّ يجيءَ الحكمُ على بال الإنسان . والمُكْرَهُ هو من يقهره من هُو أقْوى منه بفقدان حياته أو بتهديد حريته

وتقييدها ما لم يفعل ما يؤمر به ، وفي الحالات الثلاث يرفع التكليف عن المسلم . وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أكرم الأمة المحمدية بصفة خاصة برفع ما ينساه المسلم . وهذا دليل على أن من عاشوا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يؤاخذون به . وإذا سلسلنا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصل إلى سيدنا آدم الذي خُلق بيد الله المباشرة ، بينما نحن أبناء آدم مخلوقون بالقانون ؛ أن يوجد رجل وتوجد امرأة وتوجد علاقة زوجية فيأتي النسل .

وقد كلف الله آدم في الجنة التي أعدها له ليتلقى التدريب على عمارة الأرض بأمر ونهي ؛ فقال له سبحانه وتعالى : ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة . . . ﴾ [البقرة : 35]

(227/296)

إذن فقصارى كل تكليف هو أمر في " افعل " ، ونهي في " لا تفعل ؛ ، وقد نسي آدم التكليف في الأمر الواحد البسيط وهو المخلوق بيد الله والمكلف منه بأمر واحد أن يأكل حيث يشاء ويمتنع عن الأكل من الشجرة ، وإن لم يتذكر آدم ذلك ، فما الذي يتذكره ؟ وما كان يصح أن ينسى لأنه مخلوق بيد الله المباشرة ومكلف من الله مباشرة ، والتكليف وإن

كان بأمرين ؛ لكن ظاهر العبء فيه على أمر واحد ؛ الأكل من حيث شاءا هو أمر لمصلحة آدم ، و " لا تقرب " هو تكليف واحد .

- ولذلك قال الحق في آية أخرى : ﴿ . . . وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] وهو عصيان لأنه نسيان لأمر واحد ، ما كان يصح أن ينساه . لعدم تعدده ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ [الأعراف : 173]

جاء هذا القول لينبهنا إلى أن الغفلة لا يجب أن تكون أسوة لأن التكاليف شاقة ، والإنسان قد يسهو عنها فيورث هذا السهو إلى الأجيال اللاحقة فيقول الأبناء : ﴿ أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ .

وهذا يعني أن إيمانهم هو إيمان المقلد ، رغم أن الحق قد أرسل لهم البلاغ ، وإذا كان الآباء مبطلين للبلاغ بالمنهج فلا يصح للأبناء أن يغفلوا عن صحيح الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(228/296)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم . . . ﴾ الآية . قال : خلق الله آدم وأخذ ميثاقه أنه ربه ، وكتب أجله ورزقه ومصيبته ، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر فأخذ مواثيقهم أنه ربهم ، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم . . . ﴾ الآية . قال : لما خلق الله آدم أخذ ذريته من ظهره كهيئة الذر ، ثم سماهم بأسمائهم فقال : هذا فلان بن فلان يعمل كذا وكذا ، وهذا فلان بن فلان يعمل كذا وكذا ، ثم أخذ بيده قبضتين فقال : هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم واللالكائي في السنة عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ أخذ ربك ﴾ الآية . قال : إن الله خلق آدم ثم أخرج ذريته من صلبه مثل الذر ، فقال لهم : من ربكم ؟ فقالوا : الله ربنا . ثم أعادهم في صلبه حتى يولد كل من أخذ ميثاقه لا يزاد فيهم

ولا ينقص منهم إلى أن تقوم الساعة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : لما أهبط آدم عليه السلام حين أهبط بدحناء ، فمسح الله ظهره فأخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . فيومئذ جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة .

(229/296)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : مسح الله على صلب آدم فأخرج من صلبه ما يكون من ذريته إلى يوم القيامة ، وأخذ ميثاقهم أنه ربهم وأعطوه ذلك ، فلا يسأل أحد كافر ولا غيره من ربك ؟ إلا قال : الله .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ واللالكائي في السنة عن عبد الله بن عمرو في قوله ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ قال : أخذهم من ظهرهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن منده في كتاب الرد على الجهمية وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال : أخرج ذريته من صلبه كأنهم الذر في آذىء من الماء .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال : إن الله ضرب بيمينه على منكب آدم

فخرج منه مثل اللؤلؤ في كفه ، فقال : هذا للجنة . وضرب بيده الأخرى على منكبه الشمال فخرج منه سواد مثل الحمم فقال : هذا ذرء النار . قال : وهي هذه الآية ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإِنس ﴾ [الأعراف : 179] .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال : مسح الله ظهر آدم وهو ببطن نعمان - واد إلى جنب عرفة - فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم أخذ عليهم الميثاق وتلا " أن يقولوا يوم القيامة " هكذا قرأها يقولوا بالياء .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الكريم بن أبي أمية قال : أخرجوا من ظهره مثل طريق النمل .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب قال : أقروا له بالإِيمان والمعرفة الأرواح قبل أن يخلق أجسادها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن محمد بن كعب قال : خلق الله الأرواح قبل أن يخلق الأجساد ، فأخذ ميثاقهم .

وأخرج ابن عبد البر في التمهيد من طريق السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ قالوا : لما أخرج الله آدم من الجنة قبل تهبيطه من السماء ، مسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر ، فقال لهم : ادخلوا الجنة برحمتي . ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر ، فقال : ادخلوا النار ولا أبالي . فذلك قوله : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، ثم أخذ منهم الميثاق فقال ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية ، فقال : هو والملائكة ﴿ شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين ، أو يقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ قالوا : فليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف الله أنه ربه ، وذلك قوله عز وجل ﴿ وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ [آل عمران : 83] وذلك قوله ﴿ فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ [الأنعام : 149] يعني يوم أخذ الميثاق .

وأخرج ابن جرير عن أبي محمد رجل من أهل المدينة قال : سألت عمر بن الخطاب عن قوله ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتني فقال " خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، ثم أجلسه فمسح ظهره بيده اليمنى فأخرج ذراً ، فقال : ذرء ذرأتهم للجنة ، ثم مسح ظهره بيده الأخرى –

وكلتا يديه يمين – فقال : ذرء ذرأتهم للنار يعملون فيما شئت من عمل ، ثم اختم لهم بأسوأ أعمالهم فأدخلهم النار " .

(231/296)

وأخرج عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن منده في كتاب الرد على الجهمية واللالكائي وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر في تاريخه عن أبي بن كعب في قوله ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ إلى قوله ﴿ بما فعل المبطلون ﴾ جميعاً فجعلهم أرواحاً في صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ قال : فإني أشهد عليكم السموات السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ﴿ أن تقولوا يوم القيامة ﴾ انَّا لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً ، إني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتبي قالوا : شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك ، فأقروا ورفع عليهم آدم ينظر إليهم ، فرأى الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : يا رب لولا سوّيت بين عبادك ؟ قال : إني أحببت أن أشكر .

ورأى الأنبياء فيهم مثل السرج عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر في الرسالة والنبوة أن يبلغوا وهو قوله ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ [الأحزاب : 7] الآية وهو قوله ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ [الروم : 30] وفي ذلك قال ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ [الأعراف : 102] وفي ذلك قال ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ [الأعراف : 101] قال : فكان في علم الله يومئذ من يكذب به ومن يصدق به ، فكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عهدها وميثاقها في زمن آدم ، فأرسله الله إلى مريم في صورة بشر فتمثل لها بشراً سوياً . قال : أبي فدخل من فيها .

(232/296)

وأخرج مالك في الموطأ وأحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والآجري في الشريعة وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه واللالكائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن مسلم بن يسار الجهني ، أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم . . . ﴾ الآية . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل

عنها فقال " أن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون . فقال الرجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار " .

وأخرج أحمد والنسائي وابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه كالذر ، ثم كلمهم قبلاً قال ﴿ ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ إلى قوله ﴿ المبطلون ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن منده في كتاب الرد على الجهمية عن عبد الله بن عمرو قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ قال " أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس . فقال لهم ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ قالت الملائكة ﴿ شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن منده وأبو الشيخ في العظمة وابن عساكر عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله لما خلق آدم مسح ظهره فخرت منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ونزع ضلعاً من أضلاعه فخلق منه حواء ، ثم أخذ عليهم العهد ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ ثم اختلس كل نسمة من بني آدم بنوره في وجهه ، وجعل فيه البلوى الذي كتب أنه يبتليه بها في الدنيا من الأسقام ، ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك . وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يا رب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تشكر نعمتي . وقال آدم : يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نوراً ؟ قال : هؤلاء الأنبياء من ذريتك . قال : من هذا الذي أراه أظهرهم نوراً ؟ قال : هذا داود يكون في آخر الأمم . قال : يا رب كم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة . قال : يا رب كم جعلت عمري ؟ قال : كذا وكذا . قال : يا رب فزده من عمري أربعين سنة حتى يكون عمره مائة سنة . قال : أتفعل يا آدم ؟ قال : نعم يا رب . قال : فيكتب ويختم إنَّا كتبنا وختمنا ولم نغير . قال : فافعل أي رب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلما جاء ملك الموت إلى آدم ليقبض روحه قال : ماذا تريد يا ملك الموت ؟ قال : أريد قبض روحك . قال : ألم يبق من أجلي أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك

داود ؟ قال : لا . قال : فكان أبو هريرة يقول : نسي آدم ونسيت ذريته ، وجحد آدم فجحدت ذريته " .

(234/296)

وأخرج ابن جرير عن جويبر قال : مات ابن الضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام ، فقال : إذا وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عقده ، فإن ابني مجلس ومسؤول . فقلت : عمَّ يسأل ؟ ! قال : عن ميثاق الذي أقرَّ به في صلب آدم ، حدثني ابن عباس : أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفل لهم بالأرزاق ، ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطي الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأوّل ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة .

وأخرج عبد بن حميد عن سلمان قال : إن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارىء إلى يوم القيامة ، فكتب الآجال والأرزاق والأعمال والشقوة والسعادة ، فمن علم السعادة فعل الخير ومجالس الخير ، ومن علم الشقاوة فعل الشر ومجالس الشر .

وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن أبي أمامة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خلق الله الخلق وقضى القضية ، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء ، فأخذ أهل اليمين بيمينه وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى – وكلتا يدي الرحمن يمين – فقال : يا أصحاب اليمين . فاستجابوا له ، فقالوا : لبيك ربنا وسعديك . قال ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ قال : يا أصحاب الشمال . فاستجابوا له ، فقالوا : لبيك ربنا وسعديك . قال ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ فخلط بعضهم ببعض فقال قائل منهم : رب لم خلطت بيننا ؟ ! قال ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ﴾ [المؤمنون الآية 63] . ﴿ أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ ثم ردهم في صلب آدم ، فأهل الجنة أهلها ، وأهل النار أهلها ، فقال قائل : يا رسول الله فما الأعمال ؟ قال : " يعمل كل قوم لمنازلهم " . فقال عمر بن الخطاب : إذا نجتهد " .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره نسمة هو خالقها من ذريته

إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : أي رب من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك . فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أي رب من هذا ؟ ! فقال : رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود . قال : أي رب وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة قال : أي رب زده من عمري أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت فقال : أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد فجحدت ذريته ، ونسي فنسيت ذريته " .

(236/296)

وأخرج ابن أبي الدنيا في الشكر وأبو الشيخ والبيهقي في الشعب عن الحسن قال : لما خلق الله آدم عليه السلام ، وأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى ، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى فدبوا على وجه الأرض ، منهم الأعمى والأصم والأبرص والمقعد والمبتلى بأنواع البلاء ، فقال آدم : يا رب ألا سويت بين ولدي ؟ قال : يا آدم إني أردت أن أشكر ثم ردهم في صلبه .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب عن قتادة والحسن قالا : لما عرضت على آدم ذريته فرأى فضل بعضهم على بعض قال : أي رب أفهلا سوّيت بينهم ؟

قال : إني أحب أن أشكر ، يرى ذو الفضل فضله فيحمدني ويشكرني .

وأخرج أحمد في الزهد عن بكر . مثله .

وأخرج ابن جرير والبزار والطبراني والآجري في الشريعة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن هشام بن حكيم " أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أَتُبتدأ الأعمال أم قد قضي القضاء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ، ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه فقال : هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار . فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار " " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن معاوية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله أخرج ذرية آدم من صلبه حتى ملأوا الأرض وكانوا هكذا ، فضم إحدى يديه على الأخرى " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سألت ربي فأعطاني أولاد المشركين خدماً لأهل الجنة ، وذلك أنهم لم يدركوا ما أدرك آباؤهم من الشرك ، وهم في الميثاق الأوّل " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا أن تشرك بي " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن علي بن حسين . أنه كان يعزل ويتأوّل هذه الآية ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم عن العزل ؟ فقال " لا عليكم أن لا تفعلوا ، إن تكن مما أخذ الله منها الميثاق فكانت على صخرة نفخ فيها الروح " " .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم عن أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل فقال " لو أن الماء الذي يكون منه الولد صب على صخرة لأخرج الله منها ما قدر ، ليخلق الله نفساً هو خالقها " .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود . أنه سئل عن العزل ؟ فقال : لو أخذ الله ميثاق نسمة من صلب رجل ثم أفرغه على صفا لأخرجه من ذلك الصفا ، فإن شئت فأعزل وإن شئت فلا تعزل .

وأخرج عبد الرزاق عن إبراهيم النخعي قال : كانوا يقولون : إن النطفة التي قضى الله فيها الولد لو وقعت على صخرة لأخرج الله منها الولد .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وأبو الشيخ عن فاطمة بنت حسين قالت : لما أخذ الله الميثاق من بني آدم جعله في الركن ، فمن الوفاء بعهد الله استلام الحجر .

(238/296)

وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد قال : كنت مع أبي محمد بن علي فقال له رجل : يا أبا جعفر ما بدء خلق هذا الركن ؟ فقال : إن الله لما خلق الخلق قال لبني آدم ﴿ ألست بربكم ؟ قالوا بلى ﴾ فأقروا ، وأجرى نهراً أحلى من العسل وألين من الزبد ، ثم أمر القلم فاستمد من ذلك النهر ، فكتب إقرارهم وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم ألقم ذلك الكتاب هذا الحجر ، فهذا الإِستلام الذي ترى إنما هو بيعه على إقرارهم الذي كانوا أقروا به .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ضرب الله متن آدم فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية ، فقال : هؤلاء أهل الجنة ، وخرجت كل نفس مخلوقة للنار سوداء فقال : هؤلاء أهل النار أمثال الخردل في صور الذر ، فقال : يا عباد الله أجيبوا الله : يا عباد الله أطيعوا الله . قالوا : لبيك اللهم أطعناك ، اللهم أطعناك ، اللهم أطعناك . وهي

التي أعطى الله إبراهيم في المناسك : لبيك اللهم لبيك . فأخذ عليهم العهد بالإِيمان به ، والإِقرار والمعرفة بالله وأمره .

(239/296)

وأخرج الجندي في فضائل مكة وأبو الحسن القطان في الطوالات والحاكم والبيهقي في شعب الإِيمان وضعفه عن أبي سعيد الخدري قال : حججنا مع عمر بن الخطاب ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك ، ثم قبله فقال له علي بن أبي طالب : يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع قال : بم . . . ؟ قال : بكتاب الله عز وجل قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال الله ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ إلى قوله ﴿ بلى ﴾ خلق الله آدم ومسح على ظهره فقررهم بأنه الرب وإنهم العبيد ، وأخذ عهودهم ومواثيقهم وكتب ذلك في رق ، وكان لهذا الحجر عينان ولسان ، فقال له ، افتح فاك . ففتح فاه فألقمه ذلك الرق ، فقال : أشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة ، وإني أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق ، يشهد لمن يستلمه بالتوحيد " فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع . فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش في قوم

لست فيهم يا أبا حسن .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ أخذ ربك . . . ﴾ الآية . قال : أخذهم في كفه كأنهم الخردل الأولين والآخرين ، فقبلهم في يده مرتين أو ثلاثاً ، يرفع ويطأطئها ما شاء الله من ذلك ، ثم ردهم في أصلاب آبائهم حتى أخرجهم قرناً بعد قرن ، ثم قال بعد ذلك ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ [الأعراف : 102] الآية . ثم نزل بعد ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، وميثاقه الذي واثقكم به ﴾ [المائدة : 7] .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن عمر قال : لما خلق الله آدم نفضه نفض المزود فخر منه مثل النغف ، فقبض منه قبضتين فقال لما في اليمين : في الجنة ، وقال لما في الأخرى : في النار .

(240/296)

وأخرج ابن سعد وأحمد عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره فقال : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي . فقال رجل : يا رسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ قال : على مواقع القدر " .

وأخرج أحمد والبزار والطبراني عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحممة ، فقال للذي في يمينه : إلى الجنة ولا أبالي ، وقال للذي في كتفه اليسرى : إلى النار ولا أبالي " .

وأخرج البزار والطبراني والآجري وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله جل ذكره يوم خلق آدم قبض من صلبه قبضتين ، فوقع كل طيب في يمينه وكل خبيث بيده الأخرى ، فقال : هؤلاء أصحاب الجنة ولا أبالي وهؤلاء أصحاب النار ولا أبالي ، ثم أعادهم في صلب آدم فهم ينسلون على ذلك إلى الآن " .

وأخرج البزار والطبراني وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في القبضتين " هذه في الجنة ولا أبالي " .

وأخرج البزار والطبراني عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في القبضتين " هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه . قال : فتفرق الناس وهم لا يختلفون في القدر " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والآجري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما خلق الله آدم ضرب بيده على شق آدم الأيمن ، فأخرج ذراً كالذر فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك من أهل الجنة ، ثم ضرب بيده على شق آدم الأيسر فأخرج ذراً كالحمم ، ثم قال : هؤلاء ذريتك من أهل النار " .

وأخرج أحمد عن أبي نضر . فإن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له أبو عبد الله ، دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي فقالوا له : ما يبكيك ؟ قال : سمعت رسول الله يقول " إن الله قبض بيمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى ، فقال : هذه لهذه وهذه لهذه ولا أبالي ، فلا أدري في أي القبضتين أنا ؟ " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله قبض قبضة فقال : للجنة برحمتي ، وقبض قبضة فقال : إلى النار ولا أبالي " .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : إن الله أخرج من ظهر آدم يوم خلقه ما يكون إلى يوم القيامة ، فأخرجهم مثل الذر ثم قال ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ قالت الملائكة : شهدنا . ثم قبض قبضة بيمينه فقال : هؤلاء في الجنة . ثم قبض قبضة أخرى فقال : هؤلاء في النار ولا أبالي .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ قال : عن الميثاق الذي أخذ عليهم ﴿ أو يقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ فلا يستطيع أحد من خلق الله من الذرية ﴿ أن يقولوا إنما أشرك آباؤنا ﴾ ونقضوا الميثاق ﴿

وكنا (نحن) ذرية من بعدهم أفتهلكنا ﴾ بذنوب آبائنا وبما فعل المبطلون. والله تعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(242/296)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) ﴾

أخبر هذه الآية عن سابق عهده، وصادق وعده، وتأكيد عناج ودِّه، بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

سُقياً لليْلَى والليالي التي . . . كُنَّا بَلَيْلَى نلتقي فيها

أفديكِ بل أيامُ دهري كلها . . . يفدين أياماً عَرَفْتُكِ فيها

ويقال فأجابهم بتحقيق العرفان قبل أن يقع لمخلوق عليهم بَصَرٌ، أو ظهر في قلوبهم لمصنوع أَثَرٌ، أو كان لهم من حميمٍ أو قريب أو صديق أو شفيق خبر، وفي معناه أنشدوا:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى . . . فصادق قلباً فارغاً فتمكنَّا

ويقال جمعهم في الخطاب ولكنه فرَّقهم في الحال . وطائفةٌ خاطبهم بوصف القربة فعرَّفهم في نفس ما خاطبهم ، وفِرْقةٌ أبقاهم في أوطان الغيبة فأقصاهم عن نعت العرفان وحجبهم .

ويقال أقوام لاطَفَهم في عين ما كاشَفَهم فأقروا بنعت التوحيد ، وآخرون أبعدهم في نفس ما أشهدهم فأقروا عن رأس الجحود .

ويقال وَسَمَ بالجهل قوماً فألزمهم بالإشهاد بيان الحجة فأكرمهم بالتوحيد ، وآخرين أشهدهم واضِحَ الحجة (. . .) .

(243/296)

ويقال تجلَّى لقوم فتولَّى تعريفهم فقالوا : " بلى " عن حاصل يقين ، وتَعَزَّزَ عن آخرين فأثبتهم في أوطان الجحد فقالوا : " بلى " عن ظنٍ وتخمين .

ويقال جمع المؤمنين في الأسماء ولكن غاير بينهم في الرتب ؛ فَجَذَبَ قلوبَ قوم إلى الإقرار بما أطمعها فيه من المبَارِّ ، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان وكاشفهم به من الأسرار .

ويقال فرقةٌ ردَّهم إلى الهيبة فهاموا ، وفِرْقَةٌ لاطفَهم بالقربة فاستقاموا .

ويقال عرَّف الأولياء أنه مَنْ هو فتحققوا بتخليصهم ، ولَبَّسَ على الأعداء فتوقفوا لحيرة عقولهم .

ويقال أسمعهم وفي نفس أحضرهم ، ثم أخذهم عنهم فيما أحضرهم ، وقام عنهم فأنطقهم بحكم التعريف ، وحفظ عليهم – بحسن التولي – أحكامَ التكليف وكان – سبحانه – لهم مُكَلِّفاً ، وعلى ما أراده مُصَرِّفاً ، وبما استخلصهم له مُعَرِّفاً ، وبما رقاهم إليه مُشَرِّقاً .

ويقال كاشف قوماً – في حال الخطاب – بجماله فطوحهم في هيمان حبه ، فاستمكنت محابُّهم في كوامن أسرارهم ؛ فإذا سمعوا – اليومَ – سماعاً تجددت تلك الأحوال ، فالانزعاجُ الذي يَظْهَرُ فيهم لِتَذَكُّرِ ما سَلَفَ لهم من العهد المتقدم .

ويقال أسمع قوماً بشاهد الربوبية فأصحاهم عن عين الاستشهاد فأجابوا عن عين التحقيق ، وأَسمع آخرين بشاهد الربوبية فمحاهم عن التحصيل فأجابوا بوصف الجحود .

ويقال أظهر آثارَ العناية بدءاً حين اختصَّ بالأنوار التي رشت عليهم قوماً ، فَمَنْ حَرَمَه تلك الأنوار لم يجعله أهلاً للوصلة ، ومَنْ أصابَته تلك الأنوارُ أَفْصَحَ بما خُصَّ به من غير مقاساة كَلَفَة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 585.586 ﴾

(244/296)

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل تنبيهاً على جلالة هذه الآيات : انظر كيف فصلنا هذه الآيات هذه التفاصيل الفائقة وأبرزناها في هذه الأساليب الرائقة ، قال : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك التفصيل البديع الجليل الرفيع ﴿ نفصل الآيات ﴾ أي كلها لئلا يواقعوا ما لا يليق بجانبنا جهلاً لعدم الدليل ﴿ ولعلهم يرجعون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى رجوعه عن الضلال إلى ما تدعو إليه الهداة من الكمال عن قرب إن حصلت غفلة فواقعوه ، وذلك من أدلة ﴿ والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ [الأعراف : 58] و ﴿ ما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ [الأعراف : 102] و ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ [الأعراف : 146] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 150 ﴾

(245/296)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الأيات ﴾

المعنى : أن مثل ما فصلنا وبينا في هذه الآية ، بينا سائر الآيات ليتدبروها فيرجعوا إلى الحق ويعرضوا عن الباطل ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقيل : أي ما أخذ عليهم من الميثاق في التوحيد ، وفي الآية قول ثالث ؛ وهو أن الأرواح البشرية موجودة قبل الأبدان ، والإقرار بوجود الإله من لوازم ذواتها وحقائقها ، وهذا العلم ليس يحتاج في تحصيله إلى كسب وطلب ، وهذا البحث إنما ينكشف تمام الانكشاف بأبحاث عقلية غامضة ، لا يمكن ذكرها في هذا الكتاب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 44 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيات ﴾

يعني : هكذا نبيّن الآيات في أمر الميثاق ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى إقرارهم وإلى التوبة فالواو الأولى للعطف وهو قوله ﴿ وكذلك ﴾ والواو الثانية زيادة للوصل وهي قوله : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ومعناه : وكذلك نفصل الآيات لعلهم يرجعون أي لكي يرجعوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾

تقديره وكما فعلنا هذه الأمور وأنفذنا هذه المقادير فكذلك نفصل الآيات ونبينها لمن عاصرك وبعث إليه ، ﴿ لعلهم ﴾ على ترجيهم وترجيكم وبحسب نظر البشر ، ﴿ يرجعون ﴾ إلى طاعة الله ويدخلون في توحيده وعبادته ، وقرأت فرقة " يفصل " بالياء .

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نُفَصِّل الآيات ﴾

أي : كما بينَّا في أخذ الميثاق الآيات ، ليتدبَّرها العباد فيعملوا بموجبها .

﴿ ولعلهم يرجعون ﴾ أي : ولكي يرجعوا عمَّا هم عليه من الكفر إلى التوحيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصِّل الآيات ﴾

يعني ليتدبرها العباد فيرجعون إلى الحق والإيمان ويعرضوا عن الباطل والكفر وهو المراد من قوله ﴿ ولعلهم يرجعون ﴾ يعني عن الشرك إلى التوحيد وقيل معناه ولعلهم يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ

2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾

أي مثل هذا التفصيل الذي فصّلنا فيه الآيات السابقة نفصل الآيات اللاحقة فالكل على نمط واحد في التفصيل والتوضيح لأدلّة التوحيد وبراهينه .

﴿ ولعلهم يرجعون ﴾ عن شركهم وعبادة غير الله إلى توحيده وعبادته بذلك التفصيل والتوضيح وقرأت فرقة يفصل بالياء أي يفصل هو أي الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(247/296)

وقال أبو السعود :

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) ﴾

﴿ وكذلك ﴾ إشارةٌ إلى مصدر الفعل المذكور بعده ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو شأنِ المشار إليه وبُعد منزلتِه ، والكافُ مقحمةٌ مؤكدةٌ لما أفاده اسمُ الإشارةِ من الفخامة ، والتقديمُ على الفعل لإفادة القصْر ومحلُّه النصبُ على المصدرية أي ذلك التفصيلَ البليغَ

المستتبِعَ للمنافع الجليلة ﴿ نُفَصّلُ الآيات ﴾ المذكورةَ لا غيرَ (ذلك) ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليدِ الآباء نفعل التفصيلَ المذكورَ . قالوا : وإن ابتدائيتان ، ويجوز أن تكون الثانيةُ عاطفةً على مقدر مترتبٍ على التفصيل أي وكذلك نفصل الآيات ليقفوا على ما فيها من المرغّبات والزواجر وليرجعوا الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَذَلِكَ نفَصّلُ الآيات ﴾

أي ذلك التفصيل البليغ المستتبع للمنافع الجليلة نفصلها لا غير ذلك .

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الإصرار على الباطل نفعل التفصيل المذكور ، وقيل : المعنى ولعلهم يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بمقتضاه نفعل ذلك ، وأياً ما كان فالواو ابتدائية كالتي قبلها ، وجوز أن تكون عاطفة على مقدر أي ليقفوا على ما فيها من المرغبات والزواجر ، أو ليظهر الحق ولعلهم يرجعون ، وقيل : إنها سيف خطيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 9 صـ ﴾

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾

لَعَلَّ حِكْمَةَ خَتْمِ قِصَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ هُنَا لِلتَّذْكِيرِ بِبَدْءِ حَالِهِمْ فِي إِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ فِي أَثَرِ بَيَانِ عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ فِي مُخَالَفَتِهِ وَالْخُرُوجِ عَنْهُ ; فَإِنَّ فِي تِلْكَ الْفَاتِحَةِ إِشَارَةً إِلَى هَذِهِ الْخَاتِمَةِ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا أُخِذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقُ لِيَأْخُذُنَّ بِالشَّرِيعَةِ بِقُوَّةٍ وَعَزْمٍ ، فَإِنَّهُ رَفَعَ فَوْقَهُمُ الطُّورَ ، وَأَوْقَعَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ مِنْ خَوْفِ وُقُوعِهِ بِهِمْ ، فَلَا غَرْوَ إِذَا آلَ أَمْرُهُمْ إِلَى تَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ طُولِ الْأَمَدِ وَقَسَاوَةِ الْقُلُوبِ وَالْأُنْسِ بِالذُّنُوبِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ آيَتَانِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَأُشِيرَ إِلَيْهِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ . وَذَكَرْنَا آيَةَ الْأَعْرَافِ هَذِهِ فِي سِيَاقِ تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ الْأُولَى . وَالْمَعْنَى : وَاذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ إِذْ نَتَقْنَا فَوْقَ هَؤُلَاءِ الْجَبَلَ ، جَبَلَ الطُّورِ : أَيْ رَفَعْنَاهُ كَمَا عَبَّرَ بِهِ فِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - أَوْ زَلْزَلْنَاهُ وَهُوَ مَرْفُوعٌ فَوْقَهُمْ مُظَلِّلٌ لَهُمْ - كَمَا يُقَالُ نَتَقَ السِّقَاءُ إِذَا هَزَّهُ وَنَفَضَهُ ; لِيُخْرِجَ مِنْهُ الزُّبْدَةَ . قَالَ الْجُمْهُورُ : إِنَّهُ اقْتَلَعَهُ وَجَعَلَهُ فَوْقَهُمْ (فَإِنْ قِيلَ) : لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَكَانَ ظُلَّةً بِالْفِعْلِ

(249/296)

لَا كَالظُّلَّةِ ، فَإِنَّ الظُّلَّةَ كُلُّ مَا أَظَلَّكَ مِنْ فَوْقِكَ ، وَيُصَدِّقُ رَفْعَ الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَالظُّلَّةِ وُجُودُهُمْ فِي سَفْحِهِ وَاسْتِظْلَالِهِمْ بِهِ (قُلْنَا) : إِنَّهُ وَإِنْ صَحَّ هَذَا التَّأْوِيلُ فَإِنَّ رَفْعَ الْجَبَلِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ إِنَّمَا كَانَ لِإِخَافَتِهِمْ لَا لِإِظْلَالِهِمْ ، وَأَمَّا ظَنُّهُمْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ فَإِنَّمَا جَاءَ مِنْ زَلْزَلَتِهِ وَاضْطِرَابِهِ ; عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى قَلْعِهِ وَجَعْلِهِ فَوْقَهُمْ ، وَكَمْ رَأَوْا مِنْ آيَاتِهِ مَا هُوَ أَدَلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ .

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَقُلْنَا لَهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ : خُذُوا مَا أَعْطَيْنَاكُمْ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ بِقُوَّةِ عَزِيمَةٍ وَعَزْمٍ عَلَى احْتِمَالِ مَشَاقِّهِ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيْ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ أَوَامِرَهَا وَنَوَاهِيَهَا ، أَوِ اعْمَلُوا بِهِ لِئَلَّا تَنْسَوْهُ - فَإِنَّ ذَلِكَ يُعِدُّكُمْ لِلتَّقْوَى وَيَجْعَلُهَا مَرْجُوَّةً لَكُمْ ، فَإِنَّ الْجِدَّ وَقُوَّةَ الْعَزْمِ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ يُهَذِّبُ النَّفْسَ وَيُزَكِّيهَا ، وَالتَّهَاوُنَ وَالْإِغْمَاضَ فِيهِ يُدَسِّيهَا وَيُغْوِيهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (91 : 9 ، 10) .

(250/296)

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ

وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ، وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

هَذِهِ الْآيَاتُ بَدْءُ سِيَاقٍ جَدِيدٍ فِي شُئُونِ الْبَشَرِ الْعَامَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِدَايَةِ اللهِ لَهُمْ ، بِمَا أَوْدَعَ فِي فِطْرَتِهِمْ ، وَرَكَّبَ فِي عُقُولِهِمْ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ لِلْإِيمَانِ بِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَشُكْرِهِ ، فِي إِثْرِ بَيَانِ هِدَايَتِهِ لَهُمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ فِي قِصَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَالْمُنَاسِبَةُ بَيْنَ هَذَا وَمَا قَبْلَهُ ظَاهِرَةٌ ; وَلِذَلِكَ عَطَفَ عَلَيْهِ عَطْفَ جُمْلَةٍ عَلَى جُمْلَةٍ ، أَوْ سِيَاقٍ عَلَى سِيَاقٍ ، قَالَ تَعَالَى : .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ الظُّهُورُ جَمْعُ ظَهْرٍ وَهُوَ الْعَمُودُ الْفِقْرِيُّ لِهَيْكَلِ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ قِوَامُ بِنْيَتِهِ ، وَمَرْكَزُ النُّخَاعِ الشَّوْكِيُّ

(251/296)

الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ حَيَّاتِهِ ، فَيَصِحُّ أَنْ يُعَبَّرَ بِهِ عَنْ جُمْلَةِ وُجُودِهِ الْجَسَدِيِّ الْحَيَوَانِيِّ ، وَالذُّرِّيَّةُ سُلَالَةُ الْإِنْسَانِ مِنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ ، قَرَأَ نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بِالْجَمْعِ وَالْبَاقُونَ بِالْإِفْرَادِ وَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ ; فَإِنَّ الْمُفْرَدَ الْمُضَافَ يُفِيدُ الْعُمُومَ ، وَرَسْمُهَا فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ وَاحِدٌ ، وَقَوْلُهُ : مِنْ ظُهُورِهِمْ بَدَلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ بِمَعْنَاهُ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ بَدَلُ الْبَعْضِ مِنَ الْكُلِّ ، وَهُوَ الظَّاهِرُ إِذَا لَمْ يُرِدْ بِهَذَا الْبَعْضِ ذَلِكَ الْكُلَّ ، وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ : هُوَ

بَدَلُ اشْتِمَالٍ .

وَالْمَعْنَى : وَاذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي أَثَرِ ذِكْرِ أَخْذِ مِيثَاقِ الْوَحْيِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ خَاصَّةً ، مَا أَخَذَهُ اللَّهُ مِنْ مِيثَاقِ الْفِطْرَةِ وَالْعَقْلِ عَلَى الْبَشَرِ عَامَّةً ، إِذِ اسْتَخْرَجَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ذُرِّيَّتَهُمْ بَطْنًا

(252/296)

بَعْدَ بَطْنٍ ، فَخَلَقَهُمُ اللَّهُ عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَأَوْدَعَ فِي أَنْفُسِهِمْ غَرِيزَةَ الْإِيمَانِ ، وَجَعَلَ مِنْ مَدَارِكِ عُقُولِهِمُ الضَّرُورِيَّةِ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَاعِلٍ ، وَكُلَّ حَادِثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ ، وَأَنَّ فَوْقَ الْعَوَالِمِ الْمُمْكِنَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى سُنَّةِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، وَالْعِلَلِ وَالْمَعْلُولَاتِ ، سُلْطَانًا أَعْلَى عَلَى جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ – وَقَدْ بَسَطْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ – وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَيْ : أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الذُّرِّيَّةِ الْمُتَسَلْسِلَةِ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا أَوْدَعَهُ فِي غَرِيزَتِهِ ، وَاسْتِعْدَادِ عَقْلِهِ قَائِلًا قَوْلَ إِرَادَةٍ وَتَكْوِينٍ ، لَا قَوْلَ وَحْيٍ وَتَلْقِينٍ ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ فَقَالُوا كَذَلِكَ بِلُغَةِ الِاسْتِعْدَادِ وَلِسَانِ الْحَالِ ، لَا بِلِسَانِ الْمَقَالِ : بَلَى أَنْتَ رَبُّنَا وَالْمُسْتَحِقُّ وَحْدَهُ لِعِبَادَتِنَا ، فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاءِ : فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (41 : 11) وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ التَّعْبِيرِ وَالْبَيَانِ يُسَمَّى فِي عُرْفِ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ بِالتَّمْثِيلِ ، وَهُوَ أَعْلَى أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ ، وَشَوَاهِدُهُ فِي الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الْبُلَغَاءِ كَثِيرَةٌ .

(253/296)

بَيَّنَ سُبْحَانَهُ سَبَبَ هَذَا الْإِشْهَادِ وَعِلَّتَهُ فَقَالَ : أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَيْ : فَعَلْنَا هَذَا مَنْعًا لِاعْتِذَارِكُمْ أَوِ احْتِجَاجِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْ تَقُولُوا : إِذَا أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِهِ : إِنَّا كُنَّا

غَافِلِينَ : عَنْ هَذَا التَّوْحِيدِ لِلرُّبُوبِيَّةِ ، وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ مِنْ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ بِعِبَادَةِ الرَّبِّ وَحْدَهُ . وَالْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنْهُمُ الِاعْتِذَارَ بِالْجَهْلِ .

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ جَاهِلِينَ بِبُطْلَانِ شِرْكِهِمْ ، فَلَمْ يَسَعْنَا إِلَّا الِاقْتِدَاءُ بِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ بِاخْتِرَاعِ الشِّرْكِ فَتَجْعَلُ عَذَابَنَا كَعَذَابِهِمْ ، مَعَ عُذْرِنَا بِتَحْسِينِ الظَّنِّ بِهِمْ . وَالْمُرَادُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنْهُمُ الِاعْتِذَارَ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمُ الِاعْتِذَارَ بِالْجَهْلِ ، بَعْدَ مَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ مِنْ حُجَّةِ الْفِطْرَةِ وَالْعَقْلِ .

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَيْ : وَبِمِثْلِ هَذَا التَّفْصِيلِ الْبَلِيغِ نُفَصِّلُ لِبَنِي آدَمَ الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلَ ; لِيَسْتَعْمِلُوا عُقُولَهُمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بِهَا عَنْ جَهْلِهِمْ وَتَقْلِيدِهِمْ . وَالْآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ بَعْثَةُ رَسُولٍ لَا يُعْذَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا بِفِعْلِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ الَّتِي تَنْفِرُ مِنْهَا الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ ، وَتُدْرِكُ ضَرَرَهَا وَفَسَادَهَا الْعُقُولُ الْمُسْتَقِلَّةُ ، وَإِنَّمَا يُعْذَرُونَ بِمُخَالَفَةِ هِدَايَةِ الرُّسُلِ فِيمَا شَأْنُهُ أَلَّا يُعْرَفَ إِلَّا مِنْهُمْ . وَهُوَ أَكْثَرُ الْعِبَادَاتِ التَّفْصِيلِيَّةِ .

هَذَا مَا يَتَبَادَرُ إِلَى الْفَهْمِ مِنَ الْآيَاتِ لِذَاتِهَا .

وَلَكِنْ وَرَدَ فِي أَخْذِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَإِشْهَادِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَحَادِيثُ وَآثَارٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُعْرَفَ إِلَّا مِنْ خَبَرِ الْوَحْيِ ، وَقَدْ كَانَتْ مَوْضُوعَ بَحْثٍ وَمُنَاقَشَةٍ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ فَنُورِدُ أَمْثَلَ مَا قَالُوهُ فِيهَا . قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ : .

"

يُخبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ . قَالَ تَعَالَى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ (30 : 30) وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَفِي رِوَايَةٍ عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُولَدُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ

(256/296)

"يَقُولُ اللهُ : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ " ، وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ : حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ أَخْبَرَنِي السَّرِيُّ بْنُ يَحْيَى أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ أَبِي الْحَسَنِ حَدَّثَهُمْ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سُرَيْعٍ مِنْ بَنِي سَعْدٍ قَالَ : غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَرْبَعَ غَزَوَاتٍ قَالَ : فَتَنَاوَلَ الْقَوْمُ الذُّرِّيَّةَ بَعْدَ مَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ ، فَبَلَغَ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَاوَلُونَ الذُّرِّيَّةَ " ؟ فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ

أَلَيْسُوا أَبْنَاءَ الْمُشْرِكِينَ ؟ فَقَالَ : " إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ ، أَلَا إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبَيِّنُ عَنْهَا لِسَانُهَا ، فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا وَيُنَصِّرَانِهَا قَالَ الْحَسَنُ : وَاللَّهِ لَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ الْآيَةَ .

وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُلَيَّةَ عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ بِهِ ، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ هُشَيْمِ بْنِ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنِ الْحَسَنِ ، قَالَ : حَدَّثَنِي الْأَسْوَدُ بْنُ سُرَيْعٍ فَذَكَرَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ قَوْلَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَاسْتِحْضَارَهُ الْآيَةَ عِنْدَ ذَلِكَ .

(257/296)

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي أَخْذِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَمَيُّزِهِمْ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَصْحَابِ الشِّمَالِ ، وَفِي بَعْضِهَا الِاسْتِشْهَادُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي عُمْرَانَ الْجَوْنِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : " يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ . فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ

تُشْرِكَ بِي " أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ بِهِ " .

(حَدِيثٌ آخَرُ) قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ - يَعْنِي - ابْنَ حَازِمٍ عَنْ كُلْثُومِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنُعْمَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ

ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلًا قَالَ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

(258/296)

قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِلَى قَوْلِهِ : الْمُبْطِلُونَ وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ النَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ عَنْ صَاعِقَةَ عَنْ حُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَزِيِّ بِهِ ، وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ حُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بِهِ . إِلَّا أَنَّ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ جَعَلَهُ مَوْقُوفًا . وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ حُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهِ عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ عَنْ كُلْثُومِ بْنِ جُبَيْرٍ بِهِ وَقَالَ : صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ، وَقَدِ احْتَجَّ مُسْلِمٌ بِكُلْثُومِ بْنِ جُبَيْرٍ هَكَذَا قَالَ ، وَقَدْ رَوَاهُ عَبْدُ الْوَارِثِ عَنْ كُلْثُومِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَوَقَفَهُ ، وَكَذَا رَوَاهُ

إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُلَيَّةَ وَوَكِيعٌ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كُلْثُومٍ عَنْ جُبَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ بِهِ ، وَكَذَا رَوَاهُ عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ ، وَحَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ وَعَلِيُّ بْنُ بَذِيمَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ ، وَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَهَذَا أَكْثَرُ وَأَثْبَتُ وَاللهُ أَعْلَمُ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ أَبِي هِلَالٍ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الضُّبَعِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : أَخْرَجَ اللهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ كَهَيْئَةِ الذَّرِّ ، وَهُوَ فِي أَذًى مِنَ الْمَاءِ . وَقَالَ أَيْضًا : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ سَهْلٍ حَدَّثَنَا ضَمْرَةُ بْنُ رَبِيعَةَ

(259/296)

حَدَّثَنَا أَبُو مَسْعُودٍ عَنْ جُوَيْبِرٍ : مَاتَ ابْنُ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ ابْنَ سِتَّةِ أَيَّامٍ قَالَ : فَقَالَ يَا جَابِرُ إِذَا أَنْتِ وَضَعْتَ ابْنِي فِي لِحِدَّةٍ فَأَبْرِزْ وَجْهَهُ ، وَحِلَّ عَنْهُ عَقْدَهُ ، فَإِنَّ ابْنَيْ مُجْلَسٍ وَمَسْئُولٌ ، فَفَعَلْتُ الَّذِي بِهِ أَمَرَ ، فَلَمَّا فَرَغْتُ قُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللهُ عَمَّ يُسْأَلُ ابْنُكَ ؟ مَنْ يَسْأَلُهُ إِيَّاهُ ؟ قَالَ : يُسْأَلُ عَنِ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَقَرَّ بِهِ فِي صُلْبِ آدَمَ ، قُلْتُ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ وَمَا هَذَا الْمِيثَاقُ الَّذِي أَقَرَّ بِهِ فِي صُلْبِ آدَمَ ؟ قَالَ : حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ اللهَ مَسَحَ صُلْبَ آدَمَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ كُلَّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَأَخَذَ مِنْهُمُ الْمِيثَاقَ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَتَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْأَرْزَاقِ ثُمَّ أَعَادَهُمْ فِي صُلْبِهِ فَلَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يُولَدَ مَنْ أَعْطَى الْمِيثَاقَ

يَوْمَئِذٍ ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهُمُ الْمِيثَاقَ الْآخِرَ فَوَفَّى بِهِ نَفَعَهُ الْمِيثَاقُ الْأَوَّلُ ، وَمَنْ أَدْرَكَ الْمِيثَاقَ الْآخِرَ فَلَمْ يُقِرَّ بِهِ لَمْ يَنْفَعْهُ الْمِيثَاقُ الْأَوَّلُ ، وَمَنْ مَاتَ صَغِيرًا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ الْمِيثَاقَ الْآخِرَ مَاتَ عَلَى الْمِيثَاقِ الْأَوَّلِ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَهَذِهِ الطُّرُقُ كُلُّهَا مِمَّا تُقَوِّي وَقْفَ هَذَا عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(260/296)

(حَدِيثٌ آخَرُ) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي ظَبْيَةَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ عَنِ الْأَجْلَحِ عَنِ الضَّحَّاكِ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ قَالَ : " أَخَذَ مِنْ ظَهْرِهِ كَمَا يُؤْخَذُ بِالْمُشْطِ مِنَ الرَّأْسِ فَقَالَ لَهُمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى . قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ " ، أَحْمَدُ بْنُ أَبِي ظَبْيَةَ هَذَا هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجُرْجَانِيُّ قَاضِي قُومَسَ ، كَانَ أَحَدَ الزُّهَّادِ ، أَخْرَجَ لَهُ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ وَقَالَ :

(261/296)

أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ يُكْتَبُ حَدِيثُهُ ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ : حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ غَرَائِبَ ، وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَمْزَةَ بْنِ مَهْدِيٍّ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَوْلَهُ ، وَكَذَا رَوَاهُ جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ بِهِ ، وَهَذَا أَصَحُّ وَاللهُ أَعْلَمُ :

(حَدِيثٌ آخَرُ) قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا رَوْحٌ هُوَ ابْنُ عُبَادَةَ حَدَّثَنَا مَالِكٌ ، وَحَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ أَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ أَخْبَرَهُ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى الْآيَةَ . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ : إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ " فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : " إِذَا خَلَقَ اللهُ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ

النَّارِ فَيُدْخِلُهُ بِهِ النَّارَ وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنِ الْقَعْنَبِيِّ وَالنَّسَائِيِّ عَنْ قُتَيْبَةَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ مُوسَى عَنْ مَعْنٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى عَنِ ابْنِ وَهْبٍ ، وَابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ رَوْحِ بْنِ عُبَادَةَ وَسَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي مُصْعَبٍ

(263/296)

الزُّبَيْرِيِّ كُلُّهُمْ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ بِهِ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ ، وَمُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ لَمْ يَسْمَعْ عُمَرَ ، وَكَذَا قَالَهُ أَبُو حَاتِمٍ وَأَبُو زُرْعَةَ ، زَادَ أَبُو حَاتِمٍ وَبَيْنَهُمَا نُعَيْمُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ أَبُو حَاتِمٍ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُصَفًّى عَنْ بَقِيَّةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ جَعْثَمٍ الْقُرَشِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَذَكَرَهُ . وَقَالَ الْحَافِظُ الدَّارَقُطْنِيُّ : وَقَدْ تَابَعَ عَمْرُو بْنُ جَعْثَمِ بْنِ زَيْدِ بْنِ سِنَانٍ أَبُو فَرْوَةَ الرَّهَاوِيَّ ، وَقَوْلُهُمَا أَوْلَى بِالصَّوَابِ مِنْ قَوْلِ مَالِكٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ : (قُلْتُ) : الظَّاهِرُ أَنَّ الْإِمَامَ مَالِكًا إِنَّمَا أَسْقَطَ ذِكْرَ

نُعَيْمِ بْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا جَهِلَ حَالَ نُعَيْمٍ ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ إِلَّا فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، وَلِذَلِكَ يُسْقِطُ ذِكْرَ جَمَاعَةٍ مِمَّنْ لَا يَرْتَضِيهِمْ ، وَلِهَذَا يُرْسِلُ كَثِيرًا مِنَ الْمَرْفُوعَاتِ ، وَيَقْطَعُ كَثِيرًا مِنَ الْمَوْصُولَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(264/296)

(حَدِيثٌ آخَرُ) قَالَ التِّرْمِذِيَّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ : أَيْ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ عَيْنَيْهِ قَالَ : أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ . قَالَ : رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ ؟ قَالَ : سِتِّينَ سَنَةً . قَالَ : أَيْ رَبِّ قَدْ وَهَبْتُ لَهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ قَالَ : أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ ، قَالَ : أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ ؟ قَالَ : فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَقَدْ

رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي نُعَيْمٍ الْفَضْلِ بْنِ دُكَيْنٍ بِهِ وَقَالَ : صَحِيحٌ عَلَى

(265/296)

شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ ، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ إِلَى أَنْ قَالَ : " ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ : يَا آدَمُ هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ ، وَإِذَا فِيهِمُ الْأَجْذَمُ وَالْأَبْرَصُ وَالْأَعْمَى وَأَنْوَاعُ الْأَسْقَامِ فَقَالَ آدَمُ : يَا رَبِّ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا بِذُرِّيَّتِي ؟ قَالَ كَيْ تُذْكَرَ نِعْمَتِي . وَقَالَ آدَمُ : يَا رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرَاهُمْ أَظْهَرَ النَّاسِ نُورًا ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ يَا آدَمُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ " ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ دَاوُدَ كَنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ .

(حَدِيثٌ آخَرُ) قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ قَتَادَةَ النَّضْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْتَدِأُ الْأَعْمَالَ أَمْ قَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ " إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَخَذَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ فِي كَفَّيْهِ ثُمَّ قَالَ هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ

وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ " رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرْقٍ عَنْهُ .

(266/296)

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى جَعْفَرُ بْنُ الزُّبَيْرِ - وَهُوَ ضَعِيفٌ عَنِ الْقَاسِمِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ وَقَضَى الْقَضِيَّةَ أَخَذَ أَهْلَ الْيَمِينِ بِيَمِينِهِ ، وَأَهْلَ الشِّمَالِ بِشِمَالِهِ ، فَقَالَ يَا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فَقَالُوا : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ . قَالَ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى : ثُمَّ خَلَطَ بَيْنَهُمْ ، فَقَالَ قَائِلٌ لَهُ : يَا رَبِّ لِمَ خَلَطْتَ بَيْنَهُمْ ؟ قَالَ : لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ أَنْ يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، ثُمَّ رَدَّهُمْ فِي صُلْبِ آدَمَ رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ .

(أَثَرٌ آخَرُ) قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ الْآيَاتِ . قَالَ : فَجَمَعَهُمْ لَهُ يَوْمَئِذٍ جَمِيعًا مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَجَعَلَهُمْ فِي صُوَرِهِمْ ثُمَّ اسْتَنْطَقَهُمْ فَتَكَلَّمُوا ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى الْآيَةَ . قَالَ :

فَإِنِّي أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ ، وَأُشْهِدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ نَعْلَمْ بِهَذَا ، اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي ،

(267/296)

وَلَا رَبَّ غَيْرِي ، وَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا ، وَإِنِّي سَأُرْسِلُ لَكُمْ رُسُلًا لِيُنْذِرُوكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي ، وَأُنْزِلُ عَلَيْكُمْ كُتُبِي ، قَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ فَأَقَرُّوا لَهُ يَوْمَئِذٍ بِالطَّاعَةِ ، وَرَفَعَ أَبَاهُمْ آدَمُ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ فَرَأَى فِيهِمُ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ وَحَسَنَ الصُّورَةِ وَدُونَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ لَوْ سَوَّيْتَ بَيْنَ عِبَادِكَ ، قَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُشْكَرَ . وَرَأَى فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ مِثْلَ السُّرُجِ عَلَيْهِمُ النُّورُ وَخَصُّوا بِمِيثَاقٍ آخَرَ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ فَهُوَ الَّذِي يَقُولُ تَعَالَى وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ (33 : 7) الْآيَةَ . وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ (30 : 30) الْآيَةَ . وَمِنْ ذَلِكَ قَالَ : هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (53 : 56) وَمِنْ ذَلِكَ قَالَ : وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ (7 : 102) الْآيَةَ . رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِ أَبِيهِ ، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفَاسِيرِهِمْ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ بِهِ ، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ وَغَيْرِ

وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ سِيَاقَاتٌ تُوَافِقُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ اكْتَفَيْنَا بِإِيرَادِهَا عَنِ التَّطْوِيلِ فِي تِلْكَ الْآثَارِ كُلِّهَا وَبِاللهِ الْمُسْتَعَانُ .

(268/296)

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ وَمَيَّزَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، وَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ فَمَا هُوَ إِلَّا فِي حَدِيثِ كُلْثُومِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُمَا مَوْقُوفَانِ لَا مَرْفُوعَانِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ قَائِلُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِشْهَادِ إِنَّمَا هُوَ فَطْرُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشَعِيِّ ، وَمِنْ رِوَايَةِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سُرَيْعٍ ، وَقَدْ فَسَّرَ الْحَسَنُ الْآيَةَ بِذَلِكَ قَالُوا وَلِهَذَا قَالَ : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَمْ يَقُلْ مِنْ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ، وَلَمْ يَقُلْ مَنْ ظَهْرِ ذُرِّيَّاتِهِمْ أَيْ : جَعَلَ نَسْلَهُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ (6 : 165) وَقَالَ : وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ (27 : 62) وَقَالَ : كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (6 : 133) ثُمَّ قَالَ : وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى أَيْ أَوْجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا . وَالشَّهَادَةُ تَارَةً تَكُونُ

بِالْقَوْلِ كَقَوْلِهِ : قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا (6 : 130) الْآيَةَ . وَتَارَةً تَكُونُ حَالًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ

(269/296)

أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ (9 : 17) أَيْ : حَالُهُمْ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ، لَا أَنَّهُمْ قَائِلُونَ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (100 : 7) كَمَا أَنَّ السُّؤَالَ تَارَةً يَكُونُ

بِالْقَالِ ، وَتَارَةً يَكُونُ بِالْحَالِ ، كَقَوْلِهِ : وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (14 : 34) قَالُوا : وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِشْهَادَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ فِي الْإِشْرَاكِ ، فَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ هَذَا كَمَا قَالَهُ مَنْ قَالَ لَكَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَذْكُرُهُ ؛ لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَيْهِ ، فَإِنْ قِيلَ : إخْبَارُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهِ كَافٍ فِي وُجُودِهِ ، فَالْجَوَابُ : أَنَّ الْمُكَذِّبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُكَذِّبُونَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ ، وَهَذَا جُعِلَ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً عَلَيْهِمْ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْفِطْرَةُ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا مِنَ الْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : أَنْ تَقُولُوا أَيْ : لِئَلَّا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَيْ : عَنِ التَّوْحِيدِ غَافِلِينَ : أَوْ تَقُولُوا إنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا الْآيَةَ . انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ كَثِيرٍ

.

وَقَدْ بَسَطَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي كِتَابِ الرُّوحِ فِي سِيَاقِ الْبَحْثِ فِي خَلْقِ الْأَرْوَاحِ قَبْلَ الْأَجْسَادِ - فَذَكَرَ الرِّوَايَاتِ الْمَرْفُوعَةَ وَالْمَوْقُوفَةَ وَالْآثَارَ فِيهَا وَمَا قِيلَ مِنَ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ فِي أَسَانِيدِهَا ثُمَّ قَالَ : .

(270/296)

وَهَاهُنَا أَرْبَعُ مَقَامَاتٍ (أَحَدُهَا) أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اسْتَخْرَجَ صُوَرَهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ ، فَمَيَّزَ شَقِيَّهُمْ وَسَعِيدَهُمْ وَمُعَافَاهُمْ مِنْ مُبْتَلَاهُمْ . (وَالثَّانِي) أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ حِينَئِذٍ ، وَأَشْهَدَهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَاسْتَشْهَدَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتَهُ . (الثَّالِثُ) أَنَّ هَذَا هُوَ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ (الرَّابِعُ) أَنَّهُ أَقَرَّ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا بَعْدَ إِخْرَاجِهَا بِمَكَانٍ وَفَرَاغٍ مِنْ خَلْقِهَا ، وَإِنَّمَا يَتَجَدَّدُ كُلَّ وَقْتِ إِرْسَالِ جُمْلَةٍ مِنْهَا بَعْدَ جُمْلَةٍ إِلَى أَبْدَانِهَا .

(فَأَمَّا الْمَقَامُ الْأَوَّلُ) فَالْآثَارُ مُتَظَاهِرَةٌ بِهِ مَرْفُوعَةً وَمَوْقُوفَةً . (وَأَمَّا الْمَقَامُ الثَّانِي) فَإِنَّمَا أَخَذَهُ مَنْ أَخَذَهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْآيَةِ وَظَنُّوا أَنَّهُ تَفْسِيرُهَا ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَثَرِ . قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ : جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ لِأَمْثَالِ الذَّرِّ الَّتِي أَخْرَجَهَا فَهْمًا تَعْقِلُ بِهِ كَمَا قَالَ : قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ (27 : 18) وَقَدْ سَخَّرَ مَعَ

دَاوُدَ الْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَهُ وَالطَّيْرَ . وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَكُبَرَاءِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ وَأَصْلَابِ

(271/296)

أَوْلَادِهِ وَهُمْ فِي صُوَرِ الذَّرِّ ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ أَنَّهُ خَالِقُهُمْ ، وَأَنَّهُمْ مَصْنُوعُونَ فَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ وَقَبِلُوا ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ رَكَّبَ فِيهِمْ عُقُولًا عَرَفُوا بِهَا مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ كَمَا جَعَلَ لِلْجَبَلِ عَقْلًا حِينَ خُوطِبَ ، وَكَمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِالْبَعِيرِ لَمَّا سَجَدَ ، وَالنَّخْلَةِ الَّتِي سَمِعَتْ وَانْقَادَتْ حِينَ دُعِيَتْ .

وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ : لَيْسَ بَيْنَ قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إنَّ اللَّهَ مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ فَأَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ " وَبَيْنَ الْآيَةِ اخْتِلَافٌ بِحَمْدِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إذَا أَخَذَهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ فَقَدْ أَخَذَهُمْ مِنْ ظُهُورِ ذُرِّيَّتِهِ ؛ لِأَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ ذُرِّيَّةٌ لِذُرِّيَّتِهِ ، بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَيْ : عَنِ الْمِيثَاقِ الْمَأْخُوذِ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ شُهُودًا عَلَيْهِمْ بِأَخْذِ الْمِيثَاقِ . قَالَ : وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى التَّفْسِيرِ الَّذِي جَاءَتْ

(272/296)

بِهِ الرِّوَايَةُ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ : اشْهَدُوا فَقَالُوا : شَهِدْنَا . قَالَ : وَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْمِيثَاقَ إِنَّمَا أُخِذَ عَلَى الْأَرْوَاحِ دُونَ الْأَجْسَادِ ؛ لِأَنَّ الْأَرْوَاحَ هِيَ الَّتِي تَعْقِلُ وَتَفْهَمُ ، وَلَهَا الثَّوَابُ وَعَلَيْهَا الْعِقَابُ ، وَالْأَجْسَادُ أَمْوَاتٌ لَا تَعْقِلُ وَلَا تَفْهَمُ . قَالَ : وَكَانَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ يَذْهَبُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى ، وَذَكَرَ أَنَّهُ قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ . قَالَ إِسْحَاقُ : وَأَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّهَا الْأَرْوَاحُ قَبْلَ الْأَجْسَادِ اسْتَنْطَقَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ ، قَالَ الْجُرْجَانِيُّ : وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ (3 : 169) وَالْأَجْسَادُ قَدْ بَلِيَتْ ، وَضَلَّتْ فِي الْأَرْضِ ، وَالْأَرْوَاحُ تُرْزَقُ وَتَفْرَحُ ، وَهِيَ الَّتِي تَلَذُّ وَتَأْلَمُ ، وَتَفْرَحُ وَتَحْزَنُ وَتَعْرِفُ وَتُنْكِرُ ، وَبَيَانُ ذَلِكَ فِي الْأَحْلَامِ مَوْجُودٌ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ يُصْبِحُ وَأَثَرُ لَذَّةِ الْفَرَحِ وَأَلَمِ الْحُزْنِ بَاقٍ فِي نَفْسِهِ مِمَّا تُلَاقِي الرُّوحُ دُونَ الْجَسَدِ .

(273/296)

قَالَ : وَحَاصِلُ الْفَائِدَةِ فِي هَذَا الْفَصْلِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَثْبَتَ الْحُجَّةَ عَلَى كُلِّ مَنْفُوسٍ مِمَّنْ يُبَلَّغُ ، وَمِمَّنْ لَمْ يُبَلِّغْ بِالْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ ، وَزَادَ عَلَى مَنْ بُلِّغَ مِنْهُمُ الْحَجَّةَ بِالْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ الَّتِي نَصَبَهَا فِي نَفْسِهِ وَفِي الْعَالَمِ وَبِالرُّسُلِ الْمُنْفَذَةِ إِلَيْهِمْ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ،

وَبِالْمَوَاعِظِ بِالْمُثُلَاتِ الْمَنْقُولَةِ إِلَيْهِمْ أَخْبَارُهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُطَالِبُ أَحَدًا مِنْهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا لَزِمَهُ مِنَ الْحُجَّةِ ، وَرَكَّبَ فِيهِمْ مِنَ الْقُدْرَةِ ، وَآتَاهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ . وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ مَا هُوَ عَامِلٌ فِي الْبَالِغِينَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْأَمْرَ

وَالنَّهْيَ ، وَحَجَبَ عَنَّا عِلْمَ مَا قَدَّرَهُ فِي غَيْرِ الْبَالِغِينَ ، إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ عَدْلٌ لَا يَجُورُ فِي حُكْمِهِ ، وَحَكِيمٌ لَا تَفَاوُتَ فِي صُنْعِهِ ، وَقَادِرٌ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(فَصْلٌ)

(274/296)

وَنَازَعَ هَؤُلَاءِ غَيْرُهُمْ فِي كَوْنِ هَذَا مَعْنَى الْآيَةِ ، وَقَالُوا مَعْنَى قَوْلِهِ : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ أَيْ : أَخْرَجَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا نُطَفًا فِي أَصْلَابِ الْآبَاءِ إِلَى الدُّنْيَا عَلَى تَرْتِيبِهِمْ فِي الْوُجُودِ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُ رَبُّهُمْ بِمَا أَظْهَرَ لَهُمْ مِنْ آيَاتِهِ وَبَرَاهِينِهِ الَّتِي تَضْطَرُّهُمْ إِلَى أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ خَالِقُهُمْ ، فَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَفِيهِ مِنْ صَنْعَةِ رَبِّهِ مَا يَشْهَدُ عَلَى أَنَّهُ بَارِيهِ ، وَنَافِذُ الْحُكْمِ فِيهِ ، فَلَمَّا عَرَفُوا ذَلِكَ وَدَعَاهُمْ كُلُّ مَا يَرَوْنَ وَيُشَاهِدُونَ إِلَى التَّصْدِيقِ بِهِ كَانُوا بِمَنْزِلَةِ الشَّاهِدِينَ وَالْمُشْهَدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِصِحَّتِهِ . كَمَا قَالَ فِي غَيْرِ

هَذَا الْمَوْضِعِ : شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ (9 : 17) يُرِيدُهُمْ بِمَنْزِلَةِ الشَّاهِدِينَ ، وَإِنْ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ كَفَرَةٌ ، وَكَمَا تَقُولُ : قَدْ شَهِدَتْ جَوَارِحِي بِقَوْلِكَ ، تُرِيدُ : قَدْ عَرَفْتُهُ ، فَكَأَنَّ جَوَارِحِي لَوِ اسْتُشْهِدَتْ وَفِي وُسْعِهَا أَنْ تَنْطِقَ لَشَهِدَتْ ، وَمِنْ هَذَا إِعْلَامُهُ وَتَبْيِينُهُ أَيْضًا شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (3 : 18) يُرِيدُ : أَعْلَمَ وَبَيَّنَ فَأَشْبَهَ ذَلِكَ شَهَادَةَ مَنْ شَهِدَ عِنْدَ الْحُكَّامِ وَغَيْرِهِمْ . هَذَا كَلَامُ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ . وَزَادَ الْجُرْجَانِيُّ بَيَانًا لِهَذَا الْقَوْلِ فَقَالَ حَاكِيًا عَنْ أَصْحَابِهِ : إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ وَنَفَذَ عِلْمُهُ

(275/296)

فِيهِمْ بِمَا هُوَ كَائِنٌ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ بَعْدُ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ كَالْكَائِنِ إِذْ عِلْمُهُ بِكَوْنِهِ مَانِعٌ مِنْ غَيْرِ كَوْنِهِ نَابِعٌ فِي مَجَازِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يُوضَعَ مَا هُوَ مُنْتَظَرٌ بَعْدُ - مِمَّا لَمْ يَقَعْ بَعْدُ - مَوْقِعَ الْوَاقِعِ ، لِسَبْقِ عِلْمِهِ بِوُقُوعِهِ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ : وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ (7 : 50) وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ (7 : 44) - وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ (7 : 48) قَالَ : فَيَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ : وَإِذْ يَأْخُذُ رَبُّكَ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَيْ : وَيُشْهِدُهُمْ بِمَا رَكَّبَهُ فِيهِمْ مِنَ الْعَقْلِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْفَهْمُ ، وَيَجِبُ بِهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ

وَكُلُّ مَنْ وُلِدَ وَبَلَغَ الْحِنْثَ ، وَعَقَلَ الضُّرَّ وَالنَّفْعَ ، وَفَهِمَ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ ، وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ ، صَارَ كَأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ فِي التَّوْحِيدِ بِمَا رَكَّبَ فِيهِ مِنَ

(276/296)

الْعَقْلِ ، وَأَرَاهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ عَلَى حُدُوثِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَلَقَ نَفْسَهُ ، وَإِذَا لَمْ يَجُزْ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ خَالِقٍ هُوَ غَيْرُهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ ، وَلَيْسَ مِنْ مَخْلُوقٍ يَبْلُغُ هَذَا الْمَبْلَغَ ، وَلَمْ يَقْدَحْ فِيهِ مَانِعٌ مَنْ فَهِمَ إِلَّا إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ يَفْزَعُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَيُشِيرُ إِلَيْهَا بِإِصْبَعِهِ عِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّ خَالِقَهُ تَعَالَى فَوْقَهُ ، وَإِذَا كَانَ الْعَقْلُ الَّذِي مِنْهُ الْفَهْمُ وَالْإِفْهَامُ مُؤَدِّيًا إِلَى مَعْرِفَةِ مَا ذَكَرْنَا وَدَالًّا عَلَيْهِ ، فَكُلُّ مَنْ بَلَغَ هَذَا الْمَبْلَغَ فَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ ، إِذْ جَعَلَ فِيهِ السَّبَبَ وَالْأَدِلَّةَ اللَّذَيْنِ بِهِمَا يُؤْخَذُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ ، وَجَائِزٌ أَنْ يُقَالَ لَهُ قَدْ أَقَرَّ وَأَذْعَنَ وَأَسْلَمَ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا (13 : 15) قَالَ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَنْتَبِهَ .

(277/296)

وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ثُمَّ قَالَ : وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (33 : 72) الْأَمَانَةُ هِيَ عَهْدٌ وَمِيثَاقٌ . فَامْتِنَاعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ مِنْ حَمْلِ الْأَمَانَةِ خُلُوُّهَا مِنَ الْعَقْلِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْفَهْمُ وَالْإِفْهَامُ ، وَحَمْلُ الْإِنْسَانِ إِيَّاهَا لِمَكَانِ الْعَقْلِ فِيهِ . قَالَ : وَلِلْعَرَبِ فِيهَا ضُرُوبُ نَظْمٍ فَمِنْهَا قَوْلُهُ :

ضَمِنَ الْقَنَانُ لِفَقْعَسٍ بِثَبَاتِهَا . . . إِنَّ الْقَنَانَ لِفَقْعَسٍ لَا يَأْتَلِي

وَالْقَنَانُ : جَبَلٌ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ ضَمِنَ لِفَقْعَسٍ وَضَمَانُهُ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا حَزَبَهُمْ أَمْرٌ مِنْ هَزِيمَةٍ أَوْ خَوْفٍ لَجَئُوا إِلَيْهِ فَجَعَلَ ذَلِكَ كَالضَّمَانِ لَهُمْ ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّابِغَةِ :

كَأَجَارِفِ الْجُولَانِ هَلَّلَ رَبَّهُ . . . وَجُورَانُ مِنْهَا خَاشِعٌ مُتَضَائِلُ

وَأَجَارِفُ الْجَوْلَانِ جِبَالُهَا ، وَجُورَانُ الْأَرْضُ الَّتِي إِلَى جَانِبِهَا . وَقَالَ هَذَا الْقَائِلُ إِنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ دَلِيلًا عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ ; لِأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْأَخْذَ لِلْعَهْدِ عَلَيْهِمْ لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، وَالْغَفْلَةُ هَاهُنَا لَا تَخْلُو مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ :

إمَّا أَنْ تَكُونَ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، أَوْ عَنْ أَخْذِ الْمِيثَاقِ . فَأَمَّا يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَلَمْ يَذْكُرْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ أَخَذَ

(279/296)

عَلَيْهِمْ عَهْدًا وَمِيثَاقًا بِمَعْرِفَةِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ مَعْرِفَتَهُ فَقَطْ ، وَأَمَّا أَخْذُ الْمِيثَاقِ فَالْأَطْفَالُ ، وَالْأَسْقَاطُ إنْ كَانَ هَذَا الْعَهْدُ مَأْخُوذًا عَلَيْهِمْ - كَمَا قَالَ الْمُخَالِفُ - فَهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا بَعْدَمَا أَخَذَ هَذَا الْمِيثَاقَ عَلَيْهِمْ مُبْلَغًا يَكُونُ مِنْهُمْ غَفْلَةٌ عَنْهُ فَيَجْحَدُونَهُ وَيُنْكِرُونَهُ ، فَمَتَى تَكُونُ هَذِهِ الْغَفْلَةُ مِنْهُمْ ، وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ ؟ وَذِكْرُ مَا لَا يَجُوزُ وَلَا يَكُونُ مُحَالٌ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : أَوْ تَقُولُوا إنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ فَلَا يَخْلُو هَذَا الشِّرْكُ الَّذِي يُؤَاخِذُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ آبَائِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إلَّا بَعْدَ الْبُلُوغِ ، وَثُبُوتِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ إذِ الطِّفْلُ لَا يَكُونُ مِنْهُ شِرْكٌ وَلَا غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ فَالْأُمَّةُ مُجْمِعَةٌ عَلَى أَلَّا تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْكِتَابِ ، وَلَيْسَ هَذَا بِمُخَالِفٍ لِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إنَّ اللَّهَ مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ وَأَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ لِأَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اقْتَصَّ

قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَجَاءَ مِثْلَ نَظْمِهِ فَوَضَعَ الْمَاضِي مِنَ اللَّفْظِ مَوْضِعَ الْمُسْتَقْبَلِ ، قَالَ : وَهَذَا شَبِيهٌ بِقِصَّةِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

(280/296)

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ (3 : 81) فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ مَا أَنْزَلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ مِيثَاقًا أَخَذَهُ مِنْ أُمَمِهِمْ بَعْدَهُمْ ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ (3 : 81) ثُمَّ قَالَ لِلْأُمَمِ : أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (3 : 81) فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ بُلُوغَ الْأُمَمِ كِتَابُهُ الْمُنَزَّلُ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ حُجَّةً عَلَيْهِمْ كَأَخْذِ الْمِيثَاقِ عَلَيْهِمْ ، وَجَعَلَ مَعْرِفَتَهُمْ بِهِ إِقْرَارًا مِنْهُمْ . قُلْتُ : وَشَبِيهٌ بِهِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا (5 : 7) فَهَذَا مِيثَاقُهُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ إِرْسَالِ رُسُلِهِ إِلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَتَصْدِيقِهِ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (13 : 20) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36 : 60 ، 61) فَهَذَا عَهْدُهُ إِلَيْهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ

بِعَهْدِكُمْ (2 : 40) وَمِثْلُهُ : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ

(281/296)

(3 : 187) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (33 : 7) فَهَذَا مِيثَاقٌ أَخَذَهُ مِنْهُمْ بَعْدَ بَعْثِهِمْ ، كَمَا أَخَذَ مِنْ أُمَمِهِمْ بَعْدَ إِنْذَارِهِمْ ، وَهَذَا الْمِيثَاقُ الَّذِي لَعَنَ سُبْحَانَهُ مَنْ نَقَضَهُ وَعَاقَبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً (5 : 13) فَإِنَّمَا عَاقَبَهُمْ بِنَقْضِهِمُ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(282/296)

(2 : 63) وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَنَظِيرُهَا فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ خَاطَبَ بِالتَّذْكِيرِ بِهَذَا الْمِيثَاقِ فِيهَا أَهْلَ الْكِتَابِ فَإِنَّهُ مِيثَاقٌ أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرُسُلِهِ ، وَلَمَّا كَانَتْ آيَةُ الْأَعْرَافِ هَذِهِ فِي سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ ذَكَرَ فِيهَا الْمِيثَاقَ وَالْإِشْهَادَ الْعَامَّ لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ مِمَّنْ أَقَرُّوا بِرُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ ، وَهُوَ مِيثَاقٌ وَإِشْهَادٌ تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَيَنْقَطِعُ بِهِ الْعُذْرُ ، وَتَحِلُّ بِهِ الْعُقُوبَةُ ، وَيَسْتَحِقُّ بِمُخَالَفَتِهِ الْإِهْلَاكُ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَاكِرِينَ لَهُ عَارِفِينَ بِهِ ، وَذَلِكَ بِمَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَفَاطِرُهُمْ ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ يُذَكِّرُونَهُمْ بِمَا فِي فِطَرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ ، وَنَظْمُ الْآيَةِ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ : (أَحَدُهَا) أَنَّهُ قَالَ : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَمْ يَقُلْ آدَمَ وَبَنِي آدَمَ . (الثَّانِي) أَنَّهُ قَالَ : مِنْ ظُهُورِهِمْ وَلَمْ يَقُلْ ظَهْرَهُ ، وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ أَوْ بَدَلُ اشْتِمَالٍ وَهُوَ أَحْسَنُ (الثَّالِثُ) أَنَّهُ قَالَ (ذُرِّيَّتَهُمْ) وَلَمْ يَقُلْ ذُرِّيَّتَهُ . (الرَّابِعُ) أَنَّهُ قَالَ : وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَيْ : جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِرًا لِمَا شَهِدَ بِهِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ

شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهَا ، (الْخَامِسُ) أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الْإِشْهَادِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ وَالْحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ وَالْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (4.165) : (السَّادِسُ) تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ مَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ بِالْإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلِّهِمْ ، وَإِشْهَادِهِمْ

(284/296)

جَمِيعًا ذَلِكَ الْوَقْتَ ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ (السَّابِعُ) قَوْلُهُ تَعَالَى : أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا التَّعْرِيفِ وَالْإِشْهَادِ : (إِحْدَاهُمَا) أَلَّا يَدَّعُوا الْغَفْلَةَ . (وَالثَّانِيَةُ) أَلَّا يَدَّعُوا التَّقْلِيدَ فَالْغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ ، وَالْمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ . (الثَّامِنُ) قَوْلُهُ تَعَالَى : أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ أَيْ : لَوْ عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ وَشِرْكِهِمْ لَقَالُوا ذَلِكَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ لِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ ، وَتَكْذِيبِهِمْ ، فَلَوْ أَهْلَكَهُمْ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ فِي شِرْكِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ لَأَهْلَكَهُمْ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ أَوْ أَهْلَكَهُمْ مَعَ غَفْلَتِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ بُطْلَانِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ

يَكُنْ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ . (التَّاسِعُ) أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (29 : 61) أَيْ : فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ التَّوْحِيدِ بَعْدَ هَذَا الْإِقْرَارِ مِنْهُمْ أَنَّ اللهَ رَبَّهُمْ وَخَالِقَهُمْ ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ ، فَهَذِهِ هِيَ الْحُجَّةُ الَّتِي

(285/296)

أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَضْمُونِهَا ، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (14 : 10) فَاللهُ تَعَالَى إِنَّمَا ذَكَّرَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ بِهَذَا الْإِقْرَارِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَلَمْ يُذَكِّرْهُمْ قَطُّ بِإِقْرَارٍ سَابِقٍ عَلَى إِيجَادِهِمْ وَلَا أَقَامَ بِهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةً . (الْعَاشِرُ) أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً ، وَهِيَ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ الْبَيِّنَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا الْمَدْلُولُ ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعِينَةٌ عَلَى مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةٍ لِلْعِلْمِ بِهِ فَقَالَ تَعَالَى : وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ أَيْ مِثْلُ هَذَا التَّفْصِيلِ وَالتَّبْيِينِ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ مِنَ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي فَصَّلَهَا هِيَ الَّتِي بَيَّنَهَا فِي كِتَابِهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَهِيَ آيَاتٌ أُفُقِيَّةٌ وَنَفْسِيَّةٌ ، آيَاتٌ فِي نُفُوسِهِمْ

وَذَوَاتِهِمْ وَخُلُقِهِمْ ، وَآيَاتٌ فِي الْأَقْطَارِ وَالنَّوَاحِي مِمَّا يُحْدِثُهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى وُجُودِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ ، وَعَلَى الْمَعَادِ وَالْقِيَامَةِ ، وَمِنْ أَبْيَنِهَا مَا أَشْهَدَ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنَّهُ

(286/296)

رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَمُبْدِعُهُ ، وَأَنَّهُ مَرْبُوبٌ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، وَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ حَدَثَ بِلَا مُحْدِثٍ أَوْ يَكُونَ هُوَ الْمُحْدِثُ لِنَفْسِهِ ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهَذَا الْإِقْرَارُ وَالْمُشَاهَدَةُ فِطْرَةٌ فُطِرُوا عَلَيْهَا لَيْسَتْ بِمُكْتَسَبَةٍ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ مُطَابَقَةٌ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (30 : 30 ، 31) وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا هَذَا الْقَوْلَ فَقَطْ كَالزَّمَخْشَرِيِّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا الْقَوْلَ الْأَوَّلَ فَقَطْ . وَمِنْهُمْ مَنْ حَكَى الْقَوْلَيْنِ ، كَابْنِ الْجَوْزِيِّ وَالْوَاحِدِيِّ وَالْمَاوَرْدِيِّ وَغَيْرِهِمْ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى الْجُرْجَانِيُّ : فَإِنِ اعْتَرَضَ مُعْتَرِضٌ فِي هَذَا الْفَصْلِ بِحَدِيثٍ يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ اللهَ

مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ فَأَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ ثُمَّ رَدَّهُمْ فِي ظَهْرِهِ وَقَالَ إِنَّ هَذَا مَانِعٌ مِنْ جَوَازِ التَّأْوِيلِ الَّذِي ذَهَبْتَ إِلَيْهِ لِامْتِنَاعِ رَدِّهِمْ فِي الظَّهْرِ ، إِنْ كَانَ أَخْذُ الْمِيثَاقِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ الْبُلُوغِ وَتَمَامِ

(287/296)

الْعَقْلِ قِيلَ لَهُ : إِنَّ مَعْنَى " ثُمَّ رَدَّهُمْ فِي ظَهْرِهِ " ثُمَّ يَرُدُّهُمْ فِي ظَهْرِهِ ، كَمَا قُلْنَا إِنَّ مَعْنَى أَخَذَ رَبُّكَ : يَأْخُذُ رَبُّكَ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ : ثُمَّ يَرُدُّهُمْ فِي ظَهْرِهِ بِوَفَاتِهِمْ : لِأَنَّهُمْ إِذَا مَاتُوا رُدُّوا إِلَى الْأَرْضِ لِلدَّفْنِ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْهَا وَرُدَّ فِيهَا ، فَإِذَا رُدُّوا فِيهَا فَقَدْ رُدُّوا فِي آدَمَ ، وَفِي ظَهْرِهِ إِذْ كَانَ آدَمُ خُلِقَ مِنْهَا ، وَفِيهَا رَدُّ بَعْضِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ ، وَفِيمَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَأْوِيلِ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى ظَاهِرِهِ تَفَاوُتٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، إِلَّا أَنْ يُرَدَّ تَأْوِيلُهُ إِلَى مَا ذَكَرْنَا ؛ لِأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَلَمْ يَذْكُرْ آدَمَ فِي الْقِصَّةِ ، إِنَّمَا هُوَ هَاهُنَا مُضَافٌ إِلَيْهِ لِتَعْرِيفِ ذُرِّيَّتِهِ أَنَّهُمْ أَوْلَادُهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَلَا يُمْكِنُ رَدُّ مَا جَاءَ

فِي الْقُرْآنِ وَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ إِلَى الِاتِّفَاقِ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، قَالَ الْجُرْجَانِيُّ : وَأَنَا أَقُولُ " وَنَحْنُ إِلَى مَا رُوِيَ فِي الْآيَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ

أَهْلُ الْعِلْمِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ أَمِيلُ ، وَلَهُ أَقْبَلُ وَبِهِ آنَسُ ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ لِمَا هُوَ أَوْلَى وَأَهْدَى

(288/296)

عَلَى أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ قَدْ ذَكَرَ فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الْقَائِلِ مَعْنًى يُحْتَمَلُ وَيُسَوَّغُ فِي النَّظْمِ الْجَارِي ، وَمَجَازِ الْعَرَبِيَّةِ بِسُهُولَةٍ ، وَإِمْكَانٍ مِنْ غَيْرِ تَعَسُّفٍ وَلَا اسْتِكْرَاهٍ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَمَّا كَانَ مِنْهُ فِي أَخْذِ الْعَهْدِ عَلَيْهِمْ وَ " إِذْ " يَقْتَضِي جَوَابًا يَجْعَلُ جَوَابَهُ قَوْلَهُ تَعَالَى : قَالُوا بَلَى وَانْقَطَعَ هَذَا الْخَبَرُ بِتَمَامِ قِصَّتِهِ ، ثُمَّ ابْتَدَأَ عَزَّ وَجَلَّ خَبَرًا آخَرَ بِذِكْرِ مَا يَقُولُهُ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : " شَهِدْنَا " يَعْنِي نَشْهَدُ . قَالَ الْحُطَيْئَةُ :

شَهِدَ الْحُطَيْئَةُ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ . . . أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُذْرِ

(289/296)

بِمَعْنَى يَشْهَدُ الْحُطَيْئَةُ . يَقُولُ تَعَالَى نَشْهَدُ إِنَّكُمْ سَتَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَيْ : عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْمُنَاقَشَةِ وَالْمُؤَاخَذَةِ بِالْكُفْرِ ، ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهِ خَبَرًا آخَرَ فَقَالَ : أَوْ تَقُولُوا بِمَعْنَى : وَأَنْ تَقُولُوا ، لِأَنَّ " أَوْ " بِمَعْنَى وَاوِ النَّسَقِ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (76 : 24) فَتَأْوِيلُهُ وَنَشْهَدُ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَيْ إِنَّهُمْ : أَشْرَكُوا وَحَمَلُونَا عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي الشِّرْكِ فِي صِبَانَا ، فَجَرَيْنَا عَلَى مَذَاهِبِهِمْ ، وَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ فَلَا ذَنْبَ لَنَا إِذْ كُنَّا مُقْتَدِينَ بِهِمْ ، وَالذَّنْبُ فِي ذَلِكَ لَهُمْ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (43 : 23) يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُمْ : أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ أَيْ حَمْلُهُمْ إِيَّانَا عَلَى الشِّرْكِ ، فَتَكُونُ الْقِصَّةُ الْأُولَى خَبَرًا عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ بِأَخْذِ الْمِيثَاقِ عَلَيْهِمْ ، وَالْقِصَّةُ الثَّانِيَةُ خَبَرًا عَمَّا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الِاعْتِذَارِ ، وَقَالَ فِيمَا ادَّعَاهُ الْمُخَالِفُ : إِنَّهُ تَفَاوَتَ فِيمَا بَيْنَ الْكِتَابِ وَالْخَبَرِ ، لِاخْتِلَافِ أَلْفَاظِهِمَا فِيهِمَا ، قَوْلًا يَجِبُ قَبُولُهُ بِالنَّظَائِرِ وَالْعِبَرِ الَّتِي تُؤَيِّدُ بِهَا مُخَالَفَتَهُ فَقَالَ : إِنَّ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ اللَّهَ مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ أَفَادَ زِيَادَةَ خَبَرٍ

كَانَ فِي الْقِصَّةِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي الْكِتَابِ بَعْضَهَا ، وَلَمْ يَذْكُرْ كُلَّهَا ، وَلَوْ أَخْبَرَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِسِوَى هَذِهِ الزِّيَادَةِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا ، فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي أُخِذَ فِيهِ الْعَهْدُ مِمَّا لَمْ يُضَمِّنْهُ اللهُ كِتَابَهُ ، لَمَا كَانَ فِي ذَلِكَ خِلَافٌ وَلَا تَفَاوُتَ ، بَلْ كَانَ زِيَادَةً فِي الْفَائِدَةِ ، وَكَذَلِكَ الْأَلْفَاظُ إِذَا اخْتَلَفَتْ فِي ذَاتِهَا ، وَكَانَ مَرْجِعُهَا إِلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ تَنَاقُضًا ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ فِي خَلْقِ آدَمَ فَذَكَرَ مَرَّةً

(291/296)

أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ ، وَمَرَّةً أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ ، وَمَرَّةً مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ، وَمَرَّةً مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ، فَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ مُخْتَلِفَةٌ ، وَمَعَانِيهَا أَيْضًا فِي الْأَحْوَالِ مُخْتَلِفَةٌ ؛ لِأَنَّ الصَّلْصَالَ غَيْرُ الْحَمْأَةِ ، وَالْحَمْأَةُ غَيْرُ التُّرَابِ إِلَّا أَنَّ مَرْجِعَهَا كُلَّهَا فِي الْأَصْلِ إِلَى جَوْهَرٍ وَاحِدٍ وَهُوَ التُّرَابُ ، وَمِنَ التُّرَابِ تَدَرَّجَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ . فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَقَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّ اللهَ مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ مَعْنًى وَاحِدٌ فِي الْأَصْلِ إِلَّا أَنَّ قَوْلَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ فِي الْخَبَرِ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَسْحُهُ عَزَّ وَجَلَّ ظَهْرَ آدَمَ وَاسْتِخْرَاجُ ذُرِّيَّتِهِ مِنْهُ مَسْحٌ لِظُهُورِ ذُرِّيَّتِهِ ، وَاسْتِخْرَاجُ ذُرِّيَّاتِهِمْ مِنْ ظُهُورِهِمْ - كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى - ؛ لِأَنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ جَمِيعَ ذُرِّيَّةِ

آدَمَ لَمْ يَكُونُوا مِنْ صُلْبِهِ ، لَكِنَّ لَمَّا كَانَ الطَّبَقُ الْأَوَّلُ مِنْ صُلْبِهِ ، ثُمَّ الثَّانِي مِنْ صُلْبِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ الثَّالِثُ مِنْ صُلْبِ الثَّانِي جَازَ أَنْ يُنْسَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَى ظَهْرِ آدَمَ ؛ لِأَنَّهُمْ فَرْعُهُ وَهُوَ أَصْلُهُمْ ، وَكَمَا جَازَ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ اسْتَخْرَجَهُ مِنْ ظُهُورِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ جَازَ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ اسْتَخْرَجَهُ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ مِنْ ظُهُورِ ذُرِّيَّتِهِ ،

(292/296)

إِذِ الْأَصْلُ وَالْفَرْعُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، وَفِيهِ أَيْضًا أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَضَافَ الذُّرِّيَّةَ إِلَى آدَمَ فِي الْخَبَرِ احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ عَنِ الذُّرِّيَّةِ وَعَنْ آدَمَ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (26 : 4) وَالْخَبَرُ فِي الظَّاهِرِ عَنِ الْأَعْنَاقِ وَالنَّعْتُ لِلْأَسْمَاءِ الْمَكْنِيَّةِ فِيهَا ، وَهُوَ مُضَافٌ إِلَيْهَا كَمَا كَانَ آدَمُ مُضَافًا إِلَيْهِ هُنَاكَ ، وَلَيْسَتْ جَمِيعًا بِالْمَقْصُودِينَ فِي الظَّاهِرِ بِالْخَبَرِ ، وَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : (خَاضِعِينَ) لِلْأَعْنَاقِ ؛ لِأَنَّ وَجْهَ جَمْعِهَا خَاضِعَاتٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

وَتَشْرَقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَذَعْتُهُ . . . كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

فَالصَّدْرُ مُذَكَّرٌ وَقَوْلُهُ شَرِقَ أُنِّثَ لِإِضَافَةِ الصَّدْرِ إِلَى الْقَنَاةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 9 صـ 324. 339 ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾

معترضة بين القصتين ، والواو اعتراضية ، وتسمى واو الاستئناف أي مثل هذا التفصيل نفصل الآيات أي آيات القرآن ، وتقدم نظير هذا عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ في سورة الأنعام (55) .

وتفصيلها بيانها وتجريدها من الإلتباس .

وجملة : ﴿ ولعلهم يرجعون ﴾ عطف على جملة : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾ فهي في موقع الاعتراض ، وهذا إنشاء ترجّي رجوعِ المشركين إلى التوحيد ، وقد تقدم القول في تأويل معنى الرجاء بالنسبة إلى صدوره من جانب الله تعالى عنه قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ في سورة البقرة (21) .

والرجوع مستعار للإقلاع عن الشرك ، شُبه الإقلاع عن الحالة التي هم متلبسون بها بترك من حل في غير مقره الموضع الذي هو به ليرجع إلى مقره ، وهذا التشبيه يقتضي تشبيه حال

الإشراك بموضع الغُربة ، لأن الشرك ليس من مقتضى الفطرة فالتلبس به خروج عن أصل الخلقة كخروج المسافر عن موطنه ، ويقتضي أيضاً تشبيه حال التوحيد بمحل المرء وحيّه الذي يأوي إليه ، وقد تكرر في القرآن إطلاق الرجوع على إقلاع المشركين عن الشرك كقوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براءٌ مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ [الزخرف : 26 28] أي يرجعون عن الشرك ، وهو تعريض بالعرب ، لأنهم المشركون من عقب إبراهيم ، وبقرينة قوله : ﴿ بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسولٌ مبينٌ ﴾ [الزخرف : 29] ، فإني استقريْتُ من اصطلاح القرآن أنه يشير بهؤلاء إلى العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 صـ ﴾

(294/296)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) ﴾

والآيات التي فصلها الحق هنا هي العهود الخاصة ، ورفع الجبل ليأخذوا التوارة بقوة ، وكذلك العهد العام الذي اشترك فيه كل الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة ، وجاء

سبحانه بكل ذلك ليؤكد لهم أن قضية الإيمان عقيدةً يجب أن تكون في بؤرة الشعور ، فمن غفل فليتذكر ، ومن قلد آباه في شيء مخالف للمنهج القويم ، فليرجع عن هذا التقليد ؛ لأن التكاليف الإيمانية تكاليف ذاتية ، وسبحانه لا يكلفك وأنت في حاجة إلى أبيك ، أو إلى أمك . لكنه يكلفك من بعد البلوغ ؛ لأنك بعد البلوغ تستقل بذاتيتك استقلالاً كاملا مثل والدك ، ومادمت مكتمل الرجولة كوالدك وصالحا للإنجاب فلا ولاية إيمانية لأبيك عليك أبداً ، فلا تقل إنني أقلد أبي ولو كان على غير المنهج السليم ؛ لأن مثل هذا القول يمكن أن يكون مقبولاً لو كان التكليف للإنسان وهو في دور الطفولة ، حيث الأب يسعى لإطعام أبنائه ورعايتهم ، لكن التكليف لا يأتي للإنسان إلا بعد البلوغ ، ومعنى بعد البلوغ : أنك صالح لإنجاب مثلك ورعاية نفسك .

ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من الآباء أن يدربوا أبناءهم ويعودوهم على مطلوبات التكليف قبل مجيء أوان تكليف الله ، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام :

" مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع . . إلخ "

الأب إذن يأمرُ ويُعاقب قبل أوان التكليف ليتدرب الأبناء عليه ويصير دربة سهلة لا يتعب منها الإنسَان بعد البلوغ . ﴿ وكذلك نُفَصِّلُ الآيات وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

أي أن على الغافل أن يرجع عن غفلته فيتذكر ، وأن يرجع المقلد لآبائه عن التقليد ، ويقتنع اقتناعاً ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً . . . ﴾ [لقمان : 33] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(296/296)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) ﴾

إذا سُدَّت عيونُ البصائر فما ينفع وضوح الحُجَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 587 ﴾

(297/296)

ومن فوائد الشوكاني في الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) ﴾

قوله : ﴿ وَإِذْ ﴾ منصوب بفعل مقدّر معطوف على ما قبله كما تقدّم .

قوله : ﴿ مِن بَنِى ءادَمَ ﴾ استدلّ بهذا على أن المراد بالمأخوذين هنا : هم ذرية بني آدم ، أخرجهم الله من أصلابهم نسلاً بعد نسل .

وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين ، قالوا : ومعنى : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ دلهم بخلقه على أنه خالقهم ، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد ، فتكون هذه الآية من باب التمثيل ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] .

وقيل المعنى : أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجسام ، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه .

وقيل المراد ببني آدم هنا : آدم نفسه ، كما وقع في غير هذا الموضع .

والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذريته ، وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم الذرّ ، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ، ولا المصير إلى غيره ، لثبوته مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وموقوفاً على غيره من الصحابة ، ولا ملجىء للمصير إلى المجاز ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .

وسنذكر آخر هذا البحث إن شاء الله بعض ما ورد في ذلك .

قوله : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ هو بدل من بني آدم ، بدل بعض من كل .

(298/296)

وقيل بدل اشتمال قوله : ﴿ ذرياتهم ﴾ ، قرأ الكوفيون وابن كثير "ذريتهم" بالتوحيد ، وهي تقع على الواحد والجمع .

وقرأ الباقون "ذرياتهم" بالجمع ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : أشهد كل واحد منهم ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي : قائلاً ألست بربكم ، فهو على إرادة القول ﴿ قَالُواْ بلى شَهِدْنَا ﴾ أي : على أنفسنا بأنك ربنا .

قوله : ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ ، قرأ أبو عمرو بالياء التحتية في هذا وفي قوله : ﴿ أَوْ يَقُولُواْ ﴾ على الغيبة كما كان فيما قبله على الغيبة ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب .

والمعنى : كراهة أن يقولوا ، أو لئلا يقولوا ، أي : فعلنا ذلك الأخذ والإشهاد ، كراهة أن يقولوا ﴿ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ أي : عن كون الله ربنا وحده لا شريك له .

قوله : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءابَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ معطوف على ﴿ تَقُولُواْ ﴾ الأوّل أي : فعلنا ذلك كراهة أن تعتذروا بالغفلة ، أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم ، و " أَوْ " لمنع الخلوّ دون الجمع ، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل زماننا ﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ لا نهتدي إلى الحق ، ولا نعرف الصواب ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ من آبائنا ، ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر ، واقتفائنا آثار سلفنا ، بين الله سبحانه في هذه الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم ، وأشهدهم على أنفسهم ، وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ، ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ، ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة ﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل ذلك التفصيل ﴿ نُفَصِّلُ الآيات وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى الحق ، ويتركون ما هم عليه من الباطل .

(299/296)

وقد أخرج مالك في الموطأ ، وأحمد في المسند ، وعبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، وأبو داود ، والترمذي وحسنه ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ،

وابن حبان في صحيحه ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، والضياء في المختارة : أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها فقال : " إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون .

ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون " ، فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال : " إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله النار " وأخرج أحمد ، وابن جرير ، والنسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان ، يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم فقال : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ المبطلون ﴾ " وإسناده لا مطعن فيه .

وقد أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً على ابن عباس .

(300/296)

وأخرج ابن جرير ، وابن منده في كتاب " الردّ على الجهمية " عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ ، قال : أخذهم من ظهره كما يؤخذ المشط من الرأس ، فقال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، قالت الملائكة : ﴿ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ " وفي إسناده أحمد بن أبي طبية أبو محمد الجرجاني قاضي قومس كان أحد الزهاد ، وأخرج له النسائي في سننه .

وقال أبو حاتم الرازي : يكتب حديثه .

وقال ابن عديّ : حدث بأحاديث كثيرة غرائب .

وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبد الله ابن عمر ، وهؤلاء أئمة ثقات .

وأخرج عبد بن حميد ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، عن أبي أمامة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما خلق الله الخلق ، وقضى القضية ، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء ، فأخذ أهل اليمين بيمينه ، وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين ، فقال : يا أصحاب اليمين ، فاستجابوا له فقالوا : لبيك ربنا وسعديك ، قال : ألست بربكم قالوا بلى

" الحديث .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، بعضها مقيد بتفسير هذه الآية ، وبعضها مطلق يشتمل على ذكر إخراج ذرية آدم من ظهره ، وأخذ العهد عليهم ، كما في حديث أنس مرفوعاً في الصحيحين وغيرهما .

(301/296)

وأما المروي عن الصحابة في تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من صلبه في عالم الذرّ ، وأخذ العهد عليهم وإشهادهم على أنفسهم فهي كثيرة ، منها عن ابن عباس ، عند عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ ﴾ الآية قال : خلق الله آدم وأخذ ميثاقه أنه ربه ، وكتب أجله ورزقه ، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر ، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم ، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم .

وأخرج نحوه عنه ابن جرير ، وابن أبي حاتم .

وأخرج نحوه عنه أيضاً ابن جرير ، وابن المنذر .

وأخرج نحوه عنه عبد الرزاق وابن المنذر .

وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن منده .

وهذا المعنى مروي عنه من طرق كثيرة غير هذه موقوفة عليه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عبد الله بن عمر في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ ﴾ الآية قال : أخذهم كما يأخذ المشط من الرأس .

وأخرج ابن عبد البرّ في التمهيد عن ابن مسعود ، وناس من الصحابة في تفسير الآية نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن منده ، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات ، والضياء في المختارة ، وابن عساكر في تاريخه ، عن أبيّ بن كعب في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ ﴾ الآية قال : جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً في صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ، ثم أشهدهم على أنفسهم .

وقد روي عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من ظهره ، وفيما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغني عن التطويل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(302/296)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : قالوا : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية ﴾ أي عن أهل قرية الجسد وهم الروح والقلب والنفس الأمارة وتوابعها ﴿ التى كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ أي مشرفة على شاطىء بحر البشرية ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى السبت ﴾ يتجاوزون حدود الله تعالى يوم يحرم عليهم تناول بعض الملاذ النفسانية والعادي من أولئك الأهل إنما هو النفس الأمارة فإنها في مواسم الطاعات والكف عن الشهوات كشهر رمضان مثلاً حريصة على تناول ما نهيت عنه والمرء حريص على ما منع ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ وهي الأمور التي نهوا عن تناولها ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ الذي أمروا بتعظيمه شرعاً قريبة المأخذ ﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ بأن لا يتهيأ لهم ما يريدونه ﴿ كذلك نَبْلُوهُم ﴾ نعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : 163] أي بسبب فسقهم المستمر طبعاً .

(303/296)

قال بعضهم : ما كان ما قص الله تعالى إلا كحال الإسلاميين من أهل زماننا في اجتماع أنواع الحظوظ النفسانية من المطاعم والمشارب والملاهي والمناكح ظاهرة في الأسواق والمحافل في الأيام المعظمة كالأعياد والأوقات المباركة كأوقات زيارة مشاهد الصالحين المعلومة المشهورة بين الناس ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهي القلب وأتباعه للأمة الواعظة وهي الروح وأتباعها ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ﴾ وهم النفس الأمارة وقواها ﴿ اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ على ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ أي نعظهم معذرة إليه تعالى وذلك أنا خلقنا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكرة فنريد أن نقضي ما علينا ليظهر أنا ما تغيرنا عن أوصافنا ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ [الأعراف : 164] لأنهم قابلون لذلك بحسب الفطرة فلا نيأس من تقواهم ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ لغلبة الشقوة عليهم ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء ﴾ وهم الروح والقلب واتباعهما فإنهم كلهم نهوا عن ذلك إلا أن بعضهم مل وبعضهم لم يمل ﴿ وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أي شديد وهو عذاب حرمان قبول الفيض ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : 165] أي بسبب تماديهم على الخروج عن الطاعة ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ أي أبوا أن يتركوا ذلك ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ [الأعراف : 166] أي جعلنا طباعهم كطباعهم وذلك فوق حرمان قبول الفيض ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ أي اقسم ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ أي قيامتهم ﴿ مَن يَسُومُهُمْ ﴾ وهو التجلي الجلالي

﴿ سُوء العذاب ﴾ [الأعراف : 167] وهو عذاب القهر وذل اتباع الشهوات ﴿ وقطعناهم ﴾ أي فرقنا بني إسرائيل الروح ﴿ فِى الأرض ﴾ أي أرض البدن ﴿ أُمَمًا ﴾ جماعات ﴿ مّنْهُمُ الصالحون ﴾ أي الكاملون في الصلاح كالعقل ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ فيه كالقلب ومن جعل القلب أكمل من العقل عكس الأمر ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ تجليات الجمال والجلال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : 168] بالفناء إلينا ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ وهي النفس وقواها ﴿ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ وهو ما ألهم الله تعالى العقل والقلب ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الادنى ﴾ وهي الشهوات الدنية واللذات الفانية ويجعلون ما ورثوه ذريعة إلى أخذ ذلك ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ولا بد لأنا واصلون كاملون وهذا حال كثير من متصوفة زماننا فإنهم يتهافتون على الشهوات تهافت الفراش على النار ويقولون : إن ذلك لا يضرنا لأنا واصلون .

وحكي عن بعضهم أنه يأكل الحرام الصرف ويقول : إن النفي والإثبات يدفع ضرره وهو خطأ فاحش وضلال بين أعاذنا الله تعالى وإياكم من ذلك .

وأعظم منه اعتقاد حل أكل مثل الميتة من غير عذر شرعي لأحدهم ويقول : كل منا بحر والبحر لا ينجس ولا يدري هذا الضال أن من يعتقد ذلك أنجس من الكلب والخنزير .

(305/296)

ومنهم يحكي عن بعض الكاملين المكملين من أهل الله تعالى ما يؤيد به دعواه وهو كذب لا أصل له وحاشا ذلك الكامل مما نسب إليه حاشا ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ أي إنهم مصرون على هذا الفعل القبيح ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ الوارد فيما ألهمه الله تعالى العقل والقلب ﴿ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ فكيف عدلوا عنه ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ مما فيه رشادهم ﴿ والدار الآخرة ﴾ المشتملة على اللذات الروحانية ﴿ خير للذين يتقون ﴾ [الأعراف : 169] عرض هذا الأدنى ﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب ﴾ أي يتمسكون بما ألهمه الله تعالى العقل والقلب من الحكم والمعارف ﴿ والذين يُمَسِّكُونَ ﴾ ولم يألوا جهداً في الطاعة ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف : 170] منهم وأجرهم متفاوت حسب تفاوت الصلاح حتى إنه ليصل إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ وهو جبل الأمر الرباني والقهر الإلهي ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ غمامة عظيمة ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ إن لم

يقبلوا أحكام الله سبحانه ﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ بجد وعزيمة ﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ من الأسرار ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 171] تنتظمون في سلك المتقين على اختلاف مراتب تقواهم .

والكلام على قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ﴾ ربك الخ من هذا الباب يغني عنه ما ذكرناه خلال تفسيره من كلام أهل الله تعالى قدس الله تعالى أسرارهم خلا أنه ذكر بعضهم أن أول ذرة أجابت ببلى ذرة النبي صلى الله عليه وسلم وكذا هي أول مجيب من الأرض لما خاطب الله سبحانه السموات والأرض بقوله جل وعلا :

(306/296)

﴿ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] وكانت من تربة الكعبة وهي أول ما خلق من الأرض ومنا دحيت كما جاء عن ابن عباس رض الله تعالى عنهما ، وكان يقتضي ذلك أن يكون مدفنه صلى الله عليه وسلم بمكة حيث كانت تربته الشريفة منها ، وقد رووا أن المرء يدفن حيث كانت تربته ، ولكن قيل : إن الماء لما تموج رمى الزبد إلى النواحي فوقعت درة ذرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يحاذي مدفنه الكريم بالمدينة ، ويستفاد من هذا الكلام أنه عليه الصلاة والسلام هو الأصل في التكوين

والكائنات تبع له صلى الله عليه وسلم قل : ولكون ذرته أم الخليقة سمي أمياً ، وذكر بعضهم أن الباء لكونه أول حرف فتحت الذرة به فمها حين تكلمت لم تزل الأطفال في هذه النشأة ينطقون به في أول أمرهم ولا بدع فكل مولود يولد على الفطرة ، قيل : ولعظم ما أودع الله سبحانه وتعالى في الباء من الأسرار افتتح الله تعالى به كتابه بل افتتح كل سورة به لتقدم البسملة المفتتحة به على كل سورة ما عدا التوبة وافتتاحها ببراءة وأول هذه اللفظة الباء أيضاً ، ولكون الهمزة وتسمى ألفاً أول حرف قرع أسماعهم في ذلك المشهد كان أول الحروف لكنه لم يظهر في البسملة لسر أشرنا إليه أول الكتاب والله تعالى الهادي إلى صوب الصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(307/296)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

15